

العِبر
وَدِيوانُ المُبَشِّرِ وَالْمُحَسِّرِ
فِي أَسْماءِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالسُّبُحِ
وَمَنْ عَاقَبَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ وَاللُّكْبَرِ

تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُون

الإمام المؤرخ عالم الاجتماع

أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإدريسي التونسي القاهري المالكي

الشهير بابن خلدون

(٧٣٢ - ٨٠٨)

طبعة مصممة، اعتنى بإخراجها، ألحق بها فهارس للكتابات وللمطابع وللعمولات

اعتنى به

أبو صبيب الكرمي

بَيْتُ الْكَلْبِ كَالْأَلَمِ وَاللَّيْلَةُ

ناتج ابن خلدون

العَبَرُ
وَدَيُّوَانِ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ
فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَرْبَرِ
وَمَنْ غَاصَ هُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ

الإمام المؤرخ عالم الاجتماع أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الأشيبي التونسي القاهري المالكي
الشيير بن خلدون
(732 - 808) هـ

طبعة مصححة، اعتنى بإخراجها، ألحق بها فهراس للذيات
واللهاديت وللموضوعات.

اعتنى به
أبو صيب الكرمي

بَيْتُ الْأَكْبَرِ الْأَوَّلِيَّةِ



حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة
All Copyrights © Reserved

الأردن

هاتف +962 6 566 0201
فاكس +962 6 566 0209
ص.ب 927435 عمان 11190 الأردن

السعودية

هاتف +966 1 404 2555
فاكس +966 1 403 4238
ص.ب 220705 الرياض 11311 السعودية

المؤتمن للتوزيع

هاتف +966 1 464 6688 / +966 1 404 2555
فاكس +966 1 464 2919 / +966 1 403 4238
ص.ب 69786 الرياض 11557 السعودية

19416414	نداء
2435423 / 2435421	مستودع
02 5742532	مكة المكرمة
04 8344355	المدينة المنورة
06 3260350	القصيم
02 6873547	جسدة
03 8264282	الدمام
07 2296615	أبها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد:

فهذا كتاب قد ينقسم إلى ثلاثة أقسام، يُعدُّ كُلُّ منها كتاباً منفرداً لوفُصِّلَتْ، هي: المقدمة، وكتاب التاريخ، وترجمة المؤلف.

أما المقدمة فلم يقدم أحد على مثاليها ومنوالها، وكان السابق إلى فكرتها وموضوعاتها، حتى عُدَّ كتاباً أساساً في بابها، بل كُلُّ مَنْ جاء بعده عالمة عليه فيه.

قال المقرئ في وصف تاريخ ابن خلدون: مقدمته لم يُعمل مثاليها، وإنه لعزيز أن ينال مجتهدها منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم، ونتيجة العقول السليمة والفهوم، تُوقَفُ على كنه الأشياء، وتُعرَفُ

حقيقة الحوادث والأنباء، وتُعبَّرُ عن حال الوجود، وتنبئ عن أصل كُلِّ موجودٍ بلفظ أبهى من الدرِّ العظيم، والطف من الماء مرَّ به النسيم.

وقال غيره: حوت مقدمته جميع العلوم، وجَلَّتْ عن مَحَجَّتِهَا السنَّةُ الفُصْحَاءُ، فلا تروح ولا تحوم، ولعمري إنَّه هو إلا من المصنَّفات التي سارت ألقابها بخلاف مضمونها كالآغاني للأصبهاني، سَمَّاهُ الآغاني، وفيه من كُلِّ شيء، والتاريخ للخطيب سَمَّاهُ تاريخ بغداد، وهو تاريخ العالم، وحلية الأولياء لأبي نعيم، سَمَّاهُ حلية الأولياء وفيه أشياء جَمَّةٌ كثيرة.

وقد ظهرت دراسات كثيرة في إظهار عبقرية العلامة ابن خلدون في مقدمته، ذاك أنه أنشأ علم الاجتماع والعمران، ونظَّرَ فيه، وأبان عن إحاطته في علوم كثيرة، ويظهر عن عَرْضِهِ وأسلوبِهِ والأجزاء التي اختصَّها بالذكر مَدَى ما وَصَلَ إليه المؤلف من المعارف. ومهما قِيلَ في مثل هذه المقدمة فالقلم يعجز عن الوصف، لا سيَّما أنه المبتدئ ولم يكن مقلداً لغيره فيما كتب إلا في أجزاء يسيرة لا تُذكر من المقدمة. لذا يُعدُّ كتابه في بابها كالكتاب لسيبويه والقانون لابن سينا.

وأما كتابه في التاريخ فيستفاد منه جداً في تاريخ المغرب والبربر، لا سيَّما الفترة المتأخرة منها التي تعتمد عليه في النظر والتحليل والملاحظة، وبقية كتابه فيما يتعلق بالحديث عن أهل المشرق فليس فيه ذاك العمق، ولا ذاك التحليل التاريخي، بل هو كغيره ناقِلٌ لتلك المعلومات، وقد خلا كتابه من العزو إلى المصادر التي نقل منها أثناء حديثه عنهم إلا قليلاً، وكان حديثه أقرب إلى السرد، ولم يَبَيِّنْ فيه عمق في النقد أو التقصير.

عصره... إلى غير ذلك مما يُكسبه أهمية كبيرة وسبقاً في صورة هذه الترجمة الذاتية بهذا الأسلوب.

وأما تاريخ تأليف هذا الكتاب بأقسامه التي عرضناها في صورتها الأولية فقد كان في سنة (٧٧٦) لما قصّد تلمسان حيث كان أخوه يحيى في خدمة أميرها أبي حمّو، ثم طلب الأمير أبو حمّو من ابن خلدون أن يسافر لدعوة بعض القبائل، فلم يملك الرفض، وكان ميّالاً أن يعتزل السياسة، ويخلو للكتابة والتأليف، إلا أنه تظاهر بقبول السفارة للأمير أبي حمّو، فخرج من تلمسان إلى البطحاء إلى منداس، فأحسنوا إكرامه وأقام عندهم، وبعثوا اعتذاراً للأمير لعدم قيام ابن خلدون بالسفارة. فبقي ابن خلدون نحو أربعة أعوام، نعيم فيها بكتابة كتابه « العبر » في صورته الأولى، وأخذت المقدمة منه وقتاً نحو خمسة أشهر في كتابتها قبل التنقيح والزيادة.. وكان ذلك كله في قلعة ابن سلامة. وعمل التاريخ، فاستغرق ذلك ما بين سنتي (٧٧٦ - ٧٨٠).

ولم يكن ابن خلدون يعزم أن يؤرخ تاريخاً عاماً، بل تخصص بتاريخ المغرب ابتداءً، وقد صرح بذلك في مقدمته لتاريخه فقال: « وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما تصريحاً وإما مندرجاً في أخباره وتلويحاً، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأمه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأخبار، لعدم اطلاعي على أحوال الشرق وأمه، وأن الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه.

إلا أنه لم يلتزم ذلك، فأورد كثيراً من أخبار الشرق، ولم تغد النقل، ولم يكن على اطلاع بها، وهذا

وقد ذكر ابن حجر في كتابه « الإنشاء » ٣٣٢/٥ كتابه هذا التاريخ فقال: وصنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ضخمة ظهرت فيه فضائله وأبان فيه عن براعته، ولم يكن مطلعاً على الأخبار على جليتها لا سيما أخبار المشرق، وهو بين لمن نظر في كلامه.

واعتمد في تاريخه على ما هو مكتوب عند من قبله، ولم يظهر فيه إشارات عن التاريخ وتدوينه الذي ذكره في مقدمته لتاريخه، إذ التنظير للتاريخ عنده كان أقوى بكثير من كتابة التاريخ نفسه.

ولم نجد أحداً إلى الآن في السابقين واللاحقين من قام على خدمة التاريخ بأكثر من النقل المجرد والانتقاء وبعض الملاحظات التي قد يوردها المؤرخ بين الحين والآخر إذا صنف لغير ما شاهد ولغير عصره، وأمر التحقيق للتاريخ يطول ويحتاج وقتاً وهمّة نسأل الله تعالى أن نقوم به، أو ينتقل التفكير به إلى العمل.

وتاريخ القرون الثلاثة الأولى منقول من تاريخ الطبري غالباً، وعليه العمد عند ابن خلدون وابن الأثير وآخرين من الذين كتبوا في التاريخ. وقد سبق أن أشرنا في تاريخ الطبري (طبعنا) ما فيه من أشياء لا تستقيم، فيستحسن أن تُنظر هناك.

وأما التعريف بابن خلدون، وهي الترجمة الذاتية، فهي ملحقه بهذا التاريخ، وطُبعت مفردة أيضاً، وهو من القلائل القدماء الذين ترجموا لأنفسهم، ولم تكن تراجم غيره كترجمته. وقد قدّم ابن خلدون في ترجمته كثيراً من الوثائق التاريخية في عصره وبعضاً من رسائل أصدقائه وخطبه ورسائله وأشعاره، ووصفاً للحالة الاجتماعية السائدة في عصره وبعضاً من تراجم أهل

مما انتقد عليه في تاريخه، وأُثني على سائر ما كتب في المقدمة وتاريخ المغرب، بل كان مصدراً مهماً في ذلك.

ثم ارتحل ابن خلدون إلى تونس، فعاد إلى كتابه مراجعاً ومنقحاً ومهذباً بوجود الكتب الضرورية في إتمام كتابه وتوثيق بعض المعلومات التي كتب من الذاكرة على الظن. وقد استغرق هذا أيضاً منه سنين أربعة وذلك ما بين (٧٨٠ - ٧٨٤).

هذا الكتاب الحافل تركه بين يدي القارئ ممتعاً به، مخدوماً مراجعاً مقدماً له مفهرساً، من باب تقريب المكتبة التاريخية، منتظرين أن نضم إليه أمهات كتب التاريخ الأخرى، والله نسأل أن نكون وفقنا في اختيارنا هذا، والحمد لله رب العالمين.

أبو صهيب الكرمي

ترجمة المصنف

وَنَظَّمَهُ فِي أَهْلِ مَجْلِسِهِ، وَكَانَ رَسُولُهُ إِلَى عَظِيمِ الْفَرَنْجِ بِإِشْبِيلِيَّةٍ، فَعَظَّمَهُ وَأَكْرَمَهُ وَحَلَّهَ وَقَامَ بِالْأَمْرِ الَّذِي نَدَبَ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَزَحَ إِلَى تَلْمَسَانَ بِاسْتِدْعَاءِ صَاحِبِهَا، وَأَقَامَ بِوَادِي الْعَرَبِ مَدَّةً، ثُمَّ تَوَجَّهَ مِنْ بَسْكَرَةِ إِلَى فَاسَ، فَهَبَّ فِي الطَّرِيقِ، وَمَاتَ صَاحِبُهَا قَبْلَ قُدُومِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَقَامَ بِهَا قَدْرَ سَتَيْنِ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى تَلْمَسَانَ فَأَقَامَ بِهَا أَرْبَعَةَ أَعْوَامٍ. ثُمَّ ارْتَحَلَ فِي رَجَبِ سَنَةِ (٧٨٠) إِلَى تُونَسَ، فَأَقَامَ بِهَا مِنْ شَعْبَانِهَا إِلَى أَنْ اسْتَأْذَنَ فِي الْحَجِّ، فَأَذْنَّ لَهُ، فَاجْتَازَ الْبَحْرَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، ثُمَّ قَدِمَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ (٧٨٤)، فَحَجَّ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا وَتَلَقَّاهُ أَهْلُهَا وَأَكْرَمُوهُ وَأَكْثَرُوا مَلَازِمَتَهُ وَالتَّرَدُّدَ إِلَيْهِ، بَلْ تَصَدَّرَ لِلْإِقْرَاءِ بِمَجَامِعِ الْأَزْهَرِ مَدَّةً وَلاَزَمَ هُوَ الطَّنْبُغَا الْجَوَابِي، فَاعْتَنَى بِهِ إِلَى أَنْ قَرَّرَهُ الظَّاهِرَ بَرْقُوقَ فِي تَدْرِيسِ الْقَمْحِيَّةِ بِمِصْرَ، ثُمَّ قَضَاءَ الْمَالِكِيَّةِ بِالْأَمْرِ الْمِصْرِيَّةِ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ (٧٨٦) فَتَنَكَّرَ لِلنَّاسِ بِمِثْلِ مَا يَقُمُ لِأَحَدٍ مِنَ الْقَضَاةِ لَمَّا دَخَلُوا لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ، مَعَ اعْتِذَارِهِ لِمَنْ عَتَبَهُ عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَفَتَكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَعْيَانِ الْمَوْقِعِينَ وَالشُّهُودِ وَصَارَ يُعَزَّزُ بِالصَّفْعِ وَيُسَمِّيهِ الزَّجَّ، فَإِذَا غَضِبَ عَلَى إِنْسَانٍ قَالَ: زَجُّوهُ، فَيُصْفَعُ حَتَّى تَحْمَرُّ رَقَبَتُهُ. وَيُقَالُ: إِنَّ أَهْلَ الْمَغْرِبِ لَمَّا بَلَغَهُمْ وَلايَتُهُ الْقَضَاءُ تَعَجَّبُوا وَنَسَبُوا الْمِصْرِيِّينَ إِلَى قَلَّةِ الْمَعْرِفَةِ، بِمِثْلِ مَا قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: كُنَّا نَعُدُّ خَطَّةَ الْقَضَاءِ أَعْظَمَ الْمَنَاصِبِ فَلَمَّا وَلِيَهَا هَذَا عَدَدْنَاهَا بِالضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ، وَعَزَلَّ ثُمَّ أَعْيَدَ وَتَكَرَّرَ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ قَاضِيًا فَجَاءَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ، لِأَرْبَعِ بَقِيْنَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ (٨٠٨) عَنْ سِتِّ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَدُفِنَ بِمَقَابِرِ الصُّوفِيَّةِ خَارِجَ بَابِ النَّصْرِ.

١- هُوَ الْعَلَّامَةُ أَبُو زَيْدٍ وَلِيُّ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ جَابِرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْخَضْرَمِيِّ، مِنْ وَلَدِ وَائِلِ بْنِ حَجَرٍ، الْإِشْبِيلِيِّ الْأَصْلِ، التُّونِسِيِّ، الْقَاهِرِيِّ الْمَالِكِيِّ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ خُلْدُونَ.

٢- وُلِدَ فِي أَوَّلِ رَمَضَانَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ بَتُونَسَ.

٣- حَفِظَ الْقُرْآنَ، وَالشَّاطِئَتَيْنِ، وَغَنَصَرَ ابْنَ الْحَاجِبِ الْفَرَعِيِّ، وَالتَّسْهِيلَ فِي النُّحُوِّ، وَالْمَعْلَقَاتِ، وَحَمَاسَةَ الْأَعْلَمِ، وَشَعَرَ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ، وَقِطْعَةً مِنْ شَعْرِ الْمُتَنَبِّيِّ، وَسَقَطَ الزُّنْدَ لِلْمَعْرِيِّ، وَغَيْرَهَا. وَقَرَأَ الْكُتُبَ الْكَثِيرَةَ عَلَى مَشَايِخِ عَصَرِهِ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ السَّبْعَ، وَسَمِعَ الْحَدِيثَ وَتَفَقَّهَ، وَاعْتَنَى بِالْأَدَبِ وَأُمُورِ الْكِتَابَةِ وَالْخَطِّ، وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ وَغَيْرِهِ كَأَبِي سَعِيدِ الْبَرَاذَعِيِّ، وَالْوَادِيَّاشِيِّ، وَأَبِي الْبَرَكَاتِ الْبُلْقِينِيِّ، وَالْحِصَاثِيِّ، وَابْنِ بَحْرٍ، وَابْنِ الشَّوَّاسِ الزَّوَاوِيِّ، وَابْنِ الْقِصَّارِ، وَالْعَلَاءِ الْإِشْبِيلِيِّ، وَعَبْدَ الْمُهَيْمَنِ الْخَضْرَمِيِّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْلِيِّ...

٤- تَعَلَّقَ ابْنُ خُلْدُونَ بِالْخِدْمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَوَلِيَ كِتَابَةَ الْعَلَامَةِ عَنْ صَاحِبِ تُونَسَ. ثُمَّ تَوَجَّهَ فِي سَنَةِ (٧٥٣) إِلَى فَاسَ، فَوَقَعَ بَيْنَ يَدَيِ سُلْطَانِهَا أَبِي عَنَّانَ، ثُمَّ امْتَحَنَ وَاعْتَقَلَ نَحْوَ عَامَيْنِ، ثُمَّ وَلِيَ كِتَابَةَ السَّرِّ لِأَبِي سَالِمٍ أَخِي أَبِي عَنَّانَ، وَكَذَا النَّظَرَ فِي الْمِظَالِمِ، ثُمَّ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ، فَقَدِمَ غَرْنَاطَةَ فِي أَوَّلِ رَيْبَعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ (٧٦٤)، وَتَلَقَّاهُ سُلْطَانُهَا ابْنُ الْأَحْمَرِ عِنْدَ قُدُومِهِ،

١١- وسُئِلَ عنه الرُّكْرَاكِي فقال: عَرِيٌّ عن العلوم الشرعية، له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها، ولكن محاضرته إليها المنتهى، وهي أمتع من محاضرة الشمس الغماري.

١٢- وتكلم فيه آخرون وغضوا منه، كابن حجر، وأبي الحسن الهيثمي، ومدحه وأطرى عليه كثيراً المقرئزي وغيره.

١٣- وله من المؤلفات غير الإنشاءات الثرية والشعرية التي هي كالسحر: التاريخ العظيم المترجم بالعبر في تاريخ الملوك والأمم والبربر. حوت مقدمته جميع العلوم، وجلت عن محجّتها السنة الفصحاء، فلا تروح ولا تحوم.

١٤- انظر ترجمته في:

التعريف (ترجمة المؤلف لنفسه)، الضوء اللامع للسخاوي ٤/ ١٤٥-١٤٩، وجيز الكلام للسخاوي ١/ ٣٨٥، إنباء الغمر ٥/ ٣٢٧-٣٣٢، البدر الطالع للشوكاني ١/ ٣٣٧-٣٣٩.

٥- لازمه كثيرون في بعض عزلاته فحسن خلقه معهم وبأسطهم ومازحهم، وتردد هو للأكابر، وتواضع معهم، ومع ذلك لم يُغَيَّرْ زِينُهُ المغربي، ولم يلبس زي قضاة هذه البلاد، قيل: لمحبه المخالفة في كل شيء.

٦- واستكثر في بعض مرآته من النواب والعقاد والشهود عكس ماكان منه في أول ولاياته، وكان ذلك أحد ما شنع عليه به.

٧- وطلب بعد انفصاله في المحرم سنة (٨٠٣) إلى الحاجب الكبير، فأقامه للخصوم وأساء عليه القول، وادعوا عليه بأمور كثيرة، أكثرها لا حقيقة له، وحصل عليه من الإهانة مالا مزيد عليه.

٨- ويذكر أنه في بعض ولاياته تبسط بالسكن على البحر، وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة الأحداث، وتزوج امرأة لها أخ أمرد يُنسب للتخليط، فكثرت الشناعة عليه. قال: وكان مع ذلك أكثر من الازدراء بالناس.

٩- قال البشبيشي: كان فصيحاً مفوهاً، جميل الصورة حسن العشرة إذا كان معزولاً فأماً إذا ولي فلا يُعاشَرُ، بل ينبغي أن لا يرى.

١٠- وقال ابن الخطيب: رجل فاضل جهم الفضائل، رفيع القدر، أصيل الحديث، وقور المجلس، عالي الهمة، قوي الجأش، متقدم في فنون عقلية ونقلية متعدد المزايا، شديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، حسن المعاشرة، مفخر من مفاخر العرب.

فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقننا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم. والأنبياء في سيرهم. والملوك في دولهم وسياساتهم. حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبوت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فرمما لم يؤمن فيها من العنور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق.

وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشاً أو سميئاً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد.

وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطبق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون.

ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصّة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة.

ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق مساحة الأرض عنها وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر. والحاضر يشهد لذلك، فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.

ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب مجتصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس. يقال: إنه كان مرزبان المغرب من تخومها. وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير. ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه. وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفاً كلهم متبوع على ما نقله سيف، قال: وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف.

وعن عائشة والزهري: أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفاً كلهم متبوع.

وأيضاً فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لأتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم، فإن العملات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قتلها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الأول. والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف.

وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو في أربعة آباء على ما ذكره المحققون فإنه موسى بن عمران بن يصر بن قاهت - بفتح الهاء وكسرهما - ابن لوي - بكسر الواو وفتحها - ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نسبة في التوراة.

والمدّة بينهما على ما نقله المسعودي قال: دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة. ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد. وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضاً إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً.

فإنه سليمان بن داود بن إيشا بن عوفيد (ويقول ابن عوفد) بن باعز (ويقول بوغز) بن سلمون بن نحشون بن عمّينوذب (ويقول حميناذب) بن رم بن حصرون (ويقول حسرون) بن بارس (ويقول بيرس) بن يهوذا بن يعقوب.

ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئين والآلاف فرمما يكون، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد. واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجدد زعمهم باطلاً ونقلهم

كاذباً.

يقولون في بُيَع الآخر وهو أسعد أبو كرب وكان على عهد يَسْتَامِيف من ملوك الفرس الكيانية أنه ملك الموصل وأذربيجان ولقي الترك فهمهم وأئخن، ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك، وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس وإلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر وإلى بلاد الروم، فملك الأول البلاد إلى سمرقند وقطع المقازة إلى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها فائتخا في بلاد الصين ورجعا جميعاً بالغنائم وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوَّخ بلاد الروم ورجع.

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة. وذلك أن ملك التبايعه إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن. وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها: فجر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصوِّر الجغرافيا. فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقاً من غير السويس. والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما. ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله؛ هذا متمتع في العادة. وقد كان بتلك الأعمال العمالة وكنعان بالشام والقطب بمصر ثم ملك العمالة مصر، وملك بنو إسرائيل الشام، ولم ينقل قط أن التبايعه حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال.

وأيضاً فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة، فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرّون عليه ولا يكفي ذلك للأزودة والعلوفة عادة، وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وأن يمرّوا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوَّخوها لتكون الميرة منها. وإن قلنا إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمُسَالَمَةِ فذلك أبعد وأشد امتناعاً فدل على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة.

وأما وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط في ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة وهو على ما ذكره من الغرابة تنوفر الدواعي على نقله.

وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك وإن كان طريقه

والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقرباته كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه. هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يُلْتَفَت إلى خرافات العامة منهم. وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم.

هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاعوا وساسوا الإغراب.

فإذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم لم نجد معشار ما يعدونه. وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمتفقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش، فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزواً ويشترى له الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة.

ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبايعه ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب، وأن أفریقش بن قيس بن صيفي من أعاضم ملوكهم الأول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل. غزا إفريقية وأئخن في البربر وأنه الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال: ما هذه البريرة، فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حيثئذ، وأنه لما انتصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكنامة ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني والمسدودي وابن الكلبي والبيهقي إلى أن صنهاجة وكنامة من حمير وتاباه نسبة البربر وهو الصحيح.

وذكر المسعودي أيضاً أن ذا الإذعار من ملوكهم قبل إفريقش وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوَّخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده، وإنه بلغ وادي الرمل في بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلماً لكثرة الرمل فرجع. وكذلك

وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض.

وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن ومازال عمراتها متعاقباً والأدلاء تقص طرقها من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الإخباريين ولا من الأمم. ولو قالوا: إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه. إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة. وبعضهم يقول: إنها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها. وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر. مزاعم كلها أشبه بالخرافات.

والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة «ذات العماد» أنها صفة إرم وحملوا «العماد» على الأساطين فتعين أن يكون بناء. ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عاد إرم) على الإضافة من غير تنوين. ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة والتي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات. وإلا ف«العماد» هي عماد الأخبية بل الخيام. وإن أريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها. وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضافة الفصيصة إلى القبيلة كما تقول قريش كنانة، وإلياس مضر وربيعة نزار. وأي ضرورة إلى هذا الحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة.

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاة وأنه لكلفه بمكانهما من معارفه إياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسة تحملت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعا زعموا في حالة سكر فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب.

وهيات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها وإنما بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده. والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ، ابنة خليفة أخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملة، ونور الرحي ومهبط الملائكة من

أوسع من مسالك السؤيس إلا أن الشقة هنا أبعد وأسم فارس والروم معترضون فيها دون الترك. ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال وقد وقع ذلك بين ذي الإذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين تبع الأصغر أبي كرب ويستاسف منهم أيضاً ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجازرة أرض فارس بالغزو إلى بلاد الترك والتبئت وهو ممتنع عادة من أجل الأمم المعترضة منهم والحاجة إلى الأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر. فالأخبار بذلك واهية مدخولة. وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحاً فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح. وقول ابن إسحاق في خبر يشرب والأوس والخزرج: إن تبعاً الآخر - سار إلى المشرق محمولاً على العراق وبلاد فارس. وأما بلاد الترك والتبئت فلا يصح غزوهم إليها بوجه لما تقرر. فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تحصيلها بأحسن وجه. والله الهادي إلى الصواب.

وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة «والفجر» في قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ» فيجعلون لفظة إرم اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين. وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنائه مثلها فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة. ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم.

ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزخشري وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إيل له فوق عليهما وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأخبار وسأله عن ذلك فقال هي: «إرم ذات العماد» سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إيل له، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل.

عند غنودهم نواشي الغيرة والاستكفاف من الحجر والأنفة
وكان الحقود التي بعثتها منهم صغار الدالة.

وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبار المخالفة كقصتهم
في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب
أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور.
ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على
أمان الرشيد يحظه ويذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره
الطبري ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره.
فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخليه سبيله والاستبداد بكل عقاله
حرماً لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه.
وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه فظن وقال: أطلقته فأبدى له
وجه الاستحسان وأسرهما في نفسه. فأوجد السبيل بذلك على
نفسه وقومه حتى ثل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت
الأرض بهم وبادرهم وذعبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم. ومن
تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق
الأثر محمد الأسباب.

وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفارقة الرشيد عم جده
داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء من كتاب
«العقد» في محاوره الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في
سمرهم تفهم أنه إنما قتلهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من
الخليفة فمن دونه. وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما
دسوه للمغنين من الشعر احتيلاً على إسماعه للخليفة وتحريك
حفاظه لهم وهو قوله:

ليت هنداً أنجزت ما تعدد وشفت أنفسنا ما نجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وإن الرشيد لما سمعها قال: (أي والله إنني عاجز) حتى
بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ
بالله من غلبة الرجال وسوء الحال.

وأما ما نموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران
سكره بسكر الندمان فحاش لله ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾.

وأي هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة
من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء
ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السَّمَّك والعمرى ومكاتبته
سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان
عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح
لأول وقتها.

سائر جهاتها، قرية عهد بيداء العروبية وسداجة الدين البعيدة
عن عوائد الترف ومراتع الفواحش. فإن يطلب الصون والعفاف
إذا ذهب عنها؟! أو أين توجد الطهارة والزكاة إذا فقد من بيتها!
أو كيف تلحم نسيها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى
من موالى العجم بملكة جده من القرس أو بولاء جدتها من عمومة
الرسول وأشرف قريش! وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع
أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف! وكيف يسوغ من
الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟!
ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسية بآبئة ملك من
عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى
دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه وأين قدر
العباسية والرشيد من الناس.

وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة
واحتجافهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسر من المال
فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له
معهم تصرف في أمور ملكه. فعظمت آثارهم وبعد صيتهم
وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالروءاء من ولدهم وصنائعهم
واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف
وقلم.

ويقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة
وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحوا فيها
أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من
كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من
عشه وغلب على أمره وكان يدعوهم يا أبت. فتوجه الإيثار من
السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانسط الجاه عندهم
وانصرف نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم
الأمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف
الأمرء وسيرت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال
الجباية، وأفناضوا في رجال الشيعة وعظماء القباية العطاء
وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم، وفكوا العاني
ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعقائهم الجوازات والصلوات
واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصاير في سائر
الممالك، حتى آسفوا البطالة وأحققوا الخاصة وأغصوا أهل
الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم
الوثور من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو ققطبة أخوال
جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما قر في نفوسهم من
الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أوامر القباية. وقارن ذلك

وأما وتفتت ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما. فكانت له في ذلك معذرة.

وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطائنه وأهل مائنته، ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع.

ولما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق. وقطارهم فيها معروفة وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها. فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبار عند أهل الملّة. ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزيتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد. فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحليّة إلى الحرمة!!

ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسدودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحليّة الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وأن أول خليفة أحدث الركوب بحليّة الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد. وهكذا كان حالهم أيضاً في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم؟ وتبين ذلك بأنهم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الأول إن شاء الله. والله الهادي إلى الصواب.

ويناسب هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقب الخمر وأنه سكر ليلة مع شربه فدفن في الریحان حتى أفاق ويشدون على لسانه: يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جار في حكمه من كان يسقيني إني غفلت عن الساقى فصيرني كما تراني سلب العقل والدين

وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد. وشرابهم إنما كان النبيذ ولم يكن محظوراً عندهم. وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون إنما كانت خلة في الدين. ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت. ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويتلمس الإناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكثم. وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جماعة. فإين هذا من المعاقرة!!

وأيضاً فإن يحيى بن أكثم كان من عليّة أهل الحديث. وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه «الجامع» وذكر المزني الحافظ أن البخاري روى عنه

حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً. ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وقال: والله ما أدري لم؟ فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال: يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً؟! إياك إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المتحليين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاماً. وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها. وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف «الموطأ»: (يا أبا عبد الله إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك وإني قد شغلتي الخلافة، فضع أنت للناس كتاباً يتفجعون به، تحبب فيه رخص ابن عباس وشذائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة) قال مالك: (فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ). ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال. ودخل عليه يوماً وهو يجلسه بإشر الخياطين في إرقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدي من ذلك وقال: يا أمير المؤمنين عليّ كسوة العيال عامنا هذا من عطائي فقال له: لك ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالإتفاق من أموال المسلمين. فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوته وما رُبي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها. وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم، والرشيد وآبؤه كانوا على شئج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب.

وانظر ما نقله الطبري والمسدودي في قصة جبريل بن مجتئشوع الطيب حين أحضر له السمك في مائنته فحماه عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله إلى منزله ووطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عابته يتناوله، فاعد ابن مجتئشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح: خلط إحداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبرارد والحلوى، وصب على الثانية ماءً مثلجاً وعلى الثالثة خراً صرفاً. وقال في الأول والثاني: هذا طعام أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره أو لم يخلطه، وقال في الثالث: هذا طعام ابن مجتئشوع ودفعه إلى صاحب المائدة حتى إذا انتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ، أحضر الثلاثة الأقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط

لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون.

ولقد عدلت يوماً بعض الأمراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالأوتار وقلت له: ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك! فقال لي: أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه؟ فقلت له: يا سبحان الله! وهلا تأسيت بأبيه أو بأخيه؟ أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم؟! فصم عن عذلي وأعرض والله يهدي من يشاء.

ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيدين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق. يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس ترفلاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفتناً في السمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويفعلون عن التفتن لشواهد الوقائع وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم. فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويعه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيًا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الإسكندرية في زى التجار ونُمي خبرهما إلى عيسى النوشري عامل مصر والإسكندرية فسرّح في طلبهما الخيالة حتى إذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزى فأفلتوا إلى المغرب. وإن المعتضد أوعز إلى الأغلبية أمراء إفريقية بالقيروان وبني مدرار أمراء سجماسة بأخذ الآفاق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما، فعثر إليسع صاحب سجماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة.

هذا قبل أن تظهر الشيعة على الأغلبية بالقيروان. ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وإفريقية ثم باليمن ثم بالإسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز. وقاسموا بني العباس في ممالك الإسلام شق الإبلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم وزيايولون من أمرهم. ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البساسيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرهما حولاً كاملاً. ومازال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر يتأدون بالويل والحرب منهم. وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال الأمر. واعتبر حال

في غير «الجامع» فالقدح فيه قدح في جميعهم. فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين

وكذلك ما يبشجه الجان باليل إلى الغلمان بهتاناً على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك إلى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه فإنه كان محسوداً في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين متزهاً عن مثل ذلك. ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال: سبحان الله! سبحان الله! ومن يقول هذا؟! وأنكر ذلك إنكاراً شديداً. وأثنى عليه إسماعيل القاضي فقيل له: ما كان يقال فيه فقال: معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ وحاسد. وقال أيضاً: يحيى بن أكثم أبرأ إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان، ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعاية وحسن خلق فرمي به. وذكره ابن ابن حبان في الثقات وقال: لا يشتغل بما يحكى عنه لأن أكثرها لا يصح عنه.

ومن أمثال هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربه صاحب «العقد» من حديث الزنيل في سبب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران، وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنيل مدلى من بعض السطوح بمعلق وجدل مغارة القتل من الحرير فاقتعده وتناول المعلق فاهتزت وذهب صعداً إلى مجلس شأنه كذا. ووصف من زينة فرشها وتنضيد أثنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس، وأن امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائقة الجمال فتانة المحاسن فحيته ودعته إلى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح ورجع إلى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حباً بعته على الإصهار إلى أبيها. وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه! وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه! فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الأعراب! وأين ذلك من منصب ابنه الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف.

وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة، وإنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالتاسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم، فلذلك تراهم كثيراً ما يلهجون بأشباه هذه الأخبار وينتقرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين. ولو اتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللاتفة بهم المشهورة عنهم

لقد أسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء أبو حامد الأسفرايني والقدوري والصيمري وابن الأكفاني والأبيوردي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الأمة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر، وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعون في هذا النسب فنقله الإخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه والحق من ورائه.

وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماصة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم. فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد. والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب إليه بضائع العلوم والصنائع تلتبس فيه ضوال الحكم وتُحدَى إليه ركائب الروايات والأخبار وما نفق فيها نفق عند الكافة. فإن تزهرت الدولة عن التعسف والميل والأفن والسفسفة وسلكت النهج الأتم ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الإبريز الخالص واللجين المصفى وأن ذهبت مع الأغراض والحقود وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق الهرج والزائف. والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحسه وملتسمه.

ومثل هذا وأبعد منه كثيراً ما ينتاجي به الطاعون في نسب إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى، ويُعرضون تعريض الحسد بالظنن في الحمل المخلف عن إدريس الأكبر أنه لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهم ما أجهلهم! أما يعلمون أن إدريس الأكبر كان أصهاره في البربر وأنه منذ دخل المغرب إلى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية إذ لا مكان لهم يتأني فيها الرب وأحوال حرمهم أجمعين يجرأ من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدم الفواصل بين المساكن! وقد كان راشد يتولى خدمة الحرم أجمع من بعد مولاة بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم.

وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى عامة على بيعة إدريس الأصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضا وإصفاق وبإيعوه على الموت الأحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته. ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح أو منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم. كلا

القرمطي إذ كان دعياً في انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه وظهر سريعاً على خبيثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم. ولو كان أمر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة: ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خلا تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وستين سنة وملكوا مقام إبراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول ﷺ ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقراض أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق. ولقد خرجوا مراراً بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها داعين إلى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون إلى تعيينهم بالوصية عن سلف قبلهم من الأئمة، ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الانتصار لهم، فصاحب البدعة لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما يتحلله.

والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظر من المتكلمين ينجح إلى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الرأي الضعيف. فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتعمق في الرافضية، فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس إثبات متسبهم بالذي يغني عنهم من الله شيئاً في كفرهم، فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وقال ﷺ لفاطمة بعظها: «يا فاطمة، اعلمي فلن أغني عنك من الله شيئاً».

ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمراً وجب عليه أن يصدع به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل:

فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت وابن مكاني ما عرفن مكاني

حتى لقد سمي محمد بن إسماعيل جد الإمام عبيد الله المهدي بالمتكتم ستمه بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه حذراً من التغلبين عليهم. فتوسل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم إلى الطعن في نسبهم. وازدلفوا بهذا الرأي الفائل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الأعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتامين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم حتى

واقف عقول من خلف من صبية بني العباس ومما ليكم العجم في القبول من كل فائل والسمع لكل ناعق. ولم يزل هذا ذابهم حتى انقضى أمر الأغلبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء أسماع الغوغاء وصر عليها بعض الطاعنين أذنه واعتدها ذريعة إلى النيل من خلفهم عند المناقصة. وما لهم بقبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقتطوع والمظنون وإدريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش. على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الإيمان، فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. ففراش إدريس طاهر من الدنس ومزده عن الرجس بحكم القرآن. ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بإثمته ولجج الكفر من بابه. وإنما أطنبت في هذا الرد سداً لأبواب الريب ودفعاً في صدر الحاسد لما سمعته أذنائي من قائله المعتدي عليهم، القصادح في نسبهم بفرقة وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن أهل البيت وارتاب في الإيمان بسلفهم. وإلا فالحل منزّه عن ذلك معصوم منه ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب. لكنني جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة. ولتعلم أن أكثر الطاعنين في نسبهم إنما هم الحسدة لأعقاب إدريس هذا من متم إلى أهل البيت أو دخيل فيهم، فإن ادعاء هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على الأمم والأجيال من أهل الآفاق فتعرض التهمة فيه.

ولما كان نسب بني إدريس هؤلاء بمواطنهم من فارس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف، وبيت جدهم إدريس مختط فاس ومؤسساها بين بيوتهم ومسجده لصق مغلثهم ودروبهم، وسيفه منتضى برأس المذنّة العظمى من قرار بلدهم، وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان، فإذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب إلى ما أتاهم الله من أمثالها وما عضد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن أنه بمعزل عن ذلك، وأنه لا يبلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه، وأن غاية أمر المتتمين إلى البيت الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم؛ لأن الناس مصدقون في أنسابهم ويؤمنون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم، فإذا علم ذلك من نفسه غص بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسداً من عند أنفسهم، فيرجعون إلى العناد وارتكاب اللجاج والبهت يمثل هذا الطعن الفائل والقول المكذوب تعلقاً بالمساواة في الظنة والمشابهة في طرق الاحتمال وهيهات لهم

والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتلهم ومن بني الأغلب علمهم كانوا بإفريقية وولاتهم. وذلك أنه لما فر إدريس الأكبر إلى المغرب من وقعة بلخ أوعز المهادي إلى الأغلبة أن يقعدوا له بالمرصاد ويذكوا عليه العيون، فلم يظفروا به وخلص إلى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الإسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وإدهانه في نجاة إدريس إلى المغرب، فقتله ودس الشماخ من موالي المهدي أبيه للتحجيل على قتل إدريس فأظهر للحاق به والبراءة من بني العباس مواليه. فاشتمل عليه إدريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سماً استهلكه به. ووقع خير مهلكه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها. ولما نادى إليهم خبر الحمل المخلف لإدريس فلم يكن لهم إلا كلا ولا. وإذا بالدعوة قد عادت والشيعنة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بإدريس بن إدريس قد تجددت، فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام، وكان الفشل والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسمو إلى القاصية. فلم يكن متهى قدرة الرشيد على إدريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه إلا التحجيل في إهلاكه بالسوموم. فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأغلبة بإفريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشيع منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم. فكان الأغلبة عن برايرة المغرب الأقصى أعجز ولئلهما من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاع ممالك العجم على سدها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طرع أغراضهم في رجالها وجبايتها، وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها كما قال شاعرهم:

خليفة في قصص بين وصيف وبنا

يقول ما قالوا له كما تقول البينا

فخشي هؤلاء الأمراء الأغلبة بواد السعيايات وتلوا بالمعاذير فظروا باحتقار المغرب وأهله وطوراً بالإرهاب بشأن إدريس الخارج به ومن قام مقامه من أعقابهم يخاطبونه بتجاوزه حدود التخوم من عمله وينفذون مكنته في تحفهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضاً باستفحاله وتوهيلاً باشتداد شوكته وتعظيماً لما دفعوا إليه من مطالبته ومراسه وتهديداً بقلب الدعوة إن أخطوا إليه وطوراً يطعنون في نسب إدريس يمثل ذلك الطعن الكاذب تحقيضاً لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه؛ لبعد المسافة

وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع أنه إن ثبت أنه ادّعاء وانتسب إليه فلا دليل يقوم على بطلانه؛ لأنّ الناس مصدّقون في أنسابهم. وإن قالوا: إن الرئاسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتي في الفصل الأول من هذا الكتاب، والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانتقاد إليه وإلى عصابته من هرّة حتى تمّ أمر الله في دعوته، فاعلم أنّ هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقّف عليه ولا أتبعه الناس بسببه وإنّما كان أتباعهم له بعضية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها. وكان ذلك النسب الفاطمي خفياً قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم. فيكون النسب الأول كأنه اسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها، فلا يضره الانتساب الأول في عصبيته إذ هو مجهول عند أهل العصابة. ومثل هذا واقع كثيراً إذ كان النسب الأول خفياً.

وانظر قصة عرفجة وجريز في رئاسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الأزد ولبس جلدة بجيلة، حتى تنازع مع جريز رئاستهم عند عمر رضي الله عنه كما هو مذكور تفهّم منه وجه الحق. والله الهادي للصواب.

وقد كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالإطناب في هذه المغالط، فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس وتلقوها هم أيضاً كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في مخفوظاتهم حتى صار فن التاريخ وأهياً مختلطاً، وناظره مرتبكاً وعدّ من مناحي العامة.

فإذاً يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومائلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المثق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث، واقفاً على أصول كل خير. وحيث يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه.

وما استكثر القدماء علم التاريخ إلا لذلك، حتى انتحله الطبري والبخاري وابن إسحاق من قبلهما وأمثالهم من علماء الأمة، وقد ذهل الكثير عن هذا السرّ فيه حتى صار انتحاله مجهولة

ذلك. فليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن. وكبرأؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الحوطي بن محمد يحيى العوام بن القاسم بن إدريس بن إدريس وهم نقباء أهل البيت هناك والسكنون بيت جلدهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الأدارسة إن شاء الله تعالى.

ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدرح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتليس فيما أتاه من القيام بالتحديد الحق والنعي على أهل البغي قبله، وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحّدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت. وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه. فإنهم لما رأوا من أنفسهم متاهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي مسموع القول موطو العقب نفسوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدرح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته. وأيضاً فكانوا يؤنسونه من ملوك لثونة أعدائه تجلّة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة. فكان لحمة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه. فأصبحو بذلك شيعة لهم وحرباً لعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتشريب عليهم والمناسبة لهم، تشيعاً للمتونة وتعصباً لدولتهم. ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم. وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم فنأدى في قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه فاقطع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصاراً وحامية، وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها، وقد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة وتقربوا إلى الله تعالى بإتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو مجاله من التشفّص والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله، وليس على شيء من الخطأ والمتاع في دنياه، حتى الولد الذي ربما تجنح إليه النفوس وتخاذع عن غمّيه. فليت شعري ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله. ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تمّ أمره وانفسحت دعوته. سنة الله التي قد خلت في عبادته.

حتى يتهي إلى المباشرة بالجملة. فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة.

والقياس والحكاية للإنسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع النهول والغفلة عن قصده وتعوجه به عن مراده فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة على ما عرف وقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط.

فمن هذا الباب ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية، والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم. فيتشرف الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ويدعونها من المكنات لهم، فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقهم، وأنهم أهل حرف وصنائع للعماش وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة، إنما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعلماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ، فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ﷺ على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والإسلام دينهم، قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم وشرفوا، فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهمه للأمة لا تصدّهم عنه لائمة الكبر ولا يزعمهم عاذل الأنفة. ويشهد لذلك بعث النبي ﷺ كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين. بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم. فلما استقر الإسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص، لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من حلة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم.

واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع لعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار متحله محقراً عند أهل العصبية والملك.

والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات قتيق وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما

واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه، فاختلط المرعي بالهمل، واللّباب بالقشر، والصادق بالكاذب. وإلى الله عاقبة الأمور.

ومن الغلط الخفي في التاريخ النهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب مطولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الأحاد من أهل الخليفة. وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وثيرة واحدة ومنهات مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الأفاق والأقطار والأزمنة والدول **سنة الله التي قد خلت في عبادِهِ**.

وقد كانت في العالم أمم الفرس الأولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو إسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمادهم للعالم تشهد بها آثارهم.

ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد إلى ما يجانسها أو يشابهها وإلى ما يباينها أو يباعداها.

ثم جاء الإسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الأحوال وأجمع انقلاباً أخرى وصارت إلى ما أكثره فتعارف لهذا العهد يأخذ الخلف عن السلف.

ثم درست دولة العرب وأيامهم وذبيت الأسلاف الذين شيّدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجية بالشمال، فذهبت بذهابهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها وأغفل أمرها.

والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثال الحكمية: الناس على دين الملك. وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد وأن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ويأخذون الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك. فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول. فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء وكانت الأولى أشد مخالفة. ثم لا يزال التدرج في المخالفة

من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم. والقضاة أيضاً كانوا من أهل عصبيّة الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون إلى ذكر ذلك كله.

وأما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الأمم أو يقصر عنها، فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم؟ إننا حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين، والذهول عن تحري الأغراض من التاريخ، اللهم إلا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجاج وبيي المهلب والبرامكة وبيي سهل بن نوح وكافور الأخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم، غير نكير الإلماع بآبائهم والإشارة إلى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك.

ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها، وهي أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل. فأما ذكر الأحوال العامة للأفان والأجيال والأعصار فهو أمر للمؤرخ تبني عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره. وقد كان الناس يفرّدونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب «مروج الذهب» شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهد في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً، وذكر غلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم، فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه.

ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في «المسالك والممالك» خاصة دون غيرها من الأحوال؛ لأن الأسم والأجيال لعهد لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير. وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهده وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بما طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان للمكهم، هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجليل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلغ الغاية من مداها، فقلص من ظلها، وفل من حلها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها،

ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد، من أنه حرفة للمعاش، وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام.

ومن هذا الباب أيضاً ما يتوهمه المتصفّحون لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وفود العساكر، فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل، ويظنون بآبئ أبي عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عبّاد من ملوك الطوائف بإشبيليّة إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد، ولا يفتنّون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضاء من الكتاب الأول.

وابن أبي عامر وابن عبّاد كانا من قبائل العرب القانمين بالدولة الأمويّة بالأندلس وأهل عصبيّتها، وكان مكانهم فيها معلوماً، ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد، بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبيّة من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب.

وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظام الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغنى فيها بالعصبيّة فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي. وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لفقدان العصبيّة في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبيّات من البربر، فبقيت أنسابهم العربيّة محفوظة والذريعة إلى العز من العصبيّة والتناصر مفقودة، بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبّدهم القهر ورثموا للمذلة يحسبون أن أنسابهم مع غالبة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكّم، فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصدين لذلك ساعين في نيله. فأما من باشر أحوال القبائل والعصبيّة ودولهم بالعدوة الغربيّة وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر، فقلما يغفلون في ذلك ويخطئون في اعتباره.

ومن هذا الباب أيضاً ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها، فيذكرون اسمه ونسبه وآبائه وأمه ونسائه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره، كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم.

والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأبناؤها متشوّقون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم، حتى في اصطناع الرجال

الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين، وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملًا عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان، وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتفه من لغتنا قبله أو بعده. وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله.

ولما كان كتابنا مشتملاً على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا، اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه؛ لأنه عندنا غير واف بالدلالة عليه. فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين خرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته، وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كـ «الضراط» في قراءة خلف، فإن النطق بصاحده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على المتوسط بين الحرفين. فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسط عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف، مثل اسم بلقين فاضعها كافاً وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو اثنتين، فبدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف. وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر. وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارئ أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه. ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانيبه لكننا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم. فاعلم ذلك، والله الموفق للصواب بمنه وفضله.

وانتفض عمران الأرض بانتفاض البشر فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعت الدول والقبائل وتبدل الساكن. وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبه ومقدار عمرانه. وكأني نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانتفاض فبادر بالإجابة. والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث. فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ويقفو مسلك السعدي لعصره ليكون أصلاً يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده.

وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب، وأحوال أجياله وأمه، وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأمه، وأن الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه. والمسعدي إنما استوفى ذلك لبعده رحلته وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه، مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء أحواله وفوق كل ذي علم عليم، ومرء العلم كله إلى الله، والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب، ومن كان الله في عونه تسرّت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب. ونحن آخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه التكلان.

وقد بقي علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب إذا عرضت في كتابنا هذا.

اعلم أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد؛ هي كميّات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللّهاة وأطراف اللسان مع الحنك والخلق والأضراس، أو بقرع الشفتين أيضاً فتتغير كميّات الأصوات بتغير ذلك القرع وتجيء الحروف متميزة في السمع وترتّب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر.

وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى. والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت.

ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا، وفي لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم، وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم. ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطلاحوا في

براعين في الفصائل ولا متنافسين في أهلها.

ومن الأسباب المقتضية له أيضاً وهي سابقة على جميع ما تقدم: الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمهين من كل وجه يعرض.

وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم. كما نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية، وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان، فقرت تلك الدواب حين خرجت وعابتها وتَمَّ له بناؤها في حكاية طويلة من أحداث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذ التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه، ومن قيل أن الملوك لا تحمل أنفسهم على مثل هذا الغرر، ومن اعتمده منهم فقد عرّض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره وفي ذلك إتلافه ولا يتظنون به رجوعه عن غروره ذلك طرفه عين، ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها إنما هي قادرة على التشكل وما يذكره من كثرة الرؤوس لها، فإنما المراد به البشاعة والتّهويل. لا إته حقيقة.

وهذه كلها قاذحة في تلك الحكاية. والقادح المحيل لها من طريق الوجود أين من هذا كله. وهو أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه. وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات إذا طبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين في الآبار والمطامر العميقة المهيى إذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها، فإن المتدلى فيها يهلك لحينه. وبهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر، فإن الهواء لا يكفيه في تعديل رتبه إذ هو حار بإفراط والماء الذي يعدله بارد والهواء الذي في خرج إليه حار، فيستولي الحار على روحه الحيواني ويهلك، دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك.

ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضاً في تمثال الزرور الذي برومة تجتمع إليه الزرايزر في يوم معلوم من السنة

الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخليفة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب

اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحلّه البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه. فمنها التشيعات للأراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقّه من التمهين والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة. وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله.

ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتشريح.

ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب.

ومنها توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين.

ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبس والتصنع، فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه.

ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعة بحبّ الثناء والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر

ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه. وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا.

وكان هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضِعاً كان أو عقلياً.

واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أثر عليه البحث وأدى إليه الغوص. وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية، فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدمه عنه. ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية، إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع ويقاؤه. فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفئتين اللذين ربما شبهانه.

وكانه علم مسنط النشأة. ولعمري لم أقف على الكلام في منحا لأحد من الخليقة. ما أدري الغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوح الإنساني متعددون وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل. فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح؟ وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها وتناجها؟ وأين علوم القبط ومن قبلهم؟ وإنما وصل إلينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون بإخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيها، ولم نقف على شيء من علوم غيرهم.

وإذا كانت كل حقيقة متعلقة طبيعة يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه. لكن الحكماء لعلهم إنما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات، وهذا إنما ثمرته في الأخبار فقط كما رأيت، وإن كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة، لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة فلماذا هجره والله أعلم ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله

حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم. وانظر ما أبعد ذلك عن الجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت.

ومنها ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب. والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي، وهذه خرجت عن أن يحاط بها، فلا يكون فيها حصن ولا معصم!

وكما نقله السعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس، وإنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غروته إلى المغرب، وإنها مغلقة الأبواب، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورعى نفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصص. وصحراء سجلماسة قد نفذها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر. ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة منافع للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها، وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والحرفي، وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد.

وأمثال ذلك كثيرة وتمحصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمهيص بتعديل الرواة، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع. وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح. ولقد عد أهل النظر من المطاعين في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل. وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية؛ لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط.

وأما الإخبار عن الوقائع فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة؛ فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه، إذ فائدة الإنشاء مقتضية منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة. وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ينظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونمیز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه. وحيثئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتريفيه. وكان

بالموضوع والطلب:

واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها فخر بعثوره عليها وعظم من فوائدها.

وانت إذا تأملت كلامنا في فصل الدول والمُلْك وأعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في أثناءه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل إجمالها مستوفى يبيّن بأدب بيان وأوضح دليل وبرهان، أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة موبدآن.

وكذلك تجد في كلام ابن المقفّع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهنا، إنما يجليها في الذكر على منحنى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام.

وكذلك حوّم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب «سراج الملوك» ويؤبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله، لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة، إنما يسوّب الباب للمساءلة ثم يستكثر من الأحادث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبدآن وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليفة، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً، إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواظ وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله.

ونحن ألهنا الله إلى ذلك إلهاماً وأعثرنا على علم جعلنا سنّ بكره وجهينة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأخاءه فتوفيق من الله وهداية. وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره مسائله، فللناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل؛ لأنني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق. والله يهدي بنوره من يشاء.

ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية، يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة، وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك ونقول:

لما كان الإنسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخواص اختصاص بها. فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميّز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات.

ومنها الحاجة إلى الحكم والوزاع والسلطان القاهرة، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلّها إلا ما يقال عن النحل والجراد وهذه - وإن كان لها مثل ذلك - فبطريق إلهامي لا

مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوزاع.

ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات اللغات أن الناس يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبين العبارات أخف.

ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا خلط للأساب مفسد للنوع، وأن القتل أيضاً مفسد للنوع، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام، فإنها كلّها مبنية على المحافظة على العمران، فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل المثلثة.

وكذلك أيضاً يقع إلينا القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليفة لكنهم لم يستوفوه.

فمن كلام الموبدآن بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي: أيها المَلِك! إن المُلْك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشرعية إلا بالملك، ولا عزٌ للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة، نصبه الرب وجعل له قيماً وهو الملك.

ومن كلام أنوشروان في هذا المعنى بعينه: المُلْك بالجند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل باقتداد المَلِك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه.

وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه، إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين ويختلط بغيره، وقد أشار في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبدآن وأنوشروان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها هو قوله: العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تحيا به السنّة، السنّة سياسة يسوسها المَلِك. المُلْك نظام يعضده الجند، الجند أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمععه الرعية، الرعية عبيد يكتفهم العدل، العدل مألوف وبه قوام العالم، العالم بستان. ثم ترجع إلى أول الكلام. فهذه ثمان كلمات حكيمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت أعجازها على صدورهما

بفكر وروية. ومنها السعي في المعاش والاعتماد في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه وهداه إلى التماسه وطلبه فإن تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالشعر واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما سنبينه.

ومن هذا العمران ما يكون بدوياً وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الخلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضرياً وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بمجدراتها. وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضاً ذاتياً له فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول:

الأول- في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض.

والثاني- في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية. والثالث- في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.

والرابع- في العمران الحضري والبلدان والأمصار.

والخامس- في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.

والسادس- في العلوم واكتسابها وتعلمها.

وقد قُدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعد، وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار، وأما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالاً أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمال، وجعلت الصنائع مع الكسب؛ لأنها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما نبين لك بعد. والله الموفق للصواب والمعين عليه.

والتراس النائية عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب «متافع الأعضاء».

فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تقي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدّة لها، فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه. وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبّه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر. وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقاءه وحفظ نوعه، فإذاً هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراد الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم.

وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له. وهذا وإن لم يكن واجباً على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم، فليس أيضاً من الممنوعات عندهم فيكون إثباته من التبرعات، والله الموفق بفضل.

ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرناه وتَمَّ عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم، فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض، ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك. وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للإنسان خاصة طبيعية ولا بد لهم منها. وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجسماته، إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي! وأنها خاصة طبيعية للإنسان فيقررون هذا

الباب الأول

وفيه مقدمات

المقدمة الأولى

في أن الاجتماع الإنساني ضروري

ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران. ويبان أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبّه على صورة لا يصح حياتها ويقاؤها إلا بالغذاء وهذه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله.

إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه.

ولو فرضنا أنه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الخنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ. وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. هب أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل. ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن توفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد. فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بإضعاف. وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدرته الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار والثور وقدره الأسد والفيل أضعاف من قدرته.

ولما كان العدوان طبعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعتة ما يصل إليه من عادية غيره. وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد. فاليد مهيتة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف النائية عن المخالب الجارحة،

شكل مسطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء، ومن جهة الشمال إلى خط كروي، ووراء الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري الذي بينهما سد يأجوج ومأجوج. وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق، وينتهي من المشرق والمغرب إلى عنصر الماء أيضاً بقطعتين من الدائرة المحيطة.

وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمر من مقدار رבעه وهو المنقسم بالأقاليم السبعة. وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها، كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك. ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة، والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال، لأن الميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصباعاً، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهراً لبطن، وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة. لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله إن شاء الله تعالى.

ثم إن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وعما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال مثل: بطليموس في كتاب «الجغرافيا» وصاحب كتاب «روجار» من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول، فالإقليم الأول أطول مما بعده وكذا الثاني إلى آخرها فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من المحسار الماء عن كرة الأرض. وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي. وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمراته.

البحار

وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف. ويبدأ في خليج متضائق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى أن الزقاق، ثم يذهب مشرقاً وينفجح إلى عرض ستمائة ميل. ونهايته

البرهان إلى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك. وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر، وأنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزييف. وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جأذته. فأهل الكتاب والتابعون للأتبياء قليلون بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لهم كتاب، فإنهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة، وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب. بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم البشة فإنه يتمتع. وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي، وإنما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الأمة. والله ولي التوفيق والهداية.

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم

اعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنب طافية عليه، فالحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرهما. وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح، وإنما تحت الطبيعي قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها. وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض، وإن قيل في شيء منها إنه تحت الأرض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه. وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحراً يسمى البحر المحيط ويسمى أيضاً لبلابه بتفخيم اللام الثانية، ويسمى أوقيانوس أسماء أعجمية ويقال له البحر الأخضر والأسود.

ثم إن هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانها والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال، وإنما المعمور منه قطعة أميل إلى الجانب الشمالي على

ويسمى بحر القلزم وبحر السويس، وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل، وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة، ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته، ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعذاب وسواكن وزيلع، ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل. ومازال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك.

والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السند والأحفاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى الألبّة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني على أربعمئة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس. وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والألبّة وعند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشُحُر والأحفاف عند مبدئه. وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتُفَضِّي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمئة ميل بينهما. وهنالك الكوفة والقادسية وبنّاد وإيوان كسرى والحيرة. ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والحزر وغيرهم. وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحلها على البحر الحبشي.

قالوا: وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان، طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل، في غربيه أذربيجان والديلم، وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم، وفي جنوبيه طبرستان، وفي شماليه أرض الحزر واللان.

هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا.

الأنهار

قالوا: وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون.

فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول ويسمى

في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام، وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم إفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية، ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الإفريقية ثم الأندلس إلى طريف عند الرُّقَّاق قبالة طنجة. ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقرطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية ودانية.

قالوا: ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين. أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متصلياً في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة أميال، ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية، ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق، فيمر بأرض هريقلية، وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمئة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرزجان والروس. والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال، فلذا انتهى إلى سمت الجبل المحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبدئه. وعلى حافته من البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة.

قالوا: وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر إلى الجنوب قليلاً حتى ينتهي إلى الإقليم الأول ثم يمر فيه مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج، وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمئة فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي. وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب، ثم بلد مقدشو ثم بلد سُفَّالة وأرض الرواق وأمم آخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء، وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الأحفاف وزيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة.

قالوا: ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران، أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب، فيبدأ متصلياً ثم يمر مستبحراً إلى ناحية الشمال ومغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى القلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمئة ميل من مبدئه،

تكلمة لهذه المقدمة الثانية: في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك:

ونحن نرى بالملاحظة والأخبار المتواترة أن الأول والثاني من الأقاليم المعمورة أقل عمراناً مما بعدهما وما وجد من عمرانها، فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما. وأمم هذين الإقليمين وأناسيئهما ليست لهم الكثرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك. والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك. فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومة، وأمها وأناسيئها تجوز الحد من الكثرة، وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً، والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس، والجنوب خلاء كله. وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لإفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس. فلنوضح ذلك ببرهانه ليتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الخامس والسابع فنقول:

إن قطبي الفلك الجنوبي والشمالي إذا كانا على الأفق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق إلى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار. وقد تبين في موضعه من الهيئة أن الفلك الأعلى متحرك من المشرق إلى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الأفلاك التي في جوفه قهراً وهذه الحركة محسوسة. وكذلك تبين أن للكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق، وتختلف أمادها باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء. وعمرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الأعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة فلك البروج مقسمة باثني عشر برجاً، وهي على ما تبين في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج، هما أول الحمل وأول الميزان، فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين: نصف مائل عن معدل النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر السنبله، ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت. وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحي الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق ويسمى خط الاستواء. ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الإقليم الأول من الأقاليم السبعة، والعمران كله في الجهة الشمالية عنه.

والقطب الشمالي يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة وهنالك يتقطع العمران

جبل القمر، ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة، فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى، ثم تخرج أنهار من البحيرتين تنصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل. وتخرج من هذه البحيرة نهران. يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمتة ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر، فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتنصب كلها في البحر الرومي عند الإسكندرية، ويسمى نيل مصر وعليه الصيعد من شرقه والواحات من غربه. ويذهب الآخر منعطفاً إلى المغرب ثم يمر على سمتة إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأمهم كلهم على ضفتيه.

وأما الفرات فمبذؤه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الإقليم الخامس، ويمر جنوباً في أرض الروم وملطية إلى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقّة ثم بالكوفة إلى أن ينتهي إلى البطحاء التي بين البصرة وواسط، ومن هناك يصب في البحر الحبشي، وتنجلب إليه في طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تنصب في دجلة.

وأما دجلة فمبذؤه عين ببلاد خلات من أرمينية أيضاً، وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد إلى واسط، فتفرق إلى خلدان كلها تنصب في بحيرة البصرة وتقضي إلى بحر فارس وهو في الشرق على يمين الفرات. وينجلب إليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب. وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتي الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة.

وأما نهر جيحون فمبذؤه من بلخ في الجزء الثامن من الإقليم الثالث من عيون هناك كثيرة، وتنجلب إليه أنهار عظام، ويذهب من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان، ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الإقليم الخامس، فيصب في بحيرة الجرجانية التي بأسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في مثله وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك. وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم، وعلى شرقيه بلاد بخارى وترمز وسمرقند ومن هنالك إلى ما وراء بلاد الترك وفرغانة والخزرجية وأمم الأعاجم.

وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه، والشريف في كتاب «روجار» وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك ملا حاجة لنا به لطوله، ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للعرب من المشرق والله الموفق.

أربع وعشرين، فإن الأشعة ملحة على الأفق في ذلك بقریب من الحاحها في خط الاستواء وإفراط الحر يفعل في الهواء تحفيفاً ويسبباً يمنع من التكوين؛ لأنه إذا أفراط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحیوان والنبات، إذ التكوين لا يكون إلا بالرطوبة. ثم إذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض خمس وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامته فيصير الحر إلى الاعتدال أو يميل عنه ميلاً قليلاً، فيكون التكوين ويزتاید على التدریج إلى أن يفرط البرد في شدته لقلعة الضوء، وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد. إلا أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد؛ لأن الحر أسرع تأثيراً في التحفيف من تأثير البرد في الجمد. فلذلك كان العمران في الإقليم الأول والثاني قليلاً، وفي الثالث والرابع والخامس متوسطاً لاعتدال الحر بنقصان الضوء، وفي السادس والسابع كثيراً لنقصان الحر، وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر، إذ لا تحفيف فيها إلا عند الإفراط بما يعرض لها حيثن من الیس كما بعد السابغ. فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم.

ومن هنا أخذ الحكماء خلاه خط الاستواء وما وراءه. وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة، فكيف يتم البرهان على ذلك؟ والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية، إنما أذاهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوي بإفراط الحر، والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقلی، وهو كذلك، فإن خط الاستواء والذي وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جداً.

وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال، فيعمر منه ما عمر من هذا. والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين، وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين، ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه؛ لأن العمران متدرج ويأخذ في التدریج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع. وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فیردّه النقل المتواتر، والله أعلم.

ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب «روجار» ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها.. إلخ.

وهو آخر الإقليم السابغ، وإذا ارتفع على الأفق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرؤوس وصارت دائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق، وهي الشمالية وستة تحت الأفق وهي الجنوبية، والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتنعة؛ لأن الحر والبرد حيثن لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين.

فإذا الشمس تسامت الرؤوس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان، ثم تميل عن المسامته إلى رأس السرطان ورأس الجدي، ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعاً وعشرين درجة. ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد. وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها إلى رأس السرطان، وانخفضت البروج الجنوبية من الأفق كذلك إلى رأس الجدي لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه. فلا يزال الأفق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرؤوس، وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً وعشرين في الحجاز وما يليه. وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتاً. فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامته ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين، ويكون انخفاض الشمس عن المسامته كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها، فيقطع التكوين لإفراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر.

ثم إن الشمس عند المسامته وما يقاربها تبعث الأشعة على الأرض على زوايا قائمة وفيما دون المسامته على زوايا منفرجة وحادة. وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بمخالفه في المنفرجة والحادة. فلهذا يكون الحر عند المسامته وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد؛ لأن الضوء سبب الحر والتسخين.

ثم أن المسامته في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند تقطعي الحمل والميزان، وإذا مالت بغير بعيد. ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي إلا إن صعدت إلى المسامته فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الأفق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها. وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء إلى عرض

تفصيل الكلام على بدء الجغرافيا:

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب، يسمون كل قسم منها إقليماً. فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها أخذ من الغرب إلى الشرق على طوله. فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بمحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي كلا عمارة. ويلي من جهة شماليه الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال. وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب. إلا أن الخلاء في جهة الشمالي أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب. ثم إن أزمنا الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن أفاقها. فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك. وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول، وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي ليل وبرأس السرطان للنهار، كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة. وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال، فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة. ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي. ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة.

وكذلك في آخر الإقليم الثالث مما يلي الشمال أيضاً ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة، وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس إلى خمس عشرة ساعة، وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف، وفي آخر السابع إلى ست عشرة ساعة، وهنالك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلا ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم، يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد.

وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء، ويمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد. ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل.

والتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية، ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والمسافات بينها في المسالك، ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها، ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب «نزهة المشتاق» الذي ألفه العلوي الإدريسي الحمودي لملك صقلية من الإفرنج وهو روجار بن روجار عندما كان نازلاً عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة. وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة. وجمع له كتاباً جمه للمسعودي وابن خرداذبه والحوافلي والقنبري وابن إسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها، والله سبحانه وتعالى يعصمنا عنه وفضله.

الإقليم الأول:

وفيه من جهة غربية الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد. وليست في بسيط الإقليم وإنما هي في البحر المحيط في جزر متكررة أكبرها وأشهرها ثلاثة ويقال إنها معمورة. وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان. فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائهم وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون، وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعر وماشيئهم المزعزعة وقطاعهم بالحجارة يرمونها إلى خلف، وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوة. ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلا بالثور لا بالقصد إليها، لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهايها وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في عمر ذلك المذهب. وإذا اختلف المذهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر.

والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود، وفي وضعها في سواحل البحر على توتيتها ومهاب الرياح ومكراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم. وهذا كله مفقود في البحر المحيط. فلذلك لا تلج فيه السفن لأنها إن غابت عن مرأى السواحل فقل

وفي كتاب «المشترك» لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبةً إلى قوم من أهل الهند، وكذا ضبطه ابن سعيد. فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال. ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال. وينقسم ماؤها بقسمين، فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط، ويخرج الشرقي منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحيشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط، ويصب واحد في بحيرة ملحقة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول، وعلى هذا النيل به بلاد

النوبة والحيشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان، وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة ويلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صلباً هائلاً، فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل. وبين الجنادل وأسوان اثنا عشرة مرحلة. والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة.

وفي وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحيشة على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط إلى مصر. وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر. وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل، وإلى وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الإقليم إلى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران إلا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة، يقال تنتهي إلى ألف جزيرة أو فيما على سواحله الجنوبية، وهي آخر المعمور في الجنوب، أو فيما على سواحله من جهة الشمال وليس منها في هذا الإقليم الأول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي إلى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس، وفيما بينهما جزيرة العرب، وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما كما نذكره في الإقليم الثاني وما بعده.

أن تهتدي إلى الرجوع إليها مع ما يعتقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأنجرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدرکہا أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها؛ فلذلك عسر الاهتداء إليها وصعب الوقوف على خبرها.

وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان. ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك. وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في ملكة ملك مالي من أمم السودان. وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة ومئات طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها.

وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم (الملم) وهم كفار ويكتنون في وجوههم وأصداعهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب، وكلهم عامة رقيقهم، وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الخيوان العجم من الناطق يسكنون القياقي والكهوف. ويسألون العشب والحبوب غير مهية وربما يأكل بعضهم بعضاً. وليسوا في عداد البشر. وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدراين ووركلان. فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح. وقال صاحب كتاب روجار إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن. وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي.

وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد (كوكو) على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك. ويمر مغرباً فيغوص في رمال الجزء الثاني. وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في ملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر. وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كانت من أمم السودان وبعدهم وتغارة على ضفة النيل من شماليه.

وفي شرقي بلاد وتغارة وكائم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم. وفيه يمر نيل مصر ذاهباً من مبدئه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال. ويخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة. واختلفوا في ضبط هذه اللفظة. فضبطها بعضهم يفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه.

بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين، ومن مدنه الشهيرة خاتكو، وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها. وهذا آخر الكلام في الإقليم الأول، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله.

الإقليم الثاني

وهو متصل بالأول من جهة الشمال، وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها، وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان، وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نيستر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مقاروز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولتونة ومسرانة ولطة ووريكة.

وعلى سمت هذه المقاروز شرقاً أرض فزان ثم مجالات أزكار من قبائل البربر ذاهبة إلى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق، وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أمم السودان ثم قطعة من أرض الباجوين. وفي أسافل هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان، وعلى سمتها شرقاً أرض سترية وتسمى الواحات الداخلة.

وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباجوين. ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حافات النيل الذاهب من مبدئه في الإقليم الأول إلى مصبه في البحر، فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غريبه وجبل المقطم من شرقه وعليه من أعلاه بلد أسنا وأرمنت، ويتصل كذلك حافته إلى أسبوط وقوص ثم إلى صول. ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهي الأيمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسر عند دلاص وفيما بينهما أعالي ديار مصر.

وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن تنتهي إلى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب إلى جهة الشمال. وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يَلَمُّم إلى بلاد يثرب، وفي وسط الحجاز مكة شرقها مكة، وفي ساحلها مدينة جدّة تقابل بلد عيذاب في العدو الغربية من هذا البحر.

وفي الجزء السادس من غريبه بلاد نجد أعلاها في الجنوب،

فأما الذي على ساحل هذا البحر من غريبه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب، يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي متداً مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في طول اثني عشر ميلاً، فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها، ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريباً من مصر، وتحت باب المندب جزيرة سواكن وذهلك، وقبائه من غريبه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه. ومن شرقه في هذا الجزء تهائم اليمن، ومنها على ساحله بلد علي بن يعقوب. وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غريبه قري بربر يتلو بعضها بعضاً. وينعطف مع جنوبيه إلى آخر الجزء السادس.

ويلها هنالك من جهة شرقها بلاد الزنج ثم بلاد سُفالة على ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الإقليم. وفي شرقي بلاد سُفالة من ساحله الجنوبي بلاد الواق واق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط.

وأما جزائر هذا البحر فكثيرة، من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل، وبها الجبل المشهور يقال: ليس في الأرض أعلى منه وهي قبالة سُفالة. ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سُفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى الشمال إلى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويختف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الواق واق ومن شرقها جزائر السيلان إلى جزائر آخر في هذا البحر كثيرة العدد، وفيها أنواع الطيب والأفاوية وفيها يقال معادن الذهب والزمرد، وعامة أهلها على دين المجوسية، وفيهم ملوك متعددون. وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا.

وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها، فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية، وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي، وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها صنعاء، وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظفار، وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس. وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الإقليم الوسطى وينكشف

البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول وعلى سَمَتِها شرقاً بلاد دَرَعَة ثم بلاد سَجْلَمَاسَة ثم قطعة من صحراء نَيْسَترَ المَفازة التي ذَكَرناها في الإقليم الثاني. وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يُسَامَت وادي ملوكة فتكثر ثناياه ومسالكه إلى أن يتهي. وفي هذه الناحية منه أُمَم المصامدة، ثم هِتَاتَة ثم تَيْمَلُكُ ثم كَذِيوَة ثم مَشْكُورَة وهم آخر المصامدة فيه، ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة. وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل رَنَاتَة. ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كَثَامَة. وبعد ذلك أُمَم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم.

ثم إن جبل دَرَنَ هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه. ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراکش وأغَمَات وتَازَلَا. وعلى البحر المحيط منها رباط أسفى ومدينة سلا. وفي الجوف عن بلاد مراکش بلاد فاس ومِكَنَاسَة وتَازَا وقصر كَثَامَة. وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها. وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان: أصيلا والعرايش. وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها يَلْمَسَان وفي سنواحلها على البحر الرومي بلد هُتَيْنَ ووهران والجزائر؛ لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع ويذهب مشرقاً فيتهي إلى بلاد الشام، فإذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوباً وشمالاً فدخل في الإقليم الثالث والخامس؛ فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلاده. ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقها بلاد بَجَاية في ساحل البحر ثم قُسْطَنِيَة في الشرق منها. وفي آخر الجزء الأول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتفعاً إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أَشِيرَ ثم بلد المَسِيلَة ثم الزاب وقاعدتها بَسْكُورَة تحت جبل أوراس المتصل بدران كما مر. وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق.

والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهباً فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين. ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله. فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقاً أرض وَدَّان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مر. والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس ونَيْسَة والأوْبَس. وعلى ساحل البحر بلد بونة. ثم في سمت هذه البلاد شرقاً بلاد إفريقية. فعلى ساحل

وتبالة وجرش إلى عكاظ من الشمال. وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة، وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب ثم أرض الشحر. ويتهي إلى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي إلى الشمال كما مر. ويذهب في هذا الجزء بانحراف إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلية عليها من أعلاه مدينة قَلْهَات وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عُمان، ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء.

وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس. ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله. وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوبران وهي من السند أيضاً. فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند، ويصب في البحر الهندي في الجنوب. وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي، وفي سمتها شرقاً بلاد بَلْهَرَا وتحتها المَلَّتَان بلاد الصنم المعظم عندهم، ثم إلى أسفل من السند، ثم إلى أعالي بلاد سَجِسْتَان.

وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند، وعلى سمتها شرقاً بلاد القندهار ثم بلاد منييار، وفي الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل، وبعدها شرقاً إلى البحر المحيط بلاد القَنُوج ما بين قشмир الداخلة وقشмир الخارجة عند آخر الإقليم.

وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون، ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط، واللّه ورسوله أعلم، وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم.

الإقليم الثالث

وهو متصل بالثاني من جهة الشمال.

ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل دَرَنَ معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره. ويسكن هذا الجبل من البربر أُمَم لا يحصيهم إلا خالفهم حسبما يأتي ذكره. وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى

الشمال ينعطف آخذاً إلى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فيتهي في الطرف الغربي منه إلى السويس. وعلى هذه القطعة بعد السويس قاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها. ومن هنالك ينعطف بساحله إلى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الإقليم الثاني في الجزء الخامس منه.

وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيراً من غريبه عليها القرم والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك وبقي شبه الباب مفضياً إلى أرض الشام.

وفي غربي هذا الباب فحصى التيه أرض جرداء لا تنبت كانت مجالاً لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم إلى الشام أربعين سنة كما قصه القرآن. وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الإقليم الرابع كما نذكره. وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر، ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك إلى الإقليم الرابع عند طرابلس وغزة. وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق. وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام. ففي شرقه غزة ثم عسقلان بالبحر يسير عنها إلى الشمال بلد قيسارية. ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا، ثم ينعطف البحر إلى الشمال في الإقليم الرابع. ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر القلزم وينهب في ناحية الشمال منحرفاً إلى الشرق إلى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللكّام وكانه حاجز بين أرض مصر والشام. ففي طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر إلى مكة، ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكّام المذكور من شمال العقبة ذاهباً على سمت الشرق ثم ينعطف قليلاً.

وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وبيداء ودومة الجندل وهي أسافل الحجاز. وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها. وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك. وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكّام ثم الأردن ثم طبرية. وفي شرقيها بلاد الغور إلى أذرعات. وفي سمتها شرقاً دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز. وعند منعطف جبل اللكّام إلى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية وجبل اللكّام يعترض

البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهديّة. وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد: توزر وقفصة ونقراوة. وفيما بينها وبين السواحل مدينة القبروان وجبل سلات وسيطة. وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقاً بلد طرابلس على البحر الرومي. وبازائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هواة متصلة بجبل درن، وفي مقابلة غدايس التي مر في نهرها في آخر القطعة الجنوبية. وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر. وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يمر أيضاً فيه جبل درن إلا أنه ينعطف عند آخره إلى الشمال ويذهب على سمتة إلى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوشان. والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن. فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن الخطاب، ثم رمال وقفار إلى آخر الجزء في الشرق. وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر. ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب. ثم أجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل، ثم طلّسة على البحر هنالك، ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب وزواحة إلى آخر الجزء.

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم وفي الأعلى من غريبه صحارى برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواح. ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه إلى الجنوب حتى يزاحم طرفه الأعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء فيها قفار تجول فيها العرب. وعلى سمتها شرقاً بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الإقليم الثاني، ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمتة شرقاً أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني. ويفترق هذا الشعب افتراقاً ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شتوط ورقي. وينقسم الأيمن منهما من قمرط بشعين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي. فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الإسكندرية، وعلى مصب الوسط بلد رشيد، وعلى مصب الشرقي بلد دمياط. وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية كلها محشوة عمراناً وفلجاً.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم بلاد الشام وأكثرها على ما أصف؛ وذلك لأن بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس؛ لأنه في عمره مبتدئ من البحر الهندي إلى

وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الجَلْح من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من جنوبها. وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غَزَنَة فَرُضَة الهند. وفي آخر الغور من الشمال بلاد أَسْتَرَابَادْ، ثم في الشمال غرباً إلى آخر الجزء بلاد هَرَاة أوسط خراسان. وبها أَسْفَرَاين وقاشان وبوشنج ومَرَوُ الرُّود والطاقان والجوزجان. وتنتهي خراسان هنالك إلى نهر جِيحون.

وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيها مدينة بَلُخْ، وفي شرقيها مدينة تَرْمِذْ، ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك. وهذا النهر نهر جيحون. يخرج من بلاد وَجَار في حدود بَذْخْشَان بما يلي الهند. ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغرباً إلى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خَرَنَاب، ثم ينعطف إلى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته إلى أن يصب في بحيرة خوارزم في الإقليم الخامس كما نذكره. وعنده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب إلى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الحَتَل والوَخْش من شرقيه وأنهار أخرى من جبال البَتَم من شرقيه أيضاً وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاة له، ومن هذه الأنهار الخمسة المدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التَّبْت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغرباً بالغراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء ويذهب مشرقاً بالغراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التَّبْت إلى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء. ويمحول بين الترك وبين بلاد الحَتَل وليس فيه إلا مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سداً وبني فيه باباً كسد يأجوج ومأجوج. فلذا خرج نهر وخشاب من بلاد التَّبْت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد إلى أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ثم يمر هابطاً إلى الترمذ في الشمال إلى بلاد الجوزجان. وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد النامان من خراسان. وفي العدو الشرقية هنالك من النهر بلاد الحَتَل وأكثرها جبال وبلاد الوخش، ويحدها من جهة الشمال جبال البَتَم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة إلى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التَّبْت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى. ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه

بينها وبينها. وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بَعْلَبَكْ ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللُكَّام. وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية إلى آخر الجزء.

وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات الأعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العَرْج والصَّمَان إلى البحرين وهجر على بحر فارس. وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات. وفيما بعدها شرقاً مدينة البصرة. وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان والأبلة من أسافل الجزء من شماله. ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن يتقسم بجداول كثيرة وتحتل به جداول أخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس. وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاه مضائق في آخره في شرقيه وضيقة عند متناه مضائق للحد الشمالي منه. وعلى عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وهجر والأحساء، وفي غربها أخطب والصَّمَان وبقيّة أرض اليمامة، وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقاً. ووراءه إلى الجنوب في هذا الجزء جبال القَفْص من كَرْمَان وتحت هَرْمُز على الساحل بلد سِرَاف ونَجِيرَم على ساحل هذا البحر. وفي شرقيه إلى آخر هذا الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودار أبجرَة ونسا وأصطَحَر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها. وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الأهواز وتُسْتَرُ وصدى وسابور والسوس ورامُ هرمز وغيرها وأَرْجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان. وفي شرقي بلاد خوزستان جبال الأكراد متصلة إلى نواحي أصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراها في أرض فارس وتسمى الرسوم.

وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القَفْص ويليها من الجنوب والشمال بلاد كَرْمَان ومَكْرَان، ومن مدنها الرودان والشيرجان وجيرفت ويزْدَشِير والبهرج. وتحت أرض كَرْمَان إلى الشمال بقية بلاد فارس إلى حدود أصبهان، ومدينة أصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله. ثم في المشرق عن بلاد كَرْمَان وبلاد فارس أرض سيجستان وكوهستان في الجنوب. وأرض كوهستان في الشمال عنها. ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان، في وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها. ومن مدن سجستان بَسْتُ والطاق. وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان. ومن مشاهير بلادها سَرَخْسُ وكوهستان آخر الجزء.

ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم، وينفسح في ذهابه بتدرج إلى أن يغمر الأربعة أجزاء وأكثر الخامس ويغمر عن جانبيه طرفاً من الإقليم الثالث والخامس كما سنذكره. ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضاً. وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة، ثم مايرقة ثم مبرقة ثم سرّدانية ثم صقلية وهي أعظمها، ثم بلونس ثم أفریطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها.

ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الإقليم الخامس خليج البنادقة، يذهب إلى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ويمر مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس.

ويخرج منه أيضاً في آخر الجزء الرابع شرقاً من الإقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متصاقاً في عرض رمية السهم إلى آخر الإقليم. ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الإقليم السادس وينعطف إلى بحر نيّش ذاهباً إلى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الإقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه.

وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طَنْجة وينفسح إلى الإقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين، وبعدما مدينة سَبْتَة على البحر الرومي، ثم قطان ثم باديس. ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقاً ويخرج إلى الثالث.

وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها بلاد الأندلس الغربية، ومنها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مَالَقَة ثم المنكب ثم العُرّة. وتحت هذه من لدن البحر المحيط غرباً وعلى مقربة منه شريش ثم لَبْلَة وقيالته في جزيرة قَادِس، وفي الشرق عن شَرِيش وَلَبْلَة أشبيلية ثم أَسْتَجَة وقرطبة ومَدِيْلَة، ثم غرناطة وِجْيَان وأَبْدَة، ثم ودياش وِسْطَة وتحت هذه شَتْمَرَة وشَلْب على البحر المحيط غرباً، وفي الشرق عنهما بطليوس وماردة وبابرة ثم غافق وبَرْجَالَة ثم قلعة رباح. وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غرباً وعلى نهر باجة، وفي الشرق عنها شَتْرين وموزية على النهر المذكور ثم قَنْطَرَة السيف. ويسامت أشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقاً مع آخر الجزء من شماليه فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد النصف منه. وتحت هذا الجبل طليبة في الشرق من فورّة ثم طليطة ثم وادي الحجارة ثم مدينة

من الشرق تحت الترمذ إلى جهة الشمال ونهر بَلُخ يخرج من جبال البُثم من مبدئه عند الجُرْجَان ويصب فيه من غربيه. وعلى هذا النهر من غربيه بلاد أَمِد من خراسان. وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصغد وأسروشنّة من بلاد الترك، وفي شرقها أرض فرغانة أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً. وكل بلاد الترك يحوزها جبال البُثم إلى شمالها.

وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبت إلى وسط الجزء وفي جنوبها بلاد الهند وفي شرقها بلاد الصين إلى آخر الجزء. وفي أسفل هذا الجزء شمالاً عن بلاد التبت بلاد الخَزَلْجِيّة من بلاد الترك إلى آخر الجزء شرقاً وشمالاً. ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً، ومن شرقها أرض التفرغر من الترك إلى آخر الجزء شرقاً وشمالاً.

وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعاً بقية الصين وأسافله. وفي الشمال بقية بلاد التفرغر. ثم شرقاً عنهم بلاد خِرْخِير من الترك أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً. وفي الشمال من أرض خِرْخِير بلاد كتمان من الترك. وقيالته في البحر المحيط جزيرة الباقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه إليها ولا مسلك والصعود إلى أعلاه من خارجه صعب في الغاية. وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الباقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية في استخراجها بما يلهمهم الله إليه.

وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك. أمم لا تحصى وهم ظواغن رَحْالة أهل إيل وشاه وبقر وخيل للتاج والركوب والأكل وطوائفهم كثيرة لا يحصيه إلا خالقهم، وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر -نهر جيحون- ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان والهند والعراق.

الإقليم الرابع

يتصل بالثالث من جهة الشمال:

والجزء الأول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوباً إلى آخره شمالاً، وعليها في الجنوب مدينة طنجة، ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي في خليج متصاق بمقدار اثني عشر ميلاً ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالاً وقصر المجاز وسَبْتَة جنوباً ويذهب مشرقاً إلى أن

سالم. وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قَلَمَرِيَّة وهذه غربي الأندلس. وأما شرقي الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المَرَّة قرطاجنة ثم لَفَتَة ثم دانية ثم بَلَنْسِيَّة إلى طرطوشة آخر الجزء في الشرق، وتحتها شمالاً لِيورْقَة وشَقُورَة تتاخان بَسْطَة وقلعة رياح من غرب الأندلس. ثم مَرْمِيَّة شرقاً ثم شاطبية تحت بلنسية شمالاً، ثم شَقَر ثم طرطوشة ثم طَرَكُونَة آخر الجزء. ثم تحت هذه شمالاً أرض مِينْجَالَة وريضة متاخان لَشَقُورَة وطَلِيظَة من الغرب. ثم أفرغة شرقاً تحت طرطوشة وشمالاً عنها. ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سَرَقُوسَة ثم لارْدَة آخر الجزء شرقاً وشمالاً.

والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه إلا قطعة من غريبه في الشمال فيها بقعة جبل البَرْنَات ومعناه جبل الثنايا. والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي، من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوباً وشرقاً، ويمر في الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تقضي ثناياها إلى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة. وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برشلونة ثم أربونة. وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرهما. ففي غريبه جزيرة سرديانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سَرَقُوسَة وبَلَرْم وطَرابُغَة ومارز ومُسَيِّي، وهذه الجزيرة تقابل أرض إفريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة.

والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قَلُورَة والوسطى من أرض أبِكِرْدَة والشرقية من بلاد البنادقة.

والجزء الرابع من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث. والمعمور منها جزيرة بَلُونَس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة أقریطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق منه.

والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال، وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء، ويبقى في الجبال الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه.

وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام، ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهباً إلى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة. ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس. ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق. ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال. وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تقضي إلى بلاد الأرمن، وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة. فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال، فعلى ساحل البحر بلد أَنْطَرُطُوس في أول الجزء من الجنوب متاخة لغزة وطرابلس على ساحله من الإقليم الثالث، وفي شمال أنطراطوس جَبَلَة ثم اللاذقية ثم إسكندرونه ثم سلوقية وبعدها شمالاً بلاد الروم.

وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بمخافاته فيصاقيه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غريبه حصن الحواني وهو للحشيشة الإسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى الحصن «مصياف» وهو قبالة أنطراطوس. وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حصن. وفي الشمال عن مصياف بين الجبل والبحر بلد أنطاكية. ويقابلها في شرق الجبل المَعْرَة وفي شرقها المَرَاغَة وفي شمال أنطاكية المَصْبِيصَة ثم أدّة ثم طرسوس آخر الشام. ويجاذبها من غرب الجبل قُنْسَرِين ثم عين زَرَّة. وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب. ويقابل عين زربة مَنَبِج آخر الشام. وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان. وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا. وأما بلاد الأرمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مَرَعَش وملطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي. ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن نهر جيحان ونهر سِيحان في شرقيه فيمر بها جِيحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصْبِيصَة ثم ينعطف هابطاً إلى الشمال ومغرباً حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية. ويمر نهر سيحان موازياً لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام ثم يمر بعين زَرَّة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف إلى الشمال مغرباً فيختلط بنهر جيحان عند المَصْبِيصَة ومن غربها. وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام إلى جبل السلسلة

الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي إلى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقاً ثم ينعطف جنوباً، ويختلط بدجلة قبل خروجه إلى الإقليم الثالث. ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والأعاجم بلاد جلولا، وفي شرقها عند الجبل بلد حُلوان وصَيَمرة. وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الأعاجم مشرقاً إلى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين. وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خُونْجان في الغرب والشمال عن أصبهان وتسمى هذه القطعة بلد المُلوس، وفي وسطها بلد نهاوند، وفي شمالها بلد شهرزور غرباً عند ملتقى الجبلين والدينور شرقاً عند آخر الجزء. وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها المَرَاغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للأكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه. وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز والبنديقان. وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نبطش وهو بحر الخزر.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد المُلوس، وفيها همذان وقزوین وبقيتها في الإقليم الثالث، وفيها هنالك أصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالإقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس إلى الإقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك، وأنه يحيط ببلاد المُلوس في القطعة الشرقية. ويهبط هذا الجبل المحيط بأصبهان من الإقليم الثالث إلى جهة الشمال ويخرج إلى هذا الجزء السابع يحيط ببلاد المُلوس من شرقها وتحت هنالك قاشان، ثم قُم وينعطف في قرب النصف من طريقه مغرباً بعض الشيء ثم يرجع مستديراً فيذهب مشرقاً ومنحرفاً إلى الشمال حتى يخرج إلى الإقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه، ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غرباً إلى آخر الجزء، ومن جنوبه من هنالك قزوین، ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهباً إلى الشرق والشمال إلى وسط الجزء ثم إلى الإقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان، ويدخل من الإقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه إلى شرقه ويعترض عند جبل الري. وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سمنه مشرقاً وبانحراف قليل إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه. ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جُرجان فيما بين الجبلين ومنها بَسْطام. ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المقازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي

ففي جنوبها بلد الرافضة والرقه، ثم حَرَّان ثم سَروج والرُّها ثم نَصيبين ثم سُمَيْسَاط وأمد تحت جبل السلسلة. وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقيه ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الإقليم الخامس ويمرّان في بلاد الأرمن جنوباً إلى أن يتجاوزا جبل السلسلة، فيمر نهر الفرات من غربي سُمَيْسَاط وسَروج وينحرف إلى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقه ويخرج إلى الجزء السادس. ويمر دجلة شرق أمد وينعطف قريباً إلى الشرق فيخرج قريباً إلى الجزء السادس.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم من غربه بلاد الجزيرة، وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنهي في الشرق إلى قرب آخر الجزء. ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصبهان هابطاً من جنوب الجزء منحرفاً إلى الغرب، فإذا انتهى إلى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغرباً إلى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمنه بجبل السلسلة في الجزء الخامس، فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية، ففي الغربية من جنوبها يخرج الفرات من الخامس، وفي شمالها يخرج دجلة منه.

أما الفرات فأول ما يخرج إلى السادس يمر بقرقيسياً ويخرج من هنالك جدول إلى الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويفوص في نواحيها ويمر من قرقيسياً غير بعيد ثم ينعطف إلى الجنوب فيمر بقرب الخابور إلى غرب الرحبة ويخرج منه جداول من هنالك، يمر جنوباً ويبقى صيفين في غربه. ثم ينعطف شرقاً وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هُبيرة وبالجامعين، وتخرج جميعاً في جنوب الجزء إلى الإقليم الثالث، فيفوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية. ويخرج الفرات من الرحبة مشرقاً على سمنه إلى هيت من شمالها يمر إلى الزاب والأنبار من جنوبهما ثم يصب في دجلة عند بغداد.

وأما نهر دجلة فإذا دخل من الجزء الخامس إلى هذا الجزء يمر مشرقاً على سمنه ومحاذياً لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمنه، فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكرت، وينتهي إلى الحديثة فينعطف جنوباً وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك، ويمر على سمنه جنوباً وفي غرب القادسية إلى أن ينتهي إلى بغداد ويختلط بالفرات، ثم يمر جنوباً على غرب جُرجان إلى أن يخرج من الجزء إلى الإقليم الثالث فتتشر هنالك شعوبه وجداوله، ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبّادان.

وفيما بين نهر دجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة. ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقه ببغداد نهر آخر يأتي من

الإقليم الخامس

الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء إلا قليلاً من جنوبيه شرقه؛ لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الإقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالإقليم.

فأما المتكشف من جنوبيه فِقِطْعَةٌ على شكل مثلث متصلة من هنالك بالأندلس وعليها بقيتها. ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان يحيطان بزواية المثلث، ففيها من بقية غرب الأندلس سَعْيُور على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسَلْمُنْكَة شرقاً عنها وفي جوفها سَمُورَة وفي الشرق عن سلمنكة أبلّة آخر الجنوب وأرض قَشْتَالَة شرقاً عنها وفيها مدينة شَقُونَة. وفي شمالها أرض ليون وبَرْغَشْت ثم وراءها في الشمال أرض جليقية إلى زاوية القطعة. وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد سَتِّيَاق ومعناه يعقوب. وفيها من شرق بلاد الأندلس مدينة شيطلية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقاً عن قشتالة. وفي شمالها وشرقها وشَقَّة وَيَبْلُونَة على سمتها شرقاً وشمالاً. وفي غرب ينبلونة قشتالة ثم ناجزة فيما بينها وبين بَرْغَشْت. ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم غاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب ويتصل به ويطرف البحر عند ينبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الإقليم الرابع ويصير حجراً على بلاد الأندلس من جهة الشرق وثناياه لها أبواب تقضي إلى بلاد غشكونية من أمم الفرنج. فمنها من الإقليم الرابع برشلونة وأربونة على ساحل البحر الرومي، وخريفة وقَرْقَشُونَة وراهما في الشمال. ومنها من الإقليم الخامس طَلُوشَة شمالاً عن خريفة.

وأما المتكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البَرْنَات شرقاً. وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلد بُيُونَة. وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بَنْطو من الفرنج إلى آخر الجزء. وفي الجزء الثاني من الناحية الغربية منه أرض غشكونية، وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما. وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة إلى الشرق قليلاً وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلية في جون من البحر. وعلى رأس هذه القطعة شمالاً بلاداً جَنُوة وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون. وفي شماله وعلى سمتها أرض برغونة. وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر

آخرها عند الجبل بلد أَسْتَرَبَاذ. وحافات هذا الجبل من شرقيه إلى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان. ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء. وفي شماله وشرقي جرجان بلد مَهْرَجَان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقاً. وكل هذه تحت الجبل. وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزأين الشمالي والشرقي مفاوز معطلة.

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهباً من الجنوب إلى الشمال. ففي عدوته الغربية رَمَ وَأَمَل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم. ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل أَسْتَرَبَاذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هَرَاة، ويمر الجبل في الإقليم الثالث بين هَرَاة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك.

وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد أسروشنة ومنها خَجَنْدَة آخر الجزء شرقاً. وفي الشمال عن سمرقند وأسروشنة أرض إيلاق. ثم في الشمال عن إيلاق أرض الشاش إلى آخر الجزء شرقاً ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة، ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضاً في الجزء الثامن إلى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله إلى الإقليم الخامس. ويختلط معه في أرض إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة. وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الإقليم الخامس وينعطف شرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش، ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك إلى جنوبيه فيدخل في الإقليم الثالث. وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب. وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة. وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خَجَنْدَة وفيها بلد إَسْيِيَجَاب وطراز.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربيه بعد أرض فَرَاغَة والشاش أرض الخزجنية في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال. وفي شرق الجزء كله أرض الكيمائية. ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقيا آخر الجزء شرقاً وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل ياجوج وأماجوج. وهذه الأمم كلها من شعوب الترك. انتهى.

الشمال. وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسى القيصرية وبها من آثار البناء والضحامة ما كثرت عنه الأحاديث. والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت للبرنانيين ومنها ابتداء ملكهم. وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركان، وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها بورصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الأسم إلى أن صارت للتركان.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غريبه وجنوبه أرض باطوس، وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عمورية، وفي شرقي عمورية نهر قباقيب الذي يمد الفرات يخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الثاني إلى عمره في الإقليم الرابع. وهنالك في غريبه آخر الجزء في مبدأ نهر سنجان ثم نهر جيحان غريبه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما. وفي شرقه هنالك مبدأ نهر الدجلة الذاهب على سمته وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد. وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميثافارقين. ونهر قباقيب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين: إحداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً، ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقيب أرض عمورية كما قلناه، والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ الدجلة والفرات، وفي الشمال بلاد اليلقان متصلة بأرضي عمورية من وراء جبل قباقيب، وهي عريضة وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خَرْشَنَة. وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطنش الذي يمدّه خليج القسطنطينية.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغريبه بلاد أرمينية متصلة إلى أن يتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق. وفيها بلدان أردن في الجنوب والغرب، وفي شمالها قَفْلَيْس ودَيْبَل. وفي شرق أردن مدينة خِلَاط ثم بَرْدَعَة، وفي جنوبها باسخراف إلى الشرق مدينة أرمينية. ومن هنالك يخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع. وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بَأَرَمَى وقد مر ذكره في الجزء السادس منه. ويتاخم بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلاد أَرْدَبِيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرسان. وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان. ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال

خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غريبه نيس وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسى ملك الإفرنجية ومسكن البابا بطركهم الأعظم. وفيها من المباني الضخمة والمياكل الهائلة والكنائس العادية ما هو معروف الأخبار. ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق إلى المغرب مفروشاً قاعه ببلالط النحاس، وفيها كنيسة بطرس وبولس من الخواريين وهما مدفونان بها. وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أَفَرَنْصِيصَة إلى آخر الجزء. وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قَلُورَة من بلاد الفرنج. وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرباً ومحاذياً للشمال من هذا الجزء وانتهى إلى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط. وفي شماله بلاد أنكلياية في الإقليم السادس.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غريبه بلاد قَلُورَة بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه يوصل من برها في الإقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال إلى هذا الجزء. وفي شرقي بلاد قَلُورَة بلاد أنكيرة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الإقليم الرابع وفي البحر الرومي. ومحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهباً إلى سمت الشمال ثم ينعطف إلى الغرب محاذياً لآخر الجزء الشمالي. ويخرج على سمته من الإقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الإقليم السادس إلى أن ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد إنكلياية من أمم اليلمانيين كما نذكر. وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داماً ذاهبين إلى الشمال بلاد البنادقة، فإذا ذهباً إلى المغرب فيبينهما بلاد خَرَوَايا ثم بلاد الألمانين عند طرف الخليج.

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر الرومي خرجت إليه من الإقليم الرابع مُضَرَّسَة كلها بقطع من البحر. ويخرج منها إلى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما وفي آخر الجزء شرقاً قطع من البحر. ويخرج منها إلى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال إلى أن يدخل في الإقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقاً إلى بحر نيطنش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الإقليم السادس كما نذكر. وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من

فيها نهر جيحون دورها ثلاثمائة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات. وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربعمائة ميل وماؤها حلو. وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار. ومعناه جبل الثلج؛ لأنه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء. وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئاً يسمى عرعون وبه سميت البحيرة. وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلاد أركس من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيمائية. ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بياجوج وماجوج يعترض هنالك من الجنوب إلى الشمال حتى يعطف أول دخوله من الجزء العاشر، وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم الرابع قبله واحتمل هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشمال، ثم انعطف مغرباً في الجزء العاشر من الإقليم الرابع إلى ما دون نصفه وأحاط من أوله إلى هنا ببلاد الكيمائية، ثم خرج إلى الجزء العاشر من الإقليم الخامس فذهب فيه مغرباً إلى آخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة إلى الغرب قبل آخر بلاد الكيمائية، ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريباً إلى الشمال، وذهب على سمته إلى الجزء التاسع من الإقليم السادس. وفيه السد هنالك كما نذكره. وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة إلى الجنوب وهي من بلاد ياجوج وماجوج.

وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم أرض ياجوج وماجوج متصله فيه كله إلا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفاً في شرقيه من جنوبه إلى شماله وإلا القطعة التي يفصلها إلى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه وما سوى ذلك فارض ياجوج وماخوج، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإقليم السادس

فالجزء الأول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقاً مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية إلى الجنوب وانتهى قريباً من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخله بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالبحر فيه وينفخ طولاً وعرضاً وهي كلها أرض بريطانية. وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من

جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميثاقين. ويخرج إلى الإقليم الرابع عند أميد، ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر. وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثانياً كالأبواب تقضي من الجانبين. ففي جنوبيها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب. وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبيها ببلد أرمينية. وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة إلى بحر طبرستان. وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير في الزاوية الغربية الشمالية منها. وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضاً من بحر نيطش الذي بمده خليج القسطنطينية وقد مر ذكره. ويحف بهذه القطعة من بحر نيطش بلاد السرير وعليها منها بلد أطرابزينة وتتصل بلاد السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء إلى أن ينتهي شرقاً إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر. وعند آخرها مدينة صول. ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي إلى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالاً.

والجزء السابع من هذا الإقليم غريبه كله مغمور ببحر طبرستان، وخرج من جنوبيه في الإقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديكس إلى قزوين. وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الإقليم الرابع. ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقيه أيضاً.

وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر أثل في هذا البحر. ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغز من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب إلى ما دون وسطه فينعطف إلى الشمال إلى أن يلاقي بحر طبرستان فيحتمل به ذهاباً معه إلى بقيته في الإقليم السادس، ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ويذهب مغرباً إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ثم يرجع جنوباً إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس. وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر. واتصلت بأرض الخزر في الجزء السادس والسابع حافات هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتي.

والجزء الثامن من هذا الإقليم الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب

شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الإقليم.

وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطنش وينحرف قليلاً إلى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالاً بلاد قُمانيّة، وفي جنوبه متفسحاً إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللاتية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر. وفي شرقها أرض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بُلغار. وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بَلَجَر يجوزها هناك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده، ويذهب بعد مفارقه مغرباً فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس، فيتصل هنالك بجبل الأبواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه بعد مفارقه بحر طبرستان. وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غرباً. وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها. ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس. وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شَحَرَب وَيَخَنَّاك وهم أمم الترك.

وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجَوَلُخ من الترك في الناحية الشمالية غرباً والأرض الممتدة وشرق الأرض التي يقال: إن ياجوج وماجوج خرباها قبل بناء السد. وفي هذه الأرض الممتدة مبدأ نهر الأثل من أعظم أنهار العالم وعمره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الإقليم الخامس في الجزء السابع منه. وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل في الأرض الممتدة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد، ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الإقليم فينعطف شمالاً إلى الجزء السابع من الإقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغرباً غير بعيد ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ويرجع إلى الجزء السادس من الإقليم السادس، ويخرج منه جدول يذهب مغرباً ويصب في بحر نيطنش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار، فيخرج في الجزء السابع من الإقليم السادس، ثم ينعطف ثالثة إلى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر، ويخرج إلى الإقليم الخامس في الجزء السابع منه، فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية.

والجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد

هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بَنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول والثاني من الإقليم الخامس.

والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله، فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانيا في الجزء الأول، واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال من غربه إلى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة إنكلترة، وهي جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الإقليم السابع. وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد أَرْمَنِيَّة وبلاد أَفْلَاش متصلين بها ثم بلاد إفريقية جنوباً وغرباً من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقاً عنها وكلها لأمم الإفرنجية وبلاد اللّمانين في النصف الشرقي من الجزء. فجنوبه بلاد أنكلية ثم بلاد برغونية شمالاً ثم أرض لهويكة وشطونية. وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريزة وكلها لأمم اللّمانين. وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مَرَاتِيَّة في الجنوب وبلاد شَطُونِيَّة في الشمال. وفي الناحية الشرقية بلاد أَكُوكُيَّة في الجنوب وبلاد بَلُونِيَّة في الشمال يعترض بينهما جبل بَلُوط داخلاً من الجزء الرابع ويمر مغرباً باغراف إلى الشمال إلى أن يقف في بلاد شَطُونِيَّة آخر النصف الغربي.

وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جَنُوثِيَّة. وتحتها في الشمال بلاد الروسية. وفصل بينهما جبل بَلُوط من أول الجزء غرباً إلى أن يقف في النصف الشرقي. وفي شرق أرض جَنُوثِيَّة بلاد جَرْمَانِيَّة. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطنش، فيقع قطعة من بحر نيطنش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلد مسيناه.

وفي الجزء الخامس من الإقليم السادس، ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطنش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج على سمتة مشرقاً فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل. ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بر مستطيل في غربه هِرَقْلِيَّة على ساحل بحر نيطنش متصلة بأرض التِّلْغافان من الإقليم الخامس. وفي شرقه بلاد اللاتية وقاعدتها سَوْنَلِي على بحر نيطنش. وفي شمال بحر نيطنش في هذا الجزء غرباً أرض تَرَخَان وشرقاً بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر. وبلاد الروسية محيطة ببلاد تَرَخَان من

الغربي منها مستديرة فسيحة وتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي إلى بلاد قلوثة، وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق.

والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب إلى المشرق وجنوبه متكشف، وفي غربه أرض قيمازك من الترك وفي شرقها بلاد طسنت ثم أرض رسلاندة إلى آخر الجزء شرقاً وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل. ويتصل ببلاد الروسية في الإقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل. وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانيّة التي على قطعة بحر نيطنش من الجزء السادس من الإقليم السادس وينتهي إلى بحيرة طرمي من هذا الجزء وهي عذبة تتجلب إليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال. وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التارية من الترك من التركمان إلى آخره.

وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانيّة، وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تتجلب إليها الأنهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائماً لشدة البرد إلا قليلاً في زمن الصيف. وفي شرق بلاد القمانيّة ببلاد الروسية التي كان مبدؤها في الإقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغار التي كان مبدؤها في الإقليم السادس. وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغار منعطف نهر أثل القطعة الأولى إلى الجنوب كما مر. وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصلاً من غربه إلى شرقه.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في غربه بقية أرض بخناك من أمم الترك. وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء، ويخرج إلى الإقليم السادس من فوقه. وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحرّوب ثم بقية الأرض الممتدة إلى آخر الجزء شرقاً. وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلاً من غربه إلى شرقه.

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الأرض الممتدة. وفي شرقها الأرض المحفورة وهي من

خفشاخ من الترك وهم ققجاق وبلاد الشركس منهم أيضاً. وفي الشرق منه بلاد ياجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره، يبدأ من البحر المحيط في شرق الإقليم الرابع ويذهب معه إلى آخر الإقليم في الشمال ويفارقه مغرباً وبالمخاراف إلى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الإقليم الخامس فيرجع إلى سمته الأول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الإقليم من جنوبه إلى شماله بالمخاراف إلى المغرب، وفي وسطه ههنا السد الذي بناه الإسكندر، ثم يخرج على سمته إلى الإقليم السابع، وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه إلى الجنوب إلى أن يلتقي البحر المحيط في شماله، ثم ينعطف معه من هنالك مغرباً إلى الإقليم السابع إلى الجزء الخامس منه، فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربه. وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الإسكندر كما قلناه. والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكر عبد الله بن خرداذبة في كتابه في الجغرافيا أن الواصل رأى في منامه كأن السد انفتح فانتبه فزعاً ويعث سلاًماً الترحمان فوقف عليه وجاء بجهره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا هذا.

وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم بلاد ماجوج متصلة فيه إلى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط، أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق.

الإقليم السابع

والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء الخامس، حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بياجوج وماجوج.

فالجزء الأول والثاني مغموران بالماء إلا ما انكشف من جزيرة إنكلترا التي معظمها في الثاني. وفي الأول منها طرف انعطف بالمخاراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الإقليم السادس وهي مذكورة هناك. والمجاز منها إلى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلاً. ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلاندة مستطيلة من الغرب إلى الشرق.

والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أكثره بالبحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه وتوسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض قلوثة التي مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء. ثم في الجانب

وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجّلة بالحجارة المنمّقة بالصناعة ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية. وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير. ويتصرفون في معاملاتهم بالتقدين العزيزين. ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم. وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقيين والهند والسند والصين، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرجة والجلالة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة. ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها؛ لأنها وسط من جميع الجهات. وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم. فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخففونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدّهم غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف. ومعاملاتهم بغير الحجريين الشريفيين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات. وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم. حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً وكذا الصقالب. والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك.

وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد، ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد يقال: إنهم دانوا به في المائة السابعة، ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالب والإفرجة والترك من الشمال. ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً، فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما إليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني، فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات

العجائب: خرق عظيم في الأرض بعيد المهوى فسيح الأقطار ممتنع الوصول إلى قعره، يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنييران في الليل نضوي وتغشى. وربما رُئي فيها نهر يشقها من الجنوب إلى الشمال. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب الناحية للسد. وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلاً من الشرق إلى الغرب.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد خُشاش وهم قَفَجَق يجوزها جبل قوقيا حين ينطفئ من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه إلى الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الإقليم السادس وعمر معتزلاً فيه. وفي وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله.

والجزء العاشر غمر البحر جميعه.

هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة. ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء

في ألوان البشر والكثير في أحوالهم

قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال. ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً. فالإقليم الرابع أعدل العمران والذي حافته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال: الأول والسابع أبعد بكثير؛ فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة خصوصاً بالاعتدال. وسكانها من البشر أعدل أجساماً والواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبؤات فإنما توجد في الأكثر فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية. وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وذلك ليمت القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله.

بالجنوب تسود ألوان أعقابهم. وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء. قال ابن سينا في أرجوزته في الطب:

بالزنج حر غير الأجساد حتى كسا جلودها سودا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم؛ لأن البياض كان لوناً لأهل تلك اللغة الواضحة للأسماء. فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لمرافقته واعتياده. ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطُغرُغُ والحَزَرُ والسُلالن والكثير من الإفرنجية ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة وأجالياً متعددة مسمين بأسماء متنوعة. وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة، أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتبار لديهم من المعاش والمساكن والصناعات والعلوم والرياسات والملك فكانت فيهم النبوتات والملوك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصناعات الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة. وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنو إسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين.

ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب: فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في ألوانهم، فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المتحللين للعلوم والصناعات والملل والشرائع والسياسة والملوك من ولد سام. وهذا الزعم إن صادف الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد، إنما هو إخبار عن الواقع لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحيشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود. وما أذاهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط وليس كذلك؛ فإن التمييز للجبل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبنو إسرائيل والفرس، ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحيشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب. ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم. فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نخلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب، إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات وإن هذه كلها تبدل في الأعقاب ولا يجب استمرارها: «سنة الله في عباده وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا»؛ والله ورسوله أعلم بغيه وأحكم، وهو المولى المنعم الرؤوف الرحيم.

الثالث كما ذكرنا، فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فتقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر. وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقيه، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصص. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوته لا غير. وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات. وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب، فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة، قريبة إحداهما من الأخرى، فتطول المسامحة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس. شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال، إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرثي العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامحة ولا ما قرب منها، فيضعف الجر فيها ويشد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة. ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوية الشعور. وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة: الخامس والرابع والثالث، فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر.

والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في المتوسط كما قدمناه. فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم. وتبعه من جانيه الثالث والخامس وإن لم يبلغا غاية المتوسط لميل هذا قليلاً إلى الجنوب الحار وهذا قليلاً إلى الشمال البارد إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف. وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم، فالأول والثاني للحر والسواد، والسابع للبرد والبياض. ويسمى سكان الجنوب من الإقليمين الأول والثاني باسم الحيشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المنغرة بالسواد، وإن كان اسم الحيشة مختصاً منهم بمن تجاه مكة واليمن، والزنج بمن تجاه بحر الهند. وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا حام ولا غيره. وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابح المنحرف إلى البياض، فتبيض ألوان أعقابهم على التدرج مع الأيام. وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع

من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحق الكندي أن ذلك لضعف أدمتتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم، وهذا كلام لا يحصل له ولا برهان فيه. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب

والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في

أبدان البشر وأخلاقهم

اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهل خصب العيش من الحبوب والأدم والخطة والفواكه؛ لذكاء المناخ واعتدال الطبيعة وفور العمران، وفيها الأرض الحرة التربة لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة، فسكانها في شظف من العيش: مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان، فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملة، وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم، ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار، فإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحيان وتحت رقة من حمايتها وعلى الإقلال لقلة وجدهم، فلا يتوصلون منه إلى سد الخلة أو دونها فضلاً عن الرغد والخصب، وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتعوضهم من الخطة أحسن معاض. وتجدهم مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً في جسمهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش: فالوائهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات. هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم. فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين وأهل التلول. يعرف ذلك من خبره. والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بُعد أقطارها في غير نسبة ويتبع ذلك انكشاف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه، وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أغزتها الردية، فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة. واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجلب من الغزال

المقدمة الرابعة

في أثر الهواء في أخلاق البشر

قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتقشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكافئه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته. ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور مالا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه، فيفتش الروح وتحمي طبيعة الفرح. وكذلك نجد التمتع بالحمائم إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخت لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمرجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرراً، فتكون أكثر تقشياً، فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً، ويحيي الطيش على أثر هذه، وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هوائها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعثه كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة. وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها؛ لأنها عريضة في الجنوب عن الأرياف والتلول. واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها، كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب، حتى إنهم لا يذخرون أصوات ستهم ولا شهرهم وعامة مآكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب، حتى إن الرجل منهم ليذخر قوت سنتين من حبوب الخطة وياكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يربز شيئاً من مدخره، ويتبع ذلك في الأقاليم والبلدان نجد في الأخلاق أثراً من كفيات الهواء. والله الخلاق العليم.

وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم، وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر

والنعام والمَها والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبه كيف تجد بينها بونا بعيداً في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحده مداركها. فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر، أخو الحمار والبقر واليون بينها ما رأيت. وما ذلك إلا لأجل أن الحصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره، والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء. واعتبر ذلك في الأدميين أيضاً: فإننا نجد أهل الأقاليم المخصبة الميش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم. وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والخنطة مع المتشققين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة، مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس، فتجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم. وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الأدم والبُر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملةً، وغالب عيشهم الذرة، فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم مالا يوجد لغيرهم. وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضرة والأمصار. فإن أهل الأمصار وإن كانوا مكثرين مثلهم من الأدم وخصبين في العيش إلا أن استعمالهم إياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها، وعامة مآكلهم لحوم الضأن والدجاج، ولا يغيطون السمن من بين الأدم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في أعذيتهم ويخف ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الرديئة؛ فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار اللطيف من جسوم أهل البادية المخشنتين في العيش. وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة.

واعلم أن أثر هذا الحصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة، فنجد المتشققين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجاني عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب. بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولُبَاب البُر. ويختص وجود العبّاد والزهاد لذلك بالمتشققين في غذائهم من أهل البوادي. وكذلك نجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب. وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر والأمصار إذا نزلت بهم السنوات وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم، مثل برابرة

المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا، لا مثل العرب أهل القفر والصحراء، ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر، ولا مثل أهل إفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت، وأهل الأندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت، فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنوات والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر. والسبب في ذلك والله أعلم أن المنغمسين في الحصب المتعودين للأدم والسمن خصوصاً تكتسب من ذلك أفعالهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تجاوز حدّها، فإذا خولف بها العادة بقلّة الأقوات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعى اليس والانكماش، وهو ضعيف في الغاية، فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه دفعةً؛ لأنه من المُقَاتِل. فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشيع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق. وأما المتعودون للتيمة وترك الأدم والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفةً عند حدّها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية الطيبة، فلا يقع في معامهم بتلك الأغذية تيس ولا انحراف، فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأدم في المآكل.

وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية واثلتها أو تركها إنما هو بالعادة. فمن عود نفسه غذاء ولامه تناوله كان له مألوفاً وصار الخروج عنه والتبدل به داءً، ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليئوس وما أفرط في الانحراف. فأما ما وجد فيه التغذي والملازمة فيصير غذاء مألوفاً بالعادة. فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقول عوضاً عن الخنطة حتى صار له ديدناً فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الخنطة والحبوب من غير شك. وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضيات، فإننا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها. والسبب في ذلك العادة، فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها؛ لأنها كثيرة التلون، فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدرج والرياضة فقد حصل ذلك عادةً طبيعية لها. وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة. وقطع عنها الغذاء بالكلية، فإنه حيثئذ ينحسم المعى ويتاله المرض الذي يخشى معه الهلاك. وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضةً بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعله المتصوفة فهو مجزول عن الهلاك. وهذا التدرج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة، فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعةً خيف عليه الهلاك، وإنما يرجع به كما بدأ

المقدمة السادسة

في أصناف المدرّكين للغيب من البشر بالفطرة

أو بالرياضة ويتقدّمه الكلام في الوحي والرؤيا

اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضّلهم بحظابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينهم وبين عبادته، يعرفونهم بمصالحهم ويعرضونهم على هدايتهم، ويأخذون بحجزاتهم عن النار، ويدلّونهم على طريق النجاة. وكان فيما يليق به إليهم من المعارف ويظهره على الستهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم. قال ﷺ: «إلا وإنّي لا أعلم إلا ما علّمني الله». واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصّيته وضرورته الصدق، لما يتبيّن لك عند بيان حقيقة النبوة.

وعلمة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشي أو إغماء في رأي العين وليست منهما في شيء، وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء المَلِك الروحاني بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكُتَيْة. ثم يتنزّل إلى المدارك البشرية: إما بسماع دويّ من الكلام فيفتهمه، أو يتمثّل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله. ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقي إليه. قال ﷺ: «قد سئل عن الوحي: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي المَلَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». ويدركه أثناء ذلك من الشدّة والغفّة ما لا يعبر عنه. ففي الحديث: «كان مما يعالج من التنزيل شدّة». وقالت عائشة: كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً. وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَلَّلْنَا غَلِيظَ قَوْلًا لِّقِيْلًا﴾. ولأجل هذه الحالة في تنزّل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون: له رسي أو تابع من الجن. وإنما ليس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي، خلّق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع. وهذا هو معنى العصمة. وكأنّه مفطور على التزّه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنّها منافية لجبّته. وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استرّ بإزاره، ودُعي إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب

في الرياضة بالتدرّج. ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر. وحضر أحياناً مجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين، وشاع أمرهما ووقع اختباهما فصحّ شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا. ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الإفطار ويكون ذلك غذاءه، واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير، ولا يستنكر ذلك.

واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها، وأن له أثراً في الأجسام والعقول في صفاتها وصلاحتها كما قلناه، واعتبر ذلك بأثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسم. فقد رأينا المتغذّين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشا أجسامهم كذلك. وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة. وكذا المتغذّون باللبان الإبل ولحومها أيضاً، مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل، وتنشا أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الإبل في الصحة والغلظ، فلا يطرقها الوهن ولا الضعف، ولا ينالها من مضار الأغذية ما ينال غيرهم فيشربون البُتُرات لاستطلاق بطونهم غير معجوبة، كالحظنل قبل طبخه والدرياس والقرّيون ولا ينال أمعاؤهم منها ضرر، وهي لو تناولها أهل الحضرة الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الأغذية لكان الهلاك أسرع إليهم من طرفة العين لما فيها من السميّة. ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون. وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضّن فيجني دجاجها في غاية العظم. وأمثال ذلك كثيرة، فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان فلا شك أن للجوع أيضاً آثاراً في الأبدان؛ لأن الضئيل على نسبة واحدة في التأثير وعدمه، فيكون تأثير الجوع في نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثراً في وجود ذلك الجسم. والله محيط بعلمه.

المعتزلة صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم. وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحديّ بها بإذن الله، وهو أن يستدلّ بها النبي ﷺ قبل وقوعها على صدقه في مدّعاء. فإذا وقعت تنزّلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق، وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية. فالمعجزة دالة بمجموع الحارق والتحدي، ولذلك كان التحديّ جزءاً منها. وعبرة المتكلمين صفة نفسها، وهو واحد لأنه معنى الذاتيّ عندهم.

والتحديّ هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر، إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق، فلا وجود للتحديّ إلا إن وجد اتفاقاً. وإن وقع التحديّ في الكرامة عند من يميزها وكانت لها دلالة فإنما هي على الولاية وهي غير النبوة. ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فراراً من الالتباس بالنبوة عند التحديّ بالولاية. وقد أريناك المغايرة بينهما وإنه يتحدّى بغير ما يتحدّى به النبي، فلا لبس على أن النقل عن الأستاذ في ذلك ليس صريحاً وربما حُمِلَ على إنكار أن تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه.

وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد، وأفعالهم معتادة فلا فرق.

وأما وقوعها على يد الكاذب تليساً فهو محال. أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية، فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة، والهداية ضلالة، والتصديق كذباً، واستحالت الحقائق، وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكناً. وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله.

وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي، ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبه في الإيجاب الذاتيّ ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقّف عن الأسباب والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار، وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية، منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين. والنبي عندهم مجبول على التصريف في الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك. والخارق عندهم يقع للنبي سواء كان للتحديّ أم لم يكن، وهو شاهد بصدقه من حيث دلالاته على تصرف النبي في الأكوان الذي هو من خواص النفس النبوية لا بأنه يتنزّل منزلة القول الصريح بالتصديق؛ فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين، ولا يكون التحديّ جزءاً من المعجزة، ولم يصح فارقاً لها عن السحر والكرامة. وفارقها عندهم عن السحر

فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم، بل نزّه الله عن ذلك كلّهُ حتى إنه يجلبّته يتنزّه عن المعطومات المستكرهة. فقد كان ﷺ لا يقرب البصل والثوم، ف قيل له في ذلك فقال: «إني أناجي من لا تتاجون».

وانظر لما أخبر النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما فجأته وأرادت اختباره فقالت: اجعلني بينك وبين ثوبك؛ فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت: إنه ملك وليس بشيطان؛ ومعناه أنه لا يقرب النساء. وكذلك سأله عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها فقال: «البياض والخضرة» فقالت: إنه التّمك، يعني أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة، والسواد من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك.

ومن علاماتهم أيضاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف. وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك، وكذلك أبو بكر، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه. وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ بدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد ببلده من قريش، وفيهم أبو سفيان ليسأله عن حاله، فكان فيما سأل أن قال: بما يأمركم؟ فقال أبو سفيان: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه فقال: إن يكن ما تقول حقاً فهو نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين. والعفاف الذي أشار إليه هرقل هو العصمة. فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوته، ولم يحتاج إلى معجزة. فدلّ على أن ذلك من علامات النبوة.

ومن علاماتهم أيضاً أن يكونوا ذوي حسب في قومهم. وفي الصحيح: «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه» وفي رواية أخرى «في ثروة من قومه»؛ استدركه الحاكم على «الصحيحين» وفي مسألة هرقل لأبي سفيان كما هو في «الصحيح» قال: كيف هو فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ذو حسب؛ فقال هرقل: والرسول تبعث في أحساب قومها؛ ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربّه ويتم مراد الله من إكمال دينه وميثته.

ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم، وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد، وإنما تقع في غير محل قدرتهم، وللناس في كفيّة وقوعها ودلالاتها على تصديق الأنبياء خلاف.

فالتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنّها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبي، وإن كانت أفعال العباد عند

الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها. ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الخبز والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب؛ لأن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده. وهذا غاية شهودنا.

ثم إننا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة: ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مابيناً للأجسام. فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها، وذلك هو النفس المدركة والحركة. ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً وهو عالم الملائكة. فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملائكة لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لمحظة من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها، شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه. فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل: فهي متصلة بالبدن من أسفها منها ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل، ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية، فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان. وهذا على ما قدسناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض.

ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن، فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها، أما الفاعلية فالبطش باليد والمشى بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعاً. وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتبقة إلى القوة العليا منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فتوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرهما يرتقي إلى الباطن، وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك

أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يُلِمُّ الشر بخوارقه، والساحر على الضد، فأفعاله كلها شر، وفي مقاصد الشر. وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء، والنفوذ في الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيور في الهواء، وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء. ويأتي النبي بجميع خوارقه، ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء. وقد قرّر ذلك المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عن أخبرهم.

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ. فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفترق إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة لأشهاد الدليل والمذلول فيه. وهذا معنى قوله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلي. فانا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»؛ يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة.

تفسير حقيقة النبوة

ولنذكر الآن: تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول:

اعلم أرشدنا الله وإياك، أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالسيئات، واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنفسي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته. وأبداً من ذلك بالعالم المحسوس الجماعي. وأولاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض. وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً، ويستحيل بعض الأوقات. والصاعد منها اللطيف بما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو اللطيف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا

مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ.

وصنف مقطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانياتها وروحانياتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمح من اللحات ملكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللحظة.

الوحي

وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجيلة صورهم فيها ونزهمهم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملاسين لها بالبشرية بما ركّب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يجاذون بها تلك الوجهة، وركّز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسبغ نوحها. فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شأوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة. فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملأ الأعلى ما يتلقونه، وعاجوا به على المدارك البشرية منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد. فتارة يسمع أحدهم دويّاً كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه، فلا ينقضي الدوي إلا وقد وعاه وفهمه. وتارة يتمثل له المَلَك -الذي يلقي إليه- رجلاً فيكلمه ويعي ما يقوله. والتلقي من المَلَك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر؛ لأنه ليس في زمان، بل كلها تقع جميعاً فيظهر كأنها سريعة؛ ولذلك سميت وحياً لأن الوحي في اللغة الإسراع.

واعلم أن الأولى وهي حالة الدوي هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه؛ والثانية وهي حالة تمثيل المَلَك رجلاً يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين، ولذلك كانت أكمل من الأولى. وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي ﷺ الوحي لما سألته الحارث بن هشام وقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي المَلَك فيكلمني فأعي ما يقول». وإنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل فيعسر بعض العسر؛ ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه. وعندما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال فعندما يعرج إلى المدارك البشرية

المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة، وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر؛ لأن المحسوسات لا تزدهم عليها في الوقت الواحد. ثم يؤدبه الحس المشترك إلى الخيال، وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرد عن المواد الخارجة فقط. وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن الأول من الدماغ؛ مقدمه للأولى ومؤخرة للثانية. ثم يرتقي الخيال إلى الواهمة والحافظة. فالواهمة لإدراك المعاني المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الأب واقتراس الذئب. والحافظة لإبداع المدركات كلها متخيّلة وغير متخيّلة وهي لها كالحزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها. وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ: أوّله للأولى ومؤخره للأخرى. ثم ترتقي جميعها إلى قوة الفكر. وآلته البطن الأوسط من الدماغ، وهي القوة التي يقع بها حركة الرؤية والتوجه نحو التعقل، فتحرك النفس بها دائماً لما ركّب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية، وتخرج إلى الفعل في تعقلها متشبهة بالملأ الأعلى الروحاني. وتصير في أول مراتب الروحانيات في إدراكها بغير الآلات الجسمانية. فهي متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك. وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانياتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجيلة والفطرة الأولى في ذلك.

أصناف النفوس البشرية

والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف:

صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة، وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصويرية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه، إذ هو من جهة مبدئه ينتهي إلى الأوليات ولا يتجاوزها، وإن فسد فسد ما بعدها. وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني. وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم.

وصنف متوجّه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري في ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لا نطاق من مبدئها ولا من انتهائها. وهذه

أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى المَلَكِيَّة بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر.

وإذا كان كذلك، وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعة البشرية فيعطي التقسيم العقلي وإن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل؛ لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه، وشئان ما بينهما. فإذا أعطي تقسيم الوجود إلى هنا صنفاً آخر من البشر مقطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يعيها التزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجلبة فيكون لها بالجلبة عندما يعزقها العجز عن ذلك تثبُّت بأمر جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما صنع من طير أو حيوان، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالشئ له. وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة، ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات. ولذلك تكون المخيلة فيهم في غاية القوة؛ لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تاماً في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً. ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان. وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليستغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص، فيهجس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه، فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم، فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثقاً به. وربما يفرغ إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه، وغويهاً على السائلين. وأصحاب هذا السجع هم المخصَّصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم. وقد قال ﷺ في مثله: «هذا من سجع الكهان». فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة. وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالأخبار: «كيف يأتيك هذا الأمر؟» قال: يأتيني صادقاً وكاذباً! فقال: «خط عليك الأمر» يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعثرها الكذب بحال؛ لأنها اتصال من ذات النبي بالمال الأعلى من غير مُشَيِّع ولا استعانة بأجنبي. والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى

يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها وهو إدراك البصر. وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي، وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة، وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالي الوعي، فمثل الحالة الأولى بالذوي الذي هو في المتعارف غير كلام، وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غيب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم، والكلام يساوقه الوعي، فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد.

واعلم أن في حالة الوعي كلها صعوبة على الجملة وشدة قد أشار إليها القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وقالت عائشة: كان مما يعاني من التنزيل شدة وقالت: كان ينزل عليه الوعي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً. ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف. وسبب ذلك أن الوعي كما قررنا مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقي كلام النفس، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر. وهذا هو معنى الغط الذي عثر به في مبدأ الوعي في قوله: «فغطيتي» حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ» وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث. وقد يفضي الاعتدال بالتدرج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله. ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة. وانظر إلى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك، وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر. وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تُنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمؤثر والضحي والفلق وأمثالها. واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكّي والمدني من السور والآيات. والله المرشد للصواب. هذا محصل أمر النبوة.

الكهانة

وأما الكهانة فهي أيضاً من خواص النفس الإنسانية. وذلك أنه وقد تقدّم لنا في جميع ما مر أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها، وأنه يحصل من ذلك لحة للبشر في صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرّر

آمنوا أحسن إيمان، كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بمحسن الإيمان.

الرؤيا

وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لحمة من صور الواقعات. فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها. وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية. وقد يقع لها ذلك لحمة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تشوّف إليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى مداركها. فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جليّ بالحكاة والمثال في الخيالي لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير، وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال. والسبب في وقوع هذه اللحمة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه، حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل، فتكون حيث ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية. إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره. فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن: ومنه خاص كالذي للأولياء، ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا.

وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات. ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي، وهو عندما يُعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الإدراك يكون شبيهاً بحال النوم شبيهاً ببناء، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير. فلأجل هذا الشبه عبّر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وفي رواية ثلاثة وأربعين، وفي رواية سبعين. وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات، وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب. وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة، ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرين سنة، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق. لأنه إنما وقع ذلك للنبي ﷺ ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء مع أن ذلك إنما يعطي نسبة

الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلية في إدراكه والتبست بالإدراك الذي توجه إليه فصار مختلطاً بها وطرقه الكذب من هذه الجهة، فامتنع أن تكون نبوة. وإنما قلنا: إن أرفع مراتب الكهانة حالة السج؛ لأن معنى السج أخف من سائر المُنْتَبِيات من المرتبات والمسموعات. وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء.

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن، والكهّان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فطلت الكهانة من يومئذ. ولا يقوم من ذلك دليل؛ لأن علوم الكهّان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قرّرناه. وأيضاً فالآية إنما دلّت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يُمنعوا عما سوى ذلك. وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر؛ لأن هذه المدارك كلها تحمد في زمن النبوة كما تحمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس؛ لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفى معه كل نور ويذهب.

وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع، وهكذا كل نبوة وقعت؛ لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه، وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي تدل عليها ونقص - ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة - من ذلك النوع الذي يقتضيه - ناقصة، وهو معنى الكاهن على ما قرّرناه. فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً. فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة، فلا يوجد منها شيء بعد. وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم. فلعلّ الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيته الخاصة، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئاً، لأنه يقتضي ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه.

ثم إن هؤلاء الكهّان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته؛ لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم. ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للناثم. ولا يصلحهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت، فإنه كان يطمع أن يتبأ وكذا وقع لابن صياد ومسلمة وغيرهم. فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمان

ومن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة. وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء القطري لهم صلوات الله عليهم، إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاماً في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل. ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم، فتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تشوف إليه في عالم الحق فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالطلوب. ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال: لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له».

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك، وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني، وهو بخار لطيف مركزه بالتجوف الأيسر من القلب على ما في كتب التشريح للجالينوس وغيره. وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة، وسائر الأفعال البدنية. ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده، ويتم أفعال القوى التي في بطونه. فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري، وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية، صار محلاً لآثار الذات المبينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته. وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين: إدراك بالظاهر وهو الحواس الخمس، وإدراك بالباطن بالقوى الدماغية. وأن هذا الإدراك كله صار لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة. ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للموسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال، وتغشى الروح بكثرة التصرف. فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة. وإنما يكون ذلك بائخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه إلى الحس الباطن. ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن، وتذهب من ظاهره إلى باطنه، فتكون مشبعة مركبها وهو الروح الحيواني إلى الباطن. ولذلك كمال النوم للبشر في الغالب إنما هو بالليل. فإذا انخس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب

والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة؛ لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً. ثم يزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة. وربما التفتت النفس لفئة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحاني لأنها مفطورة عليه، وتقنن من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ. ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة. والمحاكاة من هذه هي الحاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللوحة ما تدركه هي أضغاث أحلام. وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من المَلَك، ورؤيا من الشيطان». وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه: فالجلي من الله والمحاكاة الداعية إلى التعبير من المَلَك؛ وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينسج الباطل. هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا تخلو عنها أحد منهم، بل كل واحد من الأناسي رأى في نومه ما صدر له في يقظته مراراً غير واحدة، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد. وإذا جاز في ذلك في عالم النوم فلا يتمتع في غيره من الأحوال؛ لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال. والله الهادي إلى الحق بمنه وفضله.

الإخبار بالمغيبات

ووقع ما يقع للبشر من ذلك غالباً إنما هو من غير قصد ولا قدرة عليه؛ وإنما تكون النفس متشوقة لذلك الشيء فيقع بتلك اللوحة في النوم لا أنها تقصد إلى ذلك فتراه. وقد وقع في كتاب الغاية وغير من كتب أهل الرياضيات ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يشوف إليه ويسمونها الحالومية. وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومة سهاها «حالومة الطبايع التام» وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الأعجمية وهي «قماغس بعد أن يسود وغداس نوفنا غادس» ويذكر حاجته، فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم. وحكي أن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة ليال في ماكله وذكره، فتمثل له شخص يقول له: إن طبايعك التام، فسأله وأخبره عما كان يشوف إليه. وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء وراء عجيبة وأطلعت بها على أمور كنت أتشوف عليها من أحوالي. وليس

واحدة. ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما. وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم تتم بعد، بل لم يتم لها انتزاع الكليات. ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك: إدراك بآلات الجسم تؤذيها إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس ويشواغلها؛ لأن الحواس أبدأ جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني. وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة: إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم، أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق، أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية. فتلتفت حيث تد إلى الذوات التي فوقها من الملأ لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما قرناه قبل. وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل، وفيها صور الموجودات وحققها كما مر. فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً. وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفها في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به. هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي. ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه.

فأما الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا ويطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها، وأهل الطرق بالخصى والنوى فكُلهم من قبيل الكهان، إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم؛ لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة وهؤلاء يعانون بالخصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشرفها البصر، فيعكف على المرتبة البسيطة حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه. وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك. بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم، فيشيرون إليه بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفسي أو إثبات، فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه. وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال، وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف. ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء واليطساس وأمثال ذلك. وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم

ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها، وإنما هذه الأحوال تحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا، فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعد له وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب ولا يكون دليلاً على إيقاع المستعد له. فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء، فاعلم ذلك وتبذره فيما تجد من أمثاله. والله الحكيم الخبير.

فصل

[الإخبار بالكائنات قبل وقوعها]

ثم إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها، وإنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرابا ويطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع، وأهل الطرق بالخصى والحبوب من الحنطة والنوى، وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها. وكذلك المجانين يلقي على السنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها. وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب. وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة. معروفة.

ونحن الآن نتكلم عن هذه الإدراكات كلها ونبتدئ منها بالكهانة ثم نأتي عليها واحدة واحدة إلى آخرها. وتقدم على ذلك مقدمة في أن النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها. وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله. وهذا أمر مدرك لكل أحد. وكل ما بالقوة فله مادة وصورة. وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل. فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية. ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى، حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل، فتتم ذاتها وتبقى النفس كالمهلول والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد

الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة. ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعه بن مضر وما أخبراه به من مُلك الحيشة لليمن ومُلك مَضَر من بعدهم، وظهور النبوة الحمديدية في قريش ورؤيا الموبدان التي أولها سطيج لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس. وهذه كلها مشهورة. وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكرهم في أشعارهم، قال:

فقلت لعراف اليمامة داوسي فأنك إن داويتني لطبيب
وقال الآخر:

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شيفاني
فقالا شفاك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدان
وعراف اليمامة هو رباح بن عجلّة، وعراف نجد الأبلق الأسدي.

ومن هذه المدارك الغيبية ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد. ولا يقع ذلك إلا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كأنه مجبور على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه. وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلام يمثل ذلك. ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع. وذكر سُلَمَة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل في دنّ مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوماً يغذى بالثين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشؤون رأسه، فيخرج من ذلك الدهن فحين ينفخ عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسأل عنه من عواقب الأمور الخاصة والعامة. وهذا فعل من منكرات أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الإنساني.

ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية، ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشتها. ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع. ومن المعلوم على القطع أنه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه وأطلعت النفس ذاتها وعالمها. فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات. ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يتراضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم. وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة

بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك، ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة. وغية هؤلاء عن الحس أخف من الأولين. والعالم أبو الغرائب.

وأما الزجر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سnoch طائر أو حيوان. والفكر فيه بعد مغيبه، وهي قوة في النفس تبث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرثي أو مسموع. وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعيناً بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما، كما تفعله القوة المخيلة في النوم وعند ركود الحواس إذ توسط بين الحسوس المرثي في يقظته وتجميعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا. وأما الجاني فنفسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمرجتهم غالباً وضعف الروح الحيواني فيها، فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه، وربما زاحمها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية تشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها، فيكون عنه التخبط. فإذا أصابه ذلك التخبط إما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه، غاب عن حسه جملة فأدرك لمح من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال. وربما نطق عن لسانه في تلك الحال من غير إرادة النطق.

وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل؛ لأنه لا يحصل لهم الاتصال وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قرناه. ومن ذلك يبيى الكذب في هذه المدارك. وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال، فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك، ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة.

هذا تحصيل هذه الأمور. وقد تكلم عليها المسعودي في (مروج الذهب) فما صادف تحقيقاً ولا إصابة. ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف، فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله.

وهذه الإدراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر. فقد كان العرب يقزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم. وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك. واشتهر منهم في الجاهلية شق بن أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان، وكان يُدرجُ كما يُدرج

حالة بحضرة النبي، حتى إنهم يقولون: إن المرید إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها. والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق.

فصل

[إخبار الغيب عند المتصوفة]

ومن هؤلاء المریدین من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين، وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين. ويقع لهم من الإخبار عن المغيبات عجائب؛ لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب. وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم، والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط، فإن فضل الله يؤتیه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها. وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه. وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين، وإنما فقد لهم العقل الذي ينسب به التكليف وهي صفة خاصة للنفس، وهي علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامته منزله. وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامته منزله لم يبق له عذر في قبول التكليف لإصلاح معاده. وليس من فقد هذه الصفة بعقل لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة في ذلك، ولا يتوقف اصطفاؤه الله عبادته للمعرفة على شيء من التكليف. وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء المجانين الذين تسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم. ولك في تمييزهم علامات: منها أن هؤلاء البهاليل تجدد لهم وجهة ما، لا يتخلون عنها أصلاً من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف؛ والمجانين لا تجدد لهم وجهة أصلاً. ومنها أنهم يخلقون على البهائم من أول نشأتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية، فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة. ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر؛ لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف في حقهم، والمجانين لا تصرف لهم.

جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند. ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة، والأخبار عنهم في ذلك غريبة.

وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المذمومة، وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد، ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر، فيها تتم وجهتهم في هذه الرياضة؛ لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله، وإذا عرت عن الذكر كانت شيطانية. وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغیر الله، وإنما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخير بها صفة، فإنها في الحقيقة شرك.

قال بعضهم: من أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني. فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشيء سواه. وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل بالعرض وغير مقصود لهم. وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره. وحصول ذلك لهم معروف. ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فحاشا وكشفاً وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بتكبر في حقهم. وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحق الإسفراييني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها. والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدّي فهو كاف. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن فيكم محدثين وإن منهم عمر».

وقد وقع للصحابه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه: يا سارية! الجبل. وهو سارية بن زئيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام وكان بقره جبل يتجهز إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه: يا سارية! الجبل. وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة. ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن ما غلها من أوسق النمر من حديثه، ثم نبهها على جذاذه لتحوزة عن الورثة. فقال في سياق كلامه: وإنما هما أحوالك وأختاك. فقالت: إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ فقال: إن ذا بطن بنت خازجة أراها جارية، فكانت جارية. وقع في «الموطأ» في باب ما لا يجوز من النحل. ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء. إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقل في زمن النبوة إذ لا يبقى للمرید

وهذا فصل انتهى بنا الكلام إليه والله المرشد للصواب.

فصل

[التنجيم وخط الرمل]

وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس: فمنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك، وآثارها في العناصر، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالنظر، ويتأذى من ذلك المزاج إلى الهواء. وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس. ونحن نبين بطلان ذلك في محله إن شاء الله. وهو لو ثبت فغايبته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء.

فيأتيه الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء، فمن وافق خطه ذلك النبي فهو ذلك، أي فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط. وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحي فلا. وهذا معنى الحديث والله أعلم. فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربع ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطراً. ثم يطرحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبه على الترتيب، فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذي بإزائه، وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلاً تحتها باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها، ثم يولدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها؛ ثم من الشكلين شكلاً كذلك تحتها، ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً يكون آخر الستة عشر. ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعادة والنحوسة بالذات، والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكماً غريباً. وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التكاليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين وهي كما رأيت تحكّم وهوى. والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع من عالم الحس إلى عالم الروح. ولذلك يسمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مولدهم على إدراك الغيب. فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما، فهو من باب الطرق بالحصى والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه. وإن لم يكن كذلك، وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيد ذلك فهذه من القول والعمل. والله يهدي من يشاء. والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبي أنهم عند توجههم إلى تعرف الكائنات يعترفهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتأوب والتعطش ومبادئ الغيبة عن الحس، ويختلف ذلك بالقوة والضعف على

ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم. ومحصل هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالاً ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما، فكانت ستة عشر شكلاً؛ لأنها إن كانت أزواجاً كلها أو أفراداً كلها فشكلاً، وإن كان الفرد فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال، وإن كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال، وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال. جاءت ستة عشر شكلاً ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس، شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية يزعمهم وكأنها البروج الاثنا عشر التي للفلك والأوتاد الأربعة، وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً، ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به، واستنبطوا من ذلك فناً حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه. إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما يزعم بطليموس، وهذه إنما مستندها أوضاع تحكيمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها. ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما، شأن الصنائع كلها. وربما يدعون مشروعيتهما ويحتجون بقوله ﷺ: «كان نبي يخط، فمن وافق خطه فذاك». وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه؛ لأن معنى الحديث كان نبي يخط

(أيقش). ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد، فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف: وهي (ب) الدالة على اثنين في الأحاد و(ك) الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون و(ر) الدالة على اثنين في المثين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي (بكر). ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة (جلس). وكذلك إلى آخر حروف أبجد. وصارت تسع كلمات نهاية عدد الأحاد وهي: (أيقش، بكر جلس، دمت، هنث، وصخ، زغد، حفظ، طضغ) مرتبة على التوالي الأعداد، ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبتها، فالواحد لكلمة أيقش؛ والاثنان لكلمة بكر، والثلاثة لكلمة جلس، وكذلك إلى التاسعة التي هي طضغ فنكون لها التسعة. فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات، وأخذوا عددها مكانه، ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلاً من حروف الاسم، فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها وإلا أخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قذفناه. والسر في هذا بين. وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد بطرح تسعة إنما هو واحد، فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة، فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلاثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة. فوضعت الأعداد على التوالي دالة على أعداد العقود لا غير، وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الأحاد والعشرات والمئين والألوف، وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء دل على الأحاد أو العشرات أو المئين، فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها، وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه. هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم. وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتواليه كتراليها، ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء؛ وهي هذه: أرب يسقك، جزلط، مدوص، هف، تمخذن، عش، خغ، تضسط؛ تسع كلمات على التوالي العدد، ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبتها، فيها الثلاثي والرباعي والثنائي. وليست جارية على أصل مطرد كما تراه. لكن كان شيوخنا يتقنونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيمياء وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء ويقولون عنه: إن العمل بهذه الكلمات في طرح

اختلاف وجودها فيهم. فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب في شيء وإنما هو ساع في تفتيق كذبه.

فصل

[حساب الجُمَّل والزائجة]

ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الخلدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وإنما هي مغالط يعملونها كالمصائد لأهل العقول المستضعفة. ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصفون وولع به الخواص. فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب التيم وهو مذكور في آخر كتاب «السياسة» المنسوب لأرسطو يعرف به الغالب من المغلوب في المتحارين من الملوك. وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحسب الجُمَّل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد إلى الألف آحاداً وعشرات ومئين وألوفاً. فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك. ثم اطرح من كل واحد منهما تسعة تسعة، واحفظ بقية هذا وبقية هذا. ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين: فإن كان العددين مختلفين في الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً فصاحب الأقل منهما هو الغالب، وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغالب، وإن كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالمطلوب هو الغالب، وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب.

ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشتهرا بين الناس وهما: أرى الزوج والأفراد بسمو أقلها وأكثرها عند التخالف غالب ويغلب مطلوب إذا الزوج يستوي وعند استواء الفرد يغلب طالب ثم وضعوا المعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم في طرح تسعة، وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الأربع وهي: (ا) الدالة على الواحد و(ي) الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات و(ق) الدالة على المائة لأنها واحد في مرتبة المثين و(ش) الدالة على الألف لأنها واحد في منزلة الآلاف. وليس بعد الألف عدد يدل عليه بالحروف؛ لأن الشين هي آخر حروف أبجد. ثم رتبوا هذه الأحرف الأربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي

حساب النيم أصح من العمل بكلمات أيقش. والله يعلم كيف ذلك.

وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق. والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزوّ إلى أرسطو عند المحقّقين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان، يشهد لك بذلك تصفّحه إن كنت من أهل الرسوخ اهـ.

ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزيرجة المسماة «بزيرجة العالم»، المعزّوة إلى أبي العباس سيدي أحمد السبّي من أعلام التصوّفية بالمغرب كان في آخر المائة السادسة بمراكش ولعهده أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحّدين. وهي غريبة العمل صناعة. وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف المفلّغوز، فيحرّضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه. وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكوّنات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم. وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكتها: إما البروج وإما العناصر أو غيرها. وخطوط كل قسم مائة إلى المركز ويسمونها الأوتار. وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة، فمنها برشوم الزّمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد، ومنها برشوم الفبار المتعارفة في داخل الزيرجة. وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان. وعلى ظاهر الدوائر جدول متكرّر البيوت المتقاطعة طرّاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض، ومائة وواحد وثلاثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت. ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عيّنت البيوت العامرة من الخالية. وحافات الزيرجة آيات من عروض الطويل على رويّ اللام المنصوبة تضمّن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزيرجة. إلا أنها من قبيل الألغاز في عدم الوضوح والجللاء. وفي بعض جوانب الزيرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الجذنان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء أشبيلية كان في الدولة اللمّونية ونص البيت سؤال عظيم الخلق حزت فصّن إذن غرائب شكّ ضبطه الجذّ مثلاً

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزيرجة وغيرها. فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطّعوه حروفاً ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزيرجة ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله مساراً إلى

المركز، ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع. فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما ويصيّرونها حروفاً بحساب الجُمَّل. وقد ينقلون أحاديها إلى العشرات وعشراتها إلى المئين وبالعكس فيها كما يقتضيه قانون العمل عندهم. ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط. يفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى. ثم يقطّعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدّم ويضعونها ناحية، ثم يضربون عدد درج الطالع في أسّ البرج. وأسّ عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأسّ عند أهل صناعة الحساب، فإنه عندهم البعد عن أول المراتب. ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأسّ الأكبر والدور الأصلي. ويدخلون بما تجمّع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة. ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى. ويقابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأدوار ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور، يعادون ذلك بعدد الأدوار المعيّنة عندهم لذلك، فيخرج آخرها حروف متقطّعة وتؤلّف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدّم حسبما نذكر ذلك كلّ في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزيرجة.

وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع. وليس ذلك بصحيح؛ لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتّة، وإنّما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الإنهام والتوافق في الخطاب حتى يكون الجواب مستقيماً أو موافقاً للسؤال. ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار. والدخول في الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الأدوار المعدودة ومقابلة ذلك كلّ بحروف البيت على التوالي غير مستتكر. وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول. فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من

الذي يخرج مجهولها من معلومها. وهذا إنما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم. وأما الكائنات المستقبلية إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته. وإذا تبين لك ذلك فالأعمال الواقعة في الزائرجة كلها إنما هي في استخراج الجواب من الفاظ السؤال؛ لأنها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر. وسرُّ ذلك إنما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض. فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين. والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع الفاظها وتركيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات. وليس هذا من المقام الأول، بل إنما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج. ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه، وقد استأثره الله بعلمه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله، ولا سيما من أهل الرياضة، فإنها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مر تعليل ذلك غير مرة.

ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزائرجة في الغالب لأهل الرياضة فهي منسوبة للسُّبُحِيِّ. ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله. ولعمري إنها من الأعمال الغربية والمعانة العجيبة. والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوماً يظهر لي إنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت. ولهذا يكون النظم على وزنه ورويّه. ويدل عليه أنا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوماً كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه. وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه إلى المطلوب فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيلات والإيهامات، وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والأوتار، ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون، ثم يجيء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة. وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور من فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول. ولكن من شأن كل مدرك إنكار ما ليس في طوقه إدراكه. ويكفي في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي، فإنها جاءت بعمل مطّرد وقانون صحيح لا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له ذكاء وحدس. وإذا كان كثير من المعاينة في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم إدراكه لبعد النسبة فيه وخفائها، فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها. فلنذكر مسألة من المعاينة يتضح لك بها شيء مما ذكرنا. مثله: لو قيل لك: خذ عدداً من الدراهم واجعل بإزاء كل درهم ثلاثة من الفلوس، ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائراً، ثم اشتر بالدراهم كلها طيوراً بسعر ذلك الطائر؛ فكم الطيور المشتراة بالدراهم والفلوس؟ فجوابه أن تقول: هي تسعة، لأنك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة تُمنُّها وأن عدة أثمان الواحد ثمانية، فإذا جمعت الثمن من الدراهم إلى الثمن الآخر، فكان كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد، وتزيد على الثمانية طائراً آخر وهو المشتري بالفلوس المأخوذة أولاً، وعلى سعره اشترت بالدراهم، فتكون تسعة. فأتت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين أعداد المسألة. والوهم أول ما يلقي إليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته. وظهر أن التناسب بين الأمور هو

البدو؛ لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم، فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها كما قلناه.

الباب الثاني

في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما

يعرض في ذلك من الأحوال

وفيه فصول وتمهيدات :

الفصل الثاني

في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

الفصل الأول:

في أن أجيال البدو والحضر طبيعية

قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المتحللون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستغلال والكن لا ما وراءه، وقد يأوون إلى الغيران والكهوف، وأما اقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار، فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم، ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتداد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويسمون شايوة ومعناه القائمون على الشاء والبقر، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصفالبة، وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنًا وأبعد في القفر مجالًا؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياه الملح والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفاة هوائه وطلباً لما يخض الساج في رماله، إذ الإبل أصعب الحيوان فصلاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدفاء، فاضطروا إلى إبعاد النجعة، وربما ذاتهم الحامية عن التلول أيضاً فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم، فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم، وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر ورثاة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق، إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة؛ لأنهم مقتصرون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معها فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نخلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغرسة والزراعة، ومنهم من يتحلل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والعز والنحل والدود لتاجها واستخراج فضلاتها، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا بد، إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والقدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضروريا لهم وكان حيثش اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك.

ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المتحللين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتائق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرفه والدعة تنجي عوائد الترف البالغة مبالغها في التائق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتفاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها، ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آتية أو ماعون، وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من يتحلل في معاشه الصنائع ومنهم من يتحلل التجارة وتكون مكاسبهم أتمى وأرفه من أهل

الفصل الثالث

في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وأن

البادية أصل العمران والأمصار مدد لهما

ويقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته تَبَدُّدُ عن الشر وصعب عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده، وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، ويعدت عليهم طرق الخير ومساكنه بقدر ما حصل لهم من ذلك، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الخشمة في أحوالهم، فتجد الكثير منهم يقدعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل عمارهم لا يصدهم عنه وازع الخشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً، وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها، فوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضرة أقل بكثير، فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضرة وهو ظاهر، وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر واليعد عن الخير، فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة، والله يجب المتقين.

ولا يعترض على ذلك بما ورد في «صحيح البخاري» من قول الحجاج لسلمة بن الأكوع وقد بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية فقال له: ارتددت على عقيبك تعربت؟ فقال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو. فاعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي ﷺ حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويعرسونه ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية؛ لأن أهل مكة يسهم من عصية النبي ﷺ في المظاهرة والحراسة ما لا يسهم غيرهم من بادية الأعراب، وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تحب الهجرة، وقال ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة: «اللهم امض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم» ومعناه أن يوفقهم للملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدؤوا بها، وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من الوجوه وقيل: إن فلنك كان خاصاً بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلّة المسلمين، وأما بعد الفتح وحين كثرت المسلمون واعتزوا وتكفل الله

قيد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضرة المعتون بمجارات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه؛ لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه، فالبدو أصل للمدنة والحضر، وسابق عليهما؛ لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلًا، فخشونة البداة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها، ويتهي بسعيه إلى مقترحه منها، ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قياد المدينة، وهكذا شأن القبائل البدوية كلهم. والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدنيته.

وعما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أننا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصروفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصروعدلو إلى الدعة والترف الذي في الحضرة، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداة وأنها أصل لها فتفهمه. ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه: فرب حي أعظم من حي، وقبيلة أعظم من قبيلة، ومصر أوسع من مصر، ومدينة أكثر عمراناً من مدينة، فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية، والله أعلم.

الفصل الرابع

في أن أهل البدو أقرب إلى الخير

من أهل الحضرة

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيبة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»

للنبات والهيئات ويتفردون في الفقر والبيداء مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع، أو استفرهم صارخ. وأهل الحضار مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم، وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل، وسبب ذلك ما شرحناه، وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألّفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجليلة واعتبر ذلك في الأدميين تجده كثيراً صحيحاً، والله يخلق ما يشاء.

الفصل السادس

في أن معاناة أهل الحضار للأحكام مفسدة

لللباس فيهم ذاهية بالمنعة منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه، إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم، فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره، ولا بد فإن كانت الملكة رفيقة وعادلة، لا يعاني منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن، واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الإذلال جيلة لا يعرفون سواها.

أما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حيثن من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعداً رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن جوية سلب الجالوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب وكان أتبع الجالوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه، فانتزع منه سعد وقال له: هلاً انتظرت في اتباعه إذني. وكتب إلى عمر يستأذنه، فكتب إليه عمر: تعمد إلى مثل زهرة وقد صلي بما صلي به وبقي عليك ما بقي من حركك وتكسر فوقه وتفسد قلبه! وأمضى له عمر سلبه.

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة لللباس بالكلية؛ لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك، وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عند الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة والانقياد، فلا يكون مدلاً ببأسه، ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً عن تأخذه الأحكام، ونجد أيضاً الذين

لنبه بالعصمة من الناس، فإن الهجرة ساقطة حيثن لقوله ﷺ «لا هجرة بعد الفتح» وقيل: سقط إنشاؤها عمن يسلم بعد الفتح، وقيل: سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح، والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة، لأن الصحابة افرقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق إلا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة، فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية: ارتددت على عقبيك تعربت: نعى عليه في ترك السكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدّمناه وهو قوله: «لا تردهم على أعقابهم» وقوله: تعربت: إشارة إلى أنه صار من الأعراب الذين لا يهاجرون، وأجاب سلمة بإنكار ما ألزمه من الأمرين، وأن النبي ﷺ أذن له في البدو ويكون ذلك خاصاً به كشهادة خزعة وعناق أبي بردة ويكون الحجاج إنما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة، وأجابه سلمة بأن اغتنامه لإذن النبي وأفضل، فما أثره به واختصه إلا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير، فليس دليلاً على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب؛ لأن مشروعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبي ﷺ وحراسته لا لمذمة البدو، فليس في النعي عليه ترك هذا الواجب دليل على مذمة التعرب، والله سبحانه أعلم وبه التوفيق.

الفصل الخامس

في أن أهل البدو أقرب إلى

الشجاعة من أهل الحضار

والسبب في ذلك أن أهل الحضار ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في التعميم والترف ووكّلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستأثروا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هبة ولا يضرهم صيد، فهم غازون آمنون، قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثوهم، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن التجمع وتوحشهم في الضواحي ويعدهم عن الحامية وانتباههم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بخيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرجال وفوق الأقتاب ويتوجسون

الفصل السابع

في أن سكنى البدو لا يكون إلا

للقبائل أهل العصبية

إعلم أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ والشر أقرب الخلال إليه إذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذب الاقتداء بالدين. وعلى ذلك الجمل الغفير إلا من وفقه الله، ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع كما قال:

والظلم من شيم النفوس فإن تجدد ذا عفة فلعلمة لا يظلم
فأما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض، تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض، أو يعدو عليه، فإنهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن النظام، إلا إذا كان من الحاكم بنفسه، وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة أو الغرة ليلاً أو العجز عن المقاومة نهاراً، أو يدفعه ازدياد الحماية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة، وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوفاق والتجلة، وأما حلهم فلما يذود عنها من خارج حماية الحي من أنجدهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم، ولا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد؛ لأنهم بذلك تشتت شوكتهم ويغشى جانبهم، إذ نكرة كل أحد على نسبه وعصبية أهم، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنصرة على ذوي أرحامهم وقربانهم موجودة في الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاة القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لأبيه: ﴿لَئِنْ أَكَلْنَا الذُّبَّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبية له.

وأما المتفردون في أنسابهم فقل أن تصيب أحداً منهم نكرة على صاحبه، فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلسل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشاً من التخاذل، فلا يقدر من أجل ذلك على سكنى الفقر لما أنهم حيثن طعمة لمن ياتهمهم من الأمم سواهم.

يعانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيراً ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه، وهذا شأن طلبة العلم المتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوفاق والهيبة؛ فيهم هذه الأحوال وذهابها بالمتعة والبأس.

ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة، ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً؛ لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلا عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي، إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلفاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق، فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تحدها أظفار التأديب والحكم، قال عمر رضي الله عنه: «من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله»، حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقيناً بأن الشارع أعلم بمصالح العباد.

ولما تناقص الدين في الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علماً وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس إلى الحضارة وخلق الانقياد إلى الأحكام نقصت بذلك مسورة البأس فيهم.

فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس؛ لأن الوازع فيها أجنبي، وأما الشرعية فغير مفسدة؛ لأن الوازع فيها ذاتي، ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الخواضر في ضعف نفوسهم وخضو الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم؛ والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب؛ ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه «في أحكام المعلمين والمتعلمين»: أنه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحداً من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط. نقله عن شريح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغط، وأنه كان ثلاث مرات وهو ضعيف، ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلاً على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف، والله الحكيم الخبير.

وإذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية

الفصل التاسع

في أن الصريح من النسب إنما يوجد

للمتوحشين في القفر من العرب

ومن في معانهم

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن، حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة، وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل وتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره وتاجها في رماله كما تقدم، والقفر مكان الشظف والسغب، فصار لهم إلفاً وعادة ورييت فيه أجياهم حتى تمكنت خلقاً وجبلت، فلا يتزع إليها أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال، بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه، فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها، ولا تزال بينهم مخوفة، واعتبر ذلك في مضر من قريش وكثانة وثيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع، وبعثوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب كيف كانت أنسابهم صريحة مخوفة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها شوب.

وأما العرب الذين كانوا بالثلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حمير وكهلان مثل لحم وجذام وغسان وطى وقضاعة وإياد فاختلفت أنسابهم وتداخلت شعوبهم، فسي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف، وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم وغالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم، وإنما هذا للعرب فقط. قال عمر رضي الله تعالى عنه «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد، إذا سئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا. هذا إلى ما لحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصبة، فكثر الاختلاط وتداخلت الأنساب، وقد كان وقع في صدر الإسلام الانتماء إلى المواطن فيقال: جند قسرين، جند دمشق، جند العواصم، وانتقل ذلك إلى الأندلس ولم يكن لأطراح العرب أمر النسب، وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم، ثم وقع الاختلاط في الخواضر مع العجم وغيرهم، وفسدت الأنساب

فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو إقامة ملك أو دعوة، إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء، ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفاً فاتخذة إماماً تقتدي به فيما نوره عليك بعد، والله الموفق للصواب.

الفصل العاشر

في أن العصبية إنما تكون من الالتحام

بالنسب أو ما في معناه

وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجرد ما ووضوحها، وإذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه، فراراً من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه.

ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اعتصام جاراها أو قريبتها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب؛ وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها، ومن هذا تفهم معنى قوله ﷺ «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» بمعنى أن النسب إنما فادته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه، إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام، فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه، وإذا كان إنما يستفاد من الخير البعيد ضَعْف فيه الوهم وذعبت فائدته وصار الشغل به مجاناً، ومن أعمال اللهو المنهي عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا يفتح وجهالة لا تضر، بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تعمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

بيت واحد، أو إخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأفريقين أو الأبعدين، فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام، والنصرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحم والرئاسة فيهم، إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل، ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها ويتم الرئاسة لأهلها، فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابهم في الغلب لما تمت لهم الرئاسة، فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعها لما قلناه من سر الغلب، لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكئون، والمزاج في المتكئون لا يصلح إذا تكافأت العناصر، فلا بد من غلبة أحدهما وإلا لم يتم التكوين؛ فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية، ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه.

الفصل الثاني عشر

في أن الرئاسة على أهل المصيبة لا تكون في

غير نسبهم

وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه، فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب، إنما هو ملصق لزريق، وغاية التعصب له بالولاء والخلف وذلك لا يوجب له غلباً عليهم البتة، وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسي عهده الأول من الالتصاق وليس جلدتهم ودعي بنسبهم، فكيف له الرئاسة قبل هذا الالتحام أو لأحد من سلفه، والرئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية، فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعة ذلك الالتصاق من الرئاسة حيثئذ، فكيف تنقلت عنه وهو على حال الإلصاق؟ والرئاسة لا بد وأن تكون موروثه عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية، وقد يشوف كثير من الرؤساء على

بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت، ثم تلاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها، وبقي ذلك في البدو كما كان، والله وارث الأرض ومن عليها.

الفصل العاشر

في اختلاط الأنساب كيف يقع

إعلم أنه من البين أن بعضاً من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بجنائية أصابها، فيدعي بنسب هؤلاء ويُعدّ منهم في ثمراته من النعمة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال، وإذا وجدت ثمرات النسب فكانه وجد، لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم، ثم أنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم. وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك، ومنه شأن بجيلة في عرفة بن هرة لما ولاء عمر عليهم فسألوه الإعفاء منه، وقالوا: هو فينا لزريق، أي: دخيل ولصيق، وطلبوا أن يولي عليهم جريراً، فسأله عمر عن ذلك فقال عرفة: صدقوا يا أمير المؤمنين، أنا رجل من الأزد أصبت دماً في قومي ولحقت بهم. وانظر منه كيف اختلط عرفة بجيلة وليس جلدتهم ودعي بنسبهم حتى ترشح للرئاسة عليهم، لولا علم بعضهم بوشائجه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسي بالجملة وعدّ منهم بكل وجه ومذهب، فافهمه واعتبر سر الله في خلقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود، والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه.

الفصل الحادي عشر

في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص

من أهل العصبية

إعلم أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضاً عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم، مثل عشير واحد أو أهل

مانعة من ادعاء هذه الأنساب كما ذكرناه، بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبياته، فاعتبره واجتنب المغالط فيه، ولا تجعل من هذا الباب إلحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية، فإن المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرثمة قومه، وإنما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته، وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة فيهم، والله عالم الغيب والشهادة.

الفصل الثالث عشر

في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغرهم بالنجار والشبه

وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال ومعنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافاً مذكورين تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم نجلة في أهل جلدته، لما قر في نفوسهم من نجلة سلفه وشرفهم بمجالاتهم، والناس في نشأتهم وتنازلهم معادن قال، **عليه السلام**: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب، وقد بينا أن ثمرة الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للنصرة والتناصر، فحيث تكون العصبية مرهوبة والمنبت فيها زكي محمي تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى، وتعدد الأشراف من الأبناء زائد في فائدتها، فيكون الحسب والشرف أصليين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب. وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية؛ لأنه سرها ولا يكون للمنفرد من أهل الأصهار بيت إلا بالنجار، وإن توهموه فزخرف من الدعاوى، وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأصهار وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفاً في خلال الخير ومخالطة أهله مع الركون إلى العافية ما استطاع، وهذا مغاير لسر العصبية التي هي ثمرة النسب وتعدد الأبناء، لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالنجار، لعلامة ما فيه من تعدد الأبناء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه، وليس حسباً بالحقيقة وعلى الإطلاق، وإن ثبت أنه حقيقة فيهما بالوضع اللغوي فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضع أولى.

وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لهايها بالحضارة كما تقدم، ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها في شيء؛ لذهاب

القبائل والعصائب إلى أنساب يلهجون بها، إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق، فينزعون إلى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه، ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القتل في رياستهم والظعن في شرفهم، وهذا كثير في الناس لهذا العهد.

فمن ذلك ما يدعيه زئاتة جملة أنهم من العرب، ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد منهم، لحق جدهم ببني عامر نجاراً يصنع الحرجان واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونهم الحجازي.

ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس بن توجين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب زغبة في هذا النسب الشريف وغلطاً باسم العباس بن عطية أبي عبد القوي ولم يعلم دخول أحد من العباسيين إلى المغرب؛ لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الأدارة والعبيدين، فكيف يكون من سبط العباس أحد من شيعة العلويين!

وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواحد أنهم من ولد القاسم بن إدريس ذهاباً إلى ما اشتهر في نسبهم أنهم من ولد القاسم، فيقولون بلسانهم الزناتي: أنت القاسم، أي بنو القاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم بن إدريس أو القاسم بن محمد بن إدريس، ولو كان ذلك صحيحاً فغاية القاسم هذا أنه فر من مكان سلطانه مستجيراً بهم، فكيف تتم له الرئاسة عليهم في باديتهم! وإنما هو غلط من قبل اسم القاسم، فإنه كثير الوجود في الأدارة فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب، وهم غير محتاجين لذلك، فإن مناهل الملك والعزة إنما كان بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الأنساب، وإنما يحمل على هذا المتقربون إلى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد، ولقد بلغني عن بغمراسن بن زيان مؤئل سلطانهم أنه لما قيل له ذلك أنكروه. وقال بليته الزناتية ما معناه: أما الدنيا والملك فلنألهما بسيفونا لا بهذا النسب، وأما نفعه في الآخرة فمردود إلى الله وأعرض عن التقرب إليه بذلك.

ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبنو سلامة شيوخ بني يذللتن من توجين أنهم من سليم؛ والزواودة شيوخ رياح أنهم من أعقاب البرامكة، وكذا بنو مهني أمراء طيء بالمشرق يدعون فيما بلغنا أنهم من أعقابهم، وأمثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم

العصية جملة، وكثير من أهل الأمصار الناشئين في بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم موسومون بذلك، وأكثر ما رسخ الوسواس في ذلك لبني إسرائيل، فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنتب.

أولاً لما تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصية ثانياً وما أتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به، ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكُتِبَ عليهم الجلاء في الأرض، وانفردوا بالاستعباد للكفر آلفاً من السنين، وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم فتجدهم يقولون: هذا هاروني؛ هذا من نسل يوشع؛ هذا من عقب كالب، هذا من سبط يهوذا؛ مع ذهاب العصية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة، وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المقتنعين في أنسابهم عن العصية يذهب إلى هذا الهذيان.

وهذا شأن الموالي في الدول والخدمة كلهم، فإنهم إنما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها، ألا ترى إلى موالي الأتراك في دولة بني العباس، وإلى بني برمك من قبلهم، وبني نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد والأصالة بالرسوخ في ولاء الدولة، فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً وشرافاً بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه، لا بالانتساب في الفرس، وكذا موالي كل دولة وخدمها إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولايتها والأصالة في اصطناعها وضمحل نسب الأقدم من غير نسبها ويبقى ملفى لا عبرة به في أصالته ومجده، وإنما المعبر نسبة ولاته واصطناعه إذ فيه سر العصية التي بها البيت والشرف، فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه وبنائه من بنائهم، فلم يتفعه نسب ولادته، وإنما بنى مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية، وقد يكون نسب الأول في لحمة عصبية ودولته، فإذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تتفعه الأولى لذهاب عصبيتها وانتفع بالثانية لوجودها، وهذا حال بني برمك، إذ المنقول أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدة بيوت النار عندهم، ولما صاروا إلى ولاء بني العباس لم يكن بالأول اعتبار، وإنما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجاعحة ولا حقيقة له، والوجود شاهد بما قلناه **وإن أكرمكم عند الله أتقاكم**، والله ورسوله أعلم.

وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الأول: «والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة» ولم يتعرض لما ذكرناه، وليت شعري ما الذي يتفعه قديم نزلهم بالمدينة إنما لم تكن له عصابة يهرب بها جانبها وتحمل غيرهم على القبول منه؟ فكانه أطلق الحسب على تعدد الآباء فقط مع أن الخطابة إنما هي استمالة من تؤثر استمالاته وهم أهل الحل والعقد، وأما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو، وأهل الأمصار من الحضر بهذه المثابة إلا أن ابن رشد ربي في جبل وبلد ولم يمارسوا العصية ولا أنسوا أحوالها، فبقي في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعدد الآباء على الإطلاق، ولم يراجع فيه حقيقة العصية وسرها في الخليفة، والله بكل شيء عليم.

الفصل الرابع عشر

في أن البيت والشرف للموالي وأهل

الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم

الفصل الخامس عشر

في أن نهاية الحسب في العقب

الواحد أربعة آباء

إعلم أن العالم التعصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالأصالة، والحقيقة إنما هو لأهل العصية، فإذا اصطنع أهل العصية قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا بهم كما قلناه، ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصية ولبسوا جلدها

المجد. وفي التوراة ما معناه: أنا الله ربك طائق غير مطالب بذنوب الآباء للبئين على الثالث والرابع. وهذا يدل على أن الأربعة الأعقاب غاية في الأنساب والحسب.

وفي كتاب «الأغاني في أخبار عزيز الغواني» أن كسرى قال للنعمان: هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة؟ قال: نعم، قال: بأي شيء؟ قال: من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، فالييت من قبيلته، وطلب ذلك فلم يجده إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وهم بيت قيس، وآل ذي الجذنين بيت شيبان، وآل الأشعث بن قيس من كندة، وآل حاجب بن زرارة، وآل قيس بن عاصم المقرري من بني ثميم، فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائهم وأقعد لهم الحكام والعدول. فقام حذيفة بن بدر، ثم الأشعث بن قيس لقربته من النعمان، ثم بسطام بن قيس بن شيبان، ثم حاجب بن زرارة، ثم قيس بن عاصم، وخطبوا وتثروا فقال كسرى: كلهم سيد يصلح لموضعه. وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت بني النزيان من بني الحرث بن كعب البجلي، وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء نهاية في الحسب، والله أعلم.

الفصل السادس عشر

في أن الأمم الوحشية أقدر على

التغلب من سواها

إعلم أنه لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة، لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر، فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم، بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار، فكلما نزلوا الأرياف وتفنقرو النعيم والفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداهتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الطياء والبقر الوحشية والحمر إذا زال توحشها بمخالطة الأدميين وأخصب عيشها، كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أدبها، وكذلك الأدمي المتوحش إذا أنس وألف، ومسيه أن تكون السجاياء والطباع إنما هو عن المالكوفات والعوائد، وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشاً كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة والعصية. وانظر في

من أحواله، فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات: الإنسان وغيره، كائنة فاسدة بالمعينة، وكذلك ما يعرض لها من الأحوال وخصوصاً الإنسانية، فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها، والحسب من العوارض التي تعرض للأدميين فهو كائن فاسد لا محالة، وليس يوجد لأحد من أهل الخليقة شرف متصل في آبائه من لدن آدم إليه إلا ما كان من ذلك للنبي ﷺ كرامة به وحياطة على السر فيه، وأول كل شرف خارجية كما قيل، وهي الخروج عن الرياسة والشرف إلى الضعة والابتذال وعدم الحسب، ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل محدث.

ثم إن نهايته أربعة آباء وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه، وابنه من بعده مباشر لأبيه قد سمع منه ذلك وأخذ عنه، إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن العاين له، ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة، فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد، ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحقرها وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف، وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصاة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها وتوهم أنه النسب فقط فبرياً بنفسه عن أهل عصبية ويرى الفضل له عليهم وثوقاً بما ربي فيه من استباحتهم وجهلاً بما أوجب ذلك الاستتاع من الخلال التي منها التواضع لهم والأخذ بمجامع قلوبهم، فيحتقرهم بذلك فينفضون عليه ويحقرونه ويديلون منه سواء من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للإذعان لعصبيتهم كما قلناه، بعد الوثوق بما يرضونه من خلالهم فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الأول، وينهدم بناء بيته هذا في الملوكة وهكذا في بيوت القبائل والأمراء وأهل العصبية أجمع، ثم في بيوت أهل الأمصار إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ».

واشترط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب وإلا فقد يثتر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم، وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس إلا أنه في انحطاط وذهاب. واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة بأن ومباشر له ومقلد وهادم، وهو أقل ما يمكن، وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال ﷺ «إِنَّمَا الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» إشارة إلى أنه بلغ الغاية من

واستبعتها التحمت بها أيضاً وزادت قوة في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد، وهكذا دائماً حتى تكافئ بقرتها قوة الدولة، فإن أدركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها، وإن انتهت قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة، وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعين من مقاصدها، وذلك ملك آخر دون الملك المستبد، وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس، ولصنهاجة وزناتة مع كمامة، ولبي حدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية.

فقد ظهر أن الملك هو غاية العصية، وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك، إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك، وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقت في مقامها إلى أن يقضي الله بأمره.

الفصل الثامن عشر

في أن من عوائق الملك حصول الرف

وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها، فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها، والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها، ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنيق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك، فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصية والبسالة ويتعمون فيما اتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأغقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصية حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية فتقص عصيتهم وبسالته في الأجيال بعدهم يتعاقبها إلى أن تقرض العصية فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم

ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين إلى الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه، لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة النعيم، كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم، وهذا حال بني طيء وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم، لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم، كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصيتهم ولم تحلفها مذاهب الترف حتى صاروا أغلب على الأمر منهم. وكذا كل حي من العرب يلي نعيماً وعيشاً خصباً دون الحي الآخر، فإن الحي المتبدي، يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافأ في القوة والعدد، سنة الله في خلقه.

الفصل السابع عشر

في أن الغاية التي تجري إليها

العصية هي الملك

وذلك لأننا قدما أن العصية بها تكون الحماية والدفاع والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه، وقدما أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصية وإلا لم تتم قدرته على ذلك، وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة؛ لأن الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه، وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس، ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصية التي يكون بها متبوعاً، فالتغلب الملكي غاية للعصية كما رأيت، ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات مفترقة وعصيات متعددة فلا بد من عصية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستبعتها وتلتحم جميع العصيات فيها، وتصير كأنها عصية واحدة كبرى، وإلا وقع الافتراق الفضي إلى الاختلاف والتنازع ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾.

ثم إذا حصل التغلب بتلك العصية على قومها طلبت بطبيعتها التغلب على أهل عصية أخرى بعيدة عنها، فإن كفافتها أو مانعتها كانوا أقتلاً وأنظاراً، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم، وإن غلبتها

ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جبل ونشأة جبل آخر، سبحانه الحكيم العليم.

وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، وأن من فقدوا عجز عن جميع ذلك كله، يلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب، فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه؛ لأن في المغارم والضرائب ضيماً ومذلة لا تحتملها النفوس الآبية إلا إذا استهوتته عن القتل والتلف، وأن عصبيتها حيثند ضعيفة عن المدافعة والحماية، ومن كانت عصبيتها لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل، والمذلة عاقبة كما قدمناه. ومنه قوله ﷺ في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث في بعض دور الأنصار: «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل» فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للمذلة هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر، فإذا رأيت القبيل بالمغارم في رقة من الذل فلا تطمعن لما يملك آخر الدهر.

ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناتة بالمغرب كانوا شائبة يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك، وهو غلط فاحش كما رأيت، إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة، وانظر فيما قاله شهربراز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل شهربراز أمانه على أن يكون له فقال: أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصعري معكم فمرحبا بكم، وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم، النصر لكم والقيام بما تحبون، ولا تذلونا بالجزية فتوهوننا لعدوكم. فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كاف.

الفصل العشرون

في أن من علامات الملك التنافس في الحلال

الحميدة وبالعكس

لما كان الملك طبيعياً للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه، وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه، وأما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب، والملك والسياسة إنما كانا له من حيث هو إنسان، لأنها خاصة للإنسان لا للحيوان، فإذا خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك، إذ الخير هو المناسب للسياسة، وقد ذكرنا أن المجد

على الفناء فضلاً عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب، وإذا انقضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة والتهمتهم الأمم سواهم، فقد تبين أن الترف من عوائق الملك، والله يؤتي ملكه من يشاء.

الفصل التاسع عشر

في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل

والانقياد إلى سواهم

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها، فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رثموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام، وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا: ﴿إِنْ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتها وتكون من معجزاتك يا موسى. ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ وما ذلك إلا لما أنسا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رثموا من الذل للقبط أحقاباً حتى ذهبت العصبية منهم جملة، مع أنهم لم يؤمنوا حتى الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم بحكم من الله قدره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلاً على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبينهم من ذلك وما أمرهم به، فعاقبهم الله بالتيه، وهو أنهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران ولا نزلوا مصرأً ولا خالطوا بشراً كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقطب بمصر عليهم، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه، ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتحلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يساهم بالمذلة، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب

يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيماً عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرَبَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ واستقرى ذلك وتبعه في الأمم السابقة نجد كثيراً مما قلناه ورسمناه، والله يخلق ما يشاء ويختار.

واعلم أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العvisية - وتكون شاهدة لهم بالملك - إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم، وذلك أن إكرام القبائل وأهل العvisيات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويحاذبهم جبل العشير والعvisية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الأكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثله منه. وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عvisية تبقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد، وانتحال الكمال في الحلال والإقبال على السياسة بالكلية؛ لأن إكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه، وإكرام الطائرين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة. فالصالحون للدين والعلماء للجبأ إليهم في إقامة مراسم الشريعة، والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم، والغرباء من مكارم الأخلاق، وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل. فيعلم بوجود ذلك من أهل عvisيته انتمائهم للسياسة العامة وهي الملك، وأن الله قد تآذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها، ولهذا كان أول ما يذهب من القليل أهل الملك إذا تآذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلق، فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان

ملكها أوسع

وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه، واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم؛ ولأنهم ينتزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الأكراد والتركماني وأهل

له أصل ينسب عليه وتحقق به حقيقته وهو العvisية والعشير، وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الحلال، وإذا كان الملك غاية للعvisية فهو غاية لفروعها وتمماتها وهي الحلال؛ لأن وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عرباناً بين الناس، ولم إذا كان وجود العvisية فقط من غير انتحال الحلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والأحساب، فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب.

وأيضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع؛ وأحكام البشر إنما هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره، فإنه فاعل للخير والشر معاً ومقدرهما، إذ لا فاعل سواه، فمن حصلت له العvisية الكثيلة بالقدرة وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق، ووجدت فيه الصلاحية لذلك.

وهذا البرهان أوثق من الأول وأصح مبنى فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العvisية، فإذا نظرنا في أهل العvisية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأمم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر، والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكار والوفاء بالعهد وبذل الأموال في صون الأعراض وتعظيم الشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عندها يحدونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم، والانتقياد إلى الحق مع الداعي إليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل في أحوالهم، والانتقياد للحق والتواضع للمسكين، واستماع شكوى المستغيثين، والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبائها، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة وتقض العهد وأمثال ذلك، علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسيب لعvisيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثاً منهم، والملك أنسب المراتب والخيرات لعvisيتهم؛ فعلمنا بذلك أن الله تآذن لهم بالملك وساقه إليهم.

وبالعكس من ذلك إذا تآذن الله باتقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن

الإنساني والتغلب السياسي، شعر:

كدود القز ينسج ثم يفنى بمركز نسجه في الانعكاس
كانت حيثئذ عصية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من
الكاسر محفوظة وشارتهم في الغلب معلومة فتسمو آمالهم إلى
الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصيتهم
وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم، فيستولون على الأمر ويصير
إليهم، وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضاً متبذراً عنه من عشائر
أمتهم، فلا يزال الملك ملجأ في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصية
منها أو يفنى سائر عشائرها سنة الله في الحياة الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ
عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به
من بعدهم إخوانهم من ثمود، ومن بعدهم إخوانهم العماليق،
ومن بعدهم إخوانهم من حمير، ومن بعدهم إخوانهم التباينة من
حمير أيضاً، ومن بعدهم الأذواء كذلك، ثم جاءت الدولة لمصر،
وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية
حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالإسلام، وكذا اليونانيون انقرض
أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم، وكذا البربر بالمغرب لما
انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الأول منهم رجع إلى صنهاجة
ثم الماشين من بعدهم، ثم المصامدة ثم من بقي من شعوب زناتة
وهكذا سنة الله في عبادته وخلقه.

وأصل هذا كله إما يكون بالعصية وهي متفاوتة في
الأجيال، والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره بعد، فإذا
انقرضت دولة فلانما يتناول الأمر منهم من له عصية مشاركة
لعصيتهم التي عرف لها التسليم والإنقياد وأونس منها الغلب،
لجميع العصيات، وذلك إما يوجد في النسب القريب منهم؛ لأن
تفاوت العصية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو
بعد، حتى إذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل مله أو ذهاب
عمران أو ما شاء الله من قدرته فحيث يخرج عن ذلك الجيل إلى
الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل، كما وقع لمصر حين
غلبوا على الأمم والدول وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالم بعد
أن كانوا مكبوحين عنه أحقاباً.

الثام من صنهاجة وأيضاً فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن
يرتافون منه، ولا بلد يجنحون إليه، فنسبة الأقطار والمواطن إليهم
على السواء، فلهم لا يقتصرون على ملكة قطرم وما جاورهم
من البلاد ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يطفرون إلى الأقاليم
البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية، وانظر ما يحكى في ذلك عن
عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال:
إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا
بذلك، أين القراء المهاجرون عن موعد الله، سيروا في الأرض التي
وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فقال: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ
كُلُّهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ واعتبر ذلك أيضاً بحال العرب السالفة
من قبل مثل التباينة وحمير كيف كانوا يخطون من اليمن إلى
المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرى، ولم يكن ذلك لغير العرب
من الأمم، وكذا حال الماشين من المغرب لما نزعوا إلى الملك
طفروا من الإقليم الأول ومجالتهم منه في جوار السودان إلى
الإقليم الرابع والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة، وهذا
شان هذه الأمم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وأبعد
من مراكزها نهاية، ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وهو الواحد
القهار لا شريك له.

الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من

أمة فلا بد من عوده إلى شعب آخر منها ما

دامت لهم العصية

والسبب في ذلك أن الملك إما حصل لهم بعد سورة الغلب
والإذعان لهم من سائر الأمم سواهم فيتعين منهم المباشرون للأمر
الحاملون لسرير الملك، ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من
الكثرة التي يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التي تجتمع أنوف كثير
من المتطاولين للرتبة، فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا
في النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا إخوانهم من
ذلك الجيل، وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها، وبقي الذين
بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي
شاركوها بنسبهم، وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه،
فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد خضراءهم الهرم فطبختهم
الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدهم
واشتقت غريزة الترف من مათهم وبلغوا غايته من طيبة التمدن

الفصل الثالث والعشرون

في أن المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في

شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالب به من أن انتيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الافتداء أو لما تراه، والله أعلم، من أن غلب الغالب لها ليس بعصية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله.

وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر؛ لأنهم الغالبون لهم حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والافتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله.

وتأمل في هذا سر قولهم: «العامه على دين الملك» فإنه من بابه، إذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم، والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق.

عن جلة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية، فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العvisية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيمهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم، فأصبحوا مغلبين لكل متغلب وطعمة لكل آكل؛ وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا.

وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له، والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شيع بطنه وري كبده، وهذا موجود في أخلاق الأناسي. ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وإنها لا تسافد إلا إذا كانت في ملكة الآدميين، فلا يزال هذا القليل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده.

واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فئيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير، يقال: إن سعداً أحصى ما وراء المداائن فكالوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً، منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت، ولما تحصّلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا، ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم، فملكة الإسلام في العدل ما علمت، وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غلب على أمر وصار آلة لغيره، ولهذا إنما تدعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم وقرهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه؛ أو من يرجو بانتظامه في ربة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز كما يقع لمالك الترك بالشرق والعلوج من الجلالقة والإفرنجية بالأندلس، فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم، فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط

وذلك أنهم بطبيعة الترحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث، يتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى متجمعهم بالفقر، ولا يذهبون إلى المزاخرة والحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم، فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم

الفصل الرابع والعشرون

في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها

أسرع إليها الفناء

والسبب في ذلك، والله أعلم، ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملكت أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التماسل؛ والاعتماد إنما هو

المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مَغْرَماً، فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد، وربما فرضوا العقوبات في الأموال حرصاً على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم، وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها، بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض، فبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم، والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للإنسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إلا بها، وتقدم ذلك أول الفصل.

وأيضاً فهم متنافسون في الرئاسة وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياء فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام، فيفسد العمران ويتنقض.

قال الأعرابي الوافد على عبد الملك - لما سأل عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران - فقال: تركه يظلم وحده. وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانه وأقر ساكنه وبذلت الأرض فيه غير الأرض، فاليمين قرارهم خراب إلا قليلاً من الأمصار، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع، والشام لهذا العهد كذلك، وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها ثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بساطتها خراباً كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدن، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل السابع والعشرون

في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا

بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر

عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم خلقوا التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في

تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له، والقبائل المتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم؛ لأنهم لا يتسمنون، إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطمعة لأكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مغليين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي والمخاريف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم، والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره.

الفصل السادس والعشرون

في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان

أسرع إليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقاً وجبلةً وكان عندهم ملذوداً لما فيه من الخروج عن ريقه الحكم وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومُنافٍ له، فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافيً للقدْر، فينقلونه من المباني ويغريونها عليه ويعدون له لذلك، والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران. هذا في حالهم على العموم.

وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد يتتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه، فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران.

وأيضاً فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطاً من الأجر والثمن؛ والأعمال كما سنذكره هي أصل المكاسب وحقيقتها وإذا فسدت الأعمال وصارت مجاناً ضعفت الأموال في المكاسب وانقبضت الأيدي عن العمل وابتدع السالكين وفسد العمران.

وأيضاً فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن

منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه، واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء عظم حيثشذ ملكهم وقوي سلطانهم.

كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: أكل عمرٌ كبدي يعلم الكلاب الآداب.

ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة يبعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم، ولما ذهب أمر الخلافة وانحى رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم، وما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليفة ما كان لأجياهم من الملك. ودول عاد وثمود والعمالقة وحير والتابعة شاهدة بذلك، ثم دولة مضر في الإسلام بني أمية وبني العباس، لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة، وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلبٌ على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد، فلا يكون ماله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ﴾.

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصابت مغلوبون لأهل الأمصار

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار؛ لأن الأمور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو. وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره، وكذا الدنانير والدرهم مفقودة لديهم، وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته البنا أو أباراً وأشعاراً وإهاباً مما يحتاج إليه أهل الأمصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدرهم، إلا أن حاجتهم إلى الأمصار في الضروري

الرتاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلبة والألفة الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عروج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيج لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى ويُعدّه عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات، فإن كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم.

الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالا في القفر وأغنى عن حاجات التلؤل وحجوبها لاعتيادهم الشطفر وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلانهم ذلك وللتوحش؛ ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبة التي بها المدافعة، فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراعاتهم؛ لئلا يتخلل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر وإلا لم تستقم سياسته.

وأيضاً فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض، فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم، وربما جعلوا العقوبات على المفاصد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد، فلا يكون ذلك وازعاً، وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاصد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه، فنتمو المفاصد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستظيلة أيدي بعضها على بعض، فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً شأن الفوضى كما قدمنا.

فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك، وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك

وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي، والكمالي فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم، فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك وطالبوهم به، وأن كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وإن لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رئاسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقيين وإلا انتقض عمرانته، وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه، إما طوعاً يبذل المال لهم ثم يبذل لهم ما يحتاجون إليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم، وإما كرهاً إن تمت قدرته على ذلك ولو بالتفريق بينهم، حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقيين فيضطر الباقيون إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم، وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي إلى جهات أخرى؛ لأن كل الجهات معمور بالبido الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرها فلا يجد هؤلاء ملجأ إلا طاعة المصر، فهم بالضرورة مغلوبون لأهل الأمصار، والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الأحد القهار.

الباب الثالث

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال

وفيه قواعد ومتممات

الفصل الأول

في أن الملك والدولة العامة إنما

يحصلان بالقبيل والعصية

وذلك أنا قررنا في الفصل الأول أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصية لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه. ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع إلا بالعصية كما ذكرناه آنفاً، وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له؛ لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها وطال أمد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل، فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة إنما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصية في تمهيد أمرهم، ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله وما لقي أولهم من المتاعب دونه؛ وخصوصاً أهل الأندلس في نسيان هذه العصية وأثرها لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصية بما تلاشى وطنهم وخلأ من العصائب، والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الثاني

في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت

فقد تستغني عن العصية

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للغلبة، وأن الناس لم

يألفوا ملكها ولا اعتادوه، فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية، فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة، بل كان طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه، ولأمر ما يوضع الكلام في الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية كأنه من جملة عقودها، ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة: إما بالموالي والمصطنعين الذين نشأوا في ظل العصية وغيرها، وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها.

ومثل هذا وقع لبني العباس، فإن عصية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم، ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلاق في حكمهم، ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم، ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التار فقتلوا الخليفة ومحو رسم الدولة.

وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة مقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور إفريقية، وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها، والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم، حتى تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصية في المصامدة فمحو آثارهم.

وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم، وتوزعوا ممالك الدولة، وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه، وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بالقبائل الملك ولبسوا شارته وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره؛ لأن الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره، واستمر لهم ذلك كما قال ابن شرف.

عما يزهني في أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتضد القاب مملكة في غير موضعها كالمزحكي انتفاخاً صورة الأسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العدو من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداءً بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصية

لعصيته، وانقياداً لما استحکم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة إيمانية استقرت في الإذعان لهم، فلو راموها معه أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها.

وهذا كما وقع للأداسة بالمغرب الأقصى والعبيديين بإفريقية ومصر لما اتبذ الطاليون من المشرق إلى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسَمَوْا إلى طلبها من أيدي بني العباس، بعد أن استحکمت الصبغة لبني عبد مناف؛ لبني أمية أولاً، ثم لبني هاشم من بعدهم، فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى فاورية ومغيلة للأداسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديين، فشدوا دولتهم ومهدوا بعصائهم أمرهم واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم إفريقية، ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين يمتد إلى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الإسلامية شِقْ الأبلمة. وهؤلاء البرابرة القاثون بالدولة مع ذلك كلهم مسلّمون للعبيديين أمرهم مذعنون للمكهم، وإنما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة تسليماً لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم ولما استحکم من الغلب لقريش ومضر على سائر الأمم، فلم يزل الملك في أعقابهم إلى أن انقضت دولة العرب بأسرها ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبَرٍ بِحُكْمِهِ﴾.

الفصل الرابع

في أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك
أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَيْتَ تَبِينَ قُلُوبِهِمْ﴾ وسيره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعااض واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة كما نبين لك بعد أن شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لا رب سواه.

العرب، واستبد ابن أبي عامر على الدولة، فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها، ولم يزلوا في سلطانهم ذلك حتى جاز إليهم البحر المرباطون أهل العصبية القوية من لتونة فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحو آثارهم ولم يقدروا على مدافعهم لفقدان العصبية لديهم.

فهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها، وقد ظن الطروشني أن حامية الدول بإطلاق هم الجنود أهل العطاء المفروض مع الأهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه «سراج الملوك»؛ وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها، وإنما هو مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لأهله، فالرجل إنما أدرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة، فإنه إنما أدرك دول الطوائف وذلك عند اختلال بني أمية وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره، وكان في إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة، ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلاثمائة من السنين وهلاكهم، ولم ير إلا سلطاناً مستبداً بالملك عن عشائره قد استحکمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية؛ فهو لذلك لا يُنَازِع فيه ويستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة، فأطلق الطروشني القول في ذلك، ولم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة وأنه لا يتم إلا لأهل العصبية، فتنظن أنت له وافهم سر الله فيه ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ﴾.

الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي
دولة تستغني عن العصبية

وذلك أنه إذا كان لعصبية غلب كثير على الأمم والأجيال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية إذعان لهم وانقياد، فإذا نزع إليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتعلوا عليه وقاموا بأمره وظاهروه على شأنه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله الأمر من يد أعياصه وجزاءه لهم على مظاهرته باصطفائهم لترتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر، ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليماً

الفصل الخامس

في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها

قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها

والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم، وهم مستمتتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضاعفهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتحاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه.

وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات، فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعة وثلاثين ألفاً في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً بالقادسية، وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربعمئة ألف، فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزمهم وغلبهم على ما بأيديهم.

واعتبر ذلك أيضاً في دولة لثونة ودولة الموحدين، فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشفئ عليهم إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه، فلم يقف لهم شيء.

واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت، كيف يتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها، ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بدواة.

واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة، لما كانت زناتة أبدى من المصامدة وأشد توحشاً، وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتة أولاً واستبجروهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبدواة أشد منهم، فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبهم على الأمر وانتزعوهم منهم، والله غالب على أمره.

الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير

عصبية لا تتم

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية، وفي الحديث الصحيح كما مر: «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه» وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية.

وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب «خلع النعلين في التصوف» ثار بالأندلس داعياً إلى الحق وسمي أصحابه بالمرايطين قبيل دعوة المهدي، فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لثونة بما دهمهم من أمر الموحدين، ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدعونه عن شأنه، فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بمحصن أركش وأمنهم من ثغره، وكان أول داعية لهم بالأندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين.

ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء، فإن كثيراً من المتحليين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف ورجاء في الشواب عليه من الله، فيكثر أتباعهم والمتشبهون بهم من الغوغاء والدهماء ويعترضون أنفسهم في ذلك للمهلك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مازورين غير مأجورين؛ لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فقلبه»؛ وأحوال الملوك والدول رأسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه.

وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم.

فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محققاً قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك، وأما إن كان من المتلبسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر إن تعوقه العوائق وتقطع

به المهالك؛ لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعائته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين، ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة.

وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق، ثم عهد لعلي بن موسى الرضا من آل الحسين، فكتشف بنو العباس عن وجه التكبر عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه، وبويع إبراهيم بن المهدي فوقع المهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحرية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل، وامتلات أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الأسواق واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوهم، فتوافر أهل الدين والصلاح على منع الفساد وكف عاديّتهم، وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأجاباه خلق وقاتل أهل الزعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل.

وكذلك خرج في غماره أيضاً لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأزدلون من سفهاء تلك القبائل وأغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة. ثم قتل لأربعين يوماً من ظهور دعوته ومضى في المهالكين الأولين.

وأمثال ذلك كثير، والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصية في مثلها، وأما إن كان التليّس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن يسوء يائمه وذلك جزاء الظالمين، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه.

الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصّة من الممالك

والأوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم، ويستولون عليها لحمايتها من العدو وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك، فإذا توزعت العصابات كلها على الثغور والممالك فلا بد من نفاذ عددها، وقد بلغت الممالك حيثئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة وتخماً لوطنها ونطاقاً لمركز ملكها، فإن تكفلت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور، ويعود وبإل ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهبة.

وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها في توزيع

ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري ويكنى أبا حاتم، وعلّق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فاتبعه الناس كافةً من بين شريف ووضع من بنى هاشم فمن دونهم، ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لأولئك الشطار. وقال له خالد الدريوس: أنا لا أعيب على السلطان، فقال له سهل: لكنني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان. وذلك سنة إحدى ومائتين. وجهز له إبراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسرهم وأخل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه.

ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم، والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء إما المداواة إن كانوا من أهل الجنون، وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً، وإما إذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصّقاعين.

ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم، والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء إما المداواة إن كانوا من أهل الجنون، وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً، وإما إذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصّقاعين.

وقد يتسبب بعضهم إلى الفاطمي المنتظر إما بأنه هو أو بأنه داع له، وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ما هو. وأكثر المتحليين لثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلات بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية، فيحسبون أن هذا من

الفصل الثامن

في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول

أمدها على نسبة القائم بها

في القلة والكثرة

والسبب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصية، وأهل العصية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها ويتسمون عليها، فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً وكان ملكها أوسع لذلك.

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الإسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي ﷺ مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاء، فلما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبجى حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم، والترك بالمشرق والإفرنجية والبربر بالمغرب والقوط بالأندلس، وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى، ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الأقاليم السبعة.

ثم انظر بعد ذلك دولة صنهجة والموحدين مع العبيديين قبلهم، لما كان قبيل كثامة القائمون بدولة العبيديين أكثر من صنهجة ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم فملكوا إفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز، ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزنانة بنى مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر من بني الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى. يقال: إن عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وإن بني عبد الواد كانوا ألفاً إلا أن الدولة بالرقة وكثرة التابع كثرت من أعدادهم.

وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها، وأما طول أمدها أيضاً فعلى تلك النسبة؛ لأن عمر الحادث من قوة مزاجه، ومزاج الدول إنما هو بالعصية، فإذا كانت العصية قوية كان المزاج تابعاً لها وكان أمد العمر طويلاً والعصية إنما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه، والسبب

الحصص على الثغور والنواحي، بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها إلى غايتها. والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصية من سائر القوى الطبيعية، وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها، والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق، وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه، شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه، ثم إذا أدركتها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولا يزال المركز محفوظاً إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملة، فحينئذ يكون انقراض المركز. وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها، فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح، فإذا غلب على القلب ومملك انهزم جميع الأطراف.

وانظر هذا في الدولة الفارسية، كان مركزها المدائن، فلما غلب المسلمون على المدائن انقراض أمر فارس أجمع ولم ينفع يزجر ما بقي بيده من أطراف مملكه.

وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام؛ لما كان مركزها القسطنطينية وغلبيهم المسلمون بالشام تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم، فلم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن تأذن الله بانقراضه.

وانظر أيضاً شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصابهم موفورة، كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبشة وإفريقية والمغرب ثم إلى الأندلس، فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونقد عددهم في تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعد، وانتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود، ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها.

وكذا كان حال الدول من بعد ذلك، كل دولة على نسبة القائم بها في القلة والكثرة وعند نقاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء، سنة الله في خلقه.

أهل مدن وأمصار، فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعه من أيديهم لم يبق فيها مانع ولا مشاق، والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر، وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة، فطال أمر العرب في تهديد الدولة بوطن إفريقية والمغرب، وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عصور وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة وأكريكش، والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في العvisية، فصعب على بني إسرائيل تهديم دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى، ومسى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موثد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء، والله غالب على أمره.

وبعكس هذا أيضاً الأوطان الخالية من العvisيات يسهل تهديم الدولة فيها ويكون سلطانها وإزاعا لقلعة الهرج والانتقاض، ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العvisية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد، إذ هي خلوة من القبائل والعvisيات كأن لم يكن الشام معدناً لهم كما قلناه، فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلعة الخوارج وأهل العصائب إنما هو سلطان ورعية، ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائهم يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد ويتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء ببغداد.

وكذا شأن الأندلس لهذا العهد، فإن عvisية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوة ولا كانت كرات، إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من لثونة والموحدين شتموا ملكتهم وثقلت وطأنهم عليهم، فأثريت القلوب بغضائهم وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيراً من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملك الحضرة مراکش، فاجتمع من كان بقي بها من أهل العvisية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء ورسخوا في العvisية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمشاهم، فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالأمر في الأندلس ثم سما ابن الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته، فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب إفريقية من الموحدين

الصحيح في ذلك أن النقص إنما يبدو في الدولة من الأطراف، فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة، وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك، واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدها أطول.

وانظر ذلك في دولة العرب الإسلامية كيف كان أمدها أطول الدول، لا بنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالأندلس، ولم ينقص أمر جميعهم إلا بعد الأربعمئة من الهجرة، ودولة العبيديين كان أمدها قريباً من مائتين وثمانين سنة، ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معز الدولة أمر إفريقية للكنسين بن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة إلى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسمئة، ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة، وهكذا نسب الدول في أعمارها على نسبة القائمين بها سنة الله التي قد خلت في عبادته.

الفصل التاسع

في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء وأن وراء كل رأي منها هوى وعvisية تمنع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وإن كانت ذات عvisية؛ لأن كل عvisية ممن تحت يدها نظن في نفسها منعة وقوة.

وانظر ما وقع من ذلك بإفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد، فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعvisيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي مسرج عليهم وعلى الإفرنجية شيئاً، وعادوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى، وعظم الإثنان من المسلمين فيهم، ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة.

قال ابن أبي زيد: ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده، وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن أفريقية مفرقة لقلوب أهلها إشارة إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد، ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام، إنما كانت حاميتها من فارس والروم؛ والكافة دهماء

إلا أنه أمر لا بد منه في الدول «سنة الله التي قد خلّت في عبادي» والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي عشر

في أن من طبيعة الملك الترف

وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياسها ونعمتها فكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية، ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره، وينبغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفعهم فيه، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائدها من قبلها. سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني عشر

في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة، والمطالبة غايتها الغلب والملك، وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها، قال الشاعر:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيتنا سكن الدهر

فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمسكن والملابس، فينبون القصور ويمجرون المياه ويغرسون الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأقنون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا، ويألفون ذلك ويؤثرونه من بعدهم من أجيالهم، ولا يزال ذلك يستزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى أعلم.

وقام بالأمر وتناوله بعصاة قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتاج لأكثر منهم لقلة العصائب بالأندلس، وأنها سلطان ورعية، ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يميز إليه البحر من أعياص زناتة، فصاروا معه عصبة على الماخرة والرباط، ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناتة أمل في الاستيلاء على الأندلس، فصار أولئك الأعياص عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأثل أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابها لهذا العهد، فلا تظن أنه بغير عصابة، فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة إلا أنها قليلة، وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم؛ والله غني عن العالمين.

الفصل العاشر

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصية، والعصية متألّفة من عصابات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها، وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول، وسره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون، والمزاج يكون عن العناصر، وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلاً بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصابات وهي موجودة في ضمنها، وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم، ولا بد أن يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيعين رئيساً للعصبيات كلها لغلب منيته لجمعها، وإذا تعين له ذلك فمن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة، فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استباعهم والتحكم فيهم، ويحيي خلقه التآله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفلح شكائهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم وتقرع عصبيتهم عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم في الأمر لا ناقة ولا جمل، فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته وقد يتم ذلك للآل من ملوك الدولة، وقد لا يتم إلا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها،

الفصل الثالث عشر

في أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه:

الأول: أنها تقتضي الانفراد بالجد كما قلناه. وما كان الجدد مشتركاً بين العصابة وكان سعيهم له واحداً كانت همهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة أسوة في طموحها وقوة شكايمها وممرامهم إلى العز جميعاً، وهم يستطيون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم، وإذا انفرد الواحد منهم بالجد قرع عصيتهم وكبح من أعتهم واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو وفشل رجهم ورثموا المذلة والاستعباد، ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء أجراً من السلطان لهم عن الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواه، وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضداً من الشوكة وتقيل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصية بذهاب البأس من أهلها.

والوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم، فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتغهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بمحصر نفقاتهم في الغزو والحروب، فلا يجيدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات ويتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم، وأيضاً إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم، والجباية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص، وأن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً، فإذا وزعت الجباية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحماية حيث كان قبل زيادة الأعطيات، ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك فينقص عدد الحماية وثالثاً ورابعاً إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من

هو تحت يديها من القبائل والعصابات ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته، وأيضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من الروان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فتكون علامة على الإبداء والانقراض بما جعل من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعض أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها.

الوجه الثالث: أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه، وإذا اتخذوا الدعة والراحة مائلاً وخلقاً صار لهم ذلك طبيعة وجيلة شأن العوائد كلها وإيلافها، فترى أجيالهم الحادثة في غصارة العيش ومهاد الترف والدعة، وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الاقتراس وركوب البيداء وهداية القفر، فلا يفرق بينهم وبين السوق من الحضر إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخض شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم، ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى أن كانت لهم، واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحاً من غير رية.

وربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جنداً يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواءً للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره، وهذا كما وقع في دولة الترك بالشرق فإن غالب جندها الموالي من الترك فتخير ملوكهم من أولئك الممالك المجاورة إليهم فرساناً وجنداً فيكونون أجراً على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء الملوك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله، وكذلك في دولة الموحيدين بإفريقية، فإن صاحبها كثيراً ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمراً آخر سالماً من الهرم، والله وارت الأرض ومن عليها.

الفصل الرابع عشر

في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص

إعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين، ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرائن فيزيد عن هذا ويتقص منه، فتكون أعمار بعض أهل القرائن مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرائن عند الناظرين فيها، وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث، ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود. وأما أعمار الدول أيضاً، وإن كانت تختلف بحسب القرائن، إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ولهذا قلنا: إِنَّ عُمَرَ الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه، فدل على اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد.

وإنما قلنا: إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال؛ لأن الجيل الأول لم يزلوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العvisية محفوظة فيهم، فحدهم مرفه وجانبهم مروهوب، والناس لهم مغلوبون.

والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفع من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقيين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتتكسر سورة العvisية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وياشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميمهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم.

وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعvisية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصرون عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العvisية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتهم فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموال ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت، فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلها.

ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب إنما هو في أربعة آباء وقد أثبتناك فيه برهاناً طبيعياً كاف ظافر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمل، فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الإنصاف.

وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر، ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلا أن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، فيكون الهرم حاصلًا مستولياً والمطالب لم يخضرها، ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع؛ ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة، وهذا معناه، فاعتبره واتخذ منه قانوناً يُصحح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استريت في عددهم وكانت السنين الماضية منذ أولهم محصلة لديك، فعُدْ لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء، فإن نقتد على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح، وإن نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب وإن زادت بمثله فقد سقط واحد، وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان محصلاً لديك، فتأمل تجده في الغالب صحيحاً ﴿وَاللَّهُ يَفْتَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

اعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول، فإن الغلب الذي يكون به الملك إنما هو بالعصبة وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس، ولا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة، فطور الدولة من أولها بدواة، ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال، والحضارة إنما هي تفتن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلذلك واحد منها صنائع في استجاداته والتائق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً، وتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعيم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك.

وأهل الدول أبدأ يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم. فأحواهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبنائهم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة، فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رفاعاً وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً وأمثال ذلك.

فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآلانية وسائر الماعون والخزني وكذلك أحوالهم في أيام المباشرة والولائم وليالي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية.

وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في أعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافته في خطبتها إلى داره بضم الصلح وركب إليها في السفين وما اتفق في إملاكها وما نخلها المأمون وأتفق في عرسها تقف من ذلك على العجب، فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الأملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فثر على الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملتوتة على الرقاق بالضياح والعقار مسوغة لمن

حصلت في يده، يقع لكل واحد منهم ما آداه إليه الاتفاق والبخت، وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدزة عشرة آلاف، وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك، بعد أن أنفق على مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك، ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصر منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت، وقال المأمون حين رآه: قاتل الله أبا نواس، كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر:

كان صغرى وكبرى من فراقعها حصاء در على أرض من الذهب وأعد بدار الطبخ من الخطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات كل يوم، وفي الخطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت، وأوعز إلى النواتية بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة، فكانت الحرافات المعدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم، وكثير من هذا وأمثاله، وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليلة؛ نقله ابن بسام في كتاب «الذخيرة» وابن حبان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم.

ويذكر أن الحجاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال: أخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له: نعم أيها الأمير شهدت بعض مرازمة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخوة الفضة، أربعاً على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس، فإذا طعموا أتبِعوا أربعهم المائدة بصحافها ووصفاتها، فقال الحجاج: يا غلام المحر الجزر وأطعم الناس؛ وعلم أنه لا يستقل بهذه الأبهة، وكذلك كان.

ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم، فإنما كان أكثرها الإبل أخذاً بمذاهب العرب وبدواتهم، ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدهم ما علمت من أحوال المال وتحت الثياب وإعداد الخيل بمراكبها.

وهكذا كان شأن كثامة مع الأغالية بإفريقية وكذا بنو طنج بمصر، وشأن لتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك، وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جراً؛ تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة، فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس، وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى

الفصل السابع عشر

في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق

أهلها باختلاف الأطوار

إعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار:

الطور الأول: طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها، فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا يفرد دونهم بشيء؛ لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تنزل بعد بحالها.

الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك لجذب أنوف أهل عصبية وعشيرته المقاسمين له في نسبة الضارين في الملك بمثل سهمه، فهو يدافعهم عن الأمر ويصدهم عن موارده ويردهم على أعقابهم، أن يخلصوا إليه حتى يقر الأمر في نصابه ويفرد أهل بيته بما يبي من مجده فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهورهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم، وهذا يدافع الأقارب لا يظهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأبعد فيركب صعباً من الأمر.

الطور الثالث: طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها وتشديد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والمياكل المرتفعة، وإجازة الوفود من أشرف الأمم ووجوه القبائل، ورتب المعروف في أهله، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاء واعتراض جنوده وإدراة أرزاقهم وإنصافهم في إعطائهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكمتهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويهرب الدول المحاربة، وهذا الطور آخر أطوار

ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد، وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين، وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة، إذ أمور الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة، فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتره وتفهمه وتامله تجده صحيحاً في العمران، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل السادس عشر

في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية فكثرت العصابة، واستكثروا أيضاً من الموالي والصنائع، وريت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه، فازدادوا به عدداً إلى عدهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصاب حيثزدادوا به عدد، فإذا ذهب الجيل الأول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها؛ لأنهم ليس لهم من الأمر شيء إنما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها، فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالروسوخ فيذهب ويتلاشى، ولا تبقى الدولة على حالها من القوة.

واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الإسلام، كان عدد العرب كما قلنا لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفاً أو ما يقاربها من مضر وقحطان، ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نعمهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالي والصنائع بلغ ذلك العدد إلى أضعافه؛ يقال: إن المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعمائة ألف ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحاً إذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدائية والقاصية شرقاً وغرباً إلى الجنود الحاملين سرير الملك والموالي والمصطنعين.

وقال المسعودي: أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للإتفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفاً بين ذكuran وإناث فانظر مبالغ هذا العدد لأقل من مائتي سنة، واعلم أن سببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وربى فيه أجيالهم وإلا فعدد العرب لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريباً منه والله الخلاق العليم.

كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة. تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين، وانظر إلى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقطرة التي على واديها، كذلك بناء الحنايا لجلب الماء إلى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها وآثار شرشال بالمغرب والأهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف.

واعلم أن تلك الأفعال للأقدمين إنما كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها، فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا توهم ما توهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها، فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما تجد بين الهياكل والآثار، ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وثمود والعمالق في ذلك أخباراً عريقة في الكذب، من أغربها ما يحكون عن عوج بن عناق - رجل من العمالة الذين قاتلهم بنو إسرائيل في الشام - زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه إلى الشمس ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا أن للشمس حرارة وأنها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر هو الضوء، وأن الضوء فيما قرب من الأرض أكثر لانعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة الأضواء، فتضعاف الحرارة هنا لأجل ذلك، وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة فلا حر هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب، وأن الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة وإنما هي جسم بسيط مضيء لا مزاج له.

وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكره من العمالة أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني إسرائيل عند فتحهم الشام وأطوال بني إسرائيل وجسماتهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا يشهد لذلك أبواب بيت المقدس، فإنها وإن خربت وجددت لم تزال محافظة على أشكالها ومقادير أبوابها، وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار، وإنما مثار غلطهم في هذا أنهم استعظموا آثار الأمم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدها بعظم هياكلها وليس الأمر كذلك.

وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعماً لا مستند له إلا التحكم، وهو أن الطبيعة التي هي جيلة للأجسام لما برا الله الخلق كانت في تمام المرة ونهاية القوة والكمال وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة، فإن طرؤه الموت إنما

الاستبداد من أصحاب الدولة؛ لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم بانون لعزمهم موضحون الطرق لمن بعدهم.

الطور الرابع: طور الفتوح والمسالمة، ويكون صاحب الدولة في هذا قانعاً بما بنى أوله سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلداً للماضين من سلفه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء، ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده.

الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع أوله في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطائنه وفي مجالسه واصطناع أخذان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلون بمحملها ولا يعرفون ما يأتون يذرون منها مستفسداً لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغفوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعاً من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقدته فيكون غريباً لما كان سلفه يؤسسون وهادماً لما كانوا يبنون، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض الزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء إلى أن تنقرض كما نبينه في الأحوال التي نسردها والله خير الراثرين.

الفصل الثامن عشر

في أن آثار الدولة كلها على نسبة

قوتها في أصلها

والسبب في ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً وعلى قدرها يكون الأثر، فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة، فإنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها لأنها لا تسم إلا بكثرة الفعلة واجتماع الأيدي على العمل والتعاون فيه، فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والراعياء كان الفعلية كثيرين جداً وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها فتم العمل على أعظم هياكله.

ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما. وانظر بالمشاهدة إيوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى إنه عزم الرشيد على هدمه وتخريجه فتكاده عنه وشرع فيه ثم أدركه المعجز، وقصة استشارته ليحيى بن خالد في شأنه معروفة، فانظر

هو بالخلال القوى الطبيعية فإذا كانت قوية كانت الأعمار أزيد فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام، ثم لم يزل يتناقص لتقصان المادة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها، ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم، وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني، ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهيكل والديار والمساكن كديار تمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتاً صغيراً وأبوابها ضيقة وقد أشار عليه السلام إلى أنها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرقه وقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم».

وكذلك أرض عاد ومصر والشام وماتر بقاع الأرض شرقاً وغرباً والحق ما قرناه.

ومن آثار الدول أيضاً حالها في الأعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون وقد مر ذلك كله.

ومن آثارها أيضاً عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم، فإن المهمم التي لأهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس، والمهم لا تزال مصاحبة لهم إلى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والأعيد والوصائف عشرأً وعشرأً ومن كرش العنبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب، وإنما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس، وإنما حملة على ذلك همه نفسه بما كان لقومه التابعة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقين والهند والمغرب؛ وكان الصنهاجيون بإفريقية أيضاً إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم، فلما يعطونهم المال أحمالاً والكساء تحموا مملوءة والحملا ن لجائب عديدة.

وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة، وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا إذا كسبوا معدماً فلما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستفده يوم أو بعض يوم وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية، هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل إلى فتح مصر استعد من القيروان بالف حمل من المال ولا تنتهي اليوم دولة إلى مثل هذا.

موارد بيت المال ببغداد أيام المأمون، وكذلك وجد بخط أحمد

بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة: غلات السواد سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم، ومن الحلال التجارية مائتا حلة، ومن طين الحتم مائتان وأربعون رطلاً كنكر أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم كور دجلة عشرون ألف ألف درهم وثمانمائة درهم. (حلوآن) أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم. (الأهواز) خمسة وعشرون ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون ألف رطل. (فارس) سبعة وعشرون ألف ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة، ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل. (كرمان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم، ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون ألف رطل. (مكران) أربعمائة ألف درهم مرة. (السند وما يليه) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلاً. (سجستان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفانيد عشرون رطلاً. (خراسان) ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن نقر الفضة ألفا نقرة، ومن البراذين أربعة آلاف، ومن الرقيق ألف رأس، ومن المتاع عشرون ألف ثوب، ومن الإهليلج ثلاثون ألف رطل. (جرجان) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن الإبريسم ألف شقة. (قوس) ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة من نقر الفضة. (طبرستان والرويان ونهاوند) ستة آلاف ألف مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبري ستمائة قطعة، ومن الأكسية مائتان، ومن الثياب خمسمائة ثوب، ومن المناديل ثلاثمائة، ومن الجامات ثلاثمائة. (الري) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل عشرون ألف رطل. (همدان) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف، ومن رب الزمان ألف رطل، ومن العسل اثنا عشر ألف رطل. (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم. (ماسبدان والدينار) أربعة آلاف ألف درهم مرتين. (شهر زور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم. (الموصل) وما يليها أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل. (أذربيجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين. (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) (أربعة) وثلاثون ألف ألف درهم مرتين، ومن الرقيق ألف رأس، ومن العسل اثنا عشر ألف زق، ومن البزاة عشرة، ومن الأكسية عشرون. (أرمينية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن القسط المحفور عشرون، ومن الزم خمسمائة وثلاثون رطلاً، ومن المسايح

إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويظفون به، وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكاثر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه، وأمثال هذه الحكايات فتناجي الناس بتكذيبه ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه.

فقال لي الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن، وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك الحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذي كان يتغذى به فقال له أبوه: هذا لحم الغنم فقال: وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول: يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول: أين الغنم من الفأر! وكذا في لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحبسها كلها أبناء جنس الفأر وهذا كثيراً ما يعترى الناس في الأخبار كما يعترىهم الوسواس في الزيادة عن قصد الإغراب كما قدمناه أول الكتاب. فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً بين الواقعات، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء، فإنا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصفه ومقدار عظمه وقوته أجرنا الحكم من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم.

السورماهي عشرة آلاف رطل، ومن الصونج عشرة آلاف رطل، ومن البغال مائتان، ومن المهرة ثلاثون. (قنسرين) أربعمئة ألف دينار، ومن الزيت ألف حمل. (دمشق) أربعمئة ألف دينار وعشرون ألف دينار. (الأردن) سبعة وتسعون ألف دينار. (فلسطين) ثلاثمئة ألف دينار وعشرة آلاف دينار، ومن الزيت ثلاثمئة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمئة ألف دينار وعشرون ألف دينار. (برقة) ألف ألف درهم مرتين. (أفريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن البسط مائة وعشرون. (اليمن) ثلاثمئة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع. (الحجاز) ثلاثمئة ألف دينار انتهى.

وأما الأندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملة القناطير خمسمئة ألف قنطار. ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمئة قنطار في كل سنة.

فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيّق حوصلتك عند ملتقط المكنات، فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار وليس ذلك من الصواب، فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة، ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بوناً وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها، فالآثار كلها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه، ولا يسعنا إنكار ذلك عنها، إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح، بل فيها ما يلحق بالاستفيض والتواتر وفيها المعايين والمشاهد من آثار البناء وغيره، فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستظرفة.

وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه، واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه، وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم اتقلب

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل

عصبيته بالموالي والمصطنعين

الفصل العشرون

في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول

اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة يتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب؛ لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقرى والتخاذل في الأجانب والبعداء كما قدمناه، والولاية والمخالطة بالرق أو بالخلف تستزل منزلة ذلك؛ لأن أمر النسب، وإن كان طبعياً، فإنما هو وهمي والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحة بالمربي والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة، وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس، واعتبر مثله في الاصطناع، فإنه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تستزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وإن لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة، فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقتهم أوشج وعقائدها أصح ونسبها أصرح لوجهين:

أحدهما: أنهم قبل الملك أسوة في حالهم، فلا يتميز النسب عن الولاية إلا عند الأقل منهم فيتزولون منهم منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحامهم، وإذا اصطنعواهم بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى. ولأهل القرابة عن أهل الولاية. والاصطناع لما تقتضيه أحوال الرئاسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتميز حالتهم ويتزولون منزلة الأجانب، ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد وذلك انقص من الاصطناع قبل الملك.

الوجه الثاني: أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهده عن أهل الدولة بطول الزمان ويغفي شأن تلك اللحمة ويظن بها في الأكثر النسب فيقوى حال العصبية، وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته الأكثر فتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل الدولة، واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده؛ فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرئاسة والملك لمصطنعه تجده أشد التحاماً به وأقرب قرابة إليه ويتزول منه منزلة أبنائه وإخوانه وذوي رحمته، ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من

إعلم أن صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه فهم عصبته وظهرأوه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم من يقلد أعمال مملكته ووزارته وحبابة أموله؛ لأنهم أعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر ومساهموه في سائر مهماته هذا ما دام الطور الأول للدولة كما قلناه، فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصددهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم، فيكونون أقرب إليه من سائرهم وأخص به قرباً واصطناعاً وأولى إثارة وجاهاً؛ لما أنهم يستمتتون بدونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حيثنؤ ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والحجابة وما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة؛ لأنهم حيثنؤ أوليائوه الأقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حيثنؤ مؤذن باهتمام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها. ومرض قلوب أهل الدولة حيثنؤ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطفون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع في برئتها من هذا الداء؛ لأنه ما مضى يتأكد في الأعقاب إلى أن ذهب رسمها واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد بن أبي وقاص وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هيرة وموسى بن نصير وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار وأمثالهم من رجالات العرب، وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضاً برجالات العرب، فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوح وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بقا ووصيف وأتامش وباتناك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالي العجم فتكون الدولة لغير

له صبغة الرئاسة والاستبداد ويتحول الملك إليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبني بويه والترك وكافور الأخشيدي وغيرهم بالشرق وللمنصور بن أبي عامر بالأندلس.

وقد يتفطن ذلك المحجور المغلب لشأنه فيحاول على الخروج من ربة الحجر والاستبداد ويرجع الملك إلى نصابه ويضرب على أيدي المتغلبين عليه إما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط، إلا أن ذلك في النادر الأقل؛ لأن الدولة إذا أخذت في تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه؛ لأن ذلك إنما يوجد في الأكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه قد نسوا عهد الرجولة والفوا أخلاق البدايات والظآر وربوا عليها، فلا ينزعون إلى رئاسة ولا يعرفون استبداداً من تغلب إنما همهم في القنوع بالأبهة والتفتن في اللذات وأنواع الترف، وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضروري كما قدمناه، وهذان مرضان لا براء للدولة منهما إلا في الأقل النادر ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

القرابة واللحمة ما للأولين، وهذا مشاهد بالعيان حتى أن الدولة في آخر عمرها ترجع إلى استعمال الأجانب واصطناعهم ولا يبتنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حيثئذ بأوليئهم ومشاركة الدولة على الانقراض فيكونون منطحين في مهاوي الضعة.

وإنما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول إليهم عن أولياتها الأقدمين وصنائعها الأولين ما يعترهم في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له ونظرة بما ينظره به قبيله وأهل نسبه، لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى والاتصال بأبائهم وسلف قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته، فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز فينافهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم إلى استعمال سواهم، ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريباً فلا يبلغون رتب المجد ويبقون على حالهم من الخارجية، وهكذا شأن الدول في أواخرها، وأكثر ما يطلق اسم الصنائع والأولياء على الأولين، وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعاون، والله ولي المؤمنين وهو على كل شيء وكيل.

الفصل الثاني والعشرون

في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في

اللقب الخاص بالملك

وذلك أن الملك والسلطان حصل لأوليئه منذ أول الدولة بعصية قومه وعصيته التي استبعتهم حتى استحكت له ولقومه صبغة الملك والغلب، وهي لم تزل باقية وبها المحفظ رسم الدولة ويقاؤها، وهذا التغلب وإن كان صاحب عصية من قبيل الملك أو الموالي والصنائع فعصيته مندرجة في عصية أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك، وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهراً، وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهي والحل والعقد والإبرام والتقضى، يوهم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن سلطانه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لأحكامه. فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك، وإن حصل له الاستبداد لأنه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان وأولوه على أنفسهم عن القليل منذ أول الدولة ومغالط عنه بالنباية، ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه عليه أهل العصية وقبيل الملك وحاولوا الاستئثار به دونه؛ لأنه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لأول

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان

والاستبداد عليه

إذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه وتداوله بنوهم واحداً بعد واحد بحسب الترشيع، فرما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه في الأكثر ولاية صبي صغير أو مضعف من أهل المنبت يترشح للولاية بعهد أبيه أو بترشيح ذويه وخوله، ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك، فيقوم به كافلة من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويوري عنه بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي يدعو إليها ترف أحواله ويسيمه في مراعيها متى أمكنه وينسيه النظر في الأمور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوس السرير وإعطاء الصفقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء خلف الحجاب، وأن الحل والربط والأمر والنهي ومباشرة الأحوال المملوكية وتفقدتها من النظر في الجيش والمال والثغور إنما هو للوزير ويسلم له في ذلك، إلى أن تستحكم

وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن منصور بن أبي عامر حين سما إلى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقتنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتابعة، فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة بنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قريش وبأبوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا عليه وكان في ذلك خراب دولة العامرين وهلاك المؤيد خليفتهما واستبدل منه سواء من أعيان الدولة إلى آخرها واختلت مراسم ملكهم، والله خير الوارثين.

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك وأصنائه

الفصل الرابع والعشرون

في أن إرهااف الحد مضر بالملك

ومفسد له في الأكثر

إعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو نقوب ذهنه، وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم، فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية وهي نسبة بين متسبين، فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم، فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان، والصفة التي له من حيث إضافته لهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه بملكهم، فإذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من السلطان على أتم الوجه، فإنها إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم، وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضرراً عليهم وإهلاكاً لهم.

ويعود حسن الملكة إلى الرفق، فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات متقباً عن عورات الناس وتعدد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا على قتله لذلك تفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصية لما قلناه أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية، وإذا كان رقيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استأثروا إليه ولاذوا به وأشربوا غيته واستأثروا دونه في غارة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب.

وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم،

الملك منصب طبيعي للإنسان؛ لأننا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم، وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمنعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك، فيقع النزاع المفضي إلى المقاتلة وهي تؤدي إلى المرح وسفك الدماء وإذهاب النفوس المفضي ذلك إلى انقطاع النوع، وهو مما خصه البارئ سبحانه بالحفاظة واستحالة بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم، ولا بد في ذلك من العصية لما قدمناه من أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم إلا بالعصية، وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج إلى المدافعات. ولا يتم شيء من ذلك إلا بالعصيات كما مر، والعصيات متفاوتة، وكل عصية فلها تحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها وليس الملك لكل عصية، وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعد الرعية ويحيي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة، وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور، فمن قصرت به عصيته عن بعضها مثل حاية الثغور أو جباية الأموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغالة بالقيروان والملوك العجم صدر الدولة العباسية. ومن قصرت به عصيته أيضاً عن الاستعلاء على جميع العصيات، والضرب على سائر الأيدي

خلوا من قبل.

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقرها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ فالمقصود بهم إما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم: ﴿صِرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فجاءت الشرائع بمحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع.

فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في مرعاهما فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية، وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً لأنه نظر بغير نور الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال ﷺ: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم». وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهراً من حياة الدنيا، ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة، وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، فافهم ذلك واعتبره فيما نوره عليك من بعد والله الحكيم العليم.

فالمداخلة بها تتم حقيقة الملك، وأما النعمة عليهم والإحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير من التجب إلى الرعية، واعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق في من يكون يقطاً شديد الذكاء من الناس وأكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل، وأقل ما يكون في اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم وإطلاعه على عواقب الأمور في مبادئها بالمعينة فيهلكون، لذلك قال ﷺ «سيروا على سير أضعفكم». ومن هذا الباب اشترط الشارع في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء، ومأخذه من قصة زياد ابن أبي سفيان لما عزله عمر عن العراق وقال: لم عزلني يا أمير المؤمنين لعجز أم لحياة فقال؟ عمر: لم أعزلك لواحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس؛ فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه، كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين.

وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة، لأنه إفراط في الفكر كما أن البلاء إفراط في الجمود، والطرفان مذمومان من كل صفة إنسانية، والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التذير والبخل، وكما في الشجاعة مع الهروج والجبن وغير ذلك من الصفات الإنسانية، ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال: شيطان ومتشيطان وأمثال ذلك، والله يخلق ما يشاء وهو العليم القدير.

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والإمامة

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر للذاتان هما من آثار الغضب والحيوانية، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجففة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهوته، ويختلف في ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم، فتعسر طاعته لذلك وتحية العصبية المضية إلى المهرج والقتل، فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة ويقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم، وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستب أمرها ولم يتم استيلاؤها، سنة الله في الدين

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا

المنصب وشروطه

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً، فاما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به؛ ولهذا يقال: الإمامة الكبرى.

وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال: خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله؛ واختلف في تسميته خليفة الله.

فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾.

ومنع الجمهور منه؛ لأن معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال: لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ. ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب، وأما الحاضر فلا.

ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعه أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك، ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام. وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوب العقل، وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه.

قالوا: وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين، ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض. فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى المخرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية، وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فساده، وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشر من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم؛ لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة، ولو لم يكن شرع كما في أمم الجحوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو تقول: يكفي في

رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل، فادعائهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح، بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظام، فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة، فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمناه.

وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع، منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم، والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع، فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم ينتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالإجماع. والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة تمتلئة بدم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه.

واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به؛ إنما ذم الفساد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع بالذات، ولا شك أن في هذه مفساد محظورة وهي من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك.

فإذا إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى، ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين، وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليه، وإنما المراد تصريفهما على مقتضى الحق.

وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده، ثم نقول لهم: إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا المنصب لا يفتيكهم شيئاً؛ لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصية والشوكة، والعصية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك، وإن لم ينصب إمام وهو عين ما قررتم منه.

وإذا تقرر أن هذا المنصب واجب بإجماع فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والخل، فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ مَنكُمْ﴾.

وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء، مما يؤثر في السراي والعمل.

واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي.

الترف والتعظيم وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم، فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة». وهذا لا تقوم به حجة في ذلك، فإنه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة؛ ومثل قول عمر: لو كان سالم مولى حذيفة حياً لرأيت. أو: لما دخلتني فيه الظنة. وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة، وأيضاً «فمولى القوم منهم» وعصية الولاء حاصلة لسالم في قریش وهي الفائدة في اشتراط النسب، ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه، عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصية كما نذكر، ولم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه، إذ الفائدة في النسب إنما هي للعصية وهي حاصلة من الولاء، فكان ذلك حرصاً من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة.

ومن القائلين بنفي اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصية قریش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية، وإن كان موافقاً لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهد، وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشي، ولو كان عاجزاً عن القيام بأمر المسلمين ورؤد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره؛ لأنه إذا ذهبت الشوكة بنهاب العصية فقد ذهبت الكفاية، وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضاً إلى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع.

ولتلكم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول: إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لأجلها، ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي ﷺ كما هو في المشهور، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلاً، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت، فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها وإذا سبرنا وقسمنا لم نجلها إلا اعتبار العصية التي تكون بها الحماية والمطالبة، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها،

فأما اشتراط العلم فظاهر؛ لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها، وما لم يعلمها لا يصح تقديمها، ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال.

وأما العدالة؛ فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها، فكان أولى باشتراطها فيه.

ولاخلاف في انتقاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف.

وأما الكفاية فهو أن يكون جزئياً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها كفيلاً بحمل الناس عليها، عارفاً بالعصية وأحوال الدهاء، قوياً على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح.

وأما سلامة الخواص والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل كفقْد اليدين والرجلين والأثنين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه، وإن كان إنما يشين في المنظر فقط، كفقْد إحدى هذه الأعضاء، فشرط السلامة منه شرط كمال، ويلحق بفقْدان الأعضاء المنع من التصرف، وهو ضربان:

ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو الفهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه.

وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاققة، فينتقل النظر في حال هذا المستولي، فإن جرى على حكم الدين والعدل وحيد السياسة جواز قراره وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع عنه حتى ينفذ فعل الخليفة.

وأما النسب القرشي فلإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك، واحتجت قریش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباد وقالوا: منا أمير ومنكم أمير. بقوله ﷺ: «الأئمة من قریش». وبأن النبي ﷺ أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن سيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الرصية بكم؛ فحجوا الأنصار ورجعوا عن قولهم: منا أمير ومنكم أمير. وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك. وثبت أيضاً في الصحيح: «لا يزال هذا الأمر في هذا الجلي من قریش» وأمثال هذه الأدلة كثيرة. إلا أنه لما ضعف أمر قریش وتلاشت عصيتهم بما نالهم من

لم يكن لمن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن، اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه، فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس، ثم إن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي، والله تعالى أعلم.

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة

اعلم أن الشيعة لغة: هم الصحب والأتباع.

ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهاذة السنة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة، وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي، فالجلي مثل قوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه». قالوا: ولم تطرد هذه الولاية إلا في علي؛ ولهذا قال له عمر: أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة، ومنها قوله: «أقضاكم علي» ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجبة طاعتهم بقوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم». والمراد الحكم والقضاء، ولهذا كان حكماً في قضية الإمامة يوم السقيفة دون غيره، ومنها قوله: «من يبايعني على روجه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدي» فلم يبايعه إلا علي.

ومن الخفي عندهم بحث النبي ﷺ علياً لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت، فإنه بعث بها أولاً أبا بكر ثم أوحى إليه لينبئه رجل منك أو من قومك، فبعث علياً ليكون القارئ المبلغ قالوا: وهذا يدل على تقديم علي. وأيضاً فلم يعرف أنه قدم أحداً على علي. وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمر بن العاص أخرى، وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره، فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم، ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على

ويتنظم حبل الألفة فيها وذلك أن قريشاً كانوا عصبية مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم، فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكثرة فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة.

والشارع عذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع النزاع والشتات بينهم، لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش؛ لأنهم قادرون على سوق الناس بعضا الغلب إلى ما يراود منهم، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة؛ لأنهم كفيلون حيثشذ بدفعها ومنع الناس منها، فاشتراط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة، وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع، فأذن لهم سائر العرب، واتقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة، ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوح واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب، ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم.

وقد ذكر ذلك ابن إسحاق في كتاب «السير» وغيره، فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع النزاع بما كان لهم من العصبية والغلب، وعلماً أن الشارع لا ينص الأحكام بجبل ولا عصر ولا أمة، علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية، وهي وجود العصبية، فاشتربنا في القائم بأمر المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبية على من معها لعصرها، ليستبوعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية، ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية، إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت واقية بها فغلبوا سائر الأمم، وإنما ينحصر لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة، وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا؛ لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويرددهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا مخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه، ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع. وإنما دخلن عنده بالقياس، وذلك لما

تعيين علي وتشخيصه. وكذلك تنتقل منه إلى من بعده، وهؤلاء هم الإمامية ويترأون من الشيخين، حيث لم يقدموا علماً ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص وينمضون في إمامتهما، ولا يلتفت إلى نقل القدر فيها من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم.

ومنهم من يقول: إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه، وهؤلاء هم الزيدية ولا يتبرؤون من الشيخين ولا ينمضون في إمامتهما مع قولهم بأن علماً أفضل منهما؛ لكنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد علي: فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنسب عليهم واحداً بعد واحد على ما يذكر بعد، وهؤلاء يسمون الإمامية نسبة إلى مقالاتهم باشرط معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان، وهي أصل عندهم،

ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيخ، ويشترط أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً داعياً إلى إمامته، وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين السبط، وقد كان يناظر أخاه محمداً الباقر على اشتراط الخروج في الإمام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين إماماً؛ لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعي عليه مذاهب المعتزلة وأخذها إياها عن واصل بن عطاء، ولما ناظر الإمامية زيداً في إمامة الشيخين وراؤه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة، وبذلك سمو رافضة.

ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما محمد بن الحنفية ثم إلى ولده، وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولا، وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصاراً.

ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بالوهمية هؤلاء الأئمة. إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل في ذاتهم البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصاري في عيسى صلوات الله عليه، ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه، فصرح بلعته والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه.

ومنهم من يقول: إن كمال الإمام لا يكون لغيره فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال، وهو قول

بالتناسخ.

ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوز إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم، وهؤلاء هم الواقفية،

فبعضهم يقول: هو حي لم يموت إلا أنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر، قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه أنه في السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية، وإنه في جبل رضوى من أرض الحجاز.

وقال شاعرهم.

الا إن الأئمة من قريش ولاية الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بيته هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبتة كرسلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الجيش بقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده غسل وماء

وقال مثله غلاة الإمامية وخصوصاً الاثنا عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملاً الأرض عدلاً، يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي، وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمون المنتظر لذلك، ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قوّموا مركباً فيهمون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم يتفوضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد.

وبعض هؤلاء الواقفية يقول: إن الإمام الذي مات يرجع إلى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف، والذي مر على قرية، وقتل بني إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها، ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها، وكان من هؤلاء السيد الحميري، ومن شعره في ذلك: إذا ما المرء شاب له قنال وعلله المواصل بالخصاب فقد ذهبت بشاشته وأودى قم يا صاح نبك على الشباب إلى يوم تزوب الناس فيه إلى دنياهم قبل الحساب فليس بعائد ما فات منه إلى أحد إلى يوم الإياب أدين بأن ذلك ليس حق وما أنا في النشور بذئ ارتياب

إدريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم.

وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد، ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الأطروش منهم، وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي، فكانت لبنيه بطبرستان دولة، وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر في أخبارهم.

وأما الإمامية فساقوا الإمامة من علي الرضى إلى ابنه الحسن بالوصية، ثم إلى أخيه الحسين، ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افرقتين، فرقة ساقوها إلى ولده إسماعيل ويعرفونه بينهم بالإمام وهم الإسماعيلية، وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان كما مر.

فأما الإسماعيلية فقالوا بإمامة إسماعيل الإمام بالنص من أبيه جعفر، وفائدة النص عليه عندهم وإن كان قد مات قبل أبيه إنما هو بقاء الإمامة في عقبه كقصة هارون مع موسى صلوات الله عليهما، قالوا: ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكنوم وهو أول الأئمة المستورين؛ لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستر وتكون دعاته ظاهرين إقامة للحجة على الخلق، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا: وبعد محمد المكنوم ابنه جعفر الصادق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين، وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في كتامة وتسابيع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم.

ويسمى هؤلاء الإسماعيلية نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل ويسمون أيضاً بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام الباطن، أي المستور، ويسمون أيضاً الملحدة لما في ضمن مقالهم من الإلحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا إليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة وملك حصوناً بالشام والعراق ولم تنزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت. ومقالة هذا الصباح في دعوته المذكورة في كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني.

كذلك الله أخبر عن أناس حيوا من بعد درس في السراب وقد كفانا مؤونة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة، فإنهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها.

وأما الكيسانية فساقوا الإمامة من بعد محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم، وهؤلاء هم الهاشمية، ثم افرقوا، فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه علي ثم إلى ابنه الحسن بن علي. وآخرون يزعمون أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفاً من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام، وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح، وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم، وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس، وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية، وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس؛ لأنه كان حياً وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصية العمومة.

وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص، فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب، وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل وصلب بالكاسية، وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية، فخرج بالحباز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى، وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته.

وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر، وعمر هو أخو زيد بن علي، فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسبق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه، وقال آخرون من الزيدية أن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع منصور ونقلوا الإمامة في عقبه وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم.

وقال آخرون من الزيدية: إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوة إدريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك وقام بأمر ابنه

ويطل الجهاد وإعلاء كلمة الله، وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة، فإذا كان الغضب لذلك كان مذموماً، وإذا كان الغضب في الله و الله كان ممدوحاً وهو من شمائله ﷺ.

وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطالها بالكلية، فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه، وإنما المراد تصريفها فيما أبيح له باشماله على المصالح ليكون الإنسان عبداً متصرفاً طوع الأوامر الإلهية، وكذا العصية حيث ذمها الشارع وقال ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أُولَادَكُمْ﴾، فإنما مراده حيث تكون العصية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية، وأن يكون لأحد فخر بها أو حق على أحد لأن ذلك مجاب من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار، فاما إذا كانت العصية في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع إذ لا يتم قوامها إلا بالعصية كما قلناه من قبل، وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات كما قلناه، فلو كان الملك مخلصاً في غلبه للناس أنه الله وحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً.

وقد قال سليمان صلوات الله عليه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْفِي لِي أَحَدٌ مِنْ بَعْدِي﴾. لما علم من نفسه أنه معزول عن الباطل في النبوة والملك.

ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال: أكسروية يا معاوية! فقال: يا أمير المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة. فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين، فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقتنع الجواب في تلك الكسروية وانتحالها، بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة، وإنما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبيله والغفلة عن الله، وأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم، وإنما قصده بها وجه الله فسكت، وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذراً من التباسها بالباطل.

فلما استحضر رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر على الصلاة إذ هي أهم أمور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهي حمل الكافة على أحكام الشريعة ولم يجز للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين، فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على

وأما الاثنا عشرية خصوا باسم الإمامية عند المتأخرين منهم فقالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر إسماعيل الإمام في حياة أبيهما جعفر فنص على إمامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد إليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر، ثم ابنه محمد التقي، ثم ابنه علي الهادي، ثم ابنه محمد الحسن العسكري، ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل.

وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعا اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهبهم، ومن أراد استيعابها ومطالعها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما، ففيهما بيان ذلك، والله يفضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير.

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة إلى الملك

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصية ليس وقوعه عنها باختيار، إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل، وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصية، إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه.

فالعصية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح: «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه» ثم وجدنا الشارع قد ذم العصية وندب إلى إطراحها وتركها فقال: «إن الله أذهب عنكم عيبه الجاهلية وفخرها بالآباء، أنتم بنو آدم وآدم من تراب»، وقال تعالى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ووجدناه أيضاً قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلق والإسراف في غير القصد والتكبر عن صراط الله، وإنما حض على الألفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة، واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول، وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية، إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقاً وتتحد الوجهة كما قال ﷺ: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». فلم يذم الغضب وهو يقصد نزع من الإنسان، فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق

الإسلام.

متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً، وخلف زيد بن ثابت من القصة والنهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار، وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والإسكندرية، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنها بالحصن والأجر والساج، وبنى مسعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها بمحصة الظاهر والباطن، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم أهـ. كلام المسعودي.

فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعياً عليهم في دينهم، إذ هي أموال حلال لأنها غنائم وفيء ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف، إنما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلناه، فلم يكن ذلك بقادح فيهم وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً، وإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف والخروج به عن القصد، وإذا كان حالهم قصداً ونفقاتهم في سبيل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عروناً لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة، فلما تدرجت البدواة والغضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العvisية كما قلناه وحصل التغلب والفهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الأموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق.

ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العvisية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم ويتزعززع إليه ملحد، وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فافتتلوا عليه، وإن كان المصيب علياً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل، إنما قصد الحق وأخطأ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق.

ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العvisية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتضاء الحق من اتباعهم فاعصو صوبوا عليه واستماتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتآلفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة، وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر: «لو كان لي من الأمر شيء لوليت الخلافة» ولو أراد أن

ثم عهد إلى عمر فاقضى أثره وقاتل الأمم فغلبهم وأذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه، وانتزعوه منهم، ثم صارت إلى عثمان بن عفان، ثم إلى علي رضي عنهما والكل متبرئون من الملك متكببون عن طريقه.

وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الإسلام وبدواة العرب فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفعها لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الزهد في النعيم ولا من حيث بدواتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفة الذي القوه.

فلم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر لما كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الأرياف وجبوا لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتناولون إلى خصبها، ولقد كانوا كثيراً ما ياكلون العقارب والخنافس ويفخرون بكل العلهز وهو وير الإبل يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه، وقريباً من هذا كانت حال قریش في مطاعهم ومساكنهم.

حتى إذا اجتمعت عvisية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد ﷺ زحفوا إلى أمم فارس والبروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم، فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد، وكان علي يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غري، وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعدها للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة، وإنما كانوا ياكلون الحنطة بنخالها ومكاسيهم مع هذا أتم ما كانت لأحد من أهل العالم.

قال المسعودي: في أيام عثمان أقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بسوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة؛ وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك، وكان على مرتبط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم؛ وبلغ الربع من

سليمان فكان همه بطنه وفرجه، وأما عمر فكان أعور بين عميان، وكان رجل القوم هشام، قال: ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحرقونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسلمهم معالي الأمور ورفضهم دنياها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلاً باستدراجه وأمناً لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز والبسهم الذل ونفى عنهم النعمة، ثم استحضر عبد الله بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فأراً أيام السفاح قال: أمنت ملياً ثم أتاني ملكهم فقعده على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت له: ما منعك من القعود على ثيابنا؟ فقال: إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله، ثم قال: لم تشرّبوا الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم، قال: فلم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال: فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم؟ قلت: ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا؛ فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا، ثم رفع رأسه إلي وقال: ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز والبسكم الذل بذنوبكم والله نعمة ما تبلغ غايها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم بيلدي فينالي معكم، ولما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضي؛ فتعجب المنصور وأطرق.

فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك، وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة،

فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من مل السيوف بين السلمين مخافة الفرقة وحفظاً للألفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه.

وهذا علي أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره، وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فراراً من الغش الذي ينافيه الإسلام وغدا عليه المغيرة

يعهد إليه لفعل، ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحبل والعقد لما ذكرناه، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لثلاث تقع الفرقة. وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العvisية، فالملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك تكبر عليه، ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم الانفراد به، وكانوا ما علمت من النبوة والحق، وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم. فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحاً ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا الله لمعاوية من ذلك.

وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنما كانوا متحررين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم فقد احتج مالك في «الموطأ» بعمل عبد الملك.

وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدلتهم معروفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده ولم يهمل. ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها، فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم وولي رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح، ثم أفضى الأمر إلى بينهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبدوا الدين وراءهم ظهرياً، فتأذن الله بحربهم وانتزع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه، والله لا يظلم مثقال ذرة.

ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه، وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال: أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي بما صنع، وأما

بيعة النبي ﷺ ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ، ومنه بيعة الخلفاء، ومنه إيمان البيعة، كان الخلفاء يستحلون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك فسمي هذا الاستيعاب إيمان البيعة وكان الإكراه فيها أكثر وأغلب؛ ولهذا لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة عليه ورأوها قاذحة في إيمان البيعة، ووقع ما وقع من عنة الإمام رضي الله عنه.

وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل، أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغني بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتذال المنافين للرياسة وصون المنصب الملوكي، إلا في الأقل ممن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته، فافهم معنى البيعة في العرف فإنه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه، ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك، والله القوي العزيز.

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

اعلم أننا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة، وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم وديناهم، فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاهم، ويتقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل، وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم.

وكذلك عهد عمر في الشورى إلى الستة بقية العشرة، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين قفوز بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علي، فأثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعن دون اجتهداه، فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملا من

من الغداة فقال: لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت، فقال علي: لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالأمس وغششتي اليوم، ولكن منعي مما أشرت به ذائد الحق؛ وهكذا كانت أحوالهم في اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحو: نرفع ديننا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصية وسيفاً، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها، وصار الأمر ملكاً مجتأً وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتغلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصية العرب، والخلافة والملك في الطورين ملتبسين ببعضهما ببعض، ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكاً مجتأً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم، وليس للخليفة منه شيء، وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيدين ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيدين بالقيروان، فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً ثم التيسر معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصيته من عصية الخلافة، والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار.

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة

اعلم أن البيعة: هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازع في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره؛ وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يديه تأكيداً للعهد، فأنشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة، مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في

غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعاً وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف.

سأل رجل علياً رضي الله عنه: ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر؟ فقال: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي وأنا اليوم وال على مثلك. يشير إلى وازع الدين، أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته ويابعوا لعنه إبراهيم بن المهدي وظهر من المهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد ورد أمرهم لمعاهده، فلا بد من اعتبار ذلك في العهد، فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لطفاً من الله بعباده.

وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية، إذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفاً من العبث بالمناصب الدينية، والملك لله يؤتية من يشاء، وعرض هنا أمور تدعو للضرورة إلى بيان الحق فيها.

فالأول منها: ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته، فإياك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد، فإنه أعدل من ذلك وأفضل، بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه وهو أقل من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة، ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حيثشذ في شأنه، فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك، ومنهم من أباه لما فيه من إثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به؛ لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصابة بني أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش وتستعصب عصبية مضر أجمع، وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فأقصرُوا عن يزيد بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهديته والراحة منه، وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين، فمقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم.

والأمر الثاني: هو شأن العهد مع النبي ﷺ وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل، والذي وقع في «الصحیح» من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية، وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح

الصحابة حاضرون للأولى والثانية ولم ينكره أحد منهم، فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والإجماع حجة كما عرف.

ولا يُتهم الإمام في هذا الأمر وأن عهد إلى أبيه أو ابنه؛ لأنه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يَحتمل فيها تبعاً بعد مماته خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد، فإنه بعيد عن الظنة في ذلك كله لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه من إشار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأساً كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وإن كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب، والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أمواتهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حيثشذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى الفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع.

وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحته مانعة من سوى ذلك.

وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكونهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسا ممن يأخذهم في الحق هواده وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه، وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحاً كان أو محظوراً كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير وتدور المخالف معروف، ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به، مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمصور والمهدي والرشد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك، فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك، وكان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه. وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباتي، فلو عهد إلى

والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها.

والأمر الثالث: شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين، فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المتعبرة والمجتهدون إذا اختلفوا.

فإن قلنا: إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ، فإن جهته لا تتعين بإجماع، فيبقى الكل على احتمال الإصابة ولا يتعين المخطئ منها، والتائب مدفوع عن الكل إجماعاً.

وإن قلنا: إن الكل على حق وإن كل مجتهد مصيب، فأحرى بنفي الخطأ والتائب وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه.

والذي وقع من ذلك في الإسلام إنما هو واقعة عليّ مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة، وواقعة الحسين مع يزيد، وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك.

فأما واقعة عليّ فإن الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في الأمصار فلم يشهدوا بيعة عليّ والذين شهدوا، فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفصالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعته أيضاً إلى الطلب بدم عثمان، وتركوا الأمر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه، وظنوا بعليّ هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قائله لا في المبالاة عليه فحاش لله من ذلك، ولقد كان معاوية إذا صرح بملامته إنما يوجهها عليه في سكوته فقط، ثم اختلفوا بعد ذلك فرأى عليّ أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي ﷺ وموطن الصحابة وأرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك،

ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد لانفراق الصحابة أهل الحل والعقد بالأفاق ولم يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد، ولا تلزم بعقد من تولاهم من غيرهم أو من القليل منهم، وإن المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون أولاً بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام، وذهب إلى هذا معاوية وعمرو بن العاص وأم

على أنه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال: إن أعهد فقد عهد من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني النبي ﷺ - لم يعهد؛ وكذلك قول عليّ للعباس رضي الله عنهما حين دعاه للدخول إلى النبي ﷺ يسألانه عن شأنهما في العهد، فأبى عليّ من ذلك وقال: إنه إن منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر؛ وهذا دليل على أن علياً علم أنه لم يوص ولا عهد إلى أحد وشبهة الإمامية في ذلك، إنما هي كون الإمامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك، وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق، ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة، ولكن يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة، ولكن يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة.

واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله ﷺ لدينا أفلا نرضاه لدينانا، دليل على أن الوصية لم تقع. وبدل ذلك أيضاً على أن أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهماً كما هو اليوم، وشأن العصية المراجعة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يؤمّن بذلك الاعتبار؛ لأن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه، وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم، وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم، فلم يحتاج إلى مراعاة العصية لما شمل الناس من صيغة الانقياد والإذعان وما يستفهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الإلهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجوا منها ودهشوا من متابعتها.

فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القليل كما وقع، فلما انحصر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بفناء القرون الذين شاهدها فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان، فاعتبر أمر العصية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد، وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهماً من المهمات الأكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل.

فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي ﷺ غير مهمة فلم يعهد فيها، ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة ببعض الشيء بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات، فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للألفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصية التي هي سر الوازع عن الفرقة

كما علموه، فلم يقطع الطعن من أهل الأمصار ومازالت الشناعات تنمو، ورمي الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان وعزلة، ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال وشكوا إلى عائشة وعلي والزبير وطلحة، وعزل لهم عثمان بعض العمال، فلم تقطع بذلك الستهم بل وفد سعيد بن العاصي وهو على الكوفة، فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً، ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة وتقموا عليه امتناعه عن العزل، فأبى إلا أن يكون على جرحه، ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله وهو متمسك بالاجتهاد وهم أيضاً كذلك، ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاؤوا إلى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر، وقام معهم في ذلك علي وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلاً، ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوة في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم، وحلف عثمان على ذلك فقالوا: مكنّا من مروان فإنه كاتبك، فحلف مروان فقال عثمان: ليس في الحكم أكثر من هذا فحاصروه بداره؛ ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وافتتح باب الفتنة.

فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته، ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على أحوالهم وعالم بهم، ونحن لا ننظر بهم إلا خيراً لما شهدت به أحوالهم ومقالات الصادق فيهم.

مقتل الحسين بن علي

وأما الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره، فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لاسيما من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه بأهليته وشوكته، فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة، وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها؛ لأن عصية مضر كانت في قريش وعصية قريش في عبد مناف وعصية عبد مناف إنما كانت في بني أمية، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه، وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما شغل الناس من الذهول بالخراروق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين، فأغفلوا أمور عواندهم وذهبت عصية الجاهلية

المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعيد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا، إلا أن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رايه فيما ذهب إليه وتعيين الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رايه، وخصوصاً طلحة والزبير لانتفاضهما على علي بعد البيعة له فيما نقل مع دفع التائيم عن كل من الفريقين، كالشان في المجتهدين، وصار ذلك إجماعاً من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل العصر الأول كما هو معروف.

ولقد سئل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال: والذي نفسي بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه نقي إلا دخل الجنة يشير إلى الفريقين؛ نقله الطبري وغيره، فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك، فهم من علمت، وأقوالهم وأفعالهم إنما هي عن المستندات، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة إلا قولاً للمعتزلة فيمن قاتل علياً لم يلتفت إليه أحد من أهل الحق ولا عرج عليه.

وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان واختلاف الصحابة من بعد، وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة بينما المسلمون قد أذهب الله عدوهم وملكتهم أرضهم وديارهم ونزلوا الأمصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ ولا هذبته سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من الجاهلية من الجفاء والعصية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان، وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار من قريش وكثانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب، السابقين الأولين إلى الإيمان فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والأزد من اليمن وغميم وقيس من مضر فصاروا إلى الغرض من قريش والأئمة عليهم، والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداد عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدل في القسم عن التسوية، وفشت المقالة بذلك وانتهت إلى المدينة وهم من علمت فأعظموه وأبلغوه عثمان فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر.

بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الأمراء شيئاً ولا رأوا عليهم طعناً، وأدوا ذلك

والعادل، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!!

وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه ما رآه الحسين وظن كما ظن، وغلطه في أمر الشراكة أعظم؛ لأن بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا إسلام. والقول بتعين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل إليه؛ لأن الإجماع هنالك قضى لنا به ولم نجد هاهنا. وأما يزيد فعين خطاه فسقه. وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك بعدالته احتجاج مالك بقلعه وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز، مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لم تنعقد؛ لأنه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون عموماً على الحق في الظاهر وإن لم يتعين في جهة منهما، والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يبيح على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق.

هذا هو السذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والذي يقول: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، مرتين، أو ثلاثاً ثم يفسد الكذب» فجعل الخيرة وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه، فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك، وما اختلفوا إلا عن بينة، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق، واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقندي كل واحد بمن يختاره منهم ويعمله إمامه وهاديه ودليله، فافهم ذلك وتبين حكمته الله في خلقه وأكوانه، واعلم أنه على كل شيء قدير وإليه الملجأ والمصير والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين: أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها.

ومنازعتها ونسبت ولم يبق إلا العصية الطبيعية في الحماية والدفاع يتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين، والدين فيها محكم والعادة معزولة حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد، فعادت العصية كما كانت ولما كانت وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل.

فقد تبين لك غلط الحسين إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه؛ لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك، ولقد عدله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة وعلموا غلظه في ذلك ولم يرجع عما هو بسيله لما أراده الله.

وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فراءوا أن الخروج على يزيد، وإن كان فاسقاً، لا يجوز لما ينشأ عنه من المرحج والدماء فأقصرنا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أنموه؛ لأنه مجتهد وهو أسوة المجتهدين.

ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثير هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره، فإنهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه، وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكر بلاء على فضله وحقه ويقول: سلوا جابر بن عبد الله وأبسا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك؛ لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه، وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحذ الشافعي والمالكي والحنفي على شرب النبيذ، واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقولن: إن يزيد وإن كان فاسقاً ولم يجوز هؤلاء الخروج عليه، فأفعاله عندهم صحيحة، واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعاً وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل وهو مفقود في مسألتنا، فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد.

وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بـ «العواصم والقواصم» ما معناه أن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام

وأما المساجد المختصة بقوم أو علة فأمرها راجع إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان، وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه وبسبوبة في كتب الأحكام السلطانية للماوردي وغيره فلا نطول بذكرها، ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس. وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها. يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخلفون فيها. وكذا كان رجال الدولة الأموية من بعدهم استثناءً بها واستعظماً لرتبتها.

يحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه: قد جعلت لك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: صاحب الطعام، فإنه يفسد بالتأخير، والأذن بالصلاة فإنه داع إلى الله، والبريد فإن في تأخيره فساد القاصية.

فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم وديناهم استتابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الأحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة إشادةً وتنوياً فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعيديين صدر دولتهم.

وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانة على ذلك ومنع من ليس أهلاً لها وزجره؛ لأنها من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس. وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبشه والجلوس لذلك في المساجد، فإن كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها أو النظر في أمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك، وإن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن. على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل فيدل به المستهدي ويضل به المسترشد، وفي الأثر «أجروكم على الفتيا أجروكم على جرائم جهنم» فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجه المصلحة من إجازة أو رد.

وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة؛ لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلفة من الكتاب والسنة، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها، وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم. وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء فيه بالمدينة، وولى شريحاً بالبصرة، وولى أبا موسى

وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري، وقد قدمنا أن هذا العمران ضروري للبشر، وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد إن أهملت، وقدمننا أن الملك وسببته كاف في حصول هذه المصالح، نعم إنما تكون أكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية؛ لأنه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يتدرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ويكون من تابعها، وقد يفرد إذا كان في غير الملة، وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خطأ وتوزع على رجال الدولة ووظائف، فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه، وأما المنصب الخلفائي وإن كان الملك يتدرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يخص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين، فلنذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية.

فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، فكانها الإمام الكبير والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ أحكام المشرع فيها على العموم.

فأما إمامة الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة. ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله ﷺ لدينا أفلا نرضاه لديننا؟ فلولاً أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان:

مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة. وأخرى دونها مختصة بقوم أو علة وليست للصلوات العامة.

فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفرض إليه من سلطان أو من وزير أو قاض فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك إنما هو من طريق الأولى والاستحسان ولئلا يفتات الرعايا عليه في شيء من النظر في المصالح العامة، وقد يقول بالجوب في ذلك من يقول بجوب إقامة الجمعة، فيكون نصب الإمام لها عنده واجباً.

وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة عمتجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي، وكأنه يضي ما عجز القضاء أو غيرهم عن إمضائه، ويكون نظره في البيانات والتقارير واعتماد الأمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي.

وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهدي من بني العباس، وربما كانوا يجعلونها لقضائهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي أدريس الخولاني، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكرم، والمعتصم لأحمد بن أبي دواد وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف، وكان يحيى بن أكرم يخرج أيام المأمون بالصانفة إلى أرض الروم، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس، فكانت توليه هذه الوظائف إما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب.

وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعبيديين بمصر والمغرب راجعاً إلى صاحب الشرطة، وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القسود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم يته عن الجريمة.

ثم تنوسي شأن هاتينوظيفتين في الدول التي تنوسي فيها أمر الخلافة، فصار أمر المظالم راجعاً إلى السلطان، كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن، وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين: منها وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين، ونُصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية؛ ويسمى تارة باسم السوالي وتارة باسم الشرطة، وبقي قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً، فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفة ولايته واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك، وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصية الدولة؛ لأن الأمر لما كان خلافةً دينيةً وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصيتهم من العرب مواليهم بالخلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفائته أو غناؤه فيما يدفع إليه، ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كله ملكاً أو سلطاناً

الأشعري بالكوفة، وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه.

يقول: أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وكذلك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يئأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، ولا يمتنع قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينةً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيته أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنياً في نسب أو ولاء، فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان ودرا بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم، فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر والسلام. انتهى كتاب عمر.

وإنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة، ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تحفيظاً على أنفسهم، وكانوا مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك.

وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة في كتب الفقه وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية. إلا أن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط، ثم دنع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدرج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيتام عند فقد الأولياء على رأي من رآه، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصنع الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته.

في الدين وتعظيم من يتسبب إليه بأي جهة انتسب.

وأما قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» فاعلم أن الفقهاء في الأغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالاً في كيفية الأعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها، هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالأقل منها وفي بعض الأحوال. والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافاً بها وتحققاً بمذاهبها.

فمن حملها اتصافاً وتحققاً دون نقل فهو من الوارثين، مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة، مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على أثرهم، وإذا انفرد واحد من الأئمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالورثة من الفقيه الذي ليس بعابد، لأن العابد ورث بصفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئاً إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفية العمل، وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ».

العدالة:

وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصرفه، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم، تحملاً عند الإشهاد وأداءً عند التنازع وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشروط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها، ومن جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها، فيحتاج حيثن إلى ما يتعلق بذلك من الفقه، ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من الماران على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول، وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك، وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة.

ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم، وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس، فالهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن ذكره، وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاء بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال واضطرار القضاء إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة،

صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء؛ لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه، ثم خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر، فازدادت هذه الخطط الخلافية بعداً عنهم بمنحها وعصبيتها. وذلك أن العرب كانوا يرونه أن الشريعة دينهم، وأن النبي ﷺ منهم وأحكامه وشرائعه نخلتهم بين الأمم وطريقهم، وغيرهم لا يرون ذلك إنما يولونها جانباً من التعظيم لما دانوا بالملة فقط. فصاروا يقلدونها من غير عصبائهم ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة، وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذ متين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعهم، وقلة الممانعة عن أنفسهم، وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار، ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة، فلحقهم من الاحتقار ما لحق الخضر المنغمسين في الترف والدعة، البعداء عن عصية الملك الذين هم عيال على الحماية، وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة، لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها. ولم يكن إثارهم في الدولة حيثن إكراماً لذواتهم، وإنما هو لما يُلْمَح من التجميل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية، ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء، وإن حضروه فحضور رسمي لا حقيقة وراءه، إذ حقيقة الحل والعقد إنما هي لأهل القدرة عليه، فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه. اللهم إلا أخذ الأحكام الشرعية عنهم، وتلقي الفتاوى منهم فنعم، والله الموفق.

وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك، وأن فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه، وحكم الملك والسلطان إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران وإلا كان بعيداً عن السياسة. فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضي لهم شيئاً من ذلك، لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك، وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا من حمايتها، وإنما هو عيال على غيره فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها، اللهم إلا شوراه فيما يعلمه من الأحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة. وأما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها، وإنما إكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد

حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة، فإن السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غايته، وإنما ترجع غايته إلى الاجتهاد، فإذا وقف أهل أفق أو قطر على غايته من التخليص وقفوا عندها وسموها إماماً وعباراً يعتبرون به نقودهم ويتقدونها بمائثلته، فإن نقص عن ذلك كان زيفاً.

والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة، وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضي، ثم أفردت لهذا العهد كما وقع في الحسبة.

هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية وبقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية، فوظيفة الإمارة والوزارة والحرب والخراج صارت سلطانية تنكلم عليها في أمكانها بعد وظيفة الجهاد، ووظيفة الجهاد بطلت بطلانه إلا في قليل من الدول يمارسونه ويدرجون أحكامه غالباً في السلطانيات.

وكذا نقابة الأنساب التي يتوصل بها إلى الخلافة أو الحق في بيت المال قد بطلت لثغور الخلافة ورسومها، وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد، والله مصرف الأمور كيف يشاء.

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بأمر المؤمنين وإنه من سمات الخلافة

وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك أنه لما بويغ أبو بكر رضي الله عنه وكان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ﷺ ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك، فلما بويغ لعمر بعهدته إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله ﷺ. وكانهم استقلوا هذا اللقب بكثرة وطول إضافته وأنه يتزايد فيما بعد دائماً إلى أن ينتهي إلى الهجته، ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات وكثرتها فلا يُعرف، فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله، وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة، وقد كان الجاهلية يدعون النبي ﷺ أمير مكة وأمير الحجاز، وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين

فيقولون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف، ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يُختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب.

وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح، وقد يتواردان ويفترقان، والله تعالى أعلم.

الحسبة والسكة

أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات ويعزز ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحماليين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل الباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه، وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها في المكايل والموازين، وله أيضاً حمل الماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم.

وكانها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء، وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل العبيدين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاماً في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية.

وأما السكة فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها عما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الاعتبارات، ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجداء والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونُقش فيه نقوش خاصة به، فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة

يومئذ.

هي مركز العصية، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس، حتى إذا جاء عبد الرحمن (الداخل) الآخر منهم (وهو الناصر بن محمد بن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط) لأول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرك من الحجر واستبداد الموالي وعيهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل، ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرك وإفريقية، وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله. وأخذت من بعده عادة ومذهباً لقن عنه ولم يكن لأبائه وسلف قومه.

واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس، والصنائع على العبيدين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء إفريقية، وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية، واقتسموه، وافترق أمر الإسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والشرق في الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعاً باسم السلطان.

فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بالألقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم، مثل شرف الدولة وعُضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه، وكان العبيدون أيضاً يخصون بها أمراء صنهاجة، فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتحافوا عن ألقاب الخلافة أدباً معها وعدولاً عن سمتها المختصة بها شأن المغلبين المستبدين كما قلناه قبل.

ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان، وتلاشت عصية الخلافة واضمحلت بالجملة إلى اتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الإتحال مشعرة بالخروج عن رتبة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط فيقولون: صلاح الدين، أسد الدين، نور الدين.

وأما ملوك الطوائف بالأندلس فاقسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها بقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبلها وعصيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها، كما قال ابن أبي شرف ينعي عليهم:

عما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتمد ألقاب ملكة في غير موضعها كالمحكي انتفاخاً صورة الأسد

واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين، فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به، يقال: إن أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل: عمرو بن العاصي والمغيرة بن شعبة، وقيل: يزيد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول: أين أمير المؤمنين، وسمعتها أصحابه فاستحسنوه وقالوا: أصبت والله اسمه، إنه والله أمير المؤمنين حقاً، فدعوه بذلك وذهب لقباً له في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية.

ثم إن الشيعة خصوا علياً باسم الإمام نعتاً له بالإمامة التي هي أخت الخلافة وتعريضاً لمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم، فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده، فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء حتى إذا استولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين كما فعله شيعة بني العباس، فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على أمره، فلما هلك دعي أخوه السفاح بأمير المؤمنين، وكذا الرافضة بإفريقية فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالإمام حتى انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي وكانوا أيضاً يدعونه بالإمام، ولابنه أبي القاسم من بعده، فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدهما بأمير المؤمنين، وكذا الأدارسة بالمغرب كانوا يلقبون إدريس بالإمام وابنه إدريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم.

وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق: المواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح، وازداد لذلك في عتقوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم، فاستحدث لذلك بنو العباس حجاباً لأسمائهم الأعلام عن امتنانها في السنة السوقة وصوناً لها عن الابتذال، فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد إلى آخر الدولة، واقفى أثرهم في ذلك العبيديون بإفريقية ومصر، وتحافوا بنو أمية عن ذلك في المشرق قبلهم مع الغضاضة والسذاجة لأن العروبية ومنازعها لم تفارقهم حيث شذو ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة، وأما بالأندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما عملوه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي

لذاهبه وسماته واللّه غالب على أمره.

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

اعلم أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي يحملهم على أحكامها وشرائعها ويكون كالحليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكليف والنوع الإنساني أيضاً بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري، لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك.

والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الإسلام طوعاً أو كرهاً اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشركة من القائمين بها إليهما معاً.

وأما ما سوى الملة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط، فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك، وإنما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه؛ لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم كما في الملة الإسلامية، وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم.

ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربع مائة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك، وإنما همهم إقامة دينهم فقط، وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقرآن، ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه؛ لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتولون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شغب الأحكام، واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتحضت الشركة للملك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورشليم التي أورشليم بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فحاربهم أمم فلسطين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان ومارب ورناسهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم، وأقاموا على ذلك نحواً من أربع مائة سنة، ولم تكن لهم صولة الملك وضجر بنو إسرائيل من مطالبة

وأما صنهاجة فاقصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتوبيخ مثل: نصير الدولة ومعز الدولة، واتصل لهم ذلك لما أذلوا من دعوة العبيدين بدعوة العباسيين، ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدهما فنسوا هذه الألقاب واقصروا على اسم السلطان، وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم يتحلوا شيئاً من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جرياً على مذاهب البداوة والغضاضة.

ولما محي رسم الخلافة وتعتل دستها، وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين، وكان من أهل الخير والاعتدال، نزعته به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه، فخطب المستظهر العباسي وأوفد عليه بيعة عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياها على المغرب وتقليده ذلك، فانقلبوا إليه بعهدهم الخلافة له على المغرب واستشار زعيم في لبوسه ورتبته وخطابه فيه بأمير المؤمنين تشريعاً واختصاصاً فاتخذها لقباً، ويقال: إنه كان دعي له بأمير المؤمنين من قبل أدياً مع رتبة الخلافة، لما كان عليه هو وقومه المرابطون من اتحال الدين واتباع السنة.

وجاء المهدي على أثرهم داعياً إلى الحق أخذاً بمذاهب الأشعرية ناعياً على أهل المغرب عدوهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك من التجسيم كما هو معروف في مذهب الأشعرية، وسمي أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك النكير، وكان يرى رأي أهل البيت في الإمام المعصوم وأنه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسَمي بالإمام لما قلناه أولاً من مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم، وأردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام، وتزده عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب المتقدمين من الشيعة، ولما فيها من مشاركة الأغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالمشرق، ثم انتحل عبد المؤمن ولي عهده اللقب بأمير المؤمنين وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استئثاراً به عن سواهم، لما دعا إليه شيخهم المهدي من ذلك، وأنه صاحب الأمر وأوليأوه من بعده كذلك دون كل أحد لاتقاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم.

ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة في اتحال اللقب بأمير المؤمنين أدياً مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولاً ولبني أبي حفص من بعدهم، ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغاً في منازع الملك وتسميماً

ثم كتبوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم: فكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان اللاتيني، وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم، وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى مرقاس تلميذه، واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل مع أنها ليست كلها وحياً صرفاً بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الخواريين، وكلها مواظ وقصص، والأحكام فيها قليلة جداً، واجتمع الخواريون الرسل لذلك العهد برومة، ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها.

فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار، وكتاب يوشع وكتاب القضاء وكتاب راعوث وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك أربعة، وسفر بنيامين وكتب المقايين لا بن كريون ثلاثة، وكتاب عزرا الإمام، وكتابا أوشير وقصة هامان، وكتاب أيوب الصديق ومزامير داود عليه السلام، وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونوبات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر، وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان.

ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلفة من الخواريين نسخ الإنجيل الأربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الإبريكسيس في قصص الرسل، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام، وكتاب أبو غالمسيس وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي.

واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها، ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغي إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها.

وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه بسمونه البطرك، وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم، يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك ويسمون الإمام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس، ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب، وأكثر خلواتهم في الصوامع، وكان بطرس الرسول رأس الخواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة، فيمن قتل من البطارق والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس، وكان مرقاس الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين، فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطارقة فيها، وجعل معه اثني عشر

الأمم، فطلبوا على لسان شمويل من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في غليك رجل عليهم فولي عليهم طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطينيين، ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما، واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن، ثم إلى أطراف بلاد الروم، ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العvisية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة، والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين.

ثم غلبهم بختنصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك، أولاً الأسباط العشرة، ثم ثانياً لبني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم، فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس، ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم، ثم فشل أمر اليونانيين فاعترز اليهود عليهم بالعvisية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم، وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمتاني وقتلوا اليونان حتى انقضى أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم، ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيرودس أصهار بني حشمتاني، وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة، وأنفحسوا في القتل والهدم والتحريق، وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها، وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالخلوة الكبرى، فلم يبق لهم بعدها ملك لفقدان العvisية منهم وبقا بعد ذلك في ملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن.

ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجبية من إبراء الأكهم والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الخواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلاً إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيرودس ملك اليهود الذي استزع الملك من بني حشمتاني أصهاره، فحسده اليهود وكذبوه وكتب هيرودس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يخبره به، فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره، وافترق الخواريون شيعاً ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية، وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة،

أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكاهن «اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان وألقابها

إعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقیلاً، فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنة فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعه الله من خلقه وعباده، وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوهم بالمداخلة عنهم، وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بإمضاء الأحكام الوازنة فيهم، وكف العدوان عليهم في أموالهم بإصلاح سابلتهم وإلى حلهم على مصالحهم، وما تعهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعاش والمكاييل والموازين حذراً من التطفيف وإلى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش، وإلى سياستهم بما يريد منهم من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفرادهم بالمجد دونهم، فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب.

قال بعض الأشراف من الحكماء: «لمعانة نقل الجبال من أماكنها أهون علي من معاناة قلوب الرجال» ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولى القرى من أهل النسب أو التربة أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقهم، قسم المشكلة في الاستعانة، قال تعالى «وَاجْتَمَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي».

وهو إما أن يستعين في ذلك بنسبه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو محجابه عن الناس أن يزدحوا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم، أو يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه، فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفرق في أشخاص، وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة: كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك والإقطاعات، وإلى قلم المحاسبات وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش؛ وكالسيف يتفرع إلى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور:

ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتغال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قلناه، فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل

قساً على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر، فكان أمر البطارقة إلى القسوس، ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا ببنية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الإمام وصبروه أصلاً يرجعون إليه، وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسمة كما قرره حنايا تلميذ مرقس، وأبطلوا ذلك الرأي، وإنما يقدمه عن ملا واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم، فبقي الأمر كذلك، ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره، ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الأمر فيها على ذلك، واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطارقة.

وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة، يقال: آخرها بطركية هرقل بالإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا، ومعناه أبو الآباء، وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه، ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي رومة؛ لأنه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه، فلم يزل سمة عليه إلى الآن.

ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يمتقدونه في المسيح، وصاروا طوائف وفرقاً واسظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه، فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقة ولا يلتفتون إلى غيرها، وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية.

ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك، فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة للإفرنجية وملكهم قائم بتلك الناحية، ويطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم، والحشية يدينون بدينهم، ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في إقامة دينهم هنالك، واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد، ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم، وضبط هذه اللفظة بباين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة، ومن مذاهب البابا عند الإفرنجية أنه يحضهم على الانقياد للملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تخرجاً من افتراق الكلمة، ويتحرى به العصية التي لا فوقها منهم، لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الإنبرذور وحرفه الوسط بين الذال والطاء المعجمتين ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج، ولعله معنى لفظة الإنبرذور، وهذا ملخص ما

ترجع. إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف، إذ هو يقتضي مباشر السلطان دائماً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه، وأما ما كان خاصاً ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر في السكة، فإن هذه كلها نظراً في أحوال خاصة فيكون صاحبها تبعاً لأهل النظر العام، وتكون رتبته مرؤوسة لأولئك.

وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة، فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيه، فلم يمكن زواله، إذ هو أمر لا بد منه، فكان ﷺ يشاور أصحابه ويفاضهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره، ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسداجة الإسلام. وكذا عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر، وأما حال الجباية والإنفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة؛ لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب، فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي المعجم ممن يجيده، وكان قليلاً فيهم. وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه؛ لأن الأمية كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي كانت فيهم، والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته، ولم تخرج السياسة إلى اختياره لأن الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء، وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجد خليفة أحسنها؛ لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق إلا الخط، فكان الخليفة يستيب في كتابته متى عن له من يحسنه، وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشرعية فلم يفعلوه.

فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يمشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب، وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له: قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد.

واحدة منها في سائر وجوهها، لعموم تعلق الحكم الشرعية بجميع أفعال العباد، والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبعاداً على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضاً منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي، وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقاً أو مقيداً، وفي موجبات العزل إن عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان، وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية، لا بد للفقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من استحباب حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان، إلا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام الشرع، فليس من غرض كتابنا كما علمت، فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء، فلما أردت استيفاءها فعليك بمطالعتهما هنالك، وإنما تكلمنا في الوظائف الخلافة وأفردها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط، لا لتحقيق أحكامها الشرعية، فليس من غرض كتابنا، وإنما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الإنساني والله الموفق.

الوزارة

وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية؛ لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة، أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة، وقد كنا قدمنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة؛ لأنها إما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة، وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالشرق، ولهذا العهد بالغرب، وإما أن تكون في أمور مخاطباته لمن يبعد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذ الأوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب، وإما أن تكون في أمور جباية المال وإنفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالشرق، وإما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه. فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه. وكل خطة أو رتبة من رتب الملك والسلطان فإليها

عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير، واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبداداً، واستمر الأمر على هذا.

ثم جاءت دولة الترك آخرأ بمصر فأروا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور، ونظروهم مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مروضة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد، وبقي اسم الحاجب في مدلوله، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية.

وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً، فعملوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش متضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف يتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره.

ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتفتيح أسمائها حتى أدركت دولتهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم في وضع أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم.

ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى اتحال الأسماء والألقاب، وكان اسم الوزير في مدلوله، ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واخشاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شأوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد.

وأما في دولة الترك بالشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم

ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستلأنهم وأطلق عليه اسم الوزير وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين، واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه، ولم يكن بمثابة الوزير؛ لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام، إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد، فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ؛ هذا في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحماية والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك.

فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد وتعيين مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الأرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذبائح والشياخ ودفع إليه، فصار اسم الوزير جامعاً لخططي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستكافه عن مثل ذلك.

ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى، وضار الوزير إذا استبد محتاجاً إلى استتابة الخليفة إياه لذلك لتضح الأحكام الشرعية ونجيء على حالها كما تقدم فانقسمت الوزارة حيثشذ إلى وزارة تنفيذ، وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه، وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه، ثم استمر الاستبداد وصار الأمر للملك العجم وتعطل رسم الخلافة، ولم يكن لأولئك المتغلبين أن يتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب؛ لأنهم خول لهم قسموا بالإمارة والسلطان، وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يجلي به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم، وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في خاصته، ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة يتحلها بعض الناس، فامتنت وترفع الوزراء عنها لذلك، ولأنهم

والتقديم لوزير الرأي والمشورة، وكان يخص باسم شيخ الموحدين، وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب، واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط، وكان من شرطه أن يكون من الموحدين، واختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الأسرار؛ لأن الكتابة لم تكن من متحلل القوم ولا الترسيل بلسانهم، فلم يشترط فيه النسب، واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطايخ والاصطبلات وغيرها، وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الحجابة فخصوه باسم الحاجب، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة، وربما جعلوه لغیره.

واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم، ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة، فصارت الخطة أرفع الرتب وأرفعها للخطة، ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم، ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطة الحجابة التي كانت سُلماً إليه، وبأشرف أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد، والأمر على ذلك لهذا العهد.

وأما دولة زناتة بالمغرب: وأعظمها دولة بني مريـن فلا أثر لاسم الحاجب عندهم، وأما رئاسة الحرب والعساكر في للوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة إلى من يحسنها من أهلها، وإن اختصت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم، وقد تجمع عندهم وقد تفرق، وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم يسمى صاحبها بالزوار ومعناه المقدم على الجنادة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإزالة سطواته وحفظ المعتقلين في سجونهم، والعريف عليهم في ذلك، فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه، فكانت وزارة صغرى.

وأما دولة بني عبد الواد فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطة لبدأ دولتهم وقصورها، وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره، كما كان في دولة بني أبي حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل

بالرفود بين يدي الدويدار ويضيفون إليه استيعاب كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة، وحالهم على ذلك لهذا العهد، والله مولي الأمور لمن يشاء.

الحجاجة

قد قدما أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة وينقل بابه دونهم أو يفتح لهم على قدره في مواقيته، وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرووسة لها، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه، وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد، فهي بمصر مرووسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب.

وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم، فكانت في دولتهم رتبة غاية كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، فكان المنصور بن أبي عامر وأبناءؤه كذلك، ولما بدؤوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونها شرفاً لهم، وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجاجة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة، وبذي الوزارتين على جمعه لحظي السيف والقلم.

ثم لم يكن في دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبدأوة التي كانت فيهم، وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل.

ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخراً، فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير، فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد السلام الكومي، وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية، ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره، ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ.

وأما بنو أبي حفص بإفريقية فكانت الرئاسة في دولتهم أولاً

ويقال: إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال: ديوانه (أي مجانين) بلغة الفرس فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً، ف قيل: ديوان؛ ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات.

وقيل: إنه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في الأمور ووقوفهم على الجلي والخفي منها وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال، وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال، وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر وإقطاعاتهم وحسابان أعطيتهما أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرره أولوها.

واعلم أن هذه الوظيفة إنما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد.

وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر رضي الله عنه يقال: لسبب مال أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين، فاستكثره وتعبوا في قسمه، فسموا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال: رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر.

وقيل: بل أشار عليه به الهرمان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان ف قيل له: ومن يعلم بغية من يغيب منهم؟ فإن من تخلف أخل بمكانه وإنما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديواناً وسأل عمر عن اسم الديوان. فغير له، ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وخير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش، فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ وما بعدهما الأقرب فالأقرب؛ هكذا كان ابتداء ديوان الجيش.

وروى الزهري عن سعيد بن المسيب: أن ذلك كان في الحرم سنة عشرين.

وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين، ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكاً وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر في

كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعتها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم.

وأما أهل الأندلس لهذا العهد فالخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ خاص السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل، وأما الوزير فكالوزير، إلا أنه قد يجمع له الترسل، والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها، فليس هناك خطة العلامة كما لغبرهم من الدول.

وأما دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك ينفذ الأحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون، وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق، وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الأحيان، ويقطع القليل من الأرزاق ويثبتها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع إليهم وإجبار من أبى الانقياد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية، ثم في تصرفها في الإنفاقات السلطانية أو الجرايات المقدرة، وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم، ومن عوائلهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة، وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك، والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين.

ديوان الأعمال والجبايات

اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطيائهم في إياناتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها.

ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين، ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوساً للحاجب وأصبح من جملة الجباة ونهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة.

وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد، وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع إلى ديوانه وتظيره معقب بنظر السلطان أو الوزير، وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخراج والعطاء.

هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان.

وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة، وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة، وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال؛ لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأمور والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصيته وأرباب السيوف في الدولة، يرجع نظر الوزير إلى نظره ويبتهد جهده في متابعتة ويسمى عندهم أستاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف، ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسبان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص، وهو المياشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة، وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار.

وإن كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه، ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار؛ لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص.

هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب، واللّه مصرف الأمور لا رب غيره.

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً. كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها

العرب ومواليه مهرة في الكتاب والحسبان، فأمر عبد الملك سليمان بن سعيد والي الأردن لعهد أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فأكملة لسنة من يوم ابتدائه، ووقف عليه مسرجون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم: اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم.

وأما ديوان العراق فأمر الحاجب كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولحق ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحاجب قبله، ولما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن بن الأشعث استخلف الحاجب صالحاً هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل، ورغم ذلك كتاب الفرس، وكان عبد الحميد بن يحيى يقول: لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب!

ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه، كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوحث وغيرهم من وزراء الدولة.

وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتمييز النواحي بالصلاح والعنوة وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكتائب وقوانين الحسابات، فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا، وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه.

وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانه؛ لأن الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه، فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال، فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك.

وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم.

وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعبق نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي موافقتها وكان يعرف بصاحب الأشغال، وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها.

ولما استبد بنو أبي حفص بإفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس قد قدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن، فاستكفروا بهم في ذلك وجعلوا هم النظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين،

الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها.

وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سذاجة العvisية، فيختص السلطان أهل عصيته بمخطط دولته وسائر رتبة، فيقلد المال والسيف والكتابة منهم، فاما رتبة السيوف فتستغني عن معاناة العلم، وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الأخرى، فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلدونه، إلا أنه لا تكون يد آخر من أهل العvisية غالباً على يده ويكون نظره منصرفاً عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالشرق، فإن الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل عvisية السلطان يعرف بالدودار وتعويل السلطان وثوقه به، واستنماته في غالب أحواله إليه وتعويله على الآخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الأسرار وغير ذلك من توابعها.

وأما الشروط المعبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة، وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب وهي: رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب:

أما بعد: حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقمك وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والروايات والعلم والرزانة، بكم يتنظم للخلافة حاسنها وتستقيم أمورها، وينصحاكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وأستهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يطشون، فأمتمكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم، وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم.

أيها الكتاب: إذا كتبت على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتك، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يتق

تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع، وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد، فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة للسانية في الأكثر، وكان الكاتب للامير يكون من أهل نسه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم، فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه، وكانت عند بني العباس رفيعة، وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته، يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه وإصاقه.

ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخراً على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها، ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه، فتصير علامة هذا الكتاب لمغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها، فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس، كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد، صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعاً لما سلف من أمرها، فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه ذلك بمخط يضعه ويتخير له من صيغ الإنفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة، وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته.

ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه: فلما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة، ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه، وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلقاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل: إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار، وهكذا كان شأن الدول.

واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والخشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس

وليكن على الضعيف رقيقاً وللمظلوم منصفاً، فإن الخلق عيال الله وأحبههم إليه أرفقهم بعياله.

ثم ليكن بالعدل حاكماً وللأشراف مكرماً وللفيء موفراً وللبلاد عامراً وللرعية مثاقفاً وعن أذاهم متخلفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي سجلات خراجِه واستقضاء حقوقه رقيقاً.

وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلّاقته، فإذا عرف حسنّها وقيمتها أعانته على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة إخلّاقها: فإن كانت رموحاً لم يهجهأ إذا ركبها، وإن كانت شوبياً اتقأها من بين يديها، وإن خاف منها شروداً توقأها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونأ قمع برفق هواها في طرفها، فإن استمرت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم، والكتاب لفضل أدبه وشريف صغته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يجاوره من الناس وينظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطأها، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها، ألا فارقوا رحمكم الله في النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستقلال والخفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله.

ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير حفظه لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم، واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فإنهما يعقبان الفقر ويدلان الرقاب ويفضحان أهلها ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب.

وللأمر أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها حجة وأصدقها حجة وأحمدنا عاقبة، واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورويته، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته وليوجز في ابتائنه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لقلعه ومدفعة للشاغل عن إكثاره وليفسر إلى الله في

به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقدماً في موضع الإقدام، محجماً في موضع الإحجام، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف كوماً للأسرار وفيأ عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها والطوارق في أماكنها، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته، فتناقصوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقها في الدين وابدؤوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرّفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيّعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج.

وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها ومفساف الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربطوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وليأكم والكبر والسخف والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والتبيل من سلفكم، وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره، وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه، فإن عرضت في الشغل محمداً فلا يصرفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء وهو لكم أفسد منه لهم، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكنمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء والشدّة والحرمان والمؤاساة والإحسان والسراء والضراء، فنعمت الشيمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، وإذا ولي الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله وعباله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته

على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامّة ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه، فلا يرحون عنها إلا في تصريحه وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة.

وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامّة، وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبرائهم، ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية، ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين.

وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايته في بيوت من مواليتهم وأهل اصطناعهم، وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الأحكام؛ لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعهم مع إقامة الحدود الشرعية والسياسة كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة، والله مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم.

قيادة الأساطيل:

وهي من مراتب الدولة وخطتها في ملك المغرب وإفريقية ومرووسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال، ويسمى صاحبها في عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولاً من لغة الإفرنجية، فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم، وإنما اقتصت هذه المرتبة بملك إفريقية والمغرب؛ لأنهما جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبته إلى الإسكندرية إلى الشام، وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والإفرنجية والصقالبة والروم إلى بلاد الشام أيضاً، ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة إلى أهل عدوته، والسكانون بسيف هذا البحر وسواحلهم من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار، فقد كانت الروم والإفرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومشاجرتهم في السفن، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب أجازوا في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها، وكان لهم بها المدن الخافلة مثل قرطاجنة وسيطلة وجولوا ومرناق وشرشال وطنجة، وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبحث

صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببلده وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل: إن الذي برز من جليل صنعتته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن بظنه أو مقالته إلى أن يكلمه الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف، ولا يقول أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الأبواب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجل في طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه، ولا يكثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته، وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته.

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل: (من تلزمه النصيحة يلزمه العمل: وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل، فلذلك جعلته آخره وتممته به، تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق عليه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه ويده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. اهـ.

الشرطة:

ويسمى صاحبها لهذا العهد بإفريقية الحاكم وفي دولة أهل الأندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالي. وهي وظيفة مرووسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان، وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أولاً ثم الحدود بعد استيفائها، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجه المصلحة العامة في ذلك، فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء واستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة، وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدهماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليتهم، ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة.

ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس وتنوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب

محتفل أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه، ثم يسرحهم لوجههم ويتنظر إليهم بالفتح والغنيمة.

وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَلْ بأساطيلهم بشي من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم/ فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج، وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهديّة جزيرة جنوة تنتقلب بالظفر والغنيمة، وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمئة وارتجعها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وصارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تميز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية، فتوقع بملوك الإفرنج وتشنخ في ممالكهم كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجية والصقلية وجزائر الرومانية لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأكثر من يسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً فلم تسبح للنصرانية فيه الواح.

حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال، مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وأقريطش ومالطة فملكوها ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس ونوا عليه كنيسة لإظهار دينهم وعبادتهم، وغلبوا بني خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية، ثم ملكوا المهديّة مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن زيوي وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر، وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو تجاوزت في أخبارهم فبطل رسم هذه

الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والمدد، فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حفافيه معروفة في القديم والحديث.

ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن صف لي البحر، فكتب إليه: (إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود) فأوعز حيثئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب إلا من اقتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بعرفة بن هزيمة الأزدي سيد بجيلة لما أغراه عمان بقلعه غزوه في البحر، فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو، ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده، والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والإفرنجية لمارسهم أحواله ومرباهم في الثقل على أعواده مرونا عليه وأحكموا الدراية بثقافته.

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم ونحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمناً، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشؤوا السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وفغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس، وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل إفريقية بالتحاذر الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة أيضاً في أيامه، بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن الفرات، وكانت من بعد ذلك أساطيل إفريقية والأندلس في دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب.

وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى ماتي مركب أو نحوها، وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريباً منه، وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن رماحس ومرفأها للحلط والإقلاع بجاية والمرية، وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد يتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف وأمر إرسائه في مرفئه، فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو

هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة، ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أمم الجلالة على الأكثر من بلاد الأندلس وأجأوا المسلمين إلى سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريجهم في بسط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب، فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل علة النصرانية وعديدهم.

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية، ورجع النصاري فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجته وعلى أعواده، وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأمصار والأعوان أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعواناً وتوضح لهم في هذا الغرض مسلماً، وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معانة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهوداً لما عساه أن تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد البحرية، والمسلمون يستهون الريح على الكفر وأهله، فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الجدنان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفريقية، وأن ذلك يكون في الأساطيل، والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف

والقلم في الدول

اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره، إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تهديد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم؛ لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة، وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ويقل أهلها بما يتألم من الحرم الذي قدمناه، فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة

الوظيفة هنالك وبقيت بإفريقية والمغرب فصارت مختصة بها، وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة، فكان قائد الأسطول به لعهد لثونة بني ميمون رؤساء جزيرة قانس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعاً.

ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد، وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي، أصله من صديغار الموطنين بجزيرة جربة من سرويكنش أسره النصاري من سواحله وربي عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك، وولي ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن وأجاز مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة وأجزل له الصلة وقلده أمر أساطيله، فجلى في جهاد أمم النصرانية، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين. وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجداء إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه.

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهدده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس تابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه، فأمدوهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل، فأوفد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهدده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر، وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته، فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيل لتجول في البحر بين أساطيل الأجانب وبين مرامهم من إمداد النصرانية بثغور الشام وأصبحه كتابه إليه في ذلك من إنشاء الفاضل البيساني يقول في افتتاحه: (فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن) حسبما نقله العماد الأصفهاني في كتاب «الفتح القدسي» فنقم عليهم المنصور تحافهم عن خطابه بأمر المؤمنين وأسرهم في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم إلى مرسلهم ولم يجه إلى حاجته من ذلك، وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من

بانفعال الإبل بالخداء والحيل بالصغير والصريح كما علمت، ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت الأصوات متناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى؛ ولأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية لا طبلًا ولا بوقاً فيحذق المغنون بالسلطان في موكبه بالآلهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة، ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الأبطال بما فيها ويسارعون إلى مجال الحرب وينبثق كل قرن إلى قرنه، وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله قرع يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبثق عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم.

وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالحقصد به التهويل لا أكثر، وربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام، وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة والله الخلاق العليم.

ثم إن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات: فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمتها، فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد الخليفة، ولم تنزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات لعهد النبي ﷺ ومن بعده من الخلفاء.

وأما قرع الطبول والتفخ في الأبواق فكان المسلمون لأول الملة متجافين عنه تنزهاً عن غلظة الملك ورفضاً لأحواله واحتقاراً لأبهته التي ليست من الحق في شيء، حتى إذا انقلبت الخلافة ملكاً وتبعجوا بزهرة الدنيا ونعيمها ولا بسهم الموالي من الفرس والروم أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك يتحلون من مذاهب البذخ والترف، فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويهاً بالملك وأهله، فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلات، فلا يميز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الألوية وقتلتها أو بما اختص به الخليفة من الألوان لرايته، كالسواد في رايات بني العباس، فإن راياتهم كانت سوداً حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونعياً على بني أمية في قتلهم ولذلك سمو المسودة.

ولما افرق أمر الهاشمين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك، فاتخذوا الرايات بيضاً وسموا الميضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين

والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها، فيكون للسيف مزية على القلم في الحاليتين ويكون أرباب السيف حيثئذ أوسع جاهاً وأكثر نعمة وأسنى إقطاعاً، وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ولم يبقَ هم إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين له في ذلك، فتعظم الحاجة إلى تصرفه، وتكون السيوف مهملة في مضاجع أعمادها إلا إذا نابت نائبة أو دعت إلى سد فرجة وما سوى ذلك، فلا حاجة إليها فيكون أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاهاً وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان مجلساً وأكثر إليه تردداً وفي خلواته نجياً؛ لأنه حيثئذ آتته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في أعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله، ويكون الوزراء حيثئذ وأهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على أنفسهم من بؤاده.

وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم: (أما بعد فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس: أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء) سنة الله في عباده والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به.

أعلم أن للسلطان شارات وأحوالاً تقتضيها الأبهة والبذخ فيختص بها ويميز بانتحاله من الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته، فنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة ﴿وَقَوَّقْ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

الآلة: فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والتفخ في الأبواق والقرون، وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة، ولعمري أنه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه، وهذا السبب الذي ذكره أرسطو— إن كان ذكره— فهو صحيح ببعض الاعتبارات. وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدرکہا الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستमित في ذلك الوجه الذي هو فيه، وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم

مجلسه أن يساويهم في الصعيد، ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام وفي دول العجم، وقد كانوا يجلسون على أسرة الذهب، وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسي وسرير من عاج مغشى بالذهب، إلا أنه لا تأخذ به الدول إلا بعد الاستفحال والترف شأن الأبهة كلها كما قلناه، وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يتشوفون إليه.

وأول من اتخذ في الإسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم: إني قد بدنت، فأذنوا له، فاتخذوه وأتبعه الملوك الإسلاميون فيه وصار من منازع الأبهة.

ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب ويأتيه المقوقس إلى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما عقد معهم من الذمة واطراحاً لأبهة الملك، ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعباسيين وسائر ملوك الإسلام شرقاً وغرباً من الأسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الأكاسرة والقيصرة، والله مقلب الليل والنهار.

السكة: وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوقة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى، ويعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عدداً، وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً.

ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها، وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة، فصار علماً عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك، إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش يحتم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدا أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك، ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم.

ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسناجة الدين وبداءة العرب، وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً، وكانت دنانير الفرس ودرهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون

في ذلك العهد بالشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة.

ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل إلى لون الخضرة، فجعل رايته خضراء.

وأما الاستكثار منها فلا يتهيأ إلى حد، وقد كانت أكلة العبيدين لما خرج العزيز إلى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأبواق.

وأما ملوك البربر بالغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل وشروها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الإذن فيها لعالمهم، حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الأكلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوها لها موكباً خاصاً يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك: فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركاً بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الأحمر بالأندلس، ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة، وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاء والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك.

وأما دولة الترك لهذا العهد بالشرق فيتخذون أولاً راية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر، وهي شعار السلطان عندهم، ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق واحداً سنجق وهي الراية بلسانهم. وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيحون لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء إلا الجتر فإنه خاص بالسلطان.

وأما الجلالة لهذا العهد من أمم الإفرنجية بالأندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الألوية القليلة ذاهبة في الجو صعداً ومعها قرع الأوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم، وهكذا يبلغنا عنهم وعن وراءهم من ملوك العجم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوِلَايَاتِ﴾.

السرير: وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي، فهي أعواد منصوبة أو أرائك منصدة لجلوس السلطان عليها مرتفعاً عن أهل

ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه وملاً من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً، ومن الجانب الآخر كتاباً في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد، ولقد كان المهدي فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع، نعتة بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون في ملاحمهم عن دولته.

وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة، وإنما يتعاملون بالديناتير والدرهم وزناً بالصنجات المقدرة بعدة منها، ولا يطبعون عليها بالسكة نفوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعل أهل المغرب «ذلك تقيير العزير العليم».

ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما.

مقدار الدرهم والدينار الشرعيين

وذلك أن الدينار والدرهم يختلفان في المقدار والموازين بالآفاق والأمصار وسائر الأعمال والشرع، قد تعرض لذكرهما وعلقت كثيراً من الأحكام بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها، فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي، منهما.

فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي، هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه أربعين درهماً وهو على هذا سبعة أعشار الدينار، ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير، فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسة حبة.

وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع، فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري وهو أربعة دوانق والبغلي وهو ثمانية دوانق، فجعلوا الشرعي بينهما وهو ست دوانق، فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطاً.

وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك وإجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه. ذكر ذلك الخطابي في كتاب

بها بينهم، إلى أن تفاشش الغش في الديناتير والدراهم لعفلة الدولة عن ذلك، وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز الغشوش من الخالص، وذلك سنة أربع وسبعين. وقال المدائني: سنة خمس وسبعين؛ ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها «اللَّهُ أَخَذَ اللَّهُ الصَّمَدُ».

ثم ولي ابن هيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة؛ ثم بالغ خالد القسري في تجويدها، ثم يوسف بن عمر بعده.

وقيل: أول من ضرب الديناتير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين: (بركة الله) وفي الآخر (اسم الله) ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر، وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل، وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها اثنا عشر ومنها عشرة، فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطاً، فكان المثقال درهماً وثلاثة أسباع درهم وقيل: كان منها البغلي بثمانية دوانق، والطبري أربعة دوانق، والمغربى ثمانية دوانق، واليماني ستة دوانق، فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل، فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دانقاً، وكان الدرهم ستة دوانق، وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً، وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهماً.

فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة التقيدين الجارين في معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صوراً، لأن العرب كان الكلام والبالغة أقرب مناجهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور، فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها، وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلاً وتحميداً وصلاة على النبي وآله، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة، وهكذا أيام العباسيين والعيديين والأمويين.

وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكة إلا آخر الأمر، اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه.

وختم به وقال: «لا ينقش أحد مثله» قال: ونختم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد، واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله.

وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه، وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الإصبع، ومنه نختم: إذا لبسه؛ ويطلق على النهاية والتمام، ومنه: ختمت الأمر: إذا بلغت آخره، وختمت القرآن كذلك، ومنه: خاتم النبيين وخاتم الأمر، ويطلق على السداد الذي يسد به الأواني والدانان ويقال فيه: ختام ومنه قوله تعالى: ﴿خَتَمْتُ مِسْكَ﴾ وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام، قال: لأن آخر ما يجذونه في شرايبهم ريش المسك وليس المعنى عليه، وإنما هو من الختام الذي هو السداد لأن الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيّب عرفها وذوقها، فبولغ في وصف خر الجنة بأن سداده من المسك وهو أطيب عرفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين في الدنيا.

فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها، وذلك أن الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غس في مذاق من الطين أو مداد ووضع على صفح القراطس بقي أكثر الكلمات في ذلك الصفح، وكذلك إذا طبع به على جسم لين كالشمع فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه، وإذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمنى، وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقش من الجهة اليسرى؛ لأن الختم يقلب جهة الخط في الصفح كما كان في النقش من يمين أو يسار، فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغسه في المداد أو الطين وضعه على الصفح فتتقش الكلمات فيه ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه، كان الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بتمام، وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كائناً من كان أو شيء من نعوته، يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه ويسمى ذلك في المعارف علامة، ويسمى ختماً تشبيهاً له بأثر الخاتم الأصفي في النقش، ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم أي علامته وخطه الذي ينفذ بهما أحكامه، ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أي علامته.

قال الرشيد ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزر جعفرأً ويستبدل به من الفضل أخيه فقال لأبيهما يحيى: يا أبت إنني أردت

«معالم السنن» والماوردي في «الأحكام السلطانية» وإنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيين مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه.

والحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق، وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج، وإنما كان متعارفاً بينهم بالحكم الشرعي على المقدّر في مقدارهما وزنتهما حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن، كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير، وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما في الخارج كما هو في الذهن ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه إثر الشهادتين الإيمائيتين، وطرح النقود الجاهلية رأساً حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاشى وجودها، فهذا هو الحق الذي لا محيد عنه.

ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم واختلفت في كل الأقطار والآفاق ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما الشرعية ذهنياً، كما كان في الصدر الأول، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية.

وأما وزن الدينار بابتين وسبعين حبة من الشعير الوسط، فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم خالف ذلك، وزعم أن وزنه أربع وثمانون حبة. نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ورده المحققون وعدوه وهمأً وغلطاً، وهو الصحيح والله ﴿يَجْعَلُ الْحَقُّ بَكْلَمَاتِهِ﴾.

وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس؛ لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار، والشرعية متحدة ذهنياً لا اختلاف فيها والله ﴿خَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

الخاتم:

وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملكية، والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده، وقد ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر ف قيل له: «إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً فانخذ خاتماً من فضة ونقش فيه: (محمد رسول الله)».

قال البخاري: جعل ثلاث كلمات في ثلاثة جعل أسطر

السلطان شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية، واللّه مصرف الأمور بحكمه.

الطراز:

من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم، تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب الحاماً وأسداءً بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلباسها من السلطان فمن دونه، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته.

وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك، ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفال أو السجلات. وكان ذلك في الدولتين من أبهة الأمور وأفخم الأحوال، وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك، وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز، ينظر في أمور الصباغ والآلة والحكمة فيها وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلتهم ومشاركة أعمالهم، وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم، وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف من بعدهم، وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالشرق، ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة.

ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة لم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لفتوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستبدك منها أعقابهم آخر الدولة طرفاً لم يكن بتلك النباهة، وأما لهذا العهد، فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لغفوانها وشموخها رسماً جليلاً لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصريهم بالأندلس واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فأتى منه بلمحة شاهدة بالآثر.

وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز

أن أحول الخاتم من يميني إلى شمالي. فكفى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لمعهدهم.

ويشهد لصحة هذا الإطلاق ما نقله الطبري: أن معاوية أرسل إلى الحسن عند مرأوده إياه في الصلح صحيفة بيضاء ختم على أسفلها وكتب إليه: أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك. ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخطه أو غيره، ويحتمل أن يختم به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه ويجعل على موضع الحزم من الكتاب إذا حزم وعلى المودوعات وهو من السداد كما مر، وهو في الوجهين آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم.

وأول من أطلق الختم على الكتاب - أي العلامة - معاوية، لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فأكرهها معاوية وطلب بها عمر وحبه حتى قضاه عنها أخوه عبد الله، واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم، ذكره الطبري.

وقال آخرون: وحزم الكتب ولم تكن تحزم أي جعل لها السداد، وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائم على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم، وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال.

والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب وإما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل المشرق، وقد يجعل على مكان الدس أو الإصااق علامة يؤمن معها من فتحه والإطلاع على ما فيه، فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقش فيه علامة لذلك فيرسم النقش في الشمع، وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضاً قد غمس في مذاق من الطين معد لذلك، صبغه أحمر فيرسم ذلك النقش عليه، وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجلب من سيرا ف يظهر أنه مخصوص بها.

فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل، وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية، ثم اختلف العرف وصار لمن إليه الترسيل وديوان الكتاب في الدولة، ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للإصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الباقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه

بلسان البربر الذي هو لسان أهله أفراك بالكاف التي بين الكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره.

وأما في المشرق فيتخذ كل أمير وإن كان دون السلطان، ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم فخف لذلك ظهروهم وتقاربت الساج بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهراً أيقناً لاختلاف ألوانه، واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها.

وكذا كانت دولة الموحدين وزناته التي أظلتنا، كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكنائهم قبل الملك من الخيام والقياطن، حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور وعادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط ويلغوا من ذلك فرق ما أرادوه وهو من الترف بمكان، إلا أن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الأهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر، والله القوي العزيز.

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي ولم يعرف في غير دول الإسلام.

فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على المحراب فيحوزه وما يليه، فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي، والقصة معروفة. وقيل: أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة، وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها، وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها، وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف.

وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملَّك الموحدون سائر المغرب والأندلس وعخوا ذلك الرسم على طريقة البداءة التي كانت شعارهم، ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة

تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم، إلا أن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم، وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعته من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش - لفظاً أعجمية - ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعدده الصانع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللاتفة بها، والله مقدر الليل والنهار والله خير الوارثين.

الفساطيط والسياج

اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية والفساطيط والفزازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتاب والقطن، فيباهى بها في الأسفار وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار، وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عاداتهم باتخاذها قبل الملك، وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم، فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعنهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد، وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء، فيبى كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب؛ ولذلك كان عبد الملك يحتاج إلى ساقية تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن.

ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنباع وقصتها في إحراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة. ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب، فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بواد السفهاء من أحيائهم بما له من العصية الحائلة دون ذلك؛ ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصيته وصرامته.

فلما تفتنت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ومن ظهر الخف إلى ظهر الحافر، اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء والمستطيلة والمربعة، ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة، ويدير الأمير القائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتان يسمى في المغرب

وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته، وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة، فإذا انتهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفتتوا فيها ونجسوا إلى غايتها وأنفروا من المشاركة فيها وجزعوا من اقتقادها وخلو دولتهم من آثارها والعالم بستان، والله على كل شيء رقيب.

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبه، فإذا تذاَمروا لذلك وتوافقت الطائفتان: إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع، كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل.

وسبب هذا الانتقام في الأكثر: إما غيرة ومنافسة. وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيد.

فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة.

والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالفقر كالعرب والترك والتركماني والأكرد وأشباههم؛ لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذنته بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم،

والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد.

والرابع: هو حروب الدول مع الخارجيين عليها والماتعين لطاعتها.

فهذه أربعة أصناف من الحروب: الصنفان الأولان منها حروب بغية وقتنة، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل. وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب. وقاتل الزحف أوثق وأشد

للملوك المغرب والأندلس، وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباد.

وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم، فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة بالصلاة على النبي ﷺ والرضا عن أصحابه، وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعهم بمصر، وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس، دعا لعلي رضي الله عنهم في خطبته، وهو بالبصرة عامل له عليها فقال: اللهم انتصر علياً على الحق. واتصل العمل على ذلك فيما بعد، وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب إليه عمر بن الخطاب: «أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين أو ما يكفيك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك، فعزمت عليك إلا ما كسرت» فلما حدثت الأبهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيهما، فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاءً بما جعل الله مصلحة العالم فيه؛ ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم: من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان، وكان الخليفة يفرد بذلك.

فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه، وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه، وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو إليه؛ وكثيراً ما يغفل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لمن ولي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية، يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه.

يحكى أن يغمراسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها، كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن: تلك أعوادهم يذكرون عليها من شأؤوا، وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتخلّف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له: لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه، فأذن في الدعاء له،

كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة، فحيث يكون الزحف من بعد هذه التعبئة.

وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعده المدى في التعبئة، فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا إليه وكما هو معروف في أخباره، وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضاً كثير منه وهو مجهول فيما لدينا؛ لأننا إنما أدركنا دولاً قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معاً يجتمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبئة.

ضرب المصاف وراء العسكر

ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأاً للخيالة في كرههم وغرهم يطلبون به ثبات المقاتلة؛ ليكون أدام للحرب وأقرب إلى الغلب، وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة.

فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم.

وانظر ما وقع من ذلك في القادسية، وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم ويعجوها بالسيوف على خراطيمها فنشرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمداخن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع.

وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسرّة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه، وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئدة للمقاتلة وملجأ للكر والفر، وجعل ذلك الفرس أيام القادسية، وكان رستم جالساً على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلقت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل.

من قتال الكر والفر؛ وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً، فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو؛ لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته.

وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتَانٌ مَرْصُورٌ﴾ أي يشد بعضهم بعضاً بالثبات، وفي الحديث الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف، فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه، فمن ولي العدو ظهره فقد أخل بالمصاف وباء بإثم الهزيمة إن وقعت وصار كأنه جرهما على المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعيدها إلى الدين يخرق سياجه فعُد من الكبائر؛ ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارح.

وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف، إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد.

ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسرون في كل كردوس صفوفه، وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب واعتصروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض؛ فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع، ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب، ويسمون هذا الترتيب التعبئة وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين وصدر الإسلام، فيجعلون بين يدي الملك عسكرياً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة، ثم عسكرياً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمتة يسمونه اليمين، ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة، ثم عسكرياً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة، ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ويسمون موقفه القلب، فإذا تم لهم هذا الترتيب الحكم إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها أو

والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردةً للمقاتلة أمامه، فلا بد من أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعددين للثبات في الزحف وإلا أجفلوا على طريقة أهل الكر والفر، فانهزم السلطان والعساكر بإجفاله، فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعددة الثبات في الزحف وهم الإفرنج ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها، هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر. وإنما استخفوا ذلك للضرورة التي أربناكمها من تخوف الإجفال على مصاف السلطان، والإفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة، وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من عمالئهم على المسلمين هذا هو الواقع لهذا العهد، وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم.

فصل:

ويلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهم وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف، ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً، وكل صف رده للذي أمامه أن يكسبهم العدو إلى أن يتبها النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى، وهي تعبئة محكمة غريبة.

فصل:

وكان من مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف؛ حذراً من معرفة البيات والمهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار ونجد النفوس في الظلمة سترأ من عاره، فإذا تساووا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة، فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا. وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك، فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلية نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن، والله خير القادرين.

وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إيلهم والظهر الذي يحمل ظماعتهم، فيكون فئة لهم ويسمونهم الجبودة، وليس أمة من الأمم إلا وهي تفصل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وأمن من الغرة والمزعة؛ وهو أمر مشاهد.

وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقية من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والإبل، فصارت العساكر بذلك عرضة للمهازيم ومستشعرة للفرار في المواقف.

وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر، لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران:

أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم.

الثاني: أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر، ولما رسخ فيهم من الإيمان والزحف إلى الاستماتة أقرب.

وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والحبيري بعده.

قال الطبري لما ذكر قتال الحبيري قولى الخوارج عليهم شيان بن عبد العزيز البشكري ويلقب أبا الذلفاء: قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى. فتتوسى قتال الزحف بإبطال الصف، ثم تتوسى الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكنائهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء، فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والخواضر وتركوا شأن البادية والقفز نسوا لذلك عهد الإبل والظعنان وصعب عليهم اتخاذها، فخلقوا النساء في الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخيصة فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية، وكان ذلك صفتهم في الحرب ولا ينبغي كل الغناء؛ لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيئات وتخرم صفوفهم.

فصل:

ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكدته في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج في جندهم واختصوا بذلك؛ لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر

وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين

وانظر وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين، تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه.

قال في كلام له: فسوروا صفوفكم كالبيان المصوص وقدموا الدارع وأخروا الحارس وعضوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتسوا على أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأمكن للقلوب، وأخفوا الأصوات فإنه أطرده للفشل وأولى بالوقار، وأقيموا راياتكم فلا تحملوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر.

وقال الأشتر يومئذ يحرص الأزد: عضوا على النواجز من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم، وشددوا شدة قوم موتورين يثأرون بأبائهم وإخوانهم حناقاً على عدوهم وقد وطنوا على الموت أنفسهم؛ لئلا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار.

وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهداها ويذكره بأمور الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها: يا أيها الملأ الذي يتنقع من منكم الملك الهمام الأروع ومن الذي غدر العدو به دجى فانتقض كل وهو لا يستعزع تمضي الفوارس والطعان يصدها عنه ويدمرها الوفاء فترجع والليل من وضع الترائك إنسه صبح على هام الجيوش يلمع أنى فزعم يا بني صنهاجة وإليك في السروع كان المنزع إنسان عين لم يصبه منكم حفن وقلب أسلمته الأضلع وصددمت عن تاشفين وإنه لعقاب له لواء فيكم موضع ما أنتم إلا أسود خفية كمل لكل كربة مستطلع يا تاشفين أقم لجيشك عذره بالليل والعذر الذي لا يدفع

ومنها في سياسة الحرب:

أهليك من أذب السياسة ما به كانت ملوك الفرس قبلك تولع لا إنسي أدري بها لكنها ذكرى تمحض المؤمنين وتنفع والبس من الخلق المضاعفة التي وصى بها صنع الصنائع تبع والمهندوانسي الرقيت فإنه سيان تبسح ظافراً أو تبسح واركب من الخيل السوابق عدة أمضى على حد الدلاص واقطع خندق عليك إذا ضربت محلة حصناً حصيناً ليس فيه مدفع

والواد لا تعبده وانزل عنده بين العدو وبين جيشك يقطع واجعل مناجزة الجيوش عشية ووراءك الصدق الذي هو أمنع وإذا تضايقت الجيوش بمعرك ضحك فاطراف الرماح توسع واصدمه أول وهلة لا تكثرث شيئاً فإظهار النكول يضعضع واجعل من الطلاع أهل شهامة للصدق فيهم شيعة لا تخدع لا تسمع الكذاب جاءك مرجفاً لا راي للكذاب فيما يصنع

قوله: «واصدمه أول وهلة لا تكثرث» البيت مخالف لما عليه الناس في أمر الحرب، فقد قال عمر لأبي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاءه حرب فارس والعراق فقال له: اسمع وأطع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تحيبن مسرعاً حتى تبين، فإنها الحرب ولا يصلح لها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف، وقال له في أخرى: إنه لن يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعتني في الحرب، وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان ضياع، والله لولا ذلك لأمرت، لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث.

هذا كلام عمر وهو شاهد بأن الشاغل في الحرب أولى من الخوف حتى يتبين حال تلك الحرب، وذلك عكس ما قاله الصيرفي إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان، فله وجه والله تعالى أعلم.

ولا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد، وإثما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق، وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستعداداتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف، ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك، ومن أمور خفية وهي إما من خدع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشايخ التي يقع بها التخاذل، وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك، وفي الكمون في الغياض ومطمئن الأرض والتواري بالكدي عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة، وقد تورطوا فيتلفنون إلى النجاة وأمثال ذلك، وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب، فيستولي الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة، وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعتمد لكل واحد من الفريقين فيها حرصاً على الغلب، فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة، ولذلك قال ﷺ: «الحرب خدعة».

ومن أمثال العرب: رب حيلة أنفع من قبيلة، فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة،

وموضعها وتكون طبقاً على صاحبها، والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال لخفاتها بالتليس والتصنع أو لجهل الناقل، ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الأكثر براغيين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها، وأين مطابقة الحق مع هذه كلها؟ فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة، وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر، واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قتلها وكثرتها

اعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الزرائع كثيرة الجملة، وآخر الدولة تكون كثيرة الزرائع قليلة الجملة، والسبب في ذلك أن الدولة: إن كانت على سنن الدين فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الزرائع؛ لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت، وكذا زكاة الجبوب والمائشية، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية، وهي حدود لا تعدى، وإن كانت على سنن التغلب والعصية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم، والبداءة تقتضي المساحة والكمارة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر، فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الأموال من مجموعها، وإذا قلت الزرائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه، فيكثر الاعتماد ويتزايد محصول الاغتباط بقله المغم، وإذا كثر الاعتماد كثرت أعداد تلك الوظائف والزرائع فكثر الجباية التي هي جملتها، فإذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البداءة والسذاجة وخلقها من الإغضاء والتجافي، وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس وتحلق أهل الدولة حيثئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف، فيكثرون الوظائف والزرائع حيثئذ على الرعايا والأكره والفلاحين وسائر

ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرحناه معنى قوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات، فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنييه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله ﷺ، فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون.

وقد ذكر الطرطوشي: أن من أسباب الغلب في الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر، فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدى، وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح.

وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصية أن يكون في أحد الجانبين عصية واحدة جامعة لكلهم، وفي الجانب الآخر عصابات متعددة؛ لأن العصابات إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوجدان المتفرقين الفاقدين للعصية، إذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبته واحدة لأجل ذلك فتفهمه، واعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي، ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصية في حلتها وبلده، وأنهم إنما يردون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوجدان والجامعة الناشئة عنهم، لا يعتبرون في ذلك عصية ولا نسباً وقد بينا ذلك أول الكتاب، مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها، فكيف يجعل ذلك كفيلاً بالغلب؟ ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخذاع ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي، فافهمه وتفهم أحوال الكون، واللّه مقدر الليل والنهار.

فصل:

ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت، فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمتحلين للفضائل على العموم، وكثير من اشتهر بالشر وهو بخلافه، وكثير من تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها، وقد تصادف

ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية، فتقتل الجباية وتكثر العوائد، ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضرها على البيعات ويفرض لها قدراً معلوماً على الأثمان في الأسواق، وعلى أعيان السلع في أموال المدينة. وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية، وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.

وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير، وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم، وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعادها بآثار الخير. وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى عا رسمه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وكذلك وقع بأمصار الجريد بإفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم.

الفصل الأربعون

في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا

ومفسدة للجباية

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنققات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بمحاجاتها ونفقاتها، واحتاجت إلى مزيد المال والجباية، فتارة توضع المكوس على بيعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله، وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد استحدثت من قبل، وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم، لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان، وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع سيطرة أموالهم، وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال، فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحالة الأسواق ومحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد. وهو غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة.

فالوفاة مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع، وتيسير أسباب ذلك، فإن الرعايا متكاثرون في اليسار متقاربون

أهل المغارم، ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقداراً عظيماً لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على المبيعات، وفي الأبواب كما نذكر بعد، ثم تدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتنهضم وتصير عادة مفروضة؛ لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً، ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها إنما ثبتت على الرعايا كأنها عادة مفروضة. ثم تزيد إلى الخروج عن حد الاعتدال، فتذهب غبطة الرعايا في الاعتماد لذهاب الأمل من نفوسهم بقلعة النفع، إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائده فتقبض كثير من الأيدي عن الاعتماد جملة، فتتقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها، وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ومحسبونه جبراً لما نقص، حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس ورامها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتماد وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به، فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لا يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن يتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتماد ويعود ويال ذلك على الدولة؛ لأن فائدة الاعتماد عائدة إليها، وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتماد تقليل مقدار الوظائف على المعتمدين ما أمكن، فبذلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه، والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها ويبدد ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس أواخر الدولة

اعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا، فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده، فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً فيكون في الجباية حينئذ وفاء بآزدي منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها، وتجري على نهج الدول السابقة قبلها، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة، ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة بنفقتة في خاصته وكثرة عطائه، ولا تنفي بذلك الجباية فتححتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء، والسلطان من النفقة، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولاً كما قلناه، ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية،

واعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلا الجباية وإدارها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال، والنظر لهم بذلك، فبذلك تنبسط آمالهم، وتشرح صدورهم للأخذ في تميم الأموال وتنميها، فتعظم منها جباية السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فإما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة. وقد يتهي الحال بهؤلاء المتسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان، أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن. وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم. وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الأصناف، أعني التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها، فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعاً، سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس، فإنها أجدر بنمو الأموال وأسرع في تميمه، ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته، فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرة بجبايته وسلطانه، والله يلهمنا رشد أنفسنا ويغنينا بصالح الأعمال، والله تعالى أعلم.

الفصل الحادي والأربعون

في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في

وسط الدولة

والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة توزع على أهل القبيل والعصبة بمقدار غنائمهم وعصبيتهم، ولأن الحاجة إليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل. فريستهم في ذلك متجانس لهم عما يسمون إليه من الجباية معترض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم، فله عليهم عزة وله إليهم حاجة، فلا يطير في سهمانه من الجباية إلا الأقل من حاجته. فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي مملكين في الغالب، وجاههم متقلص لأن من جاء بخدمهم، ونطاقه قد ضاق بمن يزامه فيه من أهل عصبيته.

فإذا استفحلت طبيعة الملك، وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه، قبض أيديهم عن الجبايات إلا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم، وتقل حظوظهم إذ ذاك لقلّة غنائمهم في

ومزاحة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد.

ثم إن السلطان قد يتزعج الكثير من ذلك إذا تعرض له غصاً أو بايسر ثمن، إذ لا يجد من يناقشه في شرائه فيخس ثمنه على بائعه.

ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلاها كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع، فلا يتظرون به حوالة الأسواق ولا تفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع، ولا يرضون في أنماها إلا القيم وأزيد، فيستوعبون في ذلك ناضراً أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة، ويمكنون غطلاً من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم. وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأخس ثمن. وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله، فيقعّد عن سوقه ويتعدّد ذلك ويتكرر، ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح، ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية، فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار لا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فإذا انتقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش.

وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدناها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل، ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانیه من شراء أو بيع، فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكال تكسبها كلها حاصلًا من جهة الجباية. ثم فيه التعرض لأهل عمرانته واختلال الدولة بفسادهم ونقصه؛ فإن الرعايا إذا قعدوا عن تميم أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف أحوالهم، فافهم ذلك.

وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضر بمجرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة.

فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه، فلا تمكنه الرعية من ذلك طريقة عين، ولا أهل العvisية المزاحمون له، بل في ظهور ذلك منه هدم للملكة وإتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك؛ لأن رقة الملك يعسر الخلاص منها، سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر، وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته، فقل أن يخلى بينه وبين ذلك. أما أولاً فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم عماليك لهم، مطلعون على ذات صدورهم، فلا يسمحون بحل ريقته من الخدمة ضناً بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد. وغيره من خدمته لسواهم، ولقد كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس؛ فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم، وما أبيع الحج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف. وأما ثانياً فلأنهم وإن سمحوا بحل ريقته فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم، إذ لم يكتب إلا بها وفي ظل جاهها، فتحرم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة يتفعون به. ثم إذا توهمنّا أنه خلص بذلك المال إلى قطر آخر، وهو في النادر الأقل، فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القطر ويتزعونه بالإرهاب والتخويف تعريضاً أو بالقهر ظاهراً، لما يرون أنه مال الجباية والدول، وأنه مستحق للإنفاق في المصالح وإذا كانت أعيينهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المتكسبين من وجوه المعاش فأحرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول التي تجتهد السبل إليه بالشرع والعادة، ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بأفريقية الخروج عن عهدة الملك واللاحق بمصر فراراً من طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس، فاستعمل اللحياني الرحلة إلى نغر طرابلس يورّي بتمهيده، وركب السفين من هنالك، وخلص إلى الإسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده بيت المال من الصامت والذخيرة، وباع كل ما كان بمخزائهم من المتاع والعقار والجواهر، حتى الكتب، واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة، فآكرم نزله ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئاً فشيئاً بالتعريض إلى أن حصل عليها ولم يبق مغاش ابن اللحياني إلا في جرابته التي فرضت له، إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبما نذكره في أخباره. فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعتري

الدولة بما انكبح من أعتهم، وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتحميد الأمر؛ فيفرد صاحب الدولة حيثنذ بالجباية أو معظمها، ويمتري على الأموال ويمتجنها للنفقات في مهمات الأحوال، تكثر ثروته وتغتنى خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه، فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم، ويقتنون الأموال ويتأثلوها.

ثم إذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العvisية وفناء القليل الماعدين للدولة احتاج صاحب الأمر حيثنذ إلى الأعوان والأنصار، ولكثرة الخوارج والمنازعين والشوار وتوهم الانتقاض، فصار خراجه لظهرائه وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العvisيات، وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة، وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق، فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال، فيتخلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتخلص الجاه عنهم، وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة، ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم، فيصطلمها ويتزعمها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً واحداً بعد واحد على نسبة رتبهم وتنكر الدولة لهم، ويعود ويال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها، ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه.

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم، ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند اغلأها أيام الطوائف في بنى شهيد وبني أبي عبدة وبني حديرة وبني بُرد وأمثالهم، وكذا في الدولة التي أدركنها لعهدنا. سنة الله التي قد خلت في عباده.

فصل:

ولما يتوقع أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم يزعون إلى الفرار عن الرتب والتخلص من رقة السلطان، بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر، ويرون أنه أنما لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته. وهو من الأغلاط الفاحشة والأروام المفسدة لأحوالهم وديانهم.

واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع.

انتقاض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالأمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانتقاض عن الكسب على نسبه، والعمران وفورته ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وابتدع الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة.

وانظر في ذلك ما حكاه السعودي في أخبار الفرس عن المريدان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له: إن يوماً ذكراً يوم نكاح يوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها، وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعك ألف قرية وهذا أسهل مرام. فتنبه الملك من غفلته وخلا بالمريدان وسأله عن مراده فقال له:

أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشرعية إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قِيماً وهو الملك، وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمّارها، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال، وأقطعها الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسرعوا في الخراج لقربيهم من الملك، ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فأنجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها، فقلّت العمارة وخربت الضياع وقلّت الأموال وهلك الجنود والرعية وطعم في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها.

فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة، وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم،

أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب، وإنما يخلصون إن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم، وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم. والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاء في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول أنساب؛ لكن: النفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُردُّ إلى قليل تنزع والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بمنه وفضله والله أعلم.

الفصل الثاني والأربعون

في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم، ومنه مادة العمران. فإذا احتجّن السلطان الأموال أو الجبايات، أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حيثن ما بأيدي الحاشية والحامية، وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد، ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم فيقع الكساد حيثن في الأسواق وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك؛ لأن الخراج والجباية إنما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للنفوذ والأرباح، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلّة أموال السلطان حيثن بقلّة الخراج. فإن الدولة كما قلناه هي السوق الأعظم، أم الأسواق كلها، وأصلها ومادتها في الدخل والخرج، فإن كسدت وقلت مصارفها فاجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه، وأيضاً فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم إليه، ومنه إليهم، فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية. سنة الله في عباده.

الفصل الثالث والأربعون

في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حيثن من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انتقضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبه يكون

عليه إلا من يقدر عليه؛ لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان فيبلغ في ذمه وتكرير الرعيد فيه، عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

ولا تقولن: إن العقوبة قد وضعت بإزاء الخرابية في الشرع وهي من ظلم القادر؛ لأن المحارب زمن حرابته قادر، فلن في الجواب عن ذلك طريقين:

أحدهما أن تقول: العقوبة على ما يقترفه من الجنائيات في نفس أو مال على ما ذهب إليه كثير، وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته، وأما نفس الخرابية فهي خلو من العقوبة.

الطريق الثاني أن تقول: المحارب لا يوصف بالقدرة؛ لأننا إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة، فهي المؤذنة بالخراب، وأما قدرة المحارب فإنما هي إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة، فليست من القدر المؤذن بالخراب، والله قادر على ما يشاء.

فصل:

ومن أشد الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق، وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما ستبين في باب الرزق؛ لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران.

فإذا مساعيههم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم، بل لا مكاسب لهم سواها، فإن الرعية المعتمدين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك، فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخرى في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة، وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعى فيها جملة فأدى إلى انتقاض العمران وتخريبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الاحتكار:

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأجنس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع، وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على التراخي والتأجيل، فيتعلمون في تلك الحسارة التي تلحقهم بما تحدتهم المطامع من جبر ذلك بحالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأجنس الأثمان، وتعود خسارة ما بين الصفتين على رؤوس أموالهم. وقد يعم ذلك أصناف التجار

فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج، وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه، فنفهم من هذه الحكاية أن الظلم يخرّب العمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض.

ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب، واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر، فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً؛ لأن النقص إنما يقع بالتدريج، فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين، وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر ونجوى الدولة الأخرى فترفعه بمجذتها وتجبر النقص الذي كان خفياً فيه، فلا يكاد يشعر به إلا أن ذلك في الأقل النادر.

والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه، ووباله عائد على الدول.

ولا تحسن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمتهمون لها ظلمة، والممانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الأموال من أهله.

واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الخطر فيه موجودة، فكان تحريمه مهماً، وأدلته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر.

ولو كان كل واحد قادراً عليه لوضع بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنوع، التي يقدر كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر، إلا أن الظلم لا يقدر

المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوق وأهل الدكاكين في المأكّل والفواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين، فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات وتترال على الساعات وتحجب برؤوس الأموال، ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق لنهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح، ويتناقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع ويبيعها من أجل ذلك، فتكسد الأسواق ويظل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء، وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفسد؛ لأن معظمها من أواسط الدولة وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الخلل على التدرج ولا يشعر به.

هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال، وأما أخذها مجاناً والعدوان على الناس في أموالهم وحرمتهم ودماهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يقضي إلى الخلل والفساد دفعة، وتنقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتفاض.

ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء، وحظر أكل أموال الناس بالباطل سداً لأبواب المفاسد المفضية إلى انتفاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش.

واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة، فيستحدثون القاباً ووجوهاً يوسعون بها الجباية لفي لهم الدخل بالخرج، ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تنمحي دأثرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها، والله أعلم.

الفصل الرابع والأربعون

في الحجاب كيف يقع في الدول

وأنه يعظم عند الهرم

اعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه؛ لأنه لا بد لها من العصية التي بها يتم أمرها ويحصل

فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بالمجد واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونهم لما يكثر حيتن من مجاشيته فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيه ببابه هذه الوظيفة.

ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحال خلق صاحب الدولة إلى خلق الملك، وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها، وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوه وصاروا إلى حالة الانتقام منه، فانفرد بمفرقة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحججوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظاً على أنفسهم من معاناة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم، فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يقضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة. والحجاب الثاني يقضي إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة. والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية، وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جرياً على مذهب الاشتقاق الصحيح.

ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فيها، فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني، وصار اسم الحاجب أخص به، وصار بياض الخلفاء داراناً للعباسية: دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم.

ثم حدث في الدولة حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة، وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم، فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة أبيه وخواص أوليائه يورهم أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب، ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده ملاسبة أخلاقه هو، حتى لا يتبدل به سواه إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه، فيكون هذا الحجاب من دواعيه، وهذا الحجاب لا يقع في

العربية ثلاث دول:

الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر، ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاذ قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم؛ لأن القائمين بالدولة يحاولون ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من عجة الاستبداد بالملك، وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادهيه.

دولة بني العباس بمركز العرب وأصلهم ومادتهم الإسلام.
ودولة بني أمية المجديين بالأندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالشرق.
ودولة العبيديين بإفريقية ومصر والشام والحجاز، ولم تنزل هذه الدول إلى أن كان انقراضها متقارباً أو جميعاً.

وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى: وكان بالقاصية بنو سامان فيما وراء النهر وخراسان، والعلوية في الديلم وطبرستان، وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى بغداد والخلفاء، ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم.

وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور، خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك الغرب لنفسه ما بين جبل أורاس إلى تلمسان وملوية، واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري، واستحدث ملكاً آخر قسيماً للملك آل باديس وبقي آل باديس بالقرون وما إليها ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً.

وكذلك دولة الموحدين، لما تقلص ظلها نار بإفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها، ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكاً ببجاية وقسنطينة وما إليها، أورثه بنه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم.

وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاث وفي غير أعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس وملوك العجم بالشرق، وفي ملك صنهاجة بإفريقية، فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون إفريقية ثائر مستقل بأموره كما تقدم ذكره، وكذا حال الجريد والزاب من إفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره.

وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالتفرد والدعة وتقلص ظل الغلب، فينقسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر وتتعدد فيها الدول، والله وارث الأرض ومن عليها.

الفصل الخامس والأربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها، وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالجد ويفرد به، يأنف حيثئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به من ذوي قرباته المرشحين لمنصبه، فرما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية واجتمع إليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاعتزاز والاستراية ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ورجع عن القاصية، فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد.

وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً مجتمعاً، ونطاقها امتداً في الاتساع وعصية بني عبد مناف واحدة غالبية على سائر مضر، فلم ينض عرق من الخلفاء سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الخوارج المستيتين في شأن بدعتهم، لم يكن ذلك لتزعة ملك ولا رئاسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية.

ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو العباس بالأمر. وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وأذنت بالتقلص عن القاصية، نزح عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام، فاستحدث بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين، ثم نزح إدريس إلى المغرب وخرج به وقام بأموره وأمر ابنه من بعده البربرية من أوربة ومغيلة وزناتة، واستولى على ناحية المغربين، ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغلبية في الامتناع عليهم، ثم خرج الشيعة وقام بأمورهم كتامة وصنهاجة واستولوا على إفريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الإدارة وقسموا الدولة دولتين أخريين، وصارت الدولة

الفصل السادس والأربعون

في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد، وبيننا أنها تحدث للدولة بالطبع، وأنها كلها أمور طبيعية لها، وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني، والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تبدل، وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم، ويظن أنه يمكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسب أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم، وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة، والعوائد هي المانعة له من تلافيها، والعوائد منزلة طبيعية أخرى، فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباغ ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات، فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والسري والاختلاط بالناس، إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه، ولو فعله لرمي بالجنون والسواس في الخروج عن العوائد دفعة، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه.

وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي، وربما تكون العصية قد ذهبت فتكون الأبهة تعرض عن موقعها من النفوس، فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأبهة فتتدفع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر.

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الحمود، كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقارنة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء، فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

الفصل السابع والأربعون

في كيفية طرق الخلل للدولة

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالأول

الشوكة والعصية، وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال.

والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين، فلنذكر أولاً طرق الخلل في الشوكة والعصية ثم نرجع إلى طرقه في المال والجباية.

واعلم أن تهديد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصية، وأنه لا بد من عصية كبرى جامعة للعصائب مستتعة لها، وهي عصية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة، فإذا جاءت الدولة طيبةً الملك من الترف وجده أنوف أهل العصية كان أول ما يجده أنوف عشيرته ذوي قربه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جده أنوفهم بما بلغ من سوادهم ويأخذهم الترف أيضاً أكثر من سواهم، لمكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر، ثم يصير القهر آخر إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر، فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصية صاحب الدولة منهم، وهي العصية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستبذل عنها بالبطالة من موالى النعمة وصنائع الإحسان، ويتخذ منهم عصية إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمة لفقدان الرحم والقرباة منها، وقد كنا قدمنا أن شأن العصية وقوتها إنما هي بالقرباة والرحم؛ لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية ويمس بذلك أهل العصائب الأخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطائنه تجاسراً طبيعياً. فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول، مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولي عليهم الهلاك بالتلف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصية وينسوا نفرتها وسورتها ويصيروا أجراً على الحماية ويقلون لذلك، فتقل الحماية التي تنزل بالأطراف والثغور فيتجاسر الرعايا على نقض الدعوة في الأطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الأعباس وغيرهم إلى تلك الأطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية إليهم، ولا يزال يتدرج ونطاق الدولة يتضابق حتى تصبح الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة، وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاث على قدر قوتها في الأصل كما قلناه، ويقوم بأمرها غير أهل عصيتها لكن إذعائاً لأهل عصيتها ولغلبهم المعهود.

يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو إلى الترف ويكثر الإنفاق بسببه، فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم، بل يتعدى ذلك إلى أهل مصر ويدعو ذلك إلى الزيادة في أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة، ثم يعظم الترف فيكثر الإسراف في النفقات ويتشتر ذلك في الرعية؛ لأن الناس على دين ملوكها وعوائلها، ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان الباعثات في الأسواق لإدراة الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه، ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده، ثم تزيد عوائد الترف فلا تفي بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا، فتمتد أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد في بعض الأحوال بشبهة أو بغير شبهة، ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسروا على الدولة بما لحقها من الفشل والمهرم في العvisية فتتوقع ذلك منهم وتداوي بسكينة العطايا وكثرة الإنفاق فيهم، ولا تجد عن ذلك وليجة، ويكون جباة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم، فيتوجه إليهم باحتجان الأموال من الجباية وتقشوا السعاية فيهم، بعضهم عن بعض للمنافسة والحق، فتعهم النكبات والمصادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب ثروتهم وتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم، فإذا اصطلمت نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر، فتتصرف سياسة صاحب الدولة حيث يشاء إدارة الأمور ببذل المال ويراه أرفع من السيف لقله غنائه، فتعظم حاجته إلى الأموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند ولا يغني فيما يريد، ويعظم الهرم بالدولة وتجاسر عليها أهل النواحي، والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه إلى أن تنفضي إلى الهلاك وتعرض لاستيلاء الطلاب، فإن قصدها طالب انتزعها من أيدي القائمين بها وإلا بقيت وهي تلاشى إلى أن تضمحل كالذئبال في السراج إذا فني زيتة وطفئ، والله مالك الأمور ومدير الأكوان لا إله إلا هو.

واعتبر هذا في دولة العرب في الإسلام انتهت أولاً إلى الأندلس والهند والصين، وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعvisية بني عبد مناف، حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد أمره. ثم تلاشت عvisية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا. وجاء بنو العباس فغضوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبين وشردهم، فانحلت عvisية عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم، فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بني الأغلب بإفريقية وأهل الأندلس وغيرهم وانقسمت الدولة، ثم خرج بنو إدريس بالمغرب وقام البربر بأمرهم إذعاناً للعvisية التي لهم وأمنياً أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة.

فإذا خرج الدعاة آخراً فیتغلبون على الأطراف والقاصية وتحصل لهم هناك دعوة وملك، تنقسم به الدولة، وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصاً إلى أن ينتهي إلى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف، فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها.

وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغني عن العvisية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل إيلاتها، وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من الأجيال مبدأها ولا أوليتها، فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة فيستغني بذلك عن قوة العصاب ويكفي صاحبها بما حصل لها في تهديد أمرها الأجراء على الحامية من جندي ومرتق ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم، فلا يكاد أحد يتصور عvisياً أو خروجاً إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له، فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده، وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم، فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا ينتلج في ضميرها الخراف عن الطاعة فيكون أسلم من المهرج والانتقاض الذي يحدث من العصاب والعشائر، ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تلاشى في ذاتها شأن الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء إلى أن تنتهي إلى وقته المقدور ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ولكل دولة أمد ﴿وَاللَّهُ يَفْقَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

وأما الخلل الذي يتطرق من جهة المال، فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر فيكون خلق الرفق بالرعايا والقصد في النفقات والتعفف عن الأموال، فتجافى عن الإمعان في الجباية والتحلل والكيس في جمع الأموال وحسبان العمال ولا داعية حيثن إلى الإسراف في النفقة فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال، ثم

الفصل الثامن والأربعين

في اتساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايته ثم

تضايقه طوراً بعد طور إلى فناء الدولة

واضحلالها

الجند والمال والولايات، ليجري حالها على استقامة بتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع الجباية على الأرزاق، ومقايضة ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال.

والمقاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة. فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدث في الأول من قبل. ويعتبر صاحب الدولة ما اعتبره الأول، ويقايس بالوزان الأول أحواله الثانية، يروم دفع مفساد الخلل الذي يتجدد في كل طور ويأخذ من كل طرف حتى يضيق نطاقها الآخر إلى نطاق دونه كذلك، ويقع فيه ما وقع في الأول. فكل واحد من هؤلاء المغيرين للقوانين قبلهم كأنهم منشئون دولة أخرى، ومجددون ملكاً. حتى تنقرض الدولة، وتتطاول الأمم حولها إلى التغلب عليها وإنشاء دولة أخرى لهم، فيقع من ذلك ما قدر الله وقوعه.

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على الأمم، ثم تزايد الحامية وتكاثر عددهم بما تحولوه من النعم والأرزاق، إلى أن انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس. ثم تزايد الترف. ونشأت الحضارة وطرق الخلل، فضاق النطاق من الأندلس والمغرب محدث الدولة الأموية المروانية والعلوية، واقتطعوا ذينك الثغرين عن نطاقها، إلى أن وقع الخلاف بين بني الرشيد، وظهر دعاة العلوية من كل جانب، ونهت لهم دول، ثم قتل المتوكل، واستبد الأمراء على الخلفاء وحجروهم، واستقل الولاة بالعمالات في الأطراف. وانقطع الحراج منها، وتزايد الترف. وجاء المعتضد فغير قوانين الدولة إلى قانون آخر من السياسة أقطع فيه ولاة الأطراف ما غلبوا عليه، مثل بني سامان وراء النهر وبني طاهر العراق وخراسان، وبني الصقار السند وفارس، وبني طولون مصر، وبني الأغلب إفريقية، إلى أن افترق أمر العرب وغلب العجم، واستبد بنو بويه والديلم بدولة الإسلام وحجروا الخلافة، وبقي بنو سامان في استبدادهم وراء النهر وتطاول الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فملكوه.

ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام وأبقوا الخلفاء في حجرهم، إلى أن تلاشت دولهم. واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر في نطاق أضيق من هالة القمر وهو عراق العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين. وأقامت الدولة كذلك بعض الشيء إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو بن طولى بن دوشي خان ملك التتر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان بأيديهم من ممالك الإسلام. وهكذا يتضايق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الأول. ولا يزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرض

قد كان تقدم لنا في فصل الخلافة والملك، وهو الثالث من هذه المقدمة أن كل دولة لها حصة من الممالك والعمالات لا تزيد عليها. واعتبر ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حماية أقطارها وجهاتها. فحيث نفذ عددهم فالطرف الذي انتهى عنده هو الثغر، ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنطاق. وقد تكون النهاية هي نطاق الدولة الأولى. وقد يكون أوسع منه إذا كان عدد العصابة أوفر من الدولة قبلها. وهذا كله عندما تكون الدولة في شعار البداوة وخشونة البأس. فإذا استفحل العز والغلب وتوفرت النعم والأرزاق بدور الجبايات، وزخر بحر الترف والحضارة ونشأت الأجيال على اعتبار ذلك لطفت أخلاق الحامية ورقت حواشيمهم، وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئات الجبن والكسل، بما يعانونه من خنث الحضارة المؤدي إلى الانسلاخ من شعار البأس والرجولية بمفارقة البداوة وخشونتها، وبأخذهم العز بالتطاول إلى الرياسة والتنازع عليها، فيفضي إلى قتل بعضهم ببعض، ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكابرهم وإهلاك رؤسائهم، فتفقد الأمراء والكبراء، ويكثر التابع والمرؤوس، فيقل ذلك من حد الدولة، ويكسر من شوكتها. ويقع الخلل الأول في الدولة وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم. ويساق ذلك السرف في النفقات بما يعثرهم من أبهة العز. وتجاوز الحدود بالبدخ. بالناغاة في المطاعم والملابس وتشديد القصور واستجادة السلاح وارتباط الخيول، فيقصر دخل الدولة حيثشذ عن خرجها ويطلق الخلل الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والجباية. ويحصل العجز والانتقاص بوجود الخللين. وربما تنافس رؤسائهم فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والمنازعين ومدافعتهم. وربما اعتر أهل الثغور والأطراف بما يحسون من ضعف الدولة وراهم، فيصبرون إلى الاستقلال والاستبداد بما في أيديهم من العمالات، ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادة فيضيق نطاق الدولة عما كانت انتهت إليه في أولها، وترجع العناية في تدبيرها بنطاق دونه، إلى أن يحدث في النطاق الثاني ما حدث في الأول بعينه من العجز والكسل في العصابة وقلة الأموال والجباية. فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدولة من قبل

الفصل التاسع والأربعون

في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة

المستقرة بالمطالبة لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان:

نوع من ولاية الأطراف إذا تقلص ظل الدولة عنهم والحسر تيارها، وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأكثر كما قدمناه؛ لأن قصاراهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم.

والنوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة؛ لأن قوتهم وافية بها، فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من العصية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك وواف به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة، والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمور نفسانية وهمية، وإن كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما مر، ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به، وفي الحديث «الحرب خدعة».

والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورة واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكسر من همم أتباعه وأهل شوكته، وإن كان الأقربون من بطائنه على بصيرة في طاعته ومؤازرته، إلا أن الآخرين أكثر وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم، ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع إلى الصبر والمطالبة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة، فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم المهم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء.

وأيضاً فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع من النعم والذات واخصوا به دون غيرهم من أموال الجباية، فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الأسلحة وتعظم فيهم الأبهة الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختياراً واضطراً، فيهربون بذلك كله عدوهم، وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق إلى قلوبهم أوهام الرعب بما يبلغهم من أحوال

الدولة. واعتبر ذلك في كل دولة عظمت أو صغرت. فهكذا سنة الله في الدول إلى أن يأتي ما قدر الله من الفناء على خلقه. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

الفصل الثامن والأربعون

في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع

اعلم أن نشأة الدول وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين:

إما بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يقلص ظلها عنهم، فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ويستحل لهم الملك بالتدريج، وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه ويتزعم ما في يده، كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية واستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر، وكما وقع بالدولة الأموية بالأندلس واقترب ملكها في الطوائف الذين كانوا ولاتها في الأعمال وانقسمت دولاً وملوكاً أوروها من بعدهم من قرابتهم أو مواليتهم، وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب؛ لأنهم مستقرون في رئاستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب، وإنما الدولة أدركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية وعجزت عن الوصول إليها.

والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل، إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه أو يكون صاحب شوكة وعصية كبيراً في قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم إلى الملك وقد حذثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم، فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويزنون أمرها كما يتبين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة يطاولون بني سيكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته. ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر.

وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المقازة عام سبعة عشر وستمائة فلم يتم لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة.

وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه. ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحواً من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيتهم بمراكش.

وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحيدين فمكثوا يطاولونهم نحواً من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملوكهم، ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسيتهم بمراكش.

حسبما نذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول، فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاول، سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الإسلامية وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم ثلاث أو أربع من وفاة النبي ﷺ، وأعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا ﷺ سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبصاراً بالإيمان وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل، فكان ذلك كله خارقاً للعادة المقررة في مطاوله الدول المستجدة للمستقرة، وإذا كان ذلك خارقاً فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة الإسلامية والمعجزات، لا يقاس عليها الأمور العادية ولا يعترض بها، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الخمسون

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من

كثرة الموتان والنجاعات

أعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في إيلاتها، إما من الدين إن كانت الدعوة دينية، أو من المكارمة والحامسة التي تقتضيها البدواة الطبيعية للدول، وإذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر ويكثر التناسل وإذا كان

الدولة المستقرة ويجمعون عن قتالهم من أجل ذلك، فيصير أمرهم إلى المطاوله حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الحرم ويستحكم الخلل فيها في العصية والجاياة فيتهزم حيثئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة، سنة الله في عباده.

وأيضاً فأهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائلهم وفي سائر مناحيهم ثم هم مفارقون لهم ومناذبون بما وقع من هذه المطالبة ويطمعهم في الاستيلاء عليها، فتمتكن المباحدة بين أهل الدولتين سرّاً وجهراً، ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة باطناً وظاهراً لا تقطع المداخله بين الدولتين، فيقيمون على المطالبة وهم في إحجام، وينكلون عن المناجزة حتى ياذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها وفور الخلل في جميع جهاتها، ويتضح لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يخفى منهم من هرمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها، فتنبعث همهم بدأ واحدة للمناجزة، وينهب ما كان يفت في عزائمهم من الترهات وتنتهي المطاوله إلى حدها ويقع الاستيلاء آخرها بالمعاجلة.

واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انققاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد، وحيثئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية.

وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية، ثم لما انقضى أمر العلوية وسما الديلم إلى ملك فارس والعراقيين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أصبهان ثم استولوا على الخليفة ببغداد.

وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي ببني كنامة من قبائل البربر عشر سنين وزيد، يطاول بني الأغلب بإفريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله وسموا إلى ملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت ويحيي المدد لدفاعتهم برأ ومجرأ من بغداد والشام وملكو الإسكندرية والقيروم والصعيد، ونحطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بني طنجج من أصولها واخطت القاهرة، فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية.

وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني سامان

الفصل الحادي والخمسون

في أن العمران البشري لا بد له من سياسة

ينتظم بها أمره

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من أزع حاكم يرجعون إليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب اتقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب اتقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته لحجة العباد في الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط.

وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأساً، ويسمّون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة، والقوانين المرعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة، فإن هذه غير تلك، وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير.

ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين:

أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص، وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة. وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة؛ لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآداب وأحكام الملك مندرجة فيها.

الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً، وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسان الملوك في العالم من مسلم وكافر إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم، فقوانينها إذاً مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أولاً ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم، ومن

ذلك كله بالتدرج فإنما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الأقل وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي، فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والتماء، ولا تقولن: إنه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوء الملكة، فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه؛ لأن الإجحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات، فإنما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدرج في الأمور الطبيعية، ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه:

إما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فيقل احتكار الزرع غالباً، وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر، والزرع والثمار والضرع على نسبه إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات، والاحتكار مفقود فشمّل الناس الجوع.

وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء، وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة، وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحمّيات في الأمزجة وتعرض الأبدان وتهلك، وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المغموم وهو ظاهر، ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والفقر بين العمران ضروري ليكون نموج الهواء ينهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بهواء الصحيح، ولهذا أيضاً فإن الموتان يكون في المدن المفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب، والله يقدّر ما يشاء.

على الخير كله والقائد إليه والأمر والنهي عن المعاصي والموبقات كلها، ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلالاً له ودركاً للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوفيق لأمرك والهبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعدلك.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعاً ولا أخص أماناً ولا أجمع فضلاً منه. والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنة الهادية بالاقتصاد قائمه في دنياك كلها.

ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنة المعروفة ومعالم الرشد والإعانة والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله في دار كرامته.

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب، وإنك لن تحوط نفسك من قاتل ولا تتصلح أمورك بأفضل منه، فاته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح عامتك وخاصتك، وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستمد به النعمة عليك.

ولا تتهم أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره، فإن إيقاع التهم بالبراءة والظنون السيئة بهم أثم إثم. فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم ينعك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم. ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمداً، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاته عيشك.

واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة، وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرافة برعتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمر الأولياء وحيطة الرعية والنظر في حوائجهم وحل مؤناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين وأحيا للسنّة.

واخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع وبجزي بما أحسن ومواخذ بما أساء، فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه. واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى. وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما

أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما، فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانته من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة. ونص الكتاب:

نص كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة مسخه، واحفظ رعتك في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه، فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرافة عليك بمن استرعاك أمرهم من عبادته والزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والأمن لسرهم، وإدخال الراحة عليهم، ومواخذك بما فرض عليك وموقفك عليه ومسانك عنه ومشييك عليه بما قدمت وأخرت، ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل، وأنه رأس أمرك وملاك شأنك، وأول ما يوقفك الله عليه، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعلك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوقمها على سننها من إسباغ الرضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها، ورتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولنصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وإدب عليها، فإنها كما قال الله عز وجل ﴿تَتَهَيَّءُ عَنِ الْقَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ والمشاورة على خلائقه واقفاء أثر السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه، ويلزوم ما أنزل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وإتمام ما جاء به الآثار عن رسول الله ﷺ، ثم قسم فيه بالحق لله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد.

وآثر الفقه وأهله والدين وحملة وكتاب الله عز وجل والعاملين به، فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل، فإنه الدليل

واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيته وخراجك أقدر، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك، وطب نفساً بكل ما أردت. واجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب وليعظم حَقُّك فيه، وإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه، واعرف للشاركين حقهم وأثبهم عليه، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يورث التفريط، والتفريط يورث البوار. وليكن عملك لله عز وجل وفيه، وارج الثواب منه، فإن الله سبحانه قد أسبغ فضله. واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً، فإن الله عز وجل يثيب بقلدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين.

ولا تحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسداً ولا ترحمن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تداهنن عدواً ولا تصدقن غاماً ولا تأمنن غداراً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوباً ولا تحمدن مرائياً ولا تحقرن إنساناً ولا تردن سائلاً فقيراً ولا تحسبن باطلاً ولا تلاحظن مضحكاً ولا تحلفن وعداً ولا تزهون فخرأً ولا تظهرن غضباً ولا تباينن رجاءً ولا تمشين مرحاً ولا تزكين سفيناً ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفعن للنعم عيناً ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه أو عماية ولا تطلين ثواب الآخرة في الدنيا.

وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة. ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولاً، فإن ضررهم أكثر من نفعهم.

وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيته من الشح. واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلاً، فإن رعيته إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم. ووال من صافاك من أوليائك بالإنصاف عليهم وحسن العطية لهم. واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى الإنسان به ربه وأن العاصي بمنزلة الخزي وهو قول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من فيك حظاً ونصيباً، وأيقن أن الجرد أفضل أعمال العباد فاعده لنفسك خلقاً وارض به عملاً ومذهباً. وتنفذ الجند في دواوينهم ومكائنتهم وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاتتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانسراحاً. وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة في عدله وعطيته

استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك، واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجناب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتسم لك مروؤتك.

وإذا عاهدت عهداً فأوف به وإذا وعدت الخير فأنجزه، واقلب الحسنة وادفع بها، واغض عن عيب كل ذي عيب من رعيته، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهل النيممة، فإن أول فساد أمورك في عاجلها وأجلها، تقريب الكذوب، والجراءة على الكذب، لأن الكذب رأس المأثم، والزور والنيممة خائمتها، لأن النيممة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر. وأحب أهل الصلاح والصدق، وأعز الأشراف بالحق، وأعز الضعفاء، وصل الرحم، وابتنع بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة. واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهم رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيته، وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى. واملك نفسك عند الغضب، وأثر الحلم والوقار، وإياك الحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله.

وإياك أن تقول: أنا مسلط أفعل ما أشاء، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل، وأخلص لله وحده النية فيه واليقين به.

واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء. ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله.

ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكتز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأموارهم والحفظ لدمائهم والإغاثة للمهروم.

واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة وترتبت بها الولاية وطاب بها الزمان واعتقد فيها العز والمنفعة. فليكن كثر خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله. ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتمهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم، فإنك إذا فعلت ذلك قوت النعمة لك

نفسك، وكنت محمود السياسة مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة. فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيئاً تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى.

واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معيناً لأمره كلها. وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته، فإنه ربما نظر الرجل في أمره وقد أثناه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه، فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره. فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة. وأكثر من استشارة ريك في جميع أمورك. وافرح من عمل يومك ولا تؤخره لغدك وأكثر مباشرته بنفسك فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت. واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تمرض منه. وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت أمر سلطانك.

وانظر أحرار الناس وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والحفاظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا خللتهم منافراً، وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك والمختصر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أحفى مسألة وكل بامثاله أهل الصلاح في رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم إليك لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوي البأساء ويتامهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة. وأجر للأضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحفاظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقوماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال.

واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيتهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعاً في نيل الزيادة وفضل الرفق بهم. وربما ترم المتصفح لأمرور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به من

وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزایل مكروه أحد البايين باستشعار فضل الباب الآخر ولزوم العمل به، تلق إن شاء الله تعالى به نجاحاً وصلاًحاً وفلاحاً.

واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور؛ لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض. وإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتؤمن السبل ويتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجري السنن والشرائع في مجاريها. واشتد في أمر الله عز وجل وتورع عن النطف وامض لإقامة الحدود. وأقلل العجلة وابتعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك واتب في صحتك واسدد في منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحجة ولا يأخذك في أحد من رعيتك محابة ولا بجمالة ولا لومة لائم، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لريك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن إلى سفك دم، فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم! فلا تبغ انتهاكاً لها بغير حقه.

وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزاً ورفعةً، ولأهله توسعة ومنعة، ولعدوه كبتاً وغيظاً ولأهل الكفر من معاديبهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم، ولا تدفعن شيئاً منه عن شريف لشرفه ولا عن غني لغناه ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له. ولا تكلف أمراً فيه شطط. واحمل الناس كلهم على أمر الحق فإن ذلك أجمع لألفتهم والأزم لرضاء العامة.

واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم. فخذ منهم ما أعطوك من عفوههم ونفذه في قوام أمرهم وصلاتهم وتقويم أودهم. واستعمل عليهم أولي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف. ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك، فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف، فإنك متى آثرتة وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ريك وحسن الأحودنة في عملك واستجرت به الحجة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات بيلدك وفشت العمارة بناحيك وظهر الخصب في كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتياض جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من

أعجب به الناس واتصل بالمؤمن، فلما قرئ عليه قال: ما أبقي أبو الطيب - يعني طاهراً - شيئاً من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به؛ ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقننوا به ويعملوا بما فيه، هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة، والله أعلم.

الفصل الثاني والخمسون

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه
وكشف الغطاء عن ذلك

اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على عمر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستتري على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشرار الساعة الثابتة في «الصحیح» على أثره. وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتي بالمهدي في صلاته ويحتجون في هذا الشأن بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الأخبار، وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم.

ولن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في إنكارهم من المستند ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ليتبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله تعالى فنقول:

إن جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي منهم الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسندوها إلى جماعة من الصحابة: مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأم حبيبة وأم سلمة وثوبان وقرعة بن إياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث بن جزء بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره، إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل، فإذا وجدنا طعنًا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها ولا تقرلن مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال

مؤونة ومشقة. وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقل ما يقربه من الله تعالى وتلتبس به رحمته.

وأكثر الإذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن لهم حواسك واخلض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والنطق واعطف عليهم بمجودك وفضلك. وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان، فإن العطية على ذلك تجارة مرمجة إن شاء الله تعالى.

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة.

ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبة والعمل بشريعته وستة وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل.

واعرف ما يجمع عمالك من الأموال وما يتفقون منها ولا تجمع حراماً ولا تنفق إسرافاً.

وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم وغالطتهم، ولكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإثبات مكارم الأخلاق ومعاليها، ولكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً لم تمتنع هيتك من إنهاء ذلك إليك في ستر وإعلامك بما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك.

وانظر عمالك الذين يحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل فيه عليك بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيته، ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصره وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبر له، فما كان موافقاً للحق والحزم فأمضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه والتبث منه، ولا تمتن على رعيته ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم. ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك. وتفهم كتابي إليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره، فإن الله عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضاء ولدين نظاماً ولأهله عزاً وتمكيناً وللملّة والذمة عدلاً وصلاحاً وأنا أسأل الله - عز وجل - أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلامك والسلام.

وحدث الإخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره

وقال الدارقطني: في حفظه شيء، وقال يحيى القطان: ما وجدت رجلاً اسمه عاصم إلا وجدته رديء الحفظ، وقال أيضاً: سمعت شعبة يقول: حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي الناس ما فيها! وقال الذهبي: ثبت في القراءة وهو في الحديث دون التثبت صدوق فهم وهو حسن الحديث.

وإن احتج أحد بأن الشيخين أخرجاه له فنقول: أخرجاه له مقروناً بغيره لا أصلاً، والله أعلم.

وخرج أبو داود في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية فطر بن خليفة، عن القاسم بن أبي مرة، عن أبي الطفيل، عن علي، عن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»، وفطر بن خليفة وإن وثقه أحمد ويحيى القطان وابن معين والنسائي وغيرهم إلا أن العجلي قال: حسن الحديث وفيه تشيع قليل، وقال ابن معين مرة: ثقة شيعي. وقال أحمد بن عبد الله بن يونس: كنا نمر على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه. وقال مرة: كنت أمر به وأدعه مثل الكلب. وقال الدارقطني: لا يحتج به. وقال أبو بكر بن عياش: ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه. وقال الجرجاني: زائف غير ثقة انتهى.

وخرج أبو داود أيضاً بسنده إلى علي رضي الله عنه عن هارون بن المغيرة، عن عمر بن أبي قيس، عن شعيب بن أبي خالد، عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال علي ونظر إلى ابنه الحسين: إن ابني هذا سيد كما سماه رسول الله ﷺ. سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق يملأ الأرض عدلاً.

وقال هارون: حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف، عن أبي الحسن، عن هلال بن عمر: سمعت علياً يقول: قال النبي ﷺ: «يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطىء أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله ﷺ وجب على كل مؤمن نصره أو قال: إجابته.

سكت أبو داود عليه. وقال في موضع آخر في هارون: هو من ولد الشيعة. وقال السليمان: فيه نظر. وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس: لا بأس به في حديثه خطأ. وقال الذهبي: صدوق له أوام. وأما أبو إسحاق السبيعي وإن خرج عنه في «الصحيحين» فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره وروايته عن علي متقطعة، وكذلك رواية أبي داود عن هارون بن المغيرة.

«الصحيحين» فإن الإجماع قد اتصل في الأمة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما، وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع وليس غير «الصحيحين» بمثابةما في ذلك، فقد نجد مجالاً للكلام في آسانيدهما بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال: ومن أغربها إسناداً ما ذكره أبو بكر الإسكافي في «فوائد الأخبار» مسنداً إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب بالمهدي فقد كفر، ومن كذب بالدجال فقد كذب». وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب، وحسبك هذا غلواً. والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس على أن أبا بكر الإسكافي عندهم متهم وضاع.

وأما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس. من طريق عاصم بن أبي النجود - أحد القراء السبعة - إلى زر بن حبیش، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي». هذا لفظ أبي داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة: «إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح». ولفظ الترمذي: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي» وفي لفظ آخر «حتى يلي رجل من أهل بيتي» وكلاهما حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً من طريق موقوفاً على أبي هريرة وقال الحاكم: رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال: وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عاصم إذ هو إمام من أئمة المسلمين انتهى.

إلا أن عاصماً قال فيه أحمد بن حنبل: كان رجلاً صالحاً قارئاً للقرآن خيراً ثقة والأعمش أحفظ منه وكان شعبة يكثر الأعمش عليه في تثبيت الحديث، وقال العجلي: كان يختلف عليه في زر وأبي وائل؛ يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما، وقال محمد بن سعد: كان ثقة إلا أنه كثير الخطأ في حديثه، وقال يعقوب بن سفيان: في حديثه اضطراب، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلت لأبي: إن أبا زرعة يقول: عاصم ثقة، فقال: ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن علية فقال: كل من اسمه عاصم سيئ الحفظ، وقال أبو حاتم: محله عندي محل الصدوق صالح الحديث ولم يكن بذلك الحافظ، واختلف فيه قول النسائي، وقال ابن حراش: في حديثه نكرة، وقال أبو جعفر العجلي: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ،

البخاري استشهداً لا أصلاً، وكان يحسب القطان لا يحدث عنه، وقال يحيى بن معين: ليس بالقوي وقال مرة: ليس بشيء. وقال أحمد بن حنبل: أرجو أن يكون صالح الحديث، وقال يزيد بن زريع: كان حرورياً وكان يرى السيف على أهل القبلة، وقال النسائي: ضعيف، وقال أبو عبيد الأجري: سألت أبا داود عنه. فقال: من أصحاب الحسن وما سمعت إلا خيراً. وسمعت مرة أخرى ذكره فقال: ضعيف أفتى في إبراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء.

وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري عن طريق زيد العمي، عن أبي صديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: خشينا أن يكون بعض شيء حدث فسلنا نبي الله ﷺ فقال: «إن في أمي المهدي يخرج ويعيش خمساً أو سبعا أو تسعاً» زيد الشاذلي قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: سنين! قال: «فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني» قال: «فيحشوا له في ثوبه ما استطاع أن يحمله». لفظ الترمذي قال: هذا حديث حسن وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ.

ولفظ ابن ماجه والحاكم: «يكون في أمي المهدي إن قصر فسع وإلا فتسع فتعتم أمي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط تؤتي الأرض أكلها ولا يدخر منه شيء، والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول: يا مهدي أعطني! فيقول هذا» انتهى.

وزيد العمي وإن قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين: إنه صالح وزاد أحمد: إنه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى إلا أنه قال فيه أبو حاتم: ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال يحيى بن معين في رواية أخرى: لا شيء. وقال مرة: يكتب حديثه وهو ضعيف. وقال الجوزجاني: متمسك وقال أبو زرعة: ليس بقوي وإممي الحديث ضعيف وقال أبو حاتم: ليس بذلك وقد حدث عنه شعبة. وقال النسائي: ضعيف وقال ابن عدي: عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه.

وقد يقال: إن حديث الترمذي وقع تفسيراً لما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمي، خليفة يحشو المال حشواً لا يعده عداء» ومن حديث أبي سعيد قال: من خلفائكم خليفة يحشو المال حشواً» ومن طريق أخرى عنهما قال: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده» انتهى.

وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على

وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى.

وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة وكذا ابن ماجه والحاكم في «المستدرک» من طريق علي بن نفيل، عن سعيد بن المسيب، عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من ولد فاطمة» ولفظ الحاكم: سمعت رسول الله ﷺ يذكر المهدي فقال: «نعم هو حق وهو من بني فاطمة»

ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره، وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال: لا يتابع علي بن نفيل عليه ولا يعرف إلا به.

وخرج أبو داود أيضاً عن أم سلمة من رواية صالح بن الخليل، عن صاحب له، عن أم سلمة قالت: يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة، فيخرجونه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، فيبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق، فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب والحية لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبهم ﷺ ويلقي الإسلام بمجرانه على الأرض، فيلبث سبع سنين، وقال بعضهم: تسع سنين.

ثم رواه أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة، فتبين بذلك المبهم في الإسناد الأول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال: إنه من رواية قتادة عن أبي الخليل وقاتدة مدلس وقد عنعنه، والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع. مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي؛ نعم ذكره أبو داود في أبوابه.

وخرج أبو داود أيضاً وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري عن طريق عمران القطان عن قتادة، عن أبي نصر، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي مني أجلى الجبهة أفتى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» يملك سبع سنين» هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم: «المهدي منا أهل البيت أشم الأنف، أفتى أجلى، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يعيش هكذا» ويسط يساره وإصبعين من يمينه السبابة والإبهام وعقد ثلاثة. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. اهـ.

وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به إنما أخرج له

أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحداً إلا أبا الواصل فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى.

وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد، ورواية أبي الصديق عنه وقال الذهبي في «الميزان»: إنه مجهول. لكن ذكره ابن حبان في الثقات. وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة. وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه: يروي عن أنس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر.

وخرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم رسول الله ﷺ ذرفت عيناه وتغير لونه قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكره! فقال: «إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملؤها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج» انتهى.

وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بمحدث الرايات. ويزيد بن أبي زياد راويه قال فيه شعبة: كان رقاعاً - يعني يرفع الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة. وقال محمد بن الفضيل: كان من كبار أئمة الشيعة. وقال أحمد بن حنبل: لم يكن بالحافظ وقال مرة: حديثه ليس بذلك. وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال العجلي: جائر الحديث، وكان بأخرة يلقي. وقال أبو زرعة: لين يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال الجوزجاني: سمعهم يضعفون حديثه. وقال أبو داود: لا أعلم أحداً ترك حديثه وغيره أحب إلي منه. وقال ابن عدي: هو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه. وروى له مسلم لكن مقروناً بغيره. وبالجمله فالأكثرون على ضعفه. وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله وهو حديث الرايات. وقال وكيع بن الجراح فيه: ليس بشيء. وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة: سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات: لو حلف عندي خسين ميمناً قسامه ما صدقته، أهذا مذهب إبراهيم؟ أهذا مذهب علقمة؟ أهذا مذهب عبد الله؟ وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي: ليس بصحيح.

أنه المراد منها. ورواه الحاكم أيضاً من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً».

وقال فيه الحاكم: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه الحاكم أيضاً من طريق سليمان بن عبيد، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحاً، وتكثر الماشية وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً» يعني حججاً. وقال فيه: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحداً تكلم فيه، ثم رواه الحاكم أيضاً من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة، عن مطر الوراق وأبي هارون العبيدي، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «تملأ الأرض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعاً أو تسعاً فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً».

وقال الحاكم فيه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جعله على شرط المسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق. وأما شيخه الآخر وهو أبو هارون العبيدي فلم يخرج له. وهو ضعيف جداً متهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه.

وأما الراوي له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة وإن قال البخاري: مشهور الحديث واستشهد به في «صحيحه». واحتج به أبو داود والنسائي إلا إنه قال مرة أخرى: ثقة لو لم يصف كان خيراً له. وقال فيه محمد بن حزم: منكر الحديث.

ورواه الطبراني في «معجمه الأوسط» من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل، عن أبي الصديق الناجي، عن الحسن بن يزيد السعدي أحد بني بهذله، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج رجل من أمتي يقول بسنتي ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج الأرض بركتها وتغلا الأرض منه قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل على بيت المقدس».

وقال الطبراني فيه: ورواة جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل

رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال: كنا عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال علي: هيهات ثم عقد يده سبعا فقال: ذلك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل: الله الله قتل، ويجمع الله له قوما قزعا، كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يسترحشون إلى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم، عدتهم على عدة أهل بدر لم يسبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون، وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر. قال أبو الطفيل: قال ابن الحنفية: أتريده؟ قلت: نعم قال: فإنه يخرج من بين هذين الأخشين قلت: لا جرم والله ولا أدمعها حتى أموت. ومات بها يعني مكة، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. انتهى.

وإنما هو على شرط مسلم فقط، فإن فيه عمارةً للدهني ويونس بن أبي إسحاق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد المعنزي ولم يخرج له البخاري احتجاجاً بل استشهداً مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار اللهي وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم، فقد قال علي بن المديني عن سفيان: أن بشر بن مروان قطع عرقبيه، قلت: في أي شيء؟ قال: في التشيع.

وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر، عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار، عن إسحاق بن عبد الله، عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لحسن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي». انتهى.

وعكرمة بن عمار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج له متابعة. وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون، وقال أبو حاتم الرازي: هو مدلس فلا يقبل إلى أن يصرح بالسماع وعلي بن زياد. قال الذهبي في «الميزان»: لا ندرى من هو، ثم قال: الصواب فيه عبد الله بن زياد، وسعد بن عبد الحميد - وإن وثقه يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين: ليس به بأس - فقد تكلم فيه الثوري قالوا: لأنه رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها. وقال ابن حبان: كان ممن فحش غلظه فلا يجتمع فيه. وقال أحمد بن حنبل: سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كعب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو هنا يبتدأ لم يحج فكيف سمعها؟ وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه.

وخرج الحاكم في «مستدركه» من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه، قال مجاهد: قال لي ابن عباس: لو لم أسمع

وخرج ابن ماجه عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي، عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي منا أهل البيت يصلح الله به في ليلة».

وياسين العجلي وإن قال فيه ابن معين: ليس به بأس فقد قال البخاري: فيه نظر. وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جداً. وأورد له ابن عدي في «الكامل» والذهبي في «الميزان» هذا الحديث على وجه الاستكثار له وقال: هو معروف به.

وخرج الطبراني في «معجمه الأوسط» عن علي رضي الله عنه أنه قال للنبى ﷺ: أمنا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله؟ فقال: «بل منا، بنا يحتم الله كما بنا فتح، وبنا يستقلون من الشرك وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة، كما بنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك». قال علي: أمؤمنون أم كافرون؟ قال: «مفتون وكافر». انتهى.

وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال. وفيه عمرو بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه. قال أحمد بن حنبل: روى عن جابر مناكير وبلغني أنه كان يكذب، وقال النسائي: ليس بثقة وقال: كان ابن لهيعة شيخاً أحمق ضيف العقل وكان يقول: علي في السحاب، وكان يجلس معنا فيصير سحابة فيقول: هذا علي قد مر في السحاب.

وخرج الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن، فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أشرارهم، فإن فيهم الأبدال يوشك أن يرسل على أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم، فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات - المكث يقول هم خمسة عشر ألفاً والمقلل يقول: هم اثنا عشر ألفاً وأمارتهم «أمت أمت» يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعاً ويرد الله إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ورايتهم». اهـ.

وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال. ورواه الحاكم في «المستدرك» وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه في روايته ثم يظهر الهاشمي «فيرد الله الناس إلى ألفتهم.... الخ» وليس في طريقه ابن لهيعة وهو إسناده صحيح كما ذكر.

وخرج الحاكم في «المستدرك» عن علي رضي الله عنه من

أمي المهدي إن قصر فسبح وإلا فثمان وإلا فتسع، تنعم فيها أمي نعمة لم ينعموا بمثلها، ترسل السماء عليهم مدراراً ولا تدخر الأرض شيئاً من النبات، والمال كدوس يقوم الرجل يقول: يا مهدي أعطني فيقول: خذ».

قال الطبراني والبيزار: تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار: ولا تعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وإن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في الثقات، قال فيه يحيى بن معين: صالح وقال مرة: ليس به بأس فقد اختلفوا فيه. قال أبو زرعة: ليس عندي بذلك، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: رأيت محمد بن مروان العجلي حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها تركتها على عمد وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعه.

وخرج أبو يعلى الموصلي في «مسنده» عن أبي هريرة قال: حدثني خليلي أبو القاسم عليه السلام قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق» قال: قلت وكم يملك؟ قال: خمساً وأربعين قال: قلت وما خمساً وأربعين؟ قال: لا أدري.

وهذا السند وإن كان فيه بشير بن نهيك قال فيه أبو حاتم: لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم: لا يحتج به إلا أن فيه رجاء ابن أبي رجاء اليشكري وهو مختلف فيه؛ قال أبو زرعة: ثقة وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال أبو داود: ضعيف. وقال مرة: صالح. وعلق له البخاري في «صحيحه» حديثاً واحداً.

وخرج أبو بكر البراز في «مسنده» والطبراني في «معجمه الكبير» و«الأوسط» عن قرة بن إياس قال: قال رسول الله ﷺ: «لتملأ الأرض جوراً وظلماً، فإذا ملئت جوراً وظلماً بعث الله رجلاً من أمي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، فلا تمنع السماء من قطرها شيئاً ولا تدخر الأرض شيئاً من نباتها، يلبث فيكم سبعاً أو ثمانية أو تسعاً» يعني سنين. اهـ.

وفيه داود بن الحثير بن قحذم عن أبيه وهما ضعيفان جداً. وخرج الطبراني في «معجمه الأوسط» عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ في نفر من المهاجرين والأنصار وعلي بن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه إذ تلاهى العباس ورجل من الأنصار فأغلظ الأنصاري للعباس، فأخذ النبي ﷺ بيد العباس ويده علي وقال: «سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض جوراً وظلماً وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً،

أنك مثل أهل البيت ما حدثك بهذا الحديث قال: فقال مجاهد: فإنه في ستر لا أذكره لمن يكره! قال فقال ابن عباس: منا أهل البيت أربعة! منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي، قال: فقال مجاهد: بين لي هؤلاء الأربعة. فقال ابن عباس: أما السفاح فرما قتل أنصاره وعفا عن عدوه، وأما المنذر أراه قال: فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاطم في نفسه ويمسك القليل من حقه، وأما المنصور فإنه يعطي النصر على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله ﷺ ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر، وأما المهدي فإنه الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وتأمين البهائم السباع وتلقي الأرض أفلاذ كبدها. قال: قلت: وما أفلاذ كبدها؟ قال: أمثال الإسطوانة من الذهب والفضة.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه، وإسماعيل ضعيف، وإبراهيم أبوه وإن خرج له مسلم فالأكثر على تضعيفه. اهـ.

وخرج ابن ماجه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله قوم» ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال: «إذا رأيتموه فابعثوه ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي». اهـ.

ورجاله رجال الصحيحين إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي. وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس، وكل واحد منهما عتن ولم يصرح بالسمع فلا يقبل؛ وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعمي في آخر وقته فخلط. قال ابن عدي: حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد، ونسبوه إلى التشيع. انتهى.

وخرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي من طريق ابن لهيعة، عن أبي زرعة عمرو بن جابر الحضرمي، عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج ناس من المشرق فيوطنون للمهدي». يعني سلطانه. قال الطبراني: تفرد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرجته الطبراني في «معجمه الأوسط» أن ابن لهيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه.

وخرج البزار في «مسنده» والطبراني في «معجمه الأوسط» واللفظ للطبراني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يكون في

منهم، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها.

ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس، وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلل والوحدة فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بالوهية الأئمة وحلول الإله فيهم.

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والأبدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والتقاء. وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم، حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرق أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة. واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم. ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح. ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رافعة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها عما تقدم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه.

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلات كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر، وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض، وكأنه مبني على أصول وأهية من الفريقين، وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرائن وهو من نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا.

وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي، ابن العربي الحاتمي في كتاب «عقلاء مغرب» وابن قسي في كتاب «خلع النعلين» وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واطيل تلميذه في شرحه لكتاب «خلع النعلين». وأكثر كلماتهم في شأنه الغاز وأمثال وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم.

وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واطيل أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وأنها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبراً وتكبراً وباطلاً.

قالوا: ولما كان في المهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم يخلاتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بخاله يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدلها والملك بعد الخلافة: هذه ثلاث مراتب. وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدلها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك، فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث المراتب الأولى. قالوا: ولما

فإذا رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التيممي، فإنه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي» انتهى. اهـ

وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان. اهـ

وخرج الطبراني في «معجمه الأوسط» عن طلحة بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «ستكون فتنة لا يسكن منها جانب إلا تشاجر جانب حتى ينادي مناد من السماء أن أميركم فلان». اهـ. وفيه الثني بن الصباح وهو ضعيف جداً. وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وإنما ذكره في أبوابه وترجمته استئناساً.

فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان. وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه.

وربما تمسك المتكبرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش (م)، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «لا مهدي إلا عيسى بن مريم» وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي: إنه ثقة. وقال البيهقي: تغرد به محمد بن خالد. وقال الحاكم فيه: إنه رجل مجحول واختلف عليه في إسناده: فمرة يروي كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعي، ومرة يروي عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. قال البيهقي: فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجحول عن أبان بن أبي عياش وهو متروك عن الحسن عن النبي ﷺ وهو منقطع؛ وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب.

وقد قيل في: «أن لا مهدي إلا عيسى» أي لا يتكلم في المهدي إلا عيسى يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الأحاديث وهو مدفوع بحديث جريج ومثله من الخوارق.

وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجه والأحوال وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وإدعاء الوصية له بذلك من النبي ﷺ والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم، ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم وكثرت التأليف في مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدعون الوهية الإمام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته

أمي كنيانية بني إسرائيل» ولم تزل البشرية تتابع به من أول اليوم الحمدي إلى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته وازدلاف زمانه منذ انقضت إلى هلم جراً.

قال: وذكر الكندي: أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ويجدد الإسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة الأندلس ويصل إلى رومية فيفتحها ويسير إلى المشرق فيفتحها ويفتح القسطنطينية ويصير له ملك الأرض فيتقوى المسلمون ويعلمو الإسلام ويظهر دين الخليفة، فإن من صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة، قال عليه الصلاة والسلام: «ما بين هذين وقت».

وقال الكندي أيضاً: الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملة عددها سبعمائة وثلاث وأربعون وسبع دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر، فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب ثم يبقى ملك العجم بعد إسلامهم مع عيسى مائة وستون عاماً عدد حروف المعجم وهي (ق ي ن) دولة العدل منها أربعون عاماً.

قال ابن أبي واطيل: وما ورد من قوله «لا مهدي إلا عيسى» فمعناه: لا مهدي تساوي هدايته ولايته، وقيل: لا يتكلم في المهدي إلا عيسى، وهذا مدفوع بمحدث جريح وغيره. وقد جاء في الصحيح أنه قال: «لا يزال هذا الأمر قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني قرشياً».

وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الإسلام ومنهم من سيكون في آخره. وقال: الخلافة بعدي ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ست وثلاثون وانقضاؤها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية، فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء، وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز. والباقيون خمسة من أهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله: «إنك لذو قرينها» يريد الأمة أي إنك لخليفة في أولها وذريتك في آخرها. وربما استدلل بهذا الحديث القائلون بالرجعة. فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها.

وقد قال عليه السلام: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفق كنوزهما في سبيل الله» وقد اتفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية: فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش.

كان أمر الخلافة لقريش حكماً شرعياً بالإجماع الذي لا يوهنه إنكار من لم يزاو علمه وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله عليه وآله إما ظاهراً كعبد المطلب وإما باطنياً ممن كان من حقيقة الآل، والآل من إذا حضر لم يغيب من هو آله.

وابن العربي الحاشي سماه في كتابه «عتقاء مغرب» من تأليفه: خاتم الأولياء وكنى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وآله: «مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمّله حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنه فانا تلك اللبن» فيفسرون خاتم النبيين باللبنه حتى أكملت البنين ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة. ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويمثلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية، كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للمرتبة التي هي خاتمة النبوة. فكنى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنه البيت في الحديث المذكور.

وهما على نسبة واحدة فيها. فهي لبنه واحدة في التمثيل. ففي النبوة لبنه ذهب وفي الولاية لبنه فضة للتفاوت بين الرتبين كما بين الذهب والفضة. فيجعلون لبنه الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وآله ولبنه الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء.

وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه: وهذا الإمام المنتظر وهو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضي (خ ف ج) من الهجرة ورسم حروفاً ثلاثة يريد عددها بحسب الجمل وهو الحاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة، والفاء تحت القاف بثمانين، والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة، وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة وهي في آخر القرن السابع، ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر، حُمل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده وعبر بظهوره عن مولده وأن خروجه يكون بعد العشر السبعمائة فإنه الإمام الناجم من ناحيه المغرب.

قال: وإذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيكون عمره عند خروجه ستاً وعشرين سنة قال: وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم الحمدي وابتداء اليوم الحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وآله إلى تمام ألف سنة قال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب «خلق النعلين» الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار إليه بمحمد المهدي وخاتم الأولياء وليس هو بني وإنا هو ولي ابتغى روحه وحييه. قال صلى الله عليه وآله: «العالم في قومه كالنبي في أمته». وقال: «علماء

أبو يحيى زكرياء عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور.

هذا آخر ما أطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا.

والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والمملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه. وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك وعصبية الفاطميين بل وقرش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قرش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر وهم متشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافاً من الكثرة، فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها، وأما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة.

وأما ما تدعيه العامة والأغمار من النعماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يقيده فيتحينون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليداً لما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه، وأكثر ما يتحinson في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران مثل الزاب بإفريقية والسوس من المغرب. ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطاً بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من المثلثين من كدالة واعتقادهم أنه منهم أو قائلون بدعوته زعماً لا مستند لهم إلا غرابة تلك الأمم وبعدهم عن يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قوة، ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها، فتفوق عندهم الأوهام في ظهوره هناك بخروجه عن ربة الدولة ومنال الأحكام والفقر ولا محصور لديهم في ذلك إلا هذا. وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبس بدعوة بمية تمامها وسواساً وحماً وقتل كثير منهم.

أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الأيلي قال: خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من متحلي التصوف يعرف بالتوزيري نسبة إلى توزر مصغراً

كما قال الشيخ: «ومدة حكمه بضعة» والبضعة من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر، وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين. فأما الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقيين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال: «وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاماً، فيكون الأمر على هذا جاريماً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين، ثم تختلف الأحوال فتكون ملكاً» انتهى كلام ابن أبي واطيل.

وقال في موضع آخر: نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم الحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه قال: وذكر الكندي يعقوب بن إسحاق في كتاب «الجفر» الذي ذكر فيه القرانات: أنه إذا وصل القرآن إلى الثور على رأس (ضح) بحرفين الضاد المعجمة والحاء المهملة بريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى. قال: وقد ورد في الحديث أن عيسى «ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهردوتين يعني حلتين مزعفتين صفراوين ممصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين له لمة كأنها خرج من ديماس، إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه نحد منه جمان كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه» وفي حديث آخر: «مربوع الخلق وإلى الياض والحمرة». وفي آخر: «أنه يتزوج في الغرب». والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته. وذكر وفاته بعد أربعين عاماً. وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر بن الخطاب. وجاء أن أبا بكر وعمر يحشران بين نبين. قال ابن أبي واطيل: (والشبهة تقول إنه هو المسيح مسيح المسائح من آل محمد.

قلت: وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا مهدي إلا عيسى أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة الحمدي نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة فينقض الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون إلى تجديد رأي آخر متحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشباه تخيلية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر.

وأما المتصوفة الذين عاصروهم فآكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحinson ظهوره لما قرب من عصرنا، فبعضهم يقول: من ولد فاطمة، وبعضهم يطلق القول فيه: سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا

ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثر.

ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه، فإذا هلك الخلق أمرهم وتلاشت عصيتهم، وقد وقع ذلك بإفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم، وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الأول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حينما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح؛ وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها ويتحللون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم. انتهى.

الفصل الثالث والخمسون

في حدثان الدول والأمم وفيه الكلام على

الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كعرفة ما بقي من الدنيا وعرفة مدد الدول، أو تفاوتها والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة، ولقد نجد في المدن صفراً من الناس يتحللون المعاش من ذلك لعلمهم بمحرص الناس عليه فيتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصيانيها وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة، وأمثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالخصى والحبوب ويسمونه الخاسب، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المتدل وهو من التكرات الفاشية في الأمصار لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية.

وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آحاد دولتهم؛ ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه، وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من

وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتباعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم، ففسد عليه السكسوي من قتله بياناً وأخل أمره.

وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمي واتباعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عشوة وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة، فقتل بها غيلة ولم يتم أمره. وكثير من هذا النمط.

وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا وهو أنه صاحب في حجة في رباط العباد وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المثل عليها رجلاً من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعاً معظماً كثير التلميذ والخدام. قال: وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان. قال وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي أمرهم وأنهم إنما جاؤوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب. فلما عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل لتلمسان قال لأصحابه: ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا. ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصية المكافئة لأهل الوقت، فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وأن عصية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامعه. وبقي عليه أن يستيقن أن عصية الفواطم وقرش أجمع قد ذهبت لا سيما في المغرب إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القرية نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لا يتحللون فيها دعوة فاطمي ولا غيره، وإنما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه، وأكثر ما يعنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم، لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك؛ لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل القرية ومنها توبتهم. فتجد تابع ذلك المتحلل للدعوة القائم بزعمه بالسنة غير متعمق في فروع الاقتداء والاتباع إنما دينهم الإعراض عن النهب والبغي وإفساد السابلة ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم. وشتان بين طلب هذا الأجر في صلاح الخلق وبين طلب الدنيا، فاتفقهما متمتع لا تستحكم لهم صبغة في الدين

الملة خمسمائة سنة وتقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلاً. وسره والله أعلم بتقدير الدنيا بأيام خلق السموات والأرض وهي سبعة ثم اليوم بالف سنة لقوله: ﴿وَرَأَى يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: وقد ثبت في «الصححين»: أن رسول الله ﷺ قال: «أجلكم في أجل من كان قبلهم من صلاة العصر إلى غروب الشمس» وقال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع، وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة.

ويؤيده قوله ﷺ: «لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم» فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة.

وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي، وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة.

قال السهيلي: وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه.

فأما قوله: «لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم» فلا يقتضي نفى الزيادة على النصف، وأما قوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» فإنما فيه الإشارة إلى القرب، وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه.

ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق، وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال: وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك (ألم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة أضافه إلى المنقضي من الألف الآخر قبل بعثه، فهذه هي مدة الملة قال: ولا يبعد ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها.

قلت: وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه. والذي حمل السهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب «السير» لابن إسحاق في حديث ابني أخطب من أخبار اليهود وهما أبو ياسر وأخوه حي حين سمعا من الأحرف المقطعة «الم» وتاولاها على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت إحدى وسبعين فاستقلا المدة وجاء حي إلى النبي ﷺ يسأله: هل مع هذا غيره؟ قال «المص» ثم استزاد «الر» ثم استزاد «الم» فكانت إحدى

ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لأسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدثان.

وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم في ذلك وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن، أخبرهم بملك الحيشة بلادهم ثم رجوعها إليهم ثم ظهر الملك والدولة للعرب من بعد ذلك، وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبدان حيث بعث إليه كسرى بها مع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب. وكذا كان في جبل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن ويقال: من غمرة له كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم، وفيها حدثان كثير ومعظمه فيما يكون لزنازة من الملك والدولة بالغرب وهي متداولة بين أهل الجبل وهم يزعمون تارة أنه ولي وتارة أنه كاهن، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبياً؛ لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير، والله أعلم.

وقد يستند الجبل في ذلك إلى خبر الأنبياء إن كان لعهدهم كما وقع لبني إسرائيل، فإن أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يعنونهم في السؤال عنه.

وأما في الدولة الإسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع إلى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع إلى الدولة وأعمارها على الخصوص، وكان المعتمد في ذلك في صدر الإسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصاً مسلمة بنى إسرائيل مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما، وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة.

ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك مستلهم فيه والله أعلم بالكشف بما كانوا عليه من الولاية، وإذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الأولياء في ذوبهم وأعقابهم وقد قال ﷺ: «إن فيكم محدثين» فهم أولى الناس بهذه الرتبة الشريفة والكرامات الموهوبة. وأما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء إلى اللسان العربي. فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الأمور العامة من القرائن وفي الواليد والمسائل وسائر الأمور الخاصة من الطوالع لها وهي شكل الفلك عند حدوثها، فلنذكر الآن ما وقع لأهل الأثر في ذلك ثم نرجع إلى كلام المنجمين. أما أهل الأثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فإنه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ

الي تفرد بها أبو داود في هذا الطريق شاذة منكورة مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله فقال ابن أبي مريم في ابن فروخ: أحاديثه متاكر. وقال البخاري: يعرف منه وينكر، وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وإن خرج له في الصحيحين وثقه ابن معين، فإنما خرج له البخاري استشهاداً وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به. وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول. فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر.

وقد يستندون في حدثان الدول على الخصوص إلى كتاب «الجفر» ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستند.

واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيق لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لثلثهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر في جلد شور صغير فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب عليه؛ لأن الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق. وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات، وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصحح كما يقول، وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بالجزع كما هو معروف. وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علماً ودينياً وآثراً من النبوة وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة، وقد يقتل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب إلى أحد وفي أخبار دولة العبيديين كثير منه، وانتظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثا به وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن فأمره بالخروج إلى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لفته أن دعوته تسم هناك، وأن عبيد الله لما بنى المهدي بعد استئصال دولتهم بإفريقية قال: بنتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار. وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها، وبلغ هذا الخبر حافذه إسماعيل المنصور؛ فلما حاصره صاحب

وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال: قد ليس علينا أمرك يا محمداً حتى لا ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً، ثم ذهبوا عنه وقال لهم أبو ياسر: ما يديركم لعله أعطي عددها كلها تسعمائة وأربع سنين؛ قال ابن إسحاق: فنزل قوله تعالى: ﴿هُنَّ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. أه.

ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد؛ لأن دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل، نعم إنه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوه حي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً ولا من علماء اليهود، لأنهم كانوا بادية بالحجاز غفلاً من الصنائع والعلوم حتى عن علم شريعتهم وثقه كتابهم وملتهم، وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة فلا ينهض للسهيلى دليل على ما ادعاه من ذلك.

ووقع في الملة في حدثان دولتها على الخصوص مسند من الأثر إجمالي في حديث خرج به أبو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهلي، عن سعيد بن أبي مريم، عن عبد الله بن فروخ، عن أسامة بن زيد اللبي، عن أبي قبيصة بن ذؤيب، عن أبيه قال: قال حذيفة بن اليمان: والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فئة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته. وسكت عليه أبو داود، وقد تقدم أنه قال في «رسالته» ما سكت عليه في كتابه فهو صالح وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو مجمل ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مهماته إلى آثار أخرى يجوز أسانيدها. وقد وقع إسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع في «الصحيحين» من حديث حذيفة أيضاً قال: قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث عنه، حفظه من حفظه ونسبه من نسبه قد علمه أصحابه هؤلاء. أه.

ولفظ البخاري: ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره. وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر بنهار ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه ونسبه من نسبه. أه.

وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والأشراط لا غير؛ لأنه المعهود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات. وهذه الزيادة

وقت قرائنها على قدر تيسير الدليل فيه.

قال جراس بن أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك. ورجوع المريخ إلى العقرب له أثر عظيم في الملة الإسلامية، لأنه كان دليلها، فالمولد النبوي كان عند قران العلويين ببرج العقرب، فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم وربما انهدم بعض بيوت العبادة وقد يقال: إنه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والمتوكل من بني العباس، فإذا روعيت هذه الأحكام مع أحكام القرائن كانت في غاية الإحكام.

وذكر شاذان البلخي: أن الملة تنتهي إلى ثلاثمائة وعشرين. وقد ظهر كذب هذا القول. وقال أبو معشر: يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير؛ ولم يصح ذلك. وقال جراس: رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم. وأن دليلهم الزهرة. وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة، وقال أبو معشر في كتاب القرائن: القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت، ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين، وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمة أول الحمل وصاحب الجد المشتري.

وقال يعقوب بن إسحاق الكندي: إن مدة الملة تنتهي إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة. قال: لأن الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت، فالباقى إحدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثاً وتسعين سنة. قال: وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء؛ ويعضده الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل.

قلت: وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه.

قال جراس: سأل هرمرز إفريد الحكيم عن مدة أردشير وولده وملوك الساسانية فقال: دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها أربعمئة وسبعاً وعشرين سنة، ثم تزيد الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل العرب فيملكون؛ لأن طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها،

الحمار أبو يزيد بالمهدية كان يسأل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه إلى المكان الذي عينه جده عبيد الله، فأيقن بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه إلى ناحية الزاب فظفر به وقتله؛ ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة.

التنجيم:

وأما المنجمون فيستندون في حدثان الدول إلى الأحكام النجمية، أما في الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرائن وخصوصاً بين العلويين، وذلك أن العلويين زحل والمشتري يقتربان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران إلى برج آخر في تلك المثلثة من الثلاث الأيمن ثم بعده إلى آخر كذلك إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة اثني عشرة مرة تستوي بوجه الثلاثة في ستين سنة، ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة باثني عشرة مرة وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ويكون انتقاله إلى كل برج على الثلاث الأيمن ويتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها، أعني البرج الذي يلي البرج الأخير من القران الذي قبله في المثلثة، وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم إلى كبير وصغير ووسط، فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثني عشرة مرة وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى، والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد عشرين سنة يقتربان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجه أو دقائقه.

مثال ذلك وقع القران أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد وهذه كلها نارية، وهذا كله قران صغير، ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران، وعود القران وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها وهذا قران وسط ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية ثم يرجع إلى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير، والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم إلى قوم، والوسط على ظهور المتغلبين والطالين للملك، والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمراتها، ويقع أثناء هذه القرائن قران النحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع، وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبالس زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القران في الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في

فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة.

وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته ويملك المشرق والمغرب، والمشتري يغوص إلى الزهرة ويتقل القرآن من الهوائية إلى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب، فهذه الأدلة تفضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة.

وسأل كسرى أبريز ألبوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجهر. وقال توفيل الرومي النجم في أيام بني أمية: إن ملة الإسلام تبقى مدة القرآن الكبير تسعمائة وستين سنة، فإذا عاد القرآن إلى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة فحيث إذا ما يفر العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن.

قال جراس: وانفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكونات، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة التي هي حد المريخ، وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة.

وذكر جراس: أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمة ذوبان أخفه به في هدية وأنه تصرف للمأمون في الاختبارات بحروب أخيه وبعقد اللواء لظاهر، وأن المأمون أعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه، وأن العجم يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين، ويكون ما يريد الله ثم يسوء حالهم، ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكونه إلى الشام والفرات وسيملكون بلاد الروم ويكون ما يريد الله، فقال له المأمون: من أين لك هذا؟ فقال: من كتب الحكماء ومن أحكام صصة بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج.

قلت: والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع.

قال جراس: وانتقال القرآن إلى المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزدجرد ويعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين. قال: والذي في الحوت هو أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة. قال: وتحویل السنة الأولى من القرآن الأول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك.

وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص فمن القرآن الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه؛ لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة وجهاتها من العمران القائمين بها من الأمم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونخلهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرائن، وقد توجد هذه الدلالة من القرآن الأصغر إذا كان الأوسط دالاً عليه، فمن هذا يوجد الكلام في الدول.

وقد كان يعقوب بن إسحاق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرائن الكائنة في الملة كتاباً سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس وأنها نهايته، وأشار إلى انقراضها والحادثة على بغداد أنها تقع في انتصاف المائة السابعة وأنه بانقراضها يكون انقراض الملة، ولم تقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكوا ملك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء، وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير، والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن لذكر الأولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثاته وكذب ما بعده.

وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان، وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة، قال: بعث إلي الربيع والحسن في غزاتهما مع الرشيد أيام أبيه فجتتهما جوف الليل فلماذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان، وإذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت: هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ما مضى فإذا وقف عليه كنتم قد نعيمت إليه نفسه. قالوا: فما الحيلة؟ فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل وقلت له: انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل، فوالله لولا أنني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها، هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوماً ومثوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه ويأبدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم. وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة إلى مشاهير من أهل الخليفة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه.

الملاحم:

فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل

ويظهر من عدله سيرة وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم:

فأما رأيت الرسوم انححت ولم يصرح حق لذي منصب
فخذ في الترحل عن تونس وودع معلمها واذهب
فسوف تكون بها فتنة تضيف البريء إلى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني أبي
حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان أبي يحيى الشهر عاشر
ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها: وبعد أبي عبد الإله
شقيقه، ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل. إلا أن هذا الرجل لم
يملكها بعد أخيه وكان يمني بذلك نفسه إلى أن هلك

ومن الملاحم في المغرب أيضاً الملعبة المنسوبة إلى الهوشي

على لغة العامة في عروض البلد التي أولها:

دعني بدمعي المنيان فترت الأمطار ولم تفسر
واستقت كلها الوردان وأنسى غملي وتنفسر
البلاد كلها تسروي فأولى ما ميل ما تسري
ما بين الصيف والشتوي والعمام والربيع نمجري
قال حين صحت الدعوى دعني نكي ومن عنر
أنادي من ذي الأزمان ذا القرن اشند ونجري

وهي طويلة ومحفوفة بين عامة المغرب الأقصى والغالب

عليها الوضع؛ لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل تحرفه العامة
أو الحارف فيه من يتحلها من الخاصة.

ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحافقي
في كلام طويل شبه الغاز لا يعلم تأويله إلا الله لتخلله أوفاق
عددية ورموز ملفوزة وأشكال حيوانات تامه ورؤوس مقطعة
ومثائل من حيوانات غريبة، وفي آخرها قصيدة على روي اللام
والغالب أنها كلها غير صحيحة لأنها لم تنشأ عن أصل علمي من
نجامة ولا غيرها.

وسمعت أيضاً أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا
وابن عقب وليس في شيء منها دليل على الصحة؛ لأن ذلك إنما
يؤخذ من القرائن.

ووقفت بالمشرق أيضاً على ملحمة من حدثان دولة الترك
منسوبة إلى رجل من الصوفية يسمى الباجري وكلها الغاز
بالحروف أولها:

إن شئت تكسر سر الجفر يا سائلي من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعياً حرفاً وجماته والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصري لست أذكره لكنني أذكر الأتني من الزمن

على روي الراء وهي متداولة بين الناس، وتحسب العامة أنها من
الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل، والذي
سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونه؛ لأن الرجل كان
قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على سببة من يد موالي بني
حمود وملكهم لعدوة الأندلس، ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً
قصيدة تسمى التبعة أولها:

طربت وما ذاك مني طرب وقد يطرب الطائر المفتصب
وما ذاك مني للهو أراه ولكن لتذكرك بعض السبب
قريباً من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال، ذكر فيها كثيراً
من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره والظاهر أنها
مصنوعة.

ومن الملاحم بالمغرب أيضاً ملحمة من الشعر الزجلية
منسوبة لبعض اليهود، ذكر فيها أحكام القرائن لعصره العلويين
والنحسين وغيرهما وذكر ميتته قتيلاً بفاس وكان كذلك فيما
زعموه وأوله:

في صبح ذا الأزرق لشرفه خيارا فافهموا يا قوم هذي الإشارا
نجم زحل أخبر بذی العلاما وبدل الشكلا وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العماما وشاش أزرق بدل الفرارا

يقول في آخره:

قد تم ذا التجنيس لإنسان يهودي يصلب ببلدة فاس في يوم عيد
حتى يحيه الناس من البوداي وقتله يا قوم على الفساد

وأبياته نحو الخمسمائة وهي في القرائن التي دلت على
دولة الموحدين.

ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض المتقارب
على روي الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من
الموحدين منسوبة لابن الأبار.

وقال لي قاضي قسنطينة الخطيب الكبير أبو علي بن باديس
وكان بصيراً بما يقوله، وله قدم في التتجيم فقال لي: إن هذا ابن
الأبار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر، وإنما هو
رجل خياط من أهل تونس توطأت شهرته مع شهرة الحافظ،
وكان والذي رحمه الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة
ويبقى بعضها في حفظي مطلعها:

عذيري من زمن قلب يخسر يبارقه الأشنب

ومنها:

ويبعث من جيشه قائداً ويبقى هناك على مرقب
فتأتي إلى الشيخ أخباره فيقبل كالجمل الأجرب

أخرى وملاحم من هذا النوع عما وقع وعما لم يقع ونسب جميعه إلى دانيال فأعجب به مفلح. ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب، وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الألتعاز، والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسبونها إلى الباجريقي من هذا النوع.

ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب إليه من الصوفية وهو الباجريقي وكان عارفاً بطرائقهم فقال: كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف، ويومي إلى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم، وربما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتتوكلت عنه، ولوع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو أمر ممتنع إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له، وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزها، فرايت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة ﴿وَمَا كُنَّا إِلَهَآئِي لَوْلَا أَنَّ هَذَاآلَ اللَّهِ﴾ واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

بشهر يبرس يبقى بعد خمستها بماء ميم بطيش نام في الكنس شين له اثر من تحت سرته له القضاء قضى أي ذلك الشين فمصر والشام مع أرض العراق له واذريجان في ملك إلى اليمن ومنها:

وآل بوران لما نال طاهرهم الفاتك الباتك المعني بالسمن خلج سين ضعيف السن سين أتى لا لو فاق ونون ذي قرن قوم شجاع له عقل ومشورة يبقى بماء وأين بعد ذو سمن ومنها:

من بعد باء من الأعوام قتلته يلي المشورة ميم الملك ذو اللسن ومنها:

هذا هو الأعرج الكلبي فاعن به في عصره فتن ناهيك من فتن يأتي من الشرق في جيش يقدمهم عار عن القاف قاف جد بالفن يقتل دال ومثل الشام أجمعها أبدت بشجو على الأملين والوطن إذا أتى زلزلت يا ويح مصر من الزلزال ما زال حياء غير مقتطن طاء وظاء وعين كلهم جبروا هلكاً وينفق أموالاً بلا ثمن يسير القاف قافاً عند جمعهم هون به إن ذاك الحصن في سكن وينصبون أخاء وهو صالحهم لا سلم الألف سين لذلك بني تمت ولا ينهم بالخاء لا أحد من السنين يداني الملك في الزمن ويقال: إنه أشار إلى الملك الظاهر وقدم أبيه عليه بمصر:

يأتي إليه أبوه بعد هجرته وطول غيبته والشطف والزرن

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعتها كان في القديم كثير أو معروف الانتحال.

حكى المؤرخون لأخبار بغداد: أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكي يعرف بالدينالي يبل الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق، يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم، ويحصل على ما يريده منهم من الدنيا، وأنه وضع في بعض دفاتره ميماً مكررة ثلاث مرات وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر. وكان عظيماً في الدولة. فقال له: هذا كناية عنك؛ وهو مفلح مولى المقتدر ميم في كل واحدة، وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه مما يناله من الدولة، ونصب لذلك علامات من أحواله المتعارفة موه بها عليه، فبذل له ما أغناه به، ثم وضعه للوزير الحسن بن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولاً فجاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة للثامن عشر من الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعداء وتعمر الدنيا في أيامه، وأوقف مفلحاً هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن

وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة: فلما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبساتين بادية بمدحها العمران دائماً، فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب ويعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال؛ لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفة والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون، وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها، فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً إلى أن يبذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالشرق والقيروان والمهديّة وقلة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه، وربما ينزل المدينة بعد انقراض مخططيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية يتخلها قراراً وكرسياً يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتزايّد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترتفع وتستجد بعمرانها عمراً آخر، كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثاني

في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطربوا للاستيلاء على الأمصار لأمرين:

أحدهما: ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأنقال واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو.

والثاني: دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين؛ لأن المصير الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سموا إليه من أيديهم، فيعصم بذلك المصير ويغالبهم. ومغالبة المصير على نهاية من الصعوبة والمشقة، والمصير يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة؛ لأن الشوكة والعصاية إنما احتيج إليهما في الحرب للثبات لما يقع من بعد كرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون إلى كبير عصابة ولا عدد، فيكون حال هذا الحصن ومن يعصم به من المنازعين مما يفت في عضد الأمة التي تروم الاستيلاء

الباب الرابع

في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق

الفصل الأول

في أن الدول أقدم من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك

وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها، وإيضاً فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير، وهي موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً، بل لا بد من إكراههم على ذلك وسوقهم إليه مضطهدين بعضا الملك أو مرغبين في الشواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك.

ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمر الدولة حيثئذ عمر لها، فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تنسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها.

ذكر الخطيب في «تاريخه» أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران، وكذا حال القيروان وقرطبة والمهديّة في الملة الإسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد.

وبعيداً وثيقاً أنهم لم يكونوا يافراط في مقادير أجسامهم، وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة. ونجد ييوت ثمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها ييوتهم يمر بها الراكب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسبكها على المتعاهد، وإنهم ليلالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طرياً فيشويه في الشمس، يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء، وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وإنما هي كوكب مضيء لا مزاج له، وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها. والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد.

الفصل الرابع

في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية، وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه، فيحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تتم.

فيتبدئ الأول منهم بالبناء، ويعقبه الثاني والثالث، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي، حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون مثلاً للبيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة.

وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب، وأن الذي بناه سبأ بن يشجب وساق إليه سبعين وادياً، وعاقه الموت عن إتمامه فأنه ملوك حير من بعده.

ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية، وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها، ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها وتأسيسها، فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها. ويشهد لذلك أيضاً أننا نجد آثاراً كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن

ويخضع شوكة استيلائها، فإذا كانت بين أجنابهم أمصار انتظموها في استيلائهم للأمن من مثل هذا الانحرام، وإن لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وحط أنقالهم وليكون شجراً في حلق من يروم العزة والامتاع عليهم من طوائفهم وعصائبيهم، فتعين أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الثالث

في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها، وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم، فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها، وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال وغيره، وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب إنما كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين فيتحيل لهم أجساماً تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية.

وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من المعجم ما يشهد له بما قلناه عياناً، وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادة نسبة إلى قوم عاد لئولهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قوتهم. وليس كذلك، فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كإيوان كسرى ومباني العبيدين من الشيعة بإفريقية والصنهاجيين وآثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد، وكذلك بناء الأغلبية في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتوح ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بإزاء تلمسان، وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضاً لهذا العهد، وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريباً

الهدم أسير من البناء بكثير؛ لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم، والبناء على خلاف الأصل.

فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفطرة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة، وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعترم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في مجلسه يستشير في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل وأتركه ماثلاً يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكمل فاتهمه في النصيحة وقال: أخذته النعرة للعجم والله لأصرعه. وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث إلى يحيى يستشير ثانياً في التجافي عن الهدم فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك لثلاثين عاماً عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم؛ فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه.

وكذلك اتفق للمؤمن في هدم الأهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نفيه فأنتهوا إلى جو بين الحائط والظاهر وما بعده من الحيطان، وهناك كان منتهى هدمهم وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم الزاعمون أنه وجد ركاماً بين تلك الحيطان، والله أعلم.

وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجد الصناع حجارة تلك الحنايا، فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عصب الريق، وتجتمع له الحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباي كثيراً ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة، والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يبين خرقه فنقله كما سمعه.

والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيتها لتعفن الأجسام وأمراض الحميات ركودها. فإذا تخللتها الريح وتفتت وزهبت بها يميناً وشمالاً خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات.

والبلد إذا كان كثير السكان وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكدة، ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج، وإذا خف السكان لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه وبقي ساكناً راکداً وعظم عفنه وكثر ضرره. ويلد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران كثيرة السكان تموج بأهلها موجاً، فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض، وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثرت العفن والمرض. فهذا وجهه لا غير.

وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولاً قليلة السكان، فكانت أمراضها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك، وهذا مثل دار الملك بقاس لهذا

الهدم أسير من البناء بكثير؛ لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم، والبناء على خلاف الأصل.

فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفطرة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة، وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعترم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في مجلسه يستشير في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل وأتركه ماثلاً يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكمل فاتهمه في النصيحة وقال: أخذته النعرة للعجم والله لأصرعه. وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار وصب عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث إلى يحيى يستشير ثانياً في التجافي عن الهدم فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك لثلاثين عاماً عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم؛ فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه.

وكذلك اتفق للمؤمن في هدم الأهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نفيه فأنتهوا إلى جو بين الحائط والظاهر وما بعده من الحيطان، وهناك كان منتهى هدمهم وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم الزاعمون أنه وجد ركاماً بين تلك الحيطان، والله أعلم.

وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم وتستجد الصناع حجارة تلك الحنايا، فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عصب الريق، وتجتمع له الحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباي كثيراً ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الفصل الخامس

لماذا يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث

إذا غفل عن تلك المراجعة

اعلم أن المدن قرار تتخذ الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك القرار والمأوى واجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها، فاما الحماية من المضار فيراعى لها أن يبدار على منازلها جميعاً سياج

الصريخ والتعير وكانت متوعدة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها، كان لها بذلك منعة من العدو ويشوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريحها كما في سبته وبجاية وبلد القل على صغرها، فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لادن الدولة العباسية، مع أن الدعة من ورائها بركة وإفريقية. وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك -والله أعلم- كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة، والله تعالى أعلم.

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الأرض بقاعاً اختصها بشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمي بها الأجور، وأخبرنا بذلك على السن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم.

وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت في «الصحيحين» وهي مكة والمدينة وبيت المقدس.

أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه. أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج إليه فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه، وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه.

وبيت المقدس بناء داود وسليمان عليهما السلام. أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام حواله.

والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالمهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها، فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف في تربتها.

فهذه المساجد الثلاثة قررة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم، وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف، فلنشأ إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها في العالم.

العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم، فتفهمه تجد ما قلته لك.

وأما جلب المنافع والمراقق للبلد فيراعى فيه أمور:

منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة.

ومما يراعى من المراقق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للتناج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى، فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق مجالهم لما يعانون من المشقة في بعده.

ومما يراعى أيضاً المزارع، فإن الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لو قود النيران للاصطلاء والطبخ. والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم.

وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول، وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو إليه ضرورة الساكن. وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي أو إنما يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقية فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح، ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالكثيروان والكوفة والبصرة وأمثالها، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية.

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موقوفة العدد تكون صريحاً للمدينة متى طرفها طارق من العدو، والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمراناً للقبائل أهل العصابات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيقها لها لما يأمن من وجود الصريخ لها. وأن الحضر المتوحدون للدعة قد صاروا عبأاً وخرجوا عن حكم القاتلة. وهذه كالإسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا.

ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها بحيث يبلغهم

وستين فأصابه حريق، يقال من النشط الذي رموا به على ابن الزبير فتصدعت حيطانه فهدمه ابن الزبير وأعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلفت عليه الصحابة في بنائه. واحتج عليهم بقول رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم وجعلت له بابين شرقياً وغربياً» فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والأكابر حتى عاينوه، وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس، فأدار على الأساس الخشب ونصب من فوقها الأستار حفظاً للقبلة، وبعث إلى صنعا في الفضة والكلس فحملها. وسأل عن قطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه ثم شرع في البناء على أساس إبراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعاً وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روي في حديثه وجعل فرشها وأزرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب.

ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنقات إلى أن تصدعت حيطانه. ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم. ويقال: إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة، وقال: وددت أنني كنت حملت أبا حبيب من أمر البيت وبنائه ما تحمل. فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مكان الحجر وبنائها على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي. وترك سائر ما لم يغير منه شيئاً؛ فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبين بنائه وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان لحمة ظاهرة بين البنائين. والبناء متميز عن البناء بمقدار أصبح شبه الصدع وقد لحم.

ويعرض هنا إشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذرون الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت، بناء على أن الجدار إنما قام على بعض الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذرون، وكذا قالوا في تقبيل الحجر السود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائماً لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت، وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو إنما بني على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه؟ ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين: إما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعادته؛ وقد نقل ذلك جماعة إلا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البنائين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك.

فأما مكة فأوليتها - فيما يقال - أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك، وليس فيه خبر صحيح يعول عليه. وإنما اقتبسوه من مجمل الآية في قوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ ثم بعث الله إبراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرها من هاجر ما هو معروف، وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما، وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرقعة من جرحهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا إليهما، كما ونزلوا معهما حوالي زمزم كما عرف في موضعه، فاتخذ إسماعيل موضعا للكعبة بيتاً يأوي إليه وأدار عليه سياجاً من الردم وجعله زرباً لغنمه، وجاء إبراهيم صلوات الله عليه مراراً لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل ودعا الناس إلى حججه، وبقي إسماعيل ساكناً به، ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أخوانهم من جرحهم ثم العماليق من بعدهم، واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون إليها من كل أفق من جميع أهل الخليفة لا من بني إسماعيل ولا من غيرهم عن دنا أو نأى، فقد نقل أن التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وأن تبعاً كساها الملاء والوصلات وأمر بتطهيرها وجعل لها مفتاحاً.

ونقل أيضاً أن الفرس كانت تحجه وتقرب إليه وأن غزالي الذهب اللذين وجدتهما عبد المطلب حين احتضر زمزم كانا من قريائهم. ولم يزل لجرحهم الولاية عليه من بعد ولد إسماعيل من قبل خؤولتهم حتى إذا خرجت خزاعة وأقاموا بها بعدهم ما شاء الله. ثم كثر ولد إسماعيل وانتشروا وتشعبوا إلى كنانة ثم كنانة إلى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة، فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل وقال الأعشى:

خلفت بنو بني راهب السدور والتي بناها قصي والمضاض بن جرحم

ثم أصاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم، وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا خشبها للسقف، وكانت جدراته فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعاً، وكان الباب لاصفاً بالأرض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن إتمامه فقصوروا عن قواعدهم وتركوا منه ستة أذرع وشبرا أداروها بمجدار قصير يطاق من ورائه وهو الحجر، وبقي البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكوني. ورمي البيت سنة أربع

لأبي بكر فلم يحركه. هكذا قال الأزرقى.

وفي البخاري بسنده إلى أبي وائل قال: جلست إلى شبية بن عثمان وقال: جلس إلي عمر بن الخطاب فقال: هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا يضاء إلا قسمتها بين المسلمين، قلت: ما أنت بفاعل؟ قال: ولم؟ قلت: فلم يفعله صاحبك فقال: هما اللذان يقتدى بهما.

وخرجه أبو داود وابن ماجه وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس وهو الحسن بن الحسين بن علي بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكة عمده إلى الكعبة فآخذ ما في خزائنها وقال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً فيها لا يتنفع به؟ نحن أحق به نستعين به على حربنا؟ وأخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ.

وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضعاً لهيكل الزهرة، وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه يصبرونه على الصخرة التي هناك، ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم. وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني إسرائيل من مصر لتخليقهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه إسحق ويعقوب من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنت عيّن بالوحي مقدارها وصفتها وحيالها وتماثيلها، وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها، وأن يصنع مذبحاً للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف، فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها. وعهد الله إلى موسى بأن يكون هارون صاحب القربان، ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون إليها ويقربون في المذبح أمامها ويعرضون للوحي عندها.

ولما ملكوا أرض الشام أنزلوها (بكلكال) من بلاد الأرض المقدسة ما بين قسم بني يامين وبني أفراسيم. وبقيت هنالك أربع عشرة سنة سبباً مدة الحرب، وسبباً بعد الفتح أيام قسمة البلاد. ولما توفي يوشع عليه السلام نقلوها إلى بلد شيلو قريباً من كلكال، وأداروا عليها الحيطان. وأقامت على ذلك ثلثمائة سنة، حتى ملكها بنو فلسطين من أيديهم كما مر، وتغلبوا عليهم. ثم ردوا عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة عالي الكوهن إلى نوف. ثم نقلت أيام طالوت إلى كتعان في بلاد بني يامين. ولما ملك داود عليه السلام نقل القبة والتابوت إلى بيت المقدس وجعل عليها خباء خاصاً ووضعها على الصخرة.

ولما أن يكون ابن الزبير لم يرّد البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته، وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله، فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم وهذا بعيد، ولا يحصى من هذين والله تعالى أعلم.

ثم إن ساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفتين ولم يكن عليه جدار أيام النبي ﷺ وأبي بكر بعده. ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دوراً هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جداراً دون القامة، وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك، وبناء بعدد الرخام، ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدها.

وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به، وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجهه لغيره، فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره، وحى العائذ به والرائع في مسارحه من مواقع الآفات، فلا يراغ فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر.

وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمية من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع ومن طريق الجعرانة تسعة أميال إلى الشعب، ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن ثمره، ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشار.

هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب. ويقال لها أيضاً بكة. قال الأصمعي: لأن الناس يبك بعضهم بعضاً إليها أي يدفع. وقال مجاهد: إنما هي باء بكة أبدلوا ميماً كما قالوا: لازب ولازم لقرب المخرجين. وقال النخعي: بالباء للبيت وبالميم للبلد. وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم؛ وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى وغيره.

وقصة الأسياف وغزالي الذهب اللذين وجدتهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة، وقد وجد رسول الله ﷺ حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت قيمتها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قطار، وزناً، وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا رسول الله! لو استعنت بهذا المال على حربك. فلم يفعل ثم ذكر

بتعظيمه، ثم اختلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصرانية تارةً وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمه هيلانة وارغلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم، فأخبرها القمامصه بأنه رمي بمخشبة على الأرض وألقي عليها القمامات والقاذورات، فاستخرجت الخشبة وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عمارة البيت وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها عما فعلوه بقبر المسيح.

ثم بنوا بإزاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام والفتح وحضر عمر لفتح بيت المقدس، وسأل عن الصخرة فأري مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبني عليها مسجداً على طريق البداوة وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت.

ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال، كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي ﷺ بالمدينة وفي مسجد دمشق، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد والزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد، وأن ينمقوها بالفيسفساء فاطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه.

ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها وكانت في ملكة العبيدين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم، زحف الفرنجية إلى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام وبنا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها، حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي بملك مصر والشام ومحا أثر العبيدين وبدعهم زحف إلى الشام وجاهد من كان به من الفرنجية حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام، وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبني المسجد على النحر الذي هو عليه اليوم لهذا العهد.

ولا يعرض لك الإشكال المعروف في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن أول بيت وضع فقال: «مكة»، قيل: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس» قيل: فكم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» فإن المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان؛ لأن سليمان بانيه وهو ينيف على الألف بكثير.

وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة بييت المقدس، وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به إلى ابنه سليمان، فبناه لأربع سنين من ملكه وخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام.

واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب، وجعل في ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح وجاء به من صهيون بلد أبيه داود نقله إليه أيام عمارة المسجد، فجيء به تحمله الأسباط والكهنوتية حتى وضعه في القبر ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد. وأقام كذلك ما شاء الله. ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهياكل ونثر الأحجار.

ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناء عزيز نبي إسرائيل لعهدہ بإعانة بهمن ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بختنصر وحد لهم في بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام فلم يتجاوزوهما.

وأما الأواوين التي تحت المسجد، يركب بعضها بعضاً، عمود الأعلى منها على قوس الأسفل في طبقتين. ويتوهم كثير من الناس أنها إصطبلات سليمان عليه السلام، وليس كذلك. وإنما بناها تنزيهاً للبيت المقدس عما يتوهم من النجاسة، لأن النجاسات في شريعتهم وإن كانت في باطن الأرض وكان ما بينها وبين ظاهر الأرض محشواً بالتراب، بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خط مستقيم ينجس ذلك الظاهر بالتوهم. والمتوهم عندهم كالحق.

فبنا هذه الأواوين على هذه الصورة بعمود الأواوين السفلية تنتهي إلى أقراسها وينقطع خطه، فلا تتصل النجاسة بالأعلى على خط مستقيم. وتنزه البيت عن هذه النجاسة المتوهمة ليكون ذلك أبلغ في الطهارة والتقديس.

ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدة، لبني حشمتاي من كهنتهم ثم لصهرهم هيرودس ولبنيه من بعده.

وبني هيرودوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى أكمله في ست سنين، فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يزرع مكانه، ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا

الديانة بزعمهم، منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي ﷺ بهدمها في غزواته، وقد ذكر السعدي منها بيوتا لسا من ذكرها في شيء إذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها، ويكفي في ذلك ما وقع في التواريخ، فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها، والله يهدي من يشاء سبحانه.

الفصل السابع

في أن المدن والأصوار بإفريقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدوياً ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها، والدول التي ملكتهم من الإفرنجية والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها، فلم تزل عوائد البداءة وشؤونها فكانوا إليها أقرب فلم تكثر مبانيهم، وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو، والصنائع من توابع الحضارة وإنما تسم المباني بها فلا بد من الحذق في تعلمها، فلما لم يكن للبربر اتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلاً عن المدن. وأيضاً فهم أهل عصيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والأنساب والعصية أجنح إلى البدو.

وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالاً على حاميتها، فتجد أهل البدو لذلك يستكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها ولا يدعوهما إلى ذلك إلا الترف والغنى وقليل ما هو في الناس؛ فلذلك كان عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدوياً أهل خيام وظواعن وقباطن وكنن في الجبال، وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها؛ لأن العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتناغون في صراحتها والتحامها إلا في الأقل، وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب؛ لأن لحمه النسب أقرب وأشد فتكون عصيته كذلك وتزعم بصاحبها إلى سكنى البدو والتجاني عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيره عيالاً على غيره، فافهمه وقس عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم به التوفيق.

واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء، وإنما المراد أول بيت عين للعبادة ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة، وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فلعل ذلك؛ لأنها كانت مكاناً للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوالي الكعبة وفي جوفها، والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام فلا تبعد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس، وإن لم يكن هناك بناء كما هو المعروف، وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام، فتفهمه فقيه حل هذا الإشكال.

وأما المدينة المنورة وبه سميت وهي المسماة بيثرب، فهي من بناء يثرب بن مهلائل من العمالقة وبه سميت وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز، ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها. ثم أمر النبي ﷺ بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها، فهاجر إليها معه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعد له لذلك وشرفه في سابق أزله، وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سماوا الأنصار، وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكة وملكها، وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك، فخطبهم رسول الله ﷺ وأخبرهم أنه غير متحول حتى إذا قبض ﷺ كان ملحه الشريف بها.

وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا خفاء به ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي ﷺ قال: «المدينة خير من مكة» نقل ذلك عبد الوهاب في «المعونة» إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو حنيفة والشافعي.

وأصبحت على كل حال ثمانية المساجد الحرام وجنح إليها الأمم بأئدتهم من كل أوب، فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد العظيمة لما سبق من عناية الله لها، وتفهم سر الله في الكون وتدرجيه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا.

وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه.

وقد كانت للأمم في القديم مساجد يعظمونها على جهة

والمراعي، فإنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصير وردائه من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا، وإنما يراعون مراعي إيلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبت ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزراع والمنابت والأهوية لا تتقالمهم في الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد.

وأما الرياح فالقفر يختلف للمهاب كلها والظعن كفيلاً لهم بطيها؛ لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات؛ وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلى مراعي إيلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن، ولم تكن لها مادة تمد عمراتها من بعدهم كما قدمنا بأنه يحتاج إليه في حفظ العمران، فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس؛ فكلول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سباجاً لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبَرٍ لِحُكْمِهِ﴾.

الفصل العاشر

في مبادئ الخراب في الأمصار

اعلم أن الأمصار إذا اختطت أولاً تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعال على الحيطان عند التائق، كالزجاج والرخام والريج والزجاج والفيسفاس والصدف، فيكون بناؤها يؤمذ بدوياً وآلاتها فاسدة، فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حيثزد وكثر الصناعات إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها، فإذا تراجع عمراتها وخف ساكنها قلت الصناعات لأجل ذلك ففقدت الإجدادة في البناء والإحكام والمعالجة عليه بالتنميق، ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشبيدهم من الآلات التي في مبانهم فيقلونها من مصنع إلى مصنع؛ لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل لقلة العمران وقصوره عما كان أولاً، ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة والقصور عن التنميق بالكلية، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدن ويظهر عليها سيما البداوة ثم تمر في النقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به، سنة الله في خلقه.

الفصل الثامن

في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه إذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع، وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام، ولما تملكوها لم ينفسح الأمد حتى تستوفي رسوم الحضارة مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم، وأيضاً فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة في البناء والإسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأنفوه في بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بناه به من قبل فقال: افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البناء، والزموا السنة تلتزمكم الدولة. وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر، قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يفرحكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد؛ فلما بعد العهد بالدين والتخرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف، فحيثد شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريباً بانقراض الدولة ولم ينفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأمصار إلا قليلاً، وليس كذلك غيرهم من الأمم، فالفرس طالت مدتهم آلافاً من السنين، وكذلك القبط والنبط والروم، وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعمالقة والتابعة طالت آسادهم ورسخت الصنائع فيهم، فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عدداً وأبقى على الأيام أثراً، واستبصر في هذا تجده كما قلت لك، والله وارث الأرض ومن عليها.

الفصل التاسع

في أن المباني التي كانت تحتطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه، فلا تكون المباني وثيقة في تشيدها، وله والله أعلم وجه آخر وهو أمس به: وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه من المكان وطيب الهواء والمياه والمزراع

الفصل الحادي عشر

في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه

لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل

عمرانها في الكثرة والقلّة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وإنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً. فالقوت من الخنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه. وإذا اتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات. فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورتهم.

وأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات، فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى، وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التائق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب، وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمتها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتفتق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمتحلي ذلك من قبل أعمالهم.

ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته. واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول. وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش. فالمصر إذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد في الآخر،

فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في السرف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف: القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والأمير مع الأمير والشرطي مع الشرطي.

واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة، تجد بينهما بوناً كبيراً على الجملة، ثم على الخصوصيات، فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان وكذا كل صنف مع أهل صفه. وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران والجزائر وحال وهران والجزائر مع ما دونهما إلى أن تنتهي إلى المدر الذين اعتماهم في ضروريات معاشهم فقط أو يقصرون عنها. وما ذاك إلا لتفاوت الأعمال فيها فكأنها كلها أسواق للأعمال. والخرج في كل سوق على نسبته، فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه، وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم وهما بفاس أكثر لنفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف فالأحوال أضخم. ثم هكذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضرورتها ولا تعد في الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمدر. فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأثرونه كسباً فلا تنمو مكاسبهم. وهم لذلك مساكين عاويج إلا في الأقل النادر. واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال، فإن السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بتلمسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أئمان ضحاياهم ورأيهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المأكّل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغريال والآنية. ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر.

وبلغنا لهذا العهد عن أحوال أهل القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما نقضي منه العجب حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب يزعمون إلى النقلة إلى مصر لذلك ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها. وتعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إثارة في أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم. وأنهم أكثر صدقة وإيثارة من جميع أهل الأمصار وليس كذلك، وإنما هو لما تعرف من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم.

وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ في جميع الأمصار. ومتى عظم الدخل، عظم الخرج وبالعكس. ومتى عظم الدخل والخرج،

ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران.

وأما سائر المرافق من الأدم والفواكه وما إليها فإنها لا تعم فيها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين ولا الكثير منهم، ثم إن المصر إذا كان مستبحراً موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حيثئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله، فيقصر الموجود منها على الحاجات قصوراً بالغا ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الأغراض ويبدل أهل الرفه والترف أثمانها بإسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم، فيقع فيها الغلاء كما تراه.

وأما الصنائع والأعمال أيضاً في الأمصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيه أمور ثلاثة: الأول: كثرة الحاجة لمكان السرف في المصر بكثرة عمرانه.

والثاني: اعتزاز أهل الأعمال بمخدمتهم وامتهان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أوقاتها.

والثالث: كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصنائع في مهنتهم، فيبدلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها، فيعتز العمال والصنائع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك.

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلّة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه. وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضاً حاجة لقلّة الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره.

وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة ما يفرض عليها من المكوس والغرام للسلطان في الأسواق وأبواب المصر وللجباة في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم. وبذلك كانت الأسعار في الأمصار أغلى من الأسعار في البادية إذ المكوس والغرام والفرائض قليلة لديهم أو معدومة. وبالعكس كثيرة في الأمصار لا سيما في آخر الدولة، وقد تدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأتندلس لهذا العهد. وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاد المتوعدة الحثيئة الزراعة النكدّة النبات وملكوا عليهم

اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر.

وكل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والإيثار على متبغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة، وكيف تختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها، فإن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبية منها تكثر بساحتها وأفنيها نشير الحبوب وسواقات الفئات فيزدحم عليها غواشي النمل والحشاش. ويكثر في سربها الجرذان وتأوي إليه السنابير وتحلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطناً وتقتلى شبعاً ورثاً، وبيوت أهل الخصاصة والفقر الكاسدة أرزاقهم لا يسري بساحتها ديب ولا يخلق بجوها طائر ولا تأوي إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة كما قال الشاعر:

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفئات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يذلها؛ لاستغنائهم عنها في الأكثر بوجود أمثالها لديهم، واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرتهم، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غني عن العالمين.

الفصل الثاني عشر

في أسعار المدن

اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس، فمنها الضروري وهي الأقوات من الحنطة وما معناها كالباقلا والحمص والجلبان وسائر حبوب الأقوات ومصلاًحاتها كالبصل والثوم وأشبابه، ومنها الحاجي والكمالي مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني، فإذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه وغلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه وما يتبعها، وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس من ذلك. والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت فتوفر الدواعي على اتخاذها، إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه لا بد من ذلك. وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كثيرة تسد خلة كثيرين من أهل ذلك المصر، فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية،

ويقتضح في استيطانه إلا من تقدم منهم تأكل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجري إلى الغاية الطبيعية لأهل العمران من الدعة والترف، فحيث يتنقل إلى مصر وينظم حاله مع أحوال أهله في عوائلهم وترفعهم. وهكذا شأن بداية عمران الأمصار. والله بكل شيء عيط.

الفصل الرابع عشر

في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار

اعلم أن ما توفر عمرانها من الأقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنه، اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم، وعظمت دولهم وممالكهم. والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما يأتي ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته، فيعود على الناس كسباً يتأهلونه حسبما تذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب، فيزيد الرفه لذلك وتوسع الأحوال ويجيء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بتفاق الأسواق، فيكثر مالها ويشمخ سلطانها ويتفنن في اتخاذ المعافل والحصون واختطاط المدن وتشييد الأمصار.

واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرتهم وأحوالهم. فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفهم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف.

وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين، فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبान مجدثها وربما تتلقى بالإنكار في غالب الأمر. ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم؛ أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك، فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار إنما هو ببلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب. وجميع ما في أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة. فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها

الأرض الزاكية والبلد الطيب، فاحتاجوا إلى علاج المزارع والقدن لإصلاح نباتها وفلحها، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزيل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم. واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطهرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك.

ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقلة الأقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك، فهم أكثر أهل المعمور فلحاً فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلح إلا قليلاً من أهل الصناعات والمهن أو الطرء على الوطن من الغزاة المجاهدين. ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلوقاتهم من الزرع. وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه.

ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته وعمومه، فصار ذلك سبباً لرخيص الأقوات ببلدهم، والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه.

الفصل الثالث عشر

في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكسر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف. وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتقلب ضرورات وتصير الأعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدهام الأغراض عليها من أجل الترف، وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات، ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانها. ويعظم خرجها فيحتاج حيثن إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم.

والبدوي لم يكن دخله كثيراً إذ كان ساكناً بمكان كاسد الأسواق في الأعمال التي هي سبب الكسب، فلم يتأثر كسباً ولا مالا فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته. وهو في بدو يسد خلته بأقل الأعمال؛ لأنه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر إلى المال؛ وكل من يشوف إلى المصر وسكنائه من البادية فسريراً ما يظهر عجزه

الفصل الخامس عشر

في تأثر العقار والضياح في الأمصار وحال

فوائدها ومستغلاتها

اعلم أن تأثر العقار والضياح الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد، إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمتها عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ. وإنما يكون ملكهم وتأثرهم لها تدريجياً إما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر كذلك، أو أن يكون بحالة الأسواق فإن العقار في أواخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحماية وخرق السياج وتداعي المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال فترخص قيمها وتملك بالأثمان اليسيرة وتتخطى بالميراث إلى ملك الآخر وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال راقية حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياح لكثرة الغبطة في العقار والضياح لكثرة منافعها حيثئذ، فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأول. وهذا معنى الحوالة فيها ويصبح مالها من أغنى أهل مصر، وليس ذلك بسعيه واكتسابه إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك.

وأما فوائد العقار والضياح فهي غير كافية لما لكها في حاجات معاشه إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه، وإنما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش. والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياح، إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرياهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب، فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي، فيكون ذلك العقار قواماً لحاله. هذا قصد المترفين في اقتنائه. وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا. وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمه في مصر، إلا أن ذلك إذا حصل فرمى امتدت إليه عين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب، والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم.

الأموال ولاستغنا عن أموال الناس بالجملة.

ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها، فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهم في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليد أهل المغرب، وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه، وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجمي وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره.

وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه، فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الأنفاق لا أن ذلك لجرد الأثر النجمي. فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستقل بذلك؛ فإن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه.

واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر إفريقية وبرقة لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة. وضعت جباياتها فقلت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطيتهم. حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته في غالب الأوقات، وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعدها لأرزاق الجنود وأعطيتهم ونفقات الغزاة. وقطر المغرب - وإن كان في القديم دون إفريقية - فلم يكن بالقليل في ذلك وكانت أحواله في دول الموحيدين متسعة وجباياته موفورة، وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه، فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده نقصاً ظاهراً عسوساً، وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال إفريقية بعد أن كان عمرانها متصلاً من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة. وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى إلا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من أهل الأمصار

إلى الجاه والمدافعة

وذلك أن الحضري إذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تائله وأصبح أغنى أهل مصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد، زاحم عليها الأمراء والملوك وغصوا به. ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم إلى غملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحولون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في ربة حكم سلطاني، وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله، وأكثر الأحكام السلطانية جائزة في الغالب إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكاً عضوضاً». فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك أو خالصة له أو عصية يتحاماها السلطان فيستظل هو بظلها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي. وإن لم يكن له ذلك أصبح نهياً بوجوه التحيلات وأسباب الحكام. والله يحكم ما لعقب حكمه.

الفصل السابع عشر

في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وإنما

ترسخ باتصال الدولة وروسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر ويقع فيها عند كثرة الترف في أنواعها وأصنافها فتكون بمنزلة الصنائع، ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه المهرة فيه، ويقدر ما يتزايد من أصنافها تتزايد أهل صناعتها ويثرون ذلك الجيل بها، ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصنائع في صناعتهم ومهروا في معرفتها، والأعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرر أمثالها تزيدها استحكاماً وروسوخاً، وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها. وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة؛ لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتوسع أحوالهم بالجاء أكثر من اتساعها بالمال، فيكون

دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل مصر وهم الأكثر، فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتتزايد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه وهذه هي الحضارة. ولهذا نجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مظاهرها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها، وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أموالهم فيهم كالماء يخضر ما قرب منه مما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد.

وقد قدما أن السلطان والدولة سوق للعالم. فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة، ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً، واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتى إنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم. ورسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة.

وكذلك أيضاً القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين، فرسخت عوائد الحضارة في بلدهم مصر، وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل. فلم تنزل عوائد الحضارة بها متصلة، وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة آلافاً من السنين وأعقبهم ملك مصر.

وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكنينية والكسروية والعرب بعدهم آلافاً من السنين، فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر.

وكذا أيضاً رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها من ملك بني أمية. آلافاً من السنين، وكلتا الدولتين عظيمة فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت.

وأما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم، إنما قطع الروم والإفرنجية إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة، فكانوا

النعمة واليسار، وذلك أن الدولة والملك صورة الخليفة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال، وأحوال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم، وإذا أنقض السلطان عطاء وأمواله في أهلها أثبتت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه، فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء، فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة، وأصله كله العمران وكثرته، فاعتبره وتأمله في الدول تجده، والله سبحانه وتعالى يحكم ولا معقب لحكمه.

الفصل الثامن عشر

في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره

وأنها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدول غاية للعصية، وأن الحضارة غاية للبداءة، وأن العمران كله من بداءة وحضارة وملك وسوق له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً، وتبين في المعقول والمقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه وغوها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الاخطاط. فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها، والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤتق من أصنافه وسائر فنونه كالصنائع المهينة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية وسائر أحوال المنزل. وللتأنيق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداءة وعدم التأنيق فيها. وإذا بلغ التأنيق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتلتو النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها:

أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها.

وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها.

وبيانه أن المصر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله، والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت

على قلعة أوفاز وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر، ولما جاء الله بالإسلام وملك العرب إفريقية والمغرب ولم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلاً أول الإسلام، وكانوا لذلك العهد في طور البداءة ومن استقر منهم بإفريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه، إذ كانوا برابر منغمسين في البداءة ثم انتفض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة المظفري أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وإن بايعوا لإدريس، فلا تعد دولته فيهم عربية؛ لأن البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عدد وبقيت إفريقية للأغلبة ومن إليهم من العرب، فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان، وورث ذلك عنهم كثامة ثم صنهاجة من بعدهم، وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمئة سنة وانصرفت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة، وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها، وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهديّة سلف، فتجد له من أحوال الحضارة في شؤون منزله وعوائده أحواله آثاراً ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها، وكذا في أكثر أمصار إفريقية وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغلبة والشيعية وصنهاجة.

وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً وكانت من اتساع النطاق ما علمت، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الأندلس، ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً معظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها، فكان بذلك للمغرب وإفريقية حظ صالح من الحضارة عفي عليه الحفا ورجع على أعقابهم وعاد البربر بالمغرب إلى أدبياتهم من البداءة والخشونة، وعلى كل حال فآثار الحضارة بإفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم، فتفطن لهذا السر فإنه خفي عن الناس.

واعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأمة أو الجليل وعظم المدينة أو المصر وكثرة

في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والفسفة، وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بمجرأها وانقراضها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَارَةً وَتَدْمِيرًا﴾.

ووجهه أن مكاسبهم حيث لا تنفي بمجاراتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم. وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت، وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص:

إن المدينة إذا كثر فيها غرس النارج تأذنت بالخراب، حتى إن كثيراً من العامة يتحامي غرس النارج بالدور تطيراً به. وليس المراد ذلك ولا أنه خاصة في النارج وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة. ثم إن النارج والليم والسرور وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غايات الحضارة، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التفتن في مذاهب الترف. وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه. ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب، إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحر وأبيض وهو من مذاهب الترف.

ومن مفاصد الحضارة أيضاً الإتهامك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التفتن في شهوات البطن من المأكول والملاذ والمشارب وطبيها. ويتبع ذلك التفتن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط، فيفضي ذلك إلى فساد النوع: إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا، فيجهل كل واحد ابنه، إذ هو لغير رشدة، لأن المياه مختلطة في الأرحام، فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون، ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع، أو يكون فساد النوع بغير واسطة، كما في اللواط إلى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع بغير واسطة كما في اللواط المؤدي إلى عدم النسل رأساً وهو أشد في فساد النوع إذ هو يؤدي إلى أن لا يوجد النوع. والزنا يؤدي إلى عدم ما يوجد منه. ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله في اللواط أظهر من مذهب غيره، ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح.

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات. بل نقول: إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد؛ لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منفعته ودفع مضاره واستقامة خلقه للسمي في ذلك. والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته إما عجزاً لما حصل

الحضارة أكمل. وقد كنا قدّمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته. ثم تزيد الكوس غلاء لأن كمال الحضارة إنما تكون عند نهاية الدولة في استنفالها وهو زمن وضع الكوس في الدول لكثرة خرجها حيث كما تقدم. والكوس تعود على البياعات بالغلاء لأن السوق والتجار كلهم يحتسبون على سلهم وبضائعهم جميع ما يتفقونه حتى في مؤونة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها. فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف. ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتابعون في الإملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضائع فتكسد الأسواق وتفسد حال المدينة، وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف. وهذه مفسدتها في المدينة على العموم في الأسواق والعمران.

وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص، فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بالوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بمحصل لون آخر من ألوانها؛ فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه. وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلاية والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البياعات، ثم تجدهم - لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف - أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه وإطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوي الأرحام والمحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك. وتجدهم أيضاً أبصر بالمرور والخديعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله.

وموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وللدانهم من أهمل عن التأديب وأهملته الدولة من عدادها وغلب عليه خلق الجوار والصحابة وإن كانوا أصحابه أهل أنساب وبيوتات، وذلك أن الناس بشر متماثلون، وإنما تفاضلوا وتمايزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل. فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة بأي وجه كان، وفسد خلق الخير فيه، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته. ولهذا تجدد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار متحلين للمحرف الدنية

منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما على الأخرى في العوائد والأحوال. وغلب أحد المتنافين يذهب بالثاني الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكورة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشرة وقييحة. وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة. وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في مصر.

الأمر الثالث: أن كل أمة لا بد لها من وطن وهو منشأهم ومنه أولية ملكهم. وإذا ملكوا وطناً آخراً تبعاً للأول، وأمصاره تابعة لأمصار الأول. واتسع نطاق الملك عليهم. ولا بد من توسط الكرسي بين تحوم الممالك التي للدولة؛ لأنه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوي أقدته الناس إليه من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول. والحضارة إنما هي بوفور العمران كما قدمنا فتتقص حضارته وتمدنه. وهو معنى اختلاله. وهذا كما وقع للسلجوقية في عدوهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة، ولبنى العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد، ولبنى مرين بالمغرب في العدول عن مراکش إلى فاس. وبالجملية فانحاذ الدولة الكرسي في مصر بخل بعمران الكرسي الأول.

الأمر الرابع: أن الدولة المتجددة إذا غلبت على الدولة السابقة لا بد فيها من تباع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر تؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل مصر الكرسي أشياع الدولة. إما من الحماية الذين نزلوا به أول الدولة أو من أعيان مصر؛ لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم. بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شعبة لها. وإن لم يكونوا بالشوكة والعصية فهم بالميل والمحبة والعقيدة. وطبيعة الدولة المتجددة نحو آثار الدولة السابقة فتتقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها. فيبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في مصر الكرسي إلا الباعة والمهمل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة، وينزل مكانهم في حمايتها وأشياعها من يشتد به مصر، وإذا ذهب من مصر أعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه. ثم لا بد أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة. وإنما ذلك بمثابة من يملك بيتاً داخله البلى والكثير من أوضاعه في بيوته ومراقفه لا توافق مقترحه وله قدرة على أوصاف

له من الدعة أو ترفاً لما حصل له من المرى في التميم والترف وكلا الأمرين ذميم. وكذلك لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري بما قد فقد من خلق البأس بالتلف والمرى في قهر التاديب التعليم فهو لذلك عيال على الحماية التي تدافع عنه. ثم هو فاسد أيضاً في دينه غالباً بما أفسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس من ملكاتها كما قررناه إلا في الأقل النادر. وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسحاً على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون من جند السلطان إلى البداوة والخشونة أنفع من الذين يتربون على الحضارة وخلقها.

هذا موجود في كل دولة. فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم من العمران والدول؛ والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن.

الفصل التاسع عشر

في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك

تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقرينا في العمران أن الدولة إذا اختلت وانتقضت، فإن مصر الذي يكون كرسياً لسلطانها يتقص عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف. والسبب فيه أمور:

الأول: أن الدولة لا بد في أولها من البداوة المقتضية للتجاني عن أموال الناس والبعد عن التحذلق. ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم. التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقتصر الترف فإذا صار مصر الذي كان كرسياً للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل مصر؛ لأن الرعايا تبع الدولة فيرجعون إلى خلق الدولة: إما طوعاً لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرهاً لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد؛ فتقتصر لذلك حضارة مصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف. وهي معنى ما نقول في خراب مصر.

الأمر الثاني: أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب، وإنما يكون بعد العداوة والحروب. والعداوة تقتضي

الزجاج والصانغ والدهان والطباخ والصفار والسفاج والفراش والذباح وأمثال هذه وهي متفاوتة. ويقدر ما تريد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره، ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التمتع؛ ولذلك لا يكون في المدن المتوسطة. وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجري أحوالها. إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتفر عنها القومة؛ لقلّة فائدتهم ومعاشهم منها. والله يقبض ويسط.

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الأمصار وتغلب

بعضهم على بعض

من البين أن الالتحام أو الاتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصل به العصبية بعضاً مما تحصل بالنسب. وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لحماً لحماً قرابة قرابة، وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون شيعاً وعصائب، فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدتهم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة، والنفوس بطباعها متطاولة على الغلب والرئاسة فتطمع المشيخة - خلاه الجو من السلطان والدولة القاهرة - إلى الاستبداد وينازع كل صاحبه، ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيع والأحلاف ويذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب، فيعصو صب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم، فيعطف على أكفائه ليفض من أعنتهم ويتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع، ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه، فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدة والهرم.

وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك فيتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد والتختم والتحية والخطاب

مخصوصة - على تغيير تلك الأوضاع وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانياً.

وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي لذلك وشاهدناه. وعلمناه ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها. وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر. فالدولة دون العمران لا تصور والعمران دون الدولة والملك متعذر بما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع فتعين السياسة لذلك. أما الشريعة أو الملكية وهو معنى الدولة وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما كان عدمه مؤثراً في عدمه، والخلل العظيم إنما يكون من خلال الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك. وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقرينة الشبه بعضها من بعض، فلا تؤثر كثير اختلال؛ لأن الدولة بالحقبة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة مع أشخاص الدولة، فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران فاذهبت أهل الشوكة بأجمعهم عظم الخلل كما قررناه أولاً، والله قادر على ما يشاء. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الأمصار ببعض

الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضاً، لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال ينحصر ببعض أهل المصر، فيقومون عليه ويستصبرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة إليه. وما لا يستدعي في المصر يكون غفلاً إذ لا فائدة لمتحلته في الاحتراف به. وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والتجار وأمثالها، وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله إنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة عوائد الترف والحضارة، مثل

المادة، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي ﷺ عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها.

واعتبر ذلك في نهى عمر رضي الله عنه عن رطانة الأعاجم وقال: إنها خب. أي مكر وخديعة. فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القاسمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها؛ لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب. وهجر الأمم لغاتهم وأسنتهم في جميع الأمصار والممالك. وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة. ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره، وإن كان بقي في الدلالات على أصله وسمي لساناً حضرياً في جميع أمصار الإسلام.

وأيضاً فآثر أهل الأمصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها، المالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم. واللغات متوارثة، فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعاجم شيئاً فشيئاً. وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب، فإنها كانت أعرق في العروية، ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناتة والبربر بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عنابة المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام إلا قليلاً بالأمصار عربية، فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلاً يقع تعليمه صناعياً بالقوانين المتدايرة من علوم العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طلباً لها فانخفضت بعض الشيء، وأما في ممالك العراق وما وراء فلم يبق له أثر ولا عين حتى إن كتب العلوم صارت تكتب

بالتهويل وما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل. إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتمحاض بعض القرباب حتى صارت عصية. وقد يتزهد بعضهم عن ذلك ويجري على مذاهب السذاجة فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث. وقد وقع هذا بإفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونقطة وقفصة وبسكرة والزاب وما إلى ذلك. سمو إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلوا على أمصارهم واستبدوا بأمهرها على الدولة في الأحكام والجبابة. وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة وأقطعوها جانباً من الملاينة والملاطفة والانتقاد وهم بمعزل عنه. وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد. وحدث في خلقهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم، ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوق حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة. وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية. واستقل بأمصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي ونقلهم كلهم من إماراتهم بها إلى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخباره. وكذا وقع بسبب دولة آخر دولة بني عبد المؤمن.

وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشايخ والرفاسة في مصر، وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الفوغاء والدهماء. وإذا حصلت له العصية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصاة، والله سبحانه وتعالى غالب على أمره.

الفصل الثاني والعشرون

في لغات أهل الأمصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها؛ ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه؛ والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من التغلب على الأمم والدين والملة صورة للوجود وللملك. وكلها مواد له والصورة مقدمة على

باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس واللّه أعلم بالصواب.
واللّه مقدر الليل والنهار. صلى اللّه على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين والحمد لله
رب العالمين.

الباب الخامس

في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما
يعرض في ذلك كله من الأحوال

وفيه مسائل

الفصل الأول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن
الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوته إلى أشده إلى كبره ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ واللّه سبحانه خلق جميع مافي العالم للإنسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ و﴿سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ و﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ وسخر لكم الأنعام، وكثير من شواهد. ويد الإنسان مبسطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف. وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك. وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض. فالإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها. قال الله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

وقد يحصل له ذلك بغير سعي كماطر المصلح للزراعة وأمثاله. إلا أنها إما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له. تلك المكاسب معاشاً إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشاً و متمولاً إن زادت على ذلك. ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعة على العبد وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقاً. قال ﷺ: «إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَافْتَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقاً والمتملك منه حيثئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسباً. وهذا مثل التراث فإنه يسمى إلى المالك كسباً. وهذا مثل التراث، فإنه يسمى إلى المالك كسباً ولا يسمى رزقاً إذ لم يحصل له

به منتفع، وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقاً. هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة، وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقاً أن يكون بحيث يصح تملكه وما لا يملك عندهم فلا يسمى رزقاً، وأخرجوا الفصويات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقاً، والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص برحمته وهدايته من يشاء. ولهم في ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها.

ثم اعلم أن الكسب إما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ والسعي إليه إما يكون بأقدار الله تعالى وإلهامه، فالكل من عند الله. فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب وتمول: لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان أو النبات أو المعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع.

ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول، وهما الذخيرة والقيمة لأهل العالم في الغالب. وإن اقتنى سواهما في بعض الأحيان فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الأسواق التي هما عنها بمعزل فهما أصل المكاسب والقيمة والذخيرة. وإذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيد الإنسان ويقتنيه من التمولات إن كان من الصنائع، فالقاد المقتنى منه وهو قيمة عمله وهو القصد بالقيمة، إذ ليس هنالك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقيمة. وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل التجارة والحياكة معهما الخشب والغزل إلا أن العمل فيهما أكثر، فقيمتهم أكثر، وإن كان من غير الصنائع فلا بد من قيمة ذلك القاد والقيمة من دخول قيمة العمل الذي حصلت به، إذ لولا العمل لم تحصل قيمتهما. وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت. وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس، فإن اعتبار الأعمال والثقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه، لكنه خفي في الأنظار التي علاج الفلح فيها ومؤنثه يسيرة، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح. فقد تبين أن المقادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به. فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما.

واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب، ألا ترى إلى أمصار القليلة الساكن كيف

إلى ذكرها، وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني.

وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش، أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم؛ ولهذا تنسب في الخليفة إلى آدم أبي البشر وأنه معلمها والقائم عليها إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة.

وأما الصنائع فهي ثانيها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار؛ ولهذا لا يوجد غالباً إلا في أهل الحضر الذي هو متأخر عن البدو وثان عنه. ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثاني للخليفة فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى.

وأما التجارة وإن كانت طبيعية في الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها، إنما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة. ولذلك أباح الشرع فيه المكاسب لما أنه من باب المقامرة إلا أنه ليس أخذاً للمال الغير مجاناً فلذلك اختص بالشرعية. والله أعلم.

الفصل الثالث

في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

اعلم أن السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الإمارة والملك الذي هو بسبيله من الجندي والشرطي والكتائب. ويستكفي في كل باب بمن يعلم غناه فيه، ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله. وهذا كله مندرج في الإمارة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة، والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم. وأما ما دون ذلك من الخدمة، فسيبها أن أكثر المترفين يرتفع عن مباشرة حاجاته، أو يكون عاجزاً عنها، لما ربي عليه من خلق التعم والترق؛ فيتخذ من يتولى ذلك له، ويقطعه عليه أجراً من ماله. وهذه الحالة غير عمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان، إذ الثقة بكل أحد عجز، ولأنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث اللذين يتبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما. إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مآلوفها، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه. ومع ذلك فالخدم الذي يستكفي ويوثق بغنائه كالمفقود، إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات: إما مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده؛ وإما بالعكس فيهما،

يقبل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلّة الأعمال الإنسانية، وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية كما قدمناه قبل، ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها حتى أن الأنهار والعيون ينقطع جريها في الفقر لما أن فور العيون إنما يكون بالأنباط والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني كالحال في ضروع الأنعام، فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع إذا ترك امتراؤه. وانظر في البلاد التي تعهد فيها العيون لأيام عمرانها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

الفصل الثاني

في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مقفّل من العيش. كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة ثم إن تحصيل الرزق وكسبه: إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرماً وجباية.

وإما أن يكون من الحيوان الوحشي باقتناصه وأخذه برمييه من البر أو البحر ويسمى اصطيداً.

وإما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرف بين الناس في منافعهم، كاللبن من الأنعام والحزير من دوده والعسل من نحله، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلحاً.

وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية: إما في مواد بعينها وتسمى الصنائع من كتابة وتجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك، أو في مواد غير معينة وهي جميع الامتهانات والتصرفات، وإما أن يكون الكسب من البضائع وإعدادها للأعواض، إما بالتقلب بها في البلاد أو احتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها. ويسمى هذا تجارة.

فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالخريزي وغيره، فلأنهم قالوا: المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة.

فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا

أو معموراً بالديدان. أو يشارف الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها متتضين سيوفهم. أو تמיד به الأرض حتى يظنه خسفاً أو مثل ذلك من المنذر.

ونجد كثيراً من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الخواشي إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يعثرونهم على الحفر والطلب، ويوهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات. وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه، فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتراف والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول، فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلمس الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم. والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل، إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا وأمثاله؛ عجزاً عن السعي في المكاسب وركوناً إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهه شديد أشد من الأول ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات.

وربما يحمل على ذلك في الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا نفي بمطالبها. فإذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه إلا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده؛ ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف التسعة الأحوال مثل مصر وما في معناها، فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء. هكذا يبلغنا عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تفوير المياه لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل، وأنه أعظم ما يستر دفيناً أو مختزناً في تلك الآفاق ويمره عليهم أصحاب تلك

وهو أن يكون غير مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده، وإما بالعكس في إحدهما فقط، مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوقاً غير مضطلع.

فأما الأول: وهو المضطلع الموثوق، فلا يمكن أحد استعماله بوجه، إذ هو باضطلاعهم وثقته غني عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الأجر من الخدمة، لاقتداره على أكثر من ذلك، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض، لعموم الحاجة إلى الجاه.

وأما الصنف الثاني: وهو ليس بمضطلع ولا موثوق، فلا ينبغي لعاقل استعماله، لأنه يححف بمخدومه في الأمور معاً، فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة، ويذهب ماله بالخيانة أخرى، فهو على كل حال كل على مولاه.

فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما. ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين: موثوق غير مضطلع، ومضطلع غير موثوق. وللناس في الترجيح بينهما مذهبان، ولكل من الترجيحين وجه. إلا أن المضطلع، ولو كان غير موثوق أرجح. لأنه يؤمن من تضيعه، ويحاول على التحرز عن خيانتته جهد الاستطاعة. وأما المضيع ولو كان مأموناً، فضرره بالتضيع أكثر من نفعه. فاعلم ذلك واتخذ قانوناً في الاستكفاء بالخدمة. والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

الفصل الرابع

في أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس

بمعاش طبيعي

اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويتبنون الكسب من ذلك. ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مخترم عليها كلها بطلاسم سحرية. لا يقض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقرابان.

فأهل الأمصار بإفريقية يرون أن الإفرنجية الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك وأودعوا في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها. وأهل الأمصار بالشرق يرون مثل ذلك في أسم القبط والروم والفرس. ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبيين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره، فيجدونه خالياً

خبر.

واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه القصد إليها. وليس ذلك بأمر تعم به البلوى حتى يدخر الناس غالباً أموالهم تحت الأرض ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث.

والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفن الجاهلية إنما يوجد بالثور والاتفاق لا بالقصد والطلب، وأيضاً فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ في إخفائه، فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه! ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأمصار والآفاق؟! هذا يناقض قصد الإخفاء. وأيضاً فأفعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع. ومن اختزن المال فإنه يحتزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره. وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد وإنما هو للبلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه.

وأما قولهم: أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفرة؟ فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن. والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها، وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث، وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه. والعمران الذي يستدعيه فإن نقص المال في المغرب وإفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والإفرنج، وإن نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين. وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يورفها أو ينقصها، مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجواهر أعظم مما يسرع إلى غيره. وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت.

وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسيبه أن مصر كانت في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر والآلات على مذهب من تقدم من أهل الدول، فلما انتقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقرؤا على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف: كالأهرام من قبور الملوك وغيرها. وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد. ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات. أما

الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفاً بشأن السحر، متوارثاً في ذلك القطر عن أوليه، فعلموهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها. وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك، وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي هذه:

يا طالباً للسر في التغوير اسمع كلام الصدق من خير
دع عنك ما قد صنفا في كتبهم من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالي ونصيحتي إن كنت ممن لا يرى بالزور
فلذا أردت تغور البئر التي حارت لها الأوهام في التدبير
صور كصورتك التي أوقفنها والرأس رأس الشبل في التقرير
ويدها ماسكتان للجبل الذي في الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطا على الطاءات غير ملاس مشي الليب الكيس التحرير
ويكون حول الكل خط دائر تريعه أولى من التكرير
واذبح عليه الطير والطخه به واقصده عقب الذبح بالتخير
بالسندروس وباللبان ومبعة والقسط والبسه بثوب حرير
من أحمر أو أصفر لا أزرق لا أخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض أو أحمر من خالص التحمير
والطالع الأسد الذي قد بينوا ويكون يده الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد في يوم سبت ساعة التدبير

يعني أن تكون الطاءات بين قدميه كأنه مشي عليها، وعندئذ أن هذه القصيدة من تمويهات المتخرفين، فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة وتنتهي التخرفة والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذه ويجفرون بها الحفر ويضعون فيها المطابق والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم، ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ويبعثون على اكتراء ذلك المنزل وسكانه ويوهمون أن به دفيناً من المال لا يعبر عن كثرته ويطلابونسه بالمال لا لشراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم، ويعودونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم، فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر، وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتناولونه من حفر وبخور، وذبح حيوان وأمثال ذلك.

وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم ولا

والمدن. وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فيتمو ماله ويعظم كسبه ويتأهل الغنى من غير سعي، ويعجب من لا يظن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره، والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب.

الفصل السادس

في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل
الخضوع والتعلق وإن هذا الخلق من أسباب السعادة

قد سبق لنا فيما سلف أن الكسب الذي يستفيد به البشر إنما هو قيم أعمالهم، ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقده الكسب بالكلية. وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته. وعلى نسبة ذلك نحو كسبه أو نقصانه. وقد بينا آنفاً أن الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع. وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضاً عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالح. وتصير تلك الأعمال في كسبه وقيمها أموال وثروة له، فيستفيد الغنى واليسار لأقرب وقت. ثم إن الجاه متوزع في الناس ومرتّب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفلى إلى من لا يملك ضراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه مما يتظم معاشهم وتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم؛ لأن النوع الإنساني لما كان لا يتم وجوده ويقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم، لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده وأنه وإن ندر ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه. ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الأكثر بمصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار، وأن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع. وقد يتمتع من المعاونة فتيين حمله عليها فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لستم الحكمة الإلهية في بقاء هذا النوع. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة وعلى أغراضه فيما سوى ذلك، ولكن

ما يدفعونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها. فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها. حتى إنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب. وصارت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الأطماع الذريعة إلى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران، فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس أو ابتلي به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله ﷺ من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات ﴿وَاللَّهُ يَرِزُّكَ مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الفصل الخامس

في أن الجاه مفيد للمال

وذلك أننا نحمد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقده الجاه. والسبب في ذلك أن صاحب الجاه غدوم بالأعمال يتقرب بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه، فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي، فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه أن تبذل فيه الأعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض، فتوفر قيم تلك الأعمال عليه. فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتوفر عليه. والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لأقرب وقت ويزداد مع الأيام يساراً وثروة. ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفاقده الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجار. ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير. وما يشهد لذلك أننا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتماد في مصالحهم، أسرع إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وقعت المعاونة بها من الناس لهم. رأينا من ذلك أعداداً في الأمصار

بعضهم كمالاً في نفسه بذلك واحتياجاً إليه.

وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس، فيستكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعدده مذلة وهواناً وسفهاً. ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك. وربما يدخل على نفسه المهوم والأحزان من تقصيرهم فيه ويستمر في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إياية الناس له من ذلك. ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التآله. وقل أن يسلم أحد منهم لأحد في الكمال والترفع عليه إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة. وهذا كله في ضمن الجاه. فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقتته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من إحسانهم وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه لأجل المقت، وما يحصل له بذلك من القعود من تعاملهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل. وأما الثروة فلا تحصل له أصلاً.

ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه. ومن خلق لشيء يسر له. والله المقدر لا رب سواه.

ولقد يقع في الدول أضراب في المراتب من أهل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك، وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويش من سواهم من ذلك، وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك، وتحت يد السلطان وكأنهم خول له. فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حيثن في المنزلة عند السلطان كل من اتمى إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحته واصطنعه السلطان لغناة في كثير من مهماته. فتجد كثيراً من السوق يسعى في التقرب من السلطان بمجده ونصحده ويتزلف إليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه. حتى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان في جملة فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينظم في عدد أهل الدولة وناشئة الدولة حيثن من أبناء قومها الذين ذلوا صاعبها ومهدوا أكتافها، مغترين بما كان لأبائهم في ذلك من الآثار وتشمخ به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره ويمجرون في مضمار الدالة بسببه، فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم. ويعمل إلى

الأول مقصود في العناية الربانية بالذات، والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الإلهي، لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد، فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير. وهذا معنى وقوع الظلم في الخليفة فتهم.

ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد هذا الجاه من أهل الطبقة التي فوقه، ويزداد كسبه تصرفاً فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه، والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه. فإن كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشئ عنه كذلك وإن كان ضيقاً وقليلًا فمثله. وفائد الجاه وإن كان له مال فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله وعلى نسبة سعيه ذاهباً وآيباً في تنميته كآكثر التجار، وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك، إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر ولا تسرع إليهم ثروة، وإنما يرمقون العيش ترميقاً ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة. وإذا تقرر ذلك وأن الجاه مترفع وأن السعادة والخير مقترنان بمصوره علمت إن بذله وإفادته من أعظم النعم وأجلها وأن باذله من أجل المتعمين، وإنما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعن عزة، فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتلق كما يسأل أهل العز والملوك وإلا فيتعذر حصوله. فلذلك قلنا: إن الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب، وإن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا الخلق ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشم لا يحصل لهم غرض من الجاه فيقتصرون في التكسب على أعمالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة.

واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأخلاق المذمومة إنما يحصل من توهم الكمال، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر في علمه أو الكاتب الجيد في كتابته أو الشاعر البليغ في شعره، وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس يحتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك، وكذا يتوهم أهل الأنساب ممن كان في آبائهم ملك أو عالم مشهور أو كامل في طور يعبرون به بما راوه أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم. فهم متمسكون في الحاضر بالأمر المعلوم إذ الكمال لا يورث، وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور قد يتوهم

وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه وقضينا العجب من أسرار الله في خليقته وحكمته في عوالمه، والله الخالق القادر لا رب سواه.

الفصل الثامن

في أن الفلاحة من معاش المستضعفين

وأهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه؛ ولذلك لا تجده يتحلل أحد من أهل الحضرة في الغالب ولا من المترفين. ويختص متحلله بالمدلة، قال عليه السلام «قد رأى السكة يبيع دور الأنصار: «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل»، وحمله البخاري على الاستكثار منه. وترجم عليه (باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به).

والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغمم المفضي إلى التحكم واليد العالية، فيكون الغارم ذليلاً بائساً مما تتناوله أيدي القهر والاستطالة. قال عليه السلام: «لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرمًا»، إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في التمولات واعتبار الحقوق كلها مغرمًا للملوك والدول. والله قادر على ما يشاء. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيًا ما كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش. وذلك القدر النامي يسمى ربحًا. فالحاول لذلك الربح: إما أن يخترن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه، وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه. ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة: أنا أعلمها لك في كلمتين: اشتراء الرخيص وبيع الغالي. فقد حصلت التجارة إشارة منه بذلك إلى المعنى الذي قرناه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون إلى دالة ولا ترفع. إنما ذابهم الخضوع له والتملق والاعتماد في غرضه متى ذهب إليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف إليهم الوجوه والخواص بما يحصل لهم من ميل السلطان والمكانة عنده، ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك إلا بعداً من السلطان ومقتاً وإثارة لهؤلاء المصطنعين عليهم إلى أن تنقرض الدولة. وهذا أمر طبيعي في الدول، ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل السابع

في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا

والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو

ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

والسبب لذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الأعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها. فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران عامة البلوى فيه كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد. وأهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه. وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطراب والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر. وإنما يهتم بهم وإقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح فيقسم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذي قرناه. لا يساوهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع الضرورية، وإن كانت بضاعتهم أشرف من حيث الدين والمراسم الشرعية، لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمتهم إلا القليل. وهم أيضاً لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستبدون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة المشتتة على أعمال الفكر والتدبر. بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب. ولقد باحث بعض الفضلاء فأنكر ذلك علي فوقع بيدي أوراق خرقه من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج يومئذ، وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاء والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه

الفصل العاشر

في أي أصناف الناس ينتفع بالتجارة وأيهم

ينبغي له اجتناب حرفها

الفصل الحادي عشر

في أن خلق التجار نازلة عن خلق

الأشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء؛ ولا بد فيه من المكايسة ضرورة فلأن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها، وهي - أعني خلق المكايسة - بعيدة عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والأشراف. وأما إن استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من الماحكة والغش والخلاية وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولاً فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف. ولذلك تجد أهل الرئاسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لأجل ما يكسب من هذا الخلق. وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم جلاله إلا أنه في النادر بين الوجود، والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه وهو رب الأولين والآخرين.

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تم الحاجة إليه من الغني والفقر والسultan والسوقة، إذ في ذلك نفاق سلعته. وأما إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البعض فقط، فقد يتعذر نفاق سلعته حيثئذ بأعواز الشراء من ذلك البعض لعراض من العوارض فتكسد سوقه وتفسد أرباحه. وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فلنما ينقل الوسط من صنفها، فإن الغالي من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الأقل. وإنما يكون الناس أسوة في الحاجة إلى الوسط من كل صنف فليتحرك ذلك جهده ففیه نفاق سلعته أو كسادها، وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً وأكفل بمحوالة الأسواق؛ لأن السلعة المنقولة حيثئذ تكون قليلة معوزة لبعدها مكانها أو شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها، وإذا قلّت وعزّت غلت أثمانها. وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالأمن فإنه حيثئذ يكثر ناقلوها فتكثر أثمانها؛ ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم

قد تقدم أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأغلى، أو بيعها بالغلاء على الأجال. وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال نزر يسير؛ لأن المال إن كان كثيراً عظم الربح؛ لأن القليل في الكثير كثير.

ثم لا بد في محاولة هذه التنمية الذي هو الربح من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها. ومعاملتهم في تقاضي أثمانها. وأهل النصفة قليل، فلا بد من الغش والتطفيف المحجف بالبضائع ومن المظل في الأثمان المحجف بالربح. كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها غماؤه. ومن الجحود والإنكار المسجيت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة، وغناء الحكام في ذلك قليل؛ لأن الحكم إنما هو على الظاهر. فيعاني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة. ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة، أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله. فإن كان جريئاً على الخصومة بصيراً بالحسبان شديد الماحكة مقدماً على الحكام كان ذلك أقرب له إلى النصفة بجرائمته ومحاكته، وإلا فلا بد له من جأه يذرع به، فيوقع له الهية عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من غرمائه فيحصل له بذلك النصفة واستخلاص ماله طوعاً في الأول وكرهاً في الثاني، وأما من كان فاقداً للجراءة والإقدام من نفسه وفاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة؛ لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة ولا يكاد يتصف منهم؛ لأن الغالب في الناس وخصوصاً الرعايا والباعة شرهون إلى ما في أيدي الناس سواهم متوثبون عليه. ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهياً ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

الفصل الرابع عشر

في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة. والتجارة هي شراء البضائع والسلع وإدخالها. يتحين بها حوالة الأسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى رجحاً. ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً، فإذا استديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فيه فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف ولم يحصل التاجر إلا على العناد، فقعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤوس أموالهم.

واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استديم رخصه كيف تنفسد أحوال المحترفين به بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه ونزارة أو فقده. فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة ويعودون بالإنفاق على رؤوس أموالهم وتفسد أحوالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة. ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرف من لذن زراعتهم إلى صيرورته مأكولاً.

وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً، فإنها تقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها، ويرتقون من السلطان عليها ويقطع عنهم الرزق فتفسد أحوالهم، وكذا إذا استديم الرخص في العسل والسكر فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون به عن التجارة فيه، وكذا حال الملبوسات إذا استديم فيها الرخص أيضاً، فإذا الرخص المفرط يحجب بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخص، وكذا الغلاء المفرط أيضاً. وربما يكون في النادر سبباً لنماء المال بسبب احتكاره وعظم فائدته. وإنما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق، وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران. وإنما يحمّد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني والفقير. والعالة من الخلق هم الأكثر في العمران فيعمد الفرق بذلك ويرجع جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص و ﴿اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ واللّه سبحانه وتعالى رب العرش العظيم.

أموالاً لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش. لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة يهتدي إليها أدلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعتنا لديهم. فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك. وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعد الشقة أيضاً. وأما المترددون في الأفق الواحد ما بين أمصاره وبلداته ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقلها و ﴿اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الأمصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤوم. وأنه يعود على فائدته بالتلف والخسران. وسببه - والله أعلم - أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يذلون فيها من المال اضطراراً، فتبقى النفوس متعلقة به، وفي تعلق النفوس بمالها سر كبير في وباله على من يأخذه مجاناً ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل، وهذا - وإن لم يكن مجاناً - فالنفوس متعلقة به لإعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالكره وما عدا الأقوات والماكولات من المبيعات لا اضطرار للناس إليها وإنما يبعثهم عليها التفتن في الشهوات، فلا يذلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص. ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعتها لما يأخذه من أموالهم فيفسد رحمه. والله تعالى أعلم.

وسمعت فيما يناسب هذا حكاية طريفة عن بعض مشيخة المغرب. أخبرني شيخنا أبو عبد الله الأبلقي قال: حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليلي، وقد عرض عليه أن يختار بعض الألقاب المخزنية لجرايته قال: فأطرق ملياً ثم قال لهم: من مكس الخمر. فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك. فقال: إذا كانت الجبايات كلها حراماً فأختار منها ما لا يتابعه نفس معطيه والخمر قل أن يذل فيها أحد ماله إلا وهو طرب مسرور بوجدانه غير أسف عليه ولا متعلقة به نفسه؛ وهذه ملاحظة غريبة والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور.

الفصل الخامس عشر

في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء

وبعيدة من المروءة

قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح، ولا بد في ذلك من المكايسة والمحاكة والتحدلق وممارسة الخصومات واللجاج وهي عوارض هذه الحرفة.

وهذه الأوصاف تغض من الذكاء والمروءة وتحدج فيها لأن الأفعال لا بد من عود آثارها على النفس. فأفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المدمومة في النفس شأن الملكات الناشئة عن الأفعال. وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم، فمن كان منهم سافل الطور مغالفاً لشرار الباعة أهل الغش والخلافة والخذعية والفجور في الأيمان على البياعات والأمان إقراراً وإنكاراً. كانت رداءة تلك الخلق عنده أشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة. وإلا فلا بد له من تأثير المكايسة والمحاكة في مروءته، وفقدان ذلك فيهم في الجملة.

وجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله أنهم يدربون بالجاء ويعوض هم من مباشرة ذلك، فيهم نادر وأقل من النادر. وذلك أن يكون المال قد توفر عنده دفعة بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره، فيترفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من ولاته وحشمه. ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من برة وإنحافه، فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر. فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن المخرجات إلا ما يسري من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب، فإنهم يضطرون إلى مشاركة أحوال أولئك الوكلاء وواقفهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الفصل السادس عشر

في أن الصنائع لا بد لها من العلم

اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ويكونه عملياً هو جسماني محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته. وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. وتقل المعاناة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم. فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة على الخبر. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حدق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته. ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكماليات. والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً، ولأنه يختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصاً. ولا يزال الفكر يخرج أصنافاً ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدرج حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال، إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الأمور الصناعية فلا بد له إذن من زمان. ولهذا نجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل. وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة. ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها. ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك. ومن الثالث الجندية وأمثالها. والله أعلم.

الفصل السابع عشر

في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران

الحضري وكرثرته

والسبب في ذلك أن الناس وما لم يستوف العمران الحضري

الفصل الثامن عشر

في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو

برسوخ الحضارة وطول أمده

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد لل عمران والوأم. والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال. وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها. ولهذا فإننا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة، وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد. وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالباني والطبخ وأصناف الغناء واللهر من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده. فتجدهم أقوم عليها وأبصر بها. ونجد صنائعها مستحكمة لديهم، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار. وإن كان عمرانها قد تناقص. والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدو. وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جرا. فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آساد الدول فيها، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتشييق. وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه إلى أن يتنقص بالكلية حال الصبغ إذا رسخ في الثوب. وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال، وإن كان ذلك دون الأندلس، إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما. وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة، وربما سكن أهلها هناك عصوراً فينقلون من عوائد ترفهم وعكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان. فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن

وتعتمد المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها. فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حيثنذ إلى الكمالات من المعاش.

ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضرورته على العلوم والصنائع، وهي متأخرة عن الضروري. وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأق فيها حيثنذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة. وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار. وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها.

وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جللتها التائق في الصنائع واستجاداتها، فكمملت بجميع متماتها وتزايدت صنائع أخرى معها عما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصانغ وأمثال ذلك. وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد فيها كثير من الكمالات ويثائق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمتحلها. بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والسفاج والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع. ومثل الوراقين الذين يعانئون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها، فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك. وقد نخرج عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد، كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والخمر الإنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب؛ لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة. أدام الله عمرانها بالمسلمين. والله الحكيم العليم.

وكثر طالبيها. فإذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الاقتصاد على الضروري من أحوالهم، فقتل الصنائع التي كانت من توابع الترف؛ لأن صاحبها حيث لا يصح له بها معاشه فيفر إلى غيرها، أو يموت ولا يكون خلف منه. فيذهب رسم تلك الصنائع جملة، كما يذهب النقاشون والصواغون والكتاب والنساج وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف. ولا تزال الصنائع في التناقص ما زال المصر في التناقص إلى أن تضمحل. والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى.

أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة. ورسخ فيها من ذلك أحوال، وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد، إلا أن الصبغة إذا استحكمت قليلاً ما تحول إلا بزوال محلها. وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك، وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب. ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها كآثر الخط المحو في الكتاب والله «الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ».

الفصل التاسع عشر

في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر

إذا كثر طالبيها

الفصل الحادي والعشرون

في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها. والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها؛ لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه. حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش وفي الفقر، والإعراف في البدو، مفقودة لديهم بالجملة، ومفقودة مراعيها، والرمال المهيشة لتاجها؛ ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل للصنائع بالجملة، حتى تجلب إليه من قطر آخر. وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية، كيف استكثر فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم. وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين. ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه.. فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة إلا ما كان من صناعة الصوف في نسجه، والجلد في خرزه ودبغه. فإنهم لما استحضروا بلغوا فيها البالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم، لما هم عليه من حال البداوة. وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقيط وبني إسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطولة، فرسخت فيهم أحوال الحضارة. ومن جملتها الصنائع كما قدمناه، فلم يحج رسمها. وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة، وإن ملكه العرب، إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين في أمم كثيرة منهم. واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالة وحير من بعدهم. والتبابعة والأدواء فطال

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجاناً؛ لأنه كسبه ومنه معاشه. إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع. وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها النفاق كانت حيثن الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع. فيجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم. وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد إلى تعلمها، فاقتصت بالترك وفقدت للإعمال. ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن. بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه. وأيضاً فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها. وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها؛ لأن الدولة هي السوق الأعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة. فما نفق فيها كان أكثرياً ضرورة. والسوق وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة. والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

الفصل العشرون

في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت

منها الصنائع

وذلك لما يبناه من أن الصنائع إنما تستجد إذا احتيج إليها

والكتابة والوراقة والغناء والطب.

فأما التوليد فإنها ضرورية في العمران وعامة البلوى إذ بها تحصل حياة المولود ويتم غالباً. وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهااتهم.

وأما الطب فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة، وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان.

وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني.

وأما الغناء فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع. وكل هذه الصنائع الثلاث داع إلى خالطة الملوك الأعظم في خلواتهم ومجالس أنسهم، فلها بذلك شرف ليس لغيرها. وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وتمتعة في الغالب. وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي. والله أعلم بالصواب.

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعمده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه وإحكام الأعمال لذلك. وتحصيل أسبابه ودواعيه. وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً، إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت. ولهذا اختصت هذه الصناعة باليدو. إذ قدمنا أنه أقدم من الحضرة ومابقي عليه، فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضرة ولا يعرفونها؛ لأن أحوالهم كلها ثابتة عن البداوة، فصنائعهم ثابتة عن صنائعها وتابعة لها. والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد.

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكن والمأوى للأبدان في

أمد الملك والحضارة واستحكمت صيغتها وتوفرت الصنائع ورسخت، فلم تبل بيلى الدولة كما قدمناه. فبقيت مستجدة حتى الآن. واختصت بذلك للوطن، كصناعة الوشي والعصب وما يستجد من حوك الثياب والحريز فيها، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل الثاني والعشرون

في أن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن

يجيد بعدها ملكة في أخرى

ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة التجارة أو البناء إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صيغتها. والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس والثوان فلا تزدهم دفعة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف. وهذا بين يشهد له الوجود. فقل أن تجدد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيها معاً على رتبة واحدة من الإجابة. حتى إن أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة. ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبه، بل يكون مقصراً فيه إن طلبه إلا في الأقل النادر من الأحوال. ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة في النفس. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الثالث والعشرون

في الإشارة إلى أمهات الصنائع

اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران. فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد. إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها. فأما الضروري فكالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة، وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد

فيلتحم كأنها جسم واحد، ومنها البناء بالتراب خاصة تقام منه حيطان بأن يتخذ لها لוחان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير. وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما على ما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر. ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحيان آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مختلطاً بالكلس ويركز بالمراكز المعدة لذلك حتى ينعم ركزه ويختلط أجزاؤه بالكلس، ثم يزداد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلىء ذلك الخلاء بين اللوحيان وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً. ثم يعاد نصب اللوحيان على الصورة الأولى ويركز كذلك إلى أن يتم وتنظم الألواح كلها سطراً فوق سطر إلى أن يتنظم الحائط كله ملتحمًا كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب. ومن صنائع البناء أيضاً أن تحمل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النارية المفسدة للإلحام. فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك إلى أن يلتحم.

ومن صنائع البناء عمل السقف بأن تمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالداستار ويصب عليها التراب والكلس ويلبسط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط. ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التثقيب والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلل، فيشكل على التناسب تخريماً بمقابح الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء. وربما عولى على الحيطان بقطع الرخام أو الآجر أو الخزف أو بالصدف أو السيج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان، كأنه قطع الرياض المنمنمة. إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة الخراط بالفوهات في وسطها لنيع الماء الجاري إلى الصهريج يجلب إليها من خارج في القنوات المفضية به إلى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء.

وتختلف الصناعات في جميع ذلك باختلاف الخلق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون. وربما يرجع الحكام إلى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء. وذلك أن الناس في المدن الكثيرة الازدهار والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل في الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول

المدن. وذلك أن الإنسان لما جبل عليها من الفكر في عواقب أحواله، لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها، والبشر يختلفون في هذه الجبلبة الفكرية التي هي معنى الإنسانية، فالقديون فيها ولو على التفاوت يتخذون ذلك باعتدال كأهل الإقليم الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس. وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج. ثم المعتدلون والمتخذون البيوت للمأوى قد يتكاثرون فتكثر بيوتهم في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون من طروق بعضهم بعضاً بيتاً فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة سياج الأسوار التي تحوطهم ويصير جميعاً مدينة واحدة ومصبوراً واحداً يحوطهم فيها الحكام بدفاع بعضهم عن بعض، وقد يحتاجون إلى الاعتصام من العدو ويتخذون المعازل والحصون لهم ولن تحت أيديهم، وهؤلاء مثل الملوك ومن في معانهم من الأمراء وكبار القبائل. ثم يختلف أحوال البناء في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر. وكذا حال أهل المدينة الواحدة، فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالى عليها بالأصبغة والجص ويبالغ في كل ذلك بالتجديد والتنميق إظهاراً للبسطة بالعناية في شأن المأوى. ويهيئ مع ذلك الأسراب والطامير لاختزان اقواته والإسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معانهم، ومنهم من يبني الدورية والبيوت لنفسه وسكنه ولولده لا يتنهي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره عن الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة.

وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة وبيالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها. وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك كله، وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حوالیه، إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها. وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين أو يأوون إلى الكهوف والغيران. وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون: فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر. ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة: فمنها البناء بالحجارة المنجدة أو بالآجر يقام بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب، وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر، فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر عما هو معروف لكل أحد. ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا ييسر، وأول منافع الخشب أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للتكاء والدود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم لما يخشى ميله من ألقاهم. ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر:

فأما أهل البدو فيتخذون منها العمود والأوتاد لخيامهم والحدوج لظعاتهم، والرماح والقسي والسهام لسلاحهم.

وأما أهل الحضر فالتسقف ليوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم. وكل واحدة من هذه فالحشية مادة لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة. والصناعة المتكلفة بذلك الحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها. فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً: إما بخشب أصغر منه أو ألواح. ثم تتركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة. فهو في كل ذلك يحاول بصنعه إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص. والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران.

ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون، حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الأبواب والكراسي ومثل تهية القطع من الخشب بصناعة الخراط بحكم بريرها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالساتر فتبدو لمراى العين ملتحة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب. يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجني آتق ما يكون. وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان.

وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدرر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحة في الماء بقوامه وكلكله؛ ليكون ذلك الشكل أعون لها على مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة

الضرر في الحيطان. فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان له فيه حق. ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسرية في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو قناته لتضايق الجوار، أو يدعي بعضهم على جاره اعتلال حائطه وخشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو يحتاج إلى قسمة دار أو عرصه بين شريكين، بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال لمنعتها، وأمثال ذلك. ويغنى جميع ذلك إلا على أهل البصر بالبناء العارفين بأحواله المستدلين عليها بالمعاقد والقطم ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها. ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك. فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم. وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدول وقوتها.

فإننا قدما أن الصنائع وكماها، إنما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة الطالب لها. فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها. كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام. فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة الماهرة في البناء فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد.

وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله. وكذلك في جر الأثقال بالهندام، فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة تعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط فيتجمل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقل عند معاناة الرفع خفيفاً وتسمى آلة لذلك بالمخال، فيتم المراد من ذلك بغير كلفة، وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولين بين البشر وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب أنها من بناء الجاهلية. وأن أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك، وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه. تفهم ذلك. والله يخلق ما يشاء سبحانه.

بالخياطة المحكمة وصلأ أو حبكأ أو تبيتأ أو تفتيحأ على حسب نوع الصناعة.

وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستقنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً. وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها. وتفهم هذه في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه، لا طيباً ولا نساءً ولا غيظاً ولا خفأً، ولا يتعرض لصيد ولا شيء من عوائده التي تكونت بها نفسه وخلقه، مع أنه يفقدها بالموت ضرورة. وإنما يجيء كأنه وارد على المحشر ضارعاً بقلبه غلصاً لربه. وكان جزاءه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. سبحانه ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم إليك.

وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل. وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء. ولهذا يلبغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب. ولقدّم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام وهو أقدم الأنبياء. وربما ينسبونها إلى هرمس وقد يقال: إن هرمس هو إدريس. والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم.

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في إخراجها من رحمها وتهيئة أسباب ذلك. ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر. وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض. وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة. استمر فيها معنى الإعطاء والقبول كأن النساء تعطينا الجنين وكأنها تقبله. وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته والمدة التي قدر الله لكته وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من التزوج لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر. وربما مرق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان من الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم. وهذه كلها آلام يشد لها الوجع وهو معنى الطلق، فتكون القابلة معينة في ذلك

الحيوانية التي للسّمك تحريك الرياح. وربما أعينت بحركة المجاذيف كما في الأساطيل. وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع أصنافها؛ لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة تناسب في المقادير، إما عموماً أو خصوصاً، وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس.

ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة، فكان أوقليدوس صاحب كتاب «الأصول في الهندسة» نجاراً وبها كان يعرف. وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب «المخروطات» وميلوش وغيرهم. وفيما يقال: إن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان. وهذا الخبر وإن كان ممكناً أعني كونه نجاراً إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد. وإنما معناه والله أعلم بالإشارة إلى قدم التجارة؛ لأنه لم تصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها. فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

اعلم أن المعتدلين من البشر في معنى الإنسانية لا بد لهم من الفكر في الدفء كالفكر في الكن. ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد. ولا بد لذلك من إحام الغزل حتى يصير ثوباً واحداً، وهو النسيج والحياكة. فإن كانوا بادية اقتصروا عليه، وإن مالوا إلى الحضارة فصلوا تلك المنسوجة قطعاً يقدرون منها ثوباً على البدن بشكله وتعدد أعضائه واختلاف نواحيها. ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصلات حتى تصير ثوباً واحداً على البدن ويلبسونها. والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة هي الخياطة.

وهاتان الصنعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه، فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإحاماً في العرض وإحكاماً لذلك النسيج بالاتحام الشديد، فيتم منها قطع مقدرة: فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس. والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد، تفصل أولاً بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع

شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيراً. ومنه ما روي أن النبي ﷺ ولد مسروراً مختوناً واضعاً يديه على الأرض شاخصاً يبصره إلى السماء. وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك. وأما شأن الإلهام فلا ينكر. وإذا كانت الحيوانات العجم تختص بغرائب الإلهامات كالنحل وغيرها فما ظنك بالإنسان المفضل عليها. وخصوصاً من اختص بكرامة الله.

ثم الإلهام العام للمولودين في الإقبال على الشيء أوضح شاهد على وجود الإلهام العام لهم. فشان العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به. ومن هنا يفهم بطلان رأي الفارابي وحكماء الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنواع واستحالة انقطاع المكونات. وخصوصاً في النوع الإنساني، وقالوا: لو انقطعت أشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك لتوقفه على وجود هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها. إذ لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفصال لم يتم بقاؤه أصلاً. ووجود الصنائع دون الفكر متمتع لأنها ثمرته وتابعة له. وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه وذهابه إلى إمكان انقطاع الأنواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانياً لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تنذر في الأحقاب بزعمه، فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمواجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إنساناً ثم يقبض له حيوان يخلق فيه إلهاماً لتربيته والحنو عليه إلى أن يتم وجوده وفصاله. وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان. وهذا الاستدلال غير صحيح وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع لكن من غير ما استدلل به. فإن دليله مبني على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة. ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة ولا حاجة إلى هذا التكلف.

ثم لو سلمناه جدلاً فغاية ما ينبغي عليه اطراد وجود هذا الشخص يخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الأعجم. وما ضرورة الداعية لذلك؟ وإذا كان الإلهام يخلق في الحيوان الأعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قرناه أولاً. وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره، فكل الملهين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررت لك والله تعالى أعلم.

بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يجاذي الرحم من الأسافل تساق بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدي إلى معرفة عسره. ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرتة بمعاء. وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا تعدى مكان الفضيلة ولا تضر بمعاء ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي أو بما تراه من وجوه الاندمال.

ثم إن الجنين عند خروجه من ذلك المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانتشاء فرمياً تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فتتولد القابلة بالغمز والإصلاح حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سوياً. ثم بعد ذلك تراجع النفس وتخاذلها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين؛ لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلاً. ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية وهي فضلات فتعفن ويسري عفنها إلى الرحم فيقع الملاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في إعانة الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية إن كانت قد تأخرت ثم ترجع إلى المولود فتمرخ أعضائه بالأدهان والذرووات القابضة لتشدّه وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لثاته وتسعته لاستفراغ نطوف دماغه وتفرغه باللعوق لدفع السدد من معاء وتجفيفها عن الالتصاق. ثم تدأوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق وما لحق رحمها من ألم الانفصال، إذ المولود وإن لم يكن عضواً طبيعياً فحالة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل؛ فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع. وتدأوي مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج. وهذه كلها أدواء نجد هولاء القوابل أبصر بدوائها. وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفصال نجد من أبصر بها من الطبيب الماهر. وما ذلك إلا لأن بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن إنساني بالقوة فقط. فإذا جاوز الفصال صار بدنًا إنسانياً بالفعل، فكانت حاجته حيثئذ إلى الطبيب أشد. فهذه الصناعة - كما تراه - ضرورة في العمران للنوع الإنساني، لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها.

وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة، إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقاً للعادة كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة. فأما

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدها، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم. وعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية كما قال الله في الحديث الجامع للطب كما ينقل بين أهل الصناعة وإن طعن فيع العلماء وهو قوله: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة».

فأما قوله: «المعدة بيت الداء» فهو ظاهر.

وأما قوله «الحمية رأس الدواء» فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام. والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية.

وأما قوله «أصل كل داء البردة» فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول.

وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دماً ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم، ثم تأخذه النامية فينقلب لحمًا وعظمًا. ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير جزءاً بالفعل من البدن، وتفسيره أن الغذاء إذا حصل في الفم ولاكته الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخاً يسيراً وقلبت مزاجه بعض الشيء، كما نراه في اللقمة إذا تناولتها طعاماً ثم أجدها مضغاً فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله إلى الكبد وترسل ما رسب منه في المعاء ثقلًا ثم ينفذ إلى المخرجين. ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دماً عيطاً وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء. وترسب منه أجزاء بايسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم. ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول، ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك، فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لحمًا ثم غليظه عظاماً. ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك

فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحماً.

ثم إن أصل الأمراض ومعظمها هي الحميات. وسببها أن الحار الغريزي قد يضعف عن إتمام النضج في طبخه في كل طور من هذه، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج، وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول، فيشتغل به الحار الغريزي ويترك الأول بحالة أو يتوزع عليهما فيقصّر عن تمام الطبخ والنضج. وترسله المعدة كذلك إلى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنضاجه. وربما بقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة. وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو، فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن اقتدر على ذلك. وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتتزايد مع الأيام. وكل ذي رطوبة من الممزجات إذا لم يأخذها الطبخ والنضج يعفن، فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط. وكل متعفن فقيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الإنسان بالحمى.

واعتبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزيل إذا تعفن أيضاً، كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها. فهذا معنى الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض وأصلها كما وقع في الحديث. ولهذه الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ثم تناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه. وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا المرض وغيره، وأصله كما وقع في الحديث، وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص، فيتولد عنه مرض في ذلك العضو أو تحدث جراحات في البدن: إما في الأعضاء الرئيسة أو في غيرها. وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له. هذه كلها جماع الأمراض، وأصلها في الغالب من الأغذية وهذا كله مرفوع إلى الطبيب.

ووقع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار أكثر. لخصب عيشهم وكثرة مآكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعدم توقيتهم لتناولها. وكثيراً ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه، رطباً وباساً في سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع. فرما عددنا في اللون الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب. وربما يكون بعيداً عن ملاءمة البدن وأجزائه. ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات. والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها لأن الحار

فيكون خطه قاصراً وقراءته غير نافذة. ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً لاستحكام الصنعة فيها. كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين متصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتمد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه.

وإنما أتى هذا من كمال الصنائع وفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال، وليس الشأن في تعليم الخط بالأندلس والمغرب كذلك في تعلم كل حرف بانفراده، على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم، وإنما يتعلم بمحاكاة الخط من كتابة الكلمات جملة. ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له، إلى أن يحصل له الإجابة ويتمكن في بنائه الملكة؛ فيسمى مجيداً. وقد كان الخط العربي بالغاً بماله من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التباينة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري. وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسبة التباينة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخط عندهم من الإجابة كما كان عند التباينة لقصور ما بين الدولتين. فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر. ويقال: إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال: حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدره. وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إباد أهل العراق لقول شاعرهم:

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد؛ لأن إباداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة. والخط من الصنائع الحضرية. وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها، فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التباينة وحمير هو الأليق من الأقوال، ورأيت في كتاب «التكملة» لابن الأبار عند التعريف بابن فروخ القيرواني الفاسي الأندلسي من أصحاب مالك رضي الله عنه واسمه عبد الله بن فروخ بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم. عن أبيه قال: قلت لعبد الله بن عباس: يا معشر قريش! خبروني عن هذا الكتاب العربي، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ يجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افرق مثل الألف واللام والميم والنون؟ قال: نعم. قلت: وعن أخذوه؟ قال: من حرب بن أمية. قلت: وعن أخذه حرب؟ قال:

الغريزي في الهضم. ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم أثراً فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة.

وأما أهل البدو فماكولهم قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة. وربما يظن أنها جيلة لاستمرارها. ثم الأدم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة. وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن. وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا أهليين، أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواعن.

ثم إن الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات أو مهنة أنفسهم في حاجاتهم، فيحسن بذلك كله الهضم ويوجد ويفقد إدخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد عن الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب. ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه. وما ذاك إلا للاستغناء عنه إذ لو احتيج إليه لوجد، لأنه يكون له بذلك في البدو معاش يدعوه إلى سكناه ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

الفصل الثلاثون

في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس. فهو ثاني رتبة عن الدلالة اللغوية، وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان. وأيضاً فهي تطلع على ما في الضمائر وتؤدي بها الأغراض إلى البلد البعيد فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤونة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه في علومهم وأخبارهم، فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع. وخرجوها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغمي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة. إذ هو من جملة الصنائع. وقد قدما أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون، ومن قرأ منهم أو كتب

زيادة الألف في: لا أذبحه: إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع؛ وفي زيادة الياء في بأيديته تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادته الخط. وحسبوا أن الخط كمال فترهههم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجابة من رسمه وذلك ليس بصحيح.

واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر. والكمال في الصنائع إضائي وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود على أسباب المعاش وبموجب العمران والتعاون عليه لأجل دلالة على ما في النفوس. وقد كان النبي ﷺ أمياً وكان ذلك كمالاً في حقه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها. وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية، فإن الكمال في حقه وتنزهه عنها جملة بخلافنا.

ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلموه وتداولوه، فترقت الإجابة فيه واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان إلا أنها كانت دون الغاية. والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد.

ثم انتشرت العرب في الأقطار والممالك وافتتحوا إفريقية والأندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية، وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه بالكوفة. في الميل إلى إجابة وجمال الرونق وحسن الرواء. واستحكمت هذه المخالفة في الأمصار إلى أن رفع رايتها ببغداد علي بن مقله الوزير. ثم تلاه في ذلك علي بن هلال. الكاتب الشهير بابن البواب. ووقف سند تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها.

وبعدت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة حتى انتهى إلى المبانية. ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة في إحكام رسومه وأوضاعه، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولي علي العجمي. ووقف سند تعليم الخط عليهم وانتقل ذلك إلى مصر، وخالفت طريقة العراق بعض الشيء ولقنها العجم هنالك، فظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مبانية.

من عبد الله بن جدعان. قلت: ومن أخذه عبد الله بن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار. قلت: ومن أخذه أهل الأنبار؟ قال: من طرائق طراً عليه من أهل اليمن. قلت: ومن أخذه ذلك الطرائق؟ قال: من الخلدجان بن القسم كاتب الوحي لهود النبي عليه السلام. وهو الذي يقول:

أني كل عام سنة تحدثونها وراي على غير الطريق يعبر الموت خير من حياة تسبنا بها جرهم فيمن يسب ومخير

انتهى ما نقله ابن الأبار في كتاب التكملة.

وزاد في آخره: حدثني بذلك أبو بكر بن أبي حمير في كتابه عن أبي بحر بن العاص عن أبي الوليد الوقشي، عن أبي عمر الظلمنكي ابن أبي عبد الله بن مفرح. ومن خطه نقلته عن أبي سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان، عن يحيى بن محمد بن حشيش بن عمر بن أيوب المعافري التونسي، عن بهلول بن عبيدة الحمي، عن عبد الله بن فروخ. انتهى.

وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا ينعنون من تعلمها إلا بإذنههم. ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا يجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، فلا تكون عكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر. فكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريباً من كتابتهم لهذا العهد أو تقول: إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة؛ لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول. وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر، فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجابة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجابة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أئيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اتقى التابعون من السلف رسمهم فيها تركاً بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ وخير الخلق من بعده المتلقون لوجيه من كتاب الله وكلامه. كما يقتضى لهذا العهد خط ولي أو عالم تركاً ويتبع رسمه خطأ أو صواباً. وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبه، فاتبع ذلك وأثبت رسماً ونبه العلماء بالرسم على مواضعه.

ولا تلفتني في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا يحكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه. ويقولون في مثل

الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول، والله يحكم لا معقب لحكمه.

وللأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط على روي الرأى يذكر فيها صناعة الخط وموادها من أحسن ما كتب في ذلك. رأيت إثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب ليتنفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة. وأولها:

يسا من يريد إجادة التحرير
إن كان عزمك في الكتابة صادقاً
أعد من الأتلام كل مثقف
وإذا عمدت لبرية فتوخه
انظر إلى طرفه فاجعل برية
واجعل لجلفته قواماً عادلاً
والشئ وسطه ليقتى برية
حتى إذا اتقنت ذلك كله
لا تظمن في أن أبوح بسر
لكن جملة ما أقول بأنه
والشئ دواتك بالدخان مدبراً
وأضف إليه مفرة قد صولت
حتى إذا ما خمرت فاعمد إلى
فاكبه بعد القطع بالمعاصر كي
ثم اجعل التمثيل ذابك صابراً
يبدأ به في اللوح متضيا له
لا تمجعلن من الردى تحتطسه
فالأمير يصعب ثم يرجع هيناً
حتى إذا أدركت ما أملت
فاشكر إلهك واتبع رضوانه
وارغب لكفك أن تحبط بناتها
فجميع فعل المرء يلقاه غداً

ويروم حسن الخط والتصوير
فارغب إلى مولاك في التيسير
صلب يصوغ صناعة التجبير
عند القياس بأوسط التقدير
من جانب التدقيق والتخضير
خلواً عن التطويل والتقصير
من جانبيه مشاكل التقدير
فاللفظ فيه جملة التدبير
إنني أضن بسر المستور
ما بين تحريف إلى تدوير
بالخل أو بالحصرم المعصور
مع أصفر الزرنيخ والكافور
الورق النقي الناعم المخبور
ينأى عن التثقيب والتغير
ما أدرك المأمول مثل صبور
عزماً تجرده عن التثمير
في أول التمثيل والتسطير
ولرب سهل جاء بعد عسير
أضحيت رب مسرة وجبور
إن الإله يجيب كل شكور
خيراً تخلفه بدار غرور
عند الشقاء كتابه المنشور

واعلم بأن الخط بيان عن القول والكلام، كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة.

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وهو يشتمل بيان الأدلة كلها. فالخط المجرد كماله أن تكون دلالة واضحة، بإبانة حروفه المتواضعة وإجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدة متميز عن الآخر. إلا ما اصطلاح عليه الكتاب من إيصال

وكان الخط الإفريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد. يقرب من أوضاع الخط الشرقي وتميز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد. وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر. وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم واتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملكية بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه.

ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة، فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد وللخط بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها، وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقتها حسناً وحذق فيها دربة وكتابةً وأخذها قوانين علمية فتجى أحسن ما يكون.

وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أسم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللمترية إلى هذا العهد. وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفى عليه ونسي خط القيروان والمهدي بنسيان عوائلهما وصنائعهما. وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس. وبقي منه رسم بيلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمسوا بجوارهم. إنما كانوا يقدون على دار الملك بتونس فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترفع بتراجع العمران، نقص حيثن حال الخط وفسدت رسومه وجعل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران. وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر موهها، وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً واستعمالهم إياهم سائر الدولة. ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره. كأنه لم يعرف. فصارت الخطوط بإفريقية والمغربين ماثلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا اتسخت فلا فائدة تحصل لمصفحتها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من

الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التكاليف صدر الملة كما نذكره. وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والإتقان.

ثم طما بحر التكاليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك. فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغذ وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه. واتخذته الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية. وبلغت الإجابة في صناعته ما شاءت. ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها؛ لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها. وما لم يكن تصحيح المتن بإسنادها إلى مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا. وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق.

حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثة في الرواية على هذه فقط، إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتخفضت زبدة في تلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة. وصار القصد إلى ذلك لغواً من العمل. ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثة وسواها من كتب الفقه للفتيا، وغير ذلك من الدواوين والتكاليف العلمية. واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم، والإسناد إليهم. وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك. ولهذا نجد الدواوين المنسوخة لذلك العهد في أنظارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة. ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك. وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضمانة، ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانتقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداءة أهله وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط اليدوية ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيح، فتستغل على متصفحتها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر.

وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذاهب، وإنما تلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه. وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الرواية

حرف الكلمة الواحدة بعضها ببعض. سوى حروف اصطلاحوا على قطعها، مثل الألف المتقدمة في الكلمة، وكذا الراء والزاي والدال والذال وغيرها، بخلاف ما إذا كانت متأخرة. وهكذا إلى آخرها. ثم إن المتأخرين من الكتاب اصطلاحوا على وصل كلمات، بعضها ببعض، وحذف حروف معروفة عندهم، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة، كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم لكثرة موارد الكتابة عليهم، وشهرة كتابتهم وإحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم؛ فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوه، وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي، لأنهما بمنزلة واحدة من عدم التواضع عليه. وليس بعذر في هذا القدر، إلا كتاب الأعمال السلطانية في الأموال والجيوش، لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس فإنه من الأسرار السلطانية التي يجب إخفاؤها، فيبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم. ويصير بمثابة المعنى. وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطبيب والفواكه والطيور والأزهار، ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم بالكتابة. وربما وضع الكتاب للعثور على ذلك، وإن لم يضعوه أولاً، قوانين بمقاييس استخراجها لذلك بمداركهم يسمونها فك المعنى. وللناس في ذلك دواوين مشهورة. والله العليم الحكيم.

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط. وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وترايع الحضارة. وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس، إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما. فكثر التكاليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت. وجاءت صناعة الوراقين المعانين للاتساع والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران. وكانت السجلات أولاً لاتساع العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات، والصكوك في

بنغمة حادة ويجري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأنجاش بالأصابع مثل ما يجري في الشبابة.

ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع. يتسع إلى أن يكون انقراج خرجه في مقدار دور الكف في شكل بري القلم. وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه فيخرج الصوت ثخيناً دويماً وفيه أنجاش أيضاً معدودة. وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب فيكون ملذوذاً.

ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها: إما على شكل قطعة من الكرة مثل البريط والرباب أو على شكل مربع كالفانوس توضع الأوتار على بساطها مشدودة في رأسها إلى دسر جائلة ليتأتى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها. ثم تقرر الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكتندر. ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر. واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة. وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقع متناسب يحدث عنه التناذب بالمسموع.

ولتين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء. وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم، والمحسوس إنما تدرك منه كيفية. فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة، وإذا كانت منافية له منفرة كانت مؤلمة. فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها، وكذا الملائم من الملموسات، وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك وإليه تؤديه الحاسة. ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي.

وأما المراثي والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها. فإذا كان المراثي متناسباً في أشكاله وتحاطبته التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك. كان ذلك حيثند مناسباً للنفس المدركة فتلتذ بإدراك ملائمتها، ولهذا تجد العاشقين المستهترين في الحية يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب. وفي هذا سر تفهمه إن كنت من أهله وهو اتحاد المبدأ وإن كان ما سواك إذا نظرت وتأملته رأيت بينك

بمقاصده. ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا إثارة خفية بالأنحاء وهي على الاضمحلال فقد كاد العلم يقطع بالكلية من المغرب. والله غالب على أمره. وبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على متبغيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد. إلا أن الخط الذي بقي من الإجابة في الانتساخ هنالك إنما هو للجمع وفي خطوطهم. وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشد. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة. ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات. وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب، فيكون: صوت نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزء من أحد عشر من آخر. واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع بل للملذوذ تركيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه، وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ في آلات تتخذ لذلك فتزيدها لذة عند السماع.

فمنها لهذا العهد بالمغرب أصناف منها المزمار ويسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بأنجاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت. ويخرج الصوت من جوفها على سداه من تلك الأنجاش ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأنجاش وضماً متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلذ السمع بإدراكها للتناسب الذي ذكرناه.

ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي وهو شكل القصبة منحوتة الجانين من الخشب جوفاء من غير تدوير لأجل اتلافها في قطعتين منفوذتين كذلك بأنجاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل، فينفذ النفخ بواسطتها إليها وتصوت

أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا. وتقديم التلاوة متعين قراراً من تغيير الرواية المتقولة في القرآن، فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المتعبر في القرآن بوجه، وإنما المراد من اختلافهم التلحين البسيط الذي يهتدي إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه، فيردد أصواته ترديداً على نسب يدرکہا العالم بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك. هذا هو محل الخلاف. والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى؛ لأن القرآن هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده وليس مقام التذاذ بإدراك الحسن من الأصوات. وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كما في أخبارهم.

وأما قوله ﷺ: «لقد أوتي مزامراً من مزامير آل داود» فليس المراد به التردد والتلحين، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة في مخارج الحروف والنطق بها.

وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي، ثم إلى الكمالي، وتفننوا فيه، فتحدث هذه الصناعة، لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمزل وغيره فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم فتنتاً في مذاهب المذوذات. وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاهر في أمصارهم ومدنهم. وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به، حتى لقد كان للملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة، ولهم مكان في دولتهم، وكانوا يحضرون مشاهدتهم وجماعهم ويغنون فيها. وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من أفاقهم. وملكة من ممالكهم.

وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والسكنة. ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإدادة، لا يتعطف على الآخر. ويسمونه البيت. فيلثم الطبع بالتجزئة أولاً ثم بتناسب الأجزاء في المقاطع والمبادئ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها. فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب. وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم وعكاً لقرائتهم في إصابة المعاني وإجادة الأساليب. واستمروا على ذلك.

وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء والمتحرك والسكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى. إلا أنهم لم يشعروا بما سواه؛ لأنهم حيث لم يتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة. وكانت البداوة أغلب لخلهم. ثم

وبينه اتحاداً في البداية. يشهد لك به اتحادكما في الكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقول الحكماة. فتود أن تمتاز بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التي هي اتحاد المبدأ والكون. ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى مدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني، فكان إدراكه للجمال والحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته، فيلهج كل إنسان بالحسن في الرثي أو المسموع بمقتضى الفطرة. والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة. وذلك أن الأصوات لها كفيات من المعس والجهر والرخاوة والشددة والقلقلة والضغط وغير ذلك. والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن.

فأولاً: أن لا يخرج من الصوت إلى مدّه دفعة بل بتدرج. ثم يرجع كذلك، وهكذا إلى المثل، بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين. وتأمل هذا من استقباح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فإنه من بابه.

وثانياً: تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه، على حسب ما يكون التنقل متناسباً على ما حصره أهل صناعة الموسيقى. فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة لذوذة. ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعين عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك. وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار. وكثير من القراء بهذه المثابة يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم. ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطبايع توافق صاحبها في العمل به إذا علم.

وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم. وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه. وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظه إذ صناعة الغناء مبنية للقرآن بكل وجه؛ لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف من حيث إتباع الحركات في مواضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره، وأمثال ذلك. والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين، فاعتبار

فصرفوه إلى المغرب غيرة منه، فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس. فبالغ في تكريمه وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه مكان. فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف. وطما منها بإشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضايرتها إلى بلاد العدو بإفريقية والمغرب. وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صباية على تراجع عمرانها وتناقص دولها. وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع؛ لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح. وهو أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجع. والله أعلم.

الفصل الثالث والثلاثون

في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة. وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولاً، ثم ما يكتب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلاً عضواً فتكون ذاتاً روحانية وتستكمل حيث وجدوها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيد عقلاً فريداً.

والصنائع أبدأ يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة. فلها كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً والملكات الصناعية تفيد عقلاً والحضارة الكاملة تفيد عقلاً؛ لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها. وهذه كلها قوانين تنظم علومها فيحصل منها زيادة عقل.

والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك؛ لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع. وبيانه أن في الكتابة انتقالاً من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، فهو يتقل أبدأ من دليل إلى دليل، ما دام ملتبساً بالكتابة وتعود النفس ذلك دائماً. فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكتب به العلوم المجهولة فتكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به مزيد فطنة وكيس في

تغنى الحداثة منهم في حداة إيلهم والفتيان في قضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترغوا. وكانوا يسمون الترم إذا كان بالشعر غناء، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغييراً بالغين المعجمة والباء الموحدة. وعللها أبو إسحاق الزجاج بأنها تذكر بالغابر وهو الباقي أي بأحوال الآخرة. وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيقي آخر كتاب العمدة وغيره. وكانوا يسمونه السناد. وكان أكثر ما يكون منهم، في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فطرب ويستخف الحلوم. وكانوا يسمون هذا المزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها ولا يبعد أن تنظن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع. ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم.

فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضايرة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك شيئاً ما. ولم يكن المألوف عندهم إلا ترجيع القراءة والتزم بالشعر الذي كان ديدنهم ومذهبهم. فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ. وافتقر المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالين للعرب وغنوا جميعاً بالعيان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات ولحنوا عليها أشعارهم.

وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب وحائر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره. وما زالت صناعة الغناء تسدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد. وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه بهذا العهد وأمعنوا في اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص في الملابس والقضبان والأشعار التي يترنم بها عليه. وجعل صفاً وحده، واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقيية يلبسها النسوان ويمكين بها امتطاء الخيل فيكرونها ويقرون ويتشاقفون، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو.

وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها. وكان للموصلين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد

الأمور لما تعودوه من ذلك الانتقال. ولذلك قال كسرى في كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال: ديوانه، أي: شياطين أو جنون. قالوا: وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب؛ فإن في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه إلى استدلال كثير فيبقى متعوداً للاستدلال والنظر وهو معنى العقل. واللّه أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون.

الفصل الثاني

في أن تعليم العلم من جملة الصنائع

وذلك أن الحنق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بمحصل ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحنق في ذلك الفن المتناول حاصلًا. وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي. لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيتها مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علماً وبين العالم النحرير.

والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي. والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالخساب. والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر إلى التعليم. ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة يفتقر إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجبل. ويدل أيضاً على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه. فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم، إذ لو كان من العلم لكان واحداً عند جميعهم.

ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين، وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم. والعلم واحد في نفسه. وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه. وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر. وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرانهما، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحر زاخرة. ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة. فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً كان في دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منها. ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداءة الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل.

ويعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة، فأدرك

الباب السادس

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال

وفيه مقدمة ولواحق

فالمقدمة في الفكر الإنساني الذي تميز به البشر عن الحيوانات واهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والنظر في معبوده. وما جاءت به الرسل من عنده، فصار جميع الحيوانات في طاعته وملك قدرته وفضله به على كثير خلقه.

الفصل الأول

في أن العلم والتعليم طبعي في العمران البشري

وذلك أن الإنسان قد شاركه جميع الحيوانات في حيوانيته من الخس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك. وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه. فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتقر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع. ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راعياً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه. ثم إن فكره ونظيره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له، فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصصاً. وتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويحيي التعليم من هذا. فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبعي في البشر. والله أعلم.

لتناقص عمران المسلمين بها منذ مشين من السنين. ولم يبق من رسم العلم عندهم إلا فن العربية والأدب. اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فاغتنظ بمحفظة. وأما الفقه بينهم فرسم خلر وأثر بعد عين. وأما العقليات فلا أثر ولا عين. وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتقلب العدو على عامتها إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها. والله غالب على أمره.

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة ومحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه. وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن الله تعالى قد أдал منها بأمصار أعظم من تلك. وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان، وما وراء النهر من المشرق، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب، فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً. فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع. حتى إنه ليلظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كياساً بفطرتهم الأولى. وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب. ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك.

وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم إلا الأقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع، فإن الأمزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر، وإنما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع، وتزیده الآن شرحاً وتحقیقاً. وذلك أن الحضرة لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم. فلهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه وتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى. وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم. ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى وينتهي بها العقل بسرعة الإدراك للمعارف.

ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الإنسية والحيوانات العجم من الماشي، والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها، ويعجز

تلميذ الإمام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم. وحذق في العقليات والتقليدات ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن. وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي. كان ارتحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيداً فأخذ عنهما أهل تونس. واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلاً بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام. شارح بن الحاجب وتلميذه، وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه. فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد إلا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم.

ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشد إلى المشرق وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم. وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والتقليدات. ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد. ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها. وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشد إلى تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها. وتلميذه لهذا العهد بيجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل.

وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم. وأيسر طرق هذه الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مراميها. فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة. فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاض أو ناظر أو علم وما اتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سندهم. وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ من سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك. وما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المينة لسكنى طلبية العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول ميثاقه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها فطال أمدوا في المغرب لهذه العصور لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك. وأما أهل الأندلس.

فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم

أهل المغرب عن فهمها فضلاً عن تعليمها.

واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمراتها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة. كيف زخرت فيها بحار العلم وتفتتوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عمراتها وابدع سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم. وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام. ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمراتها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفتتت ومن جملتها تعليم العلم. وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع هذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا. وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته. فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاً لولدتهم ينظر عليها أو يصيب منها مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير والصلاح والتماس الأجور في المقاصد والأنفعال. فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرائتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفتت بها أسواق العلوم وزحرت بحارها. والله يخلق ما يشاء.

الفصل الثالث

في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران

وتعظم الحضارة

والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع. وقد كنا قدّمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمراتها في الكثرة والقلّة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة؛ لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع. ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتعمدة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو، كما قدمناه، ولا بد له من الرحلة إلى الأمصار المستبشرة شأن الصنائع في أهل البدو.

الفصل الرابع

في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين:

صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عن وضعه.

والأول: هي العلوم الحكيمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأبحاثها وواجه تعليمها حتى يقفه نظره ويجه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر.

والثاني: هي العلوم النقليّة الرضعية وهي كلها مستتلة إلى

ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال: «ألم آتكم بها يرضاه نقية؟ واللّه لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أتباعي».

ثم إن هذه العلوم الشرعية الثقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا شيء فوقها وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون، فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق. وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم. واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسيماً نذكره الآن عند تعدد هذه الفنون. وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانتطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله. وما أدري ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجرّاة من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم. والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد ويده التوفيق والإعانة.

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف. وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة روه عن رسول الله ﷺ على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أداؤها. وتوكل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأداؤها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجمل الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة. وربما زيد بعد ذلك قراءات آخر لحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل. وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها. وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط. وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن. وأباه الأكثر وقالوا، بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها، كالمدة والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح.

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت، فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلماً منفرداً وتناقله الناس بالمشرق والأندلس

الخبر عن الواضع الشرعي. ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول؛ لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي. إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو نقلي فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه.

وأصل هذه العلوم الثقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهياؤها للإفادة. ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم الثقلية كثيرة؛ لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق فلا بد من النظر في الكتاب: ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير ثم بإستاد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات، ثم بإستاد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم ويعمل ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث. ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيدنا العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه. وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه.

ثم إن التكليف: منها بدني، ومنها قلبي، وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد بما لا يعتقد. وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر. والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام.

ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف: فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها.

وهذه العلوم الثقلية كلها غنصة بالملة الإسلامية وأهلها، وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها. وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها. وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظور. فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن. قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلها وإلهكم واحد» ورأى النبي ﷺ في يد عمر رضي الله عنه

وأما التفسير فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه. وكان ينزل جُملاً جُملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع. ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له. وكان النبي ﷺ هو المين لذلك كما قال تعالى: ﴿لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فكان النبي ﷺ بين الجمل وعيز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها مثقلاً عنه. كما علم من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أنها نعي النبي ﷺ وأمثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم. ولم يزل ذلك متناً قلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقل الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك إلى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثالهم من المفسرين، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار.

ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب فتوسمى ذلك وصارت تلقى من كتب أهل اللسان. فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن؛ لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم. وصار التفسير على صنفين:

تفسير نقلي مستند إلى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول ومقاصد الآي. وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا، إلا أن كتبهم ومثولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية. فإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليفة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بداية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليفة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه

في جيل بعد جيل. إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العامريين وكان معتبياً بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته، فكان سهمه في ذلك وافراً. واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً وبالقرءات خصوصاً. فظهر لعهد أبي عمرو الداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها. وانتهت إلى روايته أسانيداً وتعددت تأليفه فيها. وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب «التيسير» له. ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم بن فيره من أهل شاطبة، فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف (أ ب ج د) ترتيباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها. فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً وعنى الناس بحفظها وتلقيها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أوصار المغرب والأندلس.

وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضاً، وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية؛ لأن فيه حروفاً كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في «بأييد» وزيادة الألف في «لا أذبحه» و«لا أوضعوا» والواو في «جزاؤ الظالمين» وحذف الألفات في مواضع دون أخرى وما رسم فيه من التاءات ممدوداً. والأصل فيه مرسوم على شكل الماء وغير ذلك، وقد مر تحليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط. فلما جاءت هذه مخالفة لأوضاع الخط وقانونه احتيج إلى حصرها، فكتب الناس فيها أيضاً عن كتبهم في العلوم. وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتاباً من أشهرها: كتاب «المقنع» وأخذ به الناس وعولوا عليه. ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روي الرء وولع الناس بحفظها. ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى، ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالى مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشتهر بمحمل علومه ورواية كتبه، ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على «المقنع» خلافاً كثيراً، وعزاه لناقله. واشتهرت بالمغرب، واقتصر الناس على حفظها. وهجروا بها كتب أبي.... داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم.

التفسير:

الفصل السادس

في علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة؛ لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتحقيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل الله لهم بها. قال تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ ومعرفة الناسخ والمنسوخ وإن كان عاماً للقرآن والحديث إلا أن الذي في القرآن منه اندرج في تفاسيره وبقي ما كان خاصاً بالحديث راجعاً إلى علومه. فإذا تعارض الخبران بالنفي والإثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ. وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزهري: أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه. وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة.

ومن علوم الحديث النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط؛ لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله ﷺ فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواية الحديث بالعدالة والضبط. وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين لتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة ويكون لنا ذلك دليلاً على القبول أو الترك.

وكذلك مراتب هؤلاء القلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحداً واحداً. وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وإسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت إلى طرفين، فحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل. ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن. ولهم في ذلك، ألفاظ اصطلاحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة. مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم. ويروى على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو الوفاق. ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناوله أو إجازة، وتفاوت رتبها وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد.

ثم أتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما

وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتثلت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض أخباراً موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلناه عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم. لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ. فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحصيل وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها ونحوى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى. وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق.

والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول إذ الأول هو المقصود بالذات. وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعات. نعم قد يكون في بعض التفاسير غالباً.

ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير كتاب «الكشاف» للزخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فإتبع بالحججاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في أي القرآن من طرق البلاغة. فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للحججاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فليقتسم مطالعته لغرابية فنونه في اللسان.

ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريث من عراق العجم شرح فيه كتاب الزخشري هذا وتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم.

يناسب ذلك. هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه.

ليكون ذلك إماماً للسنّة والعمل.

وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات كتب الحديث في السنّة فإنها، وإن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب، ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والنسوخ فيجعل فناً برأسه وكذا الغريب. وللناس فيه تآليف مشهورة ثم المؤلف والمختلف.

وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا. ومن فحول علمائهم وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر عاصته. وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة، وتلاه يحيى الدين النووي يمثل ذلك. والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما تحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة. وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدمين إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفائتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنّة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم، وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدها إلى مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام لتتصل الأسانيد محكمة إلى متنها. ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمس إلا في القليل.

فأما البخاري وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغفلوا منحه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجلها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم. ولذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في تراجمه؛ لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب. وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطلان وابن المهلب وابن التين ونحوهم. ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون: شرح كتاب البخاري دين على الأمة يعنون أن أحداً من علماء الأمة. لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار.

وأما «صحيح مسلم» فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبوا عليه واجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح عما لم يكن على شرطه، وأكثر ما وقع له في التراجم. وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحاً وسماه «المعلم

وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر، والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم، وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط، وتحافهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه، ثم أصحابه مثل الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، وابن وهب وابن بكير والقعني ومحمد بن الحسن ومن بعدهم الإمام أحمد بن حنبل وفي آخرين من أمثالهم.

وكان علم الشريعة في مبدأ هذا الأمر نقلاً صرفاً شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها.

وكتب مالك رحمه الله كتاب «الموطأ» أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه. ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة. وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين، وقد يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها.

وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنّة على أبوابها في «مسنده الصحيح» يجمع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين. واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال: إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين. منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب.

ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فآلف «مسنده الصحيح». هذا فيه جذو البخاري. في نقل الجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد ويوبه على أبواب الفقه وتراجمه. ومع ذلك فلم يستوعب الصحيح كله. وقد استدرك الناس عليهما في ذلك.

ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل، إما من الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو معروف، وإما من الذي دونه من الحسن وغيره

روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي. وقلت من أجلها روايته فقل حديثه. لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً فحاشاه من ذلك. ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعميل عليه واعتباره رداً وقبولاً. وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد، وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم.

وروى الطحاوي فأكثر وكتب «مسنده» وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين؛ لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابهما مجمع عليها بين الأمة كما قالوه. وشروط الطحاوي غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره، فلهذا قدم «الصحيحان» بل وكتب السنن المعروفة قدمت عليه لتأخر شروطه عن شروطهم. ومن أجل هذا قيل في «الصحيحين» بالإجماع على قبولهما من جهة الإجماع على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها. فلا تأخذك ريبة في ذلك، فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخرج الصحيحة لهم. والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور.

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه. وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم. ولا بد من وقوعه ضرورة. فإن الأدلة من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاءات ألفاظها بكثير من معانيها - وخصوصاً الأحكام الشرعية - اختلاف بينهم معروف.

وأيضاً فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً. فالأدلة من غير النصوص تختلف فيها وإيضاً، فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص. وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما، وهذه كلها مشاركات للخلاف ضرورية الوقوع. ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم. ثم إن الصحابة كلهم أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم.

بفوائد مسلم» اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وغمه وسماه «إكمال المعلم» وتلاهها محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاء شرحاً وافياً.

وأما كتب السنن الأخرى وفيها معظم مآخذ الفقهاء فأكثر شرحها في كتب الفقه إلا ما يختص بعلم الحديث، فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علم الحديث وموضوعاتها والأسانيد التي اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة.

واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها، تنزلها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها. ولم يبق طريق في تصحيح ما يصح من قبل. ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه يفتنون إلى أنه قد قلب عن وضعه، ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخاري حين ورد على بغداد، وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قبلوا أسانيداً فقال: «لا أعرف هذه»، ولكن حدثني فلان». ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن إلى سنده وأقروا له بالإمامة.

واعلم أيضاً أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة والإقلال، فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال: بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها، ومالك رحمه الله إنما صح عنده ما في كتاب «الموطأ» وغابته ثلثمائة حديث أو نحوها. وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك. وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فلماذا قلت روايته. ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة. ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها. وإنما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترض فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الأكثر فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف في الطرق.

هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق؛ لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر. والإمام أبو حنيفة إنما قلت

كتبه بالإغفال والترك حتى إنها يحظر بيعها بالأسواق، وربما تمزق في بعض الأحيان. ولم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز.

فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق، شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصاً مالك والشافعي.

وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة؛ لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتنائهم. وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي ﷺ الأخذين ذلك عنه، وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية. وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره؛ لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل للأمة.

واعلم أن الإجماع إما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد. ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى، وإما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات الله وسلامه عليه. وضرورة اقتنائهم بعين ذلك يعم الأمة ذكرت في باب الإجماع لأنها أليق الأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع. إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستثنين إلى مشاهدة من قبلهم. ولو ذكرت المسألة في باب فعل النبي ﷺ وتقريره، أو مع الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق بها.

ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المظلي الشافعي رحمه الله تعالى. رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب، وخالف مالكاً رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه. وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله. وكان من عليه المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر. ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم. وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم. ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يؤتق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين. وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من

وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي ﷺ أو من سمعه منهم من عليتهم. وكانوا يسمون لذلك القراء، أي الذين يقرأون الكتاب؛ لأن العرب كانوا أمة أمية. فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ. وبقي الأمر كذلك صدر الأمة. ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء. وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز. وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه، فلذلك قيل أهل الرأي. ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده.

ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية. وجعلوا مدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع وردوا القياس الجلي والعلّة المنصوصة إلى النص، لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها. وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما. وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة. وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول وأهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوا جانب الإنكار والقدح. فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم ولا نروى كتبهم ولا أثر بشيء منها إلا في مواطنهم. فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك. ولكل منهم كتب وتأليف وآراء في الفقه غريبة. ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمتهم وإنكار الجمهور على متحله ولم يبق إلا في الكتب المجلدة، وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم، فلا يحلو بطلان ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه، وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بتلقيه العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين.

وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم. وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين، فنقم الناس ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجاناً وإنكاراً، وتلقوا

إلى الظهور بينهم ورجع إليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام، فعاد إلى أحسن ما كان ونفقت سرقه، واشتهر فيهم محيي الدين النوروي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الأيوبية بالشام وعز الدين بن عبد السلام أيضاً. ثم ابن الرفة بمصر وتقي الدين بن دقيق العيد، ثم تقي الدين السبكي بعدهما إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني، فهو اليوم كبير الشافعية بمصر، لا بل كبير العلماء من أهل العصر.

وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس. وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم، فائقصروا على الأخذ عن علماء المدينة. وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده. فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته. وأيضاً فالبدواة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البدواة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم، ولم يأخذ تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب. ولما صار مذهب كل إمام علماً خصوصاً عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذاهب إمامهم. وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا.

وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد. وأهل المغرب جميعاً مقلدون لمالك رحمه الله. وقد كان تلاميذه افرقوا بمصر والعراق. فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته مثل ابن خويزمنداد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الأبهري والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم. وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين وطبقتهم، ورحل من الأندلس يحيى بن يحيى الليثي، ولقي مالكا. وروى عنه كتاب الموطأ، وكان من جملة أصحابه. ورحل بعده عبد الملك بن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الأندلس ودون فيه كتاب الواضحة. ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية. ورحل من إفريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً. ثم انتقل إلى مذهب مالك. وكتب علي

التلاعب ولم يبق إلا نقل مذاهبهم. وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية، لا محصول اليوم للفقه غير هذا.

ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود منكوص على عقبه مهجور تقليده، وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة. فأما أحمد بن حنبل فمقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وميلاً بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن. وكان لهم ببغداد صولة وكثرة حتى كانوا يتواقعون مع الشيعة في نواحيها. وعظمت الفتنة من أجل ذلك، ثم انقطع ذلك عند استيلاء التتر عليها. ولم يراجع وصارت كثرتهم بالشام. وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها. ولما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات. وجاؤوا منها بعلم مستظرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس. وبالمغرب منها شيء قليل نقله إليه القاضي بن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتها.

وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأصصار. وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشجنت كتب الخلافات بأنواع استدلالاتهم. ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره. وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة منهم. وكان من تلميذه بها: البويطي والمزني وغيرهم، وكان بها من المالكية جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم، ثم الحارس بن مسكين وبنوه، ثم القاضي أبو إسحق بن شعبان وأصحابه.

ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت، وكان من سواهم يتلاشوا وينهبوا، وارتحل إليها القاضي عبد الوهاب من بغداد. آخر المائة الرابعة على ما أعلم، من الحاجة والتقليب في المعاش. فتأذن خلفاء العبيدين بإكرامه، وإظهار فضله نعيماً على بني العباس في أطراح مثل هذا الإمام، والاختباط به. فنفتت سوق المالكية بمصر قليلاً، إلى أن ذهبت دولة العبيدين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب، فذهب منها فقه أهل البيت وعاد فقه الجماعة

ناصر الدين من الترغيب فيه. وقد شرحه جماعة من شيوخهم: كابن عبد السلام وابن رشد وابن هارون، وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق حليتهم في الإجازة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وأما علم الفرائض وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة، من كم تصح، باعتبار فروضها الأصول أو مناسختها. وذلك إذا هلك أحد الورثة وانكرت سهامه على فروض ورثته، فإنه حينئذ يحتاج إلى حسابان يصحح الفريضة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً في الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة. وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد واثنين، وتتعدد كذلك بعدد أكثر. ويقدر ما تتعدد تحتاج إلى الحسابان، وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حيثئذ. وينظر مبلغ السهام، ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة. وكل ذلك يحتاج إلى الحسابان، فأفردوا هذا الباب من أبواب الفقه لما اجتمع فيه الفقه من الحسابان وكان غالباً فيه وجعلوه فناً مفرداً. وللناس فيه تأليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي، ومن متأخري إفريقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم.

وأما الشافعية والخنفية والحنابلة فلهم فيه تأليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة، شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصاً أبا العالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذهب، وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين. وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية. ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك فيملؤون بها تأليفهم. وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه، فهو يفيد المراتن وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه.

ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء إلى القيروان بكتابه وسمي الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات، فقرا بها سحنون على أسد ثم ارتحل إلى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسدية، فرجع عن كثير منها. وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه منها، وكتب معه ابن القاسم إلى أسد أن يحو من أسديته ما رجع عنه، وأن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك، فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت تسمى المدونة والمختلطة. وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعنينة.

ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه. وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العنينة وهجروا الواضحة وما سواها. ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع، فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن عمرز والتونسي وابن بشر وأمثالهم. وكتب أهل الأندلس على العنينة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله. وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذاهب، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة، وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقيين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان. ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسألة، فجاء كالبرنامج للمذهب. وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين وابن البشر وابن اللهيث وابن رشيق وابن شاس. وكانت بالإسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله. ولم أدر عمن أخذها أبو عمرو بن الحاجب، لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهاب فقه أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية، ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب، وخصوصاً أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب. فإنه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك، فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميذه، ومنهم من انتقل إلى سائر الأمصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ

ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة، فإذا هم يقيسون الأشياء منها بالأشياء. وينظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك. فإن كثيراً من الوقائع بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تدرج في النصوص الثابتة فقامسوها بما ثبت وأخفوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق. تصحح تلك المساواة بين الشبهين أو المثلين. حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه. وهو القياس وهو رابع الأدلة.

واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس، إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأدلة الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها. لضعف مداركها وشذوذ القول فيها. فكان من أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة.

فأما الكتاب فدليله المعجزة الفاطمة في مثته والتواتر في نقله. فلم يبق فيه مجال للاحتمال.

وأما السنة وما نقل إلينا منها، فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه. معتزداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من إنفاذ الكتب والرسائل إلى النواحي بالأحكام والشرائع أمراً ونهاياً.

وأما الإجماع فلا نقاهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة.

وأما القياس فإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه. هذه أصول الأدلة، ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتمييز الحالة المحصلة للظن بصدقه، الذي هو مناط وجوب العمل بالخبر. وهذه أيضاً من قواعد الفن.

ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضاً وأبوابه. ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالات الألفاظ، وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تركيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة. والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان، وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين، ولم يكن الفقه حيث شذ يحتاج إليها؛ لأنها جبلية وملكة. فلما فسدت الملكة في لسان العرب قبحها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستتبطة صحيحة وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله

وقد يحتاج الأكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى، وفي رواية: نصف العلم؛ خرج أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة. والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد وأن المراد بالفرائض إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعبادات والموارث وغيرها، وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية.

وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها، ويعني هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة، إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات. ولم يكن صدر الإسلام يطلق هذا اللفظ إلا على عمومته مشتقاً من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع. وما كان المراد به في إطلاقه إلا جميع الفروض كما قلناه وهي حقيقته الشرعية، فلا ينبغي أن يحمل إلا على ما كان يحمل في عصرهم، فهو أليق بمرادهم منه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل التاسع

أصول الفقه وما يتعلق به من

الجدل والخلافات

اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرها وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف. وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له. فعلى عهد النبي ﷺ كانت الأحكام تلقى منه بما يوحى إليه من القرآن وبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس. ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر. وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه. وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم تنزل الإجماع منزلهما لإجماع الصحابة على التكثير على مخالفيهم. ولا يكون ذلك إلا عن مستند؛ لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة، فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات.

تعالى. ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة بين تراكيب الكلام وهو الفقه.

ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة، وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصّل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة. مثل أن اللغة لا تثبت قياساً والمشتراك لا يراه به معناه معاً، والواو لا تقتضي الترتيب، والعالم إذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها؟ والأمر للوجوب أو النذب وللغفور أو التراخي، والنهي يقتضي الفساد أو الصحة، والمطلق هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعدد أم لا؟ وأمثال هذه. فكانت كلها من قواعد هذا الفن. ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية. ثم إن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن؛ لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس وبمآثل من الأحكام وتفتيح الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم علق به في الأصل من تبين أوصاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف في الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه إلى مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن.

واعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية. وأما القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً فنعلم أخذ معظمها. وأما الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وعارسة النقلة وخبرتهم بهم. فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل، احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فناً قائماً برأسه سموه أصول الفقه. وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه. أملى فيه رسالته المشهورة، تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس. ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها. وكتب المتكلمون أيضاً كذلك إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية. والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون إلى الاستدلال العقلي ما أمكن؛ لأنه غالب فنونهم ومقتضى طبيقتهم، فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على

النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن. وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم، فكتب في القياس بأوسع من جميعهم وتم الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه، وكملت صناعة أصول الفقه بكمالها وتهذبت مسائله وتهدت قواعده وعنى الناس بطريقة المتكلمين فيه. وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتابه البرهان لإمام الحرمين والمستصفي للغزالي وهما من الأشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة. وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانها. ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين، وهما الإمام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الأمدى في كتاب الإحكام. واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج. فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج، والأمدى مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل.

وأما كتاب المحصول فاختصره تلميذ الإمام مثل سراج الدين الأموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الأرموي في كتاب الحاصل، واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التفتيحات. وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج. وعنى المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس. وأما كتاب الإحكام للأمدى وهو أكثر تحقيقاً في المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف بال مختصر الكبير. ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعنى أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات.

وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيراً وكان من أحسن كتابة المتقدمين فيها تأليف أبي زيد الدبوسي، وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام البزدوي من أئمتهم وهو مستوعب، وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الأحكام وكتاب البزدوي في الطريقتين وسمى كتابه بالبدائع، فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة ومجتأاً. وأولع كثير من علماء العجم بشرحه. والحال على ذلك لهذا العهد.

هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعدد التأليف المشهورة لهذا العهد فيه. والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه إنه على كل شيء قدير.

الخلافات:

الخلافات.

الجدل

وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنة لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج. ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت لخصمه الكلام والاستدلال.

ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو دمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره.

وهي طريقتان طريقة البزدوي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال. وطريقة العميدي: وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان وأكثره استدلالاً. وهو من المناحي الحسنة، والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة. وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي. إلا أن صور الأدلة والأقضية فيه محفوظة مراعاة يتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي. وهذا العميدي هو أول من كتب فيها ونسب الطريقة إليه. وضع الكتاب المسمى بالإرشاد مختصراً وتبعه من بعده من المتأخرين كالسفي وغيره، جاؤوا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التاكيف. وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية. وهي مع ذلك كمالية وليست ضرورية، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل العاشر

علم الكلام

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة. وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق

وأما الخلافات فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وانظارهم خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه. واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً وكان للمقلدين أن يقلدوا من شأؤوا منهم، ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم؛ لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان واقتفاء من يقوم على سوي هذه المذاهب الأربعة. فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة وأجري الخلاف بين المتسكين بها والأخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية.

وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمية، يجتج بها كل على صحة مذهبه الذي قلده وتمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه، فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما، وتارة يكون مالك وأبي حنيفة والشافعي يوافق أحدهما، وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدهما، وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمة ومشارت اختلافهم ومواقع اجتهدهم. كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافات، ولابد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد، إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلتها.

وهو لعمرى علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه.

وتأليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تأليف المالكية؛ لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث.

وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدتهم وليسوا بأهل نظر وأيضاً فأكثرهم أهل المغرب وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل. وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المآخذ ولأبي بكر العربي من المالكية كتاب التلخيص جليله من المشرق، ولأبي زيد الدبوسي كتاب التعليق، ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة، وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما يبنى عليها من الفقه الخلافية مدرجاً في كل مسألة منه ما يبنى عليها من

التأثير وكيفية مجهولة. ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها جملة والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدها؛ لترسخ صيغة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس.

قال عليه السلام: «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة». فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وإن سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحداً بعد واحد، فإنا الضامن له أن لا يعود إلا بالخيبة. فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

ولا تتقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك.

واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه أنه منحصر في مداركه لا يعدوها والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه.

ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف السموعات. وكذلك الأعمى أيضاً يسقط من الوجود عنده صنف المرعيات ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به؛ لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات ومساوقة لديه بالكلية، فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا؛ لأن إدراكنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس. والخصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك والله من ورائهم محيط. فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر وأتبع ما أمرك الشارع به في اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفك؛ لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنك لا تطمع أن ترز به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال.

ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب

والمآخذ، ثم ترجع إلى تحقيق علم الكلام وفيما ينظر ونشير إلى حدوثه في الملة وما دعا إلى وضعه:

فقول: اعلم أن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية، فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة وعنها يتم كونه. وكل واحد من تلك الأسباب حادث أيضاً فلا بد له من أسباب أخرى ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها لا إله إلا هو سبحانه.

وتلك الأسباب في ارتفاعها وتضاعف فتتفكح طولاً وعرضاً، ويحار العقل في إدراكها وتعددتها. فإذا لا يحصرها إلا العلم المحيط سيما الأفعال البشرية والحيوانية، فإن من جملة أسبابها في الشاهد القصور والإدارات إذ لا يتم كون الفعل إلا بإرادته والقصد إليه.

والقصودات والإرادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً. وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل، وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى، وكل ما يقع في النفس من التصورات فمجهول سببه. إذ لا يطلع أحد على مبادئ الأمور النفسانية ولا على ترتيبها. إنما هي أشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضاً، والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها. وإنما يحيط علماً في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة وتقع في مداركها على نظام وترتيب؛ لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها.

وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس؛ لأنها للعقل الذي هو فوق طور النفس فلا تكاد النفس تدرك الكثير منها فضلاً عن الإحاطة. وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها، فإنه وإدبهم فيه الفكر ولا يخلو منه بواطن ولا يظفر بحقيقة: ﴿قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه، فزلت قدمه وأصبح من الضالين الهالكين، نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين.

ولا تحسن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك أو اختيارك، بل هو لون يحصل للنفس وصيغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة لا نعلمها. إذ لو علمناها لتحزنا منها. فلتحز من ذلك بقطع النظر عنها جملة. وأيضاً فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول؛ لأنها إنما يوقف عليها بالعادة، وقضية الاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر. وحقيقة

واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به إنما هو في هذا، فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف، وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقيق بها. ثم إن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة. قال عليه السلام في رأس: «العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة» فإن الصلاة صارت له صفة وحالاً يجد فيها منتهى لذته وقره عينه وأين هذا من صلاة الناس ومن لهم بها؟ **﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾** اللهم وفقنا و **﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾**

فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس ينشأ عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكليف القلبية والبدينية. ويتفهم منه أن الإيمان الذي هو أصل التكليف كلها وينبوعها هو بهذه المثابة وأنه ذو مراتب:

أولها التصديق القلبي الموافق للسان، وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستيعب الجوارح. وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني. وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الإيمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة، إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» وفي حديث هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وآله وأحواله فقال في أصحابه: «هل يرد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا! قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشة القلوب». ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات إذا استقرت فإنها تحصل بمثابة الجلبة والفترة، وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة؛ لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوباً سابقاً وهذه حاصلة للمؤمنين حصلاً تابعاً لأعمالهم وتصديقهم، فهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف.

وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الإيمان كثير منه. مثل: أن الإيمان قول وعمل وأنه يزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الإيمان، وأن تطوع رمضان من الإيمان، والحياة من الإيمان. والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى ملكته وهو فعلي.

فقطع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك. على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله ويصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه. وتفتن من هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه، فقد تبين لك الحق من ذلك وإذا تبين ذلك فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة، فيضل العقل في بقاء الأوهام ويحار وينقطع. فلذا التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيراتها وتقويض ذلك إلى خالقها المحيط بها، إذ لا فاعل غيره وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته، وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه لا غير.

وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين: العجز عن الإدراك إدراك. ثم إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي، فإن ذلك من حديث النفس وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تكيف بها النفس كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والانتقاد وتقريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود، حتى يتقلب المرید السالك ربانياً.

والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف. وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربى إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة، وهو لو رأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين لفر عنه واستنكف أن يباشره فضلاً عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة. فهذا إنما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف. ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربى إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها. فمتى رأى يتيماً أو مسكيناً بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه. ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده؛ وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف. وليس الاتصاف بمحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق، ويحيى العلم الثاني النافع في الآخرة. فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع؛ وهذا علم أكثر النظائر؛ والمطلوب إنما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة.

المجمل:

وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق
الظاهر للدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها
وصريحة في بابها فوجب الإيمان بها. ووقع في كلام الشارع
صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على
ظواهرها. ثم وردت في القرآن أي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في
الذات وأخرى في الصفات.

فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها،
وعلموا استحالة التشبيه. وقضوا بأن الآيات من كلام الله فأمّنوا
بها ولم يتعرضوا لمعناها يبحث ولا تأويل. وهذا معنى قول الكثير
منهم: أقرأوها كما جاءت، أي أمّنوا بأنها من عند الله. ولا
تعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء. فيجب
الوقف والإذعان له. وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من
الآيات وتوغلوا في التشبيه: ففريق شبهوا في الذات باعتقاد اليد
والقدم والوجه عملاً بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم
الصريح ومخالفة أي التنزيه المطلق؛ لأن معقولة الجسم تقتضي
النقص والافتقار. وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي
أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر هذه التي لنا
عنها غنية، وجمع بين الدليلين بتأويلها ثم يفرون من شناعة ذلك
بقولهم: جسم لا كأجسام. وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول
متناقض وجمع بين نفي وإثبات: إن كانا لمعقولة واحدة من
الجسم، وإن خالفا بينهما ونفرا المعقولة المتعارفة فقد وافقونا في
التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه. ويتوقف
مثله على الإذن. وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات
كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك.
وأك قولهم إلى التجسيم فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم: صوت لا
كأصوات جهة لا كالجهاز نزول لا كالنزول يعنون من
الأجسام.

واندفع ذلك بما اندفع به الأول، ولم يبق في هذه الظواهر إلا
اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي؛ لئلا يكر النفي
على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن. ولهذا تنظر ما
تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له وفي كتاب
الحافظ ابن عبد البر وغيرهم، فإنهم يحومون على هذا المعنى. ولا
تغض عنك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم. ثم
لما كثرت العلوم والصناعات وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر
الأشياء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم
هذا التنزيه في أي السلوب، فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم

وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه. فمن
اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما
قال أئمة المتكلمين، ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه
الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت. وليس ذلك بقادح
في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق، إذ التصديق موجود في
جميع رتبته؛ لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المخلص من
عهدة الكفر والفصل بين الكافر والمؤمن فلا يجزي أقل منه. وهو
في نفسه حقيقة واحدة لا تفاوت وإنما التفاوت في الحال الحاصلة
عن الأعمال كما قلناه فافهم.

واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة
الأولى الذي هو تصديق وعين أموراً مخصوصة كلّفنا التصديق بها
بقولنا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بها بالسبب وهي العقائد
التي تقررت في الدين. قال عليه السلام حين سئل عن الإيمان فقال: «أن
تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر
خيره وشره». وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام.
ولنشر إليها جملة لتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه
فنقول:

اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد
الأفعال كلها إليه وأفرد بها كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الإيمان
نجاتنا عند الموت إذا حضرنا لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق
المعبود إذ ذاك متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا. فكلفنا أولاً:
اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين وإلا لما صح أنه خالق
لهم لعدم الفارق على هذا التقدير، ثم تنزيهه عن صفات النقص
وإلا لشابه المخلوقين، ثم توحيد به لاتحاد وإلا لم يتم الخلق
للتماثل، ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك سم الأفعال شاهد قضيته
لكمال الإيجاد والخلق ومريد، وإلا لم يخص شيء من
المخلوقات، ومقدر لكل كائن وإلا فالإرادة حادثة. وأنه يعيدنا بعد
الموت تكمياً لعنائه، بالإيجاد، ولو كان للفناء الصرف كان عبثاً
فهو للبقاء السرمدي بعد الموت. ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من
شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا
بذلك ونظام لطفه بنا في الإنشاء بذلك وبيان الطريقين. وأن الجنة
للنعم وجهنم للعذاب. هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها
العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة. وعن تلك الأدلة أخذها
السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة إلا أنه عرض بعد
ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي
المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة
إلى النقل. فحدث بذلك علم الكلام. ولنبين لك تفصيل هذا

وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية. إلا أن صور الأدلة فيها بعض الأحيان. على غير الوجه الصناعي لسداجة القوم؛ ولأن صناعة المنطق التي تسير بها الأدلة وتعتبر بها الأقيسة لم تكن حيثنظ ظاهرة في الملة، ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لملاستها للعلوم الفلسفية المبينة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك.

ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني من أئمة الأشعرية إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه. ثم خصه في كتاب الإرشاد واتخذ الناس إماماً لعقائدهم. ثم انتشر من بعد ذلك علم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط يسر به الأدلة منها كما يسر من سواها. ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للأقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدت بهم إلى ذلك، وربما أن كثيراً منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات. فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم إلى ذلك فيها ولم يعتدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي، فصارت هذه الطريقة في مصطلحهم مبيّنة للطريقة الأولى وتسمى طريقة المتأخرين، وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم. وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة فقروا أثرهم واعتمدوا تقليدهم، ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحداً من اشتباه المسائل فيها.

واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالباً. فالجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات هو بعض من هذه الكائنات. إلا أن نظره فيها يخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل. وكذا ينظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته، ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد.

وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فروضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقائد، وإذا تأملت حال الفن في حدوده وكيف تدرج

والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم ذلك من تعدد القديم بزمعهم، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفي صفة الإرادة فلزمهم نفي القدر؛ لأن معناه سبق الإرادة للكائنات وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام. وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ، وإنما هو إدراك للمسموع أو المبصر. وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس، فقضوا بأن القرآن مخلوق وذلك بدعة صرح السلف بخلافها. وعظم ضرر هذه البدعة ولقتها بعض الخلفاء عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستحل خلافهم إيسار كثير منهم ودمأوهم.

وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاً في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف. وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق العقل والنقل. ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصالح والأصلح والتحسين والتقييح وكمل العقائد في البعثة وأحوال المعاد والجنة والنار والثواب والعقاب.

والحق بذلك الكلام في الإمامة لما ظهر حيثنظ من بدعة الإمامية من قولهم: إنها من عقائد الإيمان، وإنها يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة فيها لمن هي له، وكذلك على الأمة. وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ولا تلحق بالعقائد؛ فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموعة علم الكلام؛ إما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي.

وكثر اتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري وافقني طريقته من بعده تلميذه كاتن مجاهد وغيره. وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فنصدر للإمامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار وذلك مثل: إثبات الجوهر الفرد والخلاء. وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين. وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم. وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول. فكمملت هذه الطريقة

يدرك الترتيب بين الحوادث الطبع أو بالوضع، فإذا قصد إيجاد شيء من الأشياء، فلأجل الترتيب بين الحوادث لابد من التفتن بسببه أو علته أو شرطه، وهي على الجملة مبادؤه، إذ لا يوجد إلا ثانياً عنها ولا يمكن إيقاع المتقدم متأخراً، ولا المتأخر مقدماً. وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخراً عنه، وقد يرتقي ذلك أو يتهي. فإذا انتهى إلى آخر المبادئ في مرتبتين أو ثلاث أو أزيد، وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيء بدأ بالمبدأ الأخير الذي انتهى إليه الفكر، فكان أول عمله. ثم تابع ما بعده إلى آخر المسببات التي كانت أول فكرته. مثلاً: لو فكر في إيجاد سقف يكتنه ينتقل بذهنه إلى الحائط الذي يدعمه، ثم إلى الأساس الذي يقف عليه الحائط فهو آخر الفكر. ثم يبدأ في العمل بالأساس، ثم بالحائط، ثم بالسقف، وهو آخر العمل.

وهذا معنى قولهم: أول العمل آخر الفكرة، وأول الفكرة آخر العمل، فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المراتب لتوقف بعضها على بعض. ثم يشرع في فعلها. وأول هذا الفكر هو المسبب الأخير، وهو آخرها في العمل. وأولها في العمل هو المسبب الأول وهو آخرها في الفكر. ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الانتظام في الأفعال البشرية.

وأما الأفعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل. إذ الحيوانات إنما تدرك بالحواس ومدركتها متفرقة خلية من الربط؛ لأنه لا يكون إلا بالفكر. ولما كانت الحواس المعتبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة وغير المنتظمة، إنما هي تبع لها. اندرجت حيث أفعال الحيوانات فيها، فكانت مسخرة للبشر. واستولت أفعال البشر على عالم الحوادث بما فيه، فكان كله في طاعته وتسخره. وهذا معنى الاستخلاف المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان. وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته. فمن الناس من تتوالى له السببية في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها، ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست فتكون إنسانيته أعلى. واعتبر ذلك بلعب الشطرنج: فإن في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذي ترتبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه. وإن كان هذا المثال غير مطابق؛ لأن لعب الشطرنج بالملكة، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع. لكنه مثال يحتذي به الناظر في تعقل ما يورد عليه من القواعد. والله خلق الإنسان وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً.

كلام الناس فيه صدرأ بعد صدر وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة، علمت حيثئذ ما قرناه لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه.

ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين عن الآخر. ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوابع، ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تأليفهم. إلا أن هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها. وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فإنما هو في الطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الإرشاد وما حذا حذوه.

ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب، فإنها وإن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم، وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا. وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن الكثير من إلهاماته وإطلاقاته ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مر بهم من المتكلمين فيفوضون فيه فقال: ما هؤلاء؟ فقل: قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص. فقال: نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب. لكن فاندت في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها. والله ولي المؤمنين.

الفصل الحادي عشر

في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر

اعلم أن عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة، كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها. التي هي المعدن والنبات والحيوان. وهذه كلها متعلقات القدرة الإلهية وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات، واقعة بمقصودها، متعلقة بالقدرة التي جعل الله لها عليها: فمنها منظم مرتب، وهي الأفعال البشرية، ومنها غير منظم ولا مرتب، وهي أفعال الحيوانات غير البشر. وذلك الفكر

الفصل الثاني عشر

في العقل التجريبي وكيفية حدوثه

من لم يؤدبه والده أدبه الزمان. أي من لم يلقن الآداب في معاملة البشر من والديه وفي -معناها المشيخة والأكابر- ويتعلم ذلك منهم رجع إلى تعلمه بالطبع من الواقعات على التوالي الأيما، فيكون الزمان معلمه ومؤدبه لضرورة ذلك بضرورة المعاونة التي في طبعه.

وهذا هو العقل التجريبي، وهو يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الأفعال كما يئناه. وبعد هذين مرتبة العقل النظري الذي تكفل بتفسيره أهل العلوم، فلا يحتاج إلى تفسيره في هذا الكتاب. والله ﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

الفصل الثالث عشر

في علوم البشر وعلوم الملائكة

إننا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم: أولها: عالم الحس ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك. ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فنعلم منه وجود النفس الإنسانية علماً ضرورياً بما بين جنبينا من مدارك العلمية التي هي فوق مدارك الحس، فتراها عالماً آخر فوق عالم الحس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات، نحو الحركات الفعلية، فنعلم أن هناك فاعلاً يعبثنا عليها من عالم فوق عالمنا وهو عالم الأرواح والملائكة. وفيه ذوات مدركة لوجود آثارها فينا مع ما بيننا وبينها من المغايرة. وربما يستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته بالرؤيا وما نجد في النوم، ويلقى إلينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصحة منها، فنعلم أنها حق ومن عالم الحق. وأما أضغاث الأحلام فصور خيالية يخزنها الإدراك في الباطن ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحس. ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهاناً أوضح من هذا، فنعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلاً.

وما يزعمه الحكماء الإلهيون في تفصيل ذواته وترتيبها، المسماة عندهم بالعقول فليس شيء من ذلك بقيني لاختلال شرط البرهان النظري فيه. كما هو مقرر في كلامهم في المنطق. لأن من شرطه أن تكون قضاياه أولية ذاتية. وهذه الذوات الروحانية مجهولة الذاتيات فلا سبيل للبرهان فيها. ولا يبقى لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم إلا ما نقتبسه من الشرعيات التي يوضحها

إنك تسمع في كتب الحكماء قولهم: إن الإنسان هو مدني الطبع، يذكرونه في إثبات النبوات وغيرها. والنسبة فيه إلى المدينة، وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري. ومعنى هذا القول، أنه لا تمكن حياة المنفرد من البشر، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه. وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبعه. وتلك المعاونة لا بد فيها من المفاوضة أولاً، ثم المشاركة وما بعدها. وربما تفضي المعاملة عند اتحاد الأعراس إلى المنازعة والمشاجرة فتتسبب المنازعة والمؤالفة. والصداقة والعداوة. ويؤول إلى الحرب والسلم بين الأمم والقبائل. وليس ذلك على أي وجه اتفق، كما بين الحمل من الحيوانات، بل للبشر بما جعل الله فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر كما تقدم. جعل منتظماً فيهم ويسرهم لإيقاعه على وجوه سياسية وقوانين حكمية. يتكون فيها عن المفساد إلى المصالح، وعن الحسن إلى القبيح، بعد أن يميزوا القبائح والمفسدة. بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة، وعوائد معروفة بينهم، فيفارقون الحمل من الحيوان. وتظهر عليهم نتيجة الفكر في انتظام الأفعال وبعدها عن المفساد.

هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد ولا يتعمق فيها الناظر، بل كلها تدرك بالتجربة وبها يستفاد لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها، يظهر قريباً في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك. ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له منها مقتضاه بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه. حتى يتعين له ما يحب وينبغي، فعلاً وتركاً. وتحصل في ملازمة الملكة في معاملة أبناء جنسه. ومن تبع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كل قضية قضية. ولا بد بما تسعه التجربة من الزمن. وقد يسهل الله على كثير من البشر تحصيل ذلك في أقرب زمن التجربة، إذ قلد فيها الآباء والمشيخة والأكابر، ولقن عنهم ووعى تعليمهم، فيستغني عن طول المعاونة في تتبع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها. ومن دتد العلم في ذلك والتقليد فيه أو أعرض عن حسن استماعه واتباعه، طال غناؤه في التأديب بذلك، فيجري في غير مالوف ويدركها على غير نسبة، فتوجد آدابه ومعاملاته سيئة الأوضاع بادية الخلل، ويفسد حاله في معاشه بين أبناء جنسه. وهذا معنى القول المشهور:

الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى. استعداداً طبيعياً. كما في العناصر الجسمية البسيطة. وكما في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحززون والصدف من أفق الحيوان، وكما في القردة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية. وهذا الاستعداد الذي في جاني كل أفق من العوالم هو معنى الاتصال فيها.

وفوق العالم البشري عالم روحاني، شهدت لنا به الآثار التي فينا منه، بما يعطينا من قوى الإدراك والإرادة، فذوات العلم العالم إدراك صرف وتعقل محض، وهو عالم الملائكة، فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية استعداد للاستدلال من البشرية إلى الملكية. لتصبح بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات. وفي لحظة من اللحظات. ثم تراجع بشرتها وقد تلقت في عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر. وهذا هو معنى الوعي وخطاب الملائكة. والأنبياء كلهم مفلطرون عليه. كأنه جيلة لهم ويعالجون في ذلك الانسلاخ من الشدة والغيط ما هو معروف عنهم. وعلومهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان، لا يلحقه الخطأ والزلل، ولا يقع فيه الغلط والوهم، بل المطابقة فيه ذاتية لزوال حجاب الغيب وحصول الشهادة الواضحة، عند مفارقة هذه الحالة إلى البشرية، لا يفارق علمهم الوضوح. استصحاباً له من تلك الحالة الأولى، ولما هم عليه من الذكاء المفضي بهم إليها، يتردد ذلك فيهم دائماً إلى أن تكمل هداية الأمة التي بعثوا لها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيَّ وَاسْتَغْفِرُوا﴾. فانهم ذلك وراجع ما قدمناه لك أول الكتاب، في أصناف المدركين للغيب، يتضح لك شرحه وبيانه، فقد بسطنا هناك بسطاً شافياً. والله الموفق.

الفصل الخامس عشر

في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قد بينا أول هذه الفصول أن الإنسان من جنس الحيوانات، وأن الله تعالى ميزه عنها بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على انتظام وهو العقل التمييزي أو يقتصر به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه، وهو العقل التجريبي، أو يحصل به في تصور الموجودات غائباً وشاهدًا، على ما هي عليه، وهو العقل النظري، وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه.

الإيمان ويحكمها. وأعتقد هذه العوالم في مدرتنا عالم البشر، لأنه وجداني مشهود في مداركتنا الجسمية والروحانية. ويشترك في عالم الحس مع الحيوانات وفي عالم العقل والأرواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته، وهي ذوات مجردة عن الجسمية والمادة، وعقل صرف يتحد فيه العقل والعقل والمقول، وكأنه ذات حقيقتها الإدراك والعقل، فعلومهم حاصلة دائماً مطابقة بالطبع لمعلوماتهم لا يقع فيها خلل البتة.

وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد أن لا تكون حاصلة. فهو كله مكتسب، والذات التي يحصل فيها صور المعلومات وهي النفس مادة هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئاً فشيئاً، حتى تستكمل، ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها. فالمطلوبات فيها مترددة بين النفي والإثبات دائماً، يطلب أحدهما بالوسط الرابط بين الطرفين. فإذا حصل وصار معلوماً افتقر إلى بيان المطابقة، وربما أوضحها البرهان الصناعي، لكنه من وراء الحجاب. وليس كالمعانية التي في علوم الملائكة. وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير إلى المطابقة بالعيان الإدراكي. فقد تبين أن البشر جاهل بالطبع للتردد الذي في علمه، وعالم بالكسب والصناعة لتحصيله المطلوب بفكرة الشروط الصناعية. وكشف الحجاب الذي أشرنا إليه إنما هو بالرياضة بالآذكار التي أفضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وبالتالي عن المتناولات المهمة ورأسها الصوم، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه. والله علم الإنسان ما لم يعلم.

الفصل الرابع عشر

في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إننا نجد هذا الصنف من البشر تعريضهم حالة إلهية خارجة عن منازع البشر وأحوالهم، فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية والذوقية من الشهوة والغضب وسائر الأحوال البدنية. فتجدهم متزهين عن الأحوال الربانية، من العبادة والذكر لله بما يقتضي معرفتهم به، مخبرين عنه بما يوحى إليهم في تلك الحالة، من هداية الأمة على طريقة واحدة ومنهم معهود منهم لا يتبدل فيهم كأنه جيلة فطرهم الله عليها. وقد تقدم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المدركين للغيب. وبيننا هنالك أن الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على تركيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالاً لا ينخرم. وأن

الأحكام. ولذا قال الفقهاء في اصطلاحهم: المحكم المتضح المعنى. وأما التشابهات فلمهم فيها عبارات. فقيل: هي التي تنفصر إلى نظر وتفسير يصحح معناها، لتعارضها مع آية أخرى أو مع العقل، فتخفى دلالتها وتشتبه.

وعلى هذا قال ابن عباس: المشابه يؤمن به ولا يعمل به. وقال مجاهد وعكرمة: كل ما سوى آيات الأحكام والقصص متشابه. وعليه القاضي أبو بكر وإمام الحرمين. وقال الثوري والشعبي وجماعة من علماء السلف: المشابه، ما لم يكن سبيلاً إلى علمه، كشروط الساعة وأوقات الإنذارات وحروف الهجاء في أوائل السور، وقوله في الآية «هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ» أي معظمه وغالبه والمتشابه أقله، وقد يرد إلى المحكم. ثم ذم المتبعين للمتشابه بالتأويل أو مجملها على معان لا تفهم منها في لسان العرب الذي خوطبنا به. وسماهم أهل زيغ، أي ميل عن الحق من الكفار والزنادقة وجهلة أهل البدع. وأن فعلهم ذلك قصد الفتنة التي هي الشرك أو اللبس على المؤمنين أو قصداً لتأويلها بما يشبهونه فيقتدون به في بدعتهم.

ثم أخبر سبحانه بأنه استأثر بتأويلها ولا يعلمه إلا هو فقال: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ». ثم أثنى على العلماء بالإيمان بها فقط. فقال: «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ». ولهذا جعل السلف والراسخون مستأنفاً ورجحوه على العطف؛ لأن الإيمان بالغيب أبلغ في الثناء، ومع عطفه إنما يكون إيماناً بالشاهد. لأنهم يعلمون التأويل حيثئذ فلا يكون غيباً. ويعضد ذلك قوله «كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» ويدل على أن التأويل فيها غير معلوم للبشر أن الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعاني التي وضعها العرب لها، فإذا استحال إسناد الخبر إلى خبر عنه جهلنا مدلول الكلام حيثئذ، وإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه ولا نشغل أنفسنا بمدلول نلتسمه، فلا سبيل لنا إلى ذلك. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن، فهم الذين عنى الله، فاحذروهم. هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة. وجاء في السنة الفاظ مثل ذلك يحملها عندهم محمل الآيات لأن المنبع واحد.

وإذا تقرر أصناف التشابهات على ما قلناه، فلنرجع إلى اختلاف الناس فيها. فاما ما يرجع منها على ما ذكره إلى الساعة وأشراتها وأوقات الإنذارات وعدد الزبانية وأمثال ذلك، فليس هذا والله أعلم من التشابه، لأنه لم يرد فيه لفظ مجمل ولا غيره وإنما هي أزمة لحادثات استأثر الله بعلمها بنصه في كتابه وعلى لسان نبيه. وقال: «إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ». والعجب من عدها من

ويبدأ من التمييز، فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبدئه في التكوين، من النطفة والعلقة والمضغة. وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر. قال تعالى في الامتنان علينا: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ» فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولاً فقط. لجهله بجميع المعارف. ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بالآته، فكمثل ذاته الإنسانية في وجودها. وانظر إلى قوله تعالى مبدا الوحي على نبيه «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» أي أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلًا له بعد أن كان علقه ومضغة، فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلوم الكسبي وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده. وهي الإنسانية. وحالته الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبداً الوحي. وكان الله عليمًا حكيمًا.

الفصل السادس عشر

في كشف الغطاء عن المشابه من الكتاب

والسنة وما حدث لأجل ذلك من طوائف

السنية والمبتدعة في الاعتقادات

اعلم أن الله سبحانه بعث إلينا نبينا محمدًا ﷺ يدعونا إلى النجاة والفوز بالنعيم، وأنزل عليه الكتاب الكريم باللسان العربي المين. يخاطبنا فيه بالتكاليف المفضية بنا إلى ذلك. وكان في خلال هذا الخطاب، ومن ضروراته، ذكر صفاته سبحانه وأسمائه، ليعرفنا بذاته، وذكر الروح المتعلقة بنا، وذكر الوحي والملائكة، الوسائط بينه وبين رسله إلينا. وذكر لنا يوم البعث وإنذاراته ولم يعين لنا الوقت في شيء منه. وثبت في هذا القرآن الكريم حروفاً من الهجاء مقطعة في أوائل بعض سور، لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها. وسمى هذه الأنواع كلها من الكتاب متشابهاً. وذم على اتباعها فقال تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَآيَاتِهِ تَأْوِيلَهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ». وحمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على أن المحكمات هي الميقات الثابتة

المشابهة.

الله تعالى، سيما الشرور والمعاصي منها، إذ يتمتع على الحكيم فعلها. وجعلوا مراعاة الأصلح للعباد واجبة عليه. وسموا ذلك عدلاً، بعد أن كانوا أولاً يقولون بنفي القدر، وأن الأمر كله مستأنف بعلم حادث وقدره وإرادة كذلك، كما ورد في الصحيح. وأن عبد الله بن عمر تبرأ من معبد الجهني وأصحابه القائلين بذلك. وانتهى نفي القدر إلى واصل بن عطاء الغزالي، منهم، تلميذ الحسن البصري، لعهد عبد الملك بن مروان. ثم آخرأ إلى معمر السلمي ورجعوا عن القول به. وكان منهم أبو الهذيل العلاف، وهو شيخ المعتزلة. أخذ الطريقة عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل. وكان من نفاة القدر، واتبع رأي الفلاسفة في نفي الصفات الوجودية لظهور مذاهبهم يومئذ.

ثم جاء إبراهيم النظام، وقال بالقدر، واتبعوه. وطالع كتب الفلاسفة وشدد في نفي الصفات وقرر قواعد الاعتزال. ثم جاء الجاحظ والكمي والجبائي. وكانت طريقتهم تسمى علم الكلام: إما لما فيها من الحجاج والجدال. وهو الذي يسمى كلاماً، وإما أن أصل طريقتهم نفي صفة الكلام. فلهذا كان الشافعي يقول: حقهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم. وقرر هؤلاء طريقتهم وأثبتوا منها وردوا، إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعري وناظر بعض مشيختهم في مسائل الصلاح والأصلح، فرفض طريقتهم، وكان على رأي عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحاتر بن أسد المحاسبي من أتباع السلف وعلى طريقة السنة. فأيد مقالاتهم بالحجج الكلامية وأثبت الصفات القائمة بذات الله تعالى، من العلم والقدرة والإرادة التي يتم بها دليل التمانع وتصح المعجزات للأنبياء. وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع والبصر لأنها وإن أوهم ظاهراً القصص بالصوت والحرف الجسمانيين، فقد وجد للكلام عند العرب مدلول آخر غير الحروف والصوت، وهو ما يدور في الخلد. والكلام حقيقة فيه دون الأول، فأثبتوها لله تعالى وانتفى إيهام القصص. وأثبتوا هذه الصفة قديمة عامة التعلق بشأن الصفات الأخرى. وصار القرآن اسماً مشتركاً بين القديم بذات الله تعالى. وهو الكلام النفسي والحدث الذي هو الحروف المؤلفة المقروؤة بالأصوات. فإذا قيل: قديم، فالمراد الأول، وإذا قيل: مقروء، مسموع، فللدلالة القراءة والكتابة عليه.

وتورع الإمام أحمد بن حنبل من إطلاق لفظ الحدوث عليه، لأنه لم يسمع من السلف قبله: لا أنه يقول إن المصاحف المكتوبة قديمة، ولا أن القراءة الجارية على السنة قديمة. وهو شاهداً محدثاً. وإنما منعه من ذلك الورع الذي كان عليه. وأما

وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فحقيقتها حروف الهجاء وليس ببعيد أن تكون مرادة. وقد قال الزمخشري: فيها إشارة إلى بعد الغاية في الإعجاز، لأن القرآن المنزل مؤلف منها، والبشر فيها سواء، والتفاوت موجود في دلالتها بعد التاليف. وإن عدل عن هذا الوجه الذي يتضمن الدلالة على الحقيقة فلأنما يكون بنقل صحيح، كقولهم في طه، إنه نداء من طاهر وهادي وأمثال ذلك. والنقل الصحيح معتذر، فيجيء التشابه فيها من هذا الوجه.

وأما الوحي والملائكة والروح والجن، فاشتباهاً من خفاء دلالتها الحقيقية لأنها غير متعارفة، فجاء التشابه فيها من أجل ذلك. وقد ألحق بعض الناس بها كل ما في معناها من أحوال القيامة والجنة والدجال والفن والشروط، وما هو بخلاف العوائد المألوفة، وهو غير بعيد، إلا أن الجمهور لا يوافقونهم عليه. وسيما المتكلمون فقد عینوا محاملها على ما تراه في كتبهم، ولم يبق من التشابه إلا الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه، عما يوهم ظاهره نقصاً أو تعجيزاً.

وقد اختلف الناس في هذه الظواهر من بعد السلف الذين قررنا مذهبهم. وتنازعوا وتطرقت البدع إلى العقائد. فلنشر إلى بيان مذاهبهم وإثبات الصحيح منه على الفاسد فنقول، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾:

اعلم أن الله سبحانه وصف نفسه في كتابه بأنه عالم، قادر، مريد، حي، سميع، بصير. متكلم، جليل، كريم، جواد، منعم، عزيز، عظيم. وكذا أثبت لنفسه اليدين والعينين والوجه والقدم واللسان، إلى غير ذلك من الصفات: فمنها ما يقتضي صحة ألوهيته. مثل العلم والقدرة والإرادة. ثم الحياة التي هي شرط جميعها، ومنها ما هي صفة كمال، كالسمع والبصر والكلام، ومنها ما يوهم النقص كالأستواء والنزول والجمي، وكالوجه واليدين والعينين التي هي صفات المحدثات. ثم أخير الشارع أننا نرى ربنا يوم القيامة كالقمر ليلة البدر، لا نضام في رؤيته كما ثبت في الصحيح.

فأما السلف من الصحابة والتابعين فأثبتوا له صفات الألوهية والكمال وفوضوا إليه ما يوهم النقص ساكتين عن مدلوله.

ثم اختلف الناس من بعدهم وجاء المعتزلة فأثبتوا هذه الصفات أحكاماً ذهنية مجردة، ولم يثبتوا صفة تقوم بذاته. وسموا ذلك توحيداً، وجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله. ولا تعلق بها قدرة

غير ذلك فإنكار للضروريات، وحاشاه منه.

وأما السمع والبصر، وإن كان يوهم إدراك الجارحة. فهو يدل أيضاً لغة على إدراك المسموع والبصر ويتفي إيهام النقص حينئذ لأنه حقيقة لغوية فيهما.

وأما لفظ الاستواء والمجيء والزلزل والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك، فعدلوا عن حقائقها للغوية فما فيها من إيهام النقص بالتشبيه إلى مجازاتها، على طريقة العرب، حيث تعمدر حقائق الألفاظ، فيرجعون إلى المجاز. كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ وأمثاله، طريقة معروفة لهم غير منكرة ولا مبتدعة. وحملهم على هذا التأويل، وإن كان مخالفاً للمذهب السلف في التفويض أن جماعة من أتباع السلف وهم المحدثون والمتأخرون من الخنابلة ارتكبوها في حمل هذه الصفات فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى، بمجهولة الكيفية. فيقولون في ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ثبت له استواء، بحيث مدلول اللفظة. فراراً من تعطيله. ولا تقول بكيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب، من قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿تَقَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم يثبت استواء، والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه الاستقرار والتمكن. وهو جسماني.

وأما التعطيل الذي يشعرون بالزامه، وهو تعطيل اللفظ، فلا محذور فيه. وإنما المحذور في تعطيل الآلة. وكذلك يشعرون بالزام التكليف بما لا يطاق وهو تمويه. لأن التشابه لم يقع في التكليف، ثم يدعون أن هذا مذهب السلف، وحاشا لله من ذلك. وإنما مذهب السلف ما قررناه أولاً من تفويض المراد بها إلى الله، والسكوت عن فهمها. وقد يمتحنون لإثبات الاستواء لله بقول مالك: إن الاستواء معلوم الثبوت لله. وحاشاه من ذلك، لأنه يعلم مدلول الاستواء. وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة، وهو الجسماني. وكيفيته أي حقيقته. لأن حقائق الصفات كلها كيفيات، وهي مجهولة الثبوت لله. وكذلك يمتحنون على إثبات المكان بحديث السوداء. وأنها لما قال لها النبي ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء، فقال: «أعتقها فإنها مؤمنة». والنبي ﷺ لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله، بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر، أن الله في السماء، فدخلت في جملة الراسخين الذين يؤمنون بالتشابه من غير كشف عن معناه. والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النافي للافتقار. ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتنزيه مثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأشباهه. ومن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، إذ الموجود لا يكون في

مكانين، فليست في هذا للمكان قطعاً، والمراد غيره. ثم طردوا ذلك الحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين، والزلزل والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها مدلولات أعم من الجسمانية ويتزهونه عن مدلول الجسماني منها. وهذا شيء لا يعرف في اللغة. وقد درج على ذلك الأول والآخر منهم ونافهم أهل السنة من المتكلمين الأشعرية والحنفية. ورفضوا عقائدهم في ذلك، ووقع بين متكلمي الحنفية بخارى وبين الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ما هو معروف.

وأما المجسمة ففعلوا مثل ذلك في إثبات الجسمانية. وأنها لا كالأجسام. ولفظ الجسم له ثبت في منقول الشرعيات. وإنما جراهم عليه إثبات هذه الظواهر، فلم يقتصروا عليه، بل توغلوا وأثبوا الجسمانية. يزعمون فيها مثل ذلك ويتزهونه بقول متناقض سفاسف، وهو قولهم: جسم لا كالأجسام. والجسم في لغة العرب هو العميق المحدود وغير هذا التفسير من أنه القائم بالذات أو المركب من الجواهر وغير ذلك، فاصطلاحات للمتكلمين يريدون بها غير المدلول اللغوي. فلماذا كان المجسمة أوغل في البدعة بل والكفر. حيث أثبتوا لله وصفاً موهماً يوهم النقص لم يرد في كلامه. ولا كلام نبيه.

فقد تبين لك الفرق بين مذاهب السلف والمتكلمين السنية والمحدثين والمبتدعة من المعتزلة والمجسمة بما أطلعناك عليه. وفي المحدثين غلاة يسمون المشبه لتصريحهم بالتشبيه، حتى إنه يحكى عن بعضهم أنه قال: أعفوني من اللحية والفرج وسلوا عما بدا لكم من سواهما. وإن لم يتأول ذلك لهم، بأنهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظواهر الموهمة. وحملها على ذلك الحمل الذي لأنتمهم، وإلا فهو كفر صريح والعياذ بالله. وكتب أهل السنة مشحونة بالحجاج على هذه البدع. وبسط الرد عليهم بالأدلة الصحيحة. وإنما أومأنا إلى ذلك إجماعاً يتميز به فصول المقالات وجملها. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأما الظواهر الخفية الأدلة والدلالة، كالوحي والملائكة والروح والجن والبرزخ وأحوال القيامة والدجال والفتن والشروط. وسائر ما هو متعذر على الفهم أو مخالف للعادات، فإن حملنا على ما يذهب إليه الأشعرية في تفاصيله، وهم أهل السنة. فلا تشابه، وإن قلنا فيه بالتشابه، فلتوضح القول فيه بكشف الحجاب عنه فتقول: أعلم أن العالم البشري أشرف العوالم من الموجودات، وأرفعها. وهو وإن اتخذ حقيقة الإنسانية فيه فله أطوار يخالف كل واحد منها الآخر بأحوال تختص به حتى كان الحقائق فيها مختلفة.

حقيقة هذه الحال فريقان: الحكماء، ويزعمون أن الصور الخيالية يدفعها الخيال بحركة الفكر إلى الحس المشترك الذي هو الفصل المشترك بين الحس الظاهر والحس الباطن. فتصور محسوسه بالظاهر في الحواس كلها. ويشكل عليهم هذا بأن المراتي الصادقة التي هي من الله تعالى أو من الملك أثبت وأرسخ في الإدراك من المراتي الخيالية الشيطانية، مع أن الخيال فيها على ما قرره واحد.

الفريق الثاني: المتكلمون. أجملوا فيها القول. وقالوا: هو إدراك يخلقه الله في الحاسة فيقع كما يقع في اليقظة. وهذا اليقظة وإن كنا لا نتصور كيفيته. وهذا الإدراك النومي أوضح شاهد على ما يقع بعده من المدارك الحسية في الأطوار.

وأما الطور الثالث، وهو طور الأنبياء: فالمدارك الحسية فيها مجهولة الكيفية. عند وجدانيته عندهم بأوضح من اليقين. فيرى النبي الله والملائكة. ويسمع كلام الله منه أو من الملائكة. ويرى الجنة والنار، والعرش والكرسي، ويخترق السموات السبع في إسرائه ويركب البراق فيها، ويلقى النبيين هنالك. ويصلي بهم، ويدرك أنواع المدارك الحسية كما يدرك في طوره الجسماني والنومي، بعلم ضروري يخلقه الله له، لا بالإدراك العادي للبشر في الجوارح. ولا يلتفت في ذلك إلى ما يقوله ابن سينا من تنزله أمر النبوة على أمر النوم في دفع الخيال صورة إلى الحس المشترك. فإن الكلام عليهم هنا أشد من الكلام في النوم، لأن هذا التنزيل طبيعة واحدة كما قررناه، فيكون على هذا حقيقة الوحي والرؤيا من النبي واحدة في يقينها وحقيقتها. وليست كذلك على ما علمت من رؤيا النبي ﷺ قبل الوحي ستة أشهر وأنها كانت بمدة الوحي ومقدمته. ويشعر ذلك بأنه رؤية في الحقيقة. وكذلك حال الوحي في نفسه فقد كان يصعب عليه ويقاس منه شدة كما هي في الصحيح. حتى كان القرآن ينزل عليه آيات مقطعات. وبعد ذلك نزل عليه براءة في غزوة تبوك جملة واحدة، وهو يسير على ناقته. فلو كان ذلك من تنزل الفكر إلى الخيال فقط، ومن الخيال إلى الحس المشترك، لم يكن بين هذه الحالات فرق.

وأما الطور الرابع، وهو طور الأموات في برزخهم الذي أوله القبر. وهم مجردون عن البدن. أو في بعثتهم عندما يرجعون إلى الأجسام. فمداركهم الحسية موجودة، فيرى الميت في قبره الممكان يسائلاته. ويرى مقعده من الجنة أو النار بعيني رأسه، ويرى شهود الجنائز ويسمع كلامهم وخفق نعالهم في الانصراف عنه، ويسمع ما يذكرون به من التوحيد أو من تقرير الشهادتين، وغير ذلك. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ وقف على قليب بدر وفيه قتلى المشركين من قريش، وناداهم بأسمائهم، فقال عمر: يا

فالطور الأول: عالمه الجسماني بحسه الظاهر وفكره المعاشي وسائر تصرفاته التي أعطاه إياها وجوده الحاضر.

الطور الثاني: عالم النوم، وهو تصور الخيال بإفناذ تصورات جائلة في باطنه، فيدرك منها بجواسه الظاهرة مجردة عن الأزمنة والأمكنة وسائر الأحوال الجسمانية، ويشاهدها في مكان ليس هو فيه. ويحدث للصالح منها البشري بما يترقب من مسراته الدنيوية والأخروية، كما وعد به الصادق صلوات الله عليه. وهذان الطوران عامان في جميع أشخاص البشر، وهما مختلفان في المدارك كما تراه.

الطور الثالث: طور النبوة، وهو خاص بإشراف صنف البشر بما خصهم الله به من معرفته وتوحيده. وتنزل ملائكته عليهم بوحيه. وتكليفهم بإصلاح البشر في أحوال كلها مغايرة للأحوال البشرية الظاهرة.

الطور الرابع: طور الموت الذي تفارق أشخاص البشر فيه حياتهم الظاهرة إلى وجود قبل القيامة يسمى البرزخ يتمتعون فيه ويعذبون على حسب أعمالهم ثم يفضون إلى يوم القيامة الكبرى، وهي دار الجزاء الأكبر نعيمًا وعذاباً في الجنة أو في النار.

والطوران الأولان شاهدهما وجداني. والطور الثالث النبوي شاهده المعجزة والأحوال المختصة بالأنبياء، والطور الرابع شاهده ما تنزل على الأنبياء من وحي الله تعالى في المعاد وأحوال البرزخ والقيامة، مع أن العقل يقتضي به، كما نهينا الله عليه، في كثير من آيات البعثة. ومن أوضح الدلالة على صحتها أن أشخاص الإنسان لو لم يكن لهم وجود آخر بعد الموت غير هذه المشاهد يتلقى فيه أحوالاً تليق به. لكان إيجاده الأول عبثاً. إذ الموت إذا كان عدماً كان مآل الشخص إلى العدم. فلا يكون لوجوده الأول حكمة. والعبث على الحكيم محال. وإذا تقررت هذه الأحوال الأربعة، فلنأخذ في بيان مدارك الإنسان فيها كيف تختلف اختلافاً بيناً يكشف لك غور التشابه. فأما مداركه في الطور الأول فواضحة جليلة. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾. فبهذه المدارك يستولي على ملكات المعارف ويستكمل حقيقة إنسانيته ويوفي حق العبادة المقضية به إلى النجاة.

وأما مداركه في الطور الثاني. وهو طور النوم. فهي المدارك التي في الحس الظاهر بعينها. لكن ليست في الجوارح كما هي في اليقظة. لكن الرأي يتيقن كل شيء أدركه في نومه لا يشك فيه ولا يرتاب. مع خلو الجوارح عن الاستعمال العادي لها. والناس في

رسول الله! أنكلهم هؤلاء الجيف؟ فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع منهم لما أقول».

ثم في البعثة يوم القيامة يعاينون بأسمائهم وأبصارهم كما كانوا يعاينون في الحياة من نعيم الجنة على مراتبه وعذاب النار على مراتبه، ويرون الملائكة ويرون ربهم، كما ورد في الصحيح: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة، كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته». وهذه المدارك لم تكن لهم في الحياة الدنيا وهي حسية مثلها. وتقع في الجوارح بالعلم الضروري الذي يخلقه الله كما قلناه. وسر هذا أن تعلم أن النفس الإنسانية هي تنشأ بالبدن ومداركها، فإذا فارقت البدن بنوم أو مموت أو صار النبي حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدارك الملكية، فقد استصحبت ما كان معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح، فيدرك بها في ذلك الطور أي إدراك شامت منها، أرفع من إدراكها، وهي في الجسد. قاله الغزالي رحمه الله، وزاد على ذلك أن النفس الإنسانية صورة تبقى لها بعد المفارقة فيها العيان والأذن وسائر الجوارح المدركة أمثالاً لها، كان في البدن وصوراً.

وأنا أقول: إنما يشير بذلك إلى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح في بدنها زيادة على الإدراك. فإذا تظننت لهذا كله علمت أن هذه المدارك موجودة في الأطوار الأربعة، لكن ليس على ما كانت في الحياة الدنيا، وإنما هي تختلف بالقرّة والضعف بحسب ما يعرض لها من الأحوال. ويشير المتكلمون إلى ذلك إشارة بجملة بأن الله يخلق فيها علماً ضرورياً بتلك المدارك. أي مدرك كان، ويعنون به هذا القدر الذي أوضحناه. وهذه نبذة أومأنا بها إلى ما يوضح القول في التشابه. ولو أوسعنا الكلام فيه لقصرت المدارك عنه. فلنفزع إلى الله سبحانه في الهداية والفهم عن أنبيائه وكتابه، بما يحصل به الحق في توحيدنا. والظفر بنجاتنا والله يهدي من يشاء.

الفصل السابع عشر

في علم التصوف

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه

والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص القبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. وقال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس. والظاهر أنه لقب. ومن قال: اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه.

قلت: والأظهر أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب يختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف، فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم، وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم، وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك. فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال وهي التي يتميز بها الإنسان. وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم عن الأدلة والفرح والحزن عن إدراك المولم أو المتلذذ به والنشاط عن الحماض والكسل عن الإعياء. وكذلك المرید في مجاهدته وعبادته لابد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة. وتلك الحالة إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصبح مقاماً للمريد، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات. ولا يزال المرید يترقى من مقام إلى مقام إلى أن يتهسي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. قال ﷺ: «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة» فالمرید لابد له من الترتقي في هذه الأطوار وأصلها كلها الطاعة والإخلاص ويتقدمها الإيمان ويصاحبها، وتنشأ عن الأحوال والصفات نتائج وثمرات. ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان. وإذا وقع، تقصير في النتيجة أو خلل فعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله. وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية. فلهاذا يحتاج المرید إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها؛ لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك. والمرید يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس لأن الغفلة عن هذا كانت شاملة.

وغاية أهل العبادات إذا لم يتتهوا إلى هذا النوع أنهم يتأتون

الحس، ويتم وجود النفس التي لها من ذاتها، وهو عين الإدراك. فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة. وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود مالا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم. فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعدون منه إذا هاجهم.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية. وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها. وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم. ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام في المدارك التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها، فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حيثئذ وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش ثم إلى الطش. هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الإحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة.

ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة؛ لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين. وليس مرادنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله أن المرأة الصقيلة إذا كانت محببة أو مقرة وحوذي بها جهة المربي فإنه يتشكل فيه معوجاً على غير صورته. وإن كانت مسطحة تشكل فيها المربي صحيحاً. فالاستقامة للنفس كالإنبساط للمرأة فيما ينطبع فيها من الأحوال. ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلّموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك. وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقتهم عن فهم أدواقهم ومواجههم في ذلك. وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم. وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق رداً وقبولاً إذ هي من قبيل الوجدانيات.

تفصيل وتحقيق: يقع كثيراً في كلام أهل العقائد من علماء

بالطاعات مغلصة من نظر الفقه في الأجزاء والامثال. وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً، فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاماً ومرتقى منها إلى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في الفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحاً عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه. فلهاذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه. وصار علم الشريعة على صنفين:

صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعبادات والمعاملات.

وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقتها وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.

فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك. كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقتهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجههم في الأحوال كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهورودي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم. وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسنتهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك.

ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشؤه وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً. ويكشف حجاب

الأئمة. وتقرير هذا الاتحاد في كلامهم على طريقتين:

الأولى: أن ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها ومعقولها، متحدة بها في المصورين، وهي كلها مظاهر له، وهو القائم عليها، أي المقوم لوجودها بمعنى لولاه كانت عدماً وهو رأي أهل الحلول.

الثانية: طريق أهل الوحدة المطلقة وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد، فتفوها بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات. وغالطوا في غيرية المظاهر المدركة بالحواس والعقل بأن ذلك من المدارك البشرية، وهي أوهام. ولا يريدون الزعم الذي هو قسيم العلم والظن والشك، وإنما يريدون أنها كلها عدم في الحقيقة، وجود في المدرك البشري فقط... ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم، لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقره بعد، بحسب الإمكان. والتعويل في تعقل ذلك على النظر والاستدلال، كما في المدارك البشرية، غير مفيد، لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية، وإنما هي حاصلة للأنبياء بالفطرة ومن بعدهم للأولياد بهدائهم. وقصد من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال. وربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الموجودات وترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض.

وربما قصد بعض المصنفين بيان منزههم في كشف الوجود وترتيب حقائقه، فأتى بالأغمض فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح، فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوجودانية التي هي مظهر الأحدية وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير. ويسمون هذا الصدور بالتجلي. وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: «كنت كنزاً مخفياً فأجبت أن أعرف، فخلقت الخلق ليعرفوني». وهذا الكمال في الإيجاد المنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية، وفيها حقائق الصفات والروح والفلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين، والكامل من أهل الملة المحمدية. وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهابطة وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب. هذا في عالم الرتبة فإذا تجلت فهي في عالم الفتق. انتهى.

الحديث والفقه أن الله تعالى مبين لمخلوقاته. ويقع للمتكلمين أنه لا مبين ولا متصل. ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه. ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات: إما بمعنى الحلول فيها، أو بمعنى أنه هو عينها. وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلاً. فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها، حتى تتضح معانيها فنقول: إن المباشرة تقال لمعين:

أحدهما: المباشرة في الحيز والجهة، ويقابله الاتصال. وتشعر هذه المقابلة على هذه التقيد بالمكان: إما صريحاً وهو تجسيم، أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة. وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المباشرة، فيحتمل غير هذا المعنى. من أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباشرة وقالوا: لا يقال في الباري أنه مبين لمخلوقاته، ولا متصل بها، لأن ذلك إنما يكون للمحتيزات. وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الانصاف بالمعنى وضده. فهو مشروط بصحة الانصاف أولاً، وأما مع امتناعه فلا، بل يجوز الخلو عن المعنى وضده. كما يقال في الجماد، لا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز ولا كاتب ولا أمي. وصحة الانصاف بهذه المباشرة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها. والبارئ سبحانه منزّه عن ذلك. ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرمين وقال: ولا يقال في الباري: مبين للعالم ولا متصل به، ولا داخل فيه ولا خارج عنه. وهو معنى ما يقوله الفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه، بناء على وجود الجواهر غير التحيزة. وأنكرها المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارئ في أخص الصفات. وهو مبسوط في علم الكلام.

وأما المعنى الآخر للمباشرة، فهو المتساوية والمخالفة فيقال: الباري مبين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته. ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط. وهذه المباشرة هي مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين والمتصوفة الأقدمين كأهل الرسالة ومن لحا منحاهم.

وذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صبروا المدارك الوجودانية علمية نظرية، إلى أن الباري تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته. وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو، مثل أفلاطون وسقراط، وهو الذي يعينه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن المتصوفة ويحاولون الرد عليه لأنه ذاتان، تنتهي إحداهما، أو تندرج اندراج الجزء. فلن تلك مغايرة صريحة. ولا يقولون بذلك. وهذا الاتحاد هو الحلول الذي تدعيه النصارى في المسيح عليه السلام وهو أغرب؛ لأنه حلول قديم في حدث أو اتحاد به. وهو أيضاً عين ما نقوله الإمامية من الشيعة في

محسوس، وهو في تلك الحال إلا ما يفصله له الخيال. قالوا: فكذا اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدرَ قَدْرَ مدركه قُدْرَ التفصيل، وهذا هو معنى قولهم: الوهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية.

هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو في غاية السقوط؛ لأننا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون إليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا. والإنسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون: إن المرید عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع، ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمرید عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة؛ لأنه يجشى على المرید من وقوفه عندها فتخسر صفقته، فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة.

ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة، كما أشرنا إليه وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره. وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرأيلي في قصائدهم. وكان سلفهم غالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأوهم فاشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر. واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم. وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين. يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله. ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان. وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها فقال: جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد

أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد. وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية، ولا دليل شرعي، وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقولوه الرافضة في توارث الأئمة عندهم، فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا به. ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء. حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وغلنهم رفعوه إلى علي رضي الله عنه وهو من هذا المعنى أيضاً. وإلا فعلي رضي الله عنه لم ينحس من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في لباس ولا حال. بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهدهم الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة. ولم

ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل. وربما أنكر بظاهر الشرع. هذا الترتيب فإنه لا يعرف في شيء من مناحيه، وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه. يزعمون فيه أن الوجود له قسوى في تفاصيله، بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها.

والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها. ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب، كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولها، وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية، وزيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية، ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة. وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة لكل من غير تفصيل هي القوة الإلهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه. لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة، فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية، وهي في الحقيقة واحدة بسيطة، والاعتبار هو المفصل لها كالإنسانية مع الحيوانية. ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها. فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه، وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال. وهم في هذا كله يفرقون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وإنما أوجها عندهم الوهم والخيال. والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما يقوله الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء، فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه.

وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي، بل والموجودات المعقولة والمتوهمه أيضاً مشروطة بوجود المدرك العقلي، فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري. فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل في الوجود بل هو بسيط واحد، فالحر والبرد والصلابة واللين، بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب، إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود، وإنما هو في المدارك فقط، فإذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل إنما هو إدراك واحد وهو أنا لا غيره. ويعتبرون ذلك بحال النائم فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل

وحد ونعت، فقد قال بموجد محدث. هو نفسه، وتوحيد محدث هو فعله، موجد قديم، هو معبود.

وقد تقدم معنى التوحيد انتفاء عين الحدث، وعين الحدث، الآن ثابتة بل متعددة، والتوحيد مجحد والدعوى كاذبة. كمن يقول لغيره، وهما معاً في بيت واحد: ليس في البيت غيرك! فيقول الآخر بلسان حاله: لا يصح هذا إلا لو عدت أنت! وقد قال بعض المحققين في قولهم: خلق الله الزمان، هذه اللفاظ تناقض أصولها لأن خلق الزمان متقدم على الزمان وهو فعل لا بد من وقوعه في الزمان. وإنما حمل ذلك ضيق العبارة عن الحقائق وعجز اللغات عن تأدية الحق فيها وبها. فإذا تحقق أن الموحّد هو الموحّد، وعدم ما سواه جملة. صحت التوحيد حقيقة. وهذا معنى قولهم: لا يعرف الله إلا الله ولا حرج على من وحد الحق مع بقاء الرسوم والآثار، وإنما هو من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين. لأن

ذلك لازم التقيد والعبودية والشفعية. ومن ترقى إلى مقام الجمع كان في حقه نقصاً، مع علمه بمرتبه، وأنه تليّس تستلزمه العبودية ويرفعه الشهود ويظهر من دنس حدوثه عين الجمع. وأعرق الأصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة. ومدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء إلى الواحد، وإنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل التحريض والتنبيه والتفطّن لمقام أعلى ترتفع فيه الشفعية ويحصل التوحيد المطلق عيناً لا خطاباً. وعبارة: فمن سلّم استراح ومن نازعته حقيقة أنس بقوله: «كنت سمعه وبصره». وإذا عرفت المعاني لا مشاحة في الألفاظ. والذي يفيد هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور، لا نطق فيه ولا خبر عنه. وهذا المقدار من الإشارة كاف. والتعمق في مثل هذا حجاب. وهو الذي أوقع في المقالات المعروفة. انتهى كلام الشيخ أبي مهدي الزيات، ونقلته من كتاب الوزير ابن الخطيب الذي ألفه في المحبة. وسماه التعريف بالحب الشريف. وقد سمعته من شيخنا أبي مهدي مراراً إلا أنني رأيت رسوم الكتاب أوعى له. لطول عهدي به. والله الموفق.

ثم إن كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالانكير سائر ما وقع لهم في الطريقة. والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع:

أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاماً ويرتقى منه إلى غيره كما قلناه.

وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة

يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه على الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة.

تشهد بذلك سيرهم وأخبارهم، نعم إن الشيعة يخيّلون بما ينقلون من ذلك اختصاص علي بالفضائل دون من سواه من الصحابة ذهباً مع عقائد التشيع المعروفة لهم. والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة، وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها ما هو معروف، فانتبسوا من ذلك الموزانة بين الظاهر والباطن وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانتقاد إلى الشرع، وأفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع. ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه رأس العارفين، وأفردوه بذلك تشبيهاً بالإمام في الظاهر وأن يكون على وزانه في الباطن وسموه قطباً لمدار المعرفة عليه، وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة في التشبيه؛ فتأمل ذلك!!

يشهد بذلك كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا به كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق.

تذييل: وقد رأيت أن أجلب هنا فصلاً من كلام شيخنا العارف كبير الأولياء بالاندلس، أبي مهدي عيسى بن الزيات كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات المروي التي وقعت له في كتاب المقامات، توهم القول بالوحدة المطلقة أو يكاد يصرح بها وهي قوله:

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعتة تنبئة أبطلها الواحد
توحيد إياه توحيد ونعت من ينعتة لاحد

فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه: استشكل الناس إطلاق لفظ الجحود على كل من وحد الواحد ولفظ الإلحاد على من نعته ووصفه. واستبشعوا هذه الأبيات وحملوا قائلها على الكفر واستخفوه. ونحن نقول على رأي هذه الطائفة أن معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدث بثبوت عين القدم وأن الوجود كله حقيقة واحدة وآتية واحدة. وقد قال أبو سعيد الجزار من كبار القوم: الحق عين ما ظهر وعين ما بطن. ويرون أن وقوع التعدد في تلك الحقيقة وجود الاثنينية. وهم باعتبار حضرات الحسن بمزلة صور الضلال والصدا والمزاي. وأن كل ما سوى عين القدم، إذا استيعب فهو عدم. وهذا معنى: كان الله، ولا شيء معه، وهو الآن على ما هو عليه كان عندهم. ومعنى قول لييد الذي صدقه رسول الله ﷺ في قوله: «ألا كل شيء، ما خلا الله باطل». قالوا: فمن

كلامه. وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضاً. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله. والله أعلم.

وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الإدراك، إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا، ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحسن، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان. وعلم الله أوسع وخلقه أكبر وشريعته بالهداية أملك، فلا ينطقوا بشيء مما يدركون. بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل ويلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريء، والله الموفق للصواب.

الفصل الثامن عشر

في علم تعبير الرؤيا

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها. وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف. وربما كان في الملوك والأمم من قبل، إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الإسلام. وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولا يد من تعبیرها. فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ وعن أبي بكر رضي الله عنه «الرؤيا الصالحة جزء من مدرك من مدارك الغيب». وقال ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». وقال: «لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له».

وأول ما بدئ به النبي ﷺ من الوحي الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. «وكان النبي ﷺ إذا انتقل من صلاة الغداة يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟» يسألهم عن ذلك ليستبشروا بما وقع من ذلك، مما فيه ظهور الدين وإعزازه.

وأما السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أن الروح

والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في صدورهم عن موجدتها ومكونها كما مر.

وثالثها: التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات.

ورابعها: الفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالسطحات تستشكل ظواهرها، فمتنكر ومحسن ومتأول.

فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة.

وأما الكلام في كرامات القسوم وإخبارهم بالمغيبيات وتصرفهم في الكائنات. فأمر صحيح غير متنكر. وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق. وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الأسفرائيني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور؛ لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق. فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال. هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة.

وقد وقع للضحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور. وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه، لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه. واللغات لا تعطى له دلالة على مرادهم منه؛ لأنها لم توضع إلا للمتعارف وأكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من التشابه، ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة. وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالسطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور.

فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله، وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي يزيد البسطامي وأمثاله. ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل

النفس فيها منغمسة بالبدن وعوارضه، ومنها ثبتت ذلك الإدراك ودوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها في حفظه، فلا يتخللها سهو ولا نسيان. ولا يحتاج إلى إحضارها بالفكر والتذكر، بل تبقى متصورة في ذهنه إذا انتبه. ولا يغرب عنه شيء منها، لأن الإدراك النفساني ليس بزماني ولا يلحقه ترتيب، بل يدركه دفعة في زمن فرد. وأضغاث الأحلام زمانية، لأنها في القوى الدماغية يستخرجها الخيال من الحافظة إلى الحس المشترك كما قلناه. وأفعال البدن كلها زمانية فيلحقها الترتيب في الإدراك والمتقدم والمتأخر.

ويعرض النسيان العارض للقوى الدماغية. وليس كذلك مدارك النفس الناطقة إذ ليست بزمانية، ولا ترتيب فيها. وما ينطبع فيها من الإدراكات فينطبع دفعة واحدة في أقرب من لمح البصر. وقد تبقى الرؤيا بعد الانتباه حاضرة في الحفظ أياما من العمر. لا تشذ بالغفلة عن الفكر بوجه إذا كان الإدراك الأول قوياً، وإذا كان إنما يتذكر الرؤيا بعد الانتباه من النوم بإعمال الفكر والوجهة إليها، وينسى الكثير من تفاصيلها حتى يتذكرها فليست الرؤيا بصادقة، وإنما هي من أضغاث الأحلام. وهذه العلامات من خواص الوحي. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُخْبَرَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي كما في الصحيح. قال ﷺ: «الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» فلخواصها أيضاً نسبة إلى خواص النبوة. وبذلك القدر، فلا تستبعد ذلك، فهذا وجه الحق. والله الخالق لما يشاء.

وأما معنى التعبير، فاعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال فيصوره، فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية. فإذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة وأن المدرك وراها وهو يهتدي بقرائن أخرى تعين له المدرك فيقول مثلاً: هو السلطان لأن البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه بها السلطان وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها، وكذا الألوان تشبه بالنساء لأنهن أوعية؛ وأمثال ذلك. ومن المرتب ما يكون صريحاً لا يفترق إلى تعبير لجلالها ووضوحها أو لقرب النسبة فيها بين المدرك وشبهه. ولهذا وقع في الصحيح: «الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان». فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير، والرؤيا

القلبي وهو البخار اللطيف المنبعث من تحوير القلب اللحمي يتشرب في الشريانات ومع الدم في سائر البدن، وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها. فإذا أدركه المسال بكثرة التصرف في الإحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد الليل اغتنس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبي، فيستجم بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها، وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب.

ثم إن هذا الروح القلبي هو مظية للروح العاقل من الإنسان، والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته، إذ حقيقته وذاته عين الإدراك. وإنما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه. فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقته وهو عين الإدراك فيعقل كل مدرك. فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله، فلا بد له من إدراك لمح من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها، وهي الشاغل الأعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللاتقة به من عالمه. وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع به إلى بدنه. إذ هو ما دام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية. والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية، والتصرف منها هو الخيال. فإنه ينتزع من الصور المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال. وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس إلى المعقول والخيال واسطة بينهما. وكذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركه ألقته إلى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه إلى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتناول المدرك من الروح العقلي إلى الحسي. والخيال أيضاً واسطة. هذه حقيقة الرؤيا. ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام الكاذبة، فإنها كلها صور في الخيال حالة النوم. ولكن إن كانت تلك الصور منزلة من الروح العقلي المدرك فهي رؤيا. وإن كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اللحظة فهي أضغاث أحلام.

واعلم أن للرؤيا الصادقة علامات تؤذن بصدقها وتشهد بصحتها فيستشعر الرائي البشارة من الله بما ألقى إليه في نومه: فمنها سرعة انتباه الرائي عندما يدرك الرؤيا، كأنه يعاجل الرجوع إلى الحس باليقظة ولو كان مستغرقاً في نومه، لثقل ما ألقى عليه من ذلك الإدراك، فيفر من تلك الحالة إلى حالة الحس التي تبقى

التي من الشيطان هي الأضغاث.

الأول: علم المنطق: وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة للعلوم، وفائدته: تمييز الخطأ من الصواب، فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات نفيًا وثبوتًا بمتهمي فكره. ثم النظر بعد ذلك عندهم إما في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية، أو النفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك. ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو العلم الثاني منها. وإما أن يكون النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وهو الثالث منها. والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وهي تسمى التعاليم.

أولها: علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الإطلاق. إما المفصلة من حيث كونها معدودة أو المتصلة، وهي إما ذو بعد واحد وهو الخط أو ذو بعدين وهو السطح، أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي. ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها، إما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض.

وثانيها: علم الأرتمطاطيقي: وهو معرفة ما يعرض للكم المفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة.

وثالثها: علم الموسيقى وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء.

ورابعها: علم الهيئة: وهو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة والثابتة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها.

فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة: المنطق وهو المقدم منها ويعدو التعاليم، فالأرتمطاطيقي أولاً ثم الهندسة، ثم الهيئة، ثم الموسيقى، ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات؛ ولكل واحد منها فروع تنفرع عنه. فمن فروع الطبيعيات الطب، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والعاملات، ومن فروع الهيئة الأزياج وهي قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك. ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحداً بعد واحد إلى آخرها.

واعلم أن أكثر من عني بها في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان في الدولة قبل الإسلام وهما فارس

واعلم أيضاً أن الخيال إذا القى إليه الروح مدركه. فإنما يصوره في القوالب المعتادة للحس وما لم يكن الحس أدركه قط من القوالب فلا يصور فيه شيئاً، فلا يمكن من ولد أعمى أكمه أن يصور له السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالأواني؛ لأنه لم يدرك شيئاً من هذه، وإنما يصور له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبتها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات. وليتحفظ المعبر من مثل هذا، فرمما اختلط به التعبير وفسد قانونه.

ثم إن علم التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه. وتأويله كما يقولون: البحر يدل على السلطان، وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل على الغيظ، وفي موضع آخر على الهم والأمر القادح. ومثل ما يقولون: الحية تدل على العدو، وفي موضع آخر يقولون: تدل على الحياة وفي موضع آخر: هي كاتم سر، وأمثال ذلك. فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو اليق بالرويا. وتلك القرائن، منها في البيضة ومنها في الثوم، ومنها ما يتقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه، وكل ميسر لما خلق له. ولم يزل هذا العلم متناظلاً بين السلف. وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك قوانين وتناقلها الناس لهذا العهد. وألف الكرماني فيه من بعده. ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا. والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل «المتع» وغيره وكتاب «الإشارة» للسالمي من أنفع الكتب فيه وأحضرها. وكذلك كتاب «المراقبة العليا» لابن راشد من مشيختنا بتونس. وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة التي بينهما ولكونها كانت من مدارك الوحي كما وقع في الصحيح، والله علام الغيوب.

الفصل التاسع عشر

في العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستترون في مداركها ومباحثها. وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليفة. وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم:

وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم. وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبجح السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم وتفتنوا في الصنائع والعلوم. تشرفوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها وما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها. فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات. فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها. وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان يتحله فانبعث لهذه العلوم حرصاً وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين واتساختها بالخط العربي، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب. وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها. وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول، واختصروه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده. ودنوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم. واختص هؤلاء بالشهرة والذكر، واقتصر كثيرون على اتحال التعاليم وما يضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات. ووقفت الشهرة في هذا المتحل على جابر بن حيان من أهل المشرق ومسلمة بن أحمد الجرجي من أهل الأندلس وتلميذه. ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة، واستهوت الكثير من الناس بما جتنوا إليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه. ولو شاء ربك ما فعلوه.

ثم إن المغرب والأندلس لما ركبت ربح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة. وبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تنزل عندهم موفورة وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر؛ وأنهم على تبجح من العلوم العقلية والثقلية لتوفر عمراتهم واستحكام الحضارة فيهم. ولقد وقفت بمصر على تأليف في المعقول متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشتهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم. وفي أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعاً على العلوم الحكيمية وتضللاً بها وقدماً عالية

والروم، فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم والدولة والسلطان قبل الإسلام وعصره لهم، فكان لهذه العلوم مجور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم. وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم، وأخذ ذلك عنهم الأسم من فارس ويونان فاخص بها القبط وطمى مجرها فيهم كما وقع في التلو من خبر هاروت وماروت وشأن السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابي بصعيد مصر. ثم تسابعت الملل محظرة ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطلت كان لم تكن إلا بقايا يتناقلها متحلو هذه الصنائع. الله أعلم بصحتها. مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها.

وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيماً ونطاقها متسعاً لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك. ولقد يقال: إن هذه العلوم إنما وصلت إلى يونان منهم حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية، فاستولى على كتبهم وعلومهم. إلا أن المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس، وأصابوا من كتبهم وصحائف علومهم ما لا يأخذه الحصر كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقلها للمسلمين. فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء. فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله. فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا.

وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً، وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم. واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرأون في رواق يظلمهم من الشمس والبرد على ما زعموا. واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه إلى سقراط الدن، ثم إلى تلميذه أفلاطون ثم إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروسي، وتامسطيوس وغيرهم. وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم. وكان أرسخهم في هذه العلوم قديماً وأبعدهم فيه صيتاً وشهرة. وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكر.

ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقيصرية وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها. وبقيت في صحفها ودواوينها غلدة باقية في خزائنتهم، ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم.

ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له

الحساب. وللحكما المتقدمين والمتأخرين فيه تأليف، وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفرّدونه بالتأليف. فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين. وأما المتأخرون فهور عندهم مهجور إذ هو غير متداول ومنفصته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب وغيره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

علم الحساب

ومن فروع علم العدد صناعة الحساب. وهي صناعة علمية في حساب الأعداد بالضم والتفريق. فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع. وبالتضعيف أي يضاعف عدد بأحد عدد آخر وهذا هو الضرب، والتفريق أيضاً يكون في الأعداد إما بالأفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح، أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة. وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر. ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد وتلك النسبة تسمى كسراً. وكذلك يكون الضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع، والعدد الذي يكون مصرحاً به يسمى المنطق، ومربعه كذلك، ولا يحتاج فيه إلى تكلف عمل بالحساب. والذي لا يكون مصرحاً به يسمى الأصم ومربعه: إما منطق مثل جذر ثلاثة الذي مربعه ثلاثة، وإما أصم مثل جذر ثلاثة الذي مربعه جذر ثلاثة، وهو أصم ويحتاج إلى عمل من الحساب. فإن تلك الجذور أيضاً يدخلها الضم والتفريق، وهذه الصناعة الحسابية حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات، وألف الناس فيها كثيراً وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان.

ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة، فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء. درب على الصواب. وقد يقال: من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إنه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس، فيصير ذلك له خلقاً ويتعود الصدق ويلزمه مذهباً. ومن أحسن التأليف المبسطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير. ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني. وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك. وساق في المؤلف رحمه الله كتاب فقه الحساب، لابن منعم والكامل للأحدب، ولخص براهينها وغيرها عن اصطلاح الحروف فيها إلى علل

في سائر الفنون العقلية، والله يؤيد بنصره من يشاء.

وكذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية من أرض رومة وما إليها من العدو الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة ومحملتها متوفرون وطلبها تكثر وتكثر والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويتنار.

الفصل العشرون

في العلوم العددية

وأولها الأرقامطريقي: وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف، إما على التوالي أو بالتضعيف، مثل أن الأعداد إذا توالى متفاضلة بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بُعد واحد، ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فرداً مثل الأعداد على تواليها والأزواج على تواليها والأفراد على تواليها، ومثل أن الأعداد إذا توالى على نسبة واحدة بأن يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ، أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ، فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بُعد واحد أحدهما في الآخر. ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فرداً وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتتالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر، ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والخمسات والسدسات إذا وضعت متتالية في سطورها بأن تجمع من الواحد إلى العدد الأخير فتكون مثلثة. وتوالي المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة. وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون خمسة وهلم جرا. وتوالي الأشكال على توالي الأضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض. ففي عرضه الأعداد على تواليها، ثم المثلثات على تواليها، ثم المربعات ثم الخمسات الخ، وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغاً ما بلغ ويحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولاً وعرضاً خواص غريبة استقرت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها، وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد، فإن لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره.

وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ويدخل في براهين

معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات تصرف في ذلك صناعة الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها. والغرض من تكثر المسائل المفروضة فيها حصول المراتب والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب. ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الأندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها

معاملات الزهراوي وابن السمع وأبي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة الجريطي وأمثالهم. ومن فروعها أيضاً الفرائض. وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثة إذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامهم على ورثته أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاممها على المال كله أو كان في الفريضة إقرار وإنكار من بعض الورثة دون بعض، فيحتاج في ذلك كله إلى عمل يعين به سهام الفريضة إلى كم تصح وسهام الورثة من كل بطن مصححاً حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة. فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسوره وجذوره ومعلومه ومجهوله وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها. فتشتمل حيث هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الوراثة في الفروض والمول والإقرار والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب في تصحيح السهام باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم. وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل: الفرائض ثلث العلم وإنها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك. وعندي أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثة، فإنها أقل من أن تكون في كميتها ثلث العلم.

وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً، وأوعبوا ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله تعالى كتاب ابن ثابت وتختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والصردى وغيرهم. لكن الفضل للحوفي فكتابه مقدم على جميعها. وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله محمد بن سليمان الشطي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب. ولإمام الحرمين فيها تأليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم، ورسوخ قدمه، وكذا للحنفية والحنابلة. ومقامات الناس في العلوم مختلفة. والله يهدي من يشاء بمنه وكرمه لا رب سواه.

معنوية ظاهرة، هي سر الإشارة بالحروف وزيدتها. وهي كلها مستغلفة وإنما جاءها الاستغلاق من طريق البرهان شأن علوم التعاليم؛ لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها. وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال. وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأمل. والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوي المتين.

علم الجبر:

ومن فروع الجبر والمقابلة. وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك. فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب: أولها العدد لأنه به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه.

وثانيها: الشيء لأن كل مجهول فهو من جهة إيهامه شيء وهو أيضاً جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية.

وثالثها: المال وهو أمر مبهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الأس من المضروبين. ثم يقع العمل المفروض في المسألة فيخرج إلى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الأجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجيرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً. ويعطون المراتب إلى أقل الأسوس إن أمكن حتى يصير إلى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال. فإن كانت المعادلة بين واحد وواحد تعين فالمال والجذر يزول إيهامه بمعادلة العدد ويتعين. والمال إن عادل الجذور فيتعين بعدتها. وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهمة فيعينها ذلك الضرب المفصل. ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين. وأكثر ما انتهت المعادلة عندهم إلى ست مسائل؛ لأن المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تحي ستة. وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم، وجاء الناس على أثره فيه. وكتابه في مسائل الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه. وشرحه كثير من أهل الأندلس فأجادوا، ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي. وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعادلات إلى أكثر من هذه الستة الأجناس، وبلغها إلى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالاً وثيقة وأتبعها ببراهين هندسية. والله يزيد في الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى.

المعاملات والفرائض:

ومن فروعها أيضاً المعاملات. وهو تصريف الحساب في

الفصل الحادي والعشرون

في العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير: إما المتصلة كالخط والسطح والجسم، وإما المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية. مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين. ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في جهة ولو خرجا إلى غير نهاية. ومثل أن كل خطين متقاطعين، فالزاويتان المقابلتان منهما متساويتان. ومثل أن الأربعة مقادير التناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك. والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوكليدس ويسمى كتاب الأصول الأركان وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين. فمنها لخنين بن إسحاق ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج ويشتمل على خمس عشرة مقالة. أربعة في السطوح وواحدة في الأقدار المتناسبة وواحدة في نسبة السطوح بعضها إلى بعض، وثلاثة في العدد والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجدور وخمس في المجسمات. وقد اختصره الناس مختصرات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء. أفرد له جزءاً منها اختصه به. وكذلك ابن أبي الصلت في كتاب الاختصار وغيرهم. وشرحه آخرون شروحاً كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق.

واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله، استقامة في فكره؛ لأن براهينها كلها بينة الانتظام جليلة الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيمتها لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيج، وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون: من لم يكن مهندساً فلا يدخل منزلاً؛ وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون: ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقدار وينقيه من الأضرار والأدران، وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه.

ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكرية والمخروطات، أما الأشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين لناودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب ثاودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه. ولا بد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة؛ لأن براهينها متوقفة عليهما. فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات

السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كما نذكره فقد يتوقف على معرفة أحكام الأشكال الكرية سطوحها وقطوعها.

وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضاً. وهو علم ينظر فيما يقع في الأجسام المخروطية من الأشكال والقطوع ويرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الأول. وفائدتها تظهر في الصناعات العلمية التي موادها الأجسام مثل التجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والميائل النادرة وكيف يتحیل على جر الانتقال ونقل الميائل بالهدام والمخال وأمثال ذلك. وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتاباً في الخيل العلمية يتضمن من الصناعات الغريبة والخيال المستظرفة كل عجيب. وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بأيدي الناس ينسبونه إلى بني شاكرو. والله تعالى أعلم.

المساحة:

ومن فروع الهندسة المساحة وهو فن يحتاج إليه في مسح الأرض، ومعناه استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما، أو نسبة أرض من أرض إذ قويت بمثل ذلك. ويحتاج إلى ذلك في توظيف الحراج على المزارع والقدن وبساتين القراسة وفي قسمة الحوائط والأراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك. وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة والله الموفق للصواب بمنه وكرمه.

المنظرة من فروع الهندسة وهو علم يبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري معرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه نقطة الباصر وقاعدته المرئي. ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً. وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة، ورؤية النقط النازلة من المطر خطأ مستقيماً والسفلة دائرة وأمثال ذلك. فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفية براهينه الهندسية، ويتبين به أيضاً اختلاف النظر في القمر باختلاف العروض الذي يبنى عليه معرفة رؤية الأهلة وحصول الكسوفات وكثير من أمثال هذا. وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين. وأشهر من ألف فيه من الإسلاميين ابن الهيثم. ولغيره فيه أيضاً تأليف وهو من هذه العلوم الرياضية وتفاعيلها.

الفصل الثاني والعشرون

في علم الهيئة

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحركة. ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية. كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الإقبال والإدبار، وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الأعظم، وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بمحركة الكواكب الثابتة، وكما يبرهن على تعدد الأفلاك للكوكب الواحد بتعداد الميول له وأمثال ذلك. وإدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها إنما هو بالرصد، فإنما علمنا حركات الإقبال والإدبار به. وكذا تركيب الأفلاك في طبقاتها، وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك.

وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيراً ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين. وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بمحركة الفلك منقول بأيدي الناس.

وأما في الإسلام فلم تقع به عناية إلا في القليل. وكان في أيام المأمون شيء منه، وصنع هذه الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق. وشرع في ذلك فلم يتم. ولما مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده على الأرصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الأحقاب. وإن مطابقة حركة الآلة لرصد لحركة الأفلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطي التحقيق، فإذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك التقريب. وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطي صورة السماوات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة، بل إنما تعطي أن هذه الصور والهيئات للأفلاك لزمت عن هذه الحركات. وأنت تعلم أنه لا يبعد أن يكون الشيء الواحد لازماً لمختلفين، وإن قلنا: إن الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود المألوم ولا يعطي الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم. ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطي منسوباً لبطليموس. وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب. وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء. ولخصه ابن

رشد أيضاً من حكماء الأندلس وابن السمع وابن أبي الصلت في كتاب الاختصار. ولابن الفرغاني هيئة ملخصة قريبها وحذف براهينها الهندسية. والله علم الإنسان ما لم يعلم. سبحانه لا إله إلا هو رب العالمين.

علم الأزياج:

ومن فروع علم الأزياج. وهي صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حسابان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة. ولهذه الصناعة قوانين كالقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية، وأصول متفرقة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض، يضعونها في جداول مرتبة تسهلاً على المتعلمين وتسمى الأزياج. ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقريباً. وللناس فيه تأليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني وابن الكماد.

وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيغ منسوب لابن إسحاق من منجمي تونس في أول المائة السابعة. ويزعمون أن ابن إسحاق عول فيه على الرصد. وأن يهودياً كان بصقلية ماهراً في الهيئة والتعاليم وكان قد عني بالرصد وكان يبعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها، فكان أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه على ما يزعمون. ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه، وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتبنى عليها الأحكام النجومية، وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان من الملك والدول والمواليد البشرية والكوائن الحادثة كما نبينه بعد ونوضح فيه أدلتهم إن شاء الله تعالى. والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه.

الفصل الثالث والعشرون

في علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات والحجج الفريدة للتصديقات، وذلك لأن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس. وجميع الحيوانات

المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن، ويقال للنظر الثاني: إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق، فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية:

الأول في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات في الذهن وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات.

والثاني: في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة.

والثالث: في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة.

ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين، وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية. ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك. وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا بتمثل غيرها، فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب.

والخامس: كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى وهي مذكورة هناك. وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه بتميز الجامع بين طرفي المطلوب المسمى بالوسط وفيه عكوس القضايا.

والسادس: كتاب السفطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد، وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه.

والسابع: كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات.

والثامن: كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية.

هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين. ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور المطابق للماهيات في الخارج، أو لأجزائها أو عوارضها وهي الجنس والفصل والنوع والخاص والعرض العام، فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي

مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات. وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطقية على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي الكلية. ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض. فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه. ولا يزال يرتقي في التجريد إلى الكلية الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه، فيكون لأجل ذلك بسيطاً. وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطقية عليها. ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطقية عليهما. ثم ينظر بينهما وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كلياً يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك عن التجريد. ثم إن الإنسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم: إما تصوراً للماهيات ويعنى به إدراك ساذج من غير حكم معه، وإما تصديقاً أي حكماً بثبوت أمر لأمر، فصار سمي الفكر في تحصيل المطلوبات إما بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التاليف فتحصل صورة في الذهن كلية منطقية على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص، وإما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقاً. وغايته في الحقيقة راجعة إلى التصور؛ لأن فائدة ذلك إذا حصل فلإنما هي معرفة حقائق الأشياء التي هي مقتضى العلم الحكمي. وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد، فاقضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية ليميز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق. وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جلاً وجمالاً ومتفرقاً متفرقاً. ولم تهذب طرقة ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو، فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكمية وفاحتها. ولذلك يسمى بالعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته. وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء.

فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب، فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيد وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن. وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة.

ويقال للنظر الأول: إنه من حيث المادة ونعني به المادة

الفرد والزمن الفرد والخلاء بين الأجسام ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات. وأن العرض لا يبقى زمنين، وإثبات الحال، وهي صفة لموجود، لا موجودة ولا معدومة، وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة. ثم ذهب الشيخ أبو الحسن، والقاضي أبو بكر والأسقاذ أبو إسحاق إلا أن أدلة العقائد منعكسة بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها. ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنها بمثابة العقائد والقدح فيها قدح في العقائد لا بتأنيها عليها. وإذا تأملت المنطق وجدته كله يدور على التركيب العقلي، وإثبات الكلبي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه الكلبي الذهني المنقسم إلى الكليات الخمس، التي هي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام، وهذا باطل عند المتكلمين. والكلبي والذاتي عندهم إنما اعتبار ذهني ليس في الخارج ما يطابقه. أو حال عند من يقول بها فتبطل الكليات الخمس والتعريف المبني عليها. والمقولات العشر، ويبطل العرض الذاتي، فتبطل بطلانه القضايا الضرورية الذاتية المشروطة في البرهان وتبطل المواضع التي هي لباب كتاب الجدل. وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين الطرفين في القياس، ولا يبقى إلا القياس الصوري، ومن التعريفات المساوي في الصادقية على أفراد الحمود، لا يكون أعم منها، فيدخل غيرها، ولا أخص فيخرج بعضها، وهو الذي يعبر عنه النجاة بالجمع والنسج والمتكلمون بالطرد والعكس، وتهدم أركان المنطق جملة. وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق أبطلنا كثيراً من مقدمات المتكلمين فيؤدي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما مر. فلهذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق وعدوه بدعة أو كفراً على نسبة الدليل الذي يبطل. والمتأخرون من لدن الغزالي لما أنكروا انعكاس الأدلة، ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله، وصح عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي وجود الماهيات الطبيعية وکلياتها في الخارج، قضوا بأن المنطق غير منافع للعقائد الإيمانية. وإن كان منافعاً لبعض أدلتها، بل قد يستدلون على إبطال كثير من تلك المقدمات الكلامية، كنفى الجوهر الفرد والخلاء وبقاء الأعراض وغيرها، ويستبدلون من أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يصححونها بالنظر والقياس العقلي. ولم يقدح ذلك عندهم في العقائد السنية بوجه. وهذا رأي الإمام والغزالي وتابعهما لهذا العهد، فتأمل ذلك واعرف مدارك العلماء ومآخذهم فيما يذهبون إليه. والله الهادي والموفق للصواب.

الفن فصارت مقالاته تسعاً وترجمت كلها في اللغة الإسلامية. وكتبها وتناولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس. وابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها.

ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم ونقلوها من كتاب البرهان. وحذفوا كتاب المقولات؛ لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات. وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس. وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين لكنه من توابيع الكلام في القضايا ببعض الوجوه، ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة: البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة. وربما يلزم بعضهم بالسير منها إلاماً وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن. ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع. وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخوافي وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد. وله في هذه الصناعة كتاب كشف الأسرار وهو طويل مختصر المرجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الحمل في قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله يتداوله المتعلمون لهذا العهد فيتفهمون به. وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كان لم تكن وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه. والله الهادي للصواب.

اعلم أن هذا الفن قد اشدت النكير على انتحاله من متقدمي السلف والمتكلمين. وبالغوا في الطعن عليه والتحذير منه وحظروا تعلمه وتعليمه. وجاء المتأخرون من بعدهم من لدن الغزالي والإمام ابن الخطيب فسامحوا في ذلك بعض الشيء. وأكب الناس على انتحاله من يومئذ إلا قليلاً، يمينحون فيه إلى رأي المتقدمين. فينفرون عنه ويبالغون في إنكاره. فلنئين لك نكتة القبول والسردي في ذلك، لتعلم مقاصد العلماء في مذاهبهم، وذلك أن المتكلمين لما وضعوا علم الكلام لنصر العقائد الإيمانية بالحجج العقلية، كانت طريقتهم في ذلك بأدلة خاصة وذكروها في كتبهم كالدليل على حدث العالم بإثبات الأعراض وحدوثها. وامتناع خلو الأجسام عنها، وما لا يخلو عن الحوادث حادث. وكذا إثبات التوحيد بدليل التمانع. وإثبات الصفات القدسية بالجوامع الأربعة إلحاقاً للغائب بالشاهد. وغير ذلك من أدلتهم المذكورة في كتبهم. ثم قرروا تلك الأدلة بتمهيد قواعد وأصول هي كالقدمات لها مثل إثبات الجوهر

الفصل الرابع والعشرون

في الطبيعيات

الطبيعية، فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض. وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب. وربما افردوا بعض الأعضاء بالكلام وجعلوه علماً خاصاً، كالعين وعالمها وأكحائها. وكذلك الحقوا بالفن منافع الأعضاء ومعناه المنفعة التي خلق لأجلها كل عضو من أعضاء البدن الحيواني. وإن لم يكن ذلك من موضوع علم الطب إلا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه.

ولجالينوس في هذا الفن كتاب جليل عظيم المنفعة، وهو إمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين وجالينوس في هذا الفن كتاب قليل عظيم المنفعة، يقال: إنه كان معاصراً لعيسى عليه السلام، ويقال: إنه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطوعة اغتراب. وتكلفه فيها هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده. وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤوا من وراء الغاية مثل الرازي والمجوسي وابن سينا، ومن أهل الأندلس أيضاً كثير وأشهرهم ابن زهر. وهي لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه، وهي من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترف كما نبينه بعد.

وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ويتداولونه متوارثاً عن مشايخ الحلي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا عن موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره. والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء، وإنما هو أمر كان عادياً للعرب. ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل. فإنه ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات. وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». فلا ينبغي أن يجعل شيء من الذي وقع من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني فيكون له أثر عظيم في النفع. وليس ذلك من الطب المزاجي وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية كما وقع في مداواة المبطلون بالعسل ونحوه، والله الهادي إلى الصواب لا رب سواه.

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من إنسان وحيوان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك. وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات. وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون، وألف الناس على حذوها مستتبعين لها بالبيان والشرح، وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء، جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا، ثم خصه في كتاب النجاة وفي كتاب الإشارات، وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها.

وأما ابن رشد فليخص كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف. وألف الناس بعده في ذلك كثيراً لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة. ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الأمدي، وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الإمام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه؛ وفوق كل ذي علم عليم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الخامس والعشرون

في علم الطب

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء الممرض بالأدوية والأغذية بعد أن يبين الممرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل ممرض من الأدوية مستلدين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها وعلى الممرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبله للدواء.

أولاً: في السجية والفضلات والنبض معاذين لذلك قوة

والنجاة، وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الأندلس.

ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودنوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رده منها، ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لاشتراكهما في المباحث، وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فن واحد، ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات وخلطوها فناً واحداً قدموا فيه الكلام في الأمور العامة ثم أتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها إلى آخر العلم، كما فعله الإمام ابن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام. وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها، كان الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد. والتبس ذلك على الناس وهو صواب؛ لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما تلقاها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه، بمعنى أنها لا تثبت إلا به، فإن العقل معزول عن الشرع وأنظاره، وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها ليعلم بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة، بل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية. وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة العقلية كما تلقاها السلف واعتقدها وكثير ما بين المقامين. وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية فهي فوقها ومحيط بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك الحاط بها. فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه، بل نعتقد ما أمرنا به اعتقاداً وعلماً ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه.

والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضة العقائد السلفية بالبدع النظرية، فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها، وأما النظر في مسائل الطبيعيات والإلهيات بالتصحيح والبطان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين. فاعلم ذلك لتمييز به بين الفنين فإنهما مختلفان عند المتأخرين في الوضع والتأليف، والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل، وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتقاد بالدليل وليس كذلك، بل إنما هو رد على الملحد

الفصل السادس والعشرون

في الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات حيث تنميته ونشؤه بالسقي والعلاج واستجاده المنبت وصلاحيه الفصل وتعاذه بما يصلحه ويتمه من ذلك كله، وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عندهم عاماً في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر، فعظمت عنايتهم به لأجل ذلك. وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير. ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدوداً والنظر فيه محظوراً، فاقصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك، وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة. واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الآخر منه مغفلاً، نقل منه مسلمة في كتبه السحرية أمهات من مسائله كما نذكره عند الكلام على السحر إن شاء الله تعالى.

وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة.

الفصل السابع والعشرون

في علم الإلهيات

وهو علم ينظر في الوجود المطلق:

فأولاً في الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان وغير ذلك، ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها روحانيات، ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها، ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدأ. وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه، وأن ذلك عين السعادة في زعمهم. وسيأتي الرد عليهم بعد. وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم؛ ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة. وكتب المعلم الأول فيه موجودة بين أيدي الناس. ولخصها ابن سينا في كتاب الشفاء

العلم بعده.

ولتقدم هنا مقدمة يتبين منها حقيقة السحر، وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف تختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر. وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصفها، فنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للتلاصق من الروحانية البشرية إلى الروحانية الملكية حتى يصير ملكاً في تلك اللحمة التي انسليخت فيها، وهذا هو معنى الوحي كما مر في موضعه، وهي في تلك الحالة حيلة للمعرفة الربانية وغاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر. وما يتبع ذلك من التأثير في الأكران ونفوس السحرة لها خاصية التأثير في الأكران واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية. فاما تأثير الأنبياء فمدد إلهي وخاصية ربانية، ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية. وهكذا كل صنف يختص بخاصية لا توجد في الآخر.

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتي شرحها:

فأوله المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر.

والثاني: بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد، ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول.

والثالث: تأثير في القوى المتخيلة. يعتمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعاً من الحياتال والحكاية وصوراً بما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفس المؤثرة فيه، فينظرها الراؤون كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك، كما يحكى عن بعضهم أنه يري البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبة.

هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها، وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة، ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل، فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له. والوجهة إلى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفرًا، والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت.

ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد في الأكران

والمطلوب مفروض الصدق معلومه. وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالواجب أيضاً فخلطوا مسائل الفنين بفهم وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك. والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة؛ لأنهم يدعون فيها الوجدان ويقرون عن الدليل، والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب.

الفصل الثامن والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول: هو السحر، والثاني: هو الطلسمات.

ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره، كانت كتبها كالمفقودة بين الناس. إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين، فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جأؤوا بالأحكام إنما كانت كتبهم مواعظ وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة والنار، وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم. وكان لهم فيها التأليف والأثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة النبطية لابن وحشية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفتنوا فيه، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي في صور الدرج والكواكب وغيرها.

ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة، فنصفح كتب القرم واستخرج الصناعة وغاص في زبدتها واستخرجها ووضع فيها عدة من التأليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء؛ لأنها من توابعها ولأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية، فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه.

ثم جاء مسلمة بن أحمد الجرجيطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات، فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرفها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا

إلى إنسان فيفتح قلبه ويقع ميتاً وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه، ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء. وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة. وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابية وهي رك ر ف د أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون، ومعنى المتحابية أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث وربيع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك المتحابية.

ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الإلفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما تمثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول، ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويوضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر. ويقصد بالأكثر الذي يراد اتلافه أعني المحبوب ما أدري الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء، فيكون لذلك من التاليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر. قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة.

وكذا طابع الأسد ويسمى أيضاً طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب هند إصبع صورة أسد شائلاً ذنبه عاضاً على حصاة قد قسمها بصفتين وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه إلى قبالة وجهه فاعرة فاهها إلى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب. ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس. فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران محلولاً بماء الورد ورفع في خرقعة حرير صفراء، فإنهم يزعمون أن لمسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه. وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم. ذكر ذلك أيضاً أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة. وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون من مواليد الملوك من الأدلة الشريفة، ويرفع في خرقعة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب. فزعموا أن له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم. وأمثال ذلك كثير.

والكل حاصل منه. ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة، أو إنما هو تخيل؟ فالقاتلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين، والقاتلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة. فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم.

واعلم أن وجود السحر لا مزية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَذَنِّ اللَّهُ﴾.

وفي «الصحیح» أن رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يخيل إليه أنه يفعلُه وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان، فأنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا اغلجت.

وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسرانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار، وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة. ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك، ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور، وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التاليف والتفريق. ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء، ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعداء لذلك تفاولاً بالعقد والالزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نقشه في فعله ذلك استعماراً للعزيمة بالعزم. ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع الفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر.

وشاهدنا أيضاً من المتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فإذا هو مقطوع متخرق. ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبجع، فإذا أمتعها ساقطة من بطونها إلى الأرض. وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير

وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين، وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون: السحر اتحاد روح بروح، والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب؛ لذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة. والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفتطور عندهم على تلك الجبلية المختصة بذلك النوع من التأثير.

والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك. والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال، فيبينهما الفرق في المعقولة والحقيقة والذات في نفس الأمر، وإنما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير وللنفوس المتمحصة للخير والتحدي بها على دعوى النبوة. والسحر إنما يوجد لصاحب الشر، وفي أفعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وضرر الأعداء وأمثال ذلك. وللنفوس المتمحصة للشر. هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الإلهيين.

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم وليس معدوداً من جنس السحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي؛ لأن طريقتهم ومحلته من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد، الإلهي حظ عظيم على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله، وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيها؛ لأنه متقيد فيما يأتيه وينذر للأمر الإلهي. فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله. ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية؛ فلذلك لا يعارضها شيء من السحر.

وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن. وكذلك لما أنزل على النبي ﷺ في المعوذتين ومن شر الغائيات في العقد. قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت. فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره بالهمة الإيمانية؛ وقد نقل المؤرخون أن زركش كاويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المثني العدي منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوقف. ووجدت الراية

وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفائها وكما مسائلها وذكر لنا: أن الإمام الفخر بن الخطيب وضع كتاباً في ذلك وسماه بالسر المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه. والإمام لم يكن من أئمة الشأن فيما نزن ولعل الأمر بخلاف ذلك. وبالعرب صنف من هؤلاء المتحليين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالعاجين وهم الذين ذكرت أولاً أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبيع فتنبع. ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج؛ لأن أكثر ما يتحلل من السحر ببيع الأنعام يهرب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام، لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك، وأخبروني أن لهم وجهة ورياسة خاصة بدعوات كفرية وإشراك لروحانية الجن والكواكب، سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها، وأن بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم، وأن التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر من الناع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم: إنما نفعل فيما يمشي فيه الدرهم، أي ما يملك ويبيع ويشتري من سائر التملكات؛ هذا ما زعموه. وسألت بعضهم فأخبرني به، وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعابيتها من غير ريبة في ذلك.

هذا شأن السحر والطلسمات وأثارهما في العالم، فأما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعاً أثر للنفس الإنسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لها آثاراً في بدنها على غير المجري الطبيعي وأسبابه الجسمية بل آثار عارضة من كيفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور، ومن جهة التصورات النفسانية أخرى، كالذي يقع من قبل التوهم. فإن الماشي على حرف حائط أو جبل متصب إذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك. ولهذا تجد كثيراً من الناس يعمدون أنفسهم ذلك بالدربة عليه حتى يذهب عنهم هذا الوهم، فتجدهم يمشون على حرف الحائط والجبل المتصب ولا يخافون السقوط.

فثبت أن ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم. وإذا كان ذلك أثراً للنفس في بدنها من غير الأسباب الجسمية الطبيعية، فجاز أن يكون لها مثل هذا الأثر في غير بدنها إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة، لأنها غير حالة في البدن ولا متطبعة فيه، فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام.

التأثيرات النفسانية أن صدوره فطري جبلي لا يتخلف ولا يرجع اختيار صاحبه ولا يكتسبه. وسائر التأثيرات وإن كان منها ما لا يكتسب فصدورها راجع إلى اختيار فاعلها والفطري منها قوة صدورها لا نفس صدورها ولهذا قالوا: القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل؛ والقاتل بالعين لا يقتل. وما ذلك إلا لأنه ليس مما يريد ويقصده أو يتركه وإنما هو مجبور في صدوره عنه. والله أعلم بما في الغيوب ومطلع على ما في السرائر.

الفصل التاسع والعشرون

علم أسرار الحروف

وهو المسمى لهذا العهد بالسيما. نقل وضعه من الطلسمات إليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة، فاستعمل استعمال العام في الخاص. وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها، وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس، وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر، وتدوين الكتب والاصطلاحات، ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه. وزعموا أن الكمال الأسامي مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء، فهي سارية في الأكوام على هذا النظام. والأكوام من لدن الإبداع الأول تتنقل في أطواره وتعرب عن أسرارها، فحدث لذلك علم أسرار الحروف، وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله. تعددت فيه تاليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن اتبع آثارهما. وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنی والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوام.

ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف بما هو:

فمنهم من جعله للمزاج الذي فيه، وقسم الحروف بقسمة الطبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر. واختصت كل طبيعة بصف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلاً وانفعلاً بذلك الصنف، فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكريس إلى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر، فالألّف للنار والباء للهواء والجيم للماء والذال للتراب. ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر إلى أن تنفذ. فتعين لعنصر النار حروف سبعة: الألف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال،

يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم.

وهو فيما يزعم أهل الطلسمات والأوقاف غصوص بالغلب في الحروب، وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلاً. إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله، فاخلل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون.

وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات والشعوذة وجعلته كله باباً واحداً محظوراً. لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا، وما لا يهمننا في شيء منهما، فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات؛ لأن أثرهما واحد وكالتجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبه في الضرر. وإن لم يكن مهماً علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قرينة إلى الله فإن من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه. فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالخطر والتحريم.

وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر، فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدي وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه. قالوا: والساحر مصروف عن مثل هذا التحدي فلا يقع منه. ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور؛ لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية؛ لأن صفة نفسها التصديق، فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذباً وهو محال، فإذا لا تقع المعجزة مع الكاذب بإطلاق.

وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين. فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر، وكأنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما. والله يهدي من يشاء وهو القوي العزيز لا رب سواه.

ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس الميعان عندما يستحسن بعينه مدركاً من الذوات أو الأحوال ويفرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حسد يروم معه سلب ذلك الشيء عن اتصف به فيؤثر فساد. وهو جبلة فطرية، أعني هذه الإصابة بالعين. والفرق بينها وبين

بالإحالة. ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد؛ لأن الإكسير أجزاءه كلها جسدانية. ويقولون: موضوع الطلسم روح في جسد لأنه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية. والطبائع السفلية جسد والطبائع العلوية روحانية.

وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء، بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله إنما هو للنفس الإنسانية والمهم البشرية أن النفس الإنسانية محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها بالذات، إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استئزال روحانية الأفلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية. حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة والقلب بطبيعته، فعل الخميرة فيما حصلت فيه. وتصرف أصحاب الأسماء إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والإمداد الرباني، فيسخر الطبيعة لذلك طائفة غير مستعصية، ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها، لأن مدده أعلى منها.

ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استئزال روحانية الأفلاك. وأهون بها وجهة ورياضة. بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى، وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب. وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض، كرامة من كرامات الله لهم. فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت، الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف، واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات. وتصرف بها من هذه الخيثة وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور كان إذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات، بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة. وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاتته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وأثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة، وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه يكون حاله أضعف رتبة. وقد يمزج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب، فيعين لذكر الأسماء الحسنی، أو ما يرسم من أوقافها، بل ولسائر الأسماء أوقافاً تكون من حظوظ الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم، كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الأعماط. وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية. وهي برزخية الكمال الأسماي. وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة. وإثبات هذه المناسبة عندهم إنما هو بحكم المشاهدة. فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة، وتلقى تلك المناسبة تقليداً، كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم، بل هو أوثق منه

وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضاً: الباء والواو والياء والنون والصاد والتاء والظاء، وتعين لعنصر الماء أيضاً سبعة: الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والتاء والغين، وتعين لعنصر التراب أيضاً سبعة: الدال والحاء واللام والعين والراء والحاء والشين.

والحروف النارية لدفع الأمراض الباردة ولضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها، إما حساً أو حكماً. كما في تضعيف قوى المريح في الحروب والقتل والفتك. والمائية أيضاً لدفع الأمراض الحارة من حيات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حساً أو حكماً، كتضعيف قوى القمر وأمثال ذلك.

ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية: فإن حروف إجمد دالة على أعدادها المتعارفة وضماً وطبعاً فينبها من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضاً، كما بين الباء والكاف والراء لدلالاتها كلها على الاثنين كل في مرتبته، فالباء على اثنين في مرتبة الأحاد، والكاف على اثنين في مرتبة العشرات، والراء على اثنين في مرتبة المئين. وكذلك بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالاتها على الأربعة، وبين الأربعة والاثنين نسبة الضعف. وخرج للأسماء أوقاف كما للأعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الأوقاف الذي يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف، وامتزج التصرف من السر الحرفي والسر العددي لأجل التناسب الذي بينهما.

فأما سر التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع، أو بين الحروف والأعداد، فأمر عسير على الفهم، إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات، وإنما مستندهم فيه الذوق والكشف. قال البوني: ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلي، وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي.

وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها وتأثر الأكوان عن ذلك فأمر لا يتكر لثبوته عن كثير منهم تواتراً. وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد، وليس كذلك، فإن حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من جوهر القهر، تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر. بأسرار فلكية ونسب عددية ومخورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم، مشدودة فيه بالهمة، فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية، وهو عندهم كالخميرة المركبة من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاصلة في جملتها، تحيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها وتقلبه إلى صورتها. وكذلك الإكسير للأجسام المعدنية كالخميرة تقلب المعدن الذي تسري فيه إلى نفسها

كما قلناه. وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة المناسبة بين الكلمات والكواكب، إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب الأسماء من الاطلاق في حال المشاهدة، وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية. من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات، من جواهر وأعراض وذوات ومعان، والحروف والأسماء من جملة ما فيه.

فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه، وبينون على ذلك مباني غريبة منكورة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو، كما فعله مسلمة الجريطي في الغاية. والظاهر من حال البوني في أعماقه أنه اعتبر طريقتهم. فإن تلك الأنماط إذا تصفحتها، وتصفحت الدعوات التي تضمنتها. وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة، ثم وقفت على الغاية، وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها، وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب، ويسمونها قيامات الكواكب، أي الدعوة التي يقام له بها، شهد له ذلك: إما بأنه من مادتها، أو بأن التناسب الذي كان في أصل الإبداع وبرز العلم قضي بذلك كله. ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وليس كل ما حرمة الشارع من العلوم بمنكر الثبوت، فقد ثبت أن السحر حق مع حظره. لكن حسينا من العلم ما علمنا.

ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة، بارتباطات بين الكلمات حرفية، يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية، وإنما هي شبه المعاينة والمسائل السبالية. ولهم في ذلك كلام كثير من أدعية وأورد. وأعجبه زايرجه العالم للسبتي وقد تقدم ذكرها. وتبين هنا ما ذكره في كيفية العمل بتلك الزايرة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها، ثم تكشف عن الحق فيها وأنها ليست من الغيب. وإنما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الإفادة فقط، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة، إلا أننا تحررنا أصبح النسخ منها في ظاهر الأمر. والله الموفق بمنه. وهي هذه:

يقول سيبتي ويمد ربه مصل على هاد إلى الناس أرسل
محمد المبعوث خاتم الأنبياء ويرى عن الصبح ومن لهم تلا
إلا هذه زايرجة العالم الذي تراه يحكم وبالعقل قد حلا
فمن أحكم الوضع فيحكم جسمه ويدرك أحكاما تدبرها العلا
ومن أحكم الربط فيدرك قوة ويدرك للتقوى وللكل حصلا
ومن أحكم التصريف يحكم سره ويعقل نفسه وصح له الولا

وفي عالم الأمر تراه محققا وفي عالم الأمر تراه محققا
فهذي سرائر عليكم بكنمها فهذي سرائر عليكم بكنمها
فطاء لها عرش وفيظ نقوشنا فطاء لها عرش وفيظ نقوشنا
ونسب دوائر كسبة فلكها ونسب دوائر كسبة فلكها
وأخرج لأوتار وارسم حروفها وأخرج لأوتار وارسم حروفها
أقم شكل زيرهم وسو يوتيه أقم شكل زيرهم وسو يوتيه
وحصل علوماً للطباع مهندسا وحصل علوماً للطباع مهندسا
وسو لموسيقى وعلم حروفهم وسو لموسيقى وعلم حروفهم
وسو دوائرها ونسب حروفها وسو دوائرها ونسب حروفها
أمير لنا فهو نهاية دولة أمير لنا فهو نهاية دولة
وقطر لأندلس فابن لمودهم وقطر لأندلس فابن لمودهم
ملوك وفرسان وأهل الحكمة ملوك وفرسان وأهل الحكمة
ومهدي توحيد بتونس حكمهم ومهدي توحيد بتونس حكمهم
واقسم على القطر وكن متفقد واقسم على القطر وكن متفقد
فقتش وبرشون الرءا حرفهم فقتش وبرشون الرءا حرفهم
ملوك كناية دلوا لقافهم ملوك كناية دلوا لقافهم
فهند جاشي وسند فهرمس فهند جاشي وسند فهرمس
فقيصرهم جاء ويزدجردهم فقيصرهم جاء ويزدجردهم
وعباس كلهم شريف معظم وعباس كلهم شريف معظم
فإن شئت تدقيق الملوك وكلهم فإن شئت تدقيق الملوك وكلهم
على حكم قانون الحروف وعلمها على حكم قانون الحروف وعلمها
فمن علم العلوم تعلم علمنا فمن علم العلوم تعلم علمنا
فيرسخ علمه ويعرف ربه فيرسخ علمه ويعرف ربه
وحيث أتى اسم والعروض يشقه وحيث أتى اسم والعروض يشقه
وتأيتك أحرف فسو لضرها وتأيتك أحرف فسو لضرها
فمكّن بتكثير وقابل وعوضن فمكّن بتكثير وقابل وعوضن
وفي العقدة والجزور يعرف غالباً وفي العقدة والجزور يعرف غالباً
واختر لمطلع وسويه رتبة واختر لمطلع وسويه رتبة
ويدركها المرء فيبلغ قصده ويدركها المرء فيبلغ قصده
إذا كان سعد والكواكب أسعدت إذا كان سعد والكواكب أسعدت
وإيقاع دالمهم بمرموز ثمة وإيقاع دالمهم بمرموز ثمة
وأوتار زيرهم فللحاء بمهم وأوتار زيرهم فللحاء بمهم
وأدخل بأفلاك وعدل بجدول وأدخل بأفلاك وعدل بجدول
وجوز شذوذ النور تجري ومثله وجوز شذوذ النور تجري ومثله
فواصل لدينا وأصل لفقهننا فواصل لدينا وأصل لفقهننا
فأدخل لفسطاط على الوفق جزره فأدخل لفسطاط على الوفق جزره
فتخرج آياتنا وفي كل مطلب فتخرج آياتنا وفي كل مطلب
وتفنى بحصرها كذا حكم عدهم وتفنى بحصرها كذا حكم عدهم

الواجب التام في الاتصالات

إقامة الأنوار

الجزر المجيب في العمل

إقامة السؤال عن الملوك

مقام الأول نورعه ي مقام بها ه حج لا

الانفعال الروحاني والا نقياد الرباني:

أيضا طالب السر لتهيل ربه لدى أسمائه الحسن تصادف منها
تطبعك أخيار الأنام بقلبههم كذلك ريسهم وفي الشمس أعمالا
تري عامة الناس إليك تقيدوا وما قلته حقا وفي الغير أعمالا
طريقك هذا السبل والسبل الذي أقوله غيركم ونصركموا اجتلى
إذا شئت تحيا في الوجود مع التقى ودنيا متينا أو تكن متوصلا
كذي النون والجند مع سر صناعة وفي سر بسطام أراك مسرلا
وفي العالم العلوي تكون محدثا كذا قالت الهند و صوفية الملا
طريق رسول الله بالحق ساطع وما حكم صنع مثل جبريل أنزلا
فبطشك تهليل وقوسك مطلع ويوم الخميس البدء والأحد التجلى
وفي جمعة أيضا بالأسماء مثله وفي اثنين للحسن تكون مكملا
وفي طائفة سر في هائنه إذا أراك بها مع نسبة الكل أعطلا
وساعة سعد شرطهم في فقرشها وعود ومصطكى بخور تحصلا
وتلو عليها آخر الحشر دعوة والإخلاص والسبع الثاني مرتلا

(اتصال أنوار الكواكب) بلمتاني لا هي لا طغ لدسح في صم مد
وفي يدك اليمنى حديد وخاتم وكل برأسك وفي دعوة فلا
آية حشر فاجعل القلب وجهها واتلو إذا نام الأنام ورتلا
هي السر في الأكوان لا شيء غيرها هي الآية العظمى فحقق وحصلا
تكون بها قطبا إذا جدت خدمة وتذكر أسرارا من العالم العلا
سري بها ناجى ومعروف قبله وراح بها الحلج جهراً فأعقلا؟
وكان بها الشبلي يداب دائما إلى أن رقى فوق المريدين واعتلى
فصف من الأدناس قلبك جاهدا ولازم لأذكار وصم وتنقلا
فما نال سر القوم إلا محقق عليم بأسرار العلوم محصلا

مقامات الحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة
وحب وتعشق وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلعة وأئمة:

الانفعال الطبيعي:

لبرجيس في الحبة الوقت صرفوا بقردير أو نحاس الخلط أكملا
وقيل بفضة صحيحا رأيته فجعلك طالعا خطوطه ما علا
توخ به زيادة النور للقمر وجعلك للقبول شمسه أصلا
ويومه والبخور عود لهندهم ووقت لساعة ودعوته ألا
ودعوته بغاية فهي عملت وعن طسيما دعوة ولها جلا

فتخرج آياتا وعشرون ضعفت من الألف طبعاً فيا صاح جدولا
تريك صنائعاً من الضرب أكملت فصح لك المتى وصح لك العلا
وسجع بزيهم وأثني بتقرة أقمها دوائر الزير وحصلا
أقمها بأوفاق وأصل لعددها من أسرار أحرفهم فعليه سلسلا

٤٣ ك ١ ك وك ح واه عم له ر لا سع كط ١ ل م ن ح
ع ف ول منافرة

الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكيفياتها ومقادير
المقابل منها وقوة الدرجة التمييزة بالنسبة إلى موضع المعلق من
امتزاج طبائع وعلم طب أو صناعة الكيمياء:
أي طالباً للطب مع علم جابر وعالم مقدار المقادير بالولا
إذا شئت علم الطب لا بد نسبة لأحكام ميزان تصادف منها
يفشى عليكم والأكبر عكم وامتزاج وضعكم بتصحیح انجلا

الطب الروحاني:

وشفت إيلوش ٥٦٥ ودهنه بحلا لبهرام برجيس وسبعة أكملا
لتحليل أوجاع البوارد صححوا كذلك والتركيب حيث تنقلا
كد منع مهم ٣٥٥ ومع ٦ صح لهاي ولح ١١١ ومع
وى سكره لا ل ح مهت ٤٤٤ ع ع مى مر ح ٢٢٤٢ ل ك
عا عر.

مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنهم

وعلم مطاريح الشعاعات مشكل وضلع قسيها بمنطقة جلا
ولكن في حج مقام إماننا ويبدو إذا عرض الكواكب عدلا
بدال مراكز بين طول وعرضها فمن أدرك المعنى علا ثم فوضلا
مواقع تربيع وسه مسقط لتسديسهم تثليث بيت التي تلا
يزاد لتربيع وهذا قياسه يقيناً وجذره وبالعين أعمالا
ومن نسبة الربيع ركب شعاعك بصاد وضعفه وتربيعة انجلا

اختص صح صعد ٨ سع وى هذا العمل هنا للملوك
والقانون مطرد عمله ولم ير أعجب منه.

مقامات الملوك المقام الأول ه المقام الثاني

ع ع والمقام الرابع لل مقام الخامس لاي المقام السادس
بير المقام السابع عره

خط الاتصال والانفصال

خط الاتصال

خط الانفصال

الوتر للجميع وتابع الجرر التام

الاتصال والانفصال

كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من

زايجرة العالم بحول الله متقولاً عمن لقيناه من

القائمين عليها

السؤال له ثلاثمائة وستون جواباً عدة الدرج، وتختلف الأجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار. وتناسب العمل من استخراج الأحرف من بيت القصيد.

(تنبيه): تركيب حروف الأوتار والجدول على ثلاثة أصول: حروف عربية تنقل على هيأتها. وحروف برسم الغبار. وهذه تبديل: فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأوتار عن أربعة، فإن زادت عن أربعة نقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سمينته، ومنها حروف برسم الزمام كذلك، غير أن رسم الزمام يعطي نسبة ثانية، فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة، ولها نسبة من خمسة بالعربي. فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم، فاختصروا من الجدول بيتاً خالية. فمتى كانت أصول الأوتار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول وإن لم تزد على أربعة لم يحسب إلا العامر منها.

والعمل في السؤال يفتقر إلى سبعة أصول: عدة حروف الأوتار وحفظ أدوارها بعد طرحها، اثني عشر اثني عشر، وهي ثمانية أدوار في الكامل وستة في الناقص أبداً. ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج، والدور الأكبر الأصلي، وهو واحد أبداً. وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي، وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج. وإضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أدوار مضرورية في أربعة، تكون اثني عشر دوراً. ونسبة هذه الثلاثة الأدوار التي هي كل دور من أربعة نشأة وثلاثية، كل نشأة لها ابتداء. ثم إنها تضرب أدواراً رباعية أيضاً ثلاثية. ثم إنها من ضرب ستة في اثنين، فكان لها نشأة، يظهر ذلك في العمل. ويتبع هذه الأدوار الاثني عشر نتائج. وهي في الأدوار، إما أن تكون نتيجة أو أكثر إلى ستة.

فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزايجرة، هل هي علم قديم، أو محدث بطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الأوتار؟ ثم حروف السؤال. فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء. وثالثه وتر رأس الدلو إلى حد المركز، وأضفنا إليه

وقبل بدعوة حروف لوضعها فتنتش أحرفاً ببدال ولأمها إذا لم يكن يهوى هواك دلها فحسن لباته وبانهم إذا ونفش مشاكل بشرط لوضعهم ومفتاح مريم ففعلهما سسوا وجعلك بالقصد وكمن متفقدنا فاعكس بيوتها باللف ونيف

فصل في المقامات للنهاية:

لك الغيب صورة من العالم العلا ويوسف في الحسن وهذا شبيهه وفي يده طول وفي الغيب ناطق وقد جن بهلول بعشق جمالها ومات أجليه وأشرب حبها فتطلب في التهليل غايته ومن صاحب الحسن له الفوز بالني وتخبر بالغيب إذا جدت خدمة فهذا هو الفوز وحسن تالاه

الوصية والتختم والإيمان والإسلام والتحريم والإلهية:

فهذا قصيدنا وتسعون عنده عجبت لأبيات وتسعون عددها فمن فهم السر فيهم نفسه حرام وشري لإظهار سرنا فإن شئت أهليه فغلظ يمينهم لعلك أن تنجو وسامع سرهم فنجعل لعاس لسره كاتم وقام رسول الله في الناس خاطباً وقد ركب الأرواح أجساد مظهر إلى العالم العلوي يقنى فناؤنا ففسد تم نظمنا وصلّى إلينا وصلّى إله العرش ذو المجد والعلا محمد الهادي الشفيع إمامنا

حروف السؤال، ونظرنا عدتها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين، وأكثر ما تكون ستة وتسعين، وهي جملة الدور الصحيح، فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين. ويختصر السؤال إن زاد عن ستة وتسعين، بأن يسقط جميع أدواره الاثني عشرية، ويحفظ ما خرج منها وما بقي، فكانت في سؤالنا سبعة أدوار، الباقي تسعة، أثبتنا في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثني عشرة درجة، فإن بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور.

ثم تثبت أمدادها أيضاً إن زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث، ثم تثبت الطالع وهو واحد، وسلطان الطالع وهو أربعة، والدور الأكبر وهو واحد، واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال، واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية، وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة، فهذه سبعة أصول. فما خرج من ضرب الطالع والدور الأكبر في سلطان القوس، مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً، وإن زاد على اثني عشر طرح أدواراً، وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية، وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع، يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول، وتعد متوالياً خمس أدواراً، وتحفظها إلى أن يقف العدد على حرف من أربعة، وهي ألف أو باه أو جيم أو زاي. فوق العدد في عملنا على حرف ألف وخلف ثلاثة أدوار، فضررنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة. وهو عدد الدور الأول. فآثبته واجمع ما بين الضلعين: القائم والمبسوط يسكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول، وإن وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها. فلا يعتبر وتستمر على أدوارك. وأدخل بعدد ما في الدور الأول، وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتماعاً فيه. وهي ثمانية، ماراً إلى جهة اليسار، فوقع على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبداً حرف مركب. وإنما هو إذن حرف تاء أربعمئة برسم الزمام، فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد، واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر، أدخل بها في حروف الأوتار، وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد. ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي، وذلك أن تجمع حروف الدور الأول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر، أضعفها بمثلها تكون ستة وعشرين، أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون.

فعلى ذلك يكون نظم الحروف الأول، ثم ثلاثة وعشرون مرتين، ثم اثنان وعشرون مرتين، على حسب هذا الطرح إلى أن

يتمهي للواحد من آخر البيت المنظوم. ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً. ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الأول إلى ثمانية، الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن سبعة عشر الباقي خمسة. فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الأول وعلم عليه، وأدخل في صدر الجدول بسبعة عشر، ثم بخمسة. ولا تعد الخالي، والدور عشرون، فوجدنا حرف ثاء خمسمئة، وإنما هو نسون لأن دورنا في مرتبة العشرات، فكانت الخمسمئة بخمسين لأن دورها سبعة عشر فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مئتين. فأثبت نوناً ثم أدخل بخمسة أيضاً من أوله. وانظر ما حاذى ذلك من السطح نجد واحداً، فقهر العدد واحداً يقع على خمسة، أضف لها واحداً لسطح تكن ستة. أثبت واواً وعلم عليها من بيت القصيد أربعة، وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ اثني عشر، أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر، وهو ما للدور الثاني. فدخلنا بسبعة عشر في حروف الأوتار، فوقع العدد على واحد. أثبت الألف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور الثاني. وضع الدور الثالث وأضف خمسة إلى ثمانية تكن ثلاثة عشر، الباقي واحد. انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وأدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر، وخذ ما وقع عليه العدد وهو (ق) وعلم عليه. وأدخل بثلاثة عشر في حروف الأوتار وأثبت ما خرج، وهو سين، وعلم عليه من بيت القصيد، ثم أدخل مما يلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد، فخذ مما يلي حرف سين من الأوتار فكان (ب) أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد. وهذا يقال له: الدور المعطوف، وميزانه صحيح. وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها، وتضيف إليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين. وهو حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد. وأدخل في صدر الجدول بثلاثة عشر، وانظر ما قابله من السطح وأضعفه بمثل، وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر، فكان حرف جيم، وكانت للجملة سبعة، فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد. وميزانه أن تضعف السبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر، وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر أدوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة بإضافة الباقي من الدور السابق، فاضرب الطالع مع الدور في السلطان، وهذا الدور آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات.

فاضرب على حرفين من الأوتار واصعد بتسعة في ضلع

ثمانية وأدخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخرها من بيت القصيد، فالتسع حرف راء، فأثبتته وعلم عليه. وأدخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قابلها من السطح يكون (ج)، فظهر العدد واحداً يكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فأثبتته وعلم عليه. وعدّ ما يلي الثاني تسعة يكون ألف أيضاً أثبتته وعلم عليه وأضرب على حرف من الأوتار، وأضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر، أدخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف راء، أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين. وأدخل بثمانية عشر في حروف الأوتار تقف على (س) أثبتنا وعلم عليها اثنين. وأضف اثنين إلى تسعة تكون أحد عشر. أدخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح ألف أثبتنا وعلم عليها ستة، وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة. اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الأوتار وأضعف خمسة بمثلها، وأضفها إلى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون، أدخل بها في حروف الأوتار تقع على (ب) أثبتنا وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي في أس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر. أدخل في حروف الأوتار تقف على ق أثبتنا وعلم عليها ستة وعشرين. وأدخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار وذلك حرف ب أثبتته وعلم عليه أربعة وخمسين، واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السادس، وعدته ثلاثة عشر. الباقي منه واحد، فثبتين إذ ذاك أن دور النظم من خمسة وعشرين، فإن الأدوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد، فاضرب خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين، وهو الدور في نظم البيت، فانقل الدور في ضلع ثمانية بواحد. ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه، لأنه دور ثانٍ من نشأة تركيبة ثانية، بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الخارجة على حروف ب من بيت القصيد إلى الواحد تكون خمسة، تضيف خمسة إلى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ ثمانية عشر. أدخل بها في صدر الجدول وخذ ما قابلها من السطح وهو ألف أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين من الأوتار. ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال، فما خرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السؤال ليكون داخلياً في العدد في بيت القصيد. وكذلك تفعل بكل حرف بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال، فما خرج منها زده على بيت القصيد من آخره وعلم عليه. ثم أضف إلى ثمانية عشر ما علمته على حرف الألف من الأحاد، فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين. أدخل بها في حروف

الأوتار تقف على حرف راء، أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد، ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الورثي. فاضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السابع. وهو ابتداء لمخترع ثان ينشأ من الاختراعين. ولهذا الدور من العدد تسعة، تضيف لها واحداً تكون عشرة للنشأة الثانية، وهذا الواحد تزيده بعد إلى اثني عشر دوراً، إذا كان من هذه النسبة، أو تنقصه من الأصل تبلغ الجملة خمسة عشر. فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وأدخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسمائة، وإنما هي خمسون، نون مضاعفة بمثلها، وتلك ق أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين، وأسقط من اثنين وخمسين اثنين، وأسقط تسعة التي للدور، الباقي واحد وأربعون، فادخل بها في حروف الأوتار تقف على واحد أثبتته. وكذلك أدخل بها في بيت القصيد تجدد واحداً، فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين. علامة على الألف الأخير الميزاني، وأخرى على الألف الأولى فقط، والثانية أربعة وعشرون واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة، أدخل في ضلع ثمانية وخمسين وأدخل في بيت القصيد بمجمعة تقع على عين بسبعين، أثبتنا وعلم عليها. وأدخل في الجدول بمجمعة، وخذ ما قابلها من السطح. وذلك واحد، أثبتته وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين، وأسقط واحداً من ثمانية وأربعين للأس الثاني وأضف إليها خمسة، الدور. الجملة اثنان وخمسون. أدخل بها في صدر الجدول تقف على حرف ب غبارية وهي مرتبة مثنوية لتزايد العدد، فتكون مائتين وهي حرف راء، أثبتنا وعلم عليها من القصيد أربعة وعشرين، فانقل الأمر إلى ستة وتسعين إلى الابتداء وهو أربعة وعشرون، فأضف إلى أربعة وعشرين خمسة، الدور، وأسقط واحداً تكون الجملة ثمانية وعشرين. أدخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية، أثبت (٢) وعلم عليها وضع الدور التاسع، وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد. اصعد في ضلع ثمانية بواحد. وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد، ولأنه من النشأة الثانية، ولأنه أول الثلث الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من الثلثات. فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة، الجملة اثنان وخمسون، أدخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية، وإنما هي مثنوية لتجاوزها في العدد عن مرتبتين الأحاد والعشرات، فأثبتته مائتين راء. وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين، وأضف إلى ثلاثة عشر، الدور، واحد الأس، وأدخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية، فعلم عليها ثمانية

تبلغ عشرة، أثبت (ي) وعلم عليها، وانظر في أي المراتب وقعت: وجدناها في الرابعة. دخلنا بسبعة في حروف الأوتار، وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفي فكانت (ف)، أثبتنا وأضف إلى سبعة واحد الدور، الجملة ثمانية. أدخل بها في الأوتار تبلغ (س) أثبتنا وعلم عليها ثمانية، واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور، فإنها آخر مربعات الأدوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين، أدخل بها في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون. وهو نهاية الدور الثاني في الأدوار الحرفية، واضرب على حرفين من الأوتار وضع النتيجة الأولى ولها تسعة. وهذا العدد يناسب أبداً الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أدواراً وذلك تسعة، فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار، وأضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين، فأدخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألفاً، أثبتنا وعلم عليها ستة وتسعين. وإن ضربت سبعة التي هي أدوار الحروف التسعين في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين. والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك، واصعد في ضلع ثمانية تسعة وأدخل في الجدول تسعة تبلغ زمامية. واضرب تسعة فيما ناسب من السطح، وذلك ثلاثة، وأضف لذلك سبعة، عدد الأوتار الحرفية، واطرح واحداً الباقي من دور اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين، أدخل بها في البيت تبلغ خمسة. فاثبتنا وأضف تسعة يمثلها وأدخل في صدر الجدول بثمانية عشر، وخذ ما في السطح وهو واحد، أدخل به في حروف الأوتار تبلغ (م) أثبتنا وعلم عليها، واضرب على حرفين من الأوتار. وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة، فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر، أضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة، وأدخل بسة عشر في بيت القصيد تبلغ (ت) أثبتنا وعلم عليها أربعة وستين. وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين. وزد واحداً الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة. أدخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية، وانظر ما في السطح تجد واحداً أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد وهو التاسع أيضاً من البيت. وأدخل بسة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي عشرات. فاثبتنا لا م وعلم عليها وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد. فانقل في ضلع ثمانية بواحد وأضف إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين. وواحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ سبعة عشر، وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر. أدخل بها في حروف الأوتار تكن لأمأ أثبتنا فهذا آخر العمل.

وعشرين، واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب على حرفين من الأوتار، وأدخل بسبعة تقف على حرف لام، أثبتنا وعلم عليها من البيت. وضع الدور العاشر وعدده تسعة، وهذا ابتداء المثلثة الرابعة، واصعد في ضلع ثمانية تسعة، تكون خلاء، فاصعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء. اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعين، وإنما كانت تضرب في اثنين. وأدخل في الجدول بسة وثلاثين تقف على أربعة زمامية وهي عشرية، فآخذنا أحادية لقله الأدوار. فاثبت حرف دال، وإن أضفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس كان حدها من بيت القصيد. فعمل عليها، ولو دخلت بالتسعة لا غير ممن ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية. فاطرح من ثمانية أربعة الباقي أربعة وهو المقصود. ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشري. فاطرح منه اثنين تكرر التسعة، الباقي ثمانية نصفها المطلوب. ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضربها في ثلاثة لوقعت على عشرة زمامية، والعمل واحد. ثم أدخل بتسعة في بيت القصيد وأثبت ما خرج وهو ألف، ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية وأسقط واحداً وأدخل في صدر الجدول بسة وعشرين، وأثبت ما خرج وهو مائتان بحرف راء وعلم عليها من بيت القصيد ستة وتسعين. واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة، إصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر عليه المشي في الدور الأول، وأدخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال، فخذ ما قبله من السطح وهو واحد، فأدخل بواحد في بيت القصيد تكن سين، أثبتنا وعلم عليها أربعة. ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لأثبتنا الواحد ثلاثة. وأضعف سبعة عشر يمثلها وأسقط واحداً وأضعفها يمثلها وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين، أدخل بها في الأوتار تقف على ستة أثبتنا وعلم عليها، وأضعف خمسة يمثلها. وأدخل في البيت تقف على لام أثبتنا وعلم عليها عشرين، واضرب على حرفين من الأوتار. وضع الدور الثاني عشر وله ثلاثة عشر الباقي واحد، اصعد في ضلع ثمانية بواحد، وهذا الدور آخر الأدوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية. والواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية، وإنما هي أحاد ثمانية، وليس معنا من الأدوار إلا واحد، فلو زاد عن أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر لكانت (ح)، وإنما هي (د)، فاثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين، ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن خمسة، أضعفها يمثلها لللاس

كل قضية، وإنما تستتج الأجوبة على تجزئته بالكلية، وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما ترى والله علام الغيوب الأول اع ط س ال م خ ي ذ ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ي ك ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا.

وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفين وسماء القطب فقال:

سؤال عظيم الخلق حزت قصص إذن غرائب شك ضبطه الجسد مثلاً

فإذا أردت استنتاج المسألة فاحذف ما تكرر من حروفها وأثبت ما فضل منه. ثم احذف من الأصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسألة حرفاً يماثل، وأثبت ما فضل منه. ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالأول من فضله. والثاني من فضل المسألة. وهكذا إلى أن يتم الفضلان أو ينفذ أحدهما قبل الآخر، فتضع البقية على ترتيبها. فإذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقاً لعدد حروف الأصل قبل الحذف فالعمل صحيح، فحينئذ تضيف إليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً. فتعمر بها جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني. وتنقل البقية على حالها. وهكذا إلى أن تتم عمارة الجدول. ويعود السطر الأول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة، ثم تخرج وتر كل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له، وتضع الوتر مقابلاً لحرفه. ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك، وهذه صورته:

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة، واحذر ما يلي الأوتاد وكذلك السواقط لأن نسبتها مضطربة. وهذا الخارج هو أول رتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس المولدات، يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية، فتحمل عليه بعض المجرّدات عن المواد وهي عناصر الأمداد، يخرج أفق النفس الأوسط، وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط. وهذا مخصوص بعوالم الأكوام البسيطة لا المركبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى، فتحمل عليه أول رتب السريان، ثم تطرح من الرابع أول عناصر الأمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان، فتضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع مرتبة السريان، يخرج أول عالم التفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، والثالث في الثالث يخرج

والشال في هذا السؤال السابق: أردنا أن نعلم أن هذه الزايرجة علم محدث أو قديم، بطالع أول درجة من القوس، أثبتنا حروف الأوتار، ثم حروف السؤال. ثم الأصول، وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون أدوارها سبعة الباقي منها تسعة، الطالع واحد، سلطان القوس أربعة، الدور الأكبر واحد، درج الطالع مع الدور اثنان، ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية، إضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد.

سؤال عظيم الخلق حزت قصص إذن غرائب شك ضبطه الجسد مثلاً

حروف الأوتار: ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن ص ع ف ص و ر س ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي.

(حروف السؤال) ال ز ا ي ر ج ع ل م ح د ث ا م ق د ي م الدور الأول ٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩ الدور الخامس ١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥ الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الأولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقي ١.

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنقل الحروف جميعاً والله أعلم ن ف ر و ح ر و ح ا ل و د س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ي س و ا ن س د ر و ا ب لا ا م ر ب و ا ل ع ل ل.

هذا آخر الكلام في استخراج الأجوبة من زايرجة العالم منظومة. وللقوم طرائق أخرى من غير الزايرجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة. وعندهم أن السر في استخراج الجواب منظوماً من الزايرجة، إنما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب وهو: سؤال عظيم الخلق البيت، ولذلك يخرج الجواب على رويه. وأما الطرق الأخرى فيخرج الجواب غير منظوم. فمن طرائقهم في استخراج الأجوبة ما نقله عن بعض المحققين منهم.

فصل في الاطلاع على الأسرار الخفية من

جهة الارتباطات الحرفية

اعلم أرشدنا الله وإياك أن هذه الحروف أصل الأسئلة في

الأجسام.

الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها، فهي قوة في الروحانيات العلويات، وقوة شكلية في عالم الجسمانيات.

الثالث وهو يجمع الباطن، أعني القوة النفسانية على تكوينه، فتكون قبل النطق به صورة في النفس، بعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق.

وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة للمتولدات في الحروف وهي الحرارة والبيوسة، والحرارة والرطوبة والبرودة والبيوسة والبرودة والرطوبة، فهذا سر العدد اليماني، والحرارة جامعة للهواء والنار وهما: (ا ه ط م ف ش ذ ز ح س ق ط)، والبرودة جامعة للهواء والماء (ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ)، والبيوسة جامعة للنار والأرض (ا ه ط م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض)، فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض. وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات بأسباب الأمهات الأول، أعني الطبائع الأربع المنفردة، فمتى أردت استخراج مجهول من مسألة ما، فحقق طالع السائل أو طالع مسألته واستنطق حروف أوتارها الأربعة: الأول والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة، واستخرج أعداد القوى والأوتار كما سنين، واحمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب، إما بصريح اللفظ أو بالمعنى. وكذلك في كل مسألة تقع لك. بيانه:

إذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع. مع اسم السائل والحاجة. فاجمع أعدادها بالجمال الكبير، فكان الطالع الحمل رابعة السرطان سابعة الميزان عاشره الجدي. وهو أقوى هذه الأوتاد. فاسقط من كل برج حرفي التعريف، وانظر ما يخص كل برج من الأعداد المنطقية الموضوعة في دائرتها، واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستطاقية كلها وأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك، ثم أعداد حروف العناصر الأربعة وما يخصها كالأول. وارسم ذلك كله أحرفاً ورتب الأوتاد والقوى والقرائن سطراً متمزجاً. وكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين. واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضمير وجوابه.

مثاله: افرض أن الطالع الحمل كما تقدم. ترسم (ح م ل): فللحاء من العدد ثمانية لها النصف والربع والثلث (د ب ا) الميم لها من العدد أربعون. لها النصف والربع والثلث والعشر، ونصف العشر إذا أردت التدقيق (م ك ي ه د ب)، اللام لها من العدد ثلاثون، لها النصف والثلاثون والثلث والخميس والسادس والعشر

ثالث عالم التفصيل، والرابع في الرابع يخرج رابع عالم التفصيل. فتجمع عوالم التفصيل وتخط من عالم الكل. تبقى العوالم المجردة، فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول. ويقسم المنكسر على الأفق الأوسط يخرج الجزء الثاني، وما انكسر فهو الثالث. ويتعين الرابع هذا في الرباعي. وإن شئت أكثر من الرباعي فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الأوفاق بعد الحروف. والله يرشدنا وإياك.

وكذلك إذا قسم عالم التجريد على أول رتب السريان خرج الجزء الأول من عالم التركيب، وكذلك إلى نهاية الرتبة الأخيرة من عالم الكون. فافهم وتدبر والله المرشد المعين.

ومن طريقهم أيضاً في استخراج الجواب، قال بعض المحققين منهم:

اعلم أبداً الله وإياك بروج منه، أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم. وللعلم به شرائط تلتزم. وقد يستخرج العالم أسرار الخليقة وسرائر الطبيعة، فيطلع بذلك على نتيجتي الفلسفة، أعني السيميا وأختها. ويرفع له حجاب المجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب. وقد شهدت جماعة بأرض المغرب عن اتصال بذلك، فآظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله.

واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر. مفتاح كل خير، كما أن الخرق والعجلة رأس الحرمان، فأقول: إذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الفنايطوس أعني أجد إلى آخر العدد، وهذا أول مدخل من علم الحروف، فانظر ما لذلك الحرف من الأعداد، فتلك الدرجة التي هي مناسبة للحرف هي قوته في الجسمانيات. ثم اضرب العدد في مثله تخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره. وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة، لأن المنقوطة منها مراتب لمعان يأتي عليها البيان فيما بعد.

واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلاً في العالم العلوي أعني الكرسي، ومنها المتحرك والسكن والعلوي والسفلي كما هو مرقوم في أماكنه من الجداول الموضوعة في الزيارج.

واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام:

الأول وهو أقلها قوة تظهر بعد كتابتها، فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم، فمتى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همه كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم

الأربعة على ترتيب الفلك، يخرج لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد. ومثاله:

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء، لأن عدد حروفه عشرون حرفاً، فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور. وهكذا يفعل بجميع الأسماء. حيثنجد تضاف إلى أوتارها، أو للوتر المنسوب للطالع في الزايرة، أو لوتر البيت المنسوب للمالك بن وهيب. الذي جعله قاعدة لمزج الأسئلة وهو هذا:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجسد مثلاً وهو وتر مشهور لاستخراج الجهولات، وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه. وهو عمل تام قائم بنفسه في المثلثات الوضعية. وصفه العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعاً ممزجاً بالفاظ السؤال على قانون صنعة التكسير. وعدة حروف هذا الوتر أعني البيت ثلاثة وأربعون حرفاً، لأن كل حرف مشدد من حرفين.

ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الأصل. لكل حرف فضل من المسألة حرف يمثله، وتثبت الفضلين سطراً ممزجاً بعضه ببعض الحروف. الأول من فضلة القطب والثاني من فضلة السؤال، حتى تتم الفضلتان جميعاً فتكون ثلاثة وأربعين، فتضيف إليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين، لتعدل بها الموازين الموسيقية. ثم تضع الفضلة على ترتيبها فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الأصلي قبل الحذف فالعمل صحيح، ثم عمر بما مزجت جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني.

وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الأول بعينه، وتساوى الحروف في القطر على نسبة الحركة. ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم تضعه مقابلاً لحرفه، ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغراتها النفسانية وأسوسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك. وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الأول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه، فإن اتفقت فحسن، وإلا فاستخرج بين الحرفين نسبة. ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية. وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها الموسيقية. ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة كما تقدم. واحذر ما يلي الأوتاد. وكذلك السواقي لأن نسبتها مضطربة. وهذا الذي يخرج لك هو أول مراتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتحط منها أسوس

(ك ي و هـ ج). وهكذا تفعل بسائر حروف المسألة والاسم من كل لفظ يقع لك.

وأما استخراج الأوتار فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد له.

مثاله: حرف (د) له من الأعداد أربعة مربعها ستة عشر. اقسامها على أعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتراً لدال ثمانية. ثم تضع كل وتر مقابلاً لحرفه. ثم تستخرج النسب العنصرية، كما تقدم في شرح الاستنطاق. ولها قاعدة تطرد في استخراجها من طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح. والله أعلم.

فصل في الاستدلال على ما في الضمائر

الخفية بالقوانين الحرفية

وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علته. وما الموافق لبرئه منه، فمر السائل أن يسمي ما شاء من الأشياء على اسم العلة المجهولة، لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك. ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة إن أردت التدقيق في المسألة، وإلا اقتصر على الاسم الذي سماه السائل. وفعلت به كما نبين. فأقول مثلاً: سمى السائل فرساً فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقية. بيانه: أن للفاء من العدد ثمانين ولها (م ك ي ح ب)، ثم الراء لها من العدد مائتان (ق ن ك ي) ثم السين لها من العدد ستون ولها (م ل ك) فالواو عدد تام له (د ج ب)، والسين مثله ولها (م ل ك). فإذا بسطت حروف الأسماء وجدت عنصرين متساويين، فاحكم لأكثرهما حرفاً بالغلبة على الآخر، ثم اعمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط. وكذلك اسم الطالب واحكم للأكثر والأقوى بالغلبة.

وصفة قوى استخراج العناصر

تكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة. واليبوسة طبع السوداء، فتحكم على المريض بالسوداء. فإذا ألقت من حروف الاستنطاق كلاماً على نسبة تقريبية خرج موضع الوجع في الخلق، ويوافقه من الأدوية حقنة ومن الأشربة شراب الليمون. هذا ما خرج من قوى أعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر. وأما استخراج قوى العناصر من الأسماء العلمية فهو أن تسمي مثلاً محمداً، فترسم أحرفه مقطعة. ثم تضع أسماء العناصر

والفضة هو علم الكيمياء.

وما زال الناس يؤلفون فيها قديماً وحديثاً. وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها. وإمام المدونين فيها جابر بن حيان حتى إنهم يخصونها به فيسمونها: علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالألغاز. وزعموا أنه لا يفتح مقفلها إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها. والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء. وكتب فيها مسلمة الجريطي من حكماء الأندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قريناً لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم. وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع.

وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي الغارز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز والألغاز. ولابن الغسييري من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء في الشعر ملفوظة كلها لغز الأحاجي والمعاينة فلا تكاد تفهم. وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التأليف فيها وليس بصحيح لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون إليه حتى يتحلله. وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي والبدواة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصناعات بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها؟! وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيين والطب لم تظهر بعد ولم تترجم، اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فمممكن.

وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشر بن أبي السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلاميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه من التأمل، قال ابن بشر بن بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض: والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطبائع البقاع والأماكن فمعنا اشتهاها من ذكرها، ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه، فتبدأ بمعرفة فقد قالوا: ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال: أولها هل تكون؟ والثانية من أي تكون؟ والثالثة من أي كيف تكون؟ فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم. فاما البحث

المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية. فتحمل عليه بعض المجرذات عن المواد وهي عناصر الإمداد، يخرج أفق النفس الأوسط. وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط. وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى. فتحمل عليه أول رتب السريان. ثم تطرح من الرابع أول عناصر الإمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان. ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، وكذلك الثالث والرابع، فتجمع عوالم التفصيل وتخط من عالم الكل، تبقى العوالم المجردة، فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول. ومن هنا يطرد العمل في التامة. وله مقامات في كتب ابن وحشية والبوني وغيرهما. وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الإلهية، وعليه مدار وضع الزيجار الحرفية والصنعة الإلهية والنيراجات الفلسفية. والله الملمه وبه المستعان وعليه التكلان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الثلاثون

في علم الكيمياء

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك فيتصفحوون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلاً عن المعادن. ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجد الذائب منها بالتكليس وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة وأمثال ذلك. وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طيعي يسمونه الإكسير. وأنه يلقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يجمى بالنار فيعود ذهباً إريزاً. ويكونون عن ذلك الإكسير إذا الغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقي عليه بالجسد. فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب

للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتماها؛
فلذلك قلت: قوي وضعيف. وإنما وقع التغير والفناء في التركيب
الأول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق.

وقد قال بعض الأولين: التفصيل والتقطيع في هذا العمل
حياة وبقاء، والتركيب موت وفناء. وهذا الكلام دقيق المعنى لأن
الحكيم أراد بقوله: حياة وبقاء خروجه من العدم إلى الوجود؛ لأنه
ما دام على تركيبه الأول فهو فان لا محالة، فإذا ركب التركيب
الثاني عدم الفناء. والتركيب الثاني لا يكون إلا بعد التفصيل
والتقطيع؛ فإذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة. فإذا بقي
الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة؛ لأنه قد صار في الجسد
بمنزلة النفس التي لا صورة لها وذلك أنه لا وزن له فيه وسرى
ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون
من اختلاط الغليظ بالغليظ؛ وإنما أريد بذلك التشاكل في الأرواح
والأجساد؛ لأن الأشياء تتصل بأشكالها. وذكرت لك ذلك لتعلم
أن العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من
الغليظة الجسمانية. وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر
على النار من الأرواح، كما ترى أن الذهب والحديد والنحاس
أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح،
فاقول: إن الأجساد قد كانت أرواحاً في بدنها فلما أصابها حر
الكيان قلبها أجساداً لزجة غليظة فلم تقدر النار على أكلها لإفراط
غلظها وتلزوجها. فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحاً كما كانت
أول خلقها. وإن تلك الأرواح اللطيفة إذا أصابها النار أبقت ولم
تقدر على البقاء عليها، فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في
هذه الحالة وصير الأرواح في هذا الحال فهو أجل ما تعرفه.

أقول: إنما أبقت تلك الأرواح لاشتغالها ولطافتها. وإنما
اشتعلت لكثرة رطوبتها ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلق بها
لأنها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتذي بها إلى أن تنفنى. وكذلك
الأجساد إذا أحست بوصول النار إليها لقلّة تلزوجها وغلظها، وإنما
صارت تلك الأجساد لا تشتعل لأنها مركبة من أرض وماء صابر
على النار، فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للأشياء.
وذلك أن كل متلاش إما يتلاشى بالنار لفارقة لطيفه من كثيفه
ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والمراقبة، فصار ذلك
الانضمام والتداخل مجاورة لا تمازجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء
والدهن وما أشبههما. وإنما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب
الطبائع وتقابلها، فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك
منها.

عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيته بما بحثنا به إليك
من الإكسير. وأما من أي شيء تكون، فإنما يريدون بذلك البحث
عن الحجر الذي يمكنه العمل وإن كان العمل موجوداً من كل
شيء بالقوة لأنها من الطبائع الأربع منها تركيب ابتداء وإليها
ترجع انتهاء، ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون
بالفعل، وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها ومنها لا يمكن تفصيلها
والتي يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة إلى
الفعل والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر؛ لأنها فيها بالقوة
فقط، وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض
وفضل قوة الكبير منها على الصغير. فينبغي لك وفقك الله أن
تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته
وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف
والتقليب، فإن من لم يعرف هذه الأصول التي هي عماد هذه
الصناعة لم ينجح ولم يظفر بخير أبداً.

وينبغي لك أن تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو
يكتفي به وحده؟ وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره فصار
في التدبير واحداً فسمي حجراً. وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله
وكمية أوزانه وأزمانه، وكيف تركيب الروح فيه وإدخال النفس
عليه؟ وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها؟ فإن لم تقدر
فلأي علة؟ وما السبب المرجح لذلك؟ فإن هذا هو المطلوب
فافهم.

واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت أنها
المديرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه. وذلك أن
الجسد إذا خرجت النفس منه مات ويرد فلم يقدر على الحركة
والامتناع من غيره؛ لأنه لا حياة فيه ولا نور. وإنما ذكرت الجسد
والنفس؛ لأن هذه الصفات شبيهة بجسد الإنسان الذي تركيبه على
الغذاء والعشاء وقوامه وتماه بالنفس الحية النورية التي بها يفعل
العظام والأشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي
فيها. وإنما اتفعل الإنسان لاختلاف تركيب طبائعه؛ ولو اتفقت
طبائعه لسلمت من الأعراض والنضاد ولم تقدر النفس على
الخروج من بدنه ولكان خالداً باقياً. فسبحان مدبر الأشياء تعالى.

واعلم أن الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة
في الابتداء فيضية محتاجة إلى الانتهاء، وليس لها إذا صارت في هذا
الحد أن تستحيل إلى ما منه تركيب كما قلناه آنفاً في الإنسان؛ لأن
طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضاً وصارت شيئاً واحداً شبيهاً
بالنفس في قوتها وفعلها، وبالجسد في تركيبه ومجسته بعد أن كانت
طبائع مفردة بأعيانها. فبا عجباً من أفاعيل الطبائع أن القوة

ترداد الأرواح على الأجساد مراراً ليكون الزم إليها وأتوى على قتال النار إذا هي باشرتها عند الألفة، أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه.

ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه، فمنهم من زعم أنه في الحيوان، ومنهم من زعم أنه في النبات، ومنهم من زعم أنه في المعادن، ومنهم من زعم أنه في الجميع. وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها؛ لأن الكلام يطول جداً وقد قلت فيما تقدم: إن العمل يكون في كل شيء بالقوة؛ لأن الطبايع موجودة في كل شيء فهو كذلك، فنريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد إلى ما قاله الحراني: إن الصبغ كله أحد صنفين: إما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه وهو مضمحل متقضب التركيب، والصبغ الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه كتقليل الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً، ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان. فإذا كان هذا هكذا فنقول: إن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات ويرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتماهما. فاما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوص الحكماء فيه. وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها، وذلك أن المعدن يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو اللطف منه إلا أن ينعكس راجعاً إلى الغلظ، وأنه أيضاً لا يوجد في العالم شيء تتعلق به الروح الحية غيره، والروح اللطف ما في العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها. فاما الروح التي في النبات فإنها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظها وغلظ روحه. والروح المتحركة اللطف من الروح الكامنة كثيراً، وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده. ولا تجري إذا قيست بالروح الحية إلا كالأرض عند الماء. كذلك النبات عند الحيوان، فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر. فنبغي للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلاً ويترك ما يخشى فيه عسراً.

واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساماً من الأمهات التي هي الطبايع والحديثة التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم، فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساماً حية

وينبغي لك أن تعلم أن الأخلاط التي هي طبايع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء منه ولا في الكل كما قال الفيلسوف: إنك إذا أحكمت تدبير الطبايع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً، فقد أحكمت ما أردت إحكامه وقوامه، إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها، فمن أدخل عليها غريباً فقد زاع عنها ووقع في الخطأ.

واعلم أن هذه الطبيعة إذا حل لها جسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حشما جرى، لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاج، وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح؛ فافهم هداك الله هذا القول.

واعلم هداك الله أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا يتقضب، وهو الذي يقلب الطبايع ويمسكها ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجبية. وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لأنه يخالف للحياة، وإنما حله بما يوافق ويدفع عنه حرق النار، حتى يزول عن الغلظ وتقلب الطبايع عن حالاتها إلى ما لها أن تقلب من اللطافة والغلظ. فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتقوص وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير فيه.

واعلم أن البارد من الطبايع هو يبس الأشياء ويعقد رطوبتها، والحرار منها يظهر رطوبتها ويعقد يسها وإنما أفردت الحر والبرد لأنهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الأجسام وتتكون، وإن كان الحر أكثر فعلاً في ذلك من البرد؛ لأن البرد ليس له نقل الأشياء ولا تحريكها والحر هو علة الحركة. ومتى ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبداً كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد أحرقته وأهلكته. فمن أجل هذه العلة احتيج إلى البارد في هذه الأعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار. ولم يحذر الفلاسفة أكثر شيء إلا من النيران الحارقة. وأمرت بتطهير الطبايع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها ونفي آفاتها وأوساخها عنها وعلى ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم، فإنما عملهم إنما هو مع النار أولاً وإليها يصير آخراً فلذلك قالوا: إياكم والنيران الحركات. وإنما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجمع على الجسد آتئين فتكون أسرع لهلاكه. وكذلك كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبايعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته. واعلم أن الحكماء كلها ذكرت

فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء. فعند ذلك يقوى الغليظ على إمساك اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتصر عليها وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والديب فيها. ولما وجد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في بعض لتساكلها فصار شيئاً واحداً ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج.

وكذلك النفس إذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بمخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء الآخرين - أعني الروح - والجسد وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه، فإذا لقى هذا المركب الجسد المحلول وألح عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول. ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها، فإذا أرادت النار التعلق بها منبتها من الاتحاد بالنفس عازجة الماء لها. فإن النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً. وكذلك الماء من شأنه النفور من النار. فإذا ألحت عليه النار وأرادت تطهيره حسبه الجسد اليابس المازج له في جوفه فمنعه من الطيران، فكان الجسد علة لإمساك الماء، والماء علة لبقاء الدهن، والدهن علة لثبات الصبغ، والصبغ علة لظهور الدهن، وإظهار الدهنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها. فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل. وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضة وإياها يعنون لا بيضة الدجاج. وأعلم أن الحكماء لم تسميها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها. ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده غيري فقلت له: أيها الحكيم الفاضل أخبرني لأي شيء سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة؟ اختياراً منهم لذلك أم لمعنى دعاهم إليه؟ فقال: بل لمعنى غامض! أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة؟ فقال: لشبهها وقرباتها من المركب ففكر فيه، فإنه سيظهر لك معناه. فقيت بين يدي مفكراً لا أقدر على الوصول إلى معناه. فلما رأى ما بي من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة وقال لي: يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الألوان عند امتزاج الطابع وتآلفها. فلما قال ذلك انجلت عني الظلمة وأضاء لي نور قلبي وقوي عقلي على فهمه فنهضت شاكرًا الله عليه إلى منزلي وأقمت على ذلك شكلاً هندسياً يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة. وأنا واضع لك في هذا الكتاب.

وأقساماً ميتة، فجعلوا كل متحرك فاعلاً حياً، وكل ساكن مفعولاً ميتاً. وقسموا ذلك في جميع الأشياء وفي الأجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية فسموا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشتعل حياً، وما كان على خلاف ذلك سموه ميتاً، فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعاً حياً، وما لم يتفصل سموه ميتاً، ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية.

فلم يجدوا لوفى هذه الصناعة مما يفصل فصولاً أربعة ظاهرة للعيان، ولم يجدوا غير الحجر الذي في الحيوان فيحشوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه، فتكيف لهم منه الذي أرادوا. وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات. بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك. فأما النبات فمنه ما يفصل ببعض هذه الفصول مثل الأشنان، وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس، إذا مزجت ودبرت كان منها ما له تأثير. وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتديره أسهل وأيسر. فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده. إننا بينا أن الحيوان أرفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الأرض. ولما كان النبات ألطف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف، فوجب له بذلك اللطافة والركة. وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب. وبالجمله فإنه ليس في الحيوان شيء يفصل طبائع أربعاً غيره فافهم هذا القول، فإنه لا يكاد يخفى إلا على جاهل يئس الجهالة ومن لا عقل له. فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتكم جنسه وأنا أبين لك وجوه تدبيره حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الإنصاف إن شاء الله سبحانه.

التدبير على بركة الله خذ الحجر الكريم فأودعه القرعة والإنبيق وفصل طبائعه الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد والروح والنفس والصبغ، فإذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فأرفع كل واحد في إنائه على حدة وخذ الهابط أسفل الإناء وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفأزه وبيضه تبييضاً محكماً وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه، فإنه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد. ثم اعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تالطف وترق وتصفو. فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابداً بالتركيب الذي عليه مدار العمل. وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين.

فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ، وأما التعفين

بصناعة طبيعية. والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة: إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة. فأما الكرامة فظاهرة، وأما السحر فلأن الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه بقلب الأعيان المادية بقوته السحرية. ولابد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات، وبالجملة من غير مادتها المخصصة بها، كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب والترك في قاصية الشمال أنهم يسحرون الجو للأمطار وغير ذلك.

ولما كانت هذه تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر، والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة. ومن كان قبلهم من حكماء الأمم إنما نحو هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه ألفاظاً حذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه، لا أن ذلك يرجع إلى الضئيلة بها كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك. وانظر كيف سعى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر والطلسمات غاية الحكيم إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه؛ لأن الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات. ومن كلامه في الفتن يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية. والله العليم الخبير.

الفصل الحادي والثلاثون

في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذا الفصل وما بعده مهم؛ لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن. وضررها في الدين كثير، فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها. وذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع، فإنها بعض من مدارك العقل. وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني: محب الحكمة. فبحسبها عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانوناً

مثال ذلك أن المركب إذا تم وكمل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء إلى ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار إلى ما في البيضة من طبيعة النار. وكذلك الطيعتان الأخريان، الأرض والماء، فاقول: إن كل شيتين متناسين على هذه الصفة هما متشابهان. ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوح فإذا أردنا ذلك، فإننا نأخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة البيوضة ونضيف إليها مثلها من طبيعة الرطوبة وتدبرهما حتى تنشف طبيعة البيوضة طبيعة الرطوبة وتقبل قوتها. وكان في هذا الكلام رمزاً ولكنه لا يخفى عليك. ثم تحمل عليهما جميعاً مثلثهما من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال. ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال البيوضة بالقوة. وتعمل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطية بسطح المركب طبيعتين فتجعل أولاً الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعاً (أ ح د) ووسطاً أبجد، وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعاً هزوح، فاقول: إن سطح أبجد يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء التي تسمى نفساً وكذلك (بج) من سطح المركب. والحكماء لم تسم شيئاً باسم شيء إلا لشبهه به. والكلمات التي سألت عن شرحها الأرض المقدسة وهي المتعقدة من الطبائع العلوية والسفلية. والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم حر بالزجاج حتى صار نحاساً والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد فيه الأرواح وتخرجه الطبيعة العلوية التي تستجن فيها الأرواح لتقابل عليها النار والفرفة لون أحمر يحدته الكيان. والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة. فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة، والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى. والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لتقلها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعاً والمحطة بهما. وأما سائر الباقي فمبتدعة ومخترعة. إلباساً على الجاهل، ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها. فهذا جميع ما سألتي عنه وقد بعثت به إليك مفسراً ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام.

انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة الجريطي شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيمايا والسحر في القرن الثالث وما بعده.

وانت ترى كيف صرف الفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف، وذلك دليل على أنها ليست

ويميله إلى الحمد منها واجتنابه للمذموم بفطرته، وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي وهذا عندهم هو معنى التعيم والعذاب في الآخرة إلى خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم.

وإمام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها ودون علمها واطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الأحقاب هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الإسكندر ويسمونه المعلم الأول على الإطلاق يعنون معلم صناعة المنطق، إذ لم تكن قبله مهذبة، وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها، وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك القانون ما شاء، لو تكفل له بقصدهم في الإلهيات، ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل. وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من متحلي العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاربعها، وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما.

واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه. فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاءهم به في الترقى إلى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله، فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وكانهم في اقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء.

وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض.

أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني؛ لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها. ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي، اللهم إلا ما يشهد له الحس من ذلك، فدليلة شهوده لا تلك البراهين، فأين اليقين الذي يجودونه فيها؟ وربما يكون تصرف الذهن أيضاً في المعقولات الأول المطابقة

يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق. ومحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها أولاً صوراً منطبقة على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع. وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الأوائل. ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معان أخرى وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معان أخرى وهي التي اشتركت بها. ثم تجرد ثانياً إن شاركها غيرها وثالثاً إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والأشخاص، ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الأجناس العالية.

وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض. لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثواني. فإذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة وطلب تصور الوجود. كما هو فلا بد للذهن من إضافة بعضها إلى بعض ونفي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل تصور الوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً إذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر. وصنف التصديق الذي هو تلك الإضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم، لأن التصور التام عندهم هو غاية الطلب الإدراكي وإنما التصديق وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام، وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو، ثم يزعمون أن السعادة في إدراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين.

وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت إليه وهو الذي فرعوا عليه قضايا انظارهم أنهم عثروا أولاً: على الجسم السفلي يحكم الشهود والحس، ثم ترقى إدراكهم قليلاً فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس بالحيوانات، ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل. ووقف إدراكهم قفصوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية. ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان، ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر، تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر. ويزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهنيب النفس وتحلقها بالفضائل، وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره

ولا علم وإنما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة.

والتصوفة كثيراً ما يعنون بمحصل هذا الإدراك للنفس بمحصل هذه البهجة، فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ، وليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية يحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها. وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم.

فأما قولهم: إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيت، إذ البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية؛ لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر. ونحن نقول: إن أول شيء نعى به في تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها لأنها متنازعة له قاذحة فيه وتجد الماهر منهم عاكفاً على كتاب الشفاء والإشادات والنجاة وتلاخيص ابن رشد للقص من تأليف أرسطو وغيره يعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها، ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها. ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل لحظة من هذه السعادة.

والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحصلون الاتصال بالعقل الفعال على الإدراك العلمي، وقد رأيت فساده، وإنما يعني أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك إدراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس.

وأما قولهم: إن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضاً؛ لأننا إنما تبين لنا بما قررره أن وراء الحس مدركاً آخر للنفس من غير واسطة وأنها تتهيج بإدراكها ذلك ابتهاجاً شديداً، وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الأخروية ولا بد، بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة.

وأما قولهم: إن السعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الأوهام والأغلاط في أن الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه. وبيننا فساد ذلك وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى إدراكه بجملة روحانيات أو جسمانيات. والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهم أن الجزء الروحاني إذا فارق القوى

للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات الثواني التي تجريدها في الرتبة الثانية، فيكون الحكم حيثئذ يقينياً بمثابة الحسوسات إذ المعقولات الأول أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حيثئذ دعواؤهم في ذلك. إلا أنه ينبغي لنا الإعراض عن النظر فيها إذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه، فإن مسائل الطبيعيات لا نهمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها.

وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وعلم ما بعد الطبيعة، فإن ذواتها مجهولة رأساً ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها؛ لأن تجريده المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا. ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى بحجاب الحس بينها وبينها، فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في إثبات وجودها على الجملة إلا ما نجده بين جنينا من أمر النفس الإنسانية وأحوال مداركها وخصوصاً في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه. وقد صرح بذلك محققهم حيث ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لأن مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية.

وقال كبيرهم أفلاطون: إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين، وإنما يقال فيها بالأحق والأولى - يعني الظن - وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفيها الظن الذي كان أولاً فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات، وهذه هي غاية الأفكار الإنسانية عندهم.

وأما قولهم إن السعادة في إدراك الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود، وتفسيره أن الإنسان مركب من جزأين، أحدهما: جسماني، والآخر: روحاني ممتزج به، ولكل واحد من الجزأين مدارك مخصصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة، والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس. وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه. واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة، كيف يتهيج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الأصوات فلا شك أن الابتهاج بالإدراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ. فالنفس الروحانية إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها، وهذا الإدراك لا يحصل بنظر

وهو خلو من علوم الملة، فقل أن يسلم لذلك من معاطبها. والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الفصل الثاني والثلاثون

في إبطال صناعة النجوم وضعف

مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية. فالتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله، إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم والظن. وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آحاد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم. وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤونة إبطاله.

ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعهم من الخلق! وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية، قال: لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصرينات ظاهر لا يسع أحداً حجده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك، وفعل القمر في الرطوبات والماء وإفضاج المواد المتعفنة وفواكه القناه وسائر أفعاله.

ثم قال: ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان:

الأولى: التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس.

والثانية: الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فنتظر هل يزيد

الجزماني أدرك إدراكاً ذاتياً له مختصاً بصنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا وليس بعام الإدراك في الموجودات كلها إذ لم تنحصر، وأنه يبتهج بذلك النحو من الإدراك ابتهاجاً شديداً كما يبتهج الصبي بمداركه الحسية في أول نشوئه، ومن لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو بمحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها، (هيئات هيئات لما توعدون).

وأما قولهم: إن الإنسان مستقل بتهديب نفسه وإصلاحها بملاسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم، فأمر مبني على أن ابتهاج النفس بإدراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها؛ لأن الرذائل عاقبة للنفس عن تمام إدراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها.

وقد بينا أن أثر السعادة والشقاوة ومن وراء الإدراكات الجسمانية والروحانية، فهذا التهديب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين. وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدرسين. وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب «المبدأ والمعاد» ما معناه: إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس؛ لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووثيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة. وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة، وقد بسطته لنا الشريعة الحقبة الحمدية فلينظر فيها ولسيرجع في أحواله إليها.

فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها. وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين. وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الأحكام والإنتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها، فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإنتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقاصدهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار. هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت. فليكن الناظر فيها متحرراً جهده من معاطبها، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكن أحد عليها

فاعل إلا الله بطريق استدلال كما رأيته، واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل متهم على ما يقضى به فيما يظهر بادئ الرأي من التأثير، فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف. والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك.

والنبوت أيضاً منكورة لشأن النجوم وتأثيراتها. واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته» وفي قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» الحديث الصحيح.

فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبث من عقائد العوام من الفساد، إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحيان اتفاقاً لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق، فبلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك. فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها، ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء المتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة. وقد شاهدنا من ذلك كثيراً، فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول، ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعياً للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم. فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما، وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولها فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار.

هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره. وليعلم من ذلك أنها، وإن كانت صحيحة في نفسها، فلا يمكن لأحد من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها، بل إن نظر فيها ناظر وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر. فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته مستراً عن الناس وتحته ربة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم، فكيف يحصل منها على طائل؟

ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنياً وسهلت مآخذه

ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته. ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة، وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما، ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى النير الأعظم.

وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر. والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات وتخلق به النطف والبرز فتصير حالاً للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال؛ لأن كفيات البزرة والنطفة كفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما. قال: وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي - يعني القدر - إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء. هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره. ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما يتبين في موضعه. والقوى النجومية على ما قرره وإنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل، ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بجمليتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للآب والنوع التي في النطفة، وقوى الخاصة التي تميز بها صنف صنف من النوع وغير ذلك.

فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن. ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين، وحيث يحصل عنده الظن بوقوع الكائن. والحدس والتخمين قوى للناس في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة، فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك. هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداه ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسابات الكواكب في سيرها لتعرف به أوضاعها، ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه.

ومدرك بطليموس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف؛ لأن قوة الشمس غالبية لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها، فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال، وهذه كلها قاذحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة. ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل، إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا

من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددتها إنما يحذف فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال. فكيف يعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتخمين يكتفان به من الناظر، فأين التحصيل والحذف فيه مع هذه كلها. ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته، فاعتبر ذلك يبين لك صحة ما ذهبنا إليه. والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحداً.

وما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء، وقال في ذلك أبو القاسم الروحي من شعراء أهل تونس:

استغفر الله كل حين قد ذهب العيش والمنايا
أصبح في تونس وأمسي والصباح لله والمساء
الحروف والجوع والمنايا مبدتها المخرج والرباء
والناس في مربة وحرب وما عسى ينفع المراء
فأحمدي يسرى علياً حل به الملك والتواء
وأخسر قال سوف يأتي به إليكم صباً رخاء
والله من فوق ذا وهذا يقضي لعبه ما يشاء
يا راصد الخنفس الجواري ما فعلت هذه السماء
مطلنونا وقد زعمتم أنكم اليوم أملياء
مر خميس على خميس وجاء سبب وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثمان وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول أذاك جهل أم ازدراء
إننا إلى الله قد علمنا أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله في إلهاء حسبكم البدر أو ذكاء
ما هذه الأنجم السواري إلا عباديد أو إسماء
يقضى عليها وليس تقضي وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديماً ما شأنه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعاً يحدثه الماء والمهواء
لم تر حلوا إزاء مر تغذوهمو تربة وماء
الله ربي ولست أدري ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهوى السي تنادي ما لي عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام ولا ثبوت ولا انتفاء
ولست أدري ما الكسب إلا ما جلب البيع والشراء

الفصل الثالث والثلاثون

في إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما

ينشأ من المفاصد عن انتحائها

اعلم أن كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على اتحال هذه الصنائع ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه، وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخساره الأموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخراً إذا ظهر على خيبة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعة. وإنما أطمعهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة، فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة، ويحسبون أنها من إمكانات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعه عندهم للعلاج المسماة عندهم بالجحر المكرم، هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك.

وجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة أن تهى بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء إمهاتها بالماء وبعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ويوشى في انقلابها إلى المعدن المطلوب. ثم تحفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها، فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسمونه الإسكير ويزعمون أنه إذا

فيما لديهم. ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم؛ لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرذالة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكم عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم؛ لأن فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة. والسلطان مكلف بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها.

وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يمرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم، وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقصدير إلى الفضة بذلك النحو مع العلاج، وبالإكسير الحاصل عنده قلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك. مع أنا لا نعلم أن أحداً من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية، إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها. ويتساقلون في ذلك حكايات وقست لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف إلى الوصول يقتنعون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريون في تصديقها شأن الكلفين المغرمن بوساوس الأخبار فيما يكلفون به، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعينة أنكروه وقالوا: إنما سمعنا ولم نر. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل.

واعلم أن انتحال هذه الصناعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين، فلننقل مذاهبهم في ذلك ثم نتلوها بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه، فنقول: إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطوقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين، هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو إنها مختلفة بخواص من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد؟

فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد، وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول، وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته، له فصل وجنس شأن سائر الأنواع. وبني أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لإمكان تبدل الأغراض حيثئذ وعلاجها بالصناعة. فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المآخذ. وبني أبو علي بن سينا على

التي على الفضة الحماة بالنار عادت ذهباً أو النحاس الحمى بالنار عاد فضة على حسب ما قصد به في عمله.

ويزعم المحققون منهم أن ذلك الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورتها ومزاجها وتثبت فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى، كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها، وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء. وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعان يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتها.

هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم، ويتناظرون في فهم لغزها وكشف أسرارها إذ هي في الأكثر تشبه المعنى. كتأليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسلمة الجريطي في كتابه رتبة الحكيم والطفراني والمغربي في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بظائل منها.

فاوضت يوماً شيخنا أبا البركات التلغيفي كبير مشيخة الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التأليف فيها فتصفحه طويلاً ثم رده إلي وقال لي: وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا بالخفية. ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط. إما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة أو الخفية كاللقاء الشبه بين المعادن لصناعة، مثل تبيض النحاس وتلينه بالزوق المصعد فيجيء جسماً معدنياً شبيهاً بالفضة ويغفى إلا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان عمويهاً على الجمهور بالخلاص. وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس، فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه، فهو سارق وأشر من السارق.

ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المتبذرين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار يآوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفس مولعة مجبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش. ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والريبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم

أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى غايته. وانظر شأن الإنسان في طور النطفة ثم العلقه ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته. ونسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر، وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر. فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين، وما يتنقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويمحاذه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم.

ومن شرط الصناعة أبداً تصور ما يقصد إليه بالصناعة، فمن الأمثال السائرة للحكماء: أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل. فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها متفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتعمل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك، وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصناعة. بمثابة من يدعي بالصناعة تخليق إنسان من المني. ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سألنا له تخليق هذا الإنسان وأنى له ذلك!!

ولتقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول: حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به إلى أن يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلاً طبعياً فتصيره وتقلبه إلى صورتها. والفعل الصناعي مسبوقة بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساواتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوى فيها تصوراً مفصلاً واحدة بعد أخرى. وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات.

هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة، إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها. وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته. وذلك أن

مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصناعة واستحالة وجودها بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلق خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل. والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصور، فكيف يحاول انقلابها بالصناعة. وغلطه الطفرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول. ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه إنما هو إعداد المادة لقبوله خاصة. والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الأجسام بالصل والتمهات. ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته.

قال: وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن، ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجائيل البقر. وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصيره سكرًا بمحش القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرن، فما المانع إذاً من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة. فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة. ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها. انتهى كلام الطفرائي بمعناه. وهو الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح. لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذاً آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطفرائي ولا ابن سينا. وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويمحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى أحواله ذهباً أو فضة ويضعفون القوى الفاعلة والمنفصلة ليم في زمان أقصر؛ لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى، فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته وذلك هو الإكسير على ما تقدم.

واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة، إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها، فلا بد من الجزء الغالب على الكل. ولا بد في كل ممزوج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته، ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف

وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الأجساد ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة، أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَظْفَارِهِ فَتَفْخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَظْفَارِهِ﴾ وعلى ذلك فسييل تسييرها يختلف بحسب حال من يؤتاها. فربما أوتيتها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة. وربما أوتيتها الصالح ولا يملك إيتاءها فلا تتم في يد غيره.

ومن هذا الباب يكون عملها سحرياً فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إما معجزة أو كرامة أو سحراً. ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها الغاراً لا يظفر بحقيقته إلا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة. وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها. والله بما يعملون محيط.

وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش وابتغاؤه من غير وجوه الطبيعة كالفلاحة والتجارة والصناعة، فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها. وأكثر من يعني بذلك الفقراء من أهل العمران وللمناس أقوال كثيرة - حتى في الحكماء المتكلمين - في إنكارها واستحالتها. فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان عليّة الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة، والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه. وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها. والله الرزاق ذو القوة المتين لا رب سواه.

الفصل الرابع والثلاثون

في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك. وحيث يشد يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها. ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل. ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات والفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير

حكمة الله في الحجرين وتدورهما أنهما يسم لكاسب الناس ومتمولاتهم. فلو حصل عليهما بالصناعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء. وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد. فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها أو أقل زماناً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخلقهما، وأما تشبيه الطفرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأنثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثر كما زعم.

وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال متحلوها يخطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة. ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتنقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا وإلى غيرنا.

وأما قولهم: إن الإكسير بمثابة الخميرة. وأنه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقبله إلى ذلك، فاعلم أن الخميرة إنما تقلب العجين وتعدله للضم وهو فساد، والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطباع. والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد، فلا يقاس الإكسير بالخميرة. وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم، فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بأمر صناعي. وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق وما كان من ذلك للحلاج وغيره، وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك. وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر ما منه الخشب والخيزران في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجرى تخليقه كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته إلا بإرفاد ما وراء عالم الطباع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعياً ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم، لأن نيله إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطباع والصنائع فهو كالمشي على الماء

على وجه المفاوضة، تصقل الأفكار في تصحيحها. وذلك البيان إما يكون بالعبارة، وهي الكلام المركب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف، وهي كفيات الأصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطبتهم، وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم، فهي شاملة لكل ما يندرج في الضمير من خبر أو إنشاء على العموم.

وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدي بها ما في الضمير، لمن توارى أو غاب شخصه وبعد، أو لمن يأتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه. وهذا البيان منحصر في الكتابة، وهي رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ النطقية حروفاً بحروف وكلمات بكلمات، فصار البيان فيها على ما في الضمير بواسطة الكلام المنطقي، فلماذا كانت في الرتبة الثانية واحداً، فسمي هذا البيان. يدل على ما في الضمائر من العلوم والمعارف، فهو أشرفها. وأهل الفنون معتون بإيداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق بهذه الكتابة، لتعلم الفائدة في حصوله للغائب والمتأخر وهؤلاء هم المؤلفون.

والتأليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانية كثير، ومتنقلة في الأجيال والأعصار وتختلف باختلاف الشرائع والملل والأخبار عن الأمم والدول. وأما العلوم الفلسفية، فلا اختلاف فيها، لأنها إنما تأتي على نهج واحد، فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية، في تصور الموجودات على ما هي عليه، جسمانيها وروحانيها وفلكيها وعصريها ومجردها ومادتها. فإن هذه العلوم لا تختلف، وإنما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية لاختلاف الملل، أو التاريخية لاختلاف خارج الخبر. ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر في رسومها وأشكالها، ويسمى ذلك قلماً وخطاً. فمنها الخط الحميري، ويسمى المسند، وهو كتابة حمير وأهل اليمن الأقدمين، وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مضر، كما يخالف لغتهم. وإن الكل عربياً. إلا أن ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك. ولكل منهما قوانين كلية مستقرة من عبارتهم غير قوانين الآخرين. وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة. ومنها الخط السرياني، وهو كتابة النبط والكلدانيين. وربما يزعم بعض أهل الجهل أنه الخط الطبيعي لقدمه فإنهم كانوا أقدم الأمم، وهذا وهم، ومذهب عامي. لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شيء منها بالطبع، وإنما هو يستمر بالقديم والمران حتى يصير ملكة راسخة، فيظنها المشاهد طبيعية كما هو رأي كثير من البلاد في اللغة العربية، فيقولون: العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع. وهذا

والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القبروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله، وحيث يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد. والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها.

ولو اقتصر المعلمون بالتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً، ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين، مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك، وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دون ولا يطعم أحد في الغاية منه إلا في القليل؟! النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيويه وابن جني وأهل طبقتهم لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتقاريعه وحسن تصرفه فيه. ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء. وهذا نادر من نوادر الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً، الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؟ ولكن الله يهدي من يشاء.

الفصل الخامس والثلاثون

في المقاصد التي ينبغي اعتمادها

بالتأليف وإلغاء ما سواها

اعلم أن العلوم البشرية خزائنها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصل لها ذلك بالتصور للحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً، إما بغير وسط أو بوسط، حتى يستتج الفكر بذلك مطالبه التي يعني بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير فلا بد من بيانها لآخر: إما على وجه التعليم، أو

وخامسها: أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها، ويجعل كل مسألة في بابها، كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم، وفي العتبية من رواية العتبي عن أصحاب مالك، فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها، فهذب ابن أبي زيد المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة. فنجد في كل باب مسائل من غيره. واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده.

وسادسها: أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فيتبع بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي يتحللها البشر بأفكارهم، كما وقع في علم البيان. فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة، تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم، فكتبت في ذلك تأليفهم المشهورة، وصارت أصولاً لفن البيان، ولقنها المتأخرون فأربوا فيها على كل متقدم.

وسابعها: أن يكون الشيء من التأليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسهباً، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف التكرار، إن وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول.

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها. وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء، مثل إتحال ما تقدم لغيره من التأليف أن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبس، من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه في الفن أو يأتي بما لا يحتاج إليه، أو يبدل الصواب بالخطأ، أو يأتي بما لا فائدة فيه. فهذا شأن الجهل والقحة. ولذا قال أرسطو، لما عدد هذه المقاصد، وانتهى إلى آخرها، فقال: وما سوى ذلك ففصل أو شره، يعني بذلك الجهل والقحة. نعوذ بالله من العمل في ما لا ينبغي للعاقل سلوكه. والله يهدي للذي هي أقوم.

الفصل السادس والثلاثون

في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في

وهم. ومنها الخط العبراني الذي هو كتابة بني عابر بن شالح من بني إسرائيل وغيرهم. ومنها الخط اللطيني، خط اللطينيين من الروم، وهم أيضاً لسان مختص بهم. ولكل أمة من الأمم اصطلاح في الكتاب يعزى إليها ويختص بها. مثل الترك والفرنجة والهنود وغيرهم. وإنما وقعت العناية بالأفلام الثلاثة الأولى. أما السرياني فلقدمه كما ذكرنا، وأما العربي والعبري فلتنزل القرآن والتوراة بهما بلسانها. وكان هذان الخطان بياناً لملوهم، فوقعت العناية بمنظومهما أولاً وانبسطت قوانين لاطراد العبارة في تلك اللغة على أسلوبها لتفهم الشرائع التكليفية من ذلك الكلام الرياني. وأما اللطيني فكان الروم، وهم أهل ذلك اللسان، لما أخذوا بدين النصرانية، وهو كله من التوراة، كما سبق في أول الكتاب، ترجموا التوراة وكتب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم، ليقنعوا منها الأحكام على أسهل الطرق. وصارت عنايتهم بلغتهم وكتاباتهم أكد من سواها. وأما الخطوط الأخرى فلم تقع بها عناية، وإنما هي لكل أمة بحسب اصطلاحها. ثم إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة:

أولها: استنباط العلم بموضوعه وتقسيم أبوابه وفصوله وتتبّع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق ويحرص على إيصاله بغيره، لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتاب في المصحف، لعسل المتأخر يظهر على تلك الفائدة، كما وقع في الأصول في الفقه. تكلم الشافعي أولاً في الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الآن.

وثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتأليفهم فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها فيحرص على إيانة ذلك لغيره ممن عساه يستغل عليه، لتصل الفائدة لمستحقها. وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصل شريف.

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد في الإنادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التأليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه، فيودع ذلك الكتاب ليقف على بيان ذلك.

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطلع على ذلك أن يتم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وقد استولى على ملكته، هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات. وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه، وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدرکنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقلدة من العلم ويطلبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن، وإذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات وهو حيثشذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وغرّف عن قبوله وتماذى في هجرانه. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم. ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو متتهياً ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره. لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ونس من التحصيل وهجر العلم والتعليم. واللّه يهدي من يشاء.

وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفریق ما بينهما؛ لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجابة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة؛ لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنويسي الفعل تنويسي الملكة الناشئة عنه. واللّه علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً، فإنه حيثشذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم

العلوم يولعون بها ويدنون منها برناجماً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. وصار ذلك غللاً بالبلاغة وعسيراً على الفهم. وربما عمدوا إلى الكتب الأهمّات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاقتصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم. وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل؛ وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي. ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم يتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها. لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة للمفידين لحصول الملكة التامة. وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة، فقصصوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها. ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلّل فلا هادي له. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل السابع والثلاثون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرّج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة. وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجد ملكته. ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مبهمًا ولا منغلًا إلا وضحه وفتح له مقله فيخلص من الفن

بسهولة، بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات، فقعده عن تحصيل المطلوب. ولم يكده يتخلص من تلك الغمرة إلا قليلاً ممن هداه الله.

فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو تشغب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك وانتبه حجب الألفاظ وعوائق الشبهات واترك الأمر الصناعي جملة، واخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه. وسرح نظرك فيه وفسر ذهنك فيه للفنوس على مرامك منه واضعاً قدمك حيث وضعها أكابر النظائر قبلك متعزلاً للفتح من الله كما فتح عليهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الإمام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطرك عليه كما قلناه، وحيث فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعي ثم اكسه صور الألفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشاهدة وثيق العرى صحيح البينان.

وأما إن وقفت عند المناقشة في الألفاظ والشبهة في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها، وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها المتعددة وتشابه لأجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها، إذ جهة الحق إنما تستبين إذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتباك وتسدل الحجب على المطلوب وتقعده بالنظر عن تحصيله. وهذا شأن الأكثر من النظائر والمتأخرين سيما من سبق له عجمة في لسانه فربطت على ذهنه أو من حصل له شغف بالقانون المنطقي تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها. والذريعة إلى إدراك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه، إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى، وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساقه لذلك في الأكثر. فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل، تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب. والله الهادي إلى رحمته وما العلم إلا من عند الله.

الآخر فيستغلان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسيله مقتصراً عليه، فرمى كان ذلك أجدر بتحصيله، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

الفكر الإنساني:

واعلم أيها المتعلم أنني اتحلف بكافة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة، وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها: وذلك أن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ. تارة يكون مبدعاً للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب، وتارة يكون مبدعاً لعلم ما لم يكن حاصلاً بأن يتوجه إلى المطلوب. وقد يصور طرفيه ويروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان واحداً. ويتنقل إلى تحصيل وسط آخر إن كان متعدداً ويصير إلى الظفر بمطلوبه، هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات. ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه ليعلم سدادها من خطئها؛ لأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتها من اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للتساع فتعين المنطق على التخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض. فالمنطق إذاً أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها؛ ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر. ولذلك تجدد كثيراً من فحول النظر في الخليفة يحصلون على الطالب في العلوم دون صناعة علم المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله تعالى، فإن ذلك أعظم معنى. ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فتفضي بهم بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه.

ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب. فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك.

فأولاً: دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق. ثم تلك المعاني مجردة في الفكر اشتراكاً يقتضيه بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله وموابهه. وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعليم

الفصل الثامن والثلاثون

في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا

تفرع المسائل

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإنهيات من الفلسفة، وعلوم هي آلة ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات والكلنطق للفلسفة. وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين.

فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة. وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط. ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل؛ لأن ذلك يخرج بها عن المقصود إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير. فكلما خرجت عن ذلك خرجت في المقصود وصار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها. وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعلم وشغلاً بما لا ينبغي.

وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق لا بل وأصول الفقه؛ لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلاً واستدلالاً وأكثروا من التفاريع والمسائل بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها مقصودة بذاتها، وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات فتكون لأجل ذلك من نوع اللغو وهي أيضاً مضرّة بالتعلمين على الإطلاق؛ لأن المعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بهذه الآلات والوسائل؛ فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟ فلماذا يجب على المعلمين هذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها ولا يستكثروا من مسائلها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده. فمن نزعت به همة بعد ذلك إلى شيء من التوغل ورأى من نفسه قياماً بذلك وكفاية به، فليختر لنفسه ما شاء من المراقي صعباً أو سهلاً وكل ميسر لما خلق له.

الفصل التاسع والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار

الإسلامية في طرقه

اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينشأ عليه ما يحصل بعده من الملكات. وسبب ذلك أن التعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده؛ لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات. وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينشأ عليه. واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات.

فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصاد على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدايسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع عنه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة.

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر، أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم. وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم. إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتحويد الخط والكتاب.

ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم. لكنهم ينقطعون عند ذلك لاقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول. وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد

المعلم.

العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديره وتقديم العربية في التعليم ضرورةً فساداً للغة، ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة. ثم قال: وما غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول عمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم ما عليه منه. قال: ثم ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه، ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بمجودة الفهم والنشاط. هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إثارةً للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيقوته القرآن، لأنه ما دام في الحجر متقاد للحكم. فإذا تجاوز البلوغ والنحل من ريقة القهر فرما عصفت به رياح الشبهة فألقته بساحل البطالة فيغتمون في زمان الحجر وريقة الحكم تحصيل القرآن له لتلا يذهب خلواً منه. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق. ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه سبحانه.

الفصل الأربعون

في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة. ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً وفست معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع. والتمتدُّن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله. وصار عيلاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجليل فانبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين.

وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها

وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستنظار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس؛ لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس وعندهم أخذ ولدانهم بعد ذلك.

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها. والذي يتقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبهة ولا يخلطونه بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد كما تعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان. وإذا كتبوا لهم الألواح فيخط قاصر عن الإجابة، ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسبح له بعد ذلك من المهمة في طلبه ويتغيه من أهل صنعته.

فأما أهل إفريقية والمغرب فأنفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها. وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام. وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارة العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر غفوظهم عبارة العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله.

وأما أهل الأندلس فأنفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي. وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها. فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا.

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم وأعاد في ذلك وأبدأ وقدم تعليم

ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم. وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني والأربعون

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن

السياسة ومذاهبها

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجربتها في الذهن، أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر على العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس. ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات. وإيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي. فلا تزال أحكامهم وأنظارتهم كلها في الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر. ولا تصير بالجملة إلى المطابقة وإنما يتفرغ ما في الخارج عما في الذهن من ذلك كالأحكام الشرعية، فإنها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة ما في الخارج لها عكس الأنظار في العلوم العقلية. التي يطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج. فهم متمردون في سائر أنظارتهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها. والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية. ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها.

ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتبه في أمر واحد فلعلهما اختلفا في أمور، فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارتهم ونوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم. ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لأنهم يتزعون بتقرب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط. والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على

العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه. ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به. وتجذب ذلك فيهم استقراء وانظرة في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى إنهم يوصفون في كل أفق. وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخاث والكيد وسببه ما قلناه. فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب. وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين: لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً. ومن كلام عمر رضي الله عنه: «من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله». حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدر الذي عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته.

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده. قال خلف الأحمر: بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: يا أحم إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرنه القرآن وعلمه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبيصره بمواقع الكلام وبيده وأمنه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتعيت ذهنه. ولا تمن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه. وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة. انتهى.

الفصل الحادي والأربعون

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة

مزيد كمال في التعلم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعلماً ولقاء، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مغلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم. ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين. فللقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجود العلم عنها

كتاب الله وسنتي». فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد، احتيج إلى وضع التفسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الساقطين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة، وقصد مع ذلك اللسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى هي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد، فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع.

وقد كنا قدمنا أن الصنائع من متحلل الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرة وبعد عنها العرب وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما ربوا في اللسان العربي فاكسبوه بالمرى ومخالطة العرب وصبروه قوانين وقتاً لمن بعدهم.

وكذا حملة الحديث الذين حفظوا على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين. ولم يبق بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. وظهر مصداق قوله ﷺ: «لو تعلق العلم باكناف السماء لئاله قوم من أهل فارس».

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشتغلهم الرئاسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حيثن بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبداً يستكفون عن الصنائع والمهن وما يجبر إليها ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين. وما زالوا يرون لهم حق القيام به، فإنه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتنت حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشغلين بما لا يغني ولا

حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالسابع لا يفارق البر عند الموج. قال الشاعر:

فلا توغلن إذا ما سبحت فإن السلامة في الساحل
فيكون مأموناً من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة
أبناء جنسه، فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره.
وفوق كل ذي علم عليم.

ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع، وبعدها عن المحسوس فإنها نظر في المعقولات الثنائي. ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني. وأما النظر في المعقولات الأول وهي التي تجريدها قريب فليس كذلك، لأنها خيالية وصور المحسوسات حافظه مؤذنة بتصديق انطباقه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثالث والأربعون

في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم وليس في العرب حملة علم لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبه فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيعته، مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال البداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة.

وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بمحمل ذلك. ونقله القراء أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً فليل حملة القرآن يومئذ: قراء إشارة إلى هذا. فهم قراء لكتاب الله والسنة الماثورة عن الله لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسير له وشرح. قال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما:

اللغوية عليها، وجودة الملكة للناسر فيها، وإلا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص. وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة، بحيث يتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عن استعمالها، شأن البديهي والجلي، زال ذاك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم أو خف، ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث فقط. هذا كله إذا كان التعليم تلقيناً وبالخطاب والعبارة.

وأما إن احتاج المتعلم إلى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشاهدة الرسوم الخطية من الدواوين بمسائل العلوم، كان هنالك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب، وبين الألفاظ المقولة في الخيال. لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الألفاظ المقولة. وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة. وإن عرفت بملكة قاصرة كانت معرفتها أيضاً قاصرة، ويزداد على الناسر والمتعلم بذلك حجاب آخر بينه وبين مطلوبه، من تحصيل ملكات العلوم أعوص من الحجاب الأول. وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وصار إنما يعاني فهم مباحثها فقط. هذا شأن المعاني مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة. والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكاماً للملكاتهم، ثم إن اللغة الإسلامية لما اتسع ملكها واندرجت الأمم في طيها ودرست علوم الأولين بنيتها وكتابتها، وكانت أمة النزعة والشعار، فأخذ الملك والعزة وسخرية الأمم لهم بالحضارة والتهذيب، وصبروا علومهم الشرعية صناعة، بعد أن كانت نقلاً، فحدثت فيهم الملكات، وكثرت الدواوين والتأليف، وتشوفوا إلى علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم وأفرغوها في قالب انظارهم، وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم وأربوا فيها على مداركهم، وبقيت تلك الدفاتر التي بلغتهم الأعجمية نسياً منسياً وطلائعاً مهجوراً وهباءً مثوراً. وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب، ودواوينها المسطرة بخطهم، واحتاج القائلون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من اللسان، لدروسها وذهاب العناية بها. وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد، فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة، صار مقصراً في اللغة العربية، لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل، فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى، وهو ظاهر. وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعاني منها كما مر. إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن

يجدي علمهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في فصل المراتب الدينية. فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم.

وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في اللغة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه. واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلا العربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولاً. فلم يزل ذلك في الأمصار الإسلامية ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر. فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع. وبقي بعض الحضارة في ما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها، فلهم بذلك حصّة من العلوم والصنائع لا تنكر. وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تأليف وصلت إلينا إلى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني. وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصابة. فاعتبر ذلك وتأمله ترعّباً في أحوال الخليقة. والله يخلق ما يشاء إلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله.

الفصل الرابع والأربعون

في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت

بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

والسر في ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية، من بين العلوم الشرعية، التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية لها، وهي كلها في الخيال، وبين العلوم العقلية، وهي في الذهن. واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشاهدة في المناظرة والتعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك. والألفاظ واللغات وسائل وحجب بين الضمائر، وروابط وختام عن المعاني. ولا بد في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالاتها

به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم، لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمستند والمستند إليه، فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة، إذ في جهله الإخلال بالفاهم جملة وليست كذلك اللغة، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

علم النحو

اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقرة في الغصو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد؛ لدلالة غير الكلمات فيها. على كثير من المعاني. مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور، أعني المضاف، ومثل الحروف التي تقضي بالأفعال أي الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة؛ ولذلك نجد كلام العجم من مخاطبتهم أطول مما تقدره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله عليه السلام: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً». فصار للحروف في لغتهم. والحركات والميزات، أي الأوضاع، اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها. إنما هي ملكة في الستهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا.

فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها، فينقل القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشياء بالأشياء، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً وتسمية الموجب لذلك

تستحكم عجمتهم. فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية. وكذا أيضاً شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي. ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً يخفون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني. وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك، بتمام ملكته، وإنه صار له فهم الأقوال من الخط، والمعاني من الأقوال كالجيلة الراسخة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وربما يكون الدؤوب على التعليم والمران على اللغة، وممارسة الخط بفضيان لصاحبهما إلى تمكن الملكة، كما نجد في الكثير من علماء الأعاجم، إلا أنه في النادر. وإذا قرن بنظره من علماء العرب وأهل طبقة منهم، كان باع العرب أطول وملكته أقوى، لما عند المستعجم من الفتور بالعجمة السابقة التي يؤثر القصور بالضرورة ولا يعترض ذلك بما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم، لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قرروا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملة العلوم. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك وهي المرادة هنا. ولا يعترض ذلك أيضاً مما كان لليونانيين في علومهم من رسوخ القدم فإنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم. والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، ومن غير خطه الذي يعرف ملكته. فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه. وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنجة. وسائر من ليس من أهل اللسان العربي. وفي ذلك آيات للمتوسمين.

الفصل الخامس والأربعون

في علوم اللسان العربي

أركانه أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورة على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام، حسبما يتبين في الكلام عليها فنّاً فنّاً، والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ

يزيد في الخلق ما يشاء.

علم اللغة

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه. ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومغالطتهم حتى تآدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلاً مع هجته المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين. وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي. ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي.

وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة، وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد؛ لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية. ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك. ثم الثالث والرابع. ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً، فتكون كلها أعداداً على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين، فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب، وهو أن تجمع الأول مع الأخير وتضرب المجموع في نصف العدة. ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي؛ لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات.

وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجتمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد؛ لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفاً، فتكون ثلاثية. فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية، فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات. ثم تضرب الخارج في ستة، جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية، فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم. وكذلك في الرباعي والخماسي. فانحصرت له التراكيب

التغير عاملاً وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة. واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو. وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة ويقال: بإشارة علي رضي الله عنه؛ لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستفراة. ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أحوج ما كان الناس إليها للذهاب تلك الملكة من العرب. فهدب الصناعة وكمل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه فكمّل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده. ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتاباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه.

ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة: المصريين القدمين للعرب. وكثرت الأدلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين. وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله، أو اقتصرهم على المبادئ للمتعلمين، كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له. وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية. وبالجملية فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة، فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين. والكوفيون والبصريون والبيгдаديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك.

وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران، ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر، منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب جملة ومفصلة. وتكلم على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما في الصناعة من التكرار في أكثر أبوابها وسماه باللغني في الإعراب. وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرنا، فوقفتنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحى نحا أهل الموصل الذين اتفقوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه. والله

بهذا الوجه، ورتب أبوابه على حروف العجم بالترتيب المتعارف. واعتمد فيه ترتيب المخارج، فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس، ثم الشفة، وجعل حروف العلة آخراً وهي الحروف الهوائية. وبدأ من حروف الحلق بالعين؛ لأنه الأقصى منها؛ فلذلك سمي كتابه بالعين؛ لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا، وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ. ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله، ولحق به الثاني لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب، فكانت أوضاعه أكثر لدورانه. وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوفاه.

وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب هشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله، وكثيراً من شواهد المستعمل وخصه للمحفظ أحسن تلخيص.

وآلف الجوهري من المشاركة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف العجم، فجعل البدء منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم فيجعل ذلك باباً. ثم يأتي بالحروف أول الكلمة على ترتيب حروف المعجم أيضاً ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها. وحصر اللغة اقتداءً بمحصر الخليل.

ثم آلف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين. وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريقها، فجاء من أحسن الدواوين. وخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس. وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها، فكانا توأمي رحم وسليبي أبوة

ولكراع من أئمة اللغة كتاب المنجد، ولابن دريد كتاب الجمهرة ولابن الأنباري كتاب الزاهر

هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه. وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو لكليها. إلا أن وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رأيت. ومن الكتب الموضوعية أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز وسماه أساس البلاغة يبين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ فيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الإفادة.

ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها، ففرق ذلك عندنا، بين الوضع والاستعمال واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ، كما وُضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها خطأ وخروجاً عن لسان العرب. واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي، وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه. فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك. وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره، حذراً من أن يكسر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشر من اللحن في الإعراب وأفحش. وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفل بمصرها وإن لم يبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر. وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصيح للعلب وغيرهما. وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ. والله الخلاق العليم لا رب سواه.

فصل:

واعلم أن النقل الذي ثبت به اللغة، إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني، لا نقل: إنهم وضعوها؛ لأنه متعذر وبعيد. ولم يعرف لأحد منهم. وكذلك لا ثبت اللغات بقياس ما لم تعلم استعماله. على ما عرف استعماله في ماء العنب، باعتبار الإسكار الجامع. لأن شهادة الاعتبار في باب القياس إنما يدرکہا الشرع الدال على صحة القياس من أصله. وليس لنا مثله في اللغة إلا بالعقل، وهو محكم، وعلى هذا جمهور الأئمة. وإن مال إلى القياس فيها القاضي وابن سريج وغيرهم. لكن القول بنفيه أرجح. ولا توهم أن إثبات اللغة في باب الحدود اللفظية، لأن الحد راجع إلى المعاني. بيان أن مدلول اللفظ المجهول الخفي هو مدلول الواضح المشهور، واللغة إثبات أن اللفظ كذا، لمعنى كذا، والفرق في غاية الظهور.

علم البيان

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من

كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيئات وأحوال للواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل مجسب ما يقتضيه مقامه، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيئات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف:

الصف الأول: يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة.

والصف الثاني: يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكنية كما قلناه، ويسمى علم البيان.

والحقوا بهما صنفاً آخر: وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميم؛ إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين الألفاظ أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بليهاً معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع.

وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصف الثاني؛ لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه ثم تلاحت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها. ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن غرض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه أنفاً من الترتيب واللف كتابه المسمى بالفتح في النحو والتصريف والبيان، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه. وأخذ المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح والتلخيص وهو أصغر حجماً من الإيضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره.

وبالجملة فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كمال في العلوم اللسانية؛ والصنائع الكمالية توجد في وفور العموان. والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه. أو نقول: لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله. وإنما اختص بأهل المغرب من أصناف علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له القباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً. وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المأخذ. وصعبت

العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيد. ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني، وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض. والدلالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف، وأما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة. ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات. وهذه كلها هي صناعة النحو. ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج إلى الدلالة عليه؛ لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه. وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة.

ألا ترى أن قولهم: (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد) من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم، فمن قال: جاءني زيد، أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني، أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند. وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة. وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم: زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا قائم متغايرة كلها في الدلالة وإن استوت من طريق الإعراب، فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي ذهن والثاني المؤكد بـ (إن) يفيد المتردد، والثالث يفيد المتكرر فهي مختلفة.

وكذلك تقول: جاءني الرجل ثم تقول مكانه بعينه: جاءني رجل إذا قصدت بذلك التأكيد تعظيمه وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال. ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أولاً، وإنشائية وهي التي لا خارج لها. كالطلب وأنواعه. ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية عمل من الإعراب: فينزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتاً أو توكيداً أو بدلاً بلا عطف، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية عمل من الإعراب. ثم يقتضي المحل الإطناب أو الإيجاز فيورد الكلام عليهما. ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منظوقه ويراد لازمه إن كان مفرداً كما تقول: زيد أسد فلا تريد حقيقة الأسد لمنظوقه، وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد وتسمى هذه استعارة.

وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول: زيد كثير رماد القدور وتريد ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف؛ لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة عليهما. وهذه

والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه؛ لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.

ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف - يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث - إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية، فاحتاج صاحب هذا الفن حيثشذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها. وسمعتنا من شيوينا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للميرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب التوارد لأبي علي القالي البغدادى. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها. وكتب المحدثين في ذلك كثيرة.

وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه، فلم يكن انتحالة قادحاً في العدالة والمروءة. وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني، وهو ما هو، كتابه في الأغاني، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم. وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أمثات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها. ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان. واللّه الهادي للصواب.

الفصل السادس والأربعون

في أن اللغة ملكة صناعية

اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو

عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما.

ومن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور. وجرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على مناه.

واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها. وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه. فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك؛ لأنهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصح.

وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه، حتى ظهر جار الله الزخشري ووضع كتابه في التفسير وتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير؛ لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة. ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنها بدعة فيعرض عنها ولا تضره في معتقده، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء. واللّه الهادي من يشاء إلى سواء السبيل.

علم الأدب

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجابة في فني المنظوم والمثور، على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة. من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجابة، ومسائل من اللغة والنحو ميثوقة أثناء ذلك، متفرقة، يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها. وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة.

الفصل السابع والأربعون

في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغيرة للسان المضر وحمر

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضر، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وقرائن تدل على خصوصيات المقاصد. إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضر أكثر وأعرق، لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال - ويسمى بساط الحال - محتاجاً إلى ما يدل عليه. وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بالفاظ تخصها بالوضع. وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتاليها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة أعراب. وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة. ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه، فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن.

وهذا معنى قوله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً». واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة: «إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم: زيد قائم، وإن زيدا قائم، وإن زيدا لقائم والمعنى واحد». فقال له: إن معانيها مختلفة. فالأول: لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد. والثاني: لمن سمعه فتردد فيه، والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال.

وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد. ولا تلتفت في ذلك إلى خرفة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه. وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم، وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تنزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم

بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ التكلم حيثشد الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة. والمملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي: صفة راسخة.

فالتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم.

هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال. وهذا هو معنى ما نقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع، أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم. ثم فسدت هذه الملكة لفسر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضاً، فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه، فاستحدثت ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي.

ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني نعيم. وأما من بُعد عنهم من ربيعة ونحج وجزام وغان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال ومختصاً بهم لا يشاركون فيها غيرهم. حتى إن من يريد التعرُّب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكمهم في النطق بها. وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف. ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها، فإن هذا الجيل الباقيين معظمهم ورؤساؤهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن حصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور. وهم لهذا العهد أكثر الأسم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجيل معهم من بني كهلان في النطق بهذه القاف أسوة.

وهذه اللغة لم يتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين ولعلها لغة النبي ﷺ بعينها، وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بغير القاف السي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته، ولم أدر من أين جاء هذا؟ فإن لغة أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها وإنما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح. وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها إلا أنهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار. فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم. هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقاً وغرباً في النطق بها وأنها الخاصة التي يتميز بها العربي من المهجين والحضري.

والظاهر أن هذه القاف التي ينطق بها أهل الجيل العربي البدوي هو من خروج القاف عند أولهم من أهل اللغة، وأن خرج القاف متسع، فأوله من أعلى الحنك وآخره مما يلي الكاف. فالنطق بها من أعلى الحنك هو لغة الأمصار، والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي. وبهذا يتدفع ما قاله أهل البيت من فساد الصلاة بتركها في أم القرآن، فإن فقهاء الأمصار كلهم على خلاف ذلك. ويبعد أن يكونوا أهملوا ذلك، فوجهه ما قلناه. نعم نقول إن الأرجح والأولى ما ينطق به أهل الجيل البدوي؛ لأن تواترها فيهم كما قدمناه شاهد بأنها لغة الجيل الأول من سلفهم، وأنها لغة النبي ﷺ. ويرجح ذلك أيضاً إدغامهم لها في الكاف لتقارب المخرجين. ولو كانت كما ينطق بها أهل الأمصار من أصل الحنك، لما كانت قريبة المخرج من الكاف، ولم تدغم. ثم إن أهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف، وجهي التي ينطق بها أهل الجيل البدوي من العرب لهذا العهد، وجعلوها متوسطة بين غرجي القاف والكاف. على أنها حرف مستقل، وهو بعيد. والظاهر أنها من آخر خروج القاف لاتساعه كما قلناه. ثم

والشاعر المقلق على أساليب لغتهم. والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك. ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيماً معروفاً وهو الإعراب. وهو بعض من أحكام اللسان. وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولاً فانقلب لغة أخرى.

وكان القرآن منزلاً به والحديث النبوي منقولاً بلغته وهما أصلا الدين والملة، فخشي تناسيها وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزل به، فاحتج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستبطا قوانينه. وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة العربية، فأصبح فناً محفوظاً وعلماً مكتوباً وسُلماً إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ راقياً. ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرنا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها. ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر فليست اللغات وملكانها مجاناً.

ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأثقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ويلتبس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق (القبيل) في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح. ولتة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر، إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستبطاء والاستقراء، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعوننا إليه.

ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأنظار شأنهم في النطق بالقاف، فإنهم لا ينطقون بها من خروج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى. وما ينطقون بها أيضاً من خرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي، بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق

غلب العرب على أمه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرة والفلاحين والسي الذين اتخذوهم خولاً ودايات وأطاراً ومراضع، ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجية. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى خصوصاً بهم تخالف لغة مضر ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم. والله يخلق ما يشاء ويقدر.

الفصل التاسع والأربعون

في تعليم اللسان المضرى

اعلم أن ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة أهل الجبل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه. إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات. ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات الولدين أيضاً في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمثثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم. ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوة ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينهما وبين مقتضيات الأحوال. والدوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما يذكر بعد. وعلى قدر الحفظ وكثرة الاستعمال تكون جودة القول المصنوع نظماً ونثراً، ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها، وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها. والله يهدي من يشاء بفضلهم وكرمه.

إنهم يصرحون باستهجانته واستقباحه كأنهم لم يصح عندهم أنها لغة الجبل الأول. وفيما ذكرناه من اتصال نطقهم بها، لأنهم إنما ورثوها من سلفهم جيلاً بعد جيل، وأنها شعارهم الخاص بهم، دليل على أنها لغة ذلك الجبل الأول، ولغة النبي ﷺ كما تقدم ذلك كله. وقد يزعم زاعم أن هذه القاف التي ينطق بها أهل الأمصار ليست من هذا الحرف، وإنما إنما جاءت من مخالطتهم للعجم، وإنهم ينطقون بها كذلك، فليست من لغة العرب، ولكن الأقيس كما قدمناه من أنهما حرف واحد متسع المخرج. فتفهم ذلك. والله الهادي المبين.

الفصل الثامن والأربعون

في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة

بنفسها للغة مضر

اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجبل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجبل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد.

فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعد عن صناعة أهل النحو لحناً. وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته إلى تادية مقصوده والإبانة عما في نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد.

وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجبل؛ فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة. فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد؛ لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه. وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعون من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى. واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق. أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم لوفور عمرانها بهم ولم يكذب يخلو عنهم مصر ولا جيل، فنقلت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة. والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الأول أبعد. وكذا المشرق لما

الفصل الخمسون

في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية

ومستغنية عنها في التعليم

والحصل له قد حصل على خط من كلام العرب واندرج في محفوظه في أمكنه ومفصل حاجاته. وتنبه به لسان الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الإفادة.

ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه يغفل عن التفتن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة. وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتبهون لسانها فتجدهم يحسون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه. وأهل صناعة العربية بالاندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم فتنتطح النفس بها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها.

وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية بحرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر في التفقه في تراكيب كلام العرب إلا إن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه. فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدول وبعدت عن مناحي اللسان وملكته، وأفاد ذلك حملتها في الأمصار هذه وآفاقها البعد عن الملكة بالكليّة، وكانهم لا ينظرون في كلام العرب. وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المراتب في ذلك للمتعلم فهو أحسن ما تفيد الملكة في اللسان. وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماً بحثاً ويعدوا عن ثمرتها.

وتعلم ما قرئناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله النوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسخ هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم. والله مقد الأمور كلها والله أعلم بالغيب.

والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها علماً. مثل أن يقول بصير بالخيطة غير محكم للمكتها في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هي أن تدخل الخيط في خرت الإبرة ثم تغرزها في لفتي الثوب مجتمعين وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم تردّها إلى حيث ابتدأت وتخرجها قدام منفذها الأول بطرح ما بين الثقبين الأولين؛ ثم يتمادى على وصفه إلى آخر العمل، ويعطي صورة الحيك والتثبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها. وهو إذا طوّل أن يعمل ذلك يبدو لا يحكم منه شيئاً.

وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول: هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك تمسك بطرفه الآخر وتتعاقدانه بينكما وأطرافه المضروسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائئة إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة. وهو لو طوّل بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه.

وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل. وكذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده خطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي، وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويمجد الفنين في المنظوم والمثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية.

فمن هنا يعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة، وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي، وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه. فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه

الفصل الواحد والخمسون

في تفسير لفظة الذوق في مصطلح أهل البيان

وتحقيق معناه وبيان أنها لا تحصل غالباً

للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان. وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تنوع التراكيب في إفادة ذلك. فالتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده، فإذا اتصلت معاناته لذلك بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حيث لا يكاد ينحو فيه غير منحنى البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحنى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة. فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محلها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي. ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع.

وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتلفظ لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك. وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه؛ لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه وجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم. وإنما يعجز عن الاحتجاج بذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين الفعالة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم.

ومثاله: لو فرضنا صبيّاً من صبيانهم نشأ وربى في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها. وليس من العلم القانوني في شيء وإنما هو بمحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربى بين أحيائهم. والقوانين بمعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان، والذوق وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم. لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل إدراك الطعوم استعير لها اسمه. وأيضاً فهو وجداني اللسان كما أن الطعوم محسوسة له فقل له ذوق. وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطائفتين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالمشرق والبربر بالمغرب، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قرروا أمرها؛ لأن قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى إلى اللسان وهي لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل المصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون إليه من ذلك. وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار وبعثوا عنها كما تقدم. وإنما لهم في ذلك ملكة أخرى وليست هذه ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف أحكام تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء. إنما حصل أحكامها كما عرفت. وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتدال والتكرار لكلام العرب. فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزخشي وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجماً مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أن أولئك القوم الذين نسع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط. أما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا ورامها وكانهم في أول نشأتهم بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها، فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعاجم في اللغة والكلام؛ لأنهم أدركوا الملة في عفتائها واللغة في شبابه ولم تذهب آثار الملكة منها ولا من أهل الأمصار ثم عكفوا على الممارسة والمداومة لكلام العرب حتى استولوا على غايته.

واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي تمتحية الآثار. ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة للملكة

ذكرنا. وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة، ولم تزل كذلك لهذا العهد، ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف. وأكثر ما يكون فيها الشعراء طائرين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن ماثلة إلى القصور.

وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً. وكان فيهم ابن حيان المورخ إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبدربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانقراض والجللاء أيام تغلب النصرانية. وشغلوا عن تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض.

وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن المرحل من تلاميذ الطبقة الإشبيلية بسببته وكانت دولة بني الأحمر في أولها. وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجللاء إلى العدو من عدوة إشبيلية إلى سبتة، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية. ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لمرور قبول العدو لها وصعوبتها عليهم بعوج السنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وهي منافية لما قلناه.

ثم عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت ونجم بها ابن سيرين وابن جابر وابن الجباب وطبقتهم. ثم إبراهيم الساحلي الطوبجيين وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم المهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه. وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع أثره تلميذه من بعده. وباجملة فشان هذه الملكة بالأندلس أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها. ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم إنما هم طائرون عليهم. وليست عجمتهم أصلاً للغة أهل الأندلس والبربر في هذه العدو وهم أهلها ولسانهم لسانها إلا في الأمصار فقط. وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ووطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس. واعتبر ذلك مجال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية، فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها لبعدهم لذلك العهد عن الأعاجم ومخالطتهم إلا في القليل. فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم، وكان فحول الشعراء والكتاب

اللسان العربي. ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدرسة والحفظ ليستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في الحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة. وإن فرضنا أعجمياً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالحفظ والمدرسة فرمما يحصل له ذلك، لكنه من الدور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر. وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غلط أو مغالطة، وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني والخمسون

في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في

تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم

ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان

حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك ما يسبق إلى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضرة لهذا العهد. ولهذا نجد المعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان. وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك، وإنما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب. نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكين المنافسة حيثند. واعتبر ذلك في أهل الأمصار.

فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم. ولقد نقل ابن الرقيق أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له: يا أخي ومن لا عدمت فقهه أعلمني أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتهياً لنا الخروج. وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً. وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله. وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري وسببه ما

لعهدهم أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق.

أسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قوافل. وأطلق اسم الثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع الثاني.

وانظر هذا ما قاله المفسرون في تحليل تسميتها بالثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه.

واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك. وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض. وصار هذا المنشور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفتقراً إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه، وخصوصاً أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطبة.

وهذا الفن المنشور المقتضى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر، فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه، إذ أساليب الشعر تباح فيها اللوذية وخلط الجحد بالهزل والإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو لذلك كله ضرورة في الخطب. والتزام التقفية أيضاً من اللوذية والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب يناهض ذلك ويأبى عنه. والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر. وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يختصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وكناية واستعارة.

وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على الستهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفاس خطوته. ولعلوا بهذا المسجع يلفقون به

وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم، فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسير نبيهم ﷺ وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم له فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب. وبقي أمر هذه الملكة مستحكماً في المشرق في الدولتين، وربما كانت فيهم أبلغ من سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد. حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم، وصار الأمر للعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم. وذلك في دولة الديلم والسلجوقية. وخالطوا أهل الأمصار وكثروهم فامتلات الأرض بلغاتهم. واسترلت العجمة على أهل الأمصار والخواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم مقصراً عن تحصيلها. وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وإن كانوا أكثرين منه. والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الثالث والخمسون

في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية. وفي النثر وهو الكلام غير الموزون. وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام. فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والثناء وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها. ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم.

وأما القرآن وإن كان من المنشور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلًا مطلقاً ولا مسجعاً. بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها. ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويشئ من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. وقال: ﴿فَدَّ نَسْلُنَا لِكَايَاتٍ﴾. وتسمى آخر الآيات فيه فواصل، إذ ليست

الفصل الخامس والخمسون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات، إلا أنا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب. فإن أمكن أن يجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم، وإلا فلعل لسان أحكام في البلاغة نخسه. وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى إذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رؤياً وقافية، ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة. وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده. وإذا أفرد كان تاماً في بابيه في مدح أو نسيب أو رثاء، فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود، بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن يناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التناثر. كما يستطرد من التشبيب إلى المدح، ومن وصف البداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف، ومن وصف المدح إلى وصف قومه وعساكره ومن التفعج والعزاء في الرثاء إلى التابين وأمثال ذلك.

ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه. فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس. ولهذا الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض. وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن، وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور. وقد حصروها في خمسة عشر مجزاً بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظاماً.

واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب. ولذلك جعله ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن ملكاتهم كلها. والملكات اللسانية كلها إنما تكسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبهة في تلك الملكة. والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن ينفرد

ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه. ويجبرونه بذلك القدر من التزين بالإسجاع والألقاب البديعية ويفعلون عما سوى ذلك. وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالع فيهم سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس. ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس. فنامل ذلك فانتقد بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه. والله الموفق للصواب بمنه وكرمه والله تعالى أعلم.

الفصل الرابع والخمسون

في أنه لا تتفق الإجابة في في المنظوم والمنثور

معاً إلا للأقل

والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان، فإذا سبقت إلى عمله ملكة أخرى قصرت بالخل عن تمام الملكة اللاحقة. لأن قبول الملكات وحصولها للطباع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر. وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المدة القابلة وعاقبة عن سرعة القبول، فوقعت المنافسة وتعذر التمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق. وقد برهنا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان. فاعتبر مثله في اللغات، فإنها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة. وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً. فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه. وكذا البربري والرومي والإفرنجي قل أن تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان العربي. وما ذلك إلا لما سبق إلى استئهم من ملكة اللسان الآخر، حتى إن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى إلا من قبل اللسان. وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع. وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدهم. وإن من سبقت له إجابة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية. والله خلقكم وما تعملون.

أسفي طولهم أجش هذيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو يسؤال السقيا لها من البرق كقوله:

يا برق طالع منزلاً بالأبرق واحد السحاب لها حداء الأيتق

أو مثل التضعج في الرثاء باستدعاء البكاء كقوله:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله:

أرايت من حملوا على الأعواد أرايت كيف خبا ضياء النادي

أو بالتسجيل على الأكوام بالمصيبة لفقده كقوله:

منابت العشب لا حام ولا راع مضى الردى بطويل المرحم والباع

أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول

الخارجية:

يا شجر الخابور مالك مورقا كائك لم تجزع على ابن طريف

أو بهتية قريعه بالراحة من ثقل وطأته كقوله:

ألق الرماح ربيعة بن نزار أودى الردى بقرعك المغوار

وأمثال ذلك كثير من سائر فنون الكلام ومذاهبه. وتنظم

التركيب فيه بالجميل وغير الجمل إنشائية وخبرية، اسمية أو فعلية،

متفقة وغير متفقة، مفصلة وموصولة، على ما هو شأن التراكيب

في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى. يعرفك فيه ما

تستفيدة بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في

الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها.

فإن مؤلف الكلام هو كالبنا أو النساج، والصورة الذهنية المنطبقة

كالقالب الذي ينشأ فيه أو النوال الذي ينسج عليه. فإن خرج عن

القالب في بنائه أو على النوال في نسجه كان فاسداً. ولا تقولن:

إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك؛ لأننا نقول: قوانين البلاغة

إنما هي قواعد علمية وقياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على

هيئتها الخاصة بالقياس. وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو

قياس القوانين الإعرابية.

وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء

إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب

لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل

على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك

في الكلام بإطلاق.

وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمه

بوجه. وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية

استعملوه. وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع

عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين

دون ما سواه، فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة

حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى

من شعر العرب ويرزعه مستقلاً بنفسه. ثم يأتي بيت آخر كذلك

ثم بيت آخر ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده. ثم يناسب بين

البيوت في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في

القصيدة. ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكاً للقرائح في

استجادة أساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه. ولا

تكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بمخصوصه

إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها

باستعمالها فيه.

ولنذكر هنا مدلول لفظه الأسلوب عند أهل هذه الصناعة

وما يريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال

الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه. ولا يرجع إلى

الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا

باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة

البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي

هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة

الشعرية وإنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنظمة كلية باعتبار

انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة يتزعمها الذهن من

أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال

ثم يتتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان

فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال

حتى يتسع القالب بمحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع

على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، كان لكل

فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة،

فسؤال الطلول في الشعر يكون بمخاطب الطلول كقوله:

يا دار مبة بالعلياء فالسند

ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله:

فقا نسأل الدار التي خف أهلها

أو باستيحاء الصحب على الطلل كقوله:

فقا نيك من في ذكرى حبيب ومنزل

أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله:

ألم تسأل فتخبرك الرسوم

ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله:

حي الديار بجانب الغزل

أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله:

للحقيقة لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك ولم يفصل به شيء. وقولنا: «الجاري على الأساليب المخصوصة به» فصل له عما لم يمر منه على أساليب المعروفة، فإنه حيث لا يكون شعراً إنما هو كلام منظوم؛ لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمثور. وكذا أساليب المثور لا تكون للشعر، فإما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يسمى شعراً. وبهذا الاعتبار كان الكثير من لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء؛ لأنهما لم يجريا على أساليب العرب فيه، وقولنا «في الحد الجاري على أساليب العرب» فصل له عن شعر غير العرب من الأمم عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب لغيرهم. ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم، فلا يحتاج إلى ذلك ويقول مكانه الجاري على الأساليب المخصوصة.

وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله فنقول:

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً أولها: الحفظ من جنسه، أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب. وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين، مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذو الرمة وجريس وأبي نواس وحيب والبحري والرضي وأبي فراس. وأكثره شعر كتاب الأغاني؛ لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية. ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا ككرة المحفوظ. فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط. واجتتاب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القرينة للنسج على المنوال يقبل على النظم والإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ. وربما يقال: إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادة عن استعمالها بعينها. فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه مشوأل يؤخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة. ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا من المسموع لاستنارة القرينة باستجماعها وتشريطها بملاذ السور. ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط، فذلك أجمع له وأنشط للقرينة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه.

قالوا: وغير الأوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هواء الجمام. وربما قالوا: إن من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة

القياسية. فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظراً في المستعمل من تراكيهم لا فيما يقتضيه القياس. ولهذا قلنا: إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم. وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المثور، فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاءوا به مفصلاً في النوعين. ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة؛ وفي المثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً، وقد يقيدونه بالأسجاع، وقد يرسلونه. وكل واحد في من هذه معروفة في لسان العرب. والمستعمل منها عندهم هو الذي يبي مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال. فلهذا كان من تأليف الكلام منفرداً عن نظر النحوي والياني والعروضي. نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها، فإذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب. ولا يفيد إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً. وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو فلنذكر بعده حداً أو رسماً للشعر يفهمنا حقيقته على صعوبة هذا الغرض. فإنا لم نفق عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه.

وقول العروضيين في حده: إنه الكلام الموزون المقفى ليس يجد لهذا الشعر الذي نحن بصدد ولا رسم له. وصناعتهم إنما تنظر في الشعر من حيث اتفاق أبياته في عدد المتحركات والسواكن على التوالي، ومائلة عروض أبيات الشعر لضربها. وذلك نظر في وزن مجرد عن الألفاظ ودلالاتها. فناسب أن يكون حداً عندهم، ونحن هنا ننظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة. والوزن والقوالب الخاصة. فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا، فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به.

فقولنا: «الكلام البليغ» جنس وقولنا: «المبني على الاستعارة والأوصاف» فصل له عما يخلو من هذه، فإنه في الغالب ليس بشعر وقولنا «المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي» فصل له عن الكلام المثور الذي ليس بشعر عند الكل، وقولنا: «مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده» بيان

وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيقي وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد. ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك. وهذه نبذة كافية والله المعين. وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها. ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيقي:

لعن الله صنعة الشعر ماذا من صترف الجهال فيها لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما كان سهلاً للسامعين مينا
ويرون المحال معنى صحيحاً وخسيس الكلام شيئاً ثميناً
يمهلون الصواب منه ولا يدرون للجهل أنهم يجهلوننا
فهم عند من سوانا يلامون وفي الحق عندنا يعزروننا
إنما الشعر ما يناسب في النظر م وإن كان في الصفات فنونا
فأنتى بعضه يشاكل بعضاً وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما تمنى لو لم يكن أو يكونا
فتتاهى من البيان إلى أن كاد حسناً يبين لناظرنا
فكان الألفاظ منه وجوه والمعاني ركنين فيه عيوننا
قائماً في المرام حسب الأماني يتحلى بحسنه المشدونا
فلذا ما مدحت بالشعر حراً رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسب سهلاً قريباً وجعلت المديح صدقاً مينا
وتكبت ما تهجن في السمع وإن كان لفظه موزوننا
وإذا ما قرضته بهجاء عبت فيه مذاهب المرقينا
فجعلت التصريح منه دواء وجعلت التعريض داء دفيننا
وإذا ما بكيت فيه على الفا دين يوماً للبين والظاعينا
حلت دون الأسى وذلت ما كا ن من الدمع في العيون مصونا
ثم إن كنت عاتياً جئت بالوعد وعبدنا وبالصعوبة لنا
فتركت الذي عبت عليه حنراً أنما عزيزاً مهيننا
وأصح القريض ما فات في النظم وإن كان واضحاً مستيننا
فلذا قيل أطمع الناس طرا وإذا ريم أعجز المعزيننا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم وهو الناشي:

الشعر ما قومت زين صدره وشدت بالتهذيب أس متونه
ورابت بالأطناش شعب صدوعه وفتحت بالإيجاز عور عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده ووصلت بين جمعه ومعينه
وعمدت منه سجد أمر يقتضي شهباً به فقرينه بقرينه
وإذا مدحت به جواداً ماجداً وقضيه بالشكر حق ديونه
أصفيه بنفسه ورصينه وخصته بخطيره وثمينه
فيكون جزلاً في مساق صنوفه ويكون سهلاً في اتفاق فنونه
وإذا بكيت به الديار وأهلها أجريت للمحزون ماء شؤونه
وإذا أردت كتابة عن ريبه باينت بين ظهوره وبطونه

وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله.

قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه. وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه يضعها ويبنى الكلام عليها إلى آخره؛ لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها. فربما تجيء نافرة قلقة وإذا سمح الحاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به، فإن كل بيت مستقل بنفسه ولم تبقى إلا المناسبة، فليتخير فيها ما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتفتيح والنقد ولا يضمن به على الترك إذا لم يبلغ الإجابة. فإن الإنسان مفتون بشعره إذ هو نبات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب، والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها، فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة.

وقد حظر أئمة اللسان على المولد ارتكاب الضرورة إذ هو في سعة منها بالعدل عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة. ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده. وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم. وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم. وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى منها. فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً واشتغل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة. ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن. ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيرون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وإزدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيرون شعر المتنبى والمعرى بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق.

وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقعر وكذلك السوقي المبذل بالتداول بالاستعمال، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة وكذلك المعاني المبذلة بالشهرة، فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة كقولهم: النار حارة والسماء فوقنا. وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان. ولهذا كان الشعر في الربايات والتبويات قليل الإجابة في الغالب ولا يحذف فيه إلا الفحول وفي القليل على العسر؛ لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك. وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليأرضه ويعاوده، فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويحيف ويغمر بالترك والإهمال.

الفصل السابع والخمسون

في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ

وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي، وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للمحافظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هاني أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصايغ، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة من يحفظ أشعار المتأخرين مثل شعر ابن سهل أو ابن النيه، أو ترسل اليبساني أو العماد الأصبهاني لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك، يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق. وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على متوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها. وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات. واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من خارج. فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها، والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدريب كما قدمناه.

فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل، والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن وروحه ويتقلب ربانياً وكذا سائرهما.

وللنفس في كل واحد منها لون تكيف به وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها، فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام، ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها

فجعلت سامعه يشوب شكوكه بثائته وظنونيه يقينه وإذا عبت على أخ في زلة أدمجت شدته له في لينه فتركته مستأنساً بدعائته مستأنساً لوعوثة وحزونه وإذا نبذت إلى الذي علقتهما إذ صار منك بغائتات شؤونه تيمتها بلطفه ورقيقه وشغفتها بتخييه وكمينه وإذا اعتذرت لسقطة أسقطتها واشكت بين غيابه وميانه فيحول ذنبك عند من يعتد عتياً عليه مطالباً يمينه

الفصل السادس والخمسون

في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ

لا في المعاني

اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل. فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل ولید ينشأ في جبل العرب ويلقن لغتهم كما يلقتها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم. وذلك أنا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل شأن الملكات، والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر.

وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى تكلف صناعة في تأليفها، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه. وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء. كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد.

والمعاني واحدة في نفسها وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه. والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

في البلاغة، فإذا سبق ذلك المخفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم. وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يتعلم من حفظ النقي الحر من كلام العرب.

أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال: ذكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهد فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له وهو هذا: لم أدري حين وقفت بسلاطيل ما الفرق بين جديدها والبالي فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه، فقلت له: ومن أين لك ذلك؟ فقال: من قوله ما الفرق؟ إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب، فقلت له: لله أبوك إنه ابن النحوي.

وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسيل وانتقائهم لهم الجيد من الكلام.

ذكرت يوماً صاحبنا أبا عبيد الله الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له: أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمت مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وإن كان محفوظي قليلاً. وإنما أثبت والله أعلم بحقيقة الحال من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية. فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات والرسم واستظهرتهما وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس فامتلا محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استدعيت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلي ساعة متعباً ثم قال: لله أنت وهل يقول هذا إلا مثلك؟

ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في مثورهم ومنظومهم. فلما نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والخطيب وجريز والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية

والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة.

الفصل الثامن والخمسون

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيف

جودة المصنوع أو قصوره

اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى. وأما إذا كان مهملًا فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان؛ لأنهم يقولون: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية لمقتضى الحال، هو فن البلاغة.

التجانس بين الألفاظ والمعاني. فيحصل للكلام رونق ولذة في الأسماع وحلاوة وجمال كلها زائدة على الإفادة.

وهذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضيع متعددة مثل: «وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَى. وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى»، ومثل: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى»، إلى آخر التقسيم في الآية. وكذا: «فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» إلى آخر الآية. وكذا: «وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا». وأمثلة كثيرة. وذلك بعد كمال الإفادة في أصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها. وكذا وقع في كلام الجاهلية منه، لكن عفاً من غير قصد ولا تعمد. ويقال: إنه وقع في شعر زهير.

وأما الإسلاميون فوقع لهم عفاً وقصداً، وأتوا منه بالعجائب. وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحري ومسلم بن الوليد، فقد كانوا مولعين بالصنعة. ويأتون منها بالعجب. وقيل: إن أول من ذهب إلى معانيتها بشار بن برد وابن هرمة، وكانا آخر من يستشهد بشعره في اللسان العربي. ثم اتبعهما عمرو بن كلثوم والعتابي ومنصور النميري ومسلم بن الوليد وأبو نواس. وجاء على آثارهم حبيب والبحري. ثم ظهر ابن المعتز فحتم على البديع والصناعة أجمع. ولنذكر مثلاً من المطبوع الخالي من الصناعة. مثل قول قيس بن ذريح:

وأخرج من بين البيوت لعلمي أحدث عنك النفس في السر خالياً
وقول كثير:

وإني وتهامي بعزة بعدما تخليت عما يبتسا وتخلت
لكارنجي ظل الغمامة كلها نبوا منها للمقبل اضمحلت

فتأمل هذا المطبوع، الفقيد للصنعة، في إحكام تأليفه وثقافة تركيبه. فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الأصل زادته حسناً.

وأما المصنوع فكثير من لدن بشار، ثم حبيب وطبقتهما، ثم ابن المعتز خاتم الصنعة الذي جرى المتأخرون بعدهم في ميدانهم، ونسجوا على منوالهم. وقد تعددت أصناف هذه الصنعة عند أهلها، واختلفت اصطلاحاتهم في ألقابها. وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة على أنها غير داخلية في الإفادة، وأنها هي تعطي التحسين والرونق. وأما المتقدمون من أهل البديع، فهي عندهم خارجة عن البلاغة. ولذلك يذكرونها في الفنون الأدبية التي لا موضوع لها. وهو رأي ابن رشيق قبي كتاب العمدة له، وأدباء الأندلس.

وذكروا في استعمال هذه الصنعة شروطاً منها: أن تقع من غير تكلف ولا اكتراث في ما يقصد منها. وأما العفو فلا كلام

وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقرت من لغة العرب وصارت كالقوانين. فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد بين المسندين، بشروط وأحكام هي جل قوانين العربية. وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير، وتعريف وتكثير، وإضمار وإظهار. وتقييد وإطلاق وغيرها، يفيد الأحكام المكتنفة من خارج الإسناد وبالمخاطبين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن، يسمونه علم المعاني من فنون البلاغة. فتتدرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني لأن إفادتها الإسناد جزء من إفادتها لأحوال المكتنفة بالإسناد. وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال للخل في قوانين الإعراب أو قوانين المعاني كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال، ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الموات.

ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفتن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات؛ لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه، فيكون فيها مجازاً: إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر في موضعه، ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفادة وأشد. لأن في جميعها ظفر بالمدلول من دليله. والظفر من أسباب اللذة كما علمت. ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين صيروها صناعة، وسموها بالبيان. وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها. وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة. واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت. فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزء البلاغة، وبهما كمال الإفادة، فهو مقصر عن البلاغة ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم وأجدر به أن لا يكون عربياً، لأن العربي هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال. فالبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.

ثم اعلم أنهم إذا قالوا: الكلام المطبوع؛ فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب، ليس المقصود منه النطق فقط. بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة. ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية التي له بالأصالة ضروب من التحسين والتزين، بعد كمال الإفادة وكأنها تعطى رونق الفصاحة من تنميق الأسجاع، والموازنة بين حمل الكلام وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه، والمطابقة بين المتضادات، ليقع

الفصل التاسع والخمسون

في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

اعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم. وكان رؤساء العرب متناسفين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حركه. حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والثابتة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنزة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع. فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات.

ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخسروا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً. ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة. ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه، فرجعوا حيث ذل إليهم منه. وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قرينش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة، وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به.

ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة وتقرب إليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها. ويمجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان. والعرب يطالبون ولدهم بحفظها. ولم يزل الشأن هذا أيام بني أمية وصدرأ من دولة بني العباس. وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والتبصر بجيد الكلام ورديته وكثرة محفظه منه.

ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان، وإنما تعلموه صناعة ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الأغراض كما فعله حبيب والبحرتي والمتنبي وابن هانئ ومن بعدهم إلى هلم جزاً. فصار غرض الشعر

فيه؛ لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان، لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التركيب الأصلية للكلام، فتخل بالإفادة من أصلها، وتذهب بالبلاغة رأساً. ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات، وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر. وأصحاب الأدواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون، ويعدون ذلك من القصور عن سواه.

وسمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البلفيقي، وكان من أهل البصر في اللسان والقرمجة. في ذوقه يقول: إن من أشهى ما تفرحه عليّ نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من يتحل فنون هذا البديع في نظمه أو نثره، وقد عوقب بأشد العقوبة، ونودي عليه. يحذر بذلك تلميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة، فيكلفون بها، ويتناسون البلاغة.

ثم من شروط استعمالها عندهم: الإقلال منها وأن تكون في بيتين أو ثلاثة من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه. والإكثار منها عيب، قاله ابن رشيقي وغيره.

وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السبكي متفق اللسان العربي بالأندلس لوقته يقول: هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو للكاتب فيقبح أن يستكثر منها، لأنها من محسنات الكلام ومزيناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها، ويقبح بتعدادها. وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المشور في الجاهلية والإسلام. وكان أولاً مرسلاً معتبر الموازنة بين جملة وتراكيبه، شاهدة موازنته بفواصله من غير التزام سجع ولا اكتراث بصنعة. حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه، فتعاطى الصنعة والتقنية وأتى بذلك بالمعجب. وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية. وإنما حملة عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلقة المنفقة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في مشور المتأخرين ونسي عهد الترسييل وتشابهت السلطانيات والأخوانيات والعربيات بالسوقيات. واختلط المرعى بالهمل. وهذا كله يدل على أن الكلام المصنوع بالمعانة والتكليف، قاصر عن الكلام المطبوع، لقلة الإكتراث فيه بأصل البلاغة، والحاكم في ذلك الذوق. والله خلقكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والخوراني والقيسي. وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية. ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الخوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام، وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد.

ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به مغصناً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شيئاً بالمرع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين. ول هؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون عن ذلك والكثير من المتحليين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الأفسات في فطرته ونظيره، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولتقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس، وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت، الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب.

فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان، ويذكر ظعنهما مع قومها إلى المغرب:
قال الشريف ابن هاشم علي ترى كبدي حرى شكت من زفيرها
يفز للأعلام أين ما رأت خاطري يرد غلام البدو يلوي عصيرها
وماذا شكاة الروح مما ظر لها غداة وزائع تلتف الله خيرها
بحس إن قطاع عامر ضميرها طوى وهند جاني ذكيرها
وعادت كما خوار في يد غاسل على مثل شوك الطلع عقدوا يسيرها
تجاذبوا اثنين والتزع بينهم على شوك لعه والبقايا جريها
وبات دموع العين ذارفات لأشائها شبيه دوار السواني يديرها
تدارك منها النجم حذراً وزادها مرون يجي متراكباً من صيرها

في الغالب إنما هو للكثيرة والاستجداء لنعاب المنافع التي كانت فيه للأولين كما ذكرناه آنفاً. وأنف منه لذلك أهل المهم والمراتب من المتأخرين، وتغير الحال فيه وأصبح تعاطيه هجنة في الرئاسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة. والله مقلب الليل والنهار.

الفصل الستون

في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

اعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية، وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك، وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق: أمبروس الشاعر وأثنى عليه. وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون. ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة، فكان لجبل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات. وكذلك الحضرة أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتعاريف وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد. واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الأفاق، فلاهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفتها أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره.

ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان؛ لأن الموازين على نسبة واحدة في إعداد المتحركات والسواكن وتقابلها، موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا فحولة وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليفة. بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في اتحاله ورصف بنائه على مهيج كلامهم.

فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام. وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون. فأهل أمصار المغرب من العرب

يصب من القيعان من جانب الصفا عيون ولجاز البرق في غزيرها
 هذا الغنى حتى تسايت غزوة ناضت من بغداد حتى فقيرها
 ونادى المنادي بالرحيل وشدوا وعرج عاريها على مستعيرها
 وشد لها الأدهم دياب بن غانم على أيلدين ماضي وليد مقرب ميرها
 وقال لهم حسن بن سرحان غربوا وسوقوا التجوع إن كان أنا هو غفيرها
 ويركض ويبيد شهامه بالتسامح وبالسجين لا يجيدوا في مغيرها
 غلنري زيان السبع من عباس وما كان يرضى زين حمير وميرها
 غلنري وهو زعماء صديقي وصاحبي وأنا لله ما من دوقتي ما يدعها
 ورجع يقول لهم بلال بن هاشم بحر البلاد العطشى ما يجيرها
 حرام علي باب بغداد وأرضها داخل ولا عائد ركيژه من نعيمها
 تصدف روجي عن بلاد ابن هاشم على الشمس أوحول الغظا من
 وباتت نيران العذارى قوادح يلوذ ويجرجان يشدوا أسيرها
 ومن قولهم في رثاء أمير زنادة أبي سعدى اليفرنى مقارعهم
 بإفريقية وأرض الزاب وراثهم له على جهة التهكم:
 تقول فتاة الحى سعدى وهاضها لها في ظعون الباكين عويل
 أبا سانلي عن قبر الزناتي خليفة خذ النعت مني لا تكون هيل
 تراه يمالى وادي ران وفوقه من الربط عيساوي بناء طويل
 أراه يميل النور من شارع النقا به الواد شرقاً والبراع دليل
 أبا لف كبدى على الزناتي خليفة قد كان لأعقاب الجياد سليل
 قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم جراحه كأفواه المزداد تسيل
 أبا جاتزأ مات الزناتي خليفة لاترحل إلا أن يريد رحيل
 ألا واش رحلنا ثلاثين مرة وعشراً وسأ في النهار قليل
 ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتابا وقع
 بينه وبين ماضي بن مقرب:
 تبدى ماضي الجبار وقال لي أشكر ما غنا عليك رضاش
 أشكر أعد ما بقي ود بيننا ورائنا عريب عرباً لأبين نماش
 نحن غدينا تصدفو ما قضى لنا كما صادفت طعم الزباد طشاش
 أشكر أعد إلى يزيد ملامه ليحدو ومن عمر بلاده عاش
 إن كان نبت الشوك يلحق بأرضكم هنا العرب ما زدنا لمن صياش
 ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى الغرب وغلهم زنادة عليه:
 وأي جبل ضاع لي في الشريف بن هاشم وأي رجال ضاع قلبي جيلها
 لقد كنت أنا وساه في زهو بيننا عناني بحجة وأغباني دليلها
 وعدت كائي شارب من مدامة من الخمر فهو ما قدر من يميلها
 أو مثل شططامات مظنون كبدها غريباً وهي مدوخه عن قبيلها
 أتاها زمان السوء حتى تدوحت وهي بين عرباً غافلاً عن نزيلها
 كذلك أنا مما لحاني من الوجسى شاكى بكبد باديتها زعيلها
 وأمرت قومي بالرحيل ويكروا وقوا وشددوا الحوايا جيلها

قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا والبدو ما ترفع عمود يقيلها
 نظل على حداب الثنايا نوازى يظل الجرى فوق النضا ونصيلها
 ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد
 بطون رياح وأهل الرياسة فيهم، يقولها وهو معتقل بالمهدية في
 سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك إفريقية من
 الموحدين:
 يقول وفي بوح الدجا بعد وهنة حرام على أجفان عيني منامها
 يا من لقلب حائف الوجد والأسى وروح هيامي طال ما في سقامها
 حجازية بدوية عريضة عداوية ولها بعيد مرامها
 مولعة بالبلو لا تألف القرى سوى عاتك الوعسا يؤتي خيامها
 غيات ومشتاها بها كل شتوة محونة بيها وبها صبح غرامها
 ومرباها عشب الأراضى من الحيا يواتي من الخور الخلايا جسامها
 تشوق شوق العين ما تداركت عليها من السحب السواري غمامها
 وماذا بكت بالما وماذا تساحطت عيون غزار المزن عذباً حمامها
 كان عروس الكبر لاحت ثيابها عليها ومن نور الأقصاحي خزامها
 فلاة ودعناً واتساع ومنه ومرعى سوى ما في مراعي نعامها
 ومشروبها من غنخ البان شوها غنيم ومن لحم الجسوازي طعامها
 تفاتت عن الأبواب والموقف الذي يشب الفتى مما يقاسى زحامها
 سقى الله ذا الوادي المشجر بالحيا وبلا ويحى ما بلي من رمامها
 فكافتها بالود منى وليتني ظفرت بأيام مضت في ركامها
 ليالي أقواس الصبا في مسواعدي إذا قت لم تحظ من أيدي سهامها
 وفرسي عليل تحت سرجي مشاقه زمان الصبا سرجاً ويدي لجامها
 وكمن من رداح أسهرتني ولم أرى من الخلق أبهى من نظام ابتسامها
 وكمن غيرها من كاعب مرجحة مطرزة الأجفان بساهي وشامها
 وصفقت من وجدتي عليها طريجة بكفي ولم ينس جلاها ذمامها
 ونار مخطب الوجد توهج في الحشا وتوهج لا يطفأ من الماء ضرامها
 أيا من وعدتني الوعد هذا إلى متى فني العمر في دار عساني ظلامها
 ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة ويغمى عليها ثم يسد غيامها
 بنود ورايات من السعد أقبلت إليسا بعون الله بهفر علامها
 أرى في الفلا بالعين أطعمان عزوتي ورعي على كفي وسيري أمامها
 يجرع عناق النوق من فوق شامس أحب بلاد الله عندي حشامها
 إلى مسزل بالجفيرة للوسى مقيم بها ما لذ عندي مقامها
 ونلقى سراً من هلال بن عامر يزيل الصدا والغسل عني سلامها
 بهم تضرب الأمثال شرقاً ومغرباً إذا قاتلوا قوماً سبريع انهمامها
 عليهم ومن هو في حمام تحية مدى الدهر ما غنى يفينا حمامها
 فدع ذا ولا تألف على سالف مضى فذي الدنيا ما دامت لأحد دوامها
 ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر:

شيخ الكعوب. من أولاد أبي الليل. يعاتب أقتالهم أولاد مهلهل

عصرنا:

ويجب شاعرهم شبل بن مسكينة بن مهلهل. عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه:

يقول وإذا قول المصاب الذي نشأ قوارع قيعان يعاني صعايبها

يربح بها حادي المصاب إذا سعى فنونا من إنشاد القرواني عذابها

مخبرة مختارة من نشأها تحدى بها تام الوشا ملتها بها

مفريلة عن نافذ في غضوننها عكمة القيعان دابسي ودابها

وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى قوارع من شبل وهذي جوابها

انشبل جنباً من حباك طرائفا فراح يريح المومنين الغنا بها

فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم سوى قلت في جمهورها ما أعابها

لقولك في أم المشين بن حمزة وحامي حماتها عاديها في حرايبها

أما تعلم أنه قامها بعدما لقي رصاص بني يحيى وغلاق دابها

شهاباً من أهل الأمرياً شبل خارق وهل ريت من جال للوغى واصطلى بها

سواها طفاها أضمرت بعد طفية وأثنى طفاها جاسراً لا يهابها

وأضمرت بعد الطفتين الن صحت لفاش إلى بيت المنى يقتدى بها

ويان لسوالي الأمر في ذا انشحابها فصار وهي عن كبر الأسته تهابها

كما كان هو يطلب على ذا تجنبت رجال بني كعب الذي يتقي بها

منها في العتاب:

وليداً تعاتبوا أنا أغنى لأنني غيت بمعلق النشا واغتصابها

علي ونا ندفع بها كل مبضع بأسياف نشاش العدا من رقابها

فإن كانت الأملاك بنت عرايس علينا بأطراف القنا اختصابها

ولا بعدما الأرماف وذبل ورزق كالتسنة الحناش انسلابها

بني عمننا ما ترتضي الذل غلمه تير السبايا والمطايا ركابها

وهي عالماً بأن المنايا تيلها بلا شك والدنيا سريع انقلابها

ومنها في وصف الظعائن:

قطعتا قطوع البيد لا تختشي العدا فتوق بمويجات مخرف جنايبها

تري العين فيها قل لشبل عرائف وكل مهاة محتظيها ربابها

تري أهلها غب الصباح أن يفلها بكل حلوب الجوف ما سد بابها

لها كل يوم في الأرامي قتائل ورا الفاجر الممزوج عفو رضابها

ومن قولهم في الأمثال الحكمة:

وطلبك في المنوع منك سفاهة وصدك عمن صدك صواب

إذا رايت أناساً يغلغلو عنك بابهم ظهور المطايا يفتح الله باب

ومن قول شبل يذكر انتاب الكعوب إلى برجهم:

الشيب وشبان من أولاد برجهم جمع البرايا تشكي من ضهادها

ومن قول خالد يعاتب إخوانه في موالاة شيخ الموحدين أبي

محمد بن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانها

مكفولة أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من

يقول بلا جهل قى الجود خالد

مقالة حبر ذات ذهن ولم يكن

مقالته معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

تهجست معنا نابها لا حاجة

ولا هرج يتقاد منه معاب

وعن فائنات الطرف بيض غوانج ربوا خلف أستاذ وخلف حجاب
 يتيه إذا تاهوا ويصوبوا إذا صوبوا بحسن قوانين وصوت رباب
 يضلوه عن عدم اليمين ورميا يطارح حتى ما كانه شاب
 بهم حازله زمه وطسوع أواصر ولذة مأكول وطيب شراب
 حرام على ابن تافركين ما مضى من السود إلا ما بدل بحراب
 وإن كان له عقل رجيع وفطنة يلجج في البسم الغريق شراب
 وأما البندا لا يدها من فياعل كبار إلى أن تبقى الرجال كباب
 ويحمي بها سوق علينا سلاعه ويعمار موصوف القنا وجعاب
 ويمسي غلام طالب ربح ملكنا ندوماً ولا يمسي صحيح بناب
 أيا واكلكين الخبز تبخروا إدامه غلظتوا ادمتوا في السموم لباب

ومن شعر علي بن عمر بن إبراهيم من رؤساء بني عامر
 لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بني عمه المتطاولين إلى رياسته:
 محبرة كالدنر في يد صانع إذا كان في سلك الحرير نظام
 أباحها منها فيه أسباب ما مضى وشاء تبارك والضعون تسام
 غدا منه لأم الحمي حين وأنشطت عصاه ولا صبا عليه حكام
 ولكن ضميري يوم بأن بهم إلينا ترم على شوك القتاد برام
 وإلا كإبراص التهامي قوادح وبين عواج الكائنات ضرام
 وإلا لكان القلب في يد قابض أئامهم بمنشار القطيع غشام
 لما قلت سما من شقا البين زارني إذا كان ينادي بالفراق وخام
 ألا يا ربوع كان بالأسس عامر ييجي وحله والقطنين لماس
 وغيد تداني للخطا في ملاعب دجى الليل فيهم ساهر ونيام
 ونعم يشوف الناظرين التحامها لنا ما بدا من مهرق وكظلام
 وعرود باسمها ليدعو لسربها وإطلاق من شرب المها ونعام
 واليوم ما فيها سوى اليوم حولها ينوح على أطلال لها وخيام
 وقفنا بها طورا طويلاً نسألها بعين سخيخا والدموع سجام
 ولا صح لي منها سوى وحش خاطري ومقي من أسباب أن عرفت أوهام
 ومن بعد ذا تدى المنصور بو علي سلام ومن بعد السلام سلام
 وقولوا له يا بو الرفا كلع وأيكم دخلتم بحور غامقات دهام
 زواخر ما تقاس بالبعد إنما لها سيلات على الفضاء وأكام
 ولا قمستمو فيها قياساً يذكركم وليس البحور الطاميات تسام
 وعانوا على هلكاتكم في ورودها من الناس عدمان العقول لئام
 أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم قرار ولا دنيسا لمسن دوام
 الا عناهم لو ترى كيف زاههم مثل سراب فلاة ما هن تمام
 خلوا القنا ينفون في مرقب العلا مواضع ماهيا لهم بمقام
 وحق النبي والبيت وأركانه العلى ومن زارها في كل دهر وعام
 لسر الليالي فيه إن طالت الحيا يذوقون من خبط الكساح مدام
 ولا برها تبقى البوادي عواكف بكل رديني مطرب وحسام

الموشحات والأزجال للأندلس

وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت
 مناحيه وفنونه وبلغ التتميم فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم
 فناً منه سموه بالموشح وينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً،
 يكثر من منها ومن أغراضها المختلفة. ويسمون المتعدد منها بيتاً
 واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد
 إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل
 كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون
 فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك إلى الغاية
 واستظرفة الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب
 طريقه. وكان المخترع لها مجزيرة الأندلس مقدم بين معافى القيرري
 من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني. وأخذ ذلك عنه أبو

عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع
التأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما. فكان أول من برع في هذا
الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب
المرية. وقد ذكر الأعلام البليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهير
يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما أنفق له من
قوله:

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أوركما ما أتم
لا جرم من لحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق وشاح من معاصريه الذين كانوا في
زمن الطوائف. وجاء مصلياً خلفه منهم ابن رافع، رأس شعراء
المأمون ابن ذي النون، صاحب طليطة. قالوا: وقد أحسن في
ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول:

العمود قد ترمم بأبدع تلحين وسقت المذائب رياض البساتين
وفي انتهائه حيث يقول:

تظفر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتاب يحيى بن ذي النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملتصين فظهرت لهم
البدائع، وسابق فرسان حلبتهم الأعمى الطليطلي، ثم يحيى بن
بقي، وللطليطلي من الموشحات المهذبة قوله:

كيف السبيل إلى صبري وفي العالم أشجان
والراكب وسط الفلا بإلخرد النواعم قد بان

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس
يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان
كل واحد منهم اصطنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الأعمى
الطليطلي للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جمان سافرعن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدي

حرق ابن بقي موشحته وتبعه الباؤون. وذكر الأعلام
البليوسي أنه سمع ابن زهر يقول: ما حدثت قط وشاحاً على
قول إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الموشحين المطبوعين أبو بكر
الأبيض. وكان في عصرهما أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب
التلاحين المعروفة، ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس
مخدومه ابن تفلويت صاحب مرسطة فالتقى على بعض قيناته
موشحته التي أولها:

جرر الذيل إمّا جر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب المدوح لذلك لما ختمها بقوله:
عقد الله راية النصر لأمرير الملا أبي بكر
وطرق ذلك التلحين سمع ابن تفلويت صاح: واطرباه!
وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وختمت وحلف بالآيمان
المغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب. فخاف الحكيم
سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه.

وذكر أبو الخطاب بن زهر أنه جرى في مجلس أبي بكر بن
زهير ذكر أبي بكر الأبيض الوشاح المتقدم الذكر فغض منه أحد
الحاضرين فقال كيف تغض مم يقول:

ما لذّي راح
على رياض الأتراح
لولا مضميم الوشاح

إذا انتشى في الصباح

أو في الأصيل
أضحى يقول
ما للشمول

لطمت خدي؟

ولك مال
هبت فمال
غصن اعتدال

ضمه بردي

مما أباد القلوبا
يمشي لنا مستربيا
يا لحظة رد نوبيا!

وبالماه الثنيا

ببرد غليل
صب عليل
لا يستحيل

فيه عن المهدي

ولا يــــزال
في كل حال
يرجو الوصال

وهو في الصدد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي
الفضل بن شرف. قال الحسن بن دويردة: رأيت حاتم بن سعيد
على هذا الافتتاح:

شمس قاريت بـدرا راح ونديــــم

وابن هرودس الذي له:

يا ليلة الوصل والسعود بالأسود
وابن مؤهل الذي له:

ما العيد في حلة وطباق وششم طيب
وإنما العيد في التلاقي مسح الحبيب

وأبو إسحاق الرديني قال ابن سعيد: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: إنه دخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زي البادية إذ كان يسكن بمحصن استبه فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس. وجرت المحاضرة فأنشد لنفسه موشحة وقع فيها:

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلال خضر مسن البطاح

فتحرك ابن زهير وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر! قال: ومن تكون؟ فعرفه، فقال: ارتفع! فوالله ما عرفتك، قال ابن سعيد: وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهر وقد شرقت موشحاته وغربت.

قال: وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابن زهر لو قيل لك: ما أبدع وأرفع ما وقع لك في التوشيح قال: ما كنت تقول: قال كنت أقول:

ما للمولاه؟
من سكره لا يفيق
يا له سكران
من غير خمر
ما للكتيب المشوق
يندب الأوطان؟
هل تستعاد
أيامنا بالخليج
وليالينا؟
أو يستفاد
من النسيم الأريج
مسك دارينا
أو هل يكاد
حسن المكان البهيج
أن يميننا؟
روض أظله
دوح عليه أئيق
مورق الأفنان
والماء يجري
وعائمه وغريقه
من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون الذي له من الزجل المشهور قوله:
يفوق سهمه كل حين بما شئت من يد وعين
وينشد في القصيد:

خلقت مليح علمت رامى فليس تخل ساع من قتال
وتعمل بذى العينين متاعي ما تعمل يدي بالنبال
واشتهر معهما يومئذ بغرناطة المهر بن الفرس، قال ابن سعيد: ولما سمع ابن زهر قوله:

لله ما كان من يوم بهج بنهر حمص على تلك المروج
ثم انطفأ وعلى فم الخليج نفص في حانه مسك الختام
عن عسجد زانه صافي المدام ورداء الأصيل ضمه كف الظلام

قال ابن زهر: أين كنا نحن عن هذا الرداء؟ وكان معه في بلده مطرف.

أخبر ابن سعيد عن والده أن مطرفاً هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه، فقال: لا تفعل! فقال ابن الفرس: كيف لا أقوم لمن يقول:

قلوب تصاب بالحساظ تصيب فقل كيف تبقى بلا وجد

وبعد هذا ابن حزمون بمرسية. ذكر ابن الراس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه فقال له ابن حزمون: لا يكون الموشح بموشح حتى يكون عارياً عن التكلف، قال: على مثل ماذا؟ قال على مثل قولي:

يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيل
أو هل ترى عن هراك سالي قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة. قال ابن سعيد: كان والدي يعجب بقوله:

إن سيل الصباح في الشرق عاد بجرأ في أجمع الأفق

فتداعت نوادب الورق
أترأها خافت من الغرق فيكت سحرة على الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل، قال ابن سعيد عن والده: سمعت سهل بن مالك يقول له: يا ابن الفضل لك على الرواحين الفضل بقولك:

واحسرتا لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضى وبت على جمرات الغضى
أعائق بالفكر تلك الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال: وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته غير ما مرة، فما سمعته يقول له: لله درك، إلا في قوله:

بالدجى لو لا شمس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى
مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى
أنه مر كلمح البصر

حين لذ النوم شيئاً أو كما
هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما
أثرت فينا عيون النرجس

أي شيء لامرئ قد خلاصا
فيكون الروض قد كنن فيه
تهب الأزهار فيه الفرصا
أمنت من مكروه ما تنقيه
فلذا الماء تناجى والخصى
وخلا كل خليل بأخيه

تبصر الورد غيوراً برما
يكتسي من غيطه ما يكتسي
وترى الأس لبيبا فهما
يرق السمع بأذني فرس

يا أهيل الحى من وادي الغضا!
وبقلبي مسكن أتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا
لا أبالي شوقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى
تعقوا عهديكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما
يتلاشى نفسا في نفس
حبس القلب عليكم كرمما
أفترضون خراب الحبس

وبقلبي منكم مقرب
بأحاديث النى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب
شقوة المضى به وهو سعيد

تسماً بالمهى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر
جمد الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظن غد
أصبح بالليل إنك الأبد
أو قصص قوادم النسر فنجوم السماء لا تسري

ومن محاسن موشحات ابن الصابوني قوله:

ما حال صب ذي ضنى واكتساب
عامله محبوسه باجتساب
جفا جفوني النوم لكنني
لم أبكه إلا لفقد الخيال
وذا الوصال اليوم قد غرني
منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدني
بصورة الحق ولا بالجمال

واشتهر بتر أهل العدو ابن خلف الجزائري صاحب

الموشحة المشهورة:

يد الأصباح قدحت زناد الأنسوار في مجامر الزمر

وابن خرز البجائي وله من موشحة:

نسر الزمان موافق جياك منه باهتمام

ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر

إشبيلية وسبته من بعدها فمها قوله:

هل درى ظلي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكس
فهو في نار وخفق مثل ما لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على متواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن

الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره وقد مر ذكره فقال:

جداك الغيث إذا الغيث همى

يا زمان الوصل بالأندلس!

لم يكن وصلك إلا حلما

في الكرى أو خلصة المختلس!

إذ يقود الدهر أثتات النى

تنقل الخطو على ما ترسم

زمرأ بين فرادى وثنا

مثل ما يدعو الحجيج الموسم

والحيا قد جلل الروض منا

فسنا الأزهار فيه تبسم

وروى النعمان عن ماء السما

كيف يروي مالك عن أنس؟

فكساه الحسن ثوباً معلماً

يزدهي منه بأبهى ملبس

في ليلال كتمت سر الهوى

ينزل الوحي بروح القدس

وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات.
ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك التي
اشتهرت شرقاً وغرباً وأولها:

حيبي ارفع حجاب النور عسى العذار
تنظر المسك على كافر في جناح
كللي يا سحب تيجان الرى بالخلي واجعلني
سوارها منعطف الجدول

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور.
لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل
الأصمار على مناله. ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير
أن يلتزموا فيها إعراباً. واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا
النظم فيه على منحهم لهذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع
فيه للبلاغة بحال بحسب لغتهم المستعجمة.

وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قرمان.
وإن كانت قبلت قبله بالأندلس، لكن لم يظهر حلاها، ولا
انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه. وكان لعهد
الملثمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق.

قال ابن سعيد: ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها
بمواضر المغرب. قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الأشيلي،
إمام الزجالين في عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن
مثل ما وقع لابن قرمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى منتزه مع
بعض أصحابه، فجلسوا تحت عرش وأمامهم تمثال أسد من رخام
يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر متدرجة فقال:

وعرش قد قام على دكان بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان يسه القراق
وانطلق من ثم على الصفاح والقصى الصياح

وكان ابن قرمان، مع أنه قرطبي الدار. كثيراً ما يتردد إلى
إشبيلية ونياب نهراً، فاتفق أن اجتمع ذات يوم جماعة من أعلام
هذا الشأن. وقد ركبو في النهر للتنزه، ومعهم غلام جميل الصورة
من سروات أهل البلد ويوتهم. وكانوا مجتمعين في زورق للصيد،
فنظموا في وصف الحال، وبدأ منهم عيسى البلدي فقال:

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو وقد ضمني عشقو لشهماتو
تراه قد حصل مسكين مخلاتو يغلق وكذلك أمر عظيم صباتو
توحش الجفون الكحل إن غابو وذيك الجفون الكحل أبلاتو

قد تساوى محسن أو مذنب
في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلدة معسول اللمى
جال في النفس مجال النفس
سد السهم وسمى ورمى
فقؤادي نهيه القسرس

إن يكن جار وخاب الأمل
وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول
ليس في الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل عمتل
في ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما
لم يراقب في ضعاف الأنفس
نصف المظلوم ممن ظلمنا
ويجازي البر منها والمسي

ما قللي كلما هبت صبا
عاده عيد من الشوق جديد؟
جلب المسم له والوصبا
فهو للأشجان في جهد جهيد
كان في اللوح له مكتبا
قوله إن عذابني لشديد!
لاعج من أضلعي قد أضرمنا
فهو نار في هشيم اليبس
لم تدع في مهجتي إلا ذمنا
كبقاء الصبح بعد الغلس

سلمي يا نفس في حكم القضا
واعمري الوقت برجعني ومتاب
ودعي ذكر زمان قد مضى
بين عتبي قد تقضت وعتاب
واصرفي القول إلى المولى الرضى
ملهم التوفيق في أم الكتاب
الكريم المنتهى والتمنى
أسد السرج ويدر المجلس
ينزل النصر عليه مثل ما

سبيكة الفجر أحكت شفق
ترى عيارها خالص أبيض نقى
فتفتق سكتوا عند البشر
فهو النهار يا صاحبي للمعاش
والليل أيضا للقبل والعناق
جاد الزمان من بعد ما كان يحيل
لما جرع مرو فما قد مضى
قال الرقيب يا أدبا إيش ذا
وتعجبوا عذالي من ذا الخبر
نمشق ملىح الارقيى الطباع
ليش يربح الحسن إلا شاعر أدب
أما الكاس فحرام نعم هو حرام
ويد الذي يحسن حسابه ولم
وأهل العقل والفكر والجون
ظي بهي فيها يطغى الجمر
غزال بهي ينظر قلوب الأسود
ثم يحيمهم إذا ابتسم يضحكوا
فميم كخاتم ونغر نقى
جوهر ومرجان أي عقد يا فلان
وشارب أخضر يريد لاش يريد
يسبل دلال مثل جناح الغراب
على بدن أبيض بلون الحليب
وزوج هندات ما علمت قبلها
تحت العكاك من خصر رقيق
أرق هو من ديني فيما تقول
أي دين بقالي معاك وأي عقل
تحمّل ارداف ثقال كالرقيب
إن لم ينفس غدر أو يتشمع
يصير إليك المكان حين تحمي
عاشتك مثل خصال الأمير
عماد الأمصار وفصيح العرب
يحمل العلم انفسد والعمل
ففي الصدور بالرمع ما أظنه
من السماء يحسد في أربع صفات
الشمس نورو والقمر همتو
يركب جواد الجود ويطلق عنان
من خلعتو يلبس كل يوم طيب
نعمتو تظهر على كل من يحبه

في ملىق الليل قسم قلبو
فضة هو لكن الشفق ذهبو
نور الجفون من نورها يكبو
عيش الغني فيه باله ما أطيو
على سرير الوصل يتقلبو
ولش ليفلت من يديه عقربو
يشرب يتنور ويأكل طير
في الشرب والعشق ترى تنجبو
قلقت يا قوم من ذا تعجبوا
علاش تكفروا بالله أو تكبوا
يفض بكرو ويدع ثيرو
على الذي ما يدري كيف يشربو
يقدر يحسن ألفاظ أن يجلبوا
يفغر ذنوبهم لهذا إن أدنبوا
وقلبي في بحر الغنى يلعبو
ويالوهم قبل النظر يذهبوا
يفرحوا من بعد ما يتندبوا
خطيب الأمة للقبل يحطبو
قد صففه الناظم ولم يتقبو
من شبهه بالمسك قد عيبو
ليالي هجري منه يستغروا
ما قط راعي للنغم يجلبوا
ديك الصلايا ريت ما أصلبو
من رقتو يخفي إذا تطلبوا
جديد عتبك حق ما أكنبو
من يتعبك من ذا وذا تسلبوا
حين ينظر العاشق وحين يرقبو
في طرف ديسا والبشر تطلبو
وحين تغيب ترجع في عيني تبو
أو الرمل من هو الذي يحسبو
من فصاحة لفظه يتقربو
ومع بديع الشعر ما أكتبو
وفي الرقاب بالسيف ما أضربو
فمن يمد قلبي أو يحسبو
والغيث جودو والتجوم منصبو
الأغنيا والجند حين يركبوا
منه بنات المعالي تظلبوا
قاصد ووارد قط ما خيروا

قد أظهر الحق وكان في حجاب
وقد بنى بالسر ركن التقى
تخاف حين تلقاه كما ترخيه
يلقى الحروب ضاحكاً وهي عابسة
إذا حد سيفه ما بين الردود
وهو سمي المصطفى والإله
تراه خليفة أمير المؤمنين
لذي الإمامة تخضع الرؤوس
بيته بقي بدور الزمان
وفي المعالي والشرف يعلدوا
والله يقيهم ما دار الفلك
وما يغني ذا القصيد في عروض
ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر، في
أعاريض مزدوجة كالמושح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً
وسموه عروض البلد، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من
أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير. فنظم قطعة على
طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب إلا قليلاً
مطلعها:

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام
وكف السحر يحو مداد الظلام
باكرت الرياض والطلل فيها افتراق
ودمع النواصير ينهرق فيها انهراق
لنوا بالنفوس خلخال على كل ساق
وأبدي الندى تحرق جيوب الكمام
وعاج الصبا يطلي بمسك النمام
رأيت الحمام بين السورق في القضب
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب
ولكن بما أهرم وساقو خضيب
جلس بين الأغصان جلسة المستهام
وصار يشكي ما في الفؤاد من غرام
قلت يا حمام أحرمت عيني الهجوع
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع
على فرخ طاري لم يكن لو رجوع
كذا الوفا وكذا هو الزمام
وانتم من بكى منكم إذا تم عام
قلت يا حمام لو خضت بحر الضنى
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا

حتى أتى على آخرها.

وكان منهم علي بن المؤذن بلمسان، وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزوهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف. أبدع في مذاهب هذا الفن. ومن أحسن ما علق له بمحفوظي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان. ويعزيهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيهم على غزاتهم إلى إفريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة بقول في مفتحتها. وهو من أبدع مذاهب البلاغة في الأشعار بالمقصد في مطلع الكلام وافتتاحه ويسمى براءة الإستهلال:

سبحان مالك خواطر الأمرا ونواصيها في كل حين وزمان
إن طعناه أعظم لنا نصرا وإن عصيانه عاقب بكل هوان

إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص:
كن مرعى قل ولا تكن راعي فالراعي عن رعيته مسؤول
واستفتح بالصلاة على الداعي للإسلام والرضا السني المكمول
على الخلفاء الراشدين والأتباع وأذكر بعدهم إذا تحب وقول
أحجاجا نخللوا الصحرا ودوا سرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المنيرة الفرا وين سارت بوغازيم السلطان
أحجاج بالثني الذي زرم وقطعتهم لركلاكل اليدا
عن جيش الغرب حين يسالكم المتلوف في إفريقيا السودا
ومن كان بالعطايا يزودكم ويدع برية الحجاز رغدا
قام قل للصد صافد الجزرا ويعجز شوط بعلمنا يخفان
ويوزف كرم دهم في الفيرا أي ما زاد غزالهم سبجان
لو كان ما بين تونس الغربا ويلاذ الغرب سد السكندر
مبنى من شرقها إلى غربا طبعا بجديد أو ثانياً بصفر
لا بد الطير أن تحجب نبا أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وما شرا لو تقرأ كل يوم على الديوان
لجرت بالدم وانصدع حجرا وهوت الخراب وخافت الغزلان
أدري بعقلك الفعاص وتفكر لي بخاطرك جمعاً
إن كان تعلم حمام ولا رقاص عن السلطان شهر وقله سبعا
تظهر عند المهيمن الفصاص وعلامات تنشر على الصمعا
الا قوم عارين فلا سترا مجهولين لا مكان ولا إمكان
ما يدروا كيف يصوروا كسرا وكيف دخلوا مدينة القيروان
أمولاي أبو الحسن خطينا الباب قضية سبينا إلى تونس
فقنا كنا على الجريد والزباب واش لك في إعراب إفريقيا القويس
ما بلغك من عمر فتى الخطاب الفاروق فنانع القرى المولس
ملك الشام والحجاز وتاج كسرى وفتح من إفريقيا وكان

اليوم نقاسي المهجر كم من سنا حتى لا سبيل جملة تراني العيون
وما كسا جسمي التحول والسقام أخفاني نحولي عن عيون اللوح
لو جتني المنيا كان يموت في المقام ومن مات بعد يا قوم لقد استراح
قال لي لو رقدت لأوراق الرياض من خوفي عليه وذا النفوس للفؤاد
وتخضبت من دمعي وذاك البياض طوق العهد في عتقي ليوم التناد
أما طرف مقاربي حديثي استفاض بأطراف البلد والجسم صار في الرماد
فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته.
وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً إلى المزدوج والكازي والملمعة والغزل. واختلقت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها. فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فصولهم وهو من أهل تازا:

المال زينة الدنيا وعز النفوس يهبي وجوهاً ليس هي بأهيا
فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكسلام والرتبة العاليها
يكبر من كثر ماله ولو كان صغير ويصغر عزيز القوم اذ يفتقر
من ذا ينطبق صدري ومن ذا تغير وكاد يفتق لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجئ من هو في قومي كبير لن لا أمل عندو ولا لو خطر
لذا ينغي يحزن على ذي العكوس ويصبع عليه ثوب فراش صافيا
اللي صارت الأذناب أمام الرؤوس وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان ما يدروا على من يكثروا ذا العتاب
اللي صار فلان يصبح بو فلان ولو رأيت كيف يرد الجرواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
كبار النفوس جداً ضعاف الأموس هم ناحيا والمجد في ناحيا
يرو أنهم والناس يروهم تيوس وجوه البلد والعمدة الراسيا
ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته:

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد إلا وخان قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا ويستعدوا تقطيع قلوب الرجال
وإن واصلوا من حينهم يقطعوا وإن عاهدوا خاتوا على كل حال
مليح كان هويت وشت قلبي معو وصيرت من خدي لقدمو تعال
ومهدت لرو من وسط قلبي مكان وقلت لقلبي أكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتريك من هوان فلا بد من هول الهوى يعتريك
حكمتوا علي وارضيت بو أمير فلو كان يرى حالي إذا يصبر
يرجع مثل در حولي بوجه الغدير مريده ويتعطس بحال المحرو
وتعلمت من ساعا بسبق الضمير ويفهم مرادو قبل أن يذكر
ويحتل في مطلو لو أن كان عصر في الريح أو في الليالي يريك
ويحشي بسوق كان ولو بأصهبان وإيش ما يقل يحتاج لو يحبك

رد ولدت لـ كرهه ذكرى وتقل فيها تفرق الإخوان
هذا الفاروق مردى الأعوان صرح في إفريقية بهذا التصريح
وبقت حمى إلى زمن عثمان وقتها ابن الزبير عن تصحيح
لمن دخلت غنائمها الديوان مات عثمان وانقلب علينا الريح
وافترق الناس على ثلاثة أسرا وبقي ما هو للسكوت عنوان
إذا كان ذا في مدة السرايا إثم نعمل في أواخر الأزمان
وأصحاب الحضر في مكناساتنا وفي تاريخ كائنا وكيوانا
تذكر في صحتها آياتنا شق وسطح وابسن مراننا
إن مريم إذا تكف براياتنا لجدا وتونس قد سقط بناينا
قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا عيسى بن الحسن الرفيع الشأن
قال لي رأيت وأنا بهذا أدري لكن إذا جاء القدر عميت الأعيان
ويقول لك ما دعى المرينيا من حضرة فاس إلى عرب دياب
أراد المولى بموت ابن مجبى سلطان تونس وصاحب الأبواب

ثم أخذ في ترحيل السلطان وجيوشه، إلى آخر رحلته
ومتمى أمره، مع أعراب إفريقية. وأتى فيها بكل غريبة من
الإبداع. وأما أهل تونس فاستحدثوا فن اللعبة أيضاً على لغتهم
الحضرية، إلا أن أكثره رديء ولم يعلق بمحفوظي منه شيء
لرداءته.

الموشحات والأزجال في المشرق

وكان لعامة بغداد أيضاً فن من الشعر يسمونه المواليا، وتحت
فنون كثيرة يسمون منها القوما، وكان وكان، ومنه مفرد ومنه في
بيتين، ويسمونه دوبيت على الاختلافات العتيرة عندهم في كل
واحد منها، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان. وتبعهم في ذلك
أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب. وتبحروا في أساليب
البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية، فجاءوا بالعجائب. ورأيت في
ديوان الصفي الحلبي من كلامه «أن المواليا من بحر البسيط، وهو
ذو أربعة أغصان وأربع قواف، ويسمى صوتاً وبيتين. وأنه من
مخترعات أهل واسط، وإن كان وكان فهو قافية واحدة وأوزان
مختلفة في أشطاره: الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني
ولا تكون قافيته إلا مردفة بحرف العلة وأنه من مخترعات
البغداديين. وأنشد فيه لنا:

بغمز الحواجب حديث تفسير ومنو أويو، وأم الأخرس
تعرف بلغة الخرسان». انتهى كلام الصفي.

ومن أعجب ما علق بمحفظي منه قول شاعرهم:

هذي جراحى طريسا والدمما تنضح

وقساتلي يا أخيا وقساتلي يا أخيا
قالوا ونأخذ بشارك قالوا ونأخذ بشارك
إلى جرحتي يداويني إلى جرحتي يداويني
ولغيره:

طرقت باب الحبا قالت من الطارق طرقت باب الحبا قالت من الطارق
تسمت لاح لي من نغرها بارق تسمت لاح لي من نغرها بارق
ولغيره:

عهدي بها وهي لا تأمن علي البين وإن شكوت الهوى قالت فديتك العين
لمن يماين لها غيري غلام الزين ذكرت العهد قالت لك علي دين
ولغيره في وصف الحشيش:

دي خر صرف التي عهدي بها باقي تغني عن الخمر والخمار والساقى
فحباً ومن قحبها تعمل على إحراقى خبيتها في الحشى طلت من أحداق

ولغيره:

يا من وصالو لأطفال الحبة بح كم توجع القلب بالمهجرا أوه أح
أودعت قلبي حوحو والتصبر بح كل الورى كخ في عني وشخصك دح

ولغيره:

ناديتها ومشيبي قد طوانسي طي جودي علي بقبلة في الهوى يا مـي
قالت وقد كوت داخل فؤادي كي ما ظن ذا القطن يغشى فم من هو حي

ولغيره:

راني ابتسم سبقت سحب أدمعي برقه ماط اللثام تبدى بدر في شرقه
أسبل دجى الشعرته القلب في طرقة رجع هذاننا يحيط الصبح من فرقه

ولغيره:

يا حادي العيس أزجر بالمطايا زجر وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
وصي في حيهم يا من يريد الأجر ينهض يصلي على ميت قتيل المهجر

ولغيره:

عني التي كنت أراكم بها باتت ترعى النجوم وبالتسديد اقتاتت
واسهم البين صابتي ولا فاتت وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

ولغيره:

هويت في قطرتكم يا ملاح الحكر غزال يلى الأسود الضاربا بالفكر
غصن إذا ما اتنى يسبي البنات البكر وإن تهلل فما للبدر علو ذكر

ومن الذي يسمونه دوبيت:

قد أقسم من أحبه بالباري أن يبعث طيفه مع الأسحار
يا نار أشواقى به فساقتدي ليلاً فمساه يهتدي بالنار

واعلم أن الأذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن

خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى

يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية. فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق، ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمغرب. لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم. وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلده **﴿وَيَسِّنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْيِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾**

خاتمة

وقد كدنا أن نخرج عن الغرض

ولذلك عزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه، وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاء له. ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول المشتمل على المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة. ثم نقحته بعد ذلك وهذبتة وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطته. وما العلم إلا من عند الله العزيز الحكيم.

الكتاب الثاني

في أخبار العرب وأجيالهم ودوهم منذ بدء

الخلق إلى هذا العهد

وفيه ذكر معاصيرهم من الأمم المشاهير، مثل السريانيين والنبط والكلدانيين والفرس والقبط وبني إسرائيل وبني يونا والروم، والإمام بأخبار دولهم. ويتقدم الكلام في ذلك مقدمتان: إحداهما في أمم العالم وأنسابهم على الجملة، الثانية في كيفية أوضاع الأنساب في هذا الكتاب.

المقدمة الأولى

في أمم العالم واختلاف أجيالهم والكلام

على الجملة في أنسابهم

اعلم أن الله سبحانه وتعالى اعتمر هذا العالم بخلقه وكرم بني آدم باستخلافهم في أرضه، وبثهم في نواحيها لتمام حكمته، وخالف بين أئمتهم وأجيالهم إظهاراً لأياته فيتعارفون بالأنساب، ويختلفون باللغات والألوان، ويمتازون بالسير والمذاهب والأخلاق، ويفترقون بالنحل والأديان والأقاليم والجهات. فمنهم العرب والفرس والروم وبني إسرائيل والبربر، ومنهم الصقالبة والحبش والزنيج، ومنهم أهل الهند وأهل بابل وأهل الصين وأهل اليمن وأهل مصر وأهل المغرب. ومنهم المسلمون والنصارى واليهود والصابئة والمجوس، ومنهم أهل الوير وهم أصحاب الخيام والحلل وأهل المدر وهم أصحاب الجاشر والقرى والأطم، ومنهم البدو الظواهر والخضر الأهليون. ومنهم العرب أهل البيان والفصاحة والعجم وأهل الرطانة العبرانية والفارسية والإغريقية واللطينية والبربرية. خالف أجناسهم وأحوالهم واستهم والوانهم لئتم أمر الله في اعتمار أرضه بما يتوزعون من وظائف الرزق وحاجات المعاش بحسب خصوصياتهم وغلهم فتظهر آثار القدرة وعجائب الصنعة وآيات الوحدانية إن في ذلك لآيات للعالمين.

واعلم أن الامتياز بالنسب أضعف المميزات لهذه الأجيال والأمم، لخفائه واندارسه بدروس الزمان وذهابه. ولهذا كان الاختلاف كثيراً ما يقع في نسب الجيل الواحد أو الأمة الواحدة

إذا اتصلت مع الأيام وتشعبت بطونها على الأحقاب، كما وقع في نسب كثير من أهل العالم مثل اليونانيين والفرس والبربر وقحطان من العرب. فإذا اختلفت الأنساب واختلفت فيها المذاهب وتباينت الدعاوى استظهر كل ناسب على صحة ما ادعاه بشواهد الأحوال والمتعارف من المقارنات في الزمان والمكان وما يرجع إلى ذلك من خصائص القبائل وسمات الشعوب والفرق التي تكون فيهم متقلة متعاقبة في بينهم.

وسئل مالك رحمه الله تعالى عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم، فكره ذلك وقال من أين يعلم ذلك؟ فقيل له فإلى إسماعيل فأنكر ذلك وكره أيضاً أن يُرفع في أنساب الأنبياء مثل أن يقال: إبراهيم بن فلان بن فلان، وقال من يخبر به. وكان بعضهم إذا تلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال: كذب النسابون.

واحتجوا أيضاً بحديث ابن عباس أنه عليه السلام لما بلغ نسبه الكريم إلى عدنان قال: «من ههنا كذب النسابون».

واحتجوا أيضاً بما ثبت فيه أنه «علم لا يرفع وجهاله لا تضر» إلى غير ذلك من الاستدلالات.

وذهب كثير من أئمة المحدثين والفقهاء مثل ابن إسحاق والطبري والبخاري إلى جواز الرفع في الأنساب ولم يكرهوه، محتجين بعمل السلف فقد كان أبو بكر رضي الله عنه أنسب قرش لقرش ومضر، بل ولسائر العرب وكذا ابن عباس وجبير بن مطعم وعقيل بن أبي طالب وكان من بعدهم ابن شهاب والزهري وابن سيرين، وكثير من التابعين. قالوا وتدعو الحاجة إليه في كثير من المسائل الشرعية مثل تعصيب الورثة وولاية النكاح والعاقلة في الديات والعلم ينسب النبي عليه السلام وأنه القرشي الهاشمي الذي كان بمكة وهاجر إلى المدينة فإن هذا من فروض الإيمان ولا يعذر الجاهل به. وكذا الخلافة عند من يشترط النسب فيها. فهذا كله يدعو إلى معرفة الأنساب ويؤكد فضل هذا العلم وشرفه فلا ينبغي أن يكون ممنوعاً.

وأما حديث ابن عباس أنه عليه السلام لما بلغ نسبه إلى عدنان قال: «من ههنا كذب النسابون» يعني من عدنان. فقد أنكر السهيلي روايته من طريق ابن عباس مرفوعاً وقال: الأصح أنه موقوف على ابن مسعود. وخرج السهيلي عن أم سلمة أن النبي عليه السلام قال: «معد بن عدنان بن أدد بن زيد بن البري بن أعراق الثرى». قال وفسرت أم سلمة زيداً بأنه الحميسع، والبري بأنه نبت أو نبات، وأعراق الثرى بأنه إسماعيل، وإسماعيل هو ابن إبراهيم، وإبراهيم

مشهورون بالنحل مثل الكلدانيين ومعناه الموحدون، ومثل السريانيين وهم المشركون. وزعموا أن أمم الصابئة منهم وأنهم من ولد صابئ بن ملك بن أخنوخ، وكان ملتحقهم في الكواكب والقيام لها كلها واستتزال روحانيتها وأن من حزبهم الكلدانيين أي الموحدين. وقد ألف أبو إسحاق الصابي الكاتب مقالة في أنسابهم وملتحقهم. وذكر أخبارهم أيضاً داهر مؤرخ السريانيين والبابا الصابي الخرائي وذكروا استيلاءهم على العالم وجملاً من نواميسهم. وقد اندرسوا وانقطع أثرهم. وقد يقال أن السريانيين من أهل تلك الأجيال، وكذلك النمرود والازدهاق، وهو المسمى بالضحاك من ملوك الفرس وليس ذلك بصحيح عند المحققين.

واتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الأرض أجمع بما كان من خراب المعمور ومهلك الذين ركبوها معه في السفينة ولم يعقبوا فصار أهل الأرض كلهم من نسله وعاد أباً ثانياً للخليقة وهو نوح بن لامك ويقال: لملك بن متوشلخ بفتح اللام وسكونها ابن خنوخ، ويقال: أخنوخ، ويقال: أشنخ، ويقال: أخنخ وهو إدريس النبي فيما قاله ابن إسحاق بن يبريد ويقال: يبريد بن مهلائيل ويقال: ماهلائيل بن قايين ويقال: قنين بن أنوش ويقال: يانش بن شيث بن آدم، ومعنى شيث عطية الله هكذا نسب ابن إسحاق وغيره من الأئمة وكذا وقع في التوراة نسبه وليس فيه اختلاف بين الأئمة. ونقل ابن إسحاق أن خنوخ الواقع اسمه في هذا النسب هو إدريس النبي صلوات الله عليه وهو خلاف ما عليه الأكثر من النساين فإن إدريس عندهم ليس بجدي لنوح ولا في عمود نسبه وقد زعم الحكماء الأقدمون أيضاً أن إدريس، هو هرمس المشهور بالإمامة في الحكمة عندهم. وكذلك يقال: إن الصابئة من ولد صابئ بن لامك وهو أخو نوح عليه السلام. وقيل: أن صابئ متوشلخ جده.

واعلم أن الخلاف الذي في ضبط هذه الأسماء إنما عرض في مخارج الحروف فإن هذه الأسماء إنما أخذها العرب من أهل التوراة ومخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب، فإذا وقع الحرف متواسطاً بين حرفين من لغة العرب، فترده العرب تارة إلى هذا وتارة إلى هذا. وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب إذا نقلت كلام العجم، فمن هنا اختلف الضبط في هذه الأسماء.

واعلم أن الفرس والمند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط. واعلم أن آدم هو كيوميرث وهو نهاية نسبهم فيما يزعمون، وأن أفريدون الملك في آبائهم هو نوح، وأنه يُعصّ لازدهاق وهو الضحاك فلبسه الملك وقبلة كما يذكر بعد في

لم تأكله النار كما لا تأكل الثرى. ورد السهيلي تفسير أم سلمة وهو الصحيح، وقال إنما معناه معنى قوله ﷺ «لكم بنو آدم وآدم من تراب» لا يريد أن المميسع ومن دونه ابن لإسماعيل لصلبه وعضد ذلك باتفاق الأخبار على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل التي تستحيل في العادة أن يكون فيها بينهما أربعة آباء، أو سبعة أو عشرة أو عشرون لأن المدة أطول من هذا كله كما نذكره في نسب عدنان فلم يبق في الحديث متمسك لأحد من الفريقين. وأما ما روه من أن النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر فقد ضعف الأئمة رفعه إلى النبي ﷺ مثل الجرجاني وأبي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر. وألحق في الباب أن كل واحد من المذهبين ليس على إطلاقه فإن الأنساب القرية التي يمكن التوصل إلى معرفتها لا يضر الاشتغال بها لدعوى الحاجة إليها في الأمور الشرعية من التعصيب والولاية والعاقلة وفرض الإيمان بمعرفة النبي ﷺ، ونسب الخلافة والفرقة بين العرب والعجم في الحرية والاسترقاق عند من يشترط ذلك كما مر كله وفي الأمور العادية أيضاً تثبت به اللحمة الطبيعية التي تكون بها المدافعة والمطالبة. ومنفعة ذلك في إقامة الملك والدين ظاهرة. وقد كان ﷺ وأصحابه ينسبون إلى مضر ويتساءلون عن ذلك. وروي عنه ﷺ أنه قال: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم». وهذا كله ظاهر في النسب القريب، وأما الأنساب البعيدة العسرة المدرك التي لا يوقف عليها إلا بالشواهد والمقارنات لبعد الزمان وطول الأحقاب أو لا يوقف عليها رأساً لدروس الأجيال فهذا قد ينبغي أن يكون له وجه في الكراهة كما ذهب إليه من ذهب من أهل العلم مثل مالك وغيره، لأنه شغل الإنسان بما لا يعنيه. وهذا وجه قوله ﷺ فيما بعد عدنان من ههنا كذب النسابون لأنها أحقاب متطاولة ومعالم دراسة لا تلتج الصدور باليقين في شيء منها مع أن علمها ينفع وجهلها لا يضر كما نقل والله الهادي إلى الصواب.

ولنأخذ الآن في الكلام في أنساب العالم على الجملة ونترك تفصيل كل واحد منها إلى مكانه فنقول: إن النساين كلهم اتفقوا على أن الأب الأول للخليقة هو آدم عليه السلام كما وقع في التنزيل إلا ما يذكره ضعفاء الإخباريين من أن الحن والطم أمتان كانتا فيما زعموا من قبل آدم، وهو ضعيف متروك وليس لدينا من أخبار آدم وذريته إلا ما وقع في المصحف الكريم وهو معروف بين الأئمة. واتفقوا على أن الأرض عمرت بنسله أحقاباً وأجيالاً بعد أجيال إلى عصر نوح عليه السلام، وأنه كان فيهم أنبياء مثل شيث وإدريس وملوك في تلك الأجيال معدودون وطوائف

باتفاق النساين. واختلاف بينهم إنما هو في تفاريع ذلك أو في نسب غير العرب إلى سام.

فالذي نقله ابن إسحاق: أن سام بن نوح كان له من الولد خمسة وهم: أرفخشذ ولاوذ وإرم وأشوذ وغليم. وكذا وقع ذكر هذه الخمسة في التوراة وأن بني أشوذ هم أهل الموصل، وبني غليم أهل خوزستان ومنها الأهواز. ولم يذكر في التوراة ولد لاوذ. وقال ابن إسحاق: وكان للاوذ أربعة من الولد: وهم طسم وعمليق وجرجان وفارس قال: ومن العماليق أمة جاسم فمنهم بنو لف وبنو هزان وبنو مطر وبنو الأزرق ومنهم بدليل وراحل وظفارة، ومنهم الكنعانيون وبرابة الشام وفراغنة مصر. وعن غير ابن إسحاق أن عبد بن ضخم وأميم من ولد لاوذ. قال ابن إسحاق: وكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم يتكلمون بالعربية وفارس يجاورونهم إلى المشرق ويتكلمون بالفارسية.

قال وولد إرم: عوص وكاثر وعييل ومن ولد عوص عاد ومزلهم بالرمال والأحفاف إلى حضرموت. ومن ولد كاثر ثمود وجديس ومزل ثمود بالحجر بين الشام والحجاز.

وقال هشام بن الكلبي: عييل بن عوس أخو عاد. وقال ابن حزم عن قدماء النساين: أن لاوذ هو ابن إرم بن سام أخو عاص وكاثر. قال: فعلى هذا يكون جديس وثمرود أخوين، وطسم وعملاق أخوين أبناء عم لحام وكلهم بنو عم عاد. قال: ويذكرون أن عبد بن ضخم بن إرم وأن أميم بن لاوذ بن إرم. قال الطبري: وفهم الله لسان العربية عاداً وثمرود وعييل وطسم وجديس وأميم وعمليق وهم العرب العاربة. وربما يقال: إن من العرب العاربة يقطن أيضاً، ويسمون أيضاً العرب البائدة ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد. قال: وكان يقال عاد إرم فلما هلكوا قيل ثمود إرم ثم هلكوا فليل لسائر ولد إرم أرمان وهم النبط. وقال هشام بن محمد الكلبي: إن النبط بنو نبط بن ماش بن إرم والسيان بنو سريان بن نبط.

وذكر أيضاً أن فارس من ولد أشوذ بن سام وقال فيه فارس بن طبراش بن أشوذ، وقيل: أنهم من أميم بن لاوذ وقيل: ابن غليم.

وفي التوراة: ذكر ملك الأهواز واسمه كردلا عمرو من بني غليم والأهواز متصلة ببلاد فارس. فلعل هذا القائل ظن أن أهل أهواز هم فارس والصحيح أنهم من ولد يافث كما يذكر. وقال أيضاً إن البربر من ولد عمليق بن لاوذ وأنهم بنو قميلة من مارب بن قاران بن عمر بن عمليق والصحيح أنهم من كنعان بن حام

أخبارهم. وقد ترجح صحة هذه الأنساب من التوراة وكذلك قصص الأنبياء الأقدمين إذ أخذت عن مسلمي يهوذا ومن نسخ صحيحة من التوراة يغلب على الظن صحتها وقد وقعت العناية في التوراة بنسب موسى عليه السلام وإسرائيل وشعوب الأسباط ونسب ما بينهم وبين آدم صلوات الله عليه. والنسب والقصص أمر لا يدخله النسخ فلم يبق إلا تحري النسخ الصحيحة والنقل المعبر. وأما ما يقال من أن علمائهم بدلوا مواضع من التوراة بحسب أغراضهم في ديانتهم. فقد قال ابن عباس على ما نقل عنه البخاري في صحيحه: أن ذلك بعيد، وقال معاذ الله أن تعمد أمة من الأمم إلى كتابها المنزل على نبيها فتبدله أو ما في معناه، قال وإنما بدلوه وخرفوه بالتأويل ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ ولو بدلوا من التوراة الفاظها لم يكن عندهم التوراة التي فيها حكم الله وما وقع في القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فيها إليهم فإنما المعنى به التأويل اللهم إلا أن يطرقها التبديل في الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط. وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها فذلك يمكن في العادة لا سيما وملكهم قد ذهب، وجماعتهم انتشرت في الأنفاق واستوى الضابط منهم وغير الضابط، والعالم والجاهل، ولم يكن وازع يحفظ لهم ذلك للذهاب القدرة بذهاب الملك فتطرق من أجل ذلك إلى صنف التوراة في الغالب تبديل وتحريف غير متعمد من علمائهم وأخبارهم. ويمكن مع ذلك الوقوف على الصحيح منها إذ تحرى القاصد لذلك بالبحث عنه.

ثم اتفق النسابون ونقلت المفسرين على أن ولد نوح اللذين تفرعت الأمم منهم ثلاثة: سام وحام ويافث وقد وقع ذكرهم في التوراة، وأن يافث أكبرهم وحام الأصغر وسام الأوسط. وخروج الطبري في الباب أحاديث مرفوعة يمثل ذلك وأن سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش والزنج وفي بعضها السودان. وفي بعضها سام أبو العرب وفارس الروم، ويافث أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وحام أبو القبط والسودان والبربر، ومثله عن ابن المسيب وهوب بن منبه. وهذه الأحاديث وإن صحت فإنما الأنساب فيها جملة ولا بد من نقل ما ذكره المحققون في تفرغ أنساب الأمم من هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً. وكذلك نقل الطبري أنه كان لنوح ولد اسمه كنعان وهو الذي هلك في الطوفان، قال وتسميه العرب يام، وآخر مات قبل الطوفان اسمه عابر. وقال هشام كان له ولد اسمه بوناظر والعقب إنما هو في الثلاثة على ما أجمع عليه الناس وصحت به الأخبار فاما سام فمن ولد العرب على اختلافهم وإبراهيم وبنوه صلوات الله عليهم

والمباطلة الذي كان منهم الخلع، ويقال للمباطلة الصغد أيضاً. ومن أجناس الترك الغور والخزر والقفجاق، ويقال الخفشاخ، ومنهم بمك والعلان، ويقال الأزو، منهم الشركس وأزكش. ومن ماغوغ عند الإسرائيليين بأجوج ومأجوج. وقال ابن إسحاق: إنهم من كورم ومن مازاي الديلم ويسمون في اللسان العبراني ماهان.

ومنهم أيضاً همذان وجعلهم بعض الإسرائيليين من بني همذان بن يافث وعد همذان ثامناً للسبعة المذكورين من ولده.

وأما يوان واسمه يونان فعند الإسرائيليين أنه كان له من الولد أربعة وهم داود بن واليشا وكيتم وترشيش، وإن كيتم من هؤلاء الأربعة هو أبو الروم والباقي يونان، وإن ترشيش أهل طرسوس.

وأما قطوبال فهم أهل الصين من المشرق والليمان من المغرب.

ويقال أن أهل إفريقية قبل البربر منهم وأن الإفرنج أيضاً منهم. ويقال أيضاً أن أهل الأندلس قديماً منهم وأما ماشخ فكان ولده عند الإسرائيليين بخراسان وقد انقضوا لهذا العهد فيما يظهر وعند بعض النساين أن الأشبان منهم.

وأما طيراش فهم الفرس عند الإسرائيليين وربما قال غيرهم إنهم من كورم وأن الخزر والترك من طيراش وأن الصقالبة ويرجان والأشبان من يوان وأن يأجوج من كورم وهي كلها مزاعم بعيدة عن الصواب.

وقال امرؤوشبوش مؤرخ الروم إن القوط واللطين من ماغوغ. وهذا آخر الكلام في أنساب يافث.

وأما حام فمن ولده السودان والهند والسند والقطب وكنعان باتفاق. وفي آخرين خلاف تذكره وكان له على ما وقع في التوراة أربعة من الولد وهم: مصر ويقول بعضهم مصريم وكنعان وكوش وقوط. فمن ولد مصر عند الإسرائيليين فتروسيم وكسلوحيهم ووقع في التوراة فلشئين منهما معاً. ولم يتعين من أحدهما وبني فلشئين الذين كان منهم جالوت. ومن ولد مصر عندهم كفتور، ويقولون هم أهل دمياط ووقع الانقلوس ابن أخت قيطش الذي خرب القدس في الجلولة الكبرى على اليهود. قال أن كفتور هو قبطاي ويظهر من هذه الصيغة أنهم القبط لما بين الاسمين من الشبه.

ومن ولد مصر عناميم وكان لهم نواحي إسكندرية وهم أيضاً بفنوجيم ولوديم ولهايم. ولم يقع إلينا تفسير هذه الأسماء. وأما كنعان بن حام فذكر من ولده في التوراة أحد عشر منهم

كما يذكر. وذكر في التوراة ولد إرم أربعة عوص وكاثر وماش ويقال: مشح والرباع حول. ولم يقع عند بني إسرائيل في تفسير هذا شيء إلا أن الجرماقة من ولد كاثر. وقد قيل أن الكوف والديلم من العرب. وهو قول مرغوب عنه.

وقال ابن سعيد كان لأشوذ أربعة من الولد إيران ونييط وجرموق وباسل. فمن إيران الفرس والكرد والخزر، ومن نييط النبط والسريان، ومن جرموق الجرماقة وأهل الموصل، ومن باسل الديلم وأهل الجبل. قال الطبري: ومن ولد أرفخشذ العبرانيون وبني عابر بن شالخ بن أرفخشذ، وهكذا نسبه في التوراة. وفي غيره أن شالخ بن قين بن أرفخشذ وإنما لم يذكر قين في التوراة لأنه كان ساحراً وادعى الألوهية.

وعند بعضهم أن النمرود من ولد أرفخشذ وهو ضعيف وفي التوراة أن عابر ولد اثنين من الولد هما فالغ ويقطن، وعند المحققين من النسابة أن يقطن هو تحطان عربة العرب هكذا. ومن فالغ إبراهيم عليه السلام وشعوبه ويأتي ذكرهم. ومن يقطن شعوب كثيرة ففي التوراة ذكر ثلاثة من الولد له وهم: المرذاذ ومعربه ومضاخ وهم جرهم وإرم وهم حضور وسالف وهم أهل السلفات وسبا وهم أهل اليمن من حير والتابعة وكهلان وهدراوت وهم حضرموت. هؤلاء خمسة، وثمانية أخرى ننقل أسماءهم وهي عبرانية ولم نقف على تفسير شيء منها ولا يعلم من أي البطون هم، وهم: بياراح وأوزال ودفلا وعوثال وأفيمايل وأيوثير وحويلا ويوفاف، وعند النساين أن جرهم من ولد يقطن فلا أدري من أيهم، وقال هشام بن الكلبي إن الهند والسن من نوفر بن يقطن والله أعلم.

وأما يافث فمن ولده الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج باتفاق من النساين. وفي آخرين خلاف كما يذكر. وكان له من الولد على ما وقع في التوراة سبعة: وهم كورم ويوان وماذاي وماغوغ وقطوبال وماشخ وطيراش وعدهم ابن إسحاق هكذا وحذف ماذاي ولم يذكر كورم وتوغرما وأشبان وريغات هكذا في نص التوراة. ووقع في الإسرائيليات أن توغرما هم الخزر، وأن أشبان هم الصقالبة، وأن ريغات هم الإفرنج ويقال لهم برنسوس والخزر هم التركمان وشعوب الترك كلهم من بني كورم، ولم يذكروا من أي الثلاثة هم. والظاهر أنه من توغرما ونسبهم ابن سعيد إلى الترك بن عامور بن سويل بن يافث، والظاهر أنه غلط، وأن عامور هو كورم صحف عليه.

وهم أجناس كثيرة منهم الطغرغر وهم التتر والخطا، وكانوا بأرض طغنجاخ والخزلقية والغز الذين كان منهم السلجوقية

المقدمة الثانية

في كيفية وضع الأنساب في كتابنا لأهل
الدول وغيرهم

أعلم أن الأنساب تشعب دائماً وذلك أن الرجل قد يكون له من الولد ثلاثة أو أربعة أو أكثر، ويكون لكل واحد منهم كذلك، وكل واحد منهم فرع ناشئ عن أصل أو فرع أو عن فرع فرع فصارت بمثابة الأغصان للشجرة وتكون قائمة على ساق واحدة هي أصلها والفروع عن جانبها، ولكل واحد من الفروع فروع أخرى إلى أن تنتهي إلى الغاية. فلذلك اخترنا بعد الكلام على الأنساب للامة وشعوبها أن نضع ذلك على شكل شجرة نجعل أصلها وعمود نسبها باسم الأعظم من أولئك الشعوب ومن له التقدم عليهم فيجعل عمود نسبها أصلاً لها ونفرض الشعوب الأخرى عن جانبه من كل جهة، كأنها فروع لتلك الشجرة حتى تتصل تلك الأنساب عموداً وفروعاً بأصلها الجامع لها ظاهرة للعيان في صفحة واحدة، فترسم في الخيال دفعة ويكون ذلك أعون على تصور الأنساب وتشعبها فإن الصور الحسية أقرب إلى الارتسام في الخيال من المعاني المتعلقة. ثم لما كانت هذه الأمم كلها لها دول وسلطان، اعتمدنا بالقصد الأول ذكر الملوك منهم في تلك الشجرات متصلة أنسابهم إلى الجد الذي يجمعهم، بعد أن نرسم على كل واحد منهم رتبته في تعاقبهم واحداً بعد واحد بحروف أ ب ج د فالألف للأول، والباء للثاني، والجيم للثالث، والدال للرابع، والهاء للخامس، وهلم جرأً، ونهاية الأجداد لأهل تلك الدولة في الآخر منهم، ويكون للأول غصون وفروع في كل جهة عنه، فإذا نظرت في الشجرة علمت أنساب الملوك في كل دولة وترتيبهم بتلك الحروف واحداً بعد واحد والله أعلم بالصواب.

القول في أجيال العرب وأوليتها واختلاف
طبقاتهم وتعاقبها وأنساب كل طبقة منها

أعلم أن العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة، أهل الخيام وسكناتهم والخييل لركوبهم، والأنعام لكسبهم، يقومون عليها، ويقتاتون من ألبانها، ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها، ويحملون أثقالهم على ظهورها. يتنازلون حلاً متفرقة، ويتبنون الرزق في غالب أحوالهم من القنص، ويختطف الناس من السبل، ويتقلبون دائماً في المجالات فراراً من حمارة القيظ تارة،

صيدون ولهم ناحية صيدا وإيموري وكرساش، وكانوا بالشام وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع إلى إفريقية فأقاموا بها. ومن كنعان أيضاً بيوسا وكانوا ببست المقدس وهربوا أمام داود عليه السلام حين غلبهم عليه إلى إفريقية والمغرب وأقاموا بها. والظاهر أن البربر من هؤلاء المتقلبين أولاً وآخراً إلا أن المحققين من نسبهم على أنهم من ولد مازيغ بن كنعان فلعل مازيغ ينتسب إلى هؤلاء. ومن كنعان أيضاً حيث الذين كان ملكهم عوج بن عناق.

ومنها عرفان وأروادي وخوري ولهم نابلس وسبا ولهم طرابلس وضماري ولهم حصص وحما ولهم أنطاكية وكانت تسمى حما باسمهم، وأما كوش بن حام فذكر له في التوراة خمسة من الولد وهم سفنا وسبا وجويلا ورعما وسفخا ومن ولد رعما شاو وهم السند ودادان وهم الهند. وفيها أن النمرود من ولد كوش ولم يعينه وفي تفاسيرها أن جويلا زويلة وهم أهل بركة. وأما أهل اليمن فمن ولد سبا. وأما قوط فعند أكثر الإسرائيليين أن القبط منهم. ونقل الطبري عن ابن إسحاق أن الهند والسند والحبشة من بني السودان من ولد كوش. وأن النوبة وفزان وزغاوة والزنج منهم من كنعان. وقال ابن سعيد: أجناس السودان كلهم من ولد حام ونسب ثلاثة منهم إلى ثلاثة سمام من ولده غير هؤلاء الحبشة إلى حبش، والنوبة إلى نوبة أو نوى، والزنج إلى زنج، ولم يسم أحداً من آباء الأجناس الباقية وهؤلاء الثلاثة الذين ذكروا لم يعرفوا من ولد حام فلعلهم من أعقابهم، أو لعلها أسماء أجناس.

وقال هشام بن محمد الكلبي إن النمرود هو ابن كوش بن كنعان. أهروشيوش مؤرخ الروم: إن سبا وأهل إفريقية يعني البربر من جويلا بن كوش ويسمى يصول. وهذا والله أعلم غلط لأنه مر أن يصول في التوراة من ولد يافث ولذلك ذكر أن حبشة المغرب من دادان بن رعما من ولد مصر بن حسام بنو قبط بن لاب بن مصر. انتهى الكلام في بني حام. وهذا آخر الكلام في أنساب أمم العالم على الجملة والخلاف الذي في تفاصيلها يذكر في أماكنه والله ولي العون والتوفيق.

كان معاشهم منها. فالعرب أهل هذه الشعار من أجيال الآدميين. كما أن الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر لما كان معاشهم فيها فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه إلا بالعرض ولذلك كان النسب في بعضهم مجهولاً عند الأكثر وفي بعضهم خفياً على الجمهور. وربما تكون هذه السمات والشعائر في أهل نسب آخر فيدعون باسم العرب إلا أنهم في الغالب يكونون أقرب إلى الأولين من غيرهم. وهذا الانتقال لا يكون إلا في أزمنة متطاولة وأحقاب متداولة. ولذلك يعرض في الأنساب ما يعرض من الجهل والخفاء.

واعلم أن جيل العرب بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام كان في عاد الأولى وثمود والعمالة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمي إليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نوح. ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم وأبادهم الله بما شاء من قدرته وصار هذا الجيل في آخرين ممن قرب من نسبهم من حمير وكهلان وأعقابهم من التابعة ومن إليهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام. ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقت وكان بنو فالغ بن عابر أعلم من بين ولده واختص الله بالنبوة منهم إبراهيم بن تارخ وهو أزر بن ناحور بن ساروخ بن أرغو بن فالغ وكان من شأنه مع عمروذ ما قصه القرآن. ثم كان من هجرته إلى الحجاز ما هو مذكور.

وتخلف ابنه إسماعيل مع أمه هاجر بالحجر قرباناً لله، ومرت بها رفقة من جرهم في تلك المفازة فخالطوها ونشأ إسماعيل بينهم، وربي في أحيائهم، وتعلم لغتهم العربية بعد أن، كان أبوه أعجمياً. ثم كان بناء البيت كما قصه القرآن ثم بعثه الله، وإلى جرهم والعمالة الذين كانوا بالحجاز، فأمن كثير منهم واتبعوه، ثم عظم نسله وكثر وصار بالجيل آخر من ربيعة ومضر ومن إليهم من إيساد وعك وشعوب نزار وعدنان وسائر ولد إسماعيل وهم العرب التابعة للعرب. ثم انقضى أولئك الشعوب في أحقاب طويلة وانقرض ما كان لهم من الدولة في الإسلام. وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلب عليهم ففسدت لغة أعقابهم في آماد متطاولة وبقي خلفهم أحياء بادين في القفار والرمال والخلاء من الأرض تارة والعمران تارة. وقبائل بالمشرق والمغرب والحجاز واليمن وبلاد الصعيد والنوبة والحبشة وبلاد الشام والعراق والبحرين وبلاد فارس والسند وكرمان وخراسان، أمم لا يأخذها الحصر والضبط، قد كثروا أمم الأرض لهذا العهد شرقاً وغرباً، واعتزوا عليهم فهم اليوم أكثر أهل العالم وأملك لأمرهم من جميع الأمم.

وصبابة البرد أخرى، وانتجاعاً لمراعسي غنمهم، وارتباداً لمصالح إيلهم الكفيلة بمعاشهم، وحمل أثقالهم ودفنهم ومنافعهم، فاخصصوا لذلك بسكن الإقليم الثالث ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق. فعمروا اليمن والحجاز ونجداً وتهامة وما وراء ذلك مما دخلوا إليه في المائة الخامسة كما ذكره من مصر وصحاري برقة وتلونها وقسنطينة وإفريقية وزاغيا والمغرب الأقصى والسوس، لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف والتلول والأرياف الأهلة بمن سواهم من الأمم في فصل الربيع وزخرف الأرض لرعي الكلال والعشب في منابئها، والتنقل في نواحيها إلى فصل الصيف لمدة الأقوات في ستهن من حبوبها.

وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من أضرارهم بإفساد السابلة، ورعي الزرع غرضاً، وانتهابه قائماً وحصيداً إلا ما حاطه الدولة، وذادت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم فيها. ثم يندحدرون في فصل الخريف إلى القفار لرعي شجرها، وتناج إيلهم في رمالها، وما أحاط به علمهم من مصالحها، وفراراً بأنفسهم وظعناتهم من أذى البرد إلى دفاء مشابئها، فلا يزالون في كل عام مترددين بين الريف والصحراء ما بين الإقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدريين على عمر الأيام، شعارهم لبس المخيط في الغالب، ولبس العمائم تيجاناً على رؤوسهم يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها وهم عرب المشرق، وقوم يلفون منها الليث والأخضع قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب حاكوا بها عمائم زناتة من أمم أذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب، حاكوا بها عمائم زناتة من أمم البربر. وكذلك لفتوا منهم في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية، وهجروا تنكب القسي. وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأممين.

ثم إن العرب لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والدلالة في اللسان ولذلك سمو بهذا الاسم فإنه مشتق من الابانة لقولهم أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه. ومنه قوله عليه السلام: «الطيب تعرب عن نفسه». والبيان سمتهم بين الأمم منذ كانوا. وانظروا قصة كسرى لما طلب من خليفته على العرب النعمان بن المنذر. أن يوفد عليه من كبرائهم وخطبائهم من رضي لذلك، فاختر منهم وفد أوفده عليه وكان من خبره واستغراب ما جاءوا به من البيان ما هو معروف. فهذه كلها شعارهم وسماتهم وأغلبها عليهم اتقاد الإبل والقيام على تناجها وطلب الانتجاع بها لاوتباد مراعيها ومفاحص توليدها بما

من الإسماعيلية بالقيروان ومصر، ثم القرامطة بالبحرين، ثم دعا طبرستان والديلم، ثم ما كان من هؤلاء العلوية بالحجاز ثم تذكر بني أمية المنازعين لبني العباس بالأندلس، وما كان لهم من الدولة هنالك، والطوائف من بعدهم.

ثم نرجع إلى ذكر المستبدين بالدعوة العباسية بالمغرب والنواحي، وهم بنو الأغلب بإفريقية وبنو حمدان بالشام، وبنو المقلد بالموصل، وبنو صالح بن كلاب بجلج، وبنو مروان بديار بكر، وبنو أسد بالحلة، وبنو زياد باليمن، وبنو هود بالأندلس. ثم نرجع إلى القائمين بالدعوة العبيدية بالنواحي وهم الصلحيون باليمن، وبنو أبي الحسن الكلبي بصقلية وصنهاجة بالمغرب. ثم نرجع إلى المستبدين بالدعوة العباسية من العجم في النواحي، وهم بنو طولون بمصر ومن بعدهم بنو طغج، وبنو الصفار بفارس وسجستان، وبنو سامان فيما وراء النهر، وبنو سبكتكين في غزنة وخراسان، وغورية في غزنة والهند، وبنو حسنويه من الكرد في خراسان.

ثم نرجع إلى ذكر المستبدين على الخلفاء ببغداد من العجم، وهم أهل الدولتين العظيمتين القائمتين بملك الإسلام من بعد العرب، وهم بنو بويه من الديلم والسلجوقية من الترك. ثم نرجع إلى ملوك السلجوقية المستبدين بالنواحي وهم بنو طغتكين بالشام، وبنو قطلمش ببلاد الروم، وبنو خوارزم شاه ببلاد العجم وما وراء النهر، وبنو سقمان بخلاط وأرمينية، وبنو أرتق بمادريين، وبنو زنكي بالشام، وبنو أيوب بمصر والشام. ثم الترك الذي ورثوا ملكهم هنالك، وبنو رسول باليمن ثم نرجع إلى ذكر التتر من الترك القائمين على دولة الإسلام والمصلين للخلافة العباسية، ثم ما كان من دخولهم في دين الإسلام وقيامهم بالملك بالنواحي، وهم بنو هولاكو بالعراق، وبنو ذوشياخان بالشمال، وبنو أرتنا ببلاد الروم، ومن بعد بني هولاكو بنو الشيخ حسن ببغداد وتوريزو بنو المظفر بأصبهان وشيراز وكرمان، وبعد بني أرتنا ملوك بني عثمان من التركمان ببلاد الروم وما وراءها. ثم نرجع إلى الطبقة الرابعة من المغرب وهم المستعجمة ومن له ملك بدوي منهم بالمغرب والمشرق. ثم نخرج بعد ذكر ذلك إلى ذكر البربر ودولهم بالمغرب والمشرق. ثم نخرج بعد ذلك إلى ذكر البربر ودولهم بالمغرب لأنهم كانوا من شرط كتابنا. وهنالك نذكر برنامج دولهم والله سبحانه أعلم.

ولما كانت لغتهم مستعجمة على اللسان المضري الذي نزل به القرآن، وهو لسان سلفهم، سميتهم لذلك العرب المستعجمة فهذه أجيال العرب منذ مبدأ الخليقة ولهذا العهد في أربع طبقات متعاقبة، كان طبقة منها عصور وأجيال ودول وأحياء وقع العناية بها دون من سواهم من الأمم لكثرة أجيالهم واتساع النطاق من ملكهم. فلنذكر لكل طبقة أحوال جيلها وبعض أيامهم ودولهم، ومن كان عندهم من ملوك الأمم ودولهم ليتبين لك بذلك مراتب الأجيال في الخليقة كيف تعاقبت، والله سبحانه وتعالى ولي العون.

برنامج بما تضمنه الكتاب من الدول في هذه الطبقات الأربع على ترتيبها والدول المعاصرين من العجم في كل خلية منها

فنبداً أولاً بذكر الطبقة الأولى وهم العرب العاربة ونذكر أنسابهم ومواطنهم وما كان لهم من الملك والدولة. ثم الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة من بني حمير بن سبا ونذكر أنسابهم وما كان لهم من الملك باليمن في التبابعة وأعقابهم. ثم نرجع إلى ذكر معاصرهم من العجم وهم ملوك بابل من السريانيين، ثم ملوك الموصل وبنو من الجرامقة، ثم القبط وملوكهم بمصر، ثم بني إسرائيل ودولهم ببيت المقدس قبل تخريبه مختصر وبعدده وبالصابئة، ثم الفرس ودولهم الأولى والثانية، ثم يونان ودولهم الإسكندر وقومه، ثم الروم ودولهم في القياصرة وغيرهم.

ثم نرجع إلى ذكر الطبقة الثالثة وهم العرب التابعة للعرب من قضاة وقحطان وعدنان وشعبيها العظيمين ربيعة ومضر. فنبداً بقضاة وأنسابهم وما كان لهم من الملك البدوي في آل النعمان بالخيرة والعراق ومن زاحمهم فيها من ملوك كندة بني حجر آكل المرار. ثم ما كان لهم أيضاً من الملك البدوي بالشام في بني جفنة بالبلقاء والأوس والخزرج بالمدينة النبوية.

ثم عدنان وأنسابهم وما كان لهم من الملك بمكة في قريش ثم ما شرفهم الله به وجبل الأدميين أجمع من النبوة وذكر الهجرة والسير النبوية، ثم نذكر ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك، فنترجم للخلفاء الأربعة وما كان على عصرهم من السدة والفتوحات والفتن. ثم نذكر خلفاء الإسلام من بني أمية وما كان لعهدهم من أمر الخوارج. ثم نذكر خلفاء الشيعة وما كان لهم من الدول في الإسلام. والأولى الدولة العظيمة لبني العباس التي انتشرت في أكثر ممالك الإسلام، ثم دول العلوية المزاehين لها بعد صدر منها وهي دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، ثم دولة العبيدية

الطبقة الأولى من العرب وهم العرب العاربة وذكر نسبهم والإمام بملكتهم ودولهم على الجملة

للعروية والمتدعة لها بما كانت أول أجيالها. وقد تسمى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة، لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم. فاما عاد وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام، فكانت موطنهم الأولى بأحفاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر. وكان أبوهم عاد فيما يقال أول من ملك من العرب، وطال عمره وكثر ولده، وفي التواريخ ولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه، وتزوج ألف امرأة، وعاش ألف سنة ومائتي سنة. وقال البيهقي: إنه عاش ثلثمائة سنة، وملك بعده بنوه الثلاثة شديد وبعده شدداد وبعده إرم. وذكر المسعودي: إن الذي ملك من بعد عاد وشدداد منهم، هو الذي سار في الممالك، واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق. وقال الزنجشري: إن شدداد هو الذي بنى مدينة إرم في صحارى عدن، وشيدها بصخور الذهب وأساطين الباقوت والزبرجد، يحكي بها الجنة لما سمع وصفها طفناً منه وعتواً. ويقال: إن باني إرم هذه هو إرم بن عاد. وذكر ابن سعيد عن البيهقي: أن باني إرم هو إرم بن شدداد بن عاد الأكبر، والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم وإنما هذا من خرافات القصص، وإنما ينقله ضعفاء المفسرين. وإرم المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِرم ذات النملين﴾ القبيلة لا البلد.

وذكر المسعودي أن ملك عوص كان ثلثمائة وأن الذي ملك من بعده ابنه عاد بن عوص، وأن جيرون بن سعد بن عاد كان من ملوكهم وأنه الذي اختط مدينة دمشق ومصرها، وجمع عمد الرخام والمرمر إليها وسماها إرم. ومن أبواب مدينة دمشق إلى هذا العهد باب جيرون، وذكره الشعراء في معاهدها قال الشاعر:

النخل فالقصر فالحماء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

وهذا البيت في الصوت الأول من كتاب الأغاني. وذكر ابن عساکر في تاريخ دمشق: جيرون ويزيد أخوان هما ابنسا سعد بن لقمان بن عاد، وبهما عرف جيرون ونهر يزيد. والصحيح أن باب جيرون إنما سمي باسم مولى من موالى سليمان عليه السلام في دولة بني إسرائيل، جيرون كان ظاهراً في دولتهم.

وذكر ابن سعيد في أخبار القبط أن شدداد بن بداد بن هداد بن شدداد بن عاد حارب بعضاً من القبط وغلب على أسافل مصر، ونزل الإسكندرية وبنى فيها جنتاً مدينة مذكورة في التوراة يقال لها أون، ثم هلك في حروبهم، وجمع القبط لإخوتهم من البربر والسودان، وأخرجوا العرب من ملك مصر.

ثم لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم انتحلوا عبادة الصنام والأوثان من الحجارة والخشب ويقال: إن ذلك

هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح وأعظمهم قدرة وأشدهم قوة وآثاراً في الأرض، وأول أجيال العرب من الخليفة فيما سمعناه. لأن أخبار القرون الماضية من قبلهم يمتنع اطلاعنا عليها التطاول الأحقاب ودروسها، إلا ما قصه علينا الكتاب ويؤثر عن الأنبياء بوحى الله إليهم، وما سوى ذلك من الأخبار الأزلية فمقطع الإسناد. ولذلك كان المعتمد عند الإثبات في أخبارهم ما تنطق به آية القرآن في قصص بالأنبياء الأقدمين، أو ما ينقله زعماء المفسرين في تفسيرها من أخبارهم وذكر دولهم وحروبهم، ينقلون ذلك عن السلف من التابعين الذين أخذوا عن الصحابة، أو سمعوه ممن هاجر إلى الإسلام من أحبار اليهود وعلمائهم أهل التوراة أقدم الصحف المنزلة فيما علمنا، وما سوى ذلك من حطام المفسرين وأساطير القصص وكتب بدء الخليفة فلا نعول على شيء منه. وإن وجد لمشاهير العلماء تأليف مثل كتاب الباقوت للطبري، والبدء للكسائي، فإنما نحوا فيها منحى القصص وجروا على أساليبهم، ولم يلتزموا فيها الصحة، ولا ضمنوا لنا الوثوق بها، فلا ينبغي التعويل عليها وترك شأنها.

وأخبار هذا الجيل من العرب وإن لم يقع لها ذكر في التوراة، إلا أن بني إسرائيل من بين أهل الكتاب أقرب إليهم عصراً وأوعى لأخبارهم، فلذلك يعتمد نقل المهاجرة منهم لأخبار هذا الجيل، ثم إن هذه الأمم على ما نقل كان لهم ملوك ودول. فملوك جزيرة العرب، وهي الأرض التي أحاط بها بحر الهند من جنوبها، وخليج الحبشة من غربها، وخليج فارس من شرقها، وفيها اليمن والحجاز والشحر وحضرموت. وامتد ملكهم فيها إلى الشام ومصر في شعوب منهم على ما يذكر ويقال: إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام، فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وآطام وقصور حسبما نذكره، إلى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان. وهؤلاء العرب العاربة شعوب كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعيل وعبد ضخم وجهم وحضرموت وحضورا والسلفات.

وسمي أهل هذا الجبل العرب العاربة، إما بمعنى الرساخة في العروية كما يقال: ليل اليل وصوم صائم. أو بمعنى الفاعلة

حافد الخلجان الذي اعتصم آخرهم بجبل حضرموت. وخبر البخاري مقدم، وقال علي بن العزيز الجرجاني: وكان من ملوك عاد يعمر بن شداد، وعبد أبهر بن معديكرب بن شمد بن شداد بن عاد، وحنان بن مياد بن شمد بن شداد، وملوك آخرون إبادهم الله والبقاء لله وحده.

فأما عييل وهم إخوان عاد بن عوص فيما قاله الكلبي، وإخوان عوص بن إرم فيما قاله الطبري، وكانت ديارهم بالجحفة بين مكة والمدينة وأهلكهم السيل. وكان الذي اختط يثرب منهم، هكذا قال المسعودي، وقال هو يثرب بن باثلة بن مهلهل بن عييل. وقال السهيلي: إن الذي اختط يثرب من العماليق وهو يثرب بن مهلايل بن عوص بن عمليق. وأما عبد ضخم بن إرم فقال الطبري: كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك من ذلك الجيل. وقال غيره: إنهم أول من كتب بالخط العربي.

وأما ثمود وهم بنو ثمود بن كاثر بن إرم فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى، فيما بين الحجاز والشام، وكانوا ينتحون بيوتهم في الجبال، ويقال: لأن أعمارهم كان تطول، فيأتي البلاء والخراب على بيوتهم، فنحتوها لذلك في الصخر، وهي لهذا العهد، وقد مر بها النبي ﷺ في غزوة تبوك، ونهى عن دخولها كما في الصحيح، وفيه إشارة إلى أنها بيوت ثمود أهل ذلك الجيل، ويشهد ذلك ببطلان ما يذهب إليه القصاص. ووقع مثله للمسعودي من أن أهل تلك الأجيال كانت أجسامهم مفرطة في الطول والعظم، وهذه البيوت المشاهدة المنسوبة إليهم بكلام الصادق صلوات الله عليه، يشهد بأنهم في طولهم وعظم حجراتهم مثلاً سواء، فلا أقدم من عاد وأهل أجيالهم فيما بلغنا. ويقال: إن أول ملوكهم كان عابر بن إرم بن ثمود، ملك عليهم مائتي سنة. ثم كان من بعده جندع بن عمرو بن الذبيل بن إرم بن ثمود. ويقال: ملك نحواً من ثمانمائة سنة.

وفي أيامه كانت بعثة صالح عليه السلام، وهو صالح بن عييل بن أسف بن شالخ بن عييل بن كاثر بن ثمود، وكانوا أهل كفر ويغي رعيادة أوثان، فدعاهم صالح إلى الدين والتوحيد. قال الطبري: فلما جاءهم بذلك كفروا وطلبوا الآيات، فخرج بهم إلى هضبة من الأرض فتمخضت عن الناقة، ونهاهم أن يتعرضوا لها بعقر أو هلكة. وأخبرهم مع ذلك أنهم عاقروها ولا بد، ورأس عليهم قدار بن سالف، وكان صالح وصف لهم عاقر الناقة بصفة قدار هذا، ولما طال النذير عليهم من صالح ستموه وهموا بقتله، وكان يأوي إلى مسجد خارج ملائهم، فكمّن له رهط منهم تحت صخرة في طريقه ليقتلوه، فانطبقت عليهم وهلكوا وحرقوا ومضوا

لانتحالم دين الصابئة، فبعث الله إليهم أخاهم هوداً، وهو فيما ذكر المسعودي والطبري هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد، وفي كتاب البدء لابن حبيب: رياح بن حرب بن عاد، وبعضهم يقول هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ. فوعظهم وكان ملوكهم لعهد الخلجان، ولقمان بن عاد بن عاديا بن صدا بن عاد فأمن به لقمان وقومه وكفر الخلجان، وامتنع هود بعشيرته من عاد. وحسب الله عنهم المطر ثلاث سنين، وبعثوا الوفود من قومهم إلى مكة يستسقون لهم، وكان في الوفد على ما قاله الطبري نعيم بن هزال بن هزيل بن عييل بن صدا بن عاد. وقيل ابن عتزر منهم، وحلقمة بن الحصري ومرثد بن سعد بن عتزر. وكان ممن آمن يهود واتبعه، وكان بمكة من عاد هؤلاء: معاوية بن بكر وقومه، وكانت هزيلة أخت معاوية عند نعيم بن هزال، وولدت له عبيداً وعمراً وعامراً، فلما وصل الوفد إلى مكة مروا بمعاوية بن بكر وابنه بكر ونزل الوفد عليه. ثم تبعهم لقمان بن عاد، وأقاموا عند معاوية وقومه شهراً لما بينهم من الخولة، ومكثوا يشربون وتغنّهم الجرادتان، قيتان لمعاوية بن بكر وابنه بكر. ثم غتاهم شعراً تذكّهم بأمرهم، فانبعثوا ومضوا إلى الاستسقاء، وتخلّف عنهم لقمان بن عاد ومرثد بن سعد، فدعوا في استسقايتهم وتضرعوا وأنشأ الله السحب، ونودي بهم أن اختاروا فاختاروا سواداً من السحب، وأنذروا بعذابها فمضت إلى قومهم وهلكوا كما قصه القرآن.

وفي خبر الطبري أن الوفد لما رجعوا إلى معاوية بن بكر لقيهم خبر مهلك قومهم هنالك وأن هوداً بساحل البحر، وأن الخلجان ملكهم قد هلك بالريح فيمن هلك، وأن الريح كانت تدخل تحت الرجل فتحمله، حتى تقطعوا في الجبال، وتقلع الشجر وترفع البيوت حتى هلكوا أجمعون. انتهى كلام الطبري.

ثم ملك لقمان ورهطه من قوم عاد، واتصل لهم الملك فيما يقال ألف سنة أو يزيد، وانتقل ملكه إلى ولده لقمان، وذكر البخاري في تاريخه: أن الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً هو هدد بن بدد بن الخلجان بن عاد بن رقيم بن عابر بن عاد الأكبر، وأن المدينة بساحل بركة اه. ولم يزل ملكهم متصلاً إلى أن غلبهم عليه يعرب بن قحطان، واعتصموا بمجال حضرموت إلى أن انقرضوا. وقال صاحب زجارج أن ملكهم عاد بن رقيم بن عابر بن عاد الأكبر هو الذي حارب يعرب بن قحطان، وكان كافراً يعبد القمر، وأنه كان على عهد نوح وهذا بعيد، لأن بعثة هود كانت عند استفحال دولتهم أو عند مبتدئها، وغلب يعرب كان عند انقراضها. وكذلك هدد الذي ذكر البخاري أنه ملك بركة إنما هو

غشوماً لا ينهأ شيء عن هواه، ويقال له: عملوق وكان مضراً لجديس مستذلاً لهم حتى كانت البكر من جديس لا تهدى إلى زوجها حتى يتقترعا.

وكان السبب في ذلك أن امرأة منهم كان اسمها هزيمة طلقها زوجها وأخذ ولده منها، فأمر عملوق ببيعها، وأخذ زوجها الخمس من ثمنها فقالت شعراً تنظم منه، فأمر أن لا تزوج منهم امرأة حتى يفتقرها. فقاموا كذلك حتى تزوجت الشموس وهي عفيرة ابنة غفار بن جديس أخت الأسود فافترضها عملوق، فقال الأسود بن غفار لرؤساء جديس: قد ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذي ينبغي للكلاب أن تعافه، فأطيعوني أذعكم إلى عز الدهر، فقالوا: وما ذاك؟ قال: أصنع للملك وقومه دعوة فإذا جاؤوا، يعني طسماً، نهضنا إليهم بأسانفا فنقتلهم. فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم في الرمل، ودعوا عملوقاً وقومه. فلما حضروا قتلهم، فافتوهم وقتل الأسود عملوقاً وأفلت رباح بن مرة بن طسم، فأتى حسان بن تبع مستغيثاً، فنهض حسان في حمير لإغاثته، حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل. قال لهم رباح: إن لي اختاً موزوجة في جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر منها، وإنها لتبصر الراكب على ثلاث مراحل، وأخاف أن تنظر القوم. فأمر كل رجل أن يقلع شجرة فيجعلها في يده، ويسير كأنه خلفها ففعلوا، وبصرت بهم اليمامة فقالت لجديس: لقد سارت إليكم حمير، وإنني أرى رجلاً من وراء شجرة بيده كنف يتعرقها أو نعل يخسفها، فاستبعدوا ذلك ولم يخفوا به، وصحبهم حسان وجنوده من حمير فأبادهم وخرب حصونهم وبلادهم، وهرب الأسود بن غفار إلى جبلي طيء فأقام بهما، ودعا تبع باليمامة أخت رباح التي أبصرتهم فقلع عينها. ويقال: إنه وجد بها عروقتاً سوداً زعمت أن ذلك من اكتحالها بالإثمد، وكانت تلك البلد تسمى جو فسميت باليمامة اسم تلك المرأة.

قال أبو الفرج الأصبهاني: وكانت طيء تسكن الجرف من أرض اليمن، وهي اليوم محلة مراد وهمدان، وسيدهم يومئذ سامة بن لؤي بن البثوث بن طيء، وكان الوادي مسبعة، وهم قليل عددهم، وكان يجتاز بهم بعير في زمن الخريف ويذهب ثم يجيء من قابل ولا يعرفون مقره، وكان الأزرد قد خرجت أيام سيل العرم واستوحشت طيء فظفغوا على أثرهم، وقالوا لسامة: هذا البعير إنما يأتي من الريف والخصب، لأن في بعره النوى، فلما جاءهم زمن الخريف اتبعوه يسرون لسيره حتى هبط عن الجبلين، وهجموا على النخل في الشعاب وعلى المواشي، وإذا هم بالأسود بن غفار، في بعض تلك الشعاب، فهالهم خلقه وتخوفوه، ونزلوا

إلى الناقة، ورمأها قدار بسهم في ضرعها وقتلها، ولجأ فصليها إلى الجبل فلم يدركوه.

وأقبل صالح وقد تخوف عليهم العذاب، فلما رآه الفصل أقبل إليه ورغا ثلاث رغاآت، فأنذرهم صالح ثلاثاً، وفي صبح الرابعة صعقوا بصيحة من السماء تقطعت بها قلوبهم فأصبحوا جاثمين، وهلك جميعهم حيث كانوا من الأرض، إلا رجلاً كان في الحرم منعه الله من العذاب. قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال». ويقال: إن صالحاً أقام عشرين سنة ينذرهم، وتوفي ابن ثمان وخسين سنة، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ «مر في غزوة تبوك بقرى ثمود، فنهى عن استعمال مياههم» وقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون أن يصيبكم ما أصابهم» اه. كلام الطبري.

وقال الجرجاني: كان من ملوكهم دويان بن يمنج ملك الإسكندرية وموهب بن مرة بن رحيب، وكان عظيم الملك. وأخوه هوبيل بن مرة كذلك. وفيما ذكره المفسرون أنهم أول من نحت الجبال والصخور، وأنهم بنو ألفاً وسبعمائة مدينة، وفي هذا ما فيه. ثم ذهبوا بما كسبوا ودرجوا في الغابرين وهلكوا. ويقال: إن من بقاياهم أهل الرس الذين كان نبيهم حنظلة بن صفوان، وليس ذلك بصحيح. وأهل الرس هم حضور ويأتي ذكرهم في بني فالغ بن عابر، وكذلك يزعم بعض النسابة أن ثقيفاً من بقايا ثمود هؤلاء وهو مردود. وكان الحجاج بن يوسف إذا سمع ذلك يقول: كذبوا. وقال والله جل من قائل يقول: وثمود فما أبقى، أي أهلكهم فما أبقى أحداً منهم. وأهل التوراة لا يعرفون شيئاً من أخبار عاد ولا ثمود، لأنهم لم يقع لهم ذكر في التوراة، ولا هود ولا لصالح عليهما السلام، بل ولا لأحد من العرب العاربة، لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم إنما هو لمن كان في عمود النسب ما بين موسى وآدم صلوات الله عليهم، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود ذلك النسب فلم يذكروا فيها.

وأما جديس وطسم فعند ابن الكلبي أن جديسا لإرم بن سام، وديارهم اليمامة وهم إخوان لثمود بن كاثر، ولذلك ذكرهم بعدهم، وأن طسماً للآود بن سام وديارهم بالبحرين. وعند الطبري أنهما معاً للآود، وديارهم باليمامة. ولهذين الاثنين خبر مشهور ينبغي سياقه عند ذكرهم. قال الطبري عن هشام بن محمد الكلبي بسنده إلى ابن إسحاق وغيره من علماء العرب: أن طسماً وجديساً كانوا من ساكني اليمامة وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً وثمراً وحدائق وقصوراً. وكان ملك طسم

في ولده. وكان السميدع سمة لمن ملك منهم إلى أن كان آخرهم السميدع بن هومر، الذي قتله يوشع لما زحف بنو إسرائيل إلى الشام بعد موسى صلوات الله عليه، فكان معظم حروبهم مع هؤلاء العمالة هنالك، فغلبه يوشع وأسرهم وملك أريحا قاعدة الشام، وهي قرب بيت المقدس، ومكانها معروف لهذا العهد. ثم بعث من بني إسرائيل بعثاً إلى الحجاز فملكوه وانتزعوه من أيدي العمالة ملوكه ونزعوا يثرب وبلادها وخيبر. ومن بقاياهم يهود قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وسائر يهود الحجاز على ما نذكره. ثم كان لهم ملك بعد ذلك في دولة الروم، وملكوا أذينة بن السميدع على مشارف الشام والجزيرة من ثغورهم، وأنزلوهم في التخوم ما بينهم وبين فارس، وهذا الملك أذينة بن السميدع هو الذي ذكره الشاعر في قوله:

أزال أذينة عن ملكه وأخرج عن أهله ذا يزن

وكان من بعده حسان بن أذينة، ومن بعده طرف بن حسان بن يدياه نسبة إلى أمه، وبعده عمرو بن طرف، وكان بينه وبين جذية الأبرش حروب، وقتله جذية واستولى على ملكهم. وكان آخراً من العمالة كما نذكر ذلك في موضعه. ومن هؤلاء العمالة فيما يزعمون عمالة مصر وأن بعض ملوك القبط استنصر بملك العمالة بالشام لعهد، واسمه الوليد بن دوعم، ويقال ثوران بن أراشة بن فادان بن عمرو بن عملاق، فجاء معه ملك مصر واستعبد القبط.

قال الجرجاني: ومن ثم ملك العماليق مصر ويقال: إن منهم فرعون إبراهيم وهو سنان بن الأشل بن عبيد بن عولج بن عمليق، وفرعون يوسف أيضاً منهم وهو الريان بن الوليد بن فوران، وفرعون موسى كذلك وهو الوليد بن مصعب بن أبي أهون بن المهوان، ويقال إنه قابوس بن مصعب بن معاوية بن غير بن السلواس بن فاران، وكان الذي ملك مصر بعد الريان بن الوليد طاشم بن معدان اه. كلام الجرجاني.

وقال غيره: الريان فرعون يوسف، وهو الذي تسميه القبط نقراوش، وأن وزيره كان أطفيح وهو العزيز، وأنه آمن بيوسف، وأن أرض الفيوم كانت مغايبض للماء فدبرها يوسف بالوحي والحكمة حتى صارت أعز الديار المصرية، وملك بعده ابنه دارم بن الريان، وبعده ابنه معدانوس فاستعبد بني إسرائيل.

قال الكلبي: ويذكر القبط أنه فرعون موسى، وذكر أهل الأثر أنه الوليد بن مصعب وأنه كان نجاراً من غير بيت الملك، فاستولى إلى أن ولي حرس السلطان، ثم غلب عليه ثم استبد بعده، وعليه انقضى أمر العمالة. ولما غرق في اتباع موسى صلوات الله

ناحية ونقضوا الطريق فلم يروا أحداً، فأمر سامة ابنه الغوث بقتل الأسود، فجاء إليه فعجب من صغر خلقه، وقال: من أين أقبلتم؟ قال: من اليمن، وأخبره خبر البعير ثم رماه فقتله، وأقامت طيء بالجليلين بعده.

وذكر الطبري عن غير ابن إسحاق أن تبع الذي أوقع بجديس هو والد حسان هذا، وهو ثبان أسعد أبو كرب بن ملكسي كرب، ويأتي ذكره في ملوك اليمن إن شاء الله تعالى، انتهى كلام الطبري. وقال غيره أن حسان بن تبع لما سار بمجمير إلى طسم بعث على مقدمته إليهم عبد كلال بن منوب بن حجر بن ذي رعين من أقبال حمير، فسلك بهم رياح بن مرة الرمل، وكانت الزرقاء أخت رياح ناكحاً في طسم، وتسمى عتزة واليمامة، وكانت تبصر على البعد فأندرتهم فلم يقبلوا وصبح عبد بن كلال جديساً إلى آخر القصة، وبقيت اليمامة بعد طسم يباباً لا يأكل ثمرها إلا عوافي الطير والسباع، حتى نزلها بنو حنيفة، وكانوا بعثوا رائداهم عبيد بن ثعلبة الحنفي يرتادهم في البلاد فلما أكل من ذلك الثمر، قال: إن هذا طعام! وحجر بعصاه على موضع قصبة اليمامة، فسميت حجراً، واستوطنتها بنو حنيفة وبها أصبحهم الإسلام كما يأتي في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

وأما العمالة فهم بنو عمليق بن لاوذ، وبهم بضرب المثل في الطول والجثمان. قال الطبري: عمليق أبو العمالة كلهم اسم تفرقت في البلاد، فكان أهل المشرق وأهل عمان والبحرين وأهل الحجاز منهم، وكانت القراعة بمصر منهم، وكانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون منهم. وكان الذين بالبحرين وعمان والمدينة يسمون جاسم، وكان بالمدينة من جاسم هؤلاء بنو لف وبنو سعد بن هزالف وبنو مطر وبنو الأزرق، وكان بنجد منهم بدليل وراجل وغفار، وبالحجاز منهم إلى تيمنا بنو الأرقم، ويسكنون مع ذلك نجداً وكان ملكهم يسمى الأرقم قال: وكان بالطائف بنو عبد ضخم بن عاد الأول انتهى.

وقال ابن سعيد فيما نقله عن كتب التواريخ التي اطلع عليها في خزانة الكتب، بدار الخلافة من بغداد قال: كانت مواطن العمالة تهامة من أرض الحجاز فنزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النماردة من بني حام، ولم يزالوا كذلك إلى أن جاء إسماعيل صلوات الله عليه، وآمن به من آمن منهم. وتطرد لهم الملك إلى أن كان منهم السميدع بن لاوذ بن عمليق، وفي أيامه خرجت العمالة من الحرم، أخرجتهم جرحهم من قبائل قحطان، ففرقوا ونزل بمكان المدينة منهم بنو عييل بن مهليل بن عوص بن عمليق فعرفت به، ونزل أرض أيلة ابن هومر بن عمليق، واتصل ملكها

عليه، رجع الملك إلى القبط فولوا من بيت ملكهم دلوكة العجوز كما نذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى، وأما بنو إسرائيل فليس عندهم ذكر لعمالة الحجاز، وعندهم أن عمالة الشام من ولد عملاق بن اليفاء بتخيم الفاء ابن عيصو أو عيصاب أو العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. وفراعنة مصر منهم على الرايين.

وأما الكتانين الذين ذكر الطبري أنهم من العمالة، فهم عند الإسرائيليين من كتعان بن حام، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام وملكوها، وكان معهم فيها بنو عيصو المذكورون، ويقال لهم بنو يدوم ومن أيديهم جميعاً ابتزها بنو إسرائيل عند الحجيء أيام يوشع بن نون. ولذلك تزعم زناتة المغرب أنهم من هؤلاء العمالة وليس بصحيح.

وأما أميم فهم إخوان عملاق بن لاوذ. قال السهيلي: يقال بفتح الهمزة وكسر الميم وبضم الهمزة وفتح الميم وهو أكثر ووجدت بخط بعض المشاهير أميم بتشديد الميم. ويذكر أنهم أول من بنى البنيان، واتخذ البيوت والأطام من الحجارة، وسقفوا بالخشب. وكانت ديارهم فيما يقال: أرض فارس، ولذلك زعم بعض نسبة الفرس أنهم من أميم وأن كيومرث الذين ينسبون إليه هو ابن أميم بن لاوذ وليس بصحيح وكان من شعوبهم وبار بن أميم، نزلوا رمل عالج بين اليمامة والشحر وسالت عليهم الرياح فهلكوا.

ثم ملك علقمة ذو قيعان بن مرثد ذي مروان بمحضرموت ثلاثين سنة، ثم ملك ذو عيل بن ذي قيعان عشر سنين، وسكن صنعاء وغزا الصين، فقتل ملكها وأخذ سيفه ذا النور، ثم ملك ذو عيل بن ذي عيل بمحضرموت عشر سنين، ولما شخص سنان ذو الم لغزو الصين تحول ذو عيل إلى صنعاء واشتدت وطأته، وكان أول من غزا الروم من ملوك اليمن، وأول من أدخل الحرير والديساج إلى اليمن. ثم ملك بدعات بن ذي عيل بمحضرموت أربع سنين، ثم ملك بدعيل بن بدعات وبنى حصوناً وخلف آثاراً، ثم ملك بديع ذو عيل، ثم ملك حماد بن بدعيل بمحضرموت، فأنشأ حصنه المعقر، وغزا فارس في عهد سابور ذي الأكتاف، وخرب وسبي، ودام ملكه ثمانين سنة. وكان أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم.

ثم ملك يشرح ذو المذحج بن مرثد ذي مروان بمحضرموت ثلاثين سنة، ثم ملك ذو عيل بن ذي قيعان عشر سنين، وسكن صنعاء وغزا الصين، فقتل ملكها وأخذ سيفه ذا النور، ثم ملك ذو عيل بن ذي عيل بمحضرموت عشر سنين، ولما شخص سنان ذو الم لغزو الصين تحول ذو عيل إلى صنعاء واشتدت وطأته، وكان أول من غزا الروم من ملوك اليمن، وأول من أدخل الحرير والديساج إلى اليمن. ثم ملك بدعات بن ذي عيل بمحضرموت أربع سنين، ثم ملك بدعيل بن بدعات وبنى حصوناً وخلف آثاراً، ثم ملك بديع ذو عيل، ثم ملك حماد بن بدعيل بمحضرموت، فأنشأ حصنه المعقر، وغزا فارس في عهد سابور ذي الأكتاف، وخرب وسبي، ودام ملكه ثمانين سنة. وكان أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم.

ثم ملك يشرح ذو المذحج بن مرثد ذي مروان بمحضرموت ثلاثين سنة، ثم ملك ذو عيل بن ذي قيعان عشر سنين، وسكن صنعاء وغزا الصين، فقتل ملكها وأخذ سيفه ذا النور، ثم ملك ذو عيل بن ذي عيل بمحضرموت عشر سنين، ولما شخص سنان ذو الم لغزو الصين تحول ذو عيل إلى صنعاء واشتدت وطأته، وكان أول من غزا الروم من ملوك اليمن، وأول من أدخل الحرير والديساج إلى اليمن. ثم ملك بدعات بن ذي عيل بمحضرموت أربع سنين، ثم ملك بدعيل بن بدعات وبنى حصوناً وخلف آثاراً، ثم ملك بديع ذو عيل، ثم ملك حماد بن بدعيل بمحضرموت، فأنشأ حصنه المعقر، وغزا فارس في عهد سابور ذي الأكتاف، وخرب وسبي، ودام ملكه ثمانين سنة. وكان أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم.

ثم ملك يشرح ذو المذحج بن مرثد ذي مروان بمحضرموت ثلاثين سنة، ثم ملك ذو عيل بن ذي قيعان عشر سنين، وسكن صنعاء وغزا الصين، فقتل ملكها وأخذ سيفه ذا النور، ثم ملك ذو عيل بن ذي عيل بمحضرموت عشر سنين، ولما شخص سنان ذو الم لغزو الصين تحول ذو عيل إلى صنعاء واشتدت وطأته، وكان أول من غزا الروم من ملوك اليمن، وأول من أدخل الحرير والديساج إلى اليمن. ثم ملك بدعات بن ذي عيل بمحضرموت أربع سنين، ثم ملك بدعيل بن بدعات وبنى حصوناً وخلف آثاراً، ثم ملك بديع ذو عيل، ثم ملك حماد بن بدعيل بمحضرموت، فأنشأ حصنه المعقر، وغزا فارس في عهد سابور ذي الأكتاف، وخرب وسبي، ودام ملكه ثمانين سنة. وكان أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم.

ثم ملك يشرح ذو المذحج بن مرثد ذي مروان بمحضرموت ثلاثين سنة، ثم ملك ذو عيل بن ذي قيعان عشر سنين، وسكن صنعاء وغزا الصين، فقتل ملكها وأخذ سيفه ذا النور، ثم ملك ذو عيل بن ذي عيل بمحضرموت عشر سنين، ولما شخص سنان ذو الم لغزو الصين تحول ذو عيل إلى صنعاء واشتدت وطأته، وكان أول من غزا الروم من ملوك اليمن، وأول من أدخل الحرير والديساج إلى اليمن. ثم ملك بدعات بن ذي عيل بمحضرموت أربع سنين، ثم ملك بدعيل بن بدعات وبنى حصوناً وخلف آثاراً، ثم ملك بديع ذو عيل، ثم ملك حماد بن بدعيل بمحضرموت، فأنشأ حصنه المعقر، وغزا فارس في عهد سابور ذي الأكتاف، وخرب وسبي، ودام ملكه ثمانين سنة. وكان أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم.

هذه قبائل هذا الجيل من العرب العاربة وما كانوا عليه من الكثرة والملك، إلى أن انقرضوا وأدال الله من أمرهم بالقحطانية كما نحن ذاكره. ولم نغفل منهم إلا من لم يصلنا ذكره من خبره، والله وارث الأرض ومن عليها.

وأما جرهم فقال له ابن سعيد إنهم أمتان: أمة على عهد عاد وأمة من ولد جرهم بن قحطان، ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن، ملك أخوه جرهم بن الحجاز. ثم ملك من بعده ابنه عبد ياليل، ثم بعده ابنه عبد المدان بن جرهم، ثم ابنه نقيلة بن عبد المدان، ثم ابنه عبد المسيح بن نقيلة، ثم ابنه مضاض بن عبد

بالغين ابن عابر أو عتبر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وهذه الأسماء الأعجمية كلها منقولة من التوراة ولغتها عبرانية، وخراج حروفها في الغالب مغايرة لمخارج الحروف العربية. وقد يجيء الحرف منها بين حرفين من العربية، فترده العرب إلى أحد ذينك الحرفين، وفي خروجه فيتغير عن أصله، ولذلك تكون فيها إمالة متوسطة أو محضة، فيصير إلى حرف العلة التي بعده من ياء أو واو، فلذلك تنقل الكلمة منها على اختلاف. وإلا فشان الأعلام أن لا تختلف. وقال الطبري أن بين شالخ وأرفخشذ أباً آخر اسمه قين، وسقط ذكره من التوراة لأنه كان ساحراً وادعى الألوهية.

وقال ابن حزم: في كتب النصارى أن بين فالغ وعابر أباً آخر اسمه ملكيصدق وهو أبو فالغ.

واعلم أن نوحاً صلوات الله عليه بلغ عمره يوم الطوفان ستمائة سنة، عاش بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة، فكانت جملة ذلك تسعمائة وخمسين سنة، ألف سنة إلا خمسين. وهذا نص المصحف الكريم، وكذا وقع في التوراة بعينه. ومن الغريب الواقع في التوراة أن عمر إبراهيم كان يوم وفاة نوح ثلاثاً وخمسين سنة، لأنه قال أن أرفخشذ ولد لسام بعد ستين من الطوفان، ولما بلغ خساً وثلاثين سنة ولد له ابنه شالخ، وبعد ثلاثين سنة ولد ابنه عابر، وبلغ عابر أربعاً وثلاثين سنة فولد ابنه فالغ، وبلغ فالغ ثلاثين سنة فولد له أرغو، وبلغ أرغو اثنتين وثلاثين سنة فولد شاروغ، وبلغ شاروغ ثلاثين سنة فولد ناحور، وبلغ ناحور تسعاً وعشرين سنة فولد تارح، وبلغ تارح خساً وسبعين سنة فولد إبراهيم، وجملة هذه الستين من الطوفان إلى ولادة إبراهيم مائتان وسبع وتسعون سنة، وعمر نوح بعد الطوفان ثلثمائة وخمسون سنة، فيكون إبراهيم بعد وفاة نوح ابن ثلاث وخمسين سنة، فيكون لقي نوحاً صلوات الله عليهما، وخالطه وأخذ عنه، وهو على رأي بعضهم أب لجميع الشعوب من بعده، فلذلك كان الأب الثالث للخليقة من بعد آدم ونوح صلوات الله عليهم أجمعين اهـ.

وفي كتاب البده ونقله ابن سعيد أن أول من ملك الأرض من ولد نوح كنعان بن كوش بن حام، فسار من أرض كنعان بالشام إلى أرض بابل، فبنى مدينة بابل اثني عشر فرسخاً في مثلها، وورث ملكه ابنه التمرود بن كنعان، وعظم سلطانه في الأرض، وطال عمره وغلب على أكثر المعمور، وأخذ بدين الصابئة وخالفه الكلدانيون منهم في التوحيد وأسمائه، ومال معهم بنو سام، وكان سام قد نزل بشرقي الدجلة، وكان وصي أبيه في الدين والتوحيد، وورث ذلك ابنه أرفخشذ، ومعنى أرفخشذ مصباح مضيء،

المسيح، ثم ابنه الحرث. ثم ملك من بعده جرهم بن عبد اليل، ثم بعده ابنه عمرو بن الحرث، ثم أخوه بشير بن الحرث، ثم مضاض بن عمرو بن مضاض. قال وهذه الأمة الثانية هم الذين بعث إليهم إسماعيل عليه السلام وتزوج فيهم. انتهى.

وأما بنو سبا بن يقطن فلم يبدوا، وكان لهم بعد تلك الأجيال البائدة أجيال باليمن، منهم حمير وكهلان وملوك التبابعة، وهم أهل الطبقة الثانية. وفي مسند الإمام أحمد: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ قيل هو فروة بن مسيق المرادي عن سبا أرجل هو أو امرأة أم أرض؟ فقال بل رجل ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة. فأما اليمانيون فملحج وكندة والأزد والأشعر وأغار وحمير. وأما الشاميون فلخم وجذام وعاملة وغسان. وثبت أن أباهم قحطان كان يتكلم بالعربية، ولقتها عن الأجيال قبله، فكانت لغة بني. ولذلك سموا العرب المستعربة، ولم يكن في آباء قحطان من لدن نوح عليه السلام إليه من يتكلم بالعربية، وكذلك كان أخوه فالغ وبنوه إنما يتكلمون بالعجمية إلى أن جاء إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما، فتعلم العربية من جرهم فكانت لغة بني، وهم أهل الطبقة الثالثة المسمون بالعرب التابعة للعرب. فلنذكر هذا النسب ليتنظم أجياله مع الأجيال السابقة واللاحقة، ونستوفي أنساب الأمم منها.

الخبر عن إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام ونسبه إلى فالغ بن عابر وذكر أولاده صلوات الله عليهم وأحوالهم

ولنذكر الآن أهل هذا النسب ما بين إسماعيل ونوح عليهما السلام، ومن كان منهم أو من إخوانهم أو أبنائهم من الأنبياء والشعوب والملوك، وما كان لإسماعيل صلوات الله عليه من الولد، ونختم هذه الطبقة الأولى بذكرهم، وإن كانوا عجماً في لغاتهم، إلا أنهم أمسون الخليقة في أنسابهم، وكل البشر على بعض الأراء من أعقابهم، وهم مع ذلك معاصرون لهذه الطبقة، فيتسق الكلام فيهم على شرط كتابنا، ويتميز يذكر أخبارهم أحوال الطبقات التي بعدهم على الوفاء والكمال.

فنبدأ أولاً بذكر عمود هذا النسب على التوالي ثم نرجع إلى أخبارهم.

وإسماعيل صلوات الله عليه هو ابن إبراهيم بن آزر، وهو تارح وآزر اسم لصنمه لقب به ابن ناحور بن ساروخ بالخاء أو

أرض الكلدانيين إلى حران فتزوجها، وقيل: إنها بنت هاران بن ناحور، وهاران عم إبراهيم قاله السهيلي، فأقاموا بجران ومات بها أبوه تارح وعمره مائتا سنة وخمس سنين. ثم أمر بالخروج إلى أرض الكنعانيين ووعده الله بأن تكون أثراً لبنيه، وأنهم يكثرون مثل حصي الأرض.

فنزّل بمكان بيت المقدس وهو ابن خمس وسبعين سنة، ثم أصاب بلد الكنعانيين مجاعة، فخرج إبراهيم في أهل بيته وقدم مصر، ووصف لفرعون ملك القبط جمال امرأته سارة فأحضرها عنده، ولما هم بها يبيت يده على صدره، فطلب منها الإقالة فدعت له الله فانطلقت يده. ويقال عاود ذلك ثلاثاً يصاب في كلها وتدعو له فردها إلى إبراهيم واستخدمها هاجر.

قال الطبري: والملك الذي أراد سارة هو سنان بن علوان، وهو أخو الضحّاك، والظاهر أنه من ملوك القبط. ثم ساروا إلى أرض كنعان بالشام. ويقال: إن هاجر أمدها ملك الأردن لسارة وكان اسمه فيما قال الضبي صلاق، وأنه انتزع سارة من إبراهيم، ولما هم بها صرع مكانه، وسأله في الدعاء، فدعت له، فأفاق فردها إلى إبراهيم، وأخدمها هاجر أمة كانت لبعض ملوك القبط. ولما عاد إبراهيم إلى أرض كنعان، نزل جيرون وهو مدفنه المسمى بالخليل، وكانت معظمة تعظمها الصابئة، وتسكب عليها الزيت للقربان، وتزعم أنها هيكل المشتري والزهرة، فسمّاها العبرانيون إيليا ومعناه بيت الله. ثم أن لوطاً فارق إبراهيم عليه السلام لكثرة مواشيها وتابعهما وضيق المرعى، فنزل المؤتلفة بناحية فلسطين وهي بلاد العدور المعروف بعدور بقر، وكانت هناك على ما نقله المحققون خمس قرى سدوم. ووجدهم على ارتكاب الفواحش فدعاهم إلى الدين، ونهاهم عن المخالفة، فكذبوه وعتوا وأقام فيها داعياً إلى الله إلى أن هلكوا كما قصه القرآن.

وخرج لوط مع عساكر كنعان وفلسطين للقاء ملوك الشرق حين زحفوا إلى أرض الشام، وكانوا أربعة ملوك: ملك الأهواز من بني غليم بن سام واسمه كرزلاً عامر، وملك بابل واسمه في التوراة شنعا واسمه أمر اقبل، ويقال هو عمروذ، وملك الأستار - وما أدري معنى هذه اللفظة - واسمه أريوح، وملك كوثم ومعناه ملك أمم أو جماعة واسمه تزعال. وكان ملوك كنعان الذين خرجوا إليهم خمسة على عدد القرى الخمسة، وذلك أن ملك الأهواز كان استعبدتهم اثنتي عشرة سنة ثم عصا، فزحف إليهم واستجاش بالملوك المذكورين معه، فأصابوا من أهل جبال يسعين إلى فاران التي في البرية، وكان بها يومئذ الجويون من شعوب كنعان أيضاً.

فاشتغل بالعبادة ودعاه الكلدانيون إلى القيام بالتوحيد فامتنع. ثم قام من بعده ابنه شالغ وعاش طويلاً، وقام من بعده ابنه عابر كذلك، وخرج مع الكلدانيين على النمرود منكراً لعبادة المياكل، فغلبه نمرود وأخرجه من كوثا، فلحق هو ومن معه من الحلفاء بالجزيرة، وهي مدينة المجدل بين الفرات ودجلة. وعابر هذا هو أبو العبرانيين الذين تكلموا بالعبرانية، واستفحل ملكه بالمجدل. قال ابن سعيد: وورث من بعده ابنه فالغ، وهو الذي قسم الأرض بين ولد نوح، وفي زمانه بنى النمرود الصرح ببابل، وكان من أمره ما نصّه القرآن، وقام بأمر فالغ من بعد ابنه ملكان فيما زعموا وغلبه الجرامقة والنبط على ملكه، وقام بالمجدل في ملكهم إلى أن هلك وخلف ابنه أئيا ويقال له الخضر وأما أرغو بن فالغ فعبر إلى كلوذا، ودخل في دين النبط، وهي بدعة الصابئة، وولد له منهم ابنه شاروخ، ثم بعده ناحور بن شاروخ، ثم بعده تارح بن ناحور الذي سمي آزر، واستخلص النمرود آزر وقدمه على يبيت الأصنام، والنمرود من ملوك الجرامقة واسمه هاصد بن كوش. انتهى كلام ابن سعيد.

وولد لتارح وهو آزر على ما وقع في التوراة ثلاثة من الولد إبراهيم وناحور وهاران، ومات هاران في حياة أبيه تارح وترك ابنه لوطاً فهو ابن أخي إبراهيم. قال الطبري: ولد إبراهيم الخليل قبل بناحية كوثا من السواد وهو قول ابن إسحاق، وقيل بجران وقيل ببابل، وعامة السلف أنه ولد على عهد نمرود بن كنعان بن كوش بن سام. وكان الكهان يتحدثون بولادة رجل يخالف الدين ويكسر الأصنام والأوثان، فأمر بذبح الولدان فولدته أمه وتركتها بمغارة في فلاة من الأرض حتى كبر وشب، ورأى في الكواكب ما رآه وكملت نبوته، فأحضرتة إلى أبيه ودعاه إلى التوحيد، فامتنع وكسر إبراهيم الأصنام وأحضر عند نمرود وقذفه في النار، فصارت برداً وسلاماً، وخرج منها ولم تعد عليه كما نص ذلك القرآن.

ثم تدبر النمرود في أمره، وطلب من إبراهيم أن يقرب قرباناً يفتدي بما دعاه إليه، فقال له إبراهيم: لن يقبل منك إلا الإيمان، فقال: لا أستطيع. وترك إبراهيم وشأنه. ثم أمر الله إبراهيم بالخروج من أرض الكلدانيين ببابل، فخرج به أبوه تارح ومعهما على ما في التوراة ابنه ناحور بن تارح، وزوجته ملكا بنت أخيه هاران، وحافده لوط بن هاران، قال في التوراة: وكتبه سارة يعني زوج إبراهيم، فقيل إنها أخت ملكا بنت هاران بن تارح، وقيل بنت ملك حران، طعنت على قومها في الدين، فتزوجها إبراهيم على أن لا يضرها. ويردّ هذا ما في التوراة أنها خرجت معهم من

الملائكة لها ياسحق وابنه يعقوب ما قصه القرآن، وكانت البشارة بإسحق وإبراهيم ابن مائة سنة وسارة بنت تسعين. وفي التوراة أنه أمر أن يجر ولده إسماعيل لثلاث عشرة سنة من عمره، ولكل من في بيته من الأحرار فكان ذلك لتسع وتسعين من عمر إبراهيم، وقال له: ذلك عهد بيني وبينك وذريتك.

ثم أهلك الله المؤتلفة ونجى لوطاً إلى أرض الشام، فكان بها مع عمه إبراهيم صلوات الله عليهما. وولدت سارة إسحاق، وأمر الله إبراهيم بعد ولادة إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يعبد فيه ويذكر، ولم يعرف مكانه فجعل له علامة تسير معه حتى وقفت به على الموضع، يقال أنها ريح لينة لها رأسان تسير معه حتى تكون بالموضع، ويقال بل بعث معه جبريل لذلك حتى أراه الموضع.

وكان إبراهيم يعتاد إسماعيل لزيارته، ويقال أنه كان يستأذن سارة في ذلك، وأنها شرطت عليه أن لا يقيم عندهم، وأن إبراهيم وجد امرأة لإسماعيل في غيبة منه وكانت من العماليق، وهي عمارة بنت سعيد بن أسامة بن أكيل، فرأها فظة غليظة فأوصاها لإسماعيل بأن يحول عتبة بابه، فلما قصت عليه الخبر والوصية قال: ذاك أبي يأمرني أن أطلقك فطلقها وتزوج بعدها السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرحمي، وخالفه إبراهيم إلى بيته فتسهلت له بالإذن وأحسن التحية وقربت الوضوء والطعام، فأوصاها لإسماعيل بأني قد رضيت عتبة بابك، ولما قصت عليه الوصية قال: ذلك أبي يأمرني بإسساك فأسساها. ثم جاء إبراهيم مرة ثالثة وقد أمره الله ببناء البيت وأمر إسماعيل بإيعاته، فرفعوها من القواعد وتم بناؤها وأذن في الناس بالحج. ثم زوج لوط ابنته من مدين بن إبراهيم عليهما السلام، وجعل الله في نسلها البركة. فكان منه أهل مدين الأمة المعروفة.

ثم ابتلى الله إبراهيم بذبح ابنه في رؤيا رآها وهي وحي، وكانت الفدية ونجى الله ذلك الولد، كما قص في القرآن. واختلف في ذلك الذبيح من ولديه فقيل إسماعيل وقيل إسحاق. وذهب إلى كلا القولين جماعة من الصحابة والتابعين. فالقول بإسماعيل لابن عباس وابن عمر والشعبي ومجاهد والحسن ومحمد بن كعب القرظي. وقد يحتجون له بقوله ﷺ: أنا ابن الذبيحين، ولا تقوى الحجة به لأن عم الرجل قد يجعل أباه يضرب من التجوز لا سيما في مثل هذا الفخر. ويحتجون أيضاً بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، ولو كان ذبيحاً في زمن الصبا لم تصح البشارة بابن يكون له، لأن الذبيح في الصبا ينافي وجود الولد، ولا تقوم من ذلك حجة، لأن البشارة إنما وقعت على وفق العلم بأنه لا يذبح، وإنما كان ابتلاء لإبراهيم.

وخرج ملك سدوم وأصحابه لمداغتتهم، فانهزم هو والملك الذين معه من أهل سدوم، وسباهم ملك الأهواز ومن معه من الملك، وأسروا لوطاً وسبوا أهله، وغنموا ماشيته. وبلغ الخبر إبراهيم عليه السلام فاتبعهم في ولده ومواليه نحواً من ثلثمائة وثمانية عشر، ولحقهم بظاهر دمشق فدهمهم فانقضوا وخلص لوطاً في تلك الواقعة، وجاء بأهله ومواسيه، وتلقاهم ملك سدوم، واستعظم فعلتهم.

ثم أوحى الله إلى إبراهيم أن هذه الأرض: أرض الكتعتين التي أنت بها، ملكتها لك ولذريتك وأكثرهم مثل حصص الأرض، وأن ذريتك يسكنون في أرض ليست لهم أربعمئة سنة ويرجع الحقب الرابع إلى هنا. ثم إن سارة وهبت مملوكها هاجر القطبية لإبراهيم عليه السلام لعشر سنين من مجيئهم من مصر وقالت لعل الله يرزقك منها ولداً، وكان إبراهيم قد سأل الله أن يهب له ولداً فوعده به. وكانت سارة قد كبرت وعقمت عن الولد، فولدت هاجر لإبراهيم إسماعيل عليهما السلام لست وثمانين من عمره، وأوحى الله إليه أي قد باركت عليه وكثرته ويولد له اثنا عشر ولداً، ويكون رئيساً لشعب عظيم. وأدرت سارة الغيرة من هاجر وطلبت منه إخراجها، وأمره الله أن يطيع سارة في أمرها، فهاجر بها إلى مكة ووضعها وابنها بمكان زمزم عند دوحة هنالك وانطلق. فقالت له هاجر: الله أمرك؟ قال: نعم. فقالت: إذا لا يضيعنا. وانطلق إبراهيم وعطش إسماعيل بعد ذلك عطشاً شديداً، وأقامت هاجر تتردد بين الصفا والمروة، إلى أن صعدت عليها سبع مرات لعلها تجد شيئاً، ثم أتته وهو يفحص برجليه فنبتت زمزم.

وعن السدي: أنه تركه في مكان الحجر، واتخذ فيه عريشاً وأن جبريل هو الذي همز له الماء بعقبه، وأخبر هاجر أنها عين يشرب بها ضيفان الله، وأن أبا هذا الغلام سيجيء وبينان بيتاً لله هذا مكانه. ثم مرت رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم أقبلوا من كداء، ونزلوا أسفل مكة، فرأوا الطير حائمة، فقالوا: لا نعلم بهذا الوادي ماء، ثم أشرفوا فرأوا المرأة وتزلوا معها هنالك. وعن ابن عباس: كانت أحياءها قريباً من ذلك المكان، فلما رأوا الطير تحوم عليه أقبلوا إليه فوجدوهما فتزلوا معهما حتى كان بها أهل آيات منهم، وشب إسماعيل بينهم وتعلم اللغة العربية منهم، وأعجبهم وزوجوه امرأة منهم، وماتت أمه هاجر فدنفها في الحجر. ولما رجع إبراهيم وأقام في أهله بالشام، وبالحق أهل المؤتلفة في العصيان والفاحشة، ودعاهم لوط فكذبوه وأقام على ذلك. قال الطبري: فأرسل الله رسلاً من الملائكة لإهلاكهم، ومروا بإبراهيم فأضافهم وخدمهم، وكان من ضحك سارة وبشارة

بتوبل بن ناحور بن آزر بته رفقا فزوجها أبوها واحتملها ومن معها من الجواري وجاء بها إلى إسحاق في حياة أبيه وعمره يومئذ أربعون سنة فتزوجها، وولدت له يعقوب ويعصو توأمين وسنذكر خبرهما. ثم قبض الله نبيه إبراهيم صلوات الله عليه بمكان هجرته من أرض كنعان وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة، ودفن مع سارة في مغارة عفرون الحبيبي، وعرف بالخليل لهذا العهد، ثم جعل الله في ذريته النبوة والكتاب آخر الدهر.

إسماعيل: فإسماعيل سكن مع جهرم بمكة وتزوج فيهم وتعلم لغتهم وتكلم بها وصار أباً لمن بعده من أجيال العرب، وبعثه الله إلى جهرم والعمالة الذين كانوا بمكة، وإلى أهل اليمن فأمن بعض وكفر بعض. ثم قبضه الله إليه وخلف ولده بين جهرم، وكانوا على ما ذكر في التوراة اثني عشر أكبرهم بنيوت وهو الذي تقوله العرب نابت ونبت، ثم قيثار وأدبيل ويسام ومشمع وذوما ومسا وحراه وقيما ويطور ونافس وقدماء.

قال ابن إسحاق: وعاش فيما ذكر مائة وثلاثين سنة، ودفن في الحجر مع أمه هاجر، ويقال أجر. وفي التوراة أنه قبض ابن مائة وسبع وثلاثين سنة، وأن شيعته سكنوا من حويلا إلى شور قبالة مصر من مدخل أثور، وسكنوا على حذر شمع إخوته. وحويلا عند أهل التوراة هي جنوب برقة والواو منها قرية من الياء، وشور هي أرض الحجاز، وأثور بلاد الموصل والجزيرة. ثم ولي أمر البيت من بعد إسماعيل ابنه نابت، وأقام ولده بمكة مع أخوالهم جهرم حتى تشعبوا وكثر نسلهم وتعددت بطونهم من عدنان في عداد معد، ثم بطون معد في ربيعة ومضر وإياد وأثار بني نزار بن معد، فضاقت بهم مكة على ما نذكره عند ذكر قريش وأخبار ملكتهم بمكة، فكانت بطون عدنان هذه كلها من ولد إسماعيل لابنه نابت، وقيل لقيثار، ولم يذكر النسابون نسلاً من ولده الآخرين، وتشعبت من إسماعيل أيضاً عند جماعة من أهل العلم بالنسب بطون قحطان كلها فيكون على هذا أباً لجميع العرب بعده.

إسحاق: وأما إسحاق فأقام بمكانه في فلسطين، وعمر وعمي بعد الكثير من عمره وبارك على ولده يعقوب فغضب بذلك أخوه عيصو، وهم بقتله فأشارت عليه رفقا بنت بتوبل بالسير إلى حران عند خاله لابان بن بتوبل، فأقام عنده وزوجه بتيه، فزوجه أولاً الكبرى واسمها ليا وأخذها جاريته زلفة، ثم من بعدها أختها الصغرى واسمها راحيل وأخذها جاريته بلها. وأول من ولد منهن ليا ولدت له روبيل، ثم شمعون، ثم لاوي، ثم يهوذا. وكانت راحيل لا تحبل فوهبت جاريته بلها ليعقوب

والقول بإسحق للعباس وعمر وعلي وابن مسعود وكعب الأحبار وزيد بن أسلم ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير وعطا والزهري ومكحول والسدي وقتادة.

وقال الطبري: والراجح أنه إسحاق لأن نص القرآن يقتضي أن الذبيح هو المبرر به، ولم يشير إبراهيم بولد إلا من زوجته سارة مع أن البشارة وقعت إجابة لدعائه عند مهاجره من أرض بابل. وقوله إني ذاهب إلى ربي سيهدين، ثم قال عقبه: رب هب لي من الصالحين، ثم قال عقبه: فبشرناه بغلام حليم. وذلك كله كان قبل هاجر، لأن هاجر إنما ملكها سارة بمصر، وملكها لإبراهيم بعد ذلك بعشر سنين، فلم يشر به قبل ذلك كله إنما هو ابن سارة، فهو الذبيح بهذه الدلالة القاطعة. وبشارة الملائكة لسارة بعد ذلك حين كانوا ضيوفاً عند إبراهيم في مسيرهم لإهلاك سدوم، إنما كان تجديدًا للبشارة المتقدمة اهـ.

ثم توفيت لانة وسبع وعشرين من عمرها، وذلك في قرية جيرون من بلاد بني حبيب الكنعانيين، فطلب إبراهيم منهم مقبرة لها، فوهبه عفرون بن صخر مغارة كانت في مزرعته، فامتنع من قبولها إلا بالثمن، فأجاب إلى ذلك، وأعطاه إبراهيم أربعمئة مثقال فضة ودفن فيها سارة. وتزوج إبراهيم من بعدها قظورا بنت يقطان من الكنعانيين. وقال السهيلي: قظورا بزيادة نون بين القاف والطاء، وهذا الاسم أعجمي وطاؤه قرية من التاء، فولدت له كما هو مذكور في التوراة ستة من الولد وهم: زمران، يقشان، مدان، مدين، أشبوق، شوخ.

ثم وقع في التوراة ذكر أولادهم فولد يقشان سبا ودذان، وولد دذان أشور ثم ولطوسيح ولأميم. وولد مدين عيفا وعيفين وحنوخ وأفيداع والزاعا. هذا آخر ولده من قظورا في التوراة. وقال السهيلي: كان لإبراهيم عليه السلام أولاد آخرون: خمسة من امرأة اسمها حجيين أو حجون بنت أهيب، وهم كبسان وفروخ وأميم ولوطان ونافس. ولما ذكر الطبري بني قظورا الستة وسمى منهم يقشان، قال بعده: وسائرهم من الأخرى وهي رعوة. ثم قال: ومن يقشان جبل البربر اهـ.

فولد إبراهيم على هذا ثلاثة عشر: فإسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، وستة من قظورا كما ذكر في التوراة، والخمسة بنو حجيين عند السهيلي، أو رعوة عند الطبري.

وكان إبراهيم عليه السلام قد عهد لابنه إسحاق أن لا يتزوج في الكنعانيين، وأكد العهد والوصية بذلك لمولاه القائم على أموره، ثم بعثه إلى حران مهاجرهم الأول، فخطب من ابن أخيه

وطالبهم بحضور أخيه فكان ذلك كله سبباً لاجتماعه بأبيه يعقوب بعد أن كبر وعمي.

قال ابن إسحاق: كان ذلك لعشرين سنة من مغيبه، ولما وصل يعقوب إلى بليس قريباً من مصر، خرج يوسف ليلقاها، ويقال خرج فرعون معه، وأطلق لهم أرض بليس يسكنون بها ويتفعون. وكان وصول يعقوب صلوات الله عليه في سبعين ركباً من بني، ومعه أيوب النبي من بني عيصو، وهو أيوب بن برخا بن زبرج بن رعويل بن عيصو، واستقروا جميعاً بمصر ثم قبض يعقوب صلوات الله عليه لسبع عشرة من مقدمه ومائة وأربعين من عمره، وحمله يوسف صلوات الله عليه إلى أرض فلسطين، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها بإذن من فرعون. واعترضهم بعض الكنعانيين في طريقهم، فأوقعوا بهم، وانتهروا إلى مدفن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام فدفنوه في المغارة عندهما، وانتقلوا إلى مصر، وأقام يوسف صلوات الله عليه بعد موت أبيه ومعه إخوته إلى أن أدرته الوفاة فقبض مائة وعشرين سنة من عمره، وأدرج في تابوت وختم عليه، ودفن في بعض مجاري النيل. وكان يوسف أوصى أن يحمل عند خروج بني إسرائيل إلى أرض القياح، فيدفن هنالك ولم تزل وصيته عفوطة عندهم إلى أن حمله موسى صلوات الله عليه عند خروجه ببني إسرائيل من مصر. ولما قبض يوسف صلوات الله عليه وبقي من بقي من الأسباط إخوته وبنيه تحت سلطان الفراعنة بمصر، تشعب نسلهم وتعددوا إلى أن كاثروا أهل الدولة وارتابوا بهم فاستعبدوهم.

قال المسعودي: دخل يعقوب إلى مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف في سبعين ركباً، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى صلوات الله عليه نحواً من مائتين وعشر سنين، قتلاهم ملوك القبط والعمالة بمصر، ثم أحصاهم موسى في التيه، وعد من يطيق حمل السلاح من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف ويزيدون. وقد ذكرنا ما في هذا العدد من الوهم والغلو في مقدمة الكتاب، فلا تطول به. ووقعه في نص التوراة لا يقضي بتحقيق هذا العدد لأن المقام للمبالغة، فلا تكون إعداده نصوصاً. وكان ليوسف صلوات الله عليه من الولد كثير، إلا أن المعروف منهم اثنان: أفرايم ومنشى وهما معدودان في الأسباط، لأن يعقوب صلوات الله عليه أدركهما وبارك عليهما وجعلهما من جملة ولده.

وقد يزعم بعض من لا تحقيق عنده أن يوسف صلوات الله عليه استقل آخرًا بملك مصر. وينسب لبعض ضعفة المفسرين ومعتمدتهم في ذلك قول يوسف عليه السلام في دعائه: رب قد

لئد منه، فولدت له دان ثم نفتالي. ولما فعلت ذلك راحيل وهبت أختها ليا ليعقوب عليه السلام جاريتهما فولدت له كاد وأشر، ثم ولدت ليا من بعد ذلك يساخو، ثم زبولون، فكمثل له بذلك عشرة من الولد. ثم دعت راحيل الله عز وجل أن يهب لها ولداً من يعقوب فولدت يوسف، وقد كملت له بجران عشرون سنة، ثم أمر بالرحيل إلى أرض كنعان التي وعدوا بملكها. فارتحل وخرج لابان في اتباعه وعزم له في المقام عنده فأبى، فودعه وانصرف إلى حران وسار يعقوب لوجهه حتى إذا قرب من بلد عيصو، وهو جبل يسعين بأرض الكرك والشوك لهذا العهد، اعترضه عيصو لتلقيه وكرامته، فأهدى إليه يعقوب من ماشيته هدية احتفل فيها، وتودد إليه بالخضوع والتضرع، فذهب ما كان عند عيصو وأوحى الله إليه بأن يكون اسمه إسرائيل، ومر على أورشليم وهي بيت المقدس فاشترى هنالك مزرعة ضرب فيها فسطاطه وأمر ببناء مرجح سماه إيل في مكان الصخرة.

يوسف: ثم حملت راحيل هنالك فولدت له بنيامين، وماتت من نفاسه ودفنها في بيت لحم. ثم جاء إلى أبيه إسحاق بقرية جيرون من أرض كنعان فأقام عنده.

ومات إسحاق عليه السلام مائة وثمانين سنة من عمره ودفن مع أبيه في المغارة، وأقام يعقوب بمكانه وولده عنده، وشب يوسف عليه السلام على غير حالهم من كرامة الله به، وقص عليهم رؤياه التي بشر فيها بأمره فغصوا به وخرجوا معه إلى الصيد، فآلفوه في الجب واستخرجوه السيارة الذين مروا به بعد ذلك وباعوه للعرب بعشرين مثقالاً.

ويقال: إن الذي تولى بيعه هو مالك بن دعر بن واين بن عيفا بن مدين. واشتراه من العرب عزيز مصر وهو وزيرها أو صاحب شرطتها. قال ابن إسحاق واسمه أظفير بن رجيبي وقيل قوطفير. وكان ملكها يومئذ من العماليق، الريان بن الوليد بن دومغ، وربي يوسف عليه السلام في بيت العزيز فكان من شأنه مع امرأته زليخا، ومكنه في السجن، وتعبيره الرؤيا للمحبوسين من أصحاب الملك ما هو مذكور في الكتاب الكريم. ثم استعمله ملك مصر عندما خشي السنة والغلاء على خزائن الزرع في سائر مملكته، يقدر جمعها وتصريف الأرزاق منها وأطلق يده بذلك في جميع أعماله، وألبسه خاتمه وحمله على مركبه، ويوسف لذلك العهد ابن ثلاثين سنة. فقيل عزل أظفير العزيز وولاه، وقيل بل مات أظفير فتزوج زليخا وتولى عمله وكان ذلك سبباً لانتظام شمله بأبيه وإخوته لما أصابهم السنة بأرض كنعان وجاء بعضهم للميرة، وكال لهم يوسف عليه السلام، ورد عليهم بضاعتهم

الجبل الأحمر الذي لا نبات به. وقد يقع لبعض المؤرخين أن القياصرة ملوك الروم من ولد عيصو، وقال الطبري: أن الروم وفارس من ولد رعويل بن باسنت. وليس ذلك كله بصحيح ورأيت في كتاب يوسف بن كرمون: مؤرخ العمارة الثانية بيت المقدس قبيل الجلوة الكبرى، وكان من كهنتينا اليهود وهو قريب من الغلط.

قال ابن حزم في كتاب الجمهرة: وكان لإسحاق عليه السلام ابن آخر غير يعقوب اسمه عيصاب أو عيصو، كان بنوه يسكنون جبال الشراة بين الشام والحجاز، وقد بادوا جملة، إلا أن قوماً يذكرون أن الروم من ولده وهذا خطأ. وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم كان يقال له أدم فظنوا أن الروم من ذلك الموضع، وليس كذلك لأن الروم إنما نسبوا إلى رُؤس بساني رومة، فإن ظن ظان أن قول النبي ﷺ للحر بن قيس: هل لك في بلاد بني الأصفر العام، وذلك في غزوة تبوك، يدل على أن السروم من بني الأصفر وهو عيصاب المذكور وليس كما ظن. وقول النبي ﷺ حق، وإنما عني عليه السلام بني عيصاب على الحقيقة لا الروم، لأن مغزاه عليه الصلاة والسلام في تلك الغزوة كان إلى ناحية الشراة مسكن القوم المذكورين اه. كلام ابن حزم.

وزعم أهروشيوش مؤرخ الروم أن أم الفينان وهاؤا وعالوم وقروح الأربعة من بنات كاتيم بن ياون بن يافث، والأول أصح لأنه نص التوراة. ثم كثر نسل بني عيصو بأرض يسمين وغلبلوا الجوين على تلك البلاد وغلبلوا بني مدين أيضاً على بلادهم إلى أيلة. وتداول فيهم ملوك وعظماء كان منهم فالغ بن ساعور، وبعده يودب بن زيدح، ثم كان منهم هداد بن مداد الذي أخرج بني مدين عن مواطنهم، ثم كان فيهم بعده ملوك إلى أن زحف يوشع إلى الشام وفتح أريحا وما بعدما وانتزع الملك من جميع الأمم الذين كانوا هنالك، ثم استلحمهم بختنصر عندما ملك أرض القدس، ولحق بعضهم بأرض يونان، وبعضهم بإفريقية. وأما عمالق بن أليفاز فمن عقبه عند الإسرائيليين عمالقة الشام، وفي قول فراعنة مصر من القبط ونساب العرب يابون من ذلك ونسبهم إلى عملاق بن لاوذ كما مر. ثم بنو يروم وكنعان ولم يبق منهم عين تطرف والله الباقي بعد فناء خلقه.

مدين: وأما مدين بن إبراهيم فتزوج بابتة لوط وجعل الله في نسلها البركة، وكان له من الولد خمسة: عيضا وعيفين وحنوخ وأنيذاغ والأزاعا. وقد تقدم ذكرهم في ولد إبراهيم من قنطورا، فكان منهم مدين أمة كبيرة ذات بطون وشعوب، وكانوا من أكبر قبائل الشام وأكثرهم عدداً، وكانت مواطنهم تجاور أرض معان

أتيتني من الملك. ولا دليل لهم في ذلك لأن كل من ملك شيئاً ولو في خاصة نفسه فاستيلاؤه يسمى ملكاً حتى البيت والقرى والحداد، فكيف من ملك التصرف ولو كان في شعب واحد منها فهو ملك، وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكاً، مثل هجر ومعان ودومة الجندل، فما ظنك بوزير مصر لذلك العهد وفي تلك الدولة، وقد كان في الخلافة العباسية تسمى ولاية الأطراف وعمالها ملوكاً، فلا استدلال لهم في هذه الصيغة، وأخرى أيضاً فيما يستدلون به من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَكْتُبُ لِيُؤْثَرَفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أن لا يكون لهم فيه مستند لأن التمكين يكون بغير الملك. ونص القرآن إنما هو بولايته على أمور الزرع في جمعه وتفرقه كما قال تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. ومساق القصة كلها أنه مرووس في تلك الدولة بقرآن الحال كلها لا ما يتوهم من تلك اللفظة الواقعة في دعائه، فلا نعدل من النص الخفوف بالقرائن إلى هذا التوهم الضعيف. وأيضاً فالقصة في التوراة قد وضعت صريحة في أنه لم يكن ملكاً ولا صار إليه ملك. وأيضاً فالأمر الطبيعي من الشوكة والقطامة له يدفع أن يكون حصل له ملك، لأنه إنما كان في تلك الدولة قبل أن يأتي إليه إخوته منفرداً لا يملك إلا نفسه ولا يتأني الملك في هذا الحال وقد تقدم ذلك في مقدمة الكتاب والله أعلم.

عيصو: وأما عيصو بن إسحاق فسكن جبال بني يسمين من بني جوى، إحدى شعوب كنعان، وهي جبال الشراة بين تبوك وفلسطين وتعرف اليوم ببلاد كرك والشوك، وكان من شعوبهم هنالك على ما في التوراة بنو لوطان وبنو شوبال وبنو صمقون وبنو عنا وبنو ديشوق وبنو يصد وبنو ديسان سبعة شعوب. ومن بني ديشون الأشبان، فسكن عيصو بينهم بتلك البلاد، وتزوج منهم من بنات عنا بن يسمين من جوى، وهي أهليقاما، وتزوج أيضاً من بنات حي من الكنعانيين عازا بنت أيلول، وباسنت بنت إسماعيل عليه السلام. وكان له من الولد خمسة مذكورون في التوراة وأكبرهم أليفاز، بالفاء المقحمة وإشباع حركتها وزاي معجمة من بعدها من عازا بنت أيلول، ثم رعويل من باسنت بنت إسماعيل، ثم يعوش ويعلام وقروح من أهليقاما بنت عنا. وولد أليفاز ستة من الولد ثيمال وأومار وصفو وكنتام وقاتال وعمالق السادس، لسرية اسمها تمتاع وهي شقيقة لوطان بن يسمين. وولد رعويل بن عيصو أربعة من الولد ناحة وزيدم وشمتا ومرا. هكذا وقع ذكر ولد العيص وولدهم في التوراة.

وفيها أن العيص اسمه أدم، فلذلك قبل لهم بنو أدم، ولبعض الإسرائيليين أن أدم اسم لذلك الجبل ومعناه بالعبرانية

وبلداً ويثويل. وكان له من سرية اسمها أدوما أربعة من الولد وهم: طالج وكاحم وتاخش وماعخا. هؤلاء ولد ناحور أخي إبراهيم كلهم مذكورون في التوراة وهم اثنا عشر ولداً، وهؤلاء كلهم بادوا وانقرضوا، ولم يبق منهم إلا الأرمن من قمويل بن ناحور أخي إبراهيم عليه السلام ابن آزر وهم لهذا العهد على دين النصرانية ومواطنهم في أرمينية شرقي القسطنطينية، واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من العرب ومن عاصرهم من الأمم، ولنرجع إلى أهل الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة، واللّه سبحانه وتعالى الكفيل بالإعانة.

الطبقة الثانية من العرب وهم العرب المستعربة وذكر أنسابهم وأيامهم وملوكهم والإلام ببعض الدول التي كانت على عهدهم

ولما سمي أهل هذه الطبقة بهذا الاسم لأن السمات والشعائر العربية لما انتقلت إليهم من قبلهم، اعتبرت فيها الصيرورة، بمعنى أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم، وهي اللغة العربية التي تكلموا بها، وهو من استعمل بمعنى الصيرورة من قولهم: استنوق الجمل، واستحجر الطين. وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدم الأمم فيما يعلم جيلاً كانت اللغة العربية لهم بالأصالة وقيل العارية.

واعلم أن أهل هذا الجيل من العرب يعرفون باليمينية والسبائية، وقد تقدم أن نسابة بني إسرائيل يزعمون أن أباهم سبا من ولد كوش بن كنعان، ونسابة العرب يابون ذلك ويدفعونه، والصحيح الذي عليه كافتهم أنهم من قحطان، وأن سبا هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقال ابن إسحاق: يعرب بن يشجب تقدم وأخر. وقال ابن ماكولا على ما نقل عنه السهيلي: اسم قحطان مهزم. وبين النسابة خلاف في نسب قحطان: فقيل هو ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام أخو فالغ ويقطن، ولم يقع له ذكر في التوراة، وإنما ذكر فالغ ويقطن. وقيل هو معرب يقطن لأنه اسم أعجمي والعرب تنصرف في الأسماء الأعجمية بتبديل حروفها وتغييرها وتقديم بعضها على بعض. وقيل: إن قحطان بن يمن بن قيدار، وقيل: إن قحطان من ولد إسماعيل. وأصح ما قيل في هذا أنه قحطان بن يمن بن قيدر، ويقال الميمس

من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريباً من مجرة قوم لوط، وكان لهم تغلب بتلك الأرض فعتوا وبغوا وعبدوا الآلهة، وكانوا يقطعون السبل ويبخسون في الكيال. وبعث الله فيهم شعباً نبياً منهم، وهو ابن نويل بن رعويل بن عيا بن مدين. قال المسعودي: مدين هؤلاء من ولد المحضر بن جندل بن يعصّب بن مدين، وأن شعباً أخوهم في النسب، وكانوا ملوكاً عدة يسمون بكلمات أجمد إلى آخرها وفيه نظر. وقال ابن حبيب في كتاب البدء: هو شعيب بن نوب بن أحزم بن مدين.

وقال السهيلي: شعيب بن عيفاء، ويقال ابن صيفون، وشعيب هذا هو شعيب موسى الذي هاجر إليه من مصر أيام القبط واستأجره على إنكاح ابنته إياه على أن يخدمه ثمانين سنين، وأخذ عند آداب الكتاب والثبوة حسبما يأتي عند ذكر موسى صلوات الله عليهما وأخبار بني إسرائيل. وقال الصيمري: الذي استأجر موسى وزوجه: هو يثر بن رعويل، ووقع في التوراة أن اسمه يثر وأن رعويل أباه أو عمه هو الذي تولى عقد النكاح. وكان لمدين هؤلاء مع بني إسرائيل حروب بالشام، ثم تغلب عليهم بنو إسرائيل وانقرضوا جميعاً.

لوط: وأما لوط بن هاران أخي إبراهيم عليهما السلام فقد تقدم من خبره مع قومه ما ذكرناه هنالك، ولما لحا بعد هلاكهم لحق بأرض فلسطين، فكان بها مع إبراهيم إلى أن قبضه الله، وكان له من الولد على ما ذكر في التوراة عمون بتشديد الميم وإشباع حركتها بالضم ونون بعدها، وموآبي بإشباع ضمة الميم وإشباع فتحة الهزة بعدها وياء تحتية وبعدها ياء ساكنة هوائية، وجعل الله في نسلهما البركة، حتى كانوا من أكثر قبائل الشام، وكانت مساكنهم بأرض البلقاء ومداينها في بلد موآبي ومعان وما والاها، وكانت لهم مع بني إسرائيل حروب نذكرها في أخبارهم، وكان منهم بلعام بن باعور بن رسيوم بن يرمسيم بن موآبي، وقصته مع ملك كنعان حين طلبه في الدعاء على بني إسرائيل أيام موسى صلوات الله عليه وأن دعاءه صرف إلى الكنعانيين، مذكورة في التوراة ونوردها في موضعها.

وأما ناحور أخو إبراهيم عليه السلام فقد تقدم ذكره أنه هاجر مع إبراهيم عليه السلام من بابل إلى حران، ثم إلى الأرض المقدسة، فكان معه هنالك، وكانت زوجته ملكا بنت أخيه هاران، وملكها هذه هي أخت سارة زوج إبراهيم عليه السلام وأم إسحاق، وكان لناحور من ملكا على ما وقع في نص التوراة ثمانية من الولد: عوص ويوص وقمويل وهو أبو الأرمن، وكاس ومنه الكلدانيون الذين كان منه يجتصر وملوك بابل، وحذو وبلداس

يعقب منهم أحد، ثم ذكر ابنين منهم دخلوا في حمير، ثم ذكر الحرث بن قحطان، وقال: فولد فيما يقال له لاسور، وهم رهط حنظلة بن صفوان بني الرس، والرس ما بين نجران إلى اليمن ومن حضرموت إلى اليمامة، ثم ذكر يعرب بن قحطان وقال: فيهم الحميرية والعداد انتهى.

قال ابن سعيد: وملك بعد يعرب ابنه يشجب وقيل اسمه عمن واستبد أعمامه بما في أيديهم من الممالك، وملك بعده ابنه عبد شمس وقيل عابر ويسمى سبا لأنه قيل إنه أول من سن السبي، وبنى مدينة سبا وسد مأرب. وقال صاحب التيجان إنه غزا الأقطار وبنى مدينة عين شمس بإقليم مصر وولى عليها ابنه بابلون. وكان لسبا من الولد كثير وأشهرهم حمير وكهلان اللذان منهما الأمتان العظيمتان من اليمنية أهل الكثرة والملك والعز وملك حمير منهم أعظمه. وكان منهم التابعة كما يذكر في أخبارهم، وعد ابن حزم في ولده زيدان وابنه نجران بن زيدان وبه سميت البلد.

ولما هلك سبا قام بالملك بعده ابنه حمير ويعرف بالعرنجج، وقيل: هو أول من تتوج بالذهب ويقال إنه ملك خمسين سنة، وكان له من الولد ستة فيما قال السهيلي: وائل ومالك وزيد وعامر وعوف وسعد. وقال أبو محمد بن حزم: الحميسع ومالك وزيد ووائل ومشروح ومعديكرب وأوس ومرة. وعاش فيما قال السهيلي ثلثمائة سنة، وملك بعده ابنه وائل وتغلب أخوه مالك بن حمير على عمان، فكانت بينهما حروب. وقال ابن سعيد: إن الذي ملك بعد حمير على عمان، فكان بينهما حروب. وقال ابن حمير، ثم من بعد وائل السكسك بن وائل، وكانت مالك بن حمير قد هلك وغلب على عمان بعده ابنه قضاة فحاربه السكسك وأخرجه عنها، وملك بعده ابنه يعفر بن السكسك، وخرجت عليه الخوارج، وحاربه مالك بن الحاف بن قضاة، وطالت الفتنة بينهما، وهلك يعفر وخلف ابنه النعمان حملاً ويعرف بالمعافر، واستبد عليه من بني حمير ماران بن عوف بن حمير ويعرف ببذي رياش وكان صاحب البحرين، فنزل نجران واشتغل بحرب مالك بن الحاف بن قضاة.

ولما كبر النعمان حبس ذارياش واستبد بأمره وطال عمره وملك بعده ابنه أسجم بن المعافر، فاضطربت أحوال حمير، وصار ملكهم طوائف إلى أن استقر في الرايش وبنيه التابعة كما نذكره.

ويقال إن بني كهلان تداولوا الملك مع حمير هؤلاء، وملك منهم جبار بن غالب بن كهلان، وملك أيضاً من شعوب قحطان

بن يمن بن قيدار، وأن يمن هذا سميت به اليمن. وقال ابن هشام: أن يعرب بن قحطان كان يسمى عينا وبه سميت اليمن. فعلى القول بأن قحطان من ولد إسماعيل تكون العرب كلهم من ولده لأن عدنان وقحطان يسترعيان شعوب العرب كلها.

وقد احتج لذلك من ذهب إليه بأن النبي ﷺ قال لرماة الأنصار: «ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً». والأنصار من ولد سبا وهو ابن قحطان، وقيل: إنما قال ذلك لقوم من أسلم من أقصى إخوة خزاعة بن حارثة بناء على أن نسبهم في سبا. وقال السهيلي: ولا حجة في شيء منهما لأنه إذا كانت العرب كلها من ولد إسماعيل، فهذا من السهيلي جنوح إلى القول بمفهوم اللقب وهو ضعيف. ثم قال: والصحيح أن هذا القول إنما كان منه ﷺ لأسلم كما قدمناه وإنما أراد أن خزاعة من معد بن إلياس بن مضر وليسوا من سبا، ولا من قحطان كما هو الصحيح في نسبهم على ما يأتي. واحتجوا أيضاً لذلك بأن قحطان لم يقع له ذكر في التوراة كما تقدم، فدل على أنه ليس من ولد عابر فترجح القول بأنه من إسماعيل، وهذا مردود بما تقدم أن قحطان معرب يقطن وهو الصحيح، وليس بين الناس خلاف في أن قحطان أبو اليمن كلهم.

ويقال: إنه أول من تكلم بالعربية ومعناه من أهل هذا الجبل الذين هم العرب المستعربة من اليمنية، وإلا فقد كان للعرب جبل آخر وهم العرب العاربة، ومنهم تعلم قحطان تلك اللغة العربية ضرورة ولا يمكن أن يتكلم بها من ذات نفسه. وكان بنو قحطان هؤلاء معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم، ولم يزالوا مجتمعين في مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفه الذي كان لأولئك فأصبحوا بمنجاة من الحرم الذي يسوق إليه الترف والنضارة، فتشعبت في أرض الفضاء فصائلهم، وتعددت في جو القفر أفخاذهم وعشائرهم ونما عددهم، وكثرت إخوانهم من العمالة في آخر ذلك الجيل، وزاحمهم بمناكبهم، واستجدوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزمهم. وكانت الدولة لبني قحطان متصلة فيهم، وكان يعرب بن قحطان من أعظم ملوك العرب. يقال: إنه أول من حيّاه قومه بشيعة الملك. قال ابن سعيد: وهو الذي ملك بلاد اليمن وغلب عليها قوم عاد، وغلب العمالة على الحجاز، وولى إخوته على جميع أعمالهم، فولى جرحماً على الحجاز، وعاد بن قحطان على الشحر، وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر، وعُمان بن قحطان على بلاد عُمان. هكذا ذكر البيهقي.

وقال ابن حزم: وعاد لقحطان عشرة من الولد وأنه لم

أي السد ويقال إن الذي بنى السد هو حمير أبو القبائل اليمنية كلها قال الأعشى:

فقي ذلك للمؤتسي أسوة مارب غطى عليه العرم
رخام بناء لسم حمير إذا جاءه من رامة لم يرم

وقيل بناء لقمان الأكبر ابن عاد كما قاله المسعودي، وقال: جعله فرسخاً في فرسخ، وجعل له ثلاثين شعباً. وقيل: وهو الأليق والأصوب أنه من بناء سبا بن يشجب، وأنه ساق إليه سبعين وادياً، ومات قبل إتمامه، فاتمه حمير من بعده. وإنما رجحناه لأن المباني العظيمة، والمياكل الشاخة، لا يستقل بها الواحد كما قدمنا في الكتاب الأول، فأقاموا في جناته عن اليمين والشمال كما وصف القرآن. ودولتهم يومئذ أوفرما كانت، وأترف وأبذخ وأعلى يداً وأظهر، فلما طغوا وأعرضوا سلط الله عليهم الخلد، وهو الجرذ فثقه من أسفله فأحرقهم السيل، وأغرق جناتهم، وخربت أرضهم، وتمزق ملكهم، وصاروا أحاديث.

وكان هؤلاء التبابعة ملوكاً عدة في عصور متعاقبة، وأحقاب متطاولة، ولم يضبطهم الحصر، ولا تقيدت منهم الشوارد، وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب تارة، ويقتصرون على يمنهم أخرى، فاختلقت أحوالهم ودولهم، فلنأت بما صح منها متحرياً جهد الاستطاعة عن طموس من الفكر، واقتفاء التقاليد المرجوع إليها والأصول المعتمد على نقلها، وعدم الوقوف على أخبارهم مدونة في كتاب واحد والله المستعان.

قال السهيلي: معنى تبع الملك المتبع. وقال صاحب المحكم: التبابعة ملوك اليمن وأحدهم تبع لأنهم يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد قام آخر تابعاً له في سيرته، وزادوا الباء في التبابعة لإرادة النسب. قال الزغشري: قيل للملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون، كما قيل الأقبال لأنهم يتقبلون. قال المسعودي: ولم يكونوا يسمون الملك منهم تبعاً حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت، وقيل حتى يتبعه بنو جشم بن عبد شمس، ومن لم يكن له شيء من الأمرين فيسمى ملكاً ولا يقال له تبع.

وأول ملوك التبابعة باتفاق من المؤرخين، الحرث الرائش، وإنما سمي للرأش لأنه راشر الناس بالعباء. واختلف الناس في نسبه بعد اتفاقهم على أنه من ولد وائل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أبي بن الهميص بن حمير. فقال ابن إسحاق وأبو المنذر بن الكلبي أن قيساً بن معاوية بن جشم. فابن إسحاق يقول في نسبه إلى سبا: الحرث بن عدي بن صيفي، وابن

نجران بن زيد بن يعرب بن قحطان، وملك من حمير هؤلاء ثم من بني الهميص بن حمير أبي بن زهير بن الغوث بن أبي بن الهميص، وإليه نسب عرب أبي بن بلاد اليمن، وملك منهم أيضاً عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أبي بن الهميص بن حمير، ثم ملك من أعقاب شدد بن المطاط بن عمرو بن ذي هرم بن الصوان بن عبد شمس، وبعده أخوه لقمان، ثم أخوهما ذو شدد وهداد ومدائر، وبعده ابنه الصعب ويقال إنه ذو القرنين.

وبعده أخوه الحرث بن ذي شدد، وهو الرائش جد الملوك التبابعة. وملك في حمير أيضاً من بني الهميص من بني عبد شمس هؤلاء حسان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس.

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي في كتاب الأنساب ونقلته من أصل عتيق بخط القاضي المحدث أبي القاسم بن عبد الرحمن بن حبيش قال: ذكر الكلبي عن رجل من حمير من ذي الكلاع قال: أقبل قيس يحرق موضعاً باليمن، فأبدي عن أزج، فدخل فيه، فوجد سريراً عليه رجل ميت وعليه جباب وشي مذهبة، في رأسه تاج، وبين يديه مجحن من ذهب، وفي رأسه ياقوتة حمراء، وإذا لوح مكتوب فيه: بسم الله رب حمير أنا حسان بن عمرو والقبيل مات في زمان هيد وما هيد هلك فيها اثنا عشر ألف قبيل فكنت آخرهم قبلاً فابتيت ذا شعبين ليجيرني من الموت فاخفوني اه كلامه. وقال الطبري: وقيل أن أول من ملك من اليمن من حمير شمر بن الأملوك كان لعهد موسى عليه السلام وبني طفار وأخرج منها العمالقة، ويقال كان من عمال الفرس على اليمن. انتهى الكلام في أخبار حمير الأولى والله سبحانه وتعالى ولي العون.

الخبر عن ملوك التبابعة من حمير وأوليتهم باليمن ومصاير أمورهم

هؤلاء الملوك من ولد عبد شمس بن وائل بن الغوث باتفاق من النسابين، وقد مر نسبه إلى حمير، وكانت مدائن ملكهم صنعاء، ومارب على ثلاث مراحل منها، وكان بها السد، ضربته بلقيس ملكة من ملوكهم سداً ما بين جبلين بالصخر والقار، فحقت به ماء العيون والأمطار، وتركت فيه خروفاً على قدر ما يحتاجون إليه في سقيهم، وهو الذي يسمى العرم والسكر وهو جمع لا واحد له من لفظه قال الجعدي:

من سبأ الحاضرين مارب إذ ينون من دون سيله العرما

استقذنه بعد حين من يده وزيره رستم زحف إليه بمجموع فارس إلى اليمن وحارب ذا الأذعار فقلبه واستخلص كيقاوس من أسرته كما تذكره في أخبار ملوك فارس. وقال الطبري أن ذا الأذعار اسمه عمرو بن أبرهة ذي المنار بن الحرث الرائش بن قيس بن صيفي بن سبا الأصغر انتهى. وكان مهلك ذي الأذعار فيما ذكر ابن هشام مسموماً على يد الملكة بلقيس. وملك من بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن ذي الأذعار وهو ذو الصرح وملك ستاً أو عشرين عاماً قال المسعودي. وملكته بعده ابنته بلقيس سبع سنين. وقال الطبري: إن اسم بلقيس بنت اليفرح بن الحرث بن قيس انتهى.

ثم غلبهم سليمان عليه السلام على اليمن كما وقع في القرآن فيقال تزوجها، ويقال بل عزها في التاييم، فتزوجت سدد بن زرة بن سبا، وأقاموا في ملك سليمان وابنه أربعاً وعشرين سنة. ثم قام بملكهم ناشر بن عمرو ذي الأذعار، ويعرف بناشر النعم، لفظين مركبين جعلاً اسماً واحداً كذا ضبطه الجرجاني. وقال السهيلي: ناشر بن عمرو، ثم قال: ويقال ناشر النعم. وفي كتاب المسعودي نافر بن عمرو، ولعله تصحيف ونسبه إلى عمرو ذي الأذعار وليس يتحقق في هذه الأنساب كلها أنها للصلب، فإن الآماد طويلة والأحقاق بعيدة، وقد يكون بين اثنين منهما عدد من الآباء، وقد يكون ملصقاً به. وقال هشام بن الكلبي: أن ملك اليمن صار بعد بلقيس إلى ناشر بن عمرو بن يعفر الذي يقال له ياسر أنعم، لإنعامه عليهم بما جمع من أمرهم وقوي من ملكهم. وزعم أهل اليمن أنه سار غازياً إلى المغرب، فبلغ وادي الرمل ولم يبلغه أحد ولم يجد فيه مجازاً لكثرة الرمل، وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادي، وكتب في صدره بالخط المسند: هذا الصنم لياسر أنعم الحميري ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب انتهى.

ثم ملك بعد ياسر هذا ابنه شمر مرعش، سمي بذلك لارتعاش كان به. ويقال أنه وطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وخرب مدينة الصفد وراء جيحون، فقالت العجم: «شمر كنداي» شمر خرب. وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا، وعربته العرب فصار سمرقند. ويقال أنه الذي قاتل قباذ ملك الفرس وأسرته، وأنه الذي حير الحيرة. وكان ملكه مائة وستين سنة، وذكر بعض الإخباريين أنه ملك بلاد الروم، وأنه الذي استعمل عليهم ماهان قيصر فهلك، وملك بعده ابنه دقيوس. وقال السهيلي في شمر مرعش الذي سميت به سمرقند أنه شمر بن مالك ومالك هو الأملاك الذي قيل فيه:

الكلبي يقول: الحرث بن قيس بن صيفي. وقال السهيلي: هو الحرث بن همال بن ذي سدد بن اللطاط بن عمرو بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن ذي سداد بن اللطاط بن عمرو بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل وجشم جد سبا هو ابن عبد شمس، هذا عند المسعودي. وعند بعضهم أنه أخوه وأنهما معاً ابنا وائل. وذكر المسعودي عن عبيد بن شريفة الجرهمي، وقد سألته معاوية عن ملوك اليمن في خبر طويل ونسب الحرث منهم، فقال: هو الحرث بن سدد بن اللطاط بن عمرو. وأما عند الطبري فاختلف نسبه في نسب الحرث، فمرة قال: ويبت ملك التباينة في سبا الأصغر ونسبه كما مر. وقال في موضع آخر: والحرث بن ذي سدد هو الرائش جد الملوك التباينة، فجعله إلى سدد ولم ينسبه إلى قيس ولا عدي من ولد سبا. وكذلك اضطرب أبو محمد بن حزم في نسبه في الجمهرة مرة إلى اللطاط ومرة إلى سبا الأصغر، والظاهر أنه تبع في ذلك الطبري والله أعلم.

وملك الحرث الرائش فيما قالوا مائة وخمسة وعشرين سنة وكان يسمى تبعاً، وكان مؤمناً فيما قال السهيلي. ثم ملك بعده ابنه أبرهة ذو المنار مائة مائة وثمانين سنة. قال المسعودي: وقال ابن هشام: أبرهة ذو المنار هو ابن الصعب بن ذي مدائن بن اللطاط، وسمي ذا المنار لأنه رفع المنار ليهندي به، ثم ملك من بعده أفریقش بن أبرهة مائة وستين سنة. وقال ابن حزم: هو أفریقش بن قيس بن أبرهة مائة وستين سنة. وقال ابن حزم: هو أفریقش بن قيس بن صيفي أخو الحرث الرائش، وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية، وبه سميت وساق البربر إليها من أرض كنعان، مر بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتل الفل منهم، وساقهم إلى أفريقية، فأنزلهم بها، وقتل ملكها جرجير. ويقال إنه الذي سمي البرابرة بهذا الاسم لأنه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة. والبريرة في لغة العرب هي اختلاط أصوات غير مفهومة، ومنه بريرة الأسد.

ولما رجع من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهم إلى الآن بها، وليسوا من نسب البربر، قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين.

ثم ملك من بعد أفریقش أخوه العبد بن أبرهة، وهو ذو الأذعار عند المسعودي قال: سمي بذلك لكثرة ذعر الناس من جوره. وملك خمسة وعشرين سنة، وكان على عهد سليمان بن داود وقبله بقليل، وغزا ديار المغرب، وسار إليه كيقاوس بن كنعان ملك فارس فبارزه وانهزم كيقاوس وأسرته ذو الأذعار، حتى

فقتب عن الأملاك وامتفت بذكره وعش دار عز لا يغال به الدهر وهذا غلط من السهيلي فإنهم مجمعون على أن الأملاك كان لعهد موسى صلوات الله عليه وشمر من أعقاب ذي الأذعار كان على عهد سليمان، فلا يصح ذلك إلا أن يكون شمر أبرهة، ويكون أول دولة التبابعة. ثم ملك على التبابعة بعد شمر مرعش تبع الأقرن واسمه زيد.

قال السهيلي: وهو ابن شمر مرعش وقال الطبري إنه ابن عمرو ذي الأذعار. وقال السهيلي: إنما الأقرن لشامة كانت في قرنه، وملك ثلاثاً وخمسين سنة. وقال المسعودي: ثلاثاً وستين. ثم ملك من بعده ابنه كلتيكرب وكان مضعفاً ولم يغر قط إلى أن مات. وملك بعده ابنه تبان أسعد أبو كرب، ويقال هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة. وعند الطبري أن الذي بعد ياسر ينعم بن عمرو ذي الأذعار تبع الأقرن أخوه، ثم بعد تبع الأقرن شمر مرعش بن ياسر ينعم، ثم من بعده تبع الأصغر وهو تبان أسعد أبو كرب هذا هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة. وقال الطبري: ويقال له الرائد وكان على عهد يستاسب وحافده أردشير بن ابن ابنه أسفنديار من ملوك الفرس.

وأنه شخص من اليمن غازياً وممر بالحيرة فتحير عسكره هنالك فسميت الحيرة. وخلف قوماً من الأزدي ولخم وجذام وعاملة وقضاة فأقاموا هنالك وينو الأطم، واجتمع إليهم ناس من طيرة وكلب والسكون وأياد والحرث بن كعب. ثم توجه الأنبار ثم الموصل ثم أذربيجان، ولقي الترك فهزمهم وقتل وسبي، ثم رجع إلى اليمن، وهابته الملوك وهادنه ملوك الهند. ثم رجع لغزو الترك، وبعث ابنه حسان إلى الصغد، وابنه يعفر إلى الروم، وابن أخيه شمر ذي الجناح إلى الفرس. وإن شمر لقي كيقباز ملك الفرس فهزمه، وملك سمرقند وقتله، وجاز إلى الصين فوجد أخاه حسان قد سبقه إليها، فأتخنا في القتل والسبي، وانصرفا بما معهما من الغنائم إلى أبيهما.

وبعث ابنه يعفر إلى القسطنطينية فتلحقه الجزية والأتاوة، فسار إلى رومة وحصرها، ووقع الطاعون في عسكره، فاستضعفهم الروم ووثبوا عليهم فقتلهم، ولم يفلت منهم أحد. ثم رجع إلى اليمن، ويقال أنه ترك بلاد الصين قوماً من حير وأنهم بها لهذا العهد، وأنه ترك ضعفاء الناس بظاهر الكوفة فتحيروا هنالك وأقاموا معهم من كل قبائل العرب.

وقال ابن إسحاق: إن الذي سار إلى المشرق من التبابعة تبع الآخر، وهو تبان أسعد أبو كرب بن ملكيكرب بن زيد الأقرن بن

عمرو ذي الأذعار، وتبان أسعد هو حسان تبع وهو فيما يقال أول من كسا الكعبة، وذكر ابن إسحاق الملاء والوصائل، وأوصى ولاته من جرهم بتطهيرها وجعل لها باباً ومفتاحاً، وذكر ابن إسحاق أنه أخذ بدين اليهودية، وذكر في سبب تهوده أنه لما غزا إلى المشرق مر بالمدينة يثرب فملكها، وخلف ابنه فيهم، فعدوا عليه وقتلوه غيلة ورئيسهم يومئذ عمرو بن الطلة من بني النجار. فلما أتبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة جمعاً على خرابها فجمع هذا الحي من أبناء قيلة لقتاله فقاتلهم، وبينما هم على ذلك جاءه خبران من أحبار يهود من بني قريظة، وقالوا له: لا تفعل فإني لن تقدر وأنها مهاجر بني قرشي يخرج آخر الزمان فتكون قراراً له. وأنه أعجب بهما واتبعهما على دينهما، ثم مضى لوجهه.

ولقيه دون مكة نفر من هذيل، وأغروه بمال الكعبة وما فيها من الجواهر والكنوز، فنهاه الخبران عن ذلك وقالوا له: إنما أراد هؤلاء هلاكك. فقتل النفر من الهذيلين وقدم مكة فأمره الخبران بالطواف بها والخضوع، ثم كساها كما تقدم، وأمر ولائها من جرهم بتطهيرها من الدماء والحيض وسائر النجاسات، وجعل لها باباً ومفتاحاً، ثم سار إلى اليمن. وقد ذكر قومه ما أخذ به من دين اليهودية، وكانوا يعبدون الأوثان، فتعرضوا لمنعه ثم حاكموه إلى النار التي كانوا يحاكمون إليها، فتاكل الظالم وتدع المظلوم، وجاؤوا بأوثانهم. وخرج الخبران متقلدان المصاحف، ودخل الحسبيون فاكلتهم وأوثانهم، وخرجوا منها ترشح وجوههم وجباههم عرقاً، فأمنت حير عند ذلك، وأجمعوا على اتباع اليهودية.

ونقل السهيلي عن ابن قتيبة في هذه الحكاية: أن غزاة تبع هذه إنما هي استصراخة أبناء قيلة على اليهود، فإنهم كانوا نزلوا مع اليهود حين أخرجوهم من اليمن على شروط، فنقضت عليهم اليهود فاستغاثوا بتبع فعند ذلك قدمها. وقد قيل: إن الذي استصرخه أبناء قيلة على اليهود إنما هو أبو جبلة من ملوك غسان بالشام، جاء به مالك بن عجلان، فقتل اليهود بالمدينة، وكان من الحزج كما نذكر بعد. ويعضد هذا أن مالك بن عجلان بعيد عن عهد تبع بكثير، يقال أنه كان قبل الإسلام بستمائة سنة ذكره ابن قتيبة. وحكى المسعودي في أخبار تبع هذا أن أسعد أباً كرب سار في الأرض، ووطأ الممالك ودلها ووطئ أرض العراق في ملك الطوائف، وعيد الطوائف يومئذ خرداد بن سابور، فلقي ملكاً من ملوك الطوائف اسمه قباد، وليس قباد بن فيروز، فانهزم قباد وملك أبو كرب العراق والشام والحجاز وفي ذلك يقول تبع أبو كرب:

وعين يريم وهو ابن زيد الجمهور، وقد مر نسبه إلى سبا الأصغر. وقال السهيلي: في أيام حسان تبع كان خروج عمرو بن مزقياء من اليمن بالأزد، وهو غلط من السهيلي لأن أبا كرب أباه إنما غزا المدينة فيما قال هو صريحاً للأوس والخزرج على اليهود وهو من غسان ونسبه إلى مزقياء، فعلى هذا يكون الذي استصرخه الأوس والخزرج على اليهود إنما هو من ملوك غسان كما يأتي في أخبارهم. قال ابن إسحاق: ولما ملك حسان بن تبع بن تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب والعجم كما كانت التباينة تفعل، فكرهت حمر وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، فكلّموا أماً له كان معهم في العسكر يقال له عمرو، وقالوا له اقتل أخاك ثعلبك وترجع إلينا إلى بلادنا. فتابعهم على ذلك وخالفه ذو رعين في ذلك ونهى عمراً عن ذلك، فلم يقبل وكتب في صحيفة وأودعها عنده:

ألا من يشتري سهرأ بنسوم سعيد من بيت فريز عين فاما حمر غدرت وخانت فمعلنة الإله الذي رعين

ثم قتل عمرو أخاه بعرضة لخم، وهي رجة مالك بن طوق، ورجع حمر إلى اليمن فمنع النوم عليه السهر، وأجهده ذلك فشكى إلى الأطباء عدم نومه والكهان والعرافين، فقالوا ما قتل رجل أخاه إلا سلط عليه السهر. فجعل يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه ولم يقنه ذلك شيئاً، وهمّ بذئ رعين فذكره شعره فكانت فيه معذرتة ونجاة. وكان عمرو هذا يسمى موثبان، قال الطبري: لو ثوبه على أخيه، وقال ابن قتيبة: قلقة غزوه ولزومه الوثب على الفرائش. وهلك عمرو هذا لثلاث وستين سنة من ملكه. قال الجرجاني والطبري: ثم مرج أمر حمر من بعده وتفرقوا، وكان ولد حسان تبع صغاراً لا يصلحون للملك وكان أكبرهم قد استهوت الجن، فوثب على ملك التباينة عبد كلال موثباناً فملك عليهم أربعاً وتسعين سنة، وكان يدين بالنصرانية، ثم رجع ابن حسان تبع من استهواء الجن فملك على التباينة. قال الجرجاني: ملك ثلاثاً وسبعين سنة وهو تبع الأصغر ذو المغازي والآثار البعيدة.

قال الطبري: وكان أبوه حسان تبع قد زوج بته من عمرو بن حجر أكل المرار ابن عمرو بن معاوية من ملوك كندة، فولدت له ابنة الحرث بن عمرو، فكان ابن تبع بن حسان هذا، فبعته على بلاد معد، وملك على العرب بالحيرة مكان آل نصر بن ربيعة. قال وانهقد الصلح بينه وبين كقياد ملك فارس على أن يكون الفرات حداً بينهم، ثم أغارت العرب بشرقي الفرات، فعاتبه على ذلك، فقال لا أقدر على ضبط العرب إلا بالمال والجند، فأقطع

إذا حسينا جياننا من دماء ثم سرنا بها مسيراً بعيداً واستبحنا بالخيال خيل قباذ وابن إقليد جياننا مصفوداً وكسونا البيت الذي حرم الله ملاء منصفدا وبرزوداً وأقمنا به من الشهر عشرأ وجعلنا لبابه إقليداً وقال أيضاً

لست بالتبع اليماني إن لم تركض الخيل في سواد العراق أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً لم يعقها عوائق العراق

وقد كانت لكندة معه وقائع وحروب، حتى غلبهم حجر بن عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة بن ملوك كهلان، فدانوا له وجع أبوكرب إلى اليمن، فقتله حمر، وكان ملكه ثلثمائة وعشرين سنة. ثم ملك من بعد أبي كرب هذا فيما قال ابن إسحاق ربيعة بن نصر بن الحرث بن ثماره بن لخم ولخم أخو جذام. وقال ابن هشام: ويقال ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر. كان أبو حارثة تخلف باليمن بعد خروج أبيه، وأقام ربيعة بن نصر ملكاً على اليمن بعد هؤلاء التباينة الذين تقدم ذكرهم، ووقع له شأن الرؤيا المشهورة. قال الطبري عن ابن إسحاق عن بعض أهل العلم أن ربيعة بن نصر رأى رؤيا حالته وفضع بها، وبعث في أهل مملكته في الكهنة والسحرة والمنجمين وأهل العياقة، فأشاروا عليه باستحضار الكاهنين المشهورين لذلك العهد في إباد وغسان وهما شق وسطيح.

قال الطبري: شق هو أبو صعب شكر بن وهب بن أمول بن يزيد بن قيس عبقري بن آثار، وسطيح هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذيب بن عدي بن مازن بن غسان، ولوقوع اسم ذيب في نسبه كان يعرف بالذبي. فأحضرهما وقص عليهما رؤياه وأخبراه بتأويلها، أن الحبيشة يملكون بلاد اليمن من بعد ربيعة وقحطان بسعين سنة، ثم يخرج عليهما ابن ذي يزن من عدن فيخرجهم، وملك عليهم اليمن، ثم تكون النبوة في قريش في بني غالب بن فهر. ووقع في نفس ربيعة أن الذي حدثه الكاهنان من أمر الحبيشة كائن، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرداذ فأسكنهم الحيرة.

ومن بيت ربيعة بن نصر كان النعمان ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر. قال ابن إسحاق ولما هلك ربيعة بن نصر اجتمع ملك اليمن لحسان بن تبان أسعد بن كرب. قال السهيلي: وهو الذي استباح طسماً كما ذكرناه، وبعث على المقدمة عبد كهلان بن يثرب بن ذي حرب بن حارث بن ملك بن عبدان بن حجر بن ذي رعين. واسم ذي

أبرهة ذي المنار بن الرايش بن قيس بن صيفي بن سبأ، وهو أبو كرب، ثم ملك حسان ابنه فقتله عمرو أخوه ووقع الاختلاف في حبر، ووثب على عمرو لحيطة بنوف ذو الشناتر وملك. ثم قتله ذو نواس بن تبع وملك. اه كلام الجرجاني.

وزعم ابن سعيد ونقله من كتب مؤرخي المشرق: أن الحارث الرايش هو ابن ذي سدود ويعرف بذي مدائر، وأن الذي ملك بعده ابنه الصعب وهو ذو القرنين، ثم ابنه أبرهة بن الصعب وهو ذو المنار، ثم العبد ذو الأشفار بن أبرهة بن عمرو ذي الأذعار بن أبرهة، ثم قتله بلقيس. قال في التيجان: إن حبر خلعه، وملكوا شرحبيل بن غالب بن المتاب بن زيد بن يعفر بن السكسك بن وائل وكان بمأرب، فجاز به ذو الأذعار وحارب ابنه المدهاد بن شرحبيل من بعده، وابنته بلقيس بنت المدهاد الملكة من بعده، فصالحته على التزويج وقتلته، وغلبها سليمان عليه السلام على اليمن إلى أن هلك وابنته رجيم من بعده. واجتمعت حبر من بعده على مالك بن عمرو بن يعفر بن عمرو بن حبر بن المتاب بن عمرو بن يزيد بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حبر، من بعده على مالك بن عمرو بن يعفر بن عمرو بن حبر بن المتاب بن عمرو بن يزيد بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حبر. وملك بعده ابنه شمر يرعش وهو الذي خرب سمرقند، وملك بعده ابنه صيفي بن شمر على اليمن، وسار أخوه أفريقش بن شمر إلى أفريقية بالبربر وكنعان فملكها. ثم انتقل الملك إلى كهلان وقام به عمران بن عامر ماء السماء بن حارثة امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد وكان كاهناً، ولما احتضر عهد إلى أخيه عمرو بن عامر المعروف بمزيقيا وأعلمه بخراب سد مأرب وهلاك اليمن بالسيل، فخرج من اليمن بقومه وأصحاب اليمن سيل العرم فلم ينظم لبني قحطان بيعته، واستولى على قصر مأرب من بعده ربيعة بن نصر. ثم رأى رؤيا ونذر بملك الحبشة وبعث ولده إلى العراق وكتب إلى سابور الأشعاني فأسكنهم الحيرة وكثرت الخواارج باليمن، فاجتمعت حبر على أن تكون لأبي كرب أسعد بن عدي بن صيفي فخرج من ظفار وغلب ملوك الطوائف باليمن، ودوخ جزيرة العرب، وحاصر الأوس والخزرج بالمدينة، وحمل حبر على اليهودية، وطالت مدته وقتلته حبر، وملك بعده ابنه حسان الذي آباد طسماً، ثم قتله أخوه عمرو بمداخلة حبر، وهلك عمرو. فملك بعده أخوه لأبيه عبد كلال بن منوب، وفي أيامه خلع سابور أكتاف العرب. وملك بعده تبع بن حسان وهو الذي بعث ابن أخيه الحارث بن عمرو الكندي إلى أرض بني معد بن عدنان بالحجاز فملك عليهم.

بلاداً من السواد، وكتب الحارث إلى تبع يغريه بملك الفرس، وتضعيف أمر كقياده، فغزاهم. وقيل إن الذي فعل ذلك هو عمرو بن حجر أبوه الذي ولاه تبع أبو كرب، وأنه أغراه بالفرس واستقدمه إلى الحيرة، فبعث عساكره مع ولده الثلاثة إلى الصغد والصين والروم، وقد تقدم ذكر ذلك.

قال الجرجاني: ثم ملك بعد تبع بن حسان تبع أخوه لأمه وهو مدثر بن عبد كلال، فملك إحدى وأربعين سنة. ثم ملك من بعده ابنه وليعة بن مدثر سبعاً وثلاثين سنة. ثم ملك من بعده أبرهة بن الصباح بن لميعة بن شيبه بن مدثر قليف بن يعلق بن معديكرب بن عبد الله بن عمرو بن ذي أصبح الحرب بن مالك، أخو ذي رعين، وكتب أبو سبأ الأصغر. قال الجرجاني: وبعض الناس يزعم أن أبرهة بن الصباح إنما ملك تهامة فقط. قال: ثم ملك من بعده حسان بن عمرو بن تبع بن كلثيكر بن سبأ وخمسين سنة، ثم ملك لحيطة ولم يكن من أهل بيت المملكة. قال ابن إسحاق: ولما ملك لحيطة غلب عليهم، وقتل خيارهم، وبعث برجالاً يبيت المملكة منهم، قيل إنه كان يتكح ولدان حبر، يريد بذلك أن لا يملكوا عليهم، وكانوا لا يملكون عليهم من تكح، نقله ابن إسحاق. وقال أقام عليهم مملكتاً سبعاً وعشرين سنة، ثم وثب عليه ذو نواس زرة تبع بن تباث أسعد أبي كرب، وهو حسان أبي ذي معاهر فيما قال ابن إسحاق، وكان صبياً حين قتل حسان ثم شب غلاماً جميلاً ذا هيئة وفضل ووضاعة ففتك بلحيطة في خلوة أرادها فيها على مثل فعلاته القبيحة، وعلمت به حبر وقبائل اليمن فملكوه واجتمعوا عليه، وجدد ملك التباينة، وتسمى يوسف وتعصب لدين اليهودية، فكانت مدته فيما قال ابن إسحاق ثمانية وستين سنة.

إلى هنا اه ترتيب أبي الحسن الجرجاني. ثم قال: وقال آخرون ملك بعد أفريقش بن أبرهة قيس بن صيفي، وبعده الحارث بن قيس بن مياس، ثم ماء السماء بن عمرو ثم شرحبيل وهو يصحب بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد بن عوف بن علي بن الهمال بن المثلم بن جهيم، ثم الصعب بن قرين بن الهمال بن المثلم، ثم زيد بن الهمال، ثم ياسر بن الحارث بن عمرو بن يعفر، ثم زهير بن عبد شمس أحد بني صيفي بن سبأ الأصغر وكان فاسقاً مجرمًا يفتن أبكار حبر حتى نشأت بلقيس بنت الإشرع بن ذي جدن بن الإشرع بن الحارث بن قيس بن صيفي فقتلته غيلة، ثم ملك. ولما أخذها سليمان ملك لك بن شرحبيل، ثم ملك ذو وداع فقتله ملكيكر بن تبع بن الأقرون وهو أبو ملك، ثم هلك. فملك أسعد بن قيس بن زيد بن عمرو ذي الأذعار بن

وملك بعده مرثد بن عبد كلال. ثم ابنه وليعة وكثرت الخوارج عليه، وغلب أبرهة الصباح على تهامة اليمن، وكان في ظفار ذو شناتر، وقتله ذو نواس كما مر، هذا ترتيب ابن سعيد في ملوكهم. وعند المسعودي: أنه لما هلك كليكرب بن تبع المعروف بالأقرن، قال هو الذي سار قومه نحو خراسان والصفد والصين، وولي بعد حسان بن تبع، فاستقام له الأمر خساً وعشرين سنة، ثم قتله أخوه عمرو بن تبع، وملك أربعاً وستين سنة، ثم تبع أبو كرب وهو الذي غزا يثرب وكسا الكعبة بعد أن أراد هدمها، ومنعه الخبران من اليهود، وتهود وملك مائة سنة. ثم بعده عمرو بن تبع أبي كرب وخلع، وملكوا مرثد بن عبد كلال، واتصلت الفتن باليمن أربعين سنة. ومن بعده وليعة بن مرثد تسعاً وثلاثين سنة. ومن بعده أبرهة بن الصباح بن وليعة بن مرثد، ويدعى شيبه الحمد ثلاثاً وتسعين سنة، وكانت له سير وقصص. ومن بعده عمرو ذو قيفان تسع عشرة سنة. ومن بعده لحيطة ذو شناتر ومن بعده ذو نواس.

وأما ابن الكلبي والطبري وابن حزم فعندهم أن تبع أسعد أبي كرب هو ابن كليكرب ابن زيد الأقرن بن عمرو بن ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار الرايش بن قيس بن صيفي بن سبا الأصغر. وقال السهيلي: أنه أسقط أسماء كثيرة وملوكاً. وقال ابن الكلبي وابن حزم: ومن ملوك التباينة أفرقش بن صيفي، ومنهم شمر يرعش بن ياسر بنعم بن عمرو ذي الأذعار، ومنهم بلقيس ابنة اليشرح بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث الرايش بن قيس بن صيفي. ثم قال ابن حزم بعد ذكر هؤلاء من التباينة: وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة، ولا يصح من كتب أخبار التباينة وأنسابهم إلا طرف يسير لاختلاف روايتهم وبعد العهد اهـ.

وقال الطبري: لم يكن للملوك اليمن نظام وإنما كان الرئيس منهم يكون ملكاً على خلفه لا يتجاوز، وإن تجاوز بعضهم عن خلفه بمسافة يسيرة من غير أن يرث ذلك الملك عن آباءه ولا يرثه أبناؤه عنه إنما هو شأن شداد المتلصصة فيغيرون على النواحي باستغفال أهلها، فإذا قصدتهم الطلب لم يكن لهم ثبات، وكذلك كان أمر ملوك اليمن يخرج أحدهم من خلفه بعض الأحيان ويبعد في الغزو والإغارة فيصيب ما يمر به، ثم يتشمر عند خوف الطلب زاحفاً إلى مكانه من غير أن يدين له أحد من غير خلفه بالطاعة أو يؤدي إليه خراجاً اهـ.

ملك الحبشة اليمني

قال هشام بن محمد الكلبي في سبب غزو ذي نواس أهل نجران: إن يهودياً كان بنجران فعدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظملاً، فرفع أمره إلى ذي نواس، وتوسل له باليهودية واستنصره على أهل نجران وهم نصاري، فحمى له ولدينه وغزاهم. ولما

على ملك آبائه التباينة، تسمى يوسف وتعصب للدين اليهودية، وحل عليه قبائل اليمن، وأراد أهل نجران عليها، وكانوا من بين العرب يدينون بالصنانية ولهم فضل في الدين واستقامة. وكان رئيسهم في ذلك يسمى عبد الله بن النامر، وكان هذا الدين وقع إليهم قديماً من بقية أصحاب الخواريين من رجل سقط لهم من ملك التبعية يقال له ميمون نزل فيهم، وكان مجتهداً في العبادة، مجاب الدعوة، وظهرت على يده الكرامات في شفاء المرضى، وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده، وتبعه على دينه رجل من أهل الشام اسمه صالح، وخرجا فارين بأنفسهما، فلما وطنا بلاد العرب اختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران، وهم يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم، ويعلقون عليها في الأعياد من حليهم وثيابهم، ويعكفون عليها أياماً. وافترقا في الدير على رجلين من أهل نجران، وأعجب سيد ميمون صلاته ودينه وسأله عن شأنه، فدعاه إلى الدين وعبادة الله، وأن عبادة النخلة باطل، وأنه لو دعا معبوده عليها هلكت. فقال له سيده إن فعلت دخلنا في دينك. فدعا ميمون فأرسل الله ريحاً فجعلت النخلة من أصلها، وأطبق أهل نجران على أتباع دين عيسى صلوات الله عليه. ومن رواية ابن إسحاق أن ميمون نزل بقرية من قرى نجران، وكان يمر به غلمان أهل نجران، يتعلمون من ساحر كان بتلك القرية، وفي أولئك الغلمان عبد الله بن النامر، فكان يجلس إلى ميمون، ويسمع منه فأمن به واتبعه، وحصل على معرفة اسم الله الأعظم، فكان مجاب الدعوة لذلك، واتبعه الناس على دينه، وأنكر عليه ملك نجران وهم بقتله. فقال له: لن تطيق حتى تؤمن وتوحد فأمن ثم قتله، فهلك ذلك الملك مكانه. واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن النامر، وأقام أهل نجران على دين عيسى صلوات الله عليه حتى دخلت عليهم في دينهم الأحداث. ودعاهم ذو نواس إلى دين اليهودية، فأبوا. فسار إليهم في أهل اليمن وعرض عليهم القتل فلم يزداهم إلا جماعاً، فخذد لهم الأخاديد، وقتل وحرق حتى أهلك منهم فيما قال ابن إسحاق عشرين ألفاً أو يزيدون، وأقلت منهم رجل من سبا يقال له دوس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه وأعجزهم.

وأما ابن الكلبي والطبري وابن حزم فعندهم أن تبع أسعد أبي كرب هو ابن كليكرب ابن زيد الأقرن بن عمرو بن ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار الرايش بن قيس بن صيفي بن سبا الأصغر. وقال السهيلي: أنه أسقط أسماء كثيرة وملوكاً. وقال ابن الكلبي وابن حزم: ومن ملوك التباينة أفرقش بن صيفي، ومنهم شمر يرعش بن ياسر بنعم بن عمرو ذي الأذعار، ومنهم بلقيس ابنة اليشرح بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث الرايش بن قيس بن صيفي. ثم قال ابن حزم بعد ذكر هؤلاء من التباينة: وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة، ولا يصح من كتب أخبار التباينة وأنسابهم إلا طرف يسير لاختلاف روايتهم وبعد العهد اهـ.

وقال الطبري: لم يكن للملوك اليمن نظام وإنما كان الرئيس منهم يكون ملكاً على خلفه لا يتجاوز، وإن تجاوز بعضهم عن خلفه بمسافة يسيرة من غير أن يرث ذلك الملك عن آباءه ولا يرثه أبناؤه عنه إنما هو شأن شداد المتلصصة فيغيرون على النواحي باستغفال أهلها، فإذا قصدتهم الطلب لم يكن لهم ثبات، وكذلك كان أمر ملوك اليمن يخرج أحدهم من خلفه بعض الأحيان ويبعد في الغزو والإغارة فيصيب ما يمر به، ثم يتشمر عند خوف الطلب زاحفاً إلى مكانه من غير أن يدين له أحد من غير خلفه بالطاعة أو يؤدي إليه خراجاً اهـ.

وأما الخبر عن ذي نواس وما بعده فاتفق أهل الأخبار كلهم أن ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرة، وأنه لما تغلب

واستبد أبرهة بملك اليمن.

ويقال أن الحبشة لما ملكوا اليمن أمر أبرهة بن الصباح وأقاموا في خدمته. قاله ابن سلام وقيل: إن ملك حمير لما انقرض أمر التبابعة صار متفرقاً في الأذواء من ولد زيد الجمهور، وقام بملك اليمن منهم ذو يزن من ولد مالك بن زيد. قال ابن حزم: واسمه عَلس بن زيد بن الحرث بن زيد الجمهور.

وقال ابن الكلبي وأبو الفرج الأصبهاني: هو عَلس بن الحرث بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور. قالوا كلهم: ولما ملك ذو يزن بعد مهلك ذي نواس واستبد أمر الحبشة على أهل اليمن، طال بهم بدم النصاري الذين في أهل نجران، فساروا إليه وعليهم أرباط، ولقيهم فيمن معه فانهزم واعترض البحر، فأقحم فرسه وغرق فهلك بعد ذي نواس، وولي ابنه مرثد بن ذي يزن مكانه، وهو الذي استجاشه امرؤ القيس على بني أسد، وكان من عقب ذي يزن أيضاً من هؤلاء الأذواء علقمة ذو قيفال بن شراحيل بن ذي يزن، وملك مدينة الحون فقتله أهلها من همدان.

ولما استقر أبرهة في ملك اليمن أساء السير في حمير ورؤسائهم، وبعث في ريحانة بنت علقمة بن مالك بن زيد بن كهلان فانتزعها من زوجها أبي مرة بن ذي يزن، وقد كانت ولدت منه ابنه معديكرب، وهرب أبو مرة، ولحق بإطراف اليمن واصطفى أبرهة ريحانة فولدت له مسروق بن أبرهة وأخته بسباسة. وكان لأبرهة غلام يسمى عَمْدَة، وكان قد ولأه الكثير من أمره، فكان يفعل الأفاعيل حتى عدا عليه رجل من حمير أو خثعم فقتله، وكان حليماً فأهدر دمه.

غزو الحبشة الكعبة

ثم إن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء تسمى القليس لم ير مثلها وكتب إلى النجاشي بذلك، وإلى قيصر في الصناعات والرخام والفسيفساء، وقال لست بمجته حتى أصرف إليها حج العرب. وتحدث العرب بذلك فغضب رجل من السادة، أحد بني ققيم، ثم أحد بني مالك، وخرج حتى أتى القليس فقعدها فيها، ولحق بأرضه. وبلغ أبرهة وقيل له الرجل من البيت الذي يحج إليه العرب، فحلف ليسيرن إليه يهدمه. ثم بعث في الناس يدعوهم إلى حج القليس، فغضب الداعي في بلاد كنانة بسهم فقتل. واجمع أبرهة على غزو البيت وهدمه، فخرج سائراً بالحبشة ومعه الفيل. فلقبه ذو نفر الحميري وقاتله فهزمه وأسرته، واستبقاه دليلاً في أرض

أفلت دوس ذو ثعلبان فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذي نواس، وأعلمه بما ركب منهم وأراه الإنجيل قد احترق بعضه بالنار، فكتب له إلى النجاشي يأمره بنصره، وطلب بثاره، وبعث معه النجاشي سبعين ألفاً من الحبشة. وقيل: أن صريخ دوس كان أولاً للنجاشي، وأنه اعتذر إليه بقلعة السفن لركوب البحر، وكتب إلى قيصر وبعث إليه بالإنجيل المحرق، فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة، وأمر عليهم أرباطاً رجلاً منهم، وعهد إليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فخرج أرباط لذلك ومعه أبرهة الأشرم فركبوا البحر، ونزلوا ساحل اليمن وجمع ذو نواس حمير ومن أطاعه من أهل اليمن على افتراق واختلاف في الأهواء، فلم يكن كبير حرب، وانهزموا. فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه بفرسه إلى البحر، ثم ضربه فدخل فيه وخاض ضحضاح البحر، ثم أفضى به إلى غَمْرَة فأقحمه فيه، فكان آخر العهد به، ووطئ أرباط اليمن بالحبشة، وبعث إلى النجاشي بثلاث السبي كما عهد له، ثم أقام بها فقبضها وأذل رجالات حمير، وهدم حصون الملك بها مثل سلجيق وسون وغمدان، وقال ذو يزن يرثي حمير وقصور الملك باليمن:

هَوْنُكَ لَيْسَ يَرِدُ الدَّمْعُ مَا فَاتَا لَا تَهْلِكُنْ أَسْفَا فِي إِثْرِ مَنْ مَاتَا
أَبْدَ سُونٌ فَلَا عَيْنَ وَلَا أَثَرَ وَبَعْدَ سَلْجِيقَ يَبْنِي النَّاسُ إِيَّاتَا

وفي رواية هشام بن محمد الكلبي أن السفن قدمت على النجاشي من قيصر، فحمل فيها الحبش ونزلوا بساحل اليمن، واستجاش ذو نواس بأقوال حمير فامتنعوا من صريحته وقالوا: كل أحد يقاتل عن ناحيته. فالقى ذو نواس باليد ولم يكن قتال، وأنه سار بهم إلى صنعاء، وبعث عماله في النواحي لقبض الأموال، وعهد بقتلهم في كل ناحية، فقتلوا. وبلغ ذلك النجاشي فجهز إلى اليمن سبعين ألفاً، وعليهم أبرهة فبلغوا صنعاء، وهرب ذو نواس واعترض البحر، فكان آخر العهد به. وملك أبرهة اليمن ولم يبعث إلى النجاشي بشيء، وذكر له أنه خلع طاعته. فوجه جيشاً من أصحابه عليهم أرباط. ولما حل بساحته دعاه إلى النصفة والزوال فتبارزا وخدعه أبرهة، وأكمن عبداً له في موضع المبارزة، فلما التقيا ضربه أرباط فشرم أنفه، وسمي الأشرم وخالفه العبد من الكمين، فغضب أرباطاً فأنفذه، وبلغ النجاشي خبر أرباط فحلف ليريقن دمه، ثم كتب إليه أبرهة واسترضاه فرضي عليه وأقره على عمله.

وقال ابن إسحاق إن أرباط هو الذي قدم اليمن أولاً وملكه، وانتقض عليه أبرهة من بعد ذلك، فكان ما ذكرنا من الحرب بينهما وقتل أرباط، وغضب النجاشي لذلك ثم أرضاه

ووطنتهم الحيشة، فقتلوا رجالهم ونكحوا نساءهم واستخدموا أبناءهم. ثم هلك يكسوم بن أبرهة فملك مكانه أخوه مسروق، وساءت سيرته وكثر عسف الحيشة باليمن، فخرج ابن ذي يزن واستجاش عليهم بكسرى، وقدم اليمن بعساكر الفرس، وقتل مسروقاً وذهب أمر الحيشة بعد أن توارث ملك اليمن منهم أربعة في اثنتين وسبعين سنة أولهم أرباط، ثم أبرهة، ثم ابنه يكسوم، ثم أخوه مسروق بن أبرهة.

قصة سيف بن ذي يزن وملك الفرس على اليمن

ولما طال البلاء من الحيشة على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري من الأذواء بقية ذلك السلف، وعقب أولئك الملوك، ودبال الدولة المفروض للخمود. وقد كان أبرهة انتزع منه زوجته ويحانة وبعد أن ولدت منه ابنه معديكرب كما مر، ونسبه فيما قال الكلبي: سيف بن ذي يزن بن عافر بن أسلم بن زيد بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد الجمهور، هكذا نسبه ابن الكلبي، ومالك بن زيد هو أبو الأذواء. فخرج سيف وقدم على قيصر ملك الروم وشكى إليه أمر الحيشة، وطلب أن يخرجهم ويبيع على اليمن من شاء من الروم، فلم يسعفه عن الحيشة، وقال: الحيشة على دين النصارى. فرجع إلى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب، فشكى إليه واستمهله النعمان إلى حين وفادته على كسرى، وأوفد معه وسأله النصر على الحيشة وأن يكون ملك اليمن له. فقال: بعدت أرضك عن أرضنا، أو هي قليلة الخير إنما هي شاء ويعير ولا حاجة لنا بذلك. ثم كساه وأجازه، فثر دنائير الإجازة ونهبها الناس يوهم الغنى بها في أرضه. فأنكر عليه كسرى ذلك. فقال: جبال أرضي ذهب وفضة، وإنما جئت لتمنعي من الظلم. فرغب في كسرى في ذلك، وأمهله للنظر في أمره، وشاور أهل دولته، فقالوا في سجونك رجال حبستهم للقتل ابعتهم معه فإن هلكوا كان الذي أردت بهم، وإن ملكوا كان ملكاً إزددت إلى ملكك. وأحصوا ثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتاً وأكبرهم سناً وكان وهزr الدليمي.

وعند المسعودي وهشام بن محمد السهيلي أن كسرى وعده بالنصر ولم ينصره وشغل مجرب الروم، وهلك سيف بن ذي يزن عنده، وكبر ابنه ابن ريحانة، وهو معديكرب وعرفته أمه بأبيه، فخرج ووفد على كسرى يستتجزه في النصرة التي وعد بها أباه،

العرب.

قال ابن إسحاق: ولما مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف فأنثوه بالطاعة ويعثوا معه أبا رغال دليلاً، فأنزله المنعم بين الطائف ومكة فهلك هنالك ورجعت العرب قبره من بعد ذلك قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال
ثم بعث أبرهة خيلاً من الحيشة، فانتهبوا إلى مكة، واستاقوا أموال أهلها، وفيها ماتا بعير لعبد المطلب وهو يومئذ سيد قريش، فهما بقتاله ثم عملوا أن لا طاقة لهم به فاقصروا. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة يعلمهم بمقصده من هدم البيت، ويؤذنهـم بالحرب إن اعترضوا دون ذلك، وأخبر عبد المطلب بذلك عن أبرهة، فقال له: والله ما تريد حريه، وهذا بيت الله فإن يمنعه فهو بيته وإن يخلي عنه فما لنا نحن من دافع. ثم انطلق به إلى أبرهة، ومر بذي نفر وهو أسير، فبعث معه إلى سائس الفيل، وكان صديقاً لذي نفر، فاستأذن له على أبرهة، فلما رآه أجله ونزل عن سريره، فجلس معه على بساطه. وسأله عبد المطلب في الإبل. فقال له أبرهة هلا سألت في البيت الذي هو دينك ودين آبائك وتركك البعير. فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل ولليـت رب سيمنعه. فرد عليه إبله. وقال الطبري: وكان فيما زعموا قد ذهب مع عبد المطلب عمرو بن لعابة بن عدي بن الرمل سيد كنانة، وخويلد بن وائلة سيد هذيل، وعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة ويرجع عن هدم البيت، فأبى عليهم، فانصرفوا. وجاء عبد المطلب وأمر قريشاً بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب للتحرز فيها، ثم قام عند الكعبة محسباً بملقة الباب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه، وعبد المطلب ينشد ويقول:

لا هم إن العبد يمنع رحله فـما منع رحالك
لا يغلبن صليهم وعملهم أبداً محالك
وانصر علي آك الصليب وعابديه اليوم أكك

في أبيات معروفة. ثم أرسل الله عليهم الطير الأبايل من البحر، ترميم بالحجارة فلا تصيب أحداً منهم إلا هلك مكانه، وأصابه في موضع الحجر من جسده كالخدر والحصبة فهلك، وأصيب أبرهة في جسده بمثل ذلك، وسقطت أعضاؤه عضواً عضواً، ويعثوا بالفيل ليقدم على مكة فريض ولم يتحرك فنجا. وأقدم فيل آخر فحصب وبعث الله سيلاً مجحفاً فذهب بهم، وألقاهم في البحر. ورجع أبرهة إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فانصدع صدره عن قلبه ومات. ولما هلك أبرهة ملك مكانه ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفحل ملكه وأذل حمير وقبائل اليمن

وقال له: أنا ابن الشيخ اليمني الذي وعدته. فوهبه الدنانير وثرها إلى آخر القصة. وقيل: إن الذي وفد على كسرى وأباد الحبشة هو النعمان بن قيس بن عبيد بن سيف بن ذي يزن. قالوا ولما كتبت الفرس مع وهزر وكانوا ثمانمائة، وقال ابن قتيبة: كانوا سبعة آلاف وخمسمائة.

وقال ابن حزم: كان وهزر من عقب جلماسب عم أنو شروان، فأمره على أصحابه وركبوا البحر ثمان سفائن ففرقت منها سقيتان وخلصت ست إلى ساحل عدن. فلما نزلوا بأرض اليمن، قال وهزر لسيف: ما عندك؟ قال: ما شئت من قوس عربي ورجلي مع رجلك حتى نظفر أو نموت. قال أنصفت. وجمع ابن ذي يزن من استطاع من قومه، وسار إليه مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة وأوباش اليمن، فتوافقوا للحرب، وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه، وأحفظه ذلك. وقال: أروني ملككم. فأروه إياه على الفيل عليه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء ثم نزل عن الفيل إلى الفرس، ثم إلى البغلة. فقال وهزر، ركب بنت الحمار، ذل وذلل ملكه، ثم رماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه، وتغلغل في دماغه، وتنكس على دابته وداروا به، فحمل القوم عليهم وانهزم الحبشة في كل وجه وأقبل وهزر إلى صنعاء، ولما أتى بابها قال: لا تدخل رائي منكوسة. فهدم الباب، ودخل ناصباً رايته فملك اليمن ونفى عنها الحبشة وكتب بذلك إلى كسرى وبعث إليه بالأموال. فكتب إليه أن يملك سيف بن ذي يزن على اليمن على فريضة يؤديها كل عام ففعل، وانصرف وهزر إلى كسرى. وملك سيف اليمن، وكان أبوه من ملوكها وخلف وهزر نائباً على اليمن في جماعة من الفرس ضمهم إليه وجعله لنظر ابن ذي يزن وأنزله بصنعاء. وانفرد ابن ذي يزن بسلطانه، ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان، يقال إن الضحاك بنه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانياتها، خرب في خلافة عثمان قاله المسعودي. وقال السهيلي:

قال ابن إسحاق: ولما انصرف وهزر إلى كسرى غزا سيف على الحبشة وجعل يقتل ويقر بطون النساء، حتى إذا لم يبق إلا القليل جعلهم خولاً واتخذ منهم طواير يسعون بين يديه بالخراب، وعظم خوفهم منه، فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه، فلما توسطهم وقد انغردوا به عن الناس، رموه بالخراب فقتلوه، ووثب رجل منهم على الملك. وقيل: ركب خليفة وهزر فيمن معه من المسلحة، واستلحم الحبشة وبلغ ذلك كسرى، فبعث وهزر في أربعة آلاف من الفرس، وأمره بقتل كل أسود أو منتسب إلى أسود ولو جعداً قطعاً ففعل، وقتل الحبشة حيث كانوا، وكتب بذلك إلى كسرى، فأمره على اليمن فكان يحبيه له حتى هلك. واستضافت حشابة ملك الحميرين بعد مهلك ابن ذي يزن وأهل بيته إلى الفرس، وورثوا ملك العرب وسلطان حمير باليمن بعد أن كانوا يزاحمونهم بالناكب في عراقهم، ويحسونهم بالغزو خلال ديارهم. ولم يبق للعرب في الملك رسم ولا طلل، إلا أقبالا من حمير وقحطان رؤساء في أحيائهم بالبدو لا تعرف لهم طاعة، ولا ينفذ لهم في غير ذاتهم أمر، إلا ما كان لكهلان إخوتهم بأرض العرب من ملك آل المنذر من لخم على الحيرة والعراق بتولية فارس، وملك آل جفنة من غسان على الشام بتولية آل قيصر كما يأتي في أخبارهم.

وقال الطبري: لما كانت اليمن لكسرى بعث إلى سرنديب من الهند قائداً من قواده، ركب البحر إليها في جند كثيف، فقتل ملكها واستولى عليها، وحمل إلى كسرى منها أموالاً عظيمة وجواهر. وكان وهزر يبعث العير إلى كسرى بالأموال والطيوب، فتمر على طريق البحرين تارة وعلى أرض الحجاز أخرى. وعدا بنو تميم في بعض الأيام على عيره بطريق البحرين، فكتب إلى عامله بالانتقام منهم، فقتل منهم خلقاً كما يأتي في أخبار كسرى. وعدا بنو كنانة على عيره بطريق الحجاز حين مرت بهم وكان في جوار رجل من أشراف العرب من قيس، فكانت حرب الفجار بين قيس وكنانة بسبب ذلك وشهدا النبي ﷺ وكان ينبل فيها

وقال له: أنا ابن الشيخ اليمني الذي وعدته. فوهبه الدنانير وثرها إلى آخر القصة. وقيل: إن الذي وفد على كسرى وأباد الحبشة هو النعمان بن قيس بن عبيد بن سيف بن ذي يزن. قالوا ولما كتبت الفرس مع وهزر وكانوا ثمانمائة، وقال ابن قتيبة: كانوا سبعة آلاف وخمسمائة.

وقال ابن حزم: كان وهزر من عقب جلماسب عم أنو شروان، فأمره على أصحابه وركبوا البحر ثمان سفائن ففرقت منها سقيتان وخلصت ست إلى ساحل عدن. فلما نزلوا بأرض اليمن، قال وهزر لسيف: ما عندك؟ قال: ما شئت من قوس عربي ورجلي مع رجلك حتى نظفر أو نموت. قال أنصفت. وجمع ابن ذي يزن من استطاع من قومه، وسار إليه مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة وأوباش اليمن، فتوافقوا للحرب، وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه، وأحفظه ذلك. وقال: أروني ملككم. فأروه إياه على الفيل عليه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء ثم نزل عن الفيل إلى الفرس، ثم إلى البغلة. فقال وهزر، ركب بنت الحمار، ذل وذلل ملكه، ثم رماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه، وتغلغل في دماغه، وتنكس على دابته وداروا به، فحمل القوم عليهم وانهزم الحبشة في كل وجه وأقبل وهزر إلى صنعاء، ولما أتى بابها قال: لا تدخل رائي منكوسة. فهدم الباب، ودخل ناصباً رايته فملك اليمن ونفى عنها الحبشة وكتب بذلك إلى كسرى وبعث إليه بالأموال. فكتب إليه أن يملك سيف بن ذي يزن على اليمن على فريضة يؤديها كل عام ففعل، وانصرف وهزر إلى كسرى. وملك سيف اليمن، وكان أبوه من ملوكها وخلف وهزر نائباً على اليمن في جماعة من الفرس ضمهم إليه وجعله لنظر ابن ذي يزن وأنزله بصنعاء. وانفرد ابن ذي يزن بسلطانه، ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان، يقال إن الضحاك بنه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانياتها، خرب في خلافة عثمان قاله المسعودي. وقال السهيلي:

كانت صنعاء تسمى أوال، وصنعاء اسم بانيتها صنعاء بن أوال بن عمير بن عابر بن شالغ. ولما استقل ابن ذي يزن بملك اليمن وفدت العرب عليه بهنوه بالملك، لما رجع من سلطان قومه وأباد من عدوهم، وكان فيمن وفد عليه مشيخة قريش وعظماء العرب لعهدهم من أبناء إسماعيل وأهل بيتهم المنتصب لحجهم، فوفدوا في عشرة من رؤسائهم فيهم عبد المطلب، فأعظمهم سيف وأجلهم وأوجب لهم حقهم ووفر من ذلك قسم عبد المطلب من بينهم. وسأله عن بنيه حتى ذكر له شان النبي ﷺ وكفاته إياه بعد موت عبد الله أبيه عاشر ولد عبد المطلب، فأوصاه به وحضه على

على أعمامه أي يجمع لهم النبل.

قال الطبري: ولما هلك وهزمر أمر كسرى من بعده على اليمن ابنه المزربان، ثم هلك فأمر حافده خرخسرو بن التيجان بن المزربان، ثم سخط إليه وحمل إليه مقيداً، ثم أجاره ابن كسرى وخلق سبيله، فعزله كسرى وولى باذان فلم يزل إلى أن كانت البعثة وأسلم باذان وفشا الإسلام باليمن كما تذكره عند ذكر الهجرة وأخبار الإسلام باليمن. هذا آخر الخبر عن ملوك التبابعة من اليمن ومن ملك بعدهم من الفرس، وكان عدد ملوكهم فيما قال المسعودي سبعة وثلاثين ملكاً في مدة ثلاثة آلاف ومائتي سنة إلا عشراً، وقيل: أقل من ذلك فكانوا يسزلون مدينة ظفار. قال السهيلي: زمار وظفار اسمان لمدينة واحدة، يقال: بناها مالك بن أبرهة وهو الأموك ويسمى مالك وهو ابن ذي المنار، وكان على بابها مكتوب بالقلم الأول في حجر أسود:

يوم شيدت ظفار فقبل لمن أنت فقلت لخبر الأخيار
ثم سيلت من بعد ذلك قالت إن ملكي أحابش الأشعرار
ثم سيلت من بعد ذلك قالت إن ملكي لفسارس الأحرار
ثم سيلت من بعد ذلك قالت إن ملكي لقريش التجار
ثم سيلت من بعد ذلك قالت إن ملكي لخبر سنجار
وقليلاً ما يلبث القوم فيها غير تشيدها لحامي البوار
من أسود يلقيهم البحر فيها تشعل النار في أعالي الجدار

ولم تزل مدينة ظفار هذه منزلاً للملوك، وكذلك في الإسلام صدر الدولتين، وكانت اليمن من أرفع الولايات عندهم، بما كانت منازل العرب العاربة، ودار الملوك العظماء من التبابعة والأقيال والعبالة. ولم انقضى الكلام في أخبار حمير وملوكهم باليمن من العرب، استدعى الكلام ذكر معاصريهم من العجم على شرط كتابنا لنستوعب أخبار الخليفة، ونميز حال هذا الجيل العربي من جميع جهاته، والأمم المشاهير من العجم الذين كانت لهم الدول العظيمة لعهد الطبقة الأولى والثانية من العرب وهم النبط والسريانيون أهل بابل، ثم الجرامقة أهل الموصل، ثم القبط، ثم بنو إسرائيل والفرس ويونان والروم فلتأت الآن بما كان لهم من الملك والدولة وبعض أخبارهم على اختصار، والله ولي العون والتوفيق، لا رب غيره ولا مأمول إلا خيره.

الخبر عن ملوك بابل من القبط والسريانيين

وملوك الموصل ونيوى من الجرامقة

قد تقدم لنا أن ملك الأرض من بعد نوح عليه السلام كان

لكنعان بن كوش بن حام، ثم لابنه النمرود من بعده، وأنه كان على بدعة الصابئة، وأن بني سام كانوا حنفاء يتحللون التوحيد الذي عليه الكلدانيون من قبلهم. قال ابن سعيد: ومعنى الكلدانيين الموحدين. ووقع ذكر النمرود في التوراة منسوباً إلى كوش بن حام، ولم يقع فيها ذكر لكنعان بن كوش، فאלله أعلم بذلك. وقال ابن سعيد أيضاً: وخرج عابر بن شالخ بن أرفخشذ فغلبه وسار من كوثا إلى أرض الجزيرة والموصل، فبنى مدينة مجدل هناك، وأقام بها إلى أن هلك، وورث أمره ابنه فالغ من بعده، وأصاب النمرود وقومه على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام ما أصابهم في الصرح وكانت البلبلة وهي المشهورة. وقد وقع ذكرها في التوراة ولا أدري معناها.

والقول بأن الناس أجمعين كانوا على لغة واحدة فباتوا عليها، ثم أصبحوا وقد افرقت لغاتهم قول بعيد في العادة، إلا أن يكون من خوارق الأنبياء فهو معجزة حيثشذ ولم ينقلوه كذلك. والذي يظهر أنه إشارة إلى التقدير الإلهي في خرق العادة وافتراقها وكونها من آياته كما في القرآن الكريم، ولا يعقل في أمر البلبلة غير ذلك.

وقال ابن سعيد: سوريان بن نبط ولأه فالغ على بابل، فانتقض عليه وحاربه، ولما هلك فالغ قام بأمره بعده ابنه ملكان، فغلبه سوريان على الجزيرة، وملكها هؤلاء الجرامقة إخوانه في النسب بنو جرموق بن أشوذ بن سام، وكانت مواطنهم بالجزيرة وكانت ابن أخت سوريان منهم الموصل بن جرموق، فولاه سوريان على الجزيرة وأخرج بني عابر منها، ولحق ملكان منها بالجلال فأقام هناك، ويقال: إن الحضرم من عقبه، واستبد الموصل على خاله سوريان بن نبط ملك بابل، وامتازت مملكة الجرامقة من مملكة النبط. وملك بعد الموصل ابنه راتق وكانت له حروب مع النبط، وملك من بعده ابنه أشور وبقي ملكها في عقبه وهو المذكور في التوراة، وملك بعده ابنه نيشوى وبني المدينة المقابلة للموصل من عدوة دجلة المعروفة باسمه.

ثم كان من عقبه سنجاريك بن أشور بن نيشوى بن أشور وهو الذي بنى مدينة سنجار وغزا بني إسرائيل فغلبوه على بيت المقدس. وقال البيهقي: إن الجزيرة ملكها بعد مقتل سنجاريك أخوه ساطرون، وهو الذي بنى مدينة الحضرم في برية سنجار على نهر الترتار لتولعه بصيد الأسود في غيضاها. وملك من بعده ابنه زان وكان يدين بالصابئة، ويقال: إن يونس بن متى بعث إليه ويونس من الجرامقة من سبط بنيامين بن إسرائيل من ابنه، فأمن به زان بن ساطرون بعد الذي قصه القرآن من شأنه معهم، ثم إن

حيث أن أرغو إلى كوثا، ودخل مع النماردة في دين الصابئة، وتوارثها بنوه إلى آزر بن ناحور، فاصطفاه هاجر بن كوش وقدمه على بيت الأصنام، وولد له إبراهيم عليه السلام، وكان من أمره ما ذكرناه فيما نصح التنزيل ونقله الثقات.

ثم توالى ملوك النماردة ببابل وكان منهم مختصر على ما ذهب إليه بعضهم، ويقال إن الجرامقة، وهم أهل نينوى غلبوا على بابل وملكها سنجاريف منهم واستعمل فيها مختصر من ملوكها، ثم انتقض عليه بالجزا والطاعة، وغزا بني إسرائيل بيت المقدس، فاقترحها عليهم بعد الحصار، وأنخن فيهم بالقتل والأسر، وقتل ملكهم وخرب مسجدهم ونجأهم إلى مصر فملكها. ولما هلك مختصر ملك من بعده فيما ذكره ابنه نشبت نصر، ثم من بعده بنصر وغزا أرتاق مرزيان كسرى من ملوك الكينية فقتله وملك بابل وأعمالها وصار النبط والجرامقة رعية للفرس، وانقرضت دولة النماردة ببابل، هكذا ذكر ابن سعيد ونقله عن داهر مؤرخ دولة الفرس، وجعل السريانيين والنبط أمة واحدة، وهما دولة واحدة. وأما المسعودي فجعلهما دولتين.

وأما السريانيون فقال هم أول ملوك بعد الأرض الطوفان، وسمى من ملوكهم تسعة متعاقبين في مائة سنة أو فوقها بأسماء أعجمية لا فائدة في نقلها لقلة الوثوق بالأصول التي بأيدينا من كتبه وكثرة التغير في الأسماء الأعجمية. نعم ذكر أن شوشان بشينين معجمتين، وأنه أول من وضع التاج على رأسه. والرابع منهم أنه الذي كور الكور ومدن المدن وأن ملك الهند لعده كان اسمه رتييل وأنه استولى على ملكه واستولى على السريانيين، وأن بعض ملوك المغرب ظاهرهم عليه وانتزع لهم ملكهم منه ورده عليهم. وسمى الثامن منهم ماروت وأشار في آخر كلامه إلى أنهم كانوا مستولين على بابل وعلى الموصل، وأن ملوك اليمن ربما غلبوهم على أمرهم بعض الأحيان. وذكر في التاسع أنه كان غير مستقل بأمره، وأن أخاه كان مقاسمه في سلطانه، وأن أول من اتخذ الخمر فلان وأول من ملك فلان، وأول من لعب بالصقور والشطرنج فلان، مزاعم كلها بعيدة من الصحة. إنما وجهه أن السريانيين لما كانوا أقدم في الخليفة نسب إليهم كل قديم من الأشياء، أو طبعي كالخط واللغة والسحر والله أعلم.

وأما النبط فعند المسعودي أنهم من أهل بابل لقوله في ترجمتهم ذكر ملوك بابل والنبط وغيرهم المعروفين بالكلدانيين، وذكر أن أولهم غرود الجبار ونسبه إلى ماش بن إرم بن سام، وذكر أنه الذي بنى الصرح ببابل، واحتقر نهر الكوفة. ونسب النمرود في موضع آخر إلى كوش بن حام لا أدري هو أو غيره. ثم عد

مختصر لما غلب على بابل زحف إليه ودعاه إلى دين الصابئة، وشرط له أن يقيه في ملكه فأجاب. ولم يزل على الجزيرة حتى زحف إليه جيوش الفرس مع أرتاق، فضمن القيام بالجنوسية على أن يقيه في ملكه، وكتب بذلك أرتاق إلى بهمن ليضمن له، فأجابه بأن هذا رجل متلاعب بالأديان فاقتله، فقتله أرتاق وانقرض ملكه بعد ألف وثلاثمائة سنة فيما قال البيهقي. وفي أربعين ملكاً منهم، وصارت الجزيرة للوك الفرس.

والذي عند الإسرائيليين سنجاريف من ملوك نينوى وهم أولاد موصل بن أشوذ بن سام، وأنه كان قبله بالموصل ملوك منهم وهم فول وتلفات وبلنص، وأنهم ملكوا بلد الأسباط العشرة، وهي شورون المعروفة بالسامرة، وأنه غرب الأسباط الذين كانوا فيها إلى نواحي أصبهان وخراسان، وأسكن أهل كومة وهي الكوفة في شمرورن هذه، فسلط الله عليهم السباع يفترسونهم في كل ناحية. فشكوا ذلك إلى سنجاريف وسأله أن يجبرهم عن بلد شمرورن في قسمة أي كوكب هي كي يتوجهوا إليه، ويستزلوا روحانيته على طريق الصابئة، فأعرض عن ذلك وبعث كهانان إليهم من اليهود فعلموهم دين اليهودية، وأخذوا به. وهؤلاء عند اليهود هم الشجرة نسبة إلى شمر وهي شمرورن، وليس الشجرة عندهم من بني إسرائيل، ولا دينهم صحيح في اليهودية.

وزحف سنجاريف عندهم إلى بيت المقدس بعد استيلائه على شمرورن فحاصرها ودخله العجب بكثرة عساكره، فقال لبني إسرائيل: من الذي خلصه إله من يدي حتى يخلصكم الحكم، وفزع ملك بني إسرائيل إلى نيهيم مدليلا، وسأله الدعاء فدعا له وأمنه من شر سنجاريف، ونزلت بعسكره في بعض لياليهم آفة سماوية، فأصبحوا كلهم قتلى. يقال أحصى قتلاهم فكانوا مائة وخمسة وثمانين ألفا، ورجع سنجاريف إلى نينوى، ثم قتله أولاده في سجوده لمعبوده من الكواكب، وولي ابنه أيسرحدون، ثم استولى عليهم بعد ذلك مختصر كما سنذكره في خبره.

وأما ملوك بابل فهم النبط بنو نيبط بن أشوذ بن سام. وقال المسعودي: نيبط بن ماش بن إرم، وكانوا موطنين بأرض بابل وملك منهم سوريان بن نيبط، وقال المسعودي: هو أحد نيبط بن ماش ملك أرض بابل بولاية من فالغ، فلما مات فالغ أظهر بدعة الصابئة، واتحلها بعده ابنه كنعان ويلقب بالتمروذ. وملك بعده ابنه كوش وهو غرود إبراهيم عليه السلام، وهو الذي قدم أباه آزر فاصطفاه هاجر على بيت الأصنام لأن أروع بن فالغ لما هلك أبوه فالغ وكان على دين التوحيد الذي دعاه إليه أبوه عابر، رجع

ودان بالتوحيد، ودوخ بلاد البربر والأندلس، وحارب الإفرنج. وملك بعده ابنه حريبا بن مالبق فرجع عن التوحيد إلى الصابئة، وغزا بلاد الهند والسودان والشام. وملك بعده ابنه كلكي بن حريبا، وهو الذي تسميه القبط حكيم الملوك، واتخذ هيكل زحل وعهد إلى أخيه ماليا بن حريبا، واشتغل باللهو فقتله ابنه خرطيش وكان سفكاً للدماء.

والقبط تزعم أنه فرعون الخليل عليه السلام، وأنه أول الفراعنة. ولما تعدى بالقتل إلى أقاربه سمته ابنته حوريا، وملك القبط من بعده فتازعها أبراحس من ولد عمها أثريب، وحاربه فكان لها الغلب، وانهمز أبراحس إلى الشام، فاستظهر بالكنعانيين وبعث ملكهم قائده جيرون فلما قرب مصر استقبلته حوريا وأطمعته في زواجها على أن يقتل أبراحس ويبنى مدينة الإسكندرية ففعل، ثم قتله آخراً مسموماً واستقام لها الأمر، وبنيت منارة الإسكندرية، وعهدت بأمرها لـدليقية ابنة عمها باقوم، فخرج عليها أمين من نسل أثريب طالباً بثأر قريبه أبراحس، ولحق بملك العمالة يومئذ وهو الوليد بن دوعم الذي ذكرناه عند ذكر العمالة فاستنصر به وجاء معه وملك ديار مصر.

واستبد بالقبط تقراوس فاشتغل بالذات، واستكفى من بنيه أطفير وهو العزيز فكفاه، وقام بأمره ودبر له يوسف الفيوم بالوحي والهندسة، وكانت أرضها مغايبض للماء فأخرجه وعمر القرى مكانه على عدد أيام السنة، فجعله على خزانته. وملك بعده دارم بن الريان وسمته القبط ويكوص. وكان يوسف مدبر أمره بوصية أبيه، ومات لعهد فأساء السيرة وهلك غريقاً في النيل. وملك بعده ابنه معدانوس بن دارم فترهب واستخلف ابنه كاشم فاستعبد بني إسرائيل للقبط، وقتله حاجبه ونصب بعده ابنه لاطش، فاشتغل باللهو فخلعه، ونصب آخر من نسل ندراس اسمه لهوب فتجير، وتذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام. وأهل الأثر يقولون: إنه الوليد بن مصعب وأنه كان نجاراً تغلب حاله إلى عرافة الحرس، ثم تطور إلى الوزارة، ثم إلى الاستبداد. وهذا بعيد لما قدمناه في الكتاب الأول.

وقال المسعودي: بل كان فرعون موسى من الأقباط. ثم هلك فرعون موسى، وخشي القبط من ملوك الشام، فملكوا عليهم دلوكة من بيت الملك وهي التي بنت الحائط على أرض مصر، ويعرف بمحائط العجوز لأنها طال عمرها حتى كبرت واتخذت البرابي ومقاييس النيل. ثم سمي المسعودي من بعد دلوكة ثمانية من ملوكهم على ذلك النحو من عجمة الأسماء، وقال في الثامن أنه فرعون الأعرج الذي اعتصم به بنو إسرائيل

حام لأنه لما نسب مصر قال فيه: مصر بن النبيط أو ابن قبط بن النبيط من ولد كوش بن كنعان. وقال أهروشيوش: أن القبط من ولد قبط بن لايق بن مصر. وعند الإسرائيليين أنهم من قوط بن حام. وعند بعضهم أنهم من كفتوريم قبطاين ومعناه القبط.

وقال المسعودي: اختص بنصر بن حام أيام النمرود ابن أخيه كنعان بولاية أرض مصر، واستبد بها وأوصى بالملك لابنه مصر، فاستفحل ملكه ما بين أسوان واليمن والعريش وأيلية وفرسية، فسميت كلها أرض مصر نسبة إليه، وفي قلبها النوبة وفي شرقها الشام وفي شمالها بحر الزقاق وفي غربها برقة والنيل من دونها. وطال عمر مصر وكبر ولده وأوصى بالملك لأكبرهم وهو قبط بن مصر أبو الأقباط، فطال أمد ملكه وكان له بنون أربع: قبط بن مصر وأن مصر هو الذي قسم الأرض وعهد إلى أكبرهم بالملك وهو قبط، فغلب عليهم فاضيفوا إليه لكان الملك والسن، وملك بعد قبط بن مصر أشمون بن مصر، ثم من بعده صائم أخوهما أثريب.

ثم عد ملوكاً بأسماء أعجمية بعيدة عن القبط لعجمتها وفساد الأصول التي بين أيدينا من كتبه، ثم لا ذكر ستة منهم بعد أثريب قال: فكثرت ولد بنصر بن حام وتشاغبوا وملك عليهم النساء، فسار إليهم ملك الشام من العمالة الوليد بن دوعم فملكهم وانقادوا إليه. وأما ابن سعيد فيما نقل من كتب المشاركة فقال: ملك مصر ابنه قبط، ثم من بعده أخوه أثريب. قال: وفي أيام قبط زحف شداد بن مداد بن شداد بن عاد إلى مصر وغلب على أسافلها، ومات قبط في حروبه، ثم جمع أثريب قومه واستظهر بالبربر والسودان على العرب حتى أخرجهم إلى الشام، واستبد أثريب بملك مصر وبني المدينة المنسوبة إليه، ومدينة عين شمس. وملك بعده ابن أخيه البودشير بن قبط وهو الذي بعث هرمساً المصري إلى جبل القمر حتى ركب جرية النيل من هنالك، وعدل البطيخة الكبرى التي تنصب إليها عيون النيل، وعمر بلاد الواحات وحول إليها جمعاً من أهل بيته. ثم ملك من بعده عديم بن البودشير، ثم ابنه شداد بن عديم، ثم ابنه منذوش بن شداد وجد مدينة عين شمس. وكان لهم في السحر آثار عجيبة. ثم ملك بعده ابنه مقلوش بن مقناوش وعبد البقر وصورها من الذهب، ثم هلك وخلف بعد ابنه مرقيش فغلب عليه عمه أشمون بن قبط، وبني مدينة الأشمون. وملك بعده ابنه أشاد بن أشمون، ثم من بعده عمه صا بن قبط وبني مدينة باسمه، وملك بعده ابنه ندراس وكان حكيماً وهو الذي بنى هيكل الزهرة الذي هدمه بختنصر. وملك بعده ابنه مالبق بن ندراس فرفض الصابئة

حاطب بن أبي بلعنة، وجبر مولى أبي رهم الغفاري، فقارب الإسلام وأهدى إلى رسول الله ﷺ هديته المعروفة ذكرها أهل السير كان فيها البغلة التي كان رسول الله ﷺ يركبها وتسمى دلدل، والحمار الذي يسمى يعفور، ومارية القبطية أم ولده إبراهيم وأمها وأختها سيرين وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن، وقُدح من قوارير كان رسول الله ﷺ يشرب فيه، وعسل استظرفه له من بنها إحدى قرى مصر معروفة بالعسل الطيب. ويقال: إن هرقل لما بلغه شأن هذه الهدية اتهمه بالليل إلى الإسلام فعزله عن رئاسة القبط.

وخرج مسلم في صحيحه من رواية أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: إذا افتتحتم مصر أو إنكم مستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً أو صهراً. ورواه ابن إسحاق عن الزهري وقال: قلت للزهري ما الرحم التي ذكر؟ قال: كانت هاجر أم إسماعيل منهم. ولِبعض رواة الحديث في تفسير الصهر أن مارية أم إبراهيم منهم، أهداها له المقوقس، وكانت من كورة حفن من عمل أنصاء. وقال الطبري: إن عمرو بن العاص لما ملك مصر أخبرهم بوصية النبي ﷺ بهم، فقال: هذا نسب لا يحفظ حقه إلا نبي لأنه نسب بعيد، وذكروا له أن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا ووقعت بيننا وأهل عين شمس حروب كانت لهم في بعضها دولة فقتلوا الملك وسبوا.

ومن هنالك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم. ولما كمل فتح مصر والإسكندرية وارتحل الروم إلى القسطنطينية، أقام المقوقس والقبط على الصلح الذي عقده لهم عمرو بن العاص وعلى الجزى، وأبقوه على رئاسة قومه، وكانوا يشاورونه فيما ينزل من المهمات إلى أن هلك، وكان ينزل الإسكندرية وفي بعض الأوقات ينزل منف من أعمال مصر. واختط عمرو بن العاص الفسطاط بموضع خيامه التي كان يحاصر منها مصر، فنزل بها المسلمون وهجروا المدينة التي كان بها المقوقس، إلى أن خربت. وكان في خرابها ومهلك المقوقس انقراض أمرهم. وبقي أعقابهم إلى هذا الزمان يستعملهم أهل الدول الإسلامية في حسابات الخراج، وجبايات الأموال لقيامهم عليها، وغنائم فيها، وكفائتهم في ضبطها وتنميتها.

وقد يهاجر بعضهم إلى الإسلام فترفع رتبته عند السلطان في الوظائف المالية التي أعلاها في الديار المصرية رتبة الوزارة، فيقلدونهم إياها ليحصل لهم بذلك قرب من السلطان وحظ عظيم في الدولة ويسطة يد في الجاه، تعددت منهم في ذلك رجال، وتعينت لهم بيوت قصر السلطان نظره على الاختيار منها لهذا

من يختصر، فدخل عليه مصر وقتله وهدم هياكل الصابئة ووضع بيوت النيران له ولولده. وذكر في تواريخهم قال: قال ابن عبد الحكيم: وهذه المعجوز دلوكة هي التي جددت البرابي بمصر، أرسلت إلى امرأة ساحرة كانت لعهدا اسمها ترورة، وكانت السحرة تعظمها، فعملت برى من حجارة ومسط مدينة منف، وصورت فيها صور الحيوانات من ناطق وأعجم، فلا يقع شيء بتلك الصورة إلا وقع بمثاله في الخارج. وكان لهم بذلك امتناع ممن يقصدهم من الأمم لأنهم كانوا أعلم الناس بالسحر، وأقامت عليهم عشرين سنة حتى بلغ صبي من أبناهم اسمه دركون بطولس فملكوه، وأقامت معه على ذلك أربعمئة سنة، ثم مات فولوا ابنه يرديس بن دركون، ومن بعده أخاه نقاس بن نقراس، ومن بعده مريتا بن مريئوس، ثم ابنه استمارس بن مريتا فظفى عليهم وخلعوه وقتلوه، وولوا عليهم من أشرفهم بلوطيس بن مناكيل أربعين سنة، ثم استخلف مالوس بن بلوطيس ومات، فاستخلف أخاه مناكيل بن بلوطيس ثم توفي، فاستخلف ابنه بركة بن مناكيل فملكهم مائة وعشرين سنة، وهو فرعون الأعرج الذي سبى أهل بيت المقدس، ويقال أنه خلع.

وقال ابن عبد الحكم: وولي من بعده ابنه مريئوس بن بركة، فاستخلف ابنه فرقون بن مريئوس فملكهم ستين سنة ثم هلك، واستخلف أخاه نقاس بن مريئوس، وكانت البراري كلها إذا فسد منها شيء لا يصلحه إلا رجل من ذرية تلك المعجوز الساحرة التي وضعتها، ثم انقطعت ذريتها ففسدت البراري أيام نقاس هذا، وتجارس الناس على طلب الملك الذي في أيديهم، وهلك نقاس واستخلف ابنه قومس بن نقاس، فملكهم دهرًا ثم ملك مختصر بيت المقدس، واستلحم بني إسرائيل وفرقه قتل وخرّب ولحقوا بمصر، فأجارهم قومس ملكها وبعث فيهم مختصر فمنعهم وزحف إليه وغلّب عليه وقتله وخرّب مدينة منف. وبقيت مصر أربعين سنة خراباً. وسكنها أرميا مدة ثم بعث إليه مختصر فلحق به ثم رد أهل مصر إلى موضعهم، وأقاموا كذلك ما شاء الله إلى أن غلب الفرس والروم على الأمم، وقاتل أهل مصر إلى أن وضعوا عليهم الجزى، ثم تقاسمها فارس والروم.

ثم تداولوا ملكها فتوالت عليها نواب الفرس. ثم ملكها الإسكندر اليوناني وجدد الإسكندرية، والآثار التي خارجها مثل عمود السوراري ورواق الحكمة. ثم غلب الروم على مصر والشام وأبقوا القبط في ملكها وصرّفوهم في الولاية بمصر إلى أن جاء الله بالإسلام، وصاحب القبط بمصر والإسكندرية المقوقس، واسمه جريج بن مينا فيما نقله السهيلى، فأرسل إليه رسول الله ﷺ

كلمة مرادفة لعبد وما قبلها من أسماء الله عز وجل وصفاته والمضاف أبداً متأخر في لسان العجم، فلذلك كان إيل هو آخر الكلمة وهو المضاف. ثم قبض الله نبيه يعقوب بمصر لمائة وسبع وثمانين سنة من عمره، وأوصى أن يدفن عند أبيه، فطلب يوسف من فرعون أن يطلقه لذلك، فأذن له. وأمر أهل دولته بالانطلاق معه، فانطلقوا وحملوه إلى فلسطين فدفنوه بمقبرة آبائهم، وهي التي اشتراها إبراهيم من الكنعانيين. ورجع يوسف إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي في المائة وعشرين سنة من عمره، ودفن بمصر وأوصى أن يحملوا شلوه معهم إذا خرجوا إلى أرض الميعاد، وهي الأرض المقدسة.

وأقام الأسباط بمصر وتناسلوا وكثروا حتى ارتاب القبط بكثرتهم واستعبدوهم، وفي التوراة أن ملكاً من الفراعنة جاء بعد يوسف لم يعرف شأنه ولا مقامه في دولة آبائه، فاسترق بني إسرائيل واستعبدهم. ثم تحدث الكهان من أهل دولتهم بأن نبوة تظهر في بني إسرائيل، وأن ملكاً كائن لهم مع ما كان معلوماً من بشارة آبائهم لهم بالملك، فعمد الفراعنة إلى قطع نسلهم بذبح الذكور من ذريتهم. فلم يزالوا على ذلك مدة من الزمان حتى ولد موسى. وهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب. وأمه يوحنا بنت لاوى عمة عمران. وكان قاهث بن لاوى من القادمين إلى مصر مع يعقوب عليه السلام وولد عمران بمصر وولد هارون لثلاث وسبعين من عمره، وموسى لثمانين، فجعلته أمه في تابوت وألقته في ضحضاح اليم، وأرصدت أخته على بعد لتظهر من يلقطه فتعرقه. فجاءت ابنة فرعون إلى البحر مع جواربها فرأته واستخرجته من التابوت فرحت. وقالت: هذا من العبرانيين فمن لنا بنظر ترضعه؟ فقالت لها أخته: أنا آتيكم بها! وجاءت بأمه فاسترضعتها له ابنة فرعون، إلى أن فصل. فأتت به إلى ابنة فرعون وسمته موسى وأسلمته لها. ونشأ عندها ثم شب، وخرج يوماً يمشي في الناس وله صولة بما كان له في بيت فرعون من المرسى والرضاع فهم لذلك أخواله، فرأى عبرانياً يضربه مصري فقتل المصري الذي ضربه ودفنه، وخرج يوماً آخر فإذا هو برجلين من بني إسرائيل وقد سطا أحدهما على الآخر فزجره، فقال له: ومن جعل لك هذا؟ أتريد أن تقتلني كما قتلت الآخر بالأمس؟ ونمي الخبر إلى فرعون فطلبه، وهرب موسى إلى أرض مدين عند عقبة أيلة. وبنو مدين أمة عظيمة من بني إبراهيم عليه السلام، كانوا ساكنين هناك وكان ذلك لأربعين سنة من عمره، فلقى عند مائهم بيتين لعظيم من عظمائهم فسقى لهما، وجاءتا به إلى أبيهما فزوجه بإحدهما، كما وقع في القرآن الكريم، وأكثر

العهد. وعامتهم يقيم على دين النصرانية الذين كانوا عليها لهذا العهد. وأكثرهم بنواحي الصعيد وسائر الأعمال متحرفون بالقلمح والله غالب على أمره.

وأما إقليم مصر فكان في أيام القبط والفراعنة جسوراً كله بتقدير وتدبير يحبسونه ويرسلونه كيف شاؤوا، والجنات حفاف النيل من أعلاه إلى أسفله ما بين أسوان ورشيد، وكانت مدينة منف وعين شمس يجري الماء تحت منازلها وأقيمتها بتقدير معلوم، ذكر ذلك كله عبد الرحمن بن شماس، وهو من خيار التابعين، يرويه عن أشياخ مصر قالوا: ومدينة عين شمس كانت هيكل الشمس، وكان فيها من الأبنية والأعمدة والملاعب ما ليس في بلد. قلت: وفي مكانها لهذا العهد ضيعة متصلة بالقاهرة يسكنها نصارى من القبط وتسمى المطرية. قالوا: ومدينة منف مدينة الملوك قبل الفراعنة وبعدهم إلى أن خربها بختنصر كما تقدم في دولة قومس بن نقاس، وكان فرعون ينزل مدينة منف، وكان لها سبعون باباً وبنى حيطانها بالحديد والصفير، وكانت أربعة أنهار تجري تحت سريه، ذكره أبو القاسم بن خرداذبة في كتاب المسالك والممالك قال: وكان طولها اثني عشر ميلاً، وكانت جباية مصر تسعين ألف ألف دينار مكورة مرتين بالدينار الفرعوني وهو ثلاثة مثاقيل. وإنما سميت مصر بمصر بن بيسر بن حام، ويقال إنه كان مع نوح في السفينة فدعا له فأسكنه الله هذه الأرض الطيبة، وجعل البركة في ولده. وحدها طولاً من برقة إلى أيلة، وعرضاً من أسوان إلى رشيد. وكان أهلها صابئة، ثم حملهم الروم لما ملكوها بعد قسطنطين على النصرانية، عندما حملوا على الأمم المجاورة لهم من الجلائفة والصقالبة ویرجان والروس والقبط والحبشة والنوبة، فدانوا كلهم بذلك ورجعوا عن دين الصابئة في تعظيم الهياكل وعبادة الأوثان، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني إسرائيل وما كان لهم من النبوة والملك وتغلبهم على الأرض المقدسة بالشام وكيف تجددت دولتهم بعد الانقراض وما اكتشف ذلك من الأحوال

قد ذكرنا عند ذكر إبراهيم وبنيه صلوات الله عليه وسلامه عليهم ما كان من شأن يعقوب بن إسحاق واستقراره بمصر مع بنيه الأسباط، وفي التوراة أن الله سماه إسرائيل. وإيل عندهم

على موتاهم، وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، استخرجه موسى صلوات الله عليه من المدفن الذي كان به بإلهام من الله تعالى، وساروا لوجههم حتى انتهوا إلى ساحل البحر بجانب الطور.

وأدركهم فرعون وجنوده، وأمر موسى بأن يضرب البحر بعصاه ويقتحمه، فضربه فانفلق طرقاتاً. وسار فيه بنو إسرائيل وفرعون وجنوده في اتباعه، ونزل بنو إسرائيل بجانب الطور، وسبحوا مع موسى بالتسبيح المنقول عندهم وهو: نسبح الرب الهنا، الذي قهر الجنود، ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود إلى آخره. قالوا: وكانت مريم أخت موسى وهارون صلوات الله عليهما تأخذ الدف بيدها، ونساء بني إسرائيل في أثرها بالدفوف والطبول، وهي ترتل لمن التسبيح سبحانه الرب القهار الذي قهر الخيل وركبائها ألقاها في البحر وهو المعنى الأول. ثم كانت المناجاة على جبل الطور وكلام الله لموسى والمعجزات المتتالية، ونزول الألواح، ويزعم بنو إسرائيل أنها كانت لرحين فيها الكلمات العشرة وهي: كلمة التوحيد، والمحافظة على السبت بترك الأعمال فيه، وبر الوالدين ليطول العمر، والنهي عن القتل والزنا والسرقة وشهادة الزور، ولا تمتد عين إلى بيت صاحبه أو امرأته، أو لشيء من متاعه. هذه الكلمات العشرة التي تضمنتها الألواح. وكان سبب نزول الألواح أن بني إسرائيل لما نجوا ونزلوا حول طور سيناء صعد موسى إلى الجبل، فكلّمه ربه وأمره أن يذكر بني إسرائيل بالنعمة عليهم في نجاتهم من فرعون وأن يتظاهروا ويفسّلوا ثيابهم ثلاثة أيام، ويجمعوا في اليوم الثالث حول الجبل من بعد، ففعلوا.

وظلت الجبل غمامة عظيمة ذات بروق ورعود ففزعوا، وقاموا في سفح الجبل دهشين، ثم غشى الجبل دخان في وسطه عمود نور وتزلزل له الجبل زلزلة عظيمة شديدة، واشتد صوت الرعد الذي كانوا يسمعون، وأمر موسى صلوات الله عليه بأن يقرب بني إسرائيل لسماع الرصايا والتكاليف، قال فلم يطيعوا فأمر بحضور هارون وتكون العلماء غير بعيدة ففعل، وجاءهم بالألواح.

ثم سار بعد ذلك إلى ميّعاد الله بعد أربعين ليلة، فكلّمه ربه وسأله الرؤية فمّنعها، فكان الصعق وساخ الجبل، وتلقى كثيراً من أحكام التوراة في المواعظ والتحليل والتحريم. وكان حين سار إلى الميّعاد استخلف أخاه هارون على بني إسرائيل، واستبطأوا موسى، وكان هارون قد أخبرهم بأن الحلبي الذي أخذوه للقبض محرم عليهم، فأرادوا حرقه وأوقدوا عليه النار.

المفسرين على أنه شعيب بن نوفل بن عيقا بن مدين وهو النبي عليه السلام.

وقال الطبري: الذي استأجر موسى وزوجه بنته رعويل وهو بيتر حبر مدين أي عالمهم، وأن رعويل هو الذي زوجه البنت وأن اسمه بيتر. وعن الحسن البصري أنه شعيب رئيس بني مدين. وقيل إنه ابن أخي شعيب. وقيل ابن عمه. فأقام عند شعيب صهره مقبلاً على عبادة ربه، إلى أن جاءه الوحي وهو ابن ثمانين سنة، وأوحى إلى أخيه هارون وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، فأوحى الله إليهما بأن يأتيا فرعون ليعث معهما بني إسرائيل فيستقذّانهم من مملكة القبط وجور الفرعنة، ويخرجون إلى الأرض المقدسة التي وعدهم الله بملكها على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

فخرجوا إليه وبلغا بني إسرائيل الرسالة فأمنوا به واتبعوه، ثم حضرا إلى فرعون وبلغاه أمره الله له بأن يعث معهما بني إسرائيل وأراه موسى عليه السلام معجزة العصا، فكان من تكذيبه وامتناعه وإحضار السحرة لما رأى من موسى في معجزته ثم إسلامهم ما نصه القرآن العظيم. ثم تحدّى فرعون في تكذيبه ومناصبته، واشتد جوره على بني إسرائيل واستعبادهم واتخاذهم سخرى في مهنة الأعمال، فأصاب فرعون وقومه الجوائح العشرة واحدة بعد أخرى يسألهم عند وقوعها، ويتضرع إلى موسى في الدعاء بالجلّاتها، إلى أن أوحى الله إلى موسى بخروج بني إسرائيل من مصر.

ففي التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أن يذبح أهل كل بيت حلاً من الغنم إن كان كفائهم، أو يشتركون مع جيرانهم إن كان أكثر، وأن ينضحوا دمه على أبوابهم لتكون علامة، وأن يأكلوه سواء برأسه وأطرافه، ومعناه لا يكسرون له عظماً ولا يدعون شيئاً خارج البيوت، وليكن خبزهم فطيراً ذلك اليوم وسبعة أيام بعده، وذلك في اليوم الرابع عشر من فصل الربيع، وليأكلوا بسرعة وأوساطهم مشدودة، وخفافهم في أرجلهم، وعصبيهم في أيديهم، ويخرجوا ليلاً وما فضل من عشانهم ذلك يحرقوه بالنار، وشرع هذا عيداً لهم ولأعقابهم ويسمى عيد الفصح.

وفي التوراة أيضاً أنه قتل في تلك الليلة أبكار النساء من القبط ودوابهم ومواشيهم ليكون لهم بذلك ثقل عن بني إسرائيل. وأنهم أمروا أن يستعير منهم حلياً كثيراً يخرجون به، فاستعاروه وخرجوا في تلك الليلة بما معهم من الدواب والأنعام، وكانوا ستمائة ألف أو يزيدون. وشغل القبط عنهم بالآثم التي كانوا فيها

ولكن هي وجميع آلتها من قنطار من ذهب. وأن يعمل مذبحاً للقربان، ووصف ذلك كله في التوراة بأتم وصف، ونصبت هذه القبة أول يوم من فصل الربيع ونصب فيها تابوت الشهادة وتضمن هذا الفصل في التوراة من الأحكام والشرائع في القربان والنحور وأحوال هذه القبة كثيراً، وفيها أن قبة القربان كانت موجودة قبل عبادة أهل العجل، وأنها كانت كالكعبة يصلون إليها وفيها، ويتقربون عندها، وأن أحوال القربان كانت كلها راجعة إلى هارون عليه السلام بعهد الله إلى موسى بذلك، وأن موسى صلوات الله عليه كان إذا دخلها يقفون حولها وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل، ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويتناجى وينهاه، وهو واقف عند التابوت صامداً لما بين ذينك الكرويين. فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه بشيء، يجيء إلى قبة القربان، ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكرويين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الخصومة.

ولما نجا بنو إسرائيل ودخلوا البرية عند سينا أول المصيف لثلاثة أشهر من خروجهم من مصر، واجهوا جبال الشام وبلاد بيت المقدس التي وعدوا بها أن تكون ملكاً لهم على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلوات الله عليهم بمسيرهم إليها، وأتوه بإحصاء بني إسرائيل من يطبق حمل السلاح منهم من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون، وضرب عليهم الغزو ورتب المصاف والميمة والميسرة، وعين مكان كل سبط في التعيية وجعل فيه التابوت والمذبح في القلب، وعين لخدمتها بني لاوى من أسباطهم، وأسقط عنهم القتال لخدمة القبة، وسار على التعيية سالكاً على برية فاران، ويعشوا منهم اثني عشر نقيباً من جميع الأسباط فأتوهم بالخبر عن الجبارين.

كان منهم كالب بن يوفنا بن حصرون بن بارص بن يهوذا بن يعقوب، ويوشع بن نون بن الإشامع بن عيمهون بن بارص بن لعدان بن تاحن بن تالح بن أراشف بن رافع بن يريعا بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، فاستطابروا البلاد واستعظموا العدو من الكنعانيين والعمالقة، ورجعوا إلى قومهم يخبرونهم الخبر وخذلواهم، إلا يوشع وكالب فقالا لهم ما قالوا وهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما. وخامر بنو إسرائيل عن اللقاء، وأبوا من السير إلى عدوهم، والأرض التي ملكهم الله، إلى أن يهلك الله عدوهم على غير أيديهم. فسخط الله ذلك منهم وعاقبهم بأن لا يدخل الأرض المقدسة أحد من ذلك الجيل إلا كالباً ويوشع. وإنما

وجاء السامري في شيعه له من بني إسرائيل، وألقى عليه شيئاً كان عنده من أثر الرسول، فصار عجلاً وقيل عجلاً حيوئناً، وعبد بنو إسرائيل، وسكت عنهم هارون خوفاً من افتراقهم. وجاء موسى صلوات الله عليه من المناجاة وقد أخبر بذلك في مناجاته، فلما رآهم على ذلك ألقى الألواح، ويقال كسرهما، وأبدل غيرها من الحجارة، وعند بني إسرائيل أنهما اثنان، وظاهر القرآن أنها أكثر مع أنه لا يعد استعمال الجمع في الاثنين، ثم أخذ برأس أخيه ويوجه واعتذر له بما اعتذر ثم حرق العجل، وقيل برده بالمبرد وألقاه في البحر.

وكان موسى صلوات الله عليه لما نجا بيني إسرائيل إلى الطور بلغ خبره إلى يثر صهره من بني مدنين، فجاء ومعه بته صفورا زوجة موسى عليه السلام التي زوجها به أبوها رعويل كما تقدم، ومعهما ابناهما من موسى وهما جرشون وعازر، فتلقاها موسى صلوات الله عليه بالبر والكرامة وعظمه بنو إسرائيل، ورأى كثرة الخصومات على موسى، فأشار عليه بأن يتخذ النقباء على كل مائة أو خمسين أو عشرة فيفصلوا بين الناس، وتفصل أنت فيما أهم وأشكل، ففعل ذلك.

ثم أمر الله موسى ببناء قبة للعبادة والوحي من خشب الشمشاد، ويقال هو السنط وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بتزيينها بالحرير والمصنغ والذهب والفضة على أركانها صور منها صور الملائكة الكرويين على كفيات مفصلة في التوراة في ذلك كله، ولها عشر سرادقات مقدرة الطول والعرض، وأربعة أبواب وأطبان من حرير منقوش مصبغ، وفيها دفوف وصفائح من ذهب وفضة، وفي كل زاوية بابان وأبواب وستور من حرير، وغير ذلك مما هو مشروح في التوراة. ويعمل تابوت من خشب الشمشاد طول ذراعين ونصف في عرض ذراعين في ارتفاع ذراع ونصف مصفحاً بالذهب الخالص من داخل وخارج، وله أربع حلقي في أربع زوايا، وعلى حافته كرويان من ذهب يعنون مثالي ملكين بأجنحة ويكرونان متقابلين، وأن يصنع ذلك كله فلان شخص معروف من بني إسرائيل.

وأن يعمل مائدة من خشب الشمشاد طول ذراعين في عرض ذراع ونصف بطنا بذهب، وإكليل ذهب، بحافة مرتفعة بإكليل ذهب، وأربع حلقي ذهب في أربع نواحيها مغروزة في مثل الرمانة من خشب ملبس ذهباً، وصحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة كلها من ذهب.

وأن يعمل منارة من ذهب، بست قضبات من كل جانب ثلاث وعلى كل قضبة ثلاث سرج، وليكن في المنارة أربعة قناديل،

ثم تخرج أمة من أرض الروم فيغلبون عليهم، فغضب الملك وانصرف بلعام إلى بلاده.

وفشا في بني إسرائيل الزنا بينات مؤاب ومدين فأصابهم الموتان، فهلك منهم أربعة وعشرون ألفاً. ودخل فنحاص بن لعزرا على رجل من بني إسرائيل في خيمته ومعه امرأة من بني مدين قد أدخلها للزنا بمراى من بني إسرائيل، فقطعها برمحها وانتظمتها وارفع الموتان عن بني إسرائيل. ثم أمر الله موسى والعازر بن هارون بإحصاء بني إسرائيل بعد فناء الجبل الذي أحصاهم موسى وهارون بيرة سينا، وانقضاء الأربعين سنة التي حصر الله عليهم فيها دخول تلك الأرض، وأن يبعث بعثاً من بني إسرائيل إلى مدين الذين أعانوا بني مؤاب، فبعث اثني عشر ألفاً من بني إسرائيل وعليهم فنحاص بن العيزر بن العز بن هارون، فحاربوا بني مدين وقتلوا ملوكهم وسبوا نساءهم وملكوا أموالهم، وقسم ذلك في بني إسرائيل بعد أن أخذ منه الله، وكان فيمن قتل بلعام بن باعورا.

ثم قسم الأرض التي ملك من بني مدين والعموريين وبني عمون وبني مؤاب، ثم ارتحل بنو إسرائيل ونزلوا شاطئ الأردن، وقال الله قد ملكتكم ما بين الأردن والقرات كما وعدت أباكم. ونهوا عن قتال عيصو الساكنين ساعير وبني عمون وعن أرضهم. وأكمل الله الشريعة والأحكام والوصايا لموسى عليه السلام، وقبضه إليه لمائة وعشرين سنة من عمره، بعد أن عهد إلى فتاه يوشع أن يدخل ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة ليسكنوها، ويعملوا بالشريعة التي فرضت عليهم فيها، ودفن بالوادي في أرض مؤاب ولم يعرف قبره لهذا العهد.

وقال الطبري: مدة عمر موسى صلوات الله عليه مائة وعشرون سنة، منها في أيام أفريدون عشرون، ومنها في أيام منوهر مائة. قال: ثم سار يوشع من بعد موسى إلى أريحا، فهزم الجبارين ودخلها عليهم. وقال السدي: إن يوشع تنبأ بعد موسى، وسار إلى أريحا فهزم الجبارين، ودخلها عليهم، وأن بلعام بن باعورا كان مع الجبارين يدعو على يوشع، فلم يستجب له، وصرف دعاؤه على الجبارين. وكان بلعام من قرى البلقاء، وكان عنده الاسم الأعظم، فطلبه الكنعانيون في الدعاء على بني إسرائيل فامتنع، والخوا عليه فأجاب، ودعا فصرف دعاؤه، وكان قيامه للدعاء على جبل حسان مطلقاً على عسكر بني إسرائيل، هذا خبر السدي في أن دعا بلعام كان لعهد يوشع. والذي في التوراة أنه كان لعهد موسى، وأن بلعام قتل لعهد موسى كما مر في خبر الطبري.

يدخلها أبناؤهم والجبل الذي بعدهم.

فأقاموا كذلك أربعين سنة في بيرة سينا وفاران، يترددون حوالي جبال السراة، وأرض ساعير، وأرض بلاد الكرك والشوبك، وموسى صلوات الله عليه بين ظهرانيهم يسأل الله لطفه بهم ومغفرته ويدفع عنهم مهالك مسخطه، وشكوا الجوع، فبعث الله لهم المن حبات بيض متشيرة على الأرض مثل ذرير الكزبرة، فكانوا يطحنونه ويتخذون منه الخبز لأكلهم. ثم قرموا إلى اللحم فبعث لهم السلوى طيراً يخرج من البحر، وهو طير السماني، فيأكلون منه ويدخرون، ثم طلبوا الماء، فأمر أن يضرب بعصاه الحجر فاتفجرت منه اثنا عشرة عيناً، وأقاموا على ذلك ثم ارتاب واحد منهم اسمه فودح بن إيصر بن قاهث، وهو ابن عم موسى بن عمران بن قاهث، فارتاب هو وجماعة منهم من بني إسرائيل بشأن موسى، واعتمدوا مناصبته فأصابتهم قارعة وخسفت بهم وبه الأرض وأصبحوا عبرة للمعتبرين. واعتزم بنو إسرائيل على الاستقالة مما فعلوه والزحف إلى العدو، ونهاهم موسى عن ذلك فلم يتهوا وصعدوا جبل العمالة فحاربهم أهل ذلك الجبل فهزموهم وقتلوه في كل وجه. فأمسكوا وأقام موسى على الاستغفار لهم، فأرسل إلى ملك أدوم يطلب الجواز عليه إلى الأرض المقدسة فمنعهم، وحال دون ذلك. ثم قبض هارون صلوات الله عليه لمائة وثلاثة وعشرين سنة من عمره، ولأربعين سنة من يوم خروجهم من مصر، وحزن له بنو إسرائيل لأنه كان شديد الشفقة عليهم، وقام بأمره الذي كان يقوم به ابنه العيزار، ثم زحف بنو إسرائيل إلى بعض ملوك كنعان، فهزموهم وقتلوهم وغنموا ما أصابوا معهم، وبعثوا إلى سيحون ملك العموريين من كنعان في الجواز في أرضه إلى الأرض المقدسة فمنعهم وجمع قومه وغزا بني إسرائيل في البرية، فحاربوه وهزموه وملكوا بلاده إلى حد بني عمون، ونزلوا مدينته وكانت لبني مؤاب. وتغلب عليها سيحون.

ثم قاتلوا عوجاً وقومه من كنعان وهو المشهور بعوج بن عوق، وكان شديد لباس فهزموه وقتلوه وبنوه وأثخنوا في أرضه، وورثوا أرضهم إلى الأردن بناحية أريحا وخشي ملك بني مؤاب من بني إسرائيل، واستجاش بن يماوره من بني مدين وجمعهم، ثم أرسل إلى بلعام بن باعورا وكان ينزل في النخم بين بلاد بني عمون وبني مؤاب، وكان مجاب الدعوة معبراً للأحلام. واستدعاه ليستعين بدعائه، وأناه الوحي بالنهي عن الدعاء، والحق عليه ذلك الملك وأصعده إلى الأماكن الشاهقة، وأراه معسكر بني إسرائيل منها، فدعا لهم وأنطقه الله بظهورهم وأنهم يملكون إلى الموصل.

السلام. واليهود لا يعرفون هذه القصة وبعضهم يقول كان ذلك لعهد طالوت والله أعلم.

الخبر عن حكام بني إسرائيل بعد يوشع إلى أن صار أمرهم إلى الملك وملك عليهم طالوت

ولما قبض يوشع صلوات الله عليه بعد استكمال الفتح، وتمهيد الأمر، ضيع بنو إسرائيل الشريعة، وما أوصاهم به وحذرهم من خلافه، فاستطالت عليهم الأمم الذين كانوا بالشام، وطعموا فيهم من كل ناحية. وكان أمرهم شورى فيختارون للحكم في عامتهم من شاذوا، ويدفعون للحرب من يقوم بها من أسباطهم، ولم الخيار مع ذلك على من يلي شيئاً من أمرهم، وتارة يكون نبياً يديرهم بالروحي، وأقاموا على ذلك نحواً من ثلثمائة سنة لم يكن لهم فيها ملك مستفحل، والملوك تناوشهم من كل جهة، إلى أن طلبوا من بينهم شمويل أن يعث عليهم ملكاً، فكان طالوت، ومن بعده داود، فاستفحل ملكهم يومئذ وقهروا أعداءهم، على ما يأتي ذكره بعد. وتسمى هذه المدة بين يوشع وطالوت مدة الحكام ومدة الشيوخ.

وأنا الآن أذكر من كان فيها من الحكام على التابع معتمداً على الصحيح منه، على ما وقع في كتاب الطبري والمسمودي، ومقابلاً به ما نقله صاحب حمة من بني أيوب في تاريخه عن سفر الحكام والملوك من الإسرائيليات، وما نقله أيضاً هروشيوش مؤرخ الروم في كتابه الذي ترجمه للحكم المستنصر من بني أمية قاضي النصارى وترجمانهم بقرطة وقاسم بن أصبغ. قالوا كلهم: لما فتح يوشع مدينة أريحا سار إلى نابلس فملكها ودفن هنالك شلو يوسف عليه السلام، وكانوا حملوه معهم عند خروجهم من مصر. وقد ذكرنا أنه كان أوصى بذلك عند موته.

وقال الطبري: أنه بعد فتح أريحا نهض إلى بلد عاي من ملوك كنعان، فقتل الملك وأحرق المدينة، وتلقاه خيرون ملك عمّان، وبارق ملك أروشليم بالجزى واستمدوا بأمانه فامتهم. وزحف إلى خيرون ملك الأرمن من نواحي دمشق فاستنجد بيوشع، فهزم يوشع ملك الأرمن إلى حوران واستلمهم وصلب ملوكهم، وتبع سائر الملوك بالشام فاستباح منهم واحداً وثلاثين ملكاً. وملك قيسارية، وقسم الأرض التي ملكها بين بني إسرائيل، وأعطى جبل المقدس لكالب بن يوفنا فسكن مدينة أورشليم، وأقام مع بني يهودا، ووضع القبة التي فيها تابوت العهد والمذبح

وقال السدي: إن يوشع بعد وفاة موسى صلوات الله عليه أمر أن يعبر، فسار ومعه التابوت تابوت الميثاق، حتى عبر الأردن، وقاتل الكنعانيين فهزمهم، وأن الشمس جنت للغروب يوم قتالهم ودعا الله يوشع فوقفت الشمس حتى غمت عليهم الهزيمة، ثم نازل أريحا ستة أشهر، وفي السابغ تفخوا في القرون، وضج الشعب ضجة واحدة، فسقط سور المدينة فاستباحوها وأحرقوها. وكمل الفتح واقتسموا بلاد الكنعانيين كما أمرهم الله. هذا مساق الخبر عن سيرة موسى صلوات الله عليه وبني إسرائيل أيام حياته وبعد مماته حتى ملكوا أريحا.

وفي كتب الإخباريين: أن العمالقة الذين كانوا بالشام قاتلهم يوشع فهزمهم وقتل آخر ملوكهم وهو السميذع بن هوير بن مالك، وكان لقاءهم إياه مع بني مدين في أرضهم وفي ذلك يقول عوف بن سعد الجهمي:

ألم تر أن العلقمي بن هوير بأيلة أسى لحمه قد غمزعا
ترامت عليه من يهود جحافل ثمانون ألفاً حاسرين ودعرا

ذكره المسمودي وقد تقدم لنا خلاف النسابة في هؤلاء العمالقة وأنهم لعمليق بن لاوذ أو لعمالق بن اليفاز بن عيصو الثاني، لنسابة بني إسرائيل سار إليه علماء العرب. وأما الأمم الذين كانوا بالشام لذلك العهد، فأكثرهم لبني كنعان وقد تقدمت شعوبهم، وينو أروم أبناء عمون، وبنو مؤاب أبناء لوط، وثلاثتهم أهل يسعير وجبال الشراة وهي بلاد الكرك والشوبك والبلقاء، ثم بنو فلسطين من بني حام ويسمى ملكهم جالوت وهو من الكنعانيين منهم، ثم بنو مدين ثم العمالقة. ولم يؤذن لبني إسرائيل في غير بلاد الكنعانيين فهي التي اقتسموها وملكوها وصارت لهم تراثاً، وأما غيرهم فلم يكن لهم فيها إلا الطاعة والمغارم الشرعية من صدقة وغيرها.

وفي كتب الإخباريين: أن بني إسرائيل بعد ملكهم الشام بعثوا بعوتهم إلى الحجاز، وهنالك يومئذ أمة من العمالقة يسمون جاسم، وكان اسم ملكهم الإرم بن الأرقم، وكان أوصاهم أن لا يستبقوا منهم من بلغ الحلم فلما ظهروا على العمالقة وقتلوا الأرقم، استبقوا ابنه وضنوا به عن القتل لوضاءته. ولما رجعوا من بعد الفتح وبجهم إخوانهم ومنعهم دخول الشام وأرجعهم إلى الحجاز، وما تملكوا من أرض يثرب، فتركوها واستم لهم فتح في نواحيها، ومن بقاياهم يهود خيبر وقريظة والنضير. قال ابن إسحاق: قريظة والنضير والتحام وعمره هو هزل من الخبز. وقال ابن الصريح بن التومان بن السبط بن إليسع بن سعد بن لاوي بن النمام بن يتحرم بن عازر بن عزز بن هارون عليه

فاستعبد لهم ثماني عشرة سنة. ثم قام بتدبيرهم أيهوذا بن كازا من سبط أفرائيم، وقال ابن حزم: من بنيامين، وضبطه بهمزة مائلة تجلب ياء ثم هاء مضمومة تجلب واو ثم ذال معجمة فانفقدتهم من يد بني مواب، وقتل ملكهم عفلون بجيلة تحت لهم في ذلك.

وهو أنه جاء رسولا عن بني إسرائيل متكررا بهدايا وتحف منهم حتى إذا خلا به طعنه فأنقذه ولحق بمكانه من جبل أفرائيم، ثم اجتمعوا ونزلوا فقتلوا من الحرس نحوًا من عشرة آلاف، وغلب ببني إسرائيل بني مواب واستلحمهم وهلك لثمانين سنة من دولته.

وقام بتدبيرهم بعده شمكار بن عناث من سبط كاد، وضبطه بفتح الشين المثلثة بعدها ميم ساكنة وكاف تقرب من خرج الجيم ويقلب فتحها ألفا وبعدها راء مهملة، ومات لسنة من ولايته وبني إسرائيل على حياتهم من المخالفة، فسلط الله عليهم ملك كنعان واسمه يافين، بفاء شغوية تقرب من الباء، فسرح إليهم قائده سميرا فملك عليهم أمرهم واستعبدتهم عشرين سنة. وكانت فيهم كوهنة امرأة متبينة اسمها دافورا، بفاء هوائية تقرب من الباء، وهي من سبط نبطالي، وقيل: من سبط أفرائيم، وقيل: كان زوجها بارق ابن أبي نوعم من سبط نبطالي واسمه اليسدوق، فدعته إلى حرب سميرا فأبى إلا أن تكون معه فخرجت ببني إسرائيل، وهزموا الكنعانيين، وقتل قائدهم سميرا وقامت بتدبيرهم أربعين سنة يرادفها زوجها بارق بن أبي نوعم. قال هروشيوش: وعلى عهدها كان أول ملوك الروم الطينيين بأنطاكية بنقش بن شطونش وهو أبو القياصرة. ثم توفيت دافورا وبقي بنو إسرائيل فوضى وعادوا إلى كفرهم فسلط الله عليهم أهل مدين والعمالة.

قال الطبري: وبنو لوط الذي بتخوم الحجاز قهروهم سبع سنين، ثم تنبأ فيهم من سبط منشى بن يوسف كدعون بن يواش، وضبطه بفتح الكاف القريبة من الجيم وسكون الدال المهملة بعدها وعين مهملة مضمومة تجلب واو بعدها نون، فقام بتدبيرهم. وقد كان لمدين ملكان أحدهما اسمه رايح والآخر صلنماع، فبعث إلى بني إسرائيل عساكره مع قائدين عوديف وزديف، وأهم بني إسرائيل شأنهم، فخرج بهم كدعون فهزموا بني مدين، وغنموا منهم أموالاً جمة، ومكثوا أيام كدعون هذا على استقامة في دينهم، وغلب لأعدائهم أربعين سنة، وكان له من الولد سبعون ولداً، وعلى عهده بنيت مدينة طرسوس. وقال جرجيس بن العميد: وملطية أيضاً. ولما هلك قام بتدبيرهم ولده أبو مليخ، وكانت أمه من بني سخام بن منشى بن يوسف من أهل نابلس، فأخذوه بالمال وقتل بني أبيب كلهم ثم نازعوه بنو سخام أخواله الأمر، وطالت حروبه معهم، وهلك معاصرا لبعض حصونهم بمجر طرحته عليه

والمائدة والمثارة على الصخرة التي في بيت المقدس. وأما بنو أفرائيم فكانوا يأخذون الجزية من الكنعانيين، ثم قبض يوشع في سفر الحكام أنه قبض لثمان وعشرين سنة من ملكه، وهو ابن مائة وعشرين سنة.

وقال الطبري: ابن مائة وستة وعشرين سنة. والأول أصبح. قال: وكان تدبير يوشع لبني إسرائيل في زمن منوشهر عشرين سنة، وفي زمن أفراسيات سبع سنين. وقال أيضاً أن ملك اليمن شمر بن الأملوك من حبر كان لعهد موسى وبني أظفار وأخرج منها العمالة. ويقال أيضاً كان من عمال الفرس على اليمن. وزعم هشام بن محمد الكلبي أن الفل من الكنعانيين بعد يوشع احتملهم أفريش بن قيس بن صيفي من سواحل الشام في غزاته إلى المغرب التي قتل فيها جرجيس الملك، وأنه أنزلهم بأريقية، فمنهم البربر وترك معهم صنهجة وكثامة من قبائل حير انتهى. وقام بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا بن حصرون بن بارص بن يهودا وقد مر نسبه، وكان فنحاص بن العيزر بن هارون كوهناً، يتولى أمر صلاتهم وقربانهم، ثم تنبأ وتنبأ أبوه العيزر وكان كالب مضعفاً فاقاما كذلك سبع عشرة سنة. وقال الطبري كان مع كالب في تدبيرهم حزقيل بن يودي، ويقال له ولد العجوز، لأنه ولد بعد أن كبرت أمه وعقمت.

وحدث عن وهب بن منبه أن حزقيل هذا دبرهم بعد كالب ولم يقع لهذا ذكر في سفر الحكام. ثم بعد يوشع اجتمع بنو يهودا وبنو شمعون لحرب الكنعانيين، فغلبوهم وقتلوهم، وفتحوا أورشليم وقتلوا ملكها، ثم فتحوا غزة وعسقلان وملكوا الجبل كله، ولم يقتلوا الغور. وأما سبط بنيامين فكان في قسمهم بلد اليونانيين في أرضهم، وأخذوا منهم الخراج واختلطوا بهم، وعبدوا آلهتهم فسلط الله عليهم ملك الجزيرة واسمه كوشان شقناتم، ومعناه أظلم الظالمين. ويقال: إنه ملك الأرمن في الجزيرة ودمشق وملك حوران وصيدا وحران ويقال: والبحرين ويقال: أنه من أدوم.

وقال الطبري: من نسل لوط فاستعبد بني إسرائيل ثمان سنين بعد وفاة كالب بن يوفنا، ثم ولي الحكم فيها عيشثال ابن أخيه قناز ابن يوفنا فحاربهم كوشان هذا، وأزال ملكته عن بني إسرائيل، ثم حاربه فقتله وكان له بعد ذلك حروب سائر أيامه مع بني مواب وبني عمون أسباط لوط ومع العماليق إلى أن هلك لأربعين سنة من دولته. ثم عبيد بنو إسرائيل الأوثان من بعده فسلط الله عليهم ملك بني مواب واسمه عفلون، بعين مهملة ومعجمة ساكنة ولا م مضمومة تجلب واو ساكنة ونون بعدها،

هلك، فدبرهم عبدون بن هلال بن سبط أفرايم ثمان سنين. وقال ابن العميد اسمه عكرون بن هليان وكان له أربعون ابناً وثلاثون حافداً. قال هروشيوش: وفي أيامه خربت مدينة طرونة قاعدة الروم اللطينيين خربها الروم الغربيون في قننة بينهم. ولما هلك عبدون دفن بأرض أفرايم في جبال العمالقة.

واختلف بنو إسرائيل بعده وعبدوا الأصنام وسلط الله عليهم بني فلسطين فقهرهم أربعين سنة، ثم تخلصهم من أيديهم شمشون بن مانوح من سبط دان، ويعرف بشمشون القوي لفضل قوة كانت في يده ويعرف أيضاً بالجبار وكان عظيم سبطه، ودبر بني إسرائيل عشر سنين بل عشرين سنة، وكثرت حروبه مع بني فلسطين، وأثنى فيهم وأتيح لهم عليه في بعض الأيام فأسروه ثم حملوه وحسوه. واستدعاه ملكهم بعض الأيام إلى بيت آلهتهم ليكلمه فأمسك عمود البيت، وهزه بيده فسقط البيت على من فيه وماتوا جميعاً. ولما هلك اضطربت بنو إسرائيل وافترت كلمتهم وانفرد كل سبط بحاكم يولونه منهم، والكهنونية فيهم جميعاً في عقب العيزار بن هارون من لدن وفاة هارون عليه السلام بتوليته موسى صلوات الله عليه بالوحي، ومعنى الكهنونية إقامة القرايين من الذبح والبخور على شروطها وأحكامها الشرعية عندهم.

وقال ابن العميد: إنه ولي تدبيرهم بعد شمشون حاكم آخر اسمه ميخائيل بن راعيل، دبرهم ثمان سنين، ولم تكن طاعته فيهم مستحكمة، وأن الفتنة وقعت بين بني إسرائيل ففني فيها سبط بنيامين عن آخرهم.

ثم سكنت الفتنة وكان الكوهن فيهم لذلك العهد عالي بن ييطاب بن حاصاب بن إليان بن فنحاص بن العيزار بن هارون، وقيل من ولد إيتامار بن هارون، وضبطه بعين مهملة مفتوحة تجلب ألفا ثم لام مكسورة تجلب ياء تحتانية. فلما سكنت الفتنة كانوا يرجعون إليه في أحكامهم وحروبهم. وكان له ابنان عاصيان، فدفعهما إلى ذلك، وكثر لعهد قتال بني فلسطين، وفشا المنكر من ولديه، وأمر بدفعهم عن ذلك فلم يزدادوا إلا عتوا وطغيانا، وأندر الأنبياء بذهاب الأمر عنه وعن ولده، ثم هزمهم بنو فلسطين في بعض أيامهم وأصابوا منهم، فتذامر بنو إسرائيل، واحتشدوا وحملوا معهم تابوت العهد، ولقيهم بنو فلسطين، فانهزم بنو إسرائيل أمامهم وقتلوا أبناء عالي كوهن كما أنذر به أبوهما وشمويل.

ويلغ أباهما الكوهن خبر مقتلهما فمات أسفاً لأربعين سنة من دولته، وغنم بنو فلسطين التابوت فيما غنموه، واحتملوه إلى بلادهم بعسقلان وغزة، وضربوا الجزية على بني إسرائيل، ولما

امرأة من السور فشدخه. فقال لصاحب سلاحه أجهز علي لثلا يقال قتله امرأة. وذلك لثلاث سنين من ولايته.

ثم دبر أمرهم بعده طولاع بن فوا بن داود من سبط يساخر، وضبطه بطاء قرية من التاء تجلب ضميتها واوا ثم لام ألف ثم عين. وقال الطبري: هو ابن خال أبي مليخ وابن عمه.

قلت: والظاهر أنه ابن خاله لأن سبط هذا غير سبط هذا غير ذلك. وقال ابن العميد: هو من سبط يساخر إلا أنه كان نازلاً في سائر من جبل أفرايم. فمن هنا والله أعلم وقع اللبس في نسبه، ودبرهم ثلاثاً وعشرين سنة. قال هروشيوش: وعلى عهده كان بمدينة طرونة من ملوك الروم اللطينيين برماش بن بتقش. وملك ثلاثين سنة وقد مضى ذكره. ولما هلك طولاع قام بتدبيرهم بعده يائير بن كلعاد من سبط منشي بن يوسف وضبطه بياء مشاة تحتية مفتوحة وألف ثم همزة مكسورة بعدها ياء أخرى ثم راء مهملة، وقام في تدبيرهم اثنتين وعشرين سنة، ونصب أولاده كلهم حكاماً في بني إسرائيل وكانوا نحواً من ثلاثين، فلما هلك طغوا وعبدوا الأصنام، فسلط الله عليهم بني فلسطين وبني عمون فقهرهم ثمانين عشرة سنة. وقام بتدبيرهم يفتاح من سبط منشي، وضبطه بياء مشاة تحتانية وفاء ساكنة وتاء مشاة من فوق يفتحة تجلب ألفاء ثم حاء مهملة، فلما قام بأمرهم طلب ضريبة التحل من بني عمون فامتنعوا من إعطائها، وكانوا ملوكاً منذ ثلثمائة سنة، فقاتلهم وغلبهم عليها وعلى اثنتين وعشرين قرية معها، ثم حارب سبط أفرايم وكانوا مستبدين وحدهم عن بني إسرائيل، فأرادهم على اتفاق الكلمة والدخول في الجماعة حتى استقاموا على ذلك، وأقام في تدبيرهم ست سنين. وعلى عهده أصابت بلاد اليونان الجاعة العظيمة التي هلك فيها أكثرهم. ولما هلك قام بتدبيرهم أبصان من سبط يهودا من بيت لحم، وضبطه بهزمة مفتوحة وياء موحدة ساكنة وصاد مهملة بفتحة تجلب ألفا وبعدها نون، ويقال: أنه جدد داود عليه السلام، بوغز بن سلمون بن نحشون بن عميناذاب بن رم بن حصرون بن بارص بن يهودا. وحصرون هذا هو جد كالب بن يوفنا الذي دبرهم بعد يوشع. ونحشون كان سيد بني يهود العهد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام، وهلك في التيه، ودخل ابنه سلمون أريحا مع يوشع ونزل بيت لحم على أربعة أميال من بيت المقدس. قال هروشيوش في أيام أبصان هذا كان انقراض ملك السريانيين، وخروج القوط وحروبهم مع النبط، وأقام أبصان في تدبير بني إسرائيل سبع سنين ثم هلك. فقام بتدبيرهم إيلون من سبط زبولون وضبطه بهزمة مكسورة تجلب ياء ثم لام مضمومة تجلب واوا ثم نون، فدبرهم عشر سنين ثم

وملكيشوع وتشبهات وأنياداف. وقام طالوت بملك بني إسرائيل، وحارب أعداءهم من بني فلسطين وعمون ومواب والعمالة ومدين فغلب جميعهم، ونصر بنو إسرائيل نصراً لا كفاء له.

وأول من زحف إليهم ملك بني عمون ونازل قرية بلقاء فهجم عليهم طالوت، وهو في ثلثمائة ألف من بني إسرائيل فهزمهم واستلحهم، ثم أغزى ابنه في عساكر بني إسرائيل إلى فلسطين فقال منهم، واجتمعوا لحرب بني إسرائيل فزحف إليهم طالوت وشمويل فانهزموا واستلحهم بنو إسرائيل، وأمر شمويل أن يسير إلى العمالة وأن يقتلهم ودوابهم ففعل، واستبقى ملكهم أعاء مع بعض الأنعام، فجاء الوحي إلى شمويل بأن الله قد سخطه وسلبه الملك فخبره بذلك، وهجره شمويل فلم يره بعد. وأمر شمويل أن يقدس داود، ويعث له بعلامته فسار إلى بني يهوذا في بيت لحم، وجاء به أبوه إيشا فمسحه شمويل، وسلب طالوت روح الجسد، وحزن لذلك ثم قبض شمويل وزحف جالوت وبنو فلسطين إلى بني إسرائيل فبرز إليهم طالوت في العساكر وفيهم داود بن إيشا من سبط يهوذا، وكان صغيراً يرعى الغنم لأبيه، وكان يقذف بالحجارة في غلاته فلا تكاد تغطي.

قال الطبري: وكان شمويل قد أخبر طالوت بقتل جالوت، وأعطاه علامة قاتله، فاعترض بني إسرائيل حتى رأى العلامة فيه فسلكه وأقام في المصاف. وقد احتمل الحجارة في غلاته، فلما عاين جالوت قذفه بحجارة فصكه في رأسه ومات، وانهزم بنو فلسطين، وحصل النصر. فاستخلص طالوت حيثن داود وزوجه ابنته، وجعله صاحب سلاحه، ثم ولاه على الخروب فاستكفى به. وكان عمره حيثن فيما قال الطبري ثلاثين سنة. وأحبه بنو إسرائيل، واشتملوا عليه، وابتلي طالوت وبنوه بالغيرة منه، وهم بقتله ونفذ لذلك مراراً، ثم حمل ابنه يهوئان على قتله فلم يفعل لخلّة ومصافاة كانت بينهما، ودس إلى داود بدخيلة أبيه فيه، فلتحق بفلسطين وأقام فيهم أياماً، ثم إلى بني مواب كذلك، ثم رجع إلى سبطه يهوذا بناحي بيت المقدس، فأقام فيهم يقاتل معهم بني فلسطين في سائر حروبهم، حتى إذا شعر به طالوت طلب بني يهوذا بإسلامه إليه، فأبوا فزحف إليهم فأخرجوه عنهم، ولحق ببني فلسطين وقتلهم طالوت في بعض الأيام فهزموه، واتبعوه وأولاده يقاتلون دونه حتى قتل يهوئان ومشوى وملكيشوع، وبنو فلسطين في اتباعه حتى إذا أيقن بالهلكة قتل نفسه بنفسه. وذكر فيما قال الطبري لأربعين سنة من ملكه.

ثم جاء داود إلى بني يهوذا فملكوه عليهم، وهو داود بن إيشا بن عوف، بالفاء الهوائية، بن بوغر واسمه أنصان بالفاء

مضى القوم بالتأبوت فيما حكى الطبري، وضعوه عند ألفتهم فقلها مراراً فأخرجوه إلى ناحية من القرية، فأصيبوا فتيادروا بإخراجه وحملوه على بقرتين لهما تيعان ووضعتاه عند أرض بني إسرائيل، ورجعنا إلى ولديهما وأقبل إليه بنو إسرائيل فكان لا يدنوا منه أحد إلا مات حتى أذن شمويل لرجلين منهم حملاه إلى بيت أمهما وهي أرملة فكان هنالك حتى ملك طالوت اه. وكان ردهم التأبوت لسبعة أشهر من يوم حملوه، وكان عالي الكوهن قد كفل ابن عمه شمويل بن الكتا بن يوام بن إلياهد بن يابو بن سوف وسوف هو أخو حاصاب بن البلى بن يحاص. وقيل إن شمويل من عقب فورح وهو قارون بن يسهار بن قاهات بن لاوى. ونسبه إليه شمويل بن القنا بن يرواحم بن اليهود بن يوحا بن صوب بن القنا بن يويل بن عزيز ابن ضيعنا بن تاحت بن أسر بن القنا بن النشاسات بن قاوون. وكانت أمه نذرت أن تجعله خادماً في المسجد، وألقت هنالك فكلفه عالي وأوصى له بالكهنونية، ثم أكرمه الله بالتبوة، وولاه بنو إسرائيل أحكامهم فدبرهم عشر سنين. وقال جرجيس بن العميد عشرين سنة ونهاهم عن عبادة الأوثان فانتهروا وحاربوا أهل فلسطين واستردوا ما كانوا أخذوا لهم من القرى والبلاد، واستقام أمرهم ثم دفع الأمر إلى ابنه يؤول وأبياه، وكانت سيرتهما سيئة. فاجتمع بنو إسرائيل إلى شمويل، وطلبوه أن يسأل الله في ولاية ملك عليهم، فجاء الوحي بولاية طالوت. فولاه وصار أمر بني إسرائيل ملكاً بعد أن كان مشيخة، والله معقب الأمر بحكمته لا رب غيره.

الخبر عن ملوك بني إسرائيل بعد الحكام ثم

افراق أمرهم والخبر عن دولة بني سليمان

بن داود على السبطين يهوذا وبنيامين

بالقدس إلى انقراضها

لما نعم بنو إسرائيل على يوال وأبيا ابني شمويل مما تقموا من أمورهم، واجتمعوا إلى شمويل، وسألوه من الله أن يعث لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم ويجمع نشرهم ويدفع الذل عنهم، فجاء الوحي بأن يولي الله طالوت ويدهنه بدهن القدس، فأبوا بعد أن أمر شمويل بأن يستهموا عليه، فاستهموا على بني آبائهم، فخرج السهم على طالوت وكان أعظمهم جسماً فولوه، واسمه عند بني إسرائيل شاول بن قيس بن أفيل، بالفاء الهوائية القرية من الباء، ابن صار وابن نخورت بن أفياح، فقام بملكهم، واستوزر أفين ابن عمه نير بن أفيل. وكان لطالوت من الولد يهوئان

بخبير وما إليها من بلاد الحجاز، ثم تراجع للحرب فهزمه داود وأدركه مؤاب وزير داود وقد تعلق بشجرة فقتله، وقتل في الهزيمة عشرون ألفاً من بني إسرائيل، وسبق رأس قشلوط لولي أبيه داود فبكى عليه وحزن طويلاً، واستألف الأسباط ورضي عنهم ورضوا عنه. ثم أحصى بني إسرائيل فكانوا ألف ألف ومائة ألف، وسبسط يهوذا أزيد من أربعمئة ألف. وعوتب في الوحي لأنه أحصاهم بغير إذن، وأخبره بذلك بعض الأنبياء لعهد.

وأقام داود صلوات الله عليه في ملكه والوحي يتابع عليه، وسور الزبور تنزل. وكان يسبح بالأوتار والمزامير، وأكثر المزامير المنسوبة إليه في ذكر التسيح وشأنه. وفرض على الكهنونية من سبط لاوي التسيح بالمزامير قدام تابوت العهد اثني عشر كوهناً لكل ساعة. ثم عهد عند غام أربعين سنة من دولته لابنه سليمان صلوات الله عليهما، ومسحه مبابان النبي وصادوق الحبر مسحة القديس، وأوصى ببناء بيت المقدس. ثم قبض صلوات الله عليه ودفن في بيت لحم، وكان لعهد من الأنبياء تامان وكاد وأصاف. وكان الكهنون الأعظم أفنثار بن أحليج من عقب عالي الكوهن الذي ذكرناه في الحكام، وكان من بعده صادوق.

ثم قام بالملك من بعده من بني إسرائيل ابنه سليمان صلوات الله عليه وهو ابن اثنين وعشرين سنة، فاستفحل ملكه وغالب الأمم، وضرب الجزية على جميع ملوك الشام مثل فلسطين وعمون وكنعان ومؤاب وأدوم والأمن، وأصهر إليه الملوك من كل ناحية بناتهم، وكان بمن تزوج بنت فرعون مصر. وكان وزيره يؤاب بن نير وهو ابن أخت داود اسمها صوريا، وكان وزيراً لداود فلما ولي سليمان استوزره فقام بدولته ثم قتله بعد ذلك، واستوزر يشوع بن شيداح.

ولأربع سنين من ملكه شرع في بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك، فلم يزل إلى آخر دولته بعد أن هدم مدينة أنطاكية وبنى مدينة تدمر في البرية وبعث إلى ملك صور ليعينه في قطع الخشب من لبنان، وأجرى على الفعلة فيه في كل عام عشرين ألف كر من الطعام ومثلها من الزيت ومثلها من الحمر. وكان الفعلة في لبنان سبعين ألفاً ولتحت الحجارة ثمانين ألفاً وخدمة المناولة سبعون ألفاً، وكان الوكلاء والعرفاء على ذلك العمل ثلاثة آلاف وثلاثمئة رجل. ثم بنى الهيكل وجعل ارتفاعه مائة ذراع في طول ستين وعرض عشرين. وجعل بدائره كله أروقة وفوقها مناظر، وجعل بدائر البيت ابريداً من خارج، وغقه وجعل الظهر مقوراً ليودع فيه تابوت العهد. وصفح البيت من داخله وسقفه بالذهب، وصنع في البيت كرويين من الخشب مصفحتين بالذهب وهما تمثالان

الهوائية والصاد المشمة. وقد قدمنا ذكره في حكام بني إسرائيل بن سلمون الذي نزل بيت لحم لأول الفتح، ابن نحشون سيد بني يهوذا عند الخروج من مصر ابن عميناذاب بن إرم بن حصرون بن بارص بن يهوذا، هكذا نسبه في كتاب اليهود والنصارى، وأنكره ابن حزم قال: لأن نحشون مات بالتيه وإنما دخل القدس ابنه سلمون، وبين خروج بني إسرائيل من مصر وملك داود ستمائة سنة باتفاق منهم، والذي بين داود ونحشون أربعة آباء، فإذا قسمت الستمائة عليهم يكون كل واحد منهم إنما ولد له بعد المائة والثلاثين سنة وهو بعيد.

ولما ملك داود على بني يهوذا نزل مدينتهم حفرون بالفاء الهوائية، وهي قرية الخليل عليه السلام لهذا العهد، واجتمع الأسباط كلهم إلى يشوشات بن طالوت، فملكه في اورشليم وقام بأمره وزير أبيه أفيند وقد مر نسبه.

وفي كتاب أسفار الملوك من الإسرائيليات: أن رجلاً جاء لداود بعد وفاة طالوت، فأخبره بمهلكه ومهلك أولاده في هزيمتهم أمام بني فلسطين، وأمر هذا الرجل أن يقتله لما أدركوه، فقتله وجاء بتاجه ودملجه إلى داود، وانتسب إلى العمالقة، فقتله داود بقتله، وبكى على طالوت، وذهب إلى سبط يهوذا بأرض حفرون بالفاء القريبة من الباء، وهي قرية الخليل لهذا العهد، وأقام شيوخيات بن طالوت في اورشليم، والأسباط كلهم مجتمعون عليه، وأقامت الحرب بينهم وبين داود أكثر من ستين، ثم وقع الصلح بينهم والمهادنة، وأذن الأسباط إلى داود وتركوه، ثم اغتاله بعض قواده وجاء برأسه إلى داود فقتله به. وأظهر عليه الحزن والأسف وكفل أخواته وبنيه أحسن كفالة. واستبد داود بملك بني إسرائيل لثلاثين سنة من عمره وقاتل بني كنعان وغلبهم، ثم طالت حروبه مع بني فلسطين، واستولى على كثير من بلادهم، ورتب عليهم الخراج.

ثم حارب أهل مؤاب وعمون وأهل أدوم وظفر بهم وضرب عليهم الجزية، ثم خرب بلادهم بعد ذلك، وضرب الجزية على الأرمن بدمشق وحلب، وبعث العمال لقيضها. وصانعه ملك أنطاكية بالهدايا والتحف، واختط مدينة صهيون وسكنها واعتزم على بناء مسجد في مكان القبة التي كانوا يضعون بها تابوت العهد ويصلون إليها. فأوحى الله إلى دانيال نبي على عهده أن داود لا يبنّي وإنما يبنيه ابنه ويدوم ملكه فسر داود بذلك.

ثم انتقض عليه ابنه أبشولوم، وقتل أخاه أمون غيرة منه على شقيقه بامان وهرب. ثم استماله داود وردّه، وأهدر دم أخيه وصير له الحكم بين الناس. ثم رجع ثانياً لأربع سنين بعدها وخرج معه سائر الأسباط، ولحق داود بأطراف الشام وقيل لحق

ودخلت في دينه وطاعته وملكته أمرها ووافته بملك اليمن، وأمرها بأن تزوج فنكرت ذلك لكان الملك فقال: لا بد في الدين من ذلك. فقالت: زوجي ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه وملكه على اليمن واستعملها فيه ورجع إلى الشام. وقيل تزوجها وأمر الجن فبنوا لها سليمان وغمدان. وكان يزورها في الشهر مرة يقيم عندها ثلاثاً، وعلماء بني إسرائيل يتكثرون وصوله إلى الحجاز واليمن، وإقام ملك اليمن عندهم بمراسلة ملكة سبأ، وأنها وفدت عليه في يروشالم، وأهدت إليه مائة وعشرين قنطاراً من الذهب، ولؤلؤاً وجوهرات وأصنافاً من الطيب والمسك والعنبر فأجازها وأحسن إليها. وانصرفت، هكذا في كتاب الأنساب من كتبهم. ثم انتقض على سليمان آخر أيامه هدرور ملك الأرمن بدمشق، وهداد ملك أدوم، وكان قد ولي على ضواحي بيت المقدس وجميع أعماله يربعان بن نباط من سبط أفرايم، واستكنى به في ذلك، وكان جباراً فغوتب بالوحي على لسان أخيا النبي في توليته فأراد قتله، وشعر بذلك يربعان فهرب إلى مصر، فأنتحه فرعون ابنته وولدت له ابنه ناباط وأقام بمصر. وقبض سليمان صلوات الله عليه لأربعين سنة من ملكه، وقيل لاثنتين وخمسين، ودفن عند أبيه داود صلوات الله عليهما. وافترق ملك بني إسرائيل من بعده كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن الفراق بين إسرائيل منهم بيت المقدس على سبط يهوذا وبنيامين إلى انقراضه

لما قبض سليمان صلوات الله عليه وسلامه، ولي ابنه رجبهم، وضبطه براء مهمله وهاء مهمله مضمومتين وباء موحدة ساكنة وعين مهمله مضمومة وميم، فقام بأمره وزاد في عمارة بيت لحم وغزة وصور وأيلة، واشتد على بني إسرائيل وطلبوا منه تخفيف الضرائب، فامتنع وطلبهم بالوظائف، وأخذ فيهم برأي الغواة من بطانته، فقتلوا عليه ذلك وانتقضوا. وجاءهم يربعان بن نباط من مصر، فبايعوه وولوه عليهم، واجتمع عليه سائر الأسباط العشرة من بني إسرائيل، ما عدا سبط يهوذا وبنيامين، وتزاحفوا للحرب. ثم دعاهم بعض أنبيائهم للصالح فتواضعوا واصطلحوا. وفي السنة الخامسة من ملك رجبهم زحف شيشاق ملك مصر إلى بيت المقدس، فحرب رجبهم، واستباحها شيشاق ورجع وضرب عليهم الجزية، ثم دفعوه ومنعوه.

فأقام بنو داود في سلطانهم على بني يهوذا وبنيامين ببيت

للملائكة الكرويين، وجعل للبيت أبواباً من خشب الصنوبر، ونقش عليها غمائل من الكرويين والنرجس والنخل والسوسن وغشاهها كلها بالذهب. وأتم بناء الهيكل في سبع سنين، وجعل لها باباً من ذهب، ثم بنى بيتاً لسلاحه أقامه على أربعة صفوف من العمد من خشب الصنوبر في كل صف خمسة عشر عموداً، ووضع فيه مائتي ترس من الذهب، في كل ترس مئانة من حجر الجواهر والزمر، وثلاثمائة درقة من الذهب، في كل درقة ثلاثمائة من حجر الباقوت، وسمى هذا البيت غيضة لبنان. وصنع منبراً لجلوسه تحت رواق وكراسي كثيرة كلها من العاج ملبسة من الذهب.

ثم بنى من فوق هذا البناء بيتاً لابنة فرعون التي تزوج بها، وصنع بها أوعية النحاس لسائر ما يحتاج إليه في البيت، واسترضى الصانع لذلك من مدينة صور. وعمل مذبح القربان بالبيت من الذهب، ومائدة الخبز الوجوه من الذهب، وخمس منابر عن يمين الهيكل، وخمساً عن يساره بجميع آلاتها من الذهب، ومجامر من الذهب. وأحضر موروث أبيه من الذهب والفضة والأوعية الحسنة فأدخلها إلى البيت، وبعث إلى ثابوت العهد من صهيون قرية داود إلى البيت الذي بناه له، فحملة رؤساء الأسباط والكهنة على كواهلهم حتى وضعوه تحت أجنحة التمثالين للكرويين بالمسجد. وكان في الثابوت اللوحان من الحجارة اللذان صنعهما موسى عليه السلام بدل الألواح المنكسرة، وحلوا مع ثابوت العهد قبة القربان وأوعيتها إلى المسجد. وأقام سليمان أمام المذبح يدعو في يوم مشهود، اتخذ فيه وليمة لذلك ذبح فيها اثنين وعشرين ألفاً من البقر، ثم كان يقرب ثلاث مرات من السنة قربان وذبائح كاملة، ويبخر البخور وجميع الأوعية لذلك كلها ذهب. وكانت جبايته في كل سنة مئانة قنطار وستين قنطاراً من الذهب، غير الهدايا والقربان إلى بيت المقدس.

وكانت له سفن بحر الهند تجلب الذهب والفضة والبضائع والفيلة والقرود والطواويس، وكانت له خيل مرتبة كثيرة تجلب من مصر وغيرها تبلغ ألفاً وستمائة فرس معدة كلها للحرب. وكانت له ألف امرأة لفراشه ما بين حرة وسرية منها ثلاثمائة سرية. وفي الأخبار للمؤرخين أنه تجهز للحج فوافى الحرم وأقام فيه ما شاء الله، وكان يقرب كل يوم خمسة آلاف بدنة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة. ثم سما إلى ملك اليمن وسار إليه فوافى صنعاء من يومه، وطلب الهدد لانتماش الوضوء، وكان قناته أي ملتص الوضوء له في الأرض فافقده، ورجع إليه فحضر بلقيس كما قصه القرآن. ودافعت بالهدية فلم يقبلها، فلاذت بطاعته

المقدس وعسقلان وغزة ودمشق وحلب وحمص وحماة وما إلى ذلك من أرض الحجاز، وملك الأسباط العشرة بنواحي نابلس وفلسطين، ثم نزلوا مدينة شومرون وهي شمر وسامرة في الناحية الشرقية الشمالية من الشام مما يلي الفرات والجزيرة، واتخذوها كرسياً للملكهم ذلك، وأقاموا على هذا الافتراق إلى حين انقراض أمرهم، ووقعوا في الجلاء الذي كتب الله عليهم كما نذكره.

ثم هلك رجعم لسبع عشرة سنة من دولته، وولي بعده على سبط يهوذا وبنيامين بأرض القدس ابنه أفيا، وضبطه بهمزة مفتوحة ومتوسطة بين الفاء والذال من لغتهم وياه مثناة من تحت مشددة والفاء، وكان على مثل سيرة أبيه. وكان عابداً صواماً، وكانت أيامه كلها حرباً مع يريم بن نباط وبني إسرائيل، وهلك لثلاث سنين. وولي بعده ابنه أسا، بضم الهمة وفتح السين المهملة والفاء بعدها، ابن أفيا. وطال أمد ملكه، وكان رجلاً صالحاً، وكان على مثل سيرة جده داود صلوات الله عليه، وتعددت الأنبياء في بني إسرائيل على عهده، ومات يريم بن نباط لستين من ملكه، وملك بعده ابنه ناداب وقتله يعشا بن أحيا كما نذكر في أخبارهم.

ثم وقعت بينه وبين أسا حروب، واستبد أسا بملك دمشق فزحف معه، وكان يعشا ملك السامرة في ناحية يثرب لبنائها، فهرب وترك آلات البناء، فنقلها أسا ملك القدس وبنى بها الحصون. ثم خرج عليهم زاحم ملك الكوش في ألف ألف مقاتل، ولقيهم أسا فهزمهم وأتخن فيهم. ولم تزل الحرب قائمة بين أسا وبين الأسباط بالسامرة سائر أيامه، وعلى عهده اختطت السامرة كما نذكر بعد. ثم هلك أسا بن أفيا لإحدى وأربعين سنة من ملكه، وولي بعده ابنه يهوشافاط، بياء مفتوحة مثناة تحتانية وهاء مضمومة وواو ساكنة وشين معجمة بعدها الف ثم فاء بعدها ألف وطاء، فكان على مثل سيرة أبيه، وكانت أيامه مع أهل السامرة وملوكهم سلباً.

واجتمع ملوك العمالقة، ويقال أدوم، وخرج لحربهم فهزمهم وغنم أموالهم. وكان لعده من الأنبياء إلياس بن شوياق، وإليسع بن شوبوات. وقال ابن العميد: إيليا ومنحيا وعبوديا. وكانت له سفن في البحر يجلب له فيها بضائع الهند فأصابها قاصف الريح فتكسرت وغرقت. ثم هلك لخمس وعشرين سنة من ملكه، وولي ابنه يهورام، بفتح المثناة التحتانية ثم هاء مضمومة تجلب واو ثم راء مفتوحة تجلب ألفاً وبعدها ميم، وانتقض عليه أدوم، وولوا عليهم ملكاً أنهم، فزحف إليهم ووقع بهم في سفيرا أوسط بلادهم، وأتخن فيهم بالسبي والقتل. ثم رجع عنهم، وأقاموا في عصيانهم. وعلى عهده زحف ملك الموصل إلى

الأسباط بالسامرة، فكانت بينه وبينهم حروب كما نذكر. وقال ابن العميد: كانت على بني مؤاب جزية مضروبة لبني يهوذا مائتان من الغنم كل سنة، فمنعوها، واجتمع ملوك القدس والسامرة لحربهم وحاصروهم سبعة أيام، وفقدوا الماء فاستسقى لهم إليسع وجري الوادي. فخرج أهل مؤاب فظنوه ماء، فقتلهم بنو إسرائيل وأتخنوا فيهم.

وفي أيام يهورام رفع إيليا النبي وانتقل سره إلى اليسع، وكان على عهده من الأنبياء أيضاً عبوديا. ثم هلك يورام لثمان سنين من ملكه، ودفن عند جده داود، وولي بعده ابنه أحزيا هو، بهمزة مفتوحة وحاء مهملة مضمومة وزاي معجمة ساكنة ثم ياء مثناة تحتية تجلب ألفاً ثم هاء مضمومة تجلب واو، وأمّه عثليا بنت عمري أخت أخاب وسار سيرة خاله، وملك سنة واحدة، وقيل ستين، وخرج لقتال ملك الجزيرة والموصل واستنفر معه صاحب السامرة يورام ابن خاله أخاب، فاقتتلوا معه ثم انصرفوا وابن خاله جريح. وجاءه أحزيا هو في بعض الأيام يعود به وكان ابن يهوشافاط بن منشي من سبط منشا بن يوسف يترصد قتل يورام بن أخاب ملك السامرة، فأصاب فرصة في ذلك الوقت فقتلها جميعاً.

وقال ابن العميد: إن يورام بن أخاب ملك السامرة خرج لحرب أدوم، في رواية كلعاد وخرج معه أحزيا هو فقتل في تلك الحرب. قال: وقيل أن ياهوعشا رمى بسهم فأصاب يورام بن أخاب، وكان لعصره من الأنبياء إليسع وعامور وفتحاه. ثم ملك بعد أحزيا أمه عثليا بنت عمري كذا وقع اسمها في كتاب الطبري، وفي كتاب الإسرائيليات اسمها أضايلة. ويقال كانت من جوارى سليمان، ثم استفحل ملكها بالقدح وقتلت بني داود كلهم، وأغفلت ابناً رضيعاً من ولد أبيها أحزيا هو اسمه يواش، بضم الياء المثناة التحتانية ثم همزة مفتوحة تجلب ألفاً ثم شين معجمة، أخفته عمته يهوشع بنت يهورام في بعض زوايا القدس، وعلم بمكانه زوجها يهودياد وهو يومئذ الكوهرن الأعظم. حتى إذا كملت له سبع سنين، ونقم بنو يهوذا سيرة عثليا، اجتمعوا إلى يهودياد الكوهرن فأخرج لهم يواش بن أحزيا هو من مكانه، واستحلقتهم فبايعوا له وقتلوا جدته عثليا ومن معها لسبع سنين من ملكها.

وقام يواش يملكه في تدبير يهودياد الكوهرن، ثم أراد عبادة الأصنام، فمعه زكريا النبي فقتله. وكان لعده من الأنبياء إليسع وعوفريا وزكريا بن يهودياد. وهلك يهودياد لثلاث وعشرين سنة من ملك يواش بعد أن جدد يواش بيت المقدس، ولثمان ثلاثين من ملكه قبض إليسع النبي صلوات الله عليه، وعلى

عهده زحف شريال ملك الكسدانيين ببابل إلى بيت المقدس، ويقال ملك نينوى والموصل. وقال ابن العميد: ملك الشام فاعطاهم جميع ما في خزان الملك وبيت المقدس من الأموال، ودخل في طاعتهم إلى أن قتله وزاؤه وأهل دولته لأربعين سنة من ملكه. وولوا مكانه ابنه أمصياهو، بفتح الهمزة والميم وسكون الصاد المشمة بالزاي بعدها ياء مشنة تحتانية بفتحة تجلب ألفاً ثم هاء مضمومة تجلب واواً، واستبدوا عليه ثم ثار عليهم بأمره وقتلهم أجمعين. وسار إلى أدوم فظفر بهم، وقتل منهم نحواً من عشرين ألفاً، ثم زحف إليه ملك الأسباط بالسامرة ولقيه فهزمه وحصل في أسره.

وسار إلى بيت المقدس فحاصرها، وهدم من سورها نحواً من أربعمئة ذراع، واقتحمها فغنم ما في خزان بيت السلطان وبيت الهيكل من الأموال والأواني والذخائر ورجع إلى السامرة، فاطلق أمصياهو ملك القدس، فرجع إلى قومه ورم ما تلتهم من سورها. ولم يزل ملكاً حتى نعموا عليه أنعاله فقتلوه لسبع وعشرين سنة من ملكه. وكان لعهد من الأنبياء يونان وناحوم، وتنبأ لعصره عاموص. ولما قتلوا أمصياهو ولوا ابنه عزياهو، بعين مهلة مضمومة وزاي معجمة مكسورة مشددة وياه مشنة تحتانية تجلب ألفاً وهاء تجلب واواً، وطالت مدته ثلاثاً وخمسين سنة، واختلفت فيها أحواله.

قال ابن العميد: وخمس من ملكه كان ابتداء وضع سني الكيس التي هي سنة بعد أربع تزيد يوماً على الماضية بحساب ربع يوم في كل سنة الذي اقتضاه حساب مسير الشمس عندهم. قال: وليت من ملكه انقراض ملك الأرمن من الموصل وصارت إلى بابل، ولأثنين وعشرين من ملكه غزا ملك بابل واسمه فول مدينة السامرة فاقتحمها، وأعطاه ملكها بكرة من المال فرجع عنه. قال: ولعهده ملك على بابل رينوس ويلقب قطب الملك، ولعهده ملك على اليونانيين ملكهم الأول من مدينة أقياس لثلاث وعشرين سنة من تملك عزياهو. قال: ولإحدى وخمسين من ملكه ملك ببابل يمتنع الأول. قال: ولعهده أيضاً كان الملك الأول من الروم المقدوس ويسمى فروس. ولعهده كان من الأنبياء يوشع وغوزيا وأموص وأشعيا ويونس بن متى.

قال ابن العميد: وانتهت عساكر عزياهو إلى ثلثمائة ألف، وأصابه البرص بدعاء الكوهن لما أراد أن يخالف التوراة في استعمال البخور وهو محرم على سبط لاوي، فبرص ولزم يته سنة وصار ابنه يؤام ينظر في أمر الملك إلى أن تغلب على أبيه. قال هروشيوش: وعلى عهده أيضاً قتل شرديال آخر ملوك بابل من

قال هروشيوش: وعلى عهد أحاز كان انقراض ملك الماريس على يد كيرش ملك الفرس، ورجعت أعمالهم إليه ويقال: إن آخر ملوكهم هو اشتاتيش، وكان جد كيرش لأمه، وكفله صغيراً فلما شب وملك حارب جده فقتله وانتزع ملكه. وقال ابن العميد عن المسيحي: ولذلك العهد ملك على الروم الفرجة غير اليونان، الأخوان روملس ورومانس، واختط مدينة رومة. وقال هروشيوش: ولعهده ملك على الروم اللطينين بأرض أنطاكية روملس، ثم مركة وبنى مدينة رومة.

ثم هلك أحاز لست عشرة من ملكه، وولى ابنه حزقياهو، بجاء مهلة مكسورة وزاي معجمة ساكنة وقاف مكسورة وياه مشنة تحتانية مشددة تجلب ألفاً وهاء مضمومة تجلب واواً، فقطع عبادة الأوثان وسار سيرة جده داود، ولم يكن في ملوك بني يهوذا مثله. وعصى على ملك الموصل وبابل وتوريش وهزم فلسطين وخرب قراهم. وفي أيامه وأيام أبيه سار شليشار ملك الجزيرة الموصل إلى الأسباط بالسامرة فضرب عليهم الجزية، ثم سار في أيامه فأزال ملكهم. ولأربع من ملكه زحف إليه رضين ملك دمشق ورجع عنه من غير قتال. ولأربع عشرة من ملكه زحف إليه سنجاريف ملك الموصل بعد فتح السامرة، فافتتح أكثر مدائن يهوذا وحاصرهم ببيت المقدس. وصانعه حزقياهو بثلاثمائة قطار من الفضة وثلاثين من الذهب أخرج فيها ما كان في الهيكل وبيت الملك من المال ونثر الذهب من أبواب المسجد، دفع ذلك له ورجع عنه. ثم فسد ما بينهما وزحف إليه سنجاريف ثانياً وحاصره وامتنع من قبول مصانعته، وقال: من ذا الذي خلصه إلهه من يدي حتى يخلصكم أنتم إلهكم؟ فخافوا منه وفزعوا إلى النبي

وفي أيامه ملك الجوس بابل. وإحدى ثلاثين من دولته ملك فرعون الأعرج مصر وزحف لقتال مسيح بالفرات، فخرج يوشيا لحربه وانهزم يوشيا فهلك بسهم أصابه لاثنتين وثلاثين من دولته. وولي بعده ابنه يواش، ويقال اسمه يهرحاز فعطل أحكام التوراة، وأسأه السيرة، فزحف إليه فرعون الأعرج، وأخذه ورجع به إلى مصر فمات هنالك. وضرب على أرضهم الخراج مائة قنطار فضة وعشرة ذهباً، وكانت ولايته ثلاثة أشهر. ولولا مكانه أخاه الياقيم بن يوشيا، بهمة مفتوحة ولأم سائكة وباء مشاة تحتانية يجلب فتحها ألفاً وقاف مكسورة تجلب باء ثم ميم، وكان عاصياً كافراً، وكان يأخذ الخراج لفرعون من بني يهوذا على قدر أحوالهم.

ثم زحف إليه مجتصر ملك بابل لسبع من ولاية الياقيم فملك الجزيرة وسار إلى بيت المقدس فضرب عليهم الجزية أولاً، ودخل الياقيم في طاعته ثلاثة سنين، وسلط الله عليه آدم (وعمون) ومواب والكلدانيين، ثم انتفض عليه فصرح الجيوش إليه، فقبضوا عليه واحتملوه إلى بابل، فهلك في طريقه لإحدى عشرة سنة من ملكه. وولى مجتصر مكانه ابنه يخنو، بفتح الياء المثناة التحتانية بعدها خاء معجمة مضمومة ثم نون ساكنة وبعدها ياء تحتانية تجلب ضممتها واو، فأقام ثلاثة أشهر، ثم زحف إليه وحاصره، وأخرج إليه أمه وأشراف مملكته فأشخصهم إلى بلده. وجمع أهله ورجال دولته وسائر بني إسرائيل نحواً من عشرة آلاف، واحتلهم أسارى إلى بابل. وغنم جميع ما كان في الهيكل والخزائن من الأموال وجميع الأواني التي صنعها سليمان للمسجد، ولم يترك بمدينة القدس إلا الفقراء والضعفاء وبقي يخنو ملك بني إسرائيل محبوساً سبعاً وثلاثين سنة. وقال ابن العميد: إن مجتصر سار إلى القدس في الثالثة من ملكة الياقيم، وسبى طائفة منها، وانتهب جميع ما في بيت الهيكل. وكان في سنة دانيا وخانيا وعزاريا وميصال. وإن في السنة الخامسة من ملكه قاتل مجتصر فرعون الأعرج ملك مصر، وفي الثانية من ملك الياقيم غزا مجتصر القدس ووضع عليهم الخراج وأبقى الياقيم في ملكه وهلك لثلاث سنين بعد ذلك وملك ابنه يخنو. وكان لعهد من الأنبياء إرميا وأوريا بن شعيا وموري والد حزقيا. وفي أيامه تنبأ دانيال، ثم سار مجتصر ليخنو فأشخصه إلى بابل كما مر.

وقال الطبري وواقفه نقل هروشيوش: إن مجتصر ولى مكان يخنو بن الياقيم عمه متنياً، بجم مفتوحة وتاء مشاة فوقانية مفتوحة مشددة ونون ساكنة وباء مشاة تحتانية تجلب ألفاً، ويسمى صديهاو، وكان عاصياً قبيح السيرة، ولتسع سنين من ولايته

شعيا في الدعاء فأمهم منه ودعا عليه فوقع الطاعون في عسكره، ثم تواقعوا في بعض الليالي، فبلغ قتلهم مائة وعشرين ألفاً، ورجع سنجاريف إلى نينوى والموصل، فقتله أبناؤه وهربوا إلى بيت المقدس وملك ابنه السرمعون.

وقال الطبري: إن ملك بني إسرائيل أسر سنجاريف وأوحى الله إلى شعيا أن يطلقه فأطلقه. قال: وقيل إن الذي سار إليه سنجاريف من ملوك بني إسرائيل كان أعرج، وأن سنجاريف لعهد ملك أذربيجان، وكان يدعى سليمان الأعسر، فلما نزل بيت المقدس صار بينهما أحقاد كامنة، فتواقعوا وهلك عامة عسكرهما، وصار ما معهما غنيمة لبني إسرائيل، وبعت ملك بابل إلى حزقيا ملك الفرس بالهدايا والتحف، فأعظم موصلها، وبالف في كرامة الوفد وفخر عليهم بمزائنه وطوفهم عليها، ففكر ذلك عليه شعيا النبي وأندره بأن ملوك بابل يغمون جميع هذه الخزائن، ويكون من أبنائك خصيان في قصرهم. ثم هلك حزقيا هو تسع وعشرين سنة من ملكه، وولي ابنه متشا، بميم مكسورة ونون مفتوحة وشين معجمة مشددة ألف، وكان عاصياً قبيح السيرة، وكانت آثاره في الدين شنيعة، وأكر عليه شعيا النبي أفعاله، فقتله نيراً بالمناشير من رأسه إلى مفرق ساقيه، وقتل جماعة من الصالحين معه. وفي تاسعة وثلاثين من ملكه، ملك سنجاريف الصغير مملكته الموصل قاله ابن العميد. وفي الثانية والخمسين بنيت بوزنطية بناها بورس الملك، وهي التي جددتها قسطنطين وسماها باسمه. وفي أيامه ملك برومة قنوقرسوس الملك، وفي الحادية والخمسين من ملكه زحف سنجاريف ملك الموصل إلى القدس فحاصرها ثلاث سنين، وافتتحها في الرابعة والخمسين من ملكه. وولي بعده ابنه أمون، بهمة قرية من العين والميم مضمومة تجلب واو ثم نون، وكانت حاله مثل حال أبيه فملك ستين، وقيل اثنتي عشرة، ثم اغتاله عبيده فقتلوه.

واجتمع بنو يهوذا فقتلوا أولئك العبيد، وأقاموا ابنه يوشيا مكانه، وضبطه بواء مشاة تحتية مضمومة تجلب واو بعدها شين معجمة مكسورة ثم ياء مشاة تحتية بفتحها تجلب ألفاً. فلما ملك أحسن السيرة وهدم الأوثان وكان صالح الطريقة مستقيم الدين، وقتل كهنة الأصنام وهدم البيوت والمذابح التي بناها يريعام بن نباط بالبرابرة. وكان في أيامه من الأنبياء صفونا وكلدي امرأة شالوم وناحوم. وتنبأ لعهد إرميا بن الحيا من نسل هارون، وأخبرهم بالجلاء إلى بابل سبعين سنة، فأخذ يوشيا قبة القربان وتابوت العهد وأطبق عليهما في مغارة فلم يعرف مكانهما من بعد ذلك.

قال الطبري: وافترقت جالية بني إسرائيل في نواحي العراق إلى أن ردهم ملوك الفرس إلى القدس فعمروه وبنو مسجده. وكان لهم فيه ملك في دولتين متصلتين إلى أن وقع بهم الخراب الثاني والجلوة الكبرى على يد طيطش من ملوك القياصرة كما نذكر بعد. ولنذكر هنا ما وقع من الخلاف في نسب مختصر هذا، وإلى من يرجع من الأمم، فقد ذهب قوم إلى أنه من عقب سنجاريف ملك الموصل الذي كان يقاتل بني إسرائيل والسامرة بالقدس.

قال هشام بن محمد الكلبي فيما نقل الطبري: هو مختصر بن نبوزراذون بن سنجاريف، ثم نسب سنجاريف إلى ثمرود بن كوش بن حام الذي وقع ذكره في التوراة في ولد كوش وعد بين سنجاريف والتمروذ ستة عشر أباً أو نحوها أولهم داريوش بن فالغ وعصا بن ثمرود، أسماء غير مضبوطة يغلب على الظن تصحيفها لعدم دابة الأصول وقلة الوثوق بضبطها. وقيل إن مختصر من نسل أشود بن سام، ولم يقع إلينا رفع هذا النسب ولعله أصح من الأول لأنه قد تقدم نسب سنجاريف في الجرامقة ثم في الموصل منهم وهم من ولد أشود باتفاق من أهل فارس، نقله أيضاً الطبري عن ابن الكلبي، وأن اسمه مختمرسه فسمي مختصر، وكان يملك ما بين الأهواز والروم من غربي دجلة أيام هراسب ويستاسب وبهم من ملوك الفرس.

وأنه افتتح ما يليه من بلاد بابل والشام ثم سار إلى القدس فافتتحها كما تقدم، وقيل إن بهمن بعث رسله إلى القدس في طلب الطاعة منهم فقتلوه، فبعث بهمن أصهبذاً للناحية القريبة من مملكته، وبعث معه داريوس من ملوك ماري بن نابت، وكيرش بن كيكوس من ملوك بني غليم بن سام، وأحشوارش بن كيرش بن جاماهن من قرابته. وسار معهم مختصر بن نبوزراذون بن سنجاريف صاحب الموصل الذي لقومه البرأت في أهل القدس فكان ما وقع من الفتح. وقيل كان مختصر صاحب الموصل في مقدمتهم وكان الفتح على يده. وأما بنو إسرائيل فيزعمون أن مختصر من الكلدانيين، وهم ولد ناحور بن آزر أبي إبراهيم عليه السلام، وكان لهم الملك ببابل وكان مختصر هذا من أعقابهم، وكان مدة دولته خساً وأربعين سنة، وكان فتحة القدس لثمانية عشر من دولته. ومملك بعده أويل مروماخ ثلاثاً وعشرين سنة، ثم بعده ابنه فيلسنصر بن أويل ثلاث سنين، ثم غلب عليهم كوروش وأزال ملكهم، وهو الذي رد بني إسرائيل إلى بيت المقدس فعمروه وجددوا به ملكاً كما نذكره. وقد اختلف في كيرش الذي رد بني إسرائيل إلى القدس من هو بعد اتفاقهم على أنه من الفرس، فقيل: هو يستاسب ولم يكن ملكاً وإنما كان مملكاً على

انتقض على مختصر، فزحف إليه في العساكر وحاصر بيت المقدس وبنى عليها المدر للحصار، وأقام ثلاث سنين واشتد الحصار بهم، فخرجوا هاربين منها إلى الصحراء واتبعهم العساكر من الكلدانيين وأدركوهم في أريحا، فقبض على ملكهم صدقياهو وأتى به أسيراً فسلم عينيه. وقال الطبري: وذبح ولده عمراً منه، ثم اعتقله ببابل إلى أن مات. ولحق بعض من بني إسرائيل بالحجاز فأقاموا مع العرب، وكان لعهد من الأنبياء إرميا وحبقون وباروخ. وبعث مختصر قائده نبوزراذون، بنون مفتوحة وباء موحدة مضمومة تجلب وأواً بعدها زاي وراء مفتوحة تجلب ألفاً وذال مضمومة تجلب وأواً بعدها نون، بعثه إلى مدينة القدس، وكانوا يدعونها مدينة أورشليم، فخرّبها وخرّب الهيكل وكسر عمد الصفر التي نصبها سليمان في المسجد طول كل عمود منها ثمانية عشر ذراعاً وطول رؤوسها ثلاثة أذرع، وكسر صرح الزجاج وسائر ما كان بها من آثار الدين والملك، واحتمل بقية الأواني وما كان وجده من المتاع، وسبى الكهون سارية والخبر منشأ وخدمة الهيكل إلى بابل.

قال هروشيوش: وأبقى صدقياهو محبوساً ببابل إلى أن أطلقه بزداق قائد بهمن ملك الفرس حين غلبوا على بابل فأطلقه ووصله وأقطعه. وقال مؤرخ حاة وواقعه المسعودي: إن مختصر بعد تخريب القدس هرب منه بعض ملوك بني إسرائيل إلى مصر وبها فرعون الأعرج، وطلبه مختصر فأجاره فرعون وسار إليه مختصر فقتله وملك مصر. وافتتح من المغرب مدائن وبث فيها دعائه، وكان إرميا نبي بني إسرائيل من سبط لاوي، ويقال اسمه إرمياء بن خلقياء، وكان على عهده صدقياهو ووجده مختصر في محبسهم فأطلقه واحتمله معه في السبي إلى بابل، وقيل: إنه مات في محبسه ولم يدركه مختصر. وكذلك احتمل معهم دانيال بن حزقيال من أنبيائهم.

وقال ابن العميد: وولي جدليا بن أحيان على من بقي من ضعفاء اليهود بالقدس، ولسبعة أشهر من ولايته قام إسماعيل بن متنيا بن إسماعيل من بيت الملك قتل جدليا واليهود والكلدانيين الذي معهم، ثم هرب إلى مصر وهرب معه إرميا، وهرب حبقون إلى الحجاز فمات وكان قيماً ولحقهم بمصر. وتبأ إرميا في مصر وبابل وأورشليم وصور وصيدا وعمون ثمانية وثلاثين سنة، ورحمه أهل الحجاز فمات. وكان فيما أخيرهم به مسير مختصر إلى مصر وتخريبه هياكلها وقتله أهلها. ولما دخل مختصر مصر نقل جسده إلى الإسكندرية ودفنه بها، وقيل دفن بالقدس لوصيته. وأما حزقياهو فقتله اليهود في السبي.

من سبط أفرام كان والياً لسليمان على جميع نواحي يورشليم وهي بيت المقدس، وقيل إنما كان والياً على عمل بني يوسف بنابلس وما إليها، وكان جباراً وأن سليمان عوتب على ولايته من الله وانتقض ولحق بمصر، فلما قبض سليمان وولي ابنه رجبهم واختلف عليه بنو إسرائيل بما بلوا من سوء ملكته والزيادة في الضرائب عليهم، واجتمع الأسباط العشرة ما عدا يهوذا وبنيامين فاستقدموا يريعام بن نباط من مصر فبايعوا له وولوه الملك عليهم، وحاربوا رجبهم ومن في طاعته وهم سبط يهوذا وبنيامين، فامتنعوا عليهم بمدينة يروشليم، ثم انحازوا إلى جهة فلسطين في عمل بني يوسف. ونزل يريعام مدينة نابلس بملك الأسباط العشرة ومنعهم من الدخول إلى بيت المقدس والقربان فيه، وكان عاصياً مسخوط السيرة.

ولم يزل الحرب بينه وبين رجبهم بن سليمان وابنه أبياس من بعده واثني من ملك أسا بن أبياس، وكان أبياس ظاهراً عليه في حروبه، ثم هلك يريعام بن نباط لستين من ملك أبياس ولثلاث وعشرين من ملكه، فولي مكانه على الأسباط يوناذاب وكان على مثل سيرة أبيه من الجور وعبادة الأصنام، فسلط الله عليه بعشا بن أحيا فقتله وجميع أهل بيته لستين من ملكه. وقام بملك الأسباط فلم يزل يحارب أسا بن أبياس وأهل القدس سائر أيامه. وكان أسا يستمد عليه بملك دمشق من الأرمن. وسار معه إليه مرة، وكان أعشا بن أحيا نبي يثرب، فأجفل أمامهم وترك الآلات فأخذها أسا وبنى بها الحصون وهلك أعشا بن أحيا لأربع وعشرين سنة من ملكه ودفن في برصا مدينة ملكهم بعد أن أنذره بالهلاك نبههم فاهو.

ولما هلك ولي بعده ابنه إيليا، ويقال إيلهاو في السادسة والعشرين من ملك أسا فأقام سنين ثم بعث عساكر بني إسرائيل إلى محاصرة بعض المدن بفلسطين، فوثب عليه سبط من الأسباط من عقب كان يعرف زمري صاحب المراكب، ويقال ابن إليافا، فقتله وجميع أهل بيته وقام بالملك ومكث أياماً يسيرة خلال ما بلغ الخبر لبني إسرائيل بمكانهم من حصار فلسطين، فلم يرضوه وملكوا عليهم صسي بن كسات من سبطه ورجعوا إلى زمري المتوثب على الملك فحاصروه، فلما أحيط به دخل مجلس الملك وأوقد ناراً لتحرقه فاحترق فيه لسبعة أيام من فورتهم.

وكان عمري بن ناداب من سبط أفرام ويلقب صاحب الحرية يرادف صسي في الملك فقتله واستبد، وذلك في الحادية والثلاثين من ملك أسا. ثم اختلف عليه بنو إسرائيل ونصب بعضهم بنيامين فتال من سبك يساخرو، وحاربهم عمري فغلبهم. وكان ينزل مدينة برصا، ولست سنين من ملكه اختط مدينة

خوزستان وأعمالها من قبل كيقوس وبنجسون بن سياوش وهراسب من بعدهما، وكان عظيم الشأن ولم يكن ملكاً. وقيل: إن كيرش هو ابن أحشوارش بن جاماسب بن هراسب، وأبوه أحشوارش هذا الذي بعث بهمن. ولما رجع من ذلك الفتح بعثه إلى ناحية الهند والسند وانصرف إلى حصن الأبر فولاه بابل وتزوج من سبي بني إسرائيل ابنة أبي حاويل الرحا وأخت مردخاي من الرضاع، وهو من أنبياء بني إسرائيل. فتزعم النصراري أنها ولدت عند حيراحوارس إلى بابل ابنه كيرش هذا فحضنه مردخاي ولقنه دين اليهودية، ولزم سائر أنبيائهم مثل متتيا وعازريا وميثائل وعزيز. وولي دانيال أحكام دولته، وجعل إليه أمره وأذن له أن يخرج ما في الخزائن من السبي والذخائر والآنية ويرده إلى مكانه ويقوم في بناء القدس فعمره. وراجع بنو إسرائيل وسأله هؤلاء الأنبياء أن يرجعوا إلى بيت المقدس فمنعهم اغتباطاً بمكانهم. وقيل: إن كيرش هو كيرش بن كيكو بن غليم بن سام، وهو الذي كنا قدما أن بهمن بعثه مع قائده يحننصر إلى فتح بيت المقدس، وأن يحننمرس ملكه بهمن على بابل، وكان يسمى يحننمرسي كما ذكرنا، فملكها وملك ابنه من بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم ابنه يحننصر سنة واحدة، ثم بلغ بهمن سوء سيرته فعزله وولى على بابل داريوش المأذبة بن ماداي، ثم عزله وولى كيرش بن كيكو، وكتب إليه بهمن بأن يرفق ببني إسرائيل ويحسن ملكتهم، وأن يردهم إلى أرضهم ويولي عليهم من يختارونه، ففعل، فاختاروا دانيال من أنبيائهم فولاه. وقيل: وهو لعلماء بني إسرائيل أن يحننصر حافد يحننصر وهو ملك بابل والكلدانيين، وأن دارا ويسمى داريوش ملك مازي، وكورش وهو كيرش ملك فارس، كان في طاعته فانتقضا عليه وخرج إليهم في العساكر فانهزم أولاً، ثم بعث عساكره وقواده إليهم فهزمهم ثم قتله خادمه على فراشه. ولحق بداريوش وكورش وزحفا إلى بابل فغلبا الكلدانيين عليها، واختص دارا وقومه ماداي واطنهم الديلم ببابل ونواحيها. واختص كورش وقومه فارس بسائر الأعمال والكور، وكان كورش نذر ببناء بيت المقدس وإطلاق الجالية ورد الآنية، ثم هلك دارا وانفرد كورش بالملك على فارس وماداي ووفى بنذره هذا محصل الخلاف في يحننصر وكيرش والله أعلم.

الخبر عن دولة الأسباط العشرة وملوكهم

إلى حين انقراض أمرهم

قد تقدم لنا في دولة سليمان عليه السلام أن يريعام بن نباط

وقتل. ولما هلك ملك من بعده ابنه أحزيا ويقال أمشيا وكان عاصياً سيء السيرة قتل عاموص النبي وعبد بعلا الصنم وهلك لستين، فملك أخوه يوأم وقيل أنه تسع عشرة من ملك يهوشافاط ملك الفرس، فملك يوأم على الأسباط اثنتي عشرة سنة زحف فيها أولاً إلى مؤاب لما منعه الجزية التي كانت عليهم للأسباط مائتين من الغنم في كل سنة، واستنجد ملك يهوذا لحربهم فحاصرهم سبعة أيام وفقدوا الماء، فاستسقى لهم اليسع وجرى الوادي وخرج أهل مؤاب يظنون دماً، فقتلهم بنو إسرائيل. وجمع هداد ملك أدوم لحصار سامرة ونازلها ثلاث سنين، ثم دعا عليهم اليسع فاجفلوا ورجعوا إلى بلادهم.

وفي الثانية عشر من ملك يوأم ملك الأسباط ثار عليه يهوشافاط بن يشا من سبط منشا بن يوسف، وذلك عند منصرفه من محاربة ملوك الجزيرة وأدوم مع أحزيا بن يهورام ملك القدس، وكان جريحاً فعاده أحزيا وكان هذا الفتى ياهو يترصد قتل يوأم فامكنه الفرصة فيه تلك الساعة فقتله، وقتل معه أحزيا ملك القدس وبني يهوذا وملك على الأسباط. وقال ابن العميد: خرج يوأم بن أحآب ملك الأسباط لحرب أدوم ومعه أحزيا ملك القدس فقتلا جميعاً في تلك الحرب.

وقيل: إن ياهو بن منشا رمى بسهم فأصاب يوأم بن أحآب فمات. ولما ملك ياهو على الأسباط قتل بني أحآب كلهم كما أمره اليسع، وهلك خمس وثلاثين من ملكه، وولي ابنه يوأص، وقيل: يهوذا، ولثمان وعشرين من دولة يوأص بن أحزيا ملك يهوذا القدس وكان قبيح السيرة عبداً للأصنام وعمل مذبحاً بسامرة وهلك لسبع عشرة من ملكه، وولي بعده ابنه يوأش لسبع وثلاثين من دولة يوأص بالقدس وزحف إلى القدس فملكها من يد أمصيا ملك يهوذا، وهدم من سورها أربعمائة ذراع، وسبى أهل المقدس وسبى أهل عزريا الكوهن، وأخذ جميع ما في المسجد ورجع إلى سامرة. ومرض اليسع فعاده يوأش فوعده بأنه يهلك أدوم ويظفر بهم ثلاث مرات، فكان كذلك وهلك لثلاث عشرة سنة من ملكه. وولي من بعده ابنه يربعام وكان سيء السيرة وزحف إلى أمصيا ملك يهوذا.

وقيل: إن الذي زحف إلى أمصيا إنما هو يوأش أبوه، فهزمه وأخذه أسيراً وسار به إلى القدس فاقتمها عتوة وغنم جميع ما في خزائنها وسبى بني عزريا الكوهن. ورجع إلى السامرة فأطلق أمصيا، ثم لإحدى وأربعين سنة من ملكه، ولسبع وعشرين من ملك عزريا هو بن أمصيا ملك القدس. قال ابن العميد: وبقي بنو إسرائيل بالسامرة فوضى إحدى عشرة سنة، ثم ملكوا ابنه زكريا

السامرة ابتاع لها جبل شمران من رجل اسمه سامر بقطار فضة، وبني فيه قصوره وسميت سبسطية، ثم غلبت عليها النسبة إلى البائع. ويقال أن الاسم كان شومرون فعرب سامرة وأهملت شينها المثلثة، وكانت هذه المدينة مدينة ملكهم إلى انقراض أمرهم.

ثم هلك عمري لاثنتي عشرة سنة من ولايته ودفن في نابلس، وقام بملك الأسباط من بعده ابنه أحآب، وكان على مذهبه ومذهب سلفه منهم من الكفر والعصيان، وتزوج بنت ملك صيدا، وبني هيكلًا بسامرة وجعل فيه صنماً يسجد له وافحش في قتل الأنبياء، وبني قرية أريحا ودعا عليه إيليا النبي فحطوا ثلاث سنين خرج فيها إيليا إلى البرية فسكنها، ثم رجع فدعا وأنزل الله المطر وذبح الذين حملوا أحآب على عبادة الأصنام هكذا قال ابن العميد. والذي قاله الطبري: إن هذا النبي الذي دعا عليهم هو إلياس بن سين، وقيل ابن ياسين من نسل فنحاص بن العازار. وكان بعث إلى أهل بعلبك وإلى أحآب وقومه.

وقال الطبري: فكذبوه فأصابهم القحط ثلاثاً، ففزعوا إليه في الدعاء وباهلهم في أصنامهم فلم تغن شيئاً، فدعا لهم فمطروا، ثم أنهم أقاموا على ما كانوا عليه من الكفر والعصيان. وكان أحآب شديداً ودعا عليه إلياس ثم طلب من الله أن يتوفاه بعد أن أئثر الناس بهلاكه وهلاك قومه بل عقبه. وتبأ بعده اليسع بن أخطوب من سبط أفرام، وقيل ابن عم إلياس. وقال ابن عساكر: اسمه أسباط بن عدي بن شوليم بن أفرام.

قال الطبري: كان مستخفياً مع إلياس بجبل قاسيون من ملك بعلبك، ثم خلفه في قريته، انتهى كلام الطبري. وقال ابن العميد: في أيام أحآب أوحى الله إلى إيليا أن يبارك على إلياس بن يعسا ففعل ذلك، وأن يبارك على أدوم بدمشق، وعلى ياهو ملكاً على بني إسرائيل ففعل ذلك. وهو أيضاً على عهد أحآب فجاء سنداب ملك سورية فحاصر أحآب بن عمري والأسباط العشرة في السامرة، وخرجوا إليه فهزموه واستلحموا عامة عسكره، ثم رجع إليهم من العام القابل فخرجوا إليه وهزموه ثانياً وقتلوا من عسكره نحواً من مائة ألف، ومروا في أتباعهم، وامتنع سنداب في بعض حصونه وأحاطوا به فخرج إليهم ملقياً بنفسه على ملكهم أحآب، فغذا عنه وردة إلى ملكه، وسخط ذلك النبي من فعله وأئذره بغذاب يصيب ولده عقوبة من الله تعالى على إيقاعه عليهم. ثم خرج أحآب من ملك الأسباط مع يهوشافاط ملك يهوذا المقدس لمحاربة ملك سورية، فأصابه سهم هلك فيه ودفن بسامرة لاثنتين وعشرين سنة من ملكه. قال ابن العميد: وقيل لثمان عشرة. وقال إنما خرج لحرب كلعاد ملك أدوم فانهزم

الخبر عن عمارة بيت المقدس بعد الخراب الأول وما كان لبني اسرائيل فيها من الملك في الدولتين لبني حشمناي وبني هيردوس إلى حين الخراب الثاني والجلوة الكبرى

هذه الأخبار التي كانت لليهود ببيت المقدس والملك الذي لهم في العمارة بعد جلاء مختصر وأمر الدولتين اللتين كانتا لهم في تلك المدة، لم يكتب فيها أحد من الأئمة ولا وقفت في كتب التواريخ مع كثرتها واتساعها على ما يلم بشيء من ذلك. ووقع بيدي وأنا بمصر تأليف لبعض علماء بني إسرائيل من أهل ذلك العصر في أخبار البيت والدولتين اللتين كانتا بها ما بين خراب مختصر الأول وخراب طيطس الثاني الذي كانت عنده الجلوة الكبرى، استوفى فيها أخبار تلك المدة بزعمه، ومؤلف الكتاب يسمى يوسف بن كريون وزعم أنه كان من عظماء اليهود وقوادهم عند زحف الروم إليهم، وأنه على صولة فحاصره أسبانوس أبو طيطس واقتحمها عليه عنوة، وفر يوسف إلى بعض الشعاب وكمن فيها ثم حصل في قبضته بعد ذلك، واستبقاه ومن عليه وبقي في جلته. وكانت له تلك وسيلة إلى ابنه طيطس عندما أجلى بني إسرائيل عن البيت فتركه بها للعبادة كما يأتي في أخباره. هذا هو التعريف بالمؤلف.

وأما الكتاب فاستوعب فيه أخبار البيت واليهود بتلك المدة وأخبار الدولتين اللتين كانت به لبني حشمناي وبني هيردوس من اليهود، وما حدث في ذلك من الأحداث فلخصتها هنا كما وجدت فيهما في أنني لم أقف على شيء فيها لسواء، والقوم أعلم بأخبارهم إذا لم يعارضها ما يقدم عليها. وكما قال عليه السلام: «لا تصدقوا أهل الكتاب». فقد قال «ولا تكذبوهم». مع أن ذلك إنما هو راجع إلى أخبار اليهود وقصص الأنبياء التي كان فيها التنزيل من عند الله لقوله بعد ذلك: «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا». وأما الخبر عن الواقعات المستندة إلى الحسن فخير الواحد كاف فيه إذا غلب على الظن صحته، فينبغي أن تلحق هذه الأخبار بما تقدم من أخبارهم لتكمل لنا أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره والله أعلم. ولم أترمز صدقه من كذبه والله المستعان.

قال الطبري وغيره من الأئمة: كان يرميا ويقال: أرميا بن خلقيا من أنبياء بني إسرائيل ومن سبط لاوى وكان لعهد صديقا هو آخر ملوك بني يهوذا ببيت المقدس، ولما توغّلوا في الكفر والعصيان أنذرهم بالهلاك على يد مختصر وسأله عنه وأطلقه

في الثامنة والثلاثين من ملك عزياهو فملك ستة أشهر، وقال ابن العميد: شهراً، ثم وثب به مناخيم بن كاد من سبط زبلون من أهل برصا فقتله، وملك مكانه اثنتي عشرة سنة. وقال ابن العميد: عشر سنين. قال وفي التاسعة والثلاثين من ملك عزياهو خرج إلى مدينة برصا ففتحها عنوة واستباحها، وزحف إليه فول ملك الموصل فسانعه بالف قطار من الفضة ورجع عنه، وكانت سيرته رديئة، ولما هلك مناخيم ملك ابنه بقحيا لأربعين من دولة عزيا ملك القدس فأقام فيهم اثنتي عشرة سنة، وقال ابن العميد: ستين. ثم ثار عليه من عماله باقح بن رسلينا وكان على طريقة من تقدمه في الضلال فأقام ملكاً على الأسباط بالسامرة عشرين سنين، وهلك لدولته عزيا بن أمصيا ملك يهوذا بالقدس، وأقام باقح بن رسلينا على سوء السيرة وعبادة الأصنام إلى أن قتله هوشيع بن إيليا من سبط جاد في الثالثة من ملك يؤاب ملك القدس، وبقي الأسباط بعده فوضى عشر سنين، ثم ملكوا قتله هوشيع بن إيليا المذكور، فأقام ملكاً عليهم سبع سنين وفي أيامه زحف إليه ملك أثور والموصل فصير الأسباط في دولته وأدوا إليه الخراج، ثم إن هوشيع راسل ملك مصر في الاستعانة به والرجوع إلى طاعته، فلما بلغ ذلك إلى ملك الموصل زحف إليه وحاصره في مدينة السامرة ثلاث سنين واقتحمها في الرابعة.

وتقبض على هوشيع لتسع سنين من ملكه ونقله مع الأسباط كلهم إلى الموصل، ثم بعثهم إلى قرى أصبهان وأنزلهم بها، وقطع ملك بني إسرائيل من السامرة وبقي ملك يهوذا وبنيامين بالقدس، وكان ذلك لعهد أحزيا بن أحاز من ملوكهم لسنة من دولته، وتعاقت ملوكهم بعد ذلك بالقدس إلى أن انقرضوا، وجمع ملك الموصل من كوره غاراً وحماة وصفرارام، ويقال: ومركنا وأسكنهم بالسامرة. قال ابن العميد: وتفسيرها حفيظة ويوآطر. قالوا: وسلط الله عليهم السباع يفترسونهم فبعثوا إلى ملك الموصل أن يعرفهم بصاحب قسمة السامرة من الكواكب ليتوجهوا إليه بما يناسبه على طريقة الصابئة، ف قيل: إن العشرة التي رسخت فيها وهي دين اليهودية تمتع من ذلك ومن ظهور أثره. فبعث إليهم كوهنين من عامة اليهود يلعمانهم اليهودية فتلقوا عنهما، فهذا أصل السامرة في فرق اليهود وليسوا منهم عند أهل ملتهم لا في نسبهم ولا في دينهم، والله مالك الأمور لا رب غيره ولا معبود سواه سبحانه وتعالى.

والكلمات عبرانية، وهي أحصى وزن نفذ، فارتع لذلك هو والحاضرون وفتح إلى دانيال النبي في تفسيرها.

قال وهب بن منبه وهو من أعقاب حزقيال الأصغر وكان خلفاً من دانيال الأكبر، فقال له دانيال: هذا الكلمات تنذر بزوال ملكك ومعناها أن الله أحصى مدة ملكك، ووزن أعمالك، ونفذ قضاؤه بزوال ملكك عنك وعن قومك. وقتل تلك الليلة بـلنتصر، وكان ما قدمناه من استقلال كورش وقومه فارس بالملك ورد الجالية إلى بيت المقدس، وأطلق لهم المال لعمارتها شكراً على الظفر بالكلدانيين ومضى بنو إسرائيل ومعهم عزرا الكاهن ونحميا ومردخاي وجميع رؤساء الجالية بينون البيت والمذبح على حدودها وقربوا القرايين. وكان كورش بعد ذلك يطلق لهم في كل سنة من الخطة والزيت والبقر والغنم والخمر ما يحتاجون إليه في خدمة البيت ويطلق لهم جارية واسعة.

وجرى ملوك الفرس بعده على سته في ذلك إلا قليلاً في أيام أخشرووش منهم، كان وزيره هامان وكان من العمالة، وكان طالوت قد استخلفهم بأمر الله، فكان هامان يعاديهم لذلك وعظمت سعائته فيهم وحمله على قتلهم. وكان مردخاي من رؤسائهم قد زوج أخته من الرضاع لأخشرووش، فهدس إليها مردخاي أن تشفع إلى الملك في قومها قبلها وعطف عليهم وأعادهم إلى أن انقرضت دولة الفرس بمهلك دارا، واستولى بنو يونان بمهلك دارا على ملك فارس.

وملك الإسكندر بن فيلوس ودوخ الأرض، وفتح سواحل الشام، وسار إلى بيت المقدس لأنها من طاعة دارا، وخاف الكهنة من وصوله إليهم، ورأى في بعض تمثال رجلاً فقال: أنا رجل أرسلت لمعوتك. ونهاه عن أذية المقدس، وأوصاه بامثال إشارتهم. فلما وصل إلى البيت لقيه الكهنة، فبالغ في تعظيمه ودخل معه إلى الهيكل، وبارك عليه، ورغب إليه الإسكندر أن يضع هنالك تمثاله من الذهب ليذكر به، فقال هذا حرام لكن تصرف همتك في مصالح الكهنة والمصلين ويجعل لك من الذكر دعاؤهم لك، وأن يسمى كل مولود لبني إسرائيل في هذه السنة بالإسكندر، فرضي الإسكندر وحمل لهم المال وأجزل عطية الكهنة، وسأله أن يستخير الله في حرب دارا، فقال له: امض والله مظفرك. وحض دانيال وقص عليه الإسكندر رؤيا رآها فأولها له بأنه يظفر بدارا.

ثم انصرف الإسكندر وسار في نواحي بيت المقدس، وممر بنابلس ولقيه سنبلات السامري، وكان أهل المقدس أخرجه عنهم، فأضافه وأهدى له أموالاً وأمتعة واستأنفه في بناء هيكل في

واحتمله معه في السي، وكان فيما يقوله أرميا إنهم يرجعون إلى بيت المقدس بعد سبعين سنة يملك فيها بختنصر وابنه وابن ابنه ويهلكون وإذا فرغت مملكة الكلدانيين بعد السبعين يفتدكم. يخاطب بذلك بني إسرائيل في نص آخر له عند كمال سبعين لخراب المقدس. وكان شعيا بن أمصيا من أنبيائهم أخبرهم بأنهم يرجعون إلى بيت المقدس على يد كورش من ملوك الفرس، ولم يكن وجد لذلك العهد، فلما استولى كورش على بابل وأزال مملكة الكلدانيين أذن لبني إسرائيل في الرجوع إلى بيت المقدس وعمارة مسجدها، ونادى في الناس أن الله أوصاني أن أبني بيتاً فمن كان لله وسعيه لله فليمض إلى بنائه. فمضى بنو إسرائيل في اثنين وأربعين ألفاً وعليهم زيريافيل - بالفاء الهوائية - بن شالتهيل بن يوخنيا آخر ملوكهم بالمقدس الذي حبسه بختنصر وقد مر ذكره. وقد مضى معهم عزيز من عقب أشيوع بن فنحاص ابن العازر بن هارون وبينه وبين أشيوع سنة آباء. لم أثنى بقلها لغلبة الظن بأنها مصحفة، ورد عليهم كورش الأواني وكانت لا يعبر عنها من الكثرة.

قال ابن العميد: كانت خمسة آلاف وأبعمائة قصعة ذهباً وفضة. فمضوا إلى بيت المقدس وشرعوا في العمارة وشرع كورش وسعى عليهم في إبطال ذلك بعض أعدائهم من السامرة، ولم يكن أمد السبعين التي وعدهم بها انقضى، لأن الخراب كان لثمان عشرة من ملك بختنصر وكانت دولته خمسة وأربعين ومدة ابنه وابنه خمس وعشرون، فبقيت من السبعين ثمانية عشر التي نفذت من ملك بختنصر قبل الخراب، فمنعوا من العمارة بسعاية السامرة إلى أن انقضت الثمان عشرة. وجاءت دولة دارا من ملوك الفرس فأذن لهم في العمارة وعاد السامرة لسعائتهم في إبطال ذلك عند دارا، فأخبره أهل دولته أن كورش أذن لهم في ذلك فخلى سبيلهم وعمروا بيت المقدس في الثانية من ملك دارا الأول، وهو أرفخشد الكوهن يومئذ عزيز، وجدد لهم التوراة بعد ستين من رجوعهم إلى البيت. ثم هلك زيريافيل وخلفه فيهم بهشمياس، وقبض العزيز وخلفه شمعون الصفا من بني هارون أيضاً.

وقال يوسف بن كريون: إن بختنصر لما رجع إلى بابل أقام ملكاً سبعاً وعشرين سنة، وملك بعده ابنه بـلنتصر ثلاث سنين، وانقض عليه داريوش ملك مادي، وأظنهم الديلم وكبرش ملك فارس، وهزمتهم عساكره كما مر، فعمل في بعض أيامه صنيعاً لقواده سروراً بالواقع، وسقاهم في أواني بيت المقدس التي احتملها جده من الهيكل، فسخط الله لذلك ورأى تلك الساعة كأن يداً خرجت من الحائط تومي بكتابة كلمات بالخط الكلداني

فليلقوس، وأمره أن يحملهم على بيت المقدس قائده فليلقوس، وأمره أن يحملهم على السجود لأصنامهم وعلى أكل الخنزير وترك السبت والختان، ويقتل من يخالفه. ففعل ذلك أشد ما يكون، ويسط على اليهود أيدي أولئك الأشرار الساعين، وقتل العازر والكوهن الذي ترجم لهم التوراة لما امتنع من السجود لصنمه وأكل قريانه.

وكان فيمن هرب إلى الجبال والبراري متيتيا بن يوحنا بن شمعون الكوهن الأعظم ويعرف بمشمئني بن حونيا من بني نوداب من نسل هارون عليه السلام، وكان رجلاً صالحاً خيراً شجاعاً، وأقام بالبرية وحزن لما نزل بقومه. فلما أبعد أنطيوخوس الرحلة عن القدس، بعث متيتيا إلى اليهود يعرفهم بمكانه، وينمض لهم ويعرضهم على الثورة على اليونانيين، فأجابوه وتراسلوا في ذلك، وبلغ الخبر - فليلقوس قائد أنطيوخوس، فسار في عسكره إلى البرية طالباً متيتيا وأصحابه، فلما وصل إليهم حاربهم فغلبوه وانهمز في عساكره، وقرى اليهود على الخلاف، وهلك متيتيا خلال ذلك وقام بأمره ابنه يهوذا فهزم عساكر فليلقوس ثانية. وشغل أنطيوخوس بحروب الفرس فزحف إليهم من مقدونية، واستخلف عليهم ابنه أفطر، وضم إليه عظيمًا من قومه اسمه لشاوش، وأمرهم أن يبعثوا العساكر إلى اليهود، فبعثوا ثلاثاً من قوادهم وهم نيقانور وتلميذاس وصرودوس، وعهد إليهم بإبادة اليهود حيث كانوا فسارت العساكر، واستنفروا سائر الأرمن من نواحي دمشق وحلب، وأعداء اليهود من فلسطين وغيرهم. وزحف يهوذا بن متيتيا مقدم اليهود للقائهم بعد أن تضرعوا إلى الله وطافوا بالبيت وتمسحوا به، ولقيهم عسكر نيقانور فهزموه، وأتخنوا فيه بالقتل، وغنموا ما معهم، ثم لقيهم عسكر القائد ابن تلميذاس وهيرودوس ثانياً فهزموهما كذلك، وقبضوا على فليلقوس القائد الأول لأنطيوخوس فأحرقوه بالنار، ورجع نيقانور إلى مقدونية فدخلها وخبر ليشاوش وأفطر ابن الملك بالهزيمة، فجزعوا لها.

ثم جاءهم الخبر بهزيمة أنطيوخوس أمام الفرس، ثم وصل إلى مقدونية واشتد غيظه على اليهود، وجمع لغزوهم فهلك دون ذلك بطاعون في جسده، ودفن في طريقه، وملك أفطر وسموه أنطيوخوس باسم أبيه ورجع يهوذا بن متيتيا إلى القدس، فهدم جميع ما بناه أنطيوخوس من المذابح وأزال ما نصبه من الأصنام، وطهر المسجد، وبنى مذبحاً جديداً للقربان، فوضع فيه الخطب ودعا الله أن يريهم آية في اشتعاله من غير نار، فاشتعل كذلك ولم ينطفئ إلى الحراب الثاني أيام الجلوة، واتخذوا ذلك اليوم عيداً سموه عيد

طول بريد فاذن له، فبناه وأقام صهره منشاً كوهناً فيه، وزعم أنه المراد بقوله في التوراة اجعل البركة على جيل كريددم. فقصده اليهود في الأعياد، وحملوا إليه القرابين وعظم أمره، وغص بشأته أهل بيت المقدس، إلى أن خربه هرمايوس بن شمعون أول ملوك بني حشماني كما يأتي ذكره.

ثم هلك الإسكندر بابل بعد استيفاء مدته لاثنتين وثلاثين من ملكه وقد كان قسم ملكه بين عظماء دولته، فكان سلياقوس بعد الإسكندر وكان عظيم أصحابه، فأكرم اليهود وحمل المال إلى فقراء البيت، ثم سعى عنده بأن في الهيكل أموالاً وذخائر نفيسة وورغوه في ذلك، فبعث عظيمًا من قواده اسمه أردوس ليقبض ذلك المال فحضر بالبيت، وأنكر الكاهن حنينان أن يكون بالبيت إلا بقية الصدقات من فارس ويونان وما أعطاهم سلياقوس آنفاً، فلم يقبل، ووكّل بهم في الهيكل فتوجهوا بالدعاء. وجاء أردوس ليقبض المال فصعد في طريقه، وجاء أصحابه إلى الكوهن حنينان وجماعة الكهنة يسألون الإقالة والدعاء لأردوس، فدعوا له وعوفي وارتحل وازداد الملك سلياقوس إعظاماً للبيت وحمل ما كان يحمل إليهم مضاعفاً.

قال ابن كريون: ثم ترجمت التوراة لليونانيين وكان من خبرها أن تلميذ ملك مصر من اليونانيين بعد الإسكندر، وكان من أهل مقدونية، وكان محباً للعلوم ومشغوفاً بالحكمة والكتب الإلهية. وذكرت له كتب اليهود الأربعة والعشرون سفيراً فتأقت نفسه للوقوف عليها، وكتب إلى كهنة القدس في ذلك وأهدى له، فاختار سبعين من أحبار اليهود وعلمائهم، وفيهم كوهن عظيم اسمه العازر، وبعثهم إليه ومعهم الأسفار فتلقاهم بالكرامة وأوسع لهم النزول ورتب مع كل واحد كاتباً يملأ عليه ما يترجم له، حتى ترجم الأسفار من العبرانية إلى اليونانية وصححها وأجاز الأحبار وأطلق لهم من كان بمصر من سبي اليهود نحواً من مائة ألف، وصنع مائدة من الذهب نقش عليها صورة أرض مصر والنيل ورصعها بالجواهر والفصوص وبعث بها إلى القدس فأودعت في الهيكل.

ثم هلك تلميذ صاحب مصر، واستولى بعده أنطيوخوس صاحب مقدونية على أنطاكية ثم على مصر، وأطاعه ملوك الطوائف بأرض العراق، واستفحل ملكه وعظم طغيانه، وأمر الأمم بعبادة الأصنام. وعمل أصناماً على صورته، فامتنع اليهود من قبولها وسعى بهم عند بعض شرارهم، وكانوا أهل نجدة وشوكة، فسار أنطيوخوس إليهم وأتخن فيهم بالقتل والسبي، وفروا إلى الجبال والبراري، فرجع واستخلف على بيت المقدس قائده

المقدس، وفروا عن ملكهم يهوذا وافترقوا في الشعاب، وأقام معهم منهم قل قليل، واتبعهم يعترس فلقية يهوذا وأمكن له فانهزم اليهود، وخرج عليهم كمين الروم فقتل يهوذا في كثير من ولايته ودفن إلى جانب أبيه متيتيا. ولحق أخوه يوناتال فيمن بقي من اليهود، بنواحي الأردن وتحصنوا بيتر سبع، فحاصروهم يعترس هنالك أياماً، ثم يتوه فهزموه.

وخرج يوناتال واليهود في اتباعه فقبضوا عليه، ثم أطلقوه على مسألة اليهود وأن لا يسير إلى حريمهم. فهلك يوناتال إثر ذلك وقام بأمر اليهود أخوهما الثالث شمعون، فاجتمع إليه اليهود من كل ناحية وعظمت عساكره، وغزا جميع أعدائهم ومن ظاهر عليهم من سائر الأمم، وزحف إليه دمترياس قائد الروم بأنطاكية فهزمه شمعون وقتل غالب عسكره.

ولم تعادهم الروم بعدها بالحرب إلى أن هلك شمعون. وثب عليه صهره تلميذ زوج أخته فقتله وتقبض على بنيه وامراته، وهرب ابنه الأكبر قاتوس بن شمعون إلى غزة فامتنع بها، وكان اسمه يوحنا وكان شجاعاً قتل في بعض الحروب شجاعاً اسمه هرقانوس فسماه أبوه باسمه.

ثم اجتمع عليه اليهود وملكوه وسار إلى بيت المقدس، وفر تلميذ المتوثب على أبيه إلى حصن داخون فامتنع به، وسار هرقانوس إلى محاربه وضيق عليه، وأشرف تلميذ في بعض الأيام من فوق السور بأمر هرقانوس وأخته يتهددهما بقتلهما، فكف عن الحرب، وانصرف لحضور عيد المظال ببيت المقدس فقتل تلميذ أخته وأمه وفر من الحصن، قال ابن كريون: ثم زحف دمترياس بن سلياقوس قائد الروم إلى القدس وحاصر اليهود فامتنعوا، ولثم السور، ورأسلوه في تأخير الحرب إلى انقضاء عيدهم، ففعل على أن يكون له نصيب في القربان. ووقعت في نفسه صاغية إليهم، وأهدى تمثيل للبيت فحسن موقعها عندهم، ورأسلوه في الصلح على المسألة والمظاهرة لبعض فأجاب، وخرج إليه هرقانوس ملك اليهود وأعطاه ثلثمائة بدره من الذهب استخرجها من بعض قبور داود.

ورحل عنهم الروم، وشغل هرقانوس في رم ما ثلم من السور، وحدث خلال ذلك فتنة بين الفرس والروم فسار إليهم دمترياس في جموع الروم، وبينما أبطأ هرقانوس ملك اليهود لحضور عيدهم إذ جاءه الخبر بأن الفرس هزموا دمترياس، فنهز الفرصة وزحف إلى أعدائه من أهل الشام وفتح نابلس وحصون أدوم التي يجبل الشراة، وقتل منهم خلقاً، ووضع عليهم الجزية وأخذهم بالختان والتزام أحكام التوراة، وغرب الهيكل الذي بناه

العساكر، ونازل ليشاوش فزحف إليه يهوذا بن متيتيا في عسكر اليهود وثبت عسكر ليشاوش فانهزموا، ولجأ إلى بعض الحصون وطلب النزول على الأمان على أن لا يعود إلى حريمهم، فأجابه يهوذا على أن يدخل أظفر معه في العقد وكان ذلك. وتم الصلح وعاهد أظفر اليهود على أن لا يسير إليهم، وشغل يهوذا بالنظر في مصالح قومه.

قال ابن كريون: وكان لذلك العهد ابتداء أمر الكتيثم وهم الروم، وكان برومية وكان أمرهم شوري بين ثلثمائة وعشرين رئيساً، ورئيس واحد عليهم يسمونه الشيخ يدبر أمرهم، ويدفعون للحروب من يتقون بغنائه وكفايته منهم أو من سواهم. هكذا كان شأنهم لذلك العهد، وكانوا قد غلبوا اليونانيين واستولوا على ملكهم، وجازوا البحر إلى إفريقية فملكوها كما يأتي في أخبارهم، فأجمعوا السير إلى أنطيوخوس أظفر وابن عمه ليشاوش بقية ملوك يونان بأنطاكية، وكتبوا يهوذا ملك بني إسرائيل بالقدس يستميلونهم عن طاعة أنطيوخوس واليونانيين فأجابهم في ذلك.

وبلغ ذلك أنطيوخوس فنيذ إلى اليهود عهدهم وسار إلى حريمهم فهزموه ونالوا منه. ثم أرسلهم في الصلح وأن يقيموا من على عهدهم معه ويعمل لبيت المقدس بما كان يحمله من المال، وأن يقتل من عنده من شرار اليهود الساعين عليهم، فتم العهد بينهم على ذلك وقتل شملوش من الساعين على اليهود، ثم جهز أهل رومة قائد حروبهم دمترياس بن سلياقوس إلى أنطاكية، ولقيه أنطيوخوس أظفر فانهزم أنطيوخوس وقتل هو وابن عمه ليشاوش، وملك الروم أنطاكية. ونزلها قائدهم دمترياس وكان أقيموس الكوهن من شرار اليهود عند أنطيوخوس، فلما ملك دمترياس قائد الروم فسعى عنده في اليهود ورغبة في ملك القدس والاستيلاء على أمواله، فبعث قائده نيقانور لذلك وخرج يهوذا ملك القدس لتلقيه وطاعته، وقدم بين يديه الهدايا والتحف، فمال نيقانور إلى مسألة اليهود وحسن رأيه وأكد بينه وبينهم العهد. ورجع وبادر أقيموس الكوهن إلى دمترياس وأخبره بميل قائده نيقانور إلى اليهود، وزاد في إغرائه فبعث إلى قائده ينكر عليه ويستحثه لإنفاذ أمره وأن يحمل يهوذا مقيداً، وبلغ ذلك يهوذا فلحق بمدينة السامرة صبطية، واتبعه نيقانور في العساكر فكر عليه يهوذا وهزمه وقتل أكثر عساكر الروم الذين معه. ثم ظفر به فضليه على الهيكل ببيت المقدس، واتخذ اليهود ذلك اليوم عيداً وهو ثالث عشر آذار.

ثم بعث قائد الروم دمترياس من قابل الآخر يعترس في ثلاثين ألفاً من الروم لمحاربة اليهود، وخرجت عساكرهم من

وعلم أرسطوبولس أن قد خدع في أخيه، فقدم واغتم ولطم صدره حتى قذف الدم من فيه، وأقام عليلًا بعده حولًا كاملًا ثم هلك. فأقرجوا عن أخيه الإسكندر من عصبه، ويأبوا له بالملك واستقام له الأمر، ثم انتقض عليه أهل عكا وأهل صيدا وأهل غزة بعثوا إلى قبرص، وسار الإسكندر إلى عكا فحاصرها وكانت كلوبطرة ملكة من بقية اليونان قد انتقض عليها ابنها واسمه الظيرو وأجاز البحر إلى جزيرة قبرص فملكها، فبعث أهل عكا أنهم يملكونه وأجاز إليهم في ثلاثين ألف مقاتل، حتى إذا أفرج الإسكندر عن حصارهم راجعوا أمرهم ومنعوا الظيرو من الدخول إليهم، فسار في بلاد الإسكندر ونزل على جبل الخليل فقتل منه خلقًا، ونزل على الأردن.

وفي خلال ذلك زحف الإسكندر إلى صيدا ففتحها عنوة واستباحها، وعاد إلى القدس وأطاعته البلاد وحسم ذاء المتقضين عليه، ثم تجددت الفتنة بين اليهود بالقدس وذلك أنهم اجتمعوا في عيد المظال بالمسجد، وحضر الإسكندر معهم فتلاعوا بين يديه مرامة بما عندهم من مشوم ومأكول، وأصاب الإسكندر رمية من الرباين فغضب لها، وشاتمهم القراون بما كانوا من شيعته، فشتوا الإسكندر وقتلوا الشاتم وأصحابه فلم يغن عنهم، وعظم فيهم الفتنك وانفض الجمع، وعهد الإسكندر أن يستد المذبح والكهنة بحافط عن الناس، ونفذ أمره بذلك.

واتصلت الفتنة بين اليهود ست سنين قتل من الرباين نحو من خمسين ألفًا، والإسكندر يعين القرائين عليهم، وبعثوا إلى دمتریوس المسمى أنطيوخوس وذلوا له المال، فسار معهم إلى نابلس ولقي الإسكندر فهزمه وقتل عامة أصحابه ورجع. فخرج الإسكندر إلى الرباين وأثن فيهم وظفر منهم بجماعة تزيد على ثلثمائة فقتلهم صبرًا وقهر سائر اليهود. وسار إلى دمتریوس ففتح للكثير من بلاده وخرج فظفر به الإسكندر وقتله وعاد إلى بيت المقدس لثلاث سنين في محاربة الرباين ودمتریوس.

فاستقام أمره وعظم سلطانه ثم طرقه المرض فقام عليلًا ثلاثًا آخرين، وخرج بعدها لحصار بعض الحصون وانتقضوا عليه فمات هنالك، وأوصى امرأته الإسكندرة بكتمان موته حتى يفتح الحصن وتسير بشلوه إلى القدس فتدفنه فيه، وتضائع الرباين على ولدها فتملكه، لأن العامة إليهم أميل. ففعلت ذلك واستدعت من كان نافرًا من الرباين، وجمعتهم وقدمتهم للشورى، واستبدت بالملك.

وكان لها ابنان من الإسكندر بن هرقانوس، اسم الأكبر منهما هرقانوس، والآخر أرسطوبولس، وكانا صغيرين عند موت

سنبلاط السامري في طول يريد بإذن الإسكندر، وقهر جميع الأمم المجاورين لهم، ثم بعث وجوه اليهود وأعيانهم إلى الأشياخ والمديرين برومة يسأل تجديد العهد، وأن يردوا على اليهود ما أخذ أنطيوخوس ويونان من بلادهم التي صارت في مملكة الروم، فأجابوا وكتبوا له العهد بذلك وخاطبوه بملك اليهود. وإنما كان يسمى من سلف قبله من آبائه بالكوهن فسمى نفسه من يومئذ بالملك، وجمع بين منزلة الكهنة ومنزلة الملك، وكان أول ملوك بني حشمتاني. ثم سار إلى مدينة السامرة صلبطية ففتحها وخربها وقتل أهلها. قال ابن كريون: وكان اليهود في دينهم يومئذ ثلاث فرق: فرقة الفقهاء وأهل القيافة ويسمونهم القروشم وهم الربايون، وفرقة الظاهرية المتعلقة بظواهر الألفاظ من كتابهم ويسمونهم الصدوقية وهم القراون، وفرقة العباد المنقطعين إلى العبادة والتسبيح والزهاد فيما سوى ذلك ويسمونهم الحسيد.

وكان هرقانوس وآبأؤه من الرباين، فسارق مذهبهم إلى القرائين لأنه جمع اليهود يومًا عندما تمهد أمره، وأخذ بمذاهب الملك، ولقي به في صنع احتفل به وآلان لهم جانبه وخضع في قوله وقال: أريد منكم النصيحة. فطمع بعض الرباين فيه وقال: إن النصيحة أن تنزل عن الكهنة وتقتصر على الملك، وقد فاتك شرطها لأن أمك كانت سبية من أيام أنطيوخوس. فغضب لذلك وقال للرباين: قد حكمتكم في صاحبكم فأخذوا في تأديبه بالضرب فتنمر لهم من أجل ذلك، وفارق مذهبهم إلى مذهب القرائين، وقتل من الرباين خلقًا كثيرًا، ونشأت الفتنة بين هاتين الطائفتين من اليهود واتصلت بينهما الحرب إلى هذا العهد.

وهلك هرقانوس لإحدى وثلاثين سنة من دولته، وملك بعده ابنه أرسطوبولس وكان كبيرهم، وكان له ولدان آخران وهما أنطيوخس ويحب الملك له ويغض الإسكندر فأبعده إلى جبل الخليل، فلما ملك أرسطوبولس أخذ من إخوته بمذهب أبيهم وقبض على الإسكندر وأمه واستخلص أنطيوخس وقدمه على العساكر، واكتفى به في الحروب، وترفع عن تاج الكهنة ولبس تاج الملك. وخرج أنطقنوس إلى الأمم المجاورين الخارجين عن طاعتهم فردهم إلى الطاعة، وكثرت السعاية فيه عند أخيه من البطانة وأغشوه به، فلما قدم أنطقنوس من مغيبه وافق عيد المظال، وكان أخوه ملتزمًا بيته لمرض طرقة، فعدل أنطقنوس عن بيته إلى الهيكل للترك، فاوهما الملك أنه إنما فعل ذلك لاستمالة الكهنوتية والعامة وأنه يروم قتل أخيه، وعلامة ذلك أنه جاء بسلاحه.

فعهد أرسطوبولس إلى حشمانه وغلمان قصره إن جاء متسلحًا أن يقتلوه وكان ذلك، وتمت حيلة البطانة وسعائتهم عليه،

أرستيلوس فأجابهم بعد مراوغة، وتزاحفوا ونزع الكثير من عسكر أرستيلوس إلى هرقانوس، فرجع هارباً إلى القدس، ونازلهم هرقانوس وهرثمة واتصلت الحرب وطال الحصار.

وحضر عيد الفطير وافتقد اليهود القرايين فبعثوا إلى أصحاب هرقانوس فيها فاشتطوا في الثمن، ثم أخذوه ولم يعطوهم شيئاً، وقتلوا بعض النساك طلبوه في الدعاء على أرستيلوس وأصحابه، وامتنع فقتلوه، ووقع فيهم الوباء فمات منهم أم.

قال ابن كيرين: وكان الأرمن ببلاد دمشق وحمص وحلب، وكانوا في طاعة الروم، فانتفضوا عليهم في هذه المدة وحدثت عندهم صاغية إلى الفرس، فبعث الروم قائدهم فمقيوس فخرج لذلك من رومية، وقدم بين يديه قائده سكانوس فطرح الأرمن ولحق دمشق، ثم لحقه فمقيوس ونزل بها. وتوجهت إليه وجوه اليهود في أثرهم، وبعث إليه أرستيلوس من القدس وهرقانوس من كان حصاره، كل واحد منهما يستجده على أخيه، وبعثوا إليه بالأموال والهدايا فأعرض عنها، وبعث إلى هرثمة بنهائ عن الدخول بينهما فرحل عن القدس، ورحل معه هرقانوس وأنظفتر، وأعاد أرستيلوس رسله وهداياهم من بيت المقدس، وألح في الطلب وجاء أنظفتر إلى فمقيوس بغير مال ولا هدية، فكث عنه فمقيوس، فرجع إلى رغبته ومسح أعطافه وضمن له طاعة هرقانوس الذي هو الكهنوت الأعظم. ويحصل بعد ذلك إضعاف أرستيلوس فأجابه فمقيوس على أن يتحيل له في الباطن ويكون ظاهره مع أرستيلوس حتى يتم الأمر.

وعلى أن يحملوا الخراج عند حصول أمرهم، فضمن أنظفتر ذلك. وحضر هرقانوس وأرستيلوس عند فمقيوس القائد يتظلم كل واحد من صاحبه، فوعدهم بالنظر بينهم إذا حل بالقدس وبعث أنظفتر في جميع الرعايا فجاءوا شاكين من أرستيلوس، فأمره فمقيوس من إنصافهم فغضب لذلك واستوحش وهرب من معسكر فمقيوس وتحصن في القدس، وسار فمقيوس في أثره فتزل أرباباً ثم القدس وخرج أرستيلوس واستقال فأقاله، وبذل له الأموال على أن يعينه على أخيه ويحمل له ما في الهيكل من الأموال والجواهر، وبعث معه قائده لذلك، فمنعهم الكهنونية وثار بهم العامة وقتلوا بعض أصحاب القائد وأخرجوه، فغضب فمقيوس وتقبض لحينه على أرستيلوس، وركب ليقحم البلد فامتنت عليه، وقتل جماعة من أصحابه فرجع، وأقام عليهم. ووقعت الحرب بالمدينة بين شيع أرستيلوس وهرقانوس.

وفتح بعض اليهود الباب لفمقيوس فدخل البلد وملك القصر وامتنت الهيكل عليه، فأقام يحاصره أياماً، وصنع آلة الحصار

أيهما فلما كبرا عنت هرقانوس للكهنة وقدمت أرستيلوس على العساكر والحروب، وضمت إليه الربايين، وأخذت الرهن من جميع الأمم وسألت الربايين في الأخذ بثأرهم من القرائين خلقاً كثيراً. وجاء القراؤون إلى ابنها الكهنون ينكرون ذلك وأنه إذا فعل بهم ذلك، وقد كانوا شيعاً لأبيه الإسكندر، فقد تحدث النفرة من الناس. وسألوه أن يلتمس لهم إذنهما في الخروج عن القدس والبعد عن الربايين، فأذنت لهم رغبة في انقطاع الفتنة.

وخرج معهم وجوه العسكر. ثم ماتت خلال ذلك لتسع سنين من دولتها، ويقال إن ظهور عيسى صلوات الله عليه كان في أيامها. وكان ابنها أرستيلوس قائد العسكر لما شعر بموتها خرج إلى القرائين يستدعيهم إلى نصرته فأجازوه، وتقبضت هي على ابنه وأمراته، واجتمعت عليه العساكر من النواحي وضرب البوق وزحف لحرب أخيه هرقانوس والربايين، وحاصروهم أرستيلوس بيت المقدس، وعزم على هدم الحصن فخرج إليه أعيان اليهود والكهنونية ساعين في الصلح بينهما، وأجاب على أن يكون ملكاً ويبقى هرقانوس على الكهنونية، فتم ذلك واستقر عليه أمره.

ابتداء أمر أنظفتر أبو هيردوس

ثم سعى في الفتنة بينهما أنظفتر أبو هيردوس، وكان من عظماء بني إسرائيل من الذين جمعوا مع العزيز من بابل، وكان ذا شجاعة وبأس، وله يسار وقية من الضياع والمواشي. وكان الإسكندر قد ولاه على بلاد أدوم وهي جبال الشراة، فأقام في ولايتها سنين، وكثر ماله وأنكحوه منهم، فكان له منها أربعة من الأبناء وهم: فسيلو وهيردوس وفرودا ويوسف، وبنت اسمها سلومث. وقيل أن أنظفتر لم يكن من بني إسرائيل، وإنما كان من أدوم وربي في جملة بني حشمناي ويوتهم. فلما مات الإسكندر وملك زوجته الإسكندرية عزلته عن جبال الشراة، فأقام بالقدس. حتى إذا استبد بالأمر أرستيلوس، وكان بين هرقانوس وأنظفتر مودة وصحبة، فغضب أرستيلوس بمكانه من أخيه لما يعلم من مكر أنظفتر وهم بقتله، فانقض عنه وأخذ في التدبير على أرستيلوس.

وفشا في الناس تبغضه إليهم وينكر تغلبه، ويذكر لهم أن هرقانوس أحق بالملك منه، ثم حذر هرقانوس من أخيه وخيل إليه أنه يريد قتله، وبعث لشيعه هرقانوس المال على تخوفه من ذلك حتى تمكن منه الخوف، ثم أشار عليه بالخروج إلى ملك العرب هرثمة، وكان يجب هرقانوس، فعقد معه عهداً على ذلك، ولحق هرقانوس بهرثمة ومعه أنظفتر، ثم دعوا هرثمة إلى حرب

ملكهم تلماي وطرده وامتنعوا من حمل الخراج إلى الروم، فسار إليهم واستنفر معه أنظفتر فغلبهم وقتلهم، ورد تلماي إلى ملكه واستقام أمر مصر. ورجع كينانوس إلى بيت المقدس فجدد الملك لهرقانوس، وقدم أنظفتر مدبر المملكة وسار إلى رومية.

قال ابن كريون: ثم غضبت الفرس على الروم فندبوا إلى ذلك قائداً منهم يسمى عربنوس، ويعثوه لحربهم، فمر بالقدس ودخل إلى الهيكل وطالب الكهون بما فيه من المال، وكان يسمى ألعازر من صلحاء اليهود وفضلائهم، فقال له: إن كينانوس ومقيوس لم يفعلوا ذلك بتلك. فاشتد عليه. فقال: أعطيك ثلثمائة من الذهب وتتجافى عن الهيكل. ودفع إليه سيكة ذهب على صورة خشبة كانت تلقى عليها الصور التي تنزل من الهيكل الذي تجدد، وكان وزنها ثلثمائة فأخذها ونقض القول وتمدى على الهيكل، وأخذ جميع ما فيه منذ عمارتها من الهدايا والغنائم وقربانات الملوك والأمم وجميع آلات القدس، وسار إلى لقاء الفرس فحاربوه وهزموه وأخذوا جميع ما كان معه، وقتل واستولت الفرس على بلاد الأرمن: دمشق وحمص وحلب وما إليها.

وبلغ الخبر إلى الروم فجهزوا قائداً عظيماً في عساكر جمه اسمه كسناو، فدخل بلاد الأرمن الذين كانوا غلبوا عليها، وساروا إلى القدس فوجد اليهود يحاربون هرقانوس وأنظفتر فأعانها حتى استقام ملك هرقانوس ثم سار إلى الفرس في عساكره فغلبهم وحملهم على طاعة الروم، ورد الملوك الذين كانوا عصوا عليهم إلى الطاعة، وكانوا اثنين وعشرين ملكاً من الفرس كان فمقيوس قائد الروم هزمهم، فلما سار عنهم انتقضوا.

قال ابن كريون: ثم ابتداء أمر القياصرة وملك على الروم يوليئاس ولقبه قيصر لأن أمه ماتت حاملاً به عند مخاضها فشق بطنها عنه فذلك سمي قيصر، ومعناه بلغتهم القاطع. ويسمى أيضاً يوليئاس باسم الشهر الذي ولد فيه وهو يوليئ خامس شهرهم ومعنى هذه اللفظة عندهم الخامس، وكان الثلثمائة والعشرون المدبرون أمر الروم والشيخ الذي عليهم قد أحكموا أمرهم مع جماعة الروم على أن لا يقدموا عليهم ملكاً، وأنهم يعينون للحروب في الجهات قائداً بعد آخر. هذا ما اتفقوا عليه التتلة في الحكاية عن أمر الروم وابتداء ملك القياصرة.

قالوا: ولما رأى قيصر هذا الشيخ الذي كان لذلك العهد كبر وشب على غاية من الشجاعة والإقدام، فكانوا يبعثونه قائداً على العساكر إلى النواحي، فأخرجوه مرة إلى المغرب فدوخ البلاد ورجع، فسمت نفسه إلى الملك فامتنعوا له وأخبروه أن هذا سنة

فهدم بعض أبراجه واقتحمه عنوة، ووجد الكهنية على عبادتهم وقرباتهم مع تلك الحرب، ووقف على الهيكل فاستعظمه ولم يد يد إلى شيء من ذخائره، وملك عليهم هرقانوس، وضرب عليهم الخراج يحمله كل سنة. ورفع يد اليهود عن جميع الأمم الذين كانوا في طاعتهم، ورد عليهم البلدان التي ملكها بنو حشمناي، ورجع إلى رومية.

واستخلف هرقانوس وأنظفتر على القدس وأنزل معهما قائده سكانوس الذي قدمه لفتح دمشق وبلاد الأرمن عندما خرج من رومية، وحمل أرسطولوس وابنيه مقيدين معه، وهرب الثالث من بنيه وكان يسمى الإسكندر ولحقه فلم يظفر به.

ولما بعد فمقيوس عن الشام ذاهباً إلى مكانه خرج هرقانوس وأنظفتر إلى العرب ليحملوهم على طاعة الروم، فحالفهم الإسكندر بن أرسطولوس إلى القدس وكان متغيباً بتلك النواحي منذ مغيب أبيه لم يبرح، فدخل إلى القدس وملكه اليهود عليهم وبني ما هدمه فمقيوس من سور الهيكل، واجتمع إليه خلق كثير ورجع هرقانوس وأنظفتر فسار إليهم الإسكندر وهزمهم وأخضع في عساكرهم، وكان قائد الروم كينانوس قد جاء إلى بلاد الأرمن من بعد فمقيوس، فلحق به واستنصره على الإسكندر فسار معه إلى القدس، وخرج إليهم الإسكندر فهزموه، ومضى إلى حصن له يسمى الإسكندرونة واعتصم به.

وسار هرقانوس إلى القدس فاستولى على ملكه، وسار كينانوس قائد الروم إلى الإسكندر فحاصره بمحصنه واستأمن إليه فقبله وعفا عنه وأحسن إليه. وفي أثناء ذلك هرب أرسطولوس أخو هرقانوس من محبسه برومية، وابنه أنظفتر واجتمع إليه، فحارب كينانوس وهزمه وحصل في أسره فردّه إلى محبسه برومية، ولم يزل هنالك إلى أن تغلب قيصر على رومية، واستحدث الملك في الروم.

وخرج فمقيوس من رومية إلى نواحي عمله وجمع العساكر لمحاربة قيصر، فأطلق أرسطولوس من محبسه، وأطلق معه قائدين في اثني عشر ألف مقاتل، وسرحهم إلى الأرمن واليهود ليردوهم عن طاعة فمقيوس، وكتب فمقيوس إلى أنظفتر ببيت المقدس أن يكفيه أمر أرسطولوس، فبعث قوماً من اليهود لقوه في بلاد الأرمن ودسوا له سماً في بعض شرابه كان فيه حتفه.

وقد كان كينانوس كاتب الشيخ صاحب رومية في إطلاق من بقي من ولد أرسطولوس فأطلقهم.

قال ابن كريون: وكان أهل مصر لذلك العهد انتقضوا على

فذكروا ذلك على هرقانوس، ولحق هيردوس ببلاد الأرمن فقدمه سفيوس على عمله ثم أرسل هرقانوس إلى قيصر يسأل تجديد عهد الروم لهم، فكتب له بذلك، وأمر بأن يحمل أهل الساحل خراجهم إلى بيت المقدس ما بين صيدا وغزة، ويحمل أهل صيدا إليها في كل سنة عشرين ألف ومسق من القمح، وأن يرد على اليهود سائر ما كان بأيديهم إلى الفرات واللاذقية وأعمالها وما كان بنو حشمتاي فتحوه عنوة من عداوات الفرات، لأن قمقيوس كان يتعدى عليهم في ذلك، وكتب العهد بذلك في ألواح من نحاس بلسان الروم ويونان، وعلقت في أسوار صور وصيدا واستقام أمر هرقانوس.

قال ابن كزيون: ثم قتل قيصر ملك الروم. وأنظفتر وزير هرقانوس المستبد عليه. أما قيصر فوثب عليه كيساوس من قواد قمقيوس فقتله وملك وجمع العساكر وعبر البحر إلى بلاد أشبيت ففتحها، ثم سار إلى القدس وطالبهم بسبعين بكرة من الذهب، فجمع له أنظفتر وبنوه من اليهود، ثم رجع كيساوس إلى مقدونية فأقام بها. وأما أنظفتر فإن اليهود داخلوا القائد ملكيا الذي كان بين أظهرهم من قبل كيساوس في قتل أنظفتر وزير هرقانوس، فأجابهم إلى ذلك، فدمروا إلى ساقبه سمّاً فقتله، وجاء ابنه هيردوس إلى القدس مجعاً قتل هرقانوس، فكفه فسيلو عن ذلك، وجاء كيساوس من مقدونية إلى صور، ولقي هرقانوس وهيردوس وشكروا إليه ما فعله قائده ملكيا من مداخلة اليهود في قتل أنظفتر، فأذن لهم في قتله فقتلوه. ثم زحف كينانوس ابن أخي قيصر وقائده أنطونيوس في العساكر لحرب كيساوس المتوثب على عمه قيصر، فلقيهم قريباً من مقدونية فظفرا به وقتلاه، وملك كينانوس مكان عمه وسمي أوغسطس قيصر باسم عمه. فأرسل إليه هرقانوس ملك اليهود بهدية وفيها تاج من الذهب مرصع بالجوهر وسأل تجديد العهد لهم، وأن يطلق السبي الذي سبي منهم أيام كيساوس، وأن يرد اليهود إلى بلاد يونان وأثينة، وأن يجري لهم ما كان رسم به عمه قيصر، فأجابهم إلى ذلك كله وسار أنطيانوس وأوغسطس إلى بلاد الأرمن بدمشق وحمص، فلقته هنالك كلبطرة ملكة مصر وكانت ساحرة فاستأتمته وتزوجها، وحضر عنده هرقانوس ملك اليهود.

وجاء جماعة من اليهود فشكروا من هيردوس وأخيه فسيلو وتظلموا منهما، وأكذبهم ملكهم هرقانوس وأبى عليها، وأمر أنطيانوس بالقبض على أولئك الشاكين وقتل منهم، ورجع هيردوس وأخوه فساروا إلى مكانهما ومكان أبيهما من تدبير ملكة هرقانوس، وسار أنطيانوس إلى بلاد الفرس فدوخها وعاث في

آبائهم منذ أحقاب، وحدثوه بالسبب الذي فعلوا ذلك لأجله، وهو أمر كيوس وأنه عهد لأولهم لا يتنقض، وقد دوخ قمقيوس الشرق، وطوع اليهود ولم يطمع في هذا فوثب عليهم قيصر وقتلهم واستولى على ملك الروم منفرداً به وسمي قيصر، وسار إلى قمقيوس بمصر فظفر به وقتله، ورجع فوجد بتلك الجهات قواد قمقيوس فسار إليهم يولياس قيصر ومر ببلاد الأرمن فأطاعوه، وكان عليهم ملك اسمه متردث فبعثه قيصر إلى حربهم.

فسار في الأرمن ولقيه هرقانوس ملك اليهود بعسقلان ونفر معه إلى مصر هو وأنظفتر ليمحوا بعض ما عرف منهم من موالاة قمقيوس، وساروا جميعاً إلى مصر ولقيتهم عساكرها واشتد الحرب فحصر بلادهم، وكادت الأرمن أن يتهزموا، فثبت أنظفتر وعساكر اليهود وكان لهم الظفر واستولوا على مصر، وبلغ الخبر إلى قيصر فشكر لأنظفتر حسن بلائه واستدعاه فسار إليه مع ملك الأرمن متردث قبله وأحسن وعده. وكان أنظفتر بن أرسطوبس قد اتصل بقيصر وشكا بأن هرقانوس قتل أباه حين بعثه أهل رومة لحرب قمقيوس، فتحيل عليه هرقانوس وأنظفتر وقتلاه مسموماً، فأحسن أنظفتر العذر لقيصر بأنه إنما فعل ذلك في خدمة من ملك علينا من الروم وإنما كنت ناصحاً لقائدهم قمقيوس بالأمس، وأنا اليوم أيها الملك لك أنصح وأحب، فحسن موقع كلامه من قيصر ورفع منزلته وقدمه على عساكره لحرب الفرس، فسار إليه أنظفتر وأبلى في تلك الحروب ومناصحة قيصر، فلما انقلبوا من بلاد الفرس أعادهم قيصر إلى ملك بيت المقدس على ما كانوا عليه.

واستقام الملك لهرقانوس وكان خيراً، إلا أنه كان ضعيفاً عن لقاء الحروب فتغلب عليه أنظفتر، واستبد على الدولة، وقدم ابنه فسيلو ناظراً في بيت المقدس، وابنه هيردوس عاملاً على جبل الخليل. وكان كما بلغ الحلم واحتازوا الملك من أطرافه وامتلا أهل الدولة منهم حسداً وكثرت السعاية فيهم، وكان في أطراف عملهم شائر من اليهود يسمى حزقيا وكان شجاعاً صعلوكاً واجتمع إليه أمثاله فكانوا يسيرون على الأرمن وينالون منهم. وعظمت نكايتهم فيهم فشكى عامل بلاد الأرمن وهو سفيوس ابن عم قيصر إلى هيردوس وهو يجبل الخليل ما فعله حزقياً وأصحابه في بلادهم، فبعث هيردوس إليه سرية فكبسوهم، وقتل حزقياً وغيره منهم، وكتب بذلك إلى سفيوس فشكره وأهدى إليه.

ونكر اليهود ذلك من فعل هيردوس وتظلموا عند هرقانوس وطلبوه في القصاص منه، فأحضره في مجلس الأحكام وأحضر السبعين شيخاً من اليهود، وجاء هيردوس متسلحاً ودافع عن نفسه، وعلم هرقانوس بغرض الأشياخ، ففصلوا المجلس

نواحيها وقهر ملوكهم وقتل إلى رومة.

قال ابن كريون: وفي خلال ذلك لحق أنطقنوس وجماعة من اليهود بالفرس، وضمنوا للملك أن يحملوا إليه بدرة من الذهب وثمائنات جارية من بنات اليهود ورؤسائهم يسيهن له، على أن يملكه مكان عمه هرقانوس ويسلمه إليه، ويقتل هيردوس وأخاه فسيلو، فأجابهم ملك الفرس إلى ذلك، وسار في العساكر وفتح بلاد الأرمن وقتل من وجد بها من قواد الروم ومقاتلتهم، وبعث قائده بعسكر من القدس مع أنطقنوس مورياً بالصلاة في بيت المقدس والتبرك بالهيكل، حتى إذا توسط المدينة ثار بها وأفحش في القتل، وبادر هيردوس إلى قصر هرقانوس ليحفظه، ومضى فسيلو إلى الحصن يضبطه. وتورط من كان بالمدينة من الفرس قتلهم اليهود عن آخرهم، وامتنعوا على القائد، وفسد ما كان دبره في أمر أنطقنوس.

فرجع إلى استمالة هرقانوس وهيردوس، وطلب الطاعة منهم للفرس وأنه يتلطف لهم عند الملك في إصلاح حالهم، فصغى هرقانوس وفسيلو إلى قوله وخرجوا إليه وارتاب هيردوس وامتنع، فارتحل بهما قائد الفرس حتى إذا بلغ الملك ببلاد الأرمن تقيض عليهما فمات فسيلو من ليلته، وقيد هرقانوس واحتمله إلى بلاده، وأشار أنطقنوس بقطع أذنه ليمتنع من الكهنة، ولما وصل ملك الفرس إلى بلاده أطلق هرقانوس من الاعتقال، وأحسن إليه إلى أن استدعاه هيردوس كما يأتي بعد، وبعث ملك الفرس قائده إلى اليهود مع أنطقنوس ليملك، فخرج هيرودوس عن القدس إلى جبل الشراة فترك عياله بالحصن عند أخيه يوسف، وسار إلى مصر يريد قيصر، فأكرمه كالبطرة ملكة مصر، وأركبته السفن إلى رومية، فدخل بها أنطيانوس إلى أوغسطس قيصر، وخبره الخبر عن الفرس والقدس، فملكه أوغسطس والبسه التاج وأركبه في رومية في زي الملك، والهاتف بين يديه بأن أوغسطس ملكه.

واحتفل أنطيانوس في صنيع له حضره الملك أوغسطس قيصر وشيوخ رومية، وكتبوا له العهد في ألواح من نحاس، ووضعوا ذلك اليوم التاريخ، وهو أول ملك هيردوس.

وسار أنطيانوس بالعسكر إلى الفرس ومعه هيردوس، وفارقه من أنطاكية وركب البحر إلى القدس لحرب أنطقنوس، فخرج أنطقنوس إلى جبال الشراة للاستيلاء على عيال هيردوس، وأقام على حصار الحصن، وجاء هيردوس فحاربه وخرج يوسف من الحصن من ورائه، فانهزم أنطقنوس إلى القدس، وهلك أكثر عسكره، وحاصره هيردوس وبعث أنطقنوس بالأموال إلى قواد العسكر من الروم فلم يجيبوه، وأقام هيردوس على حصاره حتى

جاء الخبر عن أنطيانوس قائد قيصر أنه ظفر بملك الفرس وقتله ودوخ بلادهم، وإنه عاد ونزل الفترات. فترك هيردوس أخاه يوسف على حصار القدس مع قائد الروم سيساو، ومن تبعهم من الأرمن، وسار للقائه أنطيانوس، وبلغه وهو بدمشق أن أخاه يوسف قتل في حصار القدس على يد قائده أنطقنوس، وأن العساكر انقضت ورجعوا إلى دمشق، وجاء سيساو منهزماً قائد أنطيانوس بالعساكر. وتقدم هيردوس وقد خرج أنطقنوس للقائه فهزمه، وقتل عامة عسكره واتبعه إلى القدس. ووافاه سيساو قائد الروم فحاصروا القدس أياماً، ثم اقتحموا البلد وتسلبوا صاعدين إلى السور، وقتلوا الحرس وملكوا المدينة، وأفحش سيساو في قتل اليهود، فرغب إليه هيردوس في الإبقاء. وقال له: إذا قتلت قومي فعلى من تملكني؟ فرفع القتل عنهم ورد ما نهب وقرب إلى البيت تاجاً من الذهب وضعت فيه، وحمل إليه هيردوس أموالاً. ثم عثروا على أنطيانوس، وقد كان سار من الشام إلى مصر، فجاءه بأنطقنوس هنالك، ولحق بهم هيردوس وسأل من أنطيانوس قتل أنطقنوس قتلته. واستبد هيردوس بملك اليهود وانقرض ملك بني حشمناي والبقاء لله وحده.

انقراض ملك بني حشمناي وابتداء ملك

هيردوس وبنيه

وكان أول ما افتتح به ملكه أن بعث إلى هرقانوس الذي احتمله الفرس وقطعوا أذنه يستقدمه ليأمن على ملكه من ناحيته، ورغبه في الكهنوتية التي كان عليها، فرغب وحذره ملك الفرس من هيردوس، وعزله اليهود الذين معه، وأراه أنها خديعة وأنه العيب الذي به يمنع الكهنوتية، فلم يقبل شيئاً من ذلك. وصغى إلى هيردوس وحسن ظنه به وسار إليه وتلقاه بالكرامة والإعطاء وكان يخاطبه بأبي في الجمع والخلوة.

وكانت الإسكندرية بنت هرقانوس تحت الإسكندر وابن أخيه أرسطوبولس، وكانت بنتها منه مريم تحت هيردوس، فاطلعتا على ضمير هيردوس من محاولة قتله، فخبرتا به بذلك وأشارتا عليه باللاحق بملك العرب ليكون في جواره، فخاطبه هرقانوس في ذلك وأن يبعث إليه من رجالاتهم من يخرج به إلى أحيائهم، وكان حامل الكتاب من اليهود مضطغناً على هرقانوس، لأنه قتل أخاه وسلب ماله، فوضع الكتاب في يد هيردوس، فلما قرأه رده إليه وقال: أبلغه إلى ملك العرب وأرجع الجواب إلي فجاءه بالجواب من ملك العرب إلى هرقانوس وأنه أسعف وبعث الرجال فالتقاهم

وتأكدت البغضاء بين الإسكندرة وابتها مريم زوج هيردوس أخت هذا الغريق، وبين أم هيردوس وأخته، وكثرت شكواهما إليه فلم يشكهما لكان زوجته مريم وأما منه، قال ابن كريون: ثم انتقض أنطيانوس على أوغسطس قيصر وذلك أنه تزوج كلوبطره وملك مصر، وكانت ساحرة فسحرته واستمالته، وحلته على قتل ملوك كانوا في طاعة الروم، وأخذ بلادهم وأموالهم، وسي نسايتهم وأموالهم، وكان من جملتهم هيردوس وتوقف فيه خشية من أوغسطس قيصر، لأنه كان يكرمه بسبب ما صنع في الآخرين، فحمله على الانتقاض العصيان، ففعل وجمع العسكر واستدعى هيردوس فجاءه وبعثه إلى قتال العرب، وكانوا خالفوا عليه، فمضى هيردوس لذلك ومعه أنيثاون قائد كلوبطره، وقد دست له أن يجر الهزيمة على هيردوس ليقول ففعل. وبث هيردوس وتخلص من المعترك بعد حروب صعبة هلك فيها بين الفريقين خلق كثير.

ورجع هيردوس إلى بيت المقدس فصالح جميع الملوك والأمم المجاورين له، وامتنع العرب من ذلك فسار إليهم وحاربهم، ثم استباحهم بعد أيام ومواقف بذلوا وجمعوا له الأموال وفرض عليهم الخراج في كل سنة ورجع. وكان أنطيانوس لما بعثه إلى العرب سار هو إلى رومة وكانت بينه وبين أوغسطس قيصر حروب هزمه قيصر في آخرها وقتله، وسار إلى مصر فخافه هيردوس على نفسه لما كان منه في طاعة أنطيانوس وموالاته، ولم يمكنه التخلف عن لقائه. فأخرج خدمه من القدس فبعث بأمه وأخته إلى قلعة الشراة لنظر أخيه فردوا، وبعث بزوجه مريم وأمه الإسكندرة إلى حصن الإسكندرونة لنظر زوج أخته يوسف ورجل آخر من خالصة من أهل صور اسمه سوما وعهد إليها بقتل زوجته وأما إن قتله قيصر.

ثم حمل معه الهدايا وسار إلى قيصر أوغسطس وكانت تحقد له صبية أنطيانوس، فلما حضر بين يديه عنفه وأزاح التاج عن رأسه وهم ببقائه، فتلطف هيردوس في الاعتذار، وأن موالاته لأنطيانوس إنما كان لما أولى من الجميل في السعاية عند الملك وهي أعظم أياديه عندي، ولم تكن موالاتي له في عداوتك ولا في حريك ولو كان ذلك وأهلك نفسي دونه كنت غير ملوم، فإن الوفاء شأن الكرام. فإن أزلت عني التاج فما أزلت عقلي ولا نظري، وإن أبقيتني فانا محل الصنيعة والشكر. فانبسط أوغسطس لكلامه وتوجه كما كان، وبعثه على مقدمته إلى مصر، فلما ملك مصر وقتل كلوبطره وهب لهيردوس جميع ما كان أنطيانوس أعطاهما إياه ونقل. فأعاد هيردوس إلى ملكه بيت المقدس وسار

بوصولك إلي، فبعث هيردوس من يقيض على الرجال بالمكان الذي عينه، وأحضرهم وأحضر حكام البلاد اليهود والسبعين شيخاً.

وأحضر هرقانوس وقرأ عليه الكتاب منخطه، فلم يجر جواباً وقامت عليه الحجة، وقتله هيردوس لوقته لثمانين سنة من عمره وأربعين من ملكه، وهو آخر ملوك بني حشمتاي وكان للإسكندر بن أرسطولوس ابن يسمى أرسطولوس، وكان من أجل الناس صورة، وكان في كفالة أمه الإسكندر، وأخته يومئذ تحت هيردوس كما قلناه. وكان هيردوس يغيص به وكانت أخته وأمهما يؤملان أن يكون كوهنا بالبيت مكان جده هرقانوس، وهيردوس يريد نقل الكهنة عن بني حشمتاي، وقدم لها رجلاً من عوام الكهنونية، وجعله كبير الكهنونية، فشق ذلك على الإسكندرة بنت هرقانوس وبنتها مريم زوج هيردوس.

وكان بين الإسكندرة وكلوبطره ملكة مصر مواصلة ومهاداة، وطلبت منها أن تشفع زوجها أنطيانوس في ذلك إلى هيردوس، فاعتذر له هيردوس بأن الكواهن لا تعزل، ولو أردنا ذلك فلا يمكننا أهل الدين من عزله، فبعث بذلك إلى الإسكندرة. ودست الإسكندرة إلى الرسول الذي جاء من عند أنطيانوس، وأتحفته بمال فضمن لهم أن أنطيانوس يعزم على هيردوس في بعث أرسطولوس إليه، ورجع إلى أنطيانوس فرغبه في ذلك ووصف له من جماله وأغراه باستقدامه، فبعث فيه أنطيانوس إلى هيردوس وهدده بالوحشة إن منعه، فعلم أنه يريد منه القبيح، فقدمه كهناً وعزل الأول، واعتذر لأنطيانوس بأن الكواهن لا يمكن سفره، واليهود تنكر ذلك. فأغفل أنطيانوس الأمر ولم يعاود فيه.

وكل هيردوس بالإسكندرة بنت هرقانوس عهدته من يراعى أفعاله، فاطلع على كتبها إلى كلوبطره أن تبعث إليها السفن والرجال يوصلنها إليها، وأن السفن وصلت إلى ساحل يافا، وأن الإسكندرة صنعت تابوتين لتخرج فيهما هي وابتها على هيئة الموتى. فأرصد هيردوس من جاء بهما من المقابر في تابوتيها فوجئها ثم عفا عنهما، ثم بلغه أن أرسطولوس حضر في عيد المظال، فصعد على المذبح وقد لبس ثياب القدس وازدحم الناس عليه وظهر من ميلهم إليه ومحبتهم ما لا يعبر عنه، فغص بذلك واعمل التدبير في قتله. فخرج في متزّه له بأرجحاء في نيسان، واستدعى أصحابه وأحضر أرسطولوس، فطعموا ولعبوا وانغمسوا في البرك يسبحون وعمد غلمان هيردوس إلى أرسطولوس فغمسوه في الماء حتى شرق وفاض، فاغتم الناس لوته ويكى عليه هيردوس ودفنه، وكان موته لسبع عشرة سنة من عمره.

إلى رومية.

وأجرى على الشيوخ والأيتام والأرامل والمنقطعين كفائتهم من الخبز، وعلى الفقراء والمساكين كفائتهم من الخنطة، وفرق على خمسين ألفاً قصده من غير ملته، فرفعت المجاعة وارتفع له الذكر والثناء الجميل.

قال ابن كريون: ولما استفحل ملكه وعظم سلطانه أراد بناء البيت ما بناه سليمان بن داود، لأنهم لما رجعوا إلى القدس بإذن كورش عين لهم مقدار البيت لا يتجاوزونه، فلم يتم على حدود سليمان، ولما اعتزم على ذلك ابتداءً أولاً بإحضار الآلات مستوفيات خشية أن يحصل الهدم وتطول المدة وتعرض القواطع والموانع. فساعد الآلات وأكمل جمعها في ست سنين، ثم جمع الصناع للبناء وما يتعلق به فكانوا عشرة آلاف، وعين ألفاً من الكهنة يتولون القدس الأقدس الذي لا يدخله غيرهم ولما تم له ذلك شرع في الهدم فحصل لأقرب وقت، ثم بنى البيت على حدوده وهيته أيام سليمان وزاد في بعض المواضع على ما اختاره ووقف عليه نظره، فكمل في ثمان سنين. ثم شرع في الشكر لله تعالى على ما هيا له من ذلك فقرر القربان واحتفل في الولائم وإطعام الطعام، وتبعه الناس في ذلك أياماً فكانت من محاسن دولته.

قال ابن كريون: ثم ابتلاه الله بقتل أولاده وكان له ولدان من مريم بنت الإسكندرية قتيلا السم، أحدهما الإسكندر والآخر أرسطولوس، وكانا عند قتل أمهما غائبين برومة يتعلمان خط الروم، فلما وصلا وقد قتل أمهما حصلت بينه وبينهما الوحشة، وكان له ولد آخر اسمه أنظفتر على اسم جده، وكان قد أبعد أمه راسيس لمكان مريم، فلما هلك واستوحش من ولدها لطلب محل راسيس منه، قدم ابنها أنظفتر وجعله ولي عهده، وأخذ في السعاية على إخوته خشية منهما بأنهما يرومان قتل أبيهما فانحرف عنهما. واتفق أن سار إلى أوغسطس قيصر ومعه ابنه إسكندر، فشكا عنده وتبرأ الإسكندر وحلف على براءته، فأصلح بينهما قيصر ورجع إلى القدس. وقسم القدس بين ولده الثلاثة، ووصاهم ووصى الناس بهم، وعهد أن لا يخالطوهم خشية مما يحدث عن ذلك، وأنظفتر مع ذلك متماد على سعائيه بهما وقد داخل في ذلك عمه قدودا وعمته سلومنت، فأغروا أباه بأخويه المذكورين حتى اعتقلهما.

وبلغ الخبر أرسلاوش ملك كفتور، وكانت بنته تحت الإسكندر، منهما فجاء إلى هيردوس مظهراً السخط على الإسكندر والانحراف عنه وتحيل في إظهار جرائعتهما، وأطلع على جليلة الحال وسعاية أخيه وأخته، فانكشف له الأمر وصدقه

قال ابن كريون: ولما عاد هيردوس إلى بيت المقدس أعاد حرمة من أماكنهن، فعادت زوجته مريم وأمها من حصن الإسكندرية وفي خدمتها يوسف زوج أخته وسوما الصوري، وقد كانا حدثا المرأة وأمها بما أسر إليهما هيردوس، وقد كان سلف منه قتل هرقانوس وأرسطولوس فشكرتا له. وبينما هو أخذ في استمالة زوجته إذ رمتها أخته بالفاحشة مع سوما الصوري في ملاحظات جرت بينهما، ولم يصدق ذلك هيردوس للعداوة والثقة بغفة الزوجة. ثم جرى منها في بعض الأيام وهو في سبيل استمالتها عتاب فيما أسر إلى سوما وزوج أخته، فقويت عنده الظنة بهم جميعاً وإن مثل هذا السر لم يكن إلا لأمر مريب، وأخذ في إخفائها وإقصائها ودست عليه أخته بعض النساء تحدته بأن زوجته داخلته في أن تستحضر السم وأحضره فجرب وصح وقتل للحين صهره يوسف وصاحبه سوما، واعتقل زوجته ثم قتلها وندم على ذلك ثم بلغه عن أمها الإسكندرية مثل ذلك فقتلها وولى على أدوم مكان صهره رجلاً منهم اسمه كرسوس وزوجه أخته، فسار إلى عمله وانحرف عن دين التوراة والإحسان الذي حملهم عليه هرقانوس، وأباح لهم عبادة صنهم وأجمع الخلاف، وطلق أخت هيردوس فسعت به إلى أخيها وخبرته بأحواله وأنه أوى جماعة من بني حشمتاي المرشحين للملك منذ اثني عشر سنة.

فقام هيردوس في ركبته، وبث عنه فحضر وطالبه ببني حشمتاي الذي عنده، فأحضرهم فقتله وقتلهم، وأرهف حده وقتل جماعة من كبار اليهود ومقدميهم اتهمهم بالإلحاد عليه. فاذعن له الناس واستفحل ملكه وأهمل المراقبة لوصايا التوراة وعمل في بيت المقدس سوراً واتخذ متنزّه لعب، وأطلق فيه السباع ويعمل بعض الجهلة على مقابلتها فتفرسهم، فنكر الناس ذلك وأعمل أهل الدولة الخيلة في قتله فلم تتم لهم، وكان يمشي متنكراً للتعسس على أحوال الناس، فعظمت هيئته في النفوس.

وكان أعظم طوائف اليهود عنده الربايون بما تقدم لهم في ولايته، وكان لطائفة العباد من اليهود المسمى بالحيسيد مكانة عنده أيضاً، كان شيخهم منحيم لذلك العهد محدثاً وكان حدثه وهو غلام بمصر الملك له، وأخبره وهو ملك بطول مدته في الملك فدعا له ولقومه. وكان كلفاً ببناء المدن والحصون، ومدينة قيسارية من بنائه. ولما حدثت في أيامه المجاعة شمر لها وأخرج الزرع للناس وبثه فيهم بيباً وهبة وصدقة، وأرسل في المرة من سائر النواحي، وأمر قيصر في سائر تخومه وفي مصر ورومة أن يعملوا الميرة إلى بيت المقدس، فوصلت السفن بالزرع إلى ساحلها من كل جهة.

ثم هلك بعده لخمسة أيام ولسبعين سنة من عمره وخمس وثلاثين من ملكه وعهد بالملك لابن أركلاوش وخرج كاتبه نيقلوس فجعل الناس وقرأ عليهم العهد وأراهم خاتم هيردوس عليه، فبايعوا له وحمل أباه إلى قبره على سرير من الذهب مرصع بالجوهر والياقوت وعليه ستور الديباج منسوجة بالذهب، وأجلس مسنداً ظهره إلى الأرائك والناس أمامه من الأشراف والرؤساء، ومن خلفه الخدم والغلمان، وحواليه الجوارى بأنواع الطيب إلى أن اندرج في قبره.

وقام أركلاوش بملكه وتقرب إلى الناس بإطلاق المسجونين، فاستقام أمره وانطلقت الألسنة بزم هيردوس والطعن عليه. ثم انتفضوا على أركلاوش بملكه بما وقع منه من القتل فيهم، فساروا إلى قيصر شاكين بذلك وعابوه عنده بأنه ولي من غير أمره، وحضر أركلاوش وكاتبه نيقلوس بمخضهم ودفع دعاويهم، وأشار عظماء الروم بإبقائه فملكه قيصر وأعادته إلى القدس. وأساء السيرة في اليهود وتزوج امرأة أخيه الإسكندر وكان له أولاد منها فماتت لوقتها. ووصلت شكاية اليهود بذلك كله إلى قيصر فبعث قائداً من الروم إلى المقدس، فقيد أركلاوش وحمله إلى رومة لسبع سنين من دولته، وولى على اليهود بالقدس أخاه أنطيفوس، وكان شراً منه واغتصب امرأة أخيه فيلقوس وله منها ولدان، ونكر ذلك عليه علماء اليهود والكهنة. وكان لذلك العهد يوحنا بن زكريا فقتله في جماعة منهم، وهذا هو المعروف عند النصارى بالمعمدان الذي عمد عيسى أي طهره بماء المعمودية بزعمهم وفي دولة أنطيفوس هذا مات قيصر أوغسطس، فملك بعده طبريانوس وكان قبيح السيرة، وبعث قائده بعبلاس بضم من ذهب على صورته ليسجد له اليهود فامتنعوا، فقتل منهم جماعة، فأذنوا بحربه وقاتلوه وهزموه. وبعث طبريانوس العساكر مع قائده إلى القدس فقبض على أنطيفوس وحمله مقيداً. ثم عزله طبريانوس إلى الأندلس فمات بها وملك بعده على اليهود أغرياس ابن أخيه أرسنبولس المقتول، وهلك في أيامه طبريانوس قيصر وملك نيرون، وكان أشد من جميع من تقدمه وأمر أن يسمى إلهو، وبني المذبح للقربان وقرب وأطاعته الناس إلا اليهود، وبعثوا إليه في ذلك أفيلا الحكيم في جماعة فشتهم وحسبهم وسخط اليهود. ثم قبحت أحواله وساءت أفعاله وشارت عليه دولته فقتلوه ورموا شلوه في الطريق فأكلته الكلاب. ثم ملك بعده قلدريوس قيصر وأطلق أفيلا والذين معه إلى بيت المقدس، وهدم المذابح التي كان نيروش بناها وكان أغرياس حسن السيرة معظماً عند القياصرة وهلك لثلاث وعشرين سنة من دولته. وملك بعده ابنه أغرياس

وغضب على أخيه قدودا، فجاء إلى أرسلاوش وأحضره عند هيردوس حتى أخبره بمصدوقية الحال، ثم شفعه فيه وأطلق ولديه ورضي عنهما، وشكر لأرسلاوش من نلطفه في تلاقي هذا الأمر وانصرف إلى بلده ولم ينف ذلك أنظفتر عن تديره عليهما.

وما زال يغري أباه ويدس له من يغريه حتى أسخطه عليهما ثانية واعتقلهما، وأمضى بهما في بعض أسفاره مقيدتين، ونكر ذلك بعض أهل الدولة ففسد أنظفتر إلى أبيه: المنكر علي من المدبرين عليك، وقد ضمن لحجامك الإسكندر مالا على قتلك. فأنزل هيردوس بهما العقاب ليكتشف الخبر، وغما بأن ذلك الرجل معه ولذعه العقاب وأقر على نفسه قتل هو وأبوه والحجام، ثم قتل هيردوس ولديه وصلبهما على مصطبة. وكان لابنه الإسكندر ولدان من بنت أرسلاوش ملك كفتور وهما كويان والإسكندر، ولابنه أرسنبولس ثلاثة من الولد: أعراباس وهيردوس وأستروبلوس.

ثم ندم هيردوس على قتل ولديه، وعطف على أولادهما فزوج كويان بن الإسكندر بابنة أخيه قدودا وزوج ابنة ابنه أرسنبولس من ابن ابنه أنظفتر، وأمر أخاه قدودا وابنه أنظفتر بكفالتهم والإحسان إليهم، ففكرها ذلك واتفقا على فسحه وقتل هيردوس متى أمكن، وبعث هيردوس ابنه أنظفتر إلى أوغسطس قيصر، وغما الخبر إليه بأن أخاه قدودا يريد قتله، فسخطه وأبعده وألزمه بيته. ثم مرض قدودا واستعد أخاه هيردوس ليعوده فعاده ثم مات، فحزن عليه ثم حزن باستكشاف ما غما إليه، فعاقب جواريه، فأفترت إحدهما بأن أنظفتر وقدودا كانا يجتمعان عند رسيس أم أنظفتر يدبران على قتل هيردوس على يد خازن أنظفتر، فأفتر بذلك وإنه بعث على السم من مصر وهو عند امرأة قدودا، فأحضرت فأفترت بأن قدودا أمرها عند موته بإراقتة، وأنها أبقت منه قليلاً يشهد لها إن سئلت، فكتب هيردوس إلى ابنه أنظفتر بالقدوم، فقدم مسترياً بعد أن أجمع على الهروب، فمتمعه خدم أبيه. ولما حضر جمع له الناس في مشهد وحضر رسول أوغسطس وقدم كاتبه نيقلوس.

وكان يحب أولاد هيردوس المقتولين ويميل إليهما عن أنظفتر، فدفع بمخاضهما حتى قامت عليه الحجة وأحضر بقية السم وجرب في بعض الحيوانات فصدق فعله، فحبس هيردوس ابنه أنظفتر حتى مرض وأشرف على الموت، وأسف على ما كان منه لأولاده فهم يقتل نفسه، فتمتعته جلساؤه وأهله، وسمع من القصر البكاء والصراخ لذلك، فهم أنظفتر بالخروج من محبسه ومنع، وأخبر هيردوس بذلك وأمر بقتله في الوقت فقتل.

ملك اليهود إلى القدس، فجمع العساكر وسار وخرب كل ما مر عليه. ولقيه العازار الناصر بالقدس فانهزم ورجع، ونزل كسنيثا وقائد الروم فأتخن فيهم، وارتحل كسنيثا إلى قيسارية، وخرج اليهود في أتباعهم فهزمهم، ولحق كسنيثا وأغرياس بقيصر قيرش، فوافقوا وصول قائده الأعظم أسبسيانوس عن بلاد الغرب، وقد فتح الأندلس ودوخ أقطارها فعهد إليه قيرش قيصر بالمسير إلى بلاد اليهود وأمره أن يستأصلهم ويهدم حصونهم. فسار ومعه ابنه طيطوش وأغرياس ملك اليهود، وانتهوا إلى أنطاكية، وتأهب اليهود لحربهم، وانقسموا ثلاث فرق في ثلاث نواحي مع كل فرقة كهنون، فكان عناني الكهنون الأعظم في دمشق ونواحيها، وكان ابنه العازر كهنون طبرية وجبل الخليل وما يتصل به، وجعلوا فيما بقي من البلاد من الأغوار إلى حدود مصر من يحفظها من بقية الكهنونية.

وعمر كل منهم أسوار حصونه ورتب مقاتلته وسار اسبسيانوس بالعساكر من أنطاكية فنوسط في بلاد الأرمن وأقام، وخرج يوسف بن كريون من طبرية فحاصر بعض الحصون بناحية الأغرياس ففتحه واسترلى عليه، وبعث أهل طبرية من ورائه إلى الروم فاستأمنوا إليهم، فزحف يوسف مبادراً وقتل من وجد فيها من الروم، وقبل معذرة أهل طبرية. وبلغه مثل ذلك عن جبل الخليل فسار إليهم وفعل فيهم فعله في طبرية. فزحف إليه اسبسيانوس من عكا في أربعين ألف مقاتل من الروم ومعه أغرياس ملك اليهود وسارت معهم الأمم من الأرمن وغيرهم، إلا أدوم فإنهم كانوا حلفاء لليهود منذ أيام هرقانوس. ونزل اسبسيانوس بعساكره على يوسف بن كريون ومن معه بطبرية فدعاهم إلى الصلح، فسألوا الإمهال إلى مشاورة الجماعة بالقدس، ثم امتنعوا وقتلهم اسبسيانوس بظاهر الحصن، فاستلحمهم حتى قل عددهم، وأغلقت الحصن فقطع عنهم الماء خمسين ليلة، ثم يبتهم الروم فافتحموا عليهم الحصن فاستلحموهم، وأقلت يوسف بن كريون ومن معه من الغل فامتنعوا بطن الأعراب، وأعطاهم اسبسيانوس الأمان، فمال إليه يوسف وأبى القوم إلا أن يقتلوا أنفسهم وهما بقتله، فوافقهم على رأيهم إلى أن قتل بعضهم بعضاً ولم يبق من يخشاه، فخرج إلى اسبسيانوس مطارحاً عليه، وحرّضه اليهود على قتله فأبى واعتقله وخرب أعمال طبرية وقتل أهلها ورجع إلى قيسارية.

قال ابن كريون: وفي خلال ذلك حدثت الفتنة في القدس بين اليهود داخل المدينة، وذلك أنه كان في جبل الخليل بمدينة

بأمر اليهود وملك عشرين سنة، وكثرت الحروب والفتن في أيامه في بلاد اليهود والأرمن، وظهرت الخوارج والمتغلبون، وانقطعت السبل وكثر الهرج داخل المدينة في القدس. وكان الناس يقتل بعضهم بعضاً في الطرقات يحملون سكاكين صغاراً محددين لها فإذا ازدحم مع صاحبه في الطريق طعنه فأهواه حتى صاروا يلبسون الدروع لذلك، وخرج كثير من الناس عن المدينة فراراً من القتل.

وهلك ولد طبريوس قيصر ونبيرون من بعده، وملك على الروم فيلقوس قيصر فسعى بعض الشرار عنده بأن هؤلاء الذين خرجوا من القدس يذمون على الروم، فبعث إليهم من قتلهم وأسروهم.

واشتد البلاء على اليهود وطالت الفتن فيهم، وكان الكهنون الكبير فيهم لذلك العهد عناني، وكان له ابن اسمه العازار وكان ممن خرج من القدس وكان فاتكاً مصعلكاً، وانضم إليه جماعة من الأشرار، وأقاموا يغيرون على بلاد اليهود والأرمن وينهبون ويقتلون، وشكّتهم الأرمن إلى فيلقوس قيصر، فبعث من قيده وحمله وأصحابه إلى رومة، فلم يرجع إلى القدس إلا بعد حين.

واشتد قائد الروم بيت المقدس على اليهود وكثر ظلمه فيهم، فأخرجوه عنهم بعد أن قتلوا جماعة من أصحابه، ولحق بمصر فلقي هنالك أغرياس ملك اليهود راجعاً من رومية ومعه قائدان من الروم، فشكى إليه فيلقوس بما وقع من اليهود، ومضى إلى بيت المقدس فشكى إليه اليهود بما فعل فيلقوس وأنهم عازمون على الخلاف، وتلطف لهم في الإمساك عن ذلك حتى تبلغ شكيتهم إلى قيصر ويعتذر منه، فامتنع العازار بن عناني وأبى إلا المخالفة، وأخرج القريان الذي كان بعثه معه نيرون قيصر من البيت، ثم عمد إلى الروم الذين جاءوا مع أغرياس فقتلهم حيث وجدوا، وقتل القائدين. ونكر ذلك أشياخ اليهود واجتمعوا لحرب العازار وبعثوا إلى أغرياس، وكان خارج القدس، فبعث إليهم بثلاثة آلاف مقاتل، فكانت الحرب بينهم وبين العازار سجلاً، ثم هزمهم وأخرجهم من المدينة، وعاث في البلد وخرب قصور الملك ونهبها وأموالها وذخائرها، وبقي أغرياس والكهنونة والعلماء والشيوخ خارج المقدس. وبلغهم أن الأرمن قتلوا من وجدوه من اليهود بدمشق ونواحيها وقيسارية، فساروا إلى بلادهم وقتلوا من وجدوه بنواحي دمشق من الأرمن. ثم سار أغرياس إلى قيرش قيصر وخبره الخبر فامتعض لذلك، وبعث إلى كسنيثا وقائده على الأرمن، وقد كان مضى إلى حرب الفرس فدوخها وقهرهم، وعاد إلى بلاد الأرمن فنزل دمشق فجاء عهد قيصر بالمسير مع أغرياس

وسار اسبسيانوس إلى إسكندرية وركب البحر منها.

ورجع طيطش إلى قيسارية إلى أن ينسلخ فصل الشتاء ويزيح العلل وعظمت الفتن والحروب بين اليهود داخل القدس وكثر القتل حتى سالت الدماء في الطرقات، وقتل الكهونية على المذبح وهم لا يقربون الصلاة في المسجد لكثرة الدماء، وتعذر المشي في الطرقات من سقوط حجارة الرمي ومواقد النيران بالليل، وكان يوحنا أخبث القوم وأشهرهم ولما انسلخ الشتاء زحف طيطش في عساكر الروم إلى أن نزل على القدس وركب إلى باب البلد يتخير المكان لعسكره ويدعوهم إلى السلم، فصموا عنه وأكمنوا له بعض الخوارج في الطريق فقاتلوه، وخلص منهم بشدته، فعفى عسكره من الغد ونزل بجبل الزيتون شرقي المدينة ورتب العساكر والآلات للحصار.

واتفق اليهود داخل المدينة ورفعوا الحرب بينهم، وبرزوا إلى الروم فانهزموا، ثم عاودوا فظهروا، ثم انتفضوا بينهم وتحاربوا ودخل يوحنا إلى القدس يوم الفطر فقتل جماعة من الكهنة وقتل جماعة أخرى خارج المسجد. وزحف طيطش وبرزوا إليه فردوه إلى قرب معسكره، وبعث إليهم قائده نيقانور في الصلح فأصابه سهم فقتله، فغضب طيطش وصنع كيشاً وأبراجاً من الحديد توازي السور وشحنها بالمقاتلة، فأحرق اليهود تلك الآلات ودفنوها وعادوا إلى الحرب بينهم وكان يوحنا قد ملك القدس ومعه ستة آلاف أو يزيدون من المقاتلة، ومع شمعون عشرة آلاف من اليهود وخمسة آلاف من أدم، وبقيّة اليهود بالمدينة مع العازر وأعاد طيطش الزحف بالآلات وثلم السور الأول وملكه إلى الثاني، فاصطلم اليهود بينهم وتذامروا واشتد الحرب، وباشرها طيطش بنفسه ثم زحف بالآلات إلى السور الثاني فثلمه، وتذامر اليهود فمنعوهم عنه ومكثوا كذلك أربعة أيام.

وجاء المدد من الجهات إلى طيطش ولاذ اليهود بالأسوار وأغلقت الأبواب، ورفع طيطش الحرب ودعاهم إلى المسالة، فامتنعوا. فجاء بنفسه في اليوم الخامس وخاطبهم ودعاهم وجاء معه يوسف بن كريون فوعظهم ورغبهم في أمة الروم ووعدهم وأطلق طيطش أسراهم فجنح الكثير من اليهود إلى المسالة، ومنعهم هؤلاء الرؤساء الخوارج، وقتلوا من يروم، الخروج إلى الروم، ولم يبق من المدينة ما يعصمهم إلا السور الثالث.

وطال الحصار واشتد الجوع عليهم والقتل، ومن وجد خارج المدينة لرعي العشب قتله الروم وصلبوه، حتى رحمهم طيطش ورفع القتل عمن يخرج في ابتغاء العشب.

كوشالة يهودي اسمه يوحنا، وكان مرتكباً للعظائم واجتمع إليه أشرار منهم قنوي بهم على قطع السابلة والنهب والقتل، فلما استولى الروم على كوشالة لحق بالقدس وتآلف عليه أشرار اليهود من فل البلاد التي أخذها الروم، فتحكم على أهل المقدس وأخذ الأموال وزاحم عناني الكهنون الأعظم، ثم عزله واستبدل به رجلاً من غواتهم وحمل الشيوخ على طاعته، فامتنعوا فتغلب عليهم فقتلهم. فاجتمع اليهود إلى عناني الكهنون وحاربهم يوحنا وتمحصنوا في المقدس، وراسله عناني في الصلح فأبى، وبعث إلى أدم يستجيشهم فبعثوا إليه بعشرين ألفاً منهم، فأغلق عناني أبواب المدينة دونهم، وحاط بهم من الأسوار، ثم استغفلوه وكسروا المدينة، واجتمع معهم يوحنا فقتلوا من وجوه اليهود نحواً من خمسة آلاف وصادروا أهل النعم على أموالهم، وبعثوا يوحنا إلى المدن الذين استأمنوا إلى الروم فغنم أموالهم وقتل من وجد منهم.

وبعث أهل القدس في استدعاء اسبسيانوس وعساكره فزحف من قيسارية حتى إذا توسط الطريق خرج يوحنا من القدس وامتنع ببعض الشعاب، فمال إليه اسبسيانوس العسكر وظفر بالكثير منهم فقتلوه. ثم سار إلى بلاد أدم ففتحها، وسبسطية بلاد السامرة ففتحها أيضاً، وعمر جميع ما فتح من البلاد، ورجع إلى قيسارية ليزيح عله ويسير إلى القدس. ورجع يوحنا أثناء ذلك من الشعاب، فغلب على المدينة، وعاث فيهم بالقتل، وتحكم في أموالهم، وأفسد حرهم.

قال ابن كريون: وقد كان ثار بالمدينة في مغيب يوحنا ثائراً آخر اسمه شمعون، واجتمع إليه للصوص والشرار حتى كثر جمعه وبلغوا نحواً من عشرين ألفاً، وبعث إليه أهل أدم عسكرياً فهزمهم واستولى على الضياع ونهب الغلال، وبعث إلى امرأته من المدينة فردها يوحنا من طريقها وقطع من وجد معها، ثم أسعفوه بامرأته وسار إلى أدم فحاربهم وهزمهم، وعاد إلى القدس فحاصرها وعظم الضرر على أهلها شمعون خارج المدينة ويوحنا داخلها، ولجأوا إلى الهيكل وحاربوا يوحنا فغلبهم وقتل منهم خلقاً، فاستدعوا شمعون لينصرهم من يوحنا فدخل ونقض العهد وفعل أشراً من يوحنا.

قال ابن كريون: ثم ورد الخبر إلى اسبسيانوس وهو بمكانه من قيسارية بموت قيروش قيصر وأن الروم ملكوا عليهم مضعفاً اسمه نظاوس فغضب البطارقة الذين مع اسبسيانوس وملكوه، وسار إلى رومة وخلف نصف العسكر مع ابنه طيطش، وقدم بين يديه قائدتين إلى رومة لمحاربة نظاوس الذي ملكه الروم فهزم وقتل،

قال ابن كريون: فكان عدد الموتى الذين خرجوا على الباب للدفن بأخبار مناجيم الموكل به مائة وخمسة وعشرون ألفاً وثمناً. وقال غير مناجيم كانت عدتهم ستمائة ألف دون من ألقى في الآبار، أو طرح إلى خارج الحصن وقتل في الطرقات ولم يدفن. وقال غيره كان الذي أحصى من الموتى والقنلى ألف ألف ومائة ألف والسي والأسارى مائة ألف، كان طيطش في كل منزلة يلقي منهم إلى السباع إلى أن فرغوا. وكان فيمن هلك شمعون أحد الخوارج الثلاثة وأما الفرار بن عفان فقد كان خرج من القدس عندما قتل شمعون أمتاي الكوهن كما ذكرنا، فلما رحل طيطش عن القدس نزل في بعض القرى وحصنها واجتمع إليه فل اليهود، واتصل الخبر بطيطش وهو في أنطاكية، فبعث إليه عسكرياً من الروم مع قائده سلباس فحاصروهم أياماً، ثم نهض الكهنة وأولادهم وخرجوا إلى الروم مستميتين، فقاتلوا إلى أن قتلوا عن آخرهم. وأما يوسف بن كريون فانتقد أهله وولده في هذه الوقائع ولم يقف لهم بعدها على خير وأراده طيطش على السكنى عنده برومة، فضرع إليه في البقاء بأرض القدس، فأجابه إلى ذلك وتركه. وانقرضت دولة اليهود أجمع، والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى لا انقضاء للملكة..

الخبر عن شأن عيسى بن مريم صلوات الله عليه في ولادته وبعثه ورفعته من الأرض والإلام بشأن الخوارج بعده وكتبهم الأناجيل الأربعة وديانة النصارى بعلمته واجتماع الأقسمة على تدوين شريعته

كان بنو مائان من ولد داود صلوات الله عليه كهنة بيت المقدس، وهو مائان بن العازر بن اليهود بن أخس بن رادوق بن عازور بن إلياقيم بن أيود بن زورقابل بن سالات بن يوحنا بن يوشيا السادس عشر من ملوك بني إسرائيل بن أمون بن عمون ابن منشا بن حزقيا بن أحاز بن يوشيا بن حزقيا بن يورام بن يهوذا فاطم بن أسا بن رحبعم بن سليمان بن داود صلوات الله عليهم. ويوحنا بن يوشيا السادس عشر من ملوك بني سليمان ولد في جلاء بابل وهذا النسب نقلته من إنجيل متى.

وكانت الكهنة العظمى من بعد بني حشمتاي لهم، وكان كبيرهم قبل عصر هيردوس عمران أبو مريم، ونسبه ابن إسحاق إلى أمون بن منشا الخامس عشر من ملوك بيت المقدس من لدن

ثم زحف طيطش إلى السور الثالث من أربعة جهاته ونصب الآلات، وصبر اليهود على الحرب وتذامر اليهود وصعب الحرب وبلغ الجوع في الشدة غايته، واستأمن متاي الكوهن إلى الروم وهو الذي خرج في استدعاء شمعون، فقتله شمعون وقتل بنيه وقتل جماعة من الكهنة والعلماء والأئمة عن حذر منه أن يستأمن. ونكر ذلك العازر بن عناني ولم يقدر على أكثر من الخروج عن بيت المقدس. وعظمت الجماعة فمات أكثر اليهود، وأكلوا الجلود والخشاش والميتة، ثم أكل بعضهم بعضاً، وعثر على امرأة تاكل ابنها، فأصابت رؤسهم لذلك رحمة، وأفنوا في الناس بالخروج، فخرجت منهم أمم وهلك أكثرهم حين أكلوا الطعام.

وابتلع بعضهم في خروجه ما كان له من ذهب أو جواهر ضنة به، وشعر بهم الروم فكانوا يقتلونهم ويشقون عنهم بطونهم، وشاع ذلك في توابع العسكر من العرب والأرمن فطردهم طيطش وطعم الروم في فتح المدينة وزحفوا إلى سورها الثالث بالآلات ولم يكن لليهود طاقة بدفعها وإحراقها فثلّموا السور، وبني اليهود خلف الثلثة فأصبحت منسدة، وصدمها الروم بالكيش فسقطت من الحدة، واستماتوا في تلك الحال إلى الليل. ثم بيت الروم المدينة وملكوا الأسوار عليهم وقاتلوهم من الغد فانهزموا إلى المسجد وقاتلوا في الحصن، وهدم طيطش البناء ما بين الأسوار إلى المسجد ليتسع المجال.

ووقف ابن كريون يدعوهم إلى الطاعة فلم يجيبوا، وخرج جماعة من الكهنة فأمّتهم ومنع الرؤساء بقيتهم، ثم باكرهم طيطش بالتال من الغد فانهزموا الأقداس وملك الروم المسجد وصحنه واتصلت الحرب أياماً وهدمت الأسوار كلها وثلّم سور الهيكل، وأحاط العساكر بالمدينة حتى مات أكثرهم وفر كثير. ثم اقتحم عليهم الحصن فملكه ونصب الأصنام في الهيكل ومنع من تخريبه. ونكر رؤساء الروم ذلك ودسوا من أضرم النار في أبوابه وسفقه، وألقى الكهنة أنفسهم جزعاً على دينهم وحزنوا، واختفى شمعون ويوحنا في جبل صهيون، وبعث إليهم طيطش بالأمان فامتنعوا وطرخوا القدس في بعض الليالي، فقتلوا قائداً من قواد العسكر ورجعوا إلى مكان اختفائهم.

ثم هرب عنهم أتباعهم وجاء يوحنا ملقياً بيده إلى طيطش فقبده، وخرج إليه يوشع الكوهن بالآلات من الذهب الخالص من آلات المسجد فيها منارتان ومائتان، ثم قبض على فنحاس خازن الهيكل، فاطلعه على خزائن كثيرة مملوءة دنائير ودرهم وطيباً فامتلات يده منها، ورحل عن بيت المقدس بالغنائم والأموال والأسرى، وأحصى الموتى في هذه الواقعة.

عاداتهم في نذر مثله، فلما حملت ووضعتها لفتها في خرقتها وجاءت بها إلى المسجد فدفعها إلى عباده وهي ابنة إسماعيل وكهنوتهم، فتنازعوا في كفالتها، وأراد زكريا أن يستبد بها لأن زوجة إيشاع خالتها، ونازعوه في ذلك لمكان أبيها من إسماعيل، فافترعوا فخرجة زكريا عليها فكفلها ووضعها في مكان شريف من المسجد لا يدخله سواها وهو المحراب فيما قيل. والظاهر أنها دفعتها إليهم بعد مدة إرضاعها، فأقامت في المسجد تعبد الله وتقوم بسدانة البيت في تربتها حتى كان يضرب بها المثل في عبادتها، وظهرت عليها الأحوال الشريفة والكرامات كما قصه القرآن.

وكانت خالتها إيشاع زوج زكريا أيضاً عاقراً، وطلب زكريا من الله ولداً، فبشره يوحى نبياً كما طلب، لأنه قال يرثني ويرث من آل يعقوب وهم أنبياء فكان كذلك. وكان حاله في نشوه وصباه عجباً وولد في دولة هيردوس ملك بني اسرائيل، وكان يسكن الفقار ويقنت الجراد ويلبس الصوف من وبر الإبل، وولاه اليهود الكهنوتية بيت المقدس، ثم أكرمه الله بالنبوة كما قصه القرآن.

وكان لعهد على اليهود بالقدس أنطيقس بن هيردوس وكان يسمى هيردوس باسم أبيه، وكان شريراً فاسقاً واغتصب امرأة أخيه وتزوجها ولها ولدان منه، ولم يكن ذلك في شرعهم مباحاً، ففكر ذلك عليه العلماء والكهنوتية وفيهم يحيى بن زكريا، المعروف بيوحنا ويعرفه النصارى بالمعمدان، فقتل جميع من نكر عليه ذلك وقتل فيهم يحيى صلوات الله عليه. وقد ذكر في قتله أسباب كثيرة وهذا أقربها إلى الصحة، وقد اختلف الناس هل كان أبوه حياً عند قتله فقيل إنه لما قتل يحيى طلبه بنو اسرائيل ليقتلوه، ففر أمامهم ودخل في بطن شجرة كرامة له فدخلهم عليه طرف رداءه خارجاً منها، فشقوقها بالبنشار وشق زكريا فيها نصفين. وقيل: بل مات زكريا قبل هذا والمشتق في الشجرة إنما هو شعيا النبي وقد مر ذكره. وكذلك اختلف في دفنه فقيل دفن ببيت المقدس وهو الصحيح.

وقال أبو عبيد بسنده إلى سعيد بن المسيب أن يختصر لما قدم دمشق وجد دم يحيى بن زكريا يغلي، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن دمه. ويشكل أن يحيى كان مع المسيح في عصر واحد باتفاق وأن ذلك كان بعد مختصر بأحقاب متطاولة وفي هذا ما فيه. وفي الإسرائيليات من تأليف يعقوب بن يوسف النجار أن هيردوس قتل زكريا عندما جاء الجوس للبحث عن إيشوع والإنذار به، وأنه طلب ابنه يوحنا ليقتله مع من قتل من صبيان

سليمان أبيهم، وقال فيه عمران بن ياشم بن أمون. وهذا بعيد لأن الزمان بين عمون وعمران أبعد من أن يكون بينهما أب واحد، فإن أمون كان قبيل الخراب الأول وعمران كان في دولة هيردوس قبيل الخراب الثاني، وبينهما قريب من أربعمئة سنة.

ونقل ابن عساكر، والظن أنه ينقل عن مستند، أنه من ولد زريافيل الذي ولي على بني اسرائيل عند رجوعهم إلى بيت المقدس، وهو ابن يثينا آخر ملوكهم الذي حبسه مختصر وولى عمه صدقيا هو بعده كما مر. وقال فيه: عمران بن ماثان بن فلان بن فلان إلى زريافيل، وعد نحواً من ثمانية آباء بأسماء عبرانية لا وثوق بضبطها، وهو أقرب من الأول وفيه ذكر ماثان الذي هو شهرتهم، ولم يذكره ابن إسحاق، وكان عمران أبو مريم كهوتياً في عصره، وكانت تحتة حنة بنت فاقد بن فيل وكانت من العابدات، وكانت أختها إيشاع، ويقال: خالتها تحت زكريا بن يوحنا، ونسبه ابن عساكر إلى يهوشافاط خامس ملوك المقدس من عهد سليمان أبيهم وعد ما بينه وبين يهوشافاط اثني عشر أباً أولهم يوحنا بأسماء عبرانية، كما فعل في نسب عمران، ثم قال وهو أبو يحيى صلوات الله عليهما، ويقال بالمد والقصر من غير ألف، وكان نبياً من بني اسرائيل صلوات الله عليه اه.

ونقلت من كتاب يعقوب بن يوسف النجار ماثان يعني ماثان من سبط داود، وكان له ولدان يعقوب ويؤاقيم، ومات فتزوج أمهما بعده مطنان، ومطنان بن لاوي من سبط سليمان بن داود وسمي ماثان فولدت هالي من مطنان. ثم تزوج ومات ولم يعقب فتزوج امرأته أخوه لأمه يعقوب بن ماثان فولدت منه يوسف خطيب مريم ونسب إلى هالي، لأن من أحكام التوراة إن مات من غير عقب فامرأته لأخيه وأول ولد منهما ينسب إلى الأول، فلهذا قيل فيه يوسف بن هالي بن مطنان، وإنما هو يوسف بن يعقوب بن ماثان، وهو ابن عم مريم لحا وكان ليوسف من البنين خمسة بنين وبنات وهم يعقوب ويوشا وييلوت وشمعون ويهوذا واختهم مريم، كانوا يسكنون بيت لحم. فارتحل بأهله ونزل ناصرة وسكن بها وتعلم التجارة حتى صار يلقب بالنجار.

وتزوج يؤاقيم حنة أخت إيشاع العاقر امرأة زكريا بن يوحنا المعمدان، وأقامت ثلاثين سنة لا يولد لها، فدعوا الله وولد لها مريم فهي بنت يؤاقيم موثان وهو ماثان. وولدت إيشاع العاقر من زكريا ابنه يحيى. قلت في التنزيل مريم ابنة عمران فليعلم أن معنى عمران بالعبرانية يؤاقيم وكان له اسمان اه.

وعن الطبري: وكانت حنة أم مريم لا تحبل، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها حبساً ببيت المقدس على خدمته على

الياء. فمضت مريم يوماً وتخلف عنها يوسف، ودخلت المغارة التي كانت تعهد أنها للورد، فتمثل لها جبريل بشراً، فذهبت لتجزع، فقال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ فاستسقاها.

وعن وهب بن منبه أنه نفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى الرحم، فاشتملت على عيسى، فكان معها ذو قرابة يسمى يوسف النجار، وكان في مسجد بجبل صهيون، وكان لخدمته عندهم فضل، وكانا يجمرانه ويقمانه. وكانا صالحين مجتهدين في العبادة، ولما رأى ما بها من الحمل استعظمه وعجب منه لما يعلم من صلاحها وأنها لم تغب قط عنه، ثم سألها فردت الأمر إلى قدرة الله، فسكت وقام بما ينوبها من الخدمة. فلما بان حملها أنضت بذلك إلى خالتها إيشاع، وكانت أيضاً حبلى بيحيى، فقالت لها: اني أرى ما في بطني يسجد لها في بطنك.

ثم أمرت بالخروج من بلدها خشية أن يعيرها قومها ويقتلوا ما في بطنها، فاحتملها يوسف إلى مصر وأخذها المخاض في طريقها، فوضعتها كما قصه القرآن، واحتملته على الحمار، وأقامت تكتم أمرها من الناس وتحتفظ به، حتى بلغ اثنتي عشرة سنة وظهرت عليه الكرامات وشاع خبره، فأمرت أن ترجع به إلى إيلياء فرجعت. وتابعت عنه المعجزات واثال الناس عليه يستشفون ويسألون عن الغيوب.

قال الطبري: وفي خبر السدي أنها إنما خرجت من المسجد لحيض أصابها، فكان نفخ الملاك، وأن إيشاع خالتها التي سألها عن الحمل وناظرها فيه فحجتها بالقدرة، وأن الوضع كان في شرقي بيت لحم قريباً من بيت المقدس وهو الذي بنى عليه بعض ملوك الروم البناء المائل لهذا العهد قال ابن العميد مؤرخ النصارى: ولد لثلاثة أشهر من ولادة يحيى بن زكريا، ولإحدى وثلاثين من دولة هيردوس الأكبر، ولأثنتين وأربعين من ملك أوغسطس قيصر.

وفي الإنجيل أن يوسف تزوجها ومضى بها ليكتم أمرها في بيت لحم، فوضعتها هنالك ووضعت في مذود لأنها لم يكن لها موضع نزل. وأن جماعة من الجوس بعثهم ملك الفرس يسألون أين ولد الملك العظيم؟ وجاؤوا إلى هيردوس يسألونه وقالوا جئنا لنسجد له.

وحديثه بما أخبر الكهان وعلماء النجوم من شأن ظهوره، وأنه يولد ببيت لحم. وسمع أوغسطس قيصر بمخبر الجوس فكتب إلى هيردوس يسأله، فكتب له بمصدوقية خبره وأنه قتل فيمن قتل

بيت لحم، فهرت به أمه إلى الشقراء واختفت. فطالب به أباه زكريا وهو كهون في الهيكل، فقال لا علم لي هو مع أمه فتهدده وقتله. ثم قال بعد قتل زكريا بسنة تولى الكهنونية يعقوب بن يوسف إلى أن مات هيرودوس.

وأما مريم سلام الله عليها فكانت بالمسجد على حالها من العبادة إلى أن أكرمها الله بالولاية وبين الناس في نبوتها خلاف من أجل خطاب الملائكة لها. وعند أهل السنة أن النبوة مختصة بالرجل، قاله أبو الحسن الأشعري وغيره وأدلة الفريقين في أماكنها. وبشرت الملائكة باصطفاء الله لها، وأنها تلد ولدًا من غير أب يكون نبياً، فعجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قادر على ما يشاء، فاستكانت وعملت أنها محنة بما تلقاه من كلام الناس فاحتسبت.

وفي كتاب يعقوب بن يوسف النجار أن أمها حنة توفيت لثمان سنين من عمر مريم، وكان من ستهم أنها إن لم تقبل التزويج يفرض لها من أرزاق الهيكل، فأوحى الله إليه أن يجمع أولاد هارون ويردها إليهم، فمن ظهرت في عصاه آية تدفعها إليه تكون له شبه زوجة ولا يقر بها، وحضر الجمع يوسف النجار فخرج من عصاه حمامة بيضاء ووقفت على رأسه، فقال له زكريا: هذه عذراء الرب تكون لك شبه زوجة ولا تردها. فاحتملها متكرهاً بنت اثنتي عشرة سنة إلى ناصرة فأقامت معه، إلى أن خرجت يوماً تستقي من العين فعرض لها الملاك أولاً وكلمها ثم عاودها وبشرها بولادة عيسى كما نص القرآن. فحملت وذهبت إلى زكريا ببيت المقدس فوجدته على الموت وهو يجمود بنفسه، فرجعت إلى ناصرة، ورأى يوسف الحمل فلطم وجهه وخشي الفضيحة مع الكهنونية فيما شرطوا عليه، فأخبرته بقول الملك، فلم يصدق.

وعرض له الملاك في نومه وأخبره أن الذي بها من روح القدس، فاستيقظ وجاء إلى مريم فسجد لها وودها إلى بيتها. ويقال: إن زكريا حضر لذلك وأقام فيهما سنة اللعان الذي أوصى به موسى، فلم يصبهما شيء وبرأهما الله. ووقع في إنجيل متى أن يوسف خطب مريم ووجدها حاملاً قبل أن يجتمعا، فعزم على فراقها خوفاً من الفضيحة، فأمر في نومه أن يقبلها وأخبره الملاك بأن المولود من روح القدس، وكان يوسف صديقاً وولد على فراشه إيشوع انتهى.

وقال الطبري: كانت مريم ويوسف بن يعقوب ابن عمها، وفي رواية عنه أنه ابن خالها، وكانوا سدة في بيت المقدس لا يخرجان منه إلا لحاجة الإنسان، وإذا نفذ ماؤهما فيملاآن من أقرب

بإبلاغ الأمر إلى قيصر فأمر بقتله، وكان عيسى قد أبلغ الخواريين بأنه يشبه على اليهود في شأنه فقتل ذلك الشبه وصلب، وأقام سبعا، وجاءت أمه تبكي عند الخشبة فجاءها عيسى وقال: مالك تبكي؟ قالت: عليك! قال: إن الله رفعتي ولم يصني إلا خير وهذا شيء شبه لهم، وقرولي للخواريين يلقوني بمكان كذا. فانطلقوا إليه وأمرهم بتبليغ رسالته في النواحي، كما عين لهم من قبل. وعند علماء النصارى أن الذي بعث من الخواريين إلى رومة بطرس ومعه بولس من الأتباع ولم يكن حواريا، وإلى أرض السودان والحبشة - ويعبرون عن هذه الناحية بالأرض التي تاكل أهلها والناس - متى العشار، وأندراوس إلى أرض بابل، والمشرق توماس، وإلى أرض أفريقية فيليبس، وإلى أفسوس قرية أصحاب الكهف يوحنا، وإلى أورشليم وهي بيت المقدس يوحنا، وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس، وإلى أرض برقة والبربر شمعون القناني.

قال ابن إسحاق: ثم وثب اليهود على بقية الخواريين يعذبونهم ويفتنونهم، وسمع القيصر بذلك وكتب إليه فلاطش النبطي قائده بأخباره ومعجزاته، وبغى اليهود عليه وعلى يوحنا قبله، فأمرهم بالكف عن ذلك، ويقال قتل بعضهم، وانطلق الخواريون إلى الجهات التي بعثهم إليها عيسى فأمن به بعض وكذب بعض. ودخل يعقوب أخو يوحنا إلى رومة فقتله غاليلوس قيصر وحبس شمعون، ثم خلص وسار إلى أنطاكية ثم رجع إلى رومة أيام قلوديش قيصر بعد غاليلوس، واتبه كثير من الناس وآمن به بعض نساء القياصرة وأخبرها بخبر الصليب، فدخلت إلى القدس وأخرجته من تحت الزيل والقمامات بمكان الصلب وغشته بالحريز والذهب وجاءت به إلى رومة.

وأما بطرس كبير الخواريين وبولص اللذان بعثهما عيسى صلوات الله عليه إلى رومة فإنهما مكثا هنالك قيمان دين النصرانية، ثم كتب بطرس الإنجيل بالرومية ونسبه إلى مرقص تلميذه، وكتب متى إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس ونقله من بعد ذلك يوحنا بن زبدي إلى رومة، وكتب لوقا إنجيله بالرومية وبعثه إلى بعض أكابر الروم، وكتب يوحنا بن زبدي إنجيله برومة. ثم اجتمع الرسل الخواريون برومة ووضعوا القوانين الشرعية لدينهم وصيروها بيد إقليمنطس تلميذ بطرس، وكتبوا فيها عد الكتب التي يجب قبولها، فمن القديمة التوراة خمسة أسفار، وكتاب يوشع بن نون، وكتاب القضاة، وكتاب راعوث، وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك أربعة كتب، وسفر بنيامين، وسفر المقاسبين ثلاثة كتب، وكتاب عزرا الإمام، وكتاب أشير، وكتاب قصة هامان، وكتاب

من الصبيان من ابن ستين فما دونها، وكان يوسف النجار قدر أمر أن يخرج به إلى مصر، فأقام هنالك اثني عشرة سنة، وظهرت عليه الكرامات، وهلك هيردوس الذي كان يطلبه وأمر بالرجوع إلى إيليا، فرجعوا، وظهر صدق شعيا النبي في قوله عنه: من مصر دعوتك.

وفي كتاب يعقوب بن يوسف النجار حذراً من أن يكتب كما أمر أوغسطس في بعض أيامه فأجاءها المخاض وهي في طريقها على حمار، فصابرت به إلى قرية بيت لحم وولدت في غار وسماه إيشوع، وأنه لما بلغ ستين، وكان من أمر الجوس ما قدمناه، حذر هيردوس من شأنه وأمر أن يقتل الصبيان بيت لحم، فخرج يوسف به وبأهله إلى مصر، أمر بذلك في نومه وأقام بمصر ستين حتى مات هيردوس، ثم أمر بالرجوع فرجع إلى ناصرة، وظهرت عليه الخوارق من إحياء الموتى وإبراء المعتمين وخلق الطير وغير ذلك من خوارقه، حتى إذا بلغ ثمانين سنين كف عن ذلك ثم جاء يوحنا المعمدان من البرية، وهو يحيى بن زكريا، ونادى بالتوبة والدعاء إلى الدين، وقد كان شعيا أخبر أنه يخرج أيام المسيح.

وجاء المسيح من الناصرة ولقيه بالأردن فعمده يوحنا وهو ابن ثلاثين سنة، ثم خرج إلى البرية واجتهد في العبادة والصلاة والرهانية واختار تلاميذه الاثني عشر: سمعان بطرس وأخوه أندراوس ويعقوب بن زبدي وأخوه يوحنا وفيلبس وبرتلوماوس وتوما ومتى العشار ويعقوب بن حلفا وتداوس وسمعان القناني ويهوذا الإسخريوطي. وشرع في إظهار المعجزات. ثم قبض هيردوس الصغير على يوحنا وهو يحيى بن زكريا لنكيره عليه في زوجة أخيه، فقتله ودفن بنابلس.

ثم شرع المسيح الشرائع من الصلاة والصوم وسائر القربات، وحلل وحرم وأنزل عليه الإنجيل، وظهرت على يديه الخوارق والعجائب، وشاع ذكره في النواحي، واتبه الكثير من بني إسرائيل، وخافه رؤساء اليهود على دينهم، وتآمروا في قتله، وجمع عيسى الخواريين فباتوا عنده ليلتين يطعمهم ويبالغ في خدمتهم بما استعظموه، قال: وإنما فعلته لتأسوا به، وقال يعظهم: ليكفرن بي بعضكم قبل أن يصبح الديك ثلاثاً ويبعني أحدكم بثمن بخس وتأكلوا ثمني، ثم افترقوا. وكان اليهود قد بعثوا العيون عليهم، فأخذوا شمعون من الخواريين فتبرأ منهم وتركوه، وجاء يهوذا الإسخريوطي وبايعهم على الدلالة عليه بثلاثين درهماً، وأراه مكانه الذي كان يبيت فيه، وأصباحوا به إلى فلاطش النبطي قائد قيصر على اليهود. وحضر جماعة الكهنوتية وقالوا: هذا يفسد ديننا ويحل نواميسنا ويدعي الملك فاقتله! وتوقف فصاحوا به وتوعده

سنة من ملك قسطنطين ابنها، وجاءت إلى مكان الصليب فوقفت عليه وترحت وسألت عن الخشبة التي صلب عليها بزعمهم، فأخبرت بما فعل اليهود فيها وأنهم دفنوها وجعلوا مكانها مطرحاً للقمامة والنجاسة والجيف والقاذورات، فاستعظمت ذلك واستخرجت تلك الخشبة التي صلب عليها بزعمهم، وقيل من علامتها أن يسها ذو العاهة فيعافى لوقت، فطهرتها وطيبتها وغشتها بالذهب والحري، ورفعتها عندها للترك بها، وأمرت ببناء كنيسة هائلة بمكان الخشبة تزعم أنها قبره وهي التي تسمى لهذا العهد قمامة، وخربت مسجد بني إسرائيل وأمرت بأن تلقى القاذورات والكناسات على الصخرة التي كانت عليها القبة التي هي قبلة اليهود، إلى أن أزال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عند فتح بيت المقدس كما نذكره هنالك.

وكان من ميلاد المسيح إلى وجود الصليب ثلثمائة وثمان وعشرون سنة، وأقام هؤلاء النصرانية بطارتهم وأساقفتهم على إقامة دين المسيح على ما وضعه الحواريون من القوانين والعقائد والأحكام، ثم حدث بينهم اختلاف في العقائد وسائر ما ذهبوا إليه من الإيمان بالله وصفاته، وحاش لله وللمسيح وللحواريين أن يذهبوا إليه، وهو معتقدهم الثلث. وإنما حملهم عليه ظواهر من كلام المسيح في الإنجيل لما يهتدوا إلى تأويلها، ولا وقفوا على فهم معانيها، مثل قول المسيح حين صلب بزعمهم: اذهب إلى أبي وأبيكم. وقال: افعلوا كذا وكذا من البر لتكونوا أبناء أبيكم في السماء وتكونوا تامين، كما أن أباكم الذي في السماء تام. وقال له في الإنجيل: إنك أنت الابن الوحيد. وقال شمعون الصفا: إنك ابن الله حقاً. فلما أثبتوا هذه الأبوة من ظاهر هذا اللفظ زعموا أن عيسى ابن مريم من أب قديم، وكان اتصاله بمريم تحسد كلمة منه مازجت جسد المسيح وتدرعت به، فكان مجموع الكلمة والجسد ابناً، وهو ناسوق كلي قديم أزلي، وولدت مريم لهاً أزلياً، والقتل والصلب وقع على الجسد والكلمة، ويعبرون عنهما بالناسوت واللاهوت.

وأقاموا على هذه العقيدة ووقع بينهم فيها اختلاف، وظهرت مبتدعة من النصرانية اختلفت أقوالهم الكفرية، كان من أشدهم ابن نضان، ودافعهم هؤلاء الأساقفة والبطاركة عن معتقدهم الذين كانوا يزعمونه حقاً، وظهر يونس الشميصاتي بطرك أنطاكية بعد حين أيام أفلوديس قيصر، فقال بالواحدانية ونفى الكلمة والروح، وتبعه جماعة على ذلك، ثم مات فرد الأساقفة مقالته وهجروها ولم يزالوا على ذلك إلى أيام قسطنطين بن قسطنطين، فتتصر ودخل في دينهم، وكان بإسكندرية

أيوب الصديق، ومزامير داود النبي، وكتب ولده سليمان خسة، ونبوات الأنبياء الصغار والكبار ستة عشر كتاباً، وكتاب يشوع بن شارخ. ومن الحديثة: كتب الإنجيل الأربعة، وكتب القتاليقون سبع رسائل، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة، والإبركسيس وهو قصص الرسل ويسمى أفليمد ثمانية كتب تشتمل على كلام الرسل وما أمروا به ونهوا عنه، وكتاب النصاري الكبار إلى أساقفتهم الذين يسمون البطارقة ببلاد معينة يعلمون بها دين النصرانية، فكان: برومة بطرس الرسول الذي بعثه عيسى صلوات الله عليه، وكان ببيت المقدس يعقوب النجار، وكان بالإسكندرية مرقص تلميذ بطرس، وكان ببيزنطية وهي قسطنطينية أندرواس الشيخ، وكان بأنطاكية.

وكان صاحب هذا الدين عندهم والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة وخليفة المسيح فيهم، ويعت نوابه وخلفاءه إلى من يُعد عنهم من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك، ويسمون القرا بالقسيس، وصاحب الصلاة بالجالليق، وقومة المسجد بالشمامسة، والمنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب، والقاضي بالمطران، ولم يكن بمصر لذلك العهد أسقف إلى أن جاء دهندس الحادي عشر من أساقفة إسكندرية وكان بطرك أساقفة بمصر، وكان الأساقفة يسمون البطرك أباً، والقسوس يسمون الأساقفة أباً، فوقع الاشتراك في اسم الأب، فاخترع اسم البابا لبطرك الإسكندرية ليميز عن الأسقف في اصطلاح القسوس، ومعناه أبو الآباء فاشتهر هذا الاسم، ثم انتقل إلى بطرك رومة لأنه صاحب كرسي بطرس كبير الحواريين ورسول المسيح، وأقام على ذلك لهذا العهد يسمى البابا.

ثم جاء بعد قلوديش قيصر نيرون قيصر فقتل بطرس كبير الحواريين ويولص اللذين بعثهما عيسى صلوات الله عليه إلى رومة، وجعل مكان بطرس أنوس برومة، وقتل مرقص الإنجيلي تلميذ بطرس وكان بالإسكندرية يدعو إلى الدين سبع سنين وبعثه في نواحي مصر وبرقة والمغرب، وقتله نيرون وولى بعده حنيثا وهو أول البطاركة عليها بعد الحواريين، وثار اليهود في دولته على أسقف بيت المقدس وهو يعقوب النجار وهدموا البيعة ودفنوا الصليب إلى أن أظهرته هيلانة أم قسطنطين كما نذكره بعد، وجعل نيرون مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون بن كيافا ثم اختلفت حال القياصرة من بعد ذلك في الأخذ بهذا الدين وتركه كما يأتي في أخبارهم، إلى أن جاء قسطنطين بن قسطنطين باني المدينة المشهورة، وكانت في مكانها قبله مدينة صغيرة تسمى بيزنطية. وكانت أمه هيلانة صالحة فأخذت بدين المسيح لاثنين وعشرين

الأساقفة لذلك، وبعث أوسانيوس بطرك القسطنطينية وحضر معهم أثناس بطرك الإسكندرية، واجتمعوا في صور وكان أوسانيوس الذي أخرجته إسكندروس مع أريوس من كنيسة إسكندرية، وكان بسبب بذلك مجمع نيقية وكتاب الأمانة. ونفي أريوس حيثنذ وأوسانيوس وصاحبهما ولعنوا. جاء أوسانيوس من بعد ذلك وأظهر البراءة من أريوس ومن مقالته فقبله قسطنطين وجعله بطركاً بالقسطنطينية، فلما اجتمعوا في صور وكان فيهم أومانوس على رأي أريوس، فأشار أوسانيوس بطرك القسطنطينية بأن يظهر أثناس بطرك الإسكندرية عن مقالة أريوس، فقال أومانوس: إن أريوس لم يقل إن المسيح خلق العالم وإنما قال هو كلمة الله التي بها خلق كما وقع في الإنجيل، فقال أثناس بطرك الإسكندرية: وهذا الكلام أيضاً يقتضي أن الابن مخلوق وأنه خلق المخلوقات دون الأب لأنه إذا كان يخلق به فالأب لم يخلق شيئاً لأنه مستعين بغيره والفاعل بغيره محتاج إلى ذلك المتمم فهو في ذاته الخالق والله سبحانه منزّه عن ذلك.

وإن زعم أريوس أن الأب يريد الشيء والابن يكونه فقد جعل فعل الابن أتم لأن الأب إنما له الإرادة فقط وللابن الاختراع فهو أتم فلما ظهر بطلان مقالة أريوس وثبوا على أرمانيوس المناظر عن مقالة أريوس وضربوه ضرباً وجيعاً، وخلصه ابن أخت الملك، ثم قدسوا الكنائس، وانفض الجمع وبلغ الخبر إلى قسطنطين فندم على بطركية أرمانيوس بالقسطنطينية وغضب عليه ومات لستين من رياسته، واجتمع بعد ذلك أصحاب أريوس إلى قسطنطين فحسبوا له تلك المقالة، وأن جماعة نيقية ظلموا أريوس ويغوا عليه وصدوا عن الحق في قولهم إن الأب مساو للابن في الجوهرية وكاد الملك أن يقبل منهم.

فكتب إليه كيراش أسقف بيت المقدس يحذره من مقالة أريوس فقبل ورجع. واختلف حال ملوك القياصرة بعد قسطنطين في الأخذ بالأمانة أو بمقالة أريوس، وظهر إحدى الطائفتين متى كان الملك على دينهم. وأفحش بعض ملوك القياصرة في الحق على مخالفته، فقال له بعض العلماء والحكماء: لا تنكر المخالفة فالخفاء يختلفون أيضاً وإنما هم الخلق يحمدون الله ويصفونه بالصفات الكثيرة والله يجب ذلك، فسكن بعض الشيء وكان بعضهم يعرض عن الطائفتين ويخلي كل أحد دينه. ثم كان الجمع الثاني بقسطنطينية بعد مجمع نيقية بمائتين وخمسين سنة اجتمعوا للنظر في مقالة مقدونيوس وسليوس، بأن جسد المسيح بغير ناسوت وأن اللاهوت أغناه عنها، مستدلين بما وقع في الإنجيل أن الكلمة صار لحماً ولم يقل صار إنساناً، وجعلوا من الإله

إسكندروس البطرك وكان لعهد أريوس من الأساقفة، وكان يذهب إلى حدوث الابن وأنه إنما خلق الخلق بتفويض الأب إليه في ذلك، فمنعه إسكندروس الدخول إلى الكنيسة وأعلم أن إيمانه فاسد، وكتب بذلك إلى سائر الأساقفة والبطاركة في النواحي، وفعل ذلك بأسقفين آخرين على مثل رأي أريوس، فدفعوا أمرهم إلى قسطنطين واحضرهم جميعاً لتسع عشرة من دولته، وتناظروا.

ولما قال أريوس: إن الابن حادث وأن الأب فوض إليه بالخلق، وقال الإسكندروس: بالخلق استحق الألوهية، فاستحسن قسطنطين قوله وأذن له أن يشيد بكفر أريوس وطلب الإسكندروس باجتماع النصرانية لتحرير المعتقد الإيماني، فجمعهم قسطنطين وكانوا ألفين وثلاثمائة وأربعين أسقفاً وذلك في مدينة نيقية، فسمي المجمع بمجمع نيقية، وكان رئيسهم الإسكندروس بطرك إسكندرية، وأسطناس بطرك أنطاكية، ومقاريوس أسقف بيت المقدس، وبعث سلطوس بطرك رومة بقسيس حضر معهم لذلك نيابة عنه، فتفاوضوا وتناظروا واتفقوا عنهم، بعد الاختلاف الكثير، على ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً على رأي واحد، فصار قسطنطين إلى قولهم، وأعطى سيفه وخاتمه وباركوا عليه ووضعوا له قوانين الدين والملك، ونفي أريوس وأشيد بكفره وكتبوا العقيدة التي اتفق عليها أهل ذلك المجمع، ونصها عندهم على ما نقله ابن العميد من مؤرخيهم والشهرستاني في كتاب الملل والنحل وهو: نؤمن بالله الواحد الأحد الأب مالك كل شيء وصانع ما يرى وما لا يرى، وبالابن الوحيد إيشوع المسيح ابن الله ذكر الخلائق كلها وليس بمصنوع إله حق من جوهر أبيه الذي بيده اتقنت العوالم وكل شيء الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا بعث العوالم وكل شيء، الذي نزل من السماء وتجدد من روح القدس، وولد من مريم البتول وصلب أيام فيلاطوس ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بالقضاء بين الأحياء والأموات، ونؤمن بروح الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه وعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة قدسية مسيحية جاثليقية وقيام أبداننا بالحياة الدائمة أبد الأبدان انتهى.

هذا هو اتفاق المجمع الأول الذي هو مجمع نيقية وفيه إشارة إلى حشر الأبدان ولا يتفق النصارى عليه، وإنما يتفقون على حشر الأرواح ويسمون هذه العقيدة الأمانة.

ووضعوا معها قوانين الشرائع ويسمونها الميمايون، وتوفي الإسكندروس البطرك بعد هذا المجمع بخمسة أشهر، ولما عمرت هلانة أم قسطنطين الكنائس وأحب الملك أن يقدسها ويجمع

وخاطبته زوج الملك فأساء الرد فلطمته بيدها، وتناوله الحاضرون بالضرب، وكتب مرقيان قيصر إلى أهل مملكته في جميع النواحي بأن يجمع خلقلدونية هو الحق ومن لا يقبله يقتل. ومرو ديسقورس بالقدس وأرض فلسطين وهو مضروب منفي فاتبعوا رأيهم، وكذلك اتبعه أهل مصر والإسكندرية، وولى وهو في النفي أساقفة كثيرة كلهم يعقوبية، قال ابن العميد: وإنما سمي أهل مذهب ديسقورس يعقوبية لأن اسمه كان في العلمانية يعقوب، وكان يكتب إلى المؤمنين من المسكين المنفي يعقوب. وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب فنسبوا إليه. وقيل بل كان شاويرش بطرك أنطاكية على رأي ديسقورس وكان له تلميذ اسمه يعقوب، فكان شاويرش يبعث يعقوب إلى المؤمنين ليثبتوا على أمانة ديسقورس فنسبوا إليه قال: ومن جمع خلقلدونية أفرقت الكنائس والأساقفة إلى يعقوبية وملكية ونسطورية، فاليعقوبية أهل مذهب ديسقورس الذي قرناه آنفاً.

والملكية أهل الأمانة التي قررها جماعة نيقية وجماعة خلقلدونية بعدهم وعليها جمهور النصرانية، والنسطورية أهل المجمع الثالث وأكثرتهم بالشرق. وبقي الملكية واليعقوبية يتعاقبون في الرئاسة على الكراسي بحسب من يريد منهم من القياصرة وما يختارونه من المذهبين.

ثم كان بعد ذلك بمائة وثلاثين سنة أو ثلاث وستين سنة المجمع الخامس بقسطنطينية في أيام يوسيطانوس قيصر، للنظر في مقالة أقنفسح لأنه نقل عنه أنه يقول بالتناسخ وينكر البعث. ونقل عن أساقفة أنقرا والمصيصة والرها أنهم يقولون: إن جسد المسيح فطايسا. فأحضر قيصر جمعهم بالقسطنطينية لينظرهم البطرك بها، فقال البطرك: إن كان جسد المسيح في قوله وفعله كذلك. وقال الأسقف أقنفسح: إنما قام المسيح من بين الأموات ليحقق البعث والقيامة، فكيف تنكر ذلك أنت؟ وجمع لهم مائة وعشرين أسقفاً فأشادوا بكفره وأوجبوا لعنتهم ولعنة من يقول بقوله. واستقرت فرق النصارى على هذه الثلاثة.

الطبقة الأولى من الفرس وذكر ملوكهم وما صار إليه في الخليفة أخواهم

الفرس كلهم متفقون على أن كيومرث هو آدم الذي هو أول الخليفة، وكان له ابن اسمه منشا ومنشا سيامك ولسيامك أفروال ومعه أربعة بنين وأربع بنات، ومن أفروال كان نسل كيومرث، والباقيون انقرضوا فلا يعرف لهم عقب. قالوا وولد

عظيماً وأعظم منه والأب أفضل عظماً. وقال: إن الأب غير محدود في القوة وفي الجوهر. فابطلوا هذه المقالة ولعنوهما وأشادوا بكفرهما وزادوا في الأمانة التي قررها جماعة نيقية ما نصه: ونؤمن بروح القدس المتقي من الأب. ولعنوا من يزيد بعد ذلك على كلمة الأمانة أو ينقص منها.

ثم كان لهم بعد ذلك بأربعين سنة المجمع الثالث على نسطوريوس البطرك بالقسطنطينية لأنه كان يقول: إن مريم لم تلد إلهاً وإنما ولدت إنساناً، وإنما اتعد به في المشيئة لا في الذات وليس هو إلهاً حقيقة بل بالموهبة والكرامة. ويقول بجوهرين وأقنومين، وهذا الرأي الذي أظهره نسطوريوس كان رأي تاودوس وديودس الأسقفين، وكان من مقالاتهما أن المولود من مريم هو المسيح والمولود من الأب هو الابن الأزلي والابن الأزلي حل في المسيح المحدث فسمي المسيح ابن الله بالموهبة والكرامة.

وإنما الاتحاد بالمشيئة والإرادة، فأثبتوا الله ولدين أحدهما بالجوهر والثاني بالنعمة. وبلغت مقالة نسطوريوس إلى كرلس بطرك إسكندرية، فكتب إلى بطرك رومة وهو أكليمس، وإلى يوحنا وهو بطرك أنطاكية، وإلى يوناوس أسقف بيت المقدس، فكتبوا إلى نسطوريوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة فلم يرجع ولا التفث إلى قولهم.

فاجتمعوا في مدينة أفسيس في مائتين أسقفاً للنظر في مقالته، فقرروا بإطالها ولعنوه وأشادوا بكفره، ووجد عليهم يوحنا بطرك أنطاكية حيث لم ينتظروا حضوره فخالفهم ووافق نسطوريوس، ثم أصلح بينهم باوداسوس من بعد مدة واتفقوا على نسطوريوس. وكتب أساقفة المشاركة أمانتهم وبعثوا بها إلى كرلس فقبلها ونفى نسطوريوس إلى صعيد مصر، فنزل أخيم ومات بها لسبع سنين من نزولها، وظهرت مقالته في نصارى المشرق وبفارس والعراق والجزيرة والموصل إلى الفرات.

وكان بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة المجمع الرابع بمدينة خلقلدونية، اجتمع فيه ستمائة وأربعة وثلاثون أسقفاً من قتيان قيصر للنظر في مقالة ديسقورس بطرك الإسكندرية لأنه كان يقول: المسيح جوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومين وطبيعة من طبيعتين ومشية من مشيتين. وكانت الأساقفة والبطاركة لذلك العهد يقولون بجوهرين وطبيعتين ومشيتين وأقنوم واحد، فخالفهم ديسقورس في بعض الأساقفة وكتب خطه بذلك ولعن من يخالفه. فأراد مرقيان قيصر قتله، فأشارت البطارقة بإحضاره وجمع الأساقفة لما نظرته، فحضر بمجلس مرقيان قيصر وانفضح في مخاطبتهم ومناظرتهم.

أهل اليمن في نسبه: الضحاك بن علوان بن عبيدة بن عويج، وأنه بعث على مصر أخاه سنان بن علوان ملكاً وهو فرعون إبراهيم، قاله ابن الكلبي، وأما الفرس فينسبونه هكذا: بيوراسب بن رتيكان بن ويدوشتك بن فارس بن أفروال، ومنهم من خالف في هذا.

ويزعمون أنه ملك الأقاليم كلها، وكان ساحراً كافراً وقتل أباه، وكان أكثر إقامته ببابل وقال هشام: ملك الضحاك وهو غرود الخليل بعد جمشيد وأنه التاسع منهم، وكان مولده بدنباوند، وأن الضحاك سار إلى الهند فخالقه أفريدون إلى بلاده فملكها، ورجع الضحاك فظفر به أفريدون وحسبه بجبال ديباوند، واتخذ يوم ظفر به عبداً.

وعند الفرس أن الملك إنما كان للبيت الذي وطنه أوشهنك وجمشيد وأن الضحاك هو بيوراسب خرج عليهم وبنى ببابل، وجعل النبط جنده. وغلب أهل الأرض بسحره، وخرج عليه رجل من عامة أصبهان اسمه عالي، ويده عصا علق فيها جراباً واتخذها رايةً، ودعا الناس إلى حربه فأجابوا، وغلبه فلم يدع الملك وأشار بتولية بني جمشيد لأنه من عقب أوشهنك ملكهم الأول ابن أفروال، فاستخرجوا أفريدون من مكان اختفائه فملكوه واتبع الضحاك فقتله، وقيل أسره بدنباوند. ويقال كان على عهد نوح وإليه بعث. ولهذا يقال: إن أفريدون هو نوح.

والتحقيق عند نسبة الفرس على ما نقل هشام بن الكلبي أن أفريدون من ولد جمشيد بينهما تسعة آباء. وملك مائتي سنة ورد غصوب الضحاك ومظالمه. وكان له ثلاثة بنين الأكبر سرم والثاني طوج والثالث إيرج، وإنه قسم الأرض بينهم، فكانت الروم وناحية المغرب لسرم، والترك والصين والعراق لإيرج وآثره بالتاج والسرير، ولما مات قتله أخواه واقتسما الأرض بينهما ثلثمائة سنة.

ويزعمون أن أفريدون وآباءه العشرة يلقبون كلهم أشكيان وقيل في قسمته الأرض بين ولده غير هذا، وأن بابل كانت لإيرج الأصغر وكان يسمى خيارت ويقال كان لإيرج ابنان: وندان وأسطوية وبت اسمها خورك، وقتل الابنان مع أبيهما بعد مهلك أفريدون، وأن أفريدون ملك خمسمائة سنة وأنه هو الذي عا آثار ثمود من النبط بالسواد، وأنه أول من تسمى بكبي، فقيل كبي أفريدون ومعناه التنزيه أي خلص متصل بالروحانيات. وقيل معناه البهاء لأنه يغشاه نور من يوم قتل الضحاك، وقيل معناه مدرك النار.

وكان منوشهر الملك ابن منشجر بن إيرج من نسل

لأفروال أوشهنك بيشداد، فاللفظة الأولى حرفها الأخير بين الكاف والقاف والجيم واللفظة الأخرى معناها بلغتهم النور، قاله السهيلي وقال الطبري: أول حاكم بالعدل، وكان أفروال وارث ملك كيومرث وملك الأقاليم السبعة. قال الطبري عن ابن الكلبي: إنه أوشهنك بن عابر بن شالخ، قال: والفرس تدعيه وتزعم أنه بعد آدم بمائتي سنة، قال: وإنما كان نوح بعد آدم بمائتي سنة فصيره بعد آدم. وأنكره الطبري لأن شهرة أوشهنك تمتع من مثل هذا الغلط فيه، ويزعم بعض الفرس أن أوشهنك بيشداد هو مهلايل وأن أباه أفروال هو قين وأن سيامك هو أنوش وأن منشا هو شيث وأن كيومرث هو آدم.

قال: وزعمت الفرس أن ملك أوشهنك كان أربعين سنة فلا يبعد أن يكون بعد آدم بمائتي سنة. وقال بعض علماء الفرس: إن كيومرث هو كورم بن يافت بن نوح، وأنه كان معمرًا ونزل جبل ديباوند من جبال طبرستان وملكها، ثم ملك فارس وعظم أمره وأمر بنيه حتى ملكوا بابل. وأن كيومرث هو الذي بنى المدين والحصون واتخذ الخليل وتسمى بآدم وحمل الناس على دعائه بذلك، وأن الفرس من عقب ولده ماداي، ولم يزل الملك في عقبهم في الكينية والكسروية إلى آخر أيامهم.

وتقول الفرس أن أوشهنك وهو مهلايل ملك الهند، قالوا وملك بعد أوشهنك طهمورث بن أنوجان بن أنكهد بن أسكهد بن أوشهنك. وقيل مكان أسكهد فيشداد، وكلها أسماء أعجمية لا عهدنا علينا في نقلها لمجمعتها وانقطاع الرواية في الأصول التي نقلت منها. قال ابن الكلبي: إن طهمورث أول ملوك بابل وأنه ملك الأقاليم كلها وكان عموداً في ملكه وفي أول سنة من ملكه ظهر بيوراسب ودعا إلى ملة الصابئة. وقال علماء الفرس: ملك بعد طهمورث جمشيد ومعناه الشجاع لجماعة وهو جم بن نوجان أخو طهمورث، وملك الأرض واستقام أمره، ثم بطر النعمة وساءت أحواله فخرج عليه قبل موته بسنة بيوراسب وظفر به فنشره بمنشار وأكله وشرط أمعاه. وقيل إنه ادعى الربوبية فخرج عليه أولاً أخوه أستوير فاخفى. ثم خرج بيوراسب فاتتزع الأمر من يده وملك سبعمائة سنة. وقال ابن الكلبي مثل ذلك قال الطبري: بيوراسب هو الأزدهاك والعرب تسميه الضحاك، وهو بصاد بين السين والزاي وحاء قريب من الهاء وكاف قريبة من القاف، وهو الذي عنى أبو نواس بقوله:

وكان منا الضحاك تعبه السـ جامل والجنـ في عاربها

لأن اليمن تدعيه. قال: وتقول العجم: إن جمشيد زوج أخته من بعض أهل بيته وملك على اليمن فولدت الضحاك. وتقول

الطبقة الثانية من الفرس وهم الكينية وذكر ملوكهم وأيامهم إلى حين انقراضهم

هذه الطبقة الثانية من الفرس وملوكهم يعرفون بالكينية لأن اسم كل واحد مضاف إلى كي وقد تقدم معناه، والمضاف عند العجم متأخر عن المضاف إليه وأولهم فيما قالوا كيقباز من عقب منوشهر بينهما أربعة آباء، وكان متزوجاً بامرأة من رؤوس الترك ولدت له خمسة من البنين: كي وإفيا وكيكاسوس وكسي أرش وكين نية وكين فاسمن، وهؤلاء هم الجبابرة وآباء الجبابرة.

قال الطبري: وقيل إن الملوك الكينية وأولادهم من نسله جرت بينه وبين الترك حروب، وكان مقيماً بنهر بلخ يمانع الترك من طروق بلاده وملك مائة سنة انتهى وملك بعده ابنه كيكاسوس بن كينية وطالت حروبه مع أفراسياب ملك الترك، وهلك فيها ابنه سياوخش، ويقال كان على عهد داود، وأن عمراً ذا الأذعار من ملوك التبابعة غزاه في بلاده فظفر به وحجسه عنده باليمن، وسار وزيره رستم بن دستان بجند فارس إلى غزو ذي الأذعار فقتله ونخلص كيكاسوس إلى ملكه.

وقال الطبري: كان كيكاسوس عظيم السلطان والحماية، وولد له ابنه سياوخش فدفعه إلى رستم الشديد ابن دستان، وكان أصغر بسجستان حتى إذا كملت تربيته وفصاله رده إلى أبيه، فرضيه وكفلت به امرأة أبيه فسخطه، وبغته لحراب أفراسياب وأمره بالمناضفة، فراوده أفراسياب في الصلح، وامتنع أبوه كيكاسوس فخشي منه على نفسه، ولحق بأفراسياب فزوجه ابنته أم كي خسرو، ثم خشي أفراسياب على نفسه وأشار على ابنته بقتله فقتلته. وترك ابنة أفراسياب حاملاً بخسرو وولدت هنالك.

وأعمل كيكاسوس الحيلة في إخراجها فلحق به ويقال إنه لما بلغه قتل ابنه، بعث عساكره مع قواده فوطئوا بلاد الترك وأنشؤوا فيها وقتلوا بني أفراسياب فيمن قتلوه. قال الطبري: وإنه غزا بلاد اليمن ولقيه ذو الأذعار في حير وقحطان، فظفر به وأسره وحجسه في بئر وأطبق عليها، وإن رستم سار من سجستان فحارب ذا الأذعار ثم اصطالحا على أن يسلم إليه كيكاسوس فأخذه ورجع إلى بابل، وكافاه كيكاسوس على ذلك بالعتق من عبودية الملك، ونصب لجلوسه سريراً من فضة بقوائم من ذهب وتوجه بالذهب، وأقطعهم سجستان وأباستان، وهلك مائة وخمسين من دولته، وملك بعده فيما قال الطبري والمسدودي والبيهقي وجماعة من المؤرخين حافده كي خسرو ابن ابنه سياوخش.

أفريدون، وكانت أمه من ولد إسحاق عليه السلام فكفلته حتى كبر، فملك وثار بأبيه إيرج من عمه بعد حروب كانت له معهما، ثم استبد ونزل بابل وحمل الفرس على دين إبراهيم عليه السلام، وثار عليه أفراسياب ملك الترك فغلبه على بابل وملكها. ثم اتبعه إلى غياض طبرستان فجهز العساكر لحصاره وسار إلى العراق فملكه. ويقال أفراسياب هذا من عقب طوج بن أفريدون، ولحق ببلاد الترك عندما قتل منوشهر جد طوج فنشأ عندهم وظهر من بلادهم فلهاذا نسب إليهم.

وقال الطبري: لما هلك منوشهر بن منشجور، غلب أفراسياب بن أشك بن رستم بن ترك على خيبرات، وهي بابل، وأفسد مملكة فارس وحيرها، فثار عليه زومر بن طهمارست. ويقال راسب بن طهمارست. ونسب إلى منوشهر في تسعة آباء، وأن منوشهر غضب على طهمارست وكانوا يحاربون أفراسياب فهم بقتله وضع فيه أهل الدولة ففاه إلى بلاد الترك، وتزوج منهم ثم عاد إلى أبيه وأعمل الحيلة في إخراج امرأته من بلاد الترك وكانت ابنة وامن ملك الترك، فولدت له زومر ابنه. وقام بالملك بعد منوشهر وطرد أفراسياب عن مملكة فارس وقتل جده وامن في حروبه مع الترك.

ولحق أفراسياب بتركستان واتخذ يوم ذلك الغلب عيداً ومهرجاناً وكان ثالث أعيادهم. وكان غلبه على بلاد فارس لاثنتي عشرة سنة من وفاة منوشهر جده، وكان زومر بن طهمارست هذا عموداً في سيرته وأصلح ما أفسد أفراسياب بن خيبرات من مملكة بابل، وهو الذي حفر نهر الزاب بالسواد، وبنى على حافته المدينة العتيقة وسماها الزواهي، وعمل فيها البساتين وحمل إليها بزور الأشجار والرياحين. وكان معه في الملك كرشاسب من ولد طروج بن أفريدون وقيل من ولد منوشهر، ويقال إنما كان رديفاً له وكان عظيم الشأن في أهل فارس، ولم يملك وإنما كان الملك لزومر بن طهمارست، وهلك لثلاث سنين من دولته. وفي أيامه خرج بنو إسرائيل من التيه وفتح يوشع مدينة أريحاء ودال الملك من بعده للكينية حسبما يذكر وأولهم كيقباز ويقال: إن مدة الملك لهذه الطبقة كانت ألفين وأربعمائة وسبعين سنة فيما قال البيهقي والأصبهاني، ولم يذكر من ملوكهم إلا هؤلاء التسعة الذين ذكرهم الطبري والله وارث الأرض ومن عليها.

وقال السهيلي: إنه ملك كي خسرو بعد ثلاثة آخرين بينه وبين كيكافس فأولهم بعده كي كينة، ثم من بعده ابنه أجو ابن كي كينة، ثم عمه سباوخش بن كيكافس، ثم بعد الثلاثة كسي خسرو بن سباوخش ١٥. وهو غريب فإنهم متفقون على أن سباوخش مات في حياة أبيه في حروب الترك قال الطبري: وقد كان كيكافس بن كي كينية بن كيقباز ملك كي خسرو حين جاءه من بلاد الترك مع أمه وأسفاقدين بنت أفراسيات. قالوا ولما ملك بعث العساكر مع أجو إلى أصبهان لحرب أفراسيات ملك الترك للطلب بشار أبيه سباوخش، فزحفوا إلى الترك وكانت بينهم حروب شديدة انهزمت فيها عساكر الفرس، فنهض كي خسرو بنفسه إلى بلخ وقدم عساكره وقواده فقصدوا بلاد الترك من سائر النواحي وهزموا عساكرهم وقتلوا قوادهم.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيوخسرو يستعمله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقبه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انحلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيوخسرو يستعمله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقبه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انحلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيوخسرو يستعمله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقبه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انحلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيوخسرو يستعمله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقبه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انحلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيوخسرو يستعمله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقبه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انحلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيوخسرو يستعمله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقبه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انحلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيوخسرو يستعمله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقبه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انحلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

وكان قاتل سباوخش بن كي خسرو فيمن قتل منهم، وبعث أفراسيات ابنه وكان ساحراً إلى كيوخسرو يستعمله، فعمد إلى القواد بمنعه وقتاله، وقاتل فقتل، وزحف أفراسيات فلقبه كي خسرو وكانت بينهما حروب شديدة انحلت عن هزيمة أفراسيات والترك، واتبعه كي خسرو فظفر به في أذربيجان فذبحه وانصرف ظافراً.

قال المسعودي: ويسمى ذلك الكتاب سنائه وهو كتاب الزمزمة، ويدور على ستين حرفاً من حروف المعجم. وفسره زرادشت وسمي تفسيره زند، ثم فسر التفسير ثانياً وسماه زنديه، وهذه اللفظة هي التي عربتها العرب زنديق. وأقسام هذا الكتاب عندهم ثلاثة: قسم في أخبار الأمم الماضية، وقسم في حدثان المستقبل، وقسم في نواميسهم وشرائعهم مثل أن المشرق قبله وأن الصلوات في الطلوع والزوال والغروب وأنها ذات سجيدات ودعوات. وجدد لهم زرادشت بيوت النيران التي كان منشهر أخذها، ورتب لهم عيدين: النيروز في الاعتدال الربيعي والمهرجان في الاعتدال الخريفي، وأمثال ذلك من نواميسهم. ولما انقرض ملك الفرس الأول أحرق الإسكندر هذه الكتب، ولما جاء أردشير جمع الفرس على قراءة سورة منها تسمى أسبا. قال المسعودي: وأخذ كيستاسف بدين المجوسية من زرادشت خمسين وثلاثين سنة من نبوته فيما زعموا، ونصب كيستاسف مكانه جاماسب العالم من أهل أذربيجان، وهو أول موبدان كان في الفرس انتهى.

قال هشام بن محمد: فبعثه إلى رستم ملك سجستان الذي كان يستنفره كقباض جندهم من ملوك اليمن، وأقطعهم تلك الممالك جزاءً لفعله. فسار إليه أسفنديار وقاتله رستم وهلك كيستاسف لما عشرين سنة. ويقال أنه الذي رد بني إسرائيل إلى بلادهم وأن أمه كانت من بني طالوت. ويقال أن ذلك هو حافد بهممن. وقيل أن الذي ردهم هو كورش من ملوك بابل أيام بهممن بأمره ثم ملك بعد كيستاسف حافده كي بهممن ويقال أردشير بهممن.

قال الطبري: ويعرف بالطويل الباع لاستيلائه على الممالك والأقاليم. قال هشام بن محمد: ولما ملك سار إلى سجستان طالباً بئار أبيه فكانت بينهما حروب فقتل فيها رستم بن دستان وأبوه وإخوته وأبنائه. ثم غزا الروم وفرض عليهم الأتاوة وكان من أعظم ملوك الفرس، وبني مدناً بالسواد، وكانت أمه من نسل طالوت لأربعة آباء من لدنه وكانت له أم ولد من سبي بني إسرائيل اسمها راسف وهي أخت زريافيل الذي ملكه على اليهود بيت المقدس وجعل له رئاسة الجالوت وملك الشام، وملك ثمانين سنة، فملكته حمي ملكها الفرس لجمالها وحسن أدبها وكمال معرفتها وفروسيها، وكانت بلغت شهرآزاد. وقيل إنما ملوكها لأنها لما حملت من أبيها بدار الأكبر سألته أن يعقد له الناج في بطنها ففعل ذلك. وكان ابنه ساسان مرشحاً للملك فغضب، ولحق بجبال إصطخر زاهداً يتولى ماشيته بنفسه، فلما مات أبوه فقدوا ذكراً من أولاده فولوا حمي هذه وكانت مظفرة على الأعداء. ولما بلغ ابنها دارا الأشد، سلمت إليه الملك وسارت إلى فارس واختطت مدينة دار ابجر، وردت الغزو إلى بلاد الروم، وأعطيت الظفر فكثر سبيهم عندها، وملكته ثلاثين سنة. ولما ملك ابنها دارا نزل بابل وضبط ملكه وغزا الملوك وأدوا الخراج إليه، ويقال إنه الذي رتب دواب البرد.

وكان معجباً بابنه دارا حتى سماه باسمه وولاه عهده وهلك لاثنتي عشرة سنة وملك بعده ابنه دارا بهممن، وكان له

قال المسعودي: ويسمى ذلك الكتاب سنائه وهو كتاب الزمزمة، ويدور على ستين حرفاً من حروف المعجم. وفسره زرادشت وسمي تفسيره زند، ثم فسر التفسير ثانياً وسماه زنديه، وهذه اللفظة هي التي عربتها العرب زنديق. وأقسام هذا الكتاب عندهم ثلاثة: قسم في أخبار الأمم الماضية، وقسم في حدثان المستقبل، وقسم في نواميسهم وشرائعهم مثل أن المشرق قبله وأن الصلوات في الطلوع والزوال والغروب وأنها ذات سجيدات ودعوات. وجدد لهم زرادشت بيوت النيران التي كان منشهر أخذها، ورتب لهم عيدين: النيروز في الاعتدال الربيعي والمهرجان في الاعتدال الخريفي، وأمثال ذلك من نواميسهم. ولما انقرض ملك الفرس الأول أحرق الإسكندر هذه الكتب، ولما جاء أردشير جمع الفرس على قراءة سورة منها تسمى أسبا. قال المسعودي: وأخذ كيستاسف بدين المجوسية من زرادشت خمسين وثلاثين سنة من نبوته فيما زعموا، ونصب كيستاسف مكانه جاماسب العالم من أهل أذربيجان، وهو أول موبدان كان في الفرس انتهى.

قال الطبري: وكان كيستاسف مهادناً أرجاماسب ملك الترك وقد اشترط عليه أن تكون دابة كيستاسف موقفة على بابه بمنزلة دواب الرؤساء عند أبواب الملوك، فمنعه من ذلك زرادشت وأشار عليه بفتنة الترك، فبعث إلى الدابة والموكل بها وصرفهما إليه. وبلغ الخبر إلى ملك الترك فبعث إليه بالعقاب والتهديد وأن يبعث بزرداشت إليه وإلا فيعززه. وأغلظ كيستاسف في الجواب وأذنه بالحرب، وسار بعضهما إلى بعض واقتتلوا وقتل رزين بن كيستاسف وانهمز الترك وأثنى فيهم الفرس، وقتل ساحر الترك قيدوشق ورجع كيستاسف إلى بلخ. ثم سعى عنده بابنه أسفنديار فحبسه وقبده وسار إلى جبل بناحية كرمان وسجستان فانقطع به للعبادة ودراسة الدين.

وخلف أباه كهراسف في بلخ شيخاً قد أبطله الكبير وترك خزائنه وأمواله فيها مع امرأته، فغزاهم بها خدراسف وقدم أخاه جورا في جموع الترك وكان مرشحاً للملك فأنخن واستباح واستولى على بلخ، وقتل كهراسف أباهم وغنموا الأموال وهدموا بيوت النيران وسبوا حميي بنت كيستاسف واختها، وكان فيما غنموه العلم الأكبر الذي كانوا يسمونه زركش كاويان وهي راية الحداد الذي خرج على الضحاك وقتله. وولى أفريدون فسموا بتلك الراية ورصعوها بالجواهر ووضعوها في ذخائرهم ييسطوها في الحروب العظام، وكان لها ذكر في دولتهم وغنمها المسلمون يوم القادسية.

ثم مضى خدراسف ملك الترك في جموعه إلى كيستاسف

عهد الإسكندر ملك اليونانيين وهو خال الإسكندر الأعظم، وهلك لعهد، فولي أبو الإسكندر الأعظم بيلد مقدونية وهو ملك فيليس.

وهلك أرتشخار أوقش لست وعشرين من دولته وولي من بعده ابنه شخشار أربع سنين، وفي أيامه ولي على مقدونية واليونانيين وسائر الروم الغريقيين الإسكندر بن فيليس. ثم ولي بعده شخاردارا وعلى عهده تغلب الإسكندر على يهود بيت المقدس وعلى جميع الروم الغريقيين، ثم حدثت الفتنة بينه وبين دارا وتزاحفوا مرات انهزم في كلها، وكان للإسكندر الظهور عليه، ومضى إلى الشام ومصر فملكهما وبنى الإسكندرية، وانصرف فلقبه دارا أنطوس فهزمه وغلب على ممالك الفرس واستولى على مدينتهم وخرج في اتباع دارا فوجده في بعض طريقه جريحاً، ولم يلبث أن هلك من تلك الجراحة، فأظهر الإسكندر الحزن عليه وأمر بدفنه في مقابر الملوك، وذلك لألف سنة ونحو من ثمانين سنة منذ ابتداء دولتهم كما قلناه انتهى كلام هروشيوش وقال السهيلي: وجده مثخنا في المعركة فوضع رأسه على فخذه وقال: يا سيد الناس لم أرد قتلك ولا رضىته فهل من حاجة؟ فقال: تزوج ابنتي وتقتل قاتلي ففعل الإسكندر ذلك. وانقرض أمر هذه الطبقة الثانية والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى.

قال ابن العميد: في ترتيب هؤلاء الملوك الفرس من بعد كيرش إلى دارا آخرهم يقال: إنه ملك من بعد كورش ابنه قمبوسوس ثمانياً وقيل تسعاً وقيل اثنتين وعشرين سنة، وقيل أنه غزا مصر واستولى عليها وتسمى مختصر الثاني، وملك بعده أريوش بن كستاسف خمساً وعشرين سنة وهو أول الملوك الأربعة الذين عناهم دانيال بقوله ثلاث ملوك يقومون بفارس والرابع يكثر ماله ويعظم على من قبله. فأولهم دارا بن كستاسف وهو مذكور في الجسطي، والثاني دارا ابن الأمة، والثالث الذي قتله الإسكندر، وقيل بل هو الرابع الذي عناه دانيال لأنه جعل أول الأربعة داريوش وأخشورش العادي وسركورش ورديفه في الملك، ثم عد الثلاثة بعده. وفي الثانية من ملكه داريوش بن كستاسف لبابل ثمت سبعون سنة لحراب القدس، وفي الثالثة كمل بناء البيت، ثم ملك بعد داريوش بن كستاسف هذا أسمرديوس المجوسي سنة واحدة وقيل ثلاث عشرة سنة وسمي مجوسياً لظهور زرادشت بدين المجوسية في أيامه.

ثم ملك أخشورش بن داريوش عشرين سنة وكان وزيره هامان العمليقي، وقد مرت قصته مع الجارية من بني إسرائيل. ثم ملك من بعده ابنه أرتحشاش بن أخشورش ويلقب بطويل

مرب اسمه بيلدي قتله أبوه دارا بسعاية وزيره أرشيش عمود، وندم على قتله. فلما ولي دارا جعل على كتابته أخا بيلدي ثم استوزره رعيّاً لموباه مع أخيه، فاستفسده على أرشيش وزيره ووزير أبيه وعلى سائر أهل الدولة استوحشوا منه. وقال هشام بن محمد: وملك دارا بن دارا أربع عشرة سنة فأساء السيرة وقتل الرؤساء وأهلك الرعية وغزا الإسكندر بن فيليس ملك بني يونان. وقد كانوا يسمونه... فوثب عليه بعضهم وقتله، ولحق بالإسكندر وتقرب بذلك إليه فقتله الإسكندر وقال هذا جزء من اجراً على سلطانه، وتزوج بته روشنك كما تذكره في أخبار الإسكندر.

وقال الطبري: قال بعض أهل العلم بأخبار الماضين كان لدارا من الولد يوم قتل أربع بنين أسسك وينودار وأردشير وبنيت اسمها روشنك وهي التي تزوجها الإسكندر. قال وملك أربع عشرة سنة، هذه هي الأخبار المشهورة للفرس الأولى إلى ملكهم الأخير دارا قال هروشيوش مؤرخ الروم في مبدأ دولة الفرس هؤلاء إنما كانت بعد دخول بني إسرائيل إلى الشام، وعلى عهد عثيثال بن قناز بن يوفنا، وهو ابن أخي كالب بن يوفنا الذي دبر أمر بني إسرائيل بعد يوشع. قال: وفي ذلك الزمان خرج أبر الفرس من أرض الروم الغريقيين من بلاد آسيا واسمه بالعربية فارس وباليونانية يرشور وبالفارسية يرشيرش، فنزل بأهل بيته في ناحية وتغلب على أهل ذلك الموضع فنسبت إليه تلك الأمة، واشتق اسمها من اسمه، وما زال أمرهم ينمو إلى دولة كيرش الذي يقال فيه إنه كسرى الأول، فغلب على القضاعين، ثم زحف إلى مدينة بابل وعرض له دونها النهر الثاني بعد الفرات وهو نهر دجلة، فاحتفر له الجداول وقسمه فيها، ثم زحف إلى المدينة وتغلب عليها وهدمها.

ثم حارب السريانيين فهلك في حروبهم بيلاد شيت. وولي ابنه قنبيشاش بن كيرش فثار منهم بآبيه، وخطاهم إلى أرض مصر فهدم أوثانهم ونقض شرائعهم، فقتله السحرة وذلك لألف سنة من ابتداء دولتهم فولي أمر الفرس دارا وقتل السحرة بمصر ورد عمالة السريانيين إليهم، ورجع بني إسرائيل إلى الشام في الثانية من أيامه، وزحف إلى بلاد الروم الغريقيين طالباً ثار كيرش، ولم يزل في حروبهم إلى أن هلك ثلاث وعشرين من دولته ثار عليه أحد قواده فقتله، وولي بعده ابنه أرتشخار أربعين سنة، وولي بعده ابنه دارا أنوطو سبع عشرة سنة ثم ولي بعده ابنه أرتشخار بعد أن نازعه كيرش بن نوطو فقتله أرتشخار واستولى على الأمر وسالم الروم الغريقيين، ثم انتقصوا عليه واستعانوا بأهل مصر، فطالت الحرب ثم اصطالحوا ووقعت الهدنة، وهلك أرتشخار وذلك على

عليهم لأبائهم وملكتهم يومئذ الإسكندر بن فيلبس وكان عمره ست عشرة سنة، فطعم فيه دارا وطلب الضريبة فمنع وأجاب بالإغلاظ وزحف إليه فقاتله وقتله واستولى الإسكندر على ملك فارس وما وراءه انتهى كلام ابن العميد.

الطبقة الثالثة من الفرس وهم الأشكانية ملوك الطوائف وذكر دولهم ومصاير أموارهم إلى نهايتها

هذه الطبقة من ملوك الفرس يعرفون بالأشكانية، وكافها أقرب إلى الفين، من ولد أشكان بن دارا الأكبر، وقد مر ذكره، وكانوا من أعظم ملوك الطوائف عند افتراق أمر الفرس، وذلك أن الإسكندر لما قتل دارا الأصغر استشار معلمه أرسطو في أمر الفرس، فأشار عليه أن يفرق رياستهم في أهل البيوت منهم فتفرق كلمتهم ويخلص لك أمرهم، فولى الإسكندر عظماء النواحي من الفرس والعرب والنبط والجرامقة كلاً على عمله واستبد كل بناحية واستقام له ملك فارس والمشرق. ولما مات الإسكندر قسم ملكه بين أربعة من أمرائه: فكان ملك مقدونية وأنطاكية وما إليها من ممالك الروم لفيلبس من قواده، وكانت الإسكندرية ومصر والمغرب لفيلاذفس ولقبه بطليموس، وكان الشام وبيت المقدس وما إلى ذلك لدمتوس، وكان السواد إلى الجبال والأهواز وفارس ليلافش سيلفس ولقبه أنطيوخس وأقام السواد في ملكته أربعاً وخمسين سنة.

قال الطبري: وكان أشك بن دارا الأكبر خلفه أبوه بالري فنشأ بها فلما كبر وهلك الإسكندر جمع العساكر وسار يريد أنطيوخس، والتقى بالموصل فانهزم أنطيوخس وقتل، وغلب أشك على السواد من الموصل إلى الري وأصبهان، وعظمه سائر ملوك الطوائف لشرفه ونسبه وأهدوا إليه من غير أن يكون له عليهم إيالة في عزل ولا تولية، بل إنما كانوا يعظمونه ويبدؤون باسمه في المخاطبات وهم مع ذلك متعادون، تختلف حالاتهم بعضهم مع بعض في الحرب والمهادنة. وقال بعضهم: كان رجل من نسل الملوك من فارس مملكاً على الجبال وأصبهان والسواد لقوات الإسكندر ثم غلب بعد ذلك ولده على السواد وجمعه إلى الجبال وأصبهان وصار كالرئيس على سائر ملوك الطوائف، ولذلك قصر ذكر هؤلاء الملوك دون غيرهم من الطوائف، فمنهم من قال: أنه أشك بن دارا، كما قدمناه وهو قول الفرس. وقيل هو أشك عقب أسفنديار بن كستاسب بينهما ستة آباء. وقيل هو أشك بن أشكان

اليدين، وكانت أمه من اليهود بنت أخت مردخاي، وكانت حظية عند أبيه، وعلى يدها تخلص اليهود من سعاية وزيره فيهم عنده، وكان العزيز في خدمته، ولعشرين من دولته أمر بهدم أسوار القدس ثم رغب إليه العزيز في تجديد قبتها في اثني عشرة سنة.

قال ابن العميد عن الجسطي: إن العزيز هذا ويسمى عزرا هو الرابع عشر من الكهنوت من لدن هارون عليه السلام، وأنه كتب لني إسرائيل التوراة وكتب الأنبياء من حفظه بعد عودهم من الجلاء الأول، لأن مختصر كان أحرقها، وقيل أن الذي كتب لهم ذلك هو يشوع بن أبو صادوق. ثم ملك من بعده أرطحشاشث الثاني خمس سنين وقيل إحدى وثلاثين وقيل ست عشرة وقيل شهرين، ورجع ابن العميد الخمس لموافقتها سيطرة التواريخ، وكان لعهد أبقراط وسقراط في مدينة أشياش، ولعهده كتب النواميس الاثني عشر. ثم ملك بعده صغريتوس ثلاث سنين وقيل سنة واحدة وقيل سبعة أشهر، ولم يزل محققاً لمرض كان به إلى أن هلك.

ثم ملك من بعده دارا ابن الأمة ويلقب الناكيش، وقيل داريوس الياربوس، ملك سبع عشرة سنة وكان على عهده من حكماء يونان سقراط وفثاغورس وأقليدوس، وفي الخامسة من دولته انتفض أهل مصر على يونان واستبدوا بملكهم بعد مائة وأربع وعشرين سنة، كانوا فيها في ملكتهم، ثم ملك من بعده أرطحشاشث ابن أخي كورش داريوش إحدى عشرة سنة وقيل اثنتين وعشرين سنة وقيل أربعين وقيل إحدى وعشرين، وكان لعهد الباقيم الكوهن الذي داهن الكهنوتية ستاً وأربعين سنة. ثم ملك من بعده أرطحشاشث وتسمى أخوش، ويقال أوغش، عشرين سنة وقيل خمساً وعشرين وقيل تسعاً وعشرين، وزحف إلى مصر فملكها وهرب منها فرعون سناناق إلى مقدونية واسمه قصطرا.

وبنى أرطحشاشث قصر الشمع وجعل فيه هيكلًا وهو الذي حاصره عمرو بن العاص وملكه. ثم ملك من بعده ابنه أرشيش بن أرطحشاشث، وقيل اسمه فارس، أربع سنين وقيل إحدى عشرة، وكان لعهد من حكماء يونان بقرات وأفلاطون ودمقراطس، ولعهده قتل بقرات على القول بالتنامخ وقيل لم يكن مذهبه وإنما ألزمه به بعض تلامذته ثم شهدوا عليه وقتل مسموماً قتله القضاة بمدينة أثينا. ثم ملك من بعده ابنه دارا بن أرشيش عشرين سنة وقيل ست عشرة. وقال ابن العميد عن أبي الراهب: إنه دارا الرابع الذي أشار إليه دانيال كما مر، وكان هذا الملك عظيماً فيهم وتغلب على يونان، والزهمم الطوائف التي كانت

الطبقة الرابعة من الفرس وهم الساسانية والخبر عن ملوكهم الأكاسرة إلى حين الفتح الإسلامي

هذه الدولة كانت من أعظم الدول في الخليفة وأشدّها قوة وهي إحدى الدولتين اللتين صلبهما الإسلام في العالم وهما دولة فارس والروم. وكان مبدأ أمرها من توثب أردشير بن بابك شاه ملك مرو، وهو ساسان الأصغر ابن بابك بن سامان بن بابك بن هرمز بن ساسان الأكبر ابن كي بهمن. وقد تقدم لنا ذكر كي بهمن وأن ابنه ساسان غضب لما توج للملك أخوه دارا وهو في بطن أمه، ولحق بجبال إصطخر فأقام هنالك وتنازل ولده بها إلى أن كان ساسان الأصغر منهم، فكان قياً على بيت النار لإصطخر، وكان شجاعاً، وكانت امرأته من بيت ملك فولدت له ابنه بابك، وولد لبابك أردشير وضبطه الدارقطي: بالراء المهملة.

وكان على إصطخر يومئذ ملك من ملوك الطوائف وله عامل على دارابجرد خصي اسمه سري، فلما أتت لأردشير سبع سنين جاء به جده ساسان إلى ملك إصطخر وسأله أن يضمه إلى عامل دارابجرد الخصي يكفله إلى أن تم تربيته، ولما هلك عامل دارابجرد فأقام بأمره فيها أردشير هذا وملكها، وكان له علم من المنجمين بأن الملك سيصير إليه، فوثب على كثير من ملوك الطوائف بأرض فارس فاستولى عليهم، وكتب إلى أبيه بذلك، ثم وثب على عامل إصطخر فغلبه على ما بيده وملك إصطخر وكثيراً من أعمال فارس.

وكان زعيم الطوائف يومئذ أردوان ملك الأشكانيين فكتب إليه يسأله أن يتوجه فعنفه، وكتب إليه بالشخص فامتنع، وخرج بالعاكر من إصطخر وقدم موبدان رورين فتوجه ثم فتح كرمان وبها ملك من ملوك الطوائف، وولى عليها ابنه، وكتب إليه أردوان يتهده وأمر ملك الأهواز من الطوائف أن يسير إليه فرجع مغلوباً. ثم سار أردشير إلى أصبهان فقتل ملكها واستولى عليها، ثم إلى الأهواز فقتل ملكها كذلك، ثم زحف إليه أردوان عميد الطوائف فهزمه أردشير وقتله وملك همذان والجبل وأذربيجان وأرمينية والموصل ثم السواد. وبنى مدينة على شاطئ دجلة شرقي المدائن.

ثم رجع إلى إصطخر ففتح سجستان ثم جرجان ثم مرو وبلغ وخوارزم إلى تخوم خراسان، وبعث بكثير من الرؤوس إلى بيت النيران، ثم رجع إلى فارس ونزل صول وأطاعه ملك كوشان

الأكبر من ولد كينية بن كيقباز، ويقال: إنه كان أعظم الأشكانية وقهر ملوك الطوائف واستولى على إصطخر لاتصالها بأصبهان وتخطاها إلى ما يتأخها من بلاد فارس فغلب عليه واتصل ملكه عشرين سنة. وملك بعده جورا بن أشك وغزا بني إسرائيل بسبب قتلهم يحيى بن زكريا.

وقال المسعودي: ملك أشك بن دارا بن أشكان الأول منهم عشر سنين، ثم سابور ابنه ستين سنة وغزا بني إسرائيل بالشام ونهب أموالهم، ولإحدى وأربعين من ملكه ظهر عيسى صلوات الله عليه بأرض فلسطين. ثم ملك عمه جور عشر سنين، ثم نيرو بن سابور إحدى وعشرين سنة وفي أيامه غلب طيطش قيصر على بيت المقدس وخربها وأجلى منها اليهود كما مر. ثم جور بن نيرو تسع عشرة سنة. ثم جرسى أخوه أربعين سنة، ثم هرمز أخوهما أربعين سنة، ثم ابنه أردوان بن هرمز خمس عشرة سنة، ثم ابنه كسرى بن أردوان أربعين سنة. ثم ابنه يلاوش بن كسرى أربعاً وعشرين سنة.

وفي أيامه غزت الروم السواد مع قيصر يطلبون بشأراً أنطيوخس ملك أنطاكية من اليونان الذي قتله أشك جد يلاوش هذا، فجمع يلاوش العساكر واستنفر ملوك الطوائف بفارس والعراق فوجهوا له بالمدد واجتمع له أربعمئة ألف من المقاتلة، وولى عليهم صاحب الحصر وكان من ملوك الطوائف على السواد، فزحف إلى قيصر فقتله واستباح عسكر الروم وقتل وفتح أنطاكية وانتهى إلى الخليج. وولي من بعد يلاوش ابنه أردوان بن يلاوش ثلاث عشرة سنة. ثم خرج عليه أردشير بن بابك بن ساسان وجمع ملك فارس من أيدي ملوك الطوائف وجدد الدولة الساسانية كما نذكر في أخبارهم.

قال الطبري: وفي أيام الطوائف كانت ولادة عيسى صلوات الله عليه لخمس وستين من غلب الإسكندر على بابل ولإحدى وخمسين من ملك الأشكانية، والنصارى يزعمون أن ذلك كان لمضي ثلثمائة وثلاث وستين من غلب الإسكندر على بابل. قال الطبري: وجميع سني الطوائف من لدن الإسكندر إلى ظهور أردشير بن بابك واستوائه على الأمر مائتان وستون سنة، وبعضهم يقول خمسمائة وثلاث وعشرون سنة. وقال بعضهم: ملك في هذه المدة منهم تسعون ملكاً على تسعين طائفة كلهم يعظم ملوك المدائن منهم وهم الأشكانيون.

الملوك أريانوس فاقتحمها عليه وأسره وحمله إلى جنديسابور فحبسه بها إلى أن فاداه على أموال عظيمة ويقال: على بناء شاذروان تستر ويقال جدع أنفه وأطلقه ويقال بل قتله، وكان بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضير وبها ملك من الجرماقة يقال له الساطرون من ملوك الطوائف وهو الذي يقول فيه الشاعر:

وأرى الموت قد تثلل من الحضير على رب أهله الساطرون
ولقد كان آمناً للدواهي ذا ثراء وجوهر مكنسون

وقال المسعودي: وهو الساطرون بن إستطرون من ملوك السريانيين. قال الطبري: وتسميه العرب الضيزن. وقال هشام بن محمد الكلبي: من قضاة وهو الضيزن بن معاوية بن العميد بن الأجدم بن عمرو بن النخع بن سليم، وسنذكر نسب سليم في قضاة. وكان بأرض الجزيرة وكان معه من قبائل قضاة ما لا يحصى وكان ملكه قد بلغ الشام، فخلع سابور في غزاته إلى خراسان وعاث في أرض السواد، فشحص إليه سابور عند انقضاء غزائه حتى أتاخ على حصنه وحاصره أربع سنين قال الأعشى:

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمة وهمل خالد من نعم
أقام به سابور الجنود حولين يضرب فيه القمم

ثم إن ابنة ساطرون واسمها النصيرة وخرجت إلى ريبض المدينة وكانت من أجل النساء، وسابور كان جليلاً، فاشرفت عليه فشغفت به وشغف بها، وداخلته في أمر الحصن ودلته على عورته فدخله عنوة وقتل الضيزن وأباد قضاة الذين كانوا معه وأكثرهم بنو حلوان فانقرضوا، وخرب حصن الحضير. وقال عدي بن زيد في رثائه:

وأخو الحضير إذ بناء وإذ دجلة نجى إليه والخابور
شاده مرمرأ وجلله كلساً فللطير في ذراه وكسور
لم يهبه ريح المنون فبا د الملك عنه فبابه مهجور

ثم أعرض بالنصيرة بعين النمر وباتت ليلها تنصور في فراشها وكان من الحرير محشواً بالقز والقسي فإذا ورقة آس بينها وبين الفراش وتؤذيها، فقال: ويحك! ما كان أبوك يغذيك؟ قالت: الزيد والملح والشهد وصفو الخمر، فقال: وأبيك لأنا أحدث عهداً وأبعد ودأ من أبيك الذي غذاك بمثل هذا. وأمر رجلاً ركب فرساً جوحاً وعصب غداثها بذنبه ولم يزل يركض حتى تقطعت أوصالها.

وعند ابن إسحاق: أن الذي فتح حصن الحضير وخربه وقتل الساطرون هو سابور ذو الأكاف. وقال السهيلي: لا يصح لأن الساطرون من ملوك الطوائف والذي أزال ملكهم هو أردشير وابنه سابور، وسابور ذو الأكاف بعدهم بكثير وهو التاسع من

ومكران ثم ملك البحرين بعد أن حاصرها مدة، وألقى ملكها بنفسه في البحر. ثم رجع فتزل المدائن وتوجه ابنه سابور ولم يزل مظفراً وقهر الملوك حوله وأثخن في الأرض، ومدن المدن واستكثر العمارة وهلك لأربع عشرة سنة من ملكه بأصطخر بعد مقتل أردوان.

وقال هشام بن الكلبي: قام أردشير في أهل فارس يريد الملك الذي كان لأبائه قبل الطوائف وأن يجمعه للملك واحد، وكان أردوان ملكاً على الأرمانيين وهم أنباط السواد، وكان بابا ملكاً على الأرمانيين وهم أنباط الشام، وبينهما حرب وقتنة فاجتمعا على قتال أردشير فحارباه مناوئة. ثم بعث أردشير إلى بابا في الصلح على أن يدعه في الملك ويخلي بابا بينه وبين أردوان، فلم يلبث أن قتل أردوان واستولى على السواد فأعطاه بابا الطاعة بالشام ودانت له سائر الملوك وقهرهم. ثم رجع إلى أمر العرب وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة، وكانوا ثلاث فرق: الأولى تنوخ ومنهم قضاة الذين كنا قدمنا أنهم كانوا اقتتلوا مع ملك من التبابعة وأتى بهم وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غربي الفرات بين الأنبار والحيرة وما فوقها فأنفوا من الإقامة في مملكة أردشير وخرجوا إلى البرية، والثانية العباد الذين كانوا يسكنون الحيرة وأوطونها، والثالثة الأحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم ولم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا بهم. فملك هؤلاء الأحلاف الحيرة والأنبار وكان منهم عمرو بن عدي وقومه، فعمروا الحيرة والأنبار ونزلوا وخربوها وكانت من بناء العرب أيام مجتئصر، ثم عمرها بنو عمرو بن عدي لما أصاروها نزلاً لملكهم إلى أن صبحهم الإسلام، واختط العرب المسلمون مدينة الكوفة فذرت الحيرة وكان أردشير لما ملك أسرف في قتل الأشكانية حتى أفتاهم لوصية جده، ووجد بقصر أردوان جارية استملحها ودفعت عن نفسها القتل بإنكار نسبها فيهم، فقالت أنا مولا ويكر، فواقعها وحملت وظنت الأمن على نفسها، فأخبرته بنسبها فتكر ودفعها إلى بعض مرازمته ليقتلها، فاستبقاها ذلك المزيان إلى أن شكا إليه أردشير قلة الولد والخوف على ملكه من الانقطاع وندم على ما سلف منه من قتل الجارية وإتلاف الحمل، فأخبره بمجباتها وأنها ولدت ولداً ذكراً وأنه سماه سابور وأنه قد كملت خصاله وآدابه، فاستحضره أردشير واختبره فرضيه وعقد له التاج ثم هلك أردشير فملك سابور من بعده فأفاض العطاء في أهل الدولة وتخير العمال، ثم شحص إلى خراسان فمهد أمورها، ثم رجع فشحص إلى نصيبين فملكها عنوة فقتل وسبي، وافتتح من الشام مدناً وحاصر أنطاكية وبها من

وتلقب شاه، وكان ملكاً على سجستان وهلك لأربع سنين من دولته. وملك بعده أخوه قرسين بن بهرام تسع سنين أخرى، وكان عادلاً حسن السيرة. وملك بعده ابنه هرمز بن قرسين فوجس منه الناس لفظاظته، ثم أبدل من خلقه الشر بالخير وسار فيهم بالعدل والرفق والعمارة وهلك لسبع سنين من ولايته. وكان هؤلاء كلهم ينزلون جنديسابور من خراسان. ولما هلك ولم يترك ولداً شق ذلك على أهل مملكته لميلهم إليه ووجدوا ببعض نسائه حملاً فتوجوه وانتظروا إقامه، وقيل بل كان هرمز أبوه أوصى بالملك لذلك الحمل فقام أهل الدولة بتدبير الملك ينتظرون تمام الولد.

وشاع في أطراف المملكة أنهم يتلومون صيياً في المهدي فطمع فيهم الترك والروم، وكانت بلاد العرب أدنى إلى بلادهم وهم أخرج إلى تناول الجيوب من البلاد لحاجتهم إليها بما هم فيه من الشظف وسوء العيش، فسار منهم جمع من ناحية البحرين وبلاد القيس ووخاظة فأناخوا على بلاد فارس من ناحيتهم وغلبوا أهلها على الماشية والحرث والمعاش، وأكثروا الفساد ومكثوا في ذلك حيناً ولم يغزهم أحد من فارس ولا دافعوهم لصغر الملك، حتى إذا كبر وعرضوا عليه الأمور فأحسن فيها الفصل وبلغ ست عشرة سنة من عمره، ثم أطاق حمل السلاح نهض حيثنذ للاستبداد بملكه.

وكان أول شيء ابتدأ به شأن العرب، فجهز إليهم العساكر وعهد إليهم أن لا يبقوا على أحد ممن لقوا منهم، ثم شخص بنفسه إليهم وغزاهم وهم غازون ببلاد فارس فقتلهم أبرح القتل، وهربوا أمامه وأجاز البحر في طلبهم إلى الخط وتعدى إلى بلاد البحرين قتلاً وتخريباً. ثم غزا بعدها رؤوس العرب من تميم وبكر وعبد القيس فائنخ فيهم وأباد عبد القيس ولحق فلهم بالرمال ثم أتى اليمامة فقتل وأسر وخرب ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب، ما بين مملكة فارس ومناظر الروم بالشام، فقتل من وجد هنالك من العرب وطم مياهم وأسكن من رجع إليه من بني تغلب دارين من البحرين والخط ومن بني تميم هجرنا من بكر بن وائل كرمان ويدعون بكر إياد ومن بني حنظلة الأهواز، وبني مدينة الأنبار والكرخ والسوس.

وفيما قاله غيره إن إياداً كانت تشتو بالجزيرة وتصيف بالعراق وتشن الغارة. وكانت تسمى طماً لانتطافها على البلاد، وسابور يومئذ صغير حتى إذا بلغ القيام على ملكه شرع في غزوهم ورئيسهم يومئذ الحرث بن الأغر الأيسادي، وكتب إليهم بالنذر بذلك رجل من إياد كان بين ظهرائي الفرس، فلم يقبلوا حتى واقتهم العساكر فاستلحهمم وخرجوا إلى أرض الجزيرة

ملوك أردشير. قال السهيلي: وأول من ملك الحيرة من ملوك الساسانية سابور بن أردشير، والحيرة وسط بلاد السواد وحاضرة العرب، ولم يكن لأحد قبله من آل ساسان حتى استقام العرب على طاعته، وولي عليهم عمرو بن عدي جد آل المنذر بعده وأنزله الحيرة، فجبى خراجهم وإتاوتهم واستبعدهم لسلطانه وقبض أيديهم عن الفساد بأقطار ملكه وما كانوا يرومونه بسواد العراق من نواحي مملكته. وولي بعده ابنه امرأ القيس بن عمرو عدي وصار ذلك ملكاً لآل المنذر بالحيرة توارثوه حسبما نذكر بعد.

وهلك سابور ثلاثين سنة من ملكه وولي بعده ابنه هرمز ويعرف بالبطل فملك سنة واحدة، وولي بعده ابنه بهرام بن هرمز وكان عامله على مذبح من ربيعة ومضر وسائر بادية العراق والجزيرة والحجاز امرأ القيس بن عمرو بن عدي وهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة وطال أمد ملكه.

قال هشام بن الكلبي: ملك مائة وأربع عشرة سنة من لدن أيام سابور اهـ.

وكان بهرام بن هرمز حليماً وقوراً وأحسن السيرة واقتدى بأبائه، وكان ماني الثنوي الزنديق صاحب القول بالنور والظلمة قد ظهر في أيام جده سابور فاتبعه قليلاً ثم رجع إلى المجوسية دين آبائه، ولما ولي بهرام بن هرمز جمع الناس لامتحانه، فأشادوا بكفره وقتله وقالوا زنديق. قال المسعودي: ومعناه أن من عدل عن ظاهر إلى تأويله ينسبونه إلى تفسير كتاب زرادشت الذي قدمنا أن اسمه زنده فيقولون زنديه فعريته العرب فقالوا زنديق، ودخل فيه كل من خالف الظاهر إلى الباطن المنكر، ثم اختص في عرف الشرع بمن يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

ثم هلك بهرام بن هرمز ثلاث سنين وثلاثة أشهر من دولته، وولي ابنه بهرام ثمانين سنة عكف أولها على اللذات، وامتدت أيدي بطانته إلى الرعايا بالجور والظلم فخرت الضياع والقرى حتى نبهه الموبدان لذلك بمثل ضربه له، وذلك أنه سامره في ليلة فمر راجعاً من الصيد فسمعا بومين يتحدثان في خراب، فقال بهرام: ليت شعري هل أحد فهم لغات الطير؟ فقال له الموبدان: نعم إننا نعرف ذلك أيها الملك! وإنهما يتحاوران في عقد نكاح وإن الأنثى اشترطت عليه إقطاع عشرين ضيعة من الخراب فقبل الذكر وقال: إذا دامت أيام بهرام أقطعتك ألفاً. فتظن بهرام لذلك وأفاق من غفلته وأشرف على أحوال ملكه مباشرة بنفسه وقابضاً أيدي البطانة عن الرعية وحسنت أيامه إلى أن هلك.

وولي بعده بهرام بن بهرام بن بهرام ثلاثة أسماء متشابهة

تشهد العادة بكذبها.

ثم هلك سابور لاثنتين وسبعين سنة من ملكه وهو الذي بنى مدينة نيسابور وسجستان وبنى الإيوان المشهور لمقعد ملوكهم، وملك لعهد امرؤ القيس بن عدي، وأوصى بالملك لأخيه أردشير بن هرمز، وقتل في أشرف فارس وعظماهم فخلعوه لأربعين سنة من دولته، وملكوا سابور بن ذي الأكتاف فاستبشر الناس برجوع ملك أبيه إليه، وأحسن السيرة ورفق بالرعية وحمل على ذلك العمال والوزراء والحاشية ولم يزل عادلاً، وخضع له عمه أردشير المخلوع، وكانت له حروب مع إياد وفي ذلك يقول شاعرهم:

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب إياد حولها الخيل والنعم
وقيل إن هذا الشعر إنما قيل في سابور ذي الأكتاف. ثم هلك سابور لخمس سنين من دولته، وملك أخوه بهرام ويلقب كرمات شاه وكان حسن السياسة وهلك لإحدى عشرة سنة من دولته رماه بعض الرماة بسهم في القتال فقتله. وملك بعده ابنه يزدجرد الأثيم، وبعض نسابة الفرس يقول إنه أخوه وليس ابنه وإنما هو ابن ذي الأكتاف. وقال هشام بن محمد: كان فظاً غليظاً كثير المكر والخديعة يفرغ في ذلك عقله وقوة معرفته وكان معجباً برأيه سيء الخلق كثير الحدة يستعظم الزلة الصغيرة ويرد الشفاعة من أهل بطائنه متهماً للناس قليل المكافاة. وبالجملية فهو سيء الأحوال مذمومها، واستوزر لأول ولايته برسي الحكيم ويسمى فهربرشي ومهرمرسة، وكان متقدماً في الحكمة والفضائل وأمل أهل المملكة أن تهرب من يزدجرد الأثيم، فلم يكن ذلك واشتد أمره على الأشراف بالإهانة وعلى من دونهم بالقتل. وبينما هو جالس في مجلسه يوماً إذا بفرس عابر لم يطق أحد إمساكه قد وقف ببابه، فقام إليه ليتولى إمساكه بنفسه فرمحه فمات لوقته لإحدى وعشرين سنة من ملكه وملك بعده ابنه بهرام بن يزدجرد ويلقب بهرام جور، وكان نشوؤه ببلاد الحيرة مع العرب أسلمه أبوه إليهم فربي بينهم وتكلم بلغتهم ولما مات أبوه قدم أهل فارس رجلاً من نسل أردشير، ثم زحف بهرام جور بالعرب فاستولى على ملكه كما نذكر في أخبار آل المنذر.

وفي أيام بهرام جور سار خاقان ملك الترك إلى بلاد الصغد من مملكة فهزمه بهرام وقتله، ثم غزا الهند وتزوج ابنة ملكهم فهابته ملوك الأرض، وحمل إليه الروم الأموال على سبيل المهادنة، وهلك لتسع وعشرين من دولته وملك ابنه يزدجرد بن بهرام جور واستوزر مهربرسي الحكيم الذي كان أبوه استوزره، وجري في ملكه بأحسن سيرة من العدل والإحسان، وهو الذي شرع في بناء

والموصل إجلاء ولم يعاودوا العراق. ولما كان الفتح طلبهم المسلمون بالجزية مع تغلب وغيرهم فأنفوا ولحقوا بأرض الروم.

وقال السهيلي عند ذكر سابور بن هرمز: إنه كان يخلع أكتاف العرب ولذلك لقبه العرب ذو الأكتاف، وإنه أخذ عمرو بن نعيم بأرضهم بالبحرين وله يومئذ ثلثمائة سنة وإنه قال إنما أقتلكم معاشر العرب لأنكم تزعمون أن لكم دولة. فقال له عمرو بن نعيم: ليس هذا من الحزم أيها الملك! فإن يكن حقاً فليس قتلك إياهم بدافعه وقد تكون قد اتخذت يداً عندهم يتفجع بها ولدك وأعقاب قومك. فيقال إنه استبقاه ورحم كبره ثم غزا سابور بلاد الروم وتوغل فيها ونازل حصونهم.

وكان ملوك الروم على عصره قسطنطين وهو أول من تنصر من ملوكهم وهلك قسطنطين وملك بعده إليانوس من أهل بيته وانحرف عن دين النصرانية وقتل الأساقفة وهدم البيع وجمع الروم والمحدث لقتال سابور. واجتمعت العرب معهم لثأرهم عند سابور بمن قتل منهم وسار قائد إليانوس واسمه يوسانوس في مائة وسبعين ألفاً من المقاتلة، حتى دخل أرض فارس، وبلغ خبره وكثرة جموعه إلى سابور فأحجم عن اللقاء وأجفل وصبحه العرب، ففضوا جموعه وهرب في قل من عسكره، واحتوى إليانوس على خزائنه وأمواله واستولى على مدينة طيسون من مدائن ملكه. ثم استنفر أهل النواحي واجتمعت إليه فارس وارتفع مدينة طيسون وأقاما متظاهرين.

وهلك إليانوس بسهم أصابه، فبقي الروم فوضى وفزعوا إلى يوسانوس القائد أن يملكوه، فشرط عليهم الرجوع إلى دين النصرانية كما كان قسطنطين فقبلوا. وبعث إليه سابور في القدوم عليه، فسار إليه في ثمانين من أشرف الروم، وتلقاه سابور وعانقه وبالح في إكرامه وعقد معه الصلح على أن يعطي الروم قيمة ما أفسدوه من بلاده فارس وأعطوا بدلاً عن ذلك نصيين فرضي بها أهل فارس، وكانت مما أخذه الروم من أيديهم فملكها سابور وشرد عنها أهلها خوفاً من سطوته، فقتل إليها من أهل إصطخر وأصبهان وغيرهما.

وانصرف يوسانوس بالروم وهلك عن قريب ورجع سابور إلى بلاده وفيما نقله بعض الإخباريين أن سابور دخل بلاد الروم متكرراً وعثر عليه فأخذ وجس في جلد ثور وزحف ملك الروم بعساكره إلى جنديسابور فحاصرها، وإن سابور هرب من حبسه ودخل جنديسابور المدينة ثم خرج إلى الروم فهزمهم وأسر ملكهم قيصر، وأخذ بهجارة ما خرب من بلاده ونقل التراب والغروس إليها ثم قطع أنفه وبعث به على حمار إلى قومه، وهي قصة واهية

إليه دون قباذ واستبد عليه. فلما كبر وبلغ سن الاستبداد بأمره أنف من استبداد سرحد عليه، فبعث إلى أصبهيد البلاد وهو سابور مهران فقدم عليه وقبض على سرحد وحبسه ثم قتله ولعشرين من دولته حبس وخلع. ثم عاد إلى الملك وصورة الخبر عن ذلك أن مزدك الزنديق كان إياحياً، وكان يقول باستباحة أموال الناس وأنها فيء، وأنه ليس لأحد ملك شيء ولا حجرة، والأشياء كلها ملك لله مشاع بين الناس لا يختص به أحد دون أحد وهو لمن اختاره، فمثر الناس منه على متابعة مزدك في هذا الاعتقاد واجتمع أهل الدولة فخلعوه وحبسوه، وملكوا جاماسات أخاه.

وخرج رزمهر شاكياً داعياً لقباذ ويقرب إلى الناس بقتل الزدكية، وأعاد قباذ إلى ملكه، ثم سعت المزدكية عنده في رزمهر بإنكار ما أتى قبلهم فقبله، واتهمه الناس برأي مزدك فانتقضت الأطراف وقسد الملك وخلعوه وحبسوه وأعادوا جاماسات.

وفر قباذ من عصبه ولحق قباذ الهياطلة وهم الصغد مستجيشاً لهم، ومر في طريقه بأبوشهر فتزوج بنت ملكها وولدت له أنوشروان، ثم أمده ملك الهياطلة، فزحف إلى المدائن لست سنين من مغيبه وغلب أخاه جاماسات واستولى على الملك. ثم غزا بلاد الروم وفتح آمد وسبى أهلها وطالت مدته وابتنى المدن العظيمة منها مدينة أراجان بين الأهواز وفارس، ثم هلك لثلاث وأربعين سنة من ملكه في الكرة الأولى وملك ابنه أنوشروان بن قباذ بن فيروز بن يزدجرد، وكان يلي الأصبهيد وهي الرياسة على الجنود.

ولما ملك فرق أصبهيد البلاد على أربعة: فجعل أصبهيد المشرق بخراسان والمغرب بأذربيجان وبلاد الخزر واسترد البلاد التي تغلب عليها جيران الأطراف من الملوك مثل السند وبست الرخيخ وزابلستان وطخارستان ودهستان، وأنخن في أمة البازر وأجلى بقيتهم، ثم أدهنوا واستعانوا بهم في حروبه. وأنخن في أمة صول واستلحمهم، وكذلك الجرماقة وبلنجر واللان وكانوا يجاورون أرمينية ويتماثلون على غزوها فبعث إليهم العساكر واستلحموهم وأنزل بقيتهم أذربيجان.

وأحكم بناء الحصون التي كان بناها قباذ وفيروز بناحية صول واللان لتحصين البلاد، وأكمل بناء الأبواب والصور الذي بناه جده بجبل الفتح، بنوه على الأزماق المنفوخة تغوص في الماء كلما ارتفع البناء إلى أن استقرت بقعر البحر وشقت بالخناجر فتمكن الخاطم من الأرض ثم وصل السور في البر ما بين جبل الفتح والبحر، وفتح فيه الأبواب ثم وصلوه في شعاب الجبل

الخاطم بناحية الباب والأبواب، وجعل جبل الفتح سداً بين بلاده وما وراءها من أمم الأعاجم، وهلك لعشرين سنة من دولته وملك من بعده ابنه هرمز وكان ملكاً على سجستان فغلب على الدولة ولحق أخوه فيروز بملك الصغد بمروالروذ.

وهذه الأمم هم المعروفون قديماً بالهياطلة وكانوا بين خوارزم وفرغانة، فأمر فيروز بالعساكر وقاتل أخاه هرمز فغلبه وحبسه. وكانت الروم قد امتنعت عن حمل الخراج فحمل إليهم العساكر مع وزيره مهربسي، فأنخن في بلادهم حتى حملوا ما كانوا يحملونه واستقام أمره وأظهر العدل. وأصابهم القحط في دولته سبع سنين فأحسن تدبير الناس فيها وكف عن الجباية وقسم الأموال، ولم يهلك في تلك السنين أحد إتلاًناً. وقيل إنه استسقى لرعيته من ذلك القحط فسقوا وعادت البلاد إلى أحسن ما كانت عليه.

وكان لأول ما ملك أحسن إلى الهياطلة جزاء بما أعانوه على أمره، فقوى ملكهم أمره وزحفوا إلى أطراف ملكه وملكوا طخارستان وكثيراً من بلاد خراسان وزحف هو إلى قاتلم فهزمه وقتلوه وأربعة بنين له وأربعة إخوة واستولوا على خراسان بأسرها. وسار إليهم رجل من عظماء الفرس من أهل شيراز فغلبهم على خراسان وأخرجهم منها حتى ألقوا بجميع ما أخذوه من عسكر فيروز من الأسرى والسبي، وكان مهلكه لسبع وعشرين من دولته. وبنى المدن بالري وجرجان وأذربيجان.

وقال بعضهم: إن ملك الهياطلة الذي سار إلى فيروز اسمه خشتوا، والرجل الذي استرجع خراسان من يده هو خسوس من نسل منوشهر، وأن فيروز استخلفه لما سار إلى خشتوا والهياطلة على مدينتي الملك وهما طبسون ونهرشير، فكان من أمره مع الهياطلة بعد فيروز ما تقدم وملك بعد فيروز بن يزدجرد ابنه يلاوش بن فيروز ونازعه أخوه قباذ الملك فغلبه يلاوش ولحق قباذ بخاقان ملك الترك يستجده. وأحسن يلاوش الولاية والعدل وحمل أهل المدن على عمارة ما خرب من مدنتهم، وبنى مدينة ساباط بقرب المدائن.

وهلك لأربع سنين من دولته. وملك من بعده أخوه قباذ بن فيروز وكان قد سار بعساكر الترك أمده بها خاقان، فلبه الخبر بمهلك أخيه وهو بنيسابور من طريقه، وقد لقي بها ابناً كان له هنالك حملت به أمه منه عند مروه ذلك إلى خاقان، فلما أحل بنيسابور ومعه العساكر سأل عن المرأة، فأحضرت ومعها الخبر وجاء الخبر هنالك بمهلك أخيه يلاوش فقيمن بالمولود وسار إلى سرحد الذي كان أبوه فيروز استخلفه على المدائن، ومال الناس

وبقي فيه إلى أن كمل.

والقصة معروفة.

وكان فيما قاله سطیح إنه يملك من آل كسرى أربعة عشرة ملكاً فاستطال كسرى المدة وملكوا كلهم في عشرين سنة أو نحوها. ويعت عامل اليمن وهرز بهديّة وأموال وطرف من اليمن إلى كسرى، فأغار عليها بنو يربوع من تميم وأخذوها، وجاء أصحاب العير إلى هروزة بن علي ملك اليمامة من بني حنيفة، فسار معهم إلى كسرى فأكرمه وتوجه بعقد من لؤلؤ ومن ثم قيل له ذو الناج، وكتب إلى عامله بالبحرين في شأنهم، وكان كثيراً ما يوقع ببني تميم ويقطعهم حتى سموه المكفر فتحيل عليهم بالميرة، ونادى مناديه في أحيائهم: إن الأمير يقسم فيكم بحصن المشعر ميرة، فتسايروا إليه ودخلوا الحصن، فقتل الرجال وخصى الصبيان. وجاءت هدية أخرى من اليمن على أرض الحجاز أجازها رجل من بني كنانة فعدت عليه قيس وقتلوه وأخذوا الهدية، فنشأت الفتنة بين كنانة وقيس لأجل ذلك وكانت بينهم حرب الفجار عشرين سنة وشهدها رسول الله ﷺ صغيراً كان ينبل على أعمامه. ثم هلك أنوشروان لثمان وأربعين من دولته وملك ابنه هرمز.

قال هشام: وكان عادلاً حتى لقد أنصف من نفسه خصياً كان له، وكانت له خوزة في الترك وكان مع ذلك يقتل الأسراف والعلماء، وزحف إليه ملك الترك شبابة في ثلثمائة ألف مقاتل، فسار هرمز إلى هراة وباذغيس لحربهم، وخالفه ملك الروم إلى ضواحي العراق، وملك الحزر إلى الباب والأبواب، وجوع العرب إلى شاطئ الفرات. فعاثوا في البلاد ونهبوا واكتفته الأعداء من كل جانب، ويعت قائده بهرام صاحب الري إلى لقاء الترك، وأقام هو بمكانه من خراسان بيت هراة وباذغيس، وقاتل بهرام الترك وقتل ملكهم شبابة بسهم أصابه واستباح معسكره وأقام بمكانه.

فزحف إليه برمومة بن شبابة بالترك فهزمه بهرام وحاصره في بعض الحصون حتى استسلم ويعت به إلى هرمز أسيراً، ويعت معه بالأموال والجواهر والآنية والسلاح وسائر الأمتعة يقال في ماتين وخسين ألفاً من الأحمال، فوقع ذلك من هرمز أحسن المواقع. وغص أهل الدولة ببهرام ففعلوا فيه السعاية وبلغ الخبر إلى بهرام فخشيته على نفسه فداخل من كان معه من المرازبة وخلعوا هرمز، ودعوا لابنته أبرويز وداخلهم ذلك في أهل الدولة، فلحق أبرويز بأذربيجان خائفاً على نفسه، واجتمع إليه المرازبة والأصبهينيون فملكوه.

ووثب بالمدائن الأشراف والعظماء وتقديوه ويسطام خال

قال المسعودي: إنه كان باقياً لعصره. والظن أن التتر خربوه بعد لما استولوا على ممالك الإسلام في المائة السابعة، ومكانه اليوم في مملكة بني ذو شيخان ملوك الشمال منهم. وكان لكسرى أنوشروان في بناءه خبر مع ملوك الحزر ثم استفحل ملك الترك وزحف خاقان سيحور وقتل ملك الهياطلة واستولى على بلادهم وأطاعه أهل بلنجر وزحف إلى بلاد صول في عشرة آلاف مقاتل، ويعت إلى أنوشروان يطلب منه ما أعطاه أهل بلنجر في الفداء، وضبط أنوشروان أرمينية بالساكرا، وامتعت صسول بملكها أنوشروان والناحية الأخرى بسور الأبواب، فرجع خاقان خائباً وأخذ أنوشروان في إصلاح السابلة والأخذ بالعدل وتفقد أهل المملكة وتخير الولاة والعمال مقتدياً بسيرة أردشير بن بابك جده.

ثم سار إلى بلاد الروم وافتتح حلب وقبرص وحمص وأنطاكية ومدينة هرقل ثم الإسكندرية، وضرب الجزية على ملوك القبط، وحمل إليه ملك الروم الفدية، وملك الصين والتبت الهدايا. ثم غزا بلاد الحزر وأدرك فيهم بثاره وما فعلوه ببلاد.

ثم وفد عليه ابن ذي يزن من نسل الملوك التابعة يستجيئه على الحبشة فبعث معه قائداً من قواده في جند من الديلم فقتلوا مسروقاً ملك الحبشة باليمن وملكوها، وملك عليهم سيف بن ذي يزن. وأمره أن يبعث عساكره إلى الهند فيبعث إلى سرنديب قائداً من قواده فقتل ملكها واستولى عليها وحمل إلى كسرى أموالاً جمّة. وملك على العرب في مدينة الحيرة. ثم سار نحو الهياطلة مطالباً بثأر جده فيروز فقتل ملكهم واستأصل أهل بيته.

وتجاوز بلخ وما وراءها، وأنزل عساكره فرغانة وأتخن في بلاد الروم وضرب عليهم الجزى. وكان مكرماً للعلماء محباً للعلم وفي أيامه ترجم كتاب كليله وترجمه من لسان اليهود وحله بضرب الأمثال ويحتاج إلى فهم دقيق. وعلى عهده ولد رسول الله ﷺ لإثنتين وأربعين سنة من ملكه وذلك عام الفيل. وكذلك ولد أبوه عبد الله بن عبد المطلب لأربع وعشرين سنة من ملكه.

قال الطبري: وفي أيامه رأى الموبذان الإبل الصعاب تقود الخيل العرب وقد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها فأنزعه ذلك، وقص الرؤيا على من يعبرها، فقال: حادث يكون من العرب. فكتب كسرى إلى النعمان أن يبعث إليه بمن يسأله عما يريد فبعث إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حسان بن نقيلة الغساني وقص عليه الرؤيا فذله على سطیح، وقال له إنته أنت فسار إليه وقص عليه الرؤيا فأخبره بتأويلها وأن ملك العرب سيظهر

ملكاً اسمه قوفا قيصر، ولحق ابنه بأبرويز فبعث العساكر على ثلاثة من القواد وسار أحدهم ودوخوا الشام إلى فلسطين، ووصلوا إلى بيت المقدس فأخذوا أساقفتها ومن كان بها من الأقسمة وطالبوهم بخشبة الصليب فاستخرجوها من الدفن وبعثوا بها إلى كسرى.

وسار منهم قائد آخر إلى مصر وإسكندرية وبلاد النوبة فملكوا ذلك كله، وقصد الثالث قسطنطينية وخيم على الخليج وعاث في ممالك الروم ولم يجب أحد إلى طاعة ابن موريق وقتل الروم قوفا الذي كانوا ملكوه لما ظهر من فجوره، وملكوا عليهم هرقل فافتتح أمره بغزو بلاد كسرى وبلغ نصيبين، فبعث كسرى قائداً من أساورته فبلغ الموصل وأقام عليها يمنع الروم المجاوزة، وجاز هرقل من مكان آخر إلى جند فارس، فأمر كسرى قائده بقتاله فانهزم وقتل وظفر هرقل بمحصن كسرى وبالمدائن، ووصل هرقل قريباً منها ثم رجع. وأولع كسرى العقوبة بالجند المنهزمين، وكتب إلى سخراب بالقدوم من خراسان وبعثه بالعساكر، وبعث هرقل عساكره والتقى بأذرعات ويصرى فغلبتهم عساكر فارس، وسار سخراب في أرض السروم يخرب ويقتل ويسبي حتى بلغ القسطنطينية، ورجع وعزله أبرويز عن خراسان وولى أخاه.

وفي مناوبة هذا الغلب بين فارس والروم نزلت الآيات من أول سورة الروم.

قال الطبري: وأدنى الأرض التي أشارت إليها الآية هي أذرعات ويصرى التي كانت بها هذه الحروب. ثم غلبت الروم لسبع سنين من ذلك العهد وأخبر المسلمون بذلك الوعد الكريم لما أهمهم من غلب فارس الروم، لأن قريشاً كانوا يتشيعون لفارس لأنهم غير دائنين بكتاب، والمسلمون يودون غلب الروم لأنهم أهل كتاب، وفي كتب التفسير بسط ما وقع في ذلك بينهم وأبرويز هذا هو الذي قتل النعمان بن المنذر ملك العرب وعامله على الحيرة سخطه بسعاية عدي بن زيد العبادي وزير النعمان، وكان قد قتل أباه وبعثه إلى كسرى ليكون عنده ترجماناً للعرب كما كان أبوه قد فعل بسعايته في النعمان وحمله على أن يخاطب إليه ابنته، وبعث إليه رسوله بذلك عدي بن زيد فترجم له عنه في ذلك مقالة قبيحة أحفظت كسرى أبرويز مع ما كان تقدم له في منعه الفرس يوم بهرام كما تقدم.

فاستدعاه أبرويز وحجسه بساباط، ثم أمر به فطرح للقليلة، وولى على العرب بعده أياس بن قبيصة الطائفي جزاء بوفاء ابن عمه حسان يوم بهرام كما تقدم. ثم كان على عهده وقعة ذي قار بكر بن وائل ومن معهم من عيس وقيم على الباهوت مسلحة

أبرويز فخلعوا هرمز وحجسوه وتحزروا من قتله وأقبل أبرويز بمن معه إلى المدائن فاستولى على الملك، ثم نظر في أمر بهرام وتحزروا منه وسار إليه وتوافقا بشط النهرين، ودعاه أبرويز إلى الدخول في أمره ويشترط ما أحب، فلم يقبل ذلك وناجزه الحرب فهزمه. ثم عاود الحرب مراراً وأحس أبرويز بالقتل من أصحابه فرجع إلى المدائن منهزماً، وعرض على النعمان أن يركبه فرسه فنجا عليها. وكان أبوه محبوساً بطبسون فأخبره الخبر وشاوره فأشار عليه بقصد مريق ملك الروم يستغيثه، فمضى لذلك ونزل المدائن لاثنتي عشرة سنة من ملكه.

وفي بعض طرق هذا الخبر أن أبرويز لما استوحش من أبيه هرمز لحق بأذربيجان واجتمع عليه مع من اجتمع ولم يحدث شيئاً. وبعث هرمز لمحاربة بهرام قائداً من مرازيته فانهزم وقتل ورجع فلهم إلى المدائن وبهرام في اتباعهم، واضطرب هرمز وكتبت إليه أخت المزيان المهزوم من بهرام تستحثه للملك فسار إلى المدائن وملك، وأثابه أبوه فتواضع له أبرويز وتبرأ له من فعل الناس وأنه إنما حمله على ذلك الخوف، وسأله أن يتقم به عن فعل به ذلك وأن يؤنسه بثلاثة من أهل النسب والحكمة يحاذيهم في كل يوم فأجابته، واستأذنه في قتل بهرام جوين فأشار به. وأقبل بهرام حيثاً وبعث خاليه نقدويه وبسطام يستدعيانه للطاعة فرد أسوأ رد وقاتل أبرويز واشتدت الحرب بينهما، ولما رأى أبرويز فشل أصحابه شاور أباه ولحق بملك الروم، وقال له خاله عند فصولهم من المدائن: نخشى أن يدخل بهرام المدائن وملك أباك وبعث فينا إلى ملك الروم. وانطلقوا إلى المدائن فقتلوا هرمز ثم ساروا مع أبرويز وقطعوا الفرات، واتبعتهم عساكر بهرام وقد وصلوا إلى تخوم الروم وقتلواهم وأسروا نقدويه خال أبرويز ورجعوا عنهم. ولحق أبرويز ومن معه بأنطاكية وبعث إلى قيصر موريق يستنجد به فأجابته وأكرمه وزوجه ابنته مريم، وبعث إليه أخاه بناطوس بستين ألف مقاتل وقائدهم، واشترط عليه الأثابة التي كان الروم يحملونها، فقبل وسار بالعساكر إلى أذربيجان ووافاه هنالك خاله نقدويه هارباً من الأسر الذي كانوا أسروه.

ثم بعث العساكر من أذربيجان مع أصبهيد الناحية، فانهزم بهرام جوين ولحق بالترك وسار أبرويز إلى المدائن فدخلها وفرق في الروم عشرين ألف دينار وأطلقهم إلى قيصر وأقام بهرام عند ملك الترك وصانع أبرويز عليه ملك الترك وزوجته حتى دست عليه من قتله، واغتم لذلك ملك الترك وطلقها من أجله، وبعث إلى أخت بهرام أن يتزوجها فامتنعت، ثم أخذ أبرويز في مهادة قيصر موريق والطائفة، وخلعه الروم وقتلوه وملكوا عليهم

سنتين لم يجدوا من بيت الملك سواء لأن أبرويز كان قتل المرشحين كلهم من بنه وبني أبيه، فملك عظماء فارس هذا الطفل أردشير وكفله بهادرخشش صاحب المائدة في الدولة، فأحسن سياسة ملكه وكان شهريان بتخوم الروم في جند ضمهم إليه أبرويز وحوهم هنالك وصاحب الشورى في دولتهم، ولما لم يشاوروه في ذلك غضب وبسط يده في القتل، وطمع في الملك وأطاعه من كان معه من العساكر. وأقبل إلى المدائن.

وتحصن بهادرخشش بمدينة طيسون دار الملك، ونقل إليها الأموال والذخائر وأبناء الملك، وحاصرها شهريان فامتنعت، ثم داخل بعض العسس ففتحوا له الباب فافتحمها وقتل العظماء واستصفى الأموال وفضح النساء وبعث أردشير الطفل الملك من قتله لسنة ونصف من ملكه، وملك شهريان على التخت ولم يكن من بيت الملك، وامتنع لقتل أردشير جماعة من عظماء الدولة وفيهم زاذان فروخ وشهريان ووهب مؤدب الأساورة، وأجمعوا على قتل شهريان.

وداخلوا في ذلك بعض حرس الملك فتعاقدوا على قتله، وكانوا يعملون قدام الملك في الأيام والمشاهد سماطين، ومر بهم شهريان بعض أيام بين السماطين وهم مسلحون فلما حاذاهم طعنوه وقتلوه وقتلوا العظماء بعد قتل أردشير الطفل ثم ملكوا بوران بنت أبرويز ودفعت أمر الدولة إلى قبائل شهريان من حرس الملك وهو فروخ بن ماخشيراز من أهل إصطخر، ورفعت رتبته، وأسقطت الخراج عن الناس، وأمرت برم القناطر والجسور وضرب الورق، وردت خشبة الصليب على الجاثليق ملك الروم، وهلكت لسنة وأربعة أشهر.

وملكوا بعدها خشنشده من عمومة أبرويز عشرين يوماً فملك أقل من شهر. ثم ملك أزميدخت بنت أبرويز وكانت من أجل نسائهم، وكان عظيم فارس يومئذ فروخ هرمز أصهبذ خراسان فأرسل إليها في التزويج، فقالت هو حرام على الملكة ودعته ليلة كذا، فجاء وقد عهدها إلى صاحب حرسها أن يقتله ففعل، فأصبح بدار الملك قتيلاً وأخفي أثره.

وكان لما سار إلى أزميدخت استخلف على خراسان ابنه رستم، فلما سمع بخبر أبيه أقبل في جند عظيم حتى نزل المدائن وملكها، وسمل أزميدخت وقتلها، وقيل سمها فماتت وذلك لسنة أشهر من ملكها، وملكوا بعدها رجلاً من نسل أردشير بن بابك وقتل لأيام قلائل، وقيل بل هو من ولد أبرويز اسمه فروخ زاذ بن خسرو وجدوه بمحس الحجارة قريب نصيبين، فجاءوا به إلى المدائن وملكوه ثم عصوا عليه وقتلوه.

كسرى بالحيرة ومن معه من طيء، وكان سببها أن النعمان بن المنذر أودع سلاحه عند هانيء بن مسعود الشيباني وكانت شكة ألف فارس، وطلبها كسرى منه، فأبى إلا أن يردها إلى بيته، فأذنه كسرى بالحرب وأذنه بها. وبعث كسرى إلى أبياس أن يزحف إليه بالمسالح التي كانت ببلاد العرب بأن يوافوا أبياساً، واقتتلوا بذي قار وانهزمت الفرس ومن معهم. وفيها قال النبي ﷺ: «اليوم انتصف العرب من العجم وبني نصر» أوحى إليه بذلك أو نفث في روعه، قيل إن ذلك كان بمكة وقيل بالمدينة بعد وقعة بدر بأشهر.

وفي أيام أبرويز كانت البعثة لعشرين من ملكه وقيل لاثنتين وثلاثين حكا الطبري، وبعث إليه رسول الله ﷺ بكتابه يدعوه إلى الإسلام، كما تقدم في أخبار اليمن وكما يأتي في أخبار الهجرة ولما طال ملك أبرويز بطر وأشعر وخسر الناس في أموالهم وولى عليهم الظلمة وضيق عليهم المعاش وبغض عليهم ملكه.

وقال هشام: جمع أبرويز من المال ما لم يجمعه أحد، وبلغت عساكره القسطنطينية وإفريقية، وكان يشتر بالمدائن ويصيف بهمدان، وكان له اثنا عشرة ألف امرأة، وألف فيل وخمسون ألف دابة. وبنى بيوت النيران وأقام فيها اثني عشر ألف هريد وأحصى جبايته لثمان عشرة سنة من ملكه فكان أربعمائة ألف ألف مكررة مرتين وعشرون ألف ألف مثلاً فحمل إلى بيت المال بمدينة طيسون، وكانت هنالك أموال أخرى من ضرب فيروز بن يزدجرد منها اثنا عشر ألف بدره في كل بدره من الورق مصارفة أربعة آلاف مثقال فتكون جلته ثمانية وأربعين ألف ألف مثقال مكررة مرتين في صنوف من الجواهر والطيب والأمتعة والآنية لا يحصيه إلا الله تعالى.

ثم بلغ من عتوه واستخفافه بالناس أنه أمر بقتل المقيدين في سجنوه وكانوا ستة وثلاثين ألفاً، فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا ابنه شيرويه واسمه قباد وكان محبوساً مع أولاده كلهم لإنذار بعض المنجمين له بأن بعض ولده يقتله فحبسهم، وأطلق أهل الدولة شيرويه وجعوا إليه المقيدين الذين أمر بقتلهم، ونهض إلى قصور الملك بمدينة نهبش فملكها وحبس أبرويز وبعث إلى ابنه شيرويه يعنه، فلم يرض ذلك أهل الدولة وحملوه على قتله.

وقتل لثمان وثلاثين سنة من ملكه، وجاءته أخته بوران وأزميدخت فأسعته وأغلظنا له فيما فعل فبكى ورمى التاج عن رأسه، وهلك لثمانية أشهر من مقتل أبيه في طاعون هلك فيه نصف الناس أو ثلثهم، وكان مهلكه لسبع من الهجرة فيما قال السهيلي ثم ولي ملك الفرس من بعده ابنه أردشير طفلاً ابن سبع

يافث باتفاق من الحقيقين، إلا ما ينقل عن الكندي في نسب يونا إلى عابر بن فالغ وأنه خرج من اليمن بأهله وولده مفاضباً لأخيه قحطان فنزل ما بين الأفرنجة والروم فاختلط نسبه بهم، وقد رد عليه أبو العباس الناشي في ذلك بقول:

تخلط يونا بقحطان صلة لعمرى لقد باعدت بينهما جداً

ولذلك يقال: إن الإسكندر من تبع، وليس شيء من ذلك

بصحيح، وإنما الصحيح نسبهم إلى يافث، ثم إن الحقيقين ينسبون

الروم جميعاً إلى يونا الأغريقيون منهم واللطينيون. ويونا

معدود في التوراة من ولد يافث لصلبه، واسمه فيها يافان بقاء

تقرب من الواو، فعربته العرب إلى يونا وأما هروشيوش فجعل

الغريقين خمس طوائف متبشرين إلى خمسة من أبناء يونا وهم:

كيتيم وحجيلة وترشوش وددان وإيشاي، وجعل من شعوب

إيشاي سجيئة وأئناش وشمالا وطشال ولجدمون. ونسب الروم

اللطنيين فيهم ولم يعين نسبهم في أحد من الخمسة، ونسب

الإفرنج إلى غطرماء بن عومر بن يافث، وقال: إن الصقالبة

إخوانهم في نسبه، وقال: إن الملك كان في هذه الطوائف لبني

أشكان بن غومر والملوك منهم هؤلاء الغريقيون قبل يونا

وغيرهم. ونسب القوط إلى مادي بن يافث وجعل من إخوانهم

الأرمن، ثم نسب القوط مرة أخرى إلى ماغوغ بن يافث وجعل

اللطنيين من إخوانهم في ذلك النسب. ونسب القائلين منهم إلى

رفنا بن غومار، ونسب إلى طوبال بن يافث الأندلس والإيطاليين

والأركاديين، ونسب إلى طبراش بن يافث أجناس الترك. واسم

الغريقين عنده يشمل أبناء يونا كلهم كما ذكره، وينوع الروم إلى

الغريقين واللطنيين وقال ابن سعيد فيما نقله من تواريخ المشرق

عن البيهقي وغيره: إن يونا هو ابن علجان بن يافث، قال:

ولذلك يقال لهم العلوج ويشركهم في هذا النسب سائر أهل

الشمال من غير الترك، وإن الشعوب الثلاثة من ولد يونا،

فالإغريقيون من ولد أغريقش بن يونا والروم من ولد رومي بن

يومان واللطينيون من ولد لطين بن يونا، وإن الإسكندر من

الروم منهم والله أعلم. ونحن الآن نذكر أخبار الدولتين الشهيرتين

منهم مبلغ علمنا والله الموفق للصواب سبحانه وتعالى.

وقيل لما قتل كسرى بن مهرخشش طلب عظماء فارس من يولونه الملك ولو من قبل النساء، فأثي برجل وجد بميسان اسمه فيروز بن مهرخشش ويسمى أيضاً خششدة أمه صهارجت بنت يرادقرار بن أنوشروان فملكوه كرهاً، ثم قتلوه بعد أيام قلائل. ثم شخص رجل من عظماء الموالي وهو رئيس الخول إلى ناحية الغرب، فاستخرج من حصن الحجارة قرب نصيبين ابناً لكسرى كان لجأ إلى طيسون فملكوه، ثم خلعه و قتلوه لسته أشهر من ملكه.

وقال بعضهم: كان أهل إصطخر قد ظفروا بيزدجرد بن شهريار بن أبريز فلما بلغهم أن أهل المدائن عصوا على خسرو فروخ زاذ أنشوا بيزدجرد من بيت النار الذي عندهم ويدعى أردشير، فملكوه بإصطخر وأقبلوا به إلى المدائن، وقتلوا فروخ زاذ خسرو لسته من ملكه. واستقل يزدجرد بالملك وكان أعظم وزرائه رئيس الموالي الذي جاء بفخرزاد خسرو من حصن الحجارة. وضعفت مملكة فارس، وتغلب الأعداء على الأطراف من كل جانب، فزحف إليهم العرب المسلمون بعد ستين من ملكه، وقيل بعد أربع، فكانت أخبار دولته كلها هي أخبار الفتح نذكرها هنالك إلى أن قتل بمرو بعد نيف وعشرين سنة من ملكه.

هذه هي سياقة الخبر عن دولة هؤلاء الأكاسرة الساسانية عند الطبري. ثم قال آخرها: فجميع سني العالم من آدم إلى الهجرة على ما يزعمه اليهود أربعة آلاف سنة وستمئة وأثنان وأربعون سنة، وعلى ما يدعيه النصارى في تورا اليونانيين ستة آلاف سنة غير ثمان سنين، وعلى ما يقوله الفرس إلى مقتل يزدجرد أربعة آلاف ومائة وثمانون سنة ومقتل يزدجرد عندهم ثلاثين من الهجرة، وأما عند أهل الإسلام فبين آدم ونوح عشرة قرون والقرن مائة سنة وبين نوح وإبراهيم كذلك وبين إبراهيم وموسى كذلك ونقله الطبري عن ابن عباس وعن محمد بن عمرو بن واقد الإسلامي عن جماعة من أهل العلم وقال: إن الفترة بين عيسى وبين محمد ﷺ ستمئة سنة ورواه عن سلمان الفارسي وكعب الأحبار والله أعلم بالحق في ذلك والبقاء لله الواحد القهار.

الخبر عن دولة يونا و الروم و أنسابهم

ومصايرهم

كان هؤلاء الأمم من أعظم أمم العالم وأوسعهم ملكاً وسلطاناً، وكانت لهم الدولتان العظيمتان للإسكندر والقيصرية من بعده الذين صبحهم الإسلام وهم ملوك بالشام، ونسبهم جميعاً إلى

الخبر عن دولة يونا و الإسكندر منهم وما

كان لهم من الملك والسلطان إلى انقراض

أمرهم

هؤلاء اليونانيون المنتشرون إلى الغريقين واللطنيين كما

واليه تنسب الأمة اليلاقية وهي الآن باقية على بحر سودان. واتصل الملك في عقب يلاق إلى أن ظهر إخوانهم الروم واستبدوا بالملك، وكان أولهم هردوس بن منطرون بن رومي بن يونان فملك الأمم الثلاثة وصار اسمه لقباً لكل من ملك بعده، وسمت به يهود الشام كل من قام بأمرها منهم.

ثم ملك بعده ابنه هرمس، فكانت له حروب مع الفرس إلى أن قهره وضربوا عليه الأتاوة، فاضطرب حيثشأ أمر اليونانيين وصاروا دولاً وممالك. وانفرد الإغريقون برئيس لهم، وصنع مثل ذلك اللطيين، إلا أن اللقب بملك الملوك كان لملك الروم، ثم ملك بعده ابنه مطريوش فحمل الأتاوة لملك الفرس لاستغاله بحرب اللطيين والإغريقين. وملك بعده ابنه فيلقوش وكانت أمه من ولد أفريدون الذي ملكه أبوه على اليونان، فظهر وهدم مدينة أغريقية وبنى مدينة مقدونية في وسط الممالك بالجانب الغربي من الخليج. وكان عباً للحكمة فلذلك كثر الحكماء في دولته.

ثم ملك من بعده ابنه الإسكندر وكان معلمه من الحكماء أرسطو وقال هروشيوش: إن أباه فيلقوش إنما ملك بعد الإسكندر بن تراوش أحد ملوكهم العظماء، وكان فيلقوش صهراً له على أخته لبنادة بنت تراوش، وكان له منها الإسكندر الأعظم. قال: وكان ملك الإسكندر بن تراوش لعهده أربعة آلاف وثمانمائة من عهد الخليفة ولعهده أربعمائة أو نحوها من بناء رومة، وهلك وهو محاصر لرومة قتله اللطيين عليها لسبع سنين من دولته.

فولي أمر الغريقين والروم من بعده صهره على أخته لبنادة فيلقوش ابن آمنة بن هركلش، واختلفوا عليه فافترق أمرهم وحاربهم إلى أن اتقادوا وغلبهم على سائر أوطانهم. وأراد بناء القسطنطينية فمنعه الجرمانيون بما كانت لهم، فقاتلهم حتى استلحمهم، واجتمع إليه سائر الروم والغريقين من بني يونان، وملك ما بين المانية وجبال أرمينية. وكان الفرس لذلك العهد قد استولوا على الشام ومصر فاعتزم فيلقوش على غزو الشام، فاغتاله في طريقه بعض اللطيين وقتله بشار كان له عنده.

وولي من بعده ابنه الإسكندر فاستمر على مطالبة بلاد الشام، وبعث إليه ملوك فارس في الخراج على الرسم الذي كان لعهده أبيه فيلقوش، فبعث إليه الإسكندر إنسي قد ذبحت تلك الدجاجة التي كانت تبيض الذهب وأكلتها. ثم زحف إلى بلاد الشام واستولى عليها وفتح بيت المقدس وقرب فيه القربان وذلك لعهده مائتين وخمسين من فتح مجتصر إياها، وامتعض أهل فارس لانتزاعه إياها من ملكهم، فزحف إليه دارا في ستين ألفاً من الفرس وقتله الإسكندر في ستمائة ألف من قومه فغلبهم وفتح

قلناه اختصوا بسكنى الناحية الشمالية من المعمور مع إخوانهم من سائر بني يافت كلهم كالصقالبة والترك والإفرنجية من وراثهم وغيرهم من شعوب يافت، ولهم منها الوسط ما بين جزيرة الأندلس إلى بلاد الترك بالمشرق طولاً وما بين البحر المحيط والبحر الرومي عرضاً، فمواطن اللطيين منهم في الجانب الغربي ومواطن الغريقين منهم في الجانب الشرقي والبحر بينهما خليج القسطنطينية. وكان لكل واحد من شعبي الغريقين واللطيين منهم دولة عظيمة مشهورة في العالم واختص الغريقيون باسم اليونانيين، وكان منهم الإسكندر المشهور الذكر أحد ملوك العالم، وكانت ديارهم كما قلناه بالناحية الشرقية من خليج القسطنطينية بين بلاد الترك ودروب الشام.

ثم استولى على ما وراء ذلك من بلاد الترك والعراق والهند، ثم جال أرمينية وما وراءها من بلاد الشام وبلاد مقدونية ومصر والإسكندرية، وكان ملوكهم يعرفون بملوك مقدونية وذكر هروشيوش مؤرخ الروم من شعوب هؤلاء الغريقين نحو جندمون وبنو أثناش، قال: وإليهم ينسب الحكماء الأثناشيون وهم ينسبون لمدينتهم أجدة أثناش، قال: ومن شعوبهم أيضاً بنو طمان وجندمون كلهم بنو شمالا بن إيشاي، وقال في موضع آخر: لجندمون أخو شمالا وكانت شعوب هذه الأمة قبل الفرس والقبط وبني إسرائيل متفرقة بافتراق شعوبها، وكان بينهم وبين إخوانهم اللطيين فتن وحروب، ولما استفتح ملك فارس لعهده الكينية أرادهم على الطاعة لهم، فامتتوا وغزتهم فارس، فاستصرخوا عليهم بالقبط فسالوهم إلى محاربة الغريقين حتى أذلهم وأخذوا الجزى منهم وولوا عليهم. ويقال: أن أفريدون ولي عليهم ابنه، وأن جده الإسكندر لأبيه من أعقابهم. ويقال: إن مجتصر لما ملك مصر والمغرب أنفوه بالطاعة وكانوا يحملون خراجهم إلى ملك فارس عدداً من كرات الذهب أمثال البيض ضريبة معلومة عليهم في كل سنة، ولما فرغوا من شأن أهل فارس وأنفوا ملكهم بالجزى والطاعة صرفوا وجوههم إلى حرب اللطيين، ثم استفتح أمر الإيشانيين من الغريقين ولم يكن قوامهم إلا الجرمنيون، فغلبوهم وغلبوا بعدهم اللطيين والفرناسيين والأركاديين، واجتمع إليهم سائر شعوب الغريقين واعتز سلطنتهم وصار لهم الملك والدولة.

وقال ابن سعيد: إن الملك استقر بعد يونان في ابنه أغريقش في الجانب الشرقي من خليج قسطنطينية، وتوالى الملك في ولده وقهره اللطيين والروم ودال ملكهم في أرمينية، وكان من أعظمهم هرقل الجبار بن ملكان بن سلقوس بن أغريقش، يقال: إنه ضرب الأتاوة على الأقاليم السبعة. وملك بعده ابنه يلاق

بطليموس قال المسعودي: ثم صارت هذه التسمية لكل من يملك منهم ومدينتهم مقدونية وينزلون الإسكندرية، وملك منهم أربعة عشر ملكاً في ثلثمائة سنة.

وقال ابن العميد: كان قسم الملك في حياته بين أربعة من أمرائه: بطليموس فلدلفوس كان على الإسكندرية ومصر والمغرب، وفيلفوس بمقدونية وما إليها من ممالك الروم وهو الذي سمى الإسكندر، ودمطرس بالشام، وسلفوس بفارس والمشرق. فلما مات استبد كل واحد بناحية وكتب أرسطو شرح كتاب هرمس وترجمه من اللسان المصري إلى اليوناني، وشرح ما فيه من العلوم والحكمة والطلسمات. وكتاب الأسطوماخيس يحتوي على عبادة الأول، وذكر فيه أن أهل الأقاليم السبعة كانوا يعبدون الكواكب السيارة. كل إقليم لكونك، ويسجدون له ويبخرون ويقربون ويذبحون، وروحانية ذلك الكوكب تدبرهم بزمعهم. وكتاب الأستوماخس يحتوي على فتح المدن والحصون بالطلسمات والحكم، ومنها طلسمات لانزال المطر وجلب المياه. وكتب الأسطرطاش في الاختبارات على سرى القمر في المنازل والاتصالات، وكتب أخرى في منافع وخواص الأعضاء الحيوانيات والأحجار والأشجار والحشائش.

وقال هروشيوش: إن الذي ملك بعد الإسكندر صاحب عسكره بطليموس بن لاوي، فقام بأمرهم ونزل الإسكندرية واتخذها داراً للملكهم. ونهض كلمنس بن الإسكندر وأمه بنت دارا وليبادة أم الإسكندر وساروا إلى صاحب أنطاكية واسمه فمشاندر فقتلهم. واختلف الغريقيون على بطليموس وافترق أمره وحارب كل واحد منهم ناحيته، إلى أن غلبهم جميعاً واستقام أمره، ثم زحف إلى فلسطين وتغلب على اليهود وأثنى فيهم بالقتل والسي والأسر. ونقل رؤسائهم إلى مصر.

ثم هلك لأربعين سنة من ملكه وولي بعده ابنه فلديغيش، وأطلق أسرى اليهود من مصر، ورد الأواني إلى البيت وحباهم بأتية من الذهب وأمرهم بتعليقها في مسجد القدس، وجمع سبعين من أجار اليهود ترجموا له التوراة من اللسان العبراني إلى اللسان الرومي واللطيني. ثم هلك فلديغيش لثمان وثلاثين سنة من ملكه وولي بعده ابنه أنطريس ويلقب أيضاً بطليموس لقبهم المخصوص بهم إلى آخر دولتهم، فانهقدت السلم بينه وبين أهل إفريقية على مدعيون ملك قرطاجنة، ووفد عليه وعقد معه الصلح عن قومه، وزحف قواد رومة إلى الغريقيين ونالوا منهم.

ثم هلك أنطريس لست وعشرين سنة من ملكه، وولي بعده أخوه فلوباذي فزحف إليه قواد رومة فهزمهم وجال في ممالكهم.

كثيراً من مدن الشام ورجع إلى طرسوس، فزحف إليه دارا ولقيه عليها فهزمه الإسكندر وافتتح طرسوس. ومضى وبني الإسكندرية ثم تزاحف مع دارا وهزمه وقتله وتخطى إلى فارس فملك بلادها وهدم مدينة الملك بها وسبى أهلها، وأشار عليه معلمه أرسطو بأن يجعل الملك في أسافلهم لتفرق كلمتهم ويخلص إليه أمرهم، فكتب الإسكندر ملوك كل ناحية من الفرس والنبط والعرب وملك على كل ناحية وتوجه فصاروا طوائف في ملكهم، واستبد كل واحد منهم بجهة كان ملكها لعقبه.

ومعلمه أرسطو هذا من اليونانيين وكان مسكنه أثينا وكان كبير حكماء الخليفة غير منازع، أخذ الحكمة عن أفلاطون اليوناني، كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس فسمي تلاميذه بالمشائين. وأخذ أفلاطون عن سقراط ويعرف بسقراط الدن بسكناء في دن من الخرف اتخذ له رهبانيته، وقتله قومه أهل يونان مسموماً لما نهاهم عن عبادة الأوثان، وكان هو أخذ الحكمة عن فيثاغورس منهم، ويقال: إن فيثاغورس أخذ عن تاليس حكيم ملطية، وأخذ تاليس عن لقمان. ومن حكماء اليونانيين ديمقراطيس، وأنكسيثاغورس كان مع حكمته مبرزاً في علم الطب وبعث فيه بهمن ملك الفرس إلى يونان فامتنع من إيفاده عليه ضئانة به.

وكان من تلامذته جالينوس لعهد عيسى عليه السلام ومات بصقلية ودفن بها.

ولما استولى الإسكندر على بلاد فارس تخطاها إلى بلاد السند فملكها وبني بها مدينة سماها الإسكندرية، ثم زحف إلى بلاد الهند فغلب على أكثرها وحاربه فور ملك الهند فانهزم وأخذه الإسكندر أسيراً بعد حروب طويلة، وغلب على جميع طوائف الهند وملك بلاد الصين والسند وذلّت إليه الملوك وحملت إليه الهدايا والخراج من كل ناحية، وراسله ملوك الأرض من إفريقية والمغرب والإفرنجية والصقالبة والسودان.

ثم ملك بلاد خراسان والترك، واختط مدينة الإسكندرية عند مصب النيل في البحر الرومي، واستولى على الملوك يقال: على خمسة وثلاثين ملكاً. وعاد إلى بابل فمات بها، يقال مسموماً سمه عامله على مقدونية لأن أمه شكته إلى الإسكندر فترعده فأهدى له سما وتناولوه فمات لاثنتين وأربعين سنة من عمره، بعد أن ملك اثنتي عشرة سنة: سبعاً منها قبل مقتل دارا وخمساً بعده.

قال الطبري: ولما مات عرض الملك على ابنه إسكندروس فاختر الرهبانية، فملك يونان عليهم لوغوس من بيت الملك ولقبه

وذكر البيهقي: إن كلابطره زحفت إلى أرض اللطيين وقهرتهم، وأرادت العبور إلى الأندلس فحال دونها الجبل الحاجز بين الأندلس والإفرنج فاستعملت في فتحه الحيل والنار حتى نفذت الأندلس، وإن مهلكها كان على يد أوغسطس يوليوس ثاني القيصرية. وكذا ذكر المسعودي وأنها ملكت إثنتين وعشرين سنة، وكان زوجها أنطونيوس مشاركاً لها في ملك مقدونية ومصر، وأن قيصر وأوغسطس زحف إليهم فهلك زوجها أنطونيوس في حروبه، ثم أراد التحكم في كلابطره ليستولي على حكمها إذ كانت بقية الحكماء من آل يونان، فخطبها وتحملت في إهلاكه وإهلاك نفسها بعد أن اتخذت بعض الحيات القاتلة التي بين الشام والحجاز وأطلقتها بمجلسها بين رياحين نصبها هنالك، ولمست الحيات فهلكت لحينها وأقامت بمكانها كأنها جالسة، ودخل أوغسطس لا يشعر بذلك حتى تناول من تلك الرياحين ليشمها فأصابته الحية وهلك لحينه وتمت حيلتها عليه.

وانقرض ملك اليونانيين بهلاكها، وذهبت علومهم إلا ما بقي بأيدي حكمائهم في كتب خزائهم حتى بحث عنها المأمون وأمر باستخراجها فترجم له من هروشيوش وأما ابن العميد فقد ملوك مصر والإسكندرية بعد الإسكندر أربعة عشر آخرهم كلابطره كلهم يسمون بطليموس كما قال المسعودي. ولم يذكر ملوك المشرق منهم بعد الإسكندر ولا ملوك الشام ولا ملوك مقدونية الذين قسم الملك فيهم كما ذكرناه إلا بذكر ملك إنطاكية من اليونانيين ويسميه أنطيوخس كما ذكرناه الآن.

وذكر في أسماء ملوك مصر هؤلاء وفي عددهم خلافاً كثيراً إلا أنه سمي كل واحد منهم بطليموس، فقال في بطليموس الأول: إنه أخو الإسكندر أو مولاة اسمه فلاذافاسد أو أرنداس أو لوغس أو فيليس ملك سبأ وقيل: أربعين، قال: وفي عصره بنى سلقوس وأظنه ملك المشرق منهم قماعة وحلب وقنشرين وسلوقية واللاذقية، قال: ومنها كان الكوهن الأعظم بالقدس سمعان بن خونيا وبعده أخوه العازر، قال: وفي التاسعة من ملك لوغس جاء أنطيوخس المعظم إلى بلاد اليهود واستعبدهم.

وفي الحادية عشر حارب الروم فغلبوه وأسروه وأخذوا منه ابنه أفتاقس رهينة، وفي الثالثة عشر تزوج أنطيوخس كلابطره بنت لوغس زوجها له أبوها وأخذ سورية بلاد المقدس في مهرها، وفي التاسعة عشر وثب أهل فارس والمشرق على ملكهم فخلعوه ولولوا ابنه ثم هلك لوغس.

قال ابن العميد: بعد مائة وإحدى وثلاثين سنة لليونان ملك بطليموس بن الإسكندروس ويلقب غالب أثور، وملك

ثم كانت حروبه معهم بعدها سجالاً. وزحف إلى اليهود فملك الشام عليهم وولى الولاة من قبله فيهم وأثنى بالقتل والسبي فيهم، يقال: إنه قتل منهم نحواً من ستين ألفاً، وهلك سبع عشرة سنة من ملكه. وولي بعده ابنه إيفانش وعلى عهده كانت فتنة أهل رومة وأهل إفريقية التي اتصلت نحواً من عشرين سنة، وافتتح أهل رومة صقلية وأجاز قوادهم إلى إفريقية وافتتحوا قرطاجنة، كما نذكر في أخبارهم، وهلك إيفانش لأربع وعشرين سنة من دولته.

وولي بعده بالإسكندرية ابنه فلوماطر فزحف الغريقيون إلى رومة، وكان فيهم صاحب مقدونية وأهل أرمينية والعراق وظاهرهم ملك النوبة واجتمعوا لذلك، فغلبهم الرومانيون وأسروا صاحب مقدونية، وهلك فلوماطر لخمس وثلاثين سنة من ملكه. وولي بعده ابنه إيرياطس وعلى عهده استفحل ملك أهل رومة واستولوا على الأندلس وجازوا البحر إلى قرطاجنة بإفريقية فملكوها وقتلوا ملكها أشدريال وخربوا مدينتها بعد أن عمرت تسعمائة سنة من بنائها كما نذكر في أخبارها. وزحف أيضاً أهل رومة إلى الغريقين فغلبوهم وملكوا عليهم مدينتهم قرنطة من أعظم مدنها، يقال: إنها كانت ثمانية قرطاجنة. ثم هلك إيرياطس سبع وعشرين سنة من ملكه وولي بعده ابنه شوطار سبع عشرة سنة وعلى عهده استفحل ملك أهل رومة ومهدوا الأندلس، وملك بعده أخوه الإسكندر عشر سنين، ثم ابنه ديونشيس مائة وثلاثين سنة وعلى عهده استولى الرومانيون على بيت المقدس ووضعوا الجزية على اليهود، وزحف قيصر يوليوس من قوادهم إلى الإفرنجية وليماش أيضاً من قوادهم إلى الفرس فغلبوهم جميعاً وما حولهم إلى أنطاكية واستولوا على ما كان لهم من ذلك. وخرج الترك من بلادهم فأغاروا على مقدونية فردهم هامس قائد الرومانيين بالمشرق على أعقابهم.

وهلك ديونشيس فوليت بعده ابنته كلابطرة ستين فيما قال هروشيوش لخمس آلاف وثيف من مبدأ الخليفة ولسبعمائة سنة من بناء رومة، وعلى عهدها استبد قيصر يوليوس بملك رومة وغلب عليها القواد أجمع وعا دولتهم منها وذلك بعد مرجعه من حرب الإفرنج، ثم سار إلى المشرق فملك إلى أرمينية ونازعه مبابش هنالك فهزمه قيصر، وفر مبابش إلى مصر مستنجداً بملكها وهي يومئذ كلابطره، فبعث برأسه إلى قيصر خوفاً منه، فلم ينهها ذلك وزحف قيصر إليها فملك مصر والإسكندرية من كلابطره هذه وانقرض ملك اليونانيين، وولي قيصر على مصر والإسكندرية وبيت المقدس من قبله وذلك لسبعمائة أو نحوها من بناء رومة ولخمس آلاف من مبدأ الخليفة.

اليهود الخراج الذي كانوا يعطونه للملك سورية من أيام فيلبوس ملك المشرق. وملك بعده بطليموس أرغادي أي الفاضل وقيل بطليموس الصايغ وقيل: سانيطر ملك عشرين وقيل: ثلاثاً وعشرين وقيل: ثلاثة عشر.

ولعهده جدد أنطيوخوس بناء أنطاكية وسماها باسمه، ولعهده كان ملك هرقانوس على القدس وبنه الثلاثة وخرب مدينة السامرة بسبسية، ولعهده أيضاً زحف أنطيوخوس إلى القدس وحاصرها، فسانعه هرقانوس بثلاثمائة كره من الذهب استخرجها من قبر داود عليه السلام ثم ملك على مصر والإسكندرية بطليموس المخلص وقيل: مقروطون وقيل: شعري ملك ثماني عشرة وقيل: عشرين وقيل: سبعاً وعشرين، ولعهده كان الأسكندروس تلميذ بن هرقانوس صايغ بني حشمتاي بالقدس، وكانت فرق اليهود عندهم ثلاثة: الرانيون ثم القراؤون وهم في الأنجيل زنادقة وهم في الإنجيل الكتبة. ثم على مصر بطليموس محب أمة وقيل: الإسكندروس وقيل: قيقثس وقيل: الإسكندر وقيل: ابن المخلص ملك عشر سنين لا غير، ولعهده كانت الإسكندرية ملكة على بيت المقدس، ولعهده بطلت مملكة سورية لماتين وسبع عشرة سنة من ملك يونا.

وقتل بطليموس هذا قتله أهل إهراقية وأحرقوه. ثم ملك على مصر بطليموس فيناس وقيل: إيزيس وقيل: المنفي، لأن كلابرة الملكو نفته عن الملك وملك ثمان سنين وقيل: ثلاثاً وعشرين يوماً وقيل: ثمانية عشر يوماً، وبعضهم أسقطه من البطالسة ولم يذكره. ثم ملك على مصر بطليموس يونا شيش إحدى وعشرين سنة وقيل: إحدى وثلاثين وقيل ثلاثين، ولعهده كان أرسطوبولس وأخوه هرقانوس على القدس.

ثم ملك على مصر كلابرة بنت ديوناشيش ومعنى هذا الاسم الساكنة على الصخرة ملكت ثلاثين وقيل: اثنتين وعشرين وكانت حاذقة، وفي الثالثة من ملكها حفرت خليج الإسكندرية وجرى فيه الماء وبنت بإسكندرية هيكل زحل والعاروص وبنت مقياساً بأحيم وآخر بمدينة أنصناء، وفي الرابعة من ملكها ملك برومة أغانيوس أول القياصرة ملك أربعاً ثم يوليوس بعده ثلاثاً، ثم أغسطس بن مونوجس فاستولى على الممالك والنواحي وبلغ خبره إليها فحصنت بلادها وبنت حائطاً من القرماء إلى النوبة شرقي النيل وحائطاً آخر من اسكندرية إلى النوبة غربي النيل وهو حائط العجوز لهذا العهد.

وبعث أغسطس العساكر إلى مصر مع قائده أنطريوس ومعه متردات ملك الأرمن، فخادعت كلابرة أنطريوس وأوعده

مصر والإسكندرية والبلاد الغربية إحدى وعشرين سنة وقيل: ثمانين سنة أيضاً فيلادلفوس أي محب أخيه، وهو الذي استدعى أحبار اليهود وعلماءهم الاثني وسبعين يترجموا له التوراة وكتب الأنبياء من العبرانية إلى اليونانية وقابلوها بنسخهم فصحت، وكان من هؤلاء الأحبار سمعان المذكور أولاً وعاش إلى أن حمل على ذراعيه في الهيكل ومات ابن ثلثمائة وخمسين.

وكان منهم العازر الذي قتله أنطيوخس على امتناعه عن السجود لصنمه وقتله ابن سبعين سنة. ويظهر من هذا أن بطليموس هو تلميذ وإنه من ملوك مقدونية وملك مصر لأن ابن كليون قال: وفي ذلك الزمان كان تلميذ من أهل مقدونية ملك مصر وكان يحب العلوم، فاستدعى من اليهود سبعين من أحبارهم وترجموا له التوراة وكتب الأنبياء، وكان في عصره صادق الكوهن انتهى. وملك خمساً وأربعين سنة وملك بعده بطليموس الأرنبا وقيل: اسمه رغادي وقيل: راكب الأنبر ملك أربعاً وعشرين، وقيل: سبعاً وعشرين، وهو الذي بنى ملعب الخيل بإسكندرية الذي أحرق في عصر زينون قيصر. وملك بعده بطليموس محب أخيه ويقال: أوغسطس ويقال فيلادلفس ملك ست عشرة سنة، وكان في عصره أخيم الكوهن، وملك بعده بطليموس الصانع، ويقال: أخيه ملك خمس سنين وقيل: خمساً وعشرين، وعلى عهده كان اليهود الكوهن وكان ضالاً غشوماً وقتله بعض خدماً ختقاً.

وملك بعده بطليموس محب أبيه، وقيل: اسمه فيلوباطر ملك سبع عشرة سنة وأخذ الجزية من اليهود. وملك بعده بطليموس المظفر وقيل: الغالب وقيل: محب أمه ملك عشرين وقيل: أربعاً وعشرين، وفي التاسع عشرة من ملكه خرج متيتيا بن يوحنا بن شمعون الكوهن الأعظم ويعرف بحشمتاي من بني يوناداب من نسل هارون، بعث أنطيوخوس ملك أنطاكية ابنه ألبايش بالعساكر إلى القدس فاعمل الحيلة في ملكها وقتل العازر الكوهن وحمل بني إسرائيل على السجود لألمته، فهرب متيتيا في جماعة من اليهود إلى الجبال، حتى إذا خرجت عساكر يونا رجعت إلى القدس ومر بالمذبح فوجد يهودياً يذبح خنزيراً عليه، وثار باليونانيين فقتل قائدهم وأخرجهم واستبد بملك القدس كم ذكرناه في أخباره.

ثم ملك بطليموس فيلوباطر أي محب أبيه خمساً وعشرين سنة وقيل: عشرين، وكان في أيامه بالقدس يهوداً ابن متيتيا وبعده أخوه يوناداب وبعده أخوه شمعون وبعده أخوه هرقانوس واسمه يوحنا وهو أول من تسمى بالملك من بن حشمتاي، وبعث ابنه يوحنا بالعساكر لقتال قيرونوس قائد أنطيوخوس فغلبه، وارتفع عن

أناس وهو الذي بنى مدينة ألبا. ثم اتصل الملك فيهم إلى أن افرق أمرهم.

ثم كان من أعقابهم برقاش أيام انقراض ملك الكلدانيين، وصار للمازنيين والقضاعيين على عهد عزيا بن أمصيا من ملوك بني إسرائيل ولعهد أربعة آلاف ومائة وعشرين سنة من مبدأ الخليفة، فصار الأمر في اللطينيين لبرقاش هذا بتولية ملك المازنيين ما كان لهم وللسريانيين قبلهم من الصيت في العالم والتفوق على الملوك بنسبهم وعصيتهم. ثم اتصل الملك لابنائه والحافديه روملوس وداموس وهما اللذان اختطا مدينة رومة وذلك لعهده أربعة آلاف وخمسمائة سنة من مبدأ الخليفة وعلى عهد حزقيا بن آحاز ملك بني إسرائيل، ولأربعمائة ونيف من خراب مدينة طروية. وكان طول مدينة رومة من الشمال إلى الجنوب عشرين ميلاً في عرض إثني عشر ميلاً، وارتفع سورها ثمانية وأربعين ذراعاً في عرض عشرة أذرع، وكانت من أحفل مدن العالم، ولم تزل دار مملكة اللطينيين والقيصرية منهم حتى أصبحهم الإسلام وهي في ملكهم.

وكان اللطينيون بعد روملوس وداموس وانقراض عقبهم قد ستموا ولاية الملوك عليهم فعزلوهم وصار أمرهم شورى بين الوزراء وكانوا يسمونهم القنشلش ومعناه الوزراء بلغتهم، وكان عددهم سبعين على ما ذكر هروشيوش. ولم يزل أمرهم على ذلك مدة سبعمائة سنة إلى أن استبد عليهم قيصر يوليوس بن غايش أول ملوك القياصرة كما نذكر بعد وكانت لهم حروب مع الأمم المجاورة لهم من كل جهة فحاربوا اليونانيين ثم حاربوا الفرس من بعدهم، واستولوا على الشام ومصر ثم ملكوا جزيرة الأندلس ثم جزيرة صقلية ثم أجازوا إلى إفريقية فملكوها وخربوا قرطاجنة، وأجاز أهل إفريقية إليهم وحاصروا رومة واتصلت الفتن بينهم عشرين سنة أو نحوها على ما نذكر. وذهب جماعة من الإخباريين إلى أن الروم من ولد عيصو بن إسحاق عليه السلام.

قال ابن كريون: كان لليفاز بن عيصو ولد اسمه صفوا ولما خرج يوسف من مصر ليدفن أباه يعقوب في مدينة الخليل عليه السلام اعترضه بنو عيصو وقتلوه، فهزمهم وأسر منهم صفوا بن اليفاز وبعته إلى إفريقية، فصار عند ملكها، واشتهر بالشجاعة. وحدثت الفتنة بين أغنياس وبين الكيتم وراء البحر فأجاز إليهم أغنياس في أهل إفريقية وأثنى فيهم، وظهرت شجاعة صفوا بن اليفاز، ثم هرب صفوا إلى الكيتم وعظم بينهم وحسن أثره في أهل إفريقية وفي الأمم المجاورة لكيتم من أموال وغيرها فزوجوه وملكوه عليهم، قال: وهو أول من ملك في بلاد أسبانيا، وأقام

بتزويجها فقتل رفيقه متردات وتزوجها وعصى أوغسطس، فسار أوغسطس إليها وملك مصر وقتل كلاطرة وولديها وقتلته بطريوس الذي تزوجها. ويقال: إنها وضعت له سماً في مجلسها وإن أوغسطس تناوله ومات، والله أعلم. وانقرضت مملكة يونان من مصر والإسكندرية والمغرب بملكها وصارت هذه الممالك للروم إلى حين الفتح الإسلامي، وانتهى كلام ابن العميد والخلاف الذي يقله عن جماعة مؤرخيهم بذكر منهم سعيد بن بطريق ويوحنا فم الذهب والمنجي وابن الراهب وإيفانيوس. والظاهر أنهم من مؤرخي النصارى والبقاء لله الواحد القهار سبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن اللطينيين وهم الكيتم المعروفون بالروم من أمم يونان وأشياهم وشعوبهم وما كان لهم من الملك والغلب وذكر الدولة التي فيهم للقيصرية وأولية ذلك ومصابره

هذه الأمة من أشهر أمم العالم وهي ثمانية الغريقيين عند هروشيوش ويجمعان في نسب يونان، وثالثتهم عند البيهقي ويجمعون في نسب يونان بن علجان بن يافث، واسم الروم يشملهم ثلاثتهم لما كان الروم أهل المملكة العظمى منهم، ومواطن هؤلاء اللطينيين بالناحية الغربية من خليج القسطنطينية إلى بلاد الأفرنجة فيما بين البحر المحيط والبحر الرومي من شماليه. وملك هذه الأمة قديماً كانت لهم مدينة اسمها طروية، وذكر هروشيوش أن أول من ملك من اللطينيين الفنس بن شطرنش بن أيوب وذلك لعهده دائرة بني إسرائيل وقد مر ذكرها وفي آخر الألف الرابع من مبدأ الخليفة. وملك من بعده ابنه بريامش واتصل الملك في عقب الفنس هذا وإخواته وكان منهم كرمش بن مرسية بن شين بن مزكة الذي ألف حروف اللسان اللطيني وأثبتها ولم تكن قبله، وذلك على عهد يواثير بن كلعاد من حكام بني إسرائيل بعد أربعة آلاف وخمسين من مبدأ الخليفة.

وكان بين هؤلاء اللطينيين وبين الغريقيين وإخوانهم فتن طويلة، وعلى يدهم خربت طروية مدينة اللطينيين لعهده أربعة آلاف ومائة وعشرين من مبدأ الخليفة أيام عبدون ملك بني إسرائيل وقد مر ذكره، وكان ملكهم يومئذ أناس من عقب بريامش بن الفنس بن شطرنش، وولي بعده ابنه أشكائش بن

ملكاً خساً وخسين سنة.

وافتحوا مدينة جردا. وخرج آخرون من قواد رومة إلى الأندلس فهزموا أشدريال واتبعوه إلى أن قتلوه. وفر أخوه أنبيل عن بلادهم بعد ثلاث عشرة سنة من إجازته إليهم، وبعد أن حاصر رومة وأنخن في نواحيها فلحق بإفريقية ولقيه قواد أهل رومة الذين أجازوا إلى إفريقية فهزموه وحاصروه بقرطاجنة، حتى سأل الصلح على أن يغرم لهم ثلاثة آلاف قنطار من الفضة فأجابوا إليه.

وسكنت الحرب بينهم ثم ظاهر بعد ذلك أنبيل صاحب إفريقية ملوك السريانيين على حرب أهل رومة فهلك في حربهم مسموماً. وبعد أن تخلص أهل رومة من تلك الحروب رجعوا إلى الأندلس فملكوها، ثم أجازوا البحر إلى قرطاجنة ففتحوها وقتلوا ملكها يومئذ أنبيل وخربوها لتسعمائة سنة من بنائها وسبعمائة لبناء رومة.

ثم دارت الحرب بين أهل رومة وملك النوبة، واستظهر ملك النوبة بالبربر بعد أن هزمه أهل رومة واتبعوه إلى قصبة فملكوها واستولوا على ذخيرتها، وهي من بناء أركلش الجبار ملك الروم، وهزمهم أهل رومة فخانهم ملك البربر من ملوك النوبة إلى أن هلك في أسرهم. وكانت هذه الحروب لعهد بطليموس الإسكندر بعد أن كان قواد رومة اجتمعوا على بناء قرطاجنة وتجديدها لاثنتين وعشرين سنة من خرابها فعمرت واتصل بها لأهل رومة ملك على ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ملوك القياصرة من الكيتم وهم اللطينيون ومبدأ أمورهم ومضاير أحوالهم

لم يزل أمر هؤلاء الكيتم وهم اللطينيون راجعاً إلى الوزراء منذ سبعمائة سنة، كما قلناه من عهد بناء رومة أو قبلها بقليل كما قال هروشيوش، تفرع الوزراء في كل سنة فيخرج قائد منهم إلى كل ناحية كما توجه القرعة فيحاربون أمم الطوائف ويفتحون الممالك. وكانوا أولاً يعطون إخوانهم من الروم اليونانيين طاعة معروفة بعد الفتن والحاربة حتى إذا هلك الإسكندر وافترق أمر اليونانيين والروم وفشلت ريجهم وقعت فتنة هؤلاء اللطينيين وهم الكيتم مع أهل إفريقية، واستولوا عليها مرارا وخربوا قرطاجنة ثم بنوها كما ذكرناه. وملكوا الأندلس وملكوا الشام وأرض الحجاز وقهروا العرب بالحجاز وافتحوا بيت المقدس وأسروا ملكها يومئذ من اليهود وهو أرسطولوس ابن الإسكندر ثامن ملوك بني حشمناي وغربوه إلى رومة وولوا قائدهم على الشام.

ثم عد ابن كريون بعد ستة عشر ملكاً من أعقابهم آخرهم روملس باتي رومة، وكان لعهد داود عليه السلام، وخاف منه فوضع مدينة رومة وبنى على جميعها هياكله ونسبت المدينة إليه وسميت باسمه وسمى أهلها الروم نسبة إليها.

ثم عد بعد روملس خمسة من الملوك اغتصب خامسهم رجلاً في زوجه فقتلت نفسها، وقتله زوجها في الهيكل. وأجمع أهل رومة أن لا يولوا عليهم ملكاً وقدموا شيوخا ثلثمائة وعشرين يدبرون ملكهم، فاستقام أمرهم كما يجب، إلى أن تغلب قيصر وسمى نفسه ملكاً، فصاروا من بعده يسمون ملوكاً انتهى كلام ابن كريون. وهو مناقض لما قاله هروشيوش، فإنه زعم أن بناء رومة كان لعهد داود عليه السلام وهروشيوش قال: إنه كان لعهد حزقياً رابع عشر ملوك بني يهوذا من لدن داود عليه السلام، وبين المدتين تفاوت، وخبر هروشيوش مقدم لأن واضعيه مسلمان كانوا يترجمان خلفاء الإسلام بقرطبة وهما معروفان ووضعوا الكتاب. فالله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك.

الخبر عن فتنة الكيتم مع أهل إفريقية وتخريب قرطاجنة ثم بناؤها على الكيتم وهم اللطينيون

كان بناء قرطاجنة هذه قبل بناء رومة بإثنتين وسبعين سنة قال هروشيوش على ידי ديدن بن أليشا من نسل عيصو بن إسحاق. وكان بها أمير يسمى ملكون وهو الذي بعث إلى الإسكندرية بطاعته عند استيلائه على طرسوس، ثم صار ملك إفريقية إلى أملقا من ملوكهم فانتج صقلية وهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين وأهل الإسكندرية بسبب أهل سردانية وذلك لخمسين سنة من بناء رومة، ثم وقعت السلم بينهم وهي السلم التي وفد فيها عتو من ملوك إفريقية على أنطريطش ملك مقدونية واسكندرية وهو ملك الروم الأعظم.

ثم ولي بقرطاجنة أملقا ابنه أنبيل فأجاز إلى بلاد الإفرنج وغلبهم على بلادهم، وزحف إليه قواد رومة فوالى عليهم الهزائم وبعث أخاه أشدريال إلى الأندلس فملكها، وخالفه قواد الرومانيين إلى إفريقية بعد أن ملكوا من حصون صقلية أربعين أو نحوها، ثم أجازوا إلى إفريقية فملكوها وقتلوا غشول خليفة أنبيل فيها

واستولى على ناحية المشرق. وسير عساكره إلى فتح مصر مع قائدين من قواده هما أنطونيوس ومتراد ملك الأرمن بدمشق، فترجها إلى مصر وبها يومئذ كلابطره الملكة من بقية البطالسة ملوك يونان بالإسكندرية ومصر، فحصنت بلادها وبنيت بعدوتي النيل حائطين مبدؤهما من النوبة إلى الإسكندرية غرباً وإلى الفرما شرقاً وهو حائط العجوز لهذا العهد. ثم دخلت القائد أنطونيوس وخادعته بالتزويج فتزوجها وقتل رفيقه مترادات وعصى على أوغسطس، فزحف إليه وقتله وملك مصر وقتل كلابطرة وولديها وكانا يسميان الشمس والقمر، وملك مصر والإسكندرية وذلك لإثنتي عشرة سنة من ملكه، قال ولإثنتي وأربعين سنة من ملك أوغسطس ولد المسيح بعد مولد يحيى بثلاثة أشهر. وذلك لتعام خمسة آلاف وخمسمائة سنة من سني العالم ولإثنتي وثلاثين من ملك هيردوس بالقدس، وقيل: لخمس وثلاثين من مملكته، والكل متفقون على أنها لإثنتي وأربعين من ملك أوغسطس.

قال: وسياقه التاريخ تقتضي أنها خمسة آلاف وخمسمائة شمسية من مبدأ العالم لأن من آدم إلى نوح ألفاً وستمائة، ومن نوح إلى الطوفان ستمائة، ومن الطوفان إلى إبراهيم ألفاً واثنين وسبعين سنة، ومن إبراهيم إلى موسى أربعمائة وخمسة وعشرين، ومن موسى إلى داود عليهما السلام سبعمائة وستين، ومن داود إلى الإسكندر سبعمائة وستين سنة، ومن الإسكندر إلى مولد المسيح ثلثمائة وتسع عشرة سنة.

هكذا ذكر ابن العميد وأنها تواريخ النصراني وفيها نظر، ويظهر من كلامه أن قيصر الذي سماه أوغسطس، وذكر أن المسيح ولد لإثنتي وأربعين من ملكه هو الذي سماه هيردوس قيصر أكتيان وجعل مملكته لخمس ألف ومائتين من مبدأ الخليفة. وعند ابن العميد أن ملكه لخمس ألف وخمسمائة وخمس عشرة والله أعلم بالحق من ذلك، ثم ولي من بعد طباريش قيصر وكان ادعا واستولى على النواحي، وعلى عهده كان شأن المسيح وبغى اليهود عليه ورفع الله من الأرض، وأقام الحواريون من بعده واليهود يضطهدونهم ويمسكونهم على إظهار أمرهم، وكان بلاطس النبطي الذي كان قائداً على اليهود يسعى إلى طباريش بأخبار المسيح وبغى اليهود عليه وعلى يوحنا المعمدان، وتبعهم الحواريون من بعده بالأذية، وأراه أنهم على حق فأمر بتخليه سبيلهم، وهم بالأخذ بدينهم فمئنه من ذلك قومه.

ثم قبض على هيردوس وأحضره إلى رومة ثم نفاه إلى الأندلس فمات بها، ثم ولي مكاتنه أغرياس ابن أخيه، وافترق الحواريون في الآفاق لإقامة الدين وحمل الأمم على عبادة الله. ثم

ثم حاربوا الغماس فكانت حربهم معهم سجالاً، إلى أن خرج يوليوس بن غايش ومعه ابن عمه لوجيار بن مدكه إلى جهة الأندلس، وحارب من كان بها من الإفرنج والجلالقة إلى أن ملك بريطانية واشبونة ورجع إلى رومة، واستخلف على الأندلس أكتيان ابن أخيه يونان. فلما وصل إلى رومة وشعر الوزراء أنه يروم الاستبداد عليهم فقتلوه، فزحف أكتيان ابن أخيه من الأندلس بثأره وملك رومة واستولى على أرض قسطنطينية وفارس وإفريقية والأندلس، وعمه يولس هو الذي تسمى قيصر فصار سمة للملوكهم من بعده. وأصل هذا الاسم جاشر فعرفته العرب إلى قيصر، ولفظ جاشر مشترك عندهم فيقال جاشر للشعر وزعموا أن يولس ولد شعره نام يبلغ عينيه، ويقال أيضاً للمشقوق جاشر.

وزعموا أن قيصر ماتت أمه وهي مقرب فقير بطنها واستخرج بولس، والأول أصح وأقرب إلى الصواب، وكانت مدة بولس قيصر خمس سنين، ولما ولي قيصر أكتيان ابن أخته بملك الناحية الشمالية من الأرض، ووفد عليه رسل الملوك بالمشرق يرغبون في ولايته ويضربون إليه في السلم فأسعفهم، ودانت له أقطار الأرض، وضرب الأتاوة على أهل الآفاق من الصغر. وكان العامل على اليهود بالشام من قبله هيردوس بن أنظقت، وعلى مصر ابنه غايش. وولد المسيح لإثنتي وأربعين سنة خلت من ملكه. وهلك قيصر أكتيان لست وخمسين من ملكه بعد سبعمائة وخمسين سنة لبناء رومة وخمس ألف ومائتين لمبدأ الخليفة انتهى كلام هروشيوش.

وأما ابن العميد مؤرخ النصراني فذكر عن مبدأ هؤلاء القياصرة أن أمر رومة كان راجعاً إلى الشيوخ الذين يدبرون أمرهم، وكانوا ثلثمائة وعشرين رجلاً لأنهم كانوا حلفوا أن لا يولوا عليهم ملكاً، فكان تدبيرهم يرجع إلى هؤلاء وكانوا يقدمون واحداً منهم ويسمونه الشيخ، وانتهى تدبيرهم في ذلك الزمان إلى أغانيوس فدبرهم أربع سنين، وهو الذي سمي قيصر لأن أمة ماتت وهو جنين في بطنها فبقروا بطنها وأخرجوه، ولما كبر انتهت إليه رئاسة هؤلاء الشيوخ برومة أربع سنين.

ثم ولي من بعده يوليوس قيصر ثلاث سنين، ثم ولي من بعده أوغسطس قيصر بن مرنوخس، قال: ويقال إن أوغسطس قيصر كان أحد قواد الشيخ مدير رومة، وتوجه بالعساكر لفتح المغرب والأندلس ففتحها وعاد إلى رومة فملك عليهم، وطرد الشيخ من رياسته بها وتديره ووافقته الناس على ذلك. وكان للشيخ نائب بناحية المشرق يقال له: قمقيوس، فلما بلغه ذلك زحف بعساكره إلى رومة فخرج إليه أوغسطس فهزمه وقتله

كرسيها وهو رأس الخواريين ورسول المسيح إلى رومة، وقتل مرقص الإنجيلي بالإسكندرية لاثني عشرة من ملكه وكان هنالك منذ سبع سنين بها مساعداً إلى النصرانية بالإسكندرية ومصر وبرقة والمغرب، وولي مكانه حنانيا ويسمى بالقبطية جنبار وهو أول البطارقة بها واتخذ معه الأقسمة الاثني عشر.

قال ابن العميد عن المسيحي: وفي الثانية من ملك نيرون عزل بلخس القاضي، كان على اليهود من جهة الروم، وولي مكانه قسطنس القاضي، وقتل بوثار رئيس الكهنوتية بالمقدس، ومات القاضي قسطنس فثار اليهود على من كان بالمقدس من النصارى وقتلوا أسقفهم هنالك وهو يعقوب بن يوسف التجار، وهدموا البيعة وأخذوا الصليب والخشبين ودفنوها إلى أن استخرجتها هلاكة أم قسطنطين كما نذكر بعد. وولي مكان يعقوب التجار ابن عمه شمعون بن كنباء، ثم ثار بهم اليهود وأخرجهم من المقدس لعشر من ملك نيرون فأجازوا الأردن وأقاموا هنالك. وبعث نيرون قائده أسبانيانس، وأمر بقتل اليهود وخراب القدس وتحصن اليهود منه وبنوا عليهم ثلاثة حصون، وحاصروهم أسبانيانس وخرب جميع حصونهم وأحرقها وأقام عليهم سنة كاملة. وقال هروشيوش: إن نيرون قيصر انتقض عليه أهل مملكته فخرج عن طاعته أهل برطانية من أرض الجوف، ورجع أهل أرمينية والشام إلى طاعة الفرس. فبعث صهره على أخته وهو يشبشيان بن لوجيه فسار إليهم في العساكر وغلبلهم على أمرهم.

ثم زحف إلى اليهود بالشام وكانوا قد انتقضوا فحاصروهم بالمقدس، وبينما هو في حصاره إذ بلغه موت نيرون لأربع عشرة سنة من ملكه، ثار به جماعة من قواده فقتلوه، وكان قد بعث قائداً إلى جهة الجوف والأندلس، فافتح برطانية ورجع إلى رومة بعد مهلك نيرون قيصر فملكه الروم عليهم، وأنه قتل أخاه يشبشيان فأشار عليه أصحابه بالانصراف إلى رومة. وبشره رئيس اليهود وكان أسيراً عنده بالملك، ويظهر أنه يوسف بن كريون الذي مر ذكره، فانطلق إلى رومة وخلف ابنه طيطس على حصار القدس فافتحتها وخرب مسجدها وعمراتها كما مر ذكره.

وقال: وقتل منهم نحواً من ستمائة ألف ألف مرتين وهلك في حصارها جوعاً نحو هذا العدد، وبيع من سراريهم في الآفاق نحواً من تسعين ألفاً، وحمل منهم إلى رومة نحواً من مائة ألف استبقاهم لفتيان الروم يتعلمون المقاتلة فيهم ضرباً بالسيف وطعناً بالرمح. وهي الجلولة الكبرى كانت لليهود بعد ألف ومائة وستين سنة من بناء بيت المقدس وخمسة آلاف ومائتين وثلاثين من مبدأ الخليقة ولثمانمائة وعشرين من بناء رومة. فكان معه إلى أن افتتحها

قتل طباريش قيصر أغرياس ملك اليهود إلى آخر من حاله وقتلوا أتباع الخواريين من الروم، ومات طباريش لثلاث وعشرين من ملكه بعد أن جدد مدينة طبرية، فيما قال ابن العميد، واشتق اسمها من اسمه وملك من بعده غاينس قيصر. وقال هروشيوش: هو آخر طباريش وسماه غاينس فليفة من أكتيان، وقال: هو رابع القياصرة وأشدهم وأراد اليهود على نصب وثنه بيت المقدس فمنعوه.

وقال ابن العميد: ووقعت في أيامه شدة على النصارى وقتل يعقوب أخاه يوحنا من الخواريين وحبس بطرس رئيسهم ثم هرب إلى أنطاكية فأقام بها، وقدم هراديوس بطركاً عليها وهو أول البطارقة فيها. ثم توجه إلى رومة لستين من ملك غاينس فدبرها خساً وعشرين سنة ونصب فيها الأساقفة وتصرّت امرأة من بيت الملك فعصدت النصارى الذين بالقدس شدائد من اليهود وكان الأسقف عليهم يومئذ يعقوب بن يوسف الخطيب.

وقال ابن العميد عن المسيحي: إن فيليبس ملك مصر غزا اليهود لأول سنة من ملك غاينس واستعبد لهم سبع سنين، قال وفي الرابعة من ملكه أمر عامله على اليهود بسورية وهي أورشاليم. وهي بيت المقدس أن ينصب الأصنام في عاريب اليهود، ووثب عليه بعض قواده فقتله وملك من بعده قلوديش قيصر، قال هروشيوش: هو ابن طباريش وعلى عهده كتب متى الخواري إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية، قال ابن العميد: ونقله يوحنا بن زبدي إلى الرومية، قال: وفي أيامه كتب بطرس رأس الخواريين إنجيله بالرومية وبعث به إلى مرقص تلميذه، وكتب لوقا من الخواريين إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض الأكابر من الروم وكان لوقا طبيباً. ثم عظم الفساد بين اليهود ولحق ملكهم أغرياش برومة فبعث معه أقلوديش عساكر الروم فقتلوا من اليهود خلقاً، وحملوا إلى أنطاكية ورومة منهم سيّاً عظيماً وخربت القدس وانجلى أهلها فلم يول عليهم القياصرة أحداً لخربها، وافتقرت اليهود على فرق كثيرة أعظمها سبعة.

قال: ولسع من ملك أقلوديش دخلت بطريقة من الروم في دين النصارى على يد شمعون الصفا، وسمعت منه بالصليب، فجاءت إلى القدس لإظهاره، ورجعت إلى رومة، وهلك أقلوديش قيصر لأربع عشرة سنة من ملكه وملك من بعده ابنه نيرون. قال هروشيوش: هو سادس القياصرة، وكان غشوماً فاسقاً، وبلغه أن كثيراً من أهل رومة أخذوا بدين المسيح فنكر ذلك وقتلهم حيث وجدوا، وقتل بطرس رأس الخواريين، وأقام أريوس بطركاً برومة مكان بطرس من بعد خمس وعشرين سنة مضت لبطرس في

قال ابن العميد عن المسيحي: ولعهده كان أمر ليونوس صاحب الطلسمات برومة، فنفى ذوسطيالوس جميع الفلاسفة والمنجمين من رومة وأمر أن لا يغرس بها كرم، ثم هلك ذوسطيالوس، وهو الذي سماه هروشيوش دومريان، وقال: هلك في حروب الإفرنج، وملك بعده برما ابن أخيه طيطش نحواً من ستين وسماه ابن العميد تاوداس، وقال: إن المسيحي سماه قارون، قال: ويسمى أيضاً برسطوس، وقال ملك على الروم سنة أو سنة ونصفاً وأحسن السيرة وأمر برد من كان منفياً من النصراني وخلصهم ودينهم ورجع يوحنا الإنجلي إلى أفسس بعد ست سنين.

وقال هروشيوش: أطلقه من السجن. وقال: ولم يكن له ولد فعهده بالملك إلى طريانس من عظماء قواده وكان من أهل مالقة فولى بعده وتسمى قيصر. قال ابن العميد: واسمه أنديانوس، وسماه المسيحي طرينوس وملك على الروم باتفاق المؤرخين سبع عشرة سنة، وقتل سمعان بن كلاويا أسقف بيت المقدس وأغناطيوس بطرك أنطاكية. ولقي النصراني في أيامه شدة وتبع أئمتهم بالقتل واستعبد عامتهم، وهو ثالث القياصرة بعد نيرون في هذه الدولة. ولعهده كتب يوحنا الإنجلي برومة في بعض الجزائر لسادسة من ملكه وكان قد رجع اليهود إلى بيت المقدس فكثروا بها وعزموا على الانتقاض، فبعث عساكره وقتل منهم خلقاً كثيراً. وقال هروشيوش: إن الحرب طالت بينه وبين اليهود، فخربوا كثيراً من المدن إلى عسقلان ثم إلى مصر والإسكندرية فانهزموا هنالك وقتلوا وزحفوا بعدلما إلى الكوفة، فأنخن فيهم بالقتل وخضد من شوكتهم.

قال ابن العميد: وفي تاسعة من ملكه مات كوثبانو بطرك الإسكندرية لإحدى عشرة سنة من ولايته، وولي مكانه أمرغو عشر سنوات أخرى. وقال بطليموس صاحب كتاب المجسطي: إن شيلوش الحكيم رصد برومة في السنة الأولى من ملك طرينوس وهو أنديانوس لأربعمئة وإحدى وعشرين للإسكندر ولثلاثمئة وخمس وأربعين لبختنصر. وقال ابن العميد: خرج عليه خارجي ببابل فهلك في حروبه لتسع عشرة سنة من ولايته كما قلناه، فولى من بعد أنديانوس إحدى وعشرين سنة، وقال ابن العميد عن ابن بطريق عشرين سنة. وقال هروشيوش: إنه أنخن في اليهود، ثم بنى مدينة القدس وسمها إيلياء.

وقال ابن العميد: كان شديداً على النصراني وقتل منهم خلقاً، وأخذ الناس بعبادة الأوثان، وفي ثامنة ملكه خرب بيت المقدس وقتل عامة أهلها وبنى على باب المدينة عموداً وعليه لوح

وكان المستبد بها بعد مهلك نيرون قيصر، وانقطع ملك آل يولس قيصر لمائة وست عشرة سنة من مبدأ دولتهم، واستقام ملك يشيشيان في جميع ممالك الروم وتسمى قيصر كما كان من قبله. كلام هروشيوش.

وقال ابن العميد: إن أسباشيانس لما بلغه وهو محاصر للقدس أن نيرون هلك، ذهب بالعساكر الذين معه، ويشره يوسف بن كريبون كهنون طبرية من اليهود بأن يصير ملك القياصرة إليه، ثم بلغه أن الروم بعد مهلك نيرون ملكوا غليان بن قيصر فأقام عليهم تسعة أشهر، وكان رديء السيرة، وقتله بعض خدمه غيلة، وقدموا عوضه أنون ثلاثة أشهر ثم خلعه، وملكوا أبطالس ثمانية أشهر، فبعث أسباشيانس وهو الذي سماه هروشيوش يشيشيان قائدني إلى رومة فحاربوا أبطانش وقتلوه. وسار أسباشيانس إلى رومة وبعث إليه طيطش المحاصر للقدس بالأموال والغنائم والسبي، قال: وكانت عدة القتلى ألف ألف والسبي تسعمائة ألف، واحتمل الخوارج الذين كانوا في نواحي القدس مع الأسرى، وكان يلقي منهم كل يوم للسباع فرائس إلى أن فتوا. قال: ولما ملك طيطش بيت المقدس رجع النصراني الذين كانوا عبروا إلى الأردن فبنوا كنيسة بالمقدس وسكنوا، وكان الأسقف فيهم سمعان بن كلوبا ابن عم يوسف التجار وهو الثاني من أساقفة القدس.

ثم هلك أسباشيانس وهو يشيشيان لتسع سنين من ملكه وملك بعده ابنه طيطش قيصر ستين وقيل ثلاثاً. قال ابن العميد: لأربعمئة من ملك الإسكندر. وقال هروشيوش: كان متفتناً في العلوم ملتزماً للخير عارفاً باللسان الغربي واللاتيني، وولي بعده أخوه دومريان خمس عشرة سنة، قال هروشيوش: وهو ابن أخت نيرون قيصر، قال: وكان غشوماً كافراً وأمر يقتل النصراني فعل خاله نيرون، وحبس يوحنا الحواري، وأمر يقتل اليهود من نسل داود حذراً أن يملكوا، وهلك في حروب الإفرنج وسماه ابن العميد دانسطيانوس.

وقال: ملك ست عشرة سنة وقيل تسعاً، وكان شديداً على اليهود وقتل أبناء ملوكهم، وقيل له إن النصراني يزعمون أن المسيح يأتي وملك فأمر بقتلهم، وبعث عن أولاد يهوذا بن يوسف من الحواريين وحملهم إلى رومة مقيدتين، وسألم عن شأن المسيح، فقالوا: إنما يأتي عند انقضاء العالم فخلى سبيلهم. وفي الثالثة من دولته طرد بطرك إسكندرية لسبع وثمانين سنة للمسيح، وقدم مكانه ملما فاقام ثلاث عشرة سنة ومات فولى مكانه كراما.

خلقاً، وهي الشدة الرابعة من بعد نيرون:

قال ابن العميد: وفي السابعة من ملكه قدم على الإسكندرية البطريرك أغريوس، فلبث اثني عشر سنة ومات في تاسعة عشر من ملك أنطونيوس الأصغر، قال وفي أيامه ظهرت مبتدعة من النصارى واختلفت أقوالهم وكان منهم ابن ديصان وغيره، فجاهدهم أهل الحق من الأساقفة وأبطلوا بدعتهم، وهلك أنطونيوس هذا تسع عشرة من ملكه. وفي عاشرة ملكه ظهر أردشير بن بابك أول ملوك الساسانية واستولى على ملك الفرس، وكان صاحب الحضرة متمكلاً على السواد فغلبه وملك السواد وقتله وقصته معروفة.

وكان لعهد جالينوس المشهور بالطب وكان ربي معه، فلما بلغه أنه ملك على الروم قدم عليه من بلاد اليونان وأقام عنده، وكان لعهد أيضاً ديمقراطس الحكيم، ولأول سنة من ملكه قدم بليانوس بطريراً على إسكندرية وهو الحسادى عشر من بطاركتها فلبث عشر سنين ومات.

وولي مكانه ديمتريوس فلبث فيهم ثلاثاً وثلاثين سنة ومات كمودة قيصر لثلاثة عشر كما قلناه. فولي من بعده روميلوش ثلاثة أشهر. قال ابن العميد: وسماه ابن بطريق فرطنوش. وقال: وملك ثلاثة أشهر وسماه غيره فرطيوخوس. وسماه الصعيديون برطانوس ومدة ملكه باتفاقهم شهران. وقال هروشيوش: اسمه الليس بن طيجليس وهو عم كمودة قيصر، قال وولي سنة واحدة وقتله بعض قواده وأقام في الملك ستة أشهر وقتل.

قال ابن العميد: وملك بعده يوليانس قيصر شهرين ومات، ثم ولي سوريانوس قيصر وسماه بعضهم سويرس وسماه هروشيوش طباريش بن أرنت بن أنطونيوش، واختلفوا في مدته، فقال ابن العميد عن ابن بطريق: سبع عشرة سنة، وقال المسيحي: ثمان عشرة، وعن أبي فانيوس ستة عشرة، وعن ابن الراهب ثلاث عشرة، وعن الصعيديين ستين. قال وملك في رابعة من ملك أردشير واشتد على النصارى وقتل فيهم وسار إلى مصر والإسكندرية فقتلهم وهدم كنائسهم وشردهم كل مشرد، وبني بالإسكندرية هيكلأ سماء هيكل الإله. قال هروشيوش: هي الشدة الخامسة من بعد شدة نيرون. قال: ثم انتفض عليه اللطينيون ولم يزل محصوراً إلى أن هلك.

وملك من بعده أنطونيوش. قال ابن العميد عن ابن بطريق: ست سنين، وعن المسيحي: سبع سنين. وسماه أنطونيوش قسطنس. قال: وكان ابتداء ملكه عندهم لخمس وعشرين وخمسمائة من

نقش فيه مدينة إيلياء. ثم زحف إلى الخارجى الذي خرج على طرنيوس قبله فهزمه إلى مصر وألزم أهل مصر حفر خليج من مجرى النيل إلى بحر القلزم وأجرى فيه الحلو، ثم أرتدم بعد ذلك، وجاء الفتح والدولة الإسلامية فالزمهم عمرو بن العاص حضره حتى جرى فيه الماء ثم انسد لهذا العهد، وكان أنديريانوس هذا قد بنى مدينة القدس ورجع إليها اليهود وبلغه أنهم يرومون الانتقاض، وأنهم ملكوا عليهم زكريا من أبناء الملوك، فبعث إليهم العساكر وتبعهم بالقتل وخرب المدينة حتى عادت صحراء، وأمر أن لا يسكنها يهودي، وأسكن اليونان بيت المقدس، وكان هذا الخراب ثلاث وخمسين سنة من خراب طيطش الذي هو الجلولة الكبرى. وامتلا القدس من اليونان وكانت النصارى يترددون إلى موضع القبر والصليب يصلون فيه، وكانت اليهود يرمون عليه الزبل والكناسات، فمنعهم اليونان من الصلاة فيه وبنوا هنالك هيكلأ على اسم الزهرة.

وقال ابن العميد عن المسيحي: وفي الرابعة من ملك أنديريانوس بطل الملك من الرها وتداولتها القضاة من قبل الروم، وبني أنديريانوس بمدينة أئينوس بيتاً ورتب فيه جماعة من الحكماء لمدارسة العلوم، قال: وفي خامسة ملكه قدم نسطس بطريراً على إسكندرية وكان حكيماً فاضلاً فلبث إحدى عشرة سنة ثم مات، وقدم مكانه أمانيق في سادسة عشر من ملك أنديريانوس فلبث إحدى عشرة سنة وهو سابع البطارقة. ثم مات أنديريانوس لإحدى وعشرين من ملكه كما مر، وولي ابنه أنطونيوش.

قال هروشيوش: ويسمى قيصر الرحيم. وقال ابن العميد: ملك اثنتين وعشرين. وقال الصعيديون إحدى وعشرين. قال: وفي خامسة ملكه قدم مرتيانو بطريراً بإسكندرية وهو الثامن منهم، فلبث تسع سنين ومات، وكان فاضل السيرة. وقدم بعده كلوتيانو فلبث أربع عشرة سنة، ومات في سابعة ملكه أوراليانوس بعده وكان محبوباً. وقال بطليموس صاحب المجسطي: إنه رصد الاعتدال الخريفي في ثالثة ملك أنطونيوس، فكان لأربعمائة وثلاث وستين بعد الإسكندر.

ثم هلك أنطونيوس لاثنتين وعشرين كما مر، فملك من بعده أوراليانوس. قال هروشيوش: وهو أخو أنطونيوس وسماه أورالش وأنطونيوس الأصغر، وقال: كانت له حروب مع أهل فارس وبعد أن غلبوا على أرمينية وسورية من ممالكه فدفعهم عنهما وغلبهم في حروب طويلة، وأصاب الأرض على عهده وباء عظيم، وقطع الناس ستين، واستسقى لهم النصارى فأمطروا وارفع الوباء والقحط بعد أن كان اشتد على النصارى وقتل منهم

كان ملكه لإحدى وخمسين وخمسمائة من ملك الإسكندر. وقال هروشيوش: غرديار بن بليسان. قال: وملك سبع سنين وطالت حروبه مع الفرس وكان ظافراً عليهم وقتله أصحابه على نهر الفرات، قال وولي بعده فيلبس بن أولياق بن أنطونيش سبع سنين وهو ابن عم الإسكندر الملك قبله وأول من تنصر من ملوك الروم. وقال ابن العميد عن الصعديين: ملك ست سنين وقيل تسع سنين، وكان ملكه لخمسة وخمسين وخمسمائة من ملك الإسكندر وآمن بالمسيح.

وفي أول سنة من ملكه قدم دنوشيوش بطركاً بالإسكندرية وهو رابع عشر البطارقة بها فلبث تسع عشرة سنة، ولعهد فيلبس هذا قدم غرديانوس أسقفاً على بيت المقدس بعد هروب مركيوس ثم عاد من هروبه فأقام شريكاً معه سنة واحدة، ومات غرديانوس فانفرد مركيوس أسقفاً ببيت المقدس عشر سنين، قال: وقتل فيلبس قيصر قائد من قواده يقال له دافيس وملك مكانه خمس سنين. وقال عن المسيحي وابن الراهب سنة، وعن ابن بطريق ستين. قال: وكان يعبد الأصنام ولقي النصارى منه شدة، وكان من أولاد الملوك، وقتل بطرك رومة وأجاز من مدينة قرطاجنة إلى مدينة أفسس وبنى بها هيكلاً وحمل النصارى على السجود له.

قال: وفي أيامه كانت قصة فتية أهل الكهف وظهروا بعده في أيام تاودسيوس. وأما هروشيوش فسماه داجية بن غشميمان، وقال: ملك سنة واحدة، وكانت على النصارى في أيامه الشدة السابعة، وقتل بطرك رومة منهم وولي من بعده غالش قيصر ستين واستباح في قتل النصارى وباء عظيم أقفلت له المدن. وقال هروشيوش: هو غالش بن يوليائش، وقال ابن بطريق: إن يوليائش كان شريكاً له في ملكه ومات قبله. قال ابن العميد: إحدى عشرة سنة لسبعين وخمسمائة من ملك الإسكندر. وقال هروشيوش وابن بطريق: ملك خمس عشرة سنة واسمه غاليوش، وقال المسيحي: خمس عشرة سنة، وسماه داقوس وغاليوش ابنه. وقال آخرون اسمه أورليوش وملك خمس سنين. وقال أبو فانيوس: اسمه غليوس وملك أربع عشرة سنة. وقال الصعديون ملك كذلك واسمه أريونوس.

قال ابن العميد: وكان يعبد الأصنام ولقي النصارى منه شدة في أول سنة من ملكه قدم مكسيموس بطركاً بالإسكندرية وهو الخامس عشر من بطاركتها فلبث اثنتي عشرة سنة ومات، وهو خاصة ملكه قدم إسكندروس أسقفاً ببيت المقدس ثم قتله بعد سبع سنين وبعث ابنه في عساكر الروم لغزو الفرس، فانهزم وحمل أسيراً إلى كسرى بهرام فقتله. وقال هرشيوش: ولي غليونوس

ملك الإسكندر، ولعهده سار أردشير ملك الفرس إلى نصيين فحاصرها وبنى عليها حصناً، ثم بلغه أن خارجاً خرج عليه بخراسان، فأجفل عنهم بعد المصالحة على أن لا يتعرضوا لحصنه، فلما رحل بنوا من وراء الحصن وأدخلوه في مدينتهم، ورجع أردشير فنازلهم وامتنعوا عليه، فأشار بعض الحكماء بأن يجمع أهل العلم فيدعون الله دعوة رجل واحد، ففعلوا فملك الحصن لوقته. وقال هرشيوش: لما ولي أنطونيش ضعف عن مقاومة الفرس فغلبوا على أكثر مدن الشام ونواحي أرمينية وهلك في حروبهم وولي بعده مفريق بن مركة وقتله قواد رومة لسنة من ملكه وكذا قال ابن العميد، وسماه ابن بطريق بقرونشوش، والمسيحي هرقلانيوس. قالوا جميعاً: وملك من بعده أنطونيش. قال ابن العميد عن ابن بطريق وابن الراهب: ثلاث سنين، وعن المسيحي والصعديين: أربع سنين، قال: وفي أول سنة من ملكه بنيت مدينة عمان بأرض فلسطين، وملك سابور بن أردشير مدناً كثيرة من الشام. ومات أنطونيش فملك من بعده إسكندروس لثلاث وعشرين من ملك سابور بن أردشير فملك على الروم ثلاث عشرة سنة وكانت أمة عجة في النصارى. وقال هروشيوش: ملك عشرين سنة وكانت أمة نصرانية وكانت النصارى معه في سعة من أمرهم.

قال ابن العميد: وفي سابعة ملكه قدم تاوكل بطركاً بالإسكندرية وهو الثالث عشر من البطارقة فيهم فلبث ست عشر سنة ومات. قال هروشيوش: ولعشر من ملكه غزا فارس فقتل سابور بن أردشير وانصرف ظافراً فثار عليه أهل رومة وقتلوه.

وملك من بعده غشميمان بن لوجية ثلاث سنين، ولم يكن من بيت الملك وإنما ولوه لأجل حرب الإفرنج واشتد على النصارى الشدة السادسة من بعد نيرون. وأما ابن العميد فسماه فقيموس ووافق على الثلاث سنين في مدته وعلى ما لقي النصارى منه، وأنه قتل منهم سرحبوس في سلمية وواجوس في بالس على الفرات، وقتل بطرك إنطاكية فسمع أسقف بيت المقدس بقتله فهرب وترك الكرسي. قال: وفي ثالثة ملكه ملك سابور بن أردشير خلاف ما زعم هروشيوش من أنه قتله. ثم هلك فقيموس أرمشيان وولي من بعده يونيوس ثلاثة أشهر وقتل فيما قال ابن العميد، وقال: سماه أبو فانيوس لوكس قيصر وابن بطريق بليانيوس ولم يذكره هروشيوش.

ثم ملك عرديانوس قيصر، قال ابن العميد عن ابن بطريق وابن الراهب: أربع سنين، وعن المسيحي والصعديين: ست سنين، وسماه أبو فانيوس فودينوس والصعديون قرطانوس. قال:

ولخمسائة والثنتين وتسعين من ملك الإسكندر، وكان شديداً على النصارى وقتل منهم خلقاً كثيراً وهلك هو وابناه في الحرب. وقال هروشيوش: ولما هلك فاروش ولي من بعده ابنه مناريان وقتل لحينه، ولم يذكره ابن العميد.

ثم ملك بقلاديانوش إحدى وعشرين سنة، وقال المسيحي: عشرين سنة، وقال غيره: ثمانتي عشرة سنة، وملك لخمسائة وخمس وتسعين للإسكندر، وقال غيرهم: كان اسمه عريبطا وارتقى في أطوار الخدمة عند القياصرة إلى أن استخلصه فاروش وجعله على خيله وكان حسن المزمار. ويقال إن الخيل كانت ترقص طرباً لمزماره، وعشقته بنت فاروش الملك، ولما مات أبوها وإخوتها ملكها الروم عليهم فتزوجته وسلمت له في الملك، فاستولى على جميع ممالك الروم وما والاها، وقسططش ابن عمه على بلاد أشيا وبيزنطية، وأقام هو بأنطاكية وله الشام ومصر إلى أقصى المغرب. وفي تاسعة عشر من ملكه انتقض أهل مصر والإسكندرية قتل منهم خلقاً ورجع إلى عبادة الأصنام وأمر بغلق الكنائس، ولقي النصارى منه شدة وقتل القيسس مارجس وكان من أكابر أبناء البطارقة، وقتل ملقوس منهم أيضاً. وفي عاشرة ملكه قدم ماريطرس بطركاً بالإسكندرية فلبث عشر سنين وقتله، وجعل مكانه تلميذه إسكندروس، وكان كبير تلامذته أريوش كثيراً لمخالفة له فسخطه وطرده، ولما مات ماريطرس رجع أريوش عن المخالفة فأدخله إسكندروس إلى الكنيسة وصيره قساً.

قال ابن العميد: وفي أيام ديقلاديانوس خرج قسططش ابن عمه ونائبه على بيزنطيا وأشيا ورأى هلاكة، وكانت تنصرت على يد أسقف الرها، فأعجبته وتزوجها وولدت له قسططش، وحضر المنجمون لولادته فأخبروا بملكه، فأجمع ديقلاديانوس على قتله فهرب إلى الرها وشم جاء بعد موت ديقلاديانوس فوجد أباه قسططش قد ملك على الروم فتسلم الملك من يده على ما نذكر، وهلك ديقلاديانوس لعشرين سنة من ملكه ولستمائة وستة عشرة سنة من ملك الإسكندر وملك من بعده ابنه مقسيمانوس.

قال ابن بطريق: سبع سنين، وقال المسيحي وإبن الراهب: سنة واحدة. قالوا وكان شريكه في الملك مقطوس، وكان أشد كفراً من ديقلاديانوس، ولقي النصارى منهما شدة وقتل منهم خلقاً كثيراً، وفي أول سنة من ملكه قدم الإسكندروس تلميذ مار بطرس الشهير بطركاً بالإسكندرية، فلبث فيهم ثلاثاً وعشرين سنة وعلى عهد مقسيمانوس تذكر تلك الخرافة بين المؤرخين من أن سابور ملك الفرس دخل أرض الروم متتراً، وحضر مكان مقسيمانوس وسجنه في جلد بقرة وسار إلى مملكة فارس وسابور في ذلك الجلد

خمس عشرة سنة فاشتد على النصارى الأمر وقتلهم وقتل معهم بطرك بيت المقدس، وكانت له حروب مع الفرس أسره في بعضها ملكهم سابور ثم من عليه وأطلقه، ووقع في أيامه برومة وباء عظيم فرفع طلبه عن النصارى بسببه، وفي أيامه خرج القوط من بلادهم وتغلبوا على بلاد الغريقيين ومقدونية وبلاد النبط.

وكان هؤلاء القوط يعرفون بالنسبيين وكانت مواطنهم في ناحية بلاد السريانيين، فخرجوا لعهد غلينوس هذا وغلبوا كما قلناه على بلاد الغريقيين ومقدونية وعلى مرية.

وهلك غلينوس قتيلاً على يد قواد رومة، ثم ملك أفايدوش قيصر سنة واحدة، وقال ابن العميد عن المسيحي سنة وتسعة أشهر لثمانين وخمسائة للإسكندر. وفي أول سنة من ملكه قدم يونس السميصاني بطركاً بأنطاكية فلبث ثمان سنين وكان يقول بالوحدانية ويوجد الكلمة بالروح، ولما مات اجتمع الأساقفة بأنطاكية وردوا مقالته. وقال هروشيوش: ولي بعد غلينوس فلديوش بن يلاريان بن موكله فنسبه هكذا، وقال فيه من عظماء القواد ولم يكن من بيت الملك ودفع القوط المتغلبين عن مقدونية من منذ خمس عشرة سنة عليها، ومات لستين من ملكه وهذا كما قال المسيحي، وقال هروشيوش: ولي بعده أخوه نطيل سبع عشرة يوماً وقتله بعض القواد، ولم يذكر ذلك ابن العميد.

ثم ملك بعده أوريليانس ست سنين وسماه ابن بطريق أوراليوس والمسيحي أرينوس وأبوفاتيوس أوليوش وهروشيوش أورليان بن بلنسيان. وقال: ملك خمس سنين، قال ابن العميد: وفي الرابعة من ملكه قدم تاوناس بطركاً بالإسكندرية سادس عشر البطارقة فلبث عشر سنين. وكان النصارى يقيمون الدين خفية، فلما صار بطركاً قابل الروم ولاطفهم بالهدايا فأنفوا له في بناء كنيسة مريم وأعلنوا فيها بالصلاة، قال: وفي سادسة ملكه ولد قسططش. وقال هروشيوش: إن أورليان بن بلنسيان هذا حارب القوط فظفر بهم وجدد بناء رومة واشتد على النصارى تاسعة بعد نيرون ثم قتل.

فولي بعده طانيش بن إلياس وملك قريباً من سنة. وقال ابن العميد: اسمه طافسوس وملك ستة أشهر. وقال ابن بطريق: اسمه طافساس وملك تسعة أشهر، ثم ملك فروفش قيصر خمس سنين، وقال أبو فانيوس: اسمه فروش، وقال ابن بطريق وإبن الراهب والصعيديون ست سنين، وقال المسيحي سبع سنين وسماه الأكيس وأرفيون، وسماه ابن بطريق بروش، وسماه هروشيوش فاروش بن أنطوش. قال: وتغلب على كثير من بلاد الفرس، وقال ابن العميد: كان ملكه لسابعة من ملك سابور ذي الأكشاف

الخبر عن القياصرة المنتصرة من اللطينيين وهم الكيتم واستفعال ملكهم بقسطنطينية ثم بالشام بعدها إلى حين الفتح الإسلامي ثم بعده إلى انقراض أمرهم

هؤلاء الملوك القياصرة المنتصرة من أعظم ملوك العالم وأشهرهم وكان لهم الاستيلاء على جانب البحر الرومي من الأندلس إلى رومة إلى القسطنطينية إلى الشام إلى مصر والإسكندرية إلى أفريقية والمغرب، وحاربوا الترك والفرس بالمشرق والسودان بالمغرب من النوبة فمن وراءهم. وكانوا أولاً على دين المجوسية، ثم بعد ظهور الخواريين ونشر دين النصرانية بأرضهم وتسلمتهم عليهم بأرضهم مرة بعد أخرى أخذوا بدينهم. وكان أول من أخذ به قسطنطين بن قسطنطس بن وليتنوس وأمه هلالنة بنت غشميان قيصر خليفة ديوقاريان قيصر الثالث والثلاثون من القياصرة، وقد مر ذكره آنفاً.

وإنما سمي هذا الدين دين النصرانية نسبة إلى ناصرة القرية التي كان فيها مسكن عيسى عليه السلام عندما رجع من مصر مع أمه. وأما نسبه إلى نصران فهو من أبنية المبالغة ومعناه أن هذا الدين في غير أهل عصابة فهو دين من ينصره من أتباعه، ويعرف هؤلاء القياصرة ببني الأصفر وبعض الناس ينسبهم إلى عيصو بن إسحاق وقد أنكر ذلك المحققون وأبوهم.

وقال أبو محمد بن حزم عند ذكر إسرائيل عليه السلام كان لإسحاق عليه السلام ابن آخر غير يعقوب واسمه عيصاب، وكان بنوه يسكنون جبال السراة من الشام إلى الحجاز، وقد بادوا جملة إلا أن قوماً يذكرون أن الروم من ولده وهو خطأ وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم كان يقال له أروم فظنوا أن الروم من ذلك الموضع وليس كذلك، لأن الروم إنما نسبوا إلى روملس باني رومة وربما يحتجون بأن النبي ﷺ قال في غزوة تبوك للحرث بن قيس: هل لك في جلال بني الأصفر؟ ولا حجة فيه لاحتمال أن يريد بني عيصاب على الحقيقة لأن قصده كان إلى ناحية السراة وهو مسكن بني عيصو.

قلت: مسكن عيصو هؤلاء كان يقال له أيلوم، بالذال المعجمة إلى الظاء أقرب فعربتها العرب راء، ومن هنا جاء الغلط والله تعالى أعلم. وهذا الموضع يقال له يسعون أيضاً والاسمان له في التوراة، قال ابن العميد: خرج قسطنطين المؤمن على

وهرب منه، ولحق بفارس وهزم الروم، في حكاية مستحيلة وكلها أحاديث خرافة. والصحيح منه أن سابور سار إلى ملكة الروم فخرج إليه مقسيمانوس واستولى على ملكه كما نذكر بعد.

وأما هروشيوش فلما ذكر مناريان قيصر بن قاريوس وأنه ملك بعد أبيه وقتل لحينه، ثم قال: وقام بملكهم ديوقاريان وثار من قاتله، ثم خرج عليه أقرير بن قاريوس فقتله، ديوقاريان بعد حروب طويلة، ثم انتقض عليه أهل مملكته وثار الثوار ببلاد الإفرنج والأندلس وأفريقية ومصر، وسار إليه سابور ذو الأكشاف فدفع ديوقاريان إلى هذه الحروب كلها غشميان هركوريش وصيره قيصراً، فبدأ أولاً ببلاد الإفرنج فغلب الثوار بها وأصلحها وكان الثائر الذي بالأندلس قد ملك برطانية سبع سنين فقتله بعض أصحابه ورجعت برطانية إلى ملك ديوقاريان، ثم استعمل غشميان خليفة ديوقاريان صهره قسطنطس وأخاه غشمس ابني وليتنوس، فمضى إلى أفريقية وقهر الثوار بها وردّها إلى طاعة الرومانيين.

وزحف ديوقاريان قيصر الأعظم إلى مصر والإسكندرية فحصر الثائر بها إلى أن ظفر به وقتله، ومضى قسطنطس إلى اللمانيين في ناحية بلاد الإفرنج فظفر بهم بعد حروب طويلة. وزحف غشميان خليفة ديوقاريان إلى سابور ملك الفرس فكانت حروبه معه سجلاً حتى غلبه وأصاب منه، واستأصل مدينة غورة والكوفة من بلاده سيئاً وقتلاً ورجع إلى رومة. ثم سرّحه ديوقاريان قيصر إلى حروب أهل غالش من الإفرنج، فأتحن فيهم قتلاً ومسياً، ثم اشتد ديوقاريان على النصارى الشدة العاشرة بعد نيرون وأتحن فيهم بالقتل ودام ذلك عليهم عشر سنين.

ثم اعتزل ديوقاريان وخليفته غشميان الملك ورفضاه ودفعاه إلى قسطنطس بن وليتنوس وأخيه غشمس ويسمى غلاريس، فاقسما ملك الرومانيين، فكان لمخشمس غلاريس ناحية الشرق وكان لقسطنطس ناحية المغرب وكانت أفريقية وبلاد الأندلس وبلاد الإفرنج في ملكته. وهلك ديوقاريان وغشميان معتزلين عن الملك بناحية الشام وأقام قسطنطس في الملك، ثم هلك ببرطانية وأقام بملك اللطينيين من بعده ابنه قسطنطين. انتهى كلام هروشيوش، ويظهر أن هذا الملك الذي سماه ابن العميد ديتلاديانوس هو الذي سماه هروشيوش ديوقاريان، والخبر من بعد ذلك متشابه والأسماء مختلفة ولا يخفى عليك وضع كل اسم في مكانه من الآخر والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومتصر بعضهم، فزعموا أن أحبار اليهود نقصوا من سني مواليد الآباء نحواً من ألف وخمسمائة سنة ليبتلوا مجيء المسيح في السوابيع التي ذكر دانيال أن المسيح يظهر عندها، وأنها لم يحن وقتها وأن التوراة الصحيحة هي التي فسرها السبعون من أحبار اليهود ملك مصر. وزعم ابن العميد أن قسطنطين أحضرها واطلع منها على النقص الذي قاله، قال: وهي التوراة التي بيد النصارى الآن.

قال: ثم أمر قسطنطين بتجديد مدينة بيزنطية وسماها قسطنطينية باسمه وقسم ممالكه بين أولاده، فجعل لقسطنطين قسطنطينية وما والاها، ولقسطنطين الآخر بلاد الشام إلى أقصى المشرق، ولقسطوس الثالث رومة وما والاها. قال: وملك خمسين سنة منها ست وعشرون بيزنطية قبل غلبة مقسيمانوس ومنها أربع وعشرون بعد استيلائه على الروم، وتنتصر في اثني عشرة من آخر ملكه، وهلك لستمائة وخمسين للإسكندر.

قال هروشيوش: كان قسطنطين بن قسطنطش على دين المجوسية، وكان شديداً على النصارى، ونفى بطرك رومة فدعا عليه وابتلي بالجذام، ووصف له في مداواته أن ينغمس في دماء الأطفال، فجمع منهم لذلك عدداً ثم أدركه الرقة عليهم فأطلقهم، فرأى في منامه من يحضه على الاقتداء بالبطرك فردّه إلى رومة ويرى من الجذام. وفتح من حينئذ إلى دين النصرانية، ثم خشي خلاف قومه في ذلك، فارتحل إلى القسطنطينية ونزلها وشيد بناءها وأظهر ديانة المسيح، وخالف أهل رومة فرجع إليهم وغلبهم على أمرهم وأظهر دين النصرانية، ثم جاهد الفرس حتى غلبهم على كثير من ممالكهم. ولعشرين سنة من ملكه خرجت طائفة من القوط إلى بلاد فاغاروا وسبوا فزحف إليهم وأخرجهم من بلاد. ثم رأى في منامه عرباً وينوداً على تمثال الصليبان وقائلاً يقول هذه علامة الظفر لك، فخرجت أمه هلالنة إلى بيت المقدس لطلب آثار المسيح وبنت الكنائس في البلدان ورجعت ثم هلك قسطنطين لإحدى وثلاثين سنة من ملكه اهـ. كلام هروشيوش

ثم ولي قسطنطين الصغير بن قسطنطين وسماه هروشيوش قسطنطش. قال ابن العميد: ملك أربعاً وعشرين سنة وكان أخوه قسطوس برومة بولاية أبيهما ففسي خامسة من ملك قسطنطين بعث العساكر فقتل مقنيطوس وأتباعه وولى على رومة من جهته فكانت له صاغية إلى أريوس فآخذ بمذهبه، وغلبت تلك المقالة على أهل قسطنطينية وأنطاكية ومصر والإسكندرية، وغلب أتباع أريوس على الكنائس وثبوا على بطرك إسكندرية ليقتلوه فهرب كما مر، ثم هلك لأربع وعشرين سنة من ملكه.

مقسيمانوس فهزمه، ورجع إلى رومة وازدحم العسكر على الجسر فوقع بهم في البحر وغرق مقسيمانوس مع من غرق، ودخل قسطنطين رومة وملكها بعد أن أقام ملكاً على بيزنطية من بعد أبيه ستاً وعشرين سنة، فبسط العدل ورفع الجور. وخرج قائده يسكن ناحية قسطنطينية، وولاه على رومة وأعمالها والأزمه بإكرام النصارى، ثم انتفض عليه وقتل النصارى وعبد الأصنام، وكان فيمن قتل ماريادس بطرك بطارقة، فبعث قسطنطين العساكر إلى رومة لحربه فساقوه أسيراً وقتله.

ثم تنصر قسطنطين في مدينة نيقية لاثني عشر من ملكه وهدم بيوت الأصنام وبني الكنائس، وللثامنة عشرة من ملكه كان يجمع الأساقفة بمدينة نيقية ونفى أريوس، كما ذكرنا ذلك كله من قبل وأن رئيس هذا الجمع كان إسكندروس بطرك الإسكندرية، وفي الخامسة عشر من رياسته توفي بعد الجمع بخمسة أشهر. وقال ابن بطريق: كانت ولاية إسكندروس في الخامسة من ملك قسطنطين وبقي ست عشرة سنة وقتل في السادسة والعشرين من ملك ديقلاديانوس وأنه كان على عهد أرسيانوس أسقف قيسارية. قال المسيحي: مكث بطركاً ثلاثاً وعشرين وكسر صنم النحاس الذي هو هيكل زحل بإسكندرية، وجعل مكانه كنيسة فهدمها العبيديون عند ملكهم إسكندرية.

وقال ابن الراهب: إن إسكندروس البطرك ولي أول سنة من ملك قسطنطين فمكث اثنتين وعشرين سنة وعلى عهده جاءت جاءت هلالنة أم قسطنطين لزيارة بيت المقدس وبنت الكنائس وسألت عن موضع الصليب فأخبرها مقاريوس الأسقف: إن اليهود أهالوا عليه التراب والزبل فأحضرت الكهنوتية وسألتهن عن موضع الصليب وسألتهن رفع ما هنالك من الزبل ثم استخرجت ثلاثة من الخشب وسألت أيتها خشبة المسيح؟ فقال لها الأسقف: علامتها أن الميت يحيا بمسيحها، فصدمت ذلك بتجربتها، واتخذوا ذلك اليوم عيداً لوجود الصليب، وبنت على الموضع كنيسة القمامة، وأمريت مقاريوس الأسقف ببناء الكنائس وكان ذلك لثلاثمائة وثمان وعشرين من مولد المسيح عليه السلام.

وفي حادية وعشرين من ملك قسطنطين كان مهلك إسكندروس البطرك، وولي مكانه تلميذه أثناسيوس كانت أمه تنصرت على يده فربي ابنها عنده وعلمه وولي بطركاً مكانه وسعى به أصحاب أريوش إلى الملك بعده مرتين بقي فيهما على كرسبه ثم رجع. وحمل قسطنطين اليهود بالقدس على النصرانية فأظهروها وافتتحوا في الامتناع من أكل الخنزير، فقتل منهم خلقاً

بطرس ومات لسنة من رجعتة ولقي من داريانوس قيصر ومن أصحاب أريوس شذائد ومحنًا.

وقال المسيحي: كان واليطينوس يدين بالأمانة، وأخوه واليس يدين بمذهب أريوس أخذه عن ثاودكسيس أسقف القسطنطينية، وعاهده على إظهاره، فلما ملك نفى جميع أساقفة الأمانة وسار أريوس أسقف أنطاكية بإذنه إلى الإسكندرية، فحبس بطرس البطرك وأقام مكانه أريوس من أهل سميساط، وهرب بطرس من السجن وأقام برومة، وكانت بين واليطينوس قيصر وبين سابور كسرى فتنة وحروب وهلك في بعض حروبه معهم، وولي بعده أخوه واليس. قال ابن العميد عن ابن الراهب: ستنين، وعن أبي فانيوس ثلاث سنين وسماء والاس. وقال: هو أبو الملكين اللذين تركا الملك وترهاها وسمي مكسينموس ودوقاديوس، قال: وفي الثانية من ملكه بعث طيماناس أخا بطرس بطركاً على إسكندرية فلبث فيهم سبع سنين ومات، وفي سادسة ملكه كان الجمع الثاني بقسطنطينية وقد مر ذكره. وفي أيام واليس قيصر هذا مات بطرك قسطنطينية فبعث أغريوس أسقف يزناروا وولاه مكانه فوليه أربع سنين ومات. ثم خرج على واليس خارج من العرب فخرج إليه فقتل في حروبه ثم ولي أغريادانوس قيصر، قال ابن العميد: وهو أخو واليس وكان والنطوس بن واليس شريكاً له في الملك وملك سنة واحدة، وقال عن أبي فانيوس ستنين، وعن ابن بطريق ثلاث سنين.

وذكر عن ابن المسيحي وابن الراهب: أن ثاوداسيوس الكبير كان شريكاً لهما وأن ابتداء ملكهم لستمائة وتسعين من ملك الإسكندر، وأنه رد جميع ما نفاه واليس قبله من الأساقفة إلى كرميه وخلق كل واحد مكانه ومات أغريادانوس وابن أخيه في سنة واحدة، قال ابن العميد: وملك بعدهما ثاوداسيوس سبع عشرة سنة باتفاق لستمائة وتسعين من ملك الإسكندر وإحدى وثلاثين من ملك سابور كسرى، وفي سادسة ملكه مات أثاناسيوس، بطرك إسكندرية فولي مكانه كاتيه تاوفيل، وكان بطرك القسطنطينية يوحنا فم الذهب، وأسقف قبرس أبوفانيوس كان يهودياً وتصر.

قال: وكان لثاوداسيوس ولدان أرقاديوس وبرباريوس، قال: وفي خامسة عشر من ملكه ظهر الفتية السبعة أهل الكهف اللذين قاموا أيام دقيانوس ولبثوا في نومهم ثلثمائة سنة وتسع سنين كما قصه القرآن، ووجد معهم صندوق النحاس والصحيفة التي أودع البطريق فيها خبرهم، وبلغ الأمر إلى قيصر ثاوداسيوس فبعث في طلبهم فوجدهم قد ماتوا، فأمر أن يبنى عليهم كنيسة ويتخذ يوم

وولي ابن عمه يولياش. وقال هروشيوش: ابن منخشمطش قال: وملك سنة واحدة. وقال ابن العميد: ملك ستنين باتفاق لثلاثة من ملك سابور وكان كافراً وقتل النصارى وعزلهم عن الكنائس وأطرحهم من الديوان وسار لقتل الفرس فمات من سهم أصابه. وقال هروشيوش: تورط في طريقه في مفازة ضل فيها عن سبيله فتقبض عليه أعداؤه وقتلوه، قال هروشيوش: وولي بعده بليان بن قسطنطي سنة أخرى، وزحف إلى الفرس وملكهم يومئذ سابور، فحجم عن لقاءهم، فصالحهم ورجع وهلك في طريقه. ولم يذكر ابن العميد بليان هذا وإنما قال: ملك من بعد يوليانوس الملك يوشانوش سنة واحدة باتفاق في السادسة عشر من ملك سابور، وكان مقدم عساكر يوليانوس، فلما قتل اجتماعوا إليه وبياعوه واشترط عليهم الدخول في النصرانية فغلبوه.

وأشار سابور بتوليته ونصب له صلياً في العسكر، ولما ولي نزل على نصيبين للفرس ونقل الروم الذي بها إلى آمد ورجع إلى كرسي مملكتهم، فرد الأساقفة إلى الكنائس، ورجع فيمن رجع أثاناسيوس بطرك إسكندرية، وطلب منه أن يكتب له أمانة أهل مجمع نيقية، فجمع الأساقفة وكتبوها وأشار عليه بلزومها. ولم يذكر هروشيوش يوشانوش هذا وذكر مكانه آخر قال: وسماء بلنسيان بن قسطنطس. قال: وقاتل أمماً من القوط والإفرنجية وغيرهم، قال: وافترق القوط في أيامه فرقتين على مذهبي أريوس وأمانة نيقية، قال: وفي أيامه ولي داساش بطركا برومة ثم هلك بالفالج، وملك بعده أخوه واليس أربع سنين وعمل على مذهب أريوس واشتد على أهل الأمانة وقتلهم. وثار عليه بأهل أفريقية بعض النصارى مع البربر فأجاز إليهم البحر وحاربهم فظفر بالثائر وقتله بقرطاجنة، ورجع إلى قسطنطينية فحارب القوط والأمم من ورائهم وهلك في حروبه.

وقال ابن العميد في قيصر الذي قتل واليس وسماء واليطنوس: أنه ملك اثنتي عشرة سنة فيما حكاه ابن بطريق وابن الراهب، وحكى عن المسيحي خمسة عشر سنة، وأن أخاه والياس كان شريكه في الملك وأنه كان مبانياً وأنه ملك لستمائة وست وسبعين للإسكندر وسبع عشرة لسابور كسرى. قال: وفي أيامه وثب أهل إسكندرية على أثاناسيوس البطرك ليقتلوه فهرب وقدموا مكانه لوقيوس وكان على رأي أريوس، ثم اجتمع أهل الأمانة بعد خمسة أشهر ورجعوه إلى كرسيه وطرده لوقيوس، وأقام أثاناسيوس بطركاً إلى أن مات، فولوا بعده تلميذه بطرس ستنين، ووثب به أصحاب لوقيوس فهرب ورجع لوقيوس إلى الكرسي فأقام ثلاث سنين. ثم وثب به أهل الأمانة ورجعوا

وهلك، فولي من بعده طودشيش ابن أخيه أركاديش ولم يذكر ابن العميد أنوريش وإنما ذكر بعد أركاديش ابنه طودشيش وسماه الأصغر.

قال: وملك اثنين وأربعين سنة باتفاق في خامسة ملك يزدجرد، وكانت بينه وبين الفرس حروب كثيرة. قال: وفي أول سنة من ملكه مات تافيل بطرك إسكندرية فولي مكانه كيرلوس ابن أخته، في السابعة عشر من ملكه قدم نسطوريش بطركاً بالقسطنطينية فأقام أربع سنين وظهرت عنه العقيدة التي دان بها وقد تقدمت، وبلغت مقاتله إلى كيرلس بطرك الإسكندرية، فخطب في ذلك بطرك رومة وأنطاكية وبيت المقدس، ثم اجتمعوا بمدينة أفسيس في مائتي أسقف واجمعوا على كفر نسطوريس ونفوه، فنزل أخيم من صعيد مصر وأقام بها سبع سنين، وأخذ بمقاتله نصارى الجزيرة والموصل إلى الفرات ثم العراق وفارس إلى المشرق، وولى طودوشيش بالقسطنطينية مقيسيموس عوضاً عن نسطورس فأقام بها ثلاث سنين. وفي ثامنة وثلاثين من ملك طودوشيش الأصغر مات كيرلس بطرك الإسكندرية وولي مكانه ديسقرس، ولقي شداث من مرقيان الملك بعده. وفي السادسة عشرة من ملك طودوشيش الأصغر مات يزدجرد كسرى وولي ابنه بهرام جور، وكانت بينه وبين خاقان ملك الترك وقائع ثم عدل عن حربهم ودخل إلى أرض الروم فهزمه طودوشيش وملك ابنه يزدجرد.

قال هروشيوش: وفي أيام طودوشيش الأصغر تغلب القوط على رومة وملكوها وهلك ملكهم أبطريك كما نذكر في أخبارهم، ثم صالحوا الروم على أن يكون لهم الأندلس فانقلبوا إليها وتركوا رومة انتهى قال ابن العميد: ثم ملك مرقيان بعده ست سنين باتفاق وتزوج أخت طودوشيش وسماه هروشيوش مرقيان بن مليكة. قالوا: وكان في أيامه المجمع الرابع بمقدونية وقد تقدم ذكره، وإنه كان بسبب ديسقوس بطرك إسكندرية وما أحدث من البدعة في الأمانة، فأجمعوا على نفيه وجعلوا مكانه برطارس، واقرت النصرى إلى ملكية وهم أهل الأمانة فنسبوا إلى مرقيان قيصر الملك الذي جمعهم وعهد بأن لا يقبل ما اتفق عليه أهل المجمع الخلقدونى، وإلى يعقوبية وهم أهل مذهب ديسقوس وتقدم الكلام في تسميتهم يعقوبية، وإلى نسطورية وهم نصارى المشرق. وفي أيام مرقيان سكن شمعون الحنيس الصومعة بأنطاكية وترهب وهو أول من فعل ذلك من النصارى، وعلى عهده مات يزدجرد كسرى ومات مرقيان قيصر لست سنين من ملكه وملك بعده لاون الكبير.

ظهورهم عيداً. قال المسيحي: وكان أصحاب أريوس قد استولوا على الكنائس منذ أربعين سنة فازالهم عنها ونفاهم وأسقط من عساكره كل من يدين بتلك المقالة، وعقد المجمع الثاني بقسطنطينية لثلاثين وخمسين سنة من مجمع نيقية، وقرر فيه الأمانة الأولى بنيقية وعهدوا أن لا يزداد فيها ولا ينقص. وفي الخامسة عشر من ملكه مات سابور بن سابور وملك بعده بهرام. ثم هلك تاوداسيوس لسبع عشرة سنة من ملكه.

وأما هروشيوش فقال بعد ذكر واليس: وملك بعده وليطانش ابن أخيه فلنسيان ست سنين وهو الموفى أربعين عدداً من ملوك القياصرة، قال واستعمل طودوشيش بن أنطونش بن لويحان على ناحية المشرق فملك الكثير منها، ثم هجم أهل رومة على قائدهم فقتلوه وخلعوا وليطانش الملك، فلحق بطودوشيش بالمشرق فسلم إليه في الملك، فاقبل طودوشيش إلى رومة وقتل الثائر بها واستقل بملك القياصرة، وهلك لأربع عشرة سنة من ولايته، فولي ابنه كاديكش. ويظهر من كلام هروشيوش أن طودوشيش هو تاوداسيوس الذي ذكره ابن العميد، لأنهما متفقان في أن ابنه أركاديس ومقاريان في المدة، فلعل وليطانش الذي ذكره هروشيوش هو أغراديانوس الذي ذكره ابن العميد اهـ.

قال ابن العميد: وملك أركاديش ولد تاوداسيوس الأكبر ثلاث عشرة سنة باتفاق في ثالثة ملك بهرام بن سابور وكان مقيماً بالقسطنطينية، وولي أخاه أنوريش على رومة، قال: وولد لأركاديش ابن سماء طودوشيش باسم أبيه، ولما كبر طلب معلمه أريانوس ليعلم ولده، فهرب إلى مصر وترهب، ووربه المال فأبى وأقام في مغارة بالجبل المقطم على قرية طرا ثلاث سنين، ومات فبنى الملك على قبره كنيسة وديراً يسمى دير القصير، ويقال: دير البغل. وفي أيامه غرق أبو فانيوس بمرجعه إلى قبرص، ومات يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية وكان نفاه أركاديش بموافقة أبي فانيوس، ودعا كل منهما على صاحبه فهلكا. وفي التاسعة من ملك أركاديش مات بهرام بن سابور وملك ابنه يزدجرد.

ثم هلك أركاديش وملك من بعده طودشيش الأصغر ابن أركاديش ثلاث عشرة سنة وولى أخاه أنوريش على رومة، فاقسما ملك اللطينيين، وانتقض لعهديهما قومن أفريقية وخالفه إلى طاعة القياصرة فحدثت بأفريقية فتنة لذلك. ثم غلب القومن أخاه فلحق بقبرص وترهب بها، ثم زحف القوط إلى رومة وفر عنها أنوريش فحاربوها ودخلوها عترة واستباحوها ثلاثاً وتحافوا عن أموال الكنائس. قال: ولما هلك أركاديش قيصر استبد أخوه أنوريش بالملك خمس عشرة سنة وأحسن في دفاع القوط عن رومة

ثالثة ملكه أمر ببناء مدينة في المكان الذي قتل فيه دارا فوق نصبيين. ثم وقعت الحرب بينه وبين الأكاسرة وخرب قياد مدينة آمد ونازلت عساكر الفرس إسكندرية وأحرقوا ما حولها من البساتين والحصون، وقتل بين الأمتين خلق كثير. وفي سادسة ملكه مات أنناسيوس بطرك الإسكندرية قصير مكانه يوحنا وكان يعقوبياً ومات لتسع سنين، قصير بعده يوحنا الحسن ومات بعد إحدى عشرة. وفي أيام نسطاس قدم ساريوس بطركاً بأنطاكية وكان كلاهما على أمة ديسقوس. وفي سابعة وعشرين من ملك نسطاس قدم ساريوس بطركاً بأنطاكية ومات يوحنا بطرك إسكندرية فولى مكانه ديسقوس الجديد ومات لستين ونصف.

وقال سعيد بن بطريق: إن إيليا بطرك المقدس كتب إلى نسطاس قصير يسأله الرجوع إلى الملكية ويوضح له الحق في مذهبهم، وصبا إليه في ذلك جماعة من الرهبان، فأحضرهم وسمع كلامهم وبعث إليهم بالأموال للصداقات وعمارة الكنائس. وكان بقسطنطينية رجل على رأي ديسقوس فمضى إلى نسطاش قصير ومضى وأشار عليه باتباع مذهب ديسقوس وأن يرفض الجمع الخلقودوني. فقبل ذلك منه وبعث إلى جميع أهل ملكه، وبلغ ذلك بطرك أنطاكية فكتب إلى نسطاش قصير باللامة على ذلك فغضب ونفاه، وجعل مكانه بأنطاكية سويوس وبلغ ذلك إلى إيليا بطرك القدس، فجمع الرهبان ورؤساء الديور في نحو عشرة آلاف ولعنوا سويوس وأجرموه والملك نسطاش معه. فنفاه نسطاش إلى إيليا وذلك في ثالثة وعشرين من ملكه، فاجتمع جميع البطارقة والأساقفة من الملكية وأجرموا نسطاش الملك وسويوس وديسقوس وإمام اليعقوبية ونسطورس. قال ابن بطريق: وكان لسويوس تلميذ اسمه يعقوب البرادعي يطوف البلاد داعياً إلى مقالة سويوس وديسقوس فنسب اليعاقبة إليه. وقال ابن العميد: وليس كذلك لأن اليعاقبة سموا بذلك من عهد ديسقوس كما مر ثم هلك نسطاش لسبع وعشرين من ملكه، وملك بعده يشطاش قصير لثمانية وثلاثين من ملك قياد بن نبرون ولثمانية وثلاثين للإسكندر، وملك تسع سنين باتفاق. وقال هروشيوش سبعاً. وقال المسبحي كان معه شريك في ملكه اسمه يشطيان.

وفي ثالثة ملكه غزت الفرس بلاد الروم فوقعت بين الفرس والروم حروب كثيرة، وزحف كسرى في آخرها لثمانية من ملك يشطاش ومعه المنذر ملك العرب، فبلغ الرها وغلب الروم وغرق من الفريقين في الفرات خلق كثير وحمل الفرس أسارى الروم وسباياهم، ثم وقع الصلح بينهما بعد موت قيصر. وفي تاسعة ملكه أجاز البربر من المغرب إلى رومة وغلبوا عليها. قال

قال ابن العميد: لسبعمائة وسبعين من ملك الإسكندر، ولثانية من ملك نبرون، ملك ست عشرة سنة. وواقعه هروشيوش على مدته، وقال فيه ليون بن شمخية. قال ابن العميد: وكان على مذهب الملكية ولما سمع أهل إسكندرية بموت مركيان وثبوا على برطارس البطرك فقتلوه بعد ست سنين من ولايته وأقاموا مكانه طيمانوس، وكان يعقوبياً فجاء قائد من قسطنطينية بعد ثلاث سنين من ولايته فنفاه، وأبدل عنه سورس من الملكية وأقام تسع سنين. ثم عاد طيمانوس بالأمر لاون قيصر، ويقال: أنه بقي بطركاً اثنتين وعشرين سنة. ولثانية عشر من ملك لاون زحف الفرس إلى مدينة آمد وحاصروها وامتنعت عليهم، وفي أيامه مات شمعون الحبيص صاحب العمود ثم هلك لاون قيصر لست عشرة سنة من ملكه. قال ابن العميد: وولي من بعده لاون الصغير وهو أبو زنون الملك بعده. وقال ابن بطريق: وهو ابن سينون وكان يعقوبياً وملك سنة واحدة.

ولم يذكره هروشيوش وإنما ذكر زنون الملك بعده، وسماه سينون بالسين المهمة. وقال: ملك سبع عشرة سنة. وقال ابن العميد مثله ولثمانية عشر من ملك نبرون ولسبعمائة وسبع وثمانين للإسكندر، قال: وكان يعقوبياً وخرج عليه ولده ورجل من قرابته وحاربهما عشرين شهراً ثم قتلها وأتباعهما ودخل قسطنطينية ووجد بطركها وكان رديء العقيدة قد غير كتب الكنيسة وزاد ونقص، فكتب زنون قيصر إلى بطرك رومة وجمع الأساقفة فناظروه ونفوه. وفي سابعة ملك زنون مات طيمانوس بطرك إسكندرية فولى مكانه بطرس وهلك بعد ثمان سنين، فولى مكانه أنناسيوس وهلك لسبع سنين وكان قيماً ببعض البيع في بطركيته. وقال المسبحي: وفي أيام زنون احترق ملعب الخيل الذي بناه بطليموس الأرنباً بالإسكندرية.

وقال ابن بطريق: وفي أيام زنون هاجت الحرب بين نبرون والباطلة وهزموه في بعض حروبهم، ورد الكرة عليه بعض قواده كما في أخبارهم، ومات نبرون وتنازع الملك ابنه قياد ويلاش. وفي عاشر من ملك زنون غلب يلاش أخاه واستقل بالملك ولحق أخوه قياد بخاقان ملك الترك، ثم هلك يلاش لأربع سنين ورجع قياد واستولى على مملكة فارس وذلك في أربعة عشر من ملك زنون فأقام ثلاثاً وأربعين سنة.

وهلك زنون لسبع عشرة من ولايته، فملك بعده نسطاس سبعاً وعشرين سنة في أربعة من ملك قياد ولثمانمائة وثلاث للإسكندر، وكان يعقوبياً وسكن حماة ولذلك أمر أن تشيد وتحصن فبنيت في ستين. وعهد لأول ملكه أن يقتل كل امرأة كاتبة، وفي

وعشرين من ملك يشطيانش وقد مر ذكر ذلك.

وفي عهد قيصر هذا مات أبوليناريوس القائد الذي جعل بطركاً بإسكندرية لسبع عشرة سنة من ولايته، وهو كان رئيس هذا الجمع، وجعل مكانه يوحنا وكان أميناً وهلك لثلاث سنين، وانفرد اليعاقبة بالإسكندرية وكان أكثرهم القبط وقدموا عليهم طودوشوش بطركاً لبث فيهم اثنتين وثلاثين سنة، وجعل الملكية بطركهم داقيانوس وطردوا طودوشوش من كرسيه سنة أشهر، ثم أمر يشطيانش قيصر بأن يعاد فأعيد وطلب منه المغاسمة أن يقدم دقيانوس بطرك الملكية على الشمامسة فأجابهم.

ثم كتب يشطيانش إلى طودوشوش البطرك باجتماع الجمع الخلقودوني أو يترك البطركية، فتركها ونفاه وجعل مكانه بولس التنسي فلم يقبله أهل إسكندرية ولا ما جاء به. ثم مات وغلقت كنائس القبط اليعقوبية ولقوا شذائد من الملكية ومات طودوشوش البطرك في سابعة وثلاثين من ملكة يشطيانش وجعل مكانه بإسكندرية بطرس ومات بعد سنتين.

قال ابن العميد: وسار كسرى أنوشروان في مملكة يشطيانش قيصر إلى بلاد الروم وحاصر أنطاكية وفتحها وبنى قبلتها مدينة سماها رومة ونقل إليها أهل أنطاكية. ثم هلك يشطيانش وملك بعده يوشطونش قيصر لست وثلاثين من ملك أنوشروان ولثمانمائة وثمانين للإسكندر فملك ثلاثة عشر سنة. وقال هروشيوش: إحدى عشرة سنة. ولثانية من ملكه مات بطرس ملك إسكندرية فجعل مكانه داميانو فمكث ستاً وثلاثين سنة وخربت الديور على عهده، وفي الثانية عشرة من ملكه مات كسرى أنوشروان بعد أن كان بعث العساكر من الديلم مع سيف بن ذي يزن من التابعة ففتحوا اليمن وصارت للأكاسرة.

ثم هلك يوشطونش قيصر لإحدى عشرة أو ثلاث عشرة من ملكه. وملك بعده طياربوس قيصر لثلاثة من ملك هرمز بن أنوشروان ولثمانمائة واثنين وتسعين للإسكندر، فملك ثلاث سنين عند ابن بطريق وابن الراهب، وأربعاً عند المسيحي. ولعهده انتقض الصلح بين الروم وفارس واتصلت الحرب، وانتهت عساكر الفرس إلى رأس عين الخابور، فثار إليهم موريق من بطارقة الروم فهزمهم، ثم جاء طباريش قيصر على أثره فعظمت الهزيمة واستحر القتل في الفرس وأسر الروم منهم نحواً من أربعة آلاف غربهم إلى جزيرة قبرص.

ثم انتقض بهرام مرزبان هرمز كسرى وطرده عن الملك بمنج من تخوم بلاد الروم وبعث بالصرينغ إلى طباريش قيصر،

ابن بطريق: وكان يشطيانش على دين الملكية فرد كل من نفاه نشطانش قبله منهم، وصير طيمانانوس بطركاً بالإسكندرية وكان يعقوبياً فلبث ثلاث سنين، وقبل سبع عشرة سنة.

وقال ابن الراهب: كان يشطيانش خلقودونياً ونفى طيمانانوس البطرك عن إسكندرية وجعل مكانه أبوليناريوس وكان ملكياً، وعقد مجمعاً بالقسطنطينية يريد جمع الناس على رأي الخلقودونية مذهبه، وأحضر شاورش بطرك أنطاكية وأساقفة المشرق فلم يوافقوه، فاعتقل بطرك أنطاكية سنين ثم أطلقه فسار إلى مصر وبقي مخفياً في الديور. ثم وصل أبوليناريوس بطرك إسكندرية ومعه كتاب الأمانة الخلقودونية، فقبل الناس منه وتبعوا مذهبه فيها وصاروا إليه وهلك يشطيانش تسع سنين من ملكه ثم ملك يشطيانش قيصر لإحدى وأربعين من ملك قياد ولثمانمائة وأربعين للإسكندر وكان ملكياً وهو ابن عم يشطيانش الملك قبله. وقال المسيحي: بل كان شريكه كما مر وملك أربعين سنة باتفاق. وقال أبو فانيوس: ثلاثاً وثلاثين. وفي سابعة ملكه غزا كسرى بلاد الروم وأحرق إيليا وأخذ الصليب الذي كان فيها، وفي حادية عشر من ملكه عصت السامرية عليه فغزاهم وخرب بلادهم، وفي سادسة عشر من ملكه غزا الحارث بن جبلة أمير غسان والعرب بيرة الشام وغزا بلاد الأكاسرة وهزم عساكرهم وخرب بلادهم ولقيه بعض مرازية كسرى فهزمهم ورد السبي منهم، ثم وقع الصلح بين فارس والروم وتوادعوا. وفي خمس وثلاثين من ملك يشطيانش عهد بأن يتخذ عيد الميلاد في أربع وعشرين من كانون الأول، وعيد الغطاس في ست منه، وكانا من قبل ذلك جميعاً في سادس كانون. وقال المسيحي: أراد يشطيانش حمل الناس على رأي الملكية طيمانانوس بطرك إسكندرية وكان يعقوبياً، وأراده على ذلك فامتنع فهم بقتله، ثم أطلقه فرجع إلى مصر مخفياً ثم نفاه بعد ذلك وجعل مكانه بولس، وكان ملكياً فلم يقبله اليعاقبة وأقام على ذلك سنين.

قال سعيد بن بطريق: ثم بعث قيصر قائداً من قواده اسمه يوليناريوس وجعله بطرك إسكندرية فدخل الكنيسة بزي الجند ثم لبس زي البطارقة وقُدس. فحموا به فصار إلى سياستهما فأقصدا ثم حملهم على رأي اليعقوبية وقتل من امتنع وكانوا مائتين. وفي أيام يشطيانش هذا ثار السامرة بأرض فلسطين وقتلوا النصاري وهدموا كنائسهم فبعث العساكر وأثنوا فيهم وأمر ببناء الكنائس كما كانت، وكانت كنيسة بيت لحم صغيرة فأمر بأن يوسع فيها فبنيت كما هي لهذا العهد. وفي عهده كان الجمع الخامس بقسطنطينية بعد مائة وثلاث وستين من الجمع الخلقودوني ولثلاثة

وهدموا الكنائس خارج صور والبطرك يقتل المقيدين ويرمي برؤوسهم إلى أن فنوا، وارتحل كسرى عن القسطنطينية جاثياً فاجفل اليهود عن صور وانهزموا.

وقال ابن العميد: وفي رابعة من قوقاص قيصر قدم يوحنا الرحوم بطركاً على الملكية بإسكندرية ومصر، وإنما سمي الرحوم لكثرة رحمته وصدقته، وهو الذي عمل اليمارستان للمرضى بإسكندرية. ولما سمع بمسير الفرس هرب مع البطريق الوالي بإسكندرية إلى قبرص فمات بها لعشر سنين من ولايته، وخلا كرسي الملكية بإسكندرية سبع سنين. وكان اليعاقبة بإسكندرية قدموا عليهم في أيام قوقاص قيصر بطركاً اسمه أنسطانيوس مكث فيهم اثني عشرة سنة، واسترد ما كانت الملكية استولت عليه من الكنائس اليعقوبية، وجاء أناسيوس بطرك أنطاكية بالهدايا سروراً بولايته، فتلقاه هو بالأساقفة والرهبان، واتخذت الكنيسة بمصر والشام وأقام عنده أربعين يوماً ورجع إلى مكانه.

ومات أنسطانيوس بعد اثني عشرة من ولايته لثلاثمائة وثلاثين من ملك ديقلديانوس ولما انتهى أبرويز في حصار القسطنطينية نهايته وضيق عليها وعدموا الأقوات، واجتمع البطارقة بعلوقيا وبعثوا السفن مشحونة بالأقوات مع هرقل أحد بطارقة الروم، ففرحوا به، ومالوا إليه وداخلهم في الملك، وأن قوقاص سبب هذه الفتنة، فثاروا عليه وقتلوه وملكوا هرقل، وذلك لتسعمائة واثنتين وعشرين للإسكندر، فارتحل أبرويز عن القسطنطينية راجعاً إلى بلاده، وملك هرقل بعد ذلك إحدى وثلاثين سنة ونصف عند المسيحي وابن الراهب، واثنتين وثلاثين عند ابن بطريق. وكانت ملكته أول سنة من الهجرة. وقال هروشيوش: لتسع وسماه هرقل بن هرقل بن أنطونيش.

ولما تملك هرقل بعث أبرويز بالصلح بوسيلة قتلهم موريش فاجابهم على تقرير الضريبة عليهم فامتنعوا فحاصروهم ست سنين أخرى إلى الثمان التي تقدمت، وجهدهم الجوع فخادعهم هرقل بتقرير الضريبة على أن يفرج عنهم حتى يجمعوا له الأموال. وضربوا الموعد معه ستة أشهر، ونقض هرقل فخالف كسرى إلى بلاده، واستخلف أخاه قسطنطين على قسطنطينية، وسار في خمسة آلاف من عساكر الروم إلى بلاد فارس فحرب وقتل وسبى وأخذ ابني أبرويز كسرى من مريم بنت موريش وهما قباذ وشيرويه. ومر مجلوان وشهرازور إلى المدائن ودجلة ورجع إلى أرمينية، ولما قرب من القسطنطينية، وارتحل أبرويز كسرى إلى بلاده فوجدها خراباً وكان ذلك عما أضعف من مملكة الفرس وأوهنها.

فبعث إليه المدد من الفرسان والأموال. يقال كان عسكر المدد أربعين ألفاً فسار هرمز ولقيه بهرام بين المدائن وواسط فانهزم واستبيح، وعاد هرمز إلى ملكه وبعث إلى طباريش بالأموال والهدايا أضعاف ما أعطاه، ورد إليه ما كانت الفرس أخذته من بلادهم وسألهم... وغيرها، ونقل من كان فيها من الفرس إلى بلاده. وسأله طباريش بأن يبني هيكلين للنصارى بالمدائن وواسط فاجابه إلى ذلك.

ثم هلك طباريش قيصر وملك من بعده موريش قيصر في السادسة لهرمز ولثمانمائة وخمس وتسعين للإسكندر وملك عشرين سنة باتفاق المؤرخين فأحسن السيرة. وفي حادية عشر من ملكه بلغه عن بعض اليهود بأنطاكية أنهم بالوا على صورة المسيح، فأمر بقتلهم ونفيهم. ولعمدة انتفض على هرمز كسرى قريبه بهرام وخلعه واستولى على ملكه وقتله، وسار ابنه أبرويز إلى موريش قيصر صريحاً فبعث معه العساكر ورد أبرويز إلى ملكه، وقتل بهرام الخارج عليه وبعث إليه بالهدايا والتحف كما فعل أبوه من قبله مع القيصرية، وخطب أبرويز من موريش قيصر ابنته مريم فزوجه إياها وبعث معها من الجهاز والأمتعة والأقمشة ما يضيئ عنه الحصر.

ثم وثب على موريش بعض مماليكه بمدخله قريبه البطريق قوقا قدسه عليه فقتله وملك على الروم وتسمى قيصر وذلك لتسعمائة وأربع عشرة للإسكندر وخمس عشرة لأبرويز.

فملك ثمانين سنين وقتل أولاد موريش وأفلت صغير منهم فلاح بطور سينا وترهب ومات هنالك. وبلغ أبرويز كسرى ما جرى على موريش وأولاده فجمع عساكره وقصد بلاد الروم ليأخذ ثار صهره، وبعث عساكره مع مرزبان خزرويه إلى القدس وعهد إليه بقتل اليهود وخراب البلد. وبعث بمربزان آخر إلى مصر والإسكندرية، وجاء بنفسه في عساكر الفرس إلى القسطنطينية وحاصرها وضيق عليها، وأما خزرويه المرزبان فسار إلى الشام وخرب البلاد. واجتمع يهود طبرية والخليل وناصره وصور وأعانوا الفرس على قتل النصارى وخراب الكنائس، فنهبوا الأموال وأخذوا قطعة من الصليب، وعادوا إلى كسرى بالسي وفيهم زخريا بطرك القدس، فاستوهبته مريم بنت موريش من زوجها أبرويز فوهبه إياها مع قطعة الصليب. ولما خلت الشام من الروم واجتمع الفرس على القسطنطينية، ترأس اليهود من القدس والخليل وطبرية ودمشق وقبرص، واجتمعوا في عشرين ألفاً وجاءوا إلى صور ليملكوها، وكان فيها من اليهود نحو من أربعة آلاف فتقبض بطركها عليهم وقبدهم، وحاصروهم عساكر اليهود

الإسكندر إليها تسعمائة ونيّف وعشرين سنة، ومنه إلى مولد عيسى ثلثمائة وثلاث سنين، وعمره إلى رفعه اثنان وثلاثون سنة، ومن رفعه إلى الهجرة خمسمائة وخمس وثمانون سنة. وقال هروشيوش: إن ملك هرقل كانت الهجرة في تسعته وسماه هرقل بن هرقل بن أنطونيوس لستمائة وإحدى عشرة من تاريخ المسيح، ولألف ومائة من بناء رومة واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن ملوك القياصرة من لدن هرقل والدولة الإسلامية إلى حين انقراض أمرهم وتلاشي أحوالهم

قال ابن العميد: وفي الثانية من الهجرة بعث أبرويز عساكره إلى الشام والجزيرة فملكها، وأُتخّن في بلاد الروم، وهدم كنائس النصارى واحتمل ما فيها من الذهب والفضة والأنية، حتى نقل الرخام الذي كان بالمباني، وحمل أهل الرها على رأي البيعوية بإغراء طبيب منهم كان عنده فرجعوا إليه وكانوا ملكية. وفي سابعة الهجرة بعث عساكر الفرس ومقدمهم مرزبان شهریار فدوخ بلاد الروم وحاصر القسطنطينية، ثم تغير له فكتب إلى المرازية معه بالقبض عليه، واتفق وقرع الكتاب بيد هرقل فبعث به إلى شهریار فانتفض ومن معه، وطلبوا هرقل في المدد فخرج معهم بنفسه في ثلثمائة ألف من الروم وأربعين ألفاً من الخزر الذين هم التركمان.

وسار إلى بلاد الشام والجزيرة وافتتح مدائنهم التي كان ملكها كسرى من قبل وفيما افتتح أرمينية، ثم سار إلى الموصل فلقية جموع الفرس وقائدهم المرازبان فانهزموا وقتل. وأجفل أبرويز عن المدائن واستولى هرقل على ذخائر ملكهم، وكان شيرويه بن كسرى محبوساً فأخرجه شهریار وأصحابه وملكوه وعقدوا مع هرقل الصلح، ورجع هرقل إلى آمد بعد أن ولي أخاه تداوس على الجزيرة والشام، ثم سار إلى الرها ورد النصارى البيعابة إلى مذهبهم الذي أكرهوا على تركه وأقام بها سنة كاملة.

وعن غير ابن العميد: وفي آخر سنة ست من الهجرة كتب النبي ﷺ إلى هرقل كتابه من المدينة مع دحية الكلبي يدعوه إلى الإسلام، ونصه على ما وقع في صحيح البخاري:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك

وخرج هرقل لتاسعة من ملكه لجمع الأموال، وطلب عامل دمشق منصور بن سرحون فاعتذر بأنه كان يحمل الأموال إلى كسرى، فعاقبه واستخلص منه مائة ألف دينار وأبقاه على عمله. ثم سار إلى بيت المقدس وأهدى إليه اليهود فأمّنهم أولاً ثم عرفه الأساقفة والرهبان بما فعلوه في الكنائس، ورأها خراباً وأخبروه بمن قتلوه من النصارى، فأمر هرقل بقتلهم فلم ينج منهم إلا من اختفى أو أبعد المجر إلى الجبال والبراري، وأمر بالكنائس فبنيت.

وفي العاشرة من ملكه قدم أندرسكون بطركاً للبيعابة بإسكندرية فأقام ست سنين خربت فيها الديور، ثم مات فجعل مكانه بنيامين فمكث سبعة وثلاثين سنة ومات والفرس يومئذ قد ملكوا مصر والإسكندرية.

وأما هرقل فسار من بيت المقدس إلى مصر وملكها وقتل الفرس، وولى على الإسكندرية فوس وكان أمانياً وجمع له بين البطركة والولاية. ورأى بنيامين البطرك في نومه شخصاً يقول قم فاخف إلى أن يجوز غضب الرب فاخفى، وتقبض هرقل على أخيه مينا وأرادته على الأخذ بالأمانة الخلقونية فامتنع فأخرقه بالنار ورمى بجثته في البحر. ثم عاد هرقل إلى قسطنطينية بعد أن جمع الأموال من دمشق وحمص وحماة وحلب وعمر البلاد، إلى أن ملك مصر عمرو بن العاص وفتحها لثلاثمائة وسبع وخمسين لديقلايانوس، وكتب لبنيامين البطرك بالأمان فرجع إلى إسكندرية بعد أن غاب عن كرسيه ثلاث عشرة سنة.

قال ابن العميد: وانتقل التاريخ إلى الهجرة لإحدى عشرة من ملك هرقل وذلك لتسعمائة وثلاث وثلاثين للإسكندر وستمائة وأربع عشرة للمسيح.

قال المسعودي: وقيل إن مولده عليه السلام كان لعهد نسطيانس الثاني الذي ذكر أنه نوسطيونس الذي بنى كنيسة الرها وأن ملكه كان عشرين سنة. ثم ملك هرقل بن نوسطيونس خمس عشرة سنة وهو الذي ضرب السكة المرقية، وبعده مورك بن هرقل، قال: والمشهور بين الناس أن الهجرة وأيام الشيوخين كان ملك الروم لهرقل. قال: وفي كتب السير أن الهجرة كانت على عهد قيصر بن مورك، ثم كان بعده ابنه قيصر بن قيصر أيام أبي بكر، ثم هرقل بن قيصر أيام عمر وعليه كان الفتح وهو المخرج من الشام، قال: ومدة ملكهم إلى الهجرة مائة وخمس وسبعون سنة.

قال الطبري: مدة ما بين عمارة المقدس بعد تخريبه يختصر إلى الهجرة على قول النصارى ألف سنة وتزيد، ومن ملك

وجاؤوا به إلى النبي ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية وردّه إلى قريته. وأقام بتيوك بضع عشرة ليلة وقفل إلى المدينة وبلغ خبر يوحنا إلى هرقل فأمر بقتله وصلبه عند قريته اهـ عن غير ابن العميد.

ورجعنا إلى كلامه قال: وفي الثالثة عشرة من الهجرة جهز أبو بكر العساكر من المسلمين من العرب لفتح الشام: عمرو بن العاص لفلسطين، ويزيد بن أبي سفيان لحمص، وشرحيل بن حسنة للبلقاء، وقائدهم أبو عبيدة بن الجراح. وبعث خالد بن سعيد بن العاصي إلى سماوة فلقية ماهاب البطريق في جموع الروم، فهزمهم خالد إلى دمشق ونزل موضع الصفراء، ثم أخذوا عليه الطريق ونزلوه ثانية فتجهز إلى جهة المسلمين وقتل ابنه. وبعث أبو بكر خالد بن الوليد بالعراق يسير إلى الشام أميراً على المسلمين فسار ونزل معهم دمشق وفتحوها كما نذكر في الفتوحات. وزحف عمرو بن العاص إلى غيره ولقيته الروم هنالك فهزمهم وتحصنوا بيت المقدس وقيسارية ثم زحف عساكر الروم من كل جانب في مائتين وأربعين ألفاً والمسلمون في بضع وثلاثين ألفاً، والتقوا باليرموك فانهزم الروم وقتل منهم من لا يحصى وذلك في الخامسة عشر من الهجرة. ثم تابعت عليهم الهزائم ونازل أبو عبيدة وخالد بن الوليد حمص فصالحوهم على الجزية.

ثم سار خالد إلى قنسرين فلقية مبناس البطريق في جموع الروم فهزمهم، وقتل منهم خلق كثير وفتح قنسرين ودوخ البلاد، ثم سار عمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة فحاصروا مدينة الرملة وجاء عمر بن الخطاب إلى الشام فعقد لأهل الرملة الصلح على الجزية وبعث عمرأ وشرحيل لحصار بيت المقدس فحاصروها، ولما أجهدهم البلاء طلبوا الصلح على أن يكون أمانهم من عمر نفسه، فحضر عندهم وكتب أمانهم ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عمر بن الخطاب لأهل إيلياء أنهم آمنون على دمائهم وأولادهم ونسائهم وجميع كنائسهم لا تسكن ولا تهدم اهـ.

ودخل عمر بن الخطاب بيت المقدس وجاء كنيسة القيامة فجلس في صحنها، وحن وقت الصلاة فقال للبرك: أريد الصلاة، فقال له صل موضعك، فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً، فلما قضى صلاته قال للبرك لو صليت داخل الكنيسة أخذنا المسلمون بعدي وقالوا هنا صلى عمر، وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها. ثم قال للبرك أرني موضعاً أبني فيه مسجداً فقال: على

إثم الأرسين. ﴿وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

فلما بلغه الكتاب جمع من كان بارضه من قريش وسالمهم عن أقربهم نسباً منه فأشاروا إلى أبي سفيان بن حرب، فقال لهم: إني سائله عن شأن هذا الرجل فاستمعوا ما يقوله. ثم سأل أبا سفيان عن أحوال نجب أن تكون للنبي ﷺ أو يتره عنها، وكان هرقل عارفاً بذلك، فأجاب أبو سفيان عن جميع ما سأل من ذلك. فرأى هرقل أنه نبي لا محالة مع أنه كان حزاء ينظر في علم النجوم، وكان عنده علم من القرآن الكائن قبل الملة بظهور الملة والعرب، فاستيقن بنبوته وصحة ما يدعو إليه حسبما ذكره البخاري في صحيحه.

وكتب النبي ﷺ إلى الحرث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام وعامل قيصر على العرب مع شجاع بن وهب الأسدي يدعوهم إلى الإسلام، قال شجاع: فأتيته وهو بغوطة دمشق يهيم التزل لقيصر حين جاء من حمص إلى إيلياء، فشغل عني إلى أن دعاني ذات يوم وقرأ كتابي وقال: من يتزعج مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن. ثم أمر بالخيول تمنل، وكتب بالخبر إلى قيصر، فنهاه عن المسير ثم أمرني بالانصراف وزودني بمائة دينار.

ثم بعث رسول الله ﷺ في الثامنة من الهجرة جيشه إلى الشام وهي غزوة مؤتة كان المسلمون فيها ثلاثة آلاف وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال: إن أصيب فجعفر فعبد الله بن رواحة. فانتهوا إلى معان من أرض الشام، ونزل هرقل صاب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم. وانضمت إليه جموع جذام والغيد وبهرام وبلي، وعلى بلي مالك بن زافلة، ثم زحف المسلمون إلى البلقاء ولقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب على مؤتة فكان التمهيص والشهادة، واستشهد زيد ثم جعفر ثم عبد الله، وانصرف خالد بن الوليد بالناس فقدموا المدينة. ووجد النبي ﷺ على من قتل من المسلمين ولا كوجده على جعفر بن أبي طالب لأنه كان تلامذه.

ثم أمر بالناس في السنة التاسعة بعد الفتح وحنين والطائف أن يتهاوا لغزو الروم فكانت غزوة تبوك، فبلغ تبوك وأثناء صاحب أيلة وجرباء وأذرح وأعطوا الجزية وصاحب أيلة يومئذ يوحنا بن روبة بن نفاثة أحد بطون جذام وأهدى له بغلة بيضاء، وبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وكان بها أكيدر بن عبد الملك فأصابوه بضواحيها في ليلة مقمرة فأسروه وقتلوا أخاه

على أهلها وذلك سنة سبع وعشرين.

وكان عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية كتب لبنيامين بطرك اليعاقبة بالأمان، فرجع بعد ثلاث عشرة من مغيبه، وكان ولاء هرقل في أول الهجرة كما قدمنا. وملك الفرس مصر والإسكندرية عشر سنين عند حصار قسطنطينية أيام هرقل، ثم غاب عن الكرسي عندما ملك الفرس وقدموا الملكية، وبقي غائباً ثلاث عشرة سنة أيام الفرس عشرة وثلاث من ملكة المسلمين، ثم أمته عمرو بن العاص فعاد ثم مات في تاسعة وثلاثين من الهجرة، وخلفه في مكانه أغاثا فملك سبع عشرة سنة.

ولما هلك قسطنطينوس بن قسطنطين في سابعة وثلاثين من الهجرة كما قلناه ملك على الروم في القسطنطينية ابنه يوطيانوس فمكث اثنتي عشرة سنة وتوفي سنة خمسين، فملك بعده طياريوس ومكث سبع سنين، وفي أيامه غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في عساكر المسلمين وحاصرها مدة ثم أفرج عنها، واستشهد أبو أيوب الأنصاري في حصارها ودفن في ساحتها، ولما قفل عنها توعدهم بتعطيل كنائسهم بالشام إن تعرضوا لقبره.

ثم قتل طياريوس قيصر سنة ثمان وخمسين وملك أوغسطس قيصر، وفي أيام ولايته مات أغاثا بطرك اليعاقبة القبط بإسكندرية وقدم مكانه يوحنا. ثم قتل أوغسطس قيصر ذبحه بعض عبيده سنة، وملك ابنه أصطفانيوس وكان لعهد عبد الملك بن مروان. وفي سنة خمس وستين من الهجرة زاد عبد الملك في المسجد الأقصى وأدخل الصخرة في الحرم. ثم خلع أصطفانيوس ثم ملك بعده لاون ومات سنة ثمان وسبعين، وملك طياريوس سبع سنين ومات سنة ست وثمانين.

فملك سطيانوس وذلك في أيام الوليد بن عبد الملك، وهو الذي بنى مسجد بني أمية بدمشق، يقال إنه أنفق فيه أربعمئة صندوق في كل صندوق أربعمئة عشر ألف دينار، وكان فيه من جملة الفعلة اثنا عشر ألف مرخم، ويقال كانت فيه ستمائة سلسلة من الذهب لتعليق القناديل فكانت تغطي عيون الناظرين وتفتن المسلمين فأزالها عمر بن عبد العزيز وردّها إلى بيت المال.

وكان الوليد لما اعتزم على الزيادة في المسجد أمر بهدم كنيسة النصارى وكانت ملاصقة للمسجد فأدخلها فيه، وهي معروفة عندهم بكنيسة مار يوحنا، ويقال إن عبد الملك طلبهم في ذلك فامتنعوا، وإن الوليد بذل لهم فيها أربعين ألف دينار فلم يقبلوا، فهدمها ولم يعظم شيئاً، وشكوا أمرها إلى عمر بن عبد العزيز وجاؤوا بكتاب خالد بن الوليد وعهده أن لا تحرب

الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب، ووجد عليها ردماً كثيراً فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه، واقتدى به المسلمون كافة فزال حينه، وأمر ببناء المسجد. ثم بعث عمرو بن العاص إلى مصر فحاصرها وأمه بالزبير بن العوام في أربعة آلاف من المسلمين فصالحهم المقوقس على الجزية، ثم سار إلى الإسكندرية فحاصرها وافتتحها.

وفي السابعة عشر من الهجرة جاء ملك الروم إلى حمص في جموع النصرانية وبها أبو عبيدة فهزمهم واستلحهم، ورجع هرقل إلى أنطاكية، وقد استكمل المسلمون فتح فلسطين وطبرية والساحل كله. واستقر العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام وقدم عليهم ماهاب البطريق وبعثه للقاء العرب، وكتب إلى عامله على دمشق منصور بن سرحون أن يمدّه بالأموال، وكان يحقد عليه نكبته من قبل، واستصفى ماله حين أفرج الفرج عن حصاره بالقسطنطينية لأول ولايته، فاعتذر العامل للبطريق عن المال وهون عليه أمر العرب.

فسار من دمشق للقائهم ونازلهم بجاية الخولان، ثم أتبعه العامل ببعض مال جهزه العساكر، وجاء العسكر ليلاً وأوقد المشاعل وضرب الطبول ونفخ البوقات، فظنهم الروم عسكر العرب جاؤوا من خلفهم وأنهم أحيط بهم، فاجفلوا وتساقطوا في الوادي وذهبوا طوائف إلى دمشق وغيرها من ممالك الروم، ولحق ماهاب بطور سيناء وترهب إلى أن هلك. وأتبع المسلمون الفل مع منصور إلى دمشق وحاصروها ستة أشهر فرقوا على أبوابها. ثم طلب منصور العامل الأمان للروم من خالد فأمنه، ودخل المدينة من الباب الشرقي، وتسامع الروم الذين بسائر الأبواب فهربوا وتركوها، ودخل منها الأمراء الآخرون عنوة ومنصور ينادي بأمان خالد، فاختلف المسلمون قليلاً ثم اتفقوا على أمان الروم الذين كانوا بالإسكندرية بعد أن افتتحها عمرو بن العاص ركبوا إليه البحر ووافوه بها.

ثم هلك هرقل لإحدى وعشرين من الهجرة وإحدى وثلاثين من ملكه، فملك على الروم بقسطنطينية قسطنطين وقتله بعض نساء أبيه لسته أشهر من ملكه، وملك أخوه هرقل بن هرقل، ثم تشام به الروم فخلعوه وقتلوه وملكوا عليهم قسطنطينوس بن قسطنطين، فملك ست عشرة سنة ومات لسابعة وثلاثين من الهجرة. وفي أيامه غزا معاوية بلاد الروم سنة أربع وعشرين وهو يومئذ أمير على الشام في خلافة عمر بن الخطاب، فدوخ البلاد وفتح منها مدناً كثيرة وقتل، ثم أغزى عساكر المسلمين إلى قبرص في البحر ففتح منها حصوناً وضرب الجزية

تقفور في خلافة الأمين وولي ابنه أستبران قيصر، وغزا المأمون سنة خمس عشرة ومائتين إلى بلاد الروم ففتح حصوناً عدة ورجع إلى دمشق. ثم بلغه أن ملك الروم غزا طرسوس والمصيصة وقتل منها نحواً من ألف وستمائة رجل، فرجع وأنسخ على أنطاغوا حتى فتحها صلحاً، وبعث المعتصم ففتح ثلاثين من حصون الروم، وبعث يحيى بن أكنم بالعساكر فدوخ أرضهم، ورجع المأمون إلى دمشق. ثم دخل بلاد الروم وأنسخ على مدينة لؤلؤة مائة يوم وجيز إليها العساكر مع عجيف مولاه، ورجع ملك الروم فانزال عجيفاً، فأمدته المأمون بالعسكر فرحل عنه ملك الروم وافتتح لؤلؤة صلحاً.

ثم سار المأمون إلى بلاد الروم ففتح سلعوس والبروة وبعث ابنه العباس بالعساكر فدوخ أرضهم وبنى مدينة الطولية ميلاً في ميل وجعل لها أربعة أبواب. ثم دخل غازياً بلاد الروم ومات في غزاته سنة ثمان عشرة ومائتين. وفي أيامه غلب قسطنطين على مملكة الروم وطرد ابن نفقور عنها، وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين فتح المعتصم عمورية وقصبتها معروفة في أخباره. اهـ كلام ابن العميد. وأغفلنا من كلامه أخبار البطارقة من لدن فتح الإسكندرية لأننا رأينا مستغنى عنه وقد صارت بطركيتهم الكبرى التي كانت بالإسكندرية بمدينة رومة، وهي هنالك للملكية ويسمون البابا ومعناه أبو الآباء، وبقي ببلاد مصر بطرك اليعاقبة على المعاهدين من النصارى بتلك الجهات وعلى ملوك النوبة والحبشة.

وأما المسعودي فذكر ترتيب هؤلاء القياصرة من بعد الهجرة والفتح كما ذكره ابن العميد، قال: والمشهور بين الناس أن الهجرة وأيام الشيخين كان ملك الروم فيها لهرقل، قال: وفي كتب أهل السير أن الهجرة كانت على عهد قيصر بن مورك، ثم كان بعده ابنه قيصر بن قيصر أيام أبي بكر، ثم هرقل بن قيصر أيام عمر، وعليه كان الفتح وهو المخرج من الشام أيام أبي عبيدة وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فاستقر بالقسطنطينية. وبعده مورك بن هرقل أيام عثمان، وبعده مورك بن مورك أيام علي ومعاوية، وبعده قلفظ بن مورك آخر أيام معاوية وأيام يزيد ومروان بن الحكم وكان معاوية يرأسه ويرأسه أباه مورك، وكانت تختلف إليه علامة نياق وبشره مورك بالملك وأخبره أن عثمان يقتل وأن الأمر يرجع إلى معاوية، وهادى ابنه قلفظ حين سار إلى حرب علي رضي الله عنه، ثم نزلت جيوش معاوية مع ابنه اليزيد قسطنطينية وهلك عليها في حصاره أبو أيوب الأنصاري.

ثم ملك من بعد قلفظ بن مورك لاون بن قلفظ أيام عبد

كنائسهم ولا تسكن، فراودهم على أخذ الأربعين ألفاً التي بذل لهم الوليد فأبوا، فأمر أن ترد عليهم فعظم ذلك على الناس، وكان قاضيه أبو إدريس الخولاني فقال لهم: تتركون هذه الكنيسة في الكنائس التي في العنة في المدينة وإلا هدمناها، فأذعنوا وكتب لهم عمر الأمان على ما بقي من كنائسهم.

وفي سنة ست وسبعين بعث كاتب الخراج إلى سليمان بن عبد الملك بأن مقياس حلوان بطل فأمر ببناء مقياس في الجزيرة بين القسطنطينية والجزيرة فهو لهذا العهد وفي سنة إحدى ومائة من الهجرة ملك تداوس على الروم سنة ونصفاً، ثم ملك بعده لاون أربعاً وعشرين سنة، وبعده ابنه قسطنطين. وفي سنة ثلاث عشرة ومائة غزا هشام بن عبد الملك الصائفة اليسرى، وأخوه سليمان الصائفة اليمنى، ولقيهم قسطنطين في جموع الروم فانهمزموا وأخذ أسيراً ثم أطلقوه بعد.

وفي أيام مروان بن محمد وولاية موسى بن نصير لقي النصارى بالإسكندرية ومصر شدة وأخذوا بغرامة المال واعتقل بطرك الإسكندرية أبي ميخايل، وطلب بمجملته من المال قبلوا موجودهم وانطلقوا يستسعون ما يحصل لهم من الصدقة، وبلغ ملك النوبة ما حل بهم فزحف في مائة ألف من العساكر إلى مصر، فخرج إليه عامل مصر، فرجع من غير قتال. وفي أيام هشام ردت كنائس الملكية من أيدي اليعاقبة، وولي عليهم بطرك قريباً من مائة سنة، كانت رئاسة البطرك فيها لليعاقبة وكانوا يعيشون الأساقفة للنواحي، ثم صارت النوبة من ورائهم للحبشة يعاقبة.

ثم ملك بالقسطنطينية رجل من غير بيت الملك اسمه جرجس، فبقي أيام السفاح والمنصور وأمره مضطرب، ثم مات وملك بعده قسطنطين بن لاون وبنى المدن وأسكنها أهل أرمينية وغيرها. ثم مات قسطنطين بن لاون وملك ابنه لاون، ثم هلك لاون وملك بعده نفقور وفي سنة سبع وثمانين ومائة غزا الرشيد هرقله ودوخ جهاتها، وصالحه نفقور ملك الروم على الجزيرة فرجع إلى الرقة وأقام شتاءً وقد كلب البرد، وأمن نفقور من رجوعهم فانتقض، فعاد إليه الرشيد وأنسخ عليه حتى قرر المودعة والجزيرة عليه ورجع. ودخلت عساكر الصائفة بعدها من درب الصنصاق فدوخوا أرض الروم، وجمع نفقور ولقيهم فكانت عليه هزيمة شتعا قتل فيها أربعون ألفاً ونجا نفقور جريحاً.

وفي سنة تسعين ومائة دخل الرشيد بالصائفة إلى بلاد الروم في مائة وخمسة وثلاثين ألفاً سوى المطوعة، وبت السرايا في الجهات، وأنسخ على هرقله ففتحها، وبلغ سبيلها ستة عشر ألفاً. وبعث نفقور بالجزيرة فقبل وشرط عليهم أن لا يعمر هرقله وهلك

الملك بن مروان، وبعده جيرون بن لاون أيام الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز. ثم غشهم المسلمون في ديارهم وغزوه في البر والبحر، ونازل مسلمة القسطنطينية، واضطرب ملك الروم وملك عليهم جرجيس بن مرعش وملك تسع عشرة سنة ولم يكن من بيت الملك. ولم يزل أمرهم مضطرباً إلى أن ملك عليهم قسطنطين بن ألون وكانت أمه مستبدة عليه لمكان صغره، ومن بعده تغفور بن استيراق أيام الرشيد وكانت له معه حروب وغزاه الرشيد فاعطاه الانقياد ودفع إليه الجزية، ثم نقض العهد فتجهز الرشيد إلى غزوه ونزل هرقله وافتتحها سنة تسعين ومائة وكانت من أعظم مدائن الروم، واتفاد تغفور بعد ذلك وحل الشروط.

وهلك أرمانوس وترك ولدين صغيرين، وكان تغفور غائباً في بلاد المسلمين فلما رجع اجتمع إليه زعماء الروم وقدموه لتدبير أمر الولدين وألبسوه التاج، وسار إلى بلاد المسلمين سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى حلب فهزم سيف الدولة وملك البلد وحاصر القلعة فامتعت عليه، وقتل ابن أخت الملك في حصارها فقتل جميع الأسرى الذين عنده ثم بنى سنة ست وخمسين مدينة بقيسارية ليجلب منها على بلاد الإسلام، فخافه أهل طرسوس واستأمنوا إليه فسار إليهم وملكها بالأمان وملك المصيصة عترة. ثم بعث أخاه في العساكر سنة تسع وخمسين إلى حلب فملكها، وهرب أبو المعالي بن سيف الدولة إلى البرية، وصالحه مرعويه بعد أن امتنع بالقلعة ورجع.

ثم إن أم الملكين ابني أرمانوس اللذين كانا مكفولين له، استوحشت منه وداخلت في قتله ابن الشمشق فقتله سنة ستين. وقام ابن أرمانوس الأكبر وهو بسيل بتدبير ملكه، وجعل ابن الشمشق دمسقاً وقام على الأورق أخيه تغفور، وعلى ابنه ورديس بن لاون واعتقلهما. وسار إلى الرها وميفارقين، وعاث في نواحيهما، وصانعه أبو تغلب بن حمدان صاحب الموصل بالمال فرجع. ثم خرج سنة اثنتين وستين، فبعث أبو تغلب ابن عمه أبا عبد الله بن حمدان فهزمه وأسرهم وأطلقه. وكان لأم بسيل أخ قام بوزارتها فتجلى في قتل ابن الشمشق بالسهم. ثم ولّى بسيل بن أرمانوس سقلاروس دمسقاً، فعصى عليه سنة خمس وستين وطلب الملك لنفسه، وغلبه بسيل.

ثم خرج على بسيل ورد بن منير من عظماء البطارقة، واستجاش بأبي تغلب بن حمدان وملكوا الأطراف، وهزم عساكر بسيل مرة بعد مرة، فأطلق ورديس لاون وهو ابن أخيه تغفور من معقله وبعث في العساكر لقتاله فهزمه ورديس، ولحق ورد بن منير بميفارقين صريحاً بعرض الدولة، وراسله بسيل في شأنه فجنح عضد الدولة إلى بسيل وقبض على ورديس واعتقله ببغداد، ثم أطلقه ابنه صمصام الدولة خمس سنين من اعتقاله، وشرط عليه إطلاق أسرى المسلمين، والنزول عن حصون عدة من معاقل الروم، وأن لا يغير على بلاد الإسلام. وسار فاستولى على ملطية ومضى إلى القسطنطينية فحاصرها وقتل ورديس بن لاون، واستنجد بسيل بملك الروم وزوجه أخته ثم صالح ورداً على ما بيده.

ثم هلك ورد بعد ذلك بقليل واستولى بسيل على أمره وسار إلى قتال البلغار فهزمهم وملك بلادهم وعاث فيها أربعين

الملك بن مروان، وبعده جيرون بن لاون أيام الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز. ثم غشهم المسلمون في ديارهم وغزوه في البر والبحر، ونازل مسلمة القسطنطينية، واضطرب ملك الروم وملك عليهم جرجيس بن مرعش وملك تسع عشرة سنة ولم يكن من بيت الملك. ولم يزل أمرهم مضطرباً إلى أن ملك عليهم قسطنطين بن ألون وكانت أمه مستبدة عليه لمكان صغره، ومن بعده تغفور بن استيراق أيام الرشيد وكانت له معه حروب وغزاه الرشيد فاعطاه الانقياد ودفع إليه الجزية، ثم نقض العهد فتجهز الرشيد إلى غزوه ونزل هرقله وافتتحها سنة تسعين ومائة وكانت من أعظم مدائن الروم، واتفاد تغفور بعد ذلك وحل الشروط.

وملك بعده استيراق بن تغفور أيام الأمين، وغلب عليه قسطنطين بن قلفط وملك أيام المأمون، وبعده نوفيل أيام المعتصم واسترد زبطرة ونازل عمورية وافتتحها وقتل من كان بها من أمم النصرانية. ثم ملك ميخائيل بن نوفيل أيام الواثق والمتوكل والمتنصر والمستعين، ثم تنازع الروم وملكوا عليهم نوفيل بن ميخائيل، ثم غلب على الملك بسيل الصقلي ولم يكن من بيت الملك وكان ملكه أيام المعتز والمهتدي وبعضاً من أيام المعتد، ومن بعده إليون بن بسيل بقية أيام المعتد وصدرأ من أيام المعتضد. ومن بعده الإسكندروس ونقموا سيرته فخلعوه وملكوا أخاه لاوي بن إليون بقية أيام المعتضد والكوفي وصدرأ من أيام المقتدر. ثم هلك وملك ابنه قسطنطين صغيراً وقام بأمره أرمنوس بطريق البحر وزوجه ابنته ويسمى الدمسقي وهو الذي كان يجارب سيف الدولة ملك الشام من بني حمدان، واتصل ذلك أيام المقتدر والقاهر والراضي والمتقي. وافترق أمر الروم وأقام بعض بطارقهم ويعرف أستفانوس في بعض النواحي وخوطب بالملك أرمنوس بطريراً بكرسي القسطنطينية. إلى هنا انتهى كلام المسعودي. وقال عقبه: فجميع سني الروم المنتصرة من أيام قسطنطين بن هلالنة إلى عصرنا وهو حدود الثلاثمائة والثلاثين للهجرة خمسمائة سنة وسبع سنين، وعدد ملوكهم أحد وأربعون ملكاً، قال: فيكون ملكهم إلى الهجرة مائة وخمساً وسبعين سنة. اهـ كلام المسعودي.

وفي تاريخ ابن الأثير: إن أرمانوس لما مات ترك ولدين صغيرين، وكان الدمسقي على عهده قوقاش وملك ملطية من يد المسلمين بالأمان سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وكان أمر الثغور لسيف الدولة بن حمدان، وملك قوقاش مرعش وعرزربة وحصونهما وأوقع بجاية طرسوس مراراً، وسار بسيف الدولة في بلادهم فبلغ خرشنة وصارخة ودوخ البلاد وفتح حصوناً عدة ثم رجع. ثم ولّى أرمانوس تغفور دمسقاً. واسم الدمسقي عندهم

وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ثم توفي قسطنطين سنة ست وأربعين، وملك على الروم أرماتوس وقارن ذلك بظهور الدولة السلجوقية واستيلاء طغرل بك على بغداد، فردد الغزو إليهم من ناحية أفريجيان، ثم سار ابنه الملك البارسلان وملك مدناً من بلاد الكرج منها مدينة آي وأنخن في بلادهم. ثم سار ملك الروم إلى منبج وهزم ابن مرداس وابن حسان وجوع العرب، فسار البارسلان إليه سنة ثلاث وستين وخرج أرماتوس في مائتي ألف من الروم والدوس والكرج ونزل على نواحي أرمينية، فزحف إليه البارسلان من أفريجيان فهزمه وحصل في أسره ثم فاداه على مال يعطيه وأجره عليه وعقد معه صلحاً. وكان أرماتوس لما انهزم وثب ميخائيل بعده على مملكة الروم، فلما انطلق من الأسر ورجع دفعه ميخائيل عن الملك والترم أحكام الصلح الذي عقده مع البارسلان وتربح أرماتوس إلى هنا انتهى كلام ابن الأثير.

ثم استفحل ملك الإفرنج بعد ذلك واستبدوا بملك رومة وما ورامها، وكان الروم لما أخذوا بدين النصرانية حملوا عليه الأمم المجاورين لهم طوعاً وكراهة، فدخل فيه طوائف من الأمم منهم الأرمن وقد تقدم نسبهم إلى ناحور أخى إبراهيم عليه السلام وبلادهم أرمينية وقاعدتها خلاط، ومنهم الكرج وهم من شعوب الروم وبلادهم الحزر ما بين أرمينية والقسطنطينية شمالاً في جبال ممتعة، ومنه الجركس في جبال بالعدوة والشرقية من بحر نيطنش وهم من شعوب الترك، ومنهم الروس في جزائر يبحر نيطنش وفي عدوته الشمالية ومنهم البلغار نسبة إلى مدينة لهم في العدو الشمالية أيضاً من بحر نيطنش، ومنهم البرجان أمة كبيرة متوغلون في الشمال لا تعرف أخبارهم لبعدها.

وهؤلاء كلهم من شعوب الترك وأعظم من أخذ به من الأمم الإفرنج وقاعدة بلادهم فرنجة، ويقولون فرنسة بالسين وملكهم الفرنسي، وهم في بسائط على عدوة البحر الرومي من شماليه وجزيرة الأندلس من ورائهم في المغرب تفصل بينهم وبينها جبال متوعدة ذات مسالك ضيقة يسمونها البون وسكانها الجلائقة من شعوب الإفرنج، وهؤلاء فرنسة أعظم ملوك الإفرنج بالعدوة الشمالية من هذا البحر، واستولوا على الجزيرة البحرية منه على صقلية وقبرص وأقريطش وجنوة، واستولوا أيضاً على قطعة من بلاد الأندلس إلى برشلونة، واستفحل ملكهم بعد القياصرة الأول.

ومن أمم الإفرنجية البنادقة وبلادهم حفاي خليج يخرج من بحر الروم متضابقاً إلى ناحية الشمال ومغرباً بعض الشيء على سبعمائة ميل من البحر وهذا الخليج مقابل لخليج القسطنطينية.

سنة. واستمدد صاحب حلب أبو الفضائل بن سيف الدولة، فلما زحف إليه منجوتكين صاحب دمشق من قبل الخليفة بمصر سنة إحدى وثمانين، فجاء بسيل لمدده وهزمه منجوتكين ورجع مهزوماً ورجع منجوتكين إلى دمشق، ثم عادوا الحصار فجاء بسيل صريحاً لأبي الفضل فأجفل منجوتكين من مكانه على حلب، وسار إلى حصص وشيزر فملكها وحاصر طرابلس، وصالحه ابن مروان على ديار بكر. ثم بعث الدوقس الدمستق إلى أمامه فبعث إليه صاحب مصر أبا عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان في العساكر فهزمه وقته.

ثم هلك بسيل سنة عشر وأربعمائة لنيف وسبعين من ملكه وملك بعده أخوه قسطنطين وأقام تسعاً ثم هلك عن ثلاث بنات، فملك الروم عليهم الكبرى منهن وأقام بأمرها ابن خالها أرماتوس وتزوجت به فاستولى على مملكة الروم. وكان خاله ميخائيل متحكماً في دولته ومدخلاً لأهله فمالت إليه الملكة وحملته على قتل أرماتوس، فقتله واستولى على الأمر. ثم أصابه الصرع وأذاه فعمد لابن أخته واسمه ميخائيل أيضاً وكان أرماتوس قد خرج سنة إحدى وعشرين إلى حلب في ثلاثة آلاف مقاتل، ثم خار عن اللقاء فاضطرب ورجع واتبعه العرب فنهوا عساكره، وكان معه ابن الدوقس من عظماء البطارقة فارتاب وقبض عليه. وخرج سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة في جموع الروم فملك الرها وسروج وهزم عساكر ابن مروان.

ولما ملك ميخائيل سار إلى بلاد الإسلام فلقبه الدريري صاحب الشام من قبل العلوية فهزمه واقتصر الروم بعدها عن الخروج إلى بلاد الإسلام. وملك ميخائيل ابن أخته كما قلناه وقبض على أخواله وقرباتهم وأحسن السيرة في المملكة، ثم طلب زوجته في الخلع فأبى، فتفاه إلى بعض الجزائر واستولى على المملكة سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. ونكر عليه البترك ما وقع فيه فهم يقتله ودخل بعض حاشيته في ذلك، ونمى الخبر إلى البترك فنادى في النصرانية بخلعه وحاصره في قصره واستدعى الملكة التي خلعها ميخائيل من مكانها وأعادوها إلى الملك فتفت ميخائيل كما تفاهوا أولاً.

ثم اتفق البترك والروم على خلع الملكة بنت قسطنطين وملكوا أختها الأخرى تودورة وسلموا ميخائيل لها، ثم وقعت الفتنة بين شيعة تودورة وشيعة ميخائيل واتصلت، وطلب الروم أن يملكوا عليهم من يحو هذه الفتنة وأقرعوا على المرشحين فخرجت القرعة على قسطنطين منهم فملكوه أمرهم، وتزوج بالملكة الصغيرة تودورة وجعلت أختها الكبرى على ما بذلته لها

وعظمت الفتن في تلك الآفاق ودامت الحال على ذلك نحواً من مائة سنة وملك الروم بالقسطنطينية في تناقص واضمحلال. وكان روجيه صاحب صقلية يغزو القسطنطينية من البحر ويأخذ ما يجد في مرساها من سفن التجار وشواني المدينة، ولقد دخل جرجي بن ميخائيل صاحب أسطوله إلى ميناء القسطنطينية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ورمى قصر الملك بالسهم، فكانت تلك أنكى على الروم من كل ناحية.

ثم كان استيلاء الإفرنج على القسطنطينية آخر المائة السادسة وكان من خبرها أن ملك الروم بالقسطنطينية أصره إلى الفرنسيين عظيم ملوك الإفرنج في أخته فزوجها له الفرنسيين وكان له منها ابن ذكر، ثم وثب بملك الروم أخوه فسلمه وملك القسطنطينية مكانه. ولحق الابن بحاله الفرنسيين صريحاً به على عمه فوجده قد جهز الأساطيل لارتجاع بيت المقدس، واجتمع فيها ثلاثة من ملوك الإفرنج بعساكرهم: دوقس البنادقة صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه كان ركوهم، وكان شيخاً أعمى نقاداً ذا ركب والمركس مقدم الفرنسيين وكيدفليد وهو أكبرهم، فأمر الفرنسيين بالجواز على القسطنطينية ليصلحوا بين ابن أخته وبين عمه ملك الروم، فلما وصلوا إلى مرسى القسطنطينية، خرج عمه وحاربه فهزموه ودخلوا البلد وهرب إلى أطراف البلد وقتل حاضروه وأضرمو النار في البلد، فاشتغل الناس بها وأدخل الصبي بشيعته، فدخل الإفرنج معه وملكوا البلد وأجلسوا الصبي في ملكه وساء أثرهم في البلد، صادروا أهل النعم وأخذوا أموال الكنائس، وثقلت وطأنهم على الروم ففعلوا الصبي وأخرجوه واستدعوا ملكهم عم الصبي من مكان مقره وملكوه عليهم.

وحاصروهم الإفرنج فاستنجد بسليمان بن قليج أرسلان صاحب قونية وبلاد الروم شرقي الخليج، وكان في البلد خلق من الإفرنج، فقبل أن يصل سليمان ثاروا فيها وأضرمو النيران حتى شغل بها الناس، وفتحوا الأبواب فدخل الإفرنج واستباحوا ثمانية أيام حتى أقفرت، واعتصم الروم بالكنيسة العظيمة منها وهي صوفيا. ثم خرجت جماعة القسيسين والأساقفة والرهبان، في أيديهم الإنجيل والصلبان فقتلهم أجمعين، ولم يراعوا لهم ذمة ولا عهداً، ثم خلعوا الصبي واقترعوا ثلاثتهم على الملك فخرجت القرعة على كيدفليد كبيرهم فملكوه على القسطنطينية وما يجاورها، وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل أفرطش ورودرس وغيرهما، وللمركيس مقدم الفرنسيين البلاد التي في شرقي الخليج. ثم تغلب عليهم بطريق من بطارقة الروم اسمه لسكري ودفع عنها الإفرنج وبقيت بيده واستولى بعدها على

وفي القرب منه وعلى ثمان مراحل من بلاده جنوة، ومن ورائها مدينة رومة حاضرة الإفرنجية ومدينة ملكهم وبها كرسي البطريرك الأكبر الذي يسمونه البابا. ومن أمم الإفرنجية الجلائقة وبلادهم الأندلس وهؤلاء كلهم دخلوا في دين النصرانية تبعاً للروم إلى من دخل فيهم منهم من أمم السودان والحبشة والنوبة، ومن كان على ملكة الروم من برايرة العدو بالمغرب مثل نغزاوة وهوارة بأفريقية والمصامدة بالمغرب الأقصى، واستفحل ملك الروم ودين النصرانية.

ولما جاء الله بالإسلام وغلب دينه على الأديان وكانت مملكة الروم قد انتشرت في حفاقي البحر الرومي من عدوتيه، فانتزعوا منهم لأول أمرهم عدوته الجنوبية كلها من الشام ومصر وأفريقية والمغرب وأجازوا من خليج طنجة فملكوا الأندلس كلها من يد القوط والجلائقة وضعف أمر الروم وملكهم بعد الانتهاء إلى غايته شأن كل أمة. ثم شغل الإفرنج بما دهمهم من العرب في الأندلس والجزائر بما كانوا يتخيّمونهم ويرددون الصوائف إلى بسائطهم أيام عبد الرحمن الداخل وبنه بالأندلس، وعبد الله الشيعي وبنه بأفريقية. وملكوا عليهم جزائر البحر الرومي التي كانت لهم صقلية وميورقة ودانية وأخواتها، إلى أن فشل ربح الدولتين وضعف ملك العرب، فاستفحل الإفرنجية ورجعت لهم واسترجعوا ما ملكه المسلمون إلا قليلاً بسيف البحر الرومي مضائق العرض في طول أربع عشرة مرحلة واستولوا على جزائر البحر كلها.

ثم سمو إلى ملك الشام وبيت المقدس مسجد أنبيائهم ومطلع دينهم فسرّبوإ إليه آخر المائة الخامسة، وتواثبوا على الأمصار والحصون وسواحلها. ويقال: إن المستنصر العبيدي هو الذي دعاهم لذلك وحرضهم عليه لما رجا فيه من اشتغال ملك السلجوقية بأمرهم، وإقامتهم سداً بينه وبينهم عندما سمو إلى ملك الشام ومصر. وكان ملك الإفرنجية يومئذ اسمه بردويل وصهره روجيه ملك صقلية من أهل طاعته، فنظّاهروا على ذلك وساروا إلى القسطنطينية سنة إحدى وتسعين ليجعلوها طريقاً إلى الشام، فمنعهم ملك الروم يومئذ ثم أجازهم على أن يعطوه ملطية إذا ملكوها فقبلوا شرطه. ثم ساروا إلى بلاد ابن قلتمش، وقد استولى يومئذ على مربة وأعمالها وأرزن الروم وأقصر وسواس.

افتتح تلك الأعمال كلها عند هبوب ربح قومه على السلجوقية، ثم حدثت الفتنة بينهم وبين الروم بالقسطنطينية، واستنجد كل منهم بملوك المسلمين في ثغور الشام والجزيرة،

القسطنطينية، وكان اسمه ميخائيل.

برومة منهم مكان سمة قيصر، فاختلف عليه أصحابه في ذلك فرجع عنه.

ثم صالح الرومانيين على أن يكون له ما يفتح من بلاد الأندلس لما كان أمر الرومانيين قد ضعف عن الأندلس ولحق بها ثلاث طوائف من الغريقيين فاقسموا ملكها وهم الأيسون والشوانيون والفندلس وباسم فندلس سميت الأندلس، وكان بالأندلس من قبلهم الأرياريون من ولد طوال بن يافت وهم أخوة الأنطاليس، سكنوها من بعد الطوفان وصاروا إلى طاعة أهل رومة، حتى دخل إليهم هؤلاء الطوابع من الغريقيين عندما اقتحم القوط مدينة رومة وغلبوا الأمم الذين كانوا بها من ولد طوال.

وقد يقال: إن هؤلاء الطوابع كلهم من ولد طوال بن يافت وليسوا من الغريقيين، واقتسم هؤلاء الطوابع ملكها وكانت جلقية لفندلس ولشبونة وماردة وطليلة ومرسية لشوانش وكانوا أشرافهم. وكانت إشبيلية وقرطبة وجيان وطالعة للأبيق وأميرهم عند ريش آخر لشيش أربعين سنة حين زحف إليهم القوط من رومة، وكان قد ولي عليهم بعد اطفانش ملك آخر منهم اسمه طشريك وقتله الرومانيون، وولي مكانه منهم ماسنة ثلاث سنين وزوج اخته من طودوسيوس ملك الرومانيين وصاحبه على أن يكون له ما يفتحه من الأندلس.

ثم مات وولي مكانه لزريق ثلاث عشرة سنة وهو الذي زحف إلى الأندلس وقتل ملوكها وطرده الطوائف الذين كانوا بها فأجازوا إلى طنجة وتغلبوا على بلاد البربر وصرفوا البربر الذين كانوا بالعدوة عن طاعة القسطنطين إلى طاعتهم، فلم يزالوا على ذلك إلى دولة يستيانوس نحواً من ثمانين سنة، ثم هلك طوريق ملك القوط بالأندلس وولي مكانه (.....) سبع عشرة سنة، وانتقض عليه البسكتس إحدى طوائف القوط فزحف إليهم وردهم إلى طاعته ثم هلك وولي بعده الديك ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت الإفرنج لعهده قد طمعوا في ملك الأندلس وأن يغلبوا عليها القوط، فجمعوا لهم وملكوا على أنفسهم منهم، فزحف إليهم الديك في أمم القوط إلى أن توغل في بلاد الإفرنج فغلبوه وقتلوه وعامة أصحابه.

وكانت القوط قبل دخولهم إلى الأندلس فرقتين كما ذكرنا في دولة بلنسيان بن قسطنطين من القيصرية المنتصرة، وكانت إحدى الفرقتين قد أقامت بمكانها من نواحي رومة فلما بلغهم خبر الديك صاحب الأندلس منهم امتعضوا لذلك، وكان أميرهم طورديك منهم، فزحف إلى الإفرنج وغلبهم على ما كانوا يملكونه من الأندلس، ودخل القوط الذين كانوا بالأندلس في طاعته فولي

وفي كتاب المؤيد صاحب حاة أنه أقام ببعض الحصون ثم بنيت القسطنطينية وملكها وفر الإفرنج في مراكزهم وملك الروم وقتل الذي كان ملكاً قبله، وتوفي سنة إحدى وثمانين وستمئة وعقد معه الصلح المنصور قلاون صاحب مصر والشام لذلك العهد، قال: وملك بعده ابنه ماند ويلقب الدوقس وشهرتهم جميعاً للسكري ثم انقضت دولة بني قليج أرسلان، وملك أعمالهم التتر كما نذكر في أخبارهم، وبقي بني السكري ملوكاً على القسطنطينية إلى هذا العهد، وملك شرقي الخليج بعد انقضاء دولة التتر من بلاد الروم ابن عثمان جق أمير التركمان، وهو الآن متحكم على صاحب القسطنطينية ومتغلب على نواحيه من سائر جهاته. وهذا ما بلغنا من أخبار الروم من أول دولتهم منذ يونان والقيصرية لهذا العهد. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن القوط وما كان لهم من الملك بالأندلس إلى حين الفتح الإسلامي وأولية ذلك ومصابره

هذه الأمة من أمم أهل الدولة العظيمة المعاصرة لدول الطبقة الثانية من العرب وقد ذكرناهم عقب اللطيين لأن الملك صار إليهم من بينهم كما ذكرناه، وسياقه الخبر عنهم أنهم كانوا يعرفون في الزمن القديم بالسيسين نسبة إلى الأرض التي كانوا يعمرونها بالشرق فيما بين الفرس واليونان، وهم في نسبهم إخوة الصين من ولد ماغوغ بن يافت، وكانت لهم مع الملوك السريانيين حروب موصوفة زحف إليهم فيها مومن مالي ملك سريان فدافعوه لعهده إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم كانت لهم حروب مع الفرس عند تخريب بيت المقدس وبناء رومة.

ثم غلبهم الإسكندر وصاروا في ملكته واندرجوا في قبائل الروم ويونان. ثم لما ضعف أمر الروم بعد الإسكندر وتغلبوا على بلاد الغريقيين ومقدونية ونبطة أيام غلينوش بن بارايان من ملوك القيصرية وكانت بينه وبينه حروب سجال، ثم غلبهم القيصرية من بعده وظفروا بهم، حتى إذا انتقل القيصرية إلى القسطنطينية وفشل أمرهم برومة زحف إليها هؤلاء القوط واقتحموها عنوة فاستباحوها. ثم خرجوا عنها أيام طودوسيوس بن أركاديوس بعد حروب كثيرة، وكان أميرهم لذلك العهد أنطرك كما ذكرناه، ومات لعهده طودوسيوس وأرادوا أن يجعل اسمه سمة الملوك

تارة ويتهدى إليهم العز والغلبة بالكثرة فيظفرون بالملك ويغلبون على الأقاليم والمدن والأمصا، ثم يهلكهم الترفه والتنعيم ويغلبون عليهم ويقتلون ويرجعون إلى باديتهم، وقد هلك المتصدرون منهم للرئاسة بما بأسروه من الترفه ونفسارة العيش وتصيير الأمر لغيرهم من أولئك المبعدين عنهم بعد عصور أخرى. هكذا سنة الله في خلقه وللإبادة منهم مع من يجاورهم من الأمم حروب ووقائع في كل عصر وجيل بما تركوا من طلب المعاش، وجعلوا طلب المعاش رزقهم في معاشهم يترصد السيل والتهاب متاع الناس، ولما استفحل الملك للعرب في الطبقة الأولى للعمالقة، وفي الثانية للتبابعة، وكان ذلك عن كثرتهم فكانوا متشربين لذلك العهد باليمن والحجاز ثم بالعراق والشام، فلما تقلص ملكهم وكانوا بالعراق منهم بقية أقاموا ضاحين من ظل الملك. يقال في مبدأ كونهم هنالك أن مختصر لما سلطه الله على العرب وعلى بني إسرائيل بما كانوا من بينهم وقتلهم الأنبياء، قتل أهل اليرب بناحية عدن اليمن نبيهم شبيب بن ذي مهديم على ما وقع في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾. فأوحى الله إلى إرمياء بن حزقيا ويذخيا أن يسيرا مختصر إلى العرب الذين لا أغلاق ليبرتهم أن يقتل ولا يستحي ويستلحمهم أجمعين ولا يبقين منهم أثراً، وقال مختصر: وأنا رأيت مثل ذلك. وسار إلى العرب، وقد نظم ما بين أيلة والأيلة خيلاً ورجلاً، وتسامع العرب بأقطار جزيرتهم واجتمعوا للقاءه، فهزم عدناناً أولاً ثم استلحم الباقين ورجع إلى بابل، وجمع السبائا فانزلهم بالأنبار ثم خالطهم بعد ذلك النبطة.

وقال ابن الكلبي: إن مختصر لما نادى بغزو العرب افتتح أمره بالقبض على من كان في بلاده من تجارهم للميرة وأنزلهم الحيرة، ثم خرج إليهم في العساكر فرجعت قبائل منهم إليه أتروا الإذعان والمسألة، وأنزلهم بالسواد على شاطئ الفرات، وابتنوا موضع عسكرهم وسموه الأنبار، ثم أنزلهم الحيرة فسكنوها سائر أيامه ورجعوا إلى الأنبار بعد مهلكه.

قال الطبري: إن تبعاً أبا كرب لما غزا العراق أيام أردشير بهمن كانت طريقه على جبل طيء ومنه إلى الأنبار، وانتهى إلى موضع الحيرة ليلاً، فتحير وأقام فسمي المكان الحيرة. ثم سار لوجهه وخلف هنالك قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملية وقضاة، وطنوا وينوا ولحق بهم ناس من طيء وكلب والسكون ولباد والحرث بن كعب فكانوا معهم، وقيل وهو قريب من الأول: خرج تبع في العرب حتى تحيروا بظاهر الكوفة فنزل بها ضعفاء الناس فسميت الحيرة، ولما رجع ووجدهم قد استوطنوا،

عليهم ابنه أشترك ورجع إلى مكانه من نواحي رومة، فزحف الإفرنج إلى محاربة أشترك حتى غلبوه على طلوسة من ناحيتهم. وهلك أشترك بعد خمس سنين من ملكه وولي عليه بعده بشليقش أربع سنين، ثم بعده طودريق إحدى وستين سنة وقتله بعض أصحابه بأشيلية، وولي بعده أبرليق خمس سنين، وبعده طودس ثلاث عشرة سنة، وبعده طودشكيل ستين، وبعده أيلة خمس سنين وانتقض عليه أهل قرطبة فحاربهم وتغلب عليهم. وبعده طنجاد خمس عشرة سنة، وبعده ليولة سنة واحدة، وبعده لوبليدة ثمانين سنة وانتقضت عليه الأطراف فحاربهم وسكنهم ونكر عليه النصاري تثليث أريش وراودوه على الأخذ بتوحيدهم الذين يزعمونه فأبى وحاربهم فقتل. وولي ابنه زدریق ست عشرة سنة ورجع إلى توحيد النصاري بزعمهم وهو الذي بنى البلاد المنسوبة إليه بقرطبة.

ولما هلك ولي بعده على القوط ليولة ستين، وبعده تبديقا عندمار ستين، وبعده شيشوط ثمانين سنين وعلى عهده كان هرقل ملك قسطنطينية والشام، ولعهده كانت الهجرة، وهلك شيشوط ملك القوط وولي بعده زدریق آخر منهم ثلاثة أشهر، وبعده شتله ثلاث سنين، وبعده ششادش خمس سنين، وبعده خنشوند سبع سنين، وبعده جنشوند ثلاثاً وعشرين سنة، وهذه العصور ابتداء ضعف الأحكام للقوط. وبعده مانيه ثمان سنين، وبعده لوري ثمان سنين، وبعده إيقه ست عشرة سنة، وبعده غطسة أربع عشرة سنة وهو الذي وقع من قصته مع ابنه يليان عامل طنجة ما وقع. ثم بعده زدریق ستين وهو الذي دخل عليه المسلمون وغلبوه على ملك القوط وملكوا الأندلس، ولذلك العهد كان الوليد بن عبد الملك حينما تذكره عند فتح الأندلس إن شاء الله تعالى، هذه سياقة الخبر عن هؤلاء القوط نقلته من كلام هروشيوش وهو أصح ما رأيت في ذلك والله سبحانه وتعالى الموفق المعين بفضله وكرمه لا رب غيره ولا مأمول إلا خيره.

الطبقة الثالثة من العرب وهم العرب التابعة

للعرب وذكر أفاريقهم وأنسابهم وممالكهم

وما كان لهم من الدول على اختلافها

والبادية والرحالة منهم وملكها

هذه الأمة من العرب البادية أهل الخيام الذين لا أغلاق لهم لم يزالوا من أعظم أمم العالم وأكثر أجيال الخليقة، يكثرون الأمم

ونزل كثير من تنوخ ما بين الحيرة والأنبار بادين في الخيام لا يأوون إلى المدن ولا يخالطون أهلها، وكانوا يسمون عرب الضاحية، وأول من ملك منهم أزمان الطوائف مالك بن فهم، وبعده أخوه عمرو، وبعده ابن أخيه جذيمة الأبرش كما يأتي ذكر ذلك كله، وكان أيضاً ولد عمرو مزيقياء بعد خروجه من اليمن بالأزد قومه عند خروجه أنذرهم بسيل العرم في القصة المشهورة، وقد انتشروا بالشام والعراق وتحلف من تحلف منهم بالحجاز وهم خزاعة، فنزلوا مر الظهران وقاتلوا جرهما بمكة فغلبوهم عليها، ونزل نصر بن الأزد عمان، ونزلت غسان جبال الشراة، وكانت لهم حروب مع بني معد إلى أن استقروا هنالك في التخوم بين الحجاز والشام.

هذا شأن من أوطن العراق والشام من قبائل سبأ، تشاءم منهم أربعة وبقي باليمن ستة وهم: مذحج وكندة والأشعريون وحير وأغار وهو أبو خثعم وبجيلة، فكان الملك لهؤلاء باليمن في حير ثم التابعة منهم، ويظهر من هذا أن خروج مزيقياء والأزد كان لأول ملك التابعة أو قبله يسير، وأما بنو معد بن عدنان فكان إرميا وبرخيا لما أوحى إليهما بغزو يختصر العرب، أمرهما الله أن يستخرجا معد بن عدنان لأن من ولده عمداً عليه السلام، أخرجه آخر الزمان أختم به النبيين وأرفع به من الضعة، فأخرجاه على البراق وهو ابن اثني عشرة سنة، وذهبا به إلى حران فربي عندهما. وغزا يختصر العرب واستلحهم وهلك عدنان وبقيت بلاد العرب خراباً، ثم هلك يختصر فخرج معد بن عدنان مع أنبياء بني إسرائيل، فحجوا جميعاً وطفق يسأل عمن بقي من ولد الحرث بن مضااض الجرهمي. وكانت قبائل دوس (.....) أكثر جرهم على يده فقيل له بقي جرهم بن جليلة، فتزوج ابنته معانة وولدت له نزار بن معد.

قال السهيلي: وكان رجوع معد إلى الحجاز بعدما رفع الله بأسه عن العرب، ورجعت بقاياهم التي كانت بالشواقي إلى مجالاتهم بعد أن دوخ يختصر بلادهم وخرب معمرهم واستأصل حضوراً وأهل الرس التي كانت سطوة الله بالعرب من أجلهم. اهـ. كلام السهيلي، ثم كثر نسل معد في ربيعة ومضر ولياد، وتدافعوا إلى العراق والشام، وتقدم منهم أشلاء قفص كما ذكرنا وجاؤوا على أثرهم، فنزلوا مع أحياء اليمنية الذين ذكرناهم قبل، وكانت لهم مع تبع حروب وهو الذي يقول:

لست بالتبع اليكاني إن لم تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤذي ربيعة الحرج قسراً لم تعقها موانع العقواق
ثم كان بالعراق والشام والحجاز أيام الطوائف ومن بعدهم

تركهم هنالك وفيهم من كل قبائل العرب من هذيل ولخم وجعفي وطى وكلب وبني لحيان من جرهم.

قال هشام بن محمد: مات يختصر انتقل الذين أسكنهم بالحيرة إلى الأنبار ومعهم من انضم إليهم من بني إسماعيل وبني معد وانقطعت طوابع العرب من اليمن عنهم، ثم كثر أولاد معد وفرقتهم العرب، وخرجوا يطلبون النسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام، ونزلت قبائل منهم البحرين وبها يرمئ قوم من الأزد نزلوها أيام خروج مزيقياء من اليمن، وكان الذين أقبلوا من تهامة من العرب مالك وعمرو ابنا فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن قضاعة وابن أخيهما مالك بن زهير وابن عمرو بن فهم في جماعة من قومهم والختنار بن الحيق بن عمرو بن معد بن عدنان في قفص كلها ولحق بهم غطفان بن عمرو بن لطمان بن عبد مناف بن بدمع بن دعي بن أباد بن أرقص بن صبيح بن الحارث بن أنصى بن دعي وزهير بن الحرث بن أليل بن زهير بن أباد.

واجتمعوا بالبحرين وتحالفوا على المقام والتناصر وأنهم يد واحدة، وكان هذا الاجتماع والحلف أزمان الطوائف، وكان ملكهم قليلاً ومفترقاً وكان كل واحد منهم يغير على صاحبه ويرجع على أكثر من ذلك. فتطلعت نفوس العرب بالبحرين إلى ريف العراق، وطعموا في غلب الأعاجم عليه أو مشاركتهم فيه، واهتبلوا الخلاف الذي كان بين الطوائف وأجمع رؤسائهم المسير إلى العراق. فسار منهم الأول الخنفر بن الحيق في أشلاء قفص بن معد ومن معهم من أخطا الناس، فوجدوا بأرض بابل إلى الموصل بني إرم بن سام الذين كانوا ملوكاً بدمشق، وقيل لها من أجلهم دمشق إرم وهم من بقايا العرب الأولى، فوجدوهم يقاتلون ملوك الطوائف، فدفعوهم عن سواد العراق، فارتفعوا عنه إلى أشلاء قفص، هؤلاء ينسبون إلى عمرو بن عدي بن ربيعة جد بني المنذر عند نسبة مضر، وفي قول حماد الراوية كما يأتي ذكره.

ثم طلع مالك وعمرو ابنا فهم وابن مالك بن زهير من قضاعة وغطفان بن عمرو وصبيح بن صبيح وزهير بن الحرث من إباد فيمن معهم من غسان وحلفائهم بالأنبار، وكلهم تنوخ كما قدمنا، فغلبوا بني إرم ودفعوهم عن جهات السواد. وجاء على أثرهم غمارة بن قيس وغمارة بن لخم لمجدة من قبائل كندة، فنزلوا الحيرة وأوطنوها، وأقامت طالعة الأنبار وطالعة الحيرة لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم حتى مر بهم تبع وترك فيهم ضعفة عساكره كما تقدم، وأوطنوا فيهم من كل القبائل كما ذكرنا جعفي وطى وعيم وبني لحيان من جرهم.

وكانت هذه مع نزار ونسبها يومئذ كندة بن جنادة بن معد، وجيرانهم يومئذ أبا بن عمرو بن أد بن أدد أخي عدنان بن أدد. وكانت قضاة تنسب إلى معد ومعد إلى عدنان، والأشعريون إلى الأشعر بن أدد أخي عدنان، وكانوا يظنون من تهامة إلى الشام ومنزلهم بالصفاء. وكانت عسقلان من ولد ربيعة، وكانت قضاة ما بين مكة والطائف، وكندة من المعد إلى ذات عرق، ومنازل أبا والأشعر ومعد ما بين جدة والبحر. فلما اقتتلوا هزمت نزار قضاة وقتل حزيمة وخرجوا متفرقين، فسارت تيم اللات من قضاة وبعض بني ربيعة منهم وفرقة من الأشعريين نحو البحرين، ونزلوا هجر وأجلوا من كان بها من النبط وملكوها. وكانت الزرقاء بنت زهير كاهنة منهم فتكهنه لهم بتزول ذلك المكان والخروج عن تهامة وقالت في شعرها:

ودع تهامة لا وداع غالف بذمامه لكن قلبي ومسلم
لا تنكري حجراً مقام غريبة لن تعدني من ظاعين تهام

ثم تكهنه لهم في سجع بأنهم يقيمون بهجر حتى ينقض غراب أبقع عليه خلخال ذهباً ويقع على نخلة وصفتها فيسرون إلى الحيرة، وكان في سجعها مقام وتنوخ فسميت تلك القبائل تنوخ من أجل هذه اللفظة. ولحق بهم قوم من الأزدي فدخلوا في تنوخ وأصاب بقية قضاة الموتان، وسارت فرقة من بني حلوان فنزلوا عبقة من أرض الجزيرة ونسج نسائهم البرود العفريّة من الصوف والبرود التيزدية إليهم لأنهم بنو تيزد، وأغار عليهم الترك فأصابوا منهم، وأقبل الحرث بن قراد البهراني ليستجيش بني حلوان فعرض له أبيان بن سليح صاحب العين فقتله الحرث ولحقت بهرا بالترك، فاستنفذوا ما أخذوه من بني تيزد وهزمهم وقال الحرث:

كان الدهر جمع في ليال ثلاث بينهن بشهرزور
صفنا للأعاجم من معد صفواً بالجزيرة كالسعر

وسارت سليح بن عمرو بن الحاف وعليهم الهدرجان بن مسلمة، حتى نزلوا فلسطين على بني أدينة بن السميلد بن عاملة، وسارت أسلم بن الحاف وهي عذرة ونهد وحويكة وجهينة حتى نزلوا بين الحجر ووادي القرى، وأقامت تنوخ بالبحرين سنين. ثم أقبل الغراب بمقلتي الذهب ووقع على النخلة ونمق كما قالت الزرقاء فذكروا قولها وارتحلوا إلى الحيرة فنزلوها وهم أول من اختطها، وكان رئيسهم مالك بن زهير واجتمع إليه ناس كثيرة من بسائط القرى، وبنوا بها المنازل وأقاموا زماناً ثم أغار عليهم سابور الأكبر وقتلوه، وكان شعارهم يا لعباد الله فسموا العباد. وهزمهم سابور فافترقوا، وسار أهل المهبط منهم مع الضيزن بن معاوية

في أعقاب ملك التبابعة اليمنية والعذنانية ملك ودول بعد أن درست الأجيال قبلهم وتبدلت الأحوال السابقة لعصرهم، فاستحق بذلك أن يكون جيلاً منفرداً عن الأول، وطبقة مباينة للطبقات السالفة. ولما لم يكن لهم أثر في إنشاء العروبية كما للعرب العاربة، ولا في لغتها عنهم كما في المستعربة، وكانوا تبعاً لمن تبعهم في سائر أحوالهم استحقوا التسمية بالعرب التابعة للعرب. واستمرت الرياسة والملك في هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآساداً بما كانت صبغتها لهم من قبل وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم.

فكان الملك بالحيرة للخم في بني المنذر، وبالشام لغسان في بني جفنة، وبثرب كذلك في الأوس والخزرج ابني قيلة. وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا طوائع بادية وأحياء ناجعة، وكانت في بعضهم رياسة بدوية وراجمة في الغالب إلى أحد هؤلاء، ثم نبضت عروق الملك في مضر وظهرت قريش على مكة ونواحي الحجاز أزمنة عرف فيها منهم ودانت الدول بتعظيمهم. ثم صبح الإسلام أهل هذا الجيل وأمرهم على ما ذكرناه فاستحالت صيغة الملك إليهم، وعادت الدول لمضر من بينهم، واختصت كرامة الله بالنبوة بهم، فكانت فيهم الدول الإسلامية كلها، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة حسبما نذكر ذلك كله.

فلنأت الآن بذكر قبائل هذه الطبقة من قحطان وعدنان وقضاة، وما كان لكل واحدة منها من الملك قبل الإسلام وبعده: ومن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني في أخبار حزيمة بن نهد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاة قال: كان بدء تفرق بني إسماعيل من تهامة ونزوعهم عنها إلى الآفاق وخروج من خرج منهم عن نسبه، أن قضاة كانوا مجاورين لنزار وكان حزيمة بن نهد فاسقاً متعرضاً للنساء، فشيب بفاطمة بنت يذكر وهو عامر بن عنزة، وذكرها في شعره حيث يقول:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا
وحالت دون ذلك من هموم هموم تخرج الشجر الرينا
أرى ابنة يذكر ظننت فحلت جنوب الحزن يا شحطاً مينا

وسخط ذلك يذكر خشية حزيمة على نفسه فاغتاله وقتله، وانظفت نار يذكر ولم يصح على حزيمة شيء حتى توجه به المطالبة على قضاة حتى قال في شعره:

فاه كان عند رضاب العصور فيها يعمل به الزنجيل
قتلت أباه على جهبا فتبخل إن تبخلت أو تقيل

فلما سمعت نزار شعر حزيمة بن نهد وقتله يذكر بن عنزة، ثاروا مع قضاة وتساندوا مع أحياء العرب الذين كانوا معهم،

وفي كتب الحكماء الأقدمين من يونان مثل بطليموس وهروشيوش ذكر القضاعيين والخبر عن حروبهم، فلا يعلم أهم أوائل قضاة هؤلاء وأسلافهم أو غيرهم، وربما يشهد للقول بأنهم من عدنان وأن بلادهم لا تتصل ببلاد اليمن وإنما هي ببلاد الشام وبلاد بني عدنان. والنسب البعيد يحيل الظنون ولا يرجع فيه إلى يقين.

ولبدأ بقحطان وبتوطنها: لما أن الملك الأقدم للعرب كان في نسب سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ومنه تشعب بطون حمير بن سبأ وكهلان بن سبأ وينفرد بنو حمير بالملك وكان منهم التابعة أهل الدولة المشهورة وغيرهم كما نذكر. فلبدأ بذكر حمير أولاً من القحطانية، ونذكر بعدهم قضاة لاتنسبهم في المشهور إلى حمير، ثم نتبعهم بذكر كهلان إخوان حمير من القضاعية، ثم نرجع إلى ذكر عدنان.

الخبر عن حمير من القحطانية وبتوطنها وتفرع شعوبها

قد تقدم لنا ذكر الشعوب من حمير الذين كان لهم الملك قبل التابعة فلا حاجة لنا إلى إعادة ذكرهم. وتقدم لنا أن حمير بن سبأ كان له من الولد تسعة وهم: الحميسع ومالك وزيد وعريب ووائل ومشروح ومعديكرب وأوس ومرة، فبنو مرة دخلوا إلى حضرموت، وكان من حمير أبين بن زهير بن الغوث بن أبين بن الحميسع بن حمير وإليهم تنسب عدنان أبين، ومنهم بنو الأملوكة وبنو عبد شمس وهما ابنا وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير، وعريب وأبين أخوان. ومن بني عبد شمس بنو شرعب بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس، وقد تقدم قول من ذهب إلى أن جشم وعبد شمس أخوان وهما ابنا وائل، والصحيح ما ذكرناه هنا فلترجع.

وبنو خيران وشعبان وهما ابنا عمرو أخوي شرعب بن قيس وزيد الجمهور بن سهل أخوي خيران وشعبان، ورابعهم حسان القليل بن عمرو وقد مر ذكره، ومن زيد الجمهور ذو رعين واسمه يريم بن زيد بن سهل وإليه ينسب عبد كلال الذي تقدم ذكره في ملوك التابعة. والحاتر وعريب ابنا عبد كلال بن عريب بن يشرح بن مدان بن ذي رعين وهما اللذان كتب لهما النبي ﷺ، ومنهم كعب بن زيد الجمهور ويلقب كعب الظلم وأبناء سبأ الأصغر بن كعب وإليه ينتهي نسب ملوك التابعة. ومن زيد الجمهور بنو حضور بن عدي بن مالك بن زيد وقد مر ذكرهم.

التوخي فنزل بالحضر الذي بناه الساطرون الجرمناني، فأقاموا عليه. وأغارت حمير على قضاة فأجلوهم وهم كلب. وخرج بنو زيان بن تغلب بن حلوان فلحقوا بالشام، ثم أغارت عليهم كثانة بعد ذلك بحين واستباحوهم فلحقوا بالسماوة وهي إلى اليوم منازلهم. أهد كلام صاحب الأغاني قلت: وأحياء جدهم لهذا العهد ما بين عترة وقلته وفلسطين إلى معان من أرض الحجاز.

الخبر عن أنساب العرب من هذه الطبقة الثالثة واحدة وذكر مواطنهم ومن كان له الملك منهم

إعلم أن جميع العرب يرجعون إلى ثلاثة أنساب وهي: عدنان وقحطان وقضاة: فأما عدنان فهو من ولد إسماعيل بالاتفاق، إلا ذكر الآباء الذين بينه وبين إسماعيل فليس فيه شيء يرجع إلى يقينه، وغير عدنان من ولد إسماعيل قد انقرضوا فليس على وجه الأرض منهم أحد وأما قحطان فليل من ولد إسماعيل وهو ظاهر كلام البخاري في قوله: باب نسبه اليمن إلى إسماعيل، وساق في الباب قوله ﷺ لقوم من أسلم يناضلون: ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً. ثم قال: وأسلم بن أنصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة يعني وخزاعة من سبأ والأوس والخزرج منهم، وأصحاب هذا المذهب على أن قحطان ابن الحميسع بن أبين بن قيثار بن نبت بن إسماعيل. والجمهور على أن قحطان هو يقطن المذكور في التوراة في ولد عابر وأن حضرموت من شعوب قحطان، وأما قضاة فليل أنها حمير قاله ابن إسحاق والكلبي وطائفة. وقد يحتج لذلك بما رواه ابن لهيعة عن عقبة بن عامر الجهني قال: يا رسول الله من نحن؟ قال: أنتم من قضاة بن مالك. وقال عمرو بن مرة وهو من الصحابة: نحن بنو الشيخ العجاز الأزهرى قضاة بن مالك بن حمير النسب المعروف غير المنكر.

وقال زهير: قضاة وأختها مضربة، فجعلهما أخوين. وقال: أنهما من حمير بن معد بن عدنان. وقال ابن عبد البر: وعليه الأكثر، ويروي عن ابن عباس وابن عمرو وجبير بن مطعم وهو اختيار الزبير بن بكار وابن مصعب الزبير وابن هشام. قال السهيلي: والصحيح أن أم قضاة وهي عيكرة مات عنها مالك بن حمير وهي حامل بقضاة فتزوجها معد وولدت قضاة فتكنى به ونسب إليه وهو قول الزبير. أهد كلام السهيلي.

وهو موثبان.

قال: ومن هؤلاء التباغة شمر يرعش بن ياسر ينعم بن عمرو ذي الأذعار، وأفرقش بن قيس بن صيفي، وبلقيس بنت إيلي أشرح بن ذي جدن بن إيلي أشرح بن الحرث بن قيس بن صيفي. قال: وفي أنساب التباغة تخليط واختلاف ولا يصح منها ومن أخبارهم إلا القليل. اهـ ومن زيد الجمهور ذو يزن بن عامر بن أسلم بن زيد. وقال ابن حزم: إن عامر هو ذو يزن، قال ومن ولده سيف بن النعمان بن عفير بن زرة بن عفير بن الحرث بن النعمان بن قيس بن عبيد بن سيف بن ذي يزن، الذي استجاش كسرى على الحبشة وأدخل الفرس إلى اليمن. هذه بطون حمير وأنسابها وديارهم باليمن من صنعاء إلى ظفار إلى عدن، وأخبار دولهم قد تقدمت والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ونلحق بالكلام في أنساب حمير بن سبأ أنساب حضرموت وجرحم وما ذكره النسابة من شعوبها: فإنهم يذكرونهما مع حمير لأن حضرموت وجرحم إخوة سبأ كما وقع في التوراة وقد ذكرناه ولم يبق من ولد قحطان بعد سبأ معروف العقب غير هذين.

فأما حضرموت فقد تقدم ذكرهم في العرب البائدة ومن كان منهم من الملوك يومئذ، ونهنا هنالك أن منهم بقية في الأجيال المتأخرة اندرجوا في غيرهم فلذلك ذكرناهم في هذه الطبقة الثالثة. قال ابن حزم: ويقال إن حضرموت هو ابن يقطن أخي قحطان والله أعلم. وكان فيهم رئاسة إلى الإسلام، منهم وائل بن حجر له صحبة وهو وائل بن حجر بن سعيد بن مسروق بن وائل بن النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن عدي بن شرحبيل بن الحرث بن مالك بن مرة بن حمير بن زيد بن لابي مالك بن قدامة بن أعجب بن مالك بن لابي بن قحطان، وابنه علقمة بن وائل. وسقط عنده بين حجر أبي وائل وسعيد بن مسروق أب اسمه سعد وهو ابن سعيد.

ثم قال ابن حزم: ويذكر بنو خلدون الأشيليون فيقال إنهم من ولد الجبار بن علقمة بن وائل منهم علي المنذر بن محمد وابنه بقرمونة وأشييلية، اللذين قتلها إبراهيم بن حجاج اللخمي غيلة، وهما ابنا عثمان أبي بكر بن خالد بن عثمان أبي بكر بن مخلوف المعروف بمخلدون الداخل المشرق. وقال غيره في خلدون الأول: إنه ابن عمرو بن خلدون. وقال ابن حزم في خلدون: أنه ابن عثمان بن هانيء بن الخطاطب بن كريب بن معديكرب بن الحرث بن وائل بن حجر. وقال غيره: خلدون بن مسلم بن عمر بن الخطاطب بن

وتقول اليمن أن منهم كان شعيب بن ذي مههم النبي الذي قتله قومه، فغزاهم بختنصر فقتلهم. وقيل بل هو من حضور بن قحطان الذي اسمه في التوراة يقطن. ومنهم أيضاً بنو ميثم وبنو حالة ابني سعد بن عوف بن عدي بن مالك أخي ذي رعين، وعوف هذا أخو حضور وأخوه أحاطة وميثم بنو حراز بن سعد، فمن ميثم كعب الأحبار وقد مر ذكره، وهو كعب بن مائع بن هلسوع بن ذي هجري بن ميثم. ومن أحاطة رهط ذي الكلاع وهو السميقي بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن يزيد وهو ذو الكلاع الأكبر بن النعمان بن أحاطة.

ومن عمرو بن سعد الحنابل والسحول بنو سودة بن عمرو بن الغوث بن سعد يصب، وذو أصبح أبرهة بن الصباح، وكان من ملوك اليمن لعهد الإسلام وقد مر ذكره ونسبه، ومنهم مالك بن أنس إمام دار الهجرة وكبير فقهاء السلف وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر وهو نافع بن عمرو بن الحرث بن عثمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح وأبناء يحيى ومحمد وأعمامه أويس، وأبو سهل والربيع، وكانوا حلفاء لبني تيم من قريش. ومن زيد الجمهور مرثد بن علس بن ذي جدن بن الحرث ابن زيد وهو الذي استجاشه امرؤ القيس على بني أسد قاتلي أبيه.

ومن بني سبأ الأصغر الأزوع وهم بنو مرثد بن زيد بن شدد بن زرة بن سبأ الأصغر، ومن إخوان هؤلاء الأزوع بنو يعفر الذين استبدوا بملك اليمن كما يأتي عند ذكر ملوك اليمن في الدولة العباسية، وهو يعفر بن عبد الرحمن بن كريب بن عثمان بن الروضاح بن إبراهيم بن مائع بن عون بن تدرص بن عامر بن ذي مغار البطين بن ذي مرايش بن مالك بن زيد بن غوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن شدد بن زرة.

وكان آخر ملوك بني يعفر هؤلاء باليمن أبسو حسان أسعد بن أبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر مملك أبو إبراهيم صنعاء وبني قلعة كحلان باليمن، وورث ملكه بنوه من بعده إلى أن غلب عليهم الصليحيون من همدان بدعوة العيديد من الشيعة كما نذكر في أخبارهم. ومن زيد الجمهور ملوك التباغة وملوك حمير من ولد صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد.

قال ابن حزم: فمن ولد صيفي هذا تبع وهو تبان وهو أيضاً أسعد أبو كرب بن كليكرب وهو تبع بن زيد وهو تبع بن عمرو وهو تبع ذو الأذعار بن أبرهة وهو تبع ذو المنار بن الرايش بن قيس بن صيفي، قال: فولد تبع أسعد أبو كرب حسان ذو معاهر وتبع زرة وهو ذو نواس الذي تهود وهود أهل اليمن، ويسمى يوسف، وقتل أهل نجران من النصاري. وعمرو بن سعد

على أن قضاة لم يكن له من الولد إلا الحاف ومنه سائر بطونهم وللحاف ثلاثة من الولد: عمر وعمران وأسلم بضم اللام قاله ابن حزم.

فمن عمرو بن الحاف حيدان ويلي وبهرا، فمن حيدان مهرة، ومن يلي جماعة من مشاهير الصحابة: منهم كعب بن عجرة وخديج بن سلامة وسهل بن رافع وأبو بردة ابن نيار، ومن بهرا جماعة من الصحابة أيضاً منهم: المقداد بن عمرو وينسب إلى الأسود بن عبد يغوث بن وهب خال رسول الله ﷺ أخى أمه وتبناه فنسب إليه. ويقال: إن خالد بن برمك مولى بني بهرا.

ومن أسلم سعد هذيم وجهينة ونهد بنو زيد بن ليث بن سود بن أسلم، فجهينة ما بين الينبع ويثرب إلى الآن في متسع من بركة الحجاز وفي شمالهم إلى عقبة إيلة مواطن يلي وكلاهما على العدو الشرقية من بحر القلزم وأجاز منهم أمم إلى العدو الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هنالك سائر الأمم وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهبهم إلى هذا العهد. ومن سعد هذيم بنو عذرة المشهورون بين العرب في المحبة، كان منهم جميل بن عبد الله بن معمر وصاحبه بثينة بنت حبابا. قال ابن حزم: كان لأبيها صعبة ومنهم عروة بن حزام وصاحبه عفرا. ومن بني عذرة كان رزاح بن ربيعة أخو قصي بن كلاب لأمه وهو الذي استظهر قصي به ويقومه على بني سعد بن زيد بن مناة ابن عم تميم فغلبهم على الإجازة بالناس من عرفة، وكانت مفتاح رياسته في قريش.

ومن عمران بن الحافي بنو سليح وهو عمرو بن حلوان بن عمران، ومن بني سليح الضجاعم بنو ضجع بن سعد بن سليح كانوا ملوكاً بالشام للروم قبل غسان. ومن بني عمران بن الحاف بنو جرم بن زيان بن عمران بطن كبير وفيهم كثير من الصحابة ومواطنهم ما بين غزة وجبال الشراة من الشام، وجبال الشراة من جبال الكرك. ومن تغلب بن حلوان بنو أسد وبنو النمر وبنو كلب قبائل ضخمة كلهم بنو وبرة بن تغلب، فمن النمر خشين بن النمر ومن بني أسد بن وبرة تنوخ وهم فهم بن تيم اللات بن أسد منهم مالك بن زهير بن عمرو بن عمرو بن فهم وعليه تنخت تنوخ، وعلى عهد أبيه مالك بن فهم كما مر وكانوا حلفاء لبني حزم. فتنوخ على ثلاثة أبطن بطن اسمه فهم وهم هؤلاء، وبطن اسمه نزار وهم ليس نزار لهم بوالد لكنهم من بطون قضاة كلها ومن بني تيم اللات ومن غيرهم بطون ثلاث يقال لهم: الأحلاف من جميع قبائل العرب من كندة ولخم وجذام وعبد

هانيء بن كريب بن معديكرب بن الحرث بن وائل. قال ابن حزم: والصدف من بني حضرموت وهو الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر، قال: ومن حضرموت العلاء بن الحضرمي الذي ولاه رسول الله ﷺ البحرين وأبو بكر وعمر من بعده إلى أن توفي سنة إحدى وعشرين، وهو العلاء بن عبد الله بن عتبة بن حماد بن مالك حليف بني أمية بن عبد شمس وأخوه ميمون بن الحضرمي ابن الصدف، فيقال عبد الله بن حماد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن أكبر بن عريب بن مالك بن الخزرج بن الصدف، قال: وأخت العلاء الصعبة بنت الحضرمي أم طلحة بن عبد الله اهـ.

وأما جرهم فقال ابن سعيد: إنهم أمتان أمة على عهد عاد وأمة من ولد جرهم بن قحطان، ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن ملك أخوه جرهم الحجاز، ثم ملك من بعده ابنه عبد ياليل بن جرهم، ثم ابنه جرشم بن عبد ياليل، ثم ملك من بعده ابنه عبد المدان بن جرشم، ثم ابنه نفيلة بن عبد المدان، ثم ابنه عبد المسيح بن نفيلة، ثم ابنه مضاخ بن عبد المسيح، ثم ابنه عمرو بن مضاخ، ثم أخوه الحرث بن مضاخ، ثم ابنه عمرو بن الحرث، ثم أخوه بشر بن الحرث، ثم مضاخ بن عمرو بن مضاخ. قال وهذه الأمة الثانية هم الذين بعث إليهم إسماعيل وتزوج فيهم اهـ.

الخبر عن قضاة و بطونها والإمام ببعض الملك الذي كان فيها

قد تقدم آنفاً ذكر الخلاف الذي في قضاة هل هم لحمير أو لعذنان ونقلنا الحجاج لكلا المذهبين وأتينا بذكر أنسابهم تالية حمير ترجيحاً للقول بأنهم منهم، وعلى هذا فقبل هو قضاة بن مالك بن حمير. وقال ابن الكلبي: قضاة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير. وكان قضاة فيما قال ابن سعيد ملكاً على بلاد الشحر، وصارت بعده لابنه الحاف ثم لابنه مالك. ولم يذكر ابن حزم في ولد الحاف مالكاً. قال ابن سعيد وكانت بين قضاة وبين وائل بن حمير حروب، ثم استقل ببلاد الشحر مهرة بن حيدان بن الحاف بن قضاة وعرفت به، قال وملك بنو قضاة أيضاً نجران ثم غلبهم عليها بنو الحرث بن كعب بن الأزد وساروا إلى الحجاز فدخلوا في قبائل معد، ومن هنا غلط من نسبهم إلى معد اهـ.

ولنذكر الآن شعب البطون من قضاة: اتفق النسابون

القيس اهـ كلام ابن حزم.

عبد العزى بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبدود بن عوف سبي أبوه زيد في الجاهلية وصار إلى خديجة فوهبت إلى النبي ﷺ، وجاءه أبوه وخيره النبي ﷺ فاختره على أبيه وأهله وأقام في كفالة النبي ﷺ ثم اعتقه، وربى ابنه أسامة في بيته ومع مواليه وأخباره مشهورة.

ومن بني كلب ثم من بني كنانة بن بكر بن عوف النسابة ابن الكلبي وهو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحرث بن عبد العزى بن امرئ القيس. قال ابن حزم: هكذا ذكره ابن الكلبي في نسبه وأرى امرؤ القيس هذا هو عامر بن النعمان بن عامر بن عبدود بن عوف بن كنانة بن عذرة وقد مر بقية نسبه، وكان لقضاعة هؤلاء ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق في أيلة وجبال الكرك إلى مشارف الشام واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك.

وكان أول الملك فيهم في تنوخ وتابعت فيهم فيما ذكر المسعودي ثلاثة ملوك: النعمان بن عمرو، ثم ابنه عمرو بن النعمان، ثم ابنه الحواري بن عمرو، ثم غلبهم على أمرهم سليح بن بطون قضاعة وكانت رياستهم في ضجعم بن معد منهم. وقارن ذلك استيلاء طيطش من القياصرة على الشام فولاهم ملوكاً على العرب من قبله يبيعون له من ساحتهم إلى أن ولي منهم زيادة بن هبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم. وخرجت غسان من اليمن فغلبوهم على أمرهم وصار ملك العرب بالشام لبني جفنة وانقرض ملك الضجاعم حينما نذكر.

وقال ابن سعيد: سار زيادة بن هبولة بن أبقي السيف منهم بعد غسان إلى الحجاز فقتله حجر أكل المرار الكندي، كان على الحجاز من قبل التبابعة، وأفى بقيتهم فلم ينج منهم إلا القليل، قال: ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاعة ودوس الذين تنخوا بالبحرين أي أقاموا، قال وكان لبني العبيد بن الأبرص بن عمر بن أشجع بن سليح ملك يتوارثونه بالحضر آثاره باقية في برة سنجار وكان آخرهم الضيزن بن معاوية بن العبيد المعروف عند الجرماقة بالساطرون وقصته مع سابور ذي الجنود من الأكاسرة معروفة.

قال: وكان لقضاعة ملك آخر في كلب بن وبرة يتداولونه مع السكون من كندة، فكانت لكلب دومة الجندل وتبوك ودخلوا في دين النصرانية وجاء الإسلام والدولة في دومة الجندل لأكيدر بن عبد الملك بن السكون، ويقال أنه كندي من ذرية الملوك الذين ولاهم التبابعة على كلب، فأسره خالد بن الوليد وجاء به إلى النبي ﷺ فصالح على دومة، وكان في أول من ملكها دجانة بن قنافة

ومن بني أسد بن وبرة بن القين واسمه النعمان بن جسر بن شيع اللات بن أسد ومن بني كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بنو كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب، قبيلة ضخمة فيها ثلاثة بطون بنو عدي وبنو زهير وبنو عليم وبنو جناب بن هبل ابن عبد الله بن كنانة بطون ضخمة ومنهم عبيدة بن هبيل شاعر قديم ويقول فيه بعض الناس ابن حرام، وهو الذي عنى امرؤ القيس بقوله:

نبكي الديار كما بكى ابن حرام

وقد قيل: إنه من بكر بن وائل، وقال هشام بن السائب الكلبي: إذا مثلوا بم بكى ابن حرام الديار أنشدوا خمسة أبيات من كلمات امرئ القيس المشهورة:

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

ويقولون إن بقيتها لامرئ القيس بن حجر، وهذا امرؤ القيس بن حرام شاعر قديم دثر شعره لأنه لم يكن للعرب كتاب لبدائنها، وإنما بقي من أشعارهم ما ذكره رواة الإسلام وقيدوه من رواية الكتاب من محفوظ الرجال ومن بني عدي بنو حصين بن ضمضم بن عدي كانت منهم نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة بن الحرث بن حصن امرأة عثمان بن عفان، ومنهم أبو الخطار الحسام بن ضرار بن سلامان بن جشم بن ربيعة بن حصن أمير الأندلس، ومنسبة بن شعيم بن منجاش بن مزغور بن منجاش بن هذيم بن عدي بن زهير، وابن ابنه حسان بن مالك بن مجدل الذي قام بمروان يوم مرج راهط وكانت رياسة الإسلام في كلب لبني مجدل هؤلاء ومن عقبهم بنو منقذ ملوك شيزر، ومن بني زهير بن جناب حنظلة بن صفوان بن توبل بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن شراحيل بن هريز بن أبي جابر بن زهير ولي إفريقية لهشام.

ومن عليم بنو جناب بنو معقل وربما يقال إن عرب المعقل الذين بالغرب الأقصى لهذا العهد وفي زمانه يتسبون فيهم، ومن بطون كلب بن عوف بن بكر بن عوف بن كعب بن عوف بن عامر بن عوف دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد امرئ القيس بن الخزرج بن عامر بن بكر بن عامر بن عوف صاحب رسول الله ﷺ الذي أثناء جبريل عليه السلام في صورته. ومنصور بن جهور بن حفر بن عمرو بن خالد بن حارثة بن العبيد بن عامر بن عوف القائم مع يزيد بن الوليد وولاه الكوفة، وحب رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن

همدان. ومن شعوب حاشد بنويام بن أصغى بن مانع بن مالك بن جشم بن حاشد ومنهم طلحة بن مصرف. ولما جاء الله بالإسلام افترق كثير من همدان في ممالكه، وبقي منهم من بقي باليمن، وكانوا شيعنة لعلي كرم الله وجهه ورضي عنه عندما شجر بين الصحابة وهو المشد فيهم متملاً:

فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ولم يزل التشيع دينهم أيام الإسلام كلها، ومنهم كان علي بن محمد الصليحي من بني يام القائم بدعوة العبيدين باليمن في حصن حرار من بني يام وهو من بطونهم وهو من بني يام من بطون حاشد، فاستولى عليه وورث ملكه لئنه حسباً نذكره في أخبارهم. وكانت بعد ذلك وقبله دولة بني الرسي أيام الزيدية بصعدة فكانت على يدهم وعظماهم، ولم يزل التشيع دينهم لهذا العهد.

وقال البيهقي: وتفرقوا في الإسلام فلم يبق لهم قبيلة وبرية إلا باليمن وهم أعظم قبائله وهم عصابة المعطي من الزيدية القائمين بدعوته باليمن، وملكوا جملة من حصون اليمن باليمن، ولهم بها إقليم بكيل وإقليم حاشد من بطونهم، قال ابن سعيد: ومن همدان بنو الزريع وهم أصحاب الدعوة والملك في عدن والحيرة وهم زيدية وإخوة همدان الهان بن مالك بن زيد بن أوسلة ومن مالك بن زيد أيضاً الأزد وهو أزد بن الغوث بن نبت بن مالك وخثعم وبجيلة ابنا أثمار بن أراش أخوي الأزد بن الغوث.

وقد يقال أثمار هو ابن نزار بن معد وليس بصحيح، فأما الأزد فبطن عظيم متسع وشعوب كثيرة، فمنهم بنو دوس من بني نصر بن الأزد وهو دوس بن عدنان بالباء الثالثة ابن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحرث بن كعب بن مالك بن نصر بن الأزد بطن كبير، ومنهم كان جذية بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس وديارهم بنواحي عمان، وكان بعد دوس وجذية ملك بعمان في إخوانهم بني نصر بن زهران بن كعب، كان منهم قبيل الإسلام المستكبر بن مسعود بن الجرار بن عبد الله بن مغولة بن شمس بن عمرو بن غنم بن غالب بن عثمان بن نصر بن زهران، والذي أدرك الإسلام منهم جيفر بن الجلندي بن كركر بن المستكبر وأخوه عبد الله ملك عمان، كتب إليهما النبي ﷺ فأسلموا، واستعمل على نواحيهما عمرو بن العاص.

ومن الأزد من بني مازن بن الأزد بنو عمرو مزيقيا بن عامر ويلقب ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البهلولى بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وعمرو هذا وآباؤه كانوا ملوكاً على بادية كهلان باليمن مع حمير واستفحل لهم الملك من بعدهم.

بن عدي بن زهير بن جناب، قال: وبقيت بنو كلب الآن في خلق عظيم على خليج القسطنطينية منهم مسلمون ومنهم متصرفون. اهـ الكلام في أنساب قضاة.

قال ابن حزم: وجميع قبائل العرب راجعة إلى أب واحد حاش ثلاث قبائل: وهي تنوخ والعتيقي وغسان، فأما تنوخ فقد ذكرناهم، وأما العتيقي فهم من حجر حمير ومن حجر من ذي رعين ومن سعد العشيرة ومن كنانة بن خزيمه ومنهم زيد بن الحرث العتيقي من حجر حمير وهو مولى عبد الرحمن بن القاسم وخالد بن جنادة المصري صاحب مالك بن أنس، وهو مولى زيد لاحظ الشكل المذكور من أسفل، وأما غسان فإنهم من بني أب لا يدخل بعضهم في هذا النسب ويدخل فيهم من غيرهم. وسموا العتقا لأنهم اجتمعوا ليفتكوا برسول الله ﷺ فظفر بهم فاعتقهم، وكانوا جماعة من بطون شتى. وسموا تنوخ لأن التنوخ الإقامة فتحالفوا على الإقامة بموضعهم بالشام وهم من بطون شتى. وأما غسان فإنهم أيضاً طوائف نزلوا بماء يقال له: غسان فنسبوا إليه اهـ كلام ابن حزم.

الخبر عن بطون كهلان من القحطانية وشعوبهم واتصال بعضها مع بعض وانقضائها

هؤلاء بنو كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان إخوة بني حمير بن سبا، وتداولوا معهم الملك أول أمرهم، ثم انفرد بنو حمير به وبقيت بطون بني كهلان تحت ملكهم باليمن. ثم لما تقلص ملك حمير بقيت الرئاسة على العرب البادية لبني كهلان لما كانوا بادين لم يأخذ ترف الحضارة منهم ولا أدركهم الهرم الذي أودى بجمير، إنما كانوا أحياء ناجعة في البادية والرؤساء والأمراء في العرب إنما كانوا منهم. وكان لكندة من بطونهم ملك باليمن والحجاز، ثم خرجت الأزد من شعوبهم أيضاً من اليمن مع مزيقيا وافترقوا بالشام، وكان لهم ملك بالشام في بني جفنة، وملك يثرب في الأوس والخزرج، وملك بالعراق في بني فهم. ثم خرجت لحم وطيء من شعوبهم أيضاً من اليمن، وكان لهم ملك بالحيرة في آل المنذر حسبما نذكر ذلك كله.

وأما شعوبهم فهي كلها تسعة من زيد بن كهلان في مالك بن زيد وعريب بن زيد، فمن مالك بطون همدان وديارهم لم تزل باليمن في شرقه، وهم بنو أوسلة، وهو همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الجبار بن مالك بن زيد بن نوف بن

وكانت أرض سبأ باليمن لذلك العهد من أرفه البلاد وأخصبها وكانت مدافع للسيول المتحدرة بين جبلين هنالك فضرب بينهما سد بالصخر والفار يحبس سيول العيون والأمطار حتى يصرفوه من خروق في ذلك السد على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، ومكث كذلك ما شاء الله أيام حير، فلما تقلص ملكهم وانحل نظام دولتهم وتغلب بادية كهلان على أرض سبأ وانطلقت عليها الأيدي بالعبث والفساد وذهب الحفظة القائمون بأمر السد نذروا بخربائه، وكان الذي نذر به عمرو مزيقياً ملكهم لما رأى من اختلال أحواله. ويقال أن أخاه عمران الكاهن أخبره، ويقال طريقة الكاهنة. وقال السهيلي: طريقة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر وهي طريقة بنت الخير الحميرية لهده.

وقال ابن هشام: عن أبي زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً تحفر السد فعلم أنه لا بقاء للسد مع ذلك فأجمع النقلة من اليمن وكاد قومه بأن أمر أصغر بنيه أن يلطمه إذا أغلظ له ففعل فقال لا أقسم في بلد يلطمني فيها أصغر ولدي وعرض أمواله فقال أشرف اليمن اغتنموا غصبة عمرو فاشتروا أمواله وانتقل في ولده وولد ولده فقال الأزد لا تتخلف عن عمرو فتجشموا للرحلة وباعوا أموالهم وخرجوا معه وكان رؤساءهم في رحلتهم بنو عمرو مزيقياً ومن إليهم من بني مازن ففصل الأزد من بلادهم باليمن إلى الحجاز.

قال السهيلي: كان فصولهم على عهد حسان بن ثبان أسعد من ملوك التبابعة ولعهده كان خراب السد. ولما فصل الأزد من اليمن كان أول نزولهم ببلاد عك ما بين زيد وزمعة، وقتلوا ملك عك من الأزد ثم افترقوا إلى البلاد، ونزل بنو نصر بن الأزد بالشرأة وعمان، ونزل بنو ثعلبة بن عمرو مزيقياً يثرب، وأقام بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة وهم فيما يقال خزاعة، ومروا على ماء يقال له: غسان بين زيد وزمعة فكل من شرب منه من بني مزيقياً سمي به، والذين شربوا منه بنو مالك وبنو الحرث وبنو جفنة وبنو كعب فكلهم يسمون غسان، وبنو ثعلبة العقلاء لم يشربوا منه فلم يسموا به.

فمن ولد جفنة ملوك الشام الذين يأتي ذكرهم ودولتهم بالشام. ومن ولد ثعلبة العقلاء الأوس والخزرج ملوك يثرب في الجاهلية وسنذكرهم، ومن بطن عمرو مزيقياً بنو أقصى بن حارثة بن عمرو ويقال أنه أقصى بن عامر بن قعقة بلا شك ابن إلياس بن مضر. قال ابن حزم: فإن كان أسلم بن أقصى منهم فمن بني أسلم بلا شك وبنو أبان وهو سعد بن عدي بن حارثة بن عمرو، وبنو العتيك من الأزد عمران بن عمرو.

وقال ابن حزم: لأم بن طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعا ومن الثعالب بنو ثعلبة بن ذهل بن رومان، وبجبهة بنيامين والشام بنو صخر ومن بطونهم غزية المروهب صولتهم بالشام والعراق. وهم بنو غزية بن أفث بن معبد بن عمرو بن عس بن سلامان بن ثعل وبنو غزية كثيرون وهم في طريق الحاج بين العراق ونجد، وكانت الرياسة على طيء في الجاهلية لبني هني بن عمرو بن الغوث بن طيء وهم رمليون وإخوتهم جليليون، ومن ولده إلياس بن قيصة الذي أدال به كسرى أبريز النعمان

وأما بجيلة فبلادهم في سروات البحرين والحجاز إلى تبالة وقد افترقوا على الأفاق أيام الفتح فلم يبق منهم بمواطنهم إلا القليل، ويقدم الحاج منهم على مكة في كل عام عليهم أثر الشظف ويعرفون من أهل الموسم بالسرو، وأما حالهم لأول الفتح الإسلامي فمعروف ورجالاتهم مذكورة، فمن بطون بجيلة قسر وهو مالك بن عبق بن ثمار وبنو أمس بن الغوث بن ثمار.

وأما بنو عريب بن زيد بن كهلان فمنهم طيء والأشعريون ومذحج وبنو مرة وأربعتهم بنو أدد بن زيد بن يشجب بن عريب، فأما الأشعريون فهم بنو أشعر وهو نبت بن أدد وبلادهم في ناحية الشمال من زبيد وكان لهم ظهور أول الإسلام ثم افترقوا في الفتوحات وكان لمن بقي منهم باليمن حروب مع ابن زياد لأول إمارته عليها أيام المأمون ثم ضعفوا عن ذلك وصاروا في عدد الرعايا.

وأما بنو طيء بن أدد فكانوا باليمن وخرجوا منه على أثر الأزد إلى الحجاز ونزلوا سميرا وفيد في جوار بني أسد، ثم غلبوهم على أجا وسلمى وهما جبلان من بلادهم فاستقروا بهما وافترقوا لأول الإسلام في الفتوحات. قال ابن سعيد: ومنهم في بلادهم الآن أمم كثيرة ملأوا السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقاً يعني قبائل طيء هؤلاء وهم أصحاب الدولة في العرب لهذا العهد في العراق والشام ومصر منهم سنبس والثعالب بطنان مشهوران، فسنبس بن معاوية بن شبل بن عمرو بن الغوث بن طيء ومعهم يجر بن ثعل.

قال ابن سعيد ومنهم زيد بن معن بن عمرو بن عس بن سلامان بن ثعل وهم في بركة سنجان، والثعالب بنو ثعلبة بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طيء، وثلعبة بن جدعا بن ذهل بن رومان. قال ابن سعيد: ومنهم لام بن ثعلبة منازلهم من المدينة إلى الجبلين ويتنزلون في أكثر أوقاتهم مدينة يثرب، والثعالب الذين بصعيد مصر من ثعلب بن عمرو بن الغوث بن طيء.

من أقام في جوارهم من بني نصر بن الأزد وبني ذهل بن مزقياء واقتسموا الرياسة فنجران معهم. وكان من بني الحرث كعب هؤلاء المذحجين بنو الزباد واسمه يزيد بن قطن بن زياد بن الحرث بن مالك بن كعب بن الحرث وهم بيت مذحج وملوك نجران وكانت رياستهم في عبد المدان بن الديان، وانتهت قبيل البعثة إلى يزيد بن عبد المدان، ووقد أخوه عبد الحاجر بن عبد المدان على النبي ﷺ على يد خالد بن الوليد وكان ابن أخيهم زياد بن عبد الله بن عبد المدان خال السفاح، وولاه نجران واليمامة.

وقال ابن سعيد: ولم يزل الملك بنجران في بني عبد المدان، ثم في بني أبي الجواد منهم، وكان منهم في المائة السادسة عبد القيس بن أبي الجواد، ثم صار الأمر لهذا العهد إلى الأعاجم شأن النواحي كلها بالمشرق، ثم من بطون الحرث بن كعب بنو معقل وهو ربيعة بن الحرث بن كعب، وقد يقال إن المعقل الذين هم بالمغرب الأقصى لهذا العهد إنما هم من هذا البطن وليسوا من معقل بن كعب القضاة ويؤيد هذا أن هؤلاء المعقل جميعاً يتسبون إلى ربيعة، وربيعة اسم معقل هذا كما رأيت والله تعالى أعلم.

وأما بنو مرة بن أدد إخوة طيء ومذحج والأشعرين فهم أبطن كثيرة وتنتهي كلها إلى الحرث بن مرة، مثل خولان ومعافر ولخم وجذام وعاملة وكندة. فأما معافر فهم بنو يعفر بن مالك بن الحرث بن مرة وافترقوا في الفتوحات وكان منهم المنصور بن أبي عامر صاحب هشام بالأندلس. وأما خولان وإسمه أفلح بن عمرو بن مالك وعمرو أخو يعفر وبلادهم في جبال اليمن من شرقيه، وافترقوا في الفتوحات وليس منهم اليوم وبرية إلا اليمن وهم لهذا العهد، وهمدان أعظم قبائل العرب باليمن ولهم الغلب على أهلهم والكثير من حصونه. وأما لخم واسمه مالك بن عدي بن الحرث بن مرة فبطن كبير متسع ذو شعوب وقبائل منهم الدار بن هانيء بن حبيب بن ثمارة بن لخم، ومن أكبرهم بنو نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحرث بن مسعود بن مالك بن عجم بن أمارة بن لخم، ويقال ثمارة وهم رهط آل المنذر وحافده عمرو بن عدي بن نصر هو ابن اخت جذية الوضح الذي أخذ بشاره من الزبا قاتلته، وولي الملك على العرب للأكاسرة بعد خاله جذية وأنزلوه بالخيرة حسبما يأتي الخبر عن ملكه وملك بني.

ومن شعوب بني لخم هؤلاء كان عباد ملوك أشبيلية ويأتي ذكرهم. وأما جذام وإسمه عمرو بن عدي آخر لخم بن عدي فبطن متسع له شعوب كثيرة مثل غطفان وأمصى وبنو حرام بن

المنذر حين قتله وأنزل طياً بالخيرة مكان لخم قوم النعمان وولى على العرب من إياساً هذا، وهو إياس بن قبيصة بن أبي يعفر بن النعمان بن حبيب بن الحرث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سعد بن هني، فكانت لهم الرياسة إلى حين انقراض ملك الفرس.

ومن عقب إياس هذا بنو ربيعة بن علي بن مفرح بن بدر بن سالم بن قصة بن بدر بن سميع، ومن ربيعة شعب آل مراد وشعب آل فضل، وآل فضل شعبان آل علي وآل مهنا فعلي ومهنا إنا فضل، وفضل ومراد ابنا ربيعة وسميع الذين ينسبون إليه من عقب قبيصة بن أبي يعفر، ويزعم كثير من جهلة البادية أنه الذي جاءت به العباسية أخت الرشيد من جعفر بن يحيى زعماً كاذباً لا أصل له. وكانت الرياسة على طيء أيام العبيديين لبني المفرح، ثم صارت لبني مراد بن ربيعة وكلهم ورثوا أرض غسان بالشام وملكهم على العرب، ثم صارت الرياسة لبني علي وبني مهنا ابني فضل بن ربيعة اقتسموها مدة، ثم انفرد بها لهذا العهد بنو مهنا الملوك على العرب إلى هذا العهد بمشارف الشام والعراق وبرية نجد، وكان ظهورهم لأمر الدولة الأيوبية ومن بعدهم من ملوك الترك بمصر والشام ويأتي ذكرهم، والله وارث الأرض ومن عليها.

وأما مذحج واسمه مالك بن زيد بن أدد بن زيد بن كهلان، ومنهم مراد واسمه يخابر بن مذحج، ومنهم سعد العشيرة بن مذحج بطن عظيم لهم شعوب كثيرة، منهم جعفر بن سعد العشيرة وزيد بن صعب بن سعد العشيرة. ومن بطون مذحج النخع ورها ومسيلة وبنو الحرث بن كعب، فأما النخع فهو جسر بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج ومسيلة بن عامر بن عمرو بن علة، وأما رها فهو ابن منبه بن حرب بن علة. وبقي من مذحج وبرية يتجمعون مع أحياء طيء في جلة أيام بني مهنا مع العرب بالشام زمن أحلافهم وأكثرهم من زيد. وأما بنو الحرث فالحرث أبوهم ابن كعب بن علة وديارهم بنواحي نجران يجاورون بها ذهل بن مزقياء من الأزد وبني حارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد وكان نجران قبلهم لجرهم، ومنهم كان ملكها الأنعي الكاهن الذي حكم بين ولد نزار معد لما تنافروا إليه بعد موت نزار وإسمه الغلس بن غمر ماء بن همدان بن مالك بن متاب بن زيد بن وائل بن حمر وكان داعية لسليمان عليه السلام بعد أن كان والياً بلقيس على نجران، وبعثته إلى سليمان فصدق وآمن وأقام على دينه بعد موته. ثم نزل نجران بنو الحرث بن كعب بن علة بن جلد بن مذحج فغلبوا عليها بني الأفعى. ثم خرجت الأزد من اليمن فمروا بهم وكانت بينهم حروب، وأقام

الأشعث وابنه عبد الرحمن بن الأشعث القائم على عبد الملك والحجاج وهو مشهور، وابن عمهم أيضاً ابن عدي وهو الأذمر بن عدي بن جبلة له صحبة فيما يقال، وهو الذي قتله معاوية على الثورة بأخيه زياد وخبره معروف.

هذه قبائل اليمن من قحطان استوفينا ذكر بطونهم وأنسابهم ونرجع الآن إلى ذكر من كان الملك منهم بالشام والحجاز والعراق حسبما نقصه، والله تعالى المعين بكرمه ومنه لا رب غيره ولا خير إلا خيره.

الخبر عن ملوك الحيرة من آل المنذر من هذه الطبقة وكيف انساق الملك إليهم من قبلهم وكيف صار إلى طيء من بعدهم

أما أخبار العرب بالعراق في الجبل الأول وهم العرب العاربة فلم يصل إلينا تفاصيلها وشرح حالها، إلا أن قوم عاد والعمالة ملكوا العراق، والمسد في بعض الأقوال أن الضحاك بن سنان منهم كما مر. وأما في الجبل الثاني وهم العرب المستعربة فلم يكن لهم به مستبد وإنما كان ملكهم به بدوياً ورياستهم في أهل الطواغيت. وكان ملك العرب كما مر في التبابعة من أهل اليمن، وكانت بينهم وبين فارس حروب وربما غلبوهم على العراق وملكوه أو بعضه كما مر، لكن اليمن لم يغلبوا ثانياً على ما ملكوا منه، وقد مر إيقاع مجتئز وإنخاضه فيهم ما تقدم. وكان في سواد العراق وأطراف الشام والجزيرة الأرمانيون من بني إرم بن سام، ومن كان من بقية عساكر ابن تبيع من جعفر طيء وكلب وتميم وغيرهم من جرهم، ومن نزل معهم بعد ذلك من تنوخ وحمارة بن لحم وقتص بن معد ومن إليهم كما قدمنا ذكر ذلك. وكان ما بين الحيرة والفرات إلى ناحية الأنبار مواطن لهم وكانوا يسمون عرب الضاحية، وكان أول من ملك منهم في زمن الطوائف مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن برة بن ثعلبة بن حلوان بن قضاة، وكان منزله بما يلي الأنبار.

وملك من بعده أخوه عمرو بن فهم. ثم ملك من بعدهما جدية الأبرش اثنتي عشرة سنة، وقد تقدم أنه صهرها وأن مالك بن زهير بن عمرو بن فهم زوجه أخته وصاروا حلفاء مع الأزدي من قوم جدية ونسب جدية في الأزدي إلى بني زهران، ثم إلى دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران، وهو جدية بن ملك بن فهم بن غنم بن دوس هكذا قال ابن الكلبي ويقال: إنه من وبار بن أميم بن لاوذ بن سام، وكان بنو زهران من الأزدي خرجوا قبل خروج

جذام وبنو ضبيب وبنو غرمة وبنو بعجة وبنو نفاثة وديارهم حوالي أيلة من أول أعمال الحجاز إلى ينبع من أطراف يثرب، وكانت لهم رئاسة في معان وما حولها من أرض الشام لبني النافرة من نفاثة ثم لقروة بن عمرو بن النافرة منهم، وكان عاملاً للروم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب، وهو الذي بعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء. وسمع بذلك قيصر فأغرى بع الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان فآخذه وصلبه بفلسطين، وبقيتهم اليوم في مواطنهم الأولى في شعبين من شعوبهم يعرف أحدهما بنو عائد وهم ما بين بليس من أعمال مصر إلى عقبة أيلة إلى الكرك من ناحية فلسطين، وتعرف الثانية بنو عقبة وهم من الكرك إلى الأزلم من بركة الحجاز. وضممان السابلة ما بين مصر والمدينة النبوية إلى حدود غزة من الشام عليهم، وغزة من مواطن جرم إحدى بطون قضاة كما مر، وبأفريقية لهذا العهد منهم وبرية كبيرة يتجمعون مع ذياب بن سليم بنواحي طرابلس.

وأما عامله واسمه الحرث بن عدي وهم إخوة لحم وجذام وإنما سمي الحرث عاملة بأمه القضاعية وهم بطون متسع ومواطنهم بركة الشام.

وأما كندة وإسمه ثور بن عفير بن عدي وعفير أخو لحم وجذام، وتعرف كندة الملوك لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان كما نذكر، وبلادهم بجبال اليمن مما يلي حضرموت ومنها دمون التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، ويطونهم العظيمة ثلاثة: معاوية بن كندة ومنه الملوك بنو الحرث بن معاوية الأصغر بن ثور بن مرتع بن معاوية والسكون وسكسك وابنيهما أشرش بن كندة، ومن السكون بطن نجيب وهم بنو عدي وبنو سعد بن أشرش بن شبيب بن السكون ونجيب اسم أهمها. وكان للسكون ملك بدومة الجندل وكان عليها عبد المغيث بن أكيدر بن عبد الملك بن عبد الحق بن أعمى بن معاوية بن حلاوة بن أمامة بن شكامة بن شبيب بن السكون بعث إليه رسول الله ﷺ في غزوة تبوك خالد بن الوليد فجاء به أسيراً، وحقق ﷺ دمه وصالحه على الجزية وردّه إلى موضعه. ومن معاوية بن كندة بنو حجر بن الحرث الأصغر ابن معاوية بن كندة منهم حجر أكل المرار ابن عمرو بن معاوية وهو حجر أبو الملوك ابن كندة الذين يأتي ذكرهم، والحرث الولادة أخو حجر وكان من عقبه الخارجين باليمن المسلمين طالب الحق وكان أباضياً وسيأتي ذكره، ومنهم الأشعث بن قيس بن معدى كرب بن معاوية وجبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية بن الحرث الأكبر جاهلي إسلامي، وابنه محمد بن

إليه الأموال وتقد إليه الوفود، وغزا في بعض الأيام طسماً وجدياً في منازلهم باليمامة، ووجد حسان بن تبع قد أغار عليهم فأنكسما هو راجعاً بمن معه، وأنت خيول حسان على سرايا فأجأوها. وكان أكثر غزو جذية للعرب العاربة، وكان قد تكهن وادعى النبوة.

وكانت منازل إياد بعين أبياغ سميت باسم رجل من العمالقة نزل بها وكان جذية كثيراً ما يغزوهم حتى طلبوا مسلته، وكان بينهم غلام من لحم من بني أختهم وكانوا أحوالاً له وهو عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحرث بن مسعود بن مالك بن عمرو بن ثمارة بن لحم، وكان له جمال وضرب وطلبه منهم جذية فامتنعوا من تسليمه إليه، فألح عليهم بالغزو وبعثت إياد من سرق لهم صنمين كانا عند جذية يدعو بهما ويستسقي بهما وعرفوه أن الصنمين عندهم وأنهم يردونهما بشرية رفع الغزو عنهم، فأجابهم إلى ذلك بشرية أن يعثوا مع الصنمين عدي بن نصر فكان ذلك.

ولما جاء عدي بن نصر استخلصه لنفسه وولاه شرابه، وهوته رقاش أخته فراسلته فدافعها بالخشية من جذية، فقالت له اخطني منه إذا أخذت الخمر منه وأشهد عليه القوم ففعل، وأعرس بها من ليلته، وأصبح مضرجاً بالخلوق. ورأب جذية شأنه ثم أعلم بما كان منه ففض على يديه أسفاً، وهرب عدي فلم يظهر له أثر، ثم سألها في آيات شعر معروفة فأخبرته بما كان منه فعرف عذرها وكف، وأقام عدي في أخواله إياد إلى أن هلك، وولدت رقاش منه غلاماً وسماه عمراً وربى عند خاله جذية وكان يستظرفه ثم استهوت الجن فغاب وضرب له جذية في الأفاق إلى أن رده عليه واقدان من العتقاء، ثم من قضاة وهما مالك وعقيل ابنا فارح بن مالك بن العنس أهديا له طرفاً ومتاعاً، ولقيا عمراً بطريقهما وقد ساءت حاله وسألاه فأخبرهما باسمه ونسبه فاصلحا من شأنه وجاءا به إلى جذية بالحيرة فسر به وسرت أمه. وحكم الرجلين فطلباً منادته فأسعفهما وكانا ينادمانه حتى ضرب المثل بهما وقيل ندمانى جذية، والقصة مبسطة في كتاب الإخباريين بأكثر من هذا.

قال الطبري: وكان ملك العرب بأرض الحيرة ومشارف الشام عمرو بن ظرب بن حسان بن أدينة بن السميدع بن هوشر العملاقي، فكانت بينه وبين جذية حرب قتل فيها عمرو بن الظرب وفقت جموعه. وملكت بعده ابنته الزباء واسمها نائلة وجنودها بقايا العمالقة من عاد الأولى ومن نهد وسليح ابني حلوان ومن كان معهم من قبائل قضاة، وكانت تسكن على

مزقيا من اليمن ونزلوا بالعراق وقيل ساروا من اليمن مع أولاد جفنة بن مزقيا.

فلما تفرق الأزدي على المواطن نزل بنو زهران هؤلاء بالشرأة وعلان وصار لهم مع الطوائف ملك، وكان مالك بن فهم هذا من ملوكهم. وكان بشاطئ الفرات من الجانب الشرقي عمرو بن الظرب بن حسان بن أدينة من ولد السميدع بن هوشر من بقايا العمالقة، فكان عمرو بن الظرب على مشارف الشام والجزيرة، وكان منزله بالمضيقي بين الخابور وقرقيسا فكانت بينه وبين مالك بن فهم حروب هلك عمرو في بعضها، وقامت بملكه من بعده ابنته الزباء بنت عمرو واسمها نائلة عند الطبري وميسون عند ابن دريد.

قال السهيلي: ويقال إن الزباء الملكة كانت من ذرية السميدع بن هوشر من بني قطورا أهل مكة، وهو السميدع بن مرثد بالناء المثلثة ابن لاي بن قطور بن كركي بن عملاق، وهي بنت عمرو بن أدينة بن الظرب بن حسان. وبين حسان هذا والسميدع آباء كثيرة ليست بصحيحة لبعد زمن الزباء من زمن السميدع انتهى كلام السهيلي، ولم تزل الحرب بين مالك بن فهم وبين الزباء بنت عمرو إلى أن ألجأها إلى أطراف مملكتها، وكان يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما في أيديهم.

قال أبو عبيدة: وهو أول ملك كان بالعراق من العرب وأول من نصب الجانيق وأوقد الشموع وملك ستين سنة. ولما هلك قام بأمه من بعده جذية الوضاح ويقال له الأبرش، وكان يكنى بأبي مالك وهو منادم الفرقدين.

قال أبو عبيدة: كان جذية بعد عيسى ثلاثين سنة فملك أزمان الطوائف خساً وسبعين سنة وأيام أردشير كلها خمسة عشر سنة وثمانين سنين من أيام سابور، وكان بينه وبين الزباء سلم وحرب، ولم تزل تحاول النار منه بأبيها حتى تحملت عليه وأطعمته في نفسها فخطبها وأجابته، وأجمع المسير إليها وأبى عليه وزيره قيصر بن سعد، فعصاه ودخل إليها ولقيته بالجنود وأحس بالشر، فنجأ قصير ودخل جذية إلى قصرها فقطعت رواهش وأجرت دمه إلى أن هلك في حكاية منقولة في كتب الإخباريين.

قال الطبري: وكان جذية من أفضل ملوك العرب رأياً وأبعدهم مغاراً وأشدهم حزمًا وأول من استجمع له الملك بأرض العراق وسرى بالجوش، وكان به برص فكنوا عنه بالوضاح إجلالاً له، وكانت منازلهم بين الحيرة والأنبار وهيئ ونواحيها وعين التمر وأطراف البر العمق والقططانية وجفنة، وكانت تحبى

من ملوك العرب، وأول من تجده أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق، وإليه ينسبون وهم ملوك آل نصر. ولم يزل عمرو بن عدي ملكاً حتى مات وهو ابن مائة وعشرين سنة مستبداً منفرداً يَغزوهم ويغنم، وتفد عليه الوفود ولا يدين للملوك الطوائف ولا يدينون له حتى قدم أردشير بن بابك في أهل فارس.

قال الطبري: وإنما ذكرنا في هذا الموضع أمر جذيمة وابن اخته عمرو بن عدي لما قدمناه عند ذكر ملوك اليمن، وأنهم لم يكن لهم ملك مستفحل وإنما كانوا طوائف على المخاليف يغير كل واحد على صاحبه إذا استغفله، ويرجع خوف الطلب حتى كان عمرو بن عدي فاتصل له ولعقبه الملك على من كان بناوحي العراق وبادية الحجاز بالعرب، فاستعمله ملوك فارس على ذلك إلى آخر أمرهم. وكان أمر آل نصر هؤلاء ومن كان من ولادة الفرس وعملهم على العرب معروفاً مثبتاً عندهم في كنائسهم وأشعارهم.

وقال هشام بن الكلبي: كنت أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة. وأما ابن إسحاق فذكر في آل نصر ومصريهم إلى العراق أن ذلك كان بسبب الرؤيا التي رآها ربيعة بن نصر وعبرها الكاهنان شق وسطيح، وفيها أن الحيرة يغلبون على ملكهم باليمن، قال: فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرازاذ فأسكنهم الحيرة، ومن بقية ربيعة بن نصر كان النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر. وقد يقال أن المنذر من أعقاب ساطرون ملك الحضرم من تنوخ قضاعة، رواه ابن إسحاق من علماء الكوفة ورواه عن جبير بن مطعم قال: لما أتى عمر رضي الله عنه سيف النعمان دعا بجبير بن مطعم، وكان أنسب قريش لقريش والعرب، تعلمه من أبي بكر رضي الله عنه فسلمه إياه، ثم قال: ممن كان النعمان يا جبير؟ قال: كان من أسلاف قنص بن معد.

قال السهيلي: كان ولد قنص بن معد انتشروا بالحجاز ف وقعت بينهم وبين بني أبيهم حرب وتضايق بالبلاد وأجديت الأرض، فساروا نحو سواد العراق وذلك في أيام ملوك الطوائف فقاتلهم الأردوايون وبعض ملوك الطوائف وأجلوهم عن السواد وقتلوه، إلا أشلاء لحقت بقبائل العرب ودخلوا فيهم فانتسبوا إليهم.

قال الطبري: حين سأل عمر عن النعمان قال: كانت العرب تقول أن أشلاء قنص بن معد وهم من ولد عجم بن

شاطئ الفرات وقد بنت هنالك قصراً وتربع عند بطن الحجاز وتصيف بتدمر. ولما استحكم لها الملك أجمعت أخذ الثار من جذيمة بأبيها فبعثت إليه توهمه الخطبة وأنها امرأة لا يليق بها الملك فيجمع ملكها إلى ملكه، فطمع في ذلك ووافقه قومه، وأبى عليه منهم قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن أريى بن غمارة بن لخم وكان حازماً ناصحاً، وحذره عاقبة ذلك، فعصاه واستشار ابن اخته عمرو بن عدي فوافقه فاستخلفه على قومه، وجعل على خيوله عمرو بن عبد الجثن، وسار هو على غربي الفرات إلى أن نزل رحبة مالك بن طوق وأتته الرسل منها بالالطاف والهدايا، ثم استقبلته الخيول فقال له قصير إن أحاطت بك الخيول فهو الغدر فأركب فرسك العصا وكانت لا تجارى. فأحاطت به الخيول ودخل جذيمة على الزباء فقطعت رواهشه فسال دمه حتى نزع ومات.

وقدم قصير على عمرو بن عدي وقد اختلف عليه قومه ومال جماعة منهم إلى عمرو بن عبد الجثن فأصلح أمرهم حتى انقادوا جميعاً لعمر بن عدي، وأشار عليه يطلب الثار من الزباء بخاله جذيمة. وكانت الكاهنة قد عرفتها بملكها وأعطتها علامات عمرو فحذرته وبعثت رجلاً مصوراً يصور لها عمراً في جميع حالاته، فسار إليه متنكراً واختلط بحشمه وجاء إليها بصورته فاستبته وتيقنت أن مهلكها منه، واتخذت نفقاً في الأرض من مجلسها إلى حصن داخل مدينتها. وعمد عمرو إلى قصير فجذع أنه بمواطاة منه على ذلك فلحق بالزباء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه اتهم بمدخله الزباء في أمر خاله جذيمة، وما رأيت بعد ما فعل بي أنكى له من أن أكون معك. فأكرمته وقربته حتى إذا رضي منها من الوثوق به أشار عليها بالتجارة في طرف العراق وأمتعت فاعطته مالاً وعيراً، وذهب إلى العراق ولقي عمرو بن عدي بالحيرة فجهزه بالطرف والأمتعة كيما يرضيها، وأتاها بذلك فازدادت به وثوقاً وجهزت بأكثر من الأولى.

ثم عاد الثالثة وحمل بناة الجند من أصحاب عمرو في الغرائر على الجمال وعمرو فيهم، وتقدم فبشروا بالعيرة وبكثرة ما حل إليها من الطرف، فخرجت تنظر فأنكرت ما رآته في الجمال من التكاثر، ثم دخلت العير المدينة فلما توسطت أنيخت وخرج الرجال، ويأدر عمرو إلى النفق فوقف عنده، ووضع الرجال سيوفهم في أهل البلد. ويأدرت الزباء إلى النفق فوجدت عمراً قائماً عنده فلحمها بالسيف وماتت، وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفاً راجعاً.

قال الطبري: وعمر بن عدي أول من اتخذ الحيرة منزلاً

فارس وولوا عليهم شخصاً من ولد أردشير وعدلوا عن بهرام لمرابه بين العرب وخلوه عن آداب العجم، وجهاز المنذر العساكر لبهرام لطلب ملكه، وقدم ابنه النعمان فحاصر مدينة الملك ثم جاء على أثره بعساكر العرب وبهرام معه فأذعن له فارس وأطاعوه، واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم واجتمع أمره.

ورجع المنذر إلى بلاده وشغل باللّهو وطمع فيه الملوك حوله، وغزاه خاقان ملك الترك في خمسين ألفاً من العساكر، وسار إليه بهرام فأنتهى إلى أذربيجان ثم إلى أرمينية. ثم ذهب يتصيد وخلف أخوه نرسي على العساكر فرماه أهل فارس بالجن وأنه خار عن لقاء الترك، فراسلوا خاقان في الصلح على ما يرضاه فرجع عنهم. وانتهى الخبر بذلك إلى بهرام فسار في اتباعه وريته فانقض بعسكره وقته بيده، واستولى بهرام على ما في العساكر من الأثقال والذراير وظفر بتاج خاقان وأكله وسيفه بما كان فيه من الجواهر والياقيات، وأسر زوجته، وغلب على ناحية من بلاده فولى عليها بعض مرازته وأذن له في الجلوس على سرير الفضة وأغزى ما وراء النهر فدناوا بالجزية، وانصرف إلى أذربيجان فجعل سيف خاقان وأكله معلقاً ببيت النار وأخدمه خاتون امرأة خاقان، ورفع الخراج عن الناس ثلاث سنين شكراً لله تعالى على النصر، وتصدق بعشرين ألف ألف درهم مكررة مرتين، وكتب بالخبر إلى النواحي وولى أشاه نرسي على خراسان واستوزر له بهرنرسي بن بدارة بن فرخزاد، ووصل الطبري نسبه من هنا بعد أربعة فكان رابعهم أشك بن دارا وأغزى بهرام أرض الروم في أربعين ألفاً فأنتهى إلى القسطنطينية ورجع.

قال هشام بن الكلبي: ثم جاء الحرث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش عظيم إلى بلاد معد والحيرة وقد ولاه تبع بن حسان بن تبع، فسار إليه النعمان بن امرئ القيس بن الشقيقة وقتله فقتل النعمان وعدة من أهل بيته وانهزم أصحابه، وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر وأمه ماء السماء امرأة من اليمن، وتشتت ملك آل النعمان، وملك الحرث بن عمرو ما كانوا يملكونه. وقال غير هشام بن الكلبي: إن النعمان الذي قتله الحرث هو ابن المنذر بن النعمان وأمه هند بنت زيد مائة بن زيد الله بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان، وهو الذي أسرته فارس، ملك عشرين سنة منها في أيام فيروز بن يزدجرد عشر سنين وأيام يلاوش بن يزدجرد أربع سنين وفي أيام قباذ بن فيروز ست سنين.

قال هشام بن محمد الكلبي: ولما ملك الحرث بن عمرو ملك آل النعمان بعث إليه قباذ يطلب لقاءه وكان مضطرباً فجاءه الحرث وصالحه على أن لا يتجاوز بالعرب الفرات، ثم استضعفه

قنص إلا أن الناس صحفوا عجم وجعلوا مكانه لحم. قال ابن إسحاق: وأما سائر العرب فيقولون النعمان بن المنذر رجل من لحم ربي بين ولد ربيعة بن نصر أمه.

ولما هلك عمرو بن عدي ولي بعده على العرب وسائر من بادية العراق والحجاز والجزيرة امرؤ القيس بن عمرو بن عدي، ويقال له البدء، وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس، وعاش فيما ذكر هشام بن الكلبي مائة وأربعة عشر سنة، منها أيام سابور ثلاثاً وعشرين سنة، وأيام هرمز بن سابور سنة واحدة، وأيام بهرام بن هرمز ثلاث سنين، وأيام بهرام بن بهرام ثمانين سنة، ومن أيام سابور سبعون سنة.

وهلك لعهد فولي مكانه ابنه عمرو بن امرئ القيس البدء، فأقام في ملكه ثلاثين سنة بقية أيام سابور بن سابور، ثم ولي مكانه أوس بن قلام العمليقي فيما قال هشام بن محمد، وهو من بني عمرو بن عملاق، فأقام في ولايته خمس سنين ثم سار به جمحياً بن عتيك بن لحم فقتله وولي مكانه. ثم هلك في عهد بهرام بن سابور. وولي من بعده امرؤ القيس بن عمرو خمساً وعشرين سنة وهلك أيام يزدجرد الأثيم، فولي مكانه ابنه النعمان بن امرئ القيس وأمه شقيقة بنت ربيعة بن ذهل بن شيبان وهو صاحب الخورنق.

ويقال إن سبب بئانه إياه إن يزدجرد الأثيم دفع إليه ابنه بهرام جور ليربيه وأمره ببناء هذا الخورنق مسكناً له وأسكنه إياه، ويقال: إن الصانع الذي بناه كان اسمه سمنار وأنه لما فرغ من بئانه ألقاه من أعلاه فمات من أجل عاورة وقعت اختلف الناس في نقلها والله أعلم بصحتها، وذهب ذلك مثلاً بين العرب في قبح الجزاء ووقع في أشعارهم منه كثير. وكان النعمان هذا من أفحل ملوك آل نصر وكانت له سنانان إحداهما للعرب والأخرى للفرس، وكان يغزو بهما بلاد العرب بالشام ويدوخها، وأقام في ملكه ثلاثين سنة ثم زهد وترك الملك ولبس المسوح وذهب فلم يوجد له أثر.

قال الطبري: وأما العلماء بأخبار الفرس فيقولون إن الذي تولى تربية بهرام هو المنذر بن النعمان بن امرئ القيس، دفعه إليه يزدجرد الأثيم لإشارة كانت عنده فيه من النجمين، فأحسن تربيته وتأديبه وجاءه بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية والبقابة حتى اشتهل على ذلك كله بما رضى، ثم رده إلى أبيه فأقام عنده قليلاً ولم يرض بحاله، ووفد على أبيه وافد قيصر وهو أخوه قبادوس، فقصد بهرام أن يسأل له من أبيه الرجوع إلى بلاد العرب فرجع، ونزل على المنذر. ثم هلك يزدجرد فاجتمع أهل

ثم ولي عمرو بن هند شقيقه قابوس أربع سنين: سنة منها أيام أنوشروان وثلاثة أيام ابنه هرمز، ثم ولي بعده أخوهما المنذر أربع سنين، ثم ولي بعده النعمان بن المنذر وهو أبو قابوس اثنتين وعشرين سنة منها ثمان سنين أيام هرمز وأربع عشرة أيام أبرويز، وفي أيام النعمان هذا اضمحل ملك آل نصر بالجزيرة وعليه انقراض، وهو الذي قتله كسرى أبرويز وأبدل منه في الولاية على الحيرة والعرب بإيلاس بن قبيصة الطائي، ثم رد رئاسة الحيرة لمرازية فارس إلى أن جاء الإسلام وذهب ملك فارس. وكان الذي دعا أبرويز إلى قتله سعاية زيد بن عدي العبادي فيه عند أبرويز بسبب أن النعمان قتل أباه عدي بن زيد.

وسياقة الخبر عن ذلك أن عدي بن زيد كان من تراجمة أبرويز وكان سبب قتل النعمان أن أباه وهو زيد بن حماد بن أيوب بن محروب بن عامر بن قبيصة بن امرئ القيس بن زيد مناة والد عدي هذا كان جبلاً شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس، وكانوا أهل بيت يكونون مع الأكاسرة ويقطعونهم القطائع على أن يترجموا عندهم عن العرب، وكان المنذر بن المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان في حجر عدي فأرضعه أهل بيته ورباه قوم من أشراف الحيرة ينسبون إلى لحم ويقال لهم بنو مرسي، وكان للمنذر بن المنذر عشرة سوى النعمان يقال لهم الأشاهب لجمالهم، وكان النعمان من بينهم أحر أبرش قصيراً أمه سلمى بنت وائل بن عطية من أهل فذك كانت أمة للحرث بن حصين بن ضمضم بن عدي بن جناب بن كلب، وكان قابوس بن المنذر الأكبر عم النعمان بعث إلى أنوشروان بعدي بن زيد وإخوته فكانوا في كتابه يترجمون له، فلما مات المنذر أوصى على ولده إيلاس بن قبيصة الطائي وجعل أمره كله بيده فأقام على ذلك شهراً، ونظر أنوشروان فيمن يملكه على العرب وشاور عدي بن زيد واستنصحه في بني المنذر فقال بقيتهم في بني المنذر بن المنذر، فاستقدمهم كسرى وأنزلهم على عدي، وكان هواء مع النعمان، فجعل يرعى إخوته تفضيلهم عليه، ويقول لهم: إن أشار عليكم كسرى بالملك ومن يكفوه أمر العرب تكفلوا بشأن ابن أخيكم النعمان، ويسر للنعمان إن سأله كسرى عن شأن إخوته أن يتكفله ويقول: إن عجزت عنهم فأنأ عن سواهم أعجز. وكان مع أخيه الأسود بن المنذر رجل من بني مرسي الذين ربوهم اسمه عدي بن أوس بن مرسي فتصحه في عدي وأعلمه أنه يغشه فلم يقبل. ووقف كسرى على مقالاتهم، فمال إلى النعمان وملكه وتوجه بقيمة ستين ألف دينار ورجع إلى الحيرة ملكاً على العرب، وعدي بن أوس في خدمته، وقد أضمر السعاية بعدي بن زيد فكان يظهر

فأطلق العرب للغارة في نواحي السواد وراء الفرات فسأله اللقاء بابه، واعتذر إليه أشطاط العرب وأنه لا يضبطهم إلا المال فأقطعه جانباً من السواد، فبعث الحرث إلى ملك اليمن تبع يستنهضه بغزو فارس في بلادهم وبغيره بضعف ملكهم، فجمع وسار حتى نزل الحيرة وبعث ابن أخيه شمراً ذا الجناح إلى قباز فقاتله واتبعه إلى الري فقتله، ثم سار شمراً إلى خراسان وبعث تبع ابنه حسان إلى الصغد وأمرهما معاً أن يدوخا أرض الصين، وبعث ابن أخيه يعفر إلى الروم فحاصر القسطنطينية حتى أعطوا الطاعة والأتاوة، وتقدم إلى رومة فحاصرها. ثم أصابهم الطاعون وهنوا له فوثب عليهم الروم فقتلوه جميعاً.

وتقدم شمراً إلى سمرقند فحاصرها واستعمل الخيلة فيها فملكها، ثم سار إلى الصين وهزم الترك ووجد أخاه حسان قد سبقه إلى الصين منذ ثلاث سنين فأقاماً هنالك إحدى وعشرين سنة إلى أن هلك قال: والصحيح المتفق عليه أنهما رجعا إلى بلادهما بما غنمهما من الأموال والذخائر وصنوف الجواهر والطيوب. وسار تبع حتى قدم مكة ونزل شعب حجاز وكانت وفاته باليمن بعد أن ملك مائة وعشرين سنة، ولم يخرج أحد بعده من ملوك اليمن غازياً. ويقال: إنه دخل في دين اليهود للأخبار الذين خرجوا معه من يثرب. وأما ابن إسحاق فعنده أن الذي سار إلى المشرق من التابعة تبع الأخير وهو تبان أسعد أبو كرب، قال هشام بن محمد: وولي أنوشروان بعد الحرث بن عمرو المنذر بن النعمان الذي أفلست يوم قتل أبوه ونزل الحيرة وأبوه هو النعمان الأكبر، فلما قوي سلطان أنوشروان واشتد أمره بعث إلى المنذر فملكه الحيرة وما كان يليه الحرث بن عمرو أكل المزار فلم يزل كذلك حتى هلك. قال: وملك العرب من قبل الفرس بعد الأسود بن المنذر أخوه المنذر بن المنذر وأمه ماوية بنت النعمان سبع سنين.

ثم ملك بعده النعمان بن الأسود بن المنذر وأمه أم الملك أخت الحرث بن عمرو أربع سنين، ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي بن الذميل بن ثور بن أسد بن أربي بن نمارة بن لحم ثلاث سنين، ثم ملك المنذر بن امرئ القيس وهو ذو القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر بن الضبيب بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط فملك تسعاً وأربعين سنة، ثم ملك ابنه عمرو بن المنذر وأمه هند بنت الحرث بن عمرو بن حجر أكل المزار ست عشرة سنة ولثمان سنين من ملكه كان عام الفيل الذي ولد فيه رسول الله ﷺ.

الطائي على الحيرة مكان النعمان ليده التي أسلفها طيء عند كسرى يوم واقعة بهرام على أبريز، وطلب من النعمان فرسه ينجو عليها فأبى واعترضه حسان بن حنظلة بن جنة الطائي وهو ابن عم إلياس بن قبيصة فأركبه فرسه ونجا عليه، ومرو في طريقه إلياس فأهدى له فرساً وجزوراً، فرعى له أبريز هذه الرسائل وقدم إلياساً مكان النعمان. وهو إلياس بن قبيصة بن أبي عفر بن النعمان بن جنة، فلما هلك النعمان بعث إلياس إلى هانيء بن مسعود في حلقة النعمان، ويقال كانت أربعائة درع وقيل ثمانمائة، فمنعها هانيء، وغضب كسرى وأراد استئصال بكر بن وائل، وأشار عليه النعمان بن زرعة من بني تغلب أن يهمل إلى فصل القيط عند ورودهم مياه ذي قار. فلما قاطروا ونزلوا تلك المياه جاءهم النعمان بن زرعة يخبرهم في الحرب وإعطاء اليد فاخترأوا الحرب، اختاره حنظلة بن سنان العجلي وكانوا قد ولوه أمرهم وقال لهم إنما هو الموت قتلاً إن أعطيتم باليد أو عطشاً إن هربتم وربما لقيكم بنو تميم يقتلكم.

ثم بعث كسرى إلى إلياس بن قبيصة أن يسير إلى حربهم ويأخذه معه مسالح فارس وهم الجند الذين كانوا معه بالقططانية وبارق وتغلب، وبعث إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الخدين وكان على طف شقران أن يوافي إلياساً، فجاءت الفرس معها الجنود والأفيال عليها الأساورة، وكان رسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة فقال: «اليوم انتصف العرب من العجم ونصروا»، وحفظ ذلك اليوم فإذا هو يوم الوقعة.

ولما توافقت الفريقان جاء قيس بن مسعود إلى هانيء وأشار عليه أن يفرق سلاح النعمان على أصحابه ففعل، واختلف هانيء بن مسعود وحنظلة بن ثعلبة بن سنان، فأشار هانيء بركوب الفلاة وقطع حنظلة حزم الرجال وضرب على نفسه وآلى أن لا يفر. ثم استقوا الماء لنصف شهر، واقتتلوا وهرب العجم من العطش واتبهم بكر بن عجل، فاصطف العجم وقتلوا وصبروا وراسلت إياد بكر بن وائل: إنا نفر عند اللقاء فصحبوهم، واشتد القتال وقطعوا الأمل حتى سقطت الرجال إلى الأرض ثم حملوا عليهم، واعترضهم يزيد بن حماد السكوني في قومه كان كميناً أمامهم فشدوا على إلياس بن قبيصة ومن معه من العرب فولت إياد منهزمة، وانهزمت الفرس وجاوزوا الماء في حر الظهيرة في يوم قانظ فهلكوا أجمعين قتلاً وعطشاً.

وأقام إلياس في ولاية الحيرة مكان النعمان ومعه المهرجان من مرازية فارس تسع سنين وفي الثامنة منها كانت البعثة وولي بعده على الحيرة آخر من المرازية اسمه زاذويه بن ماهان الهمداني

الثناء عليه ويتواصى به مع أصحابه وأن يقولوا مثل قوله، إلا أنه يستصغر النعمان ويزعم أنه ملكه وأنه عامله حتى أسفوه بذلك، ويعت إليه في الزيارة فاتاه وحبه ثم ندم وخشي عاقبة إطلاقه فجعل يمينه.

ثم خرج النعمان إلى البحرين وخالفه جفنة ملك غسان إلى الحيرة وغار عليها ونال منها، وكان عدي بن زيد كتب إلى أخيه عند كسرى يشعره بطلب الشفاعة من كسرى إلى النعمان، فجاء الشفع إلى الحيرة وبها خليفة النعمان، وجاء إلى عدي فقال له أعطني الكتاب أبته أنا ولازمي أنت هنا لئلا أقتل. وبعث أعداؤه من بني ببيعة إلى النعمان بأن رسول كسرى دخل عنده فبعث من قتله. فلما وفد وافد كسرى في الشفاعة أظهر له الإجابة وأحسن له بأربعة آلاف دينار وجارية وأذن له أن يخرج من محبسه فوجده قد مات منذ ليال، فجاء إلى النعمان مثرباً فقال: واللّه لقد تركته حياً. فقال: وكيف تدخل إليه وأنت رسول إلي فطرده فرجع إلى كسرى وأخبره بموته وطوى عنه ما كان من دخوله إليه.

ثم ندم النعمان على قتله، ولقي يوماً وهو يتصيد ابنه زيداً فاعتذر إليه من أمر أبيه، وجهزه إلى كسرى ليكون خليفة أبيه على ترجمة العرب. فأعجب به كسرى وقربه وكان أسيراً عنده، ثم أن كسرى أراد خطبة بنات العرب فأشار عليه عدي بالخطبة في بني منذر فقال له كسرى: اذهب إليهم في ذلك، فقال: إنهم لا ينكحون العجم ويستربون في ذلك فابعث معي من يفقه العربية فلعلني أتيك بغرضك. فلما جاء إلى النعمان قال لزيد: إما في غير السواد وفارس ما يفتنكم عن بناتنا؟ وسأل الرسول عن العير فقال له زيد: هي البقر. ثم رجعا إلى كسرى بالخبيثة، وأغراه زيد فغضب كسرى وحقداه على النعمان. ثم استقدمه بعد حين لبعض حاجاته وقال له: لا بد من المشافهة لأن الكتاب لا يسعها. ففطن فذهب إلى طيء وغيرهم من قبائل العرب ليمنعوه، فأبوا وفرقوا من معاداة كسرى، إلا بني رواحة بن سعد من بني عيس، فإنهم أجابوه لو كانوا يغنون عنه فعذرهم، وانصرف عنهم إلى بني شيبان بذي قار والرياسة فيهم. لهانيء بن مسعود بن عامر بن الخطيب بن عمرو المزدلف ابن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، ولقيس بن خالد بن ذي الخدين. وعلم أن هانئاً يمينه وكان كسرى قد أقطعه، فرجع إليه النعمان ماله ونعمه وحلقته وهي سلاح ألف فارس شاكه، وسار إلى كسرى، فلقبه زيد بن عدي بساباط وتبين الغدر، فلما بلغ إلى كسرى قيده وأودعه السجن إلى أن هلك فيه بالطاعون ودعا ذلك إلى واقعة ذي قار بين العرب وفارس، وذلك أن كسرى لما قتل النعمان استعمل إلياس بن قبيصة

الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

هذا ترتيب الملوك من ولد نصر بن ربيعة بن كعب بن عمرو بن عدي الأول منهم وهو الترتيب الذي ذكره الطبري عن ابن الكلبي وغيره، وبين الناس فيه خلاف في ترتيب ملوكهم، بعد اتفاقهم على أن الذي ملك بعد عمرو بن عدي ابنه امرؤ القيس ثم ابنه عمرو بن امرئ القيس وهو الثالث منهم. قال علي بن عبد العزيز الجرجاني في أنسابه بعد ذكر عمرو هذا: ثم شار أوس بن قلام العملي وملك فثار به جحجب بن عتيك اللخمي فقتله وملك، ثم ملك من بعده امرؤ القيس البدء بن عمرو الثالث، ثم ملك من بعده ابنه النعمان الأكبر ابن امرئ القيس بن الشقيقة وهو الذي ترك الملك وساح، ثم ملك من بعده ابنه المنذر، ثم ابنه الأسود بن المنذر، ثم أخوه المنذر بن المنذر، ثم النعمان بن الأسود بن المنذر، ثم أبو يعفر بن علقمة بن مالك بن عدي بن الذميل بن ثور بن أسنش بن زبي بن غماره بن لحم.

ثم ملك من بعده امرؤ القيس بن النعمان الأكبر، ثم ابنه امرؤ القيس، ثم كان أمر الحرث بن عدي الكندي حتى تصالحا وتزوج المنذر بنته هنذا فولدت له عمراً، ثم ملك بعد المنذر عمرو بن هند، ثم قابوس بن المنذر أخوه، ثم المنذر بن المنذر أخوه الآخر، ثم ابنه النعمان بن المنذر. وهكذا نسبه الجرجاني وهو موافق لترتيب الطبري إلا في الحرث بن عمرو الكندي فإن الطبري جعله بعد النعمان الأكبر بن امرئ القيس وابنه المنذر، والجرجاني جعله بعد المنذر بن امرئ القيس بن النعمان وبين هذا المنذر والمنذر بن النعمان الأكبر خمسة من ملوكهم فيهم أبو يعفر بن الذميل، قاله أعلم بالصحيح من ذلك.

وأما المسعودي فخالف ترتيبهم فقال: بعد النعمان الأكبر ابن امرئ القيس وسماء قائد الفرس ملك خساً وستين سنة، ثم ملك ابنه المنذر خساً وعشرين سنة وهذا مثل ترتيب الطبري والجرجاني. ثم خالفهما وقال: وملك النعمان بن المنذر الحيرة وهو الذي بنى الخورنق خساً وثلاثين سنة، وملك الأسود بن النعمان عشرين سنة، وملك ابنه المنذر أربعين سنة وأمه ماء السماء من النمر قاسط من ربيعة وبها عرف، وملك ابنه عمرو بن المنذر أربعاً وعشرين سنة، ثم ملك بعده أخوه النعمان وأمه مامة وقتله كسرى وهو آخرهم. هكذا ساق المسعودي نسق ملوكهم ونسبهم وهو مخالف لما ذكره الطبري والجرجاني.

وقال السهيلي: كان للمنذر بن ماء السماء من الولد المملكين عمرو والنعمان وكان عمرو لهند بنت الحرث أكل المزار قال: وكان عمرو هذا من أعظم ملوك الحيرة ويعرف بمحرق لأنه

سبع عشرة سنة إلى أيام بوران بنت كسرى. ثم ولي المنذر بن النعمان بن المنذر وتسميه العرب الغرور الذي قتل بالبحرين يوم أجدات، ولما زحف المسلمون إلى العراق ونزل خالد بن الوليد الحيرة حاصرها بقصورها فلما أشرفوا على الملكة خرج إليهم إلياس بن قبيصة في أشراف أهل الحيرة واتقى من خالد والمسلمين بالجزية، فقبلوا منه وصالحهم على مائة وستين ألف درهم، وكتب لهم خالد بالعهد والأمان وكانت أول جزية بالعراق. وكان فيهم هانيء بن قبيصة أخو إلياس بن قبيصة بالقصر الأبيض، وعدي بن عدي العبادي ابن عبد القيس، وزيد بن عدي بقصر العدسين، وأهل نصر بن عدس من قصور الحيرة وهو بنو عوان بن عبد المسيح بن كلب بن وبرة وأهل قصر بني بقلبة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين فقالوا: يا حارث ما أنت إلا بقلبة خضراء وعبد المسيح هذا هو المعمر وهو الذي بعثه كسرى أبرويز إلى سطیح في شأن رؤيا الرزبان، ولما صالح إلياس بن قبيصة المسلمين وعقد لهم الجزية سخطت عليه الأكاسرة وعزلوه، فكان ملكه تسع سنين ولسته منها وثمانية أشهر كانت البعوث، وولي حيتند الخلافة عمر بن الخطاب وعقد لسعد بن أبي وقاص على حرب فارس، فكان أول عمل يزدجرد أن أمر مرزبان الحيرة أن يبعث قابوس بن قابوس بن المنذر وأغراه بالعرب ووعد به ملك أبائه، وقال له ادع العرب وأنت على من أجابك كما كان أبأوك، فنهض قابوس إلى القادسية ونزلها وكتب بكر بن وائل بمثل ما كان للنعمان فكاتبهم مقاربة ووعداً، وانتهى الخبر إلى المثنى بن حارثة الشيباني عقب مهلك أخيه المثنى وقبل وصول سعد، فأسرى من ذي قار وبيت قابوس بالقادسية ففض جمعه وقتله، وكان آخر من بقي من ملوك آل نصر بن ربيعة وانقرض أمرهم مع زوال ملك فارس. اهـ كلام الطبري وما نقله عن هشام بن الكلبي.

وقد كان المغيرة بن شعبة تزوج هنذا بنت النعمان، وسعد بن أبي وقاص تزوج صدقة بنت النعمان، وخبرهما معروف ذكره المسعودي وغيره. وعدة ملوك آل نصر عند هشام بن الكلبي عشرون ملكاً ومدتهم خمسمائة وعشرون سنة، وعند المسعودي ثلاث وعشرون ملكاً ومدتهم ستمائة وعشرون سنة. وقد قيل أن مدة عمران الحيرة إلى أن خربت عند بناء الكوفة خمسمائة سنة، قال: ولم يزل عمرانها يتناقص إلى أيام المعتضد ثم أقفرت. وفيما نقله بعض الإخباريين أن خالد بن الوليد قال لعبد المسيح: أخبرني بما رأيت من الأيام؟ قال: نعم! قال: رأيت المرأة من الحيرة تضع مكثها على رأسها ثم تخرج حتى تأتي الشام في قرى متصلة وبساتين ملتفة وقد أصبحت اليوم خراباً والله يرث

تستقم له طاعة العرب، فولى عليهم المنذر بن المنذر بن ماء السماء فخرج إلى جهة الشام طالباً ثار أبيه من الحرث الأعرج الغساني فقتله الحرث أيضاً يوم أباح.

وملك بعده ابنه النعمان بن المنذر وكان ذمياً أشقر أبرش، وهو أشهر ملوك الحيرة وعليه كثرت وفود العرب وطلبه بثار أبيه، وحرد من بني جفنة حتى أسر خلقاً كثيراً من أشرافهم، وحمله عدي بن زيد على أن تنصر وترك دين آبائه، وحبس عدياً فشفع كسرى فيه بسعاية أخ له كان عنده فقتله النعمان في محبسه، ثم نشأ ابنه زيد بن عدي وصار ترجماناً لكسرى، فأغراه بالنعمان وحضر مع كسرى أبرويز في وقعة بين الفرس والروم وانهزمت الفرس ونجا النعمان على فرسه التخرم بعد أن طلبه منه كسرى ينجو عليه فأعرض عنه، ونزل له إلياس بن قبيصة الطائي عن فرسه فنجا عليه، ووفد عليه النعمان بعد ذلك فقتله وولى على الحيرة إلياس بن قبيصة، فلم تستقم له طاعة العرب وغضبوا لقتل النعمان، وكان لهم على الفرس يوم ذي قار سنة ثلاث من البعثة، ومات إلياس وصارت الفرس يولون على الحيرة منهم إلى أن ملكها المسلمون.

وذكر البيهقي: أن دين بني نصر كان عبادة الأوثان، وأول من تنصر منهم النعمان بن الشقيقة وقيل بل النعمان الأخير. وملك العرب بتلك الجهات ابنه المنذر فقتله جيش أبي بكر رضي الله عنه. وفي تواريخ الأمم أن جميع ملوك الحيرة من بني نصر وغيرهم خمسة وعشرون ملكاً في نحو ستمائة سنة والله أعلم وهذا الترتيب مساو لترتيب الطبري والرجاني والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن ملوك كندة من هذه الطبقة ومبدأ

أمرهم وتصاريه أحوالهم

قال الطبري عن هشام بن محمد الكلبي: كان يخدم ملوك حمير أبناء الأشراف من حمير وغيرهم وكان ممن يخدم حسان بن تبع عمرو بن حجر سيد كندة لوقت وأبوه حجر هو الذي تسميه العرب أكل المرار وهو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحرث الأصغر ابن معاوية بن الحرث الأكبر ابن معاوية بن كندة، وكان أخا حسان بن تبع لأمه، فلما دوخ حسان ببلاد العرب وسار في الحجاز وهم بالانصراف ولى على معد بن عدنان كلها أخاه حجر بن عمرو هذا وهو أكل المرار، فدانوا له وسار فيهم أحسن سيرة، ثم هلك ومملك من بعده ابنه عمرو المقصور.

حرق مدينة الملهم عند اليمامة، وكان يملك من قبل كسرى أنوشروان، ومن بعده ملك أخوه النعمان بن المنذر وأمه مامة وقتله كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان لموجدة وجدها بسعاية زيد بن عدي بن زيد العبادي، وساق قصة مقتله وولاية إلياس بن قبيصة الطائي من بعده وما وقع بعد ذلك من حرب ذي قار وغلب العرب فيها على العجم إلى آخرها. فالله أعلم بالصحيح في ترتيب ملوكهم.

وقال ابن سعيد: أول حديثهم في الملك أن بني ثمارة كانوا جنداً للعالمقة بأطراف الشام والجزيرة وكانوا مع الزبلاء، ولما قتلت جذيمة قام عمرو بن عدي منهم بثاره، وكان ابن أخته حتى أدركه وقتلها وبني الحيرة على فرع من الفرات في أرض العراق.

وقال صاحب تواريخ الأمم: ملك مائة وثمانية وعشرين سنة أيام ملوك الطوائف، وبعده امرؤ القيس بن عمرو، ولما مات ولى أردشير بن سابور على الحيرة أوس بن قلام من العالمقة، ثم كان ملك الحيرة فوليها امرؤ القيس بن عمرو بن امرئ القيس المعروف بمحرق قال: وهو المذكور في قصيدة الأسود بن يعفر التي على روي الدال. وبعده ابنه النعمان بن شقيقة وهي من بني شيان وجعل معه كسرى والياً للفرس وهو يائي الخورنق والسدير على مياه الفرات، وملك إلى أن ساح وتزهت ثلاثين سنة وذكره عدي بن زيد في شعره.

وملك بعده ابنه المنذر وهو الذي سعى لبهرام جور في الملك حتى تم له وملك أربعاً وأربعين سنة، وملك بعده ابنه الأسود، ثم أخوه المنذر بن المنذر ثم النعمان بن الأسود وغضب عليه كسرى وولى مكانه الذميلة بن لحم من غير بيت الملك، ثم عاد الملك إليهم فولي امرؤ القيس بن النعمان الأكبر وهو ابن الشقيقة وهو الذي غزا بكر بن وائل، وملك بعده ابنه المنذر بن ماء السماء وهي أمه أخت كليب سيد وائل وطالبه قباذ بتابع مزدك على الزندقة فأبى، وولى مكانه الحرث بن عمرو بن حجر الكندي، ثم رده أنوشروان إلى ملك الحيرة وقتله الحرث الأعرج الغساني يوم حلجمة كما يأتي.

وملك بعده ابنه عمرو بن هند وهي مامة عمه امرئ القيس بن حجر المعروف بمضطرط الحجارة لشدة بأسه، وهو عمق الثاني حرق بني دارم من تميم لأنهم قتلوا أخاه وحلف ليحرقن منهم مائة فحرقهم وملك ستة عشر سنة أيام أنوشروان، فتك به في رواق بين الحيرة والفرات عمرو بن كلثوم سيد تغلب ونهبوا حياته. وملك بعده أخوه قابوس بن هند وكان أعرج وقتله بعض بني يشكر فولى أنوشروان على الحيرة بعض مرازية الفرس فلم

على بني أسد، وشرحيل على بني سعد والرياب، وسلمة على بكر وتغلب، ومعديكرب على قيس وكنانة. ويقال: بل كان سلمة على حنظلة وتغلب، وشرحيل على سعد والرياب وبكر، وكان قيس بن الحرث سياراً أي قوم نزل بهم فهو ملكهم. وفي كتاب الأغاني إنه ملك ابنه شرحيل على بكر بن وائل، وحنظلة على بني أسد وطوائف من بني عمرو بن عويم والرياب وغلفا وهو معديكرب على قيس، وسلمة بن الحرث على بني تغلب والنمر بن قاسط والنمر بن زيد مناة. اه كلام الأغاني.

فاما شرحيل فإنه قسد ما بينه وبين أخيه سلمة واقتلوا بالكلاب ما بين البصرة والكوفة، على سبع من اليمامة وعلى تغلب السفاح وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن عويم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب، وسبق إلى الكلاب سفيان بن مجاشع بن دارم من أصحاب سلمة في تغلب مع إخوته لأمه. ثم ورد سلمة وأصحابه فاقتلوا عامة يومهم، وخذلت بنو حنظلة وعمرو بن عويم والرياب بكر بن وائل، وانصرفت بنو سعد وأتباعها عن تغلب، وصبر بنو بكر وتغلب ليس معهم غيرهم إلى الليل، ونادى منادي سلمة في ذلك اليوم من يقتل شرحيل ولقاتله مائة من الإبل، فقتل شرحيل في ذلك اليوم قتله عصيم بن النعمان بن مالك بن غياث بن سعد بن زهير بن بكر بن حبيب التغلبي. وبلغ الخبر إلى أخيه معديكرب فاشتد جزعه وحزنه على أخيه وزاد ذلك حتى اعتراه منه وسواس هلك به، وكان معتزلاً عن الحرب ومنع بنو سعد بن زيد مناة عيال شرحيل وبعثوا بهم إلى قومهم، فعل ذلك عوف بن شحنة بن الحرث بن عطار بن عوف بن سعد بن كعب.

وأما سلمة، فإنه فليح فمات، وأما حجر بن الحرث فلم يزل أميراً على بني أسد إلى أن بعث رسله في بعض الأيام لطلب الأتاوة من بني أسد فمنعوها وضربوا الرسل، وكان حجر بنهمامة قبله الخبر، فسار إليهم في ربيعة وقيس وكنانة فاستباحهم وقتل أشراهم ومسرواتهم وجس عبيداً بن الأبرص في جمع منهم فاستعطفه بشعر بعث به إليه فسرعه وأصحابه وأوفدهم، فلما بلغوا إليه هجموا عليه بيته فقتلوه وتولى قتله علباء بن الحرث الكاهلي كان حجر قتل أباه، وبلغ الخبر امرئ القيس فحلف أن لا يقرب لذة حتى يدرك بثأره من بني أسد، وسار صريحاً إلى بني بكر وتغلب فنصروه وأقبل بهم فأجفل بنو أسد، وسار إلى المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة وأوقع امرؤ القيس في كنانة فأنخن فيهم، ثم سار في اتباع بني أسد إلى أن أعيا ولم يظفر منهم بشيء ورجعت عنه بكر وتغلب، فنار إلى مؤثر الخير بن ذي جدن من

قال الطبري عن هشام: ولما سار حسان إلى جديس خلفه على بعض أمور ملكه في حير، فلما قتل حسان وولي بعده أخوه عمرو بن تبع وكان ذا رأي ونبل، فأراد أن يكرم عمرو بن حجر بما نقصه من ابن أخيه حسان، فزوجه بنت أخيه حسان بن تبع، وتكلمت حير في ذلك وكان عندهم من الأحداث التي ابتلوا بها أن لا يتزوج في ذلك البيت أحد من العرب سواهم، فولدت بنت حسان لعمرو بن حجر الحرث بن عمرو. وملك بعد عمرو بن تبع عبد بن متون أصغر أولاد حسان، واستهوت الجن منهم تبع بن حسان فولوا عبد كلال مخافة أن يطعم في ملكهم أحد من بيت الملك، فولي عبد كلال لسرو رحم، وكان على دين النصرانية الأولى وكان ذلك يسوء قومه، ودعا إليه رجل من غسان قدم عليه من الشام، ووثب حير بالغساني فقتلوه.

ثم رجع تبع بن حسان من استهواء الجن وهو أعلم الناس بنجم وأعقل من يعلم في زمانه وأكثرهم حديثاً عما كان ويكون، فملك على حير وهابته حير والعرب، وبعث بابن أخته الحرث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش عظيم إلى بلاد معد والحيرة وما والاها، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس بن الشقيقة فقاتله فقتل النعمان وعدة من أهل بيته وهزم أصحابه، وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر وأمه ماء السماء امرأة من النمر بن قاسط وذهب ملك آل النعمان وملك الحرث بن عمرو وما كانوا يملكون.

وفي كتاب الأغاني قال: لما ملك قباذ، وكان ضعيف الملك، توثبت العرب على المنذر الأكبر ابن ماء السماء وهو ذو القرنين بن النعمان بن الشقيقة فأخرجوه، ولما سمي ذا القرنين لذو القرنين كائنات له، فخرج هارباً منهم حتى مات في إيباد، وترك ابنه المنذر الأصغر فيهم وكان أنكى ولده، وجاءوا بالحرث بن عمرو بن حجر أكل المزار فملكوه على بكر وحشدوا له وقاتلوا معه، وظهر على من قاتله من العرب. وأبى قباذ أن يمد المنذر بجيش فلما رأى ذلك كتب إلى الحرث بن عمرو: إني في غير قومي وأنت أحق من ضمني وأنا متحول إليك فحول وزوجه ابنته هنداً.

وقال غير هشام بن محمد: إن الحرث بن عمرو لما ولي على العرب بعد أبيه اشتدت وطأته وعظم بأسه ونزاع ملوك الحيرة وعليهم يومئذ المنذر بن امرئ القيس وبينهم إذ ولي كسرى قباذ بعد أبيه فيروز بن يزيد جد وكان زنديقاً على رأي ماني، فدعا المنذر إلى رأيه فأبى عليه وأجابته الحرث بن عمرو فملكه على العرب وأنزله بالحيرة، ثم هلك قباذ وولي ابنه أنوشروان فرد ملك الحيرة إلى المنذر، وصالحه الحرث على أن له ما وراء نهر السواد فاقسما ملك العرب. وفرق الحرث ولده في معد فملك حجراً

سريح بن السموأل وأدرك الإسلام، وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ولا عشرة، وقد قيل إن أمه من غسان وكلهم قالوا: هو صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيما المشهور بالزباء، وقيل: من ولد الكوهن بن هارون، وكان هذا الحصن لجده عاديا، واحترق فيه أروية عذبة، وتنزل به العرب فتصيبها وتنتار من حصنه وتقيم هنالك سوقاً أهـ كلام الأغاني.

وقال ابن سعيد: كندة لقب لثور بن عفير بن الحرث بن مرة بن أد بن يشجب بن عبيد الله بن زيد بن كهلان، وبلادهم في شرقي اليمن، ومدينة ملكهم دمون، وتوالى الملك منهم في بني معاوية بن عزة، وكان التبابعة يصاهرونهم ويولونهم على بني معد بن عدنان بالحجاز، فأول من ولي منهم حجر أكل المزارع بن عمرو بن معاوية الأكبر ولده تبع بن كرب الذي كسا الكعبة، وولي بعده ابنه عمرو بن حجر، ثم ابنه الحرث المقصور وهو الذي أبى أن يتزندق مع قباذ ملك الفرس فقتل في بني كلب ونهب ماله، وكان قد ولي أولاده على بني معد فقتل أكثرهم، وكان على بني أسد منهم حجر بن الحرث فجار عليهم فقتلوه، وتجرد للطلب بثاره ابنه امرؤ القيس، وسار إلى قيصر فأغراه به الطماح الأسدي. وقال: إنه يتغزل بنات الملوك فألبسه حلة مسموحة تقطع بها.

وقال صاحب التواريخ: إن الملك انتقل بعدهم إلى بني جيلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين، واشتهر منهم قيس بن معديكرب بن جيلة ومنهم الأعشى وابنته العمردة من مردة الإنس ولها في قتال المسلمين أخبار في الردة، وأسلم أخوها الأشعث ثم ارتد بعد الوفاة واعتصم بالخير، ففتحه جيش أبي بكر رضي الله عنه وجيء به إليه أسيراً فمُنّ عليه وزوجه أخته وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون في الدولة الأموية.

ومن بطون كندة السكون والسكاسك، وللسكاسك مجالات شرقي اليمن متميزة وهم معروفون بالسحر والكهانة، ومنهم نجب بطن كبير كان منهم بالأندلس بنو صمادح وبنو ذي النون وبنو الأفتس من ملوك الطوائف. والله تعالى وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا رب غيره.

الخبر عن أبناء جفنة ملوك غسان بالشام من هذه الطبقة وأوليتهم ودولهم وكيف انساق الملك إليهم ممن قبلهم

أول ملك كان للعرب بالشام فيما علمناه للعماقة، ثم لبني

ملوك حمير صريحاً بنصره بمخسمانة رجل من حمير ويجمع من العرب سواهم، وجمع المنذر لامرئ القيس ومن معه، وأمدته كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة والتقوا فانهزم امرؤ القيس، وفرت حمير ومن كان معه ونجا بدمه وما زال يتنقل في القبائل والمنذر في طلبه وسار إلى قيصر صريحاً فأمدته، ثم سعى به الطماح عند قيصر أنه يشيب بيته، فبعث إليه جملة مسمومة كان فيها هلاكه ودفن بأنقرة.

قال الجرجاني: ولا يعلم لكندة بعد هؤلاء ملوك اجتمع لهم أمرها وأطيع فيها سوى أنهم قد كان لهم رئاسة ونباة وفيهم سؤدد حتى كانت العرب تسميهم كندة الملوك، وكانت الرئاسة يوم جيلة على العساكر لهم، فكان حسان بن عمرو بن الجور على تميم ومعاوية بن شرحبيل بن حصن على بني عامر والجور هو معاوية بن حجر أكل المزارع أخو الملك المقصور عمرو بن حجر. والله وارث الأرض ومن عليها.

وفي كتاب الأغاني: أن امرئ القيس لما سار إلى الشام نزل على السموأل بن عاديا بالأبلق بعد إيقاعه ببني كنانة على أنهم بنو أسد وتفرق عنه أصحابه كراهية لفعله، واحتاج إلى الحرب فطلبه المنذر بن ماء السماء وبعث في طلبه جمعاً من إيساد وبهرا وتوخ وجيوشاً من الأساورة أمدته بهم أنوشروان، وغذله حمير وتفرقوا عنه فالتجأ إلى السموأل ومعه أدراع خمسة مسماة كانت لبني أكل المزارع يتوارثونها، ومعه بنته هند وابن عمه يزيد بن الحرث بن معاوية بن الحرث ومال وسلاح كان بقي معه والربيع بن ضبع بن نزارة، وأشار عليه الربيع بمدح السموأل فمدحه ونزل به، فضرب لابنته قبة وأنزل القوم في مجلس له براح، فمكثوا ما شاء الله. وسأله امرؤ القيس أن يكتب له إلى الحرث بن أبي شمر يوصله إلى قيصر ففعل واستصحب رجلاً يدله على الطريق وأودع ابنته وماله وأدراعه السموأل، وخلف ابن عمه يزيد بن الحرث مع ابنته هند ونزل الحرث بن ظالم غازياً على الأبلق، ويقال الحرث بن أبي شمر ويقال ابن المنذر، وبعث الحرث بن ظالم ابنه يتصيد ويهدده بقتله فأبى من إخفاء ذمته وقتل ابنه فضرب به المثل في الوفاء بذلك.

وأما نسب السموأل فقال ابن خليفة عن محمد بن سالم البيكندي عن الطوسي عن ابن حبيب: إنه السموأل بن عريض بن عاديا بن حيا، ويقال إن الناس يدرجون عريضاً في النسب ونسبه عمرو بن شبة ولم يذكر عريضاً، وقال عبد الله بن سعد عن دارم بن عقال: من ولد السموأل بن عاديا بن رفاعة بن ثعلبة بن كعب بن عمرو بن عامر مزيقيا وهذا عند محال لأن الأعشى أدرك

مزقياً.

قال بعض أهل اليمن: عك بن عدنان بن عبد الله بن أدد. قال الدارقطني: عك بن عبد الله بن عدنان بالشاء المثلثة وضم العين ولا خلاف أنه بنونين كما لم يختلف في دوس بن عدنان قبيلة من الأزد أنه بالناء المثلثة. ثم نزلوا بالظهران وقاتلوا جرهم بمكة، ثم افترقوا في البلاد فنزل بنو نصر بن الأزد الشراة وعُمان ونزل بنو ثعلبة بن عمرو مزقياً بيثرب وأقام بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة وهم يقال لهم خزاعة.

وقال المسعودي: سار عمرو مزقياً حتى إذا كان بالشراة بمكة أقام هنالك بنو نصر بن الأزد وعمران الكاهن، وعدي بن حارثة بن عمرو بالأزد حتى نزلوا بين بلاد الأشعرين وعك على ماء يقال له غسان بين وادين يقال لهما زبيد وزمع فشرّبوا من ذلك الماء فسموا غسان، وكانت بينهم وبين معد حروب إلى أن ظفرت بهم معد فأخرجهم إلى الشراة وهو جبل الأزد الذين هم به على تخوم الشام ما بينه وبين الجبال مما يلي أعمال دمشق والأردن.

قال ابن الكلبي: ولد عمرو بن عامر مزقياً جفنة ومنه الملوك والحارث وهو محرق أول من عاقب بالنار، وثعلبة وهو العنقا، وحارثة وأبا حارثة ومالكاً وكعباً ووداعة وهو في همدان وعوفاً وذهل وائل ودفع ذهل إلى نجران ومنه أسقف وعبيدة وذهل وقيساً درج هؤلاء الثلاثة وعمران بن عمرو فلم يشرب أبو حارثة ولا عمران ولا وائل ماء غسان فليس يقال لهم غسان. وبقي من أولاد مزقياً ستة شربوا منه فهم غسان وهم: جفنة وحارثة وثعلبة ومالك وكعب وعوف، ويقال: إن ثعلبة وعوفاً لم يشربا منه، ولما نزلت غسان الشام جاوروا الضجاعم وقومهم من سليح ورئيس غسان يومئذ ثعلبة بن عمرو بن المجالد بن الحارث بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد، ورئيس الضجاعم يومئذ داود اللثقي بن هبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم. وكانت الضجاعم هؤلاء ملوكاً على العرب عمالاً للروم كما قلنا، يجمعون عن نزل بساحتهم لقيصر، فغلبتهم غسان على ما بأيديهم من رئاسة العرب لما كانت صيغة رياستهم الحميرية قد استحالت وعادت إلى كهلان وبطونها وعرفت الرئاسة منها باليمن قبل فصولهم، وربما كانوا أولى عدة وقوة، وإنما العزة للكاثر.

وكانت غسان لأول نزولها بالشام طالها ملوك الضجاعم بالأتاوة فماتتهم غسان فاقتلوا فكانت الدائرة على غسان، وأقرت بالصغار وأدت الأتاوة حتى نشأ جذع بن عمرو بن المجالد بن الحارث بن عمرو بن المجالد بن الحارث بن عمرو بن عدي بن

إرم بن سام ويعرفون بالأرمانيين. وقد ذكرنا خلاف الناس في العمالة الذين كانوا بالشام هل هم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام أو من ولد عماليق بن اليفاز بن عيصو، وأن المشهور المتعارف أنهم من عمليق بن لاوذ. وكان بنو إرم يومئذ بادية في نواحي الشام والعراق، وقد ذكروا في التوراة، وكان لهم مع ملوك الطوائف حروب كما تقدمت الإشارة إلى ذلك كله من قبل، وكان آخر هؤلاء العمالة ملك السמידع بن هوثر وهو الذي قتله يوشع بن نون حين تغلب بنو إسرائيل على الشام، وبقي في عقبه ملك في بني الظرب بن حسان من بني عاملة العماليق، وكان آخرهم ملكاً الزباء بنت عمرو بن السמידع. وكانت قضاة مجاورين لهم في ديارهم بالجزيرة وغلبوا العمالة لما فشل ريمهم.

فلما هلكت الزباء وانقرض أمر بني الظرب بن حسان، ملك أمر العرب تنوخ من بطون قضاة، وهم تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم الله بن الأسود بن ريرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة، وقد تقدم ذكر نزولهم بالحيرة والأنبار ومجاورتهم للأرمانيين. فملك من تنوخ ثلاثة ملوك فيما ذكر المسعودي: النعمان بن عمرو، ثم ابنه عمرو بن النعمان، ثم أخوه الحواري بن عمرو، وكانوا ملكين من قبل الروم. ثم تلاشى أمر تنوخ وضمحل وغلبت سليح من بطون قضاة، ثم الضجاعم منهم من ولد ضجعم بن سعد بن سليح واسمه عمرو بن خلوان بن عمران بن الحاف فتنصروا وملكهم الروم على العرب وأقاموا على ذلك مدة، وكان نزولهم ببلاد مؤاب من أرض البلقاء. ويقال: إن الذي ولي سليح على نواحي الشام هو قيصر طيطش ابن قيصر ماهان.

قال ابن سعيد: كان لبني سليح دولتان في بني ضجعم وبني العبيد، فأما بنو ضجعم فملكوا إلى أن جاءهم غسان فسلبوهم ملكهم، وكان آخرهم زياد بن الهبولة سار بمن أبقى السيف منهم إلى الحجاز فقتله والي الحجاز للتبابعة حجر أكل المرار. قال: ومن النسابين من يطلق تنوخ على بني ضجعم ودوس الذين تنخوا بالبحرين أي أقاموا، ثم سار الضجاعم إلى بركة الشام ودوس إلى بركة العراق. قال: وأما بنو العبيد بن الأبرص بن عمرو بن أشجع بن سليح فتوارثوا الملك بالحضر الذي آثاره باقية في بركة سنجار، والمشهور منهم الفضيز بن معاوية بن العبيد المعروف عند الجرماقة بالساطرور وقصته مع سابور معروفة أهـ كلام ابن سعيد. ثم استحالت صيغة الرئاسة عن العرب لحمير وصارت إلى كهلان إلى بلاد الحجاز، ولما فصلت الأزد من اليمن كان نزولهم ببلاد عك ما بين زبيد وزمع فحاربوهم وقتلوا ملك عك قتله ثعلبة بن عمرو

أخويه شمر والمنذر.

وقال ابن سعيد: أول من ملك من غسان بالشام وأذهب ملك الضجاعم جفنة بن مزيقيا. ونقل عن صاحب تواريخ الأمم: ولما ملك جفنة بنى جلق وهي دمشق وملك خساً وأربعين سنة، واتصل الملك في بنيه إلى أن كان منهم الحارث الأعرج ابن أبي شمر وأمه مارية ذات القرطين من بني جفنة بنت الهانيء المذكورة في شعر حسان بأرض البلقاء ومعان. قال ابن قتيبة: وهو الذي سار إليه المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة في مائة ألف، فبعث إليه الحارث مائة من قبائل العرب فيهم لبيد الشاعر وهو غلام، فأظهروا أنهم رسل في الصلح حتى إذا أحاطوا برواق المنذر فتكروا به وقتلوا جميع من كان معه في الرواق وركبوا خيولهم، فعنهم من نجا ومنهم من قتل. وحملت غسان على عسكر المنذر وقد اختلطوا فهزموهم، وكانت حليلة بنت الحارث تحرض الناس وهم منهزمون على القتال فسمي يوم حليلة، ويقال إن النجوم ظهرت فيه بالتهار من كثرة العجاج.

ثم تولى الملك في ولد الحارث الأعرج إلى أن ملك منهم جفنة بن المنذر بن الحارث الأعرج وهو عمروق لأنه حرق الحيرة دار ملك آل النعمان، وكان جوالاً في الآفاق وملك ثلاثين سنة. ثم كان ثالثه في الملك النعمان بن عمرو بن المنذر الذي بنى قصر السويداء وقصر حارث عند صيدا وهو مذكور في شعر النابغة ولم يكن أبوه ملكاً وإنما كان يغزو بالجيش، ثم ملك جبلة بن النعمان وكان منزله بصفين وهو صاحب عين أباغ يوم كانت له الهزيمة فيه على المنذر بن المنذر ابن ماء السماء وقتل المنذر في ذلك اليوم، ثم اتصل الملك في تسعة منهم بعده وكان العاشر أبو كرب النعمان بن الحارث الذي رثاه النابغة وكان منزله بالجولان من جهة دمشق، ثم ملك الأيهم بن جبلة بن الحارث وكان له رأي في الإفساد بين القبائل حتى أفنى بعضهم بعضاً فعل ذلك بيني جسر وعاملة وغيرهم وكان منزله يتدمر وملك بعده منهم خمسة، فكان السادس منهم ابنه جبلة بن الأيهم وهو آخر ملوكهم أهد. كلام ابن سعيد.

واستفحل ملك جبلة هذا وجاء الله بالإسلام وهو على ملكه، ولما افتتح المسلمون الشام أسلم جبلة وهاجر إلى المدينة، واستشرف أهل المدينة لمقدمه حتى تناول النساء من خدورهن لرويته لكرم وفادته، وأحسن عمر رضي الله عنه نزله وأكرم وفادته وأجله بأرفع رتب المهاجرين، ثم غلب عليه الشقاء ولطم رجلاً من المسلمين من فزارة وطيه فضل إزاره وهو يسحبه في الأرض، ونابذه إلى عمر رضي الله عنه في القصاص فأخذته العزة

عمرو بن مازن بن الأزد، ورجال سليح من ولد رئيسهم داود اللثقي وهو سبطه بن المنذر بن داود ويقال بل قتلته. فالتقوا فغلبهم غسان وأقاد بهم وتفردوا بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس، فخاف ملك الروم أن يعينوا عليه فارساً، فكتب إليهم واستدناهم ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو أخو جندع بن عمرو، وكتبوا بينهم الكتاب على أنه إن دهمهم أمر من العرب أمدهم بأربعين ألفاً من الروم وإن دهمه أمر أمدهم غسان بعشرين ألفاً، وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه. أول من ملك منهم ثعلبة بن عمرو فلم يزل ملكها إلى أن هلك وولي مكانه منهم ثعلبة بن عمرو مزيقيا.

قال الجرجاني: وبعد ثعلبة بن عمرو ابنه الحرث بن ثعلبة يقال إنه ابن مارية، ثم بعده ابنه المنذر بن الحرث، ثم ابنه النعمان بن المنذر بن الحرث، ثم أبو بشر بن الحرث بن جبلة بن الحرث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، هكذا نسبه بعض النساب، والصحيح أنه ابن عوف بن الحرث بن عوف بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن، ثم الحرث الأعرج بن أبي شمر، ثم عمرو بن الحرث الأعرج، ثم المنذر بن الحرث الأعرج، ثم الأيهم بن جبلة بن الحرث بن جبلة بن الحرث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، ثم ابنه جبلة.

وقال المسعودي: أول من ملك منهم الحرث بن عمرو مزيقيا، ثم بعده الحرث بن ثعلبة بن جفنة وهو ابن مارية ذات القرطين، وبعده النعمان بن الحرث بن جفنة بن الحرث، ثم أبو شمر بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن الحارث، ثم ملك بعده أخوه المنذر بن الحارث، ثم أخوه جبلة بن الحارث، ثم بعده عوف بن أبي شمر، ثم بعده الحارث بن أبي شمر وعلى عهده كانت البعثة وكتب له النبي ﷺ فيمن كتب إليه من ملوك تهامة والحجاز واليمن وبعث إليه شجاع بن وهب الأسدي يدعوهم إلى الإسلام ويرغبه في الدين كذا عند ابن إسحاق. وكان النعمان بن المنذر على عهد الحارث بن أبي شمر هذا وكان يتنازعان في الرياسة ومذاهب المدح، وكانت شعراء العرب تقد عليهما مثل الأعشى وحسان بن ثابت وغيرهما.

ومن شعر حسان رضي الله تعالى عنه في مدح أبناء جفنة: لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلست في الزمان الأول أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل ينشون حتى ما نهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل ثم ملك بعد الحارث بن أبي شمر ابنه النعمان، ثم ملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة، وجبلة جده هو الذي ملك بعد

الخبر عن الأوس والخزرج أبناء قيلة من هذه الطبقة ملوك يثرب دار الهجرة وذكر أوليتهم والإمام بشأن نصرتهم وكيف انقرض أمرهم

قد ذكرنا فيما تقدم شأن يثرب وأنها من بناء يثرب بن فانية بن مهلهل بن إرم بن عييل بن عوض وعييل آخر عاد. وفيما ذكر السهيلي أن يثرب بن قائد بن عبيد بن مهلايل بن عوض بن عمليق بن لاوذ بن إرم، وهذا أصح وأوجه. وقد ذكرنا كيف صار أمر هؤلاء لإخوانهم جاسم من الأمم العمالقة وأن ملكهم كان يسمى الأرقم وكيف تغلب بنو إسرائيل عليه وقتلوه وملكوا الحجاز دونه كله من أيدي العمالقة، ويظهر من ذلك أن الحجاز لعهدهم كان أهلاً بالعمران وجميع مياحه، يشهد بذلك أن داود عليه السلام لما خلع بنو إسرائيل طاعته وخرجوا عليه بانه أشبوش فر مع سبط يهوذا إلى خيبر وملك ابنه الشام وأقام هو وسبط يهوذا بخيبر سبع سنين في ملكه، حتى قتل ابنه وعاد إلى الشام. فيظهر من هذا أن عمرانه كان متصلاً يثرب ويجاوزها إلى خيبر. وقد ذكرنا هنالك كيف أقام من بني إسرائيل من أقام بالحجاز وكيف تبعتهم يهود خيبر وبنو قريظة.

قال المسعودي: وكانت الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد الله وأكثرها ماءً فنزلوا بلاد يثرب واتخذوا بها الأموال ونسوا الأطم والنازل في كل موطن، وملكوا أمر أنفسهم، وانضاضت إليهم قبائل من العرب نزلوا معهم واتخذوا الأطم والبيوت وأمرهم راجع إلى ملوك المقدس من عقب سليمان عليه السلام. قال شاعر بني نعيم:

ولو نطقت يوماً قباء لخبرت بأننا نزلنا قبل عاد وتبع
وأطامنا عادية مشمخة تلوح فتتمى من يعادي ونعنع

فلما خرج مزيقيا من اليمن وملك غسان بالشام ثم هلك، وملك ابنه ثعلبة العقاء ثم هلك ثعلبة العقاء، وولي أمرهم بعد ثعلبة عمرو ابن أخيه جفنة سخط مكانه ابنه حارثة فأجمع الرحلة إلى يثرب، وأقام بنو جفنة بن عمرو ومن انضاض إليهم بالشام، ونزل حارثة يثرب على يهود خيبر وسألم الخلف والجوار على الأمان والمنعة فأعطوه من ذلك ما سأل. قال ابن سعيد: وملك اليمن يومئذ شريب بن كعب فكانوا بادية لهم إلى أن انعكس الأمر بالكثرة والغلبة.

ومن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني قال: بنو قريظة

بالإثم، فقال له عمر رضي الله عنه: لا بد أن أقيده منك، فقال له: إذن أرجع عن دينكم هذا الذي يقاد فيه للسوقة من الملوك، فقال له عمر رضي الله عنه: إذن أضرب عنقك! فقال أمهلي الليلة حتى أرى رأيي! واحتمل روحه وأسرى فتجاوز الدروب إلى قصر ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة عشرين من الهجرة. وفيما تذكره الثقات أنه ندم ولم يزل باكياً على فعلته تلك وكان فيما يقال يبعث بالجواز إلى حسان بن ثابت لما كان منه في مدح قومه ومدحه في الجاهلية.

وعند ابن هشام: أن شجاع بن وهب إنما بعثه رسول الله ﷺ إلى جيلة. قال المسعودي: جميع ملوك غسان بالشام أحد عشر ملكاً وقال: إن النعمان والمندر إخوة جيلة وأبي شمر وكلهم بنو الحارث بن جيلة بن الحارث بن ثعلبة ملكوا كلهم. قال: وقد ملك الروم على الشام من غير آل: -جفنة مثل: الحارث الأعرج وهو أبو شمر بن عمرو بن الحارث بن عوف وعوف هذا جد ثعلبة بن عامر قاتل داود اللثقي، وملكوا عليهم أيضاً أبا جيلة بن عبد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج بن ثعلبة بن مزيقيا وهو أبو جيلة الذي استصرخه مالك بن العجلان على يهود يثرب حسبما نذكر بعد.

وقال ابن سعيد: عن صاحب تواريخ الأمم: إن جميع ملوك بني جفنة اثنا وثلاثون ومدتهم ستمائة سنة، ولم يبق لغسان بالشام قائمة، وورث أرضهم بها قبيلة طيء. قال ابن سعيد: وأمرؤهم بنو ميرا وأما الآن فأمرؤهم بنو مهنا وهما معاً لربيعة بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن علي بن سالم بن قصة بن بدر بن سميع. وقامت غسان بعد منصرفها من الشام بأرض القسطنطينية حتى انقرض ملك القياصرة، فتجهزوا إلى جبل شرкус، وهو ما بين بحر طبرستان وبحر نيطش الذي يمدد خليج القسطنطينية، وفي هذا الجبل باب الأبواب وفيه من شعوب الترك المنتصرة الشرکس واركس واللاص وكسا ومعهم أخلاط من الفرس ويونان، والشرکس غالبون على جميعهم، فانحازت قبائل غسان إلى هذا الجبل عند انقراض القياصرة والروم وتحالفوا معهم واختلطوا بهم ودخلت أنساب بعضهم في بعض، حتى ليزعم كثير من الشرکس أنهم من نسب غسان. والله حكمه بالغة في خلقه والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا انقضاء للملك ولا رب غيره.

فرجع مالك وأخبرهم أن الملك أبا جيلة يزورهم فاعدوا له نزلاً فاقبل ونزل بذئي حرض، وبعث إلى الأوس والخزرج بقدومه، وخشي أن يتحصن منه اليهود في الأطام فاتخذ حائراً وبعث إليهم فجاءوه في خواصهم وحشهم، وأذن لهم في دخول الحائر وأمر جنوده فقتلهم رجلاً رجلاً إلى أن أتوا عليهم، وقال للأوس والخزرج إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلا حرقكم ورجع إلى الشام فأقاموا في عداوة مع اليهود.

ثم أجمع مالك بن العجلان وصنع لهم طعاماً ودعاهم فامتنعوا لغدرة أبي جيلة، فاعتذر لهم مالك عنها وأنه لا يقصد نحو ذلك فأجابوه وجأوا إليه فغدرهم وقتل منهم سبعة وثمانين من رؤسائهم، وفطن الباقون فرجعوا وصورت اليهود بالحجاز مالك بن العجلان في كنانتهم وبيعهم وكانوا يلعنونه كلما دخلوا. ولما قتلهم مالك ذلوا وخافوا وتركوا مشي بعضهم إلى بعض في الفتنة كما كانوا يفعلون من قبل، وكان كل قوم من اليهود قد لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يستنصرون بهم ويكونون لهم أحلافاً اهـ كلام الأغاني.

وكان لحارثة بن ثعلبة ولدان أحدهما أوس والآخر خزرج، وأمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة وقيل بنت كاهن بن عنزة من قضاعة، فأقاموا كذلك زماناً حتى أثروا وامتنعوا في جانبهم وكثر نسلهم وشعوبهم، فكان بنو الأوس كلهم لمالك بن الأوس منهم خطمة بن جشم بن مالك وثلعة ولوذان وعوف كلهم بنو عمرو بن عوف بن مالك، ومن بني عوف بن عمرو حنش ومالك وكلفة كلهم بنو عوف، ومن مالك بن عوف معاوية وزيد. فمن زيد عبيد وضبيعة وأمية ومن كلفة بن عوف جحججاً بن كلفة ومن مالك بن الأوس أيضاً الحارث وكعب ابنا الخزرج بن عمرو بن مالك، فمن كعب بنو ظفر ومن الحارث بن الخزرج حارثة وجشم، ومن جشم بنو عبد الأشهل، ومن مالك بن الأوس أيضاً بنو سعد وبنو عامر ابنا مرة بن مالك فبنوا سعد الجعادرة، ومن بني عامر عطية وأمية ووائل كلهم بنو زيد بن قيس بن عامر، ومن مالك بن الأوس أيضاً أسلم وواقف بنو امرئ القيس بن مالك فهذه بطون الأوس.

وأما الخزرج فخمسة بطون من كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث، فمن كعب بن الخزرج بنو ساعدة بن كعب، ومن عمرو بن الخزرج بنو النجار وهم تيم الله بن ثعلبة بن عمرو وهم شعوب كثيرة: بنو مالك وبنو عدي وبنو مازن وبنو دينار كلهم بنو النجار، ومن مالك بن النجار مبدول واسمه عامر وغام وعمرو ومن عمرو عدي ومعاوية، ومن عوف بن الخزرج بنو

وبنو النضير الكاهنان من ولد الكوهن بن هارون عليه السلام، كانوا بنو احي يثرب بعد موسى عليه السلام وقبل تفرق الأزد من اليمن بسيل العرم ونزول الأوس والخزرج يثرب وذلك بعد الفجار.

ونقل ذلك عن علي بن سليمان الأخفش بسنده إلى العمري قال: ساكنو المدينة العماليق وكانوا أهل عدوان ويغي، وتفرقوا في البلاد، وكان بالمدينة منهم بنو نعيم وبنو سعد وبنو الأزرق وبنو نظرون، وملك الحجاز منهم الأرقم ما بين تيمنا إلى فذك وكان ملوك المدينة ولهم بها نخل وزرع، وكان موسى عليه السلام قد بعث الجنود إلى الجبابة يغزونهم، وبعث إلى العمالقة جيشاً من بني إسرائيل وأمرهم أن لا يستبقوا أحداً فأبقوا إناً للأرقم ضنوا به على القتل.

فلما رجعوا بعد وفاة موسى عليه السلام وأخبروا بني إسرائيل بشأنه فقالوا هذه معصية لا تدخلوا علينا الشام، فرجعوا إلى بلاد العمالقة ونزلوا المدينة وكان هذا أولية سكنى اليهود يثرب. وانتشروا في نواحيها واتخذوا بها الأطام والأموال والمزارع ولبثوا زماناً، وظهر الروم على بني إسرائيل بالشام وقتلهم وسبوا، فخرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل هارين إلى الحجاز وتبعهم الروم فهلكوا عطشاً في المفازة بين الشام والحجاز. وسمي الموضع ثمر الروم. ولما قدم هؤلاء الثلاثة المدينة نزلوا العالية فوجدوها وابية وارتادوا.

ونزل بنو النضير مما يلي البهجان، وبنو قريظة وبنو يهدل على نهر وز. وكان ممن سكن المدينة من اليهود حين نزلها الأوس والخزرج بنو الشقمة وبنو ثعلبة وبنو زرة وبنو قيقاق وبنو يزيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل وبنو عوف وبنو عصص، وكان بنو يزيد من بلي وبنو نعيم من بلي وبنو الشقمة من غسان. وكان يقال لبني قريظة وبني النضير الكاهنان كما مر. فلما كان سبيل العرم وخرجت الأزد نزلت أزد شنوءة الشام بالسراة وخزاعة بطوى، ونزلت غسان بصرى وأرض الشام، ونزلت أزد عمان الطائف، ونزلت الأوس والخزرج يثرب نزلوا في ضرار بعضهم بالضاحية وبعضهم بالقرى مع أهلها، ولم يكونوا أهل نعم وشاء لأن المدينة كانت ليست بلاد مرعى، ولا نخل لهم ولا زرع إلا الأعذاق البسيرة والمزرعة يستخرجها من الموات والأموال لليهود فلبثوا حيناً.

ثم وفد مالك بن عجلان إلى أبي جيلة الغساني وهو يومئذ ملك غسان فسأله فأخبره عن ضيق معاشهم، فقال: ما بالكم لم تغلبوهم حين غلبنا أهل بلدنا؟ ووعد أنه يسير إليهم فينصرهم،

ويقال له أحر نزل بهم تبع، وقال: إنما التمر لمن أبره. فزاد ذلك تبعاً حقاً عليهم فاقتلوا. وقال ابن قتيبة في هذه الحكاية إن الذي عدا على التبعية هو مالك بن العجلان، وأنكره السهيلي، وفرق بين القصتين بأن عمرو بن ظلة كان لعهد تبع ومالك بن العجلان لعهد أبي جيلة واستبعد ما بين الزمانين. ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا اليهود على يثرب. وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في حلفهم من جاورهم من قبائل مضر وكانت بينهم في الحين فتن وحروب ويستصرخ كل بمن دخل في حلفه من العرب ويهود.

قال ابن سعيد: ورحل عمرو بن الإطنابة من الخزرج إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة فملكه على الحيرة، واتصلت الرياسة في الخزرج والحرب بينهم وبين الأوس، ومن أشهر الوقائع التي كانت بينهم يوم بعث قبل المبعث، كان على الخزرج فيه عمرو بن النعمان بن صلاة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة، وكان على الأوس يومئذ حضير الكتائب ابن سمالك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل. وكان حلفاء الخزرج يومئذ أشج من غطفان وجهينة من قضاة، وحلفاء الأوس مزينة من أحياء طلحة بن إياس وقريظة والنضير من يهود، وكان الغلب صدر النهر للخزرج ثم نزل حضير وحلف لا أركب أو أقتل، فتراجعت الأوس وحلفاؤها وانهمز الخزرج، وقتل عمرو بن النعمان رئيسهم. وكان آخر الأيام بينهم، وصبحهم الإسلام وقد ستموا الحرب وكرهوا الفتنة، فاجتمعوا على أن يتوجوا عبد الله بن أبي بن سلول. ثم اجتمع أهل العقبة منهم بالنبي ﷺ بمكة ودعاهم إلى نصرة الإسلام، فجاؤوا إلى قومهم بالخبر كما نذكر وأجابوا واجتمعوا على نصرته، ورئيس الخزرج سعد بن عبادة والأوس سعد بن معاذ.

قالت عائشة: كان يوم بعث يوماً قدمه الله لرسوله، ولما بلغهم خبر مبعث النبي ﷺ بمكة وما جاء به من الدين وكيف أعرض قومه عنه وكذبوه وأذوه وكان بينهم وبين قريش إخاء قديم وصهر، فبعث أبو قيس بن الأسلت من بني مرة بن مالك بن الأوس ثم من بني وائل منهم واسمه صيفي بن عامر بن شحم بن وائل وكان يحبهم لمكان صهره فيهم، فكتب إليهم قصيدة يعظم لهم فيها الحرمة ويذكر فضلهم وحلمهم وينهاهم عن الحرب، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ، ويذكرهم بما رفع الله عنهم من أمر الفيل وأولها:

أيا راكباً إسا عرضت فبلغن مقالاة أوسي لؤي بن غالب

تناهز خمساً وثلاثين بيتاً ذكرها ابن إسحاق في كتاب السير،

سالم والقوافل وهما عوف بن عمرو بن عوف. والقوافل ثعلبة ومرصخة بنو قوقل بن عوف، ومن سالم بن عوف بنو العجلان بن زيد بن عصم بن سالم وبنو سالم بن عوف، ومن جشم بن الخزرج بنو غضب بن جشم وتزيد بن جشم، فمن غضب بن جشم بنو بياضة وبنو زريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب، ومن تزيد بن جشم بنو سلمة بن سعد بن علي بن راشد بن ساردة بن تزيد، ومن الحارث بن الخزرج بنو خندرة وبنو حرام ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج. فهذه بطون الخزرج. فلما انتشر يثرب هذان الحيان من الأوس والخزرج وكثروا يهود، خافوهم على أنفسهم، فنقضوا الحلف الذي عقده لهم وكان العزة يومئذ يثرب لليهود، قال قيس بن الخطيم:

كنّا إذا رأينا قوم بمظلمة شددت لنا الكامنان الخيل واعتزموا بنوا الرهون وواسونا بأنفسهم بنو الصريخ فقد عفوا وقد كرموا

ثم نتج فيهم بعد حين مالك بن العجلان وقد ذكر نسب العجلان، فعظم شأن مالك وسوده الحيان، فلما نقض يهود الحلف واقعهم وأصاب منهم ولحق بأبي جيلة ملك غسان بالشام وقيل بعث إليه الرق بن زيد بن امرئ القيس فقدم عليه فأنشده: أقمت اطعم من رزق قطرة حتى تكسر للنجاة رحيل حتى الاقي معشراً أنى لهم خل ومالم لنا ميسنول أرض لنا تدعى قبائل سالم ويحيب فيها مالك وسلول قرم أولو عز وعزة غيرهم إن الغريب ولو يعز ذليل

فأعجبه وخرج في نصرتهم. وأبو جيلة هو ابن عبد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، كان حبيب بن عبد حارثة وأخوه غانم ابنا الجشمي ساروا مع غسان إلى الشام وفارقوا الخزرج. ولما خرج أبو جيلة إلى يثرب لنصرة الأوس والخزرج لقيه أبناء قبيلة وأخبروه أن يهود علموا بقصده فتحصنوا في أطامهم فوري عن قصده باليمن وخرجوا إليه. فدعاهم إلى صنع أعده لرؤسائهم ثم استلحمهم، فعزت الأوس والخزرج من يومئذ وتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها يتأوون منها حيث شأوا، وملكت أمرها على يهود، فذلت اليهود وقل عددهم وعلت قدم أبناء قبيلة عليهم، فلم يكن لهم امتناع إلا بمحصونهم وتفرقهم أحزاباً على الحين إذا اشتجرا.

وفي كتاب ابن إسحاق: إن تبعاً أبا كرب غزا المشرق فمر بالمدينة وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة، فلما رجع أجمع على تخريبها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار رئيسهم عمرو بن ظلة، وظلة أمه وأبوه معاوية بن عمرو.

قال ابن إسحاق: وقد كان رجل من بني عدي بن النجار

يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ» الآية.

وقال لهم: «إِنْ وَفَيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَخَذْتُمْ مَجْدَهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كِفَارَةٌ لَهُ، وَإِنْ سَتَرْتُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأَمَرَكُمْ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ». وَبَعَثَ مَعَهُمْ مَصْعَبَ بْنِ عَمِيرَ بْنِ هَاشِمَ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ يُقْرِيهُمُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْإِسْلَامَ وَيَفْقَهُهُمْ فِي الدِّينِ، فَكَانَ يُصَلِّي بِهِمْ، وَكَانَ مَنَزَلُهُ عَلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ. وَغَلَبَ الْإِسْلَامُ فِي الْخَزْرَجِ وَفَشَا فِيهِمْ وَبَلَغَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا فَجَمَعُوهُمْ، ثُمَّ أَسْلَمَ مِنَ الْأَوْسِ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَابْنُ عَمِّهِ أَسِيدُ بْنُ حَضِيرِ الْكَتَّابِ وَهُمَا سَيِّدَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ.

وَأَوْعَبَ الْإِسْلَامُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مِنَ الْأَوْسِ مَا عَدَا بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَخَطْمَةَ وَوَاثِلَ وَوَاقِفَ وَهِيَ أَوْسُ أُمِّهِ مِنَ الْأَوْسِ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ، وَوَقَفَ بِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ أَبُو قَيْسٍ بْنُ الْأَسَلْتِ يَرَى رَأْيَهُ حَتَّى مَضَى صَدْرُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ أَبْنَاءِ قَبِيلَةٍ إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ. ثُمَّ رَجَعَ مَصْعَبُ إِلَى مَكَّةَ، وَقَدِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعَهُ فَوَاعَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْعَقِيَّةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَبَايَعُوهُ، وَكَانُوا ثَلَاثَةً وَسَبْعِينَ رَجُلًا وَمَرَاتِينَ، بِبَايَعِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَنْ يَمْنَعُوهُ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ وَلَوْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ الْقَتْلِ.

وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْقَبَاءُ اثْنِي عَشَرَ تِسْعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ. وَأَسْلَمَ لِبَلْتَدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حِرَامِ أَبُو جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ الْبِرَاءَ بْنِ مَعْرُورَ مِنْ بَنِي تَزِيدَ بْنِ جُشَمٍ مِنَ الْخَزْرَجِ. وَصَرَخَ الشَّيْطَانُ بِمَكَانِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَنَسَّطَ قُرَيْشُ الْخَبَرِ فَوَجَدُوهُ قَدْ كَانَ فَخْرَجُوا فِي طَلَبِ الْقَوْمِ، وَادْرَكُوا سَعْدَ بْنَ عَبَادَةَ وَأَخَذُوهُ وَرَبَطُوهُ حَتَّى أَطْلَقَهُ جَبْرِ بْنُ مَطْعَمَ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ نُوْفَلٍ وَالْحَرِثُ بْنُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ لَجُورًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمَا بَيْلَدُهُ. فَلَمَّا قَدِمَ الْمُسْلِمُونَ الْمَدِينَةَ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ ثُمَّ كَانَتْ بَيْعَةُ الْحَرْبِ حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي الْقِتَالِ، فَبَايَعُوهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَةِ وَآثَرَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ لَا يَنَازِعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَأَنْ يَقُومُوا بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كَانُوا وَلَا يَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

وَلَمَّا نَمَتْ بَيْعَةُ الْعَقِيَّةِ وَأَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ فِي الْحَرْبِ أَمَرَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْذُونَ بِمَكَّةَ أَنْ يَلْحَقُوا بِإِخْوَانِهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ، فَخَرَجُوا أَرْسَالًا وَأَقَامَ هُوَ بِمَكَّةَ يَنْتَظِرُ الْإِذْنَ فِي الْهَجْرَةِ فَهَاجَرَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَثِيرٌ سَمَاعِهِمْ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ

فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا أَلْقَحَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِيمَانِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَاسَ مِنْ إِسْلَامِ قَوْمِهِ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى وَفْدِ الْعَرَبِ وَحَاجَّاهُمْ أَيَّامَ الْمَوْسَمِ أَنْ يَقُومُوا بِدِينِ الْإِسْلَامِ وَيَنْصُرُوهُ حَتَّى يَبْلُغَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَقُرَيْشٌ يَصُدُّونَهُمْ عَنْهُ وَيُرْمُونَهُ بِالْجَنُونِ وَالشَّعْرِ وَالسَّحَرِ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي بَعْضِ الْمَوَاسِمِ عِنْدَ الْعَقِيَّةِ لَقِيَ رَهْطًا مِنَ الْخَزْرَجِ سِتَ نَفَرٍ اثْنَانِ مِنْ بَنِي غَنَامَ بْنِ مَالِكٍ وَهُمَا: أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ غَنَامٍ وَعُوفُ بْنُ الْحَرِثِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ سَوَادَ بْنِ مَالِكِ بْنِ غَنَامٍ وَهُوَ ابْنُ عَفْرَاءَ، وَمِنْ بَنِي زُرَيْقٍ بْنِ عَامِرٍ رَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلَانِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرِ بْنِ زُرَيْقٍ، وَمِنْ بَنِي غَنَامِ بْنِ كَعْبِ بْنِ سُلَيْمَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَرِثِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ حِرَامِ بْنِ كَعْبِ بْنِ غَنَامِ كَعْبُ بْنُ رِثَابِ بْنِ غَنَامٍ وَقُطَيْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ حَبِيدَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ غَنَامِ بْنِ سَوَادَ بْنِ غَنَامٍ وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَابِيٍّ بْنِ زَيْدِ بْنِ حِرَامِ بْنِ كَعْبِ بْنِ غَنَامٍ.

فَلَمَّا لَقِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ! قَالَ: أَمِنْ مَوَالِي يَهُودٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ! فَقَالَ: أَلَا تَجْلِسُونَ أَكَلِمَكُمْ؟ فَجَلَسُوا مَعَهُ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَعْلَمُوا وَاللَّهِ إِنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَعِدُكُمْ يَهُودُ بِهِ فَلَا يَسْبِقُنَكُمْ إِلَيْهِ، فَاجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ وَصَدَّقُوهُ وَأَمَنُوا بِهِ وَأَرْجَأُوا الْأَمْرَ فِي نَصْرَتِهِ إِلَى لِقَاءِ قَوْمِهِمْ، وَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَذَكَرُوا لِقَوْمِهِمْ شَأْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَفَشَا فِيهِمْ فَلَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثُمَّ وَافَى الْمَوْسَمَ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ اثْنَا عَشَرَ مِنْهُمْ فَوَافُوهُ بِالْعَقِيَّةِ وَهِيَ الْعَقِيَّةُ الْأُولَى، وَهُمْ: أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَعُوفُ بْنُ الْحَرِثِ وَأَخُوهُ مَعَاذُ ابْنِ عَفْرَاءَ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلَانِ، وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ مِنَ السَّتَةِ الْأُولَى، وَسِتَّةٌ آخَرُونَ مِنْهُمْ مِنْ بَنِي غَنَامِ بْنِ عُوفٍ بْنِ الْقَوَافِلِ مِنْهُمْ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ أَصْرَمَ بْنِ فَهْرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ غَنَامٍ، وَمِنْ بَنِي زُرَيْقٍ ذُكْرَانُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ خَلْدَةَ بْنِ مَخْلَدِ بْنِ عَامِرِ بْنِ زُرَيْقٍ وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلَانِ، هَؤُلَاءِ التَّسْعَةُ مِنَ الْخَزْرَجِ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ خَزِيمَةَ بْنِ أَصْرَمَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عِمَارَةَ مِنْ بَنِي عَصِيَّةَ مِنْ بَلِيٍّ إِحْدَى بَطْنُونَ قَضَاعَةَ حَلِيفَ لَهُمْ، وَمِنْ الْأَوْسِ رَجُلَانِ الْهَيْثَمُ بْنُ التَّيْهَانِ وَاسْمُهُ مَالِكُ بْنُ التَّيْهَانِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَتِيكَ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَعُوفُ بْنُ سَاعِدَةَ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عُوفٍ. فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ بَيْعَةَ النِّسَاءِ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِضَ الْحَرْبَ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ حَيْثُ لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ وَكَانَتْ الْبَيْعَةُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَقَطْ، كَمَا وَقَعَ فِي بَيْعَةِ النِّسَاءِ عَلَى «أَنْ لَنَا

يحملوا ما استقلت به الإبل من أموالهم إلا الحلقة وافترقوا في خبر وبني قريظة. وأما بنو قريظة فظاهروا قريشاً في غزوة الخندق فلما فرج الله كما نذكره حاصرهم رسول الله ﷺ خساً وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكمه وكلمته وشفع الأوس فيهم، وقالوا تهبهم لنا كما وهبت بني قينقاع للخزرج، فرد حكمهم إلى سعد بن معاذ وكان جريحاً في المسجد وأثبت في غزوة الخندق، فجاء وقال رسول الله ﷺ: «م تحكم في هؤلاء» بعد أن استحلف الأوس أنهم راضون بحكمه؟ فقال: يا رسول الله تضرب الأعناق وتسي الأموال والذرية، فقال: «حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». فقتلوا عن آخرهم وهم ما بين الستمائة والتسعمائة.

ثم خرج إلى خيبر بعد الحديبية سنة ست فحاصرهم وافتتحها عنوة وضرب رقاب اليهود وسبى نساءهم، وكان في السبي صفيّة بنت حيي بن أخطب، وكان أبوها قتل مع بني قريظة وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وقتله محمد بن مسلمة غزاه من المدينة بأمر رسول الله ﷺ في ستة نفر فيته. فلما افتتحت خيبر اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه وقسم الغنائم في الناس من القمح والتمر، وكان عدد السهام التي قسمت عليها أموال خيبر ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم الرجال ألف وأربعمائة وأخيل مائتان. وكانت أرضهم الشق ونظاة والكتيبة، فحصلت الكتيبة لرسول الله ﷺ والخمس ففرقها على قرابته ونسائه ومن وصلهم من المسلمين، وأعمل أهل خيبر على المساقاة ولم يزالوا كذلك حتى أجلاهم عمر رضي الله عنه.

ولما فتح مكة سنة ثمان وغزوة حنين على أثرها وقسم رسول الله ﷺ الغنائم فيمن كان يستألفه على الإسلام من قريش وسواهم، وجد الأنصار في أنفسهم وقالوا: سيوفنا تقطر من دمائهم وغنائمنا تقسم فيهم؟ مع أنهم كانوا ظنوا أن رسول الله ﷺ إذا فتح بلادهم وجمع على الدين قومه إنه سيقم بأرضه وله غنية عنهم. وسمعوا ذلك من بعض المنافقين. وبلغ ذلك كله رسول الله ﷺ فجمعهم وقال: «يا معشر الأنصار ما الذي بلغكم عني؟» فصدقوه الحديث، فقال: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله ومتفرقين فجمعكم الله؟» فقالوا: الله ورسوله آمن. فقال: «لو شتم لقتلتم جنتاً طريداً فأويناك ومكذباً فصدقناك ولكن والله إني لأعطي رجلاً استألفهم على الدين وغيرهم أحب إلي، ألا ترضون أن ينقلب الناس بالشاء والبعير وتقبلون برسول الله ﷺ إلى رجالكم؟ أما والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار، الناس دنار وأنتم شعار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب

رضي الله عنه فيمن هاجر هو وأخوه زيد وطلحة بن عبيد الله وحمة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبيسة وأبو كبشة موالى رسول الله ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان رضي الله عنهم.

ثم أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة فهاجر وصحبه أبو بكر رضي الله عنه، فقدم المدينة ونزل في الأوس على كلثوم بن مطعم بن امرئ القيس بن الحرث بن زيد بن عبيد بن مالك بن عوف. وسيد الخزرج يومئذ عبد الله بن أبي ابن سلول وأبي هو ابن مالك بن الحرث بن عبيد وإسم أم عبيد سلول وعبيد هو ابن مالك بن سالم بن غانم بن عوف بن غانم بن مالك بن النجار، وقد نظموا له الخرز ليملكوه على الحيين، فغلب على أمره واجتمعت أبناء قبيلة كلهم على الإسلام، فضغن لذلك لكنه أظهر أن يكون له اسم منه، فأعطى الصفة وطوى على التفاف كما يذكر بعد.

وسيد الأوس يومئذ أبو عامر بن عبد عمرو بن صفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد، فخرج إلى مكة هارباً من الإسلام حين رأى اجتماع قومه إلى النبي ﷺ بغضاً في الدين، ولما فتحت مكة فر إلى الطائف، ولما فتح الطائف فر إلى الشام فمات هنالك.

ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب الأنصاري حتى ابتنى مساكنه ومسجده ثم انتقل إلى بيته. وتلاحق به المهاجرون واستوعب الإسلام سائر الأوس والخزرج وسما الأنصار يومئذ بما نصرروا من دينه، وخطبهم النبي ﷺ وذكرهم وكتب بين المهاجرين والأنصار كتاباً وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم كما يفيد كتاب ابن إسحاق فيلنظر هنالك. ثم كانت الحرب بين رسول الله ﷺ وبين قومه فغزاهم وغزوه وكانت حروبهم سجالاً، ثم كان الظهور لرسول الله ﷺ آخر كما نذكر في سيرته ﷺ، وصبر الأنصار في المواطن كلها واستشهد من أشرفهم ورجالانهم كثير هلكوا في سبيل الله وجهاد عدوه. ونقض أثناء ذلك اليهود الذين يئسوا على المهاجر والأنصار ما كتب رسول الله ﷺ وظاهروا عليه، فأذن الله لنبيه ﷺ فيهم وحاصرهم طائفة بعد أخرى.

وأما بنو قينقاع فإنهم تناوروا مع المسلمين بسيوفهم وقتلوا مسلماً، وأما بنو النضير وقريظة فمنهم من قتل الله وأجلاه، فأما بنو النضير فكان من شأنهم بعد أحد وبعد بئر معونة جاءهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية العامرين اللذين قتلها عمرو بن أمية من القرى، ولم يكن علم بعقدهم مع رسول الله ﷺ حسبما نذكره، فهموا بقتل رسول الله ﷺ حين جاءهم لذلك خديعة منهم ومكر، فحاصرهم حتى نزلوا على الجلاء وأن

الأنصار واستلحمهم جنود يزيد، ويقال: إنه قتل في ذلك اليوم من المهاجرين والأنصار سبعون بديراً وهلك عبد الله بن حنظلة يومئذ فيمن هلك، وكانت إحدى الكبر التي أتاها يزيد. واستفحل ملك الإسلام من بعد ذلك واتسعت دولة العرب، وافتقرت قبائل المهاجرين والأنصار في قاصية الثغور بالعراق والشام والأندلس وإفريقية والمغرب حامية ومرابطين، فافترق الحي أجمع من أبناء قبيلة وافتقرت وأفقرت منه يثرب، ودرسوا فيمن درس من الأمم. وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. لا خالق سواه ولا معبود إلا إياه ولا خير إلا خيره ولا رب غيره، وهو نعم المولى ونعم النصير. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

الخبر عن بني عدنان وأنسابهم وشعوبهم وما كان لهم من الدول والملك في الإسلام وأولية ذلك ومصايره

قد تقدم لنا أن نسب عدنان إلى إسماعيل عليه السلام باتفاق من النساين، وأن الآباء بينه وبين إسماعيل غير معروفة، وتقلب في غالب الأمر غلطة مختلفة بالقلة والكثرة في العدد حسبما ذكرناه، فاما نسبه إليه فصحيحة في الغلب ونسب النبي ﷺ منها إلى عدنان صحيح باتفاق من النساين. وأما بين عدنان وإسماعيل فيمن الناس فيه اختلاف كثير، فقبل من ولد نابت بن إسماعيل وهو عدنان بن أدد المقدم بن ناحور بن تئوخ بن يعرب بن يشجب بن نابت قاله البيهقي، وقيل: من ولد قيذار بن إسماعيل وهو عدنان بن أدد بن اليسع بن الميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذار قاله الجرجاني علي بن عبد العزيز النسابة، وقيل: عدنان بن يشجب بن أيوب بن قيذار، ويقال: إن قصي بن كلاب كان يومي شعره بالانتساب إلى قيذار.

ونقل القرطبي عن هشام بن محمد: فيما بين عدنان وقيذار نحواً من أربعين أباً، وقال: سمعت رجلاً من أهل تدمر من مسلمة يهود ومن قرأ كتبهم يذكر نسب معد بن عدنان إلى إسماعيل من كتاب إرمياء النبي عليه السلام وهو يقرب من هذا النسب في العدد والأسماء إلا قليلاً، ولعل الخلاف إنما جاء من قبل اللغة لأن الأسماء ترجمت من العبرانية. ونقل القرطبي عن الزبير بن بكار بسنده إلى ابن شهاب: فيما بين عدنان وقيذار قريباً من ذلك

الأنصار! ففرحوا بذلك ورجعوا برسول الله ﷺ إلى يثرب فلم يزل بين أظهرهم إلى أن قبضه الله إليه.

ولما كان يوم وفاته ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة بن كعب ودعت الخزرج إلى بيعة سعد بن عباد، وقالوا لقريش: منا أمير ومنكم أمير ضئاً بالأمر أو بعضه فيهم لما كان من قيامهم بنصر رسول الله ﷺ وامتنع المهاجرون، واحتجوا عليهم بوصية رسول الله ﷺ إياهم بالأنصار في الخطبة ولم يخطب بعدها. قال: «أوصيكم بالأنصار إنهم كرشى وعيبي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فأوصيكم بأن تحسنوا إلى محسنهم وتتجاوزوا عن مسيئهم فلو كانت الأمانة لكم» لكنت ولم تكن الوصية بكم فحججهم. فقام بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاص بن زيد بن مالك بن الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحرث بن الخزرج فبايع لأبي بكر واتبعة الناس، فقال حباب بن المنذر بن الجموح بن حرام بن كعب بن غاثم بن سلمة بن سعد: يا بشير أنفست بها ابن عمك؟ يعني الإمارة، قال لا والله ولكني كرهت أن أنازع الحق قوماً جعله لهم. فلما رأى الأوس ما صنع بشير بن سعد وكانوا لا يريدون الأمر للخزرج قاموا فبايعوا أبا بكر، ووجد سعد فتخلف عن البيعة ولحق بالشام إلى أن هلك وقتله الجن فيما يزعمون وينشدون من شعر الجن.

نحن قلنا سيد الخزرج سعد بن عباد ضربناه بسهم فلم نخط فؤاده وكان لابنه قيس من بعده غناء في الأيام وأثراً في فتوحات الإسلام

وكان له الخياش إلى علي في حروبه مع معاوية، وهو القائل لمعاوية بعد مهلك علي رضي الله عنه وقد عرض به معاوية في تشييعه فقال: والآن ماذا يا معاوية؟ والله إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وعن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا. وكان أجود العرب وأعظمهم جشماناً، يقال: إنه كان إذا ركب تخط رجلاً الأرض. ولما ولي يزيد بن معاوية وظهر من عسفه وجوره وإدائته الباطل من الحق ما هو معروف، امتعضوا للدين ويايعوا لعبد الله بن الزبير حين خرجوا بمكة، واجتمعوا على حنظلة بن عبد الله الغسيل بن أبي عامر بن عبد عمر بن صيفي بن النعمان بن مالك بن صيفي بن أمية بن ضبيعة بن زيد، وعقد ابن الزبير لعبد الله بن مطيع بن إلياس على المهاجرين معهم.

وسرح يزيد إليهم مسلم بن عقبة المري، وهو عقبة بن رباح بن أسعد بن ربيعة بن عامر بن مرة بن عوف بن سعد بن ديار بن بغيض بن ريث بن غطفان، فيمن فرض عليه من بيعوث الشام والمهاجرين. فالتقوا بالحرّة، حرّة بني زهرة، وكانت الدبرة على

العدد، ونقل عن بعض النسابين أنه حفظ لمعد بن عدنان أربعين أباً إلى إسماعيل، وأنه قابل ذلك بما عند أهل الكتاب في نفسه فوجده موافقاً وإنما خالف في بعض الأسماء، قال: واستمليته فأملاه عليّ ونقله الطبري إلى آخره.

ومن النسابين من يعد بين عدنان وإسماعيل عشرين أو خمسة عشر ونحو ذلك. وفي الصحيح عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «معد بن عدنان بن أدد بن زيد بن برا بن أعراف الشراء». قالت أم سلمة: وزيد هو الحميسع وبرأ هو نبت أو نابت وأعراف الثرى هو إسماعيل، وقد تقدم هذا أول الكتاب، وأن السهيلي رد تفسير أم سلمة وقال: ليس المراد بالحدِيث عد الأبياء بين معد وإسماعيل وإنما معناه معنى قوله في الحديث الآخر: «أنتم بنو آدم وآدم من التراب» وعضد ذلك باتفاق النسابين على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل بحيث يستحيل في العادة أن يكون بينهما أربعة آباء أو خمسة أو عشرة إذ المدة أطول من هذا كله بكثير. وكان لعدنان من الولد على ما قال الطبري ستة: الربيع وهو عك وعرق وبه سميت عرق اليمن وأد وأبي الضحاك وعبيق وأهمهم مهدي، قال هشام بن محمد: هي من جديس وقيل: من طسم وقيل: من الطواسيم من نسل لفشان بن إبراهيم.

قال السهيلي: واختص بنجد من العرب بنو عدنان لم تزاحمهم فيه قحطان إلا طيء من كهلان فيما بين الجبلين سلمى وأجأ، واقترب أيضاً من عدنان في تهامة والحجاز، ثم في العراق والجزيرة، ثم افترقوا بعد الإسلام على الأوطان. وأما شعوبهم فمن عدنان عك ومعد فمواطن عك في نواحي زبيد، ويقال عك بن الديث بالدال غير منقوطة والثاء مثلثة ابن عدنان، يقال أن عكا هذا هو ابن عدنان بالثاء المثلثة ابن عبد الله من بطون الأزد ومن عك بن عدنان بنو عايق بن الشاهد بن علقمة بن عك بطن متسع كان منهم في الإسلام رؤساء وأمرأ.

وأما معد فهو البطن العظيم ومنه تناسل عقب عدنان كلهم، وهو الذي تقدم الخبر عنه بأن إرمياء النبي من بني إسرائيل أوحى الله إليه أن يأمر بختنصر بالانتقام من العرب وأن يحمل معداً على البراق أن تصيبه النقرة لأنه مستخرج من صلبه نبياً كريماً خاتماً للرسل فكان كذلك، ومن ولده إياد ونزار ويقال وقنص وأثمار، فأما قنص فكانت له الأمارة بعد أبيه على العرب وأراد إخراج أخيه نزار من الحرم، فأخرجوه أهل مكة وقدموا عليه نزاراً. ولما احتضر قسم ماله بين ولديه فجعل للريبعة الفرس، ولمضر القبة الحمراء، ولأثمار الحمار، ولإياد عند من جعله من ولده الحلمة والعصا. ثم تحاكموا في هذا الميراث إلى أفعى نجران في قصة معروفة ليست من غرض الكتاب.

وأما إياد فتشعبوا بطوناً كثيرة وتكاثر بنو إسماعيل وانفرد بنو مضر بن نزار برياسة الحرم وخرج بنو إياد إلى العراق، ومضى

العدد، ونقل عن بعض النسابين أنه حفظ لمعد بن عدنان أربعين أباً إلى إسماعيل، وأنه قابل ذلك بما عند أهل الكتاب في نفسه فوجده موافقاً وإنما خالف في بعض الأسماء، قال: واستمليته فأملاه عليّ ونقله الطبري إلى آخره.

ومن النسابين من يعد بين عدنان وإسماعيل عشرين أو خمسة عشر ونحو ذلك. وفي الصحيح عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «معد بن عدنان بن أدد بن زيد بن برا بن أعراف الشراء». قالت أم سلمة: وزيد هو الحميسع وبرأ هو نبت أو نابت وأعراف الثرى هو إسماعيل، وقد تقدم هذا أول الكتاب، وأن السهيلي رد تفسير أم سلمة وقال: ليس المراد بالحدِيث عد الأبياء بين معد وإسماعيل وإنما معناه معنى قوله في الحديث الآخر: «أنتم بنو آدم وآدم من التراب» وعضد ذلك باتفاق النسابين على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل بحيث يستحيل في العادة أن يكون بينهما أربعة آباء أو خمسة أو عشرة إذ المدة أطول من هذا كله بكثير. وكان لعدنان من الولد على ما قال الطبري ستة: الربيع وهو عك وعرق وبه سميت عرق اليمن وأد وأبي الضحاك وعبيق وأهمهم مهدي، قال هشام بن محمد: هي من جديس وقيل: من طسم وقيل: من الطواسيم من نسل لفشان بن إبراهيم.

قال الطبري: ولما قتل أهل حضورا شعيب بن مهديم نبهم أوحى الله إلى إرميا وأبرخيا من أنبياء بني إسرائيل بأن يأمر بختنصر يغزو العرب ويعلماه أن الله سلطه عليهم، وأن يمتنع معد بن عدنان إلى أرضهم ويستنقذه من الملكة لما أراده من شأن النبوة الحمديّة في عقبه، كما مر ذلك من قبل، فحملاه على البراق ابن اثني عشرة سنة وخلصا به إلى حران فأقام عندهما وعلماه علم كتابهما، وسار بختنصر إلى العرب فلقبه عدنان فيمن اجتمع إليه من حضور أو غيرهم بذات عرق فهزمهم بختنصر وقتلهم أجمعين، ورجع إلى بابل بالغنائم والسبي وألقاها بالأنبار. ومات عدنان عقب ذلك وبقيت بلاد العرب خراباً حقباً من الدهر حتى إذا هلك بختنصر خرج معد في أنبياء بني إسرائيل إلى مكة، فحجوا وحج معهم ووجد أخويه وعمومته من بني عدنان قد لحقوا بطوائف اليمن وتزوجوا فيهم، وتعطف عليهم أهل اليمن بولادة جرهم فرجعهم إلى بلادهم، وسأل عمن بقي من أولاد الحرث بن مضاض الجرهمي فقبل له: بقي جرهم بن جللة فتزوج ابنته معانة ولدت له نزار بن معد.

وأما مواطن بني عدنان هؤلاء فهي مختصة بنجد، وكلها بادية رحالة إلا قريشاً بمكة ونجد هو مرتع من جانبي الحجاز وطوله مسيرة شهر من أول السروات التي تلي اليمن إلى آخرها

وأما هنب بن أقصى فمنهم النمر وائل ابنا قاسط بن هنب. فأما بنو النمر بن قاسط فبلادهم رأس العين، ومنه صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمرو بن عقيل بن عامر بن جندلة بن جذيمة بن كعب بن سعد بن أسلم بن أوس مناة بن النمر بن قاسط صاحب رسول الله ﷺ المشهور، وينسب إلى الروم، وكان سنان أبوه استعمله كسرى على الأبله، وكان لبني النمر بن قاسط شأن في الردة المذكور، ومنهم ابن القرية المشهور بالفصاحة أيام الحجاج، ومنصور بن النمر الشاعر ماحد الرشيد.

وأما بنو وائل فبطن عظيم متسع أشهرهم بنو تغلب وبنو بكر بن وائل وهما اللذان كانت بينهما الحروب المشهورة التي طالت فيما يقال أربعين سنة، فلبن تغلب شهرة وكثرة وكانت بلادهم بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة، وكانت النصرانية غالبية عليهم لمجاورة الروم. ومن بني تغلب عمرو بن كلثوم الشاعر، وهو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب وأمه هند بنت مهلهل، ومن ولده مالك بن طوق بن مالك بن عتاب بن زافر بن شريح بن عبد الله بن عمرو بن كلثوم وإليه تنسب رحبة مالك بن طوق على الفرات، وعاصم بن النعمان عم عمرو بن كلثوم هو الذي قتل شرحبيل بن الحرث الملك أكل المرار يوم الكلاب. ومن بني تغلب كليب ومهلهل إنا ربيعة بن الحرث بن زهير بن جشم، وكان كليب سيد بني تغلب وهو الذي قتله جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان وكان متزوجاً بأخته فرعت ناقة البسوس في حمى كليب فرماها بسهم فائتها، وقتله جساس لأن البسوس كانت جارتته، فقام أخو كليب وهو مهلهل بن الحرث كمن برياسة تغلب وطلب بكر بن وائل بشار كليب فاتصلت الحرب بينهم أربعين سنة، وأخبارها معروفة، وطال عمر مهلهل وتغرب إلى اليمن فقتله عبدان له طريقه، ويؤثر شعبة الذين بالطائف لهذا العهد من ولد شعبة بن مهلهل. ومن تغلب الوليد بن طريف بن عامر الحارجي وهو من بني صيفي بن حي بن عمرو بن بكر بن حبيب وهو الذي رثته أخته ليلي بقولها:

أيا شجر الخنابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يريد العز إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيف
خفيف على ظهر الجواد إلى الرغى وليس على أعدائه بخفيف
فلو كان هذا الموت يقبل فنية فديناه من ساداتنا بالسوف

ومنهم بنو حمدان ملوك الموصل والجزيرة أيام المتقي، ومن بعده من خلفاء العباسيين وسيأتي ذكرهم في أخبار بني العباس وهم بنو حمدان من بني عدي بن أسامة بن غنم بن تغلب، كان

أغار إلى السروات بعد بنه في اليمانية وهم: خثعم وبجيلة، ونزلوا آبار يافه وكان لهم في بلاد الأكاسرة آثار مشهورة إلى أن تابع لهم الأكاسرة الغزو وأبادوهم، وأعظم ما باد منهم سابور ذو الأكشاف هو الذي استلحمهم وأفناهم.

وأما نزار فمنه البطنان العظيمان ربيعة ومضر، ويقال: إن إباداً يرجعون إلى نزار وكذلك أثمار، فأما ربيعة فديارهم ما بين الجزيرة والعراق وهم ضبيعة وأسد ابنا ربيعة، ومن أسد عنزة وجديلة ابنا أسد فعنزة بلادهم في عين التمر في برية العراق على ثلاثة مراحل من الأنبار ثم انتقلوا عنها إلى جهات خيبر فهم هنالك، وورثت بلادهم غزية من طيء الذين لهم الكثرة والأماره بالعراق لهذا العهد، ومن عنزة هؤلاء بإفريقية حي قليل مع رياح من بني هلال بن عامر، ومنهم أحياء مع طيء يتجمعون ويشتون في برية نجد.

وأما جديلة فمنهم عبد القيس وهنب إنا أقصى بن دهمي بن جديلة، فأما عبد القيس وكانت مواطنهم بتهامة ثم خرجوا إلى البحرين وهي بلاد واسعة على بحر فارس من غربية، وتتصل باليمامة من شرقها، والبصرة من شمالها، ويعمان من جنوبها، وتعرف ببلاد هجر ومنها القطيف وهجر والعسير وجزيرة أوائل والأحساء، وهجر هي باب اليمن من العراق وكانت أيام الأكاسرة من أعمال الفرس وممالكهم وكان بها بشر كثير من بكر بن وائل وتقيم في باديتها، فلما نزل معهم بنو عبد القيس زاحموهم في ديارهم تلك وقاسموهم في المواطن ووفدوا على النبي ﷺ بالمدينة وأسلموا، ووفد منهم المنذر بن عائد بن المنذر بن الحارث بن النعمان بن زياد بن نصر بن عمرو بن عوف بن جذيمة بن عوف بن أثمار بن عمرو بن وداعة بن بكر، وذكروا أنه سيدهم وقائلهم إلى الإسلام فكانت له صحبة ومكانة من النبي ﷺ.

ووفد أيضاً الجارود بن عمرو بن حنش بن المعلى بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة بن جذيمة، وثعلبة أخو عوف بن جذيمة وفد في عبد القيس سنة تسع مع المنذر بن ساوي من بني تميم وسيأتي ذكره، وكان نصرانياً فأسلم وكانت له أيضاً صحبة ومكانة. وكان عبد القيس هؤلاء من أهل الردة بعد الوفاة، وأمروا عليهم المنذر بن النعمان الذي قتل كسرى أبيه، فبعث إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي في فتح البحرين وقتل المنذر. ولم تزل رياسة عبد القيس في بني الجارود أولاً ثم في ابنه المنذر وولاه عمر على البحرين ثم ولاه على إصطخر، ثم عبد الله بن زياد وولاه على الهند ثم ابنه حكيم بن المنذر وتردد على ولاية البحرين قبل ولاية العراق.

منهم سيف الدولة الملك المشهور.

الله وقيس ابنا ثعلبة بن عكابة وشيبان بن ذهل بن ثعلبة، بطون ثلاثة عظيمة، وأوسعها وأكثرها شعوباً بنو شيبان، وكانت لهم كثرة في صدر الإسلام شرقي دجلة في جهات الموصل، وأكثر أئمة الخوارج في ربيعة منهم، وسيدهم في الجاهلية مرة بن ذهل بن شيبان كان له أولاد عشرة نسلوا عشرة قبائل أشهرهم همام وجساس، وسادهما بعد أبيه.

وقال ابن حزم: تفرع من همام ثمانية وعشرون بطناً. وأما جساس فقتل كلياً زوج أخته وهو سيد تغلب حين قتل ناقة البسوس جارته، وأقام ابن كليب عند بني شيبان إلى أن كبر وعقل أن جساس خاله هو الذي قتل أباه فقتله ورجع إلى تغلب، فمن ولد جساس بنو الشيخ كانت لهم رياسة بآمد وانقطعت على يد المتعصدين. ومن بني شيبان هانيء بن مسعود الذي منع حلقة النعمان من أبرويز لما كانت وديعة عنده، وكان سبب ذلك يوم ذي قار وهو هانيء بن مسعود بن عامر بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، ومنهم الضحاك بن قيس الخارجي الذي بويع أيام مروان بن محمد على مذهب الصفرية وملك الكوفة وغيرها، وبإيعه بالخلافة جماعة من بني أمية منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وقتله آخراً مروان بن محمد. وهو الضحاك بن قيس بن الحصين بن عبد الله بن ثعلبة بن زيد مناة بن أبي عمرو بن عوف بن ربيعة بن عيلم بن ذهل بن شيبان، وسيأتي الإلمام بمجره. ومنهم المثني بن حارثة الذي فتح سواد العراق أيام أبي بكر وعمر وأخوه المعنى بن حارثة. منهم عمران بن حطان من أعلام الخوارج. وهذا انقضاء الكلام في ربيعة بن نزار والله المعين.

وأما مضر بن نزار وكانوا أهل الكثرة والغلب بالحجاز من سائر بني عدنان وكانت لهم رياسة بمكة فيجمعهم فخذان عظيمان وهما خندف وقيس، لأنه كان له من الولد اثنان إلياس وقيس عيلان عبد حضنة قيس فنسب إليه، وقيل هو فرس، وقد قيل أن عيلان هو ابن مضر واسمه إلياس وأن له ابنين قيس ودهم، وليس ذلك بصحيح، وكان لإلياس ثلاثة من الولد مدركة وطابخة وقمعة لامرأة من قضاة تسمى خندف فانتسب بنو إلياس كلهم إليها، وانقسمت مضر إلى خندف وقيس عيلان. فأما قيس فتشعبت إلى ثلاث بطون من كعب وعمرو وسعد بنيه الثلاثة، فمن عمرو بنو فهم وبنو عدوان ابني عمرو بن قيس، وعدوان بطن متسع وكانت منازلهم الطائف من أرض نجد نزلها بعد إباد العمالة ثم غلبتهم عليها فخرجوا إلى تهامة، وكان منهم عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن عدوان حكم

وأما بكر بن وائل فبهم الشهرة والعدد فمنهم يشكر بن بكر بن وائل وبنو عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ومنهم بنو حنيفة وبنو عجل ابني لجيم بن صعب. فقي بني حنيفة بطون متعددة أكثرهم بنو الدول بن حنيفة، فيهم البيت والعدد ومواطنهم باليمامة وهي من أوطان الحجاز كما هي نجران من اليمن، والشرقي منها يوالي البحري وبني تميم والغرب يوالي أطراف اليمن والحجاز، والجنوب نجران والشمال أرض نجد وطول اليمامة عشرون مرحلة، وهي على أربعة أيام من مكة بلاد نخل وزلع وقاعدتها حجر بالفتح، وبها بلد اسمه اليمامة، ويسمى أيضاً جو باسم الزرقاء، وكانت مقراً للملوك قبل بني حنيفة، واتخذ بنو حنيفة بعدها بلد حجر وبقي كذلك في الإسلام.

وكانت مواطن اليمامة لبني همدان بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حمير غلبوا على من كان بها من طسم وجديس وكان آخر ملوكهم بها فيما ذكره الطبري قرط بن يعفر، ثم هلك فغلب عليها بعده طسم وجديس وكانت منهم الزرقاء أخت رياح بن مرة بن طسم كما تقدم في أخبارهم. ثم استولى على اليمامة آخراً بنو حنيفة وغلبوا عليها طسماً وجديساً وكان ملكها منهم هودة بن علي بن ثمامة بن عمرو بن عبد العزى بن شحيم بن مرة ابن الدول بن حنيفة، وتوجه كسرى وابن عمه عمرو بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن عبد العزى، قاتل المنذر ابن ماء السماء يوم عين أباق.

وكان منهم ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة ملك اليمامة عند المبعث وثبت عند الردة. ومنهم الخارجي نافع بن الأزرق بن قيس بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنيفة وإليه تنسب الأزارقة، ومنهم محلم بن سبيع بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة صاحب مسيلمة الكذاب، هو من بني عدي بن حنيفة، وهو مسيلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب بن الحرث بن عبد الحرث بن عدي، وأخبار مسيلمة في الردة معروفة وسيأتي الخبر عنها.

وأما بنو عجل بن لجيم بن صعب وهم الذين هزموا الفرس بمؤتة يوم ذي قار كما مر، فمنازلهم من اليمامة إلى البصرة وقد دثروا، وخلفهم اليوم في تلك البلاد بنو عامر المتشقق بن عقيل بن عامر، وكان منهم بنو أبي دلف العجلي، كانت لهم دولة بعراق العجم يأتي ذكرها.

وأما عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل فمنهم تميم

مالك في تلك الحرب، وكان منهم الصحابي المشهور حذيفة بن اليمان بن حسل بن جابر بن ربيعة بن جروة بن الحرث بن قطيعة ومن عيس بن جابر بنو غالب بن قطيعة، ثم عنترة بن معاوية بن شداد بن مراد بن غزوم بن مالك بن غالب الفارس المشهور وأحد الشعراء الستة في الجاهلية، وكان بعده من أهل نسبه وقرباته الخطيئة الشاعر المشهور واسمه جروول بن أوس بن جؤبة بن غزوم، وليس بنجد لهذا العهد أحد من بني عيس، وفي أحياء زغبة من بني هلال لهذا العهد أحياء يتسبون إلى عيس، فما أدري من عيس هؤلاء أم هو عيس آخر من زغبة نسبوا إليه.

وأما ذبيان بن بغيض: فلهم بطون ثلاثة: مرة وثعلبة وفزارة، فأما فزارة فهم خمسة شعوب: عدي وسعد وشمخ وموازن وظالم. وفي بدر بن عدي كانت رياستهم في الجاهلية، وكانوا يرأسون جميع غطفان، ومن قيس وإخوتهم بنو ثعلبة بن عدي كان منهم حذيفة بن بدر بن جؤبة بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة الذي راهن قيس بن زهير العنسي على جري داحس والغبراء وكانت بسبب ذلك الحرب المعروفة، ومن ولده عينة بن حصن بن حذيفة الذي قاد الأحزاب إلى المدينة وأغار على المدينة لأولبيعة أبي بكر وكان رسول الله ﷺ يسميه الأحق المطاع، ومنهم أيضاً الصحابي المشهور سمرة بن جندب بن هلال بن خديج بن مرة بن خرق بن عمرو بن جابر بن خشين ذي الرأسين بن لاي بن عصيم بن شمع بن فزارة، ومن بني سعد بن فزارة يزيد بن عمرو بن هبيرة بن معية بن سكن بن خديج بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة ولي العراقين هو وأبوه أيام يزيد بن عبد الملك ومروان بن محمد، وهو الذي قتله المنصور بعد أن عاهدته، ومن بني مازن بن فزارة هرم بن قطبة أدرك الإسلام وأسلم، إلى آخرين يطول ذكرهم ولم يبق بنجد منهم أحد.

وقال ابن سعيد: إن أبرق الحنان وأبانا من وادي القرى من معالم بلادهم، وإن جيرانهم من طيء مولدها لهذا العهد، وأن بأرض بركة منهم إلى طرابلس قبائل رواحة وهيب وفزان. قلت: وبأفريقية والمغرب لهذا العهد أحياء كثيرة اختلطوا مع أهله، فمنهم مع المعقل بالمغرب الأقصى أحياء كثيرة لهم عدد وذكر بالمعقل إلى الاستظهار بهم حاجة، ومنهم مع بني سليم بن منصور بأفريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من شعوب بني سليم يستظهرون بهم في مواقف حروبهم ويولونهم على ما يتولونه للسلطان من أمور باديتهم نيابة عنهم شأن الوزراء في الدول، وكان من أشهرهم مع بن معاطن وزير حمزة بن عمر بن أبي الليل أمير الكعوب بعده حسبما تذكره في أخبارهم، وربما يزعم

العرب في الجاهلية، وكان منهم أيضاً أبو سيارة الذي يدفع بالناس في الموسم، وعميلة ابن الأعزل بن خالد بن سعد بن الحرث بن رايش بن زيد بن عدوان، وبأفريقية لهذا العهد منهم أحياء بادية بالقفر يظعنون مع بني سليم تارة ومع رياح بن هلال بن عامر أخرى.

ومن بني فهم بن عمرو فيما ذكر البيهقي بنو طرود بن فهم بطن متسع كانوا بأرض نجد، وكان منهم الأعشى، وليس منهم الآن بها أحد، وبأفريقية لهذا العهد حي يظعنون مع سليم ورياح. وانقضى الكلام في بني عمرو بن قيس.

وأما سعد بن قيس فمنهم غني وباهلة وغطفان ومرة، فأما غني فهم بنو عمرو بن أعصر بن سعد، وأما باهلة فمنهم بنو مالك أعصر بن سعد صاحب خراسان المشهور، ومنهم أيضاً الأصمعي راوية العرب المشهور وهو عبد الملك بن علي بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمح بن مطر بن رياح بن عمرو بن عبد شمس بن أعيا بن سعد بن عبد غام بن قتيبة بن معن بن مالك.

وأما بنو غطفان بن سعد: فبطن عظيم متسع كثير الشعوب والبطون ومنازهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبلي طيء، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية واستولت عليها قبائل طيء. وليس منهم اليوم عمودة رجاله في قطر من الأقطار إلا ما كان لفزارة ورواحه في جوار هيب ببلاد بركة. وبنو غطفان بطون ثلاثة: منهم أشجع بن ريث بن غطفان، وعيس بن بغيض بن ريث بن غطفان، وذبيان. فأما أشجع فكانوا عرب المدينة يثرب وكان سيدهم معقل بن سنان من الصحابة، وكان منهم نعيم بن مسعود بن أنيف بن ثعلبة بن قند بن خلاوة بن سبيع بن أشجع الذي شئت جموع الأحزاب عن النبي ﷺ، إلى آخرين مذكورين منهم، وليس لهذا العهد منهم بنجد أحد إلا بقايا حوالي المدينة النبوية، وبالمغرب الأقصى منهم حي عظيم الآن يظعنون مع عرب المعقل بجبهات سجلماسة ووادي ملوية ولهم عدد وذكر.

وأما بنو عيس فبنيهم في بني عدة بن قطيعة كان منهم الربيع بن زياد وزير النعمان، ثم إخوتهم بنو الحرث بن قطيعة كان منهم زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن آزر بن الحرث سيدهم، وكانت له السيادة على غطفان أجمع، وله بنون أربعة منهم قيس ساد بعده على عيس، وابنه زهير هو صاحب حرب داحس والغبراء فرسين كانت إحداهما داحس لقيس والأخرى وهي الغبراء لحذيفة بن بدر سيد فزارة فأجرياها وتشاحا في الحكم بالسبق فتشاحا وتحاربا وقتل قيس حذيفة ودامت الحرب بين عيس وفزارة وإخوة قيس بن زهير الحرث وشاس ومالك وقتل

بن ذكوان بن ثعلبة، والرود بن خالد بن حذيفة بن عمرو بن خلف بن مازن بن مالك بن ثعلبة وكان على بني سليم يوم الفتح، وعمرو بن عتبة بن منقذ بن عامر بن خالد كان صديقاً لرسول الله ﷺ في الجاهلية وأسلم ثلاث أبو بكر وبلال فكان يقول كنت يومئذ ربح الإسلام. ومن بني سليم أيضاً بنو علي بن مالك بن امرئ القيس بن بهثة وبنو عصبية بن خفاف بن امرئ القيس، وهما اللذان لعنهما رسول الله ﷺ أهل بئر معونة وقتلهم لإيهم. ومن شعوب عصبية الشريد وإسمه عمرو بن يقظة بن عصبية. وقال ابن سعيد: الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عصبية الذين كانت منهم الخنساء وأخواها صخر ومعاوية ابنا عمرو بن الحرث بن الشريد والشريد بيت سليم في الجاهلية، قال ابن سعيد: كان عمرو بن الشريد يمسك بيده ابنته صخرأ ومعاوية في الموسم فيقول أنا أبو خيرى مضر ومن أنكر فليعتبر فلا ينكر أحد وابنته الخنساء الشاعرة وقد تقدم ذكرها، وحضرت بأولادها حروب القادسية. وبنو الشريد لهذا العصر في جملة بني سليم في أفريقية ولهم شوكة وصولة، ومنهم إخوة عصبية بن خفاف الذين كان منهم الخفاف كبير أهل الردة الذي أحرقه أبو بكر بالنار واسمه إياس بن عبد الله بن اليل بن سلمة بن عميرة.

ومن بني سليم أيضاً: بنو بهز بن امرئ القيس بن بهثة كان منهم الحجاج بن علاط بن خالد بن نديرة بن حبر بن هلال بن عبد ظفر بن سعد بن عمرو بن تميم بن بهز الصحابي المشهور، وابنه نصر بن حجاج الذي نفاه عمر عن المدينة، إلى آخرين من سليم يطول ذكرهم. قال ابن سعيد: ومن بني سليم بنو زغبة بن مالك بن بهثة كانوا بين الحرمين ثم انتقلوا إلى المغرب فسكنوا بأفريقية في جوار إخوتهم بني ذياب بن مالك ثم صاروا في جوار بني كعب. ومن بني سليم بنو ذياب بن مالك ومنزلهم ما بين قابس وبرقة، يجاورون مواطن يعصب، وبجهة المدينة خلق منهم يؤذون الحاج ويقطعون الطريق. وبنو سليمان بن ذياب في جهة فزان ودان ورؤساء ذياب لهذا العهد الجوارى ما بين طرابلس وقابس، ويقيم بنو صابر والحامد بنواحي فاس ويقيم بنو بني رصاب بن محمود وسيأتي ذكرهم.

ومن بني سليم بنو عوف بن بهثة: ما بين قابس وبلد العناب من أفريقية وجرما، هم مرداس وعلاق فأما مرداس فرياستهم في بني جامع لهذا العهد، وأما علاق فكان رئيسهم الأول في دخولهم أفريقية رافع بن حماد، ومن أعقابهم بنو كعب رؤساء سليم لهذا العهد بأفريقية، ومن بني سليم بنو يعصب بن بهثة إخوة بني عوف بن بهثة وهم ما بين السدرة من برقة إلى العدو الكبيرة

بنو مرين أمراء الزاب لهذا العهد أنهم منهم، ويتسبون إلى مازن بن فزارة، وليس ذلك بصحيح، وهو نسب مصون يتقرب به إليهم بعض البدو من فزارة هؤلاء طمعاً فيما بأيديهم لكانهم من ولاية الزاب والافتراء بجبايته ومصانعة الناس يوفرها، فيلهجونهم بذلك ترفعاً على أهل نسبهم بالحقيقة من الأتابغ، كما يذكر لكونه تحت أيديهم ومن رعاياهم.

وأما بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان فمنهم هرم بن سنان بن غيظ بن مرة وهو سيدهم في الجاهلية الذي مدحه زهير بن أبي سلمى، ومنهم أيضاً الفاتك وهو الحرث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيظ فتنك بخالد بن جعفر بن كلاب وشرحيل بن الأسود بن المنذر، وحصل ابن الحرث في يد النعمان بن المنذر فقتله، وشاعره في الجاهلية النابتة زباد بن عمرو الذيباني أحد الشعراء الستة. ومنهم أيضاً مسلم بن عقبة بن رياح بن أسعد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن يربوع قائد يزيد بن معاوية صاحب يوم الحرة على أهل المدينة إلى آخرين يطول ذكرهم. وهذا آخر الكلام في بني غطفان وبلادهم بنجد مما يلي وادي القرى، وبها من المعالم أبى والحاجر والهباء وأبرق الخنان، وتفرقوا على بلاد الإسلام في الفتوحات ولم يبق لهم في تلك البلاد ذكر، ونزلت بها قبائل طيء. وبانقضاء ذكرهم انقضى بنو سعد بن قيس.

وأما خصفة بن قيس: ففروع منهم بطنان عظيمان وهما بنو سليم بن منصور وهوازن بن منصور، وهوازن بطون كثيرة يأتي ذكرها، ويلحق بهذين البطين بنو مازن بن منصور وعددهم قليل، وكان منهم عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نشيب بن وهب بن زيد بن مالك بن عبد عوف بن الحرث بن مازن الصحابي المشهور الذي بنى البصرة لعمر بن الخطاب، وإليه ينسب العتبيون الذين سادوا بخراسان، ويلحق أيضاً بنو محارب بن خصفة. فأما بنو سليم فشعوبهم كثيرة منهم بنو ذكوان بن رفاعة بن الحرث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم، وإخوتهم بنو عيس بن رفاعة الذين منهم عباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد عيس الصحابي المشهور الذي أعطاه رسول الله ﷺ يوم حنين في المؤلفة قلوبهم، ثم زاده حين غضب استقلالاً لعطائه وأتشد الأبيات المعروفة في السير، وكان أبوه مرداس تزوج الخنساء وولدت منه.

ومن بني سليم أيضاً بنو ثعلبة بن بهثة بن سليم، كان منهم عبيد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الأعور والي أفريقية، وجدته أبو الأعور من قواد معاوية واسمه عمرو بن سفيان بن عبد شمس بن سعد بن قائف بن الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج

العراقيين لهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد وكثير من قومه كانوا ولاية بالعراق والشام واليمن ومكة. ومن بني معتب أيضاً غيلان بن مسلمة بن معتب كانت له وفادة على كسرى، ومنهم بنو غيرة بن عوف الذين منهم الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف، والحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج طيب العرب، وأبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن غيرة الصحابي المقتول يوم الجسر من أيام القادسية، وابنه المختار بن أبي عبيد الذي ادعى النبوة بالكوفة وكان عليها لعبد الله بن الزبير فانتقض عليه ودعا لحمد بن الحنفية ثم ادعى النبوة.

ومنهم أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير في آخرين يطول ذكرهم. ومواطن ثقيف كانت بالطائف وهي مدينة من أرض نجد قريباً من مكة ثم جلس في شرقها وشمالها وهي على قمة الجبل كانت تسمى واج وبوج، وكانت في الجاهلية للعائلة ثم نزلها ثمود قبل وادي القرى، ومن ثم يقال أن ثقيفاً كانت من بقايا ثمود، ويقال: أن الذي سكنها بعد العمالة عدوان وغلبيهم عليها ثقيف وهي الآن دارهم كذا ذكره السهيلي. ويقال: أنهم موال لهوازن ويقال: أنهم من إساد. ومن أعمال الطائف سوق عكاظ والعرج، وعكاظ حجر بين اليمن والحجاز، وكانت سوقها في الجاهلية يوماً في السنة يقصدها العرب من الأقطار فكانت لهم موسماً.

وأما بنو معاوية بن بكر بن هوازن ففيهم بطون كثيرة: منهم بنو نصر بن معاوية الذين منهم مالك بن سعد بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن وائلة بن دهمان بن نصر قائد المشركين يوم حنين وأسلم وحسن إسلامه. ومنهم بنو جشم بن معاوية، ومن جشم غزية رهط ابن دريد الصمة ومواطنهم بالسروات وهي بلاد تفصل بين تهامة ونجد متصلة من اليمن إلى الشام كسروات الجبل وسروات جشم متصلة بسروات هذيل، وانتقل معظمهم إلى الغرب وهم الآن به كما يأتي ذكره في الطبقة الرابعة من العرب، ولم يبق بالسروات منهم إلا من ليس له صولة، ومنهم بنو سلول ومنهم بنو مرة بن صعصعة بن معاوية وإنما عرفوا بأهمهم سلول، وكانوا في الغرب كثيراً وفي الغرب منهم كثير لهذا العهد. ومنهم فيما يزعم العرب بنو يزيد أهل وطن حمزة غربي بجاية وبعض أحياء بجيل عياض. كما نذكر منهم بنو عامر بن صعصعة بن معاوية جرم كبير من أجرام العرب لهم بطون أربعة: نمير وربيعة وهلال وسواء، فأما نمير بن عامر فهم إحدى جمرات العرب وكانت لهم كثرة عزة في الجاهلية والإسلام ودخلوا إلى الجزيرة

ثم الصغيرة من حدود الإسكندرية، فأول ما يلي الغرب منهم بنو أحمد لهم أجدادية وجهاتها وهم عدد يرهيبهم الحجاج ويرجعون إلى شماخ، وقبائل شماخ لها عدد وأسماء متميزة ولها العز في بيت لكونها جازت المحصب من بلاد برقة مثل المرج وطمليشا ودرنا، وفي المشرق عن بني أحمد إلى العقبة الكبيرة، وأما الصغيرة فسال ومحارب والرياسة في هذين القبيلتين لبني عزاز وهيب بخلاف سائر سليم لأنها استولت على إقليم طويل خربت مدنه ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا لأشياخها وتحت أيديهم خلق من البرابرة واليهود زراعاً وتجاراً. وأما راحة وفزارة اللذين في بلاد هيب فهم من غطفان وهذا آخر الكلام في بني سليم بن منصور وكانت بلادهم في عالية نجد بالغرب وخير ومنها حرة بني سليم، وحرة النار بين وادي القرى وتيماء، وليس لهم الآن عدد ولا بقية في بلادهم، وبأفريقية منهم خلق عظيم كما يأتي ذكره في أخبارهم عند ذكر الطبقة الرابعة من العرب.

وأما هوازن بن منصور: ففيهم بطون كثيرة يجمعهم ثلاثة أجرام كلهم لبكر بن هوازن وهم: بنو سعد بن بكر وبنو معاوية بن بكر وبنو منبه بن بكر. فأما بنو سعد بن بكر، وهم أظفار النبي ﷺ أرضعتهم منهم حليلة بنت أبي ذؤيب بن عبد الله بن الحارث بن سحنة بن ناصرة بن عصية بن نصر بن أسعد، وبنوها عبد الله وأنيسة والشيماء بنو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملاذ بن ناصرة، وحصلت الشيماء في سبي هوازن فأكرمها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها وكان فيها أثر عضة عضها إياها رسول الله ﷺ وهي تحمله.

فأما بنو منبه بن بكر فمنهم ثقيف، وهم بنو قسي بن منبه بطن عظيم متسع، منهم بنو جهم بن ثقيف كان منهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن حبيب بن الحارث بن مالك بن حطيظ صاحب لوائهم يوم حنين وقتل يومئذ كافراً وكان من ولده أمير الأندلس لسليمان بن عبد الملك وهو الحر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان، ومنهم بنو عوف بن ثقيف ويعرفون بالأحلاف، فمنهم بنو سعد بن عوف كان منهم عتبان بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف الذي وضعته ثقيف رهينة عند أبي مكسورة وأخوه معتب، وكان من بني عروة بن مسعود بن معتب الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى قومه داعياً إلى الإسلام فقتلوه، وهو أحد عظمي القرينتين، ومن بنيهم أيضاً الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب صاحب العراقيين لعبد الملك وابنه الوليد.

ومنهم يوسف بن عمر بن محمد بن عبد الحكم والي

الذي اشترك ابنه حندج مع خالد بن جعفر بن كلاب في قتل زهير بن جذيمة العبيسي، ويتو ذئ السهمين معاوية بن عامر بن ربيعة وهو ذو الحجر عوف بن عامر بن ربيعة، وبنو فارس الضحيا عمرو بن عامر بن ربيعة منهم خدش بن زهير بن عمرو من فرسان الجاهلية وشعرائها. وأما بنو كلاب بن ربيعة فمنهم بنو الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب وبنو ربيعة المجنون بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب وبنو عمرو بن كلاب.

قال ابن حزم: يقال إن منهم بني صالح بن مرداس أمراء حلب، ومن بني كلاب بنو رواس واسمه الحرث بن كلاب، وبنو الضباب واسمه معاوية بن كلاب الذين منهم شهر بن ذي الجوش بن الأعور بن معاوية قاتل الحسين بن علي، ومن عقبه كان الصهيل بن حاتم بن شمر وزير عبد الرحمن بن يوسف الفهري بالأندلس، وبنو جعفر بن كلاب الذين منهم عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر وعمه أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة وبيعة بن مالك وتبع المعتبرين وأبوه ليبيد بن ربيعة شاعر معروف مشهور.

وكانت بلاد بني كلاب حمى ضرية والريذة في جهات المدينة وفكك والموالي، وحمى ضرية هي حمى كليب وائل نباته النضر تسمن عليه الخيل والإبل، وحمى الريذة هو الذي أخرج عليه عثمان أبا ذر رضي الله عنهما. ثم انتقل بنو كلاب إلى الشام فكان لهم في الجزيرة الفراتية صيت وملك وملكوا حلب وكثيراً من مدن الشام، تولى منهم بنو صالح بن مرداس، ثم ضعفوا فهم الآن تحت خفارة العرب المشهورين بالشام وهنالك بالإمارة من طيء.

قال ابن سعيد: وكان لهم في الإسلام دولة باليمامة. ومن بني كعب بن ربيعة بطون كثيرة منهم الحريش بن كعب بطن كان منهم مطرف بن عبد الله بن الشخير بن عوف بن وقدان بن الحريش الصحابي المشهور، ويقال: إن منهم ليلى التي شبيب بها قيس بن عبد الله بن عمرو بن عدس بن ربيعة بن جعدة الشاعر، مادح النبي ﷺ، وعبد الله بن الحشر بن الأشهب بن ورد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة الذي غلب على ناب فارس أيام الزبير وعم أمه زياد بن الأشهب الذي وفد على علي ليصلح بينه وبين معاوية، ومالك بن عبد الله بن جعدة الذي أجاز قيس بن زهير العبيسي. وبنو قشير بن كعب منهم مرة بن هبيرة بن عامر بن مسلمة الخير بن قشير وفد على النبي ﷺ فولاه صدقات قومه، وكلثوم بن عياض بن رصوح بن الأعور بن قشير الذي ولي إفريقية، وابن أخيه بلخ بن بشر. ومن بني قشير بخراسان أعيان

الفراتية وملكوا حرار وغيرها، واستلمهم بنو العباس أيام المعتز فهلكوا ودمروا. وأما سواة بن عامر فشعوبهم في رباب من سمرة بن سواة، فمنهم جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب بن رباب الصحابي المشهور، ومن بطن رباب هؤلاء بأفريقية حي ينجعون مع رياح بن هلال ويعرفون بهذا النسب كما يأتي في أخبار هلال من الطبقة الرابعة. وأما هلال بن عامر فبطون كثيرة كانوا في الجاهلية بنجد ثم ساروا إلى الديار المصرية في حروب القرامطة، ثم ساروا إلى أفريقية أجازهم الوزير البارزي في خلافة المستنصر العبيدي لحرب المعز بن باديس، فملك عليه ضواحي إفريقية، ثم زاحمهم بنو سليم فساروا إلى الغرب ما بين بونة وقسنطينة، إلى البحر المحيط، وكان هلال خمسة من الولد: شعبة وناشرة ونهيك وعبد مناف وعبد الله، ويطونهم كلها ترجع إلى هؤلاء الخمسة، فكان من بني عبد مناف زينب أم المؤمنين بنت خزاعة بن الحرث بن عبد الله بن عمرو بن عبد الله بن عبد مناف، وكان من بني عبد الله ميمونة أم المؤمنين بنت الحرث بن حزن بن مجمر بن هرم بن ربيعة بن عبد الله. قال ابن حزم: ومن بطون بني هلال بنو قرة وبنو نعة الذين بين مصر وأفريقية، وبنو حرب الذين بالحجاز، وبنو رياح الذين أفسدوا أفريقية.

وقال ابن سعيد: وجبل بني هلال مشهور بالشام وقد صار عربه حرائر وفيه قلعة صرخد مشهورة قال: وقبائلهم في العرب ترجع لهذا العهد إلى أنبيج ورياح وزغبة وقارع. فأما الأنبيج فمنهم سراح بمجة بركة، وعياض بجبل القلعة المسمى لهم ولغيرهم. وأما رياح فبلادهم بنواحي قسنطينة والسلم والزاب، ومنهم عتبة بنواحي بجاية، ومنهم بالمغرب الأقصى خلق كثير كما يأتي في أخبارهم. وأما زغبة فإنهم في بلاد زناتة خلق كثير. وأما قارع فإنهم في المغرب الأقصى مع المعقل وقرة وجشم.

وبنو قرة كانت منازلهم بركة وكانت رياستهم أيام الحاكم العبيدي لما مضى ابن مقرب، ولما بايعوا لأبي ركوه من بني أمية بالأندلس وقتله الحاكم سلط عليهم العرب والجيوش فأقتوهم، وانتقل جلهم إلى المغرب الأقصى، فهم مع جشم هنالك كما يأتي ذكره ويأتي الكلام في نسب هلال وشعوبهم ومواطنهم بالمغرب الأوسط وإفريقية عند الكلام عليهم في الطبقة الرابعة. وأما بنو ربيعة بن عامر فبطون كثيرة وعامتها ترجع إلى ثلاثة من بنيه وهم: عامر وكراب وكعب، وبلادهم بأرض نجد الموالية لتهامة بالمدينة وأرض الشام، ثم دخلوا إلى الشام وافترق منهم على عمالك الإسلام فلم يبق منهم بنجد أحد.

فمن عامر بن ربيعة بنو التكما وهو ربيعة بن عامر بن ربيعة

كلهم إليها، فمن بطون قمعة أسلم وخزاعة، فأسلم بنو أفضى بن عامر بن قمعة، وخزاعة بن عمرو بن عامر بن لحي وهو ربيعة بن عامر بن قمعة واسمه حارثة. وعمرو بن لحي هو أول من غير دين إسماعيل وعبد الأوثان وأمر العرب بعبادتها، وفيه قال ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار» يعني أحشاه. ومواطنهم بأثحاء مكة في مر الظهران وما يليه وكانوا حلفاء لقريش. ودخلوا عام الحديبية في عهد رسول الله ﷺ فيهم، فغزوا قريشاً وغلبهم على أمرهم واقتتح مكة وكان عام الفتح.

وقد يقال: إن خزاعة هؤلاء من غسان وأنهم بنو حارثة بن عمرو مزقياً، وأنهم أقاموا بمر الظهران حين سارت غسان إلى الشام وتخزعوا عنهم فسموا خزاعة، وليس ذلك بصحيح كما ذكر. وكان لخزاعة ولاية البيت قبل قريش في بني كعب بن عمرو بن لحي، وانتهت إلى حليل بن حبشية بن سلول وهو الذي أوصى بها لقصي بن كلاب حين زوجه ابنته حبي بنت حليل. ويقال: إن أبا غشبان بن حليل واسمه المخترش باع الكعبة من قصي بقر خمر وفيه جرى المثل المعروف. يقال: أخسر صفقة من أبي غشبان.

ومن ولد حليل بن حبشية كان كرز بن علقمة بن هلال بن حرية بن عبد فهم بن حليل، الذي قفا أثر رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى الغار، ورأى عليه نسج العنكبوت وعش اليمامة ببيضها فرخوا عنه. ولخزاعة هؤلاء بطون كثيرة: منهم بنو المصطلق بن سعد بن عمرو بن لحي، وبنو كعب بن عمرو. ومنهم عمران بن الحصين صحابي، وسليمان بن صرد أمير التوابين القاسمين بشار الحسين. ومالك بن المهيم من نقباء بني العباس وبنو عدي بن عمرو، ومنهم جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، وبنو مليح بن عمرو، ومنهم طلحة الطلحات، وكثير الشاعر صاحب عزة وهو ابن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن عويمر بن غلدة بن سبيع بن خثعمة بن سعد بن مليح. وبنو عوف بن عمرو ومنهم العباد أهل الحيرة وهم بنو جهينة بن عوف. ومن إخوة خزاعة بنو أسلم بن أفضى بن عامر بن قمعة وبنو مالك بن أفضى، ومائنان بن أفضى. فمن أسلم سلمة بن الأكوع الصحابي ودعبيل وبنو الشيص الشعاران ومحمد بن الأشعث قائد بني العباس، ومنهم مالك بن سليمان بن كثير من دعاة بني العباس قتله أبو مسلم.

وأما طائفة فلهم بطون كثيرة أشهرها ضبة والرباب ومزينة وغميم، ويطون صغار إخوة لتميم، منهم صوفة ومحارب.

منهم أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة، ومنهم عريسة الأندلس بنو رشيق ملكها منهم عبد الرحمن بن رشيق وأخرج منها ابن عمار، ومنهم الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة. وبنو العجلان بن عبد الله بن كعب وشاعرهم تميم بن مقبل. وبنو عقيل بن كعب وهم بطون كثيرة منهم: بنو المنتفق بن عامر بن عقيل. ومن أعقاب بني المنتفق هؤلاء العرب المعروفون في المغرب بالخلط. قال علي بن عبد العزيز الجرجاني: الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابنا المنتفق بن عامر بن عقيل انتهى.

قال ابن سعيد: ومنازل المنتفق الأجرام التي بين البصرة والكوفة والإمارة منهم في بني معروف. قلت: والخلط لهذا العهد في أعداد جشم بالمغرب، ومن بني عقيل بن كعب بنو عبادة بن عقيل، منهم الأخيل واسمه كعب بن الرحال بن معاوية بن عبادة، ومن عقبه ليلى الأخيلة بنت حذيفة بن سداد بن الأخيل.

وذكر ابن قتيبة أن قيس بن الملوح المجنون منهم. وبنو عبادة هؤلاء لهذا العهد فيما قال ابن سعيد بالجزيرة الفراتية فيما يلي العراق، ولهم عدد وذكر، وغلب منهم على الموصل وحلب في أواسط المائة الخامسة قريش بن بدران بن مقلد فملكها هو وابنه مسلم بن قريش من بعده، ويسمى شرف الدولة، وتوالى الملك في عقب مسلم بن قريش منهم إلى أن انقرضوا.

قال ابن سعيد: ومنهم لهذا العهد بقية بين الحازر والزاب يقال لهم: عرب شرف الدولة، ولهم إحسان من صاحب الموصل وهم في تجمل وعز إلا أن عددهم قليل نحو مائة فارس. ومن بني عقيل بن كعب خفاجة بن عمرو بن عقيل وانتقلوا في قرب من هذه العصور إلى العراق والجزيرة ولهم ببادية العراق دولة، ومن بني عامر بن عقيل بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف، وهم إخوة بني المنتفق وهم ساكنون بمجھات البصرة وقد ملكوا البحرين بعد بني أبي الحسن ملكوها من تغلب.

قال ابن سعيد: وملكوا أرض اليمامة من بني كلاب، وكان ملكهم لعهد الحسين من المائة السابعة عصفور وبنوه وقد انتضى الكلام في بطون قيس عيلان. والله المعين لا رب غيره ولا خير إلا خيره وهو نعم المولى، ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل. وأسأله الستر الجميل آمين.

وأما بطون خندف بن إلياس بن نصر ولد إلياس مدركة وطائفة وقمعة وأمه امرأة من قضاة اسمها خندف فانتسب ولد إلياس

يزيد بن أوس بن سيف بن عدم بن جبلة بن قيار بن سعد بن الحرث وهو الملقب بالخبط لعظم بطنه، وبنو امرئ القيس بن زيد مائة بن تميم وكان منهم زيد بن عدي بن زيد بن أيوب بن مخوف بن عامر بن عطية بن امرئ القيس صاحب النعمان بن المنذر بالخير الذي سعى به إلى كسرى حتى قتله ومقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس بن إبراهيم بن أيوب بن مخوف صاحب قصر بني مقاتل بن منصور بالخير ولاهز بن قريط بن سري بن الكاهن بن زيد بن عصية من دعاة بني العباس الذي قتله أبو مسلم لندارته لنصر بن سيار.

وبنو سعد بن زيد مائة بن تميم منهم الأبناء كان منهم رؤية بن العجاج بن رؤية بن ليبد بن صخر بن كنيف بن عمير بن حي بن ربيعة بن سعد بن مالك بن سعد، وعبد بن الطبيب الشاعر. وبنو منقر بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مائة، كان منهم قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه، وكان من ولده مائة صاحبة ذي الرمة بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم. ومن بني منقر عمرو بن الأهم صحابي وبنو مرة بن عبيد بن مقاعس، منهم الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين بن حفص بن عبادة بن التزال بن مرة وأبو بكر الأبهري المالكي، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح بن عمرو بن حفص بن عمرو بن مصعب بن الزبير بن سعد بن كعب بن عبادة بن التزال.

وبنو صريم بن مقاعس، منهم عبد الله بن أباض رئيس الأباضية من الخوارج، وعبد الله بن صفار رئيس الصفرية، والبرك بن عبد الله الذي اشترط بقتل معاوية وضربه فجرحه. وبنو عوف بن كعب بن سعد بن زيد مائة منهم، ثم من بني بهذلة بن عوف الزبرقان واسم الحصين بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بهذلة وأويس ابن أخيه حنظلة الذي أسر هذلة بن علي الحنفي. ومن بني عطار بن عوف كرب بن صفوان بن شحمة بن عطار الذي كان يجيز بأهل الموسم في الجاهلية. ومن بني قريع بن عوف بن كعب جعفر الملقب أنف الناقة وكان ولده يغضبون منها إلى أن مدحهم الخطيئة بقوله:

قوم هم الأنف والأذنب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

وينوار الحرث الأعرج بن كعب بن سعد بن زيد مائة، كان منهم زهرة بن جؤية بن عبد الله بن قتادة بن مرثد بن معاوية بن قطن بن مالك بن أرتم بن جشم بن الحرث الذي أبلى في القادسية وقتل الجاثوس أمير الفرس، وقتله هو بعد ذلك أصحاب شبيب الخارجي مع عتاب بن ورقاء وبنو مالك بن سعد بن زيد مائة،

فاما بنو تميم بن مر فهم بنو تميم بن مر بن أد بن طابخة، وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة وانتشرت إلى العذيب من أرض الكوفة، وقد تفرقوا لهذا العهد في الحواضر ولم تبق منهم باقية، وورث منازلهم الحيان العظيمان بالمشرق لهذا العهد غزية من طيء وخفاجة من بني عقيل بن كعب.

ولتميم بطون كثيرة منهم الحارث بن تميم وفيهم ينسب المسيب بن شريك الفقيه وهم قليل، وبنو العنبر الذي بعثه رسول الله ﷺ على الصدقات، وزفر الفقيه بن ذهيل بن قيس بن مسلم بن قيس بن مكملة بن ذهل بن ذويب بن جذاعة بن عمرو بن جيجور بن جندب بن العنبر صاحب أبي حنيفة، والناسك الفاضل عامر بن عبد قيس بن ثابت بن بشامة بن حذيفة بن معاوية بن الجون بن كعب بن جندب وربيعة بن رفيع بن سلمة بن علم بن صلاة بن عبدة بن عدي بن جندب، وبنو الهجيج بن عمرو بن تميم وبنو أسيد بن عمير.

وكان منهم أبو هالة هند بن زرارة بن النباش بن عدي بن غير بن أسيد الصحابي المشهور، وحنظلة بن الربيع بن صيفي بن رياح بن الحرث بن غاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد كاتب رسول الله ﷺ، والحليم المشهور أكثم بن صيفي بن رياح، ويحيى بن أكثم قاضي المأمون من ولد صيفي بن رياح. وبنو مالك بن عمرو بن تميم منهم النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم بن عبدة بن زهير بن عروة بن جميل بن حجر بن خزاعي بن مازن بن مالك التحوي المحدث، وسلم بن أخوز بن أريد بن نخز بن لاي بن مهل بن ضباب بن حجة بن كايبة بن حرقوص بن مازن بن مالك صاحب الشرطة لنصر بن سيار وقاتل يحيى بن زيد بن زين العابدين، وإخوة هلال بن أخوز قاتل آل المهلب، وقطري بن الفجاءة، واسم الفجاءة جعونة بن يزيد بن زياد بن جنز بن كايبة بن حرقوص الخارجي الأزرق سلم عليه بالخلافة عشرين سنة، ومالك بن الرب بن جوط بن قرط بن حسيل بن ربيعة بن كنانة بن حرقوص صاحب القصيدة المشهورة نعى بها نفسه وبعث بها إلى قومه وهو في خراسان في بعث عثمان بن عفان وأولها:

دعاني الهوى من أهل ودي ورقني بذني الشيطان فالتفت ورائيا يقولون لا تبعدهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا

وبنو عمرو بن العلاء بن عمار بن عدنان بن عبيد الله بن الحصي بن الحرث بن جلهم بن خزاعي بن مازن بن مالك، وبنو الحرث بن عمرو بن تميم وهم الحبطات منهم عباد بن الحصين بن

عثمان أحد الشعراء الستة، وإبناه بجبر وكعب الذي مدح رسول الله ﷺ، والتعمان بن مقرن بن عامر بن صبح بن هجيم بن نصر بن حبشية بن كعب بن عفراء بن ثور بن هرم، وأخوه سويد الذي قتل يوم نهاوند، ومعل بن يسار بن عبد الله بن معير بن حراق بن لأبي بن كعب بن عبد ثور الصحابي المشهور.

وأما الرباب وهم بنو عبد مائة بن أد بن طابخة فمن بينه تميم وعدي وعوف وثور، وسموا الرباب لأنهم غمسون في الرب أيديهم في حلف على بني ضبة، ويلاهم جوار بني تميم بالدهناء، وفي أشعارهم ذكر حزوي وعالج من معالمها. وتفرقوا لهذا العهد ولم يبق منهم أحد هنالك. وكان من بني تميم بن عبد مائة المستورد بن علقمة بن الفريس بن صباري بن نضبة بن ربيع بن عمرو بن عبد الله بن لؤي بن عمرو بن الحارث بن تميم الخارجي قتل معقل بن قيس الرياحي في إمارة المغيرة بن شعبه، وابن باخه ورد بن مجالد بن علقمة حضر مع عبد الرحمن بن ملجم في قتل علي وقتل، وقطام بنت مجنة بن عدي بن عامر بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذهل بن تميم التي تزوجها عبد الرحمن بن ملجم ومهرها قتل علي فيما قيل حيث يقول:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المصمم
وكانت خارجية وقتل أبوها شحمة وعمها الأخضر يوم
النهروان. ومن بني عدي بن عبد مائة ذي الرمة الشاعر، وهو
غيلان بن عقبة بن بهس بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة
بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ثعلبة بن ربيعة بن ملكان بن
عدي. ومن بني ثور بن عبد مائة ويسمى أطمس سفيان الثوري،
وهو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله
بن مقتر بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور
وأخوه عمرو والمبارك والربيع بن خثيم الفقيه.

وأما ضبة فهم بنو ضبة بن أد وكانت ديارهم جوار بني تميم
إخوتهم بالناحية الشمالية التهامية من نجد، ثم انتقلوا في الإسلام
إلى العراق بجهة النعمانية وبها قتلوا المثنى الشاعر. فمنهم ضرار بن
عمرو بن مالك بن زيد بن كعب بن مجالة بن ذهل بن مالك بن
بكر بن أسعد بن ضبة سيد بني ضبة في الجاهلية، وبقيت سيادتهم
في بني، وكان له ثمانية عشر ولداً ذكرأ شهدوا معه يوم القريتين،
وابنه حصين كان مع عائشة يوم الجمل، ومن ولده القاضي أبو
شبرمة عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن حسان بن المنذر بن
ضرار بن عنبسة بن إسحاق بن شمر بن عيس بن عنبسة بن ضبة
بن المختبر عامر بن العباب بن حسل بن مجالة المذكور في قواد بني
العباس ولي مصر أيام المتوكل. ويقال: إن الديلم من بني باسل بن

كان منهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفافة بن عباد بن عبد
الله بن محرت بن سعد بن حرام بن سعد بن مالك أبو الولاة
بإفريقية لبني العباس، وبنو ربيعة بن مالك بن زيد مائة كان منهم
عروة بن جرير بن عامر بن عبد بن كعب بن ربيعة أول خارجي
قال: لا حكم إلا الله يوم صفين. ويعرف بأن أباه نسبه إلى أمه.
ومن بني حنظلة بن مالك البراجم وهم بنو عمرو. والظلم وغالب
وكلبة وقيس كلهم بنو حنظلة كان منهم ضائب بن الحارث بن
أرطاة بن شهاب بن عبيد بن جنادة بن قيس وابن عمير بن
ضائب الذي قتله الحجاج.

وبنو ثعلبة بن يربوع بن حنظلة، وبنو الحارث بن يربوع
منهم الزبير بن الماحور أمير الخوارج وأخوه عثمان وعلي وهم بنو
بشير بن يزيد الملقب بالماهور بن الحارث بن ساحق بن الحارث بن
سليط بن يربوع وكلهم أمراء الأزارقة.

وبنو كليب بن يربوع كان منهم جرير الشاعر ابن عطية بن
الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سلم بن عوف بن كليب. وبنو
العنبر بن يربوع كانت سجاح المنتبئة بنت أويس بن جوين
بن سامة بن عنبر. وبنو رياح كان منهم شيب بن ريمي بن حصين
بن عميم بن ربيعة بن زيد بن رياح كان منهم رياح أسلم ثم سار
مع الخوارج ثم رجع عنهم تائباً، ومعل بن قيس أوفده عمار بن
ياسر على أيام عمر بفتح تستر، وعتاب بن ورقاء بن الحارث بن
عمرو بن همام بن رياح أمير أصبهان وقتله شبيب الخارجي.

وبنو طهية بن مالك وهم بنو أبي سود وعوف ابني مالك.
وبنو دارم بن مالك بن حنظلة كان منهم ثم من بني نهشل بن
دارم بن حازم بن خزيمه بن عبد الله بن حنظلة نضلة بن حدشان
بن مطلق بن أصحر بن نهشل صاحب الشرطة لبني العباس. ومن
بني مجاشع بن دارم الأقرع بن حابس بن عقال بن عمد بن سفيان
بن مجاشع، والفرزدق بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال
والحنات بن يزيد بن علقمة الذي أختى رسول الله ﷺ بينه وبين
معاوية بن أبي سفيان. ومن بني عبد الله بن دارم المنذر بن ساوى
بن عبد الله بن زيد بن عبد مائة بن دارم صاحب هجر ومن بني
غرس بن زيد بن دارم حاجب بن زوارة غرس وابنه عطارد
وبنوه، كان فيهم رؤساء وأمراء وانقضى الكلام في تميم.

وأما بنو مزينة وهم بنو مر بن أد بن طابخة بن الياس واسم
ولده عثمان وأوس وأمهما مزينة فسمي جمع ولديهما بها. فكان
منهم زهير بن أبي سلمى وهو ربيعة بن أبي رياح بن قرة بن
الحارث بن مازن بن خلاوة بن ثعلبة بن ثور بن هرم بن لاظم بن

ضبة بن أد والله أعلم.

كثير بن غنم الذي أسلم ثم تنصر ومات نصرانياً، وأخته زينب أم المؤمنين رضي الله عنها، وعكاشة بن محصن بن حدان بن قيس بن مرة بن كثير الصحابي المشهور. وبنو ثعلبة بن دودان بن أسد منهم: الكميث الشاعر ابن زيد بن الأخنس بن ربيعة بن امرئ القيس بن الحرث بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة، وضرار بن الأزور وهو مالك بن أويس بن خزيمة بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة الصحابي، قاتل مالك بن نويرة، والحضرمي بن عامر بن جمع بن مواله بن همام بن صحب بن القيس بن مالك وأفدهم على النبي ﷺ.

وبنو عمرو بن قعيد بن الحارث بن ثعلبة بن دودان منهم الطماح بن قيس بن طريف بن عمرو بن قعيد الذي سعى عند قيصر في هلاك امرئ القيس، وطليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعه بن طريف بن عمرو الذي كان كاهناً وأدعى النبوة ثم أسلم. وفي بني أسد بطون يطول ذكرها. وأما القارة وعكل: فهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس إخوة بني أسد وكانوا حلفاء لبني زهرة من قريش.

وأما كنانة فهم كنانة بن خزيمة بن مدركة إخوة بني أسد، وديارهم بجهات مكة، وفيهم بطون كثيرة وأشرفها قريش، وهم بنو النضر بن كنانة وسيأتي ذكرهم. ثم بنو عبد مائة بن كنانة وبنو مالك بن كنانة. فمن بني عبد مائة بنو بكر وبنو مرة وبنو الحارث وبنو عامر، فمن بني بكر بنو ليث بن بكر منهم بنو الملوح بن يعمر وهو الشداخ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث. ومنهم الصعب بن جثامة بن قيس بن الشداخ الصحابي المشهور، والشاعر عروة بن أدينة بن يحيى بن مالك بن الحرث بن عبد الله بن الشداخ، ومنهم بنو شجع بن عامر بن ليث بن بكر ومنهم أبو واقد الليثي الصحابي وهو الحرث بن عوف بن أسيد بن جابر بن عديلة بن عبد مائة بن شجع، وبنو سعد بن ليث بن بكر منهم أبو الطفيل عامر بن وائلة بن عبد الله بن عمرو بن جابر بن خميس بن عدي بن سعد آخر من بقي من رأي النبي ﷺ مات سنة سبع ومائة ووائلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل بن ناشب بن عبدة بن سعد الصحابي المشهور.

وبنو جذع بن بكر بن ليث بن بكر: منهم أمير خراسان نصر بن سيار بن رافع بن عدي بن ربيعة بن عامر بن عوف بن جندع ورافع بن الليث بن نصر القائم بسمرقند أيام الرشيد بدعوة بني أمية ثم أسأمن إلى المأمون. ومن بني عبد مناف بنو عريج بن بكر بن عبد مناف وبنو الدليل بن بكر: منهم الأسود بن رزق بن يعمر بن نافثة بن عدي بن الدليل الذي كان بسببه فتح مكة.

وأما صوفة: فهم بنو الغوث بن مر بن أد كانوا يميزون بالحاج في الموسم لا يجوز أحد حتى يجوزوا ثم انقرضوا عن آخرهم في الجاهلية، وورث ذلك آل صفوان بن شحمة من بني سعد بن زيد مائة بن تميم، وقد مر ذكر ذلك وانقضى بنو طابخة بن إلياس.

وأما مدركة بن إلياس: فهم بطون كثيرة أعظمها هذيل والقارة وأسد وكنانة وقريش فأما هذيل: فهم بنو هذيل بن مدركة، وديارهم بالسورات، وسراهم متصلة ببجل غزوان المتصل بالطائف، ولهم أماكن ومياه في أسفلها من جهات نجد ونهامة بين مكة والمدينة، ومنها الرجيع ويثر معونة. وهم بطنان سعد بن هذيل ولحيان بن هذيل فمن بني سعد بن هذيل أبو بكر الشاعر، والحطيئة فيما يقال، وعبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمع فار بن غزوم بن صاهلة بن الحارث بن تميم بن سعد الصحابي المشهور. وأخوه عتبة وعميس، وبنوه عبد الرحمن وعتبة، والمسعودي المؤرخ ابن عتبة وهو علي بن الحسين بن علي بن عبد الله بن زيد بن عتبة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، ومن عتبة أخوه عتبة بن عبد الله بن زيد بن عتبة فقيه المدينة. وقد افرقوا في الإسلام على الممالك ولم يبق لهم حي يطرف. وبأفريقية منهم قبيلة بنواحي باجة يعسكرون مع جند السلطان ويؤدون المغرم.

وأما بنو أسد: فمنهم بنو أسد بن خزيمة بن مدركة، ويطن كبير متسع ذو بطون، ويلاهم فيما يلي الكرخ من أرض نجد وفي مجاورة طيء، ويقال: إن بلاد طيء كانت لبني أسد، فلما خرجوا من اليمن غلبوهم على أجا وسلمى وجاءوا واصطلحوا وتجاوروا لبني أسد والتغلبة واقصة وغاضرة. ولهم من المنازل المسماة في الأشعار غاضرة والنعف، وقد تفرقوا من بلاد الحجاز على الأقطار وليبق لهم حي ويلاهم الآن فيما ذكر ابن سعيد لطيء وبني عقيل الأمراء، كانوا بأرض العراق والجزيرة وكانوا في الدولة السلجوقية قد عظم أمرهم وملكو الحلة وجهاتها، وكان بها منهم الملوك بنو مرسن الذين ألف الهباري أرجوزته المعروفة به في السياسة. ثم اضمحل ملكهم بعد ذلك وورث بلادهم بالعراق خفاجة.

وكانت بنو أسد بطوناً كثيرة، كان منها بنو كاهل قاتل حجر بن عمرو الملك والد امرئ القيس، وبنو غنم بن دودان بن أسد: منهم عبيد الله بن جحش بن رثاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن

وسارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله بن جابر بن محبة بن عبد بن عدي بن الدليل الذي ناداه عمر فيما اشتهر من المدينة وهو بالعراق يقاتل وأبو الأسود واضع النحو وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن عمرو بن جندب بن يعمر بن حليس بن نافقة بن عدي. وبنو ضمرة بن بكر: منهم عامرة بن غنم بن خويلد بن عبد بن نهم بن يعمر بن عوف بن جري بن ضمرة الذي وادع رسول الله ﷺ على قومه وعمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن إياس بن عبيد بن ناشرة بن كعب بن جري الصحابي، والبراض بن قيس بن رافع بن قيس بن جري الفاتك قاتل عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب وكان بسببها حرب الفجار.

وأما قریش وهم ولد النضر بن كنانة بن فهر بن مالك بن النضر، والنضر هو الذي يسمى قریشاً، قيل للنتشر وهو التجارة، وقيل: تصغير قرش وهو الحوت الكبير المفترس دواب البحر. وإنما انتسبوا إلى فهر لأن عقب النضر منحصر فيه لم يعقب من بني النضر غيره، فهذا وجه القول بأن قریشاً من بني فهر بن مالك أعني اغحصار نسبهم فيه، وأما الذي اسمه قریش فهو النضر. فولد فهر غالب والحارث ومغارب فبنو مغارب بن فهر من قریش الظواهر منهم الضحاک بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيان بن مغارب صاحب مرج راهط، قاتل فيه مروان بن الحكم حين بويح له بالخلافة وقتل.

وضراب بن الخطاب بن مراد بن كثير بن عمرو أكل السقف بن حبيب بن عمرو بن شيان الفارس المشهور في الصحابة، وأبوه الخطاب بن مراد سيد الظاهر في الجاهلية وكان يأخذ المرباع منهم وحضر حروب الفجار، وابنه من فرسان الإسلام وشعرائه. وعبد الملك بن قطي بن نهشل بن عمرو بن عبد الله بن وهب بن سعد بن عمرو أكل السقف شهد يوم الحرة وعاش حتى ولي الأندلس وصلبه أصحاب بلخ بن بشر القشيري.

وكرز بن جابر بن حسل بن لاجب بن حبيب بن عمرو بن شيان قتل يوم الفتح وهو مع رسول الله ﷺ. وسار بنو الحرث بن فهر من الظواهر، منهم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهب بن ضبة بن الحرث من العشرة وأمير المسلمين بالشام عند الفتح، وعقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ضرب بن الحرث، فاتح إفريقية ومؤسس القيروان بها، ومن عقبه عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة والي إفريقية أبوه حبيب بن عقبة هو قاتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، ويوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبيدة صاحب الأندلس وعليه دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فقتله ووليها هو وبنوه من بعده.

ومن ضمرة غفار بن مليل بن ضمرة بطن كان منهم أبو ذر الغفاري الصحابي وهو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار، وصاحبه كثير الشاعر الذي تشبب بعزة بنت جميل بن حفص بن إياس بن عبد العزى بن حاجب غافر بن غفار ومنهم كلثوم بن الحصين بن خالد بن معيسر بن بدر بن خميس بن غفار واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في غزوة الفتح. وبنو مدلج بن مرة بن عبد مناة: منهم سراقه بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو بن مالك بن تميم بن مدلج الذي اتبع رسول الله ﷺ بجعالة قریش ليرده فظهرت فيه الآية وصرفه الله تعالى عنه ومجزز المدلجي الذي سر النبي ﷺ بقيافته في أسامة وزيد وهو مجزز بن الأعور بن جعد بن معاذ بن عتودة بن عمرو بن مدلج.

وبنو عامر بن عبد مناة منهم بنو مساحق بن الأفرم بن جذيمة بن عامر الذين قتلهم خالد بن الوليد بالغميصا ووداهم النبي ﷺ وأنكر فعل خالد. وبنو الحارث بن عبد مناة منهم الحليس بن علقمة بن عمرو بن الأرقع بن عامر بن جذيمة بن عوف بن الحرث الذي عقد حلف الأحابيش مع قریش وأخوه تيم الذي عقد حلف القارة معهم. وبنو فراس بن مالك بن كنانة: منهم فارس العرب ربيعة بن المكدم بن عامر بن خويلد بن جذيمة بن علقمة بن جذل الطعان بن فارس.

وبنو عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة: منهم نساة المشهور في الجاهلية قام الإسلام فيهم على جنادة بن أمية بن عوف بن قلع بن جذيمة بن فقيم بن علي بن عامر وكل من صارت إليه هذه المرتبة كان يسمى القلمس وأول من نسا المشهور: سمير بن ثعلبة بن الحارث وكان منهم الرماحس بن عبد العزيز بن الرماحس بن الرسارس بن واقد بن وهب بن هاجر بن عز بن وائلة بن الفاكه بن عمرو بن الحرث ولاء عبد الرحمن الداخل حين جاء إلى الأندلس على الجزيرة وشذونة وامتتع بها ثم زحف إليه ففر إلى

وإسماعيل بن جامع بن عبد المطلب بن أبي وادعة مقي مكة ونيه ومنه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم قتل يوم بدر كافرين وألقيا في القليب، وقتل يومئذ العاصي بن مبه، وكان له ذو الفقار سيف رسول الله ﷺ. وعبد الله بن الزبيري بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم كان يؤذي بشعره ثم أسلم وحسن إسلامه.

وحذافة بن قيس أبو الأخنس وخنيس، وكان خنيس على حفصة قبل رسول الله ﷺ، وعبد الله بن حذافة من مهاجرة الحبشة وهو الذي مضى بكتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى. وبنو جح بن عمرو بن هصيص بن كعب، كان منهم أمية بن خلف بن وهب بن حذافة قتل يوم بدر وأخوه أبي قتله رسول الله ﷺ يوم أحد بيده وإبنة صفوان بن أمية أسلم يوم الفتح وإبنة عبد الله بن صفوان قتل مع الزبير وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة وإخوته قدامة والسائب وعبد الله مهاجرون بدريون وأختهم زينب بنت مظعون أم حفصة.

وبنو عدي بن كعب: منهم زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي. رفض الأوثان في الجاهلية والتزم الخنيفة ملّة إبراهيم إلى أن قتل بقرية من قرى البلقاء قتله لحم أو جذام، وإبنة سعيد بن زيد أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

وعمر بن الخطاب أمير المؤمنين، وإبنة عبد الله وعاصم وعبيد الله وغيرهم، وخارجة بن حذافة بن غاثم بن عامر بن عبيد الله بن عويج بن عدي بن كعب الذي قتله الحواري بمصر يظنه عمرو بن العاص وقال أردت عمراً وأراد الله خارجة فطارت مثلاً. وأبو الجهم بن حذيفة بن غاثم صاحب النفل يوم حنين ومطيع بن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عويج صحابي، وإبنة عبد الله بن مطيع كان على المهاجرين يوم الحرة قتل مع ابن الزبير بمكة.

وأما مرة بن كعب: وهو من عمود النسب الكريم فكان له من الولد كلاب وتيم وبقظة. فأما تيم بن مرة فمنهم: عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم سيد قريش في الجاهلية وتنسب إليه الدار المشهورة يومئذ بمكة. ومنهم أبو بكر الصديق إسمه عبد الله بن أبي قحافة وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب وإبناه عبد الرحمن ومحمد وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب قتل يوم الجمل وإبنة محمد السجاء وأعقابهم كثيرة.

وأما غالب بن فهر: وهو عمود النسب الكريم فولد تيم الأدرم وولدين فبنو تيم الأدرم من الظواهر وهم بادية، كان منهم ابن خطل الذي أمر رسول الله ﷺ بقتله يوم الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة، وهو هلال بن عبد الله بن عبد مناة بن أسعد بن جابر بن كبير بن تيم الأدرم.

وأما لؤي بن غالب: في عمود النسب الكريم فولد كعباً وعامراً وبطوناً أخرى يختلف في نسبها إلى لؤي خزيمية وسامة وسعد وجشم، وهو الحارث وعوف وهم من قريش الظواهر على أقل، فمنهم خزيمية بن لؤي وبنو سامة بن لؤي، ويقال: ليس بنو سامة من قريش وهم بعمان. ويقال: إن منهم بني سامان ملوك ما وراء النهر. فأما بنو عامر بن لؤي فهم شقير حسيل بن عامر ومعيص بن عامر فمن بني معيص بشر بن أرطاة وهو عويمر عمران بن الحليس بن يسار بن نزار بن معيص بن عامر وهو أحد قواد معاوية، ومكرز بن حفص بن الأحنف بن علقمة بن عبد الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص من سادات قريش الذي أجاز أبا جندل بن سهيل فرده رسول الله ﷺ، وهو عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب الأصم بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد معيص، وهو ابن خال خديجة وأمه أم كلثوم عاتكة بنت عبد الله بن عنكته بن عامر بن مخزوم.

ومن بني حسيل عامر بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب بن خزيمية بن مالك بن حسيل بن عامر أمير المسلمين في فتح أفريقية أيام عثمان وولي مصر وكان كتب لرسول الله ﷺ ثم رجع إلى مكة ثم جاء ثائباً وحسنت حاله وقصته معروفة، وحويطب بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسيل له صحبة، وعبد عمرو بن شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك صاحب الخديبية وأخوه السكران، وإبنة أبو جندل سهيل واسمه العاصي وهو الذي جاء في قيوده يوم صلح الخديبية إلى النبي ﷺ فرده وقصته معروفة. وزمعة بن قيس بن عبد شمس، وإبنة عبد بن زمعة، وبتة سودة بنت زمعة أم المؤمنين وكانت زوجة السكران ابن عمها، ثم تزوجها بعده رسول الله ﷺ.

وأما كعب بن لؤي وهو في عمود النسب الكريم فولده مرة وهصيص وعدي وهم قريش البطاح أي بطائح مكة، فمن ابن كعب هصيص بن كعب بن لؤي بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب منهم العاصي بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم، وإبناه عمرو وهشام ابنا العاصي، وعبد الرحمن بن معيص بن أبي وادعة وهو الحارث بن سعيد بن سعد بن سهم قارئ أهل مكة،

ومن عقبه كان عامر بن وهب القائم بسرقسطة من الأندلس بدعوة أبي جعفر المنصور، وقتله يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس قبل عبد الرحمن الداخل. ومنهم أبو السنبال بن بعكك بن السباق بن عبد الدار الذي دفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح مفتاح الكعبة، وقيل إنما دفعه إلى أخيه شيبة. وصارت حجابة البيت إلى بني شيبة بن طلحة من يومئذ.

وينو عبد العزى بن قصي منهم أبو البخترى العاصي بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، أراد التملك على قريش من قبل قيصر فمعه فرجع عنهم إلى الشام، وسجن من وجد بها من قريش، وكان في جملتهم أبو أحيمه سعيد بن العاصي فعدت قريش إلى عمرو بن جفنة الغساني، فسم عثمان بن الحويرث ومات بالشام.

وهبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، كان من عقبه عمر بن عبد العزيز بن المنذر بن الزبير بن عبد الرحمن بن هبار صاحب السند وليها في ابتداء الفتنة إثر قتل المتوكل، وتداول أولاده ملكها إلى أن انقطع أمرهم على يد محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وما دون النهر من خراسان، وكانت قاعدتهم المنصورة، وكان جده المنذر بن الربيع قد قام بقرقيسيا أيام السفاح فأسر وصلب. وإسماعيل بن هبار قتله مصعب بن عبد الرحمن غيلة، وهبار كان يهجو النبي ﷺ، ثم ابنه عوف أسلم فمده وحسن إسلامه. وعبد الله بن زعفة بن الأسود له صحبة، وتزوج زينب بنت أبي سلمة من أم سلمة أم المؤمنين. وخديجة أم المؤمنين بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، والزبير بن العوام بن خويلد أحد العشرة، وابناه عبد الله ومصعب. وحكيم بن حزام بن خويلد عاش ستين سنة في الإسلام وباع داره والندوة من معاوية بمائة ألف، وابنه هشام بن حكيم.

وأما عبد مناف وهو صاحب الشوكة في قريش وسنام الشرف وهو في عمود النسب الكريم، فولد له عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل. وكان بنو هاشم وبنو عبد شمس متقاسمين رياسة بني عبد مناف والبقية أحلاف لهم فبنو المطلب أحلاف لبني هاشم وبنو نوفل أحلاف لبني عبد شمس. فأما بنو عبد شمس فمنهم العبلات وهم بنو أمية الأصغر وبنو الربيعا صاحبة عمرو بن أبي ربيعة وهي سيدة القريض المغني وبنو ربيعة بن عبد شمس: منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ومن عتبة ابنه الوليد وقتل يوم بدر كافراً، وأبو حذيفة صحابي وهو مولى سالم قتل يوم اليمامة، وهند بنت عتبة أم معاوية رضي الله عنها. وبنو عبد العزى بن عبد شمس: منهم أبو العاصي بن الربيع بن عبد العزى

وينو يقظة بن مرة منهم: بن غزوم بن يقظة بن مرة فمنهم صيفي بن أبي رفاعة وهو أمية عائد بن عبد الله بن عمرو بن غزوم، قتل هو أخوه بيدر كافراً، والأرقم بن أبي الأرقم واسمه عبد مناف بن أبي جندب، واسمه أسد بن عبد الله بن عمرو بن غزوم صاحبي بدري كان يجتمع بداره النبي ﷺ والمسلمون سراً قبل أن يفشوا الإسلام، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن غزوم من قدماء المهاجرين كان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ.

والفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن غزوم واسمه أبو قيس قتل يوم بدر كافراً، وأبو جهل هشام بن المغيرة واسمه عمرو وقتل يومئذ كافراً وابنه عكرمة صحابي، والحارث بن هشام بن المغيرة أسلم وحسن إسلامه وله عقب كثير مشهورون، وأبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة قتل يوم بدر كافراً وبنته أم سلمة أم المؤمنين وهشام بن أبي حذيفة من مهاجرة الحبشة، وعبد الله بن أبي ربيعة وهو عمرو بن المغيرة من الصحابة من ولده الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المعروف بالقباغ، والوليد بن المغيرة مات بمكة كافراً وابنه خالد بن الوليد سيف الله صاحب الفتوحات الإسلامية، وسعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن غزوم تابعي، وأبوه المسيب من أهل بيعة الرضوان.

وأما كلاب بن مرة: من عمود النسب الكريم فولد له قصي وزهرة فبنو زهرة بن كلاب منهم أمية بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أم النبي ﷺ وابن أخيها عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث بن وهب، وسعد بن أبي وقاص واسمه مالك بن وهب بن عبد مناف أمير المسلمين في فتح العراق، وهاشم ابن أخيه عتبة من الأمراء يومئذ، وابنه عمر بن سعيد الذي بعثه عبد الله بن زياد لقتال الحسين وقتله المختار بن أبي عبيد، وأخوه محمد بن سعد قتله الحجاج بن أبي الأشعث، والمصور ابن غرمة بن نوفل بن وهب صحابي وأبوه من المؤلفة قلوبهم، وعبد الله بن عوف بن عبد عوف بن الحرث بن زهرة وابنه سلمة وله عقب كثير.

وأما قصي بن كلاب من عمود النسب الكريم، وهو الذي جمع أمر قريش وأثل مجدهم، فولد له عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى. فبنو عبد الدار كان منهم النضر بن الحارث بن علقمة بن كلفة بن عبد مناف بن عبد الدار، أسر يوم بدر مع المشركين، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ومر بالصفراء أمر به فضرب عنقه هنالك. ومصعب بن عمرو بن هاشم بن عبد مناف صحابي بدري استشهد يوم أحد وكان صاحب اللواء.

آياته. والسائب بن عبد يزيد كان يشبه رسول الله ﷺ وأمر يوم بدر. ومن عقبه الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب.

وأما بنو هاشم بن عبد مناف فسيدهم عبد المطلب بن هاشم، ولم يذكر من عقبه إلا عقب عبد المطلب هذا، وكان بنوه عشرة: عبد الله أبو النبي ﷺ وهو أصغرهم، وحزمة، والعباس وأبو طالب، والزيبر، والمقوم ويقال: اسمه الفيداق، وضرار وحجل، وأبو لب، وقثم والزيبر لا عقب لهما. وعقب حزمة انقرض فيما قال ابن حزم. ومن عقب أبي لب ابنه عتبة صحابي.

وأما عقب العباس وأبي طالب فأكثر من أن يحصر، والبيت والشرف من بني العباس في عبد الله بن العباس، ومن بني أبي طالب في علي أمير المؤمنين وبعده أخوه جعفر رضي الله عنهم أجمعين، وسنذكر من مشاهيرهم عند ذكر أخبارهم ودولهم ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى.

هذا آخر الكلام وفي أنساب قريش وانقضى بتامها الكلام في أنساب مضر وعذنان فلنرجع الآن إلى أخبار قريش وسائر مضر وما كان لهم من الدول الإسلامية. والله المستعان لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، ولا معبود سواه ولا يرجى إلا إياه، وهو حسي ونعم الوكيل وأسأله السر الجميل.

الخبر عن قريش من هذه الطبقة وملكهم بمكة وأولية أمرهم وكيف صار الملك إليهم فيها من قبلهم من الأمم السابقة

قد ذكروا عند الطبقة الأولى أن الحجاز وأكناف العرب كانت ديار العمالة من ولد عمليق بن لاوذ وأنهم كان لهم ملك هنالك، وكانت جرهم أيضاً من تلك الطبقة من ولد يقطن بن شالغ بن أرفخشذ، وكانت ديارهم اليمن مع إخوانهم حضرموت. وأصاب اليمن يومئذ قحط فقروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى وعثروا في طريقهم بإسماعيل مع أمه هاجر عند زمزم، وكان من شأنه وشأنهم معه ما ذكرناه عند ذكر إبراهيم عليه السلام. ونزلوا على قطورا من بقية العمالة، وعليهم يومئذ السديد بن هوثر. ثناء مثلك - ابن لاوي بن ذكر بن عملاق أو عمليق. واتصل خبر جرهم من ورائهم من قومهم باليمن وما أصابوا من النجعة بالحجاز فلحقوا بهم، وعليهم مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن هنء بن نبث بن جرهم، فنزلوا

صهر النبي وكانت له منها أمانة تزوجها علي بعد فاطمة رضي الله عنهما.

وبنو أمية الأكبر بن عبد شمس منهم سعيد بن أبي أحيحة العاصي بن أمية مات كافراً، وابنه خالد بن سعيد قتل يوم اليرموك، وسعيد بن العاصي بن سعيد قديم الإسلام ولي صنعاء واستشهد في فتح الشام، وابنه سعيد قتل يوم اليرموك، وسعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية ولي الكوفة لعثمان، وابنه عمرو والأشدق القائم على عبد الملك وقتله، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان بن العاصي بن أمية، ومروان بن الحكم بن أبي العاصي، وأعقاب الخلفاء الأولون في الإسلام والملوك بالأندلس معروفون يأتي ذكرهم عند أخبار دولهم.

وأبو سفيان بن حرب بن أمية: وأبناؤه معاوية أمير المؤمنين يزيد وحظلة وعتبة وأم حبيبة أم المؤمنين، وعقب معاوية بين الخلفاء والإسلام بين معروف يذكر عند ذكرهم. وعتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ولاه رسول الله ﷺ على مكة إذ فتحها فلم يزل عليها إلى أن مات يوم ورود الخبر بموت أبي بكر الصديق. ومنهم بنو أبي الشوارب القضاة ببغداد من عهد المتوكل إلى المقتدر، وهم بنو أبي عثمان بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص وعقبه بن أبي معيط واسمه أبان بن عمرو بن أمية قتله رسول الله ﷺ ببدر صبراً، وابنه الوليد صحابي ولي الكوفة وهو الذي حد على الخمر بين يدي عثمان، وابنه أبو قطيفة الشاعر، ومن عقبه بن أبي معيط المعيطي الذي يبيع بدانية من شرق الأندلس بايع له ملكها مجاهد زمن الفتنة بعد المائة الرابعة في آخر الدولة الأموية، وهو عبد الله بن عبد الله بن عبيد الله بن الوليد بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد بن عثمان بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد بن عقبه بن أبي معيط.

وبنو نوفل بن عبد مناف: منهم جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل الصحابي المشهور، وأبوه مطعم هو الذي نوه به النبي ﷺ يوم الطائف ومات قبل بدر، وطعيمة بن عدي قتل يوم بدر كافراً، ومولاه وحشي هو الذي قتل يوم أحد حزمة بن عبد المطلب.

وبنو المطلب بن عبد مناف: منهم قيس بن خزيمة بن المطلب صحابي، وابنه عبد الله بن قيس مولى يسار جد محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي، ومسطح وهو عوف بن أثانة بن عباد بن المطلب أحد من تكلمم بالإفك وهو ابن خالة أبي بكر الصديق، وركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب كان من أشد الرجال، وصارعه رسول الله ﷺ فصّره وكانت آية من

جرهم ولاة البيت لا ينازعهم ولد إسماعيل إعظماً للحرم أن يكون به بني أو قتال. ثم بغت جرهم في البيت، ووافق بغيم تفرق سباً ونزول بني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر أرض مكة، فأرادوا المقام مع جرهم فمنعوهم واقتلوا فغلبهم بنو حارثة، وهم فيما قيل خزاعة، وملكوا البيت عليهم، ورئيسهم يومئذ عمرو بن لحي وشرذ بقية جرهم. ولحي هذا هو ربيعة بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزقياً بن عامر، وقيل: إنما ثعلبة بن حارثة بن عامر. وفي الحديث: «رايت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار» يعني أحشاه، لأنه الذي يجر البحيرة وسيب السائبة وحى الحامي وغير دين إسماعيل ودعا إلى عبادة الأوثان. وفي طريق آخر: رايت عمراً بن عامر. قال عياض: المعروف في نسب أبي خزاعة هذا هو عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس، وإنما عامر اسم أبيه أخو قمعة، وهو مدركة بن إلياس، وقال السهيلي: كان حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر خلف على أم لحي بعد أبيه قمعة ولحي تصغير واسمه ربيعة تبناه حارثة وانتسب إليه فالنسب صحيح بالوجهين، وأسلم بن أفضى بن حارثة أخو خزاعة. وعن ابن إسحاق: أن الذي أخرج جرهم من البيت ليست خزاعة وحدها، وإنما تصدى للتكرير عليهم خزاعة وكنانة. وتولى كبره بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة وبنو غبشان بن عبد عمرو بن بوي بن ملكان بن أفضى بن حارثة فاجتمعوا لحريمهم واقتلوا، وغلبهم بنو بكر وبنو غبشان بن كنانة وخزاعة على البيت ونفوههم من مكة. فخرج عمرو، وقيل عامر بن الحرث بن مضاض الأصغر بمن معه من جرهم إلى اليمن بعد أن دفن حجر الركن وجميع أموال الكعبة بزمزم. ثم أسفوا على ما فارقوا من أمر مكة وحزنوا حزناً شديداً. وقال عمرو بن الحرث وقيل عامر:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصف أنيس ولم يسمر بمكة مسامر
بلى نحن كنا أهلها فآزالنا صروف الليالي والجلود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف فما تحطى لدينا المكاث
ملكنا فمزنا فاعظم ملكنا فليس لحي عنلنا ثم فاخر
لم تنكحوا من خير شخص علمته فابنونا منا ونحن الأصاهر
فإن تشي الدنيا علينا بما لها فإن لها حالاً وفيها الشاجر
فأخرجنا منها المليك بقدره كذلك يا للناس تجري المقادر
أقول إذا نسام الخلسي ولم أتم إذا العرش لا يبعد سهيل وعامر
وبللت منها أوجها لأحبها قبائل منها حير وبجائر
وصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة بذلك عصتنا السنون الغواير
فساحت دموع العين تبكي لبللة بها حرم أم وفيها المشاعر
ونكي ليت ليس يؤذي حمامه يظل بها أمناً وفيها العصافر

على مكة بقرية كان قطوراً أسفل مكة. وكان مضاض يعثر من دخل مكة من أعلاها والسמידع من أسفلها، هكذا عند ابن إسحاق والمسعودي أن قطوراً من العمالق، وعند غيرهما أن قطوراً من بطون جرهم وليسا من العمالق. ثم افترق أمر قطوراً وجرهم وتنافسوا الملك واقتلوا وغلبهم المضاض وقتل السמידع وانقضت العرب العاربة قال الشاعر:

مضى آل عملاق فلم يبق منهمو حسير ولاذ وعزة متشاوس
عنا فادال الدهر منهم وحكمه على الناس هذا واغذ ومبايس
ونشأ إسماعيل صلوات الله عليه بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوج منهم حرا بنت سعد بن عوف بن هنء بنت بن جرهم، وهي المرأة التي أمره أبوه بتطليقها لما زاره ووجده غائباً فقال لها: قولي لزوجك فليغير عتبه، فطلقها وتزوج بنت أخيها مامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف، ذكر هاتين المرأتين الواقدي في كتاب انتقال النور، وتزوج بعدهما السيدة بنت الحرث بن مضاض بن عمرو بن جرهم. ولثلاثين سنة من عمر إسماعيل قدم أبوه الحجاز فأمر ببناء الكعبة البيت الحرام، وكان الحجر زرياً لغنم إسماعيل فرفع قواعدها مع ابنه إسماعيل وصيرها خلوة لعبادته، وجعلها حجاً للناس كما أمره الله، وانصرف إلى الشام فقبض هنالك كما مر.

وبعث الله إسماعيل إلى العمالق وجرهم وأهل اليمن فأمن بعض وكفر بعض إلى أن قبضه الله ودفن بالحجر مع أمه هاجر ويقال آجر، وكان عمره فيما يقال مائة وثلاثين سنة وعهد بأمره لابنه قيثار ومعنى قيثار صاحب الإبل وذلك لأنه كان صاحب إبل أبيه إسماعيل كذا قال السهيلي، وقال غيره معناه الملك. ويقال إنما عهد لابنه نابت فقام ابنه بامر البيت ووليها، وكان ولده فيما ينقل أهل التوراة كما نقل اثني عشر: قيثار قيايوت أدبيل مبسام مشمع دوما مسا حداد دما يطور ياقيس قدما أمهم السيدة بنت مضاض قاله السهيلي. وهكذا وقعت أسماؤهم في الإسرائيليات، والحروف مخالفة للحروف العربية بعض الشيء باختلاف المخارج، فلها يقع الخلاف بين العلماء في ضبط هذه الألفاظ، وقد ضبط ابن إسحاق تيماً منهم بالطاء والياء وضبطه الدارقطني بالضاد المعجمة والميم قبل الياء كأنها تانيث أضم وذكر ابن إسحاق دما.

وقال البكري: به سميت دومة الجندل لأنه كان نزلها وذكر أن الطور يبطون ابن إسماعيل. ثم هلك نابت بن إسماعيل، وولي أمر البيت جده الحرث بن مضاض، وقيل وليها مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هنء بن نبت بن جرهم، ثم ابنه الحرث بن عمرو. ثم قسمت الولاية بين ولد إسماعيل بمكة وأخوالهم من

وفيه وحوش لا ترام أنيسة إذا خرجت منه فليست تغادر بكر وعامر بن صعصعة وثقيف.

ومن تميم والرباب وضبيعي بني أسد وهذيل والقارة وغير هؤلاء من البطون الصغار، وكان التقدم في مضر كلها لكنانة ثم لقريش، والتقدم في قريش لبني لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، وكان سيدهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي كان له فيهم شرف وقرابة وثروة وولد. وكان له في قضاة ثم في بني عروة بن سعد بن زيد من بطونهم نسب ظئر ورحم كلاله كانوا من أجلها فيه شيعة، وذلك بما كان ريبة بن حرام بن عذرة قدم مكة قبل مهلك كلاب بن مرة. وكان كلاب خلف قصياً في حجر أمه فاطمة بنت سعد بن باسل بن خثعمة الأسدي من اليمن فتزوجها ريبة وقصي يومئذ فطمم فاحتلمته إلى بلاد بني عذرة وتركته ابناً زهرة بن كلاب لأنه كان رجلاً بالغاً، وولدت لريبة بن حزام رزاح بن ريبة. ولما شب قصي وعرف نسبه رجع إلى قومه، وكان الذي يلي أمر البيت لعهدده من خزاعة حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو، فأصهر إلى قصي في ابنته حبي فأنكحه إياها فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي.

ولما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل، فرأى قصي أنه أحق بالكعبة ويأمر مكة وخزاعة وبني بكر لشرفه في قريش. ولما كثرت قريش سائر الناس واعتزت عليهم وقيل أوصى له بذلك حليل، ولما بدا له ذلك مشى في رجالات قريش ودعاهم إلى ذلك فأجابوه، وكتب إلى أخيه رزاح في قومه عذرة مستجيماً بهم فقدم مكة في إخوته من ولد ريبة ومن تبعهم من قضاة في جملة الحاج جمعاً نصر قصي.

قال السهيلي: وذكر غير ابن إسحاق أن حليلاً كان يعطي مفاتيح البيت بته حبي حين كبر وضعف فكانت يدها، وكان قصي ربما أخذها يفتح البيت للناس ويغلقه. فلما هلك حليل أوصى بولاية البيت إلى قصي وأبى خزاعة أن يمضي ذلك لقصي، فعند ذلك هاجت الحرب بينه وبين خزاعة وأرسل إلى رزاح أخيه يستنجده عليهم.

وقال الطبري: لما أعطى حليل مفاتيح الكعبة لابنته حبي لما كبر وثقل قالت: إجعل لرجل يقوم لك به. فجعله إلى أبي غبشان سليمان بن عمرو بن لؤي بن ملكان بن قصي، وكانت له ولاية الكعبة. ويقال: إن أبا غبشان هو ابن حليل باعه من قصي بزق خمر، قيل فيه. أخسر من صفقة أبي غبشان. فكان من أول ما بداوا به نقض ما كان لصوفة من إجازة الحاج، وذلك أن بني سعد

ثم غلبت بنو حبشية على أمر البيت بقومهم من خزاعة، واستقلوا بولايتها دون بني بكر عبد مناة، وكان الذي يليها لآخر عهدهم عمرو بن الحرث وهو غبشان. وذكر الزبير أن الذين أخرجوا جرهم من البيت من ولد إسماعيل هم إياد بن نزار. ومن بعد ذلك وقعت الحرب بين مضر وإياد فأخرجتهم مضر، ولما خرجت إياد قلعوا الحجر الأسود ودفنوه في بعض المواضع، ورأيت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها فاشتروا على مضر إن دلوه عليه أن لهم ولاية البيت دونهم، فوفوا لهم بذلك. وصارت ولاية البيت لخزاعة إلى أن باعها أبو غبشان لقصي. ويذكر أن من ولها منهم عمرو بن لحي ونصب الأصنام وخاطبه رجل من جرهم:

يا عمرو لا تظلم بمكة إنها بلد حرام
سائل بعاد أين هم وكذا تخترم الأنعام
وهي العماليق الذبيح من لهم بها كان السوام

وكانت ولاية البيت لخزاعة وكان لمضر ثلاث خصال: الإجازة بالناس يوم عرفة لبني الغوث بن مرة إخوانهم وهو صوفة، والإفاضة بالناس غداة النحر من جمع إلى منى لبني زيد بن عدي وانتهى ذلك منهم إلى أبي سيارة عميرة بن الأعزل بن خالد بن سعد بن الحرث بن كانس بن زيد فدفع من مزدلفة أربعين سنة على حمار، ونسء الشهور الحرم، كان لبني مالك بن كنانة وانتهى إلى القلمس كما مر. وكان إذا أراد الناس الصدور من مكة قال: اللهم إني أحللت أحد الصفرين ونسأت الآخر للعام المقبل قال عمرو بن قيس من بني فراس:

ونحن الناسئون على معد شهر الحبل نجعلها حراماً

قال ابن إسحاق: فأقام بنو خزاعة وينو كنانة على ذلك مدة الولاية لخزاعة دونهم كما قلناه. وفي أثناء ذلك تشعبت بطون كنانة ومن مضر كلها وصاروا جرماً وبيوتات متفرقين في بطن قومهم من بني كنانة، وكلهم إذ ذاك أحياء حلول بطواهرها. وصارت قريش على فرقتين: قريش البطاح وقريش الظواهر. فقريش البطاح ولد قصي بن كلاب وسائر بني كعب بن لؤي، وقريش الظواهر من سواهم وكانت خزاعة بادية لكنانة، ثم صار بنو كنانة لقريش، ثم صارت قريش الظواهر بادية لقريش البطاح، وقريش الظواهر من كان على أقل من مرحلة، ومن الضواحي من كان على أكثر من ذلك. وصار من سوى قريش وكنانة من قبائل مضر في الضواحي أحياء بادية وظعوناً ناجعة من بطون قيس، وخندف من أشجع وعبس وفزارة ومرة وسليم وسعد بن

ثم زيد مناة بن تميم كانوا يلون الإجازة للناس بالحج من عرفة ينفر الحاج لفرهم ويرمون الجمار لرميهم، ورثوا ذلك من بني الغوث بن مرة، كانت أمه من جرهم وكانت لا تلد، فنذرت إن ولدت أن تصدق به على الكعبة عبداً يخدمها، فولدت الغوث وخلق أخواله من جرهم بينه وبين من نافسه بذلك، فكان له ولولده وكان يقال لهم صوفة.

وقال السهيلي عن بعض الإخباريين: إن ولاية الغوث بن مرة كانت من قبل ملوك كندة، ولما انقرضوا ورث بالتعدد بنو سعد بن زيد مناة، ولما جاء الإسلام كانت تلك الإجازة منهم لكرب بن صفوان بن حنات بن سحنة وقد مر ذكره في بطون تميم. فلما كان العام الذي أجمع فيه قصي الأفراد بولاية البيت وحضر إخوته من عذرة، تعرض لبني سعد أصحاب صوفة في قومهم من قريش وكنانة وقضاة عند الكعبة، فلما وقفوا للإجازة قال: لا نحن أولى بهذا منكم فتنازوا وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم، وعرفت خزاعة ونو بكر عند ذلك أنه سيمنهم من ولاية البيت كما منع الآخرين، فاحازوا عنه واجمعوا لحربه وتنازوا وكثر القتل، ثم صالحوه على أن يحكموا من أشرف العرب، وتنافروا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فقصى لقصي عليهم، فولى قصي البيت وقر بمكة وجمع قريشاً من منازلهم بين كنانة إليها وقطعها أرباعاً بينهم، فأنزل كل بطن منهم بمنزله الذي أصبح به الإسلام وسمي بذلك مجمعاً قال الشاعر:

قصي لعمرى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

فأجمع بنو عبد مناف انتزاع ما بأيدي بني عبد الدار مما جعل لهم قصي، وقام بأمرهم عبد شمس أسن ولده واجتمع له من قريش: بنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو تميم، وبنو الحرث. واعتزل بنو عامر، وبنو المخارب الفريقين. وصار الباقي من بطون قريش مع بني عبد الدار وهم: بنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي، وبنو خزوم. ثم عقد كل من الفريقين على أحلافه عقداً مؤكداً، وأحضر بنو عبد مناف وحلف قومهم عند الكعبة جفنة مملوءة طيباً غمسوا فيها أيديهم تأكيداً للحلف، فسمي حلف المطيبين. واجمعوا للحرب وسووا بين القبائل وأن تبعث بعضها إلى بعض، فبعث بنو عبد الدار لبني أسد، وبنو جمح لبني زهرة، وبنو خزوم لبني تميم، وبنو عدي لبني الحرث. ثم تداعوا للصالح على أن يسلموا لبني عبد مناف السقاية والرفادة، ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء فرضي الفريقان وتحاجز الناس.

وقال الطبري: قيل ورثها من أبيه. ثم قام بأمر بني عبد مناف هاشم ليساره وقراره بمكة، وتقلب أخيه عبد شمس في التجارة إلى الشام، فأحسن هاشم ما شاء في إطعام الحاج وإكرام وفدهم. ويقال: إنه أول من أطعم الشريد الذي كان يطعم فهو ثريد قريش الذي قال فيه النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» والثريد لهذا العهد ثريد الحبز بعد أن يطبخ في المقلاوة والتنور وليس من طعام العرب، إلا أن عندهم طعاماً يسمونه البازين يتناوله الثريد لغة، وهو ثريد الحبز بعد أن يطبخ في الماء عجينا رطباً إلى أن يتم نضجه، ثم يذلكونه بالغرفة حتى تتلاحم أجزاؤه وتلتزج. وما أدري هل كان ذلك الطعام كذلك أولاً إلا أن لفظ الثريد يتناوله لغة.

ويقال: إن هاشم بن عبد المطلب أول من سن الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب ذكره ابن إسحاق، وهو غير صحيح، لأن الرحلتين من عوائد العرب في كل جبل لمراعي إبلهم ومصالحها

فكان أول من أصاب من بني لؤي بن غالب ملكاً أطاع له به قومه، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت، وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم إليه في قليل أمورهم وكثيرها، فاتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة في مشاوراتهم وجعل بابها إلى المسجد فكانت مجتمع الملاء من قريش في مشاوراتهم ومعادتهم. ثم تصدى لإطعام الحاج وسقايتهم لما رأى أنهم ضيف الله وزوار بيته، وفرض على قريش خراجاً يؤديونه إليه زيادة على ذلك كانوا يردفونه به فحاز شرفهم كله، وكانت الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء له. ولما أسن قصي وكان بكره عبد الدار وكان ضعيفاً، وكان أخوه عبد مناف شرف عليه في حياة أبيه، فأوصى قصي لعبد الدار بما كان له من الحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية يجبر له بذلك ما نقصه من شرف عبد مناف، وكان أمره في قومه كالدين المتبع ولا يعدل عنه.

لأن معاشهم فيها، وهذا معنى العرب وحقيقتهم أنه الجيل الذي معاشهم في كسب الإبل والقيام عليها في ارتياد المرعى وانتجاع المياه والتجاع والتوليد وغير ذلك من مصالحها، والفرار بها من أذى البرد عند التوليد إلى القفار ودفتها، وطلب التلول في المصيف للحبوب وبرد الهواء، وتكونت على ذلك طباعهم فلا بد لهم منها ظعنوا أو أقاموا وهو معنى العروبية، وشعارها أن هاشماً لما هلك وكان مهلكه بغزة من أرض الشام، تخلف عبد المطلب صغيراً يثرب فأقام بأمره من بعده ابنه المطلب، وكان ذا شرف وفضل، وكانت قريش تسميه الفضل لسماحته، وكان هاشم قدم يثرب فتزوج في بني عدي وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحججا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك سيد الأوس لعهد، فولدت عمرو بن أحيحة وكانت لشرفها تشترط أمرها بيدها في عقد النكاح، فولدت عبد المطلب فسمته شيبه، وتركه هاشم عندها حتى كان غلاماً. وهلك هاشم فخرج إليه أخوه المطلب فأسلمته إليه بعد تعسف واغتباط به، فاحتمله ودخل مكة فردفه على بعيره فقالت قريش: هذا عبد ابتاعه المطلب فسمي شيبه عبد المطلب من يومئذ. ثم إن المطلب هلك بردمان من اليمن، فقام بأمر بني هاشم بعده عبد المطلب بن هاشم، وأقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ما كان قومه يقيمونه بمكة من قبله، وكانت له وفادة على ملوك اليمن من حمير والحبشة، وقد قدمنا خبره مع ابن ذي يزن ومع أبرهة.

ولما أراد حفر زمزم للرؤيا التي رآها، اعترضته قريش دون ذلك، ثم حالوا بينه وبين ما أراد منها. فنذر لئن ولد له عشرة من الولد ثم يلبغوا معه حتى يمنعه لينحرون أحدهم قرباناً لله عند الكعبة، فلما كملوا عشرة ضرب عليهم القداح عند هبل الضنم العظيم الذي كان في جوف الكعبة على البئر التي كانوا ينحرون فيها هدايا الكعبة، فخرجت القداح على ابنه عبد الله والد النبي ﷺ، وتجرى في شأنه، ومنعه قومه من ذلك، وأشار بعضهم وهو المغيرة بن عبد الله بن مخزوم بسؤال العرافة التي كانت لهم بالمدينة على ذلك، فالفوها بنخير وسألوها. فقالت: قريوه وعشراً من الإبل وأجبلوا القداح فإن خرجت على الإبل فذلك وإلا فزيدوا في الإبل حتى تخرج عليها القداح وانحروها حيثش فهي الفدية عنه وقد رضي إلهكم. ففعلوا وبلغت الإبل مائة فنحروا عبد المطلب، وكانت من كرامات الله به. وعليه قوله ﷺ «أنا ابن النخيع» يعني عبد الله أباه وإسماعيل بن إبراهيم جده اللذين قربا للذبح، ثم فديا بذبح الأنعام. ثم إن عبد المطلب زوج ابنه عبد الله بأمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فدخل بها وحملت برسول

ﷺ، ويعنه عبد المطلب يمتاز لهم تمراً فمات هنالك، فلما أبطأ عليهم خبره بعث في أثره. وقال الطبري عن الواقدي: الصحيح أنه أقبل من الشام في حي لقريش، فنزل بالمدينة ومرض بها ومات. أقام عبد المطلب في رئاسة قريش بمكة والكون يصغي للملك العرب والعالم يتمخض بفصال النبوة، إلى أن وضع نور الله من أفقهم، وسرى خبر السماء إلى بيوتهم، واختلفت الملائكة إلى أحيائهم، وخرجت الخلافة في أنصبتهم، وصارت العزة لمضر ولسائر العرب بهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وعاش عبد المطلب مائة وأربعين سنة وهو الذي احتقر زمزم.

قال السهيلي: ولما حفر عبد المطلب زمزم استخرج منه تمثالي غزالين من ذهب وأسياقاً كذلك، كان ساسان ملك الفرس أهداها إلى الكعبة، وقيل سابور. ودفنها الحرث بن مضاض في زمزم لما خرج بجرهم من مكة، فاستخرجها عبد المطلب، وضرب الغزالين حلية للكعبة فهو أول من ذهب حلية الكعبة بها، وضرب من تلك الأسياف باب حديد وجعله للكعبة. ويقال: إن أول من كسى الكعبة واتخذ لها غلقاً تبع إلى أن جعل لها عبد المطلب هذا الباب. ثم اتخذ عبد المطلب حوضاً لزمزم يسقي منه، وحسده قومه على ذلك وكانوا يخرجون بالليل، فلما غمه ذلك رأى في النوم قائلاً يقول: قل لا أحلها لغتسل وهي لشارب حل وبل فإذا قلتها فقد كفيتهم. فكان بعد إذا أرادها أحد بمكره رمى بدها في جسده، ولما علموا بذلك تناهوا عنه.

وقال السهيلي: أول من كسا البيت المسوح والخصف والأنطاع تبع الحميري. ويروى أنه لما كساه انتقض البيت فزال ذلك عنه، وفعل ذلك حين كساه الخصف فلما كساه الملاء والوصائل قبله وسكن. ومن ذكر هذا الخبر قاسم بن ثابت في كتاب الدلائل. وقال ابن إسحاق: أول من كسا الديباج الحجاج.

وقال الزبير بن بكار بن عبد الله بن الزبير: أول من كساه ذلك. وذكر جماعة منهم الدارقطني أن ثيلة بنت جناب أم العباس بن عبد المطلب كانت أفضل العباس صغيراً فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة، وكانت من بيت مملكة، فوفت بنذرهما.

هذه أخبار قريش وملكهم بمكة، وكانت ثقيف جيرانهم بالطائف يساجلونهم في مذاهب العروبية وينازعونهم في الشرف، وكانوا من أوفر قبائل هوازن، لأن ثقيفاً هو قسي بن منه بن بكر بن هوازن، وكانت الطائف قبلهم لعدوان الذين كان فيهم حكيم

والعرب عامر بن الظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن بكر بن عدوان وكثر عددهم حتى قاربوا سبعين ألفاً، ثم بنى بعضهم على بعض فهلكوا وقل عددهم، وكان قسي بن منبه صهراً لعامر بن الظرب، وكان بنوه بينهم فلما قل عدد عدوان تغلب عليهم ثقيف وأخرجهم من الطائف وملكوهم إلى أن صبحهم الإسلام به على ما نذكره والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والبقاء لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أمر النبوة والهجرة في هذه الطبقة الثالثة وما كان من اجتماع العرب على الإسلام بعد الإباية والحرب

لما استقر أمر قريش بمكة على ما استقر، وافتقرت قبائل مضر في أدنى مدن الشام والعراق وما دونهما من الحجاز فكانوا ظعوناً وأحياء، وكان جميعهم بمسغبة وفي جهد من العيش بحرب بلادهم وحرب فارس والروم على تلوك العراق والشام، وأربابها ينزلون حاميتهم بشغورهما، ويجهزون كتابتهم بتخومهما، ويولون على العرب من رجالاتهم ويوت العصاب منهم من يسومهم القهر، ويحملهم على الانقياد حتى يؤتوا جباية السلطان الأعظم وإتاوة ملك العرب، ويؤدوا ما عليهم من الدماء والطوائل ويسترحموا أبناءهم على السلم وكف العادية، ومن انتجاع الأرباب وميرة الأقوات، والعساكر من وراء ذلك توقع بمن منع الخراج وتستأصل من يروم الفساد.

وكان أمر مضر راجعاً في ذلك إلى ملوك كندة بني حجر أكل المرار منذ ولاء عليهم تبع حسان كما ذكرناه، ولم يكن في العرب ملك إلا في آل المنذر بالحيرة للفرس وفي آل جهينة بالشام للروم وفي بني حجر هؤلاء على مضر والحجاز. وكانت قبائل مضر مع ذلك بل وسائر العرب أهل بني وإلحاد، وقطع للأرحام، وتناسف في الردي، وإعراض عن ذكر الله، فكانت عبادتهم الأوثان والحجارة، وأكلهم العقارب والخنافس والحيات والجعلان، وأشرف طعامهم أوبار الإبل إذا أمروها في الحرارة في الدم.

وأعظم عزمهم وفادة على آل المنذر وآل جهينة وبني جعفر ونجعة من ملوكهم، وإنما كان تنافسهم المؤودة والسائبة والوصيلة والحامي. فلما تأذن الله بظهورهم واشترأت إلى الشرف هروادي أيامهم وتم أمر الله في إعلاء أمرهم وهبت ريح دولتهم وملة الله فيهم، تبدت تبشير الصباح من أمرهم وأونس الخير والرشد في خلاصهم وببدل الله بالطيب الخبيث من أحوالهم وشهرهم،

وإذا أراد الله أمراً يسر أسبابه: فكان لهم من العز والظهور قبل المبعث ما كان، وأوقع بنو شيان وسائر بكر بن وائل وعبس بن غطفان بطيء، وهم يومئذ ولاية العرب بالحيرة وأميرها منهم قبيصة بن إياس ومعه الباهوت صاحب مسلحة كسرى، فأوقعوا بهم الوقعة المشهورة ببذي قار والتحت عساكر الفرس، وأخبر بها رسول الله ﷺ أصحابه بالمدينة بيومها وقال: «اليوم انتصفت العرب من العجم وبني نصر». «

وفد حاجب بن زرارة من بني تميم على كسرى في طلب الانتجاع والميرة بقومه في أبواب العراق، فطلب الأساورة منه الرهن على عاداتهم، فأعطاهم قورسه واستكبر على استرهان ولده، توفقوا منه عجزاً عما سواها وانتقلت خلال الخير من العجم ورجال فارس فصارت أغلب في العرب حتى كان الواحد منهم هم بخلاله وشرفه وغلب الشر والسفسفة على أهل دول العجم. وانظر فيما كتب عمر إلى أبي عبيدة بن المثنى حين وجهه إلى حرب فارس:

إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والحيرة تقدم على أقوام قد جراًوا على الشر فعملوه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون أمة.

وتنافست العرب في الخلال وتنازعوا في المجد والشرف حسبما هو مذكور في أيامهم وأخبارهم. وكان حظ قريش من ذلك أوفر على نسبة حظهم من مبعثه وعلى ما كانوا يتحلونه من هدى آبائهم، وينظر ما وقع في حلف الفضول حيث اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تميم، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يحدوا بمكة مظلوماً من أهلها، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا من ظلمهم حتى ترد عليه مظلمته، وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

وفي الصحيح عن طلحة: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت». ثم ألقى الله في قلوبهم التماس الدين وإنكار ما عليهم قومهم من عبادة الأوثان، حتى لقد اجتمع منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وزيد بن عمرو بن نفيل من بني عدي بن كعب عم عمر بن الخطاب، وعبيد الله بن جحش من بني أسد بن

الله أبوه غائباً بالشام وانصرف فهلك بالمدينة، وولد سيدنا رسول الله ﷺ بعد مهلكه بأشهر قلائل، وقيل غير ذلك. فكفله جده عبد المطلب بن هاشم وكفالة الله من ورائه، والتمس له الرضعاء واسترضع في بني سعد أبي عبد من هوازن، ثم في بني نصر بن سعد أرضعته منهم حليلة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحرث بن شحنة بن رزاح بن ناظرة بن خصفة بن قيس، وكان ظنوه منهم الحارث بن عبد العزى وقد مر ذكرهما في بني عامر بن صعصعة.

وكان أهله يتوسمون فيه علامات الخير والكرامات من الله، ولما كان من حديث رسول الله ﷺ شق الملكين بطنه واستخراج العلقة السوداء من قلبه وغسلهم حشاه وقلبه بالثلج ما كان، وذلك لرابعة من مولده، وهو خلف البيوت يرمى الغنم فرجع إلى البيت ممتنع اللون، وظهرت حليلة على شأنه فخافت أن يكون أصابه شيء من اللمم فرجته إلى أمه. واسترايت أمانة برجعها إياه بعد حرصها على كفالته فأخبرتها الخبر، فقالت: كلا والله لست أخشى عليه. وذكرت من دلائل كرامة الله له وبه كثيراً. وأزارته أمه أمانة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أخوال جده عبد المطلب من بني عدي بن النجار بالمدينة، وكانوا أخوالاً لها أيضاً.

وهلك عبد المطلب لثمان سنين من ولادته، وعهد به إلى ابنه أبي طالب فأحسن ولايته وكفالته، وكان شأنه في رضاعه وشبابه ومرباه وأحواله عجباً. وتولى حفظه وكلاءته من مفارقة أحوال الجاهلية، وعصمته من التلبس بشيء منها حتى لقد ثبت أنه مر بعرس مع شباب قريش، فلما دخل على القوم أصابه غشي النوم، فما أفاق حتى طلعت الشمس واقتروا. ووقع له ذلك أكثر من مرة. وحمل الحجارة مع عمه العباس لبنان الكعبة وهما صبيان، فأشار عليه العباس بحملها في إزاره، فوضعه على عاتقه وحمل الحجارة فيه وانكشف، فلما حملها على عاتقه سقط مغشياً عليه، ثم عاد فسقط فاشتمل إزاره وحمل الحجارة كما كان يحملها. وكانت بركاته تظهر بقومه وأهل بيته ورضعائه في شؤونهم كلها. وحمله عمه أبو طالب إلى الشام وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقيل ابن سبع عشرة، فعروا ببحيرا الراهب عند بصرى فعابن الغمامة تظللوا والشجر تسجد له، فدعا القوم وأخبرهم بنبوته ويكثر من شأنه في قصة مشهورة.

ثم خرج ثانية إلى الشام تاجراً بمال خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى مع غلامها ميسرة ومروا بنسطور الراهب، فرأى ملكين يظلاله من الشمس فأخبر ميسرة بشأنه، فأخبر بذلك خديجة فعرضت نفسها عليه، وجاء أبو طالب فخطبها إلى أبيها

خزيمة، وتلاوموا في عبادة الأحجار والأوثان وتواصلوا بالنفر في البلدان بالتماس الختيفية: دين إبراهيم نبيهم.

فأما ورقة فاستحكم في النصرانية وابتغى من أهلها الكتب حتى علم من أهل الكتاب، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه حتى جاء الإسلام فأسلم وهاجر إلى الحبشة فتصر وهلك نصرانياً: وكان يمر بالمهاجرين بارض الحبشة فيقول: فقحنا وصاصم أي أبصرنا وأنتم تلتسمون البصر مثلما يقال في الجرو وإذا فتح عينيه فقح وإذا أراد ولم يقدر صاصاً.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم قيصر فتصر وحسنت منزله عنده، وأما زيد بن عمرو فما هم أن يدخل في دين ولا اتبع كتاباً واعتزل الأوثان والذبايح والميتة والدم ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبد رب إبراهيم وصرح بعبادتهم وكان يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك ولكن لا أعلم ثم يسجد على راحته. وقال ابنه سعيد وابن عمه عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: استغفر الله لزيد بن عمرو قال: « نعم إنه يبعث أمة واحدة » ثم تحدث الكهان والحزاة قبل النبوة وأنها كائنة في العرب وأن ملكهم سيظهر وتحدث أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما في التوراة والإنجيل من بعث محمد وأمه وظهرت كرامة الله بقريش ومكة في أصحاب الفيل إرهافاً بين يدي مبعثه.

ثم ذهب ملك الحبشة من اليمن على يد ابن ذي يزن من بقية التبابعة، ووفد عليه عبد المطلب يهنيه عند استرجاعه ملك قومه من أيدي الحبشة، فبشره ابن ذي يزن بظهور نبي من العرب وأنه من ولده في قصة معروفة. وتحين الأمر لنفسه كثير من رؤساء العرب يظنه فيه، ونفروا إلى الرهبان والأخبار من أهل الكتاب يسألونهم ببلدتهم عن ذلك، مثل أمية بن أبي الصلت الشقي وما وقع له في سفره إلى الشام مع أبي سفيان بن حرب وسؤاله الرهبان ومفاوضته أبا سفيان فيما وقف عليه من ذلك، يظن أن الأمر له أو لأشرف قريش من بني عبد مناف حتى تبين لهما خلاف ذلك في قصة معروفة، ثم رجعت الشياطين عن استماع خبر السماء في أمره وأصغى الكون لاستماع أنبائه.

المولد الكريم وبدء الوحي

ثم ولد رسول الله ﷺ عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، لأربعين سنة من ملك كسرى أنوشروان وقيل لثماني وأربعين، وثمانمائة واثنين وثمانين لذي القرنين. وكان عبد

فزوج، وحضر الملا من قريش، وقام أبو طالب خطيباً فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعل لنا بيتاً عجوباً وحرماً آمناً وجعلنا أمناً بينه وسواس حرمة وجعلنا الحكام على الناس وإن ابن أخي محمد بن عبد الله من قد علمتم قرابته وهو لا يوزن بأحد إلا رجح به فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل. ورسول الله ﷺ يومئذ ابن خمس وعشرين سنة وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة.

وشهد بنيان الكعبة لخمس وثلاثين سنة من مولده حين أجمع كل قريش على هدمها وبنائها، ولما انتهوا إلى الحجر تنازعوا أيهم يضعه وتداعوا للقتال، وتحالف بنو عبد الدار على الموت ثم اجتمعوا وتشاوروا، وقال أبو أمية: حكموا أول من دخل من باب المسجد فراضوا على ذلك. ودخل رسول الله ﷺ فقالوا: هذا الأمين- وبذلك كانوا يسمونه- فراضوا به وحكموه. فبسط ثوباً ووضع فيه الحجر وأعطى قريشاً طرف الثوب، فرفعوه حتى أدنوه من مكانه، ووضعوه عليه السلام بيده. وكانوا أربعة: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمر بن غزوم، وقيس بن عدي السهمي. ثم استمر على أكمل الزكاء والطهارة في أخلاقه، وكان يعرف بالأمين، وظهرت كرامة الله فيه وكان إذا أبعد في الخلاء لا يمر بحجر ولا شجر إلا ويسلم عليه.

بدء الوحي

ثم بدأ بالرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم تحدث الناس بشأن ظهوره ونبوته، ثم حبيت إليه العبادة والخلوة بها فكان يتزود للأنفاد حتى جاء الوحي بجراء لأربعين سنة من مولده وقيل لثلاث وأربعين. وهي حالة يغيب فيها عن جلسائه وهو كائن معهم، فأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه ويحيي قوله وأحياناً يلقي عليه القول، ويصبيه أحوال الغيبة عن الحاضرين من اللفظ والعرق وتصيبه كما ورد في الصحيح من أخباره، قال: «وهو أشد علي فيقصم عني وقد وعيت ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» فواصلته تلك الحالة بغار حراء وألقى عليه: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ.

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وأخبر بذلك كما وقع في الصحيح. وأمنت به خديجة وصدقته وحفظت عليه الشان. ثم خطب في الصلاة وأراه جبريل طهرها، ثم صلى به وأراه سائر أفعالها. ثم كان شأن الإسراء من مكة إلى بيت المقدس من الأرض إلى السماء السابعة وإلى سدرة المنتهى وأوحى إليه ما أوحى.

ثم آمن به علي ابن عمه أبي طالب وكان في كفالته من أزمة أصابت قريشاً وكفل العباس جعفر أخاه، فجعفر أسن عيال أبي طالب. فأدركه الإسلام وهو في كفالته فأمن وكان يصلي معه، في الشعاب مخفياً من أبيه حتى إذا ظهر عليهما أبو طالب دعاه رسول الله ﷺ فقال: لا أستطيع فراق ديني ودين آبائي! ولكن لا يخلص إليك شيء تكره ما بقيت، وقال لعلي: الزمها فإنه لا يدعو إلا الخير.

فكان أول من أسلم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، ثم أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، كما ذكرنا، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وبلال بن حمادة مولى أبي بكر، ثم عمر بن عبسة السلمي، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية.

ثم أسلم بعد ذلك قوم من قريش اختارهم الله لصحبته من سائر قومهم وشهد لكثير منهم بالجنسة. وكان أبو بكر محبباً سهلاً وكانت رجالات قريش تألفه فأسلم على يده من بني أمية عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ومن عشيرة بني عمرو بن كعب بن سعد بن تيم طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو ومن بني زهرة بن قصي سعد بن أبي وقاص واسمه مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحرث بن زهرة.

ومن بني أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد وهو ابن صفية عمة النبي ﷺ، ثم أسلم من بني الحرث بن فهر أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحرث، ومن بني غزوم بن يقظة بن مرة بن كعب أبو سلمة عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن غزوم، ومن بني جمح بن عمر هصيص بن كعب عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح وأخوه قدامة، ومن بني عدي سعيدي بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد الله بن قرط بن رياح بن عدي وزوجته فاطمة أخت عمر بن الخطاب بن نفيل وأبوه زيد هو الذي رفض الأوثان في الجاهلية ودان بالتروحيد وأخبر ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

ثم أسلم عمير أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن

طالب وقال يا ابن أخي! قل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبداً.

هجرة الحبشة

ثم افترق أمر قريش وتعاهد بنو هاشم وبنو المطلب مع أبي طالب على القيام دون النبي ﷺ ووثب كل قبيلة على من أسلم منهم يعذبونهم ويفتنونهم واشتد عليهم العذاب، فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم، وكان قريش يتعاهدونها بالتجارة فيحمدونها، فخرج عثمان بن عفان وامراته رقية بنت النبي ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مراغماً لأبيه وامراته سهلة بنت سهيل بن عمرو بن عامر بن لؤي والزبير بن العوام ومصعب بن عمير بن عبد شمس وأبو سبرة بن أبي هاشم بن عبد العزى العامري بن بني عامر بن لؤي وسهيل ابن بيضاء من بني الحرث بن فهر وعبد الله بن مسعود وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي وهو من عتر بن وائل ليس من عترة وامراته ليلي بنت أبي خيثمة.

فهؤلاء الأحد عشر رجلاً كانوا أول من هاجر إلى أرض الحبشة، وتتابع المسلمون من بعد ذلك، ولحق بهم جعفر بن أبي طالب وغيره من المسلمين. وخرجت قريش في آثار الأولين إلى البحر فلم يدركوهم، وقدموا إلى أرض الحبشة فكانوا بها، وتتابع المسلمون في اللحاق بهم، يقال: إن المهاجرين إلى أرض الحبشة بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً. فلما رأت قريش النبي ﷺ قد امتنع بعه وعشيرته وأنهم لا يسلمونه طفقوا يرمونه عند الناس ممن يفد على مكة بالسحر والكهونة والجنون والشعر يرومون بذلك صدهم عن الدخول في دينه، ثم انتدب جماعة منهم لمجاهرتهم ﷺ بالعداوة والأذى، منهم: عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب أحد المستهزئين، وابن عمه أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعقبة بن أبي معيط أحد المستهزئين، وأبو سفيان من المستهزئين، والحكم بن أبي العاص بن أمية من المستهزئين أيضاً، والنضر بن الحرث من بني عبد الدار، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى من المستهزئين وابنه زمعة، وأبو البختری العاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، وأبو جهل بن هشام وأخوه العاص وعمهما الوليد وابن عمهم قيس بن الفاكه بن المغيرة، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي وابنا عمه نبيه ومنه ابنا الحجاج وأميه وأبي ابنا خلف بن جمح.

وأقاموا يستهزئون بالنبي ﷺ ويتعرضون له بالاستهزاء

مسعود رضي الله عنه بن غافل بن حبيب بن شمع بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحرث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة حليف بني زهرة، كان يرعى غنم عقبة بن أبي معيط وكان سبب إسلامه أن رسول الله ﷺ حلب من غنمه شاة حائلاً فعدت. ثم أسلم جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب وامراته أسماء بنت عيسى بنت النعمان بن كعب بن ملك بن قحافة الخنعمي، والسائب بن عثمان بن مظعون، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس واسمه مهشم، وعامر بن فهيرة أزدي وفهيرة أمه مولاة أبي بكر. وأند بن عبد الله بن عبد مناف تميمي من حلفاء بني عدي. وعمار بن ياسر عنسي بن مذحج مولى لبني مخزوم وصهيب بن سنان من بني النمر بن قاسط حليف لبني جدعان. ودخل الناس في الدين أرسالاً وفشا الإسلام وهم يتنجسون به ويذهبون إلى الشعاب فيصلون. ثم أمر رسول الله ﷺ أن يصعد بأمره ويدعو إلى دينه بعد ثلاث سنين من مبدأ الوحي، فصعد على الصفا ونادى: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش. فقال: «لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى! قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ثم نزل قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. وتردد إليه الوحي بالندارة، فجمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون على طعام صنعه لهم علي بن أبي طالب بأمره، ودعاهم إلى الإسلام ورغبهم وحذرهم وسمعوا كلامه وافترقوا.

ثم إن قريشاً حين صدع وسب الآلهة وعابها نكروا ذلك منه وناذبوه واجمعوا على عداوته، فقام أبو طالب دونه عامياً ومانعاً، ومشت إليه رجال قريش يدعونه إلى النصفة عتبه وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وأبو البختری بن هشام بن الحرث بن أسد بن عبد العزى، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ابن أخي الوليد، والعاص بن وائل بن هشام بن سعد بن سهم، ونبيه ومنه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة. فكلوا أبا طالب وعادوه فردهم رداً جيلاً، ثم عادوا إليه فسأله النصفة فدعا النبي ﷺ إلى بيته بمحضهم وعرضوا عليه قوفهم فتلا عليهم القرآن وأياسهم من نفسه وقال لأبي طالب:

«يا عماء لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه

واستعبر وظن أن أبا طالب بدا له فيه مجاف، ففرق له أبو

وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فعيه بإسلامه أخواله إلى ما هم فيه فأجاب إلى نقض الصحيفة. ثم مضى إلى مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وذكر رحم هاشم والمطلب ثم إلى أبي البخري بن هشام وزمعة بن الأسود فأجابوا كلهم، وقاموا في نقض الصحيفة، وقد بلغهم عن النبي ﷺ أن الصحيفة أكلت الأرضة كتابتها كلها حاشا أسماء الله، فقاموا بأجمعهم فوجدوها كما قال، فخروا ونقض حكمها، ثم أجمع أبو بكر الهجرة وخرج لذلك فلقبه ابن الدغينة فردّه، ثم اتصل بالمهاجرين في أرض الحبشة خبر كاذب بأن قريشاً قد أسلموا، فرجع قوم منهم إلى مكة: منهم عثمان بن عفان وزوجته وأبو حذيفة وامراته وعبد الله بن عتبة بن غزوان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير وأخوه والمقداد بن عمر وعبد الله بن مسعود وأبو سلمة بن عبد الأسد وامراته أم المؤمنين وسلمة بن هشام بن المغيرة وعمار بن ياسر وبنو مظعون: عبد الله وقدامة وعثمان وابنه السائب وخنيس بن حذافة وهشام بن العاص وعمار بن ربيعة وامراته وعبد الله بن خزيمة من بني عامر بن لؤي وعبد الله بن سهل بن السكran بن عمرو وسعد بن خولة وأبو عبيدة بن الجراح وسهيل بن بيضاء وعمرو بن أبي سرح، فوجدوا المسلمين بمكة على ما كانوا عليه مع قريش من الصبر على أذاهم، ودخلوا إلى مكة بعضهم مخفياً وبعضهم بالجوار، وأقاموا إلى أن كانت الهجرة إلى المدينة بعد أن مات بعضهم بمكة.

الأذى والاستهزاء

ثم هلك أبو طالب وخديجة وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين فغطمت المصيبة، وأقدم عليه سفهاء قريش بالإذابة والاستهزاء وإلقاء القاذورات في مصلاه. فخرج إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام والنصرة والمعونة وجلس إلى عبد ياليل بن عمر بن عمير وأخويه مسعود وحبيب وهم يومئذ سادات ثقيف وأشرافهم، وكلمهم فأساؤوا الرد، ويش منهم فأوصاهم بالكتمان فلم يقبلوا وأغروا به سفهائهم فاتبعوه حتى ألجأوه إلى حائط عتبة وشيبة ابني ربيعة، فأوى إلى ظله حتى اطمأن ثم رفع طرفه إلى السماء يدعو: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين أنت ربي إلى من تكلني! إلى بغض يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا

والإذابة حتى لقد كان بعضهم ينال منه بيده، وبلغ عمه حمزة يوماً أن أبا جهل بن هشام تعرض له يوماً بمثل ذلك وكان قوي الشكيمة، فلم يلبث أن جاء إلى المسجد وأبو جهل في نادي قريش، حتى وقف على رأسه وضربه وشجه، وقال له: تشتم محمداً وأنا على دينه؟ وثار رجال بني غزوم إليه فصددهم أبو جهل وقال دعوه فإني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. ومضى حمزة على إسلامه، وعلمت قريش أن جانب المسلمين قد اعتز بمحزة فكفوا بعض الشر بمكانه فيهم، ثم اجتمعوا وبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي ليسلم إليهم من هاجر إلى أرضه من المسلمين فنكر النجاشي رسالتهم وردهما مقبوحين.

إسلام عمر بن الخطاب

ثم أسلم عمر بن الخطاب وكان سبب إسلامه أنه بلغه أن اخته فاطمة أسلمت مع زوجها سعيد ابن عمه زيد، وأن خباب بن الارت عندهما يعلمهما القرآن، فجاء إليهما منكرًا وضرب اخته فشجها، فلما رأت الدم قالت: قد أسلمنا وتابنا محمداً فافعل ما بدا لك! وخرج إليه خباب من بعض زوايا البيت فذكره ووعظه وحضرته الإنابة فقال له: اقرأ علي من هذا القرآن! فقرأ من سورة طه وأدركته الخشية فقال له: كيف تصنعون إذا أردتم الإسلام؟ فقالوا له: وأروه الطهور. ثم سأل على مكان النبي ﷺ فدل عليه، فطرقهم في مكانهم، وخرج إليه النبي ﷺ فقال: «مالك يا ابن الخطاب؟» فقال: يا رسول الله! جئت مسلماً ثم تشهد شهادة الحق ودعاهم إلى الصلاة عند الكعبة فخرجوا وصلوا هنالك، واعتز المسلمون بإسلامه.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين» يعنيه أو أبا جهل، فلما رأت قريش فشو الإسلام وظهوره أهمهم ذلك، فاجتمعوا وتعاهدوا على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحهم ولا يبايعهم ولا يكلمهم ولا يجالسهم، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في الكعبة، وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب كلهم كافرهم ومؤمنهم فصاروا في شعب أبي طالب محصورين متجنيين، حاشا أبي لهب فإنه كان مع قريش على قومهم، فبقوا كذلك ثلاث سنين لا يصل إليهم شيء ممن أرادوا صلتهم إلا سراً ورسول الله ﷺ مقبل على شانه من الدعاء إلى الله والوحي عليه متتابع إلى أن قام في نقض الصحيفة رجال من قريش كان أحسنهم في ذلك أثراً هشام بن عمرو بن الحرث من بني حسن بن عامر بن لؤي، لقي زهير بن أبي أمية بن المغيرة

حول ولا قوة إلا بك».

من الخزرج وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وعوف بن الحرث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زيد بن مالك بن غصبة بن جشم بن الخزرج، وطبقة بن عامر بن حيدرة بن عمر بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن مراد بن يزيد بن جشم، وعقبة بن عامر بن نايي بن زيد بن خزام بن كعب بن غنم بن سلمة، وجابر بن عبد الله بن رثاب بن النعمان بن سلمة بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وكان من صنع الله لهم أن اليهود جيرانهم كانوا يقولون: إن نبياً يبعث وقد أظل زمانه، فقال بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي تحدثكم به اليهود فلا يسبقونا إليه. فآمنوا وأسلموا وقالوا إنا قد قدمنا بينهم حروباً فننصرف وتدعوهم إلى ما دعوتنا إليه! فغسى الله أن يجمع كلمتهم بك فلا يكون أحد أعز منك، فانصرفوا إلى المدينة ودعوا إلى الإسلام حتى فشا فيهم. ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر النبي ﷺ.

العقبة الأولى

حتى إذا كان العام القابل قدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً: منهم خمسة من الستة الذي ذكرنا وهم من عدي وجابر بن عبد الله فإنه لم يحضرها، وسبعة من غيرهم وهم: معاذ بن الحرث أخو عوف بن الحرث المذكور وقيل: إنه ابن عفراء، وذكوان بن عبد قيس بن خالدة، وخالد بن خلد بن عامر بن زريق، وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهد بن ثعلبة بن صرمة بن أصرم بن عمرو بن عبادة بن عصىة من بني حبيب، والعباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف هؤلاء عشرة من الخزرج.

ومن الأوس: أبو الهيثم مالك بن النتيان وهو من بني عبد الأشهل بن جشم بن الحرث بن الخزرج بن عمر بن ملك بن أوس، وعويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة. فباع هؤلاء رسول الله ﷺ عند العقبة على بيعة النساء - وذلك قبل أن يفرض الحرب - على الطاعة لرسول الله ﷺ وعلى أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنا ولا يقتلوا أولادهم ولا يقتلوا الكذب.

فلما حان انصرافهم بعث رسول الله ﷺ معهم ابن أم مكتوم ومصعب بن عمير يدعوهما إلى الإسلام ويعلم من أسلم

ولما انصرف من الطائف إلى مكة بات بنخلة، وقام يصلي من جوف الليل، فمر به نفر من الجن وسمعوا القرآن. ثم دخل رسول الله ﷺ إلى مكة في جوار المطعم بن عدي بن نوفل بعد أن عرض ذلك على غيره من رؤساء قريش فاعتنروا بما قبله منهم.

ثم قدم عليه الطفيل بن عمرو الدوسي فأسلم ودعا قومه فأسلم بعضهم ودعا له رسول الله ﷺ أن يجعل الله له علامة للهداية فجعل لوجهه نوراً ثم دعا له فتقله إلى سوطه وكان يعرف بذي النور.

الإسراء

قال ابن حزم: ثم كان الإسراء إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات، ولقي من لقي من الأنبياء، ورأى جنة المأوى وسدرة المنتهى في السماء السادسة، وفرضت الصلاة في تلك الليلة. وعند الطبري الإسراء وفرض الصلاة كان أول الوحي، ثم كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على وفود العرب في الموسم يأتيهم في منازلهم ليعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إلى نصره ويتلو عليهم القرآن، وقريش مع ذلك يتعرضون لهم بالمقايح إن يقبلوا منهم وأكثرهم في ذلك أبو لهب. وكان من الذين عرض عليهم في الموسم بنو عامر بن صعصعة من مضر وبنو شيبان وبنو حنيفة من ربيعة وكندة من قحطان وكلب من قضاة وغيرهم من قبائل العرب.

فكان منهم من يحسن الاستماع والعذر، ومنهم من يعرض ويصرح بالإذابة، ومنهم من يشترط الملك الذي ليس هو من سبيله فإرد ﷺ الأمر إلى الله. ولم يكن فيهم أقبح رداً من بني حنيفة. وقد ذكر الله الخير في ذلك كله للأنصار، فقدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف بن الأوس، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فلم يبعد ولم يجب، وانصرف إلى المدينة فقتل في بعض حروبهم وذلك قبل بعث. ثم قدم بمكة أبو الحيسر أنس بن رافع في فتية من قومه من بني عبد الأشهل يطلبون الخلف، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال إياس بن معاذ منهم - وكان شاباً حدثاً: هذا والله خير مما جئنا له! فانتهره أبو الحيسر فسكت. ثم انصرفوا إلى بلادهم ولم يتم لهم الخلف ومات إياس فيقال إنه مات مسلماً.

ثم إن رسول الله ﷺ لقي عند العقبة في الموسم ستة نفر

بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن الأوس، ورفاعة بن عبد المنذر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس. فدعا قوم أبو الهيثم بن التيهان مكان رفاعة هذا والله أعلم.

ولما تمت هذه البيعة أمرهم رسول الله ﷺ بالرجوع إلى رحلهم فرجعوا، ونمي الخبر إلى قريش فغدت الخلة منهم على الأنصار في رحلهم فعاتبوه، فأنكروا ذلك وحلفوا لهم، وقال لهم عبد الله بن أبي بن سلول: ما كان قومي ليتفقوا على مثل هذا وأنا لا أعلمه! فانصرفوا عنه وتفرق الناس من منى، وعلمت قريش الخبر فخرجوا في طلبهم، فأدركوا سعد بن عبادَةَ فجأؤوا به إلى مكة يضربونه ويحرقونه بشعره حتى نادى بيجري بن مطعم والحارث بن أمية وكان يجيرهما ببلده فخلصاه مما كان فيه. وقد كانت قريش قبل ذلك سمعوا صائحاً يصيح ليلاً على جبل أبي قبيس:

فإن يسلم السعدان يصبح عمداً بمكة لا يخشى خلاف مخالف
فقال أبو سفيان: السعدان سعد بكر وسعد هذيم.

فلما كان في الليلة القابلة سمعوه يقول:

أيها سعد: سعد الأوس كن أنت ويا سعد سعد الخزرجي الغضارف
أجيبا إلى داعي الهدي وتغنيا على الله في الفردوس نية عارف
فإن ثواب الله للطلاب الهدي جنان من الفردوس ذات رعارف

فقال والله هذان سعد بن عبادَةَ وسعد بن معاذ.

ولما فشا الإسلام بالمدينة وطلق أهلها يأتون رسول الله ﷺ بمكة، تعاقدت على أن يفتتوا المسلمين عن دينهم فأصابهم من ذلك جهد شديد. ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

فلما تمت بيعة الأنصار على ما وصفناه أمر رسول الله ﷺ أصحابه ممن هو بمكة من المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً وأول من خرج أبو سلمة بن عبد الأسد ونزل في قباء، ثم هاجر عامر بن ربيعة حليف بني عدي بامرأته ليلى بنت أبي خيثمة بن غانم، ثم هاجر جميع بني جحش من بني أسد بن خزاعة ونزلوا بقباء على عكاشة بن محصن وجماعة من بني أسد حلفاء بني أمية كانت فيهم زينب بنت جحش أم المؤمنين وأختها حمنة وأم حبيبة.

ثم هاجر عمر بن الخطاب وعباس بن أبي ربيعة في عشرين راكباً فزلوا في العوالي في بني أمية بن زيد وكان يصلي بهم سالم مولى أبي حذيفة. وجاء أبو جهل بن هشام فخادع عياش بن أبي ربيعة وردّه إلى مكة فحبسوه حتى تخلص بعد حين ورجع. وهاجر

منهم القرآن والشرايع، فنزل بالمدينة على أسعد بن زرارة، وكان مصعب يؤمهم وأسلم على يديه خلق كثير من الأنصار. وكان سعد بن معاذ وأسعد بن زرارة ابنا الخالة، فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير إلى سعد بن زرارة - وكان جاراً لبني عبد الأشهل - فأنكرا عليه فهدهما الله إلى الإسلام، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد الرجال والنساء. ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها المسلمون رجال ونساء حاشا بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف: بطون من الأوس وكانوا في عوالي المدينة، فأسلم منهم وكان قوم سيدهم أبو قيس صيفي بن الأسلت الشاعر فوقف بهم عن الإسلام حتى كانت الخندق فأسلموا كلهم.

العقبة الثانية

ثم رجع مصعب المذكور بن عمر إلى مكة وخرج معه إلى الموسم جماعة ممن أسلم من الأنصار للقاء النبي ﷺ في جملة قوم منهم لم يسلموا بعد، فوافوا مكة وواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، ووافوا ليلة ميعادهم إلى العقبة متسللين من رحلهم سرّاً عن حضر من كفار قومهم، وحضر معهم عبد الله بن حزام بن عمرو أبو جابر وأسلم تلك الليلة، فبايعوا رسول الله ﷺ على أن يمنعه ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وإزهرهم وأن يرحل إليهم هو وأصحابه. وحضر العباس بن عبد المطلب، وكان على دين قومه بعد، وإنما توثق للنبي ﷺ وكان للبراء بن معرور في تلك الليلة المقام المحمود في الإخلاص والتوثق لرسول الله ﷺ وكان أول من بايع. وكان عدة الذين بايعوا تلك الليلة ثلاثاً وسبعين رجلاً وامرأتين، واختار منهم رسول الله ﷺ اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وقال لهم: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الخواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي» فمن الخزرج من أهل العقبة الأولى: أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت. ومن غيرهم سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك، وثعلبة بن كعب بن الخزرج، وعبد الله بن رواحة بن امرئ القيس، والبراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، وعبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر، وسعد بن عبادَةَ بن ديلم بن حارثة بن لودان بن عبد ود بن يزيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة. وثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن حضير بن سمالك بن عتيك بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وسعد

على حرب جميعهم. واستعدوا لذلك من ليلتهم وجاء الوحي بذلك إلى النبي ﷺ، فلما رأى أرواحهم على باب منزله أمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده، ثم خرج رسول الله ﷺ عليهم فطمس الله تعالى على أبصارهم ووضع على رؤوسهم تراباً وأقاموا طول ليلهم، فلما أصبحوا خرج إليهم علي فعلموا أن النبي ﷺ قد نجأ، وتواعد رسول الله ﷺ مع أبي بكر الصديق، واستأجر عبد الله بن أريقط الدولي من بني بكر بن عبد مناف ليدل بهما إلى المدينة وينكب عن طريق العظمى، وكان كافراً وحليفاً للعاص بن وائل، لكنهما وثقا بأمانته وكان دليلاً بالطريق.

وخرج رسول الله ﷺ من خوخة في ظهر دار أبي بكر ليلاً، وأتيا الغار الذي في جبل ثور بأسفل مكة فدخلوا فيه، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بالأخبار، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر وراعي غنمه يربح غنمه عليهما ليلاً فيأخذ حاجتهما من لبنها، وأسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام.

ونقض عامر بالغنم إثر عبد الله، ولما فقدته قريش اتبعوه ومعهم القائف قفاف الأثر حتى وقف عند الغار وقال هنا انقطع الأثر وإذا بنسج العنكبوت على قم الغار فاطمأنوا إلى ذلك ورجعوا، وجعلوا مائة ناقة لمن ردهما عليهم، ثم أتاهما عبد الله بن أريقط بعد ثلاث بإحليلتهما فركبا، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة، وأتتهما أسماء بسفرة لهما وشقت نطاقها وربطت السفرة فسميت ذات النطاقين. وحمل أبو بكر جميع ماله نحو ستة آلاف درهم، ومروا بسراقة بن مالك بن جعشم فاتبعهم ليردهم، ولما رآوه دعا عليه رسول الله ﷺ فساخت قوائم فرسه في الأرض، فنأدى بالأمان وأن يقفوا له. فطلب من النبي ﷺ أن يكتب له كتاباً فكتبه أبو بكر بأمره، وسلك الدليل من أسفل مكة على الساحل أسفل من عسفان وأمع وأجاز قديداً إلى العرج ثم إلى قباء من عوالي المدينة. ووردوها قريباً من الزوال يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، وخرج الأنصار يتلقونه وقد كانوا ينتظرونه إلى أن قلصت الظلال ورجعوا إلى بيوتهم. فتلقوه مع أبي بكر في ظل نخلة.

ونزل عليه السلام بقاء على سعد بن خيشمة، وقيل على كلثوم الهمد، ونزل أبو بكر بالسبخ في بني الحارث بن خزرج على حبيب بن أسد، وقيل على خارجة بن زيد. ولحق بهم علي رضي الله عنه من مكة بعد أن رد الودائع للناس التي كانت عند النبي ﷺ، فنزل معه بقبأ.

وأقام رسول الله ﷺ هنالك أياماً ثم نهض لما أمر الله وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد هنالك

مع عمر أخوه زيد وسعيد ابن عمه زيد وصهره على بنته حفصة أم المؤمنين جحش بن حذافة السهمي وجماعة من حلفاء بني عدي، نزلوا بقبأ على رفاعة بن عبد المنذر من بني عوف بن عمرو.

ثم هاجر طلحة بن عبيد الله فنزل هو وصهيب بن سنان على حبيب بن أساف في بني الحارث بن الخزرج بالسلم، وقيل بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة. ثم هاجر حمزة بن عبد المطلب ومعه زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحليفه أبو مرثد كنان بن حصن الغنوي فنزلوا في بني عمرو بن عوف بقبأ على كلثوم بن الهمد، ونزل جماعة من بني المطلب بن عبد مناف فيهم مسطح بن أثانة ومعه خباب بن الأرت مولى عتبة بن غزوان في بني المسجلان بقبأ، ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الزبيع في بني الحارث بن الخزرج، ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى على المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح في دار بني جحجبا، ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ في بني عبد الأشهل، ونزل أبو حذيفة بن عتبة ومولاه سالم وعتبة بن غزوان المازني على عباد بن بشر من بني عبد الأشهل، ولم يكن سالم عتيق أبي حذيفة وإنما اعتقته امرأة من الأوس كانت زوجاً لأبي حذيفة اسمها بثينة بنت معاذ فتيناه ونسب إليه. ونزل عثمان بن عفان في بني النجار على أوس أخي حسان بن ثابت. ولم يبق أحد من المسلمين بمكة مع رسول الله ﷺ إلا أبو بكر وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فإنهما أقاما بأمره وكان ﷺ ينتظر أن يؤذن له في الهجرة.

الهجرة

ولما علمت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعه وأنصار من غيرهم وأنه يجمع على اللحاق بهم وأن أصحابه من المهاجرين سبقوه إليهم تشاوروا ما يصنعون في أمره، واجتمعت لذلك مشيختهم في دار الندوة: عتبة وشيبة وأبو سفيان من بني أمية وطعيمة بن عدي وجبير بن مطعم والحارث بن عامر من بني نوفل والنضر بن الحارث من بني عبد الدار وأبو جهل من بني مخزوم وبنوه ومنه ابنا الحجاج من بني سهم وأميه بن خلف من بني جمح، ومعهم من لا يعد من قريش. فتشاوروا في حبسه أو إخراجه عنهم.

ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى شاباً جلدأ فيقتلونه جميعاً فينفرك دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف

مالك من بني سالم، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخي حسان، وبين سعيد بن زيد وأبي بن كعب، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وبين أبي حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر بن وقش من بني عبد الأشهل، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان العنسي حليف بني عبد الأشهل وقيل: بل ثابت بن قيس بن الشماس، وبين أبي ذر الغفاري والمنذر بن عمرو من بني ساعدة، وبين حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى وعويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، وعمير بن بلتعة من بني الحرث بن الخزرج و... وبين بلال بن حمزة وأبي رويحة الخثعمي.

ثم فرضت الزكاة ويقال وزيد في صلاة الحاضر ركعتين فصارت أربعاً بعد أن كانت ركعتين سراً وحضراً.

ثم أسلم عبد الله بن سلام وكفر جمهور اليهود، وظهر قوم من الأوس والخزرج منافقون يظهرون الإسلام مراعاة لقومهم من الأنصار ويصرون الكفر، وكان رئيسهم: من الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس، ومن الأوس الحرث بن سهيل بن الصامت وعباد بن حنيفة ومربع بن قبيصة وأخوه أوس من أهل مسجد الضرار. وكان قوم من اليهود أيضاً تعوذوا بالإسلام وهم يظنون الكفر منهم: سعد بن خنيس وزيد بن اللطيف ورافع بن خزيمه ورفاعة بن زيد بن التابوت وكنانة بن حيوثا.

الغزوات

غزوة الأبواء

ولما كان شهر صفر بعد مقدم النبي ﷺ المدينة خرج في مائتين من أصحابه يريد قريشاً وبني ضمرة، واستعمل على المدينة سعد بن عباد، فبلغ ودان والأبواء ولم يلقيهم. واعترضه غشي بن عمر وسيد بني ضمرة بن عبد مناة بن كنانة ومسالمة موادة قومه فعدله، ورجع إلى المدينة ولم يلق حرباً. وهي أول غزاة غزاها بنفسه، ويسمى بالأبواء وبودان المكانان اللذان انتهى إليهما، وهما متقاربان بنحو ستة أميال، وكان صاحب اللواء فيها حمزة بن عبد المطلب.

ورغب إليه رجال بني سليم أن يقيم عندهم، وتبادروا إلى خطام ناقته اغتناماً لبركته. فقال عليه السلام: « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ثم مشى والأنصار حواله إلى أن مر بدار بني بياضة، فتبادر إليه رجالهم يتدرون خطام الناقة، فقال: « دعوها فإنها مأمورة » ثم مر بدار بني ساعدة فتلقاه رجال وفيهم سعد بن عباد والمنذر بن عمرو ودعوه كذلك وقال لهم مثل ما قال للأخريين. ثم إلى دار بني حارثة بن الخزرج فتلقاه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة. ثم مر ببني عدي بن النجار أخوال عبد المطلب ففعلوا وقال لهم مثل ذلك، إلى أن أتى دار بني مالك بن النجار فبركت ناقته على باب مسجده اليوم وهو يومئذ لغلالمين منهم في حجر معاذ بن عفراء اسمهما سهل وسهيل وفيه خرب وتخل وقبور للمشركين ومريد.

ولما بركت الناقة بقي على ظهرها ولم ينزل فقامت ومشت غير بعيد ولم يشها، ثم التفتت خلفها ورجعت إلى مكانها الأول فبركت واستقرت ونزل رسول الله ﷺ عنها. وحمل أبو أيوب رحله إلى داره فنزل عليه وسأل عن المريد وأراد أن يتخذ مسجداً، فاشتراه من بني النجار بعد أن وهبه له فأبى من قبوله، ثم أمر بالقبور فنشبت وبالنخل فقطعت، وبني المسجد بالليل وجعل عضادتيه الحجارة وسواريه جذوع النخل وسقفه الجريد، وعمل فيه المسلمون حسبة لله عز وجل.

ثم وداع اليهود وكتب بينه وبينهم كتاب صلح وموادة شرط فيه لهم وعليهم، ثم مات أسعد بن زرارمة وكان نقيباً لبني النجار فطلبوا إقامة نقيب مكانه، فقال: « أنا نقيكم » ولم يخص بها منهم أحد دون أحد فكانت من مناقبهم.

ولما رجع عبد الله بن أريقط إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكانه فخرج ومعه عائشة أخته وأمه أم رومان ومعهم طلحة بن عبيد الله فقدموا المدينة وتزوج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر وبني بها في منزل أبي بكر بالسنع. وبعث رسول الله ﷺ أبا رافع إلى بناته وزوجته سودة بنت زمعة فحملها إليه من مكة، وبلغ الخبر بموت أبي أحيحة والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل من مشيخة قريش.

المؤاخاة

ثم أتى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فأخى بين جعفر بن أبي طالب وهو بالحشمة ومعاذ بن جبل، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن

غزوة بواط

ثم بلغه أن عيراً لقريش نحو ألفين وخمسمائة فيها أمية بن خلف، ومائة رجل من قريش ذاهبة إلى مكة، فخرج في ربيع الآخر لاعتراضها واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون. وقال الطبري: سعد بن معاذ فأنتهى إلى بواط ولم يلتهم ورجع إلى المدينة.

غزوة العشرة

ثم خرج في جمادى الأولى غازياً قريشاً واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد فسلك عن جانب من الطريق إلى أن لقي الطريق بصخيرات اليمام إلى العشرة من بطن ينع، فأقام هنالك بقية جمادى الأولى وليلة من جمادى الثانية ووادع بني مدلج، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً.

غزوة بدر الأولى

وأقام بعد العشرة نحو عشر ليال ثم أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج في طلبه حتى بلغ ناحية بدر، وفاته كرز فرجع إلى المدينة.

البعوث

وفي هذه الغزوات كلها غزا بنفسه وبعث فيما بينها بعوثاً نذكرها وفيها: بعث حمزة بن عبد المطلب بعد الأبواء، بعثه في ثلاثين راكباً من المهاجرين إلى سيف البحر فلقي أبا جهل في ثلثمائة راكب من أهل مكة فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني ولم يكن قتال. ومنها بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكباً وثمانين من المهاجرين فبلغ ثنية المار ولقي بها جمعاً عظيماً من قريش كان عليهم عكرمة بن أبي جهل وقيل مكرز بن حفص بن الأحنف ولم يكن بينهم قتال. وكان مع الكفار يومئذ من المسلمين المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان، خرجا مع الكفار ليجدا السبيل إلى اللحاق بالنبي ﷺ فهربا إلى المسلمين وجاءا معهم. وكان بعث حمزة وعبيدة متقاربين، واختلف أيهما كان قبل إلا أنهما أول راية عقدها رسول الله ﷺ. وقال الطبري: إن بعث حمزة كان قبل ودان في شوال لسبعة أشهر من الهجرة. ومنها بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين لطلب كرز بن

جابر حين أغار على سرح المدينة فبلغ المار ورجع.

ومنها بعث عبد الله بن جحش إثر مرجعه من بدر الأولى في شهر رجب بعثه بشمانية من المهاجرين وهم أبو حذيفة بن عتبة وعكاشة بن محصن بن أسد بن خزيمية وعتبة بن غزوان بن مازن بن منصور وسعد بن أبي وقاص وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي ووafd بن عبد الله بن زيد مناة بن تميم وخالد بن الكبير بن سعد بن ليث وسهيل بن مضاخ بن فهر بن مالك، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ولا يكره أحداً من أصحابه، فلما قرأ الكتاب بعد يومين وجد فيه أن تمضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف وترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم، فأنخبر أصحابه وقال: حتى ننزل نخلة بين مكة والطائف ومن أحب الشهادة فلينهض ولا أستكره أحداً. فمضوا كلهم وأضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان في بعض الطريق بعيداً لهما كانا يتعقبانه فتخلفا في طلبه ونفر الباقيون إلى نخلة، فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولاهم وذلك آخر يوم من رجب، فتشاور المسلمون وتخرج بعضهم الشهر الحرام ثم اتفقوا واغتنموا الفرصة فيهم، فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمي فقتله وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وأفلت نوفل، وقدموا بالخير والأسيرين وقد أخرجوا الخمس فعزلوه. فأنكر النبي ﷺ فعلهم ذلك في الشهر الحرام، فسقط في أيديهم ثم أنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ شَتَّى مَكَانٍ﴾. فسرى عنهم وقبض النبي ﷺ الخمس وقسم الغنيمة وحكي: وقبل الفداء في الأسيرين، وردهم الحكم بن كيسان منهما، ورجع سعد وعتبة سائرين إلى المدينة. وهذه أول غنيمة غنمت في الإسلام وأول غنيمة خُست في الإسلام وقتل عمرو بن الحضرمي هو الذي هاج وقعة بدر الثانية.

صرف القبلة

ثم صرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة، خطب بذلك على المنبر وسمعه بعض الأنصار فقام فصلى ركعتين إلى الكعبة، قاله ابن حزم. وقيل على رأس ثمانية عشر شهراً، وقيل ستة عشر، ولم يقل غير ذلك.

غزوة بدر الثانية العظمى والكبرى

نزلا بدرأ وأناخا قرب الماء واستقيا في شئ لهما ومجدي بن عمرو سيد جهينة بقربيهما، فسمع عدي جارية من جوارى الحي تقول لصاحبتها: العير تأتي غداً أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك الذي لك وجاءت إلى مجدي بن عمرو فصدقها، فرجع بسبس وعدي بالخبر. وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر فقال لمجدي: هل أحسست أحداً؟ فقال: راكبين أناخا فيما يلي هذا النخل فاستقيا الماء ونهضا، فأتى أبو سفيان مناخهما وقتت من أبعاد رواحلهما، فقال: هذه والله علائق يثرب فرجع سريعاً وقد حذر وتكعب بالعير إلى طريق الساحل فنجا وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا! فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثاً وتهابنا العرب أبداً.

ورجع الأحنس بن شريق بجميع بني زهرة وكان حليفهم ومطاعاً فيهم، وقال: إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت فرجعوا. وكان بنو عدي لم ينفروا مع القوم، فلم يشهد بدرأ من قريش عدوي ولا زهري.

وسبق رسول الله ﷺ قريشاً إلى ماء بدر وبطهم عنه مطر نزل وبله مما يلهم وأصاب المسلمين دهن الوادي، وأعانهم على السير، فنزل عليه السلام على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فقال له الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح: أكله أنزلك بهذا المنزل فلا تتحول عنك أم قصدت الحرب والمكيدة؟

فقال عليه السلام: «لا بل هو الرأي والحرب!». فقال يا رسول الله ليس هذا بمنزل، وإنما تأتي أدنى ماء من القوم فنزله ونبيي عليه حوضاً فنملوه ونفّر القلب كلها فنكون قد منعناهم الماء. فاستحسنه رسول الله ﷺ. ثم بنوا له عريشاً يكون فيه رسول الله ﷺ حتى يأتيه من ربه النصر، يريهم مصارع القوم واحداً واحداً، ولما نزل قريش مما يلهم بعثوا عمير بن وهب الجمحي يبحر لهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً فيهم فارسان: الزبير والمقداد، فجزرهم وانصرف وخبرهم الخبر، ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ولا يكون الحرب، فأبى أبو جهل وساعده المشركون، وتوافقت الفتان. وعدل رسول الله ﷺ الصفوف بيده ورجع إلى العريش ومعه أبو بكر وحده، وطفق يدعو ويلح وأبو بكر يقول ويقول في دعائه:

«اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض اللهم أنجز لي ما وعدتني» وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه وأخفق رسول الله ﷺ، ثم انتبه فقال: «أبشرا يا أبا بكر فقد أتى نصر الله» ثم خرج يحرض الناس، ورمى

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إلى رمضان من السنة الثانية، ثم بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة معها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش عميدهم أبو سفيان ومعه عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل، فندب عليه السلام المسلمين إلى هذه العير وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج، ولم يحتفل في الحشد لأنه لم يظن قتالاً، واتصل خروجه بأبي سفيان، فاستأجر ضمضم بن عامر الغفاري وبعثه إلى أهل مكة يستصرهم لعيرهم فنفروا وأرعبوا إلا يسيراً منهم أبو لب. وخرج ﷺ لثمان خلون من رمضان واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم ورد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، ودفع إلى علي راية، وإلى رجل من الأنصار أخرى يقال كانتا سوداوين. وكان مع أصحابه ﷺ يومئذ سبعون بعيراً يعتقبونها فقط.

وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة من بني النجار، وراية الأنصار يومئذ مع سعد بن معاذ فسلكوا نقب المدينة مع سعد بن معاذ إلى ذي الحليفة ثم انتهوا إلى صخوريات تمام ثم إلى بئر الروحاء، ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء.

وبعث عليه السلام قبلها بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر يتجسسون أخبار أبي سفيان وغيره. ثم تكعب عن الصفراء مميناً وخرج على وادي دقران، فبلغه خروج قريش ونفيرهم، فاستشار أصحابه، فتكلم المهاجرون وأحسنوا، وهو يريد ما يقوله الأنصار وفهموا ذلك. فتكلم سعد بن معاذ وكان فيما قال: لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك فسر بنا يا رسول الله على بركة الله فسر بذلك، وقال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين».

ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر وبعث علياً والزبير وسعداً في نفر يلتمسون الخبر فأصابوا غلامين لقريش، فأتوا بهما وهو عليه الصلاة والسلام قائم يصلي، وقالوا: نحن سقا قريش! فكذبوهما كراهية في الخبر ورجاء أن يكونا من العير للغنيمة وقلّة المؤونة، فجعلوا يضربونهما فيقولان: نحن من العير. فسلم رسول الله ﷺ وأنكر عليهم، وقال للغلامين: أخبراني أين قريش؟ فأخبراه أنهم وراء الكتيب وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً. فقال عليه السلام: «القوم بين التسعمائة والألف» وقد كان بسبس وعدي الجهنيان مضياً يتجسسان الأخبار حتى

وقاتل حتى قتل، ورافع بن المعلى من بني حبيب بن عبد حارثة وحارثة بن سراقه من بني النجار وعوف ومعوذ ابنا عفراء.

ثم انجلت قريش الحرب وأمر رسول الله ﷺ بقتلى المشركين فسمحوا إلى القليب وطم عليهم التراب، وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن مقدول بن عمر بن غنم بن مازن بن النجار، ثم انصرف إلى المدينة فلما نزل الصفراء قسم الغنائم كما أمر الله، وضرب عتق النضر بن كلسة من بني عبد الدار، ثم نزل عرق الظبية فضرب عتق عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية وكان في الأسارى ومرو إلى المدينة فدخلها لثمان بقين من رمضان.

غزوة الكرز

وبلغ رسول الله ﷺ بعد رجوعه إلى المدينة اجتماع غطفان فخرج يريد بني سليم بعد سبع ليال من منصرفه، واستخلف على المدينة سباع بن عرفة الغفاري أو ابن أم مكتوم، فبلغ ماء يقال له الكرز وأقام عليه ثلاثة أيام ثم انصرف ولم يلق حرباً، وقيل إنه أصاب من نعمهم ورجع بالغنيمة، وإنه بعث غالب بن عبد الله الليثي في سرية فنالوا منهم وانصرفوا بالغنيمة. وأقام رسول الله ﷺ إلى ذي الحجة، وفدى رسول الله ﷺ أكثر أسارى بدر.

غزوة السوق

ثم إن أبا سفيان لما انصرف من بدر نذر أن يغزو المدينة فخرج في مائتي راكب حتى أتى بني النضير ليلاً، فتواري عنه حبي بن أخطب ولقيه سلام بن مشكم وقراه وأعلمه بخبر الناس، ثم رجع وممر بأطراف المدينة فحرق نخلاً وقتل رجلين في حرث لهما، ففر رسول الله ﷺ والمسلمون، واستعمل على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وبلغ الكرز وفاته أبو سفيان والمشركون وقد طرحوا سوقاً من أزوادهم ليتخفوا، فأخذها المسلمون فسميت لذلك غزوة السوق. وكانت في ذي الحجة بعد بدر بشهرين.

غزوة ذي أمر

ثم خرج رسول الله ﷺ في شهر المحرم غازياً غطفان واستعمل على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه فأقام بنجد صفر وانصرف ولم يلق حرباً.

في وجوه القوم بجفنة من حصى وهو يقول: «شاهت الوجوه» ثم نزاحفوا فخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون البراز فخرج إليهم عبيدة بن الحرث وحزمة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقتل حزمة وعلي شيبة والوليد وضرب عتبة عبيدة فقطع رجله فمات وجاء حزمة وعلي إلى عتبة فقتلاه. وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم.

وجال القوم جولة فهزم المشركون وقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً فمن مشاهيرهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وحظلة بن سفيان بن حرب وابنا سعيد بن العاص عبيدة والعاص، والحرث بن عامر بن نوفل وابن عمه طعيمة بن عدي وزمة بن الأسود وابنه الحرث وأخوه عقيل بن الأسود وابن عمه أبو البحتري بن هشام ونوفل بن خويلد بن أسد وأبو جهل بن هشام، اشترك فيه معاذ ومعوذ ابنا عفراء وجده عبد الله بن مسعود وبه رمق فحز رأسه، وأخوه العاص بن هشام وابن عمهما مسعود بن أمية وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وابن عمه أبو قيس بن الفاكه، ونيبه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص والحرث ابنا منبه وأمية بن خلف وابنه علي وعمير بن عثمان عم طلحة.

وأمر العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب والسائب بن عبد العزيز من بني المطلب وعمرو بن أبي سفيان بن حرب وأبو العاص بن الربيع وخالد بن أسيد بن أبي العيص وعدي بن الحيار من بني نوفل وعثمان بن عبد شمس ابن عم عتبة بن غزوان وأبو عزيز أخو مصعب بن عمير وخالد بن هشام بن المغيرة وابن عمه رفاعه بن أبي رفاعه وأمية بن أبي حذيفة بن المغيرة والوليد بن الوليد أخو خالد وعبد الله وعمرو ابنا أبي بن خلف وسهيل بن عمرو في آخرين مذكورين في كتب السير.

واستشهد من المسلمين:

من المهاجرين: عبيدة بن الحارث بن المطلب وعمير بن أبي وقاص وذو الشمالين عبد عمرو بن نضلة الخزاعي حليف بني زهرة وصفوان بن بيضاء من بني الحرث بن فهر ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصابه سهم فقتله، وعافل بن البكير الليثي حليف بني عدي من الأنصار. ثم من الأوس: سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر. ومن الخزرج: يزيد بن الحارث بن الخزرج وعمير بن الحمام من بني سلمة سمع رسول الله ﷺ يحض على الجهاد ويرغب في الجنة وفي يده تمرات يأكلهن فقال: يخ يا بني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم رمى بهن

نجران

وكان بنو قينقاع لما انصرف رسول الله ﷺ من بدر وقصف بسوق بني قينقاع في بعض الأيام فوعظهم وذكرهم ما يعرفون من أمره في كتابهم، وحذرهم ما أصاب قريشاً من البطشة، فأسأوا الرد وقالوا: لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا يعرفون الحرب فأصابت منهم! والله لئن حاربنا لتعلمن أننا نحن الناس. فأنزل الله تعالى: ﴿وَرِئَاءَ تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾. وقيل: بل قتل مسلم يهودياً بسوقهم في حق، فثاروا على المسلمين ونقضوا العهد ونزلت الآية. فسار إليهم رسول الله ﷺ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر، وقيل: أبا لبابة، وكانوا في طرف المدينة في سبعمائة مقاتل منهم ثلثمائة دارع، ولم يكن لهم زرع ولا نخل إنما كانوا تجاراً وصاغة يعملون بأموالهم، وهم قوم عبد الله بن سلام. فحصرهم عليه السلام خمس عشرة ليلة لا يكلم أحداً منهم حتى نزلوا على حكمه فكتفهم ليقنلوا، فشفع فيهم عبد الله بن أبي بن سلول والحق في الرغبة حتى حقق له رسول الله ﷺ دماهم، ثم أمر بإجلائهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع، وأمر عبادة بن الصامت فمضى بهم إلى ظاهر ديارهم ولحقوا بخيبر، وأخذ رسول الله ﷺ الخمس من الغنائم وهو أول خمس أخذه، ثم انصرف إلى المدينة وحضر الأضحى فصلى بالناس في الصحراء وذبح بيده شاتين ويقال أنهما أول أضحيته ﷺ.

سرية زيد بن حارثة إلى قردة

وكانت قريش من بعد بدر قد تخوفوا من اعتراض المسلمين غيرهم في طريق الشام فصاروا يسلكون طريق العراق، وخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية واستجاروا بفرات بن حيان بن بكر بن وائل فخرج بهم في الشتاء وسلك بهم على طريق العراق، وانتهى خبر العير إلى النبي ﷺ وما فيها من المال وآتية الفضة، فبعث زيد بن حيان العجلي أسيراً فتعوز بالإسلام وأسلم. وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفاً.

قتل أبي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق هذا من يهود خيبر وكنيته أبو رافع، وكان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويحزب عليهم الأحزاب، مثلاً وقريباً من كعب بن الأشرف، وكان الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين في طاعة رسول الله ﷺ والذب عنه والنيل من أعدائه، لا يفعل أحد القبيلتين شيئاً من ذلك إلا فعل الآخرون مثله. وكان الأوس قد قتلوا كعب بن

ثم خرج رسول الله ﷺ آخر ربيع الأول يريد قريشاً واستخلف ابن أم مكتوم فبلغ نجران معدناً في الحجاز ولم يلق حرباً. وأقام هنالك إلى جمادى الثانية من السنة الثالثة وانصرف إلى المدينة.

قتل كعب بن الأشرف

وكان كعب بن الأشرف رجلاً من طيء وأمه من يهود بني النضير، ولما أصيب أصحاب بدر، ويعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة مبشرين إلى المدينة، جعل يقول: ولكم أحق هذا؟ وهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس، وإن كان محمد أصاب هؤلاء فظن الأرض خير من ظهرها. ثم قدم مكة ونزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي، وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية، فجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ويبكي على أصحاب القليب، ثم رجع إلى المدينة فشجب بعاتكة ثم شجب بنساء المسلمين. فقال رسول الله ﷺ: «من يقتل كعب بن الأشرف؟» فانتدب لذلك محمد بن مسلمة وملكان بن سلامة بن وقش وأبو نائلة من بني عبد الأشهل أخو كعب بن الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش بن بشر بن معاذ وأبو عبس بن جبر من بني حارثة.

وتقدم إليه ملكان بن سلامة وأظهر له الخرافاً عن النبي ﷺ عن إذن منه، وشكا إليه ضيق الحال ورام أن يبيعه وأصحابه طعاماً ويرهنون سلاحهم. فأجاب إلى ذلك ورجع إلى أصحابه، فخرجوا وشيعهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد في ليلة قمراء، وأتوا كعباً فخرج إليهم من حصنه ومشوا غير بعيد ثم وضعوا عليه سيوفهم، ووضع محمد بن مسلمة معولاً كان معه في ثنته فقتله. وصاح عدو الله صيحة شديدة أنذر لها أهل الحصون التي حواله، وأوقدوا النيران، ونجا القوم وقد جرح منهم الحرث بن أوس ببعض سيوفهم فزفه الدم وتأخر ثم وافاهم بجرة العريض آخر الليل وأتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، وأخبروه ونقل على جرح الحرث فبرئ. وأذن للمسلمين في قتل اليهود لما بلغه أنهم خافوا من هذه الفعلة، وأسلم حيتند حويصة بن مسعود، وقد كان أسلم قبله أخوه محيصة بسبب قتل بعضهم.

غزوة بني قينقاع

الرماء عبد الله بن جبير من بني عمرو بن عوف والأوس أخو خوات، ورتبهم خلف الجيش ينضحون بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من خلفهم، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير من بني عبد الدار، وأجاز يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ورافع بن خديج من بني حارثة في الرماة وكان سنهما خمسة عشر عاماً، ورد أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومن بني مالك بن النجار زيد بن ثابت وعمرو بن حرام ومن بني حارثة البراء بن عازب وأسيد بن ظهير، ورد عرابة بن أوس وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري وسن جميعهم يومئذ أربعة عشر عاماً. وجعلت قريش على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل.

وأعطى عليه السلام سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة من بني ساعدة وكان شجاعاً بطلاً يثخن عند الحرب. وكان مع قريش ذلك اليوم والد حنظلة غسيل الملائكة أبو عامر عبد الله عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان من ضبيعة وكان في الجاهلية قد ترهب وتنسك، فلما جاء الإسلام غلب عليه الشقاء وفر إلى مكة في رجال من الأوس وشهد أحد مع الكفار، وكان يعد قريش في الخراف الأوس إليه لما أنه سيدهم، فلم يصدق ظنه، ولما ناداهم وعرفوه، قالوا: لا أنعم الله لك علينا يا فاسق! فقاتل المسلمين قتالاً شديداً وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاء شديداً، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين واشتد القتال وانهزم قريش أولاً، فخلت الرماة عن مراكزهم، وكر المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشف المسلمون واستشهد منهم من أكرمهم الله، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ، وقاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل، وجرح رسول الله ﷺ في وجهه وكسرت رباطه اليمنى السفلى بمجر، وهشمت البيضة في رأسه، يقال: إن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي وقاص وعمرو بن قميئة الليثي. وشد حنظلة الغسيل على أبي سفيان ليقتله فاعترضه شداد بن الأسود الليثي من شعوب فقتله وكان جنباً، فأخبر رسول الله ﷺ أن الملائكة غسلته.

وأكبت الحجارة على رسول الله ﷺ حتى سقط من بعض حفر هنالك، فأخذ علي بيده واحتضنه طلحة حتى قام، ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ﷺ فانتزعتهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما فندرت ثنيتهما فصار أهتم. ولحق المشركون رسول الله ﷺ وكر دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن. ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركين وأبو دجانة بقي النبي ﷺ بظهره وتقع فيه النبل فلا

الأشرف كما ذكرناه، فاستأذن الخزرج رسول الله ﷺ في قتل ابن أبي الحقيق نظير ابن الأشرف في الكفر والعداوة، فأذن لهم. فخرج إليهم من الخزرج ثم من بني سلمة ثمانية نفر منهم: عبد الله بن عقيل ومسر بن سنان وأبو قتادة والحرث بن رعي الخزاعي من حلفائهم في آخرين، وأمر عليهم عبد الله بن عقيل ونهأهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة، وخرجوا في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاث، فقدموا خيبر، وأتوا دار ابن أبي الحقيق في علية له بعد أن انصرف عنه عميرة ونام، وقد أغلقوا الأبواب بعد أن أتموا كلاماً عليهم، ونادوه ليعرفوا مكانه بصوته، ثم تعاوروه بسببهم حتى قتلوه، وخرجوا من القصر وأقاموا ظاهرة حتى قام الناعي على سور القصر فاستيقنوا موته، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر. وكان أحدهم قد سقط من درج العلية فأصابه كسر في ساقه فمسح عليه رسول الله ﷺ فبرئت.

غزوة أحد

وكانت قريش بعد واقعة بدر قد توامروا وطلبوا من أصحاب العير أن يعينوهم بالمال ليتجهزوا به لحرب رسول الله ﷺ فأعانوهم، وخرجت قريش بأحبيشها وحلفائها وذلك في شوال من سنة ثلاث، واحتملوا الظعن التماساً للحفيظة وأن لا يفروا، وأقبلوا حتى نزلوا ذا الحليفة قرب أحد بطن السبخة مقابل المدينة على شفير واد هنالك، وذلك في رابع شوال. وكانوا في ثلاثة آلاف: منهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وقائدهم أبو سفيان ومعهم خمس عشرة امرأة بالدفوف ييكن قلى بدر. وأشار ﷺ على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا وإن جاؤوا قاتلوهم على أفواه الأزقة، وافق ذلك على رأي عبد الله بن أبي بن سلول، وألح قوم من فضلاء المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة فلبس لأمته وخرج.

وقدم أولئك الذين أحو عليه وقالوا: يا رسول الله! إن شئت فاقعد. فقال: « ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » وخرج في ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين بالمدينة. فلما صار بين المدينة وأحد المخذل عنه عبد الله بن أبي في ثلث الناس مغاضباً لمخالفة رأيه في المقام، وسلك رسول الله ﷺ حرة بني حارثة ومر بين الحوايط وأبو خزيمة من بني حارثة يدل به حتى نزل الشعب من أحد مستنداً إلى الجبل، وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع المسلمين وتهايا للقتال في سبعمائة فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً، وأمر على

ونادى بأعلى صوته: الحرب سجال! يوم أحد بيوم بدر، أعل هبل وانصرف وهو يقول: موعدكم العام القابل. فقال عليه السلام: « قولوا له هو بيننا وبينكم » .

ثم صار المشركون إلى مكة ووقف رسول الله ﷺ على حمزة، وكانت هند وصواحيباتها قد جذعته ويقرن عن كبده فلاكتها ولم تسفها، ويقال أنه لما رأى ذلك في حمزة قال: « لنن أظفرن الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم » ورجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة. ويقال: إنه قال لعلي: لا يصيب المشركون منا مثلهما حتى يفتح الله علينا.

غزوة حمراء الأسد

ولما كان يوم أحد سادس عشر شوال، وهو صبيحة يوم أحد، أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج لطلب العدو وأن لا يخرج إلا من حضر معه بالأسس، وفسح لجابر بن عبد الله ممن سواهم، فخرج وخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح وصار عليه السلام متجلداً مرهبا للعدو، وانتهى إلى حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة وأقام بها ثلاثاً، ومر به هناك معبد بن أبي معبد الخزاعي سائراً إلى مكة، ولقي أبا سفيان وكفار قريش بالروحاء فأخبرهم بخروج رسول الله ﷺ في طلبهم وكانوا يرومون الرجوع إلى المدينة فقت ذلك في أعضادهم وعادوا إلى مكة.

بعث الرجيع

ثم قدم على رسول الله ﷺ في صفر متم الثلاثة من الهجرة نفر من عضل والقارة بني الهون بن خزيمه إخوة بني أسد، فذكروا أن فيهم إسلاماً ورغبوا أن يبعث فيهم من يفقههم في الدين، فبعث معهم ستة رجال من أصحابه: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عدي من بني جحجبا بن كلفة، وزيد ابن الدثنة بن بياضة بن عامر، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر، وأمر عليهم مرثداً منهم. ونهضوا مع القوم حتى إذا كانوا بالرجيع وهو ماء هذيل قريباً من عسفان غدروا بهم، واستصرخوا هذيلاً فقتلهم في رحالهم ففزعوا إلى القتال فأمروهم وقالوا: إنا نريد نصيب بكم فداء من أهل مكة، فامتنع مرثد وخالد وعاصم من أمهم وقاتلوا حتى قتلوا، ومروا رأس عاصم بسيوفهم لبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت نذرت أن

يترك، وأصيبت عين قتادة بن النعمان من بني ظفر فرجع وهي على وجهته، فردها عليه السلام بيده فصحت وكانت أحسن عينيه.

وانتهى النظر بن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا وقالوا: قتل رسول الله ﷺ فقال فما تصنعون في الحياة بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة. وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها في رجله فخرج منها. وقتل حمزة عم النبي ﷺ قتله وحشي مولى جبير بن مطعم بن عدي، وكان قد جاء له على ذلك بعثه قرأه يبارز سباع بن عبد العزى فرماه بحريته من حيث لا يشعر فقتله. ونادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبي ﷺ، وضربته أم عماره نسيبة بنت كعب من بني مازن ضربات فتوفي منها بدرعيه وخشع المسلمون لما أصابه ووهنوا لصريخ الشيطان. ثم إن كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة عرف رسول الله ﷺ فنادى بأعلى صوته يشر الناس ورسول الله ﷺ يقول له: « أنصت » فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب، فيهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير والحارث بن الصمة الأنصاري وغيرهم، وأدركه أبي بن خلف في الشعب، فتناول ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة وطعنه بها في عنقه ففكر أبي منهزماً، وقال له المشركون: ما بك من بأس! فقال: والله لو بصق علي لقتلني وكان ﷺ قد توعد بالقتل فمات عدو الله بسرف مرجعهم إلى مكة. ثم جاء علي إلى رسول الله ﷺ بالماء فغسل وجهه ونهض فاستوى على صخرة من الجبل وحانت الصلاة فصلى بهم قعوداً. وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ونزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مَبْعَدَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ﴾ الآية وكان منهم عثمان بن عفان وعثمان بن أبي عقبة الأنصاري.

واستشهد في ذلك اليوم حمزة ذكرنا وعبد الله بن جحش ومصعب بن عمير في خمسة وستين معظمهم من الأنصار، وأمر رسول الله ﷺ أن يدفنا بدمائهم وثيابهم في مضاجعهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم. وقتل من المشركين اثنا عشر وعشرون منهم الوليد بن العاص بن هشام وأبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن جمح، وكان أسر يوم بدر فمن عليه وأطلقه بلا فداء على أن لا يعين عليه فنقض العهد وأسر يوم أحد وأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه صبراً، وأبي بن خلف قتله رسول الله ﷺ بيده، وصعد أبو سفيان الجبل حتى أطل على رسول الله ﷺ وأصحابه

رجلاً منهم على الصعود إلى ظهر البيت ليلقي على النبي ﷺ صخرة، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب منهم. وأوحى الله بذلك إلى نبيه فقام، ولم يشعر أحداً من أصحابه فاستبطأوه، واتبعوه إلى المدينة. فأخبرهم عن وحي الله بما أراد به يهود وأمر من أصحابه بالتهيق لحربه. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ونهض في شهر ربيع الأول أول السنة الرابعة من الهجرة، فتحصنوا منه بالحصون فحاصروهم ست ليال وأمر بقطع النخل وإحراقها، ودس إليهم عبد الله بن أبي المنافقون إنا معكم قتلتهم أو أخرجتم، ففر وهم بذلك ثم خذلهم كرهاً وأسلموهم.

وسأل عبد الله من النبي ﷺ أن يكف عن دمائهم ويحليهم بما حلت الإبل من أموالهم إلا السلاح، واحتمل إلى خيبر من أكابرهم حيي بن أخطب وابن أبي الحقيق فدانت لهم خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وقسم رسول الله ﷺ أموالهم بين المهاجرين الأولين خاصة، وأعطى منها أبا دجانة وسهل بن حنيف كانا ققيرين. وأسلم من بني النضير يامين بن عمير بن جحاش، وسعيد بن وهب فأحرزا أموالهما بإسلامهما. وفي هذه الغزاة نزلت سورة الحشر.

غزوة ذات الرقاع

وأقام رسول الله ﷺ بعد بني النضير إلى جمادى من السنة الرابعة، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، وقيل: عثمان بن عفان، ونهض حتى نزل نجداً فلقى بها جمعاً من غطفان فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، إلا أنهم خاف بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الخرف، فسميت ذات الرقاع لأن أقدامهم نقيت وكانوا يلقون عليها الخرق.

وقال الواقدي: لأن الجبل الذي نزلوا به كان به سواد وياض وحررة رقاعاً فسمي بذلك وزعم أنها كانت في الحرن.

غزوة بدر الصغرى - الموعد

كان أبو سفيان نادى يوم أحد كما قدمناه بموعد بدر من قابل وأجابه بأمر رسول الله ﷺ، فلما كان في شعبان من هذه السنة الرابعة خرج لميعاده واستعمل على المدينة عبد الله بن أبي بن سلول، ونزل في بدر فأقام هناك ثمان ليال وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل الظهران وعسفان، ثم بدا له في الرجوع

تشرب فيه الخمر لما قتل ابنها من بني عبد الدار يوم أحد، فأرسل الله الدبر فحمت عاصماً منهم فتركوه إلى الليل فجاء السيل إليه فاحتمله. وأما الآخرون فأسروهم وخرجوا بهم إلى مكة ولما كانوا بمر الظهران انتزع ابن طارق يده من القرآن وأخذ سيفه فرموه بالحجارة فمات، وجاءوا بخبيب وزيد إلى مكة فباعوهما إلى قريش فقتلوهما صبراً.

غزوة بدر معونة

وقدم على رسول الله ﷺ في صفر هذا ملاعب الأسنة أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فدعاه إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعده، وقال: يا محمد! لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعوهم إلى أمرك ورجوت أن يستجيبوا لك! فقال: إني أخاف عليهم. فقال أبو براء: أنا لهم جار. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو من بني ساعدة في أربعين من المسلمين، وقيل: في سبعين، منهم الحرث بن الصمة، وحرام بن ملحان خال أنس، وعامر بن فهيرة، ونافع بن بديل بن ورقاء. فنزلوا بدر معونة بين أرض بني عامر وحررة بني سليم، وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل فقتله، ولم ينظر في كتابه، واستعدى عليهم بني عامر فأبوا لجوار أبي براء إياهم، فاستعدى بني سليم فنهضت منهم عصبة ورجل وذكوان وقتلوه عن آخرهم، وكان سرحهم إلى جانب منهم ومعهم المنذر بن أحيحة من بني الجلاح وعمرو بن أمية الضمري فنظروا إلى الطير تحوم على العسكر، فأسرعوا إلى أصحابهما فوجداهم في مضاجعهم، فأما المنذر بن أحيحة فقاتل حتى قتل، وأما عمرو بن أمية فجز عامر بن الطفيل ناصيته حين علم أنه من مضر لرقة كانت عن أمه، وذلك لعشر بقين من صفر وكانت مع الرجيع في شهر واحد. ولما رجع عمرو بن أمية لقي في طريقه رجلين من بني كلاب أو بني سليم فنزلا معه في ظل كان فيه معهما عهد من النبي ﷺ لم يعلم به عمرو فانتسب له في بني عامر أو سليم فعدا عليهما لما نأما وقتلهما، وقدم على النبي ﷺ فأخبره بذلك فقال: «لقد قتلت قتيلين لأديبهما»

غزوة بني النضير

ونهض رسول الله ﷺ إلى بني النضير مستعيناً بهم في دية هذين القتيلين فأجابوا، وقعد عليه السلام مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من أصحابه إلى جدار من جدرانهم، وأراد بني النضير

واعترض بأن العام عام جذب.

جهة، وهم بالفشل بنو حارثة وينو سلمة معترزين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة ثم ثبتهم الله.

غزوة دومة الجندل

خرج إليها رسول الله ﷺ في ربيع الأول من السنة الخامسة وخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري. وقد كان بلغه أن جمعاً تجمعوا بها فزاهم، ثم انصرفوا من طريقه قبل أن يبلغ دومة الجندل ولم يلق حرباً. وفيها وادع رسول الله ﷺ عيينة بن حصن أن يرعى بأراضي المدينة لأن بلاده كانت أجديت، وكانت هذه قد انحصبت بسحابة وقمت فأذن له في رعيها.

كانت في شوال من السنة الخامسة، والصحيح أنها في الرابعة، كان ابن عمر يقول ودني رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح، فهي قبل دومة الجندل بلا شك. وكان سببها أن نقرأ من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وحيي بن أخطب من بني النضير وهو ابن قيس وأبو عمارة من بني وائل، لما أغلَى بنو النضير إلى خيبر خرجوا إلى مكة يحزبون الأحزاب ويحرضون على حرب رسول الله ﷺ ويرغبون من اشتراب إلى ذلك بالمال. فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم مضوا إلى غطفان وخرج بهم عيينة بن حصن على أشجع، وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب في عشرة آلاف من أحابشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم. ولما سمع بهم رسول الله ﷺ أمر بحفر الخندق على المدينة وعمل فيه بيده والمسلمون معه، ويقال: إن سلمان أشار به. ثم أقبلت الأحزاب حتى نزلوا بظاهر المدينة بجانب أحد، وخرج عليه السلام في ثلاثة آلاف من المسلمين، وقيل: في تسعمائة فقط وهو راجل بلا شك. وخلف على المدينة ابن أم مكتوم فنزل بسطح سلع والخندق بينه وبين القوم وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الأطم، وكان بنو قريظة موادعين لرسول الله ﷺ فأتاهم حيي وأغراهم فنقضوا العهد ومالوا مع الأحزاب، وبلغ أمرهم إلى النبي ﷺ، فبعث سعد بن معاذ وسعد بن عباد وخوان بن جبير وعبد الله بن رواحة يستخبرون الأمر، فوجدوهم مكاشفين بالغدر والنيل من رسول الله ﷺ، فشاقهم سعد بن معاذ وكانوا أحلافه وانصرفوا. وكان ﷺ قد أمرهم إن وجدوا الغدر حقاً أن يجروه تعريضاً لئلا يفتوا في أعضاء الناس، فلما جاؤوا إليه قالوا: يا رسول الله عضل والغارة يريدون غدرهم بأصحاب الرجيع، فمظم الأمر وأحيط بالمسلمين من كل

ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر ولم تكن حرب. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصين والحرب بن عوف أن يرجعا ولهما ثلثا ثمار المدينة، وشاور في ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عباد فأبيا، وقالوا: يا رسول الله! أشيء أمرك الله به فلا بد منه؟ أم شيء نجبه فنصنعه لك أم شيء نصنعه لنا؟ فقال: « بل أصنعه لكم! إني رأيت أن العرب رمتكم عن قوس واحدة » فقال سعد بن معاذ: قد كنا معهم على الشرك والأوثان ولا يطعمون منا بشمرة إلا شراء ويبيعاً فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف. فطاب رسول الله ﷺ. وتغادى الأمر، وظهر فوارس من قريش إلى الخندق فيهم: عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن عبد ود من بني عمرو بن لؤي، وضرار بن الخطاب من بني محارب فلما رأوا الخندق قالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها. ثم اقتحموا من مكان ضيق حتى جالت خيلهم بين الخندق وسمع، ودعوا إلى البراز وقتل علي بن أبي طالب عمرو بن عبد ود، ورجعوا إلى قومهم من حيث دخلوا ورمي في بعض تلك الأيام سعد بن معاذ بسهم فقطع عنه الأكحل، يقال: رماه حبان بن قيس ابن العرقعة وقيل: أبو أسامة الجشمي حليف بني غزوم، ويروى أنه لما أصيب جعل يدعو: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فلا قوم أحب إلي أن أجاهدكم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة لي، ولا تمتي حتى تقر عيني من بني قريظة.

ثم اشتد الحال وأتى نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنذ بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريت بن غطفان فقال: يا رسول الله! إني أسلمت ولم يعلم قومي فعرني بما تشاء، فقال: « إنما أنت رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » فخرج نعيم فأتى بني قريظة وكان صديقهم في الجاهلية، فنقم لهم في قريش وغطفان وإنهم إن لم يكن الظفر لحقوا ببلادهم وتركوكم، ولا تقدرون على التحول عن بلدكم ولا طاقة لكم بمحمد وأصحابه، فاستوثقوا منهم برهن أبنائهم حتى يصابروا معكم. ثم أتى أبا سفيان وقريشاً فقال لهم: إن اليهود قد ندموا وراسلوا محمداً في المواعدة على أن يسترهنوا أبناءكم ويدفعوهم إليه. ثم أتى غطفان وقال لهم مثلما قال لقريش: فأرسل أبو سفيان وغطفان إلى بني قريظة في ليلة سبت إننا لسنا بدار مقام فاعدوا للقتال، فاعتذر اليهود بالسبت، وقالوا: مع ذلك لا نقاتل حتى

وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال. فقال رسول الله ﷺ: « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » ثم أمر بهم فأخرجوا إلى سوق المدينة وخندق لهم بها خنادق وضربت أعناقهم فيها وهم بين الستمائة والسبعمائة رجل، وقتلت فيهم امرأة واحدة بنانة امرأة الحكم القرظي وكانت طرحت على خلال بن سويد بن الصامت رحي من فوق الحائط فقتلته. وأمر عليه السلام بقتل من أثبت منهم. ووهب لثابت بن قيس بن الشماس ولد الزبير بن ياطا فاستحيا منهم عبد الرحمن بن الزبير كانت له صعبة، وبعد أن كان ثابت استوهب من النبي ﷺ الزبير وأهله وماله فوهبه ذلك فمر الزبير عليه يده وأبى إلا القتل مع قومه اغتباطاً بهم قبحه الله.

وهوب عليه السلام لأم المنذر بنت قيس من بني النجار رفاعة بن سموال القرظي فأسلم رفاعة وله صعبة.

وقسم ﷺ أموال بني قريظة فأسهم للفراس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً، وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارساً، ووقع في سهم النبي ﷺ من سيهم رجالة بنت عمرو بن خنافة من بني عمرو بن قريظة فلم تزل في ملكه حتى مات رسول الله ﷺ، وكان فتح بني قريظة آخر ذي القعدة من السنة الرابعة. ولما تم أمرهم أجيبت دعوة سعد بن معاذ فاتفجر عرقه ومات فكان ممن استشهد يوم الخندق في سبعة آخرين من الأنصار، وأصيب من المشركين يوم الخندق أربعة من قريش فيهم عمرو بن عبد ود وابنه حسل ونوفل بن عبد الله بن مريرة، ولم تغز كفار قريش المسلمين منذ يوم الخندق. ثم خرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى من السنة الخامسة لسته أشهر من فتح بني قريظة، فقصد بني لحيان بطالب بشار عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وأهل الرجيع، وذلك إثر رجوعه من دومة الجندل، فسلك على طريق الشام أولاً ثم أخذ ذات اليسار إلى صخيرات اليمام، ثم رجع إلى طريق مكة وأجد السير حتى نزل منازل لبنى بين أمج وعسفان فوجدهم قد حذروا وامتنعوا بالجبال، وقاتتهم الغرة فيهم فخرج في مائتي راكب إلى المدينة.

غزوة الغابة وذي قرد

وبعد قفوله والمسلمين إلى المدينة بليال أغار عيينة بن حصن الفزاري في بني عبد الله بن غطفان فاستلحموا لقاح النبي ﷺ بالغابة، وكان فيها رجل من بني غفار وأمراته فقتلوا الرجل وحملوا المرأة، ونزل بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي وكان

تعتونا رهناء. فصدق القوم خبر نعيم، وردوا إليهم بالإبائية من الرهن والحث على الخروج، فصدق أيضاً بنو قريظة خبر نعيم وأبوا من القتال. وأرسل الله على قريش وغطفان رجلاً عظيمة أكفأت قدورهم وأنتهم وقتلت أبنيتهم وخيامهم، وبعث عليه السلام حذيفة بن اليمان عيناً فأتاه بخبر رحيلهم وأصبح - وقد ذهب الأحزاب - ورجع إلى المدينة.

غزوة بني قريظة

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه جبريل بالنهوض إلى بني قريظة وذلك بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم، فأمر المسلمين أن لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة، وخرج وأعطى الراية علي بن أبي طالب، واستخلف ابن أم مكتوم، وحاصروهم ﷺ خساً وعشرين ليلة، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد إحدى ثلاث: إما الإسلام، وإما تبييت النبي ﷺ ليلة السبت ليكون الناس آمنين منهم، وإما قتل الذراري والنساء ثم الاستمانة. فأبوا كل ذلك وأرسلوا إلى النبي ﷺ أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر بن عمرو بن عوف بما كانوا حلفاء الأوس، فأرسله واجتمع إليه الرجال والنساء والصبيان فقالوا: يا أبا لبابة ترى لنا أن نزل على حكم محمد؟ قال نعم! وأشار بيده في حلقه إنه الذبح. ثم رجع فندم وعلم أنه أذنب فانطلق على وجهه، ولم يرجع إلى النبي ﷺ، وروبط نفسه إلى عمود في المسجد ينتظر توبة الله عليه وعاهد الله أن لا يدخل أرض بني قريظة مكاناً خان فيه ربه ونيه، وبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: « لو أتاني لأستغفرون له فاما بعدما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه » فنزلت توبته، فتولى عليه السلام إطلاقه بيده بعد أن قام مرتبطاً بالجذع ست ليال لا يحل إلا للصلاة ثم نزل بنو قريظة على حكم النبي ﷺ فأسلم بعضهم ليلة نزولهم وهم نفر أربعة من هذيل إخوة قريظة والنضير، وفر منهم عمرو بن سعد القرظي ولم يكن دخل معهم في نقض العهد فلم يعلم أين وقع. ولما نزل بنو قريظة على حكمه ﷺ طلب الأوس أن يفعل فيهم ما فعل بالخزرج في بني النضير، فقال لهم: « الا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ » قالوا: بلى! قال: « فذلك إلى سعد بن معاذ » وكان جريحاً منذ يوم الخندق وقد أنزله رسول الله ﷺ في خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فأتى به على حمار فلما أقبل على المجلس قال رسول الله ﷺ لهم: « قوموا إلى سيدكم! ». ثم قالوا: يا سعد! إن رسول الله ﷺ قد ولاك حكم مواليك، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، قالوا: نعم.... قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال

وفيها قال أهل الإفك ما قالوا في شأن عائشة مما لا حاجة بنا إلى ذكره وهو معروف في كتب السير، وقد أنزل الله القرآن الحكيم ببراءتهما وتشريفهما. وقد وقع في الصحيح أن مراجعته وقعت في ذلك بين سعد بن عباد وسعد بن معاذ وهو وهم ينبغي التنبيه عليه، لأن سعد بن معاذ مات بعد فتح بني قريظة بلا شك داخل السنة الرابعة وغزوة بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة بعد عشرين شهراً من موت سعد، والملاحاة بين الرجلين كانت بعد غزوة بني المصطلق بأزيد من خمسين ليلة. والذي ذكر ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله وغيره: إن المقاتل لسعد بن عباد إنما هو أسيد بن الحصين والله أعلم.

ولما علم المسلمون أن النبي ﷺ تزوج جويرية، اعتقوا كل ما كان في أيديهم من بني المصطلق أصهار رسول الله ﷺ، فأطلق بسببها مائة من أهل بيته، ثم إن رسول الله ﷺ بعث إلى بني المصطلق بعد إسلامهم بعامين الوليد بن عقبة بن أبي معيط لقبض صدقاتهم، فخرجوا يتلقونه، فخافهم على نفسه ورجع، وأخبر أنهم هموا بقتله. فتشاور المسلمون في غزوهم ثم جاء فدهم منكرين ما كان من رجوع الوليد قبل النبي ﷺ ذلك منهم ونزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ الآية.

عمرة الحديبية

ثم خرج رسول الله ﷺ في السادسة وفي ذي القعدة منها معتمراً بعد بني المصطلق بشهرين، واستنفر الأعراب حوالي المدينة فأبوا أكثرهم فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن اتبعه من العرب فيما بين الثلاثمائة بعد الألف إلى الخمسمائة، وساق الهدي وأحرم من المدينة ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً. وبلغ ذلك قريباً فأجمعوا على صده عن البيت وقتاله دونه، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى كراع الغميم، وورد خبرهم إلى النبي ﷺ بعسفان، فسلك على ثنية المزار حتى نزل الحديبية من أسفل مكة وجاء من ورائهم، فكر خالد في خيله إلى مكة. فلما جاء ﷺ إلى مكة بركت ناقته، فقال الناس: خلأت، فقال: «ما خلأت وما هو لها مخلق ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده لا تدعونني قریش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ثم نزل واشتكى الناس فقد الماء فأعطاهم سهماً من كتاتنه غرزوه في بعض القلوب من الوادي، فجاش الماء حتى كفى جميع الجيش، يقال نزل به البراء بن عازب. ثم جرت السفراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قریش، وبعث عثمان بن

ناهضاً، فعلا ثنية الرادع وصاح بأعلى صوته نذيراً بهم، ثم أتبعهم واستنقذ ما كان بأيديهم، ولما وقعت الصيحة بالمدينة ركب رسول الله ﷺ في أثرهم، ولحق به القداد بن الأسود وعباد بن بشر وسعد بن زيد من بني عبد الأشهل. وعكاشة بن محصن ومحرز بن نضلة الأسدي وأبو قتادة من بني سلمة في جماعة من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم رسول الله ﷺ سعد بن زيد وانطلقوا في اتباعهم حتى أدركوهم، فكانت بينهم جولة قتل فيها محرز بن نضلة قتله عبد الرحمن بن عينة وكان أول من لحق بهم. ثم ولى المشركون منهزمين وبلغ رسول الله ﷺ ما يقال له ذو قرد، فأقام عليه ليلة ويومين ومحرقاً ناقة من لقاحه المسترجعة ثم قفل إلى المدينة.

غزوة بني المصطلق

وأقام رسول الله ﷺ إلى شعبان من هذه السنة السادسة، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة لما بلغه أنهم يجتمعون له وقائدهم الحرث بن أبي ضرار أبو جويرية أم المؤمنين، فخرج إليهم واستخلف أبا ذر الغفاري، وقيل غيلة بن عبد الله الليثي ولقيهم بالمريesc من مياهم ما بين قديد والساحل فتزاحفوا وهزمهم الله وقتل من قتل منهم وسبي النساء والذرية وكانت منهم جويرية بنت الحرث سيدهم، ووقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبتها، وأدى عليه السلام عنها وأعتقها وتزوجها. وأصيب في هذه الغزاة هشام بن صبابه الليثي من بني ليث بن بكر قتله رجل من رهط عبادة بن الصامت غلطاً يظنه من العدو، وفي مرجع النبي ﷺ من هذه الغزاة، وفيها قال عبد الله بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل لمشاجرة وقعت بين جهجاه بن مسعود الغفاري أجبر عمر بن الخطاب وبين سنان بن واقد الجهني حليف بني عوف بن الخزرج، فتشاوروا وتباهاوا، فقال ما قال، وسمع زيد بن أرقم مقاتله، وبلغنا إلى رسول الله ﷺ. ونزلت سورة المنافقين وتبرأ منه ابنه عبد الله، وقال: يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل وإن شئت والله أخرجه. ثم اعترض أباه عند المدينة، وقال: والله لا تدخل حتى ياذن لك رسول الله ﷺ، فأذن له، وحيتن دخل، وقال: يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي وإني أخشى أن تأمر غيري فلا تدعني نفسي أن أقاتله، وإن قتلته قتلت مؤمناً بكافر، ولكن مرني بذلك فأنا والله أحمل إليك راسه. فجزاه رسول الله ﷺ خيراً وأخبره أنه لا يصل إلى أبيه سوء.

يفعل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في ذنك الستين في الإسلام
مثلاً كان قبل ذلك أو أكثر.

ولما رجع ﷺ إلى المدينة لحقه أبو بصير عتبة بن أسيد بن
حارثة هارياً وكان قد أسلم وحسبه قومه بمكة وهو ثقيفي من
حلفاء بني زهرة، فبعث إليه الأزهر بن عبد عوف عم عبد الرحمن
بن عوف والأخنس بن شريق سيد بني زهرة رجلاً من بني عامر
بن لؤي مع مولى لهم، فأسلمه النبي ﷺ فاحتملاه. فلما نزلوا
بذي الحليفة أخذ أبو بصير السيف من أحد الرجلين، ثم ضرب به
العامري فقتله وفر الآخرون، وأتى أبو بصير إلى النبي ﷺ فقال:
يا رسول الله! قد وفيت ذمتك وأطلقتني الله فقال عليه السلام: «
ويلمه مسعر حرب لو كان له رجال» فبكى. ففطن أبو بصير من
لحن هذا القول أنه سيرده، وخرج إلى سيف البحر على طريق
قريش إلى الشام، وانضاف إليه جمهور من يفر عن قريش ممن أراد
الإسلام فأدوا قريشاً وقطعوا على رفاقهم وسابلتهم، فكتبوا إلى
النبي ﷺ أن يضمهم بالمدينة.

ثم هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وجاء فيها
أخواها عمارة والوليد، فمنع الله من رد النساء وفسخ ذلك
الشرط المكتتب، ثم نسخت براءة ذلك كله وحرم الله حيثد على
المسلمين إمساك الكافر في عصمتهم فأنفسخ نكاحهن.

إرسال الرسل إلى الملوك

وقال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ فيما بين
الحديبية ووفاته رجلاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم دعاء
إلى الله عز وجل، فبعث سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد
ود أخا بني عامر بن لؤي إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة،
وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أخي بني عبد
القيس صاحب البحرين، وعمرو بن العاص إلى جيفر بن جلندي
بن عامر بن جلندي صاحب عمان، وبعث حاطب بن أبي بلتعة
إلى المقوقس صاحب الإسكندرية فأدى إليه كتاب رسول الله ﷺ
وأهدى المقوقس إلى رسول الله ﷺ أربع جوار منهن مارية أم
إبراهيم ابنه.

وبعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر
وهو هرقل ملك الروم، فوصل إلى بصرى وبعثه صاحب بصرى
إلى هرقل، وكان يرى في ملاهم أن ملك الختان قد ظهر، وقرأ
الكتاب وإذ فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل

عفان بينهما رسولاً، وشاع الخبر أن المشركين قتلوه، فدعا رسول
الله ﷺ المسلمين وجلس تحت شجرة فباعوه على الموت وأن لا
يفروا، وهي بيعة الرضوان، وضرب عليه السلام بيسراه على يمينه
وقال: «هذه عن عثمان» ثم كان سهيل بن عمرو آخر من جاء
من قريش فقاضى رسول الله ﷺ قريشاً على أن ينصرف عامه
ذلك ويأتي من قابل معتمراً ويدخل مكة وأصحابه بلا سلاح
حاشا السيوف في القرب، فيقيم بها ثلاثاً ولا يزيد، وعلى أن
يتصل الصلح عشرة أعوام يتداخل فيه الناس ويؤمن بعضهم
بعضاً، وعلى أن من هاجر من الكفار إلى المسلمين من رجل أو
امراً أن يرد إلى قومه ومن ارتد من المسلمين إليهم لم يردوه.

وعظم ذلك على المسلمين حتى تكلم فيه بعضهم، وقد
كان النبي ﷺ علم أن هذا الصلح سبب لأمن الناس وظهور
الإسلام، وأن الله يجعل فيه فرجاً للمسلمين وهو أعلم بما علمه
ربه. وكتب الصحيفة علي، وكتب في صدرها: هذا ما قاضى عليه
محمد رسول الله ﷺ، فأبي سهيل من ذلك وقال: لو نعلم أنك
رسول الله ما قاتلناك، فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يحوها، فأبى
وتناول هو الصحيفة بيده ومحا ذلك وكتب محمد بن عبد الله.

ولا يقع في ذهنك من أمر هذه الكتابة ريب فإنها قد ثبتت
في الصحيح، وما يعترض في الوهم من أن كاتبه قاذحة في المعجزة
فهو باطل، لأن هذه الكتابة إذا وقعت من غير معرفة بأوضاع
الحروف ولا قوانين الخط وأشكالها بقيت الأمية على ما كانت
عليه، وكانت هذه الكتابة الخاصة من إحدى المعجزات انتهى.

ثم أتى أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده وكان قد
أسلم، فقال سهيل: هذا أول ما نقاضي عليه. فرده رسول الله
ﷺ إلى أبيه وعظم ذلك على المسلمين، وأخبر النبي ﷺ أبا
جندل أن الله سيجعل له فرجاً، وبينما هم يكتبون الكتاب إذ
جاءت سرية من جهة قريش قيل ما بين الثلاثين والأربعين
يريدون الإيقاع بالمسلمين، فأخذتهم خيول المسلمين وجاؤوا بهم
إلى رسول الله ﷺ فأعتقهم وإليهم ينسب العتيقون.

ولما تم الصلح وكتابه أمر رسول الله ﷺ أن ينحروا
ويحلقوا فتوقفوا، فغضب حتى شكى إلى زوجته أم سلمة فقالت:
يا رسول الله أخرج وانحر واحلق فإنهم متابعوك فخرج ونحر
وحلق رأسه حيثد خراش بن أمية الخزاعي، ثم رجع رسول الله
ﷺ إلى المدينة، وما فتح من قبله فتح كان أعظم من هذا الفتح.
قال الزهري: لما كان القتال حيث لا يلتقي الناس. فلما كانت
الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً فالتقوا
وتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام أحداً

شئت أن أتيك فعلت يا رسول الله، فلاني أشهد أن الذي تقول حق والسلام عليك يا رسول الله.

فذكر أنه بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة فغرقت بهم. وقد جاء أنه أرسل إلى النجاشي ليزوجه أم حبيبة، وبعث إليهما بالخطبة جاريته فأعطتها أوضاعاً وفتحاً ووكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها، ودفع النجاشي إلى خالد بن سعيد أربعمئة دينار لصداقتها، وجاءت إليها بها الجارية فأعطتها منها خمسين مثقالاً فردت الجارية ذلك بأمر النجاشي. وكانت الجارية صاحبة دهنه وثيابه وبعث إليها نساء النجاشي بما عندهن من عود وعنبر وأركبها في سفيتين مع بقية المهاجرين، فلقوا النبي ﷺ بخيبر، وبلغ أبا سفيان تزويج أم حبيبة منه فقال: ذلك الفحل الذي لا يقدح أنه.

وكتب رسول الله ﷺ في هذه السنة إلى كسرى، وبعث بالكتاب عبد الله بن حذافة السهمي وفيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس! سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسله أما بعد فلاني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فإن آيت فعليك إثم الجورس» فمزق كسرى كتاب النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «مزق الله ملكه». وفي رواية ابن إسحاق بعد قوله «وآمن بالله ورسله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فلاني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فإن آيت فائتم الأريسين عليك». قال: ثم كتب كسرى إلى باذان وهو عامله على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتاني به فبعث باذان قهرمانه باتويه وكان حاسباً كاتباً بكتاب فارس ومعه خرخرسة من الفرس، وكتب إليه معهما أن ينصرف إلى كسرى، وقال لقهرمانه: اختر الرجل وعرفني بأمره. وأول ما قدما الطائف سالا عنه فقيل: هو بالمدينة. وفرح من سمع بذلك من قريش وكانوا بالطائف، فقالوا: قطب له كسرى وقد كفيتموه. وقدما على رسول الله ﷺ بالمدينة فكلمه باتويه وقال: إن شاعشاه قد كتب إلى الملك باذان أن يبعث إليه من يأتيه بك ويعتني لتنتقل معي ويكتب معك إليك فينفعك وإن آيت فهو من علمت ويهلك قومك ويغرب بلادك. وكانا قد حلقا لحاهما وأغفيا شواربهما فنهاهما رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالا: أمرنا به ربنا يعنون به كسرى. فقال لهما: «لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي لم أؤخرهما إلى غد».

وجاءه الوحي بأن الله يسلط على كسرى ابنه شيرويه

عظيم الروم! السلام على من اتبع الهدى. أما بعد أسلم تسلم يوتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسين». وفي رواية: «إثم الأكارين عليك تميأ بمجمله» فطلب من مملكته من قوم النبي ﷺ فاحضروا له من غزة، وكان فيهم أبو سفيان فسأله كما وقع في الصحيح، فأجابه وعلم أحواله وتفرس صحة أمره، وعرض على الروم أتباعه فأبوا ونفروا فلاطفهم بالقول وأقصر.

ويروى عن ابن إسحاق أنه عرض عليهم الجزية، فأبوا فعرض عليهم أن يصالحوا بأرض سورية.

قالوا: وهي أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب وما كان وراء الدرب فهو الشام.... فأبوا قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي أخا بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث بن شمر الغساني صاحب دمشق، وكتب معه: «السلام على من اتبع الهدى وآمن به أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك. فلما قرأ الكتاب قال: من ينزع ملكي؟ أنا سائر إليه! فقال النبي ﷺ: «باد ملكه».

قال: وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه كتاباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام عليك! فلاني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطيبة البتول الحبيبة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته تتبني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرأ ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فاقروهم ودع التجري وإنني أدعوك وجنودك إلى الله فلقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى». فكتب إليه النجاشي: إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن الحر.... سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته أحمد الله الذي لا إله إلا هو الذي هدانا للإسلام أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فوروب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد بالرأي على ما ذكرت أنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فاشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً فقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت إليك بابني أرخا الأصحم فإني لا أملك إلا نفسي وإن

طعاماً وودكاً منه. وآخر ما افتتح من حصونهم الوطيح والسلام
حصريهما بضع عشرة ليلة. ودفع إلى علي الراية في حصار بعض
حصونهم فافتتحه، وكان أرمداً فقتل في عينيه ﷺ فبرأ.

وكان فتح بعض خيبر عتوة وبعضها وهو الأكثر صلحاً
على الجلاء، فقسّمها ﷺ وأقر اليهود على أن يعملوها بأموالهم
وأنفسهم ولهم النصف من كل ما تخرج من زرع أو تمر يقرهم
على ذلك ما بدا له، فبقوا على ذلك إلى آخر خلافة عمر فيلغى أن
النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لا يبقى دينان بارض
العرب» فأمر بإجلائهم عن خيبر وغيرها من بلاد العرب. وأخذ
المسلمون ضياعهم من مغام خيبر فنصرفوا فيها، وكان متولي
قسمتها بين أصحابها جابر بن صخر من بني سلمة، وزيد بن
سلمة من بني النجار، واستشهد من المسلمين جماعة تنيف على
العشرين من المهاجرين والأنصار منهم عامر بن الأكوع وغيره وفي
الغزاة حرمت لحوم الحمر الأهلية فاكفئت القدور وهي تفور
بلحمها. وفيها أهدت اليهود زينب بنت الحارث امرأة سلام بن
مشكم إلى النبي ﷺ شاة مصلية، وجعلت السم في الذراع منها
وكان أحب اللحم إليه، فتناوله ولاك منه مضغاً ثم لفظها، وقال:
«إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم»، وأكل معه بشر بن البراء بن
معروور وازدرد لقمته فمات منها. ثم دعا باليهودية فاعترفت ولم
يقتلها لإسلامها حيثئذ على ما قيل، ويقال إنه دفعها إلى أولياء بشر
فقتلواها.

فيقتله ليلة كذا من شهر كذا لعشر مضين من جمادى الأولى سنة
سبع، فدعاها وأخبرها فقالا: هل تدري ما تقول؟ يجزئانه عاقبة
هذا القول، فقال: «أذهب وأخبره بذلك عني وقولا له: إن ديني
وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملكك كسرى وإن أسلمت أعطيتك ما
تحت يديك وملكك على قومك من الأبناء» وأعطى خرخرسة
قطعة فيها ذهب وفضة كان بعض الملوك أهداها له. فقدمها على
بازان وأخبره فقال: ما هذا كلام ملك! ما أرى الرجل إلا نبياً كما
يقول ونحن نتظر مقالته. فلم ينشب بازان أن قدم عليه كتاب
شبرويه:

أما بعد فإني قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما
كان استحل من قتل أشرفهم وتسخيرهم في غورهم فإذا جاءك
كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان
كسرى كتب فيه كثيراً إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه. فلما
بلغ بازان الكتاب وأسلمت الأبناء تسعة من فارس ممن كان منهم
باليمن، وكانت حمير تسمى خرخرسة ذا المفخرة للمنطقة التي
أعطاه إياها النبي ﷺ والمنطقة بلسانهم المفخرة، وقد كان باتويه
قال لبازان: ما كلمت رجلاً قط أهيب عندي منه، فقال: هل معك
شرط؟ قال: لا!

قال الواقدي: وكتب إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه إلى
الإسلام فلم يسلم.

غزوة خيبر

قدوم مهاجرة الحبشة

وكان مهاجرة الحبشة قد جاء جماعة منهم إلى مكة قبل
الهجرة حين سمعوا بإسلام قريش ثم هاجروا إلى المدينة، وجاء
آخرون منهم قبل خيبر بستين، ثم جاء بقيتهم إثر فتح خيبر. بعث
رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأنهم
ليقدمهم عليه، فقدم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت
عميس وبثوها عبد الله ومحمد وعمر، وخالد بن سعيد بن
العاص بن أمية وامرأته أمينة بنت خلف وابنه سعيد، وأم خالد
وعمر بن سعيد بن العاص، ومعيق بن أبي فاطمة حليف أبي
سعيد بن العاص وولي بيت المال لعمر، وأبو موسى الأشعري
حليف آل عتبة بن ربيعة والأسود بن نوفل بن خويلد ابن أخي
خديجة، وجهم بن قيس بن شرحبيل بن عبد الدار وابنه عمرو
وخزيمة، والحارث بن خالد بن صخر من بني تميم، وعثمان بن
ربيعة بن أهبان من بني جمع، ومخبة بن جون الزبيدي حليف بني

ثم خرج رسول الله ﷺ غازياً إلى خيبر في بقية المحرم آخر
السنة السادسة وهو في ألف وأربعمائة راجل ومائتي فارس،
واستخلف نميلة بن عبد الله الليثي، وأعطى الراية لعلي بن أبي
طالب، وسلك على الصهباء حتى نزل بواديها إلى الرجيع، فحبل
بينهم وبين غطفان وقد كانوا أرادوا إمداد يهود خيبر، فلما خرجوا
لذلك قذف الله في قلوبهم الرعب لحسن سمعوه من ورائهم
فانصرفوا وأقاموا في أماكنهم. وجعل رسول الله ﷺ يفتح
حصون خيبر حصناً حصناً فافتتح أولاً منها حصن ناعم، والقيت
على عمود بن سلمة من أعلاه رجم فقتله. ثم افتتح القموص
حصن ابن أبي الحقيق، وأصبحت منهم سبايا: كانت منهن صفية
بنت حيي بن أخطب، وكانت عروساً عند كنانة بن الربيع بن أبي
الحقيق فوهبها عليه السلام لدحية الكلبي، ثم ابتاعها منه بسبعة
أرؤس ووضعها عند أم سلمة حتى اعتدت وأسلمت ثم أعتقها
وتزوجها. ثم فتح حصن الصعب بن معاذ، ولم يكن يخبر أكثر

وكتبهم إسلامه، ورجع إلى قريش ولقي خالد بن الوليد فاخبره فتفاوضا، ثم هاجرا إلى النبي ﷺ فأسلما.

وبعث رسول الله ﷺ خالداً مع بعث الشام وأمر على الجيش مولاة زيد بن حارثة وكانوا نحواً من ثلاثة آلاف، وقال: «إن أصابه قدر فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصابه قدر فالأمير عبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلوه أميراً عليهم» وشيعهم ﷺ وودعهم، ونهضوا حتى انتهوا إلى معان من أرض الشام، فأتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم قد نزل مؤاب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ومائة ألف من نصارى العرب البادين هنالك من لحسم وجذام وقبائل قضاة من بهرا وبلي والقيس وعليهم مالك بن زاحلة من بني أراشة. فأقام المسلمون في معان ليلتين يتشاورون في الكتب إلى رسول الله ﷺ وانتظار أمره ومدده، ثم قال لهم عبد الله بن رواحة: أنتم إنما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فهي إحدى الحسينين إما ظهوره وإما شهادتنا فوافقوه ونهضوا إلى تخوم البلقاء فلقوا جموع هرقل عند قرية مؤتة ورتبوا الميمنة والميسرة، واقتتلوا فقتل زيد بن حارثة ملاقياً بصدرة الرماح والراية في يده، فأخذها جعفر بن أبي طالب وعقر فرسه ثم قاتل حتى قطعت يمينه فأخذها ييساره فقطعت فقتل كذلك وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذها عبد الله بن رواحة وتردد عن النزول بعض الشيء ثم صمم إلى العدو فقاتل حتى قتل.

فأخذ الراية ثابت بن أقرن من بني العجلان وناولها لخالد بن الوليد فانحاز بالمسلمين، وأئذ النبي ﷺ يقتل هؤلاء الأمراء قبل ورود الخبر وفي يوم قتلهم، واستشهد مع الأمراء جماعة من المسلمين يزيدون على العشرة أكرمهم الله بالشهادة، ورجعوا إلى النبي ﷺ، فأحزنه موت جعفر ولقيهم خارج المدينة وحمل عبد الله بن جعفر بين يديه على دابته وهو صبي وبكى عليه واستغفر له وقال: «أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة» فسمي ذا الجناحين.

فتح مكة

كان رسول الله ﷺ حين عقد الصلح بينه وبين قريش في الحديبية أدخل خزاعة في عقده المؤمن منهم والكافر، وأدخلت قريش بني بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقدها وكانت بينهم تراث في الجاهلية وذحول كان فيها الأول للأسود بن رزق من بني الدئل

سهم ولي لرسول الله ﷺ الأخاس، ومعمربن عبد الله بن نضلة من بني عدي، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عامر بن لؤي، وأبي عمرو مالك بن ربيعة بن قيس بن عبد شمس، فكان هؤلاء آخر من بقي بأرض الحبشة. ولما قدم جعفر على النبي ﷺ يوم فتح خيبر قبل ما بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدم جعفر؟».

فتح فذك ووادي القرى

ولما اتصل بأهل فذك شأن أهل خيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه الأمان على أن يتركوا الأموال، فأجابهم إلى ذلك فكانت خالصة لرسول الله ﷺ، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله. ثم انصرف عن خيبر إلى وادي القرى فافتتحها عنوة وقسمها، وقتل بها غلامه مدغم، قال فيه لما شهد له الناس بالجنة: «كلا إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغام قبل القسم لتشتعل عليه ناراً» ثم رجع إلى المدينة في شهر صفر.

عمرة القضاء

وأقام ﷺ بعد خيبر إلى انقضاء شوال من السنة السابعة ثم خرج في ذي القعدة لقضاء العمرة التي عاهده عليها قريش يوم الحديبية وعقد لها الصلح، وخرج ملا من قريش عن مكة عداوة لله ولرسوله وكرهاً في لقائه، فقضى عمرته وتزوج بعد إحلاله بميمونة بنت الحارث من بني هلال بن علي ابن خالة ابن عباس وخالد بن الوليد، وأراد أن يبني بها، وقد تمت الثلاثة السبي عاهده قريش على المقام بها وأوصوا إليه بالخروج وأعجلوه على ذلك، فبنى بها بسرف.

غزوة جيش الأمراء أو غزوة مؤتة

وأقام رسول الله ﷺ بعد منصرفه من عمرة القضاء إلى جنادي الأول من السنة الثانية ثم بعث الأمراء إلى الشام، وقد كان أسلم قبل ذلك عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة وهم من كبراء قريش. وقد كان عمرو بن العاص مضى عن قريش إلى النجاشي يطلبه في المهاجرين الذين عنده، ولقي هنالك عمرو بن أمية الضمري وافد النبي ﷺ، فغضب النجاشي لما كلمه في ذلك، فوفقه الله ورأى الحق فأسلم

قرون رأسها. فلما قرئ على النبي ﷺ قال: « ما هذا يا حاطب؟ » فقال يا رسول الله! والله ما شككت في الإسلام! ولكني ملصق في قريش فأردت عندهم يداً يحفظوني بها في خلف أهلي وولدي، فقال عمر: يا رسول الله! دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: « وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فأني قد غفرت لكم »

وخرج ﷺ لعشر خلون من رمضان من السنة الثامنة في عشرة آلاف فيهم من سليم ألف رجل وقيل سبعمائة، ومن مزينة ألف، ومن غفار أربعمائة، ومن أسلم أربعمائة، وطوائف من قريش وأسد وقيم وغيرهم، ومن سائر القبائل جموع وكتائب الله من المهاجرين والأنصار. واستخلف أبا رهم الغفاري على المدينة، ولقيه العباس بذي الحليفة وقيل بالحقفة مهاجراً، فبعث رحله إلى المدينة وانصرف معه غازياً، ولقيه بشق العقاب أبو سفيان بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية مهاجرين واستأذنا فلم يؤذن لهما، وكلمته أم سلمة فأذن لهما، وأسلما فصار حتى نزل مر الظهران، وقد طوى الله أخباره عن قريش إلا أنهم يتوجسون الخيفة.

وخشي العباس تلافي قريش إن فاجأهم الجيش قبل أن يستأنوا، فركب بغلة النبي ﷺ وذهب يتجسس، وقد خرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسون الخبر، وبينما العباس قد أتى الأراك ليلقي من السابلة من ينذر أهل مكة إذ سمع صوت أبي سفيان وبديل وقد أبصرا نيران العساكر، فيقول بديل: نيران بني خزاعة، فيقول أبو سفيان: خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ بالناس والله إن ظفر بك ليقنطنك وأصباح قريش فارتدفت خلفي. ونهض به إلى المعسكر ومر بعمر فخرج يشتد إلى رسول الله ﷺ يقول: الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقد ولا عهد، فسبقه العباس على البغلة ودخل على أثره فقال: يا رسول الله! هذا عدو الله أبو سفيان أمكنني الله منه بلا عهد فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: قد أجرته! فزاره عمر، فقال العباس: لو كان من بني عدي ما قلت هذا ولكنه من عبد مناف، فقال عمر: والله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لأنني أعرف أنه عند رسول الله ﷺ كذلك. فأمر رسول الله ﷺ العباس أن يجعله إلى رحله ويأتيه به صباحاً، فلما أتى به قال له ﷺ: « ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ » فقال: بآبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا، فقال: « ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟ » قال: بآبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فلان في

بن بكر بن عبد مناة وثأرهم عند خزاعة لما قتلت حليفهم مالك بن عباد الحضرمي، وكانوا قد عقدوا على رجل من خزاعة فقتلوه في مالك بن عباد حليفهم، وعدت خزاعة على سلمى وكلثوم وذؤيب بن الأسود بن رزق فقتلوههم وهم أشرف بني كنانة، وجاء الإسلام فاشتغل الناس به ونسوا أمر هذه الدماء، فلما انعقد هذا الصلح يوم الحديبية وأمن الناس بعضهم بعضاً، فاغتنم بنو الدئل هذه الفرصة في إدراك الثأر من خزاعة لقتلهم بني الأسود بن رزق، وخرج نوفل بن معاوية الدؤلي فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة وليس كلهم تابعه، وخرج معه بعضهم وخرجوا منهم وانحجزوا في دور مكة ودخلوا دار بديل بن ورقاء الخزاعي، ورجع بنو بكر وقد انتقض العهد فركب بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم في وفد من قومهم إلى رسول الله ﷺ مستغيثين مما أصابهم به بنو الدئل بن عبد مناة وقريش، فأجاب ﷺ صريحهم وأخبرهم أن أبا سفيان يأتي يشد العقد ويزيد في المدة وإنه يرجع بغير حاجة.

وكان ذلك سبباً للفتح وندم قريش على ما فعلوا، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليؤكد العقد ويزيد في المدة، ولقي بديل بن ورقاء بعسفان فكنهه الخبر وورى له عن وجهه، وأتى أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فطوت دونه فراش النبي ﷺ وقالت: لا يجلس عليه مشرك! فقال لها: قد أصابك بعدي شر يا بني. ثم أتى المسجد وكلم النبي ﷺ فلم يجبه، فذهب إلى أبي بكر وكلمه أن يتكلم في ذلك فأبى، فلقي عمر فقال: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتك به، فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة وابنه الحسن صبياً فكلمه فيما أتى له فقال علي: ما نستطيع أن نكلمه في أمر عزم عليه، فقال لفاطمة: يا بنت محمد! أما تأمرني ابنك هذا فيجير بين الناس؟ فقالت: لا يجير أحد على رسول الله ﷺ، فقال له علي: يا أبا سفيان! أنت سيد بني كنانة فقم فاجر وارجع إلى أرضك، فقال ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: ما أظنه! ولكن لا أجد لك سواه. فقام أبو سفيان في المسجد فنادى: ألا إني قد أجريت بين الناس ثم ذهب إلى مكة وأخبر قريشاً فقالوا: ما جنت بشيء وما زاد ابن أبي طالب على أن لعب بك.

ثم أعلم رسول الله ﷺ أنه سائر إلى مكة، وأمر الناس بأن يتجهزوا، ودعا الله أن يطمس الأخبار عن قريش، وكتب إليهم حاطب بن أبي بلتعة بالخبر مع طعينة قاصدة إلى مكة، فأوحى الله إليه بذلك فبعث علياً والزبير والمقداد إلى الطعينة فأدركوها بروضة خاخ وفتشوا رحلها فلم يجدوا شيئاً، وقالوا: رسول الله ﷺ أصدق، فقال علي: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الحوائج، فأخرجته من

النفس منها حتى الآن شيئاً.

فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك فأسلم. فقال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». ثم أمر العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم الوادي ليرى جنود الله ففعل ذلك، ومررت به القبائل قبيلة قبيلة، إلى أن جاء مركب رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، عليهم الدروع البيض، فقال: من هؤلاء؟ فقال له العباس: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. فقال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال: يا أبا سفيان إنها النبوة، فقال: فهي إذا! فقال له العباس: النجاء إلى قومك. فأتى بهم مكة وأخبرهم بما أحاط بهم وبأمان رسول الله ﷺ ويقول النبي ﷺ من أتى المسجد أو دار أبي سفيان أو أغلق بابه.

ورتب الجيش وأعطى سعد بن عبادَةَ الراية فذهب يقول:
اليوم يوم اللحمة اليوم تستحل الحرمه

وبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر علياً أن يأخذ الراية منه، ويقال أمر الزبير. وكان على الميمنة خالد بن الوليد ومنها أسلم وغفار ومزينة وجهينة، وعلى اليسرة الزبير، وعلى المقدمة أبو عبيدة بن الجراح.

وسرب رسول الله ﷺ الجيوش من ذي طوى، وأمرهم بالدخول إلى مكة: الزبير من أعلاها، وخالد من أسفلها، وأن يقاتلوا من تعرض لهم. وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا للقتال، فناوشهم أصحاب خالد القتال، واستشهد من المسلمين كرز بن جابر من بني محارب، وخنيس بن خالد من خزاعة، وسلمة بن جهينة، وانهزم المشركون وقتل منهم ثلاثة عشر وأمن النبي ﷺ سائر الناس.

وكان الفتح لعشر بقين من رمضان، وأهدر دم جماعة من المشركين سماهم يومئذ منهم: عبد العزى بن خطل من بني غنيم، والأدوم بن غالب كان قد أسلم وبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً ومعه رجل من المشركين فقتله وارْتَدَ ولحق بمكة وتعلق يوم الفتح بأستار الكعبة فقتله سعد بن حريش المخزومي وأبو برزة الأسلمي. ومنهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة وغيت عنه أقوال، فاستخفى يوم الفتح وأتى به عثمان بن عفان وهو أخوه من الرضاعة فاستأمن له فسكت عليه السلام ساعة ثم آمنه، فلما خرج قال لأصحابه: «هلا ضربتم عنقه!» فقال له بعض الأنصار: هلا أومأت إلي؟ فقال: «ما كان

لني أن تكون له خاتنة الأعين» ولم يظهر بعد إسلامه إلا خير وصلاح واستعمله عمر وعثمان.

ومنهم الحويرث بن نفيل من بني عبد بن قصي كان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة فقتله علي بن أبي طالب يوم الفتح. ومنهم مقيس بن صبابه كان هاجر في غزوة الخندق ثم عدا على رجل من الأنصار كان قتل أخاه قبل ذلك غلطاً ووداه فقتله وفر إلى مكة مرتدّاً، فقتله يوم الفتح نائلة بن عبد الله الليثي وهو ابن عمه. ومنهم قتيبة بن خلط كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ فقتلت إحداهما واستؤمن للآخرى فأمناها.

ومنهم مولاة لبي عبد المطلب اسمها سارة واستؤمن لها فأمناها رسول الله ﷺ. واستجار رجلان من بني غزوم بأمر هاني بنت أبي طالب يقال إنهما الحرث بن هشام وزهير بن أبي أمية أخو أم سلمة فأمتهما، وأمضى رسول الله ﷺ أمانهما فأسلما.

ثم دخل رسول الله ﷺ المسجد وطاف بالكعبة وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة بعد أن مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته، فدخل الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة وأبقى له حجابة البيت فهي في ولد شيبه إلى اليوم. وأمر بكسر الصور داخل الكعبة وخارجها، وبكسر الأصنام حولها، ومر عليها وهي مسدودة بالرصاص يشير إليها بقضيب في يده وهو يقول: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً» فما بقي منهم صنم إلا خر على وجهه. وأمر بلالاً فاذن على ظهر الكعبة ووقف رسول الله ﷺ بباب الكعبة ثاني يوم الفتح وخطب خطبته المعروفة، ووضع مسائر الجاهلية إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، وأخبر أن مكة لم تغل لأحد قبله ولا بعده، وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده إلا أن كل ماثورة أو دم أو مال يدعى في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج، إلا وأن قتل الخطأ مثل العمد بالوسط والعصا فيهما الدية مغلفة منها أربعون في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وأدم خلق من تراب»

ثم تلا رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» «يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً! أخ كريم، ثم قال: «أذهبوا

أثبت لموقفهم، فنزلوا بأوطاس، فقال دريد بن الصمة لمالك: ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمار وبعار الشاء ويكاء الصغير، فقال: أموال الناس وأبنائهم سقنا معهم ليقاتلوا عنها، فقال: راعي ضأن والله وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم يتفعلك إلا رجل بسلاحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. ثم سأل عن كعب وكلاب وأسف لغيابهم وأنكر على مالك رأيه ذلك، وقال: لم تصنع بتقديم نقيضة هوازن إلى محور الخيل شيئاً أرفعهم إلى تمتع بلادهم، ثم ألق الصبيان على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت لغيرك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. وأبى عليه مالك واتبعه هوازن. ثم بعث النبي ﷺ عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي يستعلم بخبر القوم فجاءه وأطلعه على جلية الخبر وأنهم قاصدون إليه، فاستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية مائة درع وقيل أربع مائة وخرج على اثني عشر ألفاً من المسلمين عشرة آلاف الذين صحبوه من المدينة وألفان من مسلمة الفتح، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ومضى لوجهه. وفي جملة من اتبعه عباس بن مرداس، والضحاك بن سفيان الكلابي، وجموع من عبس وذبيان، ومزينة وبني أسد.

ومر في طريقه بشجرة سدر خضراء، وكان لهم في الجاهلية مثلها يطوف بها الأعراب ويعظمونها ويسمونها ذات أنواط فقال له جفأة الأعراب: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال لهم: «قلتم كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم» وزجرهم عن ذلك.

ثم نهض حتى أتى وادي حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة وهو وادي الحزن، فتوسطه في غبش الصبح وقد كمنت هوازن جانيبه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، وناداهم ﷺ فلم يرجعوا. وثبت معه أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه جعفر والفضل وقثم ابنا العباس وجماعة سواهم، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء دلل والعباس أخذ بشكائنها وكان جهر الصوت فأمره رسول الله ﷺ أن ينادي بالأنصار وأصحاب الشجرة وقيل بالمهاجرين، فلما سمعوا الصوت وذهبوا ليرجعوا فصددهم ازدحام المنهزمين أن يشنوا رواحلهم، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم واقتحموا عن الرواحل راجعين إلى النبي ﷺ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة فاستقبلوا هوازن والناس متلاحقون، واشتدت الحرب وحمي الوطيس وقذف الله في قلوب هوازن الرعب حين وصلوا إلى

فأنتم الطلقاء». وأعتقهم على الإسلام وحبس لهم فيما قبل على الصفا فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، ولما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبايعهن واستغفرهن رسول الله ﷺ لأنه كان لا يحس امرأة حلالاً ولا حراماً.

وهرب صفوان بن أمية إلى اليمن واتبه عمير بن وهب من قومه بأمان النبي ﷺ له فرجع وأنذره أربعة أشهر، وهرب ابن الزبير الشاعر إلى نجران ورجع فأسلم، وهرب هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هاني إلى اليمن فمات هنالك كافراً.

ثم بعث النبي ﷺ السرايا حول مكة ولم يأمرهم بقتال، وفي جملتهم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة فقتل منهم وأخذ ذلك عليه، وبعث إليهم علياً بمال فردى لهم قتلهم ورد عليهم ما أخذ لهم. ثم بعث رسول الله ﷺ خالداً إلى العزى بيت بنخلة كانت قصر تعظمه من قريش وكنانة وغيرهم، وسدنة بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم فهزمهم، ثم أن الأنصار توقفوا إلى أن يقيم ﷺ بمكة داره بعد أن فتحها فأمهم ذلك وخرجوا له، فخطبهم ﷺ وأخبرهم أن الحيا عياهم والممات ماتهم فسكتوا لذلك واطمأنوا.

غزوة حنين

وأقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة وهو يقصر الصلاة فبلغه أن هوازن وثقف جمعوا له وهم عامدون إلى مكة وقد نزلوا حنيناً، وكانوا حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة يظنون أنه إنما يريدهم، فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بني النضير، وقد أوعب معه بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وبني جشم بن معاوية، وبني سعد بن بكر وناساً من بني هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية والأحلاف، من بني مالك بن ثقيف بن بكر، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا من كلاب. وفي جشم دريد بن الصمة بن بكر بن علقمة بن خزاعة بن أزية بن جشم رئيسهم وسيدهم شيخ كبير ليس فيه إلا ليؤتم برأيه ومعرفته.

وفي ثقيف سيدان ليس لهم في الأحلاف إلا قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب، وفي بني مالك ذو الحمار سبيع بن الحرث بن مالك وأخوه أحر. وجمع أمر الناس إلى مالك بن عوف. فلما أتاهم أن رسول الله ﷺ قد فتح مكة أقبلوا عامدين إليه، وساق مالك مع الناس أموالهم ونساءهم وأبنائهم يرى أنه

واستشهد من المسلمين في حصاره: سعيد بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة، وعبد الله بن عامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي في آخرين قريباً من اثني عشر فيهم أربعة من الأنصار.

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الجعرة وأناه هنالك وفد هوازن مسلمين راغبين، فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال فاختاروا العيال والأبناء، وكلموا المسلمين في ذلك بأمر رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «ما كان لي ولبي عبد المطلب فهو لكم» وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وامتنع الأقرع بن حابس وعينة بن حصن أن يردا عليهم ما وقع لهما من الفتي وساعدهما قومهما، وامتنع العباس بن مرداس كذلك. وخالفهم بنو سليم وقالوا: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فعرض رسول الله ﷺ من لم تطب نفسه عن نصيبه. ورد عليهم نساءهم وأبنائهم بأجمعهم.

وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف بين ذكر وأنثى فيهم الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة وهي بنت الحرث بن عبد العزى من بني ساعدة بن بكر من هوازن، وأكرمها رسول الله ﷺ وأحسن إليها وخيرها فاختارت قومها فردها إليهم. وقسم الأموال بين المسلمين، ثم أعطى من نصيبه من خمس الخمس قوماً يستألفهم على الإسلام من قريش وغيرهم، فمنهم من أعطاه مائة مائة، ومنهم خمسين خمسين، ومنهم ما بين ذلك، ويسمون المؤلفين وهم مذكورون في كتب السير يقاربون الأربعين: منهم أبو سفيان وابنه معاوية وحكيم بن حزام وصفوان بن أمية ومالك بن عوف وغيرهم، ومنهم عينة بن حصن بن حذيفة بن يسدر والأقرع بن حابس وهما من أصحاب المائة، وأعطى ابن عباس بن مرداس دونهما، فأنشده أبياته المعروفة يتسخط فيها، فقال: «اقطعوا عني لسانه فأتقوا إليه المائة»

ولما أعطى المؤلفين قلوبهم وجد الأنصار في أنفسهم إذ لم يعطهم مثل ذلك وتكلم شبائهم مع ما كانوا يظنون أنه إذا فتح الله عليه بلده يرجع إلى قومه ويتركهم، فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال: «إنما أعطي قوماً حديثي عهد بالإسلام أتألفهم عليه، أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعر وتتصرفوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجالكم، لولا الهجرة لكنتم امرأة من الأنصار، ولو سلك الأنصار شعباً وسلك الناس شعباً لسلك شعب الأنصار» فرضوا وافترقوا.

ثم اعتمر رسول الله ﷺ من الجعرة إلى مكة، ثم رجع إلى المدينة فدخلها لست بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة

رسول الله ﷺ فلم يملكو أنفسهم، فولوا منهزمين ولحق آخر الناس وأسرى هوازن مغلوله بين يديه. وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم واستحرقوا القتل في بني مالك من ثقيف فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً في جملتهم ذو الخمار وأخوه عثمان ابنا عبد الله بن ربيعة بن حبيب سيدهم، وأما قارب بن الأسود سيد الأحلاف من ثقيف ففر بقومه منذ أول الأمر وترك رايته فلم يقتل منهم أحد، ولحق بعضهم بنخلة. وهرب مالك بن عوف النصري مع جماعة من قومه فدخلوا الطائف مع ثقيف، واتجهت طوائف من هوازن إلى أوطاس واتبعتهم طائفة من خيل السلميين الذين توجهوا من نخلة فادركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه، يقال قتله ربيعة بن رافع بن أهبان بن ثعلبة بن يربوع بن سمسك بن عوف بن امرئ القيس. ويبحث ﷺ إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن أبا عامر الأشعري عم أبي موسى فقاتلهم، وقتل بسهم رماه به سلمة بن دريد بن الصمة فأخذ أبو موسى الراية وشد على قاتل عمه فقتله. وانهمز المشركون واستحرقوا القتل في بني رباب من بني نصر بن معاوية، وانفضت جموع هوازن كلها. واستشهد من المسلمين يوم حنين أربعة منهم إيمان بن أم إيمان أخو أسامة لأمه، ويزيد بن زعفة بن الأسود، وسراققة بن الحرث من بني العجلان، وأبو عامر الأشعري.

حصار الطائف

ثم أمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فحبست بالجعرة بنظر مسعود بن عمرو الغفاري، وسار من فوره إلى الطائف فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة، وقاتلوا من وراء الحصون، وأسلم من كان حولهم من الناس وجاءت وفودهم إليه. وقد كان مر في طريقه بحصن مالك بن عوف النصري فأمر بهدمه، ونزل على أطم لبعض ثقيف فتمنع فيه صاحبه فأمر بهدمه فأخرب وتحصنت ثقيف. وقد كان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة من ساداتهم ذهباً إلى جرش يتعلمان صنعة المجانيق والدبابات للحصار لما أحسوا من قصد رسول الله ﷺ إياهم فلم يشهدا الحصار ولا حينئذ قبله، وحاصروهم المسلمون بضعة عشرة أو نصف شهر أو بضعة وعشرين ليلة واستشهد بعضهم بالنبل ورماهم ﷺ بالمنجنق، ودخل نفر من المسلمين تحت دبابه ودنوا إلى سور الطائف فصبوا عليهم سكك الحديد الحماة ورموهم بالنبل فاصابوا منهم قوماً، وأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناقهم، ورغب إليه ابن الأسود بن مسعود في ماله وكان بعيداً من الطائف وكف عنه، ثم رحل عن الطائف وتركهم ونزل أبو بكره فأسلم.

اللَّهُ ﷺ فلم يجد ما يحملهم عليه فتولوا بأكين لذلك، وحمل بعضهم يامين بن عمير النضير وهما أبو ليلى بن كعب من بني مازن بن النجار وعبد الله بن مغفل المزني. واعتذر المخلفون من الأعراب فعذرهم رسول الله ﷺ. ثم نهض وخلف على المدينة عماد بن مسلمة وقيل: بل سباع بن عرفة وقيل: بل علي بن أبي طالب، وخرج معه عبد الله بن أبي بن سلول في عدد وعدة، فلما سار ﷺ تخلف هو فيمن تخلف من المنافقين. ومر ﷺ بالحجر على ديار ثمود فأمر أن لا يستعمل ماؤها ويعلف ما عجن منه للإبل، وأذن لهم في بئر الناقة، وأمر أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا بأكين، ونهى أن يخرج أحد منفرداً عن صاحبه.

فخرج رجلان من بني ساعدة جن أحدهما فمسح عليه فشفي، والآخر رمته الريح في جبل طيء فردوه بعد ذلك إلى النبي ﷺ. وضل ﷺ عن ناقته في بعض الطريق، فقال أحد المنافقين: عماد يدعي علم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «والله لا أعلم إلا ما علمني الله وأن الناقة بموضع كذا» وكان قد أوحى إليه بها فوجدوها ثم، وكان قاتل هذا القول زيد بن اللصيت من بني قينقاع وقيل: إنه تاب بعد ذلك. وفضح الوحي قوماً من المنافقين كانوا يخذلون بالناس ويهللون عليهم أمر الروم، فتاب منهم غنشي بن جهير ودعا أن يكفر عنه بشهادة يخفي مكانه فقتل يوم اليمامة.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه بحينة بن روية صاحب أيلة وأهل جرياء وأذرح فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتاباً. وبعث ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل من كندة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً وأخبر أنه يجده يصيد البقر، واتفق أن بقر الوحش باتت تهدد القصر بقرونها فنشط أكيدر لصيدها وخرج ليلاً، فوافقه وصوله خالداً، فأخذه وبعث به إلى رسول الله ﷺ فعفا عنه وصالحه على الجزية ورده. وأقام تبوك عشرين ليلة، ثم انصرف، وكان في طريقه ماء قليل نهى أن يسبق إليه أحد، فسبق رجلان واستفدوا ما فيه ففكر عليهما ذلك، ثم وضع يده تحت ومشة فصب ما شاء الله أن يصب ونضح بالوشل ودعا فجاش الماء حتى كفى العسكر.

وأخبر ﷺ أن ذلك الموضع سمي جنباً ولما قرب من المدينة بساعة من نهار أنفذ مالك بن الدخشم من بني سليم ومعن بن عدي من بني العجلان إلى مسجد الضرار، فأحرقاه وهدماه، وقد كان جماعة من المنافقين بنوه وأتوا إلى النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فسألوه الصلاة فيه، فقال: «أنا على سفر ولو قدمنا أتيناكم فصلينا لكم فيه» فلما رجع أمر بهدمه.

لشهرين ونصف من خروجه، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد شاباً يتيف عمره على عشرين سنة، وكان غلبه الورع والزهد فأقام الحج بالمسلمين في سنته وهو أول أمير أقام حج الإسلام وحج المشركون على مشاعرهم.

وخلف بمكة معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وبعث عمرو بن العاص إلى أهل حنين وعمرو بن الجندلي من الأزدي بعمان مصداقاً فأطاعوا له بذلك. واستعمل ﷺ مالك بن عوف على من أسلم من قومه ومن سلم منهم وما له حوالي الطائف من ثقيف، وأمره بمغادرة الطائف من التضييق عليهم ففعل حتى جاؤوا مسلمين كما يذكر بعد. وحسن إسلام المؤلفة قلوبهم ممن أسلم يوم الفتح أو بعده وإن كانوا متفوتين في ذلك. ووفد على النبي ﷺ كعب بن زهير فأهدر دمه وضاعت به الأرض، وجاء فأسلم وأنشد النبي ﷺ قصيدته المعروفة بمدحه التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول... إلخ.

وأعطاه بردة في ثواب مدحه فاشتراها معاوية من ورثته بعد موته وصار الخلفاء يتوارثونها شعاراً.

غزوة تبوك

ووفد في السنة تسع على رسول الله ﷺ بالمدينة بنو أسد فأسلموا وكان منهم ضرار بن الأزور، وقالوا: قدما يا رسول الله قبل أن يرسل إلينا فنزلت ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية. ووفد فيها وفدتين في شهر ربيع الأول ونزلوا على رويغ بن ثابت البلوي. وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد منصرفه من الطائف في ذي الحجة إلى شهر رجب من السنة التاسعة.

ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم: وكان في غزواته كثيراً ما يوري بغير الجهة التي يقصدها على طريقة الحرب إلا ما كان من هذه الغزاة لعسرهما بشدة الحرب، وبعد البلاد وفصل الفواكه وقلة الظلال وكثرة العدو الذين يصدون. وتجهز الناس على ما في أنفسهم من استئصال ذلك، وطقف المنافقون يشطونهم عن الغزو، وكان نفر منهم يجتمعون في بيت بعض اليهود، فأمر طلحة بن عبيد الله أن يخرج عليهم البيت فخر بها. واستأذن ابن قيس من بني سلمة في القعود فأذن له وأعرض عنه، وانتدب كثير من المسلمين للإتفاق والحملان وكان من أعظمهم في ذلك عثمان بن عفان يقال: إنه أنفق فيها ألف دينار وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس وجهاز ركاباً. وجاء بعض المسلمين يستحمل رسول

الوفود

ولما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك وأسلمت ثقيف ضربت إليه وفود العرب من كل وجه حتى لقد سميت سنة الوفود. قال ابن إسحاق: ولما كانت العرب تترىص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر النبي ﷺ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل وقادتهم لا يتكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحربه وخلافه. فلما انتحلت مكة ودانت قريش ودخلها الإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحربه وعداوته، فدخلوا في دينه أفواجاً يضربون إليه من كل وجه انتهى.

فأول من قدم إليه بعد تبوك وفد بني تميم وفيه من رؤوسهم: عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس من بني دارم بن مالك، والحباب بن يزيد، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر من بني سعد، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهنم وهما من بني منقر، ونعيم بن زيد ومعهم عيينة بن حصن الفزاري. وقد كان الأقرع وعيينة شهدا فتح مكة وخيبر وحصار الطائف، ثم جاءا مع وفد بني تميم، فلما دخلوا المسجد نادوا من وراء الحجرات فتزلت الآيات في إنكار ذلك عليهم. ولما خرج قالوا جئنا: نفاخركم بخطينا وشاعرنا فأذن لهم، فخطب عطارد وفاخر ويقال والأقرع بن حابس، ثم أئشد الزبرقان بن بدر شعراً بالمفاخرة، ودعا رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس من بني الحارث بن الخزرج فخطب وحسان بن ثابت فائشدا مساجلين لهم، فأذنوا للخطبة والشعر والسؤدد والحلم، وقالوا: هذا الرجل هو مؤيد من الله خطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا وأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم أسلموا وأحسن رسول الله ﷺ جوازهم. وهذا كان شأنه مع الوفود ينزلهم إذا قدموا ويجهزهم إذا رحلوا.

ثم قدم على رسول الله ﷺ في آخر رمضان مقدمه من تبوك كتاب ملوك حير مع رسولهم ومع الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعارف. وبعث زرة بن ذي يزن رسوله مالك بن مرة الراوي بإسلامهم ومفارقة الشرك، وأمله وكتب إليهم النبي ﷺ كتابه. وبعث إلى ذي يزن معاذ بن جبل مع رسول الله ﷺ بن مرة لجمع الصدقات، وأوصاهم برسلة معاذ وأصحابه. ثم مات عبد الله بن أبي بن سلول في ذي القعدة، ونعى رسول الله ﷺ النجاشي وإنه مات في رجب قبل تبوك.

وفي هذه الغزاة تخلف كعب بن مالك من بني سلمة ومراة بن الربيع من بني عمرو بن عوف وهلال بن أمية بن واقف وكانوا صالحين، فنهى ﷺ عن كلامهم خمسين يوماً، ثم نزلت توبتهم، وكان المتخلفون من غير عذر نيفاً وثلاثين رجلاً. وكان وصوله ﷺ من تبوك في رمضان سنة تسع، وفيه كانت وفادة ثقيف وإسلامهم، ونزل الكثير من سورة براءة في شأن المنافقين وما قالوه في غزوة تبوك آخر غزوة غزاها ﷺ.

إسلام عروة بن مسعود ثم وفد ثقيف

وهدم اللات

كان ﷺ لما أفرج عن الطائف وارتحل إلى المدينة اتبعه عروة بن مسعود سيدهم، فادركه في طريقه وأسلم ورجع يدعو قومه، فرمي بسهم في سطح بيته وهو يؤذن للصلاة فمات، ومنع قومه من الطلب بدمه وقال: هي شهادة ساقها الله إلي وأوصى أن يدفن مع شهداء المسلمين. ثم قدم ابنه أبو المليلح وقارب بن مسعود فأسلما، وضيّق مالك بن عوف على ثقيف واستباح سرحهم وقطع سابلتهم. وبلغهم رجوع النبي ﷺ من تبوك وانتمروا في الوفاة وعلموا أن لا طاقة لهم بحرب العرب المسلمين، وفزعوا إلى عبد ياليل بن عمرو بن عير، فشرط عليهم أن يبعثوا معه رجالاتهم ليحضروا مشهده خشية على نفسه مما نزل بعروة، فبعثوا معه رجلين من أحلاف قومه وثلاثاً من بني مالك، فخرج بهم عبد ياليل وقدموا على رسول الله ﷺ في رمضان من السنة التاسعة يريدون البيعة والإسلام فضرب لهم قبة في المسجد، وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي في أمرهم وهو الذي كتب كتابهم بخطه، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم حتى يأكل منه خالد، وسألوه أن يدع لهم اللات ثلاث سنين رعيّاً لنسائهم وأبنائهم حتى يأتسوا فأبى، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه، فسألوه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فقال: أما هذه فأننا سنكفيكم منها. فأسلموا وكتب لهم وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص أصغرهم سناً لأنه كان حريصاً على الفقه وتعلم القرآن. ثم رجعوا إلى بلادهم، وخرج معهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات، وتأخر أبو سفيان حتى دخل المغيرة فتناولها بيده لهدمها، وقام بنو معتب دونه خشية عليه. ثم جاء أبو سفيان وجمع ما كان لها من الحلي وقضى منه دين عروة والأسود ابني مسعود كما أمر النبي ﷺ وقسم الباقي.

وقدم وفد بهرا في ثلاثة عشر رجلاً ونزلوا على المقداد بن

عمرو وجاء بهم فأسلموا وأجازهم وانصرفوا.

جاء بها. قال الطبري: وفي هذه السنة فرضت الصدقات لقول تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ الآية.

وفيهما قدم وفد ثعلبة بن مقذد وقد هذيم من قضاة. قال الطبري: وفيها بعث بنو سعد بن بكر ضمضام بن ثعلبة وافداً فاستحلف رسول الله ﷺ على ما جاء به من الإسلام، وذكر التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج واحدة حتى إذا فرغ تشهد وأسلم، وقال: لأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيت عنه ثم لا أزيد عليها ولا أنقص، فلما انصرف قال ﷺ: إن صدق دخل الجنة، ثم قدم على قومه فأسلموا كلهم يوم قدومه. والذي عليه الجمهور: أن قدوم ضمضام وقصته كانت سنة خمس.

ثم دخلت سنة عشر فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ربيع أو جمادى في سرية أربعمائة إلى نجران وما حولها يدعو بني الحرث بن كعب إلى الإسلام ويقاثلهم إن لم يفعلوا، فأسلموا وأجابوا داعيته، وبعث الرسل في كل وجه فأسلم الناس فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه بأن يقدم مع وفدهم، فأقبل خالد ومعه وفد بني الحرث بن كعب منهم قيس بن الحصين ذو القصة ويزيد بن عبد الله المران ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قريض الزيايدي وشداد بن عبد الله الضبابي وعمرو بن عبد الله الضبابي، فأكرمهم النبي ﷺ وقال لهم: بم كنتم تغلبون من يقاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبداً أحداً بظلم. قال: صدقتم، فأسلموا وأمر عليهم قيس بن الحصين، ورجعوا صدر ذي القعدة من سنة عشر، ثم اتبعهم عمرو بن حزام من بني النجار ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة، وكتب إليه كتاباً عهد إليه في عهده وأمره بأمره، وأقام عاملاً على نجران. وهذا الكتاب وقع في السير مروباً واعتمده الفقهاء في الاستدلالات وفيه مأخذ كثيرة للأحكام الفقهية ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من الله ورسوله ﷺ أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود»، عهداً من محمد النبي رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين للناس في الحق ويشدد عليهم في الظلم فإن الله حرم الظلم ونهى عنه فقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وأن يبشر الناس بالجنة ويعملها وينذر الناس بالنار وعملها، ويستألف الناس حتى يتفقوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفرائضه وما أمر الله به

وقدم وفد بني البكاء ثلاثة نفر منهم. وقدم وفد بني فزارة بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن وابن أخيه الحر بن قيس فأسلموا. ووفد عدي بن حاتم بن طيء فأسلم وكان رسول الله ﷺ قد بعث قبل تبوك إلى بلاد طيء علي بن أبي طالب في سرية فأغار عليهم، وأصيب حاتم وسبيت ابنته وغنم سيفين في بيت أصنامه كاتنا من قربان الحرث بن أبي شمر، وكان عدي قد هرب قبل ذلك ولحق ببلاد قضاة بالشام فراراً من جيوش المسلمين وجواراً لأهل دينه من النصارى وأقام بينهم، ولما سبقت ابنة حاتم جعلت في الحظيرة بباب المسجد التي كانت السبايا تحبس بها، ومرو بها رسول الله ﷺ فكلمته أن يمن عليها، فقال: قد فعلت ولا تعجلي حتى تجدي ذا ثقة من قومك يبلغك إلى بلادك ثم آذني، قالت: فأتممت حتى قدم ركب من بني قضاة وأنا أريد أن آتي أخي بالشام فعرفت رسول الله ﷺ فكسائي وحملني وزودني وخرجت معه فقدمت الشام فلما لقيها عدي تلاوم ساعة ثم قال لها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ فأشارت عليه بالحق به فوفد، وأكرمه رسول الله ﷺ وأدخله إلى بيته وأجلسه على وسادته، بعد أن استوفته في طريقه امرأة فوقف لها، فلم علم عدي أنه ليس بملك وإنما هو نبي، ثم أخبره عن أخذه المرباع من قومه ولا يحمل له فإزداد استبعاداً فيه، ثم قال: لعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من يأخذه، أو لعله يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف، أو لعلك إنما تمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان لغيرهم فيوشك أن تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت. فأسلم عدي وانصرف إلى قومه.

ثم أنزل الله على نبيه الأربعين آية من أول سورة براءة في نبد العهد الذي بينه وبين المشركين لا يصدوا عن البيت، ونهوا أن يقرب المسجد الحرام مشرك بعد ذلك، وأن لا يطوف بالبيت عرياناً، وإن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فيتم له إلى مدته، وأجلهم أربعة أشهر من يوم النحر. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه والسلام بهذه الآيات أبا بكر وأمره على إقامة الحج بالموسم من هذه السنة، فبلغ ذي الحليفة فاتبه بعلي فأخذها منه، فرجع أبو بكر مشفقاً أن يكون نزل فيه قرآن، فقال له النبي ﷺ: لم ينزل شيء ولكن: لا يبلغ عني غيري أو رجل مني. فصار أبو بكر على الحج وعلي على الأذن ببراءة، فحج أبو بكر بالناس وهم على حج الجاهلية، وقام علي عند العقبة يوم الأضحية فأذن بالآية التي

حوله. فحاصر جرش ومن بها من خشم وقبائل اليمن، وكانت مدينة حصينة اجتمع إليها أهل اليمن حين سمعوا بزحف المسلمين، فحاصروهم شهراً، ثم قفل عنهم فظنوا أنه انهزم فاتبعوه إلى جبل شكر، فصف وحمل عليهم ونال منهم، وكانوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ راثنين وأخبرها ذلك اليوم بواقعة شكر وقال: إن بدن الله لتنحر عنده الآن فرجعا إلى قومهما فأخبرهم بذلك وأسلموا وحملهم حتى حول قريتهم.

ومنها كان إسلام همدان ووفادتهم على يد علي رضي الله عنه، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فمكث ستة أشهر لا يجيبونه، فبعث عليه السلام علي بن أبي طالب وأمره أن يقتل خالدًا، فلما بلغ علي أوائل اليمن جمعوا له فلما لقوه صفوا فقدم علي الإنذار وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان كلها في ذلك اليوم، وكتب بذلك إلى النبي ﷺ فسجد لله شكراً، ثم قال: السلام على همدان ثلاث مرات. ثم تابع أهل اليمن على الإسلام وقدمت وفودهم، وكان عمرو بن معديكرب الزبيدي قال لقيس بن مكثوم المرادي: اذهب بنا إلى هذا الرجل فلن يخفى علينا أمره فأبى لقيس من ذلك، فقدم عمرو على النبي ﷺ فأسلم، وكان فروة بن مسيك المرادي على زييد لأنه وفد قبل عمرو مفارقاً للملك كندة فأسلم ونزل على سعد بن عباد وتعلم القرآن وفرائض الإسلام واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معهم في بلاده حتى كانت الوفاة.

وفي هذه السنة قدم وفد عبد القيس يقدمهم الجارود بن عمرو وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا ورجعوا إلى قومهم. ولما كانت الوفاة ارتد عبد القيس ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر الذي يسمى الغرور وثبت الجارود على الإسلام، وكان له المقام المحمود وهلك قبل أن يراجعوا. وقد كان رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوي العيدي فأسلم وحسن إسلامه، وهلك بعد الوفاة وقبل ردة أهل البحرين والعلاء أمير عنده لرسول الله ﷺ على البحرين.

وفي هذه السنة قدم وفد بني حنيفة في سنة عشر فيهم: مسيلة بن حبيب الكذاب، ورجال بن عنفوة، وطلق بن علي بن قيس، وعليهم سلمان بن حنظلة، فأسلموا وأقاموا أياماً يتعلمون القرآن من أبي بن كعب، ورجال يتعلم، وطلق يؤذن لهم، ومسيلة في الرجال، وذكروا للنبي ﷺ مكانه في رحاهم فأجازهم، وقال: ليس بشركم مكاناً لحفظه رجالكم، فقال مسيلة: عرف أن

والحج الأكبر والحج الأصغر وهو العمرة، وينهى الناس أن يصلي أحد في ثوب صغير إلا أن يكون ثوباً ينشئ طرفيه على عاتقه، وينهى أن يختبيء أحد في ثوب واحد ويفضي بفرجه إلى السماء، وينهى أن يقص أحد شعر رأسه إذا عفا في قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعاؤه إلى الله وحده لا شريك له فمن لم يدع إلى الله ودعا القبائل والعشائر فليعطوه بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء في وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ومسحوا برؤوسهم كما أمرهم الله، وأمرهم بالصلاة بوقتها وإقام الركوع والسجود يغسل بالصبح ويهجر بالهاجرة حتى تميل الشمس وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة والمغرب حين يقبل الليل لا تؤخر حتى تبدو نجوم السماء والعشاء أول الليل، وأمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها والغسل عند الرواح إليها، وأمره أن يأخذ من الغنائم خمس الله، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت العين أو سقت السماء وعلى ما سقى الغرب نصف العشر وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل عشرين أربع شاة وفي كل أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة جذع أو جذعة وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد خيراً فهو خير له، وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه ما عليهم ومن كان نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية، وعلى كل محتلم ذكراً وأنثى حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثياباً. فمن أدى ذلك فإن له ذمة الاسلام ذمة الله وذمة رسوله. ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمته وبركاته.

وقدم وفد غسان في رمضان من هذه السنة العاشرة في ثلاثة نفر فأسلموا وانصرفوا إلى قومهم فلم يجيبوا إلى الإسلام فكتبوا أمرهم وهلك اثنان منهم ولقي الثالث أبو عبيدة عام اليرموك فأخبره بإسلامه. وقدم عليه وفد عامر عشرة نفر فأسلموا وتعلموا شرائع الإسلام وأقرأهم النبي القرآن وانصرفوا.

وقدم في شوال وفد سلمان بسبعة نفر رئيسهم حبيب فأسلموا من قومهم وتعلموا القرآن وانصرفوا.

وفيها قدم أزد جرش وفد فيهم صرد بن عبد الله الأزدي في عشرة من قومه، ونزلوا على فروة بن عمرو، وأمر النبي ﷺ بعد أن أسلموا صرداً على من أسلم منهم، وإن يجاهد المشركين

الله ﷺ، وتوفي فأوصى لهم بمائة وسق من خبير جارية عليهم من الكتيبة وباعوها من معاوية.

وفيها قدم وفد نجران النصارى في سبعين راكباً يقدمهم أميرهم العاقب عبد المسيح من كندة، وأسقفهم أبو حارثة من بكر بن وائل، والسيد الأيهم وجادلوا عن دينهم، فنزل صدر سورة آل عمران وآية المبالغة فأبوا منها وفرقوا وسألوا الصلح، وكتب لهم به على ألف حلة في صفر وألف في رجب وعلى دروع ورماح وخيل وحمل ثلاثين من كل صنف، وطلبوا أن يبعث معهم والياً يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، ثم جاء العاقب والسيد وأسلموا.

وفيها قدم وفد الصدف من حضرموت في بضعة عشر نفراً فأسلموا، وعلمهم أوقات الصلاة وذلك في حجة الوداع. وفي هذه السنة قدم وفد عيس، قال ابن الكلبي: وفد منهم رجل واحد فأسلم ورجع ومات في طريقه. وقال الطبري: وفيها وفد عدي بن حاتم في شعبان انتهى.

وفيها قدم وفد خولان عشرة نفر فأسلموا وهدموا صنمهم، وكان وفد على رسول الله ﷺ في هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الضبيبي من جذام وأهدى غلاماً فأسلم، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، ولم يلبث أن قفل دحية بن خليفة الكلبي منصوراً من عند هرقل حين بعثه النبي ﷺ ومعه تجارة، فأغار عليه الهنيد بن عوض وقومه بنو الضليع من بطون جذام فأصابوا كل شيء معه، وبلغ ذلك مسلمين من بني الضبيبي فاستنقذوا ما أخذته الهنيد وابنه وردوه على دحية، وقدم دحية على النبي ﷺ فأخبره الخبر، فبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة في جيش من المسلمين فأغار عليهم بالفضقاص من حرة الرمل، وقتلوا الهنيد وابنه في جماعة وكان معهم ناس من بني الضبيبي فاستباحوهم معهم وقتلوهم، فركب رفاعة بن زيد ومعه أبو زيد بن عمرو من قومه في جماعة منهم فقدموا على النبي ﷺ وأخبروه الخبر، فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقالوا: يا رسول الله أطلق لنا من كان حياً، فبعث معهم علي بن أبي طالب وحمله على جمل وأعطاه سيفه فلحقه بفيقاء الفحلين وأمره برد أموالهم فردها.

وفي هذه السنة قدم وفد عامر بن صعصعة فيهم: عامر بن الطغيل بن مالك، وأريد ابن ربيعة بن مالك، فقال له عامر: يا محمد اجعل لي الأمر بعدك، قال: ليس ذلك لك ولقومك، قال: اجعل لي الوبر ولك المدر، قال: لا ولكن اجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس، فقال: لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً ثم ولوا. فقال: اللهم أكفنيهم اللهم اهد عامر وأغن الإسلام عن عامر.

الأمر لي من بعده. ثم ادعى مسيلمة بعد ذلك النبوة، وشهد له طلق أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر فافتتن الناس به كما سنذكره.

وفيها قدم وفد كندة يقدمهم الأشعث بن قيس في بضعة عشر وقيل في ستين وقيل في ثمانين، وعليهم الديباج والحريز، وأسلموا ونهاهم النبي ﷺ عنه فتركوه. وقال له أشعث نحن بنو أكل المرار وأنت ابن أكل المرار فضحك وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحرث وكانا تاجرين فإذا ساحا في أرض العرب قال: نحن بنو أكل المرار فيعتز بذلك كأن لهم عليه ولادة من الأمهات، ثم قال نحن بنو النضر بن كنانة فانتفوا منا ولا ينتفي من النينا.

وقدم مع وفد كنانة وفد حضرموت وهم بنو وليعة، وملوكهم صمره ومخوش ومرح والضعة فأسلموا ودعا لمخوش بإزالة الرثة من لسانه. وقدم وائل بن حجر رغباً في الإسلام فدعا له ومسح رأسه، ونودي الصلاة جامعة سروراً بقدمه، وأمر معاوية أن ينزل بالخرة، فمشى معه وكان راكباً فقال له معاوية: أعطني نعلك أتوقى بها الرمضاء، فقال: ما كنت لألبسها وقد لبستها. وفي رواية لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك فقال: أردفني قال: لست من أرداف الملوك، ثم قال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي قال: امش في ظل ناقتي كفاك به شرفاً. ويقال إنه وفد على معاوية في خلافته فآكرمه وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب محمد النبي لوائيل بن حجر قبل حضرموت إنك إن أسلمت جعلت لك ما في يديك من الأرض والحصون ويؤخذ منك من كل عشرة واحدة ينظر في ذلك ذوو عدل منك وجعلت لك ألا تظلم فيها معلم الدين. والنبي ﷺ والمؤمنين عليه أنصار».

قال عياض: وفيه إلى الأقبال العبايلة والأوراع المشاييب. وفيه في العيبة شاة مقورة لا لياط ولا ضناك وفي السيوب الخمس ومن زنى من بكر فاصفعوه مائة واستوفضوه عاماً، ومن زنى من ثيب فضرجهه بالأضاحيم، ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض الله وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل على الأقبال.

وفيها قدم وفد محارب في عشرة نفر فأسلموا. وفيها قدم وفد الرها من مذحج في خمسة عشر نفراً وأهدوا فرساً فأسلموا وتعلموا القرآن وانصرفوا، ثم قدم نفر منهم وحجوا مع رسول

الناس إن الشيطان قد يش من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم أبرح الناس. ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلِّونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَجْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ إلا وإن الزمان قد استدار كهيته يوم

خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليه ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذي بين جادى وشعبان أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسانكم حقاً ولهن عليكم حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن من الخير شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي فإنني قد بلغت وتركت فيكم ما إن استعصمت به فلن تضلوا أبداً. كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس! اسمعوا قولي واعلموا إن كل مسلم أخو المسلم وإن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس فلا تظلموا أنفسكم إلا اللهم قد بلغت « فذكر أنهم قالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد». وكانت هذه الحجة تسمى حجة البلاغ وحجة الوداع لأنه لم يحج بعدها وقد كان حج قبل ذلك حجتين واعتمر مع حجة الوداع عمرة فتلک ثلاث ثم انصرف إلى المدينة في بقية ذي الحجة من العاشر.

العمال على النواحي

كان رسول الله ﷺ حين أسلم باذان عامل كسرى على اليمن وأسلمت اليمن أمره على جميع مخاليفها ولم يشرك معه فيها أحد حتى مات، وبلغه موته وهو منصرف من حجة الوداع فقسم عمله على جماعة من الصحابة، فولى على صنعاء ابنه شمر بن باذان، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى همدان عامر بن شمر الهمداني، وعلى عك والأشعرين الطاهر بن أبي هالة وعلى ما بين نجران وزمزم وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو بن حزام، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكاسك والسكون عكاشة بن ثور بن أصغر الغوثي، وعلى معاوية بن كثة عبد الله المهاجر بن أبي أمية واشتكى المهاجر فلم يذهب فكان زياد بن لبيد

وذكر ابن إسحاق والطبري: أنهما أرادا الغدر برسول الله ﷺ فلم يقدروا عليه في قصة ذكرها أهل الصحيح، ثم رجعوا إلى بلادهم فأخذهم الطاعون في عنقه فمات في طريقه في أحياء بني سلول وأصابته أخاه أريد صاعقة بعد ذلك. ثم قدم علقمة بن علاثة بن عوف وعوف بن خالد بن ربيعة وابنه فأسلموا.

وفيها قدم وفد طيء في خمسة عشر نفراً يقدمهم سيدهم زيد الخليل وقيصة بن الأسود من بني نهبان فأسلموا، وسماه رسول الله ﷺ زيد الخير وأقطع له بئراً وأرضين معها وكتب له بذلك ومات في مرجعه.

وفي هذه السنة ادعى مسيلمة النبوة وأنه أشرك مع رسول الله ﷺ الأمر، وكتب إليه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك فإنني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قریش قوم لا يعدلون، وكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب! سلام على من اتبع الهدى؟ أما بعد فإني إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

قال الطبري: وقد قيل: إن ذلك كان بعد منصرف النبي ﷺ من حجة الوداع كما نذكر.

حجة الوداع

ثم خرج النبي ﷺ إلى حجة الوداع في خمسة ليال يقين من ذي القعدة ومعه من أشرف الناس ومائة من الإبل هدايا، ودخل مكة يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، ولقيه علي بن أبي طالب بصداقات نجران فحجج معه، وعلم ﷺ الناس مناسكهم واسترحمهم وخطب الناس بعرفة خطبته التي بين فيها ما بين، حمد الله والثناء عليه ثم قال: «أيها الناس اسمعوا قولي فإنني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كان ربا فهو موضوع: فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا إن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع كله وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً في بني لبيث، فقتله بنو هذيل فهو أول ما أبدئ من دم الجاهلية. أيها

المحمداني ويعث جرير بن عبد الله إلى ذي الكلاع وذو امران وذو ظليم من أهل ناحيته وإلى أهل نجران من عربهم ونصاراهم واعترضوا الأسود ومشوا وتنحوا إلى مكان واحد. وأخبر الأسود شيطانه بغدر قيس وفيروز ودادويه فعائبهم وهم بهم، ففروا إلى امرأته وواعدتهم أن يتقبوا البيت من ظهره ويدخلوا فيبيته، ففعلوا ذلك ودخل فيروز ومعه قيس فقتل عنقه ثم ذبحه، فنادى بالأذان عند طلوع الفجر ونادى دادويه بشعار الإسلام، وأقام وبر بن حنيس الصلاة واحتاج الناس مسلمهم وكافرهم وماج بعضهم في بعض واختطف الكثير من أصحابه صبياناً من أبناء المسلمين، ويرزوا وتركوا كثيراً من أبنائهم ثم ترأسوا في رد كل ما بيده وأقاموا يترددون فيما بين صنعاء ونجران، وخلصت صنعاء والجنود، وتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم وتنافسوا الإمارة في صنعاء، ثم اتفقوا على معاذ يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر، وكان قد أتاه خبر الواقعة من السماء فقال في غداها: قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك وهو فيروز. ثم قدمت الرسل، وقد توفي النبي ﷺ.

بعث أسامة:

ولما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع آخر ذي الحجة ضرب على الناس في شهر المحرم بعثاً إلى الشام وأمر عليهم مولاة أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم إلى الأردن من أرض فلسطين ومشارف الشام، فتجهز الناس وأوعب معه المهاجرون الأولون. فبينما الناس على ذلك ابتدأ ﷺ بشكواه التي قبضه الله فيها إلى كرامته ورحمته، وتكلم المنافقون في شأن أسامة، وبلغ الخبر بارتداد الأسود ومسيلمة، وخرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه من الصداع وقال: «إني رأيت البارحة في نومي أن في عضدي سوارين من ذهب فكرهتهما ففختهما فطارا فأولتهما هذين الكذابين: صاحب اليمامة وصاحب اليمن».

«وقد بلغني أن أقواماً تكلموا في إمارة أسامة طعنوا في إمارته لقد طعنوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه لحقيقاً بالإمارة وإنه لحقيق بها انقروا».

فبعث أسامة ف ضرب أسامة بالحرق ونهمل، ونقل رسول الله ﷺ وتوفاه الله قبل توجه أسامة.

أخبار الأسود ومسيلمة وطليحة

كان النبي ﷺ بعدما قضى حجة الوداع تحلل به السير فاشتكى وطارت الأخبار بذلك فوثب الأسود باليمن كما مر

يقوم على عمله، وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل اليمن وحضرموت، وكان قبل ذلك قد بعث على الصدقات عدي بن حاتم على صدقة طيء وأسد، ومالك بن نيرة على صدقات بني حنظلة، وقسم صدقة بني سعد بين رجلين منهم، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم ويقدم عليه بها فوافاه من حجة الوداع كما مر.

خبر العنسي

كان الأسود العنسي واسمه عبهلة بن كعب ولقبه ذو الخمار، وكان كاهناً مشعوذاً يفعل الأعاجيب ويغلب بحلاوة منطقته، وكانت داره كهف خيار بها ولد ونشأ وأدعى النبوة، وكتب مذهباً عامة فأجابوه وأوعدوا نجران فوثبوا بها وأخرجوا عمرو بن حزام وخالد بن سعيد بن العاص وأقاموه في عملها، ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأجلوه، وسار الأسود في سبعمئة فارس إلى شمر بن باذان بصنعاء فلقبه شمر بن باذان فهزمه الأسود فقتله، وغلب على ما بين صنعاء وحضرموت إلى أعمال الطائف إلى البحرين من قبل عدن، وجعل يطير استطارة الحريق وعامله المسلمون بالتيق، وارتد كثير من أهل اليمن. وكان عمرو بن معدي يكرب مع خالد بن سعيد بن العاص، فخالفه واستجاب للأسود، فسار إليه خالد ولقبه فاختلفا ضربتين فقطع خالد سيفه الصمصامة وأخذها، ونزل عمرو عن فرسه وقتك في الخيل ولحق عمرو بالأسود فولاه على مذهب وكان أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث المرادي، وأمر الأبناء إلى فيروز ودادويه وتزوج امرأة شهر بن باذان واستفحل أمره. وخرج معاذ بن جبل هارباً ومر بأبي موسى الأشعري في مارب فخرج معه ولحقا بحضرموت، ونزل معاذ في السكون وأبو موسى في السكاسك، ولحق عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بالمدينة. وأقام الطاهر بن أبي هالة ببلاد عك جبال صنعاء، فلما ملك الأسود اليمن واستفحل استخف بقيس بن عبد يغوث وفيروز ودادويه، وكانت ابنة عم فيروز هي زوجة شمر بن باذان التي تزوجها الأسود بعد مقتله واسمها آزاد. وبلغ إلى النبي ﷺ فكتب مع وبر بن عنيس إلى الأبناء وأبي موسى ومعاذ والطاهر يأمرهم فيه أن يعملوا في أمر الأسود بالغيلة أو المصادقة وبلغ عنه ما يروم عنده ديناً أو نعمة، وأقام معاذ والأبناء في ذلك فدخلوا قيس بن عبد يغوث في أمره فأجاب، ثم داخل فيروز بنت عمه زوجة الأسود فواعدته قتله، وكتب النبي ﷺ إلى عامر بن شمر

يحييرون الوفاء كما كان يحيزهم، وسكت عن الثالثة أو نسيها الرواي. وأوصى بالأنصار فقال: «إنهم كرشى وعيلتي التي أويت إليها فأكرموا كرمهم وتحاوروا عن مسيئتهم فقد أصبحتم يا معشر المهاجرين تزيدون والأنصار لا يزيدون» ثم قال: «سدوا هذه الأبواب في المسجد إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم امرأاً أفضل يداً عندي في الصحبة من أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لا تأخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة إياه وإيمان حتى يجمعنا الله عنده».

ثم ثقل به الوجد وأغمي عليه فاجتمع إليه نساؤه وبنوه وأهل بيته والعباس وعلي، ثم حضر وقت الصلاة فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة: إنه رجل أسيف لا يستطيع أن يقوم مقامك، فمر عمر فامتنع عمر، وصلى أبو بكر، ووجد رسول الله ﷺ خفة فخرج فلما أحسن به أبو بكر تأخر فجلسه رسول الله ﷺ وأقامه مكانه وقرأ من حيث انتهى أبو بكر، ثم كان أبو بكر يصلي بصلاته والناس بصلاة أبي بكر، قيل: صلوا كذلك سبع عشرة صلاة. وكان يدخل يده في القدر وهو في التزع فيسمع وجهه في الماء ويقول: «اللهم أعني على سكرات الموت» فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج إلى صلاة الصبح عاصباً رأسه وأبو بكر يصلي، فنكص عن صلاته، ورده رسول الله ﷺ بيده وصلى قاعداً على يمينه، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة فوعظهم وذكرهم، ولما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: إني أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما تحب. وخرج إلى أهله في السنع. ودخل رسول الله ﷺ في بيته فاضطجع في حجرة عائشة، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر عليه وفي يده سواك أخضر، فنظر إليه وعرفت عائشة أنه يريدته قالت: فمضته حتى لان وأعطيته إياه فاستن به ثم وضعه. ثم ثقل في حجره فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: «الرفيق الأعلى من الجنة» فعلمت أنه خير فاختار.

وفاته ﷺ

وكانت تقول: قبض رسول الله ﷺ بين سحري وغري. وذلك نصف نهار يوم الاثنين لليلتين من شهر ربيع الأول ودفن من الغد نصف النهار من يوم الثلاثاء. ونادى النعي في الناس بموته وأبو بكر غائب في أهله بالسنع، وعمر حاضر فقام في الناس فقال: إن رجلاً من المنافقين زعموا أن رسول الله ﷺ مات وأنه لم يمت وأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وليرجعن فيقطعن

ووثب مسيلم باليمامة، ثم وثب طليحة بن خويلد في بني أسد، يدعي كلهم النبوة. وحاربهم رسول الله ﷺ بالرسل والكتب إلى عماله ومن ثبت على إسلامه من قومهم أن يجيدوا في جهادهم، فأصيب الأسود قبل وفاته بيوم ولم يشغل ما كان فيه من الوجد عن أمر الله والذب عن دينه، فبعث إلى المسلمين من العرب في كل ناحية من نواحي هؤلاء الكذابين يأمرهم بجهادهم. وجاء كتاب مسيلم إليه فأجابه كما مر وجاء ابن أخي طليحة يطلب المراجعة فدعا عليه ﷺ حتى كان من حكم الله فيهم بعد وفاته ما كان.

مرضه ﷺ

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من ذلك أن الله نعى إليه نفسه بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة، ثم بداه الرجوع لليلتين بقيتا من صفر وتماذى به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استقر به في بيت ميمونة، فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له. وخرج على الناس فخطبهم وتخلل منهم وصلى على شهداء أحد واستغفر لهم، ثم قال لهم: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده». وفهمها أبو بكر فبكى، فقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: على رسلك يا أبا بكر. ثم جمع رسول الله ﷺ أصحابه فرحب بهم وعيناه تدمعان ودعا لهم كثيراً وقال: أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم واستخلفه عليكم وأردعكم إليه إني لكم نذير وبشير ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده فإنه قال لي ولكم: ﴿يَلِكُ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

ثم سأله عن مغسله، فقال: «الأدنون من أهلي» وسأله عن الكفن، فقال: في ثيابي هذه أو بياض مصر أو حلة يمانية. وسأله عن الصلاة عليه، فقال: «دعوني على سريري في بيتي على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة حتى تصلي علي الملائكة ثم ادخلوا فوجاً بعد فوج فصلوا وليبدأ رجال أهلي بيتي ثم نساؤهم» وسأله عن يدخله القبر، فقال: «أهلي» ثم قال: «اتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده» فتنازعوا وقال بعضهم إنه يهجر وقال بعضهم: أهجروا؟ يستفهم. ثم ذهبوا يعيدون عليه، ثم قال: «دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه» وأوصى بثلاث: أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأن

ولقيهم عاصم بن عدي وعويم بن ساعدة فأرادوهم على الرجوع وخفضوا عليهم الشان، فأبوا إلا أن يأتوهم فأتوهم في مكانهم ذلك فأعجلوهم عن شأنهم وغلبوهم عليه جماعاً وموعظة. وقال أبو بكر: نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره ولا تنازع في ذلك، وأنتم لكم حق السابقة والنصرة، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وقال الحباب بن المنذر بن الجموح: منا أمير ومنكم أمير وإن أبوا فإعجلوهم يامعشر الأنصار عن البلاد فبأسيا فكم دان الناس لهذا الدين وإن شئتم أعدانها جذعة أنا جذيلها المحك وعذيقها المرجب. وقال عمر: إن رسول الله ﷺ أوصانا بكم كما تعلمون ولو كنتم الأمراء لأوصاكم بشا، ثم وقعت ملاحاة بين عمر والمنذر بن الحباب، وأبو عبيدة يحفضهما ويقول: اتقوا الله يامعشر الأنصار أنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغَيّر.

فقام بشير بن سعد بن النعمان بن كعب بن الخزرج فقال: ألا إن محمداً من قريش وقومه أحق وأولى، ونحن وإن كنا أولي فضل في الجهاد وسابقة في الدين، فما أردنا بذلك إلا رضى الله وطاعة نبيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضاً، ولا نستطيل به على الناس. فقال الحباب بن المنذر: نفست والله عن ابن عمك يابشير. فقال: لا والله! ولكن كرهت أن أنازع قوماً حقهم. فأشار أبو بكر إلى عمر وأبو عبيدة فامتما وباعا أبا بكر وسبقهما إليه بشير بن سعد، ثم تناجى الأوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حضير أحد النقباء وكرهوا إمارة الخزرج عليهم وذهبوا إلى بيعة أبي بكر فبايعوه، وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عباد، فقال ناس من أصحابه: اتقوا سعداً ولا تقتلوه. فقال عمر: اقتلوه قتله الله. وتماسكا فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر الفرق هنا أبلغ. فأعرض عمر ثم طلب سعداً في البيعة فأبى وأشار بشير بن سعد بتركه، وقال: إنما هو رجل واحد، فأقام سعد لا يجتمع معهم في الصلاة ولا يفيض معهم في الحديث حتى هلك أبو بكر. ونقل الطبري أن سعداً بايع يومئذ، وفي أخبارهم أنه لحق بالشام فلم يزل هنالك حتى مات وأن الجن قتله وينشدون البيتين الشهيرين وهما

نحن قلنا سيد الخزرج سعد بن عباد
فرميناه بسبه مين فلم نخط فواده

أبدي رجال وأرجلهم. وأقبل أبو بكر وقد بلغه الخبر فدخل على رسول الله ﷺ فكشف عن وجهه وقبّله وقال: بأبي أنت وأمي قد ذقت الموة التي كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موته أبداً. وخرج إلى عمر وهو يتكلم، فقال: أنصت! فأبى، وأقبل على الناس يتكلم فجاؤوا إليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية. فكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية في المنزل قال عمر: فما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت إلى الأرض ما تحملي رجلاي وعرفت أنه قد مات، وقيل: تلا معها: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ الآية. وبينما هم كذلك إذ جاء رجل يسمى مجبر الأنصار أنهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبايعوا سعد بن عباداً يقولون: منا أمير ومن قريش أمير، فانطلق أبو بكر وعمر وجماعة المهاجرين إليهم، وأقام علي والعباس وابناه الفضل وشمس وأسماء بن زيد يتولون تجهيز رسول الله ﷺ، فغسله علي مسنده إلى ظهره والعباس وابناه يقبّونه معه وأسماء وشقران يصبان الماء وعلي بذلك من وراء القميص لا يفضي إلى بشرته بعد أن كانوا اختلفوا في تجهيزه، ثم أصابهم سنة فخففوا وسمعوا من وراء البيت أن اغسلوه وعليه ثيابه ففعلوا، ثم كفنوه في ثوبين صحرارين وبرد حبرة أدرج فيهن إدراجاً، واستدعوا حضارين أحدهما يلحد والآخر يشق، ثم بعث إليهما العباس رجلين وقال: اللهم اغفر لرسولك فجاء الذي يلحد وهو أبو طلحة زيد بن سهل كان يحفر لأهل المدينة فلحد لرسول الله ﷺ. ولما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته واختلفوا أيدفن في مسجده أو بيته، فقال أبو بكر: سمعته ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا يدفن حيث قبض « فرفع فراشه الذي قبض عليه وحفر له تحته، ودخل الناس يصلون عليه أفواجا الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد لا يؤم أحدهم أحداً، ثم دفن من وسط الليل ليلة الأربعاء وعن عائشة توفي لاثني عشر ليلة من ربيع الأول فكمملت سنو الهجرة عشر سنين كواصل، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة وقبل خمس وستين سنة وقيل ستين.

خبر السقيفة

ولما قبض رسول الله ﷺ إرتاح الحاضرون لفقده حتى ظن بعضهم أنه لم يموت، واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يبايعون سعد بن عباد وهم يرون أن الأمر لهم بما أووا ونصروا، وبلغ الخبر إلى أبي بكر وعمر فجاؤوا إليهم ومعهم أبو عبيدة

الخبر عن الخلافة الإسلامية في هذه الطبقة

وما كان منها من الردة والفتوحات وما

حدث بعد ذلك من الفتن والحروب في

الإسلام ثم الاتفاق والجماعة

لما قبض رسول الله ﷺ وكان أمر السقيفة كما قدمناه، أجمع المهاجرون والأنصار على بيعة أبي بكر ولم يخالف إلا سعد إن صح خلافه فلم يلتفت إليه لشذوذه. وكان من أول ما اعتمده إنفاذ بعث أسامة، وقد ارتدت العرب إما القبيلة مستووعة وإما بعض منها، ونجم النفاق والمسلمون كالغنم في الليلة الممطرة لقتلهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم، ووقف أسامة بالناس ورغب من عمر التخلف عن هذا البعث والمقام مع أبي بكر شفقة من أن يدهمه أمر، وقالت له الأنصار: فإن أبي إلا المضي فليول علينا أسن من أسامة. فأبلغ عمر ذلك كله أبا بكر فقام وقعد وقال: لا أترك أمر رسول الله ﷺ حتى أخرج أو أنفذه. ثم خرج حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وأذن لعمر في الشخوص، وقال: أوصيكم بعشر فاحفظوها علي: لا تحزنوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ولا تفرقوا غلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل، وإذا مرمز قوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهوم وما فرغوا أنفسهم له، وإذا لقيتم أقواماً فحسوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصايب فاضربوا بالسيف ما فحسوا عنه. فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله عليه وكلوا ترفعوا باسم الله.

يا أسامة! اصنع ما أمرك به نبي الله أبدأ ببلاد قضاة ثم أنت أفل ولا تقصر بشيء من أمر رسول الله ﷺ. ثم ودعه من الحرف ورجع. وقد كان بعث معه من القبائل حول المدينة الذين لهم الهجرة في ديارهم وحبس من بقي منهم فصار مسالحو حول قبائلهم ومضى أسامة مغذاً وانتهى لما أمره به النبي ﷺ، وبعث الجنود في بلاد قضاة وأغار على أبني فسي وغنم ورجع لأربعين يوماً وقيل لسبعين، ولم يحدث أبو بكر في غيبه شيئاً، وقد جاء الخبر بارتداد العرب عامة وخاصة إلا قريشاً وثقيفاً، واستغلظ أمر مسيلمة واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد وارتدت غطفان وتوقفت هوازن فأمسكوا الصدقة، وارتد خواص من بني سليم وكذا سائر الناس بكل مكان. وقدمت رسل النبي ﷺ من اليمن واليمامة وبني أسد من الأمراء من كل مكان بانتقاض العرب عامة

أو خاصة، وحاربهم بالكتب والرسل وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة، فعاجلته عيس وذبيان ونزلوا في الأبرق ونزل آخرون بسذي القصة ومعهم خبال من بني أسد ومن انتسب إليهم من بني كنانة، وبعثوا وفداً إلى أبي بكر نزلوا على وجوه الناس يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة، فأبى أبو بكر من ذلك، وجعل على انقباب المدينة علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود، وأخذ أهل المدينة يحضرون المسجد، ورجع وفد المرتدين وأخبروا قومهم بقله أهل المدينة فأغاروا على من كان بانقباب المدينة، فبعثوا إلى أبي بكر فخرج في أهل المسجد على التواضع، فهربوا والمسلمون في اتباعهم إلى ذي خشب، ثم نفروا إلى المسلمين بلعبات اتخذوها فنفرت ورجعت بهم وهم لا يملكونها إلى المدينة ولم يصيبهم شيء، وظن القوم بالمسلمين الوهن فبعثوا إلى أهل ذي القصة يستقدمونهم. ثم خرج أبو بكر في التبعية وعلى ميمته النعمان بن مقرن وعلى مسيرته عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة سويد بن مقرن، وطلع عليهم مع الفجر واقتتلوا فما ذر قرن الشمس إلا وقد هزموهم وغنموا ما معهم من الظهر وقتل خبال، واتبهم: أبو بكر إلى ذي القصة فجهز بها النعمان بن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة، ووثب بنو ذبيان وعيس على من كان فيهم من المسلمين فقتلوهم وفعل ذلك غيرهم من المرتدين، وحلف أبو بكر ليقتلن من المشركين مثل من قتلوه من المسلمين وزيادة. واعتز المسلمون بوقعة أبي بكر وطرقت المدينة صدقات. وقدم أسامة فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وخرج في نفر إلى ذي خشب وإلى ذي قصة ثم سار حتى نزل على أهل الريدة بالأبرق وبها عيس وذبيان وبنو بكر من كنانة وثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة، فاقتتلوا وانهزم القوم، وأقام أبو بكر على الأبرق، وحرم تلك البلاد على بني ذبيان ثم رجع إلى المدينة.

ردة اليمن

توفي رسول الله ﷺ وعلى مكة وبني كنانة عتاب بن أسيد، وعلى الطائف وأرضها عثمان بن أبي العاص على المدبر، ومالك بن عوف على الوير، وعلى عجز هوازن عكرمة بن أبي جهل، وعلى نجران وأرضها عمرو بن حزام على الصلاة، وأبو سفيان بن حرب على الصدقات، وعلى ما بين زمع وزبيد إلى نجران خالد بن سعيد بن العاص، وعلى همدان كلها عامر بن شعمر الهمداني، وعلى صنعاء فيروز الديلمي ومسانده دادويه وقيس بن مكشوح المرادي ورجعوا إليها بعد مقتل الأسود، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى مارب أبو موسى الأشعري، وعلى

وجعله بحiale.

وكانت كندة قد ارتدوا وتابعوا الأسود العنسي بسبب ما وقع بينهم وبين زياد الكندي في أمر فريضة من فرائض الصدقة أطلقها بعض بني عمرو بن معاوية بعد أن وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً، فقاتلهم زياد وهزمهم، فاتفق بنو معاوية على منع الصدقة والردة إلا شراحيل بن السمط وابنه، وأشير على زياد بمعالجتهم قبل أن ينضم إليهم بعض السكاسك وحضرموت، وأبضعه وجد ومشرح ونخوس وأختهم العمدة، وهرب الباقون ورجع زياد بالسبي والغنائم، ومر بالأشعث بن قيس وبني الحرث بن معاوية واستغاثت نساء السبي فسار الأشعث وتنفذهم، ثم جمع بني معاوية كلهم ومن أطاعه من السكاسك وحضرموت وأقام على رده. وكان أبو بكر قد حارب أهل الردة أولاً بالكاتب كما حاربهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن رجس أسامة بن زيد ثم كان أول مصارم فخرج إلى الأبرق واستنفر من لم يرتد إلى من ارتد وابتدأ بالمهاجرين والأنصار، ثم استنفر كلاً على من يليه حتى فرغ من آخر أمور الناس لا يستعين بمرتد، وكتب إلى عتاب بن أسيد بمكة وعثمان بن أبي العاص بالطائف بركوب من ارتد ممن لم يرتد وثبت على الإسلام من أهل عملها. وقد كان اجتمع بتهامة وشباب من مدليج وخزاعة، فبعث عتاب إليهم ففرقهم وقتلهم. واجتمع بشنوة جمع من الأزد وخثعم وبجيلة فبعث إليهم عثمان بن أبي العاص من فرقهم وقتلهم. واجتمع بطريق الساحل من تهامة جموع من عك والأشعرين فسار إليهم الظاهر بن أبي هالة ومعه مسروق العكي فهزمهم وقتلهم، وأقام بالأجناد يتظر أمر أبي بكر ومعه مسروق العكي. وبعث أهل نجران من بني الأفعى الذين كانوا بها قبل بني الحرث وهم في أربعين ألف مقاتل، وجاء وقدهم يطلبون إمضاء العهد الذي بأيديهم من النسي، فأمضاه أبو بكر إلا ما نسخه الوحي بأن لا يترك دينان بأرض العرب.

ورجعت رسل النبي ﷺ الذين كان بعثهم عند انتفاض الأسود العنسي وهم: جرير بن عبد الله والأقرع ووبر بن نخس فرد أبو بكر جريراً، ليستنفر من ثبت على الإسلام على من ارتد ويقاتل خثعم الذين غضبوا لهدم ذي الخليفة فيقتلهم ويقسم بنجران، ففد ما أمره به، ولم ير به أحد إلا رجال قليل تبعهم بالقتل، وسار إلى نجران.

وكتب أبو بكر إلى عثمان بن أبي العاص أن يضرب البعوث على غياليه أهل الطائف، فضرب على كل خلاف عشرين وأمر عليهم أخاه.

الأشعرين وعك الطاهر بن أبي هالة، وعلى حضرموت زياد بن ليبيد البياض وعكاشة بن ثور بن أصغر العوثي، وعلى كندة المهاجر بن أبي أمية، وقد كان رسول الله ﷺ غضب عليه في غزوة تبوك فاسترضته له أم سلمة وولاه على كندة، ومرض فلم يصل إليها، وأقام زياد بن ليبيد ينوب عنه. وكان معاذ بن جبل يعلم القرآن باليمن ينتقل على هؤلاء في أعمالهم.

وثار الأسود في حياة رسول الله ﷺ وحاربه بالرسول وبالكاتب فقتله الله وعاد الإسلام في اليمن كما كان، فلما بلغه الموت انتقضت اليمن وارتد أهلها في جميع النواحي وكانت الغالبة من جند العنسي بين نجران وصنعاء لا يأوون إلى أحد، ورجع عمرو بن حزام إلى المدينة واتبعه خالد بن سعيد، وكان عمرو بن معديكرب بالجبال حيال فروة بن مسيك وابن مكشوح وتحيل في قتل الأبناء فيروز دادويه وخشنش والاستبداد بصنعاء، وبعث إلى الغالبة من جيش الأسود يغريهم بالأبناء ويعلمهم المظاهرة عليهم فجاءوا إليه، وخشي الأبناء غائلتهم وفزعوا إليه فأظهر لهم المناصحة، وهيا طعاماً فجمعهم له ليغدر بهم، فظفر منهم بدادويه وهرب فيروز وخشنش وخرج قيس في أثرهما، فامتنعاً بمحولان أخوال فيروز وثار قيس بصنعاء وجى ما حولها وجمع الغالبة من جنود الأسود إليه، وكتب فيروز إلى أبي بكر بالخبر، فكتب له بولاية صنعاء، وكتب إلى الطاهر بن أبي هالة بإعانتته، وإلى عكاشة بن ثور بأن يجمع أهل تهامة ويقوم بمكانة، وكتب إلى ذي الكلاع سميح وذو ظليم حوشب، وذو تيان شهر بإعانة الأبناء وطاعة فيروز وإن الجند يأتهم. وأرسل إليهم قيس بن مكشوح يغريهم بالأبناء، فاعتزل الفريقان واتبعت عوامهم قيس بن مكشوح في شأنه، وعمد قيس إلى عيلات الأبناء الذين مع فيروز فغر بهم وأخرجهم من اليمن في البر والبحر وعرضهم للنهب.

فأرسل فيروز إلى بني عقيل بن ربيعة وإلى عك يستصرخهم، فاعترضوا عيال فيروز والأبناء الذين معه فاستنفذهم وقتلوا من كان معه، وجاءوا إلى فيروز فقاتلوا معه قيس بن مكشوح دون صنعاء فهزموه، ورجع إلى المكان الذي كان به مع فالة الأسود العنسي. وانضاف قيس إلى عمرو بن معديكرب وهو مرتد منذ تنبأ الأسود العنسي، وقام حيال فروة بن مسيك، وقد كان فروة وفد أسلم وكذلك قيس، واستعمل رسول الله ﷺ قيساً على صدقات مراد، وكان عمرو قد فارق قومه سعد العشيرة مع بني زبيد وأحلافها وانحاز إليهم فأسلم معهم وكان فيهم فلما انتقض الأسود، واتبعه عوام مذحج كان عمرو فيمن اتبعه، وأقام فروة فيمن معه على الإسلام فولى الأسود عمراً

إسلامه ورد عليه زوجته وقال: ليلغني عنك خيراً، ثم خلى عن القوم فذهبوا وقسم الأنفال.

بعث الجيوش للمرتدة

لما قدم أسامة يبعث الشام على أبي بكر استخلفه على المدينة ومضى إلى الرينة فهزم بني عبس وذبيان وكنانة بالأبرق ورجع إلى المدينة كما قدمناه، حتى إذا استجم جند أسامة وتاب من حوالي المدينة خرج إلى ذي القصة على بريد من تلقاء نجد، عقد فيها أحد عشر لواء على أحد عشر جنداً لقتال أهل الردة، وأمر كل واحد باستتار من يليه من المسلمين من كل قبيلة، وترك بعضها لحماية البلاد. فعقد لخالد بن الوليد وأمره لطليحة وبعده للمالك بن نويرة بالبطاح، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة واليمامة ثم أوقفه بشرحيل بن حسنة وقال له: إذا فرغت من اليمامة فسر إلى قتال قضاة المهاجر بن أبي أمية وأمره بالغالة من جنود العنسي باليمن وبإعانة الأبناء مع قيس بن مكشوح ومن معه ثم غشي إلى كندة بحضرموت، ولخالد بن سعيد بن العاص وقد كان قدم بعد الوفاة إلى المدينة من اليمن وترك عماله فيبعثه إلى مشارف الشام، ولعمرو بن العاص إلى قتال المرتدة من قضاة، ولخديفة بن محسن وعرفجة بن هرثمة فحذيفة لأهل دبا وعرفجة لمهرة وكل واحد منهما أمير في عمله على صاحبه.

ولطريقة بن حجاز وبعثه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن، ولسويد بن مقرن وبعثه إلى تهامة اليمن، وللعلاء بن الحضرمي وبعثه إلى البحرين. وكتب إلى الأمراء عهدهم بنص واحد:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بسالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانتي الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يبيحوه شن الغارة عليهم حتى يقرؤا له، ثم ينهزم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب

وكتب إلى عتاب بن أسيد أن يضرب على مكة وعملها خمسمائة بعث وأمر عليهم أخاه خالد وأقاموا ينتظرون، ثم أمر المهاجر بن أبي أمية بأن يسير إلى اليمن ليصلح من أمره ثم ينفذ إلى عمله وأمره بقتال من بين نجران وأقصى اليمن ففعل ذلك. ومر بمكة والطائف فسار معهم خالد بن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بمن معهم، ومر بجريز بن عبد الله وعكاشة بن ثور فضمهما إليه، ثم مر بنجران وانضم إليه فروة بن مسيك، وجاءه عمرو بن معديكرب وقيس بن مكشوح فأوثقهما وبعث بهما إلى أبي بكر، وسار إلى لقائه فتبعهم بالقتل ولم يؤمنهم فقتلوا بكل سبيل. وحضر قيس عند أبي بكر فحظر قتل دادويه ولم يجد أمراً جلياً في أمره، وتاب عمرو بن معديكرب واستقالا فأقالهما وردهما.

وسار المهاجر حتى نزل صنعاء وتبع ارتداد القبائل فقتل من قدر عليه وقبل توبة من رجع إليه وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء، فجاءه الجواب بأن يسير إلى كندة مع عكرمة بن أبي جهل وقد جاءه من ناحية عمان ومعه خلق كثير من مهرة والأزد وناجية وعبد القيس وقوم من مالك بن كنانة وبني العبر، وقدم أبين وأقام بها لاجتماع النخع وحمير ثم سار مع المهاجر إلى كندة، وكتب زياد إلى المهاجر يستحثه فلقبه الكتاب بالمفازة بين مارب وحضرموت، فاستخلف عكرمة على الناس وتعجل إلى زياد ونهدهوا إلى كندة وعليهم الأشعث بن قيس فهزموهم وقتلوههم وفروا إلى النجبر حصن له فتحصنوا فيه مع من استغفوه من السكاسك وشداد السكون وحضرموت وسدوا عليهم الطرق، إلا واحدة جاء عكرمة بدهم فسدها وقطعوا عنهم المدد وخرجوا مستميتين في بعض الأيام فغلبوهم وأخرجوهم. واستأمن الأشعث إلى عكرمة بما كانت أسماء بنت النعمان بن الجون تحته فخرج إليه، وجاء به إلى المهاجر وأمنه في أهله وماله وتسعة من قومه على أن يفتح لهم الباب، فافتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية فكان في السبي ألف امرأة، فلما فرغ من التجير دعا بكتاب الأمان من الأشعث وإذا هو قد كتب غرض نفسه في التسعة رجال من أصحابه، فأوثقه كثافاً وبعث به إلى أبي بكر ينظر في أمره، فقدم السبابة والأسرى، فقال له أبو بكر: أقتلك؟ قال إني راودت القوم على عشرة وأتيناهم بالكتاب مختومة، فقال أبو بكر: إنما الصلح على من كان في الصحيفة وأما غير ذلك فهو مردود. فقال يا أبا بكر: احتسب في وأقطني وأقبل لإسلامي ورد علي زوجتي، وقد كان تزوج أم فروة أخت أبي بكر حين قدم على رسول الله ﷺ وأخرها إلى أن يرجع، فأطلقه أبو بكر وقبل

إلى غطفان وأوقع بهم بذئ القصة فانضموا بعد الهزيمة إلى طليحة وبني أسد بالزخاكة وكذلك فعلت طيء وأقامت بنو عامر وهوازن ينتظرون. وصعد خالد إلى طليحة ومعه عينة بن حصن على زخاكة من مياه بني أسد وأظهر أنه يقصد خير ثم ينزل إلى سلمى وأجأ فيبدأ بطيء. وكان عدي بن حاتم قد خرج معه في الجيش فقال له: أنا أجمع لك قبائل طيء يصحبونك إلى عدوك. وسار إليهم فجاء بهم وبعث خالد عكاشة بن حصن وثابت بن أقرم من الأنصار طليحة ولقيهما طليحة وأخوه فقتلها ومسر بهما المسلمون فعظم عليهم قتلها. ثم عسى خالد كتابه وثابت بن قيس علي الأنصار وعدي بن حاتم على طيء ولقي القوم فقاتلهم، وعينة بن حصن مع طليحة في سبعمائة من غطفان، واشتد المجال بينهم وطليحة في عباءة يتكذب لهم في انتظار الرحي، فجاء عينة بعدما ضجر من القتال وقال: هل جاءك أحد بعد؟ قال: لا ثم راجعه ثانية ثم ثالثة فقال: جاء. وقال إن لك رحي كرحاه، وحديثاً لا تساه. فقال عينة: يا بني فزاره الرجل كذاب، وانصرف فانهزموا وقتل من قتل وأسلم الناس طليحة فوثب على فرسه واحتجب امرأته ففجأ بها إلى الشام، ونزل في كلب من قضاة على القمع حتى أسلمت أسد وغطفان، فأسلم ثم خرج معتمراً أيام عمر ولقيه بالمدينة فبايعه وبعثه في عساكر الشام، فأبلى في الفتح، ولم يصب من عيالات بني أسد في واقعة بزخاكة شيء، لأنهم كانوا أخرجهم في الحصون عند واسط وأسلموا خشية على ذرارهم.

خبر هوازن وسليم وبني عامر

كان بنو عامر ينتظرون أمر طليحة وما تصنع أسد وغطفان حتى أحيط بهم، وكان قرة بن هبيرة في كعب وعلمقة بن علافه في كلاب وكان علمقة قد ارتد بعد فتح الطائف، ولما قبض النبي ﷺ رجع إلى قومه، وبلغ أبا بكر خبره فبعث إليه سرية مع القعقاع بن عمرو من بني غنم فأغار عليهم، فأفلت وجاء بأهله وولده وقومه فأسلموا. وكان قرة بن هبيرة قد لقي عمرو بن العاص منصرفه من عمان بعد الوفاة وأضافه وقال له: اتركوا الزكاة فإن العرب لا تدين لكم بالأناوة، فغضب لها عمرو وأسمعه وأبلغها أبا بكر، فلما أوقع خالد ببني أسد وغطفان وكانت هوازن وسليم وعامر ينتظرون أمرهم فجاءوا إلى خالد وأسلموا وقبل منهم الإسلام، إلا من عدا على أحد من المسلمين أيام الردة فإنه تسبهم فأحرق وقحط ورضخ بالحجارة ورمى من رؤوس الجبال، ولما فرغ من أمر بني عامر أوثق عينة بن حصن

إلى داعية الله قتل وقتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه، ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران. ثم قسم ما آفاه الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وأن يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنازل ويتقدمهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول انتهى.

وكتب إلى كل من بعث إليه الجنود من المرتدة كتاباً واحداً في نسخ كثيرة على يد رسل تقدموا بين أيديهم نصه بعد البسملة: هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع إلى الضلالة والهوى، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأومن بما جاء به وأكفر من أبى وأجاهده أما بعد: ثم قرر أمر النبوة ووفاة رسول الله ﷺ وأطنب في الموعظة ثم قال: وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ثم لا يبق على أحد منهم هدر عليه، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل جمع لكم والداعية للأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا فكفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فأسألوهم بما عليهم فإن أبو عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم انتهى. فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وخرجت الأمراء ومعهم العهود وكان أول ما بدأ به خالد طليحة وبني أسد.

خبر طليحة

كان طليحة قد ارتد في حياة رسول الله ﷺ وكان كاهناً فادعى النبوة واتبعه أفريق من بني إسرائيل ونزل سميراء، وبعث رسول الله ﷺ ضرار بن الأزور إلى قتاله مع جماعة، فاجتمع عليهم المسلمون وهم ضرار بمناجزته، فأتى الخبر بموت النبي ﷺ فاستطار أمر طليحة واجتمعت إليه غطفان وهوازن وطيء، وفر ضرار ومن معه من العمال إلى المدينة وقدمت وفودهم على أبي بكر في المواعدة على ترك الزكاة فأبى من ذلك، وخرج كما قدمناه

الجموع قاصدة المدينة لتغزو أبا بكر والمسلمين، وانتهت إلى الحرف فدهم بني تميم أمر عظيم لما كانوا عليه من اختلاف الكلمة، فوادعها مالك بن نويرة وثناها عن الغزو وحرضها على بني تميم فقروا أمامها، ورجع إليها وكيع بن مالك واجتمعت الرباب وضبة فهزموا أصحاب سجاح أسروا منهم، ثم اصطلحوا.

وسارت سجاح فيمن معها تريد المدينة فبلغت النجاف فاعترضهم بنو النجيم فيمن تأشب إليهم من بني عمرو وأغاروا عليهم فأسروا الهذيل وعقبة، ثم تحاجزوا على أن تطلق أسراهم ويرجعوا ولا يجتازوا عليهم، ورجع عن سجاح مالك بن نويرة وكيع بن مالك إلى قومهم ويشت سجاح وأصحابها من الجواز عليهم، ونهدت إلى بني حنيفة، وسار معها من تميم الزريقان بن بدر وعطار بن حاجب وعمرو بن الأهثم وغيلان بن حريث وشيت بن ربيعي ونظراؤهم، وصانعها مسيلمة بما كان فيه من مزاحمة ثمامة بن إثال له في اليمامة. وزحف شرحبيل بن حسنة والمسلمون إليه فاهدى لها واستأمنها وكانت نصرانية أخذت الدين من نصارى تغلب، فقال لها مسيلمة: نصف الأرض لنا ونصف الأرض لقريش لكنهم لم يعدلوا فقد جعلت نصفهم لك. ويقال إنها جاءت إليه واستأمنته وخرج إليها من الحصن إلى قبة ضربت لها بعد أن جرهما فدخل إليها وتحرك الحرث حوالي القبة وسجع لها وسجعت له من أسجاع القرية، فشهدت له بالنبوة وخطبها لنفسه فتزوجته وأقامت عنده ثلاثاً ورجعت إلى قومها، فغذلوها في التزويج على غير صداق فرجعت إليه فقال لها: نادي في أصحابك إني وضعت عنهم صلاة الفجر والعتمة مما فرض عليهم محمد، وصالحته على أن يحمل لها النصف من غلات اليمامة فأخذته وسألت أن يسلفها النصف للعام القابل، ودفعت الهذيل وعقبة لقبضه فهم على ذلك، وإذا بخالد بن الوليد وعساكره قد أقبلوا فانقضت جموعهم وافترقوا، ولحقت سجاح بالجيزة فلم تزل في بني تغلب حتى نقل معاوية عام الجماعة بني عقفان عشرينها إلى الكوفة، وأسلمت حيثئذ سجاح وحسن إسلامها.

ولما افرق وفد الزريقان والأقرع على أبي بكر وقالوا: إجعل لنا خراج البحرين ونحن نضمن لك أمرها ففعل وكتب لهم بذلك، وكان طلحة بن عبيد الله يتردد بينهم في ذلك، فجاء إلى عمر ليشهد في الكتاب فمزقه وعماه وغضب طلحة، وقال لأبي بكر رضي الله عنه: أنت الأمير أم عمر رضي الله عنه؟ فقال عمر: غير أن الطاعة لي! وشهد الأقرع والزريقان مع خالد اليمامة والمشاهد كلها. ثم مضى الأقرع مع شرحبيل إلى دومة.

وقرة بن هبيرة وبعث بهما إلى أبي بكر فتجاوز لهما وحقق دماهما.

ثم اجتمعت قبائل غطفان إلى سلمى بنت مالك بن حذيفة من بدر بن ظفر في الحوآب فنزلوا إليها وتذمروا، وكانت سلمى هذه قد سببت قبل وأعتقتها عائشة وقال لها النبي ﷺ يوماً وقد دخل عليها وهي في نسوة بيت عائشة فقال: «إن إحداكن تستنبح كلاب الحوآب» وفعلت ذلك سلمى حين ارتدت واجتمعت إليها الفلال من غطفان، وهوازن وسليم وطىء وأسد، وبلغ ذلك خالداً وهو يتبع الثأر ويأخذ الصدقات، فسار إليهم وقتلهم وسلمى واقفة على جملها حتى عقد وقتلت، وقتل حول هودجها مائة رجل، فانهزموا وبعث خالد بالفتح على أثره بعده بعشرين ليلة.

وأما بنو سليم فكان الفجاءة بن عبد يا ليل قدم على أبي بكر ليستعينه بسلاح مدعيًا إسلامه ويضمن له قتال أهل الردة فأعطاه وأمره، وخرج إلى الجون وارتد وبعث نجبة بن أبي المنشى من بني الشريد، وأمره بشن الغارة على المسلمين في سليم وهوازن. فبعث أبو بكر إلى طريفة بن حاجر قائده على جرهم وأعانه بعد الله بن قيس الحاسبي فنهضا إليه ولقياه، فقتل تحته وهرب الفجاءة فلحقه طريفة فأسره وجاء به إلى أبي بكر فاوّد له في مصلى المدينة خطباً ثم رمى به في النار مقموطاً، وفاءت بنو سليم كلهم وفاء معهم أبو شجرة بن عبد العزى أبو الحسناء وكان فيمن ارتد.

خبر بني تميم وسجاح

قبض رسول الله ﷺ وعماله في بني تميم الزريقان بن بدر على الرباب وعوف والأبناء وقيس بن عاصم على المقاعس والبطون وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بني عمرو وكيع بن مالك على بني مالك ومالك بن نويرة على بني حنظلة، فجاء صفوان إلى أبي بكر حين بلغته الوفاة بصدقات بني عمرو، وجاء الزريقان بصدقات أصحابه، وخالفه قيس بن عاصم في المقاعس والبطون، لأنه كان ينتظره، وبقي من أسلم منهم متشاعلاً بمن تربص أو ارتاب. وبينما هم على ذلك فجأتهم سجاح بنت الحارث بن سويد من بني عقفان أحد بطون تغلب وكانت تنبأت بعد الوفاة، واتبعها الهذيل بن عمران من بني تغلب وعقبة بن هلال في النمر والسليل بن قيس في شيبان وزباد بن بلال وكان الهذيل نصرانياً فترك دينه إلى دينها، وأقبلت من الجزيرة في هذه

خبر البطاح ومالك بن نورة

ثم جاء خليط من عند أبي بكر مدداً لخالد ليكون رداً له من خلفه ففرت جموع كانت تجمعت هنالك من فلال سجاح، وكان مسيلمة قد جعل لهم جعلاً. وكان الرجال بن عفوة من أشراف بني حنيفة شهد لمسيلمة بأن رسول الله ﷺ أشركه معه في الأمر لأن الرجال، كان قد هاجر وأقام مع رسول الله ﷺ وقرأ القرآن وتفق في الدين فلما ارتد مسيلمة بعثه النبي ﷺ معلماً لأهل البمامة ومشغباً على مسيلمة فكان أعظم فتنة على بني حنيفة منه. واتبع مسيلمة على شأنه وشهد له وكان يؤذن لمسيلمة ويشهد له بالرسالة بعد النبي ﷺ، فعظم شأنه فيهم وكان مسيلمة ينتهي إلى أمره، وكان مسيلمة يسجع لهم بأسجاع كثيرة يزعم أنها قرآن يأتيه، ويأتي بمخارق يزعم أنها معجزات فيقع منها ضد المقيصود. ولما بلغ مسيلمة وبني حنيفة دنو خالد، خرجوا وعسكروا في متبى ريف اليمن واستغفروا الناس فنفروا إليهم، وأقبل خالد ولقيه شرحبيل بن حسنة فجعله على مقدمته، حتى إذا كان على ليلة من القوم هجموا على جماعة في سرية أربعين أو ستين راجعين من بلاد بني عامر وبني تميم يشارون فيهم فوجدوهم دون ثنية البمامة فقتلوهم أجمعين، وقيل له استبق جماعة بن مسرارة إن كنت تريد البمامة فاستبق.

ثم سار خالد ونازل بني حنيفة ومسيلمة والرجال على مقدمة مسيلمة واشتدت الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد، وجماعة بها أسير مع أم متمم زوجة خالد، فدافعهم عنها جماعة وقالت: نعمت الحرة. ثم تراجع المسلمون وكروا على بني حنيفة فقال الحكم بن الطفيل: ادخلوا الحديقة يا بني حنيفة فإني أمتع أدياركم، فقاتل ساعة ثم قتله عبد الرحمن بن أبي بكر، ثم تذامر المسلمون وقاتل ثابت بن قيس فقتل ثم زيد بن الخطاب ثم أبو حذيفة ثم سالم مولاه ثم البراء أخو أنس بن مالك وكان تأخذه عند الحرب رعدة حتى يتنفض ويقعد عليه الرجال حتى يول، ثم يثور كالأسد فقاتل وفعل الأفاعيل.

ثم هزم الله العدو وأجأهم المسلمون إلى الحديقة وفيها مسيلمة فقال البراء: القوني عليهم من أعلى الجدار فائقمهم، وقاتلهم من أعلى الحديقة ودخل المسلمون عليهم، وقتل مسيلمة وهو مزيد متساند لا يعقل من الغيظ، وكان زيد بن الخطاب قتل الرجال بن عفوة. وكان خالد لما نزل بني حنيفة ومسيلمة ودارت الرحى عليه طلب البراء فقتل جماعة، ثم دعا مسيلمة للبراز والكلام فحادثة فحاول فيه غرة وشيطانه يوسوس إليه، ثم ركبته خالد فأرهقه وأدبروا وزالوا عن مراكزهم وركبهم المسلمون فانهزموا.

لما انصرفت سجاح إلى الجزيرة وراجع بنو تميم الإسلام أقام مالك بن نورة متحيراً في أمره واجتمع إليه من تميم بنو حنظلة واجتمعوا بالبطاح، فسار إليهم خالد بعد أن تساعد عنه الأنصار يسألونه انتظار كتاب أبي بكر، فأبى إلا انتهاز الفرصة من هؤلاء، فرجعوا إلى اتباعه ولحقوا به. وكان مالك بن نورة لما تردد في أمره فرق بني حنظلة في أموالهم ونهاهم عن القتال ورجع إلى منزله، ولما قدم خالد بعث السرايا يدعون إلى الإسلام ويأتون بمن لم يجب وأن يقتلوه، فجاءوا بمالك بن نورة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع واختلفت السرية فيهم، فشهد أبو قتادة أنهم أذنوا وصلوا فحبسهم عند ضرار بن الأزور وكانت ليلة عطرة فنادى مناديه أن ادفنوا أسراكم وكانت في لغة كناية عن القتل فبادر ضرار بقتلهم وكان كنانياً. وسمع خالد الداعية فخرج متأسفاً وقد فرغوا منهم، وأنكر عليه أبو قتادة فزجروه خالد، فغضب ولحق بأبي بكر ويقال: إنهم لما جاءوا بهم إلى خالد خاطبه مالك بقوله: فعل صاحبكم شأن صاحبكم فقال له خالد: أوليس لك بصاحب؟ ثم قتله وأصحابه كلهم ثم قدم خالد على أبي بكر وأشار عمر أن يقيد منه بمالك بن نورة أو يعزله فأبى، وقال: ما كنت أشيم سيفاً سله الله على الكافرين، وودى مالكا وأصحابه ورد خالداً إلى عمله.

خبر مسيلمة واليمامة

لما بعث أبو بكر رضي الله عنه عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب واتبعه شرحبيل استعجل عكرمة فانهزم وكتب إلى أبي بكر بالخبر، فكتب إليه لا ترجع فتوهن للناس وامض إلى حذيفة وعرفجة فقاتلوا مهرة وأهل عمان فإذا فرغتم فامض أنت وجنودك واستغفروا من مرتب عليه حتى تلقوا المهاجر بن أمية باليمن وحضرموت، وكتب إلى شرحبيل أن يمضي إلى خالد فإذا فرغتم فامض أنت إلى قضاة فكن مع عمرو بن العاص على من ارتد منهم. ولما فرغ خالد من البطاح ورضي عنه أبو بكر بعثه نحو مسيلمة وأوعب معه الناس، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن عازب، وتعجل خالد إلى البطاح وانتظر البعوث حتى قدمت عليه، فنهض إلى اليمامة وينو حنيفة يومئذ كثير يقال أربعون ألف مقاتل متفرقين في قراها وحجرها، وتعجل شرحبيل كما فعل عكرمة بقتال مسيلمة فنكس وجاء خالد فلامه على ذلك.

ردة الحطم وأهل البحرين

لما فرغ خالد من اليمامة ارتحل إلى واد من أوديتها وكانت عبد القيس ويكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة قد ارتدوا بعد الوفاة وكذلك المنذر بن ساوى من بعدها بقليل، فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المعلّى وكان قد وفد وأسلم ودعا قومه فأسلموا فلما بلغهم خبر الوفاة ارتدوا وقالوا: لو كان نبياً ما مات فقال لهم الجارود: تعلمون أن الله أنبياء من قبله ولم تروهم وتعلمون أنهم ماتوا وعهد الله قدامهم ثم تشهد فتشهدوا معه وثبوا على إسلامهم، وخلوا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوى والمسلمين.

وقال ابن إسحاق: كان أبو بكر بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر وقد كان رسول الله ﷺ ولاء فلما كانت الوفاة وارتدت ربيعة ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر - وكان يسمى المغرور - فأقاموه ملكاً كما كان قومه بالحيرة، وثبت الجارود وعبد القيس على الإسلام واستمر بكر بن وائل على الردة، وخرج الحطم بن ربيعة أخو بني قيس بن ثعلبة حتى نزل بين القطيف وهجر، وبعث إلى دارين فأقاموا فجعل عبد القيس بينه وبينهم، وأرسل إلى المغرور بن سويد أخو النعمان بن المنذر وبعثه إلى جوائى وقال: أثبت فإن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة، فحاصره المسلمون بجوائى.

وجاء العلاء بن الحضرمي لقتال أهل الردة بالبحرين ومصر باليمامة فاستقر ثمانية بن أثال في مسلمة بني حنيفة وكان متردداً، وألحق عكرمة بعمان ومهرة، وأمر شرحبيل بالمقام حيث هو يغاور مع عمرو بن العاص أهل الردة من قضاة، عمرو يغاور سعداً ويلق وشرحبيل يغاور كلباً ولفها.

ثم مر ببلاد بني غيم فاستقبله بنو الرباب وبنو عمر ومالك بن نيرة بالبطح يقاتلهم ووکیع بن مالك يواقف عمرو بن العاص وقيس بن عاصم من المقاص، والبطون يواقفون الزبرقان بن بدر والأبناء وعوف وقد أطاعوه على الإسلام وحفظوا متوقفون. فلما رأى قيس بن عاصم يلقى الرباب وعمرو العلاء وقدم وجاء بالصدقات إلى العلاء وخرج معه لقتال البحرين، فسار مع العلاء من بني غيم مثل عسكره ونزل هجر وبعث إلى الجارود أن ينزل بعبد القيس الحطم وقومه مما يليه، فاجتمع المشركون إلى الحطم إلا أهل دارين، والمسلمون إلى العلاء، وخندقوا واقتتلوا وسمعوا في بعض الليالي ضوضاء شديدة - أي جلبة وصياحاً - ويعتروا من يأتيهم بخيرها فجاءهم بأن القوم سكارى، فبيتهم

وتطايير الناس عن مسلمة بعد أن قالوا: أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا على أحسابكم. وأتاه وحشي فرماه بحريه فقتل.

واقتحم الناس عليه حديقة الموت من حيطانها وأبوابها فقتل فيها سبعة عشر ألف مقاتل من بني حنيفة، وجاء خالد بمجاعة ووقفه على القتلى ليريه مسلمة فمر بمحكم فقال: هوذا! فقال مجاعة: هذا والله خير منه، ثم أراه مسلمة وهو رجل ذميم أخيس، فقال خالد: هذا الذي فعل فيكم ما فعل، فقال مجاعة: قد كان ذلك وإنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس وإن جماهيرهم في الحصون فهلم أصالحك على قومي.

وقد كان خالد التقط من دون الحصون ما وجد من مال ونساء وصبيان ونادى بالنزول عليها فلما قال له مجاعة ذلك قال له: أصالحك على ما دون النفوس. وانطلق يشاوره فافرح السلاح على النساء ووقفن بالسور ثم رجع إليه وقال: أبوا أن يجيزوا ذلك، ونظر خالد إلى رؤوس الحصون قد اسودت والمسلمون قد نهكتهم الحرب وقد قتل من الأنصار ما ينيف على الثلاثمائة والستين، ومن المهاجرين مثلها ومن التابعين لهم مثلها أو يزيدون، وقد فشت الجراحات فيمن بقي، فجنح إلى السلم فصالحه على الصفراء والبيضاء، ونصف السبي والحلقة وحائط ومزرعة من كل قرية، فأبوا فصالحهم على الربع فصالحوه. وفتحت الحصون فلم يجد فيها إلا النساء والصبيان

فقال خالد: خذعتي يا مجاعة فقال: قومي! ولم أستطع إلا ما صنعت ففقد لهم وخيرهم ثلاثاً فقال له سلمة بن عمرو لا تقبل صلحاً ونعتصم بالحصون ونبعث إلى أهل القرى فالطعام كثير والشتاء قد حضر، فتشام مجاعة برأيه وقال لهم: لولا أنني خدعت القوم ما أجابوا إلى هذا، فخرج معه سبعة من وجوه القوم وصالحوا خالداً وكتب لهم وخرجوا إلى خالد للبيعة والبراءة مما كانوا عليه.

وقد أضمر سلمة بن عمرو الفتك بخالد فطرده حين وقعت عينه عليه وأطلع أصحابه على عذره فأوثقوه وحبسوه ثم أفلت فأتبعوه وقتلوه. وكان أبو بكر بعث إلى خالد مع سلمة بن وقش إن أظفره الله أن يقتل من جرت عليه الموسى من بني حنيفة، فوجده قد صالحهم فأتى عقده معهم، ووفى لهم وبعث وفداً منهم إلى أبي بكر بإسلامهم قبلهم وسألهم عن أسجاع مسلمة فقصرها عليه، فقال: سبحان الله هذا الكلام ما خرج إلا من إني أر برّ فإن يذهب بكم عن أحلامكم وردهم الله إلى قومهم.

بها، وهما جيفر وعباد ابنا الجلندي، فارتد وادعى النبوة وتغلب على عُمان ودفع عنها الملكين، وبعث جيفر إلى أبي بكر بالخبر، فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن من حير وعرفجة البارقي، حذيفة إلى عمان وعرفجة إلى مهرة، وإن اجتمعا فالأمير صاحب العمل، وأمرهما أن يكتابا جيفر أو يأخذا برأيه. وقد كان بعث عكرمة إلى اليمامة ومسيلمة ووقعت عليه التكة كما مر، فأمره بالمسير إلى حذيفة وعرفجة ليقاتل معهما عمان ومهرة ويتوجه إذا فرغ من ذلك إلى اليمن، فمضى عكرمة فلحق بهما قبل أن يصلا إلى عمان، وقد عهد إليهم أبو بكر أن يتهوا إلى رأي عكرمة، فراسلوا جيفر وعباداً وبلغ لقيطاً عجيء الجيوش فعسكر بمدينة دبا وعسكر جيفر وعباد بصحار، واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة وكتبوا رؤساء الدين مع لقيط فقدموا بجيرشهم، ثم صمدوا إلى لقيط وأصحابه فقاتلهم، وقد أقام لقيط عياله وراء صفوفه، وهم المسلمون بالهزيمة حتى جاءهم مددهم من بني ناجية وعليهم الحريث بن راشد ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان فانهزم العدو وظفر المسلمون، وقتلوا نحواً من عشرة آلاف وسبوا الذراري والنساء وتم الفتح، وقسموا الأنفال وبعثوا بالخمسة إلى أبي بكر مع عرفجة وكان الخمس ثمانمائة رأس.

وأقام حذيفة بعمان وسار عكرمة إلى مهرة وقد استنفر أهل عمان ومن حولها من ناحية الأزدي وعبد القيس وبني سعيد من تميم، فاقتحم مهرة بلادهم وهم على فرقتين يتنازعا الرئاسة فأجابه أحد الفريقين، وسار إلى الآخرين فهزمهم وقتل رئيسهم، ثم أصابوا منهم القتي نحيفة. وأفاد المسلمون قوة بغنيمتهم وأجاب أهل تلك النواحي إلى الإسلام وهم أهل نجد والروضة والشاطئ والجزائر والمر واللبان وأهل جيرة وظهور الشمر والفرات وذات الحميم، فاجتمعوا كلهم على الإسلام، وبعث إلى أبي بكر بذلك مع البشير وسار هو إلى اليمن للقاء المهاجر بن أبي أمية كما عهد إليه أبو بكر.

بعوث العراق وصلح الحيرة

ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث إليه أبو بكر في المحرم من سنة اثنتي عشرة فأمره بالمسير إلى العراق ومرج الهند وهي الأبله متهى بحر فارس في جهة الشمال قرب البصرة، فيتألف أهل فارس ومن في مملكتهم من الأمم. فسار من اليمامة وقيل قدم على أبي بكر ثم سار من المدينة، وانتهى إلى قرية بالسواد وهي باتقيا وباروسما والليس وكانت لابن صلوبا فصالحهم على عشرة

ووضعوا السيوف فيهم واقتحموا الخندق وفر القوم هرباً فتمتدرد وناج ومقتول ومأسور. وقتل قيس بن عاصم الحطيم بن ربيعة، ولحق جابر بن بجير وضربه فقطع عصبه ومات، وأسر عفيف بن المنذر المغرور بن سويد وقال للعلاء: أجرتني فقال له العلاء: أنت غررت بالناس! فقال: لكني أنا مغرور! ثم أرسل وأقام بهجر.

ويقال: إن المغرور اسمه وليس هو بلقب وقتل المغرور بن سويد بن المنذر وقسم الأنفال بين الناس، وأعطى عفيف بن المنذر وقيس بن عاصم وثمالة بن أثال من أسلاب القوم وثيابهم، وقصد القلال إلى دارين وركبوا السفن إليها ورجع الآخرون إلى قومهم.

فكتب العلاء إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل بالعودة لأهل الردة في السبل وإلى خصفة التميمي والمثنى بن حارثة بمثل ذلك، فرجعوا إلى دارين وجمعهم الله بها. ثم لما جاءته كتب بكر بن وائل وعلم حسن إسلامهم أمر أن يؤتى من خلفه على أهل البحرين.

ثم لما نذب الناس إلى دارين أن يستعرضوا البحر، فارتحلوا واقتحموا البحر على الظهر، وكلهم يدعو: يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا. ثم أجازوا الخليج بمشون على مثل رمل مشياً فوقها ما يغمر أخفاف الإبل في مسيرة يوم وليلة، فلحقوا العدو واقتلوا، وما تركوا بدارين غزيراً وسبوا الذراري واستاقوا الأموال، وبلغ نفل الفارس ستة آلاف والراجل ألفين. ورجع العلاء إلى البحرين وضرب الإسلام بهجرانه.

ثم أرجف المرجفون بأن أبا شيبان وثعلبة والحرقد جمعهم مفروق الشيباني على الردة، فوثق العلاء بأن اللهازم تفارقهم وكانوا مجمعين على نصره، وأقبل العلاء بالناس فرجعوا إلى من أحب المقام، وقتل ثمالة بن أثال فيهم. ومروا بقيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل فأروا خيصة الحطيم عليه فقالوا: هو قتله فقال: لم أقتله ولكن الأمير نقلنيها فلم يقبلوا وقتلوه. وكتب العلاء إلى أبي بكر بهزيمة أهل الخندق وقتل الحطيم قتله زيد ومسمع فكتب إليه أبو بكر أن بلغك عن بني ثعلبة ما خاض فيه المرجفون فابعث إليهم جنداً وأوصهم وشرد بهم من خلفهم.

ردة أهل عمان ومهرة واليمن

نبغ بعمان بعد الوفاة رجل من الأزدي يقال له لقيط بن مالك الأزدي يسامى في الجاهلية الجلندي فدفع عنها الملكين اللذين كانا

المنهزمون عن هرمز ومعهم قباذ وأنوشجان فتذامروا ورجعوا ونزلوا النهر، وسار إليهم خالد واقتتلوا وبرز قان فقتله معقل بن الأعشى بن النباش وقتل عاصم أنوشجان وقتل عدي قباذ، وانهزمت الفرس وقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً سوى من غرق ومنعت المياه المسلمين من طلبهم. وكانت الغنيمة عظيمة وأخذ الجزية في الفلاحين وصاروا في ذمة، ولم يقاتل المسلمين من الفرس بعد قارن أعظم منه، وتسمى هذه الوقعة بالثني وهو النهر.

ولما جاء الخبر إلى أردشير بالهزيمة بعد الأندرزغر وكان فارساً من مولد السواد فارس في أثره مع بهمن حاذويه، وحشد الأندرزغر ما بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين وعسكر بالولجة، وسار إليهم خالد فقاتلهم وصبروا، ثم جاءهم كمين من خلفهم فانهزموا ومات الأندرزغر عطشاً. وبذل خالد الأمان للفلاحين فصاروا ذمة، وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم وأصاب اثنين من نصارى بكر بن وائل أحدهما جابر بن بجير والآخر ابن عبد الأسود من عجل فأسرهما، وغضب بكر بن وائل لذلك.

فاجتمعوا على الليث وعليهم عبد الأسود العجلي، فكتب أردشير إلى بهمن حاذويه، وقد أقام بعد الهزيمة بقسيناتا يأمره بالمسير إلى نصارى العرب بالليس فيكون معهم إلى أن يقدم عليهم جابان من المرازية، فقدم بهمن على أردشير ليشاوره وخالفه جابان إلى نصارى العرب من عجل وتيم اللات وضيعة وعرب الضاحية من الحيرة وهم مجتمعون على الليث. وسار إليهم خالد حين بلغه خبرهم ولا يشعر بجابان.

فلما حط الأثقال سار إليهم وطلب المبارزة، فبرز إليه مالك بن قيس فقتله خالد، واشتد القتال بينهم وسائر المشركين يتظفرون قدوم بهمن، ثم انهزموا واستأسر الكثير منهم وقتلهم خالد حتى سال النهر بالدم وسمي نهر الدم، ووقف على طعام الأعاجم وكانوا قعوداً للأكل ففله المسلمين، وجعل العرب يتساءلون عن الرقاق يحسبونه رقاغاً. وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً. ولما فرغ من الليس سار إلى أمعشيا فغزا أهلها وأعجلهم أن يلقوا أموالهم فغنم جميع ما فيها وخربها.

فتح الحيرة

ثم سار خالد إلى الحيرة وحمل الرجال والأنفال في السفن، وخرج مرزيان الحيرة وهو ابن زيان من الحيرة ومعه الأزدية فسكر عند الغريين وأرسل ابنه ليقاطع الماء على السفن، فوقفت

آلاف دينار فقبضها خالد، ثم سار إلى الحيرة وخرج إليه أشرافها مع إلياس بن قبيصة الطائي الأمير عليها بعد النعمان بن المنذر، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو المناجزة، فصالحوه على تسعين ألف درهم، وقيل إنما أمره أبو بكر أن يبدأ بالأبلة ويدخل من أسفل العراق.

وكتب إلى عياض بن غنم أن يبدأ بالمضيخ ويدخل من أعلى العراق، وأمر خالداً بالقعقاع بن عمرو التيمي وعياضاً بن عوف الحميري، وقد كان المثنى بن حارثة الشيباني استأذن أبا بكر في غزو العراق فأذن له فكان يغزوهم قبل قدوم خالد، فكتب أبو بكر إليه وإلى حرمة ومدعور وسلمان أن يلحقوا بخالد بالأبلة وكانوا في ثمانية آلاف فارس، ومع خالد عشرة آلاف، فسار خالد في أول مقدمته المثنى وبعده عدي بن حاتم وجاء هو بعدهما على مسيرة يوم بين كل عسكر، وواعدهما الحفير ليجتمعوا به ويصادموا عدوهم وكان صاحب ذلك المرج من أساورة الفرس اسمه هرمز وكان يحارب العرب في البر والهند في البحر.

فكتب إلى أردشير كسرى بالخبر وتعجل هو إلى الكواظم في سرعان أصحابه حتى نزل الحفير، جعل على مجنبيه قباذ وأنوشجان يناسبانه في أردشير الأكبر واقتربوا بالسلاسل لثلا يفروا، وأروا خالداً أنهم سبقوا إلى الحفير فمال إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها أيضاً. وكان للعرب على هزم حنق لسوء مجاورته وقدم خالد فنزل قبلاتهم على غير ماء وقال: ليعيدن الماء فإن الله جاعله لأصبر الفريقين، ثم أرسل الله سحابة فأنغمرت من ورائهم.

ولما خطوا أثقالهم قدم خالد ودعا إلى النزال فبرز إليه هرمز وترجل ثم اختلفا ضربتين فاحتضنه خالد وحمل أصحاب هرمز للغدر به فلم يشغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو فقتلهم وانهزم أهل فارس وركبهم المسلمون.

وسميت الواقعة ذات السلاسل. وأخذ خالد سلب هرمز وكانت قلنسوته بمائة ألف، وبعث بالفتح والأخماس إلى أبي بكر. وسار فنزل بمكان البصرة وبعث المثنى بن حارثة في آثار العدو فحاصر حصن المرأة وفتحها وأسلمت فتزوجها، وبعث معقل بن مقرن إلى الأبلة ففتحها وقيل إنما عقبه بن غزوان أيام عمر سنة أربع عشرة، ولم يتعرض خالد وأصحابه إلى الفلاحين وتركهم وعمارة البلاد كما أمر أبو بكر به.

وكان كسرى أردشير لما جاءه كتاب هرمز بمسير خالد أمره بقارن بن فريانس فسار من المدائن ولما انتهى إلى الدار لقيه

حاذيه فيمن سيره في العساكر فجبى خالد خراج السواد في خسين ليلة، وغلب العجم عليه، وأقام بالحيرة سنة يصعد ويصوب، والفرس حاثرون يخلعون ويملكون ولم يجدوا من يجمعون عليه لأن سيرين كان قتل جميع من تناسب إلى بهرام جور. فلما وصلهم كتاب خالد تكلم نساء آل كسرى ولولا الفرخ زاد بن البندوان إلى أن يجدوا من يجمعون عليه، ووصل جرير بن عبد الله البجلي إلى خالد بعد فتح الحيرة، وكان مع خالد بن سعيد بن العاص بالشام، ثم قدم على أبي بكر فكلمه أن يجمع له قومه كما وعد النبي ﷺ وكانوا أوزاعاً متفرقين في العرب، فسخط ذلك منه أبو بكر فقال: تكلمي بما لا يعني وأنت ترى ما نحن فيه من فارس والروم. وأمره بالمسير إلى خالد فقدم عليه بعد فتح الحيرة.

فتح الأنبار وعين التمر

وتسمى هذه الغزوة ذات العيون

ثم سار خالد على تبعيته إلى الأنبار وعلى مقدمته الأقرب بن حابس، وكان بالأنبار شيرزاد صاحب ساباط فحاصره ورشقهم بالنبال حتى فاقوا منهم ألف عين. ثم لحز ضعاف الإبل وألقاهما في الخندق حتى ردمه بها وجاز هو وأصحابه فوقها، فاجتمع المسلمون والكفار في الخندق، وصالح شيرزاد على أن يلحقوه بآمنته ويخلي لهم عن البلد وما فيها، فلحق بهم جادويه.

ثم استخلف خالد على الأنبار الزبيرقان بن بدر، وسار إلى عين التمر وبها مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم، وعقبة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب، وحولهم طوائف من النمر وتغلب وإياد وغيرهم من العرب. وقال عقبة لبهرام: دعنا وخالداً فالعرب أعرف لقتال العرب. فدفعه لذلك واتقى به وسار عقبة إلى خالد وحمل خالد عليه وهو يقيم صفوفه، فاحتضنه وأخذه أسيراً.

وانهزم العسكر عن غير قتال وأسر أكثرهم. وبلغ الخبر إلى مهران فهرب وترك الحصن وتحصن به المهزومون، واستامنوا لخالد فأبى، فتركوا على حكمه فقتلهم أجمعين، وعقبة معهم. وغنم ما في الحصن وسبى أهليهم وأولادهم وأخذ من البيعة وهي الكنيسة غلاماً كانوا يتعلمون الإنجيل قسمهم في الناس منهم: سيرين أبو محمد ونصير أبو موسى وجران مولى عثمان، وبعث إلى أبي بكر بالفتح والخمس. وقتل من المسلمين عمير بن رباب السهمي من مهاجرة الحبيشة ويشير بن سعد والد النعمان.

على الأرض. وسار إليه خالد فلقه على فرات بازقة فقتله وجميع من معه، وسار نحو أبيه على الحيرة فهرب بغير قتال لما كان بلغه من موت أردشير كسرى وقتل ابنه. ونزل خالد منزله بالفرسين وحاصر قصور الحيرة وافتتح الديور وصاح القسيسون والرهبان بأهل القصور فرجعوا على الإباية، وخرج إياس بن قبيصة من القصر الأبيض، وعمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن ببيعة - وكان معمرًا - وسأله خالد عن عجيبة قد رآها، فقال: رأيت القرى ما بين دمشق والحيرة تسافر بينهما المرأة فلا تزود إلا رغيفاً واحداً. ثم جاءه واستقرب منه ورأى مع خادمه كيساً فيه سم فأخذه خالد ونثره في يده، وقال ما هذا؟ قال خشيت أن تكونوا على غير ما وجدت فيكون الموت أحب إلي من مكروه أدخله على قومي، فقال له خالد: لن تموت نفس حتى تأتني على أجلها. ثم قال: باسم الله الذي لا يضُرُّ مع اسمه شيء. وابتلع السم فوعك ساعة ثم قام كأنما نشط من عقال. فقال عبد المسيح: لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا، ثم صالحهم على مائة أو مائتين وتسعين ألفاً وعلى كرامة بنت عبد المسيح لشريك كان النبي ﷺ وعده بها إذا فتحت الحيرة فأخذها شريك، وافتدت منه بألف درهم وكتب لهم بالصلح وذلك في أول سنة اثني عشرة.

فتح ما وراء الحيرة

كان الدهاقين يتربصون بخالد ما يصنع بأهل الحيرة فلما صالحهم واستقاموا له جاءته الدهاقين من كل ناحية فصالحوه عما يلي الحيرة من القلاليج وغيرها على ألف ألف وقيل على ألفي ألف سوى جباية كسرى، وبعث خالد ضرار بن الأزور وضرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو والمثنى بن حارثة وعيينة بن الشماس فكانوا في الثغور وأمرهم بالغارة، فمخروا السواد كله إلى شاطئ دجلة. وكتب إلى ملوك فارس:

أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيذككم وفرق كلمتكم ولو فعل ذلك كان شراً لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونغوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

وكتب إلى المرازبة: أما بعد فالحمد لله الذي فض حذقكم وفرق كلمتكم وفلَّ حذقكم وكسر شوكتكم تسلموا وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر انتهى.

وكان العجم مختلفين بموت أردشير وقد أزالوا بهممن

مطلب وقعة دومة الجندل

تخوم الشام والعراق والجزيرة فحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من مسالح فارس، واجتمعت معهم تغلب وإياد والنمر وساروا إلى خالد وطلبوا منه العبور، فقال: اعبروا أسفل منا فعبروا وامتاز الروم من العرب، فانهمز الروم ذلك اليوم وقتل منهم نحواً من مائة ألف.

وأقام خالد على الفراض إلى ذي القعدة، ثم أذن للناس بالرجوع إلى الحيرة، وجعل شجرة بن الأغر على الساقة. وخرج من الفراض حاجاً مكتماً بحجة وذهب ليتعسف البلاد حتى أتى مكة فحج ورجع فوافي الحيرة مع جنده، وشجرة بن الأغر معهم ولم يعلم بحججه إلا من أعلمه به، وعتب به أبو بكر في ذلك لما سمعه وكانت عقوبته إياه أن صرفه من غزو العراق إلى الشام، ثم شن خالد بن الوليد الغارات على نواحي السواد فأغار هو على شرق بغداد، وعلى قطربل، وعقروق، ومسكن، وبادروبا. وحج أبو بكر في هذه السنة واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

بعوث الشام

وكان من أول عمل أبي بكر بعد عوده من الحج أن بعث خالد بن سعيد بن العاص في الجنود إلى الشام أول سنة ثلاث عشرة، وقيل إنما بعثه إلى الشام لما بعث خالد بن الوليد إلى العراق أول السنة التي قبلها، ثم عزله قبل أن يسير لأنه كان لما قدم من اليمن عند الوفاة تخلف عن بيعة أبي بكر أياماً وغدا على علي وعثمان على الاستكانة لتيمة وهما رؤوس بني عبد مناف فنهاه علي ويلفت الشيعين، فلما ولاه أبو بكر عقد له عمر فعزله وأمره أن يقيم بتيمة ويدعو من حوله من العرب إلى الجهاد حتى يأتيه أمره، فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم خبره فاضربوا البعث على عرب الضاحية بالشام من بهرا وسليح وکلب وغان وحم وجذام، وسار إليهم خالد فغلبهم على منازلهم وافترقوا. وكتب له أبو بكر بالإقدام فصار متقدماً ولقيه البطريق ماهان من بطارقة الروم فهزمه خالد واستلحم الكثير من جنوده.

وكتب إلى أبي بكر يستعده، ووافق كتابه المستقرين وفيهم ذو الكلاع ومعه حمير وعكرمة بن أبي جهل ومن معه من تهامة والسر وعمان والبحرين فبعثهم إليه. وحيثما اهتم أبو بكر بالشام وكان عمرو بن العاص لما بعثه رسول الله ﷺ تسليماً إلى عمان وعده أن يعيده إلى عمله عند فراغه من أمر عمان، فلما جاء بعد الوفاة أعاده إليها أبو بكر إنجأراً لوعده ﷺ وهي صدقات سعد هذيم وبني عنزة، فبعث إليه لأن يأمره باللاحاق بخالد بن سعيد

ولما فرغ خالد من عين التمر وافق وصول كتاب عياض بن غنم وهو على من بإزائه من نصارى العرب بناحية دومة الجندل وهم بهرا وکلب وغان وتنوخ والضجاعم، وكانت رئاسة دومة لأکید بن عبد الملك والجودي بن ربيعة يقتسمانها، وأشار أكيدر بصلح خالد فلم يقبلوا منه فخرج عنه، وبلغ خالد مسيره فأرسل من اعترضه فقتله وأخذ ما معه، وسار خالد فتزل دومة وعياض عليها من الجهة الأخرى، وخرج الجودي لقتال عياض، فانهمزوا من الجهتين إلى الحصن فأغلق دونهم وقتل الجودي وافتتح الحصن عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية.

الوقائع بالعراق

وأقام خالد بدومة الجندل وطمع الأعاجم في الحيرة وملاهم عرب الجزيرة غضباً لعة، فخرج اسواران إلى الأنبار وانتهيا إلى حصيد والخنافس، فبعث القعقاع من الحيرة عسكريين حالاً بينهما وبين الريف، ثم جاء خالد إلى الحيرة فجعل القعقاع بن عمرو وأبو ليلى بن فذكى إلى لقائهما بالحصيد، فقتل من العجم مقتلة عظيمة، وقتل الأسواران، وغنم المسلمون ما في الحصيد، وانهمزت الأعاجم إلى الخنافس وبها اليهودان من الأساورة. وسار أبو ليلى في اتباعهم فهزم اليهودان إلى المصيخ وكان بهما الهذيل بن عمران وربيعة بن بجير من عرب الجزيرة غضباً لعة وجاء مدداً لأهل الحصيد، فكتب خالد إلى القعقاع وأبي ليلى وأوعدهما المصيخ، وسار إليهم فتوافوا هنالك وأغاروا على الهذيل ومن معه من ثلاثة أوجه، فأكثروا فيهم القتل ففر الهذيل في قليل، وكان مع الهذيل عبد العزيز بن أبي رهم من أوس مناة وليسد بن جرير وكانا أسلما وكتب لهما أبو بكر بإسلامهما فقتلا في المعركة، فوداهما أبو بكر وأوصى بأولادهما.

وكان عمر يعتمد بقتلهما وقتل مالك بن نيرة على خالد. ولما فرغ خالد من الهذيل بالمصيخ وأعد القعقاع وأبا ليلى إلى الثني شرقي الرصافة ليغير على ربيعة بن بجير التغلبي صاحب الهذيل الذي جاء معه لمدد الفرس وتيسيتهم فلم يفلت منهم أحداً، ثم اتبع الهذيل بعد مفره من المصيخ إلى اليسير وقد لحق هنالك بعتاب بن أسيد فبيتهم خالد قبل أن يصل إليهم خبر ربيعة فقتل منهم مقتلة عظيمة، وسار إلى الرصافة وبها هلال بن عقبة فتفرق عنه أصحابه وهرب فلم يلتق بها خالد. من الرضاب إلى الفراض وهي

الأمراء قبل الآخرين إزاءهم فهزم ماهان، وتتابع الروم على الهزيمة وكانوا مائتين وأربعين ألفاً وتقسّموا بين القتل والطرُق في الواقصة والهوي في الحندق، وقتل صناديد الروم وفرسانهم، وقتل تدارق أخو هرقل، وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون حصص فارتحل وأجاز إلى ما وراءها لتكون بينه وبين المسلمين وأمر عليها وعلى دمشق.

ويقال: إن المسلمين كانوا يومئذ ستة وأربعين ألفاً: سبعة وعشرين منها مع الأمراء، وثلاثة آلاف من بلال مع خالد بن سعيد قد أمر عليهم أبو بكر معاوية بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعشرة آلاف من إمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، وستة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردهاً بعد خالد بن سعيد. وأن خالد بن سعيد عبّاهم كراديس ستة وثلاثين كردوساً لما رأى الروم تعبوا كراديس، وكان كل كردوس ألفاً وكان ذلك في شهر جمادى، وأن أبا سفيان بن حرب أبلى يومئذ بلاءً حسناً بسعيه وتحريضه.

قالوا: وبينما الناس في القتال قدم البريد من المدينة بموت أبي بكر وولاية عمر، فأمره إلى خالد وكتبه عن الناس. ثم خرج جرحه من أمراء الروم فطلب خالداً وسأله عن أمره وأمر الإسلام، فوعظه خالد فاستبصر وأسلم وكانت هنأ على الروم. ثم زحف خالد بجماعة من المسلمين فيهم جرحه فقتل من يومه، واستشهد عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو، وأصيب عيين أبي سفيان، واستشهد سلمة بن هشام وعمرو وأبان ابنا سعيد وهشام بن العاص وسيار بن سفيان والطفيل بن عمرو، وأثبت خالد بن سعيد فلا يعلم أين مات بعد ويقال استشهد في مرج الصفر في الوقعة الأولى.

ويقال إن خالداً لما جاءه من العراق مدداً للمسلمين بالشام طلب من الأدلاء أن يغفروا به حتى يخرج من وراء الروم، فسلك به رافع بن عمرو الطائي من فزارة في بلاد كلب حتى خرج إلى الشام ونحو فيها الإبل وأغار على مصيخ فوجد به رقعة فقتلهم وأسلبهم.

وقعة مرج راهط

وكان الحارث بن الأيهم وغسان قد اجتمعوا بمرج راهط فسلك إليهم واستباحهم، ثم نزل بصرى فافتتحها، ثم سار منها إلى المسلمين بالواقصة فشهد معهم اليرموك. ويقال: إن خالداً لما جاء من العراق إلى الشام لقي أمراء المسلمين ببصرى فحاصروها جميعاً حتى فتحوها على الجزية، ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً

لجهد الروم وأن يقصد فلسطين، وبعث أيضاً إلى الوليد بن عقبة وكان على صدقات قضاة وولاه الأردن، وأمر يزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب إليه منهم: سهيل بن عمرو وأشباهه، وأمر أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعين له حصص، وأوصى كل واحد منهم.

ولما وصل المدد إلى خالد بن سعيد وبلغه توجه الأمراء تعجل للقاء الروم قبلهم فاستطرد له ماهان ودخل دمشق.

واقترح خالد الشام ومعه ذي الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل مرج الصفر عند دمشق فانطورت مسالح ماهان عليه وسدوا الطريق دونه وزحف إليه ماهان، ولقي ابنه سعيداً في طريقه فقتلوه وبلغ الخبر إياه خالداً فهرب فيمن معه وانتهى إلى ذي المروة قرب المدينة. وأقام عكرمة ردهاً من خلفهم فرد عنهم الروم فأقام قريباً من الشام.

وجاء شرحبيل بن حسنة إلى أبي بكر وأفداً من العراق من عند خالد فندب إليه الناس وبعثه مكان الوليد إلى أردن ومرّ بجبال ففصل ببعض أصحابه.

ثم بعث أبو بكر معاوية وأمره باللاحاق بأخيه يزيد، وأذن لخالد بن سعيد بدخول المدينة.

وزحف الأمراء في العساكر نحو الشام، فعسى هرقل عساكر الروم ونزل حصص بعد أن أشار على الروم بعدم قتال العرب ومصايلحتهم على ما يريدون، فأبوا وجرّاء، ثم فرقهم على أمراء المسلمين، فبعث شقيقه تدارق في تسعين ألفاً نحو عمرو بن العاص بفلسطين، وبعث جرجة بن توذر نحو يزيد بن أبي سفيان، وبعث الدراقص نحو شرحبيل بن حسنة بالأردن، وبعث القيقار بن نسطورس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة بالجابية. فهابهم المسلمون ثم رأوا أن الاجتماع اليتق بهم وبلغهم كتاب أبي بكر بذلك فاجتمعوا باليرموك في بضعة وعشرين ألفاً. وأمر هرقل أيضاً باجتماع جنوده، ووعدهم بوصول ماهان إليهم فاجتمعوا بجمال المسلمين والوادي خندق بينهم. فأقاموا بإزائه ثلاثة أشهر، واستمدوا أبا بكر فكتب إلى خالد بن الوليد أن يستخلف على العراق المثنى بن حارثة ويلحق بهم وأمره على جند الشام.

بعوث الشام

ولما استمد المسلمون أبا بكر بعث إليهم خالد بن الوليد من العراق واستحثه في السير إليهم، فنفذ خالد لذلك ووافى المسلمين مكانهم عندما وافى ماهان الروم أيضاً. وولى خالد قبالة وولى

الوليد وعمرو بن العاص حتى يصير الحرب إلى فلسطين فتولاها عمر، وإن خالداً قدم على عمر بعد العزل وذلك بعد فتح دمشق وإنهم ساروا إلى فحل فاقتحموها، ثم ساروا إلى دمشق وعليها نسطاس بن نسطورس فحاصروها سبعين ليلة وقيل ستة أشهر من نواحيها الأربع، خالد وأبو عبيدة ويزيد وعمرو كل واحد على ناحية. وقد جعلوا بينهم وبين هرقل مدينة حصص ومن دونها ذو الكلاع في جيش من المسلمين.

وبعث هرقل المدد إلى دمشق وكان فيهم ذو الكلاع فسقط في أيديهم وقدموا على دخول دمشق وطمع المسلمون فيهم، واستغفلهم خالد في بعض الليالي فتسور سورهم من ناحيته وقتل الوليد وفتح الباب واقتحم البلد وكبروا وقتلوا جميع من لقوه. وفزع أهل النواحي إلى الأمراء الذين يلونهم فنادوا لهم بالصلح والدخول، فدخلوا من نواحيهم صلحاً فأجريت ناحية خالد على الصلح مثلهم.

قال سيف: ويعثر إلى عمر بالفتح فوصل كتابه بأن يصرف جند العراق إلى العراق، فخرجوا وعليهم هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع. وخرج الأمراء إلى فحل وأقام يزيد بن أبي سفيان بدمشق، وكان الفتح في رجب سنة أربع عشرة. وبعث يزيد دحية الكلبي إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى حوران والبشيرة، فصالحوهما وولي عليهما. ووصل الأمراء إلى فحل فبيتهم الروم فظفر المسلمون بهم وهزمهم فقتل منهم ثمانون ألفاً وكان على الناس في وقعة فحل شرحبيل بن حسنة، فسار بهم إلى بيسان وحاصرها فقتل مقاتلتها وصالحه الباقون فقبل منهم.

وكان أبو الأعور السلمي على طبرية محاصراً لها، فلما بلغهم شأن بيسان صالحوه فكمل فتح الأردن صلحاً ونزلت القواد في مدائنهم وقرأها وكتبوا إلى عمر بالفتح.

وزعم الواقدي: أن اليرموك كانت سنة خمسة عشرة وأن هرقل انتقل فيها من أنطاكية إلى قسطنطينية وأن اليرموك كانت آخر الوقائع. والذي تقدم لنا من رواية سيف أن اليرموك كانت سنة ثلاث عشرة وأن البريد بوفاة أبي بكر قدم يوم هربت الروم فيه، وأن الأمراء بعد اليرموك ساروا إلى دمشق ففتحوها ثم كانت بعدها وقعة فحل، ثم وقائع أخرى قبل شخوص هرقل والله أعلم.

لعمرو بن العاص، وعمرو بالغور والروم بجلق مع تدارق أخيه هرقل، وانكشفوا عن جلج إلى أجنادين وراء الرملة شرقاً.

ثم تزاحف الناس فاقتلوا، وانهمز الروم وذلك في منتصف جمادى الأولى من السنة، وقتل فيها تدارق، ثم رجع هرقل ولقي المسلمين بالفاقصة عند اليرموك، فكانت واقعة اليرموك كما قدمنا في رجب بعد أجنادين، وبلغت المسلمين وفاة أبي بكر وإنها كانت لثمان بقين من جمادى الآخرة.

خلافة عمر رضي الله عنه

ولما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي الله عنهما بالأمور من بعده بعد أن شاور علياً طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريد فيه، فائثوا على رأيه، فأشرف على الناس وقال: إني قد استخلفت عمر ولم ألكم نصيحاً فاسمعوا له وأطيعوا. ودعا عثمان فأمره فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحالة التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيراً، فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي منه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

فكان أول ما انفذ من الأمور عزل خالد عن إمارة الجيوش بالشام وتولية أبي عبيدة، وجاء الخبر بذلك والمسلمون موافقون عدوهم في اليرموك فكتب أبو عبيدة الأمر كله، فلما انقضى أمر اليرموك كما مر سار المسلمون إلى فحل من أرض الأردن وبها واقعة الروم وخالد على مقدمة الناس فقاتلوا الروم.

فتح دمشق

واقتحموها عنوة وذلك في ذي القعدة ولحقت فواقعت الروم بدمشق وعليها ماهان من البطارقة فحاصروهم المسلمون حتى فتحوا دمشق، وأظهر أبو عبيدة أمارته وعزل خالد. وقال سيبه إن أبا بكر كان يسخط خالد بن سعيد والوليد بن عقبة من أجل فرارهما كما مر، فلما ولي عمر رضي الله عنه أباح لهما دخول المدينة ثم بعثهما مع الناس إلى الشام، ولما فرغ أمر اليرموك وساروا إلى فحل وبلغ عمر خبر اليرموك فكتب بعزل خالد بن

خبر المثني بالعراق بعد مسير خالد إلى الشام

الكتاب أن يورثكموها. فقال: ليظهره على الدين كله فآله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي أهله موارث الأمم. أين عباد الله الصالحون؟ فانتدب أبو عبيد الثقفي، ثم سعد بن عبيد الأنصاري، ثم سليط بن قيس، فولى أبا عبيد على البعث لسبقه، وقال: اسمع من أصحاب النبي ﷺ واشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً بل اتد فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف. ولم يمنعني أن أوامر سليطاً إلا لسرعته إلى الحرب، وفي السرعة إلى الحرب - إلا عن بيان - ضياع والله لولا سرعته لأمرته. فكان بعث أبي عبيد هذا أول بعث بعثه عمر، ثم بعث بعده يعلى بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران لوصية رسول الله ﷺ بذلك في مرضه، وقال: أخبرهم بأننا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك ديناً بأرض العرب ثم تعطيه أرضاً كارضهم وفاء بذمتهم كما أمر الله.

قالوا: فخرج أبو عبيد مع المثني بن حارثة وسعد وسليط إلى العراق، وقد كانت بوران بنت كسرى كلما اختلفت الناس بالمدائن عدلت بينهم حتى يصطلحوا، فلما قتل الفرخزاد بن البندوان وملكت آرميدخت اختفت أهل فارس واشتغلوا عن المسلمين غيبة المثني كلها، فبعثت بوران إلى رستم تستحثه للقدوم وكان على فرج خراسان، فأقبل في الناس إلى المدائن وعزل الفرخزاد وفقاً عين آرميدخت ونصب بوران، فملكته وأحضرت مرازية فارس فأسلموا له ورضوا به وتوجه. وسبق المثني إلى الحيرة، ولحقه أبو عبيد ومن معه. وكتب رستم إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين وبعث في كل رستاق رجلاً لذلك فكان في فرات بأدقلا جابان وفي كسكر نرسي وبعث جند لمصادمة المثني فساروا وتآلفوا واجتمعوا أسفل الفرات. وخرج المثني من الحيرة خوفاً أن يؤتى من خلفه، فقدم عليه أبو عبيد، ونزل جابان النمارق ومعه جمع عظيم، فلقى أبو عبيد هنالك وهزم الله أهل فارس وأسر جابان ثم أطلق، وساروا في المنهزمين حتى دخلوا كسكر وكان بها نرسي ابن خالة كسرى فجمع الغالة إلى عسكره، وسار إليهم أبو عبيد من النمارق في تعيته، وكان على مجنبي نرسي نقديه وشيروه ابناً بسطام خال كسرى. واتصلت هزيمة جابان ببوران ورستم فبعثوا الجاليئوس مدداً لنرسي وعاجلهم أبو عبيد فالتقوا أسفل من كسكر فاشتد القتال وانهزمت الفرس، وهرب نرسي وغنم المسلمون ما في عسكره.

وبعث أبو عبيد المثني وعاصماً فهزموه من كان تجمع من أهل الرساتيق وخربوا وسبوا وأخذوا الجزية من أهل السواد وهم يترصون قدوم الجاليئوس ولما سمع به أبو عبيد سار إليه على

لما وصل كتاب أبي بكر إلى خالد بعد رجوعه من حجة بأن ينصرف إلى الشام أميراً على المسلمين بها ويخرج في شطر الناس ويرجع بهم إذا فتح الله عليه إلى العراق ويترك الشطر الثاني بالعراق مع المثني بن حارثة، وفعل ذلك خالد ومضى لوجهه، وأقام المثني بالحيرة ورتب المصالح. واستقام أهل فارس بعد خروج خالد بقليل على شهر يار بن شيرين بن شهر يار عن يناسبه إلى كسرى أبي سابور وذلك سنة ثلاث عشرة، فبعث إلى الحيرة هرمز فاقتلوا هنالك قتالا شديداً بعدوة الضراء وغار الفيل بين الصفوف فقتله المثني وناس معه، وانهزم أهل فارس واتبهم المسلمون يقتلونهم حتى انتهوا إلى المدائن، ومات شهر يار إثر ذلك وبقي ما دون دجلة من السواد في أيدي المسلمين.

ثم اجتمع أهل فارس من بعد شهر يار على آرميدخت ولم ينفذ لها أمر فخلعت، وملك سابور بن شهر يار وقام بأمره الفرخزاد بن البندوان وزوجة آرميدخت، ففضبت وبعثت إلى سياوخش الوازن وكان من كبار الأساورة وشكت إليه، فأشار عليها بالقبول. وجاء ليلة العرس فقتل الفرخزاد ومن معه، ونهض إلى سابور فحاصره ثم اقتحم عليه فقتله، وملكت آرميدخت وتشاغلوا بذلك عن ملكها.

انتهى شأن أبي بكر وشق السواد في سلطانه، وتشاغل أهل فارس عن دفاع المسلمين عنه. ولما أبطأ خبر أبي بكر على المثني استخلف المثني على الناس بشر بن الخصاصية وخرج نحو المدينة يستعلم ويستأذن، فقدم وأبو بكر يمجد بنفسه وقد عهد إلى عمر وأخبره الخبر، فأحضر عمر وأوصاه أن يتدب الناس مع المثني وأن يصرف أصحاب خالد من الشام إلى العراق، فقال عمر: يرحم الله أبا بكر علم إنه تستر في إمارة خالد فأمرني بصرف أصحابه ولم يذكره.

ولاية أبي عبيد بن مسعود على العراق ومقتله

ولما ولي عمر ندب الناس مع المثني بن حارثة أياماً وكان أول متدب أبو عبيد بن مسعود، فقال عمر للناس: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين المهاجرون عن موعد الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في

به وسيره مدداً للمثنى بالعراق، وبعث عصمة بن عبد الله الضبي، وكتب إلى أهل الردة بأن يوافوا المثنى وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب، فوافوا في جموع عظيمة حتى نصارى النمر جاؤوه وعليهم أنس بن هلال وقالوا: نقاتل مع قومنا. وبلغ الخبر إلى رستم والفرزبان فبعثا مهران الهمداني إلى الحيرة والمثنى بين القادسية وخفان.

فلما بلغه الخبر استبقى فرات بأذقلا وكتب بالخبر إلى جريس وعصمة أن يقصدا العذيب مما يلي الكوفة، فاجتمعوا هنالك ومهران قبالتهم عدوة الفرات وتركوا له العبور فأجاز إليهم. وسار إليه المثنى في التبعية وعلى مجنبيه مهران مرزبان الحيرة ابن الأزابنة ومردارشا، ووقف المثنى على الرايات يحرض الناس فأعجلتهم فارس وخالطوهم وركدت حربهم واشتدت.

ثم حمل المثنى على مهران فأزاله عن مركزه، وأصيب مسعود أخو المثنى، وخالط المثنى القلب ووثب المجنبات على المجنات قبالتهم فانهزمت الفرس، وسبقهم المثنى إلى الجسر فهربوا مصعدين ومنحدرين، واستلجهم خيول المسلمين وقتل فيها مائة ألف أو يزيدون، وأحصى مئة رجل من المسلمين قتل كل واحد منهم عشرة. وتبعهم المسلمون إلى الليل، وأرسل المثنى في آثار الفرس، فبلغوا سبابط فغنموا وسبوا سبابط واستباحوا القرى وسخروا السواد بينهم وبين دجلة لا يلقون مانعاً.

ورجع المهزومون إلى رستم فاستهانوا ورضوا أن يتركوا ما وراء دجلة. ثم خرج المثنى من الحيرة واستخرج بشير بن الخصاصية وسار نحو السواد ونزل الليث من قرى الأنبار فسميت الغزاة غزاة الأنبار الآخرة وغزاة الليس الآخرة.

وجاءت إلى المثنى عيون فدلوه على سوق الخنافس وسوق بغداد، وأن سوق الخنافس أقرب ويجمع بها تجار المدائن والسواد وخفراهم ربيعة وقضاة، فركب إليها وأغار عليها يوم سوق، فاشتت السوق وما فيها وسلب الخفراء ورجع إلى الأنبار فأتوه بالعلوفة والزاد وأخذ منهم أدلاء تظهر له المدائن وسار بهم إلى بغداد ليلاً، وصبح السوق فوضع فيهم السيف وأخذ ما شاء من الذهب والفضة والجيد من كل شيء.

ثم رجع إلى الأنبار وبعث المضارب العجلي إلى الكباث وبه جماعة من تغلب فهربوا عنه، ولحقهم المضارب فقتل في أخرياتهم وأكثر. ثم سرح فرات بن حيان التغلبي وعتيبة بن النحاس للإغارة على أحياء من تغلب بصفين، ثم اتبعهم المثنى بنفسه فوجدوا أحياء صفين قد هربوا عنها فعبه المثنى إلى الجزيرة، وفي زادهم

تعبته فانهزم الجالينوس وهرب ورجع أبو عبيد فنزل الحيرة، وقد كان عمر قال له: إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والحزى تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون واحرز لسانك ولا تقش سرك فإن صاحب السر - ما ضبط - متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه وإذا ضيعه كان بمضيعة.

ولما رجع الجالينوس إلى رستم بعث بهم من حادويه ذا الحاجب إلى الحيرة فأقبل ومعه درفش كايان راية كسرى عرض ثمانية أذرع في طول اثني عشر من جلود النمر فنزل في قسي الناطف على الفرات، وأقبل أبو عبيد فنزل عدوته وقعد إلى أن نصبوا للفرقيين جسراً على الفرات، وخبرهم بهم من حادويه في عبوره أو عبورهم، فاختار أبو عبيد العبور وأجاز إليهم. وماجت الأرض بالمقاتلة ونفر جنود المسلمين وكرايسهم من القيلة وأمر بالتخفيف عن الخيل فترجل أبو عبيد والناس وصانحوا العدو بالسيوف، ودافعتهم القيلة فقطعوا وضنها فسقطت رحالها وقتل من كان عليهم، وأقبل أبو عبيد فيلاً منهم فوطئه بيده وقام عليه فأهلكه. وقتلهم الناس ثم انهزموا عن المثنى وسبقه بعض المسلمين إلى الجسر فقطعه، وقال: موتوا أو تظفروا. وتوالت بعضهم الفرات ففرقوا وأقام المثنى وناس معه مثل عروة بن زيد الخيل وأبي عجن الثقفي وأنظارهم، وأقاتل أبو زيد الطائي كان نصرانياً وقدم الحيرة لبعض أمره فحضر مع المثنى وقاتل حيث شذ حمية، ونادى المثنى الذين عبروا من المسلمين ف عقدوا الجسر وأجاز بالناس، وكان آخر من قتل عند الجسر سليل بن قيس فانقض أصحابه إلى المدينة وبقي المثنى في فله جريحاً.

وبلغ الخبر إلى عمر فشق عليه وعذر المنهزمين، وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف قتلى وغرقى وهرب ألفان وبقي الثلاثة آلاف وقتل من الفرس ستة آلاف. وبينما بهم من حادويه يروم العبور خلف المسلمين أنه الخبر بأن الفرس ثاروا برستم مع الفرزبان فرجع إلى المدائن، وكانت الوقعة في مدائن سنة ثلاث عشرة. ولما رجع بهم من حادويه اتبعه جابان ومعه مردان شاه، وخرج المثنى في أثرهما فلما أشرف عليهما أتياه يظنان أنه هارب فاخذهما أسيرين، وخرج أهل الليس على أصحابهما فأتوه بهم أسرى وعقدوا معه مهادة وقتل جميع الأسرى.

ولما بلغ عمر رضي الله عنه عن وقعة ابن عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى، وكان فيمن ندب بجيلة وأمرهم إلى جريس بن عبد الله الذي جمعهم من القبائل بعد أن كانوا مفرقين ووعدته النبي ﷺ بذلك وشغل عن ذلك أبو بكر بأمر الردة ووفى له عمر

عشرة، ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة، ومن كان أقرب إلى العراق انضم إلى المشي، فلما اجتمعت عنده أمراء العرب خرج من المدينة واستخلف عليها عالياً وعسكر على صرار من ضواحيها، وبعث على المقدمة طلحة وجعل على المجنبتين عبد الرحمن والزبير وأنهم أمره على الناس، ولم يطق أحد سؤاله، فسأله عثمان. فأحضر الناس واستشارهم في السير إلى العراق فقال العامة: سر نحن معك فوافقهم، ثم رجع إلى أصحاب رسول الله ﷺ وأحضر عالياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن واستشارهم فأشاروا بمقامه وأن يبعث رجلاً بعده آخر من الصحابة بالجنود حتى يفتح الله على المسلمين ويهلك عدوهم، فقبل ذلك ورأى فيه الصواب. وعين لذلك سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فأحضره وولاه حرب العراق وأوصاه وقال: ياسعد ابن أم سعد! لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله لا يحو السيء بالسيء ولكنه يحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالتناس في دين الله سواء الله بهمهم وهم عبادته يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه وعليك بالصبر.

ثم سرحه في أربعة آلاف عن اجتماع إليه فيهم: حمضة بن النعمان بن حمضة على بارق، وعمرو بن معديكرب وأبو سبرة بن أبي رهم على مذحج، ويزيد بن الحرث الصدائي على عذرة وخب ومسلية، وبشر بن عبد الله الهلالي على قيس عيلان، والحصين بن غمر ومعاوية بن خديج على السكون وكندة. ثم أمر بعد خروجه بالقي يمانى والقي فخري.

وسار سعد وبلغه في طريقه بَزُورُود أن المشي مات من جراحة انتقضت، وإنه استخلف على الناس بشير بن الخصاصية، وكانت جموع المشي ثلاثة آلاف، وكذلك أربعة آلاف من تميم والرباب وأقاموا، وعمر ضرب على بني أسد أن ينزلوا على حد أرضهم، فنزلوا في ثلاثة آلاف وأقاموا بين سعد والمشى، وسار سعد إلى سيراف فنزلها، واجتمعت إليه العساكر ولحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً، ولم يكن أحد أجراً على الفرس من ربيعة.

ثم عبأ سعد كئيب من سيراف وأمر الأمراء وعرف على كل عشرة عريقاً، وجعل الرايات لأهل السابقة ورتب المقدمة والساقة والمجنبت والطلائع وكل ذلك بأمر عمر ورأيه، وبعث في المقدمة زهرة بن عبد الله بن قتادة الحيوخي من بني تميم فاتته إلى العذيب، وعلى الميمنة عبد الله بن المعتمر، وعلى المسيرة شرحبيل

وأكلوا رواحلهم وأدركوا عيراً من أهل خفان، فحضر نفر من تغلب فأخذوا العير ودلهم أحد الخفراء على حي من تغلب ساروا إليه يومهم، وهجموا عليهم فقتلوا مقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الأموال، وكان هذا الحي بوادي الروميلة، فاشترى أسراهم من كان هنالك من ربيعة بنصيبهم من الفتي وأعتقهم وكانت ربيعة لا تسي في الجاهلية.

ولما سمع المشي أن جميع من يملك البلاد قد انتجع شاطئ دجلة خرج في اتباعهم فأدركهم بتكريت، فغنم ما شاء وعاد إلى الأنبار، ومضى عتيبة وفرات حتى أغارا على النمر وتغلب بصفين، وتمكن رعب المسلمين من قلوب أهل فارس وملكوها ما بين الفرات ودجلة.

أخبار القادسية

ولما دهم فارس من المسلمين بالسواد ما دهمهم وهم مختلفون بين رستم والفرزان واجتمع عظماءهم وقالوا لهما: إما أن تجتمعا وإلا فنحن لكما حرب فقد عرضتمونا للهلكة وما بعد بغداد وتكريت إلى المدائن فاطاعا لذلك، وفزعوا إلى بوران يسألونها في ولد من آل كسرى يولونه عليهم، فأحضرت لهم النساء والسراي ويسطوا عليهم العذاب فذكروا لهم غلاماً من ولد شهريار بن كسرى اسمه يزدجرد أخذته أمه عندما قتل شيرويه أبناء أبيه، فسألوا أمه عنه فدلتهم عليه عند أخواله كانت أودعته عندهم حيثئذ فجاؤوا به ابن إحدى وعشرين سنة فملكوه واجتمعوا عليه.

وتبارى المازية في طاعته وعين المسالح والجنود لكل ثغر ومنها الحيرة والأبلة والأنبار وخرجوا إليها من المدائن. وكتب المشي بذلك إلى عمر، وبينما هم ينتظر الجواب انتقض أهل السواد وكفروا وخرج المشي إلى ذي قار، ونزل الناس في عسكر واحد. ولما وصل كتابه إلى عمر قال: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي وشرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رامهم به، فرماهم بوجوه الناس، بل وغرهم وكتب إلى المشي يأمره بخروج المسلمين من بين العجم والتفرق في المياه بجياهم، وأن يدعو الفرس وأهل النجدات من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعاً وكراهاً، فنزل المسلمون بالحلة وسرروا إلى عصي وهو جبل البصرة متناظرين.

وكتب إلى عماله على العرب أن يبعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي وخرج إلى الحج، فحج سنة ثلاث

فأحضرهم يزدجرد وقال لترجمانه: سلهم ما جاءكم وما أولعكم بغزونا وبلادنا؟ من أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا! فتكلم النعمان بن مقرن بعد أن استأذن أصحابه، وقال ما معناه: إن الله رحماً وأرسل إلينا رسلاً صفته كذا يدعوننا إلى كذا ووعدنا بكذا فأجابهم منا قوم وتباعد قوم ثم أمر أن يجاهد من خالفه من العرب فدخلوا معه على وجهين: مكره اغتبط وطائع ازداد حتى اجتمعنا عليه وعرفنا فضل ما جاء به ثم أمرنا بجهاد من يلينا من الأمم ودعائهم إلى الإنصاف فإن أبيتم فلما تجزوا.

فقال يزدجرد: لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم وقد كان أهل الضواحي يكفوننا أمرهم ولا تطعموا أن تقوموا للفرس فإن كان بكم جهد أعطيناكم قوتاً وكسوناكم وملكتنا عليكم ملكاً يرقى بكم. فقال المغيرة بن زرار: هؤلاء أشرف العرب والأشرف يستحيون من الأشرف وأنا أكلهم وهم يشهدون، فأما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشد ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي ﷺ مثلما قال النعمان الخ.

ثم قال له: اختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف وإلا فنج نفسك بالإسلام. فقال يزدجرد: لو قتل أحد الرسل قبلي لقتلتكم. ثم استدعى بوقر من تراب وحمل على أعظمهم، وقال: ارجعوا إلى صاحبكم واعلموه أنني مرسل رستم حتى يدفنكم أجمعين في خندق القادسية ثم يدوخ بلادكم أعظم من تدويخ سابور. فقام عاصم بن عمرو فحمل التراب على عنقه، وقال: إنا أشرف هؤلاء. ولما رجع إلى سعد فقال: أبشر فقد أعطانا الله تراب أرضهم وعجب رستم من عاودتهم، وأخبر يزدجرد بما قاله عاصم بن عمرو، فبعث في أثرهم إلى الحيرة فأعجزوهم.

ثم أغار سواد بن مالك التميمي بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على الفراض فاستاق ثلاثمائة دابة بين بغل وحمار وثور وأخرها سمكة وصبح بها العسكر، فقسمة سعد في الناس، وواصلوا السرايا والبعرث لطلب اللحم، وأما الطعام فكان عندهم كثيراً. وسار رستم إلى ساباط في ستين ألفاً وعلى مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً وساقته عشرون ألفاً وفي الميمنة الهرمزان وفي الميسرة مهران بن بهرام الرازي، وحمل معه ثلاثة وثلاثين فيلاً ثمانية عشر في القلب وخمسة عشر في الجنين. ثم سار حتى نزل كوثي، فأتى ببرجل من العرب، فقال له رستم: ما جاء بكم وما تطلبون؟ فقال: نطلب وعد الله بأرضكم وأبنائكم إن لم تسلموا. قال رستم: فإن قتلتم دون ذلك؟ قال: من قُتل دخل الجنة ومن بقي أنجزه الله وعده.

بن السمط وخليفة بن خالد بن عرقطة حليف بني عبد شمس، وعاصم بن عمر التميمي على السافلة، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة. ثم سار على التعبية ولقيه المعنى بن حارثة الشيباني بسيراف، وقد كان بعد موت أخيه المثنى سار بذى قار إلى قابوس بن قابوس بن المنذر بالقادسية وقد بعث الفرس إليها يستنفرون العرب فيبته المعنى واستلحمه ومن معه ورجع إلى ذي قار.

وجاء إلى سعد بالخبر ليعلمه بوصية المثنى إليه أن لا تدخلوا بلاد فارس وقاتلوهم على حدود أرضهم بادئ حجر من أرض العرب، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وإلا رجعتهم إلى فئة ثم تكونوا أعلم بسيبهم وأجراً على أرضهم إلى أن يرد الله الكرب. فترحم سعد ومن معه على المثنى وولى أخاه المعنى على عمله وتزوج سلمى زوجته، ووصله كتاب عمر بمثل رأي المثنى يسأله عن سيراف. ونزل العرب ثم أتى القادسية فتزلها بحيال القنطرة بين العتيق والخنقد.

ووصله كتاب عمر يؤكد عليهم في الوفاء بالأنبار ولو كان إشارة أو ملاعبة، وكان زهرة في المقدمة فبعث سرية للإغارة على الحيرة عليها بكر بن عبد الله الليثي، وإذا اخت مرزبان الحيرة تزف إلى زوجها فحمل بكبر على ابن الأزدية فقتله وحملوا الأنقال والعروس في ثلاثين امرأة ومئة من التوابع ومعهم ما لا يعرف قيمته، ورجعوا بالفنائم فصبح سعد بالعذيب فقسمة في المسلمين.

ولما رجع سعد إلى القادسية أقام بها شهراً يشن الغارات بين كسكر والأنبار ولم يأت خبر عن الفرس، وقد بلغت أخبارهم إلى يزدجرد وإن ما بين الحيرة والفرات قد نهب وخرب، فأحضر رستم ودفعه لهذا الوجه، فتقاعد عنه وقال: ليس هذا من الرأي. وبعث الجيوش يعقب بعضها بعضاً أولى من مصادمة مرة، فأبى يزدجرد إلا مسيرة لذلك. فعسكر رستم بساباط وكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إليه لا يكثر ثرك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث رجالاً من أهل الرأي والجلد يدعونه فإن الله جاعل ذلك وهناً لهم. فأرسل سعد نفرأ منهم النعمان بن مقرن، وبشر بن أبي أوهم وجملة من حيوة وحنظلة بن الربيع وعدي بن سهيل وعطارد بن حاجب والحارث بن حسان والمغيرة بن زرار، والأشعث بن قيس، وفرات بن حبان وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معديكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعنى بن حارثة. فقدموا على يزدجرد وتركوا رستم، واجتمعوا بل واجتمع الناس ينظرون إليهم وإلى خيولهم ويردوهم.

وحبسه على القنطرة حتى أعلموا رستم، فجلس على سرير من ذهب -وسط التمارق والوسائد منسوجة بالذهب- وأقبل ربيعي على فرسه وسيفه في خرقه -ورمحه مشدودة بعصب- وقدم حتى انتهى إلى البساط ووطئه بفرسه، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما، فلم يحفلوا بذلك وأظهروا التهاون. ثم أخذ عبادة بعيره فاشتملها.

وأشاروا إليه بوضع سلاحه فقال: لو أتيتمكم فعلت كذا بأمركم وإنما دعوتوني. ثم أقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه حتى أقصد ما مرّ عليه من البسط، ثم دنا من رستم وجلس على الأرض وركز رمحه على البساط وقال: إنا لا نقعد على زيتكم! فقال له الترجمان: ما جاء بكم؟ فقال: الله بعثنا لنخرج عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام وأرسلنا بدنيه إلى خلقه فمن قبله قبلنا منه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفى إلى الجنة أو الظفر. فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال: نعم! كم أحب إليك يوماً أو يومين، قال: لا بل حتى تكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث فانظر في أمرك وأمرهم واختر إما الإسلام وندعك وأرضك وإما الجزية فقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك والمناسبة في الرابع أن تبذلوا كثيراً بهذا عن أصحابي.

قال أسيدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد يميز بعضهم عن بعض يميز أدناهم على أعلاهم. فخلا رستم برؤساء قومه وقال: رأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل؟ فأروه الاستخفاف بشأنه وثيابه. فقال: ويحكم إنما انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة والعرب تستخف اللباس وتصون الأحساب.

ثم أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن ففعل كما فعل الأول ولم ينزل عن فرسه وتكلم وأجاب مثل الأول، فقال له: ما تعبد بالأول عنا؟ فقال: أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتي. فقال رستم: والمواعدة إلى متى؟ فقال: إلى ثلاث من أمس وانصرف. وخلا رستم بأصحابه يعجبهم من شأن القوم. وبعث في الغد عن آخر فجاءه المغيرة بن شعبة فلما وصل إليهم وهم على زهيم وبسطهم على غلوة من مجلس رستم فجاء المغيرة حتى جلس معه على سريريه فانزلوه، فقال: لا أرى قوماً أسفهم منكم إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً فظننتكم كذلك وكان أحسن بكم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض مع أنني لم أتكلم وإنما دعوتوني فقد علمت أنكم مغلوبون ولم يقم ملك على هذه السيرة. فقالت

قال رستم: فنحن إذا وضعنا في أيديكم، فقال: أعمالكم وضعتكم وأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فلست تحاول الناس إنما تحاول القضاء والقدر. فغضب وأمر به فضربت عنقه. وسار فنزل الفرس وفشا في عسكره المنكر وغضبوا الرعايا أمواهم وأبناءهم حتى نادى رستم منهم بالويل، فقال: صدق والله العربي. وأتى ببعضهم ف ضرب عنقه. ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها فعزهم وهم بهم، فقال له ابن بقليلة: لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا. وأرسل سعد السرايا إلى السواد وسمع بهم رستم فبعث لاعتراضهم الفرس، وبلغ ذلك سعداً فأمدهم بعاصم بن عمرو فجاءهم وخيل فارس تحوشهم، فلما رأوا عاصماً هربوا.

وجاء عاصم بالغنائم. ثم أرسل سعد عمرو بن معديكرب وطليعة الأسدي طليعة فلما ساورا فرسخاً وبعضه، لقوا المسالحي فرجع عمرو، ومضى طليعة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه وهناك أطناب خيمة أو خيمتين وأقادت بعض الخيل وخرج يعدو به فرسه، ونذر به الفرس فركبوا في طلبه إلى أن أصبح وهم في أثره فكر على فارس فقتله ثم آخر ثم آخر وأسر الرابع، وشارف عسكر المسلمين فرجعوا عنه. ودخل طليعة على سعد بالفارسي ولم يخلف بعده فيهم مثلهم بل مثله فأسلم ولزم طليعة.

ثم سار رستم فنزل القادسية بعد ستة أشهر من المدائن، وكان يطاول خوفاً وثقة، والملك يستحثه وكان رأى في منامه كان ملكاً نزل من السماء ومعه النبي ﷺ وعمر وأخذ الملك سلاح أهل فارس فخمته ثم دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودفعه النبي إلى عمر فحزن لذلك أهل فارس في سيره. ولما وصل القادسية وقف على العتيق حيال عسكر المسلمين والناس يتلاحقون حتى اغتموا من كثرتهم، وركب رستم غداة تلك الليلة وصعد مع النهر وصوب حتى وقف على القنطرة، وأرسل إلى زهرة فوافقه وعرض له بالصلح. وقال: كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ويقر صنيعهم مع العرب ويقول زهرة: ليس أمرنا من أولئك وإنما طلبنا وهما الآخرة وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسلاً دعانا إلى دين الحق فأجبناه. وقال: قد سلطنتكم على من لم يدن به وأنا منتقم بكم منهم وأجعل لكم الغلبة! فقال رستم: وما هو دين الحق. فقال: الشهادتان وإخراج الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الله وإنهم إخوان في ذلك. فقال رستم: فإن أجبتنا إلى هذا ترجعون؟ فقال: إي والله! فانصرف عنه رستم. ودعا رجال فارس وذكر ذلك لهم فأنقوا، وأرسل إلى سعد أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا، فبعث إليه ربيعي بن عامر

واستخلف خالد بن عرفة على الناس وحبس من شغب عليه في القصر وقيلهم، وكان فيهم أبو محجن الثقفي، وقيل إنما حبسه بسبب الحمر. ثم خطب الناس وحثهم على الجهاد وذكرهم بوعد الله، وذلك في الحرم سنة أربع عشرة، وأخبرهم أنه استخلف خالد بن عرفة. وأرسل جماعة من أهل الرأي لتحريض الناس على القتال مثل المغيرة وحذيفة وعاصم وطلحة وقيس وغالب وعمرو، ومن الشعراء الشماخ والحطيئة والعبدى بل وعبد بن الطيب وغيرهم ففعلوا.

ثم أمر بقراءة سورة الجهاد وهي الأنفال فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها، فلما فرغت القراءة قال سعد: الزموا مواقفكم فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا. فإذا سمعتم الثانية فكبروا وأتموا عدتكم، فإذا سمعتم الثالثة فكبروا ونشطوا الناس، فإذا سمعتم الرابعة فازحفوا حتى تحالطوا عدوكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فلما كبر الثالثة برز أهل النجدان فأنشبو القتال وخرج أمثالهم من الفرس فاعتوروا الطعن والضرب، وارتجزوا الشعر، وأول من أسر في ذلك اليوم هرمز من ملوك اللباب وكان متوجاً أسره غالب بن عبد الله الأزدي فدفعه إلى سعد ورجع إلى الحرب. وطلب البراز أسوار منهم فبرز إليه عمرو بن معديكرب فأخذه وجلده به الأرض فذبحه وسلب سواريه ومنطقته. ثم حملوا الفيلة على المسلمين وأمالوها على بجيلة فقتلت عليهم، فأرسل سعد إلى بني أسد أن يدافعوا عنهم، فجاءه طليحة بن خويلد وحمل ابن مالك فردوا الفيلة، وخرج على طليحة عظيم منهم فقتله طليحة.

وعبر الأشعث بن قيس كندة بما يفعله بنو أسد فامتشاطوا ونهذوا معه فآزالوا الذين بلزائهم. وحين رأى الفرس ما لقي الناس والفيلة من بني أسد حملوا عليهم جميعاً وفيهم ذو الحجاب والجالينوس.

وكبر سعد الرابعة فزحف المسلمون وثبت بنو أسد، ودارت رعى الحرب عليهم وحملت الفيول على الميمنة والميسرة ونفرت خيول المسلمين منها فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو هل من حيلة لهذه الفيلة؟ فبعث الرماة يرشقونها بالنبل واشتد برقعاً آخرون يقطعون الوضن.

وخرج عاصم بجميعهم ورحى الحرب على أسد، واشتد عواء الفيلة ووقعت الصناديق فهلك أصحابها، ونفس عن أسد أن أصيب منهم خمسة وردوا فارس إلى موافقهم. ثم اقتتلوا إلى هذه

السفلة: صدق والله العربي، وقالت الأساطين: لقد رمانا بكلام لا تزال عبيدنا يزعون إليه قاتل الله من يصغر أمر هذه الأمة. ثم تكلم رستم فعظم من أمر فارس بل من شأن فارس وسلطانهم وصغر أمر العرب وقال: كانت عيشتكم سيئة وكنتم تقصدوننا في الجذب فنردكم بشيء من التمر والشعير ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من الجهد ونحن نعطي أميركم كسوة وبغلاً وألف درهم وكل رجل منكم حمل غر وتصرفون فلساً أشتهي قتلكم.

فتكلم المغيرة وخطب فقال: أما الذي وصفنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف فتعرفه ولا ننكره والدينا دول والشدة بعدها الرخاء ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلاً عما أوتيتهم وقد أسلمكم الله بضعف الشكر إلى غير الحال وأن الله بعث فينا رسولاً، ثم ذكر مثلما تقدم إلى التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال، ثم قال: وإن عيالنا ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عنه. فقال رستم: إذا تموتون دونها، فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة ويظفر من بقي منا بكم. فاستشاط غضباً وحلف أن لا يقع الصلح أبداً حتى أقتلكم أجمعين.

وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وعرض عليهم مصالحة القوم، وحذرهم عاقبة حربهم، فلجؤا. وبعث إليه سعد يعرض عليه الإسلام ويرغب، فأجابته بمثل ما كان يقول لأولئك من الامتنان على العرب والتعريض بالطامع، فلم يتفق شيء من رأيهم. فقال رستم: تعبرون إلينا أم نعبى إليكم؟

فقالوا: بل اعبروا! وأرسل إليهم سعد بذلك وأرادوا القطرة، فقال سعد: لا ولا كرامة لا نرد عليكم شيئاً غلبناكم عليه فأبى. فباتوا يسكرون العتيق بالتراب والقصب والبرادع حتى جعلوا جسراً. ثم عبر رستم ونصب له سريره وجلس عليه وضرب طيارة عليه وعبر عسكره، وجعل الفيلة في القلب والمجنبتين عليها الصناديق والرجال والرايات أمثال الحصون، وجعل الجالينوس بينه وبين الميمنة والفرزان بينه وبين الميسرة.

ورتب يزدجرد الرجال بين المدائن والقادسية وما بينه وبين رستم رجلاً على كل دعوة تنتقل إليه ينبئهم أخبار رستم في أسرع وقت. ثم أخذ المسلمون مصافهم واختط سعد قصره، وكان به عرق النساء وأصابته معه دمايل لا يستطيع معها الجلوس فصعد على سطح القصر ركباً على وسادة في صدره وأشرف على الناس، وعاب ذلك عليه بعض الناس فتزل واعتذر إليهم وأراهم القروح في جسده فعذروه.

المكشوح وعمرو بن معديكرب، ثم زحفت الفيلة وفرقت بين الكتاب. وأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم أن أكفياني الأبيض وكان بإزائهما، وإلى عملل والدميل أن أكفياني الأجرب وكان بإزائهما.

فحملوا على الفيلين فقتل الأبيض ومن كان عليه وقطع مشفر الأجرب وفقت عينه وضرب سائسه الدميل بالطير زين فأقلت جريحاً، ونحر الأجرب بن الصغين وألقى نفسه في العتيق واتبعت الفيلة وفرقت صفوف الأعاجم في أثره، وقصدت المدائن بوثوبها وهلك جميع من فيها. وخلص المسلمون والفرس فاختلفوا على سواء إلى المساء واقتتلوا بقية ليلتهم وتسمى ليلة الهرير. فأرسل سعد طليحة وعمر إلى مخاضة أسفل العسكر يقومون عليها خشية أن يؤتى المسلمون منها، فتشاوروا أن يأتوا الأعاجم من خلفهم، فجاء طليحة وراء العسكر وكبر فارتاع أهل فارس، فأغار عمر أسفل المخاضة ورجع وزاحفهم الناس دون إذن سعد وأول من زاحفهم من الناس دون إذن سعد زاحفهم القعقاع وقومه فحمل عليهم، ثم حمل بنو أسد ثم النخع ثم بجيلة ثم كندة، وسعد يقول في كل واحدة اللهم اغفر لهم وانصرهم. وقد كان قال لهم إذا كبرت ثلاثاً فاحملوا، فلما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضاً بعد صلاة العشاء واختلطوا وصيلل الحديد كصوت القرن إلى الصباح.

وركدت الحرب وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم وأقبل سعد على الدعاء، وسمع نصف الليل صوت القعقاع في جماعة من الرؤساء إلى رستم حتى خالطوا صفه مع الصبح فحمل الناس من كل جهة على من يليهم واقتتلوا إلى قائم الظهيرة، فناجز الفيرزان والهرمزان بعض الشيء وانفرج القلب، وهبت ريح عاصف فقلبت طيارة رستم عن سريه فهوت في العتيق، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير وقد قام رستم عنه فاستظل في ظل بغل فحمله، وضرب هلال بن علقمة الحمل فوق أحد العدلين على رستم فكسر ظهره، وضربه هلال ضربة نفحت مسكاً وضرب نحو العتيق ورمى بنفسه فيه فاقترحم هلال عليه وجره برجله فقتله، وصعد السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة إلي! فاطافوا به وكبروا.

وقيل: إن هلالاً لما قصد رستم رماه بسهم، فأنثب قدمه بالركاب ثم حمل عليه، فقتله واحتز رأسه ونادى في الناس قتلت رستم!

فانهزم قلب المشركين وقام الجالينوس على الردم ونادى الفرس إلى العبور، وتهافت المقتنون بالسلاسل في العتيق وكانوا

من الليل وكان هذا اليوم الأول وهو يوم الرماة. ولما أصبح سعد دفن القتلى وأسلم الجرحى إلى نساء يقرن عليهم، وإذا بنواحي الخيل طالعة من الشام، كان عمر بعد فتح دمشق عزل خالد بن الوليد عن جند العراق وأمر أبا عبيدة أن يؤمر عليهم هاشم بن عتبة يردهم إلى العراق، فخرج بهم هاشم وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، فقدم القعقاع على الناس صبيحة ذلك اليوم وهو يوم أغوات، وقد عهد إلى أصحابه أن يقطعوا أعشاراً بين كل عشرين مد البصر وكانوا ألفاً، فسلم على الناس وبشرهم بالجنود وحرصهم على القتال.

وطلب البراز فخرج إليه ذو الحاجب عرفه القعقاع ونادى بالآثر لأصحاب الجسر، وتضاربوا فقتله القعقاع وسر الناس بقتله، ووهنت الأعاجم لذلك. ثم طلب البراز فخرج إليه الفيرزان والبيندوان. وأكثر المسلمون القتل في الفرس وأخذوا الفيلة عن القتال لأن نوابتها تكسرت بالأسس، فاستأنفوا عملها، وجلل القعقاع إبلاً وجعل عليها البراق وأركبها عشرة عشرة، وأطاف عليها الخيول تحميها، وحملها على خيل الفرس فنشرت منها وركبتهم خيول المسلمين، ولقي الفرس من الإبل أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة. وبرز القعقاع يومئذ في ثلاثين فارساً في ثلاثين حملة فقتلهم، كان آخرهم يزرجهر الهمداني، وبارز الأعور بن قنطة شهریار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه.

ولما انتصف النهار تراخف الناس فاقتتلوا إلى انتصاف الليل وقتلوا عامة أعلام فارس ثم أصبحوا في اليوم الثالث على مواقفهم بين الصغين ومن المسلمين ألف جريح وقتيل ومن المشركين عشرة آلاف، فدفن المسلمون موتاهم وأسلموا الجرحى إلى النساء واكلوا النساء والصبيان بحفر القبور، وبقي قتلى المشركين بين الصغين. وبات القعقاع يسرب أصحابه إلى حيث فارقه بالأسس، وأوصاهم إذا طلعت الشمس أن يقبلوا مئة مئة يجد بذلك الناس، وجاء بينهما يلحق هاشم بن عتبة.

فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فتقدموا والمسلمون يكبرون، فتزاحفت الكتاب طعناً وهرباً، وما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى لحق هاشم فقبض أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس بن المكشوح فلما خالط القلب كبر وكبر المسلمون ثم كبر فخرق الصفوف إلى العتيق، ثم عاد وقد أصبح الفرس على مواقفهم وأعادوا الصناديق على الفيلة وأحذقوا الرجال بها يجمعونها أن تقطع وضنها، وأقام الفرسان يجمعون الرجال فلم تنفر خيل المسلمين منها. وكان هذا اليوم يوم عماس وكان شديداً، إلا أن الطائفتين فيه سواء وأبلى فيه قيس بن

وسار النخيزجان ومهران إلى المدائن فتحصنوا وقطعوا الجسر. ثم سار سعد من بابل على التعبية وزهرة في المقدمة، وقدم بين يديه بكير بن عبد الله الليثي وكثير بن شهاب السبيعي حتى عبرا ولحقا بأخريات القوم، فقتلا في طريقهما أسوارين من أساورتهم، ثم تقدموا إلى كوثي وعليها شهريار فخرج لقتالهم فقتل وانهمز أصحابه فافترقوا في البلاد. وجاء سعد فنقل قتله سلبه.

وتقدم زهرة إلى ساباط فصالحه أهلها على الجزية وهزم كتيبة كسرى، ثم نزلوا جميعاً على بهرشير من المدائن، ولما عاينوا الإيوان كبروا وقالوا: هذا أبيض كسرى هذا ما وعد الله. وكان نزولهم عليها ذا الحجة سنة خمس عشرة فحاصروها ثلاثة أشهر ثم اقتحموها، وكانت خيولهم تغير على النواحي وعهد إليهم عمر أن من أجاب من الفلاحين ولم يعن عليهم فذلك أمانه، ومن هرب فأدرك فشنأكم به. ودخل الدهاقين من غربي دجلة وأهل السواد كلهم في أمان المسلمين واغتبطوا بملكهم، واشتد الحصار على بهرشير ونصبوا عليها المجانيق واستلحموهم في المواطن، وخرج بعض المرازبة يطلب البراز، فقاتله زهرة بن حيوة فقتلا معاً، ويقال: إن زهرة قتله شبيب الخارجي أيام الحجاج. ولما ضاق بهم الحصار وركب إليهم الناس بعض الأيام فلم يروا على الأسوار أحداً إلا رجلاً يشير إليهم فقال: ما بقي بالمدينة أحد وقد صاروا إلى المدينة القصوى التي فيها الإيوان، فدخل سعد والمسلمون وأرادوا العبور إليهم فوجدوهم جمعوا المعابر عندهم، فأقام أياماً من صبر ودله بعض العلوج على مخاضة في دجلة فترده، فقال له أقدم فلا تأتي عليك ثلاثة إلا يزدجرد قد ذهب بكل شيء فيها. فعزم سعد على العبور وخطب الناس وندبهم إلى العبور ورغبهم، وندب من يميز أن لا يبيع الفراض حتى يميز إليه الناس، فانتدب عاصم بن عمرو في ستمائة واقتحموا دجلة فلقبهم أمثالهم من الفرس عند الفراض وشدوا عليهم فانهزموا وقتل أكثرهم وعوروا من الطعن في العيون، وعابنهم المسلمون على الفراض، فاقترحوا في أثرهم يصيحون: نستعين بالله وتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول وقوة إلا بالله العلي العظيم.

وساروا في دجلة وقد طبقوا ما بين عدوتها وخيلهم ساجدة بهم وهم يهيمون تارة ويتحاذون أخرى حتى أجازوا البحر ولم يفتقدوا شيئاً، إلا قدحاً لبعضهم غلبت صاحبه جرية الماء وألقته الريح إلى الشاطئ.

ورأى الفرس عساكر المسلمين قد أجازوا البحر فخرجوا هارين إلى حلوان، وكان يزدجرد قدم إليها قبل ذلك عياله، ورفعوا ما قدروا عليه من عرض المتاع وخفيقه ومن بيت المال

ثلاثين ألفاً هلكوا، وأخذ ضرار بن الخطاب راية الفرس العظيمة وهي درفش كايان فعوض منها ثلاثين ألفاً وكانت قيمتها ألف ألف ومائة ألف، وقتل ذلك اليوم من الأعاجم عشرة آلاف في المعركة، وقتل من المشركين في ذلك اليوم ستة آلاف دفنوا في الخندق حيال مسرق سوى ألفين وخمسمائة قتلوا ليلة الحرير، وجمع من الأسلاب والأموال ما لم يجمع قبله ولا بعده مثله. ونقل سعد هلال بن علقمة سلب رستم، وأمر القعقاع وشرحيل باتياع العدو وقد كان خرج زهرة بن حيوة قبلها في أناره، فلحق الجالينوس بجمع المهزمين فقتله وأخذ سلبه، فتوقف سعد من عطائه، وكتب إلى عمر، فكتب إليه: تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حربك ما بقي نفسك قلبه، امض له سلبه وفضله على أصحابه في العطاء بخمس مئة. ولحق سليمان بن ربيعة الباهلي وأخوه عبد الرحمن بطائفة من الفرس قد استماتوا فقتلوهم، واستمات بعد الهزيمة بضعة وثلاثون رئيساً من المسلمين فقتلوهم أجمعين.

وكان ممن هرب من أمراء الفرس الهرمزان والفرزاد بن بيهس وقارن، ومن استمات قتل شهريار بن كبار وأسر المدمرون والفردان الأهوازي وخشرشوم الهمداني. وكتب سعد إلى عمر بالفتح ومن أصيب من المسلمين، وكان عمر يسأل الركبان حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله.

فلما لقي البشر قال: من أين؟ فأخبره فقال: حدثني فقال: هزم الله المشركين. ففرح بذلك. وأقام المسلمون بالقادسية ينتظرون كتاب عمر إلى أن وصلهم بالإقامة. وكانت وقعة القادسية سنة أربع عشرة وقيل: خمس عشرة وقيل ست عشرة.

فتح المدائن وجلولاء بعدها

ولما انهزم أهل فارس بالقادسية انتهوا إلى بابل وهديل وفيهم بقايا الرؤساء النخيزجان ومهران الأهوازي والهرموان وأشباههم واستعملوا عليهم الفيرزان. وأقام سعد بعد الفتح شهرين وسار بأمر عمر إلى المدائن وخلف العيال بالعقيق في جند كتياف حامية لهم، وقدم بين يديه زهرة بن حياة وشرحيل بن الصمت وعبد الله بن المعتمر، ولقيهم بعض عساكر الفرس فهزموهم حتى لحقوا ببابل. ثم جاء سعد وسار في التعبية ونزلوا على الفيرزان ومن معه ببابل، فخرجوا وقاتلوا المسلمين، فانهزموا وافترقوا فرقتين ولحق الهرمزان بالأهواز والفيرزان بنهاوند وبها كنوز كسرى.

في هذا الغطف، فاختلفوا وأشاروا على نفسه، فقطعه بينهم، فاصاب عليّ قطعة منه باعها بعشرين ألفاً ولم تكن بأجودها.

وولّى عمر سعد بن أبي وقاص على الصلاة والحرب فيما غلب عليه، وولى حذيفة بن اليمان على سقي الفرات، وعثمان بن حنيف على سقي دجلة، ولما انتهى الفرس بالهرب إلى جلولاء، وافترقت الطرق من هنالك بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس، وقضوا هنالك خشية الافتراق واجتمعوا على مهران الرازي وخندقوا على أنفسهم وأحاطوا الخندق بحسره الحديد، وتقدم يزدجرد إلى حلوان. وبلغ ذلك سعداً فكاتب عمر بذلك يأمره أن يسرح إلى الفرس بجلولاء هاشماً ابن أخيه عتبة في اثني عشر ألفاً وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وأن يولي القعقاع بعد الفتح ما بين السواد والجبل. فسار هاشم من المدائن لذلك في وجه المسلمين وأعلام العرب حتى قدم جلولاء فأحاط بهم وحاصره في خنادقهم، وزاحفهم ثمانين يوماً ينصرون عليهم في كلها والمدد متصل من هاهنا وهاهنا ثم قاتلوهما آخر الأيام فقتلوا منهم أكثر من ليلة الهريز، وأرسل الله عليهم ريحاً وظلمة فسقط فرسانهم في الخندق وجعلوه طرقاتاً ما يليهم ففسد حصنهم، وشعر المسلمون بذلك فجاءه القعقاع إلى الخندق فوقف على بابه.

وشاع في الناس أنه أخذ في الخندق، فحمل الناس حملة واحدة انهزم المشركون لها وافترقوا، ومروا بالجريرة التي تحصنوا بها ففقرت دوابهم فترجلوا ولم يفلت منهم إلا القليل، يقال: إنه قتل منهم يومئذ مائة ألف. واتبعهم القعقاع بالطلب إلى خاتقين، وأجفل يزدجرد من حلوان إلى الري واستخلف عليها خشرشوم، وجاء القعقاع إلى حلوان فبرز إليه خشرشوم وعلى مقدمته الرمي، فقتله القعقاع وهرب خشرشوم من ورائه، وملك القعقاع حلوان وكتب إلى عمر بالفتح واستأذنه في اتباعهم، فأبى وقال: وددت أن بين السواد والجبل سداً حصيناً من ريف السواد فقد أثرت سلامة المسلمين على الأنفال. وأحصيت الغنيمة فكانت ثلاثين ألف ألف، فقسمها سلمان بن ربيعة، يقال: إنه أصاب الفارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب. وبعثوا بالأخماس إلى عمر مع زياد ابن أبيه. فلما قدم الخمس قال عمر: والله لا يجيء سقف حتى أقسمه، فجعله في المسجد وبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانه، ولما أصبح جاء في الناس ونظر إلى ياقوتة وجوهرة فبكى، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا موطن شكر؟ قال: والله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا فبليقي الله بأسهم بينهم. ومنع عمر من قسمة السواد ما بين حلوان والقادسية فأقره حبساً، واشترى جرير بعضه بشاطيء

والنساء والذراري، وتركوا بالمدائن من الثياب والأمتعة والآنية والألطاف ما لا تحصى قيمته، وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف مكررة ثلاث مرات تكون جللتها ثلاثمائة ألف قطار من الدنانير، وكان رسمت عند مسيره إلى القادسية حمل نصفها لنفقات العساكر وأبقى النصف. واقتحمت العساكر المدينة يجولون في سككها لا يلقون بها أحداً، وأرز سائر الناس القصر الأبيض حتى توثقوا لأنفسهم على الجزية.

ونزل سعد القصر الأبيض واتخذ الإيوان به مصلًى ولم يغير ما فيه من التماثيل، ولما دخله قرأ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَغُيُونَ﴾ الآية، وصلى فيه صلاة الفتح ثمانين ركعات لا يفصل بينهم وأتم الصلاة بنية الإقامة. وسرح زهرة بن حيوة في آثار الأعاجم إلى النهروان وقراها من كل جهة، وجعل على الأخماس عمرو بن عمرو بن مقرن، وعلى القسم سلمان بن ربيعة الباهلي وجمع ما كان في القصر والإيوان والدور وما نهى أهل المدائن عند الهزيمة، ووجدوا حلبة كسرى: ثيابه وخرزاته وتاجه ودرعه التي كان يجلس فيها للمباهاة أخذ ذلك من أيدي الهاربين على بغلين، وأخذ منهم أيضاً وقر بغل من السيوف وآخر من الدروع والمغافر منسوبة كلها درع هرقل وخاقان ملك الترك وداهر ملك الهند وبهرام جور وسياوخش والنعمان بن المنذر وسيف كسرى وهرمز وقيباد وفيروز وهرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان أحضرها القعقاع.

وخيره في الأسلـف، فاختر سيف هرقل وأعطاه درع بهرام، وبعث إلى عمر سيف كسرى والنعمان وتاج كسرى وحليته وثيابه ليراهـا الناس. وقسم سعد الفـي بين المسلمين بعدما خـسه، وكانوا ستين ألفاً فأصاب للفارس اثنا عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل، ونفل من الأخماس في أهل البلاد، وقسم المنازل بين الناس، واستدعى العبيلات من العتيق فأنزلهم الدور ولم يزالوا بالمدائن حتى تم فتح جلولاء وحلوان وتكريت والموصل، واختطت الكوفة فتحولوا إليها، وأرسل سعد في الخمس كل شيء يعجب العرب منهم أن يصنع إليهم، وحضر إليهم نهار كسرى وهو الغطف وهو بساط طوله ستون ذراعاً في مثلها مقدار مزرعة جريب في أرضه وهي منسوجة بالذهب طرقاتاً كالأنهار وتماثيل خلاها بصدف الدر والياقوت وفي حافاتها كالأرض المزودة والمقبلة بالنبات ورقها من الحرير على قضبان الذهب وزهره حبات الذهب والفضة وثمره الجوهر، كانت الأكاسرة يسطونه في الإيوان في فصل الشتاء عند فقدان الرياحين يشربون عليه، فلما قدمت الأخماس على عمر قسمها في الناس، ثم قال: أشيروا علي

عزله، واستعمل أبا موسى. وقيل: استعمل بعد عتبة أبا سبرة
وبعده المغيرة.

ولقة مرج الروم وفتح مدائن الشام بعدها

لما انهزم الروم بفحل سار أبو عبيدة وخالد إلى حمص
 واجتمعوا بذئ الكلاع في طريقهم وبعث هرقل توذر البطريق
للقائهم فنزلوا جميعاً بمرج الروم، وكان توذر بإزاء خالد وشمر
بطريق آخر بإزاء أبي عبيدة وأمساوا مستترين. ثم أصبح فلم يجدوا
توذر وسار إلى دمشق واتبعه خالد، واستقبله يزيد من دمشق
فقاتله، وجاءه خالد من خلفه فلم يفلت منهم إلا القليل وغنموا
ما معهم. وقتل شمر أبو عبيدة بعد مسيرة خالد فانهمز الروم
 وقتلوا واتبعهم أبو عبيدة إلى حمص ومعه خالد، فبلغ ذلك هرقل
 فبعث بطريق حمص إليها وسار هو في الرها، فحاصر أبو عبيدة
حمص حتى طلبوا الأمان فصالحهم.

وكان هرقل يعدمهم في حصارهم المدد، وأمر أهل الجزيرة
بإمدادهم فساروا لذلك. وبعث سعد بن أبي وقاص العساكر من
العراق فحاصروا هيت وقرقيسيا فرجع أهل الجزيرة إلى بلادهم.
وئس أهل حمص من السدد فصالحوا على صلح أهل دمشق،
 وأنزل أبو عبيدة فيها السمط بن الأسود في بني معاوية من كندة
والأشعث بن قيس في السكون والمقداد في بلي وغيرهم، وولى
عليهم أبو عبيدة بن الصامت وسار إلى حماة فصالحوه على الجزية
عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، ثم سار نحو شيزر فصالحوا
كذلك، ثم إلى المعرة كذلك ويقال: معرة النعمان وهو النعمان بن
بشير الأنصاري.

ثم سار إلى اللاذقية ففتحها عنوة ثم سلمية، ثم أرسل أبو
عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين فاعترضه ميناكس عظيم الروم
بعد هرقل فهزمهم خالد وأثنى فيهم، ونازل قنسرين حتى
افتتحها عنوة وخرّبها. وأدرب إلى هرقل من ناحيته، وأدرب
عياض بن غنم كذلك، وأدرب عمر بن مالك من الكوفة إلى
قرقيسيا، وأدرب عبد الله بن المعتز من الموصل، فارتحل هرقل
إلى القسطنطينية من أمدها، وأخذ أهل الحصون بين الإسكندرية
وطرسوس وشعبها أن يتبع المسلمون بعمارتهما. ولما بلغ عمر
صنيع خالد قال: أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم
مني بالرجال. وقد كان عزل خالد والمثنى بن حارثة خشية أن
يداخلهما كبر من تعظيم فوكلوا إليه، ثم رجع عن رأيه في المثنى
عند قيامه بعد أبي عبيد، وفي خالد بعد قنسرين فرجع خالد إلى

الفرات فرد عمر الشراء.

ولما رجع هاشم من جلولا إلى المدائن بلغهم أن أدين بن
الهرامون جمع جمعاً وجاء بهم إلى السهل، فبعث إليه ضرار بن
الخطاب في جيش فلقبهم بماسبدان فهزمهم وأسر أدين فقتله،
وانتهى في طلبه إلى النهروان وفتح ماسبدان عنوة ورد إليها أهلها
ونزل بها فكانت أحد فروج الكوفة، وقيل كان فتحها بعد نهانود
والله سبحانه أعلم.

ولاية عتبة بن غزوان على البصرة

كان عمر عندما بعث المثنى إلى الحيرة بعث عتبة بن قتادة
السلوسي إلى البصرة فكان يغير بتلك الناحية، ثم استمد عمر
فبعث إليه شريح بن عامر بن سعد بن بكر فأقبل إلى البصرة
ومضى إلى الأهواز، ولقيه مسلحة الأعاجم فقتلوه. فبعث عمر
عتبة بن غزوان والياً على تلك الناحية، وكتب إلى العلاء بن
الحضرمي أن يمه بعرفجة بن هرثمة وأمره أن يقيم بالتخيم بين
أرض العرب وأرض العجم، فأنهى إلى حبال الجسر وبلغ
صاحب الفرات خبرهم فأقبل في أربعة آلاف وعتبة في خمسمائة
والتقوا فقتلوا الأعاجم أجمعين وأسروا صاحب الفرات.

ثم نزل البصرة في ربيع سنة أربع عشرة، وقيل إن البصرة
بصرت سنة ست عشرة بعد جلولا وتكرت. أرسل سعد إليها
عتبة فأقام بها شهراً وخرج إليه أهل الأبله، وكانت مرفاً للسفن
من الصين، فهزمهم عتبة وأحجرهم في المدينة ورجع إلى عسكره،
ورعب الفرس فخرجوا عن الأبله وحملوا ما خف وخلوا المدينة
وعبروا النهر، ودخلها المسلمون فغنموا ما فيها واقتسموه. ثم
اختط البصرة وبدأ بالمسجد فبناه بالقبص. وجمع له أهل دست
ميان فلقبهم عتبة فهزم وأخذ مرزبانها أسيراً، وأخذ قتادة منطقته
فبعث بها إلى عمر، وسأل عنهم فقيل له: انتالت عليهم الدنيا فهم
يهلون الذهب والفضة. فرغب الناس في البصرة وأتوها.

ثم سار عتبة إلى عمر بعد أن بعث مجاشع بن مسعود في
جيش إلى الفرات، واستخلف المغيرة بن شعبة على الصلاة إلى
قدوم مجاشع، وجاء ألف يبيكان من عظماء الفرس إلى المسلمين
ولقبهم المغيرة بن شعبة بالمرغاب وبينما هم في القتال إذ لحق بهم
النساء وقد اتخذن خمرهن رايات، فانهمز الأعاجم وكتبوا بالفتح إلى
عمر، فرد عتبة إلى عمله فمات في طريقه، وقيل: إن إمارة عتبة
كانت سنة خمس عشرة وقيل: ست عشرة فولها ستة أشهر،
واستعمل عمر بعده المغيرة بن شعبة مستين فلما رمي بما رمي به

إمارته. سفيان أخاه معاوية بأمر عمر فصار إليها وحاصروهم بعد أن هزمهم، وبلغت قتلاهم في الهزائم ثمانين ألفاً وفتحها آخرأ وكان علقمة بن مجزز على غزة وفيها القبار من بطارقة الروم.

وقعة أجنادين وفتح بيسان والأردن وبيت المقدس

لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص بعد واقعة مرج الروم نزل عمرو وشرحيل على أهل بيسان فافتتحها وصالح أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم بأجنادين وغزة وبيسان وعليهم أربطون من بطارقة الروم، فسار عمرو وشرحيل إليهم واستخلف على الأردن أبا الأعور السلمي. وكان الأربطون قد أنزل بالرملة جنداً عظيماً من الروم وبيت المقدس كذلك، وبعث عمرو علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن العكي لقتال أهل بيت المقدس، وبعث أبا أيوب المالكي إلى قتال أهل الرملة، وكان معاوية محاصراً لأهل قيسارية فشغل جميعهم عنه، ثم زحف عمرو إلى الأربطون واقتلوا كيوم اليرموك أو أشد.

وانهزم أربطون إلى بيت المقدس وأفرج له المسلمون الذين كانوا يحاصرونها حتى دخل. ورجعوا إلى عمرو وقد نزل أجنادين. وقد تقدم لنا ذكر هذه الواقعة قبل اليرموك على رأي من جعلها قبلها وهذا على قول من جعلها بعدها. ولما دخل أربطون بيت المقدس فتح عمرو غزة، وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر، ثم فتح بسبسطية وفيها قبر يحيى بن زكريا، وفتح نابلس على الجزية ثم فتح مدينة لد، ثم عمواس وبيت حبرين ويافا ورفح وسائر مدائن الأردن. وبعث إلى الأربطون فطلب أن يصالح كأهل الشام وتولى العقد عمر وكتبوا إليه بذلك.

فسار عن المدينة واستخلف عليها علي بن أبي طالب بعد أن عدله في مسيره فأبى، وقد كان واعد أمراء الأجناد هنالك فلقبه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل ورماهم بالحجارة، وقال: أتستقبلوني في هذا الزي؟ وإنما شيعتم منذ ستين والله لو كان على رأس المائتين لاستبدلت بكم قالوا: إنها بلا ثمن. وإن علينا السلاح، فسكت ودخل الجابية.

وجاءه أهل بيت المقدس وضم عمراً وشرحيل إليه وقد هرب أربطون عنهم إلى مصر، فصالحوه على الجزية وفتحوها له وكذلك أهل الرملة.

وولى علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه

ولما فرغ أبو عبيدة من قنشرين سار إلى حلب وبلغه أن أهل قنشرين غدروا فبعث إليهم السمط الكندي فحاصروهم وفتح وغنم، ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو موضع قريب منها يجمع أصنافاً من العرب، فصالحوا على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك.

ثم أتى حلب وكان على مقدمته عياض بن غنم الفهري فحاصروهم حتى صالحوه على الأمان، وأجاز ذلك أبو عبيدة، وقيل صولخوا على مقاسمة الدور والكنائس، وقيل انتقلوا إلى أنطاكية حتى صالحوا ورجعوا إلى حلب. ثم سار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية وبها جمع كبير من فل قنشرين وغيرهم ولقوه قريباً منها فهزمهم وأحجرهم بالمدينة وحاصروهم حتى صالحوه على الجلاء أو الجزية ورحل عنهم، ثم نقضوا فبعث أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الأول وكانت عظيمة الذكر، فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب فيها حامية مرابطة ولا يؤخر عنهم العطاء.

ثم بلغ أبا عبيدة أن جمعاً بالروم بين معرة مصرين وحلب فسار إليهم فهزمهم وقتل بطارقتهم، وأمعن بل وأثنخ فيهم، وفتح معرة مصرين على صلح حلب. وجالت خيوله فبلغت سرمين وتيرى وغلبوا على جميع أرض قنشرين وأنطاكية، ثم فتح حلب ثانية. وسار يريد قورس، وعلى مقدمته عياض، فصالحوه على صلح أنطاكية. وبث حيله ففتح تل نزار وما يليه، ثم فتح منبج على يد سلمان بن ربيعة الباهلي، ثم بعث عياضاً إلى دلوك وعيتاب فصالحهم على مثل منبج واشترط عليهم أن يكونوا عوناً للمسلمين. وولى أبو عبيدة على كل ما فتح من الكور عاملاً وضم إليه جماعة وشحن الثغور المخوفة بالحامية. واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات.

وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين. بعث أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبيسي، فسلكوا درب تقيليس إلى بلاد الروم فلقي جمعاً للروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل فآوَق بهم واثنخ فيهم، ولحق به على أنطاكية مالك بن الأشتر النخعي مدداً فرجعوا جميعاً إلى أبي عبيدة. وبعث أبو عبيدة جيشاً آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وخربها، وبعث جيشاً آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحرث كذلك.

وفي خلل ذلك فتحت قيسارية، وبعث إليها يزيد بن أبي

الرملة، وعلقمة بن مجزر على النصف الآخر وأسكنه بيت المقدس، وضم عمراً وشرحيل إليه فلقياه بالجابية. وركب عمر إلى بيت المقدس فدخلها وكشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها وذلك سنة خمس عشرة وقيل: سنة ست عشرة. ولحق أرطبيون بمصر مع من أبى الصلح من الروم حتى هلك في فتح مصر، وقيل: إنما لحق بالروم وهلك في بعض الصوائف. ثم فرق عمر العطاء ودون الدواوين سنة خمس عشرة ورتب ذلك على السابقة.

ولما أعطى صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو أقل من غيرهم قالوا: لا والله لا يكون أحد أكرم منا فقال: إنما أعطيت على سابقة الإسلام لا على الأحساب. فقالوا: نعم إذن. وخرجوا إلى الشام فلم يزالوا مجاهدين حتى أصيبوا.

ولما وضع عمر الدواوين قال له علي وعبد الرحمن: ابدأ بنفسك، قال: لا بعم رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب، ورتب ذلك على مراتب ففرض خمسة آلاف ثم أربعة ثم ثلاثة ثم ألفين وخمسمائة ثم ألفين ثم ألفاً واحداً ثم خمسمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين، وأعطى نساء النبي ﷺ عشرة آلاف لكل واحدة وفضل عائشة بألفين، وجعل النساء على مراتب فلاهل بدر خمسمائة ثم أربعمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين، والصبيان مائة مائة والمساكين جرايتين في الشهر، ولم يترك في بيت المال شيئاً. وسئل في ذلك فأبى وقال: هي فتنه لمن بعدي.

وسأل الصحابة في قوته من بيت المال، فأذنوا له فيه وسأله في الزيادة على لسان حفصة ابنته متكئين عنه، فغضب وامتنع، وسأها عن حال رسول الله ﷺ في عيشه وملبسه وفراشه فأخبرته بالكفاف من ذلك، فقال: والله لأضعن الفضول موضعها ولأبلغن بالترجبة وإنما مثلي ومثل صاحبي ثلاثا سلكوا طريقاً وتزود الأول فبلغ المنزل واتبعه الآخر مقتدياً به كذلك ثم جاءه الثالث بعدهما فلما اقتفى طريقهما وزادهما لحق بهما وإلا لم يبلغهما.

وفتحت في مجادى من هذه السنة تكريت لأن أهل الجزيرة كانوا قد اجتمعوا إلى الرزيان الذي كان بها وهم من الروم وإياد وتغلب والنمر ومعهم المشهارة ليحتموا أرض الجزيرة من روائهم، فسرح إليهم سعد بن أبي وقاص بأمر عمر، كاتبه عبد الرحمن بن المعتمر وعلى مقدمته ربيعي بن الأفكل وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة، فحاصروهم أربعين يوماً ودخلوا العرب الذين معهم فكانوا يطلعونهم على أحوال الروم، ثم ينس الروم من أمرهم واعتزموا على ركوب السفن في دجلة للنجاة، فبعث العرب بذلك إلى المسلمين وسألوهم الأمان، فأجابوهم على أن

وصالحه أهل الموصل وهو الغربي على الجزيرة وفتح معها جبل الأكراد وجميع أعمال الموصل وقيل إنما بعث عتبة بن فرقد عياض بن غنم عندما فتح الجزيرة على ما نذكره والله أعلم.

مسير هرقل إلى حصص وفتح الجزيرة وأرمينية

كان أهل الجزيرة قد راسلوا هرقل وأغروه بالشام وأن يبعث الجنود إلى حصص وواعدوه المدد، وبعثوا الجنود إلى أهل هيت مما يلي العراق، فأرسل سعد عمر بن مالك بن خبير بن مطعم في جند وعلى مقدمته الحارث بن يزيد العامري فسار إلى هيت وحاصروهم، فلما رأى اعتصامهم بمخندقهم حفر عليهم الحارث بن يزيد وخرج في نصف العسكر وجاء قرقيسيا على غرة فأجابوه إلى الجزيرة، وكتب إلى الحارث أن يخذل على عسكر الجزيرة فيبيت حتى سألوا المسألة والعود إلى بلادهم فتركهم ولحق بمعمر بن مالك.

ولما اعتزم هرقل على قصد حصص وبلغ الخبر أبا عبيدة ضم إليه مسالحه وعسكر بفنائها، وأقبل إليه خالد من قنسرين، وكتبوا إلى عمر بن الخطاب فكتب إلى سعد أن يذهب بل أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم فإن أبا عبيدة قد أحبط به، وأن يسرح سهيل بن عدي إلى الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استدعوا الروم إلى حصص، وأن يسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ثم يقصد حران والرها، وأن يسرح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتوخ وأن يكون عياض بن غنم على أمراء الجزيرة هؤلاء إن كانت حرب. فمضى القعقاع من يومه في أربعة آلاف إلى حصص، وسار عياض بن غنم وأمراء الجزيرة كل

كفرتوثا ثم نصيين ثم ماردين ثم الموصل وفتح أحد حصنها، ثم سار إلى أرزن الروم ففتحها ودخل الدرب إلى بدليس. ثم خلاط فصالحوه وانتهى إلى أطراف أرمينية، ثم عاد إلى الرقة ومضى إلى حمص فمات.

واستعمل عمر عمير بن سعد الأنصاري ففتح رأس عين وقيل: إن عياضاً هو الذي أرسله، وقيل: إن أبا موسى الأشعري هو الذي افتتح رأس عين بعد وفاة عياض بولاية عمر، وقيل إن خالداً حضر فتح الجزيرة مع عياض ودخل الحمام بآمد فأطلى بشيء فيه خر وقيل: لم يسر خالد تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة. ولما فتح عياض سميساط بعث حبيب بن مسلمة إلى ملطية ففتحها عنوة ثم انتفض أهلها فلما ولي معاوية الشام والجزيرة وجه إليها حبيب بن مسلمة ففتحها عنوة أيضاً ورتب فيها الجند وولى عليها، ولما أدرب عياض بن غنم من الجابية.

فرجع عمر إلى المدينة سنة سبع عشرة وعلى حمص أبو عبيدة، وعلى قنسرين خالد بن الوليد من تحته، وعلى دمشق يزيد، وعلى الأردن معاوية، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز، وعلى السواحل عبد الله بن قيس. وشاع في الناس ما أصاب خالد مع عياض بن غنم من الأموال فانتجعه رجال منهم الأشعث فإن كان من ماله فقد أسرف فاعزله واضم إليه عمله.

فاستدعاه أبو عبيدة وجمع الناس وجلس على المنبر وسأل يزيد خالداً فلم يجبه، فقام بلال وأنفذ فيه أمر عمر وسأله، فقال: من مالي فأطلقه وأعاد قنيسوته وعمامته. ثم استدعاه عمر فقال له: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان وما زاد على ستين ألفاً فهو لك فجمع ماله فزاد عشرين فجعلها في بيت المال ثم استصلحه.

وفي سنة سبع عشرة هذه اعتمر عمر ووسع في المسجد وأقام بمكة عشرين ليلة، وهدم على من أبي البيع دورهم لذلك، وكانت العمارة في رجب وتولاها حرملة بن نوفل، والأزهر بن عبد عوف، وحويطب بن عبد العزى وسعيد بن يربوع، واستأذنه أهل المياه أن يبنوا المنازل بين مكة والمدينة فأذن لهم على شرط أن ابن السيل أحق بالظل والماء.

غزو فارس من البحرين وعزل العلاء عن

البصرة ثم المغيرة وولاية أبي موسى

كان العلاء بن الحضرمي على البحرين أيام أبي بكر ثم

أمير إلى كورته، وخرج عمر من المدينة فأتى الجابية يريد حمص مغياً لأبي عبيدة. ولما سمع أهل الجزيرة خبر الجنود فارقوا هرقل ورجعوا إلى بلادهم، وزحف أبو عبيدة إلى الروم فانهزموا، وقدم الققعاق من العراق بعد الوقعة بثلاث، وكتبوا إلى عمر بالفتح فكتب إليهم أن أشركوا أهل العراق في الغنمة.

وسار عياض بن غنم إلى الجزيرة وبعث سهيل بن عدي إلى الرقة عندما انتقبضوا عن هرقل فنهضوا معه، إلا إياد بن نزار، فانهم دخلوا أرض الروم. ثم بعث عياض بن سهيل وعبد الله يضمهما إليه، وسار بالناس إلى حران فأجابوه إلى الجزيرة. ثم سرح سهيلاً وعبد الله إلى الرها فأجابوا إلى الجزيرة، وكمل فتح الجزيرة. وكتب أبو عبيدة إلى عمر لما رجع من الجابية وانصرف معه خالد أن يضم إليه عياض بن غنم مكانه ففعل، وولى حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عربها.

ولما بلغ عمر دخول إياد إلى بلاد الروم، كتب إلى هرقل: بلغني أن حياً من أحياء العرب تركوا دارنا وأتوا دارك فوالله لتخرجهم أو لنخرجن النصارى إليك، فأخرجهم هرقل وتفرق منهم أربعة آلاف فيما يلي الشام والجزيرة، وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من تغلب إلا الإسلام، فكتب إليه عمر: إنما ذلك في جزيرة العرب التي فيها مكة والمدينة واليمن فدعهم على أن لا ينصروا وليداً ولا يمنوا أحداً منهم من الإسلام.

ثم وفدوا إلى عمر في أن يضع عنهم اسم الجزيرة فجعلها الصدقة مضاعفة ثم عزل الوليد عنهم لسلطوته وعزتهم، وأمر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمرو الجملي. وقال ابن إسحاق: إن فتح الجزيرة كان سنة تسع عشرة وإن سعداً بعث إليها الجند مع عياض بن غنم وفيهم ابنه عمر وعياض بن غنم، ففتح عمر الرها بل ففتح عياض الرها، وصالحت حران، وافتتح أبو موسى نصيين، وبعث عثمان بن أبي العاص إلى أرمينيا فصالحوه على الجزيرة، ثم كان فتح قيسارية من فلسطين.

فتكون الجزيرة على هذا من فتوح أهل العراق والأكثر إنها من فتوح أهل الشام. وإن أبا عبيدة سبى عياض بن غنم إليها، وقيل بل استخلفه لما توفي، فولاه عمر على حمص وقنسرين والجزيرة فسار إليها سنة ثمان عشرة في خمسة آلاف فانتهت طائفة إلى الرقة فحاصروها حتى صالحوه على الجزيرة والخراج على الفلاحين. ثم سار إلى حران فجهز عليها صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة، وسار هو إلى الرها فحاصرها حتى صالحوه. ثم رجع إلى حران وصالحهم كذلك، ثم فتح سميساط وسروج ورأس كيفا فصالحوه على منبج كذلك، ثم آمد ثم ميفارقين ثم

بناء البصرة والكوفة

وفي هذه السنة وهي أربع عشرة بلغ عمر أن العرب تقرّ بل تغيرت ألوّانهم ورأى ذلك في وجهه وفودهم فسألم فقالوا: وخومة البلاد غيرتنا، وقيل: إن حذيفة وكان مع سعد كتب بذلك إلى عمر فسأل عمر سعداً فقال: غيرتهم وخومة البلاد والعرب لا يوافقها من البلاد إلا ما وافق إبلها، فكتب إليه أن يبعث سلمان وحذيفة شقيقه فلم يرضيا إلا بقعة الكوفة فصليا فيها ودعيا أن تكون منزل ثبات. ورجع إلى سعد فكتب إلى القعقاع وعبد الله بن المعتمر أن يستخلفا على جندهما ويحضرا، وارتحل من المدائن فنزل الكوفة في الحرم سنة سبع عشرة لستين وشهرين من وقعة القادسية ولثلاث سنين وثمانية أشهر من ولاية عمر، وكتب إلى عمر إني قد نزلت الكوفة بين الحيرة والفرات برياً بحرياً بين الجلاء والنصر وخيرت الناس بينهما وبين المدائن ومن أعجبه تلك جعلته فيها مسلحة، فلما استقروا بالكوفة ثاب إليهم ما فقدوه من حالهم. ونزل أهل البصرة أيضاً منازلهم في وقت واحد مع أهل الكوفة بعد ثلاث مرات نزلوها من قبل واستأذنوا جميعاً في بيان القصب، فكتب عمر: أن العسكرية أشدّ لحربهم وأذكر لكم وما أحب أن أخالفكم فابتدوا بالقصب. ثم وقع الحريق في القصرين فاستأذنوا في البناء باللين فقال: افعلوا ولا يزيد أحد على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا في البناء والزمو السنة تلزمكم الدولة. وكان على تنزيل الكوفة أبو هياج بن مالك، وعلى تنزيل البصرة أبو الحرب عاصم بن الدلف. وكانت ثغور الكوفة أربعة: حلوان وعليها القعقاع، وماسبذان وعليها ضرار بن الخطاب، وقرقيسيا وعليها عمر بن مالك، والموصل وعليها عبد الله بن المعتمر. ويكون بها خلفاؤهم إذا غابوا.

فتح الأهواز والسوس بعدها

لما انهزم الهرمزان يوم القادسية قصد خوزستان وهي قاعدة الأهواز فملكها وملك سائر الأهواز، وكان أصله منهم من البيوتات السبعة في فارس، وأقام يغير على أهل ميثان ودست ميثان من ثغور البصرة يأتي إليها من منادر ونهر تيري من ثغور الأهواز. واستمد عتبة بن غزوان مسعداً فأمدّه بنعيم بن مقرن، ونعيم بن مسعود، فنزل بين ثغور البصرة وثغور الأهواز. وبعث عتبة بن غزوان سلمى بن القين وحرملة بن قريضة من بني العدوية من حنظلة فنزل على ثغور البصرة بميسان، ودعوا بني العم بن مالك وكانوا يتنزلون خراسان، فأهل البلاد يأمنونهم،

عزله عمر بقدامة بن مظعون ثم أعاده، وكان العلاء يناوئ سعد بن أبي وقاص ووقع له في قتال أهل الردة ما وقع، فلما ظفر سعد بالقادسية كان أعظم من فعل العلاء، فأراد أن يؤثر في الفرس شيئاً فندب الناس إلى فارس وأجابه، وفرقه اجناداً بين الجارود بن المعلّى والسوار بن همام وخليد بن المنذر وأمره على جميعهم وحمله في البحر إلى فارس بغير إذن من عمر.

لأنه كان ينهى عن ذلك وأبو بكر قبله خوف الغرق. فخرجت الجنود إلى إصطخر وبرزانهم الهريذ في أهل فارس، وحالوا بينهم وبين سفنهم فخطبهم خليل وقال: إنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب. ثم ناهدوهم واقتتلوا بطاوس، وقتل الجارود والسوار وأمر خالد أصحابه أن يقتلوا رجالة، وقتل من الفرس مقتلة عظيمة.

ثم خرج المسلمون نحو البصرة وأخذ الفرس عليهم الطريق فعسكروا وامتنعوا، وبلغ ذلك عمر فأرسل إلى عتبة بالبصرة يأمره بإنفاد جيش كئيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، وأمر العلاء بالانصراف عن البحرين إلى سعد بمن معه، فأرسل عتبة الجنود اثني عشر ألف مقاتل فيهم عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس وأمثالهم وعليهم أبو سبرة بن أبي وهم من عامر بن لؤي، فساحل بالناس حتى لقي خليداً والعسكر، وقد تداعى إليهم بعد وقعة طاوس أهل فارس من كل ناحية، فاقتتلوا وانهزم المشركون وقتلوا. ثم انكفأوا بما أصابوا من الغنائم واستحثهم عتبة بالرجوع فرجعوا إلى البصرة. ثم استأذن عتبة في الحج فاذن له عمر فحج، ثم استعفاه فأبى وعزم عليه ليرجعن إليه عمله فانصرف ومات ببطن نخلة على رأس ثلاث سنين من مفارقة سعد. واستخلف على عمله أبا سبرة بن أبي وهم فأقره عمر بقية السنة.

ثم استعمل المغيرة بن شعبة عليها، وكان بينه وبين أبي بكر منافرة وكانا متجاورين في مشرتين ينفذ البصر من إحداهما إلى الأخرى من كوتين، فزعما إن أبا بكره وزياد ابن أبيه وهو أخوه لأمه وآخرين معهما عاينوا المغيرة على حالة قذفوه بها ادعوا الشهادة ومنعه أبو بكره من الصلاة، وبعثوا إلى عمر، فبعث أبا موسى أميراً في تسعة وعشرين من الصحابة فيهم أنس بن مالك وعمران بن حصين وهشام بن عامر ومعهم كتاب عمر إلى المغيرة: أما بعد فقد بلغني عنك نبا عظيم وبعثت أبا موسى أميراً فسلم إليه ما في يدك والعجل. ولما استحضروهم عمر اختلقوا في الشهادة ولم يستكملها زياد فجعلد الثلاثة. ثم عزل أبا موسى عن البصرة بعمر بن سراقه ثم صرفه إلى الكوفة ورد أبا موسى فأقام عليه.

لهم طائفة ودخلوا المدينة من مدخل الماء وملكوها وقتلوا المقاتلة، وتحصن الهرمزان بالقلعة فاطافوا بها واستنزوه على حكم عمر وأوثقوه. واقتسموا الفية فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف والراجل ألف. وقتل من المسلمين في تلك الليلة البراء بن مالك وبجزة بن ثور قتلها الهرمزان.

ثم خرج أبو سبرة في أثر المنهزمين ومعه النعمان وأبو موسى فتزلوا على السوس، وسار زر بن عبد الله الفقيمي إلى جنديسابور فنزل عليها. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بالرجوع إلى البصرة وأمر مكانه الأسود بن ربيعة من بني ربيعة بن مالك صحابي يسمى المقرب، وأرسل أبو سبرة بالهرمزان إلى عمر في وفد منهم أنس بن مالك والأحفن بن قيس فقدما به بالمدينة والبسوه كسوته من الديباج المذهب وتاجه مرصعاً بالياقوت وحيثه لبراء المسلمون.

فلما رآه عمر أمر بترع ما عليه وقال: يا هرمزان كيف رأيت أمر الله وعاقبة الغدر؟ فقال: يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم. فلما صار الآن معكم غلبتمونا. قال: فما حجتك وما عدلك في الانتقاض مرة بعد أخرى؟ قال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك! قال: لا تخف ذلك. ثم استقى فائي بالماء فقال: أخاف أن أقتل وأنا أشرب قال: لا بأس عليك حتى تشربه، فألقاه من يده وقال: لا حاجة لي في الماء وقد امتني. قال: كذبت. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين فقد قلت له لا بأس عليك حتى تحبرني وحتى تشربه وصدق الناس. فأقبل عمر على الهرمزان وقال: خدعتني؟ لا والله إلا أن تسلم! فأسلم. ففرض له في ألفين وأنزله المدينة واستأذنه الأحنف بن قيس في الانسياح في بلاد فارس وقال: لا يزالون في الانتقاض حتى يهلك ملكهم فاذن له.

ولما لحق أبو سبرة بالسوس ونزل عليها وبها شهريار أخو الهرمزان فاحاط بها ومعه المقرب بن ربيعة في جند البصرة، فسأل أهل السوس الصلح فأجابوهم. وسار النعمان بن مقرن بأهل الكوفة إلى نهاوند وقد اجتمع بها الأعاجم، وسار المقرب إلى زر بن عبد الله على جند يسابور فحاصروها مدة ثم رمى السهم بالأمان من خارج على الجزية فخرجوا لذلك، فنأكرمهم المسلمون فإذا عبد فعل ذلك أصله منهم، فأمضى عمر أمانه. وقيل في فتح السوس: إن يزيدجرد سار بعد وقعة جلولا فنزل إصطخر ومعه سياه في سبعين ألفاً من فارس فبعثه إلى السوس ونزل الكلبانية وبعث الهرمزان إلى تستر، ثم كانت واقعة أبي موسى فحاصروهم فصالحوه على الجزية وسار إلى هرمز ثم إلى تستر. ونزل سياه بين

فاستجابوا وجاء منهم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي فلقيا سلمى وحرملة وواعداهما الثورة بمنادر ونهر تيري. ونهض سلمى وحرملة يوم الموعد في التعبئة وأنهض نعيماً والتقوهم والهرمزان وسلمى على أهل البصرة ونعيم على أهل الكوفة، وأقبل إليهما المدد من قبل غالب وكليب وقد ملك منادر ونهر تيري، فانهزم الهرمزان وقتل المسلمون من أهل فارس مقتلة، وانتهوا في اتباعهم إلى شاطئ دجيل وملكوها ما دونها. وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وصل دجيل بينه وبين المسلمين، ثم طلب الهرمزان الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ما خلا نهر تيري ومنادر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنه لا يرد، وبقيت المسالحي على نهر تيري ومنادر وفيهما غالب وكليب. ثم وقع بينهما وبين الهرمزان اختلاف في التخم ووافقهما سلمى وحرملة فنقض الهرمزان ومنع ما قبله وكثف جنوده بالأكرد، وبعث عتبة بن غزوان حرقوص بن زهير السعدي لقتاله، فانهزم وسار إلى رام هرمز وفتح حرقوص سوق الأهواز ونزل بها واتسعت له البلاد إلى تستر. ووضع الجزية وكتب بالفتح وبعث في أثر الهرمزان جزء بن معاوية فأنهى إلى قرية الشفر، ثم إلى دورق فملكها وأقام بالبلاد وعمرها وطلب الهرمزان الصلح على ما بقي من البلاد.

ونزل حرقوص جبل الأهواز وكان يزدجرد في خلال ذلك يمد ويجرأ أهل فارس حتى اجتمعوا وتعاهدوا مع أهل الأهواز على النصرة، وبلغت الأخبار حرقوصاً وجزءاً وسلمى وحرملة فكتبوا إلى عمر فكتب إلى سعد أن يبعث جنداً كثيراً مع النعمان بن مقرن ينزلون منازل الهرمزان، وكتب إلى أبي موسى أن يبعث كذلك جنداً كثيراً مع سعد بن عدي أخي سهيل ويكون فيهم البراء بن مالك وبجزة بن ثور وعرفجة بن هروثة وغيرهم، وعلى الجندين أبو سبرة بن أبي رهم. فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة فخلف حرقوصاً وسلمى وحرملة إلى الهرمزان وهو برام هرمز، فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ولقيه فانهزم ولحق بتستر، وجاء النعمان إلى رام هرمز فنزلها وجاء أهل البصرة من بعده فلحقهم خبر الواقعة بسوق الأهواز فساروا حتى أتوا تستر.

ولحقهم النعمان فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان، وأمدهم عمر بأبي موسى جعله على أهل البصرة فحاصروهم أشهراً وأكثروا فيهم القتل، وزاحفهم المشركون ثمانين زحفاً سجالاً ثم انهزموا في آخرها، واقتحم المسلمون خنادقهم وأحاطوا بها وضائق عليهم الحصار فاستأمن بعضهم من داخل البلد بمكتوب في سهم على أن يدهم على مدخل يدخلون منه، فانتدب

رامهرمز وتستر.

وحمل أصحابه على صلح أبي موسى ثم على الإسلام على أن يقتلوا الأعاجم ولا يقتلوا العرب ويمتعهم هو من العرب، ويلحق بأشراف العطاء فأعطاهم ذلك عمر وأسلموا وشهدوا فتح تستر، ومضى سياه إلى بعض الحصون في زي العجم فغدرهم وفتح للمسلمين وكان فتح تستر وما بعدها سنة سبع عشرة وقيل ست عشرة.

مسير المسلمين إلى الجهات للفتح

لما جاء الأحنف بن قيس بالهزم إلى عمر قال له: يا أمير المؤمنين! لا يزال أهل فارس يقتلوننا ما دام ملكهم فيهم فلو أذنت بالانسحاب في بلادهم فازلنا ملكهم انقطع رجاؤهم، فأمر أبا موسى أن يسير من البصرة غير بعيد حتى بل ويقم حتى يأتي أمره، ثم بعث إليه مع سهيل بن عدي بالوية الأمراء الذين يسرون في بلاد العجم لواء خراسان للأحنف بن قيس، ولواء أردشير خرت وسابور لجاشع بن مسعود السلمي، ولواء لصطخر لعثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء فسا ودارا مجرد لسارية بن زنيمة الكناني، ولواء كرمان لسهيل بن عدي، ولواء سجستان لعاصم بن عمرو، ولواء مكران للحكم بن عمير التغلبي. ولم يتبها مسيرهم إلا سنة ثمان عشرة، ويقال: سنة إحدى وعشرين أو اثنين وعشرين، ثم ساروا في بلاد العجم وفتحوا كما يذكر بعد.

مجاعة عام الرمادة وطاعون عمواس

وأصاب الناس سنة ثمان عشرة قحط شديد وجذب أعقب جوعاً بعد العهد بمثله مع طاعون أتى على جميع الناس، وحلف عمر لا يذوق السمن واللبن حتى يحيا الناس، وكتب إلى الأمراء بالأمصار يستمدهم لأهل المدينة، فجاء أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من الطعام، وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام من مصر فرخص السعر، واستقى عمر بالناس فخطب الناس وصلى. ثم قام وأخذ بيد العباس وتوسل به ثم بكى وجثا على ركبتيه يدعو إلى أن مطر الناس. وهلك بالطاعون أبو عبيدة ومعاذ يزيد بن أبي سفيان والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنة عتبة في آخرين أمثالهم. وتفانى الناس بالشام، وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتفع بالمسلمين من الأرض التي هو بها فدعا أبا موسى يرتاد له منزلاً ومات قبل رحيله.

وسار عمر بالناس إلى الشام وانتهى إلى سرغ ولقيه أمراء الأجناد وأخبروه بشدة الوباء، واختلفت الناس عليه في قدد معه فقبل إشارة العود ورجع، وأخبر عبد الرحمن بن عوف بما سمع من رسول الله ﷺ في أمر الوباء فقال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه». أخرجاه في الصحيحين.

ولما هلك يزيد وولى عمر على دمشق مكانه أخاه معاوية بن أبي سفيان وعلى الأرض شرحبيل بن حسنة، ولما فحش أثر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير إليه ليقسم موارث المسلمين ويتطوف على الثغور ففعل ذلك، ورجع واستقضى في سنة ثمان عشرة على الكوفة شريح بن الحرث الكندي، وعلى البصرة كعب بن سوار الأزدي.

وحج في هذه السنة. ويقال: إن فتح جلولاء والمدائن والجزيرة كان في هذه السنة وقد تقدم ذكر ذلك وكذلك فتح قيسارية على يد معاوية وقيل: سنة عشرين.

فتح مصر

ولما فتح عمر بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر فأغراه ثم أتبعه الزبير بن العوام فساروا سنة عشرين أو إحدى أو اثنين أو خمس فاقحموا باب إليون ثم ساروا في قرى الريف إلى مصر ولقيهم الجاثليقي أبو مريم والأسقف قد بعثه المقوقس، وجاء أبو مريم إلى عمرو فعرض الجزية والمنع وأخبره بما أوصى به رسول الله ﷺ في شأنهم، وأجلهم ثلاثاً ورجعوا إلى المقوقس وأرطوبون أمير الروم فأبى من ذلك أرطوبون وعزم الحرب وبيت المسلمين فهزموه وجندته. ونازلوا عين شمس وهي المطرية وبعثوا لحصار الفورقا أبرهه بن الصباح، ولحصار الإسكندرية عوف بن مالك، فرأسلهم أهل البلاد وانتظروا عين شمس فحاصروهم عمرو والزبير مدة حتى صالحوهما على الجزية، وأجروا ما أخذوا قبل ذلك عنوة، فجرى الصلح وشرطوا رد السبايا فأمضاه لهم عمر بن الخطاب على أن يجيز السبايا في الإسلام وكتب العهد بينهم ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعدهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقصي ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة

قال: من خليفتك على الكوفة؟ قال: عبد الله بن عبد الله بن عتيان فأمره وشافهه بنجر الأعاجم وأشار بالانسحاق ليكون أهيب على العدو.

فجمع عمر الناس واستشارهم بالمسير بنفسه، فمن موافق وغالف إلى أن اتفق رأيهم على أن يبعث الجنود ويقيم رداء لهم، وكان ذلك رأي علي وعثمان وطلحة وغيرهم، فولى على حربهم النعمان بن مقرن المزني وكان على جند الكوفة بعد انصرافهم من حصار السوس، وأمره أن يصير إلى ماء لتجتمع الجيوش عليه ويسير بهم إلى الفيرزان ومن معه. وكتب إلى عبد الله بن عبد الله بن عتيان أن يستنفر الناس من النعمان، فبعثهم مع حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن، وكتب إلى المقرن وحرملة وزر الذين كانوا بالأهواز وفتحوا السوس وجنديسابور أن يقيموا بتخوم أصبهان وفارس ويقطعوا المدد عن أهل نهاوند.

واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة وجريز والمغيرة وابن عمر وأمثالهم، وأرسل النعمان طليحة وعمرو بن معديكرب طليعة، ورجع عمرو من طريقه. وانتهى طليحة إلى نهاوند ونقض الطرق فلم يلق بها أحداً وأخبر الناس، فرحل النعمان وعسى المسلمين ثلاثين ألفاً، وجعل على مقدمته نعيم بن مقرن وعلى مجبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع وعلى الساقة مجاشع بن مسعود. وعسى الفيرزان كتابته وعلى مجبتيه زردق ويهمن جادويه مكان ذي الحاجب، وقد توافى إليهم بنهاوند كل من غاب من القادسية من أبطالهم.

فلما تراءى الجمعان كبر المسلمون وحطت العرب الأتقال وتبادر أشراف الكوفة إلى فسطاط النعمان فبنوا حذيفة بن اليمان والمغيرة بن شعبة وعقبة بن عمرو وجريز بن عبد الله وحظلة الكاتب ويشير بن الحصاصية والأشعث بن قيس ووائل بن حجر وسعيد بن قيس المهداني. ثم تراخفوا للقتال يوم الأربعاء والخميس والحرب سجال ثم أحجروهم في خنادقهم يوم الجمعة وحاصروهم أياماً، وسثم المسلمون اعتصامهم بالخنادق وتشاوروا، وأشار طليحة باستخراجهم للمناجزة بالاستطرد فثابهم القعقاع فبرزوا إليه كأنهم حبال حديد قد توافقوا أن لا يفرقوا وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا.

فلما بارزوا استطرد لهم حتى فارقوا الخنادق وقد ثبت لهم المسلمون ونزل الصبر، ثم وقف النعمان على الكتابات وحرض المسلمين ودعا لنفسه بالشهادة، وقال: إذا كبرت الثالثة فاحملوا. ثم كبر وحمل عند الزوال وتجاول الناس ساعة وركدت الحرب ثم انقض الأعاجم وانهمزوا وقتلوا ما بين الظهر والعمة حتى سالت

نهرهم خمسين ألف ألف وعليه من جنى نصرتهم فلان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بعددهم وذمنا من أبى برة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والتوب فله ما لم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطانتا، وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته ورسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذم المؤمنين. وعلى الثوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمتنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب منقولاً من الطبري.

قال: فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح ونزل المسلمون الفسطاط، وجاء أبو مريم الجاثليق يطلب السبايا التي بعد المعركة في أيام الأجل فأبى عمرو من ردها وقال: أغاروا وقتلوا وقسمتهم في الناس، وبلغ الخبر إلى عمر فقال: من يقاتل في أيام الأجل فله الأمان وبعث بهم إلى الدقاق فردهم عليهم. ثم سار عمرو إلى الإسكندرية فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقيبط فهزمهم وأثنى فيهم، ونازل الإسكندرية وبها المقوقس وسأله الهدنة إلى مدة فلم يجبه وحاصروهم ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة. وقيل: إن المقوقس صالح عمراً على اثني عشر ألف دينار على أن يخرج من يفرج ويقيم من يقيم باختيارهم وجعل عمرو فيها جنداً.

ولما تم فتح مصر والإسكندرية أغزى عمرو العساكر إلى الثوبة فلم يظفروا، فلما كان أيام عثمان وعبد الله بن أبي سرح على مصر صالحهم على عدة رؤوس في كل سنة ويهدي إليهم المسلمون طعاماً وكسوة فاستمر ذلك فيما بعد.

وقعة نهاوند وما كان بعدها من الفتوحات

لما فتحت الأهواز ويزجرد بمرو كاتبوه واستجدوه، فبعث إلى الملوك ما بين الباب والسند وخراسان وحلوان يستلمهم فاجابوه، واجتمعوا إلى نهاوند وعلى الفرس الفيرزان في مئة وخمسين ألف مقاتل. وكان سعد بن أبي وقاص قد ألب أقوام عليه من عسكره، وشكوه إلى عمر فبعث محمد بن مسلمة في الكشف عن أمره فلم يسمع إلا خيراً سوى مقالة من بني عبس، فاستقدمه محمد إلى عمرو وخبره الخبر فقال: كيف تصلي يا سعد؟ قال: أطيل الأولتين وأحذف الأخيرتين. قال: هكذا الظن بك، ثم

آخر. وولى مكانه زياد بن حنظلة حليف لبني عبد قصي واستعفى فأعفاه، وولى عمار بن ياسر، واستدعى ابن مسعود من حمص فبعثه معه معلماً لأهل الكوفة، وأمدهم بأبي موسى، وأمد أهل البصرة مكانه بعبد الله بن عبد الله، ثم بعثه إلى أصبهان مكان حذيفة، وولى على البصرة عمرو بن سراقه.

ثم انتقض أهل همدان فبعث إلى نعيم بن مقرن يحاصرهم، وصار بعد فتحها إلى خراسان، وبعث عتبة بن فرقد ويكر بن عبد الله إلى أذربيجان فدخل أحدهما من حلوان والآخر من الموصل، ولما وصل عبد الله بن عبد الله بن عتبة إلى أصبهان، وكان من الصحابة من وجوه الأنصار حليف بني الحلي فأمده بأبي موسى، وجعل على مجيئيه عبد الله بن ورقاء الرياحي وعصمة بن عبد الله، فسار إلى نهاوند ورجع حذيفة إلى عمله على ما سقت دجلة. فسار عبد الله بن معه ومن تبعه من عند النعمان نحو أصبهان، وعلى جندها الأسيدان وعلى مقدمة شهریار بن جادويه في جمع عظيم برستاق أصبهان، فاقتلوا وبارز عبد الله بن ورقاء شهریار فقتله، وانهزم أهل أصبهان وصالحهم الأسيدان على ذلك الرستاق.

ثم ساروا إلى أصبهان -وتسمى جي- وملكها الفادوسفان، فصالحهم على الجزية والخيار بين المقام والذهاب وقال: ولكم أرض من ذهب. وقدم أبو موسى على عبد الله من ناحية الأهواز فدخل معه أصبهان وكتبوا إلى عمر بالفتح. فكتب إلى عبد الله أن يسروا إلى سهيل بن عدي لقتال کرمان، فاستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع، ولحق بهيل قبل أن يصل کرمان. وقد قيل: إن النعمان بن مقرن حضر فتح أصبهان أرسله إليها عمر من المدينة واستجاش له أهل الكوفة فقتل في حرب أصبهان، والصحيح أن النعمان قتل بنهاوند. وافتتح أبو موسى قم وقاشان. ثم ولى عمر على الكوفة سنة إحدى وعشرين المغيرة بن شعبة وعزل عماراً.

فتح همدان

كان أهل همدان قد صالح عليهم خشرشونم القعقاع ونعيماً وضمنهما ثم انتقض فكتب عمر إلى نعيم أن يقصدها فودع حذيفة ورجع إليها من الطريق على تعييته، فاستولى على بلادها أجمع حتى صالحوه على الجزية، وقيل: إن فتحها كان سنة أربع وعشرين فبينما نعيم يحول في نواحي همدان إذ جاءه الخبر بخروج الديلم وأهل الري وأسفنديار أخو رستم بأهل أذربيجان،

أرض المعركة دما تزلزل فيه المشاة حتى زلزل فيه النعمان وصرع، وقيل بل أصابه سهم، فسجاه أخوه نعيم بشوب. وتناول الراية حذيفة يبعده وتواصلوا بكتمان موته. وذهب الأعاجم ليلاً وعميت عليهم المذاهب، وعقرهم حسك الخليل ووقعوا في اللهب الذي أعدوه في عسكرهم فمات منهم أكثر من مئة ألف منها نحو ثلاثين ألفاً في المعركة، وهرب الفيرزان بعد أن صرع إلى همدان واتبعه نعيم بن مقرن فأدركه بالثنية دونها وقد سدتها الأحمال وترجل وصعد في الجبل، وكان نعيم قد قدّم القعقاع أمامه فاعترضه وقتله المسلمون على الثنية، ودخل القل همدان وبها خشرشونم فنزل المسلمون عليها مع نعيم والقعقاع.

ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة وغنموا ما فيها وجمعوه إلى صاحب الأقباض السائب بن الأقرع.

وولي على الجند حذيفة بعهد النعمان إليه. ثم جاء المريذ صاحب بيت النار إلى حذيفة فأمته وأخرج له صفتين مملوأتين جوهرأ نقيساً كانا من دخائل كسرى أودعهما عنده البجرجان فقلعهما المسلمون، وبعث الخنفس من السائب إلى عمر وأخبره بالواقعة وبالفتح ومن استشهد فبكى، وبالصفتين فقال: ضعها في بيت المال والحق بجندك. قال السائب: ثم لحقني رسوله بالكوفة فردني إليه فلما رأيته قال: ما لي وللسائب ما هو إلا أن تمت الليلة التي خرجت فيها فباتت الملائكة تسبحني إلى السفطين يشعلان ناراً يتواعداني بالكى إن لم أقتسمهما فخذهما عني وبعهما في أرزاق المسلمين. فبعتهما بالكوفة من عمرو بن حرث المخزومي بألفي ألف درهم وباعهما عمرو بأرض الأعاجم بضعفهما، فكان له بالكوفة مال.

وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف والراجل ألفين ولم يكن للفرس بعدها اجتماع. وكان أبو لؤلؤة قاتل عمر من أهل نهاوند حصل في أسر الروم وأسره الفرس منهم، فكان إذا لقي سبي نهاوند بالمدينة يبكي ويقول: أكل عمر كبدي. وكان أبو موسى الأشعري قد حضر نهاوند على أهل البصرة فلما انصرف مر بالدينور فحاصروها خمسة أيام، ثم صالحوه على الجزية. وسار إلى أهل شيروان فصالحوه كذلك. وبعث السائب بن الأقرع إلى العيمرة ففتحها صلحاً.

ولما اشتد الحصار بأهل همدان بعث خشرشونم إلى نعيم والقعقاع في الصلح على قبول الجزية فأجابوه إلى ذلك ثم اقتدى أهل الماعين وهم الملوك الذين جاؤوا لنصرة يزيدجرد بأهل همدان، وبعثوا إلى حذيفة فصالحوه. وأمر عمر بالانسياج في بلاد الأعاجم، وعزل عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن الكوفة وبعثه في وجه

فاستخلف نعيم على همدان يزيد بن قيس الهمداني وسار إليهم فاقتلوا وانهزم الفرس وكانت واقعتها مثل نهاوند وأعظم. وكتبوا إلى عمر بالفتح فأمر نعيماً بقصد الري والمقام بها بعد فتحها.

وقيل: إن المغيرة بن شعبة أرسل من الكوفة جرير بن عبد الله إلى همدان ففتحها صلحاً وغلب على أرضها، وقيل: تولاها بنفسه وجرير على مقدمته. ولما فتح جرير همدان بعث البراء بن عازب إلى قزوين ففتح ما قبلها وسار إليها، فاستجدوا بالدليم فوعدوهم ثم جاء البراء في المسلمين فخرجوا لقتالهم والدليم وقوف بأعلى الجبل ينظرون، فبئس أهل قزوين منهم وصالحوا البراء على صلح أبهر قبلها. ثم غزا البراء الدليم وجيلان.

فتح الري

ولما انصرف نعيم من واقعته سار إلى الري وخرج إليه أبو الفرخان من أهلها في الصلح وأبى ذلك ملكها سيوخش بن مهران بن بهرام جوين، واستمد أهل ديباوند وطبرستان وقومس وجرجان فأمروه والتفوا مع نعيم فشغلوا به عن المدينة، وقد كان خلفهم أبو فرخان. ودخل المدينة من الليل ومعه المنذر بن عمرو وأخو نعيم فلم يشعروا وهم موافقون لنعيم إلا بالتكبير من ورائهم، فانهزموا وقتلوا وأفاء الله على المسلمين بالري مثلما كان بالمداين، وصالحه أبو الفرخان الزبيني على البلاد فلم يزل شرفهم في عقبه. وأخرب نعيماً مدينتهم العتيقة وأمر ببناء أخرى. وكتب إلى عمر بالفتح وصالحه أهل ديباوند على الجزية فقبل منهم.

ولما بعث بالأخاس إلى عمر كتب إليه بإرسال أخيه سويد إلى قومس ومعه هند بن عمرو الجملي، فسار فلم يقم له أحد وأخذها مسلماً وعسكر بها. وكتبه الفل الذين بطبرستان وبالمقاويز فصالحوه على الجزية، ثم سار إلى جرجان وعسكر فيها بيسطام وصالحه ملكها على الجزية، وتلقاه مرزيان صول قبل جرجان فكان معه حتى جيل خراج وأراه مروجها وسدها، وقيل: كان فتحها سنة ثلاثين أيام عثمان، ثم أرسل سويد إلى الأصهبذ صاحب طبرستان على المودعة فقبل وعقد له بذلك.

فتح أذربيجان

ولما افتتح نعيم الري أمره عمر أن يبعث سماك بن خرشة الأنصاري إلى أذربيجان ممدداً لبكر بن عبد الله، وكان بكر بن عبد الله عندما سار إلى أذربيجان لقي بالجبال أسفنديار بن قرخزاد

مهزوماً من واقعة نعيم معهم أبو حرود دون همدان وهو آخر رستم فهزمه بكير وأسرته. فقال له: أسكنني عندك فأصالح لك على البلاد وإلا فروا إلى الجبال وتركوها، وتحصن من تحصن إلى يوم ما فأمسكه وسارت البلاد صلحاً إلا الحصون. وقدم عليه سماك وهو في مثل ذلك وقد افتتح ما يليه وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه.

وكتب بكير إلى عمر يستأذنه في التقدم، فأذن له أن يتقدم نحو الباب وأن يستخلف على ما افتتح، فاستخلف عتبة بن فرقد وجمع له عمر أذربيجان كلها، فولى عتبة سماك بن خرشة على ما افتتحه بكير. وكان بهرام بن الفرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره مقتصداً بل معترضاً له فلقية عتبة وهزمه، وبلغ خبره إلى الإسفنديار وهو أسير عند بكير فصالحه واتبه أهل أذربيجان كلهم. وكتب بكير وعتبة بذلك إلى عمر وبعثوا بالأخاس فكتب عمر لأهل أذربيجان كتاب الصلح، ثم غزا عتبة بن فرقد شهرزور والصامغان ففتحهما بعد قتال على الجزية والحراج، وقتل خلقاً من الأكراد، وكتب إلى عمر إن فتوحني بلغت أذربيجان فولاه إياها وولى هرثمة بن عرفة الموصلي.

فتح الموصل الباب

ولما افتتح أمر عمر بكير بن عبد الله بغزو الباب والتقدم إليها، بعث سراقه بن عمرو على حربها فسار من البصرة، وجعل مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة وعلى إحدى مجنبيه ابن أسيد الغفاري وعلى الأخرى بكير بن عبد الله المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلي، ورد أبا موسى الأشعري إلى البصرة مكان سراقه، ثم أمد سراقه بجيب بن مسلمة من الجزيرة وجعل مكانه زياد بن حنظلة، وسار سراقه من أذربيجان، فلما وصل عبد الرحمن بن ربيعة في مقدمته على الباب والملك بها يومئذ من ولد شهریار الذي أسفد بني إسرائيل وأغزى الشام منهم، فكاتبه منهم شهریار واستأمنه على أن يأتي فحضر وطلب الصلح والمودعة على أن تكون جزية النصر والطاعة للمسلمين، قال: ولا تسومون الجزية فتوهنونا لعدوكم. فسيره عبد الرحمن إلى سراقه فقبل منه وقال: لا بد من الجزية على من يقيم ولا يحارب العدو. فأجابوا، وكتبوا إلى عمر فأجاز ذلك.

فتح موكان وجبال أرمينية

ولما فرغ سراقه من الباب بعث أمراء إلى مايليه من الجبال

الشاهجان حارثة بن النعمان الباهلي وجعل مدد الكوفة في مقدمته، فالتقوا هم ويزدجرد على بلخ فهزموه وعبر النهر فلحقهم الأحنف وقد فتح الله عليهم، ودخل أهل خراسان في الصلح ما بين نيسابور وطخارستان. وولى على طخارستان ربعي بن عامر، وعاد إلى مرو الروذ فنزلها وكتب إلى عمر بالفتح، فكتب إليه أن يقتصر على ما ودون النهر.

وكان يزدجرد وهو بمرو الروذ قد استنجد ملوك الأمم وكتب إلى ملك الصين وإلى خاقان ملك الترك وإلى ملك الصفد، فلما عبر يزدجرد النهر منهزماً ألجده خاقان في الترك وأهل فرغانة والصفد، فرجع يزدجرد وخاقان إلى خراسان فنزلا بلخ، واجتمع المسلمون إلى الأحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه، ثم رحل ونزل سفح الجبل في عشرين ألفاً من أهل البصرة وأهل الكوفة وتحصن العسكران بالخنادر وأقاموا يقاتلون أياماً، وصحبهم الأحنف ليلة وقد خرج فارس من الترك يضرب بطبله ويتلوه اثنان كذلك، ثم يخرج العسكر بعدهم عادة لهم، فقتل الأحنف الأول ثم الثاني ثم الثالث فلما مر بهم خاقان تشام وتطير ورجع أدراجه فارتحل وعاد إلى بلخ، وبلغ الخبر إلى يزدجرد وكان على مرو الشاهجان محاصراً لخارثة بن النعمان ومن معه فجمع خزائنه واجمع الحلاق بخاقان على بلخ، فمنعه أهل فارس وحملوه على صلح المسلمين والركون إليهم وإنهم أوفى ذمة من الترك، فأبى من ذلك وقاتلهم فهزموه واستولوا على الخزائن.

ولحق بخاقان وعبروا النهر إلى فرغانة، وأقام يزدجرد ببلد الترك أيام عمر كلها إلى أن كفر أهل خراسان أيام عثمان. ثم جاء أهل فارس إلى الأحنف ودفعوا إليه الخزائن والأموال وصالحوه واعتبطوا بملكة المسلمين، وقسم الأحنف الغنائم فأصاب الفارس ما أصابه يوم القادسية. ثم نزل الأحنف بلخ وأتزل أهل الكوفة في كورها الأربع ورجع إلى مرو الروذ فنزلها، وكتب بالفتح إلى عمر.

وكان يزدجرد لما عبر النهر لقي رسوله الذي بعثه إلى ملك الصين قد رده إليه يسأله أن يعيف له المسلمين الذين فعلوا به هذه الأفاعيل مع قلة عددهم، ويسأل عن وفائهم ودعوتهم وطاعة أمرائهم ووقوفهم عند الحدود ومآكلهم وشرابهم وملابسهم ومراكبهم، فكتب إليه بذلك كله. وكتب إليه ملك الصين أن يسألهم فإنهم لا يقوم لهم شيء مما قام نردبيل، فأقام يزدجرد بفرغانة بعهد من خاقان.

ولما وصل الخبر إلى عمر خطب الناس وقال: ألا وإن ملك الجوسية قد ذهب فليسوا بملكون من بلادهم شراً يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورتكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبنائهم لينظر

الحيلة بآرمينية، فأرسل بكير بن عبد الله إلى موقان، وحبيب بن مسلمة إلى تغليس، وحذيفة بن اليمان إلى جبال السلات، وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر. وكتب بالخبر إلى عمر فلم يرج تمام ذلك لأنه فرج عظيم، ثم بلغه موت سراقه واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، فأقره عمر على فرج الباب وأمره بغزو الترك. ولم يفتح أحد من أولئك الأمراء إلا بكير بن عبد الله فإنه فتح موقان، ثم تراجعوا على الجزية ديناراً عن كل حالم.

غزو الترك

ولما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك سار حتى جاء الباب وسار معه شهربار فغزا بلنجر وهم قوم من الترك ففروا منه وتحصنوا، وبلغت خلية على مائي فرسخ من بلنجر وعاد بالظفر والغنائم. ولم يزل يردد الغزو فيهم إلى أيام عثمان فتذامر الترك وكانوا يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لأن الملائكة معهم تمنعهم، فأصابوا في هذه الغزاة رجلاً من المسلمين على غرة فقتلوه وتحاسروا، وقاتل عبد الرحمن فقتل وانكشف أصحابه، وأخذ الراية أخوه سلمان فخرج بالناس ومعه أبو هريرة الدوسي فسلكوا على جيلان إلى جرجان.

فتح خراسان

ولما عقدت الأولوية للأمراء للاتسياب في بلاد فارس كان الأحنف بن قيس منهم بخراسان، وقد تقدم أن يزدجرد سار بعد جلولاء إلى الري وبها أبان جادويه من مرازته فأكرمه على خاتمه، وكتب الضحكا بما اقترح من ذخائر يزدجرد وختم عليها ويعيها إلى سعد، فردها عليه على حكم الصلح الذي عقد له. ثم سار يزدجرد والناس معه إلى أصبهان ثم إلى كرمان ثم رجع إلى مرو من خراسان فنزلها وأمن من العرب، وكاتب الهرمزان وأهل فارس بالأهواز والفيروزان وأهل الجبال فنكتوا جميعاً وهزمهم الله وخذلهم وأذن عمر للمسلمين بالاتسياب في بلادهم.

وأمر الأمراء كما قدمناه وعقد لهم الأولوية، فسار الأحنف إلى خراسان سنة ثمانين وقلب اثنين وعشرين فدخلها من الطبيين، وافتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي، ثم سار إلى مرو الشاهجان، وأرسل إلى نيسابور مطرف بن عبد الله بن الشخير، وإلى سرخس الحارث بن حسان، ودرج يزدجرد من مرو الشاهجان إلى مرو الروذ فملكها الأحنف ولحقه مدد أهل الكوفة هنالك، فسار إلى مرو الروذ واستخلف على

فارس واقتلوا بصحراء، وقام عمر على المنبر ونادي: يا سارية الجبل! يشير إلى جبل كان إزاءه أن يستند إليه، فسمع ذلك سارية ولجأ إليه ثم انهزم المشركون، وأصاب المسلمون مغالهم وكان فيها صفت جوهر فاستوبه سارية من الناس، وبعث به مع الفتح إلى عمر، ولما قدم به الرسول سأله عمر فأخبره عن كل شيء ودفع إليه السقط فأبى إلا أن يقسم على الجند فرجع به وقسمه سارية.

كرمان: وقصد سهيل بن عدي من أمراء الانسياب كمران ولحق به عبد الله بن عبد الله بن عتيان، وحشد أهل كمران واستعانوا بالقصص وقاتلوا المسلمين في أدنى أرضهم فهزمهم بإذن الله، وأخذ المسلمون عليهم الطريق بل الطرق ودخل البشير بن عمرو العجلي إلى جبرفت وقتل في طريقه مرزبان كمران، وعبد الله بن عبد الله من مفازة شير وأصابوا ما أرادوا من إبل وشاء. وقيل: إن الذي فتح كمران عبد الله بل بديل بن ورقاء الخزاعي. ثم أتى الطبيين من كمران، ثم قدم على عمر وقال: أقطعني الطبيين، فأراد أن يفعل فقال: إنهما رستاقان فامتنع.

سجستان: وقصد عاصم بن عمرو من الأمراء سجستان ولحق به عبد الله بن عمير وقاتلوا أهل سجستان في أدنى أرضهم فهزمهم وحصروهم بزرنج وغفروا أرض سجستان، ثم طلبوا الصلح على مدينتهم وأرضها، على أن الفرات حمى، ويسقي أهل سجستان على الخراج وكانت أعظم من خراسان وأبعد فروجاً يقتلون القندهار والترك وأما أخرى، فلما كان زمن معاوية هرب الشاه من أخيه زنبيل ملك الترك إلى بلد من سجستان يدعى آمل، وكان على سجستان سلم بن زياد بن أبي سفيان ففقد له وأنزله آمل، وكتب إلى معاوية بذلك فأقره بغير تكبر وقال: إن هؤلاء قوم غدر وأهون ما يجيء منهم إذا وقع اضطراب أن يغلبوا على بلاد آمل بأسرها، فكان كذلك. وكفر الشاه بعد معاوية وغلب على بلاد آمل واعتصم منه زنبيل بمكانه، وطمع هو في زربخ فحاصرها حتى جاءت الأمداد من البصرة فاجفلوا عنها.

مكران: وقصد الحكم بن عمرو التغلبي من أمراء الانسياب بلد مكران ولحق بها شهاب بن المخارق وجاء سهيل بن عدي وعبد الله بن عبد الله بن عتيان وانهزوا جميعاً إلى دوين وأهل مكران على شاطئية وقد أمدتهم أهل السند بجيش كثيف، ولقيهم المسلمون فهزمهم وأخذوا فيهم بالقتل، واتبعهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر ورجعوا إلى مكران فأقاموا بها وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس مع صحار العدي، وسأله عمر عن البلاد فأنى عليها شراً، فقال: والله لا يفزوها جيش لي أبداً وكتب إلى سهيل والحكم أن لا يجوز مكران أحد من جنودكما.

كيف تعملون فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة إلا أن تؤتى من قبلكم.

فتوح فارس

ولما خرج الأمراء الذين توجهوا إلى فارس من البصرة افترقوا وسار كل أمير إلى جهته وبلغ ذلك أهل فارس فافترقوا إلى بلدانهم وكانت تلك هزمتهم وشتاتهم. وقصد مجاشع بن مسعود من الأمراء سابور وأردشير خرت فاعترضه الفرس دونهما بتوج فقتلهم وأثنى فيهم، وافتتح توج واستباحها وصلحهم على الجزية وأرسل بالفتح والأخماس إلى عمر، فكانت واقعة توج هذه ثانية لواقعة العلاء بن الحضرمي عليهم أيام طاوس ثم دعوا إلى الجزية فرجعوا فأقروا بها.

إصطخر: وقصد عثمان بن أبي العاص إصطخر فزحفوا إليه بجور، فهزمهم وأثنى فيهم وفتح جور وإصطخر ووضع عليهم الجزية وأجابه المريد إليها، وكان ناس منهم فروا فتراجعوا إليها. وبعث بالفتح والخمس إلى عمر. ثم فتح كازرون والنویندجان وغلب على أرضها، ولحق به أبو موسى فافتتح مدينة شيراز وأرجان على الجزية والخراج، وقصد عثمان جينا ففتحها ولقي الفرس بناحية جهرم فهزمهم وفتحها. ثم نقض شهرک في أول خلافة عثمان فبعث عثمان بن أبي العاص ابنه وأخاه الحكم وأتته الأمداد من البصرة وعليهم عبيد الله بن معمر وشبل بن معبد والتقوا بأرض فارس، فانهزم شهرک وقتله الحكم بن أبي العاص وقيل: سوار بن همام العبيدي.

وقيل: أن ابن شهرک حمل على سوار فقتله. ويقال: أن إصطخر كانت سنة ثمان وعشرين وقيل: تسع وعشرين. وقيل: إن عثمان بن أبي العاص أرسل أخاه الحكم من البحرين إلى فارس في القين، فسار إلى توج وعلى مجنبته الجارود وأبو صفرة والد المهلب، وكان كسرى أرسل شهرک في الجنود للقائهم، فالتقوا بتوج وهزمهم إلى سابور وقتل شهرک وحاصروا مدينة سابور حتى صالح عليها ملكها واستعانوا به على قتال إصطخر، ثم مات عمر رضي الله عنه، وبعث عثمان بن عفان عبيد الله بن معمر مكان عثمان بن أبي العاص وأقام محاصراً إصطخر وأراد ملك سابور الغدر به، ثم أحضر وأصاب عبيد الله حجارة منجنيق فمات بها. ثم فتحوا المدينة فقتلوا بها بشراً كثيراً منهم.

بساودارا مجرد: وقصد سارية بن زئيم الكناني من أمراء الانسياب مدينة بساودارا مجرد فحاصروهم، ثم استجاشوا بأكراد

خبر الأكراد

كان أمر أمراء الانسياح لما فصلوا إلى النواحي، حتى اجتمع بيروذ بين نهر تيري ومنادر من أهل الأهواز جوع من الأعاجم أعظمهم الأكراد، وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى أقصى تخوم البصرة رداً للامراء المساحين، فجاء إلى بيروذ وقتل تلك الجموع قتلاً شديداً وقتل المهاجر بن زياد. ثم وهن الله المشركين فتحصنوا منه في قلة وذلة، فاستخلف أبو موسى عليهم أخاه الربيع بن زياد وسار إلى أصبهان مع المسلمين الذين يحاصرونها حتى إذا فتحت رجع إلى البصرة. وفتح الربيع بن زياد بيروذ وغنم ما فيها ولحق به بالبصرة ويعشوا إلى عمر بالفتح والأخماس، وأراد ضبة بن محسن العتزي أن يكون في الوفد فلم يجبه أبو موسى، فغضب وانطلق شاكياً إلى عمر بانتقائه ستين غلاماً من أبناء الدهاقين لنفسه وأنه أجاز الخطيئة بألف وولى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة، واعتذر أبو موسى وقبلة عمر. وكان عمر قد اجتمع إليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعي ودفعهم إلى الجهاد على عادته وأوصاهم، فلقوا عدواً من الأكراد المشركين فدعوههم إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا وقتلوهم وهزمهم وقتلوا وسبوا وقسموا الغنائم، ورأى سلمة جوهرأ في سبط فاسترضى المسلمين وبعث به إلى عمر فسأل الرسول عن أمور الناس حتى أخبره بالسفط فغضب وأمر به فوجئ في عنقه، وقال: أسرع قبل أن تفرق الناس ليقسمه سلمة فيهم فباعه سلمة وقسمه في الناس وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً.

مقتل عمر وأمر الشورى وبيعة عثمان

رضي الله عنه

كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه أبو لؤلؤة وكان يشدد عليه في الخراج، فلقي يوماً عمر في السوق فشكى إليه وقال: أعدني على المغيرة فإنه يقتل علي في الخراج درهمين في كل يوم، قال: وما صنعك؟ قال: نجار حداد نقاش، فقال: ليس ذلك بكثير على هذه الصنائع وقد بلغني أنك تقول اصنع رحي تطحن بالريح فاصنع لي رحي. قال: اصنع لك رحي يتحدث الناس بها أهل المشرق والمغرب، وانصرف، فقال عمر: توعدني العلاج.

فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة واستوت الصفوف

ودخل أبو لؤلؤة في الناس ويده خنجر برأسين نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات إحداها تحت سرتة، وقتل كليياً بن أبي البكير الليثي، وسقط عمر فاستخلف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة واحتمل إلى بيته.

ثم دعا عبد الرحمن وقال: أريد أن أعهد إليك، قال: فتشبر علي بها؟ قال: لا! قال: والله لا أفعل. قال: فهبني صمتاً حتى أعهد إلى الثغر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. ثم دعا علياً وعثمان والزيبر وسعداً وعبد الرحمن معهم، وقال انتظروا طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم، وناشد الله من يفضي إليه الأمر منهم أن يعمل أقاربه على رقاب الناس، وأوصاهم بالأنصار الذين تباروا الدار والإيمان أن يحسن إلى محسنهم ويعفوا عن مسيئتهم، وأوصى بالعرب فأنهم مادة الإسلام أن تؤخذ صدقاتهم فتوضع في فقراتهم، وأوصى بدمه رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، ثم قال: اللهم قد بلغت لقد تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فقال: قم على باب هؤلاء ولا تدع أحداً يدخل إليهم حتى يقضوا أمرهم. ثم قال: يا عبد الله بن عمر اخرج فانظر من قتلي؟ قال: يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة. قال: الحمد لله الذي لم يجعل مني بيد رجل سجد لله سجدة واحدة. ثم بعث إلى عائشة يستأذنها في دفنه مع رسول الله ﷺ وأبي بكر فاذنت له. ثم قال: يا عبد الله إن اختلف القوم فكن مع الأكثر، فإن تساوا فكن مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

ثم أذن للناس فدخل المهاجرون والأنصار فقال لهم: أهذا عن ملا منكم؟ فقالوا: معاذ الله! وجاء علي وابن عباس فقعدا عنه رأسه، وجاء الطيب فسقاه نبيذاً فخرج متغيراً ثم لبناً فخرج كذلك، فقال له: إعهدا! قال: قد فعلت! ولم يزل يذكر الله إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وصلى عليه صهيب وذلك لعشر سنين وستة أشهر من خلافته.

وجاء أبو طلحة الأنصاري ومعه المقداد بن الأسود، وقد كان أمرهما عمر أن يجعما هؤلاء الرهط الستة في مكان ويلزمهم أن يقدموا للناس من يختاروه منهم وإن اختلفوا كان الاتباع للأكثر وإن تساوا حكموا عبد الله بن عمر أو اتبعوا عبد الرحمن بن عوف، ويؤجلهم في ذلك ثلاثاً يصلي فيها بالناس صهيب ويحضر عبد الله بن عمر معهم مشيراً ليس له شيء من الأمر وطلحة شريكهم إن قدم في الثلاث ليال. فجمعهم أبو طلحة والمقداد في بيت المسور بن غزوة وقيل: في بيت عائشة.

وأطال النظر فيه ثم رده إليه، ومعهم جفينة نصراني من أهل الحيرة. فلما طعن عمر من الغداة قال عبد الرحمن بن أبي بكره لعبيد الله بن عمر: إني رأيت هؤلاء الثلاثة يتناجون فلما راووني افترقوا وسقط منهم هذا الخنجر، فعدا عبيد الله عليهم فقتلهم ثلاثتهم، وأمسكه سعد بن أبي وقاص وجاء به إلى عثمان بعد البيعة وهو في المسجد فأشار عليّ بقتله، وقال عمرو بن العاص: لا يقتل عمر بالأمر يقتل ابنه اليوم، فجعلها عثمان دية واحتملها وقال: أنا وليه. ثم قام عثمان وصعد المنبر وبايعه الناس كافة، وولى لوقته سعد بن أبي وقاص على الكوفة وعزل المغيرة وذلك بوصية عمر لأنه أوصى بتولية سعد، وقال لم أعزله عن سوء ولا خيانة منه. وقبل إنما ولاه وعزل المغيرة بعد سنة وإنما أقر لأول أمره عماله عمر كلهم.

نقض أهل الإسكندرية وفتحها

لما سار هرقل إلى القسطنطينية وفارق الشام واستولى المسلمون على الإسكندرية وبقي الروم بها تحت أيديهم، فاتبعوا هرقل فاستجدوه فبعث إليهم عسكرياً مع منوبل الخصي ونزلوا بساحل الإسكندرية لمنعهم الموقس من الدخول إليه، فساروا إلى مصر ولقيهم عمرو بن العاص والمسلمون فهزمهم واتبعوهم إلى الإسكندرية، وأثخروا فيهم بالقتل وقتل قائدهم منوبل الخصي، وكانوا قد أخذوا في سيرهم إلى مصر أموال أهل القرى فردها عمرو عليهم بالبيعة ثم هدم سور الإسكندرية ورجع إلى مصر.

ولاية الوليد بن عقبة الكوفة وصلاح أرمينية

وأذربيجان

وفي سنة خمس وعشرين عزل عثمان سعداً عن الكوفة لأنه كان اقترض من عبد الله بن مسعود من بيت المال قرضاً، وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالقبض وافترقا يتلاومان، وتداخلت بينهما العصبية، وبلغ الخبر عثمان فعزل سعداً واستدعى الوليد بن عقبة من الجزيرة، وكان على غربها منذ ولاء عمر، فولاء عثمان على الكوفة فكان مكان سعد. ثم عزل عتبة بن فرقد عن أذربيجان فنقضوا، فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبد الله بن شبيب الأحمسي فأغار على أهل موقان والبرزند والطيلسان ففتح وغنم وسبي، وطلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة ثمانمائة درهم وقبض المال.

وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فحبسهما سعد وأقامهما وقال: تريدان أن تقولاً حضرنا وكنا في أهل الشورى. ثم دار بينهم الكلام وتناقسا في الأمر، فقال عبد الرحمن: أياكم يخرج منها نفسه ويجهد فيولياها أفضلكم وأنا أفعل ذلك؟ فرضي القوم وسكت علي. فقال: ما تقول على شريطة أن تؤثر الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة نصحاً وتعطينا العهد بذلك. قال: وتعطوني أنتم موثيقكم على أن تكونوا معي على من خالف وترضوا من اخترت؟ وتواتقوا. ثم قال لعلي: أنت تقول إنك أحق ممن حضر بقرابتك وسوابك وحسن أترك في الدين ولم تبع في نفسك؟ فمن ترى أحق فيه بعدك من هؤلاء؟ قال: عثمان! وخلا بعثمان فقال له مثل ذلك فقال: علي.

ودار عبد الرحمن لياليه كلها يلقي أصحاب رسول الله ﷺ ومن يوافي المدينة من أمراء الأجناد وأشرف الناس ويشيرهم إلى صبيحة الرابع، فأتى منزل المسرور بن غرمة وخلا فيه بالزبير وسعد أن يتركا الأمر لعلي أو عثمان فاتفقا على علي، ثم قال له سعد: بايع لنفسك وأرحنا فقال: قد خلعت لهم نفسي على أن اختار ولم أفعل ما أردتها.

ثم استدعى عبد الرحمن علياً وعثمان فناجى كلا منهما إلى أن رضوا بل إلى أن صلوا الصبح ولا يعلم أحد ما قالوا. ثم جمع المهاجرين وأهل السابقة من الأنصار وأمراء الأجناد حتى غص المسجد بهم، فقال: أشيروا علي، فأشار عمار بعلي ووافقه المقداد فقال ابن سرح: إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ووافقه عبد الله بن أبي ربيعة، فتفاوضا وتشاتما ونادى سعد: يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتن الناس. فقال: نظرت وشاورت فلا تجعل أبها الرهط على أنفسكم سبيلاً.

ثم قال لعلي: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفيتين من بعده، قال: أرجوا أن أجهد بل أن أفعل ببلغ علمي وطاقتي. وقال لعثمان مثل ذلك فقال: نعم. فرفع رأسه إلى المسجد ويده في يد عثمان، وقال: اللهم أشهد أنسي قد جعلت ما في عقي من ذلك في عتق عثمان فبايعه الناس.

ثم قدم طلحة في ذلك اليوم فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على الخيار في الأمر وإن أبيت رددتها، فقال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم. قال: رضيت، ولا أرغب عما أجمع عليه.

وكانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، ومسر أبو لؤلؤة بالهرمزان ويده الخنجر الذي طعن به عمر فتناوله من يده

الرضاعة، فكتب إلى عثمان يشكو عمرو فاستقدمه واستقل عبد الله بالخراج والحرب وأمره بغزو إفريقية. وقد كان عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين سار من مصر إلى برقة فصالح أهلها على الجزية ثم سار إلى طرابلس فحاصرها شهراً، وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم في مراسها فحصر القوم في بعض الأيام وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين فاقترحوا البلد بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم.

وارتفع الصباح فأقبل عمرو بعساكره فدخل البلد ولم تغلث الروم إلا بما خف في المراكب، ورجع إلى مدينة صبرة وقد كانوا قد آمنوا بجمعة طرابلس فصحبهم المسلمون ودخلوها عنوة، وكمل الفتح ورجع عمرو إلى برقة فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية وكان أكثر أهل برقة لواتة. وكان يقال أن البربر ساروا بعد قتل ملكهم جالوت إلى المغرب وانتهوا إلى ليبيا ومراقبة كورتان من كور مصر، فصاروا زتانة ومغيلة من البربر إلى المغرب فسكنوا الجبال وسكنت لوة برقة وتعرف قديماً إنطابلس، وانتشروا إلى السوس ونزلت هواره مدينة ليدة ونزلت نفوسة مدينة صبرة وجلوا من كان هنالك من الروم، وأقام الأفارق وهم خدم الروم ويقتبهم على صلح يؤدونه إلى من غلب عليهم إلى أن كان صلح عمرو بن العاص. ثم إن عبد الله بن أبي سرح كان أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين، وقال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم. وأمر عقبة بن نافع عبد القيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسرحهما، فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التغلث فيها لكثرة أهلها.

ثم لما ولي عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به، فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وساروا مع عبد الله بن أبي سرح سنة ست وعشرين، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة، ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها، ثم ساروا إلى إفريقية وبشوا السرايا في كل ناحية، وكان ملكهم جرير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج، فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطة دار ملكهم وأقاموا يقتلون ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر. ولحقهم عبد الرحمن بن الزبير مدداً بعثه عثمان لما أبطأت أخبارهم، وسمع جرير بوصول المدد فقتل في عضده، وشهد ابن الزبير معهم

ثم بث سراياه وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً فسار فيها وأتخن، ثم انصرف إلى الوليد وعاد الوليد إلى الكوفة وجعل طريقه على الموصل، فلقيه كتاب عثمان بأن الروم أجلبوا على معاوية بالشام فابعث إليه رجلاً من أهل النجدة والبأس في عشرة آلاف عند قراءة الكتاب.

فبعث الوليد الناس مع سلمان بن ربيعة ثمانية آلاف ومضوا إلى الشام ودخلوا أرض الروم مع حبيب بن مسلمة، فشنا عليه بالغانرات وافتتحوا الحصون، وقيل: إن الذي أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة هو سعيد بن العاص، وذلك أن عثمان كتب إلى معاوية أن يغزي حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية فبعثه وحاصر قاليقلا حتى نزلوا على الجلاء أو الجزية، فجلا كثيراً إلى بلاد الروم وأقام فيها فيمن معه أشهراً.

ثم بلغه أن بطريك أرميناكس وهي بلاد ملطية وسيواس وقونية إلى خليج قسطنطينية قد زحف إليه في ثمانين ألفاً، فاستجد معاوية فكتب إلى عثمان فأمر سعيد بن العاص بإمداد حبيب فأمدته بسلمان في ستة آلاف، ويئت الروم فهزمهم وعاد إلى قاليقلا، ثم سار في البلاد فجاء بطريك خلاط ويده أمان عياض بن غنم وحمل ما عليهم من المال فنزل حبيب خلاط، ثم سار منها فصالحه صاحب السرجان ثم صاحب أردستان ثم صالح أهل ديبيل بعد الحصار، ثم أهل بلاد السرجان كلهم. ثم أتى أهل شميشاط فحاربوه فهزمهم وغلب على حصونهم، ثم صالحه بطريك خزان على بلاده وسار إلى تفلنس فصالحوه وفتح عدة حصون ومدن تجاورها.

وسار ابن ربيعة الباهلي إلى أران فصالح أهل البيلقان على الجزية والخراج، ثم أهل بردعة كذلك وقرأها وقتل أكراد البوشنجان وظفر بهم وصالح بعضهم على الجزية، وفتح مدينة شمكور وهي التي سميت بعد ذلك التوكلية، وسار سلمان حتى فتح قلية وصالحه صاحب كسكر على الجزية وملكوا شروان وسائر ملوك الجبال إلى مدينة الباب وانصرفوا. ثم غزا معاوية الروم وبلغ عمورية ووجد ما بين أنطاكية وطرسوس من الحصون خالياً فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها.

ولاية عبد الله بن أبي سرح على مصر

وفتح إفريقية

وفي سنة ست وعشرين عزل عثمان عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل مكانه عبد الله بن أبي سرح أخاه من

فلما تراءى الجمعان أرسوا جميعاً، وباتوا على أمان والمسلمون يقرأون ويصلون. ثم قرنوا سفنهم عند الصباح واقتتلوا ونزل الصبر واستحر القتل، ثم انهزم قسطنطين جريماً في قل قليل من الروم، وأقام ابن أبي سرح بالموضع أياماً ثم قفل وسمى المكان ذات الصواري والغزوة كذلك لكثرة ما كان بها من الصواري، وكانت هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين وقيل: أربع وثلاثين. وسار قسطنطين إلى صقلية وعرفهم خبر الهزيمة فنكروهم وقتلوه في الحمام.

فتح قبرص

كان أبو عبيدة لما احتضر استخلف على عمله عياض بن غنم وكان ابن عمه وخاله وقيل: استخلف معاذ بن جبل، واستخلف عياض بعده سعد بن حذيم الجمحي، ومات سعيد فولى عمر مكانه عمير بن سعيد الأنصاري، ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمر مكانه على دمشق أخاه معاوية، فاجتمعت له دمشق والأردن، ومات عمر وهو كذلك وعمير على حص وقنسرين، ثم استعفى عمير عثمان في مرضه فأعفاه وضم حص وقنسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن أبي علقمة وكان على فلسطين فضم عثمان عمله إلى معاوية.

فاجتمع الشام كله لمعاوية لستين من إمارة عثمان. وكان يلح على عمر في غزو البحر وكان وهو بمحصر كتب إليه في شأن قبرص أن قرية من قرى حص يسم أهلها نباح كلاب قبرص وصياح دجاجهم، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه! فكتب إليه: هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء إن ركد فلق القلوب وإن تحرك أزاع العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عود إن مال غرق وإن نجا يرق. فكتب عمر إلى معاوية: والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر، وبالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم، فليأكل أن تعرض لي في ذلك فقد علمت ما لقني العلاء مني. ثم كاتب ملك الروم عمر وقاربه وأقصر عن الغزو، ثم ألح معاوية على عثمان بعده في غزو البحر فأجابته على خيار الناس وطوعهم.

فاختار الغزو جماعة من الصحابة فيهم، أبو ذر وأبو الدرداء وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان، واستعمل عليهم عبد الله بن قيس حليف بني فزارة،

القتال، وقد غاب ابن أبي سرح وسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل ابن أبي سرح فله مئة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال، فقال له ابن الزبير: تنادي أنت بأن من قتل جرجير نقلته مئة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، فخاف جرجير أشد منه.

ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متاهين للحرب، ويقاثلون الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا فركب عليهم بالآخرين على غرة ففعل الله بنصرنا عليهم، ووافق على ذلك أعيان أصحابه ففعلوا ذلك وركبوا من الغد إلى الزوال والحوا عليهم حتى اتبعوهم ثم افترقوا، وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير وأخذت ابنته سبية فنقلها ابن الزبير، وحاصر ابن أبي سرح سبيطة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الرجل ألف. وبث جيوشه في البلاد إلى قصبة فسبوا وغنموا، وبث عسكر إلى حصن الأجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحته على الأمان، ثم صالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار. وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس فاستراه مروان بن الحكم بخمسمئة ألف دينار، وبعض الناس يقول أعطاه إياه ولا يصح، وإنما أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى. ثم رجع عبد الله بن أبي سرح إلى مصر بعد مقامه سنة وثلاثة أشهر.

ولما بلغ هرقل أن أهل إفريقية صالحوه بذلك المال الذي أعطوه غضب عليهم وبث بطريقاً يأخذ منهم مثل ذلك، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا: قد كان ينبغي أن يساعدنا بما نزل بنا. فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد الملك الذي ولوه بعد جرجير، فلحق بالشام وقد اجتمع الناس على معاوية بعد علي رضي الله عنه، فاستجاشه على إفريقية فبعت معه معاوية بن حديج السكوني في عسكر، فلما وصل الإسكندرية وهلك الرومي ومضى ابن حديج في العساكر فنزل قونية، وسرح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل وقتلهم معاوية فهزمهم معاوية، وحاصر حصن جلولا فامتنع معه حتى سقط ذات سوره فملكه المسلمون وغنموا ما فيه.

ثم بث السرايا ودوخ البلاد فأطاعوا، وعاد إلى مصر. ولما أصاب ابن أبي سرح من إفريقية ما أصاب ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الإسكندرية في ستمائة مركب وركب المسلمون البحر مع ابن أبي سرح ومعه معاوية في أهل الشام.

إصطخر عنوة، ويعلمها دارا بجرد. وسار إلى مدينة جور وهي أردشير خرت، وكان هرم بن حيان محاصراً لها فلما جاء ابن عامر فتحها. ثم عاد إلى إصطخر وقد نقضت فحاصرها طويلاً ورمائها بالمجانيق واقتحمها عنوة فقتل فيها أكثر أهل البيوتات والأساورة لأنهم كانوا لجأوا إليها، ووطئ أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل. وكتب إلى عثمان بالفتح فكتب إليه أن يستعمل على كور فارس هرم بن حيان اليشكري وهرم بن حيان العبسي والخرت بن راشد وأخاه المنجاب من بني سلمة والبرجمان الهجمي، وأن يفرق كور خراسان بين ستة نفر: الأحنف بن قيس على المرو، وحبيب بن قرط اليربوعي على بلخ، وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة، وأمير بن أحر اليشكري على طوس، وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور.

ثم جمع عثمان خراسان كلها لقيس، واستعمل أمير بن أحر اليشكري على سجستان، ثم بعده عبد الرحمن بن سمرة من قرابة ابن عامر بن كرز، فلم يزل عليها حتى مات عثمان وعمران على كرمان وعيمر بن عثمان بن مسعود على فارس وابن كرز القشيري على مكران، وخرج على قيس بن هبيرة بعد موت عثمان ابن عمه عبد الله بن حازم كما نذكره.

ولما افتتح ابن عامر فارس أشار عليه الناس بقصد خراسان وكانوا قد انتقضوا فسار إليها وقيل عاد إلى البصرة، واستخلف على فارس شريك بن الأعور الحارثي فبنى مسجدها. فلما دخل البصرة أشار عليه الأحنف بن قيس وحبيب بن أوس بالمسير إلى خراسان فجهز واستخلف على البصرة زياد بن أبيه، وسار إلى كرمان وقد نكثوا فبعث لحربهم مجاشع بن مسعود السلمي ولحرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي، وسار هو إلى حوالي نيسابور وتقدمهم الأحنف بن قيس إلى الطبيين حصنان هما بابا خراسان فصالحه أهلها، وسار إلى قوهستان فقاتل أهلها حتى أحجرهم في حصنهم ولحقه ابن عامر فصالحوه على مئتمنة ألف درهم، وقيل كان المتولي حرب قوهستان أمير بن أحر اليشكري.

ثم بعث ابن عامر السرايا إلى أعمال نيسابور ففتح رستاق رام عنوة وباخرز وجيرفت عنوة، وبعث الأسود بن كلثوم بن عدي الرياب - وكان ناسكاً - إلى يهق من أعمالها فدخل البلد من ثلثة كانت في سورها وقاتل حتى قتل ونظر أخوه أدهم بالبلد. وفتح ابن عامر بشت - بالشين المعجمة - من أعمال نيسابور ثم أسفارين ثم قصد نيسابور، ويعلمها استولى على أعمالها فحاصرها شهراً وكان بها أربع مرازية من فارس فسأل واحد منهم الأمان على أن يدخلهم ليلاً، وفتح لهم الباب وتحصن الأكبر منهم في

وساروا إلى قبرص وجاء عبد الله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار بكل سنة، ويؤدون مثلها للروم، ولا منعة لهم عن المسلمين ممن أرادهم من سواهم وعلى أن يكونوا عينا للمسلمين على عدوهم، ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم. وكانت هذه الغزاة سنة ثمانين وعشرين وقيل تسعة وعشرين وقيل ثلاثة وثلاثين، وماتت فيها أم حرام سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر.

وكان النبي ﷺ أخبرها بذلك. وأقام عبد الله بن قيس المحاسبي على البحر فغزا حسين غزاة لم ينكب فيها أحد، إلى أن نزل في بعض أيام في ساحل المرقى من أرض الروم فثاروا إليه فقتلوه، ولما الملاح وكان قد استخلف سفيان بن عوف الأزدي على السفن فجاء إلى أهل المرقى وقتلهم حتى قتل وقتل معه جماعة.

ولاية ابن عامر على البصرة وفتح فارس وخراسان

وفي السنة الثالثة من خلافة عثمان خرج أبو موسى من البصرة غازياً إلى أهل آمد والأكراد لما كفروا وحمل ثقله على أربعين بغلة من القصر بعد أن كان حض على الجهاد مشياً، فآلب الناس عليه ومضوا إلى عثمان فاستغفوه منه وتولى كبر ذلك غيلان بن جرشة فعزله عثمان وولى عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وهو ابن خال عثمان، وكان ابن خمس وعشرين سنة.

وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص من عمان والبحرين، فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس، وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأتخن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة إلا أصلحها. ثم ولى عليها سنة أربع أمير بن أحر اليشكري، وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس، واستعمل على سجستان في سنة أربع عمران بن الفضيل البرجمي، وعلى كرمان عاصم بن عمرو فجاشت فارس وانتقضت بعييد الله بن عمرو وجمعوا له فلقبهم بباب إصطخر فقتل عبيد الله وانهزم جنده. وبلغ الخبر عبد الله بن عامر فاستقر أهل البصرة.

وسار بالناس، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص وفي المجنبتين أبو برزة الأسلمي ومعتل بن يسار وعلى الخيل عمران بن حصين، ولقبهم بإصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزموا وفتح

حصنها حتى صالح على ألف ألف درهم.

وولى ابن عامر على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي. وبعث جيشاً إلى نساوإورد فصالحهم أهلها، وآخر إلى سرخس فصالحوا مرزبانها على أمان مائة رجل لم يدخل فيها نفسه فقتله واقتحمها عنوة، وجاء مرزبان طوس فصالحه على ستمائة ألف درهم، وبعث جيشاً إلى هراة مع عبد الله بن حازم فصالح مرزبانها على ألف ألف درهم. ثم بعث مرزبان مرو فصالح على ألف ألف وماتى ألف وأرسل إليه ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي، ثم بعث الأحنف بن قيس إلى طخارستان فصالح في طريقه رستاقاً على ثلاثمائة ألف وعلى أن يدخل رجل يؤذن فيه ويقيم حتى ينصرف ومرو إلى مرو الروذ، وزحف إليه أهلها فهزمهم وحاصروهم وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن فكتب إلى الأحنف متوسلاً بذلك في الصلح فصالحه على ستمائة ألف. ثم اجتمع أهل الجوزجان والطارقان والفارياب في جمع عظيم ولقيهم الأحنف فقاتلهم قتالاً شديداً ثم انهزموا فقتلوا قتلاً ذريعاً.

ورجع الأحنف إلى مرو الروذ، وبعث الأقرب بن حابس إلى فلهم بالجوزجان فهزمهم وفتحها عنوة، ثم فتح الأحنف الطالقان صلحاً والفارياب صلحاً وقيل بل فتحها أمير بن أحر، ثم سار الأحنف إلى بلخ وهي مدينة طخارستان فصالحه على أربعمائة ألف وقيل سبعمائة واستعمل عليها أسيد بن المشمر، ثم سار إلى خوارزم على نهر جيحون فامتعت عليه فرجع إلى بلخ. وقد استوفى أسيد قبض المال وكتبوا إلى ابن عامر. ولما سار مجاشع بن مسعود إلى كرمان كما ذكرناه وكانوا قد انتقضوا ففتح حميد عنوة وبني بها قصرأ ينسب إليه، ثم سار إلى السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها وفتحها عنوة وجلى كثيراً من أهلها. ثم فتح جيرفت عنوة ودوخ نواحي كرمان وأتى القفص وقد تجمع له من العجم من أهل الجلاء، وقاتلهم فظفر وركب كثير منهم البحر إلى كرمان وسجستان، ثم نزل العرب إلى منازلهم وأراضيهم.

وسار الربيع بن زياد الحارثي بولاية ابن عامر كما قدمناه إلى سجستان فقطع المفازة من كرمان حتى أتى حصن زالق فأغار عليهم يوم المهرجان وأسر دهقانهم، فأنشدى بما غمر عنزة قاعة من الذهب والفضة، وصالحوه على صلح فارس. وصار إلى زريخ ولقيه المشركون دونها فهزمهم وقتلهم وفتح حصوناً عدة بينها وبينه، ثم انتهى إليها وقاتله أهلها فأحجرهم وحاصروهم، وبعث مرزبانها في الأمان ليعضد فأمته وجلس له على شلو من أشلاء القتلى وارتفق بآخر وفعل أصحابه مثله.

فرفع المرزبان من ذلك وصالح على ألف جام من

الذهب يجعلها ألف وصيف، ودخل المسلمون المدينة، ثم سار منها إلى وادي سنارود فعبه إلى القرية التي كان رستم الشديد يربط بها فرسه، فقاتلهم وظفر بهم، وعاد إلى زريخ وأقام بها سنة ثم سار بها إلى ابن عامر واستخلف عليها عاملاً فأخرجوه وامتنعوا. فكانت ولاية الربيع سنة ونصف سنة سبى فيها أربعين ألف رأس وكان الحسن البصري يكتب له. ثم استعمل ابن عامر على سجستان عبد الرحمن بن سمرة فسار إليها وحاصر زريخ حتى صالحوه على ألفي ألف درهم وألفي وصيف، وغلب على ما بينهما وبين الكش من ناحية الهند وعلى ما بينها وبين الدادين من ناحية المرحج.

ولما انتهى إلى بلد الدادين حاصروهم في بلد الزور حتى صالحوه ودخل على الزور وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتان، فأخذهما وقطع يده، وقال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر وإنما قصدت أنه لا يضر ولا ينفع. ثم فتح كامل وزابلستان وهي بلاد غزنة فتحها صلحاً.

ثم عاد إلى زريخ إلى أن اضطرب أمر عثمان، فاستخلف عليها أمير بن أحر وانصرف فأخرجه أهلها وانتقضوا. ولما كمل الفتح لابن عامر في فارس وخراسان وكرمان وسجستان قال له الناس: لم يفتح لأحد ما فتح عليك فقال: لا جرم لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج محرماً من موقفي هذا. فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم، فسار قيس في أرض طخارستان ودوخها وامتنع عليه أهل سنجار فافتتحها عنوة.

ولاية سعيد بن العاص الكوفة

كان عثمان لأول ولايته قد ولى على الكوفة الوليد بن عقبة استقدمه إليها من عمله بالجزيرة وعلى بني تغلب وغيرهم من العرب، فبقي على ولاية الكوفة خمس سنين وكان أبو زيد الشاعر قد انقطع إليه من أخواله بني تغلب ليد أسداها إليه وكان نصرانياً فأسلم على يده وكان يغشاه بالمدينة والكوفة، وكان أبو زيد يشرب الخمر فكان بعض السفهاء يتحدث بذلك في الوليد لئلا يهين. ثم عدا الشباب من الأزدي بالكوفة على رجل من خزاعة فقتلوه ليلاً في بيته وشهد عليهم أبو شريح الخزاعي فقتلهم الوليد فيه بالقسامة، وأقام آباءهم للوليد على حقه وكانوا ممن يتحدثون فيه، وجاؤوا إلى ابن مسعود يمثل ذلك فقال: لا تتبع عورة من استر عنا. وتغيب الوليد من هذه المقالة وعاتب ابن مسعود عليها،

أصحاب رسول الله ﷺ منهم الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وحذيفة بن اليمان في غيرهم، ووافق خروج ابن عامر من البصرة إلى خراسان فنزل نيسابور، ونزل سعيد قومس وهي صلح كان حذيفة صالحهم عليه بعد نهاوند. فأتى سعيد جرجان فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى متاخماً جرجان على البحر فقاتله أهلها.

ثم سألوا الأمان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً، وفتحوا فقتلهم أجمعين إلا رجلاً وقتل معهم محمد بن الحكم بن أبي عقيل جد يوسف بن عمرو، وكان أهل جرجان يعطون الخراج تارة مئة ألف وأخرى مائتين وثلاثمائة وربما منعه. ثم امتنعوا وكفروا فانقطع طريق خراسان من ناحية قومس إلا على خوف شديد، وصار الطريق إلى خراسان من فارس كما كان من قبل حتى ولي قتيبة بن مسلم خراسان. وقدمها يزيد بن المهلب فصالح المزيان وفتح البحيرة ودمستان وصالح أهل جرجان على صلح سعيد.

غزو حذيفة الباب وأمر المصاحف

وفي سنة ثلاثين هذه صرف حذيفة من غزو الري إلى غزو الباب مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة وأقام له سعيد العاص بأذربيجان رداءً حتى عاد بعد مقتل عبد الرحمن كما مر، فأخبره بما رأى من اختلاف أهل البلدان في القرآن وأن أهل حمص يقولون: قراءتنا خير من قراءة غيرنا وأخذناها عن المقداد، وأهل دمشق يقولون كذلك، وأهل البصرة عن أبي موسى، وأهل الكوفة عن ابن مسعود. وأنكر ذلك واستعظمه وحذر من الاختلاف في القرآن، ووافقه من حضر من الصحابة والتابعين، وأنكر عليه أصحاب ابن مسعود فأغلظ عليهم وخطاهم، فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وافترق المجلس.

وسار حذيفة إلى عثمان فأخبره وقال: أنا النذير العريان فأدرك الأمة. فجمع عثمان الصحابة فرأوا ما رآه حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة أن ابعتي إلينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف هي التي كتبت أيام أبي بكر، فإني أقتل لما استحر في القراءة يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر: أرى أن تأمر بجمع القرآن لئلا يذهب الكثير منه لفناء القراء، فأبى أولاً وقال: إن رسول الله ﷺ لم يقله. ثم استبصر ورجع إلى رأي عمر وأمر زيد ثابت بجمعه من الرقاع والعصب وصدور الرجال، وكتب في الصحف فكانت عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة. وأرسل عثمان

ثم عمد أحد أولئك الرهط إلى ساحر قد أتى به الوليد فاستفتى ابن مسعود فيه وأفتى بقتله، وحبسه الوليد ثم أطلقه، فغضبوا وخرجوا إلى عثمان شاكين من الوليد وإنه يشرب الخمر. فاستقدمه عثمان وأحضره وقال: رأيتموه يشرب؟ قالوا: لا وإنما رأيناه بقيء الخمر فأمر سعيد بن العاص فجلبه وكان علي حاضراً فقال: انزعوا خميصته للجلد. وقيل: أن علياً أمر ابنه الحسن أن يجلبه فأبى فجلبه عبد الله بن جعفر، فلما بلغ أربعين قال: أمسك جلد رسول الله ﷺ وأبو بكر أربعين وجلد عمر ثمانين وكل سنة.

ولما وقعت هذه الوقعة عزل عثمان الوليد عن الكوفة وولى مكانه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، مات سعيد الأول كافراً وكان يكنى أحياناً، وخالد ابنه عم سعيد الثاني ولاء رسول الله ﷺ صنعاء وكان يكتب له واستشهد يوم مرج الصفر، وربي سعيد الثاني في حجر عثمان فلما فتح الشام أقام مع معاوية ثم استقدمه عثمان وزوجه وأقام عنده حتى كان من رجال قريش. فلما استعمله عثمان وذلك سنة ثلاثين سار إلى الكوفة ومعه الأشر وأبو خيفة الغفاري وجندب بن عبد الله والصعب بن جثامة، وكانوا شخصوا مع الوليد ليعينوه فصاروا عليه، فلما وصل خطب الناس وحذرهم وتعرف الأحوال، وكتب إلى عثمان أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب الروادف والتابعة على أهل الشرف والسابقة، فكتب إليه عثمان أن يفضل أهل السابقة ويجعل من جاء بعدهم تبعاً ويعرف لكل منزلته ويعطيه حقه. فجمع الناس وقرأ عليهم كتاب عثمان وقال: أبلغوني حاجة ذي الحاجة. وجعل القراء في سمرة فلم ترض أهل الكوفة ذلك وفشت المقالة، وكتب سعيد إلى عثمان فجمع الناس واستشارهم فقالوا: أصبت لا تطمع في الأمور من ليس لها بأهل فتفسد. فقال: يا أهل المدينة! إني أرى الفتن دبت إليكم وإنني أرى أن أتخلص الذي لكم وأنقله إليكم من العراق. فقالوا: وكيف ذلك؟ قال: تبيعونه ممن شتم بمالكهم في الحجاز واليمن. ففعلوا ذلك واستخلصوا ما كان لهم بالعراق، منهم طلحة ومروان والأشعث بن قيس، ورجال من القبائل اشتروا ذلك بأموال كانت لهم بخير ومكة والطائف.

غزو طبرستان

وفي هذه السنة غزا سعيد بن العاص طبرستان ولم يغزها أحد قبله، وقد تقدم أن الأصهبذ صالح سويد بن مقرن عنها أيام عمر على مال، فغزاها سعيد في هذه السنة ومعه ناس من

المساعدة على العرب وإنه يقدم عليه فيلقاه منفرداً عن العسكر وعن فرخزاد، فأجابه إلى ذلك بعد أن امتنع فرخزاد واتهمه يزديجرد في امتناعه فكره لثأته بعد أن أخذ خطه برضاه بذلك.

وسار إلى نيزك فاستقبله بأشياء وجاء به إلى معسكره ثم سأل أن يزوجه ابنته فأنف يزديجرد من ذلك وسبه فعلا رأسه بالمقرعة فركض منهزماً وقتل أصحابه، وانتهى إلى بيت طحان فمكث فيه ثلاثاً لم يطعم، ثم عرض عليه الطعام فقال: لا أطمع إلا بالزومة، فسأل من زمزم له حتى أكل ووشى المزمزم بأمره إلى بعض الأساورة فبعث إلى الطحان بمنقه وإلقائه في النهر، فأبى من ذلك وجحده، فدل عليه ملبسه وعرف المسك فيه فأخذوا ما عليه وخفوه والقوه في الماء فجعله أسقف مرو في تابوت ودفنه.

وقيل: بل سار يزديجرد من كرمان قبل وصول العرب إليها إلى مرو في أربعة آلاف على الطبيين وقهستان، ولقيه قبل مرو قائدان من الفرس متعادين فسعى أحدهما في الآخر، ووافقه يزديجرد في قتله، ونمى الخبر إليه فبيث يزديجرد وعدوه، فهرب إلى رحي على فرسخين من مرو، وطلب منه الطحان شيئاً فأعطاه منطقتة فقال: إنما أحتاج إلى أربعة دراهم، فقال: ليست معي. ثم نام فقتله الطحان وألقى شلوه في الماء. وبلغ خبر قتله إلى المطران بمر فجمع النصارى وعظم عليهم من حقوق سلفه فدفنوه وبنوا له ناووساً وأقاموا له مأتماً، بعد عشرين سنة من ملكه ستة عشر منها في عمارية العرب وانقرض ملك الساسانية بموته.

ويقال: إن قتيبة حين فتح الصفد وجد جاريين من ولد المخدج ابنه كان قد وطئ أمه بمر فولدت هذا الغلام بعد موته ذاهب الشق فسمى المخدج، وولد له أولاد بمخراسان وجد قتيبة هاتين الجاريتين من ولده فبعث بهما إلى الحجاج، وبعث بهما إلى الوليد أو بإحدهما فولدت له يزيد الناقص.

ظهور الترك بالثغور

كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لما راوا من شدتهم وظهورهم في غزواتهم حتى أكنوا لهم في بعض الغياض فقتلوا بعضهم فتجاسروا على حربهم. وكان عبد الرحمن بن ربيعة على ثغور أرمينيا إلى الباب، استخلفه عليها سراقه بن عمر وأقره عمر وكان كثير الغزو في بلاد الخزر، وكثيراً ما كان يغزو بلنجر وكان عثمان قد نهاء عن ذلك فلم يرجع، فغزاهم سنة اثنين وثلاثين وجاء الترك لمظاهرتهم وتذاصروا فاشتدت الحرب بينهم وقتل عبد الرحمن كما مر، واقتروا فرقتين فرقة سارت نحو

فأخذها، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال: إذا اختلفتم فاكْتُبُوها بلسان قريش ففعلوا. ونسخوا المصاحف فبعث إلى كل أفتق بمصحف يعتمد عليه، وحرق ما سوى ذلك فقبل ذلك الصحابة في سائر الأمصار، ونكره عبد الله بن مسعود في الكوفة حتى نهاهم عن ذلك وحملهم عليه.

مقتل يزديجرد

لما خرج ابن عامر من البصرة إلى فارس وافتتحها هرب يزديجرد من جور وهي أردشير خره في سنة ثلاثين، فبعث ابن عامر في أثره بجاشع بن مسعود وقيل: هرم بن حيان الشكري وقيل: العنسي، فاتبه إلى كرمان فهرب إلى خراسان وهلك الجند في طريقهم بالثلج، فلم يسلم إلا بجاشع ورجل معه وكان مهلكهم على خمسة فراسخ من السرجان، ولحق يزديجرد بمر ومعه خرزاد أخو رستم، فرجع عنه إلى العراق ووصى به ما هو به مرزيان مرو فسأله في المال فمنعه وخافه على نفسه وعلى مرو واستجاش بالترك فبيثوه وقتل أصحابه وهرب يزديجرد ماشياً إلى شط المرغاب وآوى إلى بيت رجل ينقل الأرحاء، فلما نام قتله ورماه في النهر. وقيل إنما بيثه أهل مرو ولما جاؤوا إلى بيت الرجل أخذوه وضربوه فأقر بقتله فقتلوه وأهله، واستخرجوا يزديجرد من النهر وحملوه في تابوت إلى إصطخر فدفن في ناوس هنالك.

وقيل: إن يزديجرد هرب من وقعة نهاوند إلى أرض أصبهان واستأذن عليه بعض رؤسائها وحجب فضرِبَ البواب وشجه، فرحل عن أصبهان إلى الري، وجاء صاحب طبرستان وعرض عليه بلاده فلم يجبه ومضى من فوره ذلك إلى سجستان، ثم إلى مرو في ألف فارس، وقيل: بل أقام بفارس أربع سنين ثم بكرمان ستين وطلبه دهقانها في شيء فمنعه فطرده عن بلاده، وأقام بسجستان خمس سنين، ثم نزل خراسان ونزل مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين وفرخزاد وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخزار وكابل.

وكان دهقان مرو قد منعه الدخول خوفاً من مكسره ووكل ابنه بحفظ الأبواب، فعمد يزديجرد يوماً إلى مرو ليدخلها فمنعه ابن الدهقان وأظهر عصيان أبيه في ذلك، وقيل بل أراد يزديجرد أن يجعل ابن أخيه دهقاناً عليها فعمل في هلاكه، وكتب إلى نيزك طرخان يستقدمه لقتل يزديجرد ومصالحة العرب عليه وأن يعطيه في اقتنتاعه كل يوم ألف درهم، فكتب نيزك إلى يزديجرد يعده

الفتوحات قدم.

فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلناهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الرحي وتنزل الملائكة، فلما انحسر ذلك العباب وتنويسي الحال بعض الشيء، وذله العدو واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرئاسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم، فأنفت نفوسهم منه، ووافق أيام عثمان فكانوا يظهر الطعن في ولايته بالأمصار، والمؤاخضة لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان.

وفشت المقالة في ذلك من أتباعهم وتنادوا بالظلم من الأمراء في جهاتهم وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة، فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه. وبعث إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر: محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر وغيرهم إلى سوى هذه، فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامهم إلا عماراً فإنه استماله قوم من الأشرار انقطعوا إليه منهم عبد الله بن سبأ ويعرف بابن السوداء، كان يهودياً وهاجر أيام عثمان فلم يحسن إسلامه وأخرج من البصرة فلحق بالكوفة ثم بالشام وأخرجوه فلحق بمصر، وكان يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السر لأهل البيت ويقول: إن محمداً يرجع كما يرجع عيسى. وعنه أخذ ذلك أهل الرجعة، وإن علواً وصي رسول الله ﷺ حيث لم يجز وصيته وإن عثمان أخذ الأمر بغير حق، ويعرض الناس على القيام في ذلك والطعن على الأمراء. فاستمال الناس بذلك في الأمصار وكتب به بعضهم بعضاً، وكان معه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكثانة بن بشر فثبطوا عماراً عن السير إلى المدينة.

وكان مما أنكره على عثمان إخراج أبي ذر من الشام ومن المدينة إلى الرينة، وكان الذي دعا إلى ذلك شدة الورع من أبي ذر وحمله الناس على شذائذ الأمور والزهد في الدنيا وأنه لا ينبغي لأحد أن يكون عنده أكثر من قوت يومه، ويأخذ بالظاهر في ذم الإدخار بكنز الذهب والفضة. وكان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاوية ويعيب قوله: المال مال الله، ويوهم أن في ذلك احتجانه للمال وصرفه على المسلمين، حتى عتب أبو ذر في ذلك معاوية فاستعجب له وقال: سأقول مال المسلمين، وأتى ابن سبأ إلى أبي الدرداء وعبادة بن الصامت يمثل ذلك فدفعوه، وجاء به عبادة إلى

الباب لقوا سلمان بن ربيعة قد بعثه سعيد بن العاص من الكوفة مدداً للمسلمين بأمر عثمان فساروا معه، وفرقة سلكوا على جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة.

ثم استعمل سعيد بن العاص على الباب سلمان بن ربيعة مكان أخيه، وبعث معه جنداً من أهل الكوفة حذيفة بن اليمان وأمدهم عثمان بحبيب بن مسلمة في جند الشام وسلمان أمير على الجميع، ونازعه حبيب الأمانة فوقع الخلاف، ثم غزا حذيفة بعد ذلك ثلاث غزوات آخرها عند مقتل عثمان.

وخرجت جموع الترك سنة اثنين وثلاثين من ناحية خراسان في أربعين ألفاً عليهم قارن من ملوكهم فأنتهى إلى الطبيين، واجتمع له أهل بادغيس وهرة وقهستان، وكان على خراسان يومئذ قيس بن المهشم السلمي استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه إلى مكة محرماً فدوخ جهتها، وكان معه ابن عمه عبد الله بن حازم فقال لابن عامر: اكتب لي على خراسان عهداً إذا خرج منها قيس ففعل، فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن حازم: ما ترى؟ قال: أرى أن تخرج عن البلاد فإن عهد ابن عامر عندي بولايتها. فترك منازعته وذهب إلى ابن عامر، وقبل أشار عليه أن يخرج إلى ابن عامر يستحده، فلما خرج أظهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس.

وسار ابن حازم للقاء الترك في أربعة آلاف. ولما التقى الناس أمر جيشه بإيقاد النار في أطراف رحلهم فهاج العدو على دهش، وغشيه ابن حازم بالناس متابعين، فانهزموا وأئخن المسلمون فيهم بالقتل والسبي. وكتب ابن حازم بالفتح إلى ابن عامر فأقره على خراسان فلم يزل والياً عليها إلى حرب الجمل، فأقبل إلى البصرة وبقي أهل البصرة بعد غزوة ابن حازم هذه حتى غزوا المتقضين من أهلها وعادوا جهزوا كتيبة من أربعة آلاف فارس هنالك.

بدء الانتفاض على عثمان رضي الله عنه

لما استكمل الفتح واستكمل للملة للملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحابة الرسول ﷺ والإقتداء بهدية وآداب المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وطييم وقضاعة وغيرهم، فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلاً منهم وكان لهم في

معاوية وقال: هذا الذي بعث عليك أبا ذر.

وطليحة بن خويلد.

وكانوا يفيضون في أيام الرقائع وفي أنساب الناس وأخبارهم ورعياً يتهون إلى الملاحاة ويخرجون منها إلى المشاققة والمقاتلة، ويعذلمهم في ذلك حجاب سعيد بن العاص فيهمزونهم ويضربونهم. وقد قيل: إن سعيداً قال يوماً: إنما هذا السواد بستان قريش، فقال له الأشتر: السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافتنا تزعم أنه بستان لك ولقومك؟ وخاض القوم في ذلك، فأغلظ لهم عبد الرحمن الأزدي صاحب شرطته قلوباً عليه وضربوه حتى غشي عليه، فمنع سعيد بعدها السر عنه. فاجتمعوا في مجالسهم يثلبون سعيداً وعثمان، والسفهاء يغشونهم.

فكتب سعيد وأهل الكوفة إلى عثمان في إخراجهم، فكتب أن يلحقهم بمعاوية وكتب إلى معاوية أن نقرأ خلقوا الفتنة قسم عليهم وانهم وإن أنست منهم رشداً فاقبل منهم وإن أعيوك فأرددهم علي، فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق، وأقاموا عنده يحضرون مائدتهم ثم قال لهم يوماً: أنتم قوم من العرب لكم أسنان والسنة وقد أدرتكم بالإسلام شرفاً وغلبيتم الأمم وحويت موارثهم وقد بلغني أنكم نقيتم قريشاً ولو لم تكن قريش كنتم أذلة إذ أنتمكم لكم جنة فلا تفرقوا على جنتكم وإن أنتمكم يصبرون لكم على الجور ويحملون عنكم المؤنة والله لتنتهن أو ليتليتنكم الله بمن يسومكم ولا يحمداكم على الصبر، ثم تكونوا شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم.

فقال له صمصعة منهم: أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر الناس ولا أمنعها في الجاهلية فتخوننا، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترت خلص إلينا. فقال معاوية: الآن عرفتمكم وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول وأنت خطيهم ولا أرى لك عقلاً أعظم عليك أمر الإسلام وتذكرني في الجاهلية أخزى الله قوماً عظموا أمركم افتقروا عني ولا أظنكم تفقهون.

ثم ذكر شأن قريش وإن عزها إنما كان بالله في الجاهلية والإسلام ولم يكن بكثرة ولا شدة، وكانوا على أكرم أحساب وأكمل مروءة وبراهم الله حرمة فأنموا فيه مما أصاب العرب والعجم والأسود والأحمر في بلادهم، ثم ذكر بعثة النبي ﷺ وأن الله ارتضى له أصحاباً كان خيارهم قريشاً فبنى الملك عليهم وجعل الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلا بهم، ثم قرعهم ووبخهم وهددهم، ثم أحضرهم بعد أيام، وقال: إذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضره، وإن أردتم النجاة فالزموا الجماعة ولا

ولما كثر ذلك على معاوية شكاه إلى عثمان فاستقدمه وقال له: ما لأهل الشام يشكون منك؟ فأخبره، فقال: يا أبا ذر لا يمكن حمل الناس على الزهد وإنما علي أن أقضي بينهم بحكم الله وأرغبهم في الاقتصاد، فقال أبو ذر: لا نرضى من الأغنياء حتى يذلولوا المعروف ويحسبوا للجيران والإخوان ويصلوا القرابة، فقال له كعب الأحبار: من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه فضربه أبو ذر فشجه وقال: يا ابن اليهودية ما أنت وهذا؟ فاستوهب عثمان من كعب شجته فوهبه.

ثم استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة وقال: إن رسول الله ﷺ أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلماً، فأذن له، ونزل الريدة وبنى بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً، وكان يتعاهد المدينة فعد أولئك الرهط خروج أبي ذر فيما يتقمنه على عثمان مع ما كانوا يعدون عليه من إعطاء مروان خمس مغام إفريقية والصحيح أنه اشتراه بمخمسة ألف فوضعها عنه.

وما عدوا عليه أيضاً زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة، وإتمام الصلاة في منى وعرفة مع الأمر في حياة رسول الله ﷺ والشيخين بعده كان على القصر.

ولما سأل عبد الرحمن واحتج عليه بذلك قال له: بلغني أن بعض حاج اليمن والخفأة جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاتي وقد اتخذت بمكة أهلاً ولي بالطائف مال. فلم يقبل ذلك عبد الرحمن فقال: زوجتك بمكة إنما تسكن بسكنائك ولو خرجت ومالك بالطائف على أكثر من مسافة القصر.

وأما حاج اليمن فقد شهدوا ذلك من رسول الله ﷺ والشيخين بعده وقد كان الإسلام ضرب مجرأته. فقال عثمان: هذا رأي رأيته. فمن الصحابة من تبعه على ذلك ومنهم من خالفه.

وما عدوا عليه سقوط خاتم النبي ﷺ من يده في بئر أريس على مبلين من المدينة فلم يوجد. وأما الحوادث التي وقعت في الأمصار فمنها قصة الوليد بن عقبة وقد تقدم ذكرها وأنه عزله على شرب الخمر واستبدله بسعيد بن العاص منه، وكان وجوه الناس وأهل القادسية يسلمون عنده مثل مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس من النخع وثابت بن قيس الهمداني وجندب بن زهير العامري وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعي وصمصعة بن صوحان وأخوه زيد وابن الكواء وكميل بن زياد وعمير بن ضائب

تبطرنكم النعمة وسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

وكتب إلى عثمان إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان أبطروهم العدل إنما مهمهم الفتنة وأموا لأهل الذمة، والله مبتليهم ثم فاضحهم وليسوا بالذين يأتون الأمر إلا مع غيرهم فإنه سعيداً ومن عنده عنهم. فخرجوا من عنده قاصدين الجزيرة ومروا بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد بمحصر فأحضرهم، وقال: يا أله الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد في نشاط خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤيدكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم. ثم مضى في توبيخهم على ما فعلوه وما قالوه لسعيد ومعاوية، فهابوا سطوته وطفقوا يقولون: نتوب إلى الله أفاننا أقالك الله، حتى قال: تاب الله عليكم. وشرح الأشر إلى عثمان تائباً فقال له عثمان: أحلك حيث تشاء، فقال: مع عبد الرحمن بن خالد قال ذلك إليك! فرجع إليه. وقيل إنهم عادوا إلى معاوية من القابلة ودار بينهم وبينه القول وأغلظوا له وأغلظ عليهم، وكتبوا إلى عثمان فأمر أن يردهم إلى سعيد، فردهم فأطلقوا الستهم وضع سعيد منهم، وكتب إلى عثمان، فكتب إليه أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد فدار بينهم وبينه ما قدمناه.

وحدث بالبصرة مثل ذلك من الطعن وكان بدؤه فيما يقال شأن عبد الله بن سبا المعروف بابن السوداء، هاجر إلى الإسلام من اليهودية ونزل على حكيم بن جبلة العبدي وكان يتشيع لأهل البيت، ففشت مقالته بالطعن وبلغ ذلك حكيم بن جبلة فأخرجه وأتى الكوفة فأخرج أيضاً واستقر بمصر، وأقام يكتب أصحابه بالبصرة ويكاتبونه والمقاتلات تفشو بالطعن والذكير على الأمراء. وكان حمران بن أبان أيضاً يحقد لعثمان أنه ضربه على زواجه امرأة في العدة وسيره إلى البصرة، فلزم ابن عامر وكان بالبصرة عامر بن عبد القيس وكان زاهداً متقشفاً فأغرى به حمران صاحبه ابن عامر فلم يقلل سعائته، ثم أذن له عثمان فقدم المدينة ومعه قوم فسعوا بعامر بن عبد القيس إنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة، فألحقه عثمان بمعاوية وأقام عنده حتى تبينت براءته وعرف فضله وحقه وقال: أرجع إلى صاحبك! فقال: لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا وأقام بالشام كثير العبادة والانفراد بالسواحل إلى أن هلك.

ولما فشت المقاتلات بالطعن والإرجاف على الأمراء اعتمر سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة أربع وثلاثين، وكان قبلها قد ولى على الأعمال أمراء من قبله، فولى الأشعث بن قيس على أذربيجان وسعيد بن قيس على الري والسير العجلي على همدان والسائب بن الأقرع على أصبهان ومالك بن حبيب

على ماه وحكيم بن سلامة على الموصل وجريز بن عبد الله على قرقسيا وسلمان بن ربيعة على الباب وجعل على حلوان عتيبة بن النهاس وعلى الحرب القعقاع بن عمرو، فخرجوا لأعمالهم وخرج هو وافتداً على عثمان، واستخلف عمرو بن حريث وخلت الكوفة من الرؤساء. وأظهر الطاعنون أمرهم وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان، فبادره القعقاع بن عمرو فقال له: إنما تستعفي من سعيد. وكتب يزيد إلى الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بمحصر في القدوم، فساروا إليه وسبقهم الأشر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول: جئتكم من عند عثمان وتركتم سعيداً يريد على نقصان نسائكم على مئة درهم ورد أولى البلاء منكم إلى ألفين، ويزعم أن فينكم بستان قريش. ثم استخلف الناس ونادى يزيد في الناس: من شاء أن يلحق بيزيد لرد سعيد فليفعل، فخرجوا وذو الرأي يعدلونهم فلا يسمعون. وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ونزل يزيد وأصحابه الجرة قريباً من القادسية لاعتراض سعيد ورده، فلما وصل قالوا: أرجع فلا حاجة لنا بك قال: إنما كان يكفيكم أن تبعثوا واحداً أو إلى عثمان. وقال مولى له: ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع، فقتله الأشر ورجع سعيد إلى عثمان فأخبره بخبر القوم وإنهم يختارون أبا موسى الأشعري، فولاه الكوفة وكتب إليهم: أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد والله لأقرضنكم عرضي ولأبذلنكم صبري ولأستصلحنكم بمجهدي.

وخطب أبو موسى الناس، وأمرهم بلزوم الجماعة، وطاعة عثمان، فرضوا ورجع الأمراء من قرب الكوفة واستمر أبو موسى على عمله.

وقيل: إن أهل الكوفة أجمع رأيهم أن يعيشوا إلى عثمان ويعزلوه فيما نقم عليه، فأجمع رأيهم على عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن عبد الله من بني تميم ثم من بني العنيس فأناته وقال له: إن ناساً اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك ركبتم أموراً عظماً، فاتق الله وتب إليه. فقال عثمان: ألا تسمعون إلى هذا الذي يزعم الناس أنه قارئ ثم يحمي بكلمني في المحقرات؟ والله لا يدري أين الله. فقال عامر: بل والله إني لأدري إن الله لبالمرصاد. فأرسل عثمان إلى معاوية وعبد الله بن أبي سرح وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وعمرو بن العاص - وكانوا بطائفة دون الناس - فجمعهم وشاورهم، وقال: إنكم وزرائي ونصحايتي وأهل تقني وقد صنع الناس ما رأيتم فطلبوا أن أعزل عمالي وأرجع إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم. فقال ابن عامر: أرى أن تشغلهم بالجهاد، وقال سعيد: متى تهلك قادتهم تفرقوا، وقال

قراءة كتابه عليهم ودعوا له، وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه في الموسم: عبد الله بن عامر وابن أبي سرح ومعاوية وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمراً وقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة؟ وإني لأخشى والله أن يكونوا صادقين! فقالوا له: ألم يخبرك رسلنا بأن أحداً لم يشافهم بشيء وإنما هذه إشاعة لا يحل الأخذ بها واختلقوا في وجه الرأي في ذلك. فقال عثمان: إن الأمر كائن وبابه سيفتح ولا أحب أن تكون لأحد علي حجة في فتحه وقد علم الله أنني لم آكل الناس خيراً فسكنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم. ثم قدم المدينة فدعا علياً وطلحة والزبير - ومعاوية حاضر - فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أنتم ولادة هذا الأمر واختارتم صاحبكم يعني عثمان وقد كبر وأشرف وفشت مقالة خفتها عليكم فما عنتكم به من شيء فأننا لكم به ولا تطمعوا الناس في أمركم. فانتهره علي، ثم ذهب عثمان يتكلم، وقال: اللذان كانا قبلي منعا قرابتهما احتساباً وإن رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته وإن قرابتي أهل عيلة وقلة معاش فأعطيهم فإن رأيت ذلك خطأ فردوه، فقالوا: أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خسين ألفاً ومروان خمسة عشر ألفاً، قال: آخذ ذلك منهما، فانتصرفوا راضين.

وقال له معاوية: أخرج معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا تطيقه، قال: لا أبتغي بجمار رسول الله ﷺ بدلاً. قال: فأبعث إليك جنداً يقيمون معك، قال: لا أضيق على جيران رسول الله ﷺ فقال معاوية: لتتالن ولتغيرن، قال: حسبي الله ونعم الوكيل. ثم سار معاوية ومراً على علي وطلحة والزبير فوصاهم بعثمان وودعهم ومضى. وكان المنحرفون عن عثمان بالأمصار قد تواعدوا عند مسير الأمراء إلى عثمان أن يثبوا عليه في غيبتهم، فرجع الأمراء ولم يتهاهم ذلك، وجاءتهم كتب من المدينة ممن صار إلى مذهبهم في الانحراف عن عثمان أن أقدموا علينا فلان الجهاد عندنا، فتكاتبوا من أمصارهم في القدوم إلى المدينة، فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وميسرة أو قتيبة بن فلان السكوني، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي، وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدي والأشتر النخعي وزيد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم العامري، وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي وزريع بن عباد وبشر بن شريح القيسي وابن الحرش وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وكلهم في مثل عدد أهل مصر، وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج. ولما كانوا من

معاوية: اجعل كفالتهم إلى أمرائهم وأنا أكفيك الشام، وقال عبد الله: استصلحهم بالمال. فردهم عثمان إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعث ليكون لهم فيها شغل، ورد سعيد إلى الكوفة فلقية الناس بالجزعة وردوه كما ذكرناه وولى أبا موسى وأمر عثمان حذيفة بغزو الباب فسار نحوه.

ولما كثر هذا الطعن في الأمصار وتواتر بالمدينة وكثر الكلام في عثمان والطعن عليه، وكان له منهم شعبة يذبون عنه: مثل زيد بن ثابت وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فلم يغنوا عنه، واجتمع الناس إلى علي بن أبي طالب وكلموه وعددوا عليه ما نقموه، فدخل على عثمان وذكر له شأن الناس وما نقموا عليه وذكره بأفعال عمر وشدته ولينه هو لعماله وعرض عليه ما يخاف من عواقب ذلك في الدنيا والآخرة، فقال له: إن المغيرة بن شعبة وليناه وعمر ولناه، ومعاوية كذلك، وابن عامر تعرفون رحمهم وقرابته. فقال له علي: إن عمر كان يطأ على صماخ من ولاه وأنت ترفق بهم وكانوا أخوف لعمر من غلامه يرفأ ومعاوية يستبد عليك، ويقول هذا أمر عثمان فلا تغير عليه. ثم تكلماً طويلاً وافترقا وخرج عثمان على أثر ذلك، وخطب وعرض بما هو فيه من الناس وطعنهم وما يريدون منه، وإنهم تجرأوا عليه لرفقه بما لم يتجرأوا بمثله على ابن الخطاب، ووافقهم بروجعه في شأنه إلى ما يقدمهم.

حصار عثمان ومقتله رضي الله عنه وأثابه ورفع درجته

ولما كثرت الإشاعة في الأمصار بالطعن على عثمان وعماله، وكتب بعضهم إلى بعض في ذلك وتوالت الأخبار بذلك على أهل المدينة، جاؤوا إلى عثمان وأخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه. وقال: أشيروا علي وأنتم شهداء المؤمنين. قالوا: تبعث من تتق به إلى الأمصار يأتوك بالأخبار. فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام وغيرهم إلى سواها فرجعوا، وقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره علماء المسلمين ولا عوامهم، وتأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر، وكتب عثمان إلى أهل الأمصار إني قد رفع إلي أهل المدينة أن عمالي وقع منهم أضرار بالناس وقد أخذتهم بأن يوافوني في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين. فبكى الناس عند

إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد فاعوا الخطأ بالصواب. فقال محمد بن مسلمة: أنا أشهد بذلك. فأقعدته حكيم بن جبلة، وقام زيد بن ثابت فأقعدته آخر، وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وأصيب عثمان بالخصباء فصرخ وقاتل دونه سعد بن أبي وقاص والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة. ودخل عثمان بيته وعزم عليهم في الانصراف فانصرفوا، ودخل علي وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أمية فيهم مروان فقالوا لعلي: أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت السذي تريد لتحزن عليك الدنيا، فقام مغضباً وعادوا إلى منازلهم. وصلى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً، ثم منعه الصلاة، وصلى بالناس أمير المصريين العافقي بن حرب المكي، وتفرق أهل المدينة في بيوتهم وحيطانهم ملازمين للسلاح وبقي الحصار أربعين يوماً. قيل: بل أمر عثمان أبا أيوب الأنصاري فصلى أياماً، ثم صلى علي بعده بالناس وقيل: أمر علياً سهل بن حنيف فصلى عشر ذي الحجة ثم صلى العيد والصلوات حتى قتل عثمان.

وقد قيل في حصار عثمان: أن محمد بن أبي بكر ومحمد بن حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان، فلما خرج المصريون في رجب مظهرين للحج ومضمرين قتل عثمان أو خلعه وعليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي كان فيمن خرج مع المصريين محمد بن أبي بكر، وبعث عبد الله بن سعيد في آثارهم وأقام محمد بن أبي حذيفة بمصر، فلما كان ابن أبي سرح بأيلة بلغه أن المصريين رجعوا إلى عثمان فحضره، وأن محمد بن أبي حذيفة غلب على مصر فرجع سريعاً إليهما فمنع منهما، فأتى فلسطين وأقام بها حتى قتل عثمان. وأما المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان إلى بيت علي ومث إليه بالقرابة في أن يركب إليهم ويردهم لئلا تظهر الجراءة منهم، فقال له علي: قد كلمتك في ذلك فأطعت أصحابك وعصيتني! يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سرح وسعيداً. فعلى أي شيء أردتهم؟ فقال: على أن أصير إلى ما تراه وتشيره وأن أعصي أصحابي وأطيعك. فركب علي في ثلاثين من المهاجرين والأنصار فيهم سعد بن زيد وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب، ومن الأنصار أبو أسيد الساعدي وأبو حميد وزيد بن ثابت وحسان وكعب بن مالك، ومن العرب دينار بن مكرز، فأثروا المصريين وتولى الكلام معهم علي ومحمد بن مسلمة، فرجعوا إلى مصر، وقال ابن عديس لمحمد: أتوصينا بمحاجة؟ قال: تنقي الله وترد من قلبك عن أمانته فقد وعدنا أن

المدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل البصرة وكان هواهم في طلحة فتنزلوا ذا خشب، وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم في الزبير فتنزلوا الأعوص، ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في علي وتركوا عامتهم بذئ المروة. وقال أبو زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم من أهل الكوفة: لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا أنهم عسكروا لنا فوالله إن كان حقاً لا يقوم لنا أمر.

ثم دخلوا المدينة ولقوا علياً وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين وأخبروهم أنهم إما أتوا للحج وأن يستعفوا من بعض العمال، واستأذنوا في الدخول فمنعهم ورجعوا إلى أصحابهم وتشاوروا في أن يذهب من أهل الكوفة وكل مصر فريق إلى أصحابهم كياداً وطلباً في الفرقة، فأتى المصريون علياً وهو في عسكره عند أحجار الزيت وقد بعث ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع عليه فعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم وقال: إن جيش ذي المروة وذئ خشب والأعوص ملعونون على لسان رسول الله ﷺ وقد علم ذلك الصالحون. وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير فقالوا مثل ذلك فانصرفوا وافترقوا عن هذه الأماكن إلى عسكرهم على بعد. فتفرق أهل المدينة فلم يشعروا إلا والتكبير في نواحيها، وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بأمان من كف يده، وصلى عثمان بالناس أياماً ولزم الناس بيوتهم ولم يمنوا الناس من كلامه، وغدا عليهم علي فقال: ما ردكم بعد ذهابكم؟ قالوا: أخذنا كتاباً مع يزيد بقتلنا. وقال البصريون لطلحة والكوفيين للزبير مثل مقالة أهل مصر وإتهم جاؤوا لينصروهم، فقال لهم علي: كيف علمتم بما لقي أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتن علينا جميعاً؟ هذا أمر أبرم بلبيل. فقالوا: اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا، وهم يصلون خلفه ومنعوا الناس من الاجتماع معه.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستحثهم فيبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن أبي سرح معاوية بن جريح وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو، وتسايقوا إلى المدينة على الصعب والذلول، وقام بالكوفة نفر يحضون على إعانة أهل المدينة فمن الصحابة عتبة بن عامر وعبد الله بن أبي أوفى وحظلة الكاتب، ومن التابعين مسروق الأسود وشريح وعبد الله بن حكيم. وقام بالبصرة في ذلك عمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر، ومن التابعين كعب بن سوار وهرم بن حبان. وقام بالشام وبمصر جماعة أخرى من الصحابة والتابعين. ثم خطب عثمان في الجمعة القابلة وقال: يا هؤلاء! الله الله! فوالله

والقراة والصهر، ولو كان أمر الجاهلية فقط كان عاراً على بني عبد مناف أن تنزع تيم أمرهم فجاء علي إلى طلحة وقال ما هذا؟ فقال طلحة: أبعد ما مس الحزام الطيبين يا أبا حسن! فانصرف علي إلى بيت المال، وأعطى الناس فيقي طلحة وحده ومسر بذلك عثمان وجاء إليه طلحة فقال له: والله ما جئت تائباً ولكن مغلوباً فالله حسيك يا طلحة.

وقيل: إن المصريين لما رجعوا خرج إليهم محمد بن مسلمة فأعطوه صحيفة قالوا وجدناها عند غلام عثمان بالبويب وهو علي يعبر من إبل الصدقة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن اليباع وجسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم، وقيل: وجدت الصحيفة بيد أبي الأعور السلمي. فعاد المصريون وعاد معهم الكوفيون والبصريون وقالوا لمحمد بن مسلمة حين سألهم: قد كلمنا علياً وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فوعدونا أن يكلموه فليحضر علي معنا عند عثمان. ثم دخل علي ومحمد على عثمان وأخبروه بقول أهل مصر فحلف ما كتب ولا علم. فقال محمد: صدق! هذا من عمل مروان. ودخل المصريون فشكى ابن عديس بابن أبي سرح وما أحدثه بمصر وأنه ينسب ذلك إلى كتاب عثمان وإنا جئنا من مصر لقتلك فردنا علي ومحمد وضمانا لنا النزوع عن هذا كله فرجعنا ولقينا هذا الكتاب وفيه أمر لك لابن أبي سرح بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس وهو بيد غلامك وعليه خاتمك، فحلف عثمان ما كتب ولا أمر ولا علم. قالوا: فكيف يجترأ عليك بمثل هذا؟ فقد استحققت الخلع على التقديرين ولا يحل أن يولى الأمور من يتهمي إلى هذا الضعف، فاخلع نفسك فقال: لا أنزع ما ألبسني الله ولكن أتوب وأرجع.

قال: رأيتك توب وتعود فلا بد من خلعتك أو قتلك وقتل أصحابك دون ذلك إلى أن يخلص إليك أو تموت، فقال: لا ينالك أحد بأخرى ولو أردت ذلك لاستجشت بأهل الأمصار. ثم كثر اللغو وأخرجوا ومضى علي إلى منزله، وحصر المصريون عثمان وكتب إلى معاوية وابن عامر يستحثهم وقام يزيد بن أسد القسري فاستنفر أهل الشام وسار إلى عثمان وبلغهم قتله بوادي القرى فرجعوا، وقيل: سار من الشام حبيب بن مسلمة ومن البصرة مجاشع بن مسعود فبلغهم قتله بالريذة فرجعوا.

وكانت بطانة عثمان أشاروا عليه أن يبعث إلى علي في كفهم عنه على الوفاء لهم، فبعث إليه في ذلك فاجاب بعد توقف ثم بعث إليهم فقالوا: لا بد لنا أن نتوثق منه وجاءه فأعلمه وتوثق منه على أجل ثلاثة أيام، وكتب بينهم كتاباً على رد المظالم وعزل

يرجع وينزع. ورجع القوم إلى المدينة ودخل علي عثمان وأخبره برجوع المصريين، ثم جاء مروان من الغد فقال له: أخبر الناس بأن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عنك كان باطلاً قبل أن تحيى الناس من الأمصار ويأتيك ما لا تطيقه ففعل. فلما خطب ناداه الناس من كل ناحية: اتق الله يا عثمان وتب إلى الله وكان أولهم عمرو بن العاص، فرفع يده وقال لهم: إني تائب. وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، ثم جاء الخبر بحصاره وقتله. وقيل: إن علياً لما رجع عن المصريين أشار على عثمان أن يسمع الناس ما اعترم عليه من الزنوع قبل أن يجيء غيرهم، ففعل وخطب بذلك وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أول من اتعظ أستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه فليأت أشراكم يروني رأيهم فوالله إن ردي الحق عبداً لأستن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد وما عن الله مذهب إلا إليه فوالله لأعطينكم الرضى ولا أحتجب عنكم. ثم بكى وبكى الناس ودخل منزله، فجاءه نفر من بني أمية يعذّلونه في ذلك فوجتتهم نائلة بنت الفرافصة فلم يرجعوا إليها، وعباه فيما فعل واستذلوه في إقراره بالخطيئة والتوبة عند الخوف، واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً، فقال لمروان: كلمهم! فأغلظ لهم في القول. وقال: جئتم لنزع ملكتنا من أيدينا. والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإننا والله ما نحن مغلوبون على ما في أيدينا. وبلغ الخبر علياً ففكر ذلك، وقال لعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث: أسمعت خطبته بالأمس ومقالة مروان للناس اليوم؟ يا لله ويا للناس! إن قعدت في بيتي قال تركني وقرابي وحقي وإن تكلمت فجاء ما يزيد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول. وقام مغضباً إلى عثمان واستقبح مقالة مروان وأثبه عليها وقال: ما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك فقد أذهبت شرفك وغلبت على رأيك. ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول علي، فعذلت في طاعة مروان، وأشارت عليه باستصلاح علي فبعث إليه فلم يأت. فأتاه عثمان إلى منزله ليلاً يستلينه ويعدّه الثبات على رأيه معه فقال: بعد أن قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم؟ فخرج عثمان وهو يقول: خذلتني وجرات علي الناس! فقال علي: والله إني أكثر الناس ذباً عنك ولكي كلما جئت بشيء أظنه لك رضاء جاء مروان بأخرى فسمعت قوله وتركت قولي. ثم منع عثمان الماء فغضب علي غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان.

وقيل: إن علياً كان عند حصار عثمان يخبر فقدم والناس يجتمعون عند طلحة فجاءه عثمان وقال يا علي! إن لي حق الإخاء

علي وأم حبيبة فلزموا بيوتهم. وكان آل حزم يدسون الماء إلى بيت عثمان في الغللات، وكان ابن عباس ممن لزم باب عثمان للدفاع فآشرف عليه عثمان وأمره أن يحج بالناس، فقال: جهاد هؤلاء أحب إلي! فأقسم عليه وانطلق.

ولما رأى أهل مصر أن أهل الموسم يريدون قصدهم، وأن أهل الأمصار يسرون إليهم اعترضوا على قتل عثمان رضي الله عنه وتقبل شهادتهم يرجون في ذلك خلاصهم واشتغال الناس عنهم، فقاموا إلى الباب ليقترحوه فمنعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة وقاتلوهم وغلبوه دون الباب، ثم صدهم عثمان عن القتال وحلف ليدخلن فدخلوا وأغلق الباب فجاءوا بالنار وأحرقوه، ودخلوا وعثمان يصلي وقد افتتح سورة طه، وقد سار أهل الدار فما شغله شيء من أمرهم حتى فرغ وجلس إلى المصحف يقرأ فقرأ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. ثم قال لمن عنده: إن رسول الله ﷺ قد عهد إلي عهداً فانا صابر عليه، ومنعهم من القتال وأذن للحسن في اللحاق بابيه وأقسم عليه فأبى وقاتل دونه، وكان المغيرة بن الأحنس بن شريق قد تعجل من الحج في عصابة لنصره فقاتل حتى قتل. وجاء أبو هريرة ينادي: يا قوم ما لي أَدْعُوكُمُ إِلَى النَّجَاةِ وتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ وَقَاتِلَ.

ثم اقتحمت الدار من ظهرها من جهة دار عمرو بن حزم فامتألت قوماً ولا يشعر الذين بالباب، وانتدب رجل فدخل على عثمان في البيت فحاوره في الخلع فأبى فخرج، ودخل آخر ثم آخر كلهم يعظه فيخرج ويفارق القرم، وجاء ابن سلام فوعظهم فهموا بقتله، ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلاً بما لا حاجة إلى ذكره ثم استجيا وخرج. ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم وأكبت عليه نائلة امرأته تنقي الضرب بيدها فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها. ثم قتلوه وسال دمه على المصحف.

وجاء غلمانهم فقتلوا بعض أولئك القاتلين وقتلوا آخر وانتهبوا ما في البيت وما على النساء حتى ملأه نائلة، وقتل الغلمان منهم وقتلوا من الغلمان، ثم خرجوا إلى بيت المال فانتهبوه، وأرادوا قطع رأسه فمنعهم النساء فقال ابن عديس: اتركوه.

ويقال إن الذي تولى قتله كنانة بن بشر التميمي وطعنه عمرو بن الحمق طعنات، وجاء عمير بن ضبياء وكان أبوه مات في سجنه فوثب عليه حتى كسر ضلعاً من أضلاعه. وكان قتله

من كرهوه من العمال. ثم مضى الأجل وهو مستعد ولم يغير شيئاً، فجاءه المصريون من ذي خشب يستجزون عهدهم فأبى فحصروه.

وأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأشرف عليهم فحياهم ودعا لهم، ثم قال: انشدكم الله تعالى هل تعلمون أنكم دعوتكم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟ أتقولون إنه لم يستجب لكم أو تقولون إن الله لم يبال بمن ولّى هذا الدين أم تقولون إن الأمة ولوا مكابرة وعن غير مشورة فوكلهم إلى أمرهم أولم يعلم عاقبة أمري؟ ثم انشدكم الله هل تعلمون لي من السوابق ما يجب حقه! فمهلاً فلا يحل إلا قتل ثلاثة: زان بعد إحصان وكافر بعد إيمان وقاتل بغير حق ثم إذا قتلتموني وضعتكم السيف على رقابكم، ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف.

فقالوا له: أما ما ذكرت من الاستخارة بعد عمر فكل ما صنع الله تعالى فيه الخبرة، ولكن الله ابتلى بك عباده وأما حقتك وسابقتك فصحيح، لكن أحدثت ما علمت ولا ترك إقامة الحق مخافة الفتنة عاماً قاتلاً، وأما حصر القتل في الثلاثة ففي كتاب الله: قتل من سعى في الأرض فساداً ومن قاتل على البغي وعلى منع الحق والمكابرة عليه، وأنت إنما تمسكت بالأماراة علينا وإنما قاتل دونك هؤلاء بهذه التسمية فلو نزعتهما انصرفوا.

فسكت عثمان ولزم الدار وأقسم على الناس بالانصراف فانصرفوا إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير. وكانت مدة الحصار أربعين يوماً، ولثمان عشرة منها وصل الخبر بمسير الجنود من الأمصار فاشتد الانحصار ومنعوه من لقاء الناس ومن الماء، وأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأمّهات المؤمنين يطلب الماء فركب علي إليهم مغسلاً، وقال: يا أيها الناس إن هذا لا يشبه أمر المؤمنين ولا الكافرين! وإن الأسير عند فارس والروم يطعم ويسقى. فقالوا لا والله ونعمة عين. فرجع وجاءت أم حبيبة على بغلتها مشتملة على أدواة وقالت: أردت أن أسأل هذا الرجل عن وصايا عنده لبني أمية أو تهلك أموال أيتامهم وأراملهم، فقالوا: لا والله، وضربوا وجه البغلة ففترت وكادت تسقط عنها وذهب بها الناس إلى بيتها.

وأشرف عليهم عثمان وقرر حقوقه وسوابقه فقال بعضهم: مهلاً عن أمير المؤمنين، فجاء الأشتر وفرق الناس وقال: لا يمكر بكم. ثم خرجت عائشة إلى الحج ودعت أخاها فأبى، فقال له حنظلة الكاتب: تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها وتتبع سفهاء العرب فيما لا يحل؟ ولو قد صار الأمر إلى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف. ثم ذهب حنظلة إلى الكوفة وبلغ طلحة والزبير ما لقي

وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة. وأما النعمان بن بشير فأخذ أصابع نائلة امرأة عثمان وقميصه الذي قتل فيه ولحق بالشام صريحاً.

وقيل: إن عثمان لما قتل بقي الغانقي بن حرب أميراً على المدينة خمسة أيام، والتمس من يقوم بالأمر فلم يجبه أحد، وأنوا إلى علي فامتنع، وأتى الكوفيون الزبير والبصريون طلحة فامتنعوا، ثم بعثوا إلى سعد وابن عمر فامتنعوا. فبقوا حيارى ورأوا أن رجوعهم إلى الأصهار بغير إمام يوقع في الخلاف والفساد، فجمعوا أهل المدينة وقالوا: أتسم أهل الشورى وحكمكم جائز على الأمة فاعقدوا الإمام ونحن لكم تبع وقد أجلناكم يومين وإن لم تفعلوا قتلنا فلاناً وفلاناً وغيرهم يشيرون إلى الأكابر. فجاء الناس إلى علي فاعتذر وامتنع، فخوفوه الله في مراقبة الإسلام، فوعدهم إلى الغد.

ثم جاؤوه من الغد وجاء حكيم بن جبلة في البصريين، فأحضر الزبير كرهاً، وجاء الأشتر في الكوفيين فأحضر طلحة كذلك وبايعوا لعلي، وخرج إلى المسجد وقال: هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أردتم وقد افترقنا أمس وأنا كاره فأبيتم إلا أن أكون عليكم، فقالوا: نحن على ما افترقنا لك عليه بالأمس، فقال لهم: اللهم اشهدا ثم جاؤوا يقوم عن تخلف قالوا نبايع علي إقامة كتاب الله. ثم بايع العامة، وخطب علي وذكر الناس وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة ورجع إلى بيته، فجاءه طلحة والزبير وقالوا: قد اشترطنا إقامة الحدود فلتقمها على قتلة هذا الرجل، فقال: لا قدرة لي على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس وتستقر الأمور فتؤخذ الحقوق، فافترقوا عنه.

وأكثر بعضهم المقالة في قتلة عثمان وباستناده إلى أربعة في رأيه.

وبلغه ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم، ثم هرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام، فاشتد على علي منع قريش من الخروج، ثم نادى في اليوم الثالث برجوع الأعراب إلى بلادهم، فأبوا وتذامرت معهم السبيبة، وجاءه طلحة والزبير فقالوا: دعنا نأت البصرة والكوفة فنستفر الناس فأمهلهم. وجاء المغيرة فأشار عليه باستبقاء العمال حتى يستقر الأمر ويستبدلوا بمن شاء فأمهله، ورجع من الغد فأشار بمعالجة الاستبدال، وجاءه ابن عباس فأخبره بخبر المغيرة، فقال: نصحك أمس وغشك اليوم. قال: فما الرأي؟ قال: كان الرأي أن تخرج عند قتل الرجل أو قبل ذلك إلى مكة وأما اليوم فإن بني أمية يشبهون على الناس بأن يلجموك طرفاً من هذا الأمر ويطلبون ما طلب أهل المدينة في قتلة

لثمان عشرة خلت من ذي الحجة وبقي في بيته ثلاثة أيام.

ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم إلى علي فأذن لهم في دفنه، فخرجوا به بين المغرب والمشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب، وصلى عليه جبير وقيل مروان وقيل حكيم، ويقال: إن ناساً تعرضوا لهم ليمنعوا من الصلاة عليه، فأرسل إليهم علي وزجرهم. وقيل إن علياً وطلحة حضرا جنازته وزيد بن ثابت وكعب بن مالك.

وكان عماله عند موته على ما نذكره: فعلى مكة عبد الله بن الحضرمي، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن منبة، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة، وعلى البصرة والبحرين عبد الله بن عامر، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى حمص عبد الرحمن بن خالد من قبله، وعلى قنشرين حبيب بن مسلمة كذلك، وعلى الأردن أبو الأعور السلمي كذلك، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكندي كذلك، وعلى البحرين عبد الله بن قيس الفزاري، وعلى القضاء أبو الدرداء، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة والقعقاع بن عمرو على الحرب، وعلى خراج السواد جابر المزني وسماك الأنصاري على الخراج، وعلى قريسي جابر بن عبد الله، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس، وعلى حلوان عتية بن نهاس، وعلى أصبهان السائب بن الأقرع، وعلى ماسبدان خنيس، وعلى بيت المال عتبة بن عمرو، وعلى القضاء زيد بن ثابت.

بيعة علي رضي الله عنه

لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأنوا علياً وبايعونه، فأبى وقال: أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً ومن اخترتم رضيت، فألحوا عليه وقالوا له: لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك، فخرج إلى المسجد وبايعوه وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيرهما - ويقال إنهما ادعيا الإكرام بعد ذلك بأربعة أشهر وخرجا إلى مكة ثم بايعه الناس. وجاؤوا بابن عمر فقال كذلك. فقال اتني بكفيل. قال لا أجده فقال الأشتر: دعني أقتله فقال علي: دعوه أنا كفيله.

وبايعت الأنصار وتأخر منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن غنلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وسلمة بن سلامة بن وقش، وتأخر من المهاجرين عبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وأسماء بن زيد

رسول علي، فقدم في ربيع الأول ودخل العبيسي وقد رفع الطومار كما أمره حتى دفعه إلى علي، ففضه فلم يجد فيه كتاباً فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال نعم! قال: تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود قال: وعن؟ قال منك وترك ستين ألف شيخ يكون تحت قميص عثمان منصوباً على منبر دمشق. فقال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! قد نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله. ثم رده إلى صاحبه وصاحت السبيبة: اقتلوا هذا الكلاب وافد الكلب، فنادى يا مضر يا لقيس أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحول والركاب وتقاولوا عليه، فممنعه مضر ودس أهل المدينة على علي من يأتيهم براه في القتال وهو زياد بن حنظلة التميمي وكان منقطعاً إليه فجالسه ساعة فقال له علي: سيروا لغزو الشام. فقال لعلي: الأناة والرفق أمثل فتمثل يقول:

مضى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفساً حياً تجتنبك المظالم
فعلم أن رايه القتال ثم جاء إلى القوم الذين دسوه فأخبرهم ثم استأذنه طلحة والزبير في العمرة ولحقاً بمكة. ثم اعترم على الخروج إلى الشام ودعا أهل المدينة إلى قتالهم، وقال: انطلقوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقصون الذي عليكم. وأمر الناس بالتجهز إلى الشام ودفع اللواء لمحمد ابن الحنفية، وولّى عبد الله بن عباس ميمته، وعمرو بن أبي سلمة ميسرته، ويقال: بل عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وولّى أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخي عبيدة مقدمته، ولم يولّ أحداً ممن خرج على عثمان.

واستخلف على المدينة تمام بن العباس، وعلى مكة قثم بن العباس. وكتب إلى قيس بن سعد بمصر وعثمان بن حنيف بالبصرة وأبي موسى بالكوفة أن يندبوا الناس إلى الشام، وبينما هو على التجهز للشام إذ أتاه الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وأنهم على الخلاف فاتقض عن الشام.

أمر الجمل

ولما جاء خبر مكة إلى علي قام في الناس وقال: ألا إن طلحة والزبير وعائشة قد عمالوا على نقض إمارتي ودعوا الناس إلى الإصلاح وسامير ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفوا واقتصد نحوهم، وتندب أهل المدينة فتأقلوا، ويعت كميلاً النخعي فجاءه بعبد الله بن عمر فقال: انهض معي! فقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون، قال: فاعطني كفيلاً بئلك لا تخرج، قال:

عثمان فلا يقدر عليهم والرأي أن تقر معاوية. فقال علي رضي الله عنه والله لا أعطيه إلا السيف.

فقال له ابن عباس: أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحرب خدعة». قال: بلى! فقال ابن عباس: أما والله إن أعطيتي لأتركهم ينظرون في دبر الأمور ولا يعرفون ما كان وجهها من غير نقصان عليك ولا إثم لك. فقال: يا ابن عباس لست من هنياتك ولا هنيات معاوية في شيء. فقال ابن عباس: أطعني والحق بمالك بينيع وأغلق بابك عليك فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، وإن نهضت مع هؤلاء القوم اليوم يملك الناس دم عثمان غداً. فأبى علي وقال: أشر علي وإذا خالفك أطعني. قال: أيسر ما لك عندي الطاعة. قال: فسر إلى الشام فقد وليتها. قال: إذا يقتلني معاوية بعثمان أو يجبسي فيتحكم علي لقرايتي منك ولكن اكتب إليه وعده فأبى. وكان المغيرة يقول: نصحته فلم يقبل فغضب ولحق بمكة. ثم فرق علي العمال على الأمصار فبعث على البصرة عثمان بن حنيف، وعلى الكوفة عمارة بن شهاب من المهاجرين، وعلى اليمن عبد الله بن عباس، وعلى مصر قيس بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف. فمضى عثمان إلى البصرة فدخلها واختلقوا عليه فاطاعته فرقة وقال آخرون: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنقتدي بهم، ومضى عمارة إلى الكوفة فلما بلغ زباله لقي طليحة بن خويلد فقال له: إرجع فإن القوم لا يستبدلون بأبي موسى وإلا ضربت عنقك، ومضى ابن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن منية مال الجباية وخرج به إلى مكة ودخل عبد الله إلى اليمن، ومضى قيس بن سعد إلى مصر ولقيه بأيلة خيالة من أهل مصر فقالوا: من أنت؟ قال: قيس بن سعد من فل عثمان أطلب من أوي إليه وانتصر به. ومضى حتى دخل مصر وأظهر أمره فافترقوا عليه فرقة كانت معه وأخرى تربصوا حين يروا فعله في قتلة عثمان.

ومضى سهل بن حنيف إلى الشام حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل فقال لهم: أنا أمير على الشام، قالوا إن كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع. فلما رجع وجاءت أخبار الآخرين دعا علي طلحة والزبير وقال: قد وقع ما كنت أحذركم. فسألوه الإذن في الخروج من المدينة وكتب علي إلى أبي موسى مع معبد الأسلمي فكتب إليه بطاعة أهل الكوفة ويبيعتهم ومن الكاره منهم والراضي حتى كأنه يشاهد. وكتب إلى معاوية مع سيرة الجهني فلم يجبه إلا ثلاثة أشهر من مقتل عثمان، ثم دعا قبيصة من عيس وأعطاه كتاباً غتوماً عنوانه: من معاوية إلى علي وأوصاه بما يقول وأعاد مع

ولا هذه، فتركه ورجع إلى المدينة.

على رأيه وقالوا: إن الذين معنا لا يطبقون من بالمدينة ويحتجون ببيعة علي وإذا أتينا البصرة أنهضناهم كما أنهضنا أهل مكة وجاهدنا، فاتفقوا ودعوا عبد الرحمن بن عمر إلى النهوض فأبى وقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون.

وكانت أمهات المؤمنين معها على قصد المدينة، فلما نهضت إلى البصرة قعدوا عنها وأجابتها حفصة فمنعها أخوها عبد الله. وجهزهم ابن عامر بما معه من المال ويعلى بن منية بما معه من المال والظهر، ونادوا في الناس بالحملا فحملوا على ستمائة بعير وساروا في ألف من أهل مكة ومن أهل المدينة وتلاحق بهم الناس فكانوا ثلاثة آلاف، وبعث أم الفضل أم عبد الله بن عباس بالخبر استأجرت على كتابها من أبلغه علياً، ونهضت عائشة ومن معها، وجاء مروان بن الحكم إلى طلحة والزبير فقال: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة، فقال ابن الزبير على أبي، وقال ابن طلحة: على أبي، فأرسلت عائشة إلى مروان تقول له: أتريد أن تفرق أمرنا ليصل بالناس ابن أخي تعني عبد الله بن الزبير. وودع أمهات المؤمنين عائشة من ذات عرق بأكيات، وأشار سعيد بن العاص على مروان بن الحكم وأصحابه بإدراك ثارهم من عائشة وطلحة والزبير. فقالوا: نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً.

ثم جاء إلى طلحة والزبير فقال: لمن تجعلان الأمر إن ظفرتما؟ قال: لأحدنا الذي تختاره الناس، فقال: بل اجعلوه لولد عثمان لأنكم خرجتم تطلبون بدمه فقالا: وكيف ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم؟ قال: فلا أراني أسعى إلا لإخراجها من بني عبد مناف فرجع، ورجع عبد الله بن خالد بن أسيد ووافقه المغيرة بن شعبة ومن معه من ثقيف فرجعوا، ومضى القوم معهم أبان والوليد ابنا عثمان. وأركب يعلى بن منية عائشة جملأ اسمه عسكراً اشتراه بمائة دينار وقيل بثمانين، وقيل: بل كان لرجل من عرينة عرض لهم بالطريق على جمل فاستبدلوا به جمل عائشة على أن حمله بألف فزادوه أربعمائة درهم، وسأله عن دلالة الطريق فقدم ومر بهم على ماء الخواب فنبهتهم كلابه. وسأله عن الماء فعرفهم باسمه.

فقال عائشة: ردوني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نسأله: «ليت شعري أيتكن تنبها كلاب الخواب؟» ثم ضربت عضد بعيرها فأنابته وأقامت بهم يوماً وليلة إلى أن قيل: النجاء! النجاء! قد أدرككم علي، فارتحلوا نحو البصرة فلما كانوا بفنائها لقيهم عمير بن عبد الله التميمي وأشار بأن يتقدم عبد الله بن عامر إليهم فأرسلته عائشة وكتبت معه إلى رجال من البصرة: إلى الأخنف بن قيس وسمرة وأمثالهم، وأقامت بالخفين تنتظر

وخرج إلى مكة وقد أخبر ابنه علي أم كلثوم بأنه سمع من أهل المدينة في تناقلهم وأنه على طاعة علي ويخرج معتمراً. وجاء الخبر من الغداة إلى علي بأنه خرج إلى الشام فبعث في أثره على كل طريق، وماج أهل المدينة، وركبت أم كلثوم إلى أبيها وهو في السوق يبعث الرجال ويظهر في طلبه فحدثه فانصرف عن ذلك ووثق فيما قاله، ورجع إلى أهل المدينة فخاصبهم وحرضهم فرجعوا إلى إجابته، وأول من أجابه أبو الهيثم بن التيهان البصري وخزيمة بن ثابت وليس بذي الشهادتين. ولما رأى زياد بن حنظلة تناقل الناس عن علي انتدب إليه وقال: من تناقل عنك فإننا نخف معك ونقاتل دونك.

وكان سبب اجتماعهم بمكة أن عائشة كانت خرجت إلى مكة وعثمان محصور كما قدمناه، فقصت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلبقت في طريقها رجلاً من بني ليث أخوها فأخبرها بقتل عثمان وبيعة علي، فقالت: قتل عثمان والله ظلماً ولأطلين بدمه فقال لها الرجل: ولم أنت كنت تقولين ما قلت؟ فقالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وانصرفت إلى مكة.

وجاءها الناس فقالت: إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم من كان قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام: والله لأصعب من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ولو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه. فقال عبد الله بن عامر الحضرمي وكان عامل مكة لعثمان: أنا أول طالب، فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية وكانوا هربوا إلى مكة بعد قتل عثمان منهم: سعيد بن العاص والوليد بن عقبة. وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن منية من اليمن بستمئة بعير وستمئة ألف فأناب بالابطح.

ثم قدم طلحة والزبير من المدينة فقالت لهما عائشة: ما وراءكما؟ قالوا: نحملنا هرباً من المدينة من غوغاء وأعراب غلبوا على خيارهم فلم يمنعوا أنفسهم ولا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً، فقالت: انهضوا بنا إليهم، وقال آخرون: نأتي الشام، فقال ابن عامر: إن معاوية كفاكم الشام فاتوا البصرة فلي بها صنائع ولهم في طلحة هوى. فنكروا عليه مجيئه من البصرة واستقام رأيهم

الجواب.

خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأجحت حرمتك وإن من رأى قتالك يرى قتلك فإن كنت أتيتنا طائفة فارجمي إلى منزلك وإن كنت مكروه فاستعني بالله وبالناس على الرجوع. وأقبل حكيم بن جبلة وهو على ظهر الخيل فأنشب القتال، وأشرع أصحاب عائشة رماحهم فاقتتلوا على فم السكة، وحجز الليل بينهم وباتوا يتأهبون وعاداهم حكيم بن جبلة فاعترضه رجل من عبد القيس فقتله حكيم، ثم قتل امرأة أخرى، واقتتلوا إلى أن زال النهار. وكثر القتل في أصحاب عثمان بن حنيف ولما عفتهم الحرب نادوا إلى الصلح وتواعدوا على أن يبعثوا إلى المدينة فإن كان طلحة والزبير أكرها سلم لهم عثمان الأمر وإلا رجعا عنه.

وسار كعب بن سوار القاضي إلى أهل المدينة يسألهم عن ذلك، فجاءهم يوم جمعة وسألهم فلم يجبه إلا أسامة بن زيد فإنه قال: بايعا مكرهين. فضربه الناس حتى كاد يقتل. ثم خلصه صهيب وأبو أيوب ومحمد بن مسلمة إلى منزله، ورجع كعب وبلغ الخبر بذلك إلى علي، فكتب إلى عثمان بن حنيف يعجزه ويقول: والله ما أكره على فرقة ولقد أكره على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظروا.

ولما جاء كعب بقول أهل المدينة بعث طلحة والزبير إلى عثمان ليجتمع بهما، فامتما واحتج بالكتاب وقال: هذا غير ما كنا فيه. فجمع طلحة والزبير الناس وجاء إلى المسجد بعد صلاة العشاء في ليلة ظلماء شاتية، وتقدم عبد الرحمن بن عتاب في الوحل فوضع السلاح في الجالية من الزط والساجة وهم أربعون رجلاً فقاتلوهم وقتلوا عن آخرهم، واقتحموا على عثمان فأخرجوه إلى طلحة والزبير وقد تنفوا شعر وجهه كله، وبعثا إلى عائشة بالخبر فقالت: خلوا سبيله، وقيل أمرت بإخراجه وضربه، وكان الذي تولى إخراجه وضربه مجاشع بن مسعود. وقيل أن الاتفاق إنما وقع بينهم على أن يكتبوا إلى علي فكتبوا إليه وأقام عثمان يصلي فاستقبلوه ووثبوا عليه فظفروا به وأرادوا قتله، ثم استبقوه من أجل الأنصار وضربوه وجسوه.

ثم خطب طلحة والزبير وقالوا: يا أهل البصرة! توبة بحوبة إنما أردنا أن نستعيب عثمان فغلب السفهاء فقتلوه. فقالوا لطلحة: قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا! قال الزبير: أما أنا فلم أكتبهم، وأخذ يرمي علياً بقتل عثمان فقال رجل من عبد القيس: يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاز داعي الإسلام وكان لكم بذلك الفضل، ثم استخلفتم مراراً ولم تشاورونا، وقتلتهم كذلك، ثم

ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين وكان رجلاً عامه، وأباً الأسود الدؤلي وكان رجلاً خاصة، وقال: انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها. فجاءها بالحفير وقال: إن أميرنا بعثنا نسالك عن مسيرك؟ فقالت: إن الغوغاء ونزاع القبائل فعلوا ما فعلوا فخرجت في المسلمين أعلمهم بذلك وبالذي فيه الناس ورائنا وما ينبغي من إصلاح هذا الأمر... ثم قرأت ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجُوهُمْ﴾ الآية.

ثم عدلا عنها إلى طلحة فقالا: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان! فقالا: ألم يتابع علياً؟ قال: بلى والسيف على رأسي وما استقبل على البيعة إن هو لم يخل بيننا وبين قتلة عثمان. وقال لهما الزبير مثل ذلك، ورجعا إلى عثمان بن حنيف فاسترجع وقال: دارت رحي الإسلام ورب الكعبة، ثم قال: أشيروا علي! فقال عمران: اعتزل. قال: بل امنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين. فجاءه هشام بن عامر فأشار عليه بالمسألة والمساحة حتى يأتي أمر علي، فأبى ونادى في الناس بلبس السلاح ثم دس من يتكلم في الجمع ليرى ما عندهم، فقال رجل: إن هؤلاء القوم إن كانوا جاؤوا خائفين فبلدهم يأمن فيه الطير وإن جاؤوا لدم عثمان فما نحن بقتله فاطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا.

فقال الأسود بن سريع السعدي: إنما جاؤوا يستعيتون بنا على قتله منا ومن غيرنا. فحصبه الناس فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً وكسر ذلك كله.

وانتهت عائشة ومن معها إلى المريد، وخرج إليها عثمان فيمن معه وحضر أهل البصرة، فتكلم طلحة من الميمنة: فحمد الله وذكر عثمان وفضله ودعا إلى الطلب بدمه وحث عليه، وكذلك الزبير فصدقهما أهل الميمنة. وقال أصحاب عثمان من الميسرة: بايعتم علياً ثم جئتم تقولون. ثم تكلمت عائشة وقالت: كان الناس يتجنون على عثمان وياتوننا بالمدينة فنجلهم فجرة ونجده برأ تقيا وهم يحاولون غير ما يظهرون، ثم كثرُوا واقتحموا عليه داره وقتلوه واستحلوا المحرمات بلا ترة ولا عذر، ألا وإن عما ينبيي لكم ولا ينبغي غيره أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله ثم قرأت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

فاختلف أصحاب عثمان عليه وقال بعضهم إلى عائشة، ثم افرق الناس وتحاصروا وانحدرت عائشة إلى المريد، وجاءها جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من

فقال: أما الخروج من المدينة فلم يكن إليه سبيل وقد كان أحيط بنا كما أحيط بعثمان، وأما البيعة فحفظنا ضياع الأمر والحل والعقد لأهل المدينة لا للعرب ولا للأمصار ولقد مات رسول الله ﷺ وأنا أحق بالأمر بعده فباع الناس غيري واتبعتهم في أبي بكر وعمر وعثمان فقتلوه وبايعوني طائعتين غير مكروهين، فأننا أقاتل من خالف من أطاع إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين، وأما القعود عن طلحة والزبير فإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر فمن ينظر فيه؟ ثم أرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر يستفران الناس، وأقام بالريذة يجرّض الناس وأرسل إلى المدينة في أذاته وسلاحه، وقال له بعض أصحابه: عرفنا بقصدك من القوم؟ قال: الإصلاح إن قبلوا وإن بادرنا امتنعنا.

ثم جاء جماعة من طيء نافرين معه فقبلهم وأئسى عليهم. ثم سار من الريذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمرو بن الجراح، ولما انتهى إلى فيد آتته أسد وطيء وعرضوا عليه النفير معه، فقال: الزموا قراركم ففي المهاجرين كفاية. ولقيه هنالك رجل من أهل الكوفة من بني شيبان فسأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصلح فهو صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه. فقال: والله ما أريد إلا الصلح حتى يرد علينا، ثم انتهى إلى الثعلبية والأساد، فبلغه ما لقي عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة، ثم جاءه بذى قار عثمان بن حنيف وأراه ما بوجهه، فقال: أصبت أجراً وخيراً إن الناس وليهم قبلي رجلاً فعملنا بالكتاب ثم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني ومنهم طلحة والزبير ثم نكثا وأبّا عليّ. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما عليّ! والله إنهما ليعلمان أنني لست دونهم. ثم أخذ في الدعاء عليهما وابن وائل هنالك يعرضون عليه النفير فأجابهم مثل طيء وأسد.

وبلغه خروج عبد القيس على طلحة والزبير فائسى عليهم. وأما محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فبلغا إلى الكوفة ودفعا إلى أبي موسى كتاب علي وقاما في الناس بأمره فلم يجيبهما أحد وشاوروا أبا موسى في الخروج إلى علي، فقال: الخروج سبيل الدنيا والقعود سبيل الآخرة ففقدوا كلهم. وغضب محمد ومحمد وأغلظا لأبي موسى، فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعق علي وإن كان لا بد من القتال فحتى نفرغ من قتل عثمان حيث كانوا، فرجعا إلى علي بالخبر وهو بذى قار، فرجع علي باللائمة على الأشتر، وقال: أنت صاحبنا في أبي موسى فاذهب أنت وابن العباس وأصلح ما أفسدت.

فقدما على أبي موسى وكلماه واستعانا عليه بالناس لم يجب إلى شيء ولم ير إلا القعود حتى تنجلي الفتنة ويلتئم الناس، فرجع

بايعتم علياً وجتمت تستعدونا عليه فماذا الذي نقيم عليه؟ فهموا بقتله ومنعته عشيرته، ثم وثبوا من الغد على عثمان ومن معه فقتلوا منهم سبعين.

وبلغ حكيم بن جبلة ما فعل بعثمان بن حنيف فجاء لنصره في جماعة من عبد القيس، فوجد عبد الله بن الزبير فقال له: ما شأنك؟ قال: تخلوا عن عثمان وتقيمون على ما كنتم حتى يقدم علي ولقد استحلتم الدم الحرام تزعمون الطلب بثأر عثمان وهم لم يقتلوه. ثم ناجزهم الحرب في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وأقام حكيم أربعة قواد فكان هو بجياله طلحة، وذريح بجياله الزبير، وابن الحرش بجياله عبد الرحمن بن عتاب، وحر قوص بن زهير بجياله عبد الرحمن بن الحرث بن هشام. وتزاحفوا واستحزّ القتل فيهم حتى قتل كثير منهم وقتل حكيم وذريح، وأفلت حر قوص في فل من أصحابه إلى قومهم بني سعد، وتبعوهم بالقتل وطالبوا بني سعد بحر قوص وكانوا عثمانية، فاعترضوا وغضبت عبد القيس كلهم والكثير من بكر بن وائل، وأمر طلحة والزبير بالعطاء في أهل الطاعة لهما، وقصدت عبد القيس وبكر بيت المال فقاتلوهم ومنعوهم، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة بالخبر وأمرتهم أن يثبطوا الناس عن علي وأن يقوموا بدم عثمان، وكتبت بمثل ذلك إلى اليمامة والمدينة.

ولنرجع إلى خبر علي: وقد كان لما بلغه خبر طلحة والزبير وعائشة ومسيرهم إلى البصرة دعا أهل المدينة للنصرة وخطبهم، فتأقلا أولاً وأجابه زياد بن حنظلة وأبو الهيثم وخزيمة بن ثابت وليس بذى الشهادتين وأبو قتادة في آخرين، وبعث أم سلمة معه ابن عمها وخرج يسابق طلحة والزبير إلى البصرة ليردهما.

واستخلف على المدينة تمام بن العباس وقيل: سهل بن حنيف، وعلى مكة قثم بن العباس، وسار في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وسار معه من نشط من الكوفيين والمصريين متخفين في تسعمائة، ولقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً. فبدر الناس إليه، فقال: دعوه فنعم الرجل من أصحاب محمد ﷺ. وسار فأنهى إلى الريذة، وجاء خبر سبقهم إلى البصرة فأقام يأمر بما يفعل ولحقه ابنه الحسن وعذله في خروجه وما كان من عصيانه إياه، فقال: ما الذي عصيتك فيه حين أمرتني؟ قال: أمرتك أن تخرج عند حصار عثمان من المدينة ولا تحضر لقتله، ثم عند قتله ألا تباع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة الأمصار، ثم عند خروج هؤلاء أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا.

القصر، وجاءه أبو موسى فصاح به الأشتر: اخرج لا أم لك وأجله تلك العشية. ودخل الناس لينهبوا متاعه فمنعهم الأشتر، ونفر الناس مع الحسن كما قلنا وكان الأمراء على أهل النضير: على كنانة وأسد وغيم والرياب ومزينة معقل بن يسار الرياحي، وعلى قبائل قيس ابن مسعود الثقفي عم المختار وعلى بكر وتغلب وعلة بن مجدوح الذهلي، وعلى مذحج والأشعرين حجر بن عدي، وعلى بجيلة وأعمار وخثعم والأزد مخنف بن سليم الأزدي.

ورؤساء الجماعة من الكوفيين القعقاع بن عمرو وسعد بن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب، ورؤساء النصار زيد بن صوحان والأشتر وعدي بن حاتم والمسيب بن نجبة ويزيد بن قيس وأمثالهم. فقدموا على عليّ بن أبي قار، فركب إليهم ورحب بهم وقال: يا أهل الكوفة دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فهو الذي نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بالظلم ولا ندع أمراً فيه الصلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله.

فاجتمع الناس عنده بندي قار وعبد القيس بأسرها وهم ألف يتظرونه ما بينه وبين البصرة، ثم دعا القعقاع وكان من الصحابة فأرسله إلى أهل البصرة وقال: إلق هذين الرجلين فادعهما للألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة فقال له: كيف تصنع إذا قالوا ما لا وصاة مني فيه عندك؟ قال: نلقاهم بالذي أمرت به فإذا جاء منهم ما ليس عندنا منك رأي فيه اجتهدنا رأينا وكلمناهم كما نسمع ونرى إنه ينبغي، قال: أنت لها.

فخرج القعقاع فقدم البصرة وبدأ بعائشة فقال: أي أمة ما أشخصك؟ قالت: أريد الإصلاح بين الناس، قال: فابعثي إلى طلحة والزبير سمعي مني ومنهما، فبعثت إليهما فجاء فقال لهما: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح وكذلك قال. قال فأخبراني ما هو؟ قال: قتلة عثمان! فإن تركهم ترك للقرآن، قال: فقد قتلت منهم ستمائة من أهل البصرة وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعته ستة آلاف فإن قاتلتهم هؤلاء كلهم اجتمعت مضر وربيعة على حربكم فأين الإصلاح؟ قالت عائشة: فماذا تقول أنت؟ قال هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا فأثروا العافية ترزقوها وكونوا مفتاح خير ولا تعرضونا للبلاء فتعرض له ويصرعنا وإياكم، فقالوا قد أصبت وأحسنست فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، فرجع وأخبر علياً فأعجبه وأشرف القوم على الصلح. وقد كانت وفود أهل البصرة أقبلوا إلى علي قبل رجوع القعقاع

ابن عباس والأشتر إلى علي فأرسل علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر وقال لعمار: انطلق فأصلح ما أفسدت. فانطلقا حتى دخلا المسجد، وخرج أبو موسى فلقى الحسن بن علي فضمه إليه وقال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا وأحلت نفسك مع الفجار؟ فقال: لم أفعل! فأقبل الحسن على أبي موسى فقال: لم تثبط الناس عنا وما أردنا إلا الإصلاح؟ ومثل أمير المؤمنين لا يخاف على شيء! قال: صدقت! بأبي أنت وأمي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب والمسلمون إخوان ودماؤهم وأموالهم حرام» فغضب عمار وسبه فسبه آخر وتناور الناس، ثم كفهم أبو موسى. وجاء زيد بن صوحان بكتاب عائشة إليه وكتابها إلى أهل الكوفة فقرأهما على الناس في سبيل الإنكار عليها فسبه شبت بن ربعي، وتهاوى الناس وأبو موسى يكفهم ويأمرهم بلزوم البيوت حتى تنجلي الفتنة، ويقول: أطيعوني وخلوا قريباً إذ أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم حتى ينجلي الأمر. وناداه زيد بن صوحان بإجابة علي والقيام بنصرته وتابعه القعقاع بن عمرو فقام بعده فقال: لا سبيل إلى الفوضى وهذا أمير المؤمنين مليء بما ولي وقد دعاكم فانفروا، وقال عبد خير مثل ذلك وزاد: يا أبا موسى هل تعلم أن طلحة والزبير بايعا؟ قال: نعم! قال: فهل أحدث علي ما ينقض البيعة؟ قال: لا أدري قال: لا درست ونحن نتركك حتى تدري. ثم قال سيحان بن صوحان مثلاً قال القعقاع، وحرص على طاعة علي وقال: فإنه دعاكم تنظرون ما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه في الدين فقال عمار: وهو دعاكم إلى ذلك لتنظروا في الحق وتقاتلوا معه لا عليه، وقال الحسن: أجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم وإن أمير المؤمنين يقول: إن كنت مظلوماً أطيعوني أو ظالماً فخذوا مني بالحق. والله إن طلحة والزبير أول من بايعني وأول من غدر. فأجاب الناس، وحرص عدي بن حاتم قومه وحجر بن عدي كذلك فنفر مع الحسن من الكوفة تسعة آلاف سارت منها ستة في البر وباقيهم في الماء.

وأرسل علي بعد مسير الحسن وعمار الأشتر إلى الكوفة فدخلها والناس في المسجد وأبو موسى والحسن وعمار في منازعة معه ومع الناس، فجعل الأشتر يمر بالقبائل ويدعوهم إلى القصر حتى انتهى إليه في جماعة الناس فدخله وأبو موسى بالمسجد يخطبهم ويبسطهم والحسن يقول له: اعتزل عملنا واترك منبرنا، فدخل الأشتر إلى القصر وأمر بإخراج غلمان أبي موسى من

عثمان بايعت علياً فلما جاؤوا إلى البصرة دعوني إلى قتال علي فحرت في أمري ما بين خذلاتهم أو خلع طاعتي، فقلت: ألم تأمرني بمبايعته؟ قالوا نعم لكنه بذل وغير فقلت: لا أنقض بيعتي ولا أقاتل أم المؤمنين، ولكن اعتزل، ونزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة في زهاء ستة آلاف.

فلما قدم علي جاءه وخيره بين القتال معه أو كف عشرة آلاف سيف عنه، فاختار الكف ونادى في غمى وبني سعد فأجابوه فاعتزل بهم حتى ظفر علي فرجع إليه واتبعه. ولما تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير وجاءهم علي حتى اختلفت أعناق دوابهم. فقال علي: لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كتتما أعددتما عند الله عذراً ألم أكن أخاكم في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحلّ لكما دمي؟ قال طلحة: ألّبت على عثمان! قال علي: يومئذ يوفيه الله دينهم الحق فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة أما بايعتي؟ قال: والسيف على عني. ثم قال للزبير: أتذكر يوم قال لك رسول الله ﷺ: «لثقاتله وأنت له ظالم؟» قال اللهم نعم ولو ذكرته قبل مسيري ما سرت. والله لا أقاتلك أبداً وافترقوا.

فقال علي لأصحابه: أن الزبير قد عهد أن لا يقاتلكم. ورجع الزبير إلى عائشة وقال: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف أمري غير موطني هذا قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: أدهمهم وأذهب. فقال له ابنه عبد الله: خشيت ريات ابن أبي طالب وعلمت أن حاملها فتية أنجاد وإن تحمها الموت الأحمر فجنبت فأحفظه ذلك. وقال: حلفت. قال: كفر عن يمينك فاعتق غلامه مكحولاً. وقيل: إنما أراد الرجوع عن القتال حين سمع أن عمار بن ياسر مع علي لما ورد: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية».

وكان أهل البصرة على ثلاث فرق مفترقين مع هؤلاء وهؤلاء وثالثة اعتزلت كالأحنف بن قيس وعمران بن حصين، ونزلت عائشة في الأزد ورأسهم صبرة بن شيمان، وأشار عليه كعب بن سور بالاعتزال فأبى وكان معها قبائل كثيرة من مضر والرباب وعليهم المنجاب بن راشد، وبنو عمرو بن تميم وعليهم أبو الجرباء، وبنو حنظلة وعليهم هلال بن وكيع وسليم وعليهم جاشع بن مسعود، وبنو عامر وغطفان وعليهم زفر بن الحرث، والأزد وعليهم صبرة بن شيمان، ويكر وعليهم مالك بن مسمع، وبنو ناجية وعليهم الخريز بن راشد، وهم في نحو ثلاثين ألفاً. وعلي في عشرين ألفاً. والناس جميعاً متنازلون: مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة، ولا يشكون في الصلح وقد ردوا حكيماً ومالكاً إلى علي إنا على ما فارقنا عليه القعقاع، وجاء ابن عباس إلى

وتفاوضوا مع أهل الكوفة واتفقوا جميعاً على الإصلاح، ثم خطب علي الناس وأمرهم بالرحيل من الغد وأن لا يرجع معه أحد ممن أعان على عثمان.

فاجتمع من أهل مصر ابن السوداء وخالد بن ملجم والأشتر والذين رضوا بمن سار إليه مثل علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسي وشريح بن أوفى، وتشاوروا فيما قال علي وقالوا: هو أبصر بكتاب الله وأقرب إلى العمل به من أولئك وهو يقول ما يقول، وإنما معه الذين أعانوا على عثمان فكيف إذا اصطلحوا واجتمعوا وراوا قتلنا في كثرتهم. فقال الأشتر رأيهم والله فينا واحد وإن يصطلحوا فعلى دماننا فهلهموا نشب على طلحة نلحقه بعثمان ثم يرضى منا بالسكوت، فقال ابن السوداء: طلحة وأصحابه نحو من خمسة آلاف وأنتم ألفان وخمسمائة فلا تجدون إلى ذلك سبيلاً.

وقال علباء بن الهيثم: اعتزلوا الفريقين حتى يأتيتكم من تقومون به. فقال ابن السوداء: ودّ والله الناس لو انفردتم فيخطفونكم، فقال عدي: والله ما رضيت ولا كرهت فاما إذا وقع ما وقع ونزل الناس بهذه المنزلة فإن لنا خيلاً وسلاحاً. فإن أقدمتم أقدمنا وإن أحجمتم أحجمنا، ثم قال سالم بن ثعلبة وسويد بن أوفى: أبرموا أمركم. ثم تكلم ابن السوداء فقال: يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعهم وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال فلا يجدون بداً منه ويشغلهم الله عما تكرهون.

وافترقوا على ذلك. وأصبح علي راحلاً حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه وساروا معه فنزل الزاوية، وسار من الزاوية إلى البصرة. وسار طلحة والزبير وعائشة من الفضة والتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد متصف جهادى الآخرة، وتراسلت بكر بن وائل وعبد القيس وجاؤوا إلى علي رضي الله تعالى عنه فكانوا معه، وأشار على الزبير بعض أصحابه أن يناجز القتال، فاعتذر بما وقع بينه وبين القعقاع.

وطلب من علي رضي الله عنه أصحابه مثل ذلك فأبى وسئل ما حالنا وحالهم في القتلى فقال: أرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه الله إلا أدخله الله الجنة، ونهى عن قتالهم وبعث إليهم حكيم بن سلام ومالك بن حبيب إن كتتم على ما جاء به القعقاع فكفروا حتى نزل ونظر في الأمر، وجاءه الأحنف بن قيس وكان معتزلاً عن القوم وقد كان بايع علياً بالمدينة بعد قتل عثمان مرجعه من الحج، قال الأحنف: ولم أبايعه حتى لقيت طلحة والزبير وعائشة بالمدينة وعثمان محصور وعلمت أنه مقتول فقلت لهم: من أبايع بعده؟ قالوا: علياً! فلما رجعت وقد قتل

أخوهما صعصعة.

وتزاحف الناس وتأخرت من الكوفة وريبتها ثم عادوا قتل على رأيهم عشرة. ثم أخذها يزيد بن قيس فثبت، وقتل تحت راية ابن ربيعة زيد وعبد الله بن رقية وأبو عبيدة بن راشد بن سلمة، واشتد الأمر ولزقت ميمنة الكوفة بقلبيهم وميسرة أهل البصرة بقلبيهم، ومنعت ميمنة هؤلاء ميسرة هؤلاء ميمنة هؤلاء، وتنادى شجعان مضر من الجانبين بالصبر وقصدوا الأطراف يقطعونها، وأصابت يد عبد الرحمن بن عتاب قبل قتله، وقاتل عند الجمل الأزدي ثم بنو ضبة وبنو عدي بن عبد مناف، وكثر القتل والقطع وصارت المجنبتات إلى القلب ومحمد بن طلحة أمامهم وحمل عدي بن زيد ففقت عينه وحمل الأشتر واستمر القتل إلى الجمل حتى قتل على الخطام أربعون رجلاً أو سبعون كلهم من قريش.

فجرح عبد الله بن الزبير وقتل عبد الرحمن بن عتاب وجندب بن زهير العامري وعبد الله بن حكيم بن حزام ومعه راية قريش فقتله الأشتر وأعانه فيه عدي بن حاتم، وقتل الأسود بن أبي البخترى وهو أخذ بالخطام وبعده عمر بن الأشرف الأزدي في ثلاثة عشر من أهل بيته وجرح مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير سبعاً وثلاثين جراحة ما بين طعنة ورمية، ونادى علي اعقروا الجمل يتفرقوا، وضربه رجل فسقط فما كان صوت أشد عجيجاً منه. وكانت راية الأزدي من أهل الكوفة مع غنم بن سليم فقتل فأخذها الصقعب أخوه فقتل ثم أخوهما عبد الله كذلك، فأخذها العلاء بن عروة فكان الفتح وهي بيده.

وكانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع القاسم بن سليم فقتل ومعه زيد وسيحان ابنا صوحان وأخذها عدة فقتلوا منهم عبد الله بن رقية ثم منقذ بن النعمان، ودفعها إلى ابنه مرة فكان الفتح وهي بيده. وكانت راية بكر بن وائل في بني ذهل مع الحرث بن حسان فقتل من بني أهله ورجال من بني مخزوم وخمسة وثلاثين من بني ذهل.

وقيل في عقر الجمل إن القعقاع دعا الأشتر وقد جاء من القتال عند الجمل إلى العود فلم يجبه، وحمل القعقاع والخطام بيد زفر بن الحرث فأصيب شيوخ من بني عامر، وقال القعقاع لبجير بن دلجة من بني ضبة وهو من أصحاب علي: يا بجيرا صح بقومك يعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين، فضرب ساق البعير فوقع على شقه، وأمر القعقاع من يليه واجتمع هو وزفر على قطع بطن البعير وحملوا الهودج فوضعه وهو كالقنفذ بالسهام، ومر من وراءه، وأمر علي فنودي: لا تتبعوا مدبراً ولا

طلحة والزبير، ومحمد بن طلحة إلى علي وتقارب أمر الصلح وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة يتشاورون، واتفقوا على إنشأ الحرب بين الناس فغسلوا وما يشعر بهم أحد، وقصد مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة وعمن إلى عمن فوضعوا فيهم السلاح، وثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم. وبعث طلحة والزبير عبد الرحمن بن الحرث بن هشام إلى الميمنة وهم ربيعة، وعبد الرحمن بن عتاب إلى الميسرة، وركب في القلب، وتساءل الناس ما هذا؟ فقالوا: طرقتنا أهل الكوفة ليلاً فقال طلحة والزبير: إن علينا لا يتهي حتى يسفك الدماء.

ثم دفعوا أولئك المقاتلين فسمع علي وأهل عسكره الصبيحة، فقال: ما هذا؟ فقبل له أظنه سقط من هنا طرقتنا أو نحوه السبية يتنونا ليلاً فرددناهم. فوجدنا القوم على أهبة فركبنا، وثار الناس وركب علي. وبعث إلى الميمنة والميسرة صاحبها، وقال: إن طلحة والزبير لا يتهيان حتى تسفك الدماء ونادى في الناس كفوا، وكان رأيهم جميعاً في تلك الفتنة أن لا يقتلوا حتى يقيموا الحجة ولا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يستحلوا سلباً.

وأقبل كعب بن سور إلى عائشة وقال: قد أبى القوم إلا القتال ففعل الله يصلح بك فأركبها وألبسوا هودجها الأذراع وأوقفوها بحيث تسمع الغوغاء، واقتل الناس حتى انهزم أصحاب الجمل وذهب، وأصيب طلحة بسهم في رجله فدخل البصرة ودمه يسيل إلى أن مات.

وذهب الزبير إلى وادي السباع لما ذكره علي، فمر بعسكر الأحنف واتبعه عمرو بن جرموز وكان يسائله حتى قام إلى الصلاة قتله ورجع بفرسه وسلاحه وخافه إلى الأحنف فقال: والله ما تدري أحسنت أم أسأت! فجاء ابن جرموز إلى علي وقال للحاجب: استأذن لقاتل الزبير فقال لحاجبه ائذن له وبشره بالنار. ولما بلغت الهزيمة البصرة ورأوا الخيل أطافت بالجمل رجعوا وشبت الحرب كما كانت.

وقالت عائشة لكعب بن سور وناولته مصحفاً: تقدم فادعهم إليه واستقبل القوم فقتله السبية رشقاً بالسهم، ورموا عائشة في هودجها حتى جارت بالاستغاثة ثم بالدعاء على قتلة عثمان، وضج الناس بالدعاء فقال علي: ما هذا؟ قالوا عائشة تدعو على قتلة عثمان! فقال: اللهم لعن قتلة عثمان.

ثم أرسلت عائشة إلى الميمنة والميسرة وحرّضتهم! وتقدم مضر الكوفة ومضر البصرة فاجتلدوا أمام الجمل حتى ضرسوا، وقتل زيد بن صوحان من أهل الكوفة وأخوه سيحان وارث

ثم بلغه أن بعض الغوغاء عرض لعائشة بالقول والإساءة، فأمر من أحضر له بعضهم وأوجعهم ضرباً، ثم جهزها علي إلى المدينة بما احتاجت إليه ويعتبا مع أخيها محمد مع أربعين من نسوة البصرة اختارهن لمرافقتها، وأذن للفل من خرج عنها أن يرجعوا معها، ثم جاء يوم ارتحالها فودعها واستعيتت له واستعيتت لها، ومشى معها أميالاً وشيعها بنوه مسافة يوم، وذلك غرة رجب، فذهبت إلى مكة فقضت الحج ورجعت إلى المدينة. وخرج بنو أمية من الفل ناجين إلى الشام.

فغتبه بن أبي سفيان وعبد الرحمن ويحيى أخو مروان خلصوا إلى عصمة بن أبي التيمس إلى أن اندملت جراحهم، ثم بعثهم إلى الشام. وأما عبد الله بن عامر فخلص إلى بني حرقوص ومضى من هنالك، وأما مروان بن الحكم فجاره أيضاً مالك بن مسمع وبعثه وقيل: كان مع عائشة فلما ذهبت إلى مكة فارقها إلى المدينة، وأما الزبير فاختفى بدار بعض الأزد وبعث إلى عائشة يعلمها بمكانه فأرسلت أخاها محمداً وجاءه إليها به.

ثم قسم عليّ جميع ما في بيت المال على من شهد معه، وكان يزيد على ستمائة ألف فأصاب كل رجل خمسمائة، وقال: إن أظفركم الله بالشام فلكم مثلها إلى أعطيناكم. فخاض السبئية في الطعن عليه بذلك وبحريم أموالهم مع إراقة دمايهم، ورحلوا عنه فاعجلوه عن المقام بالبصرة، وارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إن أرادوه.

وقد قيل في سياق أمر الجمل غير هذا، وهو أن علياً لما أرسل محمد بن أبي بكر إلى أبي موسى ليستنفر له أهل الكوفة وامتنع، سار هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى علي بالريذة فأخبره فاعاده إليه يقول له: إني لم أولئك إلا لتكون من أعواني على الحق، فامتنع أبو موسى وكتب إليه هاشم مع المحل بن خليفة الطائي، فبعث علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر يستنفران كما مر.

وبعث قرظة بن كعب الأنصاري أميراً وبعث إليه: إني قد بعثت الحسن وعماراً يستنفران الناس وبعثت قرظة بن كعب والياً على الكوفة فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً وإن لم تفعل فقد أمرته أن يتأذلك وإن ظفر بك أن يقطعك إرباً إرباً وإن الناس تواقفوا للقتال، وأمر علي من يتقدم بالمصحف يدعوهم إلى ما فيه وإن قطع وقتل وحمله بعض الناس وفعل ذلك فقتل. وحملت ميمنة علي على ميسرتها فاقتلوا ولاذ الناس بمجمل عائشة أكثرهم من ضبة الأزد ثم انتهزوا آخر النهار، واستحرق في الأزد القتل وحمل عمار على الزبير يحوزه بالرمح ثم استلان له وتركه.

تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور، وأمر مجمل الهودج من بين القتلى، وأمر محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة وأن ينظر هل بها جراحة وجاء يسألها.

وقيل: لما سقط الجمل أقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه عمار فاحتملا الهودج إلى ناحية ليس قربه أحد وأثابها علي فقال: كيف أنت يا أمة! قالت: بخير! قال: يغفر الله لك! قالت ولك. وجاء وجوه الناس إليها فيهم الققعاع بن عمرو فسلم عليها، وقالت له: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وجاء إلى علي فقال له مثل قولها ولما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبي بكر الصديق البصرة، فأقراها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية زوجته بنت الحرث بن أبي طلحة من بني عبد الدار أم طلحة الطلحات بن عبد الله، وتسلسل الجرحى من بين القتلى فدخلوا ليلاً إلى البصرة وأذن علي في دفن القتلى فدفنوا بعد أن طاف عليهم.

ورأى كعب بن سور وعبد الرحمن بن عتاب وطلحة بن عبيد الله وهو يقول: زعموا أنه يخرج إلينا إلا الغوغاء وأمثال هؤلاء فيهم. ثم صلى على القتلى من الجانبين وأمر بالأطراف فدفنت في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من كل شيء وبعث به إلى مسجد البصرة وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً عليه سمة السلطان. وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف منهم من ضبة ألف رجل. ولما فرغ علي من الوقعة جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد فقال له: تبرصت! فقال: ما أراني إلا قد أسحنت وبأمرك كان، فافرق فإن طريقك بعيد وأنت إلي غداً أحوج منك أمس فلا تقل لي مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحاً. ثم دخل البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة.

وأثناء عبد الرحمن بن أبي بكره فبايعه وعرض له في عمه زياد بأنه متبرص، فقال: والله إنه لمريض وعلى مسرتك لحريص. فقال: انهض أمامي فمضى فلما دخل عليه علي فتيهه فقبل عنقه واعتذر بالمرض قبل عنقه، وأراد على البصرة فامتنع وقال: ولها رجلاً من أهلك تسكن إليه الناس وسأشير عليه، وأشار بابن عباس فولاه، وجعل زياداً على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس بموافقة فيما يراه. ثم راح علي إلى عائشة في دار ابن خلف وكان عبد الله بن خلف قتل في الوقعة فاستأنت أمه وبعض النسوة عليه، فأعرض عنهن وحرصه بعض أصحابه عليهن فقال: إن النساء ضعيفات وكنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات فكيف بهن مسلمات؟

سرح إلى عثمان فاستولى هو على مصر وضبطها إلى أن قتل عثمان ويبيع علي ويبيع عمرو بن العاص لمعاوية، وسار إلى مصر قبل قدوم قيس بن سعد فمئتمهما فخدع محمد حتى خرج إلى العريش فتحصن بها في ألف رجل، فحاصره حتى نزل على حكمهم فقتلوه. وفي هذا الخبر بعض الوهن لأن الصحيح أن عمرأ ملك مصر بعد صفين، وقيس ولآه علي لأول بيعته، وقد قيل: إن ابن أبي حذيفة لما حوَصر عثمان بالمدينة أخرج هو ابن أبي سرح عن مصر وضبطها، وأقام ابن أبي سرح بفلسطين حتى جاء الخبر بقتل عثمان وبيعة علي وتوليته قيس بن سعد على مصر.

فأقام بمعاوية. وقيل أن عمرأ سار إلى مصر بعد صفين فبرز إليه ابن أبي حذيفة في العساكر وخادعه في الرجوع إلى بيعة علي، وأن يئتمعا لذلك بالعريش في غير جيش من الجنود، ورجع إلى معاوية عمرو فاخبره، ثم جاء إلى معاوية بالعريش وقد استعد بالجنود وأكمنهم خلفه حتى إذا التقيا طلعا على أثره فنبه ابن أبي حذيفة القدر فتحصن بقصر العريش إلى أن نزل على حكم عمرو. وبعث به إلى معاوية فحبسه إلى أن فر من حبسه فقتل، وقيل: إنما بعثه عمرو إلى معاوية عند مقتل محمد بن أبي بكر وإنه أمته ثم حمله إلى معاوية فحبسه بفلسطين.

ولاية قيس بن سعد على مصر

كان علي قد بعث إلى مصر لأول بيعته قيس بن سعد أميراً في صفر من سنة ست وثلاثين وأذن له في الإكثار من الجنود وأوصاه وقال له: لو كنت لا أدخلها إلا بمجد آتي بهم من المدينة فلا أدخلها أبداً فانا أدعو لك الجند تبعهم في وجوهك، وخرج في سبعة من أصحابه حتى أتى مصر وقرأ عليهم كتاب علي بمبايعته وطاعته وإنه أميرهم، ثم خطب فقال بعد حمد الله: أيها الناس قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فبايعوه على كتاب الله وستة رسوله. فبايعه الناس واستقامت مصر، وبعث عليها عماله إلا بعض القرى كان فيها قوم يدعون إلى الطلب بدم عثمان: مثل يزيد بن الحرث ومسلمة بن مخلد، فهادنهم وجبى الخراج وانقضى أمر الجمل وهو بمصر.

وخشي معاوية أن يسير إليه علي في أهل العراق وقيس من ورائه في أهل مصر فكتب إليه يعظم قتل عثمان ويطوقه علياً ويحضه على البراءة من ذلك ومتابعته على أمره على أن يوليه العراقيين إذا ظفر ولا يعزله، يولي من أراد من أهله الحجاز كذلك، ويعطيه ما شاء من الأموال. فنظر في أهله بين موافقته أو معاجلتة

والتقى عبد الله بن الزبير نفسه في الجرحى. وعقر الجمل واحتمل عائشة أخوها محمد فأنزلها وضرب عليها قبة ووقف عليها علي يعاتبها، فقالت له: ملكت فاسجح نعم ما أبكيت قومك اليوم، فسرحها في جماعة رجال ونساء إلى المدينة وجهازها بما تحتاج إليه.

هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين. وقتل يوم الجمل عبد الرحمن أخو طلحة من الصحابة والحزب بن حارثة العشمي وكان عمر ولاءه على مكة، ومجاشع ومجالد ابنا مسعود مع عائشة. وعبد الله بن حكيم بن حزام وهند بن أبي هالة وهو ابن خديجة قتل مع علي وقيل بالبصرة وغيرهم. انتهى أمر الجمل.

ولما فرغ الناس من هذه الواقعة اجتمع صعاليك من العرب وعليهم جيلة بن عتاب الخنظلي وعمران بن الفضل البرجمي، وقصدوا سجستان وقد نكت أهلها، وبعث علي إليهم عبد الرحمن بن جرو الطائي فقتلوه، فكتب إلى عبد الله بن عباس أن يبعث إلى سجستان والياً، فبعث ربعي بن كاس العنبري في أربعة آلاف ومعه الحصين بن أبي الحر فقتل جيلة وانهزموا وضبط ربعي البلاد واستقامت.

انتفاض محمد بن أبي حذيفة بمصر ومقتله

لما قتل حذيفة بن عتبة يوم البمامة ترك ابنه محمدأ في كفالة عثمان وأحسن تربيته وسكر في بعض الأيام فجلبه عثمان ثم تنسك وأقبل على العبادة وطلب الولاية من عثمان، فقال: لست لها بأهل فاستأذنه على اللحاق بمصر لغزو البحر فأذن له وجهازه ولزمه الناس وعظموه لما رأوا من عبادته، ثم غزا مع ابن أبي سرح غزوة الصواري كما مر، فكان يتعرض له بالقدح فيه وفي عثمان وتوليته ويجتمع في ذلك مع محمد بن أبي بكر، وشكاهما ابن أبي سرح إلى عثمان فكتب إليه بالتجاني عنهما لوسيلة ذاك بعائشة وهذا لربيته.

وبعث إلى ابن أبي حذيفة ثلاثين ألف درهم وحمل من الكسوة فوضعهما ابن أبي حذيفة في المسجد، وقال: يا معشر المسلمين كيف أخادع عن ديني وأخذ الرشوة عليه، فازاداد أهل مصر تعظيماً له وطعناً على عثمان ويابعوه على رياستهم، وكتب إليه عثمان يذكره بحقوقه عليه فلم يرد ذلك. وما زال يحرض الناس عليه حتى خرجوا لحصاره وأقام هو بمصر، وخرج ابن أبي

أن بلغه الخبر بقتله، فارتحل يكي ويقول كما تقول النساء، حتى أتى دمشق فبلغه بيعة علي، فاشتد عليه الأمر وأقام ينتظر ما يصنعه الناس، ثم بلغه مسير عائشة وطلحة والزبير فأمل فرجاً من أمره، ثم جاءه الخبر بوقعة الجمل فارتاب في أمره، وسمع أن معاوية بالشام لا يبايع علياً وأنه يعظم قتل عثمان، فاستشار بنيته في المسير إليه، فقال له ابنه عبد الله: توفي النبي ﷺ والشيخان بعده وهم راضون عنك فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس. وقال له محمد: أنت ناب من أنياب العرب وكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صيت؟ فقال: يا عبد الله! أمرتني بما هو خير لي في ديني، ويا محمدا! أمرتني بما هو خير لي في دنياي وشر لي في آخرتي. ثم خرج ومعه ابنه حتى قدم على معاوية فوجدوه يطلبون دم عثمان، فقال: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم. فأعرض معاوية قليلاً، ثم رجع إليه وشركه في سلطانه.

أمر صفين

لما رجع علي بعد وقعة الجمل إلى الكوفة مجمعاً على قصد الشام، بعث إلى جرير بن عبد الله البجلي بهمدان وإلى الأشعث بن قيس بأذريجان - وهما من عمال عثمان - لأن يأخذا له البيعة ويحضرا عنده، فلما حضرا بعث جرير إلى معاوية يعلمه ببيعته ونكت طلحة والزبير وحزبهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلما قدم عليه طاوله في الجواب وحمل أهل الشام ليرى جرير قيامهم في دم عثمان واتهامهم علياً به، وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان ملوثاً بالدم كما قدمناه وبأصابع زوجته نائلة، وضع معاوية القميص على المنبر والأصابع من فوقه، فمكث الناس ليكون مدة وأقسموا أن لا يمسه ماء الجنابة ولا يناموا على فراش حتى يثأروا من عثمان ومن حال دون ذلك قتلوه. فخرج جرير بذلك إلى علي وعذله الأشتر فبعث جرير وإنه طال مقامه حتى تمكن أهل الشام من رأيهم فغضب لذلك جرير ولحق بقرقيسيا واستقدمه معاوية فقدم عليه.

وقيل إن شرحبيل بن الصمت الكندي أشار على معاوية برد جرير لمنافسة كانت بينهما منذ أيام عمر، وذلك أن شرحبيل كان عمر بن الخطاب بعثه إلى سعد بالعراق ليكون معه فقربه سعد وقدمه ونافسه له أشعث بن قيس، فأوصى جريراً عند وفادته على عمر أن ينال من شرحبيل عنده، ففعل فبعث عمر شرحبيل إلى الشام فكان يحقد ذلك على جرير، فلما جاء إلى معاوية أغراه

بالحرب فأثر الموافقة، فكتب إليه: أما بعد فإني لم أعارف شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شيء منه. وأما متابعتك فأنظر فيها وليس هذا مما يسرع إليه، وأنا كافٍ عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه حتى نرى وتري.

فكتب إليه معاوية: إني لم أرك تدنو فأعذك مسلماً ولا تتباعد فأعذك حرباً، وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعني عدد الرجال وأنة الخيل والسلام.

فعلم قيس أن المدافعة لا تنفع معه فأظهر له ما في نفسه، وكتب إليه بالرد القبيح والشتم والتصريح بفضل علي والوعيد، فحيتذ أيس معاوية منه وكاده من قبل علي، فاشاع في الناس أن قيساً شيعاً له ثأيناً كبته ورسله ونصاحته وقد ترون ما فعل بإخوانكم القائمين بثار عثمان وهو يجري عليهم من الأعطية والأرزاق، فأبلغ ذلك إلى علي محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وعيونهم بالشام فأعظم ذلك، وفأوض فيه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، فقال له عبد الله: دع ما يريك إلى ما لا يريك واعزله عن مصر. ثم جاء كتابه بالكف عن قتال المعتزلين فقال ابن جعفر: مره بقتالهم خشية أن تكون هذه مالأة. فكتب إليه بأمره بذلك فلم ير قيس ذلك رأياً وقال: متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون والرأي تركهم. فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين! ابعث محمد بن أبي بكر على مصر، وكان أخاه لأمه، واعزل قيساً فبعتهم. وقيل بعث قبله الأشتر النخعي، ومات بالطريق، فبعث محمداً ولما قدم محمد على قيس خرج عنها مغضباً إلى المدينة وكان عليها مروان بن الحكم فأخافه، فخرج هو وسهل بن حنيف إلى علي. وكتب معاوية إلى مروان يعاتبه لو امددت علياً بمئة ألف مقاتل كان أيسر علي من قيس بن سعد.

ولما قدم قيس علي علي وكشف له عن وجه الخبر قبل عذره وأطاعه في أمره كله، وقدم محمد مصر فقرأ كتاب علي على الناس وخطبهم، ثم بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادعهم: ادخلوا في طاعتنا أو اخرجوا عن بلادنا! فقالوا: دعنا حتى ننظر! وأخذوا حذرهم، ولما انقضت صفين وصار الأمر إلى التحكيم بارزوه وبعث العساكر إلى يزيد بن الحرث الكناني بجربنا وعليهم الحرث بن جهمان فقتلوه ثم بعث آخر فقتلوه.

مبايعة عمرو بن العاص لمعاوية

لما أحبط بعثمان خرج عمرو بن العاص إلى فلسطين ومعه ابنه عبد الله ومحمد، فسكن بها هارباً عما توقعه من قتل عثمان إلى

بشبت بن ربعي ثم بالأشتر وعليهم أصحاب علي وملكوا الماء عليهم، وأرادوا منعهم منه فنهاهم علي عن ذلك. وأقام يومين.

ثم بعث إلى معاوية أبا عمرو بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبت بن ربعي التميمي، يدعونه إلى الطاعة وذلك أول ذي الحجة سنة ست وثلاثين، فدخلوا عليه وتكلم بشير بن عمرو بعد حمد الله والثناء عليه والموعظة الحسنة وناشده الله أن لا يفرق الجماعة ولا يسفك الدماء، فقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك. فقال بشير: ليس مثلك هو أحق بالأمر بالسابقة والقرابة. قال: فما رأيك؟ قال: تحببه إلى ما دعا إليه من الحق، قال معاوية: وترك دم عثمان لا والله لا أفعله أبداً! ثم قال شبت بن ربعي: يا معاوية! إنما طلبت دم عثمان تستميل به هؤلاء السفهاء الطغام إلى طاعتك، ولقد علمنا أنك أبطأت على عثمان بالنصر لطلب هذه المنزلة فاتق الله ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. فأجابه معاوية وأبدع في سبه وقال: انصرفوا فليس بيني وبينكم إلا السيف. فقال له شبت: أقسم بالله لنجعلننا لك.

ورجعوا إلى علي بالخبر. وأقاموا يقتتلون أيام ذي الحجة كلها عسكر من هؤلاء وعسكر من هؤلاء، وكرهوا أن يلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام حذراً من الاستئصال والمهلاك. ثم جاء المحرم فذهبوا إلى المودعة حتى ينقضي طمعاً في الصلح، وبعث إلى معاوية عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبت بن ربعي ويزيد بن حفصة، فتكلم عدي بعد الحمد والثناء ودعا إلى الدخول في طاعة علي ليجمع الله به الكلمة فلم يبق غيرك ومن معك واحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال معاوية: كأنك جئت مهدداً لا مصلحاً هيئات يا عدي! أنا ابن حرب! والله ما يقعق في بالشستان وإنك من قتلة عثمان وأرجو أن يقتلك الله به. فقال له يزيد بن قيس: إنما أتيناك رسلاً ولا ندع مع ذلك النصيح والسعي في الإلفة والجماعة وذكر من فضل علي واستحقاقه للأمر بتقواه وزهده.

فقال معاوية: بعد الحمد والثناء: أما الجماعة التي تدعون إليها فهي معنا وأما طاعة صاحبكم فلا نراها لأنه قتل خليفتنا وأوى أهل ثارنا ونحن مع ذلك نجيبكم إلى الطاعة والجماعة إذا دفع إلينا قتلة عثمان. فقال شبت بن ربعي: أيسرك يا معاوية أن تقتل عماراً؟ قال: نعم بمولاه! قال شبت حتى تضيق والله الأرض القضاء عليك. فقال معاوية: لو كان ذلك لكانت عليك أضيق. وافترقوا عن معاوية ثم خلا يزيد بن حفصة وشكا إليه من علي وسأله النصر فيه بعشيرته وأن يوليه أحد المصريين. فأبى

شريحيل به وحمله على الطلب بدم عثمان. ثم خرج علي وعسكر بالنخيلة واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري وقدم عليه عبد الله بن عباس في أهل البصرة، وتجهز معاوية وأغراه عمرو بقتل عسكر علي واضطغان أهل البصرة، له بمن قتل منهم.

وعبى معاوية أهل الشام وعقد لعمرو ولابنيه وغلामه وردان الأولوية. وبعث علي في مقدمته زياد بن النضر الحارثي في ثمانية آلاف وشريح بن هانئ في أربعة آلاف، وسار من النخيلة إلى المدائن واستنفر من كان بها من المقاتلة وبعث منها معقل بن قيس في ثلاثة آلاف يسير من الموصل ويوافيه بالركة وولى علي على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد، وسار فلما وصل إلى الرقة نصب له جسر فعبّر وجاء زياد وشريح من ورائه، وكانا سمعا بمسير معاوية وخشياً أن يلقاهما معاوية وبينهما وبين علي البحر ورجعا إلى هيت وعبرا الفرات، ولحقا بعلي فقدمهما أمامه.

فلما أتيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جند من أهل الشام فظاولاه وبعثا إلى علي فسرَحَ الأشتر وأمره أن يجعلهما على مجنبيه، وقال: لا تقاتلهم حتى أتيت! وكتب إلى شريح وزياد بطاعته فقدم عليهما وكف عن القتال سائر يومه حتى حمل عليهما أبو الأعور بالعشي فاقتلوا ساعة وافترقوا ثم خرج من الغداة وخرج إليه من أصحاب الأشتر بن عتبة المرقال واقتتلوا عامة يومهم. وبعث الأشتر سنان بن مالك النخعي إلى أبي الأعور السلمي يدعوه إلى البراز فأبى وحجز بينهم الليل، ووافاهم من الغد علي وعساكره.

فتقدم الأشتر وانتهى إلى معاوية ولحق به علي. وكان معاوية قد ملك شريعة الفرات فشكا الناس إلى علي العطش فبعث صعصعة بن صوحان إلى معاوية بأنا سرنا ونحن عازمون على الكف عنكم حتى نغذر إليكم فسابقتنا جندكم بالقتال ونحن رأينا الكف حتى ندعوكم ونحتج عليك وقد منعمت الماء والناس غير متهمين فابعث إلى أصحابك يخلون عن الماء للورد حتى ننظر بيننا وبينكم وإذا أردت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا. فأشار عمرو بن العاص بتخليّة الماء لهم، وأشار ابن أبي سرح والوليد بن عقبة بمنعهم الماء، وعرضاً بشتّم فتشّام معهم صعصعة ورجع، وأوعز إلى أبي الأعور بمنعهم الماء وجاء الأشعث بن قيس إلى الماء فقاتلهم عليه.

ثم أمر معاوية أبا الأعور يزيد بن أبي أسد القسري جد خالد بن عبد الله ثم بعمرو بن العاص بعده، وأمر علي الأشعث

وعلى رجالها مسلم بن عقبة المري. وعلى الناس كلهم الضحاک بن قيس. وتبايع رجال من أهل الشام على الموت فمقلوا أنفسهم بالعمائم في خمسة صفوف وخرجوا في اليوم الأول من صفر خرج الأشتر من أهل الكوفة وحبيب من أهل الشام فاقتتلوا عامة يومهم، وفي اليوم الثاني هاشم بن عتبة وأبو الأعور السلمي، وفي اليوم الثالث عمار بن ياسر وعمرو بن العاص فاقتتلوا أشد قتال وحمل عمار فأزال عمراً عن موضعه.

وفي اليوم الرابع محمد بن الحنفية وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وتدعيا إلى البراز فرد علي ابنه وترجعوا، وفي اليوم الخامس عبد الله بن عباس والوليد بن عقبة فاقتلوا كذلك، ثم عاد في اليوم السادس الأشتر وحبيب فاقتلوا قتلاً شديداً وانصرفا.

وخطب علي الناس عشية يومهم وأمرهم بمناهضة القوم بأجمعهم وأن يطيلوا ليلتهم القيام، ويكثروا التلاوة ويدعوا لله بالنصر والصبر، ويرموا غداً في لقائهم بالجد والحزم.

فبات الناس يصلحون ليلتهم سلاحهم، وعبى علي الناس ليلته إلى الصباح، وزحف وسأل عن القبائل من أهل الشام وعرف مواقعهم وأمر كل قبيلة أن تكفيه اختها من أهل الشام، ومن ليس منهم أحد بالشام يصرفهم إلى من ليس منهم أحد بالعراق مثل بجيلة صرفهم إلى حم. وخرج معاوية في أهل الشام فاقتتلوا يوم الأربعاء قتالاً شديداً عامة يومهم ثم انصرفوا، وغلس علي يوم الخميس بالزحف وعلى ميمته عبد الله بن بديل بن ورقاء وعلى ميسرته عبد الله بن عباس والقراء مع عمار وقيس بن سعد وعبد الله بن زيد والناس على راياتهم ومراكزهم، وعلي في القلب بين أهل الكوفة والبصرة ومعه أهل المدينة من الأنصار وخزاعة وكنانة.

ورفع معاوية قبة عظيمة وألقى عليها الثياب وباعه أكثر أهل الشام على الموت، وأحاط بقبته خيل دمشق وزحف ابن بديل في الميمنة فقاتلهم إلى الظهر وهو يحرض أصحابه. ثم كشف خيلهم واضطروهم إلى قبة معاوية، وجاء الذين تبايعوا على الموت إلى معاوية فبعثهم إلى حبيب فحمل بهم على ميمنة أهل العراق فالتحق الناس عن أهل بديل إلا ثلاثمائة أو مائتين من القراء وانتهت الهزيمة إلى علي، وأمدته علي بسهل بن حنيف في أهل المدينة فاستقبلهم جموع عظيمة لأهل الشام فمئنتهم.

ثم انكشفت مضر من الميسرة وثبتت ربيعة وجاء علي بمشي نحوهم فاعترضه أحرر مولى أبي سفيان فحال دونه كيسان مولاه فقتله أحرر، فتناول علي أحرر من درعه فجذبه وضرب به الأرض

وقال: إني على بينة من ربي فلن أكون ظهيراً للمجرمين. وقام عنه فقال معاوية لعمر: كان قلوبهم قلب رجل واحد.

ثم بعث معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة وشرحيل بن السمط ومع بن يزيد بن الأخنس فدخلوا عليه، فتكلم حبيب بعد الحمد لله والثناء فقال: إن عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله وينيب إلى أمره فاستقلتم حياته واستبطأتم موته فقتلتموه فادفع إلينا قتله إن كنت لم تقتله ثم اعتزل أمر الناس فيولوا من أجمعوا عليه. فقال علي: ما أنت وهذا الأمر فاسكت فلست بأهل له! فقال: والله لتراني بحيث نكره، فقال: وما أنت لا أبقى الله عليك إن أبقيت وأذهب فصوص وضعه.

ثم تكلم بعد الحمد لله والثناء وهداية الناس لحمد ﷺ وخلافة الشيخين وحسن سيرتهما، وقد وجدنا عليهما أن توليا ونحن أقرب منهما إلى رسول الله ﷺ لكن ساعناهما بذلك، وولي عثمان فعاب الناس عليه وقتلوه، ثم بايعوني خافة الفرقة فأجبتهم، ونكت علي رجالاً وخالف صاحبكم الذي ليس له مثل سابقني، والعجب من انتيادكم له دون بيت نبيكم ولا ينبغي لكم ذلك، وأنا أدعوكم إلى الكتاب والسنة ومعالم الدين وإمامة الباطل وإحياء الحق فقالوا: نشهد أن عثمان قتل مظلوماً، فقال: لا أقول مظلوماً ولا ظالماً. قالوا: فمن لم يقل ذلك فنحن منه براء وانصرفوا. فقرأ علي: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ الآية، ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء في ضلالهم أحد منكم في حقكم.

ثم نازع عدي بن حاتم في راية طيء عامر بن قيس الجرهمي وكان رهطه أكثر من رهط عدي، فقال عبد الله بن خليفة البولاني: ليس فينا أفضل من عدي ولا من أبيه حاتم ولم يكن في الإسلام وهو الوافد إلى رسول الله ﷺ ورأس طيء في النخيلة والقادسية والمدائن وجولاء ونهاوند وتستر، وسأل علي قومه فوافقوه على ذلك فقضى بها لعدي.

ولما انسلك الحرم نادى علي في الناس بالقتال وعبى الكتاب وقال لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فإذا هزمتهم فلا تقتلوا مديراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تأخذوا مالا ولا تهيجوا امرأة وإن شتمتكم فإنهن ضعاف الأنفس والقوى، ثم حرضهم ودعا لهم وجعل الأشتر على خيل الكوفة وسهل بن حنيف على خيل البصرة وقيس بن سعد على رجالة البصرة وعمار بن ياسر على رجالة الكوفة وهاشم بن عتبة معه الراية ومسعر بن فذكي على القراء، وعبى معاوية كتابه: فجعل على الميمنة ذا الكلاع الحميري وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة، وعلى المقدمة أبا الأعور وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص

جهد هؤلاء الفاسقين ثم نادى: من سعى في رضوان ربه فلا يرجع إلى مال ولا ولد فأتاه عصابة فقال: اقتصدوا بنا هؤلاء الذين يطلبون بدم عثمان يخادعون بذلك عما في نفوسهم من الباطل، ثم مضى فلا يمر بواد من صفين إلا اتبعه من هناك من الصحابة. ثم جاء هاشم بن عتبة وكان صاحب الراية فأنهضه حتى دنا من عمرو بن العاص فقال: يا عمرو بعث دينك بمصر؟ تباً لك! فقال: إنما أطلب دم عثمان، فقال: أشهد أنك لا تطلب وجه الله في كلام كثير من أمثال ذلك وأن رسول الله ﷺ قال في عمار: « تقتله الفئة الباغية » .

فلما قتل عمار حمل علي وحمل معه ربيعة ومضر وهمدان حملة منكورة فلم يبق لأهل الشام صفٌ إلا انتقض حتى بلغوا معاوية فناداه علي: علام يقتل الناس بيننا هلماً أحاكمك إلى الله فأبنا قتل صاحبه استقام له الأمر، فقال له عمرو: أنصفك! فقال له معاوية: لكنك ما أنصفت. وأسر يومئذ جماعة من أصحاب علي فترك سيبلهم، وكذلك فعل علي. ومر علي بكتيبة من الشام قد ثبثوا فبعث إليهم محمد ابن الحنفية فأزالهم عن موافقهم، وصرع عبد الله بن كعب المرادي فمر به الأسود بن قيس فأوصاه بتقوى الله والقتال مع علي، وقال: أبلغه عني السلام، وقال له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك فإنه من أصبح غداً والمعركة خلف ظهره فإنه العالي. ثم اقتتل الناس تلك الليلة إلى الصباح وهي ليلة الجمعة وتسمى ليلة الحرير، وعلي يسير بين الصفوف ويحرض كل كتيبة على التقدم حتى أصبح المعركة كلها خلف ظهره، والأشتر في الميمنة وابن عباس في الميسرة والناس يقتتلون من كل جانب وذلك يوم الجمعة. ثم ركب الأشتر ودعا الناس إلى الحملة على أهل الشام فحمل حتى انتهى إلى عسكرهم وقتل صاحب رأيهم، وأمدّه علي بالرجال.

فلما رأى عمرو شدة أهل العراق وخاف على أصحابه الهلاك، قال لمعاوية: مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ويقولون كتاب الله بيننا وبينكم فإن فعلوا ذلك ارتفع عنا القتال وإن أبى بعضهم وجئنا في افتراقهم راحة. ففعلوا ذلك، فقال الناس: نغيب إلى كتاب الله فقال لهم علي: يا عباد الله! امضوا على حقكم وقتال عدوكم فإن معاوية وابن أبي معيط وحبیباً وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم صحتهم أطفالاً ورجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال، ويحكم والله ما رفعوها إلا مكيدة وخديعة. فقالوا: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فلا نقبل، فقال: إنما قاتلناهم ليدنوا بكتاب الله فإنهم نبذوه.

وكسر منكبيه وعضديه، ثم دنا من ربيعة فصرهم وثبت أقدامهم وتنادوا بينهم: إن أصيب بينكم أمير المؤمنين انتضحت في العرب، وكان الأشتر مر به راكضاً نحو الميمنة واستقبل الناس منهزمين فأبلغهم مقالة علي: أين فراركم من الموت الذي لا تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم، ثم نادى: أنا الأشتر! فرجع إليه بعضهم فنادى مذبجاً وحرضهم فأجابوه، وقصد القوم واستقبله شباب من همدان ثمانمائة أو نحوها وكان قد هلك منهم في ذلك اليوم أحد عشر رئيساً وأصيب منهم ثمانون ومائة وزحف الأشتر نحو الميمنة.

وتراجع الناس واشتد القتال حتى كشف أهل الشام والحقهم معاوية عند الاصفرار وانتهى إلى ابن بديل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء قد لصقوا بالأرض، فأنكشف عنهم أهل الشام وأبصروا إخوانهم وسألوا عن علي ف قيل لهم هو بالميسرة يقاتل، فقال ابن بديل: استقدموا بنا ونهاه الأشتر فأبى ومضى نحو معاوية وحوله أمثال الجبال تقتل كل من دنا منه حتى وصل إلى معاوية، فنهض إليه الناس من كل جانب وأحيط به فقتل وقتل من أصحابه ناس ورجع آخرون مجروحون وأهل الشام في اتباعهم، فبعث الأشتر من نفس عنهم حتى وصلوا إليه وزحف الأشتر في همدان وطوائف من الناس فأزال أهل الشام عن موافقهم حتى ألحقهم بالصفوف المعقلة بالعمائم حول معاوية، ثم حمل أخرى فصرع منهم أربعة صفوف حتى دعا معاوية بفرسه فركب، وخرج عبد الله بن أبي الحصين الأزدي في القراء الذين مع عمار فقاتلوا وتقدم عقبة بن حبيب النميري مستميتاً ومعه إخوانه فقاتلوا حتى قتلوا، وتقدم شمر بن ذي الجوشن مبارزاً فضرب أدهم بن محرز الباهلي وجهه بالسيف وحمل على أدهم فقتله، وحمل قيس بن المكشوح ومعه راية بجيلة فقاتل حتى أخذها آخر كذلك.

ولما رأى علي أهل ميمنة أصحابه قد عادوا إلى موافقهم وكشفوا العدو قبائلهم أقبل إليهم وعذلهم بعض الشيء عن مفهم وأثنى على رجوعهم، وقاتل الناس قتالاً شديداً وتبارز الشجعان من كل جانب وأقبلت طيء والنخع وخرجت حمير من ميمنة أهل الشام، وتقدم ذو الكلاع ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب فقصد ربيعة في ميسرة أهل العراق وعليهم ابن عباس وحملوا عليهم حملة شديدة فثبتت ربيعة وأهل الحفاظ منهم وانهزم الضعفاء والفشلة، ثم رجعوا ولحقت بهم عبد القيس وحملوا على حمير فقتل ذي الكلاع وعبيد الله بن عمر وأخذ سيف ذي الكلاع وكان لعمر، فلما ملك معاوية العراق أخذه من قاتله. ثم خرج عمار بن ياسر وقال: اللهم إني لا أعمل اليوم عملاً أرضى من

الحديبية وفيها إنك ستدعى إلى مثلها فتعجب، فقال عمرو: سبحان الله تشبه بالكفار ونحن مؤمنون؟ فقال علي: يا ابن النابتة ومتى لم تكن للفاسقين ولياً وللمؤمنين عدواً؟ فقال عمرو: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم، فقال علي: أرجو أن يظهر الله مجلسي منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم ومعاوية على أهل الشام ومن معهم أنا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات مما وجد الحكماء في كتاب الله. وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص وما لم يجد في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة.

وأخذ الحكماء من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق أنهم آمنوا على أنفسهم وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يورداها في حرب ولا فرقة حتى يقضيا، وأحلا القضاء إلى رمضان فلن أحبا أن يؤخرا ذلك أخرا وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام وضعوا خطوطهم في الصحيفة، وأبى الأشتر أن يكتب اسمه فيها وحاوره الأشعث في ذلك فأساء الرد عليه وتهذبه.

وكتب الكتاب لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين. واتفقوا على أن يوافي علي موضع الحكمين بدومة الجندل ويأذرح في شهر رمضان، ثم جاء بعض الناس إلى علي يحضه على قتال القوم فقال: لا يصلح الرجوع بعد الرضى ولا التبديل بعد الإقرار.

ثم رجع الناس عن صفين ورجع علي، وخالفت الحورية وأنكروا تحكيم الرجال ورجعوا على غير الطريق الذي جاؤوا فيه حتى جازوا النخيلة ورأوا بيوت الكوفة، ومرو علي بقبر خباب بن الأرت توفي بعد خروجه فوقف واسترحم له، ثم دخل الكوفة فسمع رجة البكاء في الدور فقيل: يبكين على القتلى فترحم لهم، ولم يزل يذكر الله حتى دخل القصر فلم تدخل الخوارج معه وأتوا حروراً فنزلوا بها في اثني عشر ألفاً، فقدموا شيث بن عمر التميمي أمير القتال وعبيد الله بن الكوى الشكري أمير الصلاة.

قالوا: البيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر شورى بعد الفتنة. فقالوا للناس: بايعتم علينا إنكم أولياء من وإلى وأعداء من عادى، وبايع أهل الشام معاوية على ما

فقال له مسعر بن فذك التميمي وزيد بن حصين الطائي في عصابة من القراء الذين صاروا خوراج بعد ذلك: يا علي أجب إلى كتاب الله وإلا فدعنا برمتك إلى القوم. أو فعلنا بك ما فعلنا بابن عفان. فقال: إن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فافعلوا ما بدا لكم، قالوا: فابعث إلى الأشتر وكفه عن القتال، فبعث إليه يزيد بن هاني بذلك فأبى، وقال: قد رجوت أن يفتح الله لي!

فلما جاء يزيد بذلك ارتج الموقف باللغط، وقالوا لعلي: ما نراك إلا أمرته بقتال فابعث إليه فليأتك وإلا اعتزلناك، فقال علي: ويحك يا يزيد قل له أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت، فقال: أرفع المصاحف؟ فقال: نعم! قال: لقد ظننت إن ذلك يوقع فرقة كيف ندع هؤلاء ونصرف والفتح قد وقع، فقال يزيد: تحب أن تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوه أو يقتل؟ ثم أقبل إليهم الأشتر وأطال عبتهم، وقال: أمهلوني فوفاً فقد أحسست بالفتح، فأبوا فعذبهم وأطال في عذبهم، فقالوا: دعنا يا أشتر قاتلناهم الله، فقال: بل خدعتم فأنخدعتم.

ثم كثرت الملاحاة بينهم وتشاققوا فصاح بهم علي فكفوا، فقال له الأشعث بن قيس: أن الناس قد رضوا بما دعوا إليه من حكم القرآن فإن شئت أثبت معاوية وسأله ما يريد. قال: أفعل. فأتاه وسأله لأي شيء رفعت المصاحف؟ قال: لئلا نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به من كتابه تبعثون رجلاً ترضونه، ونحن آخر وناخذ عليهما عهد الله أن يعملما بما في كتاب الله لا يعدوانه. ثم تتبع ما اتفقا عليه، فقال الأشعث: هذا الحق ورجع إلى علي والناس وأخبرهم، فقال الناس: رضينا وقبلنا، ورضي أهل الشام عمراً، وقال الأشعث: وأولئك القراء الذين صاروا خوراج: رضينا بأبي موسى، فقال علي لا أرضاه! فقال الأشعث ويزيد بن الحصين ومسعر بن فذك: لا نرضى إلا به. قال: فإنه ليس بثقة قد فارقتي وخذل الناس عني وهرب مني حتى أمته بعد أشهر، قالوا: لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، قال: فالأشتر؟ قالوا: وهل سعر الأرض غير الأشتر؟ قال: فاصنعوا ما بدا لكم! فبعثوا إلى أبي موسى وقد اعتزل القتال، فقيل: إن الناس قد اصطحلوا، فحمد الله، قيل وقد جعلوك حكماً فاسترجع، وجاء أبو موسى إلى العسكر وطلب الأحنف بن قيس من علي أن يجعله مع أبي موسى، فأبى الناس من ذلك وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتبوا القضية بحضوره، فكتبوا بعد البسملة.

هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين، فقال عمرو: ليس هو بأمرنا! فقال له الأحنف: لا تحمها فإني أنطير بمحوها فمكث ملياً، ثم قال الأشعث: إحمها. فقال علي: الله أكبر! وذكر قصة

الشام والتقوا بأندرج من دومة الجندل، فكان أصحاب عمرو أطوع من أصحاب ابن عباس لابن عباس، حتى لم يكونوا يسألونه عن كتاب معاوية إذا جاءه، ويسأل أهل العراق ابن عباس ويتهمونه، وحضر مع الحكمين عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام، وعبد الرحمن بن يغوث الزهري، وأبو جهم بن حذيفة العدوي، والمغيرة بن شعبة، وسعد بن أبي وقاص على خلاف فيه، وقيل: ندم على حضوره فأحرم بعمره من بيت المقدس.

ولما اجتمع الحكمان قال عمرو لأبي موسى أما تعلم أن عثمان قتل مظلوماً وأن معاوية وقومه أولياؤه؟ قال: بلى! قال: فما يمنعك منه وهو في قریش كما علمت؟ وإن قصرت به السابقة قدمه حسن السياسة وإنه صهر رسول الله ﷺ وصاحبه والطالب بدم عثمان وعرض بالولاية، فقال له أبو موسى: يا عمرو اتق الله واعلم أن هذا الأمر ليس بالشرف وإلا لكان لآل أبرهة بن الصباح وإنما هو بالدين والفضل مع أنه لو كان بشرف قریش لكان لعلي بن أبي طالب وما كنت لأرى لمعاوية طلبه دم عثمان وأوليه وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك بالولاية فلو خرج لي عثمان عن سلطانه ما وليته وما أرتشي في حكم الله.

ثم دعاه إلى تولية عبد الله بن عمر، قال له عمرو: فما يمنعك من ابني وهو من علمت؟ فقال له رجل: صدق ولكنك غمست في الفتنة، فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل له ضرر يأكل ويطعم - وكانت في ابن عمر غفلة - وكان ابن الزبير بإزائه فنبهه لما قال، فقال ابن عمر: لا أرشو عليها أبداً ثم قال أبو موسى يا ابن العاص إن العرب أسندت أمرها إليك بعد المقارعة بالسيوف فلا تردهم في فتنة، قال له: فخبّرني ما رأيك؟ قال: أرى أن تخلع الرجلين وتجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم. فقال عمرو: الرأي ما رأيته!

ثم أقبلوا على الناس وهم ينتظرونهم، وكان عمرو قد عود أبو موسى أن يقدمه في الكلام لما له من الصحة والسن، فقال: يا أبا موسى! أعلمهم أن رأينا قد اتفق، فقال: إنا رأينا أمراً نرجو الله أن يصلح به الأمة، فقال له ابن عباس: ويحك أظنه خدعك فأجعل له الكلام قبلك، فأبى وقال: أيها الناس إنا نظرنا في أمر الأمة فلم نر أصح لهم مما اتفقنا عليه وهو أن تخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا وإني قد خلعتهما فولوا من أردتم ورأيتموه أهلاً.

فقال عمرو: إن هذا قد خلع صاحبه وقد خلعت كما خلعه وأثبت معاوية فهو ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه. ثم عدا ابن

أحب وكرهوا فلم يستم جميعاً من الحق في شيء. فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بايعناه إلا على الكتاب والسنة ولكن لما خالفتموه تعيتم للضلال وتعين للحق. ثم بعث علي عبد الله بن عباس إليهم وقال: لا تراجعهم حتى آتيك فلم يصبر عن مكالمتهم وقال: ما نقتم من أمر الحكمين وقد أمر الله بهما بين الزوجين فكيف بالأمة؟ فقالوا: لا يكون هذا بالرأي والقياس! فإن ذلك جعل الله حكمه للعباد وهذا أمضاه كما أمضى حكم الزاني والسارق. قال ابن عباس: قال الله تعالى: ﴿يُحْكَمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مُنْكُمْ﴾، قالوا: والأخرى كذلك وليس أمر الصيد والزوجين كدماة المسلمين. ثم قالوا له: قد كنا بالأمس نقاتل عمرو بن العاص فإن كان عدلاً فعلاً قاتلناه؟ وإن لم يكن عدلاً فكيف يسوغ تحكيمه؟ وأنتم قد حكمتكم الرجال في أمر معاوية وأصحابه والله تعالى قد أمضى حكمه فيهم أن يقتلوا أو يرجعوا وجعلتم بينكم المودة في الكتب وقد قطعها الله بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة. ثم جاء علي إلى فسطاط يزيد بن قيس منهم بعد أن علم أنهم يرجعون إليه في رأيهم، فصلى عنده ركعتين وولاه على أصبهان والري.

ثم خرج إليهم وهم في مجلس ابن عباس فقال: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكرى! قال: فما هذا الخروج؟ قالوا: لحكومتكم يوم صفين، قال: أنشدكم الله أتعلمون إنه لم يكن رأيي وإنما كان رأيكم مع أبي اشتربت على الحكمين أن يحكما بحكم القرآن فإن فعلاً فلا ضير وإن خالفنا فلا ضير ونحن براء من حكمهم، فقالوا فتحكيم الرجال في الدماء عدل؟ قال إنما حكمنا القرآن إلا أنه لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال، قالوا: فلم جعلتم الأجل بينكم؟ قال لعل الله يأتي فيه بالهدنة بعد افتراق الأمة فرجعوا إلى رايه، وقال: ادخلوا مصركم فلنمكث ستة أشهر حتى يجي المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا من عند آخرهم.

أمر الحكمين

ولما انقضى الأجل وحن وقت الحكمين بعث علي أبا موسى الأشعري في أربعمئة رجل عليهم شريح بن هاني الحارثي ومعهم عبد الله بن عباس يصلي بهم، وأوصى شريحاً بموعظة عمرو، فلما سمعها قال: متى كنت أقبل مشورة علي واعتد براهي؟ قال: وما يمنعك أن تقبل من سيد المسلمين، وأساء الرد عليه فسكت عنه. وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمئة من أهل

فرجع ولقيه عبد الله بن وهب في عشرين فارساً وأراد قتله فمعه من كان معه من طيء. وأرسل علي إلى عامل المدائن سعد بن مسعود يخبرهم فاستخلف ابن أخيه المختار بن عبيد وسار في طلبهم في خمسمائة فارس، فتركوا طريقهم وساروا على بغداد ولحقهم سعد بالكرخ مساء، وجاءه عبد الله في ثلاثين فارساً وقتلهم وامتنعوا، وأشار أصحابه بتركهم إلى أن يأتي فيهم أمر علي فأبى، ولما جن عليهم الليل عبر عبد الله إليهم دجلة وسار إلى أصحابه بالنهروان، واجتمعت خوارج البصرة في خمسمائة رجل عليهم مسعر بن فذكي التميمي واتبعهم أبو الأسود الدؤلي بأمر ابن عباس ولحقه فاقتلوا حتى حجز بينهم الليل، فأدلى مسعر بأصحابه فلحق بعبد الله بن وهب بالنهروان، ولما خرجت الخوارج بايع علياً أصحابه على قتالهم، ثم أنكر شأن الحكمين فخطب الناس وقال: بعد الحمد لله والموعظة ألا أن هذين الحكمين بهذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد، فاستعدوا للسير إلى الشام.

وكتب إلى الخوارج بالنهروان بذلك واستحثهم للمسير إلى العدو وقال: نحن على الأمر الأول الذي كنا عليه. فكتبوا إليه: إنك غضبت لنفسك ولم تغضب لربك فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت نظرنا بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على السواء. فبش علي منهم ورأى أن يمضي إلى الشام ويدعهم، وقام في الناس يحرضهم لذلك، وكتب إلى ابن عباس من معسكره بالتيهلة يأمره بالشخص في العساکر والمقام إلى أن يأتي أمره، فأشخص ابن عباس الأحنف بن قيس في ألف وخمسمائة، ثم خطب ثانية وندب الناس وقال: كيف ينفر هذا العدد القليل وأنتم ستون ألف مقاتل ثم تهددهم وأمرهم بالنفير مع جارية بن قدامة السعدي. فخرج معه ألف وستمئة ووافوا علياً في ثلاثة آلاف ويزيدون.

ثم خطب أهل الكوفة ولاطفهم بالقول وحرضهم وأخبرهم بما فعل أهل البصرة مع كثرتهم وقال: ليكتب إلي كل رئيس منكم ما في عشيرته من المقاتلين من أبنائهم ومواليهم، فأجابه سعيد بن قيس الهمداني ومعل بن قيس وعدي بن حاتم وزباد بن خصفة وحجر بن عدي وأشرف الناس بالسمع والطاعة، وأمروا ذويهم ألا يتخلف منهم أحد، فكانوا أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً ممن بلغ الحلم، وانهت عساكره إلى ثمانية وستين ألفاً. وبلغه أن الناس يرون تقديم الخوارج فقال لهم: إن قتال أهل الشام أهم علينا لأنهم يقاتلونكم ليكونوا ملوكاً جبارين ليتخذوا عباد الله خولاً فرجعوا إلى رأيه وقالوا: سر بنا إلى حيث شئت. وبينما هو على اعتزام السير إلى أهل الشام بلغه أن خوارج

عباس وسعد على أبي موسى باللائمة وقال: ما أصنع غدري ورجع باللائمة على عمرو وقال: لا وفلك الله غدرت وفجرت. وحمل شريح على عمرو فضربه بالسيف وضربه ابن عمر كذلك، وحجز الناس بينهم، فلحق أبو موسى بمكة وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح إلى علي بالخبر فكان يقتت إذا صلى الغداة ويقول: اللهم العن معاوية وعمراً وحبيباً وعبد الرحمن بن غلدة والضحاك بن قيس والوليد وأبا الأعور، وبلغ ذلك معاوية فكان إذ قنت يلعن علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر.

أمر الخوارج وقتلهم

ولما اعتزم علي أن يبعث أبا موسى للحكومة أنه زرع بن البرح الطائي وحرقوق بن زهير السعدي من الخوارج وقالوا له: تب من خطيتك وارجع عن قضيتك وأخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم، وقال علي: قد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وعاهدناهم، فقال حرقوق: ذلك ذنب تتبغي التوبة منه، فقال علي: ليس بذنب ولكن عجز من الرأي، فقال زرع: لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك أطلب وجه الله، فقال علي: يؤساً لك كائي بك قتيلاً تسفى عليك الرياح، قال: وددت لو كان ذلك. وخرجوا من عنده يناديان لا حكم إلا لله.

وخطب علي يوماً فنادوا من جوانب المسجد بهذه الكلمة، فقال علي: الله أكبر كلمة حتى أريد بها باطل، وخطب ثانياً فقالوا كذلك، فقال: أما أن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتونا: لا تمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا الفقه ما دمت معنا ولا نقاتلكم حتى تبدأونا وننتظر فيكم أمر الله. ثم اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسي فوعظهم وحرضهم على الخروج إلى بعض النواحي لإنكار هذه البدع، وتبعه حرقوق بن زهير في المقال، فقال حمزة بن سنان الأزدي: الرأي ما رأيتم لكن لا بد لكم من أمير وراية، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي، ثم حرقوق بن زهير، ثم حمزة بن سنان، ثم شريح بن أبي أوفى العنسي فأبوا كلهم. ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فأجاب فبايعوه لعشر خلون من شوال، وكان يقال له: ذو الثغفات.

ثم اجتمعوا في منزل شريح وتشاوروا. وكتب ابن وهب إلى أهل البصرة منهم يستحث بهم على اللحاق بهم، ولما اعترفوا على المسير تعبدوا ليلة الجمعة ويومها وساروا، فخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائي، واتبه أبوه إلى المدائن فلم يقدروا عليه

قيل لهم موتوا، وقتل عبد الله بن وهب وزيد بن حصن وحرقوق بن زهير وعبد الله بن شجرة وشريح بن أوفى. وأمر علي أن يلمس المخدج في قتلاهم وهو الذي ذكره رسول الله ﷺ في علاماتهم فوجد في القتلى فاعتبر علي وكبر واستبصر الناس، وأخذ ما في عسكرهم من السلاح والدواب فقسمة بين المسلمين ورد عليهم المتاع والإماء والعبيد.

ودفن عدي بن حاتم ابنه طرفة ورجالاً من المسلمين فنهى علي عن ذلك، وارتحل ولم يفقد من أصحابه إلا سبعة أو نحوهم. وشكا إليه الناس الكلال ونفوذ السهام والرماح وطلبوا الرجوع إلى الكوفة ليستعدوا فإنه أقوى على القتال، وكان الذي تولى كلامه الأشعث بن قيس فلم يجبه، وأقبل فنزل النخيلة ومنعهم من دخول منازلهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فتسللوا أيام القمامة إلى البيوت وتركوا المعسكر خالياً فلما رأى علي ذلك دخل في نديهم ثانياً فلم ينفروا، فأقام أياماً ثم كلم رؤساءهم على رأيهم والذي يطعن بهم فلم ينشط لذلك إلا القليل، فخطبهم وأغلظ في عتابهم وأعلمهم بما له عليهم من الطاعة في الحق والنصح فتناقلوا وسكتوا.

ولاية عمرو بن العاص على مصر

قد تقدم لنا ما كان من اجتماع العثمانية بنواحي مصر مع معاوية بن حديج السكوني، وإن محمد بن أبي بكر بعث إليهم العساكر من القسطنطينية مع ابن مضاهم فهزموه وقتلوه، واضطربت الفتنة بمصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ ذلك علياً فبعث إلى الأشتر من مكان عمله بالجزيرة وهو نصيبين فبعثه على مصر وقال: ليس لها غيرك. وبلغ الخبر إلى معاوية وكان قد طمع في مصر فعلم إنها ستمتنع بالأشتر، وجاء الأشتر فنزل على صاحب الخراج بالقلم فمات هنالك، وقيل: إن معاوية بعث إلى صاحب القلم فسمه على أن يسقط عنه الخراج وهذا بعيد.

وبلغ خبر موته علياً فاسترجع واسترحم وكان محمد بن أبي بكر لما بلغته ولاية الأشتر شق عليه فكتب علي يعتذر إليه وإنه لم يوله لسوء رايه في محمد وإنما هو لما كان يظن فيه من الشدة فقد صار إلى الله ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب، فاصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفيك ما أهلك ويعينك على ما ولاك. فأجابته محمد بالرضا برأيه والطاعة لأمره، وأنه مزعم على حراية من خالفه.

أهل البصرة لقوا عبد الله بن خباب من صحابة رسول الله ﷺ قريباً من النهروان فعرفهم بنفسه، فسألوه عن أبي بكر وعمر فأنى خيراً، ثم عن عثمان في أول خلافته وآخرها فقال: كان محقاً في الأول والآخر، فسألوه عن علي قبل التحكيم وبعده، فقال هو أعلم بالله وأشد توثيقاً على دينه، فقالوا: إنك توالي الرجال على أسمائهم، ثم ذبحوه وبقروا بطن امرأته ثم قتلوا ثلاث نسوة من طيء. فأسف علياً قتلهم عبد الله بن ضباب واعتراضهم الناس، فبعث الحرث بن مرة العبدي لينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه، فقال له أصحابه: كيف ندع هؤلاء ونأمن غائلتهم في أموالنا وعيالنا إنما نقدم أمرهم على الشام، وقام الأشعث بن قيس بمثل ذلك فوافقهم علي وسار إليهم، وبعث من يقول لهم إدفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم فنكف عنكم حتى نرجع من قتال العرب لعل الله يردكم إلى خير فقالوا: كلنا قتلهم وكلنا مستحل دماءكم ودماءهم.

ثم جاءهم قيس بن سعد وعظهم وأبو أيوب الأنصاري كذلك. ثم جاءهم علي فتهدهم وسفه رأيهم وبين لهم شأن الحكمين وأنهما لما خالفا حكم الكتاب والسنة نبذنا أمرهما ونغن على الأمر الأول فقالوا: إنا كفونا بالتحكيم وقد تبنا فإن ثبت أنت فنحن معك وإن أبيت فقد نابذناك، فقال: كيف أحكم على نفسي بالكفر بعد إيماني وهجرتي وجهادي؟ ثم انصرف عنهم.

وقيل: إن علياً خطبهم وأغلظ عليهم فيما فعلوه من الاستعراض والقتل فتنادوا لا تكلموهم وتأهبوا للقاء الله. ثم قصدوا جسر الخوارج ولحقهم علي دونه، وقد عسى أصحابه وعلى ميمته حجر بن عدي وعلى مسيرته شيب بن ربيعة أو معقل بن قيس وعلى الخيل أبو أيوب وعلى الرجالة أبو قتادة وعلى أهل المدينة سبعمائة أو ثمانمائة قيس بن سعد.

وعبأت نحوه الخوارج على ميمتهم زيد بن حصين الطائي وعلى المسيرة شريح بن أوفى العنسي وعلى الخيل حمزة بن سنان الأسدي وعلى الرجالة حرقوق بن زهير. ودفع علي إلى أبي أيوب راية أمان لهم لمن جاءهم ممن لم يقتل ولم يستعرض فناداهم إليها وقال: من انصرف إلى الكوفة والمداين فهو آمن. فاعتزل عنهم فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة وقال اعتزل حتى يتضح لي أمر في قتال علي فنزل الدسكرة، وخرج آخرون إلى الكوفة، ورجع آخرون إلى علي وكانوا أربعة آلاف، وبقي منهم ألف وثمانمائة فحمل عليهم علي والناس حتى فرقهم على الميمنة والميسرة.

ثم استقبلتهم الرماة وعطفت عليهم الخيل من المجنبتين ونهض إليهم الرجال بالسلاح فهلكوا كلهم في ساعة واحدة كانوا

الأنصاري قادماً من مصر فأخبره بقتل محمد، وجاء إلى علي بن عبد الرحمن بن شبيب الفزاري وكان عيناً له بالشام، فأخبره بقتل محمد واستيلاء عمرو على مصر، فحزن لذلك، وبعث إلى مالك بن كعب أن يرجع بالجيش وخطب الناس فأخبرهم بالخبر وعذّبهم على ما كان منهم من التأقل حتى فات هذا الأمر ووبخهم طويلاً ثم نزل.

دعاء ابن الحضرمي بالبصرة لمعاوية ومقتله

ولما افتتح معاوية مصر بعث عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة داعياً لهم وقد آتس منهم الطاعة بما كان من قتل علي بإيادهم يوم الجمل وإنهم على رأيه في دم عثمان، وأوصاه بالنزول في مصر وأن يتروّد إلى الأزد وحذره من ربيعة وقال: إنهم ترائبه! يعني شيعة لعلي. فسار ابن الحضرمي حتى قدم البصرة.

وكان ابن عباس قد خرج إلى علي واستخلف عليها زياداً، وتزل في بني تميم واجتمع إليه العثمانيه فحضرهم على الطلب بدم عثمان من علي، فقال الضحاك بن قيس الهلالي: قبح الله ما جئت به وما تدعو إليه نعملنا على الفرقة بعد الاجتماع وعلى الموت ليكون معاوية أميراً؟ فقال له عبد الله بن حازم السلمي اسكت! فلست لها بأهل. ثم قال لابن الحضرمي نحن أنصارك ويدك والقول قولك، فقرأ كتاب معاوية يدعوه إلى رأيه من الطلب بدم عثمان على أن يعمل فيهم بالسنة ويضاعف لهم الأعطية. فلما فرغ من قراءته قام الأخنف بن قيس معتزلاً وحض عمر بن مرحوم على لزوم البيعة والجماعة.

وقام العباس بن حجر في مناصرة ابن الحضرمي، فقال له المثنى بن غرمة: لا يغرنك ابن صحار وارجع من حيث جئت، فقال ابن الحضرمي لصبرة بن شيمة الأزدي: ألا تنصرنني؟ قال لو نزلت عندي فعلت! ودعا زياد أمير البصرة حصين بن المنذر ومالك بن مسمع ورؤوس بكر بن وائل إلى المنعة من ابن الحضرمي إلى أن يأتي أمر علي، فأجاب حصين وتساقل مالك وكان هواه في بني أمية، فأرسل زياد إلى صبرة بن شيمة يدعوه إلى الجدار بما معه من بيت المال فقال: إن حملته إلى داري أجرتك فتحول إليه بيت المال والمنبر، وكان يصلي الجمعة في مسجد قومه، وأراد زياد اختبارهم فبعث إليهم من ينذرهم بمسيرة إليهم، وأخذ زياد جنداً منهم بعد صبره لذلك وقال: إن جاءوا جئناهم، وكتب زياد إلى علي بالخبر فأرسل أعين بن ضبيعة لفرق تيمماً عن ابن الحضرمي ويقال من عصاه بمن أطاعه، فجاء لذلك وقاتلهم

ثم لما كان من أمر الحكمين ما كان واختلف أهل العراق على علي، وبايع أهل الشام معاوية بالخلافة، فأراد معاوية صرف عمله إلى مصر لما كان يرجو من الاستعانة على حروبه بجراحها، ودعا بطانته أبا الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة وسر بن أطاء والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وشرجيل بن السمط وشاورهم في شأنها، فأشار عليه عمرو بافتتاحها وأشار ببعث الجيش مع حازم صارم يوثق ويمتدح إليه من كان على رأيه من العثمانيه.

فقال معاوية: بل الرأي أن نكتب العثمانيه بالوعد ونكتب العدو بالصلح والتخويف ونأتي الحرب بعد ذلك، ثم قال معاوية: إنك يا ابن العاص بورك لك في العجلة وأنا في التؤدة، فقال: إفعل ما تراه وأظن الأمر لا يصير إلا للحرب. فكتب معاوية إلى معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد يشكرهما على الخلاف، ويمتنهما على الحرب والقيام في دم عثمان، وفرحا بمجاوبهما فطلب المدد فجمع أصحابه وأشاروا بذلك.

فأمر عمرو بن العاص أن يتجهز إلى مصر في ستة آلاف رجل ووصاه بالتؤدة وترك العجلة، فنزل أدنى أرض مصر واجتمعت إليه العثمانيه، وبعث كتابه وكتاب معاوية إلى محمد بن أبي بكر بالتهديد وإن الناس اجتمعوا عليك وهم مسلموك فاخرج، فبعث بالكتابين إلى علي فوعده بإفناء الجيوش وأمره بقتال العدو والصبر. فقدم محمد بن أبي بكر كنانة بن بشر في ألفين، فبعث معاوية عمرو بن حديج وسرحه في أهل الشام فأحاطوا بكنانة، فترجل عن فرسه وقاتل حتى استشهد. وجاء الخبر إلى محمد بن أبي بكر فافترق عنه أصحابه وفروا، وآوى في مفره إلى خربة واستتر في تلك الخربة، فقبض عليه فأخذ ابن حديج وجاء به إلى القسطنطينية، وطلب أخوه عبد الرحمن من عمرو أن يبعث إلى ابن حديج في البقاء عليه فأبى، وطلب محمد الماء فنعته ابن حديج جزاء بما فعل بعثمان، ثم أحرقه في جوف حمار بعد أن لعنه ودعا عليه وعلى معاوية وعمرو.

وكانت عائشة تفتت في الصلاة بالدعاء على قتلته. ويقال إنه لما انهزم اختفى عند جبلية بن مسروق حتى أحاط به معاوية بن حديج وأصحابه، فخرج إليهم فقاتل حتى قتل. ولما بلغ الخبر علياً خطب الناس وندبهم إلى أعدائهم وقال: اخرجوا بنا إلى الجزعة بين الحيرة والكوفة. وخرج من الغد إلى منتصف النهار يمشي إليها حتى نزلها فلم يلحق به أحد، فرجع من العشي وجمع أشرف الناس ووبخهم فأجاب مالك بن كعب الأرحبي في ألفين، فقال: سر وما أراك تدرّكهم فسار خساً، ولحق حجاج بن عرفة

يوماً أو بعض يوم، ثم اغتاله قوم فقتلوه يقال من الخوارج.

الضلال وأرحنا منهم الناس.

ولاية زياد علي فارس

ولما قتل ابن الحضرمي بالبصرة والناس مختلفون على علي طمع أهل النواحي من بلاد العجم في كسر الخراج، وأخرج أهل فارس عاملهم سهل بن حنيف، فأشار علي الناس فأشار عليه جارية بن قدامة بزياد فامر ابن عباس أن يوليّه عليه، نبعثه إليها في جيش كثيف فطوى بهم أهل فارس وضرب ببعضهم بعضاً وهرب قوم وأقام آخرون، وصفت له فارس بغير حرب. ثم تقدم إلى كرمان فدوخها مثل ذلك فاستقامت وسكن الناس ونزل اصطخر وسكن قلعة بها تسمى قلعة زيار.

فراق ابن عباس لعلي رضي الله عنهم

وفي سنة أربعين فارق عبد الله بن عباس علياً ولحق بمكة، وذلك أنه مر يوماً بأبي الأسود ووجهه على أمر، فكتب أبو الأسود إلى علي بن عباس استتر بأموال الله فأجابه علي يشكره على ذلك وكتب لابن عباس ولم يخبره بالكتاب، فكتب إليه يكذب ما بلغه من ذلك وإنه ضابط للمال حافظ له، فكتب إليه علي: أعلمني ما أخذت ومن أين أخذت وفيما وضعت؟ فكتب إليه ابن عباس فهمت استعظامك لما رفع إليك إني رزأته من هذا المال فأبعت إلى عملك من أحببت فإني ظاعن عنه واستدعي أخواله من بني هلال، فجاءته قيس كلها فحمل المال وقال: هذه أرزأقتنا واتبعه أهل البصرة ووقفت دونه قيس. فرجع صبرة بن شيمة الهمداني بالأزد وقال قيس: إخواننا وهم خير من المال فاطيعوني.

وانصرف معهم بكر وعبد القيس ثم انصرف الأحنف بقومه من بني غيم وحجز بقية بني غيم عنه، ولحق ابن عباس بمكة.

مقتل علي رضي الله عنه

قتل علي رضي الله عنه سنة أربعين لسبع عشرة من رمضان وقيل: لأحدى عشرة وقيل: في ربيع الآخر والأول أصح، وكان سبب قتله أن عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي الصرمي واسمه الحجاج وعمرو بن بكر التميمي السعدي: ثلاثتهم من الخوارج لحقوا من فلهم بالحجاز، واجتمعوا فتذكروا ما فيه الناس وعابوا الولاة وترهقوا على قتلى النهران، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شربنا أنفسنا وقتلنا أئمة

فقال ابن ملجم - وكان من مصر - أنا أكفيكم علياً، وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر التميمي: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وتعاهدوا أن لا يرجع أحد عن صاحبه حتى يقتله أو يموت. واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وانطلقوا. ولقي ابن ملجم أصحابه بالكوفة فطوى خبره عنهم، ثم جاء إلى شبيب بن شجرة من أشجع ودعاه إلى الموافقة في شأنه، فقال شبيب: ثكلتك أمك فكيف تقدر على قتله؟ قال أكمن له في المسجد في صلاة الغداة فإن قتلناه وإلا فهي الشهادة قال ويحك لا أجدني أنشرح لقتله مع سابقته وفضله، قال ألم يقتل العباد الصالحين أهل النهران؟ قال بلى! قال فنقتله بمن قتلته منهم، فأجابه.

ثم لقي امرأة من تيم الرباب فائقة الجمال قتل أبوها وأخوها يوم النهران، فأخذت قلبه فخطبها فشرطت عليه عبداً وقينة وقتل علي، فقال كيف يمكن ما أنت تريد؟ قالت التمس غرته فإن قتلته شفيت النفوس وإلا فهي الشهادة. قال: والله ما جئت إلا لذلك ولك ما سألت، قالت: سأبعت معك من يشد ظهرك ويساعدك، فبعثت معه رجلاً من قومها اسمه وردان. فلما كانت الليلة التي واعد ابن ملجم أصحابه على قتل علي وكانت ليلة الجمعة جاء إلى المسجد ومعه شبيب ووردان وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي للصلاة، فلما خرج ونادى للصلاة علاه شبيب بالسيف فوقع بضادة الباب، وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه، وقال: الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك. وهرب وردان إلى منزله وأخبر بعض أصحابه بالأمر فقتله. وهرب شبيب مغسلاً. وصاح الناس به فلحقه رجل من حضرموت فأخذه وجلس عليه والسيف في يد شبيب والناس قد أقبلوا في طلبه، وخشي الحضرمي على نفسه لاختلاط الغلس فتركه وذهب في غمار الناس.

وشد الناس على ابن ملجم واستخلف علي على الصلاة جعدة بن هبيرة وهو ابن أخته أم هانئ فصلى الغداة بالناس، وأدخل ابن ملجم مكتوفاً على علي فقال: أيا عدو الله ما حملك على هذا؟ قال شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال أراك مقتولاً به! ثم قال إن هلكت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا تحرضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين لا تقتلوا إلا قاتلي.

يا حسن أنا إن مت من ضربي هذه فاضربه بسيفه ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «ياكم والمثلة».

سمية وعلى اليمن عبيد الله بن العباس حتى وقع أمر بسر بن أبي أرتاة، وعلى مكة والطائف قسم بن العباس وعلى المدينة أبو أيوب الأنصاري وقيل سهل بن حنيف.

بيعة الحسن وتسليمه الأمر لمعاوية

ولما قتل علي رضي الله عنه اجتمع أصحابه فبايعوا ابنه الحسن، وأول من بايعه قيس بن سعد وقال: أبسط يدك على كتاب الله وستة رسوله وقتل الملاحدين. فقال الحسن: على كتاب الله وستة رسوله. ويأتیان على كل شرط. ثم بايعه الناس فكان يشترط عليهم إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالت وتحاربون من حارب، فارتأوا وقالوا: ما هذا لكم بصاحب وما يريد القتال. وبلغ الخبر بمقتل علي إلى معاوية فبويع بالخلافة ودعي بأمر المؤمنين، وكان قد بويع بها بعد اجتماع الحكيمين. ولأربعين ليلة بعد مقتل علي مات الأشعث بن قيس الكندي من أصحابه، ثم مات من أصحابه معاوية شرحبيل بن السمط الكندي. وكان علي قبل قتله قد تجهز بالمسلمين إلى الشام، وبايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت.

فلما بويع الحسن زحف معاوية في أهل الشام إلى الكوفة فسار الحسن في ذلك الجيش للقائه وعلى مقدمته قيس بن سعد في اثني عشر ألفاً، وقيل بل كان عبد الله بن عباس على المقدمة وقيس في ثلاثه. فلما نزل الحسن في المدائن شاع في العسكر إن قيس بن سعد قتل، واحتاج الناس وماج بعضهم في بعض وجاءوا إلى سرادق الحسن ونهبوا ما حوله حتى نزعه بساطه الذي كان عليه واستلبوه رداءه وطعنه بعضهم في فخذه. وقامت ربيعة وهمدان دونه واحتملوه على سرير إلى المدائن ودخل إلى القصر وكاد أمره أن ينحل، فكتب إلى معاوية يذكر له النزول عن الأمر على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومبلغه خمسة آلاف الف، ويعطيه خراج دار الجرد من فارس وأن لا يشتم علياً وهو يسمع، وأخبر بذلك أخاه الحسين وعبد الله بن جعفر وعذلاء فلم يرجع إليهما. وبلغت صحيفته إلى معاوية فأمسكها وكان قد بعث عبد الله بن عامر وعبد الله بن سمرة إلى الحسن ومعهما صحيفة بيضاء ختم في أسفلها وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهو لك فاشترط فيها أضعاف ما كان في الصحيفة، فلما سلم له وطالبه في الشروط أعطاه ما في الصحيفة الأولى وقال: هو الذي طلبت. ثم نزع أهل البصرة خراج دار الجرد وقالوا: هو فيتنا لا نعطيه.

وقالت أم كلثوم لابن ملجم وهو مكتوف وهي تبكي: أي عدو الله لا بأس على أبي والله غزيك قال فعلام تبكين؟ والله لقد شريته بالف وصقلته أربعين ولو كانت هذه الضربة باهل بلد ما بقي منهم أحد.

وقال جندب بن عبد الله لعلي أنبايع الحسن إن فقدناك؟ قال ما أمركم به ولا أنهاكم أبتصر، ثم دعا الحسن والحسين ووصاهما قال: أوصيكمما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بنتكما ولا تأسفا على شيء إن زوى منهما عنكما وقولا الحق وإرحما اليتم واعينا الضائع وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم. ثم قال لمحمد ابن الحنفية إني أوصيك بمثل ذلك ويتوقر أخوك لعظيم حقهما عليك ولا تقطع أمراً دونهما، ثم وصاهما بابن الحنفية، ثم أعاد على الحسن وصيته. ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ولم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض.

وأحضر الحسن ابن ملجم فقال له هل لك البقاء علي: وإني قد عاهدت الله أن أقتل علياً ومعاوية، وإني عاهدت الله على الوفاء بالعهد فخل بيني وبين ذلك فإن قتلته وبيقت فلك عهد الله أن أتيك، فقال: لا والله حتى تعاین النار ثم قدمه فقتله. وأما البرك فإنه قصد لمعاوية تلك الليلة فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف في إتيته وأخذ فقال: عندي بشرى أتفنعني إن أخبرتك بها؟ قال نعم. قال إن أخي قتل علياً هذه الليلة، قال فلعله لم يقدر عليه، قال بلى إن علياً ليس معه حرس، فأمر به معاوية فقتل، وأحضر الطبيب فقال: ليس إلا الكي أو شربة تقطع منك الولد. فقال: في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني والنار لا صبر لي عليها.

وقد قيل إنه أمر بقطع البرك فقطع وأقام إلى أيام زياد فقتله بالبصرة، وعند ذلك اتخذ معاوية المقصورة وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد. ويقال إن أول من اتخذ المقصورة مروان بن الحكم سنة أربع وأربعين حين طعنه اليماني. وأما عمرو بن بكر فإنه جلس إلى عمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى فأمر صاحب شرطته خارجة بن أبي حبيبة بن عامر بن لؤي يصلي بالناس فشد عليه فضره فقتله وهو يرى أنه عمرو بن العاص، فلما أخذوه وأدخلوه على عمرو قال: فمن قتلته إذا؟ قالوا خارجة فقال لعمرو بن العاص والله ما ظننته غيرك! فقال عمرو: أردت عمراً وأراد الله خارجة. وأمر بقتله.

وتوفي علي رضي الله عنه وعلى البصرة عبد الله بن عباس وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلي وعلى فارس زياد بن

ثم خرج عليه الخوارج من كل جهة من بقية أهل النهروان وغيرهم فقاتلهم واستلحمهم كما يأتي في أخبارهم على ما اشترطناه في تأليفنا من أفراد الأخبار عن الدول وأهل النحل دولة دولة وطائفة طائفة. وهذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية وما كان فيها من الردة والفتوحات والحروب ثم الاتفاق والجماعة أوردتها ملخصة عيونها ومجامعها من كتاب محمد بن جرير الطبري وهو تاريخه الكبير فإنه أوثق ما رأيناه في ذلك، وأبعد من المطاعن عن الشبه في كبار الأمة وخيارهم وعدولهم من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، فكثيراً ما يوجد في كلام المؤرخين أخبار فيها مطاعن وشبه في حقهم أكثرها من أهل الأهواء فلا ينبغي أن تسود بها العيون، (واتبعها) بمفردات من غير كتاب الطبري بعد أن تخبرت الصحيح جهد الطاقة وإذا ذكرت شيئاً في الأغلب نسبته إلى قائله.

وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تأليفهم في الفضل والعدالة والصحة، ولا ينظر في ذلك إلى حديث: الخلافة بعدي ثلاثون سنة فإنه لم يصح، والحق إن معاوية في عداد الخلفاء وإنما أخره المؤرخون في التأليف عنهم لأمرين:

الأول إن الخلافة لعهد كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعاً فميزوا بين الحالتين، فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبهون بعضهم ببعض وحاشى الله أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده، فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء الروائية ممن تلاه في المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة فكيف يكون خليفة ملكاً.

وأعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتية والمعر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصية والشوكة فلا ينافي الخلافة ولا النبوة فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبين وملكين وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة وبهما عز وجل. ومعاوية لم يطلب الملك ولا أبهته للإستكثار من الدنيا، وإنما ساقه أمر العصية بطبعها لما استولى المسلمون على الدولة كلها وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستعمل العصية وتدعو لطبيعة الملك.

وخطب الحسن أهل العراق وقال سخي نفسي عنكم ثلاث: قتل أبي وطعني وانتهاج بيتي، ثم قال ألا وقد أصبحت بين قبيلتين قبيل يصفين يكون له وقيل بالنهروان يطلبون بشاره وأما الباقي فخاذل، وأما الباقي فثائر وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفه، فإن أردتم الموت ردناه عليه وحاكمناه إلى الله بضبي السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى. فناداه الناس من كل جانب الباقية البقية فأمضى الصلح. ثم بايع لمعاوية لسته أشهر من بيعته. ودخل معاوية الكوفة وبايعه الناس، وكتب الحسن إلى قيس بن سعد يأمره بطاعة معاوية فقام قيس في أصحابه فقال: نحن بين القتال مع غير إمام أو طاعة إمام ضلالة، فقال له الناس: طاعة الإمام أولى.

وانصرفوا إلى معاوية فبايعوه وامتنع قيس وانصرف. فلما دخل معاوية الكوفة أشار عليه عمرو بن العاص أن يقيم الحسن للناس خطيباً ليبود للناس عيه، فلما قدم حمد الله وقال: أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإن لهذا الأمر مدة وإن الدنيا دول والله عز وجل يقول لنبيه: ﴿وَإِنْ أَذْرِي لَغَلُّهُ فُتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ فقال له معاوية: اجلس! وعرف أنه خدع في رايه.

ثم أرغل الحسن في أهل بيته وحشمهم إلى المدينة وخرج أهل الكوفة لوداعه باكين، فلم يزل مقيماً بالمدينة إلى أن هلك سنة تسع وأربعين. وقال أبو الفرج الأصبهاني سنة إحدى وخمسين على فراشه بالمدينة، وما ينقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية من ذلك.

وأقام قيس بن سعد على امتناعه من البيعة وكان معاوية قد بعث عبد الله بن عامر في جيش إلى عبيد الله بن عباس لما كتب إليه في الأمان بنفسه، فلقيه ليلاً وأمنه وسار معه إلى معاوية، فقام بأمر العسكر بعده قيس بن سعد وتعاقدا على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة علي على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة، وبلغ الخبر إلى معاوية وأشار عليه عمرو في قتاله، فقال معاوية: يقتل في ذلك أمثالهم من أهل الشام ولا خير فيه. ثم بعث إليه بصحيفة ختم في أسفلها وقال: اكتب في هذا ما شئت فهو لك: فكتب قيس له ولشيعة الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل مالا فاعطاه معاوية ذلك وبايعه قيس والشيعة الذين معه، ثم جاء سعد بن أبي وقاص فبايعه. واستقر الأمر لمعاوية واتفق الجماعة على بيعته وذلك في منتصف سنة إحدى وأربعين وسمي ذلك العام عام الجماعة من أجل ذلك.

ولذلك لما افترق أمر بني أمية وبني هاشم بالإسلام. إنما كان ذلك الافتراق بمحصار بني هاشم في الشعب لا غير. ولم يقع كبير فتنة لأجل نسيان العصبيات والذهول عنها بالإسلام حتى كانت الهجرة وشرع الجهاد. ولم يبق إلا العصية الطيعية التي لا تفارق وهي بعزة الرجل على أخيه وجاره في القتل والعدوان عليه فهذه لا يذهبها شيء ولا هي محظورة بل هي مطلوبة ونافعة في الجهاد والدعاء إلى الدين. ألا ترى إلى صفوان بن أمية وقوله عندما انكشف المسلمون يوم حنين وهو يومئذ مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ، فقال له أخوه: ألا بطل السحر اليوم؟ فقال له صفوان: اسكت! فض الله فاك لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن.

ثم إن شرف بني عبد مناف لم يزل في بني عبد شمس وبني هاشم. فلما هلك أبو طالب وهاجر بنوه مع رسول الله ﷺ وحزرة كذلك. ثم من بعده العباس والكثير من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم خلا الجو حيثئذ من مكان بني هاشم بمكة واستغلت رياسة بني أمية في قريش، ثم استحكمتها مشيخة قريش من سائر البطون في بدر وهلك فيها عظماء بني عبد شمس: عتبة وربيعة والوليد وعقبة بن أبي معيط وغيرهم. فاستقل أبو سفيان بشرف بني أمية والتقدم في قريش، وكان رئيسهم في أحل وقائدهم في الأحزاب وما بعدها.

ولما كان الفتح قال العباس للنبي ﷺ لما أسلم أبو سفيان ليلتذ، كما هو معروف وكان صديقاً له: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له ذكراً، فقال: « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ثم من على قريش بعد أن ملكهم يومئذ وقال: « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وأسلموا.

وشكت مشيخة قريش بعد ذلك لأبي بكر ما وجدوه في أنفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين الأولين، وما بلغهم من كلام عمر في تركه شوارهم فاعتذر لهم أبو بكر وقال: أدركوا إخوانكم بالجهاد وأنفذهم لحروب الردة فأحسنوا الغناء عن الإسلام وقوموا الأعراب عن الحيف والميل. ثم جاء عمر فرمى بهم الروم وأرغب قريشاً في التغير إلى الشام فكان معظمهم هنالك. واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عمواس سنة ثمانية عشرة فولى مكانه أخاه معاوية وأقره عثمان من بعد عمر فأتصلت رياستهم على قريش في الإسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولا ينسى عنها أيام شغل بني هاشم بأمر النبوة ونبتوا الدنيا من أيديهم بما اعتاضوا عنها من مباشرة الوحي وشرف القرب من الله برسوله.

وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استعمال أحكامه ودواعيه، والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار لا بالواهي، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي ﷺ في المسلمين، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا وإن سمي خليفة في المجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة أنهم كانوا أهل نسب واحد عظيمهم معاوية، فجعل مع أهل نسبه، والخلفاء الأولون مختلفو الأنساب فجعلوا في نمط واحد والحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوقة بهم قريباً في الفضل والله يحشرنا في زمرةهم ويرحمنا بالاعتداهم بهم.

تمت تكملة الجزء الثاني ويليهِ الجزء الثالث وأوله.

الخبر عن الدول الإسلامية ونبتاً منها بدولة بني أمية معقبه خلفاء صدر الإسلام وذكر أوليتهم وأخبار دولهم واحدة واحدة إلى انقضاءها

دولة بني أمية

كان لبني عبد مناف في قريش جمل من العدد والشرف. لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش. وكان فخذاهم بنو أمية وبنو هاشم حياً جميعاً يتنمون لعبد مناف وينسبون إليه. وقريش تعرف ذلك وتسال هم الرياسة عليهم إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً، والعزة إنما هي بالكثرة، قال الشاعر: وإنما العزة للكثير.

وكان لهم قبيل الإسلام شرف معروف انتهى إلى حرب بن أمية وكان رئيسهم في حرب الفجار. وحدث الإخباريون أن قريشاً توقعوا ذات يوم وحرب هذا مسند ظهره إلى الكعبة تتبادر إليه غلعة منهم ينادون يا عم أدرك قومك، فقام يجر إزاره حتى أشرف عليهم من بعض الربا ولوح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا فبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حمي وطيسهم.

ولما جاء الإسلام دهش الناس لما وقع من أمر النبوة والوحي وتنزل الملائكة، وما وقع من خوارق الأمور ونسي الناس أمر العصية مسلمهم وكافرهم. أما المسلمون فنهاهم الإسلام عن أمور الجاهلية كما في الحديث « أن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها لأنتم بنو آدم وآدم من تراب ». وأما المشركون فشغلهم ذلك الأمر العظيم عن شأن العصائب وذهلوا عنه حيناً من الدهر.

الخراج غيره، وكان على القضاء شريح.

ولما ولي المغيرة على الكوفة استعمل كثير بن شهاب على الري وأقره زياد بعده. وكان يغزو الديلم. ثم بعث على البصرة بسر بن أرطاة وكان قد تغلب عليها همران بن زيد عند صلح الحسن مع معاوية فبعث بسرأ عليها فخطب الناس وتعرض لعلي. ثم قال: نشدت الله رجلاً يعلم أنني صادق أو كاذب ولا صدقي أو كذبي. فقال أبو بكر: اللهم لا نعلمك إلا كاذباً فأمر به فخنق. فقام أبو لؤلؤة الضبي فدفع عنه. وكان على فارس من أعمال البصرة زياد ابن أبيه. وبعث إليه معاوية يطلبه في المال فقال: صرفت بعضه في وجهه واستودعت بعضه للحاجة إليه وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمه الله. فكتب إليه معاوية بالقدم لينظر في ذلك فامتنع. فلما ولي بسر على البصرة جمع عنده أولاد زياد والأكابر عبد الرحمن وعبد الله وعباد وكتب إليه لتقدم أو لأتلتن بنيك فامتنع واعتزم بسر على قتلهم فأتاه أبو بكره وكان أخا زياد لأمه فقال: أخذتهم بلا ذنب.

وصالح الحسن على أصحاب علي حيث كانوا فأمهله بسر إلى أن يأتي بكتاب معاوية. ثم قدم أبو بكره على معاوية وقال: إن الناس لم يبايعوك على قتل الأطفال وإن بسرأ يريد قتل بني زياد! فكتب إليه بتخليتهم وجاء إلى البصرة يوم المهاد ولم يبق منه إلا ساعة وهم موثقون للقتل فأدركهم وأطلقهم انتهى.

ثم عزل معاوية بسرأ عن البصرة وأراد أن يولي عتبة بن أبي سفيان فقال له ابن عامر: إن لي بالبصرة أموالاً وودائع وإن لم تولني عليها ذهبت. فولاه وجعل إليه معها خراسان وسجستان وقدمها سنة إحدى وأربعين فولى على خراسان قيس بن الهيثم السلمي وكان أهل بلخ وباذغيس وهراة وبوشنج قد نضوا، فسار إلى بلخ وحاصرها حتى سألوا الصلح وراجعوا الطاعة. وقيل إنما صالحهم الربيع بن زياد سنة إحدى وخمسين على ما سياتي.

ثم قدم قيس على ابن عامر فضره وحيسه وولى مكانه عبد الله بن حازم، وقدم خراسان فأرسل إليه أهل هراة وباذغيس وبوشنج في الأمان والصلح فأجابهم وحمل لابن عامر مالاً انتهى. ثم ولى معاوية سنة اثنتين وأربعين على المدينة مروان بن الحكم وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام. واستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل وعزل مروان عن المدينة سنة تسع وأربعين وولى مكانه سعيد بن العاص وذلك لثمان سنين من ولايته. وجعل سعيد على القضاء ابن عبد الرحمن مكان عبد الله بن الحارث ثم عزل معاوية سعيد سنة أربع وخمسين ورد إليها مروان.

وما زال الناس يعرفون ذلك لبني أمية. وانظر مقالة حفظة بن زياد الكاتب لمحمد بن أبي بكر: أن هذا الأمر إن صار إلى التغلب غلبك عليه بنو عبد مناف.

ولما هلك عثمان واختلف الناس على علي كانت عساكر علي أكثر عدداً لمكان الخلافة والفضل إلا أنها من سائر القبائل من ربيعة وعين وغيرهم. وجموع معاوية إنما هي جند الشام من قريش شوكة مضر وبأسهم نزلوا بثغور الشام منذ الفتح فكانت عصبية أشد وأمضى شوكة. ثم كسر من جناح علي ما كان من أمر الخوارج وشغله بهم إلى أن ملك معاوية وخلع الحسن نفسه واتفقت الجماعة على بيع معاوية في منتصف سنة إحدى وأربعين عندما نسي الناس شأن النبوة والخوارج ورجعوا إلى أمر العصبية والتغلب وتعين بنو أمية للغلب على مضر وسائر العرب ومعاوية يومئذ كبيرهم.

فلم تتعد الخلافة ولا ساهمه فيها غيره فاستوت قدمه واستفحل شأنه واستحكمت في أرض مصر رياسته وتوثق عقده. وأقام في سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة التي لم يكن أحد من قومه أوفر فيها منه يبدأ من أهل الترشيح من ولد فاطمة وبني هاشم وآل الزبير وأمثالهم ويصانع رؤوس العرب وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه. وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيها لا تنزع ومراقته فيها تزل عنها الأقدام.

ذكر أنه مازح عدي بن حاتم يوماً يؤنيه بصحبة علي فقال له عدي: والله إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ولئن أدنينت إلينا من الغدر شبراً لندنين إليك من الشر باعاً وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم، لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي فشم السيف يا معاوية يبعث السيف. فقال معاوية: هذه كلمات حتى فاكبوها وأقبل عليه ولاطفه وتحادنا وأخياره في الحلم كثيرة.

بعث معاوية العمال إلى الأمصار

لما استقل معاوية بالخلافة عام عدم الجماعة بعث العمال إلى الأمصار، فبعث على الكوفة المغيرة بن شعبة. ويقال إنه ولى عليها أولاً عبد الله بن عمرو بن العاص فأتاه المغيرة متصحفاً وقال عمرو بمصر وابنه بالكوفة فأتت بين نابي أسد فعزله وولى المغيرة. وبلغ ذلك عمراً فقال لمعاوية: يئتان المال فلا تقدر على رده فعد فاستعمل من يخافك. فنصب المغيرة على الصلاة وولى على

قدوم زياد

ثم إلى الرخج فقاتلوه وظفر بهم وفتحها اهـ. ثم إلى زابلستان وهي غزنة وأعمالها ففتحها ثم عاد إلى كابل وقد نكت أهلها ففتحها اهـ. واستعمل على ثغر الهند عبد الله بن سوار العبدي، ويقال: بل ولاه معاوية من قبله فغزا التبعان فأصاب مغنماً ووفد على معاوية وأهدى له من خيولها، ثم عاد إلى غزوهم فاستجدوا بالترك وقتلوه، وكان كريماً في الغاية. يقال: لم يكن أحد يوقد النار في عسكره، وسأل ذات ليلة عن نار رآها فقبل له خبيص يصنع لنساء فأمر أن يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام.

واستعمل على خراسان قيس بن الهيثم فتغافل بالخراج والهدنة فولى مكانه عبد الله بن حاتم. فخاف قيساً وأقبل فزاد ابنه عامر غضباً لتضييعه الثغر ويعت مكانه رجلاً من يشكر وقيل: أسلم بن زرعة الكلابي اهـ.

ثم بعث عبد الله بن حازم وقيل: إن ابن حازم قال لابن عامر: إن قيساً لا ينهض بخراسان وأخاف إن لقي قيس حرباً أن ينهزم ويفسد خراسان، فكتب لي عهداً إن عجز عن عدو قمت مقامه. فكتب وخرجت خارجة من طخارستان فأشار ابن حازم عليه أن يتأخر حتى يجتمع عليه الناس فلما سار غير بعيد أخرج ابن حازم عهده وقام بأمر الناس وهزم العدو. وبلغ الخبر إلى الأمصار فغضبت أصحاب قيس وقالوا: خدع صاحبنا، وشكوا إلى معاوية فاستقدمه فاعتذر فقبل منه، وقال له: أتم في الناس بعلمك ففعل اهـ. وفي سنة ثلاث وأربعين توفي عمرو بن العاص بمصر فاستعمل معاوية عبد الله ابنه.

عزل ابن عامر

وكان ابن عامر حليماً ليناً للشفاء فطرق البصرة الفساد من ذلك. وقال له زياد: جرد السيف فقال: لا أصلح الناس بفساد نفسي. ثم بعث وفداً من البصرة إلى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة ومنهم ابن الكوا وهو عبد الله بن أبي أوفى الشكري. فلما سالمهم معاوية عن الأمصار أجابه ابن الكوا بمعجز ابن عامر وضعفه فقال معاوية: تكلم على أهل البصرة وهم حضور، وبلغ ذلك ابن عامر فغضب وولى على خراسان من أعداء ابن الكوا عبد الله بن أبي شيخ الشكري أو طفيل بن عوف فسخر منه ابن الكوا لذلك وقال: وددت أنه ولي كل يشكري من أجل عداوتي.

ثم إن معاوية استقدم ابن عامر فقدم وأقام أياماً فلما ودعه قال: إني سائلك ثلاثاً قال هن لك، قال: ترد علي عملي ولا تغضب وتهب لي مالك بعرفة ودورك بمكة، قال: قد فعلت. قال:

وكان زياد قد امتنع بفارس بعد مقتل علي كما قدمناه وكان عبد الرحمن ابن أخيه أبي بكرة يلي أمواله بالبصرة ورفع إلى معاوية أن زياداً استودع أمواله عبد الرحمن فبعث إلى المغيرة بالكوفة أن ينظر في ذلك فأحضر عبد الرحمن وقال له: إن يكن أبوك أساء إلي فقد أحسن عمك وأحسن العذر عند معاوية.

ثم قدم المغيرة على معاوية فذكر له ما عنده من الوجيل باعتصام زياد بفارس فقال: داهية العرب معه أموال فارس يدبر الخيل فما آمن أن يسابع لرجل من أهل البيت ويعيد الحرب خدعة، فاستأذنه المغيرة أن يأتيه ويتلطف له ثم أتاه وقال: إن معاوية بعثني إليك وقد بايعه الحسن ولم يكن هناك غيره فخذ لنفسك قبل أن يستغي معاوية عنك. قال: أشر علي والمستشار مؤمن. فقال: أرى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله وترجع عنه. فكتب إليه معاوية بأمانه.

وخرج زياد من فارس نحو معاوية ومعه المنجاب بن رابيد الضبي وحارثة بن بدر الغداني، واعترضه عبد الله بن حازم في جماعة وقد بعثه ابن عامر ليأتيه به. فلما رأى كتاب الأمان تركه وقدم على معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق وبما حمل إلى علي وبما بقي عنده مودعاً للمسلمين فصدقته معاوية وقبضه منه. ويقال: إنه قال له: أخاف أن تكون مكروباً بي فصالحني فصالحه على ألفي ألف درهم بعث بها إليه واستأذنه في نزول الكوفة فأذن له. وكان المغيرة يكرمه ويعظمه وكتب إليه معاوية أن يلزم زياداً وحجر بن عدي وسليمان بن صرد وسيف بن ريعي وابن الكوا وابن الحميق بالصلاة في الجماعة فكانوا يحضرون معه الصلوات.

عمال ابن عامر على الثغور

لما ولي ابن عامر على البصرة استعمل عبد الرحمن بن سمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطتها عباد بن الحصين ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر وغيره. وكان أهل البلاد قد كفروا. ففتح أكثرها حتى بلغ كابل وحاصرها أشهراً ونصب عليها المجانيق حتى ثلم سورها ولم يقدر المشركون على سد الثلمة. ويات عباد بن الحصين عليها يطاعهم إلى الصبح، ثم خرجوا من الغد للقتال فهزمهم المسلمون ودخلوا البلدة عنوة اهـ.

ثم سار إلى نسف فملكها عنوة ثم إلى حسك فصالحه أهلها

أثاري ويعترض عمالي لقد هممت بقسامة من قريش أن أبا سفيان لم ير سمية. فأخبر زياد بذلك فأخبر به معاوية. فأمر حاجبه أن يردّه من أقصى الأبواب وشكا ذلك إلى يزيد، فركب معه فادخله على معاوية فلما رآه قام من مجلسه ودخل إلى بيته. فقال يزيد: تقعد في انتظاره فلم يزالا حتى عدا ابن عامر فيما كان منه من القول، وقال: إني لا أنكر زياد من قلة ولا أتعزز به من ذلة ولكن عرفت حق الله فوضعت موضعه فخرج ابن عامر وترضى زياداً ورضى له معاوية.

ولاية زياد البصرة

كان زياد بعد صلح معاوية واستلحاقه نزل الكوفة وكان يتشرف الإمارة عليها. فاستقل المغيرة ذلك منه فاستغنى معاوية من ولاية الكوفة فلم يعفه. فيقال: إنه خرج زياد إلى الشام، ثم إن معاوية عزل الحارث بن عبد الله الأزدي عن البصرة وولى عليها زياداً سنة خمس وأربعين. وجمع له خراسان وسجستان. ثم جمع له السند والبحرين وعمان، وقدم البصرة فخطب خطبته البتراء وهي معروفة. وإنما سميت البتراء لأنه لم يفتحها بالحمد والثناء، فحذرهم في خطبته ما كانوا عليه من الانهماك في الشهوات والاسترسال في الفسق والضلال، وانطلاق أيدي السفهاء على الجنايات وانتهاك الحرم وهم يدنون منهم، فاطال في ذلك، عثفهم ووبخهم وعرفهم ما يجب عليهم من الطاعة من المناصحة والانقياد للأمة. وقال: لكم عندي ثلاث: لا أحتجب عن طالب حاجة ولو طرقي ليلاً. ولا أحبس العطاء عن إياية ولا أجر البعوث. فلما فرغ من خطبته قال له عبد الله بن الأيهم: أشهد أنك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب. قال: كذبت ذاك نبي الله داود.

ثم استعمل على شرطته عبد الله بن حصين وأمره أن يمنع الناس من الولوج بالليل. وكان قد قال في خطبته: لا أوتي بمسدج إلا سفكت دمه. وكان يأمر بقراءة سورة البقرة بعد صلاة العشاء مؤخرة. ثم يهمل بقدر ما يبلغ الرجل أقصى البصرة. ثم يخرج صاحب الشرطة فلا يجد أحداً إلا قتله، وكان أول من شدد أمر السلطان وشيد الملك فجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه السفهاء والدعار وأمن الناس على أنفسهم ومتاعهم حتى كان الشيء يسقط من يد الإنسان فلا يتعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه ولا يفلت أحد بابه، وأدر العطاء واستكثر من الشرط فبلغوا أربعة آلاف.

وسئل في إصلاح السابلة فقال: حتى أصلح المصر. فلما

وصلتكم رحم، فقال ابن عامر: وإني سأنلك ثلاثاً: ترد علي عملي بعرفة ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع لي أثراً وتكحني إبتك هنداً. قال قد فعلت! ويقال: إن معاوية خيره بين أن يردّه على اتباع أثره وحسابه بما سار إليه أو يعزله ويسوغه ما أصاب. فاختر الثالثة فعزله وولى مكانه الحارث بن عبد الله الأسدي.

استخلاف زياد

كانت سمية أم زياد مولاة للحارث بن كندة الطيب وولدت عنده أبا بكره ثم زوجها بمولى له وولدت زياداً. وكان أبو سفيان قد ذهب إلى الطائف في بعض حاجاته فأصابها بنوع من أنكحة الجاهلية. وولدت زياداً هذا، ونسبه إلى أبي سفيان وأقر لها به، إلا أنه كان مجفياً، ولما شب زياد سميت به التجابة. واستكتبه أبو موسى الأشعري وهو على البصرة، واستكفاه عمر في أمر فحسن منار دينه وحضر عنده يعلمه بما صنع، فأبلغ ما شاء في الكلام. فقال عمرو بن العاص - وكان حاضراً -: لله هذا الغلام، لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. قال أبو سفيان وعليّ يسمع: والله إني لأعرف أباه ومن وضعه في رحم أمه، فقال له علي: اسكت فلو سمع عمر هذا منك كان إليك سريعاً. ثم استعمل علي زياداً على فارس فبسطها وكتب إليه معاوية يتهذبه ويعرض له بولادة أبي سفيان إياه فقام في الناس فقال: عجباً لمعاوية يخوفني دين ابن عم الرسول في المهاجرين والأنصار.

وكتب إليه علي: إني وليتك وأنا أراك أهلاً وقد كان من أبي سفيان فلتة من آمال الباطل وكذب النفس، لا توجب ميراثاً ولا نسباً. ومعاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فأحذر ثم أحذر والسلام اهـ.

ولما قتل علي وصالح زياد معاوية وضع مصقلة بن هبيرة الشيباني على معاوية ليعرض له بنسب أبي سفيان ففعل، ورأى معاوية أن يستميله باستلحاقه فالتمس الشهادة بذلك ممن علم لحوق نسب أبي سفيان فشهد له رجال من أهل البصرة والحقه، وكان أكثر شيعة علي ينكرون ذلك وينقمونه على معاوية حتى أخوه أبو بكره.

وكتب زياد إلى عائشة في بعض الأحيان من زياد بن أبي سفيان يستدعي جوابها بهذا النسب ليكون له حجة فكتبت إليه: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد. وكان عبد الله بن عامر يغيض زياداً وقال يوماً لبعض أصحابه من عبد القيس: ابن سمية يقبح

الروم بأهل الشام في البحر. وعقبه بن نافع بأهل مصر كذلك.

ثم بعث معاوية سنة خمسين جيشاً كثيراً إلى بلاد الروم مع سفيان بن عوف، وندب يزيد ابنه معهم فتشاقل فتركه. ثم بلغ الناس أن الغزاة أصابهم جوع ومرض وبلغ معاوية أن يزيد أنشد في ذلك:

ما إن أبالي بما لاقت جموعهم بالفدغ اليد من حمى ومن شوم
إذا اتطأت على الأنماط مرتفعاً بدير مران عندي أم كلثوم

وهي امرأته بنت عبد الله بن عامر فحلف ليلحقن بهم فسار في جمع كثير جمعهم إليه معاوية. فبهم ابن عباس وابن عامر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري فأوغلوا في بلاد الروم وبلغوا القسطنطينية وقتلوا الروم عليها. فاستشهد أبو أيوب الأنصاري ودفن قريباً من سورها. ورجع يزيد والعساكر إلى الشام ثم شتى فضالة بن عبيد بأرض الروم سنة إحدى وخمسين وغزا بسر بن أرطاة بالصائفة.

وفاة المغيرة

توفي المغيرة وهو عامل على الكوفة سنة خمسين بالطاعون، وقيل: سنة تسع وأربعين وقيل: سنة إحدى وخمسين، فولى مكانه معاوية زياداً وجمع له المصريين. فسار زياد إليها واستخلف على البصرة سمرة بن جندب. فلما وصل الكوفة خطبهم فحصبوه على المنبر. فلما نزل جلس على كرسي وأحاط أصحابه بأبواب المسجد يأتونه بالناس يستحلفهم على ذلك. ومن لم يحلف حبسه. فبلغوا ثمانين وأخذت المقصورة من يوم حبس. ثم بلغه عن أوفى بن حسين شيء فطلبه، فهرب ثم أخذه فقتله. وقال له عمارة بن عتبة بن أبي معيط: إن عمرو بن الحمق يجتمع إليه شيعة علي فارسل إليه زياد ونهاه عن الاجتماع عنده. وقال: لا أبيع أحداً حتى يخرج علي، وأكثر سمرة بن حنطب اليتامي بالبصرة. يقال: قتل ثمانية آلاف فانكر ذلك عليه زياد اهـ.

كان عمرو بن العاص قبل وفاته استعمل عقبة بن عامر بن عبد قيس على أفريقية، وهو ابن خالته انتهى إلى لواتة ومراتة، فاطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى. ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غدامس. وفي السنة التي بعدها ودان وكوراً من كور السودان وأثنى في تلك النواحي، وكان له فيها جهاد وفتوح. ثم ولاه معاوية على أفريقية سنة خمسين وبعث إليه عشرة آلاف فارس، فدخل أفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد، لأنهم كانوا إذا جاءت عساكر

ضبطه أصلح ما وراءه، وكان يستعين بعدة من الصحابة منهم عمران بن حصين ولاه قضاء البصرة فاستغنى، فولى مكانه عبد الله بن فضالة الليثي، ثم أخاه عاصماً، ثم زرارة بن أوفى وكانت أخته عند زياد، وكان يستعين بأنس بن مالك وعبد الرحمن بن سمرة وسمرة بن جندب. ويقال: إن زياداً أول من سير بين يديه بالحرايب والعمد، وأخذ الحرس رابطة، فكان خمسمائة منهم لا يفارقون المسجد. ثم قسم ولاية خراسان على أربعة فولى على مرو أمين بن أحمد الشكري، وعلى نيسابور خليلد بن عبد الله الحنفي وعلى مرو الروذ والعاربات والطالقان قيس بن الهيثم. وعلى هراة وباذغيس وبوشنج نافع بن خالد الطائي. ثم إن نافعاً بعث إليه بجواد باهر غنمه في بعض وجوهه، وكانت قوائمه منه، فأخذ منها قائمة وجعل مكانها أخرى ذهباً وبعث الجواد مع غلامه زيد وكان يتولى أموره فسعى فيه عند زياد بأمر تلك القائمة فعزله وجبسه، وأغرمه مائة ألف كتب عليه بها كتاباً، وقيل: ثمانمائة ألف. وشفع فيه رجال من الأزد فأطلقه. واستعمل مكانه الحكم بن عمرو الفغاري وجعل معه رجالاً على الجباية منهم أسلم بن زرعة الكلابي. وغزا الحكم طخارستان فغنم غنائم كثيرة. ثم سار سنة سبع وأربعين إلى جبال الغور، وكانوا قد ارتدوا، ففتح وغنم وسبى وعبر النهر في ولايته إلى ما وراءه. فملاها غارة. ولما رجع من غزاة الغور مات بمرو واستخلف على عمله أنس بن أبي إلياس بن ريين فلم يرزعه زياد. وكتب إلى خليلد بن عبد الله الحنفي بولاية خراسان، ثم بعث الربيع بن زياد الحاربي في خمسين ألفاً من البصرة والكوفة.

صوائف الشام

ودخل المسلمون سنة اثنتين وأربعين إلى بلاد الروم فهزموهم وقتلوا جماعة من البطارقة وأثخنوا فيها. ثم دخل بسر بن أرطاة أرضهم سنة ثلاث وأربعين ومشى بها وبلغ القسطنطينية. ثم دخل عبد الرحمن بن خالد وكان على حمص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة في البحر. ثم دخل عبد الرحمن إليها سنة ست وأربعين فشتى بها، وشتى أبو عبد الرحمن السبيعي على أنطاكية. ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين فشتى عبد الرحمن بأنطاكية أيضاً، ودخل عبد الله بن قيس الفزاري في تلك السنة بالصائفة. وغزاهم مالك بن هبيرة الشكري في البحر وعقبه بن عامر الجهني في البحر أيضاً بأهل مصر وأهل المدينة. ثم دخل مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم ودخل عبد الله بن كرز الجيلي بالصائفة وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوي في بلاد

بعث إليه فامتنع من الإجابة فبعث صاحب الشرطة شداد بن المهشم الهلالي إليه جماعة فسيهم أصحابه.

فجمع زياد أهل الكوفة وتهدهم فتهربوا. فقال: ليدع كل رجل منكم عشيرته الذين عند حجر ففعلوا حتى إذا لم يبق معه إلا قومه، قال زياد لصاحب الشرطة: انطلق إلي فأت به طوعاً أو كرهاً. فلما جاء يدعوه امتنع عن الإجابة فحمل عليهم وأشار إليه أبو العمرطة الكندي بأن يلحق بكندة فمنعوه، هذا وزياد على المنبر ينتظر. ثم غشيهم أصحاب زياد وضرب عمرو بن الحمق فسقط ودخل في دور الأزد فاخفى وخرج حجر من أبواب كندة فركب ومعه أبو العمرطة إلى دور قومه واجتمع إليه الناس ولم ياتيه من كندة إلا قليل.

ثم أرسل زياد وهو على المنبر مذبح وهمدان ليأتوه بحجر، فلما علم أنهم قصدوه تسرب من داره إلى النخع ونزل على أخيه الأشتر. وبلغه أن الشرطة تسال عنه في النخع. فأتى الأزد واخفى عند ربيعة بن ناجد، وأعياهم طلبه. فدعا حجر محمد بن الأشعث أن يأخذ له أماناً من زياد حتى يبعث به إلى معاوية، فجاء محمد ومعه جرير بن عبد الله وحجر بن يزيد وعبد الله بن الحارث أخو الأشتر فاستأمنوا له زياداً فأجابهم. ثم أحضروا حجراً فحبسه وطلب أصحابه فخرج عمرو بن الحمق إلى الموصل ومعه زواعة بن شداد فاخفى في جبل هناك.

ورفع أمرهما إلى عامل الموصل وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ابن أخت معاوية، ويعرف بابن أم الحكم. فسار إليهما وهرب زواعة وقبض على عمرو، وكسب إلى معاوية بذلك. فكتب إليه أنه طعن عثمان سباً بمشاقص كانت معه فاطعنه كذلك فمات في الأولى والثانية. ثم جد زياد في طلب أصحاب حجر وأتى ببيصة بن ضبيعة العنسي بأمان فحبسه. وجاء قيس بن عباد الشبلي برجل من قومه من أصحاب حجر فأحضره زياد وسأله عن علي فأنى عليه فضربه وجسه. وعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث، ثم دخل بيته في الكوفة وسعى به إلى الحجاج فقتله.

ثم أرسل زياداً إلى عبد الله بن خليفة الطائي من أصحاب حجر فتوارى وجاء الشرط فأخذوه. ونسأت أخته الفرار بقومه فخلصوه فأخذ زياد عدي بن حاتم وهو في المسجد وقال: اتني بعبد الله وخبره جهرة فقال: أتيتك بابن عمي تقتله؟ والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه فحبسه، فنكر ذلك الناس وكلموه وقالوا: تفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ وكبير طيئ قال: أخرجه على أن يخرج ابن عمه عني فأطلقه وأمر عدي عبد الله أن

المسلمين أسلموا، فإذا رجعوا عنهم ارتدوا. فرأى أن يتخذ مدينة يعصم بها العساكر من البربر فاخط القيروان وبنى بها المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم، وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمئة باع، وكملت في خمس سنين وكان يغزو ويبعث السرايا للإغارة والنهب، ودخل أكثر البربر في الإسلام. واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين.

ثم ولي معاوية على مصر وأفريقية مسلمة بن خلد الأنصاري واستعمل على أفريقية مولاة أبا المهاجر فأساء عزل عقبة واستخف به فسير ابن خلد الأنصاري عقبة إلى معاوية وشكا إليه فاعتزل له ووعدته برده إلى عمله، ثم ولاء يزيد سنة اثنتين وستين.

وذكر الواقدي أن عقبة ولي أفريقية سنة ست وأربعين فاخط القيروان ثم عزله يزيد سنة اثنتين وستين بأبي المهاجر. فحبست قض على عقبة وضيق عليه فكتب إليه يزيد يبعثه إليه وأعادته والياً على أفريقية فحبس أبا المهاجر إلى أن قتلهم جميعاً كسلة ملك البرانس من البربر كما نذكر بعد.

كان المغيرة بن شعبة أيام إمارته على الكوفة كثيراً ما يتعرض لعلي في مجالسه وخطبه، ويترحم على عثمان ويدعو له. فكان حجر بن عدي إذا سمعه يقول: بلبايكم قد أضل الله ولعن. ثم يقول: أنا أشهد أن من تذكرون أحق بالفضل، ومن تزكون أحق بالذم. فبعث له المغيرة يقول: يا حجر اتق غضب السلطان وسطوته، فإنها تهلك أمثالك لا يزيد على ذلك.

ولما كان آخر أمانة المغيرة قال في بعض أيامه مثل ما كان يقول فصاح به حجر ثم قال له: مر لنا بأرزاقنا فقد حبستنا منا وأصبحت مولعاً بدم المؤمنين، وصاح الناس من جوانب المسجد: صدق حجر فمر لنا بأرزاقنا، فالذي أنت فيه لا يجدي علينا نفعاً. فدخل المغيرة إلى بيته وعذله قومه في جراءة حجر عليه يوهن سلطانه، ويسخط عليه معاوية. فقال: لا أحب أن أتى يقتل أحد من أهل مصر. وسيأتي بعدي من يصنع معه مثل ذلك فيقتله.

ثم توفي المغيرة وولي زياد. فلما قدم خطب الناس وترحم على عثمان ولعن قاتليه. وقال حجر ما كان يقول، فسكت عنه ورجع إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث وبلغه أن حجراً يجتمع إليه شيعة علي ويعلمون بلعن معاوية والبراءة منهم وأنهم حصروا عمرو بن حريث فشخص إلى الكوفة حتى دخلها ثم خطب الناس وحجر جالس يسمع فتهدده وقال: لست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأودعه نكالا لمن بعده. ثم

يلحق بجبل طيخ فلم يزل هنالك حتى مات.

وبعث معاوية هدية بن فياض القضاعي، والحسين بن عبد الله الكلابي، وأبا شريف البدري إلى حجر وأصحابه ليقتلوا منهم من أمرهم يقتله فأتوهم وعرض عليهم البراءة من علي فأبوا وصلوا عامة ليلتهم. ثم قدموا من الغد للقتل. وتوضأ حجر وصلى وقال: لولا أن يظنوا بي الجزع من الموت لاستكثرت منها. اللهم إنا نستعديك على أمشاء أهل الكوفة، يشهدون علينا وأهل الشام يقتلوننا.

ثم مشى إليه هدية بن فياض بالسيف، فارتعد. فقالوا: كيف وأنت زعمت أنك لا تجزع من الموت؟ فأبى من صاحبك. وتدعك. فقال: وما لي لا أجزع وأنا بين القبر والكفن، والسيف. وإن جزعت من الموت لا أقول ما يسخط الرب فقتلوه وقتلوا ستة معه وهم: شريك بن شداد وصيفي بن فضيل وقيصة بن حنيفة، وعمرز بن شهاب، وكرام بن حبان ودفنهم وصلوا عليهم بعبد الرحمن بن حسان العنزي وحيء بكريم بن الخثعمي إلى معاوية فطلب منه البراءة من علي فسكت واستوهبه سمرة بن عبد الله الخثعمي من معاوية فوهبه له، على أن لا يدخل الكوفة، فنزل إلى الموصل. ثم سأل عبد الرحمن بن حسان عن علي فأنى خيراً. ثم عن عثمان فقال: أول من فتح باب الظلم وأغلق باب الحق. فردده إلى زياد ليقتله شر قتلة فدفعه حياً وهو سابع القوم.

وأما مالك بن هبيرة السكوني فلما لم يشفعه معاوية في حجر جمع قومه وسار ليخلصه وأصحابه فلقى القتلة وسألهم فقالوا: مات القوم. وسار إلى عدي فتيقن قتلهم فأرسل في أثر القتلة فلم يدركوهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها في نفسه وكأنني بها قد طفتت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حرباً فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه.

ولما بلغ عائشة خبر حجر وأصحابه، أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية يشفع فيهم فجاء وقد قتلوا. فقال لمعاوية: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ فقال: حيث غاب علي مثلك من حلماء قومي وحملني ابن سمية فاحتملت. وأسفت عائشة لقتل حجر وكانت تنني عليه. وقيل في سبابة الحديث غير ذلك. وهو أن زياداً أطال الخطبة في يوم الجمعة فتأخرت الصلاة فأنكر حجر ونادى بالصلاة فلم يلتفت إليه. وخشي فوت الصلاة فحصبه بكف من الحصباء وقام إلى الصلاة فقام الناس معه فخافهم زياد ونزل فصلى. وكتب إلى معاوية وعظم عليه الأمر، فكتب إليه أن يبعث به موثقاً في الحديد. وبعث من يقبض عليه فكان ما مر. ثم قبض عليه وحمله إلى معاوية، فلما رآه معاوية أمر بقتله فصلى

وأني زياد بكريم بن عفيف الخثعمي من أصحاب حجر وغيره. ولما جمع منهم اثني عشر في السجن دعا رؤوس الأرباع يومئذ وهم عمرو بن حريث على ريع أهل المدينة، وخالد بن عرفة على ريع نعيم وهمدان وقيس بن الوليد على ريع ربيعة وكندة، وأبو بردة بن أبي موسى على ريع مذحج وأسد. فشهدوا كلهم أن حجراً جمع الجموع وأظهر شتم معاوية، ودعا إلى حربه. وزعم أن الأمر لا يصلح إلا في الطالبين. ووثب بالمصر وأخرج العامل وأظهر غدر أبي تراب والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن النفر الذين معه وهم رؤوس أصحابه على مقدم رأيه.

ثم استكثر زياد من الشهود فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة والمنذر بن الزبير وعمارة بن عقبة بن أبي معيط وعمر بن سعد بن أبي وقاص وغيرهم. وفي الشهود شريح بن الحارث وشريح بن هانئ. ثم استدعى زياد وائل بن حجر الحضرمي وكثير بن شهاب ودفع إليهما حجر بن عدي وأصحابه وهم: الأرقم بن عبد الله الكندي وشريك بن شداد الحضرمي وصيفي بن فضيل الشيباني وقيصة بن ضبيعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي، وعاصم بن عوف البجلي وورقاء بن سمي البجلي، وكرام بن حبان العنزي وعبد الرحمن بن حسان العنزي وعمرز بن شهاب التميمي وعبد الله بن حوية السعدي. ثم اتبع هؤلاء الإحدى عشر بعتبة بن الأخنس من سعد بن بكر وسعد بن غوات الهمداني، وأمرهما أن يسيرا إلى معاوية. ثم لحقهما شريح بن هانئ ودفع كتابه إلى معاوية بن وائل.

ولما انتهوا إلى مرج غدراء قريب دمشق تقدم ابن وائل وكثير إلى معاوية، فقرأ كتاب شريح وفيه: بلغني أن زياداً كتب شهادتي وأني أشهد على حجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويدبم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، حرام الدم والمال فإن شئت فاقبله أو دعه. فقال معاوية: ما أرى هذا إلا أخرج نفسه من شهادتكم وحبس القوم بمرج غدراء حتى لحقهم عتبة بن الأخنس وسعد بن غوات اللذين ألحقهما زياد بهما. وجاء عامر بن الأسود العجيلي إلى معاوية فأخبره بوصولهما، فاستوهب يزيد بن أسد البجلي عاصماً وورقاء ابني عمه. وقد كتب يزيد يزكهما ويشهد ببراءتهما فأطلقهما معاوية. وشفع وائل بن حجر في الأرقم وأبو الأعور السلمي في ابن الأخنس وحبيب بن سلمة في أخويه فتركهم. وسأله مالك بن هبيرة السكوني في حجر فردده فغضب وحبس في بيته.

على البصرة عبد الله بن عمر بن غيلان وعزل بعد ذلك عبد الله بن خالد عن الكوفة وولى عليها الضحاك بن قيس.

ولاية عبيد الله بن زياد على خراسان ثم على البصرة

ولما قدم ابنه عبيد الله على معاوية وهو ابن خمس وعشرين سنة قال: من استعمل أبوك على المصريين؟ فأخبره فقال: لو استعملك لاستعملت. فقال عبيد الله: أنشدك الله أن يقول لي أحد بعدك لو استعملك أبوك وعمك استعملت. فولاه خراسان ووصاه فكان من وصيته: اتق الله ولا تؤثرن على تقواه شيئاً، فإن في تقواه عوضاً وق عرضك من أن تدنسه، وإن أعطيت عهداً فأوف به، ولا تبعن كثيراً بقليل، ولا يخرجن منك أمر حتى تبرمه فإذا خرج فلا يردن عليك. وإذا لقيت عوك فكبر أكبر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطعن أحدًا في غير حقه، ولا تؤنس أحدًا من حق هو له.

ثم ودعه فسار إلى خراسان أول سنة أربع وخمسين، وقدم إليها أسلم بن زرعة الكلابي، ثم قدم فقطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل ففتح رامين، ونسف وسكند. ولقيه الترك فهزمهم وكان مع ملكهم امرأته خاتون، فأعجلوها عن لبس خفيها، فأصاب المسلمون أحدهما وقوم بمائتي ألف درهم. وكان عبيد الله ذلك اليوم يحمل عليهم وهو يطعن حتى يغيب عن أصحابه ثم يرفع رايته تقطر دماً. وكان هذا الزحف من زحوف خراسان المعدودة، وكانت أربعة منها للأحفن بن قيس بهستان والمرعات. وزحف لعبد الله بن حازم قضى فيه جموع فاران.

وأقام عبيد الله والياً على خراسان سنتين وولاه معاوية سنة خمس وخمسين على البصرة. وذلك أن ابن غيلان خطب وهو أمير على البصرة. فحصبه رجل من بني ضبة فقطع يده فأتاه بنو ضبة يسألونه الكتاب إلى معاوية بالاعتذار عنه، وأنه قطع على أمر لم يصح، مخافة أن يعاقبهم معاوية جميعاً. فكتب لهم وسار ابن غيلان إلى معاوية رأس السنة وأوفاه الضبيون بالكتاب، فادعوا أن ابن غيلان قطع صاحبهم ظلماً. فلما قرأ معاوية الكتاب قال: أما القود من عمالي فلا سبيل إليه، ولكن أدي صاحبكم من بيت المال. وعزل عبد الله بن غيلان عن البصرة، واستعمل عليها عبيد الله بن زياد، فسار إليها عبيد الله وولى على خراسان أسلم بن زرعة الكلابي فلم يغز ولم يفتح.

ركعتين وأوصى من حضره من قومه لا تفكوا عني قيداً ولا تغسلوا دماً فأبى لاق معاوية غداً على الجادة وقتل اهـ.

وقالت عائشة لمعاوية: أين حلمك عن حجر؟ قال: لم يحضرني رشيد اهـ.

وكان زياد قد ولى الربيع بين زياد الحارثي على خراسان سنة إحدى وخمسين بعد أن هلك حسن بن عمر الغفاري وبعث معه من جند الكوفة والبصرة خمسين ألفاً فيهم بريدة بن الحبيب، وأبو برزة الأسلمي من الصحابة وغزا بلخ ففتحها صلحاً، وكانوا انتقضوا بعد صلح الأحمر بن قيس. ثم فتح قهستان عنوة واستحل من كان بناحيها من الترك، ولم يفلت منهم إلا قيزل طرخان. وقتله قتيبة بن مسلم في ولايته. فلما بلغ الربيع بن زياد بخراسان قتل حجر سخط لذلك وقال: لا تزال العرب تقتل بعده صبراً. ولو نكروا قتله منعوا أنفسهم من ذلك، لكنهم أقروا فذلوا. ثم دعا بعد صلاة جمعة لأيام من خبره وقال للناس: إني قد مللت الحياة، وإني داع فأمنا ثم رفع يديه وقال: اللهم إن كان لي عندك خبر فأقبضني إليك عاجلاً وأمن الناس. ثم خرج فما تواترت ثيابه حتى سقط، فحمل إلى بيته، واستخلف ابنه عبد الله ومات من يومه. ثم مات ابنه بعد شهرين واستخلف خليفه بن عبد الله الحنفي وأقره زياد.

وفاة زياد

ثم مات زياد في رمضان سنة ثلاث وخمسين بطاعون أصابه في يمينه يقال: بدعوة ابن عمر، وذلك أن زياداً كتب إلى معاوية أني ضبظت العراق بشمالي ويميني فارغة فأشغلها بالحجاز، فكتب له عهده بذلك، وخاف أهل الحجاز وأتوا عبد الله بن عمر يدعو لهم الله أن يكفيهم ذلك. فاستقبل القبلة ودعا معهم وكان من دعائه: اللهم اكفناه، ثم كان الطاعون فأصيب في يمينه فأشير عليه بقطعها فاستدعى شريحاً القاضي فاستشاره فقال: إن يكن الأجل فرغ فتلقى الله أجزم كراهية في لقاءه وإلا فتعيش أقطع، ويعبر ولدك. فقال: لا أبيت والطاعون في لحاف واحد، واعتزم على قطعها. فلما نظر إلى النار والمكاوي جزع وتركه، وقيل: تركه لإشارة شريح. وعذل الناس شريحاً في ذلك فقال: المستشار مؤتمن.

ولما حضرته الوفاة قال له ابنه: قد هيات لكفنك سنتين ثوباً. فقال: يا بني قد دنا لأبيك لباس خير من لباسه. ثم مات ودفن بالتوسة قرب الكوفة، وكان يلبس القميص ويرقعه. ولما مات استخلف على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد وكان خليفته

العهد ليزيد

خديج السكوني، وسار إلى مصر فاستقبله معاوية على مرحلتين منها، وقال: ارجع إلى حالك لا تسر فينا سيرتك في إخواننا أهل الكوفة فرجع إلى معاوية وأقام معاوية بن خديج في عمله.

ولاية عبد الرحمن بن زياد خراسان

وفي سنة تسع وخمسين قدم عبد الرحمن بن زياد وافداً على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين أما لنا حق؟ قال: بلى! فماذا قال توليني؟ قال: بالكوفة النعمان بن بشير من أصحاب رسول الله ﷺ بالبصرة وخراسان عبيد الله أخوك، ويسجستان عباد أخوك. ولا أرى ما شبهك إلا أن أشركك في عمل عبيد الله فإن عمله واسع يحتمل الشركة. فولاه خراسان فسار إليها، وقدم بين يديه قيس بن الهيثم السلمي، فأخذ أسلم بن زرعة وحبسه. ثم قدم عبد الرحمن فأغرمه ثلاثمائة ألف درهم.

وأقام بخراسان وكان متضعفاً لم يقر قط. وقدم على يزيد بين يدي قتل الحسين، فاستخلف على خراسان قيس بن الهيثم. فقال له يزيد: كم معك من مال خراسان؟ قال عشرون ألف درهم. فخبره بين أخذها بالحساب وردده إلى عمله أو تسويغه إياها وعزله، على أن يعطي عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم، فاختار تسويغها والعزل. وبعث إلى ابن جعفر بألف ألف وقال: نصفها من يزيد ونصفها مني.

ثم إن أهل البصرة وفدوا مع عبيد الله بن زياد على معاوية فأذن له على منازلهم ودخل الأحنف آخرهم وكان هياً المنزل من عبيد الله فرحب به معاوية وأجلسه معه على سريره. ثم تكلم القوم وأثنوا على عبيد الله وسكت الأحنف، فقال معاوية: تكلم يا أبا بحر فقال: أخشى خلاف القوم، فقال: انهضوا فقد عزلت عنكم عبيد الله واطلبوا والياً ترضونه، فطفق القوم يختلفون إلى رجال بني أمية وأشرف الشام، وقعد الأحنف في منزله ثم أحضرهم معاوية، وقال: من اخترتم؟ فسمى كل فريق رجلاً والأحنف ساكت. فقال معاوية: تكلم يا أبا بحر فقال: إن وليت علينا من أهل بيتك لم نعدل بعبيد الله أحداً، وإن وليت من غيرهم ينظر في ذلك. قال: فإني أعدته عليكم، ثم أوصاه بالأحنف وقبح رأيه في مبادئه. ولما هاجت الفتنة لم يعزله غير الأحنف ثم أخذ على وفد البصرة البيعة لابنه يزيد معهم.

ذكر الطبري بسنده قال: قدم المغيرة على معاوية فشكا إليه الضعف، فاستغفاه فأعفاه وأراد أن يولي سعيد بن العاص. وقال أصحاب المغيرة للمغيرة: إن معاوية قلاك، فقال لهم: رويداً ونهض إلى يزيد وعرض له بالبيعة. وقال: ذهب أعيان الصحابة وكبراء قريش ورادوا أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وسياسة، وما أدري ما يمنع أمير المؤمنين من العهد لك. فآدى ذلك يزيد إلى أبيه واستدعاه وفأوضه في ذلك. فقال: قد رأيت ما كان من الاختلاف وسفك الدماء بعد عثمان وفي يزيد منك خلف، فاعهد له يكون كهفاً للناس بعدك فلا تكون فتنة ولا يسفك دم. وأنا أكفيك الكوفة وكيفيك ابن زياد البصرة. فرد معاوية المغيرة إلى الكوفة، وأمره أن يعمل في بيعة يزيد. فقدم الكوفة وذاكر من يرجع إليه من شيعة بني أمية فأجابوه، وأوفد منهم جماعة مع ابنه موسى فدعاه إلى عقد البيعة ليزيد. فقال: أو قد رضيتموه؟ قالوا: نعم! نحن ومن وراءنا. فقال: نظر ما قدمت له ويقضي الله أمره، والأناة خير من العجلة ثم كتب إلى زياد يستنيره بفكر.

وكف عن هدم دار سعيد. وكتب سعيد إلى معاوية يعذله في إدخال الظفينة بين قرابته ويقول: لو لم تكن بني أب واحد لكانت قرابتنا ما جمعا الله عليه من نصرة الخليفة المظلوم يجب عليك أن تدعي ذلك فاعتذر له معاوية وتصل. وقدم سعيد عليه وسأله عن مروان فأنشئ خبراً فلما كان سنة سبع وخمسين عزل مروان وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وقيل: سنة ثمان وخمسين.

عزل الضحاك عن الكوفة وولاية ابن أم

الحكم ثم النعمان بن بشير

عزل معاوية الضحاك عن الكوفة سنة ثمان وخمسين وولى مكانه عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفي وهو ابن أم الحكم أخت معاوية فخرجت عليه الخوارج الذين كان المغيرة حبسهم في بيعة المستورد بن علقمة، وخرجوا من سجنه بعد موته. فاجتمعوا على حيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جرير الطائي، فسير إليهم عبد الرحمن الجيش من الكوفة فقتلوا أجمعين كما يذكر في أخبار الخوارج. ثم إن أهل الكوفة تفلوا عن عبد الرحمن سوء سيرته، فعزله معاوية عنهم. وولى مكانه النعمان بن بشير. وقال: أوليك خيراً من الكوفة، فولاه مصر، وكان عليها معاوية بن

بقية الصوائف

دخل بسر بن أرطاة سنة اثنتين وخمسين أرض الروم وشتى بها وقيل: رجع ونزل هناك سفيان بن عوف الأزدي فشتى بها وتوفي هناك اهـ.

وغزا بالصائفة محمد بن عبد الله الثقفي، ثم دخل عبد الرحمن بن أم الحكم سنة ثلاث وخمسين إلى أرض الروم وشتى بها وافتح في هذه السنة رودس، فتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون على حذر من الروم، ثم كانوا يعترضونه في البحر ويأخذون سفنه، وكان معاوية يدرهمهم بالعتاء حتى خافهم الروم ثم نقلهم يزيد في ولايته.

ثم دخل سنة أربع وخمسين إلى بلاد الروم محمد بن مالك وشتى بها وغزا بالصائفة ابن يزيد السلمي، وفتح المسلمون جزيرة أروى القسطنطينية ومقدمهم جنادة بن أبي أمية، فملكوها سبع سنين ونقلهم يزيد في ولايته. وفي سنة خمس وخمسين كان شتى سفيان بن عوف بأرض الروم، وقيل: عمر بن محرز وقيل: عبد الله بن قيس. وفي سنة ست وخمسين كان شتى جنادة بن أبي أمية، وقيل: عبد الرحمن بن مسعود، وقيل: غزا في البحر يزيد بن سمرة. وفي البر عياض بن الحارث. وفي سنة سبع وخمسين كان شتى عبد الله بن قيس بأرض الروم. وغزا مالك بن عبد الله الخثعمي في البر، وعمر بن يزيد الجهني في البحر.

وفي سنة ثمان وخمسين كان شتى عمر بن مرة الجهني بأرض الروم، وغزا في البحر جنادة بن أمية. وفتح المسلمون في هذه السنة حصن كلفج من بلاد الروم، وعليهم عمير بن الحباب السلمي صعد سورها وقاتل عليه وحده حتى انكشف الروم وفتحه. وفي سنة ستين غزا مالك بن عبد الله سوية وملك جنادة بن أبي أمية رودس وهدم مدينتها.

وفاة معاوية

وتوفي معاوية سنة ستين وكان خطب الناس قبل موته وقال: إني كززع مستحصد وقد طالت إمارتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني، وتميت فراقكم وتميت فراقني ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما أن من كان قبلي خير مني. وقد قيل من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. اللهم إني قد أحبيت لقاءك فأحب لِقائِي وبارك لي.

فلم يمض إلا قليل حتى ازداد به مرضه فدعا ابنه يزيد

وقال: يا بني إني قد كتبتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأمور وأخضعت لك رقاب العرب. وجمعت لك ما لم يجمعه أحد. وإني لا أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر الذي انتسب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما ابن عمر فرجل قد وقذته العباد، وإذا لم يبق غيره بايعك. وأما الحسين فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ما مثله حقاً عظيماً. وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله وليس له همة إلا في النساء. وأما الذي يئثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب وإذا أمكته فرصة وثب فذاك ابن الزبير. فإن هو فعلها بك وقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً.

هذا حديث الطبري عن هاشم وله عن هاشم من طريق آخر قال: لما حضرت وفاة معاوية سنة ستين كان يزيد غائباً فدعا بالضحاك بن قيس الفهري وكان صاحب شرطته، ومسلم بن عتبة المزني فقال: ابغيا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أهلك فأكرم من قدم إليك منهم وتعاهد من غاب. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أخف من أن يشهر عليك مائة ألف سيف. وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعينك، وإن رايك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتم فاراد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن قاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم. ولست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثاً ولم يذكر في هذا الطريق عبد الرحمن بن أبي بكر. وقال في ابن عمر: قد وقذه الدين فليس ملتصماً شيئاً قبلك. وقال في الحسين: ولو أني صاحبه عفوت عنه. وأنا أرجو أن يكفيك الله بمن قتل أباه وخذل أخاه. وقال في ابن الزبير: إذا شخص إليك فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحاً فأقبل واحقن دماء قومك ما استطعت.

وتوفي في منتصف رجب ويقال: في جمادى تسع عشرة سنة وأشهر من ولايته وكان على خاتمه عبد الله بن محصن الحميري وهو أول من اتخذ ديوان الخاتم، وكان سببه أنه أمر لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم، وكتب له بذلك إلى زياد بالعراق، ففض عمر الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، وأخذ عمر بردها وجبسه فأداها عنه أخوه عبد الله. فأحدث عند ذلك ديوان الخاتم، وحزم الكتب ولم تكن تحزم. وكان على شرطته قيس بن همزة الهمداني، فعزله ابن بيد بن عمر العدوي، وكان على حرسه المختار من مواليه. وقيل: أبو الحارثي مالك مولى حميرة وهو أول من اتخذ الخرس. وعلى حجابيه مولاة سعد، وكان كاتبه

فبعث إليهم وانصرفوا. وخرج ابن الزبير من ليلته مع أخيه جعفر وحدهما، وأخذوا طريق الفرع إلى مكة فسرَح الرحالة في طلبه فلم يدركوه ورجعوا وتشاغلو بذلك عن الحسين سائر يومه. ثم أرسل إلى الحسين يدعوه فقال: أصبحوا وترون وفري.

وسار في الليلة الثانية ببنيه وإخوته وبني أخيه إلا محمد بن الحنفية، وكان قد نصحه وقال: تنح عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابتعت دعائك إلى الناس، فإن أجابوك فاحد الله، وإن اجتمعوا على غيرك فلم يضر بذلك دينك ولا عقلك، ولم تذهب به مروءتك ولا فضلك. وأنا أخاف أن تأتي مصرأ أو قومأ فيختلفون عليك، فتكون الأول إساءة، فإذا خير الأمة نفسأ وأبأ أضييعها ذمارأ وأذلها. قال له الحسين: فإني ذاهب. قال: انزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فسيب ذلك، وإن فاتت بك لحقت بالرمال وشعب الجبال. ومن بلد إلى آخر حتى ننظر مصير أمر الناس، وتعرف الرأي. فقال: يا أخي نصحت وأشفقت! ولحق بمكة.

وبعث الوليد إلى ابن عمر ليبيع فقال: أنا أبيع أمام الناس، وقيل: ابن عمر وابن عباس كانا بمكة، ورجعا إلى المدينة فلقيا الحسين وابن الزبير وأخبراهما بموت معاوية وبيعة يزيد. فقال ابن عمر: لا تفرقا جماعة المسلمين، وقدم هو وابن عباس المدينة وبايعا عنه بيعة الناس. ولما دخل ابن الزبير مكة وعليها عمرو بن سعيد قال: أنا عائد بالبيت، ولم يكن يصلي ولا يقف معهم ويقف هو وأصحابه ناحية.

عزل الوليد عن المدينة وولاية عمرو بن

سعيد

ولما بلغ الخبر إلى يزيد بصنيع الوليد بن عتبة في أمر هؤلاء نفر، عزله عن المدينة واستعمل عليها عمرو بن سعيد الأشدق ققدمها في رمضان واستعمل على شرطه عمر بن الزبير بالمدينة لما كان بينه وبين أخيه من البغضاء، وأحضر نفرأ من شيعة الزبير بالمدينة فضرهم من الأربعين إلى الخمسين إلى الستين، منهم المنذر بن الزبير وابنه محمد، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ومحمد بن عمار بن ياسر وغيرهم. ثم جهز البعوث إلى مكة سبعمئة أو نحوها. وقال لعمر بن الزبير: من نبعث إلى أخيك؟ فقال: لا تجد رجلاً أنكى له مني. فجهز معه سبعمئة مقاتل فيهم أنس بن عمير الأسلمي. وعذله مروان بن الحكم في غزو مكة وقال له: اتق الله ولا تحل حرمة البيت. فقال: والله لنغزونه في جوف الكعبة.

وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي، وعلى القضاء فضالة بن عبد الله الأنصاري وبعده أبو دويس عائد بن عبد الله الخولاني.

بيعة يزيد

بويع يزيد بعد موت أبيه وعلى المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى الكوفة النعمان بن بشير. ولم يكن همه إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى الوليد بموت معاوية، وأن يأخذ حسينأ وابن عمر وابن الزبير بالبيعة من غير رخصة. فلما قرأ مروان الكتاب بنعي معاوية، استرجع وترحم، واستشاره الوليد في أمر أولئك النفر، فأشار عليه أن يحضرهم لوقته فإن بايعوا وإلا قتلهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فيشب كل رجل منهم في ناحية، إلا ابن عمر فإنه لا يجب القتال، ولا يجب الولاية، إلا أن يرفع إليه الأمر. فبعث الوليد لوقته عبيد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث، فجاء إلى الحسين وابن الزبير في المسجد في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس. وقال: أجيأ الأمير. فقالا: لا تنصرف إلا أن تأتيه، ثم حدثا فيما بعث إليهما، فلم يعلموا ما وقع.

وجمع الحسين فتياه وأهل بيته وسار إليهم فأجلسهم بالباب، وقال: إن دعوتكم أو سمعتم صوتي فادخلوا بأجمعكم. ثم دخل فسلم ومروان عنده فشكرهما على الصلة بعد القطيعة، ودعا لهما بإصلاح ذات البين. فأقرأه الوليد الكتاب بنعي معاوية ودعاه إلى البيعة، فاسترجع وترحم وقال: مثلي لا يسايح سرأ ولا يكفني بها مني، فإذا ظهرت إلى الناس ودعوتهم كان أمرنا واحداً وكنت أول مجيب. فقال الوليد: وكان يجب المسألة: انصرف. فقال مروان: لا يقدر منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتل بينك وبينهم، ألزمه البيعة وإلا اضرب عنقه. فوثب الحسين وقال: أنت تقتلني أو هو! كذبت والله! وانصرف إلى منزله. وأخذ مروان في عذل الوليد. فقال: يا مروان والله ما أحب أن لي ما طلعت الشمس من مال الدنيا وملكها، وإنني قتلت الحسين أن قال: لا أبايع.

وأما ابن الزبير فاخفى في داره وجمع أصحابه، وألح الوليد في طلبه، وبعث مواليه فشتموه وهددوه، وأقاموا ببابه في طلبه فبعث ابن الزبير أخاه جعفراً يلاطف الوليد ويشكو ما أصابه من الذعر، ويعدة بالحضور من الغداة، وأن يصرف رسله من بابه

عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، يكتب إلي بأمركم ورايكم، فإن اجتمع ملؤكم على مثل ما قدمت به رسلكم أقدم عليكم قريباً. ولعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، القائم بالقسط، يدين بدين الحق. وسار مسلم فدخل المدينة وصلى في المسجد وودع أهله واستأجر دليلين من قيس فضلاً الطريق وعطش القوم فمات الدليلان بعد أن أشارا إليهم بموضع الماء، فأتوهوا إليه وشربوا ونجوا. فتطير مسلم من ذلك، وكتب إلى الحسين يستغفیه. فكتب إليه: خشيت أن لا يكون حملك على ذلك إلا الجبن، فامض لوجهك والسلام.

وسار مسلم فدخل الكوفة أول ذي الحجة من سنة ستين، واختلف إليه الشيعة وقرأ عليهم كتاب الحسين، فبكوا ووعدهو النصر. وعلم مكانه النعمان بن بشير أمير الكوفة وكان حليماً ينجح إلى المسألة، فخطب وحذر الناس الفتنة. وقال: لا أقاتل من لا يقاتلني ولا آخذ بالظنة والتهمة، ولكن إن نكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله لأضربنكم بسيفي ما دام قائمتي بيدي، ولو لم يكن لي ناصر. فقال له بعض حلفاء بني أمية: لا يصلح ما ترى إلا الغشم، وهذا الذي أنت عليه مع عدوك رأي المستضعفين. فقال: أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعرزين في معصية الله. ثم تركه. فكتب عبد الله بن مسلم وعمار بن الوليد وعمارة بن سعد بن أبي وقاص إلى يزيد بالخبر، وتضعف النعمان وضعفه فابعث إلى الكوفة رجلاً قوياً ينفذ أمره ويعمل عملك في عدوك فأشار عليه سرجون.

مسيرة المختار إلى الكوفة وأخذها من ابن

المطيع بعد وقعة كربلاء

مضى إبراهيم إلى المختار وأخبره الخبر وبعثوا في الشيعة ونادوا بثار الحسين، ومضى إبراهيم إلى النخع فاستركبهم وسار بهم في المدينة ليلاً وهو يتجنب المراضع التي فيها الأمراء. ثم لقي بعضهم فهزمهم، ثم آخرين كذلك ثم رجع إلى المختار فوجد شيب بن رعيي وحجاز بن أبحر العجلي يقاتلانه فهزمهما، وحاشب بن المطيع فأشار إليه بجمع الناس والنهوض إلى القوم قبل. فولى أمرهم فركب واجتمع الناس وتوافى إلى المختار نحو أربعة آلاف من الشيعة وبعث ابن مطيع شيب بن رعيي في ثلاثة آلاف وربع بن إلياس في أربعة آلاف. فسرح إليهم المختار إبراهيم بن الأشتر لراشد في ستمائة فارس وستمائة راجل ونعيم بن هبيرة لثبث في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل واقتلوا من بعد صلاة

وجاء أبو شريح الخزاعي إلى عمرو بن سعيد فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس». فقال له عمرو: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ. وقيل: إن يزيد كتب إلى عمرو بن سعيد أن يبعث عمر بن الزبير بالجيش إلى أخيه، فبعثه في ألفي مقاتل وعلى مقدمته أنيس. فنزل أنيس بذي طوى ونزل عمر بالأبطح وبعث إلى أخيه أن ير يمن يزيد، فإنه حلف أن لا يقبل بيعة إلا أن يؤتى بك في جامعة فلا يضرب الناس بعضهم بعضاً، فإنك في بلد حرام. فأرسل عبد الله بن الزبير من اجتمع له من أهل مكة مع عبد الله بن صفوان فهزموا أنيساً بذي طوى وقتل أنيس في الهزيمة وتغلب عن عمر بن الزبير أصحابه فدخل دار ابن علقمة وأجاره عبدة بن الزبير. وقال لأخيه: قد أجرته فأنكر ذلك عليه. وقيل: إن صفوان قال لعبد الله بن الزبير: اكفي أخاك وأنا أكفيك أنيس بن عمر، وسار إلى أنيس فهزمه وقتله. وسار مصعب بن عبد الرحمن إلى عمر ففرق عنه أصحابه، وأجاره أخوه عبدة، فلم يميز أخوه عبد الله جواره وضربه بكل من ضربه بالمدينة وحبسه بسجن عارم ومات تحت السياط.

مسير الحسين إلى الكوفة ومقتله

ولما خرج الحسين إلى مكة لقيه عبد الله بن مطيع وسأله أين تريد؟ فقال: مكة! وأستخير الله فيما بعد، فنصحه أن لا يقرب الكوفة، وذكره قتلهم أباه وخذلانهم أخاه، وأن يقيم بمكة لا يفارق الحرم حتى يتداعى إليه الناس. ورجع عنه وترك الحسين بمكة فأقام والناس يختلفون إليه، وابن الزبير في جانب الكعبة يصلي ويطوف عامة النهار، ويأتي الحسين فيمن يأتي ويعلم أن أهل الحجاز لا يلقون إليه مع الحسين. ولما بلغ أهل الكوفة بيعة يزيد ولحاق الحسين بمكة اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد وكتبوا إليه عن نفر منهم سليمان والمسيب بن محمد، ورفاعة بن شداد، وجبيب بن مظاهر وغيرهم يستدعونهم وأنهم لم يبيعوا للنعمان، ولا يجتمعون معه في جمعة ولا عيد، ولو جئنا أخرجنه. وبعثوا بالكتاب مع عبد الله بن سبيع الهمداني، وعبد الله بن وال. ثم كتبوا إليه ثانياً بعد ليلتين نحو مائة وخمسين صحيفة، ثم ثالثاً يستحثونه للحاق بهم. كتب له بذلك شيب بن رعيي وحجاز بن أبحر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رويم وعروة بن قيس وعمر بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي.

فاجابهم الحسين: فهمت ما قصصتم وقد بعثت إليكم ابن

أحدهما إلى الحجاز مع جيش بن دجلة القيني وقدشاة ومقتلة والآخر إلى العراق مع عبيد الله بن زياد فكان من أمره وأمر التوايين من الشيعة ما تقدم. وأقام محاصراً لزفر بن الحارث بقرقيسياً، وهو مع قومه قيس على طاعة ابن الزبير، فاشتغل بهم عن العراق سنة أو نحوها. ثم توفي مروان وولى بعده عبد الملك فأقره على ولايته وأمره بالجد. ويش من أمر زفر وقيس فهض إلى الموصل فخرج عنها عبد الرحمن بن سعيد عامل المختار إلى تكريت، وكتب إلى المختار بالخبر، فبعث يزيد بن أنس الأسدي في ثلاثة آلاف إلى الموصل، فصار إليها على المدائن وسرح ابن زياد للقاءه ربيعة بن المختار الغنوي في ثلاثة آلاف فالتقيا بيبابل. وعسى يزيد أصحابه وهو راكب على حمار وحرصهم. وقال: إن مت فأمركم وبقاء بن عازب الأسدي وإن هلك فبعد الله بن ضمرة الفزاري، وإن هلك فبعد الخثعمي.

ثم اقتتلوا يوم عرفة وانهزم أهل الشام وقتل ربيعة، وسار الفل غير بعيد فلقاهم عبد الله بن حملة الخثعمي قد سرحه ابن زياد في ثلاثة آلاف فرد المنهزمين وعاد القتال يوم الأضحى، فانهزم أهل الشام وأثنى فيهم أهل الكوفة بالقتل والنهب، وأسروا منهم ثلاثمائة فقتلوه. وهلك يزيد بن أنس من آخر يومه وقام بأمرهم وبقاء بن عازب خليفته، وهاب لقاء ابن زياد بعد يزيد، وقال: نرجع بموت أميرنا قبل أن يتجرأ علينا أهل الشام بذلك. وانصرف الناس وتقدم الخبر إلى الكوفة فأرجف الناس بالمختار وأشيع أن يزيد قتل.

وسر المختار رجوع العسكر فسرح إبراهيم بن الأشتر في سبعة آلاف وضم إليه جيش يزيد ثم تأخر ابن زياد فصار لذلك. ثم اجتمع أشراف الكوفة عند شيث بن ربعي وكان شيخهم جاهلياً إسلامياً، وشكوا من سيرة المختار وإيثاره الموالي عليهم، ودعوه إلى الثوب به. فقال: حتى ألقاه وأعذر إليه، ثم ذهب إليه وذكر له جميع ما نكروه فوعده الرجوع إلى مرادهم، وذكر له شأن الموالي وشركهم في الفيء. فقال: إن أعطيتهموني عهدكم على قتال بني أمية وابن الزبير تركتهم. فقال: أخرج إليهم بذلك وخرج فلم يرجع. واجتمع رأيهم على قتاله وهم شيث بن ربعي ومحمد بن الأشعث وعبد الرحمن بن سعد بن قيس وشمر بن ذي الجوشن وكعب بن أبي كعب النخعي، وعبد الرحمن بن غنم الأزدي. وقد كان ابن غنم أشار عليهم بأن يجهلوه لقدم أهل الشام وأهل البصرة فيكفونكم أمره قبل أن يقاتلكم بمواليكم وشجعانكم وهم عليكم أشد، فأبوا من رأيه وقالوا: لا تفسد جماعتنا.

ثم خرجوا وشهروا السلاح وقالوا للمختار: اعتزلنا فإن

الصبح. وقتل نعيم فوهن المختار لقتله وظهر شيث وأصحابه عليهم. وقاتل إبراهيم بن الأشتر راشد بن إلياس فقتله، وانهزم أصحابه وركبهم الفشل.

وبعث ابن المطيع جيشاً كثيفاً فهزمهم، ثم حل على شيث فهزمه، وبعث المختار فمنعه الرماة من دخول الكوفة. ورجع المنهزمون إلى ابن مطيع فدهش فشجعه عمر بن الحجاج الزبيدي وقال له: أخرج واندب الناس ففعل. وقام في الناس ويؤمهم على هزيمتهم وندبهم. ثم بعث عمر بن الحجاج في ألفين وشمر بن ذي الجوشن في ألفين ونوفل بن مساحق في خمسة آلاف. ووقف هو بكتابه.

واختلف على القصر شيث بن ربعي فحمل ابن الأشتر على ابن مساحق فهزمه وأسر، ثم من عليه. ودخل ابن مطيع القصر وحاصره إبراهيم بن الأشتر ثلاثاً ومعه يزيد بن أنس وأحد بن شميطة، ولما اشتد الحصار على ابن مطيع، أشار عليه شيث بن ربعي بأن يستأمن للمختار، ويلحق بابن الزبير وله ما يده. فخرج عنهم مساء ونزل دار أبي موسى. واستأمن القوم للمختار فدخل القصر وغدا على الناس في المسجد فخطبهم، ودعاهم إلى بيعة ابن الحنفية، فبايعه أشراف الكوفة على الكتاب والسنة، واللفظ بأهل البيت، ووعدهم بحسن السيرة. وبلغه أن ابن مطيع في دار موسى فبعث إليه بمائة ألف درهم وقال: يجهز بهذه.

وكان ابن مطيع قد فرق بيوت الأموال على الناس، وسار ابن مطيع إلى وجهه وملك الكوفة، وجعل على شرطته عبد الله بن كامل، وعلى حرسه كيسان أبا عمرة، وجعل الأشراف جلساءه، وعقد لعبد الله بن الحارث بن الأشتر على أرمينية، ولمحمد بن عمير بن عطار على أذربيجان، ولعبد الرحمن بن سعيد بن قيس على الموصل، ولإسحاق بن مسعود على المدائن، ولسعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان. وأمره بقتال الأكراد وإصلاح السابلة. وولى شريحاً على القضاء. ثم طعت فيه الشيعة بأنه شهد على حجر بن عدي، ولم يبلغ عن هاني بن عروة رسالته إلى قومه وأن علياً غرمه وأنه عثمانى. وسمع ذلك هو فتمارض فجعل مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم مرض فولى مكانه عبد الله بن مالك الطائي.

مسيرة ابن زياد إلى المختار وخلافة أهل الكوفة عليه

كان مروان بن الحكم لما استوثق له الشام بعث جيشين

بعث المختار على قتلة الحسين أن يزيد بن شراحيل الأنصاري قدم على محمد بن الحنفية، فقال له ابن الحنفية: يزعم المختار أن لنا شيعة وقتلة الحسين عنده على الكراسي يحدثونه. فلما سمع المختار ذلك تبعهم بالقتل وبعث برأس عمرو ابنه إلى ابن الحنفية وكتب إليه أنه قتل من قدر عليه وهو في طلب الباقيين. ثم أحضر حكيم بن طفيل الطائي، وكان رمى الحسين بسهم، وأصاب سلب العباس ابنه. وجاء عدي بن حاتم يشفع فيه فقتله ابن كامل والشيعة قبل أن يصل حذراً من قبول المختار شفاعته. وبحث عن مرة بن منذر بن عبد القيس قاتل علي بن الحسين فدافع عن نفسه ونجا إلى مصعب بن الزبير وقد شلت يده بضربة. وبحث عن زيد وفاد الحسين قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل رماه بسهمين وقد وضع كفه على جبهته يتقي النبل فأثبت كفه في جبهته وقتله بالأخرى فخرج بالسيف يدافع. فقال ابن كامل: ارموه بالحجارة فرموه حتى سقط وأحرقوه حياً. وطلب سنان بن أنس الذي كان يدعي قتل الحسين فلحق بالبصرة. وطلب عمر بن صبح الصدائي فقتله طعناً بالرماح، وأرسل في طلب محمد بن الأشعث وهو في قريته عند القادسية فهرب إلى مصعب وهدم المختار داره. وطلب آخرين كذلك من المتهمين بأمر الحسين فلحقوا بمصعب وهدم دورهم.

شان المختار مع ابن الزبير

كان على البصرة الحارث بن أبي ربيعة وهو القُباع عاملاً لابن الزبير. وعلى شرطته عباد بن حسين وعلى المقاتلة قيس بن الهيثم. وجاء المثنى بن خزيمة العبدي وكان ممن شهد مع سليمان بن صرد، ورجع فبايع للمختار وبعثه إلى البصرة يدعو له بها فأجابه كثير من الناس، وعسكر لحرب القباع. فسرح إليه عباد بن حسين وقيس بن الهيثم في العساكر فانهمز المثنى إلى قومه عبد القيس، وأرسل القباع عسكراً يأتونه به. فجاءه زياد بن عمر العنكي فقال له: لتردن خيلك عن إخواننا أو لقتلناهم فأرسل الأحنف بن قيس وأصلح الأمر على أن يخرج المثنى عنهم فصار إلى الكوفة.

وقد كان المختار لما أخرج ابن مطيع من البصرة كتب إلى ابن الزبير يخادعه ليم أمره في الدعاء لأهل البيت، وطلب المختار في الوفاء بما وعده به الولاية، فأراد ابن الزبير أن يتبين الصحيح من أمره، فولى عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام على الكوفة، وأعلمه بطاعة المختار وبعثه إليها. وجاء الخبر إلى المختار،

ابن الحنفية لم يبعثك. قال: نبعث إليه الرسل مني ومنكم، وأخذ يملهم بأمثال هذه المراجعات وكف أصحابه عن قتالهم ينتظر وصول إبراهيم بن الأشتر، وقد بعث إليه بالرجوع. فجاء قرأى القوم مجتمعين ورفاعة بن شداد البجلي يصلي بهم. فلما وصل إبراهيم عباً المختار أصحابه وسرح بين يديه أحمد بن شميظ البجلي وعبد الله بن كامل الشادي فانهمز أصحابهما وصبرا ومدهما المختار بالفرسان والرجال فوجاً بعد فوج، وسار ابن الأشتر إلى مصر وفيهم شيث بن ربيعي فقاتلوه فهزمهم فاشتد ابن كامل على اليمن ورجع رفاعة بن شداد أمامهم إلى المختار فقاتل معه حتى قتل من أهل اليمن عبد الله بن سعيد بن قيس، والفرات بن زحر بن قيس، وعمر بن غنم. وخرج أخوه عبد الرحمن فمات وانهمز أهل اليمن هزيمة قبيحة وأسر من الوادعيين خمسمائة أسير فقتل المختار كل من شهد قتل الحسين منهم فكانوا نصفهم وأطلق الباقيين.

ونادى المختار الأمان إلا من شهد في دماء أهل البيت وفر عمر بن الحجاج الزبيدي، وكان أشد من حضر قتل الحسين، فلم يوقف له على خير. وقيل أدركه أصحاب المختار فأخذوا رأسه، وبعث في طلب شمر بن ذي الجوشن، فقتل طالبه وانتهى إلى قرية الكلبانية فارتاح يظن أنه نجى... وإذا في قرية أخرى بإزائه أبو عمرة صاحب المختار، بعثه مسلحة بينه وبين أهل البصرة، فتمشي إليه خبره فركب إليه فقتله وألقى شلوه للكلاب.

والجملت الرقعة عن سبعمائة وثمانين قتيلاً أكثرهم من اليمن، وكان آخر سنة ست وستين، وخرج أشراف الناس إلى البصرة وتبع المختار قتلة الحسين ودل على عبيد الله بن أسد الجهني ومالك بن نسير الكندي. وحمل ابن مالك الحاربي بالقادسية فأحضرهم وقتلهم. ثم أحضر زياد بن مالك الضبي وعمران بن خالد العثري وعبد الرحمن بن أبي حشكاره البجلي، وعبد الله بن قيس الخولاني، وكانوا نهبوا من الورث الذي كان مع الحسين فقتلهم. وأحضر عبد الله أو عبد الرحمن بن طلحة وعبد الله بن وهيب الهمداني ابن عم الأعشى فقتلهم. وأحضر عثمان بن خالد الجهني وأبا أسماء بشر بن سميظ القابسي، وكانا مشتركين في قتل عبد الرحمن بن عقيل وفي سلبه، فقتلهم وأحرقهما بالنار.

وبحث عن خولي بن يزيد الأصبحي صاحب رأس الحسين، فجيء برأسه وحرق بالنار. ثم قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص بعد أن كان أخذ له الأمان منه عبد الله بن أبي جعدة بن هبيرة فبعث أبا عمرة فجاءه برأسه وابنه حفص عنده. فقال: تعرف هذا؟ قال: نعم! ولا خير في العيش بعده فقتله. ويقال: إن الذي

درهم وساروا إلى مكة فدخلوا المسجد الحرام وبأيديهم الخشب كراهة إشهار السيوف في الحرم وطفقوا يتأدون بثار الحسين حتى انتهوا إلى زمزم. وأخرج ابن الحنفية وكان قد بقي من أجله يومان، واستأذنه في قتال ابن الزبير، فقال: لا أستحل القتال في الحرم. ثم جاء باقي الجند وخافهم ابن الزبير وخرج ابن الحنفية إلى شعب علي واجتمع له أربعة آلاف رجل فقسم بينهم المال.

ولما قتل المختار واستوثق أمر ابن الزبير بعث إليهم في البيعة فخافه على نفسه وكتب لعبد الملك فأذن له أن يقدم الشام حتى يستقيم أمر الناس ووعد بالإحسان. وخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام. ولما وصل مدين لقيه خبر مهلك عمرو بن سعيد فندم وأقام بأيلة، وظهر في الناس فضله وعبادته وزهده. وكتب له عبد الملك أن يبايعه فرجع إلى مكة ونزل شعب أبي طالب، فأخرجه ابن الزبير فسار إلى الطائف، وعذّل ابن عباس بن الزبير على شأنه، ثم خرج عنه ولحق بالطائف ومات هنالك. وصلى عليه ابن الحنفية وعاش إلى أن أدرك حصار الحجاج لابن الزبير.

ولما قتل ابن الزبير بايع لعبد الملك وكتب عبد الملك إلى الحجاج بتعظيم حقه ووسط أمله، ثم قدم إلى الشام وطلب من عبد الملك أن يرفع حكم الحجاج عنه ففعل، وقيل: إن ابن الزبير بعث إلى ابن عباس وابن الحنفية في البيعة حتى يجتمع الناس على إمام، فإن في هذه فتنة. فحبس ابن الحنفية في زمزم وضيق على ابن عباس في منزله وأراد إحراقهما فأرسل المختار جيشه كما تقدم ونفس عنهما. ولما قتل المختار قوي ابن الزبير عليهما فخرجوا إلى الطائف.

مقتل ابن زياد

ولما فرغ المختار من قتال أهل الكوفة آخر سنة ست وستين بعث إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد وبعث معه وجوه أصحابه وفرسانهم وشيعته وأوصاءه. وبعث معه بالكرسي الذي كان يستنصر به وهو كرسي قد غشاه بالذهب. وقال للشيعه: هذا فيكم مثل التابوت في بني إسرائيل، فكبر شأنه وعظم. وقاتل ابن زياد فكان له الظهور واقتن به الشيعة، ويقال: إنه كرسي علي بن أبي طالب، وأن المختار أخذه من والد جعدة بن هبيرة، وكانت أمه أم هانئ بنت أبي طالب فهو ابن أخت علي. ثم أسرع إبراهيم بن الأشتر في السير وأوغل في أرض الموصل، وكان ابن زياد قد ملكها كما مر.

فلما دخل إبراهيم أرض الموصل عيّن أصحابه، ولما بلغ نهر

فبعث زائدة بن قدامة في خمسمائة فارس، وأعطاه سبعين ألف درهم، وقال: ادفعها إلى عمر فهي ضعف ما أتفق، وأمره بالانصراف بعد تمكث، فإن أبي فاره الخيل فكان كذلك. ولما رأى عمر الخيل أخذ المال وسار نحو البصرة، واجتمع هو وابن مطيع في إمارة القباع قبل وثوب ابن مخزومة. وقيل: إن المختار كتب إلى ابن الزبير إنني اتخذت الكوفة داراً فإن سوغتني ذلك وأعطيني مائة ألف درهم سرت إلى الشام وكفيتك مروان. فمتمتع من ذلك. فأقام المختار بطاعته ويوآده ليغفر لأهل الشام.

ثم بعث عبد الملك بن مروان عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى فكتب المختار إلى ابن الزبير يعرض عليه المدد فأجابته أن يعجل بإنفاذ الجيش إلى جند عبد الملك بوادي القرى فشرح شرحبيل بن دوس الهمداني في ثلاثة آلاف أكريم من الموالي وأمره أن يأتي المدينة ويكتبه بذلك، واتهمه ابن الزبير فبعث من مكة عباس بن سهل بن سعد في ألفين وأمره أن يستنفر العرب وإن رأى من جيش المختار خلافاً ناجزهم وأهلكهم. فلحقهم عباس بالرقيم وهم على تعبئة فقال: سيروا بنا إلى العدو الذي بوادي القرى. فقال ابن دوس: إنما أمرني المختار أن آتي المدينة فقطن عباس لما يريد. فأتاهم بالعلفة والزاد وتخبر الفأ من أصحابه وحمل عليهم فقتل ابن دوس وسبعين معه من شجعان قومه وأمن الباقيين فرجعوا للكوفة، ومات أكثرهم في الطريق.

وكتب المختار إلى ابن الحنفية يشكو ابن الزبير، ويوهمه أنه بعث الجيش في طاعته، ففعل بهم ابن الزبير ما فعل. ويستأذنه في بعث الجيوش إلى المدينة وبعث ابن الحنفية عليهم رجلاً من قبله فيفهم الناس أنني في طاعتك، فكتب إليه ابن الحنفية: قد عرفت قصدك ووفاءك بحقي وأحب الأمر إلى الطاعة، فاطع الله وتجنب دماء المسلمين. فلو أردت القتال لوجدت الناس إلى سراعاً والأعوان كثيراً لكنني اعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ثم دعا ابن الزبير محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وشيعته إلى البيعة فامتنع وبعث إليه ابن الزبير وأغلظ عليه وعليهم، فاستكانوا وصبروا فتركهم. فلما استولى المختار على الكوفة وأظهر الشيعة دعوة ابن الحنفية خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس إلى الرضا به، فاعتزم عليهم في البيعة، وتوغلهم بالقتل، وحبسهم بزمزم، وضرب لهم أجلاً. وكتب ابن الحنفية إلى المختار بذلك فأخبر الشيعة ونديهم وبعث أمراء منهم في نحو ثلاثمائة، عليهم أبو عبد الله الجدلي. وبعث لابن الحنفية أربعمائة ألف

مسير مصعب إلى المختار وقتله إياه

كان ابن الزبير في أول سنة سبع وستين أو آخر ست عزل الحارث بن ربيعة وهو القبايع وولى مكانه أخاه مصعباً فقدم البصرة وصعد المنبر وجاء الحارث فأجلسه مصعب تحته بدرجة ثم خطب وقرأ الآيات من أول القصص ونزل ولحق به أشرف الكوفة حتى قربوا من المختار، ودخل عليه شيث بن ربيعي وهو ينادي واغوثاه ثم قدم محمد بن الأشعث بعده واستوثقوه إلى المسير وبعث إلى المهلب بن أبي الصفرة وهو عامله على فارس ليحضر معه قتال المختار فأبطأ وأغفل. فأرسل إليه محمد بن الأشعث بكتابه، فقال المهلب: ما وجد مصعب بريداً غيرك؟ فقال: ما أنا ببريد ولكن غلبنا عبيدنا على أبنائنا وحرمانا فأقبل معه المهلب بالجموع والأموال وعسكر مصعب عند الجسر فأرسل عبد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة سراً ليثبط الناس عن المختار ويدعو إلى ابن الزبير. وسار على التعيبة وبعث في مقدمته عباد بن الحصين الحطبي التميمي وعلى ميمته عمر بن عبيد الله بن معمر، وعلى مسيرته المهلب.

وبلغ الخبر المختار فقام في أصحابه، وقربهم إلى الخروج مع ابن شميظ وعسكر مع محمد في أعقر. وبعث رؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر مع ابن شميظ وأصحابه فثبتوا وحمل المهلب من الميسرة على ابن كامل فثبت ثم كرّ المهلب وحمل حملة منكرة وصبر ابن كامل قليلاً وانهزموا وحمل الناس جميعاً على ابن شميظ فانهزم وقتل. واستمر القتال في الرجالة وبعث مصعب عباداً فقتل كل أسير أخذه. وتقدم محمد بن الأشعث في خيل من أهل الكوفة فلم يدركوا منهزماً إلا قتلوه. ولما فرغ مصعب منهم أقبل فقطع الفرات من موضع واسط وحملوا الضعفاء وأتقاهم في السفن ثم خرجوا إلى نهر الفرات وسار إلى الكوفة. ولما بلغ المختار خبر الهزيمة ومن قتل من أصحابه وأن مصعباً أقبل إليه في البر والبحر سار إلى مجتمع الأنهار نهر الجزيرة والمسلحين والقادسية ونهر يسر. فسكر الفرات فلذهب ماؤه في الأنهار.

وبقيت سفن أهل البصرة في الطين فخرجوا إلى السكر وأزالوه وقصدوا الكوفة. وسار المختار ونزل حروراء بعد أن حصن القصر وأدخل عدة الحصار، وأقبل مصعب وعلى ميمته المهلب، وعلى مسيرته عمر بن عبيد الله، وعلى الخيل عباد بن الحصين، وجعل المختار على ميمته سليم بن يزيد الكندي، وعلى مسيرته سعيد بن منقذ الهمداني وعلى الخيل عمر بن عبيد الله النهدي. ونزل محمد بن الأشعث فيمن هرب من أهل الكوفة بين

الحارم بعث على مقدمته الطفيل بن لقيط النخعي، ونزل ابن زياد قريباً من النهر وكانت قيس مطقة على بني مروان عند المرج، وجند عبد الملك يومئذ فلقى عمير بن الحباب السلمي إبراهيم بن الأشتر وأوعده أن ينهزم بالميسرة، وأشار عليه بالمشاجرة. ورأى عند ابن الأشتر ميلاً إلى الطاولة فثنا عن ذلك. وقال: إنهم ميلوا منكم رعباً وإن طاولتهم اجترؤوا عليكم. قال: وبذلك أوصاني صاحبي. ثم عى أصحابه في السحر الأول، ونزل يمشي ويحرض الناس حتى أشرف على القوم. وجاء عبد الله بن زهير السلولي بأنهم خرجوا على دهش وفشل وابن الأشتر يحرض أصحابه ويذكرهم أفعال ابن زياد وأبيه.

ثم التقى الجمعان وحمل الحصين بن نمير من ميمنة أهل الشام على ميسرة إبراهيم فقتل علي بن مالك الخثعمي، ثم أخذ الراية فرد ابن علي فقتل، وانهزمت الميسرة، فأخذ الراية عبد الله بن ورقاء بن جنادة السلولي، ورجع بالمنهزمين إلى الميسرة كما كانوا. وحملت ميمنة إبراهيم على ميسرة ابن زياد وهم يرجون أن ينهزم عمير بن الحباب كما وعدهم فمئنته الأنفة من ذلك وقاتل قتالاً شديداً. وقصد ابن الأشتر قلب العسكر وسواده الأعظم، فاقتلوا أشد قتال حتى كانت أصوات الضرب بالحديد كأصوات القصارين، وإبراهيم يقول لصاحب رايته: انغمس برايتك فيهم. ثم حلوا حملة رجل واحد فانهزم أصحاب ابن زياد. وقال ابن الأشتر: إني قتل رجلاً تحت راية منفردة شمعت منه رائحة المسك وضرته بسيفي فقصمته نصفين فالتمسوه فإذا هو ابن زياد فأخذت رأسه وأحرق جثته. وحمل شريك بن جدير الثعلبي على الحصين بن نمير فاعتقله وجاء أصحابه فقتلوا الحصين.

ويقال: إن الذي قتل ابن زياد هو ابن جدير هذا، وقتل شرحبيل بن ذي الكلاع وادعى قتله سفيان بن يزيد الأزدي وورقاء بن عازب الأزدي، وعبيد الله بن زهير السلمي واتباع أصحاب ابن الأشتر المنهزمين فغرق في النهر أكثر ممن قتل، وغنموا جميع ما في العسكر. وطرا ابن الأشتر بالبشارة إلى المختار فأثته بالمدائن وأنفذ ابن الأشتر عماله إلى البلاد فبعث أخاه عبد الرحمن على نصيين، وغلب على سنجار ودارا وما والاها من أرض الجزيرة. وولى زفر بن الحارث قيس وحاتم بن النعمان الباهلي حران والرها وشمشاط وعمير بن الحباب السلمي كفرنوبي وطور عبيدين وأقام بالموصل وأنفذ رؤوس عبيد الله وقواده إلى المختار.

العسكريين.

ولما التقى الجمعان اقتتلوا ساعة وحمل عبد الله بن جعدة بن هبيرة المخزومي على من يرازه فحطم أصحاب المختار حطمة منكراً وكشفوهم، وحمل مالك بن عمر النهدي في الرجالة عند المساء على ابن الأشعث حملة منكراً فقتل ابن الأشعث وعامة أصحابه، وقتل عبيد الله بن علي بن أبي طالب وقتل المختار. ثم افرق الناس ودخل القصر وسار مصعب من الغد فنزل السبخة وقطع عنهم الميرة. وكان الناس يأتونهم بالقليل من الطعام والشراب خفية ففطن مصعب لذلك فمنعه وأصابهم العطش فكانوا يصبون العسل في الآبار ويشربون.

ثم إن المختار أشار على أصحابه بالاستماتة فتحنط وتطيب وخرج في عشرين رجلاً منهم السائب بن مسلك الأشعري فعذله. فقال: ويحك يا أحمق وثب ابن الزبير بالحجاز، وثب بمجدة باليمامة، وابن مروان بالشام فكنتم كأحدهم إلا أنني طلبت بشار أهل البيت إذ نامت عقد العرب، فقاتل على حسبك إن لم يكن لك نية. ثم تقدم فقاتل حتى قتل على يد رجلين من بني حنيفة أخوين طرفة وطراف ابني عبد الله بن دجاجة. وكان عبد الله بن جعدة بن هبيرة لما رأى عزم المختار على الاستماتة تدلى من القصر، واختفى عند بعض إخوانه، ثم بعث الذين بقوا بالقصر إلى مصعب ونزلوا على حكمه فقتلهم أجمعين. وأشار عليه المهلب باستبقائهم، فاعترضه أشراف أهل الكوفة، ورجع إلى رأيهم. ثم أمر بكف المختار بن أبي عبيد فقطعت وسمرت إلى جانب المسجد فلم ينزعها من هنالك إلا الحجاج. وقتل زوجة عمرة بنت النعمان بن بشير زعمت أن المختار..... فاستأذن أخاه عبد الله وقتلها.

ثم كتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته. ووعد بولاية أئنة الخيل وما غلب عليه من المغربة. وكتب إليه عبد الملك بولاية العراق، واختلف عليه أصحابه فجنح إلى مصعب خشية مما أصاب ابن زياد وأشراف أهل الشام. وكتب إلى مصعب بالإجابة وسار إليه فبعث على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان المهلب بن أبي صفرة. وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة وأنه بعث على مقدمته أحمد بن شमित، وبعث مصعب عباداً الحبشي ومعه عبيد الله بن علي بن أبي طالب، وتراضوا ليلاً، فناجزهم المختار من ليلته. وانكشف أصحاب مصعب إلى عسكرهم واشتد القتال وقتل من أصحاب مصعب جماعة منهم محمد بن الأشعث.

فلما أصبح المختار وجد أصحابه قد توغلوا في أصحاب

مصعب وليس عنده أحد فأنصرف ودخل قصر الكوفة وفقد أصحابه فلحقوا به، ودخل القصر معه ثمانية آلاف منهم. وأقبل مصعب فحاصره أربعة أشهر يقاتلهم بالسيوف كل يوم حتى قتل، وطلب الذين في القصر الأمان من مصعب ونزلوا على حكمه فقتلهم جميعاً، وكانوا ستة آلاف رجل. ولما ملك مصعب الكوفة بعث عبد الله بن الزبير ابنه حمزة على البصرة مكان مصعب فأساء السيرة وقصر بالأشراف ففزعوا إلى مالك بن مسمع، فخرج إلى الجسر وبعث إلى حمزة أن الحق بأيك. وكتب الأحنف إلى أبيه أن يعزله عنهم ويعيد لهم مصعباً ففعل.

وخرج حمزة بالأموال فعرض له مالك بن مسمع وقال: لا ندعك تخرج بأعطياتنا فضمن له عمر بن عبيد الله العطاء فكف عنه. وقيل: إن عبيد الله بن الزبير إنما رد مصعباً إلى البصرة عند وفادته عليه بعد سنة من قتل المختار. ولما رده إلى البصرة استعمل عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس وولاه حرب الأزارقة. وكان المهلب على حربهم أيام مصعب وحمزة، فلما رد مصعباً أراد أن يولي المهلب الموصل والجزيرة وأرمينية ليكون بينه وبين عبد الملك فاستقدمه واستخلف على عمله المغيرة. فلما قدم البصرة عزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس واستعمل عليها عمر بن عبيد الله بن معمر فكان له في حروبهم ما ذكره في أخبار الخوارج.

خلاف عمرو بن سعيد الأشدق ومقتله

كان عبد الملك بعد رجوعه من قنسرين أقام بدمشق زماناً، ثم سار لقتال زحر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا، واستخلف على دمشق عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ابن أخته، وسار معه عمرو بن سعيد. فلما بلغ بطنان انتقض عمرو وأسرى ليلاً إلى دمشق، وهرب ابن أم الحكم عنها فدخلها عمرو وهدم داره، واجتمع إليه الناس فخطبهم ووعدهم. وجاء عبد الملك على أثره فحاصره بدمشق ووقع بينهما القتال أياماً. ثم اصطلحا وكتب بينهما كتاباً وأمنه عبد الملك فخرج إليه عمرو ودخل عبد الملك دمشق فأقام أربعة أيام ثم بعث إلى عمرو ليأتيه، فقال له عبد الله بن يزيد بن معاوية وهو صهره وكان عنده: لا تأتيه فإني أخشى عليك منه. فقال: والله لو كنت نائماً ما أيقظني. ووعد الرسول بالرواح إليه، ثم أتى بالعشي ولبس درعه تحت القباء، ومضى في مائة من مراليه وقد جمع عبد الملك عنده بني مروان وحسان بن نجدة الكلبي وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي وأذن لعمرو فدخل.

قد هدم ذلك ووعد جنة وحذر ناراً، وأما عمرو فهو ابن عمك وقد وصل إلى الله وأنت أعلم بما صنعت، وإن أحدثنا به فبطن الأرض خير لنا من ظهرها. فرق لهم عبد الملك وقال: أبوكم خيرني بين أن يقتلي أو أقتله واخترت قتله على قتلي، وأما أنتم فما أرغبني فيكم وأوصلني لقرايتكم وأحسن حالهم. وقيل إن عمراً إنما كان خلفه وقتله حين سار عبد الملك لقتال مصعب طلبه أن يجعل له العهد بعده كما فعل أبوه فلم يجبه إلى ذلك، فرجع إلى دمشق فعصى وامتنع بها وكان قتله سنة تسع وستين.

مسير عبد الملك إلى العراق ومقتل مصعب

ولما صفا الشام لعبد الملك اعترم على غزو العراق وأتته الكتب من أشرفهم يدعونه فاستمهل أصحابه فأبى، وسار نحو العراق وبلغ مصعباً سيره فأرسل إلى المهلب بن أبي صفرة وهو بفارس في قتال الخوارج يستشيريه. وقد كان عزل عمر بن عبيد الله بن معمر عن فارس وحرب الخوارج، وولى مكانه المهلب وذلك حين استخلف على الكوفة. وجاء خالد بن عبيد الله بن خالد بن أسيد على البصرة تخفياً، وأعيد لعبد الملك عند مالك بن مسعم في بكر بن وائل والأزد، وأمد عبد الملك بعبيد الله بن زياد بن ظبيان وحاربهم عمر بن عبيد الله بن معمر ثم صالحهم على أن يخرجوا خالداً فأخرجوه.

وجاء مصعب وقد طمع أن يدرك خالداً فوجده قد خرج فسخط على ابن معمر وسب أصحابه وضربهم وهدم دورهم وحلقهم وهدم دار مالك بن مسعم واستباحها. وعزل بن معمر عن فارس وولى المهلب وخرج إلى الكوفة. فلم يزل بها حتى سار للقاء عبد الملك وكان معه الأحنف فتوفي بالكوفة. ولما بعث عن المهلب ليسير معه أهل البصرة إلا أن يكون المهلب على قتال الخوارج رده وقال له المهلب: إن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا يتعدى.

ثم بُعث مصعب عن إبراهيم بن الأشتر وكان على الموصل والجزيرة فجعله في مقدمته وسار حتى عسكر في معسكره، وسار عبد الملك وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان، وخالد بن عبيد الله بن خالد بن أسيد، فنزلوا قريباً من قرقيسيا. وحضر زفر بن الحارث الكلبي، ثم صالحه. وبعث زفر معه الهذيل ابنه في عسكر وسار معه فنزل بمسكن قريباً من مسكن مصعب وفر الهذيل بن زفر فلحق بمصعب، وكتب عبد الملك إلى أهل العراق وكتبوا إليه وكلهم بشرط أصفهان وأتى ابن الأشتر بكتاب مخنوماً إلى مصعب

ولم يزل أصحابه يجلسون عند كل باب حتى بلغوا قاعة الدار وما معه إلا غلام واحد ونظر إلى عبد الملك والجماعة حوله فأحس بالشر وقال للغلام: انطلق إلى أخي يجيى وقل له يائتي، فلم يفهم عنه وأعاد عليه فيجيبه الغلام ليك وهو لا يفهم. فقال له: اغرب عني. ثم أذن عبد الملك لحسان وقيصة فلقيا عمراً، ودخل فأجلسه معه على السرير وحادثه زمناً. ثم أمر بنزع السيف عنه. فأنكر ذلك عمرو وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين! فقال له عبد الملك: أنطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك؟ فأخذ عنه السيف؟ ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية إنك حين خلعتني حلفت يمين إن أنا رأيتك بحيث أقدر عليك أن أجعلك في جامعة، فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم! وما عسيت أن أصنع بأبي أمية؟ فقال بنو مروان: أبر قسم أمير المؤمنين يا أبا أمية فقال عمرو: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين.

فأخرج من تحت فراشه جامعة وأمر غلاماً فجمعه فيها وسأله أن لا يخرج على رؤوس الناس. فقال: أكرأ عند الموت؟ ثم جذبته جذبة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته ثم سأل الإبقاء. فقال عبد الملك: والله لو علمت أنك تبقى أن أبقيت عليك وتصلح قريش لأبقيتك، ولكن لا يجتمع رجلان مثلاً في بلد. فشتته عمرو وخرج عبد الملك إلى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز بقتله. فلما قام إليه بالسيف ذكره الرحم، فأمسك عنه وجلس. ورجع عبد الملك من الصلاة وغلقت الأبواب، فغلظ لعبد العزيز ثم تناول عمراً فذبحه بيده وقيل: أمر غلامه ابن الزغير فقتله.

وافقد الناس عمر مع عبد الملك حين خرج إلى الصلاة فأقبل أخوه يحيى في أصحابه وعبيده وكانوا ألفاً، ومعه حميد بن الحارث وحرث وزهير بن الأبرد فهتفوا باسمه ثم كسروا باب المقصورة وضربوا الناس بالسيف، وخرج الوليد بن عبد الملك واقتلوا ساعة. ثم خرج عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي بالراس فالتقاء إلى الناس وألقى إليهم عبد العزيز بن مروان بدر الأموال فانتهبوها واقتروا. ثم خرج عبد الملك إلى الناس وسأل عن الوليد فأخبر بمجراحته وأتى يحيى بن سعيد وأخيه عنبسة فحبسهما وحبس بني عمر بن سعيد ثم أخرجهم جميعاً وألحقهم بمصعب، حتى حضروا عنده بعد قتل مصعب فأنهم ووصلهم.

وكان بنو عمرو أربعة: أمية وسعد وإسماعيل ومحمد. ولما حضروا عنده، قال: أنتم أهل بيت ترون لكم على جميع قومكم فضلاً لن يجعله الله لكم، والذي كان بيني وبين أيبكم لم يكن حديثاً بل كان قديماً في أنفس أوليكم على أولينا في الجاهلية. فقال سعيد: يا أمير المؤمنين! تعد علينا أمراً كان في الجاهلية والإسلام

وطلب يحيى بن سعيد من جعفة وكانوا أخواله فأسخروه فأمته. وولى أخاه بشر بن مروان على الكوفة ومحمد بن غير على همدان ويزيد بن ورقاء بن رويم على السري ولم يف لهم بأصهبان كما شرطوا عليه، وكان عبد الله بن يزيد بن أسد والد خالد القسري، ويحيى بن معنوق الحمداني قد لجأ إلى علي بن عبد الله بن عباس ولجأ هذيل بن زفر بن الحارث وعمر بن يزيد الحكمي إلى خالد بن يزيد فأمهم عبد الملك. وصنع عمر بن حريث لعبد الملك طعماً فأخبره بالخوئوق وأذن للناس عامة فدخلوا وجاء عمر بن حريث فأجلسه معه على سريريه وطعم الناس. ثم طاف مع عمر بن حريث على القصر يسأله عن مساكته ومعالمه ولما بلغ عبد الله بن حازم مسير مصعب لقتال عبد الملك قال: أمعه عمر بن معمر قيل: هو على فارس. قال: فالمهل؟ قيل: في قتال الخوارج. قال: فعياد بن الحسين؟ قيل: على البصرة. قال: وأنا بخراسان.

خلفني فجري جهاراً وأنشدني بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره ثم بعث عبد الملك برأس مصعب إلى الكوفة، ثم إلى الشام. فنصب بدمشق وأرادوا التطواف به فمعت من ذلك زوجة عبد الملك عاتكة بنت يزيد بن معاوية ففسلته ودفنته. وانتهى قتل مصعب إلى المهلب وهو يحارب الأزارقة فباع الناس لعبد الملك بن مروان. ولما جاء خبر مصعب لعبد الله بن الزبير خطب الناس فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر يؤتي الملك من يشاء، ويتزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. ألا وإنه لم يذل الله من كان الحق معه وإن كان الناس عليه طراً. وقد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا أننا قتل مصعب. فالذي أفرحنا منه أن قتله شهادة وأما الذي أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة. ثم عبد من عبيد الله وعون من أعوانني ألا وإن أهل العراق، أهل النذر والنفاق سلموه وباعوه بأقل الثمن فإن..... فوالله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص والله ما قتل رجل منهم في الجاهلية ولا في الإسلام. ولا نموت إلا طعناً بالرماح وتحت ظلال السيوف. ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبدي ملكه، فإن تقبل لا آخذها أخذ الأشر البطور، وإن تدبر لم أبك عليها بكاء الضرع المهين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ولما بلغ الخبر إلى البصرة تنازع ولايتها حمدان بن أبان وعبد الله بن أبي بكر واستعان حمدان بعبد الله بن الأهمم عليها، وكانت له منزلة عند بني أمية، فلما تمهد الأمر بالعراق لعبد الملك بعد مصعب ولى على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد، فاستخلف عليها عبيد الله بن أبي بكر، فقدم على حمدان وعزله

فقرأه، فإذا هو يدعوه إلى نفسه ويجعل له ولاية العراق فأخبره مصعب بما فيه وقال: مثل هذا لا يرغب عنه. فقال إبراهيم: ما كنت لأقتل الغدر والخيانة. ولقد كتب عبد الملك لأصحابك كلهم مثل هذا فأطعني واقتلهم أو أحبسهم في أضييق عيس، فأبى عليه مصعب وأضمر أهل العراق الغدر بمصعب. وعذله قيس بن الهيثم منهم في طاعة أهل الشام فأعرضوا عنه.

ولما تدانى العسكران بعث عبد الملك إلى مصعب يقول، فقال: تجمل الأمر شوري. فقال مصعب: ليس بيننا إلا السيف. فقدم عبد الملك أخاه محمداً وقدم مصعب إبراهيم بن الأستر وأمه بالجيش، فأزال محمداً عن موقفه، وأمه عبد الملك بعيد الله بن يزيد فاشتد القتال وقتل من أصحاب مصعب بن عمر الباهلي والد قتيبة، وأمد مصعب إبراهيم بعتاب بن ورقاء فسأه ذلك إبراهيم ونكره. وقال: أوصيته لا يمدني بعتاب وأمثاله. وكان قد باع لعبد الملك فجر الهزيمة على إبراهيم وقتله وحمل رأسه إلى عبد الملك. وتقدم أهل الشام فقاتل مصعب ودعا رؤوس العراق إلى القتال فاعتذروا وتناقلوا. فدنا محمد بن مروان من مصعب وناداه بالأمان وأشعره بأهل العراق فأعرض عنه، فنادى ابنه عيسى بن مصعب فأذن له أبوه في لقائه. فجاءه وبذل له الأمان وأخبر أباه فقال: أنظنهم يعرفون لك ذلك؟ فإن أحببت فافعل. قال: لا يتحدث نساء قريش إنني رغبت بنفسي عنك. قال: فاذهب إلى عمك بمكة فأخبره بصنيع أهل العراق ودعني، فأبى مقتول فقال: لا أخبر قريشاً عنك أبداً، ولكن الحق أنت بالبصرة فإنهم على الطاعة أو بأمر المؤمنين بمكة. فقال: لا يتحدث قريش إنني فررت.

ثم قال لعيسى: تقدم يا بني أحسبك فتقدم في ناس فقتل وقتلوا. وألح عبد الملك في قبول أمانه فأبى ودخل سرادقه فتحفظ ورمى السراقد وخرج فقاتل ودعاه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فشتمه وحمل عليه وضربه فجرحه. وخذل أهل العراق مصعباً حتى بقي في سبعة أنفس، وأتخته الجراحة فرجع إليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فقتله وجاء برأسه إلى عبد الملك فأمر له بألف دينار فلم يأخذها. وقال: إنما قتله بئرا أخي. وكان قطع الطريق فقتله صاحب شرطته وقيل: إن الذي قتله زائدة بن قدامة الثقفي من أصحاب المختار. وأخذ عبيد الله رأسه وأمر عبد الملك به وبأبيه عيسى فدنا بدار الجائليق عند نهر رحيل. وكان ذلك سنة إحدى وسبعين.

ثم دعا عبد الملك جند العراق إلى البيعة فبايعوه وسار إلى الكوفة فأقام بالتيخلة أربعين يوماً وخطب الناس فوعده المحسن،

مقتل ابن حازم بخراسان وولاية بكير بن وشاح عليها

قد تقدم لنا خلاف بني تميم على ابن حازم بخراسان وأنهم كانوا على ثلاث فرق، وكف فرقتين منهم. وبقي يقاتل الفرقة الثالثة من نيسابور وعليهم بجير بن ورقاء الصريسي. فلما قتل مصعب بعث عبد الملك إلى حازم يدعو إلى البيعة ويطعمه خراسان سبع سنين. وبعث الكتاب مع رجل من بني عامر بن صعصعة. فقال ابن حازم: لولا الفتنة بين سليم وعامر ولكن كل كتابك فأكله. وكان بكير بن وشاح التميمي خليفة ابن حازم على مرو، فكتب إليه عبد الملك بعده على خراسان ورغبة بالمطامع أن انتهى، فخلع ابن الزبير ودعا إلى عبد الملك وأجابه أهل مرو. وبلغ ابن حازم فخاف أن يأتيه بكير ويجتمع عليه أهل مرو وأهل نيسابور فترك بجيراً وارتحل عنه إلى مرو ويزيد ابنه يترمد. فاتبعه بجير ولحقه قريباً من مرو واقتتلوا فقتل ابن حازم. طعنه بجير وأخراهم معه فصرعوه وقعد أحدهم على صدره فقطع رأسه.

وبعث بجير البشير بذلك إلى عبد الملك وترك الرأس وجاء بكير بن وشاح في أهل مرو وأراد إنفاذ الرأس إلى عبد الملك وأنه الذي قتل ابن حازم وأقام في ولاية خراسان. وقيل: إن ذلك إنما كان بعد قتل ابن الزبير وأن عبد الملك أنفذ رأسه إلى ابن حازم ودعاه إلى البيعة فغسل الرأس وكفنه وبعثه إلى ابن الزبير بالمدينة. وكان من شأنه مع الرسول ومع بجير وبكير ما ذكرناه.

كان عبد الملك لما بوع بالشام بعث إلى المدينة عروة بن أنيف في ستة آلاف من أهل الشام وأمره أن يسكن بالعرصة ولا يدخل المدينة وعامل ابن الزبير يومئذ على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمحي، فهرب الحارث وأقام ابن أنيف شهراً يصلي بالناس الجمعة بالمدينة ويعود إلى معسكره. ثم رجع ابن أنيف إلى الشام ورجع الحارث إلى المدينة. وبعث ابن الزبير سليمان بن خالد الدورقي على خيبر وفدك. ثم بعث عبد الملك إلى الحجاز عبد الملك بن الحارث بن الحكم في أربعة آلاف فنزل وادي القرى، وبعث سرية إلى سليمان بخير وهرب وأدركوه فقتلوه ومن معه. وأقاموا بخير وعليهم ابن القمقام. وذكر لعبد الملك ذلك فاغتم وقال: قتلوا رجلاً صالحاً بغير ذنب.

ثم عزل ابن الزبير الحارث بن حاطب عن المدينة وولى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهري فبعث جابر إلى خيبر أبا بكر بن أبي قيس في ستائة فانهزم ابن القمقام وأصحابه أمامه وقتلوا صبراً. ثم بعث عبد الملك طارق بن عمر مولى عثمان،

حتى جاء خالد، ثم عزل خالد سنة ثلاث وسبعين وولى مكانه على البصرة أخاه بشراً وجمع له المصريين وسار بشر إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمر بن حريش. وولى عبد الملك على الجزيرة وأرمينية بعد قتل مصعب أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وستين، فغزا الروم ومزقهم بعد أن كان هادن ملك الروم أيام الفتنة على ألف دينار يدفعها إليه في كل يوم.

أمر زفر بن الحارث بقرقيسيا

قد ذكرنا في وقعة راهط مسير ابن زفر إلى قرقيسيا واجتماع قيس عليه. وأقام بها يدعو لابن الزبير. ولما ولي عبد الملك كتب إلى أبان بن عقبة بن أبي معيط، وهو على حصص بالمسير إلى زفر، فسار وعلى مقدمته عبد الله بن رميت العلاني فعاجله عبد الله بالحرب وقتل من أصحابه نحو ثلثمائة. ثم أقبل إسان فواقع زفر، وقيل ابنه وكيع بن زفر وأوهته. ثم سار إليه عبد الملك إلى قرقيسيا قبل مسيره إلى مصعب فحاصره ونصب عليه المجانيق وقال: كلب لعبد الملك لا تخلط معنا القرقيسية، فإنهم يهزمون إذا التقينا مع زفر ففعل. واشتد حصارهم وكان زفر يقاتلهم في كل غداة وأمر ابنه الهذيل يوماً أن يحمل زفر حتى يضرب فسطاط عبد الملك ففعل وقطع بعض أطنايه.

ثم بعث عبد الملك أخاه بالأمان لزفر وابنه الهذيل على أنفسهما ومن معهما وأن لهم ما أحبوا. فأجاب الهذيل وأدخل أباه في ذلك. وقال: عبد الملك لنا خير من ابن الزبير فأجاب أن له الخيار في بيعته سنة. وأن ينزل حيث شاء ولا يعين على ابن الزبير. وبينما الرسل تختلف بينهم إذ قيل لعبد الملك قد قدم من المدينة أربعة أبراج، فترك الصلح وزحف إليهم، فكشفوا أصحابه إلى عسكرهم ورجع إلى الصلح واستقر بينهم على الأمان ووضع الدماء والأموال. وأن لا يبايع لعبد الملك حتى يموت ابن الزبير للبيعة التي له في عتقه، وأن يدفع إليه مال نفسه في أصحابه. وتأخر زفر عن لقاء عبد الرحمن خوفاً من فعلته بعمر بن سعيد. فأرسل إليه بقضيب النبي ﷺ فجاء إليه وأجلسه عبد الملك معه على سريريه. وزوج ابنه مسلمة الرباب بنت زفر. وسار عبد الملك إلى قتال مصعب فبعث زفر ابنه الهذيل معه بعسكر ولما قارب مصعباً هرب إليه وقاتل مع ابن الأشتر حتى إذا اقتتلوا اختفى الهذيل في الكوفة حتى أمته عبد الملك كما مر.

الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرةً وغراً ولا ينفق منها إلا ما يمسك الرمي، يقوي بها نفوس أصحابه. ثم أجهدهم الحصار وبعث الحجاج إلى أصحاب ابن الزبير بالأمان فخرج إليه منهم نحو عشرة آلاف، واقترب الناس عنه. وكان ممن فارقه ابنه حمزة وحبيب، وأقام ابنه الزبير حتى قتل معه. وحرص الناس الحجاج وقال: قد ترون قلة أصحاب ابن الزبير وما هم فيه من الجهد والضيق فتقدموا واملؤوا ما بين الحجون والأبواء.

فدخل ابن الزبير على أمه أسماء وقال: يا أمه قد خذلني الناس حتى ولدي والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك إن كنت على حق وتدعو إليه فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك وقد بلغت بها علمين بين بني أمية. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكك نفسك ومن قتل معك. وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين فقال: يا أمه أخاف أن يمثلوا بي ويصلبوني فقالت: يا بني الشاة إذا ذبحت لا تتألم بالسليخ، فامض على بصيرتك واستعن بالله. فقُبِلَ رأسها وقال: هذا رأيي والذي خرجت به داعياً إلى يومي هذا، وما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة وما أخرجني إلا الغضب لله وأن تستحل حرمانه، ولكن أحببت أن أعلم رأيك فقد زدني بصيرة.

وإني يا أمه في يومي هذا مقتول فلا يشتد حزنك وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عمد بفاحشة ولم يجر ولم يغدر ولم يظلم ولم يقر على الظلم، ولم يكن أثر عندي من رضا الله تعالى. اللهم لا أقر هذا تزكية لنفسي لكن تعزية لأسي حتى تسلو عني. فقالت: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك. ثم قالت: أخرج حتى أنظر ما يصير أمرك جزاك الله خيراً. قال: فلا تدعي الدعاء لي، فدعت له وودعها وودعته ولما عانقته للوداع وقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد! فقال: ما لبستها إلا لأشد منك. فقالت: إنه لا يشد مني فتزعها وقالت له: البس ثيابك مشمرة.

ثم خرج فحمل على أهل الشام حملة منكراً فقتل منهم ثم انكشف هو وأصحابه وأشار عليه بعضهم بالفرار فقال: بشس الشيخ إذن أنا في الإسلام إذا واتعت قوماً قتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم. وامتلات أبواب المسجد بأهل الشام والحجاج وطارق بناحية الأبطح إلى المروة وابن الزبير يحمل على هؤلاء وعلى هؤلاء وينادي أبا صفوان لعبد الله بن صفوان بن أمية بن

وأمره أن ينزل بين أيلة ووادي القرى، ويعمل كما يعمل عمال ابن الزبير من الانتشار، وليسدّ خللاً إن ظهر له بالحجاز، فبعث طارق خيلاً إلى أبي بكر بنجيير واقتلوا فاصيب أبو بكر في مائتين من أصحابه وكتب ابن الزبير إلى القُبَاع وهو عامله على البصرة يستمده ألفي فارس إلى المدينة. فبعثهم القبايع وأمر ابن الزبير جابر بن الأسود أن يسيرهم إلى قتال طارق ففعل ولقيهم طارق فهزمهم وقتل مقدمهم. وقتل من أصحابه خلقاً وأجهز على جريحهم ولم يستبق أسيرهم، ورجع إلى وادي القرى.

ثم عزل ابن الزبير جابرًا عن المدينة واستعمل طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو طلحة النداء وذلك سنة سبعين. فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق. ولما قتل عبد الملك مصعباً ودخل الكوفة وبعث إليها الحجاج بن يوسف الثقفي في ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال ابن الزبير، وكتب معه بالأمان لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا. فسار في جمادى سنة اثنتين وسبعين، فلم يتعرض للمدينة ونزل الطائف. وكان يبعث الخيل إلى عرفة ويلقاهم هناك خيل ابن الزبير فينهزمون دائماً وتعود خيل الحجاج بالظفر. ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بضعف ابن الزبير وتفرق أصحابه ويستأذنه في دخول الحرم لحصار ابن الزبير ويستمده، فكتب عبد الملك إلى طارق يأمره باللاحق بالحجاج فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وأخرج عنها طلحة النداء عامل ابن الزبير، وولى مكانه رجلاً من أهل الشام وسار إلى الحجاج بمكة في خمسة آلاف.

ولما قدم الحجاج مكة أحرم بحجه ونزل بئر ميمون وحج بالناس ولم يطف ولا سعى، وحصر ابن الزبير عن عرفة فنحر بدنة بمكة ولم يمنع الحاج من الطواف والسعي. ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة وكان ابن عمر قد حج تلك السنة فبعث إلى الحجاج بالكف عن المنجنيق لأجل الطائفين ففعل، ونادى منادي الحجاج عند الإفاضة انصرفوا! فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير، ورمى بالمنجنيق على الكعبة وألحت الصواعق عليهم في يومين وقتلت من أصحاب الشام رجالاً فذعروا. فقال لهم الحجاج: لا شك فهذه صواعق تهامة وأن الفتح قد حضر فأشروا.

ثم أصابت الصواعق من أصحاب ابن الزبير فسرى عن أهل الشام فكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلي فلا ينصرف ولم يزل القتال بينهم، وغلت الأسعار وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه وقسم لحمها في أصحابه. وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد من الذرة بعشرين وبيوت ابن

ولاية المهلب حرب الأزارقة

ولما عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة واستعمل مكانه أخاه بشر بن مروان وجمع له المصريين أمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة فيمن ينتخبه من أهل البصرة ويتركه وراءه في الحرب، وأن يبعث من أهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً بالبأس والنجدة والتجربة في جيش كثيف إلى المهلب، فيتبعوا الخوارج حتى يهلكوهم. فأرسل المهلب جذيع بن سعيد بن قبيصة ينتخب الناس من الديوان. وشق على بشر أن امرأة المهلب جاءت من عند عبد الملك، فقص به ودعا عبد الرحمن بن مخنف فأعلمه منزله عنده وقال: إني أوليك جيش الكوفة مجرب الأزارقة فكن عند حسن ظني بك. أخذ يغريه بالمهلب وأن لا يقبل رأيه ولا مشورته، فأظهر له الوفاق. وسار إلى المهلب فنزلوا رامهرمز ولقي بها الخوارج فحدق عليه على ميل من المهلب حيث يتراءى العسكران. ثم أتاهم نعي بشر بن مروان لعشر ليال من مقدمهم وأنه استخلف على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد فافترق الناس من أهل المصريين إلى بلادهم، ونزلوا الأهواز وكتب إليهم خالد بن عبد الله يتهددهم ويحذرهم عقوبة عبد الملك إن لم يرجعوا إلى المهلب فلم يلتفتوا إليه ومضوا إلى الكوفة واستأذنوا عمر بن حريث في الدخول ولم يأذن لهم فدخلوا وأضربوا عن إذنه.

ولاية أسد بن عبد الله على خراسان

ولما ولي بكير بن وشاح على خراسان اختلف عليه بطون تميم وأقاموا في العصية له وعليه ستين، وخاف أهل خراسان أن تفسد البلاد ويقهرهم العدو فكتبوا إلى عبد الملك بذلك وأنها لا تصلح إلا على رجل من قریش. واستشار أصحابه فقال له أمية بن عبيد الله بن خالد بن أسيد: نزيكهم برجل منك. فقال: لولا انهزامك عن أبي فديك كنت لها. فاعتذر وحلف أن الناس خذلوه ولم يجد مقاتلاً فانحزت بالعصبة التي بقيت من المسلمين عن الهلكة، وقد كتب إليك خالد بن عبد الله بعذري وقد علمه الناس، فولاه خراسان.

ولما سمع بكير بن وشاح بمسيره بعث إلى بجير بن ورقاء وهو في حسبه كما مر فأبى وأشار عليه بعض أصحابه أن يقبل مخافة القتل فقبل. وصالح بكيراً أو بعث إليه بكير بأربعين ألفاً على أن لا يقاتله. فلما قارب أمية نيسابور إليه بجير وعرفه عن

خلف فيجبه من جانب المعترك. ولما رأى الحجاج إحجام الناس عن ابن الزبير غضب وترجل وحمل إلى صاحب الراية بين يديه فتقدم ابن الزبير إليهم وكشفهم عنه ورجع فصلى ركعتين عند المقام وحملوا على صاحب الراية فقتلوه عند باب بني شيبه وأخذوا الراية.

ثم قاتلهم وابن مطيع معه حتى قتل ويقال: أصابته جراحة فمات منها بعد أيام ويقال: إنه قال لأصحابه يوم قتل: يا آل الزبير أوطيتم لي نفساً عن أنفسكم كأهل بيت من العرب اضطلمنا في الله؟ فلا يرعكم وقع السيوف فإن ألم الدواء في الجرح أشد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم بما تصونون وجوهكم وغضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ قرينه ولا تسالوا عني. ومن كان سائلاً فإني في الرعيل الأول. ثم حمل حتى بلغ الحجون فأصابته حجارة في وجهه فأرغشها ودمي وجهه. ثم قاتل قتالاً شديداً وقتل في جمادى الآخر سنة ثلاث وسبعين.

وحمل رأسه إلى الحجاج فسجد، وكبر أهل الشام وثار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه، وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى عبد الملك. وصلب جثته منكسة على ثنية الحجون اليمنى. وبعث إليه أسماء في دفنه فأبى، وكتب إليه عبد الملك يلومه على ذلك فخلى بينها وبينه. ولما قتل عبد الله ركب أخوه عروة وسبق الحجاج إلى عبد الملك فرحب به وأجلسه على سريره، وجرى ذكر عبد الله فقال: عروة: إنه كان! فقال عبد الملك: وما فعل؟ قال: قتل فخر ساجداً. ثم أخبره عروة أن الحجاج صلبه فاستوهب جثته لأمه. فقال: نعم وكتب إلى الحجاج ينكر عليه صلبه فبعث بجثته إلى أمه وصلى عليه عروة ودفنه وماتت أمه بعده قريباً.

ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير دخل إلى مكة فبايعه أهلها لعبد الملك وأمر بكنس المسجد من الحجارة والدم وسار إلى المدينة وكانت من عمله فاقام بها شهرين وأساء إلى أهلها وقال: أنتم قتلة عثمان. وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم كما يفعل بأهل الذمة. منهم جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وسهل بن سعد. ثم عاد إلى مكة ونقلت عنه في ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها إلى الله، وقيل: إن ولاية الحجاج المدينة وما دخل منها كانت سنة أربع وسبعين وأن عبد الملك عزل عنها طارفاً واستعمله. ثم هدم الحجاج بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير وأخرج الحجر منه وأعادته إلى البناء الذي أقره عليه النبي ﷺ. ولم يصدق ابن الزبير في الحديث الذي رواه عن عائشة. فلما صح عنه بعد ذلك قال: وددت أني تركته وما تحمل.

الحكم بن أيوب الثقفي وأمره أن يشتد على خالد بن عبد الله، ويلغنه الخبر فقسم في أهل البصرة ألف ألف وخرج عنها. ويقال: إن الحجاج أول من عاقب على التخلف عن البعث بالقتل قال الشعبي: كان الرجل إذا أخل بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر وعثمان وعلي تنزع عمامته ويقام بين الناس، فلما ولي مصعب أضاف إليه خلق الرؤوس واللحى، فلما ولي بشر أضاف إليه تعليق الرجل بمسمارين في يده في حائط فيخرق المسماران يده وربما مات. فلما جاء الحجاج ترك ذلك كله وجعل عقوبة من تخلى بمكانه من الثغر أو البعث القتل. ثم ولي الحجاج على السند سعيد بن أسلم بن زرعة فخرج عليه معاوية بن الحارث الكلابي العلاقي وأخوه، فغلبه على البلاد وقتلاه. فأرسل الحجاج جماعة بن سعيد التميمي مكانه فغلب على الثغر وغزا وفتح فتوحات بمكران لسنة من ولايته.

وقوع أهل البصرة بالحجاج

ثم خرج الحجاج من الكوفة واستخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة وسار إلى البصرة وقدمها وخطب كما خطب بالكوفة وتوعد على القعود عن المهلب كما توعد فأتاه شريك بن عمرو السكري وكان به فتق فاعتذر به وبأن بشر بن مروان قبل عذره بذلك وأحضر عطاء ليرد لبيت المال فضرب الحجاج عنقه وتابع الناس مزدحمين إلى المهلب ثم سار حتى كان بينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً. وأقام يشد ظهره وقال: يا أهل المصرين! هذا والله مكانكم حتى يهلك الله الخوارج. ثم قطع لهم الزيادة التي زادها مصعب في الأعطية وكانت مائة مائة. وقال: لسا نجيئها. فقال عبد الله بن الجارود: إنما هي زيادة عبد الملك وقد أجازها أخوه بشر بأمره، فانتهره الحجاج فقال: إنني لك ناصح وإنه قول من ورائي فمكث الحجاج أشهراً لا يذكر الزيادة ثم أعاد القول فيها فرد عليه ابن الجارود مثل الرد الأول.

فقال له مفضلة بن كرب العبدى: سمعاً وطاعة للأمر فيما أحببنا وكرهنا وليس لنا أن نرد عليه. فانتهره ابن الجارود وشتمه وأتى الوجوه إلى عبد الله بن حكيم بن زياد الجاشعي وقالوا: إن هذا الرجل يجمع على نقص هذه الزيادة وإننا نبايعك على إخراجنا من العراق، ونكتب إلى عبد الملك أن يولي علينا غيره وإلا خلعتنا وهو يخافنا ما دامت الخوارج في العراق، فبايعوه سرّاً وتعاهدوا وبلغ الحجاج أمرهم فاحتاط وجد. ثم خرجوا في ربيع سنة ست وسبعين وركب عبد الله بن الجارود في عبد قيس على راياتهم ولم

أمر خراسان وما يحسن به طاعة أهله. وحذره غدر بكير. وجاء معه إلى مرو فلم يعرض أمية لبكير ولا لعماله وعرض عليه شرطته فأبى. وقال: لا أحمل الجزية اليوم وقد كانت تحمل إلي بالأمس وأراد أن يولي بعض النواحي من خراسان فحذره بجير منه. ثم ولي أمية ابنه عبد الله على سجستان فنزل بسنّا وغزا رتبيل الذي ملك على الترك بعد المقتول الأول وكان هائباً للمسلمين فراسلهم في الصلح وبعث ألف وبعث بهدايا وورقيق. فأبى عبد الله من قبولها وطلب الزيادة فجلا رتبيل عن البلاد حتى أوغل فيها عبد الله. ثم أخذ عليه الشعاب والمضايق حتى سأل منه الصلح وأن يجلي عنه عن المسلمين فشرط رتبيل عليه ثلثمائة ألف درهم والعهد بأن لا يغزو بلادهم. فأعطاه ذلك وبلغ الخبر بذلك عبد الملك فعزله.

ولاية الحجاج العراق

ثم ولي عبد الملك الحجاج بن يوسف على الكوفة والبصرة سنة خمس وسبعين وأرسل إليه وهو بالمدينة يأمره بالمسير إلى العراق فسار على النجف في اثني عشر ركباً حتى قدم الكوفة في شهر رمضان. وقد كان بشر بعث المهلب إلى الخوارج فدخل المسجد وصعد المنبر وقال: علي بالناس فظنوه من بعض الخوارج فهموا به، حتى تناول عمير بن ضابي البرجمي الحصباء وأراد أن يحصبه، فلما تكلم جعل الحصباء يسقط من يديه وهو لا يشعر به.

ثم حضر الناس فكشف الحجاج عن وجهه وخطب خطبته المعروفة. ذكرها الناس وأحسن من أوردتها المبرد في الكامل يتهدد فيها أهل الكوفة ويتوعدهم عن التخلف عن المهلب. ثم نزل وحضر الناس عنده للعطاء واللاحاق بالمهلب فقام إليه عمير بن ضابي وقال: أنا شيخ كبير عليل وابني هذا أشد مني. فقال: هذا خير لنا منك. قال: ومن أنت؟ قال: عمير بن ضابي قال: الذي غزا عثمان في داره؟ قال: نعم. فقال: يا عدو الله.... إلى عثمان بدلاً قال: إنه حبس أبي وكان شيخاً كبيراً. فقال: إنني لا أحب حياتك إن في قتلك صلاح للمصرين، وأمر به فقتل ونهب ماله. وقيل: إن عنبسة بن سعيد بن العاص هو الذي أغرى به الحجاج حين دخل عليه.

ثم أمر الحجاج مناديه فنأدى إلا ابن ضابي تخلف بعد ثالثة من النداء فأمرنا بقتله، وذمة الله بريئة ممن بات الليلة من جند المهلب. فتساءل الناس إلى المهلب وهو بدار هرمز وجاءه العرفاء فأخذوا كعبه بموافاة العسكر. ثم بعث الحجاج على البصرة

لتحريضه عليه، فأطلقه عبد الملك وكان فيمن قتل مع ابن الجارود عبد الله بن أنس بن مالك. فقال الحجاج: لا أرى أنساً يعين علي. ودخل البصرة وأخذ ماله. وجاءه أنس فأساء عليه وأفحش في شتمه وكتب أنس إلى عبد الملك يشكوه. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يشتمه ويغلظ عليه في التهديد على ما فعل بأنس. وأن تحيى إلى منزله وتتصل إليه وإلا نبعث من يضرب ظهره ويهتك ستره. قالوا: وجعل الحجاج في قراءته يتغير ويرتعد وجبينه يرشح عرقاً. ثم جاء إلى أنس بن مالك واعتذر إليه. وفي عقب هذه الواقعة خرج الزنج بفرات البصرة، وقد كانوا خرجوا قبل ذلك أيام مصعب ولم يكونوا بالكثير وأفسدوا الثمار والزروع، ثم جمع لهم خالد بن عبد الله فافتروا قبل أن ينال منهم وقتل بعضهم وصلبه. فلما كانت هذه الواقعة قدموا عليهم رجلاً منهم اسمه رياح ويلقب بشير زنجي أي: أسد الزنج وأفسدوا. فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد ابن عمر صاحب الشرطة أن يبعث إليهم من يقاتلهم وبعث ابنه حفصاً في جيش فقتلوه وانهزم أصحابه فبعث جيشاً فهزم الزنج وأبادهم.

مقتل ابن مخنف وحرب الخوارج

كان المهلب وعبد الرحمن بن خننف واقفين للخوارج برامهرمز فلما أمدهم الحجاج بالعساكر من الكوفة والبصرة تأخر الخوارج من رامهرمز إلى كازرون وأتبعهم العساكر حتى نزلوا بهم. وخندق المهلب على نفسه، وقال ابن مخنف وأصحابه خدمنا سيوفنا. فبيتهم الخوارج وأصابوا القرية في ابن خننف فقاتل هو وأصحابه: حتى قتلوا، هكذا حديث أهل البصرة، وأما أهل الكوفة فذكروا أنهم لما ناهضوا الخوارج اشتد القتال بينهم ومال الخوارج على المهلب فاضطروه إلى معسكره وأمده عبد الرحمن بالخيال والرجال.

ولما رأى الخوارج مدده تركوا من يشغل المهلب وقصدوا عبد الرحمن فقاتلوه وانكشفوا عنه، وصبر في سبعين من قومه فثابوا إلى عتاب بن ورقاء، وقد أمره الحجاج أن يسمع للمهلب فتقل ذلك عليه، فلم يحسن بينهما العشرة وكان يتراءف في الكلام، وربما أغلظ له المهلب. فأرسل عتاب إلى الحجاج يسأله القعود، وكان حرب الخوارج وشيب قد اتسع عليه، فصادفاه منه ذلك مرقعاً واستقدمه وأمره أن يترك العسكر مع المهلب فولى المهلب عليهم ابنه حبيباً، وأقام يقاتلهم بنيسابور نحواً من سنة وتحركت الخوارج على الحجاج من لادن سنة ست وسبعين إلى

يبق مع الحجاج إلا خاصته وأهل بيته وبعث الحجاج يستدعيه فافحش في القول لرسوله، وصرح بمخلع الحجاج فقال له الرسول: تهلك قومك وعشيرتك. وأبلغه تهديد الحجاج إياه فغضب وأخرج وقال: لولا أنك رسول لقتلتك.

ثم زحف ابن الجارود في الناس حتى غشي فسطاطه فنهبوا ما فيه من المتاع وأخذوا زجاجته وانصرفوا عنها. فكان رأيهم أن يخرجوه ولا يقتلوه. وقال الغضبان بن أبي القبعثري الشيباني لابن الجارود: لا ترجع عنه وحرضه على معالجته. فقال: إلى الغداة، وكان مع الحجاج عثمان بن قطن وزيد بن عمر العنكي صاحب الشرطة بالبصرة، فاستشارهما فأشار زياد بأن يستأمن القوم ويلحق بأمر المؤمنين. وأشار عثمان بالثبات ولو كان دونه الموت. وقال: لا تخرج إلى أمير المؤمنين من العراق بعد أن رفاك إلى ما رفاك وفعلت ما فعلت بابن الزبير في الحجاز. فقبل رأي عثمان وحقد على زياد في إشارته وجاءه عامر بن مسمع يقول: قد أخذ لك الأمان من الناس فجعل الحجاج يغالطه رافعاً صوته عليه ليسمع الناس ويقول: والله لا أمنهم حتى تؤتوني بالهذيل بن عمران وعند الله بن حكيم. ثم أرسل إلى عبيد بن كعب الفهري أن اتني فامتنعي. فقال له: إن أتيتي منتك فإبى وبعث إلى عماد بن عمير بن عطار وعبد الله بن حكيم بمثل ذلك، وأجابوه مثله.

ثم إن عباد بن الحصين الجفطي مر بابن الجارود والهذيل وعبد الله بن حكيم يتناجون فطلب الدخول معهم فأبوا وغضب وسار إلى الحجاج وجاءه قتيبة بن مسلم في بني أعصر للحمية القتيبية. ثم جاءه سبرة بن علي الكلابي وسعيد بن أسلم الكلابي وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدي، فثابت إليه نفسه وعلم أنه قد امتنع. وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع إن شئت أتيتك وإن شئت أقمت وثبتت عنك، فأجابه أن أقم فلما أصبح إذا حوله ستة آلاف. وقال ابن الجارود لعبد الله بن زياد بن ضبيان: ما الرأي؟ قال: تركته أمس ولم يبق إلا الصبر.

ثم تراجعوا وعبى ابن الجارود وأصحابه على مينة الهذيل وعلى ميسرته سعيد بن أسلم، وحمل ابن الجارود حتى حاصر أصحاب الحجاج وعطف الحجاج عليه فقارب ابن الجارود أن يظفر. ثم أصابه سهم غريب فوق ميثاً. ونادى منادي الحجاج بأمان الناس إلا الهذيل وابن الحكيم وأمر أن لا يتبع المهزمين، ولحق ابن ضبيان بعمار فهلك هنالك. وبعث الحجاج برأس ابن الجارود ورأس ثمانية عشر من أصحابه إلى الملك ونصبت ليراهم الخوارج ليتأسوا من الاختلاف وحبس الحجاج عبيد بن كعب وعمر بن عمير لامتناعهما من الإتيان إليه وحبس ابن القبعثري

ورقاء فمنعه، ثم أمره بالتجهز لغزو ما وراء النهر، فحذره منه بجير فرده فغضب بكير. ثم تجهز أمية لغزو غارا، وموسى بن عبد الله بن حازم لترمز واستخلف ابنه على خراسان. فلما أراد قطع النهر قال لبكير: إرجع إلى مرو فأكتبها فقد وليتها، وقم بأمر ابن حازم فأني أخشى أن لا يضبطها. فانتخب من وثق به من أصحابه ورجع، وأشار عليه صاحبه عتاب بأن يحرق السفن ويرجع إلى مرو فيخلع أمية، ووافقه الأخنف بن عبد الله العبدي على ذلك. فقال لهم بكير: أخشى على من معي. قالوا: نأيتك من أهل مرو بمن تشاء، قال: يهلك المسلمون. قال: ناد في الناس برفع الخراج فيكونون معك. قال: فيهلك أمية وأصحابه. قال لهم: عدد وعدد يقتلون عن أنفسهم حتى يبلغوا الصين فأحرق بكير السفن ورجع إلى مرو فخلع أمية وحبس ابنه. وبلغ الخبر أمية فصالح أهل الشام بخاري ورجع وأمر بأخذ السفن وعبر وجاءه موسى بن عبد الله بن حازم من مدد له وبعث شماس بن ورقاء في ثمانمائة في مقدمته فينبه بكير وهزمه، فبعث مكانه ثابت بن عطية فهزمه. ثم التقى أمية وبكير فاقتلوا أياماً. ثم انهزم بكير إلى مرو وحاصره أمية أياماً حتى سأل الصلح على ولاية ما شاء من خراسان، وأن يقضي عنه أربعمائة ألف دينه، ويصل أصحابه ولا يقبل فيه سعاية بجير فتم الصلح ودخل أمية مدينة مرو وأعاد بكيراً إلى ما كان عليه من الكرامة وأعطى عتاب العدابي عشرين ألفاً وعزل بجير عن شرطته بعباء بن أبي السائب. وقيل: إن بكيراً لم يصحب أمية إلى النهر وإنما استخلفه على مرو فلما عبر أمية النهر خلع وفعل ما فعل. ثم إن بجيراً سعى بأمية بأن بكيراً دعاه إلى الخلاف وشهد عليه جماعة من أصحابه، وأن معه ابني أخيه. فقبض عليه أمية وقتله وقتل معه ابني أخيه وذلك سنة سبع وسبعين. ثم عبر النهر لغزو بلخ فحصره الترك حتى جهد هو وعسكره وأشرفوا على الهلاك ثم نجوا ورجعوا إلى مرو.

مقتل بجير بن زياد

ولما قُتل بكير بسعاية بجير بن ورقاء تعافد بنو سعد بن عوف من تميم وهم عشيرته على الطلب بدمه وخرج فتى منهم من البادية اسمه شمردل وقدم خراسان ووقف يوماً على بجير فطعنه فصرعه ولم يمت وقتل شمردل وجاء مكانه صعصعة بن حرب العوفي ومضى إلى سجستان وجاور قرابة بجير مدة. وانتسب إلى حنيفة ثم قال لهم: إن لي بخراسان ميراثاً فآتوني إلى بجير يعني، فآتوني له وجاء إليه وأخبره بنسبه وميراثه، وأقام عنده شهراً يحضر باب المهلب وقد أنس به وأمن غائلته، وجاء صعصعة يوماً وهو

سنة ثمان وشغل مجربهم وأول من خرج منهم صالح بن سرح من بني تميم. بعث إليه العساكر فقتل فولوا عليهم شيباً واتبعه كثير من بني شيبان وبعث إليهم الحجاج العساكر مع الحارث بن عميرة ثم مع سفيان الخثعمي ثم انحدر ابن سعيد فهزموها وأقبل شبيب إلى الكوفة فحاربهم الحجاج وامتنع ثم سرح عليه العساكر وبعث في أثرهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فهزمهم. ثم بعث عتاب بن ورقاء وزهرة بن حوبة مدداً لهم فانهزموا وقتل عتاب وزهرة ثم قتل شبيب واختلف الخوارج بينهم وقتل منهم جماعة كما يذكر ذلك كله في أخبارهم.

ضرب السكة الإسلامية

كان عبد الملك كتب في صدر كتابه إلى الروم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وذكر النبي مع التاريخ، ففكر ذلك ملك الروم وقال: اتركوه وإلا ذكرناه نيكيم في دنائيرنا بما تكرهونه. فغظم ذلك عليه واستشار الناس فأشار عليه خالد بن يزيد بضرب السكة وترك دنائيرهم ففعل. ثم نقش الحجاج فيها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. فكره الناس ذلك لأنه قد مسها غير الطاهر، ثم بالغ في تخلص الذهب والفضة من الغش. وزاد ابن هيرة أيام يزيد بن عبد الملك عليه. ثم زاد خالد القسري عليهم في ذلك أيام هشام. ثم أفرط يوسف بن عمر من بعدهم في المبالغة وامتحن العيار وضرب عليه فكانت الهيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية. ثم أمر المنصور أن لا يقبل في الخراج غيرها وسميت النقود الأولى مكروهة إما لعدم جودتها أو لما نقش عليها الحجاج وكرهه. وكانت دراهم العجم مختلفة بالصغر والكبر، فكان منها مثقال وزن عشرين قيراطاً واثني عشر وعشرة قيراط وهي أنصاف المشاقيل. فجمعوا قيراط الأنصاف الثلاثة فكانت اثنين وأربعين فجعلوا ثلثها وهو اثنا عشر قيراطاً ووزن الذهب العربي فكانت كل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل. وقيل: إن مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة أيام أخيه عبد الله والأصح أن عبد الملك أول من ضرب السكة في الإسلام.

مقتل بكير بن وشاح بخراسان

قد تقدم لنا عزل بكير عن خراسان وولاية أمية بن عبيد الله بن خالد بن أسيد سنة أربع وسبعين وأن بكيراً أقام في سلطان أمية بخراسان وكان يكرمه ويدعوه لولاية ما شاء من أعمال خراسان فلا يجيب، وأنه ولاه طخارستان، وتجهز لها فيه بجير بن

الرائعة والسلاح الكامل. ويعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وكان يغيضه ويقول: أريد قتله. ويغير الشعبي بذلك عبد الرحمن فيقول: أنا أزيله عن سلطانه، فلما بعثه على ذلك الجيش تنصح أخوه إسماعيل للحجاج وقال: لا تبعثه فإني أخشى خلافه. فقال: هو أهيب لي من أن يخالف أمري. وسار عبد الرحمن في الجيش وقدم سجستان واستفروهم وحذر العقوبة لمن يتعدى. وساروا جميعاً إلى بلاد رتييل وبذل الخراج فلم يقبل منه ودخل بلاده فحارها شتاً فشتياً. ويعث عماله عليها ورجع المصالح بالنواحي والأرصاد على العقاب والشعاب، وامتلأت أيدي الناس من الغنائم، ومنع من التوغل في البلاد إلى قابل. وقد قيل في بعث عبد الرحمن بن الأشعث غير هذا. وهو أن الحجاج كان قد أنزل هيمان بن عدي السدي مسلحة بكرمان أن احتاج إليه عامل السند وسجستان، فمضى هيمان فبعث الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث فهزمه وقام بمروضه. ثم مات عبد الله بن أبي بكره فولاه الحجاج مكانه وجهز إليه هذا الجيش وكان يسمى جيش الطواويس لحسن زعيم.

أخبار ابن الأشعث ومقتله

ولما وصل كتاب ابن الأشعث إلى الحجاج كتب إليه يوضحه على القعود عن التوغل ويأمره بالمضي لما أمره به من هدم حصونهم وقتل مقاتليهم وسي ذراريهم. وأعاد عليه الكتاب بذلف ثانياً وثالثاً وقال له: إن مضيت وإلا فأخوك إسحاق أمير الناس. فجمع عبد الرحمن الناس ورد الرأي عليهم وقال: قد كنا عزمنا جميعاً على ترك التوغل في بلد العدو ورأينا رأياً وكتب بذلك إلى الحجاج وهذا كتابه يستعجزي ويستضعفي ويأمرني بالتوغل بكم وأنا رجل منكم، فثار الناس وقالوا: لا نسمع ولا نطيع الحجاج. وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني: اخلعوا عدو الله الحجاج ويايعوا الأمير عبد الرحمن فتنادى الناس من كل جانب: فعلنا فعلنا. وقال عبد المؤمن بن شيث بن ريمي: انصرفوا إلى عدو الله الحجاج فاتفقوا عن بلادكم وثب الناس إلى عبد الرحمن على خلع الحجاج ونفيه من العراق وعلى النصرة له ولم يذكر عبد الملك.

وصالح عبد الرحمن رتييل على أنه إن ظهر فلا خراج على رتييل ما بقي من الدهر، وإن هزم منعه بمن يريده. وجعل عبد الرحمن على سبب عياض بن هيمان الشيباني وعلى رومج عبد الله بن عامر التميمي، وعلى كزمان حرثة بن عمر التميمي. ثم

عد المهلب في قميص ورداء ودنا ليكلمه فطعنه ومات من الغد. وقال صعصعة: فمئنته مقاعس وقالوا: أخذ بشأره فحمل المهلب دم صعصعة وجعل دم بيجر بيجر. وقيل: إن المهلب بعثه إلى بيجر فقتله والله أعلم وكان ذلك سنة إحدى وثمانين.

ولاية الحجاج على خراسان وسجستان

وفي سنة ثمان وسبعين عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان وسجستان وضمهما إلى الحجاج بن يوسف. فبعث المهلب بن أبي صفرة على خراسان وقد كان فرغ من حرب الأزارقة فاستدعاه وأجلسه معه على السرير، وأحسن إلى أهل البلاد من أصحابه وزادهم وبعث عبيد الله بن أبي بكره على سجستان. فأما المهلب فقدم ابنه حبيباً إلى خراسان فلم يعرض لأمية ولا لعماله حتى قدم أبوه المهلب بعد سنة من ولايته، وسار في خمسة آلاف وقطع النهر الغربي وما وراء النهر، وعلى مقدمته أبو الأدهم الرماني في ثلاثة آلاف، فنزل على كش وجاءه ابن عمر الخنق يستنجد على ابن عمه، فبعث معه ابنه يزيد. فبيت ابن العم عساكر الخنق وقتل الملك وجاءه صرير يريد قلعهم حتى صالحوا بما رضي، ورجع. وبعث المهلب ابنه حبيباً في أربعة آلاف ووافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً. وكبس بعض جنده في قرية فقتلهم وأحرقها ورجع إلى أبيه.

وأقام المهلب يحاصر كش ستين حتى صالحوه على فدية. وأما عبد الله بن أبي بكره فأقام بسجستان ورتييل على صلحه يؤدي الخراج. ثم امتنع فامر الحجاج ابن أبي بكره فغزوه واستباحوا بلاده، فسار في أهل المصيرين وعلى أهل الكوفة شريح بن هانئ من أصحاب علي، فدخل بلاد رتييل وتوغل فيها حتى كانوا على ثمانية عشر فرسخاً من مدينتهم وأئخن واستباح وخرب القرى والحصون. ثم أخذ الترك عليهم القسرى والشعاب حتى ظنوا الملكة فصالحهم عبيد الله على الخروج من أرضهم، على أن يعطيهم سبعمائة ألف درهم. ونكر ذلك عليه شريح وأبى إلا القتال وحرض الناس ورجع. وقتل حين قتل بناس من أصحابه ونجا الباقيون وخرجوا من بلاد رتييل، ولقيهم الناس بالأطعمة فكانوا يموتون إذا شبعوا. فجعلوا يطعمونهم السمن قليلاً قليلاً حتى استمروا وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في غزو بلاد رتييل فأذن له فجهز عشرين ألف فارس من الكوفة وعشرين ألفاً من البصرة واختار أهل الغنى والشجاعة، وأزاح عنهم وأتفق فيهم ألفي ألف سوي أعطياتهم، وأخذهم بالخيول

عاملاً لعبد الملك. فوجم الحجاج لذلك وكتب إلى عبد الملك: أن هذا عما يزيدهم جراءة وذكره بقضية عثمان وسعيد بن العاص. فأبى عبد الملك من رأيه وعرض عبد الله ومحمد بن مروان ما جاء به عبد الملك وتشاور أهل العراق بينهم وأشار عليهم عبد الرحمن بقبول ذلك، وأن العزة لهم على عبد الملك لا تزول، فتوثبوا من كل جانب منكرين لذلك ومجدين الخلع.

وتقدمهم في ذلك عبد الله بن دواب السلمي وعمير بن تيحان، ثم برزوا للقتال. وجعل الحجاج على ميمته عبد الرحمن بن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي، وعلى الخيل سفيان بن الأبرد الكلبي، وعلى الرجال عبد الله بن حبيب الحكمي. وجعل عبد الرحمن على ميمته الحجاج بن حارثة الخثعمي، وعلى ميسرته الأبرد بن قرة التميمي، وعلى خيله عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وعلى رجاله محمد بن سعد بن أبي وقاص، وعلى مجنبته عبد الله بن رزم الحرشي، وعلى القرى جيلة بن زحر بن قيس الجعفي وفيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي وأبو اليخزي الطائي وعبد الرحمن بن أبي ليلى. ثم أقاموا يتزاحفون كل يوم ويقتلون بقية سبتهم، وكتيبة القرى معروفة بالصبر يحملون عليها فلا تنتقص.

فعبى الحجاج ثلاث كتائب مع الجراح بن عبد الله الحكمي وحملوا على القرى ثلاث حملات وجيلة يحرض القرى ويبيتهم والشعبي وسعيد بن جبير كذلك. ثم حملوا على الكتائب ففرقوها وأزالوها عن مكانها وتأخر جيلة عنهم ليكون لهم فنة يرجعون إليه، وأبصره الوليد بن نجيب الكلبي فقصدته في جماعة من أهل الشام وقتله وجيء برأسه إلى الحجاج وقدموا عليهم مكانه وظهر القتل في القرى. ثم اقتتلوا بعد ذلك ما يزيد على مائة يوم كثر فيها القتل والمبارزة. ثم اقتتلوا يوماً في منتصف جمادى الآخرة وحمل سفيان بن الأبرد في ميمته الحجاج على ميسرة عبد الرحمن فانهزم الأبرد بن قرة من غير قتال فقوضت صفوف الميمنة، وركبهم أصحاب الحجاج، ثم انهزم عبد الرحمن وأصحابه. ومضى الحجاج إلى الكوفة ومحمد بن مروان إلى الموصل وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام.

وأخذ الحجاج الناس على أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر، وقتل من أبى ذلك. ودعا بكميل بن زياد صاحب علي فقتله لاقتصاصه. ثم أقام بالكوفة شهراً وأنزل أهل الشام في بيوت أهل الكوفة، ولحق ابن الأشعث بالبصرة فاجتمع إليه جموع المنهزمين ومعه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة ولحق به محمد بن سعد بن أبي وقاص بالمدائن، وسار نحو الحجاج ومعه بسطام بن مصقلة

سار إلى العراق في جموعه وأعشى همدان بين يديه يجري بمدحه وذم الحجاج. وعلى مقدمته عطية بن عمير العيرني. ولما بلغ فارس بدا للناس في أمر عبد الملك وقالوا: إذا خلعتنا الحجاج فقد خلعتنا فخلعه الناس وبايعوا عبد الرحمن على السنة وعلى جهاد أهل الضلالة والمخلين وخلصهم.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره ويستعده وكتب المهلب إلى الحجاج بأن لا يعترض أهل العراق حتى يسقطوا إلى أهلهم، فنكر كتابه واتهمه. وجئ عبد الملك الجند إلى الحجاج فصاروا إليه متتابعين، وسار الحجاج من البصرة فتزلت تستر وبعث مقدمة خيل فهزمهم أصحاب عبد الرحمن بعد قتال شديد وقتل منهم جمعاً كثيراً وذلك في أضحى إحدى وثمانين، وأجفل الحجاج إلى البصرة، ثم تأخر عنها إلى الغاوية وراجع كتاب المهلب فعلم نصيحته. ودخل عبد الرحمن البصرة فبايعه أهلها وسائر نواحيها لأن الحجاج كان أشتد على الناس في الخراج، وأمر من دخل الأمصار أن يرجع إلى القرى، يستوفي الجزية، فنكر ذلك الناس وجعل أهل القرى يبيكون منه، فلما قدم عبد الرحمن بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك.

ثم اشتد القتال بينهم في الحرم سنة اثنين وثمانين، وتزاحفوا على حرب الحجاج وخلع عبد الملك. وانهزم أهل العراق وقصدوا الكوفة وانهزم منهم خلق كثير. وفشا القتل في القرى فقتل منهم عقبة بن عبد الغافر الأزدي في جماعة استلحموا معه، وقتل الحجاج بعد الهزيمة منهم عشرة آلاف وكان هذا اليوم يسمى يوم الراوية. واجتمع من بقي بالبصرة على عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وبايعوه، فقاتل بهم الحجاج خمس ليال ثم لحق بابن الأشعث بالكوفة ربيعة طائفة من أهل البصرة.

ولما جاء عبد الرحمن الكوفة وخليفة الحجاج عليها عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي وثب به مطر بن ناجية من بني تميم مع أهل الكوفة، فاستولى على القصر وأخرجه. فلما وصل ابن الأشعث لقيه أهل الكوفة واحتف به همدان. وجاء إلى القصر فمنعه مطر فصعد الناس القصر وأخذوه فحبسه عبد الرحمن وملك الكوفة. ثم إن الحجاج استعمل على البصرة الحكم بن أيوب الثقفي ورجع إلى الكوفة فنزل دوير فيرة، ونزل عبد الرحمن دير الجماجم واجتمع إلى كل واحد أمداده وخذق على نفسه. وبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمداً في جند كثيف وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج ويجري عليهم أعطياتهم كأهل الشام، وينزل عبد الرحمن إلى أي بلد شاء

بن سمرة فخشي الانتقاض وقال: إنما أتيتكم وأمركم جميعاً وأنا الآن منصرف إلى صاحبي الذي جئت من عنده يعني: رتبيل. ورجع عنهم في قليل. وبقي معظم العسكر مع عبد الرحمن بن العباس بسجستان، فجمع بابن الأشعث وسار إلى خراسان في عشرين ألفاً ونزل هراة ولقوا الرقاد فقتلوه.

وبعث إليه يزيد بن المهلب بالرحلة من البلاد، فقال إنما نزلنا لنستريح ونرتحل. ثم أخذ في الجباية وسار نحوه يزيد بن المهلب والتقوا فافترق أصحاب عبد الرحمن عنه، وصبرت معه طائفة ثم انهزموا وأمر يزيد بالكف عنهم وغنم ما في عسكرهم وأسر جماعة منهم فيهم: محمد بن سعد بن أبي وقاص وعمر بن موسى بن عبد الله بن معمر وعباس بن الأسود بن عوف واللقام بن نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وفيروز وأبو لعلج مولى عبد الله بن معمر وسوار بن مروان وعبد الله بن طلحة الطلحات، وعبد الله بن فضالة الزهراني الأزدي. ولحق عبد الرحمن بن العباس بالسند وأتى ابن سمرة إلى مرو وانصرف يزيد إلى مرو. وبعث بالأسرى إلى الحجاج مع سيدة بن نجدة، وقال له أخوه حبيب: ألا تبعث عبد الرحمن بن طلحة؟ فإن له عندنا يدين، وقد ودى عن المهلب أبو طلحة مائة ألف، فتركه وترك عبد الله بن فضالة لأنه من الأزدي. وبعث الباقيين وقدموا عليه بمكان واسط قبل بنائها فدعا بفيروز وقال: ما أخرجك مع هؤلاء وليس بينك وبينهم نسب. قال: فتنة عمت الناس! قال: اكتب أموالك فكتب ألفي ألف وأكثر. فقال للحجاج: وأنا آمن على دمي؟ قال: لا والله لتؤديها ثم أقتلك. قال: لا تجمع مالي ودمي وأمر به فُتِحَ.

ثم أحضر محمد بن سعد بن أبي وقاص فوجّهه طويلاً ثم أمر به فقتل ثم دعا بعمر بن موسى فوجّهه ولاطفه في العذر فلم يقبل ثم أمر به فقتل. ثم أحضر اللقام بن نعيم فوجّهه. وقال: ابن الأشعث طلب الممالك فما الذي طلبت أنت؟ قال: أن توليني العراق مكانك فأمر به فقتل. ثم أحضر عبد الله بن عامر فعذله في عبد الله بن يزيد بن المهلب لأنه أطلق قومه من الأسر وقاد نحوه مطراً، فأطرق الحجاج، ثم قال: ما أنت وذاك؟ ثم أمر به فقتل فلم يزل في نفسه من يزيد حتى عزله. ثم أمر بفيروز فعذب ولما أحس بالموت قال: أظهورني للناس ليردوا علي وداعني فلما ظهر نادى من كان لي عنده شيء فهو في حل فأمر به فقتل. وأمر بقتل عمر بن فهر الكندي وكان شريفاً، وأحضر أعشى همدان واستنشه قصيدته بين الأثلج وبين قيس، وفيها تحريض ابن الأشعث وأصحابه فقال: ليست هذه وإنما التي بين الأثلج وبين قيس بارق على روي الدال. فأنشده فلما بلغ قوله: يخ بخ للوالدة

بن هيرة الشيباني كان قدم عليه قبل الهزيمة من الري وكان انتقض بها ثم غلب عليها ولحق بعبد الرحمن فكان معه. وبايع عبد الرحمن خلق كثير على الموت، ونزل مسكن وخذق عليه وعلى أصحابه والحجاج قبائلهم وقتلهم خالد بن جرير بن عبد الله. وكان قدم من خراسان في بعث الكوفة، فقاتلهم خمسة عشر يوماً من شعبان أشد قتال، وقتل زياد بن غنيم القيني. وكان عليّ صالح الحجاج فهذه منهم ثم أبى بكر القتال. وحمل بسطام بن مصقلة بن هيرة في أربعة آلاف من فرسان الكوفة والبصرة، كسروا جفون سيفهم وحملوا على أهل الشام فكشفوهم مراراً وأحاط بهم الرماة ولحقوا فقتلوا.

وحمل عبد الملك بن المهلب على أصحاب عبد الرحمن فكشفوهم. ثم حل أصحاب الحجاج من كل جانب فانهمز عبد الرحمن وأصحابه وقتل عبد الرحمن بن أبي ليلى الفقيه، وأبو البخترى الطائي ومعلّى بن الأشعث نحو سجستان. ويقال: إن بعض الأعراب جاء إلى الحجاج فذله على طريق من وراء معسكر ابن الأشعث فبعث معه أربعة آلاف جاوزوا من ورائه، وأصبح الحجاج فقاتله واستطرد له حتى نهب معسكره. وأقبلت السرية من الليل إلى معسكر ابن الأشعث وكان الفرقي منهم أكثر من القتل، وجاء الحجاج إلى المعسكر فقتل من وجد فيه وكان عدة القتلى أربعة آلاف: منهم عبد الله بن شداد بن الهادي وبسطام بن مصقلة وعمر بن ربيعة الرقاشي وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم.

ولما سار ابن الأشعث إلى سجستان أتبعه الحجاج بالعساكر، وعليهم عمارة بن تميم اللخمي، ومعهم محمد بن الحجاج فادركوه بالسوس فقاتلوه وانهزم إلى سابور واجتمع إليه الأكراد وقاتلوا العساكر قتالاً شديداً فهزم، وخرج عمارة ولحق ابن الأشعث بكرمان فلقبه عامله بها وهياً له النزول فترّل. ثم رحل إلى زرنج فمعه عامله من الدخول، فحاصرها أياماً ثم سار إلى بست وعليها من قبله عياض بن هيمان بن هشام السلوي الشيباني، ثم استغفله فارقه. وكان رتبيل ملك الترك قد سار ليستقبله، ونزل على بست وتهدد عياضاً فأطلقه، وحمل رتبيل إلى بلاده وأنزله عنده.

واجتمع المنهزمون فانفقوا على قصد خراسان لينموا بعشائرهم وقصدوا للصلاة عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث، وكتبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث يستقدمونه فقدم عليهم وثناهم عن قصد خراسان مخافة من سطوة يزيد بن المهلب وأن يجتمع أهل الشام وأهل خراسان فأبوا وقالوا: بل يكثر بها تابعتنا. فسار معهم إلى هراة فهرب عنهم عبيد الله بن عبد الرحمن

وللمولود. قال: والله لا تبخىخ بعدها أبداً وقتل.

وسأل الحجاج عن الشعبي فقال له يزيد بن أبي مسلم إنه لحق بالري فكتب إلى قتيبة بن مسلم وهو عامله على الري بإرسال الشعبي. فقدم على الحجاج سنة ثلاث وثمانين، وكان ابن أبي مسلم له صديقاً فأشار عليه بحسن الاعتذار. فلما دخل على الحجاج سلم عليه بالإمرة وقال: وإيم الله لا أقول إلا الحق قد والله حرصنا وجهدنا فما كنا أقوىاء فجرة، ولا أتقياء بررة، وقد نصرك الله وظفرت فإن سطوت قبذوننا وإن عفوت فيحلمك والحجة لك علينا. فقال الحجاج: هذا والله أحب إلي من يقول ما شهدته ولا فعلت وسيفه يقطر من دماثنا. ثم أمناه وانصرف.

ولما ظفر الحجاج بابن الأشعث وهزمه لحق كثير من المهزمين بعمر بن الصلت وقد كان غلب على الري في تلك الفتنة. فلما اجتمعوا أرادوا أن يحظروا عند الحجاج ويمحوا عن أنفسهم ذنب الجماجم فأشاروا على عمر بن ملحج الحجاج فامتنع فدسوا عليه أباه فأجاب. ولما سار قتيبة إلى الري خرجوا مع عمر لقتاله ثم غدروا به فانهزم، ولحق بطبرستان وأقره الأصبهيد وأحسن إليه، وأرادوا الوثوب على الأصبهيد فشاوهم أباه وقال: قد علمت الأعاجم أنني أشرف منه فمنعه أبوه ودخل قتيبة الري وكتب الحجاج إلى الأصبهيد أن يبعث بهم أو يرؤوسهم ففعل ذلك.

ولما انصرف عبد الرحمن بن الأشعث من هراة إلى رتبيل قال له علقمة بن عمر الأزدي: لا أدخل معك دار الحرب لأن رتبيل إن دخل إليه الحجاج فيك وفي أصحابك قتلهم أو أسلمكم إليه، ونحن خمسمائة وقد تابيعنا على أن نتحصن بمدينة حتى نأمن أو نموت كراماً وقدم عليهم مودود البصري، وزحف إليهم عمارة بن تميم اللخمي وحاصروهم حتى استأمنوا فخرجوا إليه وقلاهم وتابعت كتب الحجاج إلى رتبيل في عبد الرحمن يرهيه ويرغبه. وكان عبيد بن سميع التميمي من أصحاب ابن الأشعث، وكان رسوله إلى رتبيل أولاً، فأنس به رتبيل وزحف عليه وأغرى القاسم بن الأشعث أخاه عبد الرحمن بقتله فخافه وزين لرتبيل أخذ العهد من الحجاج وإسلام عبد الرحمن إليه على أن يكف عن أرضه سبع سنين فأجابه رتبيل وخرج إلى عمارة سراً. وكتب عمارة إلى الحجاج بذلك فأجاب وكتب له بالكف عنه عشر سنين، وبعث إليه رتبيل برأس عبد الرحمن وقيل: مات بالسل فقطع رأسه وبعث به، وقيل: أرسله مقيداً مع ثلاثين من أهل بيته إلى عمارة فالتقى عبد الرحمن نفسه من سطح القصر فمات، فبعث عمارة برأسه وذلك سنة أربع أو خمس وثمانين.

قد كنا قدمنا حصار المهلب مدينة كرش من وراء النهر فاقام عليها ستين، وكان استخلف على خراسان ابنه المغيرة فمات سنة اثنتين وثمانين، فجزع عليه وبعث ابنه يزيد إلى مرو ومكنه في سبعين فارساً، ولقيهم في مفازة نسف جمع من الترك يقاربون الخمسمائة فقاتلهم قتالاً شديداً يطلبون ما في أيديهم والمغيرة يتمتع حتى أعطى بعض أصحابه لبعضهم شيئاً من المتاع والسلاح، ولحقوا بهم ولحق يزيد بمرو. ثم سأل أهل كرش من المهلب الصلح على مال يعطونه، فاسترهن منهم رهناً من أبنائهم في ذلك، وانتقل المهلب وخلف حريث بن قطنه مولى خزاعة ليأخذ الفدية ويرد الرهن، فلما صار يبلغ كتب إليه: لا تحل الرهن وإن قبضت الفدية حتى تقدم أرض بلخ لثلاثين ألفاً عليك. فأقرأ صاحب كرش كتابه وقال: إن عجلت أعطيتك الرهن، وأقول له جاء الكتاب بعد إعطائه.

فعجل صاحب كرش بالفدية وأخذ الرهن وعرض له الترك كما عرضوا ليزيد وقاتلهم فقتلهم وأسروا منهم أسرى، ففدوهم فرداً فرداً وأطلقهم. ولما وصل إلى المهلب ضربه ثلاثين سوطاً عقوبة على مخالفة كتابه في الرهن. فحلف حريث أن ابن قطنه ليقتلن المهلب، وخاف ثابثاً إن كان ذلك المسير إليه. فبعث إليه المهلب أخاه ثابت بن قطنه يلاطفه فأبى وحلف ليعتلن المهلب، وخاف ثابت إن كان ذلك أن يقتلوا جميعاً فأشار عليه باللاحاق بموسى بن عبد الله بن حازم، فلحق به في ثلاثمائة من أصحابهما. ثم هلك المهلب واستخلف ابنه يزيد، وأوصى ابنه حبيباً بالصلاة وأوصى ولده جميعاً بالاجتماع والإلفة، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فإنها تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد وأنهاركم عن القطيعة فإنها تعقب النار والذلة والقلعة، وعليكم بالطاعة والجماعة ولتكن فعالكم أفضل من مقالكم. واتقوا الجواب وزلة اللسان فإن الرجل تزل قدمه فينعش ويزل لسانه فيهلك واعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له. وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرف واصنعوا المعروف، فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت فكيف بالصنيعة عنده. وعليكم في الحرب بالتؤدة والمكيدة فإنها أنفع من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء وإن أخذ الرجل بالحزم فظفر قبل أتى الأمر من وجهه فظفر، وإن لم يظفر قبل ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وآداب الصالحين وإيساكم وكثرة الكلام في مجالسكم. ثم مات وذلك سنة اثنتين وثمانين.

ويقال: إنه لما حثهم على الإلفة والاجتماع أحضر سهاماً

قال: فما تجدون صفة ملكنا؟ قال: صفته كذا. قال: ثم من؟ قال: آخر اسمه الوليد. قال: ثم من؟ قال: آخر اسمه ثقيف. قال: فمن تجد بعدي؟ قال: رجل يدعى يزيد. قال: أتعرف صفته؟ قال: لا أعرف صفته إلا أنه يغدر غدرة. فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب ووجل منه وقدم على عبد الملك. ثم عاد إلى خراسان وكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب وأنهم زبيرة فكتب إليه أن وفاءهم لآل الزبير يدعوهم إلى الوفاء لي. فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم وما يقول الراهب. فكتب إليه عبد الملك أنك أكثر في يزيد فانظر من تولي مكانه. فسمى له قتيبة بن مسلم فكتب له أن يوليه.

وكره الحجاج أن يكاتبه بالعزل فاستقدمه وأمره أن يستخلف أخاه المفضل واستشار يزيد حصين بن المنذر الرقاشي فقال له: أقم واعتل وكاتب عبد الملك فإنه حسن الرأي فيك. نحن أهل بيت بورك لنا في الطاعة وأنا أكره الخلاف. وأخذ يتجهز وأبطأ. فكتب الحجاج إلى المفضل بولاية خراسان واستلحاق يزيد. فقال: إنه لا يضرك بعدي وإنما ولاك خافة أن أمتنع. وخرج يزيد في ربيع سنة خمس وثمانين. ثم عزل المفضل لتسعة أشهر من ولايته وولى قتيبة بن مسلم. وقيل: سبب عزل السيزيد أن الحجاج أذل العراق كلهم إلا آل المهلب وكان يستقدم يزيد فيعتل عليه بالعدا والحروب. وقيل: كتب إليه أن يغزو خوارزم فاعتذر إليه بأنها قليلة السلب شديدة الكلف. ثم استقدمه بعد ذلك فقال: إلى أن أغزو خوارزم. فكتب الحجاج لا تغزها فغزاها وأصاب سبياً وصالحه أهلها وانفلت في الشتاء. وأصاب الناس البرد فتدشروا بلباس الأسرى فبقوا عرايا وقتلهم المفضل. ولما ولي المفضل خراسان غزا باذغيس ففتحها وأصاب مغنماً فقسمه ثم غزا شومان فغنم وقسم ما أصابه.

مقتل موسى بن حازم

كان عبد الله بن حازم لما قتل بني تميم بخراسان وافترقوا عليه فخرج إلى نيسابور، وخاف بنو تميم على ثقله بمرور فقال لابنه موسى: أقطع نهر بلخ حتى نلتجئ إلى بعض الملوك أو إلى حصن نقيم فيه. فسار موسى عن مرو في مائتين وعشرين فارساً واجتمع إليه شبه الأربعمائة وقرم من بني سليم وأتى قُوم فقاتله أهلها فظفر بهم وأصاب منهم مالا، وقطع النهر. وسال صاحب بخارى أن يأوي إليه فأبى وخافه، وبعث إليه بصلة فسار عنه وعرض نفسه على ملوك الترك فأبوا خشية منه، وأتى سمرقند فآذنت له ملكها

محزومة فقال: أنكسرون هذه مجتمعة؟ قالوا: لا. قال: فتكسرونها مفترقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة. واستولى يزيد على خراسان بعد أبيه وكتب له الحجاج بالعهد عليها. ثم وضع العيون على يزيد حتى بلغه خروجه عن قلعة فسار إليها وحاصرها ففتحها وغنم ما كان فيها من الأموال والذخائر، وكانت من أحصن القلاع. وكان يزيد إذا أشرف عليها يسجد لها. ولما فتحها كتب إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يعمر العدواني حليف هذيل فكتب: إنا لقينا العدو فمحننا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرننا طائفة ولحقنا طائفة برؤوس الجبال ومهامم الأودية وأهضام الغيطان وأفناء الأنهار. فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟ قيل: يحيى بن يعمر. فكتب بحمله على البريد. فلما جاءه قال: أين ولدت؟ قال: بالأهواز. قال: فمن أين هذه الفصاحة؟ قال: حفظت من أولاد أبي وكان فصيحاً. قال: يلحن عنبسة بن سعيد؟ قال: نعم كثيراً! قال فضلان؟ قال: نعم! قال: فأنأ؟ قال: تلحن خفيفاً تجعل أن موضع إن وإن موضع أن. قال: أجلتك ثلاثاً وإن وجدتك بأرض العراق قتلتك فرجع إلى خراسان.

بناء الحجاج مدينة واسط

كان الحجاج يُنزل أهل الشام على أهل الكوفة فضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان سنة ثلاث وثمانين، وعسكروا قريباً من الكوفة حتى يستموا، ورجع منهم ذات ليلة فتى حديث عهد بعرس بابنة عمه فطرق بيته ودق الباب فلم يفتح له إلا بعد هنيهة وإذا سكران من أهل الشام فشكت إليه ابنة عمه مرادته إياها. فقال لها: ائذني له فأذنت له. وجاء فقتله الفتى وخرج إلى العسكر. وقال: إيعني إلى الشاميين وارفعي إليهم صاحبهم فأحضروها عند الحجاج فأخبرته. فقال: صدقت! وقال للشاميين: لا قود له ولا عقل فإنه قتيل الله إلى النار. ثم نادى مناديه لا ينزل أحد على أحد وبعث الرواد فارتادوا له مكان واسط ووجد هناك راهباً ينظف بقبعة من النجاسات فقال: ما هذه؟ قال: نجد في كتبنا أنه ينشأ ههنا مسجد للعبادة. فاخط الحجاج مدينة واسط هنالك وبنى المسجد في تلك البقعة.

عزل يزيد عن خراسان

يقال إن الحجاج وفد إلى عبد الملك ومرو في طريقه براهب قيل له إن عنده علماً من الحدائق فقال: هل تجدون في كتابكم ما أنتم فيه؟ قال: نعم فقال: سمئى أو موصوفاً؟ قال: موصوفاً.

آلاف فقال له ثابت وحريث: سر بنا في هذا العسكر مع الترك، فنخرج يزيد من خراسان ونوليكم، فحذر موسى أن يغلباه على خراسان، ونصحه بعض أصحابه في ذلك فقال لهما: إن أخرجنا يزيد قدم عامل المدينة عبد الملك، ولكننا نخرج عمال يزيد من وراء النهر ويكون لنا، فأخرجوهم وانصرف طرخون والترك.

وقوي أمر العرب بترمز وجبوا الأموال واستبد ثابت وحريث على موسى وأغراه أصحابه بهما فهم يقتلها، وإذا بمجموع العجم قد خرجت إليهم من الهياطة والتبت والترك فخرج موسى فيمن معه للقتال. ووقف ملك الترك على ما قيل في عشرة آلاف، فحمل عليهم حريث بن قطة حتى أزالهم عن موضعهم، وأصيب بسهم في وجهه وتحاجزوا ثم بيّتهم موسى فانهزموا وقتل من الترك خلق كثير ومات منهم قليل. ومات حريث بعد يومين ورجع موسى بالظفر والغنيمة. وقال له أصحابه: قد كفيينا أمر حريث فاكفنا أمر ثابت فأبى. وبلغ ثابت بعض ما كانوا يخوضون فيه ودس محمد بن عبد الله الخزاعي عليهم على أنه من سبي الباسيان ولا يحسن العربية، فاتصل بموسى وكان ينقل إلى ثابت خبر أصحابه فقال لهم ليلة: قد أكثرتم علي فعلى أي وجه تقتلون ولا أعند به؟ فقال له أخوه نوح: إذا أنك غداً عدلنا به إلى بعض الدور فقتلناه قبل أن يصل إليك. فقال: والله إنه هلاككم! وجاء الغلام إلى ثابت بالخبر فخرج من ليلته في عشرين فارساً وأصبحوا ففقدوه وفقدوا الغلام فعلموا أنه كان عيناً.

ونزل ثابت بمحشود واجتمع إليه خلق كثير من العرب والعجم. وسار إليه موسى وقاتله، فحصر ثابتاً بالمدينة. وأتاه طرخون مدد فرجع موسى إلى ترمذ. ثم اجتمع ثابت وطرخون وأهل بخارى ونسف وأهل كش في ثمانين ألفاً. فحاصروا موسى بترمذ حتى جهد أصحابه. وقال يزيد بن هذيل: والله لأقتلن ثابتاً أو أموت. فاستأمن إليه وحذره بعض أصحابه منه فأخذ ابنه قدامة والضحاك رهناً وأقام يزيد يتلمس غرة ثابت. ومات ابن الزياد والقصير الخزاعي فخرج إليه ثابت يعزبه وهو بغير سلاح فضربه يزيد على رأسه وهرب. وأخذ طرخون قدامة والضحاك ابني يزيد فقتلها. وهلك ثابت لسبعة أيام وقام مكانه من أصحابه ظهير وضعف أمرهم وبيّتهم موسى ليلاً في ثلثمائة فبعث إليه طرخون كف أصحابك فإنا نرحل الغداة. فرجع وارتحل طرخون والعجم جميعاً.

ولما ولي المفضل خراسان بعث عثمان بن مسعود في جيش إلى موسى بن حازم وكتب إلى مدرك بن المهلب في بلخ بالمسير معه، فعبر النهر في خمسة عشر ألفاً، وكتب إلى رتبيل وإلى طرخون

طرخون ملك الصفد في المقام فأقام وبلغه قتل أبيه عبد الله بن حازم ولم يزل مقيماً بسمرقند.

وبارز بعض أصحابه يوماً بعض الصفد فقتله فأخرجه طرخون عنه فأتى كيش فنزلها ولم يطق صاحبها مدافعتة واستجاش عليه بطرخون. فخرج موسى للقاءه وقد اجتمع معه سبعماية فارس فاقتلوا إلى الليل ودس موسى بعض أصحابه إلى طرخون يخوفه عاقبة أمره وأن كل من يأتي خراسان يطالبه بدمه. فقال: يرتحل عن كش؟ قال له: نعم! وكف حتى ارتحل وأتى ترمذ، فنزل إلى جانب حصن بها مشرف على النهر، وأبى ملك ترمذ من تملكه الحصن فأقام هنالك ولاطف الملك وتودد له وصار يتصيد معه. وصنع له الملك يوماً طعاماً وأحضره في مائة من أصحابه ليأكلوا، فلما طعموا امتنعوا من الذهب. وقال موسى: هذا الحصن إما يبي أو قبري وقاتلهم فقتل منهم عدة واستولى على الحصن وأخرج ملك ترمذ ولم يتعرض له ولا لأصحابه. ولحق به جمع من أصحاب أبيه فقوي بهم، وكان يغير على ما حوله.

ولما ولي أمية خراسان سار لغزوه وخالفه بكير كما تقدم. ثم بعث إليه بعد صلحه مع بكير الجيوش مع رجل من خزاعة وحاصروه. وعاد ملك ترمذ استنصاره بالترك في جمع كثير ونزلوا عليه من جانب آخر. وكان يقاتل العرب أول النهار والترك آخره ثلاثة أشهر. ثم بيت الترك ليلة فهزمهم وحوى عسكرهم بما فيه من المال والسلاح ولم يهلك من أصحابه إلا ستة عشر رجلاً. وأصبح الخزاعي والعرب وقد خافوا مثلاً. وغدا عمر بن خالد بن حصين الكلابي على موسى بن حازم وكان صاحبه فقال: إنا لا نظفر إلا بمكيذة فاضربني وخلفي، فضربه خمسين سوطاً فلحق بالخزاعي وقال: إن ابن حازم اتهمني بعصيتكم وإني عين لكم فأمه الخزاعي وأقام عنده. ودخل عليه يوماً وهو خال فقال له: لا ينبغي أن تكون بغير سلاح. فرفع طرف فراشه وأراه سيفاً منتضى تحته فضربه عمر حتى قتله ولحق بموسى. وتفرق الجيش واستأمن بعضهم موسى.

ولما ولي المهلب على خراسان قال لابنيه: إياكم وموسى! فإنه إن مات جاء على خراسان أمير من قيس. ثم لحق به حريث وثابت ابنا قطة الخزاعي فكانا معه. ولما ولي يزيد أخذ أموالهما وحرهما، وقتل أخاهما للام الحارث بن معقد، فسار ثابت إلى طرخون صريحاً، وكان محبباً إلى الترك فغضب له طرخون. وجمع له نيزك وملك الصفد وأهل بخارى والصاغان، فقدموا مع ثابت إلى موسى وقد اجتمع عليه قُلُ عبد الرحمن بن عباس من هرة وفل ابن الأشعث من العراق ومن كابل. فكان معه نحو ثمانية

وكتب عبد الملك إلى هشام يلومه ويقول: إن سعيداً ليس عنده شقاق ولا نفاق ولا خلاف وقد كان ابن المسيب امتنع من بيعة ابن الزبير فضربه جابر بن الأسود عامل المدينة لابن الزبير ستين سوطاً، وكتب إليه ابن الزبير يلومه. وقيل: إن بيعة الوليد وسليمان كانت سنة أربع وثمانين والأول أصح. وقيل: قدم عبد العزيز على أخيه عبد الملك من مصر فلما فارق وصاه عبد الملك فقال: أبسط بشرك وآلن كنفك وآثر الرفق في الأمور فهو أبلغ لك، وانظر حاجبك وليكن من خير أهلك فإنه وجهك ولسانك. ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده، فإذا خرجت إلى مجلسك فابداً جلساءك بالكلام يأنسوا بك وتثبت في قلوبهم محبتك. وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المهمة. واعلم أن لك نصف الرأي ولأخيك نصفه ولن يهلك امرؤ من مشورة. وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته فإنك على العقوبة بعد التوقف عنها أقدر منك على ردها بعد إصابتها.

وفاة عبد الملك وبيعة الوليد

ثم توفي عبد الملك منتصف شوال سنة ست وثمانين وأوصى إلى ابنه فقال: أوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلية وأحسن كهف، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وانظروا مسلمة فاصدروا عن رايه فإنه نابكم الذي عنه تقرّون، ولحيكم الذي عنه ترمون. وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المناير، ودوخ لكم البلاد، وأذل لكم مغنى الأعداء. وكونوا بني أم برة لا تدب بينكم العقارب. وكونوا في الحرب أحراراً فإن القتال لا يقرب منية. وكونوا للمعروف مناراً فإن المعروف يبقى أجره وذخره وذكره، وضعوامعروفكم عند ذوي الأحساب فإنه لصون له، واشكر لما يؤتى إليهم منه، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب فإن استقالوا فأقبلوا، وإن عادوا فانتقموا.

ولما دفن عبد الملك قال الوليد: إنا لله وإنا إليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، فكان أول من عزى نفسه وهناها. ثم قام عبد الله بن همام السامولي وهو يقول:

الله أعطاك السبي لا فوقها وقد أراد الملحدون عوقها
عنك ويأبى الله إلا سوقها إليك حتى قلوك طوقها

وبايعه ثم بايعه الناس بعده وقيل: إن الوليد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لا مقدّم لما أخره الله

أن يكونوا مع عثمان. فحاصروا موسى بن حازم فضيقوا عليه شهرين، وقد خندق عثمان على معسكره حذر البيات. فقال موسى لأصحابه: اخرجوا بنا مستميتين واقصدوا الترك فخرجوا وخلف النضر ابن أخيه سليمان في المدينة. وقال له: إن أنا قتلت فملك المدينة لمدرّك بن المهلب دون عثمان وجعل ثلث أصحابه بإزاء عثمان وقال: لا تقاتلوه إلا إن قاتلكم. وقصد طرخون وأصحابه وصدقوهم القتال، فانهزم طرخون وأخذوا وحجزت الترك والصغد بينهم وبين الحصن فقاتلهم فغفروا فرسه وأردفه مولى له فبصر به عثمان حين وثب فعرفه فقصدته وعقرها به الفرس وقتلوه، وقتل خلق كثير من العرب. وتولى قتل موسى واصل العنبري ونادى منادي عثمان بكف القتل وبالأسر وبعث النضر بن سليمان إلى مدرّك بن المهلب فسلم إليه مدينة ترمذ وسلمها لمدرّك إلى عثمان. وكتب المفضل إلى الحجاج بقتل موسى فلم يسره لأنه من قيس وكان قتل موسى سنة خمس وثمانين لخمس عشرة سنة من تغلبه على ترمذ.

البيعة للوليد بالعهد

وكان عبد الملك يروم خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد والبيعة لابنه الوليد، وكان قبيصة ينهيه عن ذلك ويقول: لعل الموت يأتيه وتدفع العار عن نفسك وجاءه زوّج بن زبناغ ليلة وكان عنده عظيماً ففاوضه في ذلك فقال: لو فعلته ما انتطح فيه عتزان. فقال: نصلح إن شاء الله وأقام روح عنده ودخل عليهما قبيصة بن ذؤيب من جنح الليل وهما نائمان وكان لا يحجب عنه وإليه الخاتم والسكة فاختبره بموت عبد العزيز أخيه. فقال روح: كفانا الله ما نريد. ثم ضم مصر إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك وولاه عليها. ويقال: إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد فكتب إلى عبد العزيز إنني رأيت أن يصير الأمر إلى ابن أخيك، فكتب له أن تجعل الأمر له من بيعة فكتب له إنني أرى في أبي بكر ما ترى في الوليد. فكتب له عبد الملك أن يحمل خراج مصر فكتب إليه عبد العزيز إني وإياك يا أمير المؤمنين قد أشرفنا على عمر أهل بيتنا ولا ندري أينما يأتيه الموت فلا نفسد علي بقية عمري فرق له عبد الملك وتركه.

ولما بلغ الخبر بموت عبد العزيز عبد الملك أمر الناس بالبيعة لابنه الوليد وسليمان، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان. وكان على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا وأبى سعيد بن المسيب فضربه ضرباً مبرحاً وطاف به وجسه.

الصلح فصالحهم واستعمل عليهم وسار عنهم غير بعيد. فقتلوا العامل ومن معه فرجع إليهم وهدم سورهم وقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم من السلاح وآتية الذهب والفضة ما لم يصيبوا مثله.

ثم غزا سنة ثمان وثمانين بلد نومكت فصالحوه وسار إلى رامسة فصالحوه أيضاً، فانصرف وزحف أيضاً إليه الترك والصغد وأهل فرغانة في مائتي ألف وملكهم كوريبابور ابن أخت ملك الصين، واعترضوا مقدمته وعليها أخوه عبد الرحمن فقاتلهم حتى جاء قتبية وكان ينزل معه، فأبلى مع المسلمين ثم انهزم الترك وجمعهم، ورجع قتبية إلى مرو. ثم أمره الحجاج سنة تسع وثمانين بغزو بخارى وملكها وزدان خذاه فعبّر النهر من زم ولقيه الصغد وأهل كش ونسف بالمقازة وقاتلوه فهزمهم ومضى إلى بخارى فتزل عن يمين وردان ولم يظفر منه بشيء ورجع إلى مرو.

عمارة المسجد

كان الوليد عزل هشام بن إسماعيل المخزومي عن المدينة سنة سبع وثمانين لأربع سنين من ولايته، وولى عليها عمر بن عبد العزيز فقدمها ونزل دار مروان ودعا عشرة من فقهاء المدينة فيهم الفقهاء السبعة المعروفون، فجعلهم أهل مشورته لا يقطع أمراً دونهم وأمرهم أن يبلغوه الحاجات والظلمات فشكروه وجزوه خيراً. ودعا له الناس. ثم كتب إليه سنة ثمان أن يدخل حجر أمهات المؤمنين في المسجد ويشتري ما في نواحيه حتى يجعله مائتي ذراع في مثلها، وقدم القبلية. ومن أبى أن يعطيك ملكه فقومه قيمة عدل وادفع إليه الثمن واهدم عليه الملك، ولك في عمر وعثمان أسوة. فأعطاه أهل الأملاك ما أحب منها بأثمانها وبعث الوليد إلى ملك الروم أنه يريد بناء المسجد فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال من الذهب ومائة من الفعلة وأربعين محلاً من الفسيفساء وبعث بذلك كله إلى عمر بن عبد العزيز واستكثر معهم من فعلة الشام وشرع عمر في عمارته اهـ.

وولى الوليد في سنة تسع وثمانين على مكة خالد بن عبد الله القسري.

فتح السند

كان الحجاج قد ولى على ثغر السند ابن عمه محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل، وجهز معه ستة آلاف مقاتل ونزل مكران، فأقام بها أياماً ثم أتى فيريوز ففتحها ثم

ولا مؤخر لما قدمه الله وقد كان من قضاء الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحمله عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار وولى هذه الأمة بالذي يحق لله عليه في الشدة على المذنب واللين لأهل الحق والفضل، وإقامة ما أقام الله من منازل الإسلام وإعلانه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً. أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع المنفرد. أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بداته ثم نزل.

ولاية قتبية بن مسلم خراسان وأخباره

قدم قتبية خراسان أميراً عن الحجاج سنة ست وثمانين فغرض الجند وحث على الجهاد وسار غازياً وجعل على الحرب عمرو إلياس بن عبد الله بن عمرو، وعلى الخراج عثمان بن السعدي وتلقاه دهاقين البلخ والطالقان وساروا معه. ولما عبر النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدياه. وكان ملك آخرون وسومان يسيء جواره فدعاه إلى بلاده وسلمها إليه. وسار قتبية إلى آخرون وسومان وهو من طخارستان فصالحه ملكهما على فدية أداها إليه. وقبضها ثم انصرف إلى مرو واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، ففتح بعد رجوع قتبية كاشان وأورشت من فرغانة، ثم أحسبكت مدينة فرغانة القديمة، وكان معه ابن يسار وأبلى في هذه الغزاة. وقيل: إن قتبية قدم خراسان سنة خمس وثمانين وكان من ذلك السبي امرأة برمك. وكان برمك على التوبهار، فصارت لعبد الله بن مسلم أخي قتبية فوقع عليها وعلقت منه بخالد، ثم صالح أهل بلخ وأمر قتبية برد السبي، فألحق عبد الله به حملهما. ثم ردت إلى برمك.

وذكر أن ولد عبد الله بن مسلم ادعوه ورفعوا أمرهم إلى المهدي وهو بالري، فقال لهم بعض قرابتهم: إنكم إن استلحقتموه لا بد لكم أن تزوجوه، فتركوه. ولما صالح قتبية ملك سومرن كتب إلى بترك طرخان صاحب باذغيس فيمن عنده من أسرى المسلمين وهددهم فبعث بهم إليهم. ثم كتب إليه يستقدمه على الأمان فخشي وتناقل، ثم قدم وصالح لأهل باذغيس على أن لا يدخلها قتبية ثم غزا بيكنداد في مدائن بخارى إلى النهر سنة سبع وثمانين. فلما نزل بهم استجاشوا بالصغد وعين حولهم من الترك. وساروا إليه في جموع عظيمة، وأخذوا عليه الطرق. فانقطعت الأخبار والرسل ما بينه وبين المسلمين شهرين، ثم هزمهم بعض الأيام وأتخن فيهم بالقتل والأسر وجاء إلى السور ليهدمه، فسألوا

تيم، فلما زالوا عن مواقفهم عبر الناس واتبعوهم وأنخنوا فيهم بالقتل، وخرج خاقان وابنه وفتح الله على المسلمين وكتب بذلك إلى الحجاج.

ولما استوت الهزيمة جاء طرخون ملك الصغد ومعه فارسان ودنا من عسكر قتيبة يطلب الصلح على فدية يؤديها فأجابه قتيبة وعقد له ورجع قتيبة ومعه نيزك وقد خافه لما رأى من الفتوح، فاستأذنه في الرجوع وهو بآمد، فرجع يريد طخارستان وأسرع السير. وبعث قتيبة إلى المغيرة بن عبد الله يأمره بمجسه وتبعه المغيرة فلم يدركه وأظهر نيزك الخلع ودعا لذلك الأصبهذي ملك بلخ وبإذان ملك مرو الروذ وملك الطالقان وملك القاريات وملك الجوزجان فأجابه، وتوعدوا لغزو قتيبة. وكتب إلى كاتب شاه يستظهر به وبعث إليه بأثقاله وأمواله واستأذنه في الإتيان إن اضطر إلى ذلك.

وكان جيفرنة ملك طخارستان نيزك ينزل عنده، فاستضعفه وقبض عليه وقيد خشية من خلافه وأخرج عامل قتيبة من بلده. وبلغ قتيبة خبرهم قبل الشتاء وقد تفرق الجند فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثني عشر ألف إلى البروقان، وقال: أقم بها ولا تحدث شيئاً، فإذا انقضى الشتاء تقدم إلى طخارستان وأنا قريب منك. ولما انصرم الشتاء استقدم قتيبة الجنود من نيسابور وغيرها فقدموا، فسار نحو الطالقان وكان ملكها قد دخل معهم في الخلع ففتحها وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سباطين أربعة فراسخ في مثلها، واستخلف عليها أخاه محمد بن مسلم، وسار إلى القاريات فخرج إليه ملكها مطيعاً. واستعمل عليها وسار إلى الجوزجان فلقبه أهلها بالطاعة، وهرب ملكها إلى الجبال واستعمل عليها عامر بن ملك الحماس.

ثم أتى بلخ وتلقاه أهلها بالطاعة وسار يتبع أخاه عبد الرحمن إلى شعب حله، ومضى نيزك إلى بخلان وخلف المقاتلة على فم الشعب ولا يهتدي إلى مدخل، ومضايقه يمنعونه. ووضع أثقاله في قلعة من وراء الشعب. وأقام قتيبة أياماً يقاثلهم على فم الشعب ولا يهتدي إلى مدخل، حتى دله عليه بعض العجم هنالك على طريق سرب منه الرجال إلى القلعة فقتلوهم، وهرب من بقي منهم ومضى إلى سمجان ثم إلى نيزك، وقدم أخاه عبد الرحمن وارتمل نيزك إلى وادي فرغانة، وبعث أثقاله وأمواله إلى كابل شاه، ومضى إلى السكون فتحصن به ولم يكن له إلا مسلك واحد صعب على الدواب فحاصره قتيبة شهرين حتى جهدوا وأصابهم جهد الجلدي.

وقرب فصل الشتاء فدعا قتيبة بعض خواصه ممن كان

أرمال. ثم سار إلى الديبل وكان به بدّ عظيم في وسط المدينة على رأسه دقل عظيم وعليه راية. فإذا هبت الريح دارت فاطافت بالمدينة. والبد صنم مركوز في بناء والدقل منارة عليه. وكل ما يعبد فهو عندهم بد. فحاصر الديبل ورماهم بالمتجنيق فكسر الدقل فتطيروا بذلك. ثم خرجوا إليه فهزمهم وتسلم الناس الأسوار ففتحت عنوة وأنزل فيها أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها وسار عنها إلى النيروز.

وقد كانوا يعنوا إلى الحجاج وصالحوه فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم وسار عنها. وجعل لا يمر بمدينة من مدائن السند إلا فتحها حتى بلغ نهر مهران، واستعد ملك السند لمحاربه واسمه داهر بن صصة. ثم عقد الجسر على النهر وعبر فقاتله داهر وهو على الفيل وحوله الفيلة. ثم اشتد القتال وترجل داهر فقاتل حتى قتل وانهزم الكفار واستلحمهم المسلمون. ولحقت امرأة داهر بمدينة رارو فساروا إليها وخافته، فأحرقت نفسها وجواريتها. وملك المدينة ولحق الفل بمدينة بدهمتاب العتيقة على فرسخين من مكان المنصورة وهي يومئذ غيضة، ففتحها عنوة واستلحم من وجد بها وخرّبها. ثم استولى على مدائن السند واحدة واحدة وقطع نهر ساسل إلى الملقاد فحاصرها وقطع الماء عنها فتزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة وسبى الذرية، وقتل سدنة البلد وهو ستة آلاف. وأصابوا في البلد ذهباً كثيراً في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية كانت الأموال تهدى إليه من البلدان ويمجئون إليه ويخلقون شعرهم عنده ويزعمون أنه هو أيوب. فاستكمل فتح السند وبعث من الخمس مائة وعشرين ألف ألف وكانت النفقة نصفها.

فتح الطالقان وسمرقند وغزو كَشَّ و نِسْف

والشاش وفرغانة و صلح خوارزم

قد تقدم أن قتيبة غزا بخارى سنة تسع وثمانين، وانصرف عنها ولم يظفر. وبعث إليه الحجاج سنة تسعين يوجهه على الانصراف عنها ويأمره بالعود. فسار إليها ومعه نيزك طرخان صاحب باذغيس، وحاصرها. واستجاش ملكها وردان أخذاه بمن حوله من الصغد والترك. فلما جاء مددهم خرجوا إلى المسلمين وكانت الأزدي المقدمة فانهزموا حتى جازوا عسكر المسلمين ثم رجعوا وزحف العساكر حتى ردوا الترك إلى مواقفهم. ثم زحف بنو تيم وقاتلوا الترك حتى خالطوهم في مواقفهم وأزالوهم عنها. وكان بين المسلمين وبينهم نهر لم يتجاسر أحد على عبوره إلا بنو

وصالحه بعشرة آلاف رأس وعين ومتاع وأن يعينه على خام جرد وقيل: على مائة ألف رأس.

وبعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى خام جرد وهو عدو خوارزم شاه فقاتله وقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه، وأسر منهم أربعة آلاف فقتلهم. وسلم قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه من أمرائه فقتلهم، ودفع أموالهم إلى قتيبة. ولما قبض قتيبة أموالهم أشار عليه المحشر بن مخازم السلمي بغزو الصغد وهم آتون على مسافة عشرة أيام. فقال: اكتم ذلك فقدم أخاه الفرسان والرماة، وبعثوا بالأنثقال إلى مرو، وخطب قتيبة الناس وحثهم على الصغد وذكرهم الضغائن فيهم.

ثم سار فأتى الصغد بعد ثلاث من وصول أخيه، فحاصره بسمرقند شهراً واستجاشوا ملك الشاش وأخشاد خاقان وفرغانة فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازمة والأساورة وولوا عليهم ابن خاقان وجاؤوا إلى المسلمين، فانتخب قتيبة من عسكره ستمائة فارس، وبعث بهم أخاه صالحاً لإعتراضهم في طريقهم، فلحقهم بالليل وقتلهم أشد قتال، فهزموهم وقتلهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم إلا القليل وغنموا ما معهم، ونصب قتيبة المجانيق فرماهم بها وثلم السور واشتد في قتالهم، وحمل الناس عليهم إلى أن بلغوا الثلثة. ثم صاحره على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يمكنه من بناء مسجد بالمدينة ويخلوها حتى يدخل فيصلي فيه. فلما فعل ذلك ودخل المدينة أكرهم على إقامة جند فيها.

وقيل: إنه شرط عليهم الأصنام وما في بيوت النار فأعطوه فأخذ الحلية وأحرق الأصنام وجمع من بقايا مساميرها وكانت ذهباً خسين ألف مثقال. وبعث بجارية من سبيها من ولد يزدجرد إلى الحجاج، فأرسلها الحجاج إلى الوليد ولدت له يزيد. ثم قال فورك لقتيبة انتقل عنا فانقل وبعث إلى الحجاج بالفتح. ثم رجع إلى مرو واستعمل على سمرقند إياس بن عبد الله على حربها، وعبيد الله بن أبي عبيد الله مولى مسلم على خراجها، فاستضعف أهل خوارزم إياساً وجمعوا له فبعث قتيبة عبد الله عاملاً على سمرقند وأمره أن يضرب إياساً وحبايا السطي مائة مائة ويخلعهما. فلما قرب عبد الله من خوارزم مع المغيرة بن عبد الله فبلغهم ذلك وخشي ملكهم من أبناء الذين كان قتلهم فقر إلى بلاد الترك. وجاء المغيرة فقتل وسبى وصالحه الباقون على الجزية، ورجع إلى قتيبة فولاة على نيسابور.

ثم غزا قتيبة سنة أربع وتسعين إلى ما وراء النهر وفرض

بصادق نيزك فقال: انطلق إليه وأئن عليه بغير أمان وإن أعياك فأمه. وإن جنت دونه صلبتك. فمضى الرجل وأشار عليه بلقائه وأنه عازم على أن يشق هنالك، فقال: أخشاه! فقال له: لا يخلصك إلا إتيانك، وتصحب له بذلك وبأنه يخشى عليه من غدر أصحابه الذين معه. ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب، وهو يمتنع حتى قال له: إنه قد أمنتك. فأشار عليه أصحابه بالقبول لعلمهم بصدقه وخرج معه نيزك ومعهم جيفونة ملك طخارستان الذي كان قيده حتى انتهوا إلى الشعب وهناك خيل أكمته الرجل ما كان فيه وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك فوافاه كتابه لأربعين يوماً بقتله فقتله وقتل معه صول طرخان خليفة جيفونة وابن أخي نيزك ومن أصحابه سبعمائة وصلبهم وبعث برأسه إلى الحجاج. وأطلق جيفونة وبعث إلى الوليد.

ثم رجع إلى مرو. وأرسل إليه ملك الجوزجان يستأمنه فأمه على أن يأتيه فطلب الرهن فأعطاه وقدم. ثم رجع فمات بالطالقان وذلك سنة إحدى وتسعين. ثم سار إلى شومان فحاصرها، وقد كان ملكها طرد عامل قتيبة من عنده، فبعث إليه بعد مرجعه من هذه الغزاة أن يؤدي ما كان صالح عليه، فقتل الرسول، فسار إليه قتيبة وبعث له صالح أخو قتيبة وكان صديقه ينصحه في مراجعة الطاعة فأبى، فحاصره قتيبة ونصب عليه المجانيق فهدم الحصن وجمع الملك ما في الحصن من مال وجوهر ورعى به في بئر لا يدرك قعره، ثم استمات وخرج فقاتل حتى قتل. وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم بعث أخاه عبد الرحمن إلى الصغد وملكهم طرخون فأعطى ما كان صالح عليه قتيبة. وسار قتيبة إلى كش ونسف فصالحوه. ورجع ولقي أخاه ببخارى وساروا إلى مرو.

ولما رجع عن الصغد، حبس الصغد ملكهم طرخون لإعطاءه الجزية وولوا عليهم غورك فقتل طرخون نفسه. ثم غزا في سنة اثنتين وتسعين إلى سجستان يريد رتييل فصالحه وانصرف. وكان ملك خوارزم قد غلبه أخوه خراد على أمره وكان أصغر منه وعاث في الرعية وأخذ أموالهم وأهلهم فكتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلمها إليه على أن يمكنه من أخيه ومن عصاه من دونهم، فأجاب قتيبة ولم يطلع الملك أحداً من مرأته على ذلك. وتجهز قتيبة سنة ثلاث وتسعين وأظهر غزو الصغد، فأقبل أهل خوارزم على شأنهم ولم يحتفلوا بغزوه، وإذا به قد نزل هزار سب قريباً منهم. وجاء أصحاب خوارزم شاه إليه يدعوه للقتال. فقال: ليس لنا به طاقة! ولكن نصالحه على شيء نعطيه كما فعل غيرنا، فوافقوه وسار إلى مدينة الفيد من وراء النهر، وهذا حصن بلاده.

سليمان لابنه: ادخل على عمك أنت ويزيد في سلسلة. فقال الوليد لما رأى ذلك: لقد بلغنا من سليمان. ثم دفع أيوب كتاب أبيه بالشفاعة وضمان المال عن يزيد فقراه الوليد واستعطفه أيوب في ذمة أبيه وجواره، وتكلم يزيد واعتذر فأمنه الوليد ورجع إلى سليمان وكتب الوليد إلى الحجاج بالكف عنهم فكف عن حبيب وأبي عتبة وكانا عنده وأقام يزيد عند سليمان يهدي إليه الهدايا ويصنع له الأطعمة.

ولاية خالد القسري على مكة وإخراج

سعيد بن جبير عنها ومقتله

ولما كان في سنة ثلاث وتسعين كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد يقص عليه أفعال الحجاج بالعراق وما هم فيه من ظلمه وعدوانه، فبلغ بذلك الحجاج فكتب إلى الوليد: إن كثيراً من المراق وأهل الشقاق قد انحلوا عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة ومنعهم عمر وأصابه من ذلك وهن. فولى الوليد على مكة خالد بن عبد الله القسري وعثمان بن حيان بإشارة الحجاج، وعزل عمر عن الحجاز وذلك في شعبان من السنة.

ولما قدم خالد مكة أخرج من كان بها من أهل العراق كرهاً وتهدد من أنزل عراقياً أو أجراه داراً وكانوا أيام عمر بن عبد العزيز يلجأ إلى مكة والمدينة كل من خاف الحجاج فيأمن. وكان منهم سعيد بن جبير هارباً من الحجاج. وكان قد جعله على عطاء الجند الذين وجههم مع عبد الرحمن بن الأشعث إلى قتال رتييل. فلما خرج عبد الرحمن كان سعيد فيمن خلع فكان معه إلى أن هزم وسار إلى بلاد رتييل. فلحق سعيد بأصبهان، وكتب الحجاج فيه إلى عاملها فتخرج من ذلك ودس إلى سعيد فصار إلى أذربيجان. ثم طال عليه المقام فخرج إلى مكة فكان بها مع ناس أمثاله من طلبة الحجاج يستخفون بأسمائهم.

فلما قدم خالد بن عبد الله مكة أمره الوليد بمحمل أهل العراق إلى الحجاج فأخذ سعيد بن جبير ومجاهداً وطلق بن حبيب، وبعث بهم إلى الحجاج فمات طلق في الطريق وجيء بالآخرين إلى الكوفة وأدخلوا على الحجاج. فلما رأى سعيداً شتم خالداً القسري على إرساله وقال: لقد كنت أعرف أنه بمكة وأعرف البيت الذي كان فيه، ثم أقبل على سعيد وقال: ألم أشركك في أماني؟ ألم استملكك؟ ثم تفعل! يعدد أياديه عنده. فقال: بلى! قال: فما أخرجك على قتالي؟ أنا امرؤ من المسلمين أخطئ مرة وأصيب أخرى. ثم استمر في محاورته فقال: إنما كانت البيعة في عنقي

البعث على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم، فسار منهم عشرون ألف مقاتل فبعثهم إلى الشاش. وسار هو إلى خجندة فجمعوا له واقتلوا مراراً كان الظفر فيها للمسلمين. وفتح الجند الذين ساروا إلى مدينة الشاش وأحرقوها ورجعوا إلى قتيبة وهو على كشان مدينة فرغانة وانصرف إلى مرو. ثم بعث الحجاج إليه جيشاً من العراق وأمره بغزو الشاش فصار لذلك وبلغه موت الحجاج فرجعوا إلى مرو.

خبر يزيد بن المهلب وإخوته

كان الحجاج قد حبس يزيد وإخوته سنة ست وثمانين وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان فأقاموا في حبسهم إلى سنة تسعين. وبلغه أن الأكراد غلبوا على فارس فعسكر قريباً من البصرة للبعث وأخرج معه بني المهلب وجعلهم في فسطاط قريباً منه ورتب عليهم الحرس من أهل الشام. ثم طلب منهم ستة آلاف ألف، وأمر بعذابهم ويكت أختهم هند بنت المهلب زوجة الحجاج فطلقها. ثم كف عنهم وجعل يستأبدهم وبعثوا إلى أخيه مروان وكان على البصرة أن يعد لهم خيلاً وكان حبيب منهم يعذب بالبصرة. فصنع يزيد للحرس طعاماً كثيراً وأمر لهم بشراب فأقاموا يتعاقرون واستغفلهم يزيد والمفضل وعبد الملك وخرجوا ولم يفظنوا لهم.

ورفع الحرس خبرهم إلى الحجاج فخشيهم على خراسان وبعث البريد إلى قتيبة يخبرهم ليحذرهم، وكان يزيد قد ركب السفن إلى البطائح واستقبلته الخيل المعدة له هناك، وساروا إلى الشام على السماوة ومعهم دليل من كلب. ونمي خبرهم فبعث إلى الوليد بذلك. وقدموا إلى فلسطين فنزلوا على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي وكان كريماً على سليمان فأخبره بحالهم وأنهم استجاروا به من الحجاج، فقال: إني بهم فقد أجرتهم. وكتب الحجاج إلى الوليد أن بني المهلب خائنوا مال الله وهربوا مني فلحقوا بسليمان. فسكن ما به لأنه كان خشيهم على خراسان كما خشيهم الحجاج وكان غاضباً للمال الذي ذهبوا به. فكتب سليمان إلى الوليد أن يزيداً عندي وقد أمته، وكان الحجاج أغرمه ستة آلاف ألف فاد نصفها وأنا أؤدي النصف.

فكتب الوليد لا يؤمنه حتى تبعث به، فكتب سليمان لأجبتن معه، فكتب الوليد إذن لا يؤمنه. فقال يزيد لسليمان: لا يتشام الناس بي لكما فاكذب معي وتلطف ما أطقت، فأرسله وأرسل معه ابنه أيوب وكان الوليد أمر أن يبعث مقيداً. فقال

وحارب فظفر، ثم أسلم الملوك لما كتب عمر بن عبد العزيز إلى الإسلام على أن يملكهم وهم أسوة المسلمين فيما لهم وعليهم، فأسلم حبشة والملوك وتسموا بأسماء العرب وكان عمر بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر فغزا بعض الهند وظفر. ثم ولى الجند بن عبد الرحمن على السند أيام هشام بن عبد الملك، فأتى شط مهران. ومنعه حبشة بن داهر العبور وقال: إني قد أعملت وولاني الرجل الصالح ولست آمنتك فأعطاه الرهن ثم ردها حبشة وكفر وحارب فحاربه الجند في السفن وأسره ثم قتله.

وهرب صصة بن داهر إلى العراق شاكياً لغدر الجند فلم يزل يؤنسه حتى جاءه فقتله. ثم غزا الجند الكبير من آخر الهند وكانوا انتقضوا فاتخذ كباشاً زاحفة ثم صك بها سور المدينة فلمها ودخل فقتل وسبى وغنم وبعث العمال إلى المرمذ والمعدل ودهج وبعث جيشاً إلى أرين فأغاروا عليها وأحرقوا ريفها وحصل عنده سوى ما حمل أربعون ألف ألف وحمل مثلها. وولى تميم بن زيد الضبي فضعف ووهن ومات قريباً من الديبل. وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند وتركوا مراكزهم. ثم ولي الحكم ابن سوام الكلبي وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصّة، فبنى مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى المسلمين. وكان معه عمر بن محمد بن القاسم وكان يفرض إليه عظام الأمور وأغزاه عن المحفوظة. فلما قدم وقد ظهر أمره فبنى مدينة وسماها المنصورة وهي التي كان أمراء السند يزلونها واستخلص ما كان غلب عليه العدو، ورضي الناس بولايته. ثم قتل الحكم وضعت الدولة الأموية عن الهند. وتأتي أخبار السند في دولة المأمون.

فتح مدينة كاشغر

أجمع قتيبة لغزو مدينة كاشغر سنة ست وتسعين وهي أدنى مدائن الصين فصار لذلك وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعها بسمرقند وعبر النهر، وجعل على المجاز مسلحة يمتنعون الرجاء من العسكر إلا بإذنه. وبعث مقدمه إلى كاشغر فغنموا وسبوا وختم أعناق السي. وأوغل حتى قارب الصين. فكتب إليه ملك الصين يستدعي من أشراف العرب من يخبره عنهم وعن دينهم. فانتخب قتيبة عشرة من العرب كان منهم هيرة بن شمرج الكتاني. وأمر لهم بعدة حسنة ومتاع من الخز والوشي وخيول أربعة وقال لهم: أعلموه أنني حالف إني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم. ولما قدموا على ملك الصين دعاهم في اليوم الأول فدخلوا وعليهم الغلال والأردية، وقد تطيبوا ولبسوا

فغضب الحجاج وقال: ألم آخذ بيعتك لعبد الملك بمكة بعد مقتل ابن الزبير؟ ثم جددت له البيعة بالكوفة فأخذت بيعتك ثانياً؟ قال: بلى! قال: فنكثت بيعتين لأمر المؤمنين، وتوفي بواحدة للفاعل ابن الفاعل، والله لأقتلنك. فقال: إني لسعيد كما سمتي أمي فضربت عقه فهلل رأسه ثلاثاً أفصح منها بكرة. ويقال: إن عقل الحجاج التبس يومئذ وجعل يقول: قيودنا قيودنا فظنوها قيود سعيد بن جبير فأخذوها من رجله وقطعوا عليها ساقه، وكان إذا نام يرى سعيد بن جبير في منامه أخذاً مجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتني؟ فيتبه مرعوباً يقول: ما لي ولسعيد بن جبير.

وفاة الحجاج

وتوفي الحجاج في شوال سنة خمس وتسعين لعشرين سنة من ولايته العراق، ولما حضرته الوفاة استخلف على ولايته ابنه عبد الله وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم، فأقرهم الوليد بعد وفاته. وكتب إلى قتيبة بن مسلم بمخرسان: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجهدك وجهادك أعداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي تحب، فأنعم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كائي أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه ولم يغير الوليد أحداً من عمال الحجاج.

أخبار محمد بن القاسم بالسند

كان محمد بن القاسم بالثلاث وأتاه خبر وفاة الحجاج هنالك فرجع إلى الدور والثغور وكان قد فتحها ثم جهزه الناس إلى السملاس مع حبيب فأعطوا الطاعة وسأله أهل شروست وهي مغزى أهل البصرة وأهلها يقطعون في البحر. ثم سار في العسكر إلى..... فخرج إليه دهر فقاتله محمد وهزمه وقتله. ونزل أهل المدينة على حكمه فقتل وسبوا. ولم يزل عاملاً على السند إلى أن ولي سليمان بن عبد الملك فعزله وولى يزيد بن أبي كبشة السكسكي على السند مكانه. فقيده يزيد وبعث به إلى العراق فحبسه صالح بن عبد الرحمن بواسطة وعذبه في رجال من قرابة الحجاج على قتلهم، وكان الحجاج قتل أخاه آدم على رأي الخوارج. ومات يزيد بن أبي كبشة لثمان عشرة ليلة من مقدمه.

فولى سليمان على السند حبيب بن المهلب فقدمها وقد رجع ملوك السند إلى ممالكهم ورجع حبشة بن داهر إلى برهماباد فنزل حبيب على شاطئ مهران وأعطاه أهل الروم الطاعة،

وعزل عنهما يزيد بن أبي مسلم. فبعث يزيد أخاه زياداً على عمان وأمر سليمان يزيد بن المهلب بتكبة آل أبي العليل قوم الحجاج وبني أبيه وبسط أصناف العذاب عليهم، فولى على ذلك عبد الملك بن المهلب.

مقتل قتبية بن مسلم

ولما ولي سليمان خافه قتبية لما قدمناه من موافقته الوليد على خلع فخشى أن يولى يزيد بن المهلب خراسان فأجمع خلعهم وكتب إليه لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمني لأخلعنك ولأملأها عليك خيلاً ورجلاً فأمنه وكتب له العهد على خراسان. وبعث إليه رسوله بذلك، فبعث الرسول وهو يحملون أنه قد خلع وكان هو بعد بعثة الكتاب إلى سليمان قد اشتد وجهه وأشار عليه أخوه عبد الله بالمعالجة، فدعا الناس إلى الخلع وذكرهم بوائقه وسوء ولاية من تقدمه فلم يجبه أحد، فغضب وشتمهم وعدد ومثالبهم قبيلة قبيلة قائمى على نفسه بالأب والبلد والمعشر. فغضب الناس وكرهوا خلع سليمان وأجمعوا على خلع قتبية وخلافه. وعذل قتبية أصحابه فيما كان منه فقال: لما لم تحيوني غضبت فلم أدر ما قلت.

وجاء الأزدي إلى حطين بن المنذر (بالضاد المعجمة) فقالوا: كيف ترى هذا يدعو إلى فساد الدين ويشتمنا فعرف مغزاهم فقال: إن مضر بخراسان كثير ونعيم أكثرهم وهم شوكتها ولا يرضون بغيرهم فيصيبوا قتبية ولا أرى لها إلا وكيماً. وكان وكيع موثقاً من قتبية بعزله وولاية ضرار بن حصين الضبي مكانه. وقال حيان النبطي مولى بني شيان ليس لها غير وكيع ومشى الناس بعضهم إلى بعض سراً وتولى كبر ذلك حيان. ونمي خبره إلى قتبية فأمر بقتله إذا دخل عليه، وتنصح بعض خدم قتبية بذلك إلى حيان فلما دعاه غمارض، واجتمع الناس إلى وكيع وباعوه، فمن أهل البصرة والعالية من المقاتلة تسعة آلاف، ومن بكر سبعة آلاف رئيسهم حطين بن المنذر، ومن تميم عشرة آلاف عليهم ابن زخر ومن الموالي سبعة آلاف عليهم حيان النبطي وقيل من الديلم، وسمي نبطياً للكتبة.

وشرط على وكيع أن يحول له الجانب الشرقي من نهر بلخ فقبل، وفشا الخبر وبلغ قتبية فدرس ضرار بن حيان الضبي إلى وكيع فباعه، وجاء إلى قتبية بالخبر فأرسل قتبية إلى وكيع فاعتذر بالمرض فقال لصاحب شرطته: إيتني به وإن أبى اتني برأسه فلما جاء إلى وكيع ركب ونادى في الناس فاتوه أرسالا. واجتمع إلى قتبية أهل

النعال. فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن حضره، وقالوا بعد انصرافهم هؤلاء نسوان. فلبسوا الوشي والمطارف وعمائم الخنز وغدوا عليه فلم يكلمهم وقالوا هذه أقرب إلى هيئة الرجال. ثم دعاهم الثالثة فلبسوا أسلحهم وعلى رؤوسهم البيضات والمغافر وتوشحوا السيوف واعتقلوا الرماح ونكبوا القسي فهاهم منظرهم. ثم انصرفوا وركبوا فطاردوا فعجب القوم منهم. ثم دعا زعيمهم هيرة بن شمرج فسأله لم خالفوا في زيههم؟ فقال: أما الأول فإنا نساء في أهلنا وأما الثاني فزينا عند أمرائنا، وأما الثالث فزينا لعدونا. فاستحسن ذلك. ثم قال له: قد رأيتكم عظم ملكي وأنه ليس أحد يمنعكم مني، وقد عرفت قلنكم فقولوا لصاحبكم ينصرف وإلا بعثت من يهلككم. فقال هيرة كيف نكون في قلة وأول خيلنا في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وأما القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه، ولنا أجال إذا حضرت فلن نتعدها وقد حلف صاحبنا أنه لا ينصرف حتى يطا أرضكم ويختتم ملوككم ويأخذ جزيتكم. قال الملك: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث له بتراب من أرضنا فيطوه، ويقبض أبناءنا فيختتمهم وبهدية ترضيه، ثم أجازهم فأحسن. وقدموا على قتبية فقبل الجزية ووطى التراب وختم الغلمان وردهم ثم انصرف من غداته. وأوفد هيرة إلى الوليد، وبلغه وهو في الفرات موت الوليد.

وفاة الوليد وبيعة سليمان

ثم توفي الوليد في منتصف جمادى الأخيرة من سنة ست وتسعين وصلى عليه عمر بن عبد العزيز وكان من أفضل خلفاء بني أمية وبنى المساجد الثلاثة: مسجد المدينة، ومسجد القدس ومسجد دمشق. ولما أراد بناء مسجد دمشق كانت في موضعه كنيسة فهدمها وبناها مسجداً. وشكوا ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال: نرد عليكم كنيتكم ونهدم كنيسة ثوما فإنها خارج المدينة مما فتح عنوة وبنينا مسجداً فتركوا ذلك. وفتح في ولايته الأندلس وكاشغر والهند، وكان يتخذ الضياع وكان متواضعاً يمر بالبقال فيسأله بكم حزمة البقل؟ ويسعر عليه. وكان ينجّم القرآن في ثلاث وفي رمضان في يومين وكان أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبيع لولده عبد العزيز، فأبى سليمان فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج وكتيبة وبعض خواصه. واستقدم سليمان ثم استبطاه فأجمع السير إليه ليخلعه فمرت دون ذلك. ولما مات ببيع سليمان من يومه وهو بالرملة فعزل عثمان بن حيان من المدينة آخر رمضان، وولى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وعزل ولاية الحجاج عن العراق فولى يزيد بن المهلب على المصريين

قال: هو يزيد بن المهلب فقال سليمان: العراق أحب إليه! فقال ابن الأهم: قد علمت ولكن نكرهه فيستخلف على العراق ويسير إلى خراسان، فكتب عهد يزيد على خراسان وبعثه مع ابن الأهم. فلما جاءه بعث ابنه غاداً على خراسان وبعثه مع ابن الأهم. ثم سار بعده واستخلف على واسط الجراح بن عبد الله الحكمي وعلى البصرة ابن عبد الله بن هلال الكلابي، وعلى الكوفة حرملة بن عيد اللخمي. ثم عزله لأشهر بشير بن حبان النهدي، فكانت قيس تطلب بثار قتيبة وتزعم أنه لم يخلع. فأوصى سليمان يزيد أن أقامت قيس بيته أنه لم يخلع أن يقبده من وكيع.

أخبار الصوائف وحصار قسطنطينية

كانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية وحدوث الفتن واشتدت الفتن أيام عبد الملك اجتمعت الروم واستجاشوا على أهل الشام فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار خشية منه على المسلمين ونظراً لهم، وذلك سنة سبعين لعشر سنين من وفاة معاوية. ثم لما قتل مصعب وسكنت الفتنة بعث الجيوش سنة إحدى وسبعين في الصائفة، فدخل فافتح قيسارية، ثم ولى على الجزيرة وأرمينية أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وسبعين فدخل في الصائفة إلى بلاد الروم فهزمهم، ودخل عثمان بن الوليد من ناحية أرمينية في أربعة آلاف ولقيه الروم في ستين ألفاً فهزمهم وأئخن فيهم بالقتل والأسر. ثم غزا محمد بن مروان سنة أربع وسبعين فبلغ أنبولى وغزا في السنة بعدها في الصائفة من طريق مرعش، فدوخ بلادهم وخرج الروم في السنة بعدها إلى العتيق فغزاهم من ناحية مرعش ثانية، ثم غزاهم سنة ست وسبعين من ناحية ملطية ودخل في الصائفة سنة سبع وسبعين الوليد بن عبد الملك فائخن فيهم ورجع.

وجاء الروم سنة تسع وسبعين فأصابوا من أهل أنطاكية وظفروا بهم فبعث عبد الملك سنة إحدى وثمانين ابنه عبيد الله بالعسكر ففتح قاليقلا. ثم غزا محمد بن مروان سنة اثنتين وثمانين أرمينية وهزمهم، فسأله الصلح فصالحهم وولى عليهم أبا شيخ بن عبد الله فغدره وقتلوه فغزاهم سنة خمسين وثمانين. وصاف فيها وشتى ثم غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ودوخها، ورجع وعاد إليها سنة سبع وثمانين. فائخن فيهم بناحية المصبصة وفتح حصوناً كثيرة. منها حصن بولق والأحزم وبولس وقمقيس. وقتل

بيته وخواصه وثقاته وبنو عمه، وأمر فنودي في الناس قبيلة قبيلة، وأجابوه بالجفوة. يقول: أين بنو فلان؟ فيقولون: حيث وضعتهم! فنادى بأذكاركم الله والرحم، فقالوا: أنت قطعته! فنادى لكم العبي، فقالوا: لا! إنا لنا الله إذا. فدعا ببردون ليركبه فمتعه ورمعه فعاد إلى سريره. وجاء حيان النبطي في العجم، فأمره عبد الله أخو قتيبة أن يحمل على القوم، فاعتذر وقال لابنه: إذا لقيتني حولت قلنسوتي فعل بالأعاجم إلى وكيع، ثم حولها وسار بهم ورمى صالح أخو قتيبة بهم فحمل إلى أخيه. ثم تهايج الناس وجاء إلى عبد الرحمن أخو قتيبة الغوغاء ونحوهم فأحرقوا آريا فيه إبل قتيبة ودوابه. ثم زحفوا به حتى بلغوا قسطاطه فقطعوا أطنابه وجرح جراحات كثيرة. ثم قطعوا رأسه وقتل معه إخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحسين وعبد الكريم ومسلم وابنه كثير، وقيل قتل عبد الكريم بقزوين، فكان عدة من قتل من أهله أحد عشر رجلاً، ولما أخوه عمر مع أخواله من تميم. ثم صعد وكيع المنبر وأشد الشعر في الثناء على نفسه وفعله والزم من قتيبة ووعد بحسن السيرة وطلب رأس قتيبة وخاتمه من الأزدي وهددهم عليه فجاءوا به فبعثه إلى سليمان. ووفى وكيع لحيان النبطي بما ضمن له.

ولاية يزيد بن المهلب خراسان

كان يزيد بن المهلب لما ولاه سليمان العراق على الحرب والصلاة والخراج استكره أن يحيف على الناس في الخراج فتلحقه المذمة كما لحقت الحجاج ويحرب العراق، وإن قصر عن ذلك لم يقبل منه. فرغب من سليمان أن يعفيه من الخراج وأشار عليه بصالح بن عبد الرحمن مولى تميم. فولاه سليمان الخراج وبعثه قبل يزيد. فلما جاء صالح إلى يزيد ضيق عليه صالح، وكان يزيد يطعم على ألف خوان. فاستكرها صالح فقال: اكتب ثمننا علي وغير ذلك. وضجر يزيد. وجاء خبر خراسان ومقتل قتيبة فطمع يزيد في ولايتها ودس عبد الله بن الأهم على سليمان أن يوليه خراسان ولا يشعر بطلبته بذلك. وسيره على البريد فقال له سليمان: إن يزيد كتب إلي بذكر عملك بالعراق! فقال: نعم بها ولدت وبها نشأت.

ثم استشاره فيمن يوليه خراسان ولم يزل سليمان يذكر الناس وهو يرددهم، ثم حذره من وكيع وغدره قال: فسم أنت! قال شريطة الكمال الإجازة من أشير به، وإذا علم بكرك ذلك. ثم

وغدر ألقون وأصبح محارباً، وأصاب الناس الجوع فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وسليمان مقيم بوابق وحال الشتاء بينهم وبينه فلم يقدر أن يمدّهم حتى مات. وأغارت برجان على مسلمة وهو في قلة فهزمهم وفتح مدينتهم. وغزا في هذه السنة الوليد بن هشام فأنخن في بلاد الروم.

وغزا داود بن سليمان سنة ثمان وتسعين ففتح حصن المراء بما يلي ملطية. وفي سنة تسع وتسعين بعث عمر بن عبد العزيز مسلمة وهو بأرض الروم وأمدّه بالنفول بالمسلمين وبعث إليه بالخيول والدواب، وحث الناس على معرفتهم. ثم أمر عمر بن عبد العزيز أهل طريدة بالجلء عنها إلى ملطية وخرّبها. وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين وفرض على أهل الجزيرة مسلحة تكون عندهم إلى فصل الشتاء، وكانت متوغلة في أرض الروم فخرّبها عمر، وولى على ملطية جعونة بن الحارث من بني عامر بن صعصعة. وأغزى عمر سنة مائة من الهجرة بالصائفة الوليد بن هشام المعيطي وعمر بن قيس الكندي.

فتح جرجان وطبرستان

كان يزيد بن المهلب يريد فتحهما لما أنهما كانتا للكفار، وتوسطتا بين فارس وخراسان ولم يصبهما الفتح. وكان يقول وهو في جوار سليمان بالشام إذا قصت عليه أخبار قتيبة وما فعله بخراسان وما وراء النهر، ما فعلت جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت يوسس ونسايور وليست هذه الفتوح بشيء. والشأن في جرجان. فلما ولاه سليمان خراسان سار إليها في مائة ألف من أهل العراق والشام وخراسان سوى الموالي والمتطوعة، ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال وغارم يقوم الرجل على باب منها فيمنعه. فابتدأ بقمستان فحاصرها وبها طائفة من الترك فكانوا يخرجون فيقاتلون وينهزمون في كل يوم ويدخلون حصنهم. ولم يزل على ذلك حتى بعث إليه دهقان بتستأذن يسأل في الصلح ويسلم المدينة وما فيها فصالحه وأخذ ما فيها من الأموال والكنوز والسبي ما لا يحصى، وقتل أربعة عشر ألفاً من الترك، وكتب إلى سليمان بذلك.

ثم سار إلى جرجان وكان سعيد بن العاصي قد صالحهم على الجزية مائة ألف في السنة فكانوا أحياناً يبيعون مائة وأحياناً مائتين وأحياناً ثلثمائة، وربما أعطوا ذلك وربما منعوا، ثم كفروا ولم يخرجوا، ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد، ومنعوا الطريق إلى خراسان على فكان الناس يسلكون على فارس وسلماس. ثم

من المستقرية ألف مقاتل ومضى أهاليهم. ثم غزا بلاد الروم سنة تسع وثمانين مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد، فافتتح مسلمة حصن سورية وافتتح العباس أردولية، ولقي جمعاً من الروم فهزمهم.

وقيل: إن مسلمة قصد عمورية فلقى بها جمعاً من الروم فهزمهم. وافتتح هرقله وقمولى وغزا العباس الصائفة من ناحية البلبدون. وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك سنة تسع وثمانين من ناحية أذربيجان ففتح حصوناً ومدائن هناك. ثم غزا سنة تسعين ففتح الحصون الخمس التي بسورية. وغزا العباس حتى بلغ أردن وسورية.

وفي سنة إحدى وتسعين غزا عبد العزيز بن الوليد في الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك وكان الوليد قد ولى مسلمة على الجزيرة وأرمينية وعزل عمه محمد بن مروان عنها، فغزا الترك من ناحية أذربيجان حتى الباب وفتح مدائن وحصوناً، ثم غزا سنة اثنين وتسعين بعدها ففتح ثلاثة حصون وجلا أهل سرسنه إلى بلاد الروم ثم غزا العباس بن الوليد سنة ثلاث بعلها بلاد الروم ففتح سبيلة، وغزا مروان بن الوليد فبلغ حنجره. وغزا مسلمة ففتح ماشية وحصن الحديد وغزاة من ناحية ملطية. وغزا العباس بن الوليد سنة أربع وتسعين ففتح أنطاكية. وغزا عبد العزيز بن الوليد ففتح غزاة وبلغ الوليد بن هشام المعيطي مروج الحمام، ويزيد بن أبي كبشة أرض سورية.

وفي سنة خمس وتسعين غزا العباس الروم ففتح هرقله. وفي سنة سبع وتسعين غزا مسلمة أرض الرضاخية وفتح الحصن الذي فتحه الرصاص، وغزا عمر بن هبيرة أرض الروم في البحر فشتى بها، وبعث سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية وبعث ابنه داود على الصائفة ففتح حصن المراء، وفي سنة ثمان وتسعين مات ملك الروم، فجاء ألقون إلى سليمان فأخبره وضمن له فتح الروم، وسار سليمان إلى ألبق وبعث الجيوش مع أخيه مسلمة، ولما دنا من القسطنطينية أمر أهل المعسكر أن يحمل كل واحد مدين مدين من الطعام ويلقوه في معسكرهم فصار أمثال الجبال واتخذ البيوت من الخشب. وأمر الناس بالزراعة وصاف وشتى وهم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوه مدخراً.

ثم جهد أهل القسطنطينية الحصار، وسألوا الصلح على الجزية ديناراً على الرأس، فلم يقبل مسلمة وبعث الروم إلى ألقون إن صرفت عنا المسلمين ملكناك فقال لمسلمة: لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدتهم بالقتال فتأخذهم باليد وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم، فأحرق الزرع فقوي الروم

طخارستان ابن قبيصة بن المهلب، وأتى جرجان فلم يمنعه دونها أحد ودخلها. ثم سار منها إلى البحيرة وحصر صولاً بها شهراً حتى سأل الصلح على نفسه وماله وثلاثمائة ويسلم إليه البحيرة فأجابه يزيد وخرج صول عن البحيرة وقتل يزيد من الأتراك أربعة عشر ألفاً وأمر إدريس بن حنظلة العمي أن يحصي ما في البحيرة ليعطي الجند فلم يقدر. وكان فيها من الحنطة والشعير والأرز والسمسم والعسل شيء كثير ومن الذهب والفضة كذلك. ولما صالح يزيد أصبهيد طبرستان كما قدمناه سار إلى جرجان وعاهد الله إن ظفر بهم ليطحن القمح على سائل دمانهم ويأكل منه. فحاصروهم سبعة أشهر وهم يخرجون إليه فيقاتلونه ويرجعون وكانوا متمنعين في الجبل والأوعار. وقصد رجل من عجم خراسان فأتبع بخلا في الجبل وانتهى إلى معسكرهم وعرف الطريق إليه ودل الأدلة على معالمة، وأتى يزيد فأخبره. فانتخب ثلثمائة رجل مع ابنه خالد وضم إليه جهم بن ذخر وبعثه وذلك الرجل يدل به، وواعده أن يناهضهم العصر من الغداة. ولما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطمرت النيران ونظر العدو إلى النار فهاجم وحاملوا للقتال آمنين خلفهم فناشبههم يزيد إلى العصر وإذا بالتكبير من ورائهم فهربوا إلى حصنهم وأتبعهم المسلمون فأعطوا ما بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد. فقتل المقاتل وسبى الذرية وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى وادي جرجان، ومكن أهل الثار منهم حتى استلحموهم. وجرى الماء على الدم وعليه الأرحاء فطحن وخبز وأكل وقتل منهم أربعين ألفاً. وبنى مدينة جرجان ولم تكن بنيت قبل ورجع إلى خراسان وولى على جرجان جهم بن ذخر الجعفي ولما قتل مقاتلهم صلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره.

وفاة سليمان وبيعة عمر بن عبد العزيز

ثم توفي سليمان بدابق من أرض قيسرين من سنة تسع وتسعين في صفر منها وقد كان في مرضه أراد أن يعهد إلى ولده داود ثم استصغره وقال له كاتبه رجاء بن حيوة ابنك غائب عنك بقسطنطينية ولا يعرف حياته من موته فعدل إلى عمر بن عبد العزيز وقال له: إني والله لأعلم أنها تكون فتنة ولا يتركه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده، وكان عبد الملك قد جعل ذلك له وكتب بعد البسملة: هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز: إني قد وليت الخلافة من بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله، ولا تختلفوا فيقطع فيكم ختم الكتاب.

فتح قتيبة طريق قومس وبقي أمر جرجان حتى جاء يزيد فصالحوه. ولما فتح يزيد قهستان وجرجان طمع في طبرستان فاستعمل عبد الله بن معمر اليشكري على ساسان وقهستان، وخلف معه أربعة آلاف فارس، وسار إلى أدنى جرجان من جهة طبرستان ونزل بآمد.

ونسا راشد بن عمر في أربعة آلاف. ودخل بلاط طبرستان فسأل صاحبها الأصبهيد في الصلح، وأن يخرج من طبرستان. فأبى يزيد ورجا أن يفتحها، ووجه أخاه عينة من وجهه وابنه خالد بن زيد من وجهه، وإذا اجتماعاً فعينة على الناس. واستجاش الأصبهيد أهل جيلان والديلم والتقا فانهمز المشركون، واتبعهم المسلمون إلى الشعب وصعد المشركون في الجبل فامتنعوا على المسلمين وصعد أبو عينة بمن معه خلفهم فهزمهم المشركون في الوعر فكفوا. وكتب الأصبهيد أهل جرجان ومقدمهم المزيان أن يبيتوا للمسلمين عندهم ليقطعوا المادة عن يزيد والطرق بينه وبين جرجان. ووعدهم بالمكافأة على ذلك. فساروا بالمسلمين وهم غارون، وقتل عبد الله بن معمر وجميع من معه ولم ينج أحد. وكتبوا إلى الأصبهيد بأخذ المضايق والطرق، وبلغ ذلك يزيد وأصحابه فعظم عليهم وهالمهم، وفزع يزيد إلى حيان النبطي وكان قد غرمه مائتي ألف درهم بسبب أنه كتب إلى ابنه غلد كتاباً فبدأ بنفسه. فقال له: لا يمتنع ما كان مني إليك من نصيحة المسلمين، وقد علمت ما جاء من جرجان فاعمل في الصلح. فأتى حيان الأصبهيد ومث إليه بنسب العجم وتنصل له وقتل له في الذروة والغارب حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة وقر زعفران أو قيمته من العين، وأربعمائة رجل على يد كل رجل منهم ترس وطيلسان وجام من فضة وخرقة حرير وكسوة، فأرسل يزيد لقبض ذلك ورجع اهـ.

وقبل في سبب مسير يزيد إلى جرجان أن صولاً التركي كان على قهستان والبحيرة، جزيرة في البحر على خمسة فراسخ من قهستان، وهما من جرجان مما يلي خوارزم وكان يغير على فيروز بن فولقول مرزبان جرجان. وأشار فيروز بنصيب من بلاده، فسار فيروز إلى يزيد هارباً منه وأخذ صول جرجان وأشار فيروز على يزيد أن يكتب إلى الأصبهيد ويرغبه في العطاء إن هو حبس صولاً بجرجان حتى يحاصر بها، ليكون ذلك وسيلة إلى معاكسته وخروجه عن جرجان فيتمكن يزيد منه. فكتب إلى الأصبهيد وبعث بالكتاب إلى صول فخرج من حينه إلى البحيرة. وبلغ يزيد الخبر فسار إلى جرجان ومعه فيروز واستخلف على خراسان ابنه غلداً. وعلى سمرقند وكش ونسف وبخارى ابنه معاوية وعلى

يكن ليأخذني بذلك. فقال له عمر: إتق الله وهذه حقوق المسلمين لا يسعى تركها ثم حسبه بمحصن حلب وبعث الجراح بن عبد الله الحكمي والياً على خراسان مكانه. وانصرف يزيد بن يزيد فقدم على عمر واستعطفه لأبيه وقال له: يا أمير المؤمنين إن كانت له بينة فخذ بها وإلا فاستحلفه وإلا فصالحه أو فصالحني على ما تسأل فأبى عمر من ذلك وشكر من غلد ما فعل، ثم ألبس يزيد جبة صوف وحمله على جمل وسيره إلى دهلك. ومر يزيد على الناس وهو ينادي بعشيرة بالنكير لما فعل به فدخل سلامة بن نعيم الخولاني على عمر وقال: أردت يزيد إلى محبسه لئلا ينزعه قومه، فإنهم قد غضبوا، فردّه إلى أن كان من أمر فزاره ما يذكر.

ولاية عبد الرحمن بن نعيم القشيري على

خراسان

ولما عزل يزيد عن خراسان وكان عامل جرجان جهم بن ذخر الجعفي فأرسل عامل العراق على جرجان عاملاً مكانه، فحبسه جهم وقيده. فما جاء الجراح إلى خراسان أطلق جرجان عاملهم، ونكر الجراح على جهم ما فعل. وقال: لولا قرابتك مني ما سوغتك هذا يعني أن جهماً وجعفاً معا ابنا سعد العشيرة. ثم بعث في الغزو وأوفد على عمر وفداً فكلّم فيه بعضهم عمر بأنه يعري الموالي بلا عطاء ولا رزق ويؤاخذ من أسلم من أهل الذمة بالخراج. ثم عرض بأنه سيف من سيوف الجراح قد علم بالظلم والعدوان. فكتب عمر إلى الجراح انظر من صلى قبلك فخل عنه الجزية فسارع الناس إلى الإسلام فراراً من الجزية فامتنحهم بالختان وكتب إلى عمر ذلك.

فكتب عليه عمران: الله بعث محمداً داعياً ولم يعشه خائناً واستقدم الجراح وقال: احمل معك أبا غلّد واستخلف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نعيم القشيري. ولما قدم على عمر قال: متى خرجت؟ قال: في شهر رمضان. قال: صدقك من وصفك بالجفاء، ألا أقمت حتى تفطر ثم تسافر. ثم سأل عمر أبا غلّد عن عبد الرحمن بن عبد الله فقال: يكافى الأكلفاء ويعادي الأعداء ويقدم إن وجد ما يساعده. قال فعبد الرحمن بن نعيم؟ قال: يحب العافية وتأتيه! قال: هو أحب إليّ فولاه الصلاة والحرب، وولى عبد الرحمن القشيري الخراج. فلم يزل عبد الرحمن بن نعيم على خراسان حتى قتل يزيد بن المهلب. وولي مسلمة. فكانت ولايته أكثر من سنة ونصف. وظهر من أيام الجراح بخراسان دعاة بني

ثم أمر كعب بن جابر العيسي صاحب الشرطة أن يجمع أهل بيته، وأمر رجاء بن حيوة أن يدفع لهم كتابه وقال: أخبرهم أنه كتابي فليبايعوا من وليت فيه فبايعوه رجلاً رجلاً وتفرقوا. وأتى عمر إلى رجاء يستعمله ويناشده الله والمودة يستعفي من ذلك فأبى. وجاءه هشام أيضاً يستعمله ليطلب حقه في الأمر فأبى، فانصرف أسفاً أن يخرج من بني عبد الملك. ثم مات سليمان وجمع رجاء أهل بيته فقرأ عليهم الكتاب. فلما ذكر عمر قال هشام: والله لا نبايعه أبداً. فقال له رجاء: والله نضرب عنقك. فقام أسفاً يجر رجله حتى جاء إلى عمر بن عبد العزيز وقد أجلسه رجاء على المنبر وهو يسترجع لما أخطاه، فبايعه واتبعه الباقون. ودفن سليمان وصلى عليه عمر بن عبد العزيز والوليد كان غائباً عن موت سليمان ولم يعلم بيعه عمر فعقد لواء ودعا لنفسه وجاءه إلى دمشق. ثم بلغه عهد سليمان فجاء إلى عمر واعتذر إليه وقال: بلغني أن سليمان لم يعهد فخفت على الأموال أن تنهب فقال عمر: لو قمت بالأمر لقعدت في بيتي ولم أنزعك فقال عبد العزيز: والله لا أحب لهذا الأمر غيرك! وأول ما بدأ به عمر لما استقرت البيعة أنه رد ما كان لفاطمة بنت عبد الملك زوجته من المال والحلي والجوهر إلى بيت المال. وقال: لا أجمع أنا وأنت وهو في بيت واحد فردته جميعه. ولما ولي أخوها يزيد من بعد رده عليها فأبت وقالت: ما كنت أعطيه حياً أعطيه ميتاً ففرقه يزيد على أهله. وكان بنو أمية يسبون علياً فكتب عمر إلى الأفاق بترك ذلك وكتب إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقول بالمسلمين.

عزل يزيد بن المهلب وحبسه والولاية على

عماله

ولما استقرت البيعة لعمر كتب في سنة مائة إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عماله ويقدم فاستخلف غلّداً ابنه وقدم من خراسان وقد كان عمر ولى على البصرة عدي بن أرطاة الفزاري وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وضم إليه أبا الزناد، فكتب إلى عدي بن أرطاة موسى أن يقبض على يزيد بن المهلب وبيعته مقيداً، فلما نزل يزيد واسط وركب السفن يريد البصرة بعث علي بن أرطاة موسى بن الرحبة الحميري فلقبه في نهر معقل عند الجسر فقيده وبعث به إلى عمر، وكان عمر يبغيه ويقول إنه وراء أهل بيته جبابرة.

فلما طالبه بالأموال التي كتب بها إلى سليمان من خمس جرجان قال: إنما كتبت لأسمع الناس، وعلمت أن سليمان لم

وبه رمق فقال: اللهم إن كان ابن المهلب يريد بالمسلمين سوءاً فالحق به وهضه فقد هاض. انتهى.

ولما بويع ليزيد بن عبد الملك كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة وإلى عدي بن أرطاة بالبصرة بهربه والتحرز منه وأبى عدي أن يأخذ المهلب بالبصرة فحبس المفضل حبياً ومروان ابني المهلب، وبعث عبد الحميد من الكوفة جنداً عليهم هشام بن ساقق بن عامر فاتوا العذيب ومر بيزيد عليهم فوق القفطانة فلم يقدموا عليه. ومضى نحو البصرة وقد جمع عدي بن أرطاة أهل البصرة وخندق عليها وبعث على خيلها المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل. وجاء يزيد على أصحابه الذين معه وانضم إليه أخوه محمد فيمن اجتمع إليه من قومهم. وبعث عدي بن أرطاة على كل خسر من أخماس البصرة رجالاً: فعلى الأزد المغيرة بن زياد بن عمر العتكي، وعلى غنيم حمز بن حمدان السعدي، وعلى بكره نوح بن شيان بن مالك بن مسمع، وعلى عبد القيس مالك بن المنذر بن الجارود، وعلى أهل العالية عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، وهم قریش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة فلم يعرضوا ليزيد وأقبل فانزل. انتهى.

واختلف الناس إليه وأرسل إلى عدي أن يطلق له إخوته فينزل به البصرة، ويخرج حتى يأخذ نفسه من يزيد، وبعث حميد ابن أخيه عبد الملك بن المهلب يستأمن له من يزيد بن عبد الملك فأجاره خالد القسري وعمر بن يزيد الحكمي بأمان يزيد له ولأهله. وقد كان بعد منصرف حميد فرق في الناس قطع الذهب والفضة فانثالوا عليه، وعدي يعطي درهمين درهمين. ثم تناجزوا الحرب وحمل أصحاب يزيد على أصحاب عدي فانهزموا ودنا يزيد من القصر، وخرج عدي بنفسه فانهزم أصحابه. وخاف أخوة يزيد وهم في الحبس أن يقتلوا قبل وصوله فأغلقت الباب وامتنعوا فجاءهم الحرس يعالجون فأجفلهم الناس عنه فخلوا عنهم وانطلقوا إلى أحيهم.

ونزل يزيد دار مسلم بن زياد إلى جانب القصر وتسور القصر بالسلام وفتحته وأتى بعدي بن أرطاة فحبسه. وهرب رؤوس البصرة من غنيم وقيس ومالك بن المنذر إلى الكوفة والشام. وخرج المغيرة بن زياد بن عمر العتكي إلى الشام فلقي خالداً القسري وعمر بن يزيد وقد جاؤا بأمان يزيد بن المهلب مع حميد ابن أخيه فأخبرهما بظهور يزيد على البصرة وحبسه عدياً فرجعا إلى وعد لهما فلم يقبلا، فقبض عبد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة على خالد بن يزيد بن المهلب وحماد بن ذخير، وحملهما وسيرهما إلى الشام فحبسهما يزيد حتى هلكا بالسجن. وبعث

العباس فيمن بعثه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إلى الأفاق حسبما يذكر في أخبار الدولة العباسية.

وفاة عمر بن عبد العزيز وبيعة يزيد

ثم توفي عمر بن عبد العزيز في رجب سنة إحدى ومائة بدير سمعان ودفن بها لستين وخمسة أشهر من ولايته ولأربعين من عمره وكان يدعى أشج بن أمية رمحته دابة وهو غلام فشجته. ولما مات ولي بعده يزيد بن عبد الملك بعهد سليمان كما تقدم وقيل لعمر حين احتضر: اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة فقال: بماذا أوصيه؟ إنه من بني عبد الملك! ثم كتب: أما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة، إنك تترك ما أترك لمن لا يحمدك وتصير إلى من لا يعذك والسلام. ولما ولي يزيد عزل أبا بكر بن محمد بن عمر بن حزم عن المدينة وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري وغير كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز وكان من ذلك شأن خراج اليمن. فإن محمداً أخا الحجاج جعل عليهم خراجاً مجدداً وأزال ذلك عمر إلى العشر أو نصف العشر. وقال: لئن يأتيني من اليمن حبة ذرة أحب إلي من تقرير هذه الوظيفة. فلما ولي يزيد أعادها وقال لعامله خذها منهم ولو صاروا حرضاً. وهلك عمه محمد بن مروان فولى مكانه على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية عمه الآخر مسلمة بن عبد الملك.

احتياط يزيد بن المهلب ومقتله

قد تقدم لنا حبس يزيد بن المهلب فلم يزل محبوساً حتى اشتد مرض عمر بن عبد العزيز فعمل في الحرب خافة يزيد بن عبد الملك لأن زوجته بنت أخي الحجاج. وكان سليمان أمر ابن المهلب بتعذيب قرابة الحجاج كلهم فقتلهم من البلقاء وفيهم زوجة يزيد وعذبتها. وجاءه يزيد بن عبد الملك إلى منزله شافعاً فلم يشفعه فضمن حمل ما قرر عليها فلم يقبل فتهدده فقال له ابن المهلب: لئن وليت أنت لأرمينك بمائة ألف سيف، فحمل يزيد بن عبد الملك عنها مائة ألف دينار. ولما اشتد مرض عمر خاف من ذلك وأرسل إلى مواليه أن يغدوا إليه بالإبل والحيل في مكان عيشه لهم. وبعث إلى عامل حلب بإشفاقه من يزيد، وبذل له المال وإلى الحرس الذين يحفظونه فخلي سبيله، وأتى إلى دوابه فركبها ولحق بالبصرة. وكتب إلى عمر: إني والله لو وثقت بجيائك لم أخرج من عبسك. ولكن خفت أن يقتلني يزيد شر قتلة. فقرأ عمر الكتاب

القتال وأمر مسلمة فأحرق الجسر فسطع دخانه. فلما رآه أصحاب يزيد انهزموا واعترضهم يزيد يضرب في وجوههم حتى كثروا عليه فرجع وترجل في أصحابه. وقيل له: قتل أخوك حبيب فقال: لا خير في العيش بعده ولا بعد الهزيمة.

ثم استمات ودلف إلى مسلمة لا يريد غيره فعطف عليه أهل الشام فقتلوه هو وأصحابه، وفيهم أخوه محمد. وبعث مسلمة برأسه إلى يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة. وقيل: إن الذي قتله الهذلي بن زفر بن الحارث الكلابي وأنف أن ينزل فيأخذ رأسه فأخذه غيره. وكان المفضل بن المهلب يقاتل في ناحية المعترك وما علم بقتل يزيد فبقي ساعة كذلك يكر ويفر حتى أخبر بقتل إخوته فافترق الناس عنه، ومضى إلى واسط. وجاء أهل الشام إلى عسكر يزيد فقاتلهم أبو روية رأس الطائفة المرجنة ومعه جماعة منهم صدق، فقاتلوا ساعة من النهار ثم انصرفوا. وأسر مسلمة ثلثمائة أسير حبسهم في الكوفة.

وجاء كتاب يزيد إلى محمد بن عمر بن الوليد بقتلهم فأمر العريان بن الهيثم صاحب الشرطة بذلك وبدأ بثمانين من بني تميم فقتلهم. ثم جاء كتاب يزيد بإعفائهم فتركهم. وأقبل مسلمة فنزل الحيرة وجاء الخبر بقتل يزيد إلى واسط فقتل ابنه معاوية عدي بن أرتاة ومحمداً ابنه ومالكاً وعبد الملك ابناً سمع في ثلاثين ورجع إلى البصرة بالمال والخزائن. واجتمع بعمة المفضل وأهل بيتهم، ونهضوا للركوب في البحر وركبوا إلى قنديل وبها وداع بن حميد الأسدي ولاه عليها يزيد بن المهلب ملجأ لأهل بيته إن وقع بهم ذلك فركبوا البحر بعيالهم وأموالهم إلى جبال كرمان فنزلوا بها واجتمع إليهم الفل من كل جانب.

وبعث مسلمة مدرك بن ضب الكلبي في طلبهم فقاتلهم وقتل من أصحاب المفضل النعمان بن إبراهيم ومحمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث وأسر ابن صول قهستان، وهرب عثمان بن إسحاق بن محمد الأشعث فقتل وحمل رأسه إلى مسلمة بالحيرة. ورجع ناس من أصحاب بني المهلب فاستأمنوا وأمنهم مسلمة منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر والورد بن عبد الله بن حبيب السعدي التميمي. ومضى إلى آل المهلب ومن معهم بقنديل فمتمهم وداع بن حميد من دخولها وخرج معهم لقتال عدوهم. وكان مسلمة قد رد مدرك بن ضب بعد هزيمتهم في جبال كرمان وبعث في أثرهم هلال بن أحرور التميمي فلحقهم بقنديل فتبعوا لقتاله.

وبعث هلال راية أمان فمال إليه وداع بن حميد وعبد الله بن هلال وافترق الناس عن آل المهلب. ثم استقدموا فاستأمنوا

يزيد بن عبد الملك إلى أهل الكوفة يشي عليهم ويمنهم الزيادة وجهاز أخاه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد إلى العراق في سبعين ألف مقاتل أو ثمانين من أهل الشام والجزيرة، فقدموا الكوفة ونزلوا النخيلة.

وتكلم العباس يوماً ببعض الكلام فأساء عليه حيان النبطي بالكشة الأعجمية. ولما سمع ابن المهلب بوصول مسلمة وأهل الشام فخطب الناس وشجعهم للقاتلهم وهون عليهم أمرهم وأخبرهم أن أكثرهم له. واستوثق له أهل البصرة وبعث عماله على الأهواز وفارس وكرمان. وبعث إلى خراسان مدرك بن المهلب وعليها عبد الرحمن بن نعيم وبعث بنو تميم ليمتنعوه. ولقيه الأزدي على رأس المغارة فقالوا: ارجع عنا حتى نرى مآل أمركم. ثم خطب يزيد الناس يدعوهم إلى الكتاب والسنة ويحثهم على الجهاد وأن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم ونكر ذلك الحسن البصري والنضر بن أنس بن مالك وتابعهما الناس في النكير.

وسار يزيد من البصرة إلى واسط واستخلف عليها أخاه مروان بن المهلب. وأقام بواسط أياماً ثم خرج منها سنة اثنتين ومائة واستخلف عليها أمان معونة. وقدم أخاه عبد الملك بن المهلب نحو الكوفة فاستقبله ابن الوليد بسور له فاقتلوا وانهزم عبد الملك وعاد إلى يزيد. وأقبل مسلمة على شاطئ الفرات إلى الأنهار فعقد الجسر وعبر وسار حتى نزل على يزيد بن المهلب وفرغ إليه ناس من أهل الكوفة وكان عسكره مائة وعشرين. وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن قد عسكر بالنخيلة وشق المياه وجعل الأرصاء على أهل الكوفة أن يفزعوا إلى يزيد بن المهلب، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع صبرة بن عبد الرحمن بن مخنف فعزل مسلمة بن عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمر بن الوليد بن عقبة.

ثم أراد يزيد بن المهلب أن يبعث أخاه محمداً بالعساكر يبيتون مسلمة فأبى عليه أصحابه وقالوا: قد وعدناهم بالكتاب والسنة ووعدوا بالإجابة فلا نغدرهم. فقال يزيد: وعيكم تصدقونهم إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسبقوكم إليه والله ما في بني مروان أمكر ولا أبعد غوراً من هذه الجرادة الصغرى يعني مسلمة. وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحث الناس على اللحاق بيزيد أخيه والحسن البصري يشطهم ويتهده فلم يكف. ثم طلب الذين يجتمعون إلي في فافتروا فأقام مسلمة بن عبد الملك يطاول يزيد بن المهلب ثمانية أيام. ثم خرج يوم الجمعة متصف صفر فبى أصحابه وعبى العباس بن الوليد كذلك والتقوا واشتد

العهد هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد

لما بعث يزيد بن عبد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب مع مسلمة أخيه والعباس بن أخيه الوليد قال له العباس: إنا نخاف أن يرجف أهل العراق بموتك ويبت ذلك في أعضادنا وأشار عليه بالعهد لعبد العزيز أخيه ابن الوليد وبلغ ذلك مسلمة فجاءه وقال: أخوك أحق فإن ابنك لم يبلغ وأشار عليه بأخيه هشام وابنه الوليد من بعده. والوليد ابن إحدى عشرة سنة فباع لهما كذلك. ثم بلغ ابنه الوليد فكان إذا رآه يقول: الله يبي وبين من قدم هشاماً عليك.

غزوة الترك

لما ولي سعيد خراسان استضعفه الناس وسموه خدينة واستعمل شعبة على سمرقند ثم عزله كما مر وولى مكانه عثمان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير فطمعت الترك، ويعثم خاقان إلى الصفد، وعلى الترك كورصول وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي وفيه مائة أهل بيت بذرايرهم. وكتبوا إلى عثمان بسمرقند وخافوا أن يبطئ المدد، فصالحوا الترك على أربعين ألفاً وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة. وندب عثمان الناس فانتدب المسيب بن بشر الرياحي ومعه أربعة آلاف من سائر القبائل. فقال لهم المسيب: من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم! فرجع عنه ألف، وقالها بعد فرسخ فرجع ألف ألف آخر، ثم أعادها ثالثة بعد فرسخ فاعتزله ألف.

وسار حتى كان على فرسخين من العدو فأخبره بعض الدهاقين بقتل الرهائن وميعادهم غداً. وقال أصحابي ثلثمائة مقاتل وهم معكم فبعث المسيب إلى القصر رجلين عجمياً وعريباً يأتيانه بالخبر، فجاؤا في ليلة مظلمة وقد أجرت الترك المساء بدائر القصر لئلا يصل إليه أحد فصاح بهما قفالا له اسكت وادع لنا فلانا. فأعلماه قرب العسكر وسالا هل عندكم امتناع غداً؟ فقال لهما نحن مستمتون. فرجعا إلى المسيب فأخبراه فعزم على تبئيت الترك وبايعه أصحابه على الموت وساروا يومهم إلى الليل. ولما أمسى حثم على الصبر وقال: ليكن شعاركم يا محمد ولا تبئعوا مولياً واعقروا الدواب فإنه أشد عليهم، وليست بكم قلة فلان سبعمائة سيف لا يضرب بها في عسكر إلا أروته، وإن كثر أهله. ثم دنوا من العسكر في السحر وثار الترك وخالطهم المسلمون وعقروا الدواب وترجل المسيب في أصحاب له فقاتلوا قتالا

فقتلهم عن آخرهم: المفضل وعبد الملك وزيد مروان بنو المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب والمنهال بن أبي عينة بن المهلب وعمر بن يزيد بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب يرتبيل ملك الترك. وبعث هلال بن أحوز برؤوسهم وسيهم وأسراهم إلى مسلمة بالخيرة فبعث بهم مسلمة إلى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد إلى العباس بن الوليد في حلب فنصب الرؤوس. وأراد مسلمة أن يبتاع الذرية فاشتراه الجراح بن عبد الله الحكيمي بمائة ألف وخلق سيبلهم. ولم يأخذ مسلمة من الجراح شيئاً.

ولما قدم بالأسرى على يزيد بن عبد الملك وكانوا ثلاثة عشر أمر يزيد فقتلوا وكلهم من ولد المهلب واستأمنت هند بنت المهلب لأخيها عينة إلى يزيد بن عبد الملك فأمنه وأقام عمرو وعثمان عند رتبيل حتى أمتهما أسد بن عبد الله القسري وقدماً عليه بخراسان.

ولاية مسلمة على العراق وخراسان

ولما فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب بني المهلب ولاء يزيد بن عبد الملك العراق وجمع له ولاية البصرة والكوفة وخراسان فأقر على الكوفة محمد بن عمر بن الوليد وكان قد قام بأمر البصرة بعد بني المهلب شبيب بن الحارث التميمي فبعث عليها مسلمة عبد الرحمن بن سليم الكلبي وعلى شرطتها عمر بن يزيد التميمي. وأراد عبد الرحمن أن يقتل شيعة ابن المهلب بالبصرة فعزله وولى على البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان. وأقر عمر بن يزيد على الشرطة. واستعمل مسلمة على خراسان صهره على سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العباس ويلقب سعيد بخدينة.

دخل عليه بعض العرب بخراسان وعليه ثياب مصبغة وحوله مرافق مصبغة، وسئل عنه لما خرج فقال: خدينة وهي الدهقانة ربة البيت. ولما ولاء على خراسان سار إليها فاستعمل شعبة بن ظهير النهشلي على سمرقند. فسار إليها وقدم الصفد وكان أهلها كفروا أيام عبد الرحمن بن نعيم، ثم عادوا إلى الصلح. فويخ ساكنها من العرب وغيرهم بالجين فاعتذروا بأمر أميرهم علي بن حبيب العبدي. ثم حبس سعيد عمال عبد الرحمن بن عبد الله وأطلقهم، ثم حبس عمال يزيد بن المهلب رفع لهم أنهم اختانوا الأموال فعذبهم فمات بعضهم في العذاب وبقي بعضهم في السجن حتى غزاهم الترك والصفد فأطلقهم.

شديداً وقتل عظيم من عظماء الترك فانهزموا. ونادى منادي المسيب لا تتبعوهم واقصدوا القصر واحلوا من فيه، ولا تحملوا من متاعهم إلا المال. ومن حمل امرأة أو صبياً أو ضعيفاً حسبةً فأجره على الله وإلا فله أربعون درهماً. وحلوا من في القصر إلى سمرقند ورجع الترك من الغد فلم يروا في القصر أحداً. ورأوا قتلاهم فقالوا: لم يكن الذين جاؤونا بالأمس.

المغيرة حين خلع ويقال إنه الذي قتله، وجاء برأسه. فسيره الحجاج إلى عبد الملك فأقطعه قرية قريبة من دمشق. ثم بعثه إلى كروم ابن مرشد الفزاري ليخلص منه مالا فارتاب وأخذ المال ولحق بعبد الملك عائداً به من الحجاج. وقال قتلت ابن عمه ولست آمنه على نفسي، فأجاره عبد الملك، وكتب الحجاج إليه فيه. فقال: أمسك عنه وعظم شأنه عبد الملك وبنوه واستعمله عمر بن عبد العزيز على الروم من ناحية أرمينية وأثنى عليهم وأسر سبعمائة منهم وقتلهم. واستخدم أيام يزيد لمحبوته حباية فسعت له في ولاية العراق، فولاه يزيد مكان أخيه مسلمة. ولما ولي قدم عليه الجسر بن مزاحم السلمي، وعبد الله بن عمر الليثي في وفد فشكوا من سعيد وحذيفة عاملهم وهو صهر مسلمة فعزله وولى مكانه على خراسان سعيد بن عمر الحريشي من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، فسار خدينة عن خراسان وقدم سعيد فلم يعرض لعماله.

غزو الصغد

ولما كان من انتقاض الصغد وإعانتهم الترك على المسلمين ما ذكرنا تجهز سعيد لغزوهم وعبر النهر فلقية الترك وطائفة من الصغد فهزمهم المسلمون. ونهاهم سعيد عن أتباعهم وقال: هم جباية أمير المؤمنين فانكفوا عنهم. ثم سار المسلمون إلى واد بينهم وبين المرج فقطعه بعض العسكر وقد أكنن لهم الترك فخرجوا عليهم. وانهزم المسلمون إلى الوادي وقيل بل كان المنهزمون مسلحة للمسلمين. وكان فيمن قتل شعبة بن ظهير في خمسين رجلاً. وجاء الأمير والناس فانهزم العدو. وكان سعيد إذا بعث سرية فأصابوا وغنموا وسبوا رد السبي وعاقب فنقل سعيد على الناس وضعفوه. ولما رجع من هذه الغزاة وكان سورة بين الأجير قد قال لحيان النبطي يوم أمر سعيد بالكف عن الصغد وأنهم جباية أمير المؤمنين. فقال: سورة إرجع عنهم يا حيان! فقال: عقيرة الله لا أدعها! فقال: انصرف يا نبطي. قال: انبط الله وجهك. فحقدوا عليه سورة وأغرى به سعيد خدينة وقال: إنه أفسد خراسان على قتيبة ويثب عليك ويتحصن ببعض القلاع. فقال له سعيد: لا يسمع هذا منك أحد، ثم حاول عليه وسقاه لبناً قد ألقى فيه ذهباً مسحوقاً. ثم ركض والناس معه أربعة فراسخ فعاش حيان من بعدها لبالي قلائل ومات.

ولما قدم على خراسان كان الناس بإزاء العدو وقد نكشوا، فحثهم على الجهاد وخاف الصغد منه بما كانوا أعمانوا الترك أيام حذيفة، فقال لهم ملكهم: احمسوا له خراج ما مضى واضمنوا خراج ما يأتي والعمارة والغزو معه، وأعطوه الرهن بذلك. فأبوا إلا أن يستجيروا بملك فرغانة وخرجوا من بلادهم إلى خجندة وسألوا الجوار وأن ينزلوا شعب عصام. فقال: أمهلونا عشرين يوماً أو أربعين لنخليه لكم وليس لكم علي جوار قبل دخولكم إياه. ثم غزاهم الحريش سنة أربع ومائة فقطع النهر وترك قصر الرياح على فرسخين من الدنوسية، وأثناء ابن عم ملك فرغانة يغريه بأهل الصغد وأنهم بخجندة، ولم يدخلوا جواره بعد، فبعث معه عبد الرحمن القسري في عسكر، وجاء في أثره حتى نزلوا على خجندة، وخرج أهل صغد لقتالهم فانهزموا، وقد كانوا حفروا خندقاً وغطوه بالتراب ليسقط فيه المسلمون عند القتال. فلما انهزموا ذلك اليوم أخطأهم الطريق وأسقطهم الله في ذلك الخندق.

ولاية ابن هبيرة على العراق وخراسان

كان مسلمة لما ولي على هذه الأعمال لم يدفع من الخراج شيئاً واستحيا يزيد من عزله فكتب إليه بالقدوم وأن يستخلف على عمله. وسار لذلك سنة ثلاث وأربعمائة، فلقية عمر بن هبيرة بالطريق على دواب البريد، وقال: وجهني أمير المؤمنين لحيازته أموال بني المهلب فارتاب لذلك، وقال له بعض أصحابه: كيف يبعث ابن هبيرة من عند الجزيرة لثل هذا الغرض؟ ثم أتاه أن ابن هبيرة عزل عماله. وكان عمر بن هبيرة من النجابة بمكان، وكان الحجاج يبعثه في البعوث، وهو ممن سار لقتال مطرف بن

ثم حاصره الحريشي، ونصب عليهم المجانيق وأرسلوا إلى ملك فرغانة ليجيرهم، فقال: قد شرت عليكم أن لا جوار قبل الأجل الذي بيني وبينكم. فسألوا الصلح من الحريشي على أن يردوا ما في أيديهم من سبي العرب، ويعطوا ما كسر من الخراج ولا يتخلف أحد منهم بخجندة، وإن أحدثوا حدثاً استبيحت دماؤهم. فقبل منهم وخرجوا من خجندة ونزلوا في العسكر على كل من يعرفه. وبلغ الحريشي أنهم قتلوا امرأة فقتل قاتلها، فخرج قبيل منهم فاعترض الناس وقتل جماعة. وقتل الصغد من أسرى

كان مسلمة لما ولي على هذه الأعمال لم يدفع من الخراج شيئاً واستحيا يزيد من عزله فكتب إليه بالقدوم وأن يستخلف على عمله. وسار لذلك سنة ثلاث وأربعمائة، فلقية عمر بن هبيرة بالطريق على دواب البريد، وقال: وجهني أمير المؤمنين لحيازته أموال بني المهلب فارتاب لذلك، وقال له بعض أصحابه: كيف يبعث ابن هبيرة من عند الجزيرة لثل هذا الغرض؟ ثم أتاه أن ابن هبيرة عزل عماله. وكان عمر بن هبيرة من النجابة بمكان، وكان الحجاج يبعثه في البعوث، وهو ممن سار لقتال مطرف بن

على المسلمين فأقام في رستاق سبي وكتب إلى يزيد بالفتح وطلب اللد وكان ذلك آخر عمر يزيد. وبعث بعد ذلك إليه بالمدد وأقره على العمل.

ولاية عبد الواحد القسري على المدينة ومكة

كان عبد الرحمن بن الضحاك عاملاً على الحجاز منذ أيام عمر بن عبد العزيز وأقام عليها ثلاث سنين ثم حدثته نفسه خطبة فاطمة بنت الحسين فامتعت فهددها بأن يجلد ابنها في الخمر وهو عبد الله بن الحسين المثنى. وكان على ديوان المدينة عامل من أهل الشام يسمى ابن هرمز. ولما رفع حسابه وأراد السير إلى يزيد جاء ليودع فاطمة، فقالت: أخبر أمير المؤمنين بما ألقى من ابن الضحاك وما يتعرض لي. ثم بعث رسولها بكتابها إلى يزيد يخبره. وقدم ابن هرمز على يزيد فيينا هو يحدثه عن المدينة قال الحاجب: بالباب رسول فاطمة بنت الحسين، فذكر ابن هرمز ما حملته. فنزل عن فراشه وقال: عندك مثل هذا وما تخبرني به؟ فاعتذر بالنسيان.

فأدخل يزيد الرسول وقرأ الكتاب وجعل ينكت الأرض بخيثرانة ويقول: لقد اجتراً ابن الضحاك هل من رجل يسمعي صوته في العذاب؟ قيل له عبد الواحد بن عبد الله القسري. فكتب إليه بيده: قد وليت المدينة فانهض إليها واعزل ابن الضحاك وغرمه أربعين ألف دينار، وعذبه حتى أسمع وأنا على فراشي. وجاء البريد بالكتاب إليه ولم يدخل على ابن الضحاك فأحضر البريد ودرس إليه بألف دينار فأخبره الخبر فسار ابن الضحاك إلى مسلمة بن عبد الملك واستجار به وسأل مسلمة فيه يزيد. فقال: والله لا أعفيه أبداً. فردّه مسلمة إلى عبد الواحد بالمدينة فعذبه ولقي شراً، وليس جبة صوف يسأل الناس وكان قد أذى الأنصار فذموه وكان قدوم القسري في شوال سنة أربع ومائة وأحسن السيرة فأحبه الناس وكان يستشير القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله.

عزل الحريشي وولاية مسلم الكلبي على خراسان

كان سعيد الحريشي عاملاً على خراسان لابن هبيرة كما ذكرنا وكان يستخف به ويكتب الخليفة دونه ويكنيه أبا المثنى. وبعث من عيونه من يأتيه بخبره فبلغه أعظم مما سمع فعزله وعذبه

المسلمين مائة وخمسين، ولقي الناس منهم عسفاً ثم أحاطوا بهم وهم يقاتلون بالخشب ليس لهم سلاح فقاتلوا عن آخرهم ثلاثة آلاف أو سبعة آلاف.

وكتب الحريشي إلى يزيد بن عبد الملك ولم يكتب لعمر بن هبيرة فأحفظه ذلك ثم سرح الحريشي سليمان بن أبي السرى إلى حصن يطيف به وراء الصفد ومعه خوارزم شاه وملك أجرون وسومان. فسار سليمان وعلى مقدمته المسيب بن بشر الرياحي، ولقيه أهل الحصن فهزمهم ثم حاصروهم فسألوا الصلح على أن لا يعرض لسبيهم ويسلموا القلعة بما فيها فقبل. وبعث إلى الحريشي فقبضه وبعث من قبضه. وسار الحريشي إلى كش فصالحوه على عشرة آلاف رأس وولى نصر بن سيار على قبضها. واستعمل على كش ونسف حرباً وخراجاً سليمان بن السري واستنزل مكانه آخر اسمه قشقرى من حصنه على الأمان وجاء به إلى مرو فشنقه وصلبه.

ولاية الجراح على أرمينية وفتح بلنجر

ولما سار ابن هبيرة على الجزيرة وأرمينية تشبب البهراني فحفل لهم الخزر وهم التركمان واستجاشوا بالفججاق وغيرهم من أنواع الترك، ولقوا المسلمين بمرج الحجارة فهزموهم واحتوى التركمان على عسكرهم وغنموا ما فيه. وقدم المهزومون على يزيد بن عبد الملك فولى على أرمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وأمدّه بجيش كثيف وسار لغزو الخزر فعادوا لباب الأبواب. ونزل الجراح بردعة فأراح بها قليلاً، ثم سار نحوهم وعبر نهر الكر وأشاع الإقامة ليرجع بذلك عيونهم إليهم. ثم أسرى من ليلته وأجد السير إلى مدينة الباب فدخلها وبث السرايا للنهب والغارة.

وزحف إليه التركمان وعليهم ابن ملكهم فلقبهم عند نهر الزمان واشتد القتال بينهم، ثم انهزم التركمان وكثر القتل فيهم، وغنم المسلمون ما معهم وساروا حتى نزلوا على الحصن، ونزل أهلها على الأمان فقتلهم. ثم سار إلى مدينة برغوا فحاصرها ستة أيام، ثم نزلوا على الأمان ونقلهم ثم ساروا إلى بلنجر وقتلهم التركمان دونها فانهزموا وافتتح الحصن عنوة. وغنم المسلمون جميع ما فيه. فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً. ثم إن الجراح رجع حصن بلنجر إلى صاحبه ورد عليه أهله وماله، على أن يكون عينا للمسلمين على الكفار. ثم نزل على حصن الويد وكان به أربعون ألف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال أعطوه إياه. ثم تجمع الترك والتركمان وأخذوا الطرق

خاقان قد أقبل إليه فارتحل. ولحقه خاقان بعد ثلاثة مراحل لقي فيها طائفة من المسلمين فأصابهم. ثم أطاف بالعسكر وقاتل المسلمين، وقتل المسيب بن بشر الرياحي والبراء من فرسان المهلب وأخو غورك.

ونار الناس في وجوههم فأخرجوهم من العسكر. ورحل مسلم بالناس ثمانية أيام والترك مطيفون بهم بعد أن أمر بإحراق ما ثقل من الأمتعة، فأحرقوا ما قيمته ألف ألف. وأصبحوا في التاسع قريب النهر دونه أهل فرغانة والشاش. فأمر مسلم الناس أن يخرجوا سيوفهم ويحملوا. فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر، ونزل مسلم بعسكره ثم عبر من الغد، وأتبعهم ابن خاقان. فكان حميد بن عبد الله على الساقة من وراء النهر وهو مشخن بالجراحة. فبعث إلى مسلم بالانتظار وعطف على الترك فقاتلهم وأسر قائلهم وقائد الصغد ثم أصابه سهم فمات. وأتوا خجندة وقد أصابتهم مجاعة وجهد ولقيهم هنالك كتاب أسد بن عبد الله القسري أخيه خالد بولايته على خراسان واستخلافه عبد الرحمن بن نعيم. فقرأ مسلم الكتاب وقال سمعاً وطاعة.

ولاية أسد القسري على خراسان

ولما غزا خالد بن عبد الله خراسان استخلف عليها أخاه أسد بن عبد الله فقدم ومسلم بن سعيد بفرغانة فلما رجع وأتى النهر ليقطعه منعه الأشهب بن عبد الله التميمي وكان على السفن يأمد حتى عرفه أنه الأمير فأذن له. ثم عبر أسد النهر ونزل بالمرج وعلى سمرقند هاني بن هاني، فخرج بالناس وتلقى أسداً وأدخله سمرقند. وبعث أسد إلى عبد الرحمن بن نعيم بالولاية على العسكر فقبل بالناس إلى سمرقند. ثم عزل أسداً عنها وولى مكانه الحسن بن أبي العمرطة الكندي. ثم قدم مسلم بن سعيد بن عبد الله بخراسان فكان يكرمه. ومر بابن هبيرة وهو يروم الحرب وأسلم على يديه. ثم غزا الغور وهي جبال هراة. فوضع أهلها أثناعلم في الكهوف ولم يكن إليهم طريق. فاتخذ التوابيت ووضع فيها الرجال ودلاها بالسلاسل فاستخرجوا ما قدروا عليه. ثم قطع كمان النهر وجاءه خاقان ولم يكن بينهما قتال. وقيل عاد مهزوماً من الجسر. ثم سار إلى عورين وقاتلها وأبلى نصر بن سيار ومسلم بن أحوز وانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم بما فيه.

حتى أدى الأموال وعزم على قتله ثم كف عنه. وولى ابن هبيرة على خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي، ولما جاء إلى خراسان حبسه وقيدته وعذبه كما قلنا. فلما هرب ابن هبيرة بعد ذلك عن العراق أرسل خالد القسري في طلبه الحرشي فآدره على الفرات. وقال لابن هبيرة ما ظنك بي؟ قال: إنك لا تدفع رجلاً من قومك إلى رجل من قسر. قال: هو ذاك ثم انصرف وتركه.

وفاة يزيد وبيعة هشام

ثم توفي يزيد بن عبد الملك في شعبان سنة خمس ومائة لأربع سنين من خلافته وولى بعده أخوه هشام بعهدده إليه بذلك كما مر، وكان بمحصر فجاءه الخبر بذلك فعزل عمر بن هبيرة عن العراق وولى مكانه خالد بن عبد الله القسري فصار إلى العراق من يومه.

غزو مسلم الترك

غزا مسلم بن سعيد الترك سنة خمسة ومائة فعبّر النهر وعاث في بلادهم ولم يفتح شيئاً وقتل فأتبعه الترك ولحقوه على النهر فعبّر الناس ولم ينالوا منه. ثم غزا بقية السنة وحاصر أفسين حتى صالحوه على ستة آلاف رأس، ثم دفعوا إليه القلعة. ثم غزا سنة ست ومائة، وتباطأ عنه الناس، وكان ممن تباطأ البخثري بن درهم، فرد مسلم نصر بن سيار إلى بلخ وأمره أن يخرج الناس إليه. وعلى بلخ عمر بن قتيبة أخو مسلم، فجاء نصر وأحرق باب البخثري وزيد بن طريف الباهلي. ثم منعهم عمر من دخول بلخ وقد قطع سعيد النهر، ونزل نصر بن سيار البروقان وأتى جند الضلابيان، وتجمعت ربيعة والأزد بالبروقان على نصف فرسخ من نصر وخرجت مضر إلى نصر، وخرج عمر بن مسلم إلى ربيعة والأزد وتوافقوا وسفر الناس بينهما في الصلح وانصرف نصر.

ثم حمل البخثري وعمر بن مسلم على نصر فذكر عليهم فقتل منهم ثمانية عشر وهزمهم وأتى بعمر بن مسلم والبخثري وزيد بن طريف فضر بهم مائة مائة وحلق رؤوسهم ولحاهم والبسم المسوح. وقيل إن سبب تعزيز عمر بن مسلم إنهزام غنيم عنه وقيل إنهزام ربيعة والأزد ثم أمنهم نصر بعد ذلك وأمرهم أن يلحقوا بمسلم بن سعيد. ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحق من أصحابه سار إلى بخارى فلحقه بها كتاب خالد بن عبد الله القسري بولايته ويأمره بإقسام غزاته، فصار إلى فرغانة وبلغه أن

ولاية أشروس على العراق

كان أسد بن عبد الله في ولايته على خراسان يتعصب حتى أفسد الناس. وضرب نصر بن سيار بالسياط وعبد الرحمن بن نعيم وسورة بن أيجر والبختري بن أبي درهم، وعامر بن مالك الحماني وحلقهم وسيرهم إلى أخيه، وكتب إليه أنهم أرادوا الوثوب بي. فلامه خالد وعنفه وقال: هلا بعثت برؤوسهم؟ وخطب أسد يوماً فلن أهل خراسان. فكتب هشام بن عبد الملك إلى خالد اعزل أخاك فعزله في رمضان سنة تسع وولى مكانه الحكم بن عوانة الكلبي فبعد عن الصانقة تلك السنة. فاستعمل هشام على خراسان أشروس بن عبد الله السلمي وأمره أن يراجع خالداً فكان خيراً ففرج به أهل خراسان.

عزل أشروس

أرسل أشروس إلى سمرقند سنة عشر ومائة أبا الصيدا صالح بن ظريف مولى بني ضبة والربيع بن عمران التميمي إلى سمرقند وغيرها مما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، على أن توضع عنهم الجزية، وعليها الحسن بن العمرطة الكندي على حربها وخراجها، فدعاهم إلى ذلك وأسلموا. وكتب غورك إلى الأشروس أن الجراح قد انكسر، فكتب أشروس إلى ابن العمرطة بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة، وإنما أسلموا نفوراً من الجزية فانظر من اختن وأقام الفرائض، وقرأ سورة من القرآن فارفع خواجه.

ثم عزل ابن العمرطة عن الخراج وولى عليها ابن هانئ ومنعهم أبو الصيد أخذ الجزية من أسلم، وكتب هانئ إلى أشروس بأنهم أسلموا وبنوا المساجد. فكتب إليه وإلى العمال أن يعيدوا الجزية على من كانت عليه ولو أسلم، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على فراسخ من سمرقند. وخرج معهم أبو الصيد وربيعة بن عمران والهيشم الشيباني وأبو فاطمة الأزدي وعامر بن قشير وبشير الجحدري وبيان الغبيري وإسماعيل بن عقبة لينصروهم. وبلغ الخبر إلى أشروس فعزل ابن العمرطة عن الحرب وولى مكانه الجحش بن مزاحم السلمي وعميرة بن سعد الشيباني، فكتب الجحش إلى أبي الصيدا يستقدمه هو وأصحابه فقدم معه ثابت قطنة فحبسهما وسيرهما إلى أشروس، واجتماع الباقون وولوا عليهم أبا فاطمة ليقاتلوا هانئاً فكتب أشروس ووضعه عنهم الخراج فرجعوا وضعف أمرهم وتبعوا فحبسوا كلهم.

والح هانئ في الخراج واستخف بفعل العجم والدماقين.

وأقيموا في العقوبات وحرقت ثيابهم، وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذت الجزية من أسلم. فكفرت الصغد وبخارى، واستجاشوا بالترك وخرج أشروس غازياً فزول آمد وأقام أشهراً. وقدم قطن بن قتيبة بن مسلم في عشرة آلاف فعبر النهر ولقي الترك وأهل الصغد وبخارى ومعهم خاقان، فحاصروا قطناً في خندقه. وأغار الترك على سرح المسلمين، وأطلق أشروس ثابت قطنة بكفالة عبد الله بن بسطام بن مسعود بن عمر وبعثه معه في خيل، فاستقدمه من أيدي الترك ما أخذوه. ثم عبر أشروس بالناس ولحق بقطن ولقيهم العدو فانهزموا أمامهم. وسار أشروس بالناس حتى جاء بيكند فحاصرها المسلمون، وقطع أهل البلد عنهم الماء، وأصابهم العطش فرحلوا إلى المدينة. واعترضهم دونها العدو فقاتلوهم قتالاً شديداً وأبلى الحارث بن شريح وقطن بن قتيبة بلاء شديداً وأزالوا الترك عن الماء. فقتل يومئذ ثابت قطنة وصخر بن مسلم بن النعمان العبدى، وعبد الملك بن دثار الباهلي وغيرهم.

وحمل قطن بن قتيبة في جماعة تعاقدوا على الموت، فانهزم العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم إلى الليل. ثم رجع أشروس إلى بخارى وجهز عليهم عسكرياً يحاصرونها وعليهم الحارث بن شريح الأزدي. ثم حاصر خاقان مدينة كمرجة من خراسان وبها جمع من المسلمين. وقطعوا القنطرة وأتاهم ابن جسر وابن يزدجرد وقال: إن خاقان جاء يرد علي منكبي وأنا أخذ لكم الأمان فشتموه وأتاهم يزغري في مائتين وكان داهية، وكان خاقان لا يخالفه. فطلب رجلاً يكلمه فجاء يزيد بن سعد الباهلي فرغبه بإضعاف العطاء والإحسان على النزول وسيرون معهم، فلاطفه ورجع إلى أصحابه وقال هؤلاء يدعونكم لقتال المسلمين، فأبوا وأمر خاقان فألقى الحطب الرطب في الخندق ليقطعه، وألقى المسلمون البهائم ليأكلوها ويحشوا جلودها تراباً ويملؤا بها الخندق. وأرسل الله سبحانه فاحتمل السيل ما في الخندق إلى النهر الأعظم ورمى المسلمون بالسهم فأصيب يزغري بسهم ومات من ليلته فقتلوا جميع ما عندهم من الأسرى والرهن. ولم يزالوا كذلك حتى نزلت جيوش المسلمين فرغاة فجردوا عليهم واشتد قتالهم وصالحهم المسلمون على أن يسلموا لهم كمرجة ويرحلوا عليها إلى سمرقند والدنوسية وتراهنوا على ذلك. وتأخر خاقان حتى يخرجوا وخلف معهم كورصول ليلغهم إلى مأمثهم فارتحلوا حتى بلغوا الدنوسية. وأطلقوا الرهن وكانت مدة الحصار ستين يوماً.

عزل أشرس عن خراسان وولاية الجنيد

وفي سنة إحدى عشرة ومائة عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان وولى مكانه الجنيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الحارث بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري أهدى إلى أم حكيم بنت يحيى بن الحكم امرأة هشام قلادة فيها جواهر فأعجبت هشاماً فأهدى له أخرى مثلها فولاه خراسان وحمله على البريد. فقدم خراسان في خمسمائة ووجد الخطاب بن معمر السلمي خليفة أشرس على خراسان. فسار الجنيد إلى ما وراء النهر ومعه الخطاب واستخلف على مرو الجشتر بن مزاحم السلمي وعلى بلخ سورة بن أبحر التميمي. وبعث إلى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد أن يبعث إليه بسرية خفية أن يعترضه العدو.

فبعث إليه أشرس عامر بن مالك الجابي فعرض له الترك والصغد فقاتلوه ثم استداروا وراء معسكر الترك وحمل المسلمون عليهم من أمامهم فانهزم الترك ولحق عامر بالجنيد فاقبل معه وعلى مقدمته عمارة بن حزم واعترضه الترك فهزمهم. وزحف إليه خاقان بنواحي سمرقند وقطن بن قتيبة على ساقته، فهزم خاقان وأسر ابن أخيه وبعث به إلى هشام، ورجع إلى مرو ظافراً. واستعمل قطن بن قتيبة على بخارى والوليد بن القعقاع العبسي على هراة وحبيب بن مرة العبسي على شرطته ومسلم بن عبد الرحمن الباهلي على بلخ وعليها نصر بن سيار. فبعث مسلم إلى نصر وجيء به في قميص دون سراويل، فقال شيخ مضر جتتم به على هذه الحالة؟ فعزل الجنيد مسلماً عن بلخ وأوفد وفداً إلى هشام يخبر غزاته.

مقتل الجراح الحكمي

قد كان تقدم لنا دخوله إلى بلاد الخزر سنة أربع ومائة وانهزامهم أمامه وأنه أثنى فيهم وملك بلنجر وردعا على صاحبها وأدركه الشتاء فأقام هنالك. وأن هشاماً أقوه على عمله ثم ولاه أرمينية فدخل بلاد التركمان من ناحية تفلين سنة إحدى عشرة ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف ظافراً. فاجتمع الخزر والترك من ناحية الالف، وزحف إليهم الجراح سنة اثنتي عشرة ولقيهم بمرج أردبيل، فاقتلوا أشد قتال. وتكاثر العدو عليه فاستشهد ومن معه وقد كان استخلف أخاه الحجاج على أرمينية. ولما قتل طمع الخزر وهم التركمان وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل، وقيل كان قتله بلنجر. ولما بلغ الخبر هشاماً دعا سعيداً

الحريشي فقال: بلغني أن الجراح انهزم. قال: الجراح أعرف بالله من أن يهزم لكن قتل فابعتني على أربعين من دواب البريد وابتعث إلي كل يوم أربعين رجلاً مدداً وكتب إلى الأمراء الأجناد يواسوني. ففعل وسار الحريشي فلا يمر مدينة إلا ويستنهض أهلها فيجيبه من أراد الجهاد.

ووصل مدينة أزور فلقية جماعة من أصحاب الجراح فردهم معه. ووصل إلى خلاط فحاصرها وفتحها وقسم غنائمها. ثم سار عنها يفتح القلاع والحصون إلى بروعة فنزلها وابن خاقان يومئذ بأذربيجان يحاصر مدينة ورثان منها وبعث في نواحيها، وبعث الحريشي إلى أهل ورثان يخبرهم بوصوله فأخرج العدو عنهم ووصل إليهم الحريشي. ثم اتبع العدو إلى أردبيل وجاءه بعض عيونه بأن عشرة آلاف من عسكرهم على أربعة فراسخ منه ومعهم خمسة آلاف بيت من المسلمين أسارى وسبائاً، فيتهم وقتلهم أجمعين ولم ينج منهم أحد. واستنقذ المسلمين منهم.

وسار إلى باجروان فجاءه عين آخر ودله على جمع منهم فسار إليهم واستحلهم أجمعين واستنقذ من معهم من المسلمين، وكان فيهم أهل الجراح وولده فحملهم إلى باجروان. ثم زحف إليهم جموع الخزر مع ابن ملكهم والتقوا بارض زرنند، واشتد القتال والسبي من معسكر الكفار فبكى المسلمون رحمة لهم وصدقوا الحملة، فانهزم الكفار وأتبعهم المسلمون إلى نهر أرس وغنموا ما كان معهم من الأموال واستنقذوا الأسرى والسبائا وحلّوهم إلى باجروان. ثم تناصر الخزر في ملكهم ورجعوا فنزلوا نهر اليلقان واقتلوا قتلاً شديداً. ثم انهزموا فكان من غرق أكثر ممن قتل وجمع الحريشي الغنائم وعاد إلى باجروان فقسمها وكتب إلى هشام بالفتح. واستقدمه وولى أخاه مسلمة على أرمينية وأذربيجان.

وقعة الشعب بين الجنيد وخاقان

وخرج الجنيد سنة اثنتي عشرة ومائة من خراسان غازياً إلى طخارستان وبعث إليها عمارة بن خزيم في ثمانية عشر ألفاً، وبعث إبراهيم بن سام الليثي في عشرة آلاف إلى وجه آخر وحاشتك التركي. وزحف بهم خاقان إلى سمرقند وعليها سورة بن أبحر فكتب إلى الهند مستغيثاً فأمر الجنيد بعبور النهر. فقال له الجشتر بن مزاحم السلمي وابن بسطام الأزدي: إن الترك ليسوا كغيرهم وقد مزقت جندك. فسلم ابن عبد الرحمن بالنراود والبخري بهراة وعمارة بن خزيم بطخارستان. ولا تعبر النهر في

وكان صاحب الرأي بخراسان في الحرب الجشع بن مزاحم السلمي وعبد الرحمن بن أصبح المخزومي وعبيد الله بن حبيب الهجري. ولما انصرفت الترك بعث الجنيد نهار بن توسعة بن تيم الله وزميل بن سويد بن شيم بالخبر. وتحامل فيه على سورة بن أبحر بما عصاه من مفارقة النهر حتى نال العدو منه. فكتب إليه هشام قد بعث إليك من المدد عشرة آلاف من البصرة ومثلها من الكوفة وثلاثون ألف رمح ومثلها سيفاً. وأقام الجنيد بسمرقند وسار خاقان إلى بخارى وعليها قطن بن قتيبة بن مسلم فخاف عليه من الترك. واستشار عبد الله بن أبي عبد الله مولى بن سليم بعد أن اختلف عليه أصحابه فاشتراط عليه أن لا يخالفه. فأنشأ يحمل العيالات من سمرقند فقدمهم واستخلف بسمرقند عثمان بن عبد الله بن الشخير في أربعمئة فارس وأربعمئة راجل ووفر أعطيائهم. وسار العيادات في مقدمته حتى من الضيق ودنا من الطواويس. فأقبل إليه خاقان بكير ميمنة أول رمضان سنة إثنتي عشرة، واقتتلوا قليلاً. ثم رجع الترك وأرسل من الغد، فاعترضه الترك ثانياً وقتل مسلم بن أحوز بعض عظمائهم فرجعوا من الطواويس. ثم دخل الجنيد بالمسلمين بخارى وقدمت الجنود من البصرة والكوفة فسرحت الجنيد معهم حورثة بن زيد العبدي فيمن انتدب معه.

ولاية عاصم على خراسان وعزل الجنيد

بلغ هشام سنة ست عشرة أن الجنيد بن عبد الرحمن عامل خراسان تزوج بنت يزيد بن المهلب فغضب لذلك وعزله وولى مكانه عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي وكان الجنيد قد مرض بالاستسقاء. فقال هشام لعاصم: إن أدركته وبه رفق فأزق نفسه فلما قدم عاصم وجده قد مات وكانت بينهما عداوة فحبس عمارة بن حزيم وكان الجنيد استخلفه وهو ابن عذبة فعذبه عاصم وعذب عمال الجنيد.

ولاية مروان بن محمد على أرمينية

وأذريجان

لما عاد مسلمة من غزو الخزر وهم التركمان إلى بلاد المسلمين وكان في عسكره مروان بن محمد بن مروان، فخرج مخفياً عنه إلى هشام وشكا له من مسلمة وتحاذله عن الغزو وما أدخل بذلك على المسلمين من الوهم. وبعث إلى العدو بالحرب وأقام شهراً حتى استعدوا وحشدوا ودخل بلادهم فلم يكن له فيهم

أقل من خمسين ألفاً. فاستقدم عمارة وأمهل فقال: أخي على سورة وعبر الجنيد فنزل كش وتأهب للسير. وغور الترك الأبار في طريق كش وسار الجنيد على التعبية واعتراضه خاقان ومعه أهل الصغد وفرغانة والشاش، وحملوا على مقدمته، وعليها عثمان بن عبد الله بن الشخير فرجعوا وترك في أتباعهم.

ثم حملوا على المدينة وأمدهم الجنيد بنصر بن سيار وشدوا على العدو وقتل أعياناً منهم. وأقبل الجنيد على الميمنة وأقبل تحت راية الأزد فقال له صاحب الراية: ما قصدت كرامتنا لكن علمت أنا لا نصل إليك ومنا عين تطرف! فصبروا وقتلوا حتى كلت سيوفهم. وقطع عيدهم الخشب فقاتلوا بها حتى أدركهم الليل وتعانقوا ثم تحاجزوا وهلك من الأزد في ذلك المعترك نحو من ثمانين فيهم عبد الله بن بسطام ومحمد بن عبد الله بن جردان والحسين بن شيع وزيد بن الفضل الخراساني. وبينما الناس كذلك إذ طلعت أوائل عسكر خاقان فنادى منادي الجنيد بالتزول فترجلوا، وخندق كل كائن على رجاله. وقصد خاقان جهة بكر بن وائل وعليهم زياد بن الحارث فحملت بكر عليهم فافرجوا واشتد القتال.

وأشار أصحاب الجنيد عليه بأن يبعث إلى سورة بن أبحر من سمرقند ليتقدم الترك إليه ليكون لهم شغل به عن الجنيد وأصحابه. فكتب يستقدمه فاعتذر فأعاد عليه وتهده وقال: اخرج وسر مع النهر لا تفارقه فلما خرج هو استبعد طريق النهر واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحظلي. وسار محمد في إثني عشر ألفاً حتى إذا بقي بينه وبين الجنيد وعساكره فرسخ لقيه خاقان عند الصباح وحال بينهم وبين الماء وأضرم النار في اليبس حواليتهم فاستماتوا وحملوا وانكشف الترك وأظلم الجو بالعجاج. وكان من وراء الترك لهب سقط فيه جميع العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذته. ثم عطف الترك فقتلوا المسلمين ولم يبق منهم إلا القليل والمحاش بالناس المهلب بن زياد والعجمي في ستمائة أو ألف، ومعه قريش بن عبد الله العبدي إلى رستاق المرغاب، وقاتلوا بعض قصوره فأصيب المهلب وولوا عليهم الرحب بن خالد.

وجاءهم الأسكيد صاحب نسف وغورك ملك الصغد فنزلوا معه إلى خاقان فلم يميز أمان غورك وقتلهم ولم ينبج منهم أحد. ثم خرج الجنيد من الشعب قاصداً سمرقند وأشار عليه مجش بن مزاحم بالتزول فنزل ووافقته جموع الترك. فجاء الناس جولة وصبر المسلمون وقاتل العبيد وانهزم العدو. ومضى الجنيد إلى سمرقند فحمل العيالات إلى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر.

ولاية أسد القسري الثانية بخراسان

كتب عاصم إلى هشام سنة سبع عشرة أن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق ليكون مددها قريب الغوث، فقصم هشام خراسان إلى خالد بن عبد الله القسري وكتب إليه: إبعث أخاك يصلح ما أفسد فبعث خالد أخاه أسداً فسار على مقدمته محمد بن مالك الهمداني. ولما بلغ عاصم الخبر راود الحارث بن شريح على الصلح وأن يكتباً جميعاً إلى هشام يسألانه الكتاب والسنة، فإن أبي اجتماعاً وأبى بعض أهل خراسان ذلك فانقض بينهما واقتلا، فانهزم الحارث وأسر من أصحابه كثير قتلهم عاصم. وبعث بالفتح إلى هشام مع محمد بن مسلم العنبري فلقبه أسد البري. وجاء إلى خراسان فبعث عاصماً وطلبه بمائة ألف درهم، وأطلق عمارة بن حزيم وعمال الجنيد. ولم يكن لعاصم بخراسان إلا مرو ونيسابور. وكانت مرو الروذ للحارث، وواصل لخالد بن عبيد الله الهجري على مثل رأي الحارث، وسار هو عبد الرحمن بن نعيم في أهل الكوفة والشام إلى الحارث، وسار هو بالناس إلى آمد. فخرج إليه زياد القرشي مولى حيان النبطي في العسكر، فهزمهم أسد وحاصروهم حتى سألوا الأمان، واستعمل عليهم يحيى بن نعيم بن هيرة الشيباني، وسار إلى بلخ، وقد بايعوا سليمان بن عبد الله بن حازم. فسار حتى قدما. ثم سار منها إلى ترمذ والحارث معاصرهما، وأعجزه وصول المدد إليها فخرج إلى بلخ، وخرج أهل ترمذ فهزموا الحارث وقتلوا أكثر أصحابه.

ثم سار أسد إلى سمرقند ومر بمحصن زم وبه أصحاب الحارث فبعث إليهم وقال: إنما نكرتم منا سوء السيرة ولم يبلغ ذلك النساء واستحلال الفروج ولا مظاهر المشركين على مثل سمرقند وأعطاه الأمان على تسليم سمرقند. وهذه إن قاتل بأنه لا يؤمنه أبداً. فخرج إلى الأمان وسار معه إلى سمرقند فزلمهم على الأمان. ثم رجع أسد إلى بلخ ومرح جديداً الكرمانى إلى القلعة التي فيها قتل الحارث وأصحابه في طخارستان. فحاصرها وفتحها وقتل مقاتلتهم ومنهم بنو يزري من ثعلب أصحاب الحارث. وباع سيهم في سوق بلخ وانتقض على الحارث أربعمائة وخمسون من أصحابه بالقلعة، ورئيسهم جرير بن ميمون القاضي، فقال لهم الحارث: إن كنتم مفارقي ولا بد فاطلبوا الأمان، وإن طلبتموه بعد رحيلي لا يعطونه لكم، فأبوا إلا أن ارتحل، فبعثوا بالأمان فلم يجيبهم إليه. وسرح جديعة الكرمانى في ستة آلاف فحصرهم حتى نزلوا على حكمه. وحمل خمسين منهم إلى أسد فيهم ابن ميمون القاضي. فقتلهم وكتب إلى الكرمانى بإهلاك الباقي واتخذ أسد

نكاية وقصد أراد السلامة ورغب إليه بالغزو إليهم ليقسم منهم، وأن يمد بمائة وعشرين ألف مقاتل ويكنم عليه. فأجابته لذلك وولاه على أرمينية. فسار إليها وجاءه المدد من الشام والعراق والجزيرة. فأظهر أنه يريد غزو اللان وبعث إلى ملك الخزر في المهادنة فأجاب. وأرسل رسله لتقرير الصلح فأمسكهم مروان إلى أن تجهز وودعهم وسار إلى أقرب الطرق. فوافاهم ورأى ملك الخزر أن اللقاء على تلك الحال غر فتأخر إلى أقصى بلاده.

ودخل مروان فأوغل فيها وخرب وغنم وسبى إلى آخرها. ودخل بلاد ملك السريز وفتح قلاعها وصالحوه على ألف رأس نصفها غلمان ونصفها جوارى ومائة ألف مد تحمل إلى الباب. وصالحه أهل تومان على مائة رأس نصفين وعشرين ألف مد. ثم دخل أرض وردكران فصالحوه. ثم أتى حميرين وافتتح حصنهم، ثم أتى سبدان فاقتتحها صلحاً، ثم نزل صاحب اللكز في قلعة وقد امتنع من أداء الوظيفة، فخرج يزيد ملك الخزر فأصيب بسهم ومات وصالح أهل اللكز مروان، وأدخل عامله وسار مروان إلى قلعة سروان فاطاعوا، وسار إلى الرومانية فأوقع بهم ورجع.

خلع الحارث بن شريح بخراسان

كان الحارث هذا عظيم الأزد بخراسان فخلع سنة ست عشرة وليس السواد، ودعا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا على ما كان عليه دعة بني العباس هناك. وأقبل إلى الغاريات وجاءته رسل عاصم مقاتل بن حيان النبطي والخطاب بن محرز السلمي فحبسهما وقرروا من السجن إلى عاصم بدم الحارث وغدره. وسار الحارث من الغاريات إلى بلخ وعليها نصر بن سيار والتجبي، فلقياه في عشرة آلاف وهو في أربعة فهزمهم، وملك بلخ واستعمل عليها سليمان بن عبد الله بن حازم. وسار إلى الجوزجان عليها ثم سار إلى مرو ونمي إلى عاصم أن أهل مرو يكتبونه فاستوثق منهم بالقسامة وخرج وعسكر قريباً من مرو، وقطع الجسور. وأقبل الحارث في ستين ألفاً ومعه فرسان الأزد وتميم ودهاقين الجوزجان والغاريات، وملك الطالقان وأصلحوا القناطر ثم نزع محمد بن المثنى في ألفين من الأزد وحماد بن عامر الجابي في مثلها من بني تميم إلى عاصم، ولحقوا به ثم اقتتلوا. فانهزم الحارث وغرق كثير من أصحابه في نهر مرو وقتلوا قتلاً ذريعاً. وكان ممن غرق حازم. ولما قطع الحارث نهر مرو ضرب رواقه واجتمع إليه بها ثلاثة آلاف فارس وكف عاصم عنهم.

ما رأيته، ولعل الله يتقن منك.

ومضى أسد إلى بلخ فعسكر في مرجها حتى جاء الشتاء، فدخل البلد وشتى فيها. وكان الحارث بن شريح بناحية طخارستان فانضم إلى خاقان وأغراه بغزو خراسان وزحفوا إلى بلخ. وخرج أسد يوم الأضحى فخطب الناس وعرفهم بأن الحارث بن شريح استجلب الطاغية ليطغى نور الله ويبدل دينهم، وحرضهم على الاستنصار بالله. وقال أقرب ما يكون العبد لله ساجداً. ثم سجد وسجد الناس وأخلصوا الدعاء وخرج للقائهم وقد استمد خاقان من وراء النهر، وأهل طخارستان وحبونة في ثلاثين ألفاً وجاء الخبر إلى أسد وأشار بعض الناس بالتحصن منهم بمدينة بلخ واستمد خالد وهشام وأبسي الأسد إلا اللقاء، فخرج واستخلف على بلخ الكرماني ابن علي. وعهد إليه أنه لا يدع أحداً يخرج من المدينة. واعتزم نصر بن سيار والقاسم بن مجيب وغيرهم على الخروج فاذن لهم وصلى بالناس ركعتين وطول. ثم دعا وأمر الناس بالدعاء ونزل من وراء القنطرة ينتظر من تخلف. ثم بدا له وارتحل فلقى طليعة خاقان وأسر قائدهم. وسار حتى نزل على فرسخين من الجوزجان ثم أصبحوا وقد تراءى الجمعان وأنزل أسد الناس ثم تهيأ للحرب ومعه الجوزجان اهـ.

وحملت الترك على الميسرة فانهزموا إلى رواق أسد، فشدت عليهم الأسد وبنو تميم والجوزجان من الميمنة فانكشفوا إلى خاقان وقد انهزم والحارث معه. وأتبعهم الناس ثلاثة فراسخ يقتلونهم واستاقوا مائة وخمسين ألفاً من الشاء ودواب كثيرة. وسلك خاقان غير الجادة والحارث بن شريح ولقيهم أسد عند الطريق. وسلك الجوزجان بعثمان بن عبد الله بن الشخير طريقاً، يعرفها حتى نزلوا على خاقان وهو آمن، فتركوا الأبنية والقنطرة تغلي وبناء العرب والموالي والعسكر مشحون من آتية الفضة، وركب خاقان والحارث يمانع عنه. وأعجلوا امرأة خاقان عن الركوب فقتلها الخصي الموكل بها. وبعث أسد بجوار الترك دهاقين خراسان يفادون بها أسرارهم، وأقام خمسة أيام وانصرف إلى بلخ لتاسعة من خروجه. ونزل الجوزجان وخاقان هارب أمامه.

وانتهى خاقان إلى جونة الطخاري، فنزل عليه، وانصرف أسد إلى بلخ، وأقام خاقان عند جونة حتى أصلح آتاه، وسار وسية بها. فأخذه جد كاوش أبو فشين فأهدى إليه وأخفه وحمل أصحابه يتخذ بذلك عنده يداً. ثم وصل خاقان ببلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ومحاصرة سمرقند وحمل الحارث وابن شريح وأصحابه على خمسة آلاف برزدون. ولاعب خاقان بالنرد كورصول يوماً فغمره كورصول فأنف وتشاجر، فصك كورصول

مدينة بلخ داراً ونقل إليها الدواوين. ثم عزا طخارستان وأرض حبونة فغمر وسي.

مقتل خاقان

ولما كانت سنة تسع عشرة غزا أسد بن عبد الله بلاد الختل فافتتح منها قلاعاً وامتلأت أيدي العسكر من السبي والشاء. وكتب ابن الساتحي صاحب البلاد يستجيش خاقان على العرب ويضعفهم له فتجهز وخفف من الأزودة استعجالاً للعرب. فلما أحس به ابن الساتحي بعث بالندير إلى أسد فلم يصدق، فأعاد عليه أنني الذي استمددت خاقان لأنك معرت البلاد، ولا أريد أن يظفر بك خشية من معادة العرب واستطالة خاقان علي، فصدقته حينئذ أسد وبعث الأتقال مع إبراهيم بن عاصم العقيلي، الذي كان ولي سجستان وبعث معه المشيخة كثير بن أمية، وأبا سفيان بن كثير الخزاعي وفضيل بن حيان المهري وغيرهم وأمدهما بجند آخر. وجاء في أثرهم فأنهت إلى نهر بلخ وقد قطعه إبراهيم بن عاصم بالسبي والأتقال، فخاص النهر من ثلاثة وعشرين موضعاً، وحمل الناس شياهم حتى حمل هو شاة فما استكمل العبور حتى طلعت عليهم الترك وعلى المسلحة الأزدي وبنو تميم. فحمل خاقان عليهم فانكشفوا فرجع أسد إلى عسكره وخذل.

وظنوا أن خاقان لا يقطع النهر فقطع النهر إليهم وقاتله المسلمون في معسكرهم وياتوا وترك يحيطون بهم. فلما أصبحوا لم يروا منهم أحداً ففعلوا أنهم اتبعوا الأتقال والسبي، واستعملوا علمها من الطلائع، فشارو أسد الناس فأشاروا بالمقام وأشار نصر بن سيار باتباعهم يخلص الأتقال ويقطع شقة لا بد من قطعها، فوافقه أسد وطير الندير إلى إبراهيم بن عاصم. وصبح خاقان للأتقال وقد خندقوا عليهم. فأمر أهل الصغد بقتلهم فهزمتهم مسلحة المسلمين فصعد على تل حتى رأى المسلمين من خلفهم.

وأمر الترك أن يأتوهم من هنالك ففعلوا وخالطوهم في معسكرهم وقتلوا صاغان خذاه وأصحابه وأحسوا بالهلاك. وإذا بالغبار قد رهج والترك ينتحون قليلاً قليلاً. وجاء أسد ووقف على التل الذي كان عليه خاقان. وخرج إليه بقية الناس وجاءته امرأة صاغان خذاه معولة فأقول معها، ومضى خاقان يقود أسرى المسلمين في الآفاق ويسوق الإبل الموقورة والجواري. وأراد أهل العسكر قتلهم فمنعهم أسد. ونادى رجل من عسكر خاقان وهو من أصحاب الحارث بن شريح يعير أسداً ويحرضه ويقول: قد كان لك عن الختل مندوحة وهي أرض آبائي وأجدادي، قد كان

يد خاقان، فحلف خاقان ليكسرون يده فتحتى وجمع.

ثم بيت خاقان فقتله وافترق الترك وحملوه وتركوه بالعراء فحمله بعض عظمائهم ودفنه. وكان أسد بعث بالفتح من بلخ إلى خالد بن عبد الله فأخبره وبعث به إلى هشام فلم يصدق، ثم بعده القاسم بن نجيب بقتل خاقان، فبعث قيس أسداً وخالداً، وقالوا لهشام: استقدم مقاتل بن حيان. فكتب بذلك إلى خالد، فأرسل إلى أسد أن يبعث به فقدم على هشام والأبرش وزيره جالس عنده، فقص عليه الخبر فسر بذلك وقال لمقاتل: ما حاجتك؟ قال يزيد بن المهلب أخذ من حيان أبي مائة ألف درهم بغير حق، فأمر بردها علي. فاستخلفه وكتب له بردها، وقسمها مقاتل بين ورثة حيان.

ثم غزا أسد الختل بعد مقتل خاقان، وقدم مصعب بن عمر الخزازي إليها فسار إلى حصن بدر طرخان فاستأمن له أن يلقي أسداً فأمنه وبعث إلى أسد فسأل أن يقل منه ألف درهم، وراوده على ذلك فأبى أسد ورده إلى مصعب ليرده إلى حصنه، فقال له مسلمة بن أبي عبد الله: - وهو من الموالي - إن أمير المؤمنين سيندم على حبسه. ثم أقبل أسد بالناس ووعد له المجشر بن مزاحم بدر طرخان أو قبول ما عرض، فندم أسد وأرسل إلى مصعب يسأل عنه فوجده مقيماً عند مسلمة، فجسيء به وقطعت يده. ثم أمر رجلاً من الأسود كان بدر طرخان قتل أباه فضرب عنقه وغلب على القلعة. وبعث العساكر في بلاد الختل فامتلات أيديهم من الغنائم والسبي وامتنع ولد بدر طرخان وأمواله في قلعة فوق بلدتهم صغيرة فلم يوصل إليهم.

وفاة أسد

وفي ربيع الأول سنة عشرين توفي ابن عبد الله القسري بمدينة بلخ واستخلف جعفر بن حنظلة النهرواني فعمل أربعة أشهر ثم جاء عهد نصر بن سيار بالعمل في رجب.

ولاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق وعزل خالد

وفي هذه السنة عزل هشام خالدًا عن أعماله جميعها بسعاية أبي المثني وحسان النبطي وكانا يتوليان ضياع هشام بالعراق، فقتلا على خالد وأمر الأشدق بالنهوض على الضياع. وأنهى ذلك حسان بعد أبي المثني، وأن غلته في السنة ثلاثة عشر ألف ألف

فوقرت في نفس هشام. وأشار عليه بلال بن أبي بردة والريان بن الهيثم أن يعرض أملاكه على هشام ويضمنون له الرضا فلم يجيبهم. ثم شكوا من خالد بعض آل عمر والأشدق بأنه أغلظ له في القول بمجلسه، فكتب إليه هشام يوجه ويأمره بأن يمشي ساعياً على قدميه إلى بابه ويتراض.

ونميت عنه من هذا أقوال كثيرة وأنه يستقل ولاية العراق، فكتب إليه هشام: يا ابن أم خالد! بلغني أنك تقول ما ولاية العراق لي بشرف، يا ابن اللخنة! كيف لا تكون إمرة العراق لسك شرفاً وأنت من بجيلة القليلة الذليلة؟ وأما والله إني لأظن أن أول من يأتيك صقر من قرش يشد يديك إلى عنقك. ثم كتب إلى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن يأمره أن يقدم في ثلاثين من أصحابه إلى العراق فقد ولاه ذلك. فسار إلى الكوفة ونزل قريباً منها وقد ختن طارق خليفة خالد بالكوفة ولده وأهدى إليه وصيفاً ووصيفة سوى الأموال والثياب.

ومر يوسف وأصحابه ببعض أهل العراق فسألهم فعرضوا وظنهم خوارج، وركب يوسف إلى دور تقيف فكنموا، ثم جمع يوسف بالمسجد من كان هنالك من مضر ودخل مع الفجر فصلى، وأرسل إلى خالد وطارق فأخذهما. وقيل إن خالدًا كان بواسط وكتب إليه بالخبر بعض أصحابه من دمشق، فركب إلى خالد وأخبره بالخبر وقال: إركب إلى أمير المؤمنين واعتذر إليه قال: لا أفعل بغير إذن قال: فترسلني أستاذنه؟ قال: لا قال: فاضمن له جميع ما انكسر في هذه السنين وآتيك بعهد وهي مائة ألف ألف. قال: والله ما أجد عشرة آلاف ألف. قال: اتحملها أنا وفلان وفلان. قال: لا أعطي شيئاً وأعود فيه. فقال طارق: إنما نتيك ونقي أنفسنا بأموالنا ونستقي الدنيا وتبقى الدنيا عليك وعلينا خير من أن يجيء من يطالبنا بالأموال وهي عند الكوفة فنقتل ويأكلوا الأموال. فأبى خالد من ذلك كله فودعه طارق ومضى ويكى ورجع إلى الكوفة.

وخرج خالد إلى الحمة وجاء كتاب هشام بخطه إلى يوسف بولاية العراق وأن يأخذ ابن النصرانية يعني خالداً وعماله فيعذبهم، فأخذ الأولاد وسار من يومه واستخلف على اليمن ابنه الصلت. وقدم في جمادى الأخيرة سنة عشرين ومائة فنزل النجف وأرسل مولى كيسان فجاء بطارق ولقيه بالحيرة فضربه ضرباً مبرحاً ودخل الكوفة. وبعث عثمان عطاء بن مقدم إلى خالد بالحمة فقدم عليه وحجسه وصالحه عنه أبان بن الوليد وأصحابه على سبعة آلاف ألف. وقيل أخذ منه مائة ألف وكانت ولاية العراق خمس عشرة سنة. ولما ولي يوسف نزلت الذلة بالعراق في العرب وصار

الحكم فيه إلى أهل الذمة.

ولاية نصر بن سيار خراسان وغزوه وصلاح الصفد

سار إلى أرض فرغانة وبعث أمه في إتمام الصلح، فجاءت لذلك وأكرمها نصر وعقد لها ورجعت. وكان الصفد لما قتل خاقان طمعوا في الرجعة إلى بلادهم، فلما ولي نصر بعث إليهم في ذلك وأعطوه ما سألوه من الشروط، وكان أهل خراسان قد نكروا شروطهم، وكان منها أن لا يعاقب من ارتد عن الإسلام إليهم ولا يؤخذ منهم أسرى إلا ببينة وحكم وعاب الناس ذلك على نصر لما أمضاه لهم. فقال: لو عايتم شكرتهم في المسلمين مثل ما عايتم ما أنكرتم. وأرسل إلى هشام في ذلك فأمضاه وذلك سنة ثلاث وعشرين.

ظهور زيد بن علي ومقتله

ظهر زيد بن علي بالكوفة خارجاً على هشام داعياً للكتاب والسنة وإلى جهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفتيء ورد المظالم وأفعال الخير ونصر أهل البيت. واختلف في سبب خروجه فقيل: إن يوسف بن عمر لما كتب في خالد القسري كتب إلى هشام أنه شيعه لأهل البيت، وأنه ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ورد عليه الأمن، وأنه أودع زيداً وأصحابه الوافدين عليه مالا، فكان زيد قد قدم على خالد بالعراق هو ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداد بن علي بن عبد الله بن عباس فاجازهم ورجعوا إلى المدينة. فبعث هشام عنهم وسأهم فاقروا بالجائزة وحلفوا على ما سوى ذلك وأن خالداً لم يودعهم شيئاً. فصدقهم هشام وبعثهم إلى يوسف فقاتلوا خالداً وصدقهم الآخر، وعادوا إلى المدينة ونزلوا القادسية.

وراسل أهل الكوفة زيداً فعاد إليهم، وقيل في سبب ذلك: إن زيداً اختصم مع ابن عمه جعفر بن الحسن المثنى في وقف علي، وكانا يحضران عند عامل خالد بن عبد الملك بن الحارث، فوقعت بينهما في مجلسه مشاعة وأكرر زيد من خالد إطلاته للخصومة وأن يستمع لمثل هذا فاعلظ له زيد وسار إلى هشام فحجبه، ثم أذن له بعد حين. فحاوره طويلاً ثم عرض له بأنه ينكر الخلاف وتنقصه. ثم قال له: أخرج قال: نعم ثم لا أكون إلا بحيث تكره فسار إلى الكوفة. وقال له محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب: ناشدتك الله الحق بأهلك ولا تأت الكوفة وذكره بفعلهم مع جده وجده يستعظم ما وقع به..

وأقبل الكوفة فأقام بها مستخفياً يتنقل في المنازل. واختلف إليه الشيعة وبإيعه جماعة: منهم مسلمة بن كهيل ونصر بن خزيمه

ولما مات أسد بن عبد الله ولي هشام على خراسان نصر بن سيار وبعث إليه على عهده عبد الكريم بن سليل الحنفي، وقد كان جعفر بن حنظلة لما استخلفه أسد عند موته عرض على نصر أن يوليه بخارى. فقال له: البخاري بن مجاهد مولى بني شيبان لا تقبل! فإنك شيخ مضر بخراسان، وكان عهدك قد جاء على خراسان كلها فكان كذلك. ولما ولي نصر استعمل على بلخ مسلم بن عبد الرحمن وعلى مرو الروذ وشاح بن بكير بن وشاح، وعلى هراة الحارث بن عبد الله بن الحشرج، وعلى نيسابور زيد بن عبد الرحمن القسري، وعلى خوارزم أبا حفص علي بن حقنة، وعلى الصفد قطن بن قتيبة. وبقي أربع سنين لا يستعمل في خراسان إلا مضرباً فعمرت عمارة لم تعمر مثلها، وأحسن الولاية والجبابة.

وكان وصول العهد إليه بالولاية في رجب سنة عشرين فغزا غزوات أولها إلى ما وراء النهر من نحو باب الحديد. وسار إليها من بلخ ورجع إلى مرو فوضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة وجعلها على من كان يخفف عنه منهم. وانتهى عددهم ثلاثين ألفاً من الصنفين وضعت عن هؤلاء وجعلت على هؤلاء ثم غزا الثانية إلى سمرقند، ثم الثالثة إلى الشاش سار إليها من مرو ومعه ملك بخارى وأهل سمرقند وكش ونسف في عشرين ألفاً.

وجاء إلى نهر الشاش فحال بينه وبين عبوره كورصول، عسكر نصر في ليلة ظلماء، ونسأدى نصر لا يخرج أحد. وخرج عاصم بن عمير في جند سمرقند، فجاولته خيل الترك ليلاً وفيهم كورصول فأسره عاصم وجاء به إلى نصر فقتله وصلبه على شاطئ النهر فحزنت الترك لقتله وأحرقوا أبنته وقطعوا آذانهم وشعورهم وأذنان خيولهم. وأمر نصر بإحراق عظامه لئلا يحملوها بعد رجوعه. ثم سار إلى فرغانة فسبى منها ألف رأس، وكتب إليه يوسف بن عمران ليسير إلى الحارث بن شريح في الشاش ويخرب بلادهم ويسبيهم. فسار لذلك وجعل على مقدمته يحيى بن حصين وجاء بهم إلى الحارث وقتلهم وقتل عظيمًا من عظماء الترك وانهزموا.

وجاء ملك الشاش في الصلح والمهنة والرهن. واشترط نصر عليه إخراج الحارث بن شريح من بلده فأخرجه إلى فاراب. واستعمل على الشاش بنزل بن صالح مولى عمرو بن العاص. ثم

في المسجد فجمعوا وطلبوا زيداً في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة فخرج منها ليلاً واجتمع إليه ناس من الشيعة وأشعلوا التيران ونادوا يا منصور حتى طلع الفجر، وأصبح جعفر بن أبي العباس الكندي فلقى اثنين من أصحاب زيد يناديان بشعاره فقتل واحداً وأتى بالآخر إلى الحكم فقتله، وأغلق أبواب المسجد على الناس. وبعث إلى يوسف بالخبر فسار من الحيرة وقدم الريان بن سلمة الأراشي في ألفين خيالة وثلاثمائة ماشية. واقتعد زيد الناس فقتل منهم في الجامع محصورون، ولم يجد معه إلا مائتين وعشرين. وخرج صاحب الشرطة في خيله فلقى نصر بن خزيمه العباسي من أصحاب زيد ذاهباً إليه فحمل عليه نصر وأصحابه فقتلوه وحمل زيد على أهل الشام فهزمهم. وانتهى إلى دار أنس بن عمر الأسدي ممن بايعه وناداه فلم يخرج إليه.

ثم سار زيد إلى الكتامة فحمل على أهل الشام فهزمهم ثم دخل الكوفة، والرايات في أتباعه. فلما رأى زيد خذلان الناس قال لنصر بن خزيمه: أفعلتموها حسينية؟ قال: أما أنا فوالله لأموتن معك وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم. فجاء إلى المسجد ينادي بالناس بالخروج إليه. فرماه أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد فانصرفوا عند المساء. وأرسل يوسف بن عمر من الغد العباس بن سعد المزني في أهل الشام فجاءه في دار الزرق وقد كان أوى إليها عند المساء. فلقى زيد بن ثابت فاقتلوا فقتل نصر. ثم حملوا على أصحاب العباس فهزمهم زيد وأصحابه وعبأهم يوسف بن عمر من العشي ثم سرحهم فكشفهم أصحاب زيد ولم تثبت خيلهم لحيله.

وبعث إليهم يوسف بن عمر بالقادسية واشتد القتال وقتل معاوية بن زيد. ثم رمى زيد عند المساء بسهم أثبته فرجع أصحابه وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا ولما نزع النصل من جبهته مات فدفنوه وأجروا عليه الماء. وأصبح الحكم يوم الجمعة يتبع الجرحى من الدور ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرجه وقطع رأسه وبعث بها إلى يوسف بالحيرة، فبعثه إلى هشام فنصبه على باب دمشق. وأمر يوسف الحكم أن يصلب زيداً بالكتامة ونصر بن خزيمه ومعاوية بن إسحاق ويحرقهم. فلما ولي الوليد أمر بإحراقهم واستجار يحيى بن زيد بعيد الملك بن شبر بن مروان فأجاره حتى سكن المطلب ثم سار إلى خراسان في نفر من الزيدية.

ظهور أبي مسلم بالدعوة العباسية

كان أهل الدعوة العباسية بخراسان يكتُمون أمرهم منذ بعث

العباسي ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري وناس من وجوه أهل الكوفة يذكر لهم دعوته. ثم يقول: أتبايعون على ذلك؟ فيقولون: نعم فيضع يده على أيديهم ويقول عهد الله عليك وميثاقه وذمة نبيه ييقن تبعي ولا تقتلني مع عدوي ولتتصحن لي في السر والعلانية. فإذا قال نعم وضع يده على يده ثم قال: اللهم اشهدا فيايحه خمسة عشر ألفاً وقيل أربعون. وأمرهم بالاستعداد وشاع أمره في الناس وقيل: إنه أقام في الكوفة ظاهراً ومعه داود بن علي بن عبد الله بن عباس لما جاؤوا لمقاتلة خالد فاختلف إليه الشيعة، وكانت البيعة. وبلغ الخبر إلى يوسف بن عمر فأخرجه من الكوفة ولحق الشيعة بالقادسية أو الغلبة وعذله داود بن علي في الرجوع معه وذكره حال جده الحسين. فقالت الشيعة لزيد: هذا إنما يريد الأمر لنفسه ولأهل بيته فرجع معهم ومضى داود إلى المدينة.

ولما أتى الكوفة جاءه مسلمة بن كهيل فصدّه عن ذلك وقال أهل الكوفة لا يعولون لك. وقد كان مع جدك منهم أضعاف مما معك ولم تعادله، وكان أعز عليهم منك على هؤلاء. فقال له: قد بايعوني ووجبت البيعة في عتي وعظهم. قال: فتأذن لي أن أخرج من هذا البلد؟ فلا آمن أن يحدث حدث وأنا لا أهلك نفسي، فخرج للقيامه. وكتب عبد الله بن الحسن المثنى إلى زيد يعذله ويصده فلم يصغ إليه. وتزوج نساء بالكوفة وكان يختلف إليهن والناس يبايعونه، ثم أمر أصحابه يتجهزون.

ونمي الخبر إلى يوسف بن عمر فطلبه وخاف فتعجل الخروج وكان يوسف بالحيرة وعلى الكوفة الحكم بن الصلت وعلى شرطته عمر بن عبد الرحمن من القاهرة ومعه عبيد الله بن عباس الكندي في ناس من أهل الشام. ولما علم الشيعة أن يوسف يبحث عن زيد جاء إليه جماعة منهم فقالوا: ما تقول في الشيخين؟ فقال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، وما سمعت أهل بيتي يذكرهما إلا بخير. وغاية ما أقول إنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك الكفر، وقد عدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة. قال: فإذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعوا إلى قتلهم؟ فقال: إن هؤلاء ظلموا المسلمين أجمعين فإنا ندعوهم إلى الكتاب والسنة وأن نحبي السنن، ونطفيئ البدع، فإن أجبتم سعدتم وإن أبيتهم فليكن عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: سبق الإمام الحق يعنون محمداً الباقر، وأن جعفرأ ابنه إمامنا بعده، فسماهم زيد الرافضة ويقال إنما سماهم الرافضة حيث فارقوه.

ثم بعث يوسف بن عمر إلى الحكم بأن يجمع أهل الكوفة

لمضر ونهاه عن غالب النيسابوري شيعة بني فاطمة. فشئى زياد بمرور ثم سعى به إلى أسد فاعتذر بالتجارة، ثم عاد إلى أمره، فأحضره أسد وقتله في عشرة من أهل الكوفة. ثم جاء بعدهم إلى خراسان رجل من أهل الكوفة اسمه كثير ونزل على أبي الشحم وأقام يدعو ستين أو ثلاثة، ثم أخذ أسد بن عبد الله في ولايته الثانية سنة سبع عشرة. أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريط بثلاثمائة سوط وشهد حسن بن زيد الأسدي ببراءتهم فأطلقهم.

ثم بعث بكير بن همام سنة ثمانى عشر عمار بن زيد على شيعتهم بخراسان فتزل مرو وتسمى بخراش وأطاعه الناس. ثم نزل دعوتهم بدعوة الخرمية فأباح النساء وقال: إن الصوم إنما هو عن ذكر الإمام وأشار إلى إخفاء اسمه. والصلاة الدعاء له، والحج القصد إليه. وكان خراش هذا نصرانياً بالكوفة واتبعه على مقاتله مالك بن الهيثم والحريش بن سليم. وظهر أسد على خبره وبلغ الخبر بذلك إلى محمد بن علي فنكر عليهم قبولهم من خراش وقطع مراسلتهم. فقدم عليه ابن كثير منهم يستعلم خبره ويستعطفه على ما وقع منهم، وكتب معه إليهم كتاباً مختوماً لم يجدوا فيه غير البسلة، فعملوا مخالفة خراش لأمره وعظم عليهم. ثم بعث محمد بن بكير بن أبان وكتب معه بكذب خراش فلم يصدقوه فجاء إلى محمد وبعث معه عصياً مضبباً بعضها بالحديد وبعضها بالنحاس. ودفع إلى كل رجل عصاً فعملوا أنهم قد خالفوا السيرة فتأبوا ورجعوا.

وتوفي محمد بن علي سنة أربع وعشرين وعهد إلى ابنه إبراهيم بالأمر وأوصى الدعاة بذلك، وكانوا يسمونه الإمام. وجاء بكير بن همام إلى خراسان بنعيه والدعاء لإبراهيم الإمام سنة ست وعشرين ومائة، ونزل مرو ودفع إلى الشيعة والنقباء كتابه بالوصية والسيرة فقبلوه، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقاتهم فقدم بها بكير على إبراهيم.

ثم بعث إليهم أبا مسلم سنة أربع وعشرين وقد اختلف في أوليته اختلافاً كثيراً. وفي سبب اتصاله بإبراهيم الإمام أو أبيه محمد فقيل كان من ولد بزر جهر، ولد بأصبهان وأوصى به أبوه إلى عيسى بن موسى السراج، فحمله إلى الكوفة ابن سبع سنين. ونشأ بها واتصل بإبراهيم الإمام. وكان اسم أبي مسلم إبراهيم بن عثمان بن بشار. فسماه إبراهيم الإمام عبد الرحمن وزوجة أبيه أبي النجم عمران بن إسماعيل من الشيعة. فبنى بها بخراسان وزوج ابنته من محرز بن إبراهيم فلم يعقب. وابنته أسماء من فهم بن محرز فأعقب فاطمة وهي التي يذكرها الخرمية.

محمد بن علي بن عبد الله بن عباس دعاه إلى الأفاق سنة مائة من الهجرة أيام عمر بن عبد العزيز، لما مر أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ذاهباً وجائياً من الشام من عند سليمان بن عبد الملك فمضى عنده بالحميمة من أعمال اللقاء وهلك هنالك وأوصى له بالأمر. وكان أبو هاشم قد علم شيعته بالعراق وخراسان وأن الأمر صائر في ولد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. فلما مات أبو هاشم قصدت الشيعة محمداً وبأيعوه سراً وبعث دعائه منهم إلى الأفاق. وكان الذي بعث إلى العراق مسيرة ابن والي خراسان محمد بن حبيش، وأما عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار خال إبراهيم بن سلمة فجاؤوا إلى خراسان ودعوا إليه سراً وأجابهم الناس وجاؤوا بكتب من أجاب إلى مسيرة اهـ.

فبعث بها إلى محمد واختار أبو محمد الصادق إثني عشر رجلاً من أهل الدعوة فجعلهم نقباء عليهم وهم: سليمان بن كثير الخزاعي ولاهز بن قريط التميمي، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى أبي معيط ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطلحة بن زريق الخزاعي، وأبو حمزة بن عمر بن أعين مولى خزاعة وأخوه عيسى، وأبو علي شبله بن طهمان الهروي مولى بني حنيفة. واختار بعده سبعين رجلاً وكتب إليه محمد بن علي كتاباً يكون لهم مثالا يقتدون به في الدعوة، وأقاموا على ذلك. ثم بعث مسيرة رسله من العراق سنة اثنتين ومائة في ولاية سعيد خدينة، وخلافة يزيد بن عبد الملك. وسعى بهم إلى سعيد فقالوا نحن نجار فضمنهم قوم من ربيعة واليمن فأطلقهم.

وولد محمد ابنه عبد الله السفاح سنة أربع ومائة، وجاء إليه أبو محمد الصادق في جماعة من دعاة خراسان فأخرجهم لهم ابن خمسة عشر يوماً وقال: هذا صاحبكم الذي يتم الأمر على يده، فقبلوا أطرافه وانصرفوا. ثم دخل معهم في الدعوة بكير بن همام جاء من السند مع الجنيد بن عبد الرحمن. فلما عزل قدم الكوفة ولقي أبا عكرمة وأبا محمد الصادق ومحمد بن حبيش وعمار العبادي خال الوليد الأزرق دعاه إلى خراسان في ولاية أسد القسري أيام هشام ووشى بهم إليه فقطع أيدي من ظفر به منهم وصلبه.

وأقبل عمار إلى بكير بن همام فأخبره فكتب إلى محمد بن علي بذلك فأجابه: الحمد لله الذي صدق دعوتكم ومقاتلكم وقد بقيت منكم قتلى ستعد. ثم كان أول من قدم محمد بن علي إلى خراسان أبو محمد زياد مولى همدان بعثه محمد بن علي سنة تسعة في ولاية أسد أيام هشام وقال له: انزل في اليمن وتلطّف

ثم جاء سليمان بن كثير ولاهز بن قريط وقحطبة إلى مكة سنة سبع وعشرين بعشرين ألف دينار للإمام إبراهيم ومائتي ألف درهم ومسك ومتاع كثير ومعهم أبو مسلم وقالوا: هذا مولاك. وكتب بكير بن همام إلى الإمام بأنه أوصى بأمر الشيعة بعده لأبي سلمة حفص بن سليمان الخلال وهو رضى. فكتب إليه إبراهيم بالقيام بأمر أصحابه وكتب إلى أهل خراسان بذلك فقبلوه وصدقوه وبغثوا بخمس أموالهم ونفقة الشيعة للإمام إبراهيم.

ثم بعث إبراهيم في سنة ثمانين مولاه أبا مسلم إلى خراسان وكتب له: إني قد أمرته بأمرى فاسمعوا له وأطيعوا. وقد أمرته على خراسان وما غلبت عليه فارتابوا من قوله ووفدوا على إبراهيم الإمام من قابل مكة وذكر له أبو مسلم أنهم لم يقبلوه. فقال لهم: قد عرضت عليكم الأمر فأبستم من قبوله، وكان عرضه على سليمان بن كثير ثم على إبراهيم بن مسلمة فأبوا. وإنسي قد أجمع رأيي على مسلم وهو من أهل البيت فاسمعوا له وأطيعوا. وقال لأبي مسلم: إنزل في أهل اليمن وأكرمهم. فلما بهم يتم الأمر وآتهم البيعة. وأما مضر فهم العدو الغريب، واقتل من شككت فيه وإن قدرت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعريبة فافعل وارجع إلى سليمان بن كثير واكف به مني وسرحه معهم فساروا إلى خراسان.

وفاة هشام بن عبد الملك وبيعة الوليد بن

يزيد

توفي هشام بن عبد الملك بالرصافة في ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة لعشرين سنة من خلافته وولى بعده الوليد ابن أخيه يزيد بعهد يزيد بذلك كما مر، وكان الوليد متلاعبا وله مجون وشراب وندمان، وأراد هشام خلعه فلم يمكنه. وكان يضرب من يأخذه في صحبتته، فخرج الوليد في ناس من خاصته ومواليه وخلف كاتبه عياض بن مسلم ليكاتبه بالأحوال فضربه هشام وحبه. ولم يزل الوليد مقيماً بالبرية حتى مات هشام، وجاءه مولى أبي محمد السفيتاني على البريد بكتاب سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل بالخبر فقال عن كاتبه عياض فقال: لم يزل عيوساً حتى مات هشام، فأرسل إلى الحراق أن يحتفظوا بما في أيديهم حتى منعوا هشاماً من شيء طلبه. ثم خرج بعد موته من الحبس وختم أبواب الخزائن. ثم كتب الوليد من وقته إلى عمه العباس بن عبد الملك أن يأتي الرصافة فيحصي ما فيها من أموال هشام وولده وعماله وخدمه إلا مسلمة بن هشام فإنه كان يراجع

وقبل في إتصاله بإبراهيم الإمام: إن أبا مسلم كان موسى السراج وتعلم منه صناعة السروج وكان يتجهز فيها بأصهبان والجبال والجزيرة والموصل. واتصل بعاصم بن يونس العجلي صاحب عيسى السراج وابن أخيه عيسى وإدريس ابني معقل، وإدريس هو جد أبي دلف. ونمي إلى يوسف بن عمران العجلي من دعاة بني العباس فحبسهم مع عمال خالد القسري. وكان أبو مسلم معهم في السجن بمخدمتهم وقبل منهم الدعوة. وقيل لم يتصل بهم من عيسى السراج وإنما كان من ضياع بني العجلي بأصهبان أو الجبل. وتوجه سليمان بن كثير ومالك بن المهشم ولاهز بن قريط وقحطبة بن شبيب من خراسان يريدون إبراهيم الإمام بمكة، فمروا بعاصم بن يونس وعيسى وإدريس ابني معقل العجلي بمكانهم من الحبس فرأوا معهم أبا مسلم فأعجبهم وأخذوه. ولقوا إبراهيم الإمام بمكة فأعجبه فأخذه وكان يخدمه. ثم قدم النقباء بعد ذلك على إبراهيم الإمام يطلبون أن يوجه من قبله إلى خراسان فبعث معه أبا مسلم. فلما تمكن ونوى أمره ادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس.

وكان من أولية هذا الخبر أن جارية لعبد الله بن العباس ولدت لغير رشده فحدها واستعبد وليدها وسماه سليطاً فتشأ واختص بالوليد. وادعى أن عبد الله بن عباس أقر بأنه ابنه وأقام البيعة على ذلك. وخاصم علي بن عبد الله في الميراث وأذاه. وكان في صحابته عمر الدن من ولد أبي رافع مولى رسول الله ﷺ ودخل عليها سليط بالخبر، فاستعدت الوليد على علي فأكر وحلف، فنبشوا في البستان فوجدوه. فأمر الوليد بعلي فضرب ليدله على عمر السدن. ثم شفع فيه عباد بن زياد فأخرج إلى الحميمة. ولما ولي سليمان رده إلى دمشق. وقيل إن أبا مسلم كان عبداً للعجليين، وابن بكير بن همام كان كاتباً لعمال بعض السند. وقدم الكوفة فكان دعاة بني العباس فحبسوا وبكرو معهم.

وكان العجليون في الحبس، وأبو مسلم العيسي بن معقل. فدعاهم بكير إلى رأييه فأجابوه، واستحسن الغلام فاشتره من عيسى بن معقل بأربعمائة درهم وبعث به إلى إبراهيم الإمام، فدفعه إبراهيم إلى موسى السراج من الشيعة. فسمع منه وحفظ وصار يتردد إلى خراسان. وقيل كان لبعض أهل هراة وإبتاعه منه إبراهيم الإمام، ومكث عنده سنين وكان يتردد بكتبه إلى خراسان. ثم بعثه أميراً على الشيعة وكتب إليهم بالطاعة له، وإلى أبي سلمة الخلال داعيهم بالكوفة بإمره بإنفاذه إلى خراسان فتزل على سليمان بن كثير وكان من أمره ما يذكر بعد هذا إن شاء الله تعالى.

برأسه إلى الوليد وصلب بالجوزان. وكتب الوليد إلى يوسف بن عمر بأن يحرق شلو زيد، فأحرقه وذراه في الفرات. ولم يزل يحيى مصلوباً بالجوزان حتى استولى أبو مسلم على خراسان فدفنه ونظر في الديوان أسماء من حضر لقتله فمن كان حياً قتله ومن كان ميتاً خلفه في أهله بسوء.

أباه بالرفق بالوليد، فانتهى العباس لما أمر به الوليد. ثم استعمل الوليد العمال وكتب إلى الأنفاق بأخذ البيعة. فجاءته بيعتهم. وكتب مروان بيعته واستأذن في القُدوم. ثم عقد الوليد من سته لابنته: الحكم وعثمان بعده وجعلهما وليي عهده وكتب بذلك إلى العراق وخراسان.

مقتل خالد بن عبد الله القسري

قد تقدم لنا ولاية يوسف بن عمر على العراق وأنه حبس خالداً أصحاب العراق وخراسان قبله فأقام حبسه في الحيرة ثمانية عشر شهراً مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد والمنذر ابن أخيه أسد. واستأذن هشاماً في عذابه فأذن له على أنه إن هلك قتل يوسف به فعنبه. ثم أمر هشام بإطلاقه سنة إحدى وعشرين، فأتى إلى قرية بلزاة الرصافة فأقام بها، حتى خرج زيد وقتل وانقضى أمره، فسعى يوسف بخالد عند هشام بأنه الذي داخل زيدا في الخروج، فرد هشام سماعته وورخ رسوله وقال: لست نتهم خالداً في طاعة. وسار خالد إلى الصائفة وأنزل أهله دمشق وعليها كلثوم بن عياض القسري، وكان يبغي خالداً.

فظهر في دمشق حريق في ليال، فكتب كلثوم إلى هشام بأن موالي خالد يريدون الوثوب إلى بيت المال ويتطرقون إلى ذلك بالحريق كل ليلة في البلد. فكتب إليه هشام بحبس الكبير منهم والصغير والموالي فحبسهم. ثم على صاحب الحريق وأصحابه. وكتب بهم الوليد بن عبد الرحمن عامل الخراج ولم يذكر فيهم أحداً من آل خالد ومواليه فكتب هشام إلى كلثوم ويؤخه ويأمره بإطلاق آل خالد وترك الموالي. فشفع فيهم خالد عند مقدمه من الصائفة، فلما قدم دخل منزله وأذن للناس فاجتمعوا ببابه فوجههم وقال: إن هشاماً يسوقهن إلى الحبس كل يوم. ثم قال: خرجت غازياً سامعاً مطيعاً فحبس أهلي مع أهل الجرائم كما يفعل بالمشركين. ولم يغير ذلك أحد منكم، أخفتم القتل؟ أخافكم الله. والله ليكنن عني هشام أن لأعودن إلى عراقي الهوى شامي الدار حجازي الأصل يعني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وبلغ ذلك هشاماً فقال: خرف أبو الهيثم. ثم تسابعت كتب يوسف بن عمر إلى الشام يطلب يزيد بن خالد فأرسل إلى كلثوم بإفناذه إليه فهرب يزيد فطلبه كلثوم من خالد وحبسه فيه فكتب إليه هشام بتخليته ووجهه اهـ.

ولما ولي الوليد بن يزيد استقدم خالداً وقال أين ابنك؟ قال: هرب من هشام وكنا نراه عندك حتى استخلفك الله فلم نره

ولاية نصر للوليد على خراسان

وكتب الوليد في سته إلى نصر بن سيار بولاية خراسان وأفرده بها، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فاشترى منه نصراً وعماله فرد إليه الوليد خراسان. وكتب يوسف إلى نصر بالقُدوم ويحمل معه الهدايا والأموال وعياله جميعاً وكتب له الوليد بأن يتخذ له برابط وطناير وأباريق ذهب وفضة ويجمع له البراذين الغرة ويجمع بذلك إليه في وجوه أهل خراسان، واستحثه رسول يوسف فاجازه. ثم سار واستخلف على خراسان عصمة بن عبد الله الأسدي وعلى شاش موسى بن ورقاء وعلى سمرقند حسان ابن من أهل الصغانيان وعلى آمد مقاتل بن علي الصغدني. وأسر إليهم أن يداخلوا الترك في المسير إلى خراسان ليرجع إليهم. وبينما هو في طريقه إلى العراق بيهق لقيه مولى لبني ليث، وأخبره بقتل الوليد والفتنة بالشام. وأن منصور بن جمهور قدم العراق وهرب يوسف بن عمر فرجع بالناس.

مقتل يحيى بن زياد

كان يحيى بن زياد سار بعد قتل أبيه وسكون الطلب عنه كما مر فأقام عنه الخريش بن عمرو ومروان في بلخ. ولما ولي الوليد كتب إلى نصر بأن يأخذه من عند الخريش فأحضر الخريش وطالبه بيهي، فأنكر، فضربه ستمائة سوط، فجاء ابنه قريش ودله على يحيى فحبسه. وكتب إلى الوليد فأمره أن يخلي سبيله وسبيل أصحابه. فإطلقه نصر وأمره أن يلحق بالوليد فسار وأقام بسرخص فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس بن عباد يخرجها عنها فأخرجه إلى بيهق وخاف يحيى بن يوسف بن عمر فسار إلى نيسابور وبها عمر بن زرارة، وكان مع يحيى سبعون رجلاً، ولقوا دواب وأدركهم الإعياء فأخذوها بالثمن. وكتب عمر بن زرارة بذلك إلى نصر فكتب إليه يأمره بجرهم، فحاربهم في عشرة آلاف فهزموه وقتلوه، ومروا بهرة فلم يعرضوا لها. وسرح نصر بن سيار مسلم بن أحرز المازني إليهم فلحقهم بالجوزان فقاتلهم قتالاً شديداً وأصيب يحيى بسهم في جبهته فمات. وقتل أصحابه جميعاً وبعثوا

مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى. وعلى أثر من سلف، يمضي من خلف، فتزودوا فلان خير الزاد التقوى. فأعرض هشام وسكت القوم.

وأما حكاية مقتله فإنه لما تعرض له بنو عمه ونالوا من عرضه أخذ في مكافأهم. فضرب سليمان ابن عمه هشام مائة سوط وحلقه وغربه إلى معان من أرض الشام، فحبسه إلى آخر دولته. وحبس أخاه يزيد بن هشام، وفرق بين ابن الوليد وبين امرأته، وحبس عدة من ولد الوليد، فرموا بالفسق والكفر واستباحة نساء أبيه. وخوفوا بني أمية منه بأنه اتخذ مينة جامعة لهم وطعنوا عليه في تولية ابنه الحكم وعثمان العهد مع صغرهما. وكان أشدهم عليه في ذلك يزيد بن الوليد لأنه كان يتنسك فكان الناس إلى قوله أميل.

ثم فسدت اليمامة عليه بما كان منه لخالد القسري. وقالوا: إنما حبسه ونكبه لامتاعه من بيعة ولديه. ثم فسدت عليه قضاة وكان اليمن وقضاة أكثر جند الشام. واستعظموا منه ما كان من بيعة خالد ليوسف بن عمر، وصنعوا على لسان الوليد قصيدة معيرة اليمنية بشأن خالد. فازداد واختفى. وأثروا إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه على البيعة. وشاور عمر بن زيد الحكمي فقال: شاور أخاك العباس وإلا فاطهر إنه قد بايعك، فإن الناس له أطوع. فشاور العباس فنهاء عن ذلك فلم يته، ودعا الناس سراً وكان بالبادية. وبلغ الخبر مروان بأرمينية فكتب إلى سعيد بن عبد الملك يعظم عليه الأمر ويحذره الفتنة ويذكر له أمر يزيد، فأعظم ذلك سعيد وبعث بالكتاب إلى العباس فتهدد أخاه يزيد فكتمه فصدقه.

ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق لأربع ليال متكرراً، معه سبعة نفر على الحمر. ودخل دمشق ليلاً وقد بايع له أكثر أهلها سراً وأهل المزة. وكان على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستريها فنزل قطنا، واستخلف عليها ابنه محمداً. وعلى شرطته أبو العجاج كثير بن عبد الله السلمي. ونفي الخبر إليهما فكذبا وتواعد يزيد مع أصحابه بعد المغرب بباب الفرائيس. ثم دخلوا المسجد فصلوا العتمة، ولما قضوا الصلاة جاء حرس المسجد لإخراجهم فوثروا عليهم، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فجاء به إلى المسجد في زهاء مائتين وخمسين، وطرقوا باب المقصورة فأدخلهم الخادم فأخذوا أبا العجاج وهو سكران وخزان بيت المال.

وبعث عن محمد بن عبد الملك فأخذه وأخذوا سلاحاً كثيراً كان بالمسجد، وأصبح الناس من الغد من النواحي القريبة

وطلبناه ببلاد قومه من الشراة فقال: ولكن خلفته طلباً للفتنة فقال: إنا أهل بيت طاعة. فقال: لتأتيني به أو لأرهقن نفسك. فقال: والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه. فأمر الوليد بضربه. ولما قدم يوسف بن عمر من العراق بالأموال اشتراه من الوليد بخمسين ألف ألف. فقال له الوليد: إن يوسف يشترك بكذا فاضمنها لي قبل أن أدفعك إليه. فقال: ما عهدت العرب تباع والله لو سألتني عوداً ما ضمته. فدفعه إلى يوسف فألبسه عباءة وحمله على غير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه. ثم حمله إلى الكوفة فاشتد في عذابه ثم قتله ودفنه في عباءة يقال: إنه قتله بشيء وضعه على وجهه. وقيل وضع على رجله الأعواد وقام عليها الرجال حتى تكسرت قدماء. وذلك في المحرم سنة ست وعشرين ومائة.

مقتل الوليد وبيعة يزيد

ولما ولي الوليد لم يقلع عما كان عليه من الهوى والمجون. حتى نسب إليه في ذلك كثير من الشنائع. مثل رمية المصحف بالسهم حين استفتح فوقع على قوله: وخاب كل جبار عنيد. ويشدون له في ذلك بيتين تركتهما لشناعة مغزاهما. ولقد ساءت القالة فيه كثيراً، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه وقالوا: إنها من شنائع الأعداء الصقوها به. قال المدائني: دخل ابن الغمر بن يزيد على الرشيد فسأله: عن أنت؟ فقال: من قريش. قال: من أيها؟ فوجم، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مروان. فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد. فقال: رحم الله الوليد ولعن يزيد الناقص، فإنه قتل خليفة جمعاً عليه، إرفع حوائجك فرفعها وقضاها.

وقال شبيب بن شبة: كنا جلوساً عند المهدي فذكر الوليد فقال المهدي: كان زنديقاً فقام ابن علانة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل أعدل من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقاً لقد أخبرني عنه من كان يشهده في ملاعبه وشربه ويراه في طهارته وصلاته فكان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التي عليه المصيبة المصبغة. ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظيفة فيلبسها ويشغل بره. أترى هذا فعل من لا يؤمن بالله؟ فقال المهدي: بارك الله عليك يا ابن علانة، وإنما كان الرجل محسوداً في خلاله ومزاحماً بكبار عشيرته بيته من بني عمومته مع هو كان يصاحبه، أوجد لهم به السبيل على نفسه.

وكان من خلاله قرض الشعر الوثيق ونظم الكلام البليغ. قال يوماً لهشام يعزبه في مسلمة أخيه: إن عقبى من بقي لحوق من

بيعه. ولما قتل خطب الناس يزيد قدمه وثلبه وإنه إنما قتله من أجل ذلك. ثم وعدهم بحسن الظفر والافتقار عن النفقة في غير حاجاتهم وسد الثغور والعدل في العطاء والأرزاق ورفع الحجاب إلا فلکم ما شتم من الخلع. وكان يسمى الناقص لأنه نقص الزيادة التي زادها الوليد في أعطيات الناس وهي عشرة عشرة. ورد العطاء كما كان أيام هشام ويابغ لأخيه إبراهيم بالعهد ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك حمله على ذلك أصحابه القدرية لمرض طرده....

ولما قتل الوليد وكان قد حبس سليمان ابن عمه هشام بعمان، خرج سليمان من الحبس وأخذ ما كان هناك من الأموال ونقله إلى دمشق. ثم بلغ خبر مقتله إلى حمص وإن العباس بن الوليد أعان على قتله فانتقضوا وهدموا دار العباس وسبوا وطلبوه فلحق بأخيه يزيد. وكاتبوا الأجناد في الطلب بدم يزيد وأمروا عليهم مروان بن عبد الله بن عبد الملك ومعاوية بن يزيد بن حصين بن ثمير ورأسلهم يزيد فطردوا رسوله فبعث أخاه مسروراً في الجيش فنزل حواريين. ثم جاء سليمان به هشام من فرد عليه ما أخذ الوليد من أموالهم، وبعث على الجيش وأمر أخاه مسروراً بالطاعة.

واعترم أهل حمص على المسير إلى دمشق فقال لهم مروان: ليس من الرأي أن تتركوا خلفكم هذا الجيش وإنما نقاتله قبل، فيكون ما بعده أهون علينا. فقال لهم السميطة بن ثابت: إنما يريد خلافتكم وإنما هواه مع يزيد والقدرية، قتلوه ولوا عليهم عمداً السفاني وقصدوا دمشق، فاعترضهم ابن هشام بغدرا فقاتلهم قتالا شديداً. وبعث يزيد عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك في ثلاثة آلاف إلى ثنية العقاب وهشام بن مضاد في ألف وخمسمائة إلى عقبة السلامة. وبينما سالم يقاتلهم إذ أقبلت عساكر من ثنية العقاب فانهمز أهل حمص، ونادى يزيد بن خالد بن عبد الله القسري: الله الله على قومك يا سليمان. فكف الناس عنهم ويابغوا ليزيد. وأخذ أبا محمد السفاني ويزيد بن خالد بن يزيد وبعثهما إلى يزيد فحبسهما أهما.

واستعمل على حمص معاوية بن يزيد بن الحصين وكان لما قتل الوليد وثب أهل فلسطين على عاملهم سعيد بن عبد الملك فطردوه وتولى منهم سعيد وضبعان ابنا روح. وكان ولد سليمان يتزلون فلسطين فأحضروا يزيد بن سليمان وولوه عليهم. وبلغ ذلك أهل الأردن فولوا عليهم محمد بن عبد الملك. وبعث يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفاني على ثمانين ألفاً، وبعث إلى ابني روح بالإحسان

متسائلين للبيعة أهل المزة والسكاسك وأهل دارا. وعيسى بن شيب الثعلبي في أهل درة وحريستا، وحيد بن حبيب اللخمي في أهل دمرعان، وأهل حرش والحديثة وديركا وربيعي بن هشام الحرشي في جماعة من عر وسلامان. ويعقوب بن عمير بن هاني العبسي جهينة ومواليهم. ثم بعث عبد الرحمن بن مصادي في مائتي فارس، فجاء بعبد الملك بن محمد بن الحجاج من قصره على الأمان. ثم جهز يزيد الجيش إلى الوليد بمكانه من البادية مع عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ومنصور بن جمهور. وقد كان الوليد لما بلغه الخبر بعث عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق فأقام بطريقه قليلا.

ثم يابغ ليزيد وأشار على الوليد أصحابه أن يلحق بمحمص فيتحصن بها. قال له ذلك يزيد بن خالد بن يزيد، وخالفه عبد الله بن عنبسة. وقال: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره وحرمة قبل أن يقاتل. فسار إلى قصر النعمان بن بشير، ومعه أربعون من ولد الضحاك وغيره. وجاء كتاب العباس بن الوليد بأنه قادم عليه، وقاتلهم عبد العزيز ومنصور بعد أن بعث إليهم زياد بن حصين الكلبي يدعوهم إلى الكتاب والسنة. فقتله أصحاب الوليد واشتد القتال بينهم وبعث عبد العزيز بن منصور بن جمهور لاعتراض العباس بن الوليد أن يأتي بالوليد. فجاء به كرهاً إلى عبد العزيز وأرسل الوليد إلى عبد العزيز بخمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقي على أن ينصرف عنه فأبى.

ثم قاتل قتالا شديداً حتى سمع النداء بقتله وسبه من جوانب الحومة، فدخل القصر فأغلق الباب وطلب الكلام من أعلى القصر، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي فذكره مجرمه وفعله فيهم. فقال ابن عنبسة: إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، وإنما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أهلك، واستخفافك بأمر الله. قال: حبسك الله يا أبا السكاسك! فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت. ثم رجع إلى الدار فجلس يقرأ في المصحف وقال: يوم كيوم عثمان: فتسوروا عليه وأخذ يزيد بن عنبسة يديه يقيه لا يريد قتله وإذا بمنصور بن جمهور في جماعة معه ضريوه واجتروا رأسه فساروا به إلى يزيد فأمر بنصبه.

فتلفظ له يزيد بن فروة مولى بني مرة في المنع من ذلك، وقال: هذا ابن عمك وخليفة وإنما تنصب رؤوس الخوارج ولا آمن أن يتعصب له أهل بيته. فلم يجبه، وأطافه بدمشق على رمح ثم دفع إلى أخيه سليمان بن يزيد وكان معهم عليه. وكان قتله آخر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين لستين وثلاثة أشهر من

الدول بن خولة. وسار إليه وهو في قصره بقاع هجر فالتقوا وانهزم علي وقتل ناس من أصحابه، وهرب إلى المدينة. وملك المهير اليمامة ثم مات واستخلف عليها عبد الله بن النعمان من بني قيس بن ثعلبة من الدول فبعث المندلب بن إدريس الحنفي على الفلخ قرية من قرى بني عامر بن صعصعة فجمع له بني كعب بن ربيعة بن عامر وبني عمير فقتلوا المندلب وأكثر أصحابه. فجمع عبد الله بن النعمان جوعاً من حنيفة وغيرها وغزا الفلج وهزم بني عقيل وبني بشير وبني جعدة وقتل أكثرهم.

ثم اجتمعوا ومعهم تحير فلقوا بعض حنيفة بالصحراء وسلبوا نساءهم، ثم جمع عمر بن الزاذع الحنفي الجموع وقال لست بدون عبد الله بن النعمان وهذه فترة من السلطان. وأغار وامتلأت يده من الغنائم وأقبل ومن معه وأقبلت بنو عامر والتقوا فانهزم بنو حنيفة ومات أكثرهم من العطش. ورجع بنو عامر بالأسرى والنساء ولحق عمر بن الزاذع باليمامة. ثم جمع عبيد الله بن مسلم الحنفي جمعاً وأغار على قشير وعكل فقتل منهم عشرين وسمى المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على اليمامة من قبل أبيه حتى ولي العراق لمروان فتعرض المثنى لبني عامر وضرب عدة من بني حنيفة وحلقهم. ثم سكنت البلاد ولم يزل عبيد الله بن مسلم الحنفي مستخفياً حتى قدم كسرى بن عبيد الله الهاشمي والياً على العامة لبني العباس ودل عليه فقتله.

اختلاف أهل خراسان

ولما قتل الوليد وقدم على نصر عهد خراسان من عبد الله بن عمر بن عبد العزيز صاحب العراق، انتقض عليه جديع بن علي الكرمانى وهو أزدي. وإنما سمي الكرمانى لأنه ولد بكرمان وقال لأصحابه: هذه فتنة فانظروا لأموركم رجلاً فقالوا له: أنت! وولوه. وكان الكرمانى قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبد الله، فلما ولي نصر عزله عن الرياسة بغيره فتباعه ما بينهما. وأكثر على نصر أصحابه في أمر الكرمانى، فاعتزم على حبسه، وأرسل صاحب حرسه ليأتي به. وأراد الأزدي أن يخلصوه فأبى، وجاء إلى نصر يعدد عليه آياديه قبله من مراجعة يوسف بن عمر في قتله، والغرامة عنه، وتقديم ابنه للرياسة. ثم قال: فبدلت ذلك بالإجماع على الفتنة، فأخذ يعتذر ويتصل، وأصحاب نصر يتحاملون عليه مثل مسلم بن أحره وعصمة بن عبد الله الأسدي.

ثم ضربه وحبسه آخر رمضان سنة ست وعشرين. ثم نقب السجن واجتمع له ثلاثة آلاف، وكانت الأزدي قد بايعوا عبد الملك

والولاية، فرجعا بأهل فلسطين. وقدم سليمان عسكرياً من خمسة آلاف إلى طبرية فنهبوا القرى والضياع وخشي أهل طبرية على من وراءهم، فانتهبوا يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك، ونزلوا بمنازلهم، فافترقت جموع الأردن وفلسطين. وسار سليمان بن هشام ولحقه أهل الأردن فبايعوا ليزيد وسار إلى طبرية والرملة وأخذ على أهلها البيعة ليزيد وولى على فلسطين ضبعان بن روح وعلى الأردن إبراهيم بن الوليد.

ولاية منصور بن جمهور على العراق ثم

ولاية عبد الله بن عمر

لما ولي يزيد استعمل منصور بن جمهور على العراق وخراسان لم يكن من أهل الدين، وإنما صار مع يزيد لرأيه في الغيلانية، وحقاً على يوسف بقتله خالد القسري. ولما بلغ يوسف قتل الوليد ارتاب في أمره، وحبس اليمانية لما تجتمع المضرة عليه فلم ير عندهما ما يجب فأطلق اليمانية. وأقبل منصور وكتب من عين البقر إلى قواد الشام في الحيرة بأخذ يوسف وعماله، فأظهر يوسف الطاعة. ولما قرب منصور دخل دار عمر بن محمد بن سعيد بن العاصي ولحق منها بالشام سراً وبعث يزيد بن الوليد خمسين فارساً لتلقيه. فلما أحس بهم هرب واختفى، ووجد بين النساء فأخذوه وجاؤوا به إلى يزيد فحبسه مع ابني الوليد، حتى قتلهم مولى ليزيد بن خالد القسري.

ولما دخل منصور بن جمهور الكوفة لأيام خلت من رجب أفاض العطاء وأطلق من كان في السجن من العمال وأهل الخراج، واستعمل أخاه على الري وخراسان، فسار لذلك فامتنع نصر بن سيار من تسليم خراسان له. ثم عزل يزيد منصور بن جمهور لشهرين من ولايته، وولى على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وقال: سر إلى أهل العراق فإن أهلهم يميلون إلى أبيك. فسار وانتقاد له أهل الشام وسلم إليه منصور العمل، وانصرف إلى الشام. وبعث عبد الله العمال على الجهات واستعمل عمر بن الغضبان بن القبعثرا على الشرطة وخراج السواد والمحاسبات وكتب إلى نصر بن سيار بعده على خراسان.

انتقاض أهل اليمامة

ولما قتل الوليد كان علي بن المهاجر على اليمامة عاملاً ليوسف بن عمر فجمع له المهير بن سليمان بن هلال من بني

انتقاض مروان لما قتل الوليد

كان مروان بن محمد بن مروان على أرمينية وكان على الجزيرة عبدة بن رياح العبادي. وكان الوليد قد بعث بالصائفة أخاه فبعث معه مروان ابنه عبد الملك. فلما انصرفوا من الصائفة لقيهم بجزان حين مقتل الوليد، وسار عبدة عن الجزيرة. فوثب عبد الملك بالجزيرة وجرزان فقبضتهما، وكتب إلى أبيه بأرمينية يستحثه، فسار طلباً بدم الوليد بعد أن أرسل إلى الثغور من يضبطها. وكان معه ثابت بن نعيم الجذامي من أهل فلسطين، وكان صاحب فتنة. وكان هشام قد حبسه على إفساد الجند بأفريقية عند مقتل كلثوم بن عياض، وشفع فيه مروان فأطلقاه واتخذاه عنده يداً. فلما سار من أرمينية داخل ثابت أهل الشام في العود إلى الشام من وجه الفرات. واجتمع له الكبير من جند مروان وناهضه القتال. ثم غلبهم وانتقادوا له وحبس ثابت بن نعيم وأولاده. ثم أطلقهم من حران إلى الشام وجمع نيفاً وعشرين ألفاً من الجزيرة ليسير بهم إلى يزيد، وكتب إليه يشترط ما كان عبد الملك ولي أباه محمداً من الجزيرة والموصل وأذربيجان، فأعطاه يزيد ولاية ذلك وبايع له مروان وانصرف.

وفاة يزيد وبيعة أخيه إبراهيم

ثم توفي يزيد آخر سنة ست وعشرين لخمسة أشهر من ولايته. ويقال إنه كان قدراً وبايعوا لأخيه إبراهيم من بعده، إلا أنه انتقض عليه الناس ولم يتم له الأمر. وكان يسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالأمارة وأقام على ذلك نحواً من ثلاثة أشهر ثم خلعه مروان بن محمد على ما يذكر. وهلك سنة اثنين وثلاثين.

مسير مروان إلى الشام

ولما توفي يزيد وولى أخوه إبراهيم وكان مضعفاً، انتقض عليه مروان لوقته، وسار إلى دمشق. فلما انتهى إلى قسرين وكان عليها بشر بن الوليد عاملاً لأخيه يزيد ومعه أخوهما مسرور، ودعاهم مروان إلى بيعته. ومال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة، وخرج بشر للقاء مروان. فلما تراءى الجمعان مال ابن هبيرة وقيس إلى مروان وأسلموا بشراً ومسروراً فأخذهما مروان وحبسهما، وسار بأهل قسرين ومن معه إلى حمص، وكانوا امتنعوا من بيعه إبراهيم. فوجه إليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك في جند أهل دمشق. فكان يحاصرهم. فلما دخل مروان رحل عبد

بن حرملة على الكتاب والسنة. ولما جاء الكرمانى قدمه عبد الملك ثم عسكر نصر على باب مرو الروذ، واجتمع إليه الناس، وبعث سالم بن أحمور في الجموع إلى الكرمانى وسفر الناس بينهما على أن يؤمنه نصر ولا يحبسه. وأجاب نصر إلى ذلك وجاء الكرمانى إليه وأمره بلزوم بيته. ثم بلغه عن نصر شيء فعاد إلى حاله، وكلموه فيه فأمناه، وجاء إليه وأعطى أصحابه عشرة عشرة. فلما عزل جمهور عن العراق وولي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز خطب نصر قدام بن جمهور وأثنى على عبد الله، فغضب الكرمانى لابن الجمهور وعاد لجمع المال واتخاذ السلاح. وكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة ويصلي خارج المقصورة، ويدخل فيسلم ولا يحبس. ثم أظهر الخلاف وبعث إليه نصر سالم بن أحمور فأفحش في صرفه وسفر بينهما الناس في الصلح على أن يخرج الكرمانى من خراسان وتجهز للخروج إلى جرجان.

أمان الحارث بن شريح وخروجه من دار الحارث

لما وقعت الفتنة بخراسان بين نصر والكرمانى خاف نصر أن يستظهر الكرمانى عليه بالحارث بن شريح، وكان مقيماً ببلاذ الترك منذ اثنتي عشرة سنة كما مر، فأرسل مقاتل بن حيان التبطي يراوده على الخروج من بلاد الترك، بخلاف ما يقتضي له الأمان من يزيد بن الوليد. وبعث خالد بن زياد البدي الترمذي وخالد بن عمرة مولى بني عامر لاقتضاء الأمان له من يزيد، فكتب له الأمان. وأمر نصر أن يرد عليه ما أخذ له، وأمر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عامل الكوفة أن يكتب لهما بذلك أيضاً. ولما وصل إلى نصر بعث إلى الحارث بذلك فلقية الرسول راجعاً مع مقاتل بن حيان وأصحابه ووصل سنة سبع وعشرين في جمادى الأخيرة وأنزله نصر بمرو، ورد عليه ما أخذ له، وأجرى عليه كل يوم خسين درهماً وأطلق أهله وولده. وعرض عليه أن يوليه ويعطيه مائة ألف دينار فلم يقبل. وقال: لست من الدنيا واللذات في شيء. وإنما أسأل كتاب الله والعمل بالسنة وبذلك أساعدك على عدوك، وإنما خرجت من البلاد منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور فكيف تزيدني عليه. وبعث إلى الكرمانى: إن عمل نصر بالكتاب عضدته في أمر الله ولا اعتبك إن ضمنت لي القيام بالعدل والسنة. ثم دعا قبائل تميم فأجاب منهم ومن غيرهم كثير واجتمع إليه ثلاثة آلاف وأقام على ذلك.

عليهم يزيد بن خالد القسري وحاصروا دمشق وأميرها زامل بن عمر، فبعث مروان إليهم أبا الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث، وعمر بن الوضاح في عشرة آلاف. فلما دنوا من دمشق حملوا عليهم، وخرج إليهم من كان بالمدينة فهزمهم وقتلوا يزيد بن خالد وبعثوا برأسه إلى مروان وأحرقوا المزة وقرى البرامة. ثم خرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين وحاصر طبرية وعليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم. فبعث مروان إليه أبا الورد، فلما قرب منه خرج أهل طبرية عليه فهزموه ولقيه أبو الورد منهزماً فهزمه أخرى، واقترب أصحابه وأسر ثلاثة من ولده وبعث بهم إلى مروان.

وتغيب ثابت وولى مروان على فلسطين الراحس بن عبد العزيز الكنانى فظفر بثابت بعد شهرين وبعث به إلى مروان موقفاً فقطعه وأولاده الثلاثة، وبعثهم إلى دمشق فصلبوا. ثم بايع لابنيه عبد الله وعبيد الله وزوجهما بنتي هشام، ثم سار إلى ترمذ من دير أيوب وكانوا قد غروروا المياه. فاستعمل المزداد والقرب والإبل وبعث وزيره الأبرش الكلبي إليهم وأجابه إلى الطاعة. وهرب نفر منهم إلى البلد وهدم الأبرش سورها ورجع بمن أطاع إلى مروان. ثم بعث مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لقتال الضحاك الشيباني الخارجى بالكوفة وأمدّه ببعوث أهل الشام ونزل قرقسياً ليقدّم ابن هبيرة لقتال الضحاك.

وكان سليمان بن هشام قد استأذنه بالمقام في الرصافة أياماً ويلحق به فرجعت طائفة عظيمة من أهل الشام الذين بعثهم مروان مع ابن هبيرة فأقاموا بالرصافة ودعوا سليمان بن هشام بالبيعة فأجاب، وسار معهم إلى قسرين فعسكر بها، وكاتب أهل الشام فأثروهم من كل وجه. وبلغ الخبر مروان فكتب إلى ابن هبيرة بالمقام ورجع من قرقسياً إلى سليمان فقاتله فهزمه، واستباح معسكره وأثنى عليهم وقتل أسراهم، وقتل إبراهيم أكبر ولد سليمان وخالد بن هشام المخزومي جا أبيه فيما يتف على ثلاثين ألفاً وهرب سليمان إلى حمص في الليل فعسكر بها وبني ما كان تهدم من سورها.

وسار مروان إليه فلما قرب منه بيته جماعة من أصحاب سليمان تباعوا على الموت، وكان على احتراس وتعبية فترك القتال بالليل وكمنوا له في طريقه من الغد فقاتلهم إلى آخر النهار، وقتل منهم نحواً من ستمائة. وجاؤوا إلى سليمان فلحق بتدمر وخلف أخاه سعيداً بجمص وحاصره مروان عشرة أشهر ونصب عليهم نيفاً وثمانين متجنيقاً حتى استأمنوا له وأمكنوه من سعيد بن هشام وآخرين شرطهم عليهم.

العزير عنهم، ويابعوا مروان وخرج للقاتنه سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفاً ومروان في ثمانين فدعاهم إلى الصلح وترك الطلب بدم الوليد على أن يطلقوا ابنه الحكم وعثمان ولبى عهده فأبوا وقاتلوه. وسرب عسكراً جاؤوهم من خلفهم فانهزموا، وأثنى فيهم أهل حمص فقتلوا منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً وأسروا مثلها. ورجع مروان بالفل وأخذ عليهم البيعة للحكم وعثمان ابني الوليد وحبس يزيد بن العفار والوليد بن مصاد الكلبيين فهلكا في حبسه.

وكان ممن شهد قتل الوليد بن الحجاج وهرب يزيد بن خالد القسري إلى دمشق فاجتمع له مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج وتشاوروا في قتل الحكم وعثمان، خشية أن يطلقهما مروان فيثارا بأبيهما. ولولا ذلك يزيد بن خالد فبعث مولاه أبا الأسد فقتلها وأخرج يوسف بن عمر فقتله، واعتصم أبو محمد السفيناني بيت في الحبس فلم يطيقوا فتحه، وأعجلهم خيل مروان. فدخل دمشق وأتى بأبي الوليد ويوسف بن عمر مقتولين فدفنتها، وأتى بأبي عمر السفيناني في قيوده فسلم عليه بالخلافة وقال: إن ولي العهد جعلها لك. ثم بايعه وسمع الناس قبايعوه وكان أولهم بيعة معاوية بن يزيد بن حصين بن ثمر وأهل حمص. ثم رجع مروان إلى خراسان واستأمن له إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام وقدماء عليه، وكان قدوم سليمان من تدمر بمن معه من إخوته وأهل بيته ومواليه الذكوانية فبايعوا لمروان.

انتقاض الناس على مروان

ولما رجع إلى خراسان راسل ثابت بن نعيم من فلسطين أهل حمص في الخلاف على مروان فأجابه وبعثوا إلى من كان بتدمر ممن طلب وجاء الأصمغ بن دواله الكلبي وأولاده، ومعاوية السكسكي فارس أهل الشام وغيرها في ألف من فرسانهم، ودخلوا حمص ليلة الفطر من سنة سبع وعشرين. وزحف مروان في العساكر من حران ومعه إبراهيم المخلوع وسليمان بن هشام، ونزل عليهم ثالث يوم الفطر، وقد سدوا أبوابهم فنادى متاديه: ما دعاكم إلى النكت؟ قالوا لم نكت ونحن على الطاعة. ودخل عمر بن الوضاح في ثلاثة آلاف فقاتله المحتشدون هنالك للخلاف وخرجوا من الباب الآخر وجفل مروان في اتباعهم وعلا الباب. فقتل منهم نحو خمسمائة وصلبهم وهدم من سورها علوه وأفلت الأصمغ بن دواله وابنه فرافصة.

ثم بلغ مروان وهو بجمص خلاف أهل النوبة وأنهم ولوا

وانتهزم أصحابه من ورائه، فرجع إلى الكوفة وأقام مع ابن معاوية في القصر، ومعهم ربيعة والزيدية على أفواه السكك يقاتلون ابن عمر. ثم أخذ ربيعة الأمان لابن معاوية ولأنفسهم وللزيدية، وسار ابن معاوية إلى المدائن وتبعه قوم من أهل الكوفة فتغلب بهم على حلوان والجبل وهمذان وأصبهان والري إلى أن كان من خبره ما نذكره.

غلبة الكرمانى على مرو و قتله الحارث بن

شريح

لما ولي مروان وولى على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة كتب يزيد إلى نصر بهمه على خراسان فبايع لمروان بن محمد فارتأب الحارث وقال: ليس لي أمان من مروان وخرج فعسكر وطلب من نصر أن يجعل الأمر شورى فأبى، وقرأ جهنم بن صفوان مولى راسب وهو رأس الجهمية سيرته وما يدعو إليه على الناس، فرفضوا وكثر جمعه. وأرسل إلى نصر في عزل سالم بن أحور عن الشرطة، وتغير العمال. فتقرر الأمر بينهما على أن يردوا ذلك إلى رجال أربعة: مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان بتعيين نصر والمغيرة بن شعبة الجهضي ومعاذ بن جبلة بتعيين الحارث. وأمر نصر أن يكتب بولاية سمرقند وطخارستان لمن يرضاه هؤلاء الأربعة.

وكان الحارث يقول إنه صاحب السور وإنه يهدم سور دمشق ويزيل ملك بني أمية. فأرسل إليه نصر: إن كان ما تقوله حقاً ففعال نسير إلى دمشق، وإلا فقد أهلكك عشيرتك. فقال الحارث: هو حق لكن لا تبايعني عليه أصحابي. قال: فكيف تهلك عشرين ألفاً من ربيعة واليمن؟ ثم عرض عليه ولاية ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف فلم يقبل. فقال له: فابدأ بالكرمانى فاقتله وأنا في طاعتك. ثم اتفقا على تحكيم جهنم ومقاتل، فاحتكما بأن يعزله نصر ويكون الأمر شورى. فأتى نصر فخالفه الحارث، وقدم على نصر جمع من أهل خراسان حين سمعوا بالفتنة منهم عاصم بن عمير الضرمي وأبو الديال الناجي ومسلم بن عبد الرحمن وغيرهم، فكانوا معه. وأمر الحارث أن يقرأ سيرته في الأسواق والمساجد، وأناه الناس وقرئت على باب نصر.

فضرب غلمان نصر قارئها فنادى بهم وتجهزوا للحرب. وتقب الحارث سور مرو من الليل ودخل بالنهار فاقتتلوا وقتل جهنم بن مسعود الناجي وأعين مولى حيان ونهبوا منزل مسلم بن

ثم سار لقتال الضحاك الخارجي بالكوفة. وقيل إن سليمان بن هشام لما انتهزم بقسرين لحق بعبد الله بن عمر بن عبد العزيز بالعراق، وسار معه إلى الضحاك فبايعوه وكان النصر بن سعيد قد ولي العراق. فلما اجتمعوا على قتاله سار نحو مروان فاعترضه بالقادسية جنود الضحاك من الكوفة مع ابن ملحان فقتله النصر. وولى الضحاك مكانه بالكوفة المثنى بن عمران وسار الضحاك إلى الرصل وأقبل ابن هبيرة إلى الكوفة فنزل بعبد التمر. وسار إليه المثنى فهزمه ابن هبيرة وقتله وعدة من قواد الضحاك. وانتهزم الخوارج ومعهم منصور بن جمهور ثم جاؤوا إلى الكوفة واحتشدوا وساروا للقاء ابن هبيرة فهزمهم ثانية، ودخل الكوفة وسار إلى واسط وأرسل الضحاك عبيدة بن سوار الثعلبي لقتاله، فنزل الصرة وقاتله ابن هبيرة هنالك فانهزمت الخوارج كما يأتي في أخبارهم.

ظهور عبد الله بن معاوية

كان عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الكوفة في إخوانه وولده، فكرمهم عبد الله وأجرى عليهم ثلاثمائة درهم في كل يوم وأقاموا كذلك. ولما بويع إبراهيم بن الوليد بعد أخيه واضطرب الشام وسار مروان إلى دمشق، حبس عبد الله بن عمر عبد الله بن معاوية عنده، وزاد في رزقه بعده لمروان يبايعه ويقايله. فلما ظفر مروان بإبراهيم سار إسماعيل بن عبد الله القسري إلى الكوفة وقاتله عبد الله بن عمر. ثم خاف إسماعيل أن يفتضح فكفوا خبرهم فوكت العصبية بين الناس من إثارة عبد الله بن عمر بعضاً من مضر وربيعة بالعطاء دون غيرهم، فشارت ربيعة فبعث إليهم أخاه عاصماً ملقياً بيده فاستحيوا ورجعوا وأفاض في رؤوس الناس يستميلهم.

فاستنفر الناس واجتمعت الشيعة إلى عبد الله بن معاوية فبايعوه وأدخلوه قصر الكوفة وأخرجوا منه عاصم بن عمر. فلحق بأخيه بالحيرة وبايع الكوفيون ابن معاوية ومنهم منصور بن جمهور وإسماعيل أخو خالد القسري وعمر بن العطاء، وجاءته البيعة من المدائن وجمع الناس وخرج إلى عبد الله بن عمر بالحيرة، فرح للقاءه موله. ثم خرج في أثره وتلاقيا ونزع منصور بن جمهور وإسماعيل أخو خالد القسري وعمر بن العطاء. وجاءته البيعة من ابن عمر ولحقوا بالحيرة وانتهزم ابن معاوية إلى الكوفة. وكان عمر بن الغضبان قد حمل على ميمنة ابن عمر فكشفها

وجاء أبو مسلم إلى مرو وأعطى كتاب الإمام لسليمان بن كثير وفيه الأمر بإظهار الدعوة، فنصبوا أبا مسلم وقالوا رجل من أهل البيت ودعوا إلى طاعة بني العباس. وكتبوا إلى الدعاة بإظهار الأمر، وترك أبو مسلم بقرية من قرى مرو في شعبان من سنة تسع وعشرين.

ثم بشوا الدعاة في طخارستان ومرو السروز والطالقان وخوارزم، وأنهم إن أعجلهم عدوهم. دون الوقت عاجلوه وجردوا السيوف للجهاد، ومن شغله العدو عن الوقت فلا حرج عليه أن يظهر بعد الوقت. ثم سار أبو مسلم فتزل على سليمان بن كثير الخزاعي آخر رمضان ونصر بن سيار يقاتل الكرمانى وشيخان. فعقد اللواء الذي بعث به الإمام إليه وكان يدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً. ثم عقد الراية التي بعثها معه وتسمى السحاب وهو يتلو: ﴿أُذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ الآية.

وليسوا السواد هو وسليمان بن كثير وأخوه سليمان ومواليه ومن أجاب الدعوة من أهل تلك القرى وأوقدوا النيران ليلتهم لشيعتهم في خرغان فأصبحوا عنده. ثم قدم عليه أهل السقادم مع أبي الزواح في سبعمائة راجل. وقدم من الدعاة أبو العباس المروزي وحسن أبو مسلم بسقيديج ورمها وحضر عيد الفطر، فصلى سليمان بن كثير وخطب على المنبر في العسكر وبدأ بالصلاة قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة. وكبر في الأولى ست تكبيرات وفي الثانية خمساً خلاف ما كانوا بنو أمية يفعلون. وكل ذلك مما سنه لهم الإمام وأبوه.

ثم انصرفوا من الصلاة مع الشيعة فطمعوا وكان أبو مسلم وهو في الخندق إذا كتب نصر بن سيار يبدأ باسمه فلما قوي بمن اجتمع إليه كتب إلى نصر وبدأ بنفسه وقال: أما بعد فإن الله تباركت أسماؤه عبر قوماً في القرآن فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ إلى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾. فاستعظم الكتاب وبعث مولاه يزيد لحاربة أبي مسلم لثمانية عشر شهراً من ظهوره فبعث إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي فدعاه إلى الرضا من آل رسول الله ﷺ فاستكبروا فقاتلهم مالك وهو في مائتين يوماً بكمالها. وقدم على أبي مسلم صالح بن سليمان الضبي وإبراهيم بن يزيد وزيد بن عيسى فسرحهم إلى مالك فقوي مالك بهم، وقاتلوا القوم فحل عبد الله الطائي على يزيد مولى نصر فأسره، وانهزم أصحابه وأرسله الطائي إلى أبي مسلم ومعه رؤوس القتلى فأحسن أبو مسلم إلى يزيد وعالجه، ولما اندملت جراحه قال: إن شئت أقمت عندنا ولا رجعت إلى مولاك سالماً بعد أن تعاهدنا على أن لا تحاربنا ولا تكذب علينا

أحور، فركب سالم حين أصبح فقاتل الحارث وهزمه، وجاء إلى عسكره فقتل كاتبه. وبعث نصر إلى الكرمانى وكان في الأزدي وريبعة وكان موافقاً للحارث لما قدمناه، فجاءه نصر على الأمان وحادثهم وأغلظوا له في القول فارتاب ومضى، وقتل من أصحابه جهم بن صفوان. ثم بعث الحارث ابنه حاتماً إلى الكرمانى يستجيشه فقال له أصحابه: دع عدوك يضطربان، ثم ضرب بعد يومين وناوش القتال أصحاب نصر فهزمهم، وصرع تميم بن نصر ومسلم بن أحور.

وخرج نصر من مرو من الغد فقاتلهم ثلاثة أيام وانهزم الكرمانى وأصحابه ونادى مناد يا معشر ربيعة واليمن! إن أبا سيار قتل فانهزمت مضر ونصر وترجل ابنه تميم فقاتل وأرسل إليه الحارث أني كاف عنك فإن اليمانية يعيرونني بانهزامكم، فاجعل أصحابك إزاء الكرمانى، ولما انهزم نصر غلب الكرمانى على مرو ونهب الأموال فأنكر ذلك عليه الحارث، ثم اعتزل عن الحارث بشر بن جرموز الضبي في خمسة آلاف وقال: إنما كنا نقاتل معك طلباً للعدل، فاما إن اتبعت الكرمانى للخصية فنحن لا نقاتل. فدعى الحارث الكرمانى إلى الشورى فأبى، فانتقل الحارث عنه وأقاموا أياماً. ثم ثلم الحارث السور ودخل البلد وقاتله الكرمانى قتالا شديداً فهزمه وقتله وأخاه سواده.

واستولى الكرمانى على مرو وقيل إن الكرمانى خرج مع الحارث لقتال بشر بن جرموز. ثم ندم الحارث على اتباع الكرمانى وأتى عسكر بشر فأقام معهم وبعث إلى مضر من عسكر الكرمانى فساروا إليهم وكانوا يقتلون كل يوم ويرجعون إلى خنادقهم. ثم نقب الحارث بعد أيام سور مرو ودخلها وتبعه الكرمانى واقتلوا فقتل الحارث وأخاه وبشر بن جرموز وجماعة من بني تميم. وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة فانهزم الباقون وصفت مرو لليمن وهدموا دور المضرية.

ظهور الدعوة العباسية بخراسان

قد ذكرنا أن أبا مسلم كان يتردد إلى الإمام من خراسان ثم استدعاه سنة تسعة وعشرين ليسأله عن الناس فسار في سبعين من النقباء مؤدبين بالحج. ومر بنسا فاستدعى أسيداً فأخبره بأن كتب الإمام جاءت إليه مع الأزهر بن شبيب وعبد الملك بن سعيد، ودفع إليه الكتب. ثم لقيه بقومس كتاب الإمام إليه وإلى سليمان بن كثير أني قد بعث إليك براءة النصر فارجع من حيث يلقاك كتابي ووجه حطبة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض.

مقتل الكرمانى

فرجع إلى مولاہ.

قد ذكرنا من قبل أن الكرمانى قتل الحارث بن شريح فخلصت له مرو وتحتى نصر عنها. ثم بعث نصر سالم بن أحمور في رابطته وفرسانه إلى مرو فوجد يحيى بن نعيم الشيباني في ألف رجل من ربيعة ومحمد بن المثنى في سبعائة من الأزدي وأبو الحسن بن الشيخ في ألف منهم والحريسي السغدّي في ألف من اليمن. فتلاحى سالم وابن المثنى وشتم سالم الكرمانى فقاتلوه فهزموه وقتل من أصحابه نحو مائة. فبعث نصر بعده عصمة بن عبد الله الأسدي فكان بينهم مثل ما كان أولاً، فقاتلهم محمد السغدّي، فانهزم السغدّي وقتل من أصحابه أربعائة. ورجع إلى نصر. فبعث مالك بن عمر التميمي فاقتلوا كذلك وانهزم مالك وقتل من أصحابه سبعائة ومن أصحاب الكرمانى ثلاثمائة.

ولما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أئخن صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب إلى شيان الخارجي يذم اليمانية تارة ومضر أخرى ويوصي الرسول بكتاب اليمانية أن يتعرض لليمانية ليقرؤوا ذم مضر والرسول بكتاب اليمانية أن يتعرض لمضر ليقرؤوا ذم اليمانية حتى صار هوى الفريقين معه. ثم كتب إلى نصر بن سيار والكرمانى: أن الإمام أوصاني بكم ولا أعدو رأيہ فيكم. ثم كتب يستدعي الشيعة: أسد بن عبد الله الخزاعي بنسأ ومقاتل بن حكيم بن غزوان وكانوا أول من سود ونادوا يا محمدا يا منصوراً ثم سوّد أهل أبي ورد ومرو الروذ وقرى مرو فاستدعاهم أبو مسلم وأقبل فنزل بين خندق الكرمانى وخندق نصر وهابه الفريقان وبعث إلى الكرمانى أني معك وقبل فانضم أبو مسلم إليه، وكتب نصر بن سيار إلى الكرمانى يحذره منه ويشير عليه بدخول مرو ليصالحه. فدخل ثم خرج من الغد، وأرسل إلى نصر في إتمام الصلح في مائتي فارس، فرأى نصر فيه غرة فبعث إليه ثلاثمائة فارس فقتلوه. وسار ابنه إلى أبي مسلم وقاتلوا نصر بن سيار حتى أخرجه من دار الإمارة إلى بعض الدور. ودخل أبو مسلم مرو فبايعه علي بن الكرمانى، وقال له أبو مسلم: أقم على ما أنت عليه حتى أمرك بأمرى. وكان نصر حين نزل أبو مسلم بين خندقه وخندق الكرمانى ورأى قوته كتب إلى مروان بن محمد يعلمه بخروجه وكثرة من معه ودعائه لإبراهيم بن محمد: أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون لها ضرام فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب أولها الكلام فإن لم تطفئوها يفرجوها مسجرة يشيب لها الغلام أقول من التعجب ليت شعري أليقظ أمية أم نيام

وتفرس نصر أنه عاهداهم فقال: واللّه هو ما ظننت وقد استحلّفوني أن لا أكذب عليهم وأنهم واللّه يصلون الصلاة لوقتها بأذان وإقامة ويتلون القرآن ويذكرون الله كثيراً ويدعون إلى ولاية آل رسول الله ﷺ، وما أحسب أمرهم إلا سيعلمو. ولولا أنك مولاي لأقمت عندهم. وكان الناس يرجفون عنهم بعبادة الأوثان واستحلال الحرام.

ثم غلب حازم بن خزيمه على مرو الروذ وقتل عامل نصر بها. وكان من بني غنيم من الشيعة وأراد بنو غنيم منعه. فقال: أنا منكم فإن ظفرت فهي لكم وإن قتلت كفيتم أمري فنزل قرية زاهاء. ثم تغلب على أهلها فقتل بشر بن جعفر السغدّي عامل نصر عليها أوائل ذي القعدة، وبعث بالفتح إلى أبي مسلم مع ابنه خزيمه بن حازم. وقيل في أمر أبي مسلم غير هذا وإن إبراهيم الإمام أزواج أبا مسلم لما بعثه إلى خراسان بابتة أبي النجم وكتب إلى النقباء بطاعته.

وكان أبو مسلم من سواد الكوفة فهزما فانتهى لإدريس بن معقل العجلي. ثم سار إلى ولاية محمد بن علي، ثم ابنه إبراهيم، ثم للأئمة من ولاية من ولده. وقدم خراسان وهو حديث السن واستصغره سليمان بن كثير فردّه. وكان أبو داود خالد بن إبراهيم غائباً وراء النهر، فلما جاء إلى مرو أقرأه كتاب الإمام وسأله عن أبي مسلم فأخبروه أن سليمان بن كثير رده لخداثة سنة وأنه لا يقدر على الأمر، فنخاف على أنفسنا وعلى من يدعوه. فقال لهم أبو داود: إن الله بعث نبيه ﷺ إلى جميع خلقه، وأنزل عليه كتابه بشرائعه وأنبأه بما كان وما يكون وخلف علمه رحمة لأمته وعلمه إنما هو عند عثرته وأهل بيته وهم معدن العلم وورثة الرسول فيما علمه الله. أتشكون في شيء من ذلك؟ قالوا: لا. قال: فقد شككتكم والرجل لم يبعث إليكم حتى علم أهليته لما يقوم به فبعثوا عن أبي مسلم وردوه من قومس بقول أبي داود وولوه أمرهم وأطاعوه. ولم تزل في نفس أبي مسلم من سليمان بن كثير. ثم بعث الدعوة ودخل الناس في الدعوة أفواجا واستدعاه الإمام سنة تسع وعشرين أن يوافيه بالمرسوم ليأمره بأمره في إظهار الدعوة وأن يقدم معه قطببة بن شبيب ويحمل ما اجتمع عنده من الأموال. فسار في جماعة من النقباء والشيعة فلقبه كتاب الإمام بقومس يأمره بالرجوع وإظهار الدعوة بخراسان، وبعث قطببة بالمال وأن قطببة سار إلى جرجان. واستدعى خالد بن برمك وأبا عون فقدمما بما عندهما من مال الشيعة فسار به نحو الإمام.

فيذكر فضل بني هاشم وسالف بني أمية. فلما نزل أبو مسلم الماخزان أرسل إلى ابن الكرماني بأنه معه فطلب لقاءه فجاءه أبو مسلم وأقام عنده يومين ثم رجع وذلك أول المحرم سنة ثلاثين. ثم عرض الجند وأمر كامل بن المظفر بكتب أسمائهم وأنسابهم في دفتر فبلغت عدته سبعة آلاف. ثم إن القبائل من ربيعة ومضر واليمن توادعوا على وضع الحرب والاجتماع على قتال أبي مسلم فعظم ذلك عليه وتحول عن الماخزان لأربعة أشهر من نزولها لأنها كانت تحت الماء. وخشي أن يقطع فتحول إلى طيسين وخذق بها، وخذق نصر بن سيار على نهر عياض وأنزل عماله بالبلاد، فأنزل أبا الدبال في جنده لطوسان فأذاها أهلها وعسفوهم وكان أكثرهم مع أبي مسلم في خندق فسير إليهم جنداً فقاتلوه فهزموه وأسروا من أصحابه ثلاثين، فأطلقهم أبو مسلم ثم بعث عرز بن إبراهيم في جمع من الشيعة ليقطع مادة نصر من مرو الروذ وبلغ وطخارستان فخذق بين نصر وبين هذه البلاد، واجتمع إليه ألف رجل وقطع المادة عن نصر.

مقتل عبد الله بن معاوية

قد تقدم لنا أن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بوع بالكوفة وغلب عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ولحق بالمدائن. وجاءه ناس من أهل الكوفة وغيرها فسار إلى الجبال وغلب عليها وعلى حلوان وقومس وأصبهان والري وأقام بأصبهان. وكان محارب بن موسى مولى بني يشكر عظيم القدر بفارس فجاء إلى دار الإمارة بإصطخر وطرد عامل عبد الله عنها، وبايع الناس لعبد الله بن معاوية. ثم سار إلى كرمان فأغار عليها وانضم إليه قواد من أهل الشام. فسار إلى سالم بن المسيب عامل عبد الله بن عمر على شيراز فقتله سنة ثمان وعشرين. ثم سار محارب إلى أصفهان وحول عبد الله بن معاوية إلى اصطخر بعد أن استعمل على الجبال أخاه الحسن بن معاوية، وأتى إلى اصطخر فنزل بها وأتاه بنو هاشم وغيرهم، وجبى المال وبعث العمال. وكان معه منصور بن جمهور وسليمان بن هشام، وأتاه شيبان بن عبد العزيز الخارجي ثم أتاه جعفر المنصور وعبد الله ابن أخيه عيسى.

ولما قدم يزيد بن عمر بن هيرة على العراق أرسل نباتة بن حنظلة الكلابي على الأهواز وأن يقاتل عبد الله بن معاوية، وبلغ سليمان بن حبيب وهو بالأهواز فسرح داود بن حاتم لقاء نباتة، وهرب سليمان من الأهواز إلى نيسابور وقد غلب الأكراد عليها

فإن بك قومنا اضحروا نياماً فقل قوموا فقد حان القيام تعزي عن رجالك ثم قولي على الإسلام والعرب السلام فوجده مشتغلاً بحرب الضحاك بن قيس فكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فأحثهم التلول قبلك. فقال نصر: أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده. وصادف وصول كتاب نصر إلى مروان عثورهم على كتاب من إبراهيم الإمام لأبي مسلم يوجه حيث لم يتهم الفرصة من نصر والكرماني إذ أمكنه ويأمره أن لا يدع بخراسان متكلماً بالعربية. فلما قرأ الكتاب بعث إلى عامله بالبلقاء أن يسير إلى الحسية فيبعث إليه إبراهيم بن محمد مشدوداً لوثاق فحبسه مروان.

اجتماع أهل خراسان على قتل أبي مسلم

لما أظهر أبو مسلم أمره سارع إليه الناس، وكان أهل مرو يأتونه ولا يمنهم نصر، وكان الكرماني وشيبان الخارجي لا يكرهان أمر أبي مسلم لأنه دعا إلى خلع مروان. وكان أبو مسلم ليس له حرس ولا حجاب ولا غلظة الملك، فكان الناس يأنسون به لذلك، وأرسل نصر إلى شيبان الخارجي في الصلح ليتفرغ لقتال أبي مسلم، أما أن يكون معه أو يكف عنه، ثم تعود إلى ما كنا فيه. فهم شيبان بذلك، وكتب أبو مسلم إلى الكرماني فحرضه على منع شيبان من ذلك فدخل عليه وثناه عنه. ثم بعث أبو مسلم النضر بن نعيم الضبي إلى هراة فملكها وطرد عنها عيسى بن عقيل بن معقل الليثي عامل نصر.

فجاء يحيى بن نعيم بن هيرة الشيباني إلى الكرماني وشيبان وأغراهما بمصالحة نصر. وقال: إن صالحتم نصرأ قاتله أبو مسلم وترككم لأن أمر خراسان لمضر. وإن لم تصالحوه صالحه وقتلكم فقدموا نصرأ قبلكم. فأرسل شيبان إلى نصر في المودعة فأجاب وجاء مسلم بن أحرور بكتب المودعة فكتبوها. وبعث أبو مسلم إلى شيبان في مودعة ثلاثة أشهر. فقال ابن الكرماني: إذا ما صالحت نصرأ إنما صالحه شيبان وأنا موتور بأبي. ثم عاود القتال وقعد شيبان عن نصره وقال: لا يحل الغدر فاستنصر ابن الكرماني بأبي مسلم فأقبل حتى نزل الماخزان لاثنتين وأربعين يوماً من نزوله بسفيدنج وخذق على معسكره وجعل له بايين وعلى شرطته مالك بن الهيثم وعلى الحرس أبا إسحاق خالد بن عثمان، وعلى ديوان الجند أبا صالح كامل بن المظفر وعلى الرسائل أسلم بن صبيح وعلى القضاء القاسم بن مجاشع النقيب.

وكان القاسم يصلي بأبي مسلم ويقرأ القصص بعد العصر

أمير المؤمنين وينفذ أوامره فليس على هدى، وإنما يختار علي بن الكرماني وأصحابه. ووافق السبعون من الشيعة على ذلك وانصرف الوفد.

ورجع أبو مسلم من أبين إلى الماخران وأمر الشيعة ببناء المساكن وأمين من فتنة العرب. ثم أرسل إليه علي بن الكرماني أن يدخل مرو من ناحيته ليدخل هو وقومه من الناحية الأخرى، فلم يطمئن لذلك أبو مسلم وقال: ناشبهم الحرب من قبل فناشب ابن الكرماني نصر بن سيار الحرب ودخل مرو من ناحيته وبعث أبو مسلم بعض النقباء. فدخل معه ثم سار وعلى مقدمته أسيد بن عبد الله الخزاعي، وعلى ميمنته مالك بن الهيثم وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع. فدخل مرو والفريقان يقتتلان، ومضى إلى قصر الإمارة وهو يتلو: ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها. وأمر الفريقين بالانصراف فانصرفوا إلى معسكرهم وصغت له مرو، وأمر بأخذ البيعة من الجند، وتولى أخذها أبو منصور طلحة بن زريق أحد النقباء الذين اختارهم محمد بن علي من الشيعة حين بعث دعائه إلى خراسان سنة ثلاث وأربع، وكانوا اثني عشر رجلاً.

فمن خزاعة سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وزباد بن صالح وطلحة بن زريق وعمر بن أعين. ومن طيء قحطبة بن شبيب بن خالد بن سعدان. ومن غيم أبو عينة موسى بن كعب ولاهز بن قريط والقاسم بن مجاشع وأسلم بن سلام. ومن بكر بن وائل أبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني وأبو علي الهروي، ويقال شبل بن طهمان. وكان عمر بن أعين مكان موسى بن كعب وأبو النجم إسماعيل بن عمران مكان أبي علي الهروي وهو ختن أبي مسلم. ولم يكن أحد من النقباء غير أبي منصور طلحة بن زريق بن سعد وهو أبو زينب الخزاعي، وقد شهد حرب ابن الأشعث وصحب المهلب وغزا معه. وكان أبو مسلم يشاوره في الأمور. وكان نص البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والطاعة للرضا من آل رسول الله ﷺ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والتفاق، والمشي إلى بيت الله الحرام، وعلى أن لا تسالوا رزقاً ولا طمعاً حتى تبدأكم به ولا تكتم، وذلك سنة ثلاثين ومائة.

ثم أرسل أبو مسلم لاهز بن قريط في جماعة إلى نصر بن سيار يدعو إلى البيعة، وعلم نصر أن أمره قد استقام ولا طاقة له بأصحابه، فوعده بأنه يأتيه يبايعه من الغد، وأرسل أصحابه بالخروج من ليلتهم إلى مكان يأمنون فيه. فقال أسلم بن أحوز لا يتبعنا لنا الليلة. فلما أصبح..... أبو مسلم كتابه وأعاد لاهز بن قريط إلى نصر يستحثه فأجاب وأقام لوضوئه، فقال لاهز: إن الملا

فطردهم عنها، ويبيع لابن معاوية، فبعث أخاه يزيد بن معاوية عليها. ثم إن محارب بن موسى فارق عبد الله بن معاوية وجمع، وقصد نيسابور. فقاتله يزيد بن معاوية وهزمه، فأتى كرماني وأقام بها حتى قدم محمد بن الأشعث فصار معه ثم نافره، فقتله ابن الأشعث وأربعة وعشرين ابناً له. ثم بعث يزيد بن هبيرة بعد نبأته بن حنظلة ابنه داود بن يزيد في العساكر إلى عبد الله بن معاوية، وعلى مقدمته داود بن ضبارة.

وبعث معن بن زائدة من وجه آخر، فقاتلوا عبد الله بن معاوية وهزموه وأسروا وقتلوا، وهرب منصور بن جمهور إلى السند وعبد الرحمن بن يزيد إلى عمان وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان إلى مصر، وبعثوا بالأسرى إلى ابن هبيرة فاطلقهم ومضى ابن معاوية عن فارس إلى خراسان. و سار معن بن زائدة في طلب منصور بن جمهور وكان فيمن أسر مع عبد الله بن معاوية عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، شفع فيه حرب بن قطن من أخواله بني هلال، فوجه له ضبارة وغاب عبد الله بن معاوية عن ابن ضبارة، ورمى أصحابه باللواط، فبعث إلى ابن هبيرة ليخبره، وسار ابن ضبارة في طلب عبد الله بن معاوية إلى شيراز فحاصره بها حتى خرج منها هارباً ومعه أخوه الحسن ويزيد وجماعة من أصحابه، فسلك المفازة على كرماني إلى خراسان طمعاً في أبي مسلم لأنه كان يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد استولى على خراسان فوصل إلى نواحي هراة وعليها مالك فقال له: انتسب نعرفك. فانتسب له فقال: أما عبد الله وجعفر فمن أسماء آل الرسول وأما معاوية فلا نعرفه في أسمائهم. قال: إن جدي كان عند معاوية حين ولد أبي فبعث إليه مائة ألف على أن يسمي ابنه باسمه. فقال: لقد اشتريتم الأسماء الخيثة بالثمن اليسير فلا نرى لك حقاً فيما تدعو إليه. ثم بعث يخبره إلى أبي مسلم فأمره بالقبض عليه وعلى من معه فحبسهم. ثم كتب إليه بإطلاق أخويه الحسن ويزيد وقتل عبد الله فوضع القسراش على وجهه فمات..... لما تعاهد نصر وابن الكرماني وقبائل ربيعة واليمن ومضر على قتال أبي مسلم عظم على الشيعة، وجمع أبو مسلم أصحابه ودس سليمان بن كثير إلى ابن الكرماني يذكره بشار أبيه من نصر فانتقضوا، فبعث نصر إلى أبي مسلم بموافقة مضر وبعث إليه أصحاب ابن الكرماني وهم ربيعة واليمن يمثل ذلك. واستدعى وفد الفريقين ليختار الزكون إلى أحدهما وأحضر الشيعة لذلك وأخبرهم أن مضر أصحاب مروان وعماله وشيعته وقبله يحيى بن يزيد. فلما حضر الوفد تكلم سليمان بن كثير، ويزيد بن شقيق السلمي يمثل ذلك وبأن نصر بن سيار عامل مروان ويسميه

يستقدم أبا داود. ويعث النضر بن صبيح المزني على بلخ. ولما قدم أبو داود أشار على أبي مسلم بالفرقة بين علي وعثمان ابني الكرمانى. فبعث عثمان على بلخ وقدمها فاستخلف الفرافصة بن ظهير العبسي وسار هو والنضر بن صبيح إلى مرو الروذ. وجاء مسلم بن عبد الرحمن الباهلي من ترمذ في المضربة، فاستولى على بلخ. ورجع إليه عثمان والنضر فهربوا من ليلتهم ولم يُعن النضر في طلبهم وقتلهم عثمان ناحية عنه فانهزم، ورجع أبو داود إلى بلخ. وسار أبو مسلم إلى نيسابور ومعه علي بن الكرمانى وقد اتفق مع أبي داود على قتال ابني الكرمانى فقتل أبو داود عثمان في بلخ وقتل أبو مسلم علياً في طريقه إلى نيسابور.

مسير قحطبة للفتح

وفي سنة ثلاثين قدم قحطبة بن شبيب على أبي مسلم من عند الإمام إبراهيم وقد عقد له لواء على محاربة العدو فبعثه أبو مسلم في مقدمته وضم إليه العساكر وجعل إليه التولية والعزل، وأمر الجنود بطاعته. وقد كان حين غلب على خراسان بعث العمال على البلاد فبعث ساعي بن النعمان الأزدي على سمرقند وأبا داود خالد بن إبراهيم على طخارستان وعمد بن الأشعث الخزاعي على طبيين وجعل مالك بن الهيثم على شرطته. وبعث قحطبة إلى طوس ومعه عدة من القواد: أبو عون عبد الملك بن يزيد وخالد بن برمك وعثمان بن نهيك، وحازم بن خزيمة وغيرهم فهزم أهل طوس وأفحش في قتلهم.

ثم بعث أبو مسلم القاسم بن مجاشع إلى نيسابور على طريق الحجة، وكتب إلى قحطبة بقتال تميم بن نصر بالسودقان، ومعه الثاني ابن سويد وأصحاب شيان، وأمده بعشرة آلاف مع علي بن معقل. فزحف إليهم ودعاهم بدعوته وقتلهم، فقتل تميم بن نصر وجماعة عظيمة من أصحابه، يقال: بلغوا ثلاثين ألفاً واستبيح معسكرهم وتحصن الباقي بالمدينة فاقتحمها عليهم، وخلف خالد بن برمك على قبض الغنائم، وسار إلى نيسابور. فهرب منها نصر بن سيار إلى قومن ثم تفرق عنه أصحابه فसार إلى نابتة بن حنظلة بجرجان وكان يزيد بن هبيرة بعثه مدداً لنصر، فأتى فارس وأصبهان ثم سار إلى الري، ثم إلى جرجان.

وقدم قحطبة نيسابور فاقام بها رمضان وشوال وارتحل إلى جرجان، وجعل ابنه الحسن على مقدمته وانتهى إلى جرجان وأهل الشام بها مع نابتة فهاجم أهل خراسان فخطبهم قحطبة وأخبرهم أن الإمام أخبره أنهم يلقونه مثل هذه العدد فينصرونه عليهم. ثم

يأترون بك ليقتلوك. فخرج نصر عند المساء من خلف حجرته ومعه ابنه تميم والحكم بن غيلة التميمي وامراته المرزبانية وانطلقوا هرباً.

واستبطأ لاهز فدخل المنزل فلم يجده وبلغ أبا مسلم هربه فجاء إلى معسكره وقبض على أصحابه منهم سالم بن أحوز صاحب شرطته والبختري كاتبه، وإبنان له ويونس بن عبد ربه ومحمد بن قطن وغيرهم. وسار أبو مسلم وابن الكرمانى في طلبه ليلتهما فأدركا امراته قد خلفها وسار فرجعوا إلى مرو. وبلغ نصر من سرخس فأقام بطوس خمس عشرة ليلة. ثم جاء نيسابور فأقام بها وتعاقد ابن الكرمانى مع أبي مسلم على رايه. ثم بعث إلى شيان الحروري يدعو إلى البيعة فقال شيان: بل أنت تبايعني..... واستنصر بابن الكرمانى فأبى عليه، وسار شيان إلى سرخس واجتمع له جمع من بكر بن وائل وبعث إليه أبو مسلم في الكف فسجن الرسل. فكتب إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث المكنى بأبي ورد أن يسير إليه فقاتله وقتله بكر بن وائل الرسل الذين كانوا عنده.

وقيل: إن أبا مسلم إنما وجه إلى شيان عسكرياً من عنده عليهم خزيمة بن حازم وبسام بن إبراهيم. ثم بعث أبو مسلم كعباً من النقباء إلى أبيورد فاقتحمها، ثم أبا داود خالد بن إبراهيم من النقباء إلى بلخ وبها زياد بن عبد الرحمن القشيري فجمع له أهل بلخ وترمذ وجند طخارستان ونزل الجوزجان، ولقيهم أبو داود فهزمهم وملك مدينة بلخ. وساروا إلى ترمذ فكتب أبو مسلم إلى أبي داود يستقدمه وبعث مكانه على بلخ يحيى بن نعيم أبا الميلا فدخله زياد بن عبد الرحمن في الخلاف على أبي مسلم، واجتمع لذلك زياد ومسلم بن عبد الرحمن الباهلي، وعيسى بن زردة السلمي وأهل بلخ وترمذ وملوك طخارستان وما وراء النهر. ونزلوا على فرسخ من بلخ وخرج إليهم يحيى بن نعيم بمن معه.

وافقت كلمة مضر وربيعة واليمن ومن معهم من العجم على قتال المسودة ولولا عليهم مقاتل بن حيان النبطي مخافة أن يتنافسوا. وبعث أبو مسلم أبا داود إليهم فاقبل بعساكره حتى اجتمعوا على نهر السرخسان واقتلوا. وكان زياد وأصحابه قد خلفوا أبا سعيد القرشي مسلحة وراءهم خشية أن يؤتوا من خلفهم وكانت رايته سوداً وأغفلوا ذلك. فلما اشتد القتال زحف أبو سعيد في أصحابه لمددهم فظنوه كميناً للمسودة فانهزموا وسقطوا في النهر، وحوى أبو داود في معسكرهم بما فيه وملك بلخ.

ومضى زياد ويحيى ومن معهم إلى ترمذ وكتب أبو مسلم

يقاتلون كل يوم، فكثرت فيهم الجراح والقتل، ومنعهم الميرة فأصابهم الجوع فرجع موسى إلى الري ولم يزل المصمغان متمنعاً إلى أيام المنصور فأغراه حماد بن عمر في جيش كثيف، ففتح ديباوند. ولما ورد كتاب قحطبة على أبي مسلم ارتحل عن مرو ونزل نيسابور ثم سير قحطبة ابنه الحسن بعد نزوله الري بثلاث ليال، فسار عنها مالك بن أدهم وأهل الشام وخراسان إلى نهاوند ونزل على أربعة فراسخ من المدينة، وأمدّه قحطبة بأبي الجهم بن عطية مولى باهلة في سبعمائة وأقام محاصراً لها.

استيلاء قحطبة على أصبهان ومقتل ابن

ضبارة وفتح نهاوند وشهرزور

قد تقدم لنا أن ابن هبيرة بعث ابنه داود بن يزيد لقتال عبد الله بن معاوية باصطخر، وبعث معه عامر بن ضبارة فهزموه واتبعوه إلى كرمان سنة تسع وعشرين، فلما بلغ ابن هبيرة مقتل نباتة بجرجان سنة ثلاثين، كتب إلى ابنه داود بن ضبارة بالسير إلى قحطبة فسار من كرمان في خمسين ألفاً ونزلوا أصبهان. وبعث إليهم قحطبة جماعة من القواد عليهم مقاتل بن حكيم الكعبي فنزّلوا قُسم وسار قحطبة إلى نهاوند مدداً لولده الحسن الذي حاصره فبعث مقاتلاً بذلك قحطبة، فسار حتى لحقه، وزحفوا للقاء داود بن ضبارة وهم في مائة ألف وقحطبة في عشرين ألفاً. وحل قحطبة وأصحابه فانهزم ابن ضبارة وقتل واحتوا على ما كان في معسكرهم مما لا يعبر عنه من الأصناف وذلك في رجب.

وطيّر قحطبة بالخبر إلى ابنه الحسن وسار إلى أصبهان فأقام بها عشرين ليلة، وقدم على ابنه فحاصروا نهاوند ثلاثة أشهر إلى آخر شوال، ونصبوا عليها المجانيق وبعث بالأمان إلى من كان في نهاوند من أهل خراسان فلم يقبلوا، فبعث إلى أهل الشام فقالوا: أشغل عنا أهل المدينة بالقتال نفتح لك المدينة من ناحيتنا، ففعلوا وخرجوا إليه جميعاً فقتلوا أهل خراسان فيهم أبو كامل وحاتم بن شريح وابن نصر بن سيار وعاصم بن عمير وعلي بن عقيل ويحيى.

وكان قحطبة لما جاء إلى نهاوند بعث ابنه الحسن إلى جهات حلوان وعليها عبد الله بن العلاء الكندي فتركها وهرب. ثم بعث قحطبة عبد الملك بن يزيد ومالك بن طرا في أربعة آلاف إلى شهرزور وبها عثمان بن سفيان على مقدمته عبد الله بن محمد فقاتلوا عثمان آخر ذي الحجة فانهزم وقتل. وملك أبو عوف بلاد الموصل، وقيل: إن عثمان هرب إلى عبد الله بن مروان وغنم أبو

تقدم للقتال وعلى ميمته ابنه الحسن فانهزم أهل الشام وقتل نباتة في عشرة آلاف منهم وبعث برأسه إلى أبي مسلم، وذلك في ذي الحجة من السنة وملك قحطبة جرجان. ثم بلغه أن أهل جرجان يرومون الخروج عليهم فاستعرضهم وقتل منهم نحواً من ثلاثين ألفاً وسار نصر من قومس إلى خوار الري وعليها أبو بكر العقيلي وكتب إلى ابن هبيرة بواسط يستمده فحسب رسله. فكتب مروان إلى ابن هبيرة فجهز ابن هبيرة جيشاً كثيفاً إلى نصر وعليهم ابن عطيف.

هلاک نصر بن سيار

ثم بعث قحطبة ابنه الحسن إلى محاصرة نصر في جوار الري في محرم سنة إحدى وثلاثين، وبعث إليه المدد مع أبي كامل وأبي القاسم عكر بن إبراهيم وأبي العباس المروزي. ولما تقاربوا نزح أبو كامل إلى نصر فكان معه وهرب جند قحطبة وأصحاب نصر أصابهم شيء من متاعهم فبعثه نصر إلى ابن هبيرة فاعترضه ابن عطيف بالري فأخذه فغاضبه نصر فأقام ابن عطيف بالري. وسار نصر إلى الري وعليها حبيب بن يزيد النهشلي. فلما قدما سار ابن عطيف إلى همدان وكان فيها مالك بن أدهم بن عكرز الباهلي، فعدل بن عطيف عنها إلى أصبهان وبها عامر بن ضبارة، وقدم نصر الري فأقام بها يومين ومرض وارتحل. فلما بلغ نهاوند مات لاثني عشر من ربيع الأول من السنة ودخل أصحابه همدان.

استيلاء قحطبة على الري

ولما مات نصر بن سيار بعث الحسن بن قحطبة خزمية بن حازم إلى سمنان وأقبل قحطبة من جرجان وقدم زياد بن زرارة القشيري وقد كان قدم على طاعة أبي مسلم واعتزم على اللحاق بابن ضبارة، فبعث قحطبة في أثره المسيب بن زهير الضبي فهزمه، وقتل عامة من مع ابن معاوية ورجع، ولحق قحطبة ابنه الحسن إلى الري فخرج عنها حبيب بن يزيد النهشلي وأهل الشام، ودخلها الحسن في صفر ثم لحق به أبوه وكتب برسالة إلى أبي مسلم.

وقد أكثر أهل الري إلى بني أمية فأخذ أبو مسلم أملاكهم ولم يردّها عليهم إلا السفاح بعد حين. فأقام قحطبة بالري وكتب أبو مسلم إلى أصبهان طبرستان بالطاعة وأداء الخراج فأجاب، وكتب إلى المصمغان صاحب ديباوند وكبير الديلم بمثل ذلك فأفحش في الرد. فكتب أبو مسلم إلى موسى بن كعب أن يسير إليه من الري فسار ولم يتمكن منه لضيق بلاده. وكان الديلم

إلى قحطبة وهو لم يعلم بهلاكه فقرأه الحسن على الناس. وارتحل نحو الكوفة فصيحتها الرابعة من مسيره وقيل: إن الحسن بن قحطبة سار إلى الكوفة بعد قتل ابن هبيرة وعليها عبد الرحمن بن بشير العجلي فهرب عنها وسبق محمد بن خالد وخرج في أحد عشر رجلاً فلقي الحسن ودخل معه وأتوا إلى أبي مسلمة فاستخرجوه من بني مسلمة وعسكر بالنخيلة، ثم نزل حمام أعين.

وبعث الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هبيرة وباع الناس أبا مسلمة حفص بن سليمان الخلال وزير آل محمد واستعمل محمد بن خالد القسري على الكوفة وكان يسمى الأمير، حتى ظهر أبو العباس السفاح وبعث حميد بن قحطبة إلى المدائن في قواد والمسيب بن هبيرة وخالد بن مرمل، إلى دير فناء وشراحيل إلى غير.... ويسام بن إبراهيم بن بسام إلى الأهواز، وبها عبد الرحمن بن عمر بن هبيرة فقاتله بسام وانهمز إلى البصرة وعليها مسلم بن قتيبة الباهلي عاملاً لأخيه. وبعث بسام في أثره سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب والياً على البصرة، فجمع سالم قيساً ومضر وبني أمية. وجاء قائد من قواد ابن هبيرة في ألفي رجل، وجمع سفيان اليمانية وحلفاءهم من ربيعة واقتتلوا في صفر. وقتل ابن سفيان واسمه معاوية فانهمز لذلك. ثم جاء إلى سالم أربعة آلاف مدداً من عند مروان فقاتل الأزدي واستباحهم ولم يزل بالبصرة حتى قتل ابن هبيرة فهرب عنها. واجتمع ولد الحارث بن عبد المطلب إلى محمد بن جعفر فولوه أياماً حتى قدم أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي من قبل أبي مسلم. فلما بويع أبو العباس السفاح ولاها سفيان بن معاوية.

بيعة السفاح

قد كنا قدمنا خبر الدعاة وقبض مروان على إبراهيم بن محمد وأنه حبسه بجران وكان نعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم باللاحاق بالكوفة وأوصى على أخيه أبي العباس عبد الله بن الحرثية. فسار أبو العباس ومعه أهل بيته ومن أخوته أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد ابن أخيه إبراهيم وعيسى ابن أخيه موسى ومن أعمامه داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد وبنو علي بن عبد الله بن عباس، وموسى ابن عمه داود ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس، فقدموا الكوفة في صفر وأبو سلمة والشيعية على حمام أعين بظاهر الكوفة وأنزلهم أبو سلمة دار الوليد بن سعد مولد بني هاشم في بني أود، وكتب أمرهم عن جميع القواد والشيعية أربعين ليلة، وأراد فيما زعموا أن يتحول

عون عسكره وقتل أصحابه، ويبحث إليه قحطبة بالمدد. وكان مروان بن محمد بجران فسار في أهل الشام والجزيرة والموصل ونزل الزاب الأكبر وأتوا شهرزور إلى الحرم سنة اثنتين وثلاثين..

حرب السفاح ابن هبيرة مع قحطبة ومقتلها وفتح الكوفة

ولما قدم على يزيد بن هبيرة ابنه داود منهزماً من حلوان خرج يزيد للقاء قحطبة في مدد لا يحصى، وكان مروان أمده بجوثة بن سهيل الباهلي، فسار معه حتى نزل حلوان واحتضر الخندق الذي كانت فارس احتفرته أيام الواقعة. وأقام وأقبل قحطبة إلى حلوان ثم عبر دجلة إلى الأنبار فرجع ابن هبيرة مبادراً إلى الكوفة. وقدم إليها حوثة في خمسة عشر ألفاً وعبر قحطبة الفرات من الأنبار لثمان من الحرم سنة اثنتين وثلاثين، وابن هبيرة معسكر على فم الفرات وعلى ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة، ومعه حوثة وفلأ ابن ضبارة. وأشار عليه أصحابه أن يدع الكوفة ويقصد هو خراسان فيتبعه قحطبة فأبى إلا البدار إلى الكوفة، وعبر إليها دجلة من المدائن، وعلى مقدمته حوثة والفرقان يسيران على جانب الفرات.

وقال قحطبة لأصحابه: إن الإمام أخبرني بأن وقعة تكون بهذا المكان والنصر لنا، ثم دلوه على غحضة فعبر منها، وقاتل حوثة وابن نباتة فانهمز أهل الشام، وقعد قحطبة وشهد مقاتل العجلي بأن قحطبة عهد لابنه الحسن بعده، فبايع جميع الناس لأخيه الحسن، وكان في سرية فبعثوا عنه ولوه. ووجد قحطبة في جدول هو وحرب بن كم بن أحوز وقيل: إن قحطبة لما عبر الفرات وقاتل ضربه معن بن زائدة فسقط وأوصى إذا مات أن يلقي في الماء. ثم انهمز ابن نباتة وأهل الشام ومات قحطبة وأوصى بأمر الشيعة إلى أبي مسلمة الخلال بالكوفة وزير آل محمد. ولما انهمز ابن نباتة وحوثة لحقوا بابن هبيرة فانهمز إلى واسط واستولى الحسن بن قحطبة على ما في معسكرهم.

وبلغ الخبر إلى الكوفة فثار بها محمد بن خالد القسري بدعوة الشيعة خرج ليلة عاشوراء وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثي وعلى شرطته عبد الرحمن بن بشير العجلي وسار إلى.... فهرب زياد ومن معه من أهل الشام ودخل القصر ورجع إليه حوثة.... وعن محمد عامة من معه ولزم القصر. ثم جاء قوم من بجيلة من أصحاب حوثة فدخلوا في الدعوة. ثم آخرون من كنانة، ثم آخرون من بحدل فارتحل حوثة نحوهم.... وكتب محمد

ما صعد هذا المنبر خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار إلى السفاح. وأن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا حتى نسلمه لعيسى بن مريم.

ثم نزل أبو العباس وداود أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر في المسجد يأخذ البيعة على الناس حتى جن الليل. وخرج أبو العباس إلى عسكر أبي سلمة ونزل معه في حجرته بينهما ستر. وحاجب السفاح يومئذ عبد الله بن بسام. واستخلف على الكوفة عمه داود وبعث عمه عبد الله إلى أبي عون بن يزيد بشهريزور وبعث ابن أخيه موسى إلى الحسن بن قحطبة وهو يحاصر ابن هبيرة بواسط وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلى أحمد بن قحطبة بالمداخن. وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز، وبعث سلمة بن عمر بن عثمان بن مالك بن الطواف. وأقام السفاح بالعسكر شهراً ثم ارتحل فنزل قصر الإمارة من المدينة الهاشمية. وقد قيل: إن داود بن علي وابنه موسى لم يكونا بالشام عند مسير بني العباس إلى الكوفة وإنهما لقياهم بدومة الجندل فعرفا خبرهم. وقال لهم داود: كيف تأتون الكوفة؟ ومروان بن محمد في حران في أهل الشام والجزيرة فطل على العراق وي زيد بن هبيرة بالعراق. فقال يا عم: من أحب الحياة ذل فرجع داود وابنه معه.

مقتل إبراهيم ابن الإمام

قد تقدم لنا أن مروان حبسه بحران وحبس سعيد بن هشام بن عبد الملك وابنيه عثمان ومروان والعباس بن الوليد بن عبد الملك وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز وأبا محمد السفياني فهلك منهم في السجن من وباء وقع بحران العباس بن الوليد وإبراهيم ابن الإمام وعبد الله بن عمر. وخرج سعيد بن هشام ومن معه من المحبوسين بعد أن قتلوا صاحب السجن فقتلهم الغوغاء من أهل حران. وكان فيمن قتلوه شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك وعبد الملك بن بشر الثعلبي وبطريق أرمينية واسمه كوشان. وتحلف أبو محمد السفياني في الحبس لم يستحل الخروج منه. ولما قدم مروان منهزماً من الزاب حل عنه فيمن بقي وقيل: إن شراحيل بن مسلمة كان محبوساً مع إبراهيم ابن الإمام بلبن ويتهاديان، ففسد في بعض الأيام إلى إبراهيم ابن الإمام بلبن مسموم على لسان شراحيل فاستطلق بطنه. وقيل: إن شراحيل

الأمر إلى أبي طالب. وسأله أبو الجهم من الشيعة وغيره فيقول: لا تعجلوا ليس هذا وقته.

ولقي أبو حميد محمد بن إبراهيم ذات يوم خادماً لإبراهيم الإمام وهو سابق الخورزمي فسأله عن الإمام فقال: قتل إبراهيم وأوصى إلى أخيه أبي العباس وما هو بالكوفة ومعه أهل بيته. فسأله في اللقاء فقال: حتى أستاذن، وواعده من الغد في ذلك المكان، وجاء أبو حميد إلى أبي الجهم فأخبره وكان في عسكر أبي سلمة فقال له: تطف في لقائهم. فجاء إلى موعد سابق ومضى معه ودخل عليهم فسأل عن الخليفة فقال داود بن علي: هذا إمامكم وخليفتمكم يشير إلى أبي العباس. فسلم عليه بالخلافة وعزاه بإبراهيم الإمام، ورجع ومعه خادماً من خدمهم إلى أبي الجهم فأخبره عن منزلهم وأن أبا العباس أرسل إلى أبي سلمة أن يبعث إليه كراء الرواحل التي جاؤوا إليها، فلم يبعث إليهم شيئاً فمشى أبو الجهم وأبو الحميد والخادماً إلى موسى بن كعب وأخبروه بالأمر وبعثوا إلى الإمام ماتني دينار مع خادمه.

واتفق رأي القواد على لقاء الإمام فنهض موسى بن كعب وأبو الجهم عبد الحميد بن ربيعي وسلمة بن محمد وعبد الله الطائي وإسحاق بن إبراهيم وشراحيل وأبو حميد وعبد الله بن بسام ومحمد بن إبراهيم ومحمد بن حصين وسليمان بن الأسود فدخلوا على أبي العباس فسلموا عليه بالخلافة وعزوه في إبراهيم. ورجع موسى بن كعب وأبو الجهم وخلفوا الباقيين عند الإمام وأوصوهم إن جاء أبو سلمة لا يدخلن إلا وحده. وبلغه الخبر فجاء ودخل وحده كما حددوا له وسلم على أبي العباس بالخلافة وأمره بالعود إلى معسكره وأصبح الناس يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول فلبسوا الصفائح واصطفوا للخروج إلى أبي العباس وأتوه بالدواب وله ولبن معه من أهل بيته، وأركبهم إلى دار الإمارة.

ثم رجع إلى المسجد فخطب وصى بالناس وبأيعوه ثم صعد المنبر ثانية فقام في أعلاه وصعد عمه داود فقام دونه وخطب خطبته البليغة المشهورة وذكر حقهم في الأمر وميراثهم له، وزاد الناس في إعطياتهم، وكان موعزاً فاشتد عليه الروعك فجس على المنبر. وقام عمه داود على أعلى المراقي فخطب مثله وذم سيرة بني أمية وعاهد الناس على إقامة الكتاب والسنة وسيرة النبي. ثم اعتذر عن عود السفاح بعد الصلاة على المنبر وأنه أراد أن لا يخلط كلام الجمعة بغيرها، وإنما قطعه عن إتمام الكلام شدة الروعك فسادوا الله له بالعافية. ثم بالغ في ذم مروان وشكر شيعتهم من أهل خراسان وأن الكوفة منزلهم لا يتخلون عنها وأنه

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون احتيل والله عليه، وأصبح ميتاً من ليلته.

هزيمة مروان بالزباب ومقتله بمصر

قد ذكرنا أن قحطبة أرسل أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور فقتل عثمان بن سفيان وأقام بناحية الموصل وأن مروان بن محمد سار إليه من حران في مائة وعشرين ألفاً وسار أبو عون إلى الزباب ووجه أبو سلمة عينية بن موسى والمنهال بن قبان وإسحاق بن طلحة كل واحد في ثلاثة آلاف مدداً له. فلما بويع أبو العباس وبعث مسلمة بن محمد في ألفين وعبد الله الطائي في ألف وخمسمائة وعبد الحميد بن ربيعي الطائي في ألفين ودراس بن فضلة في خمسمائة كلهم مدداً لأبي عون، ثم ندب أهل بيته إلى المسير إلى أبي عون، فانتدب عبد الله بن علي فسار وقدم على أبي عون فتحول له عن سراقده بما فيه. ثم أمر عينية بن موسى بخمسة آلاف تعبر النهر من الزباب أول جمادى الآخر سنة اثنتين وثلاثين وقاتل عساكر مروان إلى المساء. ورجع ففقد مروان الجسر من الغد وقدم ابنه عبد الله وعبر فبعث عبد الله بن علي المخارق بن غفار في أربعة نحو عبد الله بن مروان فسرح ابن مروان الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، فانهزم أصحاب المخارق وأسر هو وجيء به إلى مروان مع رؤوس القتلى، فقال: أنت المخارق؟ قال: لا! قال: فتعرفه في هذه الرؤوس؟ قال: نعم! قال: هو ذا فخلني سبيله. وقيل: بل أنكر أن يكون في الرؤوس فخلني سبيله.

وعاجلهم عبد الله بن علي بالحرب قبل أن يفشوا الخبر وعلى ميمته أبو عون وعلى ميسرته الوليد بن معاوية. وكان عسكره نحواً من عشرين ألفاً، وقيل: إثني عشر. وأرسل مروان إليه في المودعة فأبى وحمل الوليد بن معاوية بن مروان وهو صهر مروان على ابنته، فقاتل أبا عون حتى انهزم إلى عبد الله بن علي فأمر الناس فارتحلوا. ومشى قدماً ينادي: يا لشارت إبراهيم! وبالشعار: يا محمد يا منصور. وأمر مروان القبائل بأن يحملوا فتخاذلوا واعتذروا حتى صاحب شرطته. ثم ظهر له الخلل فأباح الأموال للناس على أن يقاتلوا فآخذوها من غير قتال. فبعث ابنه عبد الله يصددهم عن ذلك فتبادروا بالفرار وانهزموا وقطع مروان الجسر وكان من غرق أكثر ممن قتل. وغرق إبراهيم بن الوليد المخلوع وقيل: بل قتله عبد الله بن علي بالشام وعن قتل يحيى بن علي بن هشام وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين.

وأقام عبد الله في عسكره سبعة أيام واجتاز عسكر مروان بما فيه. وكتب بالفتح إلى أبي العباس السفاح، وسار مروان منهزماً إلى مدينة الموصل وعليها هشام بن عمر الثعلبي وابن خزيمة الأسدي، فقطعوا الجسر ومنعوا العبور إليهم وقيل: هذا أمير المؤمنين فتجاهلوا وقالوا: أمير المؤمنين لا يفر. ثم أسمعوه الشتم والقبائح فسار إلى حران وبها أبان ابن أخيه، وسار إلى حصص وجاء عبد الله إلى حران فلقه أبو مسعود فأمته ولقي الجزيرة. ولما بلغ مروان حصص أقام بها ثلاثاً وارتحل فاتبعه أهلها لينهبوه فقاتلهم وهزمهم وأتخن فيهم. وسار إلى دمشق وعليها الوليد بن عمه فأوصاه بقتال عدوه.

وسار إلى فلسطين فزل نهر أبي فطرس وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجذامي، فأرسل إلى عبد الله بن يزيد بن روح بن زبناع الجذامي فأجاره، ثم سار عبد الله بن علي في أثره من حران بعد أن هدم الدار التي حبس فيها أخوه الإمام إبراهيم. وانتهى إلى قنبح فأطاعه أهلها وقدم عليه أخوه عبد الصمد بعث السفاح مدداً في ثمانية آلاف وافترق قواد الشيعة على أبواب دمشق فحاصروها أياماً. ثم دخلوها عنوة لخمسة من رمضان واقتتلوا بها كثيراً وقتل عاملها الوليد بن معاوية. وأقام عبد الله بدمشق خمس عشرة ليلة وارتحل يريد فلسطين فأجفل مروان إلى العريش.

وجاء عبد الله فزل نهر أبي فطرس ووصله هناك كتاب السفاح بأن يبعث صالح بن علي في طلب مروان. فسار صالح في ذي القعدة وعلى مقدمته أبو عون وعامر بن إسماعيل الحارثي فأجفل مروان إلى النيل ثم إلى الصعيد ونزل صالح الفسطاط وتقدمت عساكره فلقوا خيلاً لمروان فهزموهم وأسروا منهم ودلوهم على مكانه ببوصير. فسار إليه أبو عون وبيته هنالك خوفاً من أن يفضحه الصبح فانهزم مروان وطعن فسقط في آخر ذي الحجة الحرام وقطع رأسه، وبعث به طليعة أبي عون إليه. فبعثه إلى السفاح وهرب عبد الله وعبيد الله ابن مروان إلى الحبشة وقتلوهم فقتل عبيد الله ونجا عبد الله وبقي إلى أيام المهدي. فأخذه عامل فلسطين وسجنه المهدي.

وكان طليعة أبي عون عامر بن إسماعيل الحارثي فوجد نساء مروان وبناته في كنيسة ببوصير قد وكل بهن خادماً يقتلن بعده فبعث بهن صالح. ولما دخلن عليه سألته في الإبقاء فلامهن على قتلهن عند بني أمية. ثم عفا عنهن وحملهن إلى حران يكيّن. وكان مروان يلقب بالحمار لحرنه في موطن الحرب. وكان أعداؤه يلقبونه الجعدي نسبة إلى الجعد بن درهم كان يقول بخلق القرآن

أرمينية وهو على الجزيرة قبل أن يلي العراق، فهزمهم وأسر منهم خلقاً وقتل منهم سبعمائة أسير. وغزا العباس بن الوليد الروم أيضاً ففتحها لسنة. ثم غزا سنة ثلاث بعدها فافتتح مدينة رُسُلَة. ثم غزا الجراح الحكمي أيام هشام سنة خمس فبلغ وراء بلنجر وغنم وغزا في هذه السنة سعيد بن عبد الملك أرض الروم وبعث ألف مقاتل في سرية فهلكوا جميعاً. وغزا فيها مروان بن محمد بالصائفة اليمنى، ففتح مدينة قريبة من أرض الزوكخ. ثم غزا سعيد بن عبد الملك بالصائفة أيام هشام سنة ست. ثم غزا مسلمة بن عبد الملك الروم من الجزيرة وهو وال عليها ففتح قيسارية. وغزا إبراهيم بن هشام ففتح حصناً. وغزا معاوية بن هشام في البحر قبرص، وغزا سنة تسع ففتح حصناً آخر يقال له طيسة. وغزا سنة عشر بالصائفة عبد الله بن عقبة الفهري، وكان على جيش البحر عبد الرحمن بن معاوية بن خديج. وغزا بالصائفة اليسرى سنة إحدى عشرة معاوية بن هشام وبالصائفة اليمنى سعيد بن هشام وفي البحر عبد الله بن أبي مریم. وافتتح معاوية في صائفة ثلاثة عشرة سنة خرسفة. وغزا سنة ثلاث عشرة عبد الله البطال، فانهزم فثبت عبد الوهاب من أصحابه فقتل. ودخل معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش. ثم غزا سنة أربع عشرة بالصائفة اليسرى وأصحاب ريش أفرق. والتقى عبد الله البطال مع قسطنطين، فهزمه البطال وأسرهم. وغزا سليمان بن هشام بالصائفة اليسرى فبلغ قيسارية، وهزم مسلمة بن عبد الملك خاقان وباب الباب. وغزا معاوية بن هشام بالصائفة سنة خمس عشرة. وغزا سفيان بن هشام بالصائفة اليسرى سنة سبع عشرة. وسليمان بن هشام بالصائفة اليمنى من ناحية الجزيرة، وفرق السرايا في أرض الروم وبعث فيها مروان بن محمد من أرمينية.... فافتتحوا من أرض اللان أهلها أخذها قومانساه صلحاً، وغزا معاوية وسليمان أيضاً أرض الروم سنة ثمانى عشرة. وغزا فيها مروان بن محمد من أرمينية ودخل أرض وارقيس، فهرب وارقيس إلى الحرور ونازل حصنه فحاصره. وقتل وارقيس بعض من اجتاز به وبعث برأسه إلى مروان ونزل أهل الحصن على حكمه فقتل وصي.

وغزا سنة تسع عشرة مروان بن محمد من أرمينية ومر ببلاد اللان إلى بلاد الخزر على بلنجر وسمندر وانتهى إلى خاقان فهرب خاقان منه. وغزا سليمان بن هشام سنة عشرين بالصائفة فافتتح سندرة وغزا إسحاق بن مسلم العقيلي قومانساه وافتتح قلاعه وخرب أرضه. وغزا مروان من أرمينية سنة إحدى وعشرين وأثنى عشرة قلعاً بيت السرير فقتل وصي، ثم قلعاً أخرى كذلك ودخل

ويتزندق. وأمر هشام خالد القسري بقتله فقتله. ثم تبعوا بني أمية بالقتل. ودخل أسديف يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام وقد آمنه والده فقال:

لا يغررك ما ترى من رجال أن بين الضلوع داء دويما
فضع السيف وارفح السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أميماً
فأمر السفاح بسليمان فقتل. ودخل شبيل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي وعنده ثمانون أو تسعون من بني أمية يأكلون على مائدته فقال:

أصبح الملك في ثبات الأساس بالبهاليل من بني العباس
طلبوا أمر هاشم فتعنوا بعد ميل من الزمان وباس
لا تغلبن عبد شمس عشاراً فاقطن كل رقلة وغراس
فلنا أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسي
فلقد غاضني وغاض سوائي قريبهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار المون والإتماس
وأذكروا مصرع الحسين وزيداً وقتلاً بمجانب المهراس
والقتيل الذي جمران أضحي ثاوياً رهن غربة ونعاس

فأمر بهم عبد الله فشذخوا بالعمد، ويسط من فوقهم الأنطاع فأكل الطعام عليها وأنينهم يسمع حتى ماتوا، وذلك بنهر أبي فطرس. وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان والمعز بن يزيد وعبد الواحد بن سليمان وسعيد بن عبد الملك وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك. وقيل: إن إبراهيم المخلوع قتل معهم، وقيل: إن أسديفاً هو الذي أنشد هذا الشعر للسفاح وأنه الذي قتلهم. ثم قتل سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة جماعة من بني أمية فأمر بأشلانهم في الطرق فأكلتهم الكلاب، وقيل: إن عبد الله بن علي أمر بنيش قبور الخلفاء من بني أمية فلم يجدوا في القبور إلا شبه الرماد وخيطاً في قبر معاوية وجمجمة في قبر عبد الملك. وربما وُجد فيها بعد الأعضاء إلا هشام بن عبد الملك فإنه وجد كما هو لم يبل، فضربه بالسوط ثم صلبه وحرقه وذراه في الريح، والله أعلم بصحة ذلك. ثم تبعوا بني أمية بالقتل فلم يفلت منهم إلا الرضعا أو من هرب إلى الأندلس مثل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وغيرهم ممن تبعه من قرابته كما يذكر في أخبارهم.

بقية الصوائف في الدولة الأموية

قد انتهينا بالصوائف إلى آخر أيام عمر بن عبد العزيز وفي سنة اثنتين ومائة أيام يزيد غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية

من قبله على أفريقية عقبة بن نافع بن عبد قيس، وهو ابن خالته فانتهى إلى لواتة ومزاةة فأطاعوه ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى. ثم انتح سنة اثنتين وأربعين بعدها غدامس وقتل وسبى وافتتح سنة ثلاث وأربعين بعدها بلدودان وولى معاوية بالمدينة سنة اثنتين وأربعين مروان بن الحكم فاستقضى عبد الله بن الحارث بن نوفل.

وولى معاوية على مكة في هذه السنة خالد بن العاصي بن هشام، وكان على أرمينية حبيب بن مسلمة الفهري وولاه عليها معاوية ومات سنة اثنتين وأربعين فولى مكانه.

واستعمل ابن عامر في هذه السنة على ثغر الهند عبد الله بن سوار العبدي ويقال: ولاه معاوية. وعزل ابن عامر في هذه السنة قيس بن الميثم عن خراسان وولى مكانه الحارث بن عبد الله بن حازم. ثم عزل معاوية عبد الله بن عامر عن البصرة سنة أربع وأربعين وولى مكانه الحارث بن عبد الله الأزدي، ثم عزله لأربعة أشهر وولى أخاه زياداً سنة خمس وأربعين، فولى على خراسان الحكم بن عمر الغفاري، وجعل معه على الخراج أسلم بن زرعة الكلبي. ثم مات الحكم فولى خليفه بن عبد الله الحنفي سنة سبع وأربعين.

ثم ولي على خراسان سنة ثمان بعدها غالب بن فضالة الليثي، وتولى عمرو بن العاصي سنة تسع وأربعين فولى مكانه سعيد بن العاصي، فعزل عبد الله بن الحارث عن القضاء واستقضى أبا سلمة بن عبد الرحمن. وفي سنة خمسين توفي المغيرة بن شعبة فضم الكوفة إلى أخيه زياد، فجاء إليها واستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وكان يقسم السنة بين المصريين في الإقامة نصفاً ونصف. وفي سنة خمسين هذه اقتطع معاوية أفريقية عن معاوية بن خديج بمصر وولى عقبة بن نافع الفهري وكان مقيماً بركة وزويلة من وقت فتحها أيام عمرو بن العاصي، فأمدته بعشرة آلاف فصار إليها. وانضاف إليه من أسلم من البربر، ودوخ البلاد وبنى بالقروان، وأنزل عساكر المسلمين ثم استعمل معاوية على مصر وأفريقية مولاه أبا المهاجر، فأساء عزل عقبة، وجاء عقبة إلى الشام فاعتذر إليه معاوية ووعده بعمله ومات معاوية فولاه يزيد سنة اثنتين وستين.

وذكر الرازي أن عقبة ولي سنة اثنتين وستين واستعمل أبا المهاجر فولى الأمصار، فحبس عقبة وضيق عليه وأمره يزيد بإطلاقه فوفد عقبة فأعاده إلى عمله. فحبس أبا المهاجر وخرج غازياً وأئخن حتى قتله كسيلة كما يأتي في أخباره. وفي سنة إحدى وخمسين ولي زياد على خراسان الربيع بن زياد الحارث

عزسك وهو حصن الملك فهرب منه الملك ودخل حصناً له يسمى جرج فيه سرير الذهب فنأزله مروان حتى صالحه على ألف فارس كل سنة ومائة ألف مدنى. ثم دخل أرض أرزق ونصران فصالحه ملكها. ثم أرض نومان كذلك. ثم أرض حمدين فأخرب بلاده وحصر حصناً له شهراً حتى صالحه ثم أرض مسدد ففتحها على صلح. ثم نزل كبلان فصالحه أهل طبرستان وكيلان. وكل هذه الولايات على شاطئ البحر من أرمينية إلى طبرستان.

وغزا مسلمة بن هشام الروم في هذه السنة فافتتح بها مطاير. وفي سنة اثنتين وعشرين بعدها قتل البطال واسمه عبد الله بن الحسين الأنطاكي وكان كثير الغزو في بلاد الروم والإغارة عليهم. وقدمه مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان يغزو بلاد الروم إلى أن قتل هذه السنة. وفي سنة أربع وعشرين غزا سليمان بن هشام بالصائفة على عهد أبيه فلقي اليون ملك الروم فهزمه وغنم. وفي سنة خمس وعشرين خرجت الروم إلى حصن زنطره وكان افتتحه حبيب بن مسلمة الفهري وخزينة الروم وبنى بناء غير محكم فأخربوه ثانية أيام مروان. ثم بناء الرشيد وطرقه الروم أيام المأمون فشعبوه فأمر بينائه وتحصينه. ثم طرقوه أيام المعتصم وخبره معروف. وفي هذه السنة غزا الوليد بن يزيد بالصائفة أخاه العمر وبعث الأسود بن بلال الحاربي بالجيش في البحر إلى قبرس ليجبر أهلها بين الشام والروم فافترقوا فريقين، وغزا أيام مروان سنة ثلاثين بالصائفة الوليد بن هشام ونزل القمق وبنى حصن موعش.

عمال بني أمية على النواحي

استعمل معاوية أول خلافته سنة أربعين عبد الله بن عمرو بن العاصي على الكوفة ثم عزله واستعمل المغيرة بن شعبة على الصلاة واستعمل.... على الخراج وكان على القباء بها شريح وكان حران بن أبان قد وثب على البصرة عندما صالح الحسن معاوية فبعث معاوية بشر بن أرطاة على البصرة وأمدته فقتل أولاد زياد ابن أبيه، وكان عاملاً على فارس لعلي بن أبي طالب، فقدم البصرة وقد ذكرنا خبره مع بني زياد فيما قبل. ثم ولي على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس وضم إليه خراسان وسجستان فجعل على شرطته حبيب بن شهاب وعلى القضاء عميرة بن تبرى، وقد تقدم لنا أخبار قيس في خراسان. وكان عمرو بن العاص عليها كما تقدم، فولى سنة إحدى وأربعين

ثم بويج مروان وسار إلى مصر فملكها من يد عبد الرحمن بن حجاج القرشي داعية ابن الزبير وولى عليها عمر بن سعيد. ثم بعثه للقاء مصعب بن الزبير لما بعثه أخوه عبد الله إلى الشام، وولى على مصر ابنه عبد العزيز فلم يزل عليها والياً إلى أن هلك لسنة خمس وثمانين، فولى عبد الملك عليها ابنه عبد الله بن عبد الملك.

وخلع أهل خراسان بعد يزيد سالم بن زياد واستخلف المهلب بن أبي صفرة، ثم ولى مسلم عبد الله بن حازم فاستبد بخراسان إلى حين. ثم أخرج أهل الكوفة عمر بن حريث خليفة بن زياد وبايعوا لابن الزبير وقدم المختار بن أبي عبيد أميراً على الكوفة من قبله بعد ستة أشهر من مهلك يزيد، وامتنع شريح من القضاء أيام الفتنة. واستعمل ابن الزبير على المدينة أخاه مصعباً سنة خمس وستين مكان أخيه عبد الله وثار بنو تميم بخراسان على عبد الله بن حازم فغلبه عليها بكير بن وشاح. وغلب المختار على ابن مطيع عامل ابن الزبير بالكوفة سنة ست وستين.

ثم مات مروان سنة خمس وستين وولى عبد الملك. وولى ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة وولى مكانه بالمدينة جابر بن الأسود بن عوف الزهري. ثم ملك عبد العزيز العراق سنة إحدى وسبعين واستعمل على البصرة خالد بن عبد الله بن أسد وعلى الكوفة أخاه بشر بن مروان وكان على خراسان عبد الله بن حازم بدعوة ابن الزبير، فقام بكير بن وشاح التميمي بدعوة عبد الملك وقتله. وولاه عبد الملك خراسان. وكان على المدينة طلحة بن عبد الله بن عوف بدعوة ابن الزبير بعد جابر بن الأسود، فبعث عبد الملك طارق بن عمر مولى عثمان فغلبه عليها. ثم قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين وانفرد عبد الملك بالخلافة وولى على الجزيرة وأرمينية أخاه محمداً. وعزل خالد بن عبد الله عن البصرة وضمها إلى أخيه بشر فسار إليها واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث. وولى على الحجاز واليمن واليمامة الحجاج بن يوسف وبعثه من الكوفة لحرب ابن الزبير. وعزل طارقاً عن المدينة وسار من جنده.

وفي سنة أربع وسبعين استقضى أبا إدريس الخولاني وأمر بشر أخاه أن يبعث المهلب بن أبي صفرة لحرب الأزارقة. وعزل عن خراسان بكير بن وشاح وولى مكانه أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد فبعث أمية ابنه عبد الله على سجستان. وكان على أفريقية زهير بن قيس البلوي فقتله البربر سنة تسع وستين. وشغل عبد الملك بفتنة ابن الزبير، فلما فرغ منها بعث إلى أفريقية سنة أربع وسبعين حسان بن النعمان القيساني في عساكر لم ير مثلهما، فأتخن فيها وافترقت جموع الروم والبربر. وقتل الكاهنة كما يذكر في أخبار أفريقية.

مكان خليلد بن عبد الله الحنفي. وفي سنة ثلاث وخمسين توفي زياد واستخلف على البصرة سمرة بن جندب وعلى الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد. ثم ولى الضحاك بن قيس سنة خمس بعدها.

. وفي هذه السنة مات الربيع بن زياد عامل خراسان قبل موت زياد واستخلفه ابنه عبد الله ومات لشهرين. واستخلف خليلد بن يربوع الحنفي وكان على صفابروز الديلمي من قبل معاوية فمات سنة ثلاث وخمسين. وفي سنة أربع وخمسين عزل معاوية عن المدينة سعيد بن العاص ورد إليها مروان بن الحكم ثم عزله سنة سبعة وولى مكانه الوليد بن عقبة بن أبي سفيان. وعزل سنة تسع وخمسين عن البصرة ابن جندب وولى مكانه عبد الله بن عمر بن غيلان، وولى على خراسان عبيد الله بن زياد ثم ولاه سنة خمس بعدها على البصرة مكان غيلان. ثم ولى على خراسان سنة ست وخمسين سعيد بن عثمان بن عفان. وفي سنة ثمان وخمسين عزل معاوية عن الكوفة الضحاك بن قيس واستعمل مكانه ابن أم الحكم وهي أخته، وهو عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، وطرده أهل الكوفة فولاه مصر. فردّه معاوية بن خديج وولى مكانه على الكوفة سنة تسع وخمسين النعمان بن بشير وولى فيها على خراسان عبد الرحمن بن زياد. فقدم إليها قيس بن الهيثم السلمي فحبس أسلم بن زرعة فأغرمه ثلاثمائة ألف درهم.

ثم مات معاوية سنة ستين وولاه على النواحي من ذكرناه وعلى سجستان عباد بن زياد وعلى كرمان شريك بن الأعور. وعزل يزيد لأول ولايته الوليد بن عقبة عن المدينة والحجاز وولاه عمر بن سعيد الأشدق. ثم عزله سنة إحدى وستين، ورد الوليد بن عقبة وولى على خراسان سالم بن زياد، فبعث سالم إليها الحارث بن معاوية الحارثي وبعث أخاه يزيد إلى سجستان وكان بها أخوهما عباد فخرج عنهما. وقتل يزيد أهل كابل فهزموه، فبعث مسلم على سجستان طلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي فبقي سنة، وبعث سنة اثنتين وستين عقبة بن نافع إلى أفريقية فحبس أبا المهاجر، واستخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي كما ذكر في أخباره.

وتوفي في هذه السنة مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر. ثم هلك يزيد سنة أربع وستين واستخلف على أهل العراق عبيد الله بن زياد. وولى أهل البصرة عليهم عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ويلقب بيه، وهرب ابن زياد إلى الشام. وجاء إلى الكوفة عامر بن مسعود من قبل ابن الزبير وبلغه خلاف أهل الري وعليهم الفرخان فبعث عليهم محمد بن عمير بن عطارذ بن حاجب فهزموه، فبعث عتاب بن ورقاء فهزمهم.

وامتاحتها سنة اثنتين وتسعين كما يذكر في أخبارها، وفي سنة ثلاث وتسعين عزل عمر بن عبد العزيز عن الحجاز وولى مكانه خالد بن عبد الله على مكة وعثمان بن حيان على المدينة.

ومات الحجاج سنة خمس وتسعين ثم مات الوليد سنة ست وتسعين وفيها قتل قتيبة بن مسلم لانتفاضه على سليمان وولاه سليمان يزيد بن المهلب. وفيها مات قرة بن شريك.... وكان على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن موسى وعلى قضاء البصرة عبد الرحمن بن أذينة وفي سنة سبع وتسعين عزل سليمان بن موسى بن نصير عن أفريقية وولى مكانه محمد بن يزيد القرشي حتى مات سليمان فعزل. واستعمل عمر مكانه إسماعيل بن عبد الله. وفي سنة ثمان وتسعين كان فتح طبرستان وجرجان أيام سليمان بن عبد الملك على يد يزيد بن المهلب.

وفي سنة تسع وتسعين استعمل عمر بن عبد العزيز على البصرة عدي بن أطاة الفزاري، وأمره بإبقاء يزيد بن المهلب موثقاً فولى على القضاء الحسن بن أبي الحسن البصري ثم إياس بن معاوية وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب. وولى على المدينة عبد العزيز بن أرطاة وولى على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي. ثم عزل سنة مائة. وولى عبد الرحمن بن نعيم القرشي وولى على الجزيرة عمر بن هبيرة الفزاري، وعلى أفريقية إسماعيل بن عبد الله مولى بني غزوم وعلى الأندلس السمح بن مالك الخولاني.

ثم في سنة إحدى ومائة عزل إسماعيل عن أفريقية وولاه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فلم يزل عليها إلى أن قتل. وفي سنة اثنتين ومائة ولى يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة على العراق وخراسان فولى على خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية ويقال له: سعيد خدينة. ثم استخيا من مسلمة في أمر الجراح فعزله وولى مكانه ابن يزيد بن هبيرة، فجعل على قضاء الكوفة القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وعلى قضاء البصرة عبد الملك بن يعلى. وكان على مصر أسامة بن زيد، ولها بعد قرة بن شريك وولى ابن هبيرة على خراسان سعيداً الحارثي مكان حذيفة.

وفي سنة ثلاث ومائة جمع يزيد مكة والمدينة لعبد الرحمن بن الضحاك، وعزل عبد العزيز بن عبد الله بن خالد عن مكة وعن الطائف وولى مكانه عبد الواحد بن عبد الله البصري.

ثم ولى عبد الملك سنة خمس وسبعين الحجاج بن يوسف على العراق فقط، وولى على السند سعيد بن أسلم بن زرعة وقتل في حروبها، وكان أمر الخوارج. وفي سنة ست وسبعين ولى على المدينة أبان بن عثمان وكان على قضاء الكوفة شريح. وعلى قضاء البصرة زرارة بن أبي أوفى بعد هشام بن هبيرة وعلى قضاء المدينة عبد الله بن قشير بن خزيمة. ثم كانت حروب الخوارج كما نذكر في أخبارهم. وفي سنة ثمان وسبعين عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان وسجستان وضمهما إلى الحجاج بن يوسف، فبعث الحجاج على خراسان المهلب بن أبي صفرة وعلى سجستان عبد الله بن أبي بكره وولى على قضاء البصرة موسى بن أنس واستغنى شريح بن الحارث من القضاء بالكوفة فولى مكانه أبا بردة بن أبي موسى ثم ولى على قضاء البصرة عبد الرحمن بن أذينة وخرج عبد الرحمن بن الأشعث فملك سجستان وكرمان وفارس والبصرة ثم قتل ورجعت إلى حالها، وذلك سنة إحدى وثمانين.

وفي سنة اثنتين وثمانين مات المهلب بن أبي صفرة واستخلف ابنه يزيد على خراسان فأقره الحجاج. وفي هذه السنة عزل عبد الملك أبان بن عثمان عن المدينة وولى مكانه هشام بن إسماعيل المخزومي فعزل هشام نوفل بن مساحق عن القضاء وولى مكانه عمر بن خالد الزرقني. وبنى الحجاج مدينة واسط. وفي سنة خمس وثمانين عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان وولى مكانه هشام أخاه المفضل قليلاً ثم ولي قتيبة بن مسلم وتوفي عبد الملك. وعزل الوليد لأول ولايته هشام بن إسماعيل عن المدينة وولى مكانه عمر بن عبد العزيز فولى على القضاء أبا بكر بن عمرو بن حزم وولى الحجاج على البصرة الجراح بن عبد الله الحكمي وولى على قضائها عبد الله بن أذينة وعلى قضاء الكوفة أبا بكر بن أبي موسى الأشعري.

وفي سنة تسع وثمانين ولى الوليد على مكة خالد بن عبد الله القسري وكان على ثغر السند محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي وهو ابن عم الحجاج. ففتح السند وقتل ملكه، وكان على مصر عبد الله بن عبد الملك ولأه عليها أبوه فقل ملكها. فعزله الوليد في هذه السنة وولى مكانه قرة بن شريك، وعزل خالداً عن الحجاز وولى عمر بن عبد العزيز.

وفي سنة إحدى وتسعين عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينية وولى مكانه أخاه مسلمة بن عبد الملك وكان على طنطة في قاصية المغرب طارق بن زياد عاملاً لمولاه موسى بن نصير عامل الوليد بالقيروان فاجاز البلاد والبحر إلى بلاد الأندلس

ابن عبد الرحمن السلمي عامل أفريقية. وغزا إفريقية فاستشهد، فولى عبيدة مكانه عبد الملك بن قطن الفهري وعزل عبيدة عن أفريقية وولى مكانه عبيد الله بن الحجاب، وكان على مصر فصار إليها.

وفي سنة أربع عشرة عزل هشام مسلمة عن أرمينية وولى مكانه مروان بن محمد بن مروان. وعزل إبراهيم بن هشام عن الحجاز وولى مكانه على المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، وعلى مكة والطائف محمد بن هشام المخزومي. وفي سنة ست عشرة ومائة عزل هشام الجنيد بن عبد الرحمن المري عن خراسان وولى مكانه عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي. وفيها استعمل عبد الله بن الحجاب على الأندلس عقبة بن الحجاج القيسي مكان عبد الملك بن قطن ففتح خليتيه. وفي سنة سبع عشرة ومائة عزل هشام عاصم بن عبد الله عن خراسان وولى مكانه خالد بن عبد الله القسري فاستخلف خالد أخاه أسداً. وولى هشام على أفريقية والأندلس عبيد الله بن الحجاب وكان على مصر فصار عليها واستخلف على مصر ولده. وولى على الأندلس عقبة بن الحجاج وعلى طنجة ابنه إسماعيل وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان وفتح وغنم. وأغراه إلى صقلية سنة اثنين وعشرين ومائة ففتح أكثرها. ثم استدعاه لفتنة ميسرة كما ذكره في أخبارهم.

وفي سنة ثمان عشرة عزل هشام عن المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث وولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل. وفي سنة عشرين مات أسد بن عبد الله الخراساني وولى مكانه نصر بن سيار. وعزل هشام خالد القسري عن جميع أعماله بالعراقين وخراسان وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي استقدمه إليها من ولاية اليمن، فأقر نصر بن سيار على خراسان، وكان على قضاء الكوفة ابن شبرمة وعلى قضاء البصرة عامر بن عبيدة. وولى يوسف بن عمر بن شبرمة على سجستان واستقضى مكانه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى. وكان على قضاء البصرة إياس بن معاوية بن قرعة فمات في هذه السنة. وفي سنة ثلاث وعشرين قتل كلثوم بن عياض الذي بعث هشام لقتال البربر بالمغرب. وتوفي عقبة بن الحجاج أمير الأندلس وقيل: بل خلعه، وولى مكانه عبد الملك بن قطن ولايته الثانية كما يذكر. وفي سنة أربع وعشرين ظهر أمر أبي مسلم بخراسان. وتلقب بلخ على الأندلس ثم مات. وكان سار إليها من فل كلثوم بن عياض لما قتله البربر بالمغرب. وولى هشام على الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي فأمر

وفي سنة أربع ومائة ولى يزيد على أرمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وعزل عبد الرحمن بن الضحاك عن مكة والمدينة ثلاث سنين من ولايته، وولى عليهما مكانه عبد الواحد البصري وعزل ابن هبيرة سعيداً الحرشي عن خراسان وولى عليها مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرعة الكلابي، وولى على قضاء الكوفة الحسين بن حسين الكندي.

ومات يزيد بن عبد الملك سنة خمس وولى هشام فعزل ابن هبيرة عن العراق وولى مكانه خالد بن عبد الله القسري، واستعمل خالد على خراسان أخاه أسداً سنة سبع ومائة. وعزل مسلم بن سعيد وولى على البصرة عقبة بن عبد الأعلى، وعلى قضائها ثمامة بن عبد الله بن أنس. وولى على السند الجنيد بن عبد الرحمن. واستعمل هشام على الموصل الحر بن يوسف، وعزل عبد الواحد البصري عن الحجاز، وولى مكانه إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، واستقضى بالمدينة محمد بن صفوان الجمحي، ثم عزله واستقضى الصلت الكندي. وعزل الجراح بن عبد الله عن أرمينية وأذربيجان وولى مكانه أخاه مسلمة، فولى عليها الحارث بن عمرو الطائي.

وكان على اليمن سنة ثمان يوسف بن عمر، وفي سنة تسع عزل خالد أخاه أسداً عن خراسان وولى هشام عليها أشروس بن عبد الله السلمي، وأمره أن يكتب خالداً بعد أن كان خالد ولى الحكم بن عوانة الكلبي مكان أخيه، فلم يقر فعزله هشام. ومات في سنة تسع عامل القيروان بشر بن صفوان، فولى هشام مكانه عبيدة بن عبد الرحمن بن الأغسر السلمي فعزل عبيدة يحيى بن سلمة الكلبي عن الأندلس، واستعمل حذيفة بن الأخوص الأشجعي. ثم عزل لسنة أشهر وولياها عثمان بن أبي تسعة الخثعمي وفي سنة عشر ومائة جمع خالد الصلاة والأحداث والشرط والقضاء بالبصرة لبلال بن أبي بردة وعزل ثمامة عن القضاء. وفي سنة إحدى عشرة عزل هشام عن خراسان أشروس بن عبد الله وولى مكانه الجنيد بن عبد الرحمن بن الحارث بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري وولى على أرمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وعزل مسلمة. وفيها عزل عبيدة بن عبد الرحمن عامل أفريقية وعثمان بن أبي تسعة عن الأندلس، وولى مكانه الهيثم بن عبيد الكناني.

وفي سنة اثني عشرة قتل الجراح بن عبد الله صاحب أرمينية قتله التركمان، فولى هشام مكانه سعيداً الحرشي. ومات الهيثم عامل الأندلس وولوا على أنفسهم مكانه محمد بن عبد الله الأشجعي شهرين وبعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قبيل

هلال بن علي فبعث معقل بن قيس فقتلهم. ثم أخرى ثالثة كذلك، ثم أخرى على المدائن كذلك، ثم أخرى بشهرزور كذلك، وبعث شريح بن هانئ فهزموه ففرج واستلحمهم أجمعين، واستأنم من بقي فأمتهم وكانوا نحو خمسين.

وافترق شمل الخوارج ثم اجتمع من وجدانهم الثلاثة الذين توعدوا لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، فقتل بالسهم عبد الرحمن بن ملجم علياً رضي الله عنه وباء بإثمهم وسلم الباقر، ثم اتفقت الجماعة على بيع معاوية سنة إحدى وأربعين واستقل معاوية بخلافة الإسلام. وقد كان فروة بن نوفل الأشجعي اعتزل علياً والحسن ونزل شهرزور وهو في خمسمائة من الخوارج. فلما بوع معاوية قال فروة لأصحابه: قد جاء الحق فجاهدوا وأقبلوا فتلوا النخيلة عند الكوفة فاستنفر معاوية أهل الكوفة فخرجوا لقتلهم، وسألوا أهل الكوفة أن يخلوا بينهم وبين معاوية فأبوا فاجتمعت أشجع على فروة فوعظوه فلم يرجع فأخذه قهراً وأدخله الكوفة. واستعمل الخوارج بعده عبد الله بن أبي الحريشي من طيء. وقاتلوا أهل الكوفة فقاتلوا وابن أبي الحريشي معهم.

ثم اجتمعوا بعده على حوثة بن وداع الأسدي وقدموا إلى النخيلة في مائة وخمسين ومعهم فل بن أبي الحريشي. وبعث معاوية إلى حوثة أباه ليرده عن شأنه فأبى، فبعث إليه عبد الله بن عوف في معسكر فقتله وقتل أصحابه إلا خمسين دخلوا الكوفة وتفرقوا فيها، وذلك في جمادى الأخيرة سنة إحدى وأربعين. وسار معاوية إلى الشام وخلف المغيرة بن شعبة فعاد فروة بن نوفل الأشجعي إلى الخروج. فبعث إليه المغيرة خيلاً عليها ابن ربيعي ويقال: معقل بن قيس فلقبه بشهرزور فقتله. ثم بعث المغيرة إلى شبيب بن أبحر من قتله، وكان من أصحاب ابن ملجم وهو الذي أتى معاوية يشيره بقتل علي فخافه على نفسه وأمر بقتله. فتنكر بنواحي الكوفة إلى أن بعث المغيرة من قتله.

ثم بلغ المغيرة أن بعضهم يريد الخروج وذكر له معن بن عبد الله الحاربي فحبسه ثم طالبه بالبيعة لمعاوية فأبى فقتله. ثم خرج على المغيرة أبو مريم مولى بني الحارث بن كعب فأخرج معه النساء، فبعث المغيرة من قتله وأصابه. ثم حكم أبو ليلى في المسجد بمشهد الناس وخرج في اثنين من الموالي فأتبعه المغيرة معقل بن قيس الرياحي فقتله بسور الكوفة اثنتين وأربعين. ثم خرج على ابن عامر في البصرة سهم بن غاثم الجهني في سبعين رجلاً منهم الحطيم وهو يزيد بن حالك الباهلي، ونزلوا بين الجسرين والبصرة. ومر بهم بعض الصحابة منقلباً من الغزو فقتلوه وقتلوا

حنظلة بن صفوان أن يوليه فسواه. وكان ثعلبة بن خزيمة بن سلامة الجرابي قد ولوه بعد بلخ فعزله أبو الخطار.

وفي هذه السنة ولي الوليد بن يزيد خالد بن يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي على الحجاز فأمره. ثم قتل الوليد سنة ست وعشرين فعزل يزيد عن العراق يوسف بن عمر وولى مكانه منصور بن جمهور، فبعث عامله على خراسان فامتنع نصر بن سيار من تسليم العمل له. ثم عزل يزيد منصور بن جمهور وولى مكانه على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وغلب حنظلة على أفريقية عبد الرحمن بن حبيب كما يذكر في خبرها. وعزل يزيد عن المدينة يوسف بن محمد بن يوسف، وولى مكانه عبد العزيز بن عمر بن عثمان، وغلب سنة سبع وعشرين عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على الكوفة، وولى مروان على الحجاز عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وعلى العراق النضر بن سعيد الحرشي. وامتنع ابن عمر من استلام العمل إليه ووقعت الفتنة بينهم. ولحق ابن عمر بالخوارج كما يذكر في أخبارهم. واستولى بنو العباس على العباس.

وفي سنة تسع وعشرين ولي يوسف بن عبد الرحمن الفهري على الأندلس بعد نوبة بن سلامة كما يأتي في أخبارهم.. وولى مروان على الحجاز عبد الواحد.... وعلى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة. وفي سنة ثلاثين ملك أبو مسلم خراسان وهرب عنها نصر بن سيار فمات بنواحي همدان سنة إحدى وثلاثين. وجاء المسودة وعليهم قحطية فظلموا ابن هبيرة على العراق وملكوه وباعوا خليفتهم أبا العباس السفاح. ثم غلبوا مروان على الشام ومصر وقتلوه. وانقرض أمر بني أمية وعاد الأمر والخلافة لبني العباس. والملك لله يؤتیه من يشاء من عباده. وهذه أخبار بني أمية ملخصة. من كتاب أبي جعفر الطبري. ولترجع إلى أخبار الخوارج كما شرطنا في أخبارها بالذكر، والله المعين لا رب غيره.

الخبر عن الخوارج وذكر أوليتهم وتكرر

خروجهم في الملة الإسلامية

قد تقدم لنا خبر الحكمين في حرب صفين واعتزل الخوارج علياً منكرين للحكيم مكفرين به ولاطفهم في الرجوع عن ذلك وناظرهم فيه بوجه الحق فلجوا وأبوا إلا الحرب. وجعلوا شعارهم النداء بلا حكم إلا لله. وباعوا عبد الله بن وهب الراسبي وقاتلهم علي بالنهروان فاستلحمهم أجمعين ثم خرج من قتلهم طائفة بالأنبار فبعث إليهم من استلحمهم. ثم طوفاً أخرى مع

ابنه وابن أخيه، وقالوا: هؤلاء كفرة. وخرج إليهم ابن عامر فقتل منهم عدة وأمن باقيهم.

ولما أتى زياد البصرة سنة خمس وأربعين هرب منهم الحطيم إلى الأهواز وجمع ورجع إلى البصرة فاقترب عنه أصحابه فاقتفى وطلب الأمان من زياد فلم يؤمنه ثم دل عليه فقتله وصلبه بداره. وقيل: بل قتله عبد الله بعد زياد سنة أربع وخمسين.

ثم اجتمع الخوارج بالكوفة على المستورد بن عقلة التيمي من تيم الرباب وعلى حيان بن ظبيان السلمي وعلى معاذ بن جوين الطائي. وكلهم من فل النهروان الذين ارتقوا في القتلى ودخلوا الكوفة بعد مقتل علي واجتمعوا في أربعمائه في منزل حيان بن ظبيان وتشاوروا في الخروج، وتدافعوا الإمارة. ثم اتفقوا على المستورد ويأيموه في جمادى الأخيرة. وكبسهم المغيرة في منزلهم فسجن حيان وأفلت المستورد فنزل الحيرة واختلف إليه الخوارج. وبلغ المغيرة خبرهم فخطب الناس وتهدد الخوارج فقام إليه معقل بن قيس فقال: ليكفك كل رئيس قومه.

وجاء صعصعة بن صوحان إلى عبد القيس وكان عالماً بمنزلهم عند سليم بن خندوج العبدلي إلا أنه لا يسلم عشيرته، فخرجوا ولحقوا بالبصرة في ثلاثمائة فجهز إليهم معقل بن قيس في ثلاثة آلاف وجعل معظمهم من شيعة علي، وخرج معقل في الشيعة وجاء الخوارج ليعبروا النهر إلى المدائن فمنعهم عاملها سمال بن عبد العباسي ودعاهم إلى الطاعة على الأمان فأبوا فساروا إلى المذار. وبلغ ابن عامر بالبصرة خبرهم فبعث شريك بن الأعور الحارثي في ثلاثة آلاف من الشيعة وجاء معقل بن قيس إلى المدائن وقد ساروا إلى المذار، فقدم بين يديه أبا الرواح الشاكري في ثلاثمائة، وسار ولحقهم أبو الرواح بالمذار فقاتلهم.

ثم لحقه معقل بن قيس متقدماً أصحابه عند المساء فحملت الخوارج عليه فثبت وباتوا على تعبية، وجاء الخبر إلى الخوارج بنهوض شريك بن الأعور من البصرة فأسروا من ليلتهم راجعين. وأصبح معقل واجتمع بشريك وبعث أبا الرواح في أتباعهم في ستمائة فلحقهم بمرجان فقاتلهم فهزمهم إلى سباط وهو في أتباعهم. ورأى المستورد أن هؤلاء مع أبي الرواح حماة أصحاب معقل فتسرب عنهم إلى معقل وأبو الرواح في اتباعه. ولما لحق بمعقل قاتلهم قتالاً وأدركهم أبو الرواح بعد أن لقي كثيراً من أصحاب معقل منهزمين فردهم واقتلوا قتالاً شديداً، وقتل المستورد معقلاً طعنه بالرمح فانفذه وتقدم معقل والرمح فيه إلى المستورد فقسم دماغه بالسيف وماتا جميعاً. وأخذ الراية عمر بن عرزم بن شهاب التيمي بعهد معقل بذلك. ثم حمل الناس على

الخوارج فقتلهم ولم ينج منهم إلا خمسة أو ستة.

وعند ابن الكلبي أن المستورد من تيم من بني رياح. خرج بالبصرة أيام زياد قريب الأزدي ورجاف الطائي ابناً الخالة، وعلى البصرة سمرة بن جندب وقتلوا بعض بني ضبة فخرج عليهم شبان من بني علي وبني راسب فرمهم بالنبل، وقتل قريب وجاء عبد الله بن أوس الطائي برأسه واشتد زياد في أمر الخوارج وسمرة وقتلوا منهم خلقاً. ثم خرج سنة اثنتين وخمسين على زياد بن حراش العجلي في ثلاثمائة بالسواد فبعث إليهم زياد سعد بن حذيفة في خيل فقتلهم، وخرج أيضاً أصحاب المستورد حيان بن ظبيان ومعاذ من طيم فبعث إليهما من قتلها وأصحابهما. وقيل: بل استأمنوا واقتروا.

ثم اجتمع بالبصرة سنة ثمان وخمسين سبعون رجلاً من الخوارج من عبد القيس وبايعوا طواف بن..... على أن يفتكوا ببلن زياد، وكان سبب ذلك أن ابن زياد حبس جماعة من الخوارج بالبصرة وحملهم على قتل بعضهم بعضاً وخلق سبيل القتالين ففعلوا وأطلقهم، وكان منهم طواف. ثم ندموا وعرضوا على أولياء المقتولين القود والدية فأبوا، وأقامهم بعض علماء الخوارج بالجهاد لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ رَكِبْتَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا الْآيَةَ، فَاجْتَمِعُوا لِلْخُرُوجِ كَمَا قُلْنَا. وَسعى بهم إلى ابن زياد فاستعجلوا الخروج وقتلوا رجلاً ومضوا إلى الجلاء كما قلنا، فندب ابن زياد الشرط والحاربة فقاتلهم، فانهزم الشرط أولاً ثم كثرهم الناس فقتلوا عن آخرهم. واشتد ابن زياد على الخوارج وقتل منهم جماعة كثيرة منهم: عروة بن أديه أخو مرداس وأديه أمهما وأبوهما جرير بن تميم.

وكان وقف على ابن زياد يوماً يعظه فقال: أثبتون بكل ريع آية؟ تعبتون الآيات. فظن ابن زياد أن معه غيره فأخذه وقطعه وقتل ابنه. وكان أخوه مرداس من عظمائهم وعبادهم ومن شهد النهروان بالاستعراض. ويجرم خروج النساء ولا يرى بقتال من لا يقاتله. وكانت امرأته من العابدات من بني يربوع وأخذها ابن زياد فقطعها. وألح ابن زياد في طلب الخوارج وقتلهم وخلق سبيل مرداس من بينهم لما وصف له من عبادته، ثم خاف فخرج إلى الأهواز. وكان يأخذ مال المسلمين إذا مر به فيعطي منه أصحابه ويرد الباقي.

وبعث ابن زياد إليهم أسلم بن زرعة الكلابي في ألفي رجل ودعاهم إلى معاودة الجماعة فأبوا وقتلهم فهزموا أسلم وأصحابه. ففرح إليهم ابن زياد عباد بن علقمة المازني. ولحقهم بتوج وهم يصلون فقتلهم أجمعين ما بين راكم وساجد لم يتغيروا

عن حالهم. ورجع إلى البصرة برأس أبي بلال مرداس فرصه

عبيدة بن هلال في ثلاثة نفر عند قصر الإمارة ليستغثيه فقتلوه واجتمع عليهم الناس فقتلوا منهم. وكان على البصرة عبيد الله بن أبي بكرة فأمره زياد بتبع الخوارج إلى أن تقدم فحبسهم، وأخذ الكفلاء على بعضهم وأتى بعروة بن أدية فقال: أنا كفيلك وأطلقه.

ولما جاء ابن زياد قتل المحبوسين منهم والمكفولين، وطالب ابن أبي بكرة بعروة بن أدية فبحث عنه حتى ظفر به وجاء به إلى ابن زياد فقطعه وصلبه سنة ثمان وخمسين. ثم مات يزيد واستفحل أمر ابن الزبير بمكة وكان الخوارج لما اشتد عليهم ابن زياد بعد قتل أبي بلال مرداس أشار عليهم نافع بن الأزرق منهم باللاحق بابن الزبير لجهاد عساكر يزيد لما ساروا إليه قالوا: وإن لم يكن على رأينا داحضاً عن البيت وقاموا يقاتلون معه فلما مات يزيد وانصرفت العساكر كشفوا عن رأي ابن الزبير فيهم وجاؤوه يرمون من عثمان ويتبرؤون منه فصرح بمخالفتهم. وقال بعد خطبة طويلة أثنى فيها على الشيخين وعلي عثمان واعتذر عنه فيما يزعمون، وقال: أشهدكم ومن حضرني أني ولي لابن عفان وعدو لأعدائه قالوا: فبرئ الله منك! قال: بل برئ الله منكم! فافترقوا عنه.

وأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي وعبد الله بن صفار السعدي وعبد الله بن إياض، وحنظلة بن بيهس وبنو الماخور: عبد الله وعبيد الله والزبير من بني سليط بن يربوع وكلهم من غميم، حتى أتوا البصرة. وانطلق أبو طالوت عن بني بكر بن وائل وأبو فديك عبد الله بن نور بن قيس بن ثعلبة بن الأسود اليشكري إلى اليمامة فوثبوا بها مع أبي طالوت. ثم تركوه ومالوا عنه إلى نجدة بن عامر الحنفي.

ومن هنا افترت الخوارج على أربع فرق: الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي وكان رأيهم البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم والاستعراض وقتل الأطفال واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفاراً. والفرقة الثانية: النجدية وهم بخلاف الأزارقة في ذلك كله. والفرقة الثالثة: الإباضية أصحاب عبد الله بن إياض المري وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين فلا يتنهون إلى الرأي الأول ولا يقفون عند الثاني ولا يحرمون مناكة المسلمين ولا موارثهم ولا المنافقين فيهم وهم عندهم كالمنافقين، وقول هؤلاء أقرب إلى السنة. ومن هؤلاء البيهسية أصحاب أبي بيهس هيضم بن جابر الضبيعي. والفرقة الرابعة: الصفرية وهم موافقون للإباضية إلا في العقدة فلان

وربما اختلف هذه الآراء من بعد ذلك واختلف في تسمية الصفرية ف قيل نسبوا إلى ابن صفار وقيل: اصفروا بما نهكهم العبادة. وكانت الخوارج من قبل هذا الافتراق على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشاذ من الفروع. وفي أصل اختلافهم هذا مكاتبات بين نافع بن الأزرق وأبي بيهس وعبد الله بن إياض ذكرها المبرد في كتاب الكامل فلينظر هناك.

ولما جاء نافع إلى نواحي البصرة سنة أربع وستين فأقام بالأهواز يعترض الناس وكان على البصرة عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فسرح إليه مسلم عيس بن كوز بن ربيعة من أهل البصرة بإشارة الأحنف بن قيس، فدافعه عن نواحي البصرة وقاتله بالأهواز، وعلى ميمنة مسلم الحجاج بن باب الحميري، وعلى ميسرة حارثة بن بدر الغداني، وعلى ميمنة ابن الأزرق عبيدة بن هلال وعلى ميسرة الزبير بن الماخور التميمي. فقتل مسلم ثم قتل نافع وأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب والخوارج عبد الله بن الماخور ثم قتل الحجاج، وعبد الله فامر أهل البصرة ربيعة بن الأخزم والخوارج عبيد الله بن الماخور. ثم اقتتلوا حتى أسموا، وجاء إلى الخوارج مدد فحملوا على أهل البصرة فهزموهم. وقتل ربيعة ولولوا مكانه حارثة بن بدر فقاتل وردهم على الأعقاب ونزل الأهواز.

ثم عزل عن البصرة عبد الله بن الحارث وبعث ابن الزبير عليها الحارث القباع بن أبي ربيعة فزحف الخوارج إلى البصرة، وأشار الأحنف بن قيس بتولية المهلب حروبهم، وقد كان ابن الزبير ولاء خراسان، فكتبوا لابن الزبير بذلك فأجاب، واشترطوا للمسلم ما سأل من ولاية ما غلب عليه، والإعانة بالأموال، فاختر من الجند إثني عشر ألفاً وسار إليهم فدفعهم عن الجسر. وجاء حارثة بن بدر بمن كان معه في قتال الخوارج، فردهم الحارث إلى المهلب. وركب حارثة البحر يريد البصرة فغرق في النهر. وسار المهلب وعلى مقدمته ابنه المغيرة فقاتلهم المقدمة ودفعوهم عن سوق الأهواز إلى مادر. ونزل المهلب بسولاف وقاتله الخوارج وصدقوا الحملة فكشفوا أصحاب المهلب. ثم ترك من الغد قتالهم وقطع دُجبل ونزل الغليل ثم ارتحل فتزل قريباً منهم وخندق عليه وأدكى العيون والحرس.

وجاء منهم عبيدة بن هلال والزبير بن الماخور في بعض الليالي ليبيتوا عسكر المهلب فوجدوهم حذرين. وخرج إليهم المهلب من الغد في تعبئة والأزد وغميم في ميمته، وبكر وعبد القيس في ميسرته، وأهل العالية في القلب. وعلى ميمنة الخوارج

وعاصب بنتاً لعبد الله بن عمر بن عثمان فضمها إليه. وامتنحه الخوارج بسؤاله بيعها فقال: قد أعتقت نصيبي منها. قالوا: فزوجها، قال: هي أملك بنفسها، وقد كرهت الزواج. ولما قرب من الطائف جاءه عاصم بن عروة بن مسعود فبايعه عن قومه وولى عليهم الخازرق وعلى ييانة والسراة. وولى على ما يلي نجران سعد الطلائع، ورجع إلى البحرين وقطع الميرة عن الحرمين. وكتب إليه ابن عباس أو ثمامة بن أثال لما أسلم قطع الميرة عن مكة وهم مشركون، فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن أهل مكة أهل الله فلا تمنعهم الميرة فخلأها لهم، وأنتك قطعت الميرة ونحن مسلمون فخلأها لهم نجدة.

ثم اختلف إليه أصحابه لأن أبا سنان حياً بن وائل أشار عليه بقتل من أطاعه تقيّة، فأنهزته نجدة وقال: إنما علينا أن نحكم بالظاهر. وأغضبه عطية في منازعة جرت بينهما على تفضيله لسرية البر على سرية البحر في الغنيمة فشتمه نجدة فغضب. وسأله في درء الحد في الخمر عن رجل من شجعانهم فأبى، وكتبه عبد الملك في الطاعة على أن يوليه اليمامة ويهدر لهم ما أصاب من الدماء. فاتهموه في هذه المكتبة وتقموا عليه أمثال هذه، وفارقه عطية إلى عمان. ثم انحازوا عنه ولوا أمرهم أبا فديك عبد الله بن ثور أحد بني قيس بن ثعلبة. واستخفى نجدة وألح أبو فديك في طلبه وكان مستخفياً في قرية من قرى حجر. ثم نذر به فذهب إلى أخواله من غميم وأجمع المسير إلى عبد الملك، فعلم به أبو فديك، وجاءت سرية منهم وقاتلهم فقتلوه. وسخط قتله جماعة من أصحاب أبي فديك واعتمد مسلم بن جبير فطعنه اثنتي عشرة طعنة وقتل مسلم لوقته، وحمل أبو فديك إلى منزله.

ثم جاء مصعب إلى البصرة سنة ثمان وستين والياً على العراقيين عن أخيه، وكان المهلب في حرب الأزارقة فأراد مصعب أن يوليه بلاد الموصل والجزيرة وأرمينية، ليكون بينه وبين عبد الملك. فاستقدمه من فارس وولاه، وولى على فارس وحرب الأزارقة عمر بن عبد الله بن معمر. وكان الخوارج قد ولوا عليهم بعد قتل عبد الله بن الماخور سنة خمس وستين أخاه الزبير فجاءوا به إلى إصطخر، وقدم عمر ابنه عبيد الله إليهم فقتلوه ثم قاتل الزبير عمر فهزمهم وقتل منهم سبعون. وقلق قطري بن الفجاءة وشتر صالح بن غرقاق وساروا إلى نيسابور، فقاتلهم عمر بها وهزمهم، فقصدوا أصهبان فاستحموا بها. ثم أقبلوا إلى فارس وتجنّبوا عسكر عمر ومروا على ساجور ثم أرجان، فأتوا الأهواز قاصدين العراق. وأخذ عمر السير في أثرهم، وعسكر مصعب عند الجسر. فسار الزبير والخوارج فقطع أرض صرصر وشن الغارة

عبيدة بن هلال البشكري، وعلى مسيرتهم الزبير بن الماخور واقتلوا ونزل الصبر. ثم شدوا على الناس فأجفل عسكر المهلب وانهزم وسبق المهزمين إلى ربيعة ونادى فيهم فاجتمع له ثلاثة آلاف أكثرهم من الأزد، فرجع بهم وقصد عسكر الخوارج واشتد قتالهم ورموهم بالحجارة، وقتل عبد الله بن الماخور وكثير منهم وانكفؤوا راجعين إلى كرمان وناحية أصهبان منهزمين، واستخلفوا عليهم الزبير بن الماخور وأقام المهلب بمكانه حتى جاء مصعب بن الزبير أميراً على البصرة وعزل المهلب.

وأما نجدة وهو نجدة بن عامر بن عبد الله بن سيار بن مفرج الحنفي وكان مع نافع بن الأزرق. فلما افترقوا سار إلى اليمامة ودعا أبو طالوت إلى نفسه، وهو من بكر بن وائل وتابعه نجدة ونهب الحصارم بلد بني حنيفة وكان فيها رقيق كثير يناهز أربعة آلاف فقسّمها في أصحابه، وذلك سنة خمس وستين. واعترض عيراً من البحرين جاءت لابن الزبير فأخذها وجاء بها إلى أبي طالوت فقسّمها بين أصحابه. ثم رأى الخوارج أن نجدة خير لهم من أبي طالوت فخالقوه وبايعوا نجدة. وسار إلى بني كعب بن ربيعة فهزمهم وأثنى فيهم، ورجع نجدة إلى اليمامة في ثلاثة آلاف، ثم سار إلى البحرين سنة سبع وستين فاجتمع أهل البحرين من عبد القيس وغيرهم على محاربتهم. وسأله الأزد والنقرا بالعطيف فأنهزمت عبد القيس وأثنى فيهم نجدة وأصحابه وأرسل سرية إلى الخط فظفروا بأهله. ولما قدم مصعب بن الزبير البصرة سنة تسع وستين بعث عبد الله بن عمر الليثي الأعور في عشرين ألفاً ونجدة بالعطيف فقاتلوه وهزمهم نجدة وغنم ما في عسكرهم. وبعث عطية بن الأسود الحنفي من الخوارج إلى عُمان وبها عباد بن عبد الله شيخ كبير فقاتله عطية فقتله وأقام أشهراً وسار عنها. واستخلف عليها بعض الخوارج فقتله أهل عمان وولوا عليهم سعيداً وسليمان ابني عباد.

ثم خالف عطية نجدة وجاء إلى عمان فامتعت منه، فركب البحر إلى كرمان وأرسل إليه المهلب جيشاً فهرب إلى سجستان ثم إلى السند فقتله خيل المهلب بقنذابل. ثم بعث نجدة المرفين إلى البوادي بعد هزيمة ابن عمير فقاتلوا بني غميم بكاطمة وأعانهم أهل طويلع فبعث نجدة من استباحهم وأخذ منهم الصدقة كرهاً. ثم سار إلى صنعاء فبايعوه وأخذ الصدقة من مخالفيها. ثم بعث أبا فديك إلى حضرموت فأخذ الصدقة منهم. وحين سنة ثمان وستين في تسعمائة رجل وقيل: في ألفين، ووقف ناحية عن ابن الزبير على صلح عقد بينهما.

ثم سار نجدة إلى المدينة وتأهبوا لقتاله، فرجع إلى الطائف

ووقعت الفتنة اجتمع إليه أصحابه وخرج بنواحي المدائن، ولم يعترض للقتل ولا للمال، إنما كان يأخذ مال السلطان متى لقيه فيأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ويرد الباقي ويأخذ لصاحب المال بما أخذ.

وحبس المختار امرأته بالكوفة وجاء فأخرجها من الحبس وأخرج كل من فيه. وأراد المختار أن يسطو به فمنعه إبراهيم بن الأشتر إلى الموصل لقتال ابن زياد. ثم فارقه ولم يشهد معه وشهد مع مصعب قتال المختار وقته. ثم أغرى به مصعب فحبسه وشفع فيه رجال من وجوه مذبح فشفعهم وأطلقه، وأتى إليه الناس يهتفون فصرح بأن أحداً لا يستحق بعد الأربعة ولا يحل أن يعقد لهم بيعة في أعناقنا، فليس لهم علينا من الفضل ما يستحقون به ذلك، وكلهم عاص مخالف، قوي الدنيا ضعيف الآخرة، ولحن أصحاب الأيام مع فارس، ثم لا يعرف حقنا وفضلنا وإني قد أظهرت لهم العداوة.

وخرج للحرب فأغار فبعث إليه مصعب سيف بن هاني المرادي يعرض عليه الطاعة على أن يعطيه قطعة من بلاد فارس فأبى، فسرح إليه الأبرد بن فروة الرياحي في عسكر فهزمه عبيد الله فبعث إليه حرث بن زيد فهزمه فقتله، فبعث إليه الحجاج بن حارثة الخثعمي ومسلم بن عمر فقاتلها بنهر صرصر وهزهما، فأرسل إليه مصعب بالأمان والولاية فلم يقبل، وأتى إلى فارس فهرب دهقانها بالمال وتبعه ابن الحر إلى عين التمر وعليه بسطام بن معلقة بن هيرة الشيباني فقاتل عبيد الله. ووافاهم الحجاج بن حارثة فهزمهما عبيد الله وأسرهما وأخذ المال الذي مع الدهقان.

وأقام بتكريت ليحيي الخراج فسرح مصعب لقتاله الأبرد بن فروة الرياحي والجنون بن كعب الهمداني في ألف وأمدهم المهلب يزيد بن المعقل في خمسمائة وقاتلهم عبيد الله يومين في ثلاثمائة ثم تحاجزوا وقال لأصحابه: إني سائر بكم إلى عبد الملك فتجهزوا! ثم قال: إني خائف أن أموت ولم أذعر مصعباً وقصد الكوفة وجاءته العساكر من كل جهة، ولم يزل يهزمهم ويقتل منهم بنواحي الكوفة والمدائن. وأقام يغير بالسواد ويبيح الخراج. ثم لحق بعبد الملك فأكرمه وأجلسه معه على سريريه، وأعطاه مائة ألف درهم وقسم في أصحابه الأعطيات وسأل من عبد الملك أن يوجهه معه عسكرياً لقتال مصعب فقال: سر بأصحابك وادع من قدرتك عليه وأنا معك بالرجال. فسار نحو الكوفة ونزل بناحية الأنبار وأذن لأصحابه في إتيان الكوفة ليخبروا أصحابه بقدمه. وبعث الحارث بن أبي ربيعة إليه جيشاً كثيراً فقاتلهم وتفرق عنه أصحابه وأتخنه الجراح فخاض البحر إلى سفينة فركبها حتى توسط الفرات

على أهل المدائن يقتلون الوردان والرجال، ويقرون بطون الحبال. وهرب صاحب المدائن عنها وانتهت جماعة منهم إلى الكرخ، فقاتلهم أبو بكر بن خنفة فقتلوه وخرج أمير الكوفة وهو الحارث بن أبي ربيعة القبايع حتى انتهى إلى الصراة ومعه إبراهيم بن الأشتر وشبيب بن ريعي، وأسماء بن خارجة ويزيد بن الحارث ومحمد بن عمير، وأشاروا عليه بعقد الجسر والعبور إليهم، فأنهزموا إلى المدائن. وأمر الحارث عبد الرحمن بن خنفة باتباعهم في ستة آلاف إلى حدود أرض الكوفة، فأتوها إلى الري وعليها يزيد بن الحارث بن دؤيم الشيباني وما والاهم عليه أهل الري فهزموه وقتلوه. ثم انخطروا إلى أصبهان وبها عتاب بن ورقاء فحاصروه أشهراً وكان يقاتلهم على باب المدينة.

ثم دعا إلى الاستماتة في قتالهم فخرجوا وقتلوه، وانهمزت الخوارج وقتل الزبير واحتوا على معسكرهم. ثم بايع الخوارج قطري بن الفجاءة المازني ويكنى أبا نعمة وارتحل بهم إلى كرمان حتى استجمعوا فوجعوا إلى أصبهان فامتعت، فسأوا الأهواز وقاموا، وبعث مصعب إلى المهلب فردّه إلى قتال الخوارج وولى على الموصل والجزيرة إبراهيم بن الأشتر، وجاء المهلب فانتجعت الناس من البصرة وسار إلى الخوارج فلقبهم بسولاف. واقتلوا ثمانية أشهر وبعث مصعب إلى عتاب بن ورقاء الرياحي عامل أصبهان بقتال أهل الري بما فعله في ابن دؤيم، فسار إليهم وعليهم الفرخان فقاتلهم وافتتحها عنوة وقلعها وعاث في نواحيها.

خبر ابن الحر ومقتله

كان عبيد الله بن الحر الجعفي من خيار قومه صلاحاً وفضلاً. ولما قتل عثمان حزن عليه، وكان مع معاوية على علي، وكانت له زوجة بالكوفة فتزوجت لطول منغيه. فأقبل من الشام وخاصم زوجها إلى علي فعدد عليه شهوده صفين. فقال: أئمتني ذلك من عدلك؟ قال: لا ورد إليه امرأته. فرجع إلى الشام وجاء إلى الكوفة بعد مقتل علي ولقي إخوانه وتفاوضوا في التكبير على علي ومعاوية. ولما قتل الحسين ثغيب على ملحمته وسأل عنه ابن زياد فلم يره. ثم لقيه فأساء عدله، وعرض له بالكون مع عدوه فأنكر وخرج مغضباً. وراجع ابن زياد رأيته فيه فطلبه فلم يجده فبعث عنه فامتنع، وقال: أبلغوه أني لا آتية طائعاً أبداً. وأتى منزل أحمد بن زياد الطائي فاجتمع إليه أصحابه، وخرج إلى المدائن. ومضى لمصارع الحسين وأصحابه فاستغفر لهم، ولما مات يزيد

الرحمن وفرسان الناس فلأنهم مالوا إلى أهل الكوفة بالميمنة ورجع أهل الميسرة. وحمل أهل الميمنة على الخوارج فهزموهم واستباحوا عسكرهم وقتلوا أبا فديك وحصرُوا أصحابه بالمشسر حتى نزلوا على الحكم فقتل منهم ستة آلاف وأسر ثمانمائة وذلك سنة ثلاث وسبعين.

ثم ولي عبد الملك أخاه بشراً على البصرة فسار إليها وأمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة وأن يتخبط من أهل البصرة من أراد ويتركه ورايه في الحرب ويحده بعسكر كثيف من أهل الكوفة مع رجل معروف بالنجدة. فبعث المهلب لانتخاب الناس جديع بن سعيد بن قبيصة وشق على بشر ولاية المهلب من عبد الملك وأوغرت صدره. فبعث على عسكر الكوفة عبد الرحمن بن غنم وأغراه بالمهلب في ترك مشورته وتنغصه. وسار المهلب إلى رامهرمز وبها الخوارج وأقبل ابن غنم في أهل الكوفة فنزل على ميل منه بحيث يترامى العسكران. ثم أتاهم نبأ بشر بن مروان وأنه استخلف خالد بن عبد الله بن خالد على البصرة وخليفته على الكوفة عمر بن حريث فافترق ناس كثيرة من أهل البصرة وأهل الكوفة فنزلوا الأهواز وكتب إليهم خالد بن عبد الله يهددهم فلم يلتفتوا إليه. وأقبل أهل الكوفة إلى الكوفة وكتب إليهم عمر بن حريث بالكثير والعود إلى المهلب ومنعهم الدخول فدخلوا ليلاً إلى بيوتهم.

ثم قدم الحجاج أميراً على العراقيين سنة خمس وسبعين فخطب بالكوفة خطبته المعروفة كان منها: ولقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم إلى مصركم عاصين مخالفين، وأيم الله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه وأتهدد داره. ثم دعا العرفاء وقال: الحقوا الناس بالمهلب وأتوني بالبراءة بموافائهم، ولا تغلقن أبواب الجسر. ووجد عمر بن ضابغ من المتخلفين وأخبر أنه من قتله عثمان فقتله. فأخرج جند المهلب وازدهموه على الجسر وجاء العرفاء إلى المهلب برامهرمز فأخذوا كتابه بموافاة الناس، وأمرهم الحجاج بمناهضة الخوارج فقاتلهم شيئاً ثم اتزاحوا إلى كازرون وسار المهلب وابن غنم فنزلوا بهم. وخندق المهلب ولم يخندق ابن غنم ويبيتهم الخوارج فوجدوا المهلب حذراً فمالوا إلى ابن غنم فانهزم عنه أصحابه وقاتل حتى قتل. وفي حديث أهل الكوفة أنهم لما ناهضوا الخوارج مالوا إلى المهلب واضطروه إلى معسكره وأمدّه عبد الرحمن بعامة عسكره وبقي في خف من الجند. فمال إليه الخوارج فنزل ونزل معه القراء وواحد وسبعون من أصحابه فقتلوا. وجاء المهلب من الغد فدفعه وصلى عليه وكتب بالخبر إلى الحجاج فبعث على معسكره عتاب بن رقاء وأمره

فاشرفت خيالة على السفينة وتبادروا به فقام عشي في البحر فتعلقوا به فالتقى نفسه في الماء مع بعضهم فغرقوه.

حروب الخوارج مع عبد الملك والحجاج

ولما استقر عبد الملك بالكوفة بعد قتل مصعب بعث على البصرة خالد بن عبد الله وكان المهلب يحارب الأزارقة فولاه على خراج الأهواز. وبعث أخاه عبد العزيز بن عبد الله إلى قتال الخوارج، ومعه مقاتل بن مسمع، وأتت الخوارج من ناحية كرمان إلى دارابجرد وبعث قطري بن الفجاءة صالح بن مخراق في تسعمائة فاستقبل عبد العزيز ليلاً على غير تعبئة فانهمز. وقتل مقاتل بن مسمع وأمرت بنت المنذر بن الجارود امرأة عبد العزيز فقتلها الخوارج.

وتغير عبد العزيز إلى رامهرمز. وكتب خالد بالخبر إلى عبد الملك فكتب إليه.... على ولاية أخيه الحرب وولاية المهلب بجاية الخراج وأمره بأن يسرح المهلب بحريتهم. وكتب إلى بشر بالكوفة بإمداده بخمسة آلاف مع من يرضاه، فإذا فرغوا من قتال الخوارج ساروا إلى الري، فكانوا هنالك مسلحة فأنفذ بشر العسكر وعليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكتب له عهده على الري. وخرج خالد بأهل البصرة ومعه المهلب واجتمعوا بالأهواز. وجاءت الأزارقة فأحرقوا السفن. ومصر المهلب بعبد الرحمن بن الأشعث وأمره أن يخندق عليه وأقاموا كذلك عشرين ليلة. ثم زحف الخوارج بالناس فهال الخوارج كثرتهم وانصرفوا.

وبعث خالد داود بن قحدم في آثارهم وانصرف إلى البصرة وكتب بالخبر إلى عبد الملك. فكتب إلى أخيه بشر أن يبعث أربعة آلاف من أهل الكوفة إلى فارس، ويلحقوا بدادود بن قحدم في طلب الأزارقة. فبعث بهم بشر بن عتاب ولحقوا بدادود واتبعوا الخوارج حتى أصابهم الجهد ورجع عامتهم مشاة إلى الأهواز.

ثم خرج أبو فديك من بني قيس بن ثعلبة فغلب على البحرين وقتل نجدة بن عامر الحنفي كما مر. وهزم خالداً فكتب إلى عبد الملك بذلك، وأمر عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر أن يندب الناس من أهل الكوفة والبصرة ويسير لقتال أبي فديك. فانتدب معه عشرة آلاف وسار بهم وأهل الكوفة على ميمته عليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وأهل البصرة في مسيرته عليهم عمر بن موسى أخيه، وهو في القلب. وانتهوا إلى البحرين واصطفوا للقتال وحملوا على أبي فديك وأصحابه فكشفوا مسيرته حتى أبعدوا إلا المغيرة بن المهلب ومجاعة وعبد

وأطفؤوا النار بالماء في اللبود وخرجوا إليه فيبتوا وسرح الحارث فحملوا على أصحابه وانهزموا نحو المدائن وحوى شبيب عسكرهم.

وسار شبيب إلى أرض الموصل فلقى سلامة بن سنان التميمي من غيم شيان أخواه فضالة من أكابر الخوارج. وكان خرج قبل صالح في ثمانية عشر رجلاً ونزل على ماء لبني عنزة فقتلوه، وأثرو برؤوسهم إلى عبد الملك يتقربون له بهم. فلما دعا شبيب سلامة إلى الخروج شرط عليه أن ينتخب ثلاثين فارساً ويسير بهم إلى عنزة. فثار منهم بأخيه فقبل شرطه. وسار إلى عنزة فأنخن فيهم وجعل يقتل الحلة بعد الحلة. ثم أقبل شبيب إلى دارا في نحو سبعين رجلاً ففرت منهم طائفة من بني شيان نحو ثلاثة آلاف فنزلوا ديراً خراباً وامتنعوا منه، وسار في بعض حاجاته واستخلف أخاه مضاد بن يزيد بجماعة من بني شيان في أموالهم مقيمين، فقتل منهم ثلاثين شيخاً فيهم حوثرة بن أسد. وأشرف بنو شيان على مضاد وأصحابه، وسألوا الأمان ليخرجوا إليهم ويسمعوا دعوتهم فأخرجوا وقبلوا ونزلوا إليهم واجتمعوا بهم. وجاء شبيب فاستصوب فعلهم. وسار بطائفة أذربيجان.

وكان الحجاج قد بعث سفيان بن أبي العالية الخثعمي إلى طبرستان يحاصرها في ألف فارس، وكتب إليه الحجاج أن يرجع. فصالح أهل طبرستان ورجع فأقام بالديسكرة يطلب المدد. وبعث الحجاج أيضاً إلى الحارث بن عميرة الهمداني قاتل صالح أن يأتيه بجيش الكوفة والمدائن وإلى سورة بن أبي التميمي في خيل المناظر. ويعجل سفيان في طلب شبيب فلحقه بخانقين فاستطردهم وأكمن كميناً لهم مع أخيه، واتبعوه في سفح الجبل فخرج عليهم الكمين فانهزموا بغير قتال، وثبت سفيان وقاتل. ثم حمل شبيب فأنكشف ونجا إلى بابل مهروود، وكتب إلى الحجاج بالخبر وبوصول العساكر إلا سورة بن أبيج. فكتب الحجاج إلى سورة يتهده ويأمره أن يتخذ من المدائن خمسمائة فارس ويسير إلى شبيب فسار. وانتهى شبيب إلى المدائن ثم إلى الهندوان فترحم على أصحابه هنالك. وبيتهم سورة هنالك وهم حذرون فلم يصب منهم الغرة. ورجع نحو المدائن وشيب في اتباعه.

وخرج ابن أبي عصيفر عامل المدائن فقاتلهم وهرب كثير من جنده إلى الكوفة ومضى شبيب إلى تكريت. ووصل سورة إلى الكوفة بالقل فحبسه الحجاج ثم أطلقه. وسرح عثمان بن سعيد شرحيل الكندي - ويلقب الجزل - في أربعة آلاف ليس فيهم من المهزمين أحد وساروا لحرب شبيب وأصحابه. وقدم بين يديه عياض بن أبي لينة الكندي وجعلوا يتبعون شبيباً من رستاق إلى

بطاعة المهلب، فأجاب لذلك وفي نفسه منه شيء. وعاتبه المهلب يوماً ورفع إليه القضيبي فردّه ابنه المغيرة عن ذلك. وكتب عتاب يشكو المهلب إلى الحجاج ويسأله العود وصادف ذلك أمر شبيب فاستقدمه وبقي المهلب.

حروب الصفورية وشيب مع الحجاج

ثم خرج صالح بن مسرح التميمي من بني امرئ القيس بن زيد مائة وكان يرى رأي الصفورية، وكان عبداً ومسكنه أرض الموصل والجزيرة وله أصحاب يقرئهم القرآن والفقه. وكان يأتي الكوفة ويلقى أصحابه ويعد ما يحتاج إليه. فطلبه الحجاج فترك الكوفة وجاء إلى أصحابه بالموصل ودارا فدعاهم إلى الخروج وحث الناس عليه. وجاءه كتاب شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني من رؤوسهم يخث على مثل ذلك. فكتب إليه: إني في انتظارك فأقدم. فقدم شبيب في نفر من أصحابه منهم أخوه المضاد والحل بن وائل الشكري ولقيه بدارا، وأجمع صالح الخروج. وبعث إلى أصحابه وخرجوا في صفر سنة ست وسبعين. وأمر بالدعاء قبل القتال وخير في الدماء والأموال. وعرضت له دواب لحمد بن مروان بالجزيرة فأخذوها وحملوا عليها أصحابهم.

وبلغ محمد بن مروان وهو أمير الجزيرة خروجهم فسرّح إليهم عدي بن عدي الكندي في ألف فسر من حران وكان ناسكاً فكره حروبهم وبعث إليهم بالخروج فحبسوا الرسول. فساروا إليه فظلموا عليه وهو يصلي الضحى وشيب في المينة وسويد بن سليم في البصرة. وركب عدي على غير تعبئة فانهزم واحتوى الخوارج على معسكره ومضوا إلى آمد. وسرح محمد بن مروان خالد بن حر السلمي في ألف وخمسمائة، والحارث بن جعونة العامري في مثلها، وقال: أيكما سبق فهو أمير على صاحبه.

وبعث صالح شبيباً إلى الحارث وتوجه هو نحو خالد وقاتلوه أشد القتال. واعتصم أصحاب محمد بخندقهم فسارت الخوارج عنهم وقطعوا أرض الجزيرة والموصل إلى الديسكرة. فسرّح إليهم الحجاج الحارث بن عميرة بن ذي الشعار في ثلاثة آلاف من أهل الكوفة فلقبهم على تخم ما بين الموصل وصرصر والخوارج في تسعين رجلاً. فانهزم سويد بن سليم وقتل صالح وصرع شبيب. ثم وقف على صالح قتيلاً فنادى بالمسلمين فلاذوا به ودخلوا حصناً هنالك وهم سبعون. وعات الحارث بهم وأحرق عليهم الباب ورجع يصحبهم من الغداة. فقال لهم شبيب: بايعوا من شتمت من أصحابكم وأخرجوا بنا إليهم. فبايعوه

هاتئ بن قبيصة الشيباني فقال له: يا نصر لا حكم إلا لله ففطن بهم وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون وشد عليه أصحاب شبيب فقتلوه.

ونادى منادي الحجاج بالكوفة يا خيل الله اركبي وهو بباب القصر وكان أول من أثناه عثمان بن قطن بن عبد الله بن الحسين ذي القصة، ثم جاء الناس من كل جانب، فبعث الحجاج خالد بن الأسدي وزائدة بن قدامة الثقفي وأبى الضريس مولى بني غنيم، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر وزباد بن عبد الله العتكي في ألفين الفين وقال: إن كان حرب فأمركم زائدة بن قدامة. وبعث معهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله من سجستان، وكان عبد الملك قد ولاه عليها، وأمر الحجاج أن يجهز ويبعثه في آلاف من الجنود إلى عمله، فجهزه. وحدث أمر شبيب. فقال له الحجاج: تمجاهد ويظهر اسمك ثم غضي إلى عمالك، فساروا جميعاً ونزلوا أسفل الفرات.

وأخذ شبيب نحو القادسية وجرد الحجاج ألفاً وثمانمائة من نقابة الجند مغ ذخر بن قيس، وأمره بمواقعة شبيب أينما أدركه، وإن ذهب فاتركه. فأدركه بالسلخين وعطف عليه شبيب فقاتل ذخر حتى صرع وفيه بضعة عشر جرحاً. وانهزم أصحابه يظنون أنه قتل. ثم أفاق من برد السحر فدخل قرية وسار إلى الكوفة. ثم قصد شبيب وأعوانه وهم على أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة فقال: إن هزمتهم فليس دون الحجاج والكوفة مانع.

وانتهى إليهم وقد تعبوا للحرب وعلى الميمنة زياد بن عمر العتكي وعلى الميسرة بشر بن غالب الأسدي وكل أمير بمكانه. وعي شبيب أصحابه ثلاثة كنان: فحمل سويد بن سليم على زياد بن عمر فانكشفوا وثبت زياد قليلاً. ثم حمل الثانية فانهزموا وانهزم جريحاً عند المساء. ثم حملوا على عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر فانهزم ولم يقاتل ولحق زياد بن عمر وحملت الخوارج حتى انتهت إلى محمد بن موسى بن طلحة عند الغروب فقاتلوه وصبر لهم. ثم حمل مضاد أخو شبيب على بشر بن غالب في الميسرة فصر ونزل في خسين رجلاً فقاتلوه حتى قتلوا. وحملت الخوارج على أبي الضريس مولى بني غنيم فهزموه حتى انتهى إلى أعين ثم حملوا عليه وعلى أعين فهزموهما إلى زائدة بن قدامة. فلما انتهوا إليه نادى نزال وقاتلهم إلى السحر ثم حمل شبيب عليه فقتله وقتل أصحابه ودخل أبو الضريس مع الفل إلى الجوسق بإزائهم.

ورفع الخوارج عنهم السيف ودعوهم إلى البيعة لشبيب عند الفجر فبايعوه وكان فيمن بايعه أبو بردة وبقي محمد بن موسى لم

رستاق وهو على غير تعبئة والجزل على التعبئة ويخندق على نفسه متى نزل. وطال ذلك على شبيب وكان في مائة وستين فقسمه على أربع فرق وثبت الجزل ومشايخه فلم يصب منهم فرجع عنهم. ثم صحبتهم ثانية فلم يظهر منهم بشيء.

وسار الجزل في التعبئة كما كان وشبيب يسير في أرض الخوارج وغيرها يكسب الخراج. وكتب الحجاج إلى الجزل ينكر عليه البطء ويأمره بالمناهضة وبعث سعيد بن الجالدي على جيش الجزل فجاءهم بالمندوان وروثهم وعجزهم. وجاءهم الخبر بأن شبيباً قد دخل قطيفاً والدهقان يصلح لهم الغذاء، فنهض سعيد في الناس وترك الجزل مع العسكر وقد صف بهم خارج الخندق. وجاء سعيد إلى قطيفاً وعلم به شبيب فاكل وتوضأ وصلى. وخرج فحمل على سعيد وأصحابه مستعزضاً فانهزموا وثبت سعيد فقتله وسار في اتباعهم إلى الجزل فقاتلهم الجزل حتى وقع بين القتلى جريحاً. وكتب إلى الحجاج بالخبر وأقام بالمدائن. وانتهى شبيب إلى الكرخ وعبر دجلة إليه وأرسل إلى سوق بغداد فأتاهم في يوم سوقهم واشترى منه حاجاته وسار إلى الكوفة.

فلما قرب منها بعث الحجاج سويد بن عبد الرحمن السعدي في ألفي رجل فساروا إلى شبيب. وأمر عثمان بن قطن فمسكر في السبخة. وخالفه شبيب إلى أهل السبخة فقاتلوه. وجاء سويد في آثاره فمضى نحو الحيرة وسويد في اتباعه. ثم رحل من الحيرة وجاء كتاب الحجاج إلى سويد يأمره باتباعه. فمضى في إتيانه وشبيب يغير في طريقه. وأخذ على القططانة ثم على قصر بني مقاتل ثم على الأنبار ثم ارتفع على أدنى أذربيجان. ولما أبعد سار الحجاج إلى البصرة واستعمل على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة فجاءه كتاب دهقان بابل مهروود يخبره بقصد شبيب الكوفة فبعث بالكتاب إلى الحجاج.

وأقبل شبيب حتى نزل عقرقوباء، ونزل وسار منها يسابق الحجاج إلى الكوفة. وطوى الحجاج المنازل فوصل الكوفة عند العصر ووصل شبيب عند المغرب. فأراح وطمعوا ثم ركبوا ودخلوا إلى السوق. وضرب شبيب القصر بعموده. ثم اقتحموا المسجد الأعظم فقتلوا فيه من الصالحين ومروا بدار صاحب الشرطة فدعوه إلى الأمير ونكروهم فقتلوا غلامه. ومروا بمسجد بني ذهل فقتلوا ذهل بن الحارث وكان يطيل الصلاة فيه. ثم خرجوا من الكوفة واستقبلهم النضر بن القعقاع بن شور الدهلي، وكان ممن أقبل مع الحجاج من البصرة فتخلف عنه. فلما رآه قال: السلام عليك أيها الأمير! فقال له شبيب: قل أمير المؤمنين ويلك فقالها. وأراد شبيب أن يلقنه للقرابة بينهما. وكان النضر ناحية بيت

خالد بن نهيك بن قيس وفي الميسرة عقيل بن شداد السلولي وابسن قطن في الرجالة وعبر إليهم شييب في مائة وثلاثين رجلاً فوقف في المينة وأخوه مضاد في القلب وسويد بن سليم في الميسرة وحمل شييب على ميسرة عثمان بن قطن فانهزموا ونزل عقيل بن شداد فقاتل حتى قتل وقتل معه مالك بن عبد الله الهمداني. وحمل سويد على مينة عثمان فهزمها وقاتل خالد بن نهيك فجاء شييب من ورائه فقتله وتقدم عثمان إلى مضاد في القلب فاشتد القتال وحمل شييب من وراء عثمان وعطف عليه سويد بن سليم ومضاد من القلب حتى أحاطوا به فقتلوه. وانهزمت العساكر ووقع عبد الرحمن بن الأشعث فأنه ابن أبي شعبة الجعفي وهو على بغلة فأردفه ونادى في الناس بالحقا بدير أبي مريم.

ورفع شييب السيف عن الناس ودعاهم إلى البيعة فبايعوه ولحق ابن الأشعث بالكوفة فاخفى حتى آمنه الحجاج. ومضى شييب إلى ماه نهرادان فأقام فيه فصل الصيف فلحق به من كان للحجاج عليه تبعة. ثم أقبل إلى المدائن في ثمانمائة رجل وعليها مطرف بن المغيرة. وبلغ الخبر إلى الحجاج فقام في الناس وتسخط وتوعد. فقال زهرة بن حوية وهو شيخ كبير لا يستطيع القيام إلا معتمداً. أنت تبعث الناس متقطعين فيصيبون منهم؟ فاستنفر الناس جميعاً وبعث عليهم رجلاً شجاعاً مجرباً يرى الفرار عاراً والصبر مجداً وكراً. فقال الحجاج: أنت ذلك الرجل! فقال: إنما يصلح من يحمل الدرع والرمح ويهز السيف ويثبت على الفرس ولا أطيق من هذا شيئاً وقد ضعف بصري ولكن أكون مع أمير وأشير عليه. فقال له: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله أول أمرك وآخره.

ثم قال للناس: سيروا فتجهزوا بأجمعكم فتجهزوا وكتب الحجاج إلى عبد الملك بأن شيئاً شارب المدائن يريد الكوفة وهم عاجزون عن قتاله بما هزم جندهم وقتل أمراءهم ويستمد من جند الشام، فبعث إليه عبد الملك سفيان بن الأبرد الكلبي في أربعة آلاف وحييب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين وذلك سنة ست وسبعين.

وكتب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء الرياحي يستقدمه من عند المهلب وقد وقع بينهما كما مر فقدم عتاب وولاه على الجيش فشكر زهرة بن حوية له وقال: رميتهم بمجرهم والله لا يرجع إليك حتى يظفر أو يقتل. وبعث الحجاج إلى جند الشام يحجزهم البيات ويوصيهم الإحتياط وأن يأتوا على عين التمر. وعسكر عتاب بجماع أعين ثم قطع شييب دجلة إلى المدائن وبعث إليه مطرف أن يأتيه رجال من وجوههم ينظر في دعوتهم فرجا منه

ينهزم، فلما طلع الفجر سمع شييب أذانهم وعلم مكانهم فأذن وصلى ثم حمل عليهم فانهزمت طائفة منهم وثبتت أخرى وقاتل محمد حتى قتل. وأخذ الخوارج ما في العسكر وانهزم الذين بايعوا شيئاً فلم يبق منهم أحد. وجاء شييب إلى الجوسق الذي فيه أعين وأبو الضريس فتحصنوا منه فأقام يوماً عليهم وسار عنهم وأراد أصحابه على الكوفة وإزاءهم خوخي فتركها وخرج على نفر.

وسمع الحجاج بذلك فظن أنه يريد المدائن وهي باب الكوفة وأكثر السواد لها فهاله ذلك وبعث عثمان بن قطن أميراً على المدائن وخوخي والأنبار وعزل عنها عبد الله بن أبي عصفير. وقيل في مقتل محمد بن موسى غير هذا وهو أنه كان شهد مع عمر بن عبد الله بن معمر قتال أبي فديك فزوجه عمر ابنته، وكانت أخته تحت عبد الملك فولاه سجستان فمر بالكوفة وقيل للحجاج: إن جاء إلى هذا أحد من تطلبه منكم منه فمره بقتال شييب في طريقه لعل الله يريحك منه ففعل الحجاج وعدل محمد إلى قتال شييب وبعث إليه شييب بدهاء الحجاج وخديعته إياه وأن يعدل عنه فأبى إلا شيئاً فبارزه وقتله شييب. ولما انهزم الأمراء وقتل موسى بن محمد بن طلحة دعا الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وأمره أن يتخب ستة آلاف فارس ويسير في طلب شييب أين كان، فسار لذلك. ثم كتب إليه وإلى أصحابه يتهددهم إن انهزموا ومر ابن الأشعث بالمدائن وعاد الجزل من جراحته فوصاه وحذره وحمله على فرسه وكانت لا تجارى. وسار شييب على دقوقا وشهزورز وابن الأشعث في اتباعه إلى أن وقف على أرض الموصل وأقام يقاتله أهلها.

فكتب إليه الحجاج: أما بعد فاطلب شيئاً وأسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فاقتله أو تنفيه فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجنود جنده. فجعل ابن الأشعث يتبعه وشييب يقصد به الأرض الخشنة الغليظة وإذا دنا منه رجع بيته فيجده على حذره حتى أتعب الجيش وأحفى دوابهم ونزل بطن أرض الموصل ليس بينه وبين سواد إلا نهر حولايا في دادان الأعلى من الأرض خوخي. ونزل عبد الرحمن في عواقل النهر وكانت أيام النحر، وطلب شييب الموادة فيها فأجابه قصداً للمطاوله. وكتب عثمان بن قطن بذلك إلى الحجاج فنكر وبعث إلى عثمان بن قطن بإمارة العسكر وأمره بالمسير وعزل عبد الرحمن بن الأشعث. وبعث على المدائن مطرف بن المغيرة مكان ابن قطن وقدم ابن قطن على عسكر الكوفة عشية يوم التروية وناداهم إلى الحرب فاستمهلوه وأنزله عبد الرحمن بن الأشعث.

وأصبحوا إلى القتال ثالث يومهم على تميمية وفي المينة

وبعث إليه بغيث بن سويد في جماعة مكثوا عنده أربعاً ولم يرجعوا

من مطرف بشيء. ونزل عتاب الصراة وخرج مطرف إلى الجبال خوفاً أن يصل خبره مع شييب إلى الحجاج.

فخلا لهم الجو. وجاء مضاد إلى المدائن فعقد الجسر ونزل عتاب سوق حكم في خمسين ألفاً. وسار شييب بأصحابه في ألف رجل، فصلى الظهر بساباط وأشرف على عسكر عتاب عند المغرب وقد تخلف عنه أربعمائة من أصحابه فصلى المغرب، وعي أصحابه ستمائة سويد بن سليم في مائتين في الميسرة، والحلل بن وائل في مائتين في الميمنة وهو في مائتين في القلب. وكان على ميمنة عتاب محمد بن عبد الرحمن بن سعيد وعلى ميسرته نعيم بن عليم وعلى الرجالة حنظلة بن الحارث اليربوعي وهو ابن عمه وهم ثلاثة صفوف بين السيوف والرماح والرماة.

ثم حرض الناس طويلاً وجلس في القلب ومعه زهرة بن مرثد وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وأبو بكر بن محمد بن أبي جهم العدوي. وأقبل شييب حين أضاء القمر بين العشاءين فحمل على الميسرة وفيها ربيعة فانقضوا وثبت قبيصة بن القحطاني وعبيد بن الجليس ونيهم بن عليم على رأيهم حتى قتلوا. ثم حمل شييب على عتاب بن ورقاء وحمل سويد بن سليم على محمد بن سليم في الميمنة في تميم وهمدان. واشتد القتال وخالط شييب القلب وانقضوا وتركوا عتاباً وفر ابن الأشعث في ناس كثيرين وقتل عتاب بن ورقاء وركب زهرة بن حوية فقاتل ساعة ثم طعنه عامر بن عمر الثعلبي من الخوارج ووطأته الخيل فقتله الفضل بن عامر الشيباني منهم، ووقف عليه شييب. وتوجع له ونكر الخوارج ذلك وقالوا: أتراجع لرجل كافر؟ فقال: أعرف قديمه.

ثم رفع السيف عن الناس ودعا للبيعة فبايعوه وهربوا تحت ليلهم وحوى ما في العسكر وأناه أخوه من المدائن وأقام يومين. ثم سار نحو الكوفة ولحق سفيان بن الأبرد وعسكر الشام بالحجاج، فاستغنى بهم عن أهل الكوفة واشتد بهم وخطب فوبخ أهل الكوفة وعجزهم. وجاء شييب فنزل حمام أعين فسرح الحجاج إليه الحارث بن معاوية الثقفي في نحو ألف من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب فبادر إليه شييب فقتله وانهزم أصحابه إلى الكوفة وأخرج الحجاج مواليه فأخذوا بأفواه السكك وجاء شييب فنزل السبخة ظاهر الكوفة وبنى بها مسجداً وسرح الحجاج مولاة أبا الورد في غلمان لقتاله فحمل عليه شييب وقتله يظنه الحجاج. ثم أخرج إليه مولاة طهمان كذلك فقتله. فركب الحجاج في أهل الشام وجعل سبرة بن عبد الرحمن بن غنم على أفواه السكك. وقعد على كرسية ونادى في أهل الشام وحرضهم فغضوا الأبصار

وجثوا على الركب وشرعوا الرماح.

وأقبل شييب في ثلاثة كراديس معه ومع سويد بن سليم ومع الحلال بن وائل. وحمل سويد وبيتوا وطاعوه حتى انصرف. وقدم الحجاج كرسية وحمل الحلال ثانية فكدلك وقدم الحجاج كرسية فثبثوا له والحقوه بأصحابه، وسرب شييب سويد بن سليم إلى أهل السكك وكان عليها عروة بن المغيرة بن شعبة فلم يطق دفاعه. ثم حمل شييب فطاعوه وردوه وانتهى الحجاج إلى مسجده وصعد وملك العرصه. وقال له خالد بن عتاب: إنذني لي في قتالهم فإني موتور فأذن له، فجاءهم من ورائهم وقتل أخا شييب وغزاة أمراته وخرق عسكرهم وحمل الحجاج عليهم فانهزموا، وتخلف شييب رداً لهم. فأمر الحجاج أصحابه بموادعتهم ودخل الكوفة فخطب وبشر الناس.

ثم سرح حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف فارس لأتباعه وحذره بياته فانتفى في أثره إلى الأنبار وقد افترق عن شييب كثير من أصحابه للأمان الذي نادى الحجاج به، فجاءه شييب عند الغروب وقد قسم حبيب جنده أرباعاً وتواصوا بالاستماتة فقاتلهم شييب طائفة بعد طائفة. فما زالت قدم إنسان عن موضعها إلى آخر الليل. ثم نزل شييب وأصحابه واشتد القتال وكثر القتلى وسقطت الأيدي وفقت الأعين، وقتل من أصحاب شييب نحو ثلاثين ومن أهل الشام نحو مائة. وأدركهم الإعياء والفشل جميعاً. فانصرف شييب بأصحابه وقطع دجلة ومر في أرض خوخي. ثم قطع دجلة أخرى عند واسط ومضى على الأهواز وفارس إلى كرمان ليربح بها.

وقد قيل في هذه الحرب غير هذا، وهو أن الحجاج بعث إليه أمراء واحداً بعد واحد فقتلهم وكان منهم أعين صاحب حمام أعين وكانت غزاة امرأة شييب نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين بالبقرة وآل عمران. فجاء شييب ودخل الكوفة ليلاً وأوقت بنذرهما. ثم قاتلهم الناس وخرجوا. وقام الحجاج في الناس يستشيرهم ويرز إليهم قتيبة وعذله في بعث الرعاع ينهزمون ويموت قائدهم والرأي أن تخرج بنفسك فتحاله فخرج من الغد إلى السبخة وبها شييب واختفى مكانه عن القوم ونصب أبا الورد مولاة تحت اللواء فحمل عليه شييب فقتله. ثم حمل على خالد بن عتاب في الميسرة ثم على مطرف بن ناجية في الميمنة فكشفهما.

ونزل عند ذلك الحجاج وأصحابه وجلس على عباءة ومعه عتبة بن سعيد. وبينما هم على ذلك إذ اختلفت الخوارج وقال مصقلة بن مهلهل الضبي لشييب: ما تقول في صالح بن سرح؟ قال: برئت منه فبريء مصقلة منه وفارقه. وشعر الحجاج

علمت أن المراد بالشورى الرضا من قريش رضوا فكثروا مبايعكم فقالوا: لا نخييك إلى هذا.

وأقاموا أربعة أيام يتناظرون في ذلك ولم يتفقوا وخرجوا من عنده. ثم دعا مطرف أصحابه وأخبرهم بما دار بينه وبين أصحاب شيبب وأن رايه خلع عبد الملك والحجاج فوجروا من قوله وأشاروا عليه بالكتمان فقال له يزيد بن أبي زياد مولى أبيه: لن والله يخفي على الحجاج شيء مما وقع ولو كنت في السحاب لاستنزلت فالتجاء بنفسك، وواقفه أصحابه فسار عن المدائن إلى الجبال ولما كان في بعض الطريق دعا أصحابه إلى الخلع والدعاء إلى الكتاب والسنة، وأن يكون الأمر شورى فرجع عنه بعض إلى الحجاج منهم سيرة بن عبد الرحمن بن مخنف وسار مطرف ومر بلحوان وبها سويد بن عبد الرحمن السعدي مع الأكراد فاعترضوه فأوقع مطرف بهم وأثنى في الأكراد ومال عن همدان ذات اليمين وبها أخو حمزة واستمده بمال وسلاح فأمدته سراً.

وسار إلى قم وقاشان فبعث عماله في نواحيها وفتح إليه من كل جانب فجاءه سويد بن سرحان الثقفي وبكير بن هارون النخعي من الري في نحو مائة رجل. وكان على الري عدي بن زياد الإباضي وعلى أصبهان البراء بن قبيصة فكتب إلى الحجاج بالخبر واستمده فأمدته بالرجال، وكتب إلى عدي بالري أن يجتمع مع البراء على حرب مطرف فاجتمعوا في ستة آلاف وعدي أميرهم. وكتب الحجاج إلى قيس بن سعد البجلي وهو على شرطة حمزة بهمدان بأن يقبض على حمزة ويتولى مكانه فجاءه في جمع من عجل وربيعة وأقره كتاب الحجاج فقال: سمعاً وطاعة. وقبض قيس عليه وأودعه السجن. وسار عدي والبراء نحو مطرف فقاتلوه وانهزم أصحابه وقتل يزيد مولى أبيه. وكان صاحب الراية وقتل من أصحابه عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف الأزدي وكان ناسكاً صالحاً وكان الذي تولى قتل مطرف عمر بن هبيرة الفزاري. وبعث عدي أهل البلاد إلى الحجاج وأمر بكير بن هارون وسويد بن سرحان، وكان الحجاج يقول: مطرف ليس بولد للمغيرة وإنما هو ابن مصقلة الحر، لأن أكثر الخوارج كانوا من ربيعة ولم يكن فيهم من قيس.

اختلاف الأزارقة

قد تقدم لنا مقام المهلب في قتال الأزارقة على سابور بعد مسير عتاب عنه إلى الحجاج وأنه أقام في قتالهم سنة، وكانت كرمات لهم وفارس للمهلب فانقطع عنهم المدد وضاعت حالهم

باختلافهم فسرح خالد بن عتاب لقتالهم فقاتلهم في عسكرهم وقتل غزاة وبعث برأسها إلى الحجاج فأمر شيبب من اعترضه فقتل حامله، وجاء به فغسله ودفنه. وانصرف الخوارج وتبعهم خالد. وقتل مضاد أخو شيبب ورجع خالد عنهم بعد أن أبلى وسار شيبب إلى كرمات. وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستمده فبعث إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في العساكر فاتفق فيهم المال، وسرحه بعد انصراف الخوارج بشهرين وكتب إلى عامل البصرة وهو الحكم بن أيوب زوج ابنته أن يبعث بأربعة آلاف فارس من جند البصرة إلى سفيان فبعثهم مع زياد بن عمر العتكي فلحقه انقضاء الحرب.

وكان شيبب بعد أن استجم بكرمان أقبل راجعاً فلقي سفيان بالأهواز فعبّر إليه جسر دجيل وزحف في ثلاثة كراديس فقاتلهم أشد قتال وحملوا عليهم أكثر من ثلاثين حملة وسفيان وأهل الشام مستميتون يزحفون زحفاً حتى اضطّر الخوارج إلى الجسر فنزل شيبب في مائة من أصحابه وقاتل إلى المساء حتى إذا جاء الليل انصرف وجاء إلى الجسر فقدم أصحابه وهو على أثرهم. فلما مر بالجسر اضطرب حجر تحت حافر فرسه وهو على حرف السفينة فسقط في الماء وغرق وهو يقول: وكان أمر الله مفعولاً، ذلك تقدير العزيز العليم. وجاء صاحب الجسر إلى سفيان وهو يريد الإنصراف بأصحابه فقال: إن رجلاً من الخوارج سقط فتادوا بينهم غرق أمير المؤمنين ومروا وتركوا عسكرهم فكبر سفيان وأصحابه وركب إلى الجسر وبعث إلى عسكرهم فحوى ما فيه وكان كثير الخيرات ثم استخرجوا شيبباً من النهر ودفنوه.

خروج المطرف بن المغيرة بن شعبة

لما ولي الحجاج الكوفة وقدمها وجد بني المغيرة صلحاء أشرفاً فاستعمل عروة على الكوفة ومطرفاً على المدائن وحمزة على همدان فكانوا أحسن العمال سيرة وأشدهم على المريب. ولما جاء شيبب إلى المدائن نزل نهر شير ومطرف بمدينة الأبواب فقطع مطرف الجسر وبعث إلى شيبب أن يرسل إليه من يعرض عليه الدعوة، فبعث إليه رجلاً من أصحابه فقالوا: نحن ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإنا نقمنا على قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتبسط بالجزية فقال مطرف: دعوهم إلى حق..... جوراً ظاهراً وأنا لكم متابع فيأيكوني على قتال هؤلاء الظلمة بأحدائهم وعلى الدعاء إلى الكتاب والسنة وعلى الشورى كما تركها عمر بن الخطاب حتى يولي المسلمون من يرضونه، فإن العرب إذا

وحذر عليه حجراً من فوق الشعب فأصابه في رأسه فأوهنه ونادى بالناس فجاء في أولهم نفر من أهل الكوفة فقتلوه..... منهم سورة بن أبيجر التميمي وجعفر بن عبد الرحمن بن غنم والسباح بن محمد بن الأشعث وحمل رأسه أبو الجهم إلى إسحاق بن محمد فبعث به إلى الحجاج، وبعثه الحجاج إلى عبد الملك.

وركب سفيان فأحاط بالخوارج وحاصروهم حتى أكلوا درابهم، ثم خرجوا إليه واستماتوا فقتلهم أجمعين وبعث برؤوسهم إلى الحجاج ودخل دناوند وطبرستان فكان هناك حتى عزله الحجاج قبل دير الجماجم. قال بعض العلماء: وانقرضت الأزارقة بعد قطري وعبيدة آخر رؤسائهم وأول رؤسائهم نافع بن الأزرق. واتصل أمرهم بضعا وعشرين سنة إلى أن افرقوا كما ذكرناه سنة سبع وسبعين فلم تظهر لهم جماعة إلى رأس المائة.

خروج شوذب

خرج شوذب هذا أيام عمر بن عبد العزيز على رأس المائة واسمه بسطام وهو من بني يشكر. فخرج في مائتي رجل وسار في خوخى وعامل الكوفة يومئذ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب. فكتب إليه عمران أن لا يعرض لهم حتى يقتلوا أو يفسدوا فيوجه إليهم الجند مع صليب حازم فبعث عبد الحميد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين فأقام بإزائه لا يحركه. وكتب عمر إلى شوذب: بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله، وكنت أولى بذلك مني، فهل لي أنأظرك فإن كان الحق معنا دخلت مع الناس، وإن كان الحق معك نظرتنا في أمرك. فبعث إليه عاصماً الحبيشي مولى بني شيان ورجلاً من بني يشكر فقدموا عليه فحاصر فسالهما: ما أخرجكم وما الذي نقمتم؟ فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك إنك لتتحري العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر مشورة من الناس أم غلبت عليه: قال عمر: ما سألته وما غلبت عليه. وعهد لي رجل قبلي فقمتم ولم ينكر أحد، ومذهبكم الرضا لكل من عدل، وإن أنا خالفت الحق فلا طاعة لي عليكم.

قالا: فقد خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فتبرأ منهم والعنهم. فقال عمر: أنتم تريدون الآخرة وقد أخطأتم طريقها، وإن الله لم يشرع اللعن. وقد قال إبراهيم: ومن عصاني فإنك غفور رحيم. وقال: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. وبقي تسمية أعمالهم مظالم ذماً، ولو كان لعن أهل الذنوب فريضة لوجب عليكم لعن فرعون، أنتم لا تلعنونه وهو أخبث الخلق، فكيف ألعن أنا أهل بيتي وهم مصلون صائمون ولم يكفروا

فتأخروا إلى كرمان وتبعهم المهلب ونزل خيررفت مدينة كرمان وقتلهم حتى أزالهم عنها. وبعث الحجاج العمال على نواحيها وكتب إليه عبد الملك بتسويق.... للمهلب معونة له على الحرب. وبعث الحجاج إلى المهلب البراء بن قبيصة يستحثه لقتال الخوارج فسار وقتلهم والبراء مشرف عليه من رهوة واشتد قتاله، وجاء البراء من الليل فتعجب لقتاله وانصرف إلى الحجاج وأنهى غدر المهلب وقتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء. ثم وقع الاختلاف بينهم فقبل في سببه: إن المقطر الضبي وكان عاملاً لقطري على بعض نواحي كرمان قتل بعض الخوارج فطلبوا القود منه فممنعه قطري وقال: تأول فأخطأ، وهو من ذوي السابقة فاختلوا وقيل: بل كان رجل في عسكرهم يصنع النصول مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب فكتب المهلب كتاباً مع رجل وامرأة أن يلتقيه في عسكرهم وفيه وصلت نصالك وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما وقف على الكتاب سأل الصانع فأنكر فقتله فأنكر عليه عبد ربه الكبير واختلوا.

وقيل: بعث المهلب نصرانياً وأمره بالسجود لقطري فقتله بعض الخوارج ولولو عبد ربه الكبير وخلعوا قطرياً فبقي في نحو الخمسين منهم وأقاموا يقتلون شهراً، ثم لحق قطري بطبرستان وأقام عبد ربه بكرمان وقتلهم المهلب وحاصروهم بخيررفت. ولما طال عليهم الحصار خرجوا بأموالهم وحرهم وهو يقتلهم حتى أئعن فيهم. ثم دخل خيررفت وسار في أتباعهم فلحقهم على أربعة فراسخ فقاتلهم هو وأصحابه حتى أعياهم وكف عنهم. ثم استمات الخوارج ورجعوا فقاتلوه حتى يش من نفسه. ثم نصره الله عليهم وهزمهم وقتل منهم نحواً من أربعة آلاف كان منهم عبد ربه الكبير ولم ينج منهم إلا القليل.

وبعث المهلب المبشر إلى الحجاج فأخبره وسأله عن بني المهلب فأثنى عليهم واحداً واحداً. قال: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفها فاستحسن قوله وكتب إلى المهلب يشكره ويأمره أن يولي على كرمان من يراه وينزل حامية ويقدم عليه، فولى عليها ابنه يزيد وقدم على الحجاج فاحتفل لقدمه وأجلسه إلى جانبه وقال: يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب. ومرح سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش عظيم نحو طبرستان لطلب قطري وعبيدة بن هلال ومن معهم من الخوارج. والتقوا هنالك بإسحاق بن محمد بن الأشعث في أهل الكوفة واجتمعا على طلبهم، فلحقهم في شعب من شعاب طبرستان وقتلوه فافترقوا عن قطري ووقع عن دابته فتدهده إلى أسفل الشعب ومر به عالج فاستقاه على أن يعطيه سلاحه. فعمد إلى أعلى الشعب

بمكة من كان على رأيه، فأبعدوا إلى قرية من قرى الموصل واجتمعوا بها وهم أربعون وأمروا عليهم بهلول وأخفوا أنفسهم بأنهم قدموا من عند هشام. ومروا بقرية كان بهلول ابتاع منها خلا فوجده خراً وأبى البائع من رده واستعدى عليه عامل القرية، فقال: الخمر خير منك ومن قومك فقتلوه وأظهروا أمرهم وقصدوا خالداً القسري بواسط وتعللوا عليه بأنه يهدم المساجد ويبيي الكنائس ويولي المجرد على المسلمين.

وجاء الخبر إلى خالد فتوجه من واسط إلى الحيرة وكان بها جند من بني العيين نحو ستمائة بعثوا مدداً لعمال الهند، فبعثهم خالد مع مقدمهم لقتال بهلول وأصحابه وضم إليهم مائتين من الشرط والتقوا على الفرات، فقتل مقدمهم وانهمزوا إلى الكوفة. وبعث خالد عابداً الشيباني من بني حوشب بن يزيد بن رويم فلقبه بين الموصل والكوفة فهزمهم إلى الكوفة وارتحل يريد الموصل. ثم بدا له وسار يريد هشاماً بالشام وبعث خالد جنداً من العراق وعامل الجزيرة جنداً، وبعث هشام جنداً فاجتمعوا بين الجزيرة والموصل بكحيل وهم في عشرين ألفاً وبهلول في سبعين فقاتلوا واستماتوا وصرع بهلول. وسأله أصحابه العهد فعهده إلى دعامة الشيباني ثم إلى عمر الشكري من بعده. ومات بهلول من ليلته وهرب دعامة وتركهم ثم خرج عمر الشكري فلم يلبث أن قتل.

ثم خرج على خالد بعد ذلك بستين الغفري صاحب الأشهب وبهذا كان يعرف فبعث إليه السمط بن مسلم البجلي في أربعة آلاف فالتقوا بناحية الفرات فانهزمت الخوارج ولقيهم عبيد أهل الكوفة وغوغاهم فرمهم بالحجارة حتى قتلوهم.

ثم خرج وزير السخثاني على خالد بالحيرة فقتل وأحرق القرى فوجه إليه خالد جنداً فقتلوا أصحابه، وأثنى بالجراح وأتى به خالد فوعظه فأعجبه وعظه فأعفاه من القتل. وكان يسامره بالليل وسعى بخالد إلى هشام وأنه أخذ حرورياً يستحق القتل فجعله سيراً، فكتب إليه هشام بقتله فقتله.

ثم خرج بعد ذلك الصحاري بن شبيب بإفريقية فمضى وندم خالد فطلبه فلم يرجع، وأتى جبل وبها نفر من اللات بن ثعلبة فأخبرهم وقال: إنما أردت التوصل إليه لأقتله بفلان من قعدة الصفرية كان خالد قتله صبراً. ثم خرج معه ثلاثون منهم فوجه إليهم خالد جنداً فلقوهم بناحية المناذر فاقتلوا فقتل الصحاري وأصحابه أجمعون.

ورد أمر الخوارج بعد ذلك مرة فلما وقعت الفتن أيام هشام

بظلمهم! لأن النبي ﷺ دعا إلى الإيمان والشرعة، فمن عمل بها قبل منه، ومن أحدث حدثاً فرض عليه الحد.

فقال: فإن النبي ﷺ دعا إلى التوحيد والإقرار بما نزل عليه. فقال عمر: ليس أحد ينكر ما نزل عليه ولا يقول لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ، لكن القوم أسرفوا على أنفسهم. قال عاصم: فأبأ منهم ورد أحكامهم. قال عمر: اتعلمان أن أبا بكر سبى أهل الردة وأن عمر ردها بالقديّة ولم يبرأ من أبي بكر وأنتم لا تبرؤون من واحد منهما قال: فأهل النهروان خرج أهل الكوفة منهم فلم يقتلوا ولا استعرضوا وخرج أهل البصرة فقتلوا عبد الله بن حباب وجارية حاملاً، ولم يتبرأ من لم يقتل عمن قتل واستعرض، ولا أنتم تبرؤون من واحد منهما. وكيف ينفعكم ذلك مع علمكم باختلاف أعمالكم؟ ولا يسعى أنا البراءة من أهل بيتي والدين واحد. فاتقوا الله ولا تقبلوا المردود وتردوا المقبول، وقد آمن رسول الله ﷺ من شهد شهادة الإسلام وعصم ماله ودمه، وأنتم تقتلونهم ويأمن عندكم سائر الأديان وتحرمون دماءهم وأموالهم.

فقال الشكري: من استأمن على قوم وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي لزمه؟ فكيف تسلم هذا الأمر بعدك إلى يزيد مع علمك أنه لا يعدل فيه. فقال: إنما ولاء غيري والمسلمون أولى بذلك بعدي. قال: فهو حق ممن فعله وولاه، قال: أنظرائي ثلاثاً. ثم جاءه عاصم فرجع عن رأي الخوارج وقال له الشكري: أعرض عليهم ما قلت واسمع حجتهم. وأقام عاصم عند عمر وأمر له بالعطاء وتوفي عمر لأيام قلائل ومحمد بن جرير ينتظر عود الرسل.

ولما مات عمر كتب عبد الحميد إلى محمد بن جرير بمنساجرة شوذب قبل أن يصل إليهم خبر عمر، فقالت الخوارج: ما خالف هؤلاء ميعادهم إلا وقد مات الرجل الصالح. واقتتلوا فانهزم محمد بن جرير واتباعه الخوارج إلى الكوفة، ورجعوا وقدم على شوذب أصحابه وأخبراه بموت عمر، وسرح يزيد غيم بن الحبيب في ألفين فهزمه أصحابه، ثم بعث إليهم الشجاع بن وادع في ألفين فقتلوه وهزموه بعد أن قتل منهم هدية ابن عم شوذب وبقي الخوارج بمكانهم. وجاء مسلمة إلى الكوفة فأرسل سعيد بن عمرو الحارثي في عسكر آلاف فاستماتت الخوارج وكشفوا العساكر مراراً ثم حملوا عليهم فظعنهم طحناً.

وقتل شوذب وأصحابه ولم يبق منهم أحد، وضعف أمر الخوارج على ظهور أيام هشام سنة عشرين ومائة بهلول بن بشر بن شيان وبلغت كنفارة، وكان لما عزم على الخوارج حج ولقي

قائد الضحاك وعاودوا الحرب مع مروان فهزموه وانتهوا إلى خيامه فقطعوا أظنانهم وجلس الخبيري على فرشه والجانحان ثابتان وعلى الميمنة عبد الله بن مروان وعلى الميسرة إسحاق بن مسلم العقيلي فلما انكشفت قلة الخوارج أحاطوا بهم في غيم مروان فقتلهم جميعاً والخبيري معهم. ورجع مروان من نحو ستة أميال.

وانصرف الخوارج وباعوا شيان الحروري وهو شبيان بن عبد العزيز الشكري ويكنى أبا الدلفاء. وقتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ وأقام في قتالهم أياماً وانصرف عن شيان كثير منهم وارتحلوا إلى الموصل بإشارة سليمان بن هشام وعسكروا شرقي دجلة، وعقدوا الجسور واتبعهم مروان فقاتلهم لستة أشهر، وقتل من الطائفتين خلق كثير. وأسر ابن أخ لسليمان بن هشام اسمه أمية بن معاوية فقطعه ثم ضرب عنقه. وكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة وهو بقرقسية بأمره بالسير إلى العراق وولاه عليها وعلى الكوفة يومئذ المثنى بن عمران العائذي من قریش خليفة للخوارج فلقى ابن هبيرة بعين التمر فاقتلوا وانهزمت الخوارج. ثم تجمعوا له بالخنيلة ظاهر الكوفة فهزمهم، ثم تجمعوا بالبصرة فأرسل شيان إليهم عبيدة بن سوار في خيل عظيمة فهزمهم ابن هبيرة وقتل عبيدة واستباح عسكرهم، واستولى على العراق.

وكان منصور بن جمهور مع الخوارج فمضى إلى الماهين وغلب عليها وعلى الخيل جميعاً، وسار ابن هبيرة إلى واسط فحبس ابن عمر وكان سليمان بن حبيب عامل ابن عمر على الأهواز فبعث ابن هبيرة إليه نباتة بن حنظلة، وبعث هو داود بن حاتم والتقى على دجلة فانهزم داود وقتل. وكتب مروان إلى ابن هبيرة أن يبعث إليه عامر بن ضبابة المزني فبعثه في ثمانية آلاف وبعث شيان لاعتراضه الجون بن كلاب الخارجي في جمع فانهزم عامر وتحصن بالسند وجعل مروان يمدد بالجنود وكان منصور بن جمهور بالجيل يمدد شيان بالأموال. ثم كثرت جموع عامر فخرج إلى الجون والخوارج الذين يحاصرونه فهزمهم وقتل الجون وسار قاصداً الخوارج بالموصل، فارتحل شيان عنها وقدم عامر على مروان فبعثه في اتباع شيان، فمر على الجبل وخرج على بيضاء فارس وبها يومئذ عامر بن عبد الله بن حطوبة بن جعفر في جموع كثيرة.

فسار ابن معاوية إلى كرمان وقتله عامر فهزمه ولحق بهيرة وسار عامر بمن معه فلقى شيان والخوارج بخيررت فهزمهم واستباح عسكرهم ومضى شيان إلى سجستان فهلك بها سنة ثلاثين ومائة، وقيل: بل كان قتال مروان وشبيان على الموصل

بالعراق والشام وشغل مروان بمن انتقض عليه فخرج بأرض كفرموتا سعيد بن بهدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة وكان على رأي الحرورية، وخرج بسطام البهسي في مثل عدتهم من ربيعة، وكان مخالفاً لرأيه، فبعث إليه سعيد بن بهدل قائده الخبيري في مائة وخمسين فيئتهم وقتل بسطاماً ومن معه، ولم ينج منهم إلا أربعة عشر رجلاً. ثم مضى سعيد بن بهدل نحو العراق فمات هنالك، واستخلف الضحاك بن قيس الشيباني فبايعه السراة وأتى أرض الموصل وشهرزور. واجتمع إليه من الصفرية أربعة آلاف أو يزيدون.

وولى مروان على العراق النضر بن سعيد الحريشي وعزل به عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فامتنع عبد الله بالحريرة، وسار إليه النضر وتحاربوا أشهراً. وكانت الصفرية مع النضر عصبة لمروان لطلبه بدم الوليد وأمه قيسية وكانت اليمنية مع ابن عمر عصبة لدخولهم في قتل الوليد بما فعله مع خالد القسري، فلما علم الضحاك والخوارج باختلافهم، أقبل إلى العراق سنة سبع وعشرين وزحف إليهم فتراسل ابن عمر والنضر وتعاقدوا واجتمعوا لقتاله بالكوفة، وكل واحد منهما يصلي بأصحابه وابن عمر أمير على وإسماعيل أخو خالد القسري وغيرهم من الوجوه.

فلحق ابن عمر بواسط واستولى الضحاك على الكوفة وعادت الحرب بين ابن عمر والنضر. ثم زحف إليهما الضحاك فاتفقا وقاتلا حتى ضرستهما الحرب، ولحق منصور بن جمهور بالضحاك والخوارج وبايعهم ثم صالحهم ابن عمر ليشغلوا مروان عنه، وخرج إليهم وصلى خلف الضحاك وبايعه.

وكان معه سليمان بن هشام وصل إليه هارباً من حمص لما انتقض بها وعليه... عليها مروان فلحق بابن عمر وبايع معه الضحاك وصار معه وحرضها على مروان... إنما لحق بالضحاك وهو يحاصر نضيراً وتزوج أخت شيان الحروري. فرجع الضحاك إلى الكوفة وسار منها إلى الموصل بعد عشرين شهراً من حصار واسط، بعد أن دخل أهل الموصل وعليهم القطن أم أكمه من بني شيان عامل لمروان فأدخلهم أهل البلد وقتلهم القطن فقتل ومن معه وبلغ الخبر إلى مروان وهو يحاصر حمص فكتب إلى ابنه عبد الله أن يسير إلى... يمانع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار في ثمانية آلاف فارس والضحاك في مائة ألف وحاصره بنصيبين. ثم سار مروان بن محمد إليه فالتقى عند كفرموتا من نواحي ماردين فقاتله عامة يومه إلى الليل وترجل الضحاك في نحو ستة آلاف وقتلوا حتى قتلوا عن آخرهم وعثر على الضحاك في القتلى فبعث مروان برأسه إلى الجزيرة وأصبح الخوارج فبايعوا الخبيري

حتى ينقضي الموسم.

وأقام للناس حَجَّهم ونزل بمنى وبعث إلى أبي حمزة عبيد الله بن حسن بن الحسن ومحمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد وعبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن ربيعة بن أبي عبد الرحمن في أمثالهم، فكشروا في وجه العلوي والعثماني واتبسط إلى البكري والعمرى، وقال لهما: ما خرجنا إلا بسيرة أبيكم، فقال له عبيد الله بن حسن: ما جئنا للتفضيل بين آبائنا وإنما جئنا برسالة من الأمير وربيعه يخبرك بها.

ثم أحكموا معه المودعة إلى مدتها. ونفر عبد الواحد في نفر الأول فمضى إلى المدينة وضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة وبعث عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان، فانتهوا إلى فديك. وجاءتهم رسل أبي حمزة يسألونهم التجاني عن حربهم وأن يخلوا بينهم وبين عدوهم. فلما نزلوا قديد وكانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب، فطلع عليهم أصحاب أبي حمزة من الغياض فائنخوا فيهم وكان قتالهم نحو سبعمائة من قريش. وبلغ الخبر إلى عبد الواحد فلحق بالشام. ودخل أبو حمزة المدينة متصف صفر سنة ثلاثين وخطب على المنبر وأعلن بدعوته ووعظ، وذكر ورد مقالات من عابهم وسفه رأيهم وأحسن السيرة في أهل المدينة واستمالهم حتى سمعوه يقول: من زنا فهو كافر ومن سرق فهو كافر وأقام ثلاثة أشهر، ثم ودعهم وسار نحو الشام.

وكان مروان قد سرح إليهم عبد الملك بن محمد بن عطية بن هوازن في أربعة آلاف ليقول الخوارج حتى يبلغ اليمن فلقى أبا حمزة في وادي القرى، فانهزمت الخوارج وقتل أبو حمزة ولحق فلهم بالمدينة. وسار عطية في أثرهم إلى المدينة فأقام بها شهراً، ثم سار إلى اليمن واستخلف على المدينة الوليد ابن أخيه عروة، وعلى مكة رجلاً من أهل الشام. وبلغ عبد الله طالب الحق مسيره إليه وهو بصنعاء فخرج للقاءه، واقتلوا، وقتل طالب الحق وسار ابن عطية إلى صنعاء وملكها وجاء كتاب مروان بإقامة الجح بالناس، فسار في إثني عشر رجلاً ومعه أربعون ألف دينار وخلف ثقله بصنعاء ونزل الحرف فاعترضه ابن حمزة المرادي في جمع، وقال له ولأصحابه: أنتم لصوص فاستظهروا بعهد مروان فكذبوه وقتلهم فقتلوه. وركب ربح الخوارج من يومئذ إلى أن ظهرت الدولة العباسية وبويع المنصور بعد السفاح.

فخرج سنة سبع وثلاثين بالجزيرة متلبد بن حملة الشيباني فسارت إليه روابط الجزيرة في ألف فارس فهزمهم وقاد منهم. ثم

شهراً، ثم انهزم شيبان ولحق بفارس وعامر بن صرة في أتباعه، ثم سار شيبان إلى جزيرة ابن كاوان، وأقام بها.

ولما ولي السفاح بعث حارثة بن خزيمة لحرب الخوارج هنالك الموجودة وجدها عليه، فأشير عليه بيعته لذلك. فسار في عسكر إلى البصرة وركب السفن إلى جزيرة ابن كاوان، وبعث فضالة بن نعيم النهيلي في خمسمائة، فانهزم شيبان إلى عمان وقاتل هناك وقتله جلندي بن مسعود بن جعفر بن جلندي ومن معه سنة أربع وثلاثين. وركب سليمان بن هشام السفن بأهله ومواليه إلى الهند بعد مسير شيبان إلى جزيرة ابن كاوان حتى إذا بويع السفاح قدم عليه وأنشده سديف البيتين المعروفين وهما:

لا يغرنك ما ترى من رجال إن بين الضلوع داء دوما
فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها أموسا

فقتله السفاح وانصرف مروان بعد مسير شيبان إلى الموصل إلى منزله بجران. فلم يزل بها حتى سار إلى الزاب، ومضى شيبان بعد سلمة إلى خراسان والفتنة بها يومئذ بين نصر بن سيار والكرماني والحارث بن شريح وقد ظهر أبو مسلم بالدعوة العباسية فكان له من الحوادث معهم ما ذكرناه واجتمع مع علي بن الكرماني على قتال نصر بن سيار. فلما صالح الكرماني أبا مسلم كما مر وفارق شيبان تنحى شيبان عن عمر لعلمه أنه لا يقاومه. ثم هرب نصر بن سيار إلى سرخس واستقام أمر أبي مسلم بخراسان، فأرسل إلى شيبان يدعوه إلى البيعة ويأذنه بالحرب، واستجاش بالكرماني فأبى، فسار إلى سرخس واجتمع إليه الكثير من بكر بن وائل، وأرسل إليه أبو مسلم في المودعة، فحبس الرسل، فكتب أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث بالمسير إلى شيبان فسار إليه فهزمه وقتل في عدة من بكر بن وائل. ويقال: إن خزيمة بن حازم حضر مع بسام في ذلك.

خبر أبي حمزة وطالب وإسحاق

كان اسم أبي حمزة الخارجي المختار بن عوف الأزدي البصري وكان من الخوارج الإباضية وكان يوافي مكة كل موسم يدعو إلى خلاف مروان، وجاء عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق سنة ثمان وعشرين وهو من حضرموت فقال له: انطلق معي فإني مطاع في قومي. فانطلق معه إلى حضرموت وبايعه على الخلافة. وبعثه عبد الله سنة تسع وعشرين مع بلخ بن عقبة الأزدي في سبعمائة فقدموا مكة وحكموا بالموقف وعامل المدينة يومئذ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، فطلبهم في المودعة

طاهر بن الحسين فهرب منه وكان من أصحابه معاذ الفارياني وقبض معه. ثم خرج معه أيام المهدي بالجزيرة حمزة بن مالك الخزاعي سنة تسع وستين وهزم منصور بن زياد وصاحب الخراج وقوي أمره، ثم اغتاله بعض أصحابه فقتله.

ثم خرج آخر أيام المهدي بأرض الموصل خارجي من بني تميم اسمه ياسين يميل إلى مقاتلة صالح بن مسرح فهزم عسكر الموصل وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة، فبعث إليها المهدي القائد أبا هريرة محمد بن مروخ وهزيمة بن أعين مولى بني ضبة فحارباه حتى قتل في عدة من أصحابه وانهزم الباقون. ثم خرج بالجزيرة أيام الرشيد سنة ثمان وسبعين الوليد بن طريف من بني تغلب، وقتل إبراهيم بن خالد بن خزيمة بنصبيين، ثم دخل أرمينية وحاصر خلاط عشرين يوماً واقتدوا بثلاثين ألفاً. ثم سار إلى أذربيجان ثم إلى حلوان وأرض السواد، وعبر إلى غرب دجلة وعاث في أرض الجزيرة، فبعث إليه الرشيد يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني، وهو ابن أخي معن في العساكر فمكث يقاتله، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد فأغروا به الرشيد وأنه أبقي على الوليد برجم وائل. فكتب إليه الرشيد يهده فناجزه يزيد الحرب في رمضان سنة تسع وسبعين وقتلهم قتلاً شديداً فقتل الوليد وجيء برأسه. ثم أصبحت أخته مستلزمة للحرب فخرج إليها يزيد وضربها على رأسها بالرمح وقال لها: أعدي فقد فضحت العشيرة فاستحي وتانصرفت وهي تقول في رثائه الأبيات المشهورة التي منها:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
فنى لا يحب الزاد إلا من التنى ولا المال إلا من قنأ وسيوف

وانقرضت كلمة هؤلاء بالعراق والشام، فلم يخرج بعد ذلك إلا شذاذ متفرقون يستلحمهم الولاة بالنواحي إلا ما كان من خوارج البربر بأفريقية، فإن دعوة الخارجية فشت فيهم من لدن مسيرة الظفري سنة ثلاث وعشرين ومائة. ثم فشت دعوة الإياضية والصفيرية منهم في هوارة ولماية ونفزة ومغيلة وفي مغراوة وبني يفرن من زناتة حسبما يذكر في أخبار البربر لسي رستم من الخوارج بالمغرب دولة في تاهرت من الغرب الأوسط نذكرها في أخبار البربر أيضاً. ثم سار بأفريقية منهم على دولة العبيديين خلفاء القيروان أبو يزيد بن غلغل المغربي، وكانت له معهم حروب وأخبار نذكرها في موضعها.

ثم لم يزل أمرهم في تناقص إلى أن اضمحلت ديانتهم وافترقت جماعتهم وبقيت آثار غلتهم في أعقاب البربر الذين دانوا بها أول الأمر. ففي بلاد زناتة بالصحراء منها أثر باق لهذا العهد

سار إليه يزيد بن حاتم المهلب ومهلل بن صفوان مولى المنصور، ثم نزار من قواد خراسان، ثم زياد بن مسكان ثم صالح بن صبيح فهزمهم كلهم واحداً بعد واحد، وقتل منهم. ثم سار إليه حميد بن قحطبة وهو عامل الجزيرة فهزمه وتحصن حميد منه، فبعث المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن أخا عبد الجبار في الجيوش، ومعه زياد بن مسكان فأمكن له الملبد، وقتلهم ثم خرج الكعبيين فانهزم عبد العزيز وقتل عامة أصحابه فبعث المنصور حازم بن خزيمة في ثمانية آلاف من أهل خراسان فسار إلى الموصل وعبر إليه الملبد دجلة فقاتله فانهزم أهل الميمنة وأهل اليسرة من أصحاب حازم، وترجل حازم وأصحابه، وترجل ملبد كذلك.

وأمر حازم أصحابه فنضحوهم بالنبل، واشتد القتال وتراحت الميمنة واليسرة ورشقوهم، فقتل ملبد في ثمانمائة ممن ترجل معه، وثلاثمائة قبل أن يترجل وتبعهم فضالة صاحب الميمنة فقتل منهم زهاء مائة وخمسين. ثم خرج سنة ثمان وأربعين أيام المنصور بتواحي الموصل حسان بن خالد بن مالك بن الأجدع الهمداني أخو مسروق. وكان على الموصل الصفري بن يميعة ولها بعد حرب ابن عبد الله، فسار إليهم فهزموه إلى الدجلة. وسار حسان إلى العمال ثم إلى البحر وركب إلى السند وقاتل، وكتب الخوارج بعمان يدعوهم ويستأذنهم في إلحاق بهم فأبوا، وعاد إلى الموصل فخرج إليه الصفري بن الحسن بن صالح بن جنادة الهمداني وهلال، فقتل هلالاً واستبقى ابن الحسن فاتهمه بعض أصحابه بالعصية وفارقوه. وقد كان حسان أمه من الخوارج وخاله حفص بن أشتم من فقهاءهم. ولما بلغ المنصور خروجه قال: خارجي من همدان؟ فقيل له: إنه ابن أخت حفص بن أشتم. قال: من هناك وإنما أنكر المنصور ذلك لأن عامة همدان شيعة.

وعزم المنصور على الفتك بأهل الموصل، فأنهم عاهدوه على أنهم إن خرجوا فقد فلت ديارهم وأموالهم وأحضر أبا حنيفة وابن أبي ليلى بن شبرمة واستأنتهم فتلطفوا له في العفو فأشار إلى أبي حنيفة فقال: أباحوا ما لا يملكون كما لو أباحت امرأة، فزوجهما بغير عقد شرعي فكف عن أهل الموصل.

ثم خرج أيام المهدي مجراسان يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرة واجتمع بشركس فبعث إليه المهدي يزيد بن يزيد الشيباني ابن أخي معن فاقبلوا قتلاً شديداً وأسره يزيد وبعث به إلى المهدي موثقاً، وحمل من النهروان على بعير وحول وجهه إلى ذنبه كذلك فدخلوا إلى الرصافة وقطعوا ثم صلبوا.

وكان حروباً متعوباً فغلب على بوشنج ومرو الروذ والطارقان والجوزجان، وكان على بوشنج مصعب بن زريق جد

ذكرناه في برنامج الكتاب، والله الموفق الصواب.

مبدأ دولة الشيعة

اعلم أن مبدأ هذه الدولة أن أهل البيت لما توفي رسول الله ﷺ كانوا يرون أنهم أحق بالأمر وأن الخلافة لرجالهم دون من سواهم من قريش. وفي الصحيح أن العباس قال لعلي في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه: اذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر، إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال علي: إن سئمتها لا يعطيناها الناس بعده. وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه: « هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً » فاختلفوا عنده في ذلك، وتنازعوا ولم يتم الكتاب. وكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين ذلك الكتاب لاختلافهم ولغبطهم، حتى لقد ذهب كثير من الشيعة إلى أن النبي ﷺ أوصى في مرضه ذلك لعلي، ولم يصح ذلك من وجه يعول عليه. وقد ائكرت هذه الوصية عائشة وكفى بإنكارها. وبقي ذلك معروفاً من أهل البيت وأشباعهم.

وفيما نقله أهل الآثار أن عمر قال يوماً لابن العباس: إن قومكم يعني قريشاً ما أرادوا أن يجمعوا لكم، يعني بني هاشم بين النبوة والخلافة فتحملوا عليهم، وأن ابن عباس نكر ذلك، وطلب من عمر إذنه في الكلام فتكلم بما عصب له. وظهر من معاورتهما أنهم كانوا يعلمون أن في نفوس أهل البيت شيئاً من أمر الخلافة والعدول عنهم بها. وفي قصة الشورى: أن جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي ويرون استحقاقه على غيره، ولما عدل به إلى سواه تأففوا من ذلك وأسفوا له: مثل الزبير ومعه عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم. إلا أن القوم لرسوخ قدمهم في الدين وحرصهم على الإلفة، لم يزيدوا في ذلك على التجوى بالتأفف والأسف.

ثم لما فشا التكبر على عثمان والطعن في الأنفاق كان عبد الله بن سبأ ويعرف بابن السوداء، من أشد الناس خوصاً في التشنيع لعلي بما لا يرضاه من الطعن على عثمان وعلى الجماعة في العدول إليه عن علي، وأنه ولي بغير حق، فأخرجته عبد الله بن عامر من البصرة ولحق بمصر. فاجتمع إليه جماعة من أمثاله جنحوا إلى الغلو في ذلك واتحال المذاهب الفاسدة فيه: مثل خالد بن ملجم وسودان بن حمدان وكنانة بن بشر وغيرهم.

ثم كانت بيعة علي وقتنة الجمل وصفين، وانحراف الخوارج

في قصور ربيع وواديه، وفي مغراوة من شعوب زناتة يسمون الراهبية نسبة إلى عبد الله بن وهب الراهبي. أول من بوع منهم أيام علي بن أبي طالب. وهم في قصور هنالك مظهرين لبدعتهم لبعدهم عن مقال أهل السنة والجماعة، وكذلك في جبال طرابلس وزناتة أثر باق من تلك النحلة يدين بها أولئك البربر في المجاورة لهم مثل ذلك. وتطير إلينا هذا العهد من تلك البلاد دواوين ومجلدات من كلامهم في فقه الدين، وتمهيد عقائده وفروعه مباينة لمناحي السنة وطرقها بالكليسة، وإلا أنها ضاربة بسهم في إجادة التأليف والترتيب وبناء الفروع على أصولهم الفاسدة.

وكان بنواحي البحرين وعمان إلى بلاد حضرموت وشرقي اليمن ونواحي الموصل آثار تفشي وعروق في كل دولة، إلى أن خرج علي بن مهدي من خولان باليمن ودعا إلى هذه النحلة. وغلب يومئذ من كان من الملوك باليمن واستلحم بني الصليحي القائلين بدعوة العبيديين من الشيعة وغلّبهم على ما كان بأيديهم من ممالك اليمن، واستولوا أيضاً على زيد ونواحيها من يد موالى بني لحاح ومولى ابن زياد كما نذكر ذلك كله في أخبارهم إن شاء الله سبحانه وتعالى. فلنصفح في أماكنها. ويقال: إن باليمن لهذا العهد شيعة من هذه الدعوة ببلاد حضرموت، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

الدولة الإسلامية بعد افتراق الخلافة

لم يزل أمر الإسلام جميعاً دولة واحدة أيام الخلفاء الأربعة وبني أمية من بعدهم لاجتماع عصية العرب. ثم ظهر من بعد ذلك أمر الشيعة، وهم الدعاة لأهل البيت، فغلب دعاة بني العباس على الأمر واستقلوا بخلافة الملك، ولحق الفل من بني أمية بالأندلس، فقام بأمرهم فيها من كان هنالك من مواليهم ومن هرب، فلم يدخلوا في دعوة بني العباس، وانقسمت لذلك دولة الإسلام بدولتين لافتراق عصية العرب. ثم ظهر دعاة أهل البيت بالمغرب والعراق من العلوية ونازعوا خلفاء بني العباس واستولوا على القاصية من النواحي كالأدارسة بالمغرب الأقصى، والعبيديين بالقيروان ومصر، والقرامطة بالبحرين، والدواعي بطبرستان والديلم والأطروش فيها من بعده. وانقسمت دولة الإسلام بذلك دولاً متفرقة نذكرها واحدة بعد واحدة. ونبدأ منها أولاً بذكر الشيعة ومبادئ دولهم، وكيف اناسقت إلى العباسية ومن بعدهم إلى آخر دولهم. ثم نرجع إلى دولة بني أمية بالأندلس. ثم نرجع إلى دولة الدعاة للدولة العباسية في النواحي من العرب والعجم كما

على الشيخين وأنهما لم يظلما علياً. وقالوا: لم يظلمك هؤلاء ورفضوا دعوته فسموا الرافضة من أجل ذلك. ثم قاتل يوسف بن عمر فقتله يوسف وبعث برأسه إلى هشام وصلب شلوه بالكناسة ولحق ابنه يحيى بخراسان فأقام بها، ثم دعت شيعته إلى الخروج فخرج هنالك ستة وخمسين، وسرح إليه نصر بن سيار العساكر مع سالم بن أحرور المازني فقتلوه وبعث برأسه إلى الوليد وصلب شلوه بالجوزجان وانقرض شأن الزيدية. وأقام الشيعة على شأنهم وانتظار أمرهم، والدعاء لهم في النواحي يدعون على الأحجال للرضا من آل محمد، ولا يصرحون بمن يدعون له خذراً عليه من أهل الدولة. وكان شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت، وكانوا يرون أن الأمر بعد محمد بن الحنفية لابنه أبي هشام عبد الله. وكان كثيراً ما يغدو على سليمان بن عبد الملك فمر في بعض أسفاره محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بمنزله بالخميمة من أعمال البلقاء فنزل عليه وأدركه المرض عنده فمات، وأوصى له بالأمر. وقد كان أعلم شيعته بالعراق وخراسان أن الأمر صائر إلى ولده محمد بن علي هذا، فلما مات قصدت الشيعة محمد بن علي وباعوه سراً. وبعث الدعاة منهم إلى الأفاق على رأس مائة من الهجرة أيام عمر بن عبد العزيز، وأجابه عامة أهل خراسان. وبعث عليهم النقياء وتداول أمرهم هنالك. وتوفي محمد سنة أربع وعشرين وعهد لابنه إبراهيم وأوصى الدعاة بذلك وكانوا يسمونه الإمام. ثم بعث أبو مسلم إلى أهل دعوته بخراسان ليقوم فيهم بأمره فهلك، وكتب إليهم بولايته. ثم قبض مروان بن محمد على إبراهيم الإمام وجسه بخراسان فهلك هنالك لسنة. وملك أبو مسلم خراسان وزحف إلى العراق فملكها كما ذكرنا ذلك كله من قبل وغلبوا بني أمية على أمرهم وانقرضت دولتهم.

الخبر عن بني العباس من دول الإسلام في هذه الطبقة الثالثة للعرب وأولية أمرهم وإنشاء دولتهم والإمام بنكت أخبارهم وعيون أحاديثهم

هذه الدولة من دولة الشيعة كما ذكرناه وفرقها منهم يعرفون بالكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد بن علي بن الحنفية بعد علي، ثم بعده إلى ابنه أبي هشام عبد الله. ثم بعده إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بوصيته كما ذكرنا. ثم بعده إلى ابنه إبراهيم الإمام ابن محمد، ثم بعده إلى أخيه أبي العباس السفاح

عنه بما أنكروا عليه من التحكيم في الدين. وتحضت شيعته للاستماتة معه في حرب معاوية مع علي، وبويع ابنه الحسن وخرج عن الأمر لمعاوية، فسخط ذلك شيعة علي منه وأقاموا يتناجون في السر باستحقاق أهل البيت والميل إليهم، وسخطوا من الحسن ما كان منه، وكتبوا إلى الحسين بالدعاء له فامتنع، وأوعدهم إلى هلاك معاوية. فساروا إلى محمد بن الحنفية وباعوه في السر على طلب الخلافة متى أمكنه، وولى على كل بلد رجلاً، وأقاموا على ذلك ومعاوية يكف سياسة من غريهم، ويقتل الداء إذا تعين له منهم، كما فعل بمجر بن عدي وأصحابه، ويروض من شماس أهل البيت ويساعدهم في دعوى تقدمهم واستحقاقهم. ولا يهيج أحداً منهم بالشراب عليه في ذلك.

إلى أن مات وولي يزيد، وكان من خروج الحسين وقتله ما هو معروف، فكانت من أشنع الوقائع في الإسلام. عظمت بها الشحنة، وتوغل الشيعة في شأنهم، وعظم التكبر والطعن على من تولى ذلك أو قعد عنه. ثم تلاوموا على ما أضاعوه من أمر الحسين وأنهم دعوه ثم لم ينصروه فندموا ورأوا أن لا كفارة في ذلك إلا الاستماتة دون ثاره، وسموا أنفسهم التوابين. وخرجوا لذلك يقدمهم سليمان بن صرد الخزاعي، ومعه جماعة من خيار أصحاب علي. وكان ابن زياد قد انتقض عليه العراق ولحق بالشام وجمع وزربنج قاصد العراق فزحفوا إليه وقاتلوه حتى قتل سليمان وكثير من أصحابه كما ذكرنا في خبره وذلك سنة خمس وستين. ثم خرج المختار بن أبي عبيد ودعا لمحمد بن الحنفية كما قدمناه في خبره، وفشا التعصب لأهل البيت في الخاصة والعامة بما خرج عن حدود الحق، واختلفت مذاهب الشيعة فيمن هو أحق بالأمر من أهل البيت، وبابعت كل طائفة لصالحها سراً ورسخ الملك لبني أمية.

وطوى هؤلاء الشيعة قلوبهم على عقائدهم فيها، وتسترأ بها مع تعدد فرقهم وكثرة اختلافهم كما ذكرناه عند نقل مذاهبهم في فصل الإمامة من الكتاب الأول. ونشأ زيد بن علي بن الحسين وقرأ على أصل بن عطاء إمام المعتزلة في وقته، وكان أصل متردداً في إصابة علي في حرب صفين والجل، فنقل ذلك عنه. وكان أخوه محمد الباقر يعزله في الأخذ عمن يرى سخطية جده، وكان زيد أيضاً مع قوله بأفضلية علي على أصحابه، يرى أن بيعة الشيخين صحيحة وأن إقامة المفضول جائزة خلاف ما عليه الشيعة. ويرى أنهما لم يظلما علياً.

ثم دعت الحال إلى الخروج بالكوفة سنة إحدى وعشرين ومائة، واجتمع له عامة الشيعة ورجع عنه بعضهم لما سمعوه يشي

وقتلوا منهم مقتلة عظيمة واتهبوا ما خلف عندهم فأعرض عن ذلك وسار للقاء السفيناني وأبي داود، وقدم أخاه عبد الصمد في عشرة آلاف فكشف ورجع إلى أخيه عبد الله منهزماً، فزحف عبد الله في جماعة القواد ولقيهم بمرج الأحزم وهم في أربعين ألفاً فانهمزوا، وثبت أبو الورد في خمسمائة من قومه فقتلوا جميعاً.

وهرب أبو محمد إلى ترمذ وراجع أهل قنسرين طاعة العباسية ورجع عبد الله بن علي إلى قتال أهل دمشق ومن معهم. فهرب عثمان بن سراقه ودخل أهل دمشق في الدعوة وبايعوا لعبد الله بن علي، ولم يزل أبو محمد السفيناني بأرض الحجاز متغيباً إلى أيام المنصور فقتله زياد بن عبد الله الحارثي عامل الحجاز يومئذ، ويعت برأسه إلى المنصور مع ابنتين له أسيرين فاطلقهما المنصور.

ثم خلع أهل الجزيرة وبيضوا وكان السفاح قد بعث إليهم ثلاثة آلاف من جنده مع موسى بن كعب من قواده وأنزلهم بمران. وكان إسحاق بن مسلم العقيلي عامل مروان على أرمينية، فلما بلغته هزيمة مروان سار عنها واجتمع إليه أهل الجزيرة، وحاصروا موسى بن كعب بمران شهرين فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إليهم وكان محاصراً لابن هبيرة بواسط، فسار لقتال إسحاق بن مسلم، ومر بقرقيسيا والركة وأهلها قد خلعوا وبيضوا. وسار نحو حران فأجفل إسحاق بن مسلم عنها، ودخل الرها وبعث أخاه بكار بن مسلم إلى قبائل ربيعة بنواحي مارد، ورئيسهم يومئذ برمكة من الحرورية، فصمد إليهم أبو جعفر فزهمهم وقتل برمكة في المعركة وانصرف بكار إلى أخيه إسحاق، فخلفه بالرها وسار إلى شمشاط بمعظم عسكره. وجاء عبد الله بن علي فحاصره، ثم جاء أبو جعفر فحاصروه سبعة أشهر وهو يقول: لا أخلع البيعة من عني حتى أتيقن موت صاحبها. ثم تيقن موت مروان فطلب الأمان واستأذنا السفاح، فأمرهم بتأمينه وخرج إسحاق إلى أبي جعفر فكان من مآثر أصحابه. واستقام أهل الجزيرة والشام وولى السفاح أخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فلم يزل عليها حتى استخلف.

حصار ابن هبيرة بواسط ومقتله

ثم تقدم لنا هزيمة يزيد بن هبيرة أمام الحسن بن قطبة وتحصنه بواسط وكان جويرة وبعض أصحابه أشاروا عليه بعد الهزيمة للحاق بالكوفة فأبى. وأشار عليه يحيى بن حصين بالهراق بمروان وخوفه عاقبة الحصار فأبى خشية على نفسه من مروان واعتصم بواسط. وبعث أبو مسلمة الحسن بن قطبة في العسكر

وهو عبد الله بن الحارثية، هكذا مساقها عند هؤلاء الكيسانية ويسمون أيضاً الحرماقية نسبة إلى أبي مسلم لأنه كان يلقب بمزماق. ولبي العباس أيضاً شيعة يسمون الراوندية من أهل خراسان يزعمون أن أحق الناس بالإمامة بعد النبي ﷺ هو العباس، لأنه وارثه وعاصبه لقوله وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، وإن الناس منعه من ذلك وظلموه إلى أن رده الله إلى ولده، ويذهبون إلى البراءة من الشيخين وعثمان ويجيزون بيعة علي لأن العباس قال له: يا ابن أخي هلم أبايعك فلا يختلف عليك اثنان. ولقول داود بن علي - عم الخليفة العباسي - على منبر الكوفة يوم بويح السفاح: يا أهل الكوفة إنه لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله ﷺ إلا علي بن أبي طالب وهذا القائم فيكم يعني: السفاح.

دولة السفاح

قد تقدم لنا كيف كان أصل هذه الدعوة وظهورها بخراسان على يد أبي مسلم، ثم استيلاء شيعتهم على خراسان والعراق، ثم بيعة السفاح بالكوفة سنة ثلاث وثلاثين ومائة، ثم قتل مروان بن محمد وانقراض الدولة الأموية. ثم خرج بعض أشياعهم وقوادهم وانتقضوا على أبي العباس السفاح، وكان أول من انتقض حبيب بن مرة المري من قواد مروان، وكان بخولان والبلقاء خاف على نفسه وقومه فخلع وبيض ومعناه لبس البياض ونصب الرايات البيض مخالفة لشعار العباسية في ذلك. وتابعت قيس ومن يليهم والسفاح يومئذ بالبحيرة بلغه أن أبا الورد مجزة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي انتقض يقتنض يقتنرين، وكان من قواد مروان، ولما انهزم مروان وقدم عليه عبد الله بن علي بايعه ودخل في دعوة العباسية وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس والناعورة، فبعث بهم وببنايتهم القائد الذي جاءهم من قبل عبد الله بن علي. وشكروا ذلك إلى أبي الورد فقتل القائد، وخلع معه أهل قنسرين، وكاتبوا أهل حمص في الخلاف وقدموا عليهم أبا محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية، وقالوا: هو السفيناني الذي يذكر.

ولما بلغ ذلك عبد الله بن علي وادع حبيب بن مرة وسار إلى أبي الورد بقنسرين ومر بدمشق، فخلع بها أبا غانم عبد الحميد بن ربيعي الطائي في أربعة آلاف فارس مع حرمه وأثقاله، وسار إلى حمص فبلغه أن أهل دمشق خلعوا وبيضوا وقام فيهم بذلك عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه الأزدي. وأنهم هزموا أبا غانم وعسكره

أهل خراسان.

ثم أذن لابن هبيرة فدخل على المنصور وحادثه وخرج عنه ومكث يأتيه يوماً ويغبه يوماً. ثم أغرى أبا جعفر أصحابه بأنه يأتي في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل فيهتزل له العسكر. فأمر أبو جعفر أن يأتي في حاشيته فقط. فكان يأتي في ثلاثين ثم آخراً في ثلاثة. ثم ألح السفاح على أبي جعفر في قتله، وهو يراجعه للأمان الذي كتب له حتى كتب إليه السفاح: واللّه لتقتلنه أو لأبعثن من يخرجك من حجرتك فيقتله. فبعث أبو جعفر إلى وجوه القيسية والمضرية وقد أعد لهم ابن نهيك في مائة من الخراسانية في بعض حجره.

وجاء القوم في اثنين وعشرين رجلاً يقدمهم محمد بن نباتة وجويرة بن سهيل فدعاهم سلام الحاجب رجلين ورجلين وعثمان ابن نهيك فيقيدهما إلى أن استكملهم ويعث أبو جعفر لحازم بن خزيمية والهيثم بن شعبة في مائة إلى ابن هبيرة فقالوا: نريد حمل المال فدلهم حاجبه على الخزان فاقاموا عندها الرجال وأقبلوا نحوه فقام حاجبه في وجوهمهم. فضربه الهيثم فصرعه، وقاتل ابنه داود فقتل في جماعة من مواليه. ثم قتل ابن هبيرة آخراً وحملت رؤوسهم إلى أبي جعفر. ونادى بالأمان للناس إلا الحكم بن عبد الملك أبي بشر وخالد بن مسلمة المخزومي وعمر بن در فهرب الحكم وأمن أبو جعفر خالداً فلم يميز السفاح أمانه وقتله واستأمن زياد بن عبيد الله لابن در فامنه.

مقتل أبي مسلمة بن الحلال وسليمان بن كثير

قد تقدم لنا ما كان من أبي مسلمة الحلال في أمر أبي العباس السفاح واتهام الشيعة في أمره، وتغير السفاح عليه وهو بعكوة أعين ظاهر الكوفة. ثم تحول إلى مدينة الهاشمية ونزل قصرها وهو يتنكر لأبي مسلمة، وكتب إلى أبي مسلم بغيته ويرأيه فيه، فكتب إليه أبو مسلم بقتله. وقال له داود بن علي: لا تفعل. فيحتج بها أبو مسلم عليك والذين معك أصحابه وهم له أطوع، ولكن أكتب إليه يبعث من يقتله ففعل. وبعث أبو مسلم مرار بن أنس الضبي فقتله. فلما قدم نادى السفاح بالرضا عن أبي مسلمة ودعا به وخلع عليه. ثم دخل عنده ليلة أخرى فسهر عامة ليلة، ثم انصرف إلى منزله فاعترضه مرار بن أنس وأصحابه فقتلوه وقالوا: قتله الخوارج. وصلى عليه من الغد يحمي أخو السفاح وكان يسمى وزير آل محمد وأبو مسلم أمير آل محمد. وبلغ الخبر

لحصاره وعلى ميمته ابنه داود فانهزم أهل الشام واضطروا إلى دجلة وغرق منهم كثير. ثم تحاجزوا ودخل ابن هبيرة المدينة وخرج لقتالهم ثانية بعد سبعة أيام فانهزم كذلك، ومكثوا أياماً لا يقتلون إلا رماً. وبلغ ابن هبيرة أن أبا أمية الثعلبي قد سود فحسبه فغضبت لذلك ربيعة ومعن بن زائدة وحيسوا ثلاثة نفر من فزارة رهناً في أبي أمية، واعتزل معن وعبد الله بن عبد الرحمن بن بشير العجلي فيمن معهما فخلى ابن هبيرة مسيل أبي أمية وصالحهم وعادوا إلى اتفاقهم.

ثم قدم على الحسن بن قطبة من ناحية سجستان أبو نصر مالك بن الهيثم فأوفد غيلان بن عبد الله الخزاعي على السفاح يخبره بقدم أبي نصر، وكان غيلان واجداً على الحسن، فرغب من السفاح أن يبعث عليهم رجلاً من أهل بيته، فبعث أخاه أبا جعفر، وكتب إلى الحسن: العسكر لك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً فأحسن طاعته ومؤازرته.

وقدم أبو جعفر فانزله الحسن في خيمته وجعل على حرسه عثمان بن نهيك. ثم تقدم مالك بن الهيثم لقتال أهل الشام وابن هبيرة. فخرجوا لقتاله وأكمنوا معن بن زائدة وأبا يحيى الجرافي. ثم استطردوا لابن الهيثم وانهزموا للخنادق. فخرج عليهم معن وأبو يحيى فقاتلهم إلى الليل وتحاجزوا وأقاموا بعد ذلك أياماً. ثم خرج أهل واسط مع معن ومحمد بن نباتة، فهزمهم أصحاب الحسن إلى دجلة فتساقطوا فيها. وجاء مالك بن الهيثم فوجد ابنه قتيلاً في المعركة، فحمل على أهل واسط حتى أدخلهم المدينة. وكان مالك يملأ السفن حطباً ويضرمها ناراً فتحرق ما يمر به فيأمر ابن هبيرة بأن تجر بالكلايب، ومكثوا كذلك أحد عشر شهراً.

وجاء إسماعيل بن عبد الله القسري إلى ابن هبيرة بقتل مروان وفشلت اليمانية عن القتال معهم، وتبعهم الفزارية فلم يقاتل معه إلا الصعاليك. وبعث ابن هبيرة إلى محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بأن يبايع له فأبسط عنه جوابه، وكتب السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة وأطمعهم. فخرج إليه زياد بن صالح وزباد بن عبيد الله الحرثيان، ووعدا ابن هبيرة أن يصلحا له جهة السفاح ولم يفعلوا. وتردد الشعراء بين أبي جعفر وابن هبيرة في الصلح، وأن يكتب له كتاب أمان على ما اختاره ابن هبيرة وشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضىه وأنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه إلى السفاح وأمر بإمضائه، وكان لا يقطع أمراً دون أبي مسلم، فكتب إليه يحيى بن هبيرة قد خرج بعد الأمان إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة فلقبيه الحاجب سلام بن سليم فانزله وأجلسه على وسادة وأطاف بحجرة أبي جعفر عشرة آلاف من

بالأهواز وفارس. وملك الروم ملطية وقالبقلا. وفي سنة ثلاث وثلاثين أقبِل قسطنطين ملك الروم فحصر ملطية والفتن يومئذ بالجزيرة، وعاملها يومئذ موسى بن كعب بن أسان. فلم يزل حاصرهم حتى نزلوا على الأمان وانتقلوا إلى بلاد الجزيرة، وحملوا ما قدروا عليه. وخرب الروم ملطية وساروا عنها إلى مرج الحصى، وأرسل قسطنطين العساكر إلى قالبقلا من نواحي ماردين مع قائده كوشان الأرمني فحصرها وداخل بعض الأرمن من أهل المدينة فتقبوا له السور فاقطمح البلد من ذلك النقب واستباحها.

الثوار بالنواحي

كان المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة قد ولاء أبو علي اليمامة، فلما قتل يزيد أبوه امتنع هو باليمامة فبعث إليه زياد بن عبيد المدن بالعساكر من المدينة مع إبراهيم بن حبان السلمي فقتله وقتل أصحابه وذلك سنة ثلاث وثلاثين. وفيها خرج شريك ابن شيخ إسحاراً على أبي مسلم ونقض أفعاله واجتمع إليه أكثر من ثلاثين ألفاً فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله وقتله. وفيها توجه أبو داود وخالد بن إبراهيم إلى الختل فتحصن ملكهم ابن السيل منهما ومنعه الدهاقين فحاصره أبو داود حتى جهد الحصار فخرج من حصنه مع الدهاقين ولحق بفرغانة. ثم سار منها إلى بلد الصين وأخذ أبو داود من ظفر به في الحصن فبعث بهم إلى أبي مسلم.

وفيها الفتنة بين أخشيد فرغانة وملك الشاش، واستمد الأخشيد ملك الصين فأمدته بمائة ألف مقاتل وحصروا ملك الشاش حتى نزلوا على حكم ملك الصين، فلم يعرض له ولا لقومه بسوء. وبعث أبو مسلم زياد بن صالح لاعتراضهم فلقبهم على نهر الطرار فظفر بهم وقتل منهم نحواً من خمسين ألفاً وأسروا نحواً من عشرين ألفاً ولحق بهم بالصين، وذلك في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين. ثم انتقض بسام بن إبراهيم بن بسام من فرسان أهل خراسان وسار من عسكر السفاح وجماعة على رأيه سراً إلى المدائن، فبعث السفاح في أثرهم خازم بن خزيمة فقاتلهم وقتل أكثرهم واستباحهم، وبلغ ماه وانصرف، فمر بذات المطامير، وبها أحوال السفاح من بني عبد المذان في نحو سبعين من قرابتهم ومواليهم.

وقيل له: إن المغيرة من أصحاب بسام عندهم فسألهم عنه فقالوا: مر بنا بجنازة فهددهم إن لم يأخذها فأغلظوا له في القول فقتلهم أجمعين، ونهب أموالهم وهدم دورهم، وغضب اليمانية

إلى أبي مسلم، وسرح سليمان بن كثير بالكثير لذلك فقتله أبو مسلم، وبعث على فارس محمد بن الأشعث وأمره أن يقتل ابن أبي مسلمة ففعل.

عمال السفاح

ولما استقام الأمر للسفاح ولى على الكوفة والسواد عمه داود بن علي ثم عزله وولاه على الحجاز واليمن واليمامة وولى مكانه على الكوفة عيسى ابن أخيه موسى بن محمد. ثم توفي داود سنة ثلاث وثلاثين فولى مكانه على الحجاز واليمامة خالد بن زياد بن عبيد الله بن عبيد.... وعلى اليمن محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد... وولى السفاح على البصرة سفيان بن معاوية المهلي، ثم عزله وولى مكانه عمه سليمان بن علي وأضاف إليه كور دجلة والبحرين وعمان. وولى عمه إسماعيل بن علي الأهواز وعمه عبد الله بن علي على الشام، وأبا عون عبد الملك بن يزيد على مصر، وأبا مسلم على خراسان، ويرمك على ديوان الخراج. وولى عمه عيسى بن علي على فارس، فسبقه إليها محمد بن الأشعث من قبل أبي مسلم. فلما قدم عليه عيسى هُمّ محمد بقتله، وقال: أمرني أبو مسلم أن أقتل من جاءني بولاية من غيره. ثم أقصر عن قتله واستحلفه بأيمان لا يخرج لها أن لا يعلو منبراً ما عاش ولا يتقلد سيفاً إلا في جهاد فوفى عيسى بذلك بقية عمره.

واستعمل بعده على فارس عمه إسماعيل بن علي واستعمل على الموصل محمد بن صول فطرده أهلها وقالوا: بل علينا تولى خثعم، وكانوا منحرفين عن بني العباس، فاستعمل السفاح عليهم أخاه يحيى وبعثه في اثني عشر ألفاً، فنزل قصر الإمارة وقتل منهم اثني عشر رجلاً، فثاروا به وحمل السلاح فنودي فيهم بالأمان لمن دخل المسجد الجامع فتسائل الناس عليه، وقد أقام الرجال على أبوابه فقتلوا كل من دخل. يقال: قتل أحد عشر ألفاً ممن لبث وما لا يحصى من غيرهم. وسمع صياح النساء بالليل فأمر من الغد بقتل النساء والصبيان، واستباحهم ثلاثة أيام.

وكان في عسكره أربعة آلاف من الزنوج فعاثوا في النساء. وركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف فاعترضته امرأة وأخذت بعتان دابته وقالت له: أأنت من بني هاشم؟ أأنت ابن عم الرسول؟ أما تعلم أن المؤمنات المسلمات يتكهنن الزنوج؟ فأمسك عنها وجمع الزنج من الغد للقطاء، وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم. وبلغ السفاح سوء أمره في أهل الموصل فعزله، وولى مكانه إسماعيل بن علي، وولى يحيى مكان إسماعيل

وكان السفاح قد دس معه إلى زياد بن صالح الأزدي أن يتنهز فرصة في أبي مسلم فيقتله. ونمى الخبر إلى أبي مسلم فحسب سباعاً بآدم، وسار عنها وأمر عامله بقتله. ولقيه قواد زياد في طريقه وقد خلعوا زياداً فدخل أبو مسلم بخاري ونجا زياد إلى دهقان هناك فقتله وحمل رأسه إلى أبي مسلم. وكتب أبو مسلم إلى أبي داود فقتله، وكان قد شغل بأهل الطالقان فرجع إلى كش وبعث عيسى بن ماهان إلى بسام فلم يظفر منها بشيء، وبعث إلى بعض أصحاب أبي مسلم يعيب أبا داود وعيسى، فضربه وجسه، ثم أخرجه فوثب عليه الجند فقتلوه ورجع أبو مسلم إلى مرو.

حج أبي جعفر وأبي مسلم

وفي سنة ست وثلاثين استأذن أبو مسلم السفاح في القدوم عليه للحج، وكان منذ ولي خراسان لم يفارقها فأذن له في القدوم مع خمسمائة من الجند، فكتب إليه أبو مسلم أنني قد عادت الناس ولست آمن على نفسي فأذن له في ألف، وقال: إن طريق مكة لا تحتمل العسكر فسار في ثمانية آلاف فرقة ما بين نيسابور والري، وخلف أمواله وخزائنه بالري وقدم في ألف وخرج القواد بأمر السفاح لتلقيه، فدخل على السفاح وأكرمه وأعظمه. واستأذن في الحج فأذن له، وقال: لولا أن أبا جعفر يريد الحج لاستعملتك على الموسم، فأنزله بقرية وكان قد كتب إلى أبي جعفر أن أبا مسلم استأذني في الحج وأذنت له وهو يريد ولاية الموسم، فاسألني أنت في الحج، فلا تطمع أن يتقدمك، وأذن له فقدم الأنبار. وكان ما بين أبي جعفر وأبي مسلم متباعداً من حيث بعث السفاح أبا جعفر إلى خراسان ليأخذ البيعة له ولأبي جعفر من بعده ويولي أبا مسلم على خراسان فاستخلى أبو مسلم بأبي جعفر. فلما قدم الآن أبو جعفر السفاح بقتله وأذن له فيه ثم ندم وكفه عن ذلك، وسار أبو جعفر إلى الحج ومعه أبو مسلم واستعمل على حران مقاتل بن حكيم العكي.

موت السفاح وبيعة المنصور

كان أبو العباس قد تحول من الحيرة إلى الأنبار في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين فأقام بها سبتين ثم توفي في ذي الحجة سنة ست وثلاثين لثلاث عشرة ليلة خلت منه ولأربع سنين وثمانية أشهر من لدن يوبع وصلى عليه عمه ودفن بالأنبار. وكان وزيره أبو الجهم بن عطية وكان قبل موته قد عهد بالخلافة لأخيه أبي جعفر ومن بعده لعيسى ابن أخيهما موسى، وجعل العهد في

لذلك ودخل بهم زياد بن عبيد الله الحارثي على السفاح وشكو إليه ما فعل بهم فهم بقتله. وبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطية فدخلوا على السفاح وذكراه سابقة الشيعة وطاعتهم وأنهم أتروكم على الأقارب والأولاد وقتلوا من خالفكم، فإن كان لا بد من قتله فابعثه لوجه من الوجوه، فلما قتل هو الذي تريد وإن ظفر فلك، بعثه إلى الخوارج الذين بمجزيرة ابن كاوان من عُمان مع شيان بن عبد العزيز البشكري، فبعث معه سبعمائة رجل فحملهم سليمان بن علي من البصرة في السفن وقد انضم إليه من أهله وعشيرته ومواليه وعدة من بني تميم من البصرة، فلما أرسوا بمجزيرة ابن كاوان قدم خازم فضلة بن نعيم المنشلي في خمسمائة إلى شيان فانهزم هو وأصحابه وكانوا صفرية، وركبوا إلى عمان فقاتلهم الجند في الإيضية، فقتل شيان ومن معه كما مر، وشيخان هذا غير شيان بن سلمة الذي قتل بخراسان فرما يشتبهان.

ثم ركب خازم البحر إلى ساحل عمان فنزل وقاتل الجند أياماً أمر خازم أصحابه أن آخرها أن يجمعوا على أطراف أستهم المشاقة ويدوروا بالنفط ويشعلوها بالنيران ويرموها في بيوت القوم، وكانت من خشب. فلما اضطربت فيها النار شغلوا بأهلهم وأولادهم عن القتل، فحمل عليهم خازم وأصحابه فاستحملوهم. وقتل الجند عشرة آلاف، فبعث خازم برؤوسهم إلى البصرة فبعثها سليمان إلى السفاح فندم اهـ.

ثم غزا خالد بن إبراهيم أهل كش فقتل الأخشيد ملكها وهو مطيع واستباحهم وأخذ من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة، ومن الديباج والسروج ومتاع الصين وظرفه ما لم ير مثله، وحمله إلى أبي مسلم بسمرقند. وقتل عدة من دهاقين كش وملك طازان أخا الأخشيد على كش، ورجع أبو مسلم إلى مرو بعد أن قتل في الصغد وبخاري وأمر ببناء سور سمرقند. واستخلف زياد بن صالح على بخاري وسمرقند ورجع أبو داود إلى بلخ. ثم بلغ السفاح انتقاض منصور بن جمهور بالسند فبعث صاحب شرطته موسى بن كعب واستخلف مكانه على الشرطة المسيب بن زهير.

وسار موسى لقتال ابن جمهور فلقبه بتخوم الهند وهو في نحو اثني عشر ألفاً فانهزم ومات عطشاً في الرمال. ورحل عامله على السند بعياله وثقلته فدخل بهم بلاد الخزر. ثم انتقض سنة خمس وثلاثين زياد بن صالح وراء النهر. فسار أبو مسلم إليه من مرو وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم نصر بن راشد إلى ترمذ ليمنعها من زياد فلما وصل إليها خرج عليه ناس من الطالقان فقتلوه فبعث مكانه عيسى بن ماهان فسمع قتلة نصر فقتلهم. وسار أبو مسلم فانتهى إلى آمد ومعه سباع بن النعمان الأزدي

ثوب وختمه بخواتيمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى، ولما توفي السفاح وكان أبو جعفر بمكة فأخذ البيعة على الناس عيسى بن موسى، وكتب إليه بالخبر فجنز واستدعى أبا مسلم وكان متأخراً عنه فأقره الكتاب فبكى واسترجع، وسكن أبا جعفر عن الجزع فقال: أخاف شر عبد الله بن علي. فقال أنا أكفيكه وعمامة جنده أهل خراسان وهم أطوع لي منه فسري عنه. ويبيع له أبو مسلم والناس وأقبلوا حتى قدما الكوفة. ويقال: إن أبا مسلم كان متقدماً على أبي جعفر، فإن الخبر قد أتاه قبله فكتب أبو مسلم إليه يعزیه ويهنيه بالخلافة وبعد يومين كتب له بيعته. وقدم أبو جعفر الكوفة سنة سبع وثلاثين وسار منها إلى الأنبار فسلم إليه عيسى بيوت الأموال والدواوين واستقام أمر أبي جعفر.

انتفاض عبد الله بن علي وهزيمته

كان عبد الله بن علي قدم على السفاح قبل موته فبعثه إلى الصائفة في جنود أهل الشام وخراسان فاستهى إلى دلوک ولم يدر حتى جاءه كتاب عيسى بن موسى بوفاة السفاح وأخذ البيعة لأبي جعفر وله من بعده كما عهد به السفاح، فجمع عبد الله الناس وقرأ عليهم الكتاب وأعلمهم أن السفاح حين أراد أن يبعث الجنود إلى حران تكاسل بنو أبيه عنها فقال لهم: من انتدب منكم فهو ولي عهدي فلم يتدب غيري، وشهد له أبو غانم الطائي وخفاف المروزي وغيرهما من القواد وبيايعوه، وفيهم حميد بن حكيم بن قحطبة وغيره من خراسان والشام والجزيرة. ثم سار عبد الله حتى نزل حران وحاصر مقاتل بن حكيم العكبي أربعين يوماً وخشي من أهل خراسان فقتل منهم جماعة، وولى حميد بن قحطبة على حلب وكتب معه إلى عاملها زفر بن عاصم بقتله فقرأ الكتاب في طريقه وسار إلى العراق.

وجاء أبو جعفر من الحج فبعث أبا مسلم لقتال عبد الله ولحقه حميد بن قحطبة نازعاً عن عبد الله فسار معه وجعل على مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعي. ولما بلغ عبد الله خبر إقباله وهو على حران بذل الأمان لمقاتل بن حكيم ومن معه وملك حران. ثم بعث مقاتلاً بكتابه إلى عثمان بن عبد الأعلى، فلما قرأ الكتاب قتله وحبس ابنه حتى إذا هزم عبد الله قتلها. وأمر المنصور محمد بن صول وهو على أذربيجان أن يأتي عبد الله بن علي ليكر به، فجاء وقال: إني سمعت السفاح يقول: الخليفة بعدي عمي عبد الله فشعر بمكيدته وقتله. وهو جد إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب.

ثم أقبل عبد الله بن علي حتى نزل نصيبين وخندق عليه وقدم أبو مسلم فيمن معه. وكان المنصور قد كتب إلى الحسن بن قحطبة عامله على أرمينية بأن يوافي أبا مسلم، فقدم عليه بالموصل، وسار معه. ونزل أبو مسلم ناحية نصيبين وكتب إلى عبد الله: أني قد وليت الشام ولم أؤمر بقتالك فقال أهل الشام لعبد الله: سر بنا إلى الشام لنمنع نساءنا وأبنائنا. فقال لهم عبد الله: ما يريد إلا قتالنا وإنما قصد المكر بنا، فأبوا إلا الشام. فارتحل بهم إلى الشام ونزل أبو مسلم في موضع معسكره وغور ما حوله من المياه فوقف أصحاب عبد الله يكار بن مسلم العقيلي وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي وعلى الخيل عبد الصمد بن علي أخو عبد الله وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة وعلى ميسرته خازم بن خزيمه، فاقبضوا شهراً.

ثم حمل أصحاب عبد الله على عسكر أبي مسلم فازالوهم عن مواضعهم وحمل عبد الصمد قتل منهم ثمانية عشر رجلاً. ثم حمل عليهم ثانية فازالوا صفهم. ثم نادى منادي أبي مسلم في أهل خراسان فراجعوا. وكان يجلس إذا لقي الناس على عريش ينظر منه إلى الحومة فإن رأى خللاً أرسل بسده. فلا تزال رسله تختلف بينه وبين الناس حتى ينصرفوا. فلما كان يوم الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين اقتتلوا وأمر أبو مسلم الحسن بن قحطبة أن يضم إلى الميسرة ويتزل في الميمنة حماة أصحابه، فانضم أهل الشام من الميسرة إلى الميمنة كما أمرهم. وأمر أبو مسلم أهل القلب فحطموهم وركبهم أصحاب أبي مسلم.

فانهزم أصحاب عبد الله فقال لابن سراقه: ما ترى؟ قال: الصبر إلى أن تموت فالفرار فيكم بمثلك قبيح. قال: بل آتي العراق فانا معك فانهزموا وحوى أبو مسلم عسكرهم. وكتب بذلك إلى المنصور ومضى عبد الله وعبد الصمد. فقدم عبد الصمد الكوفة فاستامن له عيسى بن موسى، وأمنه المنصور. وقيل: بل أقام بالرصافة حتى قدمها جمهور بن مروان العجلي في خيول أرسلها المنصور، فبعث به موثقاً مع أبي الخطيب، فاطلقه المنصور.

وأما عبد الله فقدم البصرة وأقام عند أخيه سليمان متواشياً حتى طلبه وأشخص إليه. ثم إن أبا مسلم أمن الناس بعد الهزيمة وأمر بالكف عنهم..... كان أبو مسلم لما حج مع المنصور يؤيد نفسه عليه ويتقدم بالإحسان للوفود وإصلاح الطريق والمياه، وكان الذكر له وكان الأعراب يقولون: هذا المكذوب عليه. ولما صدروا عن الموسم تقدم أبو مسلم ولقى الخبر بوفاة السفاح فبعث إلى أبي جعفر يعزیه ولم يهتبه بالخلافة ولا رجع إليه ولا أقام ينتظره. فغضب أبو جعفر وكتب إليه وأغلظ في العتاب فكتب يهتبه

مسلم ويتوسل به إلى المنصور في ولاية كسكر ليصيب فيها مالا عظيماً. وأن يشرك أخاه في ذلك، فإن أمير المؤمنين عازم أن يولييه ما يوري به ويربح نفسه. واستأذن له المنصور في لقاء أبي مسلم فأذن له، فلقي أبا مسلم وتوسل إليه وأخبره الخبر فطابت نفسه وذهب عنه الحزن. ولما قرب أمر الناس بتلقيه ثم دخل على المنصور فقبل يده وانصرف ليربح ليلته، ودعا المنصور من الغد حاجبه عثمان بن نهيك وأربعة من الحرس منهم شبيب بن رواح وابن حنيفة حرب بن قيس، وأجلسهم خلف الرواق، وأمرهم بقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه.

واستدعى أبا مسلم، فلما دخل سأله عن سيفين أصابهما لعنه عبد الله بن علي وكان متقلداً بأحدهما فقال: هذا أحدهما! فقال: أرني! فانتضاه أبو مسلم وتاوله إياه فأخذ يقبله بيده ويهزه. ثم وضعه تحت فراشه، وأقبل يعاتبه فقال: كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات كأنك تعلمه! قال: ظننت أنه لا يحل، ثم اقتديت بكتاب السفاح وعلمت أنكم معدن العلم.

قال: فتوركك عني بطريق مكة! قال كرهت مزاحمتك على المال! قال فامتناعك من الرجوع إلي حين بلغك موت السفاح أو الإقامة حتى أهلك! قال: طلبت الرفق بالناس والمبادرة إلى الكوفة! قال: فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها لنفسك! قال: لا إنما وكلت بها من يحفظها.

قال: فمراغمتك ومسيرك إلى خراسان! قال: خشيت منك قتل: آتي خراساني وأكتب بعذري فأذهب ما في نفسك مني! قال: فلئال الذي جمعتهم بخران! قال: أنفقت في الجندية تقوية لكم. قال: ألت الكاتب إلي تبدأ بنفسك وتخطب أسية بنت علي وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً.

ثم قال له: وما الذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا، وهو أحد نقبائنا من قبل أن ندخلك في هذا الأمر؟ قال: أراد الخلافة فقتلته. ثم قال أبو مسلم: كيف يقال هذا بعد بلائي وما كان مني؟ قال: يا ابن الخبيثة لو كانت أمة مكائك لأغثت إنما ذلك بدولتنا وربحنا. وأكب أبو مسلم يقبل يده ويعتذر فازداد المنصور غضباً. ثم قال أبو مسلم: دع هذا! فقد أصبحت لا أخاف إلا الله. فشتمة المنصور وصفق بيديه فخرج الحرس. وضربه عثمان بن نهيك فقطع حائل سيفه. فقال: استبقني لعدوك! فقال: لا أبقاني الله إذا وأي عدو أعدى منك وأخذ الحرس يسوقهم حتى قتلوه، وذلك لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين.

بالخلافة ويقدم إلى..... فدعا عيسى بن موسى إلى أن يبيع له فأبى وقدم أبو جعفر، وقد خلع عبيد الله بن علي، فسرح أبا مسلم لقتاله فهزمه كما مر، وجمع الغنائم من عسكره. فبعث المنصور مولاه أبا الخصيب لجمعها، فغضب أبو مسلم وقال: أنا أعين على الدعاء فكيف أخون الأموال وهم بقتل الخصيب ثم خلى عنه.

وخشي المنصور أن يمضي إلى خراسان فكتب إليه بولاية مصر والشام فازداد نفاقاً وخرج من الجزيرة يريد خراسان وسار المنصور إلى المدائن، وكتب إليه يستقدمه، فأجابته بالإمتناع والمسك بالطاعة عن بعد، والتهديد بالخلع إن طلب منه سوى ذلك. فكتب إليه المنصور ينكر عليه هذا الشرط وأنه لا يحسن طاعة. وبعث إليه عيسى بن موسى برسالة يؤنس به ويسليه. وقيل: بل كتب إليه أبو مسلم يعرض له بالخلع وأنه قد تاب إلى الله عما جناه من القيام بدعوتهم، وأخذ أبو مسلم طريق حلوان وأمر المنصور عمه عيسى ومشيجة بني هاشم بالكتاب على أبي مسلم يحرضونه على التمسك بالطاعة ويحذرونه عاقبة البغي ويأمرونه بالمراجعة.

وبعث الكتب مع مولاه أبي حميد المُرُورُوزي، وأمره بملايته والخضوع له بالقول حتى يئأس منه، فإذا شئس يخبره بقسم أمير المؤمنين لأوكلت أمرك إلى غيري ولو خضت البحر خضته وراءك ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك وأموت. فأوصل أبو حميد الكتب وتلطف له في القول ما شاء واحتج عليه بما كان منه في التحريض على طاعتهم، فاستشار أبو مسلم مالك بن الهيثم فأبى له من الإصغاء إلى هذا القول وقال: والله لئن أتيت ليقتلنك. ثم بعث إلى نيزك صاحب الري يستشير به فأبى له من ذلك، وأشار عليه بنزول الري وخراسان من ورائه فيكون أمكن لسلطانه. فأجاب أبا حميد بالإمتناع فلما شئس منه أبلغه مقالة المنصور فوجم طويلاً ورعب من ذلك القول وأكبره. وكان المنصور قد كتب إلى عامل أبي مسلم بخراسان يرعبه في الانحراف عنه بولاية خراسان فأجاب سراً وكتب إلى أبي مسلم يخبره الخلاف والمعصية فزاده ذلك رعباً وقال لأبي حميد قبل انصرافه: قد كنت عزمتم على المضي إلى خراسان ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين يأتيني برايته فإني أثق به.

ولما قدم أبو إسحاق تلقاه بنو هاشم وأهل الدولة بكل ما يجب ودخله المنصور في صرف أبي مسلم عن وجهة خراسان ووعدته بولايتها، فرجع إليه وأشار عليه بلقاء المنصور، فاعتزم على ذلك. واستخلف مالك بن الهيثم على عسكره بجلوان، وسار فقدم المدائن في ثلاثة آلاف، وخشي أبو أيوب وزير المنصور أن يحدث منه عند قدومه فتك فدعا بعض إخوانه وأشار عليه بأن يأتي أبا

لما حوى ما في عسكر سنباد ولم يبعث به خاف من المنصور فخلع واعتصم بالري فسرَح إليه محمد بن الأشعث في الجيوش، فخرج من الري إلى أصبهان فملكها وملك محمد الري. ثم اقتتلوا وانهزم جمهور فلحق بأذربيجان، وقتله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى المنصور، وذلك سنة ثمان وثلاثين.

حبس عبد الله بن علي

كان عبد الله بن علي بعد هزيمته أمام أبي مسلم لحق بالبصرة، ونزل على أخيه سليمان. ثم إن المنصور عزل سليمان سنة تسع وثلاثين فاخفى عبد الله وأصحابه، فكتب المنصور إلى سليمان وأخيه عيسى بأمان عبد الله وقواده ومواليه وأشخاصهم إلى المنصور منهم فشحصوا. ولما قدما عليه فأذن لهما فأعلماه بحضور عبد الله واستأذناه له فشحغلها بالحديث وأمر بحبسها في مكان قد هيئ له في القصر، فلما خرج سليمان وعيسى لم يجد عبد الله فعلما أنه قد حبس وأن ذمتهم قد أخفرت، فرجعا إلى المنصور فحبسا عنه وتوزع أصحاب عبد الله بين الحبس والقتل، وبعث بعضهم إلى أبي داود خالد بن إبراهيم بخراسان فقتلهم بها. ولم يزل عبد الله محبوساً حتى عهد المنصور إلى المهدي سنة تسع وأربعين وأمر موسى بن عيسى فجعله بعد المهدي ودفع إليه عبد الله، وأمره بقتله، وخرج حاجاً. وسار عيسى كاتبه يونس بن فروة في قتل عبد الله بن علي فقال: لا تفعل فإنه يقتلك به، وإن طلبه منك فلا ترده إليه سراً فلما قفل المنصور من الحج دس على أعمامه من يخرضهم على الشفاعة في أخيه عبد الله فشفعهم، وقال لعيسى: جئنا به! فقال: قتلته كما أمرتني. فأنكر المنصور وقال خذوه بأخيكم فخرجوا به ليقتلوه حتى اجتمع الناس واشتهر الأمر فجاء به وقال: هو ذا حي سوي، فجعله المنصور في بيت أساسه ملح وأجرى عليه الماء فسقط ومات.

وقعة الراوندية

كان هؤلاء القوم من أهل خراسان ومن أتباع أبي مسلم يقولون بالتناسخ والحلول، وأن روح آدم في عثمان بن نهيك وأن الله حل في المنصور وجبريل في الهيثم بن معاوية. فحبس المنصور نحواً من مائتين منهم فغضب الباقون واجتمعوا وحملوا بينهم نعشاً كأنهم في جنازة وجاؤوا إلى السجن فرموا بالنعش وأخرجوا أصحابهم وحملوا على الناس في ستمائة رجل. وقصدوا قصر المنصور وخرج المنصور من القصر ماشياً. وجاء معن بن زائدة

وخرج الوزير أبو الجهم فصرف الناس، وقال: الأمير قاتل عند أمير المؤمنين فانصرفوا وأمر لهم بالجوائز وأعطى إسحاق مائة ألف. ودخل عيسى بن موسى على المنصور فسأل عنه وأخذ في الثناء على طاعته وبلائه وذكر رأي الإمام إبراهيم فيه. فقال المنصور: والله ما أعلم على وجه الأرض عدواً أعدى لكم منه هو ذا في البساط. فاسترجع عيسى، فأنكر عليه المنصور وقال: وهل كان لكم ملك معه؟ ثم دعا جعفر بن حنظلة واستشاره في أمر أبي مسلم فأشار بقتله فقال له المنصور: وفقك الله! ثم نظر إليه قتيلاً فقال له: يا أمير المؤمنين عدّ خلافتك من هذا اليوم. ثم دعا أبا إسحاق عن متابعة أبي مسلم وقال: تكلم بما أردت وأخرجه قتيلاً. فسجد أبو إسحاق ثم رفع رأسه يقول: الحمد لله! أميت هو؟ والله ما جئته قط إلا تكفنت وتحطت ورفع ثيابه وأراه كفته وحنوطه. فرحمه وقال له: استقبل طاعتك واحمد الله الذي أراحك.

وكتب المنصور بعد قتل أبي مسلم إلى أبي نصر بن الهيثم على لسان أبي مسلم يأمره بحمل أثقاله، وقد كان أبو مسلم أوصاه إن جاءك كتاب بخاتمي تاماً فأعلم أنني لم أكتبه، فلما رآه كذلك فطن والمحدّر إلى همدان يريد خراسان، فكتب له المنصور بولاية شهرزور، وكتب إلى زهير بن التركي بهمدان بحبسه. فمر أبو نصر بهمدان وخادعه زهير ودعاه إلى طعامه وحبسه. وجاء كتاب العهد بشهرزور لأبي نصر فأطلقه زهير ثم جاءه بعد ذلك الكتاب بقتله فقال: جاءني كتاب عهده فخليت سبيله.

وقدم أبو نصر على المنصور فعذله في إشارته على أبي مسلم بخراسان فقال: نعم استصحبني فنصحت له. وإن استصحبني أمير المؤمنين نصحت وشكرت، واستعمله على الموصل، وخطب أبو جعفر الناس بعد قتل أبي مسلم وأنسهم وافترق أصحابه وخرج منهم بخراسان رجل اسمه سنباد ويسمى فيروز أصهبيد وتبعه أكثر الجبال يطلبون بدم أبي مسلم وغلب على نيسابور والري وأخذ خزائن أبي مسلم التي خلفها بالري حين شخص إلى السفاح. وسبى الحرم ونهب الأموال ولم يعرض إلى التجار. وكان يظهر أنه قاصد إلى الكعبة يهدمها فسرَح إليه المنصور جمهور بن حرار العجلي والقوا على طرق المفازة بين همدان والري، فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم نحواً من ستين ألفاً وسبى ذراريهم ونساءهم.

ولحق سنباد بطبرستان فقتله بعض عمال صاحبها وأخذ ما معه. وكتب إلى المنصور بذلك فكتب إليه المنصور في الأموال فانكرها فسرَح إليه الجنود فهرب إلى الدليم. ثم إن جمهور بن مرار

مده بالجيش وابعث معها من شئت يستمكن منه، فأجاب عبد الجبار بأن خراسان مغلبة في عامها ولا تختمل زيادة العسكر. فقال له أبو يوسف: هذا خلع فعاجله. فبعث ابنه المهدي فसार ونزل الري.

وقدم خازم بن خزيمه لحرب عبد الجبار فقاتلوه، فانهزم وجاء إلى مقطنة وتوارى فيها. فغير إليه المحشد بن مزاحم من أهل مرو الروذ وجاء به إلى خازم فحملة على بعير وعليه جبة صوف، ووجهه إلى عجز البعير وحملة إلى المنصور في ولده وأصحابه. فبسط إليهم العذاب حتى استخرج الأموال ثم قطع يديه ورجليه وقتله. وذلك سنة اثنتين وأربعين وبعث يؤذيه إلى ذَعْلَك فعزله بها وأقام المهدي بخراسان حتى رجع إلى العراق سنة تسع وأربعين.... وفي سنة اثنتين وأربعين انتفض عيينة بن موسى بن كعب بالسند، وكان عاملاً عليها من بعد أبيه، وكان أبوه يستخلف المسيب بن زهير على الشرط فخشي المسيب إن حضر عيينة عند المنصور أن يوليه على الشرط، فحذره المنصور وحرضه على الخلاف فخلع الطاعة. وسار المنصور إلى البصرة وسرح من هنالك عمر بن حفص بن أبي صفوة العتكي لحرب عيينة وولاه على السند والهند فورد السند وغلب عليها. وفي السنة انتفض الأصهب بطبرستان وقتل من كان في أرضه من المسلمين فبعث المنصور مولاه أبا الخصيب وخازم بن خزيمه وروح بن حاتم في العساكر فحاصروه في حصنه مدة ثم تحيلوا ففتح لهم الحصن من داخله وقتلوا المقاتلة وسبى الذرية وكان مع الأصهب سم فشره فمات.

أمر بني العباس

بنو هاشم حين اضطرب أمر مروان بن محمد اجتمعوا إليه وتشاوروا فيمن يعقدون له الخلافة فاتفقوا على محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن علي. وكان يقال: إن المنصور ممن بايعه تلك الليلة. ولما حج أيام أخيه السفاح سنة ست وثلاثين تغيب عنه محمد وأخوه إبراهيم، ولم يحضرا عنده مع بني هاشم. وسأل عنهما فقال له زياد بن عبيد الله الحارثي: أنا آتيك بهما وكان بمكة فرداه المنصور إلى المدينة. ثم استخلف المنصور وطفق يسأل عن محمد ويختص بني هاشم بالسؤال سراً، فكلهم يقول: إنك ظهرت على طلبه لهذا الأمر فخافك على نفسه، ويحسن العذر عنه إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي. فإنه قال له: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينأ عنك، فكان موسى بن عبد الله بن حسن يقول بعد هذا: اللهم اطلب الحسن بن زيد بدمائنا. ثم إن المنصور

الشياني وكان مستخفياً من المنصور لقتاله مع ابن هيرة وقد اشتد طلب المنصور له فحضر عنده هذا اليوم مثثماً وترجل وأبلى. ثم جاء إلى المنصور ولجام بغلته في يد الربيع حاجبه وقال: تنح ذا أنا أحق بهذا اللجام في هذا الوقت وأعظم فنازل وقاتل حتى ظفر بالراوندية. ثم سألها فانتسب فأمته واصطنعه.

وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم ووقف على باب المنصور وقال: أنا اليوم بواب. ثم قاتلهم أهل السوق وفتح باب المدينة ودخل الناس وحمل عليهم خازم بن خزيمه والهيثم بن شعبة حتى قتلوه عن آخرهم. وأصاب عثمان بن نهيك في الحومة سهم فمات منه بعد أيام وجعل على الحبس بعده أخاه عيسى ثم بعده أبا العباس الطوسي وذلك كله بالهاشمية. ثم أحضر معناً ورفع منزلته وأثنى عليه بما كان منه في ذلك اليوم مع عمه عيسى، فقال معن: والله يا أمير المؤمنين لقد جئت إلى الحكومة وجلاً حتى رأيت شدتك فحملني ذلك على ما رأيت مني. وقيل: إنه كان مخفياً عند أبي الخصيب حاجب المنصور وأنه جاء يوم الراوندية فاستأذن أبو الخصيب وشاوره المنصور فأشار بيث المال في الناس. وأبى المنصور إلا الركوب إليهم بنفسه فخرج بين يديه وأبلى حتى قتلوا. ثم تغيب فاستدناه وأمنه وولاه على اليمن.

انتفاض خراسان ومسير المهدي إليها

كان السفاح قد ولي على خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم الذهلي بعد انتفاض بسم بن إبراهيم ومهلكه. فلما كان سنة أربعين ثار به بعض الجند وهو بكشمان وجاؤوا إلى منزله فأشرف عليهم ليلاً من السطح فزلت قدمه فسقط ومات ليومه. وكان عصام صاحب شرطته فقام بالأمر بعده. ثم ولي المنصور على خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن فقدم عليها وحبس جماعة من القواد اتهمهم بالدعاء للعلوية، منهم مجاشع بن حريث الأنصاري عامل بخاري وأبو المرة خالد بن كثير مولى بني عجم عامل قهستان والحريش بن محمد الذهلي ابن عم أبي داود في آخرين.

ثم قتل هؤلاء وألح على عمال أبي داود في استخراج المال وانتهت الشكوى إلى المنصور بذلك فقال لأبي أيوب: إنما يريد بقاء شيعتنا الخلع، فأشار عليه أبو أيوب أن تبعث من جنود خراسان لغزو الروم فإذا فارقه بعثت إليه من شئت واستمكن منه. فكتب إليه بذلك فأجاب بأن الترك قد جاشت وإن فرقت الجنود خشيت على خراسان. فقال له أبو أيوب: اكتب إليه بأنك

المدينة. وكان المنصور حج سنة أربعين وحج محمد وإبراهيم وعزما على اغتيال المنصور وأبى محمد من ذلك. ثم طلب المنصور عبد الله بإحضار ولديه وعنفه وهم به، فضمنه زياد عامل المدينة.

وانصرف المنصور وقدم محمد المدينة قدما فتلطف له زياد وأعطاه الأمان له. ثم قال له: إلتحق بأي بلاد شئت. وسمع المنصور فبعث أبا الأزهر إلى المدينة في جمادى سنة إحدى وأربعين ليستعمل على المدينة عبد العزيز بن المطلب ويقبض زياداً وأصحابه. فسار بهم فحبسهم المنصور، وخلف زياد بيت المال ثمانين ألف دينار. ثم استعمل على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وأمره بطلب محمد وإنفاق المال في ذلك. فكثرت نفقته واستبطاه المنصور واستشار في عزله، فأشار عليه يزيد بن أسيد السلمي من أصحابه باستعمال رباح بن عثمان بن حسان المزني فبعثه أميراً على المدينة في رمضان سنة أربع وأربعين، وأطلق يده في محمد بن خالد القسري.

فقدم المدينة وتهدد عبد الله بن حسن في إحضار ابنه. وقال له عبد الله يومئذ: إنك لتريق المذبوح فيها كما تذبح الشاة، فاستشعر ذلك ووجد فقال له حاجبه أبو البخترى: إن هذا ما اطلع على الغيب. فقال: ويلك! والله ما قال إلا ما سمع، فكان كذلك. ثم حبس رباح محمد بن خالد وضربه وجذ في طلب محمد فأخبر أنه في شيعان رَضَوَى من أعمال ينبع وهو جبل جهينة، فبعث عامله في طلب فأفلت منه. ثم إن رباح بن مرة حبس بني حسن وقيدهم وهم: عبد الله بن حسن بن الحسن وإخوته حسن وإبراهيم وجعفر وابنه موسى بن عبد الله، وبنو أخيه داود وإسماعيل وإسحاق بنو إبراهيم بن الحسن، ولم يحضر معهم أخوه علي العائد. ثم حضر من الغد عند رباح وقال: جئتكم لتحبسني مع قومي فحبسه، وكتب إليه المنصور أن يجلس معهم محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان المعروف بالديباجة. وكان أخا عبد الله لأمه أمهما فاطمة بنت الحسين.

وكان عامل مصر قد عثر على علي بن محمد بن عبد الله بن حسن بعثه أبوه إلى مصر يدعو له فأخذه وبعث به إلى المنصور فلم يزل في حبسه. وسمى من أصحاب أبيه عبد الرحمن بن أبي المولى وأبا جبير فضر بهما المنصور وحبسهما. وقيل: عبد الله حبس أولاً وحده وطال حبسه. فأشار عليه أصحابه بحبس الباقي فحبسهم. ثم حج المنصور سنة أربع وأربعين، فلما قدم مكة بعث إليهم وهم في السجن محمد بن عمران بن إبراهيم بن طلحة ومال بن أنس يسألهم أن يرفعوا إليه محمداً وإبراهيم ابني عبد الله، فطلب عبد الله الإذن في لقائه فقال المنصور: لا والله حتى يأتيني

حج سنة..... وألح على عبد الله بن حسن في إحضار ابنه محمد فاستشار عبد الله سليمان بن علي في إحضاره فقال له: لو كان عافياً عفى عن عمه، فاستمر عبد الله على الكتمان وبث المنصور العيون بين الأعراب في طلبه بسائر بوادي الحجاز ومياهاها. ثم كتب كتاباً على لسان الشيعة إلى محمد بالطاعة والمساواة وبعثه مع بعض عيونه إلى عبد الله وبعث معه بالمال والألطف كأنه من عندهم.

وكان للمنصور كاتب على سره يتشيع، فكتب إلى عبد الله بن حسن بالخبر وكان محمد بجهينة، وألح عليه صاحب الكتاب أمر محمد ليدفع إليه كتاب الشيعة. فقال له: إذهب إلى علي بن الحسن المدعو بالأغر يوصلك إليه في جبل جهينة فذهب وأوصله إليه. ثم جاءهم حقيقة خبره من كاتب المنصور وبعثوا أبا هبار إلى محمد وعلي بن حسن يحذروهما الرجل، فجاء أبو هبار إلى علي بن حسن وأخبره ثم سار إلى محمد فوجد العين عنده جالساً مع أصحابه فخلا به وأخبره. فقال: وما الرأي؟ قال: نقتله! قال: لا أقارف دم مسلم. قال: تقيده وتحمله معك! قال: لا آمن عليه لكثرة الخوف والإعجال. قال: فتودعه عند بعض أهلك من جهينة! قال: هذه إذن. ورجع فلم يجد الرجل ولحق بالمدينة.

ثم قدم على المنصور وأخبره الخبر وسمى اسم أبي هبار وكنيته، وقال: معه وبر. فطلب أبو جعفر ويراً المري فسأله عن أمر محمد فأنكره وحلف فضره وحبسه. ثم دعا عقبة بن سالم الأزدي وبعثه متكرراً بكتاب والطاف من بعض الشيعة بخراسان إلى عبد الله بن حسن ليظهر على أمره، فجاءه بالكتاب فأنهره وقال لا أعرف هؤلاء القوم. فلم يزل يتردد إليه حتى قبله وأنس به وسأله عقبة الجواب فقال: لا أكتب لأحد ولكن أقرئهم مني سلاماً وأعلمهم أن ابني خارجان لوقت كذا.

فرجع عقبة إلى المنصور فأنشأ الخج، فلما لقيه بنو حسن رفع مجالسهم وعبد الله إلى جنبه ثم دعا بالغداء فأصابوا منه. ثم قال لعبد الله بن حسن: قد أعطيتي العهود والمواثيق أن لا تبغيني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً فقال: وأنا على ذلك. فلحظ المنصور عقبة بن سالم فوقف بين عبد الله حتى ملا عينه منه فبادر المنصور يسأله الإقالة فلم يفعل، وأمر بحبسه. وكان محمد يتردد في النواحي وجاء إلى البصرة فنزل في بني راهب وقيل: في بني مرة بن عبيد، وبلغ الخبر إلى المنصور فجاء إلى البصرة وقد خرج عنها محمد، فلقي المنصور عمر بن عبيد فقال له: يا أبا عثمان هل بالبصرة أحد تخافه على أمرنا؟ فقال: لا! فأنصرف واشتد الخوف على محمد وإبراهيم وسار إلى عدن ثم إلى السند ثم إلى الكوفة، ثم إلى

فيهم إسماعيل بن أيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة وابنه خالد، وبينما هم عنده إذ سمعوا التكبير وقيل: قد خرج محمد فقال له..... ابن مسلم بن عقبة: أعطني أضرب أعناق هؤلاء قبايى، وأقبل من المداد في مائة وخمسين رجلاً وقصد السجن، فأخرج محمد بن خالد بن عبد الله القسري وابن أخيه النذير بن يزيد ومن كان معهم وجعل على الرجالة خوات بن جبير وأتى دار الإمارة وهو ينادي بالكف عن القتل. فدخلوا من باب المقصورة وقبضوا على رباح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة فحبسهم، ثم خرج إلى المسجد وخطب الناس وذكر المنصور بما تقمه عليه ووعد الناس واستنصر بهم. واستعمل على المدينة عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي، وعلى بيت السلاح عبد العزيز الدراوردي، وعلى الشرط أبا الغلمش عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن غرمة.

وأرسل إلى محمد بن عبد العزيز يلومه على القعود عنه فوعده بالبصرة وسار إلى مكة، ولم يتخلف عن محمد من وجوه الناس إلا نفر قليل منهم: الضحاك بن عثمان بن عبد الله بن خالد بن حرام وعبد الله بن المنذر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد وأبو سلمة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وحبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير. وأستفتى أهل المدينة مالكا في الخروج مع محمد وقالوا: في أعناقنا بيعة المنصور، فقال: إنما بايعتم مكرهين. فتشاور الناس إلى محمد ولزم مالك بيته، وأرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد الله بن جعفر يدعوه إلى بيعته، وكان شيخاً كبيراً فقال: أنت والله وابن أخي مقتول فكيف أبايك؟ فرجع الناس عنه قليلاً وأسرع بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى محمد فجاءت جمادة أختهم إلى عمها إسماعيل وقالت: يا عم إن مقاتلك ثببت الناس عن محمد وأخوتي معه، فأخشى أن يقتلوا فردها. فيقال: إنها عدت عليه فقتلته ثم حبس محمد بن خالد القسري بعد أن أطلقه واتهمه بالكتاب إلى المنصور فلم يزل في حبسه.

ولما استوى أمر محمد ركب رجل من آل أويس بن أبي سرح اسمه الحسين بن صخر، وجاء إلى المنصور في تسع فخبه الخبر فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم! وكلمته على منبر رسول الله ﷺ. ثم تابع الخبر وأشفق المنصور من أمره واستشار أهل بيته ودولته. وبعث إلى عمه عبد الله وهو محبوس يستشيره فأشار عليه بأن يقصد الكوفة فإنهم شيعا لأهل البيت فيملك عليهم أمرهم ويخففها بالمسالح حتى يعرف الداخل والخارج، ويستدعي سالم بن

به وبابنيه، وكان محسناً مقبلاً لا يكلم أحداً إلا أجابه إلى رأيه.

ثم إن المنصور قضى حجه وخرج إلى الربذة، وجاء رباح ليودعه فأمر بأشخاص بني حسن ومن معهم إلى العراق فأخرجهم في القيود والأغلال وأردفهم في محامل بنير وطء، وجعفر الصادق يعاينهم من وراء ستر ويكي. وجاء محمد وإبراهيم مع أبيهما عبد الله يساريانه مستترين بزي الأعراب ويستأذنان في الخروج فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما وإن منعنا أن تعيشا كريمين فلا تمنعا أن تموتا كريمين، وانتهوا إلى الزبديّة. وأحضر العثماني الديقا عند المنصور فضربه مائة وخمسين سوطاً بعد ملاحاة جرت بينهما أغضبت المنصور. ويقال: إن رباحاً أغرى المنصور به وقال له: إن أهل الشام شيعته ولا يتخلف عنه منهم أحد.

ثم كتب أبو عون عامل خراسان إلى المنصور بأن أهل خراسان منتظرون أمر محمد بن عبد الله واحذر منهم. فأمر المنصور بقتل العثماني وبعث برأسه إلى خراسان، وبعث من يخلف أنه رأس محمد بن عبد الله وأن أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ. ثم قدم المنصور بهم الكوفة وحبسهم بقصر ابن هيرة، يقال: إنه قتل محمد بن إبراهيم بن حسن منهم على إسطواناته وهو حي فمات. ثم بعده عبد الله بن حسن ثم علي بن حسن، ويقال: إن المنصور أمر بهم فقتلوا، ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن حسن وجعفر بن حسن والله أعلم.

ظهور محمد المهدي ومقتله

ولما سار المنصور إلى العراق وحمل معه بني حسن رجع رباح إلى المدينة وألح في طلب محمد وهو غثف يتنقل في اختفائه من مكان إلى مكان وقد أرهقه الطلب حتى تلى في بئر. فتلى فغمس في مائها وحتى سقط ابنه من جبل فتقطع ودل عليه رباح بالمداد، فركب في طلبه فاخفى عنه ولم يره. ولما اشتد عليه الطلب أجمع الخروج وأغراه أصحابه بذلك، وجاء الخبر إلى رباح بأنه الليلة خارج فأحضر العباس بن عبد الله بن الحارث بن العباس ومحمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة وغيرهما، وقال لهم: أمير المؤمنين يطلب محمداً شرق الأرض وغربها وهو بين أظهركم. والله لئن خرج ليقتلنكم أجمعين. وأمر القاضي بإحضار عشيرة بني زهرة فجاؤوا في جمع كثير وأجلسهم بالباب.

ثم أحضر نقرأ من العلويين فيهم جعفر بن محمد بن الحسين وحسين بن علي بن حسين بن علي ورجال من قريش

قتية من الري فيتحشد معه كافة أهل الشام ويعيشه وأن بيعث العطاء في الناس.

فخرج المنصور إلى الكوفة ومعه عبد الله بن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان. ولما قدم الكوفة أرسل إلى يزيد بن يحيى وكان السفاح يشاوره فأشار عليه بأن يشحن الأهواز بالجنود وأشار عليه جعفر بن حنظلة الخراساني بأن بيعث الجند إلى البصرة. فلما ظهر إبراهيم بتلك الناحية تبين وجه إشارتهما. وقال المنصور لجعفر: كيف خفت البصرة؟ قال: لأن أهل المدينة ليسوا أهل حرب حبسهم أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء الطالبين، ولم يبق إلا البصرة.

ثم إن المنصور كتب إلى محمد المهدي كتاب أمان فأجابه عنه بالرد والتعريض بأمور في الأنساب والأحوال، فأجابه المنصور عن كتابه بمثل ذلك وانتصف كل واحد منهما لنفسه بما ينبغي الإعراض عنه مع أنهما صحيحان مرويان نقلهما الطبري في كتاب الكامل فمن أراد الوقوف فليتمسها في أماكنها. ثم إن محمداً المهدي استعمل على مكة محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وعلى اليمن القاسم بن إسحاق وعلى الشام موسى بن عبد الله. فسار محمد بن الحسن إلى مكة والقاسم معه ولقيهما السري بن عبد الله عامل مكة ببطن أذاخر فانهزم. وملك محمد مكة حتى استنفذه المهدي لقتال عيسى بن موسى فنفر هو والقاسم بن عبيد الله.

وبلغهما قتل محمد بنواحي قديد فلحق محمد بإبراهيم، فكان معه بالبصرة. واختفى القاسم بالمدينة حتى أخذت له الأمان امرأة عيسى، وهي بنت عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر. وأما موسى بن عبد الله فسار إلى الشام فلم يقبلوا منه فرجع إلى المدينة. ثم لحق بالبصرة تخفياً وعثر عليه محمد بن سليمان بن علي وعلى ابنه عبد الله وبعث بهما إلى المنصور فضر بهما وحبسهما. ثم بعث المنصور عيسى بن موسى إلى المدينة لقتال محمد فسار في الجنود ومعه محمد بن أبي العباس بن السفاح وكثير بن حصين العبدي وحيد بن قطبة وهو أزمرد وغيرهم، فقال له: إن ظفرت فأغمد سيفك وإبذل الأمان وإن تغيب فخذ أهل المدينة فإنهم يعرفون مذاهبه ومن لقيك من آل أبي طالب فعرفني به ومن لم يلقك فاقبض ماله.

وكان جعفر الصادق فيمن تغيب، فقبض ماله. ويقال: إنه طلبه من المنصور لما قدم بالمدينة بعد ذلك فقال: قبضه مهديكم. ولما وصل عيسى إلى فته كتب إلى نفر من أهل المدينة ليستدعيهم منهم: عبد العزيز بن المطلب المخزومي وعبيد الله بن محمد بن

صفوان الجمحي وعبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب. فخرج إليه عبد الله هو وأخوه عمر وأبو عقيل محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل. واستشار المهدي أصحابه في القيام بالمدينة ثم في الخندق عليها فأمر بذلك اقتداء برسول الله ﷺ وحفر الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ للأحزاب. ونزل عيسى الأعراس، وكان محمد قد منع الناس من الخروج فخبرهم، فخرج كثير منهم بأهلهم إلى الجبال وبقي في شردمة بسيرة.

ثم تدارك رايه وأمر أبا الغلمش بردهم فأعجزوه ونزل عيسى على أربعة أميال من المدينة وبعث عسكراً إلى طريق مكة يعترضون محمداً إن انهزم إلى مكة، وأرسل إلى المهدي بالأمان والدعاء إلى الكتاب والسنة ويحذره عاقبة البغي. فقال: إنما أنا رجل فررت من القتل. ثم نزل عيسى بالحرف لاثنتي عشرة من رمضان سنة خمس وأربعين، فقام يومين، ثم وقف على مسلم ونادى بالأمان لأهل المدينة وأن يخلوا بينه وبين صاحبه، فستموه فانصرف وعاد من الغد، وقد فرق القواد من سائر جهات المدينة وبرز محمد في أصحابه ورأته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وشعارهم أحد أحد.

وطلب أبو الغلمش من أصحابه البراز فبرز إليه أخو أسد قتلته. ثم آخر فقتلوا وقال: أنا ابن الفاروق. وأبلى محمد المهدي يومئذ بلاءً عظيماً وقتل بيده سبعين رجلاً. ثم أمر عيسى بن موسى حميد بن قحطبة فتقدم في مائة من الرجال إلى حائط دون الخندق فهدمه، وأجازوا الخندق وقتلوا من واره، وصابروهم أصاب محمد إلى العصر. ثم أمر عيسى أصحابه فرموا الخندق بالحفائب ونصبوا عليها الأبواب وجازت الخيل واقتلوا وانصرف محمد فاغتسل وتحنط. ثم رجع فقال: أترك أهل المدينة والله لا أفعل أو أقتل وأنت مني في سعة فمشى قليلاً معه، ثم رجع واقترب عنه جل أصحابه، وبقي في ثلثمائة أو نحوها. فقال له بعض أصحابه: نحن اليوم في علة أهل بدر وطلق عيسى بن حصين من أصحابه ينشده في اللحاق بالبصرة أو غيرها، فيقول: والله لا تبتلون بي مرتين.

ثم جمع بين الظهر والعصر ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من تابعهم. وجاء إلى السجن وقتل رباح بن عثمان وأخاه عباساً وابن مسلم بن عقبة وتوفق محمد بن القسري بالأبواب فلم يصلوا إليه. ورجع ابن حصين إلى محمد فقاتل معه وتقدم محمد إلى بطن سلع ومعه بنو شجاع من الخمس. ففرقوا دوابهم وكسروا جفون سيوفهم واستماتوا وهزموا أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثاً. وصعد نفر من أصحاب عيسى الجبل

من بطن نخل وقطع رؤساء.... العبيد.

وكان مع محمد بن عبد الله أيضاً عبد الواحد بن أبي عون مولى الأزدي وعبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن غرمة وعبد العزيز بن محمد الدراوردي وعبد الحميد بن جعفر وعبد الله بن عطاء بن يعقوب مولى بني سباع وبنوه تسعة وعيسى وعثمان ابنا خضير. وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير قتله المنصور من بعد ذلك لما أخذ بالبصرة وعبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع وعلي بن المطلب بن عبد الله بن حنطب وإبراهيم بن جعفر بن مصعب بن الزبير وهشام بن عمير بن الوليد بن..... بن عبد الجبار وعبد الله بن يزيد بن هرمز وغيرهم.

شأن إبراهيم بن عبد الله وظهوره ومقتله

كان إبراهيم بن عبد الله أخو المهدي محمد قد اشتد الطلب عليه وعلى أخيه منذ خمس سنين، وكان إبراهيم يتنقل في النواحي بفارس وبكرمان والجبل والحجاز واليمن والشام، وحضر مرة مائدة المنصور بالموصل، وجاء أخرى إلى بغداد حين خطها المنصور مع النظار على قنطرة الفرات حين شدوا وطلبه ففاض في الناس فلم يوجد ووضع عليه الرصد بكل مكان. ودخل بيت سفيان بن حيان التميمي وكان معروفاً بصحبته فتحيل على خلاصه بأن أتى المنصور وقال: أنا أتيتك بإبراهيم فاحلني وغلامي على البريد وأبعث معي الجند ففعل. وجاء بالجند إلى البيت وأركب معه إبراهيم في زي غلامه وذهب بالجند إلى البصرة ولم يزل يفرقهم على البيوت ويدخلها موهما أنه يفتشه حتى بقي وحده فاختم.

وطلبه أمير البصرة سفيان بن معاوية فأعجزه، وكان قدم قبل ذلك الأهواز فطلبه محمد بن حصين واختفى منه عند الحسن بن حبيب ولقي من ذلك غياً. ثم قدم إبراهيم البصرة سنة خمس وأربعين بعد ظهور أخيه محمد بالمدينة يحيى بن زياد بن حيان النبطي وأنزله بداره في بني ليث. فدعا الناس إلى بيعه أخيه وكان أول من بايعه غيلة بن مرة العبسي وعبد الله بن سفيان وعبد الواحد بن زياد وعمر بن سلمة الهجيمي وعبد الله بن حي بن حصين الرقاشي وثوا دعوته في الناس، واجتمع لهم كثير من الفقهاء وأهل العلم. وأحصى ديوانه أربعة آلاف. واشتهر أمره.

ثم حوله إلى وسط البصرة. ونزل دار أبي مروان مولى بني سليم في مقبرة بني يشكر وليقرب من الناس وولاه سفيان أمير البصرة على أمره، وكتب إليه أخوه محمد يأمره بالظهور وكان

وانحدروا منه إلى المدينة. ورفع بعض نسوة إلى العباس خماراً لها أسود على منارة المسجد. فلما رآه أصحاب محمد وهم يقاتلون هربوا، وفتح بنو غفار طريقاً لأصحاب عيسى فجاؤوا من وراء أصحاب محمد.

ونادى حميد بن قحطبة للبراز فأبى، ونادى ابن حصين بالأمان فلم يصغ إليه وكثرت فيه الجراح. ثم قتل وقاتل محمد على شلوه فهذه الناس عنه هدأ حتى ضرب فسقط لركبته وطعنه ابن قحطبة في صدره، ثم أخذ رأسه وأتى به عيسى فبعثه إلى المنصور مع محمد بن الكرام عبد الله بن علي بن عبد الله بن جعفر، وبالبشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن، وأرسل معه رؤوس بني شجاع، وكان قتل محمد منتصف رمضان. وأرسل عيسى الألوية فنصبت بالمدينة للأمان وصلب محمد وأصحابه ما بين ثنية الوداع والمدينة، واستأذنت زينب أخته في دفنه بالبقيع، وقطع المنصور الميرة في البحر عن المدينة، حتى أذن فيها المهدي بعده، وكان مع المهدي سيف علي ذو الفقار فأعطاه يومئذ رجلاً من التجار في دين كان له عليه.

فلما ولي جعفر بن سليمان المدينة أخذه منه وأعطاه من دينه. ثم أخذه منه المهدي، وكان الرشيد يقتلده وكان فيه ثمان عشرة فقرة، وكان معه من مشاهير بني هاشم أخو موسى وحمزة بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين وحسين وعلي ابنا زيد بن علي، وكان المنصور يقول: عجباً خرجا علي ونحن أخذنا بشار أيهما. وكان معه علي وزيد ابنا الحسن بن زيد بن الحسن وأبوهما الحسن مع المنصور والحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر، والقاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر والمرجى علي بن جعفر بن إسحاق بن علي بن عبد الله بن جعفر وأبوهم علي مع المنصور، ومن غير بني هاشم محمد بن عبد الله بن عمر بن سعيد بن العاص ومحمد بن عجلان وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، وأبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة، أخذ أسيراً فضرب وحبس في سجن المدينة، فلم يزل محبوساً إلى أن نازل السودان بالمدينة على عبد الله بن الربيع الحارثي، وفر عنها إلى بطن نخل وملكوا المدينة ونهبوا طعام المنصور.

فخرج ابن أبي سبرة مقيداً وأتى المسجد وبعث إلى محمد بن عمران ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما، وبعثوا إلى السودان وردوهم عما كانوا فيه، فرجعوا ولم يصل الناس يومئذ جمعة. ووقف الأصمغ بن أبي سفيان بن عاصم بن عبد العزيز لصلاة العشاء ونادى: أصلي بالناس على طاعة أمير المؤمنين، وصلى. ثم أصبح ابن أبي سبرة ورداً من العبيد ما نهبوه، ورجع ابن الربيع

الجنون. ويكون أسهل عليك. فعرض ذلك إبراهيم على أصحابه فقالوا: نحن هارون وأبو جعفر في أيدينا فاسمع ذلك رسول سالم فرجع، ثم تصافوا للقتال. وأشار عليه بعض أصحابه أن يجعلهم كراديس ليكون أثبت والصف إذا انهزم بعضه تداعى سائره، فأبى إبراهيم إلا الصف صف أهل الإسلام، ووافق بقية أصحابه.

ثم اقتتلوا وانهزم حميد بن قحطبة وانهزم معه الناس وعرض لهم عيسى يناشدتهم الله والطاعة، فقال لهم حميد: لا طاعة في الهزيمة. ولم يبق مع عيسى إلا قل قليل فثبت واستمات. وبينما هو كذلك إذ قدم جعفر ومحمد بن سليمان بن علي وجاء من وراء إبراهيم وأصحابه فانهطوا واتبعهم أصحاب عيسى. ورجع المهزومون من أصحابه بأجمعهم اعترضهم أمامهم، فلا يطيقون مخافة ولا وثوبة، فانهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في ستمائة أو أربعمائة من أصحابه وحيد يقاتله. ثم أصابه سهم بنحره فأنزلوه واجتمعوا عليه. وقال حميد: شدوا على تلك الجماعة فأحصرهم عن إبراهيم وقطعوا رأسه وجأؤا به إلى عيسى فسجد وبعثه إلى المنصور، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة الحرام سنة خمس وأربعين.

ولما وضع رأسه بين يدي المنصور بكى، وقال: والله إني كنت لهذا كارهاً ولكني ابتليت بك وابتليت بي. ثم جلس للعامّة فأذن للناس فدخلوا ومنهم من ثلب إبراهيم مرضاة للمنصور حتى دخل جعفر بن حنظلة الهراشي فسلم ثم قال: عظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حنك، فتهلل وجه المنصور وأقبل عليه وكناه بأبي خالد واستدناه.

بناء مدينة بغداد

وابتدأ المنصور سنة ست وأربعين في بناء مدينة بغداد وسبب ذلك ثورة الراوندية عليه بالهاشمية، ولأنه كان يكره أهل الكوفة ولا يأمن على نفسه منهم. فتجافى عن جوارهم وسار إلى مكان بغداد اليوم وجمع من كان هنالك من البطارقة فسألم عن أحوال مواضعهم في الحر والبرد والمطر والوحل والهوام واستشارهم فأشاروا عليه بمكانها. وقالوا: تحيشك الميرة في السفن من الشام والرقّة ومصر والمغرب إلى المصرات. ومن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل في دجلة. ومن أرمينية وما اتصل بها في تامر حتى يتصل بالزاب. وأنت بين أنهار كالحنادق لا تعبر إلا على القناطر والجسور. وإذا قطعتها لم يكن لعدوك مطعم وأنت متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل قريب من

المنصور بظاهر، وأرسل من القواد مدداً السفيان علي إبراهيم إن ظهر، ثم إن إبراهيم خرج أول رمضان من سنة خمس وأربعين وصلى الصبح في الجامع وجاء دار الإمارة بابن سفيان وجبسه وجبس القواد معه، وجاء جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي في ستمائة رجل. وأرسل إبراهيم إليها المعين بن القاسم الحدروري في خمسين رجلاً فهزمهما إلى باب زينب بنت سليمان بن علي وإليها ينسب الزينبيون من بني العباس. فنأدى بالأمان وأخذ من بيت المال ألفي ألف درهم، وفرض لكل رجل من أصحابه خمسين.

ثم أرسل المغيرة على الأهواز في مائة رجل فغلب عليها محمد بن الحصين وهو في أربعة آلاف. وأرسل عمر بن شداد إلى فارس وبها إسماعيل وعبد الصمد ابنا علي، فتحصنا في دار بجمرد وملك عمر نواحيها، فأرسل هارون بن شمس العجلي في سبعة عشر ألفاً إلى واسط فغلب عليها هارون بن حميد الإيادي وملكها. وأرسل المنصور لخرية عامر بن إسماعيل في خمسة آلاف وقيل: في عشرين. فاقتلوا أياماً ثم تهدأوا حتى يروا مآل الأميرين المنصور وإبراهيم. ثم جاء نعي محمد إلى أخيه إبراهيم قبل الفطر فصلى يوم العيد وأخبرهم فآزادوا حقاً على المنصور. ونفر في حره وعسكر من الغد واستخلف على البصرة غيلة وابنه حسناً معه. وأشار عليه أصحابه من أهل البصرة بالمقام وإرسال الجنود وإمدادهم واحداً بعد واحد. وأشار أهل الكوفة باللحوق إليها لأن الناس في انتظارك ولو رأوك ما توانوا عنك، فسار.

وكتب المنصور إلى عيسى بن موسى بإسراع العود وإلى مسلم بن قتيبة بالري وإلى سالم بقصد إبراهيم وضم إليه غيرها من القواد. وكتب إلى المهدي بإنفاد خزمية بن خازم الأهواز وفارس والمدائن وواسط والسواد وإلى جانبه أهل الكوفة في مائة ألف يتريصون به. ثم رمى كل ناحية بحجرها وأقام خمسين يوماً على مصلاه ويجلس ولم يتزع عنه جبته ولا قميصه وقد توسخا ويلبس السواد إذا ظهر للناس، ويتزعه إذا دخل بيته. وأهديت له من المدينة امرأتان: فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله وأمه الكريم بنت عبيد الله من ولد خالد بن أسيد فلم يحفل بهما. وقال: ليست هذه أيام نساء حتى أنظر رأس إبراهيم إلي أو رأسي له.

وقدم عليه عيسى بن موسى فبعثه لحرب إبراهيم في خمسة عشر ألفاً وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف وسار إبراهيم من البصرة ومائة ألف حتى نزلا بإزاء عيسى بن موسى على ستة عشر فرسخاً من الكوفة، وأرسل إليه مسلم بن قتيبة بأن يخذل على نفسه أو يخالف عيسى إلى المنصور فهو في حف من

البر والبحر والجبل.
حتى أخذ من خالد بن الصلت منهم خمسة عشر درهماً بعد أن حبسه عليها.

العهد للمهدي وخلع عيسى بن موسى

كان السفاح قد عهد إلى عيسى بن موسى بن علي وولاه على الكوفة فلم يزل عليها، فلما كبر المهدي أراد المنصور أبوه أن يقدمه في العهد على عيسى، وكان يكرمه في جلوسه فيجلس عن يمينه والمهدي عن يساره فكلمه في التأخر عن المهدي في العهد فقال: يا أمير المؤمنين كيف بالإيمان التي علي وعلى المسلمين وأبى ذلك، فتغير له المنصور وباعده بعض الشيء. وصار يأذن للمهدي قبله ولعمه عيسى بن علي وعبد الصمد. ثم يدخل عيسى فيجلس تحت المهدي واستمر المنصور على التكر له وعزله عن الكوفة لثلاث عشرة سنة من ولايته، وولى مكانه محمد بن سليمان بن علي، ثم راجع عيسى نفسه فباع المنصور للمهدي بالعهد وجعل عيسى من بعده. ويقال: إنه أعطاه أحد عشر ألف ألف درهم ووضع الجند في الطرقات لأذاه وإشهاد خالد بن برمك عليه جماعة من الشيعة بالخلع تركت جميعها لأنها لا تليق بالمنصور وعدالته المقطوع بها فلا يصح من تلك الأخبار شيء.

خروج أستاذسيس

كان رجل ادعى النبوة في جهات خراسان فاجتمع إليه نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان وسار إليه الأخنم عامل مرو الروذ في العساكر فقاتل الأخنم وعامة أصحابه، وتتابع القواد في لقائه فهزمهم. وبعث المنصور وهو بالبرداق خازم بن خزعة إلى المهدي في اثني عشر ألفاً فولاه المهدي حربه فزحف إليه في عشرين ألفاً. وجعل على ميمته الهيثم بن شعبة بن ظهير وعلى ميسرته نهار بن حصن السعدي وفي مقدمته بكار بن مسلم العقيلي ودفع لواءه للزريقان. ثم راوهم في المزاخنة وجاء إلى موضع فخذق عليه وجعل له أربعة أبواب، وأتى أصحاب أستاذسيس بالفؤوس والمواويل ليطمروا الخندق فبدؤوا بالبواب الذي يلي بكار بن مسلم فقاتلهم بكار وأصحابه حتى ردوهم عن بابهم. فأقبلوا على باب خازم وتقدم منهم الحريش من أهل سجستان فأمر خازم الهيثم بن شعبة أن يخرج من باب بكار ويأتي العدو من خلفهم وكانوا متوقعين قدوم أبي عون وعمر بن مسلم بن قتيبة وخرج خازم على الحريش واشتد قتاله معهم. وبدت أعلام الهيثم من ورائهم فكبر أهل العسكر وحملوا عليهم

فشرع المنصور في عمارتها. وكتب إلى الشام والجبل والكوفة وواسط والبصرة في الصنعة والفعلة واختار من ذوي الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة فأحضرهم لذلك. منهم الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة الفقيه. وأمر بخططها بالرماد فشكلت أبوابها وفضلاتها وطاقتها ونواحيها، وجعل على الرماد حب القطن. فأضرم ناراً ثم نظر إليها وهي تشتعل فعرف رسمها وأمر أن تحفر الأسس على ذلك الرسم. ووكّل بها أربعة من القواد يتولى كل واحد منهم ناحية، ووكّل أبا حنيفة بعد الأجر واللبن. وكان أراد على القضاء والمظالم فأبى. فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل له عملاً فكان هذا. وأمر المنصور أن يكون عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعاً ومن أعلاه عشرين وجعل في البناء القصب والخشب ووضع بيده أول لبنة وقال: بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ثم قال: ابنوا على بركة الله، فلما بلغ مقدار قامة جاء الخبر بظهور محمد المهدي، فقطع البناء وسار إلى الكوفة حتى فرغ من حرب محمد وأخيه ورجع من مدينة ابن هبيرة إلى بغداد واستمر في بنائها، واستشار خالد بن برمك في نقض المدائن والإيوان. فقال: لا أرى ذلك لأنه من آثار الإسلام وفتوح العرب وفيه مصلحة علي بن أبي طالب فاتهمه بمحبة العجم وأمر بنقض القصر الأبيض فإذا الذي ينقض أكثر من ثمن الحديد فأقصر عنه. فقال خالد: لا أرى إقصارك عنه لئلا يقال عجزوا عن هدم ما بناه غيرهم، فأعرض عنه ونقل الأبواب إلى بغداد ومن واسط ومن الشام ومن الكوفة، وجعل المدينة مدورة وجعل قصره وسطها ليكون الناس منه على حد سواء.

وجعل المسجد الجامع بجانب القصر وعمل لها سورين والداخل أعلى من الخارج. ووضع الحجاج بن أرطاة قبلة المسجد، وكان وزن اللبنة التي يبني بها مائة رطل وسبعة عشر رطلاً وطولها ذراع في ذراع، وكانت بيوت جماعة من الكتاب والقواد تشرع أبوابها إلى رجة الجامع، وكانت الأسواق داخل المدينة فأخرجهم إلى ناحية الكرخ لما كان الغرباء يطرقونها ويبستون فيها، وجعل الطرق أربعين ذراعاً وكان مقدار الفتحة عليها في المسجد والقصر والأسواق والفصلان والخنادق والأبواب أربعة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم. وكان الأستاذ من البنائين يعمل يومه بقيراط، والروز كاري مجتئين، وحاسب القواد عند الفراغ منها فالزم كلاً بما بقي عنده وأخذ

بناء الرصافة للمهدي

ولما رجع المهدي من خراسان قدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة فأجازهم وكساهم وجملهم وكذلك المنصور. ثم شعب عليهم الجند فأشار عليهم قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس بأن يفرق بينهم ويستكفيه في ذلك، وأمر بعض غلمانه أن يعترضه بدار الخلافة ويسأله بحق الله ورسله والعباس وأمير المؤمنين أبي الحسين من أشرف اليمن أم مضر؟ فقال: مضر كان منها رسول الله ﷺ وفيها كتاب الله وعندها بيت الله ومنها خليفة الله فغضب اليمن إذ لم يذكر لها فضلاً. ثم كبح بعضهم بغلة قثم فامتعت مضر وقطعوا الذي كبها فتشاجر الحيان وتعتبت لليمن ربيعة والخراسانية للدولة وأصبحوا أربع فرق، وقال قثم للمنصور: اضرب كل واحدة بالأخرى وسير لابنك المهدي فلل أثر له بجنده فيتناظرون في أهل مدينتك فقبل رايه وأمر صالحاً صاحب المصلى ببناء الرصافة للمهدي.

مقتل معن بن زائدة

كان المنصور قد ولى على سجستان معن بن زائدة الشيباني وأرسل إلى رتبيل في الضريبة التي عليه فبعث بها عروضاً زائدة الثمن فغضب معن وسار إلى الرخج على مقدمته يزيد ابن أخيه يزيد ففتحها وسبى أهلها وقتلهم ومضى رتبيل إلى عزمه وانصرف معن إلى بست فشتى بها. ونكر قوم من الخوارج سيرته فهجموا عليه وقتلوه به في بيته. وقام يزيد بأمر سجستان وقتل قاتليه واشتدت على أهل البلاد وطأنه فتحيل بعضهم بأن كتب المنصور على لسانه كتاباً يتضمن من كتب المهدي إليه ويسأله أن يعفى من معاملته، فأغضب ذلك المنصور وأقرأ المهدي كتابه وعزله وحبسه ثم شفع فيه شخص إلى مدينة السلام فلم يزل مجفواً حتى بعث إلى يوسف البرم بخراسان كما يذكر بعد.

العمال على النواحي أيام السفاح والمنصور

كان السفاح قد ولى عند بيعته على الكوفة عمه داود بن علي وجعل على حجابته عبد الله بن بسام وعلى شرطته موسى بن كعب وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك وبعث عمه عبد الله لقتال مروان مع أبي عون بن يزيد بن قحطبة تقدمه. وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلى المدائن، وكان أحمد بن قحطبة تقدمه وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن عمار بن ياسر إلى

فكشفرهم ولقيهم أصحاب الهيثم فاستمر فيهم القتال فقتل سبعون ألفاً وأسر أربعة عشر، وتحصن أستاذسيس على حكم أبي عون فحكم بأن يوثق هو وبنيه ويعتق الباقيون، وكتب إلى المهدي بذلك فكتب المهدي إلى المنصور. ويقال: إن أستاذسيس أبو مراجل أم المأمون وابنه غالب خال المأمون الذي قتل الفضل بن سهل.

ولاية هشام بن عمرو

التغلي على السند

كان على السند أيام المنصور عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة ويليقب هزارمرد - يعني: ألف رجل - ولما كان من أمر المهدي ما قدمناه بعث ابنه عبد الله الأشتر إلى البصرة ليدعوه له، فسار من هنالك إلى عمر بن حفص وكان يتشيع فأهدى له خيلاً يتمكن بها من لقائه. ثم دعاه فأجاب وبايع له وأنزله عنده غنطياً ودعا القواد وأهل البلد فأجابوا فمزق الأعلام وهيا لبسة من البياض يخطب فيها، وهو في ذلك إذ فجأه الخبر بقتل المهدي فدخل على ابنه أشتر وعزاه. فقال له: الله في دمي فأشار عليه بالحقاق ملك من ملوك السند عظيم المملكة، كان يعظم جهة النبي ﷺ، وكان معروفاً بالوفاء، فأرسل إليه بعد أن عاهده عليه، واستقر عند ذلك الملك.

وتسلل إليه جماعة من الزيدية نحواً من أربعمائة، وبلغ ذلك المنصور فغاظه وكتب إلى عمر بن حفص بعزله وأقام يفكر فيمن يوليئه السند، وعرض له يوماً هشام بن عمرو التغلي وهو راكب ثم اتبعه إلى بيته وعرض عليه أخته، فقال للربيع: لو كانت لي حاجة في النكاح لقبلي، فجزاك الله خيراً، وقد وليتك السند فتجهز لها وأمره أن يحارب ملك السند ويسلم إليه الأشتر ففعل، وأقام المنصور يستحثه. ثم خرجت خارجة بالسند فبعث هشام أخاه سفيحاً لحسم الداء عنهما، فمر بنواحي ذلك الملك فوجد الأشتر يتزده في شاطئ همدان في عشرة من الفرسان فجاء لياخذهم فقاتلهم حتى قتل وقتل أصحابه جميعاً. وكتب هشام بذلك إلى المنصور. فشكره وأمر بمحاربة ذلك الملك فظفر به وغلب على مملكته، وبعث بسراري عبد الله الأشتر ومعه ولد منه اسمه عبد الله بعث بهم المنصور إلى المدينة وأسلمه إلى أهله. ولما ولى هشام بن عمر على السند وعزل عمر بن حفص عنها. ثم حدث فتق بأفريقية بعثه إلى سده كما سيأتي في أخبارها.

نقله إليها من اليمامة، وولى مكانه من اليمن قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس، وعزل حميد بن قحطبة عن مصر وولى مكانه نوفل بن الفرات، ثم عزله وولى مكانه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة. وولى على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري ثم اتهمه في أمر ابن أبي الحسن فعزله، وولى مكانه رباح بن عثمان المزني. ولما قتله أصحاب محمد المهدي ولى مكانه عبد الله بن الربيع الحارثي.

ولما قتل إبراهيم أخو المهدي سنة خمس وأربعين ولى المنصور على البصرة سالم بن قتيبة الباهلي، وولى على الموصل ابنه جعفرأ مكان مالك بن الهيثم وبعث معه حرب بن عبد الله من أكابر قواده. ثم عزل سالم بن قتيبة عن البصرة سنة ست وأربعين، وولى مكانه محمد بن سليمان، وعزل عبد الله بن الربيع عن المدينة، وولى مكانه جعفر بن سليمان، وعزل السري بن عبد الله عن مكة وولى مكانه عمه عبد الصمد بن علي. وولى سنة سبع وأربعين على الكوفة محمد بن سليمان مكان عيسى بن موسى لما سخطه بسبب العهد. وولى مكان محمد بن سليمان على البصرة محمد بن السفاح فاستغفاه ورجع إلى بغداد فمات، واستخلف بها عقبة بن سالم فآقره. وولى على المدينة جعفر بن سليمان، وولى سنة ثمان وأربعين على الموصل خالد بن برمك لإفساد الأكراد في نواحيها، وعزل سنة تسع وأربعين عمه عبد الصمد عن مكة، وولى مكانه محمد بن إبراهيم.

وفي سنة خمسين عزل جعفر بن سليمان عن المدينة، وولى مكانه الحسن بن زيد بن الحسن. وفي سنة إحدى وخمسين عزل عمر بن حفص عن السند وولى مكانه هشام بن عمرو التغلبي، وولى عمر بن حفص على أفريقية. ثم بعث يزيد بن حاتم من مصر مدداً له، وولى مكانه بمصر محمد بن سعيد. وفي هذه السنة قتل معن بن زائدة بسجستان كما تقدم فقام بأمرة يزيد ابن أخيه يزيد، فآقره المنصور ثم عزله. وفي هذه السنة سار عقبة بن سالم من البصرة واستخلف نافع بن عقبة فغزا البحرين وقتل ابن حكيم العدوي واستقصه المنصور بإطلاق أسراهم فعزله وولى جابر بن مومة الكلابي، ثم عزله وولى مكانه عبد الملك بن ظبيان النميري. ثم عزله وولى الهيثم بن معاوية العمكي.

وفيها ولى على مكة والطائف محمد بن إبراهيم الإمام، ثم عزله وولى مكانه إبراهيم ابن أخيه يحيى بن محمد، وولى على الموصل إسماعيل بن خالد بن عبد الله القسري. ومات أسيد بن عبد الله أمير خراسان فولى مكانه حميد بن قحطبة. وفي سنة ثلاث وخمسين توفي عبيد الله ابن بنت أبي ليلى قاضي الكوفة فاستقضى

الأهواز مدداً لبسام بن إبراهيم. ودفع ولاية خراسان إلى أبي مسلم، فولى أبو مسلم عليها إباداً وخالد بن إبراهيم وبعث عمه عبد الله في مقدمته لحرب مروان أخاه صالحاً ومعه أبو عون بن يزيد، فلما ظفر وانصرف ترك أبا عون يزيد بمصر واستقل عبد الله بولاية الشام.

وولى السفاح أخاه أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فولى على أرمينية يزيد بن أسد وعلى أذربيجان محمد بن صول ونزل الجزيرة. وكان أبو مسلم ولى على فارس محمد بن الأشعث حين قتل أبا مسلمة الخلال، فبعث السفاح عليها عيسى فمنعه محمد بن الأشعث واستخلفه على الولاية فبعث عليها عمه إسماعيل. وولى على الكوفة ابن أخيه موسى، وعلى البصرة سفيان بن معاوية المهلبى وعلى السند منصور بن جمهور ونقل عمه داود إلى ولاية الحجاز واليمن واليمامة. ثم ولى على البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين وعمان. وتوفي داود بن علي سنة ثلاث وثلاثين، فولى مكانه على اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد المدان وعلى مكة والمدينة والطائف واليمامة خاله زياد بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي وهو عم محمد بن يزيد.

وفيها بعث محمد بن الأشعث إلى أفريقية ففتحها. وفي سنة أربع وثلاثين بعث صاحب الشرطة موسى بن كعب لقتال منصور بن جمهور، وولاه مكانه على السند، فاستخلف مكانه على الشرطة المسيب بن زهير. وتوفي عامل اليمن محمد بن يزيد، فولى مكانه علي بن الربيع بن عبيد الله الحارثي. ولما استخلف المنصور وانتقض عبد الله بن علي وأبو مسلم ولى على خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم وعلى مصر صالح بن علي وعلى الشام عبد الله بن علي.

ثم هلك خالد بن إبراهيم سنة أربعين فولى مكانه عبد الجبار بن عبد الرحمن فانتقض لسنة من ولايته، فبعث المنصور ابنه المهدي على خراسان وفي مقدمته خازم بن خزيمه فظفر بعبد الجبار. وتوفي سليمان عامل البصرة سنة أربعين فولى مكانه سفيان بن معاوية، ومات موسى بن كعب بالسند وولى مكانه ابنه عيينة فانتقض، فبعث المنصور مكانه عمر بن حفص بن أبي صفرة. وولى على مصر في هذه السنة حميد بن قحطبة. وولى على الجزيرة والثغور والعواصم أخاه العباس بن محمد وكان بها يزيد بن أسيد وعزل عمه إسماعيل عن الموصل، وولى مكانه مالك بن الهيثم الخزاعي.

وفي سنة ست وأربعين عزل الهيثم بن معاوية وولى على مكة والطائف مكانه السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس

شريك بن عبد الله النخعي وكان على اليمع يزيد بن منصور.

وفي سنة خمس وأربعين بل أربع وخمسين عزل عن الجزيرة أخاه العباس وأغرمه مالا، وولى مكانه موسى بن كعب الخثعمي، وكان سبب عزله شكايه يزيد بن أسيد منه، ولم يزل ساخطاً على العباس حتى غضب على عمه إسماعيل، فشفع فيه أخوته عمومة المنصور. فقال عيسى بن عيسى: يا أمير المؤمنين شفّعوا في أخيههم وأنت ساخط على أخيك العباس منذ كذا ولم يكلمك فيه أحد منهم فرضي عنه.

وفي سنة خمس وخمسين عزل محمد بن سليمان عن الكوفة وولى مكانه عمر بن زهير الضبي أخاه المسيب صاحب الشرطة، وكان من أسباب عزله، أنه حبس عبد الكريم بن أبي العوجاء خال معن بن زائدة على الزندقة، وكتب إليه أن يتبين أمره فقتله قبل وصول الكتاب، فغضب عليه المنصور وقال: لقد هممت أن أقيده به. وعزل عمه عيسى في أمره لأنه الذي كان أشار بولايته. وفيها عزل الحسن بن زيد عن المدينة وولى مكانه عمه عبد الصمد بن علي، وكان على الأهواز وفارس عمارة بن حمزة.

وفي سنة سبع وخمسين ولى على البحرين سعيد بن دعلج صاحب الشرطة بالبصرة، فأنفذ إليها ابنه تميمًا ومات سوار بن عبد الله قاضي البصرة فولى مكانه عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري. وعزل محمد بن الكاتب عن مصر وولى مكانه مولاه مطراً وعزل هشام بن عمرو عن السند وولى مكانه معبد بن الخليل. وفي سنة ثمان وخمسين عزل موسى بن كعب عن الموصل لشيء بلغه عنه فأمر ابنه المهدي أن يسير إلى الرقة مورياً بزيارة القدس ويكفل طريقه على الموصل فقبض عليه، وكان المنصور قد ألزم خالد بن برمك ثلاثة آلاف ألف درهم وأجله في إحضارها ثلاثاً وإلا قتله، فبعث ابنه يحيى إلى عمارة بن حمزة ومبارك التركي وصالح صاحب المصلى وغيرهم من القواد ليستقرض منهم، قال يحيى: فكلهم بعث إلا أن منهم من معني الدخول ومنهم من يجيبني بالرد إلا عمارة بن حمزة فإنه أذن لي ووجهه إلى الحائط، ولم يقبل علي وسلمت فرد خفيفاً، وسأل كيف خالد؟ فعرفته واستقرضته فقال: إن أمكنتني شيء يأتيك فانصرفت عنه.

ثم أنفذ المال فجمعناه في يومين وتعذرت ثلثمائة ألف. وورد على المنصور انتقاض الموصل والجزيرة وانتشار الأكراد بها، وسخط موسى بن كعب فأشار عليه المسيب بن زهير بخالد بن برمك فقال: كيف يصلح بعدما فعلنا؟ فقال: أنا ضامنه فصصح له عما بقي عليه، وعقد له على الموصل، ولابنه يحيى على أفريجان. وسارا مع المهدي فعزل موسى بن كعب وولاهما.

قال يحيى: ويعتني خالد إلى عمارة بقرضه وكان مائة ألف، فقال لي: أكنت لأبيك صديقاً قم عني لا قمت. ولم يزل خالد على الموصل إلى وفاة المنصور. وفي هذه السنة عزل المنصور المسيب بن زهير عن شرطته وحبسه مقيداً لأنه ضرب أبان بن بشير الكاتب بالسياط حتى قتله، وكان مع أخيه عمر بن زهير بالكوفة، وولى المنصور على فارس نصر بن حرب بن عبد الله. ثم على الشرطة ببغداد عمر بن عبد الرحمن أخا عبد الجبار، وعلى قضائها عبد الله بن محمد بن صفوان. ثم شفع المهدي في المسيب وأعادته إلى شرطته.

الصوائف

كان أمر الصوائف قد انقطع منذ سنة ثلاثين بما وقع من الفتن، فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين أقبل قسطنطين ملك الروم إلى ملطية ونواحيها فتنازل حصن بلخ، واستنجدوا أهل ملطية فامدوهم بشماتة مقاتل، فهزمهم الروم وحاصروا ملطية والجزيرة مفتوحة وعاملها موسى بن كعب بخراسان فسلموا البلد على الأمان لقسطنطين. ودخلوا إلى الجزيرة وخرب الروم ملطية، ثم ساروا إلى قاليقلا ففتحوها. وفي هذه السنة سار أبو داود وخالد بن إبراهيم إلى الجتن فدخلها فلم تمتنع عليه، وتحصن منه السيل ملكهم وحاصره مدة، ثم فرض الحصن ولحق بفرغانة.

ثم دخلوا بلاد الترك وانتهاوا إلى بلد الصين، وفيها بعث صالح بن علي بن فلسطين سعيد بن عبد الله لغزو الصائفة وراء الدروب. وفي سنة خمس وثلاثين غزا عبد الرحمن بن حبيب عامل أفريقية جزيرة صقلية فغنم وسبي وظفر بما لم يظفر به أحد قبله. ثم سفل ولاية أفريقية بفتن البربر فأمن أهل صقلية وعمر الحصون والمعاقل وجعلوا الأساطيل تطوف بصقلية للحراسة، وربما صادفوا تجار المسلمين في البحر فأخذوهم. وفي سنة ثمان وثلاثين خرج قسطنطين ملك الروم فأخذ ملطية عنوة وهدم سورها وعفا عن أهلها. فغزا العباس بن محمد الصائفة ومعه عماء صالح وعيسى، وبنى ما خربه الروم من سور ملطية أثناء ثورة الروم، ورد إليها أهلها وأنزل بها الجند ودخل دار الحرب من درب الحارث وتوغل في أرضهم. ودخل جعفر بن حنظلة البهراني من درب ملطية.

وفي سنة تسع وثلاثين كان الفداء بين المسلمين والروم في أسرى قاليقلا وغيرهم. ثم غزا بالصائفة سنة أربعين عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ومعه الحسن بن قحطبة، وسار إليهم قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان وسمع كثرة المسلمين

الناس أعقابهم وتوليهم المناير فإن عرك عزهم وذكرهم لك وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماهم في دولتك وأن لا تخرج عبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم عما كان منهم، وتحلف من مات منهم في أهله وولده وما أظنك تفعل. وإياك أن تبني مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وأظنك ستفعل. وإياك أن تستعين برجل من بني سليم وأظنك ستفعل. وإياك أن تدخل النساء في امرك وأظنك ستفعل.

وقيل: قال له: إني ولدت في ذي الحجة ووليت في ذي الحجة وقد يحس في نفسي أن أموت في ذي الحجة في هذه السنة، وإنما حد لي الحج على ذلك. فاتق الله فيما عهد إليك من أمور المسلمين بعدي يجعل لك فيما كريك وحزنك فرجاً ومخرجاً ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحسب. يا بني احفظ عمداً عليه السلام في أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود فإن فيها صلاحك في الأجل وصلاحك في العاجل، ولا تعتمد فيها فتور، فإن الله تعالى لو علم أن شيئاً أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به في كتابه.

وأعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً مع ما ادخر له من العذاب الأليم فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾ الآية. فالسلطان يا بني حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه المقيم فاحفظه وحصنه وذبح عنه وأوقع بالمحدين واقمع المارقين منه، وقابل الخارجين عنه بالعقاب، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن. واحكم بالعدل ولا تشطط فإن ذلك أقطع للشعب وأحسم للعدو وأنجع في الدواء، واعف عن الفياء فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك. وافتح بصلة الرحم ویر القراية وإياك والأثرة والتبديد لأموال الرعية واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمن السبيل وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم وارفع المكاره عنهم وأعد الأموال واخزنها، وإياك والتبديد فإن النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان. وأعد الأكراع والرجال والجند ما استطعت.

وإياك وتأخير عمل اليوم لغد فتداول الأمور وتضيع، وخذ في أحكام الأمور النازلات في أوقاتها أولاً أولاً، واجتهد وشمّر فيها وأعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل. وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن وأسى الظن بعملك وكتابك، وخذ

فأحجم عنهم ورجع، ولم تكن بعدها صائفة إلى سنة ست وأربعين، لاشتغال المنصور بفتنة بني حسن. وفي سنة ست وأربعين خرج الترك والحدرد من باب الأبواب وانتهاوا إلى أرمينية وقتلوا من أهلها جماعة ورجعوا.

وفي سنة سبع وأربعين أغار أسترخان الخوارزمي في جمع من الترك على أرمينية فغنم وسبى ودخل تغليس فعاث فيها. وكان حرب بن عبد الله مقيماً بالموصل في ألفين من الجند لكان الخوارزمي بالجزيرة، فأمره المنصور بالسير لحرب الترك مع جبريل بن يحيى، فانهزموا وقتل حرب في كثير من المسلمين. وفيها غزا بالصائفة مالك بن عبد الله الخثعمي من أهل فلسطين، ويقال له ملك الصوائف فغنم غنائم كثيرة وقسمها بدرب الحارث. وفي سنة تسع وأربعين غزا بالصائفة العباس بن محمد ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث، فدخلوا أرض الروم وعاثوا ورجعوا. ومات محمد بن الأشعث في طريقه في سنة إحدى وخمسين وقتل أخوه محمد ولم يدر.

ثم غزا بالصائفة سنة أربع وخمسين زفر بن عاصم الهلالي. وفي سنة خمس بعدها طلب ملك الروم الصلح على أن يؤدي الجزية، وغزا بالصائفة يزيد بن أسيد السلمي وغزا بها سنة ست وخمسين وغزا بالصائفة معيوب بن يحيى من درب الحارث ولقي العدو فاقتلوا ثم تحاجزوا.

وفاة المنصور وبيعة المهدي

وفي سنة ثمان وخمسين توفي المنصور منصراً من الحج ببئر ميمون لست خلت من ذي الحجة وكان قد أوصى المهدي عند وداعه فقال: لم أدر شيئاً إلا تقدمت إليك فيه وسأوصيك بمخصال وما أظنك تفعل واحدة منها، وله سقط فيه دفاتر علمه وعليه قتل لا يفتحه غيره، فقال للمهدي: انظر إلى هذا السقف فاحفظ به فإن فيه علم آياتك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن أحزنك أمر فانظر في الدفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث حتى تبلغ سبعة. فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فلأنك واجد ما تريد فيها وما أظنك تفعل.

فانظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها، وقد جمعت فيها من الأموال ما أنكر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البيوت. فاحفظ بها فلأنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك وأن تظهر كرامتهم وتحسن إليهم وتقدمهم وتوطئ

الشيعية فقال له علي بن عيسى بن ماهان: واللّه لتبايعن وإلا ضربنا عنقك. ثم بعث موسى بن المهدي والربيع بالخبر والبردة والقضيب وخاتم الخلافة إلى المهدي وخرجوا من مكة.

ولما وصل الخبر إلى المهدي متصفاً ذي الحجة اجتمع إليه أهل بغداد وبايعوه، وكان أول ما فعله المهدي حين بويح أنه أطلق من كان في حبس المنصور إلا من كان في دم أو مال أو ممن يسعى بالفساد، وكان فيمن أطلق يعقوب بن داود وكان محبوساً مع الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن.

فلما أطلق ساء ظن إبراهيم وبعث إلى من يشق به بحفر سرب يقضي إلى عجبسه وبلغ ذلك يعقوب بن داود فجاء إلى ابن علاثة القاضي وأوصله إلى أبي عبيد الله الوزير ليوصله إلى المهدي فأوصله واستخلاه فلم يحدثه حتى قام الوزير والقاضي وأخبره بتحقيق الحال، فأمره بتحويل الحسن، ثم هرب بعد ذلك ولم يظفر به. وشاور يعقوب بن داود في أمره فقال: أعطه الأمان وأنا أحضره وأحضّره. ثم طلب من المهدي أن يجعل له السيل في رفع أمور الناس وراء بابيه إليه فأذن له وكان يدخل كلما أراد ويرفع إليه النصائح في أمر الثغور وبناء الحصون وتقوية الغزاة وترويض العذاب وفكك الأسرى والمحبوسين، والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعفين فحظي بذلك وتقدمت منزلته وسقطت منزلة أبي عبد الله، ووصله المهدي بمائة ألف وكتب له التوقيع بالإخاء في الله.

ظهور المقتع ومهلكه

كان هذا المقتع من أهل مرو ويسمى حكيماً وهاشمياً، وكان يقول بالتناسخ وإن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح ثم إلى أبي مسلم ثم إلى هاشم وهو المقتع. فظهر بخراسان وأدعى الإلهية واتخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه فسمي المقتع، وأتكر قتل يحيى بن زيد وزعم أنه يأخذ بثأره، وتبعه خلق عظيم من الناس وكانوا يسجدون له. وتحصن بقلعة بسام من رساتيق كش وكان قد ظهر ببخارى والصغد جماعة من الميضة فاجتمعوا معه على الخلاف، وأعانهم كفار الأتراك وأغاروا على المسلمين من ناحيتهم، وحاربهم أبو النعمان والجنيّد وليث بن نصر بن سيار، فقتلوا أخاه محمد بن نصر وحسان ابن أخيه غميم.

وانفذ المهدي إليهم جبريل بن يحيى وأخاه يزيد لقتال الميضة فقاتلوهم أربعة أشهر في بعض حصون بخارى وملكوه عنوة، فقتل منهم سبعمائة ولحق قلمهم بالمقتع وجبريل في اتباعهم.

نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك وسهّل إذنك للناس وانظر في أمر النزاع إليك وكلّ بهم عيناً غير نائمة ونفساً غير ساهية، ولا تتم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة ولا دخل عينيه الغمض إلا وقلبه مستيقظ. هذه وصيتي إليك واللّه خليفتي عليك.

ثم ودعه وسار إلى الكوفة فأحرم منها قارناً، وساق المهدي وأشعره وقلده لأيام خلت من ذي القعدة. ولما سار منازل عرض له وجعه الذي مأت به. ثم اشتد فجعل يقول للربيع - وكان عديله - بادر بي إلى حرم ربي هارباً من دنوسي فلما وصل بئر ميمون مات سحر السادس من ذي الحجة لم يحضر إلا خدمه والربيع مولاه. فكنتموا الأمر ثم غدا أهل بيته على عادتهم، فدعا عيسى بن علي العم ثم عيسى بن موسى بن محمد ولي العهد، ثم الأكابر وذوي الأنساب، ثم عانتهم، فبايعهم الربيع للمهدي ثم بايع القواد وعامة الناس. وسار العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة فبايعا الناس للمهدي بين الركن والمقام وجهزوه إلى قبره وصلى عليه عيسى بن موسى وقيل: إبراهيم بن يحيى، ودفن في مقبرة المعلّاة وذلك لاثنتين وعشرين سنة من خلافته.

وذكر علي بن محمد التوفلي عن أبيه وهو من أهل البصرة وكان يختلف إلى المنصور تلك الأيام قال: جئت من مكة صبيحة موته إلى العسكر، فإذا موسى بن المهدي عند عمود السرادق والقاسم بن منصور في ناحية فعلمت أنه قد مات.

ثم أقبل الحسن بن زيد العلوي والناس حتى ملؤوا السرادق وسمعنا همس البكاء. ثم خرج أبو العنبر الخادم مشقوق الأقيية وعلى رأسه التراب وهو يستغيث، وقام القاسم فشق ثيابه. ثم خرج الربيع وفي يده قرطاس فقرأه على الناس وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم...

من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعه من أهل خراسان وعامة المسلمين: ثم بكى وبكى الناس ثم قال: البكاء إمامكم فانصتوا وحكم الله! ثم قرأ: أما بعد فإنني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله أن لا يفتكم بعدي ولا يلبسكم شيعاً ولا يذيق بعضكم بأس بعض.

ثم أخذ في وصيتهم للمهدي وحثهم على الوفاء بهوده. ثم تناول الحسن بن زيد وقال: قم فبايع. فبايع موسى بن المهدي لأبيه ثم بايع الناس الأول فالأول. ثم دخل بنو هاشم وهو في أكفانه مكشوف الرأس لمكان الإحرام، فحملوه على ثلاثة أميال من مكة فدفعوه. وكان عيسى بن موسى لما بايع الناس أبى من

وفي سنة إحدى وتسعين ولى على السند محمد بن الأشعث واستقضى عافية القاضي مع ابن علاثة بالرصافة وعزل الفضل بن صالح عن الجزيرة، وولى مكانه عبد الصمد بن علي، وولى عيسى بن لقمان على مصر ويزيد بن منصور على سواد الكوفة وحسان السروري على الموصل وبسطام بن عمرو التغلبي على أذربيجان، وعزله عن السند.

وتوفي نصر بن مالك بن صالح صاحب الشرطة فولى مكانه حمزة بن مالك وكان الأبان بن صدقة كاتباً للرشيد، فصرفه وجعله مع الهادي، وجعل هو مع هارون يحيى بن خالد وعزل محمد بن سليمان أبا ضمرة عن مصر وولى مكانه سليمان بن رجاء، وكان على سواد الكوفة يزيد بن منصور وعلى أحداتها إسحاق بن منصور. وفي سنة ست وستين عزل علي بن سليمان عن اليمن وولى مكانه عبد الله بن سليمان، وعزل مسلمة بن رجاء عن مصر وولى مكانه عيسى بن لقمان ثم عزله لأشهر وولى مكانه مولاه واضحاً، ثم عزله وولى مكانه يحيى الحريشي، وكان على طبرستان عمر بن العلاء وسعيد بن دعلج وعلى جرجان مهليل بن صفوان ووضع ديوان الأمانة وولى عليها عمر بن بزيع مولاه.

العهد للهادي وخلع عيسى

كان جماعة من بني هاشم وشيعة المهدي خاضوا في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادي بن المهدي، ونمي ذلك إلى المهدي فسر به واستقدم عيسى بن موسى من منزله بالرجبة من أعمال الكوفة فامتنع من القدوم، فاستعمل المهدي على الكوفة روح بن حاتم وأوصاه بالأضرار فلم يجد سبيلاً إلى ذلك. وكان عيسى لا يدخل الكوفة إلا يوم جمعة أو عيد. وبعث إليه المهدي يتهدده فلم يجيب، ثم بعث عنه العباس يستقدمه فلم يحضر، فبعث قائدين من الشيعة فاستحضراه إليه، وقدم على عسكر المهدي وأقام أياماً يختلف إليه ولا يكلم بشيء. حضر الدار يوماً وقد اجتمع رؤساء الشيعة لخلعه، فثاروا به وأغلقت الباب الذي كان خلفه فكسروه، وأظهر المهدي النكير عليهم فلم يرجعوا إلا أن كاشفه أكابر أهل بيته وأشدهم محمد بن سليمان واعتذر بالأيمان التي عليه. فاحضر المهدي القضاة والفقهاء وفيهم محمد بن علاثة ومسلم بن خالد الزنجي، فافتوه بمخارج الأيمان وخلع نفسه وأعطاه المهدي عشرة آلاف درهم وضياعاً بالزاب وكسكر وبايع لابنه موسى الهادي بالعهد. ثم جلس المهدي من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ يبعثهم وخرج إلى الجامع وعيسى

ثم بعث المهدي أبا عون لمحاربة المقتع فلم يبالغ في قتاله فبعث معاذ بن مسلم في جماعة القواد والعساكر وعلى مقدمته سعيد الحريشي، وأتاه عقبه بن مسلم من ذم فاجتمعوا بالطواويس وأوقعوا بأصحاب المقتع فهزموهم، ولحق فلهم بالمقتع في بسام فتحصنوا بها. وجاء معاذ فنازلهم وفسد ما بينه وبين الحريشي، فكتب الحريشي إلى المهدي بالسعاية في معاذ ويضمن الكفاية إن أفرد بالحرب، فأجابه المهدي إلى ذلك وانفرد بحرب المقتع وأمدّه معاذ بآبانه وجاؤوا بالآلات الحرب حتى طلب أصحاب المقتع الأمان سراً فأمّنهم، وخرج إليه ثلاثون ألفاً وبقي معه زهاء ألفين، وضايقوه بالحصار فأيقن بالهلاك وجمع نساء وأهله. فيقال: سقاهاهم السم، ويقال بل أحرقهم وأحرق نفسه بالنار ودخلوا القلعة وبعث الحريشي برأس المقتع إلى المهدي فوصل إليه مجلب سنة ثلاث وتسعين.

الولاية أيام المهدي

وعزل المهدي سنة تسع وخمسين عمه إسماعيل عن الكوفة وولى عليها إسحاق بن الصفاح الكندي ثم الأشعي، وقتل عيسى بن لقمان بن محمد بن صاحب الجمحي وعزل سعيد بن دعلج عن أحداث البصرة وعيّد الله بن الحسن عن الصلاة، وولى مكانهما عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النميري. ثم جعل الأحداث إلى عمارة بن حمزة فولاهما للسود بن عبد الله الباهلي. وعزل قثم بن العباس عن اليمامة وولى مكانه الفضل بن صالح، وعزل مطراً مولى المنصور عن مصر وولى مكانه أبا ضمرة محمد بن سليمان. وعزل عبد الصمد بن علي عن المدينة وولى مكانه محمد بن عبد الله الكثيري ثم عزله وولى عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان، ثم عزله وولى مكانه زفر بن عاصم الهلالي.

وتوفي معبد بن الخليل عامل السند فولى مكانه روح بن حاتم بإشارة وزيره أبي عبد الله، وتوفي حميد بن قحطبة بخراسان فولى عليها مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد، ثم سخطه سنة ستين فعزله، وولى معاذ بن مسلم. وولى على سجستان حمزة بن يحيى وعلى سمرقند جبريل بن يحيى فبنى سورها وحصنها. وكان على اليمن رجاء بن روح وولى على قضاء الكوفة شريك..... وولى على فارس والأهواز ودجلة قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن ثم عزله وولى مكانه محمد بن سليمان، وولى على السند بسطام بن عمر وولى على اليمامة بشر بن المنذر.

المنصور فلطفت عنده منزله واستورزه وسار معه إلى خراسان وعظمت به بطانة المهدي فآثروا فيه السعاية، وكان الربيع يندرا عنه ويعرض كنبه على المنصور ويحسن القول فيه. فكتب المنصور إلى المهدي بالوصاة به وأن لا يقبل فيه السعاية، ولما مات المنصور وقام الربيع ببيعة المهدي، وقدموا إلى بغداد جاء الربيع إلى باب أبي عبد الله قبل المهدي وقبل أهله فعذله ابنه الفضل على ذلك، فقال: هو صاحب الرجل وينبغي أن نعامله بغير ما كنا نعامله، وإياك أن تذكر ما كنا نصنع في حقه أو تمنن بذلك في نفسك. فلما وقف ببابه أهله طويلاً من المغرب إلى العشاء. ثم أذن له فدخل عليه وهو متكئ فلم يجلس ولا أقبل عليه.

وشرع الربيع يذكر أمر البيعة فكفه وقال: قد بلغنا أمركم: فلما خرج استطال عليه ابنه الفضل بالعدل فيما فعل بأن لم يكن الصواب. فقال له: ليس الصواب إلا ما عملته، ولكن والله لأنفق مالي وجاهي في مكروهه، وجد في السعاية فيه فلم يجد طريقاً إليها لاحتياظه في أمر دينه وأعماله. فآثاه من قبل ابنه محمد ودس إلى المهدي بعرضه لحرمة وأنه زنديق، حتى إذا استحكمت التهمة فيه أحضره المهدي في غيبة من أبيه، ثم قال له: اقرأ! فلم يحسن فقال لأبيه: ألم تقل إن ابنك يقرأ القرآن؟ فقال: فارقتني منذ سنين وقد نسي، فأمر به المهدي فقتل. واستوحش من أبي عبد الله وساءت منزلته إلى أن كان من أمره ما تذكره وعزله عن ديوان الرسائل ورده إلى الربيع، وارتفعت منزلة يعقوب بن داود عند المهدي وعظم شأنه وأنفذ عهده إلى جميع الأفاق بوضع الأمانات ليعقوب، وكان لا ينفذ كتاب المهدي حتى يكتب يعقوب إلى يمينه بإنفاذ ذلك.

ظهور دعوة العباسية بالأندلس وانقطاعها

وفي سنة إحدى وستين أجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهري من أفريقية إلى الأندلس داعية لبني العباس، ونزل بساحل مرسية، وكتب سليمان بن يقطان عامل سرقسطة في طاعة المهدي فلم يجبه. وقصد بلاده فيمن معه من البربر فهزمه سليمان وعاد إلى تدير. وسار إليه عبد الرحمن صاحب الأندلس وأحرق السفن في البحر تضييقاً على ابن حبيب في النجاة فاعتصم بجبل منيع بتواحي بنسبة فبذل عبد الرحمن فيه المال فاغتاله بعض البربر وحمل رأسه إليه فأعطاه ألف دينار وذلك سنة اثنتين وستين. وهم عبد الرحمن صاحب الأندلس أمر ذلك لغزو الشام من الأندلس على العدة الشمالية لأخذ ثاره فعصى عليه سليمان بن يقطان والحسين بن

معه فخطب وأعلم الناس ببيعة الهادي ودعاهم إليها فبادروا وأشهد عيسى بالخلق.

فتح باربد من السند

وبعث المهدي سنة تسع وخمسين عبد الملك بن شهاب المسمعي في جمع كثير من الجند والمقطوعة إلى بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند، وفتحوا باربد فاقتحوها عنوة، ولجأ أهلها إلى البد فأحرقوه عليهم فاحترق بعض وقتل الباقون، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون وأقاموا بعض أيام إلى أن يطيب الريح فوق فيهم موتان فهلك ألف فيهم إبراهيم بن صبيح. ثم ركبوا البحر إلى فارس فلما انتهوا إلى ساحل حران عصفت بهم الريح فانكسرت عامة مراكبهم وغرق الكثير منهم.

حج المهدي

وفي سنة ستين حج المهدي واستخلف على بغداد ابنه الهادي، وخاله يزيد بن منصور، واستصحب ابنه هارون وجماعة من أهل بيته، وكان معه الوزير يعقوب بن داود، فجاء في مكة بالحسن بن إبراهيم الذي ضمنه على الأمان فوصله بالمهدي وأقطع. ولما وصل إلى مكة اهتم بكسوة الكعبة فكساها بأفخر الكسوة بعد أن نزع ما كان عليها. وكانت فيها كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين، وقسم مالا عظيماً هنالك في مصارف الخير فكان منه مما جاء به من العراق ثلاثون ألف درهم، ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار ومن اليمن مائة ألف دينار ففرق ذلك كله، وفرق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسع المسجد، ونقل خمسمائة من الأنصار إلى العراق جعلهم في حرسه وأقطع لهم وأجرى الأرزاق. ولما رجع أمر ببناء القصور بطريق مكة أوسع من قصور المنصور من القادسية إلى زباله، وأمر باتخاذ المصانع في كل منها منهل، وتحديد الأميال وحفر الآبار، وولى على ذلك بقطير بن موسى، وأمر بالزيادة في مسجد البصرة وتصغير المنابر إلى مقدار منبر النبي ﷺ. وأمر في سنة سبع وستين بالزيادة في الحرمين على يد بقطير فدخلت فيه دول كثيرة، ولم يزل البناء فيهما إلى وفاة المهدي.

نكبة الوزير أبي عبد الله

كان أبو عبد الله الأشعري قد اتصل بالمهدي أيام أبيه

سبباً لوصلته بالمهدي حتى استورزه، فجمع الزيدية وولاهم شرقاً وغرباً وكثرت السعاية فيه من البطانة بذلك وبغيره وكان المهدي يقبل سعايتهم حتى يروا أنها قد تمكنت، فإذا غدا عليه تبسم وسأله.

وكان المهدي مشتهراً بالنساء فيخوض معه في ذلك وفيما يناسبه ويتغلب برضاه وسامره في بعض الليالي وجاء ليركب دابته وقد نام الغلام، فلما ركب نفرت الدابة من قعقة رداثة فسقط ورمحته فانكسر فانقطع عن المهدي وتمكن أعداؤه من السعاية حتى سخطه وأمر به فحس وحبس عماله وأصحابه. ويقال بل دفع إليه علوياً ليقتله فأطلقه، ونمي ذلك إلى المهدي فأرسل من أحضره، وقال ليعقوب: أين العلوي؟ فقال: قتلته فأخرجه إليه حتى رآه. ثم حبس في المطبخ وذل في بثر فيه. وبقي أيام المهدي والهادي ثم أخرج وقد عمي وسأل من الرشيد المقام بمكة فأذن له. وقيل في سبب تقيده: إنه كان ينهى المهدي عن شرب أصحابه النبيذ عنده ويكثر عليه في ذلك ويقول: أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ لا والله لا على هذا استورزتي ولا عليه صحبتك.

مسير الهادي إلى جرجان

وفي سنة سبع وستين عصى وتداهر بن وشرو بن ملكا طبرستان من الدليم فبعث المهدي ولي عهده موسى الهادي وجعل على جنده محمد بن حميد وعلى حجابته نقيعاً مولى المنصور وعلى حرسه عيسى بن ماهان وعلى رسائله أبان بن صدقة وتوفي أبان بن صدقة. فبعث المهدي مكانه أبا خالده الأجرد. فسار المهدي وبعث الجنود في مقدمته وأمر عليهم يزيد فحاصرها حتى استقاما. وعزل المهدي يحيى الحريشي عن طبرستان وما كان إليه وولى مكانه عمر بن العلاء وولى على جرجان فراشة مولاه ثم بعث سنة ثمان وستين يحيى الحريشي في أربعين ألفاً إلى طبرستان.

العمال بالنواحي

وفي سنة ثلاث وستين ولى المهدي ابنه هارون على المغرب كله وأذربيجان وأرمينية وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى وعلى الرسائل يحيى بن خالد بن برمك. وعزل زفر بن عاصم عن الجزيرة وولى مكانه عبد الله بن صالح، وعزل معاذ بن مسلم عن خراسان وولى مكانه المسيب بن زهير الضبي، وعزل يحيى الحريشي عن أصبهان وولى مكانه الحكم بن سعيد، وعزل سعيد بن دعلج

يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان الأنصاري في سرقسطة فشنغلوه عما اعتزم عليه من ذلك.

غزو المهدي

تجهز المهدي سنة ثلاث وستين لغزو السروم وجمع الأجناد من خراسان ومن الآفاق وتوفي عمه عيسى بن علي آخر جمادى الأخيرة بعسكره، وسار من الغد واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي واستصحب هارون، ومر في طريقه بالجزيرة والموصل، فعزل عبد الصمد بن علي وحبيه ثم أطلقه سنة ست وستين. ولما جاز بيني مسلمة بن عبد الملك ذكره عمه العباس بما فعله مسلمة مع جدهم محمد بن علي، وكان أعطاه مرة في اجتيازه عليه ألف دينار فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه وأعطاهم عشرين ألف دينار وأجرى عليهم الأرزاق، وعبر الفرات إلى حلب، فأقام بها وبعث ابنه هارون للغزو وأجاز معه الدروب إلى جيحان شمعاً، وبعث معه عيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح والحسن بن قحطبة والربيع بن يونس ويحيى بن خالد بن برمك وكان إليه أمر العسكر والنقبات، وحاصروا حصن سمالو أربعين يوماً ثم فتحوه بالأمان وفتحوا بعده فتوحات كثيرة، وعادوا إلى المهدي وقد أنخن في الزنادقة وقتل من كان في تلك الناحية منهم. ثم قفل إلى بغداد ومر ببيت المقدس وصلى في مسجده ورجع إلى بغداد.

العهد لهارون

وفي سنة ست وستين أخذ المهدي البيعة لابنه هارون بعد أخيه الهادي ولقبه الرشيد.

نكبة الوزير يعقوب بن داود

كان أبو داود بن طهمان كاتباً لنصر بن سيار هو وأخوته وكان شيعياً وعلى رأي الزيدية. ولما خرج يحيى بن زيد بخراسان كان يكاتبه بأخبار نصر فأقصاه نصر، فلما طلب أبو مسلم بدم يحيى جاءه داود فأمنه في نفسه وأخذ ما اكتسبه من المال أيام نصر، وأقام بعد ذلك عاطلاً. ونشأ له ولد أهل أدب وعلم وصحبوا أولاد الحسن. وكان داود يصحب إبراهيم بن عبد الله فورثوا ذلك عنه، ولما قتل إبراهيم طلبهم المنصور وحبس يعقوب وعلياً مع الحسن بن إبراهيم حتى توفي، وأطلقهما المهدي بعده مع من أطلق. وداخله المهدي في أمر الحسن لما فر من الحبس فكان ذلك

وحاصر مرعش وقتل من المسلمين عدداً، وانصرف إلى جيحان فكان عيسى بن علي مرابطاً بمحصن مرعش فعظم ذلك على المهدي وتجهز لغزو الروم. وخرجت الروم سنة اثنتين وستين إلى الحارث فهدموا أسوارها. وغزا بالصفافة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألفاً من المرتزقة فبلغ جهة أدركيه وأكثر التحريق والتخريب ولم يفتح حصناً ولا لقي جمعاً ورجع بالناس سالماً.

وغزا يزيد بن أسيد السلمي من ناحية قاليقلا فغنم ومضى وفتح ثلاثة حصون. ثم غزا المهدي بنفسه سنة ثلاث وستين كما مر. ثم غزا سنة أربع وستين عبد الكبير بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحارث فخرج إليه ميخائيل وطارد الأرمني البطريقان في تسعين ألفاً فخام عن لقاءهم ورجع بالناس، فغضب عليه المهدي وهم بقتله فشفع فيه وجسه. وفي سنة خمس وستين بعث المهدي ابنه هارون بالصفافة وبعث معه الربيع فتوغل في بلاد الروم ولقيه عسكر تقيطا من القواميس فبارزه يزيد بن مزيد فهزمهم، وغلب على عسكرهم ولحقوا بالدمشق صاحب المسالحي، فحمل لهم مائتي ألف دينار واثنين وعشرين ألف درهم، وسار الرشيد بعساكره وكانت نحواً من مائة ألف فبلغ خليج قسطنطينية وعلى الروم يومئذ غسطة امرأة إليون كافلة لابنها منه صغيراً، فجرى الصلح على الفدية وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في الطريق لأن مدخله كان ضيقاً خروفاً فأجابت لذلك، وكان مقدار الفدية سبعين ألف دينار كل سنة ومدة الصلح ثلاث سنين.

وكان ما سباه المسلمون قبل الصلح خمسة آلاف رأس وستمائة رأس وقتل من الروم في وقائع هذه الغزوات أربعة وخمسون ألفاً ومن الأسرى ألفان. ثم نقض الروم هذا الصلح سنة ثمان وستين ولم يستكملوا مدته بقي منها أربعة أشهر. وكان على الجزيرة وقنشرين علي بن سليمان فبعث يزيد بن البدر بن البطال في عسكر فغنموا وسبوا وظفروا ورجعوا.

وفاة المهدي وبيعة الهادي

وفي سنة تسع وستين اعتزم المهدي على خلع ابنه موسى الهادي من العهد والبيعة للرشيد به، وتقديسه على الهادي وكان يجرجان فبعث إليه بذلك فاستقدمه فضرب الرسول وامتنع. فسار إليه المهدي فلما بلغ ماسبذان توفي هنالك. يقال مسموماً من بعض جواريه، ويقال: سُمّت إحداها الأخرى في كمرى فغلط وأكلها ويقال: حاز صيداً فدخل وراءه إلى خربة فدخل الباب ظهره. وكان موته في الحرم وصلى عليه ابنه الرشيد وبويع ابنه موسى

عن طبرستان وولى مكانه عمر بن العلاء، ومهلل بن صفوان عن جرجان وولاه هاشم بن سعيد. وكان على الحجاز واليمامة جعفر بن سليمان، وعلى الكوفة إسحاق بن الصباح، وعلى البحرين والبصرة وفارس والأهواز محمد بن سليمان، فعزله سنة أربع وستين وولى مكانه صالح بن داود.

وكان على السند محمد بن الأشعث. وفي سنة خمس وستين عزل خلف بن عبد الله عن الري وولاه عيسى بن جعفر، وولى على البصرة روح بن حاتم وعلى البحرين وعمان والأهواز وفارس وكرمان النعمان بن المهدي. وعزل محمد بن الفضل عن الموصل وولى مكانه أحمد بن إسماعيل. وفي سنة ست وستين عزل عبيد الله بن حسن العبدي عن قضاء البصرة واستقضى مكانه خالد بن طليق بن عمران بن حصين فاستعفى أهل البصرة منه. وولى المهدي على قضائه أبا يوسف حين سار إلى جرجان. واضطربت في هذه السنة خراسان على المسيب بن زهير فولاه أبا العباس الفضل بن سليمان الطوسي، وأضاف إليه سجستان، فولى هو على سجستان سعيد بن دلج. وولى على المدينة إبراهيم ابن عمه وعزل منصور بن يزيد عن اليمن وولى مكانه عبد الله بن سليمان الربيعي.

وكان على مصر إبراهيم بن صالح وتوفي في هذه السنة عيسى بن موسى بالكوفة وهي سنة سبع وستين. وعزل المهدي يحيى الخريشي عن طبرستان والرويان وما كان إليه وولاه عمر بن العلاء وولى على جرجان فراهة مولاة. وحج بالناس إبراهيم ابن عمه يحيى وهو على المدينة ومات بعد قضاء الحج، فولى مكانه إسحاق بن موسى بن علي وعلى اليمن سليمان بن زيد الحارثي وعلى اليمامة عبد الله بن مصعب الزبيري وعلى البصرة محمد بن سليمان وعلى قضائها عمر بن عثمان التميمي وعلى الموصل أحمد بن إسماعيل الهاشمي. وقتل موسى بن كعب ووقع الفساد في بادية البصرة من الأعراب بين اليمامة والبحرين وقطعوا الطرق وانتهكوا المحارم وتركوا الصلاة.

الصوائف

وفي سنة تسع وخمسين أغزى المهدي عمه العباس بالصفافة وعلى مقدمته الحسن الوصيف فبلغوا أهرة وفتحوا مدينة أهرة ورجعوا سالمين ولم يصب من المسلمين أحد. وفي سنة إحدى وستين غزا بالصفافة يمامة بن الوليد فتزل دابق وجاشت الروم مع ميخائيل في ثمانين ألفاً ونزل عمق مرعش فقتل ومضى وغنم،

العزیز كما مر فأخذ يوماً الحسن بن المهدي بن محمد بن عبد الله بن الحسين الملقب أبا الزقت، ومسلم بن جندب الهذلي الشاعر، وعمر بن سلام مولى العمرين على شراب لهم، فضر بهم وطيف بهم بالمدينة بالخيال في أعناقهم، وجاء الحسين إليه فشفع فيهم وقال: ليس عليهم حد فإن أهل العراق لا يرون به بأساً وليس من الحد أن نطفيهم فحبسهم. ثم جاء ثانية ومعه من عمومته يحيى بن عبد الله بن الحسن صاحب الديلم بعد ذلك فكفله وأطلقه من الحبس.

وما زال آل أبي طالب يكفل بعضهم بعضاً ويعرضون فغاب الحسن عن العرض يومين، فطلب به الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله كافليه وأغلظ لهما، فحلف يحيى أنه يأتي به من ليلته أو يدق عليه الباب يؤذنه به. وكان بين الطالبين ميعاد للخروج في الموسم فأعجلهم ذلك عنه وخرجوا من ليلتهم. وضرب يحيى على العمري في باب داره بالسيف واقتحموا المسجد فصلوا الصبح وباع الناس الحسين المرتضى من آل محمد على كتاب الله وسنة رسوله. وجاء خالد الزبيدي في مائتين من الجند والعمرى وابن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد في ناس كثيرين فقاتلهم وهزمهم من المسجد، واجتمع يحيى وإدريس بن عبد الله بن حسن فقتلاه وانهزم الباقر واقترب الناس.

وأغلق أهل المدينة أبوابهم وانتهب القوم من بيت المال بضعة عشر ألف دينار وقيل: سبعين ألفاً، واجتمعت شيعه بني العباس من الغد وقاتلهم إلى الظهر وفشت الجراحات واقتربوا. ثم قدم مبارك التركي من الغد حاجاً فقاتل مع العباسية إلى منتصف النهار واقتربوا، وواعدهم مبارك الرواح إلى القتال واستغفلهم وركب راحله راجعاً واقتل الناس المغرب ثم افرقوا. ويقال: إن مباركاً دس إلى الحسين بذلك تجافياً عن أذية أهل البيت، وطلب أن يأخذ له عذراً في ذلك بالبيت فبيته الحسين واستطرد له راجعاً. وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة واحداً وعشرين يوماً آخر ذي القعدة، ولما بلغها نادى في الناس بعث من أتى إليه من العبيد فاجتمع إليه جماعة.

وكان قد حج تلك السنة رجال من بني العباس منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وموسى وإسماعيل أبناء عيسى بن موسى. ولما بلغ خبر الحسين إلى الهادي كتب إلى محمد بن سليمان وولاه على حربه وكان معه رجال وسلاح وقد أغذ بهم عن البصرة خوف الطريق، فاجتمعوا بذي طوى، وقدموا مكة فحلوا من العمرة التي كانوا أحرموها بها. وانضم إليهم من حج من شيعتهم ومواليهم

الهادي لما بلغه موت أبيه وهو مقيم بجرجان بخارب أهل طبرستان. وكان الرشيد لما توفي المهدي والعسكر بماسبذان نادى في الناس بالعطاء تسكيناً وقسم فيهم مائتين مائتين، فلما استوفوها تنادوا بالرجوع إلى بغداد وتشايعوا إليها واستيقنوا موت المهدي، فأتوا باب الربيع وأحرقوه وطالبوا بالآرزاق ونقبوا السجون. وقدم الرشيد بغداد في أثرهم فبعثت الخيزران إلى الربيع فامتنع يحيى خوفاً من غيرة الهادي وأمرت الربيع بتسكين الجند فسكنوا وكتب الهادي إلى الربيع يتهده فاستشار يحيى في أمره وكان يشق بوده فأشار عليه بأن يبعث ابنه الفضل يعتذر عنه وتصحبه الهاديا والتحف ففعل ورضي الهادي عنه وأخذت البيعة ببغداد للهادي.

وكتب الرشيد بذلك إلى الآفاق وبعث نصيراً الوصيف إلى الهادي بجرجان فركب البريد إلى بغداد فقدمها في عشرين يوماً. فاستوزر الربيع وهلك لمدة قليلة من وزارته. واشتد الهادي في طلب الزنادقة وقتلهم، وكان منهم علي بن يقطين ويعقوب بن الفضل من وُلد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان قد أقر بالزندقة عند المهدي إلا أنه كان مقسماً أن لا يقتل هاشمياً فحبسه وأوصى الهادي بقتله ويقتل وُلد عمهم داود بن علي فقتلها.

وأما عماله فكان على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعلى مكة والطائف عبد الله بن قثم وعلى اليمن إبراهيم بن مسلم بن قتيبة وعلى اليمامة والبحرين سويد القائد الخراساني وعلى عمان الحسن بن سليم الخواري وعلى الكوفة موسى بن عيسى بن موسى، وعلى البصرة ابن سليمان وعلى جرجان الحجاج مولى الهادي، وعلى قومن زياد بن حسان وعلى طبرستان والرويان صالح بن عميرة مولى.... وعلى الموصل هاشم بن سعيد بن خالد، وعزله الهادي لسوء سيرته وولى مكانه عبد الملك وصالح بن علي.

وأما الصائفة فغزا بها في هذه السنة وهي سنة تسع وستين معيوب بن يحيى وقد كان الروم خرجوا مع بطريق لهم إلى الحارث فهرب الروالي ودخلها الروم وعاثوا فيها فدخل معيوب وراههم من درب الراهب وبلغ مدينة أسته وغنم وسبي وعاد.

ظهور الحسين بن علي بن حسن بن حسن

بن الحسن السبط ومقتله

وهو الحسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط، كان الهادي قد استعمل على المدينة عمر بن عبد

والله لو لم يعقده المهدي لكان ينبغي أن تعتقه أنت له حذراً من ذلك، وإني أرى أن تعتقه لأخيك، فإذا بلغ ابنك أتيك بأخيك فخلع نفسه وبيع له فقبل الهادي قوله وأطلقه. ولم يقنع القواد ذلك لأنهم كانوا حذرين من الرشيد في ذلك وضيق عليه واستأذنه في الصيد فمضى إلى قصر مقاتل ونكره الهادي وأظهر خفاءه وبسط الموالى والقواد فيه الستهم.

وفاة الهادي وبيعة الرشيد

ثم خرج الهادي إلى حديقة الموصل فمرض واشتد مرضه هناك واستقدم العمال شرقاً وغرباً. ولما ثقل تأمر القواد الذين بايعوا جعفرأ في قتل يحيى بن خالد، ثم أمسكوا خوفاً من الهادي. ثم توفي الهادي في شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وقيل: توفي بعد أن عاد من حديقة الموصل. ويقال: إن أمه الخيزران وصت بعض الجوارى عليه فقتلته لأنها كانت أول خلافة تستبد عليه بالأمور فعكف الناس واختلفت المراكب، ووجد الهادي لذلك فكلمته يوماً في حاجة فلم يجيبها فقالت: قد ضمنتها لعبد الله بن مالك. فغضب الهادي وشمته وحلف لا قضيتها فقامت مغضبة، فقال: مكانك وإلا انتفيت من قرابي من رسول الله ﷺ. لئن بلغني أن أحداً من قوادي وخاصتي وقف ببابك لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، ما للمراكب تغدو وتروح عليك! أما لك يغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك: إياك! لا تمتحنني بابك لمسلم ولا ذمي فانصرفت وهي لا تعقل.

ثم قال لأصحابه: أيكم يحب أن يتحدث الرجل بخبر أمه، ويقال: فعلت أم فلان وصنعت؟ فقالوا: لا نحب ذلك. قال: فما بالكم تأتون أمني فتحدثون معها؟ فيقال: إنه لما جد في خلع الرشيد خافت عليه منه، فلما ثقل مرضه وصت بعض الجوارى فجلست على وجهه فمات، وصلى عليه الرشيد. وجاء هرثة بن أعين إلى الرشيد فأخرجه وأجلسه للخلافة، وأحضر يحيى فاستوزره وكتب إلى الأطراف بالبيعة. وقيل: إن يحيى هو الذي جاءه وأخرجه فصلى على الهادي ودفنه..... إلى يحيى وأعطاه خاقه. وكان يحيى يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد.

وعزل لأول خلافة عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة وولى مكانه إسحاق بن سليمان، وتوفي يزيد بن حاتم عامل أفريقية، فولى مكانه روح بن حاتم، ثم توفي فولى مكانه ابنه الفضل، ثم قتل فولى هرثة بن أعين كما يذكر في أخبار أفريقية. وأفراد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها عمالة واحدة

وقوادهم، واقتتلوا يوم التروية، فانهزم الحسين وأصحابه وقتل كثير منهم، وانصرف محمد بن سليمان وأصحابه إلى مكة ولحقهم بذي طوى رجل من خراسان برأس الحسين ينادي من خلفهم بالبشارة، حتىلقى الرأس بين أيديهم مضروباً على قفاه وجبهته، وجمعت رؤوس القتلى فكانت مائة ونيفاً وفيها رأس سليمان أخي المهدي بن عبد الله، واختلط المنهزمون بالحاج.

وجاء الحسن بن المهدي أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد فأخذ موسى بن عيسى وقتله وغضب محمد بن سليمان من ذلك وغضب الهادي لغضبه وقبض أمواله. وغضب على مبارك التركي وجعله سائس الدواب فبقي كذلك حتى مات الهادي. وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله أخو المهدي فأتى مصر وعلي يريدها، وأصبح مولى صالح بن المنصور وكان يتشيع لآل علي فحمله على البريد إلى المغرب ووقع بمدينة وليلة من أعمال طنجة واجتمع البريد على دعوته وقتل الهادي وأصحابه بذلك وصلبه وكان لإدريس وابنه إدريس وأعقابهم حروب نذكرها بعده.

حديث الهادي في خلع الرشيد

كان الهادي يبغض الرشيد بما كان المهدي أبوهما يؤثره، وكان رأى في منامه أنه دفع إليهما قضيين فأورق قضيب الهادي من أعلاه وأورق قضيب الرشيد كله، وتناول ذلك بقصر مدة الهادي وطول مدة الرشيد وحسنا. فلما ولي الهادي أجمع خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر مكانه، وفاوض في ذلك قواده فأجابه يزيد بن مزيد وعلي بن عيسى وعبد الله بن مالك، وحرصوا الشيعة على الرشيد لينقصوه ويقولوا: لا نرضى به، ونهى الهادي أن يشاور بين يديه بالحرب فاجتنبه الناس، وكان يحيى بن خالد يتولى أموره فاتهمه الهادي بمدخلته وبعث إليه وتهده فحضر عنده مستمئناً وقال: يا أمير المؤمنين أنت أمرتني بخدمته من بعد المهدي! فسكن غضبه وقال له في أمر الخلع فقال: يا أمير المؤمنين أنت إن حملت الناس على نكث الإيمان فيه هانت عليهم فيمن توليه، وإن بايعت بعده كان أوثق للبيعة، فصدقه وسكت عنه.

وعاد أولئك الذين جفلوه من القواد والشيعة فأغروه يحيى وأنه الذي منع الرشيد من خلع نفسه، فحبسه الهادي فطلب الحضور للنصيحة، وقال له: يا أمير المؤمنين! أنظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو صبي ويرضون به لصلاتهم وججهم وغزوهم، وتأمّن أن يسموا إليها عند ذلك أكابر بيتك فتخرج من ولد أليك،

صاحب الديلم في تسهيل أمر يحيى على أن يعطيه ألف ألف درهم فأجاب يحيى على الأمان بخط الرشيد وشهادة الفقهاء والقضاة وأجله بني هاشم ومشايخهم عن عبد الصمد منهم فكتب له الرشيد بذلك ويعثه مع الهدايا والتحف. وقدم يحيى مع الفضل فلقبه الرشيد بكل ما أحب وأفاض عليه العطاء وعظمت منزلة الفضل عنده. ثم إن الرشيد حبس يحيى إلى أن هلك في حبسه.

ولاية جعفر بن يحيى مصر

كان موسى بن عيسى قد ولاه الرشيد مصر فبلغه أنه عازم على الخلع فرد أمرها إلى جعفر بن يحيى وأمره بإحضار عمر بن مهران وأن يوليه عليها، وكان أحول مشوره الخلق خامل البزة يردف غلامه خلفه. فلما ذكرت له الولاية قال على شرطية أن يكون أمري بيدي إذا صلحت البلاد انصرفت فأجابته إلى ذلك. وسار إلى مصر وأتى مجلس موسى فجلس في أخريات الناس حتى إذا افترقوا رفع الكتاب إلى موسى فقراه وقال: متى يقدم أبر حفص؟ فقال: أنا أبو حفص! فقال موسى: لعن الله فرعون حيث قال: ليس لي ملك مصر ثم سلم له العمل. فتقدم عمر إلى كاتبه أن لا يقبل من الهدية إلا ما يدخل في الكيس، فبعث الناس بهداياهم وكانوا يملطون بالخراج. فلما حضر النجم الأول والثاني وشكروا الضيق في الثالث أحضر الهدايا وحسبها لأربابها واستوفى خراج مصر ورجع إلى بغداد.

الفتنة بدمشق

وفي هذه السنة هاجت الفتنة بدمشق بين المضربة واليمانية ورأس المضربة أبو الهيثم عامر بن عمارة من ولد خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري، وكان أصل الفتنة بين القيس وبين اليمانية أن اليمانية: قتلوا منهم رجلاً فاجتمعوا لثأره، وكان على دمشق عبد الصمد بن علي فجمع كبار العشائر ليصلحوا بينهم فأمهاتهم اليمانية ويئتوا المضربة فقتلوا ثلاثمائة أو ضعفها، فاستجاشوا بقبائل قضاة وسليم فلم يجدوهم وأنجدتهم قيس، وساروا معهم إلى اللقاء فقتلوا من اليمانية ثمانمائة وطال الحرب بينهم. وعزل عبد الصمد عن دمشق وولى مكانه إبراهيم بن صالح بن علي. ثم أصلحوا بعد سنين ووفد إبراهيم على الرشيد وكان هواه مع اليمانية فوقع في قيس عند الرشيد واعتذر عنهم عبد الواحد بن بشر استخلف إبراهيم على دمشق ابنه إسحاق فحبس جماعة من قيس وضربهم.

وسماها العواصم، وأمره بعمارة طرسوس ونزلها الناس. وحج لأول خلافته وقسم في الحرمين مالا كثيراً.

وأغزى بالصائفة سليمان بن عبد الله البكائي، وكان على مكة والطائف عبد الله بن قثم وعلى الكوفة عيسى بن موسى وعلى البحرين والبصرة واليمامة وعمان والأهواز وفارس محمد بن سليمان بن علي، وعلى خراسان أبو الفضل العباس بن سليمان الطوسي ثم عزله وولى مكانه جعفر بن محمد بن الأشعث. فسار إلى خراسان وبعث ابنه العباس إلى كابل فاقتحمها وافتتح سابها وغنم ما كان فيها. ثم استقدمه الرشيد فعزله وولى مكانه ابنه العباس، وكان على الموصل عبد الملك بن صالح فعزله وولى مكانه إسحاق بن محمد بن فروح، فبعث إليه الرشيد أبا حنيفة حرب بن قيس فأحضره إلى بغداد وقتله، وولى مكانه..... وكان على أرمينية يزيد بن يزيد بن زائدة ابن أخيه معن فعزله وولى مكانه أخاه عبد الله بن المهدي.

وولى سنة إحدى وسبعين على صدقات بني تغلب روح بن صالح الهمداني فوقع بينه وبين ثعلب خلاف وجمع لهم الجموع فبنيته وقتلوه في جماعة من أصحابه. وتوفي سنة ثلاث وسبعين محمد بن سليمان والي البصرة وكان أخوه جعفر كثير السعاية فيه عند الرشيد وأنه يحدث نفسه بالخلافة؟ وأن أمواله كلها فيء من أموال المسلمين فاستصفاها الرشيد وبعث من قبضها، وكان لا يعبر عنها من المال والمتاع والدواب، وأحضروا من العين فيها ستين ألف ألف دينار. ولم يكن إلا أخوه جعفر فاحتج عليه الرشيد بإقراره أنها فيء. وتوفي سنة أربع وسبعين والي الرشيد إسحاق بن سليمان على السند ومكران واستقضى يوسف بن أبي يوسف في حياة أبيه، وفي سنة خمس وسبعين عقد لابنه محمد بن زبيدة ولاية العهد ولقبه الأمين وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين بسعاية خاله عيسى بن جعفر بن المنصور ووساطة الفضل بن يحيى، وفيها عزل الرشيد العباس بن جعفر عن خراسان وولاه خاله الغطريف بن عطاء الكندي.

خبر يحيى بن عبد الله في الديلم

وفي سنة خمس وسبعين خرج يحيى بن عبد الله بن حسن آخر المهدي بالديلم واشتدت شوكته وكثر جمعه وأثابه الناس من الأمصار فندب إليه الرشيد الفضل بن يحيى في خمسين ألفاً وولاه جرجان وطبرستان والري وما إليها ووصل معه الأموال. فسار ونزل بالطالقان وكاتب يحيى وحذره وبسط أمه وكتب إلى

كل جهة وقصد بصرى. ثم بعث إليه موسى فسار إليه في رمضان سنة سبع وسبعين وقيل: إن سبب الفتنة بدمشق أن عامل الرشيد بسجستان قتل أخا الهيدام فخرج هو بالشام وجمع الجموع. ثم بعث الرشيد أخاً له ليأتيه به فتحيل حتى قبض عليه وشده وثاقاً وأتى به إلى الرشيد فمّن عليه وأطلقه. وبعث جعفر بن يحيى سنة ثمانين إلى الشام من أجل هذه الفتنة والعصية فسكن الثائرة وأمن البلاد وعاد.

فتنة الموصل ومصر

وفي سنة سبع وثمانين تغلب العطف بن سفيان الأزدي على خراسان وأهل الموصل على العامل بها محمد بن العباس الهاشمي وقيل: عبد الملك بن صالح فاجتمع عليه أربعة آلاف رجل وجبى الخراج وبقي العامل معه مغلباً إلى أن سار الرشيد إلى الموصل وهدم سورها ولحق العطف بأرمينية ثم بالرقم فاتخذها وطناً. وفي سنة ثمان وسبعين ثارت الحوذية بمصر وهم من قيس وقضاة على عاملها إسحاق بن سليمان وقتلوه. وكتب الرشيد إلى هرثمة بن أعين وكان بفلسطين فسار إليهم وأدعوا بالطاعة، وولي على مصر ثم عزله لشهر وولى عبد الملك بن صالح عليها.

كان على خراسان أيام المهدي والهادي أبو الفضل العباس بن سليمان الطوسي فعزله الرشيد وولى على خراسان جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي فأبوه من النقباء من أهل مصر وقدم ابنه العباس سنة ثلاث وسبعين، ثم قدم ففسز طخارستان وبعث ابنه العباس إلى كابل في الجنود وافتتح سابهار ورجع إلى مرو. ثم سار إلى العراق سنة ثلاث في رمضان وكان الأمين في حجره قبل أن يجعله في حجر الفضل بن يحيى.

ثم ولى الرشيد ابنه العباس بن جعفر ثم عزله عنها فولى خالد الغطريف بن عطاء الكندي سنة خمس وسبعين على خراسان وسجستان وجرجان فقدم خليفة داود بن يزيد وبعث عامل سجستان، وخرج في أيامه حصين الخارجي من موالي قيس بن ثعلبة من أهل أوق وبعث عامل سجستان عثمان بن عمارة الجيوش إليه فهزمهم حسين وقتل منهم وسار إلى بساذغيس وبوشنج وهراة فبعث إليه الغطريف اثني عشر ألفاً من الجنود فهزمهم حصين وقتل منهم خلقاً، ولم يزل في نواحي خراسان إلى أن قتل سنة سبع وسبعين.

وسار الفضل إلى خراسان سنة ثمان وسبعين وغزا ما وراء النهر سنة ثمانين ثم ولى الرشيد على خراسان علي بن عيسى بن

ثم وثبت غسان برجل من ولد قيس بن العبيسي فقتلوه، واستنجد أخوه بالدواويل من حوران فاتخذوه وقتلوا من اليمانية نقرأ. ثم وثبت اليمانية بكليب بن عمر بن الجند بن عبد الرحمن وعنده ضيف له فقتلوه، فجاءت أم الغلام سابة إلى أبي الهيدام، فقال: انظري حتى ترفع دماؤنا إلى الأمير، فإن نظر فيها وإلا فامر المؤمنين ينظر فيها. وبلغ ذلك إسحاق وحضر عنده أبو الهيدام فلم يأذن له. ثم قتل بعض الدواويل رجلاً من اليمانية وقتلت اليمانية رجلاً من سليم ونهبوا جيران محارب، وركب أبو الهيدام معهم إلى إسحاق فوعده بالنظر لهم، وبعث إلى اليمانية يغيرهم به فاجتمعوا وأتوا إلى باب الجابية فخرج إليهم أبو الهيدام وهزمهم واستولى على دمشق وفتح السجون.

ثم اجتمعت اليمانية واستنجدوا كلباً وغيرهم فاستمدوهم، واستجاش أبو الهيدام المضرة فجأزه وهو يقاتل اليمانية عند باب توما فهزمهم أربع مرات. ثم أمره إسحاق بالكف وبعث إلى اليمانية يخبرهم بغرته، وجاء الخبر وركب وقاتلهم فهزمهم، ثم هزمهم أخرى على باب توما. ثم جمعت اليمانية أهل الأردن والجولان من كلب وغيرهم فأرسل من يأتيه بالخبر فأبطؤوا ودخل المدينة فأرسل إسحاق من دلهم على مكمنه وأمرهم بالعبور إلى المدينة، فبعث من أصحابه من يأتيهم من وراءهم فانهزموا. ولما كان مستهل صفر جمع إسحاق الجنود عند قصر الحجاج وجاء أصحاب الهيدام من أراد نهب القرى التي لهم بنواحي دمشق. ثم سألوا الأمان من أبي الهيدام فأمّنهم وسكن الناس.

وفرق أبو الهيدام أصحابه وبقي في نحر يسير من أهل دمشق، فطمع فيه إسحاق وسلط عليه العذافر السكسكي مع الجنود فقاتلهم فانهزم العذافر وبقي الجنود يحاربونه ثلاثاً. ثم إن إسحاق قاتله في الثالثة والجند في اثني عشر ألفاً ومعهم اليمانية، فخرج أبو الهيدام من المدينة وقاتلهم على باب الجابية حتى أزالهم عنه. ثم أغار جمع من أهل حمص على قرية لأبي الهيدام فقاتلهم أصحابه وهزمهم وقتلوا منهم خلقاً وأحرقوا قرى ودياراً لليمانية في الغرطة، ثم توادعوا سبعين يوماً أو نحوها. وقدم السندي في الجنود من قبل الرشيد وأغزته اليمانية بأبي الهيدام فبعث هو إليه بالطاعة فأقبل السندي إلى دمشق وإسحاق بدار الحجاج، وبعث قائده في ثلاثة آلاف وأخرج إليهم أبو الهيدام ألفاً وأحجم القائد عنهم ورجع إلى السندي فصالح أبا الهيدام وأمن أهل دمشق.

وسار أبو الهيدام إلى حوران وأقام السندي بدمشق ثلاثاً. وقدم موسى بن عيسى والياً عليها فبعث الجنود يأتونه بأبي الهيدام فكبسوا داره وقاتلهم هو وابنه وعبداه فانهزموا وجاء أصحابه من

بالناس وإهانتهم أعيانهم، ودخل عليه يوماً الحسين بن مصعب والد طاهر فأغلظ له في القول وأفحش في السب والتهديد وفعل مثل ذلك بهشام بن.... فاما الحسين فلاحق بالرشيد شاكياً ومستجيراً وأما هشام فلم يزل يبيته وادعى أنه بعله الفالج حتى عزل علي، وكان مما نقم عليه أيضاً أنه لما قتل ابنه عيسى في حرب رافع بن الليث أخبر بعض جواريه أنه دفن في بستانه ببلخ ثلاثين ألف دينار. وتحدث الجوالي بذلك فشاع في الناس، ودخلوا البستان ونهبوا المال، وكان يشكو إلى الرشيد بقله المال ويزعم أنه باع حلي نسائه.

فلما سمع الرشيد هذا المال استدعى هرثمة بن أعين وقال له: وليتك خراسان، وكتب له بخطه وقال له: اكتم أمرك وامض كأنك مدد. وبعث معه رجاء الخادم فسار إلى نيسابور وولى أصحابه فيها ثم سار إلى مرو ولقي علي بن عيسى فقبض عليه وعلى أهله وأتباعه وأخذ أمواله فبلغت ثمانين ألف ألف، وبعث إلى الرشيد من المتاع وقر خمسمائة بعير وبعث إليه بعلي بن عيسى على بعير من غير غطاء ولا وطاء، وخرج هرثمة إلى ما وراء النهر وحاصر رافع بن الليث بسمرقند إلى أن استأمن فأمناه، وأقام هرثمة بسمرقند وكان مرو سنة ثلاث وتسعين.

إيداع كتاب العهد

وفي سنة ست وثمانين حج الرشيد وسار من الأنبار ومعه أولاده الثلاثة محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم، وكان قد ولى الأمين العهد وولاه العراق والشام إلى آخر الغرب. وولى المأمون العهد بعده وضم إليه من همدان إلى آخر المشرق وبابح لانه القاسم من بعد المأمون ولقبه المؤتمن وجعل خلعه وإثباته للمأمون. وجعل في حجر عبد الملك صالح وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم.

ومر بالمدينة فأعطاه فيها ثلاثة أعطية: عطاء منه ومن الأمين ومن المأمون فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. ثم سار إلى مكة فأعطى مثلها، وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتاباً أشهد فيه على الأمين بالوفاء للمأمون وآخر على المأمون بالوفاء للأمين وعلق الكتابين في الكعبة وجدد عليها العهد هنالك.

ولما شخص إلى طبرستان سنة تسع وثمانين وأقام بها أشهد من حضره أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع للمأمون وجدد له البيعة عليهم وأرسل إلى بغداد فجدد له البيعة على الأمين.

ماهان وقدم إليه يحيى..... فأقام بها عشرين سنة. وخرج عليه في ولايته حمزة بن أترك وقصد بوشنج وكان على هراة عمرويه بن يزيد الأزدي فنهض إليه في ستة آلاف فارس فهزمهم حمزة وقتل جماعة منهم ومات عمرويه في الزحام، فبعث علي بن عيسى ابنه الحسن في عشرة آلاف ففرض حربه فعزله، وبعث ابنه الآخر عيسى فهزمه حمزة فأمدّه بالعاكس وردّه فهزم حمزة وقتل أصحابه، ونجا إلى قهستان في أربعين. وأثنى عيسى في الخوارج بارق وجوين وفيمس كان يعينهم من أهل القرى حتى قتل ثلاثين ألفاً.

وخلف عبد الله بن العباس النسيقي بزرنج فجبى الأموال وسار بها ومعه الصفّة ولقيه حمزة فهزموه وقتلوا عامة أصحابه. وسار حمزة في القرى فقتل وسبى وكان علي قد استعمل طاهر بن الحسين على بوشنج فخرج إلى حمزة وقصد قرية ففر الخوارج وهم الذين يرون التحكيم ولا يقاتلون والحكمة هم الذين يقاتلون وشعارهم لا حكم إلا الله. فكتب العقد إلى حمزة بالكف وواعدهم، ثم انتفض وعاث في البلاد وكانت بينه وبين أصحاب علي حروب كثيرة.

ثم ولى الرشيد سنة اثنتين وثمانين ابنه عبد الله العهد بعد الأمين ولقبه المأمون وولاه على خراسان وما يتصل بها إلى همدان واستقدم عيسى بن علي من خراسان وردّها إليه من قبل المأمون. وخرج عليه ينسا أبو الخصيب وهب بن عبد الله النسائي وعاث في نواحي خراسان ثم طلب الأمان فأمناه. ثم بلغه أن حمزة الخارجي عاث بنواحي باذغيس فقصده وقتل من أصحابه نحواً من عشرة آلاف وبلغ كل من وراء غزنة. ثم غدر أبو الخصيب ثانية وغلب أبيورد ونساوطوس ونيسابور، وحاصر مرو وانهمز عنها وعاد إلى سرخس، ثم نهض إليه ابن ماهان سنة ست وثمانين فقتله في نسا وسبى أهله.

ثم نعي إلى الرشيد سنة تسع وثمانين أن علي بن عيسى جمع على الخلاف وأنه قد أساء السيرة في خراسان وعنفهم، وكتب إليه كبراء أهلها يشكون بذلك، فسار الرشيد إلى الري فأهدى له الهدايا الكثيرة والأموال وجميع من معه من أهل بيته وولده وكتابه وقواده. وتبين للرشيد من مناصحته خلاف ما انتهى إليه. فردّه إلى خراسان وولى على الري وطبرستان وديساوند وقومس وهمدان وبعث علي ابنه عيسى لحرب خاقان سنة ثمان وثمانين فهزمه وأسر أخوته، وانتفض على علي بن عيسى رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند وطالت حروبه معه وهلك في بعضها ابنه عيسى.

ثم إن الرشيد نقم على علي بن عيسى أموراً منها استخفافه

أخبار البرامكة وكتبهم

احتياط على منازل يحيى وولده وجميع موجودهم وحبسه في منزله.

وكتب من ليلته إلى سائر النواحي بقبض أموالهم ورقيقهم، وبعث من الغد بشلو جعفر وأمر أن يقسم قطعتين وينصبان على الجسر، وأعطى محمد بن خالد من النكة ولم يضيّق على يحيى ولا بنيه الفضل ومحمد وموسى ثم تجردت عنه التهمة بعبد الملك بن صالح بن علي، وكانوا أصدقاء له، فسعى فيه ابنه عبد الرحمن بأنه يطلب الخلافة فحبسه عنه الفضل بن الربيع، ثم أحضره من الغداة وقرعه ووجهه فأنكر وحلف واعترف لحقوق الرشيد وسلفه عليه، فأحضر كاتبه شاهداً عليه فكذب عبد الملك، فأحضر ابنه عبد الرحمن فقال: هو مأمون معذور أو عاق فاجر، فنهض الرشيد من مجلسه وهو يقول: سأصبر حتى أعلم ما يرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك، فقال عبد الملك: رضيت بالله حكماً وبأمر المؤمنين حاكماً فإنه لا يؤثر هواه على رضا ربه.

ثم أحضره الرشيد يوماً آخر فأرعد له وأبرق وجعل عبد الملك يعدد وسائله ومقاماته في طاعته ومناصحته فقال له الرشيد: لولا إيقائي على بني هاشم لقتلتك ورده إلى عبيسه. وكلمه عبد الله بن مالك فيه، وشهد له بنصحه فقال: أطلقه إذاً، قال: أما في هذا القرب فلا! ولكن سهل حبسه ففعل وأجرى عليه مؤنه حتى مات الرشيد وأطلقه الأمين. وعظم حقه على البرامكة بسبب ذلك، فضيق عليهم وبعث إلى يحيى يلومه فيما ستر عنه من أمر عبد الملك. فقال: يا أمير المؤمنين كيف يطلعي عبد الملك على ذلك وأنا كنت صاحب الدولة، وهل إذا فعلت ذلك يجازيني بأكثر من فعلك؟ أعيدك بالله أن تظن هذا الظن ألا أنه كان رجلاً متجسلاً يسرني أن يكون في بيتك مثله، فوليته ولا خصصته. فعاد إليه الرسول يقول: إن لم تقر قتل الفضل ابنك. فقال: أنت مسلط علينا فافعل ما أردت.

وجذب الرسول الفضل وأخرجه فودع أباه وسأله في الرضا عنه فقال: رضي الله عنك، وفرق بينهما ثلاثة أيام ولم يجد عندهما شيئاً فجمعهما واحتفظ إبراهيم بن عثمان بن نهيك لقتل جعفر فكان يكيه ويكيه قومه حزناً عليهم. ثم انتهى به إلى طلب الثار بهم فكان يشرب النبيذ مع جواريه ويأخذ سيفه وينادي واجعفره واسأده والله لأثارتك بك ولأقتلن قاتلك، فجاء ابنه وحفص كان مولاه إلى الرشيد فاطلعه على أمره، فأحضر إبراهيم وأظهر له الندم على قتله جعفر والأسف عليه، فبكى إبراهيم وقال: والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله فاتهره الرشيد وأقامه. ثم دخل عليه ابنه بعد ليال قلائل فقتله يقال: بأمر الرشيد. وكان

قد تقدم لنا أن خالد بن برمك كان من كبار الشيعة وكان له قدم راسخ في الدولة وكان يلي الولايات العظام وولاه المنصور على الموصل، وعلى أذربيجان، وولى ابنه يحيى على أرمينية ووكله المهدي بكفالة الرشيد فأحسن تربيته ودفع عنه أخاه الهادي أرادته على الخلع وتولية العهد ابنه وحبسه الهادي لذلك. فلما ولي الرشيد استوزر يحيى وفوض إليه أمور ملكه وكان أولاً يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد، ثم استبد بالدولة. ولما ماتت وكان بينهم مشهوراً بالرجال من العمومة والقربة، وكان بنوه جعفر والفضل ومحمد قد شابها آباءهم في عمل الدولة واستولوا على حظ من تقرب السلطان واستخلاصه.

وكان الفضل أخاه من الرضاع أرضعت أمه الرشيد وأرضعته الخيزران وكان يخاطب يحيى يا أبت واستوزر الفضل وجعفر وأولى جعفرأ على مصر وعلى خراسان وبعث إلى الشام عندما وقعت الفتنة بين المضربة واليمانية، فسكن الأمور ورجع وولى الفضل أيضاً على مصر وعلى خراسان وبعث لاستئصال يحيى بن عبد الله العلوي من الديلم. ودفع المأمون لما ولاه العهد إلى كفالة جعفر بن يحيى فحسنت آثارهم في ذلك كله. ثم عظم سلطانهم واستيلاؤهم على الدولة وكثرت السعاية فيهم. وعظم حقد الرشيد على جعفر منهم، يقال: بسبب أنه دفع إليه يحيى بن عبد الله لما استنزه أخوه الفضل من الديلم، وجعل حبسه عنده فاطلعه استبداداً على السلطان ودالة وأنهى الفضل بن الربيع ذلك إلى الرشيد فسأله فصدقه الخبر فأظهر له التصويب وحققها عليه، وكثرت السعاية فيهم فتكر له الرشيد.

ودخل عليه يوماً يحيى بن خالد بغير إذن فنكر ذلك منه، وخاطب به طيبة جبريل بن مجتيشوع منصراً به من مواجهته وكان حاضراً فقال يحيى: هو عادي يا أمير المؤمنين، وإذ قد نكرت مني فسأكون في الطبقة التي تجمعني فيها! فاستحى هارون وقال: ما أردت ما يكره. وكان الغلمان يقومون بباب الرشيد ليحيى إذا دخل، فتقدم لهم مسرور الخادم بالنهي عن ذلك فصاروا يعرضون عنه إذا أقبل، وأقاموا على ذلك زماناً. فلما حج الرشيد سنة سبع وثمانين ورجع من حجه ونزل الأنبار أرسل مسرور الخادم في جماعة من الجنند ليلاً فأحضر جعفرأ بباب الفسطاط وأعلم الرشيد فقال: إئتني برأسه ففطق جعفر يتنزل ويسأله المراجعة في أمره حتى قذفه الرشيد بعضاً كانت في يده وتهدهد فخرج وأثاه برأسه وحبس الفضل من ليلته وبعث من

باليهوض إليهم وأنزل خزيمه بن خازم بنصيين رداً لهم. وقيل: إن سبب خروجهم أن سعيد بن مسلم قتل المهجيم السلمي فدخل ابنه إلى الحزر مستجيشاً بهم على سعيد، ودخلوا أرمينية وهرب سعيد والحزر ورجعوا.

وفي سنة سبع وثمانين غزا بالصائفة القاسم بن الرشيد وجعله قرباناً لله وولاه العواصم، فأناخ على قرة وضيق عليها وبعث عليها ابن جعفر بن الأشعث فحاصر حصن سنان حتى جهد أهله وفادى الروم بثلاثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم وتم بينهم الصلح ورحل عنهم، وكان ملك الروم يومئذ ابن زيني وقد تقدم ذكره فخلعه الروم وملكوا نيقفور وكان على ديوان خراجهم ومات زيني بعد خمسة أشهر. ولما ملك نيقفور كتب إلى الرشيد بما استفزه فسار إلى بلاد الروم غازياً، ونزل هرقل وأئخس في بلادهم حتى سأل نيقفور الصلح، ثم نقض العهد وكان البرد شديد الكلب وظن نيقفور أن ذلك يمنعه من الرجوع، فلم يمنعه ورجع حتى أئخس في بلاده ثم خرج من أرضهم.

وغزا بالصائفة سنة ثمان وثمانين إبراهيم بن جبريل ودخل من درب الصفصاف فخرج إليه نيقفور ملك الروم وانهزم وقتل من عسكره نحواً من أربعين ألفاً. وفي هذه السنة رابط القاسم بن الرشيد أبق: وفي سنة تسع وثمانين كتب الرشيد وهو بالري كتب الأمان لشروين أبي قارن، وندا هرمز جد مازيار مرزيان خستان صاحب الديلم. وبعث بالكتب مع حسين الخادم إلى طبرستان فقدم خستان ووندا هرمز فآكروهما الرشيد وأحسن إليهما وضمن وندا هرمز وشروين صاحبي طبرستان وذكر كيف توجه الهادي لهما وحاصرهما.

وفي سنة ست وثمانين كان فداء بين المسلمين حتى لم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي. وفي سنة تسعين سار الرشيد إلى بلاد الروم بسبب ما قدمناه من غدر نيقفور في مائة وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة، سوى الأتباع والمتطوعة ومن ليس له ذكر في الديوان، واستخلف المأمون بالركة وفوض إليه الأمور، وكتب إلى الأفاق بذلك، فنزل على هرقل فحاصرها ثلاثين يوماً وافتتحها وسبى أهلها وغنم ما فيها. وبعث داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفاً غازياً في أرضهم ففتح الله عليه وخرب ونهب ما شاء. وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبه وديسة. وافتتح يزيد بن خالد حصن الصفصاف وقرنية، وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذي الكلاع.

واستعمل الرشيد حميد بن معيوب على الأساطيل ممن

يحبى بن خالد محبوباً بالكوفة ولم يزل بها كذلك إلى أن مات سنة تسعين ومائة ومات بعده ابنه الفضل سنة ثلاث وتسعين. وكانت البرامكة من محاسن العالم ودولتهم من أعظم الدول وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها.

الصوائف وفتوحاتها

كان الرشيد على ما نقله الطبري وغيره يغزو عاماً ويحج عاماً، ويصلي كل يوم مائة ركعة ويتصدق بالف درهم، وإذا حج حل معه مائة من الفقهاء ينفق عليهم، وإذا لم يحج أنفق على ثلاثمائة حاج نفقة شائعة. وكان يتخذ بأثار المنصور إلا في بذل المال فلم ير خليفة قبله أبذل منه للمال. وكان إذا لم يغز غزا بالصائفة كبار أهل بيته وقواده، فغزا بالصائفة سنة سبعين سليمان بن عبد الله البكائي، وقيل: غزا بنفسه. وغزا بالصائفة سنة اثنتين وسبعين إسحاق بن سليمان بن علي فائخ في بلاد الروم وغنم وسبى. وغزا في سنة أربع وسبعين بالصائفة عبد الملك بن صالح وقيل: أبوه عبد الملك فبلغ في نكاية الروم ما شاء، وأصابهم برد شديد سقطت منه أيدي الجند. ثم غزا بالصائفة سنة سبع وسبعين عبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي. وفي سنة ثمان وسبعين زفر بن عاصم.

وغزا سنة إحدى وثمانين بنفسه فافتتح حصن الصفصاف وأغزى عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة وافتتح مطبورة. وكان الفداء بين المسلمين والروم وهو أول فداء في دولة بني العباس، وتولا القاسم بن الرشيد وأخرج له من طرسوس الخادم الوالي عليها، وهو أبو سليمان فرج فنزل المدامس على اثني عشر فرسخاً، وحضر العلماء والأعيان وخلق من أهل الثغور وثلاثون ألفاً من الجند المرتزقة فحضرها هنالك وجاء الروم بالأسرى ففودي بهم من كان لهم من الأسرى، وكان أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمئة. وغزا بالصائفة سنة اثنتين وثمانين عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح دقشوس مدينة أصحاب الكهف. وبلغهم أن الروم سلوا ملكهم قسطنطين بن إليون وملكوا أمه ربي وتلقب عَطَشَة، فأنخنوا في البلاد ورجعوا.

وفي سنة ثلاث وثمانين حملت ابنة خاقان ملك الحزر إلى الفضل بن يحيى فماتت ببردة، ورجع من كان معها فأخبروا أباه أنها قتلت غيلة، فتجهز إلى بلاد الإسلام، وخرج من باب الأبواب وسبى أكثر من مائة ألف فارس وفعلوا ما لم يسمع بمثله. فولى الرشيد يزيد بن مزيد أمر أرمينية مضافة إلى أذربيجان وأمره

وفي سنة ست وسبعين ولى الرشيد على الموصل الحكم بن سليمان، وقد كان خرج الفضل الخارجي بنواحي نصيبين وغنم وسار إلى داريا وأمد وأرزق وخلط فقتل لذلك ورجع إلى نصيبين، فأتى الموصل وخرج إليه الفضل في عساكرها فهزهم على الزاب. ثم عادوا لقتاله فقتل الفضل وأصحابه. وفي سنة ست وسبعين مات روح بن حاتم بأفريقية واستخلف حبيب بن نصر المهلي فسار الفضل إلى الرشيد فولاه على أفريقية، وعاد إليها فاضطرب عليه الخراسانية من جند أفريقية ولم يرضوه، فولى مكانه هرثمة بن أعين وبعث في العساكر فسكن الاضطراب، ورأى ما بأفريقية من الاختلاف فاستعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه، وقدم إلى العراق بعد سنتين ونصف من منفيه.

وفي هذه ولى الفضل بن يحيى على مصر مكان أخيه جعفر مضافاً إلى ما بيده من الري وسجستان وغيرها. ثم عزله عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان فثارت به الجوقية من مصر وهم جموع من قيس وقضاة قامده بهرثمة بن أعين فاذعنوا وولاه عليهم شهراً، ثم عزله وولى عبد الملك بن صالح مكانه، وفيها فؤض أمر دولته إلى يحيى بن خالد. وفي سنة ثمانين بعث جعفر ابن يحيى إلى الشام في القواد والعساكر ومعه السلاح والأموال والعصية التي كانت بها فسكنت الفتنة ورجع، فولاه خراسان وسجستان فاستعمل عليها عيسى بن جعفر، وولى جعفر بن يحيى المريس.

وقدم هرثمة بن أعين من أفريقية فاستخلفه جعفر على الحرد وعزل الفضل بن يحيى عن طبرستان والرويان وولاهما عبد الله بن حازم، وولى على الجزيرة سعيد بن مسلم وولى على الموصل يحيى بن سعيد الحارثي فأساء السيرة وطالبهم بخراج سنين ماضية، فالتجلا أكثر أهل البلد، وعزله الرشيد وولى عليها يحيى بن خالد. وفي سنة إحدى وثمانين ولى على أفريقية محمد بن مقاتل بن حكيم العمكي وكان أبوه من قواد الشيعة ومحمد رضيع الرشيد وتلأده فلما استعفى هرثمة ولأه مكانه، واضطربت عليه أفريقية وكان إبراهيم بن الأغلب بها والياً على الزاب، وكان جند أفريقية يرجعون إليه فأعانه وحمل الناس على طاعته بعد أن أخرجه ففكروا ولاية محمد بن مقاتل وحلوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب ولاية أفريقية على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر معونة إلى والي أفريقية ويحمل هو كل سنة أربعين ألف دينار فاستشار الرشيد بطاقته فأشار هرثمة بإبراهيم بن الأغلب، وولاه الرشيد في محرم سنة أربعة وثمانين، فقبض الأمور وقبض على المؤمنين وبعث بهم إلى الرشيد فسكنت

بسواحل الشام ومصر إلى قبرس، فهزم وحرق وسبى من أهلها نحواً من سبعة عشر ألفاً وجاء بهم إلى الواقعة فبايعوا بها. وبلغ فداء أسقف قبرس ألفي دينار. ثم سار الرشيد إلى حلوانة فنزل بها وحاصرها. ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر. وبعث يقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير، وعن ابنه دنانير وعن بطارقه كذلك، وبعث يقفور في جارية من بني هرقله وكان خطبها ابنه فبعث بها إليه. ونقض في هذه السنة قبرس فغزاهم معيوب بن يحيى فأتخن فيهم وسباهم. ولما رجع الرشيد من غزاته خرجت الروم إلى عين زبية والكنيسة السوداء وأغاروا ورجعوا فاستنقذ أهل المصيصة ما حملوه من الغنائم.

وفيها غزا يزيد بن مخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف فأنخذت الروم عليه المضايق فانهمز، وقتل في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس. واستعمل الرشيد على الصائفة هرثمة بن أعين قبل أن يوليه خراسان وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان، وأخرجه إلى الصائفة وسار بالعساكر الإسلامية في أثره ورتب بدرب الحارث عبد الله بن مالك ومعرش سعيد بن مسلم بن قتيبة، وأغارت الروم عليه فأصابوا من المسلمين وانصرفوا ولم يتحرك من مكانه. وبعث الرشيد محمد بن زيد بن مزيد إلى طرسوس وأقام هو بدرب الحارث وأمر قواده بهدم الكنائس في جميع الثغور. وأخذ أهل الذمة بمخالفة زي المسلمين في ملبوسهم. وأمر هرثمة ببناء هرطوس وتولى ذلك، فخرج الخادم بأمر الرشيد وبعث إليها جنداً من خراسان ثلاثة أيام، وأشخص إليهم ألفاً من أهل المصيصة وألفاً من أنطاكية فتم بناؤها سنة اثنتين وتسعين. وفي هذه السنة تحركت الخرمية بناحية أذربيجان فبعث إليهم عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فقتل وسبى وأسر، ووافاه بقرماسين فأمره بقتل الأسرى وبيع السبي. وفيها استعمل الرشيد على الثغور ثابت بن مالك الخزاعي فافتتح مطمورة وكان الفداء على يدية بالبرذون. ثم كان الفداء الثاني وكان عدة أسرى المسلمين فيه ألفين وخمسمائة.

الولاية على النواحي

كان على أفريقية يزيد بن حاتم كما قدمناه ومات سنة إحدى وسبعين بعد أن استخلف ابنه داود فبعث الرشيد على أفريقية أخاه روح بن حاتم فاستقدمه من فلسطين وبعثه إلى أفريقية. وعزل أبا هريرة محمد بن فروج عن الجزيرة وقتله وولى مكانه.....

البلاد.

خراسان وكان مع رافع بن الليث جماعة من القواد فقارقه إلى هرثمة منهم عجيف بن عنبسة وغيره. وحاصر هرثمة رافع بن الليث في سمرقند وضايقه، واستقدم طاهر بن الحسين من خراسان فحضر عنده وعاث حمزة الخارجي في نواحي خراسان لخلائها من الجند، وحمل إليه عمال هراة وسجستان الأموال. ثم خرج عبد الرحمن إلى نيسابور سنة أربع وتسعين وجمع نحواً من عشرين ألفاً، وسار إلى حمزة فهزمه وقتل من أصحابه خلقاً وأتبعه إلى هراة حتى كتب المأمون إليه ورده عن ذلك.

وكانت سنة ثلاث وتسعين بين هرثمة وبين أصحاب رافع وقعة كان الظفر فيها لهرثمة وأسر بشراً أخا رافع وبعث به إلى الرشيد وافتتح بخاري. وكان الرشيد قد سار من الرقة بعد مرجعه من الصائفة التي بنى فيها طرسوس على اعتزام خراسان لشأن رافع، وكان قد أصابه المرض، فاستخلف على الرقة ابنه القاسم وضم إليه خزمية بن خازم، وجاء إلى بغداد. ثم سار منها إلى خراسان في شعبان سنة اثنتين وتسعين واستخلف عليها ابنه الأمين، وأمر المأمون بالمقام معه فأشار عليه الفضل بن سهل بأن يطلب المسير مع الرشيد، وحذره البقاء من الأمين فأسعه الرشيد بذلك وسار معه.

وفاة الرشيد وبيعة الأمين

ولما سار الرشيد عن بغداد إلى خراسان بلغ جرجان في سفر سنة ثلاث وتسعين وقد اشتدت عليه، فبعث ابنه المأمون إلى مرو ومعه جماعة من القواد: عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وأسد بن خزمية والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث والسدي والحريشي ونعيم بن خازم، ثم سار الرشيد إلى موسى واشتد به الوجع وضعف عن الحركة ونقل فأرجف الناس بموته، وبلغه ذلك فأراد الركوب ليراه الناس فلم يطق النهوض فقال: ردوني. ووصل إليه وهو بطوس بشير أخو رافع أسيراً بعث به هرثمة بن أعين فأحضره وقال: لولم يبق من أجلي إلا حركة شفني بكلمة لقلت أقتلوه. ثم أمر قصاباً بفصل أعضائه ثم أغمى عليه وافترق الناس.

ولما يس من نفسه أمر بقبوره فحفر في الدار التي كان فيها وأنزل فيه قوماً قرؤوا فيه القرآن حتى ختموه وهو في حفرة على شفيره ينظر إليه وينادي: واسأاته من رسول الله ﷺ. ثم مات وصلى عليه ابنه صالح وحضر وفاته الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح ومسروق وحسين ورشيد. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين

وابتلى مدينة بقرب القيروان وسماها العباسية وانتقل إليها بأهله وخاصته وحشمه، وصار مَلِكَ أفرقية في عبة كما يذكر في أخبارها إلى أن غلبهم عليها الشيعة العبيديون. وكان يزيد بن مزيد على أذربيجان فولاه الرشيد سنة ثمان وثمانين على أرمينية مضافة إليها، وولى خزمية بن خازم على نصيبين. وولى الرشيد سنة أربع وثمانين على اليمن ومكة حماد البربري وعلى السند داود بن يزيد بن حاتم وعلى الجبل يحيى الحرشي، وعلى طبرستان مهروية الزاي، وقتله أهل طبرستان سنة خمس وثمانين، فولى مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي.

وفيها توفي يزيد بن زائدة الشيطاني ببردعة، وكان على أذربيجان وأرمينية فولى مكانه ابنه أسد بن يزيد بن حاتم. وفي سنة تسع وثمانين سار الرشيد إلى السري وولى على طبرستان والسري ودناوند وقوس وهمدان عبد الملك بن مالك. وفي سنة تسعين ولى على الموصل خالد بن يزيد بن حاتم وقد تقدم لنا ولاية هرثمة على سليمان ونكبة علي بن عيسى. في سنة إحدى وتسعين ظفر حماد البربري بهيصم اليماني وجاء به إلى الرشيد فقتله، وولى في هذه السنة على الموصل محمد بن الفضل بن سليمان وكان على مكة الفضل بن العباس أخي المنصور والسفاح.

خلع رافع بن الليث بما وراء النهر

كان رافع بن نصر بن سيار من عظماء الجند فيما وراء النهر وكان يحيى بن الأشعث قد تزوج ببعض النساء المشهورات الجمال وتسرى عليها وأكثر ضرارها وتشوقت إلى التخلص منه، فدرس إليها رافع بن الليث بأن تحاول من يشهد عليها بالكفر لتخلص منه وتعمل للأزواج ثم ترجع وترب، فكان وتزوجها وشكا يحيى بن الأشعث إلى الرشيد وأطلعه على جل الأمر، فكتب إلى علي بن عيسى أن يفرق بينهما ويقيم الحدى على رافع ويطوف به في سمرقند مقيداً على حمار ليكون عظة لغيره، ففعل ذلك ولم يجده رافع وحبس بسمرقند فهرب من الحبس ولحق بعلي بن عيسى في بلخ فهم بضرب عنقه، فشفع فيه ابنه عيسى فأمره بالإنصراف إلى سمرقند فرجع إليها وثب بعاملها فقتله وملكها وذلك سنة تسعين. فبعث علي بن عيسى لخرية ابنه عيسى فلقية رافع وهزمه وقتله، فخرج علي بن عيسى لقتله وسار من بلخ إلى مرو خافة عليها من رافع بن الليث.

ثم كانت نكبة علي بن عيسى وولاية هرثمة بن أعين على

سنة أو تزيد وترك في بيت المال تسعمائة ألف ألف دينار.

ولما مات الرشيد ببيع الأمين في العسكر صبيحة يومه، والمامون يومئذ بمرور وكتب حموية مولى المهدي صاحب البريد إلى نائبه ببغداد وهو سلام أبو مسلم يعلمه بوفاة الرشيد وهناك بالخلافة فكان أول من فعل ذلك. وكتب صالح إلى أخيه الأمين مع رجاء الخادم بوفاة الرشيد، وبعث معه بالخاتم والبردة والقضيب، فانتقل الأمين من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة وصلى بالناس الجمعة وخطب ثم نعى الرشيد وعزى نفسه والناس، وبابته جملة أهله ووكل سليمان بن المنصور وهو عم أبيه وأمه بأخذ البيعة على القواد وغيرهم. ووكل السدي بأخذ البيعة على الناس سواهم، وفرق في الجند ببغداد رزق سنين. وقدمت أمه زبيدة من الرقة فلقبها الأمين بالأنبار في جمع من بغداد من الوجوه، وكان معها خزائن الرشيد، وكان قد كتب إلى معسكر الرشيد وهو حي مع بكر بن المعتمر لما اشتدت علة الرشيد وإلى المأمون بأخذ البيعة لهما وللمؤمن أخيهما، وإلى أخيه صالح بالقدوم بالعسكر والخزائن والأموال برأي الفضل. وإلى الفضل بالاحتفاظ على ما معه من الحرم والأموال، وأقر كل واحد على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة.

وكان الرشيد قد سمع بوصول بكر بالكتاب فدعاه ليستخرجها منه فجعلها ففرضه وحسه. ثم مات الرشيد وأحضره الفضل فدفعها إليه ولما قرؤوا الكتاب تشاوروا في اللحاق بالأمين وإرثال فضل بالناس هواهم في وطنهم تركوا عهد المأمون. فجمع المأمون من كان عنده من قواد أبيه وهم: عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وشيب بن حميد بن قحطبة والعلاء مولى الرشيد وكان على حجابته، والعباس بن المسيب بن زهير، وكان على شرطته، وأيوب بن أبي سمير. وهو على كتابته، وعبد الرحمن بن عبد الملك ابن صالح وذو الرياستين الفضل بن سهل، وهو أحصاهم به وأحظاهم عنده، فأشار بعضهم أن يركب في أثرهم ويردهم ومنعه الفضل من ذلك وقال: أخشى عليك منهم ولكن تكتب وترسل رسولك إليهم تذكركم البيعة والوفاء، وتحذرهم الخنث، فبعث سهل بن صاعد ونوفلاً الخادم بكتابه إليهم بنيسابور فقرأ الفضل كتابه وقال: أنا واحد من الجند.

وشد عبد الرحمن برجليه على سهل ليطعنه بالرمح وقال: لو كان صاحبك حاضراً لوضعت فيه وسب المأمون وانصرفوا، ورجع سهل ونوفل بالخبر إلى المأمون فقال له الفضل بن سهل: هؤلاء أعداء استرحت منهم وأنت بخراسان، وقد خرج بها المقنع وبعده يوسف البر فتضعضت لهما الدولة ببغداد، وأنت رأيت

عند خروج رافع بن الليث كيف كان الحال، وأنت اليوم نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم، فاصبر وأنا أضمن لك الخلافة. فقال للمأمون: قد فعلت وجعلت الأمر إليك فقال: إن عبد الله بن مالك والقواد أنفع مني لشهرتهم وقوتهم وأنا خادم لمن يقوم بأمرك منهم حتى ترى رأيك.

وجاءهم الفضل في منازلهم وعرض عليهم البيعة للمأمون، فمنهم من امتنع ومنهم من طرده، فرجع إلى المأمون وأخبره فقال: قم أنت بالأمر وأشار عليه الفضل أن يبعث على الفقهاء ويدعواهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة ورد المظالم ويعقد على الصنف ففعل جميع ذلك، وأكرم القواد. وكان يقول للتبسمي: نقيمك مقام موسى ابن كعب وللريعي مكان أبي داود وخالد بن إبراهيم، ولليماني مكان قحطبة ومالك بن الهيثم، وكل هؤلاء نقياء الدولة.

ووضع عن خراسان ربع الخراج فاغتبط به أهلها وقالوا: ابن اختنا وابن عم نينا. وأقام المأمون يتولى ما كان بيده من خراسان والري وأهدى إلى الأمين وكتب إليه وعظمه. ثم إن الأمين عزل لأول ولايته أخاه القاسم المؤمن عن الجزيرة واستعمل عليها خزيمة بن خازم وأقر المؤمن على قنسرين والعواصم. وكان على مكة داود بن عيسى بن موسى بن محمد، وعلى حمص إسحاق بن سليمان فخالف عليه أهل حمص وانتقل عنهم إلى سلمية فعزله الأمين وولى مكانه عبد الله بن سعيد الحارثي، فقتل عدة منهم وحبس عدة، واضرم النار في نواحيها، وسالوا الأمان فأجابهم، ثم انتفضوا فقتل عدة منهم ثم ولى عليهم إبراهيم بن العباس.

أخبار رافع وملوك الروم

وفي سنة ثلاث وتسعين دخل هرثمة بن أعين سمرقند وملكها وقام بها ومعه طاهر بن الحسين فاستجاش رافع بالترك فأتوه وقري بهم. ثم انصرفوا وضعف أمره، وبلغه الحسن سيرة المأمون فطلب الأمان وحضر عند المأمون فأكرمه. ثم قدم هرثمة على المأمون فولاه الحرس وأنكر الأمين ذلك كله. وفي هذه السنة قتل نيقفور ملك الروم في حزب برجان لسبع سنين من ملكه، وملك بعده ابنه استبراق وكان جريحاً فمات لشهرين وملك بعده صهره على أخته ميخائيل بن جرجيس، ووثب عليه الروم سنة أربع وتسعين بعد اثنتين من ملكه فهرب وترهب وولوا بعده إليون القائد.

الفتنة بين الأمين والمأمون

القائم بالحق، وأرسل إلى الكعبة من جاء بكتابي العهد للأمين والمأمون اللذين وضعهما الرشيد هنالك، وسارت الكتب من ذلك إلى المأمون ببغداد من عينه بها، فقال المأمون: هذه أمور أخير الرائي عنها وكفاني أنا أن أكون مع الحق وبعث الفضل بن سهل إلى جند الري بالأقوات والإحسان، وجمع إليهم من كان بأطرافهم. ثم بعث على الري طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق أسعد الخزاعي أبا العباس أميراً وضم إليه القواد والأجناد فتزها ووضع المسالحي والمراصد، وبعث الأمين عصمة بن حماد بن سالم إلى همدان في ألف رجل، وأمره أن يقيم بهمدان ويبعث مقدمته إلى ساوة.

خروج ابن ماهان لحرب طاهر ومقتله

ثم جهز الأمين علي بن عيسى بن ماهان إلى خراسان لحرب المأمون، يقال دس بذلك الفضل بن سهل العين له عند الفضل بن الربيع، فأشار به عليهم لما في نفوس أهل خراسان من الفتنة عن ابن ماهان فجندوا في حربه. ويقال حرض أهل خراسان على الكتب إلى ابن ماهان ومخادعته إن جاء. فأمره الأمين بالمسير وأقطعهم نهاوند وهمدان وقم وأصبهان وسائر كور الجبل حرباً وخراجاً، وحكمه في الخزان وأعطاه الأموال وجهز معه خمسين ألف فارس. وكتب إلى أبي دلف القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي وهلال بن عبد الله الحضرمي في الانضمام، وركب إلى باب زبيدة ليوذعها فأوصته بالمأمون بغاية ما يكون أن يوصى به، وأنه بمنزلة ابنها في الشفقة والموصلة وتناولته قيداً من فضة وقالت له: إن سار إليك فقيده به مع المبالغة في البر والأدب معه.

ثم سار علي بن عيسى من بغداد في شعبان وركب الأمين يشيعه في القواد والجنود ولم ير عسكر مثل عسكره. ولقي السفير بالسابلة فأنخبروه أن طاهراً بالري يعرض أصحابه، وهو مستعد للقتال. وكتب إلى ملوك الديلم وطبرستان يدهم وعينهم، وأهدى لهم التيجان والأسورة على أن يقطعوا الطريق عن خراسان فأجابوا، ونزل أول بلاد الري فأشار عليه أصحابه بإذكاء العيون والطلائع، والتحصن بالحدائق فقال: مثل طاهر لا يستعد له، وهو إما أن يتحصن بالري فيشب إليه أهلها، وإما أن يفر إذا قربت منه خيلنا. ولما كان من الري على عشرة فراسخ استشار أصحاب طاهر في لقائه فمالوا إلى التحصن بالري فقال: أخاف أن يشب بنا أهلها. وخرج فعسكر على خمسة فراسخ منها في أقل من أربعة آلاف فارس.

ولما قدم الفضل بن الربيع على الأمين ونكت عهد المأمون خشي غائلته، فأجمع قطع علاقته من الأمور وأغرى الأمين مجلعه والبيعة للعهد لابنه موسى، ووافق في ذلك علي بن عيسى بن ماهان والسندي وغيرهما ممن ينحس المأمون. وخالفهم خزمية بن خازم وأخوه عبد الله وناشدوا الأمين في الكف عن ذلك وأن لا يحمل الناس على نكت اليهود فيطرقهم لنكت عهده. ولج الأمين في ذلك، وبلغه أن المأمون عزل العباس بن عبد الله بن مالك عن الري وأنه ولي هرثمة بن أعين على الحرس وأن رافع بن الليث استأمن له فأمنه وسار في جلته فكتب إلى العمال بالدعاء لموسى ابنه بعد الدعاء للمأمون والمؤمن، فبلغ ذلك المأمون فأسقط اسم الأمين من الطرد وقطع البريد عنه.

وأرسل الأمين إليه العباس بن موسى بن عيسى وخاله عيسى بن جعفر بن المنصور وصالحاً صاحب الموصل، ومحمد بن عيسى بن نهيك يطلب منه تقديم ابنه موسى عليه في العهد ويستقدمه. فلما قدموا على المأمون استشار كبار خراسان فقالوا: إنما بيعتنا لك على أن لا تخرج من خراسان فأحضر الوفد وأعلمهم بامتناعه مما جاؤوا فيه. واستعمل الفضل بن سهل العباس بن موسى ليكون عيناً لهم عند الأمين ففعل، وكانت كتبه تأتيهم بالأخبار. ولما رجع الوفد عاودوه يطلب بعض كور خراسان وأن يكون له بخراسان صاحب بريد يكتابه، فامتنع المأمون من ذلك وأوعده إلى قعوده بالري ونواحيها يضبط الطرق ويتخذها من غوائل الكتب والعيون، وهو مع ذلك يتخوف عاقبة الخلاف.

وكان خاقان ملك التبت قد التوى عليه وجفونة فارق الطاعة، وملوك الترك منعوا الضريبة، فخشي المأمون ذلك وحفظ عليه الأمر بأن يولي خاقان وجفونة بلادهما، ويوآذ ملك كابل، ويترك الضريبة للملك الترك الآخرين. وقال له بعد ذلك: ثم اضرب الخيل بالخيول والرجال بالرجال فإن ظفرت وإلا لحقت بخاقان مستجيراً فقبل إشارته وفعلها، وكتب إلى الأمين يخادع به بأنه عامله على هذا الثغر الذي أمره الرشيد بلزومه وأن مقامه به أشد غناء ويطلب إعفائه من الشخصوص إليه، فعلم الأمين أنه لا يتابعه على مراده فخلعه وباع لولده في أوئل سنة خمس وتسعين وسماء الناطق بالحق، وقطع ذكر المأمون والمؤمن من المنابر وجعل ولده موسى في حجر علي بن عيسى وعلى شرطته محمد بن عيسى بن نهيك وعلى حرسه أخوه عيسى، وعلى رسائله صاحب القتلى.

وكان يدعى له على المنابر ولابنه الآخر عبد الله ولقبه

ضجر منه أهل المدينة وطلب الأمان من طاهر وخرج من همدان. وكان طاهر عند نزوله عليها قد خشي من صاحب قزوين أن يأتيه من ورائه فجهز العسكر على همدان وسار إلى قزوين في ألف فارس فقر عاملها وملكها ثم ملك همدان وسائر أعمال الجبل وأقام عبد الرحمن بن جبلة في أماته. ثم أصاب منه بعض الأيام غرة فركب وهجم عليه في عسكر فقاتله طاهر أشد القتال حتى انهزم أصحابه وقتل ولحق فلهم بعد الله وأحمد ابني الحريشي في عسكر عظيم بعثهما الأمين مدداً لعبد الرحمن فانهزموا جميعاً إلى بغداد. وأقبل طاهر نحو البلاد وحده وأخذته إلى حلوان فخذق بها وجمع أصحابه.

بيعة المأمون

وأمر المأمون عندها بأن يُخطب له على المنابر ويخاطب بأمر المؤمنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق كله من جبل همدان إلى البيت طولاً ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضاً وحمل له عماله ثلاثة آلاف ألف درهم. وعقد له لواء ذا شعبتين ولقبه ذا الرياستين يعني: الحرب والعلم، وحمل اللواء علي بن هشام، وحمل العلم نعيم بن خازم وولى أخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج.

ظهور السفيناني

هو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ويلقب أبا العميطر لأنه زعم أنها كنية الجرودون فلقبوه بها، وكانت أمه نفيسة بنت عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب وكان يقول: أنا ابن شيعي صفيين يعني: علياً ومعاوية، وكان من بقايا بني أمية بالشام وكان من أهل العلم والرواية فادعى لنفسه بالخلافة آخر سنة خمس وتسعين وأعانه الخطاب بن وجيه العلي بن مولى بني أمية، كان متغلباً على صيدا فملك دمشق من يد سليمان بن منصور، وكان أكثر أصحابه من كلب. وكتب إلى محمد بن صالح بن يهس يدعو ويتهده فاعرض عنه.

وقصد السفيناني القيسية فاستجاشوا بمحمد بن صالح فجاءهم في ثلاثمائة فارس من الصبات ومواليه. وبعث السفيناني يزيد بن هشام للقائهم في اثني عشر ألفاً فانهزم يزيد وقتل من أصحابه ألفان وأسر ثلاثة آلاف أطلقهم ابن يهس وحلقهم. ثم جمع جمعاً مع ابنه القاسم وخرجوا إلى ابن يهس فانهزموا وقتل القاسم وبعث برأسه إلى الأمين. ثم جمع جمعاً آخر وخرجوا مع

وأشار عليه أحمد بن هشام كبير جند خراسان أن ينادي بخلع الأمين وبيعة المأمون لئلا يخادعه علي بن عيسى بطاعة الأمين وأنه عامله ففعل، وقال علي لأصحابه: بادروهم فإنهم قليل ولا يصبرون على حد السيوف وطعن الرماح، وأحكم تسمية جنده وقدم بين يديه عشر رايات مع كل راية ألف رجل، وبين كل رايتين غلوة سهم ليقناتلوا نوباً. وعسى طاهر أصحابه كراديس وحرصهم وأوصاهم، وهرب من أصحاب طاهر جماعة فجلدهم علي وأهانهم، فأقصر الباقون وجدوا في قتاله.

وأشار أحمد بن هشام على طاهر بأن يرفع كتاب البيعة على رمح ويذكر علي بن عيسى بها نكته. ثم اشتد القتال وحملت ميمنة علي فانهزمت ميسرة طاهر وكذلك ميسرته على ميمنة طاهر فازالوها، واعتمد طاهر القلب فهزمهم ورجعت المجنبتان منهزمة وانتهت الهزيمة إلى علي وهو ينادي بأصحابه فرماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله وجاء برأسه إلى طاهر، وحمل شلوه على خشبة وألقي في بئر بأمر طاهر. واعتق طاهر جميع غلمانته شكراً لله وتمت الهزيمة. واتبعهم أصحاب طاهر فرسخين وأقفوه فيها اثني عشرة مرة يقتلونهم في كلها ويأسرونهم حتى جن الليل بينهم.

ورجع طاهر إلى الري وكتب إلى الفضل: كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس علي بين يدي وخاتمه في إصبعي، وجنده متصرفون تحت أمري والسلام. وورد الكتاب على البريد في ثلاثة أيام فدخل الفضل على المأمون وهناه بالفتح ودخل الناس فسلموا عليه بالخلافة ووصل رأس علي بعدها يومين وطيف به في خراسان، ووصل الخبر إلى الأمين بمقتل علي هزيمة العسكر فأحضر الفضل بن الربيع وكيل المأمون ببغداد وهو نوفل الخادم فقبض ما بيده من ضياعه وغلته وخمسين ألف ألف درهم كان الرشيد وصاه بها وندم الأمين على فعله، وسعت الجند والقواد في طلب الأرزاق فهم عبد الله بن حاتم بقتالهم فمنعهم الأمين وفرق فيهم أموالاً.

مسير ابن جبلة إلى طاهر ومقتله

ولما قتل علي بن عيسى بعث الأمين عبد الرحمن بن الأنباري في عشرين ألف فارس إلى همدان، وولاه عليها وعلى كل ما يفتحه من بلاد خراسان وأمهه بالمال، فسار إلى همدان وحصنها وجاءه طاهر فبرز إليه ولقيه، فهزمه طاهر إلى البلد. ثم خرج عبد الرحمن ثانية فانهزم إلى المدينة وحاصره طاهر حتى

أمر عبد الملك بن صالح وموته

قد تقدم لنا حبس عبد الملك بن صالح إلى أن مات الرشيد وأخرجه الأمين، ولما كان أمر طاهر جاء عبد الملك إلى الأمين وأشار عليه بأن يقدم أهل الشام لحريه، فهم أجراً من أهل العراق وأعظم نكاية في العدو، وضمن طاعتهم بذلك، فوله الأمين أهل الشام والجزيرة وقر له بالمال والرجال واستحثه، فسار إلى الرقة وكتب أهل الشام فتسالموا إليه فآكرمهم وخلع عليهم وكثرت جموعه. ثم مرض واشتد مرضه ووقعت فتنة في عسكره بين الخراسانيين وأهل الشام بسبب دابة أخذت لبعضهم في وقعة سليمان بن أبي جعفر وعرفها عند بعض أهل الشام، فاقتلوا وأرسل إليهم عبد الملك بالقتل فلم يقتلوا، فآكثر القتل وأظهر عبد الملك النصرة للشمانيين وانتفض الحسين بن علي للخراسانيين، وتنادى الناس بالرجوع إلى بلادهم فمضى أهل حمص وقبائل كلب فانهزم أهل الشام وأقام عبد الملك بن صالح بالرقعة، توفي بها.

خلع الأمين وإعادته

ولما مات عبد الملك بن صالح نادى الحسين بن علي في الجند بالرحيل إلى بغداد وقدمها فلقية القواد وجوه الناس ودخل منزله واستدعاه الأمين من جوف الليل فامتنع وأصبح، فوافى باب الجسر وأغراهم بخلع الأمين وحذرهم من نكته ثم أمرهم بعبور الجسر فعبروا ولقية أصحاب الأمين فانهزموا، وذلك منتصف رجب سنة ست، وأخذ البيعة للمأمون من الغد وثب العباس بن عيسى بن موسى بالأمين فأخرجه من قصر الخلد وحبسه بقصر المنصور ومعه أمه زبيدة، فلما كان من الغد طلب الناس أرزاقهم من الحسين وماج بعضهم في بعض، وقام محمد بن أبي خالد فنكر استبداد الحسين بخلع الأمين وليس بذي منزلة ولا حسب ولا نسب ولا غناهم.

وقال أسد الحربي: قد ذهب أقوام بخلع الأمين فذهبوا أتمم بفكه يا معشر الحربية، فرجع الناس على أنفسهم باللائمة وقالوا: ما قتل قوم خليفتهم إلا سلط الله عليهم السيف. ثم نهضوا إلى الحسين وتبعهم أهل الأرض فقاتلوه قتالاً شديداً وأسروه ودخل أسد الحربي إلى الأمين وكسر قيوده وأجلسه على أريكته، وأمرهم الأمين بلبس السلاح فانتبه الغوغاء وجيء بالحسين إليه أسيراً، فاعتذر إليه وأطلقهم وأمر بجمع الجند والمسير إلى طاهر وخلع

مولاه المعتز فانهزموا وقتل المعتز فوهن أمر السفيناني وطمعت فيه قيس. ثم إن ابن بيهس مرض فجمع رؤساء بني غدير وأوصاهم بيعة مسلمة بن يعقوب بن علي بن محمد بن سعد بن مسلمة بن عبد الملك بالخلافة. وقال لهم: تولوه وكيدوا به السفيناني فإنكم لا تتقون بأهل بيته. وعاد ابن بيهس إلى حوران واجتمعت غير على مسلمة فبايعوه فقتل منهم وجمع مواليه ودخل على السفيناني فقيده وحبس رؤساء بني أمية، وأدنى القيسية وجعلهم بطانة. وأفاق ابن بيهس من مرضه فجاء إلى دمشق وحاصرها وسلمها له القيسية في محرم سنة ثمان وتسعين وهرب مسلمة والسفيناني إلى المزة وملك ابن بيهس دمشق إلى أن قدم عبد الله بن طاهر دمشق وسار إلى مصر ثم عاد إليها فاتحماً ابن بيهس معه إلى العراق ومات بها.

مسير الجيوش إلى طاهر ورجوعهم بلا قتال

ولما قتل عبد الرحمن بن جبلة أرسل الفضل بن الربيع إلى أسد بن يزيد بن مزيد ودعاه لحرب طاهر بعد أن ولي الأمين الخلافة، وشكر لأسد فضل الطاعة والنصيحة وشدة البأس وعين التقية، وطلب منه أرزاق الجند من المال لسنة، وألف فرس تحمل من معه بعد إزاحته عنهم بالأموال، وأن لا يطلب بحسبان ما يفتح. فقال: قد أشططت! ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين ثم ركب ودخل على الأمين فأمر بحبسه، وقيل إنه طلب ولدي المأمون كانا عند أمهما ابنة الهادي ببغداد فحملهما معه، فإن أطاعه المأمون وإلا قتلها.

فغضب الأمين لذلك وحبسه، واستدعى عبد الله بن حميد بن قحطبة فاشتط كذلك فاستدعى أحمد بن مزيد واعتذر له عن حبس أسد وبعثه لحرب طاهر، وأمر الفضل بأن يجهز له عشرين ألف فارس وشفق في أسد بن أخيه فأطلقه.

ثم سار وسار معه عبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً أخرى، وانتهوا إلى حلوان وأقاموا..... وطاهر بموضعه ودس المرجفين في عسكرهم بأن العطاء والمنع ببغداد والجند يقبضون أرزاقهم. حتى مشى الجند بعضهم إلى بعض، واختلفوا واقتتلوا ورجعوا من غير لقاء. وتقدم طاهر فنزل حلوان وجاءه هرثمة في جيش من عند المأمون ومعه كتاب بأن يسلم إلى هرثمة ما ملكه من المدن ويتقدم إلى الأهواز ففعل ذلك.

بيعة الحجاز للمأمون

ولما أخذ الأمين كتب العهد من مكة وأمر داود بن عيسى وكان على مكة والمدينة بتخلع المأمون قام في الناس ونكر نقض العهد، وذكرهم ما أخذ الرشيد عليهم من الميثاق لابنيه في المسجد الحرام أن يكونوا على الظالم، وأن محمداً بدأ بالظلم والنكث وخلع أخويه وبائع لطفل صغير رضيع، وأخذ الكتائب من الكعبة فحرقهما ظلماً ثم دعا إلى خلعه والبيعة للمأمون فأجابوه، ونادى بذلك في شعاب مكة وخطبهم. وكتب إلى ابنه سليمان بالمدينة بمثل ذلك ففعله، وذلك في رجب سنة ست وتسعين. وسار من مكة على البصرة وفارس وكرمان إلى المأمون وأخبره فسُرَّ بذلك وولاه مكانه وأضاف إليه ولاية عك وأعطاه خمسمائة ألف درهم وسير معه ابن أخيه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى على الموسم ويزيد بن جرير بن مزيد بن خالد القسري في جند كثيف عاملاً على اليمن ومروا بطاهر وهو محاصر بغداد فآكرمهم وأقام يريد اليمن فبايعوه للمأمون وأطاعوه.

حصار بغداد واستيلاء طاهر عليها ومقتل

الأمين

ولما اتصلت بالأمين هذه الأحوال وقتل الحسين بن علي بن عيسى، شمر لحرب طاهر واستعد له وعقد في شعبان سنة ست وتسعين وأربعمئة..... شتى وأمر عليهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك، وأمرهم بالمسير إلى هرثة فساروا إليه والتقوا بنواحي النهروان في رمضان فانهزموا وأسر قائدهم علي بن محمد فبعث به هرثة إلى المأمون وترك النهروان، وأقام طاهر بصرصر والجيش تتعاقب من قبل الأمين فيهمزها. ثم بذل الأمين الأموال ليستفسد بها عساكرهم فسار إليه من عسكر طاهر نحو من خمسة آلاف ففرق فيهم الأموال وقود جماعة من الحرية ودس إلى رؤساء الجند في عسكر طاهر ورغبتهم فشقوا على طاهر وسار كثير منهم إلى الأمين، وانضموا إلى قواد الحرية وقواد بغداد وساروا إلى صرصر. فعلى أصحابه كراديس وحرضهم ووعدهم.

ثم تقدم فقاتلهم ملياً من النهار وانهزم أصحاب الأمين، وغنم أصحاب طاهر عسكرهم. ولما وصلوا إلى الأمين فرق فيهم الأموال وقود منهم جماعة ولم يعط المهزمين شيئاً ودس إليهم طاهر واستمالهم فشقوا على الأمين فأمر هؤلاء المحدثين بقتالهم وطاهر يراسلهم وقد أخذ رهائهم على الطاعة، وأعطاهم

عليه ما وراء بابه ووقف الناس يهتونه بباب الجسر حتى إذا خف عنه الناس قطع الجسر وهرب. وركب الجند في طلبه وأدركوه على فرسخ من بغداد وقتلوه وجاؤوا برأسه إلى الأمين واختفى الفضل بن الربيع عند ذلك فلم يوقف له على خير.

استيلاء طاهر على البلاد

ولما جاء كتاب المأمون بالمسير إلى الأهواز قدم إليها الحسين بن عمر الرستمي وسار في أثره وأتته عيونه بأن محمد بن يزيد بن حاتم قد توجه من قبل الأمين في جند ليحامي الأهواز من أصحاب طاهر، فبعث من أصحابه محمد بن طالوت ومحمد بن العلاء والعباس بن بخارا أخذاه مدداً للرستمي. ثم أمدهم بقريش بن شبل ثم سار بنفسه حتى كان قريباً منهم وأشرفوا على محمد بن يزيد بعسكر مكرم وقد أشار إليه أصحابه بالرجوع إلى الأهواز والتحصن بها حتى تأتبه قومه الأزدي من البصرة، فرجع وأمر طاهر قریش بن شبل باتباعه قبل أن يتحصن بالأهواز، فخرج لذلك وفاته محمد بن يزيد إلى الأهواز وجاء على أثره فاقتتلوا قتالاً شديداً، وفر أصحاب محمد واستمات هو ومواليه حتى قتلوا.

وملك طاهر الأهواز وولّى على اليمامة والبحرين وعمان ثم سار إلى واسط وبها السندي بن يحيى الحرشي والميثم بن شعبة خليفة خزيمة بن حازم، فهربا عنها وملكها طاهر وبعث قائداً من قواده إلى الكوفة وبها العباس بن المهدي، فخلع الأمين وبائع للمأمون وكتب بذلك إلى طاهر، وكذلك فعل المنصور بن المهدي بالبصرة والمطلب بن عبد الله بن مالك بالموصل، وأقرهم طاهر على أعمالهم.

وبعث الحارث بن هشام وداود بن موسى إلى قصر ابن هبيرة وأقام بجرجابا ولما بلغ الخبر بذلك إلى الأمين بعث محمد بن سليمان القائد ومحمد بن حماد البريري إلى قصر ابن هبيرة فقاتلهم الحارث وداود قتالاً شديداً وهزمهم إلى بغداد. وبعث الأمين أيضاً الفضل بن موسى على الكوفة، فبعث إليه طاهر بن العلاء في جيش فلقه في طريقه فأراد مسالته بطاعة المأمون كياداً ثم قاتله فانهزم إلى بغداد. ثم سار طاهر إلى المدائن وعليها البرمكي والمدد متصل له كل يوم. فقدم قریش بن شبل، فلما أشرف عليهم وأخذ البرمكي في التعبئة فكانت لا تتم له، فأطلق سبيل الناس وركب بعضهم بعضاً نحو بغداد، وملك طاهر المدائن ونواحيها ثم نزل صرصر وعقد بها أسراً.

والغوغاء.

ويقال: بل كاتبه طاهر وقبض ضياعه فخرج عن الأمين وقصد الهرش ومن معه جزيرة العباس من نواحي بغداد فقاتلهم بعض أصحاب طاهر وهزموهم وغرق منهم خلق كثير وضجر الأمين وضعف أمره وسار المؤمن بن الرشيد إلى المأمون فولاه جرجان وكاتب طاهر خزعة بن حازم ومحمد بن علي بن موسى بن ماهان وأدخلهما في خلع الأمين فأجاباه ووثبا آخر محرم من سنة ثمان وتسعين فقطعا جسر دجلة وخلع الأمين وبعث إلى هرمة وكان يلازما فصار إليهما من ناحيته ودخل عسكر المهدي وملكه وقدم طاهر من الغد إلى المدينة والكرخ فقاتلهم وهزمهم وملكها عنوة ونادى بالأمان ووضع الجند بسوق الكرخ وقصر الوضاح وأحاط بمدينة المنصور وقصر زبيدة وقصر الخلد من باب الجسر إلى باب البصرة وشاطئ الصراة إلى مصبها في دجلة ونصب عليها المجانيق.

واعتصم الأمين في أمه وولده بمدينة المنصور، اشتد عليه الحصار وثبت معه حاتم بن الصقر والحرشي والأفارقة. وافترق عامة الجنود والحصيان والجواري في الطرق وجاء محمد بن حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الأفرنجي إلى الأمين وقالوا له: بقي من خيلك سبعة آلاف فرس نختر سبعة آلاف ونجعلهم عليها ونخرج على بعض الأبواب ولا يشعر بنا أحد ونلحق بالجزيرة والشام فيكون ملك جديد، وربما مال إليك الناس ويحدث الله أمراً فاعتزم على ذلك وبلغ الخبر إلى طاهر فكتب إلى سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى بن نهيك والسندي بن شاهك يتهددهم إن لم يصرفوه عن ذلك الرأي. فدخلوا على الأمين وحذروه من ابن الصقر وابن الأغلب أن يجعل نفسه في أيديهم فيتقربوا به إلى طاهر وأشاروا عليه بطلب الأمان على يد هرمة بن أعين والخروج إليه وخالفهم إليه ابن الصقر وابن الأغلب.

وقالوا له: إذا ملت إلى الخوارج فطاهر خير لك من هرمة فأبى وتطير من طاهر وأرسل إلى هرمة يستأمنه. فأجاباه أنه يقاتل في أمانة المأمون فمن دونه وبلغ ذلك طاهراً فعظم عليه أن يكون الفتح لهرمة واجتمع هو وقواده لهرمة وقواده في منزل خزعة بن حازم، وحضر سليمان والسندي وابن نهيك وأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً وأنه يخرج إلى هرمة ويدفع إليه الختام والقضيب والبردة وهو الخلافة فرضي.

ثم جاءه الهرش وأمر إليه أنهم يخادعونهم وأنهم يحملونها مع الأمين إلى هرمة فغضب وأعد رجالاً حول قصور الأمين،

الأموال. فسار فنزل باب الأنبار بقواده وأصحابه واستأمن إليه كثير من جند الأمين، وثارت العامة وقتقت السجون، ووثب الشطار على الأخيار ونزل زهير بن مسيب الضبي من ناحية ونصب المجانيق والعرادات، وحضر الخنادق ونزل هرمة بناحية أخرى وفعل مثل ذلك.

ونزل عبيد الله بن الوضاح بالشماسية ونزل طاهر بيباب الأنبار فضيق على الأمين بمنزلة ونقد ما كان بيد الأمين من الأموال، وأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آتية الذهب والفضة ليفرقها في الجند، وأحرق الحديد فمات بها خلق، واستأمن سعيد بن مالك بن قادم إلى طاهر فولاه الأسواق وشاطئ دجلة، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان وكل ما غلب عليه من الدروب، وأمدّه بالرجال والأموال. ووكّل الأمين بقصر صالح وقصر سليمان بن المنصور إلى دجلة بعض قواده فآلح في إحراق الدور والرمي بالمجانيق وفعل طاهر مثل ذلك. وكثر الخراب ببغداد وصار طاهر يخذل على ما يمكنه من النواحي ويقال من لم يجبه، وقبض ضياعه من لم يخرج إليه من بني هاشم والقواد وعجز الأجناد عن القتال.

وقام به الباعة والعيارون وكانوا ينهبون أموال الناس. واستأمن إليه القائد الموكّل بقصر صالح فأمنه وسلم إليه ما كان بيده من تلك الناحية في جمادى الأخيرة من سنة سبع. واستأمن إليه محمد بن عيسى صاحب الشرطة فوهن الأمين. واجتمع العيارون والباعة والأجناد وقاتلوا أصحاب طاهر في قصر صالح، وقتلوا منهم خلقاً وكاتب طاهر القواد بالأمان وبيعة المأمون فأجاباه بنو قحطبة كلهم ويحيى بن علي بن ماهان ومحمد بن أبي العباس الطائي وغيرهم. وفشل الأمين وفوض الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الحسن الهرش، ومعهم الغوغاء يتولون أمر تلك الفتنة. وأجفل الناس من بغداد وافترقوا في البلاد.

ولما وقع بطاهر في قصر صالح ما وقع بأصحابه شرع في هدم المباني وتخريبها ثم قطع الميرة عنهم وصرف السفن التي تحمل فيها إلى الفرات. فغلت الأسعار وضاق الحصار واشتد كلب العيارين فهزموا عبيد الله بن الوضاح وغلبوه على الشامسية. وجاء هرمة ليعينه فهزمه أيضاً وأسروه ثم خضعه أصحابه. وعقد طاهر جسراً فوق الشامسية وعبر إليهم وقتلهم أشد قتال فردهم على أعقابهم، وقاتل منهم بشراً كثيراً وعاد ابن الوضاح إلى مركزه وأحرق منازل الأمين بالحيزرانية، وكانت الثقة فيها بلغت عشرين ألف درهم. وأيقن الأمين بالهلاك وفر منه عبد الله بن حازم ابن خزعة إلى المدائن لأنه اتهمه وحمل عليه السفلة

ثم خرج الحسن الهرش في جماعة من السفلة واتبعه كثير من بوادي الأعراب ودعا إلى الرضا من آل محمد وأتى النيل فجبى الأموال ونهب القرى وولى المأمون الحسن بن سهل أخا الفضل على ما افتتحه طاهر من كور الجبل والعراق وفارس الأهواز والحجاز واليمن، فقدم سنة تسعة وتسعين وفرق العمال وولى طاهراً على الجزيرة الموصل والشام والمغرب وأمره أن يسير إلى قتال نصر بن شبيب، وأمر هرثة بالسير إلى خراسان وكان نصر بن شبيب من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر في كيسوم شمالي حلب، وكان له ميل إلى الأمين. فلما قتل أظهر الوفاء له بالبيعة وغلب على ما جاوره من البلاد، وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وعبر إلى شرقي العراق وحصر حران.

وسأل منه شيعة الطالبيين أن يبايعوا لبعض آل علي لما راوه من بني العباس ورجالهم وأهل دولتهم وقال: والله لا أباع أولاد السوداوات، فيقول: إنه خلقي ورزقي. قالوا: فبعض بني أمية قال: قد أدبر أمرهم والمدير لا يقبل ولو سلم علي رجل مدبر لأعدائي بإدباره، وإنما هو في بني العباس، وإنما حاربتهم لتقديهم العجم على العرب. ولما سار إليه طاهر نزل الرقة وأقام بها وكتب إليه يدعو إلى الطاعة وترك الخلاف فلم يجبه وجاء الخبر إلى طاهر في الرقة بوفاة أبيه الحسين بن زريق بن مصعب بخراسان وأن المأمون حضر جنازته، ونزل الفضل قبره وجاءه كتاب المأمون يعزيه فيه.

وبعد قتل الأمين كانت الرقة بالموصل بين اليمانية والنزارية وكان علي بن الحسن الحمداني متغلباً على الموصل فعسف بالنزارية وسار عثمان بن نعيم البرجمي إلى ديار مصر وشكا إلى أحيائهم واستفروهم فسار معه من مصر عشرون ألفاً وأرسل إليهم علي بن الحسن بالرجوع إلى ما يريدون، فأبى عثمان فخرج علي في أربعة آلاف فهزمهم وأثنى فيهم وعاد إلى البلد.

ظهور ابن طباطبا العلوي

لما بعث المأمون الحسن بن سهل إلى العراق وولاه على ما كان افتتحه طاهر من البلاد والأعمال تحدث الناس أن الفضل بن سهل غلب على المأمون واستبد عليه وحجبه عن أهل بيته وقواده، فغضب بنو هاشم ووجوه الناس واجتروا على الحسن بن سهل وهاجت الفتنة وكان أبو السرايا السري بن منصور ويذكر أنه من بني شيان من ولد هاني بن قبيصة بن هاني بن

ويبعث إليه هرثة خمس بقين من محرم سنة ثمان وتسعين بأن يترى ليلة لأنه رأى أولئك الرجال بالشط فقال: قد افترق عني الناس ولا يمكنني المقام لئلا يدخل علي طاهر فيقتلني. ثم ودع ابنه وبكى وخرج إلى الشط وركب حراقة هرثة. وجعل هرثة يقبل يديه ورجليه وأمر بالحراقة أن تدفع وإذا بأصحاب طاهر في الزواريق فشدوا عليها وتقبوها ورموهم بالأجر والنشاب فلم يرجعوا ودخل الماء إلى الحراقة فغرقت.

قال أحمد بن سالم صاحب المظالم: فسقط الأمين وهرثة وسقطنا فتملئ الملاح بشعر هرثة وأخرجه وشق الأمين ثيابه. قال: وخرجت إلى الشط فحملت إلى طاهر فسألني عن نفسي فانتسبت وعن الأمين فقلت غرق فحملت إلى بيت وحسبت فيه حتى أعطيتهم مالاً فأديتهم به على نفسي. فبعد ساعة من الليل فتحوا علي الباب وأدخلوا علي الأمين عريان في سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقه فاسترجعت وبكيت. ثم عرفني فقال: ضمني إليك فإني أجد وحشة شديدة، فضممته وقلبه يخفق فقال: يا أحمد! ما فعل أخي؟ فقلت: حي قال: قبح الله بريدهم كان يقول قد مات، يريد بذلك العذر عن محاربتة فقلت: بل قبح الله وزرامك، فقال: تراهم يفون لي بالأمان؟ قلت: نعم إن شاء الله.

ثم دخل محمد بن حميد الطاهري فاستثبتنا حتى عرفه وانصرف، ثم دخل علينا منتصف الليل قوم من العجم متتضين سيوفهم فدافع عن نفسه قليلاً ثم دبحوه ومضوا برأسه إلى طاهر ثم جاؤوا من السحر فأخذوا جثته. ونصب طاهر الرأس حتى رآه الناس ثم بعث به إلى المأمون مع ابن عمه محمد بن الحسن بن مصعب ومعه الخاتم والبردة والقضيب وكتب معه بالفتح فلما رآه المأمون سجد.

ولما قتل الأمين نادى طاهر بالأمان ودخل المدينة يوم الجمعة فصلى بالناس وخطب للمأمون وذم الأمين، ووكل يحفظ القصور الخلافية، وأخرج زبيدة أم الأمين وابنيه موسى وعبد الله إلى بلاد الزاب الأعلى. ثم أمر بمحمل الولدين إلى المأمون وندم الخند على قتله وطالبوا طاهراً بالأموال فارتاب بمجد بغداد وبجندته أنهم تواطؤوا عليه وتاؤوا به لخمس من قتل الأمين. فهرب إلى عرقوبيا ومعه جماعة من القواد ثم تعبى لقتالهم فجاءوا واعتذروا وأحالوا على السفهاء والأحداث فصفع عنهم وتوعدهم أن يعودوا مثلها، وأعطاهم أربعة أشهر. واعتذر إليه مشيخة بغداد وحلفوا أنهم لم يدخلوا الجند في شيء من ذلك، فقبل منهم ووضعت أهل الحرب أوزارها واستوسق الأمر للمأمون في سائر الأعمال والممالك.

أبو السرايا متصف رجب وقتله ولم يفلت من أصحابه أحد كانوا بين قتل وأسير، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة وبعث جيوشاً إلى البصرة واسط، وولى على البصرة العباس بن محمد بن عيسى بن محمد الجعفري، وعلى مكة الحسين الأفطس بن الحسين بن علي زين العابدين وجعل إليه الموسم. وعلى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق، وعلى فارس إسماعيل بن موسى بن جعفر الصادق، وعلى الأهواز زيد بن موسى الصادق، فسار إلى البصرة وأخرج عنها العباس بن محمد بن داود بن الحسن المثنى إلى المدائن وأمره أن يأتي بغداد من الجانب الشرقي ففعل.

وكان بواسط عبد الله بن سعد الخرخشي من قبل الحسن بن سهل ففر أمامهم وبعث الحسن بن سهل إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا، وكان قد سار إلى خراسان مغاضباً له، فرجع بعد امتناع، وسار إلى الكوفة في شعبان وبعث الحسن إلى المدائن وواسط علي بن أبي سعيد وأبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هبيرة فوجه جيشاً إلى المدائن فملكوها في رمضان. وتقدم فنزل نهر صرصر وعسكر هرثمة بإزائه غدوة. وسار علي بن أبي سعيد في سؤال المدائن فحاصر بها أصحاب أبي السرايا، ورجع هو من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة وهرثمة وأتباعه، ثم حصره وقتل جماعة من أصحابه فأغار إلى الكوفة ووثب الطالبيون على دور بني العباس وشيعتهم فنهبوا وخربوها وأخرجوهم واستخرجوا ودائعهم عند الناس، وكان على مكة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي، فلما بلغه قدوم حسين الأفطس جمع شيعة بني العباس.

وكان مسرور الكبير قد حج في مائة فارس فتعبد للحرب ودعا داود إلى حربهم فقال: لا أستحل ذلك في الحرم وأخرج إلى العراق وتبعه مسرور. وكان حسين الأفطس بسترّف يضاف دخول مكة فبلغه الخبر أن مكة قد خلت من بني العباس فدخل في عشرة أنفس وطاف وصنع ووقف بعرفة ليلاً وأتم الحج. وأقام هرثمة بنواحي الكوفة يحاصرها، واستدعى منصور بن المهدي وكتب رؤساء الكوفة وسار علي بن سعيد من المدائن إلى واسط فملكها، ثم توجه إلى البصرة واشتد الحصار على أبي السرايا بالكوفة فهرب عنها في ثمانمائة فارس ومعه صاحبه الذي نصبه وهو محمد بن جعفر بن محمد.

ودخلها هرثمة متصف محرم فأقام بها يوماً وولى عليها غسان صاحب الخرس بخراسان وعاد وقصد أبو السرايا القادسية وسار منها إلى السوس ولقي بخراسان مالاً حُبل من الأهواز فقسمه في أصحابه. وكان على الأهواز الحسن بن علي المأموني،

مسعود، وقيل: من بني تميم بالجزيرة وطلب فعبر إلى شرقي الفرات وأقام هناك يخيف السابلة، ثم لحق يزيد بن مزيد بآرمينية في ثلاثين فارساً فقتله وقاتل معه الخرمية وأسروا منهم وأخذ منهم غلامه أبا الشوك.

ومات يزيد بن مزيد فكان مع ابنه أسد وعزل أسد فسار إلى أحمد بن مزيد. ولما بعث الأمين أحمد بن مزيد لحرب هرثمة بعثه طليعة إلى عسكره، فاستماله هرثمة فمال إليه ولحق به وقصد بني شيان مع الجزيرة واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة واجتمع إليه أزيد من ألفي فارس. فلما قتل الأمين تعصى هرثمة عن أرزاقهم فغضب واستأذن في الحج فأذن له وأعطاه عشرين ألف درهم ففرقها في أصحابه ومضى وأوصاهم باتباعه، فاجتمع له منهم نحو مائتين وسار إلى عين التمر فأخذوا عاملها وقسموا ماله ولقوا عاملاً آخر بمال موفور على ثلاثة أنفار فاقسموه.

وأرسل هرثمة عسكراً خلفه فهزمهم ودخل البرية ولحق به من تخلف من أصحابه فكثر جمعه وسار نحو دقوقا وعليها أبو ضرغام في سبعمائة فارس فخرج وقائله فهزمه ورجع إلى القصر فحاصره أبو السرايا حتى نزل على الأمان وأخذ أمواله. وسار إلى الأنبار وعليها إبراهيم الشروي مولى المنصور فقتله وأخذ ما فيها وعاد إليها عند إدراك الغلال فافتتحها. ثم قصد الرقة ومر بطوق بن مالك الثعلبي فاستجاشه على قيس فأقام عنده أربعة أشهر يقاتل قيساً بعصية ربيعة حتى انقادت قيس إلى طوق.

وسار أبو السرايا إلى الرقة فلقى محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وتلقب أبوه إبراهيم طباطبا فدعا إلى الخروج، وأنفذ إلى الكوفة فدخلاها وبايعهم أهلها على بيعة الرضا من آل محمد، نهب أبو السرايا قصر العباس بن موسى بن عيسى، وأخذ ما فيه من الأموال والجواهر مما لا يحصى، وذلك متصف جمادى الأخيرة سنة تسع وتسعين، وقيل: إن أبا السرايا مطله هرثمة بأرزاق أصحابه فغضب ومضى إلى الكوفة فبايع ابن طباطبا. ولما ملك الكوفة هرع إليه الناس والأعراب من النواحي فبايعوه، وكان عليها سليمان بن المنصور من قبل الحسن بن سهل فبعث إليه زهير بن المسيب الضبي في عشرة آلاف وخروج إليه ابن طباطبا وأبو السرايا فهزموه واستباحوا عسكره وأصبح محمد بن طباطبا من الغد ميتاً فنصب أبو السرايا مكانه غلاماً من العلوية، وهو محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين واستبد عليه.

ورجع زهير إلى قصر ابن هبيرة فأقام به وبعث الحسن بن سهل عبدوس بن محمد بن خالد المروذي في أربعة آلاف فلقية

علي، فاستأنهم حتى ركب إلى بيت ابنه وسلم إليهم الغلام. وجاء إسحاق بن موسى بن عيسى من اليمن فاجتمع الناس وخذقوا مكة وقاتلهم إسحاق وامتنعوا عليه فسار نحو العراق ولقي الجند الذين بعثهم هرثمة إلى مكة مع الجلودي ورجاء بن جميل، وهو ابن عم الحسين بن سهل. فرجع بهم وقاتل الطالبين فهزمهم وافترقوا، واستأن إليهم محمد بن جعفر فأمته وملك مكة وسار محمد بن جعفر إلى الجحفة، ثم إلى بلاد جهينة فجمع وقاتل هارون بن المسيب وإلى المدينة، فانهمزم محمد وفقت عينه وقتل خلق من أصحابه ورجع إلى موضعه. ولما انقضى الموسم استأن الجلودي ورجاء بن جميل فأمناه ودخل مكة وخطب واعتذر عما فعله بأنه بلغه موت المأمون ثم صح أنه حي، وخلع نفسه وسار إلى الحسن وإلى المأمون بمرو فلم يزل عنده إلى أن سار المأمون إلى العراق فمات بمرجان في طريقه.

مقتل هرثمة

لما فرغ هرثمة من أبي السرايا رجوع، وكان الحسن بن سهل بالمدائن فلم يعرج عليه وسار على عرقوبيا إلى النهروان قاصداً خراسان، ولقيته كتب المأمون متلاحقة أن يرجع إلى الشام والحجاز، فأبى إلا لقاءه دالة عليه بما سبق له من نصحه له ولآبائه وكان قصد أن يطلع المأمون على حال الفضل بن سهل في طيه الأخبار عنه وما عند الناس من القلق بذلك، وباستبداده عليه ومقامه بخراسان وعلم الفضل بذلك فاغرى به المأمون وألقى إليه أنه سار إلى السرايا وهو من جنده وقد خالف كتبك وجاء معانداً سيئ القالة، وإن سومع في ذلك اجتراً غيره فسخطه المأمون وبقي في انتظاره، ولما بلغ مرو قرع طوبله يسمعه لثلا يطوى خبره عن المأمون، وسأل المأمون عنها فقبل: هرثمة أقبل يرعد ويبرق، فاستدعاه وقال هرثمة: مآلت العلويين وأبا السرايا ولو شئت إهلاكهم جميعاً لفعلت، فذهب يعتذر فلم يمهله وأمر فريس بطنه وشدخ أنفه وسحب إلى السجن ثم دس إليه من قتله.

انتفاض بغداد على الحسن بن سهل

ولما بلغ خبر هرثمة إلى العراق كتب الحسن بن سهل إلى علي بن هشام وإلى بغداد من قبله أن يتعلل على الجند الحرية والبغداديين في أرزاقهم، لأنه كان بلغه عنهم قبل مسير هرثمة أنهم عازمون على خلعه وطرده عماله، وولوا عليهم إسحاق بن الهادي خليفة المأمون. فلم يزل الحسين يتلطف إليهم ويكتبهم

فخرج إليه فقاتله فهزمه وافترق أصحابه وجاء إلى المعتزلة برأس عين من جلولاء ومعه صاحبه محمد وغلماه أبو الشوك فظفر بهم حماداً الكندغوش وجاء بهم إلى الحسن بن سهل في النهروان فقتل أبا السرايا وبعث برأسه إلى المأمون، وبصاحبه محمد معه، ونصب شلوه على جسر بغداد.

وسار علي بن أبي سعيد إلى البصرة فملكها من يد زيد بن موسى بن جعفر الصادق، وكان يسمى زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين وشيعتهم فاستأن إليهم زيد فأمته وأخذته، وبعث الجيوش إلى مكة والمدينة واليمن لقتال من بها من العلويين، وكان إبراهيم بن موسى بن جعفر بمكة فلما بلغه خبر أبي السرايا ومقتله ولى وسار إلى اليمن وبها إسحاق بن موسى بن عيسى فهرب إلى مكة، واستولى إبراهيم على اليمن وكان يسمى الجزار لكثرة قتله وقتكه. ثم بعث رجلاً من ولده عقيل بن أبي طالب إلى مكة ليحج بالناس وقد جاء لذلك أبو الحسن المعتصم في جماعة من القواد فيهم حدوية بن علي بن عيسى بن ماهان والياً على اليمن من قبل الحسن بن سهل، فخام العقيلي عن لقاءهم واعترض قافلة الكسوة فأخذها ونهب أموال التجار ودخل الحجاج إلى مكة عراة فبعث الخلودى من القواد فصبهم وهزمهم وأسر منهم ونفد أموال التجار وكسوة الكعبة وطبيها وضرب الأسراء عشرة أسواط لكل واحد وأطلقهم وحج المعتصم بالناس.

بيعة محمد بن جعفر بمكة

هو محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ويلقب الديباجة، وكان عالماً زاهداً ويريوي عن أبيه وكان الناس يكتبون عنه. ولما ملك الحسين الأفطس مكة كما ذكرناه عاث فيها ونزع كسوة الكعبة وكساها بأخرى من الغد أنفذها أبو السرايا من الكوفة وتبع ودائع بني العباس وجعلها ذريعة لأخذ أموال الناس فخرجوا من مكة. وقلع أصحابه شبابيك الحرم وقلع ما على الأساطين من الذهب واستخرج ما كان في الكعبة من المال فقسمه في أصحابه وساء أثره في الناس.

فلما قتل أبو السرايا تنكروا له فخشي على نفسه فجاء إلى محمد بن جعفر ليبياع له بالخلافة فلم يزل به هو وابنه حسن واستعانا عليه بابنه علي حتى بايعوه ودعوه بأمر المؤمنين. واستبد عليه ابنه علي وابن الأفطس بأسوا مما كان قبل، وأفحشوا في الزنا واللواط واغتصاب النساء والصبيان، فاجتمع الناس على خلع محمد بن جعفر أو يرد إليهم ابن القاضي كان منتصباً ببيت ابنه

إني شغلت بالحرب عن جباية الخراج فولوا رجلاً من بني هاشم، فولوا المنصور بن المهدي وأحصى أهل عسكره فكانوا مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً. وبعث منصور غسان بن الفرج إلى ناحية الكوفة فغزاه حميد الطوسي من قواد الحسن بن سهل وأخذ أسيراً ونزل النيل. بعث منصور بن محمد يقطين في العساكر إلى حميد فلقية حميد بكوثى فهزموه وقتل من أصحابه ونهب ما حول كوثى ورجع إلى النيل وأقام ابن يقطين بصرصر.

أمر المطوعة

ولما كثر المخرج ببغداد وامتدت أيدي الدعاوي بأذية الناس في أموالهم وأفشى التناكر فيهم وتعذر ذلك، فخرجوا إلى القرى فاتهبوها. واستعدى الناس أهل الأمر فلم يغدوا عليهم فتمشى الصلحاء من عمل ريط وكل بينهم وراوا أنهم في كل درب قليلون بالنسبة إلى خيارهم فاعتزموا على مدافعتهم واشتد خالد المدريوش من أهل بغداد، فدعا جيرانه وأهل غلته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن يغيروا على السلطان. فشد على من كان عندهم من ادعار وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وتعدى ذلك إلى غير محله.

ثم قام بعده سهل بن سلامة الأنصاري من الحريشية من أهل خراسان ويكنى أبا حاتم فدعا إلى مثل ذلك وإلى العمل بالكتاب والسنة وعلّق في عنقه مصحفاً وعبر على العامة وعلى أهل الدولة فبايعوه على ذلك وعلى قتال من خالف. وبلغ خبرهما إلى منصور بن المهدي وعيسى بن محمد بن أبي خالد ففكروا ذلك لأن أكثر الدغار كانوا يشايعونهم على أمرهم، فدخلوا بغداد بعد أن عقد عليه الصلح مع الحسن بن سهل على الأمان له ولأهل بغداد، وانتظروا كتاب المأمون ورضي أهل البلد بذلك، فسهل عليهم أمر المدريوش وسهل.

العهد لعلي الرضا

والبيعة لإبراهيم بن المهدي

ولما بلغ أهل بغداد أن المأمون قد بايع بالعهد لعلي بن موسى الكاظم ولقبه الرضا من آل محمد، وأمر الجند بطرح السواد وليس الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق، وكتب الحسن بن سهل إلى عيسى بن محمد بن أبي خالد ببغداد يعلمه بذلك في رمضان من سنة إحدى ومائتين، وأمره أن يأخذ من عنده من الجند وبني

حتى اختلقوا فأنزل علي بن هشام ومحمد بن أبي خالد في أحد جانبيها، وزهير بن المسيب في الجانب الآخر وقاتلوا الحريية ثلاثة أيام، ثم صالحهم على العطاء وشرع فيه.

وكان زيد بن موسى بن جعفر قد أخذه علي بن أبي سعيد من البصرة وحبسه كما ذكرناه قبل، فهرب من محبسه وخرج بناحية الأنبار ومعه أخ لأبي السرايا. ثم تلاشى أمره وأخذوا..... إلى علي بن هشام ثم جاء خبر هرثمة وقد انتفض محمد بن أبي خالد على علي بن هشام بما كان يستحق به، وغضب يوماً مع زهير بن المسيب فقتلعه بالسوط، فسار إلى الحريية ونصب لهم الحرب، انهزم علي بن هشام إلى صرصر. وقيل: إن ابن هشام أقام الحد على عبد الله بن علي بن عيسى فغضب الحريية وأخرجوه.

واتصل ذلك بالحسن بن سهل وهو بالمداين كما قلناه فانهزم إلى واسط أول سنة إحدى ومائتين، والفضل بن الربيع وقد ظهر من اختفائه من لدن الأمين. وجاء عيسى بن محمد بن أبي خالد من الرقة من عند طاهر، فاجتمع هو وأبوه على قتال الحسن وهزموا كل من تعرض للقائهم من أصحابه. وكان زهير بن المسيب عاملاً للحسن على جوخي من السواد وكان يكتب بغداد فركب إليه محمد بن أبي خالد وأخذه أسيراً وانتهب ماله وحبسه ببغداد عند ابنه جعفر.

ثم تقدم إلى واسط وبعثه ابنه هارون إلى النيل فهزم نائب الحسن بها إلى الكوفة فلحق بواسط ورجع هارون إلى أبيه وتقدم نحو واسط فسار الحسن عنها. وأقام الفضل بن الربيع مخفياً بها واستأمن لمحمد وبعثه إلى بغداد. وسار إلى الحسن على البقية ولقيتهم عساكر الحسن وقواده، وانهزم محمد وأصحابه وتبعهم الحسن إلى تمام الصلح، ثم لحقوا بجزجاء. ووجه محمد ابن ابنه هارون إلى..... فأقام بها وسار محمد ابن ابنه أبورئيل وهو جريح إلى بغداد فمات بها ودفن في داره سراً. ومحمد أبو رتبيل إلى زهير بن المسيب فقتله من ليلته. وقام خزيمة بن خازم بأمر بغداد، وبعث إلى عيسى بن محمد بأن يتولى حرب الحسن مكان أبيه، وبلغ الحسن موت محمد فبعث عسكره إلى هارون بالنيل فغلبوا وانتهبوها، ولحق هارون بالمداين.

ثم اجتمع أهل بغداد وأرادوا منصور بن المهدي على الخلافة فأبى فجعلوه خليفة للمأمون ببغداد والعراق انحرافاً عن الحسن بن سهل. وقيل: إن الحسن لما ساعد أهل بغداد عيسى بن محمد بن أبي خالد على حربه خام عنه فلاطفه ووعده بالمصاهرة ومائة ألف دينار والأمان له ولأهل بيته ولأهل بغداد وولاية النواحي، فقبل وطلب خط المأمون بذلك، وكتب إلى أهل بغداد:

سلامة المطوع حتى غلبه على منزله فاخفى في غمار النظار وأخذه بعد ليل وأنوا به إسحاق فقال: كل ما كنت أدعو إليه باطل فقالوا: اخرج فأعلم الناس بذلك! فخرج وقال: قد كنت أدعوكم إلى الكتاب والسنة ولم أزل على ذلك ففرضوه وقيدوه ويعثوا به إلى إبراهيم المهدي ففرضوه وحبسوه، وظهر أنه قتل في محبسه خفية لسنة من قيامه. ثم أطلقه فاخفى إلى أن انقضى أمر إبراهيم.

وزحف حميد بن عبد الحميد سنة ثلاث ومائتين إلى قتال إبراهيم بن المهدي وأصحابه وكان عيسى بن محمد بن أبي خالد هو المتولي لقتالهم بأمر إبراهيم، فدخلهم في الغدر بإبراهيم وصار يتعلل عليه في المداغة عنه، ونمي ذلك إلى إبراهيم بن هارون أخيه عيسى فتتكر له، ونادى عيسى في الناس بمسألة حميد فاستدعاه إبراهيم وعاتبه بذلك فانكر واعتذر، فأمر به ففرض وحبس عدة من قواده وأفلت العباس خليفته، فمضى بعض الناس إلى بعض ووافقوا العباس على خلع إبراهيم وطردوا عامله من الجسر والكرخ. وثار الرعاع والغوغاء.

وكتب العباس إلى حميد يستقدمه ليسلم إليه بغداد ونزل صرصر وخرج إليه العباس والقواد وتواعدوا لخلع إبراهيم على أن يدفع لهم العطاء. وبلغ الخبر إلى إبراهيم فأخرج عيسى وإخوته، وسأله قتال حميد فامتنع. ودخل حميد فصلى الجمعة وخطب للمؤمن وشرع في العطاء ثم قطعه عنهم فغضب الخند. وعاود إبراهيم سؤال عيسى في قتال حميد ومدافعتيه، فقاتل قليلاً ثم استأمر لهم وانقض العسكر راجعين إلى إبراهيم.

وارتحل حميد فنزل في وسط المدينة وتسلسل أصحاب إبراهيم إلى المدائن فملكوها وقاتل بقيتهم حميد، وكان الفضل بن الربيع مع إبراهيم فتحول إلى حميد وكتب المطلب بن عبد الله بن مالك بأن يسلموه إليه. وكان سعيد بن الساحور والبط وغيرهم من القواد يكتبون علي بن هشام بمثل ذلك. ولما علم إبراهيم بما اجتماعوا عليه أقبل على مداراتهم إلى أن جن الليل. ثم تسرب في البلد واختفى متصفاً ذي الحجة من سنة ثلاث، وبلغ الخبر إلى حميد وعلي بن هشام، فأقبلوا إلى دار إبراهيم فلم يجدوه، وذلك لستين من بيعته. وأقام علي بن هشام على شرقي بغداد وحميد على غربيها وأظهر سهل بن سلامة ما كان يدعو إليه فقربه حميد ووصله.

هاشم بذلك، فأجاب بعض وامتنع بعض، وكبر عليهم إخراج الخلافة من بني العباس. وتولى كبر ذلك منصور وإبراهيم ابنا المهدي وشايعهم عليه المطلب بن عبد الله بن مالك والسدي ونصر الوصيف وصالح صاحب المصلى ومنعوا يوم الجمعة من نادى في الناس بخلع المأمون والبيعة لإبراهيم بن المهدي ومن بعده لإسحاق بن الهادي.

ثم بايعوه في الحرم سنة اثنتين ومائتين ولقبوه المبارك ووعد الجند بأرزاق سنة أشهر، واستولى على الكوفة والسواد، وخرج فعسكر بالمدائن وولى بها على الجانب الغربي العباس بن الهادي، وعلى الجانب الشرقي إسحاق بن الهادي. وكان بقصر ابن هبيرة حميد بن عبد الحميد عاملاً للحسن بن سهل، ومعه القواد سعيد بن الساحور وأبو البط وغان بن الفرج ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب كانوا منحرفين عن حميد فدخلوا إبراهيم بن الهادي في أن يهلكوه في قصر ابن هبيرة وشعر بذلك الحسن بن سهل فاستقدم حميداً وخلأ لهم الجو منه فبعث إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد بن أبي خالد وملك قصر ابن هبيرة وانتهب عسكر حميد ولحق به ابنه بجوارية.

ثم عاد إلى الكوفة فاستعمل عليها العباس بن موسى الكاظم وأمره أن يدعو لأخيه فامتنع غلاة الشيعة من إجابته وقالوا: لا حاجة لنا بذكر المأمون وقعدوا عنه وبعث إبراهيم بن المهدي من القواد سعيداً وأبا البط لقتاله، فسرح إليهم العباس بن عمه وهو علي بن محمد الديناجة فانهزم، ونزل سعيد وأبو البط الحيرة ثم تقدموا لقتال أهل الكوفة، وقاتلهم شيعة بني العباس ومواليهم. ثم سألوا الأمان للعباس وخرجوا من داره. ثم قاتل أصحابه أصحاب سعيد فهزموهم وأحرقوا دور عيسى بن موسى، وبلغ الخبر إلى سعيد بالحيرة بأن العباس قد نقض ورجع عن الأمان فركب وجاء إلى الكوفة وقتل من ظفر به ولقيه أهله فاعتذروا إليه بأن هذا فعل الغوغاء، وأن العباس باق على عهده.

ودخل سعيد وأبو البط ونادوا بالأمان وولوا على الكوفة الفضل بن محمد بن الصباح الكندي، ثم عزلوه وولوا مكانه غسان بن الفرج فقتل أخا السرايا. ثم عزلوه وولوا الهول ابن أخي سعيد القائد وقدم حميد بن عبد الحميد لحربهم بالكوفة، فهرب الهول وبعث إبراهيم بن المهدي بن عيسى بن محمد بن أبي خالد لحصار الحسن بواسط على طريق النيل.

وكان الحسن متحصناً بالمدينة، فسرح أصحابه لقتالهم فانهزموا وغنم عسكرهم، ورجع عيسى إلى بغداد فقاتل سهل بن

قدوم المأمون إلى العراق

لما وقعت هذه الفتنة بالعراق بسبب الحسن بن سهل ونفسور الناس من استبداده وأخيه على المأمون ثم من العهد لعلي الرضا بن موسى الكاظم وإخراج الخلافة من بني العباس، وكان الفضل بن سهل يطوي ذلك عن المأمون ويبالغ في إخفائه حذراً من أن يتغير رأي المأمون فيه وفي أخيه. ولما جاء هرثمة للمأمون وعلم أنه يخبره بذلك وأن المأمون يثق بقوله، أحكم السعاية فيه عند المأمون حتى تغير له فقتله ولم يصغ إلى كلامه.

فازدادت نفرة الشيعة وأهل بغداد وكثرت الفتنة وتحدث القواد في عسكر المأمون بذلك ولم يقدروا على إيلاعه، فجاؤوا إلى علي الرضا وسألوه إنهاء ذلك إلى المأمون، فأخبره بما في العراق من الفتنة والقتال، وأنهم يابعدوا إبراهيم بن المهدي فقال المأمون: إنما جعلوه أميراً يقوم بأمرهم! فقال: ليس كذلك وإن الحرب الآن قائمة بين ابن سهل وبينه، وإن الناس يتقمون عليك مكان الفضل والحسن ومكاني وعهدك لي، فقال له المأمون: ومن يعلم هذا غيرك؟ فقال: يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وغيرهما من وجوه قوادك. فاستدعاهم فكتبوا حتى استأمنوا إليه ثم أخبروه بما أخبره به الرضا، وأن الناس بالعراق يتهمونه بالرفض لمهده لعلي الرضا وأن طاهر بن الحسين مع علم أمير المؤمنين ببلائه قد دفع إلى الرقة وضعف أمره، والبلاد تفتت من كل جانب، وإن لم يتدارك الأمر ذهب الخلافة منهم.

فاستيقن المأمون ذلك وأمر بالرحيل واستحلف على خراسان غسان بن عباد وهو ابن عم الفضل بن سهل، وعلم الفضل بن سهل بذلك فشرع في عقاب أولئك القواد فلم يخنه. ولما نزل المأمون شرجيل وثب بالفضل أربعة نفر فقتلوه في الحمام وهربوا، وجعل المأمون جُعلاً لمن جاء بهم، فجاء بهم العباس بن الهيثم الدينوري. فلما حضروا عند المأمون قالوا له: أنت أمرتنا بقتله! وقيل: بل اختلفوا في القول فقال بعضهم: أمرنا بقتله ابن أخيه، وقال آخرون: بل عبد العزيز بن عمران من القواد وعلي وموسى وغيرهم، وأنكر آخرون. فأمر المأمون بقتلهم وقتل من أقروا عليه من القواد، وبعث إلى الحسن بن سهل وسار إلى العراق.

وجاء الخبر بأن الحسن بن سهل أصابته المالبخوليا واختلط فبعث ديناراً مولاه ووكله بأمر العسكر وكان إبراهيم بن المهدي وعيسى بالمداين وأبو البط وسعيد بالنيل والحرب متصلة بينهم. والمطلب بن عبد الله بن مالك قد اعتل بالمداين فرجع إلى بغداد

وجعل يدعو إلى المأمون سراً وإلى خلع إبراهيم وأن يكون منصور بن المهدي خليفة للمأمون ودخله في ذلك خزيمه بن خازم وغيره من القواد. وكتب إلى علي بن هشام وحيد أن يتقدما فتزل حميد نهر صرصر وعلي النهروان، وعاد إبراهيم بن المهدي من المداين إلى بغداد منتصف صفر، وقبض على منصور وخزيمه ومنع المطلب مواليه، فأمر إبراهيم بنهب داره ولم يظفر، ونزل حميد وعلي بن هشام المداين وأقاما بها.

وزوج المأمون في طريقه ابنته من علي الرضا وبعث أخاه إبراهيم بن موسى الكاظم على الموسم، وولاه اليمن وكان به حدودية بن علي بن عيسى بن ماهان قد غلب عليه. ولما نزل المأمون مدينة طوس مات علي الرضا فجأة آخر صفر من سنة ثلاث من عنب أكله، وبعث المأمون إلى الحسن بن سهل بذلك، وإلى أهل بغداد وشيعته يخبر من عهده إليه، وأنه قد مات ويدعوهم إلى الرجوع لطاعته. ثم سار إلى جرجان وأقام بها شهراً وعقد على جرجان لرجاء بن أبي الضحك قاعداً وراء النهر، ثم عزله سنة أربع وعقد لغسان بن عباد من قرابة الفضل بن سهل على خراسان وجرجان وطبرستان وسجستان وكرمان ورويان ودهارير، ثم عزله بظاهر كما نذكره.

ثم سار إلى النهروان فلقية أهل بيته وشيعته والقواد ووجوه الناس وكان قد كتب إلى طاهر أن يوافيه بها، فجاءه من الرقة ولقيه هنالك. وسار المأمون فدخل بغداد منتصف صفر من سنة أربع، فنزل الرصافة ثم نزل قصره بشاطيء دجلة، وبقي القواد في المعسكر وانقطعت الفتنة وبقي الشيعة يتكلمون في لبس الخضرة، وكان المأمون قد أمر طاهر بن الحسين أن يسأل حوائجه فأول شيء سأل لبس السواد فأجاب، وقعد للناس وخلع عليه وعليهم الثياب السود واستقامت الأمور.....

كانت الفتنة قد وقعت بالموصل بين بني شامة وبني ثعلبة وكان علي بن الحسن الهمداني متغلباً عليها في قومه فاستجارت ثعلبة بأخيه محمد فأمرهم بالخروج إلى البرية ففعلوا، وتبعهم بنو شامة في ألف رجل وحاصروهم بالقوجاء ومعهم بنو ثعلب، وبعث علي ومحمد إليهم بالمدد فقتلوا جماعة من بني شامة وأسروا منهم، ومن بني ثعلب، فجاء أحمد بن عمر بن الخطاب الثعلبي إلى علي فوادعه وسكنت الفتنة. ثم إن علي بن الحسن سطا بمن كان في الموصل من الأزد عسفاً في الحكم عليهم، وقال لهم يوماً: اخرجوا بعمان! فاجتمعت الأزد إلى السيد بن أنس كبيرهم وقتلوه.

وكان في تلك النواحي مهدي بن علوان من الخوارج فادخله علي بن الحسين وبياعه وصلى بالناس، واشتدت الحرب.

بن أبي خالد فقال: أنت ضمتني فسر وأنتي به ثم جاء من الغد الخبر بموته فقال المأمون للبريد ونعم: الحمد لله الذي قدمه وأخبرنا، وولى طلحة من قبله ويعث إليه المأمون أحمد بن أبي خالد ليقوم بأمره فغير أحمد إلى ما وراء النهر وافتتح أشروسنة وأسر كاوس بن خالد أحمد وابنه الفضل، ويعث بهما إلى المأمون وهب طلحة لأحمد بن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعروضاً بألف ألف ولكاتبته خمسمائة ألف درهم. ثم خالف الحسين بن الحسين بن مصعب بكرمان فسار إليه أحمد بن أبي خالد وأتى به إلى المأمون فعفا عنه.

ولاية عبد الله بن طاهر الرقة ومصر

ومحاربته نصر بن شبيب

وفي سنة ست ومائتين بلغ الخبر بوفاة يحيى بن معاذ عامل الجزيرة، وأنه استخلف ابنه أحمد، فولى المأمون عبد الله بن طاهر مكانه وجعل له ما بين الرقة ومصر، فأمره بحرب نصر بن شبيب وقيل: ولاه سنة خمس، وقيل: سنة سبع، واستخلف على الشرطة ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن مصعب وهو ابن عمه، وكتب إليه أبو طاهر كتاباً بالوصية جمع فيه محاسن الآداب والسياسة ومكارم الأخلاق، وقد ذكرناه في مقدمة كتابنا، فسار عبد الله بن طاهر لذلك ويعث الجيوش لحصار نصر ابن شبيب بكيسوم في نواحي جانب، ثم سار إليه بنفسه سنة تسع ومائتين، وأخذ بمخفته. ويعث إليه المأمون محمد بن جعفر العامري يدعوه إلى الطاعة، فأجاب على شرط أن لا يحضر عنده.

فتوقف المأمون وقال: ما باله ينفر مني؟ فقال أبو جعفر: لما تقدم من ذنبه. فقال: فتراه أعظم ذنباً من الفضل بن الربيع وقد أخذ جميع ما أوصى له به الرشيد من الأموال والسلاح وذهب مع القواد إلى أخيه، وأسلمني وأفسد علي حتى كان ما كان، ومن عيسى بن أبي خالد وقد خالف علي ببلدي وأخرب داري، ويبيع لإبراهيم دوني فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين هؤلاء هم سوابق ودالة ييقون بها، ونصر ليست له في دولتكم سابقة وإنما كان من جند بني أمية، وأنا لا أجيب إلى هذا الشرط، ولح نصر في الخلاف حتى جهده الحصار واستأمن فأمته عبد الله بن طاهر وخرج إليه سنة عشر ويعث به إلى المأمون وأخرب حصن كيسوم لخمس سنين من حصاره ورجع عبد الله بن طاهر إلى الرقة ثم قدم بغداد سنة إحدى عشرة فتلقاه العباس بن المأمون والمعتصم وسائر الناس.

ثم كانت إصراراً على علي وأصحابه وأخرجهم الأزدي عن البلد إلى الحديثة ثم اتبعوهم فقتلوا علياً وأخاه أحمد في جماعة، ولجأ محمد إلى بغداد وملك السيد بن أنس والأزدي الموصل وخطب للمأمون. ولما قدم المأمون بغداد وفد عليه السيد بن أنس فشكاه محمد بن الحسين بن صالح واستعداه عليه بقتل أخويه وقومه، فقال: نعم يا أمير المؤمنين! أدخلوا الخارجي بلدك وأقاموه على منبرك وأبطلوا دعوتك فأهدر المأمون دماءهم.

ولاية طاهر علي خراسان ووفاته

كان المأمون بعد وصوله إلى العراق قد ولى طاهر بن الحسين الجزيرة والشرطة بمجاني بغداد والسواد، ودخل عليه يوماً في خلوته فأذن له بالجولوس وبكى ففداه. فقال المأمون: أبكي لأمر ذكره ذل وستره حزن، ولن يخلو أحد من شجن، وقضى طاهر حديثه وانصرف. وكان حسين الخادم حاضراً قدس إليه على يد كاتبه محمد بن هارون أن يسأل المأمون عن مكاتبته على مائة ألف درهم ومثلها للكتاب، وخلا حسين بالمأمون وسأله فقطن وقال له: إن الثناء مني ليس برخيص، والمعروف عندي ليس بضائع فعيبي عن غير المأمون. فأجابه وركب إلى المأمون وفاوضه في أمر خراسان وأنها يخشى عليها من الترك وأن غسان بن عباد ليس بكفء لها. فقال: لقد فكرت في ذلك فمن ترى يصلح لها؟ قال: طاهر بن الحسين قال: هو خالغ، قال: أنا ضامته.

فاستدعاه وعقد له من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق من حلوان إلى خراسان، وعسكر من يومه خارج بغداد وأقام شهراً تحمل إليه كل يوم عشرة آلاف ألف درهم عادة صاحب خراسان. وولى المأمون مكانه بالجزيرة ابنه عبد الله، وكان ينوب عن أبيه بالشرطة، فحملها إلى ابن عمه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وخرج إلى عمله ونزل الرقة لقتال نصر بن شبيب. ثم سار طاهر إلى خراسان آخر ذي القعدة سنة خمس ومائتين.

وقبل في سبب ولاية طاهر خراسان: إن عبد الرحمن المطوع جمع جمعاً كثيرة بنيسابور لقتال الحرورية، ولم يستأذن غسان بن عباد وهو الوالي على خراسان، فخشي أن يكون ذلك من المأمون فاضطرب وتعصب له الحسن بن سهل. وخشي المأمون على خراسان فولى طاهراً وسار إلى خراسان فأقام بها إلى سنة سبع، ثم اعتزم على الخلاف.

وخطب يوماً فأمسك عن الدعاء للمأمون ودعا بصلاح الأمة، وكتب صاحب البريد بذلك إلى المأمون فخلعه، فدعا بأحمد

الظفر بابن عائشة وإبراهيم بن المهدي

الإفرنجية.

العمال بالنواحي

لما استقر المأمون ببغداد وسكن الهيج وذلك سنة أربع، ولى على الكوفة أخاه أبا عيسى، وعلى البصرة أخاه صالحاً، وعلى الحرمين عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، وعلى الموصل السيد بن أنس الأزدي، وولى على الشرطة ببغداد ومعاون السواد طاهر بن الحسين استقدمه من الرقة، وكان الحسن بن سهل ولاء عليها فقدم واستخلف ابنه عبد الله عليها. ثم ولاء المأمون سنة خمس خراسان وأعمال المشرق كلها واستقدم ابنه عبد الله فجعله على الشرطة ببغداد مكان أبيه. وولى يحيى بن معاذ على الجزيرة وعيسى بن محمد بن أبي خالد على أرمينية وأذربيجان ومخارية بابل. ومات عامل مصر السري بن محمد بن الحكم فولى ابنه عبيد الله مكانه.

ومات داود بن يزيد عامل السند فولى بشر بن داود مكانه على أن يحمل ألف درهم كل سنة. ثم مات يحيى بن معاذ سنة ست واستخلف ابنه أحمد فعزله المأمون وولى مكانه عبد الله بن طاهر وأضاف إليه مصر، وسيره لمحاربة نصر بن شبيب وولى عيسى بن يزيد الجلودى محاربة الزط سنة خمس، ثم عزله سنة ست وولى داود بن منحور مع أعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين، وولى في سنة سبع محمد بن حفص على طبرستان والرويان وديبائند. وفيها أوقع السيد بن أنس بجماعة من عرب بني شيان ووديعة بما فشا من إفسادهم في البلاد، فكبسهم بالأسكورة واستباحهم بالقتل والنهب.

وفي سنة سبع ولى صدقة بن علي ويعرف بزريق على أرمينية وأذربيجان وأمره بمخارية بابل، وقام بأمره أحمد بن الجعيد الإسكافي فأمره بابل، فولى إبراهيم بن الليث بن الفضل أذربيجان. وكان على جبال طبرستان شهریار بن شروين فمات سنة عشر وقام مكانه ابنه سابور، فقتله مازان بن قارن في حرب أسره فيها وملك جبال طبرستان وفي سنة إحدى عشرة قتل زريق بن علي بن صدقة الأزدي السيد بن أنس صاحب الموصل، وقد كان زريق تغلب على الجبال ما بين الموصل وأذربيجان وولاه المأمون عليها، فجمع وقصد الموصل لحرب السيد فخرج إليه أربعة آلاف فاشتد القتال بينهم وقتل السيد في المعركة فغضب المأمون لقتله، وولى محمد بن حميد الطوسي على الموصل وأمره بحرب زريق وبابل والحرمي فسار إلى الموصل واستولى عليها سنة

كان إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ويعرف بابن عائشة ممن تولى كبر البيعة لإبراهيم بن المهدي ومعه إبراهيم بن الأغلب ومالك بن شاهين وكانوا قد اختفوا عند قدوم المأمون في نواحي بغداد. ولما وصل نصر بن شبيب وخرجت النظارة أنفذوا للخروج في ذلك اليوم ثم غلبهم بعض الناس فاخذوا في صفر من سنة عشر، ثم ضربوا حتى أقتروا على من كان معهم في الأمر فلم يعرض لهم المأمون وحسبهم فضاى عليهم الحس وأرادوا أن يقتلوه، فركب المأمون بنفسه وقتلهم وصلب ابن عائشة ثم صلى عليه ودفنه. ثم أخذ في هذه السنة إبراهيم بن المهدي وهو متقرب في زي امرأة يمشي بين إمرأتين واستراب به بعض العسس وقال: أين تردن في هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت في يده فازداد ريبة ورفعهن إلى صاحب المسلحة، وجاء بهن إلى صاحب الجسر فذهب به إلى المأمون، وأحضره والغل في عنقه والملحبة على صدره ليراه بنو هاشم والناس. ثم حبسه عند أحمد بن أبي خالد، ثم أخرجه معه عندما سار الحسن بن سهل ليغنم الصلح، فشفع فيه الحسن وقيل: ابتته بوران، وقيل: إن إبراهيم لما أخذ حمل إلى دار المعتصم وكان عند المأمون فأدخله عليه وأنبه فيما كان منه. واعتذر بمنظوم من الكلام ومثور أتى فيه من وراء الغاية وهو منقول في كتب التاريخ فلا نطيل بنقله.

انتقاض مصر والإسكندرية

كان السري بن محمد بن الحكم والياً على مصر وتوفي سنة خمس ومائتين، وبقي ابنه عبد الله، فانتقض وخلع الطاعة وأنزل بالإسكندرية جالية من الأندلس أخرجهم الحكم بن هشام من ربيضي قرطبة وغرّبهم إلى المشرق. ولما نزلوا بالإسكندرية ثاروا وملكوها وولوا عليهم أبا حفص عمر البلوطي. وفشل عبد الله بن طاهر عنهم بمخارية نصر بن شبيب، فلما فرغ منه ثار من الشام إليهم، وقدم قائداً من قواده ولقيه ابن السري وقتلته وأغذ ابن طاهر المسير فلحقهم وهم في القتال، وانهزم ابن السري إلى مصر وحاصره عبد الله بن طاهر حتى نزل على الأمان، وذلك سنة عشر. ثم بعث إلى الجالية الذين ملكوا الإسكندرية بالحرب، فسألوا الأمان على أن يرحلوا إلى بعض الجزائر في بحر الروم عما يلي الإسكندرية ففعل. ونزلوا جزيرة أقيطش واستوطنوها وأقامت في مملكة المسلمين من أعقابهم دهرًا إلى أن غلب عليها

اثنتي عشرة.

بن عمران وهدموا سورها وجبوها على سبعة آلاف ألف.

وفي سنة ست عشرة ظهر عبدوس الفهري بمصر وقتل بعض عمال المعتصم، فسار المأمون إلى مصر وأصلحها وأتى بعبدوس فقتله وقدم من برقة وأقام بمصر وفيها غضب المأمون على علي بن هشام ووجه عجيلاً وأحمد بن هشام لقبض أمواله وسلاحه لما بلغه من عسفه وظلمه وأراد قتل عجيبي والحاق ببابك فلم يقدر وظفر به عجيبي وجاء به إلى المأمون فأمر بقتله وطيف برأسه في الشام والعراق وخراسان ومصر ثم ألقى في البحر. وقدم غسان بن عباد من السند ومعه بشر بن داود مستأناً، فولى على السند عمران بن موسى العكي وهرب جعفر بن داود القمي إلى قم فخلع وكان محبوساً بمصر منذ عزله المأمون عن قم فهرب الآن وخلع فغلبه علي بن عيسى القمي وبعث به إلى المأمون فقتل.

الصوائف

وفي سنة مائتين قتل الروم ملكهم إليون لسبع سنين ونصف من ملكه، وأعادوا ميخائيل بن جرجس المخلوع، وبقي عليهم تسع سنين. ثم مات سنة خمس عشرة وملك ابنه نوفل وفتح عبد الله بن خرداذبه والي طبرستان البلاد والسيرن من بلاد الديلم وافتتح جبال طبرستان، وأنزل شهریار بن شروين عنها وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون وأمر أبا ليل ملك الديلم وذلك سنة إحدى ومائتين. وفيها ظهر بابك الخرمي في الجاوندانية أصحاب جاوندان سهل، وتفسيره الدائم الباقي وتفسير خرم فرج، وكانوا يعتقدون مذاهب المجوس، وفي سنة أربع عشرة خرج أبو بلال الصابي الشاري، فسرّح إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من القواد وقتلوه.

وفي سنة خمس عشرة دخل المأمون بلاد الروم بالصائفة وسار عن بغداد في الحرم واستخلف عليها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وهو ابن عم طاهر، وولاه السواد وحلوان وكور دجلة، ولما وصل تكريت لقيه محمد بن علي الرضا فأجازه وزف إليه ابنته أم الفضل، وسار إلى المدينة فأقام بها وسار المأمون على الموصل إلى منبج ثم دابق، ثم أنطاكية ثم المصيصة وطرسوس. ودخل من هنالك فافتتح حصن قرة عسوة وهدمه. وقيل بل فتحه على الأمان، وفتح حصن ماجد كذلك. وبعثه أشناس إلى حصن سدس، ودخل ابنه العباس ملطية ووجه المأمون عجيلاً وجعفر الحياط إلى حصن سنان فاطاع. وعاد المعتصم من مصر فلقى

ومات موسى بن حفص عامل طبرستان فولى المأمون مكانه ابنه، وولى حاجب بن صالح على الهند فوقعت بينه وبين بشر بن داود صاحب السند حرب. وانهزم بشر إلى كرمان ثم قتل محمد بن حميد الطوسي سنة أربع عشرة قتله بابك الخرمي وذلك أنه لما فرغ من أمر المتغلبين بالموصل سار إلى بابك في العساكر الكاملة الحشد وتجاوز إليه المضايق ووكل بحفظها حتى انتهى إلى الجبل، فصعد وقد أكنم بابك الرجال في الشعراء.

فلما جاز ثلاثة فراسخ خرجت عليهم الكمانن فانهمزوا وثبت محمد بن حميد حتى إذا لم يبق معه إلا رجل واحد فتسلل يطلب النجاة فعر في جماعة من الحرية يقاتلون طائفة من أصحابه فقصده وقتلوه، وعظم ذلك على المأمون واستعمل عبد الله بن طاهر على خراسان لأنه كان بلغه أن أخاه طلحة بن طاهر مات وقام علي أخوه مكانه خليفة لعبد الله، وعبد الله بالدينور يجهز العساكر إلى بابك فولى على نيسابور محمد بن حميد فكثرت عيث الخوارج بخراسان فأمره المأمون بالسير إليها فسار ونزل نيسابور وسأل عن سيرة محمد بن حميد فسكتوا فعزله لسكوتهم.

وفي سنة اثنتي عشرة خلع أحمد بن محمد العمري، يعرف بالأحمر العين باليمن، فولى المأمون ابنه العباس على الجزيرة والثغور والعوامص وأخاه أبا إسحاق المعتصم على الشام ومصر وسير عبد الله بن طاهر إلى خراسان وأعطى لكل واحد منهم خمسمائة ألف درهم، وبعث المعتصم أبا عميرة الباذغيسي عاملاً على مصر فوثب به جماعة من القيسية واليمانية فقتلوه سنة أربع عشرة، فسار المعتصم إلى مصر فقاتلهم وافتتح مصر وولى عليها واستقامت الأمور. وفي سنة ثلاث عشرة ولى المأمون غسان بن عباس على السند لما بلغه خلاف بشر بن داود.

وفي سنة أربع عشرة استقدم المأمون أبا دلف وكان بالكرك من نواحي همدان منذ سار مع عيسى بن ماهان لحرب طاهر، وقتل عيسى فعاد إلى همدان وراسله طاهر يدعوهُ إلى البيعة فامتنع. وقال له: ولا أكون مع أحد وأقام بالكرك. فلما خرج المأمون إلى الري أرسل إليه يدعوهُ فسار نحوه وجلاً بعد أن أغرى عليه أصحابه الامتناع. وفي سنة أربع عشرة قتل باليمن. وفيها ولى المأمون علي بن هشام الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان وخلع أهل قم وكانوا سألوا الخطيطة من خراجهم وهو ألف ألف درهم لأن المأمون لما جاء من العراق أقام بالري أياماً وخفف عنهم من الخراج فطمع أهل قم في مثلها فأبى فامتنعوا من الاداء فسرح إليهم علي بن هشام وعجيبي بن عنبسة وظفروا بهم وقتلوا يحيى

بنفسه وممر ينسا، فوشى به إلى العامل فقبض عليه وبعثه إلى عبد الله بن طاهر، فبعثه إلى المعتصم منتصف ربيع أول سنة تسع عشرة، فحبسه عند الخادم مسرور الكبير، ووكل بمحفظه فهرب من حبسه ليلة الفطر من سنة ولم يوقف له على خبر.

حرب الزط

وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد وولوا عليهم رجلاً منهم اسمه محمد بن عثمان، وقام بأمره آخر منهم اسمه سيماق. وبعث المعتصم لحربهم في هذه السنة عجيف بن عنبسة في جمادى الآخرة فسار إلى واسط وحاربهم، فقتل منهم في معركة ثلاثمائة وأسر خمسمائة، ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى باب المعتصم وأقام قبالتهم سبعة أشهر. ثم استأمنوا إليه في ذي الحجة آخر السنة وجأوا بأجمعهم في سبعة وعشرين ألفاً، المقاتلة منهم اثنا عشر ألفاً فبهاهم عجيف في السفن على هيتهم في الحرب ودخل بهم بغداد في عاشوراء سنة عشرين، وركب المعتصم إلى الشمامسة في سفينة حتى رآهم، ثم غربهم إلى عين زربة فأغار عليهم الروم فلم يفلت منهم أحد.

بناء سامرا

كان المعتصم قد اصطنع قومًا من أهل الحرف بمصر وسماهم المطارية وقومًا من سمرقند وأشروسنة وفرغانة وسماهم الفرغانة وأكثر من صبيانهم، وكانوا يركضون الدواب في الطرق ويختلفون بها ركضاً، فيصدمون النساء والصبيان فتأذى العامة بهم، وربما انفرد بعضهم فقتلوه وتأذى الناس من ذلك ونكروه وربما أسمعو النكير للمعتصم، فعمد إلى بناء القاطون، وكانت مدينة بناها الرشيد ولم يستمها وخرت، فجددها المعتصم وبناها سنة عشرين وسماها سرّ من رأى فرخمها الناس سامرا وصارت داراً للملكهم من لدن المعتصم ومن بعده واستخلف ببغداد حتى انتقل إليها ابنه الواثق.

نكبة الفضل بن مروان

كان للمعتصم في ولاية أخيه كاتب يعرف ببيحيى الجرهمقي، واتصل به الفضل بن مروان وهو من البردان، وكان حسن الخط. فلما هلك الجرهمقي استكتبه المعتصم وسار معه إلى

المأمون قبل الموصل، ولقيه العباس ابنه برأس عين. وجاء المأمون منصرفه من العراق إلى دمشق، ثم بلغه أن الروم أغاروا على طرسوس والمصيصة وأنخنوا فيهم بالقتل.

وكتب إليه ملك الروم فيه بنفسه فرجع إليهم وافتتح كثيراً من معاقلمهم وأناخ على هرقله حتى استأمنوا وصالحوه، وبعث المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً منها مطمورة، وبعث يحيى بن أكرم فأنخن في البلاد وقتل وحرق وسبى. ثم رجع المأمون إلى كيسوم فأقام بها يومين ثم ارتحل إلى دمشق.

وفي سنة سبع عشرة رجع المأمون إلى بلاد الروم فأناخ على لؤلؤة فحاصرها مائة يوم، ثم رحل عنها وخلف عجيفاً على حصارها. وجاء نوفل ملك الروم فأحاط به فبعث إليه المأمون بالمدد فارتحل نوفل واستأمن أهل لؤلؤة إلى عجيف، وبعث نوفل في المهادنة والمأمون على سلوين فلم يجبه. ثم رجع المأمون سنة ثمان عشرة وبعث ابنه العباس إلى بناء طوانة فبنى بها ميلاً في ميل ودورها أربعة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب ونقل إليها الناس من البلدان.

وفاة المأمون وبيعة المعتصم

ثم مرض المأمون على نهر البريرون واشتد مرضه ودخل العراق وهو مريض فمات بطرسوس وصلى عليه المعتصم وذلك لعشرين سنة من خلافته، وعهد لابنه المعتصم وهو أبو إسحاق محمد فبويح له بعد موته، وذلك منتصف رجب من سنة ثمان عشرة ومائتين. وشغب الجند وهتفوا باسم العباس بن المأمون فأحضره وباع فسكتوا وخرب لوقته ما كان بناء من مدينة طوانة وأعاد الناس إلى بلادهم وحمل ما أطاق حمله من الآلة وأحرق الباقي.

ظهور صاحب الطالقان

وهو محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي زين العابدين بن الحسين، كان ملازماً للمسجد بالمدينة فلزمه شيطان من أهل خراسان وزين له أنه أحق بالامامة، وصار يأتيه بمحجاج خراسان يبايعونه. ثم خرج به إلى الجوزجان وأخفاه وأقبل على الدعاء له، ثم حمله على إظهار الدعوة للرضا من آل محمد على عادة الشيعة في هذا الإلهام كما قدمناه. وواقعه قواد عبد الله بن طاهر بخراسان المرة بعد المرة فهزموه وأصحابه، وأخرج ناجياً

ونزل بابك عليه يحاصره وإذا بالأفشين قد وصل، فأوقع بهم وقتل الكثير من جنده، ونجا بابك إلى موقان وأرسل إلى عسكره في البر فلاحقت به، وخرج معهم من موقان إلى البذل. ولما رجع الأفشين إلى عسكره استمر على حصار بابك وانقطعت عنه الميرة من مسائر النواحي، ووجه صاحب مراغة إليه ميرة فلقيتها سرية من سرايا بابك فأخذوها، ثم خلص إليه بغا بما معه من المال ففرقه في العساكر، وأمر الأفشين قواده فتقدموا ليضيقوا الحصار على بابك في حصن البذل، ونزل على ستة أميال منه. ومار بغا الكبير حتى أحاط بقرية البذل وقاتلهم وقتلوا منهم جماعة فتأخر إلى خندق عمدة بن حميد من القواد، وبعث إلى الأفشين في المدد، فبعث إليه أخاه الفضل وأحمد بن الخليل بن هشام وأبا خوس وصاحب شرطة الحسن بن سهر، وأمره بمناجرتهم إلى الحرب في يوم عينه له، فركبوا في ذلك اليوم، وقصدوا البذل وأصابهم برد شديد ومطر.

وقاتل الأفشين فغلب من يازاته من أصحاب بابك واشتد عليهم المطر فنزلوا واتخذ بغا دليلاً أشرف به على جبل يطل منه على الأفشين ونزل عليهم الثلج والضباب فنزلوا منازلهم. وعمد بابك إلى الأفشين ففض معسكره وضجر أصحاب بغا من مقامهم في رأس الجبل فارتحل بهم ولا يعلم ما تم على الأفشين، وقصد حصن البذل فتعرف خبر الأفشين ورجع على غير الطريق الذي دخلوا منه لكثرة مضايقه وعقباته وتبعته طلائع بابك فلم يلتفت إليهم مسابقة للمضايقة أمامه. وأجنهم الليل وخافوا على أنقاسهم وأموالهم فمسكر بهم بغا من رأس جبل وقد تعبوا وفنيت أروادهم ويبيتهم بابك فضضهم ونهبوا ما كان معهم من المال والسلاح ونجوا إلى خندقهم الأول في أسفل الجبل وأقام بغا هنالك.

وكان طرخان كبير قواد بابك قد استأذنه أن يشتري بقرية في ناحية مراغة، فأرسل الأفشين إلى بعض قواده بمراغة فأسرى إليه وقتله وبعث برأسه.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين فبعث المعتصم جعفرًا الخياط بالعساكر مددًا للأفشين، وبعث أنباخ ثلاثين ألف ألف درهم لنفقات الجند فأرسلها وعاد، ورحل الأفشين لأول فصل الربيع، ودنا من الحصن وخندق على نفسه. وجاءه الخبر بأن قائد بابك واسمه أدين قد عسكر بإزائه وبعث عياله إلى بعض حصون الجبل، فبعث الأفشين بعض قواده لاعتراضهم فسلخوا مضايق وتغلوا وأغاروا إلى أن لقوا العيال فأخذوهم وانصرفوا، وبلغ الخبر أدين فركب لاعتراضهم وحاربهم واستنقذ بعض النساء. وعلم بشأنهم الأفشين من علامات كان أمرهم بها أن رأى

الشام فأتى. ولما استخلف المعتصم استولى على هواه واستيعب الدواوين واحتجر الأموال ثم صار يرد أوامر المعتصم في العطايا ولا يفنئها، واختلفت فيه السعاعات عند المعتصم ودسوا عليه عنده من ملأ مجلسه ومساخره من يُعير المعتصم باستبداده عليه ورد أوامره فحقد له ذلك. ثم نكبه ستة عشرين وصادره وجميع أهل بيته، وجعل مكانه محمد بن عبد الملك بن الزيات وغرب الفضل إلى بعض قرى الموصل.

محاورة بابك الخرمي

قد تقدم لنا حديث بابك الخرمي وظهوره سنة اثنتين ومائتين بدعوة جاوندان بن سهل، واتخذ مدينة البذل لامتناعه وتولى المأمون حروبه، فهزم عساكره وقتل جماعة من قواده وخرب الحصون فيما بين أردبيل وزنجان، فلما ولي المعتصم بعث أبا سعيد محمد بن يوسف فبنى الحصون التي خربها وشحنها بالرجال والأقوات، وحفظ السابلة لجلب الميرة. وبينما هو في ذلك أغارت بعض سرايا بابك بتلك النواحي فخرج في طلبهم واستنفذ ما أخذوه، وقتل كثيراً وأسر أكثر، وبعث بالرووس والأسرى إلى المعتصم.

وكان ابن البعث أيضاً في قلعة له حصينة من كسور أذربيجان ملكها من يد ابن الرواد، وكان يصانع بابك ويضيف سراياه إذا مروا به. ومر به في هذه الأيام قائده عصمة، وأضافه على العادة، ثم قبض عليه وقتل أصحابه وبعث به إلى المعتصم، فسأله عن عورات بلاد بابك فدلّه عليها. ثم حبسه وعقد لقائده الأفشين حيدر بن كاوس على الجبال، ووجهه لحرب بابك، فسار إليها ونزل بساحتها وضبط الطرقات ما بينه وبين أردبيل، وأنزل قواده في العساكر ما بينه وبين أردبيل يتلقون الميرة من أردبيل من واحد إلى الآخر حتى تصل عسكر الأفشين. وكان إذا وقع بيده أحد من جواسيس بابك يسأله عن إحسان بابك إليه فيضاعفه ويطلقه. ثم إن المعتصم بعث بغا الكبير بمدد الأفشين بالنفقات وسمع بابك فاعتزم على اعتراضه وأخبر الأفشين بذلك بعض جواسيسهم، فكتب إلى بغا أن يرتحل من حصن النهرقيلا ثم يرجع إلى أردبيل ففعل ذلك.

وجاءت الأخبار إلى بابك وركب الأفشين في يوم موادعته لبغا وأغذ المسير، خرجت سرية بابك فلقيت قافلة النهر ولم يصادفوا بغا فيها فقتلوا من وجدوا فيها من الجند وقاتهم المال. ولقوا في طريقهم الهيم من قواد الأفشين فهزموه وامتنع بمحصنه،

بهم ريباً فركب إليهم فلما أحسوا به فرجوا عن المضيق ونجا القوم، وتقدم الأفشين قليلاً قليلاً إلى حصن البذ وكان يأمر الناس بالركوب ليلاً للحراسة خوف البيات فضجر الناس من التعب وارتاد في رؤوس تلك الجبال أماكن يتحصن فيها الرجالة فوجد ثلاثة فأنزل فيها الرجالة بأزوادهم وسد الطرق إليها بالحجارة وأقام يحاصروهم. وكان يصلي الصبح بغلس، ثم يسير زحفاً ويضرب الطبول ليزحف الناس لزحفه في الجبال والأودية على مصافهم، وإذا أمسك وقفوا وكان إذا أراد أن يتقدم المضيق الذي أتى منه عام أول خلف به عسكرياً على رأس العقبة يحفظونه لئلا يأخذه الحرس منه عليهم. وكان بابك متى زحفوا عليه كمن عسكرياً تحت تلك العقبة، واجتهد الأفشين أن يعرف مكان الكمين فلم يطق وكان يأمر أبا سعيد وجعفر الخياط وأحمد بن الخليل بن هشام فيتقدمون إلى الوادي في ثلاثة كراديس، ويجلس على تلك ينظر إليهم وإلى قصر بابك ويقف بابك قبالة في عسكر قليل وقد أكنم بقية العسكر فيشربون الخمر ويلعبون بالسرياني، فإذا صلى الأفشين الظهر رجع إلى خندقه بروذ الروز مصافاً بعد مصاف، الأقرب إلى العدو ثم الذي يليه، وآخرين ترجع العسكر الذي عقبه المضيق حتى ضجرت الخزيمة من المطاولة، وانصرف بعض الأيام وتأخر جعفر فخرج الخزيمة من البذ على أصحابه فردهم جعفر على أعقابهم، وارتفع الصباح ورجع الأفشين وقد نشبت الحرب.

وكان مع أبي دلف من أصحاب جعفر قوم من المطوعة فضيقوا على أصحاب بابك وكانوا يصدعون البذ، وبعث جعفر إلى الأفشين يستمدده خمسمائة راجل من الناشبة فأتى له وأمره بالتحيل في الإنصراف، وتعلق أولئك المطوعة بالبذ وارتفع الصباح وخرج الكمناء من تحت العقبة، وتبين الأفشين أماكنهم واطلع على خدعتهم. وانصرف جعفر إلى الأفشين وعاتبه فاعتذر إليه يستأمن الكمين وأراه مكانه، فانصرف عن عتابه وعلم أن الرأي معه.

وشكا المطوعة ضيق العلوفة والزاد فأذن لهم في الإنصراف وتناولوه بالستهم، ثم طلبوه في المناهضة فأذن لهم ووداعهم ليوم معلوم، وتحجز وحمل المال والزاد والماء والحامل لجرجان، وتقدم إلى مكانه بالأمس وجهاز العسكر على العقبة على عادته، وأمر جعفر بالتقدم بالمطوعة وإن يأتوا من أسهل الوجوه وأطلق يده بمن يريده من الناشبة والنقاطين، وتقدم جعفر إلى مكانه بالأمس والمتطوعة معه، فقاتلوا وتعلقوا بسور البذ حتى ضرب جمعهم ما به وجاء الفعلة بالفؤوس وطيف عليهم بالمياه والأزودة ثم جاء الخزيمة من

ثم عاود الأفشين الحرب بعد أسبوعين وبعث من جوف الليل ألفاً من الناشبة إلى الجبل الذي وراء البذ حتى يعاينوا الأفشين من هذه الناحية فيرمون على الخزيمة. وبعث عسكرياً آخر كميناً تحت ذلك الجبل الذي وراء البذ، وركب هو من الغداة إلى المكان الذي يقف فيه على عادته. وتقدم جعفر الخياط والقواد حتى صاروا جميعاً حول ذلك الجبل، فوثب كمين بابك من أسفل الجبل بالعسكر الذي جاء إليه لما فضحهم الصبح، والمخدر الناشبة من الجبل وقد ركبوا الأعلام على رماحهم، وقصدوا جميعاً أدين قائد بابك في جفلة، فإخدر إلى الوادي، فحمل عليه جماعة من أصحاب القواد فرمى عليهم الصخور من الجبل وتحدت إليهم.

ولما رأى ذلك بابك استأمن للأفشين على أن يحمل عياله من البذ، وبينما هم في ذلك إذ جاء الخبر إلى الأفشين بدخول البذ، وأن الناس صعدوا بالأعلام فوق قصور بابك حتى دخل وادياً هنالك وأحرق الأفشين قصور بابك وقتل الخزيمة عن آخرهم، وأخذ أمواله وعياله، ورجع إلى معسكره عند المساء، وخالفه بابك إلى الحصن فحمل ما أمكنه من المال والطعام وجاء الأفشين من الغد فهدم القصور وأحرقها وكتب إلى ملوك أرمينية وبطارقتهم بإذكاء العيون عليه في نواحيهم حتى يأتوه به، ثم عثر على بابك بعض العيون في واد كثير الغياض يمر من أذربيجان إلى أرمينية فبعث من يأتي فلم يعثروا عليه لكثرة الغياض والشجر.

وجاء كتاب المعتصم بأمانه فبعث به الأفشين بعض المستأمنة من أصحاب بابك فامتنع من قبوله. وقتل بعضهم، ثم خرج من ذلك الوادي هو وأخوه عبد الله ومعاوية وأمه يريدون أرمينية، ورأى الحرس الذين جاؤوا لأخذه وكان أبو السفاح هو المقدم عليهم فمروا في أتباعهم وأدركوهم على بعض المياه، فركب ونجا وأخذ أبو السفاح معاوية وأم بابك وبعث بهم إلى الأفشين وسار بابك في جبال أرمينية تخفياً وقد أذكروا عليه العيون حتى إذا مسه الجوع بعث بعض أصحابه بدنانير لشراء قوتهم فعثر به بعض المسلحة.

وبعث إلى سهل بن سباط فجاء واجتمع بصاحب بابك الذي كانت حراسة الطريق عليه، ودله على بابك فأتاه وخادعه حتى سار إلى حصته وبعث بالخبر إلى الأفشين فبعث إليه بقائدين من قبله وأمرهما بطاعة ابن سباط، فأكمنهما في بعض نواحي

فانتهاز الفرصة ثلاثاً أو دونها. وظن بابك أن ذلك يدعو المعتصم إلى إنفاذ العساكر لحرب الروم، فيخف عنه ما هو فيه، فخرج نوفل في مائة ألف وفيهم من الجمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال وهزمهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فلقح بالروم، وبلغ نوفل زيطرة فاستباحها قتلاً وسبياً وأعاد على ملطية وغيرها، ومثل بالأسرى. وبلغ الخبر إلى المعتصم فاستعظمه وبلغه أن هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم: وامتعصماه! فأجاب وهو على سريره: ليك، ليك!.

ونادى بالغير ونهض من ساعته فركب دابته واحتقب شكلاً وسكة من حديد فيها رداؤه. وجمع العساكر وأحضر قاضي بغداد عبد الرحمن بن إسحاق ومعه ابن سهل في ثلاثمائة وثلاثين من العدول فأشهدهم بما وقف من الضياع، ثلثاً لولده وثلثاً لمواليه، وثلثاً لوجه الله. وسار فعسكر بقرى دجلة لليلتين من جمادى الأولى ويث عجيف بن عنبسة وعمر الفرغاني وجماعة من القواد مدداً لأهل زيطرة، فوجدوا الروم قد ارتحلوا عنها فأقاموا حتى تراجع الناس واطمأنوا.

ولما ظفر ببابك سأل أي بلاد الروم أعظم عندهم فقيل له: عمورية، فتجهز إليها بما لا يماثلها أحد قبله من السلاح والآلة والعدد، وحياض آدم والقرب والروايا وجعل مقدمته أشناس، وبعده محمد بن إبراهيم بن مصعب وعلى الميمنة ليشاخ، وعلى الميسرة جعفر بن دينار الحياط، وعلى القلب عجيف بن عنبسة وجاء إلى بلاد الروم فأقام بسلوقية على نهر السن قريباً من البحر، وعلى مسيرة يوم طرطوس وبعث الأفشين إلى سروج وأمره بالدخول من درب الحرب وبعث أشناس من درب طرطوس وأمره بانتظاره بالصفصاف، وقدم وصيفاً في أثر أشناس وواعدهم يوم اللقاء. ورحل المعتصم لست بقين من رجب. وبلغه الخبر أن ملك الروم عازم على كبس مقدمته فبعث إلى أشناس بذلك وأن يقيم ثلاثة أيام ليلحق به.

ثم كتب إليه أن يبعث إليه من قواده من يأتيه بخبر الروم وملكهم فبعث عمر الفرغاني في مائتي فارس، فطاف في البلاد وأحضر جماعة عند أشناس أخبروه بأن ملك الروم بينما هو ينتظر المقدمة ليواقعها إذ جاءه الخبر بأن العساكر دخلت من جهة أرمينية يعني: عسكر الأفشين، فاستخلف ابن خاله على عسكره وسار إلى تلك الناحية فوجه أشناس بهم إلى المعتصم. وكتب المعتصم إلى الأفشين بالمقام حذراً عليه وجعل لمن يوصل الكتاب عشرة آلاف درهم، وأوغل في بلاد الروم فلم يدركه الكتاب.

وكتب المعتصم إلى أشناس بأن يتقدم والمعتصم في أثره حتى

الحصن وأغرى بابك بالصيد وخرج معه فخرج القائدان من الكمين فأخذاه وجاء به إلى الأفشين ومعهما معاوية بن سهل بن ساباط فحبسه ووكل بحفظه وأعطى معاوية ألف درهم، وأتى سهلاً ألف ألف درهم ومنطقة مفرقة بالجواهر. وبعث إلى عيسى بن يوسف بن أسطقائوس ملك اليلقان يطلب منه عبد الله أخا بابك، وقد كان لجأ إلى حصنه عندما أحاط به ابن ساباط فأئذنه إليه، وحبسه الأفشين مع أخيه.

وكتب إلى المعتصم فأمره بالقدوم بهما وذلك في شوال من سنة اثنين وعشرين، وسار الأفشين بهما إلى سامرا فكان يلقاه في كل رحلة رسول من المعتصم بخلة وفرس. ولما قرب من سامرا تلقاه الوائق وكبر لقدميه وأنزل الأفشين وبابك عنده بالمطيرة وتوج الأفشين وألبسه وشاحين ووصله بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف درهم يفرقها في عسكره، وذلك في صفر سنة ثلاث وعشرين.

وجاء أحمد ابن أبي داود إلى بابك متكرراً وكلمه، ثم جاء المعتصم أيضاً متكرراً فرآه. ثم عقد من الغد واصطف النظارة سماطين وجيء ببابك راكباً على فيل، فلما وصل أمر المعتصم بقطع أطرافه ثم بذمجه، وأنفذ رأسه إلى خراسان، وصلب شلوه بسامرا وبعث بأخيه عبد الله إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد ليفعل به مثل ذلك ففعل. وكان الذي أنشق الأفشين في مدة حصاره لبابك سوى الأرزاق والأنزال والمعاون عشرة آلاف ألف درهم يوم ركوبه لمحاربته، وخمسة آلاف يوم قعوده. وجميع من قتل بابك في عشرين سنة أيام قتيبة مائة ألف وخمسة وخمسين ألفاً، وهزم من القواد يحيى بن معاذ وعيسى بن محمد بن أبي خالد وأحمد بن الجنيذ وزريق بن علي بن صدقة ومحمد بن حميد الطوسي وإبراهيم بن الليث. وكان الذين أسروا مع بابك ثلاثة آلاف وثلثمائة والذي استنقذ من يديه من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة إنسان جعلوا في حظيرة، فمن أتى من أوليائهم وأقام بينة على أحد منهم أخذه، والذي صار في يد الأفشين من بني بابك وعياله سبعة عشر رجلاً وثلاثاً وعشرين امرأة.

فتح عمورية

وفي سنة ثلاث وعشرين خرج نوفل بن ميخائيل ملك الروم إلى بلاد المسلمين فأوقع بأهل زيطرة، لأن بسابك لما أشرف على الهلاك كتب إليه أن المعتصم قد وجه عساكره حتى خياطة يعني: جعفر بن دينار وطباخه يعني: ليشاخ ولم يبق عنده أحد،

إليه واستمدهم فأبوا. فبعث إلى المعتصم يستأمن فأمته وخرج من الغد إلى المعتصم وكان اسمه وندوا فينما هو والمعتصم يحادثه أوماً عبد الوهاب بن علي من بين يديه إلى المسلمين بالدخول فافتتحوا من الثلثة ورأهم وندوا فخاف فقال له المعتصم: كل شيء تريده هو لك. ودخل المسلمون المدينة وامتنع الروم بكنيستهم وسطها فأحرقها المسلمون عليهم.

وامتنع باطيس البطريق في بعض أبراجها حتى استنزل المعتصم بالأمان، وجاء الناس بالأسرى والسبي من كل جانب، واصطفى الأشراف وقتل من سواهم وبيعت مغائهم في خمسة أيام وأحرق الباقي. ووثب الناس على المغام في بعض الأيام يهيجونها فركب المعتصم وسار نحوهم فكفؤوا بعمورية فهدمت وأحرق وحاصرها خمسة وخمسين يوماً من سادس رمضان إلى آخر شوال، وفرق الأسرى على القواد ورجع نحو طرطوس. ولم يزل نوفل ملكاً على الروم إلى أن هلك سنة تسع وعشرين ومائتين في ولاية الوائق ونصبوا ابنه ميخايل في كفالة أمه ندورة فأقامت عليهم ست سنين ثم اتهمها ابنها ميخايل بقطع من أقماطها عليها وألزمها بيتها سنة ثلاث وثلاثين.

حبس العباس بن المأمون ومهلكه

كان المعتصم يقدم الأفشين على عفيف بن عنبسة ولما بعته إلى زبطرة لم يطلق يده في النفقات كما أطلق للأفشين وكان يستقصر شأن عفيف وأفعاله، فطوى عفيف على النكت ولقي العباس بن المأمون فعذله على قعوده عند وفاة المأمون عن الأمر حتى يبيع المعتصم وأغراه قبلًا في ذلك فقبل العباس منه، ودس رجلاً من بطانته يقال له السمرقندي قرابة عبد الله بن الوضاح وكان له أدب ومدارة فاستأمن له جماعة من القواد ومن خواص المعتصم فبايعوه ووعد كل واحد منهم أن يثب بالقائد الذي معه فيقتله من أصحاب المعتصم والأفشين وأشناس بالرجوع إلى بغداد فأبى من ذلك وقال: لا أفسد العراق. فلما فتحت عمورية وصعب التدبير بعض الشيء أشار عفيف بأن يضع من يهيب الغنائم فإذا ركب المعتصم وثبوا به ففعلوا مثل ما ذكرنا. وركب فلم يتجاسروا عليه.

وكان للفرغاني قرابة غلام أمرد في جملة المعتصم فجلس مع ندمان الفرغاني تلك الليلة وقص عليهم ركوب المعتصم فاشفق الفرغاني وقال: يا بني أقلل من المقام عند أمير المؤمنين والزم خيمتك، وإن سمعت هبة فلا تخرج فأت غلام غر. ثم ارحل

إذا كانوا على ثلاث مراحل من أنقرة أسر أشناس في طريقه جماعة من الروم فقتلهم، وقال لهم شيخ منهم: أنا أدلك على قوم هربوا من أنقرة معهم الطعام والشعيرة فبعث معه مالك بن كرد في خمسمائة فارس فدخل بهم إلى مكان أهل أنقرة فغنموا منهم ووجدوا فيهم جرحى قد حضروا وقعة ملك الروم مع الأفشين، وقالوا: لما استخلف على عسكره سار إلى ناحية أرمينية فلقينا المسلمين صلاة الغداة فهزمتاهم وقتلنا رجالهم وافترت عساكرنا في طلبهم، ثم رجعوا بعد الظهر فقاتلونا وحرقوا عساكرنا وفقدنا الملك وانهزمنا، ورجعنا إلى العسكر فوجدناه قد انتقض وجاء الملك من الغد فقتل نائبه الذي استخلفه، وكتب إلى بلاده بعقاب المنهزمين ومواعدهم بمكان كذا ليلقى المسلمين بها. ووجه خصياً له إلى أنقرة ليحفظها فوجد أهلها قد أجلوا فأمره الملك بالمسير إلى عمورية، فوعى مالك بن كرد خبرهم ورجع بالغنيمة والأسرى إلى أشناس وأطلق الأمير الذي دله.

وكتب أشناس بذلك إلى المعتصم ثم جاء البشير من ناحية الأفشين بالسلامة، وأن الوقعة كانت لحسن بقين من شعبان. وقدم الأفشين على المعتصم بأنقرة ورحل بعد ثلاث والأفشين في ميمتة وأشناس في ميسرته وهو في القلب، وبين كل عسكر وعسكر فرسخان، وأمرهم بالتخريب والتحريق وما بين أنقرة وعمورية.

ثم وافى عمورية وقسمها على قواده، وخرج إليه رجل من المنتصرة فدله على عورة من السور بني ظاهره وأخل باطنه فضرب المعتصم خيمته قبائه ونصبت عليه المجانيق، فتصدع السور. وكتب بطريقها باطيس والخصي إلى الملك يعلمانه بشأنهما في السور وغيره، فوقع في يد المسلمين مع رجلين.

وفي الكتاب أن باطيس عازم على أن يخرج ليلاً وعسكر بعسكر المسلمين ويلحق بالملك فنأدى المعتصم حرسه، ثم اتملت فوهة من السور بين برجين وقد كان الخندق طم بأوعية الجلود المملوءة تراباً ثم ضرب بالذبالات عليها فدحرجها الرجال إلى السور فنشبت في تلك الأوعية وخلص من فيها بعد الجهد. ولما جاء من الغد بالسلام والمنجنيقات فقاتلهم على تلك الثلثة وحارب ويدز بالحرب أشناس وجمعت المنجنيقات على تلك الثلثة وحارب في اليوم الثاني الأفشين والمعتصم راكب إزاء الثلثة، وأشناس وأفشين وخواص الخدام معه.

ثم كانت الحرب في اليوم الثالث على المعتصم وتقدم إشتاخ بالمغاربة والأتراك واشتد القتال على الروم إلى الليل وفشت فيهم الجراحات، ومشى بطريق تلك الناحية إلى رؤساء الروم، وشكا

جرجان إلى نيسابور، وأنفذ عبد الله بن طاهر عمه الحسن بن الحسين في جيش كثيف لحفظ جرجان، فعسكر على الخندق، ثم بعث مولاه حيان بن جبلة إلى قومس فعسكر على جبال شروين.

وبعث المعتصم من بغداد محمد بن إبراهيم بن مصعب وبعث منصور بن الحسن صاحب ديباوند إلى الري، وبعث أبا الساج إلى ديباوند وأحاطت العساكر بحيلة من كل ناحية، ودخل أصحاب الحسن بن الحسين أصحاب سرخاشان في تسليم سورهم وليس بينهما إلا عرض الخندق، فكلموه وسار الآخرون إليه على حين غفلة من القائلين، وركب الحسن بن الحسين وقد ملك أصحابه السور ودخلوا منه فهرب سرخاشان وقبضوا على أخيه شهريار فقتل. ثم قبض على سرخاشان على خمسة فراسخ من معسكره وحيه به إلى الحسن بن الحسين فقتله أيضاً.

ثم وقعت بين حيان بن جبلة وبين فاروق بن شهريار وهو ابن أخي مازيار ومن قواده، مذاخلة استمالة حيان، فأجاب أن يسلم مدينة سارية إلى حد جرجان على أن يملكوه جبال آبائه، وبعث حيان إلى ابن طاهر فسجل لقارن بما سأل، وكان قارن في جملة عبد الله بن قارن أخي مازيار ومن قواده فأحضر جميعهم لطعامه وقبض عليهم، وبعث بهم إلى حيان فدخل جبال قارن في جموعه واعتصم لذلك مازيار، وأشار عليه أخوه القوهيار أن يخلي سبيل من عنده من أصحابه ينزلون من الجبل إلى مواطنهم لئلا يؤتى من قبلهم، فصرف صاحب شرطته وخراجه وكتبه حميدة، فلحقوا بالسهل ووثب أهل سارية يعاملهم عليهم مهرستان بن شهرين فهرب ودخل حيان سارية.

ثم بعث قوهيار أخو مازيار محمد بن موسى بن حفص عامل طبرستان وكانوا قد حبسوه عند انتفاضهم، فبعثه إلى حيان ليأخذ له الأمان وولاية جبال آبائه على أن يسلم إليه مازيار، وعزل قوهيار بعض أصحابه في عدوله بالاستئمان عن الحسن إلى حيان فرجع إليهم وكتبوا إلى الحسن يستدعون قوهيار من أخيه مازيار فركب من معسكره بطمس وجاء لموعدهم ولقي حيان على فرسخ فرده إلى جبال شروين التي اقتتها، ووجهه على غيبته عنها فرجع سارية وتوفي، وبعث عبد الله مكانه محمد بن الحسين بن مصعب وعهد إليه أن لا يمنع قارن ما يريد، ولما وصل الحسن إلى خرماباذ وسط جبال مازيار لقيه قاهيار هنالك، واستوثق كل منهما من صاحبه، وكتب محمد بن إبراهيم بن مصعب من قواد المعتصم قوهيار بمثل ذلك، فركب قاصداً إليه، وبلغ الحسن خبره فركب في العسكر وحازم يسابق محمد بن إبراهيم إلى قوهيار فسبقه ولقي قوهيار وقد جاء بأخيه مازيار فقبض عليه وبعثه مع اثنين

المعتصم إلى الثغور وتغير أشتاس على عمر الفرغاني وأحمد بن الخليل وأساء إليهما فطلباً من المعتصم أن يضمهما إلى من شاء وشكياً من أشتاس فقال له المعتصم: أحسن أدبهما فحبسهما وحملهما على بغل، فلما صار بالصفصاف حدث الغلام ما سمع من قريه عمر الفرغاني فأمر بقا أن يأخذه من عند أشتاس ويسأله عن تأويل مقالته فأنكر، وقال: إنه كان سكران، فدفعه إلى إيتاخ.

ثم دفع أحمد بن الخليل إلى أشتاس.... عنده نصيحة للمعتصم وأخبره خبر العباس بن المأمون والقواد والحارث السمرقندي فأنفذ أشتاس إلى الحارث وقبده وبعث به إلى المعتصم، وكان في المقدمة فأخبر الحارث المعتصم بحيلة الأمر فأطلقه وخلع عليه، ولم يصدقه على القواد لكثرتهم. ثم حضر العباس بن المأمون واستحلفه أن لا يكتم عنه شيئاً فشرح له القصة فحبسه عند الأفشين وبتبع القواد بالحبس والتكبير وقتل منهم المشاء بن سهيل ثم دفع العباس للأفشين، فلما نزل منبج طلب الطعام فاطعم ومنع الماء. ثم أدرج في بيج فمات. ولما وصل المعتصم إلى نصيبين احتفر لعمر الفرغاني بئراً وطمت عليه، ولما دخلوا بلاد الموصل قتل عجيف بمثل ما قتل به العباس واستلحم جميع القواد في تلك الأيام وسموا العباس اللعين. ولما وصل إلى سامرا جلس أولاد المأمون في داره حتى ماتوا.

انتفاض مازيار وقتله

كان مازيار بن قارن بن وندا هرمز صاحب طبرستان وكان منافراً لعبد الله بن طاهر فلا يعمل إليه الخراج وقال: لا أحله إلا للمعتصم فبعث المعتصم من يقبضه من أصحابه ويدفعه إلى وكيل عبد الله بن طاهر يرده إلى خراسان. وعظمت الفتنة بين مازيار وعبد الله وعظمت سعاية عبد الله في مازيار عند المعتصم حتى استوحش منه. ولما ظفر الأفشين بيبابك وعظم محله عند المعتصم وطمع في ولاية خراسان ظن أن انتفاض مازيار وسيلة لذلك فجعل يستميل مازيار ويجرضه على عداوة ابن طاهر وإن أدت إلى الخلاف ليعتد المعتصم لحربه فيكون ذلك وسيلة له إلى استيلائه على خراسان ظناً بأن ابن طاهر لا ينهض لمحاربته.

فانتفض مازيار وحمل الناس على بيعته كرهاً وأخذ رهائنهم وعجل جباية الخراج فاستكثر منه وخرب سور آمد وسور سابة وقتل أهلها إلى جبل يعرف بهرمازيار وني سرخاشان سور طمس منها إلى البحر على ثلاثة أميال وهي على حد جرجان وكانت تبنيه سداً بين الترك وطبرستان وجعل عليه خندقاً ومن أهل

فهزمه الأكراد وأئخنوا في أصحابه بالقتل، وقتل إسحاق بن أنس عم عبد الله فبعث المعتصم مولاه إيتاخ في العساكر إلى الموصل سنة خمس وعشرين وقصد جبل داس فقاتل جعفرًا وقتله وافترق أصحابه، وأوقع بالأكراد واستباحهم وفروا أمامه إلى تكريت.

نكبة الأفشين ومقتله

كان الأفشين من أهل أشروسنة تبوأها ونشأ ببغداد عند المعتصم وعظم عله عنده ولما حاصر بابك كان يبعث إلى أشروسنة بجميع أمواله، فيكتب ابن طاهر بذلك إلى المعتصم، فيأمره المعتصم بأن يجعل عيونه في ذلك. وعثر مرة ابن طاهر على تلك الأموال فأخذها وصرفها في العطاء، وقال له حاملوها: هذا مال الأفشين فقال: كذبتُم لو كان ذلك لأعلمني أخي أفشين به، وإنما أنتم لصوص، وكتب إلى الأفشين بذلك بأنه دفع المال إلى الجند ليوجههم إلى الترك فكتب إليه أفشين: مالي ومال أمير المؤمنين واحد، وسأله في إطلاق القوم فأطلقهم واستحكمت الوحشة بينهما وتتابعت السعاية فيه من طاهر، وربما فهم الأفشين أن المعتصم يعزله عن خراسان فطمع في ولايتها، وكان مازيار يحسن له الخلافة ليدعو المعتصم ذلك إلى عزله وولاية الأفشين لحرب مازيار.

فكان من أمر مازيار ما ذكرناه وسبق إلى بغداد مقيداً، وولى المعتصم الأفشين على أذربيجان فولى عليها من قبله منكجور من بعض قرابته فاستولى على مال عظيم لبابك. وكتب به صاحب البريد إلى المعتصم فكذبه منكجور وهم بقتله، فمنعه أهل أردبيل فقاتلهم، وسمع ذلك المعتصم فأمر الأفشين بعزل منكجور وبعث قائداً في عسكره مكانه، فخلع منكجور وخرج من أردبيل فهزمه القائد ببعض حصون أذربيجان كان بابك خربه، فأصلحه وتحصن فيه شهراً ثم وثب أصحابه وأسلموه إلى القائد، فقدم به إلى سامرا فحبسه المعتصم واتهم الأفشين في أمره وذلك سنة خمس وعشرين ومائتين بأن القائد كان بغا الكبير وأنه خرج إليه بالأمان أهـ.

ولما أحسن الأفشين بتغير المعتصم أجمع أمره على الفرار واللاحق بأرمينية، وكانت في ولايته ويخرج منها إلى بلاد الحزور ويرجع إلى بلاد أشروسنة، وصعب عليه ذلك بمباشرة المعتصم أمره فأراد أن يتخذ لهم صنيعاً يشغلهم فيه نهارهم، ثم يسير من أول الليل.

وعرض له في أثناء ذلك غضب على بعض مواليه وكان سيئ الملكة فايقن مولاه بالملكة، وجاء إلى إيتاخ فأحضره إلى

من قواده إلى خرماباذ ومنها إلى مدينة سارية.

ثم ركب واستقبل محمد بن إبراهيم بن مصعب وقال: أين تريد؟ فقال: إلى المازيار فقال: هو بسارية، ثم حبس الحسن أخوي المازيار ورجع إلى مدينة سارية فقيّد المازيار بالقيّد الذي قيّد به محمد بن محمد بن موسى بن حفص، وجاء كتاب عبد الله بن طاهر بأن يدفع المازيار وأخويه وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم يحملهم إلى المعتصم. وسأل الحسن المازيار عن أمواله فذكر أنها عند قوم من وجوه سارية سماهم وأمر الحسن القوهيار بحمل هذه الأموال، وسار إلى الجبل ليحملها، فوثب به بمالك المازيار من الديلم وكانوا ألفاً ومائتين فقتلوه بشار أخيه وهربوا إلى الديلم، فاعترضتهم جيوش محمد بن إبراهيم وأخذوهم فبعث بهم إلى مدينة سارية.

وقيل: إن الذي غدر بالمازيار ابن عم له كان يتوارث جبال طبرستان والمازيار يتوارث سهلها، وكانت جبال طبرستان ثلاثة أجبل فلما انتقض واحتاج إلى الرجال دعا ابن عمه من السهل وولاه على أصعبها وظن أنه قد توثق به فكتب هو الحسن وأطلعه على مكتبة الأفشين لمازيار وداخله في الفتك على أن يوليه ما كان لأبائه، وأن المازيار لما ولاه الحسن بن سهل طبرستان انتزع الجبل من يده فافضى له الحسن كتاب ابن طاهر وتوثق له فيه، وأوعده ليوم معلوم ركب فيه الحسن إلى الجبل فدخله ابن عم مازيار وحاصروه حتى نزل على حكمه. ويقال: أخذه أسيراً في الصيد. ومضى الحسن به ولم يشعر صاحب الجبل الآخر وأقام في قتاله لمن كان بإزائه فلم يشعر إلا والعساكر من ورائه فانهزم، ومضى إلى بلاد الديلم فأتبعوه وقتلوه. ولما صار المازيار في يده طلبت منه كتب الأفشين فأحضرها، وأمر ابن طاهر أن يبعث بها معه إلى المعتصم، فلما وصل إلى المعتصم ضربه حتى مات وصلبه إلى جانب بابك وذلك سنة أربع وعشرين.

ولاية ابن السيد على الموصل

وفي سنة أربع وعشرين ولى المعتصم على الموصل عبد الله بن السيد بن أنس الأزدي وكان سبب ولايته أن رجلاً من مقدمي الأكراد يعرف بجعفر بن فهرجس كان قد عصى بأعمال الموصل، وتبعه خلق كثير من الأكراد وغيرهم، وأفسدوا البلاد فبعث المعتصم لحربه عبد الله بن السيد بن أنس فقاتله وغلّبه على ماتعيس وأخرجه منها بعد أن كان استولى عليها ولحق بجبل دانس وامتنع بأعاليه، وقاتله عبد الله وتوغل في مضائق ذلك الجبل،

فقال الأفشين: هذا يدعي أن أخي كتب إلى أخيه فما يجب علي؟ ولو كتب فانا أستميله مكرماً به لأحظى عند الخليفة كما حظي به ابن طاهر، فزجره ابن أبي دؤاد فقال له الأفشين: ترفع طيلسانك فلا تضعه حتى تقتل جماعة فقال: امتطهر أنت؟ قال: لا! قال: فما بمنك وهو شعار الإسلام؟ قال: خشيت على نفسي من قطعة! قال: فكيف وأنت تلقى الرماح والسيوف؟ قال: تلك ضرورة أصبر عليها وهذا أستجلبه. فقال ابن أبي دؤاد لبنا الكبير: قد بان لكم أمره يا بنا عليك به! فلدغته يديه وردده إلى محبسه، وضرب مازيار أربعمائة سوط فمات منها، وطلب أفشين من المعتصم أن ينفذ إليه من يثق به، فبعث حمدون بن إسماعيل فاعتذر له عن جميع ما قيل فيه وحمل إلى دار إيشاخ فقتل بها وصلب على باب العامة، ثم أحرق وذلك في شعبان من سنة ست وعشرين، وقيل: قطع عنه الطعام والشراب حتى مات.

ظهور المبرقع

كان هذا المبرقع يعرف بأبي حرب اليماني وكان بفلسطين وأراد بعض الجند النزول في داره فمنعه بعض النساء فضر بها الجندي، وجاء فشكت إليه بفعل الجندي، فسار إليه وقتله، ثم هرب إلى جبال الأردن فأقام بها واختفى ببرقع على وجهه وصار يأمر بالمرعوف وينهي عن المنكر، ويعيب الخليفة ويزعم أنه أموي، واجتمع له قوم من تلك الناحية وقالوا: هو السفيناني. ثم أجابه جماعة من رؤساء اليمانية منهم ابن بهيس وكان مطاعاً في قومه وغيره فاجتمع له مائة ألف، وصرح المعتصم رجاء بن أيوب في ألف من الجند فخام عن لقائهم لكثرة من معه، وعسكر قبائله يتظر أوان الزراعة وانصراف الناس عنه لأعمالهم. وبينما هم في الانصراف توفي المعتصم واثارت الفتنة بدمشق، فأمره الواثق بقتل من أثار الفتنة والعود إلى المبرقع، ففعل وقاتله فأخذه أسيراً وابن بهيس معه، وقتل من أصحابه عشرين ألفاً وحمله وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين.

وفاة المعتصم وبيعة الواثق

وتوفي المعتصم أبو إسحاق محمد بن المأمون بن الرشيد منتصف ربيع الأول سنة سبع وعشرين لثمان سنين وثمانية أشهر من خلافته ويومئذ ابنه هارون الواثق صبيحته وتكنى أبا جعفر. فثار أهل دمشق بأمرهم وحاصروه وعسكروا بمرج واسط وكان رجاء بن أيوب بالرملة في قتال المبرقع، فرجع إليهم بأمر الواثق

المعتصم وخبره الخبر فأمره بإحضاره وحسبه بالجوتق، وكان ابنه الحسن عاملاً على بعض ما وراء النهر فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر في الاحتياط عليه، وكان يشكو من نوح بن أسد صاحب بخارى. فكتب ابن طاهر إلى الحسن بولاية بخارى وكتب إلى نوح بذلك وأن يستوثق منه إذا وصل إليه ويبعث به، ثم يبعث به إلى ابن طاهر، ثم إلى المعتصم.

ثم أمر المعتصم بإحضار الأفشين ومناظرته فيما قيل عنه، فأحضر عند الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات وعنده القاضي أحمد بن أبي داود وإسحاق بن إبراهيم وجماعة القواد والأعيان، وأحضر المازيار من محبسه والمؤيد والمرزيان بن تركش أحد ملوك الصغد، ورجلان من أهل الصغد يدعيان أن الأفشين ضربهما وهما إمام ومؤذن بمسجد. فكشفا عن ظهورهما وهما عاريان من اللحم، فقال ابن الزيات للأفشين: ما بال هذين؟ قال: عهدا إلى معاهدين فوثبا على بيت أصنامهم فكسراهما، وأخذنا البيت مسجداً فعاقبتهما على ذلك. وقال ابن الزيات: ما بال الكتاب المحلى بالذهب والجواهر عندك وفيه الكفر؟ قال: كتاب ورثته من آبائي وأوصوني بما فيه من آدابهم فكنت أخذها منه وأترك كفرهم، ولم أحتج إلى نزع حليته، وما ظننت أن مثل هذا يخرج عن الإسلام.

ثم قال المؤيد: إنه يأكل لحم المتخلفة ويمحلي على أكلها ويقول: هو أرطب من لحم المذبوحة. ولقد قال لي يوماً: حملت على كل مكروه لي حتى أكلت الزيت وركبت الجميل ولبست النعل، وإلى هذه الغاية لم أختنق ولم تسقط عني شعرة العانة. فقال الأفشين: أتق هذا عندكم في دينه؟ وكان مجوسياً قالوا: لا! قال: فكيف تقبلونه علي؟ ثم قال للمؤيد: أنت ذكرت أنني أسررت إليك ذلك، فلست بثقة في دينك ولا بكريم في عهدك ثم قال له المرزيان: كيف يكاتبك أهل أشروسنة؟ قال: ما أدري! قال: أليس يكاتبونك بما تفسره بالعربي: إلى إله الآلهة من عبده فلان؟ قال: بلى! فقال ابن الزيات: فما أبقيت لفرعون؟ قال: هذه عادة منهم لأبي وجدي ولي قبل الإسلام، ولو منعهم لفسدت علي طاعتهم.

ثم قال له: أنت كاتب هذا؟ وأشار إلى المازيار. كتب أخوه إلى أخيه قوهيار أنه لن ينصر هذا الدين غيري وغيرك وغير بابك، فاما بابك فقد قتل نفسه بجمعه، ولقد عهدت أن أمنعه فأبى إلا خنقه، وأنت إن خالفت لم يرمك القوم بغيري ومعني أهل النجدة، وإن توجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا العرب والمغاربة والترك، والعربي كلب تناول لقمعة وتضرب رأسه، والمغاربة أكله رأس، والأتراك لهم صدمة ثم تجول الخيل جولة فتأتي عليهم، ويعود هذا الدين إلى ما كان عليه أيام العجم.

إليهم وقدم رجلاً من قواده يعرض عليهم الأمان، فهربوا من سطوته إلى الشام واتبعهم إلى تخوم الحجاز من الشام، وأقام أربعين ليلة ثم رجع إلى المدينة بمن ظفر منهم.

وجاءه قوم من بطون غفار وقزارة واشجع وتغلبة فاستخلفهم على الطاعة ثم سار إلى بني كلاب فأتوه في ثلاثة آلاف رجل فحبس أهل الفساد منهم ألفاً بالمدينة وأطلق الباقين، وأمره الواثق سنة اثنتين وثلاثين بالمسير إلى بني غدير باليمامة وما قرب منها لقطع فسادهم، فسار إليهم ولقي جماعة الشريف منهم فحاربهم وقتل منهم خمسين وأسر أربعين. ثم سار إلى مرة وبعث إليهم في الطاعة فاستمتعوا وسار إلى جبال السند وطف اليمامة وبعث سراياهم فأوقع بهم في كل ناحية ثم سار إليهم في ألف رجل فلقبهم قريباً من أضاخ فكشفوا مقدمته وميسرته وأنخنوا في عسكره بالقتل والنهب.

ثم ساروا تحت الليل وهو في أتباعهم يدعوهم إلى الطاعة وبعث طائفة من جنده يدعون بعضهم وأصبح وهو في قلة، فحملوا عليه وهزموه إلى معسكره، وإذا بالطائفة الذين بعثهم قد جاؤوا من وجهتهم فلما رآهم بنو غدير من خلفهم ولوا منهزمين وأسلموا رجالهم وأموالهم ونجوا على خيلهم ولم يفلت من رجالهم أحد، وقتل منهم نحو ألف وخسمائة، وأقام بمكان الوقعة واستأنم له أرازمهم فقيدهم وحبسهم بالبصرة. وقدم عليهم واجن الأشروسني في سبعمائة مقاتل مدداً فيبعثه إلى أتباعهم إلى أن بلغ تبالة من أعمال اليمن ورجع، وسار بغا إلى بغداد بمن معه منهم وكانوا نحو ألفي رجل ومائتي رجل، وكتب إلى صالح أمير المدينة أن يوافيه ببغداد من عنده منهم فجاء بهم وسلموا جميعاً.

مقتل أحمد بن نصر

وهو أحمد بن مالك وهو أحد النقباء كما تقدم وكان أحمد هذا نسيبة لأهل الحديث ويغشاها جماعة منهم مثل ابن حصين وابن الدورقي وأبي زهير، ولقن منهم التكرير على الواثق بقوله يخلق القرآن. ثم تعدى ذلك إلى الشتم وكان يعتنه بالختيز والكافر، وفشا ذلك عنه وانتدب رجلاً من كان يغشاها همما: أبو هارون السراج وطالب وغيرهما فدعوا الناس له وبأبعه خلق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفرقوا الأموال في الناس ديناراً لكل رجل، وأنفذوا لثلاث تمضي من شعبان من سنة إحدى وثلاثين يظهرون فيها دعوتهم.

واتفق أن رجالاً من بايعهم من بني الأشرس جاؤوا قبل

فقاتلهم وهزمهم وأنخن فيهم، وقتل منهم نحو ألف وخسمائة ومن أصحابه نحو ثلاثمائة، وصلاح أمر دمشق، ورجع رجاء إلى قتال المبرقع حتى جاء به أسيراً..... بيعة الواثق توجه أشناس ووشحه وكان للواثق سمر يجلسون عنده ويفضون في الأخبار حتى أخبروه عن شأن البرامكة واستبدادهم على الرشيد واحتجابهم الأموال فأغراه ذلك بمصادرة الكتاب فحبسهم والزهم الأموال.

فأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربته، ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربعمائة ألف، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألفاً، ومن إبراهيم بن رباح وكاتبه مائة ألف، ومن أبي الوزر مائة وأربعين ألفاً وكان على اليمن إيتاخ وولاه عليها المعتصم بعدما عزل جعفر بن دينار، وسخطه وحبسه ثم رضي عنه وأطلقه، فلما ولي الواثق ولّى إيتاخ على اليمن من قبله ساريامان، فسار إليها وكان الحرس إسحاق بن يحيى بن معاذ ولاء المعتصم بعد عزل الأفشين، وولى الواثق على المدينة سنة إحدى وعشرين محمد بن صالح بن العباس وبقي محمد بن داود على مكة، وتوفي عبد الله بن طاهر سنة ثلاثين وكان على خراسان وكرمان وطبرستان والري وكان له الحرب والشرطة والسواد فولى الواثق على أعماله كلها ابنه طاهراً.

وقعة بغا في الأعراب

كان بنو سليم يفسدون بنواحي المدينة ويتسلطون على الناس في أموالهم وأوقعوا بناس من كتانة وياهلة، وبعث محمد بن صالح إليهم مسلحة المدينة ومعهم متطوعة من قريش والأنصار فهزمهم بنو سليم وقتلوا عامتهم وأحرقوا لباسهم وسلاحهم وكراعهم ونهبوا القرى ما بين مكة والمدينة وانقطع الطريق، فبعث الواثق بغا الكبير، وقدم المدينة في شعبان فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم خمسين رجلاً وأسر مثلها، واستأنموا له على حكم الواثق، فقبض على ألف منهم ممن يعرف بالفساد فحبسهم بالمدينة وذلك سنة ثلاثين. ثم حج وسار إلى ذات عرق وعرض على بني هلال مثل بني سليم فأخذ من المفسدين منهم نحو ثلاثمائة رجل وحبسهم بالمدينة وأطلق الباقين.

ثم خرج بغا إلى بني مرة فنقب أولئك الأسرى الحبس وقتلوا الموكلين، فاجتمع عليهم أهل المدينة ليلاً ومنعوه من الخروج فقاتلهم إلى الصبح ثم قتلهم، وشق ذلك على بغا وكان سبب غيبته أن فزارة وبني مرة تغلبوا على فذك، فخرج

أحمد بن أبي دؤاد وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرح وابن الزيات، وأراد البيعة لمحمد بن واثق وهو غلام إمر، فالبسوه فإذا هو قصير فقال وصيف: أما تتقون الله تولون الخلافة مثل هذا! ثم تنظروا فيمن يولونه وأحضروا المتوكل فالبسه ابن أبي دؤاد الطويلة وعممه وسلم عليه بإمارة المؤمنين ولقيه المتوكل، وصلى على الواثق ودفنه. ثم وضع العطاء للجنيد لثمانية أشهر، وولى على بلاد فارس إبراهيم بن محمد بن مصعب، وكان على الموصل غانم بن محمد الطويس فأقره وعزل ابن العباس محمد بن وصول عن ديوان النفقات وعقد لابنه المنتصر على الحرمين واليمن والطائف.

نكبة الوزير ابن الزيات ومهلكه

كان محمد بن عبد الملك بن الزيات قد استوزره الواثق فاستمكن من دولته وغلب على هؤلاء، وكان لا يحفل بالمتوكل ولا يوجب حقه، وغضب الواثق عليه مرة فجاء إلى ابن الزيات ليستزله فأساء معاملته في التحية والملاقة فقال: اذهب فإنك إذا صلحت رضي عنك. وقام عنه حزناً فجاء إلى القاضي أحمد بن دؤاد فلم يدع شيئاً من البر إلا فعله وحياه وفداه، وخطب حاجته فقال: أحب أن ترضي عني أمير المؤمنين فقال: أفعل ونعمة عين! ولم يزل بالواثق حتى رضي عنه. وكان ابن الزيات كتب إلى الواثق عندما خرج عنه المتوكل أن جعفر أثناني فسأل الرضا عنه وله وفرة شبه زي المخشئين، فأمره الواثق أن يحضره من شعر قفاه فاستحضره فجاء يظن الرضا عنه وأمر حجاماً أخذ من شعره وضرب به وجهه فحقد له ذلك وأساء له.

ولما ولي الخلافة بقي شهراً ثم أمر إيتاخ أن يقبض عليه ويقيده بداره ويصادره، وذلك في صفر سنة ثلاث وثلاثين، فصادره واستصفى أمواله وأملاكه وسلط عليه أنواع العذاب، ثم جعله في تنور خشب في داخله مسامير تمنع من الحركة وتزعج من فيه لضيقه، ثم مات منتصف ربيع الأول، وقيل: إنه مات من الضرب وكان لا يزيد على التشهد وذكر الله. وكان عمر بن الفرج الرخجي يعامل المتوكل بمثل ذلك فحقد له، ولما استخلف قبض عليه في رمضان واستصفى أمواله ثم صودر على أحد عشرة ألف ألف.

نكبة إيتاخ ومقتله

كان إيتاخ مولى السلام الأبرص وكان عنده ناخورياً طبائخاً، وكان شجاعاً فاشتراه المعتصم منه سنة تسع وتسعين وارتفع في

الموعد بليلة وقد نال منهم السكر فضرىوا الطبل وصاحب الشرطة إسحاق بن إبراهيم غائب، فارتاع خليفة محمد أخوه فارس من يسأل عن ذلك فلم يوجد أحد، وأتوه برجل أعور اسمه عيسى وجدوه في الحمام فدلهم على بني الأشروس وعلى أحمد بن نصر وعلى أبي هارون وطالب، ثم سيق خادماً أحمد بن نصر فذكر القصة، فقبض عليه وبعث بهم جميعاً إلى الواثق بسامرا مقيدتين، وجلس لهم مجلساً عاماً وحضر فيه أحمد بن أبي دؤاد، ولم يسأله الواثق عن خروجه وإنما سأله عن خلق القرآن فقال: هو كلام الله. ثم سأله عن الرؤية فقال: جاءت بها الأخبار الصحيحة ونصيحتي أن لا يخالف حديث رسول الله ﷺ. ثم سأل الواثق العلماء حوله عن أمره، فقال عبد الرحمن بن إسحاق قاضي الجانب الغربي: هو حلال الدم وقال ابن أبي دؤاد: هو كافر يستتاب. فدعا الواثق بالصمصامة فانتضاه ومشى إليه فضره على جبل عاتقه ثم على رأسه، ثم وخزه في بطنه، ثم أجهز سيما الدمشقي عليه وحزوا رأسه، ونصب ببغداد وصلب شلوه عنده بابها.

الفداء والصائفة

وفي سنة إحدى وثلاثين عقد الواثق لأحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة على الثغور والعواصم، وأمره بحضور الفداء هو وجائنان الخادم، وأمرهما أن تمتحن الأسرى باعتقاد القرآن والرؤية. وجاء الروم بأسراهم والمسلمون كذلك والتقوا على نهر اللامس على مرحلة من طرطوس وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعة وستين والنساء والصبيان ثمانمائة وأهل الذمة مائة. فلما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم شاتياً وأصاب الناس ثلج ومطر وهلك منهم مائة نفس، وأسر منهم نحوها وخرق بالنبل قرون خلق، ولقيه بطريق من الروم فخام عن لقائه ثم غنم ورجع، فعزله الواثق وولى مكانه نصر بن حمزة الخزاعي.

وفاة الواثق وبيعة المتوكل

وتوفي الواثق أبر جعفر هارون بن المعتصم محمد لست بقين من سنة اثنتين وثلاثين، وكانت علته الاستسقاء وأدخل في تنور مسجر فلقي خفة، ثم عاوده في اليوم الثاني أكثر من الأول فأخرج في حفرة فمات فيها، ولم يشعروا به. وقيل: إن ابن أبي دؤاد غمضه ومات لخمس سنين وتسعة أشهر من خلافته، وحضر في الدار

دولته ودولة الوراق ابنه وكان له المؤنة بسامرا مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب. وكانت نكبة العظماء في الدولة على يديه وحسبهم بداره، مثل أولاد المأمون وابن الزيتا وصالح وعجيف وعمر بن الفرج وابن الجنيد وأمثالهم، وكان له البريد والحجابة والجيش والمغاربة والأتراك. وشرب ذات ليلة مع المتوكل فعريد على إيتاخ وهم إيتاخ بقتله، ثم غدا عليه فاعتذر له ودس عليه من زين له الحج فاستأذن المتوكل فأذن له وخلع عليه وجعله أمير كل بلد يمر به.

بيعة العهد

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعة والعهد وكانوا ثلاثة: عمداً وطلحة وإبراهيم، ويقال في طلحة ابن الزبير وجعل عمداً أولهم ولقبه المستنصر وأقطعه أفريقية والمغرب وقسرين والثغور والشامية والخزيرة، وديار مضر وديار ربيعة، وهيت والموصل وغانة والخابور، وكور دجلة والسواد والخرمين وحضرموت والحرمين والسند ومكران وقنابيل وكور الأهواز والمستغلات بسامرا، وماء الكوفة وماء البصرة.

وجعل طلحة ثانيهم ولقبه المعتز وأقطعه أعمال خراسان وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وأعمال فارس، ثم أضاف إليه سنة أربعين خزن الأموال ودور الضرب في جميع الأفاق وأمر أن يرسم اسمه في السكة.

وجعل الثالث إبراهيم وأقطعه حمص ودمشق وفلسطين وسائر الأعمال الشامية وفي هذه السنة أمر الجند بتغيير الزي فلبسوا الطيالة العسيلة وشدوا الزنانيير في أوساطهم..... وجعلوا الطراز في لباس المالك ومنع من لباس المناطق وأمر بهدم البيع المحدث لأهل الذمة ونهى أن يستغاث بهم في الأعمال وأن يظهروا في شعابهم الصلبان وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الحشب.

ملك محمد بن إبراهيم

كان محمد بن إبراهيم بن الحسن بن مصعب على بلاد فارس، وهو ابن أخي طاهر وكان أخوه إسحاق بن إبراهيم صاحب الشرطة ببغداد منذ أيام المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل، وكان ابنه محمد بباب الخليفة بسامرا نائباً عنه. فلما مات إسحاق سنة خمس وثلاثين ولاء المتوكل وضم إليه أعمال أبيه، واستخلفه المعتز على اليمامة والبحرين ومكة وحمل إلى المتوكل وبنه من الجواهر والذخائر كثيراً، وبلغ ذلك محمد بن إبراهيم فتكر للخليفة ولمحمد ابن أخيه، وشكا ذلك محمد إلى المتوكل

وسار لذلك في ذي القعدة سنة أربع وثلاثين أو ثلاث وثلاثين، وسار العسكر بين يديه وجعلت الحجابة إلى وصيف الخادم ولما عاد إيتاخ من الحج بعث إليه المتوكل بالهدايا والألطف، وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره بحبسه. فلما قارب بغداد كتب إليه إسحاق بأن المتوكل أمر أن يدخل ببغداد وأن تلقاه بنو هاشم ووجوه الناس وأن يقعد بدار خزمية بن خازم فيأمر للناس بالجواز على قدر طبقاتهم ففعل ذلك، ووقف إسحاق على باب الدار فمنع أصحابه من الدخول إليه ووكل بالأبواب ثم قبض على ولديه منصور ومظفر وكاتبه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد، وبعث إيتاخ إليه يسأله الرفق بالولدين ففعل، ولم يزل إيتاخ مقيداً بالسجن إلى أن مات فقيل: إنهم منعه الماء وبقي ابنه عبوسين إلى أن أطلقهما المنتصر بعد المتوكل.

شان ابن البغيث

كان محمد بن البغيث بن الحليس ممتنعاً في حصونه بأذربيجان وأعظمها مرند، واستنزل من حصنه أيام المتوكل وحبس بسامرا فهرب من حبسه ولحق بمرند، وقيل: إنه في حبس إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وشفع فيه بغا الشراي، فأطلقه إسحاق في كفالة محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وكان يتردد إلى سامرا حتى مرض المتوكل ففر ولحق بمرند وشحنها بالأقوات، وجاءه أهل الفتنة من ربيعة وغيرهم فاجتمع له نحو ألفين ومائتي رجل، والوالي بأذربيجان يومئذ محمد بن حاتم بن هرمة فلم يقامعه فعزله المتوكل وولى حمدويه بن علي بن الفضل السعدي، فسار إليه وحاصره بمرند مدة وبعث إليه المتوكل بالمدد، وطلال الحصار فلم يقن فيه، فبعث بغا الشراي في ألفي فارس فجاء لحصاره. وبعث إليه عيسى بن الشيخ بن السلسل بالأمان له ولوجوه أصحابه أن ينزلوا على حكم المتوكل، فنزل الكثير منهم وانقض جمعه ولحق ببغا وخرج هو هارباً، ونهبت منازل وأسرت

علي. وتوفي في هذه السنة أحمد بن أبي دؤاد بعد ابنه أبي الوليد بعشرين يوماً وكان معتزلاً أخذ ملههم عن بشر المريسي وأخذه بشر عن جهم بن صفوان وأخذه جهم عن الجعد بن دهم معلم مروان.

انتفاض أهل حمص

وفي سنة سبع وثلاثين وثب أهل حمص بعاملمهم أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي بسبب أنه قتل بعض رؤسائهم فأخرجوه وقتلوا من أصحابه، فولى مكانه محمد بن عبدويه الأنباري فأساء إليهم وعسف فيهم فوثبوا به، وأمره المتوكل بجند من دمشق والرملة فظفر بهم وقتل منهم جماعة، وأخرج النصارى منها وهدم كنائسهم وأدخل منها بيعة في الجامع كانت تجاوره.

إغارة البجاة على مصر

كانت الهدنة بين أهل مصر والبجاة من لدن الفتح، وكان في بلادهم معادن الذهب يؤدون منها الخمس إلى أهل مصر، فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين بالمعادن، وكتب صاحب البريد بذلك إلى المتوكل فشاور الناس في غزوهم فأخبروه أنهم أهل إيل وشاء وأن بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولا بد فيها من الزاد، وإن فئت الأزواد هلك العسكر فأمسك عنهم. وخاف أهل الصعيد من شرهم، فولى المتوكل محمد بن عبد الله القمي على أسوان وقنط والأقصر وأسنا وأرمنت، وأمره بحرب البجاة.

وكتب إلى عتبة بن إسحاق الضبي عامل مصر بتجهيز العساكر معه وأزاحه عليهم فصار في عشرين ألفاً من الجنود والمتطوعة، وحملت المراكب من القلزم بالدقيق والتمر والأدم إلى سواحل بلاد البجاة وانتهى إلى حصونهم وقلاعهم. وزحف إليه ملكهم واسمه علي بابا في أضعاف عساكرهم على المهاري، وطاولهم علي بابا رجاء أن تغنى أزوادهم فجاءت المراكب وفرقها القمي في أصحابه، فناجزهم البجاة الحرب وكانت لإبلهم نفورة، فأمر القمي جنده بالتحاذر الأجراس مخيلهم. ثم حملوا عليهم فانهزموا وأثنى فيهم قتلاً وأمرأ حتى استأمنوا على أداء الخراج لما سلف ولما يأتي وأن يرد إلى ملكته، وسار مع القمي إلى المتوكل واستخلف ابنه، فخلع القمي عليه وعلى أصحابه، وكسا أرجلهم الجلال المديحة وولاهم طريق ما بين مصر ومكة، وولى عليهم سعداً الإيتاخي الخادم فولى سعد محمد القمي فرجع معهم

فسرحه إلى فارس وولاه مكان عمه محمد فصار وعزل عمه محمداً وولى مكانه ابن عمه الحسين بن إسماعيل بن مصعب، وأمره بقتل عمه محمد فاطمته ومنعه الشراب فمات.

انتفاض أهل أرمينية

كان على أرمينية يوسف بن محمد فجاءه البطريق بقرط بن أسواط وهو بطريق البطارقة يستأمن قبض عليه وعلى ابنه ويعث بهما إلى المتوكل، فاجتمع بطارقة أرمينية مع ابن أخيه وصهره موسى بن زرارة وتحالفوا على قتله وحاصروه بمدينة طرون في رمضان سنة سبع وثلاثين، وخرج لقتالهم فقتلوه ومن كان معه. فسرح المتوكل بغا الكبير فصار على الموصل والجزيرة وأناخ على أردن حتى أخذها وحمل موسى وإخوته إلى المتوكل وقتل منهم ثلاثين ألفاً وسبى خلقاً وسار إلى مدينة ديبيل فأقام بها شهراً ثم سار إلى تفلنس فحاصرها، ويعث في مقدمته بيزرك التركي وكان بتفلنس إسحاق بن إسماعيل بن إسحاق مولى بني أمية فخرج وقتلهم، وكانت المدينة كلها مشيدة من خشب الصنوبر، فأمر بغا أن يرمي عليها بالنفط فاضطربت النار في الخشب، واحترقت قصور إسحاق وجواريه وخسوف ألف إنسان وأسر الباقون، وأحاطت الأتراك والمغاربة بإسحاق فأمره وقتله بغا لوقتته، ونجبا أهل إسحاق بأمواله إلى صعديل مدينة حذاء تفلنس على نهر الكرم من شرقيه بناها أنوشروان وحصنها إسحاق وجعل أمواله فيها فاستباحها بغا، ثم بعث الجند إلى قلعة أخرى بين بردعة وتفلنس ففتحوها وأسروا بطريقها. ثم سار إلى عيسى بن يوسف في قلعة كيس من كور البيلقان ففتحها وأسره وحمل معه جماعة من البطارقة وذلك سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

عزل ابن أبي دؤاد وولاية ابن أكنم

وفي سنة سبع وثلاثين غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وقبض ضياعه وحبس أولاده، فحمل أبو الوليد منهم مائة وعشرين ألف دينار وجواهر تساوي عشرين ألفاً، ثم صولح عن ستة عشر ألف درهم وأشهد عليهم ببيع أملاكهم وفتح أحمد، فأحضر المتوكل يحيى بن أكنم وولاه قضاء القضاة، وولى أبا الوليد بن أبي دؤاد المظالم ثم عزله. وولى أبا الربيع محمد بن يعقوب ثم عزله، وولى يحيى بن أكنم على المظالم ثم عزله سنة أربعين، وصارده على خمسة وسبعين ألف دينار وأربعة آلاف حربو، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن

واستقامت ناحيتهم.

الولايات في النواحي

الصوائف

ولى المتوكل سنة اثنتين على بلاد فارس محمد بن إبراهيم بن مصعب وكان على الموصل غانم بن حميد الطوسي، واستوزر لأول خلافته محمد بن عبد الله بن الزيات. وولى على ديوان الخراج يحيى بن خاقان الخراساني مولى الأزدي، وعزل الفضل بن مروان. وولى على ديوان النفقات إبراهيم بن محمد بن حنظل. وولى سنة ثلاث وثلاثين على الحرمين واليمن والطائف ابنه المستنصر، وعزل محمد بن عيسى. وولى على حجابة بابه وصيفاً الخادم عندما سار لإتياح للحج. وفي سنة خمس وثلاثين عهد لأولاده كما مر، وولى على الشرطة ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب مكان ابنه إبراهيم عندما توفي، وكانت وفاته و وفاة الحسن بن سهل في سنة واحدة. وفي سنة ست وثلاثين استكتب عبيد الله بن يحيى بن خاقان ثم استوزره بعد ذلك، وولى على أرمينية وأذربيجان حرباً وخراجاً يوسف بن أبي سعيد محمد بن يوسف المروزي عندما توفي أبوه فجاءه فسار إليها وضبطها، وأساء إلى البطارقة بالناحية فوثبوا به كما مر وقتلوه.

وبعث المتوكل بغا الكبير في العساكر فأخذ ثاره منهم، وولى معادن السواد عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم. وفي سنة تسع وثلاثين عزل ابن أبي دؤاد عن القضاء وصادره، وولى مكانه يحيى بن أكنم. وقدم محمد بن عبد الله بن طاهر من خراسان فولاه الشرطة والجزية وأعمال السواد، وكان على مكة علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور فحج بالناس، ثم ولى مكانه في السنة القابلة عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى. وولى على الأحداث بطريق مكة والمواسم جعفر بن دينار، وكان على حمص أبو المغيب موسى بن إبراهيم الرافقي وثبوا به سنة تسع وثلاثين، فولى مكانه محمد بن عبدويه. وفي سنة تسع وثلاثين عزل يحيى بن أكنم عن القضاء، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان وفي سنة اثنتين وأربعين ولى على مكة عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام، وولى على ديوان النفقات الحسن بن غنخلد بن الجراح عندما توفي إبراهيم بن العباس الصولي وكان خليفته فيها من قبل.

وفي سنة خمس وأربعين أخط المتوكل مدينته وأنزلها القفراد والأولياء وأنفق عليها ألف ألف دينار، وبني فيها قصر اللؤلؤة لم ير مثله في علوه وأجرى له الماء في نهر احفره وسماه المتوكلية وتسمى الجعفري والماخورة وفيها ولى على طريق مكة أبسا الساج مكان جعفر بن دينار لوفاته تلك السنة. وولى على ديوان الضياع

وفي سنة ثمان وثلاثين ورد على دمياط اسطول الروم في مائة مركب فكسوها وكانت المسلحة الذين بها قد ذهبوا إلى مصر باستدعاء صاحب المعونة عسبة بن إسحاق الضبي فانتهزوا الفرصة في مغيبهم وانتهبوا دمياط وأحرقوا الجامع بها وأوقروا سفنهم سبياً ومتاعاً، وذهبوا إلى تيس ففعلوا فيها مثل ذلك وأقطعوا. وغزا بالصائفة في هذه السنة علي بن يحيى الأرميني صاحب الصوائف. وفي سنة إحدى وأربعين كان الفداء بين الروم وبين المسلمين وكانت ندورة ملكة الروم قد حملت أسرى المسلمين على التنصر فتصر الكبير منهم. ثم طلبت المقادة فيمن بقي فبعث المتوكل سبياً الخادم بالفداء ومعه قاضي بغداد جعفر بن عبد الواحد واستخلف على القضاء ابن أبي الشوارب وكان الفداء على نهر اللامس ثم أغارت الروم بعد ذلك روية فأسروا من كان هنالك من الزط وسبوا نساءهم وأولادهم ولما رجع علي بن يحيى الأرميني من الصائفة خرجت الروم في ناحية سمياط فانتهزوا إلى آمد واكسحوا نواحي الثغور والجزرية نهياً وأسروا نحواً من عشرة آلاف ورجعوا وأتبعهم قرشاش وعمر بن عبد الأقطع وقوم من المتطوعة فلم يدركوهم وأمر المتوكل علي بن يحيى أن يدخل بالثانية في تلك السنة ففعل.

وفي سنة أربع وأربعين جاء المتوكل من بغداد إلى دمشق وقد اجتمع نزولها ونقل الكرسي إليها فأقام بها شهرين، ثم استوبأها ورجع بعد أن بعث بغا الكبير في العساكر للصائفة فدخل بلاد الروم فدوخها واكسحها من سائر النواحي ورجع. وفي سنة خمس وأربعين أغارت الروم على سمياط فغنموا وغزا علي بن يحيى الأرميني بالصائفة كركرة وانتقض أهلها على بطريقهم فقبضوا عليه وسلموه إلى بعض موالي المتوكل، فأطلق ملك الروم في فداء البطريق ألف أسير من المسلمين. وفي سنة ست وأربعين غزا عمر بن عبد الله الأقطع بالصائفة فجاءوا بأربعة آلاف رأس، وغزا قرشاش فجاء بخمسة آلاف رأس، وغزا الفضل بن قاراد في الأسطول بعشرين مركباً فافتتح حصن انطاكية وغزا ملكها دورهم وسبأ، وغزا علي بن يحيى فجاء بخمسة آلاف رأس ومن الظهر بعشرة آلاف وكان على يده في تلك السنة الفداء في ألفين وثلاثمائة من الأسرى.

زرافة فمعه المتصر، ويبيع له زرافة وركب إلى الدار فباعه من حضر ويعث إلى وصيف أن الفتح قتل أبي قتلته، فحضر ويبيع. ويعث عن أخويه المعتز والمؤيد فحضرأ ويابعا له. وانتهى الخبر إلى عبيد الله بن يحيى فركب من ليله وقصد منزل المعتز فلم يجده واجتمع عليه عشرة آلاف من الأزد والأرمن والزواقل، وأغروه بالحملة على المتصر وأصحابه فأبى وخام عن ذلك، وأصبح المتصر فامر بدفن المتوكل والفتح، وذلك لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين. وشاع الخبر بقتل المتوكل فثار الجند وتبعهم..... وركب بعضهم بعضاً، وقصدوا باب السلطان فخرج إليهم بعض الأولياء فسمعوه، ورجع فخرج المتصر بنفسه وبين يديه المغاربة فشردهم عن الأبواب فنفروا بعد أن قتل منهم سنة أنفس.

الخبر عن الخلفاء من بني العباس أيام الفتنة، وتغلب الأولياء وتضايق نطاق الدولة باستبداد الولاة في النواحي من لدن المتصر إلى أيام المستكفي

كان بنو العباس حين ولوا الخلافة قد امتدت إسلاتهم على جميع ممالك الإسلام، كما كان بنو أمية من قبلهم. ثم لحق بالأندلس من فل بنو أمية من ولد هاشم بن عبد الملك حافده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ونجا من تلك الهلكة فأجاز البحر ودخل الأنندلس فملكها من يد عبد الرحمن بن يوسف الفهري، وخطب للسفاح فيها حولاً ثم لحق به أهل بيته من المشرق فغزلوه في ذلك فقطع الدعوة عنهم وبقيت بلاد الأنندلس مقطعة من الدولة الإسلامية عن بني العباس. ثم لما كانت وقعة فتح أيام الهادي علي بن الحسن بن علي سنة تسع وتسعين ومائة، وقتل داعيتهم يومئذ حسين بن علي بن حسن المثنى وجماعة من أهل بيته ونجا آخرون، وخلص منهم إدريس بن عبد الله بن حسن إلى المغرب الأقصى وقام بدعوته البرابرة هنالك، فانتطع المغرب عن بني العباس فاستحدثوا هنالك دولة لأنفسهم.

ثم ضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، وتغلب على الخليفة فيها الأولياء والقرابة والمصطنعون، وصار تحت حجرهم من حين قتل المتوكل وحدثت الفتن ببغداد، وصار العلوية إلى النواحي مظهرين لدعوتهم، فدعا أبو عبد الله الشيعي سنة ست وثمانين ومائتين بأفريقية في طامة لعبيد الله المهدي بن محمد بن

والتوقيع نجاح بن سلمة وكانت له صولة على العمال، فكان ينام المتوكل فسعى عنده في الحسن بن مخلد وكان معه ديوان الضياع ولي موسى بن عقبة عبد الملك وكان على ديوان الخراج، وضمن للمتوكل في مصادرتها أربعين ألفاً. وأذن للمتوكل وكانا مقطعين إلى عبيد الله بن خاقان، فتلطف عند نجاح وخادعه حتى كتب على الرقعتين، وأشار إليه بأخذ ما فيها معاً وبدأ بنجاح فكتبه وقبض منه مائة وأربعين ألف دينار سوى الغلات والفرش والضياع، ثم ضرب فمات وصودر أولاده في جميع البلاد على أموال جمّة.

مقتل المتوكل وبيعة المنتصر ابنه

كان المتوكل قد عهد إلى ابنه المتصر ثم ندم وأبغضه لما كان يتوهم فيه من استعجاله الأمر لنفسه، وكان يسميه المتصر والمستعجل لذلك. وكان المتصر تنكر عليه مخاوفه عن سنن سلفه فيما ذهبوا إليه من مذهب الاعتزال والتشيع لعلي، وربما كان الندمان في مجلس المتوكل يفيضون في ثلب علي فينكر المتصر ذلك ويتهدهم ويقول للمتوكل: إن علياً هو كبير بيننا وشيخ بني هاشم، فإن كنت لا بد ثالبه فتول ذلك بنفسك ولا تجعل لهؤلاء الصفاغين سبيلاً إلى ذلك فيستخف به ويشتمه، ويامر وزيره عبيد الله بصفعه ويتهده بالقتل ويصرح بمخلعه. وربما استخلف ابنه الخبر في الصلاة والخطبة مراراً وتركه فطوى من ذلك على النكت. وكان المتوكل قد استفسد إلى بغا ووصيف الكبير ووصيف الصغير ودواجن، فأفسدوا عليه الموالي. وكان المتوكل قد أخرج بغا الكبير من الدار وأمره بالمقام بسميساط لتمهد الصراف، فسار لذلك واستخلف مكانه ابنه موسى في الدار وكان ابن خالة المتوكل، واستخلف على السرى بغا الشرايبي الصغير.

ثم تغير المتوكل لوصيف وقبض ضياعه بأصبيان والجبل وأقطعها الفتح بن خاقان، فتغير وصيف لذلك وداخل المتصر في قتل المتوكل، وأعد لذلك جماعة من الموالي بعثهم مع ولده صالح وأحمد وعبد الله ونصر، وجاؤوا في الليلة التي اتعدوا فيها. وحضر المتصر ثم انصرف على عادته، وأخذ زرافة الخادم معه، وأمر بغا الشرايبي الندمان بالانصراف حتى لم يبق إلا الفتح وأربعة من الخاصة، وأغلق الأبواب إلا باب دجلة فدخل منه الرجال وأحسن المتوكل وأصحابه بهم فخافوا على أنفسهم، واستماتوا وابتدروا إليه فقتلوه. وألقى الفتح نفسه عليهم ليقه فقتلوه.

ويعث إلى المتصر وهو بيت زرافة فأخبره وأوصى بقتل

والشام بالاستبداد من لدن الخمسين والمائتين أيام الفتنة إلى آخر المائة الثالثة ثم أعقبتها دولة أخرى لمواليهم بني طفج إلى الستين والثلاثمائة. وفي خلال هذا كله تضايق نطاق الدولة العباسية إلى نواحي السواد والجزيرة فقط، إلا أنهم قائمون ببغداد على أمرهم. ثم كانت للديلم دولة أخرى استولوا فيها على النواحي وملكوا الأعمال ثم ساروا إلى بغداد وملكوها وصيروا الخليفة في ملكتهم من لدن المستكفي أعوام الثلاثين والثلاثمائة، وكانت من أعظم الدول. ثم أخذها من أياديهم السلجوقية من الغز إحدى شعوب الترك، فلم تزل دولتهم من لدن القائم سنة أربعين وأربعمائة إلى آخر المائة السادسة، وكانت دولتهم من أعظم الدول في العالم.

وتشعبت عنها دول هي متصلة إلى عهدنا حسيما يذكر ذلك كله في مكانه ثم استبد الخلفاء من بني العباس آخراً في هذا النطاق الضيق ما بين دجلة والفرات وأعمال السواد وبعض أعمال فارس، إلى أن خرج التتار من مفازة الصين وزحفوا إلى الدولة السلجوقية وهم على دين المجوسية، وزحفوا إلى بغداد فقتلوا الخليفة المعتصم، وانقرض أمر الخلافة وذلك سنة ست وخمسين ومستمائة. ثم أسلموا بعد ذلك وكانت لهم دولة عظيمة، وتشعبت عنها دول لهم ولأشياهم في النواحي وهي باقية لهذا العهد آخذة في الثلاثين كما نذكر ذلك كله في أماكنه.

دولة المنتصر

ولما بويغ المنتصر كما ذكرناه ولي علي المظالم أبا عمرو أحمد بن سعيد، وعلى دمشق عيسى بن محمد النوشزي وكان على وزارته أحمد بن الخصيب، واستقامت أموره وتفاوض وصيف ويغا وأحمد بن الخصيب في شأن المعتز والمؤيد لما توقعوا من سطوتهما بسبب قتل المتوكل، فحملوا المنتصر على خلعهما لأربعين يوماً من خلافته وبعث إليهما بذلك فأجاب المؤيد وامتنع المعتز فأغلظوا عليه وأوهموه القتل فخلا به المؤيد وتلطف به حتى أجاب وخلع نفسه وكتباً ذلك بخطهما، ثم دخلا على المنتصر فاجلسهما واعتذر لهما بسمع من الأمراء بأنهم الذين حملوه على خلعهما فأجبتهم إلى ذلك خشية عليهما منهم، فقبلا يده وشكرا له وشهد عليهما القضاة وبنو هاشم والقواد ووجوه الناس، وكتب بذلك المنتصر إلى الأفاق وإلى محمد بن طاهر ببغداد. ثم إن أحمد بن الخصيب أخطأ المنتصر أمر بإخراج وصيف للصانعة وإبعاده عن الدولة لما بينهما من الشحنة، فأحضره المنتصر وقال له: قد أتنا من طاعة الروم أنه أفسد الثغر فلا بد من مسيرك أو مسيري، فقال: بل أنا

جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ويبيع له، وانتزع أفريقية من يد بني الأغلب واستولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام واقتطعوا سائر هذه الأعمال عن بني العباس واستحدثوا له دولة أقامت مائتين وسبعين سنة كما يذكر في أخبارهم. ثم ظهر بطبرستان من العلوية الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط ويعرف بالداغي، خرج سنة خمسين ومائتين أيام المستعين وخلق بالديلم فأسلموا على يديه وملك طبرستان ونواحيها، وصار هنالك دولة أخذها من يد أخيه سنة إحدى وثلاثمائة الأطروش من بني الحسين، ثم من بني علي، عمر داعي الطالقان أيام المعتصم وقد مر خبره. واسم هذه الأطروش الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر وكانت لهم دولة وانقرضت أيام الحسين، واستولى عليها الديلم وصارت لهم دولة أخرى.

وظهر باليمن الرئيس وهو ابن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن المثنى فظهر هنالك دعوة الزيدية، وملك صعدة وصنعاء وبلاد اليمن، وكانت لهم هنالك دولة ولم تزل حتى الآن. وأول من ظهر منهم يحيى بن الحسين بن القاسم سنة تسعين ومائتين، ثم ظهر أيام الفتنة من دعاة العلوية صاحب الزنج ادعى أنه أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهدي، وطعن الناس في نسبه فادعى أنه من ولد يحيى بن زيد قتيل الجوزجان، وقيل: إنه انتسب إلى طاهر بن الحسين بن علي والذي ثبت عند المحققين أنه علي بن عبد الحليم بن عبد القيس، فكانت له ولبنيه دولة بنواحي البصرة أيام الفتنة قام بها الزنج إلى أن انقرضت على يد المعتضد أيام السبعين ومائتين.

ثم ظهر القرظ بنواحي البحرين وعمان فسار إليها من الكوفة سنة تسع وسبعين أيام المعتضد، وانتسب إلى بني إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق دعوى كاذبة، وكان من أصحابه الحسن الجمالي وزكرونة القاشاني فقاموا من بعده بالدعوة ودعوا لعبد الله المهدي وغلبوا على البصرة والكوفة، ثم انقطعوا عنها إلى البحرين وعمان، وكانت لهم هنالك دولة انقرضت آخر المائة الرابعة، وتغلب عليهم العرب من بني سليم وبني عقيل. وفي خلال ذلك استبد بنو سامان بما وراء النهر آخر الستين ومائتين وأقاموا على الدعوة إلا أنهم لا ينفذون أوامر الخلفاء وأقامت دولتهم إلى آخر المائة الرابعة.

ثم اتصلت دولة أخرى في مواليهم بغزنة إلى منتصف المائة السادسة، وكانت للأغلبة بالقيروان وأفريقية دولة أخرى بمصر

الأتراك قتلها فمتنهم أحمد بن الخصب من ذلك. ثم قبض على أحمد بن الخصب فاستصفي ماله ومال ولده ونفاه إلى قرطيش واستوزر أنامش وعقد له على مصر والمغرب وعقد لبغا الصغير على حلوان وماسبدان ومهرجا تعرف، وجعل شاهك الخادم على داره وكراعه وحرمة وخاصة أموره وخدمة، وأشناس على جميع الناس. وعزل علي بن يحيى الأرمني عن الثغور الشامية وعقد له على أرمينية وأذربيجان. وكان على حصص كندر فوثب به أهلها فأخرجوه فبعث المستعين الفضل بن قارن وهو أخو مازيار فاستباحهم وحمل أعيانهم إلى سامرا وبعث المستعين إلى وصيف وهو بالثغر الشامي بأن يغزو بالصفافة، فدخل بلاد الروم وافتتح حصن قروية ثم غزا بالصفافة سنة تسع وأربعين جعفر بن دينار وافتتح مطاير واستأذنه عمر بن عبد الله الأقطع في تدوين بلاد الروم فأذن له فدخل في جماعة من أهل ملطية ولقي ملك الروم، فخرج الأسقف في خمسين ألفاً أحاطوا به وقتل عمر في ألفين من المسلمين. وكان على الثغور الجزرية فأغار عليها الروم وبلغ ذلك علي بن يحيى وهو قابل من أرمينية إلى ميفارقين ومعه جماعة من أهلها فنفر إليهم وهو في نحو أربعمائة فقتلوا وقتل.

فتنة بغداد وسامرا

ولما اتصل الخبر ببغداد وسامرا بقتل عمر بن عبد الله وعلي بن يحيى شق ذلك على الناس لما كانوا عليه من عظيم الغناء في الجهاد، واشتد تكيرهم على الترك في غفلتهم عن المصالح وتذكروا قتل المتوكل واستيلاءهم على الأمور فاجتمعت العامة وتنادوا بالنفير إلى الجهاد. وانضم إليهم الشاكريه يطلبون أرزاقهم ثم فتقوا السجون وقطعوا الجسور وانتهبوا دور كتاب محمد بن عبد الله بن طاهر. ثم أخرج أهل اليسار من بغداد الأموال ففرقوها في المجاهدين وجاءت العامة من الجبال وفارس والأهواز فنفروا للغزو، ولم يظهر للمستعين ولا لأهل الدولة في ذلك أثر. ثم وثب العامة بسامرا وفتقوا السجون وخرج من كان فيها وجاء جماعة من الموالي في طلبهم فوثب العامة بهم وهزمهم وركب بغا ووصيف وأنامش في الترك فقتلوا من العامة خلقاً وانتهوا منازلهم وسكنت الفتنة.

مقتل أنامش

كان المستعين لما ولي أطلق يد أمه وأنامش وشاهك الخادم في الأموال وما فضل عنهم فلنفقات العباس بن المستعين، وكان في

أشخاص يا أمير المؤمنين! فأمر أحمد بن الخصب أن يجهزه ويخرج على العسكر معه، وأمره أن يوافي ثغر ملطية فسار وعلى مقدمته مزاحم بن خاقان أخو الفتوح، وعلى نفقات العساكر والمغانم والمقاسم أبو الوليد القروالي أن يأتيه وأبيه.

وفاة المنتصر وبيعة المستعين

ثم أصابت المنتصر علة الذمجة فهلك لخمس بقين من ربيع الأول من سنة ثمان وأربعين ومائتين لسنة أشهر من ولايته، وقيل: بل أكثر من ذلك فجعل السم في مشرطة الطبيب فاجتمع الموالي في القصر وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأنامش وغيرهم فاستحلقوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسية على الرضا بمن يرضونه لهم، ثم خلصوا للمشورة ومعهم أحمد بن الخصب فعدلوا عن ولد المتوكل خوفاً منهم ونظروا في ولد المعتصم فبايعوه واستكتب أحمد بن الخصب واستوزر أنامش وغدا على دار العامة في زي الخلافة، وإبراهيم بن إسحاق يحمل بين يديه الحرية، وصفت المسالك والأشروسية صفين بترتيب دواجن، وحضر أصحاب المراتب من العباسيين والطلبين، وثار جماعة من الجنود وقصدوا الدار يذكرون أنهم من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر والغوغاء فشهروا السلاح وهتفوا باسم المعتز وشدوا على أصحاب دواجن فتضعضوا، ثم جاءت الميضة والشاكريه، وحمل عليهم المغاربة والأشروسية فنشبت الحرب وانتهت السدور والسلاح من الخزانين بدار العامة وجاء بغا الصغير فدفعهم عنها وقتل منهم عدة وفتقت السجون وتمت بيعة الأتراك للمستعين، ووضع العطاء على البيعة وبعث إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فبايع له هو والناس ببغداد.

ثم جاء الخبر بوفاة طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان وهلك عمه الحسين بن طاهر بمرو فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر مكانه وعقد محمد بن عبد الله بن طاهر على خراسان سنة ثمان وأربعين ومائتين، وولى عمه طلحة على نيسابور، وابنه منصور بن طلحة على مرو وسرخس وخوارزم، وعمه الحسين بن عبد الله على هراة وأعمالها، وعمه سليمان بن عبد الله على طبرستان، والعباس ابن عمه على الجوزجان والطلبان.

ومات بغا الكبير فولى ابنه موسى على أعماله كلها وبعث أناجور من قواد الترك إلى المعرط التغلبي فقتله. واستأذنه عبد الله بن يحيى بن خان في الحج فأذن له، ثم بعث خلفه من نفاه إلى برقة، وحبس المعتز والمؤيد في حجره بالجوسق بعد أن أراد قواد

في أصحابه، وأسروا الكثير من أتباعه، كان منهم المهيصم العجلي وغيره، وانجلت الحرب عن يحيى بن عمر قتيلاً فبعثوا برأسه إلى محمد عبد الله بن طاهر فبعث به إلى المستعين وجعل في صندوق في بيت السلاح وجيء بالأسرى فحبسوا وكان ذلك منتصف رجب سنة خمس ومائتين.

ابتداء الدولة العلوية بطبرستان

لما ظهر محمد بن عبد الله بن طاهر بيحى بن عمرو وكان له من الغناء في حربه ما قدمناه، أقطعه المستعين قطائع من صوافي السلطان بطبرستان كانت منها قطعة بقرب نهر الديلم تسمى روسالوس وفيها أرض موات ذات غياض وأشجار وكلاً، مباحة لمصالح الناس من الاحتطاب والرعي، وكان عامل طبرستان يومئذ من قبل محمد بن طاهر صاحب خراسان عمه سليمان بن عبد الله بن طاهر وهو أخو محمد صاحب القطائع، وكان سليمان مكثولاً لآمة وقد حظي عندها وتقدم وفرق أولاده في أعمال طبرستان وأساقوا السيرة في الرعايا ودخل محمد بن أوس بلاد الديلم وهم مسالون فبسى منهم وانحرفوا لذلك. وجاء نائب محمد بن عبد الله ليقبض القطائع فحاز فيها تلك الأرض المرسدة المرافق الناس، فنكر ذلك الناظر على تلك الأرض وهما محمد وجعفر ابنا رستم واستنهما من أطاعهما من أهل تلك الناحية لمنعه من ذلك، فخافهما النائب ولحق بسليمان صاحب طبرستان. وبعث ابنا رستم إلى الديلم يستنجدانهم على حرب سليمان، وبعث إلى محمد بن إبراهيم من العلويين بطبرستان يدعوانه إلى القيام بأمره، فامتنع ودلها على كبير العلوية بالري الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط، فشخص إليهما وقد اجتمع أهل كلالو سالوس ومقدمهم ابنا رستم وأهل الريان ومعهم الديلم بأسرهم، فبايعوه جميعاً وطرودوا عمال سليمان وابن أوس.

ثم انضم إليهم جبال طبرستان وزحف الحسن بن معه إلى مدينة آمد، وخرج ابن أوس من سارية لمداغثة فانهزم ولحق بسليمان من سارية فخرج سليمان لحرب الحسن. ولما التقى الجمعان بعث الحسن بعض قواده خالد سليمان إلى سارية وسمع بذلك سليمان فانهزم، وملك الحسن سارية، وبعث بعيال سليمان وأولاده في البحر إلى جرجان. وقيل: إن سليمان انهزم اختياراً لما كان بنو طاهر يهتمون به من التشيع ثم بعث الحسن إلى الري ابن عمه وهو القاسم بن علي بن إسماعيل ويقال محمد بن جعفر بن

حجر أتماش فبعث ذلك عليه بغا ووصيف وضاق حال الأتراك والفراغة ودمهم عليهم بغا ووصيف فخرج منهم أهل الكرخ والدور وقصدوه في الجرسق مع المستعين وأراد الحرب فلم يطق، واستجار بالمستعين فلم يجره وحاصروه يومين، ثم انتحوا عليه الجرسق وقتلوه وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم ونهبت أموالهم واستوزر المستعين مكانه أبا عبد الله بن محمد بن علي على الأهواز، وبغا الصغير على فلسطين. ثم غضب بغا الصغير على أبي صالح فهرب إلى بغداد واستوزر المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجاني وولى على ديوان الرسائل سعيد بن حميد.

ظهور يحيى بن عمر ومقتله

كان على الطالبين بالكوفة يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد الشهيد ويكنى أبا الحسين وأمه من ولد عبد الله بن جعفر وكان من سراتهم ووجههم وكان عمر بن فرج يتولى أمر الطالبين أيام المتوكل، فعرض له أبو الحسين عند مقدمه من خراسان يسأله صلة لدين لزمه فأغفل له عمر القول وحسه حتى أخذ عليه الكفلاء وانطلق إلى بغداد. ثم جاء إلى سامرا وقد أملت فتحعرض لوصيف في رزق يجري له، فأساءه عليه وإليها فرجع إلى الكوفة وعاملها يومئذ أيوب بن الحسين بن موسى بن جعفر بن سليمان بن علي من قبل محمد بن عبد الله بن طاهر، فاعتزم على الخروج والتف عليه جمع من الأعراب وأهل الكوفة، ودعا للرضى من آل محمد ففتق السجون ونهبها وطرده العمال، وأخذ من بيت المال ألفي دينار وسبعين ألف درهم.

وكان صاحب البريد قد طير بجريه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فكتب إلى عامله بالسواد عبد الله بن محمود السرخسي أن يصير مدداً إلى الكوفة فلقبه وقتله فهزمهم يحيى وانتهب ما معهم وخرج إلى سواد الكوفة وتبعه خلق من الزيدية، وانتهى إلى ناحية واسط وكثرت جموعه. وسرَّح محمد بن عبد الله بن طاهر إلى محاربة الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب في العساكر فسار إليه.

وقد كان يحيى قصد الكوفة فلقبه عبد الرحمن بن الخطاب المعروف بوجه الفلس فهزمه يحيى إلى ناحية ساها، ودخل الكوفة واجتمعت عليه الزيدية، واشتمل عليه عامة أهل الكوفة وأمداد الزيدية من بغداد، وجاء الحسين بن إسماعيل وانضم إليه عبد الرحمن بن الخطاب وخرج يحيى من الكوفة ليعاجلهم الحرب فأسرى ليلته وصبح العساكر فساروا إليه فهزموه ووضعوا السيف

بيعة المعتز وحصار المستعين

كان قواد الأتراك لما جاؤوا إلى المستعين ببغداد يعتزلون من فعلهم ويتطارحون في الرضا عنهم والرجوع إلى دار مكة وهو يوجههم ويعدد عليهم إحسانه وإساءتهم ولم يزلوا به حتى صرح لهم بالرضا، فقال بعضهم: فإن كنت رضىيت فقم واركب معنا إلى سامرا فكلّمه ابن طاهر لسوء خطابهم، وضحك المستعين لعجمتهم وجهلهم بأداب الخطاب، وأمر باستمرار أركانهم ووعدهم بالرجوع، فانصرفوا حاقدين ما كان من ابن طاهر، وأخرجوا المعتز من محبسه وبايعوا له بالخلافة، وأعطى للناس شهرين. وحضر للبيعة أبو أحمد بن الرشيد فامتنع منها وقال: قد خلعت نفسك! فقال: أكرهت! فقال: ما علمنا ذلك ولا غلّص لنا في إيماننا فتركه.

وولوا على الشرطة إبراهيم البربرج وأضيفت له الكتابة والدواوين وبيت المال، وهرب عتاب بن عتاب من القواد إلى بغداد وقام محمد بن عبد الله بن طاهر بالأحتشاد واستقدم مالك بن طوق في أهل بيته وجنده، وأمر حوبة بن قيس -وهو على الأنبار- بالأحتشاد وكتب إلى سليمان بن عمران صاحب الموصل بمنع الميرة عن سامرا، وشرع في تحصين بغداد وأدار عليها الأسوار واحتناد من الجانبين وجعل على كل باب قائداً، ونصب على الأبواب المجانيق والعدادات، وشحن الأسوار بالرماة والمقاتلة وبلغت النفقة في ذلك ثلاثمائة وثلاثين ألف دينار وفوض للعيارين الرزق واغدى عليهم، وأنفذ كتب المستعين إلى العمال بالنواحي تحمل الخراج إلى بغداد.

وكتب المستعين إلى الأتراك يأمرهم بالرجوع عما فعلوا وكتب المعتز إلى محمد يدعوهم إلى بيعته، وطالت المراجعات في ذلك وكان موسى بن بغا قد خرج لقتال أهل حمص، فاختلفت إليه وهو بالشام كتب المستعين والمعتز يدعوهم كل واحد منهما إلى نفسه، فاختر المعتز ورجع إليه، وهرب إليه عبد الله بن بغا الصغير من بغداد بعد أن هرب عنه فقتله. وهرب الحسن بن الأفشين إلى بغداد فخلع عليه المستعين وضم إليه الأشروسنة. ثم عقد المعتز لأخيه إلى أحمد الواثق عن حرب بغداد وضم إليه الجنود مع باكليال من قوادهم، فسار في خمسين ألفاً من الأتراك والفراغة والمغاربة، واتهبوا ما بين عكبرا وبغداد من القرى والضياع وخربوها، وهرب إليهم جماعة من أصحاب بغا الصغير ووصلوا إلى باب الشماسية.

وولى المستعين على باب الشماسية الحسين بن إسماعيل بن

عبد الله العقيقي بن الحسين بن علي بن زين العابدين فملكها، وبعث المستعين جنداً إلى همدان ليمنعها. ولما ملك محمد بن جعفر قائد الحسن بن زيد الري أساء السيرة، وبعث محمد بن طاهر قائد محمد بن ميكال أخو الشاه فغلبه على الري، وانتزعها منه وأسرهم، فبعث إليه الحسن بن زيد قائده دواجن فهزم ابن ميكال وقتله واسترجع الري. ثم رجع سليمان بن طاهر من جرجان إلى طبرستان فملكها ولحق الحسين بالديلم وسار سليمان إلى سارية وأمد، ومعهم أبناء قارن بن شهرزاد فصّح عنهم ونهى أصحابه عن الفتك والأذى. ثم جاء موسى بن بغا بالعساكر فملك الري من يدي أبي دلف وبعث مصلحاً إلى طبرستان فحارب الحسن بن زيد وهزمه واستولى على طبرستان ولحق الحسن بالديلم ودخل مفلح أمد وخرب منازل الحسن ورجع إلى موسى بالري.

مقتل باغر

وكان باغر هذا من قواد الترك ومن جملة بغا الصغير، ولما قتل المتوكل زيد في أرزاقه وأقطعوه قرى بسواد الكوفة وضمنها له بعض أهل باروسما بألفي دينار فطلبه ابن مارمة وكيل باغر وجبسه ثم تخلص وسار إلى سامرا، وكانت له ذمة من نصراني عند بغا الصغير فأجاره النصراني من كيد بغا وأغراه به فغضب لذلك باغر وشكى إلى بغا فأغلظ له القول، وقال: إنني مستبدل من النصراني وأفعل فيه بعد ذلك ما تريد، ودس إلى النصراني بالخنز من باغر وأظهر عزله، وبقي باغر يتهده وقد انقطع عن المستعين، وقد منعه بغا في يوم نوبته عن الحضور بدار السلطان فسأل المستعين وصيفاً عن أعمال إيتاخ وقلدها لباجر، فعذل وصيفاً في الشأن فحلف له أنه ما علم قصد الخليفة. وتكر بغا لباجر فجمع أصحابه الذين بايعوه على المتوكل وجدد عليهم العهد في قتل المستعين وبغا ووصيف، وأن ينصبوا ابن المعتصم أو ابن الواثق ويكون الأمر لهم. ولما أخبر على الترك إلى المستعين فأحضر بغا ووصيفاً وأعلمهما بالخبر، فحلفا له على العلم وأمروا بحبس باغر ورجلين معه من الأتراك فسخطوا ذلك، وثاروا فانتهبوا الإصطبل وحضروا الجوتق وأمر بغا ووصيف وشاهك الخادم وكتابه أحمد بن صالح بن شيرزاده ونزل على محمد بن طاهر في بيته في الحرم سنة إحدى وخمسين ولحق به القواد والكتاب والعمال وبنو هاشم وتحلف جعفر الخياط وسليمان بن يحيى بن معاذ فندم الأتراك، وركب جماعة من قوادهم إلى المستعين وأصحابه ليردوهم فأبوا ورجعوا آيسين منه وتفاوضوا فيبيعة المعتز.

في جماعة من القواد والجند، فاعترضه الأتراك وحاربوه، وعاد الأنبار وتقدم وهو لينزل عليهم، وبينما هو يحيط الأنقال إذا بالأتراك فقاتلهم وهزمهم وأثنى فيهم، وكانوا قد كمنوا له فخرج الكمين وانهمز الحسين وغرق كثير من أصحابه في الفرات، وأخذ الأتراك عسكره، ووصل إلى الياسرية آخر جمادى الآخرة ومنع ابن طاهر المنهزمين من دخول بغداد وتوعدهم على الرجوع إليه، وأمه مجند آخر، فدخل من الياسرية وبعث على المخاض الحسين بن علي بن يحيى الأرميني في مائتي مقاتل لينع الأتراك من العبور إليه من عدوة الفرات، فوافوه وقاتلوه عليها فهزموه، وركب الحسين في زورق متحدرًا وترك عسكره وأقاله، فاستولى عليها الأتراك ووصل المنهزمون إلى بغداد من ليلتهم، ولحق من عسكره جماعة من القواد والكتاب بالمعتز وفيهم علي ومحمد ابنا اللواتق، وذلك أول رجب.

ثم كانت بينهم عدة وقعت وقاتل من الفريقين خلق ودخل الأتراك في كثير من الأيام بغداد وأخرجوا عنها. ثم ساروا إلى المدائن وغلبوا عليها ابن أبي السفاح وملكوها. وجاء الأتراك الذين بالأنبار إلى الجانب الغربي وانتهوا إلى صرصر وقصر ابن هيرة واتصل الحصار إلى شهر ذي القعدة وخرج ابن طاهر في بعض أيامه في جميع القواد والعساكر، فقاتلهم وانهمزوا وقتل منهم خلق وارتقم الذين كانوا مع بفا ووصيف لذلك فلهقوا بالأتراك. ثم تراجع الأتراك وانهمز أهل بغداد.

ثم خرج في ذي الحجة رشيد بن كاووس أخو الأفشين ساعياً في الصلح بين الفريقين، واتهم الناس ابن طاهر بالسعي في خلع المستعين. فلما جاء رشيد وأبلغهم سلام المعتز وأخيه أبي أحمد شتموه وشتموا ابن طاهر وعمدوا إلى دار رشيد ليهدموها، وسأل ابن طاهر من المستعين أن يسكنهم، فخرج إليهم ونهاهم وبرأ ابن طاهر عما اتهموه به، فانصرفوا، وترددت الرسل بين ابن طاهر وبين أبي أحمد فتجدد للامة والجند سوء الظن، وطلب الجند أرزاقهم فوعدهم بشهرين وأمرهم بالنزول، فأبوا إلا أن يعلمهم الصحيح من رأيه في المستعين. وخاف أن يدخلوا الأتراك كما عمل أهل المدائن والأنبار، فأصعد المستعين على سطح دار العامة حتى رآه الناس ويده البردة والقضيب، وأقسم عليهم فانصرفوا.

واعترم ابن طاهر على التحول إلى المدائن، فجاءه وجوه الناس واعتذروا له بالفوغاء فأقصروا بنقل المستعين عن دار ابن طاهر إلى دار رزق الخادم بالرصافة. وأمر القواد وبني هاشم بالكون مع ابن طاهر، فركب في تعبئة وحلف لهم على المستعين

إبراهيم بن الحسن بن مصعب، وجعل القواد هنالك تحت يده ووافت طلائع الأتراك إلى باب الشماسية فوقفوا بالقرب منه، وأمه ابن طاهر بالشاه بن ميكال ويبدار الطبري. ثم ركب محمد بن عبد الله بن طاهر من الغد ومعه بفا ووصيف والفقهاء والقضاة، وذلك عاشر صفر، وبعث إليهم يدعوهم إلى مراجعة الطاعة على المعتز ولي عهده فلم يجيبوا. فانصرفوا وبعث إليه القواد من الغد بأنهم زحفوا إلى باب الشماسية فنهاهم عن مناداتهم بالقتال.

وقدم ذلك اليوم عبد الله بن سليمان خليفة بفا من مكة في ثلاثمائة رجل. ثم جاء الأتراك من الغد فاقبلوا مع القواد وانهمز القواد وبلغ ابن طاهر أن جماعة من الأتراك ساروا نحو النهروان، فبعث قائداً من أصحابه إليهم فرجع منهزماً، واستولى الأتراك على طريق خراسان وقطعوها عن بغداد. ثم بعث المعتز عسكراً آخر نحو أربعة آلاف فنزلوا في الجانب الغربي، وبعث ابن طاهر إليهم الشاه بن ميكال فهزمهم وأثنى فيهم، ورجع إلى بغداد فخلع عليه وعلى سائر القواد أربع خلع وطوقاً وسواراً من ذهب لكل واحد. ثم أمر ابن طاهر بهدم الدور والخوانيت إلى باب الشماسية ليتسع المجال للحرب، وقدمت عليه أموال فارس والأهواز مع مكحول الأشروسي وخرج الأتراك لاعتراضه. وبعث ابن طاهر لحفظه فقدموا به بغداد، ولم يظفر به الأتراك، ومضوا نحو النهروان فأحرقوا سفن الجسر.

وكان المستعين قد بعث محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد والياً على الثغور الجزرية، وأقام ينتظر الجند والمال، فلما بلغه خبر هذه الفتنة جاء على طريق الرقة إلى بغداد فخلع عليه ابن طاهر وبعثه في جيش كثيف لمحاربتهم، وصار إلى ضبيعة بالسواد فأقام بها فقال ابن طاهر: لن يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به! ثم ذهب الأتراك وقاتلوا. واتصل الحصار واشتدت الحرب وانتهت الأسواق، وورد الخبر من الثغور بأن بلكا جور حمل الناس على بيعة المعتز فقال ابن طاهر: لعلة ظن موت المستعين فكان كذلك، ووصل كتابه بأنه جدد البيعة، وكان موسى بن بفا مع الأتراك كما قد قدمنا، فأراد الرجوع على المستعين فامتنع أصحابه وقاتلوه فلم يتم له أمره وفر القطاعون من البصرة ورموا على الأتراك فأحرقوهم، فبعث ابن طاهر إلى المدائن ليحفظها، وأمه بثلاثة آلاف فارس، بعث إلى الأنبار حوبة بن قيس فشق الماء إلى خندقها من الفرات، وجاء إلى الإسحاحي من قبل المعتز فسبق المدد الذي جاء من قبل ابن طاهر، وملك الأنبار. ورجع حوبة إلى بغداد فأنفذ ابن طاهر الحسين بن إسماعيل

بسامرا فعقد إليهما المعتز على أعمالهما، ورد البريد إلى موسى بن بغا الكبير.

ثم كانت فتنة بين جند بغداد وابن طاهر في شهر رمضان، جاؤوا إليه يطلبون أرزاقهم قال: كتبت إلى أمير المؤمنين في ذلك فكتب إلي إن كنت تريد لجند نفسك فأعطهم، وإن كان لنا فلا حاجة لنا فيهم. فشغبوا ففرق فيهم ألفي دينار فسكنوا. ثم اجتمعوا ثانية ومعهم الأعلام والطبول، وضربوا الخيام بباب الشماسية ونوا البيوت من الأعواد والقصب. وجمع محمد بن إبراهيم أصحابه وشحن داره بالرجال، وأرادوا يوم الجمعة أن يمنعوا الخطيب من الدعاة للمعتز فقعده واعتذر بالمرض، فخرجوا إلى الجسر ليقطعوه فقاتلهم أصحاب ابن طاهر ودفعوهم عنه. ثم دفعوا أصحاب ابن طاهر بإعانة أهل الجانب الشرقي، وجاء العامة فجلس الشرطة فأمر ابن طاهر بإحراق الخوانيت إلى باب الجسر ومات أصحاب تعبئة الحرب وجاء من دله على عورة الجند فسرح الشاه ابن ميكال وعرض القواد فساد إلى ناحيتهم، واقتروا وقتل بينهم ابن الخليل.

وحمل رئيسهم الآخر ابن القاسم عبدون بن الموفق إلى ابن طاهر ومات في خلال ذلك. وأخرج المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد، وذلك أن العلاء بن أحمد عامل أرمينية بعث إلى المؤيد بمخمسة آلاف دينار فاخذها عيسى بن فرخان شاه، فأغرى المؤيد بعيسى الأتراك والمغاربة فبعث المعتز إلى المؤيد وأبي أحمد فحبسهما وقيد المؤيد فأخذ خطه فخلع نفسه. ثم نفي إليه أن الأتراك يرومون إخراجه من الحبس، فسأل عن ذلك موسى بن بغا فأفكر علم ذلك، وأخرج المؤيد من الغد ميتاً ودفته أمه. فيقال غطى على أنفه فمات، وقيل: أقعد في الثلج ووضع على رأسه. ثم نقل أخوه ابن أحمد إلى مجلسه.

ثم اعتزم المعتز على قتل المستعين فكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أن يسلمه إلى سيماء الحاد، وكتب محمد في ذلك إلى الموكلين به بواسط، يقال: بل أرسل بذلك أحمد بن طولون، فساد به في القاطون وسلمه إلى سعيد بن صالح، فضربه سعيد حتى مات وقيل: ألماه في دجلة بجحر في رجله، وكانت معه دابته فقتلت معه وحمل رأسه إلى المعتز فأمر بدفنه، وأمر لسعيد بمخمسين ألف درهم وولاه معونة البصرة. ثم وقعت فتنة بين الأتراك والمغاربة مستهل رجب، بسبب أن الأتراك وثبوا بعيسى بن فرخان شاه فضربوه وأخذوا دابته لما أمرهم المؤيد، فامتعضت المغاربة له ونكروا على الأتراك وغلبوهم على الجوسق وأخذوا دوابهم وركبوا وملكوا بيت المال.

وعلى قصد الإصلاح فدعوا له، وسار إلى المستعين وأغراه به وأمر بغا ووصيفاً بقتله فلم يفعلوا. وجاءه أحمد بن إسرائيل والحسين بن غلغل يمثل ذلك في المستعين، فتغير له ابن طاهر. فلما كان يوم الأضحى وقد حضر الفقهاء والقضاة طالبه ابن طاهر بامضاء الصلح، فأجاب وخرج إلى باب الشماسية، فجلس هناك ابن طاهر إلى المستعين وأخبره بأنه عقد الأمر إلى أن يخلع نفسه، ويبدلوا خمسين ألف دينار، ويعطوه غلة ثلاثين ألف دينار، ويقيم بالحجاز متردداً بين الحرمين، ويكون بغا والياً على الحجاز، ووصيف على الجبل، ويكون ثلث الجباية لابن طاهر وجند بغداد والثلثان للموالي والأتراك. فامتنع المستعين أولاً من الخلع ظناً منه أن وصيفاً وبغا معه. ثم تبين موافقتهما عليه فأجاب وكتب بما أراد من الشروط وأدخل الفقهاء وأشهدهم بأنه قد صير أمره إلى ابن طاهر. ثم أحضر القواد وأخبرهم بأنه ما قصد بهذا الإصلاح إلا حقن الدماء وأخرجهم إلى المعتز ليوافقهم بمخطه على كتاب الشرط ويشهدوا على إقراره، فجاؤوا بذلك لست خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

خلع المستعين ومقتله والفتن خلال ذلك

ولما تم ما عقده ابن طاهر ووافى القواد بمخط المعتز على كتاب الشرط، أخذ البيعة للمعتز على أهل بغداد، وخطب له بها وبايع له المستعين وأشهد على نفسه بذلك، فنقله من الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل ومعه عياله وأهله، وأخذ البردة والقضيب والخطام ومنع من الخروج إلى مكة، فطلب البصرة فمنع منها وبعث إلى واسط. فاستوزر المعتز أحمد بن أبي إسرائيل ورجع أخوه أبو أحمد إلى سامرا. وفي آخر المحرم انصرف أبو الساج دبواز بن درموسب إلى بغداد فقلده ابن طاهر معاون السواد فبعث معه مؤنة إليها لطرده الأتراك والمغاربة عنها، وسار هو إلى الكوفة.

ثم كتب المعتز إلى ابن طاهر بإسقاط بغا ووصيف ومن معهما من الدواوين وكان محمد أبو عون من قواد ابن طاهر قد تكفل لأبي إسحاق بقتلهما، وعقد له المعتز على اليمامة والبحرين والبصرة. ونفي الخبر إليهما بذلك فركبا إلى ابن طاهر وأخبراه الخبر وأن القوم قد نقضوا العهد. ثم بعث وصيف أخته سعاد إلى المؤيد وكان في حجرها فاستوهبت له الرضا من المعتز وكذا فعل أبو أحمد مع بغا وكتب لهم المعتز جميعاً بالرضا. ثم رغب الأتراك في إحضارهما بسامرا، فكتب بذلك ودس إلى ابن طاهر بمنعهما. فخرجوا فيمن معهما ولم يقدر ابن طاهر على منعهما. وحضرا

اسمه عبيدة بن زهير العمري بسبب الخلاف في توبة الخطاطيء وقال عبيدة: لا تقبل واجتمع معه جماعة وخرج إليهم مساور من الحديثة واقتلوا قتالاً شديداً ثم قتل عبيدة وانهزم أصحابه.

وخرج إليه آخر من بني زهر اسمه طوق، فجمع له الحسن بن أيوب بن أحمد العدوي جمعاً كثيراً وحاربه فقاتله سنة خمس أو سبع، واستولى مساور على أكثر العراق ومنع الأموال، فصار إليه موسى بن بغا بابكيال في العساكر فانتهوا إلى.... وبلغهم خبر الأتراك مع المهدي فأقاموا ثم زحفوا بجمع المهدي، فلما ولي المعتمد سير مفلحاً إلى قتال مساور في عسكر كبير وخرج مساور من الحديثة إلى جبلين حذاءها وقائمه مفلح في اتباعه، ولحق الجبل فاعتصم به وأقام مفلح في حصاره، فكانت بينهما وقعات وكثرت الجراحة في أصحاب مساور من لدن حربه مع عبيدة إلى هذه الحروب فصار عن الجبل وتركه وأصبح مفلح وقد فقدهم فصار إلى الموصل ثم إلى ديار ريعة وسنجار ونصيبين والخابور، فأصلح أمورها وخرج من الموصل إلى الحديثة ففارقها عنه فرجع مساور في اتباعهم يتخطف من أعقابهم ويقاتلهم حتى وصل الحديثة فأقام بها أياماً، ثم سار إلى بغداد في رمضان سنة ست وخمسين فرجع مساور الحديثة واستولى على البلاد واشتدت شوكته، ثم أوقع به سرور البلخي سنة ثمان وخمسين، وجهاز العسكر بالحديثة مع جعلان من قواد الترك. ثم قتل سنة إحدى وستين يحيى بن جعفر من ولاء خراسان، وسار سرور في طلبه وتبعه الموفق فلم يدركه.

مقتل وصيف ثم بغا

وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز اجتمع الجند من الأتراك والقراغنة والأشروسنة فطلبوا أرزاقهم منهم لأربعة أشهر وشغبوا، فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما الطويل، وكلمهم وصيف واعتذر بعدم المال وقال: خذوا الزاب في أرزاقكم. ونزلوا بدار أشناس يتناظرون في ذلك، ومضى بغا وسيما إلى المعتز يسألانه في أمرهم، وبقي وصيف في أيديهم فوثب عليه بعضهم فقتله وقطعوا رأسه ونصبوه. ثم انقادوا وأهدر لهم ذلك، وجعل المعتز ليغا الشرايبي ما كان لوصيف وألبسه التاج والوشاحين، ثم تغير له المعتز لما عليه من الاستبداد على الدولة، وخشى غائلته ومال باطناً إلى بابكيال وداخله في أمره واعتده لذلك.

ثم زوج بغا ابنته أمنة من صالح بن وصيف وشغل بجهازها، فركب المعتز في تلك الغفلة ومعه حمدان بن إسرائيل إلى بابكيال في كرخ سامرا وكانت بينه وبين بغا وحشة شديدة وبلغ

واستجاش الأتراك بمن كان منهم في الكرخ والدور وانضم الغوغاء والشاكرية إلى المغاربة فضغت الأتراك عن لقاءهم وسعى بينهم جعفر بن عبد الواحد في الصلح فتوادعوا أياماً ثم اجتمع الأتراك على حين افتراق المغاربة فقصده محمد بن راشد ونصر بن سعيد منزل محمد بن عون يخطفان عنده حتى تسكن الميعة، فدرس للأتراك بخبرهما وجاؤوا فقتلوهما في منزله وبلغ ذلك المعتز فهم بقتل ابن عون ثم نفاه.

أخبار مساور الخارجي

كان الوالي على الموصل عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث بن هانئ الخزاعي، وكان صاحب الشرطة بالحديثة من أعمالها حسين بن بكير، وكان مساور بن عبد الله بن مساور البجلي من الخوارج يسكن بالبوازيج. وحبس صاحب الشرطة حسين بن بكير بالحديثة ابناً للمساور هذا يسمى جوثرة وكان جبلاً، فكتب إلى أبيه مساور بأن حسين بن بكير نال منه الفاحشة، فغضب لذلك وخرج فقصده الحديثة، فاخفى حسين وأخرج ابنه من الحبس. ثم كثر جمعه من الأكراد والأعراب وقصد الموصل فقاتلها أياماً، ثم رجع فكان تحت طريق خراسان، وكانت لنظريندار ومظفر بن مشبك فصار إليه بNDAR في ثلاثمائة مقاتل والخواارج مع مساور في سبعمائة فهزموه وقتلوه، ولم ينج منهم إلا نحو خمسين رجلاً وفر مظفر إلى بغداد.

وجاء الخوارج إلى جلولا وكانت فيهم حرب هلك فيها من الجانبين خلق. ثم سار خطر مش في العساكر فلقبهم بجلولا وهزمه مساور، ثم استولى مساور على أكثر أعمال الموصل، ثم ولي الموصل أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي سنة أربع وخمسين، فاستخلف عليها ابنه الحسن، فجمع عسكراً كان فيهم حمدون بن الحارث بن لقمان جد الأمراء من بني حمدان ومحمد بن عبد الله بن السيد بن أنس، وسار إلى مساور وعبر إليه نهر الزاب فتأخر عن موضعه. وسار الحسن في طلبه فالتقوا واقتلوا وانهزم عسكر الموصل وقتل محمد بن السيد الأزدي، ونجا الحسن بن أيوب إلى أعمال إربل.

ثم كانت الفتنة سنة خمس وخمسين خلع المعتز ويبيع للمهدي وولى على الموصل عبد الله بن سليمان فزحف إليه مساور، وخام عبد الله عن لقائه فملك مساور البلد وأقام بها جمعة وصلى وخطب، ثم خرج منها إلى الحديثة وكانت دار هجرته. ثم انتقض عليه سنة ست وخمسين رجل من الخوارج

وأقبل على اللّهُو، واتصل ذلك يعقوب في طريقه، فكَرُّ راجعاً وأغذ السير فصادفه بعد يومين، وركب أصحابه وقد أحيط بهم ففروا ناجين بأنفسهم، وملك يعقوب كرمان وحبس طوق. وبلغ الخبر إلى علي بن الحسين وهو على شيراز، فجمع جيشه ونزل على مضيق شيراز وأقبل عليه يعقوب حتى نزل قبائله، والمضيق متورع بين جبل ونهر ضيق المسلك بينهما، فاقتحم يعقوب النهر بينهما وأجاز إلى علي بن الحسين وأصحابه فانهزموا، وأخذ علي أسيراً واستولى على جميع عسكره، ودخل شيراز وملكها وجبى الخراج ورجع إلى سجستان وذلك سنة خمس وخمسين.

ويقال: بل وقع بينهما بعد عبور النهر حرب شديدة انهزم آخرها علي وكان عسكره نحواً من خمسة عشر ألفاً من الموالي والأكراد، ورجعوا منهزمين إلى شيراز آخر يومهم وازدحموا في الأبواب واقتروا في نواحي فارس وانتهوا إلى الأهواز وبلغ القتلى منهم خمسة آلاف. ولما دخل يعقوب وملك فارس امتحن علياً وأخذ منه ألف بردة ومن الفرس والسلاح والآلة ما لا يحصى، وكتب إلى الخليفة بطاعته وأهدى هدية جليلة يقال منها عشر بازات بيض وباز أبلق صيني ومائة نافذة من المسك وغير ذلك من الطرف ورجع إلى سجستان، ثم استعاد الخليفة بعد ذلك فارس وبعث عماله إليها.

ابتداء دولة ابن طولون بمصر

كان بابكيال من أكابر قواد الأتراك مع بغا ووصيف وسيما الطويل، ولما حدثت هذه الفتن وتغلبوا على الخلفاء أخذوا الأعمال والنواحي في أقطاعهم، فأقطع المعتز بابكيال هذا أعمال مصر وبها يومئذ ابن مدبر، وكان بابكيال مقيماً بالخليفة فنظر فيمن يستخلفه عليها وكان أحمد بن طولون من أبناء الأتراك وأبوه من سُبي فرغانة وربي في دار الخلفاء، ونشأ ابنه أحمد بها على طريقة مستقيمة لبابكيال خاله، وأشير عليه بتوليته فبعثه على مصر فاستولى عليها أولاً دون أعمالها والاستكندرية ثم قتل المعتز بابكيال وصارت مصر في إقطاع بارجوع الترك وكان بينه وبين أحمد بن طولون مودة متأكدة فكتب إليه واستخلفه على مصر جميعها، ورسخت قدمه فيها وأصارها تراثاً لبنيه فكانت لهم فيها الدولة المعروفة.

استقدام سليمان بن طاهر لولاية بغداد

قد تقدم لنا أن محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين كان

ذلك بغا فركب في خمسمائة من غلمانه وولده وقواده، وكان أكثرهم منحرفين عنه ولحق بالسن، وأقام المعتز على وجل لا ينأى إلا بسلاحه. ثم تعلل أصحاب بغا عليه فأعرض عنهم وركب البحر راجعاً إلى بغداد، وجاء الجسر ليلاً لتلا يقطن به الموكلون هنالك، وبعثوا إلى المعتز يخبره فأمر بقتله وحمل إليه رأسه ونصب بسامراً وأحرقت المغاربة شلوه وكان قصد دار صالح بن وصيف ليثبوا على المعتز.

ابتداء دولة الصفار

كان يعقوب بن الليث بن عمرو الصفار بسجستان وكان صالح بن النضر الكنتاني من أهل الليث قد ظهر بتلك الناحية وقام يقاتل الخوارج وسمى أصحابه المتطوعة حتى قيل له صالح المطوعي وصحبه جماعة منهم درهم بن الحسن ويعقوب بن الليث هذا وغلبوا على سجستان، ثم أخرجهم عنها طاهر بن عبد الله أمير خراسان. وملك صالح إثر ذلك وقام بأمر المتطوعة درهم بن الحسن فكثرت أتباعه. وكان يعقوب بن الليث شهماً وكان درهم مضعفاً، واحتال صاحب خراسان حتى ظفر به وحبس ببغداد فاجتمعت المتطوعة على يعقوب بن الليث، وقام بقتال السراة وأتيح له الظفر عليهم وأئخذ فيهم وخرب قراهم، وكانت له شربة في أصحابه لم تكن لأحد قبله، فحسنت طاعتهم له وعظم أمره وملك سجستان مظهراً طاعة الخليفة وكتابه وقلده حرب السراة، فأحسن الغناء فيه وتجاوزوه إلى سائر أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم سار من سجستان إلى نواحي خراسان وعليها يومئذ محمد بن عبد الله بن طاهر، وعلى هراة من قبله محمد بن أوس الأنباري، فجمع لمحاربة يعقوب وسار إليهم في التعبية، فاقتتلوا وانهزم ابن أوس وملك يعقوب هراة وبوشنج، وعظم أمره وهابه صاحب خراسان وغيرها من الأطراف. وكان المعتز قد كتب بولاية سجستان، فكتب له الآن بولاية كرمان، وكان على فارس علي بن الحسين بن شبل، وأبطاً عامل الخراج واعتذر، فكتب له المعتز بولاية كرمان يريد إعداء كل منهما بصاحبه لأن طاعتهم مهووسة فأرسل علي بن الحسين بفارس طوق بن الفليس خليفة على كرمان، وسار يعقوب الصفار من سجستان فسبقه طوق واستولى عليها وأقام يعقوب بمكانه قريباً منها يترقب خروج طوق إليه.

وبعد شهرين ارتحل إلى سجستان فوضع طوق أوزار الحرب

مفلح، فلقية عبد العزيز بن أبي دلف في عشرين ألفاً خارج همدان، فتحاربوا وانهزم عبد العزيز وقتل أصحابه. وسار مفلح إلى الكرخ، فخرج إليه عبد العزيز وقاتله ثانية، فانهزم واستولى مفلح على الكرخ. ومضى عبد العزيز إلى قلعة نهاوند فتحصن بها وأخذ مفلح أهله وأمه.

ثم عقد له وصيف سنة اثنين وخمسين على أعمال الجبل، ثم عقد لموسى بن بنا، فسار وفي مقدمته مفلح، فقاتله عبد العزيز فانهزم وملك مفلح الكرخ وأخذ ماله وعياله. ثم ملك عبد العزيز وقام مكانه ابنه دلف وقاتله القاسم بن صبهان من أهالي أصبهان. ثم قتل القاسم أصحاب أبي دلف وولوا أخاه أحمد بن عبد العزيز سنة خمس وستين. وولاه عمر الصفار من قبله على أصبهان عندما ولاه عليها المعتمد سنة ست وستين، وحاربه كغلبغ التركي سنة تسع وستين، فغلبه أحمد وأخرجه إلى الصميرة وبعث إليه عمر سنة ثمان وستين في المال فبعث إليه. ثم سار الموفق سنة ست وسبعين يريد أحمد بأصبهان فشاغله أحمد عن البلد وترك داره بفرشها لتزول الموفق. ثم مات أحمد سنة ثمانين وولى أخوه عمر وأخوه بكير يرادفه وقتلا رافع بن الليث بأمر المعتضد فهزمهما كما يأتي ذكره. ثم قلده المعتضد أصبهان ونهرند والكرخ عمر بن عبد العزيز سنة إحدى وثمانين ثم راجعا الطاعة.

خلع المعتز وموته وبيعة المهتدي

كان صالح بن وصيف بن بغا متغلباً على المعتز، وكان كاتبه أحمد بن إسرائيل، وكانت أمه قبيصة ووزيرها الحسن بن غلدة، وكان أبو نوح عيسى بن إبراهيم من كبار الكتاب وجبابة الأموال. وطلب الأتراك أرزاقهم وشغبوا، فقال صالح للمعتز: هذه الأموال قد ذهب بها الكتاب والوزراء، وليس في بيت المال شيء فرد عليه أحمد بن إسرائيل وأفحش في رده وتفاوضا في الكلام فسقط صالح مغشياً عليه، وتبادر أصحابه بالباب فدخلوا متضين سيوفهم فدخل إلى قصره، فأمر صالح بالوزراء الثلاثة فقيدوا وشفع المعتز في أمر وزيره فلم يقبل شفاعته، وصادهم على مال جليل حملوه فلم يسد شيئاً، فلما فعلوا بالكتاب ما فعلوا من المصادرة اتهم الجند أنهم حملوا على مال ولم يكن ذلك، فشفعوا في طلب أرزاقهم وضمموا للمعتز قتل صالح بن وصيف على خمسين ألفاً يبذلها لهم. وسألهم عن أمه فاعتذرت فاتفقت كلمتهم على خلعهم.

ودخل إليه صالح بن وصيف ومحمد بن بغا المعروف بأبي

على العراق والسواد، وكانت لهم الشرطة وغيرها، كان مقيماً ببغداد وكان في المدافعة عن المستعين لما لجأ إليه. ثم صلح ما بينه وبين المعتز، واستقل المعتز بالخلافة والآثار المذكورة. ثم هلك آخر سنة ثلاث وثمانين أيام المعتز وفوض ما كان بيده من الولاية إلى أخيه عبد الله، نازعه ابنه طاهر في الصلاة عليه ومالت العامة مع أصحاب طاهر والقواد مع عبيد الله لوصية أخيه. ثم أمضى المعتز عهد أخيه وخلع عليه، وبذل لصاحب الخلع خمسين ألف درهم.

ثم بعث المعتز عن سليمان بن عبد الله بن طاهر من خراسان، وولاه على العراق والشرطة وغيرها مكان أخيه محمد، وعزل أخاهما عبيد الله. فلما علم عبيد الله تقدم سليمان أخذ ما في بيت المال وانتقل إلى غربي دجلة، وجاء سليمان وقائده محمد ابن أوس ومعه جند من خراسان فأساؤوا السيرة في أهل بغداد فحقن الناس عليهم وأعطى أرزاقهم بما بقي في بيت المال وقدمهم على جند بغداد وشاكريها، فاتفق الجند على الثورة وقتلوا السجون، وعبر ابن أوس إلى الجزيرة واتبعه الجند والعامة، فحاربهم وانهزم وأخرجوه من باب الشماسية، ونهب من منزله قيمة ألفي ألف درهم، ومن الأمتعة ما لا يحصر ونهب منازل جنده.

ورأى سليمان أن يسكن النائرة فأمر بالخروج إلى خراسان، ثم كانت الفتنة في خلع المعتز وولاية المهدي كما يذكر، وبعث المهتدي سلخ رجب من سنة خمس وخمسين إلى سليمان ليأخذ البيعة له ببغداد. وكان أبو أحمد بن التوكل ببغداد قد بعثه إليها المعتز، فنقله سليمان إلى داره ووثب الجند والعامة لذلك واجتمعوا بباب سليمان، وقاتلهم أصحابه ملياً، ثم انصرفوا وخطب من الغد للمعتز فسكنوا ثم ساروا ودعوا إلىبيعة أبي أحمد، وطلبوا رؤيته فآظفهم لهم ووعدهم بما طلبوا، فافترقوا ووكل بحفظ أبي أحمد ثم بايع للمهتدي في شعبان من تلك السنة.

خبر كرخ أصبهان وأبي دلف

قد تقدم لنا شأن أبي دلف أيام المأمون وأنه كان مقيماً بكرخة وأن المأمون عفا له عما وقع منه في القعود عن نصره، وأقام بتلك الناحية وملك، فقام ابنه عبد العزيز مكانه. ولما كانت أيام الفتنة تمسك بطاعة المستعين وولى وصيف على الجبل وأصبهان، فكتب إلى عبد العزيز باستخلافه عليها وبعث عليه بالخلع، وعقد المعتز لموسى بن بغا الكبير في شهر رجب من سنة ثلاث وخمسين على الجبل وأصبهان، فسار لذلك وفي مقدمته

الحسن بن زيد العلوي فحربه بطبرستان فغلبه، وأحرق قصوره بآدم وخرج في اتباعه إلى الديلم، فكتب إلى موسى بالرجوع لمداومة من شاء وبينما هو في استقدامه وانتظاره قتل المعتز وبويع المهدي، وبلغ أصحابه ما حواه صالح من أموال المعتز وكتابه وأمه، فشرهوا إلى مثل ذلك، وأغروا موسى بالمسير إلى سامرا.

ورجع فملح من بلاد الديلم إليه وهو بالري، فسار نحو سامرا وسمع المهدي بذلك فكتب إليه بالمقام يحذره على ما وراءه من العلويين فلم يصغ لذلك، وأفحش أصحابه في إساءة الرسل الواصلين بالكتب. فكتب بالاعتذار واحتج بما عينه الرسل وأنه يخشى أن يقتله أصحابه إن عادوا إلى الري وصالح بن وصيف في خلال ذلك يغري به المهدي وينسبه إلى العصية والخلاف، إلى أن قدم في الحرم سنة ست وخمسين ودخل في التبعية، فاختمت صالح بن وصيف ومضى موسى إلى الجوسق والمهدي جالس للمظالم فأعرض له عن الإذن ساعة ارتاب فيها هو وأصحابه وظنوا أنه ينتظر قدوم صالح بالعساكر. ثم أذن لهم فدخلوا وقبضوا على المهدي وأودعوه دار باجورة وانتهبوا ما كان في الجوسق.

واستغاث المهدي بموسى فعطف عليه ثم أخذ عليه العهود والأيمان أن لا يوالي صالحاً وأن باطنه وظاهره في موالاتهم سواء، فجددوا له البيعة واستبد موسى بالأمر، وبعث إلى صالح للمطالبة بما احتجبه من الأموال فلم يوقف له على أثر، وأخذوا في البحث عنه. وفي آخر الحرم أحضر المهدي كتاباً رفعه إليه سيما الشرايبي، زعم أن امرأة دفعته إليه وغابت فلم يرها، وحضر القواد وقرأه سليمان بن وهب عليهم وهو يحفظ صالح يذكر ما صار إليه من الأموال، وأنه إنما استتر خشية على نفسه وحسماً للفتنة وإبقاء على الموالي. ولما قرأ الكتاب حثهم المهدي على الصلح والاتفاق، فأنهمم الأتراك بالليل إلى صالح وأنه مطلع على مكانه، وطال الكلام بينهم بذلك.

ثم اجتمعوا من الغد بدار موسى بن بغا داخل الجوسق وانفقوا على خلع المهدي، إلا أخا بابكيال فإنه أبى من ذلك وتهددهم بأنه مفارقهم إلى خراسان، واتصل الخبر بالمهدي فاستدعاه إليه وقد نظف ثيابه ونظف وتقلد سيفه فأرعد وأبرق وتهددهم بالاستماتة، ثم حلف لا يعلم مكان صالح، وقال لمحمد بن بغا وبابكيال: قد حضرتما مع صالح في أمر المعتز وأموال الكتاب وأنتم شركاؤه في ذلك كله. وانتشر الخبر في العامة بأنهم أرهقوه وأرادوا خلعهم فطفقوا يحاذرون على الدعاء في المساجد والطرقات ويغيثون على القواد بغيهم على الخليفة، ويرمون الرقاع بذلك في الطرقات. ثم إن الموالي بالكرخ والدور فسوا إلى المهدي

نصر وبابكيال وطلبوه في الخروج إليهم، فاعتذر لهم وأذن لبعضهم في الدخول فدخلوا، وجروه إلى الباب وضربوه وأقاموه في الشمس في صحن الدار وكلما مر به أحد منهم لطمه. ثم أحضروا القاضي ابن أبي الشوارب في جماعة فاشهدهم على خلعهم، وعلى صالح بن وصيف بأمانه وأمان أمه وأخته وولده. وفرت أمه قبيحة من سرب كانت اتخذته بالدار، ثم عذبوا المعتز ثم جعلوه في سرب وطموا عليه، وأشهدوا على موته بني هاشم والقواد، وذلك آخر رجب من سنة خمس وخمسين، ويابعو لمحمد ابن عمه الوائق لقبوه المهدي بالله عندما خلع المعتز نفسه وأقر بالعجز والرغبة في تسليمها إلى المهدي، ويابيه الخاصة والعامة. وكانت قبيحة أم المعتز لما فعل صالح بالكتاب ما فعل قد.... نفراً منهم على الفتك بصالح، ونمي ذلك إليه، فجمع الأتراك على الثوران، وأيقنت قبيحة بالهلاك فأودعت ما في الخزان من الأموال والجواهر، وحفرت سرباً في حجرتها هربت منه لما أحيط بالمعتز، ولما قتل خشيت على نفسها فبعثت إلى صالح تستأمنه فاحضرها في رمضان وظفر منها بخمسمائة ألف دينار، وعذبها على خزائن تحت الأرض فيها ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار ومقدار مكوك من الزبرجد لم يرم مثله ومقدار مكوك آخر من اللؤلؤ العظيم وجراب من الباقوت الأحمر القليل النظير، وذمها الناس بأنها عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار ومعها هذا المال، ثم سارت إلى مكة فأقامت هنالك، وقبض صالح على أحمد بن إسرائيل وزيد بن المعتز وعذبه وصادره. ثم قبض على أبي نوح وفعل به مثله، وقبض على الحسن بن غلند كذلك ولم يمت. وبلغ المهدي ذلك فنكره وقال: كان الحبس كافياً في العقوبة. ولأول ولاية المهدي أخرج القيان والمغنين من سامرا ونفاهم عنها، وأمر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان وطرد الكلاب ورد المظالم وجلس للعامة، وكانت الفتن قائمة، والدولة مضطربة، فشمر لإصلاحها لو أمهل واستوزر سليمان بن وهب وغلب على أمره صالح بن وصيف وقام بالدولة.

مسير موسى بن بغا إلى سامرا ومقتل صالح

بن وصيف

كان موسى بن بغا غائباً بنواحي الري وأصبهان منذ ولاية المعتز عليها سنة ثلاث وخمسين، ومعه فلاح غلام أبي الساج، وكانت قبيحة أم المعتز لما رأت اضطراب أموره كتبت إلى موسى قبل أن يفوت المعتز أمره، فجاءه كتابها، وقد بعث مفلحاً لحرب

العامه وعسكروا بسامرا وتعلقوا بأبي القاسم يطلبون صالحاً فانكر المهدي أن يكون علم مكانه، وقال: إن كان عندهم فليظهروه. ثم ركب ابن بغا في القواد ومعه أربعة آلاف فارس وعسكر، وافترق الأتراك ولم يظهر للكرخيين ولا لأهل الدور وسامرا في هذا اليوم حركة، وجدّ موسى في طلب صالح ونادى عليه وعثر عليه بعض القوغاء فجاء به إلى الجوسق والعامه في اتباعه فضربه بعض أصحاب مفلح فقتله وطيف برأسه على قناة وخرج موسى بن بغا لقتال السراة بناحية السن.

الصوائف منذ ولاية المنتصر إلى آخر أيام المهدي

في سنة ثمان وأربعين أيام المستعين خرج بناحية الموصل محمد بن عمر الشاري وحكم فسرّح المنتصر إسحاق بن ثابت الفرغاني فأسره في عدة من أصحابه وقتلوا وصلبوا وفي هذه السنة غزا بالصائفة وصيف وأمره المنتصر بالمقام بملطية أربع سنين ويغزو في أوقات الغزو إلى أن يأتيه رأيه، وكان مقيماً بالثغر الشامي فدخل بلاد الروم وافتتح حصن قدورية. وفي سنة تسع وأربعين غزا بالصائفة جعفر بن دينار فافتتح مطاير واستأذنه عمر بن عبد الله الأقطع في الدخول إلى بلاد الروم فأذن له، فدخل في جموع من أهل ملطية، ولقي ملك الروم بمرج الأسقف في خمسين ألفاً فأحاطوا به وقيل: في ألفين من المسلمين، وخرج الروم إلى الثغور الحزورية فاستباحوها وبلغ ذلك علي بن يحيى الأرمني وقد كان صرف عن الثغور الشامية وعقد له على أرمينية وأذربيجان. فلما سمع بخبرهم نفر إليهم وقاتلهم فانهزم وقتل في أربعمائة من المسلمين، وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر.

الولاية

لما ولي المنتصر استوزر أحمد بن الخصيب وولى على المظالم أبا عمر أحمد بن سعيد مولى بني هاشم. ثم ولي المستعين ومات طاهر بن عبد الله بنجراسان فولى المستعين مكانه ابنه محمداً وولى محمد بن عبد الله على العراق وجعل إليه الحرمين والشرطة ومعادن السواد، واستخلف أخاه سليمان بن عبد الله على طبرستان. وتوفي بغا الكبير فولى ابنه موسى على أعماله وضاف إليه ديوان البريد، وشغب أهل حمص على عاملهم وأخرجوه،

أن يبعثوا إليه أخاه أبا القاسم عبد الله بعد أن ركبوا وتحركوا فقالوا لأبي القاسم: بلغنا ما عليه موسى وبابكيال وأصحابهما ونحن شبيعة للخليفة فيما يريد، وشكوا مع ذلك تأخر أرزاقهم وما صاروا من الإقطاع والزيادات إلى قوادهم وما أخذته النساء والدخلاء حتى أصحب ذلك كله بالخراج والضياغ، وكتبوا بذلك إلى المهدي.

فأجابهم بالثناء على التشيع له والطاعة والوعد الجميل في الرزق، والنظر الجميل في شأن الإقطاعات للقواد والنساء، فأفاضوا في الدعاء وأجمعوا على منع الخليفة من الحجر الاستبداد عليه، وأن ترجع الرسوم على عاداتها أيام المستعين على كل عشرة عريف، وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد، وأن تسقط النساء والزيادة في الإقطاع ويوضع العطاء في كل شهرين. وكتبوا بذلك إلى المهدي وأنهم صائرون إلى بابه ليقضي حوائجهم، وإن أحد اعترض عليه أخذوا رأسه وإن تعرض له أحد قتلوا موسى بن بغا وبابكيال وما جور. فجاء أبو القاسم بالكتاب وقد قعد المهدي للمظالم وعنده الفقهاء والقضاة والقواد قائمون في مراتبهم فقرأ كتابهم على القواد فاضطربوا وكتب جوابهم بما سألوا وطلب أبو القاسم من القواد أن يبعثوا معه رسولاً بالعذر عنهم ففعلوا، ومضى أبو القاسم إليهم بكتاب الكتاب ويرسل القواد وأعدائهم. فكتبوا إلى المهدي يطلبون التوقيعات بخط الزيادات ورد الإقطاعات وإخراج الموالي البرائين من الخاصة، ورد الرسوم إلى عاداتها أيام المستعين، ومحاسبة موسى بن بغا وصالح بن وصيف على ما عندهم من الأموال ووضع العطاء على كل شهرين وصرف النظر في الجيش إلى بعض إخوانه أو قرائبه وإخراجه من الموالي، وكتبوا بذلك إلى المهدي والقواد فأجابهم إلى جميع ما سألوه.

وكتب إليهم موسى بن بغا بالإجابة في شأن صالح والإذن في ظهوره فقرأوا الكتابين ووعدوا بالجواب، فركب إليهم أبو القاسم واتبعه موسى في ألف وخمسمائة فوقف في طريقهم وجاءهم أبو القاسم فاضطربوا في الجواب ولم يتفقوا فرجع ورد موسى بن بغا فأمرهم المهدي بالرجوع وأن يتقدم إليهم محمد بن بغا مع أبي القاسم، ويدفعوا إليهم كتاب الأمان لصالح بن وصيف، وقد كان من طلبتهم أن يكون موسى في مرتبة أبيه وصالح كذلك والجيش في يده، وأن يظهر على الأمان فأجيبوا إلى ذلك.

وافترق الناس إلى الكرخ والدور وسامرا، فلما كان من الغد ركب بنو وصيف في جماعة ولبسوا السلاح فنهبوا دواب

وفيها مات ابن عبد الله بن طاهر ببغداد وولى أخوه عبيد الله بعده. ثم بعث المعتز عن أخيه سليمان بطبرستان فولاه مكانه، وكان على الموصل سليمان بن عمران الأزدي، وكانت بينه وبين الأزدي حروب بتواحي الموصل. وفيها مات مزاحم بن خاقان بمصر. وفيها يعقوب الصفار سجستان وفارس وهراة، وكان ابتداء دولته، وولى بابكيال أحمد بن طولون على برمصر من قبله فكان ابتداء دولته. ثم أقطعها المعتمد ستة سبيع وخمسين ليبارجوج فولى عليها أحمد بن طولون من قبله وفي سنة خمس وخمسين أيام المهدي استولى مساور الخارجي على الموصل وفيها ظهر صاحب الزنج وكان ابتداء فتته.

أخبار صاحب الزنج وابتداء فتته

كان أكثر دعاة العلوية الخارجين بالعراق أيام المعتصم وما بعده أكثرهم من الزيدية، وكان من أئمتهم علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد الشهير وكان نازلاً بالبصرة، ولما وقع البحث عليه من الخلفاء ظفروا بأبن عمه علي بن محمد بن الحسين، فقتل بفدك، ولأيام من قتله خرج رجل بالري يدعي أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى المطلوب وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهدي. ولما ملك البصرة لقي علياً هذا حياً معروفاً بالنسب، فرجع عن ذلك وانتسب إلى يحيى قتيل الجوزجان أخيه عيسى المذكور.

ونسبه السعودي إلى طاهر بن الحسين وأظنه الحسين بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسين بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي، لأن ابن حزم قال في الحسين السبط أنه لا عقب له إلا من علي بن الحسين، وقال فيه علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن طاهر. وقال الطبري وابن حزم وغيرهم من المحققين أنه من عبد القيس، واسمه علي بن عبد الرحيم من قرية من قرى الري، ورأى كثرة خروج الزيدية فحدثه نفسه بالتوثب فانتحل هذا النسب، ويشهد لذلك أنه كان على رأي الأزارقة من الخوارج، ولا يكون ذلك من أهل البيت. وسياقة خبره أنه كان اتصل بجماعة من حاشية المنتصر ومدحهم.

ثم شخص من سامرا إلى البحرين سنة تسع وأربعين ادعى أنه من ولد العباس بن أبي طالب، ثم من ولد الحسن بن عبد الله بن العباس، ودعا الناس إلى طاعته فاتبعه كثير من أهل حجر وغيرها، وقتلوا أصحاب السلطان بسببه وعظمت فتته، فتحول عنهم إلى الإحساء ونزل على بني الشماس من سعد بن تميم،

فبعث عليهم المستعين الفضل بن قارن أخا مازيار فقتل منهم خلقاً وحمل مائة من أعيانهم إلى سامرا.

واستوزر المستعين أتماش بعد أن عزل أحمد بن الخصب، واستصفي بقي إلى أقریطش، وعقد لأتماش على مصر والمغرب، ولبغا الشرايبي على حلوان وماسبذان ومهرجا بعده. ثم قتل أتماش فاستوزر المستعين مكاته أبا صالح عبد الله بن محمد بن داود وعزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج وولاه عيسى بن فرخانشاه، وولى وصيفاً على الأهواز وبغا الصغير على فلسطين، ثم غضب بغا على أبي صالح فقرر إلى بغداد واستوزر المستعين مكاته محمد بن الفضل الجرجاني، وولى ديوان الرسائل مسعيد بن حميد وعزل جعفر بن عبد الواحد عن القضاء ونفاه إلى البصرة، وولى جعفر بن محمد بن عمار البرجمي.

وفي خمسين عقد لجعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى المعروف بسامسان على مكة ووثب أهل حمص على عاملهم الفضل بن قارن فقتلوه فسرّح إليهم المستعين موسى بن بقا وحاربوه فهزمهم، وأفتحت حمص وأثنى فيهم وأحرقها، وفيها وثب الشاكريه والجندي بفارس بعبد الله بن إسحاق فانتهبوا منزله، وقتلوا محمد بن الحسن بن قارن وهرب عبد الله بن إسحاق وفيها كان ظهور العلوية بتواحي طبرستان. وفي سنة إحدى وخمسين عقد المعتز لبغا ووصيف على أعمالها، ورد البريد إلى موسى بن بغا الكبير، وعقد محمد بن طاهر لأبي الساج وقدم بين يديه عبد الرحمن كما قلنا، وأظهر أنه إنما جاء لحرب الأعراب وتلطف لأبي أحمد حتى خالطه وقيده وبعث به إلى بغداد في سنة اثنتين وخمسين. وولى المعتز الحسين بن أبي الشوارب على القضاء وبعث محمد ابن عبد الله بن طاهر أبا الساج على طريق مكة، وعقد المعتز لعيسى الشيخ بن السليل الشيباني من ولد جساس بن مرة على الرملة فاستولى على فلسطين وعلى دمشق وأعمالها، وقطع ما كان يحمل من الشام. وكان إبراهيم بن المديبر على مصر فبعث إلى بغداد من المال بسبعمائة ألف دينار فاعترضها عيسى وأخذها، وطولب بالمال فقال: الفتنة على الجندي فولاه المعتمد على أرمينية يقيم بها دعواه.

وبعث المعتمد إلى الشام ماجور على دمشق وأعمالها، وبلغ الخبر إلى عيسى فبعث ابنه منصوراً في عشرين ألف مقاتل، فانهزم وقتل وصار عيسى إلى أرمينية على طريق الساحل. وفيها عقد وصيف لعبد العزيز بن أبي دلف العجلي على أعمال الجبل. وفي سنة ثلاث وخمسين عقد لموسى بن بغا على الجبل، فسار وفي مقدمته مفلح مولى بني الساج، وقتاله عبد العزيز بن أبي دلف فانهزم ولجأ إلى قلعة هادار وملك مفلح الكرخ وأخذ أهله وعياله،

ولقيته عساكرها فهزمهم الزنج واثخنوا فيهم.

ثم سار من الغد نحو البصرة وخرج إليه أهلها واحتشدوا وزحفوا إليه برأ ومجرأ فلقبهم بالسد وانهزموا هزيمة شنعاء كثر فيها القتل. ووهن أهل البصرة وكتبوا إلى الخليفة فبعث إليهم جعلان التركي مدداً وولى على الأبلّة أبا الأحوص الباهلي وأمه بجند من الأتراك، وقد بث صاحب الزنج أصحابه يميناً وشمالاً للغارة والنهب. ولما وصل جعلان إلى البصرة، ونزل على فرسخ منهم وخندق عليه، وأقام ستة أشهر يسرح لحربهم الزيني مع بني هاشم ومرجف. ثم بيته الزنج فقتلوا جماعة من أصحابه، وتحول عن مكانه ثم انصرف عن حربهم وظفر صاحب الزنج بعدد من المراكب غنم فيها أموالاً عظيمة، وقتل أهلها والحب والغارات على الأبلّة إلى أن دخلها عنوة آخر رجب سنة ست وخمسين، وقتل عاملها أبا الأحوص عبيد الله بن حميد الطوسي وخلقاً من أهلها واستباحها وأحرقها وبلغ ذلك أهل عبادان فاستأمنوا له وملكها، واستولى على ما فيها من الأموال والعييد والسلاح إلى الأهواز وبها إبراهيم بن المدبر على الخراج، فهرب أهلها ودخلها الزنج ونهبوا وأسروا ابن المدبر فخاف أهل البصرة وافترق كثير منهم من البلدان. وبعث المعتمد سعيد بن صالح الحاجب لحربهم سنة سبع وخمسين فهزمهم وأخذ ما معهم واثخن فيهم وكان ابن المدبر أسيراً عندهم في بيت يحيى بن محمد البحراني وقد ضمن لهم مالا كثيراً ووكل به رجلين قد أخلفهم حتى حفر سراً من البيت وخرج منه ولحق بأهله.

خلع المهدي وقتله وبيعة المعتمد

وفي أول رجب من سنة ست وخمسين شغب الأتراك من الترك والدور بطلب أرزاقهم وبعث المهدي أخاه أبا القاسم ومعه كفتاً وغيره فشكّوهم وعادوا وبلغ محمد بن بغا أن المهدي قال للأتراك: إن الأموال عند محمد وموسى ابني بغا، فهرب إلى أخيه بالسند وهو في مقاتلة موسى الشاري فامته المهدي ورجع ومعه أخوه حنون وكيف بلغ فكتب له المهدي بالأمان ورجع إلى أصحابه وحبيه وصادره على خمسة عشر ألف دينار. ثم قتله وبعث بابيكال بكتابه إلى موسى بن بغا بأن يتسلم العسكر وأوصاه بحاربة الشاري وقتل موسى بن بغا ومفلح، فقرأ الكتاب على موسى وتواطؤوا على أن يرجع بابيكال فيتدبر على قتل المهدي، فرجع ومعه يارجوج وأساتكين وسيما الطويل، ودخلوا دار الخلافة متصفاً رجب فحبس بابيكال من بينهم واجتمع أصحابه

وصحبه جماعة من البحرين منهم يحيى بن محمد الأزرق وسليمان بن جامع، فكانا قائدین له، وقاتل أهل البحرين فانهمز وافتרכת العرب عنه واتبعه علي بن أبان وسار إلى البصرة ونزل في بني ضبيعة وعاملها يومئذ محمد بن رجاء، والفتنة فيها بين البلالية والسعدية، وطلبه ابن رجاء فهرب وحبس ابنه وزوجته وجماعة من أصحابه، فسار إلى بغداد وأقام بها حولاً وانتسب إلى محمد بن أبي أحمد بن عيسى كما قلناه، واستمال بها جماعة منهم جعفر بن محمد الصوحاني من ولد زيد بن ضوحان ومسروق ورفيق غلامان ليحيى بن عبد الرحمن وسمى مسروقاً: حمزة وكناه: أبا أحمد، وسمى رفيقاً: جعفرأ وكناه: أبا الفضل.

ثم وثب رؤساء البلالية والسعدية بالبصرة وأخرجوا العامل محمد بن رجاء، فبلغه ذلك وهو ببغداد، وأن أهله خلعه فرجع إلى البصرة في رمضان سنة خمس وخمسين ويحيى بن محمد وسليمان بن جامع ومسروق ورفيق، فنزل بقصر القرش ودعا الغلمان من الزوج ووعدهم بالعق فاجتمع له منهم خلق وخطبهم ووعدهم بالملك ورغبهم في الإحسان وحلف لهم وكتب لهم في خرقة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية. واتخذها راية وجاءه موالى الزوج في عييدهم فأمر كل عبد أن يضرب مولاه وحبسهم ثم أطلقهم، ولم يزل هذا رايه والزواج في متابعتة والدخول في أمره وهو يخطبهم في كل وقت ويرغبهم. ثم عبر دُجَيْلاً إلى نهر ميمون، فأخرج عند الحميري وملكه وسار إلى الأبلّة وبها ابن أبي عون فخرج إليه في أربعة آلاف فهزمهم ونال منهم.

ثم سار إلى القادسية فنهبا وكثر سلاحهم، وخرج جماعة من أهل البصرة لقتاله، فبعث إليهم يحيى بن محمد في خمسمائة رجل فهزمهم وأخذ سلاحهم. ثم طائفة أخرى كذلك وأخرى، وخرج قائدان من البصرة فهزما وقتل منهما، وكانت معهما سفن ألقتها الريح إلى الشط فغنموا ما فيها وقتلوا وكثر عيشه وفساده. وجاء أبو هلال من قواد الأتراك في أربعة آلاف مقاتل فلقبه على نهر الريان فهزمه الزنج واستلحموا أكثر أصحابه، ثم خرج أبو منصور أحد موالى الهاشمين في عسكر عظيم من المطوعة والبالية والسعدية فسرح للقائهم علي بن أبان فلقى طائفة منهم فهزمهم، ثم أرسل طائفة أخرى إلى مرقا السفن وفيه نحو من ألفي سفينة فهرب عنها أهلها ونهبوها، ثم جاءه عساكر أبي منصور وقعد الزوج لهم بين النخل وعليهم علي بن أبان، ومحمد بن مسلم، فهزموا العسكر وقتلوا منهم وأخذوا سلاحهم. ثم سار فنهب القرى حتى امتلات أيديهم بالنهب. ثم سار يريد البصرة

ومعهم والأتراك وشغبوا.

وكان ما ذكرناه من شأنه. ثم أحضر أبو العباس أحمد بن المتوكل وكان محبوباً بالجوسق فبايعه الناس. وكتب الأتراك إلى موسى بن بغا وهو غائب فحضر وكملت البيعة لأحمد بن المتوكل ولقب المعتمد على الله واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان فأصبح المهدي ثاني يوم البيعة ميتاً متصفاً رجب من سنة ست وخمسين على رأس سنة من ولايته. ولم يزل ابن خاقان في وزارته إلى أن هلك سنة ثلاث وستين من سقطه بالميدان سال فيها دماغه من منخره، فاستوزر محمد بن غلغل، ثم سخط عليه موسى بن بغا واختلفاً فاستوزر مكانه سليمان بن وهب، ثم عزله وحبسه وولى الحسن بن غلغل وغضب الموفق لحبسه ابن وهب وعسكر بالجانب الغربي وترددت الرسل بينهما فاتفقا وأطلقه وذلك سنة أربع وستين.

ظهور العلوية بمصر والكوفة

وفي سنة ست وخمسين ظهر بمصر إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن الحنفية ويعرف بالصومى يدعو إلى الرضا من آل محمد وملك أشياء من بلاد الصعيد. وجاءه عسكر أحمد بن طولون من مصر فهزمهم وقتل قائدهم، فجاء جيش آخر فانهزم أمامهم إلى الواحات وجمع هنالك جموعاً وسار إلى الأشمونين فلقبه هنالك أبو عبد الرحمن العمري وهو عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر كان قد أخذ نفسه بحرب البجاة وغزو بلادهم لما كان منهم في غزو بلاد المسلمين، فاشتد أمره في تلك الناحية وكثر أتباعه، وبعث إليه ابن طولون عسكرياً فقال لقائده: أنا البث هناك لدفع الأذى عن بلاد المسلمين، فساور أحمد بن طولون! فأبى القائد إلا من أجزته فهزمه العمري.

ولما سمع ابن طولون خبره أنكر عليهم أن لا يكونوا بذكره، فبقي على حاله من الغارة على البجاة حتى أدوا الجزية. فلما جاء الصولي من الأشمونيين لقيه العمري فهزمه، وعاد العمري إلى أسوان واشتد عيئه، فبعث إليه ابن طولون العساكر فهرب إلى عيذاب وأجاز البحر إلى مكة وافترق أصحابه، وقبض عليه والي مكة وبعث به إلى ابن طولون فحبسه مدة ثم أطلقه، فرجع إلى المدينة ومات بها.

وفي هذه السنة ظهر علي بن زيد، وجاءه الشاه بن ميكال من قبل المعتمد في جيش كثيف فهزمه وأثنى في أصحابه. فسرغ المعتمد إلى حربه كيحور التركي فخرج علي عن الكوفة إلى القادسية وملك كيحور الكوفة أول شوال، وأقام علي بن زيد

وكان عند المهدي صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور فأشار بقتله ومناجزتهم، فركب في المغاربة والأتراك والفراغة على التعية. ومشى والبلخي في المينة ويارجوج في الميسرة، ووقف هو في القلب ومعه أساتكين وغيره من القواد وبعث برأس بابكيال إليهم مع عتاب بن عتاب، ولحق الأتراك من ميمنة المهدي وميسرته بإخوانهم الأتراك فانهزم الباقون على المهدي وولى منهزماً ينادي بالناس ولا يجيبه أحد وسار إلى السجن فأطلق المحبوسين ودخل دار أحمد بن جمل صاحب الشرطة وافتتحوا عليه وحملوه على بغل إلى الجوسق، وحبس عند أحمد ابن خاقان، وأرادوه على الخلع فأبى واستمات، فأخرجوا رقعة بخطه لموسى بن بغا وبابكيال وجماعة القواد أنه لا يغدر بهم ولا يقاتلهم ولا يهيم بذلك، ومتى فعل شيئاً من ذلك فقد جعل أمر الخلافة بأيديهم يولون من شاؤوا فاستحلوا بذلك أمره وقتلوه.

وقيل في سبب خلعه غير هذا وهو: أن أهل الكرخ والدور من الأتراك طلبوا الدخول على المهدي ليكلموه فاذن لهم وخرج محمد بن بغا إلى المحمدية ودخلوا في أربعة آلاف، فطلبوا أن يعزل عنهم قواده ويصادروهم وكتائبهم على الأهواز، ويصير الأمر إلى أخوته فوعدهم بالإجابة وأصبحوا من الغد يطلبون الوفاء بما وعدهم به، فاعتذر لهم بالعجز عن ذلك إلا بسياسة ورفق فأبى إلا المعاجلة، فاستخلفهم على القيام معه في ذلك بإيمان البيعة فحلفوا، ثم كتبوا إلى محمد بن بغا عن المهدي وعنهم يعزلونه في غيبته عن مجلسهم مع المهدي، وأنهم إنما جأؤا بشكوى حالهم ووجدوا الدار خالية فأقاموا ورجع محمد بن بغا فحبسه في الأموال وكتبوا إلى موسى بن بغا ومفلح بالقدوم وتسليم العسكر إلى من ذكره لهم، وبعثوا من يقيدهما إن لم يأترا ذلك.

ولما قرئت الكتب على موسى وأصحابه وامتنعوا لذلك وساورا نحو سامراء، وخرج المهدي لقتالهم على التعية، وترددت الرسل بينهم يطلب موسى أن يولى على ناحية ينصرف إليها، ويطلب أصحاب المهدي أن يحضر عندهم فيناظرهم على الأموال إلى أن انفض عنهم أصحابه وسار هو ومفلح على طريق خراسان، ورجع بابكيال وجماعة من القواد إلى المهدي فقتل بابكيال ثم أنف الأتراك من مساواة الفراغة والمغاربة لهم وأرادوا طردهم فأبى المهدي ذلك، فخرج الأتراك عن الدار بأجمعهم طالبين ثار بابكيال فركب المهدي على التعية في ستة آلاف من الفراغة والمغاربة ونحو ألف من الأتراك أصحاب صالح بن صيف، واجتمع الأتراك للحرب في عشرة آلاف فانهزم المهدي

نفسه على المقام، وبعث الخيـث إلى يحيى بن محمد أبا الليث الأصهباني مدداً وأمرهم بتبيت المولد، فبيته وقاتلوه تلك الليلة والغد إلى المساء، ثم هزموه وغنم الزنج عسكره واتبعه البحراني إلى الجامدة وأوقع بأهلها ونهب تلك القرى أجمع وعاث فيها ورجع إلى نهر معقل.

مقتل منصور الحياط

كان الزنج لما فرغوا من البصرة سار علي بن أبان إلى جبي وعلى الأهواز يومئذ منصور بن جعفر الحياط قد ولاء عليها المعتمد بعد موافقته الزنج بالبحرين، فسار إلى الأهواز ونزل جبي وسار علي بن أبان قائد الزنج لحربه. وجاء أبو الليث الأصهباني في البحر مدداً له وتقدم إلى منصور من غير أمر علي فظفر منصور وقتل الكثير ممن معه وأفلت منهزماً إلى الخيـث. ثم تواقع علي بن أبان مع منصور فهزمه واتبعه الزنج فحمل عليهم وألقى نفسه في النهر ليعبر إليهم فغرق، وقيل: تقدم إليه بعض الزنج لما رآه فقتله في الماء. ثم قتل أخوه خلف وغيره من العسكر وولى يارجوج على عمل منصور اصطيخور من قواد الأتراك.

مسير الموفق لحرب الزنج

كان أبو أحمد الموفق وهو أخو المعتمد بمكة، وكان المعتمد قد استقدمه عندما اشتد أمر الزنج وعقد له على الكوفة والحرمين وطريق مكة واليمن، ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز، وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد بن صالح. ولما انهزم سعيد بن سعيد بن صالح عقد يارجوج لمنصور بن جعفر مكانه على البصرة وكور دجلة والأهواز ثم قتله كما قلناه فعقد المعتمد لأخيه أبي أحمد الموفق على مصر وقنشرين والعواصم وخلع على مقلح، وذلك في ربيع سنة ثمان وخمسين وسيرهما لحرب الزنج فساروا في عدة كاملة: وخرج المعتمد يشيع أخاه وكان علي بن أبان بجي ويحيى بن محمد البحراني بنهر العباس والخيـث في قلة من الناس، وأصحابه مترددون إلى البصرة لنقل ما نهبوه. فلما نزل الموفق نهر معقل أجفل الزنج إلى صاحبهم مرتاعين، فأمر علي بن أبان بالمسير إليهم ولقي مقلحاً في مقدمة الموفق فاقتلوا وبينما هم يقتلون إذ أصاب مقلحاً سهم غريب فقتل، وانهزم أصحابه وأسر الكثير منهم. ثم رحل الموفق نحو الأبله ليجمع العساكر ونزل نهر أبي الأسد ووقع الموتان في عسكره، فرجع إلى بادرد، وأقام

ببلاد بني أسد. ثم غزا كيجور آخر ذي الحجة فأوقع به وقتل وأسر من أصحابه ورجع إلى الكوفة، ثم إلى سُرَّ مَنْ رأى، وبقي علي هنالك إلى أن بعث المعتمد سنة تسع.... عسكراً فقتلوه بعكبراً وانقطع أمره وقيل: سار إلى صاحب الزنج فقتله سنة ستين وفي هذه السنة غلب الحسين بن زيد الطالبي على الري وسار موسى بن بغا إليه.

بقية أخبار الزنج

قدم تقدم لنا أن المعتمد بعث سعيد بن صالح الحاجب لحربهم فأوقع بهم، ثم عاودوه فأوقعوا به وقتلوا من أصحابه وأحرقوا عسكره، ورجع إلى سامرا فعقد المعتمد على حربهم لجعفر بن منصور الحياط فقطع عنهم ميرة السفن. ثم سار إليهم في البحر فهزمه إلى البحرين، ثم بعث الخيـث علي بن أبان من قواده إلى إربل لقطع قنطرتها، فلقى إبراهيم بن سيما منصرفاً من فارس، فأوقع بهم إبراهيم وخرج علي بن أبان وسار إبراهيم إلى نهر جبي وأمر كاتبه شاهين بن بسطام باتباعه وجاء الخبر إلى علي ابن أبان بإقبال شاهين فسار ولقيه وهزمه أشد من الأول، وانصرف إلى جبي.

وكان منصور بن جعفر الحياط منذ انهزم في البحر لم يعد لقتال الزنج واقتصر على حفر الخنادق وإصلاح السفن، فزحف علي بن أبان لحصاره بالبصرة، وضيق على أهل البلد وأشرف على دخولها، وبعث لاحتشاد العرب، فوافاه منهم خلق فدفعهم لقتال أهل البصرة وفرقهم على نواحيها فقاتلهم كذلك يومين، ثم اقتحها علي بن أبان متصفاً شوال وأفحش في القتل والتخريب، ورجع ثم عاودهم ثانية وثالثة حتى طلبوا الأمان فأمّنهم وأحضرهم في بعض دور الإمارة فقتلهم أجمعين وحرق علي ابن أبان الجامع ومواقع من البصرة واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل وعم النهب وأقام كذلك أياماً، ثم نادى بالأمان فلم يظهر أحد واتتهى الخبر إلى الخيـث فصرف علي بن أبان وولى عليها يحيى بن محمد البحراني.

مسير المولد لحربهم

لما دخل الزنج البصرة وخربوها، أمر المعتمد عمداً المعروف بالمولد بالمسير إلى البصرة، وسار إلى الأبله، ثم نزل البصرة واجتمع إليه أهلها، وأخرج الزنج عنها إلى نهر معقل، ثم بعث الخيـث قائده يحيى بن محمد لحرب المولد فقاتله عشرة أيام ووطن المولد

بعث علي جماعة من خلفه وشعر بهم، فرجع القهقري ولم يصب منهم شيء إلا بعض السفن البحرية. ثم راجع عبد الرحمن حرب علي بن أبان وفي مقدمته طاشمتر فأوقعوا بعلي بن أبان ولحق بالخيث صاحب الزنج، وأقام عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم يتناوبان حرب الخيث ويوقعان به، وإسحاق بن كنداجق بالبصرة يقطع عنه المدد، وهو يبعث لكل منهما طائفة يقاتلونهم، وأقاموا على ذلك سبعة عشر شهراً إلى أن صرف موسى بن بغا عن حربهم ووليها مسرور البلخي كما نذكر.

استيلاء الصفار على فارس وطبرستان

قد تقدم استيلاء يعقوب بن الليث الصفار على فارس أيام المعتز من يد علي بن الحسين بن مقبل. ثم عادت فارس إلى الخلفاء، ووليها الحارث بن سيماء، وكان بها من رجال العراق محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي فاتفق مع أحمد بن الليث من الأكراد الذين بنواحيها ووثبوا بالحارث بن سيماء فقتلوه، واستولى ابن واصل على فارس سنة ست وخمسين، وقام بدعوة المعتد وبعث عليها المعتد الحسن بن الفياض، فسار إليه يعقوب بن الليث سنة سبع وخمسين، وبلغ ذلك المعتد فكتب إليه بالتكبير، وبعث إليه الموفق بولاية بلخ وطخارستان فملكهما وقبض على رتييل، وبعث إلى المعتد برسله وهدايا. ثم رجع إلى بست، واعتزم على العود إلى سجستان فعجل بعض قواده الرحيل قبله، فغضب وأقام سنة ثم رجع إلى سجستان.

استيلاء الصفار على خراسان وانقراض أمر

بني طاهر منها ثم استيلاؤه على طبرستان

ثم جاء إلى هراة وحاصر مدينة نيسابور حتى ملكها ثم سار إلى بوشنج وقبض على الحسين بن علي بن طاهر بن الحسين، وبعث إليه محمد بن طاهر بن عبد الله شافعاً فيه فأبى من إطلاقه، ثم ولى على هراة وبوشنج وباذغيس ورجع إلى سجستان وكان بها عبد الله السخري يتنازع. فلما قوي عليه يعقوب فر منه إلى خراسان وحاصر محمد بن طاهر في نيسابور، ورجع إليه الفقهاء فأصلحوا بينه وبين محمد، وولاه الطَّبْسَيْن وقهستان، وأرسل يعقوب في طلبه فأجاره محمد فسار يعقوب إليه بنيسابور فلم يطق لقاءه، ونزل يعقوب بظاهرها، فبعث محمد بعمومته وأهل بيته فتلقوه. ثم خرج إليه فوجّهه على التفريط في عمله وقبض عليه

لتجهيز الآلة وإزاحة العلل وإصلاح السفن، ثم عاد إلى عسكر الخيث فالتقوا واشتد الحرب بينهم على نهر أبي الخصيب وقتل جماعة من الزنج واستنقذ كثير من النساء المسييات ورجع إلى عسكره ببادرود فوقع الحريق في عسكره، ورحل إلى واسط واقترب أصحابه فرجع إلى سامرا واستخلف على واسط.

مقتل البحراني قائد الزنج

كان أصطخخور لما ولي الأهواز بعد منصور الخياط بلغه مسير يحيى بن محمد قائد الزنج إلى نهر العباس عند مسير الموفق إليهم، فخرج إليه أصطخخور فقاتله وعبر يحيى النهر وغنم سفن الميرة التي كانت عند أصطخخور، وبعث طلائعه إلى دجلة فلقوا جيش الموفق فرجعوا هاربين، وطلّاع الموفق في اتباعهم وعبروا النهر منهزمين. وبقي يحيى يقاتل وانهزم ودخل في بعض السفن جريماً وغنم طلائع الموفق غنائهم والسفن وأحرقوا بعضها وعبروا الماخورة على يحيى فأنزلوه من سفنهم خشية على أنفسهم، فسعى به طبيب كان يداوي جراحه وقبض عليه وحمل إلى سامرا وقطع ثم قتل. ثم أنفذ الخيث علي بن أبان وسليمان بن موسى الشعراني من قواده إلى الأهواز، وضم إليهما الجيش الذي كان مع يحيى ومحمد البحراني وذلك سنة تسع وخمسين فلقيهما أصطخخور بدستميان وانهزم أمامهما وغرق، وهلك من أصحابه خلق وأسر الحسن بن هزيمة والحسن بن جعفر وغيرهما وجسوا ودخل الزنج الأهواز فأقاموا يفسدون في نواحيها ويفنمون إلى أن قدم موسى بن بغا.

مسير ابن بغا لحرب الزنج

ولما ملك الزنج الأهواز سنة تسع وخمسين سرح المعتد لحربهم موسى بن بغا وعقد له على الأعمال، فبعث إلى الأهواز عبد الرحمن بن مفلح وإلى البصرة إسحاق بن كنداجق وإلى بادرود إبراهيم بن سيماء وأمرهم بمحاربة الزنج. فسار عبد الرحمن إلى علي بن أبان فهزمه أولاً ثم كانت لعبد الرحمن الكرة ثانياً فأتخن فيهم ورجعوا إلى الخيث وجاء عبد الرحمن إلى حصن نهدي فعسكر به وزحف إليه علي بن أبان فامتنع عليه، فسار إلى إبراهيم بن سيماء ببادرود فواقعه فانهزم أولاً إبراهيم، ثم كانت له الكرة ثانياً. وسار ابن أبان في الغياض فاضرموها عليهم ناراً ففروا هاربين وأسر منهم جماعة. وسار عبد الرحمن إلى علي بن أبان وجاءه المدد من الخيث في البحر فبينما عبد الرحمن في حربه إذ

فتنة الموصل

كان المعتمد قد ولى على الموصل أشاتكين من قواد الأتراك فبعث عليها هو ابنه أذكرتكين وسار إليها في جمادى سنة تسع وخسين، فأساء السيرة وأظهر المنكر وعسف بالناس في طلب الخوارج، وتعرض بعض الأيام رجل من حاشيته إلى امرأة في الطريق وتخلصها من يده بعض الصالحين، فأحضره أذكرتكين وضربه ضرباً شديداً، فاجتمع وجوه البلد وتآمروا في رفع أمرهم إلى المعتمد، فركب إليهم ليوقع بهم فقاتلوه وأخرجوه واجتمعوا على يحيى بن سليمان ولوله أمرهم، ولما كانت سنة إحدى وستين ولى أستاذكين عليها المهشم بن عبد الله بن العمدة التغلبي العدوي وأمره أن يزحف لحربهم ففعل، وقاتلوه أياماً وكثرت القتلى بينهم، ورجع عنهم المهشم وولى أستاذكين مكانه إسحاق بن أيوب التغلبي جد بني حدان وغيره، وحاصرها مدة ومرض يحيى بن سليمان الأمير وفي أثناءها، فطمع إسحاق في البلد وجذ في الحصار، واقتحمها من بعض الجهات فأخرجوه، وحملوا يحيى بن سليمان في قبة والقوه أمام الصف واشتد القتال ولم يزل إسحاق يراسلهم ويعدهم حسن السيرة إلى أن أجابوه على أن يقيم بالبرص فأقام أسبوعاً، ثم حدثت عن يابيه بعض الفعلات فوثبوا به وأخرجوه، واستقر يحيى بن سليمان بالموصل.

حروب ابن واصل بفارس

قد تقدم لنا وثوب محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي بالخارث بن سيما عامل فارس وتغلبه عليها سنة ست وخسين، فلما بلغ ذلك إلى المعتمد أضاف فارس إلى عبد الرحمن بن مفلح وبعثه إلى الأهواز وأمد بطاشتم، وزحفوا من الأهواز إلى ابن واصل سنة إحدى وستين، فسار معهم من فارس ومعه أبو داود العلوس ولقيهم برام هرمز فهزمهم وقتل طاشتم وأسر ابن مفلح وغنم عسكرهم. وبعث إليه المعتمد في إطلاق ابن مفلح فقتله خفية، وسار لحرب موسى بن بغا بواسط، وانتهى إلى الأهواز وبها إبراهيم بن سيما في جموع كثيرة. ولما رأى موسى بن بغا اضطراب هذه الناحية استعفى المعتمد من ولايتهم فأعفاه، وكان عند انصراف ابن مفلح عن الأهواز إلى فارس قد ولى مكانه بالساج وأمره بمحاربة الزنج، فبعث صهره عبد الرحمن لذلك، فلقبه علي بن أبان قائد الزنج، فهزمه علي وقتله، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرم، وملك الزنج الأهواز فعاثوا فيها.

وعلى أهل بيته ودخل نيسابور واستعمل عليها، وأرسل إلى الخليفة بأن أهل خراسان استدعوه لتفريط ابن طاهر في أمره، وغلبه العلوي على طبرستان فبعث إليه المعتمد بالثكير والاقتصار على ما يبيده وإلا سلك به سبيل المخالفين وذلك سنة تسع وخسين.

وقبل في ملكه نيسابور غير ذلك وهو: أن محمد بن طاهر أصاب دولته العجز والإدبار، فكاتب بعض قرابته يعقوب بن الصفار واستدعوه، فكتب يعقوب إلى محمد بن طاهر بمجيئه إلى ناحية موزيا بقصد الحسن بن زيد في طبرستان، وإن المعتمد أمره بذلك، وإنه لا يعرض شيئاً من أعمال خراسان. وبعث بعض قواده عيناً عليه بمنعه من البراج عن نيسابور، وجاء بعده وقدم أخاه عمراً إلى محمد بن طاهر فقبض عليه وعفاه على الأعمال والعجز، وقبض على جميع أهل بيته نحو من مائة وستين رجلاً، وحملهم جميعاً إلى سجستان واستولى على خراسان، ووثب نوابه في سائر أعمالها وذلك لإحدى عشرة سنة وشهرين من ولاية محمد.

ولما قبض يعقوب على ابن طاهر واستولى على خراسان هرب منازعه عبد الله السخري إلى الحسن بن زيد صاحب طبرستان فبعث إليه فأجاره، وسار إلى يعقوب سنة ستين وحاربه فانهمز الحسن إلى أرض الديلم، وملك يعقوب سارية وأمل ومضى في أثر الحسين من عسكره نحو من أربعين ألفاً من الرجل والظهر ونجا بعد مشقة شديدة، وكتب إلى المعتمد بذلك وكان عبد الله السخري قد هرب بعد هزيمة الحسن العلوي إلى السري، فسار يعقوب في طلبه، وكتب إلى عامل الري يؤذنه بالحرب إن لم يدفعه إليه، فبعث به إليه وقتله ورجع إلى سجستان.

استيلاء الحسن بن زيد على جرجان

ولما هرب الحسن بن زيد أمام مفلح من طبرستان، ورجع مفلح اعترم الحسن على الرجوع إلى جرجان، فبعث محمد بن طاهر إليها العساكر لحفظها فلم يفتوا عنها، وجاء الحسن فملكها وضعف أمر ابن طاهر في خراسان، وانتقض عليه كثير من أعمالها وظهر التغلبون في نواحيها وعاثت السلافة من الخوارج في أعمالها ولم يقدر على دفعهم، وآل ذلك إلى تغلب الصفار على ابن طاهر وانتزاع خراسان من يده كما ذكرنا.

إسماعيل لضبط بخارى.

ثم ولي خراسان بعد ذلك رافع بن هرثمة بدعوة بني طاهر، وغلب الصفار عليها، وحصلت بينه وبين إسماعيل صاحب بخارى مودة اتفقا فيها على التعاون والتعاقد، وطلب منه إسماعيل أعمال خوارزم، فوله إياها، وفسد ما بين إسماعيل وأخيه مضر، وزحف نصر إليه سنة اثنتين وسبعين، واستجاش إسماعيل برافع بن هرثمة فسار إليه بنفسه مدداً، ووصل إلى بخارى، ثم أوقع الصلح بينه وبين أخيه خروفاً على نفسه، وانصرف رافع ثم انتقض ما بينهما وتحاربا سنة خمس وسبعين، وظفر إسماعيل بنصر. ولما حضر عنده ترجل له إسماعيل وقُبل يده ورده إلى كرسي إمارته بسمرقند، وأقام نائباً عنه ببخارى، وكان إسماعيل خيراً مكرماً لأهل العلم والدين.

مسير الموفق إلى البصرة لحرب الزنج وولاية العهد

ولما استعفى موسى بن بغا من ولاية الناحية الشرقية عزم المتمد على تجهيز أخيه أبي أحمد الموفق، فجلس في دار العامة وأحضر الناس على طبقاتهم، وذلك في شوال من سنة إحدى وستين وعقد لابنه جعفر العهد من بعده، ولقبه المفروض إلى الله، وضم إليه موسى بن بغا وولاه أفريقية ومصر والشام والجزيرة الموصل وأرمينية وطريق خراسان ونهر تصدق، وعقد لأخيه أبي أحمد العهد بعده ولقبه الناصر لدين الله الموفق، وولاه المشرق وبغداد وسواد الكوفة وطريق مكة واليمن وكسكر وكور دجلة والأهواز وفارس وأصبهان والكرخ والدينور والري وزنجيان والسند. وعقد لكل واحد منهما لواءين أبيض وأسود، وشرط أنه إن مات وجعفر لم يبلغ يتقدم الموفق عليه، ويكون هو بعده وأخذت البيعة بذلك على الناس، وعقد جعفر لموسى بن بغا على أعمال العرب، واستوزر صاعد بن غلخ، ثم نكبه سنة اثنتين وسبعين، واستصفاه واستكتب مكانه الصفار إسماعيل بن بابل، وأمر المتمد أخاه الموفق بالمسير لحرب الزنج، فبعثه في مقدمته واعتزم على المسير بعده.

وقعة الصفار والموفق

لما كان يعقوب الصفار ملك فارس من يد واصل وخراسان من يد ابن طاهر وقبض عليه صرح المتمد بأنه لم يؤله ولا فعل

ثم عزل أبو الساج عن ذلك وولى مكانه إبراهيم بن سيماء فلم يزل بها حتى انتصرف موسى بن بغا عن الأعمال كلها، ولما هزم إبراهيم بن سيماء بن واصل بن عبد الرحمن بن مفلح وقتله طمع يعقوب الصفار في ملك فارس، فسار من سجستان مجداً، ورجع ابن واصل من الأهواز وترك محاربة ابن سيماء، وأرسل خاله أبا بلال مرادس إلى الصفار، وراجع بالكتب والرسائل بمحبس ابن واصل رسله، ورحل بعد السير ليفجأه على بغتة، وشعر به الصفار فقال لخاله مرادس: إن صاحبك قد غدر بنا وسار إليهم وقد أعيروا وتعبروا من شدة السير ومات أكثرهم عطشاً. فلما تراءى الجمعان انهزم ابن واصل دون قتال، وغنم الصفار ما في عسكره وما كان لابن مفلح، واستولى على بلاد فارس وربب بها العمال وأوقع بأهل زم لإعاتنتهم ابن واصل، وطمع في الاستيلاء على الأهواز وغيرها.

مبدأ دولة بني سامان وراء النهر

كان جددهم أسد بن سامان من أهل خراسان وبيوتها ويتسبون في الفرس تارة إلى سامة بن لؤي وإلى ابن غالب أخرى، وكان لأسد أربعة من الولد: نوح وأحمد ويحيى وإلياس. وتقدموا عند المأمون أيام ولايته خراسان واستعملهم، ولما انتصرف المأمون إلى العراق ولي على خراسان غسان بن عباد من قرابة الفضل بن سهل، فولى نوحاً منهم على سمرقند وأحمد على فرغانة ويحيى على الشاش وأشروسنة وإلياس على هراة. فلما ولي طاهر بن الحسين بعده أقرهم على أعمالهم. ثم مات نوح بن أسد فأقر أخويه يحيى وأحمد على عمله، وكان حسن السيرة. ومات إلياس بهراة، فولى عبد الله بن طاهر مكانه ابنه أبا إسحاق محمد بن إلياس، وكان لأحمد بن أسد من البنين سبعة: نصر ويعقوب ويحيى وإسماعيل وإسحاق وأسد وكنيته: أبو الأشعث وحيد وكنيته: أبو غانم.

فلما توفي أحمد استخلف ابنه نصرأ على أعماله بسمرقند وما إليهما، وأقام إلى انقراض أيام بني طاهر وبعدهم، وكان يلي أعماله من قبل ولاية خراسان إلى حين انقراض أيام بني طاهر. واستولى الصفار على خراسان فنقد المتمد لنصر هذا على أعماله من قبله سنة إحدى وستين، ولما ملك يعقوب الصفار خراسان كما قلنا بعث نصر جيوشه إلى شط جيحون مسلحة من الصفار، فقتلوا مقدمهم ورجعوا إلى بخارى، وخشيهم واليها على نفسه ففر عنها، فولوا عليهم ثم عزلوا ثم ولوا ثم عزلوا، فبعث نصر أخاه

الزنج، ثم سار مسرور للقاء المعتمد وحضر الموفق حرب الصفار، وبلغ صاحب الزنج جاؤوا التواحي من العساكر، فبعث سراياه فيها للنهب والحرق والتخريب في بعث سليمان بن جامع إلى البطيعة، وسليمان بن موسى إلى القادسية. وجاء أبو التركي في السفن يريد عسكر الزنج، فأخذ عليه سليمان بن موسى وقاتله شهراً حتى تخلص والحجاز إلى سليمان بن جامع، وبعث إليهما الخيث بالمدد، وكان مسرور قد بعث قبل مسيره من واسط جنداً في البحر إلى سليمان فهزمهم وأوقع بهم وقتل أسراهم، ونزل بقرة مروان قريباً من يعقوب متحصناً بالغياض والأغوار. وزحف إليه قائدان من بغداد وهما أغرتمش وحشيش في العساكر براً وبحراً وأمر سليمان أصحابه بالاختفاء في تلك الغياض حتى يسمعوا أصوات الطبول.

وأقبل أغرتمش ونهض شرذمة من الزنج فواقعوا أصحابه وشاغلوهم، وسار سليمان من خلفهم وضرب طبوله وعبروا إليهم في الماء، فانهزم أصحاب أغرتمش وظهر ما كان مخفياً، وقتل حشيش، واتبعوهم إلى العسكر وغنموا منه، وأخذوا من القطع البحرية، ثم استردها أغرتمش من أيديهم، وعاد سليمان ظافراً وبعث برأس حشيش إلى الخيث صاحبه، فبعث به إلى علي بن أبان في نواحي الأهواز. وكان مسرور البلخي قد بعث إلى كور الأهواز أحمد بن كيتونة، فنزل السوس وكان صاحب الأهواز من قبل الصفار ي كاتب صاحب الزنج ويداريه، ويطلب له الولاية عنه، فشرط عليه أن يكون خليفة لابن أبان، واجتمعاً بستر.

ولما رأى أحمد تظافرهما رجع إلى السوس، وكان علي بن أبان يروم خطبة محمد له بعمله، فلما اجتمعاً بستر خطب للمعتضد والصفار ولم يذكر الخيث، فغضب علي وسار إلى الأهواز. وجاء أحمد بن كيتونة إلى تستر، فأوقع بمحمد بن عبد الله وتخصن منه بستر. وأقبل علي بن أبان إليه فاقتلا واشتد القتال بينهما، وانهزم علي بن أبان وقتل جماعة من أصحابه، ونجا بنفسه جريحاً في الساريات بالنهر، وعاد إلى الأهواز. وسار منها إلى عسكر الخيث، واستخلف على عسكره بالأهواز حتى دوى جراحه ورجع. ثم بعث أخاه الخليل إلى أحمد بن كيتونة بعسكر مكرم فقاتله، وقد أكن لهم فانهزموا، وقتل من الزنج خلق ورجع المنهزمون إلى علي بن أبان، وبعث مسلحة إلى السرقات فاعترضهم جيش من أعيان فارس أصحاب أحمد بن كيتونة، وقتلهم الزنج جميعاً فحظي عنده بذلك وبعث في أثر إبراهيم من قتله في سرخس.

ولما أراد الصفار العود إلى سجستان ولّى علي نيسابور عزيز

ما فعل بإذنه، وبعث ذلك مع حاج خراسان وطبرستان. ثم سار إلى الأهواز يريد لقاء المعتمد، وذلك سنة اثنتين وسبعين فارسل إليه المعتمد إسماعيل بن إسحاق وفهواج من قواد الأتراك ليردوه على ذلك وبعث معهما من كان في حبسه من أصحابه الذين حبسوا عندما قبض على محمد بن طاهر، وعاد إسماعيل من عند الصفار بعزمه على الموصل، فتأخر الموفق لذلك عن السير لحرب الزنج. ووصل مع إسماعيل من عند الصفار حاجبه ذهم يطلب ولاية طبرستان وخراسان وجرجان والري وفارس والشرطة ببغداد، فولاه المعتمد ذلك كله مضافاً إلى ما بيده من سجستان وكرمان، وأعاد حاجبه إليه بذلك ومعه عمر بن سيما فكتب يقول: لا بد من الحضور بباب المعتمد. وارتحل من عسكر مكرم وسار إليه أبو الساج من الأهواز لدخوله تحت ولايته، فآكرمه ووصله وسار إلى بغداد. ونهض المعتمد من بغداد فعسكر بالزعفرانية وأخوه مسرور البلخي، فقاتله متصفاً رجب، وانهزمت ميسرة الموفق، وقتل فيها إبراهيم بن سيما وغيره من القواد.

ثم تراجعوا واشتدت الحرب وجاء إلى الموفق محمد بن أوس والدإراني مدداً من المعتمد، وفشل أصحاب الصفار لما رأوا مدد الخليفة فانهزموا، وخرج الصفار واتبعهم أصحاب الموفق وغنموا من عسكره نحواً من عشرة آلاف من الظهر، ومن الأموال ما يؤد حمله. وكان محمد بن طاهر معتقلاً معه في العسكر منذ قبض عليه بخراسان، فتخلص ذلك اليوم وجاء إلى الموقعة وخلع عليه وولاه الشرطة ببغداد، وسار الصفار إلى خوزستان فنزل جنديسابور، وأرسله صاحب الزنج يحميه على الرجوع ويعده المساعدة، فكتب إليه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورة. وكان ابن واصل قد خالف الصفار إلى فارس وملكها، فكتب إليه المعتمد بولايتها، وبعث الصفار إليه جيشاً مع عمر بن السري من قواده، فأخرجه عنها وولى على الأهواز محمد بن عبد الله بن طاهر. ثم رجع المعتمد إلى سامرا والموفق إلى واسط واعتزم الموفق على اتباع الصفار، فقعده بالمرض عن ذلك، وعاد إلى بغداد ومعه مسرور البلخي سار بعد موسى وأقطعته ما لأبي الساج من الضياع والمنازل، وقدم معه محمد بن طاهر فقام بولاية الشرطة ببغداد.

سياقة أخبار الزنج

قد ذكر أن مسروراً البلخي سار بعد موسى بن بغا لحرب

طلحة. وجاء أهل جرجان مدداً للحسن، فهزمهم الخجستاني وأغرمهم أربعة آلاف ألف درهم. ثم جاء عمرو بن الليث إلى هراة بعد وفاة أخيه يعقوب الصفار وعاد الخجستاني من جرجان إلى نيسابور، وسار إليه عمرو من هراة فاقبضوه ورجعوا إلى هراة، وأقام أحمد بنيسابور.

وكانت الفقهاء بنيسابور يميلون إلى عمرو لتولية السلطان إياه، فأوقع الخجستاني بينهم الفتنة ليشغلهم بها، ثم سار إلى هراة سنة سبع وستين وحاصر عمرو بن الليث فلم يظفر منه بشيء، فسار نحو سجستان وترك نائبه بنيسابور، فأساء السيرة وقوى أهل الفساد، فوثب به أهل نيسابور واستعانوا بعمرو بن الليث وبعث إليهم جنداً يقبض على نائب الخجستاني وأقاموا بها، ورجع من سجستان فأخرجهم وملكها، وأقام إلى تمام سبع وستين، وكتب عمرو أبا طلحة وهو يحاصر بلخ فقدم عليه وأعطاه أموالاً واستخلفه بخراسان، وسار إلى سجستان، وسار أحمد إلى سرخس ولقيه أبو طلحة فهزمه أحمد ولحق بسجستان، وأقام بطخارستان. ثم جاء أبو طلحة إلى نيسابور فقبض على أهل الخجستاني وعياله، وجاء أحمد من طخارستان إلى نيسابور وأقام بها. ثم تبين لأبن طاهر أن الخجستاني إنما يروم لنفسه وليس على ما يدعيه من القيام بأمرهم.

وكان على خوارزم أحمد بن محمد بن طاهر فبعث قائده أبا العباس التوفلي إلى نيسابور في خمسة آلاف مقاتل، وخرج أحمد أمامهم وأقام قريباً منهم وأفحش التوفلي في القتل والضرب والتشويه، وبعث إليه الخجستاني فنهاه عن مثل ذلك فغضب الرسل، فلحق أهل نيسابور بالخجستاني واستدعوه وجاؤوا به وقبض على التوفلي وقتله. ثم بلغه أن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله بن طاهر مجروح، فسار إليه من أسورد في يوم وليلة وقبض عليه وولى عليها موسى البلخي، ثم وافاها الحسين بن طاهر فأحسن فيهم السيرة ووصل إليهم نحو عشرين ألف درهم، وكان الخجستاني لما بلغه أخذ والدته من نيسابور وهو بطخارستان وسار مجدداً، فلما بلغ هراة أتاه غلام لأبي طلحة مستأناً فأمنه وقرّبه، فنصّب به وغلامه الخالصة عنده والجنود، وطلب الفرصة في قتل الخجستاني، وكان قد غرّ ساقية قطع، فاتفقا على قتله فقتلاه في شوال سنة ثمان وستين. وأنفذ داجور خاتمه إلى الإسطنبول مع جماعة فركبوا الدواب وساروا بالخبر إلى أبي طلحة ليستقدموه، وأبطأ ظهوره على القواد فدخلوا فوجدوه قتيلاً، وأخبرهم صاحب الإسطنبول بخبر الخاتم والدواب، وطلبوا داجور فلم يجده، ثم عثروا عليه بعد أيام فقتلوه، واجتمعوا على رافع بن هرثمة

بن السري، وعلى هراة أخاه عمرو بن الليث، فاستخلف عمرو عليها طاهر بن حفص الباذغيسي وسار إلى سجستان سنة إحدى وستين، فجاء الخيث إلى أخيه علي وزين له أن يقيم نائباً عنه في أموره بخراسان، وطلب ذلك من أخيه يعقوب فأذن له. ولما ارتحلوا جمع جمعاً وحارب علياً فأخرجوه من بلده. ثم غلب عزيز بن السري على نيسابور وملكها أول اثنين وستين، وقام بدعوة بني طاهر. واستقدم رافع بن هرثمة من رجالهم فجعله صاحب جيشه، وكتب إلى يعمر بن سركب وهو يحاصر بلخ يستقدمه، فلم يثق إليه، وسار إلى هراة فملكها من يد طاهر بن حفص، وقتله وزحف إليه أحمد وكانت بينهما مأساة، ثم داخل بعض قواد أحمد الخجستاني في الغدر بيعمر على أن يمكنه من أخيه أبي طلحة، فكلف ذلك القائد به فتم ذلك، وكبسه أحمد وقبض على يعمر وبعثه إلى نائبه بنيسابور فقتله، وقتل أبا طلحة القائد الذي غدر بأخيه. وسار إلى نيسابور في جماعة، فلقي بها الحسين بن طاهر مردوداً من أصبهان طمعاً أن يدعو له أحمد الخجستاني كما كان يزعم حين أورد فلم يخطب، فخطب له أبو طلحة وأقام معه بنيسابور، فسار إليهما الخجستاني من هراة في اثني عشر ألفاً.

وقدّم أخاه العباس فخرج إليه أبو طلحة وهزمه، فرجع أحمد إلى هراة ولم يقف على خبر أخيه، وانتدب رافع وهرثمة إلى استعلام خبره واستأمن إلى أبي طلحة فأمنه ووثق إليه، وبعث رافع إلى أحمد بخبر أخيه العباس، ثم أنفذه طاهر إلى يهق لجباية مالها، وضم معه قائدين لذلك، فجبي المال وقبض على القائدين وانتقض. وسار إلى الخجستاني ونزل في طريقه بقرية وبها علي بن يحيى الخارجي، فنزل ناحية عنه، وركب ابن طاهر في أتباعه فادركه بتلك القرية، فأوقع بالخارجي يظنه رافعاً ونجا رافع إلى الخجستاني. وبعث ابن طاهر إسحاق الشرابي إلى جرجان لمحاربة الحسن بن زيد والديلم متتصف ثلاث وستين فأتخن في الديلم ثم انتقض على ابن طاهر، فسار إليه وكبسه إسحاق في طريقه فانهزم إلى نيسابور، واستضعفه أهلها فأخرجوه، فأقام إلى فرسخ منها وجمع جمعاً وحاربهم، ثم كتب إلى أهل نيسابور إلى إسحاق باستدعائه ومساعدته على ابن طاهر وأبي طلحة، وكتب إلى أهل نيسابور عن إسحاق بالمواعدة. وسار إسحاق أبو محمد في قلة من الجند، فاعترضه أبو طلحة وقتله وحاضر نيسابور، فاستقدموا الخجستاني من هراة وأدخلوه.

وسار أبو طلحة إلى الحسن بن زيد مستنجداً فأنجده ولم يظفر، وعاد إلى بلخ وحاصرها سنة خمس وستين، وخرج للخجستاني من نيسابور به، وحاربه الحسن بن زيد لمساعدته أبا

وكان من خبره ما نذكره.

استيلاء الصفار على الأهواز

فيها ورجع إلى منزله بمدينة الخيث، وجاء مطر إلى الحجاجية فعات فيها وأسر جماعة منها كان منهم القاضي سليمان، فحملة إلى واسط. ثم سار إلى طهتا وكتب الجناني بذلك إلى سليمان فوافاه لاثنتين من ذي الحجة، وجاء أحمد بن كيتونة بعد أن كان سار إلى الكوفة وجبيل، فعاد إلى البريدية وصرف جعلان وضبط تلك الأعمال، وأوقع تكين بسليمان وقتل جماعة من قواده. ثم ولى الموفق على مدينة واسط محمد بن الوليد وجاءه في العساكر واستمد سليمان صاحبه الخليل بن أبان في ألف وخمسمائة مقاتل، فزحف إلى ابن المولد وهزمه واقتحم واسط بها منكجور البخاري فقاتله عامة يومه، ثم قتل ونهب البلد وأحرقها وانصرف سليمان إلى جبيل واستدعوه في نواحيها تسعين ليلة.

استيلاء ابن طولون على الشام

كان على دمشق أيام المعتمد ماجور من قواد الأتراك، فتوفي ستة أربع وستين وقام ابنه علي مكانه. وتجهز أحمد بن طولون من مصر إلى دمشق وكتب إلى ابن ماجور بأن المعتمد أقطعته الشام والفرج، فأجاب بالطاعة، وسار أحمد واستخلف على مصر ابنه العباس ولقيه ابن ماجور بالرملة فسلواه عليها، وسار إلى دمشق فملكها وأقر القواد على أقطاعهم. ثم سار حمص فملكها ثم حماة ثم حلب، وكان على أنطاكية وطرشوس سيما الطويل من قواد الأتراك، فبعث إليه ابن طولون بالطاعة وأن يقره على ولايته فامتنع، فسار إليه ودلوه على عورة في سور البلد نصب عليها المجانيق، وقتاله فملكها عنوة وقتل سيما في الحرب، فسار ثم قصد طرشوس فدخلها واعتزم على المقام بها ويريد الغزو. وشكا أهلها غلاء السعر وسألوه الرحيل فرحل عنهم إلى الشام، ومضى إلى حران وبها محمد بن أتابش فحاربه وهزمه واستولى عليها.

ثم جاءه الخبر بانتقاض ابنه العباس بمصر وأنه أخذ الأموال وسار إلى برقة فلم يكثر لذلك، وأصلح أحوال الشام وأنزل بمران عسكرياً، وولى مولاة لؤلؤاً على الرقة وأنزل معه عسكرياً، وبلغ موسى بن أتابش خبر أخيه محمد فجمع العساكر وسار نحو جرجان وبها أحمد بن جيفونة من قواد ابن طولون فأهمل مسيره وقال له بعض الأعراب واسمه أبو الأعز: لا يهملك أمره فإنه طياش قلتي وأنا آتيك به! فقال: إن فعل وزاده عشرين رجلاً، وسار إلى عسكر موسى بن أتابش، فأمكن بعض أصحابه ودخل العسكر بالباقي على زي الأعراب وقصد الخيل المرتبطة عند خيام ابن موسى فأطلقها وصاحوا فيها فنفرت واهتاج العسكر وركبوا

ثم سار يعقوب الصفار من فارس إلى الأهواز، وأحمد بن كيتونة قائد مسرور البلخي على الأهواز مقيم على تستر فرحل عنها ونزل يعقوب جنديسابور، ففر كل من كان في تلك النواحي من عساكر السلطان، وبعث إلى الأهواز من أصحابه الخضر بن المعير، فأفرج عنها علي بن أبان والزنج ونزلوا السدرة ودخل خضر الأهواز، وأقام أصحاب الخضر وابن أبان يغير بعضهم على بعض. ثم فر ابن أبان وسار إلى الأهواز فأوقع بالخضر وقتك في أصحابه وغنم، ولحق الخضر بعسكر مكرم، واستخرج ابن أبان ما كان بالأهواز ورجع إلى نهر السدرة. وبعث يعقوب إلى الخضر مدداً وأمره بالكف عن قتال الزنج والمقام بالأهواز، فأبى ابن أبان من ذلك إلا أن ينقل طعاماً ما كان هناك فنقله وتوادعوا.

استيلاء الزنج على واسط

قد تقدم لنا واقعة أغرمت مع سليمان بن جامع، وظفر سليمان به فلما انقضى أمره سار سليمان إلى صاحب الخيث ومر في طريقه بعسكر تكين البخاري وهو ببردود، فلما حاذاه قريباً أشار عليه الجناني أن يغير على العسكر في البحر ويستطرد لهم ليتنهزوا منهم الفرصة ففعل وجاء مستطرداً وقد أكنوا لهم الكمناء حتى أجازوا موضع الكمائن. وركب سليمان إليهم وعطف الجناني على من في النهر وخرجت الكمائن من خلفهم فأنشؤا فيهم إلى معسكرهم، ثم بيتوهم ليلاً فنالوا منهم، وانكشف سليمان قليلاً، ثم عبر أصحابه وأتاهم من وجوه عديدة براً وبحراً، فانهزم تكين وغنم الزنج عسكره. ثم استخلف سليمان على عسكره الجناني وسار إلى صاحب الخيث سنة ثلاث وستين. ومضى الجناني بالعسكر لطلب الميرة فاعترضه جعلان من قواد السلطان وهزمه وأخذ سيفه.

ثم زحف منكجور ومحمد بن علي بن حبيب من القواد وبلغ الحجاجية فرجع سليمان مغزاً إلى طهتا يريد جعلان وفي مقدمته الجناني. ثم كر إلى ابن خيث فهزمه وقتل أخاه وغنم ما معه. ثم سار في شعبان إلى قرية حسان فأوقع بالقائد هناك جيش ابن خار تكين وهزمه ونهب القرية وأحرقها. ثم بعث العساكر في الجهات للنهب براً وبحراً، واعترض جعلان بعضهم فأوقع بهم، ثم سار سليمان إلى الرصافة فأوقع بالقائد بها واستباحها وغنم ما

واستيلاؤه على مدينة واسط، ثم ولّى أغرتمش مكان تكين البخاري ما يتولاه من أعمال الأهواز فدخل تستر في رمضان ومعه مطر بن جامع. وقتل جماعة من أصحاب أبان كانوا مأسورين بها. ثم سار إلى عسكر مكرم، ووافاه هناك علي بن أبان والزنج، فاقتتلوا ثم تحاجزوا لكثرة الزنج، ورجع علي إلى الأهواز وسار أغرتمش إلى الخليل بن أبان ليعبروا إليه من قطرة أربل وجاءه أخوه علي وخاف أصحابه المخلفون بالأهواز، فارتحلوا إلى نهر السروية وتحارب علي وأغرتمش يوماً ثم رجع علي إلى الأهواز ولم يجد أصحابه، فبعث من يردهم إليه فلم يرجعوا. وجاء أغرتمش وقتل مطر بن جامع في عدة من القواد. وجاء المدد لابن أبان من صاحبه الخيث فودعه أغرتمش وتركه.

ثم بعث محمد بن عبيد الله إلى أبكلاي ابن الخيث في أن يرفع عنه يد ابن أبان فزاد ذلك في غيظه، وبعث يطالبه محمد بالخراج ودافعه فسار إليه، وهرب محمد من رامهرمز إلى أقصى معاقله، ودخل علي والزنج رامهرمز وغنموا ما فيها. ثم صالحه محمد على مائتي ألف درهم، وترك أعماله. ثم استنجد محمد بن عبيد الله على الأكراد على أن لعلي غنائمهم، فاستخلف علي على ذلك مُجَلِّز وطلب منه الرهن فمطل وبعث إليه الجيش فزحف بهم إلى الأكراد. فلما نشب القتال انهزم أصحاب محمد فانهزم الزنج وأئخن الأكراد فيهم، وبعث علي من يعترضهم فاستلبوهم وكتب علي إلى محمد يتهدده فاعتذر وردّ عليهم كثيراً من أسلابهم، وخشي من الخيث وبعث إلى أصحابه مალأ ليسألوه في الرضا عنه، فأجابهم إلى ذلك على أن يقيم دعوته في أعماله ففعل كذلك. ثم سار ابن أبان لحصار موة واستكثر من آلات الحصار، وعلم بذلك مسرور البلخي وهو بكور الأهواز، فسار إليه ووافاه عليها، فانهزم ابن أبان وترك ما كان حمله هناك، وقتل من الزنج خلق وجاء الخبر بمسير الموفق إليهم.

استرجاع ابن الموفق ما غلب عليه الزنج من أعمال دجلة

لما دخل الزنج واسط وعاثوا فيها كما ذكرناه بعث الموفق ابنه أبا العباس، وهو الذي ولي الخلافة بعد المعتمد ولقب المعتضد، فبعثه أبوه بين يديه في ربيع سنة ست وستين في عشرة آلاف من الخيل والرجال. وركب لتشييعه وبعث معه السفن في النهر عليها أبو حمزة نصر، فسار حتى وافى الخيل والرجل والسفن النهرية، وعلى مقدمته الجنائي وأنهم نزلوا الجزيرة قريباً من بردروبا،

واستطرد لهم أبو الأعز حتى جاوز الكمين وموسى في أوائلهم، فخرج الكمين وانهزم أصحاب موسى من ورائه، وعطف عليه أبو الأعز فأخذه أسيراً وجاء به إلى ابن جيفونة، وبعث به إلى ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر وذلك سنة ست وستين.

ومن أخبار الزنج أن سليمان احتضر نهراً يمر إلى سواد الكوفة لينتهي له الغارة على تلك النواحي وكان أحمد بن كيتونة..... فكبسههم وهم يعلمون، وقد جمروا عساكرهم لذلك فأوقع بهم وقتل منهم نحواً من أربعين قائداً وأحرق سفنهم ورجع سليمان مهزوماً إلى طهنا. ثم عدت عساكر الزنج على النعمانية واستباحوها وصار أهلها إلى جرجابا وأجفل أهل السواد إلى بغداد، وزحف علي بن أبان بعسكر الزنج إلى تستر فحاصرها وأشرف على أخذها. وكان الموفق استعمل على كور الأهواز مسروراً البلخي فولى عليها تكين البخاري فسار إليها ووافها أهل تستر في تلك الحال فأغزى علي بن أبان وهزمه وقتل من الزنج خلقاً ونزل تستر. وبعث ابن أبان جماعة من قواد الزنج ليقبضوا بقنطرة فارس، وجاء عين بخبرهم إلى تكين فكبسههم وهزمهم وقتل منهم جماعة. وسار ابن أبان فانهزم أمامه، وكتب ابن أبان إلى تكين يسأله المراجعة فودعه بعض الشيء واتهمه مسرور فسار وقبض عليه وحبسه عند عجلان بن أبان، وفر منه أصحابه وطائفة إلى الزنج وطائفة إلى محمد بن عبد الله الكرخي ثم أثن الباقيين فرجعوا إليه.

موت يعقوب الصفار وولاية عمرو أخيه

وفي سنة خمس وستين أخريات شوال منها مات يعقوب الصفار وقد كان افتتح الرجج وقتل ملكها وأسلم أهلها على يده، وكانت مملكة واسعة الحدود وافتتح زابلستان وهي غزنة، وكان المعتمد قد استماله وقلده أعمال فارس، ولما مات قام أخوه عمرو بن الليث وكتب إلى المعتمد بطاعته، فولاه الموفق من قبله ما كان له من الأعمال: خراسان وأصبهان والسند وسجستان والشرطة ببغداد وسرّ من رأى وقبلة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وخلع الموفق عمرو بن الليث وولى على أصبهان من قبله أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف محمد بن أبي الساج.

أخبار الزنج مع أغرتمش

قد كان تقدم لنا إيقاع سليمان بن جامع بأغرتمش وحره بعد ذلك مع تكين وجعلان ومطر بن جامع وأحمد بن كيتونة

واسط في ربيع الأول من سنة سبع وستين، ولقيه ابنه وأخبره بالأحوال، ورجع إلى عسكره. ونزل الموفق على نهر شداد ونزل ابنه شرقي دجلة على موهة بن مساور فأقام يومين ثم رحل إلى المنبوعة بسوق الخميس، سار إليها في النهر ونادى بالمقامة، ولقيه الزنج فحاربوه، ثم جاء الموفق فانهزموا واتبعهم أصحاب أبي العباس فاقترحوا عليهم المنبوعة وقتلوا خلقاً وأسروا آخرين، وهرب الشعرائي، واختفى في الأجسام آخرون. ورجع الموفق إلى عسكره وقد استنقذ من المسلمين نحو خمس عشرة امرأة، ثم غدا على المنبوعة فأمر بنهبها وهدم سورها وطم خندقها وإحراق ما بقي من السفن فيها، وبيعت الأقوات التي أخذت، فكانت لا حد لها، فصرفت في الجند.

وكتب الخيـث إلى ابن جامع يحذره مثل ما نزل بالشعرائي، وجاءت العيون إلى الموفق أن ابن جامع بالخوانيت، فسار إلى الضبية وأمر ابنه بالسير في النهر إلى الخوانيت، فلم يلق ابن جامع بها، ووجد قائدين من الزنج استخلفهم عليها بحفظ الغلات، ولحق بمدينته المنصورة بطهتا، فقاتل ذلك الجند ورجع إلى أبيه بالخبر فأمره بالمسير إليه، وسار على أثره براً وبحراً حتى نزلوا على ميلين من طهتا. وركب ليبيوني مقاعد القتال على المنصورة فلقبه الزنج وقاتلوه وأسروا جماعة من غلمانهم.

ورمى أبو العباس بن الموفق أحمد بن مهدي الجنائي فمات وأوهن موته، ثم ركب يوم السبت آخر ربيع من سنة سبع وعسى عسكره وبعث السفن في البحر الذي يصل إلى المنصورة، ثم صلى وإبتهل بالدعاء، وقدم ابنه أبا العباس إلى السور، واعترضه الجند فقاتلهم عليه واقتحموا ولولوا منهزمين إلى الخنادق وراءه، فقاتلوه عندها واقتحموا عليهم كلها، ودخلت السفن المدينة من النهر فقتلوا وأسروا، وأجلوهم عن المدينة وما اتصل بها، وهو مقدار فرسخ وملكة الموفق وأقلت ابن جامع في نفر من أصحابه، وبلغ الطلاب في أثره إلى دجلة، وكثر القتل في الزنج والأسر واستنقذ العباس من نساء الكوفة وواسط وصبيانهم أكثر من عشرة آلاف وأعطى ما وجد في المنصورة من الذخائر والأموال للأجناد، وأسر من نساء سليمان وأولاده عدة. ولما جاء جماعة من الزنج إلى الأجسام اختفوا، فأمر بطلبهم وهدم سور المدينة وطم خنادقها وأقام سبعة عشر يوماً في ذلك ثم رجع إلى واسط.

حصار مدينة الخبيث المختارة وفتحها

ثم إن الموفق عرض عساكره وأزاح عللهم، وسار معه ابنه

وجاءهم سليمان بن موسى الشعرائي مدداً بمثل ذلك وأن الزنج اختلّفوا في الاحتشاد، ونزلوا من السفح إلى أسفل واسط يتجهزون الفرصة في ابن الموفق لما يظنون من قلة درايته بالحرب، فركب أبو العباس لاستعلاء أمرهم ووافى نصيراً، فلقبهم جماعة من الزنج فاستطرد لهم أولاً، ثم كر في وجوههم وصاح بتصير فرجع، وركب أبو العباس السفن النهرية فهزم الزنج وأثنى فيهم واتبعهم ستة فراسخ، وغنم من سبعهم وكان ذلك أول الفتح.

ورجع سليمان بن جامع إلى نهر الأمين وسليمان بن موسى الشعرائي إلى سوق الخميس، وأبو العباس على فرسخ من واسط يغاديهما القتال ويرواحهم. ثم احتشد سليمان وجاء من ثلاثة وجوه، وركب في السفن النهرية وبرز إليه نصير في سفنه، وركب معه أبو العباس في خاصته، وأمر الجند بمحاذاته من الشط، ونشب الحرب فوقعت الهزيمة على الزنج وغنمت سفنهم، وأقلت سليمان والجنائي من الملكة وبلغوا طهتا، ورجع أبو العباس إلى معسكره وأمر بإصلاح السفن المغنومة، وحفر الزنج في طريق الجبل الآبار وغطوها، فوقع بعض الفرسان فيها، فعدل جند السلطان عن ذلك الطريق. وأمر الخيـث أصحابه بالسفن في النهر وأغاروا على سفن أبي العباس وغنموا بعضها، وركب في أتباعهم واستنقذ سفنهم وغنم من سفنهم نحواً من ثلاثين، وجذ في قتالهم ونحّص ابن جامع بطهتا، وسمى مدينته المنصورة. والشعرائي بسوق الخميس وسمى مدينته المنبوعة.

وكان أبو العباس يغير على الميرة التي تأتيهم من سائر النواحي، وركب في بعض الأيام إلى مدينة الشعرائي التي سماها المنبوعة، وركب نصير في النهر، واقتروا في سيرهم واعترضت أبا العباس جماعة من الزنج فمنعوه من طريق المدينة وقاتلوه مقدار نهاره، وأشاعوا قتل نصير، وخالفهم نصير إلى المدينة فأنخن فيها وأضرمو النار في بيوتها. وجاء الخبر بذلك إلى أبي العباس بسيرة. ثم جاء نصير ومعه أسرى كثيرون فقاتلوا الزنج وهزموهم، ورجع أبو العباس إلى عسكره وبعث الخيـث إلى ابن أبان وابن جامع فأمرهما بالاجتماع على حرب أبي العباس.

وصول الموفق لحرب الزنج وفتح المنبوعة والمنصورة

كان الموفق لما بعث ابنه أبا العباس لحرب الزنج تأخر لإمداده بالخشود والعدد وإزاحة علله ومسارة أحواله، فلما بلغه اجتماع ابن أبان وابن جامع لحربه سار من بغداد إليه فوصل إلى

فأمنهم الموفق ووصلهم، وبعث الخيـث قائدني من أصحابه في عشرة آلاف ليأتوا البطيحة من ثلاثة وجوه، فيعبروا من تلك النواحي ويقطعوا الميرة عن الموفق. وبلغ الموفق خبرهم فبعث إليهم عسكرياً مع مولا، ونزل فواقع بهم وقتل وأسر، وأخذ منهم أربعمائة سفيـة.

ولما تسابح خروج المستأمنة وكُل الخيـث من يحفظها، وجهدهم الحصار فبعث جماعة من قواده إلى الموفق يستأمنون وأن يناشبههم الحرب ليجدوا السبيل إليه، فأرسل ابنه أبا العباس إلى نهر الغربي وبه علي ابن أبان فاشتد الحرب وظهر أبو العباس على بن أبان، وأمدّه الخيـث بابن جامع ودامت الحرب عامة يومهم، وكان الظفر لأبي العباس، وسار إليه المستأمنة الذين واعدوه. وانصرف أبو العباس إلى مدينة الخيـث وقاتل بعض الزنج طمعاً فيهم لقتلهم فتكاثروا عليه، ثم جاءه المدد من قبل أبيه فظهر عليهم. وكان ابن جامع قد سعد في النهر وأتى أبا العباس من ورائه، وخفقت طبوله فانكشف أصحاب أبي العباس، ورجع منهزمة الزنج فأجبت جماعة من غلمان الموفق وعدة من أعلامهم، وحامى أبو العباس عن أصحابه حتى خلصوا، وقوي الزنج بهذه الواقعة، فأجمع الموفق العبور إلى مدينتهم بعسكره.

فعبى الناس لذلك من الغداة آخر ذي الحجة واستكثر من المعابر والسفن وقصدوا حصن أوكان بالمدينة وفيها أنكلي بن الخيـث وابن جامع وابن أبان وعليه الجانيق والآلات، فأمر غلمانه بالدنو منه فخافوا لاعتراض نهر الأتراك بينهم وبينه، فصاح بهم فقطعوا النهر سبحاً، وتناولوا الركن بالسلاح يهدمون، ثم سعدوا عليه وملكوه ونصبوا به علم الموفق، وأحرقوا ما كان عليه من الآلات وقتلوا من الزنج خلقاً عظيماً، وكان أبو العباس يقاتلهم من الناحية الأخرى وابن أبان قبائله فهزمه، ووصل أصحاب أبي العباس إلى السور فثلموه ودخلوا، ولقيهم ابن جامع فقاتلهم حتى ردهم إلى مواقعهم.

ثم توافى الفعلة فثلموا السور في مواضع، ونصبوا على الخندق جسراً عبر عليه المقاتلة، فانهزم الزنج عن السور واتبعهم أصحاب الموفق يقتلونهم إلى دير ابن سمعان، فملكه أصحاب الموفق وأحرقوه، وقاتلهم الزنج هناك ثم انهزموا فبلغوا ميدان الخيـث، فركب من هنالك وانهزم عنه أصحابه، وأظلم الليل ورجع الموفق بالناس، وتأخر أبو العباس لحمل بعض المستأمنين في السفن، واتبعه بعض الزنج ونالوا من آخر السفن. وكان بهبود بازاء مسرور البلخي فال من أصحابه واستأمن بعض المنهزمين من الزنج والأعراب بعثوا بذلك من عبادان والبصرة، وكان منهم

أبو العباس إلى مدينة الخيـث فأشرف عليها ورأى من حصانتها بالأسوار والخنادق ووعر الطرق، وما أعد من الآلات للحصار ومن كثرة المقاتلة ما استعظمه، ولما عاين الزنج عساكر الموفق دهشوا. وقدم ابنه العباس في السفن حتى ألصقها بالأسوار فرموه بالحجارة في الجانيق والمقاليع والأيدي، ورأوا من صبره وأصحابه ما لم يحتسبوه. ثم رجعوا واتبعهم مستأمنة من المقاتلة والملاحين نزعوا إلى الموفق، فقبلهم وأحسن إليهم، فتتابع المستأمنون في النهر فوكل الخيـث بفوهة النهر من منهم، وتعبى أهل السفن للحرب مع يهود قائد الخيـث، فزحف إليه أبو العباس في السفن وهزمه، وقتل الكثير من أصحابه ورجع فاستأمن إليه بعض تلك السفن النهرية وكثير من المقاتلة فأمّنهم وأقام شهراً لم يقاتلهم.

ثم عبي عساكره منتصف شعبان في البر والبحر وكانوا نحواً من خمسين ألفاً، وكان الزنج في نحو ثلاثمائة ألف مقاتل، فأشرف عليهم ونادى بالأمان إلا للخيـث، ورمى بالرقاع في السهام بالأمان، فجاء كثير منهم ولم يكن حرب. ثم رحل من مكانه ونزل قريباً من المختارة، ورتب المنازل من إنشاء السفن، وشرع في اختطاط مدينة لنزله سماها الموقية. فأكمل بناءها وشيد جامعها وكتب بحمل الأموال والميرة إليها وأغضب الحرب شهراً فتسابت الميرة إلى المدينة، ورحل إليها التجار بصنوف البضائع، واستبحر فيها العمران ونفقت الأسواق وجلبت صنوف الأشياء.

ثم أمر الموفق ابنه أبا العباس بقتال من كان من الزنج خارج المختارة فقاتلهم وأئخس فيهم، فاستأمن إليه كثير منهم فأمّنهم ووصلهم، وأقام للموفق أياماً يحاصر المحاريين ويصل المستأمنين، واعترض الزنج بعض الوفاد الجائبة بالميرة، فأمر بترتيب السفن على مخارج الأنهار، وكل ابنه أبا العباس يحفظها، وجاءت طائفة من الزنج بعض الأيام إلى عسكر نصير يريدون الإيقاع به، فواقع بهم وظفر ببعض القواد منهم، فقتل رشقاً بالسهم، وتسابع المستأمنة فبلغوا إلى آخر رمضان خمسين ألفاً.

ثم بعث الخيـث عسكرياً من الزنج مع علي بن أبان ليأتوا من وراء الموفق إذا ناشبهم الحرب، ونعى إليه الخبر فبعث ابنه أبا العباس فواقع بهم وحملت الأسرى والروس في السفن النهرية ليراهم الخيـث وأصحابه، وظنوا أن ذلك تمويه فرميت الروس في الجانيق حتى عرفوها، فظهر منهم الجزع وتكررت الحرب في السفن بين أبي العباس وبين الزنج، وهو يظهر عليهم في جميعها حتى انقطعت الميرة عنهم، فاشتد الحصار عليهم وخرج كثير من وجوه أصحابه مستأمنين، مثل محمد بن الحارث القمي وأحمد البريعي. وكان من أشجع رجاله القمي منهم موكلاً بحفظ السور

قائده ربحان أبو صالح المعري فأمّنهم الموقف وأحسن إليهم وضم ربحان إلى أبي العباس.

وخرج في الحرم إلى الموقف من قواد الخيـث وثقاته جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجان فأحسن إليه الموقف وحمله في بعض السفن إلى قصر الخيـث، فوقف وكلم الزوج في ذلك، وأقام الموقف أياماً استجم فيها أصحابه، فلما كان منتصف ربيع الثاني قصد مدينة الخيـث، وفرق القواد على جهاتها ومعهم التقابون للـسور ومن ورائهم الرماة يحمونهم. وتقدم إليهم أن لا يدخلوا بعد الحزم إلا بإذنه، فوصلوا إلى السور وثلموه وحاربوا الزوج من ورائه وهزموهم، وبلغوا أبعد ما وصلوا إليه بالأسـ. ثم تراجع الزوج وحاربوا من المكان فرجع أصحاب الموقف نحو دجلة بعد أن نال منهم الزوج، ورجع الموقف إلى مدينته، ولأم أصحابه على تقدمهم بغير إذنه.

ثم بلغ الموقف أن بعض الأعراب من بني تميم يجلبون الميرة إلى الزوج فبعث إليهم عسكرياً أنـخـنوا فيهم قتلاً وأسراً، وجيء بالأسرى فقتلهم، وأوعز إلى البصرة بقطع الميرة فانقطعت عن الزوج بالكلية، وجهدهم الحصار وكثر المستأمنون وافترق كثير من الزوج في القرى والأمصار البعيدة، وبث الموقف دعائه فيهم ومن أبى قتله وعرض المستأمنين وأحسن إليهم ليستميلهم، وتابع الموقف وابنه قتال الزوج، وقتل يهود بن عبد الواحد من قواد الخيـث في تلك الحروب، فكان قتله من أعظم الفتح، وكان قتله في السفن البحرية ينصب فيها أعلاماً كأعلام الموقف ويخايل أطراف العسكر فيصيب منهم. وأفلت في بعض الأيام من يد أبي العباس بعد أن كان حصل في قبضته، ثم خيل أخرى لبعض السفن طامعاً فيها فحاربوه وطعنه بعض الغلمان منها فسقط في الماء، وأخذته أصحابه فمات بين أيديهم. وخلع الموقف على الغلام الذي طعنه وعلى أهل السفينة. ولما هلك يهود قبض الخيـث على بعض أصحابه وضرهم على ماله، فاستفسد قلوبهم، وهرب كثير منهم إلى الموقف، فوصلهم ونادى بالأمان لبيـتهم. ثم اعترم على العبور إلى الزوج من الجانب الغربي وكانت طرقه ملتفة بالنخيل فأمر بقطعها، وأدار الخنادق على معسكره حذراً من البيات. ثم صعب على الموقف القتال من الجانب الغربي لكثرة أوعاره وصعوبة مسالكه وما يتوجه فيها على أصحابه من خيل الزوج لقلّة خبرتهم بها، فصرف قصده إلى هدم أسوارهم وتوسعت الطرق فهدم طائفة من السور من ناحية نهر سلمى، وياشر الحرب بنفسه، واشتد القتال وكثرت القتلى في الجانبين وفشت الجراح، وكانت في النهر قنطرتان يعبر منهما الزوج عند القتال، يأتون أصحاب الموقف

ثم تقدموا إلى الجامع فغربوه وجاؤوا بمنبره إلى الموقف بعد أن استمات الزوج دونه، فلم يـغـنوا به. ثم أكثروا من هدم السور وظهرت علامات الفتح، ثم أصاب الموقف في ذلك اليوم سهم في صدره وذلك لخمس بقين من جمادى سنة تسع وستين، فعاد إلى عسكره. ثم صابح الحرب تقوية لقلوب الناس. ثم لزم الفراش واضطرب العسكر وأشير عليه بالذهاب إلى بغداد فأبى فاحتجب عن الناس ثلاثة أشهر حتى اندمل جرحه. ثم ركب إلى الحرب فوجد الزوج قد سدوا ما تلثم من الأسوار، فأمر بهما كلها، واتصل القتال عما يلي نهر سلمى كما كان، والزوج يظنون أنهم لا يأتون إلا منها، فركب يوماً لقتالهم وبعث السفن أسفل نهر أبي الخصب، فانتهاوا إلى قصر من قصور الزوج فأحرقوه وانتهبوا ما فيه واستنقذوا كثيراً من الساكن فيه.

ورجع الموقف آخر يومه ظافراً. ثم بكر لحربهم فوصلت المقدمات دار أنكلاي بن الخيـث وهي متصلة بدار أبيه، وأشار ابن أبان بإجراء المياه على الساج وحفر الخنادق بين يدي العساكر، وأمر الموقف بطم الخنادق والأنهار، ورام إحراق قصره وقصده من دجلة فمنع من ذلك كثرة الحماة عنه، فأمر أن تسقف السفن بالأخشاب، وتطلى بالأدوية المانعة من الإحراق. ورتب فيها أنجاد أصحابه، وباتوا على أهبة الزحف من الغد. وجاء كاتب الخيـث وهو محمد بن سمعان عشاء ذلك اليوم مستأماً، وبكروا إلى الحرب وأمر الموقف ابنه أبا العباس بإحراق منازل القواد المتصلة بقصر الخيـث ليشغلهم عن حمايته، وقصدت السفن المطلية قصر الخيـث فأحرقوا الرواشن والأبنية الخارجة وعلت النار فيه ورموا بالنار على السفن فلم تؤثر فيها.

ثم حصر الماء من النهر فزحفت السفن، فلما جاء الدعاة إلى القصر أحرقوا بيوتاً كانت تشرع على دجلة، واشتعلت النار فيها وقويت وهرب الخيـث وأصحابه وتركوها وما فيها. واستولى أصحاب الموقف على ذلك كله واستنقذوا جماعة من النساء، وأحرق قصر أنكلاي ابنه، وجرحا، وعاد الموقف عشاء يومه مظفراً. ثم بكر من الغد للقتال وأمر نصيراً قائد السفن بقصد القنطرة التي كان الخيـث عملها في نهر أبي الخصب دون القنطرة التي كان اتخذها، وفرق العسكر في الجهات فدخل نصير في أول المد ولصق بالقنطرة، واتصل الشد من ورائه فلم يقدر على الرجوع حتى حسر الماء عنها، وفطن لها الزوج فقصدوها فالتقى

فيعوقونهم فاجمع على تخريبه وجمع المقاتلة عليه براً وبحراً وفرقهم على سائر جهاته وجهات الخيـث، وأمد الخيـث الحصن بالمهلي وبابن جامع، فلم يغنوا عنه وانهزموا، وتركوا الحصن في يدي أصحاب الموفق وهزموه وقتلوا من الزنج خلقاً، وخلصوا من الحصن كثيراً من النساء والصبيان، ورجع الموفق إلى عسكره ظافراً.

استيلاء الموفق على الجهة الغربية

ولما هدم الموفق سور دار الخيـث أمر بتوسعة الطرق للحرب، وأحرق الجسر الأول الذي على نهر أبي الخصيب ليمنع من مدد بعضهم بعضاً، فكان في إحراقه حرب عظيمة. وأعدت لذلك سفينة ملئت قصباً وجعل فيها النفط، وأرسلت في قوة المدد فتبادر الزنج إليها وغرقوها فركب الموفق إلى فوهة نهر أبي الخصيب وقصدهم من غربي النهر وشرقيه إلى أن انتهوا إلى الجسر من غربه وعليه أنكلاي بن الخيـث وابن جامع فأحرقوه، وفعال مثل ذلك من الجانب الشرقي، فأحرق الجسر والحظيرة التي كانت لإنشاء السفن، وسجن كان هناك للخيـث. والحجاز هو وأصحابه من الجانب الغربي واستأمن كثير من قواده فأمتهم وأخرجوا إرسالاً وخرج قاضيه هارباً، ووكـل بالجسر الثاني من يحفظه وأمر الموفق ابنه أبا العباس بأن يتجهز لإحراقه فزحف في إجهاد غلـماته ومعه الفعلة والآلات.

وكان في الجانب الغربي قبالة أبي العباس أنكلاي وابن جامع، وفي الجانب الغربي قبالة أسد مولى الموفق الخيـث نفسه والمهلي، وجاءت السفن في النهر وقاتلوا حامية الجسر فانهزم ابن جامع وأنكلاي وأضرمت النار في الجسر، ولما أفياء وهو مضطرم ناراً ألقيا أنفسهم في النهر فخلصا بعد أن غرق من أصحابهما خلق، واحترق الجسر واتصل الحريق بدورهم وقصورهم وأسواقهم، وافترق الجيش في الجانبين ونهبت دار الخيـث واستنقذ من كان في حبه من النسوة والرجال. وأخرج ما كان في نهر أبي الخصيب من أصناف السفن إلى دجلة ونهبها أصحاب الموفق واستأمن أنكلاي بن الخيـث وعلم أبوه فتناه عن ذلك. واستأمن ابن سليمان بن موسى الشعراني من رؤساء قواده فأجيب بعد توقف. ولما خرج تبعه أصحاب الخيـث فقاتلهم، ووصل إلى الموفق فأحسن إليه واقفى أثره في ذلك شبيل بن سالم من قواده، وعظم على الخيـث وأوليائه استئمان هؤلاء، وصار شبيل بن سالم يخرج في السرايا إلى عسكر الخيـث ويكثر النكاية فيهم.

الملاحون أنفسهم في الماء وألقى نصير نفسه وقاتل ابن جامع ذلك اليوم أشد قتال. ثم انهزم وسقط في الحريق فاحترق، ثم خلص بعد الجهد.

وانصرف الموفق سالماً وأصابه مرض المفاضل واتصل به إلى شعبان من سته فأمسك في هذه المدة عن الحرب حتى أبلى فاعاد الخيـث القنطرة التي غرق عندها نصير وزاد فيها وأحكمها، وجعل أمامها سكرًا من الحجارة ليضيق المدخل على السفن، فبعث الموفق طائفة من شرقي نهر أبي الخصيب، وطائفة من بحرية ومعهم الفعلة لقطع القنطرة، وجعل أمامها سفناً مملؤة من القصب لتصيبها النار بالنفط فيحترق الجسر، وفرق جنده على القتال وساروا لما أمرهم عاشر شوال، وتقدموا إلى الجسر ولقيهم أنكلاي بن الخيـث وابن أبان وابن جامع وحاموا عن القنطرة لعلمهم بما في قطعها من المضرة عليهم، ودامت الحرب عليها إلى المشي.

ثم غلبهم أصحاب الموفق عليها، ونقضها النجارون ونقضوا الأتقال التي دونها وأدخلوا السفن بالقصب، وأضرموها ناراً ووافت القنطرة فأحرقتها ووصل النجارون بذلك إلى ما أرادوا. وسهل سبيل السفن في النهر وقتل من الزنج خلق واستأمن آخرون، وانتقل الخيـث بعد حرق قصوره ومساكن أصحابه إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، ونقل أسواقه إليه وتبين ضعفه فانقطعت عنه الميرة وفقدت الأتوات وغلت حتى أكل بعضهم بعضاً، وأجمع الموفق أن يحرق الجانب الشرقي كما أحرق الغربي فقصـد دار الهمذان وكان حصيناً وعليه الآلات فلما انتهى إليها تعذر الصعود لعلو السور فرموا بالكلايب ونشبت في أعلام الخيـث وجذبوها فتساقطت، فانهزم المقاتلة وصعد النفاطون فأحرقوا ما كان عليها من الآلة، ونهبوا الأثاث والمتاع. واتصل الحريق بما حولها من الدور واستأمن للموفق جماعة من خاصة الخيـث فأمتهم ودلوه على سوق عظيمة متصلة بالجسر الأول تسمى المباركة، وبها التجار الذين بهم قوامهم، فقصدها لإحراقها وحاربه الزنج بعدها، وأضرمت أصحابه النار فيها فاتصلت وبقي الحريق عامة اليوم.

ثم رجع الموفق ثم انتقل التجار بأمـتهم وأموالهم إلى أعلى المدينة، ثم فعل الخيـث في الجانب الشرقي بعد هذه من حفر الخنادق وتغيير الطرق مثل ما كان فعل في الجانب الغربي، واحتفر خندقاً عريضاً حصن به منازل أصحابه على النهر الغربي. ثم حرق الموفق باقي السور إلى النهر الغربي بعد حرب شديدة كانت عليه، وكان للخيـث جمع من الزنج وهم أشجع أصحابه، وقد تحصنوا بحصن منيع يخرجون على أصحاب الموفق عند الحرب

استيلاء الموفق على الجهة الشرقية

وقدم ابنه أبا العباس إلى دار المهلب وأضاف المستأمنة إلى شبل بن سالم وأمرهم أن ينتظروا بالقتال نفخ البوق، ونصب علمه الأسود على دار الكرمانى. ثم صمد إليهم وزحف الناس في البر والنهر، ونفخت الأبواق وذلك ثلاثا بقين من المحرم سنة سبعين. واشتد القتال وانهزم الزنج ومات منهم قتلاً وغرقاً ما لا يحصى، واستولى الموفق على المدينة واستنقذوا الأسرى وأسروا الخليل وابن أبان وأولادهما وعيال أخيهما، ومضى الخيث ومعه ابنه أنكلاي وابن جامع وقواد من الزنج إلى موضع بنهر السفاني كانوا أعدوه ملجأً إذا غلب على المدينة، واتبعه الموفق في السفن ولؤلؤ في البر. ثم اقتحم النهر بفرسه واتبه أصحابه فأوقعوا بالخيث ومن معه حتى عبروا نهر السامان واعتصموا بجبل وراه، ورجع لؤلؤ عنهم وشكره الموفق ورفع منزلته واستبشر الناس بالفتح.

وجمع الموفق أصحابه فوجههم على انقطاعهم عنه فاستعذروا بأنهم ظنوا انتصافه. ثم تحالفوا على الإقدام والثبات حتى يظفروا ومألوهم أن ترد المعابر التي يعبرون فيها ليستيت الناس في حرب عدوهم، فوعدهم بذلك وأصبح ثالث صفر فعبى المراكب وبعثهم إلى المراكز ورد المعابر التي عبروا فيها وتقدم العسكر فأوقعوا بالخيث وأصحابه ففضوا جماعة وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، وافترقوا كل ناحية. وثبت مع الخيث لمة من أصحابه فيهم المهلبى وذهب ابنه أنكلاي وابن جامع وأتبع كلاً منهم طائفة من العسكر بأمر أبي العباس بن الموفق. ثم أسر إبراهيم بن جعفر الهمداني فاستوثقوا منه.

ثم كر الخيث والمنهزمون معه على من اتبعهم من أهل العسكر فأزالوهم عن مواقفهم. ثم رجعوا ومضى الموفق في اتباع الخيث إلى آخر نهر أبي الخصيب فلقية غلام من أصحاب لؤلؤ برأس الخيث وسار أنكلاي نحو الديناري ومعه المهلبى وبعث الموفق أصحابه في طلبهم فظفر بهم وبمن معهم، وكانوا زهاء خمسة آلاف، فاستوثق منهم ثم استأمن إليه ورمونة وكان عند البطيحة قد اعتصم بغياض وآجام هنالك يخيف السابلة، ويغير على تلك النواحي وعلى الواردين إلى مدينة الموفق. فلما علم بموت الخيث سقط في يده وبعث يستأمن فأمنه الموفق فحسنت توبته ورد الغنصيات إلى أهلها ظاهراً، وأمر الموفق بالنداء برجوع الزنج إلى موطنهم فرجعوا وأقام الموفق بمدينة الموقية ليأمن الناس بمقامه، وولى على البصرة والأبلة وكور دجلة محمد بن حماد وقدم ابنه أبا العباس إلى بغداد فدخلها منتصف جمادي من سنة سبعين وكان خروج صاحب الزنج آخر رمضان سنة خمس وخمسين وقتله أول صفر سنة سبعين لأربع عشرة سنة وأربعة أشهر من دولته.

وفي خلال هذه الحروب واتصالها مرن أصحاب الموفق على تخلل تلك المسالك والشعاب مع تضايقها ووعرها، وأجمع الموفق على قصد الجانب الشرقي في نهر أبي الخصيب، وندب لذلك قواد المستأمنة لخبرتهم بذلك دون غيرهم، ووعدهم بالإحسان والزيادة فأبوا ومألوهم الإقالة فأبى لتمييز مناصحتهم. وجمع سفن دجلة من كل جانب، وكان فيها عشرة آلاف ملاح من المرتزقة. وأمر ابنه أبا العباس بقصد مدينة الخيث الشرقية من جهاتها، فسار إلى دار المهلبى وهو في مائة وخمسين قطعة من السفن قد شحنتها بالجهاد غلماناً، وانتخب عشرة آلاف مقاتل وأمرهم بالمسير حفافي النهر يشاهد أحوالهم. وبكر الموفق لثمان خلون من ذي القعدة زاحفاً للحرب، فاقتلوا ملياً وصبروا. ثم انهزم الزنج وقتل منهم خلق، وأسر آخرون فقتلوا، وقصد الموفق بجمعه دار الخيث، وقد جمع الخيث أصحابه للمدافعة فلم يقتلوا عنه وانهزموا وأسلموها فنهبا أصحاب الموفق، وسبوا حريمه وبنيه وكانوا عشرين. ولما إلى دار المهلبى ونهبها واشتغل أصحابهم جميعاً بنقل الغنائم إلى السفن، فاطمع ذلك الزنج فيهم وتراجعوا وردوا الناس إلى موافقهم. ثم صدق الموفق الحملة عشي النهار فهزم الزنج إلى دار الخيث ورجع الناس إلى عسكره، ووصله كتاب لؤلؤ غلام ابن طولون يستأذنه في القدوم عليه فأخر القتال إلى حضوره.

مقتل صاحب الزنج

ولما وصل غلام ابن طولون في ثالث المحرم من سنة سبعين وجاء في جيش عظيم، فأحسن إليهم الموفق وأجرى لهم الأرزاق على مراتبهم، وأمره بالتأهب لقتال الخيث. وقد كان لما غلب على نهر أبي الخصيب وقطعت القناطر والجسور التي عليه، أحدث فيه سكرًا وضيق جرية الماء ليمنع السفن من دخوله إذا حضر، ويتعذر خروجها أمامه. وبقي جريه لا يتها إلا بإزالة ذلك السكر، فحاول ذلك مدة والزنج يدافعون عنه، ودفع الموفق لذلك لؤلؤاً في أصحابه ليتمرنوا على حرب الزنج في تلك المسالك والطرق فأحسنوا البلاء فيها ووصلهم، وألح على العسكر، وهو كل يوم يقتل مقاتلتهم ويحرق مساكنهم ويقتل المستأمنة منهم. وقد كان بقي بالجهة الغربية بقية من أبنية ومزارع وبها جماعة يحفظونها، فسار إليهم أبو العباس وأوقع بهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد.

ثم غلبهم على السكر وأحرقه واعتزم على لقاء الخيث

ولاية ابن كنداج على الموصل

يأخذ الزكاة من الأموال المصعدة والمنحدرة، ووضع في الرساتيق من يقبض اعتبار الغلات، واستقام أمره. ثم جاء بنو ساسان لقتاله سنة ست وسبعين واستنجد بمحمدان بن حمدون فجاءه بنفسه، وسار إلى نهر الحازن وانهزم طليعتهم، وانهزموا بانهزامها، وجاء بنو شيان إلى قسا فاجفل أهلها وأقام هارون وأصحابه بالحديثة.

أخبار رافع بن هرثة من بعد الخجستاني

لما قتل أحمد الخجستاني سنة ثمان وستين كما قدمناه اجتمع أصحابه على رافع بن هرثة من قواد محمد بن طاهر، وكان رافع هذا لما استولى يعقوب الصفار على نيسابور، وزال بنو طاهر، صار رافع في جلته، وصحبه إلى سجستان. ثم أقصاه عن خدمته وعاد إلى منزله بنواحي جي حتى استخدمه الخجستاني وجعله صاحب جيشه. فلما قتل الخجستاني اجتمع الجيش عليه بهرة وأمره وسار إلى نيسابور فحاصر بها أبا طلحة بن شركب وقد كان وصل إليها من جرجان، فضيق عليه المختق ففارقها أبو طلحة إلى مرو، وولى على هراة ابن المهدي وخطب لمحمد بن طاهر بمرو وهراة وزحف إليه عمرو بن الليث فهزمه وغلبه على ما بيده. واستخلف على مرو محمد بن سهل بن هاشم، وخرج أبو طلحة إلى مكمد واستعان بإسماعيل بن أحمد الساماني، فأمدته بعسكر وأخرج محمد بن سهل، وخطب بها عمرو بن الليث سنة إحدى وسبعين.

ثم قلد الموفق تلك السنة أعمال خراسان لمحمد بن طاهر، وهو ببغداد، فاستخلف عليها رافع بن الليث وأقر على ما وراء النهر نصر بن أحمد. ووردت كتب الموفق بعزل عمرو بن الليث ولعنه، فسار رافع إلى هراة وقد كان بها محمد بن المهدي خليفة أبي طلحة، فثار عليه يوسف بن معبد. فلما جاء رافع استأمن إليه فأمنه واستعمل على هراة مهدي بن محسن. ثم سار رافع إلى أبي طلحة بمرو بعد أن استمد إسماعيل بن أحمد وأمدته بنفسه في أربعة آلاف فارس، واستقدم علي بن محسن المروزي فقدم عليه في عسكره، وساروا جميعاً إلى أبي طلحة بمرو سنة اثنتين وسبعين، فهزمه وعاد إسماعيل إلى بخارى ولحق بأبي طلحة وبها مهدي، فاجتمع معه على مخالفة رافع فهزمهما رافع، ولحق أبو طلحة بعمرو بن الليث وقبض على مهدي سنة اثنتين وسبعين ثم خلى سبيله وسار رافع إلى خوارزم فجى أموالها ورجع إلى نيسابور.

لما سار أحمد بن موسى بن بغا إلى الجزيرة وولى موسى بن أنامش على ديار ربيعة فتغبر لذلك إسحاق بن كنداج وفارق عسكره وأوقع بالأكراد اليقوبية وانهب أموالهم ثم لقي ابن مساور الخارجي فقتله، وسار إلى الموصل فقاطع أهلها على مال، وكان عليهم علي بن داود قائداً، فدفعه وسار ابن كنداج إليه، فخرج علي بن داود واجتمع حمدان بن حمدون التغلبي وإسحاق بن عمر بن أيوب بن الخطاب التغلبي العدوي، فكانوا خمسة عشر، وجاءهم علي بن داود فلقبهم إسحاق في ثلاثة آلاف فهزمهم بدسياسة من أهل مسيرتهم، وسار حمدان وعلي بن داود إلى نيسابور، وابن أيوب إلى نصيبين، وابن كنداج في اتباعه، فسار عنها واستجار بعيسى ابن الشيخ الشيباني وهو بآمد، وأبي العز موسى بن زرارة وهو عامل أردن، فأخذاه وبعث المعتد إلى إسحاق بن كنداج بولاية الموصل فدخلها، وأرسل إليه ابن الشيخ وابن زرارة مائة ألف دينار على أن يقرهم على أعمالهم فأبى، فاجتمعوا على حربه، فرجع إلى إجابتهم. ثم حاربوه سنة سبع وستين. واجتمع لحربه إسحاق بن أيوب وعيسى ابن الشيخ وأبو العز بن حمدان بن حمدون في ربيعة وتغلب وبكر واليمن فهزمهم ابن كنداج إلى نصيبين، ثم إلى آمد وحر عسكر لحصار ابن الشيخ بآمد وكانت بينهم حروب.

حروب الخوارج بالموصل

كان مساور الخارجي قد هلك في حروبه مع العساكر سنة ثلاث وستين بالبوارسج وأراد أصحابه ولاية محمد بن حرداد بشهرزور فامتنع، ويابغوا أيوب بن حيان المعروف بالغلام فقتل، فبايعوا هارون بن عبد الله البجلي وكثر أتباعه واستولى على بلد الموصل، وخرج عليه من أصحابه محمد بن حرداد، وكان كثير العبادة والزهد يجلس على الأرض ويلبس الصوف الغليظ ويركب البقر لثلا يفر من الحرب، فنزل واسط وجاء وجوه أهل الموصل، فسار إليهم وهارون غائب في الأحشاد، فبادر إليه واقتلا، وانهزم هارون وقتل من أصحابه نحو مائتين، وقصد بني تغلب مستنجدا بهم فأنجدوه وسار معه حمدان بن حمدون ودخل معه الموصل، ودخل ابن حرداد، واستمال هارون أصحابه، ورجع إلى الحديثة، ولم يبق مع ابن حرداد إلا قليل من الأكراد فمالوا إلى هارون بالموصل، فخرج وأوقع بابن حرداد فقتله وأوقع بالأكراد الجلالية وكثر أتباعه، وغلب على القرى والرساتيق، وجعل على دجلة من

أمّتين. ولم يزل لؤلؤ في خدمة الموفق إلى أن قبض عليه سنة ثلاث وسبعين وصادره على أربعمائة ألف وأدبر أمره ثمّ، ثم عاد إلى مصر آخر أيام هارون بن حمارويه.

مغاضبة المعتمد للموفق ومسيرة ابن طولون وما نشأ من الفتنة لأجل ذلك

كان الموفق حدث بينه وبين ابن طولون وحشة وأراد عزله، وبعث موسى بن بغا في العساكر إليه سنة اثنتين وستين فأقام بالرقّة عشرة أشهر، واختلف عليه العسكر فرجع، وكان الموفق مستبداً على أخيه المعتمد منذ قيامه بأمر دولته مع ما كان من الكفاية والغناء، إلا أنه كان المعتمد يتأفف من الحجر، وكتب إلى أحمد بن طولون في السر يشكو ذلك وأشار عليه باللاحاق إليه بمصر لينصره، وبعث عسكراً إلى الرقة في انتظاره، وكان الموفق مشغولاً بحرب الزنج، فسار المعتمد منتصف سنة تسع وستين في القواد مظهراً أنه يتصيد، ثم سار إلى أعمال الموصل وعليها يومئذ وعلى سائر الجزيرة أصحاب كنداج وكتب صاعد بن غلغل وزير الموفق عن الموفق إلى إسحاق بردة عن طريقه، والقبض على من معه من القواد.

فلما وصل المعتمد إلى عمله أظهر إسحاق طاعته، فارتحل في خدمته إلى أول عمل ابن طولون. ثم اجتمع بالمعتمد والقواد وفيهم نيزك وأحمد بن خاقان وغيرهم فعذلهم في المسير إلى ابن طولون والمقام تحت يده، وطال الكلام بينهم ملياً ثم دعاهم إلى خيمته للمناظرة في ذلك أديباً مع المعتمد، وقدهم وجاء إلى المعتمد فعذله في المسير عن دار خلافته ومغاضبة أخيه، وهو في دفاع عدوه ومن يريد خراب ملكه، وحمل الجميع إلى سامرا. وقطع ابن طولون الدعاء للموفق على منابره وأسقط اسمه من الطرر وغضب الموفق بسبب ذلك على أحمد بن طولون، وحمل المعتمد على أن يشار بلعنه على المنابر.

وولى إسحاق بن كنداج على أعماله وفوض إليه من باب الشماسية إلى أفريقية، وكان لؤلؤ مولى ابن طولون عاملاً له على حمص وحلب وقنشرين وديار مصر من الجزيرة. وكان منزله بالرقّة فانتقض عليه في هذه السنة، وسار إلى بالس فنهبها، وكتب إلى الموفق فمر بقرقيسيا وبها ابن صفوان العقيلي فحاربه وغلبه عليها وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق. ووصل إلى الموفق في عسكر عظيم وهو يقاتل صاحب الزنج فأكرمه الموفق وأحسن هو الغناء في تلك الحرب. ثم بعث ابن طولون في تلك السنة جيشه إلى مكة لإقامة الموسم، وعامل مكة هارون بن محمد فقارقتها خوفاً منهم، وبعث الموفق جعفرأ في عسكر فقوي بهم هارون ولقوا أصحاب ابن طولون فهزموهم وصادروا القائد على ألف دينار. وقرئ الكتاب في المسجد بلعن ابن طولون وانتقل أهل مصر إلى بلدهم

وفاة ابن طولون ومسير ابن كنداج إلى الشام

وفي سنة سبعين انتقض بازمان الخادم بطرسوس وقبض على نائبه، وسار إليه أحمد بن طولون في العساكر وحاصروه فامتنع عليه، فرجع إلى أنطاكية فمرض هنالك ومات لست وعشرين سنة من ولايته على مصر وولي بعده ابنه خمارويه، وانتقضت عليه دمشق فبعث إليها العساكر وعادت إلى طاعته. وكان يومئذ بالموصل والجزيرة إسحاق بن كنداج وعلى الأنبار والرجبة وطريق الفرات محمد بن أبي الساج، فكاتبوا الموفق في المسير إلى الشام واستمدها، فأذن لهما وودعهما بالمدد، فسارا وملكا ما يجاورهما من بلاده، واستولى إسحاق على أنطاكية وحلب وحمص، وكاتبه نائب دمشق واجتمع الخلاف على خمارويه فسار إليه فهرب إلى شيزر وهي في طاعة خمارويه، ودمشق. وجاء أبو العباس بن الموفق وهو المعتضد من بغداد بالعساكر فكبس شيزر وقتل من جنل ابن طولون مقتله عظيمة، ولحق فلهم بدمشق وأبو العباس في اتباعهم، فجلوا عنها، وملكها في شعبان سنة إحدى وسبعين. ورجعت عساكر خمارويه إلى الرملة فأقاموا بها. وزحف إسحاق بن كنداج إلى الرقة وعليها وعلى الثغور والعواصم ابن دعاص من قبل خمارويه فقاتله وكان الظهور لإسحاق. ثم زحف أبو العباس المعتضد من دمشق إلى الرملة، وسار خمارويه من مصر واجتمع بعساكره في الرملة على ماء الطواحين، وكان المعتضد قد استفسد لابن كنداج وابن أبي الساج ونسيهما إلى الجين في انتظارهما إياه في محاربة خمارويه.

وعبى المعتضد عساكره ولقي خمارويه وقد أكن له، فانهزم خمارويه أولاً وملك المعتضد خيامه، وشغل أصحابه بالنهب فخرج عليهم الكمين فانهزم المعتضد إلى دمشق، فلم يفتح له أهلها، فراح إلى طرسوس وأقام العسكران يقتلان دون أمير، وأقام أصحاب خمارويه عليهم أخاه سعداً مكانه، وذهبوا إلى الشام فملكوه أجمع، وأذهبوا منه دعوة الموفق وابنه. وبلغ الخبر إلى خمارويه فسُرّ وأطلق الأسرى الذين كانوا معه. ثم سار أهل طرسوس بأبي العباس فأخرجوه، وسار إلى بغداد وولوا عليهم مازيار، فاستبد بها ثم دعا لخمارويه بعد أن وصله بمال جليل يقال: أنفذ إليه ثلاثين ألف

على الجزيرة والموصل، وخطب لخمarioه ثم لنفسه بعده، وبعث غلامه فتحاً إلى أعمال الموصل لجباية الخراج.

وكان اليعقوبية من السراة قريباً منه، فهادنهم، ثم غدر بهم فكسبهم، وجاءهم أصحابهم من غير شعور بالواقعة، فحملوا على أصحاب فتح فاستلحموهم. ثم انتقض ابن أبي الساج واستيخ عسكره. وكان له بمحص خلف من أثقاله، فقدم خاريو به طائفة من العسكر إليها، فاستلروا على ما فيها، ومنعوا ابن أبي الساج من دخولها، فسار إلى حلب، ثم إلى الرقة وخاريو به اتباعه، فغير الفرات إلى الموصل، وجاء خاريو به إلى بلد وأقام بها وسار ابن أبي الساج إلى الحديفة وكان إسحاق بن كنداج قد لحق بخمارويه من ماردین فبعث معه جيشاً وجماعة من القواد، وسار في طلب ابن أبي الساج، وقد عبر دجلة فجمع ابن كنداج السفن ليوطى جسراً للعبور.

وبينما هو في ذلك أسرى ابن أبي الساج من تكريت إلى الموصل، فوصلها الرابعة وسار ابن كنداج في اتباعه، فاقتتلوا بظاهر الموصل وابن أبي الساج في ألفين، فصر واشتد القتال، وانهمز ابن كنداج وهو في عشرين ألفاً. فخلص إلى الرقة ومحمد بن أبي الساج في اتباعه. وكتب إلى الموفق يستأذنه في عبور الفرات إلى بلاد خمارويه بالشام، فأمره بالتوقف إلى وصول المدد من عنده، ومضى ابن كنداج إلى جمارويه فجاء بجيوشه إلى الفرات، وتوافق مع ابن أبي الساج والفرات بينهما، ثم عبرت طائفة من عسكر ابن كنداج فأوقعوا بطائفة من عسكر ابن أبي الساج فانهزموا إلى الرقة، فسار ابن أبي الساج عن الرقة إلى بغداد سنة ست وسبعين في ربيع منها، فأكرمه الموفق ووصله واستولى ابن كنداج على ديار ربيعة من أعمال الجزيرة، وأقام بها وولى الموفق بن أبي الساج على أذربيجان، فسار إليها فخرج إليه عبد الله بن الحسين الهمداني عامل مراغة ليصده فهزمه ابن أبي الساج فحاصره وأخذ منه مراغة سنة ثمان وسبعين وقتله. واستقر ابن أبي الساج في عمله بأذربيجان.

أخبار عمرو بن الليث

كان عمرو بن الليث بعد مهلك أخيه يعقوب قد ولاه الموفق خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد كما كان أخوه، وقد ذكرنا ذلك قبل. وكان عامله على فارس ابن الليث فانتقض عليه سنة ثمان وستين فسار عمرو لخره فهزمه واستباح عسكره ونهب اصطخر ثم ظفرت جيوشه بمحمد

دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحاً كثيراً، فدعا له ثم بعث إليه بخمسين ألف دينار.

وفاة صاحب طبرستان وولاية أخيه

ثم توفي الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان في رجب سنة سبعين لعشرين سنة من ولايته وولي مكانه أخوه وكان على قزوين أنكونكين فسار إلى الري في أربعة آلاف فارس، وسار إليه محمد بن زيد في عالم كثير من الديلم والخراسانية، والتقوا فانهزم محمد بن زيد وقتل من عسكره نحو من ستة آلاف وأسر ألفان، وغنم أنكونكين عسكراً وملك الري وأغرم أهلها مائة ألف دينار، وفرق عماله عليها، وسار محمد بن زيد إلى جرجان، ثم عزل عمرو بن الليث عن خراسان وولى عليها محمد بن طاهر، واستخلف محمد بن رافع بن هرثة، وسار سنة خمس وسبعين إلى جرجان وهرب عنها ليلاً إلى استرياد فحاصره رافع فيها ستين حتى أجهدته الحصار، ففر عنها ليلاً إلى سارية، فاتبه فهرب عن طبرستان سنة سبع وسبعين، واستأمن رستم بن قارن إلى رافع بطبرستان فأمته، وبعث إلى سالوس محمد بن هارون نائباً عنه وأناه بابا علي بن كاني مستأماً. ثم جاءه محمد وحاصرها بسالوس، وانقطعت أخبارهما عن نافع. ثم جاءه الخبر بحصارهما فسار إليهما فارتحل محمد بن زيد إلى أرض الديلم، فدخل رافع خلفه وأئمن فيها نهياً وتخريباً إلى حدود قزوین، وعاد إلى الري إلى أن توفي المعتمد سنة تسع وتسعين.

فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج وابن طولون

كان ابن أبي الساج في أعماله بقتسرین والفرات والرجبة ينافس إسحاق وهو على الجزيرة، ويريد التقدم عليه، فحدث لذلك منهما فتنة. فخطب ابن أبي الساج لخمarioه بن طولون. وبعث ابنه ديواداد رهينة إليه، فبعث إليه خمارويه أموالاً جمّة وسار إلى الشام، واجتمع بابن أبي الساج ببالس، ثم عبر ابن أبي الساج الفرات إلى الرقة، وهزم إسحاق بن كنداج، واستولى على أعماله. وعبر خمارويه ونزل الرقة ومضى إسحاق إلى قلعة ماردین وحاصره ابن أبي الساج بها، ثم أفرج عنها وسار إلى سنجار لقتال بعض الأعراب فسار ابن كنداج من ماردین إلى الموصل، فاعترضه ابن أبي الساج، وهزمه فعاد إلى ماردین، واستولى ابن أبي الساج

قبض الموفق على ابنه أبي العباس المعتضد ثم وفاته وقيام ابنه أبي العباس بالأمر بعده

كان الموفق بعد رجوعه من أصبهان نزل واسط، ثم عاد إلى بغداد وترك المعتضد بالمداخن، وأمر ابنه أبا العباس وهو المعتضد بالمسير إلى بعض الوجوه فأبى، فأمر بحبسه، ووكل به. وركب القواد من أصحابه واضطربت بغداد فركب الموفق إلى الميدان وسكن الناس، وقال: إني احتجت إلى تقويم ابني فقومته، فانصرف الناس وذلك سنة ست وسبعين. وكان عند منصرفه من الجبل قد أشد به وجع النقرس ولم يقدر على الركوب، فكان يُحمل في الحفّة، ووصل إلى داره في صفر من سنة سبع، وطال مرضه وبعث كاتبه أبا الصقر بن بلبل إلى الميدان، فجاء بالمعتضد وأولاده وأنزله بداره، ولم يأت دار الموفق، فارتاب الأولياء لذلك، وعمد غلمان أبي العباس فكسروا الأقفال المغلقة عليه وأخرجوه وأقعدوه عند رأس أبيه وهو يجمود بنفسه، فلما فتح عنه قربه وأذناه وجمع أبو الصقر عنده القواد والجند.

ثم تسامح الناس أن الموفق حي، فتسللوا عن أبي الصقر وأولهم محمد بن أبي الساج، فلم يسع أبا الصقر إلا الحضور بدار الموفق، فحضر هو وابنه وأشاع أعداء أبي الصقر أنه هرب بمال الموفق إلى المعتضد، فتهبوا داره، وأخرجت نساؤه حفاة عراة، ونهب ما يجاوره من الدور، وقتلت السجون، ثم خلع الموفق على ابنه أبي العباس وأبي الصقر، وركب إلى منزلهما وولى أبو العباس غلامه بدار الشرطة. ثم مات لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ودفن بالرصافة. واجتمع القواد فبايعوا ابنه أبا العباس المعتضد بالله، واجتمع عليه أصحاب أبيه، ثم قبض المعتضد على أبي الصقر ابن بلبل وأصحابه، وانتهت منازلهم، وولى عبد الله بن سليمان بن وهب الوزارة وبعث محمد بن أبي الساج إلى واسط ليرد غلامه وصيفاً إلى بغداد فأبى وصيف وسار إلى السوس فأقام بها.

ابتداء أمر القرامطة

كان ابتداء أمرهم فيما زعموا أن رجلاً ظهر بسواد الكوفة سنة ثمان وسبعين وماتين يتسم بالزهد، وكان يدعى قرمط يقال لركوبه على ثور كان صاحبه يدعى كَرْمِيطَة فعُرب وقيل: بل اسمه حمدان ولقبه قرمط. يقال: وزعم أنه داعية لأهل البيت للمعتز منهم واتبعه العباس فقبض عليه الهيصم عامل الكوفة

وأسره وحبسه بكرمان، فأقام بها ثم بعث إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف وهو بأصبهان يطلبه بالمال. فبعث إليه بالأموال، وبعث عمرو إلى الموفق بثلاثمائة ألف دينار، وبخمسين مئاً من المسك ومثلها من العنبر ومائتين من العود، وثلاثمائة ثوب من الوشي ومن آتية الذهب والفضة والدواب والغلمان قيمة مائة ألف دينار. واستأذنه في غزو محمد بن عبيد الكردى واهرمز فأذن له، فبعث قائداً من جيشه إليه فأسره وجاء به إلى عمرو.

ثم عزل المعتضد سنة إحدى وستين عمرو بن الليث عما كان قلده من الأعمال، وأدخل إليه الحاج من أهلها عند منصرفهم من مكة، فأعلمهم بعزله، وأنه قد ولى على خراسان محمد بن طاهر، وأمر بلعن عمرو على المنابر. وجهز محمد بن صاعد إلى فارس لحرب عمرو، واستخلف محمد بن طاهر على خراسان رافع بن هرثمة، وكتب المعتضد إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف يأمره بقتاله، وبعث إليه الجيوش فاقتتلوا مع عمرو، وكان في خمسة عشر ألف مقاتل، فانهزم عمرو وخرج قائده الديلمي وقتل مائة من أعيانهم وأسروا ثلاثة آلاف، فاستأمن منهم وغمضوا من عسكره ما لا يحصى. ثم زحف الموفق سنة أربع وسبعين إلى فارس لحرب عمرو فأنفذ عمرو ابنه محمداً إلى أَرْجَان في العساكر، وعلى مقدمته أبو طلحة بن شركب وعباس بن إسحاق إلى سيراف، واستأمن أبو طلحة إلى الموفق فقت ذلك في عضد عمرو، وعاد إلى كرمان واستراب الموفق بأبي طلحة فقبض عليه قريباً من شيراز، وجعل ماله لابنه أبي العباس المعتضد، وسار في طلب عمرو، فخرج من كرمان إلى سجستان ومات ابنه محمد بالمفاضة، ورجع عنه الموفق وسار رافع بن الليث من خراسان وغلب محمد بن زيد على طبرستان كما قدمناه، وقدم عليه هنالك علي بن الليث هو وابناه المعدل والليث (بن حسن أخيه علي) بكرمان ثم قتله رافع سنة ثمان وستين.

مسير الموفق إلى أصبهان والجليل

كان كاتب أتوتكين أنهى إلى المعتضد أن له مالا عظيماً ببلاد الجبل فتوجه لذلك فلم يجد شيئاً ثم سار إلى الكرخ ثم إلى أصبهان يريد أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فتنحى أحمد عن البلد بعسكره، وترك داره بفرضها لتزل الموفق عند قدومه، ثم رجع الموفق إلى بغداد.

فتنة طرسوس

قد تقدم لنا انتفاض بأزمان بطرسوس على مولاه أحمد بن طولون، وأنه حاصره فاستنق عليه، وأنه راجع بعد طاعة ابنه خمارويه مما حمل إليه من الأموال والأمتعة والسلاح، فاستقام أمره بطرسوس مدة، وغزا سنة ثمان وسبعين بالصائفة مع أحمد الجعفي وحاصروا أسكندا فأصيب بمحجر منجنق، فرجع وهلك في طريقه ودفن بطرسوس. وكان استخلف ابن عجيف فأقره خمارويه وأمه بالخليل والسلاح والمال، ثم عزله واستعمل عليها ابن عمه ابن محمد بن موسى بن طولون. ولما توفي الموفق نزع خدام من خواصه اسمه راغب إلى الشك، وطلب المقام بالثغر للجهاد، فأذن له المعتضد فسار إلى طرسوس وحط أقالمه بها وسار إلى لقاء خمارويه بدمشق فأكرمه واستجلب أنسه، فطال مقامه والمهم أصحابه بطرسوس أنه قبض عليه، فأوصلوا أهل البلد في ذلك، فوثبوا بأميرهم محمد بن موسى حتى يطلق لهم راغب، ويلغ الخبر إلى خمارويه فأطلقه فجاء إليهم ووبخهم على فعلهم، فأطلقوا محمد بن موسى وسار عنهم إلى بيت المقدس فأعادوا ابن عجيف إلى ولايته.

فتنة أهل الموصل مع الخوارج

قد تقدم لنا هارون بن سليمان كان على الشراة من الخوارج، وكان بنو شيان يقاتلونهم ويغيرون على الموصل. فلما كانت سنة تسع وسبعين جاء بنو شيان لذلك وأغاروا على سوى وغيرها من الأعمال، فاجتمع هارون الشاري في الخوارج وحمدان بن حمدون التغلبي على مدافعتهم. وكان مع بني شيان هارون بن سيما مولى أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيباني، بعثه محمد بن إسحاق بن كنداجق والياً على الموصل عندما مات أبوه إسحاق، وولي مكانه على أعماله بالموصل وديار ربيعة فلم يرضه أهل الموصل وطردوه، فسار إلى بني شيان مستنجداً بهم، فلما التقى الجمعان انهزم بنو شيان أولاً واشتغل أصحاب حمدان والخوارج بالنهب، فكرّ عليهم بنو شيان وظفروا بهم. وكتب هارون بن سيما إلى محمد بن إسحاق بن كنداجق يستمده فسار بنفسه وخشيه أهل الموصل فسار بعضهم إلى بغداد يطلبون عاملاً يكفيهم أمر ابن كنداجق، ومروا في طريقهم بمحمد بن يحيى المجروج الموكل بحفظ الطريق فآلفوه وقد وصل إليه بولاية العهد بالموصل، فبادر ملكها، وتواتق ابن كنداجق في مكانه، ويعت إلى خمارويه بالهدية، ويسأل إمارة الموصل كما كان من قبل، فلم يجبه إلى ذلك، ثم عزل

وحبسه، ففر من حبسه وزعم أن الإغلاق لا يمنعه. ثم زعم أنه الذي بشر به أحمد بن محمد بن الحنفية، وجاء بكتاب تناقله القرامطة فيه بعد البسملة: يقول الفرّج بن عثمان من قرية نصرانه أنه داعية المسيح وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل. وإن المسيح تصور له في جسم إنسان فقال له: إنك الداعية وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك يحيى بن زكريا وإنك روح القدس، وعرفه أن الصلاة أربع ركعات قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها، وأن الأذان بالتكبير في افتتاحه وشهادة التوحيد مرتين، ثم شهادة بالرسالة لأدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم عيسى ثم محمد صلوات الله عليهم، ثم لأحمد بن محمد بن الحنفية وقرأ الاستفتاح في كل ركعة وهو من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية، والقبلة بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين، ولا يعمل فيه شيء.

والسورة التي تقرأ فيها: الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لأوليائه بأوليائه، قل إن الأهلّة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي، اتقوني يا أولى الألباب، وأنا الذي لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي وعنتي واختباري ألقته في جنتي وفي نعمتي، ومن زال عن أمري وكذب رسلي أخلدته مهاناً في عذابي وأتممت أجلي وأظهرت على السنة رسلي. فانا الذي لم يعل جبار إلا وضعته وأذلته. فبئس الذي أصر على أمره، ودام على جهالته.

وقال: لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون. ثم يركع ويقول في ركوعه مرتين: سبحان ربي رب العزة وتعالى عما يصف الظالمون، وفي سجوده: الله أعلى مرتين، الله أعظم مره، والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز. والنيذ حرام والخمر حلال، والغسل من الجنابة كالوضوء. ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخالب، ومن خالفهم وحارب وجب قتله، وإن لم يجارب أخذت منه الجزية وانتهى. إلى غير ذلك من دعاوى شنيعة متعارضة يهدم بعضها بعضاً، وتشهد عليهم بالكذب، وهذا الفرّج بن يحيى الذي ذكر هذا أول الكتاب أنه داعية القرامطة يلقب عندهم دُكُروية بن مهروية. ويقال: إن ظهور هذا الرجل كان قبل مقتل صاحب الزنج، وإته سار إليه على الأمان، وقال له: إن ورائي مائة سيف، فتعال تتناظر فلعلنا نتفق ونتعاون. ثم تناظرا فاختلفا وانصرف قرمط عنه، وكان يسمى نفسه القائم بالحق. وزعم بعض الناس أنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج.

المجروح وولى بعده علي بن داود الكردي.

الصوائف أيام المعتمد

وصل الخبر في سنة سبع وخمسين بأن ملك الروم بالقسطنطينية ميخائيل بن روفيل وثب عليه قريبه مسك، ويعرف بالصقلي فقتله لأربع وعشرين سنة من ملكه، وملك مكانه. وفي سنة تسع وخمسين خرجت عساكر الروم فنزلوا سميساط ثم نزلوا مليطه وقتلهم أهلها فانهزموا، وقتل بطريق من بطارتهم. وفي سنة ثلاث وستين استولى الروم على قلعة الصقالبة، وكانت ثغراً لطرسوس وتسمى قلعة كركرة فرد المعتمد ولاية ثغر طرسوس لابن طولون، وكان أحمد بن طولون قد خطب ولأيتها من الموفق يريد أن يجعلها ركاباً لجهاده لخرته بأحوالها. وكان يردد الغزو من طرسوس إلى بلاد الروم قبل ولاية مصر، فلم يجبه الموفق، وولى عليها الموفق محمد بن هارون التغلبي، واعترضه السراة أصحاب مساور وهو مسافر في دجلة فقتلوه، فولى مكانه أماجور بن أولع بن طرخان من الترك، فسار إليها وكان غراً جاهلاً، فأساء السيرة ومنع اقربان أهل كركرة ميرتهم، وكتبوا إلى أهل طرسوس يشكون فجمعوا لهم خمسة عشر ألف دينار فأخذها أماجور لنفسه. وأبطأ على أهل القلعة شأنها. فنزلوا عنها وأعطوها الروم، وكثر أسف أهل طرسوس لذلك بما كانت ثغرم وعيناً لهم على العدو، وبلغ ذلك المعتمد، فكتب لأحمد بن طولون بولايتها وفوض إليهم أمر الثغور، فولياها واستعمل فيها من يحفظ الثغر ويقيم الجهاد، وقارن ذلك وفاة أماجور عامل دمشق، وملك ابن طولون الشام جميعها كما ذكرناه قبل.

وفي سنة أربع وستين غزا بالصائفة عبد الله بن رشيد بن كاوس في أربعين ألفاً من أهل الثغور الشامية، فأتخن فيهم وغنم ورجع، فلما رحل عن البديون خرج عليه بطريق سلوقية، وقره كوكب وحرسية، وأحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون واستلحمهم الروم بالقتل، ونجا فلهم إلى الثغر، وأسر عبد الله بن كاوس وحمل إلى القسطنطينية وفي سنة خمس وستين خرج خمسة من بطارقة الروم إلى أذنه فقتلوا وأسروا والي الثغور أُوخرد فعزل عنها وأقام مرابطاً، ويعث ملك الروم بعيد الله بن كاوس ومن معه من الأسرى إلى أحمد بن طولون، وأهدى إليه عدة مصاحف.

وفي سنة ست وستين لقي أسطول المسلمين أسطول الروم عند صقيلة فظفر الروم بهم، ولحق من سلم منهم بصقيلة، وفيها خرجت الروم على ديار ربيعة، واستنفر الناس ففروا ولم يطبقوا

دخول الدرب لشدة البرد فيها. وغزا عامل ابن طولون على الثغور الشامية في ثلاثمائة من أهل طرسوس واعترضهم أربعة آلاف من الروم من بلاد هرقل، فنال المسلمون منهم أعظم النيل. وفي سنة ثمان وستين خرج ملك الروم، وفيها غزا بالصائفة خلف الفرغاني عامل ابن طولون على الثغور الشامية فأتخن ورجع. وفي سنة سبعين زحف الروم في مائة ألف ونزلوا قلمية على ستة أميال من طرسوس، فخرج إليهم بازيار فهزمهم وقتل منهم سبعين ألفاً وجماعة من البطارقة، وقتل مقدمهم بطريق البطارقة، وغنم منهم سبع صلبان ذهباً وفضة، وكان أعظمها مكللاً بالجواهر. وغنم خمسة عشر ألف دابة، ومن السروج والسيوف مثل ذلك، وأربع كراسي من ذهب، ومائتين من فضة وعشرين علماً من الديباج وآنية كثيرة.

وفي سنة ثلاث وسبعين غزا بالصائفة بازيار وتوغل في أرض الروم وغنم وأسر وسبى وعاد إلى طرسوس. وفي سنة ثمان وسبعين دخل أحمد الجعفي طرسوس وغزا مع بازيار بالصائفة ونزلوا إسكندنا فأصيب بازيار عليها بحجر متجنق فرجع ومات في طريقه ودفن بطرسوس.

الولايات بالنواحي أيام المعتز

كانت الفتنة قد ملأت نواحي الدولة من أطرافها وأوساطها واستولى بنو سامان على ما وراء النهر، والصفار على سجستان وكرمان وملك فارس من يد عمال الخليفة، وانتزع خراسان من بني طاهر وكلهم مع ذلك يقيمون دعوة الخليفة. وغلب الحسن بن زيد على طبرستان وجرجان منازعاً بالدعوة ومحارباً بالديلم لابن سامان والصفار وعساكر الخليفة بأصبهان، واستولى صاحب الزنج على البصرة والأبلة إلى واسط وكور دجلة منازعاً للدعوة ومشاققاً، وأضرمت تلك النواحي فتنة. ولم يزل الموفق في محاربتة حتى حسم علته وقطع أثره واضطربت بلاد الموصل والجزيرة فتنة بجوارح السراة وبالقرب من بني شيبان وتغلب بالأكرد واستولى ابن طولون على مصر والشام مقيماً لدعوة الخلافة العباسية، وابن الأغلب بأفريقية كذلك.

وأما المغرب الأقصى والأندلس فاقطعنا عن المملكة العباسية منذ أزمان كما قلنا، ولم يكن للمعتمد مدة خلافته كلها حكم ولا أمر ونهي، إنما كان مغلباً لأخيه الموفق وتحت استبداده، ولم يكن لهما جميعاً كبير ولاية في النواحي باستيلاء من استولى عليها ممن ذكرناه إلا بعض الأجnas، فلنذكر ما وصل إلينا من

ديار مصر وقنسرين والعواصم. وبعثه لحرب الزنج ومعه مفلح فهلك في تلك الحرب. وعقد المعتد على الموصل والجزيرة لسرور البلخي فكانت بينه وبين مساور الشيباني حروب وكذلك بين الأكراد واليعقوبية، وأوقع بهم كما مر. وفيها رجع أحمد بن واصل إلى طاعة السلطان وسلم فارس للحسن بن الفياض. وفي سنة تسع وخمسين كان مهلك أصطيخور بالأهواز، فأمر المعتد موسى بن بغا بالسير لحرب الزنج كما مر. وفيها ملك يعقوب الصفار خراسان وقبض على محمد بن طاهر، وكان لمنكجور على الكوفة، ففسار عنها إلى سامرا بغير إذن، وأمر بالرجوع فأبى، وبعث المعتد عدة من القواد فلقوه بعكرا فقتلوه وحملوا رأسه.

وفيها غلب الحسن بن زيد على قومس وملكها، وكانت وقعة بين محمد بن الفضل بن نيسان وبين دهشودان بن حسان الديلمي فهزمه محمد، وفيها غلب شركب الحمال على مرو ونواحيها.

وفي سنة ستين قام يعقوب بن الصفار على الحسن بن زيد فهزمه وملك طبرستان كما مر. وأخرج أهل الموصل عاملهم أنكرتكين بن أساتكين، فبعث عليهم أساتكين إسحاق بن أيوب في عشرين ألفاً ومعه حمدان بن حمدون التغلبي فامتنع أهل الموصل منهم وولوا عليهم يحيى بن سليمان، فاستولى عليها. وفيها قتلت الأعراب منكجور والي حمص فولى بكثر، وولى على أذربيجان الرذيني عمر بن علي لما بلغه أن عاملها العللاء بن أحمد الأزدي فليج، فلما أتى الرذيني حاربه العللاء فانهزم وقتل، واستولى الرذيني على غلغله قريباً من ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم.

وفيها سار علي بن زيد القائد بالكوفة إلى صاحب الزنج فقتله.

وفي سنة إحدى وستين عقد المعتد لموسى بن بغا على الأهواز والبصرة والبحرين واليمامة، مضافاً لما بيده. فولاهما عبد الرحمن بن مفلح وبعثه لحرب ابن واصل، فهزمه ابن واصل وأسرهما كما مر، ورأى موسى بن بغا اضطراب تلك الناحية، فاستغنى منها وولها أبو الساج، وملك الزنج الأهواز من يده، فصرّف عن ولايتها وولها إبراهيم بن سيما وولي محمد بن أوس البلخي طريق خراسان. ثم جاء الصفار إلى فارس، فغلب عليها ابن واصل كما مر، فجهز المعتد أخاه الموفق إلى البصرة بعد أن ولاه المعتد عهده بعد ابنه جعفر كما ذكرناه. وبعث الموفق ابنه أبا

هذه الولايات أيام المعتد، فلول ولايته استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان وبعث جعلان لحرب الزنج بالبصرة فكان أمره معهم كما مر. ثم ولّى عيسى بن الشيخ بن بني شيبان على دمشق فاستأثر بها ومنع الخراج، وجاءه حسين الخادم من بغداد يطلب المال فاعتذر بأنه أنفقه على الجند، فكتب له المعتد عهده في أرمينية ليقم بها دعوته وقلد أماجور دمشق وأعمالها ففسار إليها، وأنفذ عيسى ابن الشيخ ابنه منصوراً لقتال أماجور في عشرين ألفاً، فانهزموا وقتل منصور وسار عيسى إلى أرمينية على طريق الساحل ودخل أماجور دمشق.

وفي سنة ست وخمسين سار موسى بن بغا لحرب مساور الخارجي فلقبه ساحة جائفين فزال الخوارج منهم، وفيها كان وثوب محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي على الحارث بن سيما عامل فارس، فقتله وغلب عليها كما مر. وفيها غلب الحسن بن زيد الطالبي على الري ففسار إليها موسى بن بغا وغلب على عساكر الحسن، وظهر علي بن زيد بالكوفة وملكها، وبعث المعتد لمحاربه كيجور التركي فخرج عنها إلى القادسية، ثم إلى ختاتن ثم إلى بلاد بني أسد. وغزاه كيجور من الكوفة فأوقع به وعاد إلى الكوفة، ثم إلى سُرّ من رأى.

وفي سنة سبع وخمسين عقد المعتد لأخيه الموفق على الكوفة والحرمين واليمن ثم على بغداد والسواد إلى البصرة والأهواز وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد الحاجب. وعقد يارجوج على ذلك لمنصور بن جعفر الخياط ونزل الأهواز ثم عقد المعتد حرب الزنج بالبصرة لأحمد بن المولد، ففسار إليها وقاتل الزنج. وكان بالبطائح سعيد بن أحمد الباهلي متغلباً عليها فأخذه ابن المولد وبعث به إلى سامرا وفيها تغلب يعقوب الصفار على فارس وبعض أعمال خراسان، وولاه المعتد ما غلب عليها.

وفيها غلب الحسن بن زيد على خراسان، وانتفضت على بن طاهر أعمال خراسان، وفيها اقتطع المعتد مصر وأعمالها ليارجوج التركي فولى عليها أحمد بن طولون، ومات يارجوج لسنة بعدها فاستبد ابن طولون بها، وكان عبد العزيز بن أبي دلف على الري، فخرج عليها خوفاً من جيوش ابن زيد صاحب طبرستان، فبعث الحسن من قرابته القاسم بن علي بن القاسم، فأساء فيها السيرة.

وفي سنة ثمان وخمسين قتل منصور بن جعفر الخياط في حرب الزنج، وولى يارجوج على أعمال منصور، فولى عليها أصطيخور، وهلك في حرب الزنج، وعقد المعتد للموفق على

العباس لحرب الزنج فتقدما بين يديه، وفيها فارق محمد بن زيد ولاية يعقوب الصفار، وسار ابن أبي الساج إلى الأهواز وطلب أن يوجه الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر إلى خراسان، وفيها

المعتمد خوفاً من الموفق، فوصلوا إلى الموصل وكتب الموفق لأحمد بن أبي الأصبح في قبض أموالهم. وفيها مات أماجور عامل دمشق وملك ابن طولون الشام وطرسوس وقتل عاملها سيماء.

وفي سنة خمس وستين ولي مسرور البلخي على الأهواز وهزم الزنج. وفيها مات يعقوب الصفار وقام بأمره أخوه عمر، ولاه الموفق مكان أخيه بخراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد. وفيها وثب القاسم بن مهان بدلف بن عبد العزيز بن أبي دلف بأصبهان فقتله، فوثب جماعة من أصحاب دلف بالقاسم فقتلوه. فولي أصفهان أحمد بن عبد العزيز أخو دلف، وفيها لحق محمد بن المولد يعقوب الصفار وقبضت أمواله وعقاره ببغداد. وفيها حبس الموفق سليمان بن وهب وابنه عبد الله وصادروهما على تسعمائة ألف دينار، وفيها ذهب موسى بن أتامش وإسحاق بن كنداجق والفضل بن موسى بن بغا مغاضيين، وبعث الموفق في أثرهم صاعد بن غلغل فردهم من صصر.

وفيها استوزر الموفق أبا الصقر إسماعيل بن بلبل. وفي سنة ست وستين ملك الزنج راهمزمز وغلب أساتكين على الري وأخرج عنها عاملها فطلقت. ثم مضى إلى قزوین وبها أخوه كيغلغ فصالحه ملكها. وفيها ولي علي بن الليث على الشرطة ببغداد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وعلى أصفهان أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وعلى الحرمين وطريق مكة محمد بن أبي الساج، وولي الموفق على الجزيرة أحمد بن موسى بن بغا فولى من قبله على ديار ربيعة موسى بن أتامش، فغضب لذلك إسحاق بن كنداجق وفارق عسكر موسى، وسار إلى بلد وأوقع بالأكراد اليعقوبية، ثم لقي ابن مساور الخارجي فقاتله وسار إلى الموصل، وطلب من أهلها المال، وخرج على بن داود لقاتله مع إسحاق بن أيوب وحمدان بن حمدون، وكانت بينهم حروب آخرها المعتمد وعقد لإسحاق بن كنداجق على الموصل، وقد مر ذلك من قبل.

وفيها قتل أهل حمص عاملها عيسى الكرخي. وفيها كانت بين لؤلؤ غلام ابن طولون وبين موسى بن أتامش وقعة برأس عين، وأسره لؤلؤ وبعث به إلى الرقة، ثم لقيه أحمد بن موسى فاقتلوا، وغلب أحمد أولاً ثم كر لؤلؤ فغلبهم وانتهوا إلى قرقيسيا. ثم ساروا إلى بغداد وسامرا. وفيها أوقع أحمد بن عبد العزيز ببيكنم فانهزم ولحق ببغداد وأوقع الخجستاني بالحسن بن زيد بجرجان فلاحق بآمد، وملك الخجستاني جرجان وأقطعه من طبرستان واستخلف على سارية الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الله العتيقي بن حسين الأصغر بن زيد العابدين، فلما انهزم الحسن بن زيد أظهر الحسن بن محمد أنه قتل، ودعا نفسه وحاربه الحسن بن

استبد نصر بن أحمد بن سامان بسمرقند وما وراء النهر، وولى أخاه إسماعيل بخارى وفيها ولي المعتمد على الموصل الخضر بن أحمد بن عمر بن الخطاب.

وفيها رجع الحسين بن زيد إلى طبرستان وأخرج منها أصحاب الصفار، وأحرق سالوس لمالأة أهلها الصفار وأقطع ضياعهم للديلم، وفيها نادى المعتمد في حاج خراسان والري وطبرستان وجرجان بالنكير على ما فعله الصفار في خراسان وابن طاهر، وإنه لم يكن عن أمره ولا ولأه. وفيها قتل مساور الشاري يحيى بن جعفر من ولاية خراسان، فسار مسرور البلخي في طلبه والموفق من ورائه.

وفي سنة اثنتين وستين كانت الحرب بين الموفق والصفار، واستولى الزنج على البطيحة ودميسان وولى على الأهواز كما ذكرناه، وبعث مسرور البلخي أحمد بن ليتونة لحربهم كما مر. وفيها ثار أحمد بن عبد الله الخجستاني في خراسان بدعوة بني طاهر، وغلب عليها الصفار إلى أن قتل كما مر ذكره. وفيها وقعت مغاضبة بين الموفق وابن طولون فبعث إليه الموفق موسى بن بغا فأقام بالرقعة حولاً، وعجز عن السير لقلّة الأموال فرجع إلى العراق. وفيها انصرف عامل الموصل وهو القطان صاحب مفلح فقتله الأعراب بالبرية.

وفي سنة ثلاث وستين استولى الصفار على الأهواز، ومات مساور الشاري وهو قاصد لقاء العساكر السلطانية بالبورغخ. فولى الخوارج مكانه هارون بن عبد الله البلخي، فاستولى على الموصل. وفيها ظفر أصحاب الصفار بآين واصل. وفيها هزم ابن أوس من طريق خراسان وعاد إلى الموصل. وفيها ظفر أصحاب الصفار بآين واصل وأسروه، ومات عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد فاستوزر مكانه الحسن بن غلغل، وكان موسى بن بغا غائباً في غزو العرب، فلما قدم خافه الحسين وتغيّب، فاستوزر مكانه سليمان بن وهب وفيها غلب أخو شركب الحمالي على نيسابور وأخرج عنها الحسين بن طاهر إلى مرو وبها خوارزم شاه يدعو لأخيه محمد.

وفيها ملك الزنج مدينة واسط وقاتله دونها محمد بن المولد فهزمه ودخلها واستباحها. وفيها قبض المعتمد على وزيره سليمان بن وهب وولى مكانه الحسن بن غلغل، وجاء الموفق مع عبد الله بن سليمان شقيقاً فلم يشفعه، فتحول إلى الجانب الغربي مغاضباً واختلفت الرسل بينه وبين المعتمد، وكان مع الموفق مسرور كيغلغ وأحمد بن موسى بن بغا. ثم أطلق سليمان ودعا إلى الجوسق وهرب محمد بن صالح بن شيرزاده والقواد الذين كانوا بامراما مع

زيد فظفر به وقتله.

دمشق. وفيها كانت وقعة بين العلويين والجعفرين بالحجاز، فقتل ثمانية من الجعفرين وخلصوا عامل المدينة من أيديهم. وفيها عقد هارون بن الموفق لأبي الساج على الأنبار والرحبة وطريق القرات، وولى محمد بن أحمد على الكوفة وسوادها ودافعه عنها محمد بن الهيثم فهزمه محمد ودخلها. وفيها مات عيسى بن الشيخ عامل الشيباني عامل أرمينية وديار بكر. وفيها عظمت الفتنة بين الموفق وابن طولون، فحمل المعتمد على لعنه وعزله، وولى إسحاق بن كنداجق على أعماله إلى أفريقية، وعلى شرطة الخاصة. وقطع ابن طولون الخطبة للموفق واسمه من الطراز وفيها ملك ابن طولون الرحبة بعد مقاتلة أهلها، وهرب أحمد بن مالك بن طوق إلى الشام، ثم سار إلى ابن الشماخ بقرقيسيا.

وفي سنة سبعين كان مقتل صاحب الزنج وانقراض دعوته، و وفاة الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان، وقيام أخيه محمد بأمره، و وفاة أحمد بن طولون صاحب مصر وولاية ابنه خمارويه ومسير إسحاق بن كنداجق باين دعامس عامل الرقة والثغور العواصم لابن طولون.

وفي سنة إحدى وسبعين ثار بالمدينة محمد وعلي ابنا الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم وقتلا جماعة من أهلها، ونهب أموال الناس، ومنعا الجمعة بمسجد رسول الله ﷺ شهراً. وفيها عزل المعتمد عمرو بن الليث من خراسان فقاتله أحمد بن عبد الله بن أبي دلف بأصبهان وهزمه. وفيها استعاد خمارويه الشام من يد أبي العباس بن الموفق، وفر إلى طرسوس كما تقدم. وفيها عقد المعتمد لأحمد بن محمد الطائي على المدينة وطريق مكة، وكان يوسف بن أبي الساج والي مكة. وجاء بدر غلام الطائي أميراً على الحاج فحاربه يوسف على باب المسجد الحرام وأمره، فسار الجند والحاج يوسف وأطلقوا بدرأ من يده وحملوا يوسف أسيراً إلى بغداد.

وفي منتصف سنة اثنتين وسبعين غلب أتكوتكين على الري من يد محمد بن زيد العلوي. سار هو من قزوین في أربعة آلاف، ومحمد بن زيد من طبرستان في الديلم، وأهل خراسان، فانهزموا وقتل منهم ستة آلاف. وفيها ثار أهل طرسوس بأبي العباس بن الموفق وأخرجوه إلى بغداد وولوا عليهم بازيار. وفيها توفي سليمان بن وهب في حبس الموفق. وفيها دخل حمدان بن حمدون وهارون مدينة الموصل. وفيها قدم صاعد بن مخلد الوزير من فارس، وقد كان بعثه الموفق إليها لحرب فرجع إلى واسط وركب القواد لاستقباله فترجلوا إليه وقبلوا يده، ولم يكلمهم. ثم قبض الموفق على جميع أصحابه وأهله ونهب منازلهم، وكتب إلى بغداد بقبض

وفيها ملك الخجستاني نيسابور من يد عامل ابن عمرو بن الليث، وفيها في صفر زحف الموفق لقتال صاحب الزنج، فلم يزل يحاصره حتى اقتحم عليه مدينته وقتله منتصف سنة سبعين. وفيها كانت الحرب بالمدينة بين بني حسن وبني جعفر. وفي سنة سبع وستين كانت الفتنة بالموصل بين الخوارج. وفيها حبس السلطان محمد بن عبد الله بن طاهر وجماعة من بيته، اتهمه عمرو بن الليث بمالأة الخجستاني والحسين بن طاهر أخيه، فكتب إلى المعتمد وحسه. وفيها كانت بين كيغليغ التركي وأحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وانهزم أحمد وملك كيغليغ همدان، فزحف إليه أحمد بن عبد العزيز فهزمه، وملك همدان. وسار كيغليغ إلى الصحيرة.

وفيها أزال الخجستاني ذكر محمد بن طاهر من المنابر ودعا لنفسه بعد المعتمد، وضرب السكة باسمه وجاء يريد العراق فالتقى إلى الري. ثم رجع وفيها أوقع أصحاب أبي الساج بالهيثم العجلي صاحب الكوفة، وغنموا عسكره. وفيها أوقع أبو العباس بن الموفق بالأعراب الذين كانوا يجلبون الميرة بالزنج من بني تميم وغيرهم.

وفي سنة ثمان وستين كان مقتل الخجستاني..... وأصحابه بعده على رافع بن هرثمة من قواد بني طاهر وملك بلاد خراسان وخوارزم، وفيها انتقض محمد بن الليث بفارس على أخيه عمرو، فسار إليه وهزمه واستباح عسكره، وملك أصطخور وشيراز وظفر به، فحبسه كما مر. وفيها كانت وقعة بين أتكوتكين بن أساتكين وبين أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فهزمه أتكوتكين وغلبه على قم. وفيها بعث عمرو بن الليث عسكراً إلى محمد بن عبد الله الكردي. وفيها انتقض لؤلؤ على مولا أحمد بن طولون، وسار إلى الموفق وقاتل معه الزنج. وفيها سار المعتمد إلى ابن طولون بمصر مغاضباً لأخيه الموفق، وكتب الموفق إلى إسحاق بن كنداجق بالموصل برده، فسار معه إلى آخر عمله، ثم قبض على القواد الذين معه وردّه إلى سامرا. وفيها وثب العامة ببغداد بأمرهم الخلنجي وكان كاتب عبيد الله بن طاهر، وقتل غلام له امرأة بسهم فلم يعدهم عليه، فوثبوا به وقتلوا من أصحابه ونهبوا منزله وخرج هارباً فركب محمد بن عبد الله واسترد من العامة ما نهبوه.

وفيها وثب بطرسوس خلق من أصحاب ابن طولون وعامله على الثغور الشامية، فاستنقذه أهل طرسوس من يده، وزحف إليهم ابن طولون فامتنعوا عليه، ورجع إلى حمص، ثم إلى

ابنه أبي عيسى وصالح وأخيه عبدون واستكتب مكانه أبا الصقر إسماعيل بن بلبل، واقتصر به على الكتابة.

وفيها جاء بنو شيبان إلى الموصل فقاتلوا في نواحيها وأجمع هارون الشاري وأصحابه على قصدهم، وكتب إلى أحمد بن حمدون التغلبي فجاءه وساورا إلى الموصل وعبروا الجانب الشرقي من دجلة، ثم ساورا إلى نهر الحاذر فلما تراءى الجمعان انهزم هارون وأصحابه ونجلى سوى عنها.

وفي سنة ثلاث وسبعين وقعت الفتنة بين ابن كنداجق وبين ابن أبي الساج وسار ابن أبي الساج إلى ابن طولون واستولى على الجزيرة الموصل، وخطب له فيها. وقتل الشراة كما ذكرنا. وفيها قبض الموفق على لؤلؤ غلام ابن طولون وصادته على أربعمائة ألف دينار وبقي في إديبار إلى أن عاد إلى مصر أيام هارون بن خمارويه.

وفي سنة أربع وسبعين سار الموفق إلى فارس فاستولى عليها من يد عمرو بن الليث ورجع عمرو إلى كرمان وسجستان. وعاد الموفق إلى بغداد. وفي سنة خمس وسبعين نقض ابن أبي الساج طاعة خمارويه وقتله خمارويه فهزمه، وملك الشام من يده وسار إلى الموصل، وخمارويه في اتباعه إلى بغداد. ولحق ابن أبي الساج بالحدثة فأقام بها إلى أن رجع خمارويه. وكان إسحاق بن كنداجق قد جاء إلى خمارويه فبعث معه جيشاً وقواداً في طلب ابن أبي الساج. واشتغل بعمل السفن للعبور إليه فصار ابن أبي الساج عنها إلى الموصل، واتبه ابن كنداج وسار إلى الرقة فاتبعه ابن أبي الساج، وكتب إلى الموفق يستأذنه في اتباعه إلى الشام. وجاء ابن كنداج بالعساكر من عند خمارويه وأقام على حدود الشام ثم هزم ابن أبي الساج فصار إلى الموفق وملك ابن كنداج ديار ربيعة وديار مصر، وقد تقدم ذكر ذلك.

وفيها خرج أحمد بن محمد الطائي من الكوفة لحرب فارس العبدى كان يخيف السابلة فهزمه العبدى، وكان الطائي على الكوفة وسوادها وطريق خراسان وسامرا وشرطة بغداد، وخراج بادرباد قطربل، وفيها قبض الموفق على ابنه أبي العباس وجبسه. وفيها ملك رافع بن هرثة جرجان من يد محمد بن زيد وحاصره في استراباذ نحواً من ستين، ثم فارقه الجيش لحربه فصار عن سارية وعن طبرستان سنة سبع وسبعين. وأستامن رستم بن قارن إلى رافع وقدم عليه علي بن الليث من حبس أخيه بكرمان هو وابنه العدل والليث. وبعث رافع على سالوس محمد بن هارون وجاء إليه علي بن كاني مستأمناً فحصرهما محمد بن زيد، وسار إليه رافع ففر إلى أرض الديلم ورافق في اتباعه إلى حدود قزوین

فسار فيها وأحرقها وعاد إلى الري.

وفي سنة ست وسبعين رضي المعتمد عن عمرو بن الليث وولاه وكتب اسمه على الأعلام، وولى على الشرطة ببغداد من قبله عبيد الله بن عبد الله بن طاهر. ثم انتقض فأزيل. وفيها كان مسير الموفق إلى الجبل لأنكوتكين ومحاربة أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وقد تقدم ذلك. وفيها ولى الموفق ابن أبي الساج على أذربيجان فصار إليها ودافعه عبد الله بن حسن الهمداني صاحب مراغة فهزمه ابن أبي الساج، واستقر في عمله. وفيها زحف هارون الشاري من الحديثة إلى الموصل يريد حربها، ثم صانعه أهل الموصل ورحل عنهم. وفي سنة سبع وسبعين دعا مازيار بطرسوس لخمارويه بن أحمد بن طولون، وكان أنفذ إليه ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحاً كثيراً. وبعث إليه بعد الدعاء بخمسين ألف دينار.

وفي سنة ثمان وسبعين كانت وفاة الموفق وبيعة المعتضد بالعهد كما مر. وفيها كان ابتداء أمر القرامطة وقد تقدم. وفي سنة تسع وسبعين خلق جعفر بن المعتمد وقدم عليه المعتضد وكانت الحرب بين الخوارج وأهل الموصل، وبين بني شيبان وعلى بني شيبان هارون بن سيما من قبل محمد بن إسحاق بن كنداج، ولأه عليها فطرده أهلها، فزحف إليهم مع بني شيبان ودافع عن أهل الموصل هارون الشاري وحمدان بن حمدون فهزمهم بنو شيبان، وخاف أهل الموصل من ابن سيما وبعثوا إلى بغداد يطلبون والياً، فولى المعتمد عليهم محمد بن يحيى المجروح الموكل بحفظ الطريق، وكان ينزل الحديثة فأقام بها أياماً ثم استبدل منه بعلي بن داود الكردي.

وفاة المعتمد وبيعة المعتضد

توفي المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل لعشر بقين من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين لثلاث وعشرين سنة من ولايته، ودفن بسمار، وهو أول من انتقل إلى بغداد وكان في خلافته مغلباً عاجزاً وكان أخوه الموفق مستبداً عليه، ولم يكن له معه حكم في شيء. ولما مات الموفق سنة ثمان وسبعين كما قدمناه أقام مكانه ابنه أبا العباس أحمد المعتضد وحجر المعتمد كما كان أبوه يحجره، وولاه عهده كما كان أبوه. ثم قدمه في العهد على ابنه جعفر، ثم هلك فبايع الناس للمعتضد بالخلافة صبيحة موته، فولى غلامه بدرأ الشرطة وعبيد الله بن سليمان بن وهب الوزارة، ومحمد بن الشاري بن مالك الحرس. ووفد عليه لأول خلافته

هارون ماله ولحق محمد بآمد، فحاربه صاحبها أحمد بن عيسى بن الشيخ فظفر به ويعثه إلى المعتضد فسلخه حياً.

إيقاع المعتضد ببني شيبان واستيلاؤه على

ماردين

وفي سنة ثمانين سار المعتضد إلى بني شيبان بأرض الجزيرة ففروا أمامه، وأثار على طوائف من العرب عند السند فاستباحهم، وسار إلى الموصل، فجاءه بنو شيبان وأعطوه رهنهم على الطاعة، فغلبهم وعاد إلى بغداد. وبعث إلى أحمد بن عيسى بن الشيخ في أموال ابن كنداج التي أخذها بأحمد، فبعث بها وبهبل أياماً كثيرة معها. ثم بلغه أن أحمد بن حمدون عمالي هارون الشاري، ودخل في دعوته، فسار المعتضد إليه سنة إحدى وثمانين واجتمع الأعراب من بني تغلب وغيرهم للقاءه، وقتل منهم وغرق في الزاب كثيراً، وسار إلى الموصل. ثم بلغه أن أحمد هرب عن ماردین وخلف بها ابنه، فسار المعتضد إليه ونازله وقاتله يوماً، ثم صعد من الغد إلى باب القلعة، وصاح بابن حمدان واستفتح الباب ففتح له دحشاً وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها، وبعث في طلب حمدان وأخذ أمواله.

الولاية على الجبل وأصبهان

عقد المعتضد سنة إحدى وثمانين لابنه علي وهو المكتفي على الري وقزوین وزنجان وأبهر وقم وهمدان والدينور فاستأمن إليه عامل الري لرافع بن الليث، وهو الحسن بن علي كوره فأمنه وبعث به إلى أبيه.

عود حمدان إلى الطاعة

وفي سنة اثنين وثمانين سار المعتضد إلى الموصل واستقدم إسحاق بن أيوب وحمدان بن حمدون، فبادر إسحاق بقلعه وأودع حرمه وأمواله، فبعث إليه المعتضد العساكر مع وصيف ونصر القسوري، فمروا ببزيل الزعفران من أرض الموصل وبه الحسن بن علي كوره، ومعه الحسين بن حمدان. فاستأمن الحسين وبعثوا به إلى المعتضد فأمر بهدم القلعة. وسار وصيف في اتباع حمدان، فواقعه وهزمه وعبر إلى الجانب الغربي من دجلة وسار في ديار ربيعة، وعبرت إليه العساكر وحبسوه فأخذوا ماله، وهرب وضاعت عليه الأرض فقصد خيمة إسحاق بن أيوب في عسكر المعتضد مستجيراً

رسول عمرو بن الليث بالهدايا وسأل ولاية خراسان فعقد له عليها، وبعث إليه بالخلع واللواء، ولأول خلافته مات نصر بن أحمد الساماني ملك ما وراء النهر، وقام مكانه أخوه إسماعيل.

مقتل رافع بن الليث

كان رافع بن الليث قد وضع يده على قرى السلطان بالري، وكتب إليه المعتضد برفع يده عنها، فكتب إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف بإخراجه عن الري فقاتله وأخرجه، وسار إلى جرجان ودخل نيسابور سنة ثلاث وثمانين، فوقعت بينه وبين عمرو حرب وانتهز رافع إلى أسورد وخلص عمرو وابني أخيه من حبسه، وهما العدل والليث ابنا علي بن الليث، وقد تقدم خبرهما. ثم سار رافع إلى هراة ورصده عمرو بسرخص فشر به ورجع إلى نيسابور في مسالك صعبة، وطرق ضيقة، واتبعه عمرو فحاصره في نيسابور. ثم تلاقيا وهرب عن رافع بعض قواده إلى عمرو فانهزم رافع، وبعث أخاه محمد بن هرثمة إلى محمد بن زيد يستمده كما شرط له فلم يفعل. وافترق عن رافع أصحابه وغلماؤه، وفارقه محمد بن هارون إلى أحمد بن إسماعيل في بخارى، ولحق رافع بخوارزم في فل من العسكر ومعه بقية أمواله وآلته، ومر في طريقه بأبي سعيد الدرعاني ببلد.... فاستغفله وغدر به وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث بنيسابور وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين.

خبر الخوارج بالموصل

قد تقدم لنا أن خوارج الموصل من الشراة استقدر عليهم بعد مساور هارون الشاري وذكرنا شيئاً من أخبارهم. ثم خرج عليه سنة ثمانين محمد بن عبادة ويعرف بأبي جوزة من بني زهير من البقعاء، وكان فقيراً ومعاشه ومعاش بنيه في التقاط الكمأة وغيرها وأمثال ذلك، وكان يتدين ويظهر الزهد، ثم جمع الجموع وحكم واستجمع إليه الأعراب من تلك النواحي، وقبض الزكوات والأعشار من تلك الأعمال، وبنى عند سنجار حصناً ووضع فيه أمتعته وماعونه، وأنزل به ابنه أبا هلال في مائة وخمسين، فجمع هارون الشاري أصحابه وبدأ بمحاصر الحصن فأحاط به ومحمد بن عبادة في داخله. وجدّ في حصاره حتى أشرف على فتحه وقيد أبا هلال ابنه ونقرأ معه وبعث بنو تغلب وهم مع هارون إلى من كان بالحصن من بني زهير فأمّنوهم، وملك هارون الحصن. ثم ساروا إلى محمد فلقبهم وهزمهم أولاً ثم كروا عليه مستميتين فهزموه، وقتلوا من أصحابه ألفاً وأربعمائة، وقسم

ولينك وأخوك عاص فامضيا إلى أمير المؤمنين المعتضد وولى عيسى النوشري على أصبهان من قبل عمر وهرب بكر إلى الأهواز.

وسار عبيد الله بن سليمان الوزير إلى علي بن المعتضد بالري، ولما بلغ الخبر إلى المعتضد بعث وصيفاً موسكين إلى بكر بن عبد العزيز بالأهواز فلحقه مجدود فارس، فمضى بكر إلى أصبهان ليلاً ورجع وصيف إلى بغداد، وكتب المعتضد إلى بدر مولاة بطلب بكر بن عبد العزيز وحربه، فأمر بذلك عيسى النوشري فقام به ولقي بكراً بنواحي أصبهان فهزمه بكر، ثم عاد النوشري لقتاله سنة أربع وثمانين فهزمه بنواحي أصبهان واستباح عسكره.

ولجا بكر إلى محمد بن زيد العلوي بطبرستان وهلك بها سنة خمس وثمانين، وكان عمر لما مات أبوه قبض على أخيه الحارث ويكنى أبا ليلى، وحسبه في قلعة رد، وוכל به شفيعاً الخادم. فلما جاء المعتضد واستأمن من عمر وهرب بكر وبقيت القلعة بيد شفيع بأموالها، رغب إليه الحارث في إطلاقه فلم يفعل، وكان شفيع يسامره كل ليلة وينصرف فحادثه ليلة وناداهم وقام شفيع لبعض حاجته فجعل الحارث في فراشه تمثالاً وغطاه وقال لجاريته: قولي لشفيع إذا عاد هو نائم. ومضى فاخفى في الدار وفك القيد عن رجله بمجد أدخل إليه ويرد به مسماره. ولما أخبر شفيع بنومه مضى إلى مرقده وقصده أبو ليلى على فراشه فقتله، وأمر أهل الدار واجتمع عليه الناس فاستحلفهم ووعدهم، وجمع الأكراد وغيرهم وخرج من القلعة ناقضاً للطاعة. فسار إلى عيسى النوشري وحاربه فأصاب أبا ليلى منهم فمات، وحمل رأسه إلى أصبهان ثم إلى بغداد.

خبر ابن الشيخ بآمد

وفي سنة خمس وثمانين توفي أحمد بن عيسى بن الشيخ وقام بأمره في آمد وأعمالها ابنه محمد فسار المعتضد إليه في العساكر ومعه ابنه أبو محمد علي المكتفي، ومر بالموصل وحاصر المعتضد إلى ربيع الآخر من سنة ست وثمانين ونصب عليها المجانيق حتى استأمن لنفسه ولأهل آمد، وخرج إلى المعتضد فخلع عليه وهدم سورها ثم بلغه أنه يروم الهرب فقبض عليه وعلى أهله.

خبر ابن أبي الساج

قد تقدم لنا ولاية محمد بن أبي الساج على أذربيجان ومداينة الحسين إياه عن مراغة، ثم فتحها واستيلاؤه على أعمال

به فأحضره عند المعتضد فوكل به وجسه.

هزيمة هارون الشاري ومهلكه

كان المعتضد قد ترك بالموصل نصر القسروي لإعادته العمال على الجباية. وخرج بعض العمال لذلك فأغارت عليهم طائفة من أصحاب هارون الشاري وقتل بعضهم، فكثر عيث الخوارج. وكتب نصر القسروي إلى هارون يهدده. فأجابه وأساء في الرد وعرض بذكر الخليفة فبعث نصر بالكتاب إلى المعتضد فأمره بالجد في طلب هارون، وكان على الموصل يكتم طائشمر من مواليهم فقبض عليه وقبده، وولى على الموصل الحسن كوره، وأمر ولاية الأعمال بطاعته، فجمعهم وعسكر بالموصل، وخندق على عسكره إلى أن أوقع بالناس غلاتهم. ثم سار إلى الخوارج وعبر الزاب إليهم فقاتلهم قتالاً شديداً فهزمهم وقتل منهم وافترقوا، وسار الكثير منهم إلى أذربيجان ودخل هارون البرية واستأمن وجوه أصحابه إلى المعتضد فأمهم.

ثم سار المعتضد سنة ثلاث وثمانين في طلب هارون فأنهى إلى تكريت، وبعث الحسين بن حمدون في عسكر نحو من ثلاثمائة فارس، واشترط إن جاء به إطلاق ابنه حمدان وسار معه وصيف وانتهى إلى بعض غياض دجلة فأرصد بها وصيفاً وقال: لا تفارقوها حتى تروني. ومضى في طلبه فواقعه وهزمه، وقتل من أصحابه. وأقام وصيف ثلاثة أيام فأبطأ عليه الأمر فسار في اتباع ابن حمدان، وجاء هارون منهزماً إلى تلك المخاضة فعبر، وابن حمدان في أثره إلى حي من أحياء العرب قد اجتاز بهم هارون، فدخلوا ابن حمدان عليه فلحقه وأسرته وجاء به إلى المعتضد. فرجع المعتضد آخر ربيع الأول وخلع على الحسين وأخوته وطوقه، وأدخل هارون على الفيل وهو ينادي: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون، وكان صغدياً.

ثم أمر المعتضد بحمل القبود عن حمدان بن حمدون والإحسان إليه وبإطلاقه. وفي سنة اثنتين وثمانين سار المعتضد من الموصل إلى الجبل فبلغ الكرخ فهرب عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف بين يديه فأخذ أمواله وبعث إليه في طلب جد كان عنده فوجهه إليه. ثم بعث المعتضد وزيره عبيد الله بن سليمان إلى ابنه بالري ليسير من هنالك إلى عمر بن عبد العزيز بالأمان، فسار وأمنه ورجع إلى الطاعة فخلع عليه وعلى أهل بيته، وكان أخوه بكر بن عبد العزيز قد استأمن قبل ذلك إلى عبيد الله بن سليمان وبدر فولاه عمله، على أن يسير إلى حربه. فلما وصل عمر في الأمان قال لبكر: إنما

ويكنى بأبي القاسم، ولقبوه الشيخ، وأنه من ولد إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق. وأنه يحيى بن عبد الله بن يحيى بن إسماعيل، وزعم أن له مائة ألف تابع، وأن ناقه التي يركبها مأمورة فمن تبعها كان منصوراً. فقصدهم شبيل مولى المعتضد في العساكر من ناحية الرصافة فقتلوه. فسار إليهم شبيل مولى أحمد بن محمد الطائي فأوقع بهم.

وجاء ببعض رؤسائهم أسيراً فأحضره المعتضد وقال له: هل تزعمون أن روح الله وأنبيائه تحمل في أجسادكم فتعصمكم من الزلزل، وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له: يا هذا أرايت إن حلت روح إليس فما ينعك؟ فأتك مالا يعينك إلى ما يعينك. قال له: قتل فيما يعينني؟ فقال له: قبض رسول الله ﷺ وأبوكم العباس حي فلم يطلب الأمر ولا بايعه. ثم مات أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى العباس ولم يعهد إليه عمر ولا جعله من أهل الشورى، وكانوا ستة وفيهم الأقرب والأبعد، وهذا إجماع منهم على دفع جذك عنها. فيماذا تستحقون أتم الخلافة؟ فأمر به المعتضد فعذب وخلعت عظامه، ثم قطع مرتين ثم قتل. ولما أوقع شبيل بالقرامطة بسواد الكوفة ساروا إلى الشام فأتوها إلى دمشق وعليها طغج بن جف مولى أحمد بن طولون من قبل ابنه هارون، فخرج إليهم فقاتلهم مراراً، هزمه في كلها. هذه أخبار بدايتهم ونقبض العنان عنها إلى أن نذكر سياقتها عندما نعد أخبارهم على شريطتنا في هذا الكتاب كما تقدم.

استيلاء ابن سامان على خراسان من يد عمرو بن الليث وأسرهم ثم مقتله

لما تغلب عمرو بن الليث الصفار على خراسان من يد رافع بن الليث، وقتله وبعث برأسه إلى المعتضد، وطلب منه أن يولييه ما وراء النهر مضافاً إلى ولاية خراسان، كتب له بذلك فجهز الجيوش لمحاربة إسماعيل بن أحمد صاحب ما وراء النهر، وجعل عليهم محمد بن بشير من أخص أصحابه. وبعث معه القواد فأتوها إلى آمد من شط جيحون، وعبر إليهم إسماعيل فهزمهم وقتل محمد بن بشير في ستة آلاف، ولحق الفل بعمره في نيسابور، فتجهز وسار إلى بلخ، وكتب إليه إسماعيل يستعطفه ويقول: أنا في نغر وأنت في دنيا عريضة فاتركني واستند ألفي فأبى.

وصعب على أصحابه عبور النهر لشدة غبر إسماعيل وأخذ الطرق على بلخ وصار عمرو محصوراً. ثم اقتتلوا وانهزم عمرو وتسرب من بعض المسالك عن أصحابه فوجد في أجمة

أذربيجان، وبعث المعتضد سنة اثنتين وثمانين أخاه يوسف بن أبي الساج إلى الصصرة مدداً لفتح القلاسي غلام الموفق، فخرج يوسف فيمن أطاعه فولاه المعتضد على أعماله، وبعث إليه بالخلع وأعطاه الرهن بما ضمن من الطاعة والمناصرة وبعث بالهدايا.

ابتداء أمر القرامطة بالبحرين والشام

كان في سنة إحدى وثمانين قد جاء إلى القطيف بالبحرين رجل تسمى يحيى بن المهدي وزعم أنه رسول من المهدي، وأنه قد قرب خروجه، وقصد من أهل القطيف علي بن المعلى بن حمدان الربادي، وكان متغالياً في التشيع، فجمع الشيعة وأقراهم كتاب المهدي ليشيع الخبر في سائر قرى البحرين، فأجابوا كلهم وفيهم أبو سعيد الجنابي وكان من عظمائهم. ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ورجع بكتاب المهدي يشكرهم على إجابتهم وأمرهم أن يدفعوا ليحيى ستة دنائير وثلاثين عن كل رجل منهم ففعلوا. ثم غاب وجاء بكتاب آخر بأن يدفعوا إليه خمس أموالهم فدفعوا، وأقام يتردد في قبائل قيس، ثم أظهر أبو سعيد الجنابي الدعوة بالبحرين سنة ست وثمانين واجتمع إليه القرامطة والأعراب، وقتل واستباح وسار إلى القطيف طالباً البصرة، وبلغت النفقة فيه أربعة عشر ألف دينار.

ثم قرب أبو سعيد من نواحي البصرة، وبعث المعتضد إليهم المدد مع عباس بن عمر الغنوي وعزله عن فارس وأقطعه اليمامة والبحرين، وضم إليه ألفين من المقاتلة، وسار إلى البصرة وأكثر من الحشد جنداً ومتطوعة. فسار ولقي أبا سعيد الجنابي، ورجع من كان معه من بني ضبة إلى البصرة. ثم كان اللقاء فهزمه الجنابي وأسره واحتوى على معسكره وحرق الأسرى بالنار وذلك في شعبان من هذه السنة. وسار إلى هجر فملكها وأمن أهلها ورجع إلى أهل البصرة، وبعثوا إليهم بالرواحل عليها الطعام والماء، فاعترضهم بنو أسد وأخذوا الرواحل وقتلوا الفل، واضطربت البصرة وتشرف أهلها إلى الانتقال فمنهم الواقفي. ثم أطلق الجنابي العباس الغنوي فركب إلى الأبله وسار منها إلى بغداد، فخلع عليه المعتضد.

وأما ظهورهم بالشام فإن داعيتهم ذكروية بن مهروية الذي جاء بكتاب المهدي إلى العراق لما رأى الجيوش متتابعة إلى القرامطة بالسواد، وأبادهم القتل، لحق بأعراب أسد وطيم، فلم يجبه فبعث أولاده في كلب بن وبرة فلم يجبه منهم إلا بنو القليظي بن مضمض بن عدي بن جناب، فبايعوا ذكروية ويسمى يحيى

ودعا ليدر مولى المعتضد. ولما جاء أحمد بن طبان للغز سنة ثلاث وثمانين تنازع معه راغب، فركب أحمد البحر في رجوعه ولم يعرج على طرسوس وترك بها دميانة غلام بازيار وأمه فقوي وأنكر على راغب أفعاله بمحمل دميانة إلى بغداد، واستبد راغب إلى استدعاء المعتضد ونكبه كما قلناه، وولى ابن الأخشاء علسي طرسوس فمات لسنة.

واستخلف أبا ثابت وخرج سنة سبع وثمانين غازياً فأسر وولى الناس عليهم مكانه علي بن الأعرابي، ولحق بملطية في هذه السنة وصيف مولى محمد بن أبي الساج صاحب بردعة، وكتب إلى المعتمد يسأله ولاية الثغور وقد وطأ صاحبه أن يسير إليه إذا وليها فيقصدان ابن طولون ويملكان مصر من يده، وظهر المعتضد على ذلك فسار لاعتراضه، وقدم العساكر بين يديه، فآخذه بعين زربة وجاؤوا به إلى المعتضد فحبسه، وأمن عسكره ورحل إلى قرب طرسوس، واستدعى رؤساءها وقبض عليهم بمكاتبتهم وصيفاً، وأمر بإحراق مراكب طرسوس بإشارة دميانة، واستعمل على أهل الثغور الحسن بن علي كوره وسار إلى أنطاكية وحلب ورجع منها إلى بغداد وقتل وصيفاً وصلبه. واستقدم المكتفي بعد وفاة المعتضد الحسن بن علي، وولى على الثغور مظفر بن حاج. ثم شكا أهل الثغر منه فعزله وولى أبا العشائر بن أحمد بن نصر سنة تسعين.

حرب الأعراب

وفي سنة ست وثمانين اعترضت طيسع ركب الحاج بالأجيعة، وقتلوه ونهبوا أموال التجار ما قيمته ألف ألف دينار، ثم اعترضوا الحاج كذلك سنة تسع وثمانين بالقرن فهزمهم الحاج وسلموا.

تغلب ابن الليث على فارس وإخراج بدر

إياه

وفي فاتح ثمان وثمانين جاء طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث في العساكر إلى بلاد فارس، وأخرج منها عامل المعتضد وهو عيسى النوشري كان على أصبهان فولاه المعتضد فارس، فسار إليها فجاءه طاهر وملكها. وكتب إليه إسماعيل صاحب ما وراء النهر بأن المعتضد ولاه سجستان لذلك، وعقد المعتضد ليدر مولاه على فارس، وهرب عمال طاهر عنها وملكها بدر وجبى خراجها. ثم مات المعتضد وسار مغرباً عن فارس فقتل بواسط وقاطع طاهر

وأخذ أسيراً، وبعث به إسماعيل إلى سمرقند ومن هناك إلى المعتضد سنة ثمان وثمانين، فحبسه إلى أن مات المعتضد سنة تسع بعدها فقتله ابنه المكتفي وعقد لإسماعيل على خراسان كما كانت لعمره، وكان عمرو عظيم السياسة، وكان يستكثر من الممالك ويجري عليهم الأرزاق ويفرقهم على قواد ليطالعه بأخبارهم. وكان شديد الهيبة، ولم يكن أحد يتجاسر أن يعاقب غلاماً ولا خادماً إلا أن يرفعه إلى حجابيه.

استيلاء ابن سامان على طبرستان من يد العلوي ومقتله

ولما بلغ محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان والدليم ما وقع بعمره بن الليث وأنه أسر طمع هو في خراسان ووطن أن ابن إسماعيل لا يتجاوز عمله، فسار إلى جرجان وبعث إليه إسماعيل بالكف فابى، فجهز لحربه محمد بن هارون، وكان من قواده رافع بن الليث. واستامن إلى عمرو ثم إلى إسماعيل فنظمه في قواده ونذبه الآن لحرب محمد بن زيد، فسار لذلك. ولقيه على باب خراسان، فاقتلوا قتالاً شديداً، وانهزم محمد بن هارون أولاً، وافترت عساكر محمد بن زيد على النهب ثم رجع هو وأصحابه، وانهزم محمد بن زيد وجرح جراحات فاحشة هلك منها أيام، وأسر ابنه زيد، وبعث به إسماعيل إلى بخارى واجترأ عليه وغنم ابن هارون معسكرهم، ثم سار إلى طبرستان فملكها وصار خراسان وطبرستان لبني سامان، واتصلت لهم دولة نذكر سياقة أخبارها عند أفراد دولتهم بالذكر كما شرطناه في تأليفنا.

ولاية علي بن المعتضد على الجزيرة والثغور

ولما ملك المعتضد آمد من يد ابن الشيخ كما قدمناه، سار إلى الرقة وتسلم قنسرين والعواصم من يد عمال هارون بن خارويه لأنه كان كتب إليه أن يقاطعه على الشام ومصر ويسلم إليه أعمال قنسرين، ويحمل إليه أربعمائة ألف دينار وخمسين ألفاً فأجابوه وسار من آمد إلى الرقة فأنزل ابنه علياً الذي لقبه بعد ذلك بالمكتفي وعقد له على الجزيرة وقنسرين والعواصم سنة ست وثمانين. واستكتب له الحسن بن عمر النصراني واستقدم وهو بالرقة راغباً مولى الموفق من طرسوس، فقدم عليه وحبه وحبس ملنون غلامه، واستصفى أموالهما، ومات راغب لأيام من حبسه وقد كان راغب استبد بطرسوس وترك الدعاة هارون بن خارويه،

بلاد فارس على مال يجمله، فقلده المكتفي ولايتها سنة تسعين.

الولايات في النواحي

كان أكثر النواحي في دولة المعتضد مغلباً عليها كخراسان وما وراء النهر لابن سامان، والبحرين للقرامطة ومصر لابن طولون وأفريقية لابن الأغلب، وقد ذكرنا من ولي الموصل. وفي سنة خمس وثمانين ولى المعتضد عليها وعلى الجزيرة والثغور الشامية.... مولاه، ثم ملك آمد من يد ابن الشيخ وجعلها لابنه علي المكتفي وأنزله الرقة كما ذكرناه وعقد له على الثغور. ثم عقد بعده للحسن بن علي كوره وولى على فارس بداراً مولاه. ومات إسحاق بن أيوب بن عمر بن الخطاب التغلبي العدوي أمير ديار ريعة، فولى المعتضد مكانه عبد الله بن الهيثم بن عبد الله بن المعمر.

وفي سنة ثمان وثمانين ظهر باليمن بعض العلويين وتغلب على صنعاء، فجمع له بنو يعفر وقاتلوه فهزموه وأسروا ابنه، وتجاوى نحو خمسين فارساً وملك بنو يعفر صنعاء وخطبوا فيها للمعتضد، وهلك ابن أبي الساج في هذه السنة، فولى أصحابه ابنه ديوداد. ونازعه جمه يوسف بن رافع بابن أخيه وهزمه ومضى إلى بغداد على طريق الموصل، واستقل يوسف بملك أذربيجان، وعرض على ابن أخيه المقام عنده فأبى، وقلد المعتضد لأول خلافته ديوان المشرق لمحمد بن داود بن الجراح، عوضاً عن أحمد بن محمد بن الفرات، وديوان المغرب علي بن عيسى بن داود بن الجراح، ومات وزيره عبيد الله بن سليمان بن وهب فولى ابنه أبا القاسم مكانه.

الصوائف

وفي سنة خمس وثمانين غزا راغب مولى الموفق من طرسوس في البحر، فغنم مراكب الروم، قتل فيها نحواً من ثلاثة آلاف وأحرقها. وخرج الروم سنة سبع وثمانين ونازلوا طرسوس فقاتلهم أميرها واتباعهم إلى نهر الزحال فأسروه. وفي سنة ثمان وثمانين بعث الحسن بن علي كوره صاحب الثغور بالصائفة، فغزا وفتح حصوناً كثيرة وعاد بالأسرى، فخرج الروم في أثره برأ ومجراً إلى كيسوم من نواحي حلب فأسروا نحواً من خمسة عشر ألفاً ورجعوا.

وفاة المعتضد وبيعة ابنه

كان بدر مولى المعتضد عظيم دولته، وكان القاسم بن عبيد الله الوزير يروم نقل الخلافة في غير بني المعتضد، وقاوض في ذلك بداراً أيام المعتضد فأبى، ولم يمكن القاسم مخالفته. فلما مات المعتضد كان بدر بفارس بعثه إليها المعتضد لما بلغه أن طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث غلب عليها فبعث بداراً مولاه. فلما مات عقد الوزير البيعة لابنه المكتفي وخشي من بدر فيما اطلع عليه منه، فأعمل الخيلة في أمره. وكان المكتفي أيضاً يحقد لبدر كثيراً من منازعة معه أيام أبيه، فدرس الوزير إلى القواد الذين مع بدر بمفارقتهم، ففارق العباس بن عمر الغنوي ومحمد بن إسحاق بن كنداج وخاقان العلجي وغيرهم، فأحسن الملتقى إليهم وسار بدر إلى واسط، فوكل المكتفي بداره وقبض على أصحابه وأمر بمحو اسمه من الفرائض والأعلام وبعث الحسن بن علي كوره في جيش إلى واسط، وعرض على بدر ما شاء من النواحي، فقال: لا بد لي أن أشافه مولاي بالقول فخوف الوزير المكتفي خائفته ومنعه من ذلك، وشعر أن بداراً بعث عن ابنه هلال فوكل به. ثم بعث الوزير عن القاضي أبي عمر المالكي وحمله الأمان إلى بدر فجاء بأمانه وبعث الوزير من اعتراضه بالطريق فقتله لست خلون من رمضان، وحمل أهله شلوه إلى مكة فدفن بها لوصيته بذلك. وحزن القاضي أبو عمر لإخفاق ذمته.

استيلاء محمد بن هارون على الري ثم أسره وقتله

قد تقدم لنا ذكر محمد بن هارون وأنه كان من قواد رافع بن هرثمة، ونظمه إسماعيل بن أحمد صاحب ما وراء النهر في قواده وبعثه لحرب محمد بن زيد فهزمه واستولى على طبرستان، وولاه إسماعيل عليها. ثم انتفض ودعا بدعوة العلوية وبيض وساعده ابن حسان الليلمي. وبعث إسماعيل العساكر لقتال ابن حسان فهزمه. وكان على الري من قبل المكتفي أرغتش التركي، فأساء السيرة فبعث أهل الري إلى محمد بن هارون أن يسير إليهم ويولوه، فسار وحارب أرغتش فهزمه وقتله، وقتل ابنه وأخاه كيبلغ من القواد واستولى على الري وبعث المكتفي مولاه خاقان الملقبي لولاية الري في جيش كثيف فلم يصلها. وبعث المكتفي إلى إسماعيل بولايته ومحاربة محمد بن هارون فسار إسماعيل إليه وهزمه، فخرج عن الري إلى قزوین وزنجان. ثم لحق بطبرستان

وجاعة من القواد، فلقبهم قرب العريش فهزمهم وقوي الأمر، وبلغ الخبر إلى المكتفي فعسكر ظاهر ببغداد، وانتهى مده إلى تكريت فلقبه كتاب فاتك في شعبان يذكر أنهم هزموا الخليجي بعد حروب متصلة، وغنموا عسكره. ثم هرب واختفى بفسطاط مصر وجاء من دل عليه فأمر المكتفي بحمله ومن معه إلى بغداد فبعثوا بهم وحبسوا.

ابتداء دولة بني حمدان

وفي سنة اثنتين وتسعين عقد المكتفي على الموصل وأعمالها لأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون العدوي التغلبي فقدمها أول الحرم وجاء الصريح من نينوى بأن الأكراد الهدبانية ومقدمهم محمد بن سلال قد أغاروا على البلاد وعاثوا، فخرج في العساكر وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي، ولقيهم على الحارذ فقاتلهم وقتل من قواد سليمان الحمداني ورجع عنهم، وبعث إلى الخليفة يستمده، فأبطأ عليه المدد إلى ربيع من سنة أربع، فلما جاءه المدد سار إلى الهدبانية وهم مجتمعون في خمسة آلاف بيت، فارتحلوا أمامه واعتصموا بجبل السلق المشرف على الزاب، فحاصروهم وعرفوا حقه فخذله أميرهم محمد بن سلال بالمراسلة في الطاعة والرهن، وحث أصحابه خلال ذلك المسير إلى أذربيجان، واتبعهم أبو الهيجاء فلحقهم صاعداً إلى جبل القنديل فسال منهم، وامتنعوا بذروته.

ورجع أبو الهيجاء عنهم فلحقوا بأذربيجان، ووفد أبو الهيجاء على المكتفي فأعجبه العسكر وعاد إلى الموصل. ثم سار إلى الأكراد بجبل السلق فدخله وحاصروهم بقتته، وطال حصارهم واشتد البرد وعمدت الأقوات، وطلب محمد بن سلال النجاة بأهله وولده، فنجوا واستولى ابن حمدان على أموالهم وأهليهم وأمنهم. ثم استأمن محمد بن سلال فأمنه وحضر عنده وأقام بالموصل وتتابع الأكراد الحميدية مستأمنين، واستقام أمر أبي الهيجاء بالموصل. ثم انتقض سنة إحدى وثلاثمائة فبعث إليه المقتدر مؤنساً الخادم فجاء بنفسه مستأناً ورجع به إلى بغداد، فقبله المقتدر وأكرمه. وبقي ببغداد إلى أن انتقض أخوه الحسين بديار ربيعة سنة ثلاث وثلاثمائة. وسارت العساكر فجاءوا به أسيراً. فحبس المقتدر عند ذلك أبا الهيجاء وأولاده، وجمع إخوته بداره ثم أطلقهم سنة خمس وثلاثمائة.

واستقر مع ابنه مستجيراً، ولما ملك إسماعيل الري ولي على جرجان مولاه نارس الكبير والزمه إحضار محمد بن هارون فكانته نارس وضمن له صلاح الحال، فقبل وانصرف عن الديلم إلى بخارى، فبعث إسماعيل من اعترضه وحمل إلى بخارى مقيداً فمات في الحبس بعد شهر وذلك في شعبان سنة تسعين.

استيلاء المكتفي على مصر وانقراض دولة

ابن طولون

كان محمد بن سليمان من قواد بني طولون وكاتب جيشهم واستوحش منهم، فلحق بالعتضد وصرفوه في الخدم، وكانت القرامطة عاثوا في بلاد الشام وحاصروا عامل بني طولون بدمشق وهو طنج بن جف، وقتلوا قواده. وسار المكتفي إليهم فنزل الرقة وبعث محمد بن سليمان لحربهم ومعه الحسن بن حمدان والعساكر وبنو شيان، فلقبهم قرب حماة فهزمهم واتبعهم إلى الكوفة، وقبض في طريقه على أميرهم صاحب الشامة فبعث به إلى المكتفي، فرجع إلى بغداد وخلف محمد بن سليمان في العساكر فقبضهم وأسر جماعة منهم. وبينما هو يروم العود إلى بغداد جاءه كتاب بدر الحمامي مولى هارون بن محارويه وعمد فائق صاحب دمشق يستقدمانه إلى البلاد لعجز هارون عنها. فأنهى ذلك محمد بن سليمان عند عوده إلى المكتفي فأعاده وأمه بالجنود والأموال. وبعث دميانة غلام بازيار في الأسطول ليدخل من فوهة النيل ويحاصر مصر، ولما وصل ودنا من مصر كاتب القواد، وخرج إليه رئيسهم بدر الحمامي وتتابع منهم جماعة، وبرز هارون لقتاله فحاربه أياماً.

ثم وقعت بعض الأيام في عسكره هيفة ركب لها ليسكنها فأصابته حربة مات منها، واجتمع أصحابه على عمه شيان وبذل الأموال فقاتلوا معه. ثم جاءهم كتاب محمد بن سليمان بالأمان فأجابوه، وخالف شيان إلى مصر فاستولى عليها واستأمن إليه شيان سراً فأمنه ولحق به. ثم قبض على بني طولون وحبسهم واستصفى أموالهم وذلك في صفر سنة اثنتين وتسعين، وأمره المكتفي بإزالة آل طولون وأشياهم من مصر والشام ففعل. وسار بهم إلى بغداد وولى المكتفي على مصر عيسى النوشري وخرج عليه إبراهيم الخليجي من قواد بني طولون يخلف عن محمد بن سليمان، فخلفه وكثر جمعه وسار النوشري إلى الإسكندرية عجزاً عن مدافعتة، واستولى الخليجي على مصر وبعث المكتفي بالجنود مع فاتك مولى العتضد وأحمد بن كيفلغ وبدر الحمامي من قواد بني طولون، فوصلوا سنة ثلاث وتسعين، وتقدم أحمد بن كيفلغ

أخبار ابن الليث بقارس

إليهم إسماعيل عسكرياً عظيماً من الجند والمتطوعة فكسبهم واستباحوهم. وفي سنة ثلاث وتسعين افتتح إسماعيل مدائن كثيرة من بلاد الترك والديلم.

الولايات بالنواحي

قد ذكرنا ولايات خاقان الفلحي على الري، ثم إسماعيل بن أحمد بن سامان بعده. وولاية عيسى النوشري على مصر بعد انتزاعها من بني طولون، وولاية أبي العشائر أحمد بن نصر على طرسوس وعزل مظفر بن حاج عنها سنة تسعين، ثم عزل أبي العشائر وولاية رستم بن برد، سنة اثنتين وتسعين. وانتزع الليث بن علي بن الليث بلاد فارس من يد طاهر بن محمد سنة ثلاث وتسعين بعد أن كان المكتفي عقد له عليها سنة تسعين، وولاية أبي الميجاء عبد الله بن حمدان على الموصل سنة ثلاث وتسعين. وفي هذه السنة ثار داعية القرامطة باليمن إلى صنعاء فملكها واستباحها وتغلب على كثير من مدن اليمن وبعث المكتفي المظفر بن الحاج في شوال من هذه السنة إلى عمله باليمن فأقام به. وفي سنة إحدى وتسعين توفي الوزير أبو القاسم بن عبيد الله واستوزر مكانه العباس بن الحسن.

وفاة المكتفي وبيعة المقتدر

ثم توفي المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد في شهر جمادى سنة خمس وتسعين لست سنين ونصف من ولايته، ودفن بدار محمد بن طاهر من بغداد بعد أن عهد بالأمر إلى أخيه جعفر. وكان الوزير العباس بن الحسن قد استشار أصحابه فيمن يولييه، فأشار محمد بن داود بن الجراح بعبد الله بن المعتز، ووصفه بالعقل والراي والأدب، وأشار أبو الحسين بن محمد بن الفرات بجعفر بن المعتضد بعد أن أطال في مفاوضته وقال له: اتق الله ولا تول إلا من خبرته ولا تول البخيل فيضيّق على الناس في الأرزاق، ولا الطماع فيشروا إلى أموال الناس، ولا المتهاون بالدين فلا يجتنب المأثم ولا يطلب الثواب. ولا تول من خبر الناس وعاملهم واطلع على أحوالهم، فيستكثر على الناس نعمهم، وأصلح الموجودين مع ذلك جعفر بن المعتضد. قال: ويحك وهو صبي؟ فقال: وما حاجتنا بمن لا يحتاج إلينا ويستبد علينا؟ ثم استشار علي بن عيسى فقال: اتق الله وانظر من يصلح. فمالت نفس الوزير إلى جعفر كما أشار ابن الفرات، وكما أوصى أخوه، فبعث صائفاً الخدمي فأتى به من داره بالجانب الغربي، ثم خشى عليه غائلة الوزير

قد تقدم لنا استقلال طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ببلاد فارس وأن المكتفي عقد له عليها سنة تسعين، ثم أنه تشاغل باللهو والصيد، وأعرض عن أمور ملكه. ومضى في بعض الأيام إلى سجستان فوثب على فارس الليث بن علي بن الليث، وسيكرى مولى عمرو بن الليث، فاستوحش منهما أحد قوادهما يعرف بأبي قابوس، وفارقهما إلى بغداد وأحسن المكتفي إليه. ثم كتب إليه طاهر في رد أبي قابوس إليه، ويحتسب له ما معه من أموال الجباية فأعرض الخليفة عن ذلك.

الصوائف

وفي سنة إحدى وتسعين خرج الروم إلى الثغور في مائة ألف، وقصد جماعة منهم الحدث. ثم غزا بالصائفة من طرسوس القائد المعروف غلام زرافة، ففتح مدينة أنطاكية وفتحها عنوة فقتل خمسة آلاف من مقاتلتهم وأسر مثلها. واستنقذ من أسرى المسلمين مثلها، وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق، فقسمها مع غنائم أنطاكية، فكان السهم ألف دينار. وفي سنة اثنتين وتسعين أغار الروم على مرعش ونواحيها، فخرج أهل المصيصة وأهل طرسوس فأصيب منهم جماعة، فعزل المكتفي أبا العشائر عن الثغور وولى رستم بن برد، فكان على يديه الفداء، وفودي ألف من المسلمين. ثم أغارت الروم سنة ثلاث وتسعين على موارس من أعمال حلب، وقتلهم أهلها فانهزموا وقتل منهم خلق، ودخلها الروم فأحرقوا جامعها وأخذوا من بقي فيها.

وفي سنة أربع وتسعين غزا ابن كيغلف من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف سبياً، واستأمن بطريق من الروم فأسلم. ثم عاود ابن كيغلف الغزو وبلغ سكند وافتتحها، وسار إلى الليس فبلغ خمسين ألف رأس. وقتل من الروم خلقاً ثم استأمن البطريق المتولي الثغور من جهة الروم إلى المكتفي، وخرج بمائتي أسير من المسلمين. وكان ملك الروم قد شعر بأمره وبعث من يقبض عليه، فقتل الأسرى المسلمون من جاء للقبض عليه وغنموا عسكريهم. واجتمع الروم على محاربة البطريق اندوقس وزحف المسلمون لخلاصه وخلّص من معه من الأسرى، فبلغوا قونية وخربوها وانصرف الروم، ومر المسلمون في طريقهم بمحصن اندوس فخرج معهم بأمله وسار إلى بغداد. وفي سنة إحدى وتسعين خرج الترك إلى ما وراء النهر في خلق لا يحصون، فبعث

اضطربوا وهربوا واتهموا الحسين بن حمدان أنه قد واطأ المقتدر عليهم، وركب ابن المعتز ووزيره محمد بن داود بن الجراح وخرجوا إلى الصحراء ظناً منهم أن الجند الذين بايعوهم يخرجون معهم، وأنهم يلحقون بسامرا فيمتنعون، فلما تفردوا بالصحراء رجعوا إلى البلد وتسربوا في الدور، واختفى ابن الجراح في داره، ودخل ابن المعتز ومولاه دار أبي عبد الله بن الجصاص مستجيراً به.

وثار العيارون والسُّفل يتهبون. وفشا القتل وركب ابن عمرويه صاحب الشرطة، وكان ممن بايع ابن المعتز، فنادى بشار المقتدر مغالطاً، فقاتله فهرب واستتر، وأمر المقتدر مؤنساً الخازن فزحف في العسكر وقبض على وصيف بن صوارتكين فقتله، وقبض على القاضي أبي عمر علي بن عيسى والقاضي محمد بن خلف، ثم أطلقهم وقبض على القاضي أبي المثنى أحمد بن يعقوب، قال له: بايع المقتدر! قال: هو صبي! فقتله وبعث المقتدر إلى أبي الحسن بن الفرات كان غثيفاً فاحضره واستوزره. وجاء سوسن خادم ابن الجصاص فأخبر صافياً الخرمي مولى المقتدر بمكانه عندهم، فكبست الدار وأخذ ابن المعتز وحبس إلى الليل، ثم خصيت خصيته فمات وسُلم إلى أهله وأخذ ابن الجصاص وصوره على مال كثير، وأخذ محمد بن داود وزير ابن المعتز وكان مستتراً فقتل.

ونفي علي بن عيسى بن علي إلى واسط، واستأذن من ابن الفرات في السير إلى مكة فصار إليها على طريق البصرة وأقام بها، وصوره القاضي أبو عمر على مائة ألف دينار، وسارت العساكر في طلب الحسين بن حمدان إلى الموصل فلم يظفروا به، وشفع الوزير ابن الفرات في ابن عمروية صاحب الشرطة وإبراهيم بن كيغلف وغيرهم. ووسط ابن الفرات الإحسان وأدر الأرزاق للعباسيين والطلبين وأرضى القواد بالأموال، ففرق معظم ما كان في بيت المال، وبعث المقتدر القاسم بن سيما وجماعة من القواد في طلب الحسين بن حمدان، فلبغوا قرقيسيا والرحبة ولم يظفروا به، وكتب المقتدر إلى أخيه أبي الهيجاء وهو عامل الموصل بطلبه، فصار مع القاسم بن سيما والقواد ولقوه عند تكريت فهزموه، وبعث مع أخيه إبراهيم يستأمن فأمثروا وجاءوا به إلى بغداد، فخلع عليه المقتدر وعقد له على قم وقاشان، وعزل عنها العباس بن عمر الغنوي فصار إليها الحسين، ووصل نارس مولى إسماعيل بن سامان فقلده المقتدر ديار ربيعة.

فتركه في الحراقة، وجاء إلى دار الخلافة فأخذ له البيعة على الحاشية. ثم جاء به من الحراقة وأقعد على الأريكة وجاء الوزير والقواد فيبايعوه، ولقب المقتدر بالله وأطلق يد الوزير في المال وكان خمسة عشر ألف ألف دينار فأخرج منه حق البيعة واستقام الأمر.

خلع المقتدر بابن المعتز وإعادته

ولما بويع المقتدر وكان عمره ثلاث عشرة سنة استصغره الناس وأجمع الوزير خلعه والبيعة لأبي عبد الله محمد بن المعتز وراسله في ذلك، فأجاب وانتظر قدوم نارس حاجب إسماعيل بن سامان، كان قد انتقض إلى مولاه وسار عنه، فاستأذن في القدوم إلى بغداد وأذن له. وقصد الاستمناة به على موالى المعتضد. وأبطأ نارس عليه، وهلك أبو عبد الله بن المقتدر خلال ذلك فصرف الوزير وجهه لأبي الحسين بن الموكل فمات، فآثر المقتدر، ثم بدا له وأجمع عزله، واجتمع لذلك مع القواد والقضاة والكتاب وراسلوا عبد الله بن المعتز فأجابهم على أن لا يكون قتال. فأخبروه باتفاقهم وأن لا منازع لهم. وكان المتولون لذلك الوزير العباس بن الحسين ومحمد بن داود بن الجراح وأبا المثنى أحمد بن يعقوب القاضي، ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين.

ثم رأى الوزير أمره صالحاً مع المقتدر فبدا له في ذلك فأجمع الآخرون أمرهم، واعترضه الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف في طريق لستانة فقتلوه لعشر بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين، وخلعوا المقتدر من الغد وبايعوا لابن المعتز، وكان المقتدر في الحلبة يلعب الأكرة، فلما بلغه قتل الوزير دخل الدار وأغلق الأبواب، وجاء الحسين بن حمدان إلى الحلبة ليفتك به فلم يجده، فقدم وأحضروا ابن المعتز فيبايعوه، وحضر الناس والقواد وأرباب الدواوين سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص المقتدر فلم يحضروا.

ولقب ابن المعتز المرتضي بالله، واستوزر محمد بن داود بن الجراح، وقلد علي بن موسى الدواوين، وبعث إلى المقتدر بالخروج من دار الخلافة فطلب الإمهال إلى الليل، وقال مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وعربت الحال وسائر الحاشية: لا بد أن يدي عذراً فيما أصابنا. وباكر الحسين بن حمدان من الغد دار الخلافة فقاتله الغلمان والخدم من وراء السور وانصرف. فلما جاء الليل سار الموصل بأهله، وأجمع رأى أصحاب المقتدر على قصد ابن المعتز في داره فقتلوه وركبوا في دجلة، فلما رآهم أصحاب ابن المعتز

ابتداء دولة العبيدين من الشيعة بأفريقية

نسبة هؤلاء العبيدين إلى أول خلفائهم، وهو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكرم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، ولا يلتفت لإنكار هذا النسب، فكتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار يغريهم بالقبض عليه لما سار إلى المغرب شاهد بصحة نسبهم وشعر الشريف الرضي في قوله:

لبس السدل في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاً ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد الناس جميعاً عمداً وعلي

وأما المحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر بالقدح في نسبهم، وشد فيه أعلام الأئمة مثل القدوري والصهيري وأبي العباس الأيوبردي وأبي حامد الأسفرائني وأبي الفضل النسوي وأبي جعفر النسفي. ومن العلوية المرتضى وابن البطخاوي، وابن الأزرق، وزعيم الشيعة أبو عبد الله بن النعمان، فهي شهادة على السماع. وكان ذلك متصلاً في دولة العباسية منذ مائتين من السنين فاشياً في أمصارهم وأعصارهم. والشهادة على السماع في مثله جائزة على أنها شهادة نفي. ولا تعارض ما ثبت في كتاب المعتضد مع أن طبيعة الوجود في الانقياد لهم، وظهور كلمتهم أدل شيء على صدق نسبهم.

وأما من جعل نسبهم في اليهودية أو النصرانية كيمون القداح وغيره فكفاه إنما تعرضه لذلك. وأما دعوتهم التي كانوا يدعون لها فقد تقدم ذكرها في مذاهب الشيعة من مقدمة الكتاب، وانقسمت مذاهب الشيعة مع اتفاقهم على تفضيل علي على جميع الصحابة إلى الزيدية القائلين بصحة إمامة الشيعين مع فضل علي، ويجوزون إمامة المفضول وهو مذهب زيد الشهيد وأتباعه، والرافضة ويدعون بالإمامية المتبرئين من الشيعين بإهمالهما وصية النبي ﷺ بخلافه علي. مع أن هذه الوصية لم تنقل من طريق صحيح قال بها أحد من السلف الذين يُقتدى بهم، وإنما هي من أوضاع الرافضة.

وانقسم الرافضة بعد ذلك إلى اثني عشرية نقلوا الخلافة من جعفر بعد الحسن والحسين وعلي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم وولده على سلسلة واحدة إلى تمام الاثني عشر، وهو محمد المهدي وزعموا أنه دخل سرداباً وهم في انتظاره إلى الآن. وإلى الإسماعيلية نقلوا الخلافة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم ساقوها في عقبه فمتهم من انتهى

بها إلى عبيد الله هذا المهدي، وهم العبيدون، ومنهم من ساقها إلى يحيى بن عبيد الله بن محمد المكرم. وهؤلاء طائفة من القرامطة وهي من كذباتهم، ولا يعرف محمد بن إسماعيل ولد اسمه عبيد الله. وكان شيعة هؤلاء العبيدين بالشرق واليمن وأفريقية. وسار بها إلى أفريقية رجلان يعرف أحدهما بالحلواني والآخر بالسفياني أنفذهما الشيعة إلى هناك وقالوا لهما: إن العرب أرض بور فاذها واحرثاها حتى يحيا صاحب البذر، وسارا لذلك ونزلا أرض كاتمة، أحدهما ببلد يسمى سوق حمار.

وقشت هذه الدعوة منهما في أهل تلك النواحي من البربر وخصوصاً في كاتمة، وكانوا يزعمون أن النبي ﷺ أوصى إلى علي بالخلافة بالنصوص الجلية وعدل عنها الصحابة إلى غيره فوجب البراءة عن عدل عنها. ثم أوصى علي إلى ابنه الحسن ثم الحسن إلى أخيه الحسين، ثم الحسين إلى ابنه علي زين العابدين، ثم زين العابدين إلى ابنه محمد الباقر، ثم محمد الباقر إلى ابنه جعفر الصادق، ثم جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل الإمام، ومنه إلى ابنه محمد، ويسمونه المكرم لأنهم كانوا يكتمون اسمه خذراً عليه. ثم أوصى محمد المكرم إلى ابنه جعفر المصدق، وجعفر المصدق إلى ابنه محمد الحبيب، ومحمد الحبيب إلى ابنه عبيد الله المهدي الذي دعا له أبو عبد الله الشيعي. وكانت شيعتهم متشربين في الأرض من اليمن إلى الحجاز والبحرين والطرق وخراسان والكوفة والبصرة والطالقان. وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من أرض حمص، وكان عادتهم في كل ناحية يدعون للرضا من آل محمد، ويرومون إظهار الدعوة بحسب ما عليهم. وكان الشيعة من النواحي يعلمون مكيمهم في أكبر الأوقات لزيارة قبر الحسين، ثم يرجون على سلمية لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل - وكان باليمن من شيعتهم - ثم بعده لأئمة قوم يعرفون ببني موسى ورجل آخر يعرف بمحمد بن الفضل أصله من جند. وجاء محمد إلى زيارة الإمام محمد الحبيب. فبعث معه أصحابه رستم بن الحسين بن حوشب بن داود النجار، وهو كوفي الأصل وأمره بإقامة الدعوة، وأن المهدي خارج في هذا الوقت، فسار إلى اليمن ونزل على بني موسى وأظهر الدعوة هنالك للمهدي من آل محمد الذي ينتعنه بالنعوت المعروفة عندهم، فاتبه واستولى على كثير من نواحي اليمن.

وكان أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالختب، وكان محتسباً بالبصرة. وقيل: إنما المحتسب أخوه أبو العباس المخطوم وأبو عبد الله يعرف بالعلم. لأنه كان يعرف مذهب الإمامية الباطنية، قد اتصل بالإمام محمد الحبيب وخبر

صفته وحليته، فبعث العيون في طلبه. ونمي الخبر بذلك إلى عبيد الله من بعض خواص التوشري فخرج في رفقة، ورآه التوشري وأحضره ودعاه للمؤاكلة فاعتذر بالصوم، ثم امتحنه فلم تشهد له أحواله بشيء مما ذكر له عنه.

وقارن ذلك رجوع ابنه أبي القاسم يسأل عن كلب للصيد ضاع له، فلما رآه التوشري وأخبر أنه ولد عبد الله علم أن هذه الدالة في طلب الضائع منافية للرقبة والخوف، فخلى سبيله. وجد المهدي في السير وكان له كتب من الملاحم ورثها منقولة عن أبيه سرقت من رحله في تلك الطريق، ويقال: إن ابنه أبا القاسم لما زحف إلى مصر أخذها من بلاد برقة. ولما انتهى المهدي وابنه إلى طرابلس وفارقه التجار أهل الرقعة، قدم أبا العباس أخا أبي عبيد الله الشيعي إلى أخيه بكتامة، ومر بالقبروان، وقد سبق خبرهم إلى زيادة الله وهو يسأل عنهم، فقبض على أبي العباس وسأله فأنكر فحبسه، وكتب إلى عامل طرابلس بالقبض على المهدي ففاتته، وسار إلى قسنطينة فعدل عنها خشية على أبي العباس أخي الشيعي المعتقل بالقبروان، وذهب إلى سجلماسة وبها إليشع بن مدرار فأكرمه.

ثم جاءه كتاب زيادة الله ويقال: كتاب المكتفي بأنه المهدي الذي داعيه في كتامة فحبسه، وبعث زيادة الله العساكر إلى كتامة مع قريه إبراهيم بن حيش وكانوا أربعين ألفاً، فأنتهى إلى قسنطينة فاقام بها وهم متحصنون بخيلهم ستة أشهر. ثم زحف إليهم ودافعهم عند مدينة بلزمة فانهمز إلى القبروان. وكتب أبو عبد الله بالفتح إلى المهدي وهو في محبسه. ثم زحف إلى مدينة طينة فحاصرها وملكها بالأمان، ثم إلى مدينة بلزمة فملكها عنوة، فبعث زيادة الله العساكر مع هارون الطيني فأنتهوا إلى مدينة دار ملوك، وكانوا قد أطاعوا الشيعي فهدمها هارون، وقتل أهلها، وسار إلى الشيعي فانهمز من غير قتال وقتل.

وفتح الشيعي مدينة عيسى فزحف زيادة الله في العساكر ستة خمس وتسعين ونزل الأريس ثم أشار عليه أصحابه بالرجوع إلى القبروان ليكون رداً للعساكر، فبعث الجيوش مع إبراهيم بن أبي الأغلب من قرابته ورجع، وزحف أبو عبد الله إلى باغاية فهرب عاملها وملكها. ثم إلى مدينة مرمجة فافتحها عنوة وقتل عاملها ثم إلى مدينة تيفاش فملكها على الأمان، واستأمن إليه القبائل من كل جهة فأمّنهم وسار بنفسه إلى مسلباية ثم إلى تبسة ثم إلى مجانة ففتحها على الأمان، ثم سار إلى القصرين من قمودة وأمن أهلها وسار يريد قاده وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن أبي الأغلب وهو بالأريس أميراً على الجيش، فخشي على زيادة الله برقادة

أهليته، فأرسله إلى أبي حوشب، ولزم مجالسته وأفاد علمه. ثم بعثه مع الحاج اليميني إلى مكة، وبعث معه عبد الله بن أبي سلا، فأتى الموسم ولقي به رجالات كتامة مثل حريث الحميلي وموسى بن مكاد، فاختلف بهم وعكفوا عليه لما رأوا عنده من العبادة والزهد، ووجه إليهم بدار من ذلك المذهب، فاعتبط واعتبطوا وارتحل معهم إلى بلدهم ونزل بها منتصف ربيع سنة ثمان وثلاثين، وعين لهم مكان منزله بفتح الأحار وأن النص عنده من المهدي بذلك وجهه بالمهدي وأن أنصاره الأخيار من أهل زمانه، وأن اسم أنصاره مشتق من الكتمان ولم يعينه، واجتمع لمناظرته كثير من أهل كتامة فأبى، ثم أطاعوه بعد فتن وحروب. واجتمعوا على دعوته وكانوا يسمونه أبا عبد الله المشرفي والشيعي.

ولما اختلف كتامة عليه واجتمع كثير منهم على قتله قام بنصرته الحسن بن هارون، وسار به إلى جبل إيكجان وأنزله مدينة تاصروت من بلد زراة، وقاتل من لم يتبعه بمن تبعه حتى استقاموا جميعاً على طاعته. وبلغ خبره إبراهيم بن أحمد بن الأغلب عامل أفريقية بالقبروان، فأرسل إلى عامل ميلة يسأله عن أمره فحقره وذكر أنه رجل يلبس الخشن، ويأمر بالعبادة والخير فأعرض عنه حتى إذا اجتمع لأبي عبد الله أموره، زحف في قبائل كتامة إلى بلد ميلة فملكها على الأمان بعد الحصار، فبعث إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ابنه الأحول في عسكرهم يجاور عشرين ألفاً، فهزم كتامة وامتنع أبو عبد الله بجبل إيكجان، وأحرق الأحول مدينة تاصروت ومدينة ميلة، وعاد إلى أفريقية، وبنى أبو عبد الله بجبل إيكجان مدينة سماها دار الهجرة. ثم توفي إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقية وولى ابنه أبو العباس، وقتل واستقر الأمر لزيادة الله، وكان الأحول حمل العساكر لحضوره فاستقدمه زيادة الله وقتله.

وفاة الحبيب وإيضاؤه لابنه عبيد الله

ولما توفي محمد الحبيب وأوصى لابنه عبيد الله، وقال له: أنت المهدي وتهاجر بعدي هجرة بعيدة، وترى محناً شديدة. فقام عبيد الله بالأمر وانتشرت دعوته وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعي رجلاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم في انتظاره. وشاع خبره وطلبه المكتفي فهرب هو وولده نزار الذي ولي بعده وتلقب بالقائم. وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب. وانتهى إلى مصر وعليها يومئذ عيسى التوشري، فلبس عبيد الله زي التجار يتستر به. وجاء كتاب المكتفي للتوشري بالقبض عليه، وفيه

وهو يقول: هذا مولاكم ويكي من شدة الفرح، ثم أنزله بالمخيم وبعث في أثر اليسع فجيء به فجلد، ثم قتل، وأقام بسجلماسة أربعين يوماً ورجع إلى أفريقية، ووصل إلى رقادة في ربيع من سنة ست وتسعين وجدد البيعة للمهدي واستولى على ملك بني الأغلب بأفريقية. وملك مدرارسجلماسة ونزل برقادة وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين وبعث دعائه في الناس فحملوهم على مذهبهم فأجابوا إلا قليلاً عرض عليهم السيف، وقسم الأموال والجواري في رجال كثافة، وأقطعهم الأموال والأعمال، ودون الدواوين وجبى الأموال وبعث العمال على البلاد. فبعث على صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنيزر فوصل إلى مازر في عيد الأضحى من سنة تسع وتسعين، فاستقضى بها إسحاق بن المنهال، وأجاز البحر سنة ثمان وتسعين إلى بسط قلورية فأنشئ فيها وعاد ونار به أهل صقلية سنة تسع وتسعين فحبسوه واعتذروا إلى المهدي لسوء سيرته، فعذرهم وولى عليهم علي بن عمر البلوي فوصل إليهم خاتمة السنة المذكورة.

أخبار ابن الليث بفارس

قد ذكرنا من قبل استيلاء الليث بن علي بن الليث وسيكرى مولى عمر بن الليث على فارس من يد طاهر بن محمد. ثم أخرج سيكرى بعد ذلك الليث وانفرد بها، وسار إليه طاهر بن محمد بن عمرو، فواقعه وانهزم طاهر وأسر سيكرى وأسر أخاه يعقوب، وبعث بهما إلى المقتدر مع كاتبه عبد الرحمن بن جعفر الشيرازي، وقد أمره على ما يحمله وذلك سنة ست وتسعين، ثم سار إليه الليث بن علي من سجستان سنة سبع وتسعين، فغلبه وملك فارس، وهرب سيكرى إلى أرجان وأمدته المقتدر بمؤنس الخادم في العساكر، فجاء إلى أرجان وجاء الحسين بن حمدان من قم إلى البيضاء في إعانتته، فسار لملاقاته وأضل الطريق إلى مسالك صعبة أشرف على عسكر مؤنس. وكان سيكرى قد بعث أخاه إلى شيراز ليحفظها، فلما أشرف على العسكر ظنه عسكر أخيه فشاورا إليه واقتتلوا وانهزم عسكر الليث وأخذ أسيراً. وأشار عليه أصحابه أن يقبض على سيكرى ويطلب من المقتدر ولاية فارس مكانه فوافقهم طاهر ودس إليه، فلحق بشيراز وعاد مؤنس إلى بغداد بالليث أسيراً، والحسين بن حمدان إلى عمله بقم.

ثم إن عبد الرحمن بن جعفر كاتب سيكرى استولى على أمره، وحسده أصحابه وأكثروا السعاية فيه عند سيكرى فحبسه، واستكتب مكانه إسماعيل بن إبراهيم اليمن، فحمله على العصيان

لقلعة عسكره، وارتحل ذاهباً إليه، وسار أبو عبد الله إلى قسطنطينة فحاصرها وافتتحها على الأمان ورجع إلى باغية فأنزل بها عسكراً وعاد إلى أيكجان فسار إبراهيم بن أبي الأغلب إلى باغية وحاصر أصحاب أبي عبد الله بها، فبعث أبو عبد الله عساكره إلى مرج العرعار فالفوا إبراهيم قد عاد عنها إلى الأريس. ثم زحف أبو عبد الله إلى إبراهيم سنة ست وتسعين في مائة ألف مقاتل وبعث من عسكره من يأتي إبراهيم من خلفه، وسار إليه فانهمز وأثنخ فيهم أبو عبد الله بالقتل والأسر، وغنم أموالهم وخیلهم وظهرهم. ودخل الأريس فاستباحها، ثم سار فنزل قمودة، وبلغ الخبر إلى زيادة الله فهرب إلى مصر.

وافترق أهل مدينة رقادة إلى القيروان وسوسة ونهب قصور بني الأغلب ووصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان، فنزل قصر الإمارة وجمع الناس ووعدهم الحماية، وطلب المساعدة بطاعتهم وأموالهم، فاعتذروا وخرجوا إلى الناس فأخبروهم، فثاروا به وأخرجوه. وبلغ أبا عبد الله الشيعي هرب زيادة الله وهو يشبه فدخل إلى رقادة وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنيزر فساروا وأمنوا الناس. وخرج أهل القيروان للقاء أبي عبد الله فآكرمهم وأمنهم، ودخل رقادة في رجب سنة ست وتسعين، ونزل قصورها وفرق دورها على كثافة ونادى بالأمان. وتراجع الناس فأخرج العمال وطلب أهل الشر فهربوا، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه وأمر بحفظها وبحفظ جواريه، واستأذنه الخطباء لمن يخطبون فلم يعين لهم أحداً. ونقش على السكة من أحد الوجهين بلغت حجة الله، ومن الآخر تفرق أعداء الله، وعلى السلاح عدة في سبيل الله، ووسم أفضاخ الخيل بالملك لله.

بيعة المهدي بسجلماسة

ولما ملك أبو عبد الله أفريقية لقيه أخوه العباس منطلقاً من اعتقاله، فاستخلفه عليها وترك معه أبا زاكى تمام بن معارك من قواد كثافة. وسار إلى المغرب ففرق القبائل من طريقه، وخاتته زناتة فدخلوا في طاعته، ولما قرب من سجلماسة إلى المهدي بمحبسه يسأله عن حاله فأنكر، ثم سأل ولده كذلك فأنكر، وضرب رجاله فأنكروا، ونفي الخبر إلى أبي عبد الله فخشي عليهم وأرسل إلى اليسع يتلطفه فقتل الرسل فأغذ أبو عبد الله السير وحاصره يوماً وهرب اليسع من الليل هو وأصحابه وبنو عمه. وخرج أهل البلد إلى أبي عبد الله فجاء إلى مجلس المهدي فأخرجه هو وابنه أبا القاسم، وأركبهما ومشى مع رؤساء القبائل بين يديهما

البحر وفسد أمر ابن وهب ثم ثارت أهل صقلية به سنة ثلاثمائة وأسروه ويعثوا به إلى المهدي مع جماعة من أصحابه فأمرهم بقتلهم على قبر ابن أبي خنيزر.

ولاية العهد

وفي سنة إحدى وثلاثمائة ولي المقتدر ابنه أبا العباس العهد وهو الذي ولي الخلافة بعد القاهر وسمي بالرافضي فولاه أبوه المقتدر العهد وهو ابن ستين وقلده مصر والمغرب، واستخف له عليها مؤنس الخادم وولي ابنه الآخر علياً على الري وديباوند وقزوين وأذربيجان وأبره.

ظهور الأطروش وملكه خراسان

كان هذا الأطروش من ولد عمر بن علي زين العابدين وهو الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر وكان قد دخل إلى الديلم بعد قتل محمد بن زيد، وليث فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويأخذ منهم العشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان، فأسلم على يديه منهم خلق كثير وبنى لهم المساجد، وزحف بهم إلى ثغور المسلمين، وقراهم مثل قزوين وسالوس فاطاعوه، وهدم حصن سالوس. ثم دعاهم إلى غزو طبرستان وهي في طاعة ابن سامان، وكان إسماعيل بن أحمد لما انتقض بها محمد بن هارون، وقبض عليه إسماعيل ولي عليها أبا العباس عبد الله بن محمد بن نوح، فأحسن السيرة وأظهر العدل، وبالغ في الإحسان إلى العلوية الذين بها، واستمال الديلم بالمهاداة والإحسان، فاشتمل الناس عليه.

فلما دعاهم الحسن إلى غزو طبرستان، لم يجيبوه من أجل ابن نوح. ثم إن أحمد بن إسماعيل عزل ابن نوح عنها، وولي عليها سلاماً فأساء السيرة ولم يحسن سياسة الديلم. فهاجوا عليه فقاتلهم وهزمهم، واستغنى من ولايتها فعاد إليها ابن نوح وصلحت الحال كما كانت إلى أن مات، فولى عليها محمد بن إبراهيم بن صعلوك، فأساء السيرة وتكرر للديلم فصادف الحسن منها الفجرة ودعاهم إلى غزو طبرستان فاجابوه، وسار إليه ابن صعلوك على من يرخله من سالوس بشاطئ البحر، فانهزم وقتل من أصحابه أربعة آلاف، ولجأ الباقون إلى سالوس، فحاصره الأطروش حتى استأمنوا، ورجع عنهم إلى آمد.

ثم جاء الحسن بن القاسم العلوي الداعي صهر الأطروش

ومنع الحمل ودس عبد الرحمن بن جعفر من محبسه إلى الوزير ابن الفرات بذلك، فكتب إلى مؤنس وهو بواسط يأمره بالعود إلى فارس، فسار وأرسله سيكري أنسه وسال منه الوساطة في أمره، وشعر ابن الفرات بميل مؤنس إلى بغداد، وسار محمد بن جعفر فهزم سيكري على شيراز فخلص إلى قم وتحصن بها، وحاصره محمد بن جعفر ثم خرج إليه فهزمه ثانية، ودخل مغارة خراسان فلقيته عساكر إسماعيل إلى بغداد، فحبسها هنالك واستولى محمد بن جعفر من القواد على فارس وولي عليها قبيحاً خادم الأفشين، ثم صارت ولايتها لبدر ابن عبد الله الحماوي.

وفي آخر سنة تسع وتسعين ومائتين قبض حرمه وقامت الهيعة ببغداد ثلاثة أيام، ثم سكنت وذلك لثلاث سنين وثلاثة أشهر من وزارته. فاستوزر مكانه أبا علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى، فرتب الأسور وولي على الدواوين. ثم زاد قرقه لضيق صدره وطيشه وعدوله عن مذهب الرياسة إلى الرضاة ومراجعة أصحاب الحاجات والحقوق إلى ما يريد قضاء منها، وكثرة التولية والعزل وتبجح أصحابه عليه في إطلاق الأموال وانبساط الجاه بإفساد الأحوال. واعتزم المقتدر على عزله بأبي الحسين بن أبي الفضل، فاستدعاه من أصفهان، ثم قبض عليه وعلى أبي الحسن ببغداد، وأهمل رأي الوزراء وصار يرجع إلى قول النساء والخدم، فطعم العمال في الأطراف، ثم أخرج ابن الفرات من محبسه وجعله في بعض الحجر، وأحسن إليه وصار يعرض عليه مطالعات العمال، وأراد أن يستوزره ثم بدا له واستدعى علي بن عيسى من مكة فاستوزره لأول سنة إحدى وثلاثمائة، وقبض على الخاقاني وحبسه وعين حرسياً عليه. وقام علي بن عيسى بالوزارة وأصلح ما أفسده الخاقاني واستقامت الأمور.

قيام أهل صقلية بدعوة المقتدر ثم رجوعهم إلى طاعة المهدي

قد ذكرنا ولاية علي بن عمر على صقلية من عبد الله المهدي سنة تسع وتسعين. ثم إن أهل صقلية انتقضوا عليه وولوا عليهم أحمد بن موهب ثم انتقضوا عليه وأرادوا قتله فدعا إلى طاعة المقتدر وخطب له بصقلية، وقطع خطبة المهدي وبعث أسطولاً إلى ناحية ساحل أفريقية، فلقوا أسطول المهدي، وعليه الحسن بن أبي خنيزر، فأحرقوه وقتلوا الحسن ووصلت خلع السواد وألويته لابن وهب من بغداد ثم جاءت أساطيل المهدي في

سنة ثلاث وثلاثمائة، وكتب إلى مؤنس أن يسير إلى الجزيرة لقتاله بعد فراغه من أصحاب العلوي بمصر، فسار رائق أولاً وهزمه الحسين، ولحق مؤنس فأمره بالمقام بالموصل. وسار نحو الحسين وتبعه أحمد بن كيغليخ، وانتهى إلى جزيرة ابن عمر والحسين بأرمينية. ورجع الكثير من عسكره إلى مؤنس. ثم بعث مؤنس عسكراً في أثره عليهم بليق ومعه سيما الجزري. وجاء الصفواني واتبعوه فادركوه، وقاتلوه فهزموه، وجازوا به أسيراً ومعه ابنه عبد الوهاب وأهله وكثير من أصحابه. وعاد مؤنس إلى بغداد على الموصل، فحبسه المقتدر وأغار على أبي الهيجاء بن حمدان وجميع إخوته وجسهم. ثم أطلق أبا الهيجاء سنة خمس وقتل الحسين سنة ست تقريباً كما نذكر إن شاء الله تعالى.

وزارة ابن الفرات الثانية

كان الوزير أبو الحسن بن الفرات محبوباً كما ذكرنا وكان المقتدر يشاوره ويرجع إلى رأيه، ويبغي بعض أصحاب المقتدر إعادته. وبلغ ذلك الوزير علي بن عيسى فاستعفى ومنعه المقتدر. ثم جاءت في بعض الأيام قهرمانة القصر تناظره في نفقات الحرم والحاشية وكسوتهم، فآلفته نائماً فلم يوقظه لها أحد. فرجعت وشكت إلى المقتدر وأمه فقبض عليه في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثمائة، وأعاد ابن الفرات على أن يحمل إلى بيت المال ألف دينار وخمسمائة دينار في كل يوم. وقبض على الوزير من قبله علي بن عيسى والخاصاني وأصحابهما، وصادروهم أبو علي بن مقله وكان محتجباً منذ قبض على ابن الفرات فقدمه الآن واستخلصه.

خير ابن أبي الساج بأذربيجان

قد ذكرنا استقرار يوسف بن أبي الساج على أرمينية وأذربيجان منذ مهلك أخيه محمد سنة ثمان وثمانين ومائتين، وكان على الحرب والصلاة والأحكام، وكان عليه مال يؤديه. فلما ولي الخاقان وعلي بن عيسى الوزارة، والتأمت أمور يوسف في الاستبداد، وآخر بعض المال واجتمع له ما يريده لذلك، وبلغته نكبة الوزير علي بن عيسى، فأظهر أن العهد وصل إليه بولاية الري على يد علي بن عيسى. وكان حميد بن صلوك من قواد ابن سامان قد بعث على الري وما يليها، وقاطع عليها بمال يجعله فسار إليه يوسف سنة أربع وثلاثمائة فهرب إلى خراسان واستولى يوسف على الري وقزوین وزغان، وكتب إلى الوزير ابن الفرات بالفتح ويعتذر بأنه طرد المتغلبين، ويذكر كثرة ما أنفق من ذلك،

إلى أولئك المستأمنين فقتلهم، واستولى الأطروش على طبرستان، ولحق ابن صلوك بالري سنة إحدى وثلاثمائة، وسار منها إلى بغداد وكان الأطروش زندي المذهب، وجميع الذين أسلموا على يده فيما وراء اسعيد ولى إلى آمد كلهم على مذهب الشيعة. ثم إن الأطروش العلوي تنحى عن آمد إلى سالوس بعد أن غلب عليها، فبعث إليه صلوك الري من قبل ابن سامان جيشاً فهزمهم وعاد إلى آمد. ثم زحفت إليه عساكر السعيد صاحب خراسان سنة أربع وثلاثمائة فقتلوه.

وكان هذا الأطروش عادلاً حسن السيرة لم ير مثله في أيامه وأصابه الصمم من ضربة في رأسه بالسيف في الحرب. وقال ابن مسكويه في كتاب تجارب الأمم ويقال فيه الحسن بن علي الدعي وليس به، وإنما الداعي الحسن بن القاسم صهره، وسنذكره فيما بعد. وكان له من الولد أبو الحسن، وكان قواده من الديلم جماعة منهم ابن النعمان وكانت له ولاية جرجان، وما كان ابن كالي وكان على استراياذ ومعرا. ثم كان من قواد ولده من الديلم جماعة آخرون منهم أسفار بن شيرويه من أصحاب ما كان ابن كالي ومرداويج بن زياد من أصحاب أسفار، وأسكري من أصحابه أيضاً، وبنو بوية من أصحاب مرداويج، وسيأتي الخبر عن جميعهم إن شاء الله تعالى.

غلب المهدي على الإسكندرية ومسير

مؤنس إلى مصر

وفي سنة اثنتين وثلاثمائة بعث عبيد الله المهدي عساكره من إفريقية إلى الإسكندرية مع قائده خفاشة الكتاني فغلب عليها وسار إلى مصر، وبلغ المقتدر فبعث مؤنساً الخادم في العساكر لمحاربته، وأمدّه بالأموال والسلاح، وسار إليهم وقاتلهم فهزمهم بعد وقائع متعددة، قتل فيها من الفريقين، وبلغ القتل والأسر من المغاربة سبعة آلاف ورجعوا إلى المغرب.

انتقاض الحسين على ابن حمدان بديار ربيعة

وأسره

كان الحسين بن حمدان والياً على ديار ربيعة وطالبه الوزير علي بن عيسى بالمال، فدافعه وأمره بتسليم البلاد إلى عمال السلطان فامتنع، وكان مؤنس الخادم بمصر في محاربة عساكر المهدي صاحب إفريقية، فجهز الوزير إلى ابن حمدان رائقاً الكبير في عسكر

الري وملكها، وقتل محمد بن سليمان صاحب الخوارج، وبعث إلى نصر الحاجب ليصلح أمره بالمقاطعة على أعمال الري بمائة وستين ألف دينار، وينزل عن قم فكتب له بذلك وولى غيره على قم.

خبر سجستان وكرمان

وكانت سجستان قد صارت لابن سامان منذ سنة ثمان وتسعين ومائتين، ثم تغلب عليها كثير بن أحمد بن صهفود من يده، فكتب المقتدر إلى عامل فارس وهو بدر بن عبد الله الحماسي أن يرسل العساكر لمحاربه، ويؤمر عليهم دركاً، ويجعل على الخراج بها زيد بن إبراهيم. فسارت العساكر وحاربوا أهل سجستان فهزمهم وأسروا زيد بن إبراهيم، وكتب كثير إلى المقتدر بالبراءة من ذلك، وطوبى أهل سجستان. وأرسل المقتدر أن يسير لقتاله بنفسه، فخاف كثير وطلب المقاطعة على خمسمائة ألف دينار في كل سنة، فأجيب وقررت البلاد عليه، وذلك سنة أربع وثلاثمائة. وانتقض في هذه السنة بكرمان صاحب الخوارج بها أبو زيد خالد بن محمد المارداني، وسار منها إلى شيراز يروم التغلب على فارس فسار إليه بدر الحماسي العامل، وحاربه فقتله وحمل رأسه إلى بغداد.

وزارة حامد بن العباس

وفي سنة ست وثلاثمائة قبض المقتدر على وزيره أبي الحسن بن الفرات بسبب شكوى الجند بمطله أرزاقهم، واعتذر بضيق الأموال للنفقة في حروب ابن أبي الساج، ونقص الارتياح بخروج الري عن ملكه. فشغب الجند وركبوا، وطلب ابن الفرات من الخليفة إطلاق مائتي ألف دينار من خاصته يستعين بها، ففكر ذلك عليه لأنه كان ضمن القيام بأرزاق الأحشاد وجميع النفقات المرتبة، فاحتج بنقص الارتياح وبالنفقة في الحرب كما تقدم، فلم يقبل. ويقال: سعى فيه عند المقتدر بأنه يروم إرسال الحسين بن حمدان إلى أبي الساج فيحاربه، وإذا سار عنده اتفاقاً على المقتدر، فقتل المقتدر ابن حمدان وقبض على ابن الفرات في جمادى الآخرة، وكان حامد بن العباس على الأعمال بواسط، وكان منافراً لابن الفرات، وسعى به عنده بزيادة ارتياحه على ضمانه، فخشيه حامد على نفسه.

وكتب إلى نصر الحاجب وإلى والده المقتدر سعة نفسه وكثرة أتباعه، وذلك عند استيحاظه من ابن الفرات، فاستقدمه من واسط، وقبض على ابن الفرات وابنه المحسن وأتباعهما، واستوزر

وأنه كان بأمر الوزير علي بن عيسى وعهده إليه بذلك فاستعظم المقتدر ذلك، وسئل علي بن عيسى فأنكر وقال: سلموا الكتاب والحاشية والعهد واللواء للذين كان يسير بهما مع بعض القواد والخدام.

فكتب ابن الفرات بالكثير على يوسف، وجهز العساكر لحربه مع خاقان الفلحي، ومعه أحمد بن مسرور البلخي، وسيما الحزري، ونحرير الصغير، وساورا سنة خمس وثلاثمائة فهزمهم يوسف وأسر منهم جماعة فبعث المقتدر مؤسلاً الخادم في جيش كثيف لمحاربه وعزل خاقان الفلحي عن أعمال الجبل، وولاهما نحريراً الصغير. وسار مؤنس واستأمن له أحمد بن علي أخو صعلوك فأمّنه وأكرمه، وبعث ابن أبي الساج في المقاطعة على أعمال الري بسبعمائة ألف دينار سوى أرزاق الجند والخدم، فأبى له المقتدر من ذلك عقوبة على ما أقدم عليه، وولى على ذلك العمل وصيفاً البكمري، وطلب ابن أبي الساج أن يقاطعه على ما كان يبيده قبل الري من أذربيجان وأرمينية، فأبى المقتدر إلا أن يحضر في خدمته.

فلما يش ابن أبي الساج إلى مؤنس وقتله، فانهزم مؤنس إلى زنجان وقتل من قواده جماعة، وأسر هلال بن بدر وغيره فحبسهم يوسف في أردبيل، وأقام مؤنس بزنجان بجميع العساكر يستمد من المقتدر وابن أبي الساج يرأسه في الصلح، والمقتدر لا يجيب إلى ذلك. ثم قاتله مؤنس في فاتح سنة سبع وثلاثمائة عند أردبيل فهزمه وأسرهم وعاد به إلى بغداد أسيراً، فحبسه المقتدر وولى مؤنس على الري وديباوند وقزوین وأبهر وزنجان علي بن وهشودان وجعل أموالها لرجاله، وولى مؤنس على أصبهان وقم وقاشان أحمد بن علي بن صعلوك، وسار عن أذربيجان فوثب سبك مولى يوسف بن أبي الساج فملكها واجتمع عليه عسكر فولى مؤنس بن محمد بن عبيد الفارقي وسار بمحاربة سبك فانهزم وعاد إلى بغداد.

وتمكن سبك في أذربيجان وسأل المقاطعة على مائتي ألف وعشرين ألف دينار في كل سنة. فأجيب وعقد له عليها، وكان مقيماً بقزوین فقتله على مراساة ولحق بيلده، فولى المقتدر وصيفاً البكمري مكانه على أعمال الري، وولى محمد بن سليمان صاحب الجيش على الخوارج بها، ثم وثب أحمد بن علي بن صعلوك صاحب أصبهان وقم على الري، فملكها وكتب إليه المقتدر بالكثير، وأن يعود إلى قم، فعاد ثم أظهر الخلاف وأجمع المسير إلى الري، وسار وصيف البكمري لحربه. وأمر نحرير الصغير أن يسير مدداً لبكمري، فسبّهم أحمد بن صعلوك إلى

عندهم وكثر الموتان في الناس والخييل فارتحلوا راجعين إلى بلادهم وسار عساكر مصر في أثرهم حتى أبعدوا.

بقية خبر ابن أبي الساج

قد تقدم لنا أن مؤسساً حارب يوسف بن أبي الساج عامل أذربيجان فأسره وحمله إلى بغداد فحبس بها، واستقر بعده في عمله سبك مولاة. ثم إن مؤسساً شفع فيه سنة عشر. فأطلقه المقتدر وخلع عليه ثم عقد له على أذربيجان وعلى الري وقزوین وأبهر وزنجيان وعلى خمسمائة ألف دينار في كل سنة سوى أرزاق العساكر. وسار يوسف إلى أذربيجان ومعه وصيف البكتمري في العساكر، ومم بالموصل فنظر في أعمالها وأعمال ديار ربيعة. وقد كان المقتدر تقدم إليه بذلك. ثم سار إلى أذربيجان وقد مات مولاة سبك، فاستولى عليها وسار سنة إحدى عشرة إلى الري وكان عليها أحمد بن علي آخر صعلوك، وقد اقتطعها كما قدمنا، ثم انتقض على المقتدر وهادن ما كان ابن كالي من قواد الديلم القائم بدعوة أولاد الأطروش في طبرستان وجرجان.

فلما جاء يوسف إلى الري حاربه أحمد فقتله يوسف وأنفذ رأسه إلى بغداد واستولى على الري في ذي الحجة وأقام بها مدة، ثم سار عنها إلى همدان فاتح ثلاث عشرة، واستخلف بها مولاة مفلحاً وأخرجه أهل الري عنهم، فعاد يوسف إليهم في جمادى من سته، واستولى عليها ثانية. ثم قلده المقتدر سنة أربع عشرة نواحي المشرق وأذن له في صرف أموالها في قواده وأجناده وأمره بالمسير إلى واسط، ثم منها إلى هجر لمحاربة أبي طاهر القرمطي، فسار يوسف إلى أبي طاهر وكان بها مؤنس المظفر، فرجع إلى بغداد وجعل له أموال الخراج بنواحي همدان وسواة وقم وقاشان وماء البصرة وماء الكوفة وماسبذان لينفقها في عسكره، ويستعين بها على حرب القرامطة.

ولما سار من الري كتب المقتدر إلى السعيد نصر بن سامان بولاية الري وأمره بالمسير إليها وأخذها من فئاتك مولى يوسف، فسار إليها فاتح أربع عشرة، فلما انتهى إلى جبل قارن منعه أبو نصر الطبري من العبور، وبذل له ثلاثين ألف دينار فترك سبيله وسار إلى الري فملكها من يد فئاتك وأقام بها شهرين، وولى عليها سيمجور الدواني وعاد إلى بخارى. ثم استعمل على الري محمد بن أبي صعلوك فأقام بها إلى شعبان سنة ست عشرة وأصابه مرض، وكتب الحسن بن القاسم الداعي وماكان ابن كالي أميري الديلم في تسليم الري إليهما، فقدمما وسار عنها ومات في طريقه،

حامداً فلم يوف حقوق الوزارة ولا مياستها، وتحاشى عليه الدواوين فأطلق المقتدر علي بن عيسى وأقامه على الدواوين كالتائب عن حامد. فكان يزاحمه واستبد بالأمور ودونه ولم يبق لحامد أمر عليه فأجابه ابن الفرات بأسفه منه وقال لشفيق اللؤلؤي: قل لأمير المؤمنين حامد إنما حمله على طلب الوزارة، أني طالبته بأكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانته، فاستشاط حامد وزاد في السفه، فأنفذ المقتدر من رد ابن الفرات إلى محبسه، ثم صودر وضرب ابنه المحسن وأصحابه وأخذت منهم الأموال. ثم إن حامداً لما رأى استقالة علي بن عيسى عليه وكثرة تصرفه في الوزارة دونه، ضمن للمقتدر أعمال الخوارج والضيايع الخاصة والمستحقة والقرارية، بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان، واستأذنه في الإلحاد إلى واسط لاستخراج ذلك فألحدر واسم الوزارة له وأقام علي بن عيسى يدبر الأمور، فأظهر حامد سوء تصرف في الأموال، وبسط المقتدر يده حتى خافه علي بن عيسى. ثم تحرك السعر ببغداد فشغبت العامة ونهبوا الغلال، لأن حامداً وغيره من القواد كانوا يخرنون الغلال. وأحضر حامد لمنهم فحضر فقاتلوه، وفتقوا السجون ونهبوا دار الشرطة. وأنفذ المقتدر غريب الحال في العسكر، فسكن الفتنة وعاقب المتصدين للشر، وأمر بفتح المخازن التي للحنطة وبيعها، فرخص السعر وسكن إلى منع الناس من بيع الغلال في البيادر وخزنها فرفع الضمان عن حامد، وصرف عماله عن السواد ورد ذلك لعلي بن عيسى وسكن الناس.

وصول ابن المهدي وهو أبو القاسم إلى ابنه

وفي سنة سبع وثلاثمائة بعث المهدي صاحب أفريقية أبا القاسم في العساكر إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية في ربيع الآخر وملكها، ثم سار إلى مصر ونزل بالجيزة واستولى على الصعيد، وكتب إلى أهل مكة في طاعته فلم يجيبوا. وبعث المقتدر مؤسساً والخادم إلى مصر لمداينته، فكانت بينهم حروب كثر فيها القتل من الجانبين، وكان الظهور لمؤنس ولقب يومئذ بالمظفر. ووصل من أفريقية أسطول من ثمانين مركباً مدداً للقائهم، وعليهم سليمان الخادم ويقعوب الكتامي، وأمر المقتدر بأن يسير إليهم أسطول طرسوس فسار في خمسة وعشرين مركباً وعليهم أبو اليمن، ومعهم العدد والأفناط، فغلبوا أسطول أفريقية وأحرقوا أكثر مراكبه. واسر سليمان الخادم ويعقوب الكتامي في جماعة قتل أكثرهم، وحبس سليمان بمصر، وحمل يعقوب إلى بغداد. ثم هرب وعاد إلى أفريقية وانقطع المدد عن عسكر المغاربة، فوقع الغلاء

واستولى الداعي والدليم عليها.

بقية الخبر عن وزراء المقتدر

وسبعائة ألف دينار، وصادر جماعة من الكتاب سواهم ونكبهم. وجاء مؤنس من غزاته فأنتهى إليه أفعال ابن الفرات وما يعتمد من المصادرات والتكايات وتعذيب ابنه للناس، فخافه ابن الفرات وخوف المقتدر منه. وأشار بسيره إلى الشام ليقيم هنالك بالفر، فبعثه المقتدر وأبعده.

ثم سعى ابن الفرات بنصر الحاجب وأغراه به وأطمعه في ماله وكان مكثراً واستجار نصر بأم المقتدر. ثم كثر الإرجاف بابن الفرات، فخاف وأنتهى إلى المقتدر بأن الناس عادوه لنصحه للسلطان واستيلاء حقوقه، وركب هو وابنه المحسن إلى المقتدر فأوصلهما إليه وأسهمهما، وخرجا من عنده فمعهما نصر الحاجب، ودخل مقلح على المقتدر وأشار إليه بعزله، فأسر إليه وفاقه على ذلك، وأمر بتخيلة سبيلهما. واختفى المحسن من يومه. وجاء نازوك وبلق من الغد في جماعة من الجند إلى دار ابن الفرات فأخرجوه حافياً حاسراً، وحمل إلى مؤنس المظفر ومعه هلال بن بدر، ثم سلم إلى شقيق اللؤلؤي فحبس عنده وصودر على ألف ألف دينار، وذلك سنة اثني عشرة. وكان عبد الله أبو القاسم بن علي بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان لما تغير حال ابن الفرات سعى في الوزارة، وضمن في ابن الفرات وأصحابه ألفي ألف دينار على يد مؤنس الخادم وهارون بن غريب الحال ونصر الحاجب، فاستوزره المقتدر على كراهية فيه، ومات أبوه علي على وزارته. وشفع إليه مؤنس الخادم في إعادة علي بن عيسى من صنعاء، فكتب له في العود ومشاركة أعمال مصر والشام، وأقام المحسن بن الفرات غنياً مدة. ثم جاءت امرأة إلى دار المقتدر تنادي بالنصيحة، فأحضرها نصر الحاجب فدلّت على المحسن، فأحضره نازوك صاحب الشرطة، فسلم للوزير وعذب بأنواع العذاب، فلم يستخرج منه شيء فأمر المقتدر بحمله إلى أبيه بدار الخلافة، وجاء الوزير أبو القاسم الخاقاني إلى مؤنس وهارون ونصر فحذرهم شأن ابن الفرات وغائلته بدار الخلافة، وأغراههم به، فوضعوا القواد والجند وقالوا: لا بد من قتل ابن الفرات ولده، ووافق هؤلاء على ذلك فأمر نازوك بقتلها فذبحهما.

وجاء هارون إلى الوزير الخاقاني يهته بذلك فأغمي عليه، ثم أفاق وأخذ منه ألفي دينار وشفع مؤنس المظفر في ابنه عبد الله وأبي نصر فأطلقهما ووصلهما بعشرين ألف دينار. ثم عزل الخاقاني سنة ثلاث عشرة لأنه أصابه المرض وطال به، وشغب الجند في طلب أرزاقهم فوقفت به الأحوال، وعزله المقتدر وولى مكانه أبا العباس الحضي وكان كاتباً لأمه فقام بالأمر، وأقر علي عيسى على أعمال مصر والشام، فكان يتردد إليهما من مكة، ثم

قد تقدم الكلام في وزارة حامد بن العباس وأن علي بن عيسى كان مستبداً عليه في وزارته، وكان كثيراً ما يطرح جانبه ويسعى في توقعاته على عماله. وإذا اشتكى إليه أحد من نوابه يوقع على القصة إما عقد الضمان على الحقوق الواجبة فليكيف الظالم عن الرعية. فأنف حامد من ذلك واستأذن في المسير إلى واسط للنظر في ضمانه، فأذن له ثم كثرت استغاثة الخدم والحاشية من تأخر أرزاقهم وفسادها، فإن علي بن عيسى كان يؤخرها وإذا اجتمعت عدة شهور أسقطوا بعضها، وكثرت السعاية واستغاث العمال وجميع أصحاب الأرزاق بأنه حط من أرزاقهم شهرين من كل سنة، فكثرت الفتنة على حامد، وكان الحسن ابن الوزير ابن الفرات متعلّقاً بمقلح الأسود خالصة الخليفة المقتدر وكان شقيقه لأبيه، وجرى بينه وبين حامد يوماً كلام، فأساء عليه حامد وحقد له.

وكتب ابن الفرات إلى المقتدر وضمن له أموالاً فأطلقه واستوزره، وقبض على علي بن عيسى وحبسه في مكانه، وذلك سنة إحدى عشرة، وجاء حامد من واسط فبعث ابن الفرات من يقبض عليه، فهرب من طريقه واختفى ببغداد. ثم مضى إلى نصر بن الحاجب سرّاً وسأل لإيصاله إلى المقتدر، وأن يحبسه بدار الخلافة، ولا يمكن ابن الفرات منه. فاستدعى نصر الحاجب مقلحاً الخادم حتى وقفه على أمره وشفع له في رفع المؤاخذه بما كان منه، فمضى إلى المقتدر وفأوضه بما أحب، وأمر المقتدر بإسلامه لابن الفرات فحبسه مدة ثم أحضره وأحضر له القضاة والعمال، وناظره فيما وصل إليه من الجهات فأقر بنحو ألف ألف دينار. وضمنه المحسن بن الفرات بخمسمائة ألف دينار فسلم إليه وعذبه أنواعاً من العذاب، وبعثه إلى واسط لبيع أمواله هناك فهلك في طريقه بإسهال أصابه.

ثم صودر علي بن عيسى على ثلثمائة ألف دينار وعذبه المحسن بعد ذلك عليها فلم يستخرج منه شيئاً وسيره ابن الفرات أيام عطلته وحبسه بعد أن كان رياه وأحسن إليه، فقبض عليه مدة ثم أطلقه، وقبض على ابن الجوزي وسلمه إلى ابنه المحسن، فعذبه ثم بعثه إلى الأهواز لاستخراج الأموال، فضره الموكل به حتى مات. وقبض أيضاً على الحسين بن أحمد - وكان تولى مصر والشام - وعلى محمد بن علي المارداني وصادهما على ألف ألف

مقلة متهماً بالليل إليه فاتفق مغيبه في بعض الوجوه قبض عليه المقتدر. فلما جاء مؤنس سأل في إعادته فلم يجبه المقتدر أراد قتله فمغنه، واستوزر المقتدر سليمان بن الحسن وأمر علي بن عيسى بمشاركته في الاطلاع على الدواوين، وصودر ابن مقلة على مائتي ألف دينار، وأقام سليمان في وزارته سنة وشهرين وعلي بن عيسى يشاركه في الدواوين، وضاعت عليه الأحوال إضافة شديدة، وكثرت المطالبات ووقفت وظائف السلطان.

ثم أفرد السواد بالولاية فانقطعت مواد الوزير لأنه كان يقيم من قبله من يشتري توقعات الأرزاق ممن لا يقدر على السعي في تحصيلها من العمال والفقهاء وأرباب البيوت، فيشتريها بنصف المبلغ فيتعرض بعض من كان يتسمى لمفلح الخادم لتحصيل ذلك للخليفة، وتوسط له مفلح فدافع لذلك وجاهر في تحصيله من العمال، فاختلت الأحوال بذلك وفضح الديوان ودفعت الأحوال لقطع منافع الوزراء والعمال التي كانوا يرتفقون بها، وإهمالهم أمور الناس بسبب ذلك. وعاد الخلخل على الدولة وتحرك المرشحون للوزارة في السعاية وضمان القيام بالوظائف وأرزاق الجند. وأشار مؤنس بوزارة أبي القاسم الكلوازي فاستوزره المقتدر في رجب من سنة تسع عشرة وأقام في وزارته شهرين.

وكان ببغداد رجل من المخرفين يسمى الدانيالي، وكان ورقاً ذكياً محتالاً يكتب الخطوط في الورق ويداويها حتى تتم بالبلى. وقد أودعها ذكر من يراه من أهل الدولة برموز وإشارات، ويقسم له فيها من حظوظ الملك والجاه والتمكين قسمة من عالم الغيب، يوهم أنها من الحدثنان القديم المأثور عن دانيال وغيره، وأنها من الملاحم المتوارثة عن آبائه، ففعل مثل ذلك بمفلح. وكتب له في الأوراق م م م بأن يكون له كذا وكذا، وسأله مفلح عن الميم فقال: هو كناية عنك لأنك مفلح مولى المقتدر. وناسب بينه وبين علامات مذكورة في تلك الأوراق حتى طيقها عليه، فشغف به مؤنس وأغناه. وكان يداخل الحسين بن القاسم بن عبد الله بن وهب، فرمز اسمه في كتاب وذكر بعض علاماته المنطبقة عليه، وذكر أنه يستوزره الخليفة الثامن عشر من بني العباس، وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعادي وتعمر الدنيا في أيامه وخلط ذلك في الكتاب بمحدثان كثير وقع بعضه ولم يقع الآخر.

وقرأ الكتاب على مفلح فأعجبه، وجاء بالكتاب إلى المقتدر فأعجب به الآخر، وقال لمفلح: من تعلم بهذه القصة؟ فقال: لا أراه إلا الحسين بن القاسم. قال: صدقت وإنني لأميل إليه، وقد كان المقتدر أراد ولايته قبل ابن مقلة وقبل الكلوازي، فامتنع مؤنس. ثم قال المقتدر لمفلح: إن جاءتك رقعة منه بالسعي في

إن الخصي اضطربت أموره وضاعت الجباية، وكان مدعناً للسكر مهمللاً للأمور، ووكل من يقوم عنه فأتروا مصالحهم وأضاعوا مصلحته. وأشار مؤنس المظفر بعزله وولاية ابن عيسى، فعزل لسنة وشهرين.

واستقدم علي بن عيسى من دمشق وأبو القاسم عبد الله بن محمد الكلوازي بالنيابة عنه إلى أن يحضر، فحضر أول سنة خمس عشرة واستقل. بأمر الوزارة، وطلب كفالات المصادرين والعمال، وما ضمن من الأموال بالسواد والأموال وفارس والمغرب، فاستحضرها شيئاً بعد شيء وأدر الأرزاق وبسط العطاء وأسقط أرزاق المغنين والمسامرة والتدمان والصفاعة وأسقط من الجند أصاغر الأولاد ومن ليس له سلاح والهرمي والزمني، وباشر الأمور بنفسه واستعمل الكفاة وطلب أبا العباس الخصي في المناظرة، وأحضر له الفقهاء والقضاة والكتاب، وسأله عن أمواله الخوارج والنواحي والمصادرات وكفالاتها، وما حصل من ذلك وما الواصل والبواقي؟ فقال: لا أعلم. فسأله عن المال الذي سلمه لابن أبي الساج كيف سلمه بلا مصرف ولا منفق، وكيف سلم إليه أعمال المشرق، وكيف بعثه لبلاد الصحراء بهجره وأصحابه من أهل الغلول والخصب؟ فقال: ظننت منهم القدرة على ذلك.

وامتنع ابن أبي الساج من المنفق فقال: وكيف استجرت ضرب حرم المصادرين؟ فسكت، ثم سئل عن الخراج فخلط فقال: أنت غررت أمير المؤمنين من نفسك فهلا استعذرت بعدم المعرفة. ثم أعيد إلى محبسه واستمر علي بن عيسى في ولايته. ثم اضطربت عليه الأحوال واختلقت الأعمال، ونقص الارتياح نقصاً فاحشاً، وزادت النفقات، وزاد المقتدر تلك الأيام في نفقات الخدم والحرم ما لا يحصى، وعاد الجند من الأنبار فزادهم في أرزاقهم مائتين وأربعين ألف دينار. فلما رأى ذلك علي بن عيسى وئس من انقطاعه أو توقفه، وخشى من نصر الحاجب، فقد كان المخرف عنه ليل مؤنس إليه وما بينهما من المناورة في الدولة، فاستعفى من الوزارة وألح في ذلك وسكنه مؤنس فقال له: أنت سائر إلى البرقة، وأخشى على نفسي بعدك.

ثم فاوض المقتدر نصر الحاجب بعد مسير مؤنس فأشار بوزارة أبي علي ابن مقلة، فاستوزره المقتدر سنة ست عشرة وقبض على علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن، وأقام ابن مقلة بالوزارة وأعانه فيها أبو عبد الله البريدي لمودة كانت بينهما واستمرت حاله على ذلك. ثم عزله المقتدر ونكبه بعد سنتين وأربعة أشهر حين استوحش من مؤنس كما نذكره. وكان ابن

فنت أزوادهم وكان معهم أبو الهيجاء بن حمدان صاحب طريق الكوفة. ثم أغار عليهم أبو طاهر فأوقع بهم وأسر أبا الهيجاء أحمد بن بدر من أحوال المقتدر، ونهب الأمتعة وسبى النساء والصبيان، ورجع إلى هجر.

وبقي الحجاج ضاحين في القفر إلى أن هلكوا، ورجع كثير من الحرم إلى بغداد، وأشغبوا واجتمع معهم حرم المنكوبين أيام ابن الفرات، فكان ذلك من أسباب نكبه. ثم أطلق أبو طاهر الأسرى الذي عنده ابن حمدان وأصحابه، وأرسل إلى المقتدر يطلب البصرة والأهواز، فلم يجبه وسار من هجر لاعتراض الحاج، وقد سار بين أيديهم جعفر بن ورقاء الشيباني في ألف رجل من قومه، وكان صاحب أعمال الكوفة وعلى الحاج بمثل صاحب البحر وجنا الصفواني وطريف اليشكري وغيرهم في ستة آلاف رجل، فقاتل جعفر الشيباني أولاً وهزمه. ثم اتبع الحاج إلى الكوفة فهزم عسكرهم وقتل فيهم، وأسرنا الصفواني، وهرب الباقون. وملك الكوفة، وأقام بظاهرها ستة أيام يقيم في المسجد إلى الليل ويبست في عسكره وحمل ما قدر عليه من الأموال والمتاع ورجع إلى هجر.

ووصل المنهزمون إلى بغداد فتقدم المقتدر إلى مؤنس بالخروج إلى الكوفة فسار إليها بعد خروجهم عنها، واستخلف عليها ياقوتاً ومضى إلى واسط ليمانع أبا طاهر دونها، ولم يحج أحد هذه السنة وبعث المقتدر سنة أربع عشرة عن يوسف بن أبي الساج من أذربيجان وسيره إلى واسط لحرب أبي طاهر. ورجع مؤنس إلى بغداد وخرج أبو طاهر سنة خمس عشرة وقصد الكوفة، وجاء الخبر إلى ابن أبي الساج فخرج من واسط آخر رمضان يسابق أبا طاهر إليها، فسبقه أبو طاهر وهرب العمال عنها واستولى على الأتراك والعلوفات التي أعدت بها. ووصل ابن أبي الساج ثامن شوال بعد وصول أبي طاهر بيوم وبعث يدعو إلى الطاعة للمقتدر، فقال: لا طاعة إلا لله فأذنه بالهرب وتزاحفوا يوماً إلى الليل.

ثم انهزم أصحاب ابن أبي الساج وأسرُوا واكل أبو طاهر طبيياً يعالج جراحته، ووصل المنهزمون ببغداد فأرجفوا بالهرب، وبرز مؤنس المظفر لقصد الكوفة. وقد سار القرامطة إلى عين التمر فبعث مؤنس من بغداد خمسمائة سرية ليمنعهم من عبور الفرات. ثم قصد القرامطة الأنبار ونزلوا غربي الفرات، وجاؤوا بالسفن من الحديثة، فأجاز فيها ثلاثمائة منهم، وقتلوا عسكر الخليفة فهزموهم واستولوا على مدينة الأنبار. وجاء الخبر إلى بغداد فخرج الحاجب في العساكر ولحق بمؤنس المظفر واجتمعوا في نيف

الوزارة فأعرضها علي. ثم سأل مفلح الدانيالي من أين لك الكتاب؟ قال: ورائة من آبائي وهو من ملاحم دانيال. فأنهى ذلك إلى المقتدر واغتبطوا بالحسين وبلغ الخبر إليه، فكتب إلى مفلح بالسعي في الوزارة، فعرض كتابه على المقتدر فأمره بمصالح مؤنس.

واتفق أن الكلواذي عمل حساباً بما يحتاج إليه من النفقات الزائدة على الحاصل، فكانت سبعمائة ألف دينار وكتب عليه أهل الديوان خطوطهم، وقال: ليس لهذه جهة إلا ما يطلقه أمير المؤمنين. فعظم ذلك على المقتدر، وأمر الحسين بن القاسم أن يضمن جميع النفقات وزيادة ألف ألف دينار لبيت المال. وعرض كتابه على الكلواذي فاستقال، وأذن للكلواذي لشهرين من وزارته، وولى الحسين بن القاسم واشترط أن لا يشاركه علي بن عيسى في شيء من أموره، وإخراجه الصافية. واختص به الحسين بن الزبيدي وابن الفرات. ولما ولي وأطلع على نقصان الارتباع وكثرة الإنفاق وضاق عليه الأمر فتعجل الجباية المستقبل، وصرفها في الماضي. وبلغ ذلك هارون بن غريب الحال فأنهاه إلى المقتدر، فرتب معه الخصى وأطلع على حسابيه، فألقى له حسبة ليس فيها رمزه. فأظهر ذلك المقتدر وجميع الكتاب وأطلعوا عليها وقابلوا الوزير بتصديق الخصى فيما قاله، وقبض على الحسين بن القاسم في شهر ربيع من سنة عشرين لسبعة أشهر من ولايته. واستوزر أبا الفتح الفضل بن جعفر وسلم إليه الحسين فلم يؤاخذه بإساءته ولم يزل على وزارته.

أخبار القرامطة في البصرة والكوفة

كان القرامطة قد استبد طائفة منهم بالبحرين وعليهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجناني، ورث ذلك عن أبيه واقتطعوا ذلك العمل بأسره عن الدولة، كما يذكر في أخبار دولتهم عند إفرادها بالذكر، فقد أبو طاهر البصرة سنة إحدى عشرة ومائتين وبها سبط مفلح، فكبسها ليلاً في ألفين وسبعمائة، وتسمنوا الأسوار بالحبال، وركب سبك فقتلوه ووضعوا السيف في الناس فافحشوا في القتل وغرق كثير في الماء، وأقام أبو طاهر بها سبعة عشر يوماً، وحمل ما قدر عليه من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان وعاد إلى هجر. وولى المقتدر على البصرة محمد بن عبد الله الفارقي فاتحدر إليها بعد انصرافهم عنها. ثم سار أبو طاهر القرمطي سنة اثني عشرة معترضاً للحاج في رجوعهم من مكة، فاعترض أوائلهم ونهبهم، وجاء الخبر إلى الحاج وهم بعيد، وقد

بالناس منصور الديلمي، فلما كان يوم التروسة، نهب أبو طاهر أموال الحجاج وقتل فيهم بالقتل حتى في المسجد والكعبة، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى هجر، وخرج إليه أبو غلب أمير مكة في جماعة من الأشراف، وسأله فلم يسعفهم، وقتلوه فقتلهم وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً يقتلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في زمزم ودفن الباقين في المسجد حيث قتلوا، ولم يغسلوا ولا صلى عليهم ولا كفنوا. وقسم كسوة البيت على أصحابه ونهب بيوت أهل مكة. وبلغ الخبر إلى المهدي عبيد الله بأفريقية وكانوا يظهرهون الدعاء له، فكتب إليه بالكبر واللعن ويتهده على الحجر الأسود فردده وما أمكنه من أموال الناس واعتذر عن بقية ما أخذوه بافتراقه في الناس.

خلع المقتدر وعوده

كان من أول الأسباب الداعية لذلك أن فتنة وقعت بين ماجورية هارون الحال ونازوك صاحب الشرطة في بعض مذاهب الفواحش، فحبس نازوك ماجورية هارون، وجاء أصحابه إلى محبس الشرطة ووثبوا بنائيه وأخذوا أصحابهم من الحبس. ورفع نازوك الأمر إلى المقتدر فلم يعد أحداً منهما لمكانهما منه، فعاد الأمر بينهما إلى المقاتلة وبعث المقتدر إليهما بالكثير فأقصر، واستوحش هارون، وخرج بأصحابه ونزل البستان النجمي وبعث إليه المقتدر يسترضيه، فأرجف الناس أن المقتدر جعله أمير الأمراء، فشق ذلك على أصحاب مؤنس، وكان بالرقعة فكتبوا إليه فأسرع العود إلى بغداد ونزل بالشامية مستوحشاً من المقتدر ولم يلقه، وبعث ابنه أبا العباس ووزيره ابن مقله لتلقيه وإيناسه فلم يقبل، وتمكنت الوحشة وأسكن المقتدر ابن خاله هارون معه في داره فازداد نفور مؤنس.

وجاء أبو العباس بن حمدان من بلاده في عسكر كبير، فنزل عند مؤنس وتردد الأمراء بين المقتدر ومؤنس، وسمار إليه نازوك صاحب الشرطة، وجاءه بني بن قيس، وكان المقتدر قد أخذ منه الدينور وأعادها إليه مؤنس، واشتمل عليه. وجمع المقتدر في داره هارون بن غريب وأحمد بن كيغلف والغلمان الحجرية والرجال المصافية، ثم انتفض أصحاب المقتدر وجاؤوا إلى مؤنس وذلك في فتح سنة سبع عشرة. فكتب مؤنس إلى المقتدر بأن الناس ينكرون سرفه فيما أقطع الحرم والخدم من الأموال والضياع ورجوعه إليهم في تدبير ملكه، ويطلبه بإخراجهم من الدار وإخراج هارون بن غريب معهم، وانتزع ما في أيديهم من الأموال والأملاك.

وأربعين ألف مقاتل إلى عسكر القرامطة ليخلصوا ابن أبي الساج فقاتلهم القرامطة وهزمهم. وكان أبو طاهر قد نظر إلى ابن أبي الساج وهو يستشرف إلى الخلاص، وأصحابه يشيرونه، فأحضره وقتله وقتل جميع الأسرى من أصحابه، وكثر المرحج ببغداد واتخذوا السفن بالانحدار إلى واسط ومنهم من نقل متاعه إلى حلوان. وكان نازوك صاحب الشرطة فآثر التطواف بالليل والنهار، وقتل بعض الدعار فأقصروا عن....

ثم سار القرامطة عن الأنبار فاتحة سنة ست عشرة ورجع مؤنس إلى بغداد وسمار أبو طاهر إلى الرحبة فملكها واستباحها، واستأنم إليه أهل قريسيا فأنهم، وبعث السرايا إلى الأعراب بالجزيرة فنهبهم وهربوا بين يديه، وقدر إليهم الأتاوة في كل سنة يحملونها إلى هجر. ثم سار أبو طاهر إلى الرقة وقاتلها ثلاثاً، وبعث السرايا إلى رأس عين، وكفر توتنا وسنجان فاستأنموا إليهم، وخرج مؤنس المظفر من بغداد في العسكر وقصد الرقة، فسار أبو طاهر عنها إلى الرحبة ووصلها مؤنس، وسمار القرامطة إلى هيت، فامتنعت عليهم فساروا إلى الكوفة. وخرج من بغداد نصر الحاجب وهارون بن غريب وبني بن قيس في العساكر إليها، ووصلت جند القرامطة إلى قصر ابن هبيرة. ثم مرض نصر الحاجب واستخلف على عسكره أحمد بن كيغلف، وعاد فمات في طريقه، وولى مكانه على عسكره هارون بن غريب، وولى مكانه في الحجة ابنه أحمد. ثم انصرف القرامطة إلى بلادهم، ورجع هارون إلى بغداد في شوال من السنة. ثم اجتمع بالسواد جماعات من أهل هذا المذهب بواسط وعين التمر، وولى كل جماعة عليهم رجلاً منهم، فولى جماعة واسط حريث بن مسعود، وجماعة عين التمر عيسى بن موسى وسمار إلى الكوفة ونزل بظاهرها وصرف العمال عن السواد، وجبى الخراج. وسمار حريث إلى أعمال الموفق وبني بها داراً سماها دار الهجرة، واستولى على تلك الناحية. وكان صاحب الحرب بواسط بني بن قيس فهزمه، فبعث إليه المقتدر هارون بن غريب في العساكر، وإلى قرامطة الكوفة صافياً البصري، فهزمهم من كل جانب وجاؤوا بأعلامهم يضاء عليها مكتوب ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وأدخلت إلى بغداد منكوسة، وضمحل أمر القرامطة بالسواد.

استيلاء القرامطة على مكة وقلعهم الحجر

الأسود

ثم سار أبو طاهر القرمطي سنة تسع عشرة إلى مكة وحج

الوزير ونازوك، فقال لنازوك: اخرج إليهم فسكنهم فخرج وهو متحامل من الخمار فتقدم إلى الرجالة للشكوى بحالهم ورأى السيوف في أيديهم فهرب، فحدث لهم الطمع فيه وفي الدولة، واتبعوه فقتلوه وخادمه عجيلاً ونادوا بشعار المقتدر.

وهرب كل من في الديار من سائر الطبقات وصلبوا نازوك وعجياً على شاطئ دجلة. ثم ساروا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر، وأغلق الخادم أبواب دار الخليفة، وكانوا كلهم صنائع المقتدر، وقصد أبو الهيجاء حمدان الفرات فتعلق به القاهر واستقدم به، فقال له: أخرج معي إلى عشيرتي أقتل دونك فوجد الأبواب مغلقة فقال له ابن حمدان: قف حتى أعود إليك ونزع ثيابه ولبس بعض الخلقان، وجاء إلى الباب فوجده مغلقاً والناس من ورائه، فرجع إلى القاهر وعالاً بعض الخدام على قتله، فقاتلهم حتى كشفهم، ودخل في بعض مسارب البستان فجاوزه فخرج إليهم فقتلوه وحملوا رأسه. وانتهى الرجالة إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر فسلمه إليهم وحملوه على رقابهم إلى دار الخلافة، فلما توسط الصحن المنيعي اطمان وسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان وكتب لهما الأمان بخطه، وبعث فيهما قفيل له: إن ابن حمدان قد قتل، فعظم عليه وقال: واللّه ما كان أحمد بسيف في هذه الأيام غيره، وأحضر القاهر فاستدناه وقبل رأسه وقال له: لا ذنب لك ولو لقبوك المقهور لكان أولى من القاهر وهو يبيكي ويتطارع عليه حتى حلف له على الأمان، فانبسط وسكن. وطيف برأس نازوك وابن حمدان وخرج أبو نفيس هارباً من مكان استتاره إلى الموصل، ثم إلى أرمينية، ولحق بالقسطنطينية فتتصر، وهرب أبو السرايا أخو أبي الهيجاء إلى الموصل، وأعاد المقتدر أبا علي بن مقله إلى الوزارة، وأطلق للجنود أرزاقهم وزادهم. وبيع ما في الخزانين بأرخص الأثمان وأذن في بيع الأملاك لثمة الأعطيات، وأعاد مؤنساً إلى محله من تدبير الدولة والتعويل عليه في أموره. ويقال: إنه كان مقاطعاً للمقتدر وإنه الذي دس إلى المصافية والحجرية بما فعلوه، ولذلك قعد عن الحضور إلى القاهر. ثم إن المقتدر حبس أخاه القاهر عند أمه فبالغت في الإحسان إليه والتوسعة عليه في النفقة والسراي.

أخبار قواد الديلم وتغلبهم على أعمال

الخليفة

قد تقدم لنا الخبر عن الديلم في غير موضع من الكتاب، وخبر افتتاح بلادهم بالجبال والأمصار التي تليها، مثل طبرستان

فأجاب المقتدر إلى ذلك، وكتب يستعطفه ويذكره البيعة ويخوفه عاقبة النكث، وأخرج هارون إلى الثغور الشامية والجزرية، فسكن مؤنس ودخل إلى بغداد ومعه ابن حمدان ونازوك والناس يرجفون بأنه خلع المقتدر.

فلما كان عشر محرم من هذه السنة، ركب مؤنس إلى باب الشماسية وتشاور مع أصحابه قليلاً، ثم رجعوا إلى دار الخليفة بأسرهم، وكان المقتدر قد صرف أحمد بن نصر القسوري عن الحجابة وقلدها ياقوتاً وكان على حرب فارس، فاستخلف مكانه ابنه أبا الفتح المظفر. فلما جاء مؤنس إلى الدار هرب ابن ياقوت وسائر الحجة والخدم والوزير وكل من بالدار، ودخل مؤنس فأخرج المقتدر وأمه وولده وخواص جواريه، فنقلهم إلى داره واعتقلهم بها، وبلغ الخبر هارون بن غريب بقطريل فدخل إلى بغداد واستتر، ومضى ابن حمدان إلى دار ابن طاهر فأحضر محمد بن المعتضد، وبايعوه ولقبوه القاهر بالله. وأحضروا القاضي أبا عمر المالكي عند المقتدر للشهادة عليه بالخلع، وقام ابن حمدان يتأسف له ويبيكي ويقول: كنت أخشى عليك مثل هذا ونصحتك فلم تقبل، وآثرت قول الخدم والنساء على قولي، ومع هذا فنحن عبيدك وخدمك، وأودع كتاب الخلع عند القاضي أبي عمر ولم يظهر عليه أحداً حتى سلمه إلى المقتدر بعد عوده، فحسن موقع ذلك منه وولاه القضاء. ولما تم الخلع عمد مؤنس إلى دار الخليفة فنهبها ومضى ابن نفيس إلى تربة أم المقتدر فاستخرج من بعض قبورها ستمائة ألف دينار وحملها إلى القاهر.

وأخرج مؤنس علي بن عيسى الوزير من الحبس وولى علي بن مقله الوزارة، وأضاف إلى نازوك الحجابة مع الشرطة، وأقطع ابن حمدان حلوان والدينور وهمدان وكرمان والصيمرة ونهاوند وشيراز وماسبذان مضافاً إلى ما بيده من أعمال طريق خراسان، وكان ذلك متصرف الحرم. ولما تقلد نازوك الحجابة أمر الرجالة بتقريض خيامهم من الدار وأداهم ابن جالة من أصحابه فأسفهم بذلك وتقدموا إلى خلفاء الحجاب بأن يمنحوا الناس من الدخول إلا أصحاب المراتب فاضطربت الحجرية لذلك. فلما كان سابع عشر المحرم وهو يوم الاثنين بكر الناس إلى الخليفة لحضور الموكب وامتلأت الرحاب وشاطئ دجلة بالناس، وجاء الرجالة المصافية شاكي السلاح يطالبون بحق البيعة ورزق سنة، وقد بلغ منهم الحق على نازوك مبالغة، وقعد مؤنس عن الحضور ذلك اليوم، وزرع الرجالة المصافية فنهى نازوك أصحابه أن يعرضوا لهم، فزاد شغبهم وهجموا على الصحن المنيعي، ودخل معهم من كان على الشط من العامة بالسلاح، والقاهر جالس وعنده علي بن مقله

نصر بن سامان صاحب خراسان، واعتزم على حربه وحرّب الخليفة.

ويبعث المقتدر هارون بن غريب الحال في عسكر إلى قزوین، فحاربه أسفار وهزمه وقتل كثيراً من أصحابه. ثم زحف إليه نصر بن سامان من بخارى فرأسله في الصلح وضمن أموال الجبائية، فأجابته وولاه ورجع إلى بخارى، فعظم أمر أسفار وكثر عيشه وعسف جنده، وكان قائده مرداویج من أكبر قواده قد بعث أسفار إلى سلاز صاحب سميرم، والطرم يدعوّه إلى طاعته. فاتفق مع سلاز على الوثوب بأسفار، وقد باطن في ذلك جماعة من قواد أسفار ووزيره محمد بن مطرف الجرجاني. ونمي الخبر إلى أسفار، وثار به الجند فهرب إلى يهيق. وجاء مرداویج من قزوین إلى الري، وكتب إلى ماكان بن كالي يستدعيه من طبرستان ليظاهرة على أسفار، فقصده ماكان أسفار، فهرب أسفار إلى الري ليتصل بأهله وماله، وقد كان أنزلهم بقلعة السرت. وركب المفازة إليها، ونمي الخبر إلى مرداویج فسار لاعتراضه وقدم بعض قواده أمامه فلحقه القائد وجاء به إلى مرداویج فقتله ورجع إلى الري ثم إلى قزوین، وتمكن في الملك وافتتح البلاد وأخذ همدان والدينور وقم وقاشان وأصبهان، وأساء السيرة في أهل أصبهان وصنع سريراً من ذهب لجلوسه. فلما قوي أمره نازع ماكان في طبرستان فغلبه عليها ثم سار إلى جرجان فملكها وعاد إلى أصبهان ظافراً.

وسار ماكان على الديلم مستنجداً بأبي الفضل الثائر بها، وسار معه إلى طبرستان فقاتلهم عاملها من قبل مرداویج بالقسم ابن بايحين وهزمهم، ورجع الثائر إلى الديلم وسار ماكان إلى نيسابور، ثم سار إلى الدامغان فصدّه عنها القسم فعاد إلى خراسان. وعظم أمر مرداویج واستولى على بلد الري والجبل واجتمع إليه الديلم وكثرت جموعه وعظم خرجّه. فلم يكف ما في يده من الأعمال فسمّا إلى التغلب على النواحي، فبعث إلى همدان الجيوش مع ابن أخته، وكانت بها عساكر الخليفة مع محمد بن خلف، فحاربهم وهزمهم وقتل ابن أخته مرداویج. فسار من الري إلى همدان وهرب عسكر الخليفة عنها وملكها مرداویج عنوة واستباحها، ثم أمن بقيتهم.

وانفذ المقتدر هارون بن غريب الحال في العساكر فلقية مرداویج وهزمهم واستولى على بلاد الجبل وما وراء همدان، وبعث قائده إلى الدينور ففتحها عنوة، وانتهت عساكره إلى حلوان فقتل وسبى. وسار هارون إلى قرقيسيا فاقام بها واستمد المقتدر وكان معه اليشكري من قواد أسفار، وكان قد استأمن بعد أسفار إلى الخليفة وسار في جملة. وجاء مع هارون في هذه الغزاة إلى

وجرجان وسارية وآمد واستراياد، وخبر إسلامهم على يد الأطروش، وأنه جمعهم وملك بهم بلاد طبرستان سنة إحدى وثلاثمائة، وملك من بعده أولاده والحسن بن القاسم الداعي صهره، واستعمل منهم القواد على ثغورها فكان منهم ليلى بن النعمان، كانت إليه ولاية جرجان عن الحسن ابن القاسم الداعي سنة ثمان وثلاثين. وكانت بين بني سامان وبين بني الأطروش والحسن بن القاسم الداعي وقواد الديلم حروب هلك فيها ليلى بن النعمان سنة تسع وثلاثمائة، لأن أمر الخلفاء كان قد انقطع عن خراسان، وولوها لبني سامان فكانت بسبب ذلك بينهم وبين أهل طبرستان من الحروب ما أشرنا إليه.

ثم كانت بعد ذلك حرب مع بني سامان فولاهما من قواد الديلم شرخاب بن بهبودان وهو ابن عم ماكان بن كالي وصاحب جيش أبي الحسن الأطروش، وقاتله سيمجور صاحب جيش بني سامان، فهزمه وهلك شرخاب، وولى ابن الأطروش ماكان ابن كالي على استراياد، فاجتمع إليه الديلم وقدموه على أنفسهم، واستولى على جرجان كما يذكر ذلك كله في أخبار العلوية. وكان من أصحاب ماكان هذا أسفار ابن شيرويه من قواد الديلم عن ماكان إلى قواد بني سامان. فاتصل بيكر بن محمد بن اليسع بنيسابور، وبعثه في الجنود لافتتاح جرجان، وبها أبو الحسن بن كالي نائباً عن أخيه ماكان وهو بطبرستان. فقتل أبو الحسن وقام بأمر جرجان علي بن خرشيد. ودعا أسفار بن شيرويه إلى حمايتها من ماكان، فزحف إليهم من طبرستان فهزموه وغلبوه عليها ونصبوا أبا الحسن وعلي بن خرشيد. فزحف ماكان إلى أسفار وهزمه وغلبه على طبرستان، ورجع إلى بكر بن محمد بن اليسع بجرجان.

ثم توفي بكر سنة خمس عشرة، فولى نصر بن أحمد بن سامان أسفار بن شيرويه مكانه على جرجان، وبعث أسفار عن مرداویج بن زيار الجبلي وقدمه على جيشه، وقصدوا طبرستان فملكوها. وكان الحسن بن القاسم الداعي قد استولى على الري وأعمالها من يد نصر بن سامان، ومعه قائده ماكان بن كالي. فلما غلب أسفار على طبرستان زحف إليه الداعي وقائده ماكان فانهزما وقتل الداعي ورجع ماكان إلى الري، واستولى أسفار ابن شيرويه على طبرستان وجرجان، ودعا لنصر بن أحمد بن سامان، ونزل سارية واستعمل على آمد هارون بن بهرام. ثم سار أسفار إلى الري، فأخذها من يد ماكان ابن كالي وسار ماكان إلى طبرستان واستولى أسفار على سائر أعمال الري وقزوین وزنجان وأبهر وقم والكرخ، وعظمت جيوشه وحشدته نفسه بالملك، فاتقض على

ومصادرته، فأخذ منه عشرة آلاف دينار واستأثر بها على الوزير، فلما نكب ابن مقله كتب المقتدر بخطه إلى الحاجب أحمد بن نصر القسوري بالقبض على أولاد البريدي، وأن لا يطلقهم إلا بكتابهم، فقبض عليهم وجاء أبو عبد الله بكتاب المقتدر بخطه بإطلاقهم وظهر تزويره فأحضرهم إلى بغداد وصوروا على أربعمئة ألف دينار فأعطوها.

الصوائف أيام المقتدر

سار مؤنس المظفر سنة ست وتسعين في العساكر من بغداد إلى الفرات، ودخل من ناحية ملطية ومعه أبو الأغر السلمي، فظفر وغنم وأسر جماعة. وفي سنة سبع وتسعين بعث المقتدر أبا القاسم بن سيما لغزو الصائفة سنة ثمان وتسعين. وفي سنة سبع وتسعين غزا بالصائفة رستم أمير الثغور، ودخل من ناحية طرسوس ومعه دميانة، وحاصر حصن مليح الأرمني ففتحته وأحرقه. وفي سنة ثلاثمئة مات إسكندروس بن لاور ملك الروم، وملك بعده ابنه قسطنطين ابن اثني عشرة سنة. وفي سنة اثنتين وثلاثمئة سار علي بن عيسى الوزير في ألف فارس لغزو الصائفة مدداً لبسر الخادم عامل طرسوس، ولم يتيسر لهم الدخول في المصيف، فدخلوا شاتية في كَلْب البرد وشدته، غنموا وسبوا.

وفي سنة اثنتين وثلاثمئة غزا بسر الخادم والي طرسوس بلاد الروم، ففتح وغنم وسبى وأسر مائة وخمسين. وكان السبي نحواً من ألفي رأس. وفي سنة ثلاث وثلاثمئة أغارت الروم على ثغور الجزيرة ونهبوا حصن منصور وسبوا أهله بتشاغل عسكر الجزيرة بطلب الحسين بن حمدان مع مؤنس، حتى قبض عليه كما مر. وفي هذه السنة خرج الروم إلى ناحية طرسوس والفرات فقاتلوا وقتلوا نحواً من ستمئة فارس، وجاء مليح الأرمني إلى مرعش فعاث في نواحيها، ولم يكن للمسلمين في هذه السنة صائفة.

وفي سنة أربع بعدها سار مؤنس المظفر بالصائفة ومر بالموصل فقلد سبكا المقلحي باريدي وقردي من أعمال الفرات، وقلد عثمان العبودي مدينة بلد وسنجان ووصيفاً البكتمري باقي بلاد ريعة، وسار إلى ملطية فدخل منها وكتب إلى أبي القاسم علي بن أحمد بن بسطام أن يدخل من طرسوس في أهلها، ففتح مؤنس حصوناً كثيرة وغنم وسبى ورجع إلى بغداد فأكرمه المعتضد وخلع عليه. وفي سنة خمس وثلاثمئة وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر في المهادة والقداء، فتلقيهما بالإكرام وجلس لهما الوزير في الأبهة، وصف الأجناد بالسلاح العظيم الشأن والزينة

نهارد لحمل المال إليه منها. فلما دخلها استمدت عينه إلى ثروة أهلها، فصادروهم على ثلاثة آلاف ألف دينار، واستخرجها في مدة أسبوع، وجند بها جنداً ومضى إلى أصبهان، وبها يومئذ ابن كيغلف قبل استيلاء مرداويج عليها، فقاتله أحمد وانهزم وملك الإشكري أصبهان، ودخل إليها أصحابه، وقام بظاهرها.

وسار أحمد بن كيغلف في ثلاثين فارساً إلى بعض قرى أصبهان وركب الإشكري ليتطوف على السور، فنظر إليهم فسار نحوهم فقاتلوه، وضربه أحمد بن كيغلف على رأسه بالسيف فقتل المغفر وتجاوزوه إلى دماغه فسقط ميتاً. وقصد أحمد المدينة ففر أصحاب الإشكري، ودخل أحمد إلى أصبهان وذلك قبل استيلاء عسكر مرداويج عليها، فاستولى عليها وجددوا له فيها مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي وبساتينه، وجاء مرداويج في أربعين أو خمسين ألفاً، فزحفها وبعث جمعاً إلى الأهواز فاستولوا عليها، والي خوزستان كذلك، وجبى أموالها وقسم الكثير منها في أصحابه، وادخر الباقي وبعث إلى المقتدر يطلب ولاية هذه الأعمال وإضافة همدان وماء الكوفة إليها على مائتي ألف دينار في كل سنة، فأجابهم وقاطعه وولاه وذلك سنة تسع عشرة. ثم دعا مرداويج سنة عشرين أخاه وشكمر من بلاد كيلان، فجاء إليه بدوياً حافياً بما كان يعاني من أحوال البداوة والتبذل في المعاش ينكر كل ما يراه من أحوال الترف ورقة العيش. ثم صار إلى ترف الملك وأحوال الرياسة فرقت حاشيته وعظم ترفه. وأصبح من عظماء الملوك وأعرفهم بالتدبير والسياسة.

ابتداء حال أبي عبد الله البريدي

كان بداية أمره عاملاً على الأهواز وضبط ابن مكرلان هذا الاسم بالموحدة والراء المهملة نسبة إلى البريد. وضبطه ابن مسكويه بالياء المثناة التحتانية والزاي نسبة إلى يزيد بن عبد الله بن المنصور الحميري، كان جده يخدمه ولما ولي علي بن عيسى الوزارة واستعمل العمال، وكان أبو عبد الله قد ضمن الخاصة بالأهواز وأخوه أبو يوسف على سوق فائق من الاقتصارية وأخوه على هذا. فلما وزر أبو علي بن مقله بذل له عشرين ألف دينار على أن يقلده أعمالاً فائقة، فقلده الأهواز جميعها غير السوس وجناسابور وقلد أخاه أبا الحسن القرانية وأخاهما أبا يوسف الخاصة والأسافل، وضمن المال أبا يوسف السمسار، وجعل الحسين بن محمد المارداني مشرفاً على أبي عبد الله، فلم يلتفت إليه. وكتب إليه الوزير بن مقله بالقبض على بعض العمال

والأرمن، دخلوا بلدهم خفية وقدمهم مليح الأرمني ليكونوا لهم عوناً إذا حاصروها، فقاتلهم أهل ملطية عن آخرهم. وفي سنة سبع عشرة بعث أهل الثغور الجزرية مثل ملطية وفارقين وأمد وأرزا يستمدون المقتدر في العساكر وإلا فيعطوا الأتاوة للروم فلم يمدهم، فصالحوا الروم وملكوا البلاد. وفيها دخل مفلح الساجي بلاد الروم. وفي سنة عشرين غزا نمالي بلاد الروم من طرسوس ولقي الروم فهزمهم وقتل منهم ثلاثمائة وأسر ثلاثة آلاف، وغنم من الفضة والذهب شيئاً كثيراً وعاد بالصائفة في سبته في حشد كثير، وبلغ عمورية فهرب عنها من كان تجمع إليها من الروم، ودخلها المسلمون فوجدوا من الأمتعة والأطعمة كثيراً، فغنموا وأحرقوا وتوغلوا في بلاد الروم يقتلون ويكتسحون ويخربون حتى بلغوا انكمورية التي مصرها أهده وعادوا سالمين. وبلغت قيمة السبي مائة ألف وستة وثلاثين ألف دينار.

وفي هذه السنة راسل ابن الريداني وغيره من الأرمن في نواحي أرمينية وحشروا الروم على قصد بلاد الإسلام فساروا وخربوا نواحي خلاط وقتلوا وأسروا فسار إليهم مفلح غلام يوسف بن أبي الساج من أذربيجان في جموع من الجند والمتطوعة، فأتخن في بلاد الروم حتى يقال إن القتلى بلغوا مائة ألف، وخرب بلاد ابن الرايدي ومن واقعه، وقتل ونهب. ثم جاءت الروم إلى سميساط فحاصروها وأمدهم سعيد بن حمدان، وكان المقتدر ولاء الموصل وديار ربيعة على أن يسترجع ملطية من الروم. فلما جاء رسول أهل سميساط إليهم فأجفل الروم عنها فسار إلى ملطية وبها عساكر الروم ومليح الأرمني صاحب الثغور الرومية، وبني ابن قيس صاحب المقتدر الذي تنصر. فلما أحسوا بإقبال سعيد هربوا وتركوها خشية أن يشب بهم أهلها وملكها سعيد فاستخلف عليها وعاد إلى الموصل.

الولايات على النواحي أيام المقتدر

كان بأصبهان عبد الله بن إبراهيم المسمعي عاملاً عليها، خالف لأول ولاية المقتدر وجمع من الأكراد عشرة آلاف، وأمر المقتدر بדרך الحامي عامل أصبهان بالمسير إليه. فسار إليه في خمسة آلاف من الجند وأرسل من يخوفه عاقبة المعصية، فراجع الطاعة وسار إلى بغداد واستخلف على أصبهان. وكان على اليمن المظفر بن هاج. ففتح ما كان غلب عليه الحارثي باليمن وأخذ الحامي من أصحابه. وكان على الموصل أبو الهيجاء بن حمدان، وسار أخوه الحسين بن حمدان وأوقع بأعراب كلب وطيس، وأسر سنة أربع

الكاملة، فأدبا إليه الرسالة وأدخلهما من الغد على المقتدر وقد احتفل في الأبهة ما شاء، فأجابهما إلى ما طلب ملكهم. وبعث مؤنساً الخادم للفداء، وجعله أميراً على بلد يدخله إلى أن ينصرف. وأطلق الأرزاق الواسعة لمن سار معه من الجنود، وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار للفدية. وفيها غزا الصائفة جنا الصفواني فغنم وغزا وسير نمالي الخادم في الأسطول فغنم. وفي السنة بعدها غزا نمالي في البحر كذلك، وجنا الصفواني فظفر وفتح وعاد وغزا بشر الأفشين بلاد الروم، ففتح عدة حصون وغنم وسى.

وفي سنة سبع غزا نمالي في البحر فلقى مراكب المهدي صاحب أفريقية فغلبهم وقتل جماعة منهم، وأسر خادماً للمهدي. وفي سنة عشرة وثلاثمائة غزا محمد بن نصر الحاجب من الموصل على قاليبلا، فأصاب من الروم، وسار أهل طرسوس من ملطية فظفروا واستباحوا وعادوا. وفي سنة إحدى عشرة غزا مؤنس المظفر بلاد الروم فغنم وفتح حصوناً، وغزا نمالي في البحر فغنم ألف رأس من السبي وثمانية آلاف من الظهر ومائة ألف من الغنم وشيئاً كثيراً من الذهب والفضة.

وفي سنة اثني عشرة جاء رسول ملك الروم بالهدايا ومعه أبو عمر بن عبد الباقي يطلبان الهدنة وتقرير الفداء، فأجيبا إلى ذلك. ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمون بلاد الروم فأتخنوا ورجعوا. وفي سنة أربع عشرة خرجت الروم إلى ملطية ونواحيها من الدمستق ومليح الأرمني صاحب الدروب وحاصروا ملطية وهربوا إلى بغداد واستغاثوا، فلم يغاثوا. وغزا أهل طرسوس بالصائفة فغنموا ورجعوا.

وفي سنة خمس عشرة دخلت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم فأوقع بهم الروم وقتلوا أربعمائة رجل صبراً، وجاء الدمستق في عساكر من الروم إلى مدينة ديبيل، وبها نصر السبكي فحاصرها وضيق خنقها واشتد في قتالها حتى نقب سورها، ودخل الروم إليها ودفعهم المسلمون فأخرجوهم وقتلوا منهم بعد أن غنموا ما لا يحصى وعاثوا في أنعامهم، فغنموا من الغنم ثلاثمائة ألف رأس فاكلوها. وكان رجل من رؤساء الأكراد يعرف بالضحاك في حصن له يعرف بالجعبري فتنصر وخدم ملك الروم، فلقية المسلمون في سنة الغزاة فأسروه وقتلوا من معه. وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق في عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحاً، وجعل الصليب في جامعها، ورحل إلى تدنيس ففعل بها كذلك، وهرب أهل أردن إلى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا.

وفيها ظهر أهل ملطية على سبعمئة رجل من الروم

وتسعين. ثم سار إلى الأكراد المتغلبين على نواحي الموصل سنة خمس وتسعين فاستباحهم وهربوا إلى رؤوس الجبال. وخرج بالحاج في سنة أربع وتسعين رصيف بن سوار تكين فحصره أعراب وطبيخ بالقتال وأوقعهم فهزمهم، ومضى إلى وجهه. ثم أوقع بهم هنالك الحسن بن موسى فأتخن فيهم.

وكان على فارس سنة ست وتسعين الإشكري غلام عمرو بن الليث، فلما تغلب وكان على الثغور الشامية أحمد بن كيغلف في سنة سبع وتسعين ملك الليث فارس من يد الإشكري، ثم جاءه مؤنس فغلبه وأسرته ورجع الإشكري إلى عمله كما مر في خبره. وفي سنة ست وتسعين وصل ناسر موسى بن سامان وقلد ديار ربيعة وقد مر ذكره. وفيها رجع الحسين بن حمدان من الخلاف وعقد له على قم وقاشان، فسار إليها ونزل عنها العباس بن عمر الغنوي.

وفي سنة سبع وتسعين توفي عيسى النوشري عامل مصر وولى المقتدر مكانه تكين الخادم. وفي سنة ثمان وتسعين توفي منيح خادم الأنشين وهو عامل فارس وكان معه محمد بن جعفر الفريابي فماتاً معاً. وولى على فارس عبد الله بن إبراهيم المسمعي وأضيفت إليه كرمان وفيها وليت أم موسى الهاشمية قهرمة دار المقتدر وكانت تؤدي الرسائل عن المقتدر وأمه إلى الوزراء وعن الوزراء إليهما.

وفي سنة تسع وتسعين كان على البصرة محمد بن إسحاق بن كنداج وجاء إليه القرامطة فقاتلهم فهربوا. وفي سنة ثلاثمائة عزل إبراهيم بن عبد الله المسمعي عن فارس وكرمان ونقل إليها بدر الحمامي عامل أصبهان، وولى على أصبهان علي بن وهشودان وفيها ولى بشير الأنشين طرسوس وفيها قلد أبو العباس بن المقتدر مصر والمغرب وهو ابن أربع سنين، واستخلف له على مصر مؤنس المظفر وقلد معين الطولوني المعونة بالموصل، ثم عزل واستعمل مكانه تحريك الصغير. وفيها خالف أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بالموصل فسار إليه مؤنس وجاء به على الأمان، ثم قلد الموصل سنة اثنتين وثلاثمائة فاستخلف عليها وهو ببغداد. ثم خالف أخوه الحسين سنة ثلاثمائة وسار إليه مؤنس وجاء به أسيراً فحبس وقبض المقتدر على أبي الهيجاء وإخوته جميعاً فحبسوا. وفيها ولى الحسين بن محمد بن عينة عامل الخراج والضياح بديار ربيعة بعد وفاة أبيه محمد بن أبي بكر. وفي سنة أربع عزل علي بن وهشودان صاحب الحرب بأصبهان بمنافرة وقت بينه وبين أحمد بن شاه صاحب الخراج، وولى مكانه أحمد بن مسرور البلخي. وأقام ابن وهشودان بنواحي الجبل. ثم تغلب يوسف بن أبي

ثم سار أحمد بن صعلوك إليها فقتل محمد بن سليمان وطرد وصيفاً. ثم قاطع على الأعمال بمال معلوم كما مر. وكان على أعمال سجستان كثير بن أحمد مقهور متغلباً عليها، فسار إليه أبو الحمامي عامل فارس، فخافه كثيراً وقاطع على البلاد وعقد له عليها. وكان على كرمان سنة أربع وثلاثمائة أبو زيد خالد بن محمد المارداني، فانتقض وسار إلى شيراز فقاتله بدر الحمامي وقتله. وفي هذه السنة قتل مؤنس المظفر عند مسيره إلى الصائفة وانتهائه إلى الموصل، فولوا على بلد باريدي وقردي سبكا المفلحي وعلى مدينة بلد وسنجار وباكري عثمان العبودي صاحب الحرب بديار مصر، فولى مكانه وصيف البكتكري فعجز عن القيام بها، فعزل وولى مكانه جنا الصفواني. وكان على البصرة في هذه السنة الحسن بن الخليل، تولاها منذ سنين ووقعت فتنة بينه وبين العامة في مضر وربيعة، واتصلت وقتل منهم خلق. ثم اضطروه إلى الالتحاق بواسط فاستعمل عليها أبا دلف هاشم بن محمد الخزاعي، ثم عزل لسنة وولى سبكا المفلحي نيابة عن شفيق المقتدري.

وفي سنة ست وثلاثمائة عزل عن الشرطة نزار وجعل فيها لمحجح الطولوني، فأقام في الأربع فقهاء يعمل أهل الشرطة بفتاؤهم، فضعفت الأهلية بذلك، وكثر اللصوص والعيارون، وكبست دور التجار واختطفت ثياب الناس. وفي سنة سبع وثلاثمائة ولي إبراهيم بن حمدان ديار ربيعة، وولى بني قيس بلاد شهرزور، واتسعت عليه فاستمد المقتدر وحاصرها. ثم قلد الحرب بالموصل وأعمالها، وكان على الموصل قبله محمد بن إسحاق بن كنداج، وكان قد سار لإصلاح البلاد فوقعت فتنة بالموصل فرجع إليها فمنعوه الدخول فحاصروهم. وعزله المقتدر سنة ثلاث وثلاثمائة وولى مكانه عبد الله بن محمد الغساني.

وفي سنة ثمان وثلاثمائة ولى المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان على طريق خراسان والدينور، وفيها ولى على دقوقا وعكبرا وطريق الموصل بديار الشرايين. وفي سنة تسع ولى المقتدر على حرب الموصل ومعوته محمد بن نصر الحاجب، فسار إليها وأوقع بالمخالفين من الأكراد المادراتية. وفيها ولى داود بن حمدان على

بالموصل ابن عبد الله بن حمدان، وهو ناصر الدولة فغضب وعاد إلى الخلافة. وقتل في تلك الفتنة نازوك، وأقر على أعمال قردى وباريدى التي كانت بيد أبي الهيجاء ابنه ناصر الدولة الحسن، وعلى أعمال الموصل نحريراً الصغير.

ثم ولى عليها سعيداً ونصراً ابني حمدان، وهما أخوا أبي الهيجاء. وولى ناصر الدولة على ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين وميافارقين من ديار بكر وأرزن على مقاطعة معلومة. وفي سنة ثمان عشرة صرف ابن رائق عن الشرطة، ووليها أبو بكر محمد بن ياقوت عن الحجبة وقلد أعمال فارس وكرمان. وقلد ابنه المظفر أصبهان وابنه أبا بكر محمداً سجستان وجعل مكان ياقوت وولده في الحجبة والشرطة إبراهيم ومحمد ابن رائق، فأقام ياقوت بشيراز وكان علي بن خلف بن طيان على الخوارج، فتعاقدوا على قطع الحمل عن المقتدر إلى أن ملك علي بن بويه بلاد فارس سنة ثلاث وعشرين. وفي هذه السنة غلب مرداويش على أصبهان وهمذان والري وحلوان، وقاطع عليها مال معلوم وصارت في ولايته.

استيحاء مؤنس من المقتدر ومسيره إلى الموصل

كان الحسين بن القاسم بن عبد الله بن وهب وزيراً للمقتدر، وكان مؤنس منحرفاً عنه قبل الوزارة حتى أصلح بليق حاله عند مؤنس، فوزر واختص به بنو البريدي وابن الفرات. ثم بلغ مؤنس أن الحسين قد واطأ جماعة من القواد في التدبير عليه، فتكر له مؤنس وضائق الدنيا على الحسين وبلغه أن مؤنساً يكسبه، فانتقل إلى دار الخلافة وكتب الحسين إلى هارون بن غريب الحال يستقدمه، وكان مقيماً بدير العاقول بعد انهزامه من مرداويش، كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه من الأهواز فاستوحش مؤنس. ثم جمع الحسين الرجال والغلمان الحجرية في دار الخلافة، وأتفق فيهم فعضمت نفرة مؤنس، وقدم هارون من الأهواز فخرج مؤنس مغاضباً للمقتدر وقصد الموصل، وكتب الحسين إلى القواد الذين معه بالرجوع فرجع منهم جماعة، وسار مؤنس في أصحابه ومواليه ومعه من الساجية ثمانمائة من رجالهم، وتقدم الوزير بقبض أملاكه وأملاك من معه وأقطعهم فحصل منه مال كثير، واغبط المقتدر به لذلك ولقيه عميد الدولة ورسم اسمه في السكة وأطلق يده في الولاية والعزل، فولى على البصرة وأعمالها أبا يوسف يعقوب بن محمد البريدي على مبلغ ضمنه،

ديار ربيعة. وفي سنة عشر عقد ليوسف بن أبي الساج على الري وقزوین وأبهر وزنجان وأذربيجان على تقدير العلوية كما مر. وفيها قبض المقتدر على أم موسى القهرمانة لأنها كانت كثيرة المال، وزوجت بنت أختها من بعض ولد التوكل، كان مرشحاً للخلافة، وكان محسناً فلما صاهرته أوسعت في الشوار واليسار والعرس، وسعى بها إلى المقتدر أنها استخلصت القواد فقبض عليها وصادرها على أموال عظيمة وجواهر نفيسة. وفيها قتل خليفة نصر بن محمد الحاجب بالموصل، قتله العامة فجهز العساكر من بغداد، وسار إليها.

وفي سنة إحدى عشرة ملك يوسف بن أبي الساج الري من يد أحمد بن علي صعلوك، وقتله المقتدر وقد مر خبره. وفيها ولى المقتدر بُي بن قيس على حرب أصبهان، وولى محمد بن بدر المعتضدي على فارس مكان ابنه بدر عندما هلك. وفي سنة اثنتي عشرة ولى على أصبهان يحيى الطولوني، وعلى المعاون والحرب بنهاوند سعيد بن حمدان. وفيها توفي محمد بن نصر الحاجب صاحب الموصل وتوفي شفيع اللؤلؤي صاحب البريد، فولى مكانه شفيع المقتدري.

وفي سنة ثلاث عشرة فتح إبراهيم المسمعي عامل فارس ناحية القفص من حدود كرمان، وأسر منهم خمسة آلاف، وكان في هذه السنة ولى على الموصل أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان وابنه ناصر الدولة خليفة فيها، فأفسد الأكراد والعرب بأرض الموصل وطريق خراسان وكانت إليه، فكتب إليه ابنه ناصر الدولة سنة أربع عشرة بالانحدار إلى تكريت للقائه، فجاءه في الحشد وأوقع بالعرب والأكراد الخلالية وحسم علتهم. وفيها قلد المقتدر يوسف بن أبي الساج أعمال الشرق وعزل عن أذربيجان وولاه واسط، وأمدّه بالسير إليها لحرب القرامطة وأقطعهم همذان وسامو وقاشان وماء البصرة وماء الكوفة وماسبذان للنفقة في الحرب، وجعل على الري من أعماله نصر بن سامان، فوليها وصار من عماله كما مر.

وفيها ولى أعمال الجزيرة والضياع بالموصل أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان وأضيف إليه باريدى وقردى وما إليهما. وفيها قتل ابن أبي الساج كما مر. وفي سنة خمس عشرة مات إبراهيم المسمعي بالنویندجان، وولى المقتدر على مكانه ياقوت، وعلى كرمان أبا طاهر محمد بن عبد الصمد. وفي سنة ست عشرة عزل أحمد بن نصر القسوري عن حجة الخليفة ووليها ياقوت وهو على الحرب بفارس واستخلف عليها ابنه أبا الفتح المظفر. وفيها ولى على الموصل وأعمالها يونس المؤنسي، وكان على الحرب

مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق وابنه علي، واستقدم أبا علي بن مقله من فارس فاستوزره، واستحجب علي بن بليق. ثم قبض على أم المقتدر وضربها على الأموال فلحقت فامرها بحمل أوقافها فامتعت، فأحضر هو القضاة وأشهد محل أوقافها ووكل في بيعها، فاشتراها الجند من أرزاقهم، وصادر جميع حاشية المقتدر، واشتد في البحث عن ولده وكبس عليهم المنازل إلى أن ظفر بأبي العباس الراضي وجماعة من إخوانه وصادهم وسلمهم علي بن بليق إلى كاتبه الحسين بن هارون، فأحسن صحبتهم وقبض الوزير ابن مقله على البريدي وإخوانه وأصحابه وصادهم على جملة من المال.

خبر ابن المقتدر وأصحابه

قد ذكرنا أن عبد الواحد بن المقتدر لحق بعد مقتل أبيه بالمداين، ومعه هارون بن غريب الحال ومفلح ومحمد بن ياقوت وابنا رائق. ثم انحدروا منها إلى واسط وأقاموا بها، وخشيهم القاهر على أمره واستأمن هارون بن غريب على أن يبدل ثلاثمائة ألف دينار وتطلق له أملاكه، فأمنه القاهر ومؤنس وكتب له بذلك وعقد له على أعمال ماه الكوفة وماسبذان ومهروبان، وسار إلى بغداد وسار عبد الواحد بن المقتدر فيمن معه من واسط، ثم إلى السوس وسوق الأهواز، وطردهوا العمال وجبا الأموال.

وبعث مؤنس إليهم بليقاً في العساكر وبذل أبو عبد الله البريدي في ولاية الأهواز خسين ألف دينار فأنفقت في العساكر. وسار معهم وانتهوا إلى واسط ثم إلى السوس، فجاز عبد الواحد ومن معه من الأهواز إلى تستر، ثم فارقه جميع القواد واستأمنوا إلى بليق إلا ابن ياقوت ومفلحاً ومسروراً الخادم، وكان محمد بن ياقوت مستبداً على جميعهم في الأموال والتصرف، فنفروا لذلك واستأمنوا لأنفسهم ولابن المقتدر إلى بليق، فأمنهم بعد أن استأمنوا محمد بن ياقوت وأذن لهم، ثم استأمن هو على بليق إلى أمان القاهر ومؤنس، وساروا إلى بغداد جميعهم فوفى لهم القاهر وأطلق لعبد الواحد أملاكه وترك لأمه المصادرة التي صادرها، واستولى أبو عبد الله البريدي على أعمال فارس وأعاد إخوانه إلى أعمالهم.

مقتل مؤنس وبليق وابنه

لما رجع محمد بن ياقوت من الأهواز واستخلصه القاهر واختصه لخلواته وشوراه، وكانت بينه وبين الوزير ابن علي بن مقله عداوة، فاستوحش لذلك ودس إلى مؤنس أن محمد بن ياقوت يسعى به عند القاهر، وأن عيسى الطبيب سفيره في ذلك،

وكتب إلى سعيد وداود ابني حمدان وابن أخيهما ناصر الدولة الحسين بن عبد الله بمحاربة مؤنس، فاجتمعوا على حربه إلا داود فإنه توقف لإحسان مؤنس إليه وتربيته إياه.

ثم غلبوا عليه فوافقه على حربه، وجمع مؤنس في طريقه رؤساء العرب وأوهمهم أن الخليفة ولاء الموصل وديار ربيعة، ففر معه بعضهم واجتمع له من العسكر ثمانمائة وزحف إليه بنو حمدان في ثلاثين ألفاً فهزمهم وملك مؤنس الموصل في صفر من سنة عشرين، وجاءته العساكر من بغداد والشام ومصر رغبة في إحسانه. وعاد ناصر الدولة بن حمدان إلى خدمته وأقام معه بالموصل ولحق سعد ببغداد.

مقتل المقتدر وبيعة القاهرة

ولما ملك مؤنس الموصل أقام بها تسعة واجتمعت العساكر فأنحدر إلى بغداد لقتال المقتدر، وبعث المقتدر الجنود مع أبي محمد بن ياقوت وسعيد بن حمدان، فرجع عنهم العسكر إلى بغداد ورجعوا وجاء مؤنس فنزل بباب الشماسية والقواد قبائله، ونذب المقتدر ابن خاله هارون بن غريب إلى الخوارج لقتاله، فاعتذر ثم خرج، وطالبوا المقتدر بالمال لتنفقات الجند فاعتذر وأراد أن ينحدر إلى واسط ويستدعي العساكر من البصرة والأهواز وفارس وكرمان، فردّه ابن ياقوت عن ذلك وأخرجه للحرب وبين يديه الفقهاء والقواد والمصاحف مشهورة وعليه البردة والناس يحدقون به، فأنهزم أصحابه ولقيه علي بن بليق من أصحاب مؤنس، فعظمه وأشار عليه بالرجوع ولحقه قوم من المغاربة والبربر فقتلوه وحملوا رأسه وتركوه بالعراء، فدفن هنالك. ويقال إن علي بن بليق أشار إليهم بقتله. ولما رأى مؤنس ذلك ندم وسقط في يده وقال: واللّه لنقتلن جميعاً، وتقدم إلى الشماسية وبعث من يتحاط على دار الخلافة وكان ذلك لخمس وعشرين سنة من خلافة المقتدر.

فانتسح الخرق وطمع أهل القاصية في الاستبداد وكان مهملًا لأمر خلافته محكماً للنساء والخدم في دولته مبدراً لأمواله. ولما قتل لحق ابنه عبد الواحد بالمداين ومعه هارون بن غريب الحال ومحمد بن ياقوت وإبراهيم بن رائق. ثم اعتزم مؤنس على البيعة لولده أبي العباس وكان صغيراً، فعزله وزيره أبو يعقوب إسماعيل النوبختي في ولاية صغير في حجر أمه وأشار بأخيه أبي منصور محمد بن المعتضد، فأجاب مؤنس إلى ذلك على كره، وأحضره وبويع آخر شوال من سنة عشرين، ولقبوه القاهر بالله. واستخلفه

ورئاسة الجيش وإمارة الأمراء وبيوت الأموال كما كان مؤنس وأمض إليه وأحمله إلى دار الخلافة مرفهاً عليه لئلا يجتمع إليه أهل الشر ويفسد ما بيننا وبينه، فسار طريقاً إلى مؤنس وأخبره بأمان القاهر له ولأصحابه، وحمله على الحضور عنده وهون عليه أمره، وأن القاهر لا يقدر على مكروهه.

فركب وحضر فقبض عليه القاهر وحبسه قبل أن يراه، وندم طريقاً على ما فعل واستوحش. واستوزر القاهر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، ووكّل بدور مؤنس وبلق وابنه علي وابن مقلّة وابن زيرك وابن هارون ونقل ما فيها، وأحرق دار ابن مقلّة وجاء محمد بن ياقوت وقام بالحجبة، فتكرّر له طريق السيكرى والساجية فاخفى ولحق بابنه بفارس، وكتب إليه القاهر بالعتب على ذلك وولاه الأهواز، وكان الذي دعا طريقاً السيكرى إلى الاغراف عن مؤنس وبلق أن مؤنساً رفع رتبة بلق وابنه عليه بعد أن كانا يخدمانه، فأهمل جانبهم. ثم اعتزم بلق على أن يوليه مصر وفاراض في ذلك الوزير ابن مقلّة، فوافق عليه. ثم أراد علي بن بلق عمل مصر لنفسه، ومنع من إرسال طريق فترى بهم. وأما الساجية فكانوا مع مؤنس بالموصل وكان يعدهم ويمنيهم. ولما ولي القاهر واستبد بأمره لم يف لهم. وكان من أعيانهم الخادم صندل، وكان له بدار القاهر خادم اسمه مؤمن باعه واتصل بالقاهر قبل الخلافة، فلما شرع في التدبير على مؤنس وبلق بعث مؤنساً هذا إلى صندل يمت إليه تقديمه ويدخله في أمر القاهر وإزالة الحجر عنه. فقصده إلى صندل وزوجته وتلفف ووصف القاهر بما شاء من محاسن الأخلاق، وحمل زوجته على الدخول إلى دار القاهر حتى شافها بما أراد إبلاغه إلى صندل، ودخل صندل في ذلك سيما من قواد الساجية، واتفقوا على مداخلة طريق السيكرى في ذلك لعلهم باستيحاشه من مؤنس، فأجابهم على شريطة الإبقاء على مؤنس وبلق وابنه، وأن لا ينزل مؤنس من مرتبته وتحالفوا على ذلك من الجانبين.

وطلب طريق عهد القاهر بخطه، فكتب وزاد فيه أنه يصلي بالناس ويخطب لهم ويحج بهم ويفوز معهم ويتشد لكشف المظالم وغير ذلك من حسن السيرة، وكان جماعة من الحجرية قد أبعدهم ابن بلق وأزال منهم بأصحابه، فدخلهم طريق في أمر القاهر فأجابوه، وغني الخبر بذلك إلى ابن مقلّة وإلى بلق، وأرادوا القبض على قواد الساجية والحجرية: ثم خشوا الفتنة ودبروا على القاهر فلم يصلوا إليه لاحتجابه عنهم بالمرض. فوضعوا أخبار القرامطة كما قدمناه.

ولما قبض القاهر على مؤنس ولي الحجابة سلامة الطولوني.

فبعث مؤنس علي بن بلق لإحضار عيسى، وتقدم علي بن بلق بالاحتياط على القاهر، فوكل به أحمد بن زيرك وضيق على القاهر وكشف وجوه النساء المختلفات إلى القصر خشية إيصالهم الرقاع إلى القاهر حتى كشفت أواني الطعام، ونقل بلق الحاييس من دار الخلافة إلى داره وفيهم أم المقتدر فأكرمها علي بن بلق وأزناها عند أمه فماتت في جمادى من سنة إحدى وعشرين. وعلم القاهر أن ذلك من مؤنس وابن مقلّة فشرع في التدبير عليهم وكان طريق السيكرى ونشري من خدم مؤنس قد استوحشا مؤنس لتقدم بلق وابنه عليهما. وكان اعتماد مؤنس على الساجية وقد جاؤوا معه من الموصل ولم يوف لهم فاستوحشوا لذلك، فدخلهم القاهر جميعاً وأغرامهم بمؤنس وبلق، وبعث إلى أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله وكان مختصاً بابن مقلّة وصاحب رأي! فوعده بالوزارة فكان يطالعه بالأخبار. وشعر ابن مقلّة بذلك فابلغوا إلى مؤنس وبلق، وأجمعوا على خلع القاهر، واتفق بلق وابنه علي وابن مقلّة والحسن بن هارون على البيعة لأبي أحمد بن المكتفي فبايعوه، وحلفوا له وأطلعوا مؤنساً على ذلك، فأشار بالمهل وتأنيس القاهر حتى يعوفوا من واطأه من القواد والساجية والحجرية فأبوا وهونوا عليه الأمر في إستعجال خلعه فآذن لهم، فأشاعوا أن أبا طاهر القرمطي ورد الكوفة، وندبوا علي بن بلق للمسير إليه ليدخل اللوداع ويقبض على القاهر وابن مقلّة كان نائماً فلما استيقظ أعاد الكتاب إلى القاهر فاستراب. ثم جاءه طريق السيكرى غلام مؤنس في زي امرأة مستنصحاً، فأحضره وأطلعه على تدبيرهم وبيعتهم لأبي أحمد بن المكتفي فأخذ القاهر حذره، وأكمن الساجية في دهاليز القصر وممراته، وجاء علي بن بلق في خف من أصحابه، واستأذن فلم يؤذن له، وكان ذا خمار فغضب وأفحش في القول فأسخرج الساجية في السلاح وشتموه وردوه، وفر عنه أصحابه وألقي بنفسه في الطيار وعبر إلى الجانب الغربي.

واخفى الوزير ابن مقلّة والحسن بن هارون، وركب طريق إلى دار القاهر، فأنكر بلق ما جرى لإنه وشتم الساجية وقال: لا بد أن أستعدي الخليفة عليهم، وجاء إلى القاهر ومعه قواد مؤنس، فلم يأذن له وقبض عليه وحبسه، وعلى أحمد بن زيرك صاحب الشرطة، وجاء العسكر منكبين لذلك فاسترضاهم ووعدهم بالزيارة وبإطلاق هؤلاء المحبوسين فافترقوا، وبعث إلى مؤنس بالحضور عنده ليطالعه برأيه فأبى فعزله، وولى طريق السيكرى مكانه وأعطاه خاتمه وقال: قد فوضت إلى ابني عبد الصمد ما كان المقتدر فوضه إلى ابنه محمد، وقلدتك خلافتك

يرجعوا إليه إذا صلح أمره، فساروا إلى مرداويج فقبلهم وأكرمهم، واستأمن إليه جماعة ومن قواد ماكان فقتلهم وأولادهم. وولى علي بن بويه على الكرج، وكان أكبر إخوته. وسار جميعهم إلى الري وعليها وشمكير بن وزير أخو مرداويج ومعه وزيره الحسين بن محمد الملقب بالعميد، فاتصل به علي بن بويه وأهدى إليه بغلة كانت عنده ومتاعاً، وندم مرداويج على ولاية هؤلاء المستأمنة من قواد ماكان، فكتب إلى أخيه وشمكير بالقبض على الباقين، وأراد أن يبعث في أثر علي بن بويه فخشي الفتنة وتركه.

ولما وصل علي بن بويه إلى الكرج استقام أمره وفتح قلاعاً للخرمية ظفر منها ب ذخائر كثيرة، واستمال الرجال وعظم أمره، وأحبه الناس، ومرداويج يومئذ بطبرستان. ثم عاد إلى الري وأطلق مالأً لجماعة من القواد على الكرج فوصلوا إلى علي بن بويه فأحسن إليهم واستمالهم، وبعث إليهم مرداويج فدافعه فندم على إطلاقهم، وبعث فيهم مرداويج أمراء الكرج فاستأمن إليه شيرزاد من أعيان قواد الديلم. فقويت نفسه وسار إلى أصبهان وبها المظفر بن ياقوت على الحرب في عشرة آلاف مقاتل، أبو علي بن رستم على الخوارج، فأرسل علي بن بويه يستعطفهما في الانحياز إلى طاعة الخليفة وخدمته، والمسير إلى الحضرة فلم يجيباه. وكان أبو علي أشد كراهة له فمات تلك الأيام.

وسار ابن ياقوت ثلاثة فراسخ عن أصبهان، وكان في أصحابه حسل وديلم، واستأمنوا إلى ابن بويه، ثم اقتتلوا فانهزم ابن ياقوت واستولى علي بن بويه على أصبهان، وهو عماد الدولة، وكان عسكره نحواً من تسعمائة، وعسكر ابن ياقوت نحواً من عشرة آلاف. وبلغ ذلك القاهر فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقته وخاف على ما بيده، وبعث إلى عماد الدولة يخادعه يطلب الطاعة منه ليطمئن للرسالة، ويخالفه أخوه وشمكير في العساکر. وشعر ابن بويه بذلك فرحل عن أصبهان وقصد أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت، فانهزم أبو بكر من غير قتال ولحق برامهرمز. واستولى ابن بويه على أرجان وخالفه وشمكير أخو مرداويج إلى أصبهان فملكها، وأرسل القاهر إلى مرداويج بأن يسلم أصبهان لحمد بن ياقوت ففعل. وكتب أبو طالب يستدعيه ويهون عليه أمر ابن ياقوت ويغريه به، فخشي ابن بويه من كثرة عساکر ياقوت وأمواله، وأن يحصل بينه وبين ابنه تأهبات فتوقف، فأعدى عليه أبو طالب وأراه أن مرداويج طلب الصلح من ابن ياقوت وخوفه اجتماعهما عليه. فسار ابن بويه إلى أرجان في ربيع سنة إحدى وعشرين ولقيتهم هنالك مقدمة ابن ياقوت فانهزمت، فزحف ابن ياقوت إليهم وبعث عماد الدولة أخاه ركن الدولة الحسن إلى

وعلى الشرطة أحمد بن خاقان، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله مكان ابن مقله، وأمر بالنداء على التسترين والوعيد لمن أخفى، وطلب أبا أحمد بن المكثفي فظفر به، وبنى عليه حائطاً فمات. ثم ظفر بعلي فقتله. ثم شغب الجند في شعبان ومعهم أصحاب مؤنس، وثاروا ونادوا بشعاره، وطلبوا إطلاقه وأحرقوا روشن دار الوزير أبي جعفر. فعمد القاهر إلى بليق في محبسه وأمر به فذبح وحمل الرأسين إلى مؤنس، فلما رأهما مؤنس استرجع ولعن قاتلهما فأمر به فذبح وطيف بالرووس. ثم أودعت بالخزانة. وقيل: إن قتل علي بن بليق تأخر عن قتل أبيه ومؤنس لأنه كان مختفياً، فلما ظفر به بعدهما قتله. ثم بعث القاهر إلى أبي يعقوب إسحاق بن إسماعيل اليوصحي فأخذ من محبس الوزير محمد بن القاسم وحبسه، وارتاب الناس من شدة القاهر، وندم الساجية والحجرية على مداخلته في ذلك الأمر. ثم قبض القاهر على وزيره أبي جعفر وأولاده وأخيه عبيد الله وخدمة لثلاثة أشهر ونصف من ولايته، ومات لثمان عشرة ليلة من حبسه، واستوزر مكانه أبا العباس أحمد بن عبيد الله بن سليمان الحصببي. ثم استبد القاهر على طريف السيكري واستخف به، فخافه وتكره. ثم أحضره بعد أن قبض على الوزير أبي جعفر فقبض عليه وأودعه السجن إلى أن خلع القاهر.

ابتداء دولة بني بويه

كان أبوهم أبو شجاع بويه من رجالات الديلم، وكان له أولاد علي والحسن وأحمد، فعلي أبو الحسن عماد الدولة، والحسن أبو علي ركن الدولة، وأحمد أبو الحسن معز الدولة. ونسبهم ابن ماکولا في الساسانية إلى بهراعور بن يزدجرد، وابن مسكوية إلى يزدجرد بن شهريار، وهو نسب مدخول، لأن الرياسة على قوم لا تكون في غير أهل بلدهم كما ذكرنا في مقدمة الكتاب.

ولما أسلم الديلم على يد الأطروش وملك بهم طبرستان وجرجان، وكان من قواده ماكان بن كالي وليلى بن النعمان وأسفار بن شيرويه ومرداويج بن وزير، وكانوا ملوكاً عظاماً وازدحموا في طبرستان، فساروا لملك الأرض عند اختلاط الدولة العباسية وضعفها، وقصدوا الاستيلاء على الأعمال والأطراف. وكان بنو بويه من جملة قواد ماكان بن كالي فلما وقع بينه وبين مرداويج من الفتنة والخلاف ما تقدم، وغلبه مرداويج على طبرستان وجرجان عادوا إلى مرداويج لتخف عنه مؤنتهم على أن

ويعث إلى الحجرية فجمعهم عنده وتحالفوا على خلع القاهر، وزحفوا إلى الدور وهجموا عليه فقام من النوم ووجد الأبواب مشحونة بالرجال فهرب إلى السطح، ودلهم عليه خادم فجاؤوه واستدعوه للنزول فأبى فتهددوه بالرشق بالسهم فنزل وجاؤوا به إلى محبس طريف السيكري فحسوه مكانه وأطلقوه حتى سمل بعد ذلك، وذلك لسنة ونصف من خلافته.

وهرب الحصبي وزيره وسلامة حاجبه. وقد قيل في خلعه غير هذا وهو: أن القاهر لما تمكن من الخلافة اشد على الساجية والحجرية واستهان بهم، فتشاكروا ثم خافه حاجبه سلامة لأنه كان يطالبه بالأموال ووزيره الحصبي كذلك، وحفر المطامير في داره فارتابوا به كما ذكرنا. وأسر جماعة من القرامطة فحبسهم بتلك المطامير وأراد أن يستظهر بهم على الحجرية والساجية فتنكروا ذلك وقالوا فيه للوزير وللحاجب، فأخرجهم من الدار وسلمهم لمحمد بن ياقوت صاحب الشرطة وأوصاه إليهم فازداد الساجية والحجرية ربة. ثم تنكر لهم القاهر وصار يعلن بدمهم وكرهتهم فاجتمعوا لخلعه كما ذكرنا.

ولما قبض القاهر بمحنا عن أبي العباس بن المعتدر وكان محبوساً مع أمه، فأخرجوه وباعوه في جمادى سنة اثنتين وعشرين، وباعه القواد والناس، وأحضر علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وصدر عن رأيهما، وأراد علي بن عيسى على الوزارة فامتنع واعتذر بالنكير، وأشار بابن مقله فامنه واستوزره. وبعث القضاء إلى القاهر ليخلع نفسه فأبى فسمل وأمن ابن مقله الحصبي وولاه وولى الفضل بن جعفر بن الفرات نائباً عنه عن أعمال الموصل وقرى وباريدى وماردين وديار الجزيرة وديار بكر وطريق الفرات والنفور الجزرية والشامية وأجناد الشام وديار مصر يعزل ويولي من يراه في الخراج والمعادن والنفقات والبريد وغير ذلك.

وولى الراضي على الشرطة بداراً الحمامي وأرسل إلى محمد بن رائق يستدعيه، وكان قد استولى على الأهواز ودفع عنها ابن ياقوت من تلك الولاية إلى السوس وجنديسابور، وقد ولى على أصبهان وهو يروم المسير إليها. فلما ولي الراضي استدعاه للحجابة فسار إلى واسط، وطلب محمد بن ياقوت الحجابة فأجيب إليها فسار في أثر ابن رائق، وبلغ ابن رائق الخبر فسار من واسط مسبقاً لابن ياقوت بالملائن توقيع الراضي بالحرب، والمعادن في واسط مضافاً إلى ما بيده من البصرة والمعادن، فعاد منحدرًا في دجلة ولقيه ابن ياقوت مصعداً ودخل بغداد وولى الحجة وصارت إليه رئاسة الجيش ونظر في أمر الدواوين وأمرهم بحضور مجلسه، وأن لا ينفذوا توقيعاً في ولاية أو عزل أو إطلاق إلا بخطه، وصار

كازرون وغيرها من أعمال فارس، فجى أموالها ولقي عسكر ابن ياقوت هنالك فهزمهم ورجع إلى أخيه، وخشي عماد الدولة من اتفاق مرداويج مع ابن ياقوت فسار إلى أصطخر، واتبعه ابن ياقوت وشيعة إلى قطرة بطريق كرمان اضطروا إلى الحرب عليهما. فتزاحفوا هنالك واستأمن بعض قواده إلى ابن ياقوت فقتلهم، فاستأمن أصحابه وانهمز ابن ياقوت واتبعه ابن بويه واستباح معسكره، وذلك في جمادى سنة اثنتين وعشرين.

وأبلى أخوه معز الدولة أحمد في ذلك اليوم بلاء حسناً، ولحق ابن ياقوت بواسط، وسار عماد الدولة إلى شيراز فملكها وأمن الناس واستولى على بلاد فارس، وطلب الجند أرزاقهم فعجز عنها وعثر على صناديق من مخلف ابن ياقوت وذخائر بني الصفار فيها خمسمائة ألف دينار فامتلات خزائنه وثبت ملكه. واستقر ابن ياقوت بواسط وكتبه أبو عبد الله اليزيدي حتى قتل مرداويج. عاد إلى الأهواز ووصل عسكر مكرم، وكانت عساكر ابن بويه سبقته فالتقوا بنواحي أرجان وانهمز ابن ياقوت فأرسل أبو عبد الله اليزيدي في الصلح فأجاب ابن بويه، واستقر ابن ياقوت بالأهواز ومعه ابن اليزيدي وابن بويه ببلاد فارس. ثم زحف مرداويج إلى الأهواز وملكها من يد ابن ياقوت، ورجع إلى واسط وكتب إلى الراضي. وكان بعد القاهر كما نذكره، وإلى وزيره أبي علي بن مقله بالطاعة والمقاطعة فيما بيده من البلاد بأعمال فارس على ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك وبعث إليه باللواء والخلع وعظم شأنه في فارس وبلغ مرداويج شأنه فخاف غائلته، وكان أخوه وشمكير قد رجع إلى أصبهان بعد خلع القاهر وصرف محمد بن ياقوت عنها، فسار إليها مرداويج للتبدير على عماد الدولة وبعث أخاه وشمكير على الري وأعمالها.

خلع القاهر وبيعة الراضي

ولما قتل القاهر مؤنساً وأصحابه أقام يتطلب الوزير أبا علي بن مقله والحسن بن هارون وهما مستتران، وكتبا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويغريانهم بالقاهر، فيأنهم غرّوه كما فعل بأصحابه قبلهم. وكان ابن مقله يجتمع بالقواد ويراسلهم ويغييهم إليهم متكرراً ويغريهم، ووضعوا على سيما أن منجماً أخبره أنه ينكب القاهر ويقتله، ودسوا إلى معبر كان عنده أموالاً على أن يجذره من القاهر، فنفر واستوحش، وحفر القاهر مطامير في داره، فقبل لسيما والقواد: إنما صنعت لكم فازدادوا نفرة. وكان سيما رئيس الساجية فارتاب بالقاهر وجع أصحابه وأعطاهم السلاح،

نظر الوزير في الحقيقة له وابن مقلّة مكابر مجلسه مع جملتهم ومتميز عنهم في الإيثار والمجلس فقط.

مقتل هارون

فلما استولى عليها مرداويج وانهزم ابن ياقوت كما مر رجع البريدي إلى البصرة وصار يتصرف في أسافل الأهواز مع كنانة ياقوت. ثم سار إلى ياقوت فأقام معه بواسطة، فلما قبض على ابن ياقوت وكتب ابن مقلّة إليه وإلى ياقوت يعتذر عن قبض ابن ياقوت ويأمرهما بالسير لفتح فارس، فسار ياقوت على السوس والبريدي على طريق الماء حتى انتهى إلى الأهواز. وكان إلى أخويه أبي الحسن وأبي يوسف ضمان السوس وجنديسابور، وادعيا أن دخل البلاد أخذه مرداويج. وبعث ابن مقلّة ثانياً لتحقيق ذلك، فوافاهم وكتب بصدقهم، فاستولى ابن البريدي ما بين ذلك على أربعة آلاف ألف دينار، ثم أشار أبو عبد الله بن علي بن ياقوت بالسير لفتح فارس، وأقام هو لجباية الأموال فحصل منها بغيته. وسار ياقوت فلقبه ابن بويه على أرجان فهزمه وسار إلى عسكر مكرم. واتبه ابن بويه إلى رامهرمز وأقام بها إلى أن اصطالحا.

مقتل ياقوت

قد تقدم لنا انهزام ياقوت من فارس أمام عماد الدولة ابن بويه إلى عسكر مكرم واستيلاء ابن بويه على فارس. وكان أبو عبد الله البريدي بالأهواز ضامناً كما تقدم. وكان مع ذلك كاتباً لياقوت، وكان ياقوت يستنم إليه ويثق به، وكان مغفلاً ضعيف السياسة فخادعه أبو عبد الله البريدي وأشار عليه بالمقام بعسكر مكرم وأن يبعث إليه بعض جنده الواصلين من بغداد تخفيفاً للمؤنة وتحذيراً من شغبهم. وبعث إليه أخاه بذلك أبا يوسف ودفع له من مال الأهواز خسين ألف دينار. ثم قطع عنه فضايق الحال عليه وعلى جنده، وكان قد نزع إليه من أصحاب ابن بويه طاهر الحمل وكاتبه أبو جعفر الصهري، ثم انصرف عنه لضيق حاله إلى غربي تستر ليتغلب على ماء البصرة، فكبسه ابن بويه وغنم معسكره وأسر الصهري فشفع فيه وزيره وأطلقه، فلحق بكرمان واتصل بعد ذلك بمعز الدولة ابن بويه واستكتبه.

ولما انصرف طاهر عن ياقوت كتب إلى البريدي يشكو ضعفه واستطالة أصحابه، فأشار عليه بإرسالهم إلى الأهواز متعزفين لقومهم. فلما وصلوا إليه انتقى خيارهم ورد الباقيين، وأحسن إلى من عنده. وبعث ياقوت إليه في طلب المعز فلم يبعث إليه، فجاهه بنفسه فقتله وترجل إليه وقبل يده، وأنزله بداره وقام في خدمته أحسن مقام، ووضع الجند على الباب يشغبون ويرومون قتله، فأشار إليه بالنجاة، فعاد إلى عسكر مكرم فكتب إليه يحذره اتباعهم، وإن عسكر مكرم على ثمانية فراسخ من

كان هارون بن غريب الحال على ماء الكوفة والدينور وماسبذان سائر الأعمال التي ولاها القاهر إياه، فلما خلع القاهر واستخلف الراضي رأى هارون أنه أحق بالدولة من غيره لأنه ابن خال المقتدر، فكتب القواد ووعدهم وسار من الدينور إلى خاتقين وشكا ابن مقلّة وابن ياقوت والحجرية والساجية إلى الراضي فأذن لهم في منعه، فراسلوه أولاً بالممانعة. والزيادة على ما في يده من الأعمال، فلم يلتفت إليهم وشرع في الجباية فغويت شوكته، فسار إليه محمد بن ياقوت في العساكر وهرب عنه بعض أصحابه إلى هارون، وكتب إلى هارون يستميله فلم يجب، وقال: لا بد من دخول بغداد. ثم تراحفوا لست بغين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين، فانهزم أولاً أصحاب ابن ياقوت ونهب سوادهم وسار محمد حتى قطع قطرة تبريز، وسار هارون منفرداً لاعتراضه، فدخل في بعض المياه وسقط عن فرسه، ولحقه غلام لمحمد بن ياقوت فقطع رأسه وانهزم أصحابه وقتل قواده وأسر بعضهم ورجع ابن ياقوت إلى بغداد ظافراً.

نكبة ابن ياقوت

قد ذكرنا أنه نظر في أمر الدواوين وصير ابن مقلّة كالعاطل، فسعى به عند القاضي وأوممه خلافه حتى أجمع القبض عليه في جمادى سنة ثلاث وعشرين، فجلس الخليفة على عاداته وحضر الوزير وسائر الناس على طبقاتهم يريد تقليد جماعة من القواد للأعمال. واستدعى ابن ياقوت للخدمة في الحجبة على عادته، فبادر وعذله إلى حجرة فحبس فيها وخمار. وبعث الوزير ابن مقلّة إلى دار محمد من يحفظها من النهب وأطلق يده في أمور الدولة واستبد بها وكان ياقوت مقيماً بواسطة، فلما بلغه القبض على ابنه المحدثار إلى فارس لمحاربة ابن بويه، وكتب يستعطف الراضي ويسأله إبقاء ابنه ليساعده على شأنه. ولم يزل محمد محبوساً إلى أن هلك سنة أربع عشرة في محبسه.

خبر البريدي

كان أبو عبد الله البريدي أيام ابن ياقوت ضامناً للأهواز،

الدليمي على نصيين إلى الرقة والنحدر منها إلى بغداد ولحقه ابن طياب، واستولى ناصر الدولة حمدان على الموصل وكتب في الرضا وضمن البلاد فأجيب وتعذرت عليه.

نكبة ابن مقلّة وخبر الوزارة

كان الوزير بن مقلّة قد بعث سنة ثلاث وعشرين إلى محمد بن رائق بواسط يطالبه بارتضاع أعمال واسط والبصرة، وكان قد قطع الجبل. فلما جاءه كتاب ابن مقلّة، كتب إليه جوابه يغالطه وكتب إلى الرضي بالسعي في الوزارة، وأنه يقوم بنفقات الدار وأرزاق الجند، فجهز الوزير ابنه سنة أربع وعشرين لقصده ووري بالأهواز، وأنفذ رسوله إلى ابن رائق بهذه التورية يؤنس به، وباكر القصر لأنقاد الرسول فقبض عليه المظفر بن ياقوت والحجرية وكان المظفر قد أطلق من عصبه وأعيد إلى الحجرية، فاستحسن الراضي فعلهم، واختفى أبو الحسين ابن الوزير وسائر أولاده وحرمه وأصحابه، وأشار إلى الحجرية والساجية بوزارة علي بن عيسى فامتنع وسار بأخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضي وصادر ابن مقلّة. ثم عجز عن تخشية الأمور وضائق عليه الجباية فاستعفى من الوزارة، فقبض عليه الراضي وعلى أخيه على ثلاثة أشهر من وزارته، واستوزر أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي فصادر علي بن عيسى على مائة ألف دينار، ثم عجز عن الوزارة وضائق الأموال وانقطعت، وطمع أهل الأعمال فيما بأيديهم، فقطع ابن رائق حمل واسط والبصرة وقطع ابن البريدي حمل الأهواز وأعمالها، وانقطع حمل فارص لغلب ابن بويه عليها، ولم يبق غير هذه الأعمال ونطاق الدولة قد تضائق إلى الغاية وأهل الدولة مستبدون على الخلافة والأحوال متلاشية، فتحير أبو جعفر وكثرت عليه المطالبات وذهبت هيئته، فاخفى لثلاثة أشهر ونصف من وزارته واستوزر الراضي مكانه أبو القاسم سليمان بن الحسن، فكان حاله مثل حال من قبله في قلة المال ووقوف الحال.

استيلاء ابن رائق على الخليفة

ولما رأى الراضي وقوف الحال من الوزراء استدعى أبا بكر محمد بن رائق من واسط وكتبه بأنه قد أجابه إلى ما عرض من السعي في الوزارة على القيام بالنفقات وأرزاق الجند، فسر ابن رائق بذلك وشرع يتجهز للمسير. ثم أنفذ إليه الراضي الساجية وقلده إمارة الجيش، وجعله أمير الأمراء، وفوض إليه الخراج والدواوين والمعادن في جميع البلاد، وأمر بالخطبة له على المنابر،

الأهواز، وأرى أن تتأخر بستر فتتحصن بها. وكتب له على عامل تستر بمخمسين ألف دينار، وعذله خادمه مؤنس في شأن ابن البريدي وأراه خديعته وأشار إليه باللحاق ببغداد، وأنه شيخ الحجرية، وقد كاتبوك فسر إلى رئاسة بغداد وإلا فتعاجل إلى البريدي وتخرجه عن الأهواز، فصم عن نصيحته وأبى من قبول السعاية فيه، وتسائل أصحابه إلى ابن البريدي حتى لم يبق معه إلا نحو الثمانمائة.

وجاءه ابنه المظفر ناجياً من حبس الراضي بعد أسبوع، فأطلقه وبعثه إلى أبيه فأشار عليه بالمسير إلى بغداد، فإن حصل على ما يريد وإلا فإلى الموصل وديار ربيعة ويتملكها فأبى عليه أبوه ففارقه إلى ابن البريدي فأكرمه ووكل به. ثم حذر ابن البريدي غائلة ياقوت فبعث إليه بأن الخليفة أمره بإزعاجه من البلاد إما إلى بغداد وإما إلى بلاد الجبل ليؤليه بعض أعمالها، فكتب يستمهله فأبى من المهلة وبعث العساكر من الأهواز. وسار ياقوت إلى عسكر مكرم ليكبس ابن البريدي هنالك فصبح البلد ولم يجده، وجاءت عساكر ابن البريدي مع قائد أبي جعفر الجمال، فقاتله من أمامه وأكمن آخرين من خلفه فانهزم واقترق أصحابه، وحسا إلى حائط متكرراً فمر به قوم ابن البريدي فكشفوا وجهه وعرفوه فقتلوه وحملوا رأسه إلى العسكر فدنفه الجمال وبعث البريدي إلى تستر فحمل ما كان لياقوت هنالك، وقبض على ابنه المظفر وبعثه إلى بغداد واستبد بتلك الأعمال وذلك سنة أربع وعشرين.

مسير ابن مقلّة إلى الموصل واستقرارها لابن حمدان

كان ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان عاملاً على الموصل فجاء عمه أبو العلاء سعيد فضمن الموصل وديار ربيعة سراً وسار إليها فظهر أنه في طلب المال من ابن أخيه. وشعر ناصر الدولة بذلك فخرج لتلقيه، فخالقه إلى بيته فبعث من قبله وأهتم الراضي بذلك وأمر الوزير أبا علي بن مقلّة بالمسير إلى الموصل فسار في العساكر من شعبان سنة ثلاث وعشرين، فرحل عنها ناصر الدولة ودخل الزوران واتبعه الوزير إلى حمل السن. ثم عاد عنها إلى الموصل وأقام في جبايتها وبعث ناصر الدولة إلى بغداد بعشرة آلاف دينار لابن الوزير ليستحث أباه في القدوم، فكتب إليه بما أزعجه، فسار من الموصل واستخلف عليها علي بن خلف بن طياب وماترد الدليمي من الساجية. ودخل بغداد منتصف شوال، وجمع ناصر الدولة ولقي ماترد

على قصد العراق والاستيلاء عليه، وتحديد قصور كسرى بالمداخن. وكان في خدمته جماعة من الترك ومنهم يحكم. فأساء ملكهم وعسكرهم قتلوه سنة ثلاث وعشرين بظاهر أصبهان كما ذكره في أخبارهم. واجتمع الديلم والجليل بعده على أخيه وشمكير بن زيار وهو والد قابوس، ولما قتل مرداويج إفتقر الأتراك فرقتين ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، والأخرى وهي الأكثر سارت نحو الجبل عند يحكم، فجبوا خراج الدينور وغيرها. ثم ساروا إلى النهروان وكتبوا الراضي في المسير إليه، فأذن لهم وارتاب الحجرية بهم، فأمرهم الوزير بالرجوع إلى بلد الجبل فغضبوا واستدعاهم ابن رائق صاحب واسط والبصرة فمضوا إليه وقدم عليهم يحكم وكان الأتراك والديلم من أصحاب مرداويج فجاءته جماعة منهم فأحسن إليهم وإلى يحكم وسماه الراضي نسبة إليه وأذن له أن يكتبه في مخاطباته.

مسير الراضي وابن رائق لحرب ابن البريدي

ثم اعترم ابن رائق سنة خمس وعشرين على الراضي في المسير إلى واسط لطلب ابن البريدي في المال ليكون أقرب لمناجزته، فانحدر في شهر محرم وارتاب الحجرية بفعله مع الساجية، فتخلفوا ثم تبعوه فاعترضهم وأسقط أكثرهم من الديوان، فاضطربوا وثاروا فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم جماعة ولجأ فلهم إلى بغداد، فأوقع بهم لؤلؤ صاحب الشرطة ونهب دروهم وقطعت أرزاقهم وقبضت أملاكهم، وقتل ابن رائق من كان في حيسه من الساجية، وسار هو والراضي نحو الأهواز لإجلاء ابن البريدي منها. وقدم إليه في طلب الاستقامة وتوعده فجدد ضمان الأهواز بألف دينار في كل شهر، ويحمل في كل يوم قسطه. وأجابه إلى تسليم الجيش لمن يسير إلى قتال ابن بويه لنفرتهم عن بغداد. وعرض ذلك على الراضي، فأشار الحسين بن علي القونجي وزير ابن رائق بأن لا تقبل لأنه خداع ومكر وأشار أبو بكر بن مقاتل بإجابته، وعقد الضمان على ابن البريدي، وعاد ابن رائق والراضي إلى بغداد فدخلها أول صفر، ولم يف ابن البريدي بحمل المال، وأنفذ ابن رائق جعفر بن ورقاء ليسير بالجيش إلى فارس، ودس إليهم ابن البريدي أن يطلبوا منه المال ليتجهزوا به فاعتذر، فشتموه وتهددوه بالقتل. وأتى ابن البريدي فأشار عليه بالنجاء.

ثم سعى ابن مقاتل لابن البريدي في وزارة ابن رائق عوضاً عن الحسين القونجي وبذل عنه ثلاثين ألف دينار، فاعتذر له

وانحدر إليه أرباب الدواوين والكتاب والحجاب. ولما جاءه الساجية قبض عليهم بواسط في ذي الحجة من سنة أربع وعشرين، ونهب رجالهم ودوابهم ومتاعهم ليوفر أرزاقهم على الحجرية، فاستوحشوا لذلك وخيموا بدار الخلافة، وأصعد ابن رائق إلى بغداد وفرض الخليفة إليه أمرهم. وأمر الحجرية بتقويض خيامهم والرجوع إلى منازلهم، وأبطل الدواوين وصير النظر إليه، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور.

وبقي ابن رائق وكتابه ينظرون في جميع الأمور فبطلت الدواوين ويسوت الأموال من يومئذ وصارت لأمر الأمراء والأموال تحمل إلى خزائنه، ويتصرف فيها كما يريد، ويطلب من الخليفة ما يريد. وتغلب أصحاب الأطراف وزال عنهم الطاعة. ولم يبق للخليفة إلا بغداد وأعمالها وابن رائق مستبد عليه. وأما باقي الأعمال فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان والأهواز في يد ابن البريدي، وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه، وكرمان في يد علي بن إلياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة ابن بويه، وشمكير أخو مرداويج ينازعه في هذه الأعمال، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد حمدان، ومصر والشام في يد ابن طغج، والمغرب وأفريقية في يد العبيدين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن الناصر من ولد عبد الرحمن الداخل وما وراء النهر في يد بني سامان، وطبرستان في يد الديلم، والبحرين والجماعة في يد أبي الطاهر القرمطي، ولم يبق لنا من الأخبار إلا ما يتعلق بالخلافة فقط في نطاقها المتضائق أخيراً، وإن كانت مغلبة وهي أخبار ابن رائق والبريدي، وأما غير ذلك من الأعمال التي انتطعت كما ذكرناه، فنذكر أخبارها منفردة ونسوق المستبين دولا كما شرطناه أول الكتاب. ثم كتب ابن رائق عن الراضي إلى أبي الفضل بن جعفر بن الفرات وكان على الخراج بمصر والشام، وظن أنه بوزارته تكون له تلك الجباية، فوصل إلى بغداد وولي وزارة الراضي وابن رائق جميعاً.

وصول يحكم مع ابن رائق

كان يحكم هذا من جملة مرداويج قائد الديلم ببلاد الجبل، وكان قبله في جملة ماكان بن كالي ومن مواليه، وهبه له وزيره أبو علي الفارض، ثم فارق ماكان مع من فارقه إلى مرداويج. وكان مرداويج قد ملك الري وأصبهان والأهواز، وضخم ملكه وصنع كراسي من ذهب وفضة للجلوس عليها هو وقواده، ووضع على رأسه تاجاً تظنه تاج كسرى. وأمر أن يخاطب بشاهنشاه واعتزم

ابن البريدي السفن ومعه ثلاثمائة ألف دينار ففرق أصحابه وماله ونجا إلى البصرة، وأقام بالأبلة ويحث غلامه إقبالاً فلقى جماعة من أصحاب ابن رائق فهزمهم، ويحث ابن رائق مع جماعة من أهل البصرة يستعطفه فأبى، فطلبوا البصرة فحلف ليحرقنها ويقتل كل من فيها، فرجعوا مستبشرين في قتاله.

وأقام ابن البريدي بالبصرة، واستولى يحكم على الأهواز ثم بعث ابن رائق جيشه في البحر والبر فانهمز عسكر البر واستولى عسكر الماء على الكلا، فهرب ابن البريدي في السفن إلى جزيرة أوال، وترك أخاه أبا الحسين في عسكر بالبصرة فدفع عسكر ابن رائق عن الكلا فسار ابن رائق من واسط، واستولى يحكم على الأهواز، وقاتلوا البصرة فامتعت عليهم، وسار أبو عبد الله بن البريدي من أوال إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، فاطعمه في العراق ويحث معه أخاه معز الدولة إلى الأهواز فسير إليها ابن رائق مولاه يحكم على أن يكون له الحرب والخراج، وأقام ابن البريدي على البصرة وزحفت إليه عساكرهم فاعجلوه عن تقويض خيامه فأحرقها وسار إلى الأهواز مجرداً، وسبقته عساكره إلى واسط وأقام عند يحكم أياماً وأشير عليه بمحبسه فلم يفعل ورجع ابن رائق إلى واسط.

استيلاء معز الدولة على الأهواز

لما سار أبو عبد الله بن البريدي من جزيرة أوال إلى عماد الدولة ابن بويه بفارس مستجيراً به من ابن رائق ويحكم ومستنجداً عليهم، طمع عماد الدولة في الاستيلاء على العراق. فسير معه أخاه معز الدولة أحمد بن بويه في العسكر، وهرن ابن البريدي عنده ولديه أبا الحسين محمداً وأبا جعفر الفياض. وسار يحكم للقائهم فلقبهم بأرجان فانهمز أمامهم وعاد إلى الأهواز، وخلف جيشاً بعسكر مكرم. فقاتلهم معز الدولة ثلاثة عشر يوماً ثم انتفضوا ولحقوا بستر، وملك معز الدولة عسكر مكرم وذلك سنة ست وعشرين وسار يحكم من الأهواز إلى تستر، وبلغ الخبر إلى ابن رائق بواسط، فسار إلى بغداد وجاء يحكم من تستر إلى واسط. ولما استولى معز الدولة وابن البريدي على عسكر مكرم، ولقبهم أهل الأهواز وسار معهم إليها فأقاموا شهراً. ثم طلب معز الدولة من ابن البريدي عسكره الذي في البصرة ليسير بهم إلى أخيه ركن الدولة بأصبهان لحرب وشمكير، فأحضر منهم أربعة آلاف. ثم طلب من عسكره الذين بمحضر مهدي ليسير بهم في الماء إلى واسط فارتاب ابن البريدي وهرب إلى البصرة. وبعث إلى عسكرها الذين

بسوابق القويحي عنده وسعيه له، وكان مريضاً فقال له ابن مقاتل: إنه هالك، فقال ابن رائق: قد أعلمني الطبيب أنه ناقه، فقال: الطبيب يراجيك فيه لقربة منك، ولكن سل ابن أخيه علي بن حمدان. وكان القويحي قد استتاب ابن أخيه في مرضه، فأشار عليه ابن مقاتل أن يعرف الأمير إذا بمهلكة، وأشار عليه أن يستوزره. فلما سأل ابن رائق أياسه منه؟ فقال ابن رائق عند ذلك لابن مقاتل: أكتب لابن البريدي يرسل من ينوب عنه في الوزارة، فبعث أحمد بن الكوني واستولى مع مقاتل على ابن رائق، وسعوا لابن البريدي أبي يوسف في ضمان البصرة.

وكان عامل البصرة من قبل ابن رائق محمد بن يزداد وكان شديد الظلم والعسف بهم، فخادعه ابن البريدي وأنفذ أبو عبد الله مولاه إقبالاً في ألفي رجل، وأقاموا في حصن مهدي قريباً. فعلم ابن يزداد أنه يروم التغلب على البصرة، وأقاما على ذلك وأقام ابن رائق شأن هذا العسكر في حصن مهدي. وبلغه أيضاً أنه استخدم الحجرين الذين أذن لهم في الانسياف في الأرض، وأنهم اتفقوا مع عسكره على قطع الحمل، وكتبه بطردهم عنه فلم يفعل. فأمر ابن الكوني أن يكتب إلى ابن البريدي بالكتاب على ذلك. ويأمر بإعادة العسكر من حصن مهدي، فأجاب بإعدادهم للقرامطة وابن يزداد عاجز عن الحماية.

وكان القرامطة قد وصلوا إلى الكوفة في ربيع الآخر وخرج ابن رائق في العساكر إلى حصن ابن هبيرة ولم يستقر بينهم أمر. وعاد القرمطي إلى بلده وسار ابن رائق إلى واسط. فكتب ابن البريدي إلى عسكره بمحضر مهدي أن يدخلوا البصرة ويملكوها من ابن يزداد، وأمدتهم جماعة من الحجرية فقصدوا البصرة وقاتلوا ابن يزداد فهزموه، ولحق بالكوفة، وملك إقبال مولى ابن البريدي وأصحابه البصرة، وكتب ابن رائق إلى البريدي يتهده ويأمره بإخراج أصحابه من البصرة فلم يفعل.

استيلاء يحكم على الأهواز

ولما امتنع ابن البريدي من الإفراج عن البصرة بعث ابن رائق العساكر مع بدر الخريشي ويحكم مولاه، وأمرهم بالمقام بالجاملة فتقدم يحكم عن بدر وسار إلى السوس، وجاءته عساكر البريدي مع غلامه محمد الجمال في ثلاثة آلاف ومع يحكم مائتان وسبعون من الترك، فهزمهم يحكم ورجع محمد بن الجمال إلى ابن البريدي فعاقبه على انهزامه، وحشد له العسكر فسار في ستة آلاف ولقبهم يحكم عند نهر تستر فانهمزوا من غير قتال، وركب

وعشرين، فأمر الرازي باعتقاله وأطلع ابن رائق من الغد على كنه فشكر ذلك له ابن رائق، وأمر بابن مقله في منتصف شوال فقطع ثم عولج، ويرى وعاد إلى السعي في الوزارة والتظلم من ابن رائق والدعاء عليه، فأمر بقطع لسانه وجسه إلى أن مات.

استيلاء يَحْكُم على بغداد

لم يزل يحكم يظهر التبعية لابن رائق ويكتب على أعلامه وتراسه يحكم الراقي إلى أن وصلته كتب ابن مقله بأن الرازي قلده إمره الأمراء، فطمع وكاشف ابن رائق ومحا نسبه إليه من أعلامه وسلاحه. وسار من واسط إلى بغداد في ذي القعدة سنة ست وعشرين. وكتب إليه الرازي بالرجوع فأبى، ووصل إلى نهر دياي وأصاب ابن رائق في غريبه فانهزموا وعبروا النهر سباحاً. وسار ابن رائق إلى عكبرا، ودخل يحكم بغداد منتصف ذي القعدة ولقي الرازي من الغد، وولاه أمير الأمراء، وكتب عن الرازي إلى القواد الذين مع ابن رائق بالرجوع عنه فرجعوا، وعاد ابن رائق إلى بغداد فاخفى بها لسنة وأحد عشر شهراً من إمارته، ونزل يحكم بدار مؤنس واستقر ببغداد متحكماً في الدولة مستبداً على الخليفة.

دخول أذربيجان في طاعة وشكير

كان من عمال وشكير على أعمال الجبل السيكري بن مردى.

وحشة البساسيري

كان أبو الغنائم وأبو سعد ابنا الجلبان صاحبي قريش بن بدران، ويعثهما إلى القائم سراً من البساسيري بما فعل بالأنبار فانقض البساسيري لذلك، واستوحش من القائم ومن رئيس الرؤساء، وأسقط مشاهرتهم ومشاهرة حواشيهم وهم بهدم منازل بني الجلبان. ثم أقصر وسار إلى الأنبار، وبها أبو القاسم بن الجلبان، وجاءه ديبس بن مزيد ممدأ له فحاصر الأنبار وفتحها عنوة ونهبها وأسر من أهلها خمسمائة، ومائة من بني خفاجة وأسر أبا الغنائم وجاء به إلى بغداد فأدخله على جمل، وشفع ديبس بن مزيد في قتله، وجاء إلى مقابل التاج من دار الخليفة فقبل الأرض وعاد إلى منزله.

ساروا إلى أصبهان وكانوا متوقفين بالسوس، فرجعوا إليه. ثم كتب إلى معز الدولة أن يفرج له عن الأهواز ليتمكن من الجباية والوفاء بها لأخيه عماد الدولة، وكان قد ضمن له الأهواز والبصرة بشمانية عشر ألف درهم، فرحل معز الدولة إلى عسكر مكرم وأنفذ ابن البريدي عامله إلى الأهواز.

ثم بعث إلى معز الدولة بأن يتأخر إلى السوس فأبى، وعلم يحكم مجاهم فبعث جيشاً استولوا على السوس وجنديسابور، وبقيت الأهواز بيد ابن البريدي ومعز الدولة بعسكر مكرم، وقد ضاقت أحوال جنده. ثم بعث إليه أخوه عماد الدولة بالمدد فسار إلى الأهواز وملكها. ورجع ابن البريدي إلى البصرة ويحكم في ذلك مقيم بواسط، وقد صرف همه إلى الاستيلاء على رتبة ابن رائق ببغداد. وقد أنفذ له ابن رائق علي بن خلف بن طياب ليسيروا إلى الأهواز ويخرجوا ابن بويه. ويكون يحكم على الحرب وابن خلف على الخراج، فلم يلتفت يحكم لذلك واستوزر علي بن خلف ويحكم في أحوال واسط. ولما رأى أبو الفتح الوزير ببغداد إدبار الأحوال أطعم ابن رائق في مصر والشام، وقال: أنا أجيبهما لك، وعقد بينه وبين ابن طعج صهراً. وسار أبو الفتح إلى الشام في ربيع الآخر وشعر ابن رائق بمحاولة يحكم عليه، فبعث إلى ابن البريدي بالاتفاق على أن يضمن ابن البريدي واسط بستمائة ألف، فنهض يحكم إلى ابن البريدي قبل ابن رائق وسار إلى البصرة، فبعث إليه ابن البريدي أبا جعفر الجمال في عشرة آلاف فهزمهم يحكم وارتاع ابن البريدي لذلك، ولم يكن قصد يحكم إلا الإلفة فقط، والتضرع لابن رائق، فبعث إليه بالمسالة وأن يقلده واسط إذا تم أمره، فاتفقا على ذلك وصرف نظره إلى أمر بغداد.

وزارة ابن مقله ونكبته

ولما انصرف أبو الفتح بن الفرات إلى الشام استوزره الرازي أبا علي بن مقله على سنن من قبله والأمر لابن رائق، وابن مقله كالعارية. وكتب له في أمواله وأملأكه فلم يردّها. فشرع في التدبير عليه، فكتب إلى ابن رائق بواسط وشمكير بالري بطمع كلاً منهما في مكانه، وكتب الرازي يشير بالقبض على ابن رائق وأصحابه، واستدعى يحكم لكانه وأنه يستخرج منهم ثلاثة آلاف ألف دينار، فأطمعه الرازي على كره. فكتب هو إلى يحكم يستحثه وطلب من الرازي أن يتقل إلى دار الخلافة حتى يتم الأمر فأذن له وحضر متتكرراً آخر ليلة من رمضان سنة ست

وصول الغزالي الدسكرة ونواحي بغداد

الفرات إلى الشام، ولما سار استتاب بالحضرة عبد الله بن علي البصري، وكان يحكم قد قبض على وزيره خلف بن طباب، واستوزر أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، فسمي في وزارة ابن البريدي ليحكم حتى تم ذلك. ثم ضمن ابن البريدي أعمال واسط بستمائة ألف دينار كل سنة. ثم جاء الخبر بموت أبي الفتح بن الفرات بالرملة، فسمي أبو جعفر ابن شيرزاد في وزارة أبي عبد الله للخليفة، فمعد له الراضي بذلك واستخلف بالحضرة عبد الله بن علي البصري كما كان مع أبي الفتح.

مسير ركن الدولة إلى واسط ورجوعه عنها

لما استقر ابن البريدي بواسط بعث جيشاً إلى السوس وبها أبو جعفر الظهيري وزير معز الدولة أحمد بن بويه ومعز الدولة بالأهواز. فتحصن أبو جعفر بقلعة السوس، وعاث الجيش في نواحيها. وكتب معز الدولة إلى أخيه ركن الدولة وهو على أصطخر قد جاء من أصبهان لما غلبه وشمكير عليها. فلما جاء كتاب أخيه معز الدولة سار محمد إلى السوس وقد رجع عنه جيش ابن البريدي. ثم سار إلى واسط يحاول ملكها فتزل في جانبها الشرقي، وابن البريدي في الجانب الغربي، واضطرب عسكر ابن بويه واستأمن جماعة منهم إلى ابن البريدي. ثم سار الراضي ويحكم من بغداد إلى واسط للإمداد، فرجع ركن الدولة إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز. وبلغه أن وشمكير قد أنفذ عسكره مدداً لماكان بن كالي وأن أصبهان خالية، فسار إليها من رامهرمز وأخرج من بقي منها من أصحاب وشمكير وملكها فاستقر بها.

مسير يحكم إلى بلد الجبل وعوده إلى واسط

واستيلاؤه عليها

كان يحكم قد أرسل ابن البريدي وصاهره واتفقا على أن يسير يحكم إلى بلاد الجبل لفتحها من يد وشمكير، وأبو عبد الله بن البريدي إلى الأهواز لأخذها من يد معز الدولة ابن بويه، فسار يحكم إلى حلوان وبعث إليه ابن البريدي بمخسمة رجل مدداً. وبعث يحكم بعض أصحابه إلى ابن البريدي يستحثه إلى السوس والأهواز، فأقام يماطله ويدافعه ويبين له أنه يريد مخالفة يحكم إلى بغداد. فكتب إليه بذلك فرجع عن قصده إلى بغداد، وعزل ابن البريدي من الوزارة، وولى مكانه أبا القاسم بن سليمان بن الحسين بن مخلد وقبض على ابن شيرزاد الذي كان ساعياً له وتجهز إلى

وفي شوال من سنة ست وأربعين وصل صاحب حلوان من الغز وهو إبراهيم بن إسحاق إلى الدسكرة فافتحتها ونهبها وصادر النساء. ثم سار إلى رسبباد وقلعة بردان وهي لسعدي بن أبي الشوك، وبها أمواله فامتعت عليه فخر ب ما حولها من القرى ونهبها، وقرى طمع الغز في البلاد وضعف أمر الديلم والأتراك. ثم بعث طغرل بك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان بالبصرة في جيش من الغز إلى خوزستان فاستولى على الأهواز وملكها ونهب الغز الذين معه أموال الناس ولقوا منهم عناء.

ظهور ابن رائق ومسيره إلى الشام

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة سار يحكم إلى الموصل وديار ربيعة بسبب أن ناصر الدولة بن حمدان آخر المال الذي عليه من ضمان البلاد، فأقام الراضي بتكريت وسار يحكم، ولقيه ناصر الدولة على ستة فراسخ من الموصل، فانهزم واتبه يحكم إلى نصيبين ثم إلى آمد، وكتب إلى الراضي بالفتح. فسار من تكريت في الماء إلى الموصل، وفارقه جماعة من القرامطة كانوا في عسكره، وكان ابن رائق يكتابهم من مكان اكتفائه، فلما وصلوا بغداد خرج ابن رائق إليهم واستولى، وطار الخبر إلى الراضي فأصعد من الماء وسار إلى الموصل، وكتب إلى يحكم بذلك. فرجع عن نصيبين بعد أن استولى عليها.

وشرع أهل العسكر يتسللون إلى بغداد فاهم ذلك يحكم. ثم جاءت رسالة ابن حمدان في الصلح وتعجيل خمسمائة ألف درهم، فأجابوه وقرره ورجعوا إلى بغداد، ولقيهم أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد رسولاً عن ابن رائق في الصلح على أن يقلده الراضي طريق الفرات وديار مضر وحران والرها وما جاورها جندي قسرين والعواصم. فأجابه الراضي وقلده وسار إلى ولايته في ربيع الآخر. وكان يحكم قد استتاب بعض قواد الأتراك على الأنبار واسمه بالبان، وطلب تقليد طريق الفرات فقلد وسار إلى الرحبة. ثم انتقض وعاد لابن رائق وعصى على يحكم، فسار إليه غازياً وكبسه بالرحبة على حين غفلة لخمسة أيام من مسيره، فظفر به وأدخله بغداد على جمل وجسه وكان آخر العهد به.

وزارة ابن البريدي

قد تقدم لنا مسير الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن

عماد الدولة ابن بويه على فارس، وركن الدولة أخوه يتنازع مع وشمكير على أصبهان وهمذان وقم وقاشان والكرج والري وقزوين. واستولى معز الدولة أخوهما على الأهواز وعلى كرمسان واستولى ابن البريدي على واسط وسار ابن رائق إلى الشام فاستولى عليها. وفي سنة ثلاث وعشرين قلد الراضي ابنه أبا جعفر وأبا الفضل ناحية المشرق والمغرب. وفي سنة إحدى وعشرين ورد الخبر بوفاة تكين الخاضكي بمصر وكان أميراً عليها، وولى القاهرة مكانه ابنه محمداً وثار به الجند، فظفر بهم. وفيها وقعت الفتنة بين بني تغلب وبني أسد ومعهم طيغ، وركب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ومعه أبو الأعز بن سعيد بن حمدان ليصلح بينهم، فوقعت ملاحاة قتل فيها أبو الأعز على يد رجل من تغلب، فحمل عليهم ناصر الدولة واستباحهم إلى الحديثة. فلقبهم يانس غلام مؤنس والياً على الموصل، فانضم إليه بنو تغلب وبني أسد وعادوا إلى ديار ربيعة. وفي سنة أربع وعشرين قلد الراضي محمد بن طغج أعمال مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام وعزل عنها أحمد بن كيغلف.

وفاة الراضي وبيعة المتقي

وفي سنة تسع وعشرين وثلثمائة توفي الراضي أبو العباس أحمد بن المقتدر في ربيع الأول منها لسبع سنين غير شهر من خلافته. ولما مات أحضر يحكم ندماء وجلساءه ليتفتح بما عندهم من الحكمة فلم يفهم عنهم لعجمته. وكان آخر خليفة خطب على المنبر وإن خطب غيره فنادر. وآخر خليفة جالس السمر ووصل الندماء. ودولته آخر دول الخلفاء في ترتيب النفقات والجوائز والجرايات والمطابخ والخدم والحجاب، وكان يحكم يوم وفاته غائباً بواسط حين ملكها من يد ابن البريدي، فانتظر في الأمور وصول مراسمه، فورد كتابه مع كاتبه أبي عبد الله الكوفي يأمر فيه باجتماع السوزراء وأصحاب الدواوين والقضاة والعلوين والعباسيين ووجوه البلد عند الوزير أبي القاسم سليمان بن الحسن، ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضي مذهبه وطريقه، فاجتمعوا وذكروا إبراهيم بن المقتدر، وانفقوا عليه وأحضره من الغد وبايعوا له آخر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين. وعرضت عليه الألقاب فاختر المتقي لله وأقر سليمان على وزارته كما كان، والتدبير كله للكوفي كاتب يحكم، وولى سلامة الطولوني على الحجبة.

واسط وانحدر في الماء آخر ذي الحجة سنة ثمان وعشرين. وبعث عسكرياً في الر، وبلغ الخبر ابن البريدي فسار عن واسط إلى البصرة واستولى عليها يحكم وملكها.

استيلاء ابن رائق على الشام

قد تقدم لنا مسير ابن رائق إلى ديار مضر وتغور قنسرين والعواصم فلما استقر بها حدثته نفسه بملك الشام فسار إلى حمص فملكها ثم سار إلى دمشق وبها بدر بن عبد الله الأخشيدي ويلقب بدير، فملكها من يده. ثم سار إلى الرملة ومنها إلى عريش مصر يريد ملك الديار المصرية، ولقيه الأخشيدي محمد بن طغج وانهمز أولاً وملك أصحاب ابن رائق خيامه. ثم خرج كمين الأخشيدي فانهمز ابن رائق إلى دمشق وبعث الأخشيدي في أثره أنشاه أبا نصر بن طغج، وسار إليهم ابن رائق من دمشق فهزمهم وقتل أبو نصر، فكفنه ابن رائق وحمله مع ابنه مزاحم إلى أخيه الأخشيدي بمصر. وكتب يعزبه ويعتذر فآكرم الأخشيدي مزاحماً واصطلح مع أبيه على أن تكون مصر للأخشيدي من حد الرملة وما وراءها من الشام لابن رائق ويعطي الأخشيدي عن الرملة في كل سنة مائة وأربعين ألف دينار.

الصوائف أيام الراضي

وفي سنة اثنتين وعشرين سار الدمستق إلى سميساط في خمسين ألفاً من الروم، ونازل ملطية وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها بالأمان، وبعثهم إلى مأمهم مع بطريق من بطارقه. وتنصر الكثير منهم حجة في أهلهم وأموالهم. ثم افتتحوا سميساط وخربوا أعمالها وأفحشوا في أسطوله في البحر. ففتحوا بلد جنوة ومروا بسردانية فآفوقوا بأهلها، ثم مروا بقرقيسيا من ساحل الشام فأحرقوا مراكبها وعادوا سالمين، وفي سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم في ذي القعدة على يد ابن ورقاء الشيباني البريدي ستة آلاف وثلثمائة أسير.

الولايات أيام الراضي والقاهر قبله

قد تقدم لنا أنه لم يبق من الأعمال في تصريف الخلافة لهذا العهد إلا أعمال الأهواز والبصرة وواسط والجزيرة، وذكرنا استيلاء بني بويه على فارس وأصبهان، وشمكير على بلاد الجبل، وابن البريدي على البصرة، وابن رائق على واسط، وأن

مقتل يحكم

كان أبو عبد الله البريدي بعد هربه إلى البصرة من واسط أنفذ جيشاً إلى المدار، فبعث إلى لقائهم جيشاً من واسط عليهم توروون انتخب له الكرد، فظفر بجيش ابن البريدي ولقي يحكم خبره في الطريق فسر بذلك، وذهب يتصيد فبلغ نهر جور، وعثر في طريقة ببعض الأكراد فشوه لغزوهم، وقصدتهم في خف من أصحابه وهربوا بين يديه وهو يرشقهم بسهامه، وجاءه غلام منهم من خلفه قطعنه فقتله. واختلف عسكره فضى الديلم فكانوا ألفاً وخمسائة إلى ابن البريدي، وقد كان عزم على الحرب من البصرة، فبعث وضاعف أرزاقهم وأدراها عليهم، وذهب الأتراك إلى واسط وأطلقوا بكتيك من حبسه ولوه عليهم، فسار بهم إلى بغداد في خدمة المتقي وحصر ما كان في دار يحكم من الأموال والدواوين فكانت ألف ألف ومائة ألف دينار ومدة إمارته ستان وثمانية أشهر.

الله، قطع الجسر ووثب العامة على أصحابه، وهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابهم، والتحدروا إلى واسط وذلك سلبخ رمضان لأربعة وعشرين يوماً من قدومه.

إمارة كورتيكين الديلمي

ولما هرب ابن البريدي استولى كورتيكين على الأمور ببغداد ودخل إلى المتقي فقلده إمارة الأسراء، وأحضر علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن فذبر الأمور ولم يسمهما بوزارة واستوزر أبا إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي القاريطي، وولي على الحجة بدر الجواشيني. ثم قبض كورتيكين على بكتيك مقدم الأتراك خامس شوال وغرقه، واقتل الأتراك والديلم وقتل بينهما خلق، وانفراد كورتيكين بالأمر وقبض على الوزير أبي إسحاق القاريطي لشهر ونصف من وزارته، وولى مكانه أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي.

إمارة البريدي ببغداد وعوده إلى واسط

لما قتل يحكم قدم الديلم عليهم بكشوار بن ملك بن مسافر ومسافر هو ابن سار وصاحب الطرم الذي ملك ولده بعده أذربيجان، وقتلهم الأتراك فقتلوه، فقدم الديلم عليهم مكانه كورتيكين منهم. وقدم الأتراك عليهم بكتيك مولى يحكم، والتحدروا إلى الديلم إلى أبي عبد الله بن البريدي فقري بهم، وأصعدوا إلى واسط. وأرسل المتقي إليهم مائة وخمسين ألف دينار على أن يرجعوا عنها. ثم قسم في الأتراك في أجناد بغداد أربعمائة ألف دينار من مال يحكم. وقدم عليهم سلامة الطولوني وبرز بهم المتقي إلى نهر ديبالي آخر شعبان سنة ست وعشرين. وسار ابن البريدي من واسط فأشفق أتراك يحكم، ولحق بعضهم بابن البريدي، وسار آخرون إلى الموصل منهم توروون وجحجج. واختفى سلامة الطولوني، وأبو عبد الله الطولوني، ودخل أبو عبد الله البريدي بغداد أول رمضان ونزل بالشفيعي ولقيه الوزير أبو الحسين بن ميمون والكتاب والقضاة وأعيان الناس، وبعث إليه المتقي بالتهنئة والطعام، وكان يخاطب بالوزير. ثم قبض على الوزير أبي الحسين لشهرين من وزارته وحبسه بالبصرة وطلب من المتقي خمسمائة ألف دينار للجدد، وهدده بما وقع للمعتز والمستعين والمهتدي، فبعث بها إليه ولم يلقه مدة مقامه ببغداد. ولما وصله المال من المتقي شغب الجند عليه في طلبه وجاء الديلم إلى دار لأخيه أبي الحسين، ثم انضم إليهم الترك، وقصدوا دار أبي عبد

عود ابن رائق إلى بغداد

قد تقدم لنا أن جماعة من أتراك يحكم لما انقضوا عن المتقي ساروا إلى الموصل، ثم ساروا منها إلى ابن رائق بالشام، وكان من قوادهم توروون وجحجج وكورتيكين وصيقوان فاطمعه في بغداد. ثم جاءته كتب المتقي يستدعيه، فسار آخر رمضان واستخلف بالشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل وتحنى ناصر الدولة بن حمدان على طريقه. ثم حمل إليه مائة ألف دينار وصاحبه، وبلغ الخبر إلى أبي عبد الله بن البريدي، فبعث إخوته إلى واسط وأخرج الديلم عنها وخطبوا له بها. وخرج كورتيكين عن بغداد إلى عكبرا فقاتله ابن رائق أياماً ثم أسرى له ليلة عرفة فأصبح ببغداد من الجانب الغربي ولقي الخليفة وركب معه في دجلة، ووصل كورتيكين آخر النهار فركب ابن رائق لقتاله وهو مرجل، واعتمز على العود إلى الشام، ثم طائفة من عسكره ليعبروا دجلة ويأتوا من وراءهم، وصاحت العامة مع ابن رائق بكورتيكين وأصحابه ورجوعهم، فانهزموا واستأمن منهم نحو أربعمائة فقتلوا وقتل قواده، وخلع المتقي علي ابن رائق وولاه أمير الأسراء، وعزل الوزير أبا جعفر الكرخي لشهر من ولايته، وولى مكانه أحمد الكوفي وظفر بكورتيكين فحبسه بدار الخلافة.

شرقي دجلة وعبر إليه أبو منصور بن المتقي وابن رائق فبالغ في تكريمهما. فلما ركب ابن المتقي قال لابن رائق: أقم تتحدث في رأينا فذهبنا إلى الاعتذار، وألح عليه ناصر الدولة فاسترأب وجذب يده وقصد الركوب، فسقط فأمر ناصر الدولة بقتله وإلقائه في دجلة، وبعث إلى المتقي بالعذر وأحسن القول، وركب إليه فولاه أمير الأمراء ولقبه ناصر الدولة وذلك مستهل شعبان من سنة ثلاثين، وخلع على أخيه أبي الحسن ولقبه بسيف الدولة، فلما قتل ابن رائق سار الأخشيذ من مصر إلى دمشق وبها محمد بن يزداد من قبل ابن رائق فاستأمن إليه وملك الأخشيذ دمشق وأقر ابن يزداد عليها ثم نقله إلى شرطة مصر.

عود المتقي إلى بغداد وفرار البريدي

لما استولى أبو الحسين البريدي على بغداد وأساء السيرة كما مر، وامتلات القلوب منه نفرة، فلما قتل ابن رائق أخذ الخند في الفرار عنه والانتقاص عليه، ففر جحجج إلى المتقي واعتزم تورون وأنوش نكين والأتراك على كبس أبي الحسين البريدي. وزحف تورون لذلك في الديلم فخالفه أنوش نكين في الأتراك فذهب تورون إلى الموصل فقوي بهم ابن حمدان والمتقي والمخدر إلى بغداد، وولى ابن حمدان على أعمال الخراج والضباع بديار مصر، وهي الرها وحران. ولقيا أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل فاقتلوا وقتل ابن مقاتل واستولى ابن طباب عليها. ولما وصل المتقي وابن حمدان إلى بغداد هرب أبو الحسين ابن البريدي منها إلى واسط لثلاثة أشهر وعشرين يوماً من دخوله، واضطربت العامة وكثر النهب ودخل المتقي وابن حمدان في العساكر في شوال من السنة. وأعاد أبا إسحاق القراريطي إلى الوزارة، وولى تورون على الشرطة. ثم سار إليهم أبو الحسين البريدي، فخرج بنو حمدان للقائهم وانتهوا إلى المدائن، فأقام بها ناصر الدولة، وبعث أخاه سيف الدولة وابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، فاقتلوا عنده أياماً وانهمز سيف الدولة أولاً، ثم أمدهم ناصر الدولة بالقواد الذين كانوا معه وجحجج بالأتراك، وعادوا القتال فانهمز أبو الحسين إلى واسط، وأقصر سيف الدولة عن إتياعه لما أصاب أصحابه من الوهن والجراح. وعاد ناصر الدولة إلى بغداد متصف ذي الحجة. ثم سار سيف الدولة إلى واسط وهرب بنو البريدي عنها إلى البصرة فملكها وأقام بها.

وزارة ابن البريدي واستيلاؤه على بغداد وفرار المتقي إلى الموصل

لما استقر ابن رائق في إمارة الأمراء ببغداد أصر ابن البريدي حمل المال من واسط، فانحدر إليه في العساكر في عاشوراء من سنة ثلاثين، وهرب بنو البريدي إلى البصرة. ثم سعى أبو عبد الله الكوفي بينهم وبين ابن رائق، وضمن واسط بستمئة ألف دينار وبقيائها بمائتي ألف. ورجع ابن رائق إلى بغداد فشغبت عليه الجند، وفيهم ثورون وأصحابه. ثم انفضوا آخر ربيع إلى أبي عبد الله بواسط، فقوي بهم وذهب ابن رائق إلى مداراته، فكاتبه بالوزارة واستخلف عليها أبا عبد الله بن شيرزاد. ثم انتقض واعتزم على المسير إلى بغداد في جميع الأتراك والديلم. وعزم ابن رائق على التحصن بدار الخلافة، ونصب عليها المجانيق والعرادات، وجند العامة، فوقع المرح، وخرج بالمتقي إلى نهر ديسالي متصف جمادى الآخرة. وأتاهم أبو الحسين في الماء والبر فهزمهم ودخل دار الخلافة، وهرب المتقي وابنه أبو منصور وابن رائق إلى الموصل لسة أشهر من إمارته.

واختفى الوزير القراريطي ونهبت دار الخليفة، ودور الحرم، وعظم المرح، وأخذ كورتكين من محبه فأنفذ إلى واسط، ولم يتعرضوا للقاهر. وكان نزل أبو الحسين بدار الخلافة وجعل تورون على الشرطة بالجانب الغربي، وأخذ رهائن القواد تورون وغيره وبعث بنسائهم وأولادهم إلى أخيه عبد الله بواسط. وعظم النهب ببغداد وترك الناس دورهم، وفرضت المكوس في الأسواق خمسة دنائير على الكر فغلت الأسعار، وانتهى إلى ثلثمائة دينار الكر، وجاءت ميرة من الكوفة وأخذت فقيلاً: إنها لعامل الكوفة، وأخذها عامل بغداد وكان معه جماعة من القرامطة فقاتلهم الأتراك وهزمهم، ووقعت الحرب بين العامة والديلم فقتل خلق من العامة، واختفى العمال لمطالبة الجند إلى الضواحي يتهبون السزوع بسنبلة عند حصاده، وماءت أحوال بغداد وكثرت نعمات الله فيهم.

مقتل ابن رائق وولاية ابن حمدان مكانه

كان المتقي قد بعث إلى ناصر الدولة بن حمدان يستعده على ابن البريدي عندما قصد بغداد، فأمدّه بعسكر مع أخيه سيف الدولة، فلقيه بتكرت منهزماً ورجع معه إلى الموصل. وخرج ناصر الدولة عن الموصل حتى حلف له ابن رائق وانفقاً، فجاء وتركه

استيلاء الديلم على أذربيجان

كانت أذربيجان بيد ديسم بن إبراهيم الكردي من أصحاب يوسف بن أبي الساج، وكان أبوه من أصحاب هارون الشاري من الخوارج. ولما قتل هارون لحق بأذربيجان وشرذ في الأكراد فولد له ديسم هذا فكبر وخدم ابن أبي الساج، وتقدم عنده إلى أن ملك بعدهم أذربيجان. وجاء السيكري خليفة وشمكير في الجبل سنة ست وعشرين وغلبه على أذربيجان. ثم سار هو إلى وشمكير وضم له طاعة ومالاً، واستمده فأمدته بعسكر من الديلم وساروا معه، فغلب السيكري وطرده وملك البلاد، وكان معظم جيشه الأكراد فتغلبوا على بعض قلاعهم فاستكثر من الديلم وفيهم صعلوك بن محمد بن مسافر بن الفضل وغيرهما. فاستظهر بهم وانتزع من الأكراد ما تغلبوا عليه، وقبض على جماعة من رؤسائهم. وكان وزيره أبو القاسم علي بن جعفر قد ارتاب منه، فهرب إلى الطرم وبها محمد بن مسافر من أمراء الديلم وقد انتقض عليه ابنه وهشودان والمرزيان واستولوا على بعض قلاعهم، ثم قبضاً على أبيهما محمد وانتزعا أمواله وذخائره وتركاه في حصنه سلباً فريداً، فقصده علي بن جعفر المرزيان وأطمعه في أذربيجان، فقلده وزارته وكانت لخلتهما في التشيع واحدة. لأن علي بن جعفر كان من الباطنية والمرزيان من الديلم وهم شيعة.

وكتب علي بن جعفر أصحاب ديسم واستمالهم واستفدسدهم عليه وخصوصاً الديلم، ثم التفتوا للحرب وجاء الديلم إلى المرزيان واستأمن معهم كثير من الأكراد، وهرب ديسم في فل من أصحابه إلى أرمينية واستجار بجاحق بن الديواني فأجاره وأكرمه، وندم على ما فرط في إبعاد الأكراد وهم على مذهبه في الخارجية، وملك المرزيان أذربيجان واستولى عليها، ثم استوحش منه علي بن جعفر وزير ديسم وتنكر له أصحاب المرزيان فأطمعه المرزيان بأخذ أموالهم وحملهم على طاعة ديسم، وقتل الديلم عندهم من جند المرزيان ففعلوا. وجاء ديسم فملكها وفر إليه من كان عند المرزيان حتى اشتد عليه الحصار، واستصلى أثناء ذلك الوزير علي بن جعفر، ثم خرجوا من توزير، ولحق ديسم بأردبيل، وجاء علي بن جعفر إلى المرزيان. ثم حاصر المرزيان أردبيل حتى نزل له ديسم على الأمان وملكها صلحاً. وملك توزير كذلك. ووفى له، ثم طلب ديسم أن يبعثه إلى قلعه بالطرم فبعثه بأهله وولده وأقام هنالك.

خبر سيف الدولة بواسط

لما فر بنو البريدي عن واسط إلى البصرة ونزل بها سيف الدولة أراد الانحدار خلفهم لانتزاع البصرة منهم، واستمد أخاه ناصر الدولة فأمدته بمال مع أبي عبد الله الكوفي، وكان تورون وجحجج يستطيلان عليه، فأراد الاستئثار بالمال فردّه سيف الدولة مع الكوفي إلى أخيه، وأذن لتورون في مال الجامة ولجحجج في مال المدار. وكان من قبل يرأسل الأتراك وملك الشام ومصر معه فلا يجيبونه. ثم ناروا عليه في شعبان من سنة إحدى وثلاثين، فهرب من معسكره ونهب سواده وقتل جماعة من أصحابه. وكان ناصر الدولة لما أخبره أبو عبد الله الكوفي بخبر أخيه في واسط، برز يسير إلى الموصل، وركب إليه المتقي يستمهله، فوقف حتى عاد وأغد السير لثلاثة عشر شهراً من إمارته، فثار الديلم ونهبوا داره، ودبر الأمور أبو إسحاق القراريطي من غير لقب الوزارة.

وعزل أبو العباس الأصهباني لأحد وخمسين يوماً من وزارته، ثم تنازع الإمارة بواسط بعد سيف الدولة تورون وجحجج، واستقر الحال أن يكون تورون أميراً وجحجج صاحب الجيش. ثم طمع ابن البريدي في واسط وأصعد إليها وطلب من تورون أن يضمه إليها، فردّه رداً جميلاً. وكان قد سار جحجج للدافعة فمر به الرسول في طريقه وحادثه طويلاً، وسعى إلى تورون بأنه لحق بابن البريدي فأسرى إليه وكبسه متصف رمضان، فقبض عليه وجاء به إلى واسط فسلمه، وبلغ الخبر إلى سيف الدولة وكان لحق بأخيه، فعاد إلى بغداد متصف رمضان، وطلب المال من المتقي للدافعة تورون، فبعث أربعمائة ألف درهم وفرقها في أصحابه وظهر له من كان مستخفياً ببغداد وجاء تورون من واسط بعد أن خلف بها كيغلغ. فلما أحس به سيف الدولة رحل فيمن انضم إليه من أجناد واسط وفيهم الحسن بن هارون، وسار إلى الموصل ولم يعاود بنو حدان بعدها بغداد.

إمارة تورون ثم وحشته مع المتقي

لما سار سيف الدولة عن بغداد دخلها تورون آخر رمضان سنة إحدى وثلاثين، فولاه المتقي أمير الأمراء، وجعل النظر في الوزارة لأبي جعفر الكرخي كما كان الكوفي. ولما سار تورون عن واسط خالقه إليها البريدي فملكها. ثم انحدر تورون أول ذي القعدة لقتل البريدي، وقد كان يوسف بن وجيه صاحب عمان سار في المراكب إلى البصرة، وحارب ابن البريدي حتى أشرفوا

وأقام المتقي وبنو حمدان بالرقعة.

مسير ابن بويه إلى واسط وعوده عنها ثم استيلاؤه عليها

كان معز الدولة بن بويه بالأهواز، وكان ابن البريدي يطمعه في كل وقت في ملك العراق، وكان قد وعده أن يمهده إلى واسط. فلما أصدد تورون إلى الموصل خالفه معز الدولة إلى واسط وأخلف ابن البريدي وعده في المدد. وعاد تورون من الموصل إلى بغداد، وانحدر منها للقاء معز الدولة متتصفاً ذي القعدة من سنة اثنين وثلاثين، واقتلوا بقباب حميد بضعة عشر يوماً. ثم تأخر تورون إلى نهر ديبالي فعبه ومنع الديلم من عبوره بمن كان معه من المقاتلة في الماء، وذهب ابن بويه ليصعد ويتمكن من الماء، فبعث تورون بعض أصحابه فعبروا ديبالي وكنموا له حتى إذا صار مصعداً خرجوا عليه على غير أهبة، فانهمز هو ووزيره الصهيري وأسر منهم أربعة عشر قائداً واستأمن كثير من الديلم إلى تورون، ولحق ابن بويه والصهيري بالسوس. ثم عاد إلى واسط ثانية فملكها ولحق أصحاب بني البريدي بالبصرة.

قتل ابن البريدي أخاه ثم وفاته

كان أبو عبد الله بن البريدي قد استهلك أمواله في هذه النوائب التي تتوهم، واستقرض من أخيه أبي يوسف مرة بعد مرة، وكان أثرى منه ومال الجند إليه لثروته. وكان يعيب على أخيه تذييره وسوء تدبيره. ثم غمي الخبر إليه أنه يريد المكر به، والاستبداد بالأمر. وتكر كل واحد منهما للآخر، ثم أكنم أبو عبد الله غلماناً في طريق أبي يوسف فقتلوه، وشغب الجند لذلك فأراهم شلوه فافترقوا، ودخل دار أخيه وأخذ ما فيها من الأموال، وجواهر نفيسة كان باعها له بمخمسين ألف درهم، وكان أصلها ليحكم وهبها لبيته حين زوجها له، وأخذها يحكم من دار الخلافة، فاحتاج إليه أبو عبد الله بعد فباعها له وبخسه أبو يوسف في قيمتها. وكان ذلك من دواعي العداوة بينهما. ثم هلك أبو عبد الله بعد مهلك أخيه بشمانية أشهر، وقام بالأمر بعده بالبصرة أخوهما أبو الحسن، فأساء السيرة في الجند فثاروا به ليقتلوه، فهرب منهم إلى هجر مستجيراً بالقرامطة، ولوا عليهم بالبصرة أبا القاسم ابن أخيه أبي عبد الله، وأمد أبو طاهر القرمطي أبا الحسن، وبعث معه أخويه لحصار البصرة فامتعت عليهم،

على الهلاك. ثم احترقت مراكب عمان مجيلة دبرها بعض الملاحين ونهب منها مال عظيم. ورجع يوسف بن وجيه مهزوماً في الحرم سنة اثنين وثلاثين، وهرب في هذه الفتنة أبو جعفر بن شيرزاد من تورون فاشتمل عليه، وكان تورون عند إصعاده من بغداد استخلف مكانه محمد بن ينال الترجمان. ثم تنكر له فارتاب محمد، وارتاب الوزير أبو الحسن بن مقلة بمكان ابن شيرزاد من تورون وخافا غائلته وخوفا المتقي كذلك، وأوهما أن البريدي ضمنه من تورون بمخمسمائة ألف دينار التي أخذها من تركة يحكم، وأن ابن شيرزاد جاء عن البريدي ليخلعه ويسلمه، فانزعج لذلك وعزم على المسير إلى ابن حمدان، وكتبوا إليه أن ينفذ عسكرياً يسير صحبته.

مسير المتقي إلى الموصل

ولما تمت سعاية ابن مقلة وابن ينال بتورون مع المتقي اتفق وصول ابن شيرزاد إلى بغداد أول اثنين وثلاثين في ثلاثمائة فارس، وأقام بدست الأمر والنهي لا يعرج على المتقي في شيء. وكان المتقي قد طلب من ناصر الدولة بن حمدان عسكرياً يصحبه إلى الموصل. فبعثهم ابن عمه أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، فلما وصلوا بغداد اختفى ابن شيرزاد وخرج المتقي إليهم في حرمة ولده، ومعه وزيره وأعيان دولته مثل سلامة الطولوني وأبي زكريا يحيى بن سعيد السوسني وأبي محمد المارداني وأبي إسحاق القرابطي وأبي عبد الله الموسوي وثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الطبيب، وأبي نصر بن محمد بن ينال الترجمان. وساروا إلى تكريت وظهر ابن شيرزاد في بغداد، وظلم الناس وصادروهم، وبعث إلى تورون في واسط بخبر المتقي، فعقد ضمان واسط على ابن البريدي، وزوجه ابنته، وسار إلى بغداد.

وجاء سيف الدولة إلى المتقي بتكريت. ثم بعث المتقي إلى ناصر الدولة يستحثه، فوصل إليه في ربيع الآخر، وركب المتقي من تكريت إلى الموصل، وأقام هو بتكريت. وسار تورون لحربه فقدم إليه أخوه سيف الدولة فاقتلوا أياماً. ثم انهزم سيف الدولة وغنم تورون سواده وسواد أخيه، ولحقوا بالموصل وتورون في اتباعهم. ثم ساروا عنها مع المتقي إلى نصيبين، ودخل تورون الموصل ولحق المتقي بالرقعة، وراسل تورون بأن وحشته لأجل ابن البريدي، وأن رضاه في إصلاح بني حمدان، فصالحهما تورون وعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لثلاث سنين بثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم لكل سنة، وعاد تورون إلى بغداد

فقاتلوه فامتنعوا عليه فأكمن لهم بعض الأيام فهزمهم وقتل أميرهم، ونجا الباقون إلى حصن البلد، وحاصره المزيان وصارهم. ثم جاءه الخبر بأن أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان بلغ سلماس متوجهاً إلى أذربيجان بعثه إليها ابن عمه ناصر الدولة ليملكها، فجهز عسكرياً لحصار الروس في بردعة، وسار إلى قتال ابن حمدان. فارتحل ابن حمدان راجعاً إلى ابن عمه باستدعائه بالانحدار إلى بغداد. لما مات تورون وأقام العسكر على حصار الروس ببردعة، حتى هربوا من البلد وحملوا ما قدروا عليه، وظهر الله البلد منهم. وفيها ملك الروم رأس عين واستباحوها ثلاثاً وقتلهم الأعراب ففارقوها.

الولايات أيام المتقي

قد تقدم لنا أنه لم يكن بقي في تصريف الخليفة إلا أعمال الأهواز والبصرة وواسط والجزيرة والموصل لبني حمدان. واستولى معز الدولة على الأهواز ثم على واسط، وبقيت البصرة بيد أبي عبد الله بن البريدي واستولى على بغداد مع المتقي يحكم، ثم ابن البريدي، ثم توركين الديلمي، ثم ابن رائق ثانية، ثم ابن حمدان، ثم تورون. يختلفون على المتقي واحداً بعد واحد، وهو مغلب لهم والحل والعقد والإبرام والنقض بأيديهم، ووزير الخليفة عامل من عمالهم متصرف تحت أحكامهم، وآخر من دبر الأمور أبو عبد الله الكوفي كاتب تورون، وكان قبله كاتب ابن رائق، وكان على الحجابة بدر بن الجرسى، فعزله عنها سنة ثلاثين وجعل مكانه سلامة الطولوني وولى بدر طريق الفرات ففرج إلى الأخشيذ واستأمن إليه فولاه دمشق. وكان من المستبدين في النواحي يوسف بن وجيه، وكان صاحب الشرطة ببغداد أبا العباس الديلمي.

خلع المتقي وولاية المستكفي

لم يزل المتقي عند بني حمدان من شهر ربيع الآخر سنة اثنين وثلاثين إلى آخر السنة، ثم أتس منهم الضجر واضطر لمراجعة تورون، فأرسل إليه الحسن بن هارون وأبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمي في الصلح، وكتب إلى الأخشيذ محمد بن طغج صاحب مصر يستقدمه، فجاءه وانتهى إلى حلب وبها أبو عبد الله بن سعيد بن حمدان من قبل ابن عمه ناصر الدولة، فارتحل عنها وتخلف عنه ابن مقاتل، وقد كان صادرة ناصر الدولة على خمسين ألف دينار، فاستقدم الأخشيذ وولاه خراج مصر. وسار الأخشيذ من حلب

وأصلحوا بين أبي القاسم وعمه، ودخل البصرة وسار منها إلى تورون ببغداد. ثم طمع يأنس مولى أبي عبد الله في الرياسة وداخل بعض قواد الديلم في الثورة بأبي القاسم. واجتمع الديلم إلى القائد وبعث أبو القاسم واليه يأنس فهم به ليفرد بالأمر، فهرب يأنس واختفى وتفرق الديلم واختفى القائد. ثم قبض عليه ونفاه وقبض على يأنس بعد أيام وصادره على مائة ألف دينار، وقتله.

ولما قدم أبو الحسن البريدي إلى بغداد مستأمناً إلى تورون فأمنه وطلب الإمداد على ابن أخيه، وبذل في ذلك أموالاً. ثم بعث ابن أخيه من البصرة بالأموال فأقره على عمله وشعر أبو الحسن بذلك فسعى عند ابن تورون في ابن شيرزاد إلى أن قبض عليه، وضرب واستظهر أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي بفتاوي الفقهاء والقضاة بإباحة دم أبي الحسن، كانت عنده من أيام ناصر الدولة، وأحضروا بدار المتقي وستلوا عن فتاويهم، فاعترفوا بأنهم أفتوا بها، فقتل وصلب ثم أحرق ونهب داره. وكان ذلك منتصف ذي الحجة من السنة، وكان ذلك آخر أمر البريديين.

الصوائف أيام المتقي

خرج الروم سنة ثلاثين أيام المتقي واتهوا إلى قرب حلب فعاثوا في البلاد وبلغ سبيهم خمسة آلاف. وفيها دخل ثمل من ناحية طرسوس فعاث في بلاد الروم، وامتلات أيدي عسكره من الغنائم، وأسر عدة من بطارتهم. وفي سنة إحدى وثلاثين بعث ملك الروم إلى المتقي يطلب منه منديلاً في بيعة الزها زعموا أن المسيح مسح به وجهه، فارتسمت فيه صورته، وأنه يطلق فيه عدداً كثيراً من أسرى المسلمين، واختلف الفقهاء والقضاة في إسعافه بذلك، وفيه غضاضة أو منعه ويبقى المسلمون بحال الأسر. فأشار عليه وعلى ابن عيسى بإسعافه لخلاص المسلمين، فأمر المتقي بتسليمه إليهم. وبعث إلى ملك الروم من يقوم بتسليم الأسرى. وفي سنة اثنين وثلاثين خرجت طوارق من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان، ودخلوا في نهر الكرز إلى بردعه. وبها نائب المزيان ابن محمد بن مسافر ملك الديلم بأذربيجان، فخرج في جموع الديلم والمطوعة فقتلوه، وقتلوه فزهمهم الروس وملكوا البلد، وجاءت العساكر الإسلامية من كل ناحية لقتالهم فامتنعوا بها، ورماهم بعض العامة بالحجارة فاخرجوهم من البلد وقتلوا من بقي، وغنموا أموالهم واستبدوا بأولادهم ونسائهم. واستقر المزيان الناس ورحف إليهم في ثلاثين ألفاً،

استلاء معز الدولة بن بويه على بغداد واندراج أحكام الخلافة في سلطانهم

قد تقدم لنا استبداد أهل التواحي على الخلافة منذ أيام المتوكل، ولم يزل نطاق الدولة العباسية يتضاق شيئاً فشيئاً، وأهل الدولة يستبدون واحداً بعد واحد إلى أن أحاطوا ببغداد وصاروا ولاية متعددة يفرد كل واحد منهم بالذكر وسياقة الخبر إلى آخرها. وكان من أقرب المستبدين إلى مقر الخلافة بنو بويه بأصبهان وفارس، ومعز الدولة منهم بالأهواز. وقد تغلب على واسط، ثم انتزعت منه. وبنو حمدان بالموصل والجزيرة، وقد تغلب على هيت وصارت تحت ملكهم، ولم يبق للخلفاء إلا بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات، وأمرؤهم مع ذلك مستبدون عليهم، ويسمون القائم بدولتهم أمير الأمراء كما مر في أخبارهم إلى أن انتهى ذلك إلى دولة المتقي والقائم بها ابن شيرزاد. وولى على واسط نبال كوشه كما قلنا فالخرف عن ابن شيرزاد. وكاتب معز الدولة، وقام بدعوته في واسط واستدعاه الملك ببغداد. فزحف في عساكر الديلم إليها ولقيه ابن شيرزاد والأترار وهربوا إلى ابن حمدان بالموصل، واختفى المستكفي وقدم معز الدولة كاتبه الحسن بن محمد المهلبى إلى بغداد، فدخلها وظهر الخليفة، فظهر عنده المهلبى وجدد له البيعة عن معز الدولة أحمد بن بويه، وعن أخويه عماد الدولة علي وركن الدولة الحسن. وولاهم المستكفي على أعمالهم ولقبهم بهذه الألقاب ورسمها على سكتته. ثم جاءه معز الدولة إلى بغداد وملكها، وصرف الخليفة في حكمه، واختص باسم السلطان. فبقيت أخبار الدولة تؤثر عنهم، وإن كان منها ما يختص بالخليفة فقليل. فلذلك صارت أخبار هؤلاء الخلفاء منذ المستكفي إلى المتقي مندرجة في أخبار بني بويه والسلجوقية من بعدهم لعطلهم من التصرف إلا قليلاً يختص بالخلفاء نحن ذاكروه ونرجئ بقية أخبارهم إلى أخبار الديلم والسلجوقية الغالبين على الدولة عندما نفرد دولتهم كما شرطناه.

الخبر عن الخلفاء من بني العباس المغلبين
لدولة بني بويه من السلجوقية من بعدهم
من لدن المستكفي إلى المتقي وما لهم من
الأحوال الخاصة بهم ببغداد ونواحيها

لما دخل معز الدولة بن بويه إلى بغداد غلب على المستكفي

ولقي المتقي بالركة، وأهدى إليه وإلى الوزير بن الحسين بن مقله وسائر الخاشية، واجتهد به أن يسير معه إلى مصر ليقيم خلافته هنالك فأبى، فخوفه من تورون فلم يقبل.

وأشار على ابن مقله أن يسير معه إلى مصر فيحكمه في البلاد فأبى، وكانوا ينتظرون عود رسلهم من تورون، فبعثوا إليهم بيمين تورون والوزير ابن شيرزاد بمحضر القضاة والعدول والعباسيين والعلويين وغيرهم من طبقات الناس. وجاء الكتاب بخطوطهم بذلك وتأكيد اليمين، ففارق المتقي الأخشيذ والمخدر من الوقت في الفرات آخر الحرم سنة ثلاث وثلاثين، ولقيه تورون بالسندية فقبل الأرض وقال: قد وفيت يميني! ووكل به وبأصحابه وأنزله في خيمته. ثم سلمه لثلاث سنين ونصف من خلافته، وأحضر أبا القاسم عبد الله بن المكفي فبايعه الناس على طبقاتهم، ولقب المستكفي، وجيء بالمتقي فبايعه وأخذت منه البردة والقضيب واستوزر أبا الفرج محمد بن علي السامري، فكان له اسم الوزارة على سنن من قبله، والأمور راجعة لابن شيرزاد كاتب تورون. ثم خلع المستكفي على تورون وتوجه وحسب المتقي، وطلب أبا القاسم الفضل بن المقتدر الذي لقب فيما بعد بالمطيع، فاخفى سائر أيامه وهدمت داره.

وفاة تورون وإمارة ابن شيرزاد

وفي الحرم من سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مات تورون ببغداد لست سنين وخمسة أشهر من إمارته، وكان ابن شيرزاد كاتبه أيامه كلها، وبعثه قبل موته لاستخلاص الأموال من هيت. فلما بلغه خبر الوفاة عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة بن حمدان، فأبى الجند من ذلك واضطربوا وعقدوا له الرئاسة عليهم، واجتمعوا عليه وحلفوا، وبعث إلى المستكفي ليحلف له، فأجابته وحلف له بمحضرة القضاة والعدول، ودخل إليه ابن شيرزاد فصولاً أمير الأمراء، وزاد في الأرزاق زيادة متسعة فضاقت عليه الأموال، فبعث أبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمي إلى ابن حمدان يطالبه بالمال ويعدده بإمارة الأمراء، فأنفذ إليه خمسمائة ألف درهم وطعاماً، وفرقها في الجند فلم تكف ففرض الأموال على العمال والكتّاب والتجار لأرزاق الجند، ومدت الأيدي إلى أموال الناس، وفشا الظلم وظهرت للصوص وكبسوا المنازل، وأخذ الناس في الخلاص من بغداد. ثم استعمل على واسط نبال كوشه، وعلى تكريت الفتح السيكري، فسار إلى ابن حمدان ودعا له شكراً فولاه عليها من قبله.

والصكوك والجلوس للرفد وإجلالهم في التحية والخطاب، وكل ذلك طوع القائم على الدولة، وكان يفرد في كل دولة بني بويه والسلجوقية بلقب السلطان بما لا يشاركه فيه أحد، ومعنى الملك من تصريف القدرة وإظهار الأبهة والعز حاصل له دون الخليفة وغيره، وكانت الخلافة حاصلة للعباسي المنسوب لفظاً المسلوب معنى، والله المدير للأمور لا إله غيره.

انقلاب حال الدولة بما تجدد في الجباية

والاقطاع

لما استولى معز الدولة طلب الجند أرزاقهم على عادتهم وأكثر لسبب ما تجدد من الاستيلاء الذي لم يكن له، فاضطر إلى ضرب المكوس وأخذ أموال الناس من غير وجهها، وأقطع قواده وأصحابه من أهل عصيته وغير المساهمين له في الأمر جميع القوى التي بجانب السلطان، فارتفعت عنها أيدي العمال وبطلت الدواوين واختلف حال القرى في العمارة عما كان في أيدي القواد والرؤساء، حصل بهم لأهلها الرق فزادت عمارتها وتوفر دخلها، ولم تكن مناظرهم في ذلك ولا تقديره عليهم، وما كان بأيدي العامة والأتباع عظم خرابه لما كان يعدم من الغلاء والنهب واختلاف الأيدي وما يزيد الآن من الظلم ومصادرات الرعايا والحيث في الجباية وإهمال النظر في تعديل القناطر والمشارب، وقسم المياه على الأرضين فإذا خربت قراهم ردوها وطلبوا العوض عنها فيصير الآخر منها لما صار إليه الأول، ثم أمر معز الدولة قواده وأصحابه بحماية الأقطاع والضياغ وولاتها، وصارت الجبايات لنظروهم والتعويل في المرتفع على أخبارهم. فلا يقدر أهل الدواوين والحسابات على تحقيق ذلك عليهم، ولم يقف عند ذلك على غاية. فبطلت الأموال وصار جمعها من المكوس والظلامات، وعجز معز الدولة عن ذخيرة يعدها لنواب سلطانته. ثم استكثر من الموالي الأتراك ليجدع بهم من أنوف قومه، وفرض لهم الأرزاق وزاد لهم الأقطاع، فعظمت غيرة قومه من ذلك وآل الأمر إلى المنافرة كما هو الشأن في طبيعة الدول.

دولة بني حمدان مسير ابن حمدان إلى بغداد

ولما استولى معز الدولة على بغداد وخلع المستكفي، بلغ الخبر إلى ناصر الدولة بن حمدان، فشق ذلك عليه، وسار من الموصل إلى بغداد وانتهى إلى سامرا في شعبان سنة أربع. وكان معز

ويعي في كفالته، وكان المستكفي في سنة ثلاث وثلاثين قبلها قبض على كاتبه أبي عبد الله بن أبي سليمان وعلى أخيه، واستكتب أبا أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي في خاص أمره، وكان قبله كاتباً لابن حمدان، وكان يكتب للمستكفي قبل الخلافة. فلما نصب للخلافة قدم من الموصل فاستكتبه المستكفي في هذه السنة على وزيره أبي الفرج لاثنتين وأربعين من وزارته، وصادته على ثلاثمائة ألف درهم. ولما استولى معز الدولة ببغداد على الأمر وبعث أبو القاسم البريدي صاحب البصرة ضمن واسط وأعمالها وعقد له عليها.

خلع المستكفي وبيعة المطيع

وأقام المستكفي بعد استيلاء معز الدولة على الأمر أشهراً قلائل، ثم بلغ معز الدولة أن المستكفي يسعى في إقامة غيره، فتكر له، ثم أجلسه في يوم مشهود لحضور رسول من صاحب خراسان، وحضر هو في قومه وعشيرته، وأمر رجلين من نقباء الديلم جاءا ليقبلا يد المستكفي، ثم جذباه عن سريره وساقاه ماشياً. وركب معز الدولة وجاء به إلى داره فاعتقله بها، واضطرب الناس وعظم النهب ونهب دار الخلافة، وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي، وكان ذلك في جمادى الآخرة لسنة وأربعة أشهر من خلافته.

ثم بويع أبو القاسم الفضل بن المقتدر، وقد كان المستكفي طلبه حين ولي لإطلاعه على شأنه في طلب الخلافة، فلم يظفر به واختفى. فلما جاء معز الدولة تحول إلى داره واختفى عنده، فلما قبض على المستكفي بويع له ولقب المطيع لله، ثم أحضر المستكفي عنده فأشهد على نفسه بالخلع، وسلم عليه بالخلافة، ولم يبق للخليفة من الأمر شيء البتة منذ أيام معز الدولة. ونظر وزير الخليفة مقصور على إقطاعه ونفقات داره والوزارة منسوبة إلى معز الدولة وقومه من الديلم شيعه للعلوية منذ إسلامهم على يد الأطروش، فلم يكونوا من شيعه العباسية في شيء. ولقد يقال بأن معز الدولة اعتزم على نقل الخلافة منهم إلى العلوية، فقال له بعض أصحابه: لا تول أحداً يشركك قومك كلهم في محبته والاشتغال عليه، وربما يصير لهم دونك، فأعرض عن ذلك وسلبهم الأمر والنهي، وتسلم عماله وجنده من الديلم وغيرهم أعمال العراق وسائر أراضيه. وصار الخليفة إنما يتناول منه ما يقطعه معز الدولة ومن بعده فيما يسد بعض حاجاته. نعم إنهم كانوا يفردونهم بالسريр والمنبر والسكة والاحتيم على الرسائل

والمطيع معه وأراد السير إلى الموصل فأرسل إليه ناصر الدولة في الصلح وحمل المال فتركه. ثم انتفض سنة سبع وثلاثين فصار إليه معز الدولة، وملك الموصل، ولحق ناصر الدولة بتبصيين، وأخذ معز الدولة في ظلم الرعايا وعسفهم. ثم بعث إليه أخوه ركن الدولة بأصبهان بأن عسكر خراسان قصدت جرجان والري، واستمده فاضطر معز الدولة إلى صلح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة وما ملكه سيف الدولة من الشام ودمشق وحلب على ثمانية آلاف ألف ألف درهم، ويخطب لعماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة بني بويه، فاستقر الصلح على ذلك وعاد إلى بغداد.

ابتداء أمر بني شاهين بالطيحة

كان عمران بن شاهين من أهل الجامة، وحصلت عنده جبايات، فهرب إلى الطيحة خوفاً من الحكام، وأقام بين القصب والأجام يقتات بصيد السمك والطيح وكشف سابلة الطيحة. واجتمع عليه جماعة من الصيادين واللصوص. ثم اشتد خوفه فاستأمن إلى أبي القاسم بن البريدي صاحب البصرة نقله جماعة الجامة ونواحي البطائح. وجمع السلاح واتخذ مقاتل على تلال الطيحة وغلب على نواحيها، وسرح معز الدولة وزيره أبا جعفر الصهري سنة ثمان وثلاثين فقاتله وهرب واستأمن أهله وعياله. ثم جاء الخبر إلى معز الدولة بموت أخيه عماد الدولة بفارس، واضطراب أحواله بها. فكتب إلى الصهري بالفرار إلى شيرزاد لإصلاح الأمور، فسار إليها وعاد عمران بن شاهين إلى الطيحة، واجتمع إليه أصحابه وقوي أمره. وبعث معز الدولة إلى قتاله روزبهان من أعيان عسكره، فأطال حصاره في مضائق الطيحة. ثم ناجزه الحرب فهزمه عمران وهرب عسكره، وصار أصحابه يطلبون البذرقة والخفارة من جند السلطان في السابلة، وانقطع طريق البصرة إلا على الظهر.

وكان الصهري قد هلك وولى مكانه المهلي، فكتب معز الدولة إلى المهلي وهو بالبصرة، فصعد إلى واسط وأمدّه بالقواد والسلاح، وأطلق يده في الإنفاق. فزحف إلى الطيحة وضيق على عمران فانهى إلى مضائق خفية، وأشار عليه روزبهان بمعالجة القوم، وكتب إلى معز الدولة يشكو المطاولة من المهلي، فكتب إليه معز الدولة بالاستبطاء فبادر إلى المناجزة وتوغل في تلك المضائق، فانهزم وقتل من أصحابه وأسر ونجى هو سباحة في الماء، وأسر عمران أكابر القواد حتى صالحه معز الدولة وقلده البطائح وأطلق له أهله على أن يطلق القواد الذين في أسره فأطلقهم.

الدولة حين سمع قدوم عساكره مع ينال كوشه وقائد آخر، فقتل القائد ولحق بناصر الدولة. وجاء ناصر الدولة إلى بغداد فأقام بها وخالفه معز الدولة إلى تكريت فنهبا لأنها من أعماله. ثم عاد معز الدولة والمطيع فنزلوا بالجانب الغربي من بغداد، وقاتلوا ناصر الدولة بالجانب الشرقي وتقدم ناصر الدولة إلى الأعراب بالجانب الغربي بقطع الحيرة عن معز الدولة فغلت الأسعار وعزت الأقوات، ومنع ناصر الدولة من الخطبة للمطيع والمعاملة بسكته، ودعا للمتقي وبيت معز الدولة مراراً. وضاق الأمر به، واعتزم على ترك بغداد والعود إلى الأهواز.

ثم أظهر الرحيل ذات ليلة وأمر وزيره أبا جعفر الصهري بالعبور في أكثر العساكر، وأقام بالكينة مكانه، وجاء ينال كوشه لقتاله فانهزم واضطرب عسكر ناصر الدولة وأجفلوا، وغنم الديلم أموالهم وأظهرهم. ثم أمن معز الدولة الناس وعاد المطيع إلى داره في عزم سنة خمس وثلاثين وقام التورونية عليه، فلما شعروا به تكروه وهما يقتله، فأسرى هارباً ومعه ابن شيرزاد، وفر إلى الجانب الغربي. ثم لحق بالقرامطة فأجاروه وبعثوه إلى الموصل. ثم استقر الصلح بينه وبين الدولة كما طلب، ولما وفر عن الأتراك اتفقوا على تكين الشيرازي فولوه عليهم وقبضوا على من تخلف من كتبه وأصحابه، وساروا في اتباعه إلى تبصيين، ثم إلى سنجار، ثم إلى الحديثة، ثم إلى السن، ولحق هنالك عسكر معز الدولة مع وزيره أبي جعفر الصهري، وقد كان استمده ناصر الدولة. وسار ناصر الدولة وابن الصهري إلى الموصل، فنزلوا عليها وأخذ الصهري من ناصر الدولة ابن شيرزاد وحمله إلى معز الدولة وذلك سنة خمس وثلاثين.

استيلاء معز الدولة على البصرة

وفي هذه السنة انتفض أبو القاسم البريدي بالبصرة، فجهز معز الدولة الجيش وجماعة أعيانهم إلى واسط، ولقيهم جيش ابن البريدي في الماء على الظهر، فانهزموا إلى البصرة وأسروا من أعيانهم جماعة. ثم سار معز الدولة سنة ست وثلاثين إلى البصرة ومعه المطيع لاستنقاذها من يد أبي القاسم بن البريدي وسلوكوا إلى البرية. فبعث القرامطة يعزلون في ذلك معز الدولة فكتب يهددهم. ولما قارب البصرة استأمنت إليه عساكر أبي القاسم، وهرب هو إلى القرامطة فأجاروه، وملك معز الدولة البصرة. ثم سار منها إلى الأهواز لتلقي أخيه عماد الدولة، وترك المطيع وأبا جعفر الصهري بالبصرة. ولقي أخاه بأرجان. ثم عاد إلى بغداد

موت الصهري ووزارة المهلي

كان أبو جعفر محمد بن أحمد الصهري وزيراً لمعز الدولة، وكان قد سار لقتال عمران واستخلف مكانه أبا محمد الحسن بن محمد المهلي، فعرفت كفايته وإصلاحه وأمانته، وتوفي أبو جعفر الصهري محاصراً لعمران، فولى معز الدولة مكانه أبا محمد المهلي، فأحسن السيرة وأزال المظالم وخصوصاً عن البصرة فكان فيها شعب كثيرة من المظالم من أيام أبي البريدي، وتنقل في البلاد لكشف المظالم وتخليص الحقوق، فحسن أثره ونقم عليه معز الدولة بعض الأمور فنكبه سنة إحدى وأربعين وحجبه في داره ولم يعزله.

بناء معز الدولة ببغداد

أصاب معزل الدولة سنة خمسين مرض أشفي منه حتى وصي، واستوخم بغداد فارتحل إلى كلواذا ليسير إلى الأهواز، وأسف أصحابه لمفارقة بغداد، فأشاروا عليه أن يبني لسكناء في أعاليها. فبنى داراً أنفق عليها ألف ألف دينار، وصادر فيها جماعة من الناس.

ظهور الكتابة على المساجد

كان الديلم كما تقدم لنا شيعية لإسلامهم على يد الأطروش، وقد ذكرنا ما منع بني بويه من تحويل الخلافة على العباسية إليهم. فلما كان سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة أصبح مكتوباً على باب الجامع ببغداد: لعن صريح في معاوية ومن غصب فاطمة فذك، ومن منع من دفن الحسن عند جده ومن نفى أبا ذر، ومن أخرج العباس من الشورى، ونسب ذلك إلى معز الدولة. ثم عي من الليلة القابلة، فأراد معز الدولة إعادته، فأشار المهلي بأن يكتب مكان المحو: لعن معاوية فقط والظالمين لآل رسول الله ﷺ. وفي ثامن عشر ذي الحجة من هذه السنة أمر الناس بإظهار الزينة والفرح لعبد العزيز من أعيان الشيعة. وفي السنة بعدها أمر الناس في يوم عاشوراء أن يغلقوا دكاكينهم ويقعدوا عن البيع والشراء ويلبسوا المسوح، ويعلموا بالنياحة، وتخرج النساء مسببات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ولطمن خدودهن حزناً على الحسين، ففعل الناس ذلك. ولم يقدر أهل السنة على منعه لأن السلطان للشيعة وأعيد ذلك سنة ثلاث وخمسين فوقعت فتنة بين أهل السنة والشيعة ونهب الأموال.

استيلاء معز الدولة على عمان وحصاره

البطائح

إنحدر معز الدولة سنة خمس وخمسين إلى واسط لقتال عمران بن شاذان بالبطائح فأنفذ الجيش من هنالك مع أبي الفضل العباس بن الحسن، وسار إلى الأبله فأنفذ الجيش إلى عمان، وكان القرامطة قد استولوا عليها وهرب عنها صاحبها نافع، وبقي أمرها فوضى، فاتفق قاضيها وأهل البلد أن ينصبوا عليهم رجلاً منهم فنصبوه، ثم قتل بعضهم فولوا آخر من قرابة القاضي يعرف بعبد

حصار البصرة

قد تقدم لنا أن القرامطة أنكروا على معز الدولة مسيره إلى البصرة على بلادهم، وذكرنا ما دار بينهم في ذلك. ولما علم يوسف بن وجيه استحاشهم بعث إليهم يطعمهم في النصرة، واستمدهم فأمدوه. وسار في البحر سنة إحدى وأربعين، وبلغ الخبر إلى الوزير المهلي، وقد قدم من شأن الأهواز. فسار إلى البصرة وسبق إليها ابن وجيه وقاتله فهزمه وظفر بمراكبه.

استيلاء معز الدولة على الموصل وعوده

قد تقدم لنا صلح معز الدولة مع ناصر الدولة على ألفي ألف درهم كل سنة. فلما كانت سنة سبع وأربعين أخرج وحمل المال، فسار معز الدولة إلى الموصل في جمادى ومعه وزيره المهلي، فاستولى على الموصل ولحق ناصر الدولة بنصيبين ومعه كتابه وجميع أصحابه وحاشيته، ومن يعرف وجوه المنافع، وأنزلهم في قلعة كواشي وغيرها. وأمر الأعراب بقطع الميرة عن الموصل فضافت الأبواب على عسكر معز الدولة، فسار عن الموصل إلى نصيبين واستخلف عليها سبكتكين الحاجب الكبير، وبلغه في طريقه أن أولاد ناصر الدولة بسنجار في عسكر، فبعث عسكراً فكبسوهم واشتغلوا بالنهب، فعاد إليهم أولاد ناصر الدولة وهم غازون فاستلحموهم، وسار ناصر الدولة عن نصيبين إلى ميفارقين. ورجع أصحابه إلى معز الدولة مستأمنين، فسار هو إلى أخيه سيف الدولة مجلب فقتلاه وأكرمه وتراسلوا في الصلح على ألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم، وإطلاق من أسر بسنجار وأن يكون ذلك في ضمان سيف الدولة فتم بينهما، وعاد معز

البصرة وطلب منه المعونة على أمره فأنفذ إليه مائتي ألف درهم وأرسل الوزير خلال ذلك إلى عسكر الأهواز أن يوافوه بالأبله لموعده ضربه لهم، فوافوه وكبسوا حبشياً بالبصرة وحبسوه براهرمز ونهبوا أمواله، وكان من جملة ما أخذ له عشرة آلاف مجلد من الكتب وبعث ركن الدولة بتخليص حبشي ابن أخيه وجعله عند عضد الدولة فأقطعه إلى أن مات سنة سبع وستين.

عزل أبي الفضل ووزارة ابن بقية

لما ولي أبو الفضل وزارة بختيار كثر ظلمه وعسفه، وكان محمد بن بقية من حاشية بختيار، وكان يتولى له المطبخ. فلما كثر شغب الناس من أبي الفضل عزله بختيار سنة اثنتين وستين وولى مكانه محمد بن بقية، فانتشر الظلم أكثر، وخربت النواحي وظهر العيارون ووقعت الفتن بين الأتراك وبختيار، فأصلح ابن بقية بينهم وركب سبكتكين بالأتراك إلى بختيار، ثم أسد بينهم وتحرك الديلم على سبكتكين وأصحابه فأرضاهم بختيار بالمال ورجعوا عن ذلك..... كان ناصر الدولة بن حمدان قد قبض عليه ابنه أبو تغلب وحبه سنة ست وخمسين وطمع في السير إلى بغداد، وجاء أخوه حمدان وإبراهيم فازعين إلى بختيار ومستنجدين به فشغل عنهما بما كان فيه من شأن البطيحة وعمان، حتى إذا قضى وطره من ذلك وعزل أبا الفضل الوزير واستوزر ابن بقية حمله على ذلك وأغراه به، فسار إلى الموصل ونزلها في ربيع الآخر سنة ثلاث وستين، ولحق أبو تغلب بسنجان بأصحابه وكتابه ودواوينه.

ثم سار إلى بغداد وبعث بختيار في أثره الوزير ابن بقية وسبكتكين فدخل ابن بقية بغداد وأقام سبكتكين يحاربه في ظاهرها، ووقعت الفتنة داخل بغداد في الجانب الغربي بين أهل السنة والشيعه. واتفق سبكتكين وأبو تغلب على أن يقبضا على الخليفة والوزير وأهل بختيار، ويعود سبكتكين إلى بغداد مستولياً وأبو تغلب إلى الموصل. ثم أقصر سبكتكين عن ذلك وتوقف، وجاءه الوزير ابن بقية وأرسلوه إلى أبي تغلب في الصلح. وأن يضمن البلاد ويرد على أخيه حمدان أقطاعه وأملكه إلا ماردين، وعاد أبو تغلب إلى الموصل ورحل بختيار، وسار سبكتكين للقاءه.

واجتمع بختيار وأبو تغلب على الموصل، وطلب أبو تغلب زوجته ابنة بختيار وأن يحيط عنه من الضمان ويلقب لقباً سطانياً فأجيب إلى ذلك خشية منه، ورحل بختيار إلى بغداد، وسر أهل الموصل برحله لما نالهم منه، وبلغه في طريقه أن أبا تغلب قتل قوماً من أصحابه، وكانوا استأمنوا لبختيار وزحفوا لنقل أهلهم وأموالهم

الرحمن بن أحمد بن مروان، واستكتب علي بن أحمد الذي كان وصل مع القرامطة كاتباً، وحضر وقت العطاء، فاختلف الزنج والبيض في الرضا بالمساواة وبعدمها واقتلوا، فغلب الزنج وأخرجوا عبد الوهاب واستقر علي بن أحمد أميراً. فلما جاء معز الدولة إلى واسط هذه السنة، قدم عليه نافع الأسود صاحب عمان مستنجداً به، فأنحدر به من الأبله، وجهاز له المراكب لحمل العساكر، وعليهم أبو الفرج محمد بن العباس بن فساغس وهي مائة قطعة، فساروا إلى عمان وملكوها تاسع ذي الحجة من سنة خمس وخمسين، وقتلوا من أهلها وأحرقوا مراكبها، وكانت تسعة وثمانين، وعاد معز الدولة إلى واسط، وحاصر عمران، وأقام هنالك فاعتل وصالح عمران وانصرف عنه.

وفاة الوزير المهلي

سار الوزير المهلي في جمادى سنة اثنتين وخمسين إلى عمان ليفتحها فاعتل في طريقه ورجع إلى بغداد فمات في شعبان قبل وصوله، وحمل فدفن بها لثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر من وزارته. وقبض معز الدولة أمواله وذخائره وصارت إليه وحواشيه، ونظر في الأمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي وأبو الفرج محمد بن العباس بن فساغس ولم يلقب أحد منهما بوزارة.

وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار

ولما رجع معز الدولة إلى بغداد اشتد مرضه فعهد بالسلطنة إلى ابنه عز الدولة، وتصدق وأعتق. وتوفي في ربيع من سنة ست وخمسين لاثنتين وعشرين سنة من سلطته، وولى ابنه عز الدولة بختيار وقد كان أوصاه بطاعة عمه ركن الدولة، وبطاعة ابنه عضد الدولة، لأنه كان أكبر سنأ وأخبر بالسياسة ووصاه بمجاوبه سبكتكين وبكاتبه أبي الفضل العباس وأبي الفرج، فخالف وصاياه وعكف على اللُّهو وأوحش هؤلاء، ونفى كبار الديلم شرها في أقطاعاتهم. وشغب عليه الأصاعد فزادهم واقتدى بهم الأتراك، وجاء أبو الفرج محمد بن العباس من عمان بعد أن سلمها إلى نواب عضد الدولة الذين كانوا في أمداه، وخشي أن يؤمر بالمقام بها ويفرد أبو الفضل صاحبه بالوزارة ببغداد، فكان كما ظن. ثم انتفض بالبصرة حبشي بن معز الدولة على أخيه بختيار سنة ست وخمسين، فبعث الوزير أبو الفضل العباس فسار مورياً بالأهواز ونزل واسط وكتب إلى حبشي بأنه جاء ليسلمه

استيلاء معز الدولة على العراق، وانقسمت الدولة الإسلامية دولاً تذكر ولايات كل منها في أخبارها عند انفراقها على ما شرطناه.

فتنة سبكتكين وموته وإمارة أفتكين

لما أوقع بختيار في الأتراك بالأهواز ما أوقع وانتفض سبكتكين ببغداد عمد بختيار إلى من حبسه من الأتراك فأطلقهم، وولى منهم على الأتراك زادويه الذي كان عامل الأهواز، وسار إلى واسط للقاءه وأخويه، وكتب إلى عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة يستجدهما، وإلى أبي تغلب بن حمدان في المدد بنفسه، ويسقط عنه مال الإقطاع، وإلى عمران بن شاهين بالطيحة كذلك، فجهز إليه عمه ركن الدولة العسكر مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وكتب إلى ابن عمه عضد الدولة بالمسير معه فتشاقل وتريص بختيار طمعاً في ملك العراق. وأما عمران بن شاهين فدافع واعتذر بأن عسكره لا يفتكون في الديلم لما كان بينهم، وأما أبو تغلب فبعث أخاه أبا عبد الله الحسين في عسكر إلى تكريت. فلما سار الأتراك عن بغداد إلى واسط لقتال بختيار وجاء هو إليها ليقم الحجة في سقوط الإقطاع عنه، ووجد الفتنة حامية بين العيارين فكف القسامة وانتظر ما يقع ببختيار فيدخل بغداد ويملكها. ولما سار الأتراك إلى واسط حملوا معهم خليفتهم الطائع لله وأباه المطيع المخلوع، وانتهوا إلى دير العاقول فهلك المطيع وسبكتكين معاً، وولى الأتراك عليهم أفتكين من أكابر قوادهم ومولى معز الدولة، فانتظم أمرهم وساروا إلى واسط وحاصروا بها بختيار خمسين يوماً حتى اشتد عليه الحصار وهو يستحث عضد الدولة.

نكية بختيار على يد عضد الدولة ثم عوده إلى ملكه

لما تابعت كتب بختيار إلى عضد الدولة باستحثائه سار في عساكر فارس، وجاءه أبو القاسم بن العميد وزير أبيه إلى الأهواز في عساكر الري وساروا إلى واسط، وأجفل عنها أفتكين والأتراك إلى بغداد ورجع أبو تغلب إلى الموصل. ولما جاء عضد الدولة إلى واسط سار إلى بغداد في الجانب الشرقي، وسار بختيار في الجانب الغربي وحاصروا الأتراك ببغداد من جميع الجهات. وأرسل بختيار إلى ضبة بن محمد الأسدي من أهل عين التمر وإلى أبي سنان وأبي تغلب بن حمدان بقطع الميرة والإغارة على النواحي فعلا السعر

فاشتد ذلك عليه، وكتب إلى الوزير أبي طاهر بن بقية والحاجب ابن سبكتكين يستقدمهما في العساكر، فجاؤوا وعادوا إلى الموصل، وعزم على طلبه حيث سار. فأرسل أبو تغلب في الصلح، وجاء الشريف أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي وحلف على العلم في قتل أولئك المستأمنة، وعاد الصلح والاتفاق كما كان، ورجع بختيار إلى بغداد وبعث ابنته إلى زوجها أبي تغلب.

الفتنة بين بختيار وسبكتكين والأتراك

كان بختيار قد قلت عنده الأموال وكثرت مطالب الجند وشغبهم، فكان يحاول على جمع الأموال فتوجه إلى الموصل لذلك، ثم رجع فتوجه إلى الأهواز ليجدد ريعه إلى مصادرة عاملها، وتخلف عنه سبكتكين والأتراك الذين معه، ووقعت فتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز واقتتلوا ولج الأتراك في طلب ثأرهم، وأشار عليه أصحاب الديلم بقبض رؤساء الأتراك وقوادهم ففعل، وكان من مجلتهم عامل الأهواز وكتابه، ونهبت أموالهم وبيوتهم، ونودي في البلد باستباحتهم، وبلغ الخبر إلى سبكتكين وهو ببغداد ففرض طاعة بختيار وركب في الأتراك وحاصر داره يومين وأحرقها وأخذ أخويه وأمهما فبعثهم إلى واسط في ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وأخذ المطيع معهم فردوه وترك الأتراك في دور الديلم ونهبوها ونارت العامة مع سبكتكين لأن الديلم كانوا شيعا وسفكت الدماء وأحرق الكرخ وظهر أهل السنة.

خلع المطيع وولاية الطائع

كان المطيع قد أصابه الفالج وعجز عن الحركة وكان يتستر به وانكشف حاله بسبكتكين في هذه الواقعة، فدعاه إلى أن يخلع نفسه ويسلم الخلافة عبد الكريم ففعل ذلك متصفاً ذي القعدة سنة ثلاث وستين لست وعشرين سنة ونصف من خلافته، وبويع ابنه عبد الكريم ولقب الطائع.

الصوائف

وعادت الصوائف منذ استبد ناصر الدولة بن حمدان بالموصل وأعمالها، وملك سيف الدولة أخوه مدينتي حلب وحمص سنة ثلاث وثلاثين، فصار أمر الصوائف إليه فنذكرها في أخبار دولتهم. فقد كان لسيف الدولة فيها آثار وكان للروم في أيامه جولات حسنت فيها مدافعتة. وأما الولايات فانقطعت منذ

إليه والخلاص من عضد الدولة، وضمن له إعادة عضد الدولة إلى فارس وتقرير مختيار بالعراق، فأجاب عضد الدولة إلى ذلك وأفرج عن مختيار ورده إلى السلطنة على أن يكون نائباً عنه ويخطب عنه، ويجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش لعجز مختيار، ورد عليهم ما أخذ لهم وسار إلى فارس وأمر ابن العميد أن يلحق به بعد ثلاث فتشاغل مع مختيار بالذات ووعد أنه يصير إلى وزارته بعد ركن الدولة. وأرسل مختيار عن ابن بقية فقام بأمر الدولة واحتجج الأموال فإذا طوّل بها دس للجند فشغبوا حتى تنكر له مختيار واستوحش هو.

خبر الفتكين

ولما انهزم أفتكين من عضد الدولة بالمدائن لحق الشام ونزل قريباً من حصص، وقصد ظالم بن موهوب أمير بني عقيل العلوية بالشام فلم يتمكن منه، وسار أفتكين إلى دمشق وأميرها ريان خادم المعز لدين الله العلوي وقد غلب عليه الأحداث فخرج إليه مشيخة البلد وسأله أن يملكهم ويكف عنهم شر الأحداث وظلم العمال واعتقاد الرافضة فاستحلفهم على ذلك ودخل دمشق وخطب فيها للطوائع في شعبان سنة أربع وستين. ورجع أيدي العرب من ضواحيها وقتك فيهم وكثرت جموعه وأمواله وكاتب المعز بمصر يداريه بالانقياد، فكتب يشكره ويستدعيه ليؤليه من جهته، فلم يثق إليه فتجهز لقصدته، ومات في طريقه سنة خمس وستين كما نذكر بقية خبره في دولتهم.

ملك عضد الدولة بغداد وقتل مختيار

ولما انصرف عضد الدولة إلى فارس كما ذكرناه أقام بها قليلاً ثم مات أبوه ركن الدولة سنة ست وستين بعد أن رضي عنه وعهد له بالملك كما تذكره في خبره. فلما مات شرع مختيار ووزير ابن بقية في استمالة أهل أعماله مثل أخيه فخر الدولة وحسنويه الكردي وطلب ابن حمدان وعمران بن شاهين في عدوانه فسار عضد الدولة لطلب العراق واستمد حسنويه وابن حمدان فواعده ولم يعدها فسار إلى الأهواز، ثم سار إلى بغداد، ولقيه مختيار فهزمه عضد الدولة واستولى على أمواله وأثقاله ولحق بواسط، وحمل إليه ابن شاهين أموالاً وهدايا ودخل إليه مؤكداً للاستجارة به. ثم صعد إلى واسط، وبعث عضد الدولة عسكرياً إلى البصرة فملكوها، وكانت مصر شيعية له دون ربيعة. وجمع مختيار ما كان له ببغداد والبصرة في واسط وقبض على ابن بقية

ببغداد ونار العيارون ووقع النهب، وكبس أفتكين المنازل في طلب الطعام فعظم المهرج، وخرج أفتكين والأتراك للحرب فلقبهم عضد الدولة فهزمهم وقتل أكثرهم واستباحهم، ولحقوا بتكريت وحملوا الخليفة معهم، ودخل عضد الدولة إلى بغداد في جمادى سنة أربع وستين. وحاول في رد الخليفة الطائع فردّه وأنزله بداره وركب للقاءه الماء في يوم مشهود.

ثم وضع الجند على مختيار فشغبوا عليه في طلب أرزاقهم وأشار عليه بالغلظة عليهم، والاستعفاء من الإمارة، وأنه عند ذلك يتوسط في الإصلاح فأظهر مختيار التخلي، وصرف الكتاب والحجاب ثقة بعضد الدولة، وتردد السفراء بينهم ثلاثاً ثم قبض عضد الدولة على مختيار وإخوته ووكّل بهم، وجمع الناس أعلمهم بعجز مختيار ووعدهم بحسن النظر وقام بواجبات الخلافة. وكان المرزبان بن مختيار أميراً بالبصرة فامتنع فيها على عضد الدولة، وكتب إلى ركن الدولة يشكو ما جرى على أبيه مختيار من ابنه عضد الدولة ووزيره ابن العميد، فأصابه من ذلك المقيم المقعد حتى لقد طرده المرض الذي لم يستقل منه.

وكان ابن بقية وزير مختيار قد سار إلى عضد الدولة وضمنه واسط وأعمالها فانتقض عليه بها، وداخل عمران بن شاهين في الخلافة فاجابه، وكتب إلى سهل بن بشر وزير أفتكين بالأهواز وقد كان عضد الدولة ضمنه إياها وبعثه إليها مع جيش مختيار فاستماله ابن بقية، وخرجت إليه جيوش عضد الدولة فهزمهم، وكتب أباه ركن الدولة بالأحوال، وأوعز ركن الدولة إليه وإلى المرزبان بالبصرة على السير بالعراق لإعادة مختيار.

واضطربت النواحي على عضد الدولة لإنكار أبيه، وانقطع عن مدد فارس وطمع فيه الأعداء، فبعث أبا الفتح بن العميد إلى أبيه يعتذر عما وقع، وأن مختيار عجز ولا يقدر على المملكة وأنه يضمن أعمال العراق بثلاثين ألف درهم، ويبعث مختيار وإخوته إليه لينزل بأي الأعمال أحب، ويغير أباه في نزوله العراق لتدبير الخلافة ويعود هو إلى فارس، وتهدد أباه بقتل مختيار وإخوته وجميع شيعهم إن لم يوافق على واحدة من هذه. فخاف ابن العميد غائلة هذه الرسالة وأشار بإرسال غيره وأن يمضي هو بعدها كالمصلح فبعث عضد الدولة غيره. فلما ألقى الرسالة غضب ركن الدولة ووثب إلى الرسول ليقتله، ثم رده بعد أن سكن غضبه، وحمله إلى عضد الدولة من الشتم والتفريع على ما فعله وعلى ما يطلب منه من كل صعب من القول.

وجاء ابن العميد على أثر ذلك فحجبه وتهدده، ثم لم يزل يسترضيه بمجهده واعتذر بأن قبوله لهذه الرسالة حيلة على الوصول

في اتباعه فدخل بلاده فصاره ورد الرومي المملك عليهم في غير بيت الملك ليستعين به على أمره، واتبه عسكر عضد الدولة فهزمهم ونجا إلى بلاد الروم لمساعدة ورد على شأنه لما يؤمل من نصرته إياه. واتفق أن ورداً انهزم فيئس منه أبو تغلب وعاد إلى بلاد الإسلام ونزل بآمد شهرين، حتى فتح عضد الدولة جميع بلاده كما يذكر في أخبار دولتهم، واستخلف أبا الوفاء على الموصل وعاد إلى بغداد وانقطع ملك بني حمدان عن الموصل حيناً من الدهر.

وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام الدولة

ثم توفي عضد الدولة في شوال سنة اثنتين ومسيعين لخمس سنين ونصف من ملكه، واجتمع القواد والأمراء على ولاية ابنه كاليجار المرزبان ويابعوه ولقبوه صمصام الدولة. وجاءه الطائع معزياً في أبيه، وبعث أخويه أبا الحسين أحمد وأبا طاهر فيروزشاه فاتنقض أخوهم شرف الدولة بكرمان في فارس، وسبق إليها أخويه وملكها وأقاما بالأهواز، وقطع خطبة صمصام الدولة أخيه وخطب لنفسه، وتلقب تاج الدولة. وبعث إليه صمصام الدولة عسكرياً صحبة علي بن دنقش حاجب أبيه، وبعث شرف الدولة عسكريه مع الأمير أبي الأغر دفليس بن عفيف الأسدي، والتقيا عند قرقوب، فانهزم ابن دنقش في ربيع سنة ثلاث وسبعين وأسر واستولى أبو الحسن على الأهواز ورامهرمز، وطمع في الملك.

ثم إن أسفار بن كردويه من أكابر الديلم قام بدعوة شرف الدولة ببغداد سنة خمس ومسيعين، واستمال كثيراً من العسكر، واتفقوا على ولاية أبي نصر بن عضد الدولة نائباً عن أخيه شرف الدولة، وراسلهم صمصام الدولة في الرجوع عن ذلك فلم يردهم إلا غمادياً. وأجابه فولاد بن مابدرار أنفة من متابعة أسفار وقاتله فهزموه. وأخذ أبا مفضل أسيراً وأحضره عند أخيه صمصام الدولة، واتهم وزيره ابن سعدان بمداخلتهم فقتله، ومضى أسفار إلى أبي الحسين بن عضد الدولة وباقي الديلم إلى شرف الدولة. وسار شرف الدولة إلى الأهواز فملكها من يد أخيه الحسين. ثم ملك البصرة من يد أخيه أبي طاهر وراسله صمصام الدولة في الصلح فاتفقوا على الخطبة لشرف الدولة بالعراق، وبعث إليه بالخلع والألقاب من الطائع.

وأرسل عضد الدولة في الصلح واختلفت الرسائل، وجاءه عبد الرزاق ويدر ابنا حسنويه في ألف فارس مدداً فاتنقض وسار إلى بغداد وسار عضد الدولة إلى واسط ثم إلى البصرة فأصلح بين ربيعة ومضر بعد اختلافهم مائة وعشرين سنة.

ثم دخلت سنة سبع وستين فقبض عضد الدولة على أبي الفتح بن العميدي وزير أبيه وجدع أنفه وسمل إحدى عينيه لما بلغه عنه في مقامه بالفرات عند مختيار. ولما أطلع عليه من مكاتبته إياه فبعث إلى أخيه فخر الدولة بالري بالقبض عليه وعلى أهله فقبض عليه وأخذ داره بما فيها. ثم سار عضد الدولة إلى بغداد سنة سبع وستين، وبعث إلى مختيار يخبره في الأعمال فأجاب إلى طاعته، وأمره بإنفاذ ابن بقية إليه ففقا عينيه وأنفذه، وخرج عن بغداد يقصد الشام، ودخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها وضرب على بابيه ثلاث تورات ولم يكن شيء من ذلك لمن قبله، وأمر بابين بقية فرمي بين القيلة فقتلته.

ولما سار مختيار إلى الشام ومعه حمدان أخو أبي تغلب وانتهوا إلى عكبرا أحسن له حمدان وقصد الموصل. وكان عضد الدولة قد استحلظه أن لا يدخل ولاية أبي تغلب فنكت وقصدها، وجاءته رسل أبي تغلب بتكريت في إسلام أخيه حمدان إليه فيمده بنفسه، ويعيده إلى ملكه فقبض على حمدان وبعثه مع نوابه فحسبه وسار أبو تغلب إليه في عشرين ألف مقاتل، وزحفوا إلى بغداد ولقيهما عضد الدولة فهزمهما وأمر بمختيار قتل صبراً في عدة من أصحابه لإحدى عشرة سنة من ملكه.

استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان

ثم سار عضد الدولة بعد الهزيمة ومقتل مختيار إلى الموصل فملكها متصرف ذي القعدة من سنة سبع وستين، وكان حمل معه الميرة والعلوفات فأقام في رغد، وبث السراة في طلب أبي تغلب، وراسله في ضمان البلاد على عادته فلم يجبه، فسار إلى نصيين ومعه المرزبان بن مختيار وأبو إسحاق وطاهر أخو مختيار وأمهم، فبعث عضد الدولة عسكرياً إلى جزيرة ابن عمر مع حاجبه أبي عمر لحرب طغان، وعسكرياً إلى نصيين مع أبي الوفاء طاهر بن محمد ففارقها أبو تغلب إلى ميفارقين واتبه أبو الوفاء إليها فامتنعت عليه. ولحق أبو تغلب بأردن الروم ثم بالحسنية من أعمال الجزيرة، وسبع أبو تغلب قلاعه وأخذ أمواله في كواشي وغيرها، وعاد إلى ميفارقين. ثم سار عضد الدولة إليه بنفسه واستأمن إليه كثير من أصحابه، ورجع إلى الموصل وبعث العسكر

نكبة صمصام الدولة وولاية أخيه شرف الدولة

ولما ملك عضد الدولة الموصل حضر عنده وهم بقبضه، ثم سأل عنه فافتقده وكف عن طلبه. فلما مات عضد الدولة استفحل أمره واستولى على ميفارقين، وكثير من ديار بكر، ثم على نصيبين. وقال ابن الأثير: سار من أرمينية إلى ديار بكر فملك ثم ميفارقين، وبعث صمصام الدولة إليه العساكر مع أبي سعيد بهرام بن أردشير فهزمهم وأسر جماعة منهم، فبعث عساكر أخرى مع أبي القاسم سعيد بن الحاجب فلقبهم في بلد كواشي وهزمهم، وقتل منهم وأسر، ثم قتل الأسرى صبراً. ونجا سعيد إلى الموصل وباد في أتباعه فثار به أهل الموصل نفوراً من سوء سيرة الديلم فهرب منها ودخل باد وملك الموصل. وحدث نفسه بالمسير إلى صمصام الدولة ببغداد وانتزع ببغداد من يد الديلم واحتفل فيه ولقبهم باد في صفر من سنة أربع وسبعين فهزموه وملكوا الموصل، ولحق باد بديار بكر وجمع عليه عساكر.

وكان بنو سيف الدولة بن حمدان يملكونها معهم سعد الدولة ابنه بعد مهلكه، فبعث إليه صمصام الدولة أن يكفيه أمر باد على أن يسلم إليه ديار بكر، فبعث سعد الدولة إليه جيشاً فلم يكن لهم طاقة، وزحفوا إلى حلب فبعث سعد الدولة من اغتاله في مرقده بجيئته من البادية وضربه فاعتل وأشفى على الموت، وبعث إلى سعد وزيد الأميرين بالموصل فصالحهما على أن تكون ديار بكر والنصف من طور عبيد بن لباد، ورجع زياد إلى بغداد وهو الذي جاء بعساكر الديلم وانهزم باد أمامه. ثم توفي سعد الحاجب بالموصل سنة سبع وسبعين فتجدد لباد الطمع في ملكها، وبعث شرف الدولة على الموصل أبا نصر خواشاذة فدخل الموصل واستمد العساكر والأموال فأبطأت عنه فدعا العرب من بني عقيل وبني ثمر وأقطعهم البلاد ليدافعوا عنها.

واستولى باد على طور عبيد وأقام بالجيل، وبعث أخاه في عسكر لقتال العرب فانهزم وقتل. وبينما خواشاذة يتجهز لقتال باد جاءه الجند بموت شرف الدولة. ثم جاء أبو طاهر إبراهيم وأبو عبدالله الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان أميرين على الموصل من قبل بهاء الدولة، وبقيت في ملكهما إلى سنة إحدى وثمانين، فبعث بهاء الدولة عسكراً مع أبي جعفر الحاجب بن هرمز فملكها، وزحف إليه أبو الرواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل فقاتله وبالف في مدافعتة واستمد بهاء الدولة فبعث إليه الوزير أبا القاسم علي بن أحمد وسار أول سنة اثنين وثمانين وكتب إلى أبي جعفر بالقبض عليه بسعاية ابن المعلم، وشعر الوزير بذلك فصالح أبا الرواد ورجع ووجد بهاء الدولة قد قبض على ابن المعلم وقتله.

لما ملك شرف الدولة من يد أخيه أبي طاهر سار إلى واسط فملكها، وعمد صمصام الدولة إلى أخيه أبي نصر وكان محبوساً عنده فاطلقه وبعثه إلى أخيه شرف الدولة بواسط يستعطفه به، فلم يلتفت إليه، وجزع صمصام الدولة واستشار أصحابه في طاعة أخيه شرف الدولة فخوفوه عاقبته، وأشار بعضهم بالصعود إلى عكبرا ثم منها إلى الموصل وبلاد الجبل حتى يحدث من أمر الله في فتنة بين الأتراك والديلم أو غير ذلك ما يسهل العود، وأشار بعضهم بمكاتبة عمه فخر الدولة والمسير على طريق أصبهان فيخالف شرف الدولة إلى فارس فرمى بقع الصلح على ذلك. فأعرض صمصام الدولة عن ذلك كله وركب البحر إلى أخيه شرف الدولة فتلقيه وأكرمه. ثم قبض عليه أربع سنين من إمارته، وسار إلى بغداد في شهر رمضان من سنة ست وسبعين فوصلها وأخوه صمصام الدولة في اعتقاله. واستفحل ملكه واستطال الديلم على الأتراك بكثرتهم فإنهم بلغوا خمسة عشر ألفاً، والأتراك ثلاثة آلاف. ثم كثرت المنازعات بينهم وغص الديلم بالأتراك وأرادوا إعادته صمصام الدولة إلى الملك ثم أقتلوا فغلبهم الديلم وقتلوا منهم وغنموا أموالهم وسار بعضهم فذهب في الأرض، ودخل الآخرون مع شرف الدولة إلى بغداد، وخرج الطائع لتلقيه وهناك وأصلح شرف الدولة بين الفريقين، وبعث صمصام الدولة إلى فارس فاعتقل بها واستوزر شرف الدولة أبا منصور بن صالحان.

ابتداء دولة باد وبني مروان بالموصل

قد تقدم لنا أن عضد الدولة استولى على ملك بني حمدان بالموصل سنة سبع وستين، ثم استولى على ميفارقين وآمد وسائر ديار بكر من أعمالهم، وعلى ديار مضر أيضاً من أعمالهم سنة ثمان وستين وولى عليها أبا الرقاء من قواده، وذهب ملك بني حمدان من هذه النواحي. وكان في ثغور ديار بكر جماعة من الأكراد الحميدية مقدمهم أبو عبد الله الحسين بن دوشتك، ولقبه باد وكان كثير الغزو بتلك البلاد وإخافة سبلها. وقال ابن الأثير: حدثني بعض أصدقائنا من الأكراد الحميدية أن اسمه باد وكنيته أبو شجاع وأن الحسين هو أخوه وأن أول أمره أنه ملك أرجيش من بلاد أرمينية فقوي اه.

وفاة شرف الدولة وملك بهاء الدولة

الذي لقب بالقادر، فجرت بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة، ومرض الطائع مرضاً خَوْفاً ثم أبلُ فسعت تلك الأخت بأخيها، وأنه طلب الخلافة في مرض الطائع فانفذ أبا الحسين بن حاجب النعمان في جماعة للقبض عليه، وكان بالحریم الظاهري فغلبهم النساء عليه، وخرج من داره مستراً ثم لحق بالبطيحة ونزل على مذهب الدولة فبالغ في خدمته إلى أن أتاه بشير الخلافة.

فتنة صمصام الدولة

لما تغلب صمصام الدولة على بلاد فارس وجاء أبو علي شرف الدولة إلى عمه بهاء الدولة فقتله كما ذكرنا، سار بهاء الدولة من بغداد إلى خوزستان سنة ثمانين وثلاثمائة قاصداً بلاد فارس. واستخلف أبا نصر خواشاذة على بغداد، ولما بلغ خوزستان أتاه نعي أخيه أبي طاهر فجلس للعزاء به. ثم سار إلى أرجان فملكها وأخذ ما فيها من الأموال وكان ألف ألف دينار وثمانية آلاف درهم، وكثيراً من الثياب والجواهر، وشغب الجند لذلك فأطلق تلك الأموال كلها لهم، ثم سارت مقدمته وعليها أبو العلاء بن الفضل إلى النوبندجان، وبها عسكر صمصام الدولة فانهمزوا وثبت أبو العلاء بن الفضل في نواحي فارس.

ثم بعث صمصام الدولة عسكره وعليهم قولاذ بن مابدان فهزموا أبا العلاء وعاد إلى أرجان، وجاءه صمصام الدولة من شيراز إلى قولاد، ثم وقع الصلح على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ولهباء الدولة خوزستان وما وراءها من ملك العراق، وأن يكون لكل واحد منهما أقطاع في بلد صاحبه، وتعاقدا على ذلك، ورجع بهاء الدولة إلى بغداد فوجد الفتنة بين أهل السنة والشيعة بجانب بغداد، وقد كثر القتل والنهب والتخريب فأصلح ذلك. وكان قبل سيره إلى خوزستان قبض على وزيره أبي منصور بن صالحان، واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير، وكان الحكم والتدبير في دولته لأبي الحسين بن المعلم.

خلع الطائع وبيعة القادر

ثم إن بهاء الدولة قلت عنده الأموال وكثر شغب الجند ومطالباتهم، وقبض على وزيره سابور فلم ينن عنه، وامتدت عيناه إلى أموال الطائع وهم بالقبض عليه، وحسن له ذلك أبو الحسين بن المعلم الغالب على هواه فتقدم إلى الطائع بالجيش لحضوره في خدمته فجلس وجلس بهاء الدولة على كرسي، ثم جاء بعض الديلم يقبل يد الطائع فجذبه عن سريره وأخرجه،

ثم توفي شرف الدولة أبو القوارص شرزك بن عضد الدولة في جمادى سنة تسع وسبعين لستين وثمانية أشهر من إمارته ودفن بمشهد علي بعد أن طالعت عثته بالاستسقاء، وبعث وهو عليل إلى أخيه صمصام الدولة بفارس فشملة، وبعث ابنه أبا علي إلى بلاد فارس ومعه الخزان والعدد وجملة من الأتراك. وسئل شرف الدولة في العهد فملكه وأبى أن يعهد واستخلف أخاه بهاء الدولة لحفظ الأمور في حياته. فلما مات قعد في المملكة وجاء الطائع للعزاء وخلع عليه للسلطنة فأقر أبا منصور بن صالحان على وزارته، وبعث أبا طاهر إبراهيم وأبا عبد الله الحسين ابني ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل، وكان في خدمته شرف الدولة فاستأذنا بهاء الدولة بعد موته في الإصعاد إلى الموصل فأذن لهما. ثم ندم على ما فرط في أمرهما وكتب إلى خواشاذة بمدفعتهم فامتعا وجاءوا ونزلاً بظاهر الموصل.

وثار أهل الموصل بالديلم والأتراك وخرجوا إلى بني حمدان، وقاتلوا الديلم فهزموهم، وقتل الديلم كثيراً منهم واعتصم الباقون بدار الإمارة فأخرجوهم على الأمان ولحقوا ببغداد، وملك بنو حمدان الموصل. وكان أبو علي بن شرف الدولة لما انصرف إلى فارس بلغه موت ابنه بالبصرة، فبعث العيال والأموال في البحر إلى أرجان وسار هو إليها. ثم سار إلى شيراز فوفاه بها عمه صمصام الدولة وأخوه أبو طاهر قد أطلقهما المولكون بهما ومعهما قولاد، وجاؤوا إلى شيراز، واجتمع عليهم الديلم وخرج أبو علي إلى الأتراك فاجتمعوا عليه، وقتل صمصام الدولة والديلم أياماً. ثم سار إلى نسا فملكها وقتل الديلم بها. ثم سار إلى أرجان وبعث الأتراك إلى شيراز لقتال صمصام الدولة فنهروا البلد وعادوا إليه بأرجان. ثم بعث بهاء الدولة إلى علي ابن أخيه يستقدمه، واستمال الأتراك سرّاً فحملوا أبا علي على المسير إليه فسار في جمادى سنة ثمانين فأكرمه ثم قبض عليه وقتله. ثم وقعت الفتنة ببغداد بين الأتراك والديلم واقتتلوا خمسة أيام. ثم راسلهم بهاء الدولة في الصلح فلم يبيروا وقتلوا رسله فظاهر الأتراك عليهم فغلبوهم، واشتدت شوكة الأتراك من يومئذ وضعف أمر الديلم وصالح بينهم على ذلك وقبض على بعض الديلم واقتروا.

خروج القادر إلى البطيحة

كان إسحاق بن المقتدر لما توفي ترك ابنه أبا العباس أحمد

بها طغان، ورجع ولحق صمصام الدولة بفارس فاستلحم من وجد بها من الأتراك وهرب فلهم إلى كرمان، واستأذنوا ملك السند في اللحاق بأرضه فأذن لهم، ثم ركب لتلقيهم فقتلهم عن آخرهم. ثم جهز صمصام الدولة عساكره إلى الأهواز مع العلاء بن الحسين وكان أفكين برامهرمز من قبل بهاء الدولة مكان أبي كاليجار المرزيان بن سفهيون وجاء بهاء الدولة إلى خوزستان للعلاء قائد صمصام الدولة، وكتبه وكتب أفكين وابن مكرم إلى أن قرب منهم، وملك البلد من أيديهم وأقاموا بظاهرها، واستمدوا بهاء الدولة فأمدهم بثمانين من الأتراك فقتلهم عن آخرهم، وسار بهاء الدولة نحو الأهواز، ثم عاد إلى البصرة وعاد ابن مكرم إلى عسكر مكرم والعلاء والدليم في اتباعه إلى أن جاوزوا تستر إليه فاقبلوا طويلاً وأصحاب بهاء الدولة من تستر إلى رامهرمز وهم الأتراك وأصحاب صمصام لدولة من تستر إلى أرجان فاقتتلوا ستة أشهر ورجعوا إلى الأهواز ثم رحل الأتراك إلى واسط واتبعهم العلاء قليلاً ثم رجع وأقام بعسكر مكرم.

ملك صمصام الدولة البصرة

لما رحل بهاء الدولة إلى البصرة استأمن كثير من الديلم الذين معه إلى العلاء نحو من أربعمائة، فبعثهم مع قسائده السكرستان إلى البصرة وقاتلوا أصحاب بهاء الدولة، ومال إليهم أهل البلد ومقدمهم أبو الحسن بن أبي جعفر العلوي وأرتاب بهم بهاء الدولة فهرب الكثير منهم إلى السكرستان وحملوه في السفن فأدخلوه البصرة. وخرج بهاء الدولة وأصحابه فكتب إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة يغريه بالبصرة، فبعث إليها جيشاً مع قائده عبد الله بن مرزوق فغلب عليها السكرستان، وملكها لمهذب الدولة، ثم عاد السكرستان وقاتلها وكتب مهذب الدولة بالصلح والطاعة والخطبة له بالبصرة، وأعطى ابنه رهينة على ذلك، فأجابه وملك البصرة وعسف بهم، وكان يظهر طاعة صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة.

ثم إن العلاء ابن الحسن نائب صمصام الدولة بخوزستان توفي بعسكر مكرم فبعث مكانه أبا علي إسماعيل بن أستاذ هرمز وسار إلى جنديسابور فدفع عنها أصحاب بهاء الدولة وأزاح الأتراك عن ثغر خراسان جملة وعادوا إلى واسط وكتب جماعة منهم ففزعوا إليه، ثم زحف إليهم أبو محمد مكرم والأتراك وجرت بينهم وقائع، ثم انتفض أبا علي إسماعيل بن أستاذ هرمز ورجع إلى طاعة بهاء الدولة وهو بواسط سنة ثمان وثمانين

ونهب قصور الخلافة وفشا النهب في الناس، وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة فأشهد عليه بالخلع سنة إحدى وثمانين لسبع عشرة سنة وثمانية أشهر من خلافته. وأرسل بهاء الدولة خواص أصحابه إلى البطيحة ليحضروا القائد بالله أبا العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ليأبىوه، فجاؤوا به بعد أن بايع مهذب الدولة صاحب البطيحة في خدمته وسار بهاء الدولة وأعيان الناس لتلقيه فتلقوه وساروا في خدمته، ودخل دار الخلافة لائتني عشرة ليلة خلت من رمضان، وخطب له صبيحتها وكانت مدة إقامته بالبطيحة ثلاث سنين غير شهر، ولم يخطب له بخراسان وأقاموا على بيعه الطائع فانزله بحجرة من قصره، ووكل عليه من يقوم بخدمته على أتم الوجوه، وأجرى أحواله على ما كان عليه في الخلافة إلى أن توفي سنة ثلاث وتسعين فصلى عليه ودفنه.

ملك صمصام الدولة الأهواز وعودها لبهاء الدولة ثم استيلاؤه ثانياً عليها

قد تقدم لنا ما وقع بين بهاء الدولة وصمصام الدولة من الصلح على أن يكون له فارس ولبهاء الدولة خوزستان وما وراءها، وذلك سنة ثمان. ولما كانت سنة ثلاث وثمانين تحبل بهاء الدولة فبعث أبا العلاء عبد الله بن الفضل إلى الأهواز على أن يبعث إليه الجيوش مفترقة، فإذا اجتمعت كبس بلاد فارس على حين غفلة. وشعر صمصام الدولة بذلك قبل اجتماع العساكر، فبعث عساكره إلى خوزستان، ثم جاءت عساكر العراق والتقوا فانهزم أبو العلاء، وحمل إلى صمصام الدولة أسيراً فاعتقله، وبعث بهاء الدولة وزيره أبا نصر بن سابور إلى واسط يحاول له جمع المال فهرب إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة.

ثم كثر شغب الديلم على بهاء الدولة ونهبوا دار الوزير نصر بن سابور واستغنى واستوزر أبا القاسم علي بن أحمد. ثم هرب وعاد سابور إلى الوزارة وأصلح الديلم، ثم أنفذ بهاء الدولة عسكره إلى الأهواز سنة أربع وثمانين وعليهم طغان التركي، وانتهوا إلى السوس فارتحل عنها أصحاب صمصام الدولة وملكها طغان، وكان أكثر أصحابه الترك وأكثر أصحاب صمصام الدولة الديلم ومعه غيم وأسد، فزحف إلى طغان بالأهواز، وأسرى من تستر ليكبس الأتراك الذين مع طغان فقتل في طريقه وأصبح دونهم برأى منهم فركبوا لقتالهم وأكمنوا له ثم قاتلوه فهزموه وفتكوا في الديلم بالقتل حرباً وصبراً.

وجاء الخبر إلى بهاء الدولة بواسط فسار إلى الأهواز فترك

صمصام الدولة، واستأصل أهلها وبعث عسكرياً مع أبي الفتح إلى جعفر بن أستاذ هرمز إلى كرمان فملكها.

ولما لحق أبو القاسم بن مختيار ببلاد الديلم، كاتب من هنالك الديلم الذين بكرمان وفارس تسلمهم فأجابوه وسار إلى بلاد فارس، واجتمع عليه كثير من الزط والديلم والأتراك. ثم سار إلى كرمان وبها أبو جعفر بن أستاذ هرمز فهزمه إلى السرجان، ومضى ابن مختيار إلى جيرفت فملكها وأكثر كرمان، وبعث بهاء الدولة الموفق بن علي بن إسماعيل في العساكر إلى جيرفت فاستامن إليه ما كان بها من أصحاب مختيار، وملكها ونجد في جماعة من شجعان أصحابه لاتباع ابن مختيار فلحقه بدارين، وقتله فغدر به بعض أصحابه فقتله وحمل رأسه إلى الموفق، واستولى على بلاد كرمان وإسماعيل عليها، وعاد إلى بهاء الدولة فتلقيه وعظمه واستغنى الموفق من الخدمة فلم يعفه، ولجج الموفق في ذلك فقبض عليه بهاء الدولة، وكتب إلى وزيره سابور بالقبض على ذويه، ثم قتله سنة أربع وتسعين واستعمل بهاء الدولة أبا محمد مكرماً على عُمان.

الخبر عن وزراء بهاء الدولة

قد ذكرنا أن بهاء الدولة كان استوزر أبا نصر بن سابور بن أردشير ببغداد وقبض على وزيره أبي منصور بن صالحان قبل مسيره إلى خوزستان، وأن أبا الحسن بن المعلم كان يدبر دولته وذلك منذ سنة ثمانين، فاستولى ابن المعلم على الأمور وانصرفت إليه الوجوه، فأساء السيرة وسعى في أبي نصر خواشاده وأبي عبد الله بن طاهر فقبضهما بهاء الدولة مرجعه من خوزستان، وشغب الجند وطلبوا تسليمه إليهم، ولاطفهم فلم يرجعوا فقبض عليه وسلمه إليهم فقتلوه وذلك سنة اثنتين وثمانين. ثم قبض على وزيره أبي نصر بالأهواز سنة إحدى وثمانين، واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، ثم استوزر بعده أبا القاسم علي بن أحمد وقبض عليه سنة اثنتين وثمانين لانهامه بمداخلة الجند في أمر ابن المعلم، واستوزر أبا نصر بن سابور وأبا منصور بن صالحان جميعاً. وشغب الجند على أبي نصر ونهبوا داره سنة ثلاث وثمانين فاستغنى رفيقه ابن صالحان فاستوزر أبا القاسم علي بن أحمد، ثم هرب وعاد أبو نصر إلى الوزارة بعد أن أصلح أمور الديلم فاستوزر مكانه الفاضل، وقبض عليه سنة ست وثمانين واستوزر أبا نصر سابور بن أردشير فبقي شهرين، وفرق أموال بهاء الدولة في القواد ثم هرب إلى البطيحة فاستوزر بهاء الدولة مكانه عيسى

فاستوزره ودبر أمره واستدعاه إلى مظاهرة قائده ابن مكرم بعسكر مكرم فسار إليه وكانت من إسماعيل خديعة تورط فيها بهاء الدولة واستمد بدر بن حسنويه فأمدّه بعض الشيء وكاد يهلك، ثم جاءه الفرّج بقتل صمصام الدولة.

مقتل صمصام الدولة

كان صمصام الدولة بن عضد الدولة مستولياً على فارس كما ذكرناه، وكان أبو القاسم وأبو نصر ابنا مختيار محبوسين ببعض قلاع فارس، فجرد الموكلين بهما في القلعة وأخرجوا عنها واجتمع إليهما من الأكراد وكان جماعة من الديلم استوحشوا من صمصام الدولة لما أسقطهم من الديوان، فلحقوا بابني مختيار وقصدوا أرجان وتجهز صمصام الدولة إليهم وكان أبو علي بن أستاذ هرمز مقيماً بنسأ فثاره به الجند وحبه ابنا مختيار ثم نجا. وقصد صمصام الدولة القلعة التي على شيراز لئتمنع فيها إلى أن يأتيه المدد، فلم يمكنه أن يأتيها من ذلك، وأشار عليه باللاحاق بأبي علي بن أستاذ هرمز أو بالأكراد، وجاءته منهم طائفة فخرج معهم بأمواله فنهوه وسار بعض الرودمان على مرحلتين من شيراز. وجاء أبو النصر بن مختيار إلى شيراز فقبض صاحب الرودمان على صمصام الدولة، وأخذ منه أبو نصر وقتله في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين لتسع سنين من إمارته على فارس.

استيلاء بهاء الدولة على فارس

ولما قتل صمصام الدولة وملك ابنا مختيار بلاد فارس، كتب إلى أبي علي بن أستاذ هرمز في الأهواز بأخذ الطاعة لهما من الديلم، ومغاربة بهاء الدولة فخافهما أبو علي بما كان من قتله أخويهما، وأغرى الديلم بطاعة بهاء الدولة. وراسله واستحلفه لم فحلف وضمن لهم غائلة الأتراك الذين معه، وأغراههم بشار أخيه من ابني مختيار فدخلوا في طاعته، وجاء وفد من أعيانهم فاستوثقوا منه وكتبوا إلى من كان بالسوس منهم بذلك. وركب بهاء الدولة إلى نائب السوس فقاتلوه أولاً ثم اجتمعوا عليه وساروا إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز وأرجان، وملكوا سائر بلاد خوزستان. وسار أبو علي بن إسماعيل إلى شيراز وقاتلها وتسرب إليه أصحاب ابني مختيار فاستولى على شيراز سنة تسع وثمانين، ولحق أبو نصر بن مختيار ببلاد الديلم وأبو القاسم ببدر بن حسنويه، ثم بالبطيحة، وكتب أبو علي إلى بهاء الدولة بالفتح فجاءه وترك شيراز وأحرق قرية الرودمان حيث قتل أخوه

بن ماسرجس.

ولاية العراق

كان بهاء الدولة منذ استولى على فارس سنة تسع وثمانين أقام بها وولى على خوزستان والعراق أبا جعفر الحجاج بن هرمز فنزل بغداد ولقيه عميد الدولة فسأته سيرته وفسدت أموال البلاد وعظمت الفتنة ببغداد بين الشيعة وأهل السنة وتطاول الدعار والعيارون فعزله بهاء الدولة سنة تسعين، وولى مكانه أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز، ولقيه عميد الجيوش فأحسن السيرة وحسم الفتنة، وحمل إلى بهاء الدولة أموالاً جلية. ثم ولى مكانه سنة إحدى وتسعين أبا نصر سابور، وثار به الأتراك ببغداد فهرب منهم ووقعت الفتنة بين أهل الكرخ والأتراك، وكان أهل السنة مع الأتراك ثم مشى الأعلام بينهم في الصلح فتهادوا.

انقراض دول وابتداء أخرى في النواحي

وفي سنة ثمانين ابتدأت دولة بني مروان بديار بكر بعد مقتل خالهم باد، وقد مر ذكره. وفي سنة اثنين وثمانين انقضت دولة بني حمدان بالموصل وابتدئت دولة بني المسيب من عقيب كما نذكرها. وفي سنة أربع وثمانين انقضت دولة بني سامان من خراسان وابتدئت دولة بني سبكتكين فيها. وفي سنة تسع وثمانين انقضت دولة بني سامان عما وراء النهر وانقسمت بنو سبكتكين وملك الخاقان ملك الترك. وفي سنة ثمان وثمانين ابتدأت دولة بني حسويه الأكراد بمخراسان. وفي سنة تسع وتسعين كان ابتداء دولة بني صالح بن مرداس من بني كلاب مجلب كما نستوفي سياقة أخبارهم في دولهم منفردة كما شرطناه.

ظهور بني مزيد

وفي سنة سبع وثمانين خرج أبو الحسن علي بن مزيد في قومه بني أسد ونقض طاعة بهاء الدولة، فبعث إليه العساكر فهرب أمامهم وأبعد حتى امتنع عليهم. ثم بعث في الصلح والاستقامة وراجع الطاعة، ثم رجع إلى انتفاضه سنة اثنين وتسعين، واجتمع مع قرواش بن المقلد صاحب الموصل وقومه بني عقيل فحاصروا المدائن. ثم بعث إليهم أبو جعفر الحجاج وهو نائب بغداد العساكر فدفعوهم عنها، وخرج الحجاج واستنجد خلفاً فجاء من الشام وقاتل بني عقيل وبني أسد فهزموه، ثم خرج إليهم ولقيهم بنواحي

الكوفة فهزمهم وأثنى عليهم بالقتل والأسر، واستباح ملك بني مزيد وظهر في بغداد في مغيب أبي جعفر من الفتنة والفساد والقتل والنهب مالا يحصى فكان ذلك السبب في أن بعث بهاء الدولة أبا علي بن جعفر أستاذ هرمز كما مر. ولقيه عميد الجيوش فسكن الفتنة وأمن الناس.

ولما عزل أبو جعفر أقام بنواحي الكوفة وارتاب به أبو علي فجمع الديلم والأتراك وخفاجة، وسار إليه واقتلوا بالنعمانية وذلك سنة ثلاث وتسعين، فانهزم أبو جعفر وسار أبو علي إلى خوزستان، ثم إلى السوس، فعاد أبو جعفر إلى الكوفة ورجع أبو علي في اتباعه فلم تزل الفتنة بينهما، وكل واحد منهما يستنجد ببني عقيل وبني أسد وخفاجة، حتى أرسل بهاء الدولة عن أبي علي وبعثه إلى البطيحة لفتنة بني واصل كما نذكره في دولتهم.

ولما كانت سنة سبع وتسعين جمع أبو جعفر وسار لحصار بغداد وأمدّه ابن حسويه أمير الأكراد، وذلك أن عميد الجيوش ولى على طريق خراسان أبا الفضل بن عنان، وكان عدو البدر بن حسويه فارتاب لذلك، واستدعى أبا جعفر وجمع له جمعاً من أمراء الأكراد منهم هندي بن سعد وأبو عيسى شادي بن محمد، ورزام بن محمد وكان أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي انصرف عن بهاء الدولة مغاضباً له، فسار معهم وكانوا عشرة آلاف وحاصروا بغداد وبها أبو الفتح بن عنان شهراً. ثم جاءهم الخبر بانهزام ابن واصل بالبطيحة الذي سار عميد الجيوش إليه فافترقوا، وعاد ابن مزيد إلى بلده وسار أبو جعفر إلى حلوان وأرسل بهاء الدولة في الطاعة عنده بستر فأعرض عنه رغماً لعميد الجيوش.

فتنة بني مزيد وبني دبيس

كان أبو الغنائم محمد بن مزيد مقيماً عند أصحابه بني دبيس في جزيرتهم بمخوزستان، قتل أبو الغنائم بعض رجالاتهم ولحق بأخيه أبي الحسن، فالتحق أبو الحسن إليهم في ألقى فارس، واستمد عميد الجيوش فأمدّه بعسكر من الديلم ولقيهم فانهزم أبو الحسن، وقتل أخوه أبو الغنائم.

ظهور دعوة العلوية بالكوفة والموصل

وفي أول المائة الخامسة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل لصاحب مصر الحاكم العلوي في جميع أعماله: وهي الموصل والأنباء والمدائن والكوفة، فبعث القادر القاضي أبا بكر الباقلائي

واستباحه. ثم استأمن له مضر ومهارش فأمنهما وأشرك معهما طراداً في الجزيرة، ورجع وأنكر عليه سلطان الدولة فعله، ووصل إلى واسط والفتنة قائمة فأصلحها، ثم بلغه اشتداد الفتن ببغداد فسار وأصلحها وكان أمر الديلم قد ضعف ببغداد وخرجوا إلى واسط.

الفتنة بين سلطان الدولة وأخيه أبي الفوارس

قد ذكرنا أن سلطان الدولة لما ملك بعد أبيه بهاء الدولة وألّى أخاه أبا الفوارس على كرمان، فلما سار إليها اجتمع إليه الديلم وحملوه على الانتفاض وانتزاع الملك من يد أخيه، فسار سنة ثمان إلى شيراز. ثم سار منها ولقيه سلطان الدولة فهزمه وعاد إلى كرمان، واتبعه سلطان الدولة فخرج هارباً من كرمان، ولحق محمود بن سبكتكين مستجداً به فأكرمه وأمدّه بالساكر، وعليهم أبو سعيد الطائي من أعيان قواده، فسار إلى كرمان وملكها، ثم إلى شيراز كذلك، وعاد سلطان الدولة لخره فهزمه وأخرجه من بلاد فارس إلى كرمان، وبعث الجيوش في أثره فانتزعوا كرمان منه، ولحق بشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه صاحب همذان، وترك ابن سبكتكين لأنه أساء معاملته قاتله أبي سعيد الطائي. ثم فارق شمس الدولة إلى مذهب الدولة صاحب البطيحة فأكرمه، وبعث إليه أخوه جلال الدولة من البصرة ملاً وثياباً وعرض عليه المسير إليه فأبى وأرسل أخاه سلطان الدولة في المراجعة وأعادته إلى ولاية كرمان، وقبض سلطان الدولة سنة تسع على وزير بن فانجس وإخوته، وألّى مكانه أبا غالب الحسن بن منصور.

خروج الترك من الصين

وفي سنة ثمان وأربعين خرجت من المغازة التي بين الصين وما وراء النهر أمم عظيمة من الترك تزيد على ثلاثمائة ألف خيمة ويسمون الخيمة جذكان، ويتخذونها من الجلود. وكان معظمهم من الخطا قد ظهروا في ملك تركستان، فمرض ملكها طغان فساروا إليها وعاثوا فيها، ثم أبلى طغان واستنفر المسلمين من جميع النواحي وسار إليهم في مائة وعشرين ألفاً فهزموا أمامه واتبعهم مسيرة ثلاثة أشهر، ثم كبسهم فقتل منهم نحواً من مائتي ألف وأسر مائة ألف، وغنم من الدواب والبيوت وأواني الذهب

إلى بهاء الدولة يعرفه فأكرمه، وكتب إلى عميد الجيوش بمحاورة قراوش، وأطلق له مائة ألف دينار يستعين بها، وسار عميد الجيوش لذلك فراجع قراوش الطاعة وقطع خطبة العلويين، وكان ذلك داعياً في كتابه المحضر بالطن في نسب العلوية بمصر، شهد فيه الرضي والمرتضى وابن البطحاوي وابن الأزرق والزكي وأبو يعلى عمر بن محمد، ومن العلماء والقضاة ابن الأكفاني وابن الجزري وأبو العباس الأبيوردي وأبو حامد الأسفرايني والكستلي والقنوري والصهيري وأبو عبد الله البيضاوي وأبو الفضل النسوي وأبو عبد الله النعمان فقيه الشيعة. ثم كتب ببغداد محضر آخر يمثل ذلك سنة أربع وأربعين وزيد فيه انتسابهم إلى الديسانية من الجيوش وبنو القداح من اليهود، وكتب فيه العلوية والعباسية والفقهاء والقضاة وعملت به نسخ وبعث بها إلى البلاد.

وفاة عميد الجيوش وولاية فخر الملك

كان عميد الجيوش أبو علي بن أبي جعفر أستاذ هرمز وكان أبو جعفر هذا من حجاب عضد الدولة، وجعل ابنه أبا علي في خدمة ابن صمصام الدولة، فلما قتل رجع إلى خدمة بهاء الدولة، ولما استولى الخراب على بغداد وظهر العيارون بعث بهاء الدولة عليها فأصلحها وقمع المفسدين، ومات لثمان سنين ونصف من ولايته إلى أول المائة الخامسة. وولى بهاء الدولة مكانه بالعراق فخر الملك أبا غالب، فوصل بغداد وأحسن السياسة واستقامت الأمور به. واتفق لأول قدومه وفاة أبي الفتح محمد بن عثان صاحب طريق خراسان بجلوان لعشرين سنة من إمارته، وكان كثير الأجلاب على بغداد. فلما توفي وألّى ابنه أبو الشوك وقام مقامه فبعث فخر الملك العساكر لقتاله فهزموه إلى حلوان. ثم راجع الطاعة وأصلح حاله.

مقتل فخر الملك وولاية ابن سهلان

كان فخر الملك أبو غالب من أعظم وزراء بني بويه، وولى نيابة بغداد لسلطان الدولة خمس سنين وأربعة أشهر. ثم قبض عليه وقتله في ربيع سنة ست وأربعمائة، وولى مكانه أبا محمد الحسن بن سهلان ولقيه عميد أصحاب الجيوش، وسار سنة تسع إلى بغداد وجرّد من الطريق مع طراد بن ديبس الأسدي في طلب مهارش ومضر ابني ديبس، وكان مضر قد قبض عليه قديماً بأمر فخر الملك، فأراد أن يأخذ جزيرة بني أسد منه ويوليها طراداً، فساروا عن المدار واتبعهم ولحق الحسن بن ديبس آخرهم فأوقع به

والفضة من معمول الصين ما لا يعبر عنه.

ملك مشرف الدولة وغلبه على سلطان الدولة

لم يزل سلطان الدولة ثابت القدم في ملكه بالعراق إلى سنة إحدى عشرة وأربعمئة فشغب عليه الجند ونادوا بشعار أخيه مشرف الدولة فأثير عليه مجسه فغف عن ذلك وأراد الانحدار إلى واسط فطلبه الجند في الاستخلاف فاستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق، وسار إلى الأهواز، فلما بلغ تستر استوزر سهلان، وقد كان اتفق مع أخيه مشرف الدولة الوزير ابن سهلان أن لا يستوزره، فاستوحش لذلك مشرف الدولة، وبعث سلطان الدولة الوزير ابن سهلان ليخرجه من العراق فجمع أترك واسط وأبا الأغرديس بن علي بن مزيد، ولقي ابن سهلان عند واسط فهزمه وحاصره بها حتى اشتد حصاره، وجهده الحصار فصالحه ونزل عن واسط فملكها في ذي الحجة من سنة إحدى عشرة.

وسار الديلم الذين بواسط في خدمته، وسار أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة إلى وفاقه وخطب له ببغداد، وقبض على ابن سهلان وكحله، وسار سلطان الدولة إلى أرجان ثم رجع إلى الأهواز وثار عليه الأتراك الذين هنالك، ودعوا بشعار مشرف الدولة، وخرجوا إلى السابلة فأفسدوها، وعاد مشرف الدولة إلى بغداد فخطب له بها سنة اثني عشرة، وطلب منه الديلم أن ينحدروا إلى بيوتهم بخوزستان فبعث معهم وزيره أبا غالب، فلما وصلوا إلى الأهواز انتفضوا ونادوا بشعار سلطان الدولة، وقتلوا أبا غالب لسنة ونصف من وزارته. ولحق الأتراك الذين كانوا معه طراد بن ديبس بالجزيرة، وبلغ سلطان الدولة قتل أبي غالب وافترق الديلم فأنفذ ابنه أبا كاليبجار إلى الأهواز وملكها. ثم وقع الصلح بينهما على يد أبي محمد بن أبي مكرم ومؤيد الملك الرخجي على أن تكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة.

واستوزر مشرف الدولة أبا الحسين بن الحسن الرخجي ولقيه مؤيد الملك بعد قتل أبي غالب ومصادرة ابنه أبي العباس. ثم قبض عليه سنة أربع عشرة بعد حول من وزارته بسعاية الأثير الخادم فيه واستوزر مكانه أبا القاسم الحسين بن علي بن الحسين المغربي، كان أبوه من أصحاب سيف الدولة بن حمدان، وهرب إلى مصر وخدم الحاكم فقتله وهرب ابنه أبو القاسم هذا إلى الشام، وحمل حسان بن الفرج بن الجراح الطائي على نقض طاعة الحاكم

واليعة لأبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي أمير مكة، فاستقدمه إلى الرملة وبايعه. ثم خلفه وعاد إلى مكة وقصد أبو القاسم العراق، واتصل بالوزير فخر الملك وأمره القادر بإبعاده، فلاحق قرواش أمير الموصل، وكتب له ثم عاد إلى العراق وتنقلت به الحال إلى أن وزر بعد مؤيد الملك الرخجي، وكان خبيثاً محتالاً حسوداً. ثم قدم مشرف الدولة إلى بغداد سنة أربع عشرة ولقيه القادر ولم يلق أحداً قبله.

الخبر عن وحشة الأكراد وفتنة الكوفة

كان الأثير عنبر الخادم مستولياً في دولة مشرف الدولة الوزير أبي القاسم المغربي عديله في حملها فنقم الأتراك عليهما، وطلب من مشرف الدولة الخراج من بغداد خوفاً على أنفسهما، فخرج معهما غضباً على الأتراك، ونزلوا على قرواش بالسندية. واستعظم الأتراك ذلك، ويعشوا بالاعتذار والرغبة. وقال أبو القاسم المغربي: دخل بغداد إنما هو أربعمئة ألف وخرجها ستمائة فأتروا مائة واحتمل مائة فاجابوه إلى ذلك خداعاً. وشعر بوصولهم فهرب لعشرة أشهر من وزارته.

ثم كانت فتنة بالكوفة بين العلوية والعباسية، وكان لأبي القاسم المغربي صهر وصداقة في العلوية فاستدعى العباسيون المغربي عليهم فلم يعدم لكان المغربي. وأمرهم بالصلح فرجعوا إلى الكوفة، واستمد كل واحد منهم خفاجة فأمدهم وافترقوا عليهم، واقتل العلوية والعباسية فغلبهم العلوية ولحقوا ببغداد، ومنعوا الخطبة يوم الجمعة، وقتلوا بعض قرابة العلوية الذين بالكوفة، فعهد القادر للمرتضى أن يصرف أبا الحسن علي بن أبي طالب ابن عمر عن نقابة الكوفة. ويردها إلى المختار صاحب العباسية. وبلغ ذلك المغربي عند قرواش بسراً رأى فشرع في إرغام القادر. وبعث القادر إلى قرواش يطرده فلحق بابن مروان في ديار بكر.

وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه جلال

الدولة

ثم توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة سنة ست عشرة في ربيع لخمس سنين من ملكه، وولى مكانه بالعراق أخوه أبو طاهر جلال الدولة صاحب البصرة، وخطب له ببغداد، واستقدم فبلغ واسط ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته، وخطب

وهلك الكثير من أثقاله واستولى أبو كاليبجار على واسط ثم خطب له في البطيحة وأرسل إلى قرواش صاحب الموصل وعنده الأثير عنبر يستدعيهما إلى بغداد، فالتحق عنبر إلى الكحيل ومات به. وقعد قرواش وجمع جلال الدولة عساكره ببغداد، واستعد أبا الشوك وغيره، والتحق إلى واسط وأقام هنالك من غير قتال، وضاعت عليه الأحوال. واعتزم أبو كاليبجار على مخالفته إلى بغداد، وجاءه كتاب أبي الشوك يزحف عساكر محمود بن سبكتكين إلى العراق، ويشير بالصلح والاجتماع لمداغتهم، فأنفذ أبو كاليبجار الكتاب لجلال الدولة فلم يته عن قصده، ودخل الأهواز فنهبا، وأخذ من دار الإمارة مائتي ألف دينار، واستباح العرب والأكراد سائر البلد وحمل حريم كاليبجار إلى بغداد سبياً فماتت أمه في الطريق.

وسار أبو كاليبجار لاعتراض جلال الدولة وتخلف عنه ديس لدفع خفاجة عن أصحابه، واقتتلوا في ربيع سنة إحدى وعشرين ثلاثة أيام فانهزم أبو كاليبجار، وقتل من أصحابه ألفان. وديس لما فارق أبا كاليبجار وصل إلى بلده وجمع إليه جماعة من قومه، وكانوا متقضيي عليه بالجامعين فأوقع بهم وحس منهم وردهم إلى وفاقه. ثم لقي المقلد بن أبي الأغر وعساكر جلال الدولة فانهزم أمامهم وأسر جماعة من أصحابه، وسار منهزماً إلى أبي سنان غريب بن مكي فاصلح حاله مع جلال الدولة وأعادته إلى ولايته على ضمان عشرة آلاف دينار، وسمع بذلك المقلد فجمع خفاجة ونهبوا النيل وسورا وأحرقوا منازلها. ثم عبر المقلد إلى أبي الشوك فاصلح أمره مع جلال الدولة، ثم بعث جلال الدولة سنة إحدى وعشرين عسكره إلى المدار فملكها من يد أصحاب أبي كاليبجار واستباحوها، وبعث أبو كاليبجار عسكره لمداغتهم فهزمهم وثار أهل البلد بهم فقتلوههم، ولحق من نجى منهم بواسط وعادت المدار إلى أبي كاليبجار.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانياً

وانتزاعها منه

لما استولى جلال الدولة على واسط نزل بها ولده وبعث وزيره أبا علي بن ماکولا إلى البطائح فملكها. ثم بعث إلى البصرة وبها أبو منصور بختيار بن علي من قبل أبي كاليبجار، فسار في السفن وعليهم أبو عبد الله الشرايبي صاحب البطيحة فلقى بختيار وهزمه. ثم سار الوزير أبو علي في أثره في السفن فهزمه بختيار. وسبق إليه أسيراً فأكرمه وبعثه إلى أبي كاليبجار فأقام عنده، وقتله

ببغداد في شوال لابن أخيه أبي كاليبجار بن سلطان الدولة، وهو بمخوزستان يحارب عمه أبا الفوارس صاحب كرمان. وسمع جلال الدولة بذلك فبادر إلى بغداد ومعه وزيره أبو سعد بن ماکولا. ولقيه عسكرها فردوه أقبح رد ونهبوا خزائنه فعاد إلى البصرة، واستحووا أبا كاليبجار فتباطأ لشغله بحرب عمه، وسار إلى كرمان لقتال عمه فملكها واعتصم عمه بالجبال. ثم ترأسا واصطلحا على أن تبقى كرمان لأبي الفوارس وتكون بلاد فارس لأبي كاليبجار.

قدوم جلال الدولة إلى بغداد

ولما رأى الأتراك اختلال الأحوال وضعف الدولة بفتنة العامة وتسلط العرب والأكراد بمحاصر بغداد، وطعمهم فيها وأنهم بقوا فوضى، وندموا على ما كان منهم في رد جلال الدولة، اجتمعوا إلى الخليفة يرغبون إليه أن يحضر جلال الدولة من البصرة ليقم أمر الدولة فبعث إليه القاضي أبا جعفر السمناني بالمعهد عليه وعلى القواد فسار جلال الدولة إلى بغداد في جمادى من سنة ثمان عشرة. وركب الخليفة في الطيار لتلقيه فدخل ونزل التجيبي وأمر بضرب الطبل في أوقات الصلوات. ومنعه الخليفة من ذلك فقطعه مغاضباً. ثم أذن له الخليفة فيه فأعاده، وأرسل مؤيد الملك أبا علي الرخجي إلى الأثير عنبر الخادم عند قرواش يستدعيه يعتذر عن الأتراك، ثم شغب الأتراك عليه سنة تسع عشرة وحاصروه بداره وطلبوا من الوزير أبي علي بن ماکولا أرزاقهم، ونهبوا دوره ودور الكتاب والحواشي. وبعث القادر من أصلح بينهم وبينه فسكن شغبهم. ثم خالفوا أبا كاليبجار بن سلطان الدولة إلى البصرة فملكها، ثم ملك كرمان بعد وفاة صاحبها قوام الدولة أبي الفوارس ابن بهاء الدولة كما نذكر في أخبارهم في دولتهم عند أفرادها بالذكر فنستوفي أخبارهم ودول سائر بني بويه وبني وشمكير وبني الرزيان وغيرهم من الديلم في النواحي.

مسير جلال الدولة إلى الأهواز

كان نور الدولة ديس بن علي بن مزيد صاحب الحلة، ولم تكن الحلة يومئذ بمدينة، قد خطب لأبي كاليبجار لمضايقه المقلد بن أبي الأغر الحسن بن مزيد وجمع عليه منيعاً أمير بني خفاجة وعساكر بغداد، فخطب هو لأبي كاليبجار واستدعاه الملك واسط وبها الملك العزيز ابن جلال الدولة فلحق بالنعمانية وتركها، وضيق عليه نور الدولة من كل جهة فتفرق ناس من أصحابه

وكانت خمسة عشر وقد الجاري فطرد الطواشي والخواشي والأتباع وأغلق باب داره والفتنة تزايد إلى آخر السنة.

وثوب الجند بجلال الدولة وخروجه من

بغداد

ثم جاء الأتراك سنة ست وعشرين إلى جلال الدولة فنهبوا داره وكتبه ودواوينه وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهيلي فهرب إلى حلة غريب بن مكي، وخرج جلال الدولة إلى عكبرا وخطبوا ببغداد لأبي كاليبجار وهو بالأهواز واستقدموه فأشار عليه بعض أصحابه بالامتناع فاعتذر إليهم فأعادوا لجلال الدولة. وساروا إليه معتردين وأعادوه بعد ثلاثة وأربعين يوماً واستوزر أبا القاسم بن مأكولا، ثم عزله واستوزر عميد الملك أبا سعيد عبد الرحيم. ثم أمره بمصادرة أبي المعمر بن الحسين الباساسيري فاعتقله في داره، وجاء الأتراك لئمنه ففضروا الوزير ومزقوا ثيابه وأدموه. وركب جلال الدولة فأطفا الفتنة وأخذ من الباساسيري ألف دينار وأطلقه، واختفى الوزير.

ثم شغب الجند ثانياً في رمضان وأنكروا تقديم الوزير أبي القاسم من غير علمهم وأنه يرد التعرض لأموالهم فوثبوا به ونهبوا داره وأخرجوه إلى مسجد هنالك فوكلوا به فوثب العامة مع بعض القواد من أصحابه فاطلقوه وأعادوه إلى داره. وذهب هو في الليل إلى الكرخ بحرمه ووزيره أبو القاسم معه. واختلف الجند في أمره وأرسلوا إليه بأن يملكوا بعض أولاده الأصاغر، وينحدر هو إلى واسط، وهو في خلال ذلك يستميلهم حتى فرق جماعتهم، وجاء الكثير إليه فأعادوه إلى داره، واستخلف الباساسيري في جماعة للجانب الغربي سنة خمس وعشرين لاشتداد أمر العيارين ببغداد، وكثر المهرج وكفأته هو ونهضته.

ثم عاد أمر الخلافة والسلطنة إلى أن اضمحل وتلاشى، وخرج بعض الجند إلى قرية فلقبيهم أكراد وأخذوا دوابهم وجاؤوا إلى بستان القائم فتعللوا على عماله بأنهم لم يدفعوا عنهم، ونهبوا ثمرة البستان، وعجز جلال الدولة من عتاب الأكراد وعقاب الجند، وسخط القائم أمره وتقدم إلى القضاة والشهود والفقهاء بتعطيل المراتب الدينية، فرغب جلال الدولة من الجند أن يحملهم إلى ديوان الخلافة فحملوا وأطلقوا، وعظم أمر العيارين وصاروا في حماية الجند وانتشر العرب في النواحي فنهبوا وأفسدوا السابلة، وبلغوا جامع المنصور من البلد، وسلبوا النساء في المقبرة.

ولحق الوزير أبو سعيد وزير جلال الدولة بأبي الشوك

غلنامه خوفاً منه لقيح منهم اطلع عليه. وكان قد أحدث في ولايته رسوماً جائرة ومكوساً فاضحة. ولما أصيب الوزير أبو علي بعث جلال الدولة من كان عنده من جند البصرة فقاتلوا عسكر أبي كاليبجار، وهزمهم وملكوا البصرة ونجا من كان بها إلى أبي منصور بختيار بالأبلة. وبعث السفن لقتاله من البصرة فظفر بهم أصحاب جلال الدولة فسار بختيار بنفسه وقتلهم، وانهزم وقتل وأخذ كثير من السفهاء.

وعزم الأتراك بالبصرة على المسير إلى الأبلة وطلبوا المال من العامل فاختلفوا وتنازعوا واقتروا، ورجع صاحب البطيحة، واستأمن آخرون إلى أبي الفرج بن مسافجس وزير أبي كاليبجار، وجاء إلى البصرة فملكها. ثم توفي بختيار نائب الملك أبي كاليبجار في البصرة، وقام بعده صهره أبو القاسم بطاعة أبي كاليبجار في البصرة. ثم استوحش وانتقض وبعث بالطاعة لجلال الدولة وخطب له، وبعث إلى ابنه العزيز بواسط يستدعيه فسار إليه وأخرج عساكر أبي كاليبجار وأقام معه إلى سنة خمس وعشرين والحكم لأبي القاسم. ثم أغراه الديلم به وأنه يغلب عليه، فأخرجه العزيز وامتنع بالأبلة وحاربهم أياماً، وأخرج العزيز عن البصرة، ولحق بواسط وعاد أبو القاسم إلى طاعة أبي كاليبجار.

وفاة القادر ونصب القائم

ثم توفي القادر بالله سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة لإحدى وعشرين سنة وأربعة أشهر من خلافته، وكانت الخلافة قبلها قد ذهب رونقها بمسارة الديلم والأتراك عليها، فأعاد إليها أبنتها وجدد ناموسها، وكان له في قلوب الناس هبة. ولما توفي نصب للخلافة ابنه أبو جعفر عبد الله، وقد كان أبوه بايع له بالعهد في السنة قبلها لمرض طرقة وأرجف الناس بموته، فبويج الآن واستقرت له الخلافة ولقب القائم بأمر الله. وأول من بايعه الشريف المرتضى. وبعث القاضي أبا الحسن الماوردي إلى أبي كاليبجار ليأخذ عليه البيعة ويخطب له في بلاده، فاجاب وبعث بالهدايا. ووقعت لأول بيعته فتنة بين أهل السنة والشيعة، وعظم المهرج والنهب والقتل وخربت فيها أسواق وقتل كثير من جباة المكوس. وأصيب أهل الكرخ وطرقت الدعار إلى كبس المنازل ليلاً، وتنادى الجند بكراهية جلال الدولة وقطع خطبته. ولم يجبههم القائم إلى ذلك وفرق جلال الدولة فيهم الأموال فسكنوا، وتعد في بيته وأخرج دوابه من الأصطبل وأطلقها بغير سائس ولا حافظ لقلعة العلف. وطلب الأتراك منه أن يحملهم في كل وقت فاطلقها،

أبي القاسم، وأخذت أمواله وصودر على مائتي ألف دينار فأعطاه، وجاء الملك أبو كاليجار البصرة فأقام بها أياماً وولى فيها ابنه عز الملوك ومعه الوزير أبو الفرج بن فسانجس، ثم عاد إلى الأهواز وحمل معه الظهر.

شغب الأتراك على جلال الدولة

ثم شغب الأتراك على جلال الدولة سنة اثنتين وثلاثين وخميساً بظاهر البلد ونهبوا منها مواضع. وخيم جلال الدولة بالجانب الغربي وأراد الرحيل عن بغداد فمنعه أصحابه فاستمد ديبس بن مزيد زقرواشاً صاحب الموصل فأمدوه بالعساكر. ثم صلحت الأحوال بينهم وعاد إلى داره وطمع الأتراك وكثر نهبهم وتعديهم وفسدت الأمور بالكلية.

ابتداء دولة السلجوقية

قد تقدم لنا أن أمم الترك في الربع الشرقي الشمالي من المعمور: ما بين الصين إلى تركستان إلى خوارزم والشاش وفرغانة، وما وراء النهر بخارى وسمرقند وترمس، وأن المسلمين أزاحوهم أول الملة عن بلاد ما وراء النهر وغلبوهم عليها، وبقيت تركستان وكاشغر والشاش وفرغانة بأيديهم يؤدون عليها الجزاء. ثم أسلموا عليها فكان لهم بتركستان ملك ودولة، نذكروها فيما بعد، فإن استفحلها كان في دولة بني سامان جيرانهم فيما وراء النهر. وكان في المفازة بين تركستان وبلاد الصين أمم من الترك لا يحصيهم إلا خالفهم لاتساع هذه المفازة وبعد أقطارها فإنها فيما يقال مسيرة شهر من كل جهة، فكان هنالك أحياء بادون متجمعون رجاله غداؤهم اللحوم والألبان والذرة في بعض الأحيان ومراكبهم الخيل، ومنها كسبهم وعليها قيامهم وعلى الشاء والبقر من بين الأنعام، فلم يزالوا بتلك القفار مذودين عن العمران بالحامية، والمالكين له في كل جهة.

وكان من أهم الغز والخطا والتتر وقد تقدم ذكر هؤلاء الشعوب. فلما انتهت دولة ملوك تركستان وكان شغل إلى غايتها، وأخذت في الاضمحلال والتلاشي كما هو شأن الدول وطبيعتها. تقدم هؤلاء إلى بلاد تركستان فأجلبوا عليها بما كان غالب معاشهم في تحطف الناس من السبل، وتناول الرزق بالرماح شأن أهل القفر البادين، وأقاموا بمفازة بخارى.

ثم انقضت دولة بني سامان ودولة أهل تركستان. واستولى

مفارقاً للوزارة، ووزر بعده أبا القاسم فكثرت مطالبات الجند عليه فهرب وأخذ الجند وجأوا به إلى دار الملك حاسراً عارياً إلا من قميص خلق، وذلك لشهرين من وزارته، وعاد سعيد بن عبد الرحيم إلى الوزارة. ثم ثار الجند سنة سبع وعشرين بجلال الدولة وأخرجوه من بغداد بعد أن استمهلهم ثلاثاً فأبوا ورموه بالحجارة فأصابوه، ومضى إلى دار المرتضى بالكرخ، وسار منها إلى رافع بن الحسين بن مكن بتكرت، ونهب الأتراك داره وقلعوا أبوابها، ثم أصلح القائم شأنه مع الجند، وأعاد وقبض على وزيره أبي سعيد بن عبد الرحيم، وهي وزارته السادسة. وفي هذه السنة نهى القائم عن التعامل بالدنانير المعزية، وتقدم إلى اليهود أن لا يذكروها في كتب التعامل.

الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار

ترددت الرسل سنة ثمان وعشرين بين جلال الدولة وأبيه أخيه أبي كاليجار حتى انعقد بينهما الصلح على يد القاضي أبي الحسن الماوردي وأبي عبد الله المردوسي، واستحلف كل واحد منهما للآخر، وأظهر جلال الدولة سنة تسع وعشرين من القائم الخطاب بملك الملوك فرد ذلك إلى الفتيا، وأجازة القاضي أبو الطيب الطبري، والقاضي أبو عبد الله الصهيري، والقاضي ابن البيضاوي وأبو القاسم الكرخي، ومنع منه القاضي أبو الحسن الماوردي ورد عليهم فأخذ بفتواهم، وخطب له بملك الملوك. وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة، وكان يتردد إليه. ثم انقطع عنه بهذه الفتيا، ولزم بيته من رمضان إلى النحر فاستدعيه جلال الدولة وحضر خائفاً، وشكره على القول بالحق وعدم الحباة، وقد عدت إلى ما تحب فشكره ودعا له، وأذن للحاضرين بالانصراف معه، وكان الإذن لهم تبعاً له.

استيلاء أبي كاليجار على البصرة

وفي سنة إحدى وثلاثين بعث أبو كاليجار عساكره إلى البصرة مع العادل أبي منصور ابن مسافنة، وكانت في ولاية الظهير أبي القاسم..... ولها بعد مجتئار، انتقض عليه مرة ثم عاد، وكان يعمل إلى أبي كاليجار كل سنة سبعين ألف دينار، وكثرت أمواله ودامت دولته. ثم تعرض ملا الحسين بن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان فكاتب أبا كاليجار وضمن البصرة بزيادة ثلاثين ألف دينار، وبعث أبو كاليجار العساكر مع ابن مسافنة كما ذكرنا. وجاء المدد من عمان إلى البصرة، وملكوها وقبض على الظهير

ونهبوه. وخرج علاء الدولة من أصبهان فلقى طائفة منهم فأوقع بهم وأنخن فيهم وأوقع وهشودان بمن كان منهم في أذربيجان وظفر بهم الأكراد وأنخنوا فيهم، وفرقوا جماعتهم.

ثم توفي كول أمير الفرق التي بالري، وكانوا لما أجازوا من وراء النهر إلى خراسان بقي بمواطنهم الأولى هنالك طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق وإخوته داود وسعدان ونيال وهمفري فخرجوا إلى خراسان من بعدهم. وكانوا أشد منهم شوكة وأقوى عليهم سلطاناً فسار نيال أخو طغرل بك إلى الري فهربوا إلى أذربيجان ثم إلى جزيرة ابن عمر وديار بكر. ومكر سليمان بن نصير الدولة بن مروان صاحب الجزيرة منصور بن عز علي منهم فحبسه وافترق أصحابه، وبعث قرواش صاحب الموصل إليهم جيشه فطردهم وافتقت جموعهم، ولحق الغز بديار بكر وأنخنوا فيها، وأطلق نصير الدولة أميرهم منصوراً من يد ابنه فلم يتفزع منهم بذلك. وقاتلهم صاحب الموصل فحاصروه ثم ركب في السفين ولجأ إلى السند وملكوا البلد وعاثوا فيها. وبعث قرواش إلى الملك جلال الدولة يستجده، وإلى ديبس بن مزيد وأمراء العرب. وفرض الغز على أهل الموصل عشرين ألف دينار فثار الناس بهم، وكان كوكباش قد فارق الموصل فرجع ودخلها عنوة في رجب سنة خمس وثلاثين، وأفحش في القتل والنهب. وكانوا يخطبون للخليفة ولطغرل بك بعده، فكتب الملك جلال الدولة إلى طغرل بك يشكو له بأحوالهم، فكتب إليه أن هؤلاء الغز كانوا في خدمتنا وطاعتنا حتى حدث بيننا وبين محمود بن سبكتكين ما علمتم، ونهضنا إليه، وساروا في خدمتنا في نواحي خراسان فتجاوزوا حدود الطاعة وملكة الهبة، ولا بد من إنزال العقوبة بهم، وبعث إلى نصير الدولة بعده يكفهم عنه.

وسار ديبس بن مزيد وبنو عقيل إلى قرواش صاحب الموصل وقعد جلال الدولة عن إنجاده لما نزل به من الأتراك. وسمع الغز يجمع قرواش فيعتوا إلى من كان بديار بكر منهم واجتمعوا إليهم، واقتل الفريقان فانهزم العرب أول النهار، ثم أتاحت لهم الكرة على الغز فهزمهم واستباحوهم وأنخنوا فيهم قتلاً وأسراً، واتبعهم قرواش إلى نصيبين ورجع عنهم فساروا إلى ديار بكر وبلاد الأرمن والروم، وكثر عيشهم فيها وكان طغرل بك وإخوته لما جاؤوا إلى خراسان طالت الحروب بينهم وبين عساكر بني سبكتكين حتى غلبوهم وحصل لهم الظفر، وهزموا سياوشي حاجب مسعود آخر هزائمهم، وملكوا هراة فهرب عنها سياوشي الحاجب ولحق بغزنة، وزحف إليهم مسعود ودخلوا البرية، ولم يزل في اتباعهم ثلاث سنين.

محمود بن سبكتكين من قواد بني سامان وصنائعهم على ذلك كله. وعبر بعض الأيام إلى بخارى فحضر عنده أرسلان بن سلجوق فقبض عليه، وبعث به إلى بلاد الهند فحبسه، وسار إلى أحيائه فاستباحها، ولحق بخراسان، وسارت العساكر في اتباعهم فلحقوا بأصبهان وهم أصحابها علاء الدولة بن كالويه بالغدر بهم، وشعروا بذلك فقاتلوه بأصبهان فغلبهم، فانصرفوا إلى أذربيجان فقاتلهم صاحبهم وهشودان من بني المرزيان. وكانوا لما قصدوا أصبهان بقي فلهم بنو احي خوارزم فعاثوا في البلاد، وخرج إليهم صاحب طوس وقاتلهم. وجاء محمود بن سبكتكين فسار في اتباعهم من رستاق إلى جرجان، ورجع عنهم، ثم استأمنوا فاستخدمهم وتقديمهم بغمر، وأنزل ابنه بالري.

ثم مات محمود وولي أخوه مسعود، وشغل بحروب الهند فانتفضوا وبعث إليهم قائداً في العساكر، وكانوا يسمون العراقية وأمراؤهم يرمون كوكاش ومرفاوكول وغمر ويصعكي، ووصلوا إلى الدامغان فاستباحوها، ثم سمنان، ثم عاثوا في أعمال الري واجتمع صاحب طبرستان وصاحب الري مع قائد مسعود وقاتلهم فهزمهم الغز وفتحوا فيهم وقصدوا الري فملكوه، وهرب صاحبه إلى بعض قلاعهم فتحصن بها، وذلك سنة ست وعشرين وأربعمائة.

واستأنفهم علاء الدولة بن كالويه ليدافع بهم ابن سبكتكين فأجابوه أولاً، ثم انتفضوا. وأما الذين قصدوا أذربيجان منهم، ومقدمهم بوقا وكوكباش ومنصور ودانا فاستأنفهم وهشودان ليستظهر بهم، فلم يحصل على نبيته من ذلك. وساروا إلى مراغة سنة تسع وعشرين فاستباحوها، ونالوا من الأكراد الهدايا فحاربوهم وغلبوهم وافترقوا فرقتين، فرجع بوقا إلى أصحابهم الذين بالري، وسار منصور وكوكباش إلى همذان، وبها أبو كاليبجار بن علاء الدولة بن كالويه فظاهروهم على حصاره متى خسرو ابن مجد الدولة فلما جهده الحصار لحق بأصبهان وترك البلد فدخلوها واستباحوها، وفعلوا في الكرخ مثل ذلك، وحاصروا قزوين حتى أطاعوهم وبذلوا لهم سبعة آلاف دينار. وسار طائفة منهم إلى بلد الأرمن فاستباحوها وأنخنوا فيها ورجعوا إلى أرمينية.

ثم رجعوا من الري إلى حصار همذان فتركها أبو كاليبجار وملكوها سنة ثلاثين ومعهم متى خسرو المذكور فاستباحوا تلك النواحي إلى أستراباذ، وقاتلهم أبو الفتح بن أبي الشوك صاحب الدينور فهزمهم وأسر منهم وصالحوه على إطلاق أسراهم. ثم مكروا بابي كاليبجار أن يكون معهم ويدبر أمرهم، وغدروا به

إلى ديبس بن مزيد، ثم إلى قرواش بن المقلد، ثم فارقه إلى أبي الشوك فقدر به فسار إلى نبال أخي طغرل بك فأقام عنده مدة. ثم قصد بغداد مخفياً فظهر على بعض أصحابه فقتله، ولحق هو بتصير الدولة بن مروان فتوفي عنده بميفارقين سنة إحدى وأربعين.

وأما أبو كاليجار فخطب له ببغداد في صفر سنة ست وثلاثين. وبعث إلى الخليفة بعشرة آلاف دينار وبأموال أخرى فرقت إلى الجند ولقبه القائم محيي الدين، وخطب له أبو الشوك وديبس بن مزيد وتصير الدولة بن مروان بأعمالهم. وسار إلى بغداد ومعه وزيره أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن فساخس. وهم القائم لاستقباله فاستعفى من ذلك، وخلع على أرباب الجيوش، وهم البساسيري والنساوري والهمام أبو اللقاء. وأخرج عنيد الدولة أبا سعيد من بغداد فمضى إلى تكريت، وعاد أبو منصور بن علاء الدولة بن كالويه صاحب أصبهان إلى طاعته، وخطب له على منبره انحرافاً عن طغرل بك. ثم راجعه بعد الحصار واصطلحوا على مال يحمله، وبعث أبو كاليجار إلى السلطان طغرل بك في الصلح وزوجه ابنته فأجاب وتم بينهما سنة تسع وثلاثين.

وفاة أبي كاليجار وملك ابنه الملك الرحيم

كان أبو كاليجار والمرزيان بن سلطان الدولة قد سارا سنة أربعين إلى نواحي كرمان، وكان صاحبها بهرام بن لشكرستان من وجوه الديلم قد منع الحمل فتتكر له أبو كاليجار، وبعث إلى أبي كاليجار يحتمي به، وهو بقلعة بردشير فملكها من يده، وقتل بهرام بعض الجند الذين ظهر منهم على الميل لأبي كاليجار فسار إليه ومرض في طريقه، ومات بمدينة جنابا في سنة أربعين لأربع سنين وثلاثة أشهر من ملكه. ولما توفي نهب الأتراك معسكره وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى نخيم الوزير أبي منصور، وأرادوا نهبه فمنعهم الديلم، وساروا إلى شيراز فملكها أبو منصور واسترحش الوزير منه فلحق ببعض قلاعه، وامتنع بها، ووصل خبر وفاة أبي كاليجار إلى بغداد وبها ولده الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز فبايع له الجند وبعث إلى الخليفة في الخطبة والتلقب بالملك الرحيم فأجابه إلى ما سأل إلا اللقب بالرحيم للمناع الشرعي من ذلك. واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة، وكان بها أخوه أبو علي، واستولى أخوه أبو منصور كما ذكرنا على شيراز فبعث الملك الرحيم أخاه أبا سعد في العساكر فملكها، وقبض على أخيه أبي منصور، وسار العزيز جلال الدولة من عند

ثم انتهزوا فيه الفرصة باختلاف عسكره يوماً على الماء فانهزموا وغنموا عسكره وسار طغرل بك إلى نيسابور سنة إحدى وثلاثين فملكها وسكن الساديح، وخطب له بالسلطان الأعظم العمال في النواحي. وكان الدعار قد اشتد ضرهم بنيسابور فسد أمرهم وحسم عليهم، واستولى السلجوقية على جميع البلاد. وسار يبقو إلى هراة فملكها وسار داود إلى بلخ وبها القوتياق حاجب مسعود فحاصره، وعجز مسعود عن إمداده فسلم البلد لداود، واستقل السلجوقية بملك البلاد أجمع. ثم ملك طغرل بك طبرستان وجرجان من يد أنو شروان بن متوجهر قابوس، وضمها أنو شروان بثلاثين ألف دينار، وولى على جرجان مرداويج من أصحابه بمخمسين ألف دينار، وبعث القائم القاضي أبو الحسن الماوردي إلى طغرل بك فقرر الصلح بينه وبين جلال الدولة القائم بدولته ورجع بطاعته.

فتنة قرواش مع جلال الدولة

كان قرواش قد أنفذ عسكره سنة إحدى وثلاثين لحصار نخيس بن ثعلب بتكريت، واستغاث بجلال الدولة، وأمر قرواشاً بالكف عنه فلم يفعل وسار لحصاره بنفسه. وبعث إلى الأتراك ببغداد يستفسلهم على جلال الدولة فاطلع على ذلك فبعث أبا الحارث أرسلان البساسيري في صفر سنة اثنتين وثلاثين للقبض على نائب قرواش بالسندسية، واعترضه العرب فمنعوه ورجع وأقاموا بين صرصر وبغداد يفسدون السابلة، وجمع جلال الدولة العساكر وخرج إلى الأنبار وبها قرواش فحاصروها. ثم اختلفت عقيل على قرواش فرجع إلى مصالحة جلال الدولة.

وفاة جلال الدولة وملك أبي كاليجار

لما قلت الجبايات ببغداد مد جلال الدولة يده إلى الجوالي فأخذها وكانت خاصة بالخليفة. ثم توفي جلال الدولة أبو طاهر ابن بهاء الدولة في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمئة لسبع عشرة من ملكه. ولما مات خاف حاشيته من الأتراك والعامه فانتقل الوزير كمال الملك بن عبد الرحيم وأصحابه الأكابر إلى حرم دار الخلافة، واجتمع القواد للمدافعة عنهم وكتبوا الملك العزيز أبا منصور بن جلال الدولة في واسط بالطاعة واستقدمه وطلبوا حتى البيعة فإروضهم فيها، فكاتبهم أبو كاليجار عنها فعدلوا إليه. وجاء العزيز من واسط وانتهى إلى النعمانية فغدر به عسكره، ورجعوا إلى واسط وخطبوا لأبي كاليجار. وسار العزيز

بعث أخاه أبا سعد إلى فارس كما ذكرنا ليشغل أبا منصور وهزارشب ومن معهما عن قصده فلم يعرجوا على ذلك. وساروا إليه بالأهواز وقاتلهم فانهزم إلى واسط ونهب الأهواز وفقد في الواقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي عبد الرحيم فلم يوقف له على خبر.

وسار أبو منصور وأصحابه إلى شيراز لأجل أبي سعد وأصحابه فلقبهم قريباً منها، وهزمهم مرات واستأمن إليه الكثير منهم، واعتصم أبو منصور ببعض القلاع وأعيدت الخطبة بالأهواز للملك الرحيم، واستدعاه الجند بها وعظمت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعية في غيبة الملك الرحيم واقتتلوا، وبعث القائم نقيب العلويين ونقيب العباسيين لكشف الأمر بينهما فلم يوقف على يقين في ذلك. وزاد الأمر وأحرقت مشاهد العظماء من أهل البيت، وبلغ الخبر إلى ديبس بن مزيد فاتهم القائم بالمداينة في ذلك فقطع الخطبة له ثم عوتب فاستعتب وعاد إلى حاله.

مهادنة طغرل بك للقائم

قد تقدم لنا شأن الغز واستيلائهم على خراسان من يد بني سيكتكين عام اثنتين وثلاثين، ثم استيلاء طغرل بك على أصبهان من يد ابن كالويه سنة اثنتين وأربعين. ثم بعث السلطان طغرل بك أرسلان ابن أخيه داود إلى بلاد فارس فافتتحها سنة اثنتين وأربعين، واستلمهم من كان بها من الديلم، ونزل مدينة نسا وبعث إليه القائم بأمر الله بالخلع والألقاب، وولاه على ما غلب عليه فبعث إليه طغرل بك بعشرة آلاف دينار، وأعلاق نفيسة من الجواهر والياب والطيب، وإلى الخاشية بخمسة آلاف دينار، وللوزير رئيس الرؤساء بالقيين، وحضروا العيد في سنة ثلاث وأربعين ببغداد فأمر الخليفة بالاحتفال في الزينة والمراكب والسلاح. ثم سار الغز سنة أربع وأربعين إلى شيراز وبها الأمير أبو سعد أخو الملك الرحيم فقاتلهم وهزمهم كما نذكر في أخبارهم.

استيلاء الملك الرحيم على البصرة من يد أخيه

ثم بعث الملك الرحيم سنة أربع وأربعين جيوشه إلى البصرة مع بصيرة البساسيري فحاصروا بها أخاه أبا علي وقاتلوا عسكره في السفن فهزمهم وملكوا عليهم دجلة والأنهر. وجاء الملك الرحيم بالعسكر في البر واستأمن إليه قبائل ربيعة ومضر فأمنهم

قرواش إلى البصرة فدافعه أبو علي بن كاليجار عنها. ثم سار الملك الرحيم إلى خوزستان، وأطاعه من بها من الجند وكثرت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعية.

مسير الملك الرحيم إلى فارس

ثم سار الملك الرحيم من الأهواز إلى فارس سنة إحدى وأربعين، وخيم بظاهر شيراز، ووقعت فتنة بين أتراك شيراز وبغداد فرحل أتراك بغداد إلى العراق، وتبعهم الملك الرحيم لانحرافه عن أتراك شيراز. وكان أيضاً منحرفاً عن الديلم بفارس لميلهم إلى أخيه فلاستون بأصطخر، وانتهى إلى الأهواز فأقام بها واستخلف بارجان أخويه أبا سعد وأبا طالب فزحف إليهما أخوهما فلاستون. وخرج الملك الرحيم من الأهواز إلى رامهرمز للقائهم فلقبهم وانهزم إلى البصرة ثم إلى واسط. وسارت عساكر فارس إلى الأهواز فملكوها وخيموا بظاهرها. ثم شغبوا على أبي منصور. وجاء بعضهم إلى الملك الرحيم فبعث إلى بغداد واستقر الجند الذين بها، وسار إلى الأهواز فملكها وأقام ينتظر عسكر بغداد. ثم سار إلى عسكر مكرم فملكها سنة اثنتين وأربعين.

ثم تقدم سنة ثلاث وأربعين ومعه ديبس بن مزيد والبساسيري وغيرهما. وسار هزارشب بن تنكير ومنصور بن الحسين الأسدي فيمن معهما من الديلم والأكراد من أرجان إلى تستر فسبقهم الملك الرحيم إليها وغلبهم عليها. ثم زحف في عسكر هزارشب فوفاه أميره أبو منصور بمدينة شيراز فاضطربوا ورجعوا، ولحق منهم جماعة بالملك الرحيم فبعث عساكر إلى رامهرمز وبها أصحاب أبي منصور فحاصروا وملكها في ربيع سنة ثلاث وأربعين. ثم بعث أخاه أبا سعد في العساكر إلى بلاد فارس لأن أخاه أبا نصر خسرو كان بأصطخر، وضجر من تغلب هزارشب بن تنكير صاحب أخيه أبي منصور فكتب إلى أخيه الملك الرحيم بالطاعة فبعث إليه أخاه أبا سعد فأدخله أصطخر وملكه.

ثم اجتمع أبو منصور فلاستون وهزارشب ومنصور بن الحسين الأسدي، وساروا للقاء الملك الرحيم بالأهواز، واستمدوا السلطان طغرل بك وأبوا طاعته، فبعث إليهم عسكراً، وكان قد ملك أصبهان واستطال وافترق كثير من أصحاب الملك الرحيم عنه، مثل البساسيري وديبس بن مزيد والعرب والأكراد وبقي في الديلم الأهوازية وبعض الأتراك من بغداد ورأى أن يعود من عسكر مكرم إلى الأهواز ليتحصن بها ويتنظر عسكر بغداد. ثم

فتنة الأتراك

وفي سنة ست وأربعين شغب الأتراك على وزير الملك الرحيم في مطالبة أرزاقهم واستعدوه عليه فلم يعدهم فشكروا من الديوان وانصرفوا مغضبين، وباركوا من الغد لحصار دار الخليفة، وحضر الباسيري واستكشف حال الوزير فلم يقف على خبر، وكبست الدور في طلبه فكان ذلك وسيلة للأتراك في نهب دور الناس. واجتمع أهل الحال لمنعهم، ونهاهم الخليفة فلم يتنهبوا فهم بالرحلة عن بغداد. ثم ظهر الوزير وأنصفهم في أرزاقهم فتمادوا على بغيتهم وعسفهم، واشتد عيث الأكراد والأعراب في النواحي فخربت البلاد وتفرق أهلها، وأغار أصحاب ابن بدران بالبرد وكيسوا حلل كامل بن محمد بن المسيب ونهبوها، ونهبوا في جملتها ظهراً وأنعاماً للباسيري وأحلل أمر الملك والسلطنة بالكلفة.

استيلاء طغربك على أذربيجان وعلى أرمينية والموصل

سار طغربك سنة أربعين إلى أذربيجان فأطاعه صاحب قبرير أبو منصور وشهودان ابن محمد وخطب له ورهن ولده عنده. ثم أطاعه صاحب جنده أبو الأسوار ثم تباعى سائر النواحي على الطاعة وأخذ رهنهم، وسار إلى أرمينية فحاصر ملاذكرد وامتعت عليه فخر ب ما جاورها من البلاد. وبعث إليه نصير الدولة بن مروان بالهدايا وقد كان دخل في طاعته من قبل وسار السلطان طغربك لغزو بلاد الروم واكتسحها إلى أن بلغ أردن الروم، ورجع إلى أذربيجان ثم إلى الري، وخطب له قريش بن بدران صاحب الموصل في جميع أعماله وزحف إلى الأنبار ففتحها ونهب ما فيها الباسيري فانتفض لذلك وسار في العساكر إلى الأنبار فاستعاده من يده.

وحشة الباسيري

كان أبو الغنائم وأبو سعد أبنا المجلبان صاحبي قريش بن بدران ويعتصموا إلى القائم سراً من الباسيري بما فعل بالأنبار فانتفض الباسيري لذلك، واستوحش من القائم ومن رئيس الرؤساء، وأسقط مشاهرتهم ومشاهرة حواشيهم، وهم يهدم منازل بني المجلبان. ثم أقصر وسار إلى الأنبار وبها أبو القاسم بن المجلبان، وجاءه ديبس بن مزيد عمداً له فحاصر الأنبار وفتحها عنوة ونهبها وأسر من أهلها خمسمائة، ومائة من بني خفاجة وأسر أبا

وملك البصرة، وجاءته رسل الديلم بخوزستان بطاعتهم. ومضى أخوه أبو علي إلى شط عمان وتحصن به فصار إليه الملك الرحيم، وملك عليه شط عمان ولحق بعبادان، وسار منها إلى أرجان. ثم لحق بالسلطان طغربك بأصبهان فأكرمه وأصهر إليه، وأقطع له وأنزله بقلعة من أعمال جرياذقان. وولى الملك الرحيم وزيره الباسيري على البصرة، وسار إلى الأهواز وأرسل منصور بن الحسين وهزارشب في تسليم أرجان وتستر فتسلمها واصطلحوا. وكان المقدم على أرجان فولاد بن خسرو من الديلم فرجع إلى طاعة الملك الرحيم سنة خمس وأربعين.

فتنة ابن أبي الشوك ثم طاعته

كان سعدي بن أبي الشوك قد أعطى طاعته للسلطان طغربك بنواحي الري، وسار في خدمته، وبعث سنة أربع وأربعين في العساكر إلى نواحي العراق فبلغ النعمانية وكثر عيشه، وراسله ملد من بني عقيل قرابة قريش بن بدران في الاستظهار له على قريش ومهلل أخيه أبي الشوك فوعدهم، فصار إليهم مهلل وأوقع بهم على عكبرا فساروا إلى سعدي وشكروا إليه وهو على سامرا فسار وأوقع بعمه مهلل وأسرته وعاد إلى حلوان وهم الملك الرحيم بتجهيز العساكر إليه محلوان واستقدم ديبس بن مزيد لذلك.

ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين ببغداد من أهل الكرخ وأهل السنة، ودخلها طوائف من الأتراك، وعم الشر واطرحت مراقبة السلطان، وركب القواد لحسم العلة فقتلوا علواً من أهل الكرخ فنادت نسائه بالويل فقاتلهم العامة، وأضرم النار في الكرخ بعض الأتراك فاحترق جميعه، ثم بعث القائم وسكن الأمر، وكان مهلل لما أسر سار ابنه بدر إلى طغربك وابن سعدي كان عنده رهينة، وبعث إلى سعدي بإطلاق مهلل عند ذلك، فامتنع سعدي من ذلك وانتفض على طغربك، وسار من همدان إلى حلوان وقاتلها فامتنعت عليه، فكتب الملك الرحيم بالطاعة ولحقه عساكر طغربك فهزموه، ولحق ببعض القلاع هنالك وسار بدر في اتباعه إلى شهرزور، ثم جاءه الخبر بأن جمعاً من الأكراد والأتراك قد أفسدوا السابلة وأكثروا العيث، فخرج إليهم الباسيري واتبعهم إلى البواريج وأوقع بالطوائف منهم واستباحهم وعبروا الزاب فلم يمكنه العود إليهم ونجوا.

في رمضان دور البساسيري بإذن من دار الخلافة فنهروها وأحرقوها، ووكّلوا مجرمه وحاشيته وأعلن رئيس الرؤساء بدم البساسيري وأنه يكاتب المستنصر صاحب مصر فبعث القائم إلى الملك الرحيم فأمره بإبعاده فأبعده.

الغنائم وجاء به إلى بغداد فأدخله على جبل، وشفع ديبس بن مزيد في قتله، وجاء إلى مقابل التاج من دار الخليفة فقبل الأرض وعاد إلى منزله.

وصول الغز إلى الدسكرة ونواحي بغداد

وفي شوال من سنة ست وأربعين وصل صاحب حلوان من الغز وهو إبراهيم بن إسحاق إلى الدسكرة فافتتحها ونهبها وصادر النساء. ثم سار إلى رسغباد وقلعة البردان وهي لسعدي بن أبي الشوك، وبها أمواله فامتعت عليه فحضر ما حولها من القرى ونهبها، وقوي طمع الغز في البلاد وضعف أمر الديلم والأتراك. ثم بعث طغرل بك أبا علي بن أبي كالجار الذي كان بالبصرة في جيش من الغز إلى خوزستان فاستولى على الأهواز وملكها ونهب الغز الذين معه أموال الناس ولقوا منهم عتاء.

استيلاء الملك الرحيم على شيراز

وفي سنة سبع وأربعين سار فولاذ -الذي كان بقلعة أصطخر من الديلم، وقد ذكرناه- إلى شيراز فملكها من يد أبي منصور فولاستون بن أبي كالجار، وكان خطب بها للسلطان طغرل بك فخطب فولاذ بها للملك الرحيم ولأخيه أبي سعد يخادعهما بذلك، وكان أبو سعد بأرجان فاجتمع هو وأخوه أبو منصور على حصار شيراز في طاعة أخيهما الملك واشتد الحصار على فولاذ وعدمت الأقوات فهرب عنها إلى قلعة أصطخر وملك الأخوان شيراز وخطبا لأخيهما الملك الرحيم.

وثوب الأتراك ببغداد بالبساسيري

قد ذكرنا تأكد الوحشة بين البساسيري ورئيس الرؤساء. ثم تأكدت سنة سبع وأربعين وعظمت الفتنة بالجانب الشرقي بين العامة وبين أهل السنة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضروا الديوان حتى أذن لهم في ذلك وتعرضوا لبعض سفن البساسيري منحدره إليه بواسطة، وكشفوا فيها عن جرار خمر، فجاؤوا إلى أصحاب الديوان الذين أمروا بمساعدتهم واستدعواهم لكسرها فكسروها، واستوحش لذلك البساسيري ونسبه إلى رئيس الرؤساء. واستفتى الفقهاء في أن ذلك تعدّ على سفيته فأقتاه الحنفية بذلك. ووضع رئيس الرؤساء الأعيان على البساسيري بإذن من دار الخلافة، وأظهر معاييه. وبالفعل في ذلك، ثم قصدوا

استيلاء السلطان طغرل بك على بغداد

والخلة والخطبة له

قد ذكرنا من قبل رجوع السلطان طغرل بك من غزو الروم إلى الري، ثم رجع إلى همدان، ثم سار إلى حلوان عازماً على الحج والاجتياز بالشام لإزالته من يد العلوية. وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وعظم الإرجاف ببغداد ونواحيها، وخيم الأتراك بظاهر البلد. وجاء الملك الرحيم من واسط بعد أن طرد البساسيري عنه كما أمره القائم فسار إلى بلد ديبس بن مزيد لصهر بينهما. وبعث طغرل بك إلى لقائهما بالطاعة وإلى الأتراك بالمقاربة والوعد فلم يقبلوا، وطلبوا من القائم إعادة البساسيري لأنه كبيرهم. ولما وصل الملك الرحيم سأل من الخليفة إصلاح أمره مع السلطان طغرل بك فأشار القائم بأن يقوض الأجناد خيامهم ويقيموا بالحريم الخلافي، ويبعثوا جميعاً إلى طغرل بك بالطاعة، فقبلوا إشارته وبعثوا إلى طغرل بك بذلك فأجاب بالقبول والإحسان.

وأمر القائم بالخطبة لطغرل بك على منابر بغداد فخطب آخر رمضان من سنة سبع وأربعين، واستأذن في لقاء الخليفة وخرج إليه رؤساء الناس في موكب من القضاة والفقهاء والأشراف وأعيان الديلم. وبعث طغرل بك للقائم وزيره أبا نصر الكندري وأبلغه رسالة القائم واستخلفه له وللملك الرحيم وأمراء الأجناد. ودخل طغرل بك بغداد ونزل بباب الشماسية خمس بقين من رمضان، وجاء هنالك قریش بن بدران صاحب الموصل وكان من قبل في طاعته.

القبض على الملك الرحيم وانقراض دولة

بني بويه

ولما نزل طغرل بك بغداد وافترق أهل عسكره في البلد يقضون بعض حاجاتهم، فوقعت بينهم وبين بعض العامة منازعة فصاحوا بهم ورجعهم، وظن الناس أن الملك الرحيم قد اعتزم على قتال طغرل بك فتواتبوا بالغز من كل جهة إلا أهل الكرخ فإنهم سألوا من وقع إليهم من الغز. وأرسل عميد الملك وزير

نقيب النقباء أبو علي بن أبي تمام، ونقيب العلويين عدنان بن الرضي والقاضي أبو الحسن الماوردي وغيرهم.

انتقاض أبي الغنائم بواسط

كان رئيس الرؤساء سعى لأبي الغنائم بن الجلبان في ولاية واسط وأعمالها، فوليها وصادر أعيانها، وجند جماعة وتقوى بأهل البطيحة، وخندق على واسط، وخطب للمستنصر العلوي بمصر فسار أبو نصر عميد العراق لحربه فهزمه وأسر من أصحابه، ووصل إلى السور فحاصره حتى تسلم البلد. ومر أبو الغنائم ومعه الوزير بن فسانجس ورجع عميد العراق إلى بغداد بعد أن ولي واسط منصور بن الحسين فعاد ابن فسانجس إلى واسط وأعاد خطبة العلوي وقتل من وجده من الغز، ومضى منصور بن الحسين إلى المدار وبعث يطلب المدد فكتب إليه عميد العراق ورئيس الرؤساء بمحاصر واسط فحاصرها، وقتله ابن فسانجس فهزمه وضيق حصاره، واستأمن إليه جماعة من أهل واسط فملكها وهرب فسانجس واتبعوه فأدركوه وحمل إلى بغداد في صفر سنة ست وأربعين فثُهر وقتل.

الوقعة بين البساسيري وقطلمش

وفي سلخ شوال من سنة ثمان وأربعين سار قطلمش وهو ابن عم السلطان طغرل بك وجد بني قليج أرسلان ملوك بلاد الروم، فسار ومعه قريش بن بدران صاحب الموصل لقتال البساسيري وديس، وسار بهم إلى الموصل وخطبوا بها للمستنصر العلوي صاحب مصر وبعث إليهم بالخلع. وكان معهم جابر بن ناشب وأبو الحسن وعبد الرحيم وأبو الفتح بن ورائر ونصر بن عمر ومحمد بن حماد.

مسير طغرل بك إلى الموصل

لما كان السلطان طغرل بك قد ثقلت وطأته على العامة ببغداد، وفشا الضرر والأذى فيهم من معسكره فكاتبه القائم يعظه ويذكره، ويصف له ما الناس فيه فأجابته السلطان بالاعتذار بكثرة العساكر. ثم رأى رؤيا في ليلته كان النبي ﷺ يوجهه على ذلك، فبعث وزيره عميد الملك إلى القائم بطاعة أمره فيما أمر، وأخرج الجند من وراء العامة ورفع المصادرات. ثم بلغه خبر وقعة قطلمش مع البساسيري وانحراف قريش صاحب الموصل إلى

طغرل بك عن عدنان بن الرضي نقيب العلويين، وكان مسكنه بالكرخ فشكره عن السلطان طغرل بك. ودخل أعيان الديلم وأصحاب الملك الرحيم إلى دار الخلافة نقياً للتهمة عنهم. وركب أصحاب طغرل بك فقاتلوا العامة وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً ونهبوا سائر الدروب ودور رئيس الرؤساء وأصحابه والرفافة، ودور الخلفاء، وكان بها أموال الناس نقلت إليها للحرمة فنهب الجميع، واشتد البلاء وعظم الخوف وأرسل طغرل بك إلى القائم بالعتاب ونسبه ما وقع إلى الملك الرحيم والديلم، وأنهم المحرفوا، وكانوا برآء من ذلك.

وتقدم إليهم الخليفة بالحضور عند طغرل بك مع رسوله، فلما وصلوا إلى الخيام نهبها الغز ونهبوا رسل القائم معهم، ثم قبض طغرل بك على الملك الرحيم ومن معه، وبعث بالملك الرحيم إلى قلعة السيروان فحبس بها وكان ذلك لست سنين من ملكه. ونهب في تلك الجمعية قريش بن بدران صاحب الموصل ومن معه من العرب، ولجا سليباً إلى خيمة بدر بن المهلهل، واتصل بطغرل بك خبره فأرسل إليه وخلع عليه وأعادته إلى خيمه، وبعث القائم إلى طغرل بك بإنكار ما وقع في إختاف ذمته في الملك الرحيم وأصحابه، وأنه يتحول عن بغداد فأطلق له بعضهم بلكسكساربه وأنزع الإقطاعات من يد أصحابه الملك الرحيم فلحقوا بالبساسيري وكثر جمعه، وبعث طغرل بك إلى ديس بالطاعة وإنفاذ البساسيري فخطب له في بلاده، وطرده البساسيري فسار إلى رجة ملك، وكاتب المستنصر العلوي صاحب مصر.

وأمر طغرل بك بأخذ أموال الأتراك الجند وأهملهم وانتشر الغز السلجوقية في سواد بغداد فنهبوا الجانب الغربي من تكريت إلى النيل، والجانب الشرقي إلى النهروانات وخرب السواد والنجلى أهله وضمن السلطان طغرل بك البصرة والأهواز من هزارشب بن شكر بن عياض بثلاثمائة وستين ألف دينار، وأقطعه أرجان، وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز دون ما سواها.

وأقطع أبا علي بن كاليبجار ويسين وأعمالها وأمر أهل الكرخ بزيادة الصلاة خير من النوم في نداء الصبح، وأمر بعمارة دار المملكة وانتقل إليها في شوال. وتوفي ذخيرة الدين أبو العباس محمد بن القائم بالله في ذي القعدة من هذه السنة. ثم أتى السلطان طغرل بك من القائم بالله خديجة بنت أخيه داود واسمها أرسلان خاتون، وحضر للعقد عميد الملك الكندي وزير طغرل بك وأبو علي بن أبي كاليبجار وهزارشب بن شكر بن عياض الكردي وابن أبي الشوك وغيرهم من أمراء الأتراك من عسكر طغرل بك. وخطب رئيس الرؤساء وولي العقد وقبل الخليفة بنفسه. وحضر

والعلوية، فتجهز وسار عن بغداد ثلاثة عشر شهراً من نزوله عليها، ونهبت عساكره أوانا وعكبرا، وحاصر تكريت حتى رجع صاحبها نصر بن عيسى إلى الدعوة العباسية، وقتله السلطان، ورجع عنه إلى البواريج فتوفي نصر وخافت أمه غريبة بنت غريب بن حكن أن يملك البلد أخوه أبو العشام، فاستخلفت أبا الغنائم ابن المجلبان ولحقت بالموصل، ونزلت على ديبس بن مزيد.

وأرسل أبو الغنائم رئيس الرؤساء فأصلح حاله ورجع إلى بغداد وسلم له تكريت، وأقام السلطان بالبواريج إلى سنة تسع وأربعين، وجاء أخوه ياقوتي في العساكر فسار إلى الموصل، واقطع مدينة بلد هزارشب بن شكر الكردي، وأراد العسكر نهبها فمنعهم السلطان، ثم أذن لهم في اللحاق إلى الموصل، وتوجه إلى نصيبين، وبعث هزارشب إلى البرية في ألف فارس ليصيب من العرب، فسار حتى قارب رحاهم، وأكمن الكمائن، وقتلهم ساعة. ثم استطروهم واتبعوه فخرجت عليهم الكمائن فانهزموا وأثنى فيهم الغز بالقتل والأسر. وكان فيهم جماعة من بني غير أصحاب حران والركة، وحمل الأسرى إلى السلطان فقتلهم أجمعين. ثم بعث ديبس وقریش إلى هزارشب يستعطف لهم السلطان فقبل السلطان ذلك منهما، وورد أمر البساسيري إلى الخليفة فرحل ومعه الأتراك البغداديون، ومقبل ابن المقلد وجماعة من عقيل إلى الرجة، وأرسل السلطان إليهما أبا الفتح بن ورام يستخبرهما فجاء بطاعتهما، وبمسير هزارشب إليهما فأذن له السلطان في المسير، وجاء إليهما واستحللتهما وحثهما على الحضور فخافا.

وأرسل قریش أبا السيد هبة الله بن جعفر، وديبس ابنه منصوراً فآكرهما السلطان، وكتب لهما بأعمالهما. وكان لقریش نهر الملك وبادرويا والأنبار وهيت ودجيل ونهر بيطر وعكبرا وأوانا وتكريت والموصل ونصيبين. ثم سار السلطان إلى ديار بكر فحاصر جزيرة ابن عمر وبعث إليه يستعطفه ويذل له المال، وجاء إبراهيم نبال أخو السلطان وهو محاصر، ولقيه الأمراء والناس، وبعث هزارشب إلى ديبس وقریش يبحرهما فالتحق ديبس إلى بلده بالعراق. وأقام قریش عند البساسيري بالرجة ومعه ابنه مسلم، وشكا قظلمش ما أصاب أهل سنجار منه عند هزيمته أمام قریش وديبس، فبعث العساكر إليها، وحاصرها ففتحها عنوة واستباحها، وقتل أميرها علي ابن مرجي وشفع إبراهيم في البارقيين فتركها وسلمها الله وسلم معها الموصل وأعمالها ورجع إلى بغداد في سنة تسع وأربعين فخرج رئيس الرؤساء للقائه عن القوائم، وبلغه سلامه وهديته، وهي جام من ذهب فيه جواهر، وألبسه لباس الخليفة وعمامته فقبل السلطان ذلك بالشكر والخضوع والدعاء،

فتنة نبال مع أخيه طغرل بك ومقتله

كان إبراهيم نبال قد ملك بلاد الجبل وهمذان واستولى على الجهات من نواحها إلى حلوان عام سنة سبع وثلاثين. ثم استوحش من السلطان طغرل بك بما طلب منه أن يسلم إليه مدينة همذان والقلاع فأبى من ذلك نبال وجمع جمعاً وتلقاها فانهزم نبال وتحصن بقلعة سرماج فملكها عليه بعد الحصار، واستنزل منها، وذلك سنة إحدى وأربعين. وأحسن إليه طغرل بك وخيره بين المقام معه أو إقطاع الأعمال فاختر المقام. ثم لما ملك طغرل بك بغداد وخطب له بها سنة سبع وأربعين، خرج إليه البساسيري مع قریش بن بدران صاحب الموصل وديبس بن مزيد صاحب الخلعة، وسار طغرل بك إليهم من بغداد، ولحقه أخوه إبراهيم نبال فلما ملك الموصل سلمها إليه وجعلها لنظره مع سنجار والرجة وسائر تلك الأعمال التي لقریش، ورجع إلى بغداد سنة تسع وأربعين.

ثم بلغه سنة خمسين بعدها أنه سار إلى بلاد الجبل فاستراب به وبعث إليه يستقدمه بكتابه وكتاب القائم مع العهد الكندي فقدم معه. وفي خلال ذلك قصد البساسيري وقریش بن بدران الموصل فملكها وجفلوا عنها فاتبعهم إلى نصيبين، وخالفه أخوه إبراهيم نبال إلى همذان في رمضان سنة خمسين. يقال: إن العلوي صاحب مصر والبساسيري كاتبوه واستمالوه وأطعموه في السلطنة، فسار السلطان في اتباعه من نصيبين، ورد وزيره عميد الملك الكندي وزوجته خاتون إلى بغداد، ووصل إلى همذان ولحق به من كان ببغداد من الأتراك فحاصر همذان في قلعة من

والاستامن هو أيضاً معه، وخرجا إليه وسارا معه ونكر الباساسيري على قريش نقضه لما تعاهدا عليه، فقال: إنما تعاهدنا على الشركة فيما يستولي عليه، وهذا رئيس الرؤساء لك والخليفة لي.

ولما حضر رئيس الرؤساء عند الباساسيري وبخه وسأله العفو فأبى منه، وحمل قريش القائم إلى معسكره على هيبته، ووضع خاتون بنت أخي السلطان طغرلبيك في يد بعض الثقات من خواصه وأمره بمخدمتها، ويحث القائم ابن عمه مهارش فسار به إلى بلده حديثة خان وأنزله بها. وأقام الباساسيري ببغداد وصلّى عيد النحر بالألوية المصرية وأحسن إلى الناس وأجرى أرزاق الفقهاء ولم يتعصب لمذهب. وأنزل أم القائم بدارها وسهل جرايتها، وولى محمود بن الأفرم على الكوفة، وسعى الفرات وأخرج رئيس الرؤساء من محبسه آخر ذي الحجة فصلبه عند التجيبي لخمسين سنة من تروده في الوزارة. وكان ابن ماركلا قد قبل شهادته سنة أربع عشرة، وبعث الباساسيري إلى المستنصر العلوي بالفتح والخطبة له بالعراق. وكان هنالك أبو الفرج ابن أخي أبي القائم المغربي، فاستهان بفعله وخوفه عاقبته، وأبطأت أجوبته مدة، ثم جاءت بغير ما أمل، وسار الباساسيري من بغداد إلى واسط والبصرة فملكها، وأراد قصر الأهواز فبعث صاحبها هزارشب بن شكر فاصلع أمره على مال يحمل.

ورجع الباساسيري إلى واسط في شعبان سنة إحدى وخمسين، وفارقه صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي إلى هزارشب، وقد كان ولي ببغداد أباه على ما يذكر. ثم جاء الخبر إلى الباساسيري بظفر طغرلبيك بأخيه، وبعث إليه والي قريش في إعادة الخليفة إلى داره، ويقم طغرلبيك، وتكون الخطبة والسكة له فأبى الباساسيري من ذلك، فسار طغرلبيك إلى العراق، وانتهى إلى قصر شيرين، وأجفل الناس بين يديه. ورحل أهل الكرخ بأهلهم وأولادهم براً وبحراً، وكثر عيث بني شيبان في الناس، وارتحل الباساسيري بأهله وولده سادس ذي القعدة سنة إحدى وخمسين لحول كامل من دخوله وكثر المخرج في المدينة والنهب والإحراق. ورحل طغرلبيك إلى بغداد بعد أن أرسل من طريقه الأستاذ أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران بالشكر على فعله في القائم وفي خاتون بنت أخيه زوجة القائم، وأن أبا بكر بن فورك جاء بإحضارهما والقيام بمخدمتهما.

وقد كان قريش بعث إلى مهارش بأن يدخل معهم إلى البرية بالخليفة ليصد ذلك طغرلبيك عن العراق، ويتحكم عليه بما يريد فأبى مهارش لنقض الباساسيري عهده، واعتذر بأنه قد عاهد الخليفة القائم بما لا يمكن نقضه ورحل بالخليفة إلى العراق، وجعل

العسكر، واجتمع لأخيه خلق كثير من الترك وحلف لهم أن لا يصلح طغرلبيك ولا يدخل بهم العراق لكثرة نفقاته. وجاءه محمد وأحمد ابنا أخيه أرباش بأمداد من الغز فقوي بهم، ووهن طغرلبيك فأفرج عنه إلى الري، وكاتب إلى أرسلان ابن أخيه داود، وقد كان ملك خراسان بعد أبيه سنة إحدى وخمسين كما يذكر في أخبارهم، فزحف إليه في العساكر ومعه أخوه ياقوت وقاروت بك، ولقيهم إبراهيم فيمن معه فانهزم، وجيء به وبإبني أخيه محمد وأحمد أسرى إلى طغرلبيك فقتلهم جميعاً ورجع إلى بغداد لاسترجاع القائم.

دخول الباساسيري ببغداد وخلع القائم ثم

عوده

قد ذكرنا أن طغرلبيك سار إلى همدان لقتال أخيه وترك وزيره عميد الملك الكندي ببغداد مع الخليفة، وكان الباساسيري وقريش بن بدران فارقا الموصّل عند زحف السلطان طغرلبيك إليهما، فلما سار عن بغداد لقتال أخيه بهمدان خالفه الباساسيري وقريش إلى بغداد فكثر الإرجاف بذلك، وبعث عن ديبس بن مزيد ليكون حاجبه ببغداد ونزلوا بالجانب الشرقي، وطلب من القائم الخروج معه إلى أحيائه، واستدعى هزارشب من واسط للمدافعة، واستمهل في ذلك فقال العرب: لا نشير فاشيروا بنظركم، وجاء الباساسيري ثامن ذي القعدة سنة خمسين في أربعمئة غلام على غاية من سوء الحال ومعه أبو الحسين بن عبد الرحيم، وجاء حسين بن بدران في مائة فارس وخيموا مفترقين عن البلد، واجتمع العسكر والقوم إلى عميد العراق، وأقاموا إزاء الباساسيري وخطب الباساسيري ببغداد للمستنصر العلوي صاحب مصر بجماع المنصور، ثم بالرصافة، وأمر بالأذان يحيى على خير العمل، وخيم بالزاهر، وكان هوى الباساسيري لمذاهب الشيعة، وترك أهل السنة للانحراف عن الأتراك فرأى الكندي المطاول لا انتظار السلطان، ورأى رئيس الرؤساء المناجزة وكان غير بصير بالحرب، فخرج لقتالهم في غفلة من الكندي، فانهزم وقتل من أصحابه خلق ونهب باب الأزج وهو باب الخلافة.

وهرب أهل الحريم الخلافي فاستدعى القائم العميد الكندي للمدافعة عن دار الخلافة فلم يرعهم إلا اقتحام العدو عليهم من الباب النوبي، فركب الخليفة ولبس السواد، والنهب قد وصل باب الفردوس، والعميد الكندي قد استامن إلى قريش فرجع ونادى بقريش من السور فاستامن إليه على لسان رئيس الرؤساء،

طريقه على بدران بن مهلهل. وجاء أبو فورك إلى بدر فحملة معه إلى الخليفة وأبلغه رسالة طغربك وهدايه، وبعث طغربك للقائه وزيره الكندي والأمراء والحجاب بالخيام والسرادات والمقربات بالمرائب الذهبية فلقوه في بلد بدر. ثم خرج السلطان فلقه بالنهر وانعذر عن تأخره بوفاة أخيه داود بنجرسان وعصيان إبراهيم بهمدان، وأنه قتله على عصيان. وأقام حتى رتب أولاد داود في مملكته وقال: إنه يسير إلى الشام في اتباع البساسيري. وطلب صاحب مصر فقلده القائم سيفه إذ لم يجد سواه، وأبدى وجهه للأمراء فحيوه وانصرفوا. وتقدم طغربك إلى بغداد فجلس في الباب النوبي مكان الحجاب، وجاء القائم فاخذ طغربك بلجام بقلته إلى باب داره وذلك لخمس بقين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وسار السلطان إلى معسكره وأخذ في تدبير أموره.

وزارة القائم

ولما عاد القائم إلى بغداد ولّى أبا تراب الأشيري على الأنهار وحضور المراكب، ولقبه حاجب الحجاب، وكان خدومه بالحدينة ثم سعى الشيخ أبو منصور في وزارة أبي الفتح بن أحمد بن دارست على أن يحمل مالاً فاجب وأحضر من الأهواز في منتصف ربيع من سنة ثلاث وخمسين فاستوزره وكان من قبل تاجراً لأبي كاليجار، ثم ظهر عجزه في استيفاء الأموال فعزله، وعاد إلى الأهواز. وقدم أثر ذلك أبو نصر بن جهير وزير نصير الدولة بن مروان نازعاً منه إلى الخليفة القائم فقبله واستوزره، ولقبه فخر الدولة.

عقد طغربك على ابنة الخليفة

كان السلطان طغربك قد خطب من القائم ابنته على يد أبي سعد قاضي الري سنة ثلاث وخمسين، فاستنكف من ذلك. ثم بعث أبا محمد التميمي في الاستعفاء من ذلك وإلا فيشترط ثلاثمائة ألف دينار وواست وأعمالها. فلما ذكر التميمي ذلك للوزير عميد الملك بنى الأمر على الإجابة قال: ولا يحسن الاستعفاء، ولا يليق بالخليفة طلب المال، وأخبر السلطان بذلك فسر به وأشاعه في الناس ولقب وزيره عميد الملك وأتى أرسلان خاتون زوجة القائم ومعه مائة ألف دينار وما يناسبها من الجواهر والجوار، وبعث معهم قرامرد بن كاكويه وغيره من أمراء الري، فلما وصلوا إلى القائم استشاط وهم بالخروج من بغداد. وقال له العميد: ما جمع لك في الأول بين الامتناع والاقتراح وخرج مغضباً إلى النهر وانفق فاستوقفه قاضي القضاة والشيخ أبو منصور بن يوسف. وكتب من الديوان إلى مخابراتين من أصحاب السلطان بالشكوى من عميد الملك وجاءه الجواب بالرفق. ولم يزل عميد الملك يريض الخليفة وهو يتمنع إلى أن رحل في جمادى من سنة أربع وخمسين. ورجع إلى السلطان وعرفه بالحال، ونسب

مقتل البساسيري

ثم أرسل السلطان طغربك مخابراتين في ألفين إلى الكوفة، واستقر معه سرايا بن منيع في بني خفاجة، وسار السلطان طغربك في أثرهم فلم يشعر ديبس وقريش والبساسيري وقد كانوا نهبوا الكوفة إلا والعساكر قد طلعت عليهم من طريق الكوفة، فأجفلوا نحو البطيحة. وسار ديبس لسيرد العرب إلى القتال فلم يرجعوا، ومضى معهم، ووقف البساسيري وقريش فقتل من أصحابهما جماعة وأسر أبو الفتح بن ورام ومنصور بن بدران وحماة بن ديبس، وأصاب البساسيري سهم فسقط عن فرسه، وأخذ رأسه لتكنيز وأتى العميد الكندي وحمله إلى السلطان، وغنم العسكر جميع أموالهم وأهليهم، وحمل رأس البساسيري إلى دار الخلافة فعلق قبالة النوبي في منتصف ذي الحجة. ولحق ديبس بالبطيحة ومعه زعيم الملك أبو الحسن عبد الرحيم، وكان هذا البساسيري من ممالك بهاء الدولة بن عضد الدولة اسمه أرسلان وكنيته أبو الحارث ونسبه في الترك. وهذه النسبة المعروفة له نسبة إلى مدينة بفارس حرفها الأول متوسط بين الفاء والباء، والنسبة إليه فسوي، ومنها أبو علي الفارسي صاحب الإيضاح. وكان أولاً ينسب إليها فلذلك قيل فيه: هو بساسيري.

مسير السلطان إلى واسط وطاعة ديبس

ثم انحدر السلطان إلى واسط أول سنة اثنتين وخمسين وحضر عنده هزأرشب بن شكر من الأهواز، وأصلح حال ديبس بن مزيد وصدقة بن منصور بن الحسين، أحضرهما عند السلطان

لسليمان بن داود، وجعفر بك، وكان ربيب السلطان طغرل بك خلف أخاه جعفر بك داود على أمه، وعهد إليه بالملك، فلما خطب له اختلف عليه الأمر وسار باغي سيان وأردم إلى قزوين فخطب لآخيه ألب أرسلان وهو محمد بن داود، وهو يومئذ صاحب خراسان ووزيره نظام الملك سار إلى المذكور، وسال الناس إليه وشعر الكندري باختلال أمره فخطب بالري للسلطان ألب أرسلان وبعده لآخيه سليمان. وزحف ألب أرسلان في العساكر من خراسان إلى الري فلقه الناس جميعاً ودخلوا في طاعته، وجاء عميد الملك الكندري إلى وزيره نظام الملك فخدمه وهاداه فلم يغن عنه، وخشي السلطان غائلته فقبض عليه سنة ست وخمسين وحسبه بمرو الروذ.

ثم بعث بعد سنة من عجبته بقتله في ذي الحجة من سنة سبع وخمسين، وكان من أهل نيسابور كاتباً بليغاً. فلما ملك طغرل بك نيسابور، وطلب كاتباً فذله عليه الموفق والد أبي سهل فاستكتبه واستخلصه، وكان خصياً يقال: إن طغرل بك خصاه لأنه تزوج بأمراء خطبها له، وغطى عليه فظفر به فحاصره وأقره على خدمته. وقيل: أشاع عند أعدائه أنه تزوجها ولم يكن ذلك فخصى نفسه ليأمن غائلته، وكان شديد التعصب على الشافعية والأشعرية.

وامتأذن السلطان في لعن الرافضة على منابر خراسان، ثم أضاف إليهم الأشعرية فاستعظم ذلك أئمة السنة. وفارق خراسان أبو القاسم القشيري ثم أبو المعالي إلى مكة فأقام أربعة سنين يتردد بين الحرمين يدرس ويفتي حتى لقب إمام الحرمين. فلما جاءت دولة ألب أرسلان أحضرهم نظام الملك وزيه فأحسن إليهم وأعاد السلطان ألب أرسلان السيدة بنت الخليفة التي كانت زوجة طغرل بك إلى بغداد، وبعث في خدمتها الأمير أيتكين السليماني، وولاه شحنة ببغداد، وبعث معها أيضاً أبا سهل محمد بن هبة الله المعروف بابن الموفق لطلب الخطبة ببغداد فمات في طريقه، وكان من رؤساء الشافعية بنيسابور.

وبعث السلطان مكانه العميد أبا الفتح المظفر بن الحسين فمات أيضاً في طريقه، فبعث وزيره نظام الملك، وخرج عميد الملك ابن الوزير فخر الدولة بن جهر لتلقيهم، وجلس لهم القائم جلوساً فخماً في جمادى الأولى من سنة ست وخمسين، وساق الرسل بتقليد ألب أرسلان السلطنة، وسلمت إليهم الخلع بمشهد من الناس، ولقب بزياء الدولة، وأمر بالخطبة له على منابر بغداد، وأن يخاطب بالولد المؤيد حسب اقتراحه، فأرسل إلى الديوان لأخذ البيعة القريب طراد الزينبي، فأرسل إليه بنقجوان من

القضية إلى خارتكين فتنكر له السلطان وهرب، واتبه أولاد نبال فقتلوه بثر أبيهم، وجعل مكانه سارتكين وبعث للوزير بشأته.

وكتب السلطان إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن يوسف بالعتب، وطلب بنت أخي زوجة القائم فأجاب الخليفة حينئذ إلى الأصهار، وفوض إلى الوزير عميد الكندري عقد النكاح على ابنته للسلطان، وكتب بذلك إلى أبي الغنائم المجلبان فعقد عليها في شعبان من تلك السنة بظاهر تبريز. وحمل السلطان للخليفة أموالاً كثيرة وجواهر لولي العهد وللمخطوبة، وأقطع ما كان بالعراق لزوجته خاتون المتوفاة للسيدة بنت الخليفة. وتوجه السلطان في الحرم سنة خمس وخمسين من أرمينية إلى بغداد ومعه من الأمراء أبو علي بن أبي كاليجار وسرخاب بن بدر وهزار وأبو منصور بن قرامرد بن كاكويه، وخرج الوزير ابن جهير فتلقاه، وترك عسكره بالجانب الغربي، ونادى الناس بهم. وجاء الوزير ابن العميد لطلب المخطوبة فأفرد له القائم دوراً لسكنائه وسكنى حاشيته، وانتقلت المخطوبة إليها وجلست على سرير ملبس بالذهب، ودخل السلطان فقبل الأرض، وحمل لها مالاً كثيراً من الجواهر وأولم أياماً، وخلع على جميع أمرائه وأصحابه، وعقد ضمان ببغداد على أبي سعد الفارسي مائة وخمسين ألف دينار، وأعاد ما كان أطلقه رئيس العراقيين من الموارث والمكوس، وقبض على الأعرابي سعد ضامن البصرة، وعقد ضمان واسط على أبي جعفر بن فضلان بمائتي ألف.

وفاة السلطان طغرل بك وملك ابن أخيه

داود

ثم سار السلطان طغرل بك من بغداد في ربيع الآخر إلى بلد الجبل، فلما وصل الري أصابه المرض وتوفي ثامن رمضان من سنة خمس وخمسين، وبلغ خبر وفاته إلى بغداد فاضطربت، واستقدم القائم مسلم بن قريش صاحب الموصل ودييس بن مزيد وهزارشيب صاحب الأهواز وبني ورام وبدر بن مهلهل فقدموا، وأقام أبو سعد الفارسي ضامن ببغداد سوراً على قصر عيسى، وجمع الغلال، وخرج مسلم بن قريش من بغداد فنهب النواحي، وسار ديبس بن مزيد وبني خفاجة وبني ورام والأكراد لقتاله. ثم استتب ورجع إلى الطاعة وتوفي أبو الفتح بن ورام مقدم الأكراد والجائانية، وحمل العامة السلاح لقتال الأعراب فكانت سبباً لكثرة الذعار.

ولما مات طغرل بك بايع عميد الدولة الكندري بالسلطنة

واجتمع الناس لحضور درسه، وتخلف لأنه سمع أن في مكانها غضباً. وبقي الناس في انتظاره حتى يشوا منه، فقال الشيخ أبو منصور: لا يفصل هذا الجمع إلا عن تدريس، وكان أبو منصور الصباغ حاضراً فدرس وأقام مدرساً عشرين يوماً حتى سمع أبو إسحاق الشيرازي بالتدريس فاستقر بها.

وزراء الخليفة

كان فخر الدولة ابن جهر وزير القائم كما ذكرناه، ثم عزله سنة ستين وأربعمئة فلحق بنور الدولة دبس بن مزيد بالقلوجة، وبعث القائم عن أبي يعلى والد الوزير أبي شعاع، وكان يكتب لهزارش بن عوض صاحب الأهواز فاستقدمه ليؤليه الوزارة، فقدم ومات في طريقه، وشفع دبس بن مزيد في فخر الدولة بن جهر فاعيد إلى وزارته سنة إحدى وستين في صفر.

الخطبة بمكة

وفي سنة اثنتين وستين خطب محمد بن أبي هاشم بمكة للقائم وللسلطان ألب أرسلان، وأسقط خطبة العلوي صاحب مصر وترك حي على خير العمل من الأذان، وبعث ابنه وانفداً على السلطان بذلك فاعطاه ثلاثين ألف دينار، وخلعاً نفيسة ورتب كل سنة عشرة آلاف دينار.

طاعة دبس ومسلم بن قريش

كان مسلم بن قريش متقضاً على السلطان، وكان هزارش بن شكر بن عوض قد أغرى السلطان بدبس بن مزيد ليأخذ بلاده فانتقض. ثم هلك هزارش سنة اثنتين وستين بأصبهان منصرفاً من وفادته على السلطان بخراسان، فوفد دبس على السلطان ومعه مشرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل، وخرج نظام الملك لتلقيهما وأكرمهما السلطان ورجعا إلى الطاعة.

الخطبة العباسية بحلب واستيلاء السلطان

عليها

كان عمود بن صالح بن مراد قد استولى هو وقومه على مدينة حلب، وكانت للعلوي صاحب مصر. فلما رأى إقبال دولة

أذربيجان وبائع وانتقض على السلطان ألب أرسلان من السلجوقية صاحب هراة وصغانيان، فسار إليهم وظفر بهم كما نذكر في أخبارهم ودولتهم عن أفرادها بالذكر. انتهى.

فتنة قطلمش والجهاد بعدها

كان قطلمش هذا من كبار السلجوقية وأقربهم نسباً إلى السلطان طغرل بك، ومن أهل بيته، وكان قد استولى على قومة وأقصراي وملطية، وهو الذي بعثه السلطان طغرل بك أول ما ملك بغداد سنة تسع وأربعين لقتال البساسيري وقريش بن بدران صاحب الموصل، ولقيهم على سنجار الري. فجهز ألب أرسلان العساكر من نيسابور في الحرم من سنة سبع وخمسين، وساروا على المفارقة فسبقوا قطلمش إلى الري، وجاء كتاب السلطان إليه ولقيه فلم يثبت ومضى منهزماً واستباح السلطان عسكره قتلاً وأسراً وأجلت الواقعة عنه قليلاً، فحزن له السلطان ودفنه. ثم سار إلى بلاد الروم معتزماً على الجهاد، ومر بأذربيجان ولقيه طغرل بكين من أمراء التركمان في عشيرة، وكان ممارساً للجهاد فحثه على قصده، وسلك دليلاً بين يديه فوصل إلى نجران على نهر أرس وأمر بعمل السفن لعبوره، وبعث عساكر لقتال خوي وسلماس من حصون أذربيجان، وسار هو في العساكر فدخل بلاد الكرخ وفتح قلاعها واحدة بعد واحدة كما نذكر في أخبارهم. ودوخ بلادهم وأحرق مدنها وحصونها، وسار إلى مدينة آي من بلاد الديلم فافتتحها وأثنى فيها وبعث بالبشائر إلى بغداد وصالحه ملك الكرخ على الجزية ورجع إلى أصبهان. ثم سار منها إلى كرمان فاطاعه أخوه قاروت بن داود جعفر بك. ثم سار إلى مرو وأصهر إليه خاقان ملك ما وراء النهر بابته لابنه ملكشاه، وصاحب غزنة بابته لابنه الآخر. انتهى.

العهد بالسلطنة لملكشاه بن ألب أرسلان

وفي سنة ثمان وخمسين عهد ألب أرسلان بالسلطنة لابنه ملكشاه، واستخلف له الأمراء وخلع عليهم وأمر بالخطبة في سائر أعماله، وأقطع بلخ لأخيه سليمان وخوارزم لأخيه أزعزا. ومرو لابنه أرسلان شاه، وصغانيان وطخارستان لأخيه إلياس ومازندران للأمير أبنايخ وبيغوا وجعل ولاية نقشوان ونواحها لمسعود بن أزناس وكان وزيره نظام الملك قد ابتدا سنة سبع وخمسين بناء المدرسة النظامية ببغداد، وتمت عمارتها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين، وعين للتدريس بها الشيخ إسحاق الشيرازي،

ملوء بجواهر قيمته تسعون ألف. ثم استولى أرماتوس بعد ذلك على أعمال الأرمن وبلادهم.

شحنة بغداد

قد ذكرنا أن السلطان ألب أرسلان ولى لأول ملكه أيتكين السليماني شحنة بغداد سنة ست وخمسين فاقام فيها مدة، ثم سار إلى السلطان في بعض مهماته، واستخلف ابنه مكانه فأساء السيرة، وقتل بعض المماليك الداوية فأنفذ قميصه من الديوان إلى السلطان، وخطب بعزله. وكان نظام الملك يعني به فكتب فيه بالشفاعة، وورد سنة أربع وستين فقصد دار الخلافة وسأل العفو فلم يجب، وبعث إلى تكريت ليسوغها بإقطاع السلطان فبرز المرسوم من ديوان الخلافة بمنع ذلك. ولما رأى السلطان ونظام الملك إصرار القائم على عزله، بعث السلطان مكانه سعد الدولة كوهرايين اتباعاً لمرضاة الخليفة. ولما ورد بغداد خرج الناس للقاءه وجلس له القائم واستقر شحنة.

مقتل السلطان ألب أرسلان وملك ابنه ملكشاه

سار السلطان ألب أرسلان محمد إلى ما وراء النهر، وصاحبه شمس الملك تكين، وذلك سنة خمس وستين، وعبر على جسر عقده على جيحون في نيف وعشرين يوماً، وعسكره تزيد على مائتي ألف. وحيه له بمستحفظ القلاع، ويعرف بيوسف الخوارزمي فأمر بعقابه على ارتكابه فأنحش في سب السلطان فغضب وأمر بإطلاقه، ورماه بسهم فأخطأه، فسير إليه يوسف، وقام السلطان عن سريره فعر وثوق فضره بسكينة، وضرب سعد الدولة، ودخل السلطان خيمته جريماً. وقتل الأتراك يوسف هذا، ومات السلطان من جراحته عاشر ربيع سنة خمس وستين لتسع سنين ونصف من ملكه، ودفن بمرود عند أبيه. وكان كريماً عادلاً كثير الشكر لنعمة الله والصدقة، واتسع ملكه حتى قيل فيه سلطان العالم.

ولما مات وقد أوصى بالملك لابنه ملكشاه فجلس للملك، وأخذ له البيعة وزيره نظام الملك، وأرسل إلى بغداد فخطب له على منابرهما. وكان ألب أرسلان أوصى أن يعطي أخوه قاروت بك أعمال فارس وكرمان وشي عتبه من المال، وكان بكرمان. وأن يعطي ابنه إياس بن ألب أرسلان ما كان لأبيه داود، وهو

ألب أرسلان وقوتها خافه على بلده فحملهم على الدخول في دعوة القائم، وخطب له على منابر حلب سنة ثلاث وستين، وكتب بذلك إلى القائم، فبعث إليه نقيب النقباء طراد بن محمد الزيني بالخلع، ثم سار السلطان ألب أرسلان إلى حلب ومر بديار بكر فخرج إليه صاحبها ابن مروان وخدمه بمائة ألف دينار. ومر بآمد فامتعت عليه وبالرها كذلك. ثم نزل على حلب وبعث إليه صاحبها محمود مع نقيب النقباء طراد بالاستعفاء من الحضور فآلح في ذلك وحاصره فلما اشتد عليه الحصار خرج ليلاً إلى السلطان، ومعه أمه منبوعة بنت رتاب النميري ملقياً بنفسه فآكرمه السلطان وخلع عليه وأعادته إلى بلده فقام بطاعته.

واقعة السلطان مع ملك الروم وأسره

كان ملك الروم في القسطنطينية وهو أرماتوس قد خرج سنة اثنتين وستين إلى بلاد الشام في عساكر كثيفة، ونزل على منبج ونهبها وقتل أهلها، وزحف إليه محمود بن صالح بن مرداس وابن حسان الطائي في بني كلاب وطمح ومن إليهم من جموع العرب فهزمهم، وطال عليه المقام على منبج وعزت الأقوات فرجع إلى بلاده، واحتشد وسار في مائتي ألف من الزنج والروم والروس والكرخ، وخرج في احتفال إلى أعمال خلط ووصل إلى ملازجرد. وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة خوي من أذربيجان عند عوده من حلب فتشوق إلى الجهاد، ولم يتمكن من الاحتشاد، فبعث أئقاله وزوجته مع نظام الملك إلى همدان وسار فيمن حضره من العساكر، وكانوا خمسة عشر ألفاً ووطن نفسه على الاستماتة، فلقبت مقدمته عند خلط جموع الروسية في عشرة آلاف فانهزموا وحيه بملكهم إلى السلطان فحبسه، وبعث بالأسلاب إلى نظام الملك ليرسلها إلى بغداد.

ثم تقارب العسكران وجنح السلطان للمهادنة فأبى ملك الروم فاعتزم السلطان وزحف وأكثر من الدعاء والبكاء. وعفر وجهه بالتراب. ثم حمل عليهم فهزمهم وامتلات الأرض بأشلانهم وأسر الملك أرماتوس، جاء به بعض الغلمان أسيراً فضره السلطان على رأسه ثلاثاً ووجحه. ثم فاداه بألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وعلى أن يطلق كل أسير عنده. وأن تكون عساكر الروم مدداً للسلطان متى يطلبها. وتم الصلح على ذلك لمدة خمسين سنة. وأعطاه السلطان عشرة آلاف دينار وخلع عليه وأطلقه، ووثب ميخائيل على الروم فملك عليهم مكان أرماتوس فجمع ما عنده من الأموال فكان مائتي ألف دينار، وحيه بطبق

وقدم مؤيد الملك ابن نظام الملك سنة سبعين للإقامة ببغداد، ونزل بالدار التي بجوار مدرستهم.

عزل الوزير ابن جهمر ووزارة أبي شعجاع

كان أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري قد حج سنة تسع وستين، فورد بغداد منصرفاً من الحج، ووعظ الناس بالنظامية، وفي رباط شيخ الشيوخ، ونصر مذهب الأشعري فأنكر عليه الخنابلة، وكثر التعصب من الجانبين، وحدثت الفتنة والنهب عند المدرسة النظامية، فأرسل مؤيد الملك إلى العميد والشحنة فحضروا في الجند، وعظمت الفتنة ونسب ذلك إلى الوزير فخر الدولة بن جهمر، وعظم ذلك على عضد الدولة فأعاد كوهرايين إلى الشحنة ببغداد وأوصاه المقتدي بعزل فخر الدولة من الوزارة، وأمر كوهرايين بالقبض على أصحابه ونمي الخبر إلى بني جهمر فبادر عميد الدولة ابن الوزير إلى نظام الملك يستعطفه. ولما بلغ كوهرايين رسالة الملك إلى المقتدي أمر فخر الدولة بلزوم منزله. ثم جاء ابنه عميد الدولة، وقد استصلح نظام الملك في الشفاعة لهم، فأعيد عميد الملك إلى الوزارة دون أبيه فخر الدولة وذلك في صفر سنة اثنين وسبعين.

استيلاء تثن بن ألأ أرسلان على دمشق وابتداء دولته نفيه فيها

كان أئمز- بهمة وسين وزاي- بن أبق الخوارزمي من أمراء السلطان ملك شاه وقد سار سنة ثلاث وستين إلى فلسطين من الشام ففتح مدينة الرملة، ثم حاصر بيت المقدس وفتحها من يد العلويين أصحاب مصر، وملك ما يجاورها ما عدا عسقلان. ثم حاصر دمشق حتى جهدها الحصار فرجع وبقي يردد الغزوات إليها كل سنة. ثم حاصرها سنة سبع وستين وبها المعلى بن حمدة من قبل المنتصر العبيدي فاقام عليها شهراً. ثم أقلع ديار أهل دمشق بالمعلى لسوء سيرته فهرب إلى بانياس ثم إلى صور، ثم أخذ إلى مصر وجلس بها ومات محبوساً واجتمع المصامدة بعد هربه من دمشق وولوا عليهم انتصار بن عيسى المصمودي ولقبوه زين الدولة. ثم اختلقوا عليه ووقعت الفتنة، وغلت الأسعار ورجع أئمز إلى حصارها فنزل له عنها انتصار على الأمان، وعوضه عنها بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل، وخطب فيها أئمز للمقتدي العباسي في ذي القعدة سنة ثمان وستين.

خمسائة ألف دينار، وعهد بقتال من لم يقض بوصيته. وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر فعبر الجسر في ثلاثة أيام. وزاد الجند في أوزاقهم سبعمائة ألف دينار، ونزل نيسابور وأرسل إلى ملوك الأطراف بالطاعة والخطبة فأجابوا. وأنزل أخاه إياس بن ألأ أرسلان ببلخ وسار إلى الري. ثم فوض إلى نظام الملك وأقطع مدينة طوس التي هي منشؤه وغيرها، ولقبه ألقاباً منها: أنابك ومعناها الأمير الوالد، فحمل الدولة بصرامة وكفاية وحسن سيرة، وبعث كوهرايين الشحنة إلى بغداد سنة ست وستين لاقتضاء العهد، فجلس له القائم وعلى رأسه حافده وولي عهده المقتدي بأمر الله، وسلم إلى سعد الدولة كوهرايين عهد السلطان ملكشاه بعد أن قرأ الوزير أوله في المحفل وعقد له اللواء بيده ودفعه إليه.

وفاة القائم ونصب المقتدي للخلافة

ثم توفي القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر انتصد منتصف شعبان من سنة سبع وستين ونام فانفجر فصاده، وسقطت قوته. ولما أيقن بالموت أحضر حافده أبا القاسم عبد الله ابن ابنه ذخيرة الدين محمد، وأحضر الوزير ابن جهمر والنقيب والقضاة وغيرهم، وعهد له بالخلافة. ثم مات لخمس وأربعين سنة من خلافته وصلى عليه المقتدي، وبويع بعهد جده، وحضر بيعته مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جهمر وابنه عميد الدولة، وأبو إسحاق الشيرازي وأبو نصر بن الصباغ، ونقيب النقباء طراد، والنقيب الطاهر المعمر بن محمد، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني، وغيرهم من الأعيان والأمثال. ولما فرغوا من البيعة صلى بهم العصر ولم يكن للقائم عقب ذكر غيره لأن ابنه ذخيرة الدين أبا العباس محمداً توفي في حياته ولم يكن له غيره فاعتمد القائم لذلك.

ثم جاءت جاريته أرجوان بعد موته لسنة أشهر بولد ذكر فعظم سرور القائم به، ولما كان حادثة الساميري حمله أبو الغنائم بن المجلبان إلى حران وهو ابن أربع سنين، وأعادته عند عود القائم إلى داره. فلما بلغ الحلم عهد له القائم بالخلافة ولما تمت بيعته لقب المقتدي وأقر فخر الدولة بن جهمر على وزارته بوصية جده القائم بذلك. وبعث ابن عميد الدولة إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة في رمضان من سنة سبع وستين، وبعث معه من الهدايا ما يحل عن الوصف. وقدم سعد الدولة كوهرايين سنة ثمان وستين إلى بغداد شحنة، ومعه العميد أبو نصر ناظراً في أعمال بغداد،

عزل ابن جهير عن الوزارة وإمارته على ديار بكر

ثم إن عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير عزله الخليفة المقتدي عن الوزارة ووصل يوم عزل رسول من قبل السلطان ونظام الملك يطلب بني جهير فأذن لهم وساروا بأهلهم إلى السلطان فللقاهم كرامة وبراً، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر مكان بني مروان وبعث معه العساكر سنة وأعطاه الآلة وأذن له أن يخطب فيها لنفسه، ويكتب اسمه في السكة فسار لذلك سنة ست وسبعين ثم بعث إليه السلطان سنة سبع وسبعين بمدد العساكر مع الأمير أرتق بن أكسب جل أصحاب ماردين لهذا العهد، وكان ابن مروان قد استمد فخر الدولة بن جهير بنواحيها، وكان معه جماعة من التركمان فتقدموا إلى قتل مشرف الدولة، وانهزم أمامهم وغنم التركمان من كان معه من أعياء العرب، ودخل أمد فحصره بها فخر الدولة وأرتق، فراسل أرتق وبذل له مالاً على الخروج من ناحيته، فأذن له وخرج. ورجع ابن جهير إلى ميفارقين ومعه بهاء الدولة منصور بن مزيد صاحب الحلة والنيل والجامعين وابنه سيف الدولة صدقة فقارقه إلى العراق، وسار هو إلى خلاط.

وكان السلطان لما بلغه انهزام مشرف الدولة وحصاره بآمد بعث عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير في عسكره إلى الموصل ومعه قسيم الدولة أقنقر جد نور الدين العادل، وكتب أمراء التركمان بطاعته وساروا إلى الموصل فملكوها. وسار السلطان بنفسه إليها وقارن ذلك خلوص مشرف الدولة من حصار أمد فراسل مؤيد الدولة بن نظام الملك وهو على الرحبة، وأهدى له فسعى له عند السلطان وأحضره وأهدى للسلطان سوابق خيله وصالحه وأقره على بلاده، وعاد إلى خراسان. ولم يزل فخر الدولة بن جهير في طلب ديار بكر حتى ملكها. فأنفذ إليه زعيم الرؤساء القاسم سنة ثمان وسبعين، وحاصرها وضيق عليها حتى غدر بها بعض أهل العسكر من خارج وملكها. وعمد أهل البلد إلى بيوت النصاري بينهم فنهبها بما كانوا عمال بني مروان، وكان لهم جور على الناس.

وكان فخر الدولة مقيماً على ميفارقين محاصراً لها، وجاءه سعد الدولة كوهرايين في العسكر مدداً من عند السلطان فخرج في حصارها وسقط بعض الأيام جانب من سورها فدهش أهل البلد وتنادوا بشعار السلطان ملك شاه، واقتحم فخر الدولة البلد واستولى على ما كان لبني مروان، وبعث بأموالهم إلى السلطان مع ابنه زعيم الرؤساء فلحقه بأصبيهان سنة ثمان وسبعين. ثم بعث

وتغلب على أكثر الشام ومنع من الأذان بمجي على خير العمل. ثم سار سنة تسع وستين إلى مصر وحاصرها حتى أشرف على أخذها. ثم انهزم من غير قتال ورجع إلى دمشق وقد انتفض عليه أكثر بلاد الشام، فشكر لأهل دمشق صونهم لمخلفه وأمواله، ورفع عنهم خراج سنة. وبلغه أن أهل القدس وثبوا بأصحابه وغلظه وحصروه في عراب داود عليه السلام، فسار إليهم وقتلوه فملكهم عنوة وقتلهم في كل مكان إلا من كان عند الصخرة.

ثم إن السلطان ملك شاه أقطع أخاه تاج الدولة تشش سنة سبعين وأربعمائة بلاد الشام وما يفتح من نواحيها، فسار إلى حلب سنة إحدى وسبعين وحاصرها وضيق عليها، وكانت معه جموع كثيرة من التركمان. وكان صاحب مصر قد بعث عساكره مع قائده نصير الدولة لحصار دمشق فأحاطوا بها، وبعث أنسر إلى تشش وهو على حلب يستعده فسار إليه، وأجفلت العساكر المصرية عن دمشق، وجاء إليها تشش فخرج أنسر للقاءه بظاهر البلد فتجني عليه حيث لم يستعد للقاءه، وقبض عليه وقتله لوقته، وملك البلد وأحسن السيرة فيها وذلك سنة إحدى وسبعين فيما قال الممذاني. وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: إن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين. وقال ابن الأثير والشاميون في هذا الاسم: أفسلس والصحيح أنه أنسر وهو اسم تركي.

سفارة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن الخليفة

كان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث قد أسار السيرة وأساء إلى الرعية وعسفهم، واطرح جناب الخليفة المقتدي وحواشيه فاستدعى المقتدي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي وبعثه إلى السلطان ملك شاه والوزير نظام الملك بالشكوى من ابن العميد، فسار لذلك ومعه جماعة من أعيان الشافعية منهم أبو بكر الشاشي وغيره، وذلك سنة خمس وخمسين. وتنافس أهل البلاد في لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة في ملبوسه ومركوبه، وكان أهل البلاد إذا مر بهم يتسائلون إليه ويزدحمون على ركابه، وينشدون على مركبه كل أحد ما يناسب ذلك، وصدر الأمر بإهانة ابن العميد ورفع يده عما يتعلق بمجاشي المقتدي، وجرى بينه وبين إمام الحرمين مناظرة بحضرة نظام الملك ذكرها الناس في كتبهم. انتهى.

ملك حلب وتزاحفا فقتل سليمان بن قطلمش مسلم بن قريش سنة تسع وسبعين. وكسب إلى أهل حلب يستدعيهم إلى طاعته فاستمهلوه إلى أن يكاتبوا السلطان ملك شاه. فإن الكل كانوا في طاعته وكتبوا إلى تش أخى السلطان وهو بدمشق أن يملكوه فصار إليهم ومعه أرتق بن أكسب، كان قد لحق به عندما جاء السلطان إلى الموصل وفتحها خشيته مما فعله في خلاص مسلم بن قريش من حصار آمد فأقطعه تش بيت المقدس.

فلما جاء تش إلى حلب وحاصر القلعة، وبها سالم بن مالك بن بدران ابن عم مشرف الدولة مسلم بن قريش، وكان ابن الحثيثي وأهل حلب قد كاتبوا السلطان ملك شاه أن يسلموا إليه البلد، فصار من أصبهان في جمادى سنة تسع وستين، ومر بالموصل ثم بمرجان فسلمها وأقطعهها محمد بن مسلم بن قريش، ثم بالرها فملكها من يد الروم، ثم بقلعة جعفر فحاصرها وملكها من يد بعض بني قشير، ثم ببنج فملكها ثم عبر الفرات إلى حلب فأجفل أخوه تش إلى البرية ومعه أرتق. ثم عاد إلى دمشق وكان سالم بن مالك عتقاً بالقلعة فاستنزله منها وأقطعه قلعة جعفر فلم تزل بيده ويد بنيته حتى ملكها منهم نور الدين العادل، وبعث إلى السلطان بالطاعة على شيراز، وولى السلطان على حلب قسيم الدولة صاحب شيراز نصر بن علي بن منقذ الكنانى وسلم إليه اللاذقية وكفرطاب وقامية، فأقر على شيراز، وولى السلطان على حلب قسيم الدولة أقتسر جد نور الدين العادل، ورحل إلى العراق وطلب أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فحمله معه وأنزله بديار بكر فتوفي فيها بحال أملاق.

ودخل السلطان بغداد في ذي الحجة من سنة تسع وسبعين وأهدى إلى المقتدي وخلع عليه الخليفة، وقد جلس له في مجلس حفل ونظام الملك قائم يقدم أمراء السلطان واحداً بعد واحد آخر للسلام للخليفة، ويعرف بأسمائهم وأنسابهم ومراتبهم. ثم فوض الخليفة المقتدي إلى السلطان أمور الدولة، وقبل يده وانصرف. ودخل نظام الملك إلى مدرسته فجلس في خزانة الكتب وأسمع جزء حديث وأملى آخر. وأقام السلطان في بغداد شهراً ورحل في صفر من سنة ثمانين إلى أصبهان وجاء إلى بغداد مرة أخرى في رمضان من سنة أربع وثمانين ونزل بدار الملك وقدم عليه أخوه تاج الدولة تش وقسيم الدولة أقتسر من حلب، وغيرهما من أمراء النواحي. وعمل ليلة الميعاد من سنة خمس وثمانين، ولم ير أهل بغداد مثله وأخذ الأمراء في بناء الدور ببغداد لسكنائهم عند قدومهم فلم تعهلهم الأيام لذلك.

فخر الدولة أيضاً عسكرياً إلى جزيرة ابن عمر وحاصروها حتى جهدهم الحصار، فوثب طائفة من أهل البلد بعاملها، وفتحوا الباب، ودخل مقدم العسكر فملك البلد ودخل سنة ثمان وسبعين. وانقرضت دولة بني مروان من ديار بكر واستولى عليها فخر الدولة بن جهير، ثم أخذها السلطان من يده وسار إلى الموصل فتوفي بها، وكان مولده بها واستخدم لبرلة بن مقله وسفر عنه إلى ملك الروم. ثم سار إلى حلب ووزر لمعز الدولة أبي هال بن صالح. ثم مضى إلى ملطية ثم إلى مروان بديار بكر، فوزر له ولولده. ثم سار إلى بغداد ووزر للخليفة كما مر في آخر ما ذكرنا، وتوفي سنة ثلاث وثمانين. انتهى.

خبر الوزارة

لما عزل الخليفة المقتدي عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين رتب في الديوان أبا الفتح المظفر بن رئيس الرؤساء. ثم استوزر أبا شجاع محمد بن الحسين فلم يزل في الوزارة إلى سنة أربع وثمانين فتعرض لأبي سعد بن سمحاء اليهودي وكان وكيلاً للسلطان، ونظام الملك، وسار كوهرايين الشحنة إلى السلطان بأصبهان، فمضى اليهودي في ركابه، وسمع المقتدي بذلك فخرج توقيعه بإلزام أهل الذمة بالغيار فأسلم بعضهم وهرب بعضهم. وكان ممن أسلم أبو سعد العللاء بن الحسن بن وهب بن موصلايا الكاتب وقرايته، ولما وصل كوهرايين وأبو سعد إلى السلطان وعظمت سعائيهما في الوزير أبي شجاع فكتب السلطان ونظام الملك إلى المقتدي في عزله فعزله، وأمره بلزوم بيته، وولى مكانه أبا سعد بن موصلايا الكاتب، وبعث المقتدي إليهما في عميد الدولة بن جهير فبعثا به إليه واستوزره سنة أربع وثمانين، وركب إليه نظام الدولة فهناك بالوزارة في بيته، وتوفي الوزير أبو شجاع سنة ثمان وثمانين.

استيلاء السلطان على حلب

قد ذكرنا من قبل استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب، وخطة صاحبها محمود بن صالح بن مرداس على منابره باسمه سنة ثلاث وستين. ثم عاد بعد ذلك إلى طاعة العلوية بمصر. ثم انتقضت دولة بني مرداس بها، وعادت رياستها شورى في مشيختها، وطاعتهم لمسلم بن قريش صاحب الموصل، وكبيرهم ابن الحثيثي. واستقر ملك سليمان بن قطلمش ببلاد الروم، وملك أنطاكية سنة سبع وسبعين. وتنازع مع مشرف الدولة ابن قريش

فتنة بغداد

وامتنع لها السلطان وبعث إلى نظام الملك بالنكير مع خواصه وثقاته فحملته الدالة على تحقيق تعديد حقوقه على السلطان، وإطلاق القول في العتاب والتهديد بطوارق الزمن. وأرادوا طي ذلك عن السلطان فوشى به بعضهم. فلما كان رمضان من سنة خمس وثمانين، والسلطان على نهائند عائداً من أصبهان إلى بغداد، وقد انصرف الملك يومه ذلك من خيمة السلطان إلى خيمته، فاعترضه صبي قيل إنه من الباطنية في صورة مستغيث فطعنه بسكينة فمات، وهرب الصبي فأدرك وقتل، وجاء السلطان إلى خيمة نظام الملك يومه، وسكن أصحابه وعسكره، وذلك لثلاثين سنة من وزارته سوى ما رز لأبيه ألب أرسلان أيام إمارته بخراسان.

وفاة السلطان ملك شاه وملك ابنه محمود

لما قتل نظام الملك على نهائند كما ذكرناه سار السلطان لوجهه، ودخل بغداد آخر رمضان من سنته، ولقيه الوزير عميد الدولة بن جهير واعتزم السلطان أن يولي وزارته تاج الملك وهو الذي سعى بنظام الملك، وكانت قد ظهرت كفايته. فلما صلى السلطان العيد عاد إلى بيته وقد طرقة المرض، وتوفي منتصف شوال، فكنمت زوجته تركمان خاتون موته وأنزلت أموالها وأموال أهل الدولة بحريم دار الخلافة، وارتحلت إلى أصبهان. وسلوا السلطان معها في تابوته وقد بذلت الأموال للأمراء على طاعة ابنها عمود والبيعة له فيابوعه، وقدمت من طريق قوام الدولة كربوقا الذي ملك الموصل من بعد ذلك، فسار بخاتم السلطان لنائب القلعة وتسلمها. ولما بايعت لولدها محمود وعمره يومئذ أربع سنين بعثت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة له فأجابها على شرط أن يكون أثر من أمراء أبيه هو القائم بتدبير الملك، وأن يصدر عن رأي الوزير تاج الملك، ويكون له ترتيب العمال وجباية الأموال فأبت أولاً من قبول هذا الشرط، حتى جاءها الإمام أبو حامد الغزالي وأخبرها أن الشرع لا يجيز تصرفاته فأذعنت لذلك، فخطب لابنها آخر شوال من السنة، ولقب ناصر الدولة والدين، وكتب إلى الحرمين الشريفين فخطب له بهما.

ثورة بركيارق بملك شاه

كانت تركمان خاتون عند موت السلطان ملك شاه قد كتمت موته وبايعت لابنها محمود كما قلناه، وبعثت إلى أصبهان سراً في القبض على بركيارق ابن السلطان ملك شاه خوفاً من أن

كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران بما لم تنه إليه مدينة في العالم منذ مبده الخليقة فيما علمناه، واضطربت آخر الدولة العباسية بالفتن، وكثر فيها المفسدون والدعار والعيارون من الرها، وأعيان على الحكام أمرهم، وربما أركبوا العساكر لقتالهم ويشخون فيهم فلم يحسم ذلك من عللهم شيئاً وربما حدثت الفتن من أهل المذاهب ومن أهل السنة والشيعة من الخلاف في الإمامة ومذاهبها، وبين الخنابلة والشافعية وغيرهم من تصريح الخنابلة بالثبسية في الذات والصفات، ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد، وحاشاه منه، فيقع الجدال والنكير ثم يفضي إلى الفتنة بين العوام. وتكرر ذلك منذ حجر الخلفاء. ولم يقدر بنو بويه ولا السلجوقية على حسم ذلك منها لسكنى أولئك بفارس، وهؤلاء بأصبهان، ويعدهم عن بغداد والشوكة التي تكون بها حسم العلل لاتفاقهم. وإنما تكون ببغداد شحنة تحسم ما خف من العلل ما لم يتنه إلى عموم الفتنة، ولم يحصل من ملوكهم اهتمام لحسم ذلك لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي. وعامة بغداد أهون عليهم من أن يصرفوا همته عن العظام إليهم فاستمرت هذه العلة ببغداد، ولم يقلع عنها إلى أن اختلفت جذتها وتلاشى عمرانها، وبقي طراز في رداها لم تنهه الأيام.

مقتل نظام الملك وأخباره

كان من أبناء الدهاقين بطوس أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق، فشب وقرأ بها وسمع الحديث الكبير وتعلق بالأحكام السلطانية وظهرت فيها كفايته، وكان يعرف بحسن الطوسي. وكان أميره الذي يستخذه يصادره كل سنة فهرب منه إلى داود وحفري بك، وطلبه مخدمه الأمير فمنعه، وخدم أبا علي بن شاذان متولي الأعمال ببلخ لحفري بك أخى السلطان طغرل بك، وهو والد السلطان ألب أرسلان. ولما مات أبو علي وقد عرف نظام الملك هذا بالكفاية والأمانة أوصى به ألب أرسلان فأقام بأمور دولته ودولة ابنه ملك شاه من بعده، وبلغ المبالغ كما مر واستولى على الدولة.

وولى أولاده الأعمال وكان فيمن ولاء منهم ابن ابنه عثمان جمال. وولي على مرو، وبعث السلطان إليها شحنة من أعظم أمرائه، وقع بينه وبين عثمان نزاع فحملته الحداثة والأدلال بجأهه على أن قبض على الأمير وعاقبه، فانطلق إلى السلطان مستغيثاً،

وفاة المقتدي ونصب المستظهر للخلافة

ثم توفي المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله في منتصف محرم سنة سبع وثمانين، وكان موته فجأة، أحضر عنده تقليد السلطان بركيارق ليعلم عليه فقره ووضع. ثم قدم إليه طعام فأكل منه ثم غشي عليه فمات، وحضر الوزير فجهزوا جنازته وصلى عليه ابنه أبو العباس أحمد ودفن وذلك لتسع عشرة سنة وثمانية أشهر من خلافته. وكانت له قوة وهمة لولا أنه كان مغلباً، وعظمت عمارة بغداد في أيامه، وأظن ذلك لاستفحال دولة بني طغرل بك. ولما توفي المقتدي وحضر الوزير أحضر ابنه أبا العباس أحمد الخاشية فبايعوه ولقبوه المستظهر، وركب الوزير إلى بركيارق وأخذ يبعثه للمستظهر. ثم حضر بركيارق لثلاثة من وفاته ومعه وزيره عز الملك بن نظام الملك وأخوه بهاء الملك، وأمر السلطان بآرباب المناصب فجمعوا وحضر النقيبان طراد العباسي والمعر العلوي، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدماغاني والغزالي والشاشي وغيرهم فحبسوا في العراق وبايعوا.

أخبار تش وانتفاضه وحروبه ومقتله

قد ذكرنا فيما تقدم أن تش بن السلطان ألب أرسلان استقل بملك دمشق وأعمالها، وأنه قد على السلطان ملك شاه ببغداد قبل موته وانصرف، وبلغه خبر وفاته بهيت فملكها وسار إلى دمشق فجمع العساكر، وزحف إلى حلب فأطاعه صاحبها قسيم الدولة أقيسقر. وسار معه، وكتب إلى ناعيسان صاحب أنطاكية وإلى برار صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تش حتى يصلح حال أولاد ملك شاه فقبلوا منه، وخطبوا له في بلادهم وساروا معه فحضر الرحبة وملكها في المحرم سنة ست وثمانين، وخطب فيها نفسه. ثم فتح نصيبين عنوة وعاث فيها وسلمها لمحمد بن مشرف الدولة وسار يريد الموصل ولقيه الكفافي فخر الدولة بن جيهري وكان في جزيرة ابن عمر فاستوزره وبعث إلى إبراهيم بن مشرف الدولة مسلم بن قريش وهو يومئذ ملك الموصل يأمره بالخطبة له، وتسهيل طريقه إلى بغداد فأبى من ذلك وزحف إليه تش وهو في عشرة آلاف وأقيسقر على ميمته وتوزران على ميسرته، وإبراهيم في ستين ألفاً والتفوا فانهزم إبراهيم وأخذ أسيراً وقتل جماعة من أمراء العرب صبراً، وملك تاج الدولة تش الموصل، وولى عليها علي بن مشرف الدولة. وفرض إليه أمر صفية عمة تش وبعث إلى بغداد يطلب مساعدة

ينازع ابنها محموداً فحبس. فلما ظهر موت ملك شاه وثب عماليك بركيارق نظام الملك على سلاح كان له بأصبهان وثاروا في البلد وأخرجوا بركيارق من محبسه وبايعوه وخطبوا له بأصبهان. وكانت أمه زبيدة بنت عم ملك شاه وهو ياقولي خائفة على ولدها من خاتون أم محمود، وكان تاج الملك قد تقدم إلى أصبهان وطلبه العسكر بالأموال فطلع إلى بعض القلاع لينزل منها المال وامتنع فيها خوفاً من عماليك نظام الملك. ولما وصلت تركمان خاتون إلى أصبهان جاءها فقبلت عذره. وكان بركيارق لما أقامت خاتون ابنها محموداً بأصبهان خرج فيمن معه من النظامية إلى الري واجتمع معه بعض أمراء أبيه وبعثت خاتون العساكر إلى قتاله، وفيهم أمراء ملك شاه. فلما تراءى الجمعان هرب كثير من الأمراء إلى بركيارق واشتد القتال فانهزم عسكر محمود وخاتون، وعادوا إلى أصبهان وسار بركيارق في أثرهم فحاصروهم بها.

مقتل تاج الملك

كان الوزير تاج الملك قد حضر مع عسكر خاتون وشهد وقعة بركيارق. فلما انهزموا سار إلى قلعة يزدجرد فحبس في طريقه، وحمل إلى بركيارق وهو محاصر أصبهان، وكان يعرف كفايته فأجمع أن يستوزره، وأصلح هو النظامية وبذل لهم مائتي ألف دينار واسترضاهم بها. ونمي ذلك إلى عثمان نائب نظام الملك فوضع الغلمان الأصاغر عليه الطالين ثار سيدهم وأغرامهم فقتلوه وقطعوه قطعاً وذلك في المحرم سنة ست وثمانين. ثم خرج إلى بركيارق من أصبهان وهو محاصر لها عز الملك أبو عبد الله بن الحسين بن نظام الملك وكان على خوارزم، ووفد على السلطان ملك شاه قبل مقتل أبيه. ثم كان ملكهما فأقام هو بأصبهان وخرج إلى بركيارق وهو يحاصرها فاستوزره وفوض إليه أمر دولته. انتهى.

الخطبة لبركيارق ببغداد

ثم قدم بركيارق ببغداد سنة ست وثمانين، وطلب من المقتدي الخطبة فخطب له على منابرها ولقب ركن الدين وحمل الوزير عميد الدولة بن جيهري إليه الخلع فلبسها وتوفي المقتدي وهو مقيم ببغداد.

ثلاثين ألفاً والتقوا قريباً من الري فانهزم تشش وقتله بعض أصحاب أفسنقر، وكان قد حبس وزيره فخر الملك بن نظام الملك فأطلق ذلك اليوم، واستفحل أمر بركيارق وخطب له ببغداد.

ظهور السلطان ملكشاه والخطبة له ببغداد

كان السلطان بركيارق قد ولى على خراسان وأعمالها أخاه لأبيه سنجر فاستقل بأعمال خراسان كما يذكر في أخبار دولتهم عند انفراقها بالذكر. وإنما نذكر هنا من أخبارهم ما يتعلق بالخلافة والخطبة لهم ببغداد، لأن مساق الكلام هنا إنما هو عن أخبار دولة بني العباس، ومن وزر لهم أو تغلب خاصة. وكان لسنجر بن ملكشاه أخ شقيق اسمه محمد. ولما هلك السلطان ملكشاه سار مع أخيه محمود وتركمان خاتون إلى أصبهان. فلما حاصروهم بركيارق لحق به أخوه محمد هذا وسار معه إلى بغداد سنة ست وثمانين، وأقطعهم دجلة وأعمالها وبعث معه قتلغ تكين أتاك. فلما استولى على أمره قتله أئمة من حجره.

ثم لحق به مؤيد الملك بن عبيد الله بن نظام الملك، كان مع الأمير أنز وداخله في الخلاف على السلطان بركيارق. فلما قتل أنز كما نذكر في أخبارهم لحق مؤيد الملك بمحمد بن السلطان ملك شاه، وأشار عليه ففعل وخطب لنفسه. واستوزره مؤيد الملك، وقارن ذلك أن السلطان بركيارق قتل خاله مجد الملك البارسلاتي فاستوحش منه أمراؤه، ولحقوا بأخيه محمد وسار بركيارق إلى الري واجتمع له بها عساكر وجاء عز الملك منصور بن نظام الملك في عساكر. وبينما هو في الري إذ بلغه سير أخيه محمد إليه فأجفل راجعاً إلى أصبهان فمنعه أهلها الدخول، فسار إلى خوزستان. وجاء السلطان محمد إلى الري أول ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين، ووجد أم بركيارق بها وهي زبيدة خاتون فحبسها مؤيد الملك وقتلها، واستفحل ملك محمد، وجاء سعد الدولة كوهرايين شحنة بغداد وكان مستوحشاً من بركيارق، وجاء معه كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، وسرخاب ابن بدر صاحب كركور فلقوه جميعاً بقم وسار كربوقا وجكرمش معه إلى أصبهان، ورد كوهرايين إلى بغداد في طلب الخطبة من الخليفة، وأن يكون شحنة بها فأجابه المستظهر إلى ذلك وخطب له منتصف ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين ولقب غياث الدنيا والدين.

إعادة الخطبة لبركيارق

لما سار بركيارق مجفلاً من الري إلى خوزستان أمام أخيه

كوهرايين الشحنة فجاء العذر بانتظار الرسل من العسكر، فسار إلى ديار بكر وملكها، ثم إلى أذربيجان، وبلغ خبره إلى بركيارق، وقد استولى على همدان والري فسار لمداغته، فلما التقى العسكران جنح أفسنقر إلى بركيارق وفأوض توران في ذلك، وأنهما إنما اتبعا تشش حتى يظهر أمر أولاد ملكشاه، فوافقه على ذلك، وسارا معاً إلى بركيارق فانهزم تشش وعاد إلى دمشق، واستفحل بركيارق وجاءه كوهرايين يعتذر عن مساعدته لتشش في الخطبة فلم يقبله، وعزله وولى الأمير نكيرد شحنة بغداد مكانه. ثم خطب لبركيارق ببغداد كما قدمناه.

ومات المقتدي ونصب المستظهر، ولما عاد تشش من أذربيجان إلى الشام جمع العساكر وسار إلى حلب لقتال أفسنقر، وبعث بركيارق كربوقا الذي صار أمير الموصل مدداً لأفسنقر، ولقهم تشش قريباً من حلب فهزمهم وأسر أفسنقر فقتله صبراً. ولحق توران وكربوقا بحلب، وحاصروها تشش فملكها وأخذها أسيرين، وبعث إلى حران والرها في الطاعة، وكانتا لتسوران فامتنعوا، فبعث برأسه إليهم وأطاعوه، وحبس كربوقا في حمص إلى أن أطاعه رضوان بعد قتل أبيه تشش.

ثم سار تشش إلى الجزيرة فملكها، ثم ديار بكر ثم خلاط وأرمينية، ثم أذربيجان. ثم سار إلى همدان فملكها، وكان بها فخر الدولة نظام الملك، سار من حران لخدمة بركيارق فلقه الأمير تاج من عسكر محمود بن ملكشاه بأصبهان، فذهب ماله ونجا بنفسه إلى همدان، وصادف بها تشش وشفع فيه باغسيان وأشار بوزارته فاستوزره، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة من المستظهر، وبعث يوسف بن أبق التركماني شحته إلى بغداد في جمع من التركمان فمنع من دخولها.

وكان بركيارق قد سار إلى نصيبين وعبر دجلة فوق الموصل إلى أربل، ثم إلى بلد سرخاب بن بدر حتى إذا كان بينه وبين عمه تسعة فراسخ، وهو في ألف رجل وعمه في خسين ألفاً، فبته بعض الأمراء من عسكر عمه فانهزم إلى أصبهان، وبها محمود ابن أخيه، وقد ماتت أمه تركمان خاتون فأدخله أمراء محمود، واحتاطوا عليه. ثم مات محمود سلخ شوال من سنة سبع وثمانين، واستولى بركيارق على الأمر، وقصده مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره في ذي الحجة، واستمال الأمراء فرجعوا إليه وكثر جمعه. وكان تشش بعد هزيمة بركيارق قد اختلف عليه الأمراء وراسل أمراء أصبهان يدعوهم إلى طاعته فواعده انتظار بركيارق، وكان قد أصابه الجذري، فلما أبلّ نبذوا إليه عهده، وساروا مع بركيارق من أصبهان، وأقبلت إليهم العساكر من كل مكان وانتهوا إلى

مطربك مضى معه إلى عهسه بقلعة طبرك. ولما مات أبو نصر سار إلى خدمة السلطان ألب أرسلان فحظي عنده وأقطعه واسط وجعله شحنة بغداد، وكان حاضراً معه يوم قتله يوسف الخوارزمي ووقاه نفسه. ثم بعثه ابنه ملك شاه إلى بغداد لإحضار الخلع والتقليد، واستقر شحنة ببغداد إلى أن قتل، ورأى ما لم يره خادم قبله من نفوذ الكلمة وكمال القدرة وخدمة الأمراء والأعيان وطاعتهم. انتهى.

مصاف بركيارق مع أخيه سنجر

ولما انهزم السلطان بركيارق من أخيه محمد لحق بالري واستدعى شيعة وأنصاره من الأمراء فلحقوا به. ثم ساروا إلى أسفراين وكاتب الأمير داود حبشي بن التونطاق يستدعيه وهو صاحب خراسان وطبرستان ومزله بالدامغان، فأشار عليه باللاحق بنيسابور حتى يأتيه. فدخل نيسابور وقبض على رؤسائها، ثم أطلقهم وأساء التصرف. ثم أعاد الكتاب إلى داود حبشي بالاستدعاء فاعتذر بأن السلطان سنجر زحف إليه في عساكر بلخ. ثم سأل منه المدد فسار بركيارق إليه في ألف فارس وهو في عشرين ألفاً والتقوا بسنجر عند النوشجان وفي ميمنة سنجر الأمير برغش وفي ميسرته كوكر، ومعه في القلب رستم. فحمل بركيارق على رستم فقتله وانهزم أصحابه ونهب عسكرهم، وكادت الهزيمة تتم عليهم. ثم حل برغش وكوكر على عسكر بركيارق وهم مشغولون بالنهب فانهزموا، وانهزم بركيارق. وجاء بعض التركمان بالأمير داود حبشي أسيراً إلى برغش فقتله ولحق بركيارق بمرجان ثم بالدامغان، وقطع البرية إلى أصهبان بمراصلة أهلها فسبقه أخوه محمد إليها فعاد أسيرهم. انتهى.

عزل الوزير عميد الدولة ابن جهير ووفاته

قد ذكرنا أن وزير السلطان بركيارق وهو الأغر أبو المحاسن أسر في المصاف الأول بين بركيارق ومحمد، وأن مؤيد الملك بن نظام الملك وزير محمد أطلقه واصطنعه وضمنه عمارة ببغداد، وحمله طلب الخطبة ل محمد ببغداد من المستظهر فخطب له، وكان فيما حله للمستظهر عزل وزيره عميد الدولة بن جهير. وبلغ ذلك عميد الدولة فارسل من يعترض الأغر ويقتله فامتنع بعقر بابل. ثم صالحه ذلك الذي اعترضه وطلب لقاءه فلقيه، ودس الأغر إلى أبي الغازی بن أرتق، وكان وصل معه وسبقه إلى بغداد فرجع إليه ليلاً ويئس منه ذلك الذي اعترضه، ووصل الأغر ببغداد، وبلغ إلى

محمد، وأمير عسكره يومئذ نبال بن أنوش تكين الحسامي، ومعه جماعة من الأمراء، أجمع المسير إلى العراق، فسار إلى واسط، وجاءه صدقة بن مزيد صاحب الحلة. ثم سار إلى بغداد فخطب له بها منتصف صفر من سنة ثلاث وتسعين. ولحق سعد الدولة كوهرايين ببعض الحصون هنالك ومعه أبو الغازی بن أرتق وغيره من الأمراء، وأرسل إلى السلطان محمد ووزيره مؤيد الملك يستحثهما في الوصول، فبعث إليه كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب الجزيرة فلم يرضه، وطلب جكرمش العود إلى بلده فأطلقه. ثم نزع كوهرايين ومن معه من الأمراء إلى بركيارق بإغراء كربوقا صاحب الموصل، وكتبوه فخرج إليهم ودخلوا معه ببغداد واستوزره الأغر أبو المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني، وقبض على عميد الدولة ابن جهير وزير الخليفة وطالبه بأموال ديار بكر والموصل في ولايته وولاية أبيه، وصادره على مائة وستين ألف دينار فحملها إليه وخلع المستظهر على السلطان بركيارق واستقر أمره.

المصاف الأول بين بركيارق ومحمد وقتل

كوهرايين والخطبة محمد

ثم سار بركيارق من بغداد إلى شهرزور لقتال أخيه محمد، واجتمع إليه عسكر عظيم من التركمان، وكتبه رئيس همدان بالمسير إليه فعدا عنه، ولقي أخاه عمداً على فراسخ من همدان ومحمد في عشرين ألف مقاتل، ومعه الأمير سرخو شحنة أصهبان وعلى ميمته أمير آخر وابنه أيلاز، وعلى ميسرته مؤيد الملك والظامية، ومع بركيارق في القلب وزيره أبو المحاسن، وفي ميمته كوهرايين وصدقة بن مزيد وسرخاب بن بدر. وفي ميسرته كربوقا وغيره من الأمراء. فحمل كوهرايين من ميمنة بركيارق على ميسرة محمد فانهزموا حتى نهيت خيامهم. ثم حملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزمت، وحمل محمد معهم فانهزم بركيارق، ورجع كوهرايين للمنهمذين فكبا به فرسه وقتل، وافترت عساكر بركيارق وأسروا وزيره أبو المحاسن فأكرمه مؤيد الملك وأنزله وأعادته إلى بغداد ليخاطب المستظهر في إعادة الخطبة للسلطان محمد ففعل، وخطب له ببغداد منتصف رجب سنة ثلاث وتسعين.

وابتداء أمر كوهرايين أنه كان لامرأة بخوزستان وصار خادماً للملك أبي كالبجار بن سلطان الدولة. وحظي عنده وكان يستعرض حوائج تلك المرأة وأصاب أهلها منه خيراً. وأرسله أبو كالبجار مع ولده أبي نصر إلى بغداد، فلما قبض عليه السلطان

المستظهر رسالة مؤيد الدولة في عزل عميد الدولة فقبض عليه في رمضان من سنة ثلاث وتسعين، وعلى اخوته، وصوره على خمسة وعشرين ألف دينار، وبقي محبوساً بدار الخلافة إلى أن هلك في محبسه.

المصاف الثاني بين بركيارق وأخيه محمد ومقتل مؤيد الملك والخطبة لبركيارق

قد ذكرنا أن بركيارق لما انهزم أمام أخيه محمد في المصاف الأول سار إلى أصبهان، ولم يدخلها فمضى إلى عسكر مكرم إلى خوزستان وجاءه الأميران زنكي وألكي ابنا برسق. ثم سار إلى همدان فكتبه أياز من كبار أسراء محمد بما كان استوحش منه فجاءه في خمسة آلاف فارس وأغراه باللقاء فارتحل لذلك. ثم استأمن إليه سرخاب بن كئسرو صاحب آوة فاجتمع له خمسون ألفاً من المقاتلة، وبقي أخوه في خمسة عشر ألفاً. ثم اقتتلوا أول جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين، وأصحاب محمد يغدون على محمد شيئاً فشيئاً مستأمنين. ثم انهزم آخر النهار وأسر وزيره مؤيد الملك، وأحضره عند بركيارق غلام لمجد الملك البارسلاتي ثار منه مولاه، فلما حضر وبخه بركيارق وقتله وبعث الوزير أبو المحاسن من يسلم إليه أمواله، وصادر عليها قرابته في بغداد وفي غير بغداد وفي بلاد العجم. ويقال: كان فيما أخذ له قطعة من البلخش زنة إحدى وأربعين مثقالاً.

ثم سار بركيارق إلى الري ولقيه هناك كربوقا صاحب الموصل، ونور الدولة ديبس بن صدقة بن مزيد، واجتمعت إليهم نحو من مائة ألف فارس حتى ضاقت بهم البلاد ففرق العساكر. وعاد ديبس إلى أبيه وسار كربوقا إلى أذربيجان لقتال مودود بن إسماعيل بن ياقوتا، كان خرج على السلطان هنالك وسار أياز إلى همدان ليقتضي الصرم عند أهله ويعود، فبقي بركيارق في خوف من الجنود. وكان محمد أخوه لما انهزم لجهات همدان سار إلى شقيقه بخراسان فأنهت إلى جرجان، وبعث يطلب منه الممد فأمده بالمال أولاً. ثم سار إليه بنفسه إلى جرجان وسار معه إلى الدامغان وخرب عسكر خراسان ما مروا به من البلاد، وانتهوا إلى الري، واجتمعت إليهم النظامية وبلغهم افتراق العساكر عن بركيارق فاغذوا إليه السير فرحل إلى همدان فبلغه أن أياز راسل محمداً، فقصد خوزستان وانتهى إلى تستر، واستدعى بني برسق فقعدها عنه لما بلغهم مراسلة أياز للسلطان، فسار بركيارق نحو العراق، وكان أياز راسل محمداً في الكون معه فلم يقبله فسار من همدان،

ولحق بركيارق إلى حلوان وساروا جميعاً إلى بغداد.

واستولى محمد على خلف أياز بهمدان وحلوان وكان شيئاً مما لا يعبر عنه. وصادر جماعة من أصحاب أياز من أهل همدان، ووصل بركيارق إلى بغداد منتصف ذي القعدة سنة أربع وتسعين، وبعث المستظهر لتلقيه أمين الدولة بن موصلايا في المراكب، وكان بركيارق مريضاً فلزم بيته، وبعث المستظهر في عيد الأضحى إلى داره منبراً خطب عليه باسمه، وتحلف بركيارق عن شهود العيد لمرضه، وضافت عليه الأموال فطلب الإعانة من المستظهر، وحمل إليه خسين ألف دينار بعد المراجعات، ومد يده إلى أموال الناس وصادها فضجوا، وارتكب خطيئة شنعاء في قاضي جبلة وهو أبو محمد عبد الله بن منصور. وكان من خبره أن أباه منصوراً كان قاضياً بجبلة في ملكة الروم، فلما ملكها المسلمون وصارت في يد أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس أقره على القضاء بها. وتوفي فقام ابنه أبو محمد هذا مقامه ولبس شعار الجنديّة وكان شهماً، فهم ابن عمار بالقض عليه، وشعر فانتقض وخطب للخلفاء العباسية. وكان ابن عمار يخطب للعلوية بمصر، وطالت منازل الفرنج بمصن جبلة إلى أن ضجر أبو محمد هذا، وبعث إلى صاحب دمشق وهو يومئذ طغتكين الأتابك أن يسلم إليه البلد، فبعث ابنه تاج الملوك موري وتسلم منه البلد، وجاء به إلى دمشق وبذل لهم فيه ابن عمار ثلاثين ألف دينار دون أمواله، فلم يرضوا بإخفار ذمتهم وسار عنهم إلى بغداد، ولقي بها بركيارق فأحضره الوزير أبو المحاسن وطلبه في ثلاثين ألف دينار، فأجاب وأحالم على منزله بالأبنار، فبعث الوزير من أتاه بجميع ما فيه، وكان لا يعبر فكانت من المنكرات التي أتاها بركيارق. ثم بعث الوزير إلى صدقة بن منصور بن ديبس بن مزيد صاحب حلب يطلب منه ألف ألف دينار متخلفة من مال الجباية، وتهده عليها فغضب وانتقض وخطب لمحمد، وبعث إليه بركيارق الأمير أياز يستقدمه فلم يجيب، وبعث إلى الكوفة وطرده عنها نائب بركيارق واستضافها إليه.

استيلاء محمد علي بغداد

قد ذكرنا استيلاء محمد علي همدان في آخر ذي الحجة من سنة أربع وتسعين، ومعه أخوه سنجر. وذهب بركيارق إلى بغداد فاستولى عليها وأساء السيرة بها، وبلغ الخبر إلى محمد فسار من همدان في عشرة آلاف فارس، ولقيه بمحلولان أبو الغازي بن أرتق شحاته ببغداد في عساكره وأتباعه. وكان بركيارق في شدة من

واتبعه أياز وألبكي بن برسق فنجا إلى البلد وبها نوابه، فلمّا ما تشعّث من السور، وكان من بناء علاء الدين بن كاكويه سنة تسع وعشرين لقتال طغرليك وحفر الخنادق وأبعد مهواها وأجرى فيها المياه، ونصب المجانيق، واستعد للحصار.

وجاء بركيارق في جمادى ومعه خمسة عشر ألف فارس ومائة ألف من الرجل والأتياع، فحاصرها حتى جهدهم الحصار وعدمت الأقوات والعلوفة، فخرج محمد عن البلد في عيد الأضحى من سته في مائة وخمسين فارساً، ومعه نبال، ونزل في الأمراء، وبعث بركيارق في اتباعه الأمير أياز. وكانت خيل محمد ضامرة من الجوع، فالتفت إلى أياز يذكره العهد فرجع عنه بعد أن نهب منه خيلاً ومالاً، وأخذ علمه وجنده وعاد إلى بركيارق. ثم شد بركيارق في حصار أصبهان، وزحف بالسلاليم والذبابات، وجمع الأيدي على الخندق فطمه، وتعلق الناس بالسور فاستمات أهل البلد ودفعوهم. وعلم بركيارق امتناعها فرحل عنها ثامن عشر ذي الحجة. وجرع عسكراً مع ابنه ملكشاه وترشك الصوالي على البلد القديم الذي يسمى شهرستان، وسار إلى همدان بعد أن كان قتل على أصبهان وزيره الأغبر أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني، اعترضه في ركوبه من خيمته إلى خدمة السلطان متظلم فطمعه وأشواه، ورجع إلى خيمته فمات، وذهب للتجار الذين كانوا يعاملونه أموال عظيمة لأن الجباية كانت ضاقت بالفتن، فاحتاج إلى الاستدانة، ونفر منه التجار لذلك. ثم عامله بعضهم فذهب ما لهم بموته، وكان أخوه العميد المهذب أبو محمد قد سار إلى بغداد لينسب عنه حين عقد الأمراء الصلح بين بركيارق ومحمد، فقبض عليه الشحنة ببغداد أبو الغازي بن ارتق وكان على طاعة محمد.

الشحنة ببغداد والخطبة لبركيارق

كان أبو الغازي بن ارتق شحنة ببغداد وولاه عليها السلطان محمد عند استيلائه في المصاف الأول، وكان طريق خراسان إليه فعاد بعض الأيام منها إلى بغداد، وضرب فارس من أصحابه بعض الملاحين بسهم في ملاحاة وقعت بينهم عند العبور فقتله فثارت بهم العامة وأمسكوا القتال، وجاؤوا به إلى باب النوبة في دار الخلافة ولقيهم ولد أبي الغازي فاستنقذه من أيديهم فرجوه، وجاء إلى أبيه مستغيثاً وركب إلى محلة الملاحين فنهبا وعطف عليه العيارون فقتلوا من أصحابه، وركبوا السفين للنجاة فهرب الملاحون وتركوهم فغرقوا، وجمع أبو الغازي التركماني لنهب

المرض، وقد أشرف على الهلاك فاضطرب أصحابه وعبروا به إلى الجانب الغربي حتى إذا وصل محمد ببغداد وترأى الجمعان من غدوتي دجلة ذهب بركيارق وأصحابه إلى واسط ودخل محمد ببغداد، وجاءه توقيع المستظهر بالانتقاض مما وقع به بركيارق، وخطب له على منابر بغداد، وجاءه صدقة بن منصور صاحب الحلة فأخرج الناس للقاءه ونزل سنجر بدار كوهرايين، واستوزر محمد بعد مؤيد الملك خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين، فقدم إليه في الحرم سنة خمس وتسعين. انتهى.

المصاف الثالث والرابع وما تخلل بينهما من الصلح ولم يتم

ثم ارتحل السلطان وأخوه سنجر عن بغداد متصفاً المحرم من سنة خمس وتسعين، وقصد سنجر خراسان ومحمد همدان، فاعترض بركيارق خاص الخليفة المستظهر، وأبلغه القبيح فاستدعى المستظهر محمداً لقتال بركيارق فجاء إليه وقال: أنا أكفيكه: ورتب أبا المعالي شحنة ببغداد، وكان بركيارق بواسط كما قلنا، فلما أبل من مرضه عبر إلى الجانب الشرقي بعد جهد وصعوبة لقرار الناس من واسط لسوء سيرتهم. ثم سار إلى بلاد بني برسق حتى أطاعوا واستقاموا وساروا معه فاتبع أخاه محمداً إلى نهاوند وتضافوا يومين ومنعهما شدة البرد من القتال. ثم اجتمع أياز والوزير الأغبر من عسكر بركيارق وولد أجي وغيرهم من الأمراء من عسكر محمد. وتفاوضوا في شكوى ما نزل بهم من هذه الفتنة، ثم اتفقوا على أن تكون السلطنة بالعراق لبركيارق ويكون لمحمد من البلاد الحيرة وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل على أن يمدد بركيارق بالعسكر متى احتاج إليه على من يتمتع عليه منها. وتحالفا على ذلك وافترقا في ربيع الأول سنة خمس وتسعين، ثم سار بركيارق إلى ساوة ومحمد إلى قزوین، وبدا له في الصلح واتهم الأمراء الذين سعوا فيه، وأسّر إلى رئيس قزوین أن يدعوهم إلى صنع عنده، وغدر بهم محمد فقتل بعضاً وسمل بعضاً وأظهر الفتنة. وكان الأمير بنال بن أنوش تكين قد فارق بركيارق، وأقام مجاهداً للباطنية في الجبال والقلاع فلقى محمداً وسار معه إلى الري، وبلغ الخبر إلى بركيارق فأغذ إليه السير في ثمان ليال واصطفوا في التاسع وكلا الفريقين في عشرة آلاف مقاتل. وحمل سرخاب بن كنجر والدليمي صاحب آرة من أصحاب بركيارق على بنال بن أنوش تكين فهزمه، وانهزم معه عسكر محمد، وافترقوا فلحق فريق بطبرستان وآخر بقزوین، ولحق محمد بأصبهان في سبعين فارساً،

ثم بعث السلطان بركيارق إليه برسق بن برسق في العساكر فقاتله على الري، وانهزم نبال وأخوه متصف ربيع من سنة ست وتسعين، وذهب علي إلى قزوین وسلك نبال على الجبال إلى بغداد وتقطع أصحابه في الأوعار وقتلوا، ووصل إلى بغداد في سبعمائة رجل، وأكرمه المستظهر واجتمع هو وأبو الغازي وسقمان ابنا أرتق بمشهد أبي حنيفة، فاستحلفوه على طاعة السلطان محمد، وساروا إلى سيف الدولة صدقة واستحلفوه على ذلك.

واستقر نبال ببغداد في طاعة السلطان محمد، وتزوج أخت أبي الغازي كانت تحت تاج الدولة تُش. وعسف بالناس وصادر العمال واستطال أصحابه على العامة بالضرب والقتل. وبعث إليه المستظهر مع القاضي الدامغاني بالتهني عن ذلك وتقيح فعله، ثم مع أبلغاري فاجاب وحلف على كف أصحابه ومنعهم. واستمر على قبح السيرة فبعث المستظهر إلى سيف الدولة صدقة يستدعيه لكف عدوانه، فجاء إلى بغداد في شوال من سنة ست وتسعين، وخيم بالمنجمي ودعا نيالاً للرحلة عن العراق على أن يدفع إليه. وعاد إلى الحلة وسار نبال مستهل ذي القعدة إلى أوانا ففعل من النهب والعسف أتيح مما فعل ببغداد، فبعث المستظهر إلى صدقة في ذلك، فأرسل ألف فارس، وساروا إليه مع جماعة من أصحاب المستظهر وأبي الغازي الشحنة، وذهب نبال أمامهم إلى أذربيجان قاصداً إلى السلطان محمد ورجع أبو الغازي والعساكر عنه.

المصاف الخامس بين السلطانين

كانت كنجة وبلاد أرزن للسلطان محمد وعسكره مقيم بها مع الأمير غز علي، فلما طال حصاره بأصبهان جاؤوا لنصرته، ومعهم منصور بن نظام الملك ومحمد بن أخيه مؤيد الملك، ووصلوا إلى الري آخر ذي الحجة سنة خمس وتسعين، وفارقه عسكر بركيارق. ثم خرج محمد من أصبهان فساروا إليه ولقوه بهمدان، ومعه نبال وعلي ابنا أنوش تكين فاجتمعوا في ستة آلاف فارس. وسار نبال وأخوه على الري وأزعجتهم عنها عساكر بركيارق كما مر. ثم جاءهم الخبر في همدان بزحف بركيارق إليهم، فسار محمد إلى بلاد شروان. ولما انتهى إلى أردبيل بعث إليه مودود بن إسماعيل بن ياقوتي، وكان أميراً على بيلقان من أذربيجان، وكان أبوه إسماعيل خال بركيارق، وانتقض عليه أول أمره فقتله فكان مودود يطالبه بثار أبيه، وكانت أخته تحت محمد فبعث إليه وجاءه إلى بيلقان. وتوفي مودود إثر قدومه متصف

الجانب الغربي، فبعث إليه المستظهر قاضي القضاة والكبا المراسي مدرس النظامية بالامتناع من ذلك فاقصر أبو الغازي أثناء ذلك متمسكاً بطاعة السلطان محمد. فلما انهزم محمد وانطلق من حصار أصبهان واستولى بركيارق على الري بعث في منتصف ربيع الأول من سنة ست وتسعين من همدان كمستكين القيصراني شحنة إلى بغداد. فلما سمع أبو الغازي بعث إلى أخيه سقمان بمحصن كيفا يستدعيه للدفاع.

وجاءه سقمان ومر بتكريت فنهبا، ووصل كمستكين ولقيه شعبة بركيارق وأشاروا عليه بالمعالجة، ووصل إلى بغداد منتصف ربيع. وخرج أبو الغازي وأخوه سقمان إلى دجيل ونهبا بعض قراها، واتبعهما طائفة من عسكر كمستكين. ثم رجعوا عنهما وخطب للسلطان بركيارق ببغداد وبعث كمستكين إلى سيف الدولة صدقة بالحلة عنه وعن المستظهر بطاعة بركيارق فلم يجب، وكشف القناع وسار إلى جسر صرصر فقطعت الخطبة على منابر بغداد فلم يذكر أحد عليها من السلاطين، واقتصر على الخليفة فقط.

وبعث سيف الدولة صدقة إلى أبي الغازي وسقمان بأنه جاء لنصرتهم فعداوا إلى دجيل وعاثوا في البلاد، واجتمع لذلك حشد العرب والأكراد مع سيف الدولة، وبعث إليه المستظهر في الإصلاح، وخيموا جميعاً بالرملة وقاتلهم العامة وبعث الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني وتاج رؤساء الرياسة ابن الموصلا إلى سيف الدولة بكف الأيدي عن الفساد، فاشتروا خروج كمستكين القيصراني شحنة بركيارق وإعادة الخطبة للسلطان محمد، فتم الأمر على ذلك، وعاد سيف الدولة إلى الحلة وعاد القيصراني إلى واسط، وخطب بها لبركيارق فسار إليه صدقة وأبو الغازي، وفارقها القيصراني فاتبعه سيف الدولة. ثم استأمن ورجع إليه فأكرمه وخطب للسلطان محمد بواسط، وبعده لسيف الدولة وأبي الغازي واستتاب كل واحد ولده، ورجع أبو الغازي إلى بغداد وسيف الدولة إلى الحلة، وبعث ولده منصوراً إلى المستظهر يخطب رضاه بما كان منه في هذه الحادثة فأجيب إلى ذلك.

استيلاء نبال على الري بدعوة السلطان

محمد ومسيره إلى العراق

كانت الخطبة بالري للسلطان بركيارق، فلما خرج السلطان محمد من الحصار بأصبهان، بعث نبال بن أنوش تكين الحسامي إلى الري ليقم الخطبة له بها فسار ومعه أخوه علي، وعسف الرعايا.

القاسم بن جهير سنة تسع وخمسين، واستوزر بعده الربيع أبا منصور بن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير السلطان.

الصلح بين السلطانين بركيارق ومحمد

ولما تطاولت الفتنة بين السلطانين، وكثر النهب والهرج وخربت القرى، واستطال الأمر عليهم وكان السلطان بركيارق بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخرزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين، وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له بها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق جميعه إلا تكريت. وأما البطائع فبعضها لهذا وبعضها لهذا، والخطبة بالبصرة لهما جميعاً. وأما خراسان من جرجان إلى ما وراء النهر، فكان ينطبق فيها لسنجر بعد أخيه السلطان محمد. فلما استبصر بركيارق في ذلك، ورأى تحكم الأمراء عليه، وقلة المال، جنح إلى الصلح وبعث القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمداني، المعروف بصاحب قراتكين إلى أخيه محمد في الصلح، فوصلا إليه بمراغة وذكراه ووعظاه فأجاب إلى الصلح على أن السلطان لبركيارق، ولا يمنع محمداً من اتخاذ الآلة، ولا يذكر أحد منهما مع صاحبه في الخطبة في البلاد التي صارت إليه وتكون المكتبة من وزيريهما في الشؤون لا يكتب أحدهما الآخر، ولا يعارض أحد من العسكر في الذهاب إلى أيهما شاء، ويكون للسلطان محمد من نهر إسبندرو إلى الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، وأن يدخل سيف الدولة صدقة بأعماله في خلفه وبلاده والسلطنة كلها، وبقية الأعمال والبلاد كلها للسلطان بركيارق.

وبعث محمد إلى أصحابه بأصبهان بالإفراج عنها لأصحاب أخيه، وجاؤوا بحريم محمد إليه بعد أن دعاهم السلطان بركيارق إلى خدمته فامتنعوا فأكرمهم، وحمل حريم أخيه وزودهم بالأموال، وبعث العساكر في خدمتهم. ثم بعث السلطان بركيارق إلى المستظهر بما استقر عليه الحال في الصلح بينهم، وحضر أبو الغازي بالديوان وهو شحنة محمد وشيعته، إلا أنه وقف مع الصلح، فسأل الخطبة لبركيارق فأمر بها المستظهر، وخطب له على منابر بغداد وواسط في جمادى سنة سبع وتسعين، ونكر الأمير صدقة صاحب الخلة الخطبة لبركيارق وكان شيعه لمحمد. وكتب إلى الخليفة بالكبر على أبي الغازي وأنه سائر لإخراجه عن بغداد، فجمع أبو الغازي التركمان، وفارق بغداد إلى عرقوبيا وجاء سيف الدولة صدقة ونزل مقابل التاج وقبل الأرض وخيم بالجانب الغربي. وأرسل

ربيع من سنة ست وتسعين، فاجتمع عسكره على الطاعة لمحمد وفيهم سقمان القطبي صاحب خلاط وأرمينية ومحمد بن غاغيسا، كان أبوه صاحب انطاكية. وكان ألب أرسلان ابن السبع الأحمر.

ولما بلغ بركيارق اجتماعهم لحربه أغذ السير إليهم فوصل وقتلهم على باب خوي من أذربيجان من المغرب إلى العشاء. ثم حمل أياز من أصحاب بركيارق على عسكر محمد فانهزموا، وسار إلى خلاط ومعه سقمان القطبي ولقيه الأمير علي صاحب أرزن الروم، ثم سار إلى..... وبها منوچهر أخو فضلون الروادي. ثم سار إلى تبريز ولحق محمد بن يزيد الملك بديار بكر، وسار منها إلى بغداد وكان ممن خبره أنه كان مقيماً ببغداد مجاوراً للمدرسة النظامية فشكا الجيران منه إلى أبيه، فكتب إلى كوهرايين بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة. ثم سار سنة اثنتين وتسعين إلى محمد الملك الباسلاني وأبوه حيثئذ بكنجة عند السلطان محمد قبل أن يدعو لنفسه. ثم سار بعد أن قتل محمد الملك إلى والده مؤيد الملك، وهو وزير السلطان محمد. ثم قتل أبوه وانصل هو بالسلطان، وحضر هذه الحروب كما ذكرنا. وأما السلطان بركيارق بعد هزيمة محمد فإنه نزل جبلاً بين مراغة وتبريز وأقام به حولاً، وكان خليفة المستظهر سديد الملك أبو المعالي كما ذكرناه. ثم قبض عليه منتصف رجب سنة ست وتسعين وحبس بدار الخليفة مع أهله كانوا قد وردوا عليه من أصفهان. وسبب عزله جهله بقواعد ديوان الخلافة لأنه كان يتصرف في أعمال السلاطين، وليست فيها هذه القوانين. ولما قبض عاد أمين الدولة أبو سعد بن الموصلايا إلى النظر في الديوان وبعث المستظهر عن زعيم الرؤساء أبي القاسم بن جهير من الخلة، وكان ذهب إليها في السنة قبلها مستجيراً بسيف الدولة صدقة لأن خاله أمين الدولة أبا سعد بن الموصلايا كان الوزير الأعز وزير بركيارق يشيع عنه أنه الذي يعمل المستظهر على موالاة السلطان محمد، والخطبة له دون بركيارق، فاعتزل أمين الدولة الديوان وسار ابن أخته هذا أبو القاسم بن جهير مستجيراً بصاحب الخلة فاستقدمه الخليفة الآن. وخرج أرباب الدولة لاستقباله، وخلع عليه للوزارة ولقيه قوام الدولة، ثم عزله على رأس المائة الخامسة. واستجار سيف الدولة صدقة بن منصور ببغداد فأجاره وبعث عنه إلى الخلة وذلك لثلاث سنين ونصف من وزارته، وناب في مكانه القاضي أبو الحسن بن الدامغانتي أياماً. ثم استوزر مكانه أبا المعالي بن محمد بن المطلب في الحرم سنة إحدى وخمسمائة، ثم عزله سنة اثنتين بإشارة السلطان محمد، وأعادته بإذنه على شرطية العدل وحسن السيرة، وأن لا يستعمل أحداً من أهل الذمة. ثم عزل في رجب من سنة اثنتين وخمسين، واستوزر أبا

أصبهان. ثم رحل في صفر سنة ثمان وتسعين يريد الموصل وسمع جكرمس فاستعد للحصار وأمر أهل السواد بدخول البلد. وجاء محمد فحاصره وبعث إليه كتب أخيه بأن الموصل والجزيرة من قسمته، وأراه أيمانه بذلك، ووعد به بأن يقره على ولايتها فقال جكرمس: قد جاءني كتب بركيارق بعد الصلح بخلاف هذا فاشتد محمد في حصاره، وقتل بين الفريقين خلق، ونقب السور ليلة فأصبحوا وأعادوه، ووصل الخبر إلى جكرمس بوفاء بركيارق عاشر جمادى فاستشار أصحابه ورأى المصلحة في طاعة السلطان محمد فأرسل إليه بالطاعة، وأن يدخل إليه وزيره سعد الملك فدخل، وأشار عليه بالحضور عند السلطان فحضر، وأقبل السلطان عليه ورده لجيشه لما توقع من ارتياح أهل البلد بمخروجه، وأكثر من الهدايا والتحف للسلطان ولوزيره.

ولما بلغه وفاة أخيه بركيارق سار إلى بغداد ومعه سقمان القطبي نسبة إلى قطب الدولة إسماعيل بن ياقوت بن داود، وداود هو حقيق وأبو ألب أرسلان، وسار معه جكرمس وصاحب الموصل وغيرهما من الأمراء. وكان سيف الدولة صاحب الحلة قد جمع عسكرياً خمسة عشر ألفاً من الفرسان وعشرة آلاف رجل، وبعث ولديه بدران وديس إلى السلطان محمد يستحثه على بغداد. ولما سمع الأمير أياز بقدمه، خرج هو وعسكره وخيموا خارج بغداد واستشار أصحابه فقصموا على الحرب، وأشار وزيره أبو المحاسن بطاعة السلطان محمد وخوفه عاقبة خلافه وسفه آراءهم في حربه، وأطمعه في زيادة الإقطاع، وتردد أياز في أمره وجمع السفن عنده، وضبط المثار ووصل السلطان محمد آخر جمادى من سنة ثمان وتسعين، ونزل بالجانب الغربي وخطب له هنالك، وملك شاه بالجانب الشرقي. واقتصر خطيب جامع المنصور على الدعاء للمستظهر وللسلطان العالم فقط. وجمع أياز أصحابه لليمين فأبوا من المعادة وقالوا: لا فائدة فيها والوفاء إنما يكون بوحدة فارتاب أياز بهم، وبعث وزيره المصطفى أبا المحاسن إلى السلطان محمد في الصلح، وتسليم الأمر فلقى أولاً وزيره سعد الملك أبا المحاسن سعد بن محمد وأخبر فأحضره عند السلطان محمد وأدى رسالة أياز والعذر عما كان منه أيام بركيارق فقبله السلطان وأعتبه، وأجابه إلى اليمين.

وحضر من الغد القاضي والقباني واستحلف الكيا الهراسي مدرس النظامية بمحضر القاضي -وزير أياز بمحضرهم- لملك شاه ولأياز وللأمراء الذين معه، فقال: أما ملك شاه فهو ابني وأما أياز والأمراء فأحلف لهم إلا نبال بن أنوش، وسار واستحلفه الكيا الهراسي مدرس النظامية بمحضر القاضي والقباني. ثم حضر أياز

إليه أبو الغازي يعتذر عن طاعة بركيارق بالصلح الواقع، وأن إقطاعه مجلوان في جملة بلاده التي وقع الصلح عليها وبغداد التي هو شحنه فيها قد صارت له قفيل ورضي، وعاد إلى الحلة وبعث المستظهر في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين الخلع للسلطان بركيارق والأمير أياز والخطير وزير بركيارق، وبعث معهما العهد له بالسلطنة واستحلفه الرسل على طاعة المستظهر ورجعوا.

وفاة السلطان بركيارق وملك ابنه ملك

شاه

كان السلطان بركيارق بعد الصلح واتعقاده أقام بأصبهان أشهراً وطرقه المرض فسار إلى بغداد، فلما بلغ بلد يزدجرد اشتد مرضه وأقام بها أربعين يوماً حتى أشفى على الموت، فأحضر ولده ملك شاه وجماعة الأمراء، وولاه عهده في السلطنة، وهو ابن خمس سنين وجعل الأمير أياز أتابكته، وأوصاهم بالطاعة لهما واستحلفهم على ذلك، وأمرهم بالمسير إلى بغداد وتحلف عنهم ليعود إلى أصبهان فتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين. وبلغ الخبر إلى ابنه ملك شاه والأمير أياز على اثني عشر فرسخاً من بلد يزدجرد فرجعوا، وحضروا لتجهيزه ويعثوا به إلى أصبهان للدفن بها في تربة أعداها، وأحضر أياز السراقات والخيام والخفر والشمسة، وجميع آلات السلطنة فجعلها لملك شاه. وكان أبو الغازي شحنة ببغداد وقد حضر عند السلطان بركيارق بأصبهان في الحرم وحثه على المسير إلى بغداد، فلما مات بركيارق سار مع ابنه ملك شاه والأمير أياز ووصلوا ببغداد منتصف ربيع الآخر في خمسة آلاف فارس، وركب الوزير أبو القاسم علي بن جهير لتلقيهم فلقبهم بديالي، وأحضر أبو الغازي والأمير طمأنيدل بالديوان وطلبوا الخطبة لملك شاه بن بركيارق فأجاب المستظهر إلى ذلك وخطب له ولقب بالقباب جده ملك شاه وتثرت الدنانير عند الخطبة.

وصول السلطان محمد إلى بغداد واستبداده

بالسلطنة والخطبة ومقتل أياز

كان محمد بعد صلحه مع أخيه بركيارق قد اعتزم على المسير إلى الموصل ليتناولها من يد جكرمس لما كانت من البلاد التي عقد عليها وكان تبريز ينتظر وصول أصحابه من أنزريجان، فلما وصلوا استوزر سعد الملك أبا المحاسن لحسن أثره في حفظ

رئيس الرؤساء واعتقلهما وصادرهما على مال يحملانه، وأرسل مجاهد الدين لقبض المال، وأمره بعمارة دار الملك فاضطلع بعمارتها، وأحسن السيرة في الناس وقدم السلطان اثر ذلك إلى بغداد فشكر سيرته، وولاه شحنة العراق وعاد إلى أصبهان.

وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة من سنة إحدى وخمسمائة، وقد كان عهد لولده محمود وهو يومئذ غلام محتلم، وأمره بالجلوس على التخت بالتاج والسوارين وذلك لاثنتي عشرة سنة ونصف من استبداده بالملك واجتماع الناس عليه بعد أخيه. وولي بعده ابنه محمود وبإيعامه أمراء السلجوقية، ودبر دولته الوزير الرسب أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير أبيه، وبعث إلى المستظهر في الخطبة فخطب له على منابر بغداد منتصف الحرم سنة اثنتي عشرة، وكان أقسقر البرسقي مقيماً بالرحبة استخلف بها ابنه مسعوداً، وسار إلى السلطان محمد يطلب الزيادة في الإقطاع والولاية ولقيه خبر وفاته قريباً من بغداد فمنعه بهروز الشحنة من دخولها، وسار إلى أصبهان فلقبه بجلوان توقيع السلطان محمود بأن يكون شحنة بغداد لسعي الأمراء له في ذلك تعصباً على مجاهد الدين بهروز وغيره منه لكانه عند السلطان محمد.

ولما رجع أقسقر إلى بغداد هرب مجاهد الدين بهروز إلى تكريت وكانت من أعماله. ثم عزل السلطان محمود أقسقر وولى شحنة بغداد الأمير منكبرس حاكماً في دولته بأصبهان، فبعث نائباً عنه ببغداد والعراق الأمير حسين بن أرويك أحد أمراء الأتراك. ورغب البرسقي من المستظهر بالعدة فلم يتوقف فسار أقسقر إليه وقاتله وانهزم الأمير حسين وقتل أخوه وعاد إلى عسكر السلطان وذلك في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة.

وفاة المستظهر وخلافة المسترشد

ثم توفي المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بالله أبو القاسم عبد الله بن القائم بالله في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة لأربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر من خلافته، ويوبع بعده ابنه المسترشد بالله الفضل، وكان ولي عهده منذ ثلاث وعشرين سنة وبإيعامه أخوه عبد الله محمد وهو المقتدي، وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدي وغيرهم من الأمراء والقضاة والأئمة والأعيان. وتولى أخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغانى،

من الغد ووصل سيف الدولة صدقة وركب السلطان للقاءهما وأحسن إليهما، وعمل أياز دعوة في داره وهي دار كوهرايين وحضر عنده السلطان وأتحفه بأشياء كثيرة منها جبل البلخش الذي كان أخذه من تركة مؤيد الملك بن نظام الملك. وحضر مع السلطان سيف الدولة صدقة بن مزيد. وكان أياز قد تقدم إلى غلمانه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان، وحضر عندهم بعض الصفاعين فأخذوا معه في السخرية والبسو درعاً تحت قميصه، وجعلوا يتناولونه بأيديهم فهرب منهم إلى خواص السلطان، ورآه السلطان مسلحاً فأمر بعض غلمانه فالتسموه وقد وجدوا السلاح فارتاب ونهض من دار أياز.

ثم استدعاه بعد أيام ومعه جكرمس وسائر الأمراء فلما حضر وقف عليهم بعض قواده وقال لهم: إن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش قصد ديار بكر ليملكها فأشيروا بمن نسيره لقتاله، فأشاروا جميعاً بالأمير أياز، وطلب هو مسير سيف الدولة صدقة معه فاستدعى أياز وصدقة ليقوضهم في ذلك فنهضوا إليه، وقد أعد جماعة من خواصه لقتل أياز فلما دخلوا ضرب أياز فقطع رأسه ولف شلوه في مشلح وألقي على الطريق. وركب عسكره فنهبوا داره وأرسل السلطان لحمايتها فافترقوا واختفى وزيره. ثم حمل إلى دار الوزير سعد الملك وقتل في رمضان من سنته. وكان من بيت رياصة بهمدان وكان أياز من عماليك السلطان ملك شاه، وصار بعد موته في جملة أمير آخر فاتخذته ولداء، وكان شجاعاً حسن الرأي في الحرب واستبد السلطان محمد بالسلطنة وأحسن السيرة، ورفع الضرائب، وكتب بها الألواح ونصبت في الأسواق وعظم فساد التركمان بطريق خراسان، وهي من أعمال العراق فبعث أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد بدل ابن أخيه بهرام بن أرتق على ذلك البلد فحماء وكف الفساد منه. وسار إلى حصن من أعمال سرخاب بن بدر فحصره وملكه. ثم ولى السلطان محمد سنقر البرسقي شحنة بالعراق وكان معه في حروبه وأقطع الأمير قبايز الكوفة وأمر صدقة صاحب الحلة أن يجمعي أصحابه من خفاجة. ولما كان شهر رمضان من سنة ثمانية وتسعين عاد السلطان محمد إلى أصبهان وأحسن فيهم السيرة وكف عنهم الأيدي العادية.

الشحنة ببغداد

كان السلطان قد قبض سنة اثنتين وخمسين على أبي القاسم الحسين بن عبد الواحد صاحب المخزن، وعلي بن الفرج ابن

العدل، وصاحب سنجار، وأبو الهيجاء صاحب أربل، وكريادي بن خراسان التركماني صاحب البواريج.

ولما قربوا من العراق خافهم أفسق البرسقي بمكان حيوس بك من الملك المسعود، وأما هو فقد كان أبوه محمد جعله أتابك لابنه مسعود فسار البرسقي لقتالهم، وبعثوا إليه الأمير كريادي في الصلح، وأنهم إنما جاؤوا بجملة له على ديبس قبيل، وتعاهدوا ورجعوا إلى بغداد كما مر خبره، وسار البرسقي لقتاله فاجتمع مع ديبس بن صدقة واتفقا على المعاضدة، وسار الملك مسعود ومن معه إلى المدائن للقاء ديبس ومنكبرس. ثم بلغهم كثرة جموعهما فعاد الملك مسعود والبرسقي وحيوس بك، وعبروا نهر صرصر وحفظ المخاضات وأفحش الطافتان في نهب السواد واستباحته بنهر الملك ونهر صرصر ونهر عيسى ودجيل. وبعث المسترشد إلى الملك مسعود والبرسقي بالذكير عليهم فأنكر البرسقي وقوع شيء من ذلك، واعتزم على العود إلى بغداد، وبلغه أن ديبس ومنكبرس قد جهز العساكر إليها مع منصور أخي ديبس وحسن بن أوربك ربيب منكبرس فأخذ السير وخلف ابنه عز الدين مسعوداً على العسكر بصرصر، واستصحب عماد الدين زنكي بن أفسق، وجاؤوا ببغداد ليلاً فمنعوا عساكر منكبرس وديبس من العبور.

ثم اتعد الصلح بين منكبرس والملك مسعود وكان سببه أن حيوس بك كاتب السلطان عمود وهو بالموصل في طلب الزيادة له وللملك مسعود، فجاء كتاب الرسول بأنه أقطعهم أذربيجان، ثم بلغه قصدهم ببغداد فاتهمهم بالانتقاض وجهز العساكر إلى الموصل وسقط الكتاب بيد منكبرس، وكان على أم الملك مسعود فبعث به إلى حيوس بك، ودخله في الصلح والرجوع عما هم فيه فاصطلحوا واتفقوا. وبلغ الخبر إلى البرسقي فجاء إلى الملك مسعود وأخذ ماله وتركه، وعاد إلى بغداد فخيم بجانب منها، وجاء الملك مسعود وحيوس بك فخيما في جانب آخر، وأصعد ديبس ومنكبرس فخيما كذلك، وتفرق عن البرسقي أصحابه وجموعه وسار عن العراق إلى الملك مسعود فأقام معه، واستقر منكبرس شحنة ببغداد وعاد ديبس إلى الحلة، وأساء منكبرس السرة في بغداد بالظلم والعسف، وانطلاق أيدي أصحابه بالفساد حتى ضجر الناس، وبعث عنه السلطان محمود فسار إليه وكفى الناس شره.

وكان نائباً عن الوزارة فأقره المسترشد عليها، ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا للمسترشد، وأحمد بن أبي داود اللواتق والقاضي أبو علي إسماعيل بن إسحاق للمعتضد. ثم عزل المسترشد قاضي القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الرسب أبي منصور، خاطبه أبوه وزير السلطان محمود وابنه محمد في شأنه فاستوزره، ثم عزله سنة عشر واستوزر مكانه جلال الدين عميد الدولة أبا علي بن صدقة، وهو عم جلال الدين أبي الرضي بن صدقة وزير الراشد.

ولما شغل الناس ببيعة المسترشد ركب أخوه الأمير أبو الحسن في السفن مع ثلاثة نفر والمحدروا إلى المدائن، ومنها إلى الحلة فأكرمه ديبس، وأهم ذلك المسترشد وبعث إلى ديبس في إعادته مع التقيب علي بن طراد الرثيني فاعتذر بالذمام، وأنه لا يكرهه فخطب التقيب أبا الحسن أخا الخليفة في الرجوع فاعتذر بالخوف، وطلب الأمان. ثم حدث من البرسقي وديبس ما نذكره فتأخر ذلك إلى صفر من سنة ثلاث عشرة، فسار أبو الحسن بن المستظهر إلى واسط وملكها، فبادر المسترشد إلى ولاية العهد لابنه جعفر المنصور ابن اثني عشرة سنة، فخطب له وكتب إلى البلاد بذلك، وكتب إلى ديبس بمعالجة أخيه أبي الحسن فإنه فارق ذمامه فبعث ديبس العساكر إلى واسط فهرب منها، وصادفوه عند الصبح فنهبوا أثقاله وهرب الأكراد والأتراك عنه، وقبض عليه بعض الفرق وجاؤوا به إلى ديبس فأكرمه المسترشد وأمنه وأنزله أحسن نزل.

انتقاض الملك مسعود على أخيه السلطان

محمود ثم مصاحته واستقرار حكومته

شحنة ببغداد

كان السلطان محمد قد أنزل ابنه مسعوداً بالحلة وجعل معه حيوس بك أتابك، فلما ملك السلطان عمود بعد وفاة أبيه، ثم ولي المسترشد الخلافة بعد أبيه، وكان ديبس صاحب الحلة مريضاً في طاعته، وكان أفسق البرسقي شحنة بالعراق كما ذكرناه، أراد قصد الحلة وأخلى ديبس عنها، وجمع لذلك جمعاً من العرب والأكراد، وبرز من بغداد في جمادى سنة اثني عشرة، وبلغ الخبر إلى الملك مسعود بالموصل وأن العراق خال من الحامية، فأشار عليه أصحابه بقصد العراق للسلطنة فلا مانع دونها. فسار في جيوش كثيرة ومعه وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وسيأتي خبره، وقسم الدولة زنكي بن أفسق ابن الملك

انتفاض الملك طغرل على أخيه السلطان

محمود

واستحلفنا على ذلك إلا أنا لا نقضي على زوال ملكنا.

ثم تهدده بكترة العساكر وقوتها فرجع أنز عن جرجان، واتبعه بعض العساكر فقالوا منه. وعاد علي بن عمر إلى السلطان محمود فشكله، وأشار عليه أصحابه بالمقام بالري فلم يقبل. ثم ضجر وسار إلى حرقان وتوافت إليه الأمداد من العراق، منكبرس شحنة بغداد في عشرة آلاف فارس، ومنصور أخو ديبس وأمراء البلخية وغيرهم. وسار إلى همدان فأقام بها وتوفي بها وزيره الريب، واستوزر مكانه أبا طالب السميري. ثم جاء السلطان سنجر إلى الري في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً ومعه ابن الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخوارزم شاه محمد، والأمير أنز والأمير قماج، واتصل به علاء الدولة كرساف بن قرامرد بن كاكويه صاحب يزد وكان صهر محمد وسنجر على أختهما. واختص بمحمد ودعاه محمود فتأخر عنه فأقطع بلده لقراجا الساقى الذي ولي بعد ذلك فارس.

وسار علاء الدولة إلى سنجر وعرفه حال السلطان محمود واختلاف أصحابه وفساد بلاده، فزحف إليه السلطان محمود من همدان في ثلاثين ألفاً، ومعه علي بن عمر أمير حاجب ومنكبرس وأتابكة غز غلي وبنو برسق وسنجن البخاري وقراجا الساقى ومعه تسعمائة حمل من السلاح والتقى على ساوة في جمادى سنة ثلاث عشرة فانهزمت عساكر السلطان سنجر أولاً وثبت هو بين الفيلة والسلطان محمود، واجتمع أصحابه إليه. وبلغ الخبر إلى بغداد فأرسل ديبس بن صدقة إلى المسترشد في الخطبة للسلطان سنجر فخطب له آخر جمادى، وقطعت خطبة محمود بعد الهزيمة إلى أصبهان ومعه وزيره أبو طالب السميري والأمير علي بن عمر وقراجا، واجتمعت عليه العساكر وقوي أمره.

وسار السلطان سنجر من همدان ورأى قلة عساكره فراسل ابن أخيه في الصلح، وكانت والدته وهي جدة محمود تحرضه على ذلك فأجاب إليه. ثم وصل إليه أقتنسر البرسقي الذي كان شحنة ببغداد، وكان عند الملك مسعود من يوم انصرافه عنها، وجاء رسوله من عند السلطان محمود بأن الصلح إنما يوافق عليه الأمراء بعد عود السلطان سنجر إلى خراسان، فأثمن من ذلك وسار من همدان إلى الكرج، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح وأن يكون ولي عهده فأجاب إلى ذلك، وتحالفا عليه. وجاء السلطان محمود إلى عمه سنجر ونزل في بيت والدته وهي جدة محمود، وحمل إليه هدية حفلة. وكتب السلطان سنجر إلى أعماله بخراسان وغزنة وما وراء النهر وغيرها من الولايات بأن يخطب للسلطان محمود، وكتب إلى بغداد بمثل ذلك، وأعاد عليه جميع البلاد سوى

كان الملك طغرل قد أقطعه أبوه السلطان محمد سنة أربع وخمسين وخمسائة ساوة وآوة وزنجان، وجعل أتابكه الأمير شريك، وكان قد افتتح كثيراً من قلاع الإسماعيلية فاتسع ملك طغرل بها، ولما مات السلطان محمد بعث السلطان محمود الأمير كتبغري أتابك طغرل، وأمره أن يحمله إليه، وحسن له المخالفة فاتقص سنة ثلاث عشرة، فبعث إليه السلطان ثلاثين ألف دينار وتحف وودعه بأقطاع كثيرة، وطلبه في الوصول فمنعه كتبغري وأجاب بأننا في الطاعة، ومعنا العساكر وإلى أي جهة أراد السلطان قصدنا. فاعتزم السلطان على السير إليهم وسار من همدان في جمادى سنة ثلاث عشرة في عشرة آلاف غازياً وجاء النذير إلى كتبغري بمسيره، فأجفل هو وطغرل إلى قلعة سرجهان، وجاء السلطان إلى العسكر بزنجان فنهيه وأخذ من خزنة طغرل ثلاثمائة ألف دينار، وأقام بزنجان وتوجه منها إلى الري وكتبغري من سرجهان بكنجة، وقصده أصحابه وقويت شوكته وتأكدت الوحشة بينه وبين أخيه السلطان محمود.

الفتنة بين السلطان محمود وعمه سنجر

صاحب خراسان والخطبة ببغداد لسنجر

كان الملك سنجر أميراً على خراسان وما وراء النهر منذ أيام شقيقه السلطان محمد الأولي مع بركيارق. ولما توفي السلطان محمد جزع له جزعاً شديداً حتى أغلق البلد للجزاء، وتقدم للخطبة بذكر آثاره ومحاسن سيره من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك. وبلغه ملك ابنه محمود مكانه وتغلب الأمراء عليه، فنكر ذلك واعتزم على قصد بلد الجبل والعراق، وأتى له محمود ابن أخيه، وكان يلعب بانصر الدين فتغلب بمجز الدين لقب أبيه ملك شاه. وبعث إليه السلطان محمود بالهدايا والتحف مع شرف الدولة أنوشروان بن خالد، وفخر الدولة طغايك بن أكفرين وبذل عن مازندان مائتي ألف دينار كل سنة فتجهز لذلك، ونكر على محمود تغلب وزيره أبي منصور أمير حاجب علي بن عمر عليه، وسار وعلى مقدمته الأمير أنز، وجهاز السلطان محمود علي بن عمر حاجبه وحاجب أبيه في عشرة آلاف فارس، وأقام هو بالري. فلما قارب الحاجب مقدمة سنجر مع الأمير أنز بجرجان راسله باللين والخشونة، وأن السلطان محمداً وصانا بتعظيم أخيه سنجر

الري لتلا تحدث محموداً نفسه بالانتقاض.

وأبلى يومئذ، واقتلوا يوماً كاملاً وانهزمت عساكر مسعود في عشيته وأسر جماعة منهم، وفيهم الوزير الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي، فأمر السلطان بقتله لسنة من وزارته، وقال: هو فاسد العقيدة، وكان حسن الكتابة والشعر وله تصانيف في الكيمياء. وقصد الملك مسعود بعد الهزيمة جبلاً على اثني عشر فرسخاً من مكان الوقعة فاخفى فيه، وبعث يطلب الأمان من أخيه فبعث إليه البرسقي يؤمنه ويحضره.

وكان بعض الأمراء قد لحق به في الجبل وأشار عليه باللاحق بالموصل، واستمد ديبساً فسار لذلك وأدركه البرسقي على ثلاثين فرسخاً من مكانه وأمنه على أخيه، وأعادته إليه فأربب العساكر للقائه وبالغ في إكرامه وخلطه بنفسه. وأما أتابكة حيرس بك فلما افتقد السلطان مسعود سار إلى الموصل وجمع العساكر، ويلغى فعل السلطان مع أخيه فسار إلى الزاب. ثم جاء السلطان بهمدان فأمنه وأحسن إليه. وأما ديبس فلما بلغه خبر الهزيمة عاث في البلاد وأخربها وبعث إليه المسترشد بالتيكير فلم يقبل، فكتب بشأنه إلى السلطان محمود وخاطبه السلطان في ذلك فلم يقبل، وسار إلى بغداد وخيم إزاء المسترشد وأظهر أنه يثار منهم بأبيه.

ثم عاد عن بغداد ووصل السلطان في رجب، فبعث ديبس إليه زوجته بنت عميد الدولة بن جهر بمال وهدايا نفيسة وأجيب إلى الصلح على شروط امتنع منها فسار إليه السلطان في شوال ومعه ألف سفينة. ثم استأمن إلى السلطان فأمنه وأرسل نساءه إلى البطيحة. وسار إلى أبي الغازي مستجيراً به، ودخل السلطان الحلة وعاد عنها ولم يزل ديبس عند أبي الغازي. وبعث أخاه منصوراً إلى أصحابه من أمراء النواحي ليصلح حاله مع السلطان فلم يتم ذلك. وبعث إليه أخوه منصور يستدعيه إلى العراق، فسار من قلعة جعبر إلى الحلة سنة خمس عشرة وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان بالاعتذار والوعد بالطاعة، فلم يقبل منه، وسارت إليه العساكر مع سعد الدولة بن تشق ففارق الحلة ودخلها سعد وأنزل بالحلة عسكرياً وبالكوفة آخر. ثم راجع ديبس الطاعة على أن يرسل أخاه منصوراً رهينة فقبل، ورجع العسكر إلى بغداد سنة ست عشرة.

إقطاع الموصل للبرقي وميفارقين لأبي

الغازي

ثم أقطع السلطان محمود الموصل وأعمالها، والجزيرة وسنجار وما يضاف إلى ذلك للأمير أقتنقر البرسقي شحنة بغداد،

ثم قتل السلطان محمود الأمير منكبرس شحنة بغداد لأنه لما انهزم محمود وسار إلى بغداد ليدخلها منعه ديبس فعات في البلاد، ورجع وقد استقر في الصلح فقصد السلطان مستجيراً به فأبى من إجارته ومؤاخذته، وبعثه إلى السلطان محمود فقتله صبراً لما كان يستبد عليه بالأمور. وسار شحنة إلى بغداد على زعمه فحقد له ذلك، وأمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدين بهروز شحنة بالعراق، وكان بها نائب ديبس بن صدقة فعزل به. ثم قتل السلطان محمود حاجبه علي بن عمر وكان قد استخلفه ورفع منزلته فكثرت السعاية فيه فهرب إلى قلعة عند الكرخ، كان بها أهله وماله. ثم لحق بخوزستان وكان بيد بني برسقي فاقتضى عهدهم وسار إليهم. فلما كان على تستر بعثوا من يقبض عليه فقاتلهم فلم يقر عنه وأسرهم واستأذنوا السلطان محموداً في أمره فأمر بقتله وحمل رأسه إليه.

انتقاض الملك مسعود على أخيه السلطان

محمود والفتنة بينهما

كان الملك مسعود قد استقر بالموصل وأذربيجان منذ صاحبه السلطان محمود عليها بأول ملكه، وكان أقتنقر البرسقي مع الملك مسعود منذ فارق شحنة بغداد، وأقطعه مراغة مضافة إلى الرجة وكان ديبس ي كاتب حيرس بك الأتابك في القبض عليه وبعثه إلى مولاه السلطان محمود، ويذل لهم المال على ذلك. وشعر بذلك البرسقي ففارقه السلطان محمود، وعاد إلى جميل رأيته فيه. وكان ديبس مع ذلك يغري الأتابك حيرس بك بالخلاف على السلطان محمود، وبعدهم من نفسه المناصرة لينال باختلافهم في تمهيد سلطانه ما ناله أبوه باختلاف بركيارق ومحمد. وكان أبو المؤيد محمد بن أبي إسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني يكتب للملك محمود، ويرسم الطغري وهي العلامة على مراسيمه، ومنها هباته. وجاء والده أبو إسماعيل من أصفهان فعزل الملك مسعود وزيره أبا علي بن عمار صاحب طرابلس، واستوزره مكانه سنة ثلاث عشرة فحسن له الخلاف الذي كان ديبس يكاظمهم فيه ويحسنه لهم. وبلغ السلطان محموداً خبرهم فكتب يحذرهم فلم يقبلوا وخلعوا، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس، وذلك سنة أربع عشرة.

وكانت عساكر السلطان محمود مفترقة فبادروا إليه والتقوا في عقبة أستراباذ منتصف ربيع الأول، والبرسقي في مقدمة محمود،

ذلك، وكتب إلى السلطان محمود بأن ديبس لا يصلحه شيء لأنه مطالب بئار أبيه، وأشار بأن يبعث عن البرسقي من الموصل لتشديد ديبس ويكون شحنة ببغداد فبعث إليه السلطان وأنزله شحنة ببغداد، وأمره بقتال ديبس، فأقام عشرين شهراً وديبس معمل في الخلاف. ثم أمره المسترشد بالمسير إليه وإخراجه من الحلة، فاستقدم البرسقي عساكره من الموصل، وسار إلى الحلة، ولقيه ديبس فهزم عساكره ورجع إلى بغداد في ربيع من سنة ست عشرة، وكان معه في العسكر مضر بن النفيس بن مذهب الدولة أحمد بن أبي الخير عامل البطيحة، فغدا عليه عمه المظفر بن عماد بن أبي الخير فقتله في أنهرامهم.

وسار إلى البطيحة فتغلب عليها، وكاتب ديبس في الطاعة، وأرسل ديبس إلى المسترشد بطاعته، وأن يبعث عماله لقرى الخاص يقبضون دخلها على أن يقبض المسترشد على وزيره جلال الدين بن علي بن صدقة فتم بينهما ذلك، وقبض المسترشد على وزيره، وهرب ابن أخيه جلال الدين أبو الرضي إلى الموصل، وبلغ الخبر بالهزيمة إلى السلطان محمود فقبض على منصور أخي ديبس وحبيه، وأذن ديبس لأصحاب الإقطاع بواسط في المسير إلى أقطاعهم، فمنعهم الأتراك منها، فجهز إليهم عسكراً مع مهلهل بن أبي العسكر وأمر مظفر بن أبي الخير عامل البطيحة بمساعدته وبعث البرسقي المدد إلى أهل واسط فلقبهم مهلهل بن أبي المظفر فهزموه وأسروه وجماعة من عسكره واستلحموا كثيراً منهم.

وجاء المظفر أبو الخير على أثره، وأكثر النهب والعيث، وبلغه خبر الهزيمة فرجع وبعث أهل واسط بتذكرة وجدوها مع مهلهل بخط ديبس فأمره بالقبض على المظفر فمال إليهم وانحرف عن ديبس، ثم بلغ ديبس أن السلطان محموداً سمل أخاه منصوراً، فانتقض ونهب ما كان للخليفة بأعماله، وسار أهل واسط إلى النعمانية فأجلوا عنها أصحاب ديبس. وتقدم المسترشد إلى البرسقي بالمسير لحرب ديبس فسار لذلك كما نذكر. ثم أقطع السلطان محمود مدينة واسط للبرسقي مضافة إلى ولاية الموصل فبعث عماد الدين زنكي بن أقتنقر ولد نور الدين العادل.

نكبة الوزير ابن صدقة وولاية نظام الملك

قد ذكرنا آنفاً أن ديبس اشترط على المسترشد في صلحه معه القبض على وزيره جلال الدين أبي علي بن صدقة، فقبض عليه في جمادى سنة ست عشرة، وأقام في نياحة الوزارة شرف الدين علي بن طراد الزينبي. وهرب جلال الدين أبو الرضي ابن أخي

وذلك أنه كان ملازماً للسلطان في حروبه ناصحاً له وهو الذي حل السلطان مسعوداً على طاعة أخيه محمود وأحضره عنده، فلما حضر حيوس بك وزيره عند السلطان محمود من الموصل بقيت بدون أمير، فولى عليها البرسقي سنة خمس عشرة وخمسمائة، وأمره بمجاهدة الفرنج فأقام في إمارتها دهنراً هو وبنوه كما يأتي في أخبارهم. ثم بعث الأمير أبو الغازي بن أرتق ابنه حسام الدين ترمشاش شافعاً في ديبس بن صدقة، وأن يضمن الحلة بألف دينار وفرس في كل يوم، ولم يتم ذلك. فلما انتصرف عن السلطان أقطع أباه أبا الغازي مدينة ميفارقين وتسلمها من يد سقمان صاحب خلاد سنة خمس عشرة، وبقيت في يده ويد بنيه إلى أن ملكها منهم صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة كما يذكر في أخبارهم.

طاعة طغرل لأخيه السلطان محمود

قد تقدم ذكر انتقاض الملك طغرل بساوة وزنجان على أخيه السلطان محمود بمدخله أتابكة كتيغري، وأن السلطان محموداً المشار إليه أزعجه إلى كنجة، وسار إلى أذربيجان يحاول ملكها. ثم توفي أتابكة كتيغري في شوال سنة خمس عشرة، وكان أقتنقر الأحمد يلي صاحب مراغة فطمع في رتبة كتيغري، وسار إلى طغرل واستدعاه إلى مراغة وقصدوا أريدليل فامتعت عليهم، فجاؤوا إلى تبريز، وبلغهم أن السلطان أقطع أذربيجان لحيوس بك، ويعشه في العساكر وأنه سيقبضهم إلى مراغة فعدلوا عنها وكافؤوا صاحب زنجان فأجابهم وسار معهم إلى أبهر، فلم يتم لهم مرادهم، وراسلوا السلطان في الطاعة واستقر حالهم، وأما حيوس بك ف وقعت بينه وبين الأمراء من عسكره منافرة، فسعوا به عند السلطان فقتله بتبريز في رمضان من سته، وكان تركياً من عماليك السلطان محمد، وكان حسن السيرة مضطجعاً بالولاية. ولما ولي الموصل والجزيرة كان الأكراد قد عاثوا في نواحيها، وأخافوا سبلها فأوقع بهم وحصر قلاعهم، وفتح الكثير منها ببلد الهكارية وبلد الزوزان وبلد النسوية وبلد النحسة، حتى خاف الأكراد وأطمأن الناس وأمنت السبل.

أخبار ديبس مع المسترشد

قد ذكرنا مسير العساكر إلى ديبس مع برسق الكركوي سنة أربع عشرة وكيف وقع الاتفاق وبعث ديبس أخاه منصوراً رهينة فجاء يرتقش به إلى بغداد سنة ست عشرة، ولم يرض المسترشد

زنكي بن أفسر في عسكر واسط على عنتر بن أبي العسكر فأمره ومن معه.

وكان من عسكر المسترشد كمين متوار، فلما التحم الناس خرج الكمين واشتد الحرب وجرى المسترشد سيفه وكبر وتقدم فانهزمت عساكر ديبس، وجيء بالأسرى فقتلوا بين يدي الخليفة وسبي نساؤهم، ورجع الخليفة إلى بغداد في عاشوراء من سنة سبع عشرة. وذهب ديبس وخفي أثره وقصد غزية من العرب فأبوا من ذلك إثارة لرضا المسترشد والسultan، فسار إلى المشقر من البحرين فأجابوه وسار بهم إلى البصرة فنهبوا وقتلوا أميرها، وتقدم المسترشد للبرسقي بالانحدار إليه بعد أن عنفه على غفلته عنه، وسمع ديبس فقارق البصرة، وبعث البرسقي عليها زنكي بن أفسر فأحسن حمايتها وطرد العرب عن نواحيها، ولحق ديبس بالفرنج في جعبر وحاصر معهم حلب فلم يظفروا وأقلعوا عنها سنة ثمان عشرة، فلحق ديبس بطغرل ابن السلطان محمد وأغراه بالمسترشد وملك العراق كما نذكر.

ولاية برتقش شحنة بغداد

ثم إن المسترشد وقعت بينه وبين البرسقي منافرة فكتب إلى السلطان محمود في عزله عن العراق، وإبعاده إلى الموصل فأجابه إلى ذلك، وأرسل إلى البرسقي بالمسير إلى الموصل لجهاد الإفرنج، وبعث إليه بابن صغير من أولاده يكون معه وولى على شحنة بغداد برتقش الزكوي، وجاء نائبه إلى بغداد فسلم إليه البرسقي العمل وسار إلى الموصل بابن السلطان، وبعث إلى عماد الدين زنكي أن يلحق به فسار إلى السلطان، وقدم عليه بالموصل فأكرمه واقطعه البصرة وأعادته إليها.

وصول الملك طغرل ودييس إلى العراق

قد ذكرنا مسير ديبس بن صدقة من الشام إلى الملك طغرل فأحسن إليه ورتبه في خاص أمراءه، وجعل ديبس يغريه بالعراق ويضمن له ملكه، فسار لذلك سنة تسع عشرة، ووصلوا دقوقاً، فكتب مجاهد الدين مهروز من تكريت إلى المسترشد بمخبرهما، فتجهز إلى دفاعهما وسار إليهما. وأمر برتقش الزكوي الشحنة أن يستنفر ويستعد فبلغت عدة العسكر اثني عشر ألفاً سوى أهل بغداد، وبرز خامس صفر سنة تسع عشرة، وسار فنزل الخالص، وعدل طغرل إلى طريق خراسان، وأكثر عساكره النهب، ونزل رباط جلولاء. وسار إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في

الوزير إلى الموصل. وبعث السلطان محمود إلى المسترشد في أن يستوزر نظام الدولة أبا نصر أحمد بن نظام الملك، وكان السلطان محمود قد استوزر أخاه شمس الملك عثمان عندما قل الباطنية بهمدان.... وزيره الكمال أبا طالب السمريري فقبل المسترشد إشارته، واستوزر نظام الملك، وقد كان وزير للسلطان محمد سنة خمسائة، ثم عزل ولزم داره ببغداد. فلما وزر وعلم ابن صدقة أنه يخرج طلب من المسترشد أن يسير إلى سليمان بن مهارش بمدينة غانة، فأذن له، فسار ونهب في طريقه وأسر، ثم خلص إلى مأمته في واقعة عجيبة. ثم قتل السلطان محمود وزيره شمس الملك فعزل المسترشد أخاه نظام الدين أحمد عن وزارته، وأعاد جلال الدين أبا علي بن صدقة إلى مكانه.

واقعة المسترشد مع ديبس

كان ديبس في واقعة مع البرسقي قد أسر عقيفاً الخادم، ثم أطلقه سنة سبع عشرة، وحمله إلى المسترشد رسالة بخروج البرسقي للقتال يتهدد بذلك على ما بلغه من سمل أخيه، وحلف لينهين بغداد، فاستطار المسترشد غضباً وأمر البرسقي بالمسير لحربه، فسار في رمضان من سته. ثم تجهز للخليفة وبرز من بغداد واستدعى العساكر فجاءه سليمان بن مهارش صاحب الحديثة في بني عقيل، وقرواش بن مسلم وغيرهما. ونهب ديبس نهر الملك من خاص الخليفة ونودي في بغداد بالنفير فلم يتخلف أحد، وفرت فيهم الأموال والسلاح وعسكر المسترشد خارج بغداد في عشر ذي الحجة، وبرز لأربع بعدها وعبر دجلة وعليه قباء أسود وعمامة سوداء، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيبي وفي وسطه منقطة حديد صيني، ووزيره معه نظام الدين وتقيب الطالبيين وتقيب النقباء علي بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل وغيرهم. فنزل بجيمة، وبلغ البرسقي خروجه فعاد بعسكره إليه.

ونزل المسترشد بالحديثة بنهر الملك واستحلف البرسقي والأمراء على المناصحة، وسار فنزل المباركة، وعبى البرسقي أصحابه للحرب ووقف المسترشد وراء العسكر في خاصته، وعبى ديبس أصحابه صفاً واحداً وبين يديهم الإماء تعزف وأصحاب الملاهي، وعسكر الخليفة تتجاذب القراءة والتسبيح مع جنباة، ومع أعلامه كرابوي خراسان وفي الساقة سليمان بن مهارش. وفي ميمنة البرسقي أبو بكر بن إلياس مع الأمراء البلخية، فحمل عنتر بن أبي العسكر من عسكر ديبس على ميمنة البرسقي فدحرها وقتل ابن أخي أبي بكر. ثم حل ثانية كذلك فحمل عماد الدين

العامة لذلك واجتمعوا، وخرج المسترشد والشماسية على رأسه والوزير بين يديه، وأمر بضرب الطبول ونفخ الأبواق، ونادى بأعلى صوته يا هاشم! ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة. وكان في الدار رجال مختفون في السراييب فخرجوا على العسكر وهم مشتغلون في نهب الدار فأسروا جماعة منهم ونهب العامة دور أصحاب السلطان وعبر المسترشد إلى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد، وأمر بحفر الخنادق فحفرت ليلاً، ومنعوا بغداد عنهم، واعتزموا على كبس السلطان محمود.

وجاء عماد الدين زنكي من البصرة في حشود عظيمة ملأت البر والبحر فاعتزم السلطان على قتال بغداد، وأذن المسترشد إلى الصلح فاصطلحوا وأقام السلطان ببغداد إلى ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين، ومرض فاشير عليه بمفارقة بغداد فارتحل إلى همدان ونظر فيمن يوليه شحنة العراق مضافاً إلى ما بيده، ويثق به في سد تلك الخلة. وحمل إليه الخليفة عند رحيله الهدايا والتحف الألفاظ فقبل جميعها. ولما أبعد السلطان عن بغداد قبض على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر الشاباذي لاثمائه بمالأة المسترشد، واستوزر مكانه شرف الدين أنوشروان بن خالد، وكان مقيماً ببغداد فاستدعاه وأهدى إليه الناس حتى الخليفة. وسار من بغداد في شعبان فوصل إلى السلطان بأصبهان وخلع عليه، ثم استعفى لعشرة أشهر وعاد إلى بغداد ولم يزل الوزير أبو القاسم محبوساً إلى أن جاء السلطان سنجر إلى الري في السنة بعدها فأطلقه وأعادته إلى وزارة السلطان.

أخبار ديبس مع السلطان سنجر

لما وصل ديبس إلى السلطان سنجر ومعه طغرل أغرياه بالمسترشد والسلطان محمود، وأنهما عاصيان عليه، وسهلا عليه أمر العراق فسار إلى الري واستدعى السلطان محموداً يخبر طاعته بذلك فيادر لقاؤه. ولما وصل أمر سنجر العساكر تفلقوه وأجلسه معه على سريريه، وأقام عنده مدة وأوصاه بديبس أن يعيده إلى بلده، ورجع سنجر إلى خراسان متصرف ذي الحجة ورجع محمود إلى همدان وديبس معه، ثم سار إلى بغداد فقدمها في تاسوعاء سنة ثلاث وعشرين واسترضى المسترشد لديبس فرضي عنه، على شريطة أن يوليه غير الخلة فبذل في الموصل مائة ألف دينار. وشعر بذلك زنكي فجاء بنفسه إلى السلطان وهجم على الستر متذمماً، وحمل الهدايا وبذل مائة ألف فأعاده السلطان إلى الموصل، وأعاد

العساكر، فنزل الدسكرة وجاء المسترشد فنزل معه، وتوجه طغرل وديبس فنزلا المارونية، واتفقا أن يقطعا جسر النهروان فيقيم ديبس على المعابر، ويخالفهم طغرل إلى بغداد، ثم عاقبتهم جميعاً عوائق المطر وأصاب طغرل الحمى، وجاء ديبس إلى النهروان ليعبر وقد لحقهم الجوع، فصادف أملاً من البر، والأطعمة جاءت من بغداد للمسترشد فنهها، وأرجف في معسكر المسترشد أن ديبس ملك بغداد فأجفلوا من الدسكرة إلى النهروان وتركوا ألقاهم. ولما حلوا بالنهروان وجدوا ديبس وأصحابه نياماً فاستيقظ وقبّل الأرض بين يدي المسترشد وتذلل فهم بصلحه ووصل الوزير ابن صدقة فثناه عن ذلك ثم مد المسترشد الجسر وعبر ودخل بغداد لفتنة خمسة وعشرين يوماً. وسار ديبس إلى طغرل ثم اعتزموا على المسير إلى السلطان سنجر، ومروا بهمدان فعاثوا في أعمالها وصادروا، واتبعهم السلطان فانهزموا بين يديه ولحقوا بالسلطان سنجر شاكين من المسترشد والشحنة برتقش.

الفتنة بين المسترشد والسلطان محمود

ثم وقعت بين برتقش الزكوي وبين نواب المسترشد نبوة فبعث إليه المسترشد يتهده فخافه على نفسه، وسار إلى السلطان محمود في رجب سنة عشرين فحذر منه، وأنه ثاور العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه، وأشار بمعاجلته قبل أن يستفحل أمره ويمتنع عليه فسار السلطان نحو العراق، فبعث إليه المسترشد بالرجوع عن البلاد لما فيها من الغلاء من فتنة ديبس، وبذل له المال، وأن يسير إلى العراق مرة أخرى، فارتاب السلطان وصدق ما ظنه برتقش وأغذ السير فعبّر المسترشد إلى الجانب الغربي مغضباً يظهر الرحيل عن بغداد إذ قصدوا السلطان. وصانعه السلطان بالاستعطاف وسؤاله في العود فأبى فغضب السلطان ودخل نحو بغداد.

وأقام المسترشد بالجانب الغربي وبعث عفيفاً الخادم من خواصه في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان، فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن أقتسر وكان على البصرة كما ذكرناه، فسار إليه وهزمه وقتل من عسكره، ونجا عفيف إلى المسترشد برأسه فجمع المسترشد السفن وسد أبواب دار الخلافة إلا باب النوبي، ووصل السلطان في عشر ذي الحجة من سنة عشرين، ونزل باب الشماسية، ومنع العسكر عن دور الناس. وراسل المسترشد في العود والصلح فأبى، ونجا جماعة من عسكر السلطان فنهروا التاج في أول المحرم سنة إحدى وعشرين فضج

بهرز شحنة على بغداد، وجعلت الحلة لنظره.

الجناب الغربي للقاءه، وواقعه فهزمه، وسار منهزماً إلى تكريت وبها يومئذ نجم الدين أيوب أبو السلطان صلاح الدين، فيها له الجسر للعبور، وعبر فأمن وسار لوجهه. وجاء السلطان مسعود من العباسية للقاء أخيه سلجوق ومن معه مدلاً بمكان زنكي وعسكره من ورائهم، وبلغه خبر انهزامهم فنكص على عقبه، وراسل المسترشد بأن السلطان سنجر وصل إلي وطلب الاتفاق من المسترشد وأخيه سلجوق شاه قراجا على قتال سنجر، على أن يكون العراق للمسترشد يتصرف فيه نوابه، والسلطنة لمسعود وسلجوق شاه ولي عهده فأجابوه إلى ذلك وجاء إلى بغداد في جمادى الأولى سنة ست وعشرين، وتعاهدوا على ذلك.

واقعة مسعود مع سنجر وهزيمته وسلطنة

طغرل

لما توفي السلطان محمود وولي ابنه داود مكانه، نكر ذلك عمه السلطان سنجر عليهم، وسار إلى بلاد الجبل ومعه طغرل ابن أخيه السلطان محمد، كان عنده منذ وصوله مع ديبس فوصل إلى الري، ثم إلى همدان، وسار السلطان مسعود وأخوه سلجوق وقراجا الساقى أتاك سلجوق للقاءه. وكان المسترشد قد عاهدهم على الخروج والزموه ذلك. ثم إن السلطان سنجر بعث إلى ديبس وأقطعه الحلة وأمره بالمسير إلى بغداد، وبعث إلى عماد الدين زنكي بولاية شيخنكة بغداد، والسير إليها فبلغ المسترشد خبر مسيرهما فرجع لمداغتتهما.

وسار السلطان مسعود وأصحابه للقاء السلطان سنجر، ونزل أستراباذ في مائة ألف من العسكر فقاموا عن لقاءه، ورجعوا أربع مراحل فأتبهم سنجر، وترأى الجمعان عند الدينور ثامن رجب، فاقتتلوا وعلى ميمنة مسعود قراجا الساقى وكُزل، وعلى مسيرته برتقش باردار، ويوسف حاروس فحمل قراجا الساقى في عشرة آلاف على السلطان سنجر، حتى تورط في مصافه فانهطوا عليه من الجانبين، وأخذ أسيراً بعد جراحات. وانهزم مسعود وأصحابه، وقتل بعضهم، وفيهم يومئذ يوسف حاروس، وأسر آخرون فيهم قراجا فأحضر عند السلطان سنجر فوجّهه، ثم أمر بقتله. وجاء السلطان مسعود إليه فأكرمه وعاتبه على مخالفته وأعادته أسيراً إلى كنجة. وولى الملك طغرل ابن أخيه محمداً في السلطنة وجعل وزيره أبا القاسم النشاباذي وزير السلطان محمود، وعاد إلى خراسان ووصل نيسابور في عاشر رمضان من سته.

وأما الخليفة فرجع إلى بغداد كما قلناه لمداغعة ديبس

وسار السلطان إلى همدان في جمادى سنة ثلاث وعشرين، ثم مرض السلطان فلتحق ديبس بالعراق، وحشد المسترشد لمداغته، وهرب بهروز من الحلة فدخلها ديبس في رمضان من سنة ثلاث وعشرين. وبعث السلطان في أثره الأميرين اللذين ضمناه له، وهما كزل والأحمدلي، فلما سمع ديبس بهما أرسل إلى المسترشد يستعطفه، وتردد الرسل وهو يجمع الأموال والرجال حتى بلغ عسكره عشرة آلاف، ووصل الأحمدلي ببغداد في شوال وسار في أثر ديبس. ثم جاء السلطان إلى العراق فبعث إليه ديبس بالهدايا وبذل الأموال على الرضى فأبى، ووصل إلى بغداد، ودخل ديبس البرية، وقصد البصرة فأخذ ما كان فيها للخليفة والسلطان، وجاءت العساكر في اتباعه فدخل البرية. انتهى.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود ثم

منازعتة عمومته واستقلال مسعود

ثم توفي السلطان محمود في شوال من سنة خمس وعشرين لثلاث عشرة سنة من ملكه، واتفق وزيره أبو القاسم النشاباذي وأتابكة أفسنغر الأحمدلي على ولاية ابنه داود مكانه وخطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان، ووقعت الفتنة بهمدان ونواحها ثم سكنت، فسار الوزير بأمواله إلى الري ليأمن في إيالة السلطان سنجر. ثم إن الملك داود سار في ذي القعدة من سنة خمس وعشرين من همدان إلى ريكان، وبعث إلى المسترشد ببغداد في الخطبة، وأتاه الخبر بأن عمه مسعوداً سار من جرجان إلى تبريز وملكها فسار إليه وحصره في تبريز إلى سلخ الحرم من سنة ست وعشرين، ثم اصطلحا وأفرج داود عن تبريز، وخرج السلطان مسعود منها، واجتمعت عليه العساكر فانتقض وسار إلى همدان.

وأرسل إلى المسترشد في الخطبة فأجابهم جميعاً بأن الخطبة للسلطان سنجر صاحب خراسان، ويعين بعده من يراه. وبعث إلى سنجر بأن الخطبة إنما ينبغي أن تكون لك وحدك فوقع ذلك منه أحسن موقع، وكتب السلطان منه أحسن موقع وكتب السلطان مسعود عماد الدين زنكي صاحب الموصل فأجابه وسار إليه وانتهى إلى العشوق. وبينما هم في ذلك إذ ثار قراجا الساقى صاحب فارس وخوزستان بالملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد، وكان أتابكة فدخل بغداد في عسكر كبير، ونزل دار السلطان واستخلفه المسترشد لنفسه، ووصل مسعود إلى عباسية فبرزوا للقاءه، وجاءهم خبر عماد الدين زنكي فعبر قراجا إلى

مسير المسترشد لحصار الموصل

لما انهزم عماد الدين زنكي أمام المسترشد كما قلنا لحق بالموصل، وشغل سلاطين السلجوقية في همدان بالخلف الواقع بينهم، ولجأ من أمراء السلجوقية إلى بغداد فراراً من الفتنة فقوي بهم المسترشد، وبعث إلى عماد الدين زنكي بعض شيوخ الصوفية من حضرته فأغلظ له في الموعظة فأهانته زنكي وحبسه، فاعتزم المسترشد على حصار الموصل وبعث بذلك إلى السلطان مسعود، وسار من بغداد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين في ثلاثين ألف مقاتل. ولما قارب الموصل فارقتها زنكي ونزل بها نائبه نصير الدين حقر، ولحق بسنجر وأقام يقطع المدد والميرة عن عسكر المسترشد حتى ضاقت بهم الأمور، وحاصرها المسترشد ثلاثة أشهر فامتعت عليه ورحل عائداً إلى بغداد، فوصل يوم عرفة من سته. يقال: إن مطراً الخادم جاء من عسكر السلطان مسعود لأنه قاصد العراق فارتحلا لذلك.

مضاف طغرل ومسعود وانهزام مسعود

ولما عاد مسعود إلى همدان بعد انهزام أخيه طغرل، بلغه انتقاض داود ابن أخيه محمود بأذربيجان فسار إليه وحصره ببعض قلاعها، فخالفة طغرل إلى بلاد الجبل، واجتمعت عليه العساكر ففتح كثيراً من البلاد، وقصد مسعوداً وانتهى إلى قزوین فسار مسعود للقائه، وهرب من عسكره جماعة كان طغرل قد داخلهم واستألمهم، فولى مسعود منهزماً آخر رمضان سنة ثمان وعشرين، واستأذن المسترشد في دخول بغداد وكان نائبه بأصبهان البقش السلامي، ومعه أخوه سلجوق شاه، فلما بلغهم خبر الهزيمة لحقوا ببغداد، ونزل سلجوق بدار السلطان، وبعث إليه الخليفة بعشرة آلاف دينار. ثم قدم مسعود بعدهم ولقي في طريقه شدة وأصحابه بين راجلين وركاب فبعث إليهم المسترشد بالمقام والخيام والأموال والثياب والآلات، وقرب إليهم المنازل، ونزل مسعود بدار السلطنة ببغداد منتصف شوال سنة ثمان، وأقام طغرل بهمدان.

وفاة طغرل واستيلاء السلطان مسعود

ولما وصل مسعود إلى بغداد أكرمه المسترشد، ووعد به بالمسير معه لقتال أخيه طغرل، وأزاح علل عسكره واستحثه لذلك، وكان جماعة من أمراء السلجوقية قد ضجروا من الفتنة، ولحقوا بالمسترشد فساروا معه ودمس إليهم طغرل بالمواعيد فارتاب

وزنكي، وبلغه الخبر بهزيمة السلطان مسعود، فعبر إلى الجانب الغربي وسار إلى العباسية، ولقيهما بمحصر البرامكة آخر رجب. وكان في ميمنته جمال الدولة إقبال، وفي مسرته مطر الخادم فانهزم إقبال لحملة زنكي، وحمل الخليفة ومطر على ديبس فانهزم، وتبعه زنكي فاستمرت الهزيمة عليهم وافترقوا، ومضى ديبس إلى الحلة وكانت بيد إقبال، وجاءه المدد من بغداد فلقي ديبس وهزمه، ثم تخلص بعد الجهد، وقصد واسط وأطاعه عسكرها إلى أن خلت سنة سبع وعشرين، فجاءهم إقبال وبرقش باردار، وزحفوا في العساكر براً وبحراً فانهزمت أهل واسط.

ولما استقر طغرل بالسلطنة وعاد عمه سنجر إلى خراسان لخلاف أحمد خان صاحب ما وراء النهر عليه، وكان داود بيلاد أذربيجان وكنجة فانتقض وجمع العساكر وسار إلى همدان ويرز إليه طغرل وفي ميمنته ابن برست وفي مسرته كزل وفي مقدمته أقسنقر. وسار إليه داود في ميمنته برقش الزكوي والتقياً في رمضان سنة ست وعشرين فأمسك برقش عن القتال، واستراب التركمان منه فنهبوا خيمته، واضطرب عسكر داود لذلك فهرب أتاكبة أقسنقر الأحمدي، واستمرت الهزيمة عليهم وأسر برقش الزكوي، ومضى داود ثم قدم بغداد ومعه أتاكبة أقسنقر الأحمدي فأنزله الخليفة بدار السلطان وأكرمه.

ولما بلغ السلطان مسعوداً هزيمة داود ووصله إلى بغداد قدم إليها وخرج داود لتلقيه، وترجل له عن فرسه، ونزل مسعود بدار السلطنة في صفر سنة سبع وعشرين، وخطب له على منابر بغداد ولداود بعده، واتفق مع المسترشد بالسير إلى أذربيجان وأن يمدحها، وسارا لذلك، وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان، وحاصر جماعة من الأمراء بأردبيل ثم هزمهم وقتل منهم، وسار إلى همدان وبرز أخو طغرل للقائه فانهزم، واستولى مسعود على همدان وقتل أقسنقر، قتله الباطنية ويقال: بدسيسة السلطان محمود. ولما انهزم طغرل قصد الري وبلغ قم، ثم عاد إلى أصبهان ليمتنع بها وسار أخوه مسعود للحصار فارتاب طغرل بأهل أصبهان، وسار إلى بلاد فارس فاتبه مسعود، واستأمن إليه بعض أمراء طغرل فارتاب بالباقيين، وانهزم إلى الري في رمضان من سته، واتبه مسعود فلحقه بالري، وقتله فانهزم طغرل وأسر جماعة من أمراءه. وعاد مسعود إلى همدان ظافراً، وعندما قصد طغرل الري من فارس قتل في طريقه وزيره أبا القاسم النشابادي في شوال من سته لموجدة وجدلها عليه.

المسترشد ببعضهم، وأطلع على كتاب طغرل إليه، وقبض عليه ونهب ماله، فلحق الباقون بالسلطان، وبعث فيهم المسترشد فمنعهم السلطان فحدث بينهم الوحشة لذلك، وبعث السلطان إلى الخليفة يلزمه المسير معه، وبينما هما على ذلك إذ جاءه الخبر ب وفاة طغرل، في المحرم من سنة تسع وعشرين، فسار السلطان مسعود إلى همدان وأقبلت إليه العساكر فاستولى عليها، وأطاعه أهل البلاد، واستوزر شرف الدين أنوشروان خالداً، وكان قد سار معه بأهله.

فتنة السلطان مسعود مع المسترشد

لما استولى السلطان مسعود على همدان استوحش منه جماعة من أعيان الأمراء، منهم برتقش وكزل وسنقر والي همدان، وعبد الرحمن بن طغرليك، ففارقوه وديس بن صدقة معهم، واستأمنوا إلى الخليفة ولحقوا بخوزستان وتعاهدوا مع برمسق على طاعة المسترشد، وحذر المسترشد من ديس وبعث شديد الدولة بن الأنباري الأمان للأمراء دون ديس، ورجع ديس إلى السلطان مسعود. وسار الأمراء إلى بغداد فأكرمهم المسترشد، واشتدت وحشة السلطان مسعود لذلك، ومنافوته للمسترشد فاعتزم المسترشد على قتاله، وبرز من بغداد في عاشر رجب وأقام بالشفيع وعصي عليه صاحب البصرة فلم يبيح، وأمراء السلجوقية الذين بقوا معه يحرضونه على المسير فبعث مقدمته إلى حلوان.

ثم سار من شعبان واستخلف على العراق إقبالاً خادمه في ثلاث آلاف فارس ولحقه برمسق بن برمسق فبلغ عسكره سبعة آلاف فارس، وكان أصحاب الأعراب يكتبون المسترشد بالطاعة فاستصلحهم مسعود، ولحقوا به، وبلغ عسكره خمسة عشر ألفاً، وتسلى إليه كثير من عسكر المسترشد حتى بقي في خمسة آلاف، وبعث إليه داود ابن السلطان محمود من أذربيجان بأن يقصد الدينور ليلقاه بها بعسكره فجفل للقاء السلطان مسعود، وسار وفي ميمنة برتقش باردار وكور الدولة سنقر وكزل ويرسق بن برمسق، وفي ميسرته جاولي برسفي وسراب سلاز وأغلبك الذي كان قبض عليه من أمراء السلجوقية موافقتهم السلطان وكان ذلك عاشر رمضان سنة تسع وعشرين.

والمحازت ميسرة المسترشد إليه وانطبقت عساكره عليه، وانهزم أصحاب المسترشد وأخذ هو أسيراً بموكبه، وفيهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، وقاضي القضاة والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم. وأنزل المسترشد في خيمة، وحبس

مقتل المسترشد وخلافة الراشد

قد ذكرنا مسير المسترشد مع السلطان مسعود إلى مراغة وهو في خيمة موكل به. وترددت الرسل بينهما وتقرر الصلح على أن يحمل مالاً للسلطان ولا يجمع العساكر لحرب ولا فتنة، ولا يخرج من داره فانهقد على ذلك بينهما، وركب المسترشد وحملت الغاشية بين يديه وهو على العود إلى بغداد فوصل الخبر بموافاة رسول من السلطان سنجر فتأخر مسيره لذلك، وركب السلطان مسعود للقاء الرسول، وكانت خيمة المسترشد منفردة العسكر فدخل عليه عشرون رجلاً أو يزيدون من الباطنية فقتلوه وجدعوه وصلبوه، وذلك سابع عشر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين، لسبع عشرة ونصف من خلافته.

وقتل الرجال الذين قتلوه ويوم ابنه أبو جعفر بعهد أبيه إليه بذلك فجددت له البيعة ببغداد في ملأ من الناس، وكان إقبال خادم المسترشد في بغداد، فلما وقعت هذه الحادثة عبر إلى الجانب الغربي وأصعد إلى تكريت ونزل على مجاهد الدين بهروز. ثم بعد مقتل المسترشد بأيام قتل ديس بن صدقة على باب سراقده بظاهر مدينة خوي، أمر السلطان مسعود غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه فضربه، وأسقط رأسه، واجتمع إلى أبيه صدقة بالحلة عساكره ومغاليكه واستأمن إليه قتلغ تكين، وأمر السلطان مسعود بك أي شحنة بغداد فأخذ الحلة من يد صدقة فبعث بعض عسكره إلى المدائن، وخام عن لقائه حتى قدم السلطان إلى بغداد سنة إحدى وثلاثين فقصده وصالحه ولزم بابه.

الفتنة بين الراشد والسلطان مسعود وخالقه بالموصل وخلعه

والشهود وعرض عليهم يمين الراشد بخطه: إني متى جندت جنداً، وخرجت ولقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر فافتوا بخلعه. ووافقهم على ذلك أصحاب المناصب والولايات، واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان لخلعه، وقطعت خطبته ببغداد وسائر البلاد في ذي القعدة من سنة ثلاثين لسنة من خلافته.

خلافة المفتفي

ولما قطعت خطبة الراشد استشار السلطان مسعود أعيان بغداد فيمن يوليه، فأشاروا بمحمد بن المستظهر فقدم إليهم بعمل محضر في خلع الراشد، وذكروا ما ارتكبه من أخذ الأموال ومن الأفعال القاذحة في الإمامة، وختموا آخر المحضر بأن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. وحضر القاضي أبو طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده بذلك وحكم بخلعه، ونفذه القضاة الآخرون وكان قاضي القضاة غائباً عند زنكي بالموصل، وحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وصاحب المخزن ابن العسقلاني، وأحضر أبو عبد الله بن المستظهر فدخل إليه السلطان والوزير واستخلفاه. ثم أدخلوا الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء فبايعوه ثامن عشر ذي الحجة ولقبوه المفتفي. واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي وبعث كتاب الحكم بخلع الراشد إلى الآفاق، وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين فأعاده إلى منصبه، وكماال الدين حمزة بن طلحة صاحب المخزن كذلك.

فتنة السلطان مسعود مع داود واجتماع داود للراشد للحرب ومقتل الراشد

ولما بوع للمفتفي والسلطان مسعود ببغداد، بعث عساكره يطلب الملك داود فلقية عند مراغة فانهزم داود وملك قراسنقر أذربيجان. ثم قصد داود خوزستان، واجتمع عليه من عساكر التركمان وغيرهم نحو عشرة آلاف مقاتل، وحاصر تستر وكان السلطان سلاجوق شاه بواسط بعث إلى أخيه مسعود يستنجه فانجده بالعساكر وسار إلى تستر فقاتله داود وهزمه. وكان السلطان مسعود مقيماً ببغداد مخافة أن يقصد الراشد العراق من الموصل، وكان قد بعث لزنكي فخطب للمفتفي في رجب سنة إحدى وثلاثين، وسار الراشد من الموصل، فلما بلغ خبر مسيره إلى

وبعد بيعة الراشد واستقراره في الخلافة وصل برتقش الزكري من عند السلطان محمود يطلب من الراشد ما استقر على أيه من المال أيام كونه عندهم، وهو أربعمائة ألف دينار فأجابه بأنه لم يخلف شيئاً وأن ماله كان معه فنهب. ثم غي إلى الراشد أن برتقش تهجم على دار الخلافة وتنتش المال فجمع الراشد العساكر وأصلح السور، ثم ركب برتقش ومعه الأمراء البلخية وجاؤوا لهجم الدار، وقاتلهم عسكر الخليفة والعامه فساروا إلى طريق خراسان والمحدرك بك أي إلى خراسان، وسار برتقش إلى البند هجين، ونهبت العامة دار السلطان والراشد واشتدت الوحشة بين السلطان والراشد، وانحرف الناس عن طاعة السلطان إلى الخليفة، وسار داود بن السلطان في عسكر أذربيجان إلى بغداد، ونزل بدار السلطان في صفر من سنة ثلاثين.

ووصل عماد الدين زنكي من الموصل، ووصل برتقش باردار صاحب قزوين، والبش الكبير صاحب أصبهان، وصدقة بن ديبس صاحب الحلة، وابن برسق وابن الأحمدي وجفل الملك داود برتقش باردار شحنة ببغداد، وقبض الراشد على ناصح الدولة أبي عبد الله الحسن بن جهمر أستاذار، وعلى جمال الدين إقبال. وكان قدم إليه من تكريت فتكرت له أصحابه وخانوه، وشفع زنكي في إقبال الخادم فاطلقه وصار عنده، وخرج الوزير جلال الدين أبو الرضا بن صدقة لتلقي زنكي فأقام عنده. ثم شفع فيه وأعاده إلى وزارته ولحق قاضي القضاة الزينبي بزنكي أيضاً، وسار معه إلى الموصل، ووصل سلاجوق شاه إلى واسط وقبض بها بك أي ونهب ماله فالحمدرك زنكي إليه وصاحله ورجع إلى بغداد.

ثم سار السلطان داود نحو طريق خراسان ومعه زنكي لقتال السلطان مسعود، وبرز الراشد أول رمضان وسار إلى طريق خراسان ورجع بعد ثلاث وأرسل إلى داود والأمراء بالعود وقتال مسعود من وراء السور، وراسلهم مسعود بالطاعة والموافقة فأبوا، وتبعهم الخليفة في ذلك. وجاء مسعود فتزل على بغداد وحصرهم فيها، وثار العيارون وكثر المخرج وأقاموا كذلك نيفاً وخمسين، وامتنعوا وأقلع السلطان عنهم. ثم وصله طرنتاني صاحب واسط بالسفن فعاد وعبر إلى الجانب الغربي فاضطرب الراشد وأصحابه، وعاد داود إلى بلاده، وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الراشد وسار معه إلى الموصل، ودخل السلطان مسعود بغداد متتصف ذي القعدة سنة ثلاثين، وأمن الناس. واستدعى القضاة والفقهاء

السلطان، حتى قام بكسوتها تاجر فارسي من المتردين إلى الهند، أنفق فيها ثمانية عشر ألف دينار مصرية، وكثر الهرج من العيارين حتى ركب زعمائهم الخيول وجمعوا الجموع، وتستر الوالي ببغداد بلباس ابن أخيه سراويل الفتوة عن زعيمهم ليدخل في جملتهم، وحتى هم زعيمهم بنقش اسمه في سكة بانبار فحاول الشحنة والوزير على قتله فقتل، ونسب أمر العيارين إلى البقش الشحنة لما أحدث من الظلم والعسف فقبض عليه السلطان مسعود وحبسه بتكرت عند مجاهد الدين بهروز، ثم أمر بقتله فقتل. ثم قدم السلطان مسعود في ربيع سنة ثلاث وثلاثين في الشتاء، وكان يشي بالعراق ويصيف بالجبال. فلما قدم أزال المكوس وكتب بذلك في الألواح فنصبت في الأسواق وعلى أبواب الجامع ورفع عن العامة نزول الجند عليهم فكثر الدعا له والثناء عليه.

وزارة الخليفة

وفي سنة أربع وثلاثين وقع بين المفتي ووزيره علي بن طراد الزيني وحشة بما كان يعترض على المفتي في أمره، فخاف واستجار بالسلطان مسعود فأجاره، وشفع إلى المفتي في إعادته فامتنع وأسقط اسمه من الكتب، واستتاب المفتي ابن عمه قاضي القضاة والزيني، ثم عزله واستتاب شديد الدولة الأنباري. ثم وصل السلطان إلى بغداد سنة ست وثلاثين فوجد الوزير شرف الدين الزيني في داره فبعث وزيره إلى المفتي شفيعاً في إطلاق سبيله إلى بيته فأذن له. انتهى.

الشحنة ببغداد

وفي سنة ست وثلاثين عزل مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، وولى كزول أميراً آخر من عماليك السلطان محمود، فكان على البصرة فأضيف إليه شحنة بغداد، ولما وصل السلطان مسعود إلى بغداد ورأى تبسط العيارين وفسادهم أعاد بهروز شحنة، ولم يتفع الناس بذلك لأن العيارين كانوا يتسكون بالجاه من أهل الدولة فلا يقدر بهروز على منعهم، وكان ابن الوزير وابن قاروت صهر السلطان يقاسمهم فيما يأخوذ من النهب. واتفق سنة ثمان وثمانين أن السلطان أرسل نائب الشحنة وبجته على فساد العيارين فاخبره بشأن صهره وابن وزيره فأقسم ليصلبه إن لم يصلبهما فأخذ خاتمه على ذلك، وقبض على صهره ابن قاروت فصلبه وهرب ابن الوزير، وقبض على أكثر العيارين واقتروا وكفى الناس شرهم.

السلطان مسعود أذن للعسكر في العود إلى بلادهم، وانصرف صدقة بن دبيس صاحب الحلة بعد أن زوجه ابنته.

ثم قدم على السلطان مسعود جماعة الأمراء الذين كانوا مع الملك داود مثل البقش السلامي وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر خمارتكين شحنة همذان، فرضي عنهم وولى البقش شحنة ببغداد فظلم الناس وعسفهم. ولما فارق الراشد زنكي من الموصل سار إلى أذربيجان وانتهى إلى مراغة، وكان بوزابة وعبد الرحمن طغرل بك صاحب خلخال، والملك داود وابن السلطان محمود خاضعين من السلطان مسعود فاجتمعوا إلى منكبرس صاحب فارس وتعاهدوا على بيعه داود، وأن يردوا الراشد إلى الخلافة فاجابه الراشد إلى ذلك، وبلغ الخبر إلى السلطان فسار من بغداد في شعبان سنة اثنتين وثلاثين، وبلغهم قبل وصوله ووصول الراشد إليهم فقاتلهم بخوزستان فانهزموا وأسر منكبرس صاحب فارس فقتله السلطان مسعود صبراً، وافترت عساكره للنهب وفي طلب المهزمين، ورأه بوزابة وعبد الرحمن طغرل بك في قل من الجنود فحملوا عليه، وقتل بوزابة جماعة من الأمراء منهم صدقة بن دبيس وابن قراستقر الأنابك صاحب أذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم كان قبض عليهم لأول الهزيمة وأمسكهم عنده، فلما بلغه قتل منكبرس قتلهم جميعاً وانصرف العسكران منهزمين، وقصد مسعود أذربيجان وداود همذان. وجاء إليه الراشد بعد الوقعة وأشار بوزابة وكان كبير القوم بمسيرهم، فسار بهم إلى فارس فملكها وأضافها إلى خوزستان.

وسار سلجوق شاه ابن السلطان مسعود ليملكها فدافعه عنها البقش الشحنة ومطر الخادم أمير الحاج، وثار العيارون أيام تلك الحرب، وعظم الهرج ببغداد، ورحل الناس عنها إلى البلاد. فلما انصرف سلجوق شاه واستقر البقش الشحنة فتك فيهم بالقتل والصلب. ولما قتل صدقة بن دبيس ولى السلطان على الحلة محمداً أخاه وجعل معه مهلهلاً أخاً عنتر بن أبي العسكر يدبره. ولما وصل الراشد والملك داود إلى خوزستان مع الأمراء على ما ذكرنا، وملكوا فارس، ساروا إلى العراق ومعهم خوارجهم شاه. فلما قاربوا الجزيرة خرج السلطان مسعود لمداغتهم فافترقوا، ومضى الملك داود إلى فارس وخوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده فسار إلى أصبهان فوثب عليه في طريقه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه في القيلولة خامس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بشهرستان ظاهر أصبهان.

وعظم أمر هذه الفتنة واختلفت الأحوال والمواسم وانقطعت كسوة الكعبة في هذه السنة من دار الخلافة من قبل

انتفاض الأعياض واستبداد الأمراء على الأمير مسعود وقتله إيهم

الأمراء وخافوا غائلته وساروا نحو العراق - وهم أيلدكر المسعودي صاحب كنجة وأرانية، وقبصر والبقرش كون صاحب أعمال الجبل - وقتل الحاجب وطرنطاي المحمودي شحنة واسط وابن طغابرك. ولما بلغوا حلوان خاف الناس بأعمال العراق وعني المقتفي بإصلاح السور، وبعث إليهم بالنهي عن القدوم فلم يتوهوا ووصلوا في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين، والملك محمد ابن السلطان محمود معهم، ونزلوا بالجانب الشرقي، وفارق مسعود جلال الشحنة ببغداد إلى تكريت، ووصل إليهم علي بن ديبس صاحب الحلة، ونزل بالجانب الغربي وجند المقتفي أجنادا وقتلهم مع العامة فكانوا يستطردون للعامة والجند حتى يبعدوا، ثم يكون عليهم فيشخروا فيهم. ثم كثر عشيهم ونهبهم. ثم اجتمعوا مقابل الساج وقبلوا الأرض واعتذروا، وترددت الرسل ورحلوا إلى النهروان.

وعاد مسعود جلال الشحنة من تكريت إلى بغداد، وافترق هؤلاء الأمراء وفارقوا العراق، والسلطان مع ذلك مقيم ببلد الجبل. وأرسل عمه سنجر إلى الري سنة أربع وأربعين فبادر إليه مسعود وترضاه فأعته وقبل عذره. ثم جاءت سنة أربع وأربعين جماعة أخرى من الأمراء وهم البقرش كون والطرنطاي وابن ديبس وملك شاه ابن السلطان محمود فراسلوا المقتفي في الخطبة للملك شاه فلم يجيبهم، وجمع العساكر وحصن بغداد وكتب السلطان مسعوداً بالوصول إلى بغداد فشغله عمه سنجر إلى الري، ولما علم البقرش مراسلة المقتفي إلى مسعود نهب النهروان، وقبض على علي بن ديبس وهرب الطرنطاي إلى النعمانية، ووصل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف شوال، ورحل البقرش كون من النهروان وأطلق ابن ديبس.

وزارة المقتفي

وفي سنة أربع وأربعين استوزر المقتفي يحيى بن هبيرة وكان صاحب ديوان الزمام وظهرت منه كفاية في حصار بغداد فاستوزره المقتفي.

وفاة السلطان مسعود وملك شاه ابن

أخيه محمود

ثم توفي السلطان مسعود أول رجب سنة سبع وأربعين وخمسمائة لإحدى وعشرين سنة من بيعته، وعشرين من عوده بعد

وفي سنة أربعين سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره إلى قاشان ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود، واتصل بهم الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد، ولقي بوزابة الأمير عباس صاحب الري وتأمرأ في الانتفاض على السلطان مسعود، وملكاً كثيراً من بلاده فسار السلطان مسعود عن بغداد، ونزل بها الأمير مهلهل والخدام مطر وجماعة من غلمان بهروز. وسار معه الأمير عبد الرحمن طغرلبيك، وكان حاجبه ومتحكماً في دولته، وكان هواه مع ذينك الملكين، فسار السلطان وعبد الرحمن حتى تقارب العسكران، فلقي سليمان شاه أخاه مسعوداً فحنق عليه، وجرى عبد الرحمن في الصلح بين الفريقين، وأضيفت وظيفة أذربيجان وأرمينية إلى ما بيده.

وسار أبو الفتح ابن هزارشب وزير السلطان مسعود ومعه وزير بوزابة فاستبدوا على السلطان وحجروه عن التصرف فيما يريد، وكان بك أرسلان بن بلنكري المعروف بمخاص بك خالصة للسلطان بما كان من تربيته فداخلوه واستولوا به على هوى السلطان بكل معنى. وكان صاحب خلخال ويعض أذربيجان، فلما عظم تحكمه أمر السلطان إلى خاص بك بقتل عبد الرحمن، ففدس ذلك إلى جماعة من الأمراء وقتلوه في موكبه، ضربه بعضهم بمقرعة حديد فسقط إلى الأرض ميتاً وبلغ إلى السلطان مسعود ببغداد ومعه عباس صاحب الري في عسكر أكثر من عسكره فامتعض لذلك فتلطف له السلطان، واستدعاه إلى داره، فلما انفرد عن غلمانه أمر به فقتل. وكان عباس من غلمان السلطان محمود وولي الري، وجاهد الباطنية وحسنت آثاره فيهم. وكان مقتله في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين. ثم حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت، وبلغ مقتل عباس إلى بوزابة فجمع عساكره من فارس وخوزستان وسار إلى أصبهان فحاصرها، ثم سار إلى السلطان مسعود والتقى بمرج قراتكين فقتل بوزابة قبل: بسهم أصابه وقيل: أخذ أسيراً وقتل صبراً، وانهزمت عساكره إلى همدان وخراسان.

انتفاض الأمراء ثانية على السلطان

ولما قتل السلطان من قتل من أمرائه استخلص الأمير خاص بك وأنفذ كلمته في الدولة، ورفع منزلته فحسده كثير من

ثم بلغه الخبر بأن شحنة مسعود وترشك وصلا في العساكر ومعهم الأمير البقش كون وأنهما استحثا الملك عمداً لقصد العراق، فلم يتهيا له فبعث هذا العسكر معهم، وانضاف إليهم خلق كثير من التركمان، فسار المقتضي للقائهم، وبعث الشحنة مسعود عن أرسلان ابن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوساً بتكرت فأحضره عنه ليقا تل به المقتضي، والتقوا عند عقر بابل فتنازلوا ثمانية عشر يوماً، ثم تناجزوا آخر رجب فانهزمت ميمنة المقتضي إلى بغداد، ونهبت خزائنه وثبت هو واشتد القتال وانهزمت عساكر العجم وظفر المقتضي بهم، وغنم أموال التركمان وسبى نساءهم وأولادهم. ولحق البقش كون ببلد الخلو وقلعة المهاكين وأرسلان بن طغرل، ورجع المقتضي إلى بغداد أول شعبان.

وقصد مسعود الشحنة وترشك بلد واسط للبعث فيها، فبعث المقتضي الوزير ابن هيرة في العساكر فهزمهم. ثم عاد فلقية المقتضي سلطان العراق وأرسلان بن طغرل، وبعث إليه السلطان محمد في إحضاره عنده. ومات البقش في رمضان من سنة ويقي أرسلان مع ابن البقش، وحسن الخازنداد فحملاه إلى الجبل ثم سارا به إلى الركن زوج أمه، وهو أبو البهلوان وأرسلان وطغرل الذي قتله خوارزم شاه، وكان آخر السلجوقية ثلاثهم أخوة لأم. ثم سار المقتضي سنة خمسين إلى دوقا فحاصرها أياماً، ثم رجع عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل تجهز لمدا فته عنها فرحل.

استيلاء شملة على خوزستان

قد ذكرنا من قبل شأن شملة وأنه من التركمان واسمه إيدغدي وأنه كان من أصحاب خاص بك التركماني، وهرب يوم قتل السلطان محمد صاحبه خاص بك بعد أن حذره منه فلم يقبل، ولجأ من الواقعة فجمع جموعاً وسار يريد خوزستان وصاحبها يومئذ ملك شاه ابن السلطان محمود بن محمد. وبعث المقتضي عساكره لذلك فلقبهم شملة في رجب وهزمهم وأسر وجوهمهم. ثم أطلقهم وبعث إلى الخليفة يعتذر قبل عذره، وسار إلى خوزستان فمكلها من يد ملك شاه ابن السلطان محمود.

إشارة إلى بعض أخبار السلطان سنجر

بخوزستان ومبدأ دولة بني خوارزم شاه

كان السلطان سنجر من ولد السلطان ملك شاه لصلبه، ولما استولى بركيارق بن ملك شاه على خوزستان سنة تسعين

منازعة إخوته. وكان خاص بك بن سلمكري متغلباً على دولته، فبايع الملك شاه ابن أخيه السلطان محمود، وخطب له بالسلطنة في همدان، وكان هذا السلطان مسعود آخر ملوك السلجوقية عن بغداد، وبعث السلطان ملك شاه الأمير شكاركرد في عسكر إلى الحلة فدخلها، وسار إليه مسعود جلال الشحنة، وأظهر له الاتفاق. ثم قبض عليه وغرقه واستبد بالحلة وأظهر المقتضي إليه العساكر مع الوزير عون الدولة والدين بن هيرة فعبر الشحنة إليهم الفرات، وقاتلهم فانهزموا وثار أهل الحلة بدعوة المقتضي ومنعوا الشحنة من الدخول فعاد إلى تكريت.

ودخل ابن هيرة الحلة وبعث العساكر إلى الكوفة وواسط فملكوها، وجاءت عساكر السلطان إلى واسط فغلبوا عليها عسكر المقتضي فتجهز بنفسه، وانتزعها من أيديهم، وسار منها إلى الحلة. ثم عاد إلى بغداد في عشر ذي القعدة. ثم إن خاص بك المتغلب على السلطان ملك شاه استوحش وتنكر وأراد الاستبداد فبعث عن الملك محمد ابن السلطان محمد بخوزستان سنة ثمان وأربعين فبايعه أول صفر وأهدى إليه وهو مضمحل الفك، فسبقه السلطان محمد لذلك وقتله ثاني يوم البيعة إيد غدي التركماني المعروف بشملة من أصحاب خاص بك ونهاه عن دخوله إلى السلطان محمد، فلم يقبل. فلما قتل خاص بك نهب شملة عسكره ولحق بخوزستان وكان خاص بك صيباً من التركمان اتصل بالسلطان مسعود واستخلصه وقدمه على سائر الأمراء.

حروب المقتضي مع أهل الخلاف وحصار البلاد

ثم بعث المقتضي عساكره لحصار تكريت مع ابن الوزير عون الدين والأمير ترشك من خواصه وغيرهما، ووقع بينه وبين ابن الوزير منافرة خشي لها ترشك على نفسه فصالح الشحنة صاحب تكريت، وقبض على ابن الوزير والأمراء، وجسهم صاحب تكريت وغرق كثير منهم، وسار ترشك والشحنة إلى طريق خراسان فعاثوا فيها وخرج المقتضي في اتباعهم فهربا بين يديه، ووصل تكريت وحاصرها أياماً. ثم رجع إلى بغداد وبعث سنة تسع وأربعين بتكرت في ابن الوزير وغيره من المأسورين، فقبض على الرسول فبعث إليهم عسكراً فامتنعوا عليه، فسار المقتضي بنفسه في صفر من سنة وملك تكريت، وامتنت عليه القلعة فحاصرها، ورجع في ربيع. ثم بعث الوزير عون الدين في العساكر لحصارها واستكثر من الآلات وضيق عليها.

عحسن، ويعث إلى المقتني ليستأذنه في القدوم، ويعث زوجته وولده رهنًا على الطاعة والمناصحة فأذن له، وقدم في خوف من العساكر ثلاثمائة أو نحوها، وأخرج الوزير عون الدين بن هبيرة ولده لتلقيه ومعه قاضي القضاة والقباء، ودخل وعلى رأسه الشمسية، وخلع عليه.

ولما كان المحرم من سنة إحدى وخمسين حضر عند المقتني بمحضر قاضي القضاة وأعيان العباسيين واستحلفه على الطاعة، وأن لا يتعرض للعراق. ثم خطب له ببغداد وبلغ قب إليه السلطان محمد، ويعث عسكرياً نحو ثلاثة آلاف واستقدم داود صاحب الحلة فجعل له أمر الحجابة، وسار نحو الجبل في ربيع. وسار المقتني إلى حلوان وسار إلى ملك شاه بن محمود أخي سليمان صاحب خوزستان فاستحلفه لسليمان شاه وجعله ولي عهده، وأمدهما بالمال والأسلحة، وساروا إلى همدان وأصبهان، وجاءهم المذكر صاحب بلاد أران فكثر جمعهم وبلغ خبرهم السلطان محمد بن محمود فبعث إلى قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، ونائبه زين الدين ليستجدهما فأجاباه، وسار للقاء سليمان شاه وأصحابه فالتقوا في جمادى، وانهزم سليمان شاه وافتقرت عساكره. وسار المذكر إلى بلاده، وسار سليمان شاه إلى بغداد وسلك على شهرزور فاعترضه زين الدين علي كرجك نائب قطب الدين بالموصل، وكان مقطع شهرزور الأمير بران من جهة زين الدين فاعترضه وأخذه أسيراً، وحمل زين الدين إلى الموصل فحبسه بقلعتها، ويعث إلى السلطان محمد بالخبر.

حصار السلطان محمد ببغداد

كان السلطان محمد قد بعث إلى المقتني في الخطبة له ببغداد فامتنع من إجابته، ثم بايع لعمه سليمان وخطب له وكان ما قدمناه من أمره معه. ثم سار السلطان محمد من همدان في العساكر نحو العراق، فقدم في ذي الحجة سنة إحدى وخمسين، وجاءته عساكر الموصل مدداً من قبل قطب الدين ونائبه زين الدين، واضطربت الناس ببغداد، وأرسل المقتني عن فضلو بواش صاحب واسط فجاء في عسكره. وملك مهلهل الحلة فاهتم ابن هبيرة بأمر الحصار وجمع السفن تحت الناحي، وقطع الجسر، وأجفل الناس من الجانب الغربي، ونقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة، ففرق المقتني السلاح في الجند والعامة، ومكثوا أياماً يقتلون، ومد السلطان جسراً على دجلة فعبّر على الجانب الشرقي حتى كان القتال في الجانبين.

وأربعمائه من يد عمه أرسلان أرغون، كما نذكر في أخبارهم عند تفردنا مستوفى، ولى عليها أخاه سنجر، وولى على خوارزم محمد بن أنوش تكين من قبل الأمير داود حبشي بن اليوساق. ثم لما ظهر السلطان محمد ونازع بركيارق وتعاقبا في الملك، وكان سنجر شقيقاً لمحمد فولاه على خراسان، ولم يزل عليها. ولما اختلف أولاد محمد من بعده كان عقيد أمرهم وصاحب شورايم إذ خلف له ببغداد مقدماً اسمه على اسم سلطان العراق منهم سنة..... ثم خرجت أُمم الخطا من الترك من مفازة الصين وملكوا ما وراء النهر من يد الجالية ملوك تركستان سنة ست وثلاثين كما نذكر في أخبارهم.

وسار سنجر لمدافعتهم فهزموه فوهن لذلك فاستعد عليه خوارزم شاه بعض الشيء. وكان الخلفاء لما ملكوا بلاد تركستان أزعجوا الغز عنها إلى خراسان وهم بقية السلجوقية هناك. وأجاز السلجوقية لأول دولتهم إلى خراسان فملكوها، وبقي هؤلاء الغز بنواحي تركستان فأجازوا أمام الخطا إلى خراسان، وأقاموا السلطان بها حتى عتوا ونموا. ثم كثر عيثم وفسادهم وسار إليهم السلطان سنجر سنة ثمان وأربعين فهزموه واستولوا عليه وأسروه، وملكوا بلاد خراسان وافترق أمراؤه على النواحي. ثم ملكوه وهو أسير في أيديهم فزيرة لنهب البلاد واستولوا به على كثير منها، وهرب من أيديهم سنة إحدى وخمسين ولم يقدر على مدافعتهم. ثم توفي سنة اثنتين وخمسين وافتقرت بلاد خراسان على أمرائه كما يذكر في أخبارهم. ثم تغلب بنو خوارزم شاه عليها كلها وعلى أصبهان والري من ورائها وعلى أعمال غزنة من يد بني سيكتكين وشاركهم فيها النور بعض الشيعة وقام بنو خوارزم شاه مقام السلجوقية إلى أن انقرضت دولتهم على يد جنكزخان ملك التتر من أمم الترك في أوائل المائة السابعة كما يذكر ذلك كله في أخبار كل منهم عندما نفردوا بالذكر إن شاء الله تعالى.

الخطبة ببغداد لسليمان شاه ابن السلطان

محمد وحروبه مع السلطان محمد بن محمود

كان سليمان بن محمد عند عمه سنجر بخراسان منذ أعوام وقد جعله ولي عهده، وخطب له بخراسان فلما غلب الغز على سنجر وأسروه تقدم سليمان شاه على العساكر، ثم غلبتهم الغز فلحق بخوارزم شاه فصاهره أولاً بابنة أخيه، ثم تنكر فصار إلى أصبهان فمنعه شحاتها من الدخول فصار إلى قاشان، فبعث إليه السلطان محمد شاه بن محمود فقصد اللحف، ونزل على السيد

المقتضي، وأذن له في دخول دار الخلافة. ثم زحف إلى قايماز السلطان في ناحية بادرايا سنة ثلاث وخمسين فهزمه وقتله وبعث المقتضي عساكره لقتال شملة فلاحق بملك شاه.

وفاة السلطان محمد بن محمود وملك عمه سليمان شاه ثم أرسلان بن طغرل

ثم إن السلطان محمد بن محمود بن ملك شاه لما رجع عن حصار بغداد أصابه مرض السل وطال به، وتوفي بهمذان في ذي الحجة سنة أربع وخمسين لسبع سنين ونصف من ملكه، وكان له ولد فيئس من طاعة الناس له، ودفعه لأقسقر الأحديلي وأوصاه عليه فرحل به إلى مراغة. ولما مات السلطان محمد اختلف الأمر فيمن يولونه، ومال الأكثر إلى سليمان شاه عمه، وطائفة إلى ملك شاه أخيه، وطائفة إلى أرسلان بن السلطان طغرل الذي مع الدكز ببلاد أران. ويادار ملكشاه أخوه قسار من خوزستان ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس، ورحل إلى أصبهان فأطاعه ابن الخجندي، وأنفق عليه الأموال وبعث إلى عساكر همذان في الطاعة فلم يجيبوه، وأرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين مردود بن زنكي صاحب الموصل في سليمان شاه المحبوس عنده ليولوه عليهم، وذلك أول سنة خمس وخمسين فأطلقه على أن يكون أتباعاً له وجمال الدين وزيره وزيراً وجهزه بجهاز السلطنة وبعث معه نائبه زين الدين علي كوجك في عسكر الموصل. فلما قاربوا بلاد الجبل وأقبلت العساكر من كل جهة على السلطان سليمان ارتاب كوجك لذلك، وعاد إلى الموصل فلم يتنظم أمر سليمان، ودخل همذان وباعوا له وخطب له ببغداد.

وكثرت جموع ملك شاه بأصبهان وبعث إلى بغداد في الخطبة، وأن يقطع خطبة عمه ويراجع القواعد بالعراق إلى ما كانت فوضع عليه الوزير عون الدين بن هبيرة جارية بعث بها إليه فسمته، فمات سنة خمس وخمسين، فأخرج أهل أصبهان أصحابه وخطبوا لسليمان شاه. وعاد شملة إلى خراسان فملك كل ما كان ملك شاه تغلب عليه منها. واستقر سليمان شاه بترك البلاد، وشغل بالهوى والسكر ومنادمة الصفاعين، وفرض الأمور إلى شرف الدين دوداره من مشايخ السلاجوقية، كان ذا دين وعقل وحسن تربية، فشكا الأمراء إليه فدخل عليه وعذله وهو سكران فأمر الصفاعين بالرد عليه، وخرج مغضباً. وصحا سليمان فاستدرك أمره بالاعتذار فأظهر القبول، واجتنب الحضور عنده وبعث سليمان إلى أبنائهم صاحب الري يستقدمه فاعتذر بالمرض

ونفذت الأقوات في العسكر واشتد القتال والحصار على أهل بغداد لانتقطاع الميرة والظهر من عسكر الموصل لأن نور الدين محمود بن زنكي وهو أخو قطب الدين الأكبر بعث إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة. ثم بلغ السلطان محمداً أن أخاه ملك شاه والمذكر صاحب بلاد أران، وأرسلان ابن الملك طغرل بن محمد ساروا إلى همذان وملكوها فارتحل عن بغداد في آخر ربيع سنة اثنتين وخمسين. وسار إلى همذان وعاد زين الدين كوجك إلى الموصل.

ولما قصد السلطان محمد همذان صار ملك شاه والمذكر ومن معهما إلى الري فقاتلهم شحتها أبنائهم وهزموه، وأمهده السلطان محمد بالأمير سقمان بن قيمانز فسار لذلك ولقيهما متصرفين عن الري قاصدين ببغداد فقاتلها، وانهزم أمامهما فسار السلطان في أثرهما إلى خوزستان، فلما انتهى إلى حلوان جاءه الخبر بأن المذكر بالدينور وبعث إليه أبنائهم بأنه استولى على همذان وأعاد خطبته فيها، فافترقت جموع ملك شاه والمذكر وفارقهم شملة صاحب خوزستان، فعادوا هارين إلى بلادهم وعاد السلطان محمد إلى همذان.

حروب المقتضي مع أهل النواحي

كان سنقر الهمذاني صاحب اللحف، وكان في هذه الفتنة قد نهب سواد بغداد وطريق خراسان، فسار المقتضي لحربه في جمادى سنة ثلاث وخمسين وضمن له الأمير خطلوبرس إصلاحه، فسار إليه خاله على أن يشرك المقتضي معه في بلد اللحف الأمير أزغش المسترشد فاقطعها لهما جميعاً ورجع ثم عاد سنقر على أزغش وأخرجه، وانفرد ببلده وخطب للسلطان محمد فسار إليه خطلوبرس من بغداد في العساكر وهزمه، وملك اللحف وسار سنقر إلى قلعة الماهكي للامير قايماز العميدي ونزلها في أربعمائة ألف فارس.

ثم سار إليه سنقر سنة أربع وخمسين فهزمه ورجع إلى بغداد فخرج المقتضي إلى النعمانية وبعث العساكر مع ترشك فهرب سنقر في الجبال ونهب ترشك مغلته وحاصر قلعة الماهكي، ثم عاد إلى البندنجين وبعث بالخبر إلى بغداد. ولحق سنقر بملك شاه فأمره بمخمسمائة فارس وبعث ترشك إلى المقتضي في المدد فأمره، وبعث إليه سنقر في الإصلاح فحبس رسوله، وسار إليه فهزمه واستباح عسكره ونجا سنقر جريماً إلى بلاد العجم فأقام بها. ثم جاء بها سنة أربع وخمسين إلى بغداد، وألقى نفسه تحت التاج فرضي عنه

إلى أن يفيق.

وبدا الدكر بقصد أبنائخ. ثم بلغه أن زنكي بن دكلا نهب سميرم ونواحها، فبعث عسكرياً نحواً من عشرة آلاف فارس لحفظها فلقبهم زنكي فهزمهم، فبعث الدكر إلى عساكر أذربيجان فجاء بها ابنه كزل أرسلان. وبعث زنكي بن دكلا العساكر إلى أبنائخ ولم يحضر بنفسه خوفاً على بلاد شملة من صاحب خوزستان. ثم التقى الدكر وأبنائخ في شعبان سنة ست وخمسين فانهزم أبنائخ واستبيح عسكره وحاصره الدكر ثم صالحه ورجع إلى همدان.

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد وهو أول

الخلفاء المستبدين على أمرهم من بني

العباس عند تراجع الدولة وضييق نطاقها ما

بين الموصل وواسط والبصرة وحلوان

ثم توفي المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر في ربيع الأول سنة خمس وخمسين لأربع وعشرين سنة وأربعة أشهر من خلافته، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم، فحكم على عسكره وأصحابه فيما بقي لمملكتهم من البلدان بعد استبداد الملوك في الأعمال والنواحي. ولما اشتد مرضه تطاول كل من أم ولده إلى ولاية ابنها. وكانت أم المستنجد تخاف عليه، وأم أخيه علي تروم ولاية ابنها، واعتزمت على قتل المستنجد واستدعته لزيارة أبيه وقد جمعت جواربها وآت كل واحدة منهن سكيناً لقتله وأمسكت هي وابنها سيفين، وبلغ الخبر إلى يوسف المستنجد فاحضر أستاذدار أبيه، وجماعة من الفرائشين وأفرغ السلاح ودخل معهم الدار، وثار به الجوارري فضرب إحداها وأمكنها فهربوا وقبض على أخيه علي وأمه فحبسها وقسم الجوارري بين القتل والتغريق حتى إذا توفي المقتفي جلس للبيعة فبايعه أقاربه أولهم عمه أبو طالب، ثم الوزير عون الدين بن هيرة وقاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له. وأقر ابن هيرة على الوزارة وأصحاب الولايات على ولايتهم، وأزال المكوس والضرائب، وقرب رئيس الرؤساء، وكان أستاذدار فرفع منزله عبد الواحد المقتفي، وبعث عن الأمير ترشك سنة ست وخمسين من بلد اللحف وكان مقتطعاً بها فاستدعاه لقتال جمع من التركمان أفسدوا في نواحي البندنجين فامتنع من المجيء وقال: يأتيني العسكر وأنا أقاتل بهم، فبعث المستنجد العساكر مع جماعة من الأمراء فقتلوه وبعثوا برأسه إلى بغداد. ثم استولى بعد ذلك على قلعة الماهكي من يد مولى سقر الهمداني ولاء عليها سقر وضعف عن مقاومة التركمان والأكراد حولها

ونمي الخبر إلى كربازة الخادم فعمل دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء وقبض عليه وعلى وزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي وعلى أصحابه في شوال من سنة ست وخمسين فقتل وزيره وخواصه وحبيه أياماً.

وخرج أبنائخ صاحب الري ونهب البلاد وحاصر همدان وبعث كردباز إلى الدكر يستدعيه ليصايع لربييه أرسلان شاه بن طغرل فسار في عشرين ألف فارس، ودخل همدان وخطب لربييه أرسلان شاه بن طغرل بالسلطنة وجعل الدكر أنابكاً له، وأخاه من أمه البهلوان بن الدكر حاجباً. وبعث إلى المقتفي في الخطبة، وأن تعاد الأمور إلى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فطرد رسوله وعاد إليه على أقيح حالة. وبعث إلى أبنائخ صاحب الري فحالقه على الاتفاق، وصاهره في ابنته على البهلوان وجاءت إليه بهمدان وكان الدكر من عماليك السلطان مسعود، وأقطعه أران وبعض أذربيجان ولم يحضر شيئاً من الفتنة، وتزوج أم أرسلان شاه وزوجه طغرل فولدت له محمد البهلوان، وعثمان كزل أرسلان. ثم بعث الدكر إلى أفسنقر الأحمدلي صاحب مراغة في الطاعة لأرسلان شاه ربييه، فامتنع وهددهم بالبيعة للطفل الذي عنده محمود بن ملك شاه. وقد كان الوزير ابن هيرة أطمعه في الخطبة لذلك تطفل فيما بينهم، فجهز الدكر العساكر مع ابنه البهلوان وسار إلى مراغة، واستمد أفسنقر ساهرمز صاحب خلاط فأمدته بالعساكر، والتقى أفسنقر والبهلوان فانهزم البهلوان وعاد إلى همدان. وعاد أفسنقر إلى مراغة ظافراً.

وكان ملك شاه بن محمود لما مات بأصبهان مسموماً كما ذكرنا لحن طائفة من أصحابه ببلاد فارس، ومعه ابنه محمود، فقبض عليه صاحب فارس زنكي بن دكلا السلفري بقلعة أصطخر، ولما مات بعث الدكر إلى بغداد في الخطبة لربييه أرسلان وشرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هيرة في التصريف بينهم بعث ابن دكلا وأطمعه في الخطبة لمحمود بن ملك شاه الذي عنده أن ظفر بالدكر فأطلقه ابن دكلا ويصايع له، وضرب الطبل على بابه خمس نوب وبعث إلى أبنائخ صاحب الري فوافقه وسار إليه في عشرة آلاف، وبعث إليه أفسنقر الأحمدلي، وجمع الدكر العساكر، وسار إلى أصبهان يريد بلاد فارس، وبعث إلى صاحبها زنكي بن دكلا في الطاعة لربييه أرسلان فأبى، وقال: إن المقتفي أقطعني بلاده وأنا سائر إليه. واستمد المقتفي وابن هيرة فواعده وكتبوا الأمراء الذين مع الدكر بالتوبيخ على طاعته والانحراف عنه إلى زنكي بن دكلا صاحب فارس، وأبنائخ صاحب الري،

فاستنزله المستنجد عنها بخمسة عشر ألف دينار، وأقام ببغداد. وكانت هذه القلعة أيام المقتدر بأيدي التركمان والأكراد.

مسير شملة إلى العراق

سار شملة صاحب خوزستان إلى العراق سنة اثنتين وستين وانتهى إلى قلعة الماهكي وطلب من المستنجد إقطاع البلاد، واشتط في الطلب فبعث المستنجد العساكر لمعه، وكتب إليه يحذره عاقبة الخلاف فاعتذر بأن الدكر وربيبه السلطان أرسلان شاه أقطعوا الملك الذي عنده، وهو ابن ملك شاه بلاده البصرة وواسط والحلة، وعرض للتوقيع بذلك، وقال: أنا أقنع بالثلث منه فأمر المستنجد حيث شذ بلعنه، وأنه من الخوارج، وتبعت العساكر إلى أرغمش المشرشدي بالنعمانية وإلى شرف الدين أبي جعفر البلدي ناظر واسط ليجتمعا على قتال شملة، وكان شملة أرسل مليح ابن أخيه في عسكر لقتال بعض الأكراد فركب إليه أرغمش وأسرته وبعض أصحابه، وبعث إلى بغداد، وطلب شملة الصلح فلم يجب إليه. ثم مات أرغمش من سقطة سقطها عن فرسه وبقي العسكر مقيماً ورجع شملة إلى بلاده لأربعة أشهر من سفره.

وفاة الوزير يحيى

ثم توفي الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن المظفر بن هيرة سنة ستين وخمسائة في جمادى الأولى، وقبض المستنجد على أولاده وأهله وأقامت الوزارة بالنيابة. ثم استوزر المستنجد سنة ثلاث وستين شرف الدين، أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي ناظر واسط وكان عضد الدين أبو الفرج بن ديبس قد تحكم في الدولة فأمره المستنجد بكف يده وأيدي أصحابه، وطالب الوزير أخاه تاج الدين بحساب عمله بنهر المللك من أيام المقتضي، وكذلك فعل بغيره، فخافه العمال وأهل الدولة وحصل بذلك أموالاً جمة.

وفاة المستنجد وخلافة المستضيء

كان الخليفة المستنجد قد غلب على دولته أستاذدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وكان أكبر الأمراء ببغداد، وكان يرادفه قطب الدين قايماز المظفري ولما ولي المستنجد أبا جعفر البلدي على وزارته غرض من أستاذدار وعارضه في أحكامه فاستحكمت بينهما العداوة، وتكرر المستنجد لأستاذدار وصاحبه قطب الدين، فكانا يتهمان بأن ذلك بسعاية الوزير. ومريض

فتنة خفاجة

اجتمعت خفاجة سنة ستة وخمسين إلى الحلة والكوفة، وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر، وكان مقطع الكوفة أرغش وشحنة الحلة قيصر، وهما من مماليك المستنجد فمنعهما، فعاثوا في تلك البلاد والنواحي فخرجوا إليهم في أثرهم، واتبعوهم إلى الرجة، فطلبوا الصلح فلم يجيبهم أرغش ولا قيصر، فقاتلوهم فانهزم العساكر. وقتل قيصر وخرج أرغش ودخل الرجة، فاستأمن له شحتها ويعثوه إلى بغداد. ومات أكثر الناس عطشاً في البرية ونجّهم عون الدين بن هيرة في العساكر لطلب خفاجة فدخلوا البرية ورجع، وانتهت خفاجة إلى البصرة وبعثوا بالعدو وسألوا الصلح فأجيبوا.

إجلاء بني أسد من العراق

كان في نفس المستنجد بالله من بني أسد أهل الحلة لفسادهم ومساعدتهم السلطان محمد في الحصار، فأمر يزدن بن قماج بإجلائهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البطائح، فجمع العساكر وأرسل إلى ابن معروف فقدم السفن، وهو بأرض البصرة. فجاءه في جموع وحاصروهم وطاولهم، فبعث المستنجد يعاتبه ويتهمه بالتشيع، فجز هو وابن معروف في قتالهم، وسد مسالكهم في المساء فاستسلموا، وقتل منهم أربعة آلاف ونودي عليهم باللا من الحلة فنفروا في البلاد، ولم يبق بالعراق منهم أحد وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف.

الفتنة بواسط وما جرت إليه

كان مقطع البصرة منكبرس من موالي المستنجد، وقتله سنة تسع وخمسين، وولى مكانه كمستكين، وكان ابن سنكاه ابن أخي شملة صاحب خوزستان، فانتهاز الفرصة في البصرة ونهب قراها، وأمر كمستكين بقتاله فعجز عن إقامة العسكر وأصعد ابن سنكاه إلى واسط ونهب سوادها وكان مقطعها خطلويرس فجمع الجموع وخرج لقتاله، واستمال ابن سنكاه الأمراء الذين معه فخذلوه، وانهزم وقتله ابن سنكاه سنة إحدى وستين ثم قصد البصرة سنة اثنتين وستين ونهب جهتها الشرقية وخرج إليه كمستكين وواقعه،

الدين محمود بالشام.

فلما جاء شاور مستنجداً بعث معه هؤلاء الأمراء الأيوبية وكبيرهم أسد فأعاده إلى وزارته، وقتل الضرغام، ولم يوف له شاور بما ضمن له عند مسيره من الشام في مجده. وكان الفرنج قد ملكوا سواحل مصر والشام وزاحموا ما يليها من الأعمال، وضيقوا على مصر والقاهرة إلى أن ملكوا بلييس وأبله عند العقبة. واستولوا على الدولة العلوية في الضرائب والطلبات وأصبحوا ماوى لمن ينحني عن الدولة. وداخلهم شاور في مثل ذلك فارتأب به العاضد وبعث عز الدين مستصرخاً به على الفرنج في ظاهر أمره، ويسرحون في ارتعاء من إساءة شاور والتمكن منه فوصل لذلك، وولاه العاضد وزارته وقلده ما وراء بابه، فقتل الوزير شاور وحسم داهه وكان مهلكة قريباً من وزارته يقال: لسنة ويقال: لخمسين يوماً فاستوزر العاضد مكانه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين فقام بالأمر وأخذ في إصلاح الأحوال وهو يعد نفسه وعمه من قبله نائباً عن نور الدين محمود بن زنكي الذي بعثه وعمه للقيام بذلك.

ولما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين ضعف أمر العاضد وتحكم صلاح الدين في أموره وأقام خادمه قراقوش للولاية عليه في قصره والتحكم عليه، فبعث إليه نور الدين محمود الملك العادل بالشام أن يقطع الخطبة للعاضد ويخطب للمستضيء ففعل ذلك على توقع التكبر من أهل مصر. فلما وقع ذلك ظهر منه الغتباط واثمت آثار الدولة العلوية، وتمكنت الدولة العباسية فكان ذلك مبدأ الدولة لبني أيوب بمصر ثم ملكوا من بعدها أعمال نور الدين بالشام واستضافوا اليمن وطرابلس الغرب واتسع ملكهم كما يذكر في أخبارهم. ولما خطب للمستضيء بمصر كتب له نور الدين محمود من دمشق مبشراً بذلك فضربت البشائر ببغداد، وبعث بالخلع إلى نور الدين وصلاح الدين مع عماد الدين صندل من خواص المقتوية، وهو استاذدار المستضيء فجاء إلى نور الدين بدمشق، وبعث بالخلع إلى صلاح الدين وللخطاء بمصر وبإسلام السواد. واستقرت الدعوة العباسية بمصر إلى هذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ثم بعث نور الدين محمود إلى المستضيء رسوله القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري قاضي بلاده يطلب التقليد لما بيده من الأعمال، وهي مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما هو في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم التي لقلج أرسلان وان يقطع صريعين ودرج هارون من بلاد سواد العراق كما كانتا لأبيه، فأكرم الرسول وزاد في الإحسان إليه

المستنجد سنة ست وستين وخمسمائة واشتد مرضه فتحيلاً في إهلاكه، يقال: إنهما واضعا عليه الطبيب، وعلم أن هلاكه في الحمام فأشار عليه بدخول فدخله، وأغلقتوا عليه بابه فمات. وقيل: كتب المستنجد إلى الوزير ابن البلدي بالقبض على استاذدار وقايمز وقتلها، وأطلعهما الوزير على كتابه فاستدعيا يزدن وأخاه يتماش وفاوضهما، وعرضا عليهم كتابه، واتفقا على قتله فحملوه إلى الحمام وأغلقتوا عليه الباب وهو يصيح إلى أن مات تاسع ربيع من سنة ست وستين لإحدى عشرة سنة من خلافته.

ولما أرحف بموته قبل أن يقبض ركب الأمراء والأجناد متسلحين، وغشيتهم العامة واحتفت بهم، وبعث إليه استاذدار بأنه إنما كان غشياً عرضاً، وقد أفاق أمير المؤمنين وخف ما به، فخشي الوزير من دخول الجند إلى دار الخلافة، فعاد إلى داره وافترق الناس. فعند ذلك أغلق استاذدار وقايمز أبواب الدار وأحضرا ابن المستنجد أبا محمد الحسن وبإيعاء بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله، وشرطاً عليه أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين استاذدار وقطب الدين قاقماز أمير العسكر، فاجابهم إلى ذلك، وبإيعاء أهل بيته البيعة الخاصة. ثم توفي المستنجد وبإيعاء الناس من الغد في التاج البيعة العامة وأظهر العدل وبذل الأموال وسقط في يد الوزير وندم على ما فرط، واستدعي للبيعة، فلما دخل قتلوه وقبض المستضيء على القاضي ابن مزاحم وكان ظلوماً جائراً واستصفاه ورد الظالمات منه على أربابها، وولى أبا بكر بن نصر بن العطار صاحب المخزن ولقبه ظهير الدين.

انتقاض الدولة العلوية بمصر وعود الدعوة العباسية إليها

ولأول خلافة المستضيء كان انتقاض الدولة العلوية بمصر، والخطبة بها للمستضيء من بني العباس في شهر المحرم فاتح سنة سبع وستين وخمسمائة قبل عاشوراء، وكان آخر الخلفاء العبيديين بها العاضد لدين الله من أعقاب الحفاظ لدين الله عبد المجيد، وخافوا المستضيء معه ثامن خلفاتهم، وكان مغلباً لوزارته. واستولى شاور منهم وقتلت وطأته عليهم فاستقدم ابن شوار من أهل الدولة من الإسكندرية. وفر شاور إلى الشام مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من أقسقر، وكان من محاليلك السلجوقية وأمرائهم المقيمين للدعوة العباسية. وكان صلاح الدين يوسف بن نجم أيوب بن الكردي.... هو وأبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه في جماعة من الأكرداء في خدمة نور

وكتب له بذلك.

خبر يزددن من أمراء المستضيء

كان يزددن قد ولاه المستضيء الحلة فكانت في أعماله، وكانت حمايتها لخفاجة وبني حزن منهم فجعلها يزددن لبني كعب منهم، وأمرهم الغضبان فغضب بنو حزن وأغاروا عليهم على السواد، وخرج يزددن في العسكر لقتالهم، ومعه الغضبان وعشيرة بنو كعب فبينما هم ليلة يسرون رمي الغضبان بسهم فمات، فعادت العساكر إلى بغداد، وأعيدت حفاظة السواد إلى بني حزن. ثم مات يزددن سنة ثمان وستين، وكانت واسط من أقطاعه فاقطعت لأخيه إيتامش ولقب علاء الدين.

مقتل سنكاه بن أحمد أخي شملة

قد ذكرنا في دولة المستنجد فتنة سنكاه هذا وعمه شملة صاحب خوزستان. ثم جاء ابن سنكاه إلى قلعة الماهكي فبنى بإزائها قلعة ليتمكن بها من تلك الأعمال، فبعث المستضيء العسكر من بغداد لمحنه فقاتلهم واشتد قتاله. ثم انهزم وقتل وعلق رأسه ببغداد وهدمت القلعة.

وفاة قايماز وهربه

قد ذكرنا شأن قطب الدين قايماز وأنه الذي بايع للمستضيء وجعله أمير العسكر وجعله عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وزيراً. ثم استفحل أمر قايماز وغلب على الدولة وحمل المستضيء على عزل عضد الدين أبي الفرج من الوزارة، فلم يمكنه مخالفته، وعزله سنة سبع وستين فأقام معزولاً. وأراد الخليفة سنة تسع وتسعين أن يعيده إلى الوزارة فمنعه قطب الدين من ذلك، وركب فأغلق المستضيء أبواب داره عما يلي بغداد، وبعث إلى قايماز ولطفه بالرجوع فيما هم به من وزارة عضد الدين فقال: لا بد من إخراجهم من بغداد فاستجار برباط شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل فأجاره، واستطال قايماز على الدولة وأصهر على علاء الدين يتامش في أخته فزوجها منه وحملوا الدولة جميعاً.

ثم سخط قايماز ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن وكان خاصاً بالخليفة، وطلبه فهرب فأحرق داره، وجمع الأمراء فاستحلهم على المظاهرة وأن يقصدوا دار المستضيء ليخرجوا

منها ابن العطار، فقصده المستضيء على سطح داره وخدامه يستغيثون، ونادى في العامة بطلب قايماز ونهب داره فهرب من ظهر بيته، ونهبت داره وأخذ منها ما لا يحصى من الأموال واقتل العامة على..... ولحق قايماز بالحلة وتبعه الأمراء، وبعث إليه المستضيء شيخ الشيوخ عبد الرحيم ليسر عن الحلة إلى الموصل تحوفاً من عوده إلى بغداد فيعود استيلاؤه لحبة العامة فيه، وطاعتهم له، فسار إلى الموصل وأصابه ومن معه في الطريق عطش فهلك الكثير منهم، وذلك في ذي الحجة ومن سنة سبعين. وأقام صهره علاء الدين يتامش بالموصل. ثم استأذن الخليفة في القدوم إلى بغداد فقدم وأقام بها عاطلاً بغير إقطاع، وهو الذي حمل قايماز على ما كان منه، وولى الخليفة أستاذداره سنجر المقتفوي، ثم عزله سنة إحدى وسبعين وولى مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن صاحب.

فتنة صاحب خوزستان

قد ذكرنا أن ملك شاه بن محمود بن السلطان محمد استقر بخوزستان وذكرنا فتنة شملة مع الخلفاء. ثم مات شملة سنة سبعين وملك ابنه مكانه. ثم مات ملك شاه بن محمود وبقي ابنه بخوزستان فجاء سنة اثنتين وسبعين إلى العراق، وخرج إلى البندنجين، وعاث في الناس وخرج الوزير عضد الدين أبو الفرج في العساكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاش تكين أمير الحاج وغز علي، وصاروا للقاء العدو وكان معه جموع من التركمان فأجفلوا ونهبهم عساكر بغداد. ثم ردهم الملك ابن ملك شاه وأوقعوا بالعسكر أياماً ثم مضى الملك إلى مكانه وعادت العساكر إلى بغداد.

مقتل الوزير

قد ذكرنا أخبار الوزير عضد الدين أبي الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة، كان أبوه أستاذدار المقتفي. ولما مات ولي ابنه مكانه. ولما مات المقتفي أقره المستنجد ورفع قدره، ثم استوزره المستضيء وكان بينه وبين قايماز ما قدمناه، وأعاده المستضيء للوزارة فلما كانت سنة ثلاث وسبعين استأذن المستضيء في الحج فأذن له وعبر دجلة فسافر في موكب عظيم من أرباب المناصب، واعترضه متظلم ينادي بظلامته، ثم طعنه فسقط وجاء ابن المعوذ صاحب الباب ليكشف خبره فظعن الآخر وحملوا إلى بيتهم فماتوا. وولى

قوي أمر طغرل وكثر جمعه وبعث كزل إلى الناصر يحذره من طغرل ويستنجد به ويذل الطاعة على ما يختاره المستضيء رسوله، فأمر بعمارة دار السلطنة ليسكنها.

وكانت ولايتهم ببغداد والعراق قد انقطعت منذ أيام المقتضي فأكرم رسول كزل وعده بالنجدة، وانصرف رسول طغرل بغير حرب وأمر الناصر بهدم دار السلطنة ببغداد فمحق أثرها. ثم بعث الناصر وزيره جلال الدين أبا المظفر عبيد الله بن يونس في العساكر لإخماد كزل ومدافعة طغرل عن البلاد، فسار لذلك في صفر لسنة أربع وثمانين، واعترضهم طغرل على همدان قبل اجتماعهم بـكزل، واقتتلوا ثمان ربيع، وانهزمت عساكر بغداد وأسروا الوزير. ثم استولى كزل على طغرل وحسبه ببعض القلاع، ودانت له البلاد وخطب لنفسه بالسلطنة وضرب النوب الخمس. ثم قتل على فراشه سنة سبع وثمانين ولم يعلم قاتله.

استيلاء الناصر على النواحي

توفي الأمير عيسى صاحب تكريت سنة خمس وثمانين قتله إخوته، فبعث الناصر العساكر فحاصروها حتى فتحوها على الأمان وجاؤوا بإخوة عيسى إلى بغداد فسكنوها وأقطع لهم السلطان. ثم بعث سنة خمس وثمانين عساكره إلى مدينة غانة فحاصروها مدة وقاتلوها طويلاً ثم جهلهم الحصار فنزلوا عنها على الأمان وإقطاع عيونها ووفى لهم الناصر بذلك.

نهب العرب البصرة

كانت البصرة في ولاية طغرل مملوك الناصر، كان مقطعها واستتاب بها محمد بن إسماعيل، واجتمع بنو عامر بن صعصعة سنة ثمان وثمانين، وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة للنهب والعيث. وخرج إليهم محمد بن إسماعيل في صفر فقاتلهم سائر يومه. ثم ثلموا في الليل ثلماً في السور ودخلوا البلد وعاثوا فيها قتلاً ونهباً. ثم بلغ بني عامر أن خفاجة والمشفق ساروا لقتالهم، فرحلوا إليهم وقاتلوهم فهزمهم، وغنموا أموالهم وعادوا إلى البصرة، وقد جمع الأمير أهل السواد فلم يقوموا للعرب وانهزموا، ودخل العرب البصرة فنهبوا ورحلوا عنها.

الوزير ظهير الدين أبو منصور بن نصر ويعرف بابن العطار فاستولى على الدولة وتحكم فيها.

وفاة المستضيء وخلافة الناصر

ثم توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد في ذي القعدة سنة خمس وسبعين لتسع سنين ونصف من خلافته، وقام ظهير الدين العطار في البيعة لابنه أبي العباس أحمد ولقبه الناصر لدين الله فقام بخلافته، وقبض على ظهير الدين بن العطار وحسبه واستصفاه. ثم أخرجه من عشر ذي القعدة من محبسه ميتاً وفطن به العامة. فتناوله العامة وبعثوا به، وتحكم في الدولة استأذدار مجد الدين أبو الفضل بن صاحب، وكان تولى أخذ البيعة للناصر مع ابن العطار، وبعث الرسل إلى الأفاق لأخذ البيعة. وسار صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همدان وأصبهان والري فامتنع من البيعة فأغلظ له صدر الدين في القول. وحرض أصحابه على نقض طاعته إن لم يبايع فاضطر إلى البيعة والخطبة. ثم قبض سنة ثلاث وثمانين على استأذدار أبي الفضل ابن صاحب وقتله من أجل تحكمه، وأخذ له أموالاً عظيمة. وكان الساعي فيه عند الناصر عبيد الله بن يونس من أصحابه وصناعه، فلم يزل يسعى فيه عند الناصر حتى أمر بقتله، واستوزر ابن يونس هذا ولقبه جلال الدين وكنيته أبو المظفر ومشى أرباب الدولة في خدمته حتى قاضي القضاة.

هدم دار السلطنة ببغداد وانقراض ملوك

السلجوقية

قد ذكرنا فيما تقدم ملك أرسلان شاه بن طغرل ربيب الدكر، واستيلاء الدكر عليه وحروبه مع أتابيخ صاحب الري. ثم قتل سنة أربع وستين واستولى على الري. ثم توفي الدكر الأتابك بهمدان سنة ثمان وستين، وقام مكانه ابنه محمد البهلوان، وبقي أخوه السلطان أرسلان بن طغرل في كفالته. ثم مات سنة ثلاث وستين ونصب البهلوان مكانه ابنه طغرل. ثم توفي البهلوان سنة اثنين وثمانين وفي ملكته همدان والري وأصبهان وأذربيجان وأرانه وغيرها، وفي كفالته السلطان طغرل بن أرسلان. ولما مات البهلوان قام مكانه أخوه كزل أرسلان ويسمى عثمان، فاستبد طغرل وخرج عن الكفالة ولحق به جماعة من الأمراء والجند، واستولى على بعض البلاد ووقعت بينه وبين كزل حروب. ثم

استيلاء الناصر على خوزستان ثم أصبهان والري وهمذان

وساوة وقم وقاشان. ويكون للناصر أصبهان وهمذان وزنجان وقزوین فكتب له بما طلب وقوي أمره.

ثم وصل إلى بغداد أبو الهيجاء السمين من أكابر أمراء بني أيوب وكان في إقطاع بيت المقدس وأعماله، فلما ملك العزيز والعاذل مدينة دمشق من الأفضل بن صلاح الدين عزلوا أبا الهيجاء عن القدس، فسار إلى بغداد فأكرمه الناصر وبعثه بالعساكر إلى همذان سنة ثلاث وتسعين فلقى بها أزيك بن البهلوان وأمير علم وابنه قطلمش، وقد كاتبوا الناصر بالطاعة فدخل أمير علم وقبض على أزيك وابن قطلمش بموافقته، وأنكر الناصر ذلك على أبي الهيجاء وأمره بإطلاقهم. وبعث إليهم بالخلع فلم يأمنوا، وفارقوا أبا الهيجاء فخشي من الناصر ودخل إلى أربل لأنه كان من أكردها، ومات قبل وصوله إليها.

وأقام كركجه ببلاد الجبل واصطنع رفيقه إيدغمش، واستخلصه ووثق به فاصطنع إيدغمش الممالك وانتقض عليه آخر المائة السادسة، وحاربه فقتله واستولى على البلاد ونصب أزيك بن البهلوان للملك وكفله. ثم توفي طاش تكين أمير خوزستان سنة اثنتين وستمئة وإلى الناصر مكانه صهره سنجر وهو من مواليه، وسار سنجر سنة ثلاث وستمئة إلى جبال تركستان جبال منيعة بين فارس وعمان وأصبهان وخوزستان وكان صاحب هذه الجبال يعرف بأبي طاهر وكان للناصر مولى اسمه قشتمر من أكابر مواليه ساء وزير الدولة ببعض الأحوال فلحق بأبي طاهر صاحب تركستان فأكرمه وزوجه بابتة.

ثم مات أبو طاهر فاطاع أهل تلك الولاية قشتمر وملك عليهم، وبعث الناصر إلى سنجر صاحب خوزستان يعرضه في العساكر فسار إليه وبذل له الطاعة على البعد. فلم يقبل منه فلقبه وقاتله فانهزم سنجر، وقوي قشتمر على أمره وأرسل إلى ابن دكلا صاحب فارس، وإلى إيدغمش صاحب الجبل فاتفق معهما على الامتناع على الناصر واستمر حاله.

عزل الوزير نصير الدين

كان نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت إمارة، وقدم إلى بغداد عندما ملك الوزير ابن القصاب الري فأقبل عليه الخليفة، وجعله نائب الوزارة. ثم استوزره وجعل ابنه صاحب المخزن فتحكم في الدولة، وأساء إلى أكابر موالي الناصر، فلما حج مظفر الدين سقز المعروف بوجه السبع سنة ثلاث وستمئة وكان أميراً فقارق الحاج ومضى إلى الشام، وبعث إلى

كان الناصر قد استناب في الوزارة بعد أسر ابن يونس مؤيد الدين أبا عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب، وكان قد ولي الأعمال في خوزستان وغيرها، وله فيها الأصحاب. ولما توفي صاحبها شملة واختلف أولاده راسله بعضهم في ذلك، فطلب من الناصر أن يرسل معه العساكر لملكها فأجابته وخرج في العساكر سنة إحدى وتسعين، وحارب أهل خوزستان فملك أولاً مدينة تستر ثم ملك سائر الحصون والقلاع وأخذ بني شملة ملوكها فبعث بهم إلى بغداد، وولى الناصر على خوزستان طاش تكين مجير الدين أمير الحاج.

ثم سار الوزير إلى جهات الري سنة إحدى وتسعين، وجاءه قطلغ أبنايخ بن البهلوان وقد غلبه خوارزم شاه وهزمه عند زنجان، وملك الري من يده. وجاء قطلغ إلى الوزير مؤيد ورحل معه إلى همذان وبها ابن خوارزم شاه في العساكر فاجفل عنها إلى الري، وملك الوزير همذان ورحل في اتباعهم وملك كل بلد مروا بها إلى الري، وأجفل عسكر خوارزم إلى دامغان وبسطام وجرجان. ورجع الوزير إلى الري فأقام بها. ثم انتقض قطلغ بن البهلوان وطمع في الملك فامتنع بالري وحاصره الوزير فخرج عنها إلى مدينة آوة فمنعهم الوزير منها ورحل الوزير في أثرهم من الري إلى همذان، وبلغه أن قطلغ قصد مدينة الكرج فسار إليه وقاتله وهزمه، ورجع إلى همذان فجاءه رسول خوارزم شاه محمد تكش بالتكبير على الوزير في أخذ البلاد، ويطلب إعادتها فلم يجبه الوزير إلى ذلك، فسار خوارزم شاه إلى همذان وقد توفي الوزير ابن القصاب خلال ذلك في شعبان سنة اثنتين وتسعين، فقاتل العساكر التي كانت معه بهمذان وهزمهم، وملك همذان وترك ولده بأصبهان، وكانوا يبغيضون الخوارزمية فبعث صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية إلى الديوان ببغداد يستدعي العساكر للكهة، فجهز الناصر العساكر مع سيف الدين طغرل يقطع بلد اللحف من العراق، وسار فوصل أصبهان، ونزل ظاهر البلد وفارقها عسكر الخوارزمية فملكها طغرل وأقام فيها الناصر وكان من عماليك البهلوان.

ولما رجع خوارزم شاه إلى خراسان، اجتمعوا واستولوا على الري وقدموا عليهم كركجه من أعيانهم، وساروا إلى أصبهان فوجدوا بها عسكر الناصر وقد فارقها عسكر الخوارزمية فملكوا أصبهان، وبعث كركجه إلى بغداد بالطاعة، وأن يكون له الري

استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصبهان وهرب إيدغمش ثم مقتله ومقتل منكلي وولاية إغلمش

قد ذكرنا استيلاء إيدغمش من أمراء البهلوانية على بلاد الجبل همذان وأصبهان والري وما إليها فاستفحل فيها وعظم شأنه وتخطى إلى أذربيجان وأرانه فحاصر صاحبها أزيك بن البهلوان. ثم خرج سنة ثمان وستمئة منكلي من البهلوانية، ونزاعه الملك وأطاعه البهلوانية، فاستولى على سائر تلك الأعمال وهرب شمس الدين إيدغمش إلى بغداد، وأمر الناصر بتلقيه، فكان يوماً مشهوداً وخشي منكلي من اتصاله فأوفد ابنه محمداً في جماعة من العسكر، وتلقاه الناس على طبقاتهم وقد كان الناصر شرع في إمداد إيدغمش، فأمدّه وسار إلى همذان في جمادى من سنة عشر، ووصل إلى بلاد ابن برجم من التركمان الأيوبية، وكان الناصر عزله عن إمارة قومه وولى أخاه الأصغر، فبعث إلى منكلي بخبر إيدغمش، فبعث العساكر بطلبه فقتلوه وافترق جمعه.

وبعث الناصر إلى أزيك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأرانية يغريه به وكان مستوحشاً منه وأرسل أيضاً إلى جلال الدين صاحب قلعة الموت وغيرها من قلاع الإسماعيلية من بلاد العجم بمعاوضة أزيك على أن يقتسموا بلاد الجبل. وجمع الخليفة العساكر من الموصل والجزيرة وبغداد وقدم على عسكر بغداد مملوكه مظفر الدين وجه السبع واستقدم مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك وهو على أربل وشهرزور وأعمالها، وجعله مقدم العساكر جميعاً وساروا إلى همذان فهرب منكلي إلى جبل قريب من الكرج وأقاموا عليه يحاصرونه ونزل منكلي في بعض الأيام فقاتل أزيك وهزموه إلى خيمه. ثم جاء من الغد وقد طمع فيهم فاشتدوا في قتاله وهزموه فهرب عن البلاد أجمع، وافترقت عساكره واستولت العساكر على البلاد، وأخذ جلال الدين ملك الإسماعيلية منها ما عيته القسمة وولى أزيك بن البهلوان على بقية البلاد أغلمش مملوك أخيه وعادت العساكر إلى بلادها ومضى منكلي منهزماً إلى مدينة ساوة فقبض عليه الشحنة بها وقتله وبعث أزيك برأسه إلى بغداد وذلك في جمادى سنة اثني عشرة.

ولاية حافل الناصر على خوزستان

كان للناصر ولد صغير اسمه علي وكنيته أبو الحسن قد رشحه لولاية العهد وعزل عنها ابنه الأكبر، وكان هذا أحب ولده

الناصر أن الوزير ينفي عليك مواليك ويريد أن يدعي الخلافة فعزله الناصر وألزمه بيته. وبعث من كل شيء ملكه، ويطلب الإقامة بالشهد فأجابته الناصر بالأمان والاتفاق، وإن الميزة لم تكن للنزب وإنما أكثر الأعداء المقالات فوقع ذلك. واحترز لنفسه موضعاً يتقل إليه موقراً محترماً فاخترت أيلة الناصر، خوفاً أن يذهب الأعداء بنفسه.

ولما عزل عاد سنقر أمير الحاج، وعاد أيضاً قشتمر، وأقيم نائباً في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن إسمينا الواسطي، ولم يكن له ذلك التحكم، وقارن ذلك وفاة صاحب المخزن ببغداد أبو فراس نصر بن ناصر بن مكّي المدائني فولى مكانه أبو الفتوح المبارك بن عضد الدين أبي الفرج بن رئيس الرؤساء، وأعلى محله، وذلك في المحرم سنة خمس وستمئة. ثم عزل آخر السنة لعجزه، ثم عزل في ربيع من سنة ست وستمئة فخر الدين بن إسمينا، ونقل إلى المخزن وولى نيابة الوزارة مكانه مكين الدين محمد بن محمد بن محمد بن بدر القمر كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين.

انقراض سنجر بخوزستان

قد ذكرنا ولاية سنجر مولى الناصر على خوزستان بعد طاش تكين أمير الحاج ثم استوحش سنة ست وستمئة واستقدمه الناصر فاعتذر فبعث إليه العساكر مع مؤيد الدين نائب الوزارة، وعز الدين بن نجاح الشرايبي من خواص الخليفة. فلما قاربته العساكر لحق بصاحب فارس أنابك سعد بن دكلا فأكرمه ومنعه، ووصلت عساكر الخليفة خوزستان في ربيع من سنة وبعثوا إلى سنجر في الرجوع إلى الطاعة فأبى وساروا إلى أرجاز لقصد ابن دكلا بشيراز، والرسول تردد بينهم. ثم رحلوا في شوال يريدون شيراز فبعث ابن دكلا إلى الوزير والشرايبي بالشفاعة في سنجر واقتضاء الأمان له فاجابوه إلى ذلك، وأعادوا سنجر إلى بغداد في المحرم سنة ثمان وستمئة، ودخلوا به مقيداً. وولى الناصر مولاه ياقوتاً أمير الحاج على خوزستان. ثم أطلق الناصر سنجر في صفر من سنة ثمان وستمئة وخلع عليه.

والأسر والغرق، وحملت الرووس إلى بغداد في ذي القعدة سنة عشر.

ظهور التتر

ظهرت هذه الأمة من أجناس الترك سنة ست عشرة وستمائة وكانت جبال طمغاج من أرض الصين بينها وبين بلاد تركستان ما يزيد على مئة أشهر وكان ملكهم يسمى جنكزخان، من قبيلة يعرفون نوحى فسار إلى بلاد تركستان وما وراء النهر وملكها من أيدي الخطا، ثم حارب خوارزم شاه إلى أن غلبه على ما في يده من خراسان وبلاد الجبل، ثم تحطى أرائيه فملكها، ثم ساروا إلى بلاد شروان وولد اللان واللكز فاستولوا على الأمم المختلفة بتلك الأصقاع. ثم ملكوا بلاد قنجاك وسارت طائفة أخرى إلى غزنة وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان فملكوا ذلك كله في سنة أو نحوها، وفعلوا من العيث والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله في غابر الأزمان. وهزموا خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش فلاحق بجزيرة في بحر طبرستان فامتنع بها إلى أن مات سنة سبع عشرة وستمائة لاحدى وعشرين سنة من ملكه. ثم هزموا ابنه جلال الدين بغزنة واتبعه جنكزخان إلى نهر السند فعب إلى بلاد الهند، وخلص منهم وأقام هنالك مدة ثم رجع سنة اثنين وعشرين إلى خوزستان والعراق. ثم ملك أفرييجان وأرمينية إلى أن قتله المظفر حسبما نذكر ذلك كله مقسماً بين دولتهم ودولة بني خوارزم شاه أو مكرراً فيها. فهناك تفصيل هذا الحل من أخبارهم والله الموفق بمنه وكرمه.

وفاة الناصر وخلافة الظاهر ابنه

ثم توفي أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء في آخر شهر رمضان سنة اثنين وعشرين وستمائة لسبع وأربعين سنة من خلافته بعد أن عجز عن الحركة ثلاث سنين من آخر عمره وذهبت إحدى عينيه وضعف بصر الأخرى. وكانت حاله مختلفة في الجدل واللعب وكان متفتناً في العلوم وله تأليف في فنون منها متعددة، ويقال: إنه الذي أطعم التتر في ملك العراق لما كانت بينه وبين خوارزم شاه من الفتنة، وكان مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام المناسب ويلبس سراويل الفتوة شأن العيارين من أهل بغداد. وكان له فيها سند إلى زعمائها يقتضيه على من يلبس إياها، وكان ذلك كله دليلاً لى هرم الدولة وذهاب الملك عن أهلها بذهاب ملاكها منهم. ولما توفي بويغ ابنه أبو نصر

إليه فمات في ذي القعدة سنة عشر فتفجع له وحزن عليه حزناً لم يسمع بمثله. وشمل الأسف عليه الخاص والعام. وكان ترك ولدين لقبهما المؤيد والموفق فبعثهما الناصر إلى تتر من خوزستان بالعساكر في الحرم سنة ثلاث عشرة وبعث معهما مؤيد الدين نائب الوزارة، وعزل مؤيد الدين الشرايبي فأقاما بها أياماً. ثم أعاد الموفق مع الوزير والشرايبي إلى بغداد في شهر ربيع وأقام المؤيد بستراً.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل

وطلب الخطبة له ببغداد

كان أغلмыш قد استولى على بلاد الجبل كما ذكرناه واستفحل أمره وقوي ملكه فيها. ثم قتله الباطنية سنة أربع عشرة وستمائة. وكان علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه وارث ملك السلجوقية قد استولى على خراسان وما وراء النهر فقطع في إضافة هذه البلاد إليه فسار في عساكره واعترضه صاحب بلاد فارس أتابك سعد بن دكلا على أصبهان وقد ساقه من الطمع في البلاد مثل الذي ساقه فقاتله وهزمه خوارزم وأخذه أسيراً. ثم سار إلى ساوة فملكها ثم قزوین وزنجان وأبهر، ثم همدان ثم أصبهان وقم وقاشان. وخطب له صاحب أذربيجان وأرائية وكان يبعث في الخطبة إلى بغداد ولا يجاب، فاعتزم الآن على المسير إليها وقدم أميراً في خمسة عشر ألف فارس وأقطع حلوان فتزلها. ثم اتبعه بأمير آخر، فلما سار عن همدان سقط عليهم الثلج وكادوا يهلكون، وتخطف بقيتهم بنو بروج من التركمان وينو عكا من الأكراد. واعتزم خوارزم شاه على الرجوع إلى خراسان، وولى على همدان طابسين وجعل إمارة البلاد كلها لابنه ركن الدين وأنزل معه عماد الملك المساوي متولياً أمور دولته، وعاد إلى خراسان سنة خمس عشرة وأزال الخطبة للناصر من جميع أعماله.

إجلاء بني معروف عن البطائح

كان بنو معروف هؤلاء من ربيعة ومقدمهم معلى، وكانت رحالهم غربي الفرات قرب البطائح، فكثروا عيثهم وإفسادهم السابلة، وارتفعت شكوى أهل البلاد إلى الديوان منهم، فرسم للشريف سعد متولي واسط وأعمالها أن يسير إلى قتالهم وإجلائهم، فجمع العساكر من تكريت وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة واسط والبصرة فهزمهم واستباحهم، وتقسموا بين القتل

الدين كتنخسرو وآخر ملوك بني قليج أرسلان، ثم تخطوها إلى بلاد أرمينية فملكوها. ثم استأمن إليهم غياث الدين فولوه من قبلهم وفي طاعتهم كما يذكر في أخبارهم إن شاء الله تعالى. انتهى.

وفاة المستنصر وخلافة المستعصم آخر بني

العباس ببغداد

لم يزل هذا الخليفة المستنصر ببغداد فالنطاق الذي بقي لهم بعد استيلاء أهل النواحي كما قدمنا. ثم انحل أمرهم من هذا النطاق عروة، وتملك التتر سائر البلاد، وتغلبوا على ملوك النواحي ودولهم أجمعين، ثم زاحمهم في هذا النطاق وملكوا أكثره، ثم توفي المستنصر سنة إحدى وأربعين لست عشرة سنة من خلافته، ويوبع بالخلافة ابنه عبد الله ولقب المستعصم، وكان فقيهاً محدثاً. وكان وزيره ابن العلقمي رافضياً، وكانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة وأهل السنة، وبين الخنابلة وسائر أهل المذاهب، وبين العيارين والدعاري والمفسدين مبدأ الأمراء الأول، فلا تجدد فتنة بين الملوك وأهل الدول، إلا ويحدث فيها بين هؤلاء ما يعني أهل الدولة خاصة زيادة لما يحدث منهم أيام سكوت الدول واستقامتها، وضاعت الأحوال على المستعصم فأسقط أهل الجند وفرض أرزاق الباقيين على البياعات والأسواق وفي المعاش، فاضطرب الناس وضاعت الأحوال وعظم المخرج ببغداد ووقعت الفتنة بين الشيعة وأهل السنة، وكان مسكن الشيعة بالكرخ في الجانب الغربي، وكان الوزير ابن العلقمي منهم فسطوا بأهل السنة، وأنفذ المستعصم ابنه أبا بكر وركن الدين الدوادار، وأمرهم بنهب بيوتهم بالكرخ، ولم يراع فيه ذمة الوزير فأسفه ذلك، وتربص بالدولة وأسقط معظم الجند بموه بأن يدافع التتر بما يتوفر من أرزاقهم في الدولة.

وزحف هلاكوا ملك التتر سنة اثنتين وخمسين إلى العراق وقد فتح الري وأصبهان وهمدان وتبع قلاع الإسماعيلية، ثم قصد قلعة الموت سنة خمس وخمسين قبله في طريقه كتاب ابن الموصلايا صاحب أبريل وفيه وصية ابن العلقمي وزير المستعصم إلى هلاكوا يستحثه لقصد بغداد، ويهون عليه أمرها، فرجع عن بلاد الإسماعيلية وسار إلى بغداد واستدعى أمراء التتر فجاءه بنحو مقدم العسكر ببلاد الروم، وقد كانوا ملكوها. ولما قاربوا بغداد برز لقائهم أيك الدوادار في العساكر فأنكشف التتر أولاً ثم تلاحموا فانهزم المسلمون واعترضهم دون بغداد أو حال مياه من بثوق انتشت من دجلة، فتبعهم التتر دونها وقتل الدوادار وأسر

محمد ولقب الظاهر. وكان ولي عهده عهد له أولاً سنة خمس وثمانين وخمسائة ثم خلعه من العهد وعهد لأخيه الصغير علي لميله إليه. وتوفي سنة اثنتي عشرة فاضطر إلى إعادة هذا، فلما بويع بعد أبيه أظهر من العدل والإحسان ما حمد منه ويقال: إنه فرق في العلماء ليلة الفطر التي بويع فيها مائة ألف دينار.

وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر

ثم توفي الظاهر أبو نصر محمد في منتصف رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة لتسعة أشهر ونصف من ولايته وكانت طريقته مستقيمة وأخباره في العدل ماثورة. ويقال: إنه قبل وفاة كتب بخطه إلى الوزير توقيعاً يقرؤه على أهل الدولة فجاء الرسول به، وقال: أمير المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يقال: برز مرسوم وأنفذ مثال، ثم لا يتبين له أثر، بل أنتم إلى إصام فعال أحوج منكم إلى إصام قوال.

ثم تناولوا الكتاب وقرؤوه فإذا فيه بعد البسملة: أنه ليس إمامنا إماماً ولا أغضأنا إغضأً، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملاً وقد غفنا لكم ما سلف من إغراب البلاد، وتشريد الرعايا وتقبيح السنة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكاً للأغراض، انتهزتم فرصتها تخلسة من برائن ليث باسل وأنياب أسد مهيب، تنطقون بالفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناءه وثقاته فتعملون رأيهم إلى هواكم، ما طلعت بحقه فطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن فقد بدل الله سبحانه مخوفكم أمناً وفقركم غنى وباطلكم حقاً ورزقكم سلطاناً يقل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا يتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريد منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه يخاف الله فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمانته على خلقه وإلا هلكتم والسلام.

ولما توفي بويع ابنه أبو جعفر المستنصر وسلك مسالك أبيه، إلا أنه وجد الدولة اختلفت والأعمال قد انتقضت والجبابة قد انتقضت أو عدت، فضاعت عن أرزاق الجند وأعطياتهم فأسقط كثيراً من الجند، واختلفت الأحوال. وهو الذي أعاد له محمد بن يوسف بن هود دعوة العباسية بالأندلس آخر دولة الموحدين بالمغرب فولاه عليها، وذلك سنة تسع وعشرين وستمائة كما يذكر في أخبارهم. ولآخر دولته ملك التتر ببلاد الروم من يد غياث

الأمراء الذين معه.

الخبر عن الخلفاء العباسيين المنصوبين بمصر

من بعد انقراض الخلافة ببغداد ومبادئ

أموارهم وتصاريف أحوالهم

لما هلك المستعصم ببغداد واستولى التتر على سائر الممالك الإسلامية فافترق شمل الجماعة وانتشر سلك الخلافة وهرب القرابة المرشحون وغير المرشحين من قصور بغداد فذهبوا في الأرض طولاً وعرضاً، ولحق بمصر كبيرهم يومئذ أحمد ابن الخليفة الظاهر، وهو عم المستعصم وأخو المستنصر، وكان سلطانها يومئذ الملك الظاهر ييسر ثالث ملوك التتر بعد بني أيوب بمصر والقاهرة، فقام على قدم التعظيم وركب لتلقيه سُرٌّ بقدمه، وكان وصوله له سنة تسع وخمسين فجمع الناس على طبقاتهم بمجلس الملك بالقلعة، وحضر القاضي يومئذ تاج ابن بنسب الأغر فأثبت نسبه في بيت الخلفاء بشهادة العرب الواصلين معه بالاستقاضة، ولم يكن شخصه خفياً، وباع له الظاهر وسائر الناس ونصبه للخلافة الإسلامية ولقبوه المستنصر، وخطب له على المنابر ورسم اسمه في السكة. وصدرت المراسم السلطانية بأخذ البيعة له في سائر أعمال السلطان، وفرض هو للسلطان الملك الظاهر سائر أعماله، وكتب تقليده بذلك وركب السلطان ثاني يومه إلى خارج البلد، ونصب خيمة يجتمع الناس فيها فاجتمعوا وقرأ كتاب التقليد.

وقام السلطان يأمر هذا الخليفة ورتب له أرباب الوظائف والمناصب الخلافية من كل طبقة، وأجرى الأرزاق السنية، وأقام له الفسطاط والآلة. وقال: أنفق عليه في معسكره ذلك ألف ألف دينار من الذهب العين، واعتزم على بعثه إلى بلاد العراق لاسترجاعه ممالك الإسلام من يد أهل الكفر. وقد كان وصل على إثر الخليفة صاحب الموصل وهو إسماعيل الصالح بن لؤلؤ أخرجه التتر من ملكه بعد مهلك أبيه فامتعض له الملك الظاهر، ووعده باسترجاع ملكه وخرج آخر هذه السنة مشيعاً للخليفة ولصالح بن لؤلؤ، ووصل بهما إلى دمشق فبالغ هناك في تكرمتهما وبعث معهما أميرين من أمرائه مدداً لهما، وأمرهما أن يتنهما معهما إلى الفرات. فلما وصلوا الفرات بادر الخليفة بالعبور وقصد الصالح بن لؤلؤ الموصل، واتصل الخبر بالتتر فجردوا العساكر للقائه والتقى الجمعان بعانة، وصدموه هنالك فصادمهم قليلاً. ثم نكثوا عليه فلم يكن له بهم طاقة وأبلى في جهادهم طويلاً ثم استشهد رحمه الله.

وسارت عساكر التتر إلى الموصل فحاصروا الصالح

ونزل هلاكو ببغداد وخرج إليه الوزير مؤيد الدين بن العلقمي فاستأمن لنفسه ورجع بالأمان إلى المستعصم، وأنه يقيه على خلافته كما فعل بملك بلاد الروم، فخرج المستعصم ومعه الفقهاء والأعيان فقبض عليه لوقته، وقتل جميع من كان معه. ثم قتل المستعصم شذخاً بالعمد ووطأ بالأقدام لتجافيه بزعمه عن دماء أهل البيت، وذلك سنة ست وخمسين. وركب إلى بغداد فاستباحها واتصل العيث بها أياماً وخرج النساء والصبيان وعلى رؤوسهم المصاحف والألواح فداستهم العساكر وماتوا أجمعين. ويقال: إن الذي أحصى ذلك اليوم من القتلى ألف ألف وستمئة ألف، واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعد، وألقيت كتب العلم التي كانت مخزنتهم جميعاً في دجلة، وكانت شيئاً لا يعبر عنه مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم. واعتزم هلاكو على إضرام بيوتها ناراً فلم يوافقه أهل مملكته. ثم بعث العساكر إلى ميفارقين فحاصروها سنين، ثم جهدهم الحصار واقتحموها عنوة وقتل حاميتها جميعاً وأميرهم من بني أيوب، وهو الملك ناصر الدين محمد بن شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب وباع له صاحب الموصل، وبعث بالهدية والطاعة وولاه على عمله ثم بعث بالعساكر إلى أربل فحاصرها وامتعت فرحل العساكر عنها، ثم وصل إليه صاحبها ابن الموصل فقتله واستولى على الجزيرة وديار بكر وديار ربيعة كلها، وتناخم الشام جميع جهاته حتى زحف إليه بعد كما يذكر، وانقراض أمر الخلافة الإسلامية لبني العباس ببغداد وأعاد لها ملوك التتر رسماً جديداً في خلفاء نصبهم هنالك من أعقاب الخلفاء الأولين، ولم يزل متصلاً لهذا العهد على ما نذكر الآن. ومن العجب أن يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف العرب ذكر في ملاحه وكلامه على القرآن الذي دل على ظهور الملة الإسلامية العربية أن انقراض أمر العرب يكون أعوام الستين والستمائة، فكان كذلك، وكانت دولة بني العباس من يوم بوبع للسفاح سنة اثنتين وثلاثين ومائة إلى أن قتل المستعصم سنة خمس وستمئة، خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين وعدد خلفائهم ببغداد سبعة وثلاثون خليفة. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أجراء العساكر بمصر ومداخلته للمفسدين في الثورة بالسلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق سنة خمس وثمانين، وسعى عند السلطان بأنه عن داخله قرط هذا فاستراب به وجسه بالقلعة سنة ستين، وأدال منه يعمر ابن عمه الراحل إبراهيم ولقبه فأقام ثلاثاً أو نحوها ثم هلك رحمه الله آخر عام ثمانية وثلاثين، ونصب السلطان عوضه أخاه زكريا الذي كان أليك نصبه كما قدمنا ذكره، ثم حدثت فتنة بلقيا الناصري صاحب حلب سنة إحدى وتسعين وسبعائة. وتعالى على السلطان بحسبه الخليفة، وأطال النكير في ذلك فأطلق السلطان الخليفة محمد المتوكل من محبسه بالقلعة وأعادته إلى الخلافة على رسمه الأول، وبالع في تكريمه وجرت فيما بين ذلك خطوب نذكر أخبارها مستوفاة في دولة الترك القيمين لرسم هؤلاء الخلفاء بمصر. وإنما ذكرنا هنا من أخبارهم ما يتعلق بالخلافة فقط دون أخبار الدولة والسلطان. وهذا الخليفة المتوكل المنصب الآن لرسم الخلافة والمعين لإقامة المناصب الدينية على مقتضى الشريعة، والمبرك بذكره على منابر هذه الآيلة تعظيماً لأبيهم الظاهر، وجراً على سنن التبرك بسلفهم، ولكمال الإيمان في محبتهم وتوفية لشروط الإمامة بينهم وما زال ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالنواحي يطلبون التقليد منه ومن سلفه بمصر ويكاتبون في ذلك ملوك الترك بها من بني قلاوون وغيره فيجيبونهم إلى ذلك، ويعثون إليهم بالتقليد والخلق والأبهة، ويمدون القائمين بأمورهم بمواد التأيد والإعانة من الله وفضله.

أخبار الدولة العلوية المزاحمة

لدولة بني العباس

ونبدأ منهم بدولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

قد تقدم لنا ذكر شيعة أهل البيت لعلي بن أبي طالب وبنيه رضي الله عنهم، وما كان من شأنهم بالكوفة، وموجدتهم على الحسن في تسليم الأمر لغيره، واضطراب الأمر على زياد بالكوفة من أجلهم، حتى قتل المتوكلون كبير ذلك منهم حجر بن عدي وأصحابه، ثم استدعوا الحسين بعد وفاة معاوية فكان من قتله بكريل ما هو معروف، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرتهم، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان، وخرج عبيد الله بن زياد عن الكوفة، وسموا أنفسهم التوابين، ولولا عليه سليمان بن سُرْد ولقيتهم جيوش ابن زياد بأطراف الشام فاستلحموهم.

ثم خرج المختار بن أبي عبيد بالكوفة طالباً بدم الحسين رضي الله عنه وداعياً لمحمد بن الحنفية وتبعه على ذلك جموعه من

إسماعيل سبعة أشهر، وملكوها عليه عنوة، وقتل رحمه الله. وتطلب السلطان بمصر الملك الظاهر بعده آخر من أصل هذا البيت يقيم برسم الخلافة الإسلامية، وبينما هو يسائل الركبان عن ذلك، إذ وصل رجل من بغداد ينسب إلى الراشد بن المسترشد. قال صاحب حماة في تاريخه عن نسبة مصر: إنه أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي ابن الأمير حسن بن الراشد. وعند العباسيين السليمانيين في درج نسبهم الثابت أنه أحمد بن أبي بكر بن علي بن أحمد بن الإمام المسترشد، انتهى كلام صاحب حماة. ولم يكن في آبائه خليفة فيما بينه وبين الراشد. ويبيع له بالخلافة الإسلامية ولقبه الحاكم، وفوض هو إليه الأمور العامة والخاصة، وخرج هو له عن المهدة وقام حافظاً لسياج الدين بإقامة رسم الخلافة. وعمرت بذكره المنابر وزنت باسمه السكة، ولم يزل على هذا الحال أيام الظاهر بيبرس وولديه بعده، ثم أيام الصالح قلاوون وابنه الأشرف، وطائفة من دولة ابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن هلك سنة إحدى وسبعائة، ونصب ابنه أبو الربيع سليمان للخلافة بعده ولقبه المستكفي. وحفظ به الرسم وحضر مع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون للقاء التتر في التويتين اللتين لقيهم فيها، فاستوحش منه السلطان بعض أيامه وأنزله بالقلعة، وقطعه عن لقاء الناس عاماً أو نحو. ثم أذن له في النزول إلى بيته ولقائه الناس إذا شاء، وكان ذلك سنة ست وثلاثين.

ثم تجددت له الوحشة وغربه إلى قوص سنة ثمان وثلاثين، ثم هلك الخليفة أبو الربيع سنة أربعين قبل مهلك الملك الناصر رحمه الله تعالى. وكان عهد بالخلافة لابنه أحمد فبيع له ولقب الحاكم. ثم بدا للسلطان في إمضاء عهد أبيه بذلك فعزله، واستبدل منه بأخيه إبراهيم ولقبه الراحل. وكان مهلك الناصر لأشهر قرية من ذلك، فأعادوا أحمد الحاكم ولي عهد أبيه سنة إحدى وأربعين، وأقام في الخلافة إلى سنة ثلاث وخمسين. وهلك رحمه الله فولي من بعده أخوه أبو بكر ولقب المعتضد، ولم يزل مقيماً لرسم الخلافة إلى أن هلك عشرة أعوام من خلافته سنة ثلاث وستين، ونصب بعده ابنه محمد ولقب المتوكل فأقام برسم الخلافة، وحضر مع السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر عام انتقض عليه الترك في طريقه إلى الحج. وفسد أمره ورجع الفل إلى مصر، وطلبه أمراء الترك في البيعة له بالسلطنة مع الخلافة فامتنع من ذلك. ثم خلعه أليك من أمراء الترك المستبدين أيام سلطانه بالقاهرة سنة تسع وتسعين لمناضبة وقعت بينهما، ونصب للخلافة زكريا ابن عمه إبراهيم الراحل فلم يطل ذلك، وعزل زكريا لأيام قليلة، وأعادته إلى منصبه إلى أن كانت واقعة قرط التركماني من

ولما انقرضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس، وصار الأمر لأبي جعفر المنصور سعى عنده بيني حسن، وأن محمد بن عبد الله يروم الخروج وأن دعائه ظهرهوا بنجراسان فحبس المنصور لذلك بني حسن وإخوته وإبراهيم وجعفر، وعلي القائم وابنه موسى بن عبد الله وسليمان وعبد الله ابن أخيه داود، ومحمد وإسماعيل وإسحاق بنو عمه إبراهيم بن الحسن في خمسة وأربعين من أكابرهم وحبسوا بقصر ابن هبيرة ظاهر الكوفة حتى هلكوا في حبسهم، وأرهبوا لطلب محمد بن عبد الله فخرج بالمدينة سنة خمس وأربعين وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة فغلب عليها، وعلى الأهواز وفارس، وبعث الحسن بن معاوية إلى مكة فملكها، وبعث عاملاً إلى اليمن، ودعا لنفسه، وخطب على منبر النبي ﷺ وتسمى بالمهدي وكان يدعى النفس الزكية، وحبس رباح بن عثمان المري عامل المدينة فبلغ الخبر إلى أبي جعفر المنصور فأشفقوا من أمره وكتب إليه كتابه المشهور ونصه:

بعد البسملة من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

أما بعد ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَرُوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وأن لك ذمة الله وعهده وميثاقه، إن ثبت من قبل أن نقدر عليك أن نؤمّنك على نفسك ولولدك وإخوتك ومن تابعك وجميع شيعتك، وأن أعطيك ألف درهم، وأنزلك من البلاد حي شئت، وأقضي لك ما شئت من الحاجات، وأن أطلق من سجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه، وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه لي في يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام.

فأجابه محمد بن عبد الله بكتاب نصه بعد البسملة:

من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين ابن عبد الله محمد.

أما بعد ﴿طسم﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْبِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا

الشيعه، وسماهم شرطة الله، وزحف إليه عبيد الله بن زياد فهزمه المختار وقتله، وبلغ محمد بن الحنفية من أحوال المختار ما نقمه عليه فكتب إليه بالبراءة منه فصار إلى الدعاء لعبد الله بن الزبير.

ثم استدعى الشيعة من بعد ذلك زيد بن علي بن الحسين إلى الكوفة أيام هشام بن عبد الملك فقتله صاحب الكوفة يوسف بن عمر وصلبه، وخرج إليه ابنه يحيى بالجوزجان من خراسان فقتل وصلب كذلك، وطلت دماء أهل البيت في كل ناحية، وقد تقدم ذلك كله في أخبار الدولتين.

ثم اختلف الشيعة واختلفت مذاهبهم في مصير الإمامة إلى العلوية وذهبوا طرائق قديداً، فمنهم الإمامية القائلون بوصية النبي ﷺ لعليٍّ بالإمامة، ويسمونهم الرضوي بذلك، ويتبرؤون من الشيخين لما منعه حقه بزعمهم، وخاصموه زيداً بذلك حين دعا بالكوفة، ومن لم يترأ من الشيخين رفضوه فسموا بذلك رافضة.

ومنهم الزيدية القائلون بإمامة بني فاطمة لفضل علي وبنيه على سائر الصحابة، وعلى شروط يشترطونها، وإمامة الشيخين عندهم صحيحة وإن كان علي أفضل، وهذا مذهب زيد وأتباعه، وهم جمهور الشيعة وأبعدهم عن الانحراف والغلو.

ومنهم الكيسانية نسبة إلى كيسان يذهبون إلى إمامة محمد بن الحنفية وبنيه من بعد الحسن والحسين ومن هؤلاء كانت شيعة بني العباس القائلون بوصية أبي هاشم بن محمد بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالإمامة.

وانتشرت هذه المذاهب بين الشيعة واختلف كل مذهب منها إلى طوائف مجسب اختلافهم، وكان الكيسانية شيعة بني الحنفية أكثرهم بالعراق وخراسان.

ولما صار أمر بني أمية إلى اختلال أجمع أهل البيت بالمدينة، وبايعوا بالخلافة سرّاً لمحمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي وسلم له جميعهم، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو المنصور، وبايع فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم، ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله محتجان إليه حين خرج من الحجاز، ويريدون أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر لانقضاء هذه البيعة من قبل، وربما صار إليه الأمر عند الشيعة بانتقال الرضوية من زيد بن علي.

وكان أبو حنيفة يقول بفضله، ويحتج إلى حقه فتأدت إليهما الحجة بسبب أيام أبي جعفر المنصور، حتى ضرب مالك على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة على القضاء.

اللَّهُ يَخْتَارُ لِدِينِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ.

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب فإن الله لم يهد أحداً من ولدنا إلى الإسلام، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأول، وأسعدهم بدخول الجنة غداً، ولكن الله أبى ذلك فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب، وفاطمة أم الحسين وأن هاشماً ولد علياً مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين، فخير الأولين رسول الله ﷺ، لم يلد هاشم إلا مرة واحدة، ولم يلد عبد المطلب إلا مرة واحدة.

وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ﷺ، فإن الله عز وجل قد أبى ذلك فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، ولكنكم قرابة ابنته وأنها لقربة قريبة، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث، ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الإمامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك من كل وجه، وأخرجها تخاصم، ومرضاها سرّاً ودفنها ليلاً، وأبى الناس إلا تقديم الشيخين: ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فامر بالصلاة غيره!

ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان في أصحاب الشورى، فكلّ دفعه عنها، بايع عبد الرحمن عثمان، وقبلها عثمان، وحازب أباك طلحة والزبير، ودعا سعداً إلى بيعته فأغلقت بابيه دونه.

ثم بايع معاوية بعده، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن، فسلمه إلى معاوية بخزف ودراهم، وأسلم في يديه شيعته، وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حله، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه.

فأما قولك: «إن الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً» فليس في الشر خيار، ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار، سترد فتعلم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

وأما قولك: لم تلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد، وإنك أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أمماً وأباً، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخرأ واصلاً وفصلاً، فخرت على إبراهيم بن رسول الله ﷺ، وعلى والد والده، فانظر ويحك أين تكون من الله غداً وما ولد قبلكم مولود بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن

كَانُوا يَخْذَرُونَ﴾ وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني فقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما أعطيتهمه بناء، ونهضتم فيه بسعينا وحزموه بفضلنا، وأن أبانا علياً عليه السلام، كان الوصي والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء! وقد علمتم أنه ليس أحد من بني هاشم يشيد بمثل فضلنا، ولا يفخر بمثل قديتنا وحديثنا ونسبنا ونسبينا، وأنا بنو بنته فاطمة في الإسلام من بينكم فإننا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أمماً وأباً، لم تلدني العجم ولم تعرف في أمهات الأولاد، وأن الله عز وجل لم يزل يختار لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً علي بن أبي طالب، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المتولدين في الإسلام سيدا شباب أهل الجنة، ثم قد علمت أن هاشماً ولد علياً مرتين من قبل جدي الحسن والحسين فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في معنى النار، فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار.

ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن أؤمنك على نفسك وولدتك، وكل ما أصبت إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك فانا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان منك.

فأما أمانك الذي عرضت علي فهو أي الأمانات هي؟ أمان ابن هيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم؟ والسلام.

فأجابه المنصور بعد البسملة: من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

فقد أثنائي كتابك وبلغني كلامك، فإذا جلت فخرك بالنساء لتضل به الحفاة والنوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء، وقد جعل الله العم أباً وبدأ به على الولد فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ وعمومته أربعة، فأجابه اثنان أحدهما أبى وكفر به اثنان أحدهما أبوك.

وأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطى على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لأمنة بنت وهب، ولكن

وزعم ابن قتيبة أن عيسى بن زيد بن علي ثار على المنصور بعد قتل أبي مسلم، ولقيه في مائة وعشرين ألفاً، وقاتله أياماً إلى أن هُمَّ المنصور بالفرار، ثم أتيح له الظفر فانهزم عيسى ولحق إبراهيم بن عبد الله بالبصرة فكان معه هنالك إلى أن لقيه عيسى بن موسى بن علي وقتلها كما مر.

ثم خرج بالمدينة أيام المهدي سنة تسع وستين من بني حسن الحسين بن علي بن حسن الثالث، وهو أخو عبد الله بن حسن المثنى، وعمّ المهدي، ويبيع للرضا من آل محمد وسار إلى مكة، وكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بن علي وقد كان قدم حاجاً من البصرة فولاه حربه يوم التروية، فقاتله بفجعة على ثلاثة أميال من مكة، وهزمه وقتله، وافترق أصحابه، وكان فيهم عمه إدريس بن عبد الله فأفلت من الهزيمة مع من أفلت منهم يومئذ، ولحق بمصر نازعاً إلى المغرب، وعلى برید مصر يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين، وكان يتشيع، فعلم بشأن إدريس وأناه إلى المكان الذي كان به مستخفياً، وحمله على البريد إلى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بوليلي سنة ست وسبعين، وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أودرة من قبائل البربر، وكبيرهم لعهد فاجاره وأكرمه، وجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية وكشف الفئاح واجتمع عليه البرابرة بالمغرب فبايعوه وقاموا بأمره، وكان فيهم مجوس فقاتلهم إلى أن أسلموا.

وملك المغرب الأقصى، ثم ملك تلمسان سنة ثلاث وسبعين، ودخلت ملوك زناتة أجمع في طاعته، واستفحل ملكه، وخاطب إبراهيم بن الأغلب صاحب القيروان، وخاطب الرشيد بذلك، فشذ إليه الرشيد مولى من موالي المهدي اسمه سليمان بن حريز، ويعرف بالشماخ، وأنفذه بكتابه إلى ابن الأغلب فأجازته ولحق بإدريس مظهراً للتزويج إليه فيمن نزع من وحدان المغرب مثيراً من الدعوة العباسية ومتحلاً للطالبيين، واختصه الإمام إدريس وحلى بعينيه، وكان قد تابط سماً في سنون فناوله إياه عند شكايته من وجع أسنانه فكان فيها فيما زعموا حتفه، ودفن ببوليلي سنة خمس وسبعين، وفرّ الشماخ ولحقه راشد بوادي ملوية فاختلغا بينهما ضربتين قطع فيها راشد يده، وأجاز الشماخ الوادي فأعجزه ويبيع البرابرة بعد مهلكه ابنه إدريس سنة ثمان وثمانين، واجتمعوا على القيام بأمره ولحق به كثير من العرب من إفريقية والأندلس، وعجز بنو الأغلب أمراء إفريقية عنه فاستفحل له ولبنيه بالمغرب الأقصى دولة إلى أن انقرضت على يد أبي العافية وقومه مكناسة أولياء العبيدين عام ثلاثة عشر وثلاثمائة حسبما

الحسين، وهو لأم ولد، ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن. ثم ابنه محمد خير من أبيك، وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر وهو خير، ولقد علمت أن جدك علياً حكم الحكيمين وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به، فاجعما على خلعهم.

ثم خرج عمك الحسين بن علي بن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه، ثم أتوا بكم على الاقتاب كالسبي الجلوب إلى الشام، ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدرنا يسيركم إذ لم تدركوهم، وورعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار كل صلاة مكتوبة كما يلعن الكفرة، فسفهناهم وكفرناهم ويئسنا فضله، وأشدنا بذكره فالتذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا بما ذكرنا من فضل علي قدّمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا سائين مسلماً منهم وابتلي أبوك بالدماء.

ولقد علمت أن ماثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم، وولاية زمزم، وكانت للعباس من دون إخوته فتازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر بها، وتوفي رسول الله ﷺ وليس من عموته أحد حياً إلا العباس، وكان وارثه دون عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كروهاً مات عمّاك طالب وعقيل جوعاً ويلحسان جفان عتبه وشيبة، فأذهب عنهما العار والشنار.

ولقد جاء الإسلام والعباس يمدون به طالب للأزمة التي أصابته، ثم فدى عقيلاً يوم بدر، فعزّزناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وورثناه دونكم خاتم الأنبياء وأدرناكم بأركم إذ عجزتم عنه، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام.

ثم عقد أبو جعفر على حربه لعيسى ابن عمه موسى بن علي، فزحف إليه في العساكر، وقاتله بالمدينة فهزمه وقتله في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين، ولحق ابنه علي بالسند إلى أن هلك هناك، واختفى ابنه الآخر عبد الله الأشتر إلى أن هلك في أخبار طويلة قد استوفيناها كلها في أخبار أبي جعفر المنصور، ورجع عيسى إلى المنصور فجهزه لحرب إبراهيم أخيه محمد بالعبرة فقاتله آخر ذي القعدة من تلك السنة فهزمه، وقتله حسبما مر ذكره هنالك، وقتل معه عيسى بن زيد بن علي فيمن قتل من أصحابه.

السرايا يومه ذلك لحمد بن محمد بن زيد بن علي زين العابدين واستبد عليه، وزحفت عليه جيوش المأمون فهزمهم أبو السرايا وملك البصرة وواسط والمدائن.

وسرح الحسن بن سهل لحربه هرثمة بن أعين وكان مغضباً فاسترضاه وجّه له الجيوش، وزحف إلى أبي السرايا وأصحابه فغلبهم على المدائن، وهزمهم وقتل منهم خلقاً، ووجه أبو السرايا إلى مكة الحسين الأفطس بن الحسن بن علي زين العابدين، وإلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن، وإلى البصرة زيد بن موسى بن جعفر الصادق، وكان يقال له زيد النار لكثرة من أحرق من الناس بالبصرة فملكوا مكة والمدينة والبصرة، وكان بمكة مسرور الخادم الأكبر، وسليمان بن داود بن عيسى، فلما أحسوا بقدوم الحسين فرّوا عنها، وبقي الناس في الموقف فوضى، ودخلها الحسين من الغد فعات في أهل الموسم ما شاء الله، واستخرج الكثر الذي كان في الكعبة من عهد الجاهلية وأقره النبي ﷺ والخلفاء بعده، وقدره فيما قيل ماتت قطار اثنتان من الذهب فأنفق وفرقه في أصحابه ما شاء الله.

ثم إن هرثمة واقع أبا السرايا فهزمه، ثم بحث عن منصور بن المهدي فكان أميراً معه، واتبع أبا السرايا فغلبه على الكوفة، وخرج إلى القادسية، ثم إلى واسط ولقيه عاملها وهزمه، ولحق بجلولا مغلولاً جريحاً فقبض عليه عاملها وقدمه إلى الحسن بن سهل بالتهزؤان وضرب عنقه، وذلك سنة مائتين وبلغ الخبر الطالبيين بمكة فاجتمعوا وبايعوا محمد بن جعفر الصادق، وسمّوه أمير المؤمنين، وغلب عليه ابنه علي وحسين فلم يكن يملك معهما من الأمر شيئاً، ولحق إبراهيم بن أخيه موسى الكاظم بن جعفر الصادق باليمن في أهل يثبه فدعا لنفسه هنالك، وتغلب على الكثير من بلاد اليمن، وسمي الجزائر لكثرة من قتل من الناس.

وخلص عامل اليمن وهو إسحاق بن موسى بن عيسى إلى المأمون فجهزه لحرب هؤلاء الطالبيين فتوجه إلى مكة وغلبهم عليها، وخرج جعفر بن محمد الصادق إلى الأعراب بالساحل فاتبعهم إسحاق وهزمهم، ثم طلبهم وطلب محمد الأمان فأمته، ودخل مكة وبايع للمأمون وخطب على المنبر بدعوته، وسابقتة الجيوش إلى اليمن فشرّوا عنه الطالبيين وأقاموا فيه الدعوة العباسية ثم خرج الحسين الأفطس ودعا لنفسه بمكة، وقتله المأمون وقتل ابنه علياً ومحمداً.

ثم إن المأمون لما رأى كثرة الشيعة واختلاف دعائهم وكان يرى مثل رأيهم أو قريباً منه في شأن علي والسبطين فعهد بالعهد من بعده لعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سنة

تذكر ذلك في أخبار البربر، ونعذد ملوكهم هناك واحداً واحداً، وانقراض دولتهم وعدوها، ونستوعب ذلك كله لأنه أمس بالبربر فإنهم كانوا القائمين بدعوتهم.

ثم خرج يحيى أخو محمد بن عبد الله بن حسن وإدريس في الديلم سنة ست وسبعين أيام الرشيد، واشتدت شوكتهم وسرح الرشيد لحربه الفضل بن يحيى فبلغ الطالقان، وتلطف في استنزاله من بلاد الديلم على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه، فتم بينهما، وجاء به الفضل فوفى له الرشيد بكل ما أحب، وأجرى له أرزاقاً سنية ثم حسبه بعد ذلك لسعاية كانت فيه من آل الزبير فيقال: أطلقه بعدها، ووصله بمال، ويقال: سمّه لشهر من اعتقاله، ويقال: أطلقه جعفر بن يحيى اقتياتاً فكان بسببه نكبة البرامكة، وانقرض شأن بني حسن وخفيت دعوة الزيدية حيناً من الدهر حتى كان منهم بعد ذلك باليمن والديلم ما نذكره والله غالب على أمره.

الخبر عن خروج الفاطميين بعد فتنة بغداد

كانت الدولة العباسية قد تمهدت من لدن أبي جعفر المنصور منهم، وسكن أمر الخوارج والدعاة من الشيعة من كل جهة حتى إذا هلك الرشيد، ووقع بين بنيه من الفتنة ما وقع، وقتل الأمين بيد طاهر بن الحسين، ووقع في حصار بغداد من الحرب والعبث ما وقع، وبقي المأمون مقيماً بخراسان تسكيناً لأهلها عن ثائرة الفتن، وولى على العراق الحسن بن سهل، اتسع الحرق حينئذ بالعراق وأشيع عن المأمون أن الفضل بن سهل غلب عليه، وحججه فامتعض الشيعة لذلك، وتكلموا وطعم العلوية في التوثب على الأمر فكان في العراق أعقاب إبراهيم بن محمد بن حسن المثنى المقتول بالبصرة أيام المنصور.

وكان منهم محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ولقبه أبوه طباطبا، للكنة كانت في لسانه، أيام مرواه بين داياته فلقب بها.

وكان شيعته من الزيدية وغيرهم يدعون إلى إمامته لأنها كانت متوارثة في آبائه من إبراهيم الإمام جدّه على ما قلناه في خبره، فخرج سنة تسع وتسعين، ودعا لنفسه، ووافاه أبو السرايا السري بن منصور كبير بني شيان فبايعه وقام بتدبير حربه، وملك الكوفة وكثر تابعوه من الأعراب وغيرهم.

وسرح الحسن بن سهل زهير بن المسيب لقتاله فهزمه طباطبا واستباح معسكره، ثم مات محمد في صبيحة ذلك اليوم فجاء، ويقال: إن أبا السرايا سمّه لما منعه من الغنائم فبايع أبو

إلى أن قتله، وعما أثر تلك الدعوة كما قدمناه في أخبار الموفق ونذكره في أخبارهم.

ثم خرج في الديلم من ولده الحسن بن زيد بن الحسن السبط الداعي المعروف بالعلوي، وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن خرج لخمس وخمسين فملك طبرستان وجرجان وسائر أعمالها، وكانت له ولشيعة الزيدية دولة هناك، ثم انقرضت آخر المائة الثالثة، وورثها من ولد الحسن السبط، ثم من ولد عمر بن علي بن زين العابدين الناصر الأطروش وهو الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر وهو ابن صاحب الطالقان.

أسلم الديلم على يد هذا الأطروش وملك بهم طبرستان وسائر أعمال الداعي، وكانت له ولبيته هناك دولة.

وكانوا سبياً لملك الديلم البلاد وتغلبهم على الخلفاء كما نذكر ذلك في أخبار دولتهم.

ثم خرج باليمن من الزيدية من ولد القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا أخيه محمد صاحب أبي السرايا أعوام ثمانية وثمانين ومائتين يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي فاستولى على صعدة وأورث عقبه فيها ملكاً باقياً لهذا العهد، وهي مركز الزيدية كما نذكر في أخبارهم.

وفي خلال ذلك خرج بالمدينة الأخوان محمد وعلي ابنا الحسن بن جعفر بن موسى الكاظم وعائناً في المدينة عيشاً شديداً وتعلت الصلاة بمسجد النبي ﷺ نحواً من شهر وذلك سنة إحدى وسبعين.

ثم ظهر بالمغرب من دعاة الرافضة أبو عبد الله الشيعي في كتامة من قبائل البربر أعوام ستة وثمانين ومائتين داعياً لعبيد الله المهدي محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق فظهر على الأغلبية بالقيروان، وباع لعبيد الله المهدي سنة ست وتسعين فتم أمره وملك المغربين، واستفحلت له دولة بالمغرب ورثها بنوه، ثم استولوا بعد ذلك على مصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فملكها منهم المعز لدين الله معد بن إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله المهدي وشيد القاهرة.

ثم ملك الشام واستفحل ملكه إلى أن انقرضت دولتهم على العاضد منهم على يد صلاح الدين بن أيوب سنة خمس وستين وخمسمائة.

ثم ظهر في سواد الكوفة سنة ثمان وخمسين ومائتين من دعاة الرافضة رجل اسمه الفرج بن يحيى، ويدعى قرومط، بكتاب زعم أنه من عند أحمد بن محمد بن الحنفية فيه كثير من كلمات

إحدى ومائتين، وكتب بذلك إلى الأفاق، وتقدم إلى الناس فتزع السواد ولبس الخضرة، فحمد بنو العباس ذلك من أمره وباعوا بالعراق لعنه إبراهيم بن المهدي سنة اثنتين ومائتين، وخطب له ببغداد وعظمت الفتنة.

وشخص المأمون من خراسان متلافياً أمر العراق وهلك علي بن موسى في طريقه فجأة، ودفن بطوس سنة ثلاث ومائتين. ووصل المأمون إلى بغداد سنة أربع، وقبض على عمه إبراهيم وعفا عنه وسكن الفتنة.

وفي سنة تسع بعدها خرج باليمن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب يدعو للرضا من آل محمد، وباعه أهل اليمن وسرح إليه المأمون مولاه ديناراً، واستأنم له فأمته وراجع الطاعة.

ثم كثر خروج الزيدية من بعد ذلك بالحجاز والعراق والجبال والديلم وهرب إلى مصر خلق، وأخذ منهم خلق، وتتابع دعائهم.

فالول من خرج منهم بعد ذلك محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن زين العابدين، هرب خوفاً من المعتصم سنة تسع عشرة ومائتين، وكان بمكان من العبادة والزهد فلحق بخراسان، ثم مضى إلى الطالقان ودعا بها لنفسه، واتبعته أمم الزيدية كلهم.

ثم حاربه عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فغلبه وقبض عليه، وحمله إلى المعتصم فحبسه حتى مات، ويقال: إنه مات مسموماً.

ثم خرج من بعده بالكوفة أيضاً الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين الأعرج بن علي ابن زين العابدين، واجتمع إليه الناس من بني أسد وغيرهم من جموعه وأشياعه، وذلك سنة إحدى وخمسين ومائتين، وزحف إليه ابن بشكال من أمراء الدولة فهزمه، ولحق بصاحب الزنج فكان معه.

وكانه أهل الكوفة في العود إليه، وظهر عليه صاحب الزنج فقتله.

وكان خروج صاحب الزنج بالبصرة قبله بقليل، واجتمعت له جموع العبيد من زنج البصرة وأعمالها، وكان يقول في لفظه من أعلمه أنه من ولد عيسى بن زيد الشهيد وأنه علي بن محمد بن زيد بن عيسى، ثم انتسب إلى يحيى بن زيد الشهيد، والحق أنه دعي في أهل البيت كما نذكره في أخباره.

وزحف إليه الموفق أخو المعتصم ودارت بينه وبينهم حروب

ومن عليها.

الخبر عن الأدارسة ملوك المغرب الأقصى ومبدأ دولتهم وانقراضها ثم تجددتها مفترقة في نواحي المغرب

لما خرج حسين بن علي بن حسن الثالث بن حسن المثنى بن الحسن السبط بمكة في ذي القعدة سنة ست وتسعين ومائة أيام المهدي، واجتمع عليه قرابته وفيهم عمه إدريس ويحيى، وقاتلهم محمد بن سليمان بن علي بعجة على ثلاثة أميال بمكة فقتل الحسين في جماعة من أهل بيته وانهزموا وأسر كثير منهم، ونجا يحيى بن إدريس وسليمان، وظهر يحيى بعد ذلك في الديلم، وقد ذكرنا خبره من قبل وكيف استنزل الرشيد وحبه.

وأما إدريس ففرّ ولحق بمصر، وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المصور ويعرف بالمسكين، وكان واضح يتشيع، فعلم شأن إدريس وأثابه إلى الموضع الذي كان به مستخفياً ولم ير شيئاً أخلص من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد، ونزل بوليلي سنة اثنتين وسبعين وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة وكبيرهم لعهد فاجاره، واجمع البرابرة على القيام بدعوته، وكشف القناع في ذلك، واجتمعت عليه زواجة ولواتة ومدراتة وغيثة ونفرة ومكناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب فبايعوه، وقاموا بأمره.

وخطب الناس يوم بوع فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه: لا تمدن الأعناق إلى غيرنا فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا. ولحق به من إخوته سليمان، ونزل بأرض زناته من تلمسان ونواحيها ونذكر خبره فيما بعد.

ولما استترق أمر إدريس وتمت دعوته زحف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل قندلاوه وبهلوانه ومديونة وما زار وفتح تامستا ومدينة شاله وتادلا وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية فأسلموا على يديه طوعاً وكرهاً وهدم معاقلم وحصرهم.

ثم زحف إلى تلمسان وبها من قبائل بني يعرب ومغراوه سنة ثلاث وسبعين، ولقيه أميرها محمد بن حرز بن جزلان فأعطاه الطاعة، وبذل له إدريس الأمان ولسائر زناته فأمكنه من قياد البلد، وبني مسجداً وأمر بعمل منبره وكتب اسمه فيه حسبما هو

الكفر والتحليل والتحریم، وأدعى أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر، وعاث في بلاد السواد، ثم في بلاد الشام وتلقب وكرويه بن مَهْرَوْنَه واستبد طائفة منهم بالبحرين ونواحيها ورئيسهم أبو سعيد الجنابي، وكان له هناك ملك ودولة أورثها بنيه من بعده إلى أن انقرضت أعوامهم كما يذكر في أخبار دولتهم، وكان أهل البحرين هؤلاء يرجعون إلى دعوة العبيديين بالمغرب وطاعتهم.

ثم كان بالعراق من دعاة الإسماعيلية وهؤلاء الرافضة طوائف آخرون، واستبدوا بكثير من النواحي، ونسب إليهم فيها القلاع: قلعة الموت وغيرها، وينسبون تارة إلى القرامطة، وتارة إلى العبيديين، وكان من رجالاتهم الحسن بن الصباح في قلعة الموت وغيرها إلى أن انقرض أمرهم آخر الدولة السلجوقية.

وكان باليمامة ومكة والمدينة من بعد ذلك دول للزيدية والرافضة فكان باليمامة دولة لبني الأخضر، وهو محمد بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن المثنى، خرج أخوه إسماعيل بن يوسف في بادية الحجاز سنة اثنتين وخمسين ومائتين وملك مكة، ثم مات فمضى أخوه محمد إلى اليمامة فملكها وأورثها لبنيه إلى أن غلبهم القرامطة.

وكان بمكة دولة لبني سليمان بن داود بن حسن المثنى خرج محمد بن سليمان أيام المأمون وتسمى بالناهاض، وملك مكة، واستقرت إمارتها في بنيه إلى أن غلبهم عليها الهواشم وكبيرهم محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون فملكها من إبراهيم سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وغلب بني حسن على المدينة وداول الخطبة بمكة بين العباسيين والمبيديين واستفحل ملكه في بنيه إلى أن انقرضوا آخر المائة السادسة، وغلب على مكة بنو أبي قمي أمراؤها لهذا العهد، ملك أولهم أبو عزيز قتادة بن إدريس مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن موسى الجون وورث دولة الهواشم وملكهم، وأورثها بنيه إلى هذا العهد كما نذكر في أخبارهم، وهؤلاء كلهم زيدية، وبالمدينة دولة للرافضة لولد الهناء.

قال المستبجي: اسمه الحسن بن طاهر بن مسلم، وفي كتاب العتي مؤرخ دولة ابن سبكتكين أن مسلماً اسمه محمد بن طاهر وكان صديقاً لكافور، ويدير أمره وهو من ولد الحسن بن علي زين العابدين.

واستولى طاهر بن مسلم على المدينة أعوام ستين وثلاثمائة وأورثها بنيه لهذا العهد كما نذكر في أخبارهم والله وارت الأرض

لدى باب السلسلة إلى غدير الجوزاء والجرف، واستقام له أمر الخلافة وأمر القائمين بدعوته وأمر العز والملك.

ثم خرج غازياً المصامدة سنة سبع وتسعين فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته.

ثم غزا تلمسان وجدد بناء مسجدها وإصلاح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين، وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحروا دعوة الخوارج منهم، واقطع الفريسيين عن دعوة العباسيين من لدن الشمس الأقصى إلى شلف.

ودافع إبراهيم بن الأغلب عن حماه بعدما ضايقه بالكاد، واستفاد الأولياء واستمال بهلول بن عبد الواحد المظفري بمن معه من قومه عن طاعة إدريس إلى طاعة هارون الرشيد.

ووفد عليه بالقيروان، واسترأب إدريس بالبرابرة فصالح إبراهيم بن الأغلب وسكن من غربه.

وعجز الأغلبية من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة، ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير بالغض من إدريس والقدس في نسبة إلى أبيه إدريس بما هو أوهن من خيوط العنكب.

وهلك إدريس سنة ثلاث عشرة وقام بالأمر من بعده ابنه محمد بعهد إليه فأجبع أمره بوفاة جدته كثره أم إدريس على أن يشرك إخوته في سلطانه ويقاسم مالك أبيه.

فقسم المغرب بينهم أعمالاً اختص منها القاسم بطنجة ويسكرة وسبته وتيطاوين وقلعة حجر النسر وما إلى ذلك من البلاد والقبائل واختص عمر بتيكيسان وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة واختص داود ببلاد هوارة وتسول وتازي وما بينهما من القبائل: مكناسة وغياثة واختص عبد الله بإغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى، واختص يحيى بأصيلا والعرائش وبلاد زوجة وما إلى ذلك.

واختص عيسى بشالة وسلا وأزمور وتامستا وما إلى ذلك من القبائل.

واختص حمزة بوليلى وأعمالها وأبقى الباقيين في كفالته وكفالة جدته كثره لصغرهم، وبقيت تلمسان لوليد سليمان بن عبد الله.

وخرج عيسى بأزمور على أخيه محمد طالباً الأمر لنفسه، فبعت لحربه أخاه عمر بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع.

ولما أوقع عمر بعيسى وغلب على ما في يده استنابه إلى أعماله بإذن أخيه محمد.

مخطوط في صفح المنبر لهذا العهد.

ورجع إلى مدينة بوليلى ثم دس إليه الرشيد مولى من موالى المهدي اسمه سليمان بن حريز ويعرف بالشماخ أنفذه بكتابه إلى ابن الأغلب فأجازه، ولحق بإدريس مظهراً التزوع إليه فيمن نزع من وهران المغرب متبرئاً من الدعوة العباسية ومتحلاً للطلب، واختصه الإمام إدريس وحلا بعينه وكان قد تأبط سماً في سنون، فناوله إياه عند شكايته من وجع أسنانه، فكان فيه كما زعموا حتفه ودفن ببوليلى سنة خمس وسبعين.

وفر الشماخ ولحقه فيما زعموا راشد بوادي مَلَوِيَّة فاختلفا ضربتين قطع فيها راشد يد الشماخ، وأجاز الوادي فأعجزه واعتلق بالبرابر من أوربة وغيرهم فجعل من دعوته في ابنه إدريس الأصغر من جاريته كنزه بايعوه حملاً ثم رضيعاً ثم فصيلاً إلى أن شب واستتم فبايعوه بجامع وليلى سنة ثمان وثمانين ابن إحدى عشرة سنة، وكان ابن الأغلب دس إليهم الأموال واستمالهم حتى قتلوا راشداً مولاه سنة ست وثمانين، وقام بكفالة إدريس من بعده أبو خالد بن يزيد بن إلياس العبدى، ولم يزل كذلك إلى أن بايعوا لإدريس، فقاموا بأمره وجردوا لأنفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته، وافتتحوا بلاد المغرب كلها واستوثق لهم الملك بها واستوزر إدريس مصعب بن عيسى الأزدي المسمى بالملجوم من ضربة في بعض حروبهم.

وسمته على المخرطوم وكأنها خطام، ونزع إليه كثير من قبائل العرب والأندلس، حتى اجتمع إليه منهم زهاء خمسمائة فاختمهم دون البربر، وكانوا له بطانة وحاشية، واستفحل بهم سلطانه.

ثم قتل كبير أوربة إسحاق بن عمود سنة اثنتين وتسعين لما أحسن منه بموالة إبراهيم بن الأغلب، وكثرت حاشية الدولة وأنصارها، وضافت وليلى بهم فاعتصم موضعاً لبناء مدينة لهم، وكانت فاس موضعاً لبني بوغش وبني الخير من وزاغة، وكان في بني بوغش مجوس ويهود ونصارى، وكان موضع شيبوية منها بيت نار لمجوسهم، وأسلموا كلهم على يده.

وكانت بينهم فتن فبعت للإصلاح بينهم كاتبه أبا الحسن عبد الملك بن مالك الخزرجي.

ثم جاء إلى فاس وضرب أبنته بكزواوه، وشرع في بنائها فاخطأ دعوة الأندلس سنة اثنتين وتسعين.

وفي سنة ثلاث بعدها اختطأ عدوة القرويين ويشى مساكته، وانتقل إليها وأسس جامع الشرفاء، وكانت عدوة القرويين من

وأعد له السقاية والسلسلة بياض الحفاة منه، ثم أوسع في خطته آخر ملوك لتونة من الموحدين، وبنى مدين واستمرت العمارة به، وانصرفت همهم إلى تشييده والمنافسات في الاحتفال به فبلغ الاحتفال فيه ما شاء الله حسبما هو مذكور في تواريخ المغرب.

وهلك يحيى هذا سنة ولي ابنه يحيى بن يحيى فأساء السيرة وكثر عيته في الحرم واثارت به العامة لمركب شنيع أنباء وتولى كبر الثورة عبد الرحمن بن أبي سهل الحزامي، وأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين فتواري ليلتين ومات أسفاً ليلته، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس، وبلغ الخبر بشأن يحيى إلى ابن عمه علي بن عمر صاحب الريف، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجاء إلى فاس ودخلها وبإيعاده، واستولى على أعمال المغرب إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الخارجي، خرج بجبال لتونة وكان على رأي الصفرية فزحف إلى فاس وغلب عليها، ففر إلى أوربة وملك عبد الرزاق عدوة الأندلس، وامتنعت منه عدوة القرويين، وولوا على أنفسهم يحيى بن القاسم بن إدريس، وكان يعرف بالصرام، بعثوا إليه فجاءهم في جموعه، وكانت بينه وبين الخارجي حروب.

ويقال: إنه أخرجه من عدوة الأندلس، واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن أبي صفرة.

ثم استعمل ابنه عبد الله المعروف بعبود من بعده، ثم ابنه محارب بن عبود بن ثعلبة إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

وقام بالأمر مكانه يحيى بن إدريس بن عمر صاحب الريف، وهو ابن أخي علي بن عمر فملك جميع أعمال الإدارة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً، وكان فقيهاً عارفاً بالحديث ولم يبلغ أحد من الإدارة مبلغه في السلطان والدولة.

وفي أثناء ذلك كله خلط الملك للشيعنة بإفريقية، وتغلبوا على الإسكندرية واختطوا المهدي كما نذكره في دولة كتامة.

ثم طمحو إلى ملك المغرب وعقدوا لمضالعة بن حبوس كبير مكناسة وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة، فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة، وبرز لمداغته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة وسائر البرابرة والموالي، والتقوا على مكناسة وكانت الدبرة على يحيى وقومه، ورجع إلى فاس مغلولاً وأجاز له بها معاملة إلى أن صالحه على مال يؤديه إليه وطاعة معروفة لعبيد الله الشيعي

ثم أمره أخوه محمد بالتهوض إلى حرب القاسم لعوده عن إجابته في محاربة عيسى فزحف إليه، وأوقع به، واستتاب عليه إلى ما في يده فصار الريف البحري كله من عمل عمر هذا من تيكيسان، وبلاد غمارة إلى سبته، ثم إلى طنجة.

وهذا ساحل البحر الرومي، ثم ينعطف إلى أصيلا ثم سلا، ثم أزموز وبلاد تامستا، وهذا ساحل البحر الكبير.

وتزهد القاسم وبنى رباطاً بساحل أصيلا للعبادة إلى أن هلك.

واتسعت ولاية عمر بعمل عيسى والقاسم، وخلصت طويته لأخيه محمد الأمير، وهلك في إمارة أخيه محمد ببلد صنهاجة بموضع يقال له فج الفرس سنة عشرين ومائتين، ودفن بفاس وعمر هذا هو جد المحمديين الدائنين بالأندلس من بني أمية كما نذكره.

وعقد الأمير محمد على عمله لولده علي بن عمر.

ثم كان مهلك الأمير محمد لسبعة أشهر من مهلك أخيه عمر سنة إحدى وعشرين ومائتين بعد أن استخلف ولده علياً في مرضه وهو ابن تسع سنين فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة وبإيعاده غلاماً مترعرعاً وقاموا بأمره وأحسنوا كفالته وطاعته فكانت أيامه خير أيام، وهلك سنة أربع وثلاثين ثلاث عشرة سنة من ولايته، وعهد لأخيه يحيى بن محمد فقام بالأمر، وامتد سلطانه وعظمت دولته، وحسنت آثار أيامه.

واستجدت فاس في العمران وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البين بنت محمد الفهري، وقال ابن أبي ذرع: اسمها فاطمة، وأنها من هواره.

وكانت مثرية بموروث أفادته من ذوبها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير فاخطط المسجد الجامع بعدوة القرويين أصغر ما كان سنة خمس وأربعين في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبتت بصحنها ثراً شرباً للناس، فكانما نهبت بذلك عزائم الملوك من بعدها، ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس لضيق محلته وجوار بيته.

واختط بعد ذلك أحمد بن سعيد بن أبي بكر البغرني صومعته سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، على رأس مائة سنة من اختطاط الجامع حسبما هو منقوش في الحجاراة بالركن الشرقي منها، ثم أوسع في خطته المنصور بن أبي عامر، وجلب إليه الماء

وسلطانه، يؤديها فقبل الشرط، وخرج عن الأمر، وخلع نفسه،

وأنفذ بيعته إلى عبيد الله المهدي وأبقى عليه مصالحه في سكنى فاس، وعقد له على عملها خاصة، وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يومئذ وصاحب سنوروتازه على سائر أعمال البربر كما نذكره في أخبار مكناسة ودولة موسى.

وكان بين موسى بن أبي العافية وبين يحيى بن إدريس شحنة وعداوة، يضطعنهما كل واحد لصاحبه حتى إذا عاد مضالة إلى المغرب في غزاته الثانية سنة تسع أعزاه موسى بن أبي العافية بطلة بن يحيى بن إدريس صاحب فاس، فقبض عليه مضالة واستصفى أمواله وذخائره وغرّبه إلى أصيلا والريف عمل ذي قرباه ورحمه، وولى على فاس ريمان الكتامي.

ثم خرج يحيى يريد إفريقية فاعترضه ابن أبي العافية وسجنه ستين وأطلقه ولحق بالمهدية سنة إحدى وثلاثين وهلك في حصار أبي يزيد سنة واستبد ابن أبي العافية بملك المغرب وثار على ريمان الكتامي بفاس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بالحجام، ونفى ريمان عنها وملكها عامين، وزحف للقاء موسى بن أبي العافية وكانت بينهما حروب شديدة هلك فيها ابنه مهال بن موسى، وأجلت المعركة على أكثر من ألف قتيل وخلص الحسن إلى فاس منهزماً وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله، وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس وملكها وطالبه بإحضار الحسن فدافعه عن ذلك، وأطلق الحسن متكرراً فتتل من السور فسقط ومات من ليلته وفر حامد بن حمدان إلى المهديّة، وقتل موسى بن أبي العافية عبد الله بن ثعلبة بن محارب وابنيه عمداً ويوسف وذهب ملك الأدارسة، واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم أخي الحسن وولوه عليهم واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وأنزلوه وبني عمر بن إدريس يومئذ بغمارة من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك.

وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب، وملك سبتة علي بن إدريس سنة تسع عشرة، وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر فأنجابوا له عنها وأنزل بها حاميتها.

وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكانون، وهو أخو الحسن الحجام، واسمه القاسم بن محمد بن القاسم، وقام بدعوة الشيعة المخرافاً عن أبي العافية ومذاهبه، واتصل الأمر في ولده وغمارة أولياؤهم

والقائمون بأمرهم كما نذكره في أخبار غمارة. ودخلت دعوة المروانيين خلفاء قرطبة إلى المغرب، وتغلّبت زناتة على الضواحي.

ثم ملك بنو يعرب فاس ويعدهم مغراوة وأقام الأدارسة بالريف مع غمارة وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة وقلعة حجر النسر ومدينة سبتة وأصيلا.

ثم تغلب عليهم المروانيون وأئخنهم إلى الأندلس، ثم أجازوهم إلى الإسكندرية وبعث العزيز العبيدي بن كاتون منهم لطلب ملكهم بالمغرب فغلبه عليه المنصور بن أبي عامر وقتله، وعليه كان انقراض أمرهم وانقراض سلطان أوربة من المغرب، وكان من أعقاب الأدارسة الذين أووا إلى غمارة فكانوا الدالّين من ملوك الأموية بالأندلس، وذلك أن الأدارسة لما انقراض سلطانهم صاروا إلى بلاد غمارة واستجدوا بها رياسة، واستمرت في بني محمد وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس، وكانت للبربر إليهم بسبب ذلك طاعة وخلطة.

وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة فأجازوا مع البربر حين أجازوا في مظاهرة المستعين ثم غلبوه بعد ذلك على الأمر وصار لهم ملك الأندلس حسبما نذكر في أخبارهم.

وأما سليمان أخو إدريس أخبر فإنه فر إلى المغرب أيام العباسيين فلحق بجيحات تاهرت بعد مهلك أخيه إدريس، وطلب الأمر هناك فاستكره البرابرة وطلبه ولاية الأغالبة فكان في طلبهم تصحيح نسبه.

ولحق بتملسان فملكها وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك، وورث ملكه ابنه محمد بن سليمان على سنته، ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن محمد بن أحمد، وأظن هذا القاسم هو الذي يدعي بنو عبد الواد نسبته، فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس يمثل هذه الدعوى.

وكانت أرشكول لعيسى بن محمد بن سليمان وكان منقطعاً إلى الشيعة، وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى وكنيته أبو العيش، ولم تزل إمارتها في ولده، ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى، ثم ابنه يحيى بن إبراهيم، ثم أخوه إدريس بن إبراهيم، وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعاً إلى عبد الرحمن الناصر وأخوه يحيى كذلك.

وارتاب من قبله ميسور قائد الشيعة فقبض عليه سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، ثم انحرف عنهم فلما أخذ ابن أبي العافية

المحدث بن الحسن بن عبيد الله بن الحسن الأصغر بن زين العابدين فتطول سلسلة نسبه، وتشتمل على اثني عشر إلى الحسين بن فاطمة، ويعد ذلك إلى العصر الذي ظهر فيه.

والذي عليه المحققون الطبري وابن حزم وغيرهما أنه رجل من عبد القيس من قرية تسمى وديفن من قرى الري، واسمه علي بن عبد الرحيم حدثه نفسه بالتوثب، ورأى كثرة خروج الزيدية من الفاطميين فانتحل هذا النسب وادعاه، وليس من أهله. ويصدق هذا أنه كان خارجياً على رأي الأزارقة يلعن الطائفتين من أهل الجمل وصفين، وكيف يكون هذا من علوي صحيح النسب؟ ولأجل انتحاله هذا النسب وبطلانه في دعاويه فسد أمره فقتل ولم تتم له دولة بعد أن فعل الأفاعيل وعاث في جهات البصرة، واستباح الأمصار وخربها، وهزم العساكر وقتل الأمراء الأكابر، واتخذ لنفسه حصوناً قتل فيها من جأبه لكره سنة الله في عباده.

وسياق الخبر عنه أنه شخص من الذين حجوا ببغداد مع جماعة من حاشية المنتصر، ثم سار إلى البحرين سنة تسع وأربعين ومائتين فادعى أنه علوي من ولد الحسين بن عبيد الله بن العباس بن علي، ودعا الناس إلى طاعته فاتبه كثير من أهل هجر، ثم تحول إلى الإحساء، ونزل على بعض بني عجم ومعه قوارة يحيى بن محمد الأزرق وسليمان بن جامع، وقاتل أهل البحرين فهزموه وافترقت العرب عنه، ولحق بالبصرة والفتنة فيها بين البلبالية والسعدية، وبلغ خبره محمد بن رجاء العامل فطلبه فهرب وحبس ابنه وزوجته وبعض أصحابه، ولحق هو ببغداد فانتسب إلى عيسى بن زيد الشهيد كما قلناه، وأقام بها حولاً.

ثم بلغه أن البلبالية والسعدية أخرجوا محمد بن رجاء من البصرة، وأن أهله خلصوا فرجع إلى البصرة في رمضان سنة خمس وخمسين، ومعه يحيى بن محمد وسليمان بن جامع.

ومن أهل بغداد الذين استمالهم جعفر بن محمد الصمدحاني وعلي بن أبان وعبدان غير من سميئنا فنزل بظاهر البصرة، ووجه دعوته إلى العبيد من الزنوج وأفسدهم على مواليتهم وروغبتهم في العتق، ثم في الملك، واتخذ راية رسم فيها «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» الآية.

وجاءه موالى العبيد في طلبهم فأمروهم بضربهم وحسبهم، ثم أطلقهم، وتسائل إليه الزنوج واتبعوه وهزم عساكر البصرة والأبلة وذهب إلى القادسية، وجاءت العساكر من بغداد فهزمهم ونهب النواحي، وجاء المدد إلى البصرة مع جلعان من قواد الترك

بدعوة العلوية نابذ أولياء الشيعة فحاصر صاحب جراوة الحسن بن أبي العيش، وغلبه على جراوة فلحق بابن عمه إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكور.

ثم حاصرها البوري بن موسى بن أبي العافية وغلب عليهما، وبعث بهما إلى الناصر فأسكنهما قرطبة، وكانت تنس لإبراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى، وتغلب عليه زيري بن مناد سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة ففر إلى الجبر بن محمد بن خزر، وجاز ابنه حمزة ويحيى إلى الناصر فتلقاها رحباً وتكرمة، ورجع يحيى منهما إلى طلب تنس فلم يظفر بها.

وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط.

وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وبطوش بن حناتش بن الحسن بن محمد بن سليمان، قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جداً، وكان لهم بها ممالك، وقد بطل جميعها ولم يبق منهم بها رئيس بنواحي بجاية وحمل بني حمزة هؤلاء جوهر إلى القيروان وبقيت منهم بقايا في الجبال والأطراف معروفون هنالك عند البربر والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن صاحب الزنج وتصاريف أمره واضمحلال دعوته

هذه الدعوة فيها اضطراب منذ أولها فلم يتم لصاحبها دولة، وذلك أن دعاة العلوية منذ زمان المعتصم من الزيدية كما شرحناه، وكان من أعظمهم الذين دعا لهم شيعتهم بالنواحي علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد الشهيد، ولما اشتهر أمره فرّ وقتل ابن عمه علي بن محمد بن الحسن بن علي بن عيسى، وبقي هو متغيياً فادعى صاحب الزنج هذا سنة خمس وخمسين ومائتين أيام المهدي أنه هو، فلما ملك البصرة ظهر هذا المطلوب، ولقيه صاحب الزنج حياً معروفاً بين الناس فرجع عن دعوى نسبه وانتسب إليه إلى يحيى بن يزيد قاتل الجون، ونسبه السعودي إلى طاهر بن الحسين بن علي، وقال فيه: علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن طاهر.

ويشكل ذلك بأن الحسين بن فاطمة لم يكن له عقب إلا من زين العابدين، قاله ابن حزم وغيره، فإن أراد بطاهر طاهر بن يحيى

اثنتين وستين، واعترضه يعقوب الصفار يريد بغداد فشغل بحربه، وانهمز الصفار وانتزع من يده ما كان ملكه من الأهواز.

وكان مسرور البلخي قد سار إلى المعتمد وحضر معه حرب الصفار، فاجتمعت أصحاب الزنج خلوا تلك النواحي من العسكر ويث سراياه للنهب والتخريب في القادسية، وجاءت العساكر من بغداد مع أغرتمش وخشنش، فهزمهم الزنج وقائلهم سليمان بن جامع، وقتل خشنش.

وكان علي بن أبان من قوادهم قد سار إلى الأهواز، وأميرها يومئذ محمد بن هزارمرد الكردي، فبعث مسرور البلخي أحمد بن الينونة للقائهم فغلب أولاً على الأهواز علي بن أبان، ثم ظاهره محمد بن هزارمرد والأكراد فرجع إلى السوس، وأقام علي بن أبان وصاحبه بستري، وطمع أنه يخطب لصاحب الزنج فخطب هو للصفار فاقتلا، وانهمز علي بن أبان وخرج واضطربت فارس بالفتنة.

ثم ملك الصفار الأهواز وواعد الزنج، وسار سليمان بن جامع من قواد الزنج، وولى الموفق على مدينة واسط أحمد بن المولد فزحف إليه الخليل بن أبان فهزمه، واقتحم واسطاً واستباحها سنة أربع وستين وضربت خيولهم في نواحي السواد إلى النعمانية إلى جرجايا فاستباحوها، وسار علي بن أبان إلى الأهواز فحاصرها واستعمل الموفق عليها مسروراً البلخي فبعث تكييد البخاري إلى تستر فهزمهم علي بن أبان وجماعة الزنج، وسأله المودعة فوادعهم واتهمه مسرور فقبض عليه، وبعث مكانه أغرتمش فهزم الزنج أولاً ثم هزمه ثانياً فوادعهم.

ثم سار علي بن أبان إلى محمد بن هزارمرد الكردي فغلبه على رامهرمز حتى صالحه عليها على مائتي ألف درهم، وعلى الخطبة له في أعماله.

ثم سار ابن أبان لحصار بعض القلاع بالأهواز، فزحف إليه مسرور البلخي فهزمه واستباح معسكره.

وكان الموفق لما اقتحم الزنج مدينة واسط بعث ابنه أبا العباس سنة ست وستين في عشرة آلاف من المقاتلة، ومعه السفن في النهر عليها أبو حمزة نصير فكتب إليه نصير بأن سليمان بن جامع أقبل في المقاتلة والسفن برأً وبحراً، وعلى مقدمته الجنائي، ولحقهم سليمان بن موسى الشعراني بالعساكر، ونزلوا من الطفح إلى أسفل واسط، فسار إليهم أبو العباس فهزمهم، فتأخروا وراءهم وأقام على واسط يردد عليهم الحروب والهزائم مرة بعد أخرى ثم أمر صاحب الزنج قائده ابن أبان وابن جامع أن يجتمعا

وقاتلوه فهزمهم.

ثم ملك الأبله واستباحها، وسار إلى الأهواز وبها إبراهيم بن المدير على الخوارج، فاقتحها وأسر ابن المدير سنة ست وخمسين إلى أن فر من محبسهم، فبعث المعتمد سعيد بن صالح الحاجب لحربهم سنة سبع وخمسين، وهو يومئذ عامل البصرة وسار من واسط فهزمه علي بن أبان من قواد الزنج لحربهم، هزمه إلى البحرين فتحصن بالبصرة، وزحف علي بن أبان لحصاره حتى نزل على أمانه، ودخلها وأحرق جامعها، ونكسب عليه صاحب الزنج فصرفه، وولى على البصرة مكانه يحيى بن محمد البحراني.

وبعث المعتمد محمد المولد إلى البصرة فأخرج عنه الزنج، ثم بيتوا محمد بن المولد فهزموه.

ثم ساروا إلى الأهواز وعليها منصور الخياط فواقع الزنج فغلبوه وكان المعتمد قد استقدم أخاه أبا أحمد الموفق من مكة وعقد له على الكوفة والحرمين وطريق مكة واليمن، ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز، وأمره أن يعقد ليارجوج على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين مكان سعيد بن صالح.

ثم انهزم سعيد بن صالح فعقد يارجوج لمنصور بن جعفر مكانه، ثم قتله الزنج كما قلناه فأمر المعتمد أخاه الموفق بالمسير إليهم في ربيع سنة ثمان وخمسين، وعلى مقدمته مفلح فاجفل الزنج عن البصرة، وسار قائلهم علي بن أبان فلقى مفلحاً فقتل مفلح وانهمز أصحابه ورجع الموفق إلى سامرا، وكان اصطخوور ولي الأهواز بعد منصور الخياط، وجاء يحيى بن محمد البحراني من قواد الزنج، ويلغهم مسير الموفق فانهزم يحيى البحراني، ورجع في السفن، فأخذ وحمل إلى سامرا فقتل وبعث صاحب الزنج مكانه علي بن أبان وسليمان الشعراني فملكوا الأهواز من يد اصطخوور سنة تسع وخمسين، بعد أن هزموه وهرب في السفن ففرق.

وسرح المعتمد لحربهم موسى بن بغا بعد أن عقد له على تلك الأعمال فبعث إلى الأهواز عبد الرحمن بن مفلح، وإلى البصرة إسحاق بن كيداجق، وإلى باداورد إبراهيم بن سليمان، وأقاموا في حروبهم مدة سنة ونصفها.

ثم استغنى موسى بن بغا وولى على تلك الأعمال مكانه مسرور البلخي، وجهاز المعتمد أخاه أبا أحمد الموفق لحربهم بعد أن عهد له بالخلافة ولقبه الناصر لدين الله الموفق، وولاه على أعمال المشرق كلها إلى آخر أصفهان وعلى الحجاز، فسار لذلك سنة

والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن دعاة الديلم والجيل من العلوية وما كان لهم من الدولة بطبرستان للداعي وأخيه أولاً ثم للأطروش وبنيه وتصاريه ذلك إلى انقضائه

كان أبو جعفر المنصور قد اختص من العلوية من بني الحسن السبط حافده الحسن بن زيد بن الحسن وولاه المدينة، وهو الذي امتحن الإمام مالكا رحمه الله كما هو معروف.

وهو الذي أغرى المنصور من قبل بيبي حسن وأخبره بدسيسة محمد المهدي وابنه عبد الله في شأن الدعاء لهم حتى قبض عليهم وحملهم إلى العراق كما قدمناه.

وكان له عقب بالري منهم: الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن والي المدينة، ولما حدث بين عامل طبرستان محمد بن أوس الكافل بها لسليمان بن عبد الله بن طاهر نائباً عن محمد بن طاهر صاحب خراسان، وبين محمد وجعفر من بني رستم من أهل نواحي طبرستان حادث فتنة، وقد تقدم ذكرها، أغروا به أهل تلك النواحي وبعثوا إلى الديلم ليستنجدوا بهم عليه، وكانوا على المجوسية يومئذ، وهم حرب محمد بن أوس لدخوله بلادهم، وقتله وسيه منهم أيام المسألة، وملكهم يومئذ وهشوار بن حسان فاجابوا ابني رستم إلى حربه.

وبعث ابنا رستم إلى محمد بن إبراهيم بطبرستان لكون الدعوة له فامتنع ودلهم على الحسن بن زيد بالري فاستدعوه بكتاب محمد بن إبراهيم فشخص إليهم، وقد اتفق الديلم وابنا رستم وأهل ناحيتهم على بيعته فبايعوه، وانضم إليهم أهل جبال طبرستان.

وزحف إلى آمد فقاتله ابن أوس دورته، وخالفه الحسن بن زيد في جماعة إلى آمد فملكها، ونجا ابن أوس إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر بسارية وزحف إليهم الحسن فخرجوا للقائه فناشهم الحرب، وبعث بعض قواده إلى سارية فملكها، وانهزم سليمان إلى جرجان، واستولى الحسن على معسكره بما فيه وعلى حرمه وأولاده فبعثهم إليه في السفن.

ويقال: إن سليمان انهزم له لدميسة التشيع التي كانت في بني طاهر، ثم أقبل الحسن بن زيد إلى طبرستان فملكها وهرب عنها سليمان، ثم بعث الحسن دعاته إلى النواحي وكان يعرف

لحرب أبي العباس بن الموفق، وبلغ ذلك الموفق فسار من بغداد في ربيع سنة سبع وستين فانتهى إلى المنبة، وقاتل الزنج فانهمزوا أمامه واتبعهم أصحاب أبي العباس ابنه فائقتموا عليهم المنبة وقتلوا وأسروا، وهدم سور المنبة وطمس خندقها وهرب الشعرائي وابن جامع، وسار أبو العباس إلى المنصورة بطهشا فنازلها وغلب عليها، وأفلت ابن جامع إلى واسط، وغلب على ما فيها من الذخائر والأموال، وهدم سورها وطمس خنادقها ورجع إلى واسط.

ثم سار الموفق إلى الزنج بالأهواز واستخلف ابنه هارون على جنده بواسط، وجاء الخبر برجوع الزنج إلى طهشا والمنصورة فرد إليهم من يوقع بهم ومضى لوجهه فانتهى إلى السوس وعلي بن أبان بالأهواز فسار إلى صاحبه واستأمن المخلفون هنالك إلى الموفق فأمنهم، وسار إلى تستر وأمن محمد بن عبد الله الكردي، ثم وافى الأهواز وكتب إلى ابنه هارون أن يوافيه بالجند بنهر المبارك من فرات البصرة وبعث ابنه أبا العباس لحرب الخبيث بنهر أبي الخصيب واستأمن إليه جماعة من قواده فأمنه وكتب إليه بالدعوة والأعذار، وزحف إليه في مدينته المختارة له، وأطلق السفن في البحر وعيى عساكره وهي نحو من خمسين ألفاً والزنج في نحو من ثلاثمائة ألف مقاتل، ونصب الآلات ورتب المنازل للحصار، وبنى المقاعد للقتال، واختط مدينته الموقية لنزوله، وكتب بحمل الأموال والميرة إليها فحملت، وقطع الميرة عن المختارة، وكتب إلى البلاد بإنشاء السفن والاستكثار منها، وقام يحاصرها من شعبان سنة سبع وستين إلى صفر من سنة سبعين.

ثم اقتحم عليهم المختارة فملكها وفر الخبيث وابنه أنكلابي وابن جامع إلى معقل أعدده واتبعه طائفة من الجند فائقتموا عنه، وأمرهم من الغد باتباعه فانهمز وقاتل من أصحابه وأسر ابن جامع.

ثم قتل صاحب الزنج وجيء برأسه ولحق أنكلابي بالديناري في خمسة آلاف، ولحقهم أصحاب الموفق فظفروا بهم وأسروهم أجمعين، وكان درمونة من قواده قد لحق بالبطيحة، واعتصم بالمغايب والأجام ليقطع الميرة عن أصحاب الموفق.

فلما علم بقتل صاحبه استأمن إلى الموفق فأمنه ثم أقام الموفق بمدينته قليلاً وولى على البصرة والأبلة وكور دجلة، ورجع إلى بغداد فدخلها في جمادى سنة سبعين، وكان لصاحب الزنج من الولد محمد ولقبه أنكلابي ومعناه بالزنجية ابن الملك، ثم مجسى وسليمان والفضل حبسوا في المطبق إلى أن هلكوا.

يخلص إلا بمشقة.

وكتب إلى الخليفة يخبر الحسن وما فعله معه، وسار إلى الري في طلب عبد الله السخري فأمكنه منه، والي الري فقتله.

ثم رجع الحسن بن زيد إلى طبرستان سنة إحدى وستين، وغلب عليها أصحاب الصفار واقتطعها عنهم.

ثم انتقض السجستاني على يعقوب بن الليث بخراسان وملكها من يده كما ذكرناه، فسار وحاربه أبو طلحة بن شركب وأمره الحسن بن زيد فسار السجستاني إلى محاربه بسبب ذلك سنة خمس وستين، وانتزع جرجان من يده، ثم خرج عنها بقتال عمرو بن الليث بعد موت أخيه يعقوب كما نذكر في أخبارهم، فملكها الحسن بن زيد.

ثم أوقع السجستاني بالحسن بن زيد سنة ست وستين، كبسه بجرجان وهو غاز فهزمه ولحق بآمد وملك سارية، واستخلف عليها الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الله الشيعي بن الحسين الأصغر بن زين العابدين، وانصرف فأظهر الحسن بسارية قتل الحسن بن زيد، ودعا لنفسه فبايعه جماعة.

ثم وافاه الحسن بن زيد فظفر به وقتله.

وفاة الحسن بن زيد وولاية أخيه

ثم توفي الحسن بن زيد صاحب طبرستان في رجب سنة سبعين وولي مكانه أخوه عماد، وكان قيامهم أولاً على ابن طاهر كما ذكرناه.

ثم غلب يعقوب الصفار على خراسان وانتفض عليه أحمد السجستاني، وملكها من يده.

ثم مات يعقوب سنة خمس وستين وولي مكانه أخوه عمرو، وزحف إلى خراسان، وقاسم السجستاني فيها وكانت بينهما حروب، وكان الحسن داعي طبرستان يقابلهما جميعاً إلى أن هلك، وولي مكانه أخوه كما ذكرناه.

وكانت قزوين تغلب عليها أثناء ذلك عساكر الموفق ووليها أذكونتين ممن مواليهم فزحف إلى الري سنة اثنتين وسبعين، وزحف إليه محمد بن زيد في عالم كبير من الديلم وأهل طبرستان وخراسان فانهزم، وقتل من عسكره ستة آلاف، وأسر ألفان، وغنم أذكونتين عسكره جميعاً وملك الري وفرق عماله في نواحيها.

ثم مات السجستاني وقام بأمرة في خراسان رافع بن الليث من قواد الظاهرية فغلب محمد بن زيد على طبرستان وجرجان

بالداعي العلوي فبعث إلى الري القاسم ابن عمه علي بن إسماعيل، وبها القاسم بن علي بن زين العابدين السمرى فملكها، واستخلف بها محمد بن جعفر بن أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن زين العابدين.

وبعث إلى قزوين الحسين المعروف بالكوكبي بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن جعفر، وهزمه وأسره فبعث الحسن بن زيد قائده دواجن إلى محمد بن ميكال فهزمه وقتله، وملك الري من يده، وذلك سنة خمسين ومائتين.

ثم زحف سليمان بن عبد الله بن طاهر من جرجان في العساكر فأجفل الحسن بن زيد عن طبرستان إلى الديلم ودخلها سليمان، ثم قصد سارية وأناه ابناً قاران بن شهرزاد من الديلم وأناه أهل آمد وغيرهم طائعين فصفتح عنهم، ثم سار محمد بن طاهر إلى لقاء الحسن فهزمه، وقتل من أعيان أصحابه ثلاثمائة وأربعين رجلاً.

ثم زحف موسى بن بغا حربهم سنة ثلاث وخمسين فلقبه الحسن الكوكبي على قزوين، وانهزم إلى الديلم واستولى موسى بن بغا على قزوين.

ثم رجع الكوكبي سنة ست وخمسين فاستولى على الري واستولى القاسم بن علي بعدها على الكرخ سنة سبع ثم زحف الحسن بن زيد إلى جرجان وبعث إليها محمد بن طاهر صاحب خراسان العساكر فهزمهم الحسن، وغلبهم عليها وانتفض أمر ابن طاهر بخراسان من يومئذ واختلف المغلوبون عليه، وكان ذلك داعياً إلى انتزع يعقوب الصفار خراسان من يده.

ثم غلبه الحسين سنة تسع وخمسين على قومس.

استيلاء الصفار على طبرستان

كان عبد الله السخري ينازعه يعقوب بن الليث الصفار الرياسة بسجستان، فلما استولى يعقوب على الأمر هرب عبد الله إلى نيسابور مستجيراً بابن طاهر فأجاره.

فلما هلك يعقوب الصفار بنيسابور هرب عبد الله إلى الحسن بن زيد ونزل سارية وبعث فيه يعقوب الصفار فلم يسلمه الحسن بن زيد، فسار إليه يعقوب سنة ستين، وهزمه فلحق بأرض الديلم ولحق عبد الله بالري.

وملك يعقوب سارية وآمد وجبى خراجها، وسار في طلب الحسن فتعلق بجبال طبرستان، واعترضته الأمطار والأوحال فلم

ظهور الأطروش العلوي وملكه طبرستان

الأطروش هذا من ولد عمر بن زين العابدين الذي كان منهم داعي الطالقات أيام المعتصم، وقد مر ذلك.

واسم الأطروش الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر، دخل إلى الديلم بعد مقتل محمد بن زيد وأقام فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويأخذ منهم العشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان، فأسلم منهم خلق كثير، واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد وحملهم على رأي الزيدية فدانوا به.

ثم دعاهم إلى السير معه إلى طبرستان.

وكان عاملها محمد بن نوح من قبل أحمد بن إسماعيل بن سامان، وكان كثير الإحسان إليهم فلم ينجبوا الأطروش إلى البغي عليه.

ثم عزل ابن سامان عن طبرستان ابن نوح وولى عليها غيره، فأساء السيرة فأعاد إليها ابن نوح، ثم مات فاستعمل عليها أبا العباس محمد بن إبراهيم صعلوكاً فأساء السيرة وتكرر لرؤساء الديلم، فدعاهم الحسن الأطروش للخروج معه فأجابوه فصار إليهم صعلوك، ولقيهم بشاطئ البحر على مرحلة من سالوس فانهزم وقتل من أصحابه نحو من أربعة آلاف، وحصر الأطروش بقيتهم في سالوس حتى استأمنوا إليه فأنهم ونزل آمد.

وجاء صهره الحسن بن قاسم بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد والي المدينة، وقد مر ذكره، فلم يحضر قتل أولئك المستأمنين، واستولى الأطروش على طبرستان وتسمى الناصر، وذلك سنة إحدى وثلاثمائة، ولحق صعلوك بالري، وسار منها إلى بغداد.

ثم زحف الناصر سنة اثنتين وثلاثمائة، فخرج عن آمد ولحق بسالوس، ويث إليه صعلوك العساكر فهزمهم الحسن الداعي وهو الحسن بن زيد.

ثم زحفت إليه عساكر خراسان وهي للسعيد نصر بن أحمد فقتلوه سنة أربع وثلاثمائة، وولى صهره وبنوه وكانت بينهم حروب بالديلم كما نذكره.

وكان له من الولد أبو القاسم وأبو الحسن وكان قواده من الديلم جماعة منهم ليلى بن النعمان، وولاه صهره الحسن بعد ذلك جرجان، وما كان بن كالي، وكانت له ولاية أستراباذ، وقرأ من كتاب الديلم، وكان من قواده من الديلم جماعة أخرى منهم أسفار بن شيرويه من أصحاب ماكان ومرداويج من أصحاب

فلحق بالديلم، ثم صالحه سنة إحدى وثمانين وخطب له فيها سنة اثنتين وثمانين على أن يتجده على عمرو بن الليث، وكتب له عمرو بن الليث، يعذله عن ذلك فأتصر عنه، فلما غلب عمرو على رافع رعى محمد بن زيد خذلانه لرافع فخلى له عن طبرستان وملكها.

مقتل محمد بن زيد

كان عمرو بن الليث لما ملك خراسان، وقتل رافع بن هرثمة، طلب من المعتضد ولاية ما وراء النهر فولاه.

واتصل الخبر بإسماعيل بن أحمد الساماني ملك تلك الناحية فغبر جيحون وهزم جيوش عمرو بن الليث ورجع إلى بخارى، فزحف عمرو بن الليث من نيسابور إلى بلخ وأعوزه العبور.

وجاء إسماعيل فغبر النهر، وأخذ عليه الجهات بكثرة جموعه فأصبح كالحاصر ثم اقتلوا فانهزم عمرو وأسرهم إسماعيل وبعث به إلى المعتضد سنة ثمان وثمانين فحبسه إلى أن قتل، وعقد لإسماعيل على ما كان بيد عمرو.

ولما اتصل بمحمد بن زيد، واقعة عمرو وأمره سار من طبرستان لا يرى أن إسماعيل يقصدها فلما انتهى إلى جرجان بعث إليه إسماعيل يصده عن ذلك فأبى، فسرح إليه محمد بن هارون، وكان من قواد رافع بن هرثمة، وصار من قواد إسماعيل بن سامان فلقى محمد بن زيد على جرجان واقتلوا فانهزم محمد بن هارون أولاً.

ثم رجعت الكرة على محمد بن زيد، وافترقت عساكره وقتل من عسكره عالم وأسر ابنه زيد، وأصابته هو جراحات هلك منها لأيام قلائل، وغنم ابن هارون عسكره بما فيه، وسار إلى طبرستان فملكها وبعث يزيد إلى إسماعيل فأنزله ببخارى، ووسع عليه الأنفاق واشتدت عليه شوكة الديلم وحاربهم إسماعيل سنة تسع وثمانين، وملكهم يومئذ ابن حسان فهزمهم، وصارت طبرستان وجرجان في ملك بني سامان مع خراسان، إلى أن ظهر بها الأطروش كما نذكر بعد.

ويقال: إن زيد بن محمد بن زيد ملك طبرستان من بعد ذلك إلى أن توفي وملكها من بعده ابنه الحسن بن زيد.

في أربعة آلاف فارس لحصاره بجرجان فحاصره شهراً، ومع الحسن صاحب جيشه سرخاب بن وهشوداب، وهو ابن عم ماكان بن كالي فلما اشتد بهم الحصار خرج أبو الحسن وسرخاب في ثمانية آلاف من الديلم والجند فانهزم سيجور أولاً فاتبعوه وقد أكنم لهم الكمائن فخرجت عليهم، وقتل من الديلم والجند نحو أربعة آلاف، وخلص أبو الحسن في البحر إلى أستراباذ، ولحقه سرخاب فخلفه، وأقام سيجور بجرجان.

ثم هلك سرخاب وسار أبو الحسن إلى سارية واستخلف ماكان بن كالي على أستراباذ، فاجتمع إليه الديلم وولوه على أنفسهم، وزحف إليه عساكر السعيد بن سامان فحاصروه مدة.

ثم خرج عن أستراباذ إلى سارية فملكوها وولوا عليها يقرخان، وعادوا إلى جرجان ثم إلى نيسابور ثم سار ماكان بن كالي إلى أستراباذ وملكها من يد يقرخان، ثم ملك جرجان وأقام بها وذلك سنة عشر وثلاثمائة.

ثم استولى أسفار بن شيرويه على جرجان، واستقل بها، وكان سبب ذلك أنه كان من أصحاب ماكان بن كالي ونكره لبعض أحواله فطرده من عسكره، وسار إلى أبي بكر بن محمد بن البيع من السامانية بنيسابور فخدمه، وبعثه في عسكر إلى جرجان ليفتحها له، وقد كان ماكان سار إلى طبرستان وولى على جرجان مكانه أخاه أبا الحسن علياً، وكان أبو الحسن بن الأطروش معتقلاً عنده، وهم ليلة بقتله، وقصده في عبيسه فظفر به أبو علي وقتله، وخرج من الدار واختفى وبعث من الغد إلى القواد فباعوا له وولوا على جيشه علي بن خرشيد ورضوا به.

واستقدموا أسفار بن شيرويه فاستأذن بكر بن محمد وقدم عليهم، وسار إليهم ماكان بن كالي فحاربوه وغلبوه على طبرستان، وأنزلوا بها أبا علي بن الأطروش فأقام بها أياماً ومات على أثره علي بن خرشيد صاحب جيشه، وجاء ماكان بن كالي لحرب أسفار بطبرستان فانهزم أسفار ولحق بيكر بن محمد بجرجان وأقام إلى أن توفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة فولاه السعيد على جرجان، وأرسل إلى مردوايع بن دينار الجبلي، وجعله أمير جيشه، وزحفوا إلى طبرستان فملكوها.

وكان الحسن بن القاسم الداعي قد استولى على الري وقزوین وزنگان وأهر و قم، وقائده ماكان بن كالي الديلمي فسار إلى طبرستان وقتله أسفار فانهزم ماكان، والحسن بن القاسم الداعي، وقتل بمخذلان أصحابه إياه، لأنه كان يشتد عليهم في تغيير المنكرات فتشاؤروا في أن يستقدموا هذرسيدان من رؤساء الجبل،

أسفار والسيكري من أصحابه أيضاً، ومولويه من أصحاب مردوايع، ويأتي الخبر عن جميعهم.

وكان الحسن بن قاسم صهر الأطروش، وكان رديفه في الأمر حتى كان يعرف بالداعي الصغير، واستعمل على جرجان سنة ثمان وثلاثمائة ليلي بن النعمان من كبار الديلم.

وكان له مكان في قومه، وكان الأطروش وأولاده يلقبونه المؤيد لدين الله، المنتصر لآل رسول الله، وكانت خراسان يومئذ لنصر بن أحمد من بني سامان.

وكان الدامغان ثغرها من ناحية طبرستان، وكان بها فراتكين من موالي ابن سامان فوقعت بينه وبين ليلي حروب وهزمه ليلي، واستفحل أمره ونزع إليه فارس مولى فراتكين فأكرمه وأصهر إليه بخته واستأمن إليه أبو القاسم بن حفص وهو ابن أخت أحمد بن سهل قائد السامانية عندما نكب خاله أحمد فأمته وأجاره.

ثم حرضه الحسن بن قاسم الداعي الصغير على المسير إلى نيسابور فسار إليها ومعه أبو القاسم بن حفص فملكها من فراتكين سنة ثمان وثلاثمائة، وخطب بها للداعي، وأنفذ السعيد نصر عساكره إليه من بخارى مع قائده حمويه بن علي، ومعه محمد بن عبيد الله البلعي وأبو جعفر صعلوك، وخوارزم شاه وسيجور الدواني ويقرخان فلقبهم ليلي بطوس، وقاتلوه فانهزم إلى آمد ولم يقدر على الحصار، ولحقه يقرخان فقبض عليه وبعث حمويه من قتله، واستأمن الديلم إليهم فأمنوهم، وأشار حمويه بقتلهم فاستجاروا بالقواد، وبعث برأس ليلي إلى بغداد، وذلك في ربيع من سنة تسع وبقي فارس مولى فراتكين بجرجان.

إمارة العلوية بطبرستان بعد الأطروش

ولما قتل الحسن الأطروش سنة أربع وثلاثمائة، كما قدمناه، ولى مكانه بطبرستان صهره، وهو الحسن بن القاسم، وقد مر ذكره، ويسمى بالداعي الصغير، ويلقب بالناصر.

وبعض الناس يقولون هو الحسن بن محمد أخي الأطروش، هكذا قال ابن حزم وغيره، وليس بصحيح وإنما هو صهره الحسن بن القاسم من عقب الحسين بن زيد والي المدينة، ثم من عقب حافده محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن، وكان أبو الحسن بن الأطروش باستراباذ فباع له ماكان بن كالي، وقام بأمره فلما قتل ليلي بن النعمان صاحب جرجان، وعاد فراتكين إليها، ثم انصرف عنها وجاءه أبو الحسن بن الأطروش باستراباذ فباع له فملكها، فبعث السعيد بن سامان صاحب خراسان قائده سيجور الدواني

ومضى أبو جعفر محمد بن أبي الحسن أحمد بن الأطروش إلى الديلم إلى أن غلب مرداويج على الري، فكتب إليه وأخرجه عن الديلم وأحسن إليه.

فلما غلب على طبرستان وأخرج ماكان عنها بايع لأبي جعفر هذا، وسمي صاحب القلنسوة إلى أن مات، وبويع أخوه ولقب الثائر، وأقام مع الديلم وزحف سنة ست وثلاثين إلى جرجان، وبها ركن الدولة بن بويه فسرح إليه ابن العميد فانهزم الثائر، وتعلق بالجبال، وأقام مع الديلم وملوك العجم يخطبون له إلى أن هلك سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، لثلاثين سنة من ملكه، وبايعوا أخيه الحسين بن جعفر وتلقب بالناصر، وتقبض عليه ليكون وشكس ملك الجبل وسلمه وانقرض ملك الفاطميين أجمع بتلك الجبال والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة الإسماعيلية ونبدأ منهم

بالعبيدين الخلفاء بالقيروان والقاهرة وما كان لهم من الدولة من المشرق والمغرب

أصل هؤلاء العبيدين من الشيعة الإمامية، وقد تقدم لنا حكاية مذهبهم والبراءة من الشيخين ومن سائر الصحابة، لعدوهم عن بيعة علي إلى غيره مع وصية النبي ﷺ له بالإمامة بزعمهم، وبهذا امتازوا عن سائر الشيعة.

والأ فاشيعة كلهم مطبقون على تفضيل علي ولم يقدح ذلك عند الزيدية في إمامة أبي بكر لقولهم بجواز إمامة المفضول مع الأفضل، ولا عند الكيسانية لأنهم لم يدعوا هذه الوصية، فلم يكن عندهم قاذح فيمن خالفها، وهذه الوصية لم تعرف لأحد من أهل النقل، وهي من موضوعات الإمامية، وقد يسمون رافضة، قالوا: لأنه لما خرج زيد الشهيد بالكوفة واختلف عليه الشيعة نأظروه في أمر الشيخين وأنهم ظلموا علياً ففكر ذلك عليهم فقالوا له: وأنت أيضاً فلم يظلمك أحد، ولا حق لك في الأمر، وانصرفوا عنه ورفضوه فسموا رافضة، وسمي أتباعه زيدية.

ثم صارت الإمامة من علي إلى الحسن ثم الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر، ثم ابنه جعفر الصادق، كل هؤلاء بالوصية، وهم ستة أئمة لم يخالف أحد من الرافضة في إصابتهم، ثم افرقوا من ههنا فرقتين وهم الاثنا عشرية والإسماعيلية.

واختص الاثنا عشرية باسم الإمامية لهذا العهد، ومذهبهم

وكان خال مرداويج وشككين فيقدموه عليهم ويعبسوا الحسن الداعي وينصبوا أبا الحسن بن الأطروش.

ونما الخبر بذلك إلى الداعي وقدم هذرسيدان فلقبه الداعي مع القواد وأدخلهم إلى قصره بجرجان ليأكلوا من مائدته فدخلوا وقتلهم عن آخرهم، فعظمت نفرتهم عنه فخذلوه في هذا الموطن وقتل، واستولى أسفار على طبرستان والري وجرجان وقزوین وزنجار وابهـر وقم والكـرج، ودعا للسعيد بن سامان صاحب خراسان، وأقام بسارية واستعمل على آمد هارون بن بهرام، وقصد بذلك استخلاصه لنفسه لأنه كان يخطب لأبي جعفر من ولد الناصر الأطروش فولاه آمد وزوجه بإحدى نساته الأعيان بها، وحضر عرسه أبو جعفر وغيره من العلويين، وهجم عليه أسفار يوم عرسه بآمد، فقبض على أبي جعفر وغيره من أعيان العلويين، ومهلهم إلى بخارى فاعتقلوا بها إلى أن خلصوا من بعد ذلك.

ومن تاريخ بعض المتأخرين أن الحسن بن القاسم الداعي صهر الأطروش، بويع بعد موته ولقب الناصر، وملك جرجان.

وكان الديلم قد اشتملوا على جعفر بن الأطروش، وتابعوه فصار الداعي إلى طبرستان وملكها ولحق جعفر بدينابند فقبض عليه علي بن أحمد بن نصر وبعث به إلى علي بن وهشودان بن حسان ملك الديلم وهو عامله، فحبسه علي بن وهشودان بن حسان ملك الديلم فلما قتل أطلقه من بعده حسرة فيروز، فاستجاش جعفر بالديلم وعاد إلى طبرستان فملكها وهرب الحسن.

ثم مات جعفر فبويع أبو الحسن ابن أخيه الحسن، فلما ظهر ماكان بن كالي بايع للحسن الداعي وأخرجه إليه، وقبض على الحسن بن أحمد وهو ابن أخي جعفر وحبسه بجرجان عند أخيه أبي علي ليقتله فقتله الحسن ونجا، وبايعه القواد بجرجان.

ثم حاربه ماكان فانهزم الحسن إلى آمد ومات بها، وبويع أخوه أبو جعفر بن محمد بن أحمد وقصده ماكان من الري فهرب من آمد إلى سارية وبها أسفار بن شيرويه، فقاتل دونه وانهزم أسفار إلى جرجان، واستأمن إلى أبي بكر بن محمد بن الياس.

ثم بايع ماكان لأبي القاسم الداعي، وخرج الحسن إلى الري وطلب مرداويج بثأر خاله سيداب بن بندار، وكان الداعي بجرجان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وانصرف ماكان إلى الديلم، ثم ملك طبرستان وبايع بها لأبي علي الناصر بن إسماعيل بن جعفر بن الأطروش، وهلك بعد مدة.

الله أتارك ويكرّون ذلك إلى أن تبدو النجوم، ثم ينصرفون إلى الليلة القابلة هكذا دأبهم.

وهؤلاء من الجبل بحيث ينتظرون من يقطع بموته مع طول الأمد، لكن التعصب حملهم على ذلك وربما يحتجون لذلك بقصة الخضر والأخرى أيضاً باطلة، والصحيح أن الخضر قد مات.

وأما الإسماعيلية فزعموا أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل، وتوفي قبل أبيه، وكان أبو جعفر المنصور طلبه فشهد له عامل المدينة بأنه مات.

وفائدة النص عندهم على إسماعيل وإن كان مات قبل أبيه بقاء الإمامة في ولده كما نص موسى على هارون صلوات الله عليهما ومات قبله.

والنص عندهم لا مرجع وراءه، لأن البدء على الله محال.

ويقولون في ابنه محمد أنه السابع التام من الأئمة الظاهرين، وهو أول الأئمة المستورين عندهم الذين يستترون ويظهرون الدعاة، وعددهم ثلاثة ولسن تخلوا الأرض منهم عن إمام، إما ظاهر بذاته أو مستور، فلا بد من ظهور حجته ودعائه.

والأئمة يدور عددها عندهم على سبعة عدد الأسبوع، والسموات والكواكب، والبقاء تدور عندهم على اثني عشر.

وهم يغلطون الأئمة المستورين عندهم محمد بن إسماعيل وهو محمد المكرم، ثم ابنه جعفر المصدق، ثم ابنه محمد الحبيب ثم ابنه عبد الله المهدي صاحب الدولة بإفريقية والمغرب التي قام بها أبو عبد الله الشيعي بكتامة.

وكان من هؤلاء الإسماعيلية القرامطة، واستقرت لهم دولة بالبحرين في أبي سعيد الجنابي وبينه أبي القاسم الحسين بن فروخ بن حوشب الكوفي داعي اليمن لمحمد الحبيب، ثم ابنه عبد الله ويسمى بالمنصور، وكان من الاثني عشرية أولاً فلما بطل ما في أيديهم رجع إلى رأي الإسماعيلية وبعث محمد الحبيب أبو عبد الله إلى اليمن داعية له، فلما بلغه عن محمد بن يعفر ملك صنعاء أنه أظهر التوبة والنسك، وتخلّى عن الملك فقدم اليمن ووجد بها شيعة يعرفون ببني موسى في عدن لاعة.

وكان علي بن الفضل من أهل اليمن ومن كبار الشيعة، وطاره بن حوشب على أمره، وكتب له الإمام محمد بالعهد لعبد الله ابنه، وأذن له في الحرب فقام بدعوته وبثها في اليمن وجيش الجيوش، وفتح المدائن وملك صنعاء، وأخرج منها بني يعين، وفرّق الدعاة في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب، وكان يظهر الدعوة للرضا من آل محمد، وكان من دعائه

أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم، وخرج دعائه بعد موت أبيه فحمله هارون من المدينة وحجسه عند عيسى بن جعفر، ثم أشخصه إلى بغداد وحجسه عند ابن شاهك.

ويقال أن يحيى بن خالد سمه في رطب فقتله، وتوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة، وزعم شيعتهم أن الإمام بعده ابنه علي الرضا وكان عظيماً في بني هاشم، وكانت له مع المأمون صحبة، وعهد له بالأمر من بعده سنة إحدى ومائتين عند ظهور الدعاة للطالبين وخروجهم في كل ناحية.

وكان المأمون يومئذ بجراسان لم يدخل العراق بعد مقتل أخيه الأمين فنكر ذلك عليه شيعة العباسيين وبايعوا لعنه إبراهيم بن المهدي ببغداد، فارتحل المأمون إلى العراق وعلي الرضا معه، فهلك علي في طريقه سنة ثلاث ومائتين ودفن بطوس، ويقال: إن المأمون سمه.

ويحكى أنه دخل عليه يعود في مرضه فقال له: أوصني فقال له علي: إياك أن تعطي شيئاً وتندم عليه، ولا يصح ذلك لنزاهة المأمون عن إراقة الدماء بالباطل سيما دماء أهل البيت ثم زعم شيعتهم أن الأمر من بعد علي الرضا لابنه محمد التقي وكان له من المأمون مكان، وأصره إليه في ابنته، فأنكحه المأمون إياها سنة خمس ومائتين.

ثم هلك سنة عشرين ومائتين ودفن بمقابر قريش وتزعم الاثنا عشرية أن الإمام بعده ابنه علي ويلقبونه الهادي، ويقال: الجواد، ومات سنة أربع وخمسين ومائتين وقبره بقم، وزعم ابن سعيد أن المقتدر سمه.

ويزعمون أن الإمام بعده ابنه الحسن، ويلقب العسكري لأنه ولد بسر من رأى، وكانت تسمى العسكر، وحبس بها بعد أبيه إلى أن هلك سنة ستين ومائتين، ودفن إلى جنب أبيه في المشهد وترك حلاً ولد منه ابنه محمد فاعتقل، ويقال: دخل مع أمه في السرداب بدار أبيه وفقد، فزعمت شيعتهم أنه الإمام بعد أبيه، ولقبره المهدي والحجة، وزعموا أنه حي لم يموت وهم الآن ينتظرون، ووقفوا عند هذا الانتظار، وهو الثاني عشر من ولد علي ولذلك سميت شيعته الاثني عشرية.

وهذا المذهب في المدينة والكرخ والشام والحلة والعراق، وهم حتى الآن على ما بلغنا يصلون المغرب، فإذا قضوا الصلاة قدموا مركباً إلى دار السرداب بجهازه وحليته ونادوا بأصوات متوسطة، أيها الإمام أخرج إلينا فإن الناس منتظرون، والخلق حائزون، والظلم عام، والحق مفقود فاخرج إلينا فتقرب الرحمة من

فسار وأظهر الدعوة للمهدي من آل محمد بتعوته المعروفة عندهم، واستولى على أكثر اليمن، وتسمى بالمنصور وابتنى حصناً بجبل لاعة.

وملك صنعاء من بني يعفر وفرّق الدعاة في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب.

وكان أبو عبد الله الحسين بن محمد بن زكريا المعروف بالختب، وكان محتسباً بالبصرة، وقيل: إنما الختسب أخوه أبو العباس المخطوم وأبو عبد الله هذا يعرف بالمعلم لأنه كان يعلم مذهب الإمامية، فاتصل أبو عبد الله بمحمد الحبيب، ورأى ما فيه من الأهلية فأرسله إلى ابن حوشب باليمن ليأخذ عنه، ثم يذهب إلى المغرب يقصد بلد كتامة فيظهر بينهم الدعوة.

فجاء أبو عبد الله إلى ابن حوشب ولزمه وشهد مجالسه وأفاد علمه.

ثم خرج مع حاج اليمن إلى مكة فلقى بالموسم رجالاً كتامة ورؤساءهم، وفيهم من لقي الحلواني وابن بكار وأخذوا عنهما فقصدهم أبو عبد الله في رحالهم، وكان منهم موسى بن حريث كبير بني سكان من جملة أحد شعوبهم وأبو القاسم الورغومي من أحلافهم، ومسعود بن عيسى بن ملال المساكيني، وموسى بن تكاد، فجلس إليهم وسمعوا منه مذاهبهم ورأوا ما هو عليه من العبادة والزهد فعلق بقلوبهم، وصار يتعهدهم في رحالهم فاغتنبوا به واغتنب بهم.

ولما أرادوا الرحلة إلى بلادهم سألوه الصبغة فوافقهم طويلاً وجه مذهبه عنهم، بعد أن سألهم عن قومهم وعصابتهم وبلادهم وملكة السلطان فيهم فكشفوا له علم ذلك، وأنهم إنما يعطون السلطان طاعة معروفة فاستيقن تمام أمره فيهم، وخرج معهم إلى المغرب وسلكوا طريق الصحراء، وعدلوا عن القيروان إلى أن وصلوا بلد سوماتة، وبها محمد بن حمدون بن سماك الأندلسي من بجاية الأندلس نزيراً عنهم، وكان قد أدرك الحلواني وأخذ عنه.

فنزّل أبو عبد الله الشيعي عليه فكرمه، وفأوضه وتقرّس ابن حمدون فيه أنه صاحب الدولة.

ثم ارتحلوا وصحبهم ابن حمدون، ودخلوا بلد كتامة متصرف ربيع سنة ثمان وثمانين ومائتين فنزل على موسى بن حريث ببلدة أنكجان في بلد بني سكان من جبيلة، وعين له مكان منزله بفتح الأخيار، وأن النص عنه من المهدي بذلك وبهجرة المهدي وأن أنصار الأخيار من أهل زمانه وأن اسمهم مشتق من الكتمان.

أبو عبد الله الشيعي صاحب كتامة ومن عنده سار إلى إفريقية فوجد في كتامة من الباطنية خلقاً كثيراً، وكان هذا المذهب هنالك من لدن الدعاة الذين بعثهم جعفر الصادق إلى المغرب.

أقاموا بإفريقية وبثوا فيها الدعوة، وتناقله من البرابرة اسم وكان أكثرهم من كتامة فلما جاء أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي ووجد هذا المذهب في كتامة فقام على تعليمه وبثه وإحيائه حتى تمّ الأمر ويوبع لعبد الله كما نذكر الآن في أخبارهم.

ابتداء دولة العبيدين

وأولهم عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكنوم بن جعفر الصادق.

ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم وبالحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر بالظعن في نسبهم، وشهد فيه أعلام الأئمة.

وقد مر ذكرهم فإن كتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة يغريهم بالقبض عليه لما سار إلى المغرب شاهد بصحة نسبهم، وشعر الشريف الرضي مسجل بذلك، والذين شهدوا في المحضر فشهادتهم على السماع وهي ما علمت وقد كان نسبهم ببغداد منكراً عند أعدائهم شيعة بني العباس منذ مائة سنة فتلون الناس بمذهب أهل الدولة، وجاءت شهادة عليه مع أنها شهادة على النفي، مع أن طبيعة الوجود في الانقياد إليهم، وظهور كلمتهم حتى في مكة والمدينة أدل شيء على صحة نسبهم.

وأما من يجعل نسبهم في اليهودية والنصرانية ليعمون القدر وغيره فكفاه ذلك إنمّا وسفسة.

وكان شيعة هؤلاء العبيدين بالشرق واليمن وإفريقية.

وكان أصل ظهورهم بإفريقية دخول الحلواني وأبي سفيان من شيعتهم إليها أنفذهما جعفر الصادق، وقال لهما: بالمغرب أرض بور فاذهبا واحراثها حتى يجيء صاحب البذر فنزل أحدهما ببلد مراغة، والآخر ببلد سوف جمار وكلاهما من أرض كتامة ففتحت هذه الدعوة في تلك النواحي، وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من أرض حصص وكان شيعتهم يتعاقدونه بالزيارة إذا زاروا قبر الحسين، فجاء محمد بن الفضل من عدن لاعة من اليمن لزيارة محمد الحبيب، فبعث معه رستم بن الحسن بن حوشب من أصحابه لإقامة دعوته باليمن، وأن المهدي خارج في هذا الوقت

وأصحابه، وانهزمت كتامة وأبلى عروبة بن يوسف الملوشي في ذلك اليوم بلاء حسناً، واجتمعت إلى أبي عبد الله غسان كلها ويلزمة وليعة وعامة بجاية ورئيسهم يومئذ ماکنون بن ضبارة وأبو زاكى غام بن معارك.

ولحق بجيلة من بجاية فرج بن خيران، ويوسف بن محمد من لطانة، وفحل بن نوح، واستقام أمر الباقي للشيعة وجمع فتح بن يحيى من أطاعه من قومه مسألة لحرب الشيعة، فسار إليهم وأوقع بهم، ولحق فلهم بسطيف.

ثم استامنوا إليه فأمتهم ودخلوا في أمره، وولى منهم هارون بن يونس على حروبه، ولحق رئيسهم فتح بن يحيى بعجيسة، وجمع ثانية لحربه الشيعة فسار إليه ومعه جموع كتامة، وتحصن منه فتح بعض قلاعهم فحاصره الشيعة وفتحها، واجتمعت إليه عجيسة وزواوة وجميع قبائل كتامة، ورجع إلى تازروت وبث دعائه في كل ناحية فدخل الناس في أمره طوعاً وكراهاً.

ولحق فتح بن يحيى بالأمير إبراهيم بن أحمد بتونس، واستحثه لحرب الشيعة.

ثم فتح أبو عبد الله مساكنة بمداخلة بعض أهلها، وقتل صاحبها موسى بن عياش وولى عليها ماکنون بن ضبارة الجاني وهو أبو يوسف، ولحق إبراهيم بن موسى بن عياش بأبي العباس إبراهيم بن الأغلب بتونس بعد خروج أبيه إلى صقلية.

وكان فتح بن يحيى المساكيني قد نزع إليه من قبل ذلك، ووعده المظاهرة فجهز العساكر، وعقد عليها لابنه أبي خوال، وزحف من تونس سنة تسع وثمانين فذوخ كتامة، ثم صعد إلى تازروت فلقبه أبو عبد الله الشيعة في جموعه ببلد ملوسة فهزمهم أبو خوال، وفر الشيعة من قصر تازروت إلى إيكجان فامتنع بها، فهدم أبو خوال القصر واتبعه، وتوغل أبو خوال في بلاد كتامة فاضطرب أمره، وتوقع البيات.

وسار إبراهيم بن موسى بن عياش من عسكر أبي خوال إلى نواحي مسيلة يتجسس الأخبار فتواقع مع طائفة من أصحاب الشيعة فهزموه واتبعوه إلى المعسكر فاضطرب، وأجفل أبو خوال وخرج من بلاد كتامة، واستوطن أبو عبد الله إيكجان وبنى بها بلداً وسماها دار الهجرة، واستبصر الناس في أمره ودخلوا في دعوته.

ثم هلك الحسن بن هارون، وجهز أبو العباس العساكر ثانية مع ابنه أبي خوال وردده لحرب الشيعة وكتامة فسار في بلادهم، ورجع منهزماً وأقام قرياً منهم يدافعهم، ويمنعهم من

واجتمع إليه الكثير من أهل كتامة ولقي علماءهم واشتغل عليه الكثير من أهوائهم فجاهر بمذهبه، وأعلن بإمامة أهل البيت، ودعا للرضا من آل محمد واتبعه أكثر كتامة، وكانوا يسمونه بأبي عبد الله الشيعي والمشرقي.

وبلغ خبره إلى أمير إفريقية إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فبعث إليه بالتهديد والوعيد، فأساء الرد عليه، وخاف رؤساء كتامة عادية بن الأغلب، وأغراهم عمال بلادهم بالشيعة مثل موسى بن عياش صاحبة مسيلة، وعلي بن حفص بن عسلوكة صاحب سريفة.

وجاء ابن عجم صاحب يلزمة، فاجتمعوا وتفاوضوا في شأنه، وحضر يحيى المساكيني وكان يدعى بالأمير ومهدي بن أبي كمارة رئيس لميعة، وفرج بن حيران رئيس أجانة، وثمل بن مجل رئيس لطانة.

وراسلوا بيان بن صفلان رئيس بني سكتان، وأبو عبد الله الشيعي عندهم بجبل إيكجان في أن يسلمه إليهم أو يخرجهم من بلادهم، وحذروه عاقبة أمره فرد أمره إلى أهل العلم، فجاؤوا بالعلماء وهموا باغتياله فلم يتم لهم ذلك، وأطبقت بجيلة على مظاهرتهم فهزموا هؤلاء المثيرين عليه وردوهم خائبين.

ثم راجعوا بيات بن صقلاب في أمره ولاطفوه حتى صفا إليهم، وشعر بذلك أبو عبد الله الشيعي وأصحابه، فبعثوا إلى الحسن بن هارون الفسائي يسألونه الهجرة إليهم، فأجابهم ولحق ببلدة تازروت من بلادهم.

واجتمعت غسان لنصرتهم مع بطون كتامة الذين بايعوه من قبل، فاعتز وامتنع وعظم أمره.

ثم انتقض على الحسن بن هارون أخوه محمد منافسة له في الرئاسة، وكان صديقاً لمهدي بن أبي كمارة فداخله في التشريب على أبي عبد الله، وعظمت الفتنة بين لميعة وغسان، وولى أبو عبد الله الشيعي الحسن بن هارون على حروبه، وظهر بعد أن كان مخفياً.

وكان لمهدي بن أبي كمارة شيخ لميعة أخ اسمه أبو مديني، وكان من أحباب أبي عبد الله فقتل أخاه مهدياً ورأس على لميعة مكانه، فصاروا جميعاً إلى ولاية أبي عبد الله وأبي مديني شيخهم.

ثم تجمعت كتامة لحرب الشيعة وأصحابه، ونالزوه بمكانه من تازروت، وبعث الشيعي سهل بن فوكاش إلى فحل بن نوح رئيس لطانة، وكان صهره لينجد له عن حروبهم، في السلم، فمشى إلى كتامة، وأبو إلا أن ياتجوزهم الحرب، فغلبهم أبو عبد الله

التقدم.

بالقيروان فذهب إن سجلماسة وبها اليسع بن مدرار فأكرمه.

ثم جاء كتاب زيادة الله ويقال: كتاب المكتفي بأنه المهدي الذي داعيته في كتامة فحبسه اليسع، ثم أن أبا عبد الله الشيعي بعد مهلك أبي خوال الذي كان مضيقاً لهم اجتمعت إليه سائر كتامة وزحف إلى سطيف فحاصرها مدة، وكان بها علي بن جعفر بن عسكوجة صاحبها، وأخوه أبو حبيب فملكها وكان بها أيضاً داود بن جائة من كبار لبيعة، لحق بها فيمن لحق من وجوه كتامة فقام بها من بعد علي وأخيه.

واستأمن أهل سطيف فأمتهم أبو عبد الله ودخلها فهدمها، وجهز زيادة الله العساكر إلى كتامة مع قريه إبراهيم بن حشيش، وكانوا أربعين ألفاً فأنهت إلى قسنطينة فأقام بها وهم متحصنون بجبلهم، ثم زحف إليهم وواقعهم عند مدينة يلزمة فانهزم إلى باغاية ولحق بالقيروان.

وكتب الشيعي بالفتح إلى المهدي مع رجال من كتامة أخفوا أنفسهم حتى وصلوا إليه وعرفوه بالخبر.

ثم زحف الشيعي إلى طينة فحاصرها وقتل فتوح بن مجيى المساكتي، ثم افتتحها على الأمان، ثم زحف إلى يلزمة فملكها عنوة.

وجهز زيادة الله العساكر مع هارون الطبني عامل باغاية فأنهتوا إلى مدينة أزمول، وكانوا في طاعة الشيعي فهدمها هارون وقتل أهلها وزحف إليه عروبة بن يوسف من أصحاب الشيعي فنهزمه وقتله.

ثم فتح الشيعي مدينة ينجب كلها على يد يوسف الغساني ولحق عسكروها بالقيروان وشاع عن الشيعي وفشاؤه بالأمان فأمنه الناس، وكثر الأراجف بزيادة الله فجهز العساكر وأزاح العلل، وأفق ما في خزائنه وذخائره، وخرج بنفسه سنة خمس وتسعين ونزل الأريس.

ثم حاد عن اللقاء وأشار عليه أصحابه بالرجوع إلى القيروان ليكون ردةً للعساكر فرجع، وقدم على العساكر إبراهيم بن أبي الأغلب من قرابته وأمره بالمقام هناك.

ثم زحف الشيعي إلى باغاية فهرب عاملها وملكها صلحاً وبعث إلى مدينة قرطاجنة فافتتحها عنوة، وقتل عاملها، وسرح عساكره في إفريقية فرددوا فيها الغارات على قبائل البربر من نفزة وغيرهم.

ثم استأمن إليه أهل تيفاش فأمتهم، واستعمل عليهم صواب بن أبي القاسم السكتاني، فجاء إبراهيم بن الأغلب

وفي خلال ذلك هلك إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وقتل ابنه أبو العباس، وقام بالأمر ابنه زيادة الله فاستدعى أخاه أبا خوال وقتله، وانتقل من تونس إلى وقادة، واتهمك في لذاته، وانتشرت جيوش الشيعي في البلاد، وعلا أمره وبشرهم بأن المهدي قرب ظهوره فكان كما قال.

وصول المهدي الى المغرب واعتقاله

بسجلماسة ثم خروجه من الاعتقال وبعثه

ولما توفي محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن إسماعيل الإمام، عهد إلى ابنه عبد الله وقال له: أنت المهدي وتهاجر بعدي هجرة بعيدة، وتلقى عناً شديدة.

واتصل خبره بسائر دعاته في إفريقية واليمن، وبعث إليه أبو عبد الله رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم في انتظاره.

وشاع خبره واتصل بالعباسيين، فطلبه المكتفي ففر من أرض الشام إلى العراق، ثم لحق بمصر ومعه ابنه أبو القاسم غلاماً حدثاً وخاصته ومواليه، بعد أن كان أراد قصد اليمن فبلغه ما أحدث بها علي بن الفضل من بعد ابن حوشب، وأنه أساء السيرة فثنى عن ذلك، واعتمز على اللحاق بأبي عبد الله الشيعي بالمغرب فارتحل من مصر إلى الإسكندرية، ثم خرج من الإسكندرية في زي التجار.

وجاء كتاب المكتفي إلى عامل مصر وهو يومئذ عيسى النوشري يخبرهم، والقعود لهم بالمرصد، وكتب نعتة وحليته فسرح في طلبهم حتى وقف عليهم، وامتنح أحوالهم فلم يقف على اليقين في شيء منها فخلى سبيلهم.

وجد المهدي في السر وكان له كتب في الملاحم منقولة عن أبائه سرقت من رحله في طريقه، فيقال: إن ابنه أبا القاسم استردها من برقة حين زحف إلى مصر، ولما انتهى إلى طرابلس وفارقه التجار أهل الرقة بعث معهم أبا العباس أخا أبي عبد الله الشيعي إلى أخيه بكتامة، ومر بالقيروان وقد سبق خبرهم إلى زيادة الله، وهو يسأل عنهم فقبض على أبي العباس وساء له فأنكر فحبسه.

وكتب إلى عامل طرابلس بالقبض على المهدي فقاته ومار إلى قسنطينة.

ثم عدل عنها خشية على أبي العباس أخي الشيعي المعتقل

إفريقية أخاه أبا العباس، وترك معه أبا زكريا تمام بن معارك الألفاني واهتز المغرب لخروجه، وفرت زناتة من طريقه.

ثم بعثوا إليه بالطاعة فقبلهم وأرسل إلى اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة يطلفه فقتل الرسل وخرج للقائه.

فلما تراءى الجمعان انفض معسكره وهرب هو وأصحابه وخرج أهل البلد من الغد للشيعي وجاؤوا معه إلى محبس المهدي وابنه فأخرجهما وباع للمهدي، ومشي للمهدي ومشي مع رؤساء القبائل بين أيديهما وهو يكي من الفرح ويقول: هذا مولاكم حتى أنزله بالمخيم، وبعث في طلب اليسع فأدرك، وجيء به فقتل، وأقاموا بسجلماسة أربعين يوماً ثم ارتحلوا إلى إفريقية، ومروا بأكجان، فسلم الشيعي ما كان بها من الأموال للمهدي.

ثم نزلوا رقادة في ربيع سيع وتسعين، وحضر أهل القيروان ويبيع للمهدي البيعة العامة، واستقام أمره وبث دعائه في الناس فأجابوا إلا قليلاً عرض عليهم السيف، وقسم الأموال والجساري في رجال كتامة، وأقطعهم الأعمال، ودون الدواوين وجبى الأموال وبعث العمال على البلاد فبعث على طرابلس مكنون بن ضبارة الألفاني، وعلى صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنيزر، فسار إليها ونزل البحر، ونزل مازر في عيد الأضحى من سنة سبع وتسعين، فاستقضى إسحاق بن المنهال، وولى أخاه على كريت.

ثم أجاز البحر سنة ثمان وتسعين إلى العدو الشمالية، ونزل بسيط قلورية من بلاد الإفرنج فأتخن فيها، ورجع إلى صقلية فأساء السيرة في أهلها فثاروا به وحسوه، وكتبوا إلى المهدي فقبل عذرهم، وولى عليهم مكانه علي بن عمر البلوي فوصل خاتم سبع وتسعين.

مقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه

لما استقام سلطان عبيد الله المهدي بإفريقية استبد بأمره، وكفح أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس عن الاستبداد عليه، والتحكم في أمره فعظم ذلك عليهما، وصرح أبو العباس بما في نفسه فنهاه أخوه أبو عبد الله عن ذلك فلم يصغ إليه.

ثم استماله أبو العباس لمثل رأيه فأجابه، وبلغ ذلك إلى المهدي فلم يصدق.

ثم نهى أبا عبد الله عن مباشرة الناس، وقال: إنه مفسد للهيبة فتلف في رده ولم يجبه إليه ففسدت النية بينهما، واستفسدوا كتامة وأغروهم به وذكرهم بما أخذ من أموال أيكجان، واستأثر

واقتحمها عليه ثم نهض الشيعي في احتفال من العساكر إلى باغية ثم إلى سكتانة ثم إلى تَبَسَة ففتحتها كلها على الأمان.

ثم إلى القصرين من قمودة فأمن أهلها وأطاعوه، وسار يريد رقادة فخشى إبراهيم بن أبي الأغلب على زيادة الله لقلّة عسكره، فنهض إلى الشيعي واعترضه في عساكره واقتلوا، ثم تحاجزوا، ورجع الشيعي إلى أيكجان وإبراهيم إلى الأريس.

ثم سار الشيعي ثانية بعساكره إلى قسنطينة فحاصرها واقتحمها على الأمان، ثم إلى قصّة كذلك، ثم رجع إلى باغية فانزل بها عسكراً مع أبي مكدولة الجيلي.

ثم سار إلى أيكجان وخالفه إبراهيم إلى باغية، وبلغ الخبر إلى الشيعي فسرح لقتاله أبا مديني بن فروخ اللّهمي، ومعه عروبة بن يوسف الملوحي ورجاء بن أبي قنة في اثني عشر ألفاً، فقاتلوا ابن أبي الأغلب ومنعوه من باغية فرحل عنها، واتبعوه إلى فج العرعر ورجعوا عنه.

ثم زحف أبو عبد الله الشيعي سنة ست وتسعين في مائتي ألف من العساكر إلى إبراهيم بن أبي الأغلب بالأريس.

ثم اقتتلوا أياماً ثم انهزم إبراهيم واستبيح عسكره، وفر إلى القيروان، ودخل الشيعي الأريس فاستباحها، ثم سار فنزل قمودة واتصل الخبر بزيادة الله وهو بركة ففر إلى المشرق، ونهبت قصوره، واقترب أهل رقادة إلى القيروان وسوسة.

ولما وصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان نزل قصر الإمارة وجمع الناس وأرادهم على البيعة له على أن يعينوه بالأموال فاعتدوا وتصايحت به العامة ففر عنها، ولحق بصاحبه وبلغ أبا عبد الله الشيعي خبر فرارهم بسبية فقدم إلى رقادة، وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنيزر فساروا وأمروا الناس، وجاء على أثرهم.

وخرج أهل رقادة والقيروان للقائه فأمّنهم وأكرمهم، ودخل رقادة في رجب سنة ست وتسعين ونزل قصرها، وأطلق أخاه أبا العباس من الاعتقال ونادى بالأمان فراجع الناس، وفر العمال في النواحي وطلب أهل القيروان فهربوا، وقسم دور البلد على كتامة فسكنوها، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه فأمر بحفظها وحفظ جواربه، واستأذنه الخطباء لمن يخطبون فلم يعين أحداً.

ونتش على السكة من أحد الوجهين بلغت حجة الله، ومن الآخر تفرق أعداء الله، وعلى السلاح عدة في سبيل الله، وفي وسم الخيل الملك لله.

ثم ارتحل إلى سجلماسة في طلب المهدي، واستخلف على

ثم أغزى ابنه أبا القاسم وجموعه كثامة سنة إحدى وثلاثمائة إلى الإسكندرية ومصر، وبعث أسطوله في البحر في مائتين من المراكب، وشحنها بالإمداد وعقد عليها لحباسة بن يوسف، وسارت العساكر فملكوا برقة، ثم الإسكندرية والفيوم.

وبعث المقتدر العساكر من بغداد مع سبكتكين ومؤنس الخادم فتواقعوا مرات، وأجلاهم عن مصر فرجعوا إلى المغرب، ثم عاد حباسة في العساكر في البحر سنة اثنتين وثلاثمائة إلى الإسكندرية فملكها، وسار يريد مصر فجاء مؤنس الخادم من بغداد لمحاربه فتواقعوا مرات، وكان الظهور آخراً للمؤنس، وقتل من أصحابه نحو من سبعة آلاف.

وانصرف إلى المغرب فقتله المهدي وانتفض لذلك أخوه عروبة بالمغرب واجتمع إليه خلق كثير من كثامة والبربر.

وسرح إليهم المهدي مولاة غالباً في العساكر فهزمهم وقتل عروبة وبني عمه في أمم لا تحصى.

ثم انتفض أهل صقلية وتقبضوا على عاملهم علي بن عمرو، وولوا عليهم أحمد بن قهر، فدعا للمقتدر العباسي، وذلك سنة أربع وثلاثمائة. وخلع طاعة المهدي وجهز إليه الأسطول مع الحسن بن أبي خنيزر فلقبه أسطول بن قهر فغلبه، وقتل ابن أبي خنيزر.

ثم راجع أهل صقلية أمرهم وكاتبوا المهدي وثاروا بابن قهر فخلعوه، وبعثوا به إلى المهدي فقتله على قبر ابن أبي خنيزر، وولى على صقلية علي بن موسى بن أحمد، وبعث معه عساكر كثامة. ثم اعتزم المهدي على بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها معصماً لأهل بيته لما كان يتوقعه على الدولة من الخوارج.

ويحكى عنه أنه قال: بنيتها لتعصم بها الفواطم ساعة من نهار، وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها فخرج بنفسه يرتاد موضعاً لبنائها، ومر بتونس وقرطاجنة حتى وقف على مكانها جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند، فاخطت المهدي بها وجعلها دار ملكه، وأدار بها سوراً محكماً وجعل لها أبواباً من الحديد ووزن كل مصراع مائة قطار، وأبداً بينائها آخر سنة ثلاث.

ولما ارتفع السور رمى من فوقه بسهم إلى ناحية المغرب، ونظر إلى متناه وقال: إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار يعني أبا يزيد.

ثم أمر أن يبحث في الجبل دار لإنشاء السفن تسعمائة سفين، ومجت في أرضها أهراء للطعام ومصانع للماء، وبني فيها القصور والدور فكمملت سنة ست، ولما فرغ منها قال: اليوم أمنت

به دونهم وألقوا إليهم أن هذا ليس هو الإمام المعصوم الذي دعونا إليه، حتى بعث إلى المهدي رجل كان في كثامة يعرف بشيخ المشايخ، وقال له: جئنا بأية على أمرك فقد شككتنا فيك، فقتله المهدي.

ثم عظمت استراتيتهم واتفقوا على قتل المهدي، وداخلهم في ذلك أبو زاعي تمام بن معارك وغيره من قبائل كثامة.

ونمي الخبر إلى المهدي فتلطف في أمرهم وولى من داخلهم من فواد كثامة على البلاد، فبعث تمام بن معارك على طرابلس، وبعث إلى عاملها ماكنون بقتله، فقتله عند وصوله.

ثم اتهم المهدي ابن الغريم بمداخلتهم، وكان من أصحاب زيادة الله فأمر بقتله واستصفاء أمواله، وكان أكثرها لزياة الله.

ثم إن المهدي استدعى عروبة بن يوسف، وأخاه حباسة، وأمرهما بقتل الشيعي وأخيه فوقفا لهما عند القصر، وحمل عروبة على أبي عبد الله، فقال له: لا تفعل، فقال: الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك، ثم أجهز عليهما في نصف جمادى سنة ثمان وتسعين.

ويقال: إن المهدي صلى على أبي عبد الله وترحم عليه، وعلم أن الذي حمله على ذلك إغراء أبي العباس أخيه، وثار فتنة بسبب قتلها من أصحابها فركب المهدي وسكنها.

ثم ثارت فتنة أخرى بين كثامة وأهل القيروان، وفشا القتل فيهم فركب المهدي وسكنها، وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة وقتل جماعة من بني الأغلب برفادة لما رجعوا إليها بعد زيادة الله.

بقية أخبار المهدي بعد الشيعي

ولما استقام أمر المهدي بعد الشيعي، جعل ولاية عهده لابنه أبي القاسم نزار، وولى على برقة وما إليها حباسة بن يوسف.

وعلى المغرب أخاه عروبة، وأنزله باغاية فسار إلى تاهرت فاقتمحها، وولى عليها دواس بن صولات اللهيص.

ثم انتفضت عليه كثامة بقتله أبا عبد الله الشيعي، ونصبوا طفلاً لقبوه المهدي، وزعموا أنه نبي وأن أبا عبد الله الشيعي لم يم، فجهز ابنه أبا القاسم لحربهم فقاتلهم وهزمهم، وقتل الطفل الذي نصبوه وأنخن فيهم ورجع.

ثم انتفض أهل طرابلس سنة ثلاثمائة، وأخرجوا عاملهم ماكنون فبعث إليهم ابنه أبا القاسم فحاصرها طويلاً، ثم فتحها وأنخن فيهم وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار.

على الفوطم.

ثم جهز ابنه أبا القاسم بالعساكر إلى مصر مرة ثانية سنة سبع وثلاثمائة فملك الإسكندرية، ثم سار فملك الجيزة والأشمونين وكثيراً من الصعيد.

وكتب إلى أهل مكة يطلب للطاعة فلم يجيبوا إليها، وبعث المقتدر مؤسلاً الخادم في العساكر وكانت بينه وبين أبي القاسم عدة وقعت ظهر فيها مؤنس، وأصاب عسكر أبي القاسم الجهد من الغلاء والوباء فرجع إلى إفريقية، وكانت مراكبهم قد وصلت من المهدي إلى الإسكندرية في ثمانين أسطولاً مدداً لأبي القاسم وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي وكانا شجاعين، وسار الأسطول من طرسوس للقائهم في خمسة وعشرين مركباً والتقوا على رشيد وظفرت مراكب طرسوس وأحرقوا وأسروا سليمان ويعقوب، فمات سليمان في حبس مصر، وهرب يعقوب من حبس بغداد إلى إفريقية.

ثم أغزى المهدي سنة ثمان وثلاثمائة مضالمة بن حبوس في رجالات مكناسة إلى بلاد المغرب فأوقع بملك فاس من الأدارسة وهو يحيى بن إدريس بن إدريس بن عمرو، واستنزله عن سلطانه إلى طاعة المهدي فأعطى بها صفقته، وعقد لموسى بن أبي العافية المكناسي من رجالات قومه على أعمال المغرب ورجع.

ثم عاود غزو المغرب سنة تسع فدوخه ومهد جوانبه وأغراه قريبه عامل المغرب موسى بن أبي العافية يحيى بن إدريس صاحب فاس، فتقبض عليه وضم فاس إلى أعمال موسى ومحا دعوة الإدريسية من المغرب، وأجهضهم عن أعماله فتحيزوا إلى بلاد الريف وغماره واستجدوا بها ولاية كما ذكره في أخبار غماره.

ومنهم كان بنو حمود العلويون المستولون على قرطبة عند انقراض ملك الأمويين في سنة ثلاث وأربعمائة كما نذكر هنالك.

ثم صمد مضالمة إلى بلاد سجلماسة فقتل أميرها من آل مدرار المكناسيين المنحرف عن طاعة الشيعة، وعقد لابن عمه كما نذكر في أخبارهم.

وسار في أتباعه زناتة في نواحي المغرب فكانت بينه وبينهم حروب هلك مضالمة في بعضها على يد محمد بن خزر.

واضطرب المغرب فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازياً إلى المغرب في عساكر كتامة وأولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة، ففر محمد بن خزر، وأصحابه إلى الرمال.

وقنع أبو القاسم بلد مزانة ومطماطة وهوارة وسائر

الأباضية والصفرية ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها، ثم عاج إلى الريف فافتتح بلد لكور من ساحل المغرب الأوسط، ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش وضيّق عليه ودوخ أقطار المغرب، ورجع ولم يلق كيداً.

ومر بمكان بلد المسيلة وبها بنو كملان من هوارة، وكان يتوقع منهم الفتنة فقتلهم إلى فج القيروان، وقضى الله أن يكونوا أولياء لصاحب الحمار عند خروجه.

ولما نزلهم أمر ببناء المسيلة في بلدهم وسماها المحمدية، ودفع علي بن حمدون الأندلسي من صنائع دولتهم إلى بنائها، وعقد له عليها وعلى الزاب بعد اختطاطها فبناها وحصنها وشحنها بالآفات، فكانت مدداً للمصور في حصار صاحب الحمار كما يذكر.

ثم انتقض موسى بن أبي العافية عامل فاس والمغرب، وخلع طاعة الشيعة، وانحرف إلى الأموية من وراء البحر وبت دعوتهم في أقطار المغرب فنهض إليه أحمد بن بصلين المكناسي قائد المهدي وسار في العساكر فلقية ميسور وهزمه، وأوقع به ويقومه بمكناسة، وأزعجه عن الغرب إلى الصحارى وأطراف البلاد ودوخ المغرب وثقف أطرافه ورجع ظافراً.

وفاة عبيد الله المهدي وولاية ابنه أبي

القاسم

ثم توفي عبيد الله المهدي في ربيع سنة اثنتين وعشرين لأربع وعشرين سنة من خلافته، وولي ابنه أبو القاسم محمد، ويقال نزار بعده، ولقب القائم بأمر الله فعظم حزنه على أبيه حتى يقال إنه لم يركب سائر أيامه إلا مرتين، وكثر عليه الثوار.

ونار بجهات طرابلس ابن طالوت القرشي وزعم أنه ابن المهدي وحاصر طرابلس.

ثم ظهر للبربر كذبة فقتلوه، ثم أغزى المغرب وملكه، وولى على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذابي، وحاصر الأدارسة ملوك الريف وغوارة فنهض ميسور الحصري من القيروان في العساكر، ودخل المغرب وحاصر فاس، واستنزل عاملها أحمد بن بكر.

ثم نهض في اتباع موسى فكانت بينهما حروب، وأخذ الثوري بن موسى في بعضها أميراً وأجلاه فميسور عن المغرب، وظاهره عليه الأدارسة الذين بالريف، وانقلب ميسور إلى القيروان

إلى سبية ففتحتها وقتل عاملها.

وبلغ الخبر إلى القاسم فقال: لابد أن يبلغ المصلى من المهديّة. ثمّ جهز العساكر وبعثها إلى رقادة والقيروان، وبعث خادمه ميسوراً الخصى لحربه.

وبعث عسكرياً مع خادمه بشرى إلى باجة فنهض إليه أبو يزيد وهزمه إلى تونس، ودخل أبو يزيد باجة فنهبها وأحرقها، وقتل الأطفال وسبى النساء، واجتمع إليه قبائل البربر، واتخذ الأبنية والبيوت وآلات الحرب، وبعث إليه بشرى عسكرياً من تونس، وبعث أبو يزيد للقائهم عسكرياً آخر فانهزم أصحاب أبي يزيد وظفر أصحاب بشرى.

ثمّ ثار أهل تونس ببشرى فهرب فاستأمنوا لأبي يزيد فأمّنهم وولى عليهم، وسار إلى القيروان وبعث القائم خديمه بشرى للقاءه.

وأمره أن يبعث من يتجسس عن أخباره فبعث طائفة، وبعث أبو يزيد طائفة أخرى فانهزم عسكري أبي يزيد وقتل منهم أربعة آلاف، وجمي بأسراهم إلى المهديّة فقتلوا، فسار أبو يزيد إلى قتال الكتامين فهزم طلائعهم وأتبعهم إلى القيروان، ونزل على رقادة في مائتي ألف مقاتل، وعاملها يومئذ خليل بن إسحاق وهو ينتظر وصول ميسور بالعساكر، ثمّ ضايقه أبو يزيد وأغراه الناس بالخروج فخرج، وهزمه أبو يزيد فمضى إلى القيروان.

ودخل أبو يزيد رقادة فعات فيها وبعث أيوب الزويلي في عسكري إلى القيروان فملكها في صفر سنة ثلاث وثلاثين، ونهبها وأمن خليلاً فقتله أبو يزيد، وخرج إليه شيوخ أهل القيروان فأمّنهم ورفع النهب عنهم، وزحف ميسور إلى أبي يزيد، وكان معه أبو كملان فكتبوا أبا يزيد وداخلوه في الغدر بميسور، وكتب إليه القائم بذلك فحذرهم فطردهم عنه، ولحقوا بأبي يزيد وساروا معه إلى ميسور فانهزم ميسور، وقتله بنو كملان وجاؤوا برأسه فأطافه بالقيروان، وبعث بالبشرى إلى البلاد.

وبلغت هزيمة ميسور إلى القائم بالمهديّة فاستعد للحصار، وأمر بجفر الخنادق، وأقام أبو يزيد سبعين يوماً في تخيم ميسور واث السرايا في كل ناحية يغتمون ويعودون، وأرسل سرية إلى سوسة ففتحوها عنوة واستباحوها، وخرب عمران إفريقية من سائر الضواحي ولحق فلهم بالقيروان حفا عراة، ومات أكثرهم جوعاً وعطشاً.

ثمّ بعث القائم إلى رؤساء كتامة والقبائل وإلى زيري بن مناد ملك صنهاجة بالسير إلى المهديّة فتأهبوا لذلك، وسمع أبو يزيد

سنة أربع وعشرين، وعقد للقاسم بن محمد كبير أدارسة الريف من ولد محمد بن إدريس على أعمال ابن أبي العافية وما يفتح من البلاد، فملك المغرب كلها ما عدا فاس، وأقام دعوة الشيعة بسائر أعماله.

ثمّ جهز أبو القاسم أسطولاً ضخماً لغزو ساحل الإفرنجية وعقد عليه ليقرّب ابن إسحاق فأتى في بلاد الإفرنجية، وسبى ونازل بلد جنوة وافتتحها، وعظم صنع الله في شأنها، ومروا بسردانية من جزر الفرنج فأتوا فيها.

ثمّ مروا بقرقيسا من سواحل الشام فأحرقوا مراكبها.

ثمّ بعث عسكرياً إلى مصر مع خادمه زيران فملكوا الإسكندرية، وجاءت عساكر الإخشيد من مصر فازعجهم عنها ورجعوا إلى المغرب.

أخبار أبي يزيد الخارجي

وهو أبو يزيد غلذ بن كيراد، وكان أبوه كيراد من أهل قسطلية من مدائن بلد توزر، وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة وبها ولد ولده أبو يزيد ونشأ بتوزر. وتعلم القرآن وخالف النكارية من الخوارج وهم الصفرية، فمال إلى مذهبهم وأخذ به ثمّ سافر إلى تاهرت وأقام فيها يعلم الصبيان. ولم صار الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي انتقل هو إلى تقيوس، وأقام يعلم فيها.

وكان يذهب إلى تكبير أهل ملته، واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطان.

ثمّ أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر بسنة ست عشرة وثلاثمائة فكثر أتباعه. ولما مات المهدي خرج بناحية جبل أوراس، وركب الحمار وتلقب بشيخ المؤمنين، ودعا للناس صاحب الأندلس من بني أمية فاتبعه أمم من البربر.

وزحف إليه عامل باغاية فلقبه في جموع البربر وهزمه، وزحف إلى باغاية فحاصرها، ثمّ انهزم عنها، وكتب إلى بني واسى من قبائل زناتة بضواحي قسنطينة يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين.

ثمّ فتح تبة صلحاً، ومجانة كذلك، وأهدى له رجل من أهل مرماجنة حماراً أشهب فكان يركبه وبه لقب، وكان يلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمين.

وكان عسكري الكتامين على الأريس فانقضوا، وملكها أبو يزيد وأحرقها ونهبها وقتل في الجامع من لجأ إليه، وبعث عسكرياً

بجرهم فنزل على خمسة فراسخ من المهديّة، وبث السرايا في جهاتها، وسمع كتامة بافتراق عسكريه في الغارة فخرجوا لبياته آخر جمادى الأولى، وكان ابنه فضل قد جاء بالمدد من القيروان فبعثه للقاء كتامة، وركب في أثرهم ولقي أصحابه منهزمين.

ولما رآه الكتاميون انهزموا بغير قتال واتبعهم أبو يزيد إلى باب المهديّة ورجع.

ثم جاء بعد أيام لقتالهم فوقف على الخندق المحدث، وعليه جماعة من العبيد فقاتلهم ساعة وهزمهم، وجاوز السور إلى البحر ووصل المصلى على رمية سهم من البلد، والبربر يقاتلون من الجانب الآخر.

ثم حمل الكتاميون عليهم فهزمهم وبلغ ذلك أبا يزيد، وسمع بوصول زيري بن مناد فاعتزم أن يمر بباب المهديّة ويأتي زيري وكتامة من ورائهم فقاتلوا أهل الأرياض، ومالوا عليه لما عرفوه ليقتلوه، وتخلص بعد الجهد ووصل إلى منزله فوجدهم يقاتلون العبيد كما تركهم فقوي أصحابه وانهزم العبيد.

ثم رحل وتأخر قليلاً وحفر على معسكره خندقاً واجتمع عليه خلق عظيم من البربر ونفوسة والزاب وأقاصي المغرب، وضيق على أهل المرية ثم زحف إليها آخر جمادى فقاتلهم وتورط في قتالها يومه ذلك.

ثم خلاص وكتب إلى عامل القيروان أن يبعث إليه مقاتلتها، فجاءوا وزحف بهم آخر رجب فانهزم، وقتل من أصحابه.

ثم زحف الزحف الرابع آخر شوال ولم يظفر، ورجع إلى معسكره واشتد الحصار على أهل المهديّة حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي، ولم يبق بها إلا الجند وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي وفرقها فيهم.

ثم اجتمعت كتامة وعسكروا بقسنطينة فبعث إليهم أبو يزيد بعثاً من ورجومة وغيرهم فهزموا كتامة ووافت أبا يزيد حشود البربر من كل ناحية وأحاط بسوسة وضيق عليها.

ثم انتقض البربر عليه بما كان منه من المجاهرة بالحرمان والمنافسة بينهم فانفضوا عنه، ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين وغنم أهل المهديّة معسكره، وكثر عبث البربر في أمصار إفريقيه وضواحيها، وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم، وجاء علي بن حمدون من المسيلة بالعساكر فبيته أيوب بن أبي يزيد وهزمه، وسار إلى تونس وجاءت عساكر القائم فواقعوه مرات وانهزم إلى القيروان في ربيع سنة أربع وثلاثين.

فبعث أيوب ثانية لقتال علي بن حمدون ببلطة وكانت

حروبه معه سجلاً إلى أن اقتحم عليه البلد بمدخله بعض أهلها. ولحق ابن حمدون ببلاد كتامة واجتمعت قبائل كتامة ونفزة ومزانة وعسكروا بقسنطينة.

وبعث ابن حمدون العساكر إلى هواره فأوقعوا بهم، وجاءهم مدد أبي يزيد فلم يغن عنهم.

وملك ابن حمدون مدينة يتجست وباغاية.

ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخرة من سسته وبها عسكر القائم، وتوفي القائم وهو بمكانه من حصارها.

وفاة القائم وولاية ابنه المنصور

ثم توفي القائم أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي صاحب إفريقية، بعد أن عهد إلى ولده إسماعيل بعده وتلقب بالمنصور، وكنم موت أبيه حذراً أن يطلع عليه أبو يزيد وهو بمكانه من حصار سوسة، فلم يسم بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود إلى أن فرغ من أمر أبي يزيد كما يذكر.

بقية أخبار أبي يزيد ومقتله

ولما مات القائم كان أبو يزيد محاصراً لسوسة كما تقدم، وقد جهد أهلها الحصار، فلما ولي إسماعيل المنصور وكان أول عمله أن بعث الأساطيل من المهديّة إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاتلة والأمتعة والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن إسحاق، وخرج بنفسه في أثرهم، وأشار أصحابه بالرجوع فرجع ووصل الأسطول إلى سوسة، وخرجوا لقتال أبي يزيد وعساكر سوسة معهم فانهزم أبو يزيد، واستبيح معسكره نهباً وإحراقاً، ولحق بالقيروان فمنعه أهلها من الدخول وثاروا بعامله فخرج إليه، ورحل إلى سبيبة وذلك أواخر شوال سنة أربع.

وجاء المنصور إلى القيروان وأمن أهلها وأبقى على حرم أبي يزيد وأولاده، وأجرى عليهم الرزق، وخرجت سرية من عسكر المنصور لاستكشاف خبر أبي يزيد وجاءت أخرى من معسكر أبي يزيد لئلا ذلك فالتقوا وانهزمت سرية المنصور، فقوي أبو يزيد بذلك وكثر جمعه، وعاد فقاتل القيروان وخندق المنصور على عسكريه، وقاتلهم أبو يزيد فكان الظفر أول يوم للمنصور، ثم قاتلهم ثانياً فانهزموا وثبت المنصور وراجع أصحابه من طريق المهديّة وسوسة.

ولما رأى أبو يزيد امتناعهم عليه رحل أواخر ذي القعدة،

فقاتلهم فانهزم وأسلم عسكره وأولاده، وطعنه بعض الفرسان فأكبه وحامى عنه أصحابه فقتل في الحومة ما يزيد على عشرة آلاف، وتخلص.

ثم سار المنصور في أثره أول رمضان ولم يقدر أحد من الفريقين على الهزيمة لضيق المكان وصعوبته.

ثم انهزم أبو يزيد لما ضره الحرب، وترك أثقاله وساروا إلى رؤوس الجبال يرمون بالصخر، وتزاحفوا حتى تعانقوا بالأيدي وكثر القتل.

ثم تحاجزوا وتحصن أبو يزيد بقلعة كتامة واستأمن الذين معه من هواره فأمهم المنصور، وحصر أبا يزيد في القلعة وقاتلها غير مرة حتى اقتتحتها عنوة وأضرمتها نارا، وقتل أصحاب أبي يزيد في كل ناحية وجمع أهله وأولاده في القصر، وأظلم الليل فأمر المنصور بإشعال النيران في الشعراء المحيطة بالقصر حتى أضاء الليل لتكون أحواله بمراى منهم حذراً من فراره، حتى خرج الليل وحمل في أصحاب المنصور حملة منكرة فأفرجوا له، وأمر المنصور بطلبه فآلفوه وقد حمله ثلاثة من أصحابه لأنه كان جريحاً فسقط من الوعر وارتث فحملوه إلى المنصور فسجد سجدة الشكر، وأقام عنده إلى سلخ الحرم من سنة ست وثلاثين.

ثم هلك من الجراحة التي به فأمر بسلخ جلده وحشوه تبناً واتخذ له قصفا فادخل فيه مع قردين يلاعبانه بمثاله.

ورحل إلى القيروان والمهدية ولحق ابنه فضل بمعبد بن خزر، وزحف به إلى طينة وبسكرة.

وقصد المنصور فانهزم معبد وصعد إلى كتامة، فبعث إليه العساكر مع مَوْتِيَّته شفيق وقبصر، ومعهما زيري بن مناد في صنهاجة، فانهزم فضل ومعبد وافترق جمعهم ورجع المنصور إلى القيروان فدخلها.

بقية أخبار المنصور

ثم انتفض حميد بن يضلبن عامل المغرب وانحرف عن طاعة الشيعة، ودعا للأموية من وراء البحر، وزحف إلى تاهرت فحاصرها فنهض إليه المنصور في صفر سنة ست وثلاثين، وجاء إلى سوق حمزة فأقام به.

وحشد زيري بن مناد جميع صنهاجة من كل ناحية، ورحل مع المنصور فأخرج حميد عن تاهرت، وعقد عليها ليعلى بن محمد اليفرنى، وعقد لزيري بن مناد على قومه وعلى سائر بلادهم.

ثم رجع فقاتلهم وكانت الحرب سجالاً، وبعث السرايا إلى طريق المهديّة وسوسة نكاية فيهم، وبعث إلى المنصور في حرمه وأولاده فبعثهم إليه بعد أن وصلهم.

وقد كان أقسم على الرحيل، فلما وصلوا إليه نكث وقاتلهم خامس الحرم سنة خمس وثلاثين فنهزمهم.

ثم عى المنصور عساكره منتصف الحرم وجعل البرابر في الميمنة وكتامة في اليسرة، وهو وأصحابه في القلب.

وحمل أبو يزيد على الميمنة فنهزمها ثم على القلب فلقبه المنصور واشتد القتال.

ثم حملوا عليه حملة رجل واحد فانهزم وأسلم أثقاله وعسكره وقتل خلق من أصحابه وبلغت رؤوس القتلى الذي في أيدي صبيان القيروان عشرة آلاف، ومضى أبو يزيد لوجهه، ومر ببغاوية فمنعه أهلها من الدخول فأقام يحاصرها، ورحل المنصور في ربيع الأول لاتباعه، واستخلف على المهديّة مرأماً الصقلي وأدركه على بغاوية فأجفل المنصور في اتباعه.

وكلما قصد حصناً سبقه المنصور إليه إلى أن نزل المنصور طينة فجاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة من أصحاب أبي يزيد ومواطئه بالغرب الأوسط فاستأمن للمنصور فأمنه، وأمره بطلب أبي يزيد.

ووصل أبو يزيد إلى بني برزال وكانوا نكارية، وبلغه خبر المنصور في اتباعه فسلك الرملة.

ثم عاد نواحي غمرة فصادف المنصور وقاتله فانهزم أبو يزيد إلى جبل سالات، والمنصور في أثره في جبال وأوعار ومضايق تفضي إلى القفر، وأصابهم الجهد وعلم أنه ليس أمامه إلا المفازة إلى بلاد السودان فرجع إلى غمرت من بلاد صنهاجة.

ووفد عليه هنالك زيري بن مناد أمير صنهاجة فآكرمه ووصله كما يجب له.

وجاء كتاب محمد بن خزر بالمكان الذي فيه أبو يزيد من المفازة، وأقام المنصور هنالك لمرض أصابه فرجع أبو يزيد إلى المسيلة وحاصرها.

فلما عوفي المنصور رحل أول رجب سنة خمس وثلاثين وقصده فافرج عن المسيلة، وقصد المفازة يريد بلاد السودان فأبى عليه بنو كملان أصحابه فرجعوا إلى جبال كتامة وعجيسة فتحصنوا بها.

وجاء المنصور فنزل بساحتهم عاشر شعبان ونزل أبو يزيد

فيه عساكره واستأمن إليه بنو كملان ومليلة من هوار، ودخلوا في طاعته فأمنهم وأحسن إليهم.

واستأمن إليه محمد بن خنزر بعد مقتل أخيه معبد فأمنه ورجع إلى القيروان وترك مولاة قيصر في العساكر، وعقد له على باغاية فدوِّخ البلاد وأحسن إلى الناس، وألف من كان شارداً من البربر، ورجع بهم إلى القيروان فأكرمهم المعز ووصلهم.

ثم وفد بعدهم محمد بن خنزر أمير مغراوة فلقاه مبرة وتكريماً، وأقام عنده بالقيروان إلى أن هلك سنة ثمان وأربعين.

واستقدم المعز زيري بن مناد سنة ثلاث وأربعين أمير صنهاجة، فقدم من أشير فأجزل صلته وردّه إلى عمله.

ويعدّ إلى الحسين بن علي عامل صقلية سنة أربع وأربعين أن يخرج به بأسطوله إلى ساحل المربة من بلاد الأندلس، فعاث فيه وغنم وسبي، ورجع فأخرج الناصر صاحب الأندلس أسطوله إلى سواحل إفريقية مع غالب مولاة فمَنَعْتُهُم العساكر، وأقلعوا.

ثم عاودوا سنة خمس وأربعين في سبعين مركباً فأخرقوا مرسى الخنزر وعاثوا في جهات سوسة، ثم في نواحي طبرنة ورجعوا.

واستقام أمر المعز في بلاد إفريقية والمغرب واتسعت إيلاته، وكانت أعماله من إيفكان خلف تاهرت بثلاثة مراحل إلى زناتة التي دون مصر وعلى تاهرت وإيفكان يعلى بن محمد البفرني، وعلى أشير وأعمالها زيري بن مناد الصنهاجي وعلى المسيلة وأعمالها، جعفر بن علي الأندلسي وعلى باغاية وأعمالها قيصر الصقلي.

وكان على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وعلى سجلماسة محمد بن واسول المكناسي.

ثم بلغه سنة سبع وأربعين أن يعلى بن محمد البفرني داخل الأموية من وراء البحر، وأن أهل المغرب الأقصى نقضوا طاعة الشيعة، فأغزى جوهراً الصقلي الكاتب إلى المغرب بالعساكر، وكان على وزارته، وخرج معه جعفر بن علي صاحب المسيلة، وزيري بن مناد صاحب أشير وتلقاهم يعلى بن محمد صاحب المغرب الأوسط.

ولما ارتحل عن إيفكان وقعت هبة في أصحاب صيلة وقيل له: إن بني يعرب أوقعوها فتقبض على يعلى وناشته سيوف كامة لحينه، وخرب إيفكان وأسر ابنه يدو بن يعلى، وتماذوا إلى فاس ثم تجاوزوها إلى سجلماسة فأخذوها، وتقبض على الشاكر لله محمد بن الفتح الذي تلقب بأمير المؤمنين من بني واسول، وولى ابن

ثم رحل لقتال لواتة فهربوا إلى الرمال، وأقام هو على وادي مينا، وكان هنالك ثلاثة جبال كل منهم عليه قصر مبني بالحجر المنحوت، فوجد في وجه أحد هذه القصور كتابة على حجر فسيح، فأمر المنصور الترجمة بقراءته، وإذا فيه أنا سليمان السردغوس خالف أهل هذا البلد على الملك، فبعثني إليهم ففتح الله عليهم وبنيت هذا البناء لأذكر به.

ذكر هذه الغريبة ابن الرقيق في تاريخه.

ثم رحل المنصور إلى القيروان بعد أن خلع على زيري بن مناد وحمله ودخل المنصورة في جمادى سنة ست وثلاثين، فبلغه أن فضل بن أبي يزيد جاء إلى جبل أوراس، وداخل البربر في الثورة فخرج إليه المنصور فدخل الرمل، ورجع المنصور إلى القيروان ثم إلى المهديّة، ورجع فضل بن أبي يزيد إلى باغاية وأقام يحاصرها فغدر به باطيط، وبعث برأسه إلى المنصور.

ثم عقد سنة تسع وثلاثين للحسين بن علي بن أبي الحسين الكلبي على صقلية وأعمالها، وكانت لخليل بن إسحاق فصره الحسين واستقل بولايتها، فكان له فيها ولبيته ملك سنذكره.

وبلغ المنصور أن ملك إفريقية يريد غزو المسلمين فأخرج أسطوله، وشحنه بالعساكر لنظر مولاة فرج الصقلي، وأمر الحسين بن علي عامل صقلية بالخروج معه فأجازوا البحر إلى عدوة الإفريقية، ونزلوا قلورية ولقيهم رجاء ملك الفرنجة فهزموه.

وكان فتحاً لا كفاء له، وذلك سنة أربعين وثلاثمائة، ورجع فرج بالغنائم إلى المهديّة سنة اثنتين وأربعين، وكان معبد بن خنزر بعد مظاهرته لفضل بن أبي يزيد لم يزل متقصّاً وأولياء المنصور في طلبه حتى أخذ في بعض الوقائع، وسبق مع ابنه إلى المنصور فطيف بهما في أسواق المنصورة، ثم قتل سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وفاة المنصور وولاية ابنه المعز

ثم توفي المنصور إسماعيل بن القاسم سلخ رمضان سنة إحدى وأربعين لسبع سنين من خلافته، أصابه الجهد من مطر وتلج تجلد على ملاقاته، ودخل على أثره الحمام فبغت حرارته ولازمه السهر فمات.

وكان طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي قد نهاه عن الحمام فلم يقبل وولى الأمر بعده ابنه معد، ولقب المعز لدين الله فاستقام أمره، وخرج لجبل أوراس سنة اثنتين وأربعين، وجالت

المعتر من بني عمه مكانه ودوخ المغرب إلى البحر.

ثم رجع إلى فاس وحاصرها وواليتها يومئذ أحمد بن بكر بن أبي سهل الجذامي، وقتالها مدة فامتعت عليه وجاءته هدايا الأمراء الأذكرية من السوس.

ثم رحل إلى سجلماسة، وبها محمد بن واسول من مكناسة وقد تلقب بأمر المؤمنين الشاكر لله، وضرب السكة باسمه تقدست عزة الله، فلما سمع بجوهر هرب، ثم أخذ أسيراً وجيء به إلى جوهر، وسار عن سجلماسة وافتتح البلاد في طريقه.

ثم عاد إلى فاس وأقام في حصارها إلى أن افتتحها عنوة على يد زيري بن مناد تسنم أسوارها ليلاً ودخلها وتقبض على أحمد بن بكر، وذلك سنة ثمان وأربعين، وولى عليها من قبله، وطرد عمال بني أمية من سائر المغرب، وانقلب إلى القيروان ظافراً عزيزاً، وضم تاهرت إلى زيري بن مناد.

وقدم بالفاطميين وبأحمد بن بكر وبمحمد بن واسول أسيرين في قفصين، ودخل بهما إلى المنصورة في يوم مشهود.

وكانت ولاية المغرب والشرق منقسمة بين موليه قيصر ومظفر، وكانا متغلبين على دولته فقبض عليهما سنة تسع وأربعين وقتلها.

وفي سنة خمسين كان تغلب للنصارى على جزيرة إقريطش، وكان بها أهل الأندلس من جالية الحكم بن هشام بسبب ثورة الرفض، ففر بهم إلى الإسكندرية فثاروا بها، وعبد الله بن طاهر يومئذ عامل مصر فحاصره بالإسكندرية حتى نزلوا على الأمان، وأن يجيزوا البحر إلى جزيرة إقريطش فعمروها ونزلوها منذ تلك الأيام، وأميرها أبو حفص البلوطي منهم، واستبد بها وورث بنوه رئاسة فيها إلى أن نازلهم النصارى في هذه السنة في سبعمائة مركب، واقتحموها عليهم عنوة، وقتلوا منهم وأسروا، وبقيت في أيدي النصارى لهذا العهد والله غالب على أمره.

وافتح صاحب صفلية سنة إحدى وخمسين قلعة طرمين، من حصون صفلية بعد حصار طويل أجهدهم فنزلوا على حكم صاحب صفلية بعد تسعة أشهر ونصف للحصار، وأسكن المسلمين بالقلعة وسماها المعزية نسبة إلى المعز صاحب إفريقية.

ثم سار صاحب صفلية بعدها وهو أحمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسن إلى حصار رمطة من قلاع صفلية فاستمدوا ملكهم صاحب القسطنطينية، فجهز لهم العساكر برّاً وبحراً، واستمد صاحب صفلية المعز فأمدّه بالعساكر مع ابنه الحسن، ووصل مدده إلى مدينة ميسنى، وساروا بجمعهم إلى رمطة، وكان

على حصارها الحسن بن عمار، فحمل عسكرياً على رمطة وزحف إلى عسكر الروم مستميتاً فقاتلهم فقتل أمير الروم وجماعة من البطارقة وهزموا أقبح هزيمة، واعترضهم خندق فسقطوا فيه، وأثنى المسلمون فيهم وغنموا عسكرهم.

واشتد الحصار على أهل رمطة وعدموا الأقوات فاقتحمها المسلمون عنوة، وركب فل الروم البحر يطلبون النجاة، فاتبعهم الأمير أحمد بن الحسن في أسطوله فأدركهم وسحب بعض المسلمين في الماء فخرق مراكبهم وانهزموا، وبث أحمد سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها وعاثوا فيها حتى صالحوهم على الجزية، وكانت هذه الواقعة سنة أربع وخمسين وتسمى وقعة المجاز.

فتح مصر

ثم إن المعز لدين الله بلغه اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الأخشيدي وعظم فيها الغلاء وكثرت الفتن وشغل بغداد عنهم بما كان من الفتن بين مختار بن معز الدولة، وعضد الدولة ابن عمه، فاعتزم المعز على السير إلى مصر، وأخرج جوهر الكاتب إلى المغرب لحشد كتامة، وأوعز إلى عمال برقة لحفر الآبار في طريقها، وذلك سنة خمس وخمسين، فسيره إلى مصر وخرج لتوديعه وأقام أياماً في معسكره، وسار جوهر وبلغ خبره إلى عساكر الأخشيدية بمصر فافترقوا، وكان ما يذكر في أخبارهم، وقدم جوهر منتصف شعبان من سنة ثمان وخمسين فدخلها وخطب في الجامع العتيق منه باسم المعز، وأقيمت الدعوة العلوية. وفي جمادى من سنة تسع وخمسين دخل جوهر جامع ابن طولون فصلى فيه، وأمر بزيادة «حي على خير العمل» في الأذان، فكان أول أذان أذن به في مصر.

ثم بعث إلى المعز بالهدايا وبأعيان دولة الأخشيدية فحبسهم المعز بالمهدية، وأحسن إلى القضاة والعلماء من وقدهم، وردهم إلى مصر، وشرع جوهر في بناء القاهرة واستحث المعز للقدوم على مصر.

فتح دمشق

ولما فتحت مصر، وأخذ بنو طنج هرب منهم الحسن بن عبد الله بن طنج إلى مكة ومعه جماعة من قوادهم، فلما استشعر جوهر به بعث جعفر بن فلاح الكتامي في العساكر إليه فقاتله مراراً ثم أسره ومن كان معه من القواد، وبعث بهم إلى جوهر

مصر، وبدأ بالنظر في تمهيد المغرب وقطع شواغله، وكان محمد بن الحسن بن خزر المغراوي مخالفاً عليه بالمغرب الأوسط، وقد كثرت جموعه من زناتة والبربر، وكان جباراً طاغياً فأهم المعز أمره وخشي على إفريقية غائلته، فأمر بلكين بن زيري بن مناد بغزوه فغزاه فنى بلاده، وكانت بينهما حروب عظيمة.

ثم انهزم محمد بن خزر وجموعه، ولما أحس بالهزيمة تحامل على سيفه فقتل نفسه، وقتل في المعركة سبعة عشر من أمراء زناتة وأسر منهم كثير وذلك سنة ستين.

وسر المعز ذلك وقعد للهانة به. واستقدم بلكين بن زيري فاستخلفه على إفريقية والمغرب، وأنزله القيروان وسماه يوسف، وكناه أبا الفتح، وولى على طرابلس عبد الله بن يثلى الكتامي، ولم يجعل لبلكين ولاية عليه، ولا على صاحب صقلية.

وجعل على جباية الأموال زيادة الله بن الغريم، وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني، وحسن بن خلف المرصدي بنظر بلكين، وعسكر ظاهر المنصورة آخر شوال من سنة إحدى وستين، وأقام على سردانية قريباً من القيروان حتى فرغ من أعماله، ولحقته عساكره وأهل بيته وعماله، وحمل له ما كان في قصره من الأموال والأمتعة.

وارتحل بعد أربعة أشهر من مقامه وسار معه بلكين قليلاً، ثم ودعه وورده إلى عمله، وسار هو إلى طرابلس في عساكره، وهرب بعضهم إلى جبل نفوسة فامتنعوا به، وسار إلى برقة فقتل بها شاعره محمد بن هانيء الأندلسي، وجد قتيلاً بجانب البحر في آخر رجب من سنة اثنين وستين.

ثم سار إلى الإسكندرية وبلغها في شعبان من هذه السنة، ولقيه بها أعيان مصر فآكرمهم ووصلهم، وسار فدخل القاهرة لخمس من رمضان من هذه السنة فكانت منزله ومنزل الخلفاء بعده إلى آخر دولتهم.

حروب المعز مع القرامطة واستيلاؤه على

دمشق

كان للقرامطة على بني طفج بدمشق ضريبة يؤدونها إليهم، فلما ملك ابن فلاح بدعوة المعز قطع تلك الضريبة، وأسفهم بذلك فرجعوا إلى دمشق وعليهم الأعصم ملكهم، فبرز إليهم جعفر بن فلاح فهزموه وقتلوه، وملكوا دمشق وما بعدها، إلى الرملة، وهرب من كان بالرملة وتحصنوا ببياف.

فبعث بهم جوهر إلى المعز بإفريقية، ودخل جعفر الرملة عنوة فاستباحها، ثم أمن من بقي وجبى الخراج وسار إلى طبرية وبها ابن ملهم وقد أقام الدعوة للمعز فتجافى عنه، وسار إلى دمشق فافتتحها عنوة وأقام بها الخطبة للمعز لأيام من المحرم سنة تسع وخسين، وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي وكان مطاعاً فيهم، فجمع الأوباش والذعار وثار بهم في الجمعة الثانية، ولبس السواد وأعاد الخطبة للمطيع فقاتلهم جعفر بن فلاح أياً ما وأولى عليهم الهزائم وعانت جيوش المغاربة في أهل دمشق فهرب ابن أبي يعلى ليلاً من البلد وأصبحوا حيارى، وكانوا قد بعثوا الشريف الجعفري إلى جعفر في الصلح فأعاده إليهم بتسكين الناس والوعد الجميل، وأن يدخل البلد فيطوف فيه ويرجع إلى معسكره فدخل، وعانت المغاربة في البلد بالنهب فثار الناس بهم وحملوا عليهم، وقتلوا منهم وشرعوا في حفر الخنادق وتحصين البلد.

ومشى الشريف أبو القاسم في الصلح بينهم وبين جعفر بن فلاح، فتم ذلك منتصف ذي الحجة من سنة تسع وخسين، ودخل صاحب شرطة جعفر فسكن الناس وقبض على جماعة من الأحداث وقتل منهم وحس.

ثم قبض على الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى في المحرم من سنة ستين، وبعث به إلى مصر، واستقام ملك دمشق لجعفر بن فلاح، وكان خرج بإفريقية في سنة ثمان وخسين أبو جعفر الزناتي واجتمعت إليه جموع من البربر والتركارية، وخرج إليه المعز بنفسه، وانتهى إلى باغية وافتقرت جموع أبي خزر وسلك الأوعار فعاد المعز وأمر بلكين بن زيري بالمسير في طلبه فصار لذلك حتى انقطع عنه خبره، ثم جاء أبو جعفر مستأثماً سنة تسع وخسين قبله، وأجرى عليه الرزق، وعلى أثر ذلك وصلت كتب جوهر بإقامة دعوته بمصر والشام، وباستدعائه إليها فاشتد سرور المعز بذلك، وأظهره في الناس ونطق الشعراء بامتداحه ثم زحف القرامطة إلى دمشق وعليهم ملكهم الأعصم، ولقيهم جعفر بن فلاح فظفر بهم وقتلهم.

ثم رجعوا إليه سنة إحدى وستين وبرز إليهم جعفر فهزموه وقتلوه، وملك الأعصم دمشق وسار إلى مصر وكتب جوهر بذلك المعز فاعتزم على الرحلة إليها.

مسير المعز إلى مصر ونزوله بالقاهرة

ولما انتهت هذه الأخبار إلى المعز اعتزم على المسير إلى

على نفسه، وخرج من دار الإمارة وأحرق المغاربة ناحية باب الفرائيس، ومات فيها خلق، واتصلت الفتنة إلى ربيع الآخر من سنة أربع وستين.

ثم وقع الصلح بينهم على إخراج ظالم من البلد وولاية جيش بن الصمصامة ابن أخت أبي محمود فسكن الناس إليه.

ثم رجع المغاربة إلى العيث وعاد العامة إلى الثورة، وقصدوا القصر الذي فيه جيش فهرب ولحق بالعسكر، وزحف إلى البلد فقاتلهم وأحرق ما كان بقي وقطع الماء عن البلد فضاعت الأحوال وبطلت الأسواق، وبلغ الخبر إلى المعز ففكر ذلك على أبي محمود واستعظمه، وبعث إلى ريان الخادم في طرابلس يأمره بالمسير إلى دمشق لاستكشاف حالها، وأن يصرف القائد أبا محمود عنها، فصرفه إلى الرملة، وبعث إلى المعز بالخبر، وأقام بدمشق إلى أن وصل أفتكين والياً على دمشق.

وكان أفتكين هذا من موالى عز الدولة بن بويه، ولما ثار الأتراك على ابنه بختيار مع سبكتكين، ومات سبكتكين، قدمه الأتراك عليهم، وحاصروا بختيار بواسطة، وجاء عضد الدولة لإنجاده فأجفلوا عن واسط فتركه ببغداد.

وسار أفتكين في طائفة من الجند إلى حمص فنزل قريباً منها، وقصده ظالم بن موهوب العقيلي ليقبضه فعجز عنه، وسار أفتكين فنزل بظاهر دمشق وبها زياد خادم المعز، وقد غلب عليه، وعلى أعيان البلد الأحداث والذعار، فلم يملكوا معهم أمر أنفسهم فخرج الأعيان إلى أفتكين، وسألوا منه الدخول إليهم ليولوه، وشكوا إليه حال المغاربة وما يحملونهم عليه من عقائد بعض الرقص، وما أنزل بهم عمالهم من الظلم والعسف، فأجابهم واستحلفهم وحلف لهم، وملك البلد وخرج منها زياد الخادم، وقطع خطبة المعز العلوي وخطب للطائع العباسي، وقمع أهل الفساد ودفع العرب عما كانوا استولوا عليه من الضواحي.

واستقل ملك دمشق وكاتب المعز بطلب طاعته وولايته من قبله، فلم يبق إليه ورده، وتجهز لقصده، وجهاز العساكر فتوفي بعسكره ببليس كما يذكر.

وفاة المعز وولاية ابنه العزيز

ثم توفي المعز بمصر في منتصف ربيع الآخر سنة خمس وستين ثلاث وعشرين سنة من خلافته، وولي ابنه نزار بعهدة إليه ووصيته، ولقب العزيز بالله، وكم موت أبيه إلى عيد النحر من السنة فصلى بالناس وخطبهم، ودعا لنفسه وعزى بأبيه، وأقر

وملك القرامطة الرملة وجهزوا العساكر على يافا، وساروا إلى مصر ونزلوا عين شمس وهي المعروفة لهذا العهد بالمطرية.

واجتمع إليهم خلق كثير من العرب وأولياء بني طفج، وحاصروا المغاربة بالقاهرة وقتلوه أياماً فكان الظفر بهم.

ثم خرج المغاربة واستماتوا وهزمهم فرحلوا إلى الرملة وضيقوا حصار يافا، وبعث إليهم جعفر بالمدد في البحر فأخذه القرامطة وانتهى الخبر إلى المعز بالقيروان، وجاء إلى مصر ودخلها كما ذكرناه.

وسمع أنهم يريدون المسير إلى مصر فكتب إلى الأعصم يذكره فضل بنيه وأنهم إنما دعوا له ولأبائه وبالح في وعظه وتهده فأساء في جوابه، وكتب إليه: وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله، ولحن سائرون إليك والسلام.

وسار من الأحساء إلى مصر ونزل عين شمس في عساكره، واجتمع إليه الناس من العرب وغيرهم.

وجاء حسان بن الجراح في جموع عظيمة من طبري، وبث سراياه في البلاد فعاثوا فيها وأهم المعز شأنه، فراسل ابن الجراح واستماله بمائة ألف دينار على أن ينهزم عن القرامطة واستحلفوه على ذلك.

وخرج المعز ليوم عينه لذلك فانهزم ابن الجراح بالعرب وثبت القرامطة قليلاً ثم انهزموا وأخذ منهم نحو ألف وخمسمائة أسير. وساروا في أتباعهم ولحق القرامطة بأفرعات، وساروا منها إلى الأحساء، وقتلوا صبراً ونهب معسكرهم وجرد المعز القائد أبا محمود في عشرة آلاف فارس، وبعث المعز القائد ظالم بن موهوب العقيلي والياً على دمشق فدخلها، وكان العامل بها من قبل القرامطة أبو اللجاء وابنه في جماعة منهم فحبسهم ظالم وأخذ أموالهم، ورجع القائد أبو محمود من أتباع القرامطة إلى دمشق فتلقا ظالم وسر بقدمه وسأله المقام بظاهر دمشق حذراً من القرامطة ففعل ودفع أبا اللجاء وابنه فبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها.

وعاث أصحاب أبي محمود في دمشق، فاضطرب الناس وقتل صاحب الشرطة بعضهم فناروا به وقتلوا أصحابه.

وركب ظالم بذرايرهم وأجفل أهل الضواحي إلى البلد من عيث المغاربة، ثم وقعت في منتصف شوال من سنة ثلاث وستين فتنة بين العامة وبين عسكر أبي محمود وقتلوه أياماً، ثم هزمهم وتبعهم إلى البلد.

وكان ظالم بن موهوب يداري العامة فأشفق في هذا اليوم

يعقوب بن كلس على الوزارة كما كان أيام أبيه، وأقر بلكين بن زيري على ولاية إفريقية وأضاف إليه ولاية عبد الله بن مخلف الكتامي، وهي طرابلس وسرت وجر أبيه.

وكان أهل مكة والمدينة قد خطبوا للمعز أبيه في الموسم فتركوا الخطبة للعزیز، فبعث جيوشه إلى الحجاز فحاصروا مكة والمدينة وضيّقوا عليهم حتى رجعوا إلى دعوتهم، وخطب للعزیز بمكة وكان أمير مكة عيسى بن جعفر والمدينة طاهر بن مسلم، ومات في هذه السنة فولد ابنه الحسن وابن أخيه مكانه.

بقية أخبار الفتيكين

ولما توفي المعز وولي العزیز، قام أفتكين وقصد البلاد التي لهم بساحل الشام فبدأ بصيدا فحاصرها، وبها ابن الشيخ في رؤوس المغاربة وظالم بن موهوب العجلي فبرزوا إليه وقتلوه فاستنجد لهم، ثم كر عليهم وأوقع بهم وقتل منهم أربعة آلاف، وسار إلى عكة فحاصرها وقصد طبرية وفعل فيها مثل صيدا.

ورجع واستشار العزیز وزيره يعقوب بن كلس فأشار بإرسال جوهر الكاتب إليه، فجهزه العزیز وبعثه، وأقبل أفتكين على أهل دمشق يريدهم التحول عنهم ويذكرهم بذلك ليختبرهم فتطارحوا إليه، واستماتوا واستحلفهم على ذلك.

ووصل جوهر في ذي القعدة سنة خمس وستين فحاصر دمشق شهرين، وضيّق حصارها وكتب أفتكين إلى الأعصم ملك القرامطة يستنجد، فسار إليه من الأحساء واجتمع إليهم من رجال الشام والعرب نحو من خمسين ألفاً، وأدركوا جوهرًا بالرملة وقطعوا عنه الماء فارتحل إلى عسقلان فحاصروه بها حتى بلغ الجهد، وأرسل جوهر إلى أفتكين بالمغاربة والوعد.

والقرمطي بمنعه، ثم سأل في الاجتماع فجاءه أفتكين، ولم يزل جوهر يعتل له في الدروة والغارب، وأفتكين يعتذر بالقرمطي ويقول: أنت حملتني على مداراته.

فلما أيس منه كشف لهم عمّا هم فيه من الضيق، وسأله الصنيعة وأنها يتخذها عند العزیز فحلف له على ذلك، وعزله القرمطي.

وأراه جوهر أن يحمل العزیز على السير بنفسه فصم من عزله وأبى إلا الوفاء، وانطلق جوهر إلى مصر وأغرى العزیز بالسير إليهم، فتجهز في العساكر، وسار وجوهر في مقدمته، ورجع أفتكين والقرمطي إلى الرملة، واحتشدوا ووصل العزیز فاصطفوا

للحرب بظاهر الرملة في محرم سنة سبع وستين.

وبعث العزیز إلى أفتكين يدعو إلى الطاعة ورغبه ويعدّه بالتقدم في دولته ويدعوه إلى الخضوع، فتقدم بين الصنفين وترجل وقبل الأرض وقال: قل لأمر المؤمنين لو كان قبل هذه لسارعت، وأما الآن فلا يمكنني.

وحمل على الميسرة فهزمهم وقتل الكثير منهم، فامتعض العزیز وحمل هو والميمنة جميعاً فهزمهم، ووضع المغاربة السيف فقتلوا نحواً من عشرين ألفاً، ثم نزل في خيامه وجيء بالأسرى فخلع على من جاء بهم وبذل لمن جاء بأفتكين مائة ألف دينار، فلقبه المفرج بن دغفل الطائي، وقد جهده العطش فاستسقاها فسقاها وتركه بعرضه مكرماً.

وجاء إلى العزیز فأخبره بمكانه، وأخذ المائة ألف التي بذلها فيه، وأمكنه من قياده.

ولما حضر عند العزیز وهو لا يشك أنه مقتول أكرمه العزیز ووصله، ونصب له الخيام وأعاد إليه ما نهب له، ورجع به إلى مصر فجعله أخص خدمه وحجابه، وبعث إلى الأعصم القرمطي من يرده إليه ليصله، كما فعل بأفتكين فأدرك بطبرية، وامتنع من الرجوع فبعث إليه بعشرين ألف دينار وفرضها له ضريبة، وسار القرمطي إلى الأحساء، وعاد العزیز إلى مصر ورقى رتبة أفتكين وخص به الوزير يعقوب بن كلس فسمه، وسمع العزیز بأنه سمه فحبسه أربعين يوماً وصادته على خمسمائة ألف دينار، ثم خلع عليه وأعادته إلى وزارته.

وتوفي جوهر الكاتب في ذي القعدة من سنة إحدى وأربعين، وقام ابنه الحسن مقامه، ولقب قائد القواد.

وكان أفتكين قد استخلص أيام وزارته بدمشق رجلاً اسمه قسام، فعلا صيته وكثر تابعه، واستولى على البلد.

ولما انهزم أفتكين والقرامطة، بعث العزیز القائد أبا محمود بن إبراهيم والياً على دمشق كما كان لأبيه المعز فوجد فيها قسماً قد ضبط البلد، وهو يدعو للعزیز فلم يتم له معه ولاية.

وبقي قسام مستبداً عليه إلى أن مات أبو محمود سنة سبعين. ثم جاء أبو ثعلب بن حمدان صاحب الموصل إلى دمشق، عند انهزامه أمام عضد الدولة، فمنعه قسام من الدخول وخاف أن يغلبه على البلد بنفسه أو بأمر العزیز، واستوحش أبو ثعلب لذلك فقاتله قليلاً، ثم رحل إلى مطرية.

وجاءت عساكر العزیز مع قائده الفضل فحاصروا قسماً

بدمشق، ولم يظفروا به ورجعوا.

ثم بعث العزيز سنة تسع وستين سليمان بن جعفر بن فلاح فنزل بظاهرها، ولم يتمكن قسام من دخولها، ودس إلى الناس فقاتلوه وأزعجوه عن مكانه.

وكان مفرج بن الجراح أمير بني طيء وسائر العرب بأرض فلسطين قد كثرت جموعه وقويت شوكته، وعاث في البلاد وخربها، فجهز العزيز العساكر لحربه مع قائده بلتكين التركي، فسار إلى الرملة، واجتمع إليه العرب من قيس وغيرهم، ولقي ابن الجراح وقد أكنس لهم بلتكين من ورائهم، فانهزم ومضى إلى أنطاكية، فأجاره صاحبها.

وصادف خروج ملك الروم من القسطنطينية إلى بلاد الشام فخاف ابن الجراح وكاتب بكجور مولى سيف الدولة وعامله على حمص، ولجأ إليه فأجاره.

ثم زحف بلتكين إلى دمشق وأظهر لقسام أنه جاء لإصلاح البلد.

وكان مع قسام جيش ابن الصمصامة ابن أخت أبي عمود قد قام بعده في ولايته، فخرج إلى بلتكين فأمره بالتزول معه بظاهر البلد هو وأصحابه، واستوحش قسام وتجهز للحرب، ثم قاتل وانهزم أصحابه، ودخل بلتكين أطراف البلد فنهبوا وأحرقوا.

واعتمر أهل البلد على الاستمسان إلى بلتكين، وشافهوه بذلك فأذن لهم، وسمع قسام فاضطرب وألقى ما بيده واستامن الناس إلى بلتكين لأنفسهم ولقسام، فأمن الجميع وولى على البلد أميراً اسمه خطلج، فدخل البلد وذلك في الحرم سنة اثنتين وسبعين.

ثم اختفى قسام بعد يومين فنهبت دوره ودور أصحابه، وجاء ملقياً بنفسه على بلتكين فقبله وحمله إلى مصر فأمنه العزيز.

وكان بكجور في غوية من غلمان سيف الدولة وعامله على حمص.

وكان يمد دمشق أيام هذه الفتنة والغلاء، ويعمل الأقوات من حمص إليها ويكتب العزيز بهذه الخدم، ثم استوحش سنة ثلاث وسبعين من مولاة أبي المعالي فاستنجز من العزيز وعده إياه بولاية دمشق، وصادف ذلك أن المغاربة بمصر أجمعوا على التوثب بالوزير ابن كلس، ودعت الضرورة إلى استقدام بلتكين من دمشق فأمره العزيز بالقدوم، وولاية بكجور على دمشق ففعل.

ودخلها بكجور في رجب من سنة ثلاث وسبعين، وعاث

في أصحاب ابن كلس وحاشيته بدمشق لما كان يبلغه عنه من صد العزيز عن ولايته.

ثم أساء السيرة في أهل دمشق فسعى ابن كلس في عزله عند العزيز، وجهز العساكر سنة ثمان وسبعين مع منير الخادم، وكتب إلى نزال عامل طرابلس بمظاهرتهم، وجمع بكجور العرب وخرج للقائه فانهزم.

ثم خاف من وصول نزال فاستأمن لهم وتوجه إلى الرقة فاستولى عليها، ودخل منير دمشق واستقر في ولايتها، وارتفعت منزلته عند العزيز وجهزه لحصار سعد الدولة بحلب.

وكان بكجور بعد انصرافه من دمشق إلى الرقة سأل من سعد الدولة العود إلى ولاية حمص فمنعه فأجلب عليه، واستنجد العزيز لحربه، وبعث إلى نزال عامل طرابلس بمظاهرتهم فسار إليه بالعساكر، وخرج سعد الدولة من حلب للقائهم وقد أضمر نزال الغدر بيكجور، وتقدم إليه بذلك عيسى بن نسطورس وزير العزيز بعد ابن كلس.

وجاء سعد الدولة للقائهم وقد استمد عامل أنطاكية للروم فأمنه بجيش كثير وداخل العرب الذين مع بكجور في الإنهزام عنه، ووعده بذلك من أنفسهم، فلما تراءى الجمعان وشعر بكجور بمخديعة العرب فاستمات وحمل على الصف بقصد سعد الدولة، فقتل لؤلؤ الكبير مولاة بطعنه إياه.

ثم حمل عليه سعد الدولة فهزمه، فسار إلى بعض العرب وحمل إلى سعد الدولة فقتله، وسار إلى الرقة فملكها وقبض جميع أمواله، وكانت شيئاً لا يعبر عنه، وكتب أولاده إلى العزيز يستشفعون به، فشفع إلى سعد الدولة فيهم أن يمنهم إلى مصر، ويهدده على ذلك، فأساء سعد الدولة الرد وجهز لحصار حلب الجيوش مع منجوتكين، فنزل عليها وحاصرها وبها أبو الفضائل بن سعد الدولة ومولاة لؤلؤ الصغير.

وأرسلا إلى بسيل ملك الروم يستجدهانه وهو في قتال بلغار، فبعث إلى عامل أنطاكية أن يمدهما، فسار في خمسين ألفاً حتى نزل حيس العاصي، وبلغ خبره إلى منجوتكين فارتحل عن حلب، ولقي الروم فهزمهم وأثنى فيهم قتلاً وأمرأ.

وسار إلى أنطاكية وعاث في نواحيها، وخرج أبو الفضائل في مغيب منجوتكين إلى ضواحي حلب، فنقل ما فيها من الغلال وأحرق بقيتها لتفقد عساكر منجوتكين الأقوات.

فلما عاد منجوتكين إلى الحصار، جهز عسكره وأرسل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي في الصلح، فعقد له ذلك، ورحل

فأعفي، وأقام معتكفاً في جامع مصر وسقط ليلة من السطح فمات.

وكان آخرهم الوزير أبو القاسم بن المغربي وكان بعده بدر الجمالي أيام المستنصر وزير سيف الدولة، واستبد له على الدولة ومن بعده منهم كما يأتي في أخبارهم.

أخبار القضاة

كان النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون في خطة القضاة للمعز بالقيروان.

ولما جاء إلى مصر أقام بها في خطة القضاة إلى أن توفي وولي ابنه علي، ثم توفي سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، فولى العزيز أخاه أبا عبد الله محمداً، خلع عليه وقلده سيفاً.

وكان المعز قد وعد أباه بقضاء ابنه محمد هذا بمصر، وتم في سنة تسع وثمانين أيام الحاكم، وكان كبير الصيت، كثير الإحسان شديد الاحتياط في العدالة، فكانت أيامه شريفة.

ولي بعده ابن عمه أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان أيام الحاكم، ثم عزل سنة أربع وتسعين، وقتل وأحرق بالنار، وولي مكانه ملكة بن سعيد الفارقي إلى أن قتله الحاكم سنة خمس وأربعمائة بنواحي القصور، وكان عالي المنزلة عند الحاكم ومداخلاً له في أمور الدولة، وخالصة له في خلواته.

ولي بعده أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوام. واتصل في آخرين إلى آخر دولتهم، كان كثيراً ما يجمعون للقاضي المظالم والدعوة، فيكون داعي الدعاء، وربما يفردون كلاهما.

وكان القاضي عندهم يصعد مع الخليفة المنبر مع من يصعده من أهل دولته عندما يخطب الخلفاء في الجمع والأعياد.

وفاة المعز وولاية ابنه الحاكم

قد تقدم لنا أن العزيز استنفر الناس للجهاد سنة إحدى وثمانين، وبرز في العساكر لغزو الروم، ونزل بليس فاعتورته الأمراض، واتصلت به إلى أن هلك آخر رمضان سنة ست وثمانين لإحدى عشرة سنة ونصف من خلافته، ولقب الحاكم بأمر الله، واستولى برجوان الخادم على دولته كما كان لأبيه العزيز بوصيته بذلك، وكان مدبر دولته، وكان رديف في ذلك أبو محمد

منجوتكين، إلى دمشق، وبلغ الخبر إلى العزيز فغضب، وكتب إلى منجوتكين بالعود إلى حصار حلب وإبعاد الوزير المغربي، وأنفذ الأتوات للعسكر في البحر إلى طرابلس.

وأقام منجوتكين في حصار حلب وأعادوا مراسلة ملك الروم فاستجده وأغزوه، وكان قد توسط بلاد البلغار فعاد مجدداً في السير.

وبعث لؤلؤ إلى منجوتكين بالخبر حذراً على المسلمين، وجاءته جواسيسه بذلك، فاجفل بعد أن خرب ما كان اتخذه في الحصار من الأسواق والقصور والحمامات.

ووصل ملك الروم إلى حلب ولقي أبا الفضائل ولؤلؤاً، ثم سار في الشام وافتتح حمص وشيزر ونهبهما، وحاصر طرابلس أربعين يوماً فامتنعت عليه، وعاد إلى بلاده.

وبلغ الخبر إلى العزيز فعظم عليه، واستنفر الناس للجهاد، وبرز من القاهرة وذلك سنة إحدى وثمانين، ثم انتقض منير في دمشق، فزحف إليه منجوتكين إلى دمشق.

أخبار الوزراء

كان وزير المعز لدين الله يعقوب بن يوسف بن كلثوم أصله من اليهود وأسلم، وكان يدبر الأحوال الأخشيدية بمصر، وعزله أبو الفضائل بن الفرات سنة سبع وخمسين، وصادره فاستتر بمصر، ثم فر إلى المغرب ولقي المعز لدين الله، وجاءه في ركابه إلى مصر فاستورزه وعظم مقامه عنده، واستورزه بعده ابنه العزيز إلى أن توفي سنة ثمانين وصلى عليه العزيز وحضر دفنه، وقضى عنه دينه، وقسم عمله فرد النظر في الظلمات إلى الحسن بن عمار كبير كتابة، ورد النظر في الأموال إلى عيسى بن نستورس، ولم تزل الوزارة سائر دولتهم في أرباب الأقلام، وكانوا بمكان، وكان منهم البارزي.

وكان مع الوزارة قاضي القضاة وداعي الدعاء، وسأل أن يرسم اسمه على السكة فغرب ومنع، ومات قتيلاً بتنيس.

وأبو سعيد النسري، وكان يهودياً وأسلم قبل وزارته، والجرجاني وقطع الجرجاني في أمر منع من الكتب فيه فكتب وحلف الحاكم بيمين لا تكفر ليقطعنه.

ثم رده بعد ثلاث وخلع عليه وابن أبي كدينة ثلاثة عشر شهراً ثم صرف وقتل.

وأبو الطاهر بن ياشاد، وكان من أهل الدين واستعفى

وأصحابه، وثبت بشارة الأخشيدي بن قرارة في خمسمائة فارس، ووقف الدوقس ملك الروم على رابية في ولده وعدة من غلمانه ينظر فعل الروم في المسلمين، فقصد كردي من مصاف الأخشيدي ويده عصا من حديد يسمى الحشت، وظنه الملك مستامناً، فلما دنا منه ضربه بالحشت فقتله، وانهزم الروم وأنبعهم جيش ابن الصمصامة إلى أنطاكية يغتم ويسبي ويحرق.

ثم عاد مظفراً إلى دمشق فنزل بظاهرها ولم يدخل.

واستخلص رؤساء الأحداث واستحجبتهم وأقيم له الطعام في كل يوم، وأقام على ذلك برهة.

ثم أمر أصحابه إذا دخلوا للطعام أن يغلق باب الحجره عليهم، ويوضع السيف في سائرهم، فقتل منهم ثلاثة آلاف، ودخل دمشق وطاف بها وأحضر الأشراف فقتل رؤساء الأحداث بين أيديهم، وبعث بهم إلى مصر وأمن الناس.

ثم إنه توفي وولي محمود بن جيش وبعث برجوان إلى بسيل ملك الروم فصالحه لعشر سنين، وبعث جيشاً إلى برقة وطرابلس المغرب ففتحها، وولي عليها يانساً الصقلي.

ثم نقل مكان برجوان على الحاكم فقتله سنة تسع وثمانين، وكان خصياً أبيض، وكان له وزير نصراني استوزره الحاكم من بعده.

ثم قتل الحسين بن عمار، ثم الحسين بن جوهر القائد.

ثم جهز العساكر مع يارختكين إلى حلب، وقصد حسان بن فرج الطائي، لما بلغ من عيئه وفساده، فلما رحل من غزوه إلى عسقلان لقيه حسان وأبوه مفرج فانهزم وقتل، ونهبت النواحي وكثرت جموع بني الجراح وملكوا الرملة، واستقدموا الشريف أبا الفتح الحسن بن جعفر أمير مكة فبايعوه بالخلافة.

ثم استمالها الحاكم ورغبهما فرداه إلى مكة وراجعا طاعة الحاكم، وراجع هو كذلك، وخطب له بمكة.

ثم جهز الحاكم العساكر إلى الشام مع علي بن جعفر بن فلاح، وقصد الرملة، فانهزم حسان بن مفرج وقومه، وغلبهم على تلك البلاد واستولى على أموالهم وذخائرهم، وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل السراة، ووصل إلى دمشق في شوال سنة تسعين، فملكها واستولى عليها، وأقام مفرج وابنه حسان شريدين بالقفر نحواً من ستين.

ثم هلك مفرج وبعث حسان ابنه إلى الحاكم فأمنه وأقطعته ثم وفد عليه بمصر فأكرمه ووصله.

الحسن بن عمار ويلقب بأمين الدولة، وتغلب على ابن عمار وانبسط أيدي كثامة في أموال الناس وحرهم، ونكر منجوتكين تقديم ابن عمار في الدولة، وكاتب برجوان بالموافقة على ذلك فأظهر الانتقاض، وجهز العساكر لقتاله مع سليمان بن جعفر بن فلاح فلقبهم بعسقلان، وانهزم منجوتكين وأصحابه، وقتل منهم ألفين وسبق أسيراً إلى مصر، فأبقى عليه ابن عمار واستماله للمشاركة.

وعقد على الشام لسليمان بن فلاح، ويكنى أبا تميم، فبعث من طبرية أخاه علياً إلى دمشق، فامتنع أهلها، فكاتبهم أبو تميم وتهدهم وأذعنوا، ودخل على البلد ففتك فيهم.

ثم قدم أبو تميم فأمن وأحسن وبعث أخاه علياً إلى طرابلس وعزل عنها جيش بن الصمصامة فسار إلى مصر، وداخل برجوان في الفتك بالحسن بن عمار وأعيان كثامة، وكان معهما في ذلك شكر خادم عضد الدولة نزع إلى مصر بعد مهلك عضد الدولة، ونكبة أخيه شرف الدولة إياه، فخلص إلى العزيز فقربه وحظي عنده، فكان مع برجوان وجيش ابن الصمصامة.

وثارت الفتنة واقتل المشاركة والمغاربة فانهزمت المغاربة، واختفى ابن عمار وأظهر برجوان الحاكم وجدد له البيعة، وكتب إلى دمشق بالقبض على أبي تميم بن فلاح فنهب، ونهبت خزائنه، واستمر القتل في كثامة واضطربت الفتنة بدمشق، واستولى الأحداث.

ثم أذن برجوان لابن عمار في الخروج من أستانه وأجرى له أرزاقه على أن يقيم بداره.

واضطرب الشام فانتقض أهل صور، وقام بها رجل سلاح اسمه العلاقة وانتقض مفرج بن دغفل بن الجراح، ونزل على الرملة، وعاث في البلاد وزحف الدوقس ملك الروم إلى حصن أفامية محاصراً لها.

وجهز برجوان العساكر مع جيش ابن الصمصامة، فسار إلى عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدون، وأسطولاً في البحر، واستنجد العلاقة ملك الروم فأنجده بالمقاتلة في المراكب، فظفر بهم أسطول المسلمين.

واضطرب أهل صور وملكها ابن حمدان، وأسر العلاقة، وبعث به إلى مصر فسلخ وصلب وسار جيش ابن الصمصامة إلى الفرج بن دغفل فهرب أمامه، ووصل إلى دمشق، وتلقاه أهلها مذعنين، وأحسن إليهم وسكنهم ورفع أيدي العدوان عنهم.

ثم سار إلى أفامية وصاف الروم عندها فانهزم أولاً هو

خروج أبي ركة بركة والظفر به

كان أبو ركة هذا يزعم أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل، وأنه هرب من المنصور بن أبي عامر حين تتبعهم بالقتل وهو ابن عشرين سنة، وقصد القيروان فأقام بها يعلم الصبيان.

ثم قصد مصر وكتب الخديث، ثم سار إلى مكة واليمن والشام وكان يدعو للقائم من ولد أبيه هشام، واسمه الوليد وإعنا لقبه أبا ركة لأنه كان يحملها لوضوئه على عادة الصوفية.

ثم عاد إلى نواحي مصر ونزل على بني قرة من بادية هلال بن عامر، وأقام يعلم الصبيان ويؤمهم في صلاتهم، ثم أظهر ما في نفسه ودعا للقائم.

وكان الحاكم قد أسرف في القتل في أصناف الناس وطبقاتهم، والناس معه على خطر، وكان قتل جماعة من بني قرة وأحرقهم بالنار لفسادهم، فبادر بنو قرة وكانوا في أعمال بركة فأجابوه وانقادوا له وبايعوا.

وكان بينهم وبين لواتة ومزانة ووزناتة جيرانهم في الأصل حروب ودماء فوضعوها، واتفقوا على بيعته.

وكتب عامل بركة أنيال الطويل يخبرهم إلى الحاكم فأمره بالكف عنهم.

ثم اجتمعوا وساروا إلى بركة فهزموا العامل برمادة، وملكوا بركة وغنموا الأموال والسلاح وقتلوه.

وأظهر أبو ركة العدل، وبلغ الخبر إلى الحاكم فاطمأنت نفسه، وكف عن الأذى والقتل، وجهز خمسة آلاف فارس مع القائد أبي الفتح الفضل بن صالح فبلغ ذات الحمام، وبينها وبين بركة مفازة صعبة معطشة، وأمر أبو ركة من غور المياه التي فيها على قلبها.

ثم سار للقائم بعد خروجهم من المفازة على جهد العطش فقاتلهم، ونال منهم وثبت أبو ركة واستأمن إليه جماعة من كتامة لما نالهم من أذى الحاكم وقتله فأمنهم، ولحقوا به، وانهزمت عساكر الحاكم وقتل خلق كثير منهم.

ورجع أبو ركة إلى بركة ظافراً وردد البعوث والسرايا إلى الصعيد وأرض مصر، وأهم الحاكم أمره وندم على ما فرط.

وجهز علي بن فلاح العساكر لحربهم، وكتب الناس أبا ركة يستدعونه، وعين كتب إليه الحسن بن جوهر قائد القواد،

وبعثهم في ستة عشر ألف مقاتل سوى العرب، وبعث أخاه في سرية فواقع بني قرة وهزمهم، وقتل من شيوخهم عبد العزيز بن مصعب ورافع بن طراد ومحمد بن أبي بكر، واستمال الفضل بن قرة فأجابه ماضي بن مقرب من أمرائهم، وكان يطالعه بأخبارهم.

وبعث علي بن فلاح عسكرياً إلى الفيوم فكبسه بنو قرة وهزموه، ونزل أبو ركة بالهرمين، ورجع من يومه ثم رحل الفضل إلى الفيوم لقتالهم فواقعهم برأس البركة وهزمهم، واستأمن بنو كلاب وغيرهم، ورجع علي بن فلاح، وتقدم الفضل لطلب أبي ركة وخذل ماضي بن مقرب بني قرة عن أبي ركة فقالوا له: أنج بنفسك إلى بلد النوبة، ووصل إلى نخومهم وقال: أنا رسول الحاكم فقالوا: لا بد من استئذان الملك، فركلوا به وطالعوا الملك بحقيقة الحال.

وكان صغيراً قد ولي بعد سرقة أبيه، وبعث إليه الفضل بشأنه وطلبه فكتب إلى شجرة بن مينا قائد الخيل بالثغر بأن يسلمه إلى نائب الحاكم، فجاء به رسول الفضل وأنزله الفضل في خيمة وحمله إلى مصر فطيف به على جبل لابساً طرطوراً وخلفه قرد يضغعه، ثم حمل إلى ظاهر القاهرة ليقتل، فمات قبل وصوله، وقطع رأسه وصلب.

وبالغ الحاكم في إكرام الفضل ورفع مرتبته، ثم قتله بعد ذلك، وكان ظفر الحاكم بأبي ركة سنة سبع وتسعين.

بقية أخبار الحاكم

كان الحسن بن عمار زعيم كتامة مدير دولته كما ذكرناه، وكان برجوان خادمه وكافله، وكان بين الموالي والكتامين في الدولة منافسة.

وكان كثيراً ما يفضي إلى القتال، واقتلوا سنة سبع وثمانين، وأركب المغاربة ابن عمار والموالي برجوان، وكانت بينهم حروب شديدة.

ثم تجاوزوا واعتزل ابن عمار الأمور وتخلّى بداره عن رسومه وجرياته، وتقدم برجوان بتدبير الدولة.

وكان كاتب بن فهر بن إبراهيم يربس وينظر في الظلمات ويطالعه، وولى على بركة يأنس صاحب الشرطة مكان صندل.

ثم قتل برجوان سنة تسع وثمانين ورجع التدبير إلى القائد أبي عبد الله الحسين بن جوهر، وبقي ابن فهر على حاله.

وفي سنة تسعين انقطعت طرابلس عن منصور بن بلكين بن

من التصرف في الأسواق، ومنع من أكل الملوخيا.
ورفع إليه أن جماعة من الروافض تعرضوا لأهل السنة في
التراويح بالرجم، وفي الجنائز، فكتب في ذلك سجلاً قرئ على
المنبر بمصر كأن فيه:

أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلوا عليكم آية من كتاب الله
المين، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية.

مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه.

معاشر المسلمين نحن الأئمة، وأنتم الأمة.

لا يحل قتل من شهد الشهادتين ولا يحل عروة بين اثنين
تجمعها هذه الأخوة، عصم الله بها من عصم، وحرّم لها ما حرّم،
من كل محرم من دم ومال ومنكح، الصلاح والأصلح بين الناس
أصلح، والفساد والإفساد بين العباد يستقبح.

يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما انقضى
فلا يذكر.

ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت
عليه في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين سلام الله عليهم
اجمعين، مهديهم بالله وقائهم بأمر الله، ومنصورهم بالله
ومعزهم لدين الله، وهو إذ ذاك بالهدية والمنصورية، وأحوال
القيروان تجري فيها ظاهرة غير خفية ليست بمستورة عنهم ولا
مطوية.

يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض
أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون، صلاة الخمس
للدين بها جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا
مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون.

يخمس في التكبير على الجنائز الخمسون، ولا يمنع من
التكبير عليها المربعون.

يؤذن يحيى على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا
يؤذنون.

لا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم
بما يوصف، والخالف فيهم بما خلف.

لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده وإلى الله ربه ميعاده،
عنده كتابه وعليه حسابه.

ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم، لا يستعلي
مسلم على مسلم بما اعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه
فيما اعتمده من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا، وبعده

زيري صاحب إفريقية، وولى عليها يأنس العزيزي من موالي
العزيز، فوصل إليها وأمكنه عامل المنصور منها، وهو عصولة بن
بكار.

وجاء إلى الحاكم بأهله وولده وماله وأطلق يد يأنس على
مخلفه بطرابلس، يقال: كان له من الولد نيف وستون بين ذكر
وأنثى، ومن السراري خمس وثلاثون فتلقى بالمبرة وهيء له
القصور ورتب له الجراية وقلده دمشق وأعمالها، فهلك بها لسنة
من ولايته.

وفي سنة اثنين وتسعين وصل الصريح من جهة فلنقل بن
خزرون المغراوي في ارتجاع طرابلس إلى منصور بن بلكسين،
فجهزت العساكر مع يحيى بن علي الأندلسي الذي كان جعفر
أخوه عامل الزاب للبيديين، ونزع إلى بني أمية وراء البحر.

ولم يزل هو وأخوه في تصرفهم إلى أن قتل المنصور بن أبي
عامر جعفرًا منهما، ونزع أخوه يحيى إلى العزيز بمصر فنزل عليه
وتصرف في خدمته وبعثه الآن الحاكم في العساكر لما قدمناه،
فاغترضه بنو قرة بركة ففوضوا جموعه، ورجع إلى مصر وسار يأنس
من بركة إلى طرابلس، فكان من شأنه مع عصولة ما ذكرناه.

وبعد وفاة عصولة ولي علي دمشق مفلح الخادم، وبعده
علي بن فلاح سنة ثمان وتسعين.

وبعد مسير يأنس ولي على بركة صندل الأسود.

وفي سنة ثمان وتسعين عزل الحسين بن جوهر القائد وقام
بتدبير الدولة صالح بن علي بن صالح الروياضي.

ثم نكب حسين القائد بعد ذلك وقتل، ثم قتل صالح بعد
ذلك وقام بتدبير الدولة الكافي بن نصر بن عبدون، وبعده زرة
بن عيسى بن نسطورس، ثم أبو عبد الله الحسن بن طاهر الوزان.

وكثر عيث الحاكم في أهل دولته وقتله إياهم - مثل
الجرجاري وقطعه أيديهم، حتى أن كثيراً منهم كانوا يهربون من
سطوته، وآخرون يطلبون الأمان فيكتب لهم به السجلات.

وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل والإخافة والأمن
والنسك والبدعة.

وأما ما يرمي به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط
الصلوات فغير صحيح، ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم
بعض ذلك لقتل لوقته، وأما مذهبه في الرافضة فمعروف، ولقد
كان مضطرباً فيه مع ذلك، فكان يأذن في صلاة التراويح ثم ينهي
عنها، وكان يرى يعلم النجوم ويؤثره، وينقل عنه أنه منع النساء

من يد شبل الدولة نصر بن صالح وقتله، وكان بينه وبين بني الجراح قبل ذلك وهو بفلسطين حروب، حتى هرب من الرملة إلى قيسارية فاعتصم بها وأخرب ابن الجراح الرملة وأحرقها.

وبعث السرايا فانتهدت إلى العريش وخشي أهل بليس وأهل القرافة على أنفسهم، فانتقلوا إلى مصر، وزحف صالح بن مرداس في جموع العرب لحصار دمشق وعليها يومئذ ذو القرنين ناصر الدولة بن الحسين.

وبعث حسان بن الجراح إليهم بالمدد، ثم صالحوا صالح بن مرداس وانتقل إلى حصار حلب وملكها من يد شعبان الكتامي، ووجدت العساكر من الشام مع الوزير وكان ما تقدم وملك دمشق وأقام بها.

وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر

ثم توفي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن الحاكم منتصف شعبان سنة سبع وعشرين لست عشرة سنة من خلافته، فولد ابنه أبو تميم معد ولقب المستنصر بأمر الله، وقام بأمره وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني، وكان بدمشق الوزير واسمه أقوش تكين وكانت البلاد صلحت على يديه لعدله ورفقه وضبته، وكان الوزير الجرجاني يحسده ويبغضه، وكتب إليه بإبعاد كاتبه أبي سعيد، فأنفذ إليه أنه يعمل الوزير على الانتقاض، فلم يجب الوزير إلى ذلك واستوحش، وجاء جماعة من الجند إلى مصر في بعض حاجاتهم فدخلهم الجرجاني في التوثب به، ودس معهم بذلك إلى بقية الجند بدمشق فتعللوا عليه فخرج إلى بعلبك سنة ثلاث وثلاثين فمنعه عاملها من الدخول، فسار إلى حماة فمنع أيضاً فقتل، وهو خلال ذلك ينهب فاستدعى بعض أوليائه من كفرطاب فوصل إليه في ألفي رجل، وسار إلى حلب فدخلها وتوفي بها في جمادى الآخرة من السنة، وفسد بعده أمر الشام وطمع العرب في نواحيه، وولى الجرجاني على دمشق الحسين بن حمدان فكان قصارى أمره منع الشام، وملك خسان بن مفرج فلسطين وزحف معز الدولة بن صالح الكلابي إلى حلب فملك المدينة، وامتنع عليه أصحاب القلعة ويعتروا إلى مصر للنجدة فلم ينجدهم، فسلموا القلعة لمعز الدولة بن صالح فملكها.

مسير العرب إلى إفريقية

كان المعز بن باديس قد انتقض دعوة العبيديين بإفريقية

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلٍّ إِذَا هَمَّ بِكُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وفاة الحاكم وولاية الظاهر

ثم توفي الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز نزار قتيلاً ببركة الحبش بمصر، وكان يركب الحمار ويطوف بالليل ويخلو بدار في جبل المقطم للعبادة، ويقال: لاستئزال روحانية الكواكب.

فصعد ليلة من ليالي ثلاث بقين من شوال سنة إحدى عشرة ركب على عادته ومشى معه راكباًن فردهما واحداً بعد آخر في تصاريه أموره، ثم افتقد ولم يرجع، وأقاموا أياماً في انتظاره.

ثم خرج مظفر الصقلي والقاضي وبعض الخواص إلى الجبل فوجدوا حماره مقطوع الديدن، واتباعوا أثره إلى بركة الحبش فوجدوا ثيابه مزررة وفيها عدة ضربات بالسكاكين فائقوا بقتله.

ويقال: إن أخته بلغه أن الرجال يتأوبون بها فتوعدها فأرسلت إلى ابن دواس من قواد كتامة، وكان يخاف الحاكم فأغرته بقتله، وهوته عليه لما يرميه به الناس من سوء العقيدة، فقد يهلك الناس ونهلك معه.

ووعده بالمنزلة والإقطاع، فبعث إليه رجلين فقتلاه في خلوته، ولما أيقنوا بقتله اجتمعوا إلى أخته ست الملك فأحضرت علي بن دواس، وأجلس علي بن الحاكم صبيماً لم يناهز الحلم ويابح له الناس، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله، ونفذت الكتب إلى البلاد بأخذ البيعة له.

ثم حضر ابن دواس من الغد وحضر معه القواد فأمرت ست الملك خادمتها فعلاه بالسيف أمامهم حتى قتله وهو ينادي بثار الحاكم فلم يختلف فيه اثنان، وقامت بتدبير الدولة أربع سنين ثم ماتت.

وقام بتدبير الدولة الخادم معضاد وتافر بن الوزان، وولي وزارته أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني وكان متغلباً على دولته، وانتقض الشام خلال ذلك، وتغلب صالح بن مرداس من بني كلاب على حلب، وعاث بنو الجراح في نواحيه، فبعث الظاهر سنة عشرين قائده الزيريري وإلى فلسطين في العساكر، وأوقع بصالح بن الجراح، وقتل صالح وابنه وملك دمشق، وملك حلب

مقتل ناصر الدولة بن حمدان بمصر

كانت أم المستنصر متغلبة على دولته وكانت تصطنع الوزراء وتوليهم، وكانوا يتخذون الموالي من الأتراك للتغلب على للدولة، فمن استوحشت منه أغرت به المستنصر فقتله، فاستوزرت أولاً أبا الفتح الفلاح، ثم استوحشت منه فقبض عليه المستنصر وقتله، ووزر بعده أبا البركات حسن بن محمد وعزله.

ثم ولي الوزارة أبا محمد التازوري من قرية بالرملة تسمى تازور، فقام بالدولة إلى أن قتل، ووزر بعده أبو عبد الله الحسين بن الباهلي، وكان في الدولة من موالي السودان ناصر الدولة بن حمدان، واستمالوا معهم كثامة والمصامدة، وخرج العبيد إلى الضياع واجتمعوا في خمسين ألف مقاتل، وكان الأتراك ستة آلاف، وشكوا إلى المستنصر فلم يشكهم، فخرجوا إلى غرماهم والتقوا بكموم الریش، وأكمن الأتراك للعبيد ولقوهم فانهزموا، وخرج كمينهم على العبيد وضربوا البركات والكاسات فارتاب العبيد وظنوه المستنصر فانهزموا، وقتل منهم وغرق نحو أربعين ألفاً.

وفدى الأتراك وتغلبوا، وعظم الافتراء فيهم فخلت الخزان، واضطربت الأمور وتجمع باقي العسكر من الشام وغيره إلى الصعيد، واجتمعوا مع العبيد وكانوا خمسة عشر ألفاً وساروا إلى الحيزة فلقبهم الأتراك وعليهم ناصر الدولة بن حمدان فهزمهم إلى الصعيد، وعاد ناصر الدولة والأتراك ظافرين.

واجتمع العبيد في الصعيد وحضر الأتراك بدار المستنصر فأمرت أمه العبيد بالدار أن يفتكوا بمقدمي الأتراك ففعلوا وهربوا إلى ظاهر البلد ومعهم ناصر الدولة، وقاتل أولياء المستنصر فهزمهم، وملك الإسكندرية ودمياط وقطع الخطبة منهما ومن سائر الريف للمستنصر، وراسل الخليفة العباسي ببغداد وافترق الناس من القاهرة، ثم صالح المستنصر ودخل القاهرة واستبد عليه وصادر أمه على خمسين ألف دينار، وافترق عنه أولاده وكثير من أهله في البلاد، ودس المستنصر لقواد الأتراك بأنه يحول الدعوة فامتعضوا لذلك وقصدوه في بيته، وهو آمن منهم، فلما خرج إليهم تناولوه بسيوفهم حتى قتلوه وجاؤوا برأسه، ومروا على أخيه في بيته فقطعوا رأسه، وأتوا بهما جميعاً إلى المستنصر وذلك سنة خمس وستين، وولى عليهم الذكر منهم وقام بأمر الدولة.

استيلاء بدر الجمالي على الدولة

أصل بدر هذا من الأرمن من صنائع الدولة بمصر ومواليها،

وخطب للقائم العباسي، وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة أربعين وأربعمئة، فكتب إليه المستنصر يتهده.

ثم إنه استوزر الحسين بن علي التازوري بعد الجزجاري ولم يكن في رتبته فخاطبه المعز دون ما كان يخاطب من قبله، كان يقول في كتابه إليهم عبده، ويقول في كتاب التازوري صنيعته فحقد ذلك، وأغرى به المستنصر، وأصلح بين زغبة ورياح من بطون هلال وبعثهم إلى إفريقية وملكهم كل ما يفتحونه، وبعث إلى المعز: أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولاً وحملنا عليها رجالاً فحولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فساروا إلى برقة فوجدوها خالية لأن المعز كان أباد أهلها من زنانة، فاستوطن العرب برقة، واحتقر المعز شأنهم واشترى العبيد واستكثر منهم حتى اجتمع له منهم ثلاثون ألفاً.

وزحف بنو زغبة إلى طرابلس فملكوها سنة ست وأربعين، وجازت رياح الأنيج وبنو عدي إلى إفريقية، فأضرموها ناراً.

ثم سار أمراؤهم إلى المعز وكبيرهم مؤنس بن يحيى من بني مرداس من زياد فأكرمهم المعز وأجزل لهم عطايه فلم يفسن شيئاً، وخرجوا إلى ما كانوا عليه من الفساد، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله، فخرج إليهم المعز في جموعه من صنهاجة والسودان نحواً من ثلاثين ألفاً، والعرب في ثلاثة آلاف فهزموه وأئخسوا في صنهاجة بالقتل واستباحوهم، ودخل المعز القيروان مهزوماً.

ثم بيّتهم يوم النحر وهم في الصلاة فهزموه أعظم من الأولى، ثم سار إليهم بعد أن احتشد زناته معه فانهزم ثالثة وقتل من عسكره نحو من ثلاثة آلاف، ونزل العرب بمصلى القيروان ووالوا عليهم الهزائم، وقتلت منهم أمم.

ثم أباح لهم المعز دخول القيروان للمرة فاستطالت عليهم العامة فقتلوا منهم خلقاً وأدار المعز السور على القيروان سنة ست وأربعين ثم ملك مؤنس بن يحيى مدينة باجة سنة ست وأربعين وأمر المعز أهل القيروان بالانتقال إلى المهديّة للتحصن بها، وولى عليها ابنه تيماً سنة خمس وأربعين.

ثم انتقل إليها سنة تسع وأربعين، وانطلقت أيدي العرب على القيروان بالنهب والتخريب، وعلى سائر الحصون والقرى كما يذكر في أخبارهم.

ثم كانت الخطبة للمستنصر ببغداد على يد البساسيري من ممالك بني بويه عند انقراض دولتهم واستيلاء السلجوقية كما نذكره في أخبارهم.

وكان حاجباً لصاحب دمشق، واستكفاه فيما وراء بابه.

ثم مات صاحب دمشق فقام بالأمر إلى أن وصل الأمير على دمشق، وهو ابن منير فصار هو إلى مصر وترقى في الولايات إلى أن ولي عكا وظهر منه كفاية واضطلاع.

ولما وقع بالمستنصر ما وقع من استيلاء الترك عليه والفساد والتضييق، استقدم بداراً الجمالي لولاية الأمور بالحضرة، فاستأذن في الاستكثار من الجند لتهزم من تغلب من جند مصر فأذن له في ذلك، وركب البحر من عكا في عشرة مراكب، ومعه جند كثيف من الأرمن وغيرهم، فوصل إلى مصر، وحضر عند الخليفة فولاه ما وراء بابه، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجواهر مكان الطوق، ولقبه بالسيد الأجل أمير الجيوش، مثل والي دمشق، وأضيف إلى ذلك كافل قضاة المسلمين، وداعي دعاة المؤمنين، ورتب الوزارة وزاده سيفه ورد الأمور كلها إليه، ومنه إلى الخليفة، وعاهده الخليفة على ذلك، وجعل إليه ولاية الدعاة والقضاة، وكان مبالغاً في مذهب الإمامية، فقام بالأمر واسترد ما كان تغلب عليه أهل النواحي مثل ابن عمار بطرابلس وابن معروف بعسقلان وبني عقيل بصور.

ثم استرد من القواد والأمراء بمصر جميع ما أخذوه أيام الفتنة من المستنصر من الأموال والأمتعة.

وصار إلى دمياط وقد تغلب عليها جماعة من المفسدين من العرب وغيرهم، فأنخن في لؤاة بالقتل والنهب في الرجال والنساء وسبى نساءهم وغنم خيولهم.

ثم صار إلى جهينة وقد ثاروا ومعه قوم من بني جعفر فلقبهم على طرخ العليا سنة تسع وستين فهزمهم وأنخن فيهم وغنم أموالهم.

ثم صار إلى أسوان وقد تغلب عليها كنز الدولة محمد فقتله وملكها، وأحسن إلى الرعايا ونظم حالهم وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، وعادت الدولة إلى أحسن ما كانت عليه.

وصول الغز إلى الشام واستيلاؤهم عليه

وحصارهم مصر

كان السلجوقية وعساكرهم من الغز قد استولوا في هذا العصر على خراسان والعراقين وبغداد، وملكهم طغرلبيك، وانتشرت عساكرهم في سائر الأنطار، وزحف إيتسز بن أنز من أمراء السلطان ملك شاه وسماء الشاميون أفسس والصحيح هذا،

وهو اسم تركي هكذا قال ابن الأثير، فزحف سنة ثلاث وثلاثين بل وستين ففتح الرملة، ثم بيت المقدس وحاصر دمشق وعاث في نواحيها وبها الملعى بن حيدرة، ولم يزل يوالي عليها البعوث إلى سنة ثمان وستين، وكثر عسف الملعى بأهلها مع ما هم فيه من شدة الحصار فثاروا به، وهرب إلى بلسيس، ثم لحق بمصر فحبس إلى أن مات.

ولما هرب من دمشق اجتمعت المصامدة وولوا عليهم انتصار بن يحيى منهم ولقبوه وزير الدولة، ثم اضطربوا بما هم فيه من الغلاء، وجاء أمير من القدس فحاصرهم حتى نزلوا على أمانه، وأنزل وزير الدولة بقلعة بائياس ودخل دمشق في ذي القعدة، وخطب فيها للمعتدي العباسي.

ثم سار إلى مصر سنة تسع وستين فحاصرها، وجمع بدر الجمالي العساكر من العرب وغيرهم، وقاتله فهزمه وقتل أكثر أصحابه، ورجع إيتسز منهزماً إلى الشام فأتى دمشق، وقد صانوا غلظه فشكروهم ورفع عنهم خراج سنة تسع وستين، وجاء إلى بيت المقدس فوجدهم قد عاثوا في خلفه وحاصروا أهله وأصحابه في مسجد داود عليه السلام، فحاصروهم ودخل البلد عنوة، وقتل أكثر أهله حتى قتل كثيراً في المسجد الأقصى.

ثم جهز أمير الجيوش بدر الجمالي العساكر من مصر مع قائده نصير الدولة، فحاصر دمشق وضيق عليها، وكان ملك السلجوقية السلطان ملك شاه قد أقطع أخاه تشش سنة سبعين وأربعمئة بلاد الشام، وما يفتح منها فزحف إلى حلب وحاصرها وضيق عليها، ومعه جموع كثيرة من التركمان فبعث إليه إيتسز من دمشق يستصرخه، فصار إليه، وأجفلت عساكر مصر عن دمشق، وخرج إيتسز من دمشق للقائه فقتله وملك البلد، وذلك سنة إحدى وسبعين.

وملك ملك شاه بعد ذلك حلب واستولى السلجوقية على الشام أجمع، وزحف أمير الجيوش بدر الجمالي من مصر في العساكر، إلى دمشق وبها تاج الدولة تشش فحاصره وضيق عليه، وامتنع عليه ورجع، وزحف عساكر مصر سنة اثنتين وثمانين إلى الشام فاسترجعوا مدينة صور من يد أولاد القاضي عين الدولة بن أبي عقيل، كان أبوه قد اتزى عليها، ثم فتحوا مدينة صيدا ثم مدينة جبيل وضبط أمير الجيوش البلاد وولى عليها العمال.

وفي سنة أربع وثمانين استولى الفرنج على جزيرة صقلية، وكان أمير الجيوش قد ولى على مدينة صور منير الدولة الجيوشي من طائفته، فانتفض سنة ست وثمانين، وبعث إليه أمير الجيوش

هذه للقتلة، ويقال: إن الحسين بن الصباح رئيس الإسماعيلية بالعراق قصد المستنصر في زي تاجر، وسأله إقامة الدعوة له ببلاد العجم فأذن له في ذلك، وقال له الحسين: من إمامي بعدك؟ فقال: ابني نزار فسار ابن الصباح ودعا الناس ببلاد العجم إليه سراً.

ثم أظهر أمره وملك القلاع هنالك مثل قلعة الموت وغيرها كما نذكره في أخبار الإسماعيلية، وهم من أجل هذا الخبر يقولون بإمامة نزار.

ولما ولي المستعلي خرج ثغر عن طاعته وولي عليه واليه كشيلة وبعث المستعلي العساكر فحاصره، ثم اقتحموا عليه وحملوه إلى مصر فقتل بها سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

وكان تش صاحب الشام قد مات واختلف بعده ابنه رضوان ودقاق، وكان دقاق بدمشق ورضوان بحلب فخطب رضوان في أعماله للمستعلي بالله أياماً قلائل ثم عاود الخطبة للعباسيين.

استيلاء الفرنج على بيت المقدس

كان بيت المقدس قد أقطعه تاج الدولة تش للأمير سليمان بن أرتق التركماني، وقارن ذلك استفحال الفرنج واستطاعتهم على الشام، وخروجهم سنة تسعين وأربعمائة، ومروا بالقسطنطينية وعبروا خليجها، وخطى صاحب القسطنطينية سبيلهم ليحولوا بينه وبين صاحب الشام من السلجوقية والغز فنازلوا أولاً أنطاكية فأخذوها من يد باغيسيان، من قواد السلجوقية، وخرج منها هارباً فقتله بعض الأرمن في طريقه، وجاء برأسه إلى الفرنج بأنطاكية.

وعظم الخطب على عساكر الشام وسار كربوقا صاحب الموصل فنزل مرج دابق واجتمع إليه دقاق بن تش، وسليمان بن أرتق، وطغتكين أتابك صاحب حمص وصاحب سنجار، وجمعوا من كان هنالك من الترك والعرب، وبادروا إلى أنطاكية لثلاثة عشر يوماً من حلول الفرنج بها.

وقد اجتمع ملوك الفرنج ومقدمهم بنميد، وخرج الفرنج وتصادموا مع المسلمين فانهمز المسلمون، وقتل الفرنج منهم ألفاً، واستولوا على معسكرهم، وساروا إلى معرة النعمان وحاصروها أياماً، وهربت حاميتها، وقتلوا منها نحواً من مائة ألف، وصالحهم ابن متقذ على بلده شيزر، وحاصروا حمص فصالحهم عليها جناح الدولة، ثم حاصروا عكة فامتعت عليهم، وأدرك عساكر الغز من الوهن ما لا يعبر عنه فقطع أهل مصر فيهم، وسار الأفضل بن بدر بالعساكر لاسترجاع بيت المقدس فحاصرها، وبها سقمان وأبو

العساكر فثار به أهل المدينة، واقتحمت عليهم العساكر وبعث منير الدولة إلى مصر في جماعة من أصحابه فقتلوا كلهم.

ثم توفي أمير الجيوش بدر الجمالي سنة سبع وثمانين في ربيع الأول لثمانين سنة من عمره.

وكان له موليان أمين الدولة لاويز ونصير الدولة أفنكين، فلما قضى بدر نحبه استدعى المستنصر لاويز ليقبله فأبى ذلك أفنكين وركب في الجند وشغبوا على المستنصر، واقتحموا القصر وأسبعوه خشن الكلام فرجع إلى ولاية ولد بدر، وقدم للوزارة ابنه محمد الملك أبا القاسم شاه، ولقبه بالأفضل مثل لقب أبيه.

وكان أبو القاسم بن المقرئ رديفاً لبدر في وزارته بما كان اختصه لذلك، فولي بعد موته الوزارة المقرئ وكانت عندهم عبارة عن التوقيع بالقلم الغليظ.

وقام الأفضل أبو القاسم بالدولة وجرى على سنن أبيه في الاستبداد، وكانت وفاة المستنصر قريباً من ولايته.

وفاة المستنصر وولاية ابنه المستعلي

ثم توفي المستنصر معد بن الظاهر يوم التروية سنة سبع وثمانين لستين سنة من خلافته ويقال: خمس وستين بعد أن لقي أهواً وشدائد، وانفتحت عليه فتوق استهلك فيها أمواله وذخائره حتى لم يكن له إلا بساطه الذي يجلس عليه، وصار إلى حد العزل والخلع، حتى تدارك أمره باستقدام بدر الجمالي من عكا فتقوم أمره، ومكنه في خلافته.

ولما مات خلف من الولد أحمد ونزاراً وأبى القاسم، وكان المستنصر فيما يقال قد عهد لنزار، وكانت بينه وبين أبي القاسم الأفضل عداوة، فخشي بادرته وداخل عمته في ولاية أبي القاسم، على أن تكون لها كفالة الدولة، فشهدت بأن المستنصر عهد له بمحضر القاضي والداعي فبويع ابن ست، ولقب المستعلي بالله، وأكره أخوه الأكبر على بيعته، ففر إلى الإسكندرية بعد ثلاث، وبها نصير الدولة أفنكين مولى بدر الجمالي الذي سعى للأفضل، فانقض وباع لنزار بعهدده ولقب المصطفى لدين الله.

وسار الأفضل بالعساكر وحاصروهم بالإسكندرية واستنزهم على الأمان، وأعطاهم اليمين على ذلك، وأركب نزاراً السفن إلى القاهرة وقتل بالقصر.

وجاء الأفضل ومعه أفنكين أسيراً فأحضره يوماً ووجه، فهم بالرد عليه فقتل بالضرب بالعصي، وقال: لا يتناول اليمن

هزيمة الفرنج لعساكر مصر

ثم بعث الأفضل أمير الجيوش بمصر العساكر لقتال الفرنج مع سعد الدولة الفراسي أميراً مملوك أبيه، فلقى الفرنج بين الرملة ويافا ومقدمهم بغدوين ققاتلهم، وانهزم وقتل واستولى الفرنج على معسكره فبعث الأفضل ابنه شرف المعالي في العساكر فبارزهم قرب الرملة وهزمهم، واختفى بغدوين في الشجر ونجا إلى الرملة مع جماعة من زعماء الفرنج، فحاصروهم شرف المعالي خمسة عشر يوماً حتى أخذهم فقتل منهم أربعمئة صبراً، وبعث ثلاثمئة إلى مصر ونجى بغدوين للغزو، وسار بهم إلى عسقلان فهرب شرف المعالي وعاد إلى أبيه.

وملك الفرنج عسقلان وبعث العساكر في البر مع تاج العجم مولى أبيه إلى عسقلان، وبعث الأسطول في البحر إلى يافا مع القاضي ابن قادوس فبلغ إلى يافا واستدعى تاج العجم وحجسه.

وبعث جمال الملك من مواليه إلى عسقلان مقدم العساكر الشامية.

ثم بعث الأفضل سنة ثمان وتسعين ابنه سنا الملك حسين وأمر جمال الملك بالسير معه لقتال الفرنج، فساروا في خمسة آلاف واستمدوا طغتكين أتابك دمشق، فأمدتهم بألف وثلاثمئة، ولقوا الفرنج بين عسقلان ويافا فقتلوا بالقتل وتحاصروا، وافترق المسلمون إلى عسقلان ودمشق، وكان مع الفرنج بكتاش بن تشش عدل عنه طغتكين بالملك إلى ابن أخيه دقاق بن تشش، فلحق بالإفرنج مغاضباً.

استيلاء الفرنج على طرابلس وبيروت

كانت طرابلس رجعت إلى صاحب مصر وكان يحاصرها من الفرنج ابن المرداني صاحب صيحل، والملاذ بأنهم من مصر.

فلما كانت سنة ثلاث وخمسين وصل أسطول من الفرنج مع ويمتدين إلى صيحل من قمامصتهم فتزل على طرابلس، وتشاجر مع المرداني فبادر بغدوين صاحب القدس وأصلح بينهم، ونزلوا جميعاً على طرابلس وألصقوا أبراجهم بسورها، وتأخرت الميرة عنهم من مصر في البحر لركود البحر فاقتحمها الفرنج عشرة ثاني الأضحى من سنة ثلاث وخمسين، وقتلوا ونهبوا وأسروا وغنموا.

وكان واليها قد استأمن قبل فتحها في جماعة من الجند

الغازي ابن أرتق وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سوتج، ونصبوا عليها نيفاً وأربعين منجنيقاً، وأقاموا عليها نيفاً وأربعين يوماً، ثم ملكوها بالأمان في سنة تسعين.

وأحسن الأفضل إلى سقمان وأبي الغازي ومن معهم، وخلق سبيلهم، فسار سقمان إلى بلد الرها وأبو الغازي إلى بلد العراق، وولى الأفضل على بيت المقدس ورجع إلى مصر.

ثم سارت الفرنج إلى بيت المقدس وحاصروه نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين ثم اقتحموها من الجانب الشمالي لسبع بقين من شعبان، واستباحوها أسبوعاً، ولجأ المسلمون إلى محراب داود عليه السلام واعتصموا به إلى أن استئزلم الفرنج بالأمان، وخرجوا إلى عسقلان وقتل بالمسجد عند الشجرة سبعون ألفاً، وأخذوا من المسجد نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة يزن كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمئة، وتوروا من الفضة يزن أربعين رطلاً بالشامي، ومائة وخمسين قنديلاً من الصفر وغير ذلك مما لا يحصى.

وأجفل أهل بيت المقدس وغيرهم من أهل الشام إلى بغداد باكين على ما أصاب الإسلام ببيت المقدس من القتل والسي والنهب.

وبعث الخليفة أعيان العلماء إلى السلطان بركيارق وإخوته محمد وسنجر بالسير إلى الجهاد فلم يتمكنوا من ذلك، للخلاف الذي كان بينهم، ورجع الوفد مؤيسين من نصرهم.

وجمع الأفضل أمير الجيوش بمصر العساكر وسار إلى الفرنج، فساروا إليهم وكبسوهم على غير أهبة فهزمهم، وافترق عسكر مصر وقد لاذوا بنجم الشعراء هناك فأضرموها عليهم نارا فاحترقوا وقتل من ظهر، ورجع الفرنج إلى عسقلان فحاصروها حتى أنزلوا لهم عشرين ألف دينار فارتحلوا.

وفاة المستعلي وولاية ابنه الأمر

ثم توفي المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر متصفاً صفر سنة خمس وتسعين لسبع سنين من خلافته، فبويع ابنه أبو علي ابن خمس سنين ولقب الأمر بأحكام الله، ولم يل الخلافة فيهم أصغر منه ومن المستنصر، فكان هذا لا يقدر على ركوب الفرس وحده.

من إقامة غيره والاعتماد عليه فيتعرض للخطر من مثلها إلى الامتناع منه.

ثم أشار عليه من مداخلة ثقته أبي عبد الله بن البطاحي في مثل ذلك فإنه يحسن تدبيره ويضع عليه من يقاتله، ويقتل به فيسلم عرضك.

وكان ابن البطاحي فراشاً بالقصر، واستخلصه الأفضل ورقاه واستحجبه، فاستدعاه الأمر ودخله في ذلك، ووعد به مكانه فوضع عليه رجلان فقتلاه بمصر وهو سائر في موكبه من القاهرة متقلباً من خزانة السلاح في ستة خمس عشرة وخمسمائة، كان يفرق السلاح على العادة في الأعياد وثار الغبار في طريقه فانفرد عن الموكب فبدره الرجلان وطعناه فسقط، وقتلا، وحمله إلى داره وبه رمق فجاءه الأمر متوجعاً وسأله عن ماله فقال: أما الظاهر فأبو الحسن بن أبي أسامة يعرفه، وكان أبوه قاضياً بالقاهرة وأصله من حلب، وأما الباطن فإن البطاحي يعرفه.

ثم قضى الأفضل نحبه لثمان وعشرين سنة من وزارته، واحتاط الأمر على داره فوجد له ستة آلاف كيس من الذهب العين، وخمسين أردباً من الورق، ومن الديباج الملون والمتاع البغدادي والإسكندري وطرف الهند وأنواع الطيوب والعنبر والمسك ما لا يحصى، حتى لقد كان من ذخائره دكة عاج وأبنوس محلاة بالفضة عليها عرم مثنى من العنبر زنته ألف رطل، وعلى العرم مثل طائر من الذهب برجلين مرجأناً ومقاراً زمرداً وعينان ياقوتتان كان ينصبها في بيته ويضوع عرفها فيعم القصر وصارت إلى صلاح الدين.

ولاية ابن البطاحي

قال ابن الأثير: كان أبوه من جواسيس الأفضل بالعراق، ومات لم يخلف شيئاً، ثم ماتت أمه وتركته معلقاً، فتعلم البناء أولاً ثم صار يحمل الأمتعة بالأسواق، ويدخل بها على الأفضل فخفف عليه واستخدمه مع الفرائشين، وتقدم عنده واستحجبه، ولما قتل الأفضل ولاه الأمر مكانه وكان يعرف بابن فانت وابن القائد فدعاه الأمر جلال الإسلام، ثم خلع عليه بعد ستين من ولايته للوزارة ولقبه المأمون، فجرى على سنن الأفضل في الاستبداد ونكر ذلك الأمر وتكر له، واستوحش المأمون وكان له أخ يلقب المؤتمن فاستأذن الأمر في بعثه إلى الإسكندرية لحمايتها ليكون له ردةً هنالك فأذن له، وسار معه القواد وفيهم علي بن السلار وتاج الملوك قائمين، وسنا الملك الجمل ودري الحروب وأمثالهم،

فلحقوا بدمشق، ووصل الأسطول بالمدد وكفاية سنة من الأقوات بعد فتحها ففرقه في صور وصيدا وبيروت، واستولى الفرنج على معظم سواحل الشام.

وإنما خصصنا هذه بالذكر في الدولة العلوية لأنها كانت من أعمالهم، وسنذكر البقية في أخبار الفرنج إن شاء الله تعالى.

استرجاع أهل مصر عسقلان

كان الأمير قد استولى على عسقلان وبها قائد من قواد شمس الخلافة، فدخل بغدوين صاحب بيت المقدس من الفرنج وهاداه ليمتنع به على أهل مصر، وجهاز أمير الجيوش عسكرياً من مصر للقبض عليه إذا حضر وشعر بذلك، وانتفض وأخرج من عنده من أهل مصر، وخاف الأفضل أن يسلم عسقلان إلى الفرنج فأقره على عمله، وارتاب شمس الخلافة بأهل عسقلان واتخذ بطانة من الأرمن فاستوحش أهل البلد فثاروا به وقتلوه، وبعثوا إلى الأمر والأفضل بذلك، فأرسل إليهم الوالي من مصر وأحسن إليهم واستقامت أحوالهم.

وحاصر بغدوين بعد ذلك مدينة صور وفيها عساكر الأرمن واشتد في حصارها بكل نوع، وكان بها عز الملك الأعز من أولياء الأمر فاستمد طغتكين أتابك دمشق فأمده بنفسه وطال الحصار، وحضر أوان الغلال فخشي الفرنج أن يفسد طغتكين غلال بلدهم فأفروا عنها إلى عكا وكفى الله شرهم.

ثم زحف بغدوين ملك الفرنج من القدس إلى مصر وبلغ ستين وسبع في النبل فانتفض عليه جرح كان به، وعاد إلى القدس ومات، وعهد بملك القدس للقمص صاحب الرها، ولولا ما نزل بملوك السلجوقية من الفتنة لكانوا قد استرجعوا من الفرنج جميع ما ملكوه من الشام، ولكن الله خبا ذلك لصلاح الدين بن أيوب حتى فاز بذكره.

مقتل الأفضل

قد قدمنا أن الأمر ولاه الأفضل صغيراً ابن خمس، فلما استجمع واشتد تنكر للأفضل وثقلت وطأته عليه فانتقل الأفضل إلى مصر وبني بها داراً ونزلها، وخطب منه الأفضل ابنته فزوجها على كره منه وشاور الأمر أصحابه في قتله، فقال له ابن عمه عبد المجيد وكان ولي عهده: لا تفعل وحذره سوء الأحداث لما اشتهر بين الناس من نصحه ونصح أبيه وحسن ولايتهما للدولة، ولا بد

القاسم بن المستضيء معه، وقالوا: إن الأمر أوصى بأن فلانة حامل فدلته الرؤيا بأنها تلد ذكراً فهو الخليفة بعدي، وكفاته لعبد الحميد فأقاموه كافلاً ولقبوه الحافظ لدين الله، وذكروا من الوصية أن يكون هزبر الملوك وزيراً والسعيدباس من موالى الأفضل صاحب الباب، وقرأوا السجل بذلك في دار الخلافة.

ولاية أبي علي بن الأفضل الوزارة ومقتله

ولما تقرر الأمر على وزارة هزبر الملوك، وخلع عليه أنكر ذلك الجند وتولى كبر ذلك رضوان بن ونحش كبيرهم.

وكان أبو علي بن الأفضل حاضراً بالقصر فحشه برغش العادل على الخروج حسداً لصاحبه، وأوجد له السبيل إلى ذلك فخرج، وتعلق به الجند وقالوا: هذا الوزير ابن الوزير، وتنصل فلم يقبلوا، وضربوا له خيمة بين القصرين وأحدقوا به، وأغلقت أبواب القصر فتسوروه وولجوا من طيقانه.

واضطرب الحافظ إلى عزل هزبر الملوك، ثم قتله وولى أبو علي أحمد بن الأفضل الوزارة، وجلس بدست أبيه ورد الناس أموال الوزارة المقتضية.

واستبد على الحافظ ومنعه من التصرف، ونقل الأموال من الذخائر والقصر إلى داره، وكان إمامياً متشدداً فأشار عليه الإمامية بإقامة الدعوة للقامم المنتظر.

وضرب الدراهم باسمه دون الدنانير ونقش عليها: الله الصمد الإمام محمد، وهو الإمام المنتظر، وأسقط ذكر إسماعيل من الدعاء على المنابر، وذكر الحافظ وأسقط من الأذان حي على خير العمل، ونعت نفسه بنعوت أمر الخطباء بذكرها على المنابر، وأراد قتل الحافظ بمن قتله الأمر من أخوته، فإن الأمر أجحفهم عند نكبة الأفضل وقتلهم، فلم يقدر أبو علي على قتله فخلعه واعتقله.

وركب بنفسه في المواسم وخطب للقامم بموهاً فتنكر له أولياء الشيعة وعمايك الخلفاء، وداخل يأس الجند من كرامة وغيرهم في شأنه، واتفقوا على قتله، وترصد له قوم من الجند فاعترضوه خارج البلد، وهو في مركبه وهم يتلاعبون على الخيل، ثم اعتمدوه فطعنوه وقتلوه، وأخرجوا الحافظ من معتقله وجددوا له البيعة بالخلافة، ونهب دار أبي علي.

وركب الحافظ وحمل ما بقي فيها إلى القصر واستوزر أبا الفتح يانسا الحافظي، ولقبه أمير الجيوش، وكان عظيم الهيبة بعيد

وأقام المأمون على استيحاش من الأمر وكثرت السعاية فيه وأنه يدعي أنه ولد نزار من جارية خرجت من القصر حاملاً به، وأنه بعث ابن نجيب الدولة إلى اليمن يدعو له، فبعث الأمر إلى اليمن في استكشاف ذلك.

مقتل البطانحي

ولما كثرت السعاية فيه عند الأمر وتوغر صدره عليه، كتب إلى القواد الذين كانوا مع أخيه بغير الإسكندرية بالوصول إلى دار الخلافة فهم لذلك علي بن سلالر فحضرهوا، واستأذن المؤمن بعدمهم في الوصول فأذن له.

وحضر رمضان من سنة تسع عشرة فجاؤوا إلى القصر للإفطار على العادة، ودخل المأمون والمؤمن فقبض عليهما وحسبهما داخل القصر، وجلس الأمر من الغد في إيوانه وقرأ عليه وعلى الناس كتاباً بتعديد ذنوبهم، وترك الأمر رتبة الوزارة خلواً، وأقام رجلين من أصحاب الدواوين يستخرجان الأموال من الخراج والزكاة والمكس، ثم عزلهما لظلمهما.

ثم حضر الرسول الذي بعثه إلى اليمن ليكشف خبر المأمون، وحضر ابن نجيب وداعيته فقتل وقتل المأمون وأخوه المؤمن.

مقتل الأمر وخلافة الحافظ

كان الأمر مؤثراً للذاته طموحاً إلى العالي وقاعداً عنهما، وكان يحدث نفسه بالنهوض إلى العراق في كل وقت، ثم يقصر عنه وكان يقرض الشعر قليلاً ومن قوله:

أصبحت لا أرجو ولا ألقى إلا المني وله الفضل
جدي نبي وإمامي أبي ومذهبي التوحيد والعادل

وكانت الفداوية تحاول قتله فيتحرر منهم، واتفق أن عشرة منهم اجتمعوا في بيت، وركب بعض الأيام إلى الروضة، ومر على الجسر بين الجزيرة ومصر فسبقوه فوقفوا في طريقه، فلما توسط الجسر انفرد عن المركب لضيقه، فوثبوا عليه وطعنوه وقتلوا لحينهم، ومات هو قبل الوصول إلى منزله سنة أربع وعشرين وخمسة، لتسع وعشرين سنة ونصف من خلافته.

وكان قد استخلص مملوكين وهما برغش العادل وبرعوارد هزبر الملوك، وكان يؤثر العادل منهما، فلما مات الأمر تحيلوا في قيام المأمون عبد الحميد بالأمر وكان أقرب القرابة سنأ وأبوه أبو

الغور، واستبد عليه فاستوحش كل منهما بصاحبه.

ويقال: إن الحاكم وضع له سماً في المستراح هلك به وذلك آخر ذي الحجة سنة ست وعشرين.

قيام حسن بن الحافظ بأمر الدولة ومكره بأبيه ومهلكه

ولما هلك يأنس أراد الحافظ أن يخلى دسست الوزارة ليستريح من التعب الذي عرض منهم للدولة، وأجمع أن يفوض الأمور إلى ولده، وفوض إلى ابنه سليمان.

ومات لشهرين، فأقام ابنه الآخر حسناً فحدثته نفسه بالخلافة، وعزم على اعتقال أبيه، وداخل الأجناد في ذلك فاطاعوه، واطلع أبوه على أمره فقتل بهم يقال: إنه قتل منهم في ليلة أربعين، وبعث أبوه خادماً من القصر لقتله فهزمه حسن وبقي الحافظ محجوراً، وفسد أمره وبعث حسن بهرام الأرمني لحشد الأرمن ليستظهر بهم على الجند، وثاروا بحسن وطلبوه من أبيه، ووقفوا بين القصرين وجمعوا الخطب لإحراق القصر واستبشع الحافظ قتله بالحديد فأمر طبيبه ابن فرقة عنه في ذلك سنة تسع وعشرين.

وزارة بهرام ورضوان بعده

ولما مات حسن بن الحافظ ورحل بهرام لحشد الأرمن اجتمع الجند وكان بهرام كبيرهم وراودوا الحافظ على وزارته فوافقهم وخلع عليه وفوض إليه الأمور السلطانية، واستثنى عليه الشرعية، وتبعه تاج الدولة أفتكين في الدولة، واستعمل الأرمن وأهانوا المسلمين.

وكان رضوان بن الخيس صاحب الباب، وهو الشجاع الكاتب من أولياء الدولة، وكان ينكر على بهرام ويهزأ به، فوله بهرام الغربية، ثم جمع رضوان وأتى إلى القاهرة فقر بهرام وقصد قوص في ألفين من الأرمن، ووجد أخاه قتيلاً فلم يعرض لأهل قوص، وباء بحق الخلافة، وصعد إلى أسوان فامتعت عليه بكثر الدولة.

ثم بعث رضوان العساكر في طلبه مع أخيه الأكبر وهو إبراهيم الأوحده فاستنزله على الأمان له وللأرمن الذين معه، وجاء به فأنزله الحافظ في القصر إلى أن مات على دينه.

واستقر رضوان في الوزارة ولقب بالأنفصل وكان سنياً، وكان أخوه إبراهيم إمامياً، فأراد الاستبداد وأخذ في تقديم معارفه سيقاً وقلماً.

وأسقط المكوس وعاقب من تصدى لها، فتغير له الخليفة فأراد خلعه، وشاور في ذلك داعي الدعاة وفقهاء الإمامية فلم يعينوه في ذلك بشيء.

وفطن له الحافظ فدس خسين فارساً ينادون في الطرقات بالثورة عليه، وينهضون باسم الحافظ فركب لوقته هارباً متصفاً شوال سنة ثلاث وثلاثين، ونهبت داره، وركب الحافظ وسكن الناس، ونقل ما فيها إلى قصره.

وسار رضوان يريد الشام ليستنجد الترك، وكان في جملته شاور وهو من مصطفيه، وأرسل الحافظ الأمير بن مصال ليرده على الأمان فوجع، وحبس في القصر، وقيل: وصل إلى سرخند فأكرمه صاحبها أمين الدولة كمستكين، وأقام عنده ثم رجع إلى مصر سنة أربع وثلاثين فقاتلهم عند باب القصر وهزمهم.

ثم افترق عنه أصحابه وأرادوا العود إلى الشام فبعث عنه الحافظ بن مصال وحبه بالقصر إلى سنة ثلاث وأربعين فقب الحبس وهرب إلى الجيزة، وجمع المغاربة وغيرهم ورجع إلى القاهرة ونزل عند جامع الأقمر، وأرسل إلى الحافظ في المال ليفرقه فبعث عشرين ألفاً على عادتهم مع الوزير، ثم استزاد عشرين وعشرين.

وفي خلال ذلك وضع الحافظ عليه جمعاً كثيراً من السودان فحملوا عليه وقتلوه وجاؤوا برأسه إلى الحافظ.

واستمر الحافظ في دولته مباشراً لأمواره وأخلى رتبة الوزارة فلم يول أحداً بعده.

وفاة الحافظ وولاية ابنه الظافر

ثم توفي الحافظ لدين الله عبد الحميد بن الأمير أبي القاسم أحمد بن المستنصر سنة أربع وأربعين لتسع عشرة سنة ونصف من خلافته، وعن أبي العالية يقال: بلغ عمره سبعاً وسبعين سنة، ولم يزل في خلافته محجور الوزارة، ولما مات ولي بعده ابنه أبو منصور إسماعيل بعده إليه بذلك ولقب الظافر بأمر الله.

وزارة ابن مصال ثم ابن السلار

كان الحافظ لما عهد لابنه الظافر أوصاه بوزارة ابن مصال فاستوزره أربعين يوماً وكان علي بن السلار والياً على الإسكندرية

في جماعة إلى بيت جدته، والعاذل نائم فدخل إليه وضربه فلم يجهز عليه، وخرج إلى أصحابه.

ثم دخلوا جميعاً فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى الظافر، ورجع عباس من بليس بالعساكر فاستوزره الظافر، وقام بالدولة وأحسن إلى الناس، وأيس أهل عسقلان من المدد فأسلموا أنفسهم وبلدهم بعد حصار طويل وكان ذلك كله سنة ثمان وأربعين.

مقتل الظافر وأخويه وولاية ابنه الفائز

ولما وزر عباس للظافر، وقام بالدولة، كان ولده نصير من ندمان الظافر، وكان يهواه كما تقدم.

وكان أسامة بن منقذ من خلصاء عباس وأصدقائه فقبح عليه سوء المقالة في ابنه، وأشاع عليه بقتل الظافر فاستدعى ابنه نصيراً وقبح عليه في شناعة الأحداث فيه بين الناس، وأغراه باغتيال الظافر ليمحو عنه ما يتحدث به الناس، فسأل نصير من الظافر أن يأتي إلى بيته في دعوة فركب من القصر إليه فقتله نصير ومن جاء معه، ودقنهم في داره، وذلك في محرم سنة تسع وأربعين وباكر إلى القصر ولم ير الظافر، وسأل خدام القصر فأحسن العذر ورجع إلى أخوي الظافر يوسف وجبريل فخبّرهما بركوب الظافر إلى دار نصير فقالا له: خبر الوزير، فلما جاء عباس من الغد أخبره بأنه ركب إلى بيت نصير ابنه ولم يعد فاستشاط غيظاً عليه، ورماه بأنه داخل أخويه في قتله.

ثم استدعاهما فقتلهما وقتل معهما ابناً هنالك لحسن بن الحافظ، ثم أخرج ابنه القاسم عيسى ابن خمس سنين وحمله على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له بالخلافة، ولقبه الفائز بالله ونقل عباس بسبب ذلك ما في القصر من الأموال والذخائر ما لا حد له.

وعند خروجه بأخويه رأى القتلى فاضطرب وفزع وبقي سائر أيامه يعتاده الصرع.

وزارة الصالح بن رزيك

ولما قتل الظافر وأخواه كما ذكرناه كتب النساء من القصر إلى طلائع بن رزيك وكان والياً على الأشمونين والبهنة.

وجاء الخبر بأن الناس اختلفوا على عباس بسبب ذلك، فجمع وقصد القاهرة ولبس السواد حزناً ورفع على الرماح الشعور التي بعث بها النساء حزناً.

ومعه بلارة بنت عمه القاسم وابنه منها عباس وتزوجت بعده بابن السلار، وشب عباس وتقدم عند الحافظ حتى ولي الغربية فلم يرض ابن السلار وزارة ابن مصال واتفق مع عباس على عزله، وبلغ الخبر إلى ابن مصال فشكا إلى الظافر فلم يشكه فقال ذوو الحروب: ليس هنا من يقاتل ابن السلار فغضب الظافر ودس عليه من بني علي مصلحيه فخرج إلى الصعيد، وقدم ابن السلار إلى القاهرة فاستوزره الظافر، وهو منكر له ولقبه العاذل.

وبعث العساكر مع العباس ربيبه في اتباع ابن مصال فخرج في طلبه.

وكان جماعة من لواتة السودان فتحصنوا من عباس في جامع دولام فأحرقه عليهم، وقتل ابن مصال وجاء برأسه. وقام ابن سلار بالدولة وحفظ النواميس وشد من مذاهبه أهله.

وكان الخليفة مستوحشاً منه منكراً له وهو مبالغ في النصيحة والخدمة.

واستخدم الرجالة لحراسته، فارتاب له صبيان الخاص من حاشية الخليفة فاعتزموا على قتله، ونمى ذلك إليه فقبض على رؤوسهم فحبسهم، وقتل جماعة منهم وافترقوا، ولم يقدر الظافر على إنكار ذلك.

واحتفل ابن السلار بأمر عسقلان، ومنعها من الفرنج وبعث إليها بالمدد كل حين من الأقوات والأسلحة فلم يغن ذلك عنها، وملكها الفرنج وكان لذلك من الوهن على الدولة ما تحدث به الناس.

ولما قتل العاذل بن السلار صبيان الخاص تأكد نكر الخليفة له، واشتد قلقه.

وكان عباس بن أبي الفتح صديقاً ملاطفاً له فكان يسكنه ويهديه، وكان لعباس ولد اسمه نصير، استخصه الظافر واستناده، ويقال كان يهواه، ففاوض العاذل عباساً في شأن ابنه عن مخالطة ابنه للظافر فلم يته ابنه، فنهى العاذل جدته من السماح للولد أن يدخل إلى بيته فشق ذلك على نصير وعلى أبيه، وتنكر للعاذل.

وزحف الفرنج إلى عسقلان فجهز العاذل الجيوش والعساكر إليها مدداً مع ما كان يمدّها به، وبعثهم مع عباس بن أبي الفتح فارتاب لذلك، وفاض للظافر في قتل العاذل وحضر معهم مؤيداً لدولة الأمير أسامة بن منقذ أحد أمراء شيزر، وكان مقرباً عند الظافر وصديقاً لعباس، فاستصوب ذلك وحث عليه، وخرج عباس بالعساكر إلى بليس، وأوصى ابنه نصير بقتله، فجاء

فوقع اختياره على أبي محمد عبد الله بن يوسف قتيل عباس فباع له بالخلافة وهو غلام، ولقبه العاضد لدين الله وزوجه ابنته وجعلها بما لم يسمع مثله.

مقتل الصالح بن رزيك وولاية ابنه رزيك

ولما استفحل أمر الصالح وعظم استبداده ببجاية الأموال والتصرف، وحجر العاضد تنكر له الحرم ودس إلى الأمراء بقتله.

وتولت كبر ذلك عمة العاضد الصغرى التي كانت كافلة الفائز بعد اختها.

واجتمع قوم من القواد والسودان منهم الريفي الخادم وابن الداعي والأمير بن قوام الدولة، وكان صاحب الباب وتواطؤوا على قتله، ووقفوا في دهليز القصر، وأخرج ابن قوام الدولة الناس أمامه وهو خارج من القصر، واسترققه عبر الريفي بمحادثته، وتقدم ابنه رزيك فوثب عليه جماعة منهم وجرحوه، وضرب ابن الداعي الصالح فأنبته، وحمل إلى داره فبقي يمجد بنفسه يومه ذلك، وإذا أفاق يقول: رحمك الله يا عباس. ومات من الغد.

وبعث إلى العاضد يعاتبه على ذلك فحلف على البراءة من ذلك، ونسبه إن العمة، وأحضر ابنه رزيك وولاه الوزارة مكان أبيه، ولقبه العادل فأذن له في الأخذ بثأره، فقتل العمة وابن قوام الدولة والأستاذ عنبر الريفي وقام بمحمل الدولة، وأشير عليه بصرف شاور من قوص، وقد كان أبوه أوصاه ببقائه وقال له: قد ندمت على ولايته، ولم يمكنني عزله، فصرفه وولى مكانه الأمير بن الرفعة فاضطرب شاور وخرج إلى طريق الواحات وجمع وقصد القاهرة، وجاء الخبر إلى رزيك فعجز عن لقائه، وخرج في جماعة من غلمانه بعدة أحمال من المال والثياب والجوهر، وانتهى إلى طفيحة، واعترضه ابن النضر وقبض عليه، وجاء به إلى شاور فاعتقله واعتقل معه أخاه، فأراد الحرب من محبسه فوشى به أخوه فقتل لسنة من ولايته ولتسع سنين من ولاية أبيه.

وزارة شاور ثم الضرغام من بعده

ودخل شاور القاهرة سنة ثمان وخمسين، ونزل بدار مسعد السعداء ومعه ولده طبن وشجاع والطازي، وولاه العاضد الوزارة ولقبه أمير الجيوش، وأمكنه من أموال بني رزيك فاستصفي معظمها، وزاد أهل الرواتب والجرايات عشرة أمثالها، واحتجب عن الناس، وكان الصالح بن رزيك قد أنشأ في لواتة أمراء

ولما عبر البحر خرج عباس وولده ودفعوا ما قدروا عليه من مال وسلاح من حاصل الدولة، ومعهما صديقهما أسامة بن منقذ فاعترضهم الفرنج، وقاتلوا فقتل عباس وأسر ولده ونجا أسامة إلى الشام، ودخل طلائع القاهرة في ربيع سنة تسع وخمسين، وجاء إلى القصر راجلاً.

ثم مضى إلى دار عباس ومعه الخادم الذي حضر لقتله فاستخرجه من التراب ودفنه عند آبائه، وخلع الفائز عليه الوزارة ولقبه الصالح.

وكان إمامياً كاتباً أديباً فقام بأمر الدولة، وشرع في جمع الأموال والنظر في الولايات.

وكان الأوحى بن نعيم من قرابة عباس والياً على تنيس، وكان لما سمع بفعله قريبه عباس جمع وقصد القاهرة فسبقه طلائع، فلما استقل بالوزارة أعاده إلى عمله بدمياط وتيس.

ثم بعث في فداء نصير بن عباس من الفرنج فجيء به وقتله وصلبه بباب زويلة.

ثم نظر في المزامين من أهل الدولة، ولم يكن أرفع رتبة من تاج الملوك قائماز وابن غالب، فوضع عليهما الجند فطلبوهما فهربا ونهب دورهما، وتبع كبراء الأمراء يمثل ذلك حتى خلا الجو، ووضع الرقباء والحجاب على القصر، وثقلت وطأته على الحرم، ودبرت عمة الفائز في قتل الصالح، وفرت الأموال في ذلك، ونمي الخبر إليه فجاء إلى القصر، وأمر الأساذهين والصقالبة بقتلها فقتلوهما سراً، وصار الفائز في كفالة عمته الصغرى، وعظم استبداد الفائز واستفحل أمره، وأعطى الولايات للأمراء واتخذ مجلساً لأهل الأدب يسامرون فيه، وكان يقرض الشعر ولا يجيده.

وولى شاور السعدي على قرضه، وأشار عليه حجابيه بصرفه، واستقدمه فامتنع وقال: إن عزلي دخلت بلاد النوبة.

وعلى عهده كان استيلاء نور الدين محمود الملك العادل على دمشق من يد ابن طغتكين أنسابك تشش سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

وفاة الفائز وولاية العاضد

ثم توفي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل سنة خمس وخمسين، لست سنين من خلافته، فجاء الصالح بن رزيك إلى القصر وطلب الخدام بإحضار أبناء الخلفاء ليختار منهم، وعدل عن كبرائهم إلى صغرائهم لكان استبداده،

ثم سار إلى الإسكندرية وهو يجبي الأموال في طريقه إلى أن وصلها، فاستأمن أهلها وملكها، وولى عليها صلاح الدين يوسف بن أخيه نجم الدين أيوب، ورجع إلى جباية الصعيد.

واجتمعت عساكر مصر والفرنجة على القاهرة وأزاحوا عليهم وساروا إلى الإسكندرية وحاصروا بها صلاح الدين فساد أسد الدين إليهم من الصعيد، ثم خذله بعض من معه من التركمان بمداخلة شاور، وبعثوا له إثر ذلك في الصلح فصالحهم ورد إليهم الإسكندرية، ورجع إلى دمشق فدخلها آخر ذي القعدة من سنة اثنتين وستين.

واستطال الفرنج على أهل مصر وشرطوا عليهم أن يسزلوا القاهرة وشحنة، وأن تكون أبرابها بأيديهم لتلا تدخل عساكر نور الدين، وقرر ضريبة يحملها كل سنة فاجابه إلى ذلك.

رجوع أسد الدين إلى مصر ومقتل شاور ووزارته

ثم طمع الإفرنج في مصر، واستطالوا على أهلها وملكوا بليس، واعتزموا على قصد القاهرة.

وأمر شاور بتخريب مصر خشية عليها منهم فحرقت ونهب أهلها، ونزل الفرنج على القاهرة، وأرسل العاضد إلى نور الدين يستجده، وخشي شاور من اتفاق العاضد ونور الدين، فدخل الفرنج في الصلح على ألفي ألف دينار مصرية معجلة وعشرة آلاف أردب من الزرع، وحذروهم أمر القهر إلى ذلك وكان فيه السفير الجليس بن عبد القوي وكان الشيخ الموفق كاتب السر وكان العاضد قد أمرهم بالرجوع إلى رأيه وقال: هو رب الحرمه علينا وعلى آبائنا، وأهل النصيحة لنا.

فأمر الكامل شجاع بن شاور القاضي الفاضل عبد الرحيم اليساني أن يأتيه ويشاوده، فقال له: قل لولانا -يعني العاضد-: إن تقرير الجزية للفرنج خير من دخول الغز للبلاد واطلاعهم على الأحوال.

ثم بعث نور الدين العساكر مع أسد الدين شيركوه مدداً للعاضد، كما سأل وبعث معه صلاح الدين ابن أخيه وجماعة الأمراء، فلما سمع الفرنج بوصولهم أفرجوا عن القاهرة ورجعوا إلى بلادهم.

وقال ابن الطويل -مؤرخ دولة العبيدين-: إنه هزمهم على القاهرة ونهب معسكرهم ودخل أسد الدين إلى القاهرة في جادى

يسمون البرقية، وكان مقدمهم الضرغام، وكان صاحب الباب فنازع شاور في الوزارة لتسعة أشهر من ولايته، وثار عليه وأخرجه من القاهرة، فلحق بالشام وقتل ولده علياً وكثيراً من أمراء المصريين حتى ضعفت الدولة وخلت من الأعيان وأدى ذلك إلى خرابها.

مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر مع شاور

ولما لحق شاور إلى الشام نزل على الملك العادل نور الدين بدمشق صريحاً، وشرط له ثلث الجباية على أن يقيم له العساكر.

وجيز نور الدين شيركوه وكان مقدماً في دولته ويذكر سبب اتصاله به في موضعه، فساروا في جادى الآخرة سنة تسع وخمسين، وقد تقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بأن يعيد شاور إلى وزارته ويتقم له من نازعه وسار نور الدين بعساكره إلى طرف بلاد الفرنج ليمنعهم من اعتراض أسد الدين إن هموا به، ولما وصل أسد الدين وشاور إلى بليس لقيهم ناصر الدين همام وفخر الدين همام أخو الضرغام في عساكر مصر فهزموه، ورجع إلى القاهرة وقتل رفقاؤه الأمراء البرقية الذين أغروه بشاور.

ودخل أسد الدين القاهرة ومعه أخو الضرغام أسيراً وفر الضرغام فقتل بالجسر عند مشهد السيدة نفيسة، وقتل أخواه وعاد شاور إلى وزارته وتمكن منها، ثم نكث عهده مع أسد الدين وسلطانه وصرفه إلى الشام.

فتنة أسد الدين مع شاور وحصاره

ولما رجع أسد الدين من مصر إلى الشام أقام بها في خدمة نور الدين.

ثم استأذن نور الدين العادل سنة اثنتين وستين في العود إلى مصر فأذن له، وجهزه في العساكر وسار إلى مصر ونازل بلاد الفرنج في طريقه.

ثم وصل إلى أطفح من ديار مصر، وعبر النيل إلى الجانب الغربي ونزل الجيزة، وتصرف في البلاد الغربية نيفاً وخمسين، واستمد شاور الفرنج، وجاء بهم إلى مصر وخرج معهم للقاء أسد الدين شيركوه فادركوه بالصعيد، فرجع للقائهم على رهب لكثرة عددهم وصدفهم القتال فهزمهم على قلة من معه، فأنهم لم يبلغوا ألفي فارس.

وقام صلاح الدين بوزارة مصر نائباً عن نور الدين يكتبه بالأمير الأصفهسان ويشركه في الكتاب مع كافة الأمراء بالديار المصرية.

ثم استبد صلاح الدين بالأمور وضعف أمر العاضد وهدم دار المعرفة بمصر، وكانت حبساً، وبناها مدرسة للشافعية وبني دار الغزل كذلك للمالكية وعزل قضاة الشيعة وأقام قاضياً شافعيّاً في مصر، واستتاب في جميع البلاد.

حصار الفرنج دمياط

ولما جاء أسد الدين وأصحابه إلى مصر وملكوها ودفعوهم عنها، ندموا على ما فرطوا فيها، وانقطع عنهم ما كان يصل إليهم وخشوا غائلة الغز على بيت المقدس، وكتبوا الفرنج بصقلية والأندلس واستجدوهم، وجاءهم المدد من كل ناحية فنازلوا دمياط سنة خمس وستين وبها شمس الخواص منكورين فأمدّها صلاح الدين بالساكن والأموال مع بهاء الدين قراقوش وأمراء الغز، واستمد نور الدين واعتذر عن المسير إليها بشأن مصر والشيعة فبعث نور الدين السكاك إليها شيئاً فشيئاً، وسار بنفسه إلى بلاد الفرنج بسواحل الشام فضيق عليها، فأقلع الفرنج عن دمياط لخمسين يوماً من نزولها فوجدوا بلادهم خراباً، وأثنى العاضد على صلاح الدين في ذلك.

ثم بعث صلاح الدين غرابيه نجم الدين وأصحابه إلى مصر وركب العاضد للقائه تكريماً له.

واقعة الخصبان وعمارة

ولما استقام الأمر لصلاح الدين بمصر غص به الشيعة وأولياؤهم، واجتمع منهم العوريش، وقاضي القضاة ابن كامل والأمير المعروف والكاتب عبد الصمد، وكان فصيحاً وعمارة اليمني الشاعر الزبيدي، وكان متولي كبرها فاتفقوا على استدعاء الفرنج لإخراج الغز من مصر، وجعلوا لهم نصيباً وافراً من ارتفاعها، وعمدوا إلى شيعي من خصيان القصر اسمه نجاح ولقبه مؤتمن الدولة، وكان قد رعى العاضد وصهره فأغروه بذلك، ورغبوا على أن يجمع رسول الفرنج بالعاضد فجمعه معه في بيته لمبساً بذلك، ولم يكن العاضد الذي حضر وأومئوه أنه عقد معه.

ثم اتصل الخبر بنجم الدين بن مضال من أولياء الشيعة، وكان نجم الدين قد اختصه صلاح الدين وولاه الإسكندرية، واستغضبه بهاء الدين قراقوش ببعض التزغات فظنوا أنه غضب

سنة أربع وستين وخلع عليه العاضد ورجع إلى معسكره، وفرضت له الجرايات.

وبقي شاور على رية وخوف وهو يماطله فما يعين له من الأموال، ودس العاضد إلى أسد الدين بقتل شاور وقال: هذا غلامنا، ولا خير لك في بقاءه ولا لنا، فبعث عليه صلاح الدين ابن أخيه، وعز الدين خرديك.

وجاء شاور إلى أسد الدين على عادته فوجده عند قبر الإمام الشافعي فسار إليه هنالك فاعترضه صلاح الدين وخرديك فقتلاه، وبعثا برأسه إلى العاضد، ونهبت العامة دوره، واعتقل ابنه شجاع والطازي وجماعة من أصحابه بالقصر، وخلع عليه للوزارة، واستقر في الأمر، وغلب على الدولة، وأقطع البلاد لعساكره.

واستعد أصحابه في ولايتها ورد أهل مصر إلى بلدهم، وأنكر ما فعلوه في تخريبها.

ثم اجتمع بالعاضد مرة أخرى وقال له جوهر الأستاذ: يقول لك مولانا: لقد تيقنا أن الله ادخرك نصرة لنا على أعدائنا، فحلف له أسد للدين على النصيحة فقال له: الأمل فيك أعظم، وخلع عليه وحسن عنده موقع المجلس بن عبد القوي، وكان داعي الدعاة وقاضي القضاة فأبقاه على مراتبه.

وفاة أسد الدين وولاية صلاح الدين

الوزارة

ثم توفي أسد الدين رحمه الله تعالى لشهرين في أيام قلائل من وزارته وقيل: لأحد عشر شهراً وأوصى أصحابه أن لا يفارقوا القاهرة.

ولما توفي كان معه جماعة من الأمراء النورية، منهم عين الدولة الفاروقي وقطب الدين نسال وعين الدين المشطوب الهكاوي، وشهاب الدين محمود الحازمي، فتنزعوا في طلب الرياسة وفي الوزارة، وجمع كل أصحابه للمغالبة.

ومال العاضد إلى صلاح الدين لصغره وضعفه عنهم، ووافق أهل دولته على ذلك بعد أن ذهب كثير منهم إلى دفع الغز وعساكرهم إلى الشرقية، ويولي عليهم قراقوش.

ومال آخرون إلى وزارة صلاح الدين، ومال العاضد إلى ذلك لكفائته عن خدمته السالفة، فاستدعاه وولاه الوزارة، واضطرب أصحابه وكان الفقيه عيسى الهكاري من خلصاء صلاح الدين فاستمالهم إليه إلا عين الدولة الفاروقي، فإنه صار إلى الشام

من مصر والخطبة بها للمستضيء العباسي، وهو يماطل بذلك حذراً من استيلاء نور الدين عليه، ويعتذر بتوقع المخالفة من أهل مصر في ذلك فلا يقبل.

ثم ألزمه ذلك فاستأذن فيه أصحابه فأشاروا به، وأنه لا يمكن مخالفة نور الدين.

وفد عليه من علماء العجم الفقيه الخبشاني، وكان يدعى بالأمير العالم، فلما رأى إجحامهم عن هذه الخطبة قال: أنا أخطبها فلما كان أول جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسائة، صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء فلم ينكر أحد عليه، فأمر صلاح الدين في الجمعة الثانية الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا خطبة العاضد ويخطبوا للمستضيء ففعلوا، وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر.

وكان العاضد في شدة من المرض فلم يعلمه أحد بذلك، وتوفي في عاشوراء من السنة، وجلس صلاح الدين للعزاء فيه واحتري على قصر الخلافة بما فيه فحمله بهاء الدين قراقوش إليه، وكان في خزائنتهم من الذخيرة ما لم يسمع بمثله من أصناف الجواهر والياقوت والزمرد وحلي الذهب وآنية الفضة والذهب، ووجد ماعون القصر من الموائد والظسوت والأباريق والقدور والصحاف والخوان والبواقييل والمنابر والطبافر والقباقب والأسورة، كل ذلك من الذهب.

ووجد من أنواع الطيوب واللباس والمذهبات والقرقيبات والمعلقات والوشي ما لا تقيه الأوقار، ومن الكتب ما يناهز مائة وعشرين ألف سفر أعطاها للفاضل عبد الرحيم البيساني كاتبه وقاضيه، ومن الظهر والكرع والسلاح، ومن الخدم والوصائف خمسين ألفاً، ومن المال ما يملأ مائة بيت.

ثم حبس رجالهم ونساءهم حتى ماتوا، وكانت بالدولة عند عهد العزيز والحاكم قد خلا جوها من رجالات كتامة وتفرقوا في المشرق في سبيل ذلك الملك، وانقرضوا بانقراض أمر الشيعة وموت العاضد آخر خلفائهم، وأكلتهم الأقطار والوقائع شأن الدول كما ذكرناه من قبل.

ولما هلك العاضد وحول صلاح الدين الدعوة إلى العباسية، اجتمع قوم من الشيعة بمصر وبايعوا لداود بن العاضد، ونمي خبرهم إلى صلاح الدين فقبض عليهم وقتلهم، وأخرج داود من القصر وذلك سنة تسع وستين وخمسائة.

ثم خرج بعد حين ابنه سليمان بن داود رضي الله تعالى عنه بالصعيد وحبس إلى أن هلك.

فأطلعوه على شأنهم، وأن يكون وزيراً وعمارة كاتب الدست وصاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات مكان الفاضل بن كامل قاضي القضاة داعي الدعاة، وعبد الصمد جابي الأموال والعوريش ناظراً عليه، فوافقهم ابن مضال ووشى بهم إلى صلاح الدين، فقبض عليهم وعلى رسول الفرنج، وقرهم في عدة مجالس.

وأحضر زمام القصر وهو مختص بالغز ونكر عليه خروج العاضد إلى بيت نجاح فحلل على نفسه وعلى العاضد أن هذا لم يقع، وأخبر العاضد بطلب حضور نجاح مع مختص، فحضر واعترف بالحق أن العاضد لم يحضر، فتحقق صلاح الدين براءته.

وكان عمارة يجالس شمس الدولة تورنشاة فنقل لأخيه صلاح الدين أنه امتدحه بقصيدة يغريه فيها بالمضي إلى اليمن، ويميله على الاستبداد وأنه تعرض فيها للجانب النبوي، يوجب استباحة دمه وهو قوله:

فاخلق لنفسك ملكاً لا تصاف به إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت ولايته كما يقول الوري لحماً على وضم
وكان أول هذا الدين من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

فجمعهم صلاح الدين وشتقهم في يوم واحد بين القصرين، وآخر ابن كامل عنهم عشرين يوماً ثم شتقهم، ومر عمارة بباب القاضي الفاضل، فطلب لقاءه فمنع فقال: وهو سائر إلى المشقة: عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص هو العجب

وفي كتاب ابن الأثير: أن صلاح الدين إنما اطلع على أمرهم من كتابهم الذي كتبه إلى الفرنجة، عثر على حامله وقرىء الكتاب، وحيء به إلى صلاح الدين فقتل مؤمن الخلافة لقرينة، وعزل جميع الخدام واستعمل على القصر بهاء الدين قراقوش، وكان خصياً أبيض، وغضب السودان لقتل مؤمن الخلافة واجتمعوا في خمسين ألفاً وقاتلوا أجناد صلاح الدين بين القصرين، وخالفهم إلى بيوتهم فأضرمها ناراً، وأحرق أموالهم وأولادهم فانهزموا، وركبهم السيف.

ثم استأنوا ونزلوا الجيزة وعبر إليهم شمس الدولة تورنشاة فاستلحمهم.

قطع الخطبة للعاضد وانقراض الدولة

العلوية بمصر

كان نور الدين العادل يوم استقل صلاح الدين بملك مصر وضعف أمر العاضد بها، وتحكم في قصره بمخاطبه في قطع دعوتهم

فاستباح معسكره وتردى علي ابن حمدون من بعض الشواهد فهلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

ولما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المصور على المسيلة والزاب لجعفر بن علي بن حمدون، وأنزله بها وأخاه يحيى، واستجدوا بها سلطاناً ودولة، وبنوا القصور والمتزهات، واستفحل بها ملكهم وقصدهم بها العلماء والشعراء، وكان فيمن قصدهم ابن هاني شاعر الأندلس، وأمداحه فيهم معروفة مذكورة.

وكان بين جعفر هذا وبين زيري بن مناد عداوة جرتها المنافسة والمساماة في الدولة، فساء أثر زيري فيه عند صدمته للمغرب وقتكه بزناة، وسعوا به إلى الخليفة والقح له في جوارحه العداوة فكانت داعيته إلى زناة. وتولى محمد بن خزر أمير مغراوة.

ثم إن المعز لما اعترم على الرحيل إلى القاهرة سنة اثنتين وثلاثمائة استقدم جعفرًا فاستراب جعفر ومال بمعسكره إلى زناة قبل قدومه، وانقطعت الرسائل بينه وبين صنهاجة والخليفة المعز، وشملت عليه زناة قبل قدومه واجتمعوا عليه، ودعا إلى نقض طاعة المعز والدعاء للحاكم المستنصر، فوجههم أقدم إجابة لها، وناهضهم زيري الحرب قبل استكمال التهيئة، فكانت عليه من أمراء زناة فكبا بزيري فرسه فطاح، فقصوا رأسه وبعثوا به مع جماعة من زناة إلى الحاكم المستنصر، فكرم الحاكم وفادتهم ونصب رأس زيري بسوق قرطبة، وأسنى جوائز الوفاء ورفع منزلة يحيى بن علي وأذن لجعفر في اللحاق بسدته.

ولما علمت زناة أن يوسف بن زيري يطالبهم بدم أبيه أظهروا الغدر به، ورأى أن يتجنب مجابتهم لضيق ذات يده، وعجز رؤسائهم عن الذب والدفاع عنها، وقبضت الأيدي عن تناوله لدنو الفتنة ومراس العvisية، فأوجس الخيفة في نفسه والطف الحيلة في الفرار رغبة بجيلته، وشحن السفن بما معه من المال والمتاع والريقت، والحشم وذخيرة السلطان، وأجاز البحر ولحق بسدة الخلافة من قرطبة وأجاز معه عظام الزناتين معطين الصفقة على القيام بدعوته، والاحتطاب في جبل طاعته فكرم موابهم وأجل وفادتهم وأحسن منصرفهم وانقلبوا لمحبهه والتشيع له، ومناعة الأدارسة للقيام في خدمته بالمغرب الأقصى، وبث دعوته، وتخلف عنهم أولاد علي بن حمدون بالحضرة وأقاموا بسدة الخلافة، ونظموا في طبقات الوزارة وأجريت عليهم سننات الأرزاق والتحقوق على حديث عهدهم بالقوم من أولياء الدولة. ثم كان بعد ذلك شأن اعتقالهم على طريق التأديب

وظهر بعد حين بجهة فاس بالمغرب محمد بن عبد الله بن العاضد، ودعا هنالك وتسمى بالمهدي قتل وصلب.

ولم يبق للعبيدين ذكر إلا في بلاد الحشيشة من العراق وهم دعاة الفداوية، وفي بلاد الإسماعيلية التي كانت فيها دعوتهم بالعراق.

وقام بها ابن الصباح في قلعة الموت وغيرها كما يذكر في أخبارهم، إلى أن انقرضت تلك الدعوة أجمع بانقطاع دعوة العباسيين ببغداد على يد هولاء من ولد جتكرخان ملوك التتر سنة خمس وخمسين وستمائة، والأمر لله وحده.

هذه أخبار الفاطميين ملخصة من كتاب ابن الأثير ومن تاريخ دولتهم لابن الطوير وقليل من ابن المسبحي جمعت ما أمكنتني منها ملخصاً والله ولي العون.

الخبر عن بني حمدون ملوك المسيلة والزاب بدعوة العبيدين ومآل أمرهم

كان علي بن حمدون أبوهم من أهل الأندلس وهو علي بن حمدون بن سمالك بن مسعود بن منصور الجذامي يعرف بابن الأندلسي واتصل بعبيد الله وأبي القاسم بالمشرق قبل شأن الدعوة، وبعثوه من طرابلس إلى عبد الله الشيعي فأحسن اللقاء والانصراف، ولزمهم أيام اعتقالهم بسجلماسة، فلما استفحل ملكهم جذبوا أبا ضبيعة ورفقه إلى الرتب.

ولما رجع أبو القاسم من حركته إلى المغرب سنة خمس عشرة وثلاثمائة، واختط مدينة المسيلة، استعمل علي بن حمدون على بنائها وسماها الحمديدية ولما تم بناؤها عقد له على الزاب وأنزله بها وشحنها بالآفات التي كانت ميرة للعساكر عند محاصرة المنصور لأبي يزيد صاحب الحمار بجبل كتامة.

ولم يزل والياً على الزاب ورعى ابنه جعفرًا ويحيى بدار أبي القاسم وكان جعفر سار إلى المعز.

ولما كانت فتنة أبي يزيد وأضرمت إفريقية ناراً وفتنة، وأهاب القائم بالأولياء من كل ناحية، كتب إلى ابن حمدون أن يجند قبائل البربر ويوافيه، فنهض إلى المهدي في عسكر ضخيم بقسنطينة وهو يحتشد كل من مر به في طريقه حتى وصل إلى شق بنارية.

ثم قارب باجة وكان بها أيوب بن أبي يزيد في عسكر كبير من النكارية والبربر، فزحف إليهم وتناور الفريقان، ثم بيته أيوب

يزل بمصر إلى أن هلك هنالك، وآله وارث الأرض ومن عليها
وهو خير الوارثين.

الخبر عن القرامطة واستبداد أمرهم وما استقر لهم من الدولة بالبحرين وأخبارها إلى حين انقراضها

هذه الدعوة لم يظهرها أحد من أهل نسب العلوية ولا
الطالبين، وإنما قام بها دعاة المهدي من أهل البيت على اختلاف
منهم في تعيين هذا المهدي كما نذكره.

وكان مدار دعوتهم على رجلين أحدهما يسمى الفرج بن
عثمان القاشاني من دعاة المهدي ويسمى أيضاً كرويه بن مهديوه
وهو الذي انتهى إليه دعائهم بسواد الكوفة، ثم بالعراق والشام،
ولم يتم هؤلاء دولة، والآخر يسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام
الجنابي، كانت دعوتهم بالبحرين واستقرت له هنالك دولة ولبنيه.
وانتسب بعض مزاعمهم إلى دعاة الإسماعيلية الذين كانوا
بالقيروان كما نذكره.

ودعوى هؤلاء القرامطة في غاية الاضطراب غثلة العقائد
والقواعد، منافية للشرائع والإسلام في الكثير من مزاعمهم، وأول
من قام بها بسواد الكوفة سنة ثمان وسبعين ومائتين رجل أظهر
الزهد والتقشف، وزعم أنه يدعو إلى المهدي وأن الصلوات
المفروضة خمسون كل يوم، واستجاب له جمع كثير ولقب قرمط
وأصلها بالكاف، وكان يأخذ من كل من يجيب دعوته ديناراً
للإمام، وجعل عليهم نقباء وسماهم الخواريين، وشغل الناس
بذلك عن شؤونهم وجبسه عامل الناحية ففر من محبسه ولم يوقف
له على خبر، فازداد أتباعه فتنة فيه ثم زعم أنه الذي بشر به أحمد
بن محمد بن الحنفية، وأن أحمد نبي.

وفشا هذا المذهب في السواد وقرأ بينهم كتاب زعموا أنه
جاءهم من داعيه المهدي نصه بعد البسملة:

يقول الفرج بن عثمان: الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه
المتجدد لأوليائه قل إن الأهله مواقيت للناس، ظاهرها لتعلم عدد
السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا
عبادي سييلي اتقوني يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أسأل عما
أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأستخير خلقي،
فمن صبر على بلائي وعنتي واختباري ألقته في جنتي وأخلدته في
نعمتي، ومن زال عن أمري وكذب رسلي أخلدته مهناً في عذابني

لارتكابهم في منازلهم أمراً خرقوا به حدود الآداب مع الخلافة،
فاستدعوا إلى القصر واعتقلوا، ثم أطلقوا لأيام قلائل لما انغمس
الحكم في علة الفالج، وركدت ربح الرواية بالمغرب، واحتاجت
الدولة إلى رجالهم لسد الثغور ودفع العدو، واستدعي يحيى بن
محمد بن هاشم من العدو، وكان والياً على فاس والمغرب، وأداله
الحاجب المصفي لجعفر بن علي بن حمدون، وجمعوا بين الانتفاع
في مقارعة زنادة بالعدوة والراحة مما يتوقع منه على الدولة عند من
ولي الخلافة، لما كانوا صاروا إليه من النكبة وطروق الحنة فمقدوا
له ولأخيه يحيى على المغرب، وخلعوا عليهما وأمكنهما من مال
وكسى فاخرة للخلع على ملوك العدو، فنهض جعفر إلى المغرب
سنة خمس وستين وضبطه، واجتمع إليه ملوك زنادة من بني يفرن
ومغراوة وسجلماصة.

ولما هلك الحكم وولي هشام، وقام بأمره المنصور بن أبي
عامر، اقتصر لأول قيامه على سبته من بلاد العدو فضبطها جند
السلطان ورجال الدولة، وقلدها أرباب السيوف والأقلام من
الأولياء والخاصية وعدل في ضبطه على ما وراء ذلك على ملوك
زنادة ونقدمهم بالجواز والخلع وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من
رغب الإثبات في ديوان السلطان منهم، فجدوا في ولاية الدولة
وبث الدعوة، وفسد ما بين هذين الأميرين جعفر وأخيه، واقتطع
يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال، ثم كانت على
جعفر النكبة التي نكبت بنو غواطة في غزاة إياهم.

ثم استدعاه محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رأى من
الاستئانة إليه وشد أزره به ونقم عليه كراهته لما لقيه بالاندلس
من الحكم، ثم أصبحه وتخلّى لأخيه عن عمل المغرب، وأجاز
البحر إلى ابن أبي عامر فحل منه بالمكان الأثير.

ولما زحف بلكين إلى المغرب سنة تسع وستين زحفته
المشهوره خرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمداغته
بنفسه، وأجاز جعفر بن علي إلى سبته وعقد له على حرب بلكين
وأمد بمائة حمل من المال، وانضمت إليه ملوك زنادة ورجع عنهم
بلكين كما نذكره.

ولما رجع إلى ابن أبي عامر اغتاله في بعض ليالي معاقرتهم
وأعد له رجالاً في طريقه من سمره إلى داره فقتلوه سنة ولحق
يحيى بن علي بمصر ونزل بدار العزيز وتلقاه بالمرة والتكريم،
وطال به نوازه واستكفى به العظام، ولما استصرخ فلفول بن
خزرون بالحاكم في استرجاع طرابلس من يد صنهاجة المتغلبين
عليه، دفع إليه العساكر وعقد عليها ليحيى بن علي، واعترضه بنو
قرة من الهلاليين ببرقة ففلوه وفضوا جموعه ورجع إلى مصر ولم

بن إسماعيل الإمام وكنوه أبا القاسم ولقبوه الشيخ.

ثم حول اسمه وادعى أنه محمد بن عبد الله وأنه كان يكتم هذا الاسم، وأن ناقته التي يركبها مأمورة ومن تبعها منصور، فزحف إليه سيك مولى المعتضد في العساكر فهزمها، وقتل فسار إليه محمد بن أحمد الطائي في العساكر فانهزمت القرامطة وجيء ببعضهم أسيراً فاحتضره المعتضد وقال:

هل تزعمون أن روح الله وأنبياؤه تحمل فيكم فتعصمكم من الزلزل، وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له: يا هذا أرايت لو حلت روح إبليس فما ينفعك فارتك ما لا يعينك إلى ما يعينك.

فقال له: قل فيما يعينني! فقال له: قبض رسول الله ﷺ وأبوكم العباس حي فلم يطلب هذا الأمر ولا بايعه أحد، ثم قبض أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى العباس ولم يعهد إليه عمر ولا جعله من أهل الشورى، وكانوا ستة وفيهم الأقرب والأبعد، وهذا إجماع منهم على دفع جدك عنها، فيماذا تستحقون أنتم الخلافة؟ فأمر المعتضد به فمذبذب وخلعت عظامه ثم قطع مرتين ثم قتل.

ثم زحف القرامطة إلى دمشق وعليها طنج مولى ابن طولون سنة تسعين، واستصرخ بابن سيده بمصر، فجاءت العساكر لإمداده فقاتلهم مرارا وقتل يحيى بن ذكرويه المسمى بالشيخ في خلق من أصحابه، واجتمع فلهم على أخيه الحسين وتسمى أحمد أبا العباس وكانت في وجهه شامة يزعم أنها مقدسة، فللقب صاحب الشامة المهدي أمير المؤمنين، وأتاه ابن عمه عيسى بن مهدي وهو عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل الإمام ولقبه المذر، وعهد إليه، وزعم أنه المذكور في القرآن ولقب غلاماً من أهله المطوق.

ثم دعا الناس فأجابه كثير من أهل البوادي وسار إلى دمشق فحاصرها حتى صالحوه على مال ودفعوه له.

ثم سار إلى حمص وحماة والمعدة وبعبك، فخطب له بها واستباحها جميعاً.

ثم إلى سلمية وبها جماعة من بني هاشم فاستلحمهم حتى الصبيان بالكتائب والبهائم.

ثم خرج المكتفي إليه وقدم عساكره، فكبشهم ونجا فلهم إلى حلب، وانتهى المكتفي إلى الرقة، وقد سار بدر مولى ابن طولون في اتباع القرامطة فهزمهم وأثنى فيهم وبعث المكتفي العساكر مع يحيى بن سليمان الكاتب، وفيهم الحسين بن حمدان من بني تغلب ومعهم بنو شيبان فواقعوا القرامطة سنة إحدى وتسعين فهزموهم،

وأتمت أجلي وأظهرت على السنة رسلي، فأنا الذي لا يتكبر علي جبار إلا وضعته، ولا عزيز إلا ذلته، فليس الذي أصر على أمره ودام على جهالته، وقال: لن نبرح عليه عاكفين وبه مؤمنين، أولئك هم الكافرون.

ثم يركع ويقول في ركوعه مرتين سبحان ربي ورب العزة تعالى عما يصف الظالمون، وفي سجوده: الله أعلى مرتين الله أعظم مرة، والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز والنيذ حرام والخمر حلال، والغسل من الجنابة كالوضوء، ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو غلب.

ومن خالف وحارب وجب قتله ومن لم يحارب أخذت منه الجزية انتهى.

إلى غير ذلك من دعاوي شنيعة متعارضة يهدم بعضها بعضاً. وتشهد عليهم بالكذب.

والذي حملهم على ذلك إنما هو ما اشتهر بين الشيعة من أمر المهدي مستندين فيه إلى الأحاديث التي خرجها بعضهم وقد أريناك عللها في مقدمة الكتاب في باب الفاطمي فلهجوا به، وبالدعوة إليه فمن الصادق فيمن يعينه وإن كان كاذباً في استحقاقه، ومنهم من بنى أمره على الكذب والاتحال، عساه يستولي بذلك على حظ من الدنيا ينال بها صفقة.

وقد يقال: إن ظهور هذا الرجل كان قبل مقتل صاحب الزنج وإنه سار على الأمان، وقال له: إن ورائي مائة ألف سيف فناظرني لعلنا نتفق ونتعاون.

ثم اختلفوا وانصرف قرط عنه، وكان يسمى نفسه القوائم بالحق.

وزعم بعض الناس أنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج.

ثم زحف إليه أحمد بن محمد الطائي صاحب الكوفة في العساكر فأوقع بهم وقتل بهم، وتابعت العساكر في السواد في طلبهم وأبادوهم، وفر هو إلى أحياء العرب فلم يجبه أحد منهم، فاخفى في القفر في جب بناء واتخذ لذلك، وجعل عليه باب حديد واتخذ بجانبه تنوراً سحراً إن أرققه الطلب فلا يظن له.

ولما اختفى في الجب بعث أولاده في كلب بن دبرة بأنهم من ولد إسماعيل الإمام مستجيرون بهم.

ثم دعوا إلى دعوتهم أثناء ذلك وكانوا ثلاثة يحيى وحسين وعلي فلم يجبه أحد إلى ذلك إلا بنو القليص بن ضمضم بن علي بن جناب، فبايعوا ليحيى على أنه يحيى بن عبد الله بن محمد

الصهال ورجعوا.

ونهب القرامطة الحاج وقتلوه بعد أن قاتلوه ثلاثاً على غير ماء فاستسلموا، وغنم أموالهم وأموال التجار وأموال بني طولون كانوا نقلوها من مصر إلى مكة، ثم من مكة إلى بغداد عندما أجمعوا النقل إليها.

ثم حاصر القرامطة بقية الحاج في حمص، قبل فامتنعوا، وجهاز المكتفي العساكر مع وصيف بن صوارتكين وجماعة من القواد، فساروا على طريق خفان، وأدركوا القرامطة فقاتلوهم يومين، ثم هزمهم وضرب ذكرويه على رأسه فانهمش وجيء به أسيراً وبخليفة القاسم وابنه وكتابه وزوجته، ومات لخمس ليال فسبق شلوه إلى بغداد، وصلب. وبعث برأسه إلى خراسان من أجل الحاج الذين نهبهم من أهلها، ونجا الفل من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم الحسين بن حمدان واستلحمهم، وتبعوا بالقتل في نواحي الشام والعراق، وذلك سنة أربعين وتسعين وثلاثمائة.

خبر قرامطة البحرين ودولة بني الجنابي

منها

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين جاء إلى القطيعي من البحرين رجل تسمى يحيى بن المهدي وزعم أنه رسول من المهدي، وأنه قد قرب خروجه وقصد من أهل القطيف علي بن المعلى بن أحمد الديادي، وكان متغالياً في التشيع فجمع الشيعة وأقراهم كتاب المهدي، وشنع الخبر في سائر قرى البحرين فأجابوا كلهم، وفيهم أبو سعيد الجنابي واسمه الحسن بن بهرام وكان من عظمائهم.

ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ورجع بكتاب المهدي يشكرهم على إجابتهم ويأمرهم أن يدفعوا ليحيى سنة دنانير وثلاثين عن كل رجل فدفعوها.

ثم غاب وجاء بكتاب آخر يأمرهم أن يدفعوا إليه خمس أموالهم فدفعوا، وقام يتردد في قبائل قيس.

ثم أظهر أبو سعيد الجنابي الدعوة بالبحرين سنة ثلاث وثمانين، واجتمع إليه القرامطة والأعراب، وسار إلى القطيف طالباً البصرة وكان عليها أحمد بن محمد بن يحيى الواقفي فأدار السور على البصرة، وبعث المعتمد علي بن عمر الغنوي، وكان على فارس فأقطعه اليمامة والبحرين، وضم إليه ألفين من المقاتلة وسيره إلى البصرة فاحتشد وخرج للقاء الجنابي ومن معه، ورجع

وقتل منهم خلق من أصحاب القرمطي ونجا ابنه أبو القاسم ببعض ذخيرته، وسار هو مستخفياً إلى ناحية الكوفة ومعه المدثر والمطوق وغلام له، وانتهوا إلى الرحبة فوشى بهم إلى العامل فقبض عليهم، وبعث بهم إلى المكتفي بالرقعة ورجع إلى بغداد فقطعهم بعد أن ضرب صاحب الشامة مائتي سوط.

وأما علي بن ذكرويه ففر بعد مقتل أخيه يحيى على دمشق إلى ناحية الفرات، واجتمع إليه فل من القرامطة فاستباح طبرية.

ثم لما اتبعهم الحسين بن حمدان فر إلى اليمن، واجتمع إليه دعائهم هنالك وتغلب على كثير من مدنه، وقصد صنعاء فهرب عنها ابن يعفر فاستباحها ونجافى عن صعدة لذمة العلوية بينه وبين بني الرسي، ونازل بني زياد بن بيد، ومات في نواحي اليمن، وفي خلال ذلك بعث أبوه ذكرويه إلى بني القليص بعد أن كانوا استكانوا وأقاموا بالسماوة، فبعث إليهم من أصحابه عبد الله بن سعيد ويسمى أبا غانم فجاءهم بكتابه سنة ثلاث وتسعين بأنه أوحى إليه بأن صاحب الشامة وأخاه الشيخ مقيلاً، وإن إمامه يظهر من بعدهما ويملا الأرض عدلاً، ويظهر وطاب أبو غانم على إحياء كلب فاجتمع إليه جماعة منهم، وقصد الشام فاستباح بصرى وأذرعان، ونازل دمشق وعاملها يومئذ أحمد بن كيخلف وهو غائب بمصر في محاربة الجليجي الثائر من شيعة بني طولون على عساكر المكتفي، وقابله خلفاؤه فهزمهم وقتل بعضهم وسار إلى الأردن فقتل عاملها، ونهب طبرية وبعث المكتفي الحسين بن حمدان في العساكر ففر أبو غانم إلى السماوة وغور مياهما، واتبعته العساكر إلى أن جهدهم العطش.

ثم رجع الحسين بهم إلى الرحبة، وقيل: إنهم تقبضوا على أبي غانم وقتلوه، واقترب جمعهم وذلك سنة ثلاث وتسعين.

ظهور ذكرويه ومقتله

ثم اجتمع القرامطة إلى ذكرويه وأخرجوه من الجب الذي كان مخفياً فيه منذ عشرين سنة، وحضر عنده دعائهم فاستخلف عليهم أحمد بن القاسم بن أحمد، وعرفهم بما له عليهم من المنة، وأن رشادهم في امتثال أمره، ورمز لهم في ذلك بآيات من القرآن حرف تأويلها، وسار وهو محتجب يدعونه السيد ولا يرونه، والقاسم يباشر الأمور ويتولاها، وبعث المكتفي عساكره فهزمهم القرامطة بالسواد، وغنموا معسكرهم، وساروا لاعتراض الحاج ومروا بالصوان، وحاصروا الواقعة فامتنت عليهم، وطموا الآبار والمياه في تلك النواحي وبعث المكتفي محمد بن إسحاق بن كنداج

بغداد وسار هو إلى الرجة واستباحها ودوخ بلاد الجزيرة بسراياه. وسار إلى هشت والكوفة، وقاتل الرقة فامتنت عليه، وفرض الأتاوة على أعراب الجزيرة يحملونها إلى هجر، ودخل في دعوته جماعة من بني سليم بن منصور وبني عامر بن صعصعة. وخرج إليه هارون بن غريب الحال فانصرف أبو طاهر إلى البرية وظفر هارون بفريق منهم فقتلهم وعاد إلى بغداد.

وفي سنة سبع عشرة هجراً هجم على مكة وقتل كثيراً من الحاج ومن أهلها ونهب أموالهم جميعاً وقلع باب البيت والميزاب، وقسم كسوة البيت في أصحابه، واقتلع الحجر الأسود وانصرف به وأراد أن يجعل الحج عنده، وكتب إليه عبيد الله المهدي من القيروان يوجهه على ذلك، ويتهدده، فكتب إليه بالعجز عن رده من الناس ووعد برد الحجر، فردته سنة تسع وثلثين بعد أن خاطبه منصور إسماعيل من القيروان في رده فردوه، وقد كان الحكم التغلب على الدولة ببغداد أيام المستكفي بذل لهم خسين ألفاً من الذهب على أن يردوه فأبوا، وزعموا أنهم إنما حملوه بأمر إمامهم عبيد الله، وإنما يردونه بأمره وأمر خليفته.

وأقام أبو طاهر بالبحرين وهو يتعاقد العراق والشام بالغزو حتى ضربت له الأتاوة ببغداد وبدمشق على بني طفج.

ثم هلك أبو طاهر سنة اثنتين وثلثين لإحدى وثلثين سنة من ملكه، ومات عن عشرة من الولد كبيرهم سابور، وولى أخوه الأكبر أحمد بن الحسن، واختلف بعض العقديّة عليه ومالوا إلى ولاية سابور بن أبي طاهر، وكتبوا القوائم في ذلك فجاء جوابه بولاية الأخ أحمد، وأن يكون الولد سابور ولي عهده، فاستقر أحمد في الولاية عليهم وكنوه أبا منصور، وهو الذي رد الحجر الأسود إلى مكانه كما قلناه.

ثم قبض سابور على عمه أبي منصور فاعتقله بموافقة إخوته له على ذلك وذلك سنة ثمان وخمسين.

ثم ثار بهم أخوه فأخرجه من الاعتقال وقتل سابور ونفى إخوته وأشياهم إلى جزيرة أوال.

ثم هلك أبو منصور سنة تسع وخمسين يقال مسموماً على يد شيعة سابور، وولي ابنه أبو علي الحسن بن أحمد ويلقب الأعصم، وقيل: الأغثم فطالت مدته وعظمت وقابته ونفى جمعاً كثيراً من ولد أبي طاهر، يقال: اجتمع منهم بجزيرة أوال نحو من ثلاثمائة، وحج هذا الأعصم بنفسه ولم يتعرض للحاج ولا أنكر الخطبة للمطيع.

عنه عند اللقاء بنو ضبة فانهزم وأسر الجنابي واحتوى على معسكره وحرق الأسرى بالنار.

ثم من عليه وأطلقه فسار إلى الأبله ومنها إلى بغداد، وسار أبو سعيد إلى هجر فملكها وأمنها، واضطربت البصرة للهزيمة وهم أهلها بالارتحال، فممنعهم الوائقي.

ومن كتاب ابن سعيد في خبر قرامطة البحرين ملخصاً من كلام الطبري فعله كما ذكره.

قال: كان ابتداء أمر القرامطة سنة ثمان وثلثمائة فنقل الكلام: وكان أبو سعيد يمهّد لابنه الأكبر سعيد فلم به وثار به أخوه الأصغر الظاهر سليمان فقتله، وقام بأمرهم وبايعه العقديّة وجاءه كتاب عبيد الله المهدي بالولاية.

وفي سنة ست وثمانين وصل أبو القاسم القائم إلى مصر، واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتظره فأعجله مؤنس الخادم عن انتظاره وسار من قبل المقتدر فهزمه ورجع إلى المهديّة.

ثم سار أبو الطاهر سنة سبع إلى البصرة فاستباحها ورجع واضطربت بغداد، وأمر المقتدر بإصلاح ما تلثم من سورها.

ثم زحف إليها أبو الطاهر سنة إحدى عشرة فاستباحها وخرّب الجامع وتركها خربة.

ثم خرج سنة اثني عشرة لاعتراض الحاج فأوقع بهم وهزم قواد السلطان الذين كانوا معهم، وأسر أميرهم أبا النجاء بن حمدون واستصفى النساء والصبيان وترك الباقي بالبرية فهلكوا.

ثم خرج سنة أربع عشرة إلى العراق فعاث في السواد، ودخل الكوفة وفعل فيها أشد من البصرة.

وفي سنة أربع عشرة وقع بين العقديّة وأهل البحرين خلاف فخرج أبو الطاهر وبني مدينة الأحساء وسماها المؤمنية فلم تعرف إلا به، وبني قصره وأصحابه حوله.

وفي سنة خمس عشرة استولى على عمان وهرب إليها في البحر إلى فارس.

وزحف سنة ست عشرة إلى الفرات، وعاث في بلاده.

وبعث المقتدر عن يوسف بن أبي الساج من أذربيجان وولاه واسط، وبعثه لحربه فالتقوا بظاهر الكوفة وهزمه أبو طاهر وأسر.

وأرجف أهل بغداد، وسار أبو طاهر إلى الأنبار وخرجت العساكر من بغداد لدفاعه مع مؤنس المظفر وهارون بن غريب الحال فلم يطبقوا دفاعه، وتوافقوا ثم تحاجزوا، وعاد مؤنس إلى

فتنة القرامطة مع المعز العلوي

الأعصم بطبرية منهزماً.

ثم ارتحل منها إلى الأحساء وأنكروا ما فعله الأعصم من البيعة لبني العباس، واتفقوا على إخراج الأمر عن ولد أبي سعيد الجنابي، وقدموا رجلين منهم: وهما جعفر وإسحاق وسار بنو أبي سعيد إلى جزيرة أوال.

وكان بنو أبي طاهر قبلهم فقتلوا كل من دخل إليهم من ولد أحمد بن أبي سعيد وأشياعه.

ثم قام بأمر القرامطة جعفر وإسحاق هذان ورجعوا إلى دعوة العلوية ومعاربة بني بويه، ورجعوا سنة أربع وستين إلى الكوفة فملكوها.

وبعث صمصام الدولة بن بويه العساكر إليهم فهزمهم على الفرات وقتل منهم خلقاً واتبعهم إلى القادسية.

ثم اختلف جعفر وإسحاق وطمع كل منهما في الرئاسة على صاحبه، وافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم إلى أن استولى الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي سنة ثمان وتسعين عليهم، وملك الأحساء من أيديهم وأذهب دولتهم وخطب للظائع واستقرت الدولة له ولبيته.

ذكر المتغلبين بالبحرين من العرب بعد

القرامطة

كان بأعمال البحرين خلق من العرب، وكان القرامطة يستجدونهم على أعدائهم ويستعينون بهم في حروبهم، وربما يحاربونهم ويقاطعونهم في بعض الأوقات، وكان أعظم قبائلهم هنالك بنو ثعلب وبنو عقيل وبنو سليم، وأظهرهم في الكثرة والعزة بنو ثعلب.

ولما فشلت دولة القرامطة بالبحرين واستحكمت العداوة بينهم وبين بني بويه بعد انقراض ملك بني الجنابي، وعظم اختلافهم عند القائم بدعوة العباسية وكان خالصة للقرامطة ودعاه إلى إذهاب دولتهم فأجابوه، وداخل بني مكرم رؤساء عمان في مثل ذلك فأجابوه، واستولى الأصغر على البحرين وأورثها بنيه، واستولى بنو مكرم على عمان ثم غص بنو ثعلب بسليم واستعانوا عليهم ببني عقيل وطردهم من البحرين، فساروا إلى مصر ومنها كان دخولهم إلى إفريقية كما يأتي.

ثم اختلف بنو ثعلب وبنو عقيل بعد مدة وطردهم بنو ثعلب إلى العراق فملكوا الكوفة والبلاد العراقية، وامتد ملك

ولما استولى جوهر قائد المعز لدين الله على مصر وجعفر بن فلاح الكتامي على دمشق طالب الحسن بالضرية التي كانت له على دمشق فمنعوه ونابذوه، وكتب له المعز وأغلظ عليه ودرس لشعبة أبي طاهر وبنه أن الأمر لولده، وأطلع الحسن على ذلك فخلع المعز سنة اثنين وثلاثماية وخطب للمطيع العباسي في متابعه ولبس السواد.

ثم زحف إلى دمشق وخرج جعفر بن فلاح لحربه، فهزمه الأعصم وقتله، وملك دمشق وسار إلى مصر فحاصر جوهر بها وضيق عليه.

ثم غدر به العرب وأجفلوا فأجفل معهم وعاد إلى الشام ونزل الرملة، وكتب إليه المعز سنة إحدى وستين بالنفي والتيسخ، وعزله عن القرامطة وولى بني أبي طاهر فخرجوا من أوال ونهبوا الأحساء في غيبته، وكتب إليهم الطائع العباسي بال التزام الطاعة، وأن يصالحوا ابن عمهم ويقوموا بجزيرة أوال وبعث من أحكم بينهم الصلح.

ثم سار الأعصم إلى الشام وتخطاها دون صور فقاتلوه وراء الخنادق، وبذل جوهر المال للعرب فافترقوا عنه، وانهزم ونهب معسكره.

وجاء المعز من إفريقية ودخل القاهرة سنة ثلاث وستين وصرح العساكر إلى الشام فاستولوا عليه، فنهض الأعصم إليهم فأوقع بهم، وأئخذ فيهم، وانتزع ما ملكوه من الشام، سار إلى مصر وبعث المعز لدين الله ابنه عبد الله فلقبهم على بليس وانهزم الأعصم وفشا القتل والأسر في أصحابه فكانوا نحواً من ثلاثة آلاف، ورجع الأعصم إلى الأحساء واستخلص المعز بني الجراح أمراء الشام من طمى حتى استرجع بهم ما غلب عليه القرامطة من الشام بعد حروب وحصار.

ثم مات المعز سنة خمس وستين، وطمع الأعصم في بلاد الشام، وكان أفتكين التركي مولى معز الدولة بن بويه لما انتقض على أبيه بختيار وهزمه ببغداد، سار أفتكين منهزماً إلى دمشق، وكانوا مضطربين فخرجوا إليه وولوه عليهم، وصالح المعز إلى أن توفي فنايذ العزيز وبعث إليه جوهر في العساكر فحاصره، فكتب أفتكين إلى الأعصم واستدعاه فجاء إلى الشام سنة ست وستين.

وخرج معه أفتكين، ونازلوا الرملة فملكوها من يد جوهر، وزحف إليهم العزيز وهزمهم، وتقبض على أفتكين، ولحق

(الأحساء) بناها أبو طاهر القرمطي في المائة الثالثة، وسميت بذلك لما فيها من أحساء المياه في الرمال، ومراعي الإبل، وكانت للقرامطة بها دولة، وجالوا في أقطار الشام والعراق ومصر والحجاز وملكوا الشام وعمان.

(دارين) هي من بلاد البحرين ينسب إليها الطيب كما تنسب الرماح إلى الخط بجانبها فيقال: مسك دارين والرماح الخطية.

(عمان) وهي من ممالك جزيرة العرب المشتملة على اليمن والحجاز والشحر وحضرموت وعمان وهي خامسها، إقليم سلطاني منفرد على بحر فارس من غربيها مسافة شهر، شرقيها بحر فارس وجنوبها بحر الهند، وغربيها بلاد حضرموت، وشمالها البحرين، كثرة النخل والفواكه وبها مفاص اللؤلؤ، سميت بعمان بن قحطان، أول من نزلها بولاية أخيه يعرب، وصارت بعد سيل العرم للأزد.

وجاء الإسلام وملكها بنو الجلندي، والخوارج بها كثيرة.

وكانت لهم حروب مع عمال بني بويه وقاعدتهم تروى، وملك عمان من البحر ملوك فارس غير مرة، وهي في الإقليم الثاني، وبها مياه وبساتين وأسواق، وشجرها النخل.

وكانت بها في الإسلام دولة لبني شامة بن لؤي بن غالب.

وكثير من نسبة قريش يدعونهم عن هذا النسب، أولهم بها محمد بن القاسم الشامي، بعثه المعتضد وأعانه ففتحها وطرده الخوارج إلى تروى قاعدة الجبال، وأقام الخطبة لبني العباس وتوارث ذلك بنوه، وأظهروا شعار السُّنة.

ثم اختلفوا سنة خمس وثلاثمائة وتحاربوا، ولحق بعضهم بالقرامطة، وأقاموا في فتنة إلى أن تغلب عليهم أبو طاهر القرمطي سنة سبع عشرة عند اقتلاعه الحجر وخطب بها لعبيد الله المهدي وترددت ولاية القرامطة عليها من سنة سبع عشرة إلى سنة خمس وسبحين.

فترهب واليها منهم، وزهد وملكها أهل تروى الخوارج وقتلوا من كان بها من القرامطة والروافض، وبقيت في أيديهم ورياستها للأزد منهم.

ثم سار بنو مكرم من وجوه عمان إلى بغداد، واستخدموا لبني بويه وأعانوهم بالمراتب من فارس، فملكوا مدينة عمان وطردها الخوارج إلى جبالهم، وخطبوا لبني العباس.

ثم ضعفت دولة بني بويه ببغداد فاستبد بنو مكرم بعمان

الأصغر وطالت أيامه، وتغلب على الجزيرة والموصل وحارب بني عقيل سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة برأس عين من بلاد الجزيرة، وغص بشائه نصير الدولة بن مروان صاحب ميفارقين وديار بكر فقام له، وجمع له الملك من كل ناحية فهزمه واعتقله، ثم أطلقه ومات وبقي الملك متوارثاً في بنيهم بالبحرين إلى أن ضعفوا وتلاشوا، وانقرضت دولة بني عقيل بالجزيرة، وغلبهم عليها وعلى تلك البلاد أولياء الدولة السلجوقية، فتحولوا عنها إلى البحرين مواظهم الأولى، ووجدوا بني ثعلب قد أدركهم الهرم، فغلبوا عليهم.

قال ابن سعيد: سألت أهل البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية سنة إحدى وخمسين وستمائة عن البحرين، فقالوا: الملك فيها لبني عامر بن عوف بن عقيل وبنو ثعلب من جملة رعاياهم وبنو عصفور منهم أصحاب الأحساء.

(والنذكر) هنا نبذة في التعريف بكتاب القرامطة وأمصار البحرين وعمان لما أن ذلك من توابع أخبارهم.

(الكاتب): كان كاتبهم أبو الفتح الحسين بن محمود ويعرف بكشاجم، كان من أعلام الشعراء، وذكره الثعالبي في اليتيمة والحصري في زهر الآداب، وهو بغدادى المولد واشتهر بخدمة القرامطة فيما ذكره البيهقي وكتب لهم بعده ابنه أبو الفتح نصر، ولقبه كشاجم مثل أبيه وكان كاتباً للأعصم.

(البحرين): إقليم يسمى باسم مدينته، ويقال: هجر باسم مدينة أخرى منه وكانت حضرية، فخرها القرامطة وبنو الأحساء وصارت حاضرة، وهذا الإقليم مسافة شهر على بحر فارس بين البصرة وعمان، شرقيها بحر فارس، وغربيها متصل باليمامة، وشمالها البصرة وجنوبها بعمان، كثرة المياه يطونها على القامة والقامتين، كثرة البقل والفواكه، مفرطة الحر منهالة الكشبان، يغلب الرمل عليهم في منازلهم وهي من الإقليم الثاني، وبعضها في الثالث، كانت في الجاهلية لعبد القيس وبكر بن وائل من ربيعة، وملكها للفرس، وعاملها من قبلهم المنذر بن ساوى التميمي.

ثم صارت رياستها صدر الإسلام لبني الجارودي ولم يكن ولاية بني العباس ينزلون هجر إلى أن ملكها أبو سعيد القرمطي بعد حصار ثلاث سنين، واستباحها قتلاً وإحراقاً وتخريباً.

ثم بنى أبو طاهر مدينة الأحساء، وتوالت دولة القرامطة وغلب على البحرين بنو أبي الحسن بن ثعلب، وبعدهم بنو عامر بن عقيل.

قال ابن سعيد: والملك الآن فيهم في بني عصفور.

صلاة العيد بأنحائهم فحبسهم الشحنة، ثم أطلقهم.

ثم استولوا بعد ذلك على الحصون والقلاع فأول قلعة غلبوا عليها قلعة عند فارس كان صاحبها على مذهبهم، فأووا إليه واجتمعوا عنده، وصاروا يحفظون الناس من السابلة وعظم ضررهم بتلك النواحي.

ثم استولوا على قلعة أصفهان واسمها شاه در، كان السلطان ملك شاه بناها وأنزل بها عامله، فاتصل به أحمد بن غطاش، كان أبوه من مقدمي الباطنية وعنه أخذ ابن الصباح وغيره منهم، وكان أحمد هذا عظيماً فيهم لمكان أبيه ورسوخه في العلم بينهم، فعظموه لذلك وتوجوه وجمعوا له مالاً وقدموه عليهم، واتصل بصاحب القلعة فأقر مكانه وقلده الأمور حتى إذا توفي استولى أحمد بن غطاش على قلعة شاه در، وأطلق أيدي أصحابه في نواحيها يحفظون السابلة من كل ناحية.

ثم استولوا على قلعة الموت من نواحي قزوین وهي من بنان الديلم، ومعنى هذا الاسم عندهم غيل العقاب، ويقال لتلك الناحية طالقان، وكانت في ضمان الجعفري، فاستتاب بها علویاً وكان بالري أبو مسلم صهر نظام الملك، واتصل به الحسن بن الصباح، وكان بينهم عالماً بالتعاليم والنجوم والسحر، وكان من جملة تلامذة ابن غطاش صاحب قلعة أصفهان، ثم اتهمه أبو مسلم بجماعة من دعاة المصريين عنده فهرب منه وجال في البلاد وانتهى إلى مصر فأكرمه المستنصر وأمره بدعاء الناس إلى إمامته، وقال له الحسن: من الإمام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار، وعاد من مصر إلى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم، ورجع إلى خراسان بقلعة الموت فنزل على العلوي، فأكرمه واعتقد البركة فيه، وأقام بها وهو يحاول إحكام أمره في مملكها، فلما تم له من ذلك ما أراد أخرج العلوي منها وملكها.

واتصل الخبر بنظام الملك فبعث العسكر لحصارها فجهد الحصار، وبعث جماعة من الباطنية فقتلوا نظام الملك، ورجعت العساكر واستولوا أيضاً على قلعة طبرس وما جاورها من قلاع قوهستان وهي زرون وقائد.

وكان رئيس قوهستان المنور من أعقاب بني سيجور أمراء خراسان للسامانية، فطلبه عامل قوهستان وأراد اغتصاب أخته، فاستدعى الإسماعيلية وملكهم هذه القلاع، واستولوا على قلعة خالنجان على خمسة فراسخ من أصفهان كانت لمؤيد الملك بن نظام الملك، وانتقلت إلى جاولي سقاور من أمراء الغز، وولي عليها بعض الترك فاتصل به بعض الباطنية وخدمه، وأهدى له حتى

وتوارثوا ملكها، وكان منهم مؤيد الدولة أبو القاسم علي بن ناصر الدولة الحسين بن مكرم، وكان ملكاً جواداً ممدوحاً.

قاله البيهقي: ومدحه مهيار الديلمي وغيره، ومات سنة ثمان وعشرين وأربعمئة بعد مدة طويلة في الملك.

وفي سنة اثنين وأربعين ضعف ملك بني مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد، فزحف إليها الخوارج وملكوها، وقتلوا بقيتهم وانقطع منها رسم الملك، وصار في حجار من مدر هذا الإقليم قلعة هي عرصة عمان على بحر فارس من الإقليم الثاني وما يلي السحر وحجار في شماليها إلى البحرين بينهما سبع مراحل، وهي في جبال منيعة، فلم تحجج إلى سور، وكان ملكها سنة ثمان وأربعين زكريا بن عبد الملك الأزدي من ذرية رياسة.

وكان الخوارج بتروى مدينة الشراة يدينون لهم، ويرون أنهم من ولد الجلندي.

الخبر عن الإسماعيلية أهل الحصون بالعراق وفارس والشام وسائر أمورهم ومصائرهم

هذا المذهب هو مذهب القرامطة وهم غلاة الرافضة، وهو على ما رأيته من الاضطراب والاختلاف.

ولم يزل متناقلاً في أهله بأنحاء العراق وخراسان وفارس والشام.

واختلف بعضهم باختلاف الأعصار والأمصار، وكانوا يدعون أولاً قرامطة.

ثم قيل لهم بالعراق باطنية، ثم الإسماعيلية، ثم النزارية لما حدث من عهد المستضيء العلوي لابنه نزار، وقتله شيعتهم بمصر، ولم يبايعوا له، وكان عنده ابن الصباح من هؤلاء الإسماعيلية، ونفى الإمامة بعده عن أئمتهم بمصر فسموا أصحابه لذلك نزارية.

وكان هذا المذهب بعد موت ذكرويه وتحلل عقدتهم، بقي منشأً في الأقطار ويتناوله أهله، ويدعون إليه ويكتمونه، ولذلك سمو الباطنية، وفشت أذيتهم بالأمصار بما كانوا يعتقدونه من استباحة الدماء، فكانوا يقاتلون الناس ويجمعون لذلك جموع منهم يكتمون في البيوت ويتوصلون إلى مقاصدهم من ذلك.

ثم عظمت أمورهم أيام السلطان ملك شاه عندما استمر الملك للعجم من الديلم والسلجوقية وعقل الخلفاء وعجزوا عن النظر في تحصين إمامتهم، وكف الغوائل عنها، فاتشروا في هذه العصور وربما اجتمع منهم جماعة بساوة بأنحاء همدان، فصلوا

أخيه فيما يرمونهم به من الاتحاد بهؤلاء الباطنية فأذن في قتلهم، وركب والعسكر معه فتبعوهم بالقتل، حتى إن الأمير محمداً من أعقاب علاء الدولة بن كاكويه، وكان صاحب مدينة يزد أنهم برأيهم فهرب وقتل.

وكتب إلى بغداد في أبي إبراهيم الاستراباذي وكان بركيارق بعثه رسلاً فأخذ هنالك وقتل، واستلحموا في كل جهة واستلحم التهمون وانطلقت عليهم الأيدي في كل ناحية وذلك سنة ست وثمانين.

ولما استفحل أمر السلطان محمد بعد أخيه بركيارق زحف إلى قلعة شاه در التي بها أحمد بن غطاش لقربها من أصفهان سرير ملكه، فجمع العساكر والأمم وخرج في رجب من أول المائة السادسة، وأحاط بجبل القلعة ودووه أربعة فراسخ، ورتب الأمراء لقتالهم نوياً.

ولما اشتد الأمر بهم سألوا فتوى الفقهاء في أمرهم وكتبوا ما نصه: ما يقول السادة الفقهاء أئمة للدين في قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وإنما يخالفون في الإمام هل يجوز للسلطان مساعدتهم ومراعاتهم وأن يقبل طاعتهم ويعرّسهم من كل أذى أم لا؟ فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف بعضهم وجمعوا للمناظرة، فقال السمنجاني من كبار الشافعية: يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا يتفهمم التلفظ بالشهادتين، فإنهم لا يرون مخالفة لإمامهم إذا خالف أحكام الشرع، وبذلك تباح دماؤهم إجماعاً، وطالت المناظرة في ذلك.

ثم سألوا أن يأتيهم من العلماء من ينظرهم وعينوا أعياناً من أصفهان، وقصدوا بذلك المطالبة والتعلل، فبعثهم السلطان إليهم فعدوا من غير شيء، فاشتد السلطان إليهم في حصارهم واستامنوا على أن يعرضوا عن قلعتهم بقلعة خالنجان على مسبعة فراسخ من أصفهان، وأن يؤجلوا في الرحيل شهراً فأجابهم، وأقاموا في تلك المدة يجمعون ما يقدرون عليه من الأطعمة ووثبوا على بعض الأمراء وسلم منهم فجدد السلطان حصارهم وطلبوا أن ينتقلوا إلى قلعة الناظر وطبس، وبعث السلطان معهم من يوصلهم ويقم الباقون بضرس من القلعة إلى أن يصل الأولون، ثم بيعت مع الآخرين من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت فأجابهم إلى ذلك، وخرج الأولون إلى الناظر وطبس، وخرب السلطان القلعة، وتمسك ابن غطاش بالضرس الذي هو فيه، وعزم على الاعتصام به، وزحف إليه الناس عامة وهرب بعضهم إلى السلطان، فدلّه على عورة المكان، فصعدوا إليه وقتلوا من وجدوا

صارت مفاتيح القلعة في يده، فدى لابن غطاش في قلعة شاه در فجاء في جمع من أصحابه ليلاً، وهرب التركي فملكها وقتل من كان بها وقوي بها على أهل أصفهان، وفرض عليهم القطايع.

ومن قلاعهم أسويا وندين الرمل وآمد، ملكوها بعد ملك شاه غدرأ، ومنها أزدهر ملكها أبو الفتح ابن أخت الحسن بن الصباح.

ومنها قلعة الناظر بخوزستان وقلعة الطنبور قرب أرجان ملكها أبو حمزة الإسكاف من أهل أرجان، وقد كان سافر إلى مصر فأخذ بمذهبهم ورجع داعية لهم.

ومنها قلعة ملاوخان بين فارس وخوزستان امتنع بها المفسدون نحواً من مائتي سنة لقطع الطريق، حتى فتحها عضد الدولة بن بويه، وقتل من بها.

فلما ملك ملك شاه أقطعها للأمير أنز، فولى عليها من قبله ودخله الباطنية الذين من أرجان في بيعها منهم قأبي، فقالوا: نرسل إليك من يناظرك حتى نرى الحق في مذهبنا، وبعثوا إليهم رجلاً منهم فاعتقلوا مملوكه حتى سلم لهم مفاتيح القلعة، وقبضوا على صاحبها وقويت شركتهم.

وامتدت أيدي الناس إلى قتلهم واعتقدوا جهادهم وثاروا بهم في كل جهة فقتلهم وقتلتهم العامة بأصفهان، وكانوا قد ظهروا بها عند محاصرة السلطان بركيارق أصفهان وبها أخوه محمد وأمه خاتون الجلالية، وفشت فيها دعوتهم وكثر فيها الاغتيال من أتباعهم ثاروا بهم، وقتلهم وحفروا الأخاديد وأوقدوها بالنيران، وجعلوا يأتون بالباطنية فيلقونهم فيها، وتجردوا جاولي سقاور، وكان والياً بفارس للجهاد فيهم، وتحيل عليهم بجماعة من أصحابه أظهروا الهروب إليهم فوثقهم وسار هو من بعد ذلك إلى همدان فاغزاهم.

ثم صار الباطنية من بعد ذلك إلى همدان لقتل أمراء السلجوقية غدرأ فكان يقصد أحدهم أميراً من هؤلاء وقد استبطن خنجراً واستمات.

حملهم على ذلك السلطان بركيارق، واستعان بهم على أمر أخيه فكان أحدهم يعرض نفسه بين يدي الأمير حتى يتمكن من طعنه فيطعنه، ويهلك غالباً ويقتل الباطني لوقته، فقتلوا منهم كذلك جماعة، ولما ظهر بركيارق على أخيه محمد انتشروا في عسكره واستعانوا بطائفة منهم، وتهددوا بالقتل على ذلك حتى ارتاب أمراء العسكر بأنفسهم، وخافوا عاديهم ولازموا حمل السلاح، وشكوا إلى بركيارق بذلك وبما يلقونه منهم ومن عسكر

ورحل عنهم.

فيه، وكانوا ثمانين، وأخذ ابن غطاش أسيراً فسلخ وحشي جلده
تبناً، وقتل ابنه ويعث برأسيهما إلى بغداد، وألقت زوجته نفسها من
الشاهق فهلكت.

بقية الخبر عن قلاع الإسماعيلية بالعراق

ولم تزل قلاع هؤلاء الإسماعيلية بالعراق عشاً لهذه الغواية،
وسقطاً لهؤلاء الخبايا، منذ سار بها أحمد بن غطاش والحسن بن
الصباح، وكان لهذا الحسن مقالات في مذاهب الرافضة عريقة في
الغلو داخلة من باب الكفر وتسميها الرافضة المقالات الجديدة،
ولا يدين بقبولها إلا الغلاة منهم.

وقد ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل فعليك به
إن أردت معرفتها.

وبقي الملوك يقصدونهم بالجهاد لما اشتهر عنهم من الضرر
بالاغتيال.

ولما افرق أمر السلجوقية واستبد إيتشمش بالري وهمذان،
سار إليهم سنة ثلاث وستمئة إلى قلاعهم المجاورة لقزوین
فحاصرها، وفتح منها خمس قلاع، واعتزم على حصار قلعة الموت
فعرض له ما شغله عن ذلك، ثم زحف إليهم جلال الدين
منكبزي بن علاء الدين وخوارزم شاه عندما رجع من الهند،
وملك بلاد أذربيجان وأرمينية، فقتلوا بعض أمرائه بمثل قتلهم
فسار إلى بلادهم ودوخ نواحي الموت وقد مر ذكره.

وقلاعهم التي بخراسان خربها واستباحها قتلاً ونهباً وكانوا
منذ ظهر التتر قد شربوا على الجهات فأوقع بهم جلال الدين
هذه الواقعة سنة أربع وعشرين وستمئة، وكفحهم عما سموا إليه
من ذلك.

ولما استفحل أمر التتر سار هولوكو عام الخمسين والستمئة
من بغداد وخرب قلاعهم، وزحف الظاهر بعد ذلك إلى قلاعهم
التي بالشام فحرب كثيراً منها وطوع ما بقي منها، وصارت
مصياف وغيرها في طاعته وانقرض أمرهم إلا مقاتلين يستعملهم
الملوك في قتل أعدائهم على البعد غدراً، ويسمون الفداوية أي
الذين يأخذون فدية أنفسهم على الاستماتة في مقاصد من
يستعملهم.

والله وأرث الأرض ومن عليها.

خبر الإسماعيلية بالشام

لما قتل أبو إبراهيم الاستراباذي ببغداد كما تقدم حرب بهرام
ابن أخيه إلى الشام وأقام هنالك داعية متخفياً، واستجاب له من
الشام خلق، وكان الناس يتبعونهم لكثرة ما تصفوا به من القتل
غدراً.

وكان أبو الغازي بن أرتق مجلب يتوصل بهم إلى غرضه في
أعدائه، وأشار أبو الغازي على ابن طغتكين الأتابك بدمشق بمثل
ذلك فقبل رأيه، ونقل إليه فأظهر حيثنذ شخصه، وأعلن بدعوته
وأعانه الوزير أبو علي طاهر بن سعد المزدغاني، لمصلحتهم فيه
فاستفحل أمره، وكثر تابعوه، وخاف من عامة دمشق فطلب من
ابن طغتكين ووزيره أبي علي حصناً يأوي إليه، فأعطوه قلعة
بانياس سنة عشرين وخمسائة، وترك بدمشق خليفة له يدعو
الناس إلى مذهبه فكثروا وانتشروا، وملك هو عدة حصون في
الجبال منها القدموس وغيره.

وكان بوادي التيم من أعمال بلبلك طوائف من المجوس
والنصرانية والدروزية وأميرهم يسمى الضحاك، فسار بهرام لقتالهم
سنة اثنتين وعشرين، واستخلف على بانياس إسماعيل من
أصحابه، ولقيهم الضحاك في ألف رجل وكبس عسكره فهزمهم
وقتلهم وعاد فلهم إلى بانياس، فأقام بأمرهم إسماعيل وجمع شملهم
ووث دعائه في البلاد، وعاضده المزدغاني وزير دمشق وانتصر لهذه
الطائفة، وأقام بدمشق خليفة لبهرام اسمه أبو الوفاء فقتل أمره،
وكثر أتباعه، واستبد على صاحبها تاج الملوك بن طغتكين.

ثم أن المزدغاني راسل الفرنج أن يملكهم دمشق على أن
يعطوه صور، وتواعدوا يوم عينوه، ودس للإسماعيلية أن يكونوا
ذلك اليوم على أهبة، ونمي الخبر إلى إسماعيل فخاف أن يشور به
الناس فأعطى بانياس للفرنج، وانتقل إليهم ومات سنة أربع
وعشرين، وكان للإسماعيلية قلاع في تلك الجهات تتصل بعضها
ببعض أعظمها قلعة مصياف فسار صلاح الدين لما ملك الشام
سنة اثنتين وسبعين إليها وحاصر مصياف وضيق حصارها، ويعث
سنان مقدم الإسماعيلية إلى خال صلاح الدين بمحاة، وهو شهاب
الدين الحادي أن يسأل صلاح الدين في الصلح معهم ويتهددونه
على ذلك سرّاً، فسار إلى صلاح الدين وأصلح أمرهم عنده

الخبر عن دولة بني الأخيضر باليمامة من

بني حسن

كان موسى الجون بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط لما اختفى أخواه محمد وإبراهيم، طالبه أبو جعفر المنصور بإحضارهما فضمن له ذلك.

ثم اختفى وعثر عليه المنصور فضربه ألف سوط، فلما قتل أخوه محمد المهدي بالمدينة اختفى موسى الجون إلى أن هلك.

وكان من عقبه إسماعيل وأخوه محمد الأخيضر ابنا يوسف بن إبراهيم بن موسى، فخرج إسماعيل في أعراب الحجاز وتسمى السفاك سنة إحدى وخمسين ومائتين.

ثم قصد مكة فهرب عاملها جعفر بسباسات، واتهب منزله ومنازل أصحاب السلطان، وقتل جماعة من الجند وأهل مكة وأخذ ما كان حمل للإصلاح من المال، وما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة، وأخذ كسوة الكعبة وأخذ من الناس نحواً من مائتي ألف دينار.

ثم نهبا وأخرق بعضها بعضاً، وأقام في ذلك خمسين يوماً.

ثم سار إلى المدينة فتواري عاملها وحاصرها حتى مات أهلها جوعاً، ولم يصل أحد في مسجد رسول الله ﷺ، ووصل عساكر المعتز إلى المدينة فأفرج عنها ورجع إلى مكة وحاصرها حتى جهدها الحصار، ورحل بعد مقامه شهرين إلى جدة فأخذ أموال التجار ونهب ما في مراكزهم ورجع إلى مكة، وقد وصل إليها محمد بن عيسى بن المنصور وعيسى بن محمد المخزومي بعثهما المعتز لقتاله فتوافعوا بعرفة، واقتتلوا وقتل من الحاج نحو ألف، وسلبوا الناس وهربوا إلى مكة، وبطل الموقف إسماعيل وأصحابه وخطب لنفسه، ثم رجع إلى جدة واستباحوها ثانية.

ثم هلك لسنة من خروجه بالجدرى آخر سنة اثنتين وخمسين أيام حرب المستعين والمعتز.

وكان يتردد بالحجاز منذ اثنتين وعشرين سنة، ومات ولم يعقب، وولي مكانه أخوه محمد الأخيضر وكان أسن منه بعشرين سنة، ونهض إلى اليمامة فملكها، واتخذ قلعة الحضرمية، وكان له من الولد محمد وإبراهيم وعبد الله ويوسف.

وهلك فولد بعده ابنه يوسف، وأشرك ابنه إسماعيل معه في الأمر مدة حياته.

ثم هلك وانفرد إسماعيل بملك اليمامة وكان له من الأخوة

الحسن وصالح ومحمد بنو يوسف.

فلما هلك إسماعيل ولي من بعده أخوه الحسن، وبعده ابنه أحمد بن الحسن.

ولم يزل ملكها فيهم إلى أن غلب عليهم القرامطة، وانقرض أمرهم والبقاء لله.

وكان بمدينة غانة من بلاد السودان بالمغرب مما يلي البحر المحيط ملك بني صالح، ذكرهم صاحب كتاب زجار في الجغرافيا، ولم نقف على نسب صالح هذا من خبر يعول عليه.

وقال بعض المؤرخين: إنه صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله الملقب أبا الكرام بن موسى الجون، وإنه خرج أيام المأمون بخراسان، وحمل إليه وحبيه وابنه محمد من بعده، ولحق بنوه بالمغرب فكان لهم ملك في بلد غانة.

ولم يذكر ابن حزم في أعقاب موسى الجون صالحاً هذا بهذا النسب، ولعله صالح الذي ذكرناه آنفاً في ولد يوسف بن محمد الأخيضر والله أعلم.

الخبر عن دولة السليمانيين من بني الحسن

بمكة ثم بعدها باليمن ومبادئ أمورهم

وتصاريف أحوالهم

مكة هذه أشهر من أن نعرف بها أو نصفها، إلا أنه لما انقرض سكانها من قريش بعد المائة الثانية بالفن الواقعة بالحجاز من العلوية مرة بعد أخرى، فأقفر من قريش ولم يبق بها إلا أتباع بني حسن أخلاط من الناس، ومعظمهم موال سود من الحبشة والديلم.

ولم يزل العمال عليها من قبل بني العباس وشيعتهم والخطبة لهم إلى أن اشتغلوا بالفن أيام المستعين والمعتز وما بعدهما، فحدثت الرئاسة فيها لبني سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن السبط.

وكان كبيرهم آخر المائة الثانية محمد بن سليمان وليس هو سليمان بن داود لأن ذلك ذكره ابن حزم أنه قام بالمدينة أيام المأمون، وبين العصرين نحو من مائة سنة، سنة إحدى وثلاثمائة أيام المقتدر، وخلع طاعة العباسية، وخطب في الموضع فقال: الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا بني أعمامه صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وكف عنا بركاته أسباب المعتدين، وجعلها

ثم ولي المستكفي بن المكتفي سنة ثلاث وثلاثين على يد
توروز أمير الأمراء ببغداد فخرج الحاج في هذه السنة لمهانة
القرامطة بعد أبي طاهر.

ثم خطب للمطيع بن المقتدر بمكة مع معز الدولة سنة أربع
وثلاثين عندما استولى معز الدولة ببغداد وقلع عين المستكفي
واعقله.

ثم تعطل الحاج بسبب القرامطة وردوا الحجر الأسود سنة
تسع وثلاثين بأمر المنصور العلوي صاحب إفريقية وخطابه في
ذلك لأمرهم أحمد بن أبي سعيد.

ثم جاء الحاج إلى مكة سنة اثنين وأربعين مع أمير من
العراق، وأمير من مصر، ف وقعت الحرب بينهما على الخطبة لابن
بويه ملك العراق، وابن الإخشيد صاحب مصر، فانهزم المصريون
وخطب لابن بويه، واتصل ورود الحاج من يومئذ.

فلما كانت سنة ثمان وأربعين وجاء الحاج من بغداد ومصر
كان أمير العراق من محمد بن عبيد الله فأجابه إلى ذلك.

ثم جاء إلى المنبر مستعداً وأمر بالخطبة لابن بويه فوجم
الأخر، وتمت عليه الحيلة وعاقبه أميره كافور.

ويقال: قتله ووقع ابن بويه لمحمد بن عبيد الله باتصال
إمارته على الحاج.

ولما كانت سنة ست وخسين وصل بركب العراق أبو أحمد
الموسوي نقيب الطالبين، وهو والد الشريف الرضي ليحج
بالناس، ونهب بنو سليم حاج مصر وقتل أميرهم.

وفي سنة ست وخسين حج بالناس أبو أحمد المذكور
وخطب بمكة لبختيار بعد موت أبيه معز الدولة والخليفة يومئذ
المطيع، واتصل حج أبي أحمد بركب العراق.

وفي سنة ثلاث وخسين خطب للفرمطي بمكة، فلما قتل
أحمد وقعت الفتنة بين أبي الحسن الفرمطي وخلع طاعة العبيديين
وخطب للمطيع، وبعث إليه بالرايات السود، ونهض إلى دمشق
فقتل جعفر بن فلاح قائد العلويين، وخطب للمطيع.

ثم وقعت الفتنة بين أبي الحسن وبين جعفر، وحصلت
بينهم دماء، وبعث المعز العلوي من أصلح بينهم، وجعل دية
القتلى الفاضلة في مال المعز، وهلك بمصر أبو الحسن فولى أخوه
عيسى.

ثم ولي بعده أبو الفتح الحسن بن جعفر سنة أربع وثمانين.
ثم جاءت عساكر عضد الدولة ففر الحسن بن جعفر إلى

كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين، ثم أنشد:

لأطلعين بسيفي ما كان للحق ديناً
واسطون بقوم بنوا وجاروا علينا
يعدون كل بلاد من العراق علينا

وكان يلقب بالزبيدي نسبة إلى نخلته من مذاهب الإمامية،
وبقي ركب العراق يتعاهد مكة إلى أن اعترضه أبو طاهر القرمطي
سنة اثني عشرة، وأسر أبا الهيثم بن حمدان والد سيف الدولة
وجامعاً معه، وقتل الحجاج وترك النساء والصبيان بالفقر فهلكوا،
وانقطع الحاج من العراق بسبب القرامطة.

ثم أنفذ المقتدر سنة سبع عشرة منصور الديلمي من مواليه
فوافاه يوم التروية بمكة أبو طاهر القرمطي فنهب الحاج، وقتلهم
حتى في الكعبة والحرم، وامتلاً زمزم بالقتل، والحجاج يصيحون:
كيف يقتل جبران الله؟ فيقول: ليس بجار من خالف أوامر الله
ونواهيه، ويتلو: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية.

وكان يحظب لعبيد الله المهدي صاحب إفريقية.

ثم قلع الحجر الأسود وحمله إلى الأحساء وقلع باب البيت
وحمله، وطلع رجل يقلع الميزاب فسقط ومات، فقال: أتركوه فإنه
محروس حتى يأتي صاحبه يعني المهدي، فكتب إليه ما نصه:
والعجب من كتبك إلينا ممتناً علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من
حرم الله وجبرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء
فيها، وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذي هو بمن
الله في الأرض يصافع بها عباده، وحملته إلى أرضك، ورجوت أن
نشركك فلعلك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من
لسانه ويده، وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده انتهى.

فانخرفت القرامطة عن طاعة العبيديين لذلك.

ثم قتل المقتدر على يد مؤنس سنة عشرين وثلاثمائة وولي
أخوه القاهرة، وحج بالناس أميره تلك السنة.

وانقطع الحج من العراق بعدها إلى أن كاتب أبو علي يحيى
الفاطمي سنة سبع وعشرين من العراق أبا طاهر القرمطي أن
يطلق السبيل للحجاج على مكس يأخذه منهم، وكان أبو طاهر
يعظمه لدينه ويؤمله فأجابه إلى ذلك، وأخذ المكس من الحجاج ولم
يعده مثله في الإسلام.

وخطب في هذه السنة بمكة للراضي بن المقتدر.

وفي سنة تسع وعشرين لأخيه المكتفي من بعده.

ولم يصل ركب العراق في هذه السنين من القرامطة.

المدينة.

ولم يخرج من العراق في هذه السنين أحد.

وفي سنة اثني عشرة حج بأهل العراق أبو الحسن محمد بن الحسن الأفساسي فقيه الطالبين، واعترضهم بنو نهبان من طيئ، وأميرهم حسان بن عدي، وقتلوهم فهزمهم وقتل أميرهم حسان.

وخطب في هذه السنة للظاهر بن الحاكم بمكة ولما كان الموسم سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ضرب رجل من قوم مصر الحجر الأسود بدبوس فصدعه وثلمه، وهو يقول: كم تعبد؟ كم تقبل؟ فتبادر إليه الناس فقتلوه، وثار أهل العراق بأهل مصر فنهبهم وفتكوا فيهم.

ثم حج بركب العراق سنة أربع عشرة النقيب بن الأفساسي وخشي من العرب، فعاد إلى دمشق الشام، وحج في السنة التي بعدها وبطل حج العراق.

ولما بويغ القائم العباسي سنة اثنتين وعشرين رام أن يجهز الحاج فلم يقدر لاستيلاء العرب والحلال أمر بني بويه.

ثم خطب بمكة للمستنصر بن الظاهر.

ثم توفي الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد بن سليمان رئيس مكة وبني سليمان، سنة ثلاثين وأربعمائة لأربعين سنة من إمارته وولي بعده إمارة مكة ابنه شكر، وجرت له مع أهل المدينة خطوب ملك في أثنائها المدينة وجمع بين الحرمين وعليه انقرضت دولة بني سليمان سنة ثلاثين بمكة، وجاءت دولة المواسم كما يذكر.

وشكر هذا هو الذي يزعم بنو هلال بن عامر أنه تزوج الجازية بنت سرحان من أمراء الأبيج منهم، وهو خبر مشهور بينهم في أقاصيصهم، وحكايات يتناقلونها ويطرزونها بأشعار من جنس لغتهم ويسمونهم الشريف بن هاشم.

وقال ابن حزم: غلب جعفر بن أبي هاشم على مكة أيام الأخشيديين وولي بنوه من بعده عيسى بن جعفر، وأبو الفتوح وابنه شكر بن أبي الفتوح، وقد انقرض لأن شكر لم يولد له، وصار أمر مكة إلى عبد كان له.

انتهى كلام ابن حزم وليس أبو هاشم الذي نسب جعفر إليه أبا المواسم الذي يأتي ذكرهم لأن هذا كان أيام الأخشيديين وذلك أيام المستضيء العبيدي وبينهما نحو من مائة سنة.

ولما مات العزيز بالرملة وعاد بنو أبي طاهر وبنو أحمد بن أبي سعيد إلى الفتنة فجاء من قبل الطائع أمير علوي إلى مكة، وأقام له بها خطبة.

وفي سنة سبع وستين بعث العزيز من مصر باديس بن زيري الصنهاجي وهو أخو بلكين صاحب إفريقية أميراً على الحاج، فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة، وشغل عضد الدولة في العراق بفتنة بختيار ابن عمه فبطل ركب العراق.

ثم عاد في السنة بعدها وخطب لعضد الدولة أبو أحمد الموسوي، وانقطعت بعدها خطبة العباسيين عن مكة، وعادت خلفاء مصر العبيديين إلى حين من الدهر.

وعظم شأن أبي الفتوح واتصلت إمارته في مكة، وكتب إليه القادر سنة ست وتسعين في الإذن لحاج العراق فأجابه على أن الخطبة للحاكم صاحب مصر.

وبعث الحاكم إلى ابن الجراح أمير طيئ باعتراضهم، وكان على الحاج الشريف رضي وأخوه المرتضى، فلاطفهم ابن الجراح وخلقى سبيلهم على أن لا يعودوا.

ثم اعترض حاج العراق سنة أربع وتسعين الأصيغر الثعلبي عندما ملك الجزيرة فوعظه قارئان كانا في الركب.

ثم اعترضهم في السنة بعدها أعراب خفاجة ونهبهم، وسار في طلبهم علي بن يزيد أمير بني أسد فأوقع بهم سنة اثنتين وأربعمائة.

ثم عادوا إلى مثل ذلك من السنة بعدها فعاد علي بن يزيد وأوقع بهم، وسما له بذلك ذكر، وكان سببا للملكه وملك قومه.

ثم كتب الحاكم سنة اثنتين وأربعين إلى عماله بالبراءة من أبي بكر وعمر، ونكر ذلك أبو الفتوح أمير مكة، وانتقض له وحمل الوزير أبو القاسم المغربي على طلب الأمر لنفسه.

وكان الحاكم قتل أباه وأعمامه فخطب أبو الفتوح لنفسه، وتلقب الراشد بالله، وسار إلى مدينة الرملة لاستدعاء ابن الجراح أمير طيئ لمغاضبة بينه وبين الحاكم.

ثم سرب الحاكم أمواله في بني الجراح فانتقضوا على أبي الفتوح وأسلموه، وفر الوزير المغربي إلى ديار بكر من أرض الموصل ومعه ابن سبابة، وفر التهامي إلى الري وكان معه.

وقطع الحاكم الميرة عن الحرمين، ثم راجع أبو الفتوح الطاعة فعفا عنه الحاكم وأعادته إلى إمارته بمكة.

أن يعينهم على استرجاع ملكهم، وينهض معهم إلى مكة، فنهض وانتهى إلى المهجم.

وكان سعيد بن نجاح الأحوال موتور بني الصبيحي قد جاء من الهند ودخل صنعاء، فثار بها واتبع الصبيحي في سبعين رجلاً، وهو في خمسة آلاف فيته بالمهجم وقتله.

ثم جمع محمد بن جعفر أجناداً من الترك وزحف بها إلى المدينة فأخرج منها بني حسن، وملكها وجمع بين الحرمين.

ثم مات القائم العباسي وانقطع ما كان يصل إلى مكة فقطع محمد بن جعفر الخطبة للعباسيين.

ثم جاء الزيني من قابل بالأموال فأعادها.

ثم بعث المقتدي سنة سبعين منبراً إلى مكة صنيعاً استجيد خشبه، ونقش عليه بالذهب اسمه.

وبعث على الحاج ختلع التركي وهو أول تركي تأمر على الحاج، وكان والياً بالكوفة.

وقهر العرب مع جماعته فبعثه المقتدي أميراً على الحاج فوقعت الفتنة بين الشيعة، وأهل السنة وكسر المنبر وأحرق وتم الحج.

ثم عاودوا الفتنة سنة ثلاث وسبعين وقطعت الخطبة للمستنصر وأعيدت للمقتدي، واتصلت إمارة ختلع على الحاج وبعده خارتكين إلى أن مات ملك شاه، ووزيره نظام الملك فانقطعت الخطبة للعباسيين وبطل الحاج من العراق باختلاف السلجوقية، وتغلب العرب.

ومات المقتدي خليفة بغداد وبويغ ابنه المستظهر ومات المستنصر خليفة مصر وبويغ ابنه المستعلي من إمارته، وهو الذي أظهر الخطبة العباسية بمكة، وبها ابتدئ أمره وكان يسقطها بعض الأحيان.

وولي بعده ابنه قاسم فكثر اضطرابه، ومهد بنو مزيد أصحاب الحلة طريق الحاج من العراق فاتصل حجهم.

وحج سنة اثنتي عشرة وخسمائة نظر الخادم من قبل المسترشد بركب العراق، وأوصل الخلع والأموال إلى مكة، ثم توفي قاسم بن محمد سنة ثمان عشرة وخسمائة لثلاثين سنة من إمارته، وكانت في اضطراب وتغلب، وولي بعده ابنه أبو قليبة بمكة، فافتتح بالخطبة العباسية وأحسن الثناء عليه بالعدل، ووصل نظر الخادم أميراً على الركب ومعه الأموال والخلع.

ثم مات أبو قليبة سنة سبع وعشرين لعشر سنين من

الخبر عن دولة الهواشم بمكة من بني الحسن وتصارييف أحوالهم إلى انقراضها

هؤلاء الهواشم من ولد أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون ونسبه معروف وقد مر.

وكانت بين هؤلاء الهواشم وبين السليمانيين فتن متصلة، ولما مات شكر ذهبت الرياسة من بني سليمان لأنه لم يعقب.

وتقدم فيهم طراد بن أحمد، ولم يكن من بيت الإمارة وإنما كانوا يؤملونه لإقامه وشجاعته.

وكان رئيس الهواشم يومئذ محمد بن جعفر بن محمد وهو أبو هاشم المذكور، وقد ساد في الهواشم، وعظم ذكره فاقتتلوا سنة أربع وخمسين بعد موت شكر فهزم الهواشم بني سليمان وطردوهم عن الحجاز، فساروا إلى اليمن، وكان لهم بها ملك كما يذكر.

واستقل بإمارة مكة الأمير محمد بن جعفر وخطب للمستنصر العبيدي.

ثم ابتدأ الحاج من العراق سنة ست وخمسين بنظر السلطان ألب أرسلان ابن داود ملك السلجوقية حين استولى على بغداد والخلافة، طلب منه القائم ذلك فبذل المال وأخذ رهائن العرب، وحج بالناس أبو الغنائم نور الدين المهدي الزيني نقيب الطالبين.

ثم جاور في السنة بعدها واستمال الأمير محمد بن جعفر عن طاعة العبيديين فخطب لبني العباس سنة ثمان وخمسين، وانقطعت ميرة مصر عن مكة فعذله أهله على ما فعل فرد الخطبة للعبيديين.

ثم خاطبه القائم وعاتبه وبذل له أموالاً فخطب له سنة اثنتين وستين بالموسم فقط، وكتب إلى المستنصر بمصر معترداً، ثم بعث القائم أبا الغنائم الزيني سنة ثلاث وستين أميراً على الركب العراقي، ومعه عسكر ضخيم، ولأمر مكة من عند ألب أرسلان ثلاثون ديناراً وتوقيعا بعشرة آلاف دينار.

واجتمعوا بالموسم وخطب الأمير محمد بن جعفر وقال: الحمد لله الذي هدانا إلى أهل بيته بالرأي المصيب، وعوض بيته بلبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة.

فانحرف المستنصر عن الهواشم ومال إلى السليمانيين.

وكتب إلى علي بن محمد الصبيحي صاحب دعوتهم باليمن

إمارته، والخطبة للعباسيين وإمارة الحاج لنظر الخادم.

ثم كانت واقعة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله وتعطل ركب الحاج.

ثم حج نظر الخادم في السنة بعدها.

ثم بعث أسماء الصبيحية صاحبة اليمن لأمير مكة قاسم بن أبي قلبية فتوعدته على قطع خطبة الحافظ، وماتت فكفاه الله شرها، وانقطع الركب العراقي في هذه السنين للفتن والغلاء.

ثم حج سنة أربع وأربعين نظراً للخادم، ومات في طريقه، فولي قيمار، واعترضه رهط من الأعراب فذهب الركب، واتصل حج قيمار والخطبة لبني العباس إلى سنة خمس وخمسين قبله.

وبويج المستنجد فخطب له كما كان لأبيه المقتفي.

ثم قتل قاسم بن أبي قلبية سنة ست وستين وبعث المستضيء بالركب طانتكين التركي، وانقرضت دولة العبيديين بمصر، ووليها صلاح الدين بن أيوب، واستولى على مكة واليمن، وخطب له بالحرمين ثم مات المستضيء سنة خمس وسبعين وبويج ابنه الناصر، وخطب له بالحرمين، وحجت أمه بنفسها سنة خمس وثلاثين، وكانت له آثار عظيمة ورجعت فانتهت إلى الناصر بن عيسى بن قاسم ما اطلعت عليه من أحواله فعزله عن إمارة مكة، وولى أخاه مكثر بن قاسم، وكان جليل القدر، ومات سنة تسع وثمانين السنة التي مات فيها صلاح الدين.

وضعف أمر الهواشم، وكان أبو عزيز بن قتادة يناسبهم من جهة النساء فورت أمرهم وملك مكة من أيديهم، وانقرضت دولتهم والبقاء لله.

الخبر عن بني قتادة أمراء مكة بعد الهواشم

ثم عن بني أبي غير منهم أمراؤها لهذا

العهد

كان من ولد موسى الجون الذي مر ذكره في بني حسن عبد الله أبي الكرام، وكان له على ما نقل نسابتهم ثلاثة من الولد سليمان وزيد وأحمد.

ومنه تشعبت ولده. فأما زيد فولده اليوم بالصحراء بنهر الحسنية، وأما أحمد فولده بالدهناء، وأما سليمان فكان من ولده مطاعن بن عبد الكريم بن يوسف بن عيسى بن سليمان وكان لمطاعن إدريس وتعلب بالثعالب بالحجاز.

فكان لإدريس ولدان قتادة النابغة وصرخة.

فأما صرخة فولده شيع يعرفون بالشكرة، وأما قتادة النابغة فكان يكنى أبا عزيز، وكان من ولده علي الأكبر وشقيقه حسن.

فمن ولد حسن إدريس وأحمد ومحمد وجمان، وإمارة ينبع في أعقابهم ومنهم لهذا العهد أميران يتداولان إمارة من ولد إدريس بن حسن بن إدريس.

وأما أبو عزيز قتادة النابغة فمن ولد موالى عز أمراء مكة لهذا العهد.

وكان بنو حسن بن الحسن كلهم موطنين بنهر العلقمية من وادي ينبع لعهد إمارة الهواشم بمكة، وكانوا طواعن بادية.

ولما نشأ فيهم قتادة هذا جمع قومه ذوي مطاعن، وأركبهم واستبد بإمارتهم، وكان بوادي ينبع بنو خراب من ولد عبد الله بن حسن بن الحسن، وبنو عيسى بن سليمان بن موسى الجون فحاربهم بنو مطاعن هؤلاء، وأميرهم أبو عزيز قتادة وأخرجهم، وملك ينبع والصفراء واستكثر من الجند والممالك.

وكان على عهد المستنصر العباسي في أواسط المائة السادسة.

وكان الأمراء يومئذ بمكة الهواشم من ولد جعفر بن هاشم بن الحسن بن محمد بن موسى بن أبي الكرام عبد الله، وقد مر ذكرهم، وكان أخرجهم مكثر بن عيسى بن قاسم الذي بنى القلعة على جبل أبي قبيس، ومات سنة تسع وثمانين وخمسائة.

فسار قتادة إلى مكة وانتزعها من أيديهم وملكها، وخطب للناصر العباسي، وأقام في إمارتها نحواً من أربعين سنة.

واستفحل ملكه واتسع إلى نواحي اليمن وكان لقبه أبا عزيز.

وفي سنة ثلاث وستمائة حج بالركب وجه السبع التركي من ممالك الناصر وفر من طريقه إلى مصر فذهب الركب.

وفي سنة ثمان وستمائة وثب شخص من حاج العراق على شريف من قرابة قتادة فقتله، فاتهم الشرفاء به أمراء الركب، فأثروا بهم وقتلوا منهم خلقاً.

ثم بعث إليهم بالأموال من بغداد وبعث قتادة بعض أولاده يستعقب فأعقب.

وفي سنة خمس عشرة خطب بمكة للعادل بن أيوب بعد الناصر الخليفة وللکامل بن العادل بعدهما.

وفي سنة ست عشرة كان خروج التتر وكان قتادة عادلاً

ملك التتر العراق سنة أربع وثلاثين وعظم أمرهم وانتهوا إلى إربل أبطل المستنصر الحج من أمر الجهاد وأفناه العلماء بذلك.

ثم جهز المعتصم الحاج مع أمه سنة ثلاث وأربعين وشيئها إلى الكوفة، ولما حجت ضرب تركي في الموسم شريفاً وكتب راجح فيه إلى الخليفة فقطعت يده وبطل الحج بعد ذلك.

ثم قوي أمر الموطئ إمام الزيدية باليمن، واعتزم على قطع الخطبة لبني العباس فضاقت به المظفر بن عمر بن رسول، وكتاب المعتصم يجره على تجهيز الحاج بسبب ذلك.

ثم قوي أمر الموطئ إمام الزيدية باليمن.

وسار جاز بن حسن بن قتادة سنة إحدى وخمسين إلى الناصر بن العزيز بن الظاهر بن أيوب بدمشق مستجيشاً على أبي سعيد، وسار إلى مكة فقتل أبا سعيد في الحرم، ونقض عهد الناصر، وخطب لصاحب اليمن.

قال ابن سعيد: وفي سنة ثلاث وخمسين بلغني وأنا بالمغرب أن راجح بن قتادة جاء إلى مكة وهو شيخ كبير السن وكان يسكن السدير على نحو اليمن فوصل إلى مكة، وأخرج منها جاز بن أبي عزيز فلحق بالينع.

قال: وفي سنة اثنتين وستين وصل الخبر إلى المغرب بأن أمر مكة دائر بين أبي غني بن أبي سعيد الذي قتل جاز به على إمارة مكة، وبين غالب بن راجح الذي أخرجه أبوه جاز إلى الينع.

ثم استبد أبو غني على أمر مكة ونفى قتلة أبيه أبي سعيد إلى الينع.

وهم إدريس وغاز وعمد، وقد كان إدريس منهم ولي أمر مكة قليلاً، فانطلقوا إلى الينع وملكوه، وأعقابهم أمراؤه لهذا العهد، وأقام أبو غني أميراً بمكة نحواً من خمسين سنة وهلك على رأس المائة السابعة أو بعدها بستين وخلف ثلاثين ولداً.

إمارة بني أبي غني بمكة

ولما هلك أبو غني قام من بعده بأمر مكة ابنه رميثة وحميضة ونازعهما عطيفة وأبو الغيث فاعتقلاهما، ووافق ذلك وصول بيرس الجاشنكير كافل الملك الناصر بمصر، لأول ولايته فاطلقهما وولاهما، وبعث برميثة وحميضة إلى مصر، ثم ردهما السلطان إلى إمارتهما بمكة مع عسكره، وبعث إليه بعطيفة وأبي الغيث.

ثم طال تنازعهم وتعاقبهم في إمارة مكة مرة بعد أخرى.

وهلك أبو الغيث في بعض حروبهم ببطن مر.

وأمن الناس في أيامه، ولم يعد قط على أحد من الخلفاء ولا من الملوك، وكان يقول: أنا أحق بالخلافة، وكانت الأموال والخلع تحمل إليه، واستدعاه الناصر في بعض السنين فكتب إليه:

ولي كف ضرغام أذل بيسطها واشري بها عز السورى وأيسع تنظ ملوك الأرض تلثم ظهرها وفي بطنها للمجدين ريس أجمعها تحت الرجا ثم ابتغي خلاصا لها إنسي إذا لوضيع وما أنا إلا المسك في كل بقعة يضوع وأما عندكم فيضيع

واتسعت دولته فملك ملك مكة والينع وأطراف اليمن، وبعض أعمال المدينة وبلاد نجد، وكان يستكثر من الممالك، وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة، ويقال: سمه ابنه حسن ويقال: داخل ابنه حسن جاريته فأدخلته ليلاً فخنق أباه، ثم قتلها وملك مكة وامتعض لذلك ابنه راجح بن أبي عزيز قتادة وشكاه إلى أمير حاج أقباش التركي عند وصوله فأشكاه، وعده بالإصناف منه، فأغلق حسن أبواب مكة وخرج بعض أصحابه إلى الأمير أقباش فلقوه عند باب المعلى فقتلوه وعلقوه بالسعى.

ثم جاء المسعود بن الكامل سنة عشرين من اليمن إلى مكة، فحج وقاتله حسن ببطن المسعى فغلبه المسعود وملك مكة، ونصب رايته وأزال راية أمير الركب، وكتب الخليفة من بغداد يعاتب أباه على ذلك، وعلى ما فعله في مكة والتخلف فكتب إليه أبوه: برئت يا أقرى من ظهر العادل إن لم أقطع يمينك فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فغرم ديات الشرفاء وأصابه شلل في يده ومضى حسن بن قتادة إلى بغداد صريحاً بعد أن بقي طريداً بالشام والجزيرة والعراق ثم جاء إلى بغداد دخيلاً وهم الترك يقتله بأقباش أمير الركب فمنعوا منه.

ومات ببغداد سنة اثنتين وعشرين ودفن بمشهد الكاظم.

ثم مات المسعود بن الكامل بمكة سنة ست وعشرين ودفن بالمعلى وبقي على مكة قائد فخر الدين بن الشيخ، وعلى اليمن أمير الجيوش عمر بن علي بن رسول.

وقصد راجح بن قتادة مكة سنة تسع وعشرين مع عساكر عمر بن رسول فملكها سنة ثلاثين من يد فخر الدين بن الشيخ، ولحق فخر الدين بمصر، ثم جاءت عساكر مصر سنة اثنتين وثلاثين مع الأمير جبريل وملكوا مكة، وهرب راجح إلى اليمن.

ثم جاء عمر بن رسول معه بنفسه فهربت عساكر مصر، وملك راجح مكة وخطب لعمر بن رسول بعد المستنصر، ولما

وولاه صاحب مصر لعهد الملك الظاهر أبو سعيد بركات على ما كان أبوه، وسير إليه بالخلع والتفويض على عادتهم في ذلك.

وكان في محبس أحمد جماعة من قرابته منهم أخوه محمد ومحمد ابن أخيه ثقبه وعنان ابن عمه مغامس في آخرين.

فلما مات أحمد هربوا من محبسهم ولحقوا بهم فردوهم وأجلوا محمد بن عجلان منهم إلا عناناً فإنه لحق بمصر مستجيباً على محمد وكيش، فأنجده السلطان وبعثه مع أمير الركب ليطلع أحوالهم، واستصحب معه جماعة من الباطنية فتكوا بمحمد عند لقائه المحمل الذي عليه كسوة الكعبة بشارة الخليفة، وتقبيله الخف الذي يحملة على العادة في ذلك، وتركوه صريعاً في مكانه، ودخلوا إلى مكة فولى أمير الحاج عنان بن مغامس ولحق كيش وشيعته بمكة، فلما انقضى الموسم ورجع الحاج جاء كيش وأصحابه وحاصروا مكة، وكان بينهم وبين عنان حروب قتل كيش في بعضها.

ثم لحق علي بن عجلان وأخوه حسن بالملك الظاهر صاحب مصر فرأى أن يحسم المادة بولايته، فولاه سنة تسع وثمانين مشاركاً لعنان بن مغامس في الإمارة، وسار مع أمير الركب فلما وصلوا لكرمرد بكرروا إلى مكة على العادة، وخرج عنان للقائهم، ثم نكص من بعض الطريق هارباً ودخل على مكة واستقل بإمارتها، ولما انقض الموسم ورجع الحاج جاء عنان ومعه بنو عمه مبارك وجماعة الشرفاء فحاصروا مكة على علي ونازعوه الإمارة ثم أفرجوا، ثم رجعوا وحالهم على ذلك متصل لهذا العهد.

ووفدوا على السلطان بمصر سنة أربع وتسعين فأنرد علياً بالإمارة، وأفاض عليه العطاء وأكثف له الجند والمستخدمين وأبقى عنان بن مغامس عنده وأجرى عليه الرزق ونظمه في أهل دولته.

ثم نمي إلى السلطان أنه يروم الفرار إلى الحجاز لينازع أمير مكة علي بن عجلان فقبض عليه وحبسه، وقبض علي بن عجلان على الأشراف الذين كانوا هنالك شيعه له.

ثم من عليهم وأطلقهم فعادوا إلى منازعته والفتنة معه لهذا العهد والله متولي الأمور لا رب غيره.

ثم تنازع حمضة ورميثة، وسار رميثة إلى الملك الناصر سنة خمس عشرة، واستمد بأمرائه وعساكره، وهرب حمضة بعد أن استصفى أموال أهل مكة.

ثم رجع بعد رجوع العساكر إلى مكة ثم اصطلحوا وتوافقوا.

ثم خالف عطيفة سنة ثمان عشرة ووصل إلى السلطان، وجاء بالعسكر فملك مكة، وتقبض على رميثة فسجن أياماً ثم أطلق سنة عشرين عند مقدم السلطان من حجه، وأقام بمصر.

وبقي حمضة مشرداً إلى أن استأمن السلطان فأمناه، وكان معه جماعة من الممالك فروا إليه من مصر أيام انتفاضه، فشعروا بطاعته فخافوا على أنفسهم أن يحضروا معه فقتلوه وجاؤوا إلى السلطان يعتقدون ذلك وسيلة عنده فأقاد رميثة منهم بأخيه فقتل المباشر للقتل، وعفا عن الباقي.

وأطلق رميثة إلى مكة مشاركاً لأخيه عطيفة في إمارتها.

ثم هلك عطيفة سنة وأقام أخوه رميثة بعده مستقلاً بإمارة مكة إلى أن كبر وهم، ثم هلك.

وكان ابناه ثقبه وعجلان قد اقتصما معه إمارة مكة برضاه.

ثم أراد الرجوع عن ذلك فلم يجيباه إلى شيء مما أراد، واستمرا على ولايتهما معه.

ثم تنازعا وخرج ثقبه وبقي عجلان بمكة.

ثم غلبه عليها ثقبه، ثم اجتمعا بمصر سنة ست وخسين فولى صاحب الأمر بمصر عجلان منهما، وفر ثقبه إلى بلاد الحجاز فأقام هنالك، وعاقبه إلى مكة مراراً.

وجاء عجلان سنة اثنتين وستين بالمدد من عسكر القاهرة.

فكبسه ثقبه وقتل أخاه وبعضاً من العسكر ولم يزل عجلان على إمارته سالكا سبيل العدل والإنصاف في الرعية متجافياً عن الظلم عما كان عليه قومه من التعرض للتجار والمجاورين، وسعى في أيام إمارته في قطع ما كان ليعيدهم على الحاج من المكس.

وثبت لهم في ديوان السلطان عليها عطاء يتعاهد لهم أيام الموسم وكانت من حسنات سلطان مصر.

وسعى هذا الأمير عجلان جزاء الله خيراً، وأقام على ذلك إلى أن هلك سنة سبع وسبعين، وولي ابنه أحمد بعده.

وقد كان فوض إليه في حياته وقاسمه في أمره، فقام أحمد بأمر مكة وجرى على سنن أبيه في إثبات مراسم العهد وإحياء معاملة، حتى شاع عنه ذلك في الآفاق كل السنة الحاج والمجاورين.

الخبر عن بني مهني أمراء المدينة النبوية من بني الحسن وذكر أوليتهم ومفتتح إمارتهم

كانت المدينة بلد الأنصار من الأوس والخزرج كما هو معروف.

ثم افترقوا على أقطار الأرض في الفتوحات وانقرضوا، ولم يبق بها أحد إلا بقايا من الطالبين.

قال ابن الحصين في ذيله على الطبري: دخلت المائة الرابعة والخطبة بالمدينة للمقتدر.

قال: وترددت ولاية بني العباس عليها والرياسة فيها بين بني حسين وبني جعفر إلى أن أخرجهم بنو حسين فسكنوا بين مكة والمدينة.

ثم أجلاهم بنو حرب من زبيد إلى القرى والحصون، وأجازوهم إلى الصعيد فهم هنالك إلى اليوم.

وبقي بنو حسين بالمدينة إلى أن جاءهم ظاهر بن مسلم من مصر فملكوه عليهم.

وفي الخبر عن وصول ظاهر هذا أن مسلماً أباه اسمه محمد بن عبيد الله بن ظاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر، ويسمى عند الشيعة حجة الله بن عبيد الله بن الحسين الأصغر بن زين العابدين، وكان مسلم هذا صديقاً لكافور المتغلب على الأخشيدي بمصر، وكان يدبر أمره ولم يكن بمصر لعصره أوجه منه.

ولما ملك العبيديون مصر وجاء المعز لدين الله ونزل بالقاهرة التي اختطها وذلك سنة خمس وستين وثلاثمائة، خطب يومئذ من مسلم هذا كرمته لبعض بني فرده مسلم، فسخطه المعز ونكبه، واستصفى أمواله وأقام في اعتقاله إلى أن هلك.

ويقال: فر من محبسه فهلك في مفره، ولحق ابنه ظاهر بن محمد بعد ذلك بالمدينة فقدمه بنو حسين على أنفسهم، واستقل بإمارتها سنين.

ثم مات سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وولي مكانه ابنه الحسن.

وفي كتاب العتيبي مؤرخ دولة ابن سبكتكين: أن الذي ولي بعده هو صهره وابن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله بن ظاهر، وكنيته أبو علي، واستقل بها دون ابنه الحسن إلى أن هلك، وولي بعده ابنه هاني ثم ابنه مهني.

ولحق الحسن بمحمود بن سبكتكين فأقام عنده بخراسان، وهذا غلط لأن المسيحي مؤرخ العبيديين ذكر وفاة ظاهر بن مسلم في سنتها كما قلناه، وولاية الحسن ابنه.

وقال: في سنة ثلاث وثمانين وعامل المدينة الحسن بن ظاهر ويلقب مهني والمسيحي أقعد بأخبار المدينة ومصر من العتيبي، إلا أن أمراء المدينة لهذا العهد يتسبون إلى داود ويقولون: جاء من العراق فلعلهم لقنوا ذلك عمن لا يعرفه.

ومؤرخ حماة متى ينسب أحداً من أوليهم فلئما ينسبه إلى أبي داود والله أعلم.

وقال أبو سعيد: وفي سنة تسعين وثلاثمائة ملكها أبو الفتح حسن بن جعفر أمير مكة من بني سليمان بأمر الحاكم العبيدي وأزال عنها إمارة بني مهني من بني الحسين، وحاول نقل الجسد النبوي إلى مصر ليلاً فأصابته ريح عاصفة أظلم لها الجو، وكادت تقتلع البناء من أصله فردهم أبو الفتح عن ذلك ورجع إلى مكة.

وعاد بنو مهني إلى المدينة.

وذكر مؤرخ حماة من أمرائهم منصور بن عمارة، ولم ينسبه، وقال: مات سنة سبع وتسعين وأربعمائة وولي بعده ابنه.

قال: وهم من ولد مهني، وذكر منهم أيضاً القاسم بن مهني بن حسين بن مهني بن داود وكنيته أبو قلبية، وأنه حضر مع صلاح الدين بن أيوب غزاة أنطاكية وفتحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقال الزنجازي مؤرخ الحجاز فيما ذكر عنه ابن سعيد حين ذكر ملوك المدينة من ولد الحسين فقال: وأحقهم بالذكر لجلالة قدره قاسم بن جاز بن قاسم بن مهني، ولاه المستضيء فأقام خمساً وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وولي ابنه سالم بن قاسم وكان شاعراً، وهو الذي كانت بينه وبين أبي عزيز قتادة صاحب مكة وقعة المصارع، بيد سنة إحدى وستمائة، زحف أبو عزيز من مكة وحاصره بالمدينة، واشتد في حصاره، ثم ارتحل وجاء المدد إلى سالم من بني لام إحدى بطون همدان فأدرك أبا عزيز بيدرا واقتلوا وهلك من الفريقين خلق، وانهمز أبو عزيز إلى مكة.

وفي سنة إحدى وستمائة جاء المعظم عيسى بن العادل فجدد المصانع والبرك، وكان معه سالم بن قاسم أمير المدينة جاء يشكو من قتادة فرجع معه، ومات في الطريق قبل وصوله إلى المدينة، وولي بعده ابنه شيخة، وكان سالم قد استخدم عسكرياً من التركمان فمضى بهم جاز بن شيخة إلى قتادة وغلبه، وفر إلى

الخبر عن دولة بني الرسي أئمة الزيدية بصعدة وذكر أوليتهم ومصائر أحوالهم

قد ذكرنا فيما تقدم خبر محمد بن إبراهيم الملقب أبوه طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن الدعي، وظهوره أيام المأمون وقيام أبي السرايا بيعته وشأنه كله.

ولما هلك وهلك أبو السرايا وانقرض أمرهم طلب المأمون أخاه القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا ففر إلى السند، ولم يزل به إلى أن هلك سنة خمس وأربعين ومائتين، ورجع ابنه الحسن إلى اليمن وكان من عقبه الأئمة بصعدة من بلاد اليمن أقاموا للزيدية بها دولة اتصلت آخر الأيام، وصعدة جبل في الشرق عن صنعاء، وفيه حصون كثيرة أشهرها صعدة وحصن تلا وجبل مطابة، وتعرف كلها ببني الرسي.

وأول من خرج بها منهم يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، دعا لنفسه بصعدة وتسمى بالهادي، وبويع بها سنة ثمان وثمانين في حياة أبيه الحسين، وجمع الجموع من شيعتهم وغيرها، وحارب إبراهيم بن يعفر.

وكان أسعد بن يعفر السادس من أعقاب التبابعة لصنعاء وكلا فغلبه على صنعاء ونجران، فملكها وضرب السكة، ثم انتزعها بنو يعفر منه، ورجع إلى صعدة، وتوفي سنة ثمان وتسعين لعشر سنين من ولايته، هكذا قال ابن الحارث قال: وله مصنفات في الحلال والحرام.

وقال غيره: كان مجتهداً في الأحكام الشرعية، وله في الفقه آراء غريبة وتوالمف بين الشيعة معروفة.

قال الصولي: وولي بعده ابنه محمد المرتضى، واضطرب الناس عليه وهلك سنة عشرين وثلاثمائة لست وعشرين سنة من ولايته.

وولي بعده أخوه الناصر أحمد واستقام ملكه، واطرد في بنيته بعده، فولي بعده ابنه حسين المتجب، ومات سنة أربع وعشرين وولي بعده أخوه القاسم المختار إلى أن قتله أبو القاسم الضحاك الهمداني سنة أربع وأربعين.

وقال الصولي: من بني الناصر الرشيد والمتجب ومات سنة أربع وعشرين.

وقال ابن حزم: لما ذكر ولد أبي القاسم الرسي فقال: ومنهم القائمون بصعدة من أرض اليمن، أولهم يحيى الهادي، له رأي في الفقه وقد رأيته، ولم يبعد فيه عن الجماعة كل البعد.

البنع وتحصن بها، وفي سنة سبع وأربعين قتل صاحب المدينة شيخة وولي ابنه عيسى، ثم قبض عليه أخوه، جواز سنة تسع وأربعين وملك مكانه.

قال ابن سعيد: وفي سنة تسع وخمسين كان بالمدينة أبو الحسن بن شيخة بن سالم.

وقال غيره: كان بالمدينة سنة ثلاث وخمسين أبو مالك، منيف بن شيخة ومات سنة سبع وخمسين وولي أخوه جواز، وطال عمره ومات سنة أربع وسبعائة، وولي ابنه منصور، ولحق أخوه مقبل بالشام، ووفد على يبرس بمصر فأقطع نصف أقطاع منصور، ثم أقبل إلى المدينة على حين غفلة من أخيه منصور وبها ابنه أبو كيشة فملكها عليه، ولحق أبو كيشة بأحياء العرب، ثم استجاشهم ورجع إلى المدينة سنة تسع فقتل عمه مقبلاً، وجاء منصور إلى محل إمارته وكان لمقبل ابن اسمه ماجد فأقطع بعض إقطاع أبيه، فأقام مع العرب يجلب على المدينة ويخالف منصوراً عمه إليها متى خرج عنها.

ووقع بين منصور وبين قتادة صاحب البنع حرب سنة إحدى عشرة من أجله.

ثم جاء ماجد بن مقبل بالمدينة سنة سبع عشرة لقتال عمه منصور واستنجد منصور بالسلطان، فبعث إليه العساكر وحاصر ماجد بن مقبل بالمدينة، ثم قاتلهم وانهزم وبقي منصور على إمارته، وتوفي سنة خمس وعشرين وولي ابنه كيش بن منصور على إمارته، وطالت أيامه ونازعه ودي بن جواز وحاصره وولي بعده طفيل، وقبض عليه جواز سنة إحدى وخمسين وولي عطية.

ثم توفي عطية سنة ثلاث وثمانين وولي بعده طفيل وقبض عليه فامتنع، وولي جواز بن هبة بن جواز بن منصور وملك الترك بمصر يختارون لولايتها من هذين البيتين لا يعدلون عنهما إلى سواهما، وولايتها اليوم لجواز بن هبة بن جواز وابن عمه عطية بن محمد بن عطية ينازعه لما بينهما من المنازعة والمناصفة قديماً وحديثاً شأن العجليين في الثور، وهما جميعاً على مذهب الإمامية من الرافضة ويقولون بالأئمة الاثني عشر وما يناسب ذلك من اعتقادات الإمامية.

والله يخلق ما يشاء ويختار.

هذا آخر الخبر عن أمراء المدينة، ولم أقف على أكثر منه، والله المقدر لجميع الأمور سبحانه لا إله إلا هو.

المنصور سنة ثلاثين وستمائة عن عمر مديد، وترك ابناً اسمه أحمد ولاء الزيدية، ولم يخطبوا له بالإمامة ينتظرون علو سنه، واستكمال شروطه، ولما كانت سنة خمس وأربعين بايع قوم من الزيدية لأحمد الموطىء من بقية الرسي، وهو أحمد بن الحسين من بني الهادي لأنهم لما أخرجهم بنو سليمان من كرسي إمامتهم بصعدة آووا إلى جبل قطابة بشرقي صعدة، فلم يزالوا هنالك، وفي كل عصر منهم إمام شافع بأن الأمر إليهم إلى أن بايع الزيدية الموطىء، وكان فقيهاً أديباً عالماً بمذهبهم، قواماً صراماً، بويع سنة خمس وأربعين وستمائة.

وأهم نور الدين عمر بن رسول شأنه فحاصره بمحصن تلا سنة، وامتنع عليه فأفرج عنه، وحمل العساكر من الحصون المجاورة لحصاره.

ثم قتل عمر بن رسول وشغل ابنه المظفر بمحصن الدملوة، فتمكن الموطىء، وملك عشرين حصناً وزحف إلى صعدة فغلب السليمانيين عليها، وقد كانوا بايعوا لأحمد ابن إمامهم عبد الله المنصور، ولقبوه المتوكل عندما بويع للموطىء بالإمامة في تلا لأنهم كانوا ينتظرون استكمال سنه، فلما بويع الموطىء بايعوه، ولما غلبهم على صعدة نزل أحمد المتوكل إمامهم وبايع له وأمنه وذلك سنة تسع وأربعين.

ثم حج سنة خمسين وبقي أمر الزيدية بصعدة في عقب الموطىء هذا وسمعت بصعدة أن الإمام بصعدة كان قبل الثمانين والسبعمئة علي بن محمد في أعقابهم، وتوفي قبل الثمانين والسبعمئة علي بن محمد من أعقابهم.

وولي ابنه صلاح، وبايعه الزيدية وكان بعضهم يقول: ليس هو بإمام لعدم شروط الإمامة، فيقول: هو أنا لكم ما شئتم إمام أو سلطان.

ثم مات صلاح آخر سنة ثلاث وتسعين وقام بعده ابنه نجاح، وامتنع الزيدية من بيعته فقال: أنا محتسب لله. هذا ما بلغنا عنهم بمصر أيام المقام فيها والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن نسب الطالبين وذكر المشاهير

من أعقابهم

وأما نسب هؤلاء الطالبين فآكثرها راجع إلى الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، من فاطمة رضي الله عنها، وهما سبطا الرسول ﷺ وإلى أخيهما محمد بن الحنفية، وإن كان

كان لأبيه أحمد الناصر بنون ولي منهم صعدة بعده جعفر الرشيد، وبعده أخوه القاسم المختار ثم الحسن المتجب ومحمد المهدي.

قال: وكان اليماني القائم بماردة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة يذكر أنه عبد الله بن أحمد الناصر أخو الرشيد والمختار والمتجب والمهدي.

وقال ابن الحاجب: ولم تزل إمامتهم بصعدة، مطردة إلى أن وقع الخلاف بينهم، وجاء السليمانيون من مكة عندما أخرجهم الهواشم فغلبوا عليهم بصعدة، وانقرضت دولتهم بها في المائة السادسة.

قال ابن سعيد: وكان من بني سليمان حين خرجوا من مكة إلى اليمن أحمد بن حمزة بن سليمان، فاستدعاهم أهل زيد ليصروهم على علي بن مهدي الخارجي حين حاصروهم، وبها فآتاك بن محمد من بني نجاح، فاجابهم على أن يقتلوا فاتكاً، فقتلوه سنة ثلاث وخسمائة وملكوا عليهم أحمد بن حمزة، فلم يطق مقاومة علي بن مهدي ففر عن زيد وملكها ابن مهدي.

قال: وكان عيسى بن حمزة أخو أحمد في عشرة باليمن، ومنهم غام بن يحيى.

ثم ذهب ملك بني سليمان من جميع التهائم والجبال واليمن على يد بني مهدي.

ثم ملكهم بنو أيوب وقهروهم، واستقر ملكهم آخراً في المنصور عبد الله بن أحمد بن حمزة.

قال ابن النديم: أخذ الملك بصعدة عن أبيه واشتدت يده مع الناصر العباسي، وكان يناظره ويبعث دعاته إلى الديلم وجيلان حتى خطب له هنالك وصار له فيها ولاء، وأنفق الناصر عليه أموالاً في العرب باليمن ولم يظفر به.

قال ابن الأثير: جمع المنصور عبد الله بن حمزة أيام الزيدية بصعدة سنة اثنتين وخسمائة، وزحف إلى اليمن فخاف منه المعز بن ميف الإسلام طغتكين بن أيوب.

ثم زحف إليه المعز فهزمه، ثم جمع ثانية سنة اثني عشرة وستمائة جمعوا من همذان وخولان، وارتحلت له اليمن وخاف المسعود بن الكامل وهو يومئذ صاحب اليمن، ومعه الكرد والترك، وأشار أمير الجيوش عمر بن رسول بمعاجلته قبل أن يملك الحصون.

ثم اختلف أصحاب المنصور ولقيه المسعود فهزمه، وتوفي

الثنى حين جاؤا من مكة.

ثم غلبهم بنو الرسي عليها، ورجعوا إلى إمامهم بصعدة وهم بها لهذا العهد ومنهم بنو سليمان بن داود بن حسن الثنى وابنه محمد بن سليمان القائم بالمدينة أيام المأمون.

قال ابن حزم: وعقبه بالمدينة لأبي جعفر المنصور، ولا عقب لزيد إلا منه.

وكان من عقبه محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن زيد.

قام بالمدينة أيام المعتمد وجاهر بالمنكرات والقتل إلى أن تعطلت الجماعات.

ومن عقبه أيضاً القائم بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد وأخوه محمد القائم من بعده وقد مر خبرهما.

ومنهم الداعي الصغير بالري وطبرستان وهو الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد الطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد، وكانت بين هذا الداعي الصغير وبين الأطروش حروب، وقتل هذا الداعي سنة تسع عشرة وثلاثمائة. ومن عقبه أيضاً القاسم بن علي بن إسماعيل أحد قواد الحسن بن زيد.

وهم غيروا نعم أهل تلك الآفاق، وأذهبوا بمهجتهم وكانوا سبباً لتورد الديلم ببلاد الإسلام لما يستجشونهم. وخرج معهم ومع الأطروش الحسيني ماكان بن كسالي ملك الديلم.

وكان مرداويج وبنو بويه من بعض رجاله، وكان لهم من عشرهم قواد ورجال تسموا باسم الديلم من أجل مرياهم بينهم والله يخلق ما يشاء.

وأما الحسين وهو القتل بالطنن أيام يزيد بن معاوية، فمن ولده علي بن زين العابدين بن زيد الشهيد، ومحمد الباقر، وعبد الله الأرقط، وعمر والحسن الأعرج، فمن ولد الأرقط الحسين الكويكي ابن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الأرقط، كان من قواد الحسن الأطروش بن الحسن بن علي القائم بن علي بن عمر، قام بأرض الطالقان أيام المعتصم، ثم هرب من سفك الدماء واستتر إلى أن مات وكان معتزلياً.

ومنهم الأطروش أسلم على يديه الديلم وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر، وكان فاضلاً حسن المذهب

لعلي رضي الله عنه غيرهم من الولد إلا أن الذين طلبوا الحق في الخلافة وتصبّت لهم الشيعة، ودعوا لهم في الجهات إنما هم الثلاثة لا غيرهم، فأما الحسن فمن ولده الحسن الثنى وزيد، ومنهما العقب المشهود له في الدعوة والإمامة.

ومن ولد حسن الثنى عبد الله الكامل وحسن الثالث وإبراهيم العمر وعباس وداود.

فأما عبد الله الكامل وبنوه فقد مر ذكرهم وأنسابهم عند ذكر ابنه محمد المهدي، وأخبارهم مع أبي جعفر المنصور.

وكان منهم الملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى بنو إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل.

ومن عقبهم بنو حمود ملوك الأندلس الدائلون بها من بني أمية آخر دولتهم.

ومنهم بنو حمود بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس، وسببنا ذكر أخبارهم.

ومنهم بنو سليمان بن عبد الله الكامل.

كان من عقبه ملوك الإمامة بنو محمد الأخضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون، ومنهم بنو صالح بن موسى بن عبد الله الساسي، ويلقب بأبي الكرام بن موسى الجون، وهم الذين كانوا ملوكاً بغانة من بلاد السودان بالمغرب الأقصى، وعقبهم هنالك معروفون.

ومن عقبه أيضاً الهواشم بنو أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر بن موسى الثاني بن عبد الله أبي الكرام، كانوا أمراء مكة لعهد العبيديين وقد مر ذكرهم.

ومن أعقابهم بنو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن موسى الجون، وملكوا مكة بعد الهواشم على يد قتادة أبيهم هذا.

فمنهم بنو نمي بن سعد بن علي بن قتادة أمراء مكة لعهدنا. ومن عقب داود بن حسن الثنى السليمانيون الذين كانوا بمكة وهم بنو سليمان بن داود وغلبهم عليها الهواشم آخراً وصاروا إلى اليمن فقامت الزيدية بدعوتهم كما مر في أخبارهم.

ومن عقب حسن الثالث بن حسن الثنى حسين بن علي بن حسن الثالث الخارج على الهادي وقد مر ذكره.

ومن عقب إبراهيم العمر بن حسن الثنى بن طباطبا واسمه إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم كان منهم محمد بن طباطبا أبو الأئمة بصعدة الذين غلبهم عليها بنو سليمان بن داود بن حسن

وزعم ابن حزم أن بني عبيد ملوك مصر ينسبون إليه وليس ذلك بصحيح.

ومن ولد جعفر الصادق إسماعيل الإمام، وموسى الكاظم، وعبد الديباجة، فأما محمد الديباجة فخرج بمكة أيام المأمون ويبيع له أهل الحجاز بالخلافة وحمله المعتصم لما حج، وجاء به إلى المأمون فعفا عنه، ومات سنة ثلاث وماتين.

وأما إسماعيل الإمام وموسى الكاظم فعليهما وعلى بينهما مدار اختلاف الشيعة، وكان الكاظم على زي الأعراب مانلاً إلى السواد وكان الرشيد يؤثره ويتجافى عن السعاية فيه كما مر ثم حبسه.

ومن عقبه بقية الأئمة الاثني عشر عند الإمامية من لدن علي بن أبي طالب الرضي، ووفاته سنة خمس وأربعين، ثم أخوه الحسين ومقتله سنة إحدى وستين، ثم ابنه زين العابدين ووفاته ثم ابنه محمد الباقر ووفاته سنة إحدى وثمانين ومائة، ثم ابنه جعفر الصادق ووفاته سنة ثلاث وأربعين ومائة، ثم ابنه موسى الكاظم ووفاته سنة ثلاث وثمانين ومائة وهو سابع الأئمة عندهم.

ثم ابنه علي الرضا ووفاته سنة ثلاث وماتين.

ثم ابنه محمد المقتفي ووفاته سنة عشرين وماتين.

ثم ابنه علي الهادي ووفاته سنة أربع وخمسين وماتين.

ثم ابنه حسن العسكري ووفاته سنة ستين وماتين.

ثم ابنه محمد المهدي وهو الثاني عشر وهو عندهم حي منتظر وأخبارهم معروفة.

ومن عقب موسى الكاظم من غير الأئمة ابنه إبراهيم المرتضى، ولده محمد بن طباطبا وأبو السرايا على اليمن، فذهب إليها ولم يزل بها أيام المأمون يسفك الدماء حتى لقبه الناس بالجزار، وأظهر الإمامة عندما عهد المأمون لأخيه الرضا.

ثم أنهم المأمون يقتله فجاءه وطلب لنفسه.

ثم عقد المأمون على حرب الفاطميين باليمن لمحمد بن زياد بن أبي سفيان لما بينهم من البغضاء فأوقع بهم مراراً، وقتل شيعتهم وفرق جماعتهم.

ومن عقبه موسى بن إبراهيم جد الشريف الرضي والمرتضى، واسم كل منهما علي بن الحسين بن محمد بن موسى بن إبراهيم.

ومن عقب موسى الكاظم ابنه زيد ولده أبو السرايا على الأهواز، فسار إلى البصرة وملكها وأحرق دور العباسيين بها

عدلاً، ولي طبرستان وقتل سنة أربع وثلاثمائة، وقام بعده أخوه محمد ومات.

وقام الحسين ابن أخيه محمد بن علي وقتل بها سنة ست عشرة وثلاثمائة، قتله جيوش نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن نوح بن أسد الساماني صاحب خراسان.

ومن ولد الحسين المخرج بن زرين العابدين بن عبد الله العقيقي بن الحسين، كان من ولده الحسين بن محمد بن جعفر بن عبد الله العقيقي قتله الحسن بن زيد صاحب طبرستان.

ومنهم جعفر بن عبيد الله بن الحسين الأعرج كان شيعته يسمونه حجة الله وكان من عقبه الملقب بمسلم الذي دبر أمر مصر أيام كافور، وهو محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسين بن يعفر حجة الله، وابنه طاهر بن مسلم.

ومن عقب طاهر هذا أمراء المدينة لهذا العهد بنو جمار بن هبة بن جمار بن منصور بن جمار بن جمار بن هاشم بن القاسم بن مهني، ومهني بن مهني بن داود بن القاسم أخي مسلم وعمر وطاهر.

وزعم ابن سعيد: أن بني جمار بن شيخة أمراء المدينة هؤلاء من ولد عيسى بن زيد الشهيد، وفيه نظر.

ومن ولد الحسين الحسن الأعرج وزيد هو القائم بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة إحدى وعشرين ومائة، وقتل وخرج ابنه يحيى سنة خمس وعشرين بخراسان وقتل، وقد ائتمى صاحب الزنج في بعض أوقاته إليه.

وأخوه عيسى بن زيد الذي حارب المنصور أول خلافته من ولد الحسين الذي كان من عقبه يحيى بن عمر بن يحيى القائم بالكوفة أيام المستعين، وكان حسن المذهب في الصحابة وإليه ينسب العمريون الذين استولوا على الكوفة أيام الديلم من قبل السلطان ببغداد.

وعلي بن زيد بن الحسين بن زيد قام بالكوفة، ثم هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة فقتله وأخذ جارية له كان سبها من البصرة.

ومن ولد محمد الباقر بن زين العابدين عبد الله الأفطح وجعفر الصادق، فكانت لعبد الله الأفطح شيعة يدعون لإمامته: منهم زرارة بن أعين الكوفي.

ثم قام بالمدينة وسأله عن مسائل من الفقه فالفاه جاهلاً فرجع عن القول بإمامته فانقطعت الأفطحية.

فسمي زيد النار.

الخبر عن دولة بني أمية بالأندلس من هذه

الطبقة المنازعين للدعوة العباسية وبداية

أمرهم وأخبار ملوك الطوائف من بعدهم

ومن عقبه زيد الجنة بن محمد بن زيد بن الحسن بن زيد النار من أفاضل هذا البيت وصلحائهم، حمل إلى بغداد في عنة الفاطميين أيام المتوكل، ودفع إلى ابن أبي دواد يمتحنه فشهد له وأطلقه.

ومن عقب موسى الكاظم ابنه إسماعيل وولاه أبو السرايا على فارس.

ومن عقب جعفر الصادق من غير الأئمة محمد وعلي ابن الحسين بن جعفر، قاما بالمدينة سنة إحدى وسبعين ومائتين وسفكا الدماء وانتها الأموال، واستلحما آل جعفر بن أبي طالب وأقامت المدينة شهراً لا تقام فيها جمعة ولا جماعة.

ومن عقب إسماعيل الإمام العبيديون خلافت القيروان ومصر بنو عبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل وقد مر ذكرهم.

وما للناس من الخلاف في نسبهم وهو مطروح كله وهذا أصح ما فيه.

وقال ابن حزم: إنهم من بني حسن البغيض وهو عم المهدي وعنده أنها دعوى منهم.

وأما محمد بن الحنفية فكان من ولده عبد الله بن عباس، وأخوه علي بن محمد وابنه الحسن بن علي بن محمد، وكل ادعت الشيعة إمامته وخرج باليمن على المأمون ولد علي من غير هؤلاء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، ومن ولد جعفر بن أبي طالب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القائم بفارس، ويبيع بالكوفة وأراد بعض شيعة العباسية تحويل الدعوة إليه فمنع أبو مسلم من ذلك وكانت له شيعة ينتظرونه، وساقوا الخلافة إليه من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بالوصية، وكان فاسقاً وكان معاوية ابنه نظير أبيه في الشر.

انتهى الكلام في أنساب الطالبيين وأخبارهم، فلنرجع الآن إلى أخبار بني أمية بالأندلس المنازعين للدعوة العباسية.

ثم نرجع إلى دول القناتيين بالدعوة العباسية المستبدين عليهم من العرب والترك واليمن والجزيرة والشام والعراق والمغرب، والله المستعان.

كان هذا القطر الأنديلسي من العدو الشمالية عن عدوة البحر الرومي، وبالجانب الغربي منها يسمى عند العرب أندلوش، وتسكنه أمم من إفريقية المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالة.

وكان القوط قد غلوكوها وغلبوا على أمره المائتين من السنين قبل الإسلام بعد حروب، كانت لهم مع اللطيين حاصروا فيها رومة.

ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأنديلس، فساروا إليها وملكوها.

ولما أخذ الروم والبطنيون ليلة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من أهل إفريقية والقوط عليها، فدانوا بها وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة وكانت دار ملكهم، وربما انتقلوا ما بينها، وبين قرطبة وماردة وأشبيلية وأقاموا كذلك نحو أربعمئة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لزريق وهو سمة للملكهم كجرجير سمة ملوك صقلية ونسب القوط وخبر دولتهم قد تقدم.

وكانت له خطوة وراء البحر في هذه العدو الجنوبية خطوها من فرة المجاز بطنجة، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر واستبدوهم.

وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى بليان وكان يدين بطاعتهم وملتهم، وموسى بن نصير أمير العرب إذ ذاك عامل على إفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك، ومنزله بالقيروان.

وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوخ أقطاره وأوغل في جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق، واستنزل بليان لطاعة الإسلام وخلف مولاه طارق بن زياد الليثي والياً بطنجة، وكان بليان يتقم على لزريق ملك القوط لعده بالأنديلس لفعله بانيته في داره كما زعموا، على عادتهم في بنات بطارتهم، فغضب لذلك وأجاز إلى لزريق فأخذ ابنته منه.

ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلهم على غرة فيهم أمكنت طارقاً الفرصة، فانتهازها لوقته وأجاز البحر سنة

وولي من بعده أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى بن نصير فتولى عليها ستة أشهر.

ثم تتابعت ولاية العرب على الأندلس فتارة من قبل الخليفة وتارة من قبل عامله على القيروان وأثنوا في أمم الكفر وافتتحوا برشلونة من جهة الشرق وحصون قشتالة وسانطها من جهة الجوف، وانقرضت أمم القوط وأرزا الجلالقة ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب، فتحصنوا بها وأجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا بسائط وراهها، وتوغلوا في بلاد الفرنجة وعصف ربح الإسلام بأم الكفر من كل جهة، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجب للعدو بعض الكرة فرجع الفرنج ما كانوا غلبوهم عليه.

وكان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير، بعث إلى الأندلس الحارث بن عبد الرحمن بن عثمان فقدم الأندلس وعزل أيوب بن حبيب وولي ستين وثمانية أشهر.

ثم بعث عمر بن عبد العزيز على الأندلس السمح بن مالك الخولاني على رأس المائة من الهجرة وأمره أن ينجس أرض الأندلس فخمسها وينى قنطرة قرطبة، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة سنة اثنتين ومائة، فقدم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي إلى أن قدم عنبسة بن شحيم الكلبي من قبل يزيد بن مسلم عامل إفريقية وكان أولهم يحمي بن سلمة الكلبي أنفذه حنظلة بن صفوان الكلبي والي إفريقية لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة سبع وأقام في ولايتها ستين ونصفاً ولم يغز ثم قدم إليها عثمان بن أبي والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب إفريقية، وعزله لخمسة أشهر مجذبة بن الأحوص العتي فوافها سنة عشر، وعزل قريباً يقال: لسنة من ولايته، واختلف هل تقدمه عثمان أم هو تقدم عثمان.

ثم ولي بعده الهيثم بن عبيد الكلابي من قبل عبيدة بن عبد الرحمن أيضاً قدم في الحرم سنة إحدى عشرة وغزا أرض مقرشة فافتتحها وأقام عشرة أشهر.

وتوفي سنة ثلاث عشرة لستين من ولايته، وقدم بعده محمد بن عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها سنة ثلاث عشرة وغزا إفريقية، وكانت له فيهم وقائع وأجب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة فولي ستين.

اثنتين وتسعين، من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب، وانتهب معهم من السبرير زهاء عشرة آلاف فصبرهم عسكراً ونزل بهم جبل الفتح فسمي جبل طارق به، والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصين.

وبلغ الخبر لزريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم وأهل مله النصرانية في زهاء أربعين ألفاً فالتقوا بفحص شريش فهزمه إليه ونفلقهم أموال أهل الكفر ورقابهم.

وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالفنائم، فحركته الغيرة وكتب إلى طارق يتوعدة بأنه يتوغل بغير إذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج معه حسين بن أبي عبد الله المهدي الفهري.

ونهب من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فجاز إلى الأندلس.

وتلقاه طارق واثقاد واتباع، وتقم موسى الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق، وأربونة في الجوف وصنم قادس في الغرب، ودوخ أقطارها وجمع غنائمها.

وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويغرض ما بينها من بلاد الأعاجم أسم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم إلى أن يلحق دار الخلافة.

ونعى الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف، وأسر إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو وكتب له بذلك عهده ففت ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بشغورها، واستعمل ابنه عبد العزيز لغزوها، وجهاد أعدائها، وأنزله بقرطبة فالتحذها دار إمارة، واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين وارتحل إلى الشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والمجل والظهر.

يقال: كان من جملتها ثلاثون ألف فارس من السبي.

وولى على إفريقية ابنه عبد الله، وقدم على سليمان فسخطه ونكبه.

وسارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لستين من ولايته، وكان خيراً فاضلاً، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة.

وأهل فلسطين شدونة وهي شريش وسماها فلسطين، وأهل مصر تدمير وسماها مصر.

وقتل ثعلبة إلى الشرق ولحق بمروان بن محمد وحضر حروبه وكان أبو الخطاب أعرابياً عصياً أفرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية وتحامل على المضربة، وأسخط قيساً وأمر في بعض الأيام بالضميل بن حاكم كبير القيسية، وكان من طوابع بلخ وهو الضميل بن حاكم بن شمر بن ذي الجوشن، ورأس على الحضيرة، فأمر به يوماً فأقيم من مجلسه وتقنع، فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر: أقم عما منك يا أبا الجوشن، فقال: إن كان لي قوم فسقيهمونها. فسار الضميل بن حاكم زعيمهم يومئذ، وألب عليه قومه، واستعان بالمتحرفين عنه من اليمانية فخلع أبا الخطاب سنة ثمان وعشرين لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته، وقدم مكانه ثوبة بن سلامة الجذامي وهاجت الحرب المشهورة.

وخطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية فكتب إلى ثوبة بعده على الأندلس، منسلخ رجب سنة تسع وعشرين فضبط الأندلس، وقام بأمره الضميل واجتمع عليه الفريقان وهلك لستين من ولايته، ووقع الخلاف بإفريقية وتلاشت أمور بني أمية بالشرق وشغلوا عن قاصية المغرب بكثرة الخوارج، وعظم أمر المسودة بقي أهل الأندلس فوضى ونصبوا للأحكام خاصة عبد الرحمن بن كثير.

ثم اتفق جند الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضربة واليمانية، وإدالتها بين الجندين سنة لكل دولة.

وقدم المضربة على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة تسع وعشرين، واستقر سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة ثم وافقتهم اليمانية لمعاد ادلتهم واتقن بمكان عهدهم وتراضيههم واتفاقهم، فبيتهم يوسف بمكان نزلهم من شقندة من قرى قرطبة من الضميل بن حاتم والقيسية والمضربة فاستلحموهم، واستبد يوسف بما وراء البحرين عدوة الأندلس، وغلب اليمانية على أمرهم فاستكانوا للعلبة، وتربصوا بالدوائر إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل، فكان يوسف بن عبد الرحمن قد ولي الضميل بن حاتم سرقسطة، فلما ظهر أمر المسودة بالشرق ثار الحجاب بن رواحة الزهري بالأندلس داعياً لهم وحاصر الضميل بسرقسطة، واستمد يوسف فلم يمهده رجاء هلاكه بما كان يغص به وأمدته القيسية فأخرج عنه الحجاب، وفارق الضميل سرقسطة فملكها الحجاب وولى يوسف الضميل على طليطلة إلى أن كان من أمر عبد الرحمن الداخل ما نذكره.

وقال الواقدي: أربع سنين، وكان ظلوماً جائراً في حكمته وغزا أرض البشكنس سنة خمس عشرة ومائة، وأوقع بهم وغنم، ثم عزل في رمضان سنة ست عشرة وولي عتبة بن الحجاج السلوي من قبل عبيد الله بن الحجاب فقدم سنة سبع عشرة.

وأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين أرمونة، وصار مساكنهم على نهر ودونة.

ثم قام عليه عبد الملك بن قطن الفهري سنة إحدى وعشرين فخلعه وقتله.

ويقال: أخرجه من الأندلس وولى مكانه إلى أن دخل بلخ بن بشر بأهل الشام سنة أربع وعشرين كما مر فغلب عليه، وولى الأندلس سنة أو نحوها.

وقال الرازي: ثار أهل الأندلس بعقبة بن الحجاج أميرهم في صفر من سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية فكانت ولاية عقبة سنة أعوام وأربعة أشهر.

وتوفي بسرقسطة في صفر سنة ثلاث وعشرين، واستقام الأمر لعبد الملك.

ثم دخل بلخ بن بشر من أهل الشام ناجياً من وقعة كلشوم بن عياض مع البربر فثار على عبد الملك وقتله، وانحاز الفهريون إلى جانب فامتنعوا عليه وكاشفوه واجتمع عليهم ممن نكر فعلته بابن قطن وقام بأمرهم قطن وأمياً ابناً عبد الملك بن قطن، والتقوا فكانت الدبرة على الفهريين، وهلك بلخ من الجراح التي أصابته في حربهم وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من إمارته، ثم ولي ثعلبة بن سلامة الجذامي، غلب على إمارة الأندلس بعد مهلك بلخ وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه، وولى سنين أظهر فيها العدل ودانت له الأندلس عشرة أشهر إلى أن ثار به العصبة اليمانية فعرس أمره، وهاجت الفتنة.

وقدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية، وركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين فدانت له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي سعد، وابنا عبد الملك فلقبهم وأحسن إليهم واستقام أمره.

وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم، وكثر أهل الشام عنده.

ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد، وأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص لشبهها بها، وأهل قسرين حسان وسماها قسرين، وأهل الأردن رية وهي مالقة وسماها الأردن.

مسير عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتجديده الدولة بها

قرطبة فانكشف، ورجع إلى غرناطة فتحصن بها وأتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله.

ثم رغب إليه يوسف في الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة وأقفله معه، ثم نقض يوسف عهده.

وخرج سنة إحدى وأربعين ولحق بطليطلة، واجتمع إليه زهاء عشرين ألفاً من البربر، وقدم الأمير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني، كان وفد عليه من المشرق، وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم في كفالة أخيه عبد العزيز بمصر، فلما هلك سنة خمس عشرة بقي عبد الملك بمصر، فلما دخلت المسودة أرض مصر خرج عبد الملك يوم الأندلس في عشرة رجال من بيته مشهورين بالبأس والنجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة إحدى وأربعين، فعقد له على إشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور.

وسار يوسف إليهما وخرجا إليه فلقياه وتناجز الفريقان فكانت الدبرة على يوسف، وأبعد الغر وأغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة واحتز رأسه وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن فاستقام أمره واستقر بقرطبة وبني القصر والمسجد الجامع، أنفق ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه.

وبنى مساجد ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق، وكان يدعو للمصور، ثم قطعها لما تم له الملك بالأندلس، ومهد أمرها وخلد لبني مروان السلطان بها، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها.

واستلحم الشوار في نواحيها وقطع دعوة العباسيين من منابرهما وسد المذاهب منهم دونها.

وهلك سنة اثنتين وسبعين ومائة، وكان يعرف بعبد الرحمن الداخل لأن أول داخل من ملوك بني مروان هو، وكان أبو جعفر المنصور يسميه صقر بني أمية لما رأى ما فعل بالأندلس، وما ركب إليها من الأخطار، وأنه صمد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا قوة ولا أنصار فغلب على أهلها وعلى أمرهم، وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم، ثم تحلى وأطيع وأورثه عقبه.

وكان عبد الرحمن هذا يلقب بالأمير وعليه جرى بنوه من بعده فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين إذ بايع الخلافة بمقر الإسلام ومبتدأ العرب، حتى كان عبد الرحمن الناصر وهو الثامن منهم على ما تذكره فتسمى بأمير المؤمنين وتوارث ذلك بنوه واحداً بعد واحد.

لما نزل ما نزل ببني أمية بالشرق وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيها وقتل عبد الله بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة اثنتين وثلاثين ومائة وتبع بنو مروان بالقتل، فطلبوا من بعدها بطن الأرض.

وكان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، وكان قومه يتجنون له ملكاً بالمغرب، ويرون فيه علامات لذلك يؤثرونها عن مسلمة بن عبد الملك، وكان هو قد سمعها منه مشافهة.

فكان يحدث نفسه بذلك فخلص إلى المغرب، ونزل على أخواله نفرة من بربرة طرابلس.

وشعر به عبد الرحمن بن حبيب وكان قتل ابني الوليد بن عبد الملك لما دخلا إفريقية من قبله، فلحق عبد الرحمن بمغيلة ويقال بمكناسة، ويقال: نزل على قوم من زناتة فأحسنوا قبوله وأطمأن فيهم.

ثم لحق بمغيلة وبعث بداراً مولاه، إلى من بالأندلس من موالي المروانيين وأشياهم فاجتمع بهم، وبثوا له بالأندلس دعوة ونشروا له ذكراً.

ووافق ذلك ما قدمناه من الفتنة بين اليمينية والمضرية، فاجتمعت اليمينية على أمره، ورجع إليه بدر مولاه بالخبر فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين في خلافة أبي جعفر المنصور، ونزل بساحل السند وأناه قوم من أهل إشبيلية فبايعوه.

ثم انتقل إلى كورة رحب فبايعه عاملها عيسى بن مسور، ثم رجع إلى شدونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي.

ثم أتى مورور فبايعه ابن الصباح ونهز إلى قرطبة واجتمعت عليه اليمينية.

ونغي خبره إلى والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازياً بجبلجة فانقض عسكره وسار إلى قرطبة وأشار عليه وزيره الضمیل بن حاتم بالتلطف له والمكر به، فلم يتم له مراده وارتحل عبد الرحمن من المنكب فاحتل بمالقة فبايعه جندها، ثم برئدة فبايعه جندها، ثم بشريش كذلك، ثم بأشبيلية فتوافقت عليه الأمداد والأمصار، وتسايلت المضربة إليه حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غير الفهري والقيسية لمكان الضمیل منه، زحف إليه حيثنذ عبد الرحمن بن معاوية وناجزهم الحرب بظاهر

وكان لبني عبد الرحمن الداخل بهذه العدو الأندلسية ملك

ضخم ودولة متمعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة كما نذكر.

وبعث إليه العساكر فاقترب جمعه واستامن فأمنه، ثم خرج عليه سنة خمس غياث بن المستبد الأسدي، فجمع عامل باجة العساكر وسار إليه فهزمه وقتله، وبعث برأسه إلى عبد الرحمن بقرطبة.

وفي هذه السنة شرع عبد الرحمن في بناء السور على قرطبة، ثم ثار رجل بشرق الأندلس من بربر مكناسة يعرف بشقنا بن عبد الواحد، كان يعلم الصبيان وادعى أنه من ولد الحسين الشهيد، وتسمى بعبد الله بن محمد وسكن شنة برية واجتمع إليه خلق من البربر، فسار إليه عبد الرحمن فهرب في الجبال، واعتصم بها فرجع وولى على طليطلة حبيب بن عبد الملك، فولى حبيب شنة برية سليمان بن عثمان بن مروان بن عثمان بن أبان بن عثمان بن عفان، فسار إليه سليمان وقتله وغلب على ناحية فورية، فسار إليه عبد الرحمن سنة اثنتين وخمسين ومائة.

وأعياء أمره وصار يتقل في البلاد ويهزم العساكر وكان سكن بمحس شيطان من جبال بلنسية فسار إليه عبد الرحمن سنة ست وخمسين واستخلف على قرطبة ابنه سليمان فأتاه الخبر بعصيان أهل إشبيلية وثورة عبد الغفار، وحيوة بن قلاقس مع اليمانية فرجع عن شقنا، وهاله أمر إشبيلية.

وقدم عبد الملك بن عمر لقتالهم فساروا إليه ولقيهم مستميتاً فهزمهم واثخن فيهم.

ولحق بعبد الرحمن فشكرها له وجزاها خيراً ووصله بالصهر وولاه الوزارة، ونجا عبد الغفار وحيوة بن قلاقس إلى إشبيلية، فسار عبد الرحمن سنة سبع وخمسين إليها فقتلهم وقتل خلقاً ممن كان معهم، واستراب من يومئذ بالعرب فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي.

ولما كانت سنة إحدى وستين غدر بشقنا رجلاً من أصحابه وجاء برأسه إلى عبد الرحمن.

ثم سار عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالقلمي من إفريقية إلى الأندلس مظهراً للدعوة العباسية، ونزل بتدمير، واجتمع إليه البربر.

وكان سليمان بن يقظان عاملاً على برشلونة فكتب إليه يدعوه إلى أمره فلم يجبه فسار إليه في البربر، ولقيه سليمان فهزمه وعاد إلى تدمير وزحف إليه عبد الرحمن من قرطبة، فاعتصم بجبل بلنسية فبذل عبد الرحمن فيه الأموال فاغتاله رجل من أصحابه البربر، وحمل رأسه إلى عبد الرحمن وذلك سنة اثنتين وستين.

وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قسوي أمر الخلافة، واستفحل سلطانه وتجهز فرويلة بن الأدفونش ملكهم، سار إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم، ورد مديزلك وبريعال وسمورة وسلمقة وقشتالة وسقونية، وصارت للجلالة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر رئيس الدولة كما نذكر في أخباره.

ثم استعادوها بعده من بلاد الأندلس واستولوا على جميعها.

وكان عبد الرحمن عندما تمهد له الأمر بالأندلس، ودعا للسفاح، ثم خلعه واستبد بأمره كما ذكرناه.

وجد هشام بن عبد ربه الفهري خالفاً بطليطلة على يوسف من قبله، وبقي على خلافه، ثم أغزاه عبد الرحمن سنة تسع وأربعين بداراً مولاه وتما بن علقمة فحاصره - ومعه حيوة بن الوليد الحصبي، وحمزة بن عبد الله بن عمر - حتى غلباه، وجاء بهم إلى قرطبة فصلبوا.

وسار من إفريقية سنة تسع وأربعين العللاء بن مغيث الحصبي ونزل باجة من بلاد الأندلس، داعياً لأبي جعفر المنصور واجتمع إليه خلق فسار عبد الرحمن إليه، ولقيه بنواحي إشبيلية فقاتله أياماً.

ثم انهزم العللاء وقتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثيرة منهم إلى القيروان ومكة، فألقيت في أسواقها سراً ومعها اللواء الأسود.

وكاتب المنصور للعللاء ثم ثار سعيد الحصبي المعروف بالمطري بمدينة لبلة طالباً بثأر من قتل من اليمانية مع العللاء وملك إشبيلية، وسار إليه عبد الرحمن فامتنع ببعض الحصون فحاصره، وكان عتاب بن علقمة اللخمي بمدينة شدونة فأمد المطري، وبعث عبد الرحمن بداراً مولاه فحال دون المدد ودون المطري.

ثم طال عليه الحصار وقتل في بعض أيامه، وولي مكانه بالقلعة خليفة بن مروان.

ثم استامن من بالقلعة إلى عبد الرحمن وأسلموا إليه الحصن فخبره وقتل عبد الرحمن خليفة ومن معه.

ثم سار إلى غياث فحاصره بشدونة حتى استامنوا فأمنهم، وعاد إلى قرطبة فخرج عليه عبد الرحمن بن خراشة الأسدي بكورة

بتدمير فدوخ نواحيها، وهرب سليمان إلى جبال بلنسية فاعتصم بها، ورجع معاوية إلى أبيه بقرطبة.

ثم طلب سليمان العبور إلى عدوة البربر بأهله وولده فأجازه هشام وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركه أبيه.

وأقام بعدوة المغرب وسار معه أخوه عبد الله.

ثم خرج على هشام سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بطرسوسة من شرق الأندلس وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه، ودعي إلى اليمانية فملكها، وأخرج عاملها يوسف العبيسي فعارضه موسى بن فرقو في المضربة بدعوة هشام، وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقطان بمدينة برشلونة، وملك مدينة سرقسطة وواشقة، وكان هشام في شغل بأمر أخويه، فلما فرغ منهما بعث أبا عثمان عبيد الله بن عثمان بالساكن إلى مطروح فحاصره بسرقسطة أياماً، ثم أفرج عنه ونزل بطرسوسة قريباً وأقام بتحيفة، ثم غدر بمطروح بعض أصحابه وجاء برأسه إلى أبي عثمان، فبعث به إلى هشام وسار إلى سرقسطة فملكها.

ثم دخل إلى دار الحرب غازياً، وقصد ألبه والقلاع فلقي العدو وظفر بهم، وفتح الله عليه وذلك سنة خمس وسبعين، وبعث هشام العساكر مع يوسف بن نحية إلى جليقة فلقي ملكها ابن مند وهزمه وأئخن في العدو.

وفي هذه السنة دخل أهل طليطلة في طاعة الأمير هشام بعد منصرف أخويه عنهم، وقبلهم وأمنهم وبعث عليها ابنه الحكم والياً فقبضها وأقام بها.

وفي سنة ست وسبعين بعث هشام وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبه والقلاع وأئخن في نواحيها.

ثم بعثه في العساكر إلى أربونة وجرنده فأئخن فيهما ووطيء أرض سلطانية، وتوغل في بلادهم ورجع بالغنائم التي لا تحصى واستمد الطاغية بالشكس وجيرانه من الملوك فهزمهم عبد الملك، ثم بعث بالعساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى بلاد جليقة فأئخنوا في بلاد العدو وغنموا ورجعوا.

وفي هذه السنة هاجت فتنة بتاكنا وهي بلاد رندة من الأندلس، وخلع البربر هنالك الطاعة فبعث إليهم هشام بن عبد القادر بن أبان بن عبد الله مولى معاوية بن أبي سفيان فأبادهم، وخرّب بلادهم وفر من بقي منهم فدخلوا في القبائل وبقيت تاكدنا ققراء خالية سبع سنين.

وفي سنة تسع وسبعين بعث هشام الحاجب عبد الملك بن

ورجع عبد الرحمن إلى قرطبة.

ثم خرج دحية الغساني في بعض حصون البيرة، فبعث إليه شهيد بن عيسى فقتله، وخالف البربر وعليهم بحرة بن البرانس، فبعث بدران مولاه فقتله وفرق جموعهم.

وفر القائد السلمي من قرطبة إلى طليطلة وعصى بها فبعث حبيب بن عبد الملك، وحاصره فهلك في الحصار.

وزحف عبد الرحمن سنة أربع وستين إلى سرقسطة وبها سليمان بن يقطان والحسين بن عاصي، وقد حاصرها ثعلبة بن عبيد من قواده فامتنعت عليه، وقبض سليمان على ثعلبة وبعث إلى ملك الفرنج فجاء وقد تنفس عنه الحصار فدفع إليه ثعلبة.

ثم غلب الحسين على سليمان وقتله، وانفرد فحاصره عبد الرحمن حتى صالحه وسار إلى بلاد الفرنج والبشكنس ومن وراءهم من الملوك، ورجع إلى وطنه وغدر الحسين بسرقسطة، فسار إليه عامله ابن علقمة فأسر أصحابه، ثم سار إليه عبد الرحمن سنة ست وستين وملكها عنوة وقتل الحسين وقتل أهل سرقسطة.

ثم خرج سنة ثمان وستين أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن فلقبه بقسطولونة وهزمه، وأئخن في أصحابه.

ثم لقيه ثانية سنة تسع وستين فهزمه، ثم هلك سنة سبعين في أعمال طليطلة وقام مكانه أخوه قاسم وغزاه عبد الرحمن فحاصره فجاء بغير أمان فقتله.

ثم توفي عبد الرحمن سنة اثنتين وسبعين ومائة لثلاثة وثلاثين سنة من إمارته.

وفاة عبد الرحمن الداخل وولاية ابنه هشام

ولما هلك عبد الرحمن كان ابنه الأكبر سليمان والياً على طليطلة، وكان ابنه هشام على ماردة، وكان قد عهد له بالأمر.

وكان ابنه عبد الله المسكين حاضراً بقرطبة فأخذ البيعة لأخيه هشام وبعث إليه بالخبر فسار إلى قرطبة، وقام بالدولة وغص بذلك أخوه سليمان فأظهر الخلاف بطليطلة، ولحق به أخوه عبد الله وبعث هشام في أثره فلم يلحق.

وسار هشام في العساكر فحاصره بطليطلة وخالفه سليمان إلى قرطبة فلم يظفر بشيء منها وبعث هشام بن عبد الملك في أثره فقصده ماردة فحاربه عامله وهزمه الله بغير أمان ودخل في طاعته فأكرمه.

ثم بعث سنة أربع وسبعين ابنه معاوية لحصار أخيه سليمان

فقتلهم البربر بطلبيرة بشار كاتب لهم، وقتل عمروس الباقيين واستقامت تلك الناحية.

واستعمل عمروس ابنه يوسف على مدينة طليطلة ولحق بالفرنجة سنة تسع وثمانين بعض أهل الحراية، وأطعموا الفرنج في ملك طليطلة فزحفوا إليها وملكوها وأسروا أميرها يوسف وحبسوه بصخرة قيسر، وسار عمروس من فوره إلى سرقسطة ليحجمها من العدو، وبعث العساكر مع ابن عمه، فلقي العدو وهزمهم وسار إلى صخرة قيسر وقد وهن الفرنج من الهزيمة فافتتحتها، وبعث عمروس نائبه وخلص يوسف وعظم صيته.

وقعة الريض

كان الحكم في صدر ولايته قد انهزم في لذاته، واجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به، وامتنع فخلعوه وباعوا محمد بن القاسم من عمومة هشام.

وكان بالريض الغربي من قرطبة عملة متصلة بقصره، وحصره سنة تسعين ومائة وقاتلهم فغلبهم وافترقوا، وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدو، ولحقوا بالإسكندرية، ونزل بها منهم جمع وثاروا بها، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر وافتتحها وأجازههم إلى جزيرة أفریطش كما مر.

وكان مقدمهم أبا حفص عمر البلوطي، فلم يزل رئيساً عليهم وولده من بعده إلى أن ملكها الفرنج من أيديهم.

وقعة الحفرة بطليطلة

كان أهل طليطلة يكثرون الخلاف ونفوسهم قوية لحصانة بلدهم، فكانت طاعتهم ملتانة فأعيا الحكم أمرهم واستقدم عمروس بن يوسف من الثغر، وكان أصله من أهل مدينة وشقة من المولدين، وكان عاملاً عليها فدخلها في التدبير على أهل طليطلة، وكتب له بولايتها فأنسوا به وأطمانوا إليه.

ثم داخلهم في الخلع وأشار عليهم ببناء مدينة يعتزل فيها مع أصحاب السلطان فوافقوه، وأمضى رأيه في ذلك.

ثم بعث صاحب الأعلى إلى الحكم يستجده على العدو فبعث العساكر مع ابنه عبد الرحمن والرزاء، ومروا بطليطلة ولم يعرض عبد الرحمن لدخولها.

عبد الواحد بن مغيث في العساكر إلى جليقة فانتهى إلى ميورقة فجمع ملك الجلائقة واستمد بالملك، ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه، وأتبعه عبد الملك وتوغل في بلادهم وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأثنخوا في البلاد واعترضهم عسكر الإفرنج فقالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا ظافرين سالمين.

وفاة هشام وولاية ابنه الحكم

ثم توفي هشام بن عبد الرحمن سنة ثمانين ومائة لسبع سنين من إمارته وقيل: ثمان سنين، وكان من أهل الخير والصلاح، وكان كثير الغزو والجهاد، وهو الذي أكمل بناء الجامع بقرطبة الذي كان أبوه شرع فيه، وأخرج المصرف لأخذ الصدقة على الكتاب والسنة.

ولما مات ولي ابنه الحكم بعده فاستكثر من الممالك وارتباط الخيل، واستفحل ملكه وياشر الأمور بنفسه.

والأول ولايته أجاز ابنه عبد الله بلنسي من عدوة المغرب فملك بلنسية، ثم أخوه سليمان من طنجة فحاز بهما الحكم سنة ثم ظفر بعمه سليمان فقتله سنة أربع وثمانين.

وأقام عبد الله بلنسية وكف عن الفتنة وأرسل الحكم في الصلح على يد يحيى بن يحيى الفقيه وغيره فصالحه سنة ست وثمانين.

وفي خلال الفتنة مع عمه سليمان وعبد الله اغتتم الفرنج الفرصة واجتمعوا وقصدوا برشلونة فملكوها سنة خمس وثمانين، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها.

وبعث الحكم العساكر إلى برشلونة مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الجلائقة فآثخن فيها وخالفهم العدو إلى المضايق فرجع إلى التعية وظفر بهم، ورجع إلى بلاد الإسلام ظافراً.

وفي سنة إحدى وثمانين نارابهلول بن مرزوق بناحية الثغر، وملك سرقسطة، وفيها جاء عبد الله البلنسي عم الحكم كما ذكرناه.

وفي هذه السنة خالف عبيدة بن عمير بطليطلة، وكان القائد عمروس بن يوسف من قواد الحكم بطلبيرة فكتب إلى هشام بمحاصرتهم فحاصروهم.

ثم استمال بني غنشي من أهل طليطلة فقتلوا عبيدة وبعثوا برأسه إلى عمروس فبعث به إلى الحكم، وأنزل بني غنشي عنده

وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين، وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالأندلس.

ولما مات قام بأمره من بعده ابنه عبد الرحمن فخرج عليه لأول إمارته عبد الله البلنسي عم أبيه، وسار إلى تدمير يريد قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فخام عن اللقاء، ورجع إلى بلنسية ومات أثر ذلك فنقل عبد الرحمن ولده وأهله إلى قرطبة.

ثم غزا لأول ولايته إلى جليقة فأبعد وأطال الغيبة وأئخن في أمم النصرانية هنالك ورجع.

وقدم عليه سنة ست ومائتين من العراق زرآب المغني مولى المهدي ومعه إبراهيم الموصلي، واسمه علي بن نافع فركب لتلقيه وبالف في إكرامه، وأقام عنده بخير حال، وأورث صناعة الغناء بالأندلس وخلف ولده خلفه كبيرهم عبد الرحمن في صناعته وحظوته.

وفي سنة سبع كانت وقعة بالثغر كان الحكم قد قبض على عاملها ربيع، وصلبه حياً لما بلغه من ظلمه، وهلك الحكم أثر ذلك فتوافى المتظلمون من ربيع إلى قرطبة يطلبون ظلاماتهم، ومعظمهم جند البيرة ووقفوا بباب القصر وشغبوا، وبعث عبد الرحمن من يسكتهم فلم يقبلوا فركبت العساكر إليهم وأوقعوا بهم ولجأ القل منهم إلى البيرة وبالشر، وتبعهم عبد الرحمن.

وفي هذه السنة نشأت الفتنة بين المضرية واليمانية واقتتلوا، فهلك منهم نحو من ثلاثة آلاف وبعث عبد الرحمن إليهم بمحيي بن عبد الله بن خالد في جيش كثيف ليكفهم عن الفتنة فكفوا عن القتال لما أحسوا بوصوله.

ثم عاودوا الحرب عند مغيبه، وأقاموا على ذلك سبع سنين.

وفي سنة ثمان ومائتين أغزا حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى البة والقلاع فحرب كثيراً من البلاد واتسفها، وفتح كثيراً من حصونهم وصالح بعضاً على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافراً وفي سنة ثلاث عشرة انتقض عليه أهل ماردة وقتلوا عامله فبعث إليهم العساكر فافتحوها وعاودوا الطاعة وأخذوا رهاتهم وخرّبوا سورها، ورجعوا عنهم.

ثم أمر عبد الرحمن بنقل حجارة السور إلى النهر فعاودوا الخلاف وأسروا العامل وأصلحوا سورهم فسار إليهم عبد الرحمن سنة أربع عشرة ومائتين وحاصره فامتنعوا عليه.

ثم بعث العساكر سنة سبع عشرة فحاصرها فامتنعوا ثم

ثم رجع العدو وكفى الله شره، فاعتزم عبد الرحمن على العود إلى قرطبة فأشار عمروس عند ذلك على أهل طليطلة بالخروج إلى عبد الرحمن فخرج إليه الوجوه وأكرمهم، ودس خادم الحكم كتابه إلى عمروس بالخيطة على أهل طليطلة، فأشار عليهم عمروس بأن يدخلوا عبد الرحمن البلد، وأنزله بداره واتخذ صنيعاً للناس واستعد له على موعد لذلك فكان يدخلهم من باب ويخرجهم من آخر خشية الزحام فيدخلون إلى حفرة في القصر وتضرب رقابهم عليها إلى أن قتل معظمهم وفطن الباقون فنشروا وحسنت طاعتهم من بعد ذلك إلى أيام الفتنة كما نذكر، ثم عصى أصبح بن عبد الله بماردة وأخرج عامل الحكم فسار إليه الحكم وحاصره وجاءه الخبر بعصيان أهل قرطبة فرجع وقتلهم.

ثم استنزل أصبح من بعد ذلك وأنزله قرطبة.

وفي سنة اثنتين وتسعين جمع لزريق بن قار له ملك الإفرنج وسار لحصار طرطوشة فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه وفتح الله على المسلمين.

ثم عاود أهل ماردة الخلاف عن الحكم سنة أربع وتسعين فسار إليهم وقتلهم ثلاث سنين.

وكرر عيث الفرنج في الثغور فسار إليهم سنة ست وتسعين فافتتح الحصون، وخرّب النواحي وأئخن في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً.

وفي سنة مائتين بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج فسار فيها وخرّبها ونهبها وهدم عدة من حصونها، وأقبل إليه ملك الجلالقة في جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا عليه أياماً، ونال المسلمون منهم أعظم النيل، وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة، ثم كثرت الأمطار ومد النهر وقفل المسلمون ظافرين.

وفاة الحكم وولاية ابنه عبد الرحمن

الأوسط

ثم توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته، وهو أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتقة، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والخواشي، واربت الخيول على بابه واتخذ الممالك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم، وبلغت عدتهم خمسة آلاف، وكان يباشر الأمور بنفسه، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس.

فكان ذلك سبباً لانتفاضه، فعصى على عبد الرحمن وبعث إليه الجيوش مع الحارث بن زبغ فقاتله موسى وانهزم وقتل ابن عمه، ورجع الحارث إلى سرقسطة.

ثم زحف إلى تطيلة وحاصر بها موسى حتى نزل عنها على الصلح إلى أربط وأقام الحارث بتطيلة أياماً.

ثم سار لحصار موسى في أربط فاستنصر موسى بغرسية من ملوك الكفر فجاءه، وزحف الحارث وأكمنوا له فلقبهم على نهر بلبه، فخرجت عليه الكمان بعد أن أجاز النهر وأوقعوا به وأسروه، وقد فقت عينه، واستشاط عبد الرحمن لهذه الواقعة، وبعث ابنه محمداً في العساكر سنة تسع وعشرين.

وحاصر موسى بتطيلة حتى صالحه، وتقدم إلى ينبلونة فأوقع بالمشركين، عندها وقتل غرسية صاحبها الذي أجد موسى على الحارث، ثم عاود موسى الخلاف، فزحفت إليه العساكر فرجع إلى المسالة ورهن ابنه عند عبد الرحمن على الطاعة، وقبله عبد الرحمن وولاه تطيلة، فسار إليها واستقرت في عمالته.

ثم كان في هذه السنة خروج المجوس في أطراف بلاد الأندلس ظهوراً سنة ست وعشرين بساحل أشبونة، فكانت بينهم وبين أهلها الحرب ثلاثة عشر يوماً، ثم تقدموا إلى قادس، ثم إلى أشدونة، فكانت بينهم وبين المسلمين بها وقعة.

ثم قصدوا إشبيلية ونزلوا قريباً منها وقاتلوا أهلها متتصفاً الحرم من سنة ثمان وعشرين فهزمهم المسلمون وغنموا، ثم مضوا إلى باجة ثم إلى مدينة أشبونة، ثم ألقوا من هنالك وانقطع خبرهم وسكنت البلاد وذلك سنة ثلاثين، وتقدم عبد الرحمن الأوسط بإصلاح ما خربوه من البلاد، وأكف الحامية بها.

وذكر بعض المؤرخين حادثة المجوس هذه سنة ست وأربعين ومائتين ولعلها غيرها والله أعلم.

وفي سنة إحدى وثلاثين بعث عبد الرحمن العساكر إلى جليقة فدوخوها وحاصروا مدينة ليون ورموا سورها فلم يقدروا عليه، لأن عرضه سبعة عشر ذراعاً فثلّموا فيه ثلثة ورجعوا.

ثم أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم بن مغيث في العساكر إلى بلاد برشلونة فجاز في نواحيها، وأجاز الدروب التي تسمى السرب إلى بلاد الفرغة فدوخها قتلاً وأسراً وسبياً، وحاصر مدينتهم العظمى وعاث في نواحيها وقتل، وقد كان ملك القسطنطينية توفلس بن توفلس بن نوفيل، بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية ويطلب مواصلته فكافأه عبد الرحمن عن هديته، وبعث إليه يحيى الغزال من كبار الدولة، وكان

حاصرها سنة عشرين وانتحها ونجا فلهم مع محمود بن عبد الجبار منهم إلى ملت شلوط فاعتصم بها سنة عشرين ومائتين، فبعث عبد الرحمن العساكر لحصاره فلحق بدار الحرب واستولى على حصن من حصونهم أقام به خمسة أعوام حتى حاصره أذفونش ملك الجلالة، وافتتح الحصن وقتل محموداً وجميع أصحابه سنة خمس وعشرين.

وفي سنة خمس عشرة خرج بمدينة طليطلة هاشم الضراب من أهل واقعة الرض واشتدت شوكتة واجتمعت له الخلق وأوقع بأهل شنت برة، فبعث عبد الرحمن العساكر لقتاله فلم يصيبوا منه، ثم بعث عساكر أخرى فقاتلوه بنواحي دورقة فهزموه وقتل هو وكثير من أصحابه واستمر أهل طليطلة على الخلاف.

وبعث عبد الرحمن ابنه أمية لحصارها فحاصرها مدة ثم أفرج عنها ونزل قلعة رباح وبعث عسكرياً للإغارة عليها وكان أهل طليطلة قد خرجوا في اتباعه إلى قلعة رباح فكمن لهم فأوقعوا به فاغتم لذلك، وهلك لأيام قليلة.

وبعث عبد الرحمن العساكر لحصارها ثانياً فلم يظفروا، وكمن المخبرون عليها بقلعة رباح يعاودونها بالحصار كل حين.

ثم بعث عبد الرحمن أخاه الوليد في العساكر سنة اثنتين وعشرين لحصارها، وقد أشرفوا على الهلكة، وضعفوا عن المدافعة فاقتحمها عنوة وسكن أهلها وأقام إلى آخر ثلاث وعشرين ورجع.

وفي سنة أربع وعشرين بعث عبد الرحمن قريبه عبيد الله بن البلسي في العساكر لغزو بلاد ألبه والقلاع، ولقي العدو فهزمهم وكثر السبي والقتل.

ثم خرج لزريق ملك الجلالة وأغار على مدينة سالم بالثغر. فسار إليه فرنون بن موسى وقاتله فهزمه، وأكثر القتل في العدو والأسر ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبه بالثغر نكاية للمسلمين فافتحه وهدمه.

ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقة فدوخها وافتتح عدة حصون منها، وجال في أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم.

وفي سنة ست وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرغة، وانتهاوا إلى أرض سرطانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصبروا حتى هزم الله عدوهم، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود ووقعت بينه وبين بعض قواد عبد الرحمن ملاحاة، وأغلظ له القائد

ثم سار إليهم سنة ثلاث وأربعين فأوقع بهم ثانية وأنخن فيهم وخرب ضياعهم، فصالحوه ثم نكثوا.

وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكب الجحوس، ونزلوا بأشيلية والجزيرة وأحرقوا مسجدها، ثم عادوا إلى تدمير ودخلوا قصر أريولة، وساروا إلى سواحل الفرنجة وعاثوا فيها، وانصرفوا فلقبهم مراكب الأمير محمد فقاتلهم وغنموا منهم مركبين، واستشهد جماعة من المسلمين.

ومضت مراكب المشركين إلى بنبلونة، وأسروا صاحبها غرسيه وفدى نفسه منهم بسبعين ألف دينار.

وفي سنة سبع وأربعين حاصر طليطلة ثلاثين يوماً.

ثم بعث الأمير محمد سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر في العساكر إلى نواحي ألبه والقلاع فعاثوا فيها، وجمع لزيق للقائهم فلقبهم وانهزم، وأنخن المسلمون في المشركين بالقتل والأسر، وكان فتحاً لا كفاء له.

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلائقة فأخن وخرب، وانتقض عليه عبد الرحمن بن مروان الجليقي فيمن معه من المولدين، وساروا إلى التنخم، ووصل يده بأذفونش ملك جليقة فسار إلى الوزير هاشم بن عبد الرحمن في عساكر الأندلس سنة ثلاث وستين فهزمه عبد الرحمن وحصل هاشم في أسره.

ثم وقعت المراودة في الصلح على أن ينزل عبد الرحمن بطليوس ويطلق الوزير هاشماً فم ذلك سنة خمس وستين، ونزل عبد الرحمن بطليوس وكانت خربة فشيدها وأطلق هاشماً بعد ستين ونصف من أمره.

ثم تغير أذفونش لعبد الرحمن بن مروان وفارقه، وخرج من دار الحرب بعد أن قاتله ونزل مدينة أنطاكية بجبهات ماردة وهي خراب فحسنها، وملك ما إليها من بلاد أليون وغيرها من بلاد الجلائقة، واستضافها إلى بطليوس، وكان مظفر بن موسى بن ذي النون الهواري عاملاً بشت بركة فانتقض وأغار على أهل طليطلة فخرجوا إليه في عشرين ألفاً، ولقيهم فهزمهم وانهزم معهم مظفر بن عبد الرحمن، وقتل من أهل طليطلة خلق، وكان مظفر بن موسى فرداً في الشجاعة ومخلصاً من النسب ولقي شجعة صاحب بنبلونة أمير البشكنس فهزمه شجعة وأسره، وفر من الأسر ورجع إلى شنت بركة فلم يزل بها قويم الطاعة إلى أن مات آخر دولة الأمير محمد.

وفي سنة إحدى وستين انتقض أسد بن الحارث بن بديع بتاكرتا وهي رندة فبعث إليهم الأمير محمد العساكر وحاصروهم

مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما المواصله وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس.

وفي سنة ست وثلاثين هلك نصر الحفي القائم بدولة الأمير عبد الرحمن وكان يضغن على مولاه ويملاء ابنه عبد الرحمن على ابنه الآخر ولي عهده بما كانت أم عبد الله قد اصطنته، وكانت حظية عند السلطان ومنحرفة عن ابنه محمد ولي العهد، فداخلت نصراً هذا في أمرها، وداخل هو طيب الدار في أن يسم محمداً ولي العهد، ودس الطيب بذلك إلى الأمير مع قهرمانه داره وأن نصراً أكرهه على إذابة السم فيه، وباكر نصر القصر ودخل على السلطان يستفهمه عن شرب الدواء فوجده بين يديه، وقال له: إن نفسي قد بشعته فأشربه أنت فوجم، فأقسم عليه فلم يسعه خلافه فشربه وركب مسرعاً إلى داره فهلك لحينه، وحسم السلطان علة ابنه عبد الله وكان من بعدها مهلكه.

وفاة عبد الرحمن الأوسط وولاية ابنه محمد

ثم توفي عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين لإحدى وثلاثين سنة من إمارته، وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون، وكثرت الأموال عنده واتخذ القصور والمتزهات وجلب إليها الماء، وجعل له مصنعاً اتخذ به الناس شريعة.

وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه، فأتمه ابنه محمد بعده، وبني بالأندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة، واحتجب عن العامة.

ولما مات ولي مكانه ابنه محمد، فبعث لأول ولايته العساكر مع أخيه الحكم إلى قلعة رباح لإصلاح أسوارها، وكان أهل طليطلة خربوها فرمها وأصلح حالها، وتقدم إلى طليطلة فعات في نواحيها.

ثم بعث الجيوش مع موسى بن موسى صاحب تطيلة فعات في نواحي ألبه والقلاع، وفتح بعض حصونها ورجع، وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برشلونة وما وراءها فعاثوا فيها، وفتحوا حصون برشلونة ورجعوا.

ثم سار محمد سنة أربعين في جيوشه إلى طليطلة فاستمدوا ملك جليقة وملك البشكنس فساروا لإخضاعهم مع أهل طليطلة فلقبهم الأمير محمد على وادي سليط وقد أكن لهم فأوقع بهم، وبلغ عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً.

حتى استقاموا على الطاعة.

واستقام على طاعته إلى أن هلك الأمير محمد.

وكان ملك رومة والفرنجة لعده اسم فرليب بن لوزنيق.

وفاة الأمير محمد وولاية ابنه المنذر

ثم توفي الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في شهر صفر من سنة ثلاث وسبعين ومائتين وخمس وثلاثين سنة من إمارته، وولي بعده ابنه المنذر فقتل لأول ولايته هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه، وسار في العساكر لحصار ابن حفصون فحاصره بمحصن يشتر سنة أربع وسبعين، وافتتح جميع قلاعه وحصونه وكان منها ربة وهي مالقة، وقبض على واليها من قبله عيشون فقتله، ولما اشتد الحصار على ابن حفصون سأل الصلح فأجابته وأفرج عنه، فكثرت فرجع لحصاره وصالح ثم نكت مرتين فأقام المنذر على حصاره وهلك قريباً فانفجر عن ابن حفصون.

وفاة المنذر وولاية أخيه عبيد الله ابن الأمير

محمد

ثم توفي المنذر محاصراً لابن حفصون بجبل يشتر سنة خمس وسبعين ومائتين لستين من إمارته فولي مكانه أخوه عبد الله ابن الأمير محمد، وقفل بالعساكر إلى قرطبة وقد اضطربت نواحي الأندلس بالثوار، ولما كثرت الثوار قل الخراج لامتناع أهل النواحي من الأداء وكان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار، مائة ألف منها للجيش، ومائة ألف للنفقة في النواحي وما يعرض، ومائة ألف ذخيرة ووفراً فانفقوا الوفراً في تلك السنين وقل الخراج.

أخبار الثوار وأولهم ابن مروان بيطليوس

وأشبونة

قد تقدم لنا أن عبد الرحمن بن مروان انتفض على الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة خمس وخمسين في غزاته إلى بلاد الجلائقة، واجتمع إليه المولدون وصاروا إلى التخم، ووصل يده بأدفونش ملك الجلائقة فعرف لذلك بالجليقي.

وذكرنا كيف سار إليه هاشم بن عبد العزيز سنة ثلاثين في عساكر الأندلس فهزمه ابن مروان وأسر.

ثم وقع الصلح على إطلاق هاشم وأن ينزل ابن مروان

وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب وجعل طريقه على ماردة، وكان بها ابن مروان الجليقي، وممرت طائفة من عسكر المنذر بماردة فخرج عليهم ابن مروان ومعه جمع من المشركين استظهر بهم، فقتل تلك الطائفة عن آخرهم.

وفي سنة أربع وستين بعث ابنه المنذر ثانية إلى بلد بنبلونة، ومر بسرقسطة فقاتل أهلها، ثم تقدم إلى تطيلة وعاث في نواحيها وخرب بلاد بني موسى، ثم مضى لوجهه إلى بنبلونة فدوخها ورجع.

وفي سنة ست وستين أمر الأمير محمد بإنشاء المراكب بنهر قرطبة ليدخل بها إلى البحر المحيط، ويأتي جليقة من ورائها، فلما تم إنشاؤها وجرت في البحر، أصابها الريح وتقطعت فلم يسلم منها إلا القليل.

وفي سنة سبع وستين ومائتين انتفض عمر بن حفصون بمحصن يشتر من جبال مالقة وزحف إليه عساكر تلك الناحية فهزمهم، وقوي أمره وجاءت عساكر الأمير محمد فصالحهم ابن حفصون واستقام أمر الناحية.

وفي سنة ثمان وستين بعث الأمير محمد ابنه المنذر لقتال أهل الخلاف فقصد سرقسطة وحاصرها وعاث في نواحيها، وفتح حصن ربطة، ثم تقدم إلى دير بروجة، وفيه محمد بن لب بن موسى.

ثم قصد مدينة لادرة وقرطاجنة، ثم دخل دار الحرب وعاث في نواحي ألبه والقلاع وفتح منها حصوناً ورجع.

وفي سنة سبعين سار هاشم بن عبد العزيز بالعساكر لحصار عمر بن حفصون بمحصن يشتر واستنزله إلى قرطبة فأقام بها، وفيها شرع إسماعيل بن موسى ببناء مدينة لاردة، فجمع صاحب برشلونة لمنعه من ذلك، وسار إليه فهزمه إسماعيل وقتل أكثر رجاله.

وفي سنة إحدى وسبعين سار هاشم بن عبد العزيز في العساكر إلى سرقسطة فحاصرها هاشم وافتتحها، ونزلوا جميعاً على حكمه، وكان في عسكره عمر بن حفصون واستدعاه من الثغر فحضر معه هذه الغزاة فهرب ولحق بيشرت فامتنع به، وسار هاشم إلى عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحاصره بمحصن منت مولن، ثم رجع عنه فأغار ابن مروان على إشبيلية ولقت.

ثم نزل منت شلوط فامتنع فيه، وصالح عليه الأمير محمداً،

ثم خرجا من حصن شونة ولحقا بآخر من أصحاب جدهما عبد الرحمن.

ثم اضطرب الأميران ببطليوس وتنازعا وقتل أحدهما الآخر، واستقل ببطليوس، ثم تسور عبد الله منها سنة ست وثمانين فقتله وملك ببطليوس، واستفحل أمره والمعجل له الأمير عبد الله عليها ونازل حصون البرابرة حتى طاعوا له، وحارب ابن تاكيت صاحب ماردة ثم اصطلاحوا وأقاموا جميعاً طاعة الأمير عبد الله، ثم تحاربوا فأتصلت حروبهم إلى آخر دولته.

ثورة لب بن محمد بسرقسطة وتطيلة

ثم ثار لب بن محمد بن موسى بسرقسطة سنة ثمان وخسين ومائتين أيام الأمير محمد فترددت إليه الغزوات حتى استقام وأسجل له الأمير محمد على سرقسطة وتطيلة وطرسونة فأحسن حمايتها، واستفحلت إمارته فيها، ونازله ملك الجلالقة أذفونش في بعض الأيام بطرسونة، فنزل إليه ورده على عقبه منهزماً وقتل نحواً من ثلاثة آلاف من قومه وانتفض على الأمير عبد الله وحاصر تطيلة.

ثورة مطرف بن موسى بن ذي النون

الهواري بشنة برية

كان لمطرف صيت من الشجاعة وعمل من النسب والعصية، فثار في شنت برية، وكانت بينه وبين صاحب بنبلونة سلطان البشكنس من الجلالقة حروب أسره العدو في بعضها ففر من الأسر ورجع إلى شنت برية، واستقامت طاعته إلى آخر دولة الأمير محمد.

ثورة الأمير ابن حفصون في يشتر ومالقة

ورندة واليس

وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس هكذا نسب ابن حيان أول ثائر كان بالأندلس، وهو الذي افتتح الخلاف بها وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن في سني السبعين والمائتين.

خرج مجبل يشتر من ناحية رية ومالقة، وانضم إليه الكثير من جند الأندلس ممن في قلبه مرض في الطاعة.

بطليوس، فتم ذلك سنة خمس وثلاثماية ونزل عبد الرحمن بطليوس فشيدها وترس بالدولتين.

ثم تغير له أذفونش وقاتله ففارق دار الحرب، ونزل مدينة أنطاكية بجبهات ماردة فحصبها وهي خراب، وملك ما إليها من بلد اليون وغيرها من بلاد الجلالقة، واستضافها إلى بطليوس، واستعجل له الأمير عبد الله على بطليوس، وكان معه بدار الحرب سعدون السرساقي، وكان من الأبطال الشجعان، وكان دليلاً للغزو وهو من الخارجين معه.

فلما نزل عبد الله بطليوس انتزى سعدون ببعض الحصون ما بين قلنيرة وباجة ثم ملك قلنيرة وترس بأهل الدولتين إلى أن قتله أذفونش في بعض حروبه معه.

ابن تاكيت بماردة

كان محمد بن تاكيت من مصمودة، وثار بناحية النغر أيام الأمير محمد، وزحف إلى ماردة وبها يومئذ جند من العرب وكتامة، فأعمل الحيلة في إخراجهم منها، ونزلها هو وقومه مصمودة.

بقية خبر ابن مروان

ولما ملك ابن تاكيت ماردة زحف إلى العساكر من قرطبة، وجاء عبد الرحمن بن مروان من بطليوس مدداً له فحاصروهم أشهراً ثم أقبلوا.

وكان بماردة جوع من العرب ومصمودة وكتامة، فتحيل محمد بن تاكيت على العرب وكتامة وأقاربهم فأخرجهم واستقل بماردة هو وقومه، وعظمت الفتنة بينه وبين عبد الرحمن بن مروان صاحب بطليوس بسبب مظاهرتة عليه، وحاربه فهزمه ابن مروان مراراً كانت إحداها على لقت، استلحم فيها مصمودة فقصدت من جناح ابن تاكيت واستجاش بسعدون السرساقي صاحب قلنيرة فلم يفته، وعلا كعب بن مروان عليهم وتوثق أمره، وطلبه ابن حفصون في الولاية فامتنع ثم هلك إثر ذلك سنة أيام الأمير عبد الله، وولي ابنه عبد الرحمن بن مروان وأثنى في البرابرة المجاورين له وهلك لشهرين من ولايته، فقد الأمير عبد الله على بطليوس لأميرين من العرب، ولحق من بقي من ولد عبد الرحمن بحصن شونة، وكانا اثنين من أعقابها، وهما مروان وعبد الله ابنا إبنه محمد، وعمهما مروان.

ونزل إلى قرطبة بعد سنة من ولايته.

وخرج الناصر إلى يشتر فدخله وجال في أقطاره ورفع أشلاء عمر وابنه جعفر وسليمان فصلبهم بقرطبة، وخرب جميع الكنائس التي كانت في الحصون التي بناوحى رية وأعمال مالقة ثلاثين حصناً فأكثرت، وانقرض أمر بني حفصون وذلك سنة خمس عشرة وثلثمائة والبقاء لله.

ثوار إشبيلية المتعاقبون

ابن أبي عبيدة وابن خلدون وابن حجاج وابن مسلمة.

وأول الثواركان بإشبيلية أمية، ابن عبد الله الغافر بن أبي عبيدة، وكان جده أبو عبيدة عاملاً عليها من قبل عبد الرحمن الداخل.

قال ابن سعيد -ونقله عن مؤرخي الأندلس: الحجازي ومحمد بن الأشعث، وابن حيان قال: لما اضطربت الأندلس بالفتن أيام الأمير عبد الله وسما رؤساء البلاد إلى التغلب، وكان رؤساء إشبيلية المرشحون لهذا الشأن أمية بن عبد الغافر، وكليب بن خلدون الحضرمي، وأخوه خالد وعبد الله بن حجاج.

وكان الأمير عبد الله قد بعث على إشبيلية ابنه محمداً، وهو أبو الناصر والنفر المذكورون يحومون على الاستبداد، فثاروا بمحمد ابن الأمير عبد الله، وحصلوه في القصر مع أمه وانصرف ناجياً إلى أبيه.

ثم استبد أمية بولايتها على مداراتهم ودس على عبد الله بن حجاج من قتله، فقام أخوه إبراهيم مكانه فثاروا به وحاصروه في القصر، ولما أحبط به خرج إليهم مستميتاً بعد أن قتل أهله وأتلف موجوده فقتل، وعانت العامة برأسه وذلك أعوام الثمانين والثلثمائة.

وكتب ابن خلدون وأصحابه بذلك إلى الأمير عبد الله، وأن أمية خلعت وقتل فتقبل منهم للضرورة، وبعث عليهم عمه هشام بن عبد الرحمن، واستبدوا عليه وتولى كبر ذلك كريب بن خلدون، واستبد عليهم بالرياسة.

قال ابن حيان: ونسبهم في حضرموت وهم بإشبيلية نهاية في النباهة، مقتسمين الرياسة السلطانية والعلمية.

وقال ابن حزم: إنهم من ولد وائل بن حجر. ونسبهم في كتاب «الجمهرة»، وكذلك قال ابن حيان في بني حجاج.

قال الحجازي: ولما قتل عبد الله بن حجاج قام أخوه

وابتنى قلعته المعروفة به هنالك، واستولى على غرب الأندلس إلى رندة وعلى السواحل من الشجة إلى البيرة، وزحف إليه هاشم بن عبد العزيز الوزير فحاصره واستنزله إلى قرطبة سنة سبعين.

ثم هرب ورجع إلى حصن يشتر، ولما توفي الأمير محمد تغلب على حصن الحامة ورية ورندة والشجة، وغزاه المنذر سنة أربع وسبعين فافتتح جميع قلاعهم وقتل عامله برية، ثم سأل الصلح فعقد له المنذر.

ثم نكث ابن حفصون وعاد إلى الخلاف فحاصره المنذر إلى أن هلك محاصراً له فرجع عنه الأمير عبد الله، واستفحل أمر ابن حفصون والثوار وتوالت عليه الغزوات والحصار.

وكتب ابن الأغلب صاحب إفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسية بالأندلس فيما إليه وتناقل ابن الأغلب على إجابته لاضطراب إفريقية، فأمسك وأكثر الأجلاب على قرطبة وبنى حصن بلابة قريباً منها، وغزاه عبد الله وافتتح بلابة والشجة.

ثم قصده في حصنه فحاصره أياماً وانصرف عنه فاتبعه ابن حفصون فكر عليه الأمير عبد الله وهزمه وأثنى فيه، وافتتح البيرة من أعماله، ووالى عليه الحصار في كل سنة. فلما كانت وثمانين عمر بن حفصون وخالف ملك الجلالقة فنبذ إليه أمرأه بالحصون عهده، وسار الوزير أحمد بن أبي عبيدة لحصاره في العساكر فاستنجد بإبراهيم بن حجاج الثائر بإشبيلية، ولقياه فهزمهما وراجع ابن حجاج الطاعة، وعقد له الأمير عبد الله على إشبيلية، وبعث ابن حفصون بطاعته للشيجة عندما تغلبوا على القبروان من يد الأغالبة، وأظهر بالأندلس، دعوة عبيد الله.

ثم راجع طاعة بني أمية عندما هيا الله للناصر ما هياه من استفحال الملك، واستنزال الثوار، واستقام إلى أن هلك سنة ست وثلثمائة لسبع وثلاثين سنة من ثورته، وقام مكانه ابنه جعفر فاقره الناصر على أعماله، ثم دس إليه أخوه سليمان بن عمر بعض رجالاتهم فقتله لستين أو ثلاثة من ولايته، وكان مع الناصر فسار إلى أهل يشتر وملكوه مكان أخيه، وذلك سنة ثمان وثلثمائة، وخاطب الناصر فعقد له كما كان أخوه، ثم نكث وتحرر إنكائه ورجوعه.

ثم بعث إليه الناصر وزيره عبد الحميد بن سبيل بالعساكر، ولقيه فهزمه وقتله وجيء برأسه إلى قرطبة.

وقدم المولدون أخاه حفص بن عمر فانتكث ومضى على العصيان، وغزاه الناصر وجهاز العساكر لحصاره حتى استأمن له،

عند الأمير عبد الله بأنه بايع جماعة من سماسرة الشر لأخيه هشام بن محمد، ولققت بذلك شهادات اعتمد القاضي حيثئذ قبولها وأشار للساعين أن يجعلوا في الجماعة للمشهود عليهم بالبيعة بعض أعدائه فتمت الحيلة، وقتل هشام أمية الوزير وذلك سنة أربع وثمانين.

وفاة الأمير عبد الله بن محمد وولاية حافده

عبد الرحمن الناصر بن محمد

ثم توفي الأمير عبد الله في شهر ربيع الأول من آخر المائة الثالثة لست وعشرين سنة من إمارته، وولي حافده عبد الرحمن ابن ابنه محمد قاتل أخيه المطرف، وكانت ولايته من الغريب لأنه كان شاباً وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها وحازها دونهم، ووجد الأندلس مضطربة فسكنها، وقاتل المخالفين حتى أذعنوا واستنزل الثوار وحما أثر ابن حفصون كبيرهم، وحمل أهل طليطلة على الطاعة، وكانوا معروفين بالخلاف والانفاض، واستقامت الأندلس وسائر جهاتها في نيف وعشرين سنة من أيامه، ودامت أيامه نحواً من خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بتلك النواحي، وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين عندما تلاشى أمر الخلافة بالشرق، واستبد موالى الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع وعشرين وثلاثمائة فتلعب بألقاب الخلفاء، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار الحرب إلى أن انهزم عام الخندي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وعحص الله المسلمين فقعده عن الغزو بنفسه، وصار يردد الصوائف في كل سنة، فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج ما لم يطأه قبل في أيام سلفه، ومدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلام والاحتمال فيما يعن من مرضاته.

ووصل إلى سدة ملوك الجلالة من أهل جزيرة الأندلس المتأخين لبلاد المسلمين، كجهاث قشتالة ونبلونة وما إليها من الثغور الجوفية، فقبلوا يده والتمسوا رضاه، واحتقبوا جوائزه واعتطوا مركبه.

ثم سما إلى ملك العدو فتناول سبته من أيدي أهلها سنة سبع عشرة، وأطاعه بنو إدريس أمراء العدو وملوك زناتة السبرير، وأجاز إليه الكثير منهم كما نذكر في أخباره وبدأ أمره لأول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا، واستحجب موسى بن محمد بن يحيى. واستوزر عبد الملك بن جهور بن عبد الملك بن جوهر،

إبراهيم مقامه، وظاهر بني خلدون، على قتل أمية وأنزل نفسه منهم منزلة الخديم واستبد كريب وعسف أهل إشبيلية، فنصر عنه الناس وتمكن لإبراهيم الغرض، وصار يظهر الرفق كلما أظهر كريب الغلظة، وينزل نفسه منزلة الشفيق والملاطف، ثم دس للأمير عبد الله بطلب الولاية ليشتد بكتابه على كريب بن خلدون، وكتب له بذلك عهده فأظهره للعامة وثاروا جميعاً بكريب فقتلوه.

واستقام إبراهيم بن حجاج على الطاعة للأمير عبد الله وحسن مدينة قرمونة، وجعل فيها مرتبط خيوله، وكان يتردد ما بينها وبين إشبيلية.

وهلك ابن حجاج واستبد ابن مسلمة بمكانه.

ثم استقرت إشبيلية آخرأ بيد الحجاج بن مسلمة، وقرمونة بيد محمد بن إبراهيم بن حجاج، وعقد له الناصر، ثم انتقض ويث له الناصر بالعساكر، وجاء ابن حفصون لمظاهرة ابن مسلمة فهزمته العساكر، ويث له ابنه شقيقاً فلم يشفعه فبعث ابن مسلمة بعض أصحابه سرأ، فداخل الناصر في المكر به وعقد له، وجاء بالعساكر وخرج ابن مسلمة للحديث معه فغدروا به وملكوا، عليه أمره، وحملوه إلى قرطبة، ونزل عامل السلطان إشبيلية، وكان من الثوار على الأمير عبد الله قريبه، وغدر به أصحابه فقتل.

مقتل الأمير محمد ابن الأمير عبد الله ثم

مقتل أخيه المطرف

كان المطرف قد أكثر السعاية في أخيه محمد عند أبيهما، حتى إذا تمكنت سعايته وظهر سخطه على ابنه محمد لحق حيثئذ ببلد ابن حفصون.

ثم استأمن ورجع وبالغ المطرف في السعاية إلى أن حبسه أبوه ببعض حجر القصر، وخرج لبعض غزواته واستخلف ابنه المطرف على قصره، فقتل أخاه في محبسه مفتاتاً بذلك على أبيه، وحزن الأمير عبد الله على ابنه محمد، وضم ابنه عبد الرحمن إلى قصره وهو ابن يوم فربي مع ولده.

ثم بعث الأمير عبد الله ابنه المطرف بالصائفة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية فقتل المطرف بالوزير لعداوة بينهما، وسطا به أبوه الأمير عبد الله وقتله شر قتلة ثار فيها منه بأخيه محمد وبالوزير، وعقد مكان الوزير لابنه أمية فسبح على الفقراء بأنفه، وترفع على الوزراء فمقتوه وسعوا فيه

يريد الخلاف والبيعة لنفسه.

وسعى القاضي في محمد بن عبد الجبار وأنه يروم الانتفاض، واستطلع على الجلي من أمرهما وتحقق نقضهما فقتلهما سنة ثمان وثلاثمائة.

سطوة الناصر ببني إسحاق المروانيين

وهو إسحاق بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن الوليد بن إبراهيم بن عبد الملك بن مروان، دخل جداه أول الدولة ولن يزال في إكرام وعز، واستقرت الرياسة في إسحاق، وسكن إشبيلية أيام الفتنة عند ابن حجاج.

ثم هلك ابن حجاج وولي ابن مسلمة فاتهمه، وقبض عليه وعلى ولده وصهره يحيى بن حكم بن هشام بن خالد بن أبان بن خالد بن عبد الله بن عبد الملك بن الحارث بن مروان فقتل الولد والصهر وكان عنده سفير لابن حفصون فشفع في الشيخ إسحاق وولده أحمد.

ثم ملك الناصر إشبيلية من يد ابن مسلمة، فرحل إسحاق إلى قرطبة واستوزره الناصر واستوزر بنوه أحمد وابنه ومحمد وعبد الله ففتحوا الفتوحات، وكفوا المهمات، وعلت مقاديرهم في الدولة وتوفي أبوه إسحاق فورثوا مكانه في كل ربيعة، ثم هلك كبيرهم عبد الله وكان مقدمهم عند الناصر، واستوزره ثم اتهمه الناصر بالخلاف وكثرت فيهم السعيات، وصاروا في مجال الظنون فسطا بهم الناصر وغربهم في النواحي، فانزوى أمية منهم في تسعين سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وخلع الطاعة وقصده الناصر في العساكر فدخل دار الحرب وأجاره رذمير ملك الجلالقة، ثم تغير له فجاء إلى الناصر من غير عهد وعفا عنه وبقي في غمار الناس إلى أن هلك.

وأما أحمد فعزل عن سرقسطة لما نكب أبوه وبقي خاملاً مغضياً، ثم تكاثرت السعاية فيه فقتل.

وأما أحمد فبقي في جملة الناصر حتى إذا تحرك إلى سرقسطة غي عنه، ففر ولقي في مفره جماعة من أهل سرقسطة فقتلوه.

أخبار الناصر مع الثوار

كان أول فتحه أبيح له أسجه بعث إليها بداراً مولاه وحاجبه فافتتحها من يد ابن حفصون سنة ثلاثمائة، وغزا في أثرها بنفسه فافتتح أكثر من ثلاثين حصناً من يد ابن حفصون منها البيرة،

وأحمد بن عبد الملك بن سعد وأهدى له هديته المشهورة المتعددة الأصناف، ذكرها ابن حيان وغيره، وهي مما نقل من ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها، وهي خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين، وأربعمائة رطل من التبر ومصارفه خمسة وأربعون ألف دينار، ومن سبائك الفضة مائتا بكرة وإثنا عشر رطلاً من العود الهندي يختم عليه كالشمع، ومائة وثمانون رطلاً من العود الصمغي المتخير، ومائة رطل من العود الشبه المتقى، ومائة أوقية من المسك الذكي المفضل في جنسه، وخمسمائة أوقية من العنبر الأشهب المفضل في جنسه على خليفته من غير صناعة ومنها قطعة ململمة عجبية الشكل، وزن مائة أوقية، وثلاثمائة أوقية من الكافور المترفع الذكاء.

ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب للباس الخلفاء، مختلفة الألوان والصنائع، وعشرة أفرية من عالي جلود الفنك الخراسانية، وستة من السراوقات العراقية، وثمان وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب، وثلاثون شقة الغريون من الملاحف لسروج الهبات، وعشرة قناطير من السمور فيها مائة جلد، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من الحرير المتقى للاستغزال، وثلاثون بساطاً من الصوف، وعشر مائة منقاة مختلفة، ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة، وخمسة عشر من نخاخ الخز المقطوع شطرها.

ومن السلاح والعدة ثمانمائة من تحافيف الزينة أيام البروز والمواكب، وألف ترس سلطانية، ومائة ألف سهم من النبال البارة الصنعة، ومن الظهر خمسة عشر فرساً من الخيل العرب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت، وعشرون من بغال الركاب مسرحة ملجمة بمراكب خلافة، ولجم بغال مجالس سروجها خز جعفري عراقي، ومائة فرس من عتاق الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات، ومن الرقيق أربعون وصيفاً، وعشرون جارية متخيرات بكسوتهن وزيتهن، ومن سائر الأصناف ومن الصخرسيات ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار، وعشرون ألف عود من الخشب من أجل الخشب وأصلبه وأقدمه، قيمته خمسون ألف دينار، وعرضت الهدية على الناصر سنة سبع وعشرين فشكرها وحسن لديه موقعها.

سطوة الناصر بأخيه القاضي ابن محمد

كان محمد بن عبد الجبار ابن الأمير محمد، وعبد الجبار هو عم أبي الناصر قد سعى عنده في أخيه القاضي ابن محمد، وأنه

أخبار طليطلة ورجوعها إلى الطاعة

قال ابن حبان: اختطفها ديرنيقيوش الجبار، وكان قواد رومة ينزلونها دار ملك، ثم ثار بها برباط من نجدانية فملكها، واختلف قواد رومة على حصاره.

ثم وثب به بعض أصحابه فقتله وملكها.

ثم قتل ورجعت إلى قواد رومة، ثم انتقض أهلها وولوا أميراً منهم اسمه أنيش.

ثم قتل ورجعت إلى قواد رومة، وقام أولهم شتيلة، وأطاعه أهل الأندلس، وامتنع على ملوك رومة.

ثم غزاهم وحاصر رومة وفتح كثيراً من بلادها، ورجع إلى طليطلة، وثار عليه البشكنس فظهر عليهم وأوقع بهم، ولحقوا بالجلال، وهلك شتيلة بعد تسع، وملك مكانه على الغوط بسيلة ست سنين، ولم يغن فيها.

ثم ولي منهم هندس، وغزا إفريقية، وولي بعده قناب، وبنى الكنائس وبلغه خبر المبعث فقال له بليان، وكان من أكابر الغوط وأعاضهم: وجدت في كتاب مطريوس العالم عن دانيال النبي أنهم يملكون الأندلس.

ثم هلك قنابار وملك ابنه ست عشرة سنة، وكان مسيئ السيرة.

وولي بعده لزريق ثم لم تزل طليطلة دار فتنة وعصبية ومنعة، أنعت عبد الرحمن الداخل سبع سنين، وانتقضت على هشام والحكم وعلى عبد الرحمن الأوسط، إلى أن جاء الناصر فأدخلهم في الطاعة كرهاً لما أكمل فتح ماردة وبطليوس وتسترين، سار إليهم في العساكر وحاصروهم، وجاء الطاغية يظاهاهم فدافعه الناصر، وجشم عليها فخرج أميرهم ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث إلى الناصر فاستقال واستأمن فأمناه وعفا عنه، ودخلها الناصر وجال في أقطارها ورجع عنها، فلم يزالوا مستقيمين على الطاعة بعد.

أخبار الناصر مع أهل العدة

ثم سما للناصر أمل في ملك عدوة البربر من بلاد المغرب، فافتتح أمره بملك سبعة من بني عصام ولانها، واستدعى أمراء البربر بالعدة، وبلغ الخبر إبراهيم بن محمد أمير بني إدريس فبادر إلى سبته، وحاصرها أنفة من عبور الناصر إليهم، ثم استقال

ودوخ سائر أقطاره وضيق نخقه بالحصار، واستنزل سعيد بن مزبل من حصن المتلون وحصن سمان.

وفي سنة إحدى وثلاثمائة ملك إشبيلية من يد أحمد بن مسلمة كما ذكرناه.

ثم سار سنة اثنتين وثلاثمائة في العساكر فنازل حصون ابن حفصون وانتهى إلى الجزيرة الخضراء، وضبط البحر ونظر في أساطيله واستكثر منها، ومنع ابن حفصون من البحر، وسأله في الصلح على لسان يحيى بن إسحاق المرواني فعد له.

ثم أغزى إسحاق بن محمد القرشي إلى الشوار بمرسية وبلنسية فأنخن في نواحيها، وفتح أريولة وأغزى بدرأ مولاه إلى مدينة لبة، فاستنزل منها عثمان بن نصر الثائر بها وساقه مقيداً إلى قرطبة، ثم أغزى إسحاق بن محمد سنة خمس وثلاثمائة مدينة قرونة فملكها من يد حبيب بن سواره، كان ثائراً بها.

وفتح حصن ستمرية سنة ست، وحصن طرش سنة تسع.

وأطاعه أحمد بن أضحى المهداني الثائر، بمحسن الجامة، ورهن ابنه على الطاعة، وغزا ابن حفصون سنة أربع عشرة فردته العساكر المجمرة لحصاره، ورجع وبعث إليه حفص يستأمنه فأمناه، وجاء إلى قرطبة وملك الناصر يشتر كما مر.

ثم انتقض سنة خمس وعشرين أمة بن إسحاق في تسترين، وقد مر ذكر أوليته ومحمد بن هشام التجبي في سرقسطة، ومطرف بن مندف التجبي في قلعة أيوب فغزاهم الناصر بنفسه، وبدأ بقلعة أيوب فحاصرها وقتل مطرف في أول جولة عليها، وقتل معه يونس بن عبد العزيز، ولجا أخوه إلى القصبه حتى استأمن وعفا عنه، وقتل من كان معهم من النصرانية أهل ألبه وافتتح ثلاثين من حصونهم، وبلغه انتفاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها في بنبلونة، ودوخ أرضها واستباحها ورجع.

ثم غزا سنة سبع وعشرين وثلاثمائة غزوة الخندق إلى جليقة فانهمز، وأصيب فيها المسلمون وأسر محمد بن هاشم التجبي، وحاول الناصر إطلاقه فأطلق بعد ستين وثلاثة أشهر.

وقعد الناصر بعدها عن الغزو بنفسه وصار يردد البعوث والصرائف.

ونار سنة ثلاث وأربعين مجاهات ماردة ثائر وتوجهت إليه العساكر فجاؤوا به وبأصحابه ومثل بهم وقتلوا.

وكاتب الناصر بالولاية.

وأما إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكوك من الإدارة فبادر بولاية الناصر، وكتبه وأهدى إليه، وتقبل أثره في ذلك محمد بن خزر أمير مغراوة، وموسى بن أبي العافية أمير مكناسة، وهو يومئذ صاحب المغرب بعد أن ملك قواعد المغرب الأوسط، وهي تنس ووهران وشرشال والبطحاء.

وأهدوا إلى الناصر فقبل وكافهم وأحكم ولايتهم، وبادر جماعة من الإدارة إلى مثل ذلك منهم: القاسم بن إبراهيم والحسن بن عيسى، وأهدى صاحب فاس هدية عظيمة وعقد له الناصر على أهل بيته.

ولما فشت دعوة الناصر في المغرب الأقصى بعث عبيد الله المهدي قائده أن يصل أمير مكناسة، وعامل تاهرت فزحف في العساكر إلى المغرب سنة إحدى وعشرين، وكتب موسى بن أبي العافية إلى الناصر يستجده، فأخرج إليه قاسم بن طلمس في العساكر، ومعه الأسطول فوصل إلى سبتة وبلغه الخبر بأن موسى بن أبي العافية هزم عساكر حميد فاقصر ورجع حسبما هو مذكور في أخبارهم.

أخبار الناصر مع الفرنجة والجلالة

وكان في أول المائة الرابعة ملك على الجلالة أردون بن رذمير بن برمذ بن قريولة بن أذفونش بن بيطر.

وخرج سنة اثنين وثلاثمائة إلى الثغر الجوفي لأول ولاية الناصر، وعاث في جهات ماردة، وأخذ حصن الخنش، وبعث الناصر وزيره أحمد بن عبدة في العساكر إلى بلاده فدوخها، ثم أغزاه ثانية سنة خمس فنكت وقتل.

ثم أغزى بدرأ مولاه فدوخ ورجع.

ثم غزا بنفسه بلاد جليقة سنة ثمان واستنصر أردون بشانجة بن غرسية ملك البشكنس وصاحب بنبولة فهزمهم الناصر، ووطى بلادهم وخربها، وفتح حصونهم وهدمها وردد الغزو بعد ذلك في بلد غرسية إلى أن هلك أذفونش وولي بعده ابنه فرويلة.

قال ابن حبان: لما ملك فرويلة بن أردون بن رذمير ملك الجلالة سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ملك أخوه أذفونش ونازعه أخوه شانجة واستقل غرسية بليون من قواعد ملكهم، وظاهر أذفونش على أمره ابن أخيه وهو أذفونش بن فرويلة، وصهره شانجة فانهمزوا واقتربت كلمتهم.

ثم اجتمعوا ثانية وخلصوا شانجة وأخرجوه عن مدينة ليون ففر إلى قاصية جليقة، وولى أخاه رذمير بن أردون على ملكه بغربي جليقة إلى قلنسرية، وهلك شانجة إثر ذلك ولم يعقب. واستقل أذفونش وخرج على أخيه رذمير وملك مدينة سنت ماذكش.

ثم أكتروا عليه العذل في نزوعه عن الرهبانية فرجع إلى رهبانيته.

ثم خرج ثانياً وملك مدينة ليون وكان رذمير أخوه غازياً إلى سمورة، فرجع إليه وحاصره بها حتى اقتحمها عليه عنوة سنة عشرين وثلاثمائة فحبسه، ثم سمله في جماعة من ولد أبيه أردون خافهم على أمره وكان غرسية بن شانجة ملك البشكنس لما هلك قام بأمرهم بعده اخته طوطة وكفلت ولده.

ثم انتقضت سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بليون وردد عليها الغزوات.

وفي أثناء هذه الغزوات نازل محمد بن هشام التجيبي سرقسطة حتى أطاع كما مر، وكذا أمية بن إسحاق في تسترين، وكان الناصر سنة اثنين وعشرين قد غزا إلى وحشمة، واستدعى محمد بن هشام من سرقسطة فامتنع ورجع إليه، وافتتح حصونه وأخذ أخاه يحيى من حصن روطه.

ثم رحل إلى ينبلونة فجاءته طوطة بنت أنثير بطاعتها وعقد لابنها غرسية بن شانجة على ينبلونة.

ثم عدل إلى البلة ويسانطها فدوخها وخرب حصونها. ثم اقتحم جليقة وملكها يومئذ رذمير بن أردون فخام عن اللقاء ودخل هو وحشمه فنازله الناصر فيها، وهدم برغث وكثيرا من معاقلمهم، وهزمهم مراراً ورجع.

ثم كانت بعدها غزوة الخندق ولم يغز الناصر بعدها بنفسه. وكان يردد الصوائف وهابته أمم النصرانية ووفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب القسطنطينية وهديته وهو يومئذ قسطنطين بن ليون بن شل، واحتفل الناصر للقائهم في يوم مشهود، وكتب فيه العساكر بالسلاح في أكمل هيئة وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف السور، وجعل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقرباء، ورتب الوزراء والخدمة في مواقعهم، ودخل الرسل فهاهم ما رأوا وقربوا حتى أدوا رسالتهم. وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل، ويعظموا أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه،

وذلة عدوه فاستعدوا لذلك.

ثم بهرهم حول المجلس فرجعوا وشرعوا في الغزل فارتج عليهم، وكان فيهم أبو علي القالي وافد العراق، كان في جملة الحكم ولي العهد، وندبه لذلك استتاراً لفخره، فلما وجروا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطي من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد في ذلك بشيء فخطب واستخفر، وجلا في ذلك القصد، وأنشد آخره شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض ففاز بفخر ذلك المجلس، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع.

وأعجب الناصر به وولاه القضاء بعدها، وأصبح من رجالات العالم، وأخباره مشهورة وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره.

ثم انصرف هؤلاء الرسل وبعث الناصر معهم هشام بن كليب إلى الجاثليق ليجدد الهدنة، ويؤكد المودة، ويحسن الإجابة. ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء، وجاءت معه رسل قسطنطين.

ثم جاء رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ هوتو، وآخر من ملك اللمان، وآخر من ملك الفرنجية وراء المغرب، وهو يومئذ أخوه وآخر من ملك الفرنجية بقاصية المشرق، وهو يومئذ كلد.

واحتفل السلطان لقُدومهم وبعث مع رسل الصقالبة ريفا الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجعوا بعد سنتين.

وفي سنة أربع وأربعين جاء رسول أردون بن رذمير وأبوه رذمير وهو الذي سمل أخاه أذفونش وقد مر ذكره، بعث يخطب السلم فعقد له.

ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فردلند بن عبد شلب قومس قشتالية فردلند وقد مر ذكره، ومال إلى أردون بن رذمير كما ذكرناه.

وكان غرسية بن شانجة حافد الطوطة بنت أسنين ملكة البشكنس فامتعضت لحل حافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير الملك، وأعانه حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه، وجاء ملك جليقة فرد عليه ملكه وخلع الجلائفة طاعة أردون، وبعث إلى الناصر يشكوه على فعلته، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك، وبما ارتكبه فردلند قومس قشتالية وعظيم قوامه في نكته، ووثوبه، ونفر بذلك عند الأمم ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك.

ولما وصل رسول كلد ملك الإفرنجية بالمشرق كما تقدم، وصل معه رسول مغيرة بن شبير ملك برشلونة وطركونة، راغباً في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يطلب المودة فأجيب.

سطوة الناصر بابنه عبد الله

كان الناصر قد وشحه ابنه الحكم وجعله ولي عهده وآثره على جميع ولده ودفع إليه كثيراً من التصرف في دولته وكان أخوه عبد الله يساميه في الرتبة فغض لذلك وأغراه الحسد بالنكته فنكث وداخل من في قلبه مرض من أهل الدولة فأجابه، وكان منهم ياسر الفتى وغيره.

ونمي الخبر بذلك إلى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجلي فيه، وقبض على ابنه عبد الله وعلى ياسر الفتى وعلى جميع من داخلهم وقتلهم أجمعين سنة ثلاث وتسعين.

مباني الناصر

ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد المباني والقصور، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد اختلفوا في ذلك، وبنوا قصورهم على أكمل الاتفاق والضحامة، وكان منها المجلس الزاهر، والبهو الكامل والقصر المنيف فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم، وسماه دار الروضة، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية.

ثم أخذ في بناء المتزهات فاتخذ مينا الساعة خراج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل على بعد المسافة.

ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها منزله وكرسياً للملك، فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا على مبانيهم الأولى واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج ومسارح الطيور ومظلة بالشباك واتخذ فيها داراً لصناعة آلات من آلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن.

وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس.

وفاة الناصر وولاية ابنه الحكم المستنصر

ثم توفي الناصر سنة خمسين وثلاثمائة أعظم ما كان سلطانه، وأغز ما كان الإسلام بملكه.

وكان له قضاة أربعة: مسلم بن عبد العزيز وأحمد بن بقي بن خلدة، ومحمد بن عبد الله بن أبي عيسى ومنذر بن سعيد البلوطي.

ولما توفي الناصر ولي ابنه الحكم وتلقب المستنصر بالله، وولى على حجابته جعفر المصحفي، وأهدى له يوم ولايته هدية كان فيها من الأنصاف ما ذكره ابن حيان في «المقتبس» وهي مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة، كاملو الشبيكة والأسلحة من السيوف والرماح، والدرق والتراس والقلانس الهندوية، وثلاثمائة ونيّف وعشرون درعاً مختلفة الأجناس، وثلاثمائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هندية، وخسون خوذة حبشية من حبشيات الإفرنجية غير الحبش التي يسمونها الطاشانية وثلاثمائة حرية إفريقية، ومائة ترس سلطانية الجنس، وعشرة جواشن نقية مذهبة، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس، ولأول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور، فغزوا الحكم بنفسه واستباحها، وقفل فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه.

ثم أغزى غالباً مولاه بلاد جليقة، وسار إلى مدينة سالم قبل الدخول لدار الحرب فجمع له الجلالقة، ولقيهم على أشنة فهزمهم واستباحهم، وأوطأ العساكر بلاد فردلند القومس، ودوخها وكان شاذجة بن رذمير ملك البشكنس قد انتقض، فأغزاه الحكم يحيى بن محمد التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر.

وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم، وامتنعوا في حصونهم. وعات في نواحيها وأغزى الهذيل بن هاشم ومولاه غالباً، فعاناً فيها وقفلاً وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس على يد غالب، فعرمها الحكم واعتى بها.

ثم فتح قطرية على يد قائد وشقة، وغنم ما فيها من الأموال والسلاح والآلات والأقوات.

وغنم ما في بسيطة من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي ما لا يحصى.

وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلاد ألبنة ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون، فأخذ حصن

غرماج، ودوخ بلادهم وانصرف.

وظهرت في هذه السنة مراكب الجوس في البحر الكبير، وأفسدوا بسايط أحشيتون وناشبهم الناس القتال، فرجعوا إلى مراكبهم.

وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماجس بتعجيل حركة الأسطول.

ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل.

ثم كانت وفاة أردون بن أذفونش ملك الجلالقة، وذلك أن الناصر لما أعان عليه شاذجة بن رذمير وهو ابن عمه وهو الملك من قبل أردون وحمل النصرانية، واستظهر أردون بصره فردلند قومس قشتيلية، ثم توقع مظاهرة الحكم لشاذجة كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر بالوفادة على الحكم مستجيراً به فاحتفل لقدمه، وكان يوماً مشهوداً وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله.

ووصل إلى الحكم وأجلسه ووعده بالنصر على عدوه، وخلع عليه لما جاء ملقياً بنفسه، وعاقده على موالة الإسلام ومقاطعة فردلند القومس، وأعطى على ذلك صفقة يمينه، ورهن ولده غرسية، ودفعت الصلات والحمالات له ولأصحابه، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة بقرطبة ولبد بن مغيث القاضي، وأصبح بن عبد الله بن نبيل الجاثليق، وعبد الله بن قاسم مطران طليطلة ليوطوا له الطاعة عند رسميته، ويقبضوا رهنه، وذلك سنة إحدى وخمسين.

وعند ذلك بعث ابن عمه شاذجة بن رذمير ببيعته وطاعته مع قلب من أهل جليقة وسمورة وأساقفهم يرغب في قبوله، ويبقى بما فعل أبوه الناصر معه فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين.

ثم بعث قومس الفرنجة برسل ومسيرة أثناء سير ملك برشلونة وطركونة وغيرها يسألان تجديد العهد، وإقرارهما على ما كانا عليه، وبعثا بهدية وهي عشرون صبيّاً من الحصيان الصقالبة، وعشرون قطاراً من الصوف السمور، وخمسة قناطير من الفرسدس، وعشرة أذراع صقلية، ومائتا سيف إفريقية، فقبل هديتهم وعقد لهم على أن يهدموا الحصون التي يقرب الثغور، وعلى أن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وأن يندروهم بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين.

ثم وصلت رسل غرسية بن شاذجة ملك البشكنس في جماعة

لأحد من قبله ولا من بعده، إلا عما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء.

ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، أمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة، واقتحامهم إيها عنوة كما نثير إليه بعد، واتصلت أيام الحكم المستنصر، وأوطأ العساكر أرض العدو من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقى دعوته ملوك زناتة ومغراوة ومكناسة فبثوا في أعمالهم، وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما يليهم، ووفد عليه ملوكهم من آل خزر وبني أبي العافية، فاجزل صلتهم وأكرم وفادتهم.

وفاة الحكم المستنصر وبيعة ابنه هشام

المؤيد

ثم أصابت الحكم العلة، فلزم الفراش إلى أن هلك سنة ست وستين وثلاثمائة لست عشرة سنة من خلافته، وولي من بعده ابنه هشام صغيراً مناهز الحلم، وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر، نقله من خطة القضاء إلى وزارته، وفوض إليه في أموره فاستقل وحسنت حاله عند الحكم، فما توفي الحكم بويع هشام ولقب المؤيد بعد أن قتل ليلتذ أخو الحكم المرشح لأمره، تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بمالأة جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه، وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم، ومن خصيان القصر ورؤسائهم فائق وجودر، فقتل محمد بن أبي عامر المغيرة وبايع لهشام.

أخبار المنصور بن أبي عامر

ثم سما محمد بن أبي عامر المتغلب على هشام لمكانه في السن، وثاب له رأي في الاستبداد فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضها ببعض.

وكان من رجال البيعة من مغافر واسمه محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المفايري، دخل جسده عبد الملك مع طارق، وكان عظيماً في قومه، وكان له في الفتح أثر، فاستوزره الحكم لابنه هشام كما ذكرنا.

فلما مات الحكم حججه محمد وغلب عليه ومنع الوزراء من

من الأساقفة والقواميس يسألون الصلح، بعد أن كان توقف فعقد لهم الحكم ورجعوا.

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة وردت أم لزريق بن بلاكش القومس بالقرب من جليقة، وهو القومس الأكبر، فأخرج الحكم لتلقيها، واحتفل لقدومها في يوم مشهود فوصلها وأسعفها، وعقد السلم لابنتها كما رغبت وأحبت، ودفع لها مالاً تقسمه بين وفدها، وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلوات لسفرها وانطلقت.

ثم أوطأ عساكره من أرض العدو من المغرب الأقصى والأوسط وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبثوا في أعمالهم، وخطبوا بها على منابرهم، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم.

ووفد عليه ملوكهم من آل خزر وبني أبي العافية فاجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرتهم واستنزل بني إدريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الريف، وأجازهم البحر إلى قرطبة، ثم أجلاهم إلى الإسكندرية حسبما نثير إلى ذلك كله بعد.

وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جماعة للكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله.

قال ابن حزم: أخبرني بكية الخصي وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان، أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير، فأقام للعلم والعلماء سلطاناً نفقت فيها بضائعه من كل قطر.

ووفد عليه أبو علي القالي صاحب كتاب «الأمالي» من بغداد فأكرم مثواه وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه، وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويسرب إليهم الأموال لشراؤها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهده وبعث في كتاب «الأغاني» إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، وكان نسبه في بني أمية، وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه، قبل أن يخرج به بالعراق.

وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، وأمثال ذلك وجمع بداره الخذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن

الوصول إليه إلا في النادر من الأيام يسلمون وينصرفون.

وأرخص للجند في العطاء وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين، ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضها ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل بهم وفرق جموعهم.

وأول ما بدأ بالصقالية الخصيان بالقرصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ثم أصرهم إلى غالب مولى الحكم، وبالع في خدمته والتصح له، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة.

ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة الفازع إلى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناة والبربر.

ثم قتل جعفر عماله ابن عبد الودود وابن جوهر وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم.

ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدو من رجال زناة والبرابرة فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة، وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم، فتغلب على هشام وحججه واستولى على الدولة، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته مع تعظيم الخلافة والخضوع لها، ورد الأمور إليها وترديد الغزو والجهاد، وقدم رجال البرابرة زناة، وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وابتنى لنفسه مدينة فنزلها وسماها الزاهرة، ونقل إليها خزان الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والأوامر والمخاطبات باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر، وكسب اسمه في السكة والطرز، وعمر ديوانه بما سوى ذلك.

وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرغبة، وقهر من يطاول إليها من الغلبة فظفر من ذلك بما أراد وردد الغزو بنفسه إلى دار الحارث، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم ينكسر له فيها راية، ولا قل له جيش، ولا أصيب له بعت، ولا هلكت سرية، وأجاز عساكره إلى العدو، وضرب بين ملوك البرابرة بعضهم في بعض، فاستوثق ملكه بالمغرب وأذعت له ملوك زناة، وانقادوا لحكمه وأطاعوا

لسلطانه، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر لما سخط زيري بن عطية ملكهم لما بلغه من إعلانه بالنيل منه والغض من ملكهم، والثأف لحجر الخليفة هشام، فأوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين، ونزل بفاس وملكها، وعقد للملوك زناة على المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها على ما نشير إليه بعد، وشرد زيري بن عطية إلى تاهرت، وأبعد المفر، وهلك في مفره، ثم قفل عبد الملك إلى قرطبة واستعمل واضحاً على المغرب، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً وأشد استيلاء سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بمدينة سالم منصرفة من بعض غزواته، ودفن هنالك وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه.

المظفر بن المنصور

ولما هلك المظفر قام بالأمر من بعده أخوه عبد الرحمن، وتلقب بالناصر لدين الله، وجرى على سنن أبيه وأخيه في حجر الخليفة هشام، والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه.

ثم ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة، فطلب من هشام المؤيد أن يوليئه عهده فأجاب، وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوماً مشهوداً، وكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن برد بما نصه:

هذا ما عهد هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الذي عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه ببيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة ونصب إليه من أمر المؤمنين وأتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه، ونزل مقدوره به ولم يرفع هذه الأمة علماً تساوي إليه، وملجأ تنعطف إليه، أن يلقي ربه تبارك وتعالى مفزطاً ساهياً عن أداء الحق إليها، واعتبر عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق أن يستند هذا الأمر إليه، ويعول في القيام به عليه ممن يستوجه بدينه وأمانته، وهديه وصيائته، بعد أطراح الهوى والتحري للحق والتزلف إلى الله عز وجل بما يرضيه، وبعد أن قطع الأقاصي وأسخط الأقارب فلم يجد أحداً يوليئه عهده ويفوض إليه الخلافة بعده غيره لفضل نسبه، وكرم خيمه، وشرف مرتبته، وعلو منصبه، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه وتقواته، المأمون العيب الناصح الحبيب أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، وفقه الله تعالى إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره فراء مسارعاً في الخيرات، سابقاً إلى

وأعقاب الخلفاء، ولقبوه المهدي وطار الخبر إلى الحجاب بمكانه من الثغر فانقض جمعهم، وقفل إلى الحضرة مدلاً بمكانه زعيماً بنفسه، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الجند ووجوه البربر، ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي القائم بالأم، وأغروه بالناصر واعترضه منهم من تقبض عليه، واحتز رأسه وحمله إلى المهدي، وإلى الجماعة وذهبت دولة العامرين.

ثورة البربر وبيعة المستعين وفرار المهدي

كان الجند من البرابرة وزناة قد ظاهروا المنصور على أمره وأصبحوا شيعاً لبيته من بعده، ورؤسائهم يومئذ زاوي بن مناد الصنهاجي وبنو مكير ابن أخيه زيري، ومحمد بن عبد الله البرزلي، ونصيل بن حميد المكناسي الفازع أبوه عن العبيدين إلى الناصر، وزيري بن غزاة المتيطي، وأبو زيد بن دوناس اليفرني، وعبد الرحمن بن عطاء اليفرني، وأبو نور بن أبي قرة اليفرني، وأبو الفتح بن ناصر وحزرون بن محسن المغراوي، وبكساس بن سيد الناس، ومحمد بن ليلى المغراوي فيمن إليهم من عشائهم، فلحقوا بمحمد بن هشام لما رأوا من انتقاض أمر عبد الرحمن وسوء تدبيره.

وكانت الأموية تمتد عليهم ما كان من مظاهرتهم العامرين، وتنسب إليهم تغلب المنصور وبنه على أمرهم فسخطهم القلوب، وخزرتهم العيون، وتنفتت بذلك صدور الغوغاء من أذبال الدولة، ولفظت به السنة الدهماء من المدينة.

وأمر محمد بن هشام أن لا يركبوا ولا يتسلحوا وردوا في بعض الأيام من باب القصر، وانتهبت العامة يومئذ دورهم، ودخل زاوي وابن أخيه حساسة وأبو الفتح بن ناصر على المهدي شاكين بما أصابهم، فاعتذر إليهم وقتل من آذاهم من العامة في أمرهم، وكان مع ذلك مظهراً لبغضهم مجاهرأ بسوء الشاء عليهم.

وبلغهم أنه سره الفتك بهم فتشمت رجالاتهم، وأسروا نجواهم، وانفقوا على بيعة هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وفشا في الخاصة حديثهم، فعوجلوا عن أمرهم ذلك، وأغرى بهم السواد الأعظم، فثاروا بهم وأزعجوه عن المدينة، وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر، وأحضرا بين يدي المهدي فضرب عقيبهما، ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر وزناة وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتآمروا فبايعوه ولقبوه المستعين بالله، ونهضوا به إلى ثغر طليطلة فاستجاش بابان

الجلديات، مستولياً علي الغايات، جامعاً للمائرثات، ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبيل البرّ مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه.

مع أن أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الغيب، رأى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»، فلما استوى له الاختيار وتقابلت عنده الآثار، ولم يجد عنه مذهباً ولا إلى غيره معدلاً خرج إليه من تدبير الأمور في حياته، وفوض إليه الخلافة بعد وفاته، طائعاً راضياً مجتهداً، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنفذه، ولم يشترط فيه ثنياً ولا خياراً، وأعطى علي الوفاء به في سره وجهه، وقوله وفعله، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه ﷺ، وذمة الخلفاء الراشدين من آبائه، وذمة نفسه أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول.

وأشهد علي ذلك الله والملائكة وكفى بالله شهيداً، وأشهد من أوقع اسمه في هذا، وهو جائر الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور، وفقه الله تعالى وقيد له ما قلده، وألزمه نفسه ما في الذمة.

وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم.

وتسمى بعدها بولي العهد.

ونقم أهل الدولة عليه ذلك فكان فيه حشفه، وانقراض دولته ودولة قومه والله وارث الأرض ومن عليها.

ثورة المهدي ومقتل عبد الرحمن المنصور وانقراض دولتهم

ولما حصل عبد الرحمن المنصور على ولاية العهد، ونقم ذلك الأمويون والقرشيون وغصوا بأمره وانفقوا على تحويل الأمر جملة من المضربة إلى اليمنية فاجتمعوا لشأنهم، وتمشت من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من الحجاب الناصر ببلاد الجلالة في غزاه من صوائف، ووثبوا بصاحب الشرطة فتنكوا به بمقعدة من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وخلعوا هشاماً المؤيد، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعياص الملك،

أذفونش. ذلك، بأن نزلوا له عن غور قشتالة التي كان المنصور اقتحمها فسكن عزمه، وسكن عن مظاهرتهم، ثم اتصل الحصار بمخفق البلد، وصدق البرابرة القتال فاقتموها عنوة سنة ثلاث وأربعمائة، وفتكوا بهشام المؤيد، ودخل المستعين ولحق بأهل قرطبة من البرابرة في نسايتهم ورجلهم وبناتهم وأبنائهم ومنازلهم.

وظن المستعين أن قد استحكم أمره، وتوثبت البرابرة والعبيد على الأعمال فولوا المدن العظيمة، ونقلدوا الأعمال الواسعة مثل باديس بن حبوس في غرناطة ومحمد بن عبد الله البرزالي في قرمونة وأبو ثور بن أبي شبل بالأندلس، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة مثل ابن عباد بإشبيلية، وابن الأفضس بيطليوس وابن ذي النون بطليلة، وابن أبي عامر ببلنسية ومرسية، وابن هود بسرقسطة ومجاهد العامري بدانية والجزائر منذ عهد هذه الفتنة، كما نذكر في أخبارهم.

ثورة ابن حمود واستيلاؤه وقومه على ملك قرطبة

ولما افترق شمل جماعة قرطبة وتغلب البرابرة على الأمر، وكان علي بن حمود وأخوه قاسم من عقب إدريس قد أجازوا معهم من العدو فدعوا لأنفسهم وتعصب معهم الكثير من البربر، وملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة، وقتلوا المستعين ومحو ملك بني أمية، واتصل ذلك في خلق منهم سبع سنين. ثم رجع الملك في بني أمية وفي ولد الناصر نحواً من سبع سنين، ثم خرج عنهم وافترق الأمر في رؤساء الدولة من العرب والموالي والبربر، واقتسموا الأندلس ممالك ودولاً وتلقبوا بالقبائل الخلفاء كما نذكر ذلك كله مستوفى في أخبارهم.

عود الملك إلى بني أمية وأولاد المستظهر

لما قطع أهل قرطبة دعوة الحموديين بعد سبع سنين ملكهم، وزحف إليهم قاسم بن حمود في جموع من البربر فهزمهم أهل قرطبة، ثم اجتمعوا واتفقوا على رد الأمر إلى بني أمية، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة، ولقبوه المستظهر.

وقام بأمره المستكفي ثم شار على المستظهر لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر أمير المؤمنين. كان المنصور بن أبي عامر قتل إسماعيل عبد الرحمن لسعيه في

ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة، وبرز إليهم المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة، وكانت الدبرة عليهم، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنتها عالم.

ودخل المستعين قرطبة خاتم المائة الرابعة ولحق ابن عبد الجبار بطليلة.

رجوع المهدي إلى ملكه بقرطبة

ولما استولى المستعين على قرطبة خالفه محمد بن هشام المهدي إلى طليطلة واستجاش بابن أذفونش ثانية، فنهض معه إلى قرطبة وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر من مظاهرها في آخر باب سبتة، ودخل المهدي قرطبة وملكها.

هزيمة المهدي وبيعته للمؤيد هشام ومقتله

ولما دخل المهدي إلى قرطبة خرج المستعين إلى البرابرة، وتفرقوا في البساتين والقرى فينهبون ويقتلون ولا يبقون على أحد، ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء، فخرج المهدي وابن أذفونش واتبعهم المستعين والبرابرة أثناء ذلك يحاصرونهم، حتى خشي الناس من اقتحام البرابرة عليهم فأغروا أهل القصر وحاجبه المدير بالمهدي، وأن الفتنة إنما جاءت من قبله، وتولى كبر ذلك واضح العامري فقتلوا المهدي محمد بن هشام، واجتمعت الكافة على تجريد البيعة لهشام المؤيد ليعتصموا به من معرة البرابرة، وما يسومونهم به ملوكهم من سوء العذاب، وعاد هشام إلى خلافته وأقام واضح العامري لحجابه، وهو من موالي المنصور بن أبي عامر.

حصار قرطبة واقتحامها عنوة ومقتل هشام

واستمر البرابرة على حصار قرطبة والمستعين بينهم، ولم يفر عن أهل قرطبة، تبعه هشام المؤيد والبرابرة يترددون إليها ذاهبين وجائين بأنواع النهب والفتك، إلى أن هلكت القرى والبساتين، وعدمت المرافق وصافت أحوال أهل قرطبة وجهدهم الحصار.

وبعث المستعين والبرابرة إلى ابن أذفونش يستقدمونه لمظاهرتهم، فبعث إليه هشام المؤيد وحاجبه واضحاً يكفونه عن

الخلاف، فنار الآن محمد هذا وتبعه الفوغاء، وفتك بالمستظهر واستقل بأمر قرطبة وتلقب بالمستكفي.

عود الأمر إلى بني حمود

وبعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى يحيى بن علي بن حمود، وهو المعتلي كما يذكر في أخبارهم، وفر المستكفي إلى ناحية الثغر ومات في مقره.

المعتمد من بني أمية

ثم خلع أهل قرطبة المعتلي بن حمود ثانياً سنة سبع عشرة، وبايع الوزير أبو محمد جهور بن جهور عميد الجماعة، وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى، وكان بالثغر في لاردة عند ابن هود.

ولما بلغه خبر البيعة له انتقل إلى البرنث، واستقر عند التغلب عليها محمد بن عبد الله بن قاسم، وكانت البيعة له انتقل سنة ثمان عشرة وأربعمئة، وتلقب المعتمد بالله، وأقام متردداً في الثغر ثلاثة أعوام، واشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف وانفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة فاستقدمه ابن جهور والجماعة، ونزلها آخر سنة عشرين، وأقام سيراً.

ثم خلعه الجند سنة اثنتين وعشرين، وفر إلى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين وانقطعت دولة الأموية والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة بني حمود التي أدالت من

دولة بني أمية بالأندلس وأولية ملكهم

وتصارييف أمورهم إلى آخرها

كان في جملة المستعين مع البربر والمغاربة أخوان من ولد عمر بن إدريس، وهما القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن عبيد الله بن عمر، كانوا في ليف البرابرة في بلاد غمارة واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد وبني عمر من ولد إدريس فكانت للبربر إليهم صاغية بسبب ذلك، وخلطة وبقي الفخر منهم بتازغدره من غمارة فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدو من البربر فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة عقد لعلي منها علي طنجة وعملها، وللقاسم

وكان الأسن على الجزيرة الخضراء.

وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس متوارث من دولتهم بالعدوة كما ذكرناه.

واستقام أمر علي بن حمود وتمكن سلطانه، واتصلت دولته عامين إلى أن قتله صقالبه بالحمام سنة ثمان وأربعمئة، فولي مكانه أخوه القاسم بن حمود وتلقب بالمأمون.

ونازعه في الأمر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابن أخيه علي بستة، وكان أمير الغرب وولي عهد أبيه، فبعث إليه أشياءهم من البربر مالا مع جند الأندلس سنة عشر واحتل بمالقة، وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما، فبعث إلى بستة ووصل إلى يحيى بن علي زاوي بن زيري من غرناطة، وهو عميد البرابرة ثانية يومئذ، فزحف إلى قرطبة فملكها سنة اثني عشرة، وتلقب المعتلي واستوزر أبا بكر بن ذكوان، وفر المأمون إلى إشبيلية وبايع له القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد.

واستمال بعضاً من البرابرة ثانية، واستجاشهم على ابن أخيه ورجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة.

ولحق المعتلي بمكانه من مالقة وتغلب على الجزيرة الخضراء عمل المأمون من لدن عهد المستعين، وتغلب أخوه إدريس على طنجة من وراء البحر، وكان المأمون يعتدها حصناً لنفسه وبنيه، ويستودع بها ذخيرته، وبلغ الخبر إلى قرطبة بتغلبه على قواعده وحصوره مع ما كان يتشدد على بني أمية، فاضطرب أمر المأمون وثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته، وبايعوا للمستظهر، ثم للمستكفي من بني أمية كما ذكرناه.

وتحيز المأمون وبرابره إلى الأرباض فاعتصموا به، وقاتلوا دونه وحاصروا المدينة خسين يوماً.

ثم صمم أهل قرطبة لمداغتهم فأفرجوا عن الأرباض وانفضت جموعهم سنة أربع عشرة.

ولحق المأمون بإشبيلية وبها ابنه محمد، ومحمد بن زيري من رجالات البربر فاطمعه القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد في الملك وأن يمتنعوا من القاسم فمنعوه وأخرجوا إليه ابنه وضبطوا بلدهم.

ثم اشد ابن عباد وأخرج محمد بن زيري، ولحق المأمون بشرش، ورجع عنه البربر إلى يحيى المعتلي ابن أخيه فبايعوه سنة خمس عشرة.

وزحف إلى عمه المأمون بشرش فتغلب عليه، ولم يزل عنده

عن ذلك نجى الخادم، وبادر إليه من سبته ومعه حسن بن يحيى المعتلي فبايعه البربر، ولقب المستنصر، وقتل ابن بقية وفر يحيى بن إدريس إلى قمارش فهلك بها سنة أربع وثلاثين.

ويقال: بل قتله نجى، ورجع نجى إلى سبته ليحفظ ثغرها، ومعه ولد حسن بن يحيى صبيّاً وترك السطيفي على وزارة حسن لثقتة به، وبايعته غرناطة وجملة من بلاد الأندلس.

وهلك حسن مسموماً بيد ابنة عمه إدريس، ثارت بأخيها حسن سنة ثمان وثلاثين، فاعتقل السطيفي أخاه إدريس بن يحيى، وكتب إلى نجى وابن حسن المستنصر الذي كان عنده بسبته ليعقد له، وأغتاله نجى وأجاز إلى مالقة، ودعى لنفسه، ووافق البربر والجند.

ثم نهض إلى الجزيرة ليستأصل حسناً ومحمداً ابني قاسم بن حمود، ورجع خاسئاً فأغتاله في طريقه بعض عبيد القاسم وقتلوه.

وبلغ الخبر إلى مالقة فثارت العامة بالسطيفي، وقتل وأخرج إدريس بن يحيى المعتلي من معتقله، وبويع له سنة أربع وثلاثين، وأطاعته غرناطة وقرمونة وما بينهما ولقب العالي، وولى على سبته سكوت ورزق الله من عبيد أبيه، ثم قتل محمداً وحسناً ابني عمه إدريس، فثار السودان بدعوة أخيهما محمد بمالقة، وامتنعوا بالقصبة، وكانت العامة مع إدريس، ثم أسلموه.

وبويع محمد بمالقة سنة ثمان وثلاثين وتلقب المهدي، وولى أخاه عهده ولقبه الساني، ثم نكر منه بعض النزعات ونفاه إلى العدو فأقام بين غماره، ولحق العالي بقمارش فامتنع بها وأقام يحاصر مالقة وحذف باديس من غرناطة منكرأ على المهدي فعلمه فامتنع عليه، فبايع له وانصرف وأقام المهدي في ملكه بمالقة، وأطاعته غرناطة وحيان وأعمالها إلى أن مات بمالقة سنة أربع وأربعين.

وبويع إدريس المخلوع ابن يحيى المعتلي من مكانه بقمارش، وبويع له بمالقة وأطلق أيدي عبيده عليها لحقده عليهم، ففر كثير منهم إلى أن هلك سنة سبع وأربعين، وبويع محمد الأصغر ابن إدريس المتأيد وتلقبه، وخطب له بمالقة والمرية ورندة.

ثم سار إليه باديس فتغلب على مالقة سنة تسع وأربعين وأربعمئة، وسار محمد المستعلي إلى المرية مخلوعاً، واستدعاه أهل مليلة فأجاز إليهم وبايعوه سنة تسع وخمسين، وبايعه بنو ورقدي وقلوع جارة ونواحيها وهلك سنة..... وأربعمئة.

وأما محمد بن القاسم المعتقل بمالقة ففر هو من ذلك الاعتقال سنة أربع عشرة، ولحق بالجزيرة الخضراء فملكها وتلقب

أسيراً وعند أخيه إدريس من بعده بمالقة إلى أن هلك في محبة سنة سبع وعشرين وأربعمئة، واستقل يحيى المعتلي بالأمور، واعتقل محمداً والحسن ابني عمه القاسم المأمون بالجزيرة، ووكل بهما أبا الحجاج من المغاربة، وأقام كذلك.

ثم خلع أهل قرطبة المستكفي، وصاروا إلى طاعة المعتلي واستعمل عليهم عبد الرحمن بن عطاف اليفرنى من رجالات البربر، وفر المستكفي إلى ناحية الثغر فهلك بمدينة سالم.

ثم نقض أهل قرطبة طاعة المعتلي سنة سبع عشرة وأربعمئة وصرفوا عامله عليهم ابن عطاف بايعوا للمعتد أخى المرتضى، ثم خلعهوا كما ذكرنا في خبره، واستبد بأمر قرطبة الوزير ابن جهور بن محمد كما نذكره في أخبار ملوك الطوائف.

وأقام يحيى بن المعتلي يتخيفهم ويردد العساكر لحصارهم إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له، فعلا سلطانه، واشتد أمره، وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره فنزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد بإشبيلية إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله، فركب المعتلي لخليل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد، وقد أكنوا له، فكبا به فرسه وقتل.

وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي وانقطعت دولة بني حمود بقرطبة.

وكان أحمد بن موسى بن بقية والخادم نجى الصقلي وزيرى دولة الحمدوين عند أولها، فرجعاً إلى مالقة دار ملكهم، واستدعوا أخاه إدريس بن علي بن حمود من سبته وطنجة، وبايعوه على أن يولي سبته حسن ابن أخيه يحيى فتم أمره بمالقة، وتلقب المتأيد بالله، وبايعه المرية وأعمالها ورندة والجزيرة، وعقد حسن ابن أخيه يحيى على سبته، ونهض معه نجى الخادم.

وكان له ظهور على ملوك الطوائف، وكان أبوه القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده إلى انتزاع البلاد من أيدي الثوار، وملك أشبونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي، وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة فاستصرخ محمد بن عبد الله القائد هذا وبزاوي فجاء زاوي بنفسه، وبعث القائد هذا عساكره مع ابن بقية فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة، هزم فيها ابن عباد وقتل وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد، وهلك ليومين بعدها سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة.

واعتزم ابن بقية على بيعة ابنه يحيى الملقب حبون فأعجله

وهو الذي أحكم عقد ولايته، وكان محمد بن زيري من أقبال البرابرة والياً على إشبيلية، فلما فر القاسم من قرطبة وقصده داخل بن عباد محمد بن زيري في غرناطة ففعل وطردهوا القاسم، وطردهوا بعده ابن زيري وصار الأمر شورى بينه وبين أبي بكر الزبيدي معلم هشام، وصاحب «مختصر العين» في اللغة، ومحمد بن برمخ الألهاني، ثم استبد عليهم وجند الجند ولم يزل على القضاء. ولما منع القاسم من إشبيلية عدل عنها إلى قرمونة ونزل على محمد بن عبد الله البرزالي، وكان ولي قرمونة أيام هشام والمهدي من بعده.

ثم استبد بها سنة أربع وأربعمئة أزمان الفتنة فداخله ابن عباد في خلج القاسم والاستبداد بها.

ثم تنصَح للقاسم فتحول إلى شريش واستبد محمد بن البرزالي بقرمونة واستبد أبو القاسم إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين كما قلناه، وقام بأمره ابنه عباد وتلقب المعتضد، واستولى على سلطانه، واشتدت حرابه وأيامه.

وتناول طائفة من الممالك بعد بالأندلس، وانفسح أمده وأول ما افتتح أمره بمداخلة محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة في إفساد ما بينه وبين القاسم بن حمود حتى تحول عنه إلى شريش.

ثم تحارب مع عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس وغزاه ابنه إسماعيل في عساكره، ومعه محمد بن عبد الله البرزالي فلقبه المظفر بن الأفطس فهزمهما وأسر المظفر بن البرزالي إلى أن أطلقه بعد حين.

ثم فسد ما بينه وبين البرزالي واتصلت الفتنة بينهما إلى أن قتله ابنه إسماعيل خرج إليه في سرية فأغار على قرمونة، وأكمن الكمائن، فركب محمد البرزالي في أصحابه، واستطرد له إسماعيل إلى أن بلغ به الكمين فخرجوا عليه فقتلوه، وذلك سنة أربع وثلاثين.

ثم خالف عليه ابنه إسماعيل وأغراه العبيد والبرابرة بالملك، فأخذ ما قدر عليه من المال والذخيرة، وفر إلى جهة الجزيرة للثوب بها، وكان أبوه ليلتذ بصحن الفرج، فأنفذ الخيالة في طلبه، فمال إلى قلعة الورد فتقبض واليها عليه، وأنفذه إلى أبيه فقتله وقتل كاتبه، وكل من كان معه.

ثم رجع إلى مطالبة البربر المتزين بالثغور وأول من تذكر منهم صاحب قرمونة وكان بها المستظهر العزيز بن محمد بن عبد الله البرزالي، وليها بعد أبيه كما ذكرناه، وكانت له معها أستاذة

المعتصم إلى أن مات سنة أربعين.

ثم ملكها بعده ابنه القاسم الوائى إلى أن هلك سنة خمسين، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عباد وكان سكوت البرغواطي الحاجب مولى القاسم الوائى محمد بن المعتصم، ويقال: مولى يحمى المعتلي والياً على سبتة من قبلهم، فلما غلب ابن عباد على الجزيرة طلبه في الطاعة، وطلب هو ملك الجزيرة فامتنت عليه واتصلت الفتنة بينهما إلى أن كان من أمر المرابطين وتغلبهم على سبتة على الأندلس ما سنذكره، والبقاء لله وحده سبحانه وتعالى.

الخبر عن ملوك الطوائف بالأندلس بعد الدولة الأموية

كان ابتداء أمرهم وتصاريح أحوالهم لما انتشر ملك الخلافة العربية بالأندلس، وافترق الجماعة بالجهات، وصار ملكها في طوائف من الموالي والوزراء وأعياص الخلافة وكبار العرب والبربر، واقتسموا خططها وقام كل واحد بأمر ناحية منها.

وتغلب بعض على بعض استقل أخيراً بأمرها ملوك منهم استفحل شأنهم، ولأدوا بالجزيرة للطاغية أو يظاهرون عليهم أو يتزعونهم ملكهم، حتى أجاز إليهم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وغلبهم جميعاً على أمرهم فلنذكر أخبارهم واحداً بعد واحد.

الخبر عن بني عباد ملوك إشبيلية وغربي الأندلس وعمن تغلبوا عليه من أمراء الطوائف

كان أولهم القاضي أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمر بن أسلم بن عمر بن عطاف بن نعيم اللخمي، وعطاف هو الداخل إلى الأندلس في طوابع لحم وأصلهم من جند حمص ونزل عطاف إلى قرية طشانة بشرق إشبيلية ونسل بينه بها.

وكان محمد بن إسماعيل بن قريش صاحب الصلاة بطشانة ثم ولي ابنه إسماعيل الوزارة بإشبيلية سنة ثلاث عشرة وأربعمئة، وولي ابنه أبو القاسم القضاء بها والوزارة من سنة أربع عشرة وأربعمئة إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين.

وكان أصل رياسته أنه كان له اختصاص بالقاسم بن حمود،

والمروزي، وكان غوز ورواركش للوزير نوح الرموي من برايرة العدو وشيعة المنصور، واستبد بها سنة أربع، ومات سنة ثلاث وثلاثين.

وولي ابنه عز الدولة الحاجب أبو مياد محمد بن نوح ومات سنة..... وكان يزيد أبو ثور بن أبي قررة اليفرنسي استبد بها أيام الفتنة سنة خمسين من يد عامر بن قنوح من صنائع العلويين، ولم يزل المعتض يضايقه، واستدعاه بعض الأيام لولاية فحبسه، وكاده في ابنه بكتاب على لسان جاريته برندة، أنه ارتكب منها محرماً، ثم أطلقه فقتل ابنه وشعر بالمكيدة فمات أسفاً سنة خمسين، وولي ابنه أبو نصر إلى أن غدر به في الحصن بعض أجناده فسقط من السور، ومات سنة تسع وخمسين.

وكان بشريش خزرون بن عبدون ثار بها سنة اثنتين وأربعمائة فتقبض عليه ابن عباد وطالبهم وطاف على حصونهم وصار يهاديهم، وأسجل لهم بالبلاد التي بأيديهم، فأسجل لابن نوح بأركش، ولابن خزرون بشريش، ولابن أبي قررة برندة، وصاروا في حربه ووثقوا به، ثم استدعاهم لوليمة وغدر بهم في حمام استعمله لهم على سبيل الكرامة وأطبقه عليهم فهلكوا جميعاً إلا ابن نوح فإنه سالمه من بينهم لليد التي كانت له عنده في مثلها، ثم بعث من تسلم معاقلهم وصارت في أعماله.

وخرج باديس لطلب ثأرهم منه، واجتمعت إليه عشائره فمنازلوه مدة ثم انصرفوا، وأجازوا إلى العدو فاحتلوا بسببة وطردهم سكوت فهلكوا في المجاعة التي صادفوا، وأحلوا بالمغرب لذلك العهد.

واستقل ابن عباد وكان بأونية وشلطليش عبد العزيز البكري، وكانت عساكر المعتض ابن عباد تحاصره فشنع فيه ابن جهور للمعتض فسأله مدة.

ثم هلك ابن جهور فعاد إلى مطالبته إلى أن تخلى له عنها سنة ثلاث وأربعين، فولى عليها ابنه المعتض.

ثم سار إلى شلب وبها المظفر أبو الأصغ عيسى بن القاضي أبي بكر محمد بن سعد بن مزين ثار بها سنة تسع عشرة، ومات سنة اثنتين وأربعين فسار إليها المعتض وملكها من يد ابنه، ونقل إليها المعتض فنزلها واتخذها دار إمارة.

ثم سار إلى شنت برية وبها المعتصم محمد بن سعيد بن هارون، فانخلع له عنها سنة تسع وثلاثين، وأضافها للمعتض.

وكان بلبله تاج الدين أبو العباس أحمد بن يحيى التحصيني، ثار بها سنة أربع عشرة، وخطب له بأونية وشلطليش، ومات سنة

ثلاث وثلاثين، وأوصى إلى أخيه محمد وضايقه المعتض فهرب إلى قرطبة واستبد بها ابن أخيه فتح بن خلف بن يحيى، وانخلع للمعتض سنة خمس وأربعين وصارت هذه كلها من ممالك بني عباد.

وتملك المعتض أيضاً مرسية وثار بها عليه ابن رشيق البناء، وتسمى خاصة الدولة، وبقي ثمان سنين، ثم ثاروا عليه سنة خمس وخمسين ورجعوا لابن عباد.

وتملك المعتض مرثلة من يد ابن طيفور سنة ست وثلاثين وكان تملكها من يد عيسى بن نسب الجيش الشائر بها، وصارت هذه الممالك كلها في ملك ابن عباد وكانت بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة حروب إلى أن هلك سنة إحدى وستين، وولي من بعده ابنه المعتض بن المعتض بن إسماعيل أبو القاسم بن عباد وجرى على سنن أبيه، واستولى على دار الخلافة قرطبة من يد ابن جهور، وفرق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها، واستفحل ملكه بغرب الأندلس وعلت يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف، مثل ابن باديس بن حبوس بغرناطة وابن الأفطس ببليطوس وابن صمادح بالمرية وغيرهم.

وكانوا يطلبون سلمه ويعملون في مرضاته وكلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى إلى أن ظهر بالعدو ملك المرابطين، واستفحل أمر يوسف بن تاشفين، وتعلقت آمال المسلمين في الأندلس بإعانتهم، وضايقهم الطاغية في طلب الجزية فقتل ابن عباد ثقتة اليهودي الذي كان يتردد إليه لأخذ الجزية بسبب كلمة أسف بها.

ثم أجاز البحر صريحاً إلى يوسف بن تاشفين، وكان من إجازته إليه ومظاهرتة إياه ما يأتي ذكره في أخباره، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلمات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف فأجازوه بالامتناسك حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم، وهو خلال ذلك يردد العساكر للجهاد.

ثم أجاز إليهم وخلع جميعهم ونقلهم إلى العدو، واستولى على الأندلس كما يأتي ذكره في أخباره، وصار ابن عباد في قبضة حكمه بعد حروب تذكرها، ونقله إلى أغمات قرية مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة، واعتقله هنالك إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين.

وكانت بالأندلس ثغور أخرى دون هذه، ولم يستول عليها ابن عباد فمنها بلد السهلة، استبد بها هذيل بن خلف بن رزن

معروف، ففوض التدبير إلى ابنه عبد الملك فأساء السيرة، وتكره إلى الناس.

وحاصره ابن ذي النون بقرطبة، فاستغاث بمحمد بن عباد فأمدّه بالجيش، ووصى عسكره بذلك فدخلوا أهل قرطبة وخلعوه سنة إحدى وستين وأخرجوه عن قرطبة.

واعتقل بشلطيش إلى أن هلك سنة اثنتين وسبعين.

وولي ابن عباد على قرطبة ابنه سراج الدولة، وقدمها من بلنسية ودخلها إلى أن قتل بها مسموماً، وحمل إلى طليطلة فدفن بها، وزحف المعتد بن عباد بعد مهلكه إلى قرطبة فملكها سنة تسع وستين وقتل ابن عكاشة واستخلف ابنه المأمون الفتح بن محمد، وصار غرب الأندلس كله في ملكه إلى أن دخل المرابطون الأندلس، وغلبوا عليهم سنة أربع وثمانين وأربعمائة فقتل الفتح وحمل أباه المعتد إلى أغمات كما ذكرناه ونذكره.

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أخبار ابن الأفطس صاحب بطليوس من

غرب الأندلس ومصاير أمره

ملك بطليوس من غرب الأندلس عند الفتنة واحتياجهما أبو محمد عبد الله بن مسلمة التجيبي المعروف بابن الأفطس، واستبد بها سنة إحدى وستين وأربعمائة فهلك، وولي من بعده ابنه المظفر أبو بكر، واستفحل ملكه، وكان من أعظم ملوك الطوائف.

وكانت بينه وبين ابن ذي النون حروب مذكورة، وكذا مع ابن عباد بسبب ابن يحيى صاحب مليلة، أعانته ابن عباد عليه فاستولى بسبب ذلك على كثير من ثغوره ومعاقله.

واعتصم المظفر ببطليوس بعد هزيمتين هلك فيهما خلق كثير وذلك سنة ثلاث وأربعين.

ثم أصلح بينهما ابن جهور وهلك المظفر سنة ستين وأربعمائة، وتولى بعده ابنه التوكل أبو حفص عمر بن محمد المعروف بساجة ولم يزل سلطاناً بها إلى أن قتله يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

وقتل معه أولاده، أغراه به ابن عباد فلما تمكنك الاسترابة من التوكل خاطب الطاغية واستراح إليه عما دهمه.

وشرع به ابن عباد فكاتب يوسف بن تاشفين واستحثه لمعالجته قبل أن يتصل بالطاغية، ويتصل بالثغر فأغذ إليه السير

أول المائة الخامسة بدعوة هشام، تسمى مؤيد الدولة.

وهلك شهيداً سنة خسين وأربعمائة وملك بعده أخوه حسام الدولة عبد الملك بن خلف، ولم يزل أميراً عليها إلى أن ملكها المرابطون من يده عند تغلبهم على الأندلس.

ومنها بلد البونت والليج تغلب عليها عبد الله بن قاسم الفهري أزمان الفتنة، وتسمى نظام الدولة وهو الذي كان المعتمد عنده عندما ولاه الجماعة بقرطبة ومن عنده جاء إليها، وهلك سنة إحدى وعشرين وولي ابنه محمد يمين الدولة، وكانت بينه وبين مجاهد حروب، وملك بعده ابنه أحمد عقد الدولة، وهلك سنة أربعين.

وملك أخوه عبد الله جناح الدولة إلى أن خلعه المرابطون سنة خمس وثمانين.

ولنرجع إلى ذكر بقية الملوك الأكابر من الطوائف والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أخبار ابن جهور

كان رئيس الجماعة أيام الفتنة بقرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن يحيى بن أبي المغافر بن أبي عبيدة الكلبي، هكذا نسبه ابن بشكوال وأبو عبيدة هو الداخل إلى الأندلس، وكانت لهم وزارة الدولة العامرية بقرطبة واستبد جهور هذا سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، لما خلع الجند المعتز آخر خلفاء بني أمية، ولم يدخل في أمور الفتنة، فاستولى على المملكة ورتب الأمور، ولم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة.

وكان علي سنن أهل الفضل يعود المرضي، ويشهد الجنائز ويؤذن عند مسجدهم بالريض الشرقي، ويصلي التراويح ولا يحتجب عن الناس فاستندوا أمرهم إليه إلى أن يوجد خليفة إلى أن خاطبهم محمد بن إسماعيل بن عباد يعرفهم أن هشاماً المؤيد عنده بإشبيلية، وأكثر في ذلك فخطب له بقرطبة بعد مرواضات.

ثم أتى به إلى قرطبة فمنعوه الدخول وأضربوا عن ذكره في الخطبة وانفرد ابن جهور بأمرهم إلى أن هلك في محرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ودفن بداره وولي ابنه أبو الوليد محمد بن جهور باتفاق من الكافة فجرى على سنن أبيه.

وكان قد قرأ على مكّي بن أبي طالب المكّي وغيره فكان مكرماً لأهله.

واستورز ثقتة إبراهيم بن يحيى فكفاه، وهلك كما هو

الخبر عن بني ذي النون ملوك طليطلة من الشجر الجوفي وتصاريق أمورهم ومصائر أحوالهم

جدهم إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون أصله من قبائل هواة ورأس سلفه في الدولة المروانية وكانت لهم رئاسة في شنترية ثم تغلب على حصن أفلتين أزمان الفتنة سنة تسع وأربعمائة.

وكانت طليطلة ليعيش بن محمد بن يعيش، واليها منذ أول الفتنة، فلما هلك سنة سبع وعشرين استدعاه إسماعيل الظافر من حصن أفلتين مع بعض أجناد طليطلة فمضى إليها وملكها.

وامتد ملكه إلى جنجاله من عمل مرسية ولم يزل أميراً بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين.

وولي ابنه المأمون أبو الحسن يحيى، واستفحل ملكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه، وكانت بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة.

وفي سنة خمس وثلاثين غزى بلنسية وغلب على صاحبها المظفر ذي السابقين من ولد المنصور بن أبي عامر.

ثم غلب على قرطبة وملكها من يد ابن عباد وقتل ابنه أبا عمر بعد أن كان ملكها، وهلك الظافر بها مسموماً سنة سبع وستين كما ذكرناه.

وولي بعده على طليطلة حافده القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذي النون، وكان الطاغية بن أذفونش قد استفحل أمره لما خلا الجو من مكان الدولة الخلافة، وخف ما كان على كاهله من أمر العرب، فالتهم البساط وضايق ابن ذي النون حتى غلب على طليطلة فخرج له القادر عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وشرط عليه أن يظاھره على أخذ بلنسية، وعليها عثمان القاضي بن أبي بكر بن عبد العزيز من وزراء ابن أبي عامر فخلعه أهلها خوفاً من القادر أن يكن منهم القنش فدخلها القادر وأقام بها ستين، وقتل سنة إحدى وثمانين على ما تذكر بعد إن شاء الله تعالى.

ووفاه سنة فقبض عليه وعلى بنيه وقتلهم يوم الأضحى حسبما تذكر في أخبارهم.

ورثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة وهي:
الدمر يفتح بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

عدد فيها أهل النكبات ومن عثر به الزمان بما يكي الجماد،
وسنذكر قصتهم في أخبار لتونة وفتحهم الأندلس، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

أخبار باديس بن حسون ملك غرناطة والبيرة

كان عميد صنهاجة في الفتنة البربرية زاوي بن زيري بن مناد أجاز إلى الأندلس على عهد المنصور، فلما هاجت الفتنة البربرية، وأحل نظام الخلافة، كان فحل ذلك الشول وكبش تلك الكتائب، وعمد إلى البيرة، ونزل غرناطة واتخذها داراً للملكه، ولما بايع الموالي العامريون للمرتضى الرواني وتولى كبر ذلك مجاهد العامري ومنذر بن يحيى بن هاشم التجيبي وعمد إلى غرناطة فلقبهم زاوي بن زيري في جموع صنهاجة وهزمهم سنة عشرين وأربعمائة وقتل المرتضى، وأصاب زاوي من ذخائرهم وأموالهم وعددهم ما لم يقتهه ملك.

ثم وقع في نفسه سوء آثار البربر بالأندلس أيام هذه الفتنة وحذر مغبة ذلك فارتحل إلى سلطان قومه بالقشروان، واستخلف على غرناطة ابنه فدبر القبض على ابن رصين ومشيخة غرناطة إذا رجعوا عن أبيه، وشعروا بذلك فبعثوا إلى ابن أخيه ماكس بن زيري من بعض الحصون فوصل وملك غرناطة، واستبد بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة وولي ابنه باديس، وكانت بينه وبين ذي النون وابن عباد حروب.

واستولى على سلطانه كاتبه وكاتب أبيه إسماعيل بن نعلزة الذي، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخسين، وقتل معه خلقاً من اليهود، وتوفي سنة سبع وستين وأربعمائة وولي حافده المظفر أبو محمد عبد الله بن بلكين بن باديس، وولى أخاه تميمًا بمالقة بعده جده.

وخلعهما المرابطون سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وحملوا إلى أغمات ووريكة، واستقروا هنالك حسبما يذكر بعد في أخبارهم مع يوسف بن تاشفين والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بلنسية عثمان بن أبي بكر وأمكنوا منها القادر خوفاً من استيلاء النصراني وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمئة.

ثم ثار على القادر سنة ثلاث وثمانين القاضي جعفر بن عبد الله بن حجاب وقتله واستبد بها.

ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وثمانين وقتلوه.

ثم تغلب المرابطون على الأندلس وزحف ابن ذي النون قائلهم إلى بلنسية فاسترجعها من أيديهم سنة خمس وتسعين وأربعمئة.

وأما معن بن صالح قائد الوزير ابن أبي عامر فأقام بالمرية لما ولاه المنصور سنة ثمان وثمانين، وتسمى ذا الوزارتين.

ثم خلعه وولى ابنه المعتصم أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح، واستبد بها أربعاً وأربعين سنة، وثار عليه صاحب لورقة ابن شبيب، وكان أبوه معزولاً عليها، فجهز إليه المعتصم جيشاً واستمد ابن شبيب المنصور بن أبي عامر صاحب بلنسية ومرسية بالعدو، واستمد المعتصم بباديس، ونهض عمه صمادح بن باديس بن صمادح فقاتلوا حصوناً من حصون لورقة واستولوا عليها، ورجعوا ولم يزل المعتصم أميراً بالمرية إلى أن هلك سنة ثمانين.

وولي ابنه وخلعه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة أربع وثمانين، وأجاز إلى العدو ونزل على آل حماد بالقلعة، وبها مات ولده والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني هود ملوك سرقسطة من

الطوائف صارت إليهم من بني هاشم وما

كان من أوليتهم ومصائر أمورهم

كان منذر بن مطرف بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان بين المنصور وعبد الرحمن منافسة على الإمارة والرياسة، وكانت دار إمارته سرقسطة، ولما بويح المهدي بن عبد الجبار وانقرض أمر العامرين، وجاءت فتنة البربر كان مع المستعين حتى قتل هشام مولاه، فامتعض لذلك وفارقه ويبيع الرواني للمرتضى مع مجاهد ومن اجتمع إليه من الموالي والعامرين، وزحفوا إلى غرناطة فلقبهم زاوي بن زيري وهزمهم.

ثم ارتابوا بالمرتضى ووضعوا عليه من قتله مع خيران بالمرية، واستبد منذر هذا بسرقسطة والثغر وتلقب بالمنصور، وعقدوا بين طاغية جليقة وبرشلونة وبينه، وهلك سنة أربع عشرة،

الخبر عن ابن أبي عامر صاحب شرق الأندلس من بني ملوك الطوائف وأخبار الموالي العامرين الذين كانوا قبله وابن صمادح قائده بالمرية وتصاريق أحوالهم ومصائرهم

بويح للمنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر بن أبي عامر بشاطبة سنة إحدى عشرة وأربعمئة، أقامه الموالي العامريون عند الفتنة البربرية فاستبد بها.

ثم ثار عليه أهل شاطبة فأفلت ولحق ببلنسية فملكها وفوض أمره للموالي.

وكان من وزرائه ابن عبد العزيز وكان خيران العامري من مواليتهم، تغلب من قبل ذلك على أربولة سنة أربع، ثم ملك مرسية سنة سبع، ثم خيان ثم المرية سنة تسع، وبايعوا جميعاً للمنصور عبد العزيز.

ثم انتفض خيران على المنصور وسار من المرية إلى مرسية وأقام بها ابن عمه أبا عامر محمد بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر، خرج إليه من قرطبة من حجر القاسم بن حمود، وخلص إلى خيران بأموال جليقة، فجمع الموالي فأخذوا ماله وطرده.

ثم ولاه خيران وسماه المؤمن ثم المعتصم.

ثم تنكر عليه وأخرجه من مرسية ولحق بالمرية وأغرى به الموالي فأخذوا ماله وطرده، ولحق بغرب الأندلس إلى أن مات.

ثم هلك خيران بالمرية سنة تسع عشرة، وقام بالأمير بعده الأمير عميد الدولة أبو القاسم زهير العامري، وزحف إلى غرناطة فبرز إليه باديس بن حبوس وهزمه، وقتل بظاهرها سنة تسع وعشرين فصار ملكه للمنصور عبد العزيز صاحب بلنسية، وملكها من يده سنة سبع وخسين.

ولما هلك المأمون بن ذي النون وولي حافده القادر ولى على بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز بقية وزراء ابن أبي عامر، فداخله ابن هود في الانتفاض على القادر ففعل واستبد بها، وضبطها سنة ثمان وستين حين تغلب المقتدر على دانية.

ثم هلك سنة ثمان وسبعين لعشر سنين من ولايته.

وولي ابنه القاضي عثمان، فلما سلم القادر بن ذي النون طليطلة زحف إلى بلنسية ومعه الفئش كما قلناه، وخلع أهل

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية وأخبار بنيه ومواليهم من بعدهم ومصائر أمورهم

كان فتح ميورقة سنة تسعين ومائتين على يد عصام الخولاني، وذلك أنه خرج حاجاً في سفينة اتخذها لنفسه فعصفت بهم الرياح فأرسوا بجزيرة ميورقة، وطال مقامهم هنالك واختبروا من أحوالهم ما أطعمهم في فتحها، فلما رجع بعد فرضه أخبر الأمير بما رأى فيها، وكان من أهل الغناء عنده في مثلها، فبعث معه القطار في البحر، ونفر الناس معه إلى الجهاد، فحاصرها أياماً وفتحوها حصناً حصناً إلى أن كمل فتحها.

وكتب عصام بالفتح إلى الأمير عبد الله، فكتب له بولايتها فوليها عشر سنين، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات. ولما هلك قدم أهل الجزيرة عليهم ابنه عبد الله، وكتب له الأمير بالولاية.

ثم زهد وترهب وركب إلى الشرق حاجاً وانقطع خبره، وذلك سنة خمسين وثلاثمائة.

وبعث الناصر المرواني إليها الموفق من الموالى فأنشأ الأساطيل وغزا بلاد الإفرنج، وهلك سنة تسع وخمسين أيام الحكم المستنصر، وولي بعده كوثر من مواليه فجرى على سنن الموفق في جهاده.

وهلك سنة تسع وثمانين أيام المنصور فولى عليها مقاتل من مواليه، وكان كثير الغزو والجهاد، وكان المنصور وابنه المؤيد يمدانه في جهاده، وهلك سنة ثلاث وأربعمائة أزمان الفتنة.

وكان مجاهد بن يوسف بن علي من فحول الموالى العامرين، وكان المنصور قد رباه وعلمه مع مواليه القراءات والحديث والعربية فكان مجيداً في ذلك، وخرج من قرطبة يوم قتل المهدي سنة أربعمائة، وبايع هو والموالى العامرين وكثير من جند الأندلس للمرتضى كما قدمناه، ولقيهم زاوي بفحص غرناطة فزههم ويدد شملهم.

ثم قتل المرتضى كما تقدم وسار مجاهد إلى طرطوشة فملكها، ثم تركها وانتقل إلى دانية واستقل بها، وملك ميورقة ومنورقة ويابسة واستبد سنة ثلاث عشرة.

وولي ابنه وتلقب المظفر وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي من أهل تسبهم مستبداً بمدينة تطيلة، ولاها منذ أول الفتنة، وجدهم هود هو الداخلى للأندلس ونسبه الأزدي إلى سالم مولى أبي حذيفة.

قال هود بن عبد الله بن موسى بن سالم: وقيل هود من ولد روح بن زنياع، فتغلب سليمان على المظفر بمجيى بن المنذر وقتله سنة إحدى وثلاثين، وملك سرقسطة والثغر الأعلى، وابنه يوسف المظفر لاردة.

ثم نشأت الفتنة بينهما وانتصر المقتدر بالإفرنج والبشكنس فجاءوا لميعاده فوكت الفتنة بين المسلمين وبينهم ثائرة، وانصرفوا إلى يوسف صاحب لاردة فحاصروهم بسرقسطة، وذلك سنة ثلاث وأربعين.

وهلك أحمد المقتدر سنة أربع وسبعين وتسع وثلاثين سنة من ملكه، فولى بعده ابنه يوسف المؤتمن، وكان قائماً على العلوم الرياضية، وله فيها تآليف مثل الاستهلال والمناظر ومات سنة ثمان وسبعين، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على طليطلة من يد القادر بن ذي النون.

وولي بعده المستعين وعلى يده كانت وقعة وشقة، زحف سنة تسع وثمانين في آلاف لا تحصى من المسلمين، وهلك فيها خلق نحو عشرة آلاف، ولم يزل أميراً بسرقسطة إلى أن هلك شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة بظاهر سرقسطة في زحف الطاغية إليها.

وولي بعده ابنه عبد الملك وتلقب عماد الدولة، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة اثنتي عشرة فنزل روضة من حصونها وأقام بها إلى أن هلك سنة ثلاث عشرة.

وولي ابنه أحمد وتلقب سيف الدولة والمستنصر، وبالف النكاية في الطاغية، ثم سلم له روضة على أن يملكه بلاد الأندلس، فانتقل معه إلى طليطلة بحشمه وأكثه، وهنالك هلك سنة ست وثلاثين وخمسمائة.

وكان من ممالك بني هود هؤلاء مدينة طرطوشة، وقد كان بقايا من الموالى العامرين فملكها سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

ثم هلك سنة خمس وأربعين وملكها بعده يعلى العامري ولم تطل مدته.

وملكها بعده شبيب إلى أن نزل عنها لعماد الدولة أحمد بن المستعين سنة ثلاث وخمسين، فلم تزل في يده وفي يد بنيه من بعده إلى أن غلب عليها العدو فيما غلب عليه من شرق الأندلس.

على بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فثاروا به وصفدوه، وبعثوا إلى علي بن يوسف فردهم إلى ولاية محمد بن علي بن إسحاق بن غانية المستولي صاحب غرب الأندلس، فبعث إليها أخاه محمد بن علي من قرطبة، كان والياً عليها فوصل إلى ميورقة فصفد أنور وبعث به إلى مراكش، وأقام في ولايتها عشر سنين إلى أن هلك أخوه يحيى وسلطانهم علي بن يوسف.

واستقرت ميورقة في ملك بني غانية هؤلاء وسلطانهم. وكانت لهم في زمن علي بن يوسف بها دولة، وخرج منها علي ويحيى إلى بجاية وملكوها من الموحدنين، وكانت لهم معهم حروب بإفريقية كما نذكر في أخبارهم بعد أخبار لمتونة. وملك الإفرنج ميورقة من أيدي الموحدنين آخر دولتهم. والبقاء لله والملك يؤتيه من يشاء وهو العزيز الحكيم.

الخبر عن ثوار الأندلس آخر الدولة اللمتونية واستبداد بني مردنيش ببلنسية ومزاحمتهم لدولة بني عبد المؤمن من أولها إلى آخرها ومصائر أحوالهم وتصاريقهم

لما شغل لمتونة بالعدو، وبحرب الموحدنين بعد عليهم الأندلس، وعادت إلى الفرقة بعض الشيء ثار ببلنسية سنة سبع وثلاثين وخمسمائة القاضي مروان بن عبد الله بن مروان بن حضاب، وخلعوه لثلاثة أشهر من ملكه، ونزل بالمرية.

ثم حمل إلى ابن غانية بميورقة فسجن بها، وثار بمرسية أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن ظاهر.

ثم خلع وقتل لأربعة أشهر من ولايته، وولي حافد المستعين بن هود شهرين.

ثم ولي ابن عياض ويابغ أهل ببلنسية بعد ابن حضاب للأمير أبي محمد عبد الله بن سعيد بن مردنيش الجذامي.

وأقام مجاهد إلى أن استشهد في بعض أيامه مع النصاري سنة أربع وخمسمائة، فبوع لعبد الله بن عياض كان ثاراً بمرسية كما قدمناه.

وهلك سنة اثنتين وأربعين فبوع إلى ابن أخيه محمد بن أحمد بن سعيد بن مردنيش، وملك شاطبة ومدينة شقر ومرسية.

وكان إبراهيم بن همشك من قواده فبعث في أقطار الأندلس وأغار على قرطبة وتلك بها.

ونصب العيطي كما مر فأراد الاستبداد، ومنع طاعة مجاهد ومنعه أهل ميورقة من ذلك، فبعث عنه مجاهد، وقدم على ميورقة عبد الله ابن أخيه فولى خمس عشرة سنة.

ثم هلك، وكان غزا سردانية في الأساطيل فاقتمهما، وأخرج النصاري منها وتقبضوا على ابنه أسيراً ففداه بعد حين، وولى مجاهد على ميورقة بعد ابن أخيه مولاه الأغلب سنة ثمان وعشرين، وكان بين مجاهد صاحب دانية وبين خيران صاحب مرسية وابن أبي عامر صاحب بلنسية حروب إلى أن هلك مجاهد سنة ست وثلاثين.

وولي ابنه علي وتسمى إقبال الدولة، وأصهر إلى المقتدر بن هود وأخرجه من دانية سنة ثمان وستين ونقله إلى سرقسطة، ولحق ابنه سراج الدولة بالإفرنجية، وأمدوه على شروط شرطها لهم، فتغلب على بعض حصونه.

ثم مات فيما زعموا مسموماً بحيلة من المقتدر سنة تسع. ومات علي قريباً من وفاة المقتدر سنة أربع وسبعين. ويقال: بل فر أمام المقتدر إلى بجاية، ونزل على صاحبها يحيى بن حماد، ومات هنالك، وأما الأغلب مولى مجاهد صاحب ميورقة فكان صاحب غزو وجهاد في البحر.

ولما هلك مجاهد استأذن ابنه علياً في الزيارة فاذن له، وقدم على الجزيرة صهره ابن سليمان بن مشكبان نائباً عنه، وبعث على آل الأغلب فاستعفاه وأقام سليمان خمس سنين.

ثم مات فولى على مكانه مبشراً وتسمى ناصر الدولة، وكان أصله من شرق الأندلس أسر صغيراً وجبه العدو وأقام بدانية محبواً بمجاهد في أسرى دانية وسردانية، واصطفاه فولاه بعد مهلك سليمان فولى خمس سنين، وانقرض ملك علي وتغلب عليه المقتدر بن هود فاستبد مبشر بميورقة، والفتنة يومئذ تموج بين ملوك الطوائف، وبعث إلى دانية في تسليم أهل سيده، فبعثوا إليه بهم وأولاهم جيلاً.

ولم يزل يردد الغزو إلى أرض العدو إلى أن جمع طاغية برشلونة الجموع ونالته بميورقة عشرة أشهر.

ثم افتتحها واستباحها سنة من ولايته.

وكان بعث بالبرصريح إلى علي بن يوسف صاحب المغرب من لمتونة فلم يوافهم الأسطول بالمدد إلا بعد استيلاء العدو.

فلما وصل الأسطول دفعوا العدو عنها وولى علي بن يوسف من قبله أنور بن أبي بكر اللمتوني فغسف بهم وأرادهم

بالأركه من نواحي بطليوس الواقعة المذكورة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وأجاز ابنه الناصر من بعده سنة تسع فمحص الله المسلمين واستشهد منهم عدة.

ثم تلاشت إمارة الموحدين من بعده وانتزى بالسادة بنواحي الأندلس في كل عمله، وضعف براكش فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بقص، واستسلام حصون المسلمين إليه في ذلك فسمت رجالات الأندلس وأعقاب العرب من دولة الأموية، وأجمعوا إخراجهم قثاروا بهم لحين وأخرجوهم.

وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي الشائر بالأندلس.

وقام بلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد، من أعقاب دولة بني مردنيش وثوار آخرون.

ثم خرج علي بن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً، وأهل نسيهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وتلقب محمد هذا بالشيخ فحاربه أهل الجبل، وكانت لكل منهما دولة أورثها بنه.

فأما زيد بن مردنيش فكان مع عشرة من بني مردنيش رؤساء بلنسية، واستظهر الموحدون على إمارتها.

ولما وليها السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن بعد مهلك المستنصر كما نذكر في أخبارهم، وذلك سنة عشرين وستمائة، كان زياد هذا بطانته وصاحب أمره.

ثم انتقض عليه سنة ست وعشرين عندما بويع ابن هود بمرسية وخرج إلى أبداه فخشيته السيد أبو زيد، وبعث إليه يلاطفه في الرجوع فامتنع، ولحق السيد أبو زيد بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية أعادنا الله من ذلك.

وملك زيان بلنسية واتصلت الفتنة بينه وبين ابن هود، وخالف عليه بنو عمه عزيز بن يوسف بن سعد في جزيرة شقر، وصاروا إلى طاعة ابن هود وزحف زيان للقائه على شريش فانهمز وتبعه ابن هود ونازله في بلنسية أياماً وامتنعت عليه فأقلع، وتكالب الطاغية على ثغور المسلمين، ونازل صاحب برشلونة أنيشة وملكها، وزحف زيان إليها بجميع من معه من المسلمين سنة أربع وثلاثين ونفر معه أهل شاطبة وجزيرة شقر فكانت عليهم الواقعة العظيمة التي استشهد فيها أبو الربيع سليمان، وأخذ الناس في الانتقال عن بلنسية، فبعث إليهم يحيى بن أبي زكريا صاحب إفريقية بالمدد من الأموال والأسلحة والطعام مع قريبه يحيى عندما نبذ دعوة بني عبد المؤمن وأوفد عليه أعيان بلنسية وهي محصورة

ثم استرجعت منه ثم غدر بغرناطة وملكها من أيدي الموحدين وحصرهم بالقصبة هو وابن مردنيش.

ثم استخلصها عبد المؤمن من أيديهم بعد حروب شديدة دارت بينهم بفحص غرناطة، لقيه فيها ابن همشك وابن مردنيش، وجيوش من أمم النصرانية استعانوا بهم في المدافعة عن غرناطة، فهزمهم عبد المؤمن وقتلهم أبرح قتل، وحاصر يوسف بلنسية فخطب للخليفة العباسي المستنجد، وكتب له بالعهد والولاية.

ثم بايع للموحدين سنة ست وستين.

وكان المظفر عيسى بن المنصور بن عبد العزيز الناصر بن أبي عامر عندما انصرف إلى ملك شاطبة ومرسية تغلب على بلنسية مدة، ثم هلك سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ورجعت إلى ابن مردنيش.

وكان أحمد بن عيسى تغلب على حصن مزيلة ثائراً بالمرايطين من أتباعه فغلب مندر بن أبي وزر عليه، فأجاز سنة أربعين وخمسمائة إلى عبد المؤمن، ورغبه في ملك الأندلس فبعث معه البعوث وتغلبوا على بني غانية أمراء المرايطين بالأندلس.

وكان بميورقة أيضاً منذ اضطراب أمر لثونة محمد بن علي بن غانية المستوفي، ولها سنة عشرين وخمسمائة، واستشهد بها.

ورحل عنها سنة سبع وثلاثين إلى زيارة أخيه يحيى بلنسية واستخلف على ميورقة عبد الله بن تيماء فلما مكث ثار عليه ثوار فرجع محمد بن غانية وأصلح شأنها إلى أن هلك سنة سبع وستين. وولي ابنه إبراهيم أبو إسحاق وتوفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

ولي بعده أخوه طلحة وبايع للموحدين سنة إحدى وثمانين، وأوفد عليهم أهل ميورقة، فبعثوا معهم علي بن الربربر، فلما وصل إلى ميورقة ثار على طلحة بنو أخيه أبي إسحاق وهم علي ويحيى ويعفر بن الربربر وخلعوا طلحة.

ثم بلغهم موت يوسف بن عبد المؤمن فخرجوا إلى إفريقية حسبما نذكر في أخبار دولتهم، فانقضت دولة المرايطين بالمغرب والأندلس وأدال الله منهم بالموحدين وقتلهم في كل وجه، واستفحل أمرهم بالأندلس واستعملوا فيها القرابة من بني عبد المؤمن وكانوا يسمونهم السادة، واقتسموا ولايتها بينهم.

وأجاز يعقوب المنصور منهم غازياً بعد أن استقر أهل العدو كافة من زناتة، فأوقع العرب بابن آذفونش ملك الجلالقة

فرجع إلى دانية.

ثم أخذ الطاغية بلنسية سنة ست وثلاثين، وخرج زيان إلى جزيرة شقر وأقام بدعوة الأمير أبي زكريا، وبعث إليه يبعثها مع كاتبه الحافظ أبي عبد الله محمد بن الأنباري فوصل إلى تونس، وأنشده قصيدته المشهورة على روي السين بلغ فيها من الإجادة حيث شاء، وهي معروفة وسيأتي ذكرها في دولة بني حفص بإفريقية من الموحدين.

ثم هلك ابن هود وانتفض أهل مرسية على ابنه أبي بكر الواصل، وكان واليه بها أبو بكر بن خطاب، فبعثوا إلى زيان واستدعوه فدخلها وانتهب قصرها وحملهم على البيعة للأمير أبي زكريا على ولاية شرق الأندلس كله، وذلك سنة سبع وثلاثين.

ثم انتفض عليه ابن عصام بأربولة ولحق به قرابة زيان بمدينة لقت فلم يزل بها إلى أن أخذها منه طاغية برشلونة سنة أربع وأربعين فأجاز إلى تونس، وبها مات سنة ثمان وستين.

وأما ابن هود فسيأتي الخبر عن دولته، وأما ابن الأحمر فلم تزل الدولة في أعقابها لهذا العهد.

ونحن ذاكرون أخبارهم لأنهم من بقايا دولة العرب والله خير الوارثين.

الخبر عن ثورة ابن هود على الموحدين بالأندلس ودولته وأولية أمره وتصاريه أحواله

هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود ثار بالصخوريات من عمل مرسية مما يلي رقوط عند فشل دولة الموحدين، واختلاف السادة الذين كانوا أمراء بلنسية، وذلك عندما هلك المستنصر سنة عشرين.

وباع الموحدون بمراكش لعمه المخلوع عبد الواحد بن أمير المؤمنين يوسف.

ثار العادل ابن أخيه المنصور بمرسية ودخل في طاعة صاحب حيان أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وخالفهما في ذلك السيد أبو زيد أخوه ابن محمد بن أبي حفص.

وتفاقت الفتنة واستظهر كل على أمره بالطاغية، ونزلوا له عن كثير من الثغور وقلقت من ذلك ضمائر أهل الأندلس،

فتصدر ابن هود هذا للثورة، وهو من أعقاب بني هود من ملوك الطوائف، وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدون لذلك مرات، فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين، وجهز إليه والي مرسية يومئذ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عسكرياً فهزمهم.

وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد، وخطب للمستنصر صاحب بغداد لذلك العهد من بني العباس.

وزحف إليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن من شاطبة، وكان واليه بها فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطبة.

واستجاش بالمأمون وهو يومئذ بإشبيلية بعد أخيه العادل فخرج في العساكر، ولقيه ابن هود فانهزم واتبه إلى مرسية فحاصره مدة، وامتعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيلية.

ثم انتفض على السيد أبي زيد بلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن حجاج بن سعد بن مردنيش، وخرج عنه إلى أبدة وذلك سنة ست وعشرين.

وكان بنو مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولي بأس وقوة، فتوقع أبو زيد اختلال أمره، وبعث إليه ولطفه في الرجوع فامتنع فخرج أبو زيد من بلنسية، ولحق بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية، نعوذ بالله.

وباعت أهل شاطبة لابن هود، ثم تابعه أهل جزيرة شقر حملهم عليها ولاتهم بنو عزيز بن يوسف عم زيان بن مردنيش، ثم بايعه أهل خبيان وأهل قرطبة، وتسمى بأمير المسلمين، وبايعه أهل إشبيلية عند رحيل المأمون عنها إلى مراكش، وولى عليهم أخاه.

ونازعه زيان بن مردنيش، وكانت بينهما ملاقاتة انهزم فيها زيان سنة سبع وعشرين، وحاصره ابن هود ببلنسية.

ثم أقلع ولقي الطاغية على ماردة فانهزم ومحض الله المسلمين، وانهزم بعدها أخرى على الكوس.

ولم تزل غزواته مترددة في بلاد العدو كل سنة وحربه معهم سجالاً، والطاغية يلتقم الثغور والقواعد.

ثم استولى ابن هود على الجزيرة الخضراء وجبل الفتح فرضي الجاز على سبعة من يد السيد أبي عمران موسى لما انتفض على أخيه المأمون، ونازله بسبب قبائع هو لابن هود وأمكنه منها، ثم ثار بها الناشئي على ما يذكر.

ثم ثار عليه بمدينة مرسية محمد بن هود عم المتوكل سنة ثمان وثلاثين، وأخرج منها زيان بن مردنيش، وتلقب بهاء الدولة، وهلك سنة سبع وخمسين وستمائة.

وولي ابنه الأمير أبو جعفر، ثم ثار عليه سنة اثنين وستين أبو بكر الواثق الذي كان ابن خطاب خلعه، وهو المتوكل أمير المسلمين، وبقي بها أميراً إلى أن ضايقه الفنش والبرشلوني، فبعث إليه عبد الله بن علي بن إشبيلية، وتسلم مرسية منه، وخطب بها لابن الأحمر.

ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر فأوقع به البصري في طريقه، ورجع الواثق إلى مرسية ثالثة فلم يزل بها إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين، وعرضه منها حصناً من عملها يسمى يس إلى أن هلك، والله خير الوارثين.

الخبر عن دولة بني الأحمر ملوك الأندلس لهذا العهد ومبدأ أمورهم وتصاريق أحوالهم

أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف في أبناء الجند ويعرفون ببني نصر، وينسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين محمد بن يوسف بن نصر، ويعرف بالشيخ وأخوه إسماعيل، وكانت لهم وجهة في ناحيتهم.

ولما فشل ربيع الموحدين وضعف أمرهم وكثر الشوار بالأندلس، وأعطى حصونها للطاغية، واستقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الناصر بمرسية، فأقام بدعوه العباسية، وتغلب على شرق الأندلس أجمع فتصدى محمد بن يوسف هذا للثورة على ابن هود وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة على الدعاء للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية، وأطاعته حيان وشريش سنة ثلاثين بعدها، وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأبي دبوس.

واستظهر على أمره أولاً بقرابته من بني نصر وأصهاره بني إشبيلية عبد الله وعلي، ثم بايع لابن هود سنة إحدى وثلاثين عندما وصله خطاب الخليفة من بغداد.

ثم ثار بإشبيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها، ورجوعه إلى مرسية فداخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوجه ابنته فأطاعه، ودخل إشبيلية سنة اثنين وثلاثين.

ثم فتك بابن الباجي وقتله، وتناول الفتك به علي بن

ثم بويع للسلطان محمد بن يوسف بن نصر سنة تسع وعشرين بأرجونة ودخلت قرطبة في طاعته، ثم قرونة ثم انتفض أهل إشبيلية وأخرجوا سالم بن هود وبايعوا لابن مروان أحمد بن محمد الباجي وجهاز عسكرياً للقاء ابن الأحمر فانهزموا وأسر قائده.

ثم اتفق الباجي مع ابن الأحمر على فتنة ابن هود وصالح ابن هود الفنش على فعلتهم على ألف دينار في كل يوم.

ثم صارت قرطبة إلى ابن هود وزحف إلى الباجي وابن الأحمر فانهزم، ونزل ابن الأحمر ظاهر إشبيلية.

ثم غدر الباجي وقتله وتولى ذلك صهره وأشبيلية، وزحف سالم بن هود إلى إشبيلية فنازلها وامتنعت عليه.

ووصل خطاب الخليفة المستنصر العباسي إلى ابن هود من بغداد سنة إحدى وثلاثين، وفد به أبو علي حسن بن علي بن حسن بن الحسين الكردي الملقب بالكمال، وجاء بالراية والخلع والعهد ولقبه المتوكل، وقدم عليه بذلك في غرناطة في يوم مشهود، وبايع له ابن الأحمر، وعندما غدر ابن الأحمر بالباجي فر من إشبيلية شعيب بن محمد إلى البلد فاعتصم بها، وتسمى المعتصم فحاصره ابن هود وأخذها من يده، ثم خرج العدو من كل جهة ونازلوا تغور المسلمين وأحاطوا بهم، وانتهت عزلتهم على الثغور إلى سبع.

ثم حاصر الطاغية مدينة قرطبة وغلب عليها سنة ثلاث وثلاثين وبايع أهل إشبيلية للرشد من بني عبد المؤمن، ثم زحف ابن الأحمر إلى غرناطة وملكها كما يذكر، وبويع للرشد سنة سبع وثلاثين.

وكان عبد الله أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الأموي الرميقي وزير ابن هود، وكان يدعو له الوزيرين ولاه المرة من عمله، فلم يزل بها وقدم عليه المتوكل سنة خمس وثلاثين وستمائة فهلك بالحمام ودفن بمرسية.

ويقال: إنه قتله ثم استبد من بعده المؤيد، واستنزله عنها ابن الأحمر سنة ثلاث وأربعين.

ولما هلك المتوكل ولي من بعده بمرسية ابنه أبو بكر محمد بعده إليه وتلقب بالواثق، وثار عليه عزيز بن عبد الملك بن خطاب سنة ست وثلاثين لأشهر من ولايته فاعتقله، وكان يلقب ضياء الدولة.

ثم تغلب زيان بن مردنيش على مرسية وقتل ابن خطاب لأشهر من ولايته، وأطلق الواثق بن هود من اعتقاله.

إشقيولة.

بعد ذلك ابن محفوظ على شلب وطليرة سنة تسع وخمسين.

ثم ملك مرسية سنة خمس وستين ولم يزل الطاغية يقطع ممالك الأندلس كورة وكورة وثغراً وثغراً إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة من الغرب وإلبيرة من شرق الأندلس، نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق وفي مقدار مرحلة أو ما دونها في العرض ما بين البحر والجوف ثم سخط بعد ذلك الشيخ ابن الأحمر وطعم في الاستيلاء على كافة الجزيرة فامتنعت عليه وتلاحق بالأندلس غزاة من زناتة الثائرين يومئذ من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وبني مرين، وكان أعلاهم كعباً في ذلك وأكثرهم غزي بنو مرين، فأجاز أولاً أولاد إدريس بن عبد الحق وأولاد رحو بن عبد الله بن عبد الحق أعياص الملك منهم ستة وستين أو نحوها، فتقبل ابن الأحمر إجازتهم ودفع بهم في بحر عدوه ورجعوا، ثم تهايلوا إليه من بعد ذلك من كل بيت من بيوت بني مرين ومعظمهم الأعياص من بني عبد الحق لما تزاحمهم مناكب السلطان في قومهم وتغص بهم الدولة فينزعون إلى الأندلس مغنين بها من بأسهم وشوكتهم في المدافعة عن المسلمين، ويخلصون من ذلك على حظ من الدولة بمكان.

ولم يزل الشأن هذا إلى أن هلك محمد بن يوسف بن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة، وقام بأمره من بعده ابنه محمد وكان يعرف بالفقيه لما كان يقرأ الكتاب من بين أهل بيته، ويطالع كتب العلم.

وكان أبوه الشيخ أوصاه باستصراخ ملوك زناتة من بني مرين الدائنين بالمغرب من الموحدين وأن يوثق عهده بهم ويحكم أراضي سلطانهم بمداخلتهم، فأجاز محمد الفقيه ابن الأحمر إلى يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين سنة اثنين وسبعين وستمائة عندما تم استيلاؤه على بلاد المغرب، وتغلبه على مراكش، وافتقاده سرير ملك الموحدين بها فأجاب صريحه، وأجاز عساكر المسلمين من بني مرين وغيرهم إلى الجهاد مع ابنه منديل.

ثم جاء على أثرهم وأمكنه ابن هشام من الجزيرة الخضراء، كان ثائراً بها فتسلمها منه ونزل بها، وجعلها ركاباً لجهاده وينزل بها جيش الغزو.

ولما أجاز سنة اثنين وسبعين كما قلناه هزم زعيم النصرانية، ثم حذره ابن الأحمر على ملكه فداخل الطاغية، ثم حذر الطاغية فراجعوه وهو مع ذلك يده في تحريه بشوكة الأعياص الذين نزعوا إليه من بني مرين بما شاركوا صاحب المغرب من نسب ملكه وقاسموه في يعسوية قبيلته، فكان له بذلك مدفع عن نفسه

ثم راجع أهل إشبيلية بعدها لشهر دعوة ابن هود، وأخرجوا ابن الأحمر.

ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمداخلة أهلها ثم ثار ابن أبي خالد بدعوته في لحيان ووصلته بيعتها، فقدم إليها أبا الحسن بن إشقيولة.

ثم جاء على أثره ونزلها واستقر بها بعد مهلك ابن هود، وبايع للرشد سنة تسع وثلاثين ثم تناول المؤيد من يد محمد بن الرميحي فخلعه أهل البلد سنة ثلاث وستين وبايعوا لابن الأحمر.

ثم ثار أبو عمرو بن الجذّ واسمه يحيى بن عبد الملك بن محمد الحافظ أبي بكر وملك إشبيلية، وبايع للأمير أبي زكريا بن حفص صاحب إفريقية سنة ثلاث وأربعين، وولي عليهم أبو زكريا أميراً، وقام بأمرهم القائد شغاف، والعدو أثناء ذلك يلتقم بلاد المسلمين وحصونهم من لدن عام عشرين أو قبله وصاحب برشلونة من ولد البطريق الذي استعمله الإفريقية عليها لأول استرجاعهم لها من أيدي العرب فتغلب عليها، وبعد عن الفرنجة، وضعف لعهد سلطانهم.

ووصلوا وراء الدروب وعجزوا فكانوا عن برشلونة وجماعتها أعجز، فسموا أهل طائفتها منهم لذلك العهد واسمه حاقمة إلى التغلب على ثغور المسلمين واستولى على ماردة سنة ست وعشرين وستمائة.

ثم ميوزقة سنة سبع وعشرين وستمائة، ثم أجاز إلى سرسطة وشاطبة كان تملكها منذ مائة وخمسين من السنين قبلها.

ثم بلنسية سنة ست وثلاثين وستمائة بعد حصار طويل وطوى ما بين ذلك من الحصون والقرى حتى انتهى إلى المرية وحصونها، وابن أذفونش أيضاً ملك الجلالة هو ابن الأذفونش الملقب بالحكيم وآبؤه من قبله يتقرى القرمسترة حصناً حصناً، ومدينة مدنية إلى أن طواها واستعبد ابن الأحمر هذا لأول أمره بما كان بينه وبين الثوار بالأندلس من المنازعة فوصل يده بالطاغية في سبيل الاستظهار على أمره فوصله وشد عضده، وصار ابن الأحمر في جلته وأعطاه ابن هود ثلاثين من الحصون أو نحوها في كف غربه عن ابن الأحمر، وأن يعينه على ملك قرطبة فتسلمها، ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وأعاد إليها خيرة الله كلمة الكفر، ثم نازل إشبيلية سنة ست وأربعين وابن الأحمر معه مظهر الامتاع لابن الجد وحاصرها ستة وستين ثم دخلها صلحاً، وانتظم معها حصونها وثغورها وأخذ طليطلة من يد ابن كماشة، وغلب

وسبعمائة وكان أبوهما السلطان الفقيه استعمل على مائة الرئيس أبا سعيد ابن عمه إسماعيل بن نصر، وطالت فيها إمارته، وهو الذي تملك سبته وغدر بني الغرني بها على عهد المخلوع وبدعوته كما يذكر في أخبار سبته ودولة بني مرين.

وكان أصهر إليه في ابنته وكان له منها ابنه أبو الوليد إسماعيل، فلما تملك الجيوش نصر غرناطة واستولى على سلطانهم بها ساءت سيرته وسيرة وزيره ابن الحاج وأخذ الأعياص من بني مرين، واستظهر الرعية بالقهر والعسف.

وكان بنو إدريس بن عبد الله بن عبد الحق أمراء على الغزاة بمالقة، وكان كبيرهم عثمان بن أبي المعلى، فداخل أبا الوليد في الخروج على السلطان نصر، وتناول الأمر من يده لضعفه وسعفه بطاقته وأقرباؤه فاعتزموا على ذلك، ولم يتم لهم إلا باعتقال أبيه أبي الجيوش فاعتقلوه، وبايعوا أبا الوليد.

ونار بمالقة سنة سبع عشرة الرئيس أبو سعيد وزحفوا إلى غرناطة فهزموا عساكر أبي الجيوش وثار به الدهماء من أهل المدينة، وأحيط به.

وصالحهم على الخروج إلى وادي آش فلقح بها، وجدد بها ملكاً إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين، ودخل أبو الوليد إلى غرناطة فأصل بها لنفسه وبنه ملكاً جديداً، وسلطاناً فنيحاً.

ونازله ملك النصارى الفنش بغرناطة سنة ثمان عشرة وأبلى فيها بني أبي العلا.

ثم كان من تكيف الله تعالى في قتله وقتل رديفه، واستلحاح جيوش النصارية بظاهر غرناطة ما ظهرت فيه معجزة من معجزات الله.

وتردد إلى أرض النصارية بنفسه، غازياً مرات مع عساكر المسلمين من زناتة والأندلس، وكانت زناتة أعظم غناء في ذلك لقرب عهدهم بالتقشف والبداوة التي ليست للناس.

وبلغ أبو الوليد من العز والشوكة إلى أن غدر به بعض قرابته من بني نصر سنة سبع وعشرين وسبعمائة، طعنه غدراً عندما انفض مجلسه بباب داره فأنفذه وحمل إلى فراشه، ولحق القادر بدار عثمان بن أبي العلى فقتله لحينه وقتل الموالي المجاهدين، فخرج عليهم ولحق باندیس فتملكها واستدعى محمد ابن الرئيس أبي سعيد في معتقله بسلوياشة، ونصبه للملك فلم يتم له مراده من ذلك.

ورجعوا آخراً للمهانة، وقتل السلطان محمد وزيره ابن الحروق بداره غدراً سنة تسع وعشرين، واستدعاه للحديث على

ومرض في طاعة قرابته من بني إشقيلولة، كان عبد الله منهم بمالقة وعلى بوادي آش وإبراهيم بمحصن قمارش فالتاثوا عليه، وداخلوا يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين في المظاهرة عليه فكان له معهم فتنة، وأمكنوا يعقوب من الثغور التي بأيديهم مائة ووادي آش حتى استخلصها هذا السلطان الفقيه من بعد ذلك، كما نذكره في أخبار بني مرين مع بني الأحمر.

وصار بنو إشقيلولة آخراً وقرابتهم بني الزرقاء إلى المغرب، ونزلوا على يعقوب بن عبد الحق وأكرم مآثرهم وأقطعهم واستعملهم في كبير الخطط للدولة حسبما يذكر.

واستبد السلطان الفقيه ابن الأحمر بملك ما بقي من الأندلس وأورثه عقبه من غير قبيل ولا كثير عصبية، ولا استكثر من الحامية إلا من يأخذه الجلاء من فحول زناتة وأعياص الملك فينزلون بهم غزى، ولهم عليهم عزة وتغلب وسبب ذلك ما قدمناه في الكتاب الأول من إفقاد القبائل والعصائب بأرض الأندلس جملة فلا تحتاج الدولة هنالك إلى كبير عصبية، وكان للسلطان ابن الأحمر في أول أمره عصبية من قرابته بني نصر وأصهارهم بني إشقيلولة وبني المولى ومن تبعهم من الموالي والمصطنعين كانت كافية في الأمر من أوله مع معاضدة الطاغية على ابن هود وثوار الأندلس ومعاضدة ملك المغرب على الطاغية والاستظهار بالأعياص على ملك المغرب، فكان لهم بذلك كله أقدار على بلوغ أمرهم وتمهيده، وربما يفهم في مدافعة الطاغية اجتماع الخاصة والعامة في عداوته، والرهب منه بما هو عدو للدين فتستوي القلوب في مدافعته وخفاته فينزل ذلك بعض الشيء منزلة العصبية.

وكانت إجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق إليه أربع مرات، وأجاز ابنه يوسف إليهم بعد أبيه.

ثم شغلته الفتنة مع بني يغمراسن إلى أن هلك السلطان الفقيه سنة إحدى وسبعمائة، وهو الذي أعان الطاغية على منزلة طريف وأخذها، وكان يميز عسكره مدة حصاره إياها إلى أن فتحها سنة أربع وسبعمائة لما كانت ركاباً لصاحب المغرب، متى هم بالجوارز لقرب مسافة الزقاق.

فلما ملكها الطاغية صارت عيناً على من يروم الجواز من الغزاة فصعب أمره عليهم، وولي من بعده ابنه محمد المخلوع، واستبد عليه وزيره محمد بن محمد بن الحكم اللخمي، من مشيخة ردة ووزرائها فحجره واستولى على أمره، إلى أن نار به أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد فقتل الوزير، واعتقل أخاه سنة ثمان

حصن الحمراء، وتسوره وولج على الحاجب رضوان في داره
فقتله، وأخرج صهره إسماعيل ونصبه للملك ليلة سبع وعشرين
من رمضان سنة ستين وسبعمائة.

وكان السلطان محمد هذا المخلوع بروضة خارج الحمراء،
فلحق بوادي آش وأجاز منها إلى العدو، ونزل على ملك المغرب
السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن فرعى له ذمته، وأحمد
نزوله وارتاب شيخ الغزاة يحيى بن عمرو بالدولة ففر إلى دار
الحرب ولحق منها بالمغرب ونزل على السلطان أبي سالم فأحمد
نزوله، وولي مكانه على الغزاة بغرناطة من جهة إدريس بن عثمان
بن أبي العلى، فقام الرئيس بأمر إسماعيل أخيه ودبر ملكه.

ثم ترددت السعيات وأنذر الرئيس بالنكبة فغدر
بإسماعيل، وقتله وإخوته جميعاً سنة إحدى وستين.

وقام بملك الأندلس ونبذ إلى الطاغية عهده ومنعه ما كان
سلفه يعطونه من الجزية على بلاد المسلمين، فشر الطاغية لحربه،
وجهاز العساكر إليه فأوقع المسلمون بهم بوادي آش وعليهم بعض
الرؤساء من قرابة السلطان فعظمت النكابة.

وأرسل ملك المغرب إلى الطاغية في شأن محمد المخلوع
ورده إلى ملكه، فأركب الأساطيل وأجازه إلى الطاغية فلقبه ووعده
المظاهرة على أمره، وشرط له الاستئثار بما يفتح من حصون
المسلمين.

ثم نقض فيما افتتح منها ففارقه السلطان وأوى إلى الثغر
المغربي في ملكة بني مرين، وأمكن من ثغور رندة، فزحف منها إلى
مالقة سنة خمس وستين فانتحها، وفر الرئيس محمد بن إسماعيل
من غرناطة ولحق بالطاغية وكان معه إدريس بن عثمان شيخ
الغزاة بمجسه إلى أن فر من مجسه بعد حين، كما يذكر في أخبارهم.
وزحف السلطان محمد فيمن معه وأتوه بحاجب الرئيس
وقتله، واستلحم معه الرجال من الزعالة الذين قتلوا الحاجب
وتسوروا قصور الملك.

ودخل السلطان محمد غرناطة واستولى على ملكه، وقدم
على الغزاة شيخهم يحيى بن عمر، واختص ابنه عثمان، ثم نكبها
لسنة وحبسهما بالمطبق بالمرية، ثم غربهما بعد أعوام وقدم على
الغزاة قريهما علي بن بدر الدين بن محمد بن رحو.

ثم مات فقدم مكانه عبد الرحمن بن أبي يغلوسن وترفع
على السلطان أبي علي بن محمد ملك المغرب، وتلا هذا السلطان
محمد المخلوع أريكة ملكه بالحمراء متمتعاً بالظهور والترف والعزة
على الطاغية والجلالة، وعلى ملوك المغرب بالعودة بما نال

لسان عمته المتغلبة عليه مع ابن المحروق، وتناوله مع علوجه طعنناً
بالخناجر إلى أن مات.

وقام السلطان بأعباء ملكه، ورجع عثمان بن أبي العلى إلى
مكانه من يعسوية الغزاة وزناته، حتى إذا هلك قدم عليهم مكانه
ابنه أبا ثابت، وأجاز السلطان محمد إلى المغرب صريحاً للسلطان
أبي الحسن على الطاغية فوجده مشغولاً بفتنة أخيه محمد.

ومع ذلك جهز له العساكر وعقد عليها سنة ثلاث وثلاثين.
واستراب بنو أبي العلى بمدخله السلطان أبي الحسن،
فتشاوروا في أمره وغدروا به يوم رحيله عن الجبل إلى غرناطة،
فتقاصفوه بالرماح، وقدموا أخاه أبا الحاجاج يوسف، فقام بالأمر
وشمر عن ساعده في الأخذ بثار أخيه، فنكب بني العلى وغربهم
إلى تونس، وقدم على الغزاة مكان أبي ثابت بن عثمان قرؤية من
بني رحو بن عبد الله بن عبد الحق، وهو يحيى بن عمر بن رحو،
فقام بأمرهم وطال أمر رياسته.

واستدعى السلطان أبو الحاجاج السلطان أبا الحسن صاحب
المغرب فأجاز ابنه عندما تم له الفتح بتلمسان، وعقد له على
عساكر جمة من زناته والمتطوعة فغزاهم، وغنم وقفل راجعاً.

وتلاحقت به جموع النصاري وبيتوه على حدود أرضهم،
فاستشهد كثير من الغزاة، وأجاز السلطان أبو الحسن سنة إحدى
وأربعين بكافة أهل المغرب من زناته ومغراوة والمرتقة والمتطوعة
فنازل طريف، وزحف إليه الطاغية فلقبه بظاهاها فانكشف
المسلمون، واستشهد الكثير منهم، وهلك فيها نساء السلطان
وحريمه وفسطاطه من معسكره، وكان يوم ابتلاء وتمحيص.

وتغلب الطاغية أثرها على القلعة ثغر غرناطة، ونازل
الجزيرة الخضراء وأخذها صلحاً سنة ثلاث وأربعين، ولم يزل أبو
الحجاج في سلطانه إلى أن هلك يوم الفطر سنة خمس وخمسين،
طعنه في سجوده من صلاة العيد وغد من صناعفة البلد كان
يجتمعاً.

وتولى ابنه واستبد عليه مولاها رضوان حاجب أبيه وعمه
فقام بأمره وغلبه عليه وحجبه.

وكان إسماعيل أخوه ببعض قصور الحمراء قلعة الملك،
وكانت له ذمة وصهر من محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن محمد
ابن الرئيس أبي سعيد، بما كان أبوه أنكحه شقيقة إسماعيل هذا.

وكان أبو يحيى هذا يدعى بالرئيس وجده محمد هذا هو
الذي قدما أن عثمان بن أبي العلى دعاه من مكان اعتقاله للملك
فدخل محمد هذا الرئيس بعض الزعالة من الفوغاء، وبيت

دولتهم جميعاً من الهرم الذي يلحق الدول.

ابن الأحمر عبد الرحمن بن أبي يغلوسن من محبسه فنقم ذلك عليه الوزير أبو بكر كافل الدولة بالمغرب، واعتزم على بعث الرؤساء من قرابة ابن الأحمر إلى الأندلس لمنازعته، ومده بالمال والجيش.

ويلغ ذلك ابن الأحمر فعاجله عنه وسار في العساكر إلى فرضة المجاز، ونازل جبل الفتح، ومعه ابن أبي يغلوسن وابن ماسي، وأركبهما السفن فنزلوا ببلاد بطرة فاضطرب المغرب، واشتد الحصار على أهل جبل الفتح، واستأمنوا لابن الأحمر وأطاعوه.

وكان بسطة محمد بن عثمان بن الكاس صهر أبي بكر بن غازي وقربيه بعثه لضبط المراسي عندما نزل ابن الأحمر على الجبل، ويطنجة يومئذ جماعة من ولد السلطان أبي الحسن المرشحين محبوسون منذ عهد عبد العزيز، فوقعت المراسلة من السلطان ابن الأحمر ومحمد بن عثمان، ونكر عليه مبايعتهم لولد صغير لم يراهق.

وأشار ببيعة واحد من أولئك المرشحين المحبوسين بطنجة، ووعدته بالمظاهرة والمدد بالمال والجيش، ووقع اختيار محمد بن عثمان على السلطان أبي العباس أحمد، فأخرجه وباع له.

وقد كان أولئك الفتية تعاهدوا في محبستهم أن من استولى منهم على الملك أطلق الباقيين منهم، فوفى لهم السلطان أبو العباس لأول بيعته، وأطلقهم من الحبس، وبعثهم إلى الأندلس، ونزلوا على السلطان ابن الأحمر فأكرمهم وجعلهم لنظرة.

وبعث بالأموال والعساكر للسلطان أبي العباس ولوزيره محمد بن عثمان، وكتب إلى عبد الرحمن ابن أبي يغلوسن بموافقتهم واجتماعهما على الأمر، فساروا جميعاً ونازلوا دار الملك بفاس حتى استأمن أبو بكر بن غازي للسلطان أبي العباس، وأمكنه من البلد الجديد دار الملك فدخلها في محرم سنة ست وسبعين.

وشيع عبد الرحمن بن أبي يغلوسن إلى مراكش وأعمالها وسوخ له ملكها كما كان الوفاق بينهما من قبل.

وبعث بالسعيد بن عبد العزيز المنسوب، واتصلت الموالاة والمهاداة بينه وبين ابن الأحمر، وانتقض ما بينه وبين عبد الرحمن صاحب مراكش، ونهض مراراً، وحاصره وابن الأحمر يمدّه تارة ويسعى بينهما في الصلح أخرى، إلى أن نهض إليه سنة أربع وثمانين وحاصره شهراً، واقتحم عليه حصنه عنوة وقتله ورجع إلى فاس ثم نهض، إلى تلمسان، وهرب صاحبها أبو أحمد سلطان بني عبد الواد، ودخل السلطان أبو العباس تلمسان.

وأما الجلالة فانتقضوا على ملكهم بطرة بن أذفونش سنة ثمان وستين من لدن مهلك أبيهما، وقعت بين بطرة وبين ملك برشلونة بسبب إجارتها عليه فتن وحروب حجب منها الجلالة، وكانت سبباً لانتقاضهم على بطرة واستدعائهم لأخيه الفتن فجاء وبابوه، والمحرفوا إليه جميعاً عن بطرة، فتحيز إلى ناحية بلاد المسلمين واستدعى هذا السلطان محمداً صاحب غرناطة لنصره من عدوه، وأغراه ببلاد الفتن ففتح كثيراً من معقلها وخرّبها مثل حيان وأبدة وأثر وغيرها، وعاث في بساطها ونزل قرطبة وخرّب نواحيها ورجع ظافراً غانماً، ولحق ببطرة سلطان الأفرنجية الأعظم في ناحية الشمال من وراء جزيرة الأندلس، وهو صاحب جزيرة أركبلطرة وتسمى بنسرغالس، وقد عليه صريحاً وزوجه اتبته، فبعث ابنه لنصره في أمم الإفرنج.

وانهزم الفتن أمامهم، وارتجع بطرة البلاد حتى إذا رجعت عساكر الإفرنجية، رجع الفتن فارتجع البلاد ثانياً وحاصر أخاه بطرة في بعض حصون جليقة حتى أخذه وقتله واستولى على ملكهم.

واغتنم السلطان صاحب غرناطة شغلهم بهذه الفتنة فأغار عليهم، ومنع الجزية التي كانوا يأخذونها من المسلمين منذ عهد سلفه فأقاموا من لدن سنة اثنين وسبعين لا يعطونهم شيئاً واستمر على ذلك وسما إلى مطالبتهم بنسرغالس ملك القرنجية من ورائهم الذي جاء لنصر بطرة، وأنكحه بطرة إيته، وولدت له ولداً فزعم أبوه هذا الملك أنه أحق بالملك من الفتن وغيره على عادة العجم في تملك الأسباط من ولد البطن.

وطالت الحرب بينهما ونزل بالجلالة من ذلك شغل شاغل، واقطع الكثير من ثغورهم وبلادهم، فمنعهم ابن الأحمر الجزيرة واعتز عليهم كما ذكرناه، والحال على ذلك لهذا العهد.

وأما ملوك المغرب فإن السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن لما استبد بملكه واستفحل أمره، وكان عبد الرحمن بن أبي يغلوسن مقدماً على الغزاة بالأندلس كما قلناه، وهو قسيمه في النسب ومرادفه في الترشيح للملك، فعثر السلطان عبد العزيز على مكاتبة بينه وبين أهل دولته، فارتاب وبعث إلى ابن الأحمر في حبسه فحبسه، وحبس معه الأمير مسعود بن ماسي لكثرة خوضه في الفتنة، ومكاتبة أهل الدولة.

فلما توفي السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وبويع ابنه محمد السعيد يافعاً وكفله وزير أبيه أبو بكر بن غازي الشائر أطلق

وامتنع السلطان لذلك ووقعت المراسلة بينه وبين ابن ماسي على أن يبايع بشرط الاستبداد عليه، واتفقا على ذلك. ولحق السلطان بابن ماسي ورجع به إلى دار الملك فبايع له وأخذ له البيعة من الناس وكانت معه حصّة من جند السلطان ابن الأحمر مع مولى من مواليه فحبسهم جميعاً وامتنع لذلك السلطان فأركب أبا العباس البحر وجاء معه بنفسه إلى سبتة فدخلها وعسكر ابن ماسي عليها يحاصرونها، فبايعوا جميعاً للسلطان أبي العباس.

ورجع ابن الأحمر إلى غرناطة، وسار السلطان أبو العباس إلى فاس واعترضه ابن ماسي في العساكر فحاصره بالصفيحة من جبل غمارة، وتحدث أهل عسكره في اللحق بالسلطان أبي العباس ففزعوا إليه، وهرب ابن ماسي وحاصره السلطان شهراً حتى نزلوا على حكمه فقطع ابن ماسي بعد أن قتله ومثل به، وقتل سلطانه، واستلحم سائر بني ماسي بالتكليف والقتل والعذاب.

واستولى على المغرب واستبد بملكه وأفرج السلطان ابن الأحمر على سبتة وأعادها إليه. واتصلت الموالاة بينهما.

وأقام ابن الأحمر في اعتزازه ولم تطرقه نكبة ولا حادثة سائر أيامه إلا ما بلغنا أنه نمي له عن ابنه ولي عهده أبي الحجاج يوسف أنه يروم التوثب به، وكان على سفر في بعض نواحي الأندلس فقبض على ولده لحينه، ورجع إلى غرناطة، ثم استكشف حاله فظهرت براءته فأطلقه وأعادته إلى أحسن أحواله، وإلا ما بلغنا أيضاً أنه لما سار من غرناطة إلى جبل الفتح شارياً لأحوال السلطان أبي العباس وهو بالصفيحة من جبال غمارة، وابن ماسي، يحاصره، فنمي إليه أن بعض حاشيته من أولاد الوزراء وهو ابن مسعود البنلسي، ابن الوزير أبي القاسم بن حكيم وقد اتفقوا على اغتياله، وأن ابن ماسي دس إليهم بذلك ونصبت له على ذلك العلامات التي عرفتها فقبض عليهم لحينه، ولم يمهلهم وقتلهم وجميع من داخلهم في ذلك، ورجع إلى غرناطة وأقام متمتعاً بملكه إلى أن هلك سنة ثلاث وتسعين، فولي مكانه ابنه أبو الحجاج وبايعه الناس، وقام بأمره خالد مولى أبيه وتقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر فهلكوا في حبسهم، ولم يوقف لهم على خبر.

ثم سعى عنه في خالد القائم بدولته أنه أعد السم لقتله، وأن يحيى بن الصائغ اليهودي طبيب دارهم داخله في ذلك ففتك بخالد، وقتل بين يديه صبراً بالسيف لسنة أو نحوها من ملكه، وحبس الطبيب فذبح في محبسه.

وكان جماعة من سماسرة الفتن قد سعوا ما بينه وبين السلطان ابن الأحمر بالفساد حتى أوغروا صدره، وحملوه على نقض دولة السلطان أبي العباس ببعض الأعياص الذين عنده، فاختر من أولئك الفتية الذين نزلوا عليه من طنجة موسى ابن السلطان أبي عنان، واستوزر له مسعود بن ماسي، وركب السفن معه إلى سبتة فبادر أهلها بطاعة موسى، وأتوه ببيعتهم، وارتحل عنهم إلى فاس وملك السلطان ابن الأحمر سبتة، وصارت في دعوته، وعمد السلطان موسى إلى دار الملك بقاس فوقف عليها يوماً، واستأمنوا له آخر النهار فدخلها سنة ست وثمانين، وأصبح جالساً على سرير ملكه.

وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس، وقد ارتحل من تلمسان لقصد أبي حو وبني عبد الواد بمكانهم من دار الملك ففكر راجعاً، وأخذ السير إلى فاس، فلما تجاوز تازي وتوسط ما بينهما وبين فاس، افترق عنه بنو موين وسائر عساكره، وساروا على راياتهم إلى السلطان موسى، ونهب معسكره، ورجع هو إلى تازي فتوثق منه عاملها حتى جاء يريد السلطان من فاس فتقبض عليه، وحمله إلى فاس وأزعجه السلطان موسى إلى الأندلس ونزل على ابن الأحمر كما كان هو.

واستولى السلطان موسى على المغرب واستبد عليه وزيره مسعود، وطالب ابن الأحمر بالنزول على سبتة فامتنع، ونشأت بينهما الفتنة، ودس ابن ماسي لأهل بيته بالثورة على حامية السلطان ابن الأحمر عندهم فثاروا عليهم، وامتنعوا بالقصبة حتى جاءهم المدد في أساطيل ابن الأحمر، فسكن أهل بيته وأطمأنت الحال، ونزع إلى السلطان ابن الأحمر جماعة من أهل الدولة، وسألوه أن يبعث لهم ملكاً من الأعياص الذين عنده، فبعث إليهم الواثق محمد بن الأمير أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن وشيعه في الأسطول إلى سبتة، وخرج إلى غمارة وبلغ الخبر إلى مسعود بن ماسي، فخرج إليه في العسكر وحاصره بتلك الجبال.

ثم جاءه الخبر بموت سلطانه موسى ابن السلطان أبي عنان بفاس فارتحل راجعاً.

ولما وصل إلى دار الملك نصب على الكرسي صبيّاً من ولد السلطان أبي العباس كان تركه بفاس، وجاء السلطان أبو عنان ابن الأمير أبي الفضل، ونزل بجبل زرهون قبالة فاس، وخرج ابن ماسي في العساكر فنزل قبائله، وكان متولي أمره أحمد بن يعقوب الصيحي، وقد غص به أصحابه فذبوا عليه وقتلوه أمام خيمة السلطان.

سيف البحر من جانب الجوف، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة، واجتمعوا بجليقة وملكوا عليهم ثلاثة: ابن ناقله فأقام ملكاً تسع عشرة سنة، وهلك سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وولي ابنه قافلة ستين، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بطرة، وهو الذي اتصل ملكه في عقبه لهذا العهد، ونسبهم في الجلالة من العجم كما تقدم.

ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب الغوط، وعندي أن ذلك ليس بصحيح فإن أمة الغوط قد دثرت وغبرت وهلكت، وقل أن يرجع أمر بعد إدباره وإنما هو ملك مستجد في أمة أخرى والله أعلم.

فجمعهم أذفونش بن بطرة على حماية ما بقي من أرضهم بعد أن ملك المسلمون عامتها، وانتهروا إلى جليقة وأقصروا عن الفتح بعدها حتى فشلت الدولة الإسلامية بالأندلس، وارتجع النصراني الكثير عما غلبوا عليه.

وكان مهلك أذفونش بن بطرة سنة اثنتين وأربعين ومائة لثمان عشرة سنة من ملكه، وولي بعده ابنه فرويلة إحدى عشرة سنة قوي فيها سلطانه، وقارنه فيها شغل عبد الرحمن الداخل بتهديد أمره فاسترجع مدينة بسك، وبرتغال وسمورة، وسلمنقة، وشقرنية، وقشتالة بعد أن كانت انتظمت للمسلمين في الفتح وهلك سنة ثمان وخسين، وولي ابنه شيلون عشرة سنين.

وهلك سنة ثمان وستين، فولوا مكانه أذفونش منهم، ووثب عليه سمول ما ط قتلته وملك مكانه سبع سنين، وعلى عقب ذلك استفحل ملك عبد الرحمن بالأندلس، وأغزى جيوشه أرض جليقة ففتح وغنم وأسر.

ثم ولي منهم أذفونش آخر سنة اثنتين وخسين، وهلك سنة ثمان وستين فولوا مكانه أذفونش منهم، ووثب أحد ملوكهم المستبدين بأمرهم.

قال ابن حيان: كانت ولاية رذمير هذا عند ترهب أخيه أذفونش الملك قبله، وذلك سنة تسع عشرة وثلاثمائة على عهد الناصر، وتها للناصر الظهور عليه إلى أن كان التمحيص على المسلمين في غزوة الخندق، وذلك سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، وكانت الواقعة بالخندق وقريباً من مدينة شنت ماكس كما ذكر في أخباره.

ثم هلك رذمير سنة تسع وثلاثين، وولي أخوه شانجة وكان تهاً معجباً بطلاً فانتقض سلطانه، وهن ملك قومه، وانتزى عليه قوامس دولته فلم يتم لبني أذفونش بعدها ملك مستبد في

ثم هلك سنة أربع وتسعين لستين أو نحوها من ملكه.

وبويع ابنه محمد وقام بأمره محمد الخصاصي القائد من صنائع أبيه، والحال على ذلك لهذا العهد والله غالب على أمره.

وقد انقضى ذكر الدولة الأموية المتأزعين لبني العباس ومن تبعهم من الملوك بالأندلس، فلنذكر الآن شيئاً من أخبار ملوك النصرانية الذين يجاورون المسلمين بجزيرة الأندلس من سائر نواحيهم، ونلم بطرف من أنسابهم ودولهم.

الخبر عن ملوك بني أذفونش من الجلالة ملوك الأندلس بعد الغوط ولعهد المسلمين وأخبار من جاورهم من الفرنجة والبشكنس والبرتغال والإلام ببعض أخبارهم

والملوك لهذا العهد من النصرانية أربعة في أربعة من العملات محيطة بعمالة المسلمين، قد ظهر إعجاز الملة في مقامهم معهم وراء البحر بعدما استرجعوا من أيديهم ما نظمته الفتح الإسلامي أول الأمر.

وأعظم هؤلاء الملوك الأربعة: قشتالة وعمالته عظيمة متسعة مشتملة على أعمال جليقة كلها، مثل قشتالة وجليسية.

والقرنتيرة وهي بسيط قرطبة وإشبيلية وطليلة وجيان، آخذة في جوف الجزيرة من المغرب إلى المشرق.

ويليه من جانب الغرب ملك البرتغال وعمالته صغيرة وهي أشبونة، ولا أدري نسبة فيمن هو من الأمم.

ويغلب على الظن أنه من أعقاب القواميس الذين تغلبوا على عمالات بني أذفونش في العصور الماضية كما نذكر بعد، ولعله من أسباطهم وأولي نسبهم والله أعلم.

ويلي ملك قشتالة هذا من جهة الشرق ملك نبرة، وهو ملك البشكنس وعمالته صغيرة فاصلة بين عمالات قشتالة وعمالة ملك برشلونة، وقاعدة ملك نبرة وهي مدينة ينبلونة، وملك برشلونة وما وراءها.

ونحن الآن نذكر أخبار هذه الأمم من عهد الفتح بما يظهر لك منه تفصيل أخبارهم:

وذلك أن النصرانية لما تغلب عليهم المسلمون عند الفتح سنة تسعين من الهجرة، وقتلوا لزيق ملك الغوط وانساحوا في نواحي جزيرة الأندلس، وأجفلت أمم النصرانية كلها أمامهم إلى

الجلالة إلا من بعد أزمان الطوائف وملوكهم كما ذكرناه.

وكان اضطراب ملكهم كما نقل ابن حيان على يد فردلند بن عبد شلب قومس ألبه والقلاع، فكان أعظم القوامس، وهم ولاة الأعمال من قبل الملك الأعظم فانتقض على شاذغة ألبه وظاهرهم ملك البشكنس على شاذغة، وورد شاذغة على الناصر بقرطبة صريحاً فأمدّه، واستولى بذلك الإمداد على سمورة فملكها، وأنزل المسلمين بها واتصلت الحرب بين شاذغة وبين فردلند إلى أن أسر فردلند في بعض أيام حروبهم، وحصل في أسر ملك البشكنس على أن ينفذ إليه أسيره فردلند بن عبد شلب قومس ألبه والقلاع فأبى من ذلك، وأطلقه.

ووفد على المتصر أردون بن أذفونش المقارع لشاذغة صريحاً سنة إحدى وخمسين فاجابه، وأنفذ غالباً مولاة في مدده.

ثم هلك شاذغة ملك بني أذفونش ببليبوس، وقام بأمرهم بعده ابنه رذمير، وهلك أيضاً فردلند بن عبد شلب قومس ألبه، وولي بعده ابنه غرسية، ولقي رذمير المسلمين بالثغر في بعض صوافئهم وعظمت نكايته بعد مهلك الحكم المستنصر إلى أن قبض الله لهم المنصور بن أبي عامر حاجب ابنه هشام، فأنخن في عمل رذمير، وغزاه مراراً وحاصره في سمورة.

ثم في ليون بعد أن زحف إلى غرسية بن فردلند صاحب ألبه، وظاهر معه ملك البشكنس فغلبهما.

ثم ظاهروا مع رذمير وزحفوا جميعاً للقائه بشنت مأكس فهزموهم، واقتحمها عليهم وخرّبها.

وتشاهم الجلالة برذمير وخرج عليهم عمه بزمند بن أردون، وافترق أمرهم ثم رجع رذمير إلى طاعة المنصور سنة أربع وسبعين.

وهلك على أثرها فاطمعت أمه، واتفقت الجلالة على بزمند بن أردون، وعقد له المنصور على سمورة والعيون وما اتصل بهما من أعمال غليسية إلى البحر الأخضر واشترط عليه فقبل.

ثم امتنع بزمند لما نزل بالجلالة عيث المنصور سنة ثمان وسبعين فافتتح حيون وحاصره في سمورة ففر عنها وأسلمها أهلها إلى المنصور فاستباحها ولم يبق للملك الجلالة إلا حصون يسيرة بالجبل الحاجز بين بلدهم وبين البحر الأخضر.

ثم اختلف حال بزمند في الطاعة والانتفاض والمنصور يردد إليه الغزو حتى أذعن وأخفر ذمته الخارج على المنصور فأسلمه إليه سنة خمس وثمانين، وضرب عليه الجزية وأوطن المسلمين

مدينة سمورة سنة تسع وثمانين، وولي عليها أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي.

ثم سار إلى غرسية بن فردلند صاحب ألبه، وكان أعان المخالفين على المنصور وكان فيمن أعان عليه حين خرج عليه فنال المنصور مدينة أشبونة، قاعدة غليسية فملكها وخرّبها.

وهلك غرسية هذا فولى ابنه شاذغة، وضرب المنصور عليهم الجزية وصار أهل جليقة جميعاً في طاعته، وكانوا كالعمال له إلا بزمند بن أردون ومسند بن عبد شلب قومس غليسية فإنهما كانا أملاكاً لأمرهما.

على أن مسداً بعث ابنته للمنصور سنة ثلاث وثمانين وصيرها جارية له فاعتقها وتزوجها.

ثم انتقض بزمند وغزاه المنصور فبلغ شنت ياقب موضع حج النصرانية ومدفن يعقوب الحواري من أقصى غليسية، وأصابها خالية فهدمها ونقل أبوابها إلى قرطبة فجعلها في سمت الزيادة التي أضافها إلى المسجد الأعظم.

ثم تطارح بزمند بن أردون في السلم وأنفذ ابنه يلانة مع معن بن عبد العزيز صاحب جليقة فوصل به إلى قرطبة وعقد له السلم وانصرف إلى أبيه.

والح المنصور على أرغوس من القوامس وكانوا في طرف جليقة بين سمورة وقشتالة، وقاعدتهم شنت برية فافتتحها سنة خمس وثمانين.

ثم هلك بزمند بن أردون ملك بني أذفونش وولي ابنه أذفونش، وهو صاحب بسيط غرسية واحتكما إلى عبد الملك بن المنصور، فخرج أصبغ بن سلمة قاضي النصارى للفصل بينهما، فقضى به لمسند بن عبد شلب.

فلم يزل أذفونش بزمند في كفالتة إلى أن قتل غيلة سنة ثمان، فاستبد أذفونش بأمره وطلب القواميس المقتدرين على أبيه وعلى من سلف من قومه برسوم الملك فحاز ذلك منهم لنفسه وبعث على نواحيهم من عنده، وأذعنوا له وسقط ذكرهم في وقته مثل بني أرغوس وبني فردلند الذين قدمنا ذكرهم، وقد كان قيامهم أيام شاذغة بن رذمير من بني أذفونش كما قدمناه.

جمعهم أذفونش للقاء عبد الملك المظفر بن المنصور فظاهرهم ملك البشكنس ولقيهم بظاهر فلونية فهزموهم وافتتح الحصن صلحاً.

ثم انقض أمر المنصور وبنه وجاءت الفتنة البربرية على

ثم انقرض أمرهم على يد الموحدين وكان أمر النصارى لعهد المنصور يعقوب ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن، كان دائراً بين ثلاثة من ملوكهم الفنش والبيسوح وابن الرند وكبيرهم الفنش وهو أميرهم يوم الأرك الذي كان للمنصور عليهم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، والبيسوح صاحب ليون هو الذي مكر بالناصر عام العقاب فدخله وقدم عليه وأظهر له التصحيح فبذل له أموالاً، ثم غدر به وكر عليه الهزيمة يوم العقاب، ثم هلك الناصر وولي المستنصر وقُتل ربح بني عبد المؤمن واستولى الفنش على جميع ما افتحه المسلمون من معاقل الأندلس وارتجعها.

ثم هلك الفنش وولي ابنه هراندة وكان أحول، وكان يلقب بذلك، وهو الذي ارتجع قرطبة وإشبيلية من أيدي بني هود، وعلى عهده زحف ملك أرغون فارغيم شرق الأندلس كله شاطبة ودانية وبلنسية وسرقسطة، وسائر الثغور والقواعد الشرقية، وانحاز المسلمون إلى سيف البحر وملكوا عليهم ابن الأحمر بعد ولاية ابن هود.

ثم هلك هراندة وولي ابنه ثم هلك ابنه وولي ابنه هراندة، وأجاز بنو مرين إلى الأندلس صريحاً لابن الأحمر وسلطانهم يومئذ يعقوب بن عبد الحق، فلقبته جموع النصارى بوادلك وعليهم ذنب من أقباط بني أذفونش وزعمائهم فهزمهم يعقوب بن عبد الحق، وبقيت فتن متصلة، ولم يلقه يعقوب، وإنما كان يغزو بلادهم ويكثر فيها العبث إلى أن ألقوه بالسلم، وخالف على هراندة ملك قشتالة هذا ابنه شاذجة فوفد هراندة على يعقوب بن عبد الحق صريحاً، وقبل يده فقبل وفادته وأمد به بالمال والجيش، ورهن في المال التاج المعروف من ذخائر سلفهم فلم يزل بدار بني عبد الحق من بني مرين لهذا العهد.

ثم هلك هراندة سنة ثلاث وثمانين واستقل ابنه شاذجة بالملك ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يعقوب، وعقد معه السلم.

ثم انتفض وحاصر طريف وملكها وهلك سنة ثلاث وتسعين فولي ابنه هراندة.

ثم هلك سنة اثني عشرة وسبعمائة، فولي ابنه بطرة صغيراً، وكفله عمه جران وكان نزلهما جميعاً على غرناطة عند زحفهما إليها سنة ثمان عشرة وسبعمائة، فولي ابنه الهشة بن بطرة صغيراً، وكفله زعماء دولتهم.

ثم استبد بأمره وزحف إلى السلطان أبي الحسن، وهو

رأس المائة الرابعة فانتهاز الفرصة في المسلمين صاحب ألبة، وهو شاذجة بن غرسية وصار يظهر الفرقة الخارجة على الأخرى إلى أن أدرك بعض الأمل، وقتل ملك البشكنس سنة ست وأربعمائة وتغلب النصارى على ما كان عليه بقشتالة وجليقة، ولم يزل أذفونش ملكاً على جليقة وأعمالها، واتصل الملك في عقبه إلى أن كان شأن الطوائف.

وتغلب المرابطون ملوك المغرب من لمتونة على ملوك الطوائف، واستولوا على الأندلس وانقرض منها ملك العرب أجمع.

وفي تواريخ لمتونة وأخبارهم أن ملك قشتالة الذي ضرب الجزية على ملوك الطوائف سنة حسين وأربعمائة هو البيطيين، ويظهر أنه كان متغلباً على شاذجة بن أبرك الملك يومئذ من بني أذفونش، وهو مذكور في أخبارهم، وأنه لما هلك قام بأمره بنوه فردلند وغرسية ورمير، وولي أمرهم فردلند واحتوى على شنت برية وعلى كثير من عمل ابن الأفطس.

ثم هلك وخلف شاذجة وغرسية وألفنش فتنازعوا ثم خلص الملك لألفنش وعلى عهده مات الظاهر إسماعيل بن ذي النون سنة سبع وستين وأربعمائة، وهو المستولي على طليطلة سنة ثمان وسبعين وهو يومئذ اعتزاز النصارى بجزيرة الأندلس، وكان من بطارقه وقواميس دولته البرهانس فكان يلقب الأبنشور، ومعناه ملك الملوك، وهو الذي لقي يوسف بن تاشفين بالزلاقة، وكانت الدائرة عليه، وذلك سنة إحدى وثمانين.

وحاصر ابن هود في سرقسطة، وكان ابن عمه ردمير منازعاً له فزحف إلى طليطلة وحاصرها فامتعت عليه، وحاصر القسرية وغرسية المرية والبرهانس مرسية وقسطون شاطبة وسرقسطة.

ثم استولى على بلنسية سنة تسع وثمانين، وارتجعها المرابطون من يده بعد أن غلبوا ملوك الطوائف على أمرهم.

ثم مات الفنش سنة إحدى وخمسمائة، وقام بأمر الجلالة زوجته، وتزوجت ردمير ثم فارقه وتزوجت بعده قطعاً من أقماطها، وجاءت منه بولد كانوا يسمونه السليطين، وأوقع ابن ردمير بابن هود سنة ثلاث وخمسمائة الواقعة المشهورة التي استشهد فيها.

وملك ابن ردمير سرقسطة، وفر عماد الدولة وابنه إلى روية فأقام إلى أن استنزل السليطين، ونقله إلى قشتالة.

ثم كانت بين ردمير وأهل قشتالة حرب هلك فيها البرهانس سنة سبع وخمسمائة وذلك لآخر أيام المرابطون بلمتونة.

وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة وبنورقة، ونسيهم في الفرنج، وسباق الحجر عن ملكهم ما نقل ابن حيان أن الغوط الذين كانوا بالأندلس كانوا قديماً في ملك الفرنج، ثم اعتزموا عليهم وامتنعوا ونبذوا إليهم عهدهم.

وكانت برشلونة من ممالك الفرنج وعمالاتهم، فلما جاء الله بالإسلام وكان الفتح، قعد الفرنج عن نصر الغوط لتلك العداوة، فلما انتفضي أمر الغوط زحف المسلمون إلى الفرنج فأزعموهم عن برشلونة وملكوها.

ثم تجاوزوا الدروب من ورائها إلى البساط بالبر الكبير فملكوا من قواعدها جزيرة أربونة وما إليها من تلك البساط.

ثم كانت فترة عند انقراض الدولة الأموية بالشرق وبداية الدولة العباسية افتتحت فيها العرب بالأندلس، وانتهمز الفرنج فرصتهم فارتجعوا بلادهم إلى برشلونة فملكوها لهذا العهد مائتين من الهجرة، وولوا عليهم من قبلهم، وصار أمرها راجعاً إلى ملك رومة من الفرنجة، وهو قارل الأكبر، وكان من الجبابرة.

ثم ركبهم من الخلاف والمنافسة في أوقات ضعفهم واختلاف إلى ملوكهم كالذي ركبهم المسلمون من ضعفت يده من الملوك، فاقطع الأمراء نواحيهم بكل جهة، فكان ملوك برشلونة هؤلاء ممن اقطع عمله، وكان ملوك بني أمية لأول دولتهم يتراضون بمهادنة هؤلاء الملوك أهل برشلونة حذراً من مدد صاحب رومة، ثم صاحب القسطنطينية من ورائه.

فلما كانت دولة المنصور بن أبي عامر بين إقطاع برشلونة عن ملك الفرنج، شمر المنصور لغزوهم واستباح بلادهم وأنخن في أعمالهم، وانتهم برشلونة وخربها، وأنزل بهم النقمات وملكهم لعده بروديل بن سير وكانت حالة الظهور عليه كحاله مع سائر الملوك النصاري.

ولما هلك بروديل ترك من الولد فلبه وريند وأومنقود. ثم انتفض أومنقود على عبد الملك بن المنصور فغزاه وأخذه في بعض ثغوره صلحاً.

ثم كانت الفتنة البربرية وحضرها أومنقود فهلك في الرقعة مع البربر سنة أربعمائة، وانفرد يميند بملك برشلونة إلى أن هلك بعد عشر وأربعمائة، وملك ابنه يلتفير وكفلته أمه وحاربت يميني بن منذر من ملوك الطوائف وهي التي تغلبت على ثغر طروشة، واتصل الملك في عقب يميند.

وكان الملك منهم لآخر دولة الموحدين جامعة بن بطرة بن أذفونش بن ريند، وهو الذي ارتجع بلنسية وملكهم بهذا العهد

محاصر لطريف سنة إحدى وخسين وسبعمائة فهلك في الطاعون الجارف، وملك ابنه بطرة وقرابته القمط برشلونة فأجاره ملكها، وزحف إليه بطرة مراراً وتغلب على كثير من أعماله، وحاصر بلنسية مراراً.

ثم أتبع الغلب للقمط سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، فاستولى على بلاد قشتالة وزحف إلى أمم النصرانية لما كانوا ستموا من عنف بطرة وسوء ملكته، ولحق بطرة بأمم الفرنجة الذين وراء قشتالة في الجوف بجهات الليمانية وفرطانية إلى سيف البحر الأخضر، وجزيرة قدوح شنت مزين ملكهم الأعظم، وهو البلنس غالس وجاء معه مدداً بأمم لا تحصى حتى ملك قشتالة والقرنطرة ورجعوا عنه إلى بلادهم بعد أن أصابهم وباء هلك الكثير منهم.

ثم اتصلت الحرب بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلبه القمط، واعتصم منه بطرة ببعض الحصون ونازله القمط حتى إذا أشرف على أخذه، بعث بطرة إلى بعض الزعماء سراً لتليل السزول في جواره فأجاباه، ووشى به لأخيه القمط فكبسه في بيت ذلك الزعيم وقتله سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

واستولى القمط على ملك بني أذفونش أجمع واستنزل ابن أخيه بطرة من قرمونة.

وقد كان اعتصم بها بعد مهلك أبيه مع وزيره مرتين ليس هو واستقام له ملك قشتالة ونازعه البلنس غالس ملك الإفرنجية بالابن الذي هو من بنت بطرة على عادة العجم في عمليكم ابن البنت محتجاً بأن القمط لم يكن لرشدة، واتصلت الحرب بينهما وشغله، ذلك عن المسلمين فامتنعوا من الجزية التي كانت عليهم لمن قبله.

وهلك هذا القمط سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، فملك ابنه شاخجة وفر ابنه الآخر غرمس إلى غرناطة، ثم رجع إلى نواحي قشتالة والأمر على ذلك لهذا العهد، وفتتهم مع الفنش ملك الفرنج موصولة وعاديهم لذلك عن المسلمين مرفوعة، والله من ورائهم محيط.

وأما ملك البرتغال بجهة أشبونة غرب الأندلس وملكته صغيرة، وهي من أعمال جليقة، وصاحبها لهذا العهد متميز بسمته، وملكه مشارك لابن أذفونش في نسبه ولا أدري كيف يتصل نسبه معهم.

وأما ملك برشلونة بجهة شرق الأندلس فعمالتهم واسعة، وملكتهم كبيرة تشتمل على برشلونة بجهة واراغون وشاطبة

اسمه بطرة، ولم يبلغني كيف اتصال نسبه بقومه.

وملك بعد العشرين من هذه المائة وهو حي لهذا العهد، وابنه غالب عليه لكبر سنه.

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أخبار القائمين بالدولة العباسية من العرب

المستبدين بالنواحي ونبدأ منهم ببني الأغلب ولالة إفريقية وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم

قد ذكرنا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه شأن فتح إفريقية على يد عبد الله ابن أبي سرح، وكيف زحف إليها في عشرين ألفاً من الصحابة وكبار العرب، ففض جموع النصرانية الذين كانوا بها من الفرجة والروم والبربر، وهدم سبيطة قاعدة ملكهم وخربها، واستبيحت أموالهم ومسييت نساؤهم وبناتهم، واقترب أمرهم وساخت خيول العرب في جهات إفريقية، واتخذوا بها في أهل الكفر قتلاً وأسراً حتى لقد طلب أهل إفريقية من ابن أبي سرح أن يرسل عنهم بالعرب إلى بلادهم، ويعطوه ثلاثمائة قطار من الذهب ففعل وقفل إلى مصر سنة سبع وعشرين.

معاوية بن خديج

ثم أغزى معاوية بن أبي سفيان معاوية بن خديج السكوني، إفريقية سنة أربع وثلاثين، وكان عاملاً على مصر فغزاها ونازل جلولا، وقاتل مدد الروم الذي جاءها، من قسطنطينية لقيهم بقصر الأحمر فغلبهم، وأقلعوا إلى بلادهم، وافتتح جلولا وغنم واتخذ وقفل.

عقبة بن نافع

ثم ولي معاوية سنة خمس وأربعين عقبة بن نافع بن عبد الله بن قيس الفهري على إفريقية واقتلعها عن معاوية بن خديج، فبنى القيروان وقاتل البربر وتوغل في أرضهم.

أبو المهاجر

ثم استعمل معاوية على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد،

فعزل عقبة عن إفريقية، وولى مولاه أبا المهاجر ديناراً سنة خمس وخمسين فغزا المغرب، وبلغ إلى تلمسان، وخرّب القيروان عقبة وأساء عزله، وأسلم على يديه كسيلة الأوربي بعد حرب ظفر به فيها.

عقبة بن نافع ثانياً

ولما استقل يزيد بن معاوية بالخلافة، رجع عقبة بن نافع إلى إفريقية سنة اثنتين وستين فدخل إفريقية، وقد نشأت الردة في البرابرة فزحف إليهم، وجعل مقدمته زهير بن قيس البلوي وفر منه الروم والفرجة فقاتلهم، وفتح حصونهم مثل لميس وباغاية، وفتح أذنة قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم، وأصاب من غنائمهم وحبس أبا المهاجر فلم يزل في اعتقاله.

ثم رحل إلى طنجة فأطاعه بلبان ملك غمارة، وصاحب طنجة وهاداه وأتحفه، ودله على بلاد البربر وراءه بالمغرب، مثل وليلى عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد السوس، وكانوا على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية، فسار عقبة وفتح وغنم وسبى واتخذ فيهم وانتهى إلى السوس.

وقاتل مسوفة من أهل اللثام وراء السوس، ووقف على البحر المحيط وقفل راجعاً، وأذن لجيوشه في اللحاق بالقيروان.

وكان كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر قد اضطغن عليه بما كان يعامله به من الاحتصار، يقال: إنه كان يحاصره في كل يوم ويأمره بسلخ الغنم إذا دجبت لمطبخه فانتهر فيه الفرصة، وأرسل البربر فاعترضوا له في تهودا وقتلوه في ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين، واستشهدوا كلهم وأسر في تلك الواقعة عمدة بن أوس الأنصاري في نفر فخلصهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى القيروان مع من كان بها من المخلفين والذراري.

ورجع زهير بن قيس إلى القيروان واعتزم على القتال وخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني وارتحل إلى مصر واتبه الناس فاضطر زهير إلى الخروج معهم، وانتهى إلى برقة فأقام بها مرابطاً، واستأمن من كان بالقيروان إلى كسيلة فأمتهم ودخل القيروان وأقاموا في عهده.

زهير بن قيس البلوي

ولما ولي عبد الملك بن مروان بعث إلى زهير بن قيس بمكانه من برقة بالمدة، وولاه حرب البرابرة فزحف سنة سبع وستين

طمعوا، في البلاد فوجه البعوث في النواحي، وبعث ابنه عبد الله في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم منها وسبى وعاد، ثم بعثه إلى ناحية أخرى وابنه مروان كذلك، وتوجه هو إلى ناحية فغنم منها وسبى وعاد، وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبي. ثم غزا طنجة وافتتح درعه وصحراء تافيلالت.

وأرسل ابنه إلى السوس وأذن البربر لسلطانته ودولته وأخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة، وذلك سنة ثمان وثمانين، وولى عليها طارق بن زياد الليثي.

ثم أجاز طارق إلى الأندلس دعاه إليها بلبسان ملك غمارة فكان فتح الأندلس سنة تسعين.

وأجاز موسى بن نصير على أثره فكمل فتحها كما ذكرناه. ثم قفل موسى إلى الشرق واستخلف على إفريقية ابنه عبد الله وعلى الأندلس عبد العزيز.

وهلك الوليد وولي سليمان سنة ست وتسعين فسخط موسى وحبسه.

محمد بن يزيد

لما ولي سليمان وحبس موسى بن نصير عن ابنه عبد الله عن إفريقية ولي مكانه محمد بن يزيد مولى قريش فلم يزل عليها حتى مات سليمان.

إسماعيل بن أبي المهاجر

ولما مات سليمان استعمل عمر بن عبد العزيز على إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر وكان حسن السيرة وأسلم جميع البربر في أيامه.

يزيد بن أبي مسلم

ولما تولى يزيد بن عبد الملك، ولي على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل اللفة منهم تأسيساً بما فعله الحجاج بالعراق فقتله البربر لشهر من ولايته، ورجعوا إلى محمد بن يزيد مولى من الأنصار الذين كان عليهم قبل إسماعيل، وكتبوا إلى يزيد بالطاعة والعذر عن قتل ابن أبي مسلم فأجابهم بالرضا وأقر محمد بن أبي يزيد على عمله.

ودخل إفريقية ولقيه كسيلة على ميس من نواحي القيروان فهزمه زهير بعد حروب صعبة، وقتله واستلحم في الوقعة كثير من أشراف البربر ورجالاتهم.

ثم قفل زهير إلى المشرق زاهداً في الملك، وقال: إنما جئت للجهاد وأخاف أن نفسي تميل إلى الدنيا، وسار إلى مصر واعترضه بسواحل برقة أسطول صاحب قسطنطينية، جاؤوا لقتاله فقاتلهم واستشهد رحمه الله تعالى.

حسان بن النعمان الغساني

ثم أن عبد الملك بن مروان بعد أن قتل عبد الله بن الزبير وصفا له الأمر، أمر حسان بن النعمان الغساني بغزو إفريقية، وأمدّه بالعاكر، ودخل القيروان وافتتح قرطاجنة عنوة وخرابها، وفر من كان بها من الروم والفرنجية إلى صقلية والأندلس.

ثم اجتمعوا في صطفورة وبزرت وهزمهم ثانية، والحاز الفل إلى باجة وبونة فتحصنوا بها.

ثم سار حسان إلى الكاهنة ملكة جزارة بجبل أوراس، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر، فحاربها، وانهزم المسلمون وأسر منهم جماعة، وأطلقتهم الكاهنة سوى خالد بن يزيد القيسي فإنها أمسكتها وأرضعته مع ولديها وصبرته أخاً لها.

وأخرجت العرب من إفريقية وانتهى حسان إلى برقة، وجاءه كتاب عبد الملك بالمقام حتى يأتيه المدد.

ثم بعث إليه المدد سنة أربع وسبعين فسار إلى إفريقية ودس إلى خالد بن يزيد يستعمله فأطلعه على خبرهم، واستحثه فلقي الكاهنة وقتلها وملك جبل أوراس وما إليه، ودوخ نواحيه وانصرف إلى القيروان وأمن البربر.

وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والفرنج على أن يكون معه اثنا عشر ألفاً من البربر لا يفارقونه في مواطن جهاده ورجع إلى عبد الملك، واستخلف على إفريقية رجلاً اسمه صالح من جنده.

موسى بن نصير

ولما ولي الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمه عبد الله، وهو على مصر - ويقال عبد العزيز - أن يبعث بموسى بن نصير إلى إفريقية، وكان أبوه نصير من حرس معاوية فبعثه عبد الله، وقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعقد له، ورأى البربر قد

بشر بن صفوان الكلبي

ثم ولى يزيد على إفريقية بشر بن صفوان الكلبي فقدمها سنة ثلاث ومائة، فمهدوها وسكن أرجاءها، وغزا بنفسه صقلية سنة تسع ومائة وهلك مرجعه عنها.

عبيدة بن عبد الرحمن

ثم عزل هشام بن عبد الملك بشر بن صفوان عن إفريقية وولى مكانه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وهو ابن أخي أبي الأعرور فقدمها سنة عشر ومائة.

عبيد الله بن الحجاب

ثم عزل هشام عبيدة بن عبد الرحمن وولى مكانه عبيد الله بن الحجاب مولى بني سلول وكان والياً على مصر، فأمره أن يمضي إلى إفريقية، واستخلف على مصر ابنه أبا القاسم، وسار إلى إفريقية فقدمها سنة أربع عشرة، وبني جامع تونس، واتخذ لها دار الصناعة لإنشاء المراكب البحرية.

وبعث إلى طنجة ابنه إسماعيل وجعل معه عمر بن عبيد الله المرادي وبعث على الأندلس عقبة بن حجاج القيسي.

وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان، وأصاب من مغام الذهب والفضة والسبي كثيراً ودوخ بلاد المغرب وقبائل البربر ورجع.

ثم أغزاه ثانية في البحر إلى صقلية سنة اثنين وعشرين، ومعه عبد الرحمن بن حبيب فنال سرقوسة أعظم مدائن صقلية، وضرب عليهم الجزية وأثنى في سائر الجزيرة.

وكان محمد بن عبيد الله بطنجة قد أساء السيرة في البربر، وأراد أن يخمس من أسلم منهم، وزعم أنه القيء، فأجمعوا الانتفاض، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية فسار ميسرة المظفري بدعوة الصفرية من الخوارج، وزحف إلى طنجة فقتل عمر بن عبيد الله وملكها، واتبعه البربر وباعوه بالخلافة، وخاطبوه بأمر المؤمنين، وفشت مقاتله في سائر القبائل بإفريقية وبعث ابن الحجاب إليه خالد بن حبيب الفهري فيمن بقي معه من العساكر.

واستقدم حبيب بن أبي عبيدة من صقلية ومن معه من

العساكر، وبعثه في أثر خالد، ولقيهم ميسرة والبربر بناحية طنجة فاقتلا قتالاً شديداً، ثم تحاجزوا ورجع ميسرة إلى طنجة فكره البربر سوء سيرته فقتلوه، وولوا عليهم مكانه خالد بن حبيب الزناتي، واجتمع إليه البربر، ولقيه خالد بن حبيب في العرب وعساكر هشام فانهزموا، وقتل خالد بن حبيب وجماعة من العرب وسميت بهم غزوة الأشراف، وانتقضت إفريقية على ابن الحجاب وبلغ الخبر إلى الأندلس فعزلوا عامله عقبة بن الحجاج، وولوا عبد الملك بن قطن كما مر.

كلثوم بن عياض

ولما انتهى الخبر إلى هشام بن عبد الملك بهزيمة العساكر بالمغرب استنقص ابن الحجاب وكتب إليه يستقدمه، وولى على إفريقية سنة ثلاث وعشرين ومائة كلثوم بن عياض، وعلى مقدمته بلخ بن بشر القشيري، فأساء إلى أهل القيروان، فشكروا إلى حبيب بن أبي عبيدة وهو بلمسان موافق للبربر، فكتب إلى كلثوم بن عياض ينهائه وتهده، فاعتذر وأغضى له عنها، ثم سار واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة، ومر على طريق سيبية، وانتهى إلى تلمسان ولقي حبيب بن عبيدة واقتلا، ثم اتفقا ورجعا جميعاً.

وزحف البرابرة إليهم على وادي طنجة، وهو وادي سوا فانهزم بلخ في الطلائع وانتهوا إلى كلثوم، فانكشف واشتد القتال وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير من الجند، وتحيز أهل الشام إلى سبته مع بلخ بن بشر، فحاصروهم البرابرة وأرسلوا إلى عبد الملك بن قطن أمير الأندلس أن يميزوا إليه، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يقيموا سنة واحدة، وأخذ رهنهم على ذلك، وانتقضت السنة وطالبهم بالشرط فقتلوه وملك بلخ الأندلس.

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع لما قتل أبوه حبيب مع كلثوم بن عياض، وأجاز بلخ إلى الأندلس فملكها، فأجاز عبد الرحمن إلى الأندلس يحاول ملكها.

فلما جاء أبو الخطار إلى الأندلس من قبل حنظلة أيس عبد الرحمن من أمرها، ورجع إلى تونس سنة ست وعشرين ومائة وقد توفي هشام وولي الوليد بن يزيد فدعا لنفسه، وسار إلى القيروان ومنع حنظلة من قتاله، وبعث إليه وجوه الجند فانهز عبد الرحمن الفرصة فيهم وأوثقهم لثلاث يقاتله أصحابهم، وأخذ السير إلى القيروان فرحل حنظلة من إفريقية وقتل إلى المشرق سنة سبع وعشرين، واستقل عبد الرحمن بلك إفريقية وولى مروان بن محمد، فكتب له بولايتها، ثم ثارت عليه الخوارج في كل جهة فكان عمر

ثم سار حبيب إلى تونس فملكها وجاءه عمه إلياس فقاتله، وخالفه حبيب إلى القيروان فدخلها وقتل السجون فرجع إلياس في طلبه، وفارقه أكثر أصحابه إلى حبيب، فلما تواقفا دعاه حبيب إلى الرزاز فتيارزا وقتله حبيب ودخل القيروان وملكها آخر سنة ثمان وثلاثين، ونجا عمه الآخر عبد الوارث إلى ورجومة من قبائل البربر، وكبيرهم يومئذ عاصم بن جميل، وكان كاهناً ويدعي النبوة فأجار عبد الوارث، وقتلهم حبيب فهزموه إلى قابس واستفحل أمرهم وكتب من كان بالقيروان من العرب إلى عاصم بن جميل يدعونه للولاية عليهم، واستخلفوه على الحماية والدعاء للمصور فلم يجب إلى ذلك، وقتلهم فهزمهم، واستباح القيروان وخرب المساجد واستهانها.

ثم سار إلى حبيب بن عبد الرحمن بقابس فقاتله وهزمه، ولحق حبيب بجبل أوراس فأجاره أهله، وجاء عاصم فقاتلهم فهزموه، وقتل جماعة من أصحابه.

وقام بأمر ورجومة والقيروان من بعده عبد الملك، وقتله سنة أربعين ومائة.

وكانت إمارة الياس على إفريقية سنة ونصفاً، وإمارة حبيب ثلاث سنين.

عبد الملك بن أبي الجعد الوريجموي

ولما قتل عبد الملك بن أبي الجعد حبيب بن عبد الرحمن رجع في قبائل ورجومة إلى القيروان وملكها، واستولت ورجومة على إفريقية، وساروا في أهل القيروان بالعسف والظلم كما كان عاصم وأساؤاً منه.

وافترق أهل القيروان بالنواحي فراراً بأنفسهم، وشاع خبرهم في الآفاق فخرج بنواحي طرابلس عبد الأعلى بن السمح المغافري الأباضي منكرًا لذلك وقصد طرابلس وملكها.

عبد الأعلى بن السمح المغافري

ولما ملك عبد الأعلى مدينة طرابلس بعث عبد الملك بن أبي الجعد العساكر لقاتله سنة إحدى وأربعين، فلقبهم أبو الخطاب وهزمهم وأثنى فهم، واتبعهم إلى القيروان فملكها وأخرج ورجومة منها واستخلف عليها عبد الرحمن بن رستم، وسار إلى طرابلس للقاء العساكر القادمة من ناحية أبي جعفر.

بن عتاب الأزدي بطبناش، وعروة بن الوليد الصفري بتونس، وثابت الصنهاجي بباجة، وعبد الجبار بن الحارث بطرابلس على رأي الأباضية، فزحف عبد الرحمن إليهما سنة إحدى وثلاثين فظفر بهما، وقتلهما، وسرح أخاه إلياس لابن عتاب فهزمه وقتله، ثم زحف إلى عروة بتونس فقتله، وانقطع أمر الخوارج.

وزحف سنة خمس وثلاثين إلى جموع من البربر بنواحي تلمسان فظفر بهم وقفل.

ثم بعث جيشاً في البحر إلى صقلية وآخر إلى سردينيا فآخذوا في أمم الفرنج حتى استقروا بالجزاء.

ثم دالت دولة بني العباس وبعث عبد الرحمن بطاعته إلى السفاح، ثم إلى أبي جعفر من بعده، ولحق كثير من بني أمية إلى إفريقية، وكان ممن قدم عليه القاضي، وعبد المؤمن ابن الوليد بن يزيد ومعهما ابنة عم لهما، فزوجها عبد الرحمن من أخيه إلياس، ثم بلغ عبد الرحمن عنهما السعي في الخلافة فقتلتهما، وامتنعت لذلك ابنة عمهما، فأغرت زوجها بأخيه عبد الرحمن واستفسدته.

وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى أبي جعفر بهدية قليلة، وذهب يعتذر عنها فلم يحسن العذر، وأفحش في الخطاب فكتب إليه المنصور يتهدده، وبعث إليه بالخلعة فانتفض هو ومزق خلعته على المنبر فوجد أخوه إلياس بذلك السبيل إلى ما كان يحاول عليه، وداخل وجوهاً من الجند في الفتك بعبد الرحمن وإعادة الدعوة للمصور، ومالاه في ذلك أخوه عبد الوارث، وفطن عبد الرحمن لهما فأمر إلياس بالمسير إلى تونس، وجاء ليودعه ومعه أخوه عبد الوارث فقتلاه في آخر سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته.

حبيب بن عبد الرحمن

ولما قتل عبد الرحمن نجا ابنه حبيب إلى تونس فلحق به بعد أن طلبوه وضبطوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به، وكان عمه عمران بن حبيب بتونس فلحق به، واتبعه إلياس فاقتلوا ملياً ثم اصطالحوا على أن يكون لحبيب قصعة وقصطيلة ونغراوة، ولعمران تونس وصطغورة، وهي تبرزو والجزيرة، ولإلياس سائر إفريقية، وتم هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين.

وسار حبيب إلى عمله ببلاد الجريد، وسار إلياس مع أخيه عمران إلى تونس فغدر بعمران وقتله وجماعة من الأشراف معه، وعاد إلى القيروان، وبعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية.

محمد بن الأشعث الخزاعي

عمر بن حفص هزارمرد

ولما بلغ أبا جعفر المنصور قتل الأغلب بن سالم بعث على إفريقية مكانه عمر بن حفص هزارمرد من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب، فقدمها سنة إحدى وخمسين فاستقامت أموره ثلاث سنين.

ثم سار لبناء السور على مدينة طينة واستخلف على القيروان أبا حازم حبيب بن حبيب المهلي، فلما توجه لذلك ثار البربر بإفريقية وغلبوا على من كان بها وزحفوا إلى القيروان وقتلوا أبا حازم فقتلوه واجتمع البربر الإباضية بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضي مولى كندة، وكان على طرابلس الجنيد بن بشار الأسدي من قبل عمر بن حفص فأمدّه بالأسكاك، وقتلوا أبا حازم فهزمهم وحصرهم بقابس، وانقضت إفريقية من كل ناحية.

ثم ثاروا في عسكر إلى طينة وحاصروا بها عمر بن حفص، فيهم أبو قرة اليعقوبي في أربعين ألفاً من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً من الأباضية جاؤوا معه، والسور الزناتي في عشرة آلاف من الأباضية وأمم من الخوارج من صنهاجة وزناتة وهوارة ما لا يحصى، فدافعهم عمر بن حفص بالأموال، وفرق كلمتهم، وبذل لأصحاب أبي قرة مالاً فانصرفوا.

واضطرب أبو قرة لاتباعهم، فبعث عمر جيشاً إلى ابن رستم وهو بتهردا فانهمز إلى تاهرت وضعف الأباضية عن حصار طينة فأفروا عنها، وسار أبو حاتم إلى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر، واشتد حصارها وسار عمر بن حفص وجهاز العساكر لطينة فخالفه أبو قرة إلى طينة فهزموه.

وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهو على القيروان مسير عمر بن حفص إليهم فساروا للقاءه، فمال هو من الأريس إلى تونس، ثم جاء إلى القيروان فدخلها واستعد للحصار واتبعه أبو حاتم والبربر فحاصروه إلى أن جهده الحصار، وخرج لقتالهم مستميتاً فقتل آخر سنة أربع وخمسين، وولي مكانه أخوه لأمه حميد بن صخر فوداع أبا حاتم على أن يقيم دعوة العباسية بالقيروان وخرج أكثر الجند إلى طينة وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها.

يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب

ولما بلغ المنصور انتفاض إفريقية على عمر بن حفص وحصاره بطينة ثم بالقيروان، بعث إليه يزيد بن أبي حاتم بن

كان أبو جعفر المنصور لما وقع بإفريقية ما وقع من الفتنة وملك قبائل ورجومة القيروان، وفد عليه رجالات من جند إفريقية يشكون ما نزل بهم من ورجومة، ويستصرخونه فولى على مصر وإفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي فتزل مصر وبعث على إفريقية أبا الأحوص عمرو بن الأحوص المعجلي.

وسار في مقدمته فلقه أبو الخطاب عبد الأعلى بسرت، ودهمه بالأسكاك ومعهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة بن سودة التميمي، فسار لذلك، ولقي أبا الخطاب بسرت ثانية، فانهمز أبو الخطاب وقتل عامة أصحابه وذلك سنة أربع وأربعين.

وبلغ الخبر إلى عبد الرحمن بن رستم بالقيروان ففر عنها إلى تاهرت وبنى هناك مدينة ونزلها، وقام ابن الأشعث فافتح طرابلس واستعمل عليها المخارق غفاراً الطائي، وقام بأمر إفريقية وضبطها.

وولى على طينة والزاب الأغلب بن سالم.

ثم ثارت عليه المضربة وأخرجوه سنة ثمان وأربعين فقتل إلى المشرق الأغلب بن سالم.

ولما قتل ابن الأشعث إلى المشرق ولى على المضربة عيسى بن موسى الخراساني، فبعث أبو جعفر المنصور الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي بعده على إفريقية، وكان من أصحاب أبي مسلم بخراسان.

وقدم مع ابن الأشعث فولاه على الزاب وطينة، فقدم القيروان وسكن الناس.

ثم خرج عليه أبو قرة اليفرنى في جموع البربر فهرب وسكن أبو قرة اليفرنى، فأبى عليه الجند وخلعوه، وكان الحسن بن حرب الكندي يقابس فكاك الجند ويثبطهم عن الأغلب فلحقوا به وأقبل بهم إلى القيروان فملكها ولحق الأغلب بقابس.

ثم رجع إلى إقبال الحسن بن حرب سنة خمسين فهزمه، وسار إلى القيروان ففكر عليه الحسن دونها واقتتلوا وأصاب الأغلب سهم فقتله، وقدم أصحابه عليهم المغافر بن غفار الطائي الذي كان على طرابلس، وحملوا على الحسن فانهمز أمامهم إلى تونس، ثم لحق بكتامة وخيل المخارق في اتباعه، ثم رجع إلى تونس بعد شهرين فقتله الجند، وقيل: أصحاب الأغلب قتلوه في الموقف الذي قتل فيه الأغلب.

وقام بأمر إفريقية المخارق بن غفار إلى أن كان ما نذكره.

ابنه الفضل بن روح

ولما توفي روح بن حاتم قام حبيب بن نصر مكانه، وسار ابنه الفضل إلى الرشيد فولاه على إفريقية مكان أبيه فعاد إلى القيروان في محرم سنة سبع وسبعين، واستعمل على تونس المغيرة ابن أخيه بشر بن روح، وكان غلاماً غراً فاستخف بالجد، واستوحشوا من الفضل لما أساء فيهم السيرة، وأخذهم بموالة حبيب بن نصر فاستعفى أهل تونس من المغيرة فلم يعفهم، فانتقضوا وقدموا عليهم عبد الله بن الجارود، ويعرف بعبد ربه الأنباري، ويبيعوه على الطاعة، وأخرجوا المغيرة، وكتبوا إلى الفضل أن يولي عليهم من أراد فولى عليهم ابن عمه عبد الله بن يزيد بن أبي حاتم، وسار إلى تونس، ولما قاربها بعث ابن الجارود جماعة لتلقيه، واستفهامه في أي شيء جاء فعدوا عليه وقتلوه افتتاناً بذلك على ابن الجارود، واضطر إلى إظهار الخلاف، وتولى كبر ذلك محمد بن الفارسي من قواد الخراسانية، وكتب إلى القواد والعمال في النواحي، واستفسدهم على الفضل، وكثر جموع ابن الجارود، وخرج الفضل فانهمز واتبعه ابن الجارود، واقتحم عليه القيروان، ووكل به وبأهله من يوصلهم إلى قابس، ثم رده من طريقه وقتله منتصف ثمان وسبعين.

ورجع ابن الجارود إلى تونس، وامتنع لقتل الفضل جماعة من الجند وفي مقدمتهم مالك بن المنذر ووثبوا بالقيروان فملكوها، وسار إليهم ابن الجارود من تونس فقتلهم، وقتل مالك بن المنذر وجماعة من أعيانهم، ولحق فلهم بالأندلس، فقدموا عليهم الصلت بن سعيد، وعادوا إلى القيروان واضطربت إفريقية.

خزيمة بن أعين

ولما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح، وما وقع بإفريقية من الاضطراب، ولما مكانه خزيمة بن أعين، وبعث إلى ابن الجارود يحيى بن موسى لمحله عند أهل خراسان.

ويقال: يقطن يرغب في الطاعة، فأجابه بشرط الفراغ من العلاء بن سعيد، وعلم يقطن أنه يغالطه فداخل صاحبه محمد بن الفارسي، واستماله فترع عن ابن الجارود.

وخرج ابن الجارود من القيروان فراراً من العلاء في محرم سنة تسع وسبعين لسبعة أشهر من ولايته، وسار للقاء ابن الفارسي من القيروان، وتزاحفا للقتال فدعا ابن الجارود ابن الفارسي إلى خلوة، وقد دس رجلاً من أصحابه يقتله في خلوتهما

قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة في ستين ألف مقاتل.

وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستماتة حتى قتل، وسار يزيد بن حاتم فقدم عليها وأبو حاتم يعقوب بن حبيب مستول عليها، فسار إلى طرابلس للقاءه، واستخلف على القيروان عمر بن عثمان الفهري فانتقض وقتل أصحابه.

وخرج المخارق بن غفار، فرجع إليهما أبو حاتم فقرا من القيروان ولحقا بجيجل من سواحل كتامة فتركهما، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السبع الماغري، وسار للقاء يزيد.

وسار يزيد إلى طرابلس فلحق أبو حاتم بجبال نفوسة، واتبعته عساكر يزيد فهزمهم فسار إليه يزيد بنفسه، وقتله قتالاً شديداً فانهمز البربر، وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفاً من أصحابه، وتبعهم يزيد بالقتل بثار عمر بن حفص.

ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها منتصف سنة خمس وخسين. وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري مع أبي حاتم فلحق بكتامة، وبعث يزيد في طلبه فحاصروهم ثم ظفروا بهم.

وهرب عبد الرحمن وقتل جميع من كان معه وبعث يزيد المخارق بن غفار على الزاب، ونزل طينة وأنخن في البربر في وقائع كثيرة مع ورجومة وغيرهم إلى أن هلك يزيد سنة سبعين ومائة في خلافة هارون الرشيد.

وقام بأمره ابنه داود فخرج عليه البربر، وأوقع بهم ورجع إلى القيروان إلى أن كان من أمره ما نذكره.

أخوه روح بن حاتم

ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم، وكان أخوه روح على فلسطين استقدمه وعزاه في أخيه وولاه على إفريقية فقدمها منتصف إحدى وسبعين، وسار داود ابن أخيه يزيد إلى الرشيد.

وكان يزيد قد أذل الخوارج ومهد البلاد فكانت ساكنة أيام روح، ورغب في موادة عبد الوهاب بن رستم وكان من الوهبة فوادعه، ثم هلك روح في رمضان سنة أربع وسبعين، وكان الرشيد قد بعث بعده سرّاً إلى نصر بن حبيب من قرابته، فقام بالأمر بعد روح إلى أن ولي الفضل.

إبراهيم بن الأغلب

ولما استوثق الأمر لمحمد بن مقاتل كره أهل البلاد ولايته، وداخلوا إبراهيم بن الأغلب في أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم، فكتب إبراهيم إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت من مصر إلى إفريقية، وعلى أن يحمل هو من إفريقية أربعين ألفاً.

وبلغ الرشيد غناؤه في ذلك واستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بولايته، فكتب له بالعهد إلى إفريقية منتصف أربع وثمانين فقام إبراهيم بالولاية، وضبط الأمور وقتل ابن مقاتل إلى المشرق، وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب، وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان، وانتقل إليها بمجملته.

وخرج عليه سنة ست وثمانين بتونس حمديس من رجالات العرب، ونزع السواد، فسرح إليه ابن الأغلب عمران بن مجالد في العساكر فقاتله وانهزم حمديس، وقتل من أصحابه نحو عشرة آلاف.

ثم صرف همه إلى تهديد المغرب الأقصى، وقد ظهر فيه دعوة العلوية بإدريس بن عبد الله، وتوفي ونصب البرابرة ابنه الأصغر، وقام مولاه راشد بكفالاته، وكبر إدريس واستفحل أمره براشد، فلم يزل إبراهيم يدس إلى السبرير ويسرب فيهم الأموال حتى قتل راشد وسبق رأسه إليه.

ثم قام بامر إدريس بعده بهلول بن عبد الرحمن المظفر من رؤوس البربر فاستفحل أمره، فلم يزل إبراهيم يتلطفه ويستميله بالكتب والمدايا، إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية فصالحه إدريس، وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه.

ثم خالف أهل طرابلس على إبراهيم بن الأغلب سنة تسع وثمانين، وثاروا بعاملهم سفيان بن المهاجر، وأخرجوه من داره إلى المسجد وقتلوا عامة أصحابه، ثم أمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج سفيان لشهر من ولايته، واستعملوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي، فبعث إليهم إبراهيم بن الأغلب العساكر وهزمهم، ودخل طرابلس عسكره.

ثم استحضر إبراهيم الذين تولوا كبر ذلك، فحضروا في ذي الحجة آخر السنة، وعفا عنهم وأعادهم إلى بلادهم.

ثم انتقض عمران بن مجالد الربيعي سنة خمس وتسعين على ابن الأغلب، وكان بتونس، واجتمع معه على ذلك قريش بن

فقتله، وانهزم أصحابه وسابق العلاء بن سعيد ويقطين إلى القيروان فسبق إليها العلاء وملكها وقتل في أصحاب ابن الجارود ولحق ابن الجارود بهرثمة فبعث به إلى الرشيد، وكتب إليه أن العلاء بن سعيد هو الذي أخرجه من القيروان فأمره بأن يبعث بالعلاء فبعث به مع يقطين، فاعتقل ابن الجارود وأحسن إلى العلاء إلى أن توفي بمصر.

وسار هرثمة إلى القيروان فقدمها سنة سبع وسبعين فأمن الناس وسكنهم، وبنى القصر الكبير بالمنستير لسنة من قدمه، وبنى السور على طرابلس مما يلي البحر.

وكان إبراهيم بن الأغلب عاملاً على الزاب وطبنة فهاداه، ولاطفه ففقد له على عمله فقام بأمره وحسن أثره.

ثم خرج عليه عياض بن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي، وجعما الجموع فسرح هرثمة إليهما يحيى بن موسى من قواد الخراسانية ففرق جموعهما، وقتل كثيراً من أصحابهما، ورجع إلى القيروان.

ولما رأى هرثمة كثرة الشوار والخلاف بإفريقية استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاها، ورجع إلى العراق لستين ونصف من ولايته.

محمد بن مقاتل الكعبي

ثم بعث الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل الكعبي، وكان صنيعته، فقدم القيروان في رمضان سنة إحدى وثمانين، فكان سيئ السيرة، فاختلف عليه الجند وقدموا بخلد بن مرة الأزدي، فبعث إليه العساكر فهزم وقتل.

ثم خرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمي سنة ثلاث وثمانين، واجتمع إليه الناس، وسار إلى القيروان فخرج إليه محمد بن مقاتل ولقيه فانهمز أمامه ورجع إلى القيروان، وتقام في اتباعه إلى أن دخل عليه القيروان، وأمنه تمام على أن يخرج عن إفريقية، فسار محمد إلى طرابلس، وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكانه من الزاب فانتقض لمحمد، وسار بجموعه إلى القيروان وهرب تمام بين يديه إلى تونس، وملك القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس، وأعادته إلى إمارته بالقيروان آخر ثلاث وثمانين، وزحف تمام لقتالهم فخرج إليه إبراهيم بن الأغلب بأصحابه فهزمه، وسار في اتباعه إلى تونس، واستأمن له تمام فأمنه وجاء به إلى القيروان وبعث به إلى بغداد فاعتقله الرشيد.

جماعة من الصالحين يشكو ظلامه.

فلم يصغ إليهم فخرج حفص يدعو عليه، وهم يؤمنون فأصابته قرحة في أذنه عن قريب هلك منها في ذي الحجة سنة إحدى ومائتين لخمس سنين من ولايته.

أخوه زيادة الله

ولما توفي أبو العباس ولي مكانه أخوه زيادة الله، وجاءه التقليد من قبل المأمون، وكتب إليه يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابره فغضب من ذلك، ويعث مع الرسول بدنانير من سكة الأدارسة يعرض له بتحويل الدعوة.

ثم استأذنه قرابته في الحج وهم أخوه الأغلب وأبناء أخيه أبي العباس محمد وأبو محمد بهر وإبراهيم أبو الأغلب، فأذن لهم وانطلقوا لقضاء فرضهم فقضوه، وأقاموا بمصر حتى وقعت بين زيادة الله وبين الجند الحروب فاستقدمهم، واستوزر أخاه الأغلب وهاجت الفتن، واستولى كل رئيس بناحية فملكوها عليه كلها وزحفوا إلى القيروان فحاصروه، وكان فاتحة الخلاف زياد بن سهل بن الصقلية، خرج سنة سبع ومائتين وجمع وحاصر مدينة باجة فسرح إليه العساكر فهزموه وقتلوا أصحابه.

ثم انتفض منصور الترمذي بطبنة، وسار إلى تونس فملكها وكان العامل عليها إسماعيل بن سفيان، وسفيان أخو الأغلب فقتله لتستخلص له طاعة الجند.

وسرح زيادة الله العساكر من القيروان مع غلبون ابن عمه ووزيره اسمه الأغلب بن عبد الله بن الأغلب وتهدهم بالقتل إن انهزموا فهزمهم منصور، وخشوا على أنفسهم ففارقوا الوزير غلبون، وافترقوا على إفريقية، واستولوا على باجة والجزيرة وصطفورة والأريس وغيرها.

واضطربت إفريقية، ثم اجتمعوا إلى منصور، وسار بهم إلى القيروان فملكها، وحاصره في العباسية أربعين يوماً، وعمروا سور القيروان الذي خربه إبراهيم بن الأغلب.

ثم خرج إليه زيادة الله فقاتله فهزمه، ولحق بتونس وخرب زيادة الله سور القيروان، ولحق قواد الجند بالبلاد التي تغلبوا عليها، فلحق منهم عامر بن نافع الأزرق بسبيبة.

وسرح زيادة الله سنة ثمان ومائتين عسكراً مع محمد بن عبد الله بن الأغلب فهزمهم عامر وعادوا، ورجع منصور إلى تونس ولم يبق على طاعة زيادة الله من إفريقية إلا تونس

التونسي، وكثرت جموعهما، وسار عمران إلى القيروان فملكها، وقدم عليه قریش من تونس، وخندق إبراهيم على نفسه بالعباسية فحاصروه سنة كاملة، كانت بينه وبينهم حروب كان الظفر في آخرها لابن الأغلب.

وكان عمران يبعث إلى أسد بن الفرات القاضي في الخروج إليهم وامتنع.

ثم بعث الرشيد إلى إبراهيم بالمال فنادى في الناس بالعطاء، ولحق به أصحاب عمران، وانتفض أمره ولحق بالزاب، فأقام به إلى أن توفي ابن الأغلب.

ثم بعث إبراهيم على طرابلس ابنه عبد الله سنة ست وتسعين، فثار عليه الجند وحاصروه بداره.

ثم أمنوه على أن يخرج عنهم فخرج، واجتمع إليه الناس وبذل العطاء وأثاء البربر من كل ناحية، وزحف إلى طرابلس فهزم جندھا ودخل المدينة.

ثم عزلة أبوه وولى سفيان بن المضاء فثارت هواراة بطرابلس، وهجم الجند فلحقوا بإبراهيم بن الأغلب وأعاد معهم ابنه عبد الله في ثلاثة عشر ألفاً من العساكر ففتك بهواراة وأئخن فيهم، وجدد سور طرابلس.

وبلغ الخبر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البربر وجاء إلى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناتة، وكان يقاتل من باب هواراة.

ثم جاء الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وأعمالها لعبد الوهاب، وسار إلى القيروان، وكانت وفاة إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين.

ابنه أبو العباس عبد الله

ولما توفي إبراهيم بن الأغلب عهد لابنه عبد الله، وكان غائباً بطرابلس والبربر يحاصرون كما ذكرناه، وأوصى ابنه الآخر زيادة الله أن يبايع له بالإمارة ففعل، وأخذ له البيعة على الناس بالقيروان.

وكتب إليه بذلك فقدم أبو العباس عبد الله في صفر سنة سبع وتسعين، ولم يرع حق أخيه فيما فعله.

وكان يتقصه ولم يكن في أيامه فتنة بما مهد له أبوه الأمر. وكان جائراً حتى قيل: إن مهلكه كان بدعوة حفص بن حميد من الأولياء الصالحين من أهل حمود ومهريك، وقد عليه في

والساحل طرابلس ونفزاوة.

أساطيله إلى إفريقية مستنجداً بزيادة الله، فبعث معهم العساكر واستعمل عليهم أسد بن الفرات قاضي القيروان فخرجوا في ربيع سنة اثني عشرة فنزلوا بمدينة مازر، وساروا إلى بلاطة ولقيهم القائد وجميع الروم الذين بها استمدهم فهزموا بلاطة والروم الذين معه، وغنموا أموالهم.

وهرب بلاطة إلى فلورة فقتل، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى قلعة الكرات، وقد اجتمع بها خلق كثير فخادعوا القاضي أسد بن الفرات في المراودة على الصلح وأداء الجزية، حتى استعدوا للحصار، ثم امتنعوا عليه فحاصروهم وبعث السرايا في كل ناحية، وكثرت الغنائم وحاصروا سرقوسة برأً ومجرأً، وجاء المدد من إفريقية وحاصروا بليرم.

وزحف الروم إلى المسلمين وهم يحاصرون سرقوسة قد بعثوهم، واشتد حصار المسلمين بسرقوسة، ثم أصاب معسكرهم الفناء وهلك كثير منهم، ومات أسد بن الفرات أميرهم ودفن بمدينة قصرية، ومعهم القائد الذي جاء يستنجدهم فخادعاه أهل قصرية وقتلوه، وجاء المدد من القسطنطينية فتصافوا مع المسلمين وهزموهم، ودخل فلهم إلى قصرية.

ثم توفي محمد بن الحواري أمير المسلمين، وولي بعده زهير بن عوف.

ثم محض الله المسلمين فهزمهم الروم مرات وحصروهم في معسكرهم حتى جهدهم الحصار، وخرج من كان في كبريك من المسلمين بعد أن هدموها وساروا إلى مازر، وتعذر عليهم الوصول إلى إخوانهم وأقاموا كذلك إلى سنة أربع عشرة إلى أن أشرفوا على الهلاك، فوصلت مراكب إفريقية مدداً وأسطول من الأندلس خرجوا للجهاد، واجتمع منهم ثلاثمائة مركب فنزلوا الجزيرة، وأفرج الروم عن حصار المسلمين وفتح المسلمون مدينة بليرم بالأمان سنة سبع عشرة ومائتين، ثم ساروا سنة تسع عشرة إلى مدينة قصرية وهزموا الروم عليها سنة عشرين ومائتين، ثم بعثوا إلى طرميس.

ثم بعث زيادة الله الفضل بن يعقوب في سرية إن سرقوسة فنعموا، ثم سارت سرية أخرى واعترضها بطريق صقلية فامتنعوا منه في وعر وخل من الشعراء، حتى يشس منهم وانصرف على غير طائل فحمل عليهم أهل السرية وانهزموا، وسقط البطريق عن فرسه فطعن وجرح، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب ومتاع.

ثم جهز زيادة الله إلى صقلية إبراهيم بن عبد الله بن

وبعث الجند إلى زيادة الله بالأمان وأن يرخل عن إفريقية، وبلغه أن عامر بن نافع يريد نفزاوة وأن برابرتها دعوه، فسرّح إليهم مائتي مقاتل لمنع عامر بن نافع فرجع عامراً عنها، وهزمه إلى قسطنطية ورجع، ثم هرب عنها واستولى سفيان على قسطنطية وضبطها، وذلك سنة تسع ومائتين، واسترجع زيادة الله قسطنطية والزاب وطرابلس واستقام أمره.

ثم وقعت الفتنة بين منصور الطنبدي وبين عامر بن نافع، لأن منصوراً كان يحسده ويضغن عليه فاستمال عامراً الجند وحاصره بقصره بطبنة حتى استأمن إليه على أن يركب إلى الشرق، وأجابه إلى ذلك وخرج منصور من طبنة منهزماً، ثم رجع فحاصره عامر حتى استأمن إليه ثانية على يد عبد السلام بن المفرج من قواد الجند، وأخذ له الأمان من عامر على أن يركب البحر إلى المشرق فأجابه عامر وبعثه مع ثقافته إلى تونس وأوصى ابنه، وكان يغريه أن يقتله إذا مر به فقتله، وبعث برأسه ورأس ابنه، وأقام عامر بن نافع بمدينة تونس إلى أن توفي سنة أربع عشرة.

ورجع عبد السلام بن المفرج إلى باجة فأقام بها إلى أن انتقض فضل بن أبي العين بجيزيرة شريك سنة ثمان عشرة ومائتين، فسار إليه عبد السلام بن المفرج الربيعي، وجاءت عساكر زيادة الله فقاتلوهما، وقتل عبد السلام، وانهزم فضل إلى مدينة تونس وامتنع بها، وحاصرت العساكر حتى اقتحموها عليه، وقتلوا كثيراً من أهلها وهرب آخرون حتى أمتهم زيادة الله وعادوا.

وفي سنة تسع عشرة ومائتين فتح أسد بن الفرات صقلية، كانت صقلية من عمالات الروم وأمراها راجع إلى صاحب قسطنطينية، وولى عليها سنة إحدى عشرة ومائتين بطريقاً اسمه قسنطيل، واستعمل على الأسطول قائداً من الروم حازماً شجاعاً ففزا سواحل إفريقية وانتهبها.

ثم بعد مدة كتب ملك الروم إلى قسنطيل يأمره بالقبض على مقدم الأسطول وقتله.

ونعى الخبر إليه بذلك فانتقض، وتعصب له أصحابه، وسار إلى مدينة سرقوسة من بلاد صقلية فملكها، وقتله قسنطيل فهزمه القائد ودخل مدينة نطانية فأتبعه جيشاً أخذوه وقتلوه، واستولى القائد على صقلية فملكها وخوطف بالملك.

وولى على ناحية من الجزيرة رجلاً اسمه بلاطة، وكان ميخائيل ابن عم بلاطة على مدينة بليرم، فانتقض هو وابن عمه على القائد، واستولى بلاطة على مدينة سرقوسة، وركب القائد في

ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم

ولما توفي أبو عقال الأغلب ولي بعده ابنه أبو العباس ودانت له إفريقية، وشيد مدينة بقرب تاهرت وسماها العباسية وذلك سنة سبع وعشرين، وأحرقها أفلح بن عبد الوهاب بن رستم، وكتب إلى صاحب الأندلس يتقرب إليه بذلك فبعث إليه بمائة ألف درهم.

وفي أيامه ولي سحنون القضاء سنة أربع وثلاثين وماتين بعد عزل ابن الجواد، وضربه سحنون فمات.

ومات سحنون سنة أربعين وماتين، وثار عليه أخوه أبو جعفر وغلبه، ثم اتفقا على أن يستوزره فاستبد عليه، وقتل وزراه ومكث على ذلك.

ثم أقام أبو العباس محمد بأمره واستبد سنة ثلاث وأربعين بعد أن استعد لذلك رجالاً، وحارب أخوه أبو جعفر فغلبه محمد وانتفض عليه وأخرجه من إفريقية إلى مصر سنة ست وأربعين وماتين لسته عشر شهراً من ولايته.

ابنه أبو إبراهيم أحمد بن أبي العباس محمد

لما توفي أبو العباس محمد بن أبي عقال سنة اثنتين وأربعين، ولي مكانه ابنه أبو إبراهيم أحمد فأحسن السيرة وأكثر العطاء للجند، وكان مولعاً بالعمارة فبنى بإفريقية نحواً من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد، واتخذ العبيد جنداً وخرج عليه بناحية طرابلس خوارج من البربر فغلبهم عاملها، وهو يومئذ أخوه عبد الله بن محمد بن الأغلب، سرح إليهم أخاهما زيادة الله يحاربهم، واستلحمهم وكتب إلى أخيه أبي إبراهيم بالفتح.

وفي أيامه افتتحت قصرية من مدن صقلية في شوال سنة أربع وأربعين، وبعث بفتحها إلى المتوكل، وأهدى له من سبيها. ثم توفي إبراهيم هذا سنة تسع وأربعين لثمان سنين من ولايته.

الأغلب في العساكر، وولاه أميراً عليها فخرج متصرف رمضان، وبعث أسطولاً فلقى أسطولاً للروم فغنمه، وقتل من كان فيه.

وبعث أسطولاً آخر إلى قصوره فلقى أسطولاً فغنمه وسارت سرية إلى جبل النار والحصون التي في نواحيها، وكثر السبي بأيدي المسلمين.

وبعث الأغلب سنة إحدى وعشرين أسطولاً نحو الجزائر فغنموا وعادوا.

وبعث سرية إلى قطبانية وأخرى إلى قصرية كان فيهما التمهيص على المسلمين.

ثم كانت وقعة أخرى كان فيها الظفر للمسلمين.

وغنم المسلمون من أسطولهم تسع مراكب، ثم عثر بعض المسلمين على عورة من قصرية فدل المسلمين عليها، ودخلوا منها البلد، وتحصن المشركون بمحصنه حتى استأمنوا وفتح الله، وغنم المسلمون غنائمه، وعادوا إلى بليرم إلى أن وصلهم الخبر بوفاة زيادة الله فوهنوا أولاً، ثم انشطوا وعادوا إلى الصبر والجهاد وكانت وفاة زيادة الله متصرف سنة ثلاث وعشرين وماتين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته.

أخوهما أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

ولما توفي زيادة الله بن إبراهيم تولى أخوه الأغلب، ويكنى أبا عقال فأحسن إلى الجند، وأزال المظالم وزاد العمال في أرزاقهم وكفهم عن الرعية! وخرج عليه بقسطنطينة خوارج زواغة ولوثة ومكناسة وقتلوا عاملها بها، وبعث إليهم العساكر فقتلهم واستأصلهم.

وبعث سنة أربع وعشرين سرية إلى صقلية فغنموا وعادوا ظافرين.

وفي سنة خمس وعشرين استأمن للمسلمين عدة حصون من صقلية فأمّنهم، وفتحوها صلحاً وسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحوها، ولحقوا أسطول القسطنطينية فهزموهم.

وفي سنة ست وعشرين سارت سرايا المسلمين بصقلية إلى قصرية، ثم حصن القيروان وأئخنوا في نواحيها كما نذكره.

ثم توفي الأغلب بن إبراهيم في ربيع من سنة ست وعشرين وماتين لستين وسبعة أشهر من إمارته.

ابنه زيادة الله الأصغر بن أبي إبراهيم بن أحمد

بعد أن حلوا جميع ما فيها.
وفي سنة ثلاث وثلاثين توفي أمير صقلية محمد بن عبد الله
بن الأغلب، واجتمع المسلمون بعده على ولاية العباس بن
الفضل بن يعقوب بعد موت أميرهم.

وكتب له محمد بن الأغلب بعهدته على صقلية، وكان من
قبل يغزو ويبيح السرايا، وتأتيه الغنائم، ولما جاءه كتاب الولاية
خرج بنفسه، وعلى مقدمته عمه رباح فعات في نواحي صقلية،
وردد البعوث والسرايا إلى قطانية وسرقوسة وبوطيف ورجوس
فغنموا وخرّبوا وحرقوا، وافتتح حصونا جمّة، وهزم أهل قصرانية،
وهي مدينة ملك صقلية.

وكان الملك قبله يسكن سرقوسة فلما فتحها المسلمون كما
ذكرناه انتقل الملك إلى قصرانية.

وأخبر أن العباس كان يردد الغزو إلى نواحي سرقوسة
وقصرانية شاتية وصانفة فيصيب منهم، ويرجع بالغنائم
والأسارى.

فلما كان في شاتية منها أصاب منهم أسارى، وقدمهم للقتل
فقال له بعضهم -وكان له قدر وهيبة-: استبقني وأنا أملكك
قصرانية، ودلهم على عورة البلد فجاءوها ليلاً، ووقفهم على باب
صغير فدخلوا منه، فلما توسطوا البلد وضعوا السيف، وفتحوا
الأبواب ودخل العباس في العسكر فقتل المقاتلة وسبى بنات
البطارقة، وأصاب فيها ما يعجز الوصف عنه، وذلل الروم بصقلية
من يومئذ.

وبيع ملك الروم عسكراً عظيماً مع بعض بطارقه، وركبوا
البحر إلى مرسى سرقوسة فجاءهم العباس من بليرم فقاتلهم
وهزمهم، وأقلع فلهم إلى بلادهم بعد أن غنم المسلمون من
أسطولهم ثلاثة أو أكثر، وذلك سنة سبع وثلاثين.

وافتح بعدها كثيراً من قلاع صقلية، وجاء مدد الروم من
القسطنطينية وهو يحاصر قلعة الروم فنزلوا سرقوسة، وزحف
إليهم العباس من مكانه وهزمهم، ورجع إلى قصرانية فحصنها
وأنزل بها الحامية.

ثم سار سنة سبع وأربعين إلى سرقوسة فغنم ورجع، واعتل
في طريقه فهلك منتصف سته، ودفن في نواحي سرقوسة، وأحرق
النصارى شلوه وذلك لإحدى عشرة سنة من إمارته.

واتصل الجهاد بصقلية والفتح، وأجاز المسلمون إلى عدوة
الروم في الشمال وغزوا أرض قلورية وانكبرده، وفتحوا فيها
حصوناً وسكن بها المسلمون.

ولما توفي أبو إبراهيم ولي مكانه ابنه زيادة الله، ويعرف
بزيادة الله الأصغر فجري على سنن سلفه، ولم تطل أيامه.
وتوفي سنة خمسين لحول من ولايته.

أخوه أبو الغرائيق بن أبي إبراهيم بن أحمد

ولما توفي زيادة الله كما قدمناه ولي مكانه أخوه محمد
ويلقب بأبي الغرائيق فغلب عليه اللهو والشراب، وكانت في أيامه
حروب وفتن.

وفتح جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين.

وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية، وبنى محمد
حصوناً ومخارص على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة
عشر يوماً من برقة إلى جهة المغرب وهي الآن معروفة.

ثم توفي أبو الغرائيق متصفاً بإحدى وستين لإحدى عشرة
سنة من ولايته.

بقية أخبار صقلية

وفي سنة ثمان وعشرين سار الفضل بن جعفر الحمداني في
البحر ونزل مرسى مسينة وحاصرها فامتعت عليه، وبث السرايا
في نواحيها فغنموا.

ثم بعث طائفة من عسكره وجأوا إلى البلد من وراء جبل
مطل عليه، وهم مشغولون بقتاله فانهزموا، وأعطوا باليد ففتحها.

ثم حاصر سنة اثنتين وثلاثين مدينة لسي، وكانت أهلها
بطريق صقلية يستمدونه فأجابهم وأعطاهم العلامة بإيقاد النار
على الجبل.

وبلغ ذلك الفضل بن جعفر فأوقد النار على الجبل، وأكمن
لهم من ناحيته فخرجوا واستطرد لهم حتى جاوزوا الكمين،
فخرجوا عليهم، فلم ينج منهم إلا القليل، وسلموا البلد على
الأمان.

وفي سنة ثلاث وثلاثين أجاز المسلمون إلى أرض انكبردة
من البر الكبير، وملكوا منها مدينة وسكنوها، وفي سنة أربع
وثلاثين صالح أهل رجوس، وسلموا المدينة للمسلمين فهدموها

شكوى المتظلمين، فأمنت البلاد وبنى الحصون والمخارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للذئير بالعدو فيتصل إيقادها بالإسكندرية في الليلة الواحدة وبنى سور سوسة.

وفي أيامه كان سير العباس بن أحمد بن طولون مخالفاً على أبيه صاحب مصر سنة خمس وستين ومائتين فملك برقة من يد محمد بن قهر ب قائد ابن الأغلب ثم ملك لبدة، ثم حاصر طرابلس واستمد ابن قهر ب بقوسة فأمدوه ولقي العباس بن طولون بقصر حاتم سنة سبع وستين فهزمه، ورجع إلى مصر.

ثم خالفت وزداجة ومنعوا الرهن، وفعلت مثل ذلك هواره، ثم لواته، وقتل ابن قهر ب في حروبهم فسرّح إبراهيم ابنه أبا العباس عبد الله إليهم في العساكر سنة تسع وستين فأنخن فيهم.

وفي سنة ثمانين كثر الخوارج وفرق العساكر إليهم فاستقاموا، واستركب العبيد السودان واستكثر منهم فبلغوا ثلاثة آلاف.

وفي سنة إحدى وثمانين انتقل إلى سكنى تونس واتخذ بها القصور، ثم تحرك إلى مصر سنة ثلاث وثمانين لمحاربة ابن طولون، واعترضته نفوسة فهزمهم وأنخن فيهم.

ثم انتهى إلى سرت فانفضت عنه الحشود فرجع، وبعث ابنه أبا العباس عبد الله على صقلية سنة سبع وثمانين فوصل إليها في مائة وستين مركباً.

وحصر طرابنة وانتقض عليه بليرم وأهل كبركيت، وكانت بينهم فتنة فأغراه كل واحد منهم بالآخرين، ثم اجتمعوا لحربه وزحف إليه أهل بليرم في البحر فهزمهم واستباحهم، وبعث جماعة من وجوها إلى أبيه، وفر آخرون من أعيانهم إلى القسطنطينية وآخرون إلى طرميس فاتبعهم وعاث في نواحيها.

ثم حاصر أهل قطانية فامتنعوا عليه فأعرض عن قتال المسلمين.

وتجهز سنة ثمان وثمانين للغزو فغزا دمقش، ثم مسيني. ثم جاء في البحر إلى ريو ففتحها عنوة وشحن مراكبه بغنائمها، ورجع إلى مسيني فهدم سورها، وجاء مدد القسطنطينية في المراكب فهزمهم وأخذ لهم ثلاثين مركباً.

ثم أجاز إلى عدوة الروم وأوقع بأرم الفرغجة من وراء البحر. ورجع إلى صقلية.

وجاء في هذه السنة رسول المعتضد بعزل الأمير إبراهيم

ولما توفي العباس اجتمع الناس على ابنه عبد الله وكتبوا إلى صاحب إفريقية، وبعث عبد الله السرايا ففتح القلاع، وبعد خمسة أشهر من ولايته وصل خفاجة بن سفيان من إفريقية على صقلية في منتصف ثمان وأربعين، وأخرج ابنه محموداً في سرية إلى سرقوسة فعات في نواحيها، وأخرج إليهم الروم فقاتلهم وظفر ورجع.

ثم فتح مدينة نوطوس سنة خمس وخمسين وسار إلى سرقوسة، وجبل النار، واستأمن إليه أهل طرميس، ثم غدروا فسرّح ابنه محموداً في العساكر وسبى أهلها.

ثم سار خفاجة إلى رغوس وافتتحها، وأصابه المرض فعاد إلى بليرم.

ثم سار سنة ثلاث وخمسين إلى سرقوسة وقطانية فحرب نواحيها، وأفسد زرعها، وبعث سراياه في أرض صقلية فامتلات أيديهم من الغنائم.

وفي سنة أربع وخمسين وصل بطريق من القسطنطينية لأهل صقلية فقاتله جمع من المسلمين وهزموه، وعاث خفاجة في نواحي سرقوسة ورجع إلى بليرم.

وبعث سنة خمس وخمسين ابنه محموداً في العساكر إلى طرميس وقد دله بعض العيون على بعض عوراتها فدخلوها وشرعوا في النهب.

وجاء محمد بن خفاجة من ناحية أخرى فظنوه مدداً للعدو فأجفلوا، ورأهم محمد مجفلين فرجع.

ثم سار خفاجة إلى سرقوسة فحاصرها وعاث في نواحيها، ورجع فاغتاله بعض عسكره في طريقه وقتله، وذلك سنة خمس وخمسين، وولى الناس عليهم ابنه محموداً وكتبوا إلى محمد بن أحمد أمير إفريقية فأقره على الولاية وبعث إليه بعده.

إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرائق

ولما توفي أبو الغرائق ولي أخوه إبراهيم، وقد كان عهد لابنه أبي عقال، واستحلف أخاه إبراهيم أن لا ينازعه ولا يعرض له، بل يكون نائباً عنه إلى أن يكبر، فلما مات عدا عليه أهل القيروان وحملوه على الولاية عليهم، لحسن سيرته وعدله فامتنع ثم أجاب وترك وصية أبي الغرائق في ولده أبي عقال، وانتقل إلى قصر الإمارة وقام بالأمر أحسن قيام.

وكان عادلاً حازماً فقطع البغي والفساد وجلس لسماع

ظهور الشيعة بكتامة

وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعة بكتامة يدعو للرضا من آل محمد ويطن الدعوة لعبيد الله المهدي من أبناء إسماعيل الإمام، واتبه كتامة. وهو من الأسباب التي دعت للتوبة والإقلاع والخروج إلى صقلية.

وبعث إليه موسى بن عياش صاحب صلة بالخبر، وبعث إبراهيم رسوله إلى الشيعة بأنكحان يهدده ويحذره فلم يقبل، وأجابه بما يكره.

فلما قربت أمور أبي عبد الله وجاء كتاب المعتضد لإبراهيم كما قدمناه أظهر التوبة، ومضى إلى صقلية، وكانت بعده بإفريقية حروب أبي عبد الله الشيعة مع قبائل كتامة حتى استولى عليهم واتبعوه، وكان إبراهيم قد أسر لابنه أبي العباس في شأن الشيعة ونهاه عن محاربتهم، وأن يلحق به إلى صقلية إن ظهر عليه.

ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم أخي محمد أبي الغرائق

ولما هلك إبراهيم سنة تسع وثمانين كما قدمناه، قدم حافده زيادة الله بالجيش على أبيه أبي العباس عبد الله فقام بأمر إفريقية، وعظم غناؤه، وكتب إلى العمال كتاباً يقرأ على الناس بالوعد الجميل والعدل والرفق والجهاد، واعتقل ابنه زيادة الله هذا لما بلغه عنه من اعتكافه على اللذات واللهاو، وأنه يروم التوثب عليه، وولى على صقلية مكانه محمد بن السرقوسي، وكان أبو العباس حسن السيرة عادلاً بصيراً بالحروب، وكانت أيامه صالحة، وكان نزوله بتونس.

ولما توفي استولى أبو عبد الله الشيعة على كتامة ودخلوا في أمره كافة، وزحف إلى ميلة فافتتحها، وقتل موسى بن عياش.

وكان فتح بن يحيى أمير مسألة من كتامة حارب أبا عبد الله طويلاً، ثم غلبه واستولى على قومه، فنزع فتح إلى أبي العباس وحرّضه على قتال يكرّوا، وإنما كان يكرّ على جفنة إذا نظر، وزحف إليه من تونس سنة تسع وثمانين ومائتين ودخل سطيف ثم بلزمة، وقتل من دخل في دعوتهم ولقيه أبو عبد الله الشيعة فانهمز وهرب من تاورزت إن أنكحان، وهدم أبو خول قصر الشيعة، ثم قاتلهم يوماً إلى الليل، فانهمز عسكر أبي خول ولحق

لشكوى أهل تونس به، فاستقدم ابنه أبا العباس من صقلية وارتحل هو إليها مظهراً لغربة الانتجاع.

هكذا قال ابن الرقيق.

وذكر أنه كان جائراً ظلوماً سفاكاً للدماء، وأنه أصابه آخر عمره مالبخولياً أسرف بسببها في القتل، فقتل من خدمه ونسائه وبناته ما لا يحصى.

وقتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به.

وافقد ذات يوم منديلاً لشرايه، فقتل بسببه ثلاثمائة خادم.

وأما ابن الأثير فأثنى عليه بالعقل والعدل وحسن السيرة، وذكر أن فتح سرقوسة كان في أيامه على يد جعفر بن محمد أمير صقلية، وأنه حاصرها تسعة أشهر، وجاءهم المدد من قسطنطينية في البحر فهزمهم. ثم فتح البلد واستباحها.

وافتقروا كلهم على أنه ركب البحر من إفريقية إلى صقلية فنزل طرابنة، ثم تحول عنها إلى بليرم ونزل على دمقش وحاصرها سبعة عشر يوماً.

ثم فتح مسيني وهدم سورها.

ثم فتح طرميس آخر شعبان من سنة تسع وثمانين، ووصل ملك الروم بالقسطنطينية ففتحها.

ثم بعث حافده زيادة الله ابن ابنه أبي العباس عبد الله إلى قلعة بيقش فافتتحها، وابنه أبو محرز إلى رمطة فأعطوه الجزية.

ثم عبر إلى عدوة البحر وسار في بر الفرنج ودخل قلورية عنوة فقتل وسبى، ورهب منه الفرجة.

ثم رجع إلى صقلية ورغب منه النصارى في قبول الجزية فلم يجب إلى ذلك.

ثم سار إلى كنسة فحاصرها واستأمنوا إليه فلم يقبل.

ثم هلك وهو محاصر لها آخر تسع وثمانين لثمان وعشرين سنة من إمارته، فولى أهل العسكر عليهم حافده أبا مضر ليحفظ العساكر والأمور، إلى أن يصل ابنه أبو العباس، وهو يومئذ بإفريقية، فأمن أهل كنسة قبل أن يعلموا بموت جده، وقبل منهم الجزية، وأقام قليلاً حتى تلاحت به السرايا من النواحي.

ثم ارتحل وحمل جده إبراهيم فدفنه في بليرم، وقال ابن الأثير: حمله إلى القبروان فدفنه بها.

بتونس، ورجع بكتامة إلى مواضعهم.

ولما دخل أبو خول بأبيه جدد له العسكر وأعادته ثانية، وانتظمت إليه القبائل، وسار حتى نزل سطيف.

ثم ارتحل منها إلى لقائهم، وزحف إليه أبو عبد الله فهزمه، ورجع إلى سطيف.

ثم ارتحل منها إلى لقائهم، وفي أثناء ذلك صانع زيادة الله بعض الخدم على قتل أبيه أبي العباس فقتل نائماً في شعبان سنة تسعين ومائتين، وأطلق زيادة الله من اعتقاله.

ابنه أبو مضر زيادة الله

ولما أطلق زيادة الله من الاعتقال اجتمع أهل الدولة وبايعوا له، فقتل الخصيان الذين قتلوا أباه، وأقبل على اللذات والأهوار ومعاشرة المضحكين والصفاعين، وأهمل أمور الملك واستقل وكتب إلى أخيه أبي خول على لسان أبيه يستقدمه، وقدم فقتله وقتل عمومته وإخوته.

وقوي أمر الشيعي، وانتقل زيادة الله إلى رقادة ليلاً لئلا يخالفه الشيعي إليها.

وفتح الشيعي مدينة سطيف فسرح زيادة الله العساكر لحربه، وعقد عليها لإبراهيم بن حبيش من صنائعه، فخرج في أربعين ألفاً، وأقام بقسطيلة ستة أشهر، فاجتمعت إليه مائة ألف، وزحف إلى كتامة، وتلقوه بأجانة فاخترمت عساكره وولت الهزيمة عليه.

وانتهى إلى باغاية، ثم انتقل إلى القيروان وافتتح أبو عبد الله مدينة طينة، وقتل فتح بن يحيى المسالي وكان بها.

ثم فتح بلزمة وهدم سورها.

ثم وصل عروبة بن يوسف من أمراء كتامة إلى باغاية، وأوقع بالعساكر التي كانت بها مجمرة لحربهم بنظر هارون بن الطنبلي.

وأرسل أبو عبد الله الشيعي إلى تيجسن فحاصرها، ثم افتتحها صلحاً، وكثر الأرجاف بالقيروان ففتح زيادة الله ديوان العطاء، واستلحق واستركب وأجمع الخروج فخرج إلى الأريس سنة خمس وتسعين، فلما انتهى إليها تخوف غائلة الشيعي، وأشار عليه أهل بيته بالرجوع فرجع إلى رقادة، وقدم على العساكر إبراهيم بن أبي الأغلب من وجوه أهل بيته.

ثم زحف أبو عبد الله إلى باغاية ففتحها صلحاً وهرب

عاملها.

ثم سرب أبو عبد الله الجيوش فبلغت مجانة، وأوقعوا بقبائل نفزة، واستولوا على تيفاش.

وزحف ابن أبي الأغلب إلى تيفاش فمنعه أهلها، وهزموا طلائعها فافتتحها، وقتل من كان بها.

ثم خرج أبو عبد الله الشيعي في عساكر كتامة إلى باغاية ثم إلى سكاية، ثم إلى سبيبة، ثم إلى حمودة فاستولى على جميعها، وأمن أهلها ورحل ابن أبي الأغلب من الأريس.

ثم سار أبو عبد الله إلى قسطيلة وقفصة فأمنهم، ودخلوا في دعوته، وانصرف إلى باغاية، ثم إلى أنكجان.

وزحف ابن أبي الأغلب إلى باغاية فقاتلها، وامتنعت عليه ورجع إلى الأريس.

ثم زحف أبو عبد الله إلى الأريس سنة ست وتسعين في جادى، ومر بشق بنارية، وأمن أهلها إلى قمودة.

خروج زيادة الله إلى المشرق

ولما وصل الخبر إلى زيادة الله بوصول الشيعي إلى قمودة، حل أمواله واثقاله ولحق بطرابلس معتزماً على الشرق.

وأقبل الشيعي إلى إفريقية، وفي مقدمته عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير، ووصل إلى رقادة في رجب سنة ست وتسعين ومائتين وتلقاه أهل القيروان وبايعوا لعبيد الله المهدي كما ذكرناه في أخبارهم ودولتهم.

وأقام زيادة الله بطرابلس سبعة عشر يوماً، وانصرف ومعه إبراهيم بن الأغلب، وكان غمي عنه أنه أراد الاستبداد لنفسه بالقيروان بعد خروج زيادة الله فأعرض عنه، وأطرحه، وبلغ مصر فمنعه عاملها عيسى البرشدي من الدخول إلا عن أمر الخليفة، وأنزله بظاهر البلد ثمانية أيام وانصرف إلى ابن الفرات وزير المقتدر يستأذن له في الدخول فأناه كتابه بالمقام في الرقة حتى يأتيه رأي المقتدر فأقام بها سنة.

ثم جاءه كتاب المقتدر بالرجوع إلى إفريقية.

وأمر النوشري بإمداده بالرجال والمال لاسترجاع الدعوة بإفريقية، ووصل إلى مصر فأصابته بها علة مزمنة، وسقط شعره.

ويقال إنه سم وخرج إلى بيت المقدس ومات بها.

وتفرق بنو الأغلب وانقطعت أيامهم والبقاء لله وحده.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأهل طرابنة فهزمهم وقتلهم.

ثم استأمن إليه أهل طرابنة فأمنهم وهدم أبوابها، وأمره المهدي بالعفو عنهم.

ثم ولي المهدي على صقلية سالم بن راشد، وأمه سنة ثلاث عشرة بالعساكر فعب البحر إلى أرض إنكبردة فدوخها، وفتحوا فيها حصوناً ورجعوا.

ثم عادوا إليها ثانية وحاصروا مدينة أدرنت أياماً ورحلوا عنها.

ولم يزل أهل صقلية يغفرون على ما بأيدي الروم من جزيرة صقلية وقلورية، ويعيثون في نواحيها.

وبعث المهدي سنة اثنتين وعشرين جيشاً في البحر مع يعقوب بن إسحاق، فعاث في نواحي جنوة ورجعوا.

ثم بعث جيشه من قابل ففتحوا مدينة جنوة، ومروا بسرديانية فأحرقوا فيها مراكب وإنصرفوا.

ولما كانت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة انتقض أهل كبريت على أميرهم سالم بن راشد وقتلوا جيشه، وخرج إليهم سالم بنفسه فهزمهم وحصرهم ببلدهم.

واستمد القائم فأمدّه بالعساكر مع خليل بن إسحاق، فلما وصل إلى صقلية شكّا إليه أهلها من سالم بن راشد واسترحمته النساء والصبيان.

وجاءه أهل كبريت وغيرها من أهل صقلية بمثل ذلك فرق لشكواهم، ودس إليهم سالم بأن خليلاً إنما جاء للانتقام منهم بمن قتلوا من العسكر فعادوا الخلاف، واختط خليل مدينة على مرسى المدينة، وسماها الخالصة.

وتحقق بذلك أهل كبريت ما قال لهم سالم، واستعدوا للحرب، فسار إليهم خليل منتصف ست وعشرين وحصرهم ثمانية أشهر يغاديهم بالقتال ويرواحهم، حتى إذا جاء الشتاء رجع إلى الخالصة، واجتمع أهل صقلية على الخلاف، واستمدوا ملك القسطنطينية فأمدهم بالمقاتلة والطعام.

واستمد خليل القائم فأمدّه بالجيش فافتتح قلعة أبي ثور وقلعة البلوط، وحاصر قلعة بلاطنو إلى أن انقضت سنة سبع وعشرين فارتحل عنها وحاصر كبريت.

ثم حبس عليها عسكرياً للحصار مع أبي خلف بن هارون ورحل عنها، وطال حصارها إلى سنة تسع وعشرين فهرب كثير من أهل البلد إلى بلد الروم واستأمن الباقون فأمنهم على النزول

بقية أخبار صقلية ودولة بني أبي الحسن

الكلبيين بها من العرب المستبدين بدعوة

العبيديين وبداية أمرهم وتصاريق أحوالهم

ولما استولى عبيد الله المهدي على إفريقية ودانت له، وبعث العمال في نواحيها، بعث على جزيرة صقلية الحسن بن محمد بن أبي خنزير من رجالات كتامة، فوصل إلى مأزر سنة سبع وتسعين ومائتين في العساكر، فولى أخاه على كبريت، وولى على القضاء بصقلية إسحاق بن المنهال، ثم سار سنة ثمان وتسعين ومائتين في العساكر إلى ومش، فعاث في نواحيها ورجع.

ثم شكّا أهل صقلية سوء سيرته وثأروا به وحبسوه، وكتبوا إلى المهدي معتذرين، فقبل عذرهم وولى عليهم أحمد بن قهر.

وبعث سرية إلى أرض قلورية فدوخوها ورجعوا بالغنائم والسبي.

ثم أرسل سنة ثلاثمائة ابنه علياً إلى قلعة طرمين المحدثه ليتخذها حصناً لحاشيته وأمواله، حذراً من ثورة أهل صقلية، فحصرها ابنه ستة أشهر.

ثم اختلف عليه العسكر فأحرقوا خيامه، وأرادوا قتله فمنعه العرب، ودعا هو الناس إلى طاعة المقتدر فأجابوه.

وقطع خطبة المهدي وبعث الأسطول إلى إفريقية، ولقوا أسطول المهدي وقائده الحسن بن أبي خنزير فقتلوه، وأحرقوا الأسطول.

وسار أسطول بن قهر إلى صفاقس فحربوها وانتهوا إلى طرابلس، وانتهى الخبر إلى القائم بن المهدي ثم وصلت الخلع والألوية من المقتدر إلى ابن قهر، ثم بعث الجيش في الأسطول إلى قلورية فعاثوا في نواحيها ورجعوا، ثم بعث ثانية أسطولا إلى إفريقية فظفر به أسطول المهدي فانتقض أمره، وعصى عليه أهل كبريت، وكتبوا إلى المهدي.

ثم ثار الناس بآبن قهر آخر الثلاثمائة وحبسوه، وأرسلوه إلى المهدي فأمر بقتله على قبر ابن خنزير في جماعة من خاصته.

وولى على صقلية أبا سعيد بن أحمد، وبعث معه العساكر من كتامة فركب إليها البحر فنزل في طرابنة، وعصى عليه أهل صقلية بمن معه من العساكر فامتنعوا عليه، وقتله أهل كبريت

عن القلعة.

الروم ففروا من غير حرب.

ونزل الحسن على قلعة قيشانة فحاصرها شهراً وصالحهم على مال ورجع بالأسطول إلى مسينى فشتى بها.

وجاءه أمر المنصور بالرجوع إلى قلورية فعبر إلى خراجة فلقى الروم والسردغرس فهزمهم، وامتلاً من غنائمهم، وذلك يوم عرفة سنة أربعين وثلاثمائة.

ثم سار إلى خراجة فحاصرها حتى هادنه ملك الروم قسطنطين.

ثم عاد إلى ربو وبني بها مسجداً وسط المدينة، وشرط على الروم أن لا يعرضوا له، وأن من دخله من الأسرى أمن.

ولما توفي المنصور وملك ابنه المعز سار إليه الحسن، واستخلف على صقلية ابنه أحمد، وأمره المعز بفتح القلاع التي بقيت للروم بصقلية فغزاها، وفتح طرمين وغيرها سنة إحدى وخمسين، وأعيته رمطة فحاصرها فجاءها من القسطنطينية أربعون ألفاً مدداً.

وبعث أحمد يستمد المعز فبعث إليه المدد بالعاكر والأموال مع أبيه الحسن.

وجاء مدد الروم فتزولوا بمرسى مسينة وزحفوا إلى رومطة، ومقدم الجيوش على حصارها الحسن بن عمار وابن أخي الحسن بن علي فأحاط الروم بهم.

وخرج أهل البلد إليهم وعظم الأمر على المسلمين فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منوئل فسقط عن فرسه، وقتل جماعة من البطارقة معه.

وانهزم الروم وتبعهم المسلمون بالقتل، وامتلات أيديهم من الغنائم والأسرى والسبي.

ثم فتحوا رمطة عنوة وغنموا ما فيها، وركب فل الروم من صقلية وجزيرة رفق في الأسطول ناجين بأنفسهم، فأتبعهم الأمير أحمد في المراكب فحرقوا مراكبهم، وقتل كثير منهم، وتعرف هذه الواقعة بوقعة المجاز، وكانت سنة أربع وخمسين وأسر فيها ألف من عظماهم ومائة بطريق.

وجاءت الغنائم والأسارى إلى مدينة بليرم، حاضرة صقلية، وخرج الحسن للغنائم، فأصابته الحمى من الفرح فمات، وحزن الناس عليه، وولي ابنه أحمد باتفاق أهل صقلية بعد أن ولي المعز عليهم يعيش مولى الحسن فلم ينهض بالأمر، ووقعت الفتنة بين كتامة والقبائل، وعجز عن تسكينها.

ثم غدر بهم فارتاع لذلك سائر القلاع وأطاعوا ورجع خليل إلى إفريقية آخر سنة تسع وعشرين وحمل معه وجوه أهل كبركيت في سفينة، وأمر بحرقها في لجة البحر فغرقوا أجمعين.

ثم ولي على صقلية عطايف الأزدي، ثم كانت فتنة أبي يزيد، وشغل القائم والمنصور بأمره، فلما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على صقلية للحسن بن أبي الحسن الكلبي من صنائعهم ووجوه قواده وكنيته أبو الغنائم، وكان له في الدولة محل كبير وفي مدافعة أبي يزيد غناء عظيم.

وكان سبب ولايته أن أهل بليرم كانوا قد استضعفوا عطايفاً واستضعفهم العدو لعجزه، فوثب به أهل المدينة يوم الفطر من سنة خمس وثلاثين، وتولى كبر ذلك بنو الطير منهم.

ونجا عطايف إلى الحصن وبعث للمنصور يعلمه ويستمده، فولى الحسن بن علي على صقلية وركب البحر إلى مازر، وأرسل بها فلم يلقه أحد منهم.

وأتاه في الليل جماعة من كتامة واعتذروا إليه عن الناس بالخوف من بني الطير.

وبعث بنو الطير عيونهم عليه واستضعفوه وواعدوه أن يعودوا إليه فسبق ميعادهم ودخل المدينة، ولقيه حاكم البلد وأصحاب الدواوين واضطر بنو الطير إلى لقائه، وخرج إليهم كبيرهم إسماعيل ولحق به من انحرف عن بني الطير، فكثر جمعه.

ودس إسماعيل بعض غلمانه، فاستخاث بالحسن من بعض عبيده أنه أكره أمراته على الفاحشة، يعتقد أن الحسن لا يعاقب مملوكه، فتخشن قلوب أهل البلد عليه.

وفطن الحسن لذلك فدعا الرجل واستحلفه على دعواه، وقتل عبده فسر الناس بذلك، ومالوا عن الطيري وأصحابه، وافترق جمعهم وضبط الحسن أمره، وخشي الروم بادرته فدفعوا إليه جزية ثلاث سنين.

وبعث ملك الروم بطريقاً في البحر في عسكر كبير إلى صقلية، واجتمع هو والسردغرس.

واستمد الحسن بن علي المنصور فأمدّه بسبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخسمائة راجل، وجمع الحسن من كان عنده وسار براً وبحراً.

وبعث السرايا في أرض قلورية، ونزل على أبراجه فحاصرها وزحف إليه الروم فصالحه على مال أخذه، وزحف إلى

ويبلغ الخبر إلى المعز فولى عليها أبا القاسم علي بن الحسن نيابة عن أخيه أحمد.

ثم توفي أحمد بطرابلس سنة تسع وخسين واستبد بالإمارة أخوه أبو القاسم علي، وكان مدلاً محباً.

وسار إليه سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ملك الفرنج في جموع عظيمة، وحصر قلعة رمطة وملكها، وأصاب سرايا المسلمين.

وسار الأمير أبو القاسم في العساكر من بلرم يريد لهم، فلما قاربهم خاف من اللقاء ورجع، وكان الفرنج في الأسطول يعاينونه فبعثوا بذلك للملك بردويل فسار في اتباعه وأدركه فاقتلوا، وقتل أبو القاسم في الحرب.

وأهم المسلمين أمرهم فاستماتوا، وقتلوا الفرنج فهزمهم أقبح هزيمة، ونجا بردويل إلى خيامه برأسه، وركب البحر إلى رومة.

وولى المسلمون عليهم بعد الأمير أبي القاسم ابنه جابر فرحل بالمسلمين لوقته راجعاً، ولم يعرج على الغنائم.

وكانت ولاية الأمير أبي القاسم اثنتي عشرة سنة ونصفاً. وكان عادلاً حسن السيرة.

ولما ولي ابن عمه جعفر بن محمد بن علي بن أبي الحسن، وكان من وزراء العزيز وندمائيه استقامت الأمور، وحسنت الأحوال، وكان يحب أهل العلم ويميز الهبات لهم.

وتوفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وولي أخوه عبد الله فاتبع سيرة أخيه إلى أن توفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وولي ابنه ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي الحسن، فأنسى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم إلى أن أصابه الفالج، وعطل نصفه الأيسر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.

وولي ابنه تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة يوسف، فضببط الأمور وقام بأحسن قيام وخالف عليه أخوه علي سنة خمس وأربعمئة مع البربر والعبيد، فزحف إليه جعفر فظفر به وقتله، ونفى البربر والعبيد، واستقامت أحواله.

ثم انقلبت حاله واختلت على يد كاتبه ووزيره حسن بن محمد الباغاني فثار عليه الناس بسببها، وجاؤوا حول القصر، وأخرج إليهم أبو الفتوح في حفرة فتلطف بالناس، وسلم إليهم الباغاني فقتلوه، وقتلوا حافده أبا رافع، وخلع ابنه ابن جعفر، ورحل إلى مصر، وولى ابنه ابن جعفر سنة عشرة وأربعمئة ولقبه بأسد الدولة بن تاج الدولة.

ويعرف بالأكلح فسكن الاضطراب واستقامت الأحوال، وفوض الأمور إلى ابنه ابن جعفر وجعل مقاليد الأمور بيده فأساء ابن جعفر السيرة، وتحامل على صقلية ومال إلى أهل إفريقية.

وضج الناس وشكوا أمرهم إلى المعز صاحب القيروان، وأظهروا دعوته، فبعث الأسطول فيه ثلاثمئة فارس مع ولديه عبد الله وأيوب، واجتمع أهل صقلية وحصروا أميرهم الأكلح، وقتل وحمل رأسه إلى المعز سنة سبع عشرة وأربعمئة.

ثم ندم أهل صقلية على ما فعلوه وثاروا بأهل إفريقية، وقتلوا منهم نحواً من ثلاثمئة وأخرجوهم.

وولوا الصمصام أخا الأكلح فاضطربت الأمور، وغلب السفلة على الأشراف.

ثم ثار أهل بلرم على الصمصام وأخرجوه، وقدموا عليهم ابن الثمنة من رؤوس الأجناد، وتلقب القادر بالله واستبد بمآزر ابنه عبد الله قبل الصمصام، وغلب ابن الثمنة على ابن الأكلح فقتله واستقل بملك الجزيرة إلى أن أخذت من يده.

ولما استبد ابن الثمنة بصقلية تزوج ميمونة بنت الجراس، فتخيل له منها شيء فسقاها السم.

ثم تلافاها وأحضر الأطباء فأنعشوها، وأفاقت فقدم واعتذر فظهرت له القبول، واستأذنته في زيارة أخيها بقصريانة، وأخبرت أخاها فحلف أن لا يردھا، ووقعت الفتنة.

وحشد ابن الثمنة فهزمه ابن جراس فانتصر ابن الثمنة بالروم.

وجاء القمص وجزا ابن ينقر بن خبرة ومعه سبعة من إخوته وجمع من الإفرنج ووعدهم بملك صقلية فداخل في بيع مية.

وقصد قصريانة وحكموا على مروا من المنازل، وخرج ابن جراس فهزمه ورجع إلى إفريقية عمر بن خلف بن مكى فنزل تونس، وولي قضاءها.

ولم يزل الروم يملكونها حتى لم يبق إلا المعازل.

وخرج ابن الجراس بأهله وماله صلحاً سنة أربع وستين وأربعمئة.

وتملكها رجار كلها وانقطعت كلمة الإسلام منها ودولة الكلبيين وهم عشرة ومدتهم خمس وتسعون سنة.

ومات رجار في قلعة مليطو من أرض قلورية سنة أربع وتسعين، وولي ابنه رجار الثاني وطالت أيامه.

أخبار اليمن والدول الإسلامية التي كانت
فيه للعباسيين والعبديين وسائر ملوك
العرب وابتداء ذلك وتصاريقه على الجملة
ثم تفصيل ذلك على مدنه وممالكه واحدة
بعد واحدة

وله ألف الشريف أبو عبد الله الإدريسي كتاب «نزهة
المشتاق في أخبار الآفاق» وسماه قصار رجاء علماً عليه معروفاً به
في الشهرة والله مقدر الليل والنهار.

الخبر عن جزيرة إقريطش وما كان بها
للمسلمين من الملك على يد بني البلوطي
إلى أن استرجعها العدو

هذه الجزيرة من جزر البحر الرومي ما بين صقلية وقبرس
في مقابلة الإسكندرية على يد الجالية أهل الرض.

وذلك أن أهل الرض الغربي من قرطبة، وكان غلة متصلة
بقصر الحكم بن هشام فنقموا عليه وثاروا به سنة اثنتين ومائتين،
فأوقع بهم الوقعة المشهورة واستلحهم، وهدم ديارهم
ومساجدهم، وأجلى الفل منهم إلى العدو، ونزلوا بفاس وغيرها.
وغرب آخرين إلى الإسكندرية فنزلوا وافترقوا في جوانبها.

وتلاحي رجل منهم مع جزار من سوقة الإسكندرية فنادوا
بالثار، واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم وامتنعوا
بها، ولولا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطي ويعرف بابي
الفيض من أهل قرية مطروح، من عمل فحوص البلوط المجاور
لقرطبة فقام برياستهم.

وكان على مصر يومئذ عبد الله بن طاهر فزحف إليهم،
وحصرهم بالإسكندرية فاستأمنوا له فأمنهم وبعثهم إلى جزيرة
إقريطش فعمرها وأميرهم أبو حفص البلوطي.

وتداولها بنوه من بعده مدة من مائة وأربعين سنة إلى أن
ملكها أريانوس بن قسطنطين ملك القسطنطينية من يد عبد العزيز
بن شعيب من أعقاب سنة خمس وثلاثمائة، وأخرجوا المسلمين
منها والله يعيد الكرة ويذهب آثار الكفرة، والله سبحانه وتعالى
أعلم بالصواب.

قد كنا قدما في أخبار السير النبوية كيف صار اليمن في
ملكة الإسلام بدخول عامله في الدعوة الإسلامية، وهو باذان
عامل كسرى، وأسلم معه أهل اليمن.

وأمره النبي ﷺ على جميع غاليها، وكان منزله صنعاء
كرسي التبابعة.

ولما مات بعد حجة الوداع قسم النبي ﷺ اليمن على
عمال من قبله، وجعل صنعاء لابنه شهریان بن باذان.

وذكرنا خبر الأسود العنسي، وكيف أخرج عمال النبي ﷺ
من اليمن وزحف إلى صنعاء فملكها.

وقتل شهریان بن باذان وتزوج إمرأته واستولى على أكثر
اليمن، وارث أكثر أهلها.

وكتب النبي ﷺ إلى أصحابه وعماله وإلى من ثبت على
إسلامه فدخلوا زوجة شهریان بن باذان التي تزوجها في أمره،
على يد ابن عمها فيروز.

وتولى كبر ذلك قيس بن عبد يغوث المرادي، فبثته هو
وفيروز وذأويه باذان زوجته فقتلوه.

ورجع عمال النبي ﷺ إلى أعمالهم، وذلك قبيل الوفاة.
واستبد قيس بصنعاء وجمع الفل من جند الأسود فولى أبو
بكر على اليمن فيروز فيمن إليه من الأبناء، وأمر الناس بطاعته
فقاتل قيس بن مكشوح وهزمه ثم ولّى أبو بكر المهاجر بن أبي
أمية فقاتل أهل الردة باليمن، وكذلك عكرمة بن أبي جهل، وأمره
أن يبدأ بالمرتدة ثم دعت عائشة، فسار معها وحضر حرب الجمل.

وولي على اليمن عبيد الله بن عباس، ثم أخاه عبد الله.
ثم ولّى معاوية على صنعاء فيروز الديلمي، ومات سنة
ثلاث وخمسين.

ثم جعل عبد الملك اليمن في ولاية الحجاج لما بعثه لحرب
ابن الزبير سنة اثنتين وسبعين.

على الخلفاء مع ارتفاع اليمن ركب بالمظلة شأن سلاطين العجم المستبدين.

وفي أيامه خرج باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن طباطبا بدعوة الزيدية، جاء بها من السند، وكان جده القاسم قد فر إلى السند بعد خروج أخيه محمد مع أبي السرايا، ومهلكه كما مر فلحق القاسم بالسند.

وأعقب بها الحسين ثم ابنه يحيى باليمن سنة ثمان وثمانين، ونزل صعدة وأظهر دعوة الزيدية، وزحف إلى صنعاء فملكها من يد أسعد بن يعفر، ثم استردها منه بنو أسعد ورجع إلى صعدة.

وكان شيعته يسمونه الإمام، وعقبه الآن بها، وقد تقدم خبرهم.

وفي أيام أبي الجيش بن زياد أيضاً ظهرت دعوة العبيديين باليمن، فأقام بها محمد بن الفضل بعدن لاعة وجبال اليمن إلى جبال المدجيرة سنة أربعين وثلاثمائة.

ويبقى له باليمن من السرجة إلى عدن عشرون مرحلة، ومن خلافة إلى صنعاء خمس مراحل.

ولما غلبه محمد بن الفضل بهذه الدعوة امتنع أصحاب الأطراف عليه، مثل بني أسعد بن يعفر بصنعاء، وسليمان بن طرف بعثر، والإمام الرسي بصعدة فسلك معهم طريق المهادنة.

ثم هلك أبو الجيش سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة بعد أن اتسعت جبايته وعظم ملكه.

قال ابن سعيد: رأيت مبلغ جبايته وهو ألف ألف مكررة مرتين، وثلاثمائة ألف وستة وستون ألفاً من الدنانير العشرية ما عدا ضرائبه على مراكب السند، وعلى العنبر الواصل بباب المندب وعدن أبين، وعلى مغائص اللؤلؤ، وعلى جزيرة دهلك، ومن بعضها وصائف.

وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر يهادونه ويخضبون مواصلته.

ولما مات خلف صبيّاً صغيراً اسمه عبد الله، وقيل: إبراهيم وقيل: زياد، وكفلته أخته ومولاه رشيد الحبشي واستبد عليهم إلى أن انقرضت دولتهم سنة سبع وأربعمئة، ثم هلك هذا الطفل، فولدوا طفلاً آخر من بني زياد أصغر منه.

وقال ابن سعيد: لم يعرف عمارة إسمه لتوالي الحجة عليه، ويعني عمارة مؤرخ اليمن، وقيل: هذا الطفل الأخير اسمه إبراهيم، وكفلته عمته ومرجان من موالي الحسن بن سلامة.

ولما جاءت دولة بني العباس، ولى السفاح على اليمن عمه داود بن علي حتى إذا توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة، ولى مكانه محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الملك عبد الدار.

ثم تعاقب الولاة على اليمن، وكانوا ينزلون صنعاء حتى انتهت الخلافة إلى المأمون، وظهرت دعاة الطالبين بالنواحي، وبايع أبو السرايا من بني شيبان بالعراق لمحمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم أخو المهدي، النفس الزكية، محمد بن عبد الله بن حسن.

وكثر المهرج وفرق العمال في الجهات، ثم قتل وبوسع محمد بن جعفر الصادق بالحجاز.

وظهر باليمن إبراهيم بن موسى الكاظم سنة مائتين، ولم يتم أمره، وكان يعرف بالجزار لسفكه الدماء وبعث المأمون عساكره إلى اليمن فدوخوا نواحيه وحملوا كثيراً من وجوه الناس فاستقام أمر اليمن كما نذكره.

دعوة زياد بالدعوة العباسية

ولما وفد وجه أهل اليمن على المأمون، كان فيهم محمد زياد ولد عبد الله بن زياد بن أبي سفيان فاستعطف المأمون وضمن له حياطة اليمن من العلويين فوصله، وولاه على اليمن، وقدمها سنة ثلاث ومائتين.

وفتح تهامة اليمن وهي البلد التي على ساحل البحر الغربي، واختط بها مدينة زبيد، ونزلها وأصارها كرسياً لتلك المملكة، وولى على الجبال مولاه جعفر، وفتح تهامة بعد حروب من العرب، واشترط على عرب تهامة أن لا يركبوا الخيل، واستولى على اليمن أجمع، ودخلت في طاعته أعمال حضرموت والشحر وديار كندة، وصار في مرتبة التبابعة.

وكان في صنعاء قاعدة اليمن بنو جعفر من حمير بقية الملوك التبابعة استبدوا بها مقيمين بالدعوة العباسية، ولهم مع صنعاء سحان ونجران وجرش.

وكان أخوهم أسعد بن يعفر، ثم أخوه قد دخلوا في طاعة ابن زياد، وولي بعده ابنه إبراهيم ثم ابنه زياد بن إبراهيم، ثم أخوه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم، وطالت مدته إلى أن أسن وبلغ الثمانين.

وقال عمارة: ملك ثمانين سنة باليمن وحضرموت والجزائر البحرية، ولما بلغه قتل المتوكل وخلع المستعين، واستبداد الموالي

واجتمع بجماعة من قومه همدان كانوا معه، فدعاهم إلى النصر والقيام معه فاجابوه وباعوه، وكانوا ستين رجلاً من رجالات قومهم، فلما عادوا قام في مسار وهو حصن بذروة جبل حمام، وحصن ذلك الحصن، ولم يزل أمره ينمى.

وكتب إلى المستنصر صاحب مصر يسأله الإذن في إظهار الدعوة فأذن له، وأظهرها وملك اليمن كله.

ونزل صنعاء واختط بها القصور وأسكن عنده ملوك اليمن الذين غلب عليهم، وهزم بني طرف ملوك عثرة وتهامة، وأعمل الحيلة في قتل نجاح مولى بني زياد ملك زبيد، حتى تم له ذلك على يد جارية أهداها إليه كما ذكرناه سنة اثنين وخمسين.

ثم سار إلى مكة بأمر المستنصر صاحب مصر ليمحو منها الدعوة العباسية والأمارية الحسنية.

واستخلف على صنعاء ابنه المكرم أحمد، وحمل معه زوجته أسماء بنت شهاب، قد سبها سعيد بن نجاح ليلة البيات فكتبت إلى ابنها المكرم: إني جئى من العبد الأحول فأذكرني قبل أن أضع، وإلا فهو العار الذي لا يمحو الدهر، فسار المكرم من صنعاء سنة خمس وسبعين في ثلاثة آلاف، ولقي الحبيشة في عشرين ألفاً فهزمهم.

ولحق سعيد بن نجاح بجزيرة دهلك، ودخل المكرم إلى أمه وهي جالسة بالطاق الذي عنده رأس الصليحي وأخيه فانزلهما ودفنهما ورفع السيف، وولى خاله أسعد بن شهاب على أعمال تهامة كما كان، وأنزل به زبيد منها، وارتحل بأمه إلى صنعاء وكانت تدبر ملكه.

ثم جمع أسعد بن شهاب أموال تهامة وبعث بها مع وزيره أحمد بن سالم ففرقتها أسماء على وفود العرب.

ثم هلكت أسماء سنة سبع وسبعين وأربعمئة، وخرجت زبيد من يد المكرم، واستردها سعيد بن نجاح سنة تسع وسبعين وأربعمئة، ثم انتقل المكرم إلى ذي جبلة سنة ثمانين وأربعمئة، وولى على صنعاء عمران بن الفضل الهمداني فاستبد بها، وتوارثها عقبه، وتسمى ابنة أحمد باسم السلطان واشتهر به، وبعده ابنه حاتم بن أحمد، وليس بعده بصنعاء من له ذكر حتى ملكها بنو سليمان لما غلبهم الهواشم على مكة كما مر في أخبارهم.

ولما انتقل المكرم إلى ذي جبلة وهي مدينة اختطها عبد الله بن محمد الصليحي سنة ثمان وخمسين وأربعمئة، وكان انتقاله بإشارة زوجة سيدة بنت أحمد التي صار إليها تدبير ملكه بعد أمه أسماء فنزلها، وبنى فيها دار العز، وتحيل على قتل سعيد بن نجاح

واستبد بأمرهم ودولتهم، وكان له موليان اسم أحدهما قيس، والآخر نجاح، فجعل الطفل الملك في كفالاته وأنزله معه بزبيد، وولى نجاحاً على سائر الأعمال خارج زبيد ومنها الكرامة والجمع.

كان يؤثر قيساً على نجاح، ووقع بينهما تنافر، ورفع لقيس أن عمه الطفل تميل إلى نجاح وتكاتبه دونه فقبض عليها بإذن مولاه مرجان ودفنها حية، واستبد وركب بالظلمة، وضرب السكة، وانتفض نجاح لذلك فزحف في العساكر وبرز قيس للقائه، فكانت بينهما حروب ووقائع، انهزم قيس في آخرها وقتل في خمسة آلاف من عسكره.

وملك نجاح زبيد سنة عشرة وأربعمئة ودفن قيساً ومولاه مرجاناً مكان الطفل والعمه، واستبد وضرب السكة باسمه، وكتب ديوان الخلافة ببغداد فعقد له على اليمن.

ولم يزل مالكاً لتهامة قاهراً لأهل الجبال، وانتزع الجبال كلها من مولاه الحسن بن سلامة.

ولم تزل الملوك تتقي صولته إلى أن قتله علي الصليحي القائم بدعوة العبيدين على يد جارية بعث بها إليه سنة اثنين وخمسين وأربعمئة، فقام بالأمر بعده بزبيد مولاه كهلان.

ثم استولى الصليحي على زبيد وملكها من يده كما يذكر.

الخبر عن بني الصليحي القائمين بدعوة العبيدين باليمن

كان القاضي محمد بن علي الهمداني ثم الصليحي رئيس حران من بلاد همدان، ويتنسب في بني يام، ونشأ له ولد اسمه علي، وكان صاحب الدعوة يومئذ عامر بن عبد الله الزوايي نسبة إلى زاوية من قرى حران، ويقال: إنه كان عنده كتاب «الجعفر» من ذخائر أبيهم بزعمهم، فزعموا أن علي ابن القاضي محمد المذكور فيه، فقرأ على علي عامل الداعي، وأخذ عنه، ولما توسم فيه الأهلية أراه مكان اسمه في «الجعفر» وأوصافه، وقال لأبيه القاضي: احتفظ بابنك فيملك جميع اليمن.

ونشأ فقيهاً صالحاً، وجعل يحج بالناس على طريق الطائف والسرورات خمس عشرة سنة فطار ذكره، وعظمت شهرته، وألقى على السنة الناس أنه سلطان اليمن، ومات الداعي عامر الزوايي، فأوصى له بكتبه، وعهد إليه بالدعوة.

ثم حج بالناس سنة ثمان وعشرين وأربعمئة على عادته،

صاحب عدن بمائة ألف دينار.

ولم يزل يبيع معاقله حصناً حصناً حتى لم يبق له غير معقل
تعر، أخذه منه علي بن مهدي بعد أن ملك ثمانين سنة، وبلغ من
العمر مائة سنة، واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الخبر عن دولة بني نجاح بزبيد موالي بني زياد ومبادئ أمورهم وتصاريق أحوالهم

ولما استولى الصليحي على زييد من يد كهلان بعد أن
أهلكه بالسم على يد الجارية التي بعثها إليه سنة اثنتين وخسين
وأربعمئة كما مر.

وكان لنجاح ثلاثة من الولد معارك وسعيد وجياش: فقتل
معارك نفسه، ولحق سعيد وجياش بجزيرة دهلك وأقاما هنالك
يتعلمان القرآن والآداب.

ثم رجع سعيد إلى زييد مغاضباً لأخيه جياش، واختفى بها
في نفق اجتفره تحت الأرض، ثم استقدم أخاه جياشاً فقدم وأقاما
هنالك في الاختفاء.

ثم إن المستنصر العبيدي الخليفة بمصر قطع دعوته بمكة
محمد بن جعفر أميرها من الهواشم، فكتب إلى الصليحي يأمره
بقتاله وحمله على إقامة الدعوة العلوية بمكة، فسار علي الصليحي
لذلك من صنعاء، وظهر سعيد وأخوه من الاختفاء وبلغ خبرهم
الصليحي فبعث عسكرياً نحواً من خمسة آلاف فارس، وأمرهم
بقتلها.

وقد كان سعيد وجياش خالفاً العسكر وساراً في اتباع
الصليحي وهو في عساكره فيتوه في اللجم وهو متوجه إلى مكة
فانتقض عسكره وقتل. وتولى قتله جياش بيده سنة ثلاث ومسيعين
وأربعمئة.

ثم قتل عبد الله الصليحي أخا علي في مائة وسبعين من
بني الصليحي، وأسر زوجته أسماء بنت عمه شهاب في مائة
وخمس وثلاثين من ملوك القحطانيين الذين غلبوا باليمن.

وبعث إلى العسكر الذين ساروا لقتل سعيد وجياش فأنهم
واستخدمهم، ورحل إلى زييد وعليها أسعد بن شهاب أخو زوجة
الصليحي، ففر أسعد إلى صنعاء ودخل سعيد إلى زييد، وأسماء
زوجة الصليحي أمامه في هودج، ورأس الصليحي وأخيه عند
هودجها، وأنزلها بدارها ونصب الراسين قبالة طاقتها في الدار،
وامتلأت القلوب منه رعباً، وتلقب نصير الدولة، وتغلب ولاية

فتم له كما نذكر في أخبار ابن نجاح، وكان مشغولاً ببلذاته محجوباً
بزوجته.

ولما حضرته الوفاة سنة أربع وثمانين عهد إلى ابن عمه
المصور بن أحمد المظفر بن علي الصليحي صاحب معقل أشيخ،
وأقام بمقله وسيدة بنت أحمد بذي جبلة، وخطبها المصور سباً
وامتنعت منه فحاصرها بذي جبلة، وجاءها أخوها لأمرها سليمان
بن عامر وأخبرها أن المستنصر زوجك منه، وأبلغها أمره بذلك،
وتلا عليها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وأن أمير المؤمنين زوجك من الداعي المصور أبي حمير سباً
بن أحمد بن المظفر على مائة ألف دينار، وخمسين ألفاً من أصناف
التحف واللطائف فانتقد النكاح، وسار إليها من معقل أشيخ إلى
ذي جبلة، ودخل إليها بدار العز، ويقال: إنها شسبت بجارية من
جوارها فقامت على رأسه ليلاً كله، وهو لا يرفع الطرف إليها
حتى أصبح فرجع إلى معقله، وأقامت هي بذي جبلة، وكان التولي
عليها المفضل بن أبي البركات من بني تام رهط الصليحي،
واستدعى عشيرته جنباً، وأنزلهم عنده بذي جبلة فكان يسطو بهم،
وكانت سيدة تأتي التعكر في الصيف، وبه ذخائرها وخزائنها، فإذا
جاء الشتاء رجعت إلى ذي جبلة.

ثم انفرد المفضل لقتال نجاح فرتب في حصن التعكر فقيهاً
يلقب بالجلمل، مع جماعة من الفقهاء أحدهم إبراهيم بن زييد بن
عمر عمارة الشاعر، فبايعوا الجلمل على أن يحو الدعوة الإمامية
فرجع المفضل من طريقه وحاصره، وجاءت خولان لنصرتهم،
وضايقيهم المفضل وهلك في حصارهم سنة أربع وخمسمئة،
فجاءت بعده الحرة سيدة وأنزلتهم على عهد فنزلوا، ووفت لهم به
وكفلت عقب المفضل وولده، وصار معقل التعكر في يد عمران
بن الذر الخولاني وأخيه سليمان، واستولى عمران على الحرة سيدة
مكان المفضل.

ولما ماتت استبد عمران وأخوه بمحصن التعكر، واستولى
منصور بن المفضل بن أبي البركات على ذي جبلة حتى باعه من
الداعي الزريعي صاحب عدن كما يأتي، واعتصم بمقل أشيخ
الذي كان للداعي المصور سباً بن أحمد، وذلك أن المصور توفي
سنة ست وثمانين وأربعمئة، واختلف أولاده من بعده، وغلب
ابنه علي منهم على المعقل، وكان يتنازع المفضل بن أبي البركات
والحرة سيدة، وأعيامها أمره، فتحبل المفضل بسم أودعه سفيرجلاً
أهداه إليه فمات منه، واستولى بنو أبي البركات على بني المظفر في
أشيخ وحصونه، ثم باع حصن ذي جبلة من الداعي الزريعي

ويعث منصور إلى الفضل بن أبي البركات صاحب التعكر فجاء لنصره مضراً للغدر به.

ثم بلغه انتفاض أهل التعكر عليه فرجع، ولم يزل منصور في ملكه يزيد إلى أن وزر له أبو منصور عبيد الله فقتله مسموماً سنة سبع عشرة وخمسمائة.

ونصب فاتكاً ابنه طفلاً صغيراً واستبد عليه، وقام بضبط الملك وهان عليه التعرض لآل نجاح حتى هربت منه أم فاتك هذا، وسكنت خارج المدينة، وكان قرماً شجاعاً، وله وقائع مع الأعداء.

وحارب ابن نجيب داعي العلوية فامتنع عليه، وهو الذي شيد المدارس للفقهاء بزيد واعتنى بالحاج.

ثم راود مفاركة بنت جياش، ولم تجد بداً من إسعافه فأمكته حتى إذا قضى وطره مسحت ذكره بمندبل مسموم فشر لحمه. وذلك سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

وقام بأمر فاتك بعده زريق من موالى نجاح. قال عمارة: كان شجاعاً فاتكاً قرماً، وكان من موالى أم فاتك المخصتين بها.

قال عمارة: وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة توفي فاتك بن المنصور، وولي بعده ابن عمه وسميه فاتك بن محمد بن فاتك، وسرور قائم بوزارته وتدير دولته ومحاربة أعدائه.

وكان يلزم المسجد إلى أن دس عليه علي بن مهدي الخارجي من قتله في المسجد وهو يصلي العصر يوم الجمعة ثاني عشر صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وثار السلطان بالقاتل فقتل جماعة من أهل المسجد، ثم قتل واضطرب موالى نجاح بالدولة وثار عليهم ابن مهدي الخارجي وحاربهم مراراً، وحاصروهم طويلاً واستعانوا بالشريف المنصور أحمد بن حمزة السليماني، كان يملك صعدة فأغاثهم على أن يملكوه ويقتلوا سيدهم فاتك بن محمد، فقتلوه سنة ثلاث وخمسين، وملكوا عليهم الشريف أحمد، فعجز عن مقاومة ابن مهدي، وفر تحت الليل، وملكها علي بن مهدي سنة أربع وخمسين وخمسمائة وانقرض أمر آل نجاح والملك لله.

الخبر عن دولة بني الزريع بعدن من دعاة

العبيدين باليمن وأولية أمرهم ومصائرهم

وعدن هذه من أمتع مدائن اليمن، وهي على ضفة البحر الهندي.

وما زالت بلد تجارة من عهد التبابعة، وأكثر بنائهم

الحصون على ما بأيديهم.

ودس المكرم بن الصليحي بن سعيد بن نجاح بصنعاء على لسان بعض أهل الثغور، وضمن له الظفر، فجاء سعيد لذلك في عشرين ألفاً من الحبشة.

وسار إليه المكرم من صنعاء وهزمه وحال بينه وبين زبيد فهرب إلى جزيرة دهلك، ودخل المكرم زبيد وجاء إلى أمه وهي جالسة بالطاق وعندها رأس الصليحي وأخيه فأنزلهما ودفنهما. وولى على زبيد خاله أسعد سنة سبع وتسعين وأربعمائة.

وكتب المكرم إلى عبد الله بن يعفر صاحب حصن الشعر بأن يغري سعيداً بالمكرم، وانتزع ذي جبلة من يده لاشتغاله بلذاته، واستيلاء زوجه سيدة بنت أحمد عليه.

وأنه بلُح فتمت الحيلة فسار سعيد في ثلاثين ألفاً من الحبشة وأكمن له المكرم تحت حصن الشعر فثاروا به هنالك، وانهزمت عساكره وقتل ونصب رأسه عند الطاق الذي كان فيها رأس الصليحي بزيد، واستولى عليها المكرم وناقطع منها ملك الحبشة، وهرب جياش ومعه وزير أخيه خلف بن أبي الظاهر المرواني، ودخلا عدن متنكرين.

ثم لحقاً بالهند وأقاما بها ستة أشهر، ولقيا هنالك كاهناً جاء من سمرقند فبشرهما بما يكون لهما فرجاً إلى اليمن، وتقدم خلف الوزير إلى زبيد، وأشاع موت جياش واستأمن لنفسه، ولحق جياش فأقاما هنالك مخفيين، وعلى زبيد يومئذ أسعد بن شهاب خال المكرم ومعه علي بن القم وزير المكرم، وكان حنقاً على المكرم ودولته، فداخله الوزير خلف ولاعب ابنه الحسين الشطرنج، ثم انتقل إلى ملاعبة أبيه فاغتنب به، وأطلعه على رأيه في الدولة، وكان بتشجيع لآل نجاح.

وانتمى بعض الأيام وهو يلاعب، فسمعه علي بن القم واستكشف أمره، فكشف له القناع واستحلفه، وجياش أثناء ذلك يجمع أشياعه من الحبشة، وينفق فيهم الأموال حتى اجتمع له خمسة آلاف، فثار بهم في زبيد سنة اثنين وثمانين وأربعمائة ونزل دار الإمارة ومن على أسعد بن شهاب وأطلقه لزماته كانت به.

وبقي ملكاً على زبيد يخطب للعباسيين والصليحيون يخطبون للعبيدين، والمكرم يبعث العرب للغارة على زبيد كل حين إلى أن هلك جياش على رأس المائة الخامسة، وكانت كنيته ابن القطاي. وكان موصوفاً بالعدل.

وولي بعده ابنه الفاتك صبياً لم يحتلم، ودبروا ملكه. وجاء عمه إبراهيم لقتاله، ويرزوا له ثار عبد الواحد بالبلد،

ولي ابنه عمران بن محمد بن سبا.

وكان ياسر بن بلال يدبر دولته، وتوفي سنة ستين وخمسمائة، وترك ولدين صغيرين، وهما محمد وأبو السعود فحبسهما ياسر بن بلال في القصر، واستبد بالأمر وكان ياسر محمد كثير العطية للشعراء وعن وفد عليه ومدحه ابن فلاقس شاعر الإسكندرية ومن قصائده في مدحه:

سافر إذا حاولت قدرا سار الهلال فصار بـدرا

وهو آخر ملوك الزريعيين. ولما دخل سيف الدولة آخر صلاح الدين إلى اليمن سنة ست وستين وخمسمائة، واستولى عليها جاء إلى عدن فملكها وقبض على ياسر بن بلال، وانقطعت دولة بني زريع.

وصار اليمن للمعز، وفيه ولاتهم بنو أيوب كما نذكر في أخبارهم.

وكانت مدينة الحديدة قرب عدن اختطفها ملوك الزريعيين، فلما جاءت دولة بني أيوب تركوها ونزلوا تعز من الجبال كما يأتي ذكره.

أخبار ابن مهدي الخارجي وبنيه وذكر دولتهم باليمن وبدايتها وانقراضها

هذا الرجل من أهل العثر من سواحل زبيد، وهو علي بن مهدي الحميري.

كان أبوه مهدي معروفاً بالصلاح والدين، ونشأ ابنه على طريقته فاعتزل ونسك، ثم حج ولقي علماء العراق وأخذ الوعظ من وعاظهم، وعاد إلى اليمن واعتزل ولزم الوعظ.

وكان حافظاً فصيحاً، ويخبر بمجاذب أحواله فيصدق، فمال إليه الناس واغبطوا به، وصار يتردد للحج سنة إحدى وستين، ويعظ الناس في البرادي.

فإذا حضر الموسم ركب على غيب له ووعظ الناس ولما استولت أم فاتك على بني جياش أيام ابنها فاتك بن منصور، أحسنت فيه المعتد وأطلقت له ولقرابته وأصهاره خرجهم فحسنت أحوالهم، وآثروا وركبوا الخيول.

وكان يقول في وعظه: ذنا الوقت! يشير إلى وقت ظهوره.

واشتهر ذلك عنه، وكانت أم فاتك تصل أهل الدولة عنه، فلما ماتت سنة خمس وأربعين جاءه أهل الجبال وحالفوه على

بالأخصاص، ولذلك يطرقها تجار الحرير كثيراً، وكانت صدر الإسلام دار ملك لبني معن يتسبون إلى معن بن زائدة، ملكوها من أيام المأمون، وامتعوا على بني زياد، وقتعوا منهم بالخطبة والسكة.

ولما استولى الداعي علي بن محمد الصليحي رعى لهم ذمام العروبية، وقرر عليهم ضريبة يعطونها ثم أخرجهم منها ابنه أحمد المكرم.

وولي عليها بني المكرم من عشيرة جسم بن يام من همدان، وكانوا أقرب عشائره إليه، فأقامت في ولايتهم زمناً.

ثم حدثت بينهم الفتنة وانقسموا إلى فئتين بني مسعود بن المكرم وبني الزريع بن العباس بن المكرم. وغلب بنو الزريع بعد حروب عظيمة.

قال ابن سعيد: وأول مذكور منهم الداعي بن أبي السعود بن الزريع، أول من اجتمع له الملك بعد بني الصليحي، وورثه عنه بنوه، وحاربه ابن عمه علي بن أبي الغارات بن مسعود بن المكرم صاحب الزعازع، فاستولى على عدن من يده بعد مقاساة ونفقات في الأعراب.

ومات بعد فتحها بسبعة أشهر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

وولي ابنه الأغر وكان مقيماً بحصن الدملوة المقل الذي لا يرام.

وامتنع عليه بعده ابن بلال بن الزريع من مواليه، وخشي محمد بن سبا على نفسه ففر إلى منصور بن الفضل من ملوك الجبال الصليحيين بذى جبلة.

ثم مات الأغر قريباً فبعث بلال بن محمد بن سبا فوصل إلى عدن، وكان التقليد جاء من مصر باسم الأغر، فكتب مكانه محمد بن سبا وكان نعوته الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين فوقعت كلها عليها.

وزوجه بلال بنته ومكنه من الأموال التي كانت في خزائنه. ثم مات بلال عن مال عظيم، وورثه محمد بن سبا وأنفق في سبيل الكرم والمروءات.

واشترى حصن ذى جبلة من منصور بن الفضل بن أبي البركات كما ذكرناه.

واستولى عليه وهو دار ملك الصليحيين، وتزوج سيدة بنت عبد الله الصليحي، وتوفي سنة ثمان وأربعين.

النصرة.

الدين سنة ست وستين وخمسمائة، واستولى على الدولة التي كانت باليمن، فقبض على عبد النبي وامتحنه وأخذ منه أموالاً عظيمة، وحمله إلى عدن فاستولى عليها ثم نزل زيد واتخذها كرسياً للملك.

ثم استوخها وسار في الجبال ومعه الأطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء ليتخذ فيه سكناه، فوقع اختيارهم على مكان تعز، فاخطط به المدينة ونزلها، وبقيت كرسياً للملكه وبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكر في أخبارهم.

وبانقراض دولة بني المهدي انقراض ملك العرب من اليمن وصار للغز ومواليهم.

قواعد اليمن

ولنذكر الآن طرفاً من الكلام على قواعد اليمن ومدنه واحدة واحدة كما أشار إليه ابن سعيد:

(اليمن): من جزيرة العرب يشتمل على كراسي سبعة للملك تهامة والجبال، وفي تهامة مملكتان: مملكة زيد ومملكة عدن.

ومعنى تهامة: ما انخفض من بلاد اليمن مع ساحل البحر من البرين من جهة الحجاز إلى آخر أعمال عدن دورة البحر الهندي.

قال ابن سعيد: وجزيرة العرب في الإقليم الأول ويحيط بها البحر الهندي من جنوبها، وبحر السويس من غربها، وبحر فارس من شرقها.

وكانت اليمن قديماً للتبابعة وهي أخصب من الحجاز، وأكثر أهلها القحطانية، وفيها من عرب وائل وملكها لهذا العهد لبني رسول موالي بني أيوب، ودار ملكهم تعز، بعد أن نزلوا الحرة أولاً، ويصعد من اليمن أئمة الزيدية، وبزيد وهي مملكة اليمن شمالها الحجاز وجنوبها البحر الهندي وغربها بحر السويس، اختطها محمد بن زياد أيام المأمون سنة أربع ومائتين، وهي مدينة مسورة تدخلها عين جارية، تحلها الملوك، وعليها غيطان يسكنونها أيام الغلة، وهي الآن من ممالك بني رسول، وبها كان ملك بني زيد ومواليهم، ثم غلب عليها بنو الصليحي وقد مر خبرهم.

(عثر وحلى والسرجة): من أعمال زيد في شمالها، وتعرف بأعمال ابن طرف، مسيرة سبعة أيام في يومين من السرجة إلى حلى، ومكة ثمانية أيام.

وعثر هي منير الملك وهي على البحر، وكان سليمان بن طرف متمماً بها على أبي الجيش بن زياد.

وخرج من تهامة سنة ثمان وثلاثين وقصد الكودا فانهزم وعاد إلى الجبال، وأقام إلى سنة إحدى وأربعين.

ثم أعادته الحرة أم فانتك إلى وطنه، وماتت سنة خمس وأربعين فخرج إلى هوازن، ونزل بطن منهم يقال له حيوان في حصن يسمى الشرف، وهو حصن صعب ليس يرتقى على مسيرة يوم من سفح الجبل، في طريقه أوعار في واد ضيق عقبة كؤود.

وأصحابه سماهم الأنصار، وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين.

وأمر للأنصار رجلاً اسمه سبا وللمهاجرين آخر اسمه شيخ الإسلام، وإسمه النوبة واحتجب عن سواهما.

وجعل يشن الغارات على أرض تهامة، وأعانه على ذلك خراب النواحي بزيد فأخرب سابلتها ونواحيها، وانتهى إلى حصن الدائر على نصف مرحلة من زيد، وأعمل الحيل في قتل مسرور مدبر الدولة فقتل كما مر، وأقام يخيف زيد بالزحوف.

قال عمارة: زاحفها سبعين زحفاً، وحاصرها طويلاً، واستمدوا الشريف أحمد بن حمزة السليماني صاحب صعدة فأمدهم وشرط عليهم قتل سيدهم فأتك فقتلوه سنة ثلاث وخمسين. وملك عليهم الشريف ثم عجز وهرب عنهم.

واستولى علي بن مهدي عليها في رجب سنة أربع وخمسين، ومات ثلاثة أشهر من ولايته وكان يخطب له بالإمام المهدي أمير المؤمنين، وقامع الكفرة والملاحدين، وكان على رأي الخوارج يتبرأ من علي وعثمان ويكفر بالذنوب، وله قواعد وقواميس في مذهبه يطول ذكرها وكان يقتل على شرب الخمر.

قال عمارة: كان يقتل من خالفه من أهل القبلة، ويبيع نساءهم وأولادهم، وكانوا يعتقدون فيه العصمة، وكانت أموالهم تحت يده ينفقها عليهم في مؤنهم ولا يملكون معه مالاً ولا فرساً ولا سلاحاً.

وكان يقتل المنهزم من أصحابه ويقتل الزناني وشارب الخمر وسامع الغناء، ويقتل من تأخر عن صلاة الجماعة ومن تأخر عن وعظه يوم الاثنين والخميس وكان حنفياً في الفروع.

ولما توفي تولى بعده ابنه عبد النبي، وخرج من زيد واستولى على اليمن أجمع، وبه يومئذ خمس وعشرون دولة فاستولى على جميعها ولم يبق له سوى عدن ففرض عليها الجزية.

ولما دخل شمس الدولة تورشاه بن أيوب أخو صلاح

(الجوة): اختطها ملوك الزريعيين قرب عدن، ونزلها بنو أيوب ثم انتقلوا إلى تعز.

(حصن ذي جبلة): من حصون خلاف جعفر اختطه عبد الله الصليحي أخو الداعي سنة ثمان وخسين وأربعمائة، وانتقل إليه ابنه المكرم من حصن صنعاء، وزوجه سيدة بنت أحمد المستبدة عليه، وهي التي تحكمت سنة ثمانين.

ومات المكرم وقد فوض الأمر في الملك والدعوة إلى سبا بن أحمد بن المظفر الصليحي، وكان في معقل أشبح، وكانت تستظهر بقبيل جنب، وكانوا خاملين في الجاهلية فظهروا بمخلاف جعفر. ثم وصل من مصر ابن نجيب الدولة داعياً ونزل مدينة جند، واعتضد بهمدان فحاربه السيدة بجنب وخوران إلى أن ركب البحر وغرق.

وكان يتولى أمورها المفضل بن أبي البركات بعد زوجها المكرم، واستولى عليها.

(التعكر): من خلاف جعفر، كان لبني الصليحي، ثم لسيدة من بعدهم ثم طلبه منها المفضل بن أبي البركات فسلمته إليه، وأقام فيه إلى أن سار إلى زيد وحاصر فيها بني نجاح، وطالت غيبته فثار بالتعكر جماعة من الفقهاء وقتلوا نائبه وبايعوا لإبراهيم بن زيدان منهم، وهو عمّ عمارة الشاعر.

واستظهروا بخولان فرجع المفضل وحاصره كما ذكرنا ذلك من قبل.

(حصن خدد): كان لعبد الله بن يعلى الصليحي وهو من خلاف جعفر، وكان المفضل قد أدخل من خولان في حصون المخلاف عدداً كثيراً في بني بحر وبني منه ورواح وشعب.

فلما مات المفضل وفي كفالته سيدة كما مر، وثب مسلم بن الذر من خولان في حصن خدد وملكه من يد عبد الله بن يعلى الصليحي، ولحق عبد الله بمحصن مصدود ورشحته سيدة لمكان المفضل، واستخلصته الدولة من مدينة الجند ومن اليمن بأمرها.

(حصن مصدود): من حصون خلاف جعفر وهي خمسة: ذو جبلة والتعكر وحصن خدد.

ولما غلبت خولان على حصن خدد من يد عبد الله الصليحي، ولحق بمحصن مصدود واستولى عليه منهم زكريا بن شكير البحري، وكان بنو الكردي من حمير ملوكاً قبل بني الصليحي باليمن، وانتزع بنو الصليحي ملكهم، وكان لهم خلاف بمحصونة وخلاف مغافر وخلاف الجند، وحصن سمندان.

وكان مبلغ ارتفاعه خمسمائة ألف دينار، ثم دخل في طاعته وخطب له وحمل المال.

ثم صارت هذه المملكة للسليمانيين من بني الحسن من أمراء مكة حين طردهم الهواشم عن مكة، وكان غالب بن يحيى منهم يؤدي الأتاوة لصاحب زيد وبه استعان محمد مفلح الفاتكي من سرور، ثم هلك بعدها، ثم عيسى بن حمزة من بني.

ولما ملك الغز اليمن، أخذ يحيى أخو عيسى أسيراً وسبق إلى العراق فحاول عليه عيسى فتخلصه من الأسر، ورجع إلى اليمن فقتل أخاه عيسى وولى مكانه المهجم من أعمال زبيد على ثلاثة مراحل عليها، وعربها من العسيرة من حكم وجعفر قبيلتين منهم. ويجلب منها الزنجبيل.

(السري): آخر أعمال تهامة من اليمن وهي على البحر دون سور، ويبيتها أخصاص وملكها راجح بن قتادة سلطان مكة أعوام الخمسين وستمائة، وله قلعة على نصف مرحلة منها.

(الزرائب): من الأعمال الشمالية من زبيد، وكانت لابن طرف واجتمع له فيها عشرون ألفاً من الحبشة الذين معه جميعاً.

وقال ابن سعيد: في أعمال زبيد والأعمال التي في الطريق الوسطى بين البحر والجبال.

وهي في خط زبيد في شمالها، وهي الجادة إلى مكة.

قال عمارة: هي الجادة السلطانية منها إلى البحر يوم أو دونه، وكذلك إلى الجبال، ويجتمع الطريقان الوسطى والساحلية في السري ويفترقان.

(عدن): من ممالك اليمن في جوف زبيد وهي كرسي عملها، وهي على ضفة البحر الهندي.

وكانت بلد تجارة منذ أيام التبابعة، وبعدها عن خط الاستواء ثلاث عشرة درجة، ولا تثبت زرعاً ولا شجراً ومعاشهم السمك، وهي ركاب الهند من اليمن وأول ملكها لبني معن بن زائدة، استقاموا لبني زياد وأعطوهم الأتاوة، ولما ملك الصليحيون أقرهم الداعي، ثم أخرجهم ابنه أحمد المكرم وولاه بني المكرم من جشم بن يام رهطه بهمدان، وصفا الملك فيها لبني الزريع منهم، وقنع منهم بالأتاوة حتى أيديهم شمس الدولة بن أيوب كما تقدم.

(عدن أبين): من بينات المدن وهي إلى جهة الشحر.

(الزراع): باودية ابن أيوب عدن، وكانت لبني مسعود بن المكرم المقارعين لبني الزريع.

وأسعد بن يعفر.

(بيجان): ذكرها عمارة في المخاليف الجبلية وملكها نستوان

بن سعيد القحطاني.

(تعمر): من أجل معاقل الجبال المطلة على تهامة، مازال

حصناً للملوك، وهو اليوم كرسي لبني رسول ومعدود في الأمصار، وكان به من ملوك اليمن منصور بن المفضل بن أبي البركات، وبنو المظفر، وورثها عنه ابنه منصور، ثم باعها حصناً حصناً من الداعي بن المظفر والداعي الزريعي، إلى أن بقي بيده حصن تعمّر فأخذه منه ابن مهدي.

(معقل أشيخ): من أعظم حصون الجبال وفيه خزائن بني المظفر من الصليحيين صارت له بعهد المكرم ابن عمه صاحب ذي جبلة، وقلده المستنصر الدعوة وتوفي سنة ست وثمانين وأربعمائة.

وغلب ابنه علي على معقل الملك أشيخ، وأعيى المفضل أمره إلى أن تحيل عليه وقته بالسلم، وصارت حصون بني المظفر إلى بني أبي البركات.

ثم مات المفضل وخلف ابنه منصوراً، واستقل بملك أبيه بعد حين وباع جميع الحصون تباع ذا جبلة من الداعي الزريعي صاحب عدن بمائة ألف دينار، وحصن صبر بعد أن كان حلف بالطلاق من زوجته أنه يستبقه، وطلق زوجته الحرة وتزوجها الزريعي، وطال عمره.

ملك ابن عشرين وبقي في الملك ثمانين، وأخذ منه معقل علي بن مهدي.

(صعدة): مملكتها تلو مملكة صنعاء، وهي في شرقيها، وفي هذه المملكة ثلاثة قواعد: صعدة وجبل تطاية وحصن تسلا وحصون أخرى، وتعرف كلها ببني الرسي، وقد تقدم ذكر خبره.

وأما حصن تلافمنه كان ظهور الموطىء الذي أعاد إمامة الزيدية لبني الرضا، بعد أن استولى عليها بنو سليمان، فأوى إلى جبل قطابة، ثم باعوا لأحمد الموطىء سنة خمس وأربعين وستمئة، وكان قفياً عابداً وحاصره نور الدين بن رسول في هذا الحصن سنة جمر عليه عسكرياً للحصار.

ثم مات ابن رسول سنة ثمان وأربعين واشتغل ابنه المظفر بحصار حصن الدمولة، فتمكن الموطىء وملك حصون اليمن، وزحف إلى صعدة وبايعه السليمانيون وإمامهم أحمد التوكل كما مر في أخبار بني الرسي، وأما قطابة فهو جبل شاق مشرف على صعدة إلى أن كان ما ذكرناه.

ثم استقرت لمنصور بن المفضل بن أبي البركات وباعها من بني الزريع كما مر.

(صنعاء): قاعدة التبابعة قبل الإسلام، وأول مدينة اختطت باليمن، وبنتها فيما يقال عاد، وكانت تسمى أوام من الأولية بلغتهم.

وقصر غمدان قريب منها أحد البيوت السبعة، بناه الضحّاك باسم الزهرة، وحجت إليه الأمم، وهدمه عثمان.

وصنعاء أشهر حواضر اليمن، وهي فيما يقال معتدلة، وكان فيها أول المائة الرابعة بنو يعفر من التبابعة ودار ملكهم كحلان، ولم يكن لها نباهة في الملك إلى أن سكنها بنو الصليحي وغلب عليها الزيدية، ثم السليمانيون من بعد بني الصليحي.

(قلعة كحلان): من أعمال صنعاء لبني يعفر من التبابعة بناها قرب صنعاء إبراهيم وكانت له صعدة ونجران.

واعتصم بنو يعفر بقلعة كحلان، وقال البيهقي: سيد قلعة كحلان أسعد بن يعفر، وحارب بني الرسي وبني زياد أيام أبي الجيش.

(حصن الصمدان): من أعمال صنعاء كانت فيه خزائن بني الكردي الحميريين إلى أن ملكه علي الصليحي ورد عليهم المكرم بعض حصونهم إلى أن انقرض أمرهم على يد علي بن مهدي.

وكان لهم خلاف جعفر الذي منه مدينة ذي جبلة، ومعقل التعمر وهو خلاف الجند، وخلاف معافر مقر ملكهم السمدان وهو أحسن من الدمولة.

(قلعة منهاب): من قلاع صنعاء بالجبال ملكها بنو زريع واستبد بها منهم الفضل بن علي بن راضي بن الداعي محمد بن سبا بن زريع، نعتة صاحب الجزيرة بالسلطان، وقال: كانت له قلعة منهاب وكان حياً سنة ست وثمانين وخمسمائة، وصارت بعده لأخيه الأغر أبي علي.

(جبل الدجيرة): وهو بقرب صنعاء وقد اختط جعفر مولى بني زياد سلطان اليمن لخلاف جعفر فنسب إليه.

(عدن لاعة): بجانب الدجيرة، أول موضع ظهرت فيه دعوة الشيعة باليمن، ومنها محمد بن المفضل الداعي.

ووصل إليها أبو عبد الله الشيعي صاحب الدعوة بالمغرب، وفيها قرأ على علي بن محمد الصليحي صبيّاً وهي دار دعوة اليمن.

كان محمد بن المفضل داعياً على عهد أبي الجيش بن زياد

(بلاد بني نهد): في أجواف السروات وتبالة والسروات بين تهامة والجبال ونجد من اليمن والحجاز كسوة الفرس.

وبنو نهد من قضاة سكنوا اليمن جوار خثعم وهم الكالوحوش، والعامّة تسميهم السرو، وأكثرهم أخلاط من جبلة وخثعم.

ومن بلادهم تبالة يسكنها قوم من نهر وائل ولهم بها صولة، وهي التي وليها الحجاج واستحقرها فتركها. (البلاد المضافة إلى اليمن): أولها الثمامة.

قال البيهقي: هو بلد منقطع بعمله والتحقيق أنه من الحجاز كما هي تجران من اليمن.

وكذا قال ابن حوقل وهي دونها في المملكة، وأرضها تسمى العروص لاعتراضها بين الحجاز والبحرين.

وفي شرقيها البحرين وغربيها أطراف اليمن والحجاز، وجنوبها تجران، وشمالها نجد من الحجاز، وفي أطرافها عشرون مرحلة، وهي على أربعة أميال من مكة. وقاعدتها حجر بالفتح.

ويولد اليمامة كانت مقرأً للملوك بني حنيفة. ثم اتخذ بنو حنيفة حجراً وبينهما يوم وليلة، وبظواهرها أحياء من بني يربوع من غيم، وأحياء من بني عجل.

قال البكري: واسمها جو، وسميت باسم زرقاء اليمامة، سمّاها بذلك تبع الآخر، وهي في الإقليم الثاني مع مكة، وبعدهما عن خط الاستواء واحد، منازلها توضيح وقرقرا.

وقال الطبري: إن رمل عالج من اليمامة والشحر وهي من أرض وبار.

وكانت اليمامة والطائف لبني مزان بن يعفر والسكسك، وغلبتهم عليها طسم وجديس.

ثم غلبتهم بنو مزان آخراً وملكوا اليمامة وطسم وجديس في تبعهم، وآخر ملوك بني طسم عمليق.

ثم غلبت جديس ومنهم باليمامة التي سميت مدينة جو بها، وأخبارها معروفة.

ثم استولى على اليمامة بعد طسم وجديس بنو حنيفة، وكان منهم هودة بن علي ملك اليمامة وتزوج.

ويقال: إنما كانت خرزات هودة بن علي ملك اليمامة، على عهد النبوة، وأسر وأسلم وثبت عند الردة.

وكان منهم مسيلمة وأخباره معروفة، قال ابن سعيد:

(حران ومسار): أما حران فهو إقليم من بلاد همدان، وحران بطن من بطونهم، كان منهم الصليحي، وحصن مسار هو الذي ظهر فيه الصليحي وهو من إقليم حران.

قال البيهقي: بلادهم شرقية بجبال اليمن وتفرقوا في الإسلام ولم يبق لهم قبيلة وفرقة إلا في اليمن، وهو أعظم قبائل اليمن وبهم قام الموطن، وملكوا جملة من حصون الجبال، ولهم بها إقليم بكيل وإقليم حاشد، وهما ابنا جشم بن حيوان وأنوق بن همدان قال ابن حزم: ومن بكيل وحاشد افترقت قبائل همدان انتهى.

ومن همدان بنو الزريع أصحاب السلطنة والدعوة في عدن والجرة، ومنهم بنو يام من قبائل همدان انتهى.

ومن همدان بنو الزريع سبعة وهم الآن في نهاية من التشيع ببلادهم وأكثرهم زيدية.

(بلاد خولان): قال البيهقي: هي شرقية من جبال اليمن، ومتصلة ببلاد همدان، وهي حصون خدد والتعكر وغيرها وهم أعظم قبائل اليمن مع همدان ولهم بطون كثيرة.

وافترقوا على بلاد الإسلام ولم يبق منهم وبرة إلا باليمن.

(خلاف بني أصح): هو بوادي سحول وذو أصح الذي ينسبون إليه قد تقدم ذكره في أنساب حمير من التبابعة والأقيال، وخلاف يحصب مجاور له وهو أخو أصبح.

(خلاف بني وائل): مدينة هذا المخلاف شاحط وصاحبها أسعد بن وائل وبنو وائل بطن من ذي الكلاع.

وذو الكلاع من سبا تغلبوا على هذه البلاد عند مهلك الحسن بن سلامة، حتى عادوا إلى الطاعة واختط مدينة الكدد على مخلاف سهام، ومدينة المعقل على وادي دوال، ومات سنة اثنتين وأربعمائة.

(بلاد كندة): وهي من جبال اليمن مما يلي حضرموت، وجبال الرمل وكان لهم بها ملوك وقاعدتهم دمون ذكرها امرؤ القيس في شعره.

(بلاد مذحج): موالى جهات الجند من الجبال وينزلها من مذحج عنس وزبيد ومراد.

ومن عنس بإفريقية فرقة وبرة مع طواعن أهلها، ومن زبيد بالحجاز بنو حرب بين مكة والمدينة.

وبنو زبيد الذين بالشام والجزيرة فهم من طيع وليسوا من هؤلاء.

وسألت عرب البحرين وبعض مذبح لمن اليمامة اليوم؟ فقالوا: لعرب من قيس عيلان، وليس لبني حنيفة بها ذكر.

(بلاد حضرموت): قال ابن حوقل: هي في شرقي عدن في بالبحر ومدينتها صغيرة، ولها أعمال عريضة، وبينها وبين عمان من الجهة الأخرى رمال كثيرة تعرف بالأحفاف، وكانت مواطن لعاد.

وبها قبر هود عليه السلام، وفي وسطها جبل بشام، وهي في الإقليم الأول، ويعدّها عن خط الاستواء اثنتا عشرة درجة، وهي معدودة من اليمن، بلد نخل وشجر ومزارع، وأكثر أهلها يحكمون بأحكام علي وفاطمة، ويغضون علياً للتحكيم.

وأكبر مدينة بها الآن قلعة بشام فيها خيل الملك، وكانت لعاد مع الشحر وعمان، وغلبهم عليها بنو يعرب بن قحطان ويقال: إن الذي دل عاداً على جزيرة العرب هو رقيم بن إرم، كان سبق إليها مع بني هود فرجع إلى عاد ودلهم عليها، وعلى دخولها بالجوار، فلما دخلوا غلبوا على من فيها.

ثم غلبهم بنو يعرب بن قحطان بعد ذلك، وولى على البلاد فكانت ولاية ابنه حضرموت على هذه البلاد، وبه سميت الشحر من ممالك جزيرة العرب مثل الحجاز واليمن.

وكان معقلاً عن حضرموت وعمان والذي يسمى الشحر قصته، ولا زرع فيه ولا نخل، إنما أموالهم الإبل والمعز، ومعاشهم من اللحوم والألبان، ومن السمك الصغار، ويعلفونها للدواب.

وتسمى هذه البلاد أيضاً بلاد مهرة، وبها الإبل المهرية، وقد يضاف الشحر إلى عمان وهو ملاصق لحضرموت، وقيل: هو بسائطها.

وفي هذه البلاد يوجد اللبان، وفي ساحله العنبر الشحري وهو متصل في جهة الشرق، ومن غربيها ساحل البحر الهندي الذي عليه عدن، وفي شرقيها بلاد عمان وجنوبها بحر الهند مستطيلة عليه، وشمالها حضرموت كأنها ساحل لها، ويكونان معاً لملك واحد وهي في الإقليم الأول وأشدّ حرّاً من حضرموت.

وكانت في القديم لعاد وسكنها بعدهم مهرة من حضرموت أو من قضاة، وهم كالوحوش في تلك الرمال ودينهم الخارجية على رأي الإباضية منهم.

وأول من نزل بالشحر من القحطانية مالك بن حمير، وخرج على أخيه مالك وهو ملك بقصر غمدان فحاربه طويلاً، ومات مالك فولي بعده ابنه قضاة بن مالك فلم يزل السكسك يجاربه إلى أن قهره، واقتصر قضاة على بلاد مهرة.

وملك بعده ابنه أطاب ثم مالك بن الحاف، وانتقل إلى عمان وبها كان سلطانه.

قال البيهقي: وملك مهرة بن حيدان بن الحاف بلاد قضاة وحارب عمه مالك بن الحاف صاحب عمان حتى غلبهم عليها، وليس لهم اليوم في غير بلادهم ذكر.

ويبلاد الشحر مدينة مرياط وضيغان على وزن نزال وضيغان دار ملك التابعة، ومرياط بساحل الشحر، وقد خربت هاتان المدينتان.

وكان أحمد بن محمد بن محمود الحميري، ولقبه الناخودة، وكان تاجراً كثير المال يعبر إلى صاحب مرياط بالتجارة، ثم استوزره ثم هلك فملك أحمد الناخودة، ثم خربها وخرب ضفان سنة تسع عشرة وستمئة، وبنى على ساحل مدينة ضفان بضم الضاد المعجمة وسماها الأحمدي باسمه، وخرب القديمة لأنها لم يكن لها مرسى.

(نجران): قال صاحب الكمائم: هي صقع منفرد عن اليمن، وقال غيره: هي من اليمن. قال البيهقي: مسافتها عشرون مرحلة وهي شرقي صنعاء وشمالها وتوالي الحجاز وفيها مدينتان: نجران وجرش، متقاربتان في القدر والعادية غالبية عليها، وسكانها كالأعراب، وبها كعبة نجران بنيت على هيئة عمدان كعبة اليمن، وكانت طائفة من العرب تحج إليها وتهر عندها، وتسمى الديسر. وبها قس بن ساعدة، كان يتعبد فيها.

ونزلها من القحطانية طائفة من جرهم ثم غلبهم عليها حمير. وصاروا ولاية للتبابعة.

وكان كل ملك منهم يسمى الأفعى. وكان منهم أفعى نجران واسمه القلُئس بن عمرو بن همدان بن مالك بن شهاب بن زيد بن وائل بن حمير، وكان كاهناً، وهو الذي حكم بين أولاد نزار لما أئوه حسيما هو مذكور.

وكان والياً على نجران لبلقيس، فبعثته إلى سليمان عليه السلام، وآمن وبث دين اليهودية في قومه وطال عمره.

ويقال: إن البحرين والمسئل كانتا له قال البيهقي: ثم نزل نجران بنو مذبح، واستولوا عليها ومنهم الحارث بنو كعب.

وقال غيره: لما خربت اليمانية في سيل العرم مروا بنجران فحاربهم مذبح ومنها افترقوا.

قال ابن حزم: ونزل في جوار مذبح بالصلح الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، ثم غلبوا عليها

مذحجاً وصارت لهم رياستها.

ودخلت النصرانية لبحران من قيمون، وخبره معروف في كتب السير، وانتهت رئاسة بني الحارث فيها إلى بني الريان ثم صارت إلى بني عبد المدان.

وكان يزيد منهم على عهد النبي ﷺ، وأسلم على يد خالد بن الوليد، ووفد مع قومه ولم يذكره ابن عبد المؤمن وهو مستدرك عليه، وابن أخيه زياد بن عبد الرحمن بن عبد المدان خال السفاح، ولاء لبحران واليمامة، وخلف ابنه عمداً ويحى.

ودخلت المائة الرابعة والملك بها لبني أبي الجود بن عبد المدان، واتصل فيهم وكان بينهم وبين الفاطميين حروب وربما يغلبونهم بعض الأحيان على لبحران وكان آخرهم عبد القيس الذي أخذ علي بن مهدي الملك من يده، ذكره عمارة وأثنى عليه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الخبر عن دولة بني حمدان المستبدين

بالدعوة العباسية من العرب بالموصل

والجزيرة والشام ومبادئ أمورهم

وتصاريف أحوالهم

كان بنو ثعلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار، ولهم محل في الكثرة والعدد، وكانت مواطنهم بالجزيرة في ديار ربيعة، وكانوا على دين النصرانية في الجاهلية، وصاغتهم مع قيصر.

وحاربوا المسلمين مع غسان وهرقل أيام الفتوحات في نصارى العرب يومئذ من غسان وإباد وقضاعة وزابلة وسائر نصارى العرب، ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم، ثم رجعوا إلى بلادهم، وفرض عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجزية، فقالوا: يا أمير المؤمنين لا نذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة ففعل.

وكان قائدهم يومئذ حنظلة بن قيس بن هرير من بني مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب وكان من رهنه عمرو بن بسطام صاحب السند أيام بني أمية.

ثم كان منهم بعد ذلك في الإسلام ثلاثة بيوت: آل عمر بن الخطاب العدوي، وآل هارون المعمر، وآل حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن أسد، ولم يذكر ابن حزم هؤلاء البيوت

الثلاثة في بطون بني ثعلب في كتاب الجمهرة.

ووقفت على حاشية في هذا الموضع من كتابه فيها ذكر هؤلاء الثلاثة كالاستلحاق عليه، وقال في بني حمدان: وقيل إنهم موالي بني أسد. ثم قال: آخر الحاشية إنه من خط المصنف يعني ابن حزم.

ولما فشا دين الخارجية بالجزيرة أيام مروان بن الحكم، ففرق جموعه ومحا آثار تلك الدعوة.

ثم ظهر في الجزيرة بعد حين أثر من تلك الدعوة، وخرج مساور بن عبد الله بن مساور البجلي من السرات أيام الفتنة بعد مقتل المتوكل واستولى على أكثر أعمال الموصل، وجعل دار هجرته الحديثة.

وكان على الموصل يومئذ عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي الذي ولي المنصور جده عمداً على إفريقية، وعليه خرج مساور.

ثم ولي على الموصل أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب الثعلبي سنة أربع وخمسين، واستخلف عليه ابنه الحسن فسار إلى مساور في جموع قومه، وفيهم حمدون بن الحارث فهزموا الخوارج وفرقوا جمعهم.

ثم ولي أيام المهدي عبد الله بن سليمان بن عمران الأزدي فغلبه الخوارج، وملك مساور الموصل ورجع إلى الحديثة.

ثم انتقض أهل الموصل أيام المعتمد سنة تسع وخمسين، وأخرجوا العامل وهو ابن أساتكين الهيثم بن عبد الله بن المعتمد العدوي من بني ثعلب، فامتنعوا عليه ولوا مكانه إسحاق بن أيوب من آل الخطاب، فزحف ومعه حمدان بن حمدون وحاصرها مدة.

ثم كانت فتنة إسحاق بن كنداجق وانتفاضه على المعتمد، واجتمع لمدافعته علي بن داود صاحب الموصل، وحمدان بن حمدون وإسحاق بن أيوب فهزمهم إسحاق بن كنداجق، وافترقوا فاتبع إسحاق بن أيوب إلى نصيبين ثم إلى آمد.

واستجار فيها بعيسى بن الشيخ الشيباني وبعث إلى المعز موسى بن زرارة صاحب أرزن فامتنع بأجادهما.

ثم ولي المعتمد ابن كنداجق على الموصل سنة سبع وستين فاجتمع لحربه إسحاق بن أيوب وعيسى بن الشيخ وأبو العز بن زرارة وحمدان بن حمدون في ربيعة وثعلب فهزمهم ابن كنداجق، وحاصره هو ولجؤوا إلى آمد عند عيسى بن الشيخ الشيباني،

وحاصرهم بها وتوالت عليهم الحروب وهلك مساور الخارجي أثناء هذه الفتى في حربه مع العساكر سنة ثلاث وستين.

واجتمع الخوارج بعده على هارون بن عبد الله البجلي واستولى على الموصل وكثر تابعه.

وخرج عليه محمد بن خردان من أصحابه فغلبه على الموصل، فقصد حمدان بن حمدون مستنجداً به، فسار معه ورده إلى الموصل ولحق محمد بالحدثة، ورجع أصحابه إلى هارون، ثم سار هارون من الموصل إلى محمد فأوقع به وقتله وعاث في الأكراد الجلالية أصحابه، وغلب على القرى والرساتيق، وجعل رجله يأخذ الزكاة والعشر.

ثم زحف بنو شيان لقتاله سنة اثنتين وسبعين، فاستجد بمحمدان بن حمدون، وانهمز قبل وصوله إليه.

ثم كانت الفتنة بين إسحاق بن كنداجق ويوسف بن أبي الساج، وأخذ ابن أبي الساج بدعوة ابن طولون، وغلب على الجزيرة والموصل، ثم عاد وملكها لابن كنداجق وولى عليها هارون بن سيما سنة تسع وسبعين ومائتين، فطرده أهلها، واستجد ببني شيان فساروا معه إلى الموصل، واستمد أهلها الخوارج وبني ثعلب فسار لإمدادهم هارون الساري وحمدان فهزمهم بنو شيان، وخاف أهل الموصل من ابن سيما فبعثوا إلى بغداد، وولى عليهم المعتمد علي بن داود الأزدي.

ولما بلغ المعتضد مائة حمدان بن حمدون لهارون الساري، وما فعله بنو شيان، وقد كان خرج لإصلاح الجزيرة، وأعطاه بنو شيان رهنهم على الطاعة، زحف إلى حمدان وهزمه فلحق بمباردين وترك بها ابنه الحسين.

وهرب فسار مع وصيف ونصر القسوري، ومروا بدير الزعفران وبه الحسين بن حمدان فاستأمن لهم، ويعثوا به إلى المعتضد وأمر بهدم القلعة، ولقي وصيف حمدان فهزمه، وعبر إلى الجانب الغربي.

ثم سار إلى معسكر المعتضد، وكان إسحاق بن أيوب الثعلبي قد سبق إلى طاعة السلطان وهو في معسكره، فقصد خيمته ملقياً بنفسه عليه، فأحضره عند المعتضد فحبسه.

ثم سار نصر القسوري في أتباع هارون فهزم الخوارج، ولحق بأذربيجان، واستأمن آخرون إلى المعتضد ودخل هارون البرية.

ثم سار المعتضد سنة ثلاث وثمانين في طلب هارون ويعث في مقدمته وصيفاً ومرح معه الحسين بن حمدان بن يكرين،

واشترط له إطلاق ابنه إن جاء بهارون.

فاتبعه وأسره وجاء به إلى المعتضد فخلع عليه وعلى إخوته وطوقه وفك القيود عن حمدان ووعد بإطلاقه.

ومات إسحاق بن أيوب العدوي وكان على ديار ربيعة، فولى المعتضد مكانه عبد الله بن الهيثم بن عبد الله بن المعتمد.

مبدأ لدولة وولاية أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل

ولما ولي المكتفي عقد لأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل وأعمالها، وكان الأكراد الهدبانية قد عاثوا في نواحيها ومقدمهم محمد بن سلال فقاتلهم وعبر وراءهم إلى الجانب الشرقي، وقاتلهم على الخازر، وقتل مولاه سيما ورجع.

ثم أمده الخليفة فسار في أثرهم سنة أربع وتسعين وقاتلهم على أذربيجان وهزم حمد بن سلال بأهله وولده، واستباحهم ابن حمدان.

ثم استأمن محمد وجاءه إلى الموصل، واستأمن سائر الأكراد الحميدية، واستقام أمر أبي الهيجاء.

ثم كانت فتنة الخلع ببغداد سنة ست وتسعين، وقتل الوزير العباس بن الحسن، وخلع المقتدر ويبيع عبد الله بن المعتز يوماً أو بعض يوم، وعاد المقتدر كما مر ذلك كله في أخبار الدولة العباسية.

وكان الحسين بن حمدان على ديار ربيعة وكان ممن تولى كبر هذه الفتنة مع القواد، وباشر قتل الوزير مع من قتله فهرب، وطلبه المقتدر وبعث في طلبه القاسم بن سيما وجماعة من القواد فلم يظفروا به، فكتب إلى أبي الهيجاء وهو على الموصل فسار مع القاسم ولقيهم الحسين عند تكريت فانهمز واستأمن فأئنه المقتدر، وخلع عليه وولاه أعمال قم وقاشان. ثم رده بعد ذلك إلى ديار ربيعة.

انتقاض أبي الهيجاء ثم الحسين بن حمدان

ولما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين خالف أبو الهيجاء بالموصل إلى سنة اثنتين وثلاثمائة، وكان الحسين بن حمدان على ديار ربيعة كما قدمناه، فطالبه الوزير عيسى بن عيسى بمجمل المال فدافعه، فأمره بتسليم البلاد إلى العمال فامتنع، فجهز إليه الجيش

فهمزهم.

وثلاثمائة وسار إلى الموصل فخرج ناصر الدولة لتلقيه، وخالفه أبو العلاء إلى بيته وقعد ينتظره، فأنفذ ناصر الدولة جماعة من غلمانه فقتلوه.

وبلغ الخبر إلى الرازي فأعظم ذلك، وأمر الوزير ابن مقلسة بالمسير إلى الموصل فسار إليها، وارتحل ناصر الدولة وأتبعه الوزير إلى جبل السن، ورجع عنه، وأقام بالموصل.

واحتال بعض أصحاب ابن حمدان ببغداد على ابن الوزير وبذل له عشرة آلاف دينار على أن يستحث أباه ففعل، وكتب إليه بأمور أزعجته فاستعمل على الموصل من وثق به من أهل الدولة، ورجع إلى بغداد في منتصف شوال.

ورجع ناصر الدولة إلى الموصل فاستولى عليها وكتب إلى الرازي في الصفح، وأن يضمن البلاد فأجيب إلى ذلك واستقر في ولايته.

مسير الرازي إلى الموصل

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة تأخر ضمان البلاد من ناصر الدولة فغضب الرازي، وسار ومدبر دولته تحكماً.

وسار إلى الموصل، وتقدم تحكماً إلى تكريت فخرج إليه ناصر الدولة فانهزم أصحابه، وسار إلى نصيبين، وأتبعه تحكماً فلاحق به وكتب تحكماً إلى الرازي بالفتح فسار في السفن يريد الموصل.

وكان ابن رائق مختفياً ببغداد منذ غلبه ابن البريدي على الدولة، فظهر عند ذلك واستولى على بغداد.

وبلغ الخبر إلى الرازي فأصعد من الماء إلى البر، واستقدم تحكماً من نصيبين واستعاد ناصر الدولة ديار ربيعة وهو يعلم بخبر ابن رائق، وبعث في الصلح على تعجيل خمسمائة ألف درهم فأجابته إلى ذلك.

وسار الرازي وتحكماً إلى بغداد، ولقيهم أبو جعفر محمد بن يحيى بن سريق رسولاً من ابن رائق في الصلح، وعلى أن يولي ديار مضر، وهي حران والرها والركة.

وتضاف إليها قسرين والعواصم فأجيب إلى ذلك وسار عن بغداد إلى ولايته ودخل الرازي وتحكماً ببغداد ورجع ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل.

فكتب إلى مؤنس العجلي، وهو بمصر يقاتل عساكر العلوية، بأن يسير إلى قتال الحسين بعد فراغه من أمره، فسار إليه سنة ثلاث وثلاثمائة، فارتحل بأهله إلى أرمينية وترك البلاد.

وبعث مؤنس العساكر في أثره فأدركوه، وقتلوه فهزموه وأسر هو وابنه عبد الوهاب وأهله وأصحابه، وعاد به إلى بغداد فادخل على جمل، وقبض المقتدر يومئذ على أبي الهيجاء وجميع بني حمدان فحبسهم جميعاً.

ثم أطلق أبا الهيجاء سنة خمس وثلاثمائة بعد ما قتل الحسين سنة ست، وولّى إبراهيم بن حمدان سنة سبع على ديار ربيعة، وولّى مكانه داود بن حمدان.

ولاية أبي الهيجاء ثانية على الموصل ثم

مقتله

ثم ولي المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان على الموصل سنة أربع عشرة وثلاثمائة فبعث ابنه ناصر الدولة الحسين عليها، وأقام هو ببغداد.

ثم بلغه إفساد العرب والأكراد في نواحيها وفي نواحي عمله الآخر بخراسان، فبعث إلى أبيه ناصر الدولة فأوقع بالعرب في الجزيرة ونكل بهم.

وجاءه في العساكر إلى تكريت فخرج ورحل بهم إلى شهرزور، وأوقع بالأكراد الجلالية حتى استقاموا على الطاعة.

ثم كان خلع المقتدر سنة سبع عشرة وثلاثمائة بأخيه القاهر.

ثم عاد ثاني يوم وأحيط بالقاهر في قصره فتذمم بأبي الهيجاء، وكان عنده يومئذ، وأطال المقام يحاول على النجاة به فلم يتمكن من ذلك، وانقض الناس على القاهر ومضى أبو الهيجاء يفتش عن بعض المناقب في القصر يتخلص منه فاتبعه جماعة وفتكوا به وقتلوه منتصف الحرم من السنة.

وولى المقتدر مولاة تحريراً على الموصل.

ولاية سعيد ونصر بني حمدان على الموصل

ثم إن أبا العلاء سعيد بن حمدان ضمن الموصل وديار ربيعة، وما بيد ناصر الدولة فولاه الرازي سنة ثلاث وعشرين

مسير المتقي إلى الموصل وولاية ناصر الدولة إمارة الأمراء

كان ابن رائق بعد مسيره إلى ديار مضر والعواصم سار إلى الشام وملك دمشق من يد الإخشيد، ثم الرملة ثم لقيه الإخشيد على عريش مصر وهزمه، ورجع إلى دمشق ثم اصطالحا على أن يعيلا الرملة تحملاً بين الشام ومصر وذلك سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

ثم توفي الرازي سنة تسع وعشرين، وولى المتقي وقتل تحكّم وجاء البريدي إلى بغداد، وهرب الأتراك التحكّمية إلى الموصل، وفيهم ثورون وجحجج.

ثم لحقوا بأبي بكر محمد بن رائق واستحثوه إلى العراق، وغلب بعدهم على الخلافة الأتراك الديلمية، وجاء أبو الحسن البريدي من واسط فأقام ببغداد أربعة وعشرين يوماً أمير الأمراء. ثم شغب عليه الجند فرجع إلى واسط وغلب كورتيكين.

ثم حجر المتقي وكتب إلى ابن رائق يستدعيه فصار من دمشق في رمضان سنة تسع وعشرين، واستخلف عليها أبا الحسن أحمد بن علي بن حمدان على أن يحمل إليه مائة ألف دينار، وسار ابن رائق إلى بغداد، وغلب كورتيكين والديلمية وحبس كورتيكين بدار الخلافة.

ثم شغب عليه الجند وبعث أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسن إلى بغداد في العساكر فغلبوا عليها، وهرب المتقي وابنه أبو منصور، وزاد في المبرة فشر الدراهم على ابن الخليفة، وبالع في مبرته حتى ركب للانصراف.

وأمسك ابن رائق للحديث معه فاستدعاه المتقي، وخلع عليه، ولقبه ناصر الدولة، وجعله أمير الأمراء، وخلع على أخيه أبي الحسن ولقبه سيف الدولة.

وكان قتل ابن رائق لتسع بقين من رجب، وولاية ناصر الدولة مستهل شعبان من سنة ثمانين، ثم سار الأخشيدي من مصر إلى دمشق فملكها من يد عامل ابن رائق، وسار ناصر الدولة مع المتقي إلى بغداد.

أخبار بني حمدان ببغداد

ولما قتل ابن رائق وأبو الحسن البريدي على بغداد، وقد سخطه العامة والخاصة فهرب جحجج إلى المتقي، وأجمع ثورون

وأصحابه إلى الموصل، واستحثوا المتقي وناصر الدولة فأنجدوهم إلى بغداد، وولى على الخراج والضباع بديار مضر وهي الرها وحران والرقّة أبا الحسن علي بن خلف بن طياب، وكان عليها أبو الحسن علي بن أحمد بن مقاتل من قبل ابن رائق، فقاتله ابن طياب وقتله.

ولما قرب المتقي وناصر الدولة من بغداد هرب أبو الحسن بن البريدي إلى واسط بعد مقامه مائة يوم وعشرة أيام، ودخل المتقي بغداد ومعه بنو حمدان، وقلد ثورون شرطة جنابي بغداد وذلك في شوال من السنة.

ثم سار بنو حمدان إلى واسط فنزل ناصر الدولة بالمدائن، وبعث أخاه سيف الدولة إلى قتال البريدي، وقد سار من واسط إليهم فقاتلوه تحسّ المدائن ومعهم ثورون وجحجج والأتراك فانهزموا أولاً.

ثم أمدهم ناصر الدولة بمن كان معه من المدائن فانهزم البريدي إلى واسط، وعاد ناصر الدولة إلى بغداد منتصف ذي الحجة وبين يديه الأسرى من أصحاب البريدي.

وأقام سيف الدولة بموضع المعركة حتى اندملت جراحه وذهب عنه.

ثم سار إلى واسط فلحق البريدي بالبصرة، واستولى على واسط فأقام بها معتزلاً على اتباع البريدي إلى البصرة، واستمد أخاه ناصر الدولة في المال فلم يمده، وكان للأتراك عليه استظالة وخصوصاً ثورون وجحجج ثم جاء أبو عبد الله الكوفي بالمال من قبل ناصر الدولة ليفرقه في الأتراك فاعترضه ثورون وجحجج، وأراد البطش به فاخفاه سيف الدولة عنهما وردّه إلى أخيه.

ثم ثار الأتراك بسيف الدولة سلبخ شعبان فهرب من معسكره إلى بغداد ونهب سواده قتل جماعة من أصحابه وكان أبو عبد الله الكوفي لما وصل إلى ناصر الدولة وأخبره خبر أخيه، أراد أن يسير إلى الموصل فركب المتقي إليه واستمهلّه، وعاد إلى قصره فاغذ السير إلى الموصل بعد ثلاثة عشر شهراً من إمارته، وثار الديلم والأتراك ونهبوا داره.

ولما هرب سيف الدولة من معسكره بواسطة عاد الأتراك إلى معسكرهم، ولوا ثورون أميراً وجحجج صاحب جيش، ولحق سيف الدولة ببغداد منتصف رمضان بعد مسير أخيه، وبلغه خبر ثورون.

ثم اختلف الأتراك وقبض ثورون على جحجج وسلمه، وسار سيف الدولة ولحق بأخيه بالموصل وولى ثورون إمارة

الأمراء ببغداد.

وقارن ذلك اتصال ابن شيرزاده بتورون ومسيره إليه بواسطة، فذكروا الخليفة بما فعل ابن البريدي معه في المرة الأخرى وخوفوه عاقبة أمرهم، فكتب إلى ابن حمدان أن ينفذ إليه عسكرياً يسير صحبته إليهم فأنفذ مع ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان، ووصلوا إلى بغداد سنة اثنتين وثلاثين وخرج المتقي معهم بأهله وأعيان دولته، ومعه الوزير ابن مقله، وانتهى إلى تكريت فلقبه سيف الدولة هنالك.

وجاء ناصر الدولة فأصعد المتقي إلى الموصل.

ولما بلغ الخبر إلى تورون سار نحو تكريت فلقبه سيف الدولة عندها فقاتله ثلاثة أيام، ثم هزمه تورون ونهب سواده وسواد أخيه، وسار سيف الدولة إلى الموصل وتوزون في اتباعه، فخرج ناصر الدولة والمتقي وجملة إلى نصيبين، ثم إلى الرقة، ولحقهم سيف الدولة إليها.

وملك تورون الموصل.

وبعث إليه المتقي يعاتبه على اتصاله بابن البريدي، وأنه إنما استوحش من ذلك فلان آثر رضاه واصل ابن حمدان فأجاب تورون إلى ذلك، وعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لثلاث سنين، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمئة ألف، وعاد تورون إلى بغداد وأقام المتقي بالرقة، ثم أحس من ابن حمدان ضجراً به، وبلغ سيف الدولة أن محمد بن نبال الترجمان أغرى المتقي بسيف الدولة، وهو الذي كان أفسد بين المتقي وتورون فقبض عليه سيف الدولة وقتله، وارتاب المتقي بذلك فكتب إلى تورون يستصلحه.

وكتب إلى الإخشيد محمد بن طفج صاحب مصر يستقدمه، فسار إليه الإخشيد.

ولما وصل إلى حلب وعليها من قبل سيف الدولة ابن عمهم أبو عبد الله سعيد بن حمدان فرحل عنها، وتحلف عنه ابن مقاتل الذي كان بدمشق مع ابن رائق.

ولما وصل الإخشيد إلى حلب لقيه ابن مقاتل فأكرمه واستعمله على خراج مصر.

ثم سار إلى المتقي بالرقة فلقبه منتصف ثلاث وثلاثين فبالغ المتقي في إكرامه وبالحق هو في الأدب معه، وحمل إليه الهدايا وإلى وزيره وحاشيته، وسأله المسير إلى مصر أو الشام فأبى، فأشار عليه أن لا يرجع إلى تورون فأبى.

وأشار على ابن مقله أن يسير معه إلى مصر ليحكمه في دولته، وخوفه من تورون فلم يعمل، وجاءهم رسل تورون في

خبر عدل التحكيمي بالرحبة

كان عدل هذا مولى تحكم، ثم صار مع ابن رائق وأصعد معه إلى الموصل، ولما قتل ابن رائق صار في جملة ناصر الدولة بن حمدان فبعثه مع علي بن خلف بن طياب إلى ديار مضر فاستولى ابن طياب عليها، وقتل نائب ابن رائق وكان بالرحبة من ديار مضر رجل من قبل ابن رائق يقال له مسافر بن الحسين فامتنع بها، وجبى خراجها واستولى على تلك الناحية، فأرسل إليه ابن طياب عدلاً التحكيمي فاستولى عليها، وفر مسافر عنها.

واجتمع التحكيمية إلى عدل واستولى على طريق الفرات وبعض الخابور ثم استنصر مسافر بجمع من بني نمير وسار إلى قرقيسيا وملكها وارتجعها عدل من يده.

ثم اعترزم عدل على ملك الخابور وانتصر أهله ببني نمير فأعرض عدل عن ذلك حيناً حتى أمنا.

ثم أسرى إلى فسيح سمصاب وهي من أعظم قرى خابور فقاتلها ونقب السور وملكها ثم ملك غيرها، وأقام في الخابور ستة أشهر وجبى الأموال وقوي جمعه واتسعت حاله.

ثم طمع في ملك بني حمدان، فسار يريد نصيبين لغنية سيف الدولة عن الموصل وبلاد الجزيرة، ونكب عن الرحبة وحران لأن يأنس المؤنسي كان بها في عسكري، ومعه جمع من بني نمير فحاد عنها إلى رأس عين، ومنها إلى نصيبين، وبلغ الخبر إلى أبي عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان فجمع وسار إليه، فلما التقى الجمعان استأمن من أصحاب عدل إلى ابن حمدان، ولم يبق معه إلا القليل فقبض عليه وسلمه، وبعث به مع ابنه إلى بغداد في آخر شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

مسير المتقي إلى الموصل وعوده

ولما انصرف ناصر الدولة وسيف الدولة عن المتقي من بغداد جاء تورون من واسط واستولى على الدولة، ثم رجع إلى واسط ووقعت بينه وبين ابن البريدي بالبصرة مواصله وصهر استوحش لها المتقي.

وكان بعض أصحاب تورون منافراً له، فأكثر فيه السعاية عند المتقي والوزير ابن مقله، وخوفهما اتصال يده بابن البريدي.

الفتنة بين ابن حمدان وابن بويه

ولما خلع معز الدولة بن بويه المستكفي عند استيلائه على بغداد امتعض ناصر الدولة بن حمدان لذلك وسار من الموصل إلى العراق، وبعث معز الدولة بن بويه قواده، فالتقى الجمعان بعكبرا، واقتلوا وخرج معز الدولة مع المطيع إلى عكبرا وكان ابن شيرزاده ببغداد وأقام بها، ولحق بناصر الدولة بن حمدان، وجاء بعساكره إلى بغداد فنزّلوا بالجانب الغربي، وناصر الدولة بالجانب الشرقي، ووقع الغلاء في معسكر معز الدولة، والخليفة لانقطاع الميرة، وبقي عسكر ابن حمدان في رخاء من العيش لاتصال الميرة من الموصل. واستعان ابن شيرزاده بالعامّة والعيّارين على حرب معز الدولة والديلم، وضاق الأمر بمعز الدولة حتى اعتزم على الرجوع إلى الأهواز.

ثم أمر أصحابه بالعبور من قطربال بأعلى دجلة، وتساّب أصحاب ناصر الدولة إلى مدافعتهم ومنعهم، وبقي في خوف من الناس، فأجاز إليه شجعان الديلم من أقرب الأماكن فهزموه، وملك معز الدولة الجانب الشرقي، وأعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ورجع ناصر الدولة إلى عكبرا وأرسل في الصلح، فوقف الأتراك التورونية الذين معه على خير رسالته فهموا بقتله، فأغذ السير إلى الموصل ومعه ابن شيرزاده وأحكم الصلح مع معز الدولة.

استيلاء سيف الدولة على دمشق

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة توفي الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج صاحب مصر والشام، فنصب للأمر بعده ابنه أبو القاسم أنوجور، واستولى عليه كافور الأسود وخادم أبيه، وسار بهما إلى مصر.

وجاء سيف الدولة إلى دمشق فملكها، وارتأى به أهلها فاستدعوا كافوراً فجاءهم، وخرج سيف الدولة إلى حلب، ثم اتبعوه فعبّر إلى الجزيرة وأقام أنوجور على حلب.

ثم اتفقوا واصطلحوا، وعاد أنوجور إلى مصر وسيف الدولة إلى حلب، وأقام كافور بدمشق قليلاً، ثم عاد إلى مصر واستعمل على دمشق بديراً الإخشيد ويعرف ببدير، ثم عزله بعد سنة وولى أبا المظفر طغج.

الصلح وأنهم استحلوه للخليفة والوزير، فانحدر المتقي إلى بغداد آخر المحرم، وعاد الإخشيد إلى مصر.

ولما وصل المتقي إلى هيت لقيه تورون فقبل الأرض ورأى أنه تحل عن يمينه بتلك الطاعة، ثم وكل به وسمل المتقي ورجع إلى بغداد فبايع للمستكفي.

ولما ارتحل المتقي عن الرقة ولى عليها ناصر الدولة ابن عمه أبا عبد الله بن سعيد بن حمدان، وعلى طريق الفرات وديار مضر وقنسرين وجند والعواصم وحمص.

فلما وصل إلى الرقة طمع أهلها فيه فقاتلهم وظفر بهم ورجع إلى حلب وقد كان ولى على هذه البلاد قبله أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل.

استيلاء سيف الدولة على حلب وحمص

ولما ارتحل المتقي من الرقة، وانصرف الإخشيد إلى الشام بقي يأنس المؤنسي بحلب فقصده سيف الدولة وملكها من يده، ثم سار إلى حمص فلقبه بها كافور مولى الإخشيد فهزمه سيف الدولة وسار إلى دمشق فامتنعوا عليه فرجع، وجاء الإخشيد من مصر إلى الشام، وسار في اتباع سيف الدولة فاصطفا بقنسرين، ثم تحاجزوا ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة والإخشيد إلى دمشق.

ثم سار سيف الدولة إلى حلب فملكها وسارت عساكر الروم إليها فقاتلهم وظفر بهم.

ثم بلغ ناصر الدولة بن حمدان ما فعله تورون من سمل المتقي وبيعة المستكفي، فامتنع من حمل المال وهرب إليه غلمان تورون فاستخدمهم ونقض الشرط في ذلك.

وخرج تورون والمستكفي قاصدين الموصل، وترددت الرسل بينهما في الصلح، فتم ذلك آخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وعاد المستكفي وتوزون إلى بغداد فتوفى تورون إثر عوده، وولي الأمور بعده ابن شيرزاده، واستعمل على واسط قائداً، وعلى تكريت آخر.

فأما الذي على واسط فكاتب معز الدولة ابن بويه، واستقدمه فقدم بغداد واستولى على الدولة، فخلع المستكفي وبايع للمطيع، وأما الذي على تكريت فسار إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل وسار معه وولاه عليها من قبله.

الفننة بين ناصر الدولة بن حمدان وبين تكين والأتراك

بويه وسار إليه معز الدولة من بغداد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فصار هو من الموصل إلى نصيبين وملك معز الدولة الموصل فظلم الرعايا وأخذ أموالهم، وأجمع الاستيلاء على بلاد ابن حمدان كلها، فجاءه الخبر بأن عساكر خراسان قصدت جرجان والري، وبعث أخوه ركن الدولة يستمده فصالح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة والشام على ثمانية آلاف ألف درهم كل سنة، وعلى أن يخطف له ولأخويه عماد الدولة وركن الدولة، وعاد إلى بغداد في ذي الحجة آخر سبع وثلاثين وثلاثمائة.

غزوات سيف الدولة

كان أمر الثغور راجعاً إلى سيف الدولة بن حمدان ووقع الفداء سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة في ألفين من الأسرى على يد نصر النملي، ودخل الروم سنة اثنين وثلاثين مدينة واسرغين ونهبوها وسبوا وأقاموا بها ثلاثاً وهم في ثمانين ألفاً مع الدمستق ثم سار سيف الدولة سنة سبع وثلاثين غازياً إلى بلاد الروم فقاتلوه وهزموه.

ونزل الروم على مرعش فأخذوها وأوقعوا بأهل طرسوس. ثم دخل سنة ثمان وثلاثين وتوغل في بلاد الروم وفتح حصوناً كثيرة وغنم وسبا.

ولما قتل أخذت الروم عليه المضايق وأثخنوا في المسلمين قتلاً وأسراً واستردوا ما غنموه، ونجا سيف الدولة في قل قليل ثم ملك الروم سنة إحدى وأربعين مدينة سروج واستباحوها.

ثم دخل سيف الدولة سنة ثلاث وأربعين إلى بلاد الروم فأثخن فيها وغنم وقتل قسطنطين بن الدمستق فيمن قتل، فجمع الدمستق عساكر الروم والروس وبلغار وقصد الثغور، فصار إليه سيف الدولة بن حمدان والتقوا عند الحارث فانهزم الروم واستباحهم المسلمون قتلاً وأسراً، وأسر صهر الدمستق، وبعض أسباطه وكثير من بطارقه ورجع سيف الدولة بالظفر والغنيمة.

ثم دخل بلاد الروم النصرانية ثم رجع إلى أذنة، وأقام بها حتى جاءه نائبه على طرسوس فخلع عليه، وعاد إلى حلب وامتعض الروم لذلك فرجعوا إلى بلادهم.

ثم غزا الروم طرسوس والرها وعاثوا في نواحيها سبياً وأسراً ورجعوا.

ثم غزا سيف الدولة بلاد الروم سنة ست وأربعين وأثخن فيها وفتح عدة حصون وامتألت أيدي عسكره من الغنائم

كان مع ناصر الدولة جماعة من الأتراك أصحاب تورون فروا إليه كما قدمنا، فلما وقعت المراسلة بينه وبين معز الدولة في الصلح ثاروا به، وهرب منهم وعبر إلى الجانب الغربي ونزل الموصل واستجار القرامطة فأجاروه، وبعثوا معه إلى مأمته، في حملته ابن شيرزاده فقبض ناصر الدولة عليه، واجتمع الأتراك بعده فقدموا عليهم تكين الشيرازي، وقبضوا على من تخلف من أصحاب ناصر الدولة واتبعوه إلى الموصل فصار عنها إلى نصيبين ودخل الأتراك الموصل.

وبعث ناصر الدولة إلى معز الدولة يستصرخه، فبعث إليه الجيوش مع وزيره أبي جعفر الصيمري وخرج الأتراك من الموصل في اتباع ناصر الدولة إلى نصيبين فمضى إلى سنجار ثم إلى الحديثة إلى السن، وهم في اتباعه، وبقي هنالك العساكر فقاتلوا الأتراك وهزمهم، وسبق قائدهم تكين إلى ناصر الدولة فسلمه لوقته ثم حبسه.

وسار مع الصيمري إلى الموصل فأعطاه ابن شيرزاده وارتحل به إلى بغداد.

انتقاض جمان بالرحبة ومهلكه

كان جمان هذا من أصحاب تورون وسار إلى ناصر الدولة بن حمدان، فلما كان في محاربة معز الدولة ببغداد، استراب بمن معه من الدليم وجمعهم على جمان هذا، وأخرجه إلى الرحبة والياً فعظم أمره، وانتقض سنة ست وثلاثين وثلاثمائة على ناصر الدولة، وحدثنه نفسه بالغلبة على ديار مصر، فصار إلى الرقة وحاصرها سبعة عشر يوماً، وانهزم عنها.

ووثب أهل الرحبة بأصحابه وعماله فقتلوههم لسوء سيرتهم، وجاء من الرقة فائخن فيهم وبعث ناصر الدولة بن حمدان حاجبه باروخ مع عسكر فاقتلوا على الفرات وانهزم جمان فغرق في الفرات واستأمن أصحابه إلى باروخ فأمنهم ورجع إلى ناصر الدولة.

فتنة ناصر الدولة مع معز الدولة

ثم وقعت الفتنة بين ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن

والسبي، وانتهى إلى أسروشته ورجع وقد أخذت الروم عليه المضايق، فقال له أهل طرسوس: ارجع معنا فإن الدروب التي دخلت منها قد ملكها الروم عليك فلم يرجع إليهم، وكان معجباً برأيه فظهر الروم عليه في الدرب واستردوا ما أخذوا منهم ونجا في فل قليل يناهزون الثلاثمائة ثم دخل سنة خمسين قائد من موالي سيف الدولة إلى بلاد الروم من ناحية ميفارقين فغنم وسبا وخرج سالماً.

الفتنة بين ناصر الدولة ومعز الدولة بن

بويه

قد تقدم لنا ما وقع من الصلح بين ناصر الدولة وبين معز الدولة بن بويه، وطالبه في المال فاتتقض.

وسار إليه معز الدولة إلى الموصل منتصف السنة وملكها، وفارقها ناصر الدولة إلى نصيبين وحمل نوابه ومن يعرف وجوه المال وحمايته، وأنزلهم في قلاعه مثل الزعفراني وكواشي ودس إلى العرب بقطع الميرة عن عسكر معز الدولة فضاقت عليهم الأقوات، فرحل معز الدولة إلى نصيبين لما بها من الغرت السلطانية، واستخلف سبكتكين الحاجب الكبير على الموصل، وبلغه في طريقه أن أبا الرجاء وعبد الله ابني ناصر الدولة مقيمان بسنجار فقصدتهما فهربا، وخلقا ألقاهما وانتهب العسكر خيامهما.

ثم عادا إلى معسكر معز الدولة وهم غازون فنالوا منهم، ورجعوا إلى سنجار، وسار معز الدولة إلى نصيبين ففارقها ناصر الدولة إلى ميفارقين، واستأنم كثير من أصحابه إلى معز الدولة، فسار ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة بحلب، فقام بخدمته وياشرها بنفسه، وأرسل إلى معز الدولة في الصلح بينه وبين أخيه، فامتنع معز الدولة من قبول ناصر الدولة لاتنقاضه وإخلافه، فضمن سيف الدولة البلاد بألفي ألف وتسعمائة ألف درهم، وأطلق معز الدولة أسرى أصحابهم.

وتم ذلك في محرم سنة ثمان وأربعين ورجع معز الدولة إلى العراق وناصر الدولة إلى الموصل.

استيلاء الروم على عين زربة ثم على مدينة

حلب

وفي الحرم من سنة إحدى وخمسين نزل اللمستق في مجموع

ورحل اللمستق بعد عشرين يوماً بنية العود، وخلف بجيشه بقيسارية وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد قطع الخطبة لسيف الدولة بن حمدان، واعترضه اللمستق في بعض مذاهبه فأوقع به، وقتل أخاه وأعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة، وألقى ابن الزيات نفسه في النهر فغرق.

ثم رجع اللمستق إلى بلاد الثغور، وأغذ السير إلى مدينة حلب، وأعجل سيف الدولة عن الاحتشاد فقاتله في خف من أصحابه فانهزم سيف الدولة، واستلحم آل حمدان واستولى اللمستق على ما في داره خارج حلب من خزائن الأموال والسلاح وخرب الدار وحصر المدينة، وأحس أهل حلب مدافعتهم فناخروا إلى جبل حيوش.

ثم انطلقت أيدي الدعار بالبلد على النهب، وقاتلهم الناس على متاعهم، وخربت الأسوار لخلوها من الحامية فجاء الروم ودخلوها عليهم وبادر الأسرى الذين كانوا في حلب وأنخنوا في الناس، وسي من البلد بضعة عشر ألفاً ما بين صبي وصبيّة واحتمل الروم ما قدروا عليه وأحرقوا الباقي.

ولجا المسلمون إلى قصبة البلد فامتنعوا بها، وتقدم ابن أخت الملك إلى القلعة يحاصرها فرمى بمجبر منجنيق فمات وقتل اللمستق به من كان معه من أسرى المسلمين وكانوا ألفاً ومائتين.

وارتحل اللمستق عنهم ولم يعرض لسواد حلب وأمرهم بالعمارة على أنه يعود ابن عمه عن قريب فخيّب الله ظنه.

وأعاد سيف الدولة عين زربة وأصلح أسوارها وغزا حاجبه مع أهل طرسوس إلى بلاد الروم فأنخنوا فيها ورجعوا، فجاء الروم إلى حصن سبة فملكوه وملكوا أيضاً حصن دلوكة وثلاثة حصون مجاورة لهم، ثم سار غيا غلام سيف الدولة إلى حصن زياد فلقبهم جمع من الروم فانهزم الروم وأسر منهم خمسمائة رجل.

وفي هذه السنة أسر أبو فراس بن سعيد بن حمدان وكان عاملاً على مينج وفيها سار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة

وأخذ كثيراً من أموال أبي الورد وقتله، ثم انتقض على سيف الدولة.

واتفق أن معز الدولة بن بويه استولى على الموصل ونصيبين فكانت نجا يعدة المساعدة على بني حمدان، ثم صالحه ناصر الدولة، ورجع إلى بغداد فصار سيف الدولة إلى نجا فهرب منه بين يديه واستولى على جميع البلاد التي ملكها من أبي الورد واستأمن إليه نجا وأخوه وأصحابه، فأمنهم وأعاد نجا إلى مرتبته، ثم وثب عليه غلماناه وقتلوه في داره بميفارقين في ربيع سنة ثلاث وخمسين.

مسير معز الدولة إلى الموصل وحروبه مع ناصر الدولة

كان الصلح قد استقر بين ناصر الدولة ومعز الدولة على ألف ألف درهم في كل سنة.

ثم طلب ناصر الدولة دخول ولده أبي ثعلب المظفر في اليمن على زيادة بذلها، وامتنع سيف الدولة من ذلك وسار إلى الموصل منتصف سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ولحق ناصر الدولة بنصيبين وملك معز الدولة الموصل، وسار عنها في أتباع ناصر الدولة بعد أن استخلف على الموصل في الجباية والحرب فلم يثبت ناصر الدولة، وفارق نصيبين وملكها معز الدولة.

وخالفه أبو ثعلب إلى الموصل وعات في نواحيها، وهزمه قواد معز الدولة بالموصل فسكنت نفس معز الدولة.

وأقام ببر قعيد يترقب أخباره، وخالف ناصر الدولة إلى الموصل فأوقع بأصحابه وقتلهم، وأسر قواده واستولى على خلفه من المال والسلاح وحمل ذلك كله إلى قلعة كواشي.

وبلغ الخبر إلى معز الدولة فلحق بالنواب، وأعياء معز الدولة أمرهم.

ثم أرسلوا إليه في الصلح فاجاب، وعقد لناصر الدولة على الموصل وديار ربيعة، وجميع أعماله بمقرها المعلوم، وعلى أن يطلق الأسرى الذين عنده من أصحاب معز الدولة ورجع معز الدولة إلى بغداد.

حصار المصيصة وطرسوس واستيلاء الروم عليها

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة خرج الدمستق في جموع

إقريطش، وبعث إليهم المعز بالمدد فأسر الروم وانهزم من بقي منهم، ثم ثار الروم في اثنتين وخمسين بعدها بملكهم فقتلوه وملكوا غيره وصار ابن السمسرة دمستقاً.

انتقاض أهل حران

كان سيف الدولة قد ولي هبة الله ابن أخيه ناصر الدولة غيرها من ديار مصر، فساء أثره فيهم وطرح الأمتعة على التجار وبالغ في الظلم فانتظروا به غييبته عند عمه سيف الدولة وثاروا بعماله ونوابه فطردوهم، فصار هبة الله إليهم وحاصروهم شهرين وأفحش في القتل فيهم.

ثم سار سيف الدولة فراجعوا الطاعة وداخلوا هبة الله وأفحش في القتل واستقاموا.

انتقاض هبة الله

وفي هذه السنة بعث سيف الدولة الصوائف إلى بلاد الروم، فدخل أهل طرسوس من درب ومولاه نجا من درب، وأقام هو ببعض الدروب لأنه كان أصابه الفالج قبل ذلك بستين، فكان يعاني منه شدة إذا عاوده وجعه، وتوغل أهل طرسوس في غزوتهم وبلغوا قونية، وعادوا فعاد سيف الدولة إلى حلب واشتد وجعه، فأرجف الناس بموته فوثب هبة الله ابن أخيه، وقتل ابن دنجا النصراني من غلمان سيف الدولة ولما تيقن حياة عمه رحل إلى حران وامتنع بها، وبعث سيف الدولة غلامه فجاء إلى حران في طلبه، فلحق هبة الله بأبيه بالموصل ونزل نجا على حران آخر شوال من سنة اثنتين وخمسين، وصادر أهلها على ألف ألف درهم وأخذها منهم في خمسة أيام بالضرب والنكال، وباعوا فيها ذخائرهم حتى أملقوا، وصاروا إلى ميفارقين ونزلها شاغرة فتسلط العيارون على أهلها.

انتقاض نجا بميفارقين وأرمينية واستيلاء سيف الدولة عليها

ولما فعل نجا بأهل حران ما فعل، واستولى على أموالهم فقوي بها وبطر، وسار إلى ميفارقين، وقصد بلاد أرمينية، وكان قد استولى على أكثرها رجل من العراق يعرف بأبي الورد فغلبه نجا على ما ملك منها، وأخذ قلاعها وبلادها فملك خلاط وملاذكرد

وأوهم أنه علوي وتسمى هو بالأشاد وأساء السيرة في أهل أنطاكية، وقصدهم عرقوبة من حلب فهزموه.

ثم جاء سيف الدولة من ميفارقين إلى حلب وخرج إلى أنطاكية، وقتل وزيراً وابن الأهوازي أياماً.

وجيء بهما إليه أسيرين فقتل وزيراً وحبس ابن الأهوازي أياماً وقتله، وصلح أمر أنطاكية.

ثم ثار بمحمص مروان القرمطي كان من متابعة القرامطة، وكان يقتل السواحل لسيف الدولة، فلما تمكن ثار بمحمص فملكها وملك غيرها في غيبة سيف الدولة بميفارقين، وبعث إليه عرقوبة مولاه بدرأ بالعساكر فكانت بينهما عدة حروب أصيب فيها مروان بسهم فائت، وبقي أياماً يجود بنفسه والقُتال بين أصحابه وبين بدر، وأسر بدر في بعض تلك الحروب فقتله مروان وعاش بعده أياماً ثم مات وصلح أمرهم.

خروج الروم إلى الثغور واستيلاؤهم على

دارا

وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة خرجت جموع الروم إلى الثغور فحاصروا آمد ونالوا من أهلها قتلاً وأسراً فامتنت عليهم فانصرفوا إلى دارا قريباً من ميفارقين فأخذوها، وهرب الناس إلى نصيبين وسيف الدولة يومئذ بها فهم بالهروب، وبعث عن العرب ليخرج معهم ثم انصرف الروم وأقام هو بمكانه، ساروا إلى أنطاكية فحاصروها مدة، وعاثوا في جهاتها فامتنت فعاد الروم إلى طرسوس.

وفاة سيف الدولة ومحبس أخيه ناصر

الدولة

وفي صفر من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة توفي سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان بحلب، وحمل إلى ميفارقين فدفن بها وولي مكانه بعده ابنه أبو المعالي شريف.

ثم في جمادى الأولى منها حبس ناصر الدولة أخوه بقلعة الموصل، حبسه ابنه أبو ثعلب فضل الله الغضنفر وكان كبير ولده، وكان سبب ذلك أنه كبر ومساءت أخلاقه، وخالف أولاده وأصحابه في المصالح، وضيق عليهم فضجروا منه، ولما بلغهم معز

الروم فنال المصيبة، وشد حصارها وأحرق رسائيقها، وبلغ إلى نقب السور فدافعه أهلها أشد مدافعتهم.

ثم رحل إلى أذنة وطرسوس، وطال عيته في نواحيها، وأكثر القتل في المسلمين، وغلت الأسعار في البلاد، وقتل الأقوات.

وعاود سيف الدولة مرضاً فمنعه من النهوض إليهم، وجاء من خراسان خمسة آلاف رجل غزاة فبلغوا إلى سيف الدولة، فارتحل بسببهم للمدافعة فوجد الروم انصرفوا ففرق هؤلاء الغزاة في الثغور من أجل الغلاء، وكان الروم قد انصرفوا بعد خمسة عشر يوماً.

وبعث الدمستق إلى أهل المصيبة وأذنه وطرسوس يتهددهم بالعود، ويأمرهم بالرحيل من البلاد.

ثم عاد إليهم وحاصر طرسوس فقاتلهم أشد قتال وأسروا بطريقاً من بطارقه وسقط الدمستق إلى أهل المصيبة ورجعوا إلى بلادهم.

ثم سار نقفور ملك الروم من القسطنطينية سنة أربع وخمسين إلى الثغور، وبنى بقيسارية مدينة ونزلها، وجهاز عليها العساكر وبعث أهل المصيبة وطرسوس في الصلح فامتنت، وسار بنفسه إلى المصيبة فدخلها عنوة واستباحها، ونقل أهلها إلى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتي ألف.

ثم سار إلى طرسوس واستنزل أهلها على الأمان، وعلى أن يحملوا من أموالهم وسلاحهم ما قدروا عليه، وبعث معهم حامية من الروم يبلغونهم أنطاكية، وأخذ في عمارة طرسوس وتحصينها وجلب الميرة إليها.

ثم عاد إلى القسطنطينية وأراد الدمستق بن شمسق أن يقصد سيف الدولة في ميفارقين ومنعه الملك من ذلك.

انتقاض أهل أنطاكية وحص

ولما استولى الروم على طرسوس لحق الرشيقي النعيمسي من قوادهم وأولي الرأي فيهم بأنطاكية في عدد وقوة، فاتصل به ابن أبي الأهوازي من الجباة بأنطاكية، وحسن له العصيان وأراه أن سيف الدولة بميفارقين عاجز عن العود إلى الشام بما هو فيه من الزمانة، وأعانه بما كان عنده من مال الجباة، فأجمع رشيق الانتقاض، وملك أنطاكية وسار إلى حلب وبها عرقوبة وجاء الخبر إلى سيف الدولة بأن رشيقاً أجمع الانتقاض، ونجا ابن الأهوازي إلى أنطاكية فأقام في إمارتها رجلاً من الديلم اسمه وزير ولقبه الأمير

ثم مات ناصر الدولة في محبسه سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ودفن بالموصل.

ويعث أبو ثعلب أخاه أبا البركات إلى حمدان بالرحبة فافترق عنه أصحابه، وقصد العراق مستجيراً ببختييار، فدخل بغداد في شهر رمضان من سنته، وحمل إليه الهدايا.

ويعث بختييار إلى أبي ثعلب النقيب أبا أحمد والد الشريف الرضي في الصلح مع أخيه حمدان فصالحه، وعاد إلى الرحبة منتصف سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وفارقه أبو البركات، ثم استقدمه أبو ثعلب فامتنع من القدوم عليه، فبعث إليه أخاه أبا البركات نائياً في العساكر، فخرج حمدان إلى البرية، وترك الرحبة فملكها أبو البركات واستعمل عليها، وسار إلى الرقة، ثم إلى عرابان.

وخالفه حمدان إلى الرحبة فكبسها وقتل أصحاب أبي ثعلب بها فرجع إليه أبو البركات، وتقاتلا فضرب أبا البركات على رأسه فشجه، ثم القاه إلى الأرض وأسره ومات من يومه.

وحمل إلى الموصل فدفن بها عند أبيه.

وجهاز أبو ثعلب إلى حمدان وقدم أخاه أبا فراس محمداً إلى نصيبين، ثم عزله عنها لأنه داخل حمدان ومالاه عليه، فاستدعاه وقبض عليه وحبسه بقلعة ملاشي من بلاد الموصل فاستوحش أخوه إبراهيم والحسن، ولحقا بأخييهما حمدان في شهر رمضان، وساروا جميعاً إلى سنجار.

وسار أبو ثعلب من الموصل في أثرهم في شهر رمضان سنة ستين وثلاثمائة فخاموا عن لقائه، واستأمن إليه أخواه إبراهيم والحسن خديعة ومكرراً فأمتهما، ولم يعلم، وتبعهما كثير من أصحاب حمدان، وعاد حمدان من سنجار إلى عرابان وأطلع أبو ثعلب على خديعة أخويه فهربا منه.

ثم استأمن الحسن ورجع إليه، وكان حمدان أقام نائباً بالرحبة غلامه نجاء، فاستولى على أمواله وهرب بها إلى حران وبها سلامة البرقيدي من قبل أبي ثعلب فرجع حمدان إلى الرحبة، وسار أبو ثعلب إلى قريسييا، وبعث العساكر إلى الرحبة فعبروا الفرات، واستولوا عليها، ونجوا حمدان بنفسه، ولحق بسنجار مستجيراً به، ومعه أخوه إبراهيم فآكرهما ووصلهما وأقاما عنده.

ورجع أبو ثعلب إلى الموصل وذلك كله آخر سنة ستين وثلاثمائة.

الدولة بن بويه اعترم أولاده على قصد العراق فنهاهم ناصر الدولة، وقال لهم: أصبروا حتى ينفق بختييار ما خلف أبوه معز الدولة من الذخيرة فتظفروا به، وإلا استظهر عليكم وظفر بكم فلجوا في ذلك، ووثب به أبو ثعلب بموافقة البطانة، وحبسه بالقلعة، ووكّل بخدمته، وخالفه بعض إخوته في ذلك واضطرب أمره، واضطر إلى مداراة بختييار بن معز الدولة، وأرسل له في تجديد الضمان ليحتج به على إخوته فضمنه بألفي ألف درهم في كل سنة.

ولاية أبي المعالي بن سيف الدولة بحلب ومقتل أبي فراس

ولما مات سيف الدولة كما ذكرناه ولي بعده ابنة أبو المعالي شريف، وكان سيف الدولة قد ولي أبا فراس بن أبي العلاء سعد بن حمدان عندما خلّصه من الأسر الذي أسره الروم في منبج فاستفاده في الفداء الذي بينه وبين الروم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وولاه على حمص.

فلما مات سيف الدولة استوحش من أبي المعالي بعده ففارق حمص، ونزل في صدد قرية في طرف البرية قريباً من حمص، فجمع أبو المعالي الأعراب من بني كلاب وغيرهم، وبعثهم مع عرقوبة في طلبه فجاء إلى صدد، واستأمن له أصحاب أبي فراس، وكان في جملتهم فأمر به عرقوبة فقتل، واحتمل رأسه إلى أبي المعالي وكان أبو فراس خاله.

أخبار أبي ثعلب مع إخوته بالموصل

كان لناصر الدولة بن حمدان زوجة تسمى فاطمة بنت أحمد الكردية، وهي أم أبي ثعلب وهي التي دبرت مع ابنها أبي ثعلب على أبيه، فلما حبس ناصر الدولة، كاتب ابنه حمدان يستدعيه ليخلصه مما هو فيه.

وظفر أبو ثعلب بالكتاب، فنقل أباه إلى قلعة كواشي واتصل ذلك بحمدان، وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها.

ولما اتصل به شأن الكتاب سار إلى نصيبين وجمع الجموع، وبعث إلى إخوته في الإفراج عن أبيهم فسار أبو ثعلب لحربه، وانهزم حمدان قبل اللقاء للرقة فحاصره أبو ثعلب أشهراً، ثم اصطلحا وعاد كل منهما إلى مكانه.

خروج الروم إلى الجزيرة والشام

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة دخل ملك الروم الشام فسار في نواحيها، ولم يجد من يدافعه فعاشت في نواحي طرابلس، وكان أهلها قد أخرجوا عاملهم إلى عرقة لسوء سيرته فذهب الروم أمواله، ثم حاصر الروم عرقة فملكوها ونهبوها.

ثم قصدوا حمص وقد انتقل أهلها عنها فأحرقوها، ورجعوا إلى بلاد السواحل وملكوا منها ثمانية عشر بلداً، واستباحوا عامة القرى، وساروا في جميع نواحي الشام ولا مدافع لهم، إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم.

ثم رجع ملك الروم مجمعا حصار حلب وأنطاكية، وبلغه استعدادهم فرحل عنهم إلى بلاده ومعه من السي ما ألف رأس. وكان بحلب قرعوية مولى سيف الدولة فمانعهم، وبعث ملك الروم سراياه إلى الجزيرة فبلغوا كفتوتنا وعسائنا في نواحيها، ولم يكن من أبي ثعلب مدافعة لهم.

استبداد قرعوية بحلب

كان قرعويه غلام سيف الدولة، وهو الذي أخذ البيعة لابنه أبي المعالي بعد موته، فلما كان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة انتقض على أبي المعالي وأخرجه من حلب واستبد بملكها. وسار أبو المعالي إلى حران فمنعه أهلها، فسار إلى والدته بميفارقين وهي بنت سعيد بن حمدان أخت أبي فراس.

ولحق أصحابه بأبي ثعلب، وبلغ أمه بميفارقين وهي بنت سعيد بن حمدان أخت أبي فراس أنه يريد القبض عليها فمنعته أباماً من الدخول، حتى استوثقت لنفسها وأذنت له ولمن رضيته، وأطلقت لهم الأرزاق ومنعت الباقيين وسار أبو المعالي لقتال قرعويه بحلب فامتنع عليه، ثم لحق أبو المعالي بحماة، وأقام بها وبقيت الخطبة بجران له ولا والي عليهم من قبله، فقدموا عليهم من يحكم بينهم.

مسير أبي ثعلب من الموصل إلى ميفارقين

ولما سمع أبو ثعلب بخروج أبي المعالي من ميفارقين إلى حلب لقتال قرعويه، سار إليها وامتنعت زوجة سيف الدولة منه، واستقر الأمر بينهما على أن تحمل إليه مائتي ألف درهم. ثم غي إليها أنه يحاول على ملك البلد فكبسته ليلاً، ونالت

من معسكره فبعث إليها يلاطفها فأعادت إليه بعض ما نهب، وحملت إليه مائة ألف درهم وأطلقت الأسارى فرجع عنها.

استيلاء الروم على أنطاكية ثم حلب ثم

ملاذكرد

وفي سنة تسع وخمسين خرج الروم إلى أنطاكية فمروا بحصن الوفاء بقرية، وهم نصارى فحاصروهم، وانفقوا على أن يرحلوا إلى أنطاكية، فإذا نزل الروم عليها ناروا من داخل. وانتقل أهل الوفاء ونزلوا بجبل أنطاكية.

وجاء بعد شهرين آخر نقفور ملك الروم في أربعين ألفاً من جوع الروم، ونازل أنطاكية فأخلى له أهل الوفاء السور من ناحيتهم، وملكوا البلد وسبوا منها عشرين ألفاً.

ثم أنفذ ملك الروم جيشاً كثيفاً إلى حلب، وأبو المعالي بن سيف الدولة عليها يحاصرها ففارقها أبو المعالي، وقصد البرية وملك الروم حلب.

وتحصن قرعويه وأهل البلد بالقلعة فحاصروها مدة، ثم ضربوا الهدنة بينهم على مال يحمله قرعويه، وعلى أن الروم إذا أرادوا الميرة من قرى الفرات لا يمنعونهم منها.

ودخل في هذه الهدنة حمص وكفرطاب والمعرّة وأقامية وشيزر، وما بين ذلك من الحصون والقرى، وأعطاهم رهنهم على ذلك الروم، وأفرج الروم عن حلب.

وكان ملك الروم قد بعث جيشاً إلى ملاذكرد من أعمال أرمينية فحاصروها وفتحوها عنوة، ورعب أهل الثغور منهم في كل ناحية.

مقتل نقفور ملك الروم

كان نقفور ملكاً بالقسطنطينية، وهي البلاد التي يد بني عثمان لهذا العهد، وكان من يليها يسمى الدمستق.

وكان نقفور هذا شديداً على المسلمين، وهو الذي أخذ حلب أيام سيف الدولة، وملك طرسوس والمسيّة وعين زربة، وكان قتل الملك قبله وتزوج امرأته، وكان له منها ابنان فكفلهما نقفور وكان كثيراً ما يطرق بلاد المسلمين ويدوخها في ثغور الشام والجزيرة، حتى هابه المسلمون وخافوه على بلادهم.

ثم أراد أن يجب ربيبه ليقطع نسلهما ففرقت أمهما من

وسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستفرين، وجلسوا إلى الناس في المساجد والمشاهد يصفون ما جرى على المسلمين، وخوفهم عاقبة أمرهم فتقدمهم أهل بغداد إلى دار الطائع الخليفة، وأرادوا الهجوم عليه فأغلقت دونهم الأبواب فأعلنوا بشتهم، ولحق آخرون من أهل بغداد ببختيار وهو بنواحي الكوفة يستغيثونه من الروم، فوعدهم بالجهاد، وأرسل إلى الحاجب سيكتكين يأمره بالتجهيز للغزو، وأن يستنفر العامة، وكتب إلى أبي ثعلب بن حمدان بإعداد الميرة والعلوفات والتجهيز، وأنه عازم على الغزو.

ووقعت بسبب ذلك فتنة في بغداد من قبل اشتغال العامة بذلك أدت إلى القتل والنهب بين عصاب الفتيان والعيارين.

أسر الدمستق وموته

ولما فعل الدمستق في ديار مضر والجزيرة ما فعل، قوي طمعه في فتح آمد فسار إليه أبو ثعلب، وقدم أخاه أبا القاسم هبة الله، واجتمعا على حرب الدمستق ولقياه في رمضان سنة اثنتين وستين.

وكانت الجولة في مضيق لا تتحرك فيه الخيل، وكان الروم على غير أهبة فانهزموا، وأخذ الدمستق أسيراً، فلم يزل محبوساً عند أبي ثعلب إلى أن مرض سنة ثلاث وستين وبالف في علاجه وجمع له الأطباء فلم ينتفع بذلك ومات.

استيلاء بجختيار بن معز الدولة على الموصل

وماكان بينه وبين أبي ثعلب

قد تقدم لنا ما كان بين أبي ثعلب وأخويه حمدان وإبراهيم من الحروب، وأنهما سارا إلى بجختيار بن معز الدولة صريحين فوعدهما بالنصرة، وشغل عن ذلك بما كان فيه فأبأ عليهما أمره، وهرب إبراهيم ورجع إلى أخيه أبي ثعلب فتحرك عزم بجختيار على قصد الموصل، وأغراه وزيره ابن بقیة لتقصيره في خطابه فسار، ووصل إلى الموصل في ربيع سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ولحق أبو ثعلب بسنجان وأخلى الموصل من الميرة ومن الدواوين.

وخالف بجختيار إلى بغداد، ولم يحدث فيها حدثاً من نهب ولا غيره، وإثما قاتل أهل بغداد فحدثت فيها الفتنة بسبب ذلك بين عامتها، واضطرب أمرهم وخصوصاً الجانب الغربي.

وسمع بجختيار بذلك فبعث في أثره وزيره ابن بقیة

ذلك، وأرسلت إلى الدمستق بن الشمشق وداخلته في قتله وكان شديد الخوف من نفور.

وهذا كان أبوه مسلماً من أهل طرسوس يعرف بابن العفاش تنصر ولحق بالقسطنطينية، ولم يزل يترقى في الأطوار إلى أن نال من الملك ما ناله.

وهذه غلطة ينبغي للعقلاء أن يتزهدوا عنها، ولا ينال الملك من كان عريقاً في السوق، وفقيداً للعصابة بالكلية وبعبداً عن نسب أهل الدولة، فقد تقدم من ذلك في مقدمة الكتاب ما فيه كفاية.

استيلاء أبي ثعلب على حران

وفي منتصف سنة تسع وخمسين وثلاثمائة سار أبو ثعلب إلى حران وحاصرها نحراً من شهر، ثم جنح أهلها إلى مصالحته واضطربوا في ذلك، ثم توافقوا عليه وخرجوا إلى أبي ثعلب وأعطوه الطاعة، ودخل في إخوانه وأصحابه فصلى الجمعة ورجع إلى معسكره.

واستعمل عليهم سلامة البرقيدي، وكان من أكابر أصحاب بني حمدان.

وبلغه الخبر بأن غميراً عاثوا في بلاد الموصل وقتلوا العامل ببرقيدي فأسرع العود.

مصالحة قرعويه لأبي المعالي

قد تقدم لنا استيلاء قرعويه بحلب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وخروج أبي المعالي ابن سيف الدولة منها، وأنه لحق بأمه بميفارقين، ثم رجع لحصار قرعويه بحلب.

ثم رجع إلى حلب ونزل بها ثم وقع الاتفاق بينه وبين قرعويه على أن يخطب له بحلب ويخطبان جميعاً للمعز العلوي صاحب مصر.

مسير الروم إلى بلاد الجزيرة

وفي سنة إحدى وستين سار الدمستق في جموع الروم إلى الجزيرة فأغار على الرها ونواحيها، ثم تنقل في نواحي الجزيرة، ثم بلغ نصيبين واستباحها ودوخها، ثم سار في ديار بكر ففعل فيها مثل ذلك.

ولم يكن لأبي ثعلب في مدافعهم أكثر من حل المال إليهم،

وهزم مجتار ابن عمه معز الدولة، سار مجتار في الفل إلى الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة أخو أبي ثعلب فحسن له قصد الموصل على الشام، وقد كان عضد الدولة عاهده أن لا يتعرض لأبي ثعلب لمودة بينهما فنكث وقصدها.

ولما انتهى إلى تكريت أته رسل أبي ثعلب بالصلح، وأن يسير إليه بنفسه وعساكره، ويعيده على ملك بغداد على أن يسلم إليه أخاه حمدان فسلمه إلى رسل أبي ثعلب فحبسه، وسار مجتار إلى الحديثة ولقي أبا ثعلب وسار معه إلى العراق في عشرين ألف مقاتل.

وزحف نحوهما عضد الدولة، والتقوا بنواحي تكريت في شوال سنة ست وستين فهزما عضد الدولة، وقتل مجتار ونجا أبو ثعلب إلى الموصل فاتبعه عضد الدولة، وملك الموصل في ذي القعدة، وحمل معه الميرة والعلوفات للإقامة، وبث السرايا في طلب أبي ثعلب ومعه المرزبان بن مجتار وأخواله أبو إسحاق وظاهر ابنا معز الدولة ووالدتهما.

وسار لذلك أبو الوفاء ظاهر بن إسماعيل من أصحابه. وسار حاجبه أبو ظاهر طغان إلى جزيرة ابن عمر ولحق أبو ثعلب بنصيبين.

ثم انتقل إلى ميفارقين فأقام بها، وبلغه مسير أبي الوفاء إليه ففارقها إلى تفلين وجاء أبو الوفاء إلى ميفارقين فامتنعت عليه فتركها وطلب أبا ثعلب فخرج من أرزن الروم إلى الحسينية من أعمال الجزيرة، وصعد إلى قلعة كواشي وغيرها من قلاعه، ونقل منها ذخيره، وعاد فعاد أبو الوفاء إلى ميفارقين وحاصرها.

واتصل بعضد الدولة بجيئه إلى القلاع، فسار إليه ولم يدركه، واستامن إليه كثير من أصحابه.

وعاد إلى الموصل وبعث قائده طغان إلى تفلين فهرب منها أبو ثعلب واتصل بملكهم المعروف بورد الرومي، وكان منازعاً لملكهم الأعظم في الملك، فوصل ورد يده بيد أبي ثعلب، وصاهره ليستعين به واتبعه في مسيره عسكر عضد الدولة، وأدركه فهزمهم وأثنى فيهم، ونجا فلهم إلى حصن زياد ويسمى خرت يرت.

وأرسل إلى ورد يستمده فاعتذر بما هو فيه ووعد بالنصر.

ثم انهزم ورد أمام ملك الروم فأيس أبو ثعلب من نصره، وعاد إلى بلاد الإسلام ونزل بأمد حتى جاء خبر ميفارقين.

وكان أبو الوفاء لما رجع من طلب أبي ثعلب حاصر ميفارقين، والوالي عليها هزارمرد فضبط البلد ودافع أبا الوفاء ثلاثة أشهر.

وسبكتين، فدخل ابن بقية بغداد وأقام سبكتين في الضاحية، وتأخر أبو ثعلب عن بغداد وحاربه سيراً، ثم داخله في الانتقاص واستيلاء سبكتين على الأمر.

ثم أقصر سبكتين عن ذلك وخرج إليه ابن بقية، وراسلوا أبا ثعلب في الصلح على مال يضمه ويرد على أخيه حمدان إقطاعه ما سوى ماردين، وكتبوا بذلك إلى مجتار.

وارتحل أبو ثعلب إلى الموصل وأشار ابن بقية على سبكتين باللاحق بختيار فتقاعد، ثم سار.

وارتحل مجتار عن الموصل بعد أن جهد منه أهل البلد بما نالهم من ظلمه وعسفه، وطلب منه أبو ثعلب الإذن في لقب سلطاني وأن يحط عنه من الضمان فأجابته وسار.

ثم بلغه في طريقه أن أبا ثعلب نقض وقتل بعضاً من أصحاب مجتار عادوا إلى الموصل لنقل أهاليهم، فاستشاط مجتار واستدعى ابن بقية وسبكتين ففى العساكر، وعادوا جميعاً إلى الموصل.

وفارقها أبو ثعلب وبعث أصحابه بالاعتذار والخلف على إنكار ما بلغه فقبل، وبعث الشريف أبا أحمد الموسوي لاستحلافه.

وتم الصلح ورجع مجتار إلى بغداد فجهز ابنته إلى أبي ثعلب وقد كان عقد له عليها من قبل.

عود أبي المعالي بن سيف الدولة إلى حلب

قد تقدم لنا أن قرعويه مولى أبيه سيف الدولة كان تغلب عليه، وأخرجه من حلب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، فسار إلى والدته بميفارقين، ثم إلى حماة فنزلها وكانت الروم قد أمنت حصص، وكثر أهلها.

وكان قرعوية قد استتاب بحلب مولاة بكجور فسوي عليه وحبه في قلعة حلب، وملكها سنين فكتب أصحاب قرعويه إلى أبي المعالي واستدعوه، فسار وحاصرها أربعة أشهر، وملكها وأصلح أحوالها، وازدادت عمارتها حتى انتقل إلى ولاية دمشق كما يذكر.

استيلاء عضد الدولة بن بويه على الموصل

وسائر ملوك بني حمدان

ولما ملك عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بغداد،

ثم حدثت الفتنة بين دغفل وقسام وأخرجهم، وانتصروا بأبي ثعلب فتزل بجوارهم مخافة دغفل والفضل القائد الذي يحاصر دمشق.

ثم ثار أبو ثعلب في بني عقيل إلى الرملة في محرم سنة تسع وتسعين، فاستراب به الفضل ودغفل وجمعوا لخر به ففر بنو عقيل عنه، وبقي في سبعمائة من غلمانهم وغلمان أبيه، وولى منهزماً فلحقه الطلب فوقف يقاتل، فضرب وأسر وحمل إلى دغفل، وأراد الفضل حمله إلى العزيز فخاف دغفل أن يصطنعه كما فعل بأفكنين فقتله، وبعث الفضل بالراس إلى مصر، وحمل بنو عقيل أخته جميلة وزوجته بنت سيف الدولة إلى أبي المعالي مجلب فبعث بجميلة إلى الموصل وبعث بها أبو الوفاء إلى عضد الدولة ببغداد فاعتقلها.

وصول ورد المنازع لملك الروم إلى ديار بكر مستجيراً

كان ملك الروم أرمانوس لما توفي خلف ولدين صغيرين وهما بسيل وقسطنطين، ونصب أحدهما للملك وعاد جيشه الدمستق تفقر من بلاد الإسلام بعد أن عاث في نواحيها وبالق في النكاية، فاجتمع إليه الروم ونصبوه للنيابة عن ابني أرمانوس فدخلت أمهما ابن الشمشق على الدمشقية، وقبض على لاوون أخي دمستق وعلى ابنه ورديس بن لاوون واعتقلهما في بعض القلاع.

وسار إلى بلاد الشام وأعظم فيها النكاية وممر بطرابلس فحاصرها، وكان لوالده الملك أخ خصي وهو يومئذ وزير، فوضع على ابن الشمشق من سقاء السم، وأحس به من نفسه فأغذ السير إلى القسطنطينية فمات في طريقه.

وكان ورد بن منير من عظماء البطارقة في الأمر، وصاهر أبا ثعلب بن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور، وقصد الروم ووالى عليهم الهزائم فخافه الملكان، وأطلقا ورديس بن لاوون وبعثاه على الجيوش لقتال الورد فقاتله فانهمز إلى ديار بكر سنة تسع وستين وثلاثمائة، ونزل بظاهر ميفارقين، وبعث أخاه إلى عضد الدولة مستنجراً به.

وبعث ملكا الروم بالقسطنطينية إلى عضد الدولة فاستمالاه فرجع جانبهما، وأمر بالقبض على ورد وأصحابه فقبض عليه أبو علي التميمي عامل ديار بكر، وعلى ولده وأخيه وأصحابه وأودعهم السجن بميفارقين ثم بعثهم إلى بغداد فحبسوا بها إلى أن

ثم مات وولى أبو ثعلب مكانه مؤنساً من موالى الحمدانية، ودس أبو الوفاء إلى بعض أعيان البلد فاستماله فبعث له في الناس رغبة.

وشعر بذلك مؤنس فلم يطق مخالفتهم فانقاد واستأمن، وملك أبو الوفاء البلد وكان في أيام حصاره قد افتتح سائر حصونه فاستولى على سائر ديار بكر وأمن أصحاب أبي ثعلب وأحسن إليهم ورجع إلى الموصل.

وبلغ الخبر إلى أبي ثعلب منقلبه من دار الحرب فقصد الرحبة، وبعث إلى عضد الدولة يستعطفه فشرط عليه المسير إليه فامتنع.

ثم استولى عضد الدولة على ديار مضر وكان عليها من قبل أبي ثعلب سلامة البرقيدي من كبار أصحاب بني حمدان وكان أبو المعالي بن سيف الدولة بعث إليها جيشاً من حلب فحاربوها وامتنعت عليهم، وبعث أبو المعالي إلى عضد الدولة وعرض بنفسه عليه فبعث عضد الدولة النقيب أبا أحمد الموسوي إلى سلامة البرقيدي، وتسلمها بعد حروب، وأخذ لنفسه منها الرقة، ورد باقيها على سعد الدولة فصارت له.

ثم استولى عضد الدولة على الرحبة، وتفرغ بعد ذلك لفتح قلاعه وحصونه.

واستولى على جميع أعماله واستخلف أبا الوفاء على الموصل، ورجع إلى بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وستين.

ثم بعث عضد الدولة جيشاً إلى الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فحاصروهم حتى استقاموا وسلموا قلاعهم، ونزلوا إلى الموصل فحال الثلج بينهم وبين بلادهم فقتلهم قائد الجيش، وصلبهم على جانبي طريق الموصل.

مقتل أبي ثعلب بن حمدان

ولما أيس أبو ثعلب بن حمدان من إصلاح عضد الدولة، والرجوع إلى ملكه بالموصل سار إلى الشام، وكان على دمشق قسام داعية العزيز العلوي غلب عليها بعد أفكنين وقد تقدم ذلك، وكيف ولي أفكنين على دمشق، فخاف قسام من أبي ثعلب ومنعه من دخول البلد فأقام بظاهرها، وكاتب العزيز، وجاءه الخبر بأنه يستقدمه، فرحل إلى طبرية بعد مناوشة حرب بينه وبين قسام.

وجاء الفضل قائد العزيز لحصار قسام بدمشق، وممر بأبي ثعلب ووعدته عن العزيز بكل جيل.

حيتنذ العزيز، فكتب إلى نزال بطرابلس وغيره من ولاية الشام أن يمدوه ويكونوا في تصرفه.

ودس إليهم عيسى بن نسطورس النصراني وزير العزيز في المباحدة عنه لعداوته مع ابن كلس الوزير قبله، وتجديدها مع ابن منصور هذا فكتب نزال إلى بكجور يواعده بذلك في يوم معلوم، وأخلفه وسار بكجور من الرقة وبلغ خبر مسيره إلى أبي المعالي فسار من حلب ومعه لؤلؤ الكبير مولى أبيه، وكتب إلى بكجور يستميله ويذكره الحقوق، وأن يقطعه من الرقة إلى حمص فلم يقبل. وكتب أبو المعالي إلى صاحب أنطاكية يستمده فأمده بجيش الروم، وكتب إلى العرب الذين مع بكجور يرغبهم في الأموال والإقطاع فعدوه خذلان بكجور عند اللقاء.

فلما التقى العسكران وشغل الناس بالحرب، عطف العرب على سواد بكجور فنهبوه ولحقوا بأبي المعالي فاستمات بكجور وحمل على موقف أبي المعالي يريده، وقد أزاله لؤلؤ عن موقفه، ووقف مكانه خشية عليه، وحمل ذلك فلما انتهى بكجور لحملته برز إليه لؤلؤ وضربه فائتبه، وأحاط به أصحابه فولى منهزماً وجاء بعضهم إلى أبي المعالي فشارطه على تسليمه إليه فقبل شرطه، وأحضره فقتله وسار إلى الرقة، وبها سلامة الرشقي مولى بكجور وأولاده وأبو الحسن علي بن الحسين المغربي وزيره فاستأمنوا إليه فأنهم ونزلوا عن الرقة فملكها واستكثر ما مع أولاد بكجور فقال له القاضي ابن أبي الحصين: هو مالك، وبكجور لا يملك شيئاً ولا حث عليك.

فاستصفي ما لهم أجمع وشفع فيهم العزيز فأساء عليه الرد، وهرب الوزير المغربي إلى مشهد علي.

خبر باد الكردي ومقتله على الموصل

كان من الأكراد الحميدية بنواحي الموصل ومن رؤسائهم رجل يعرف بباد، وقيل: باد لقب له، واسمه أبو عبد الله الحسين بن ذوشتك، وقيل باد اسمه وكنيته أبو شجاع ابن ذوشتك، وإنما أبو عبد الله الحسين أخوه.

وكان له بأس وشدة وكان يخيف السابلة، ويذل ما تجمع له من النهب في عشائره فكثرت جموعه، ثم سار إلى مدينة أرمينية فملك مدينة أرجيش.

ثم رجع إلى ديار بكر، فلما ملك عضد الدولة الموصل حضر عنده في جملة الوفود وخافه على نفسه فعدا وأبعد في منهبه، وبلغ عضد الدولة أمره فطلبه فلم يظفر به.

أطلقهم بهاء الدولة بن عضد الدولة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وشرط عليه إطلاق عدد من المسلمين وإسلام سبعة من الحصون برساتيقها، وأن لا يتعرض لبلاد المسلمين ما عاش وجهزه فصار وملك في طريقه ملطية وقوي بما فيه وصالحه ورديس بن لاوون على أن يكون قسطنطينية وجانب الشمال من الخليج له وحاصر قسطنطينية، وبها الملكان ابنا أرماتوس وهما بسيل وقسطنطين في ملكها، وأقرا ورداً على ما بيده قليلاً.

ثم مات وتقدم بسيل في الملك ودام عليه ملكه وحارب البلغار خمساً وثلاثين سنة، وظفر بهم وأجلاهما عن بلادهم واسكنها الروم.

ولاية بكجور على دمشق

قدمنا ولاية بكجور على حمص لأبي المعالي بن سيف الدولة وأنه عمرها وكان أهل دمشق يتقلون إليها لما ناهم من جور قسام، وما وقع بها من الغلاء والوباء، وكان بكجور يحمل الأتوات من حمص تقريباً إلى العزيز صاحب مصر، وكتبه في ولايته فوعده بذلك.

ثم استوحش من أبي المعالي سنة ثلاث وسبعين، وأرسل إلى العزيز يستنجز وعده في ولاية دمشق فمنع الوزير بن كلس من ولايته رية به، وكان بدمشق من قبل العزيز القائد بلكين بعثه فمنع الوزير بعد قسام وساء أثر ابن كلس في الدولة، واجتمع الكتائبون بمصر على التوثب بآبن كلس ودعته الضرورة لاستقدام بلكين من دمشق فأمر العزيز باستقدامه، وولى بكجور مكانه فدخلها في رجب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وأساء السيرة فيها وعاث في أصحاب الوزير بن كلس وأقام على ذلك ستاً.

وعجز أهل دمشق منه وجهزت العساكر من مصر مع القائد منير الخادم، وكتب نزال والي طرابلس بمعاذته فسار في العساكر، وجمع بكجور عسكراً من العرب وغيرهم، وخرج للقائه فهزمه منير واستأمن إليه بكجور على أن يرحل عن دمشق فأمناه، ورحل إلى الرقة واستولى عليها، وتسلم منير دمشق وأقام بكجور بالرقة واستولى على الرحبة وما يجاور الرقة، وراسل بهاء الدولة بن عضد الدولة بالطاعة وباد الكردي المتغلب على ديار بكر والموصل بالمسير إليه، وأبا المعالي سعد الدولة صاحب حلب بالعود إلى طاعته على أن يقطعه حمص، فلم يجبه أحد إلى شيء فاقام بالرقة يرأسل موالى سعد الدولة أبي المعالي، ويستميلهم في الغدر به فأجابوه، وأخبروه أن أبا المعالي مشغول بلغاته فاستمد

عود بني حمدان إلى الموصل ومقتل باد

كان أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسن ابنا ناصر الدولة بن حمدان قد لحقا بعد مهلك أخيهما أبي ثعلب بالعراق، وكانا ببغداد، واستقرا في خدمة شرف الدولة بن عضد الدولة، فلما تولى شرف الدولة وخواشاده في الموصل بعثهما إليهما، ثم أنكر ذلك عليه أصحابه فكتب إلى خواشاده عامل الموصل فمنعهما، فكتب إليهما بالرجوع عنه فلم يجيبا، وأغذا السير إلى الموصل حتى نزلا بظاهرها.

وثار أهل الموصل بالدليم والأتراك الذين عندهم وخرجوا إلى بني حمدان.

وزحف الدليم لقتالهم فانهزموا وقتل منهم خلق، وامتنع باقيهم بدار الإمارة. وأراد أهل الموصل استلحامهم فمنعهم بنو حمدان وأخرجوا خواشاده ومن معه على الأمان إلى بغداد، وملكوا الموصل، وتسابل إليهم العرب من كل ناحية، وأراد أهل الموصل استلحامهم فمنعهم بنو حمدان، وأخرجوا خواشاده ومن معه على الأمان إلى بغداد وملكوا الموصل، وتسابل إليهم العرب من كل ناحية وبلغ الخبر إلى باد وهو بديار بكر مملك الموصل، وجمع فاجتمع إليه الأكراد البشوية أصحاب قلعة فسك، وكان جمعهم كثيراً.

واستمال أهل الموصل بكتبه فأجابه بعضهم، فسار ونزل على الموصل، وبعث أبو طاهر وأبو عبد الله ابنا حمدان إلى أبي عبد الله محمد بن المسيب أمير بني عقيل يستنصرانه، وشرط عليهما جزيرة ابن عمر ونصيبين فقبلا شرطه.

وسار أبو عبد الله صريحاً، وأقام أخوه أبو طاهر بالموصل وباد يحاصره.

وزحف أبو الراود في قومه مع أبي عبد الله بن حمدان، وعبروا دجلة عند بدر، وجاؤوا إلى باد من خلفه.

وخرج أبو طاهر والحمدانية من أمامه، والتحم القتال ونكب بياد فرسه فوق طريحاً، ولم يطق الركوب وجهض العدو عنه أصحابه فتركوه فقتله بعض العرب، وحمل رأسه إلى بني حمدان ورجعوا ظافرين إلى الموصل وذلك سنة ثمانين وثلاثمائة.

ولما هلك عضد الدولة سار باد إلى ديار بكر فملك آمد وميافارقين.

ثم ملك نصيبين فجهز صمصام الدولة العساكر إليه مع الحاجب أبي القاسم سعيد بن محمد فلقية على خابور الحسينية من بلاد كواشي فانهزم الحاجب وعساكره، وقتل كثير من الديلم، ولحق الحاجب سعيد بالموصل وباد في اتباعه.

وثارت عامة الموصل بالحاجب لسوء سيرته فأخرجوه، ودخل باد الموصل سنة ثلاث وسبعين وقوي أمره وسما إلى طلب بغداد وأهم صمصام الدولة أمره ونظر مع وزيره ابن سعدان في توجيه العساكر إليه وأنفذ كبير القواد زياد بن شهرا كونه، فتجهز لحربه وبالغوا في مدده وإزاحة علة فلقية في صفر سنة أربع وسبعين.

وانهزم باد وقتل كثير من أصحابه واسر آخرون، وطيف بهم في بغداد.

واستولى الدليم على الموصل، وأرسل زياد القائد عسكرياً إلى نصيبين فاختلفوا على مقدمهم.

وكتب ابن سعدان وزير صمصام الدولة إلى أبي المعالي بن حمدان صاحب حلب يومئذ بولاية ديار بكر، وإدخالها في عمله، فسار إليه أبو المعالي عسكرياً إلى ديار بكر فلم يكن لهم طاقة بأصحاب باد، فحاصروا ميافارقين أياماً ورجعوا إلى حلب.

وبعث سعد الحاجب من يتولى غدر باد فدخل عليه رجل في خيمته وضربه بالسيف على ساقه يظنها رأسه فنجأ من الهلكة ثم بعث باد إلى زياد القائد، وسعد الحاجب بالموصل بطلب الصلح فأنمروا بينهم على أن تكون ديار بكر لباد، والنصف من طور عبيدين.

فخلعت ديار بكر لباد من يومئذ وانحدر زياد القائد إلى بغداد، وأقام سعد الحاجب بالموصل إلى أن توفي سنة سبع وسبعين، فطمع باد في الموصل، وبعث إليها شرف الدولة بن بويه أبا نصر خواشاده في العساكر، فزحف إليه باد وتأخر المدد عن أبي نصر فبعث عن العرب من بني عقيل وبني نمير لمداغة باد، وأقطعهم البلاد.

واستولى باد على طور عبيدين آخر الجبال ولم يضجر، وأرسل أخاه في عسكر لقتال العرب فقتل، وانهزم عسكره وأقام باد قبالة خواشاده حتى جاء الخبر بموت شرف الدولة بن بويه، فزحف خواشاده إلى الموصل وقامت العرب بالصحراء وبساد بالجبال.

ونزل أبو الفضائل ولؤلؤ من القلعة إلى مدينة حلب فنقل ما فيها من الغلال، وأحرق الباقي وعاد منجوتكين إلى حصارهم بحلب.

وبعث لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي في الوساطة لهم في الصلح فصالحهم منجوتكين، ورحل إلى دمشق حجراً من الحرب وتعذر الأوقات، ولم يراجع العزيز في ذلك فغضب العزيز، وكتب إليه يوجّه ويأمره بالعودة لحصار حلب فعاد وأقام عليها ثلاثة عشر شهراً.

فبعث أبو الفضائل ولؤلؤ مراسلة لملك الروم وحرصوه على أنطاكية، وكان قد توسط بلاد البلغار فرجع عنها وأجفل في الحشد، ورجع إلى حلب.

وبلغ الخبر إلى منجوتكين فأجفل عنها بعد أن أحرق خيامه وهدم مبانيه، وجاء ملك الروم وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ فشكروا له ورجعا، ورحل ملك الروم إلى الشام ففتح حصص وشيزر ونهبهما، وحاصر طرابلس فامتعت عليه فأقام بها أربعين ليلة، ثم رحل عائداً إلى بلده.

انقراض بني حمدان بحلب واستيلاء بني كلاب عليها

ثم إن أبا نصر لؤلؤاً مولى سيف الدولة عزل أبا الفضائل مولاه بحلب، وأخذ البلد منه وعاد دعوة العباسية، وخطب للحاكم العلوي بمصر ولقبه مرتضى الدولة.

ثم فسد حاله معه فطمع فيه بنو كلاب بن ربيعة وأميرهم يومئذ صالح بن مرداس وتقبض لؤلؤ على جماعة منهم دخلوا إلى حلب، كان فيهم صالح فاعتقله مدة وضيق عليه.

ثم فر من محبسه ونجا إلى أهله وزحف إلى حلب ولؤلؤ فيها وكانت بينه وبينهم حروب هزمه صالح آخرها، وأسره سنة ستين وأربعمئة.

وخلص أخوه نجا إلى حلب فحفظها وبعث إلى صالح في فدية أخيه وشرط له ما شاء فأطلقه، ورجع إلى حلب واتهم مولاه فتحاً، وكان نائبه على القلعة بالداخلية في هزيمته فأجمع نكبته.

ونمي إليه الخبر، فكتب الحاكم العلوي وأظهر دعوته، وانتفض على لؤلؤ فأقطع الحاكم صيدا وبيروت، ولحق لؤلؤ بالروم في أنطاكية فأقام عندهم ولحق فتح بصيدا.

واستعمل الحاكم على حلب من قبله، وانقرض أمر بني

مهلك أبي طاهر بن حمدان واستيلاء بني عقيل على الموصل

لما هلك باد طمع أبو طاهر وأبو عبد الله ابنا حمدان في استرجاع ديار بكر، وكان أبو علي بن مروان الكردي، وهو ابن أخت باد قد خلاص من المعركة، ولحق بمحصن كيفا، وبه أهل باد وماله، وهو من أمنع المعقل فتزوج امرأة خاله، واستولى على ماله وعلى الحصن، وسار في ديار بكر فملك ما كان لخاله فيها تليداً.

وبينما هو يحاصر ميفارقين زحف إليه أبو طاهر وأبو عبد الله ابنا حمدان يحاربانه فهزمهما وأسر عبد الله منهما، ثم أطلقه ولحق بأخيه أبي طاهر وهو يحاصر آمد، فزحفا لقتال ابن مروان فهزمهما وأسر أبا عبد الله ثانية إلى أن شفع فيه خليفة مصر فأطلقه، واستعمله الخليفة على حلب إلى أن هلك.

وأما أبو طاهر فلحق بنصيبين في قل من أصحابه، وبها أبو الدرداء محمد ابن المسيب أمير بني عقيل وسار إلى الموصل فملكها وأعمالها، وبعث إلى بهاء الدولة أن ينفذ إليه عاملاً من قبله، فبعث إليها قائداً كان تصرفه عن أبي الدرداء، ولم يكن له من الأمر شيء إلى أن استبد أبو الدرداء واستغنى عن العامل، وانقرض ملك بني حمدان من الموصل والبقاء لله.

ملك سعد الدولة بن حمدان بحلب وولاية ابنه أبي الفضائل واستبداد لؤلؤ عليه

ولما هزم سعد الدولة مولاه بكجور، وقتله حين سار إليه من الرقة، رجع إلى حلب فأصابه فالج وهلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وكان مولاه لؤلؤ كبير دولته فنصب ابنه أبا الفضائل، وأخذ له العهد على الأجناد، وتراجعت إليهم العساكر.

وبلغ الخبر أبا الحسن المغربي وهو بمشهد علي فسار إلى العزيز بمصر، وأغراه بملك حلب واعتصم أبو الفضائل ولؤلؤ بالقلعة فبعث إليها قائده منجوتكين في العساكر وحاصرها، ثم ملك البلد، واعتصم أبو الفضائل ولؤلؤ بالقلعة، وبعث أبو الفضائل ولؤلؤ إلى ملك الروم يستجدانه، وكان مشغولاً بقتال البلغار، فأرسل إلى نائبه بأنطاكية أن يسير إليهم، فسار في خمسين ألفاً ونزل جسر الحديد على وادي العاصي، فنفر إليه منجوتكين في عساكر المسلمين وهزم الروم إلى أنطاكية، وأتبعهم فنهب بلادها وقرأها وأحرقها.

حمدان من الشام والجزيرة أجمع، وبقيت حلب في ملك العبيدين.
ثم غلب عليها صالح بن مرداس الكلبي، وكانت بها دولة
له ولقومه، وورثها عنه بنوه كما يذكر في أخبارهم.
واستمدحهم فساروا معه ونزلوا على الموصل، وخرج إلى المقلد من
كان استماله من الديلم واستأمن إليهم أبو جعفر قائد الديلم
فأمنوه، وركب السفن إلى بغداد وتابعوه فلم يظفروا منه بشيء
وتملك المقلد ملك الموصل.

الخبر عن دولة بني عقيل بالموصل وابتداء أمرهم بأبي الدرداء وتصاريه أحوالهم

كان بنو عقيل وبنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجة، كلهم من
عامر بن صعصعة وبنو طيء من كهلان، قد انتشروا ما بين الجزيرة
والشام في عدوة الفرات.
وكانوا كالرعايا لبني حمدان يؤدون إليهم الأتاوات وينفرون
معه في الحروب.
ثم استفحل أمرهم عند فشل دولة بني حمدان، وساروا إلى
ملك البلاد.
ولما انهزم أبو طاهر بن حمدان أمام علي بن مروان بديار
بكر كما قدمناه سنة ثمانين وثلاثمائة ولحق بنصيبين. وقد استولى
عليها أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد بن جعفر بن
عمر بن مهند أمير بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر، فقتل أبا
طاهر وأصحابه وسار إلى الموصل فملكها.
وبعث إلى بهاء الدولة بن بويه المستبد على الخليفة بالعراق،
في أن يبعث عاملاً على الموصل يبعث عاملاً من قبله، والحكم
راجع لأبي الدرداء، وأقام على ذلك سنتين.

وبعث بهاء الدولة سنة اثنتين وثمانين عساكره إلى الموصل
مع أبي جعفر الحاجج بن هرمز فغلب عليها أبا الدرداء، وملكها.
وزحف لحربه أبو الدرداء في قومه ومن اجتمع إليه من
العرب فكانت بينهم حروب ووقائع، وكان الظفر فيها للديلم.

مهلك أبي الدرداء وولاية أخيه المقلد

ثم مات أبو الدرداء سنة ست وثمانين وولي إمارة بني عقيل
مكانه أخوه علي بعد أن تناول إليها أخوهما المقلد بن المسيب،
وامتنع بنو عقيل لأن علياً كان أسن منه فصرف المقلد وجهه إلى
ملك الموصل، واستمال الديلم الذين فيها مع أبي جعفر بن هرمز
فمالوا إليه، وكتب إلى بهاء الدولة أن يضمته الموصل بألفي ألف
درهم كل سنة.

ثم أظهر لأخيه علي وقومه أن بهاء الدولة قد ولاه،

فتنة المقلد مع بهاء الدولة بن بويه

كان المقلد يتولى حماية غربي الفرات وكان له ببغداد نائب
فيه تهور وجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة مشاجرة.
وكان بهاء الدولة مشغولاً بفتنة أخيه، فكتب نائب المقلد
إليه يشكو من أصحاب بهاء الدولة، فجاء في العساكر، وأوقع
بهم، ومد يده إلى جباية الأموال، وخرج نائب بهاء الدولة ببغداد،
وهو أبو علي بن إسماعيل عن ضمان القصر وغيره فغالب بهاء
الدولة، وأنفذ أبا جعفر الحاجج بن هرمز للقبض على أبي علي
بن إسماعيل ومصالحه المقلد بن المسيب، فصالحه على أن يحمل
إلى بهاء الدولة عشرة آلاف دينار ويخطب له ولأبي جعفر بعده،
ويأخذ من البلاد رسم الحماية، وأن يخلع على المقلد الخلع
السلطانية ويلقب حسام الدولة، ويقطع الموصل والكوفة والقصر
والجامعين وجلس له ولأبي جعفر القادر بالله فاستولى على
البلاد، وقصده الأعيان والأمان، وعظم قدره وقبض أبو جعفر
على أبي علي بن إسماعيل ثم هرب ولحق بمهذب الدولة.

القبض على علي بن المسيب

كان المقلد بن المسيب قد وقعت المشاجرة بين أصحابه
وأصحاب أخيه في الموصل قبل مسيره إلى العراق، فلما عاد إلى
الموصل أجمع الانتقام من أصحاب أخيه، ثم نوى أنه لا يمكنه ذلك
مع أخيه، فأعمل الحيلة في قبض أخيه، وأحضر عسكره من الديلم
والأكرد، وورى بقصر دقوقا واستحلفهم على الطاعة.

ثم نقب دار أخيه وكانت ملاصقة له، ودخل إليه فقبض
عليه وحبسه، وبعث زوجته وولديه قرواش ويدران إلى تكريت.

واستدعى رؤساء العرب وخلع عليهم وأقام فيهم العطاء
فاجتمعت له زهاء ألفي فارس، وخرجت زوجة أخيه بولديها إلى
أخيها الحسن بن المسيب، وكانت أحياناً قريباً من تكريت،
فاستجاش العرب على المقلد وسار إليه في عشرة آلاف، فخرج
المقلد عن الموصل واستشار الناس في محاربة أخيه فاشار رافع بن
محمد بن معز بالحرب، وأشار أخوه غريب بن محمد بالموادعة

وصلة الرحم.

بالأنبار، فخاف نائبه فيها عبد الله بن إبراهيم بن شارويه بادرة عمه الحسن، وراسل أبا منصور بن قراد، وكان بالسندية، وقاسمه في مختلف المقلد على أن يدافع الحسن إن قصده، فأجابه إلى ذلك، وأرسل عبد الله إلى قرواش يستحثه فوصل، ووفى لابن قراد بما عاهد عليه نائبه عبد الله، وأقام ابن قراد عنده.

ثم إن الحسين بن المسيب جاء إلى مشايخ بني عقيل شاكياً مما فعله قرواش وابن قراد عنده، فسعوا بينهم في الصلح، واتفق الحسن وقرواش على الغدر بابن قراد، وأن يسير أحدهما إلى الآخر متحارين، فإذا تلاقيا قبضا على ابن قراد ففعلا ذلك.

فلما تراءى الجمعان غي الخير إلى ابن قراد فهرب، واتبعه قرواش والحسن ولم يدركاه، ورجع قرواش إلى بيوته فأخذها بما فيها من الأموال، فوجه الأموال إلى أن أخذها أبو جعفر الحجاج بن هرمز.

فتنة قرواش مع بهاء الدولة بن بويه

ولما كانت سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة بعث قرواش بن المقلد جمعاً من بني عقيل إلى المدائن فحصرها، فبعث أبو جعفر بن الحجاج بن هرمز نائب بهاء الدولة ببغداد عسكرياً إليهم فدفعوهم عنها، فاجتمعت عقيل وبنو أسد وأميرهم علي بن مزيد، وخرج أبو جعفر إليهم واستجاش مخفاجة، وأحضرهم من الشام فانهزم واستبيح عسكريه، وقتل وأسر من الأتراك والديلم كثير.

ثم جمع العساكر ثانياً ولقيهم بنواحي الكوفة فهزمهم، وقتل وأسر وراسل إلى أحياء بني مزيد، ونهب منها ما لا يقدر قدره.

ثم سار قرواش إلى الكوفة سنة سبع وتسعين، وكانت لأبي علي بن ثمال الحفاجي، وكان غائباً عنها فدخل قرواش الكوفة وصادروهم.

ثم قتل أبو علي سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وكان الحاكم صاحب مصر قد ولاه الرحبة فسار إليها، وخرج إليه عيسى بن خلاط العقيلي فقتله وملكها.

ثم ملكها بعده غيره إلى أن ولي أمرها صالح بن مرداس الكلبي صاحب حلب.

قبض قرواش على وزرائه

كان معتمد الدولة قرواش بن المقلد قد استوزره أبا القاسم

وبينما هو في ذلك إذ جاءت أخته رميلة بنت المسيب شافعة في أخيها علي فأطلقت، ورد عليه ماله وتوادع الناس، وعاد المقلد إلى الموصل وتجهز لقتال علي بن مزيد الأسدي بواسط، لأنه كان مغضباً لأخيه الحسن، فلما قصد الحلة خالفه علي إلى الموصل فدخلها وعاد إليه المقلد، وتقدمه أخوه الحسن مشفقاً عليه من كثرة جموع المقلد فأصلح ما بينهما، ودخل المقلد إلى الموصل وأخواه معه ثم خاف علي فهرب، ثم وقع الصلح بينهما على أن يكون أحدهما بالبلد.

ثم هرب علي فقصده المقلد ومعه بنو خفاجة فهرب إلى العراق، واتبعه المقلد فلم يدركه ورجع عنه.

ثم سار المقلد إلى بلد علي بن مزيد فدخله ثانية ولحق ابن مزيد بمهذب الدولة صاحب البطيحة فأصلح ما بينهما.

استيلاء المقلد على دقوقا

ولما فرغ المقلد من شأن أخويه وابن مزيد، وسار إلى دقوقا فملكها، وكانت لنصريين قد استعبدا أهلها وملكها من أيديهما جبريل بن محمد من شجعان بغداد، أعانه عليها مهذب الدولة صاحب البطيحة، وكان مجاهداً يحب الغزو فملكها، وقبض على النصرانيين وهدل في البلد.

ثم ملكها المقلد من يده، وملكها بعده محمد بن نجبان، ثم بعده قرواش بن المقلد.

ثم انتقلت إلى فخر الملك أبي غالب فعاد جبريل واستجاش بموشك بن حكويه من أمراء الأكراد، وغلب عليها عمال فخر الدولة.

ثم جاء بدران بن المقلد فغلب جبريل وموشك عليها وملكها.

مقتل المقلد وولاية ابنه قرواش

كان للمقلد موال من الأتراك فهيروا منه، واتبعهم فظفر بهم، واتبعهم وقتل وقطع وأفحش في المثلة، فخاف إخوانهم منه، واغتتموا غفلته فقتلوه فيها بالأنبار سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

وكان قد عظم شأنه وطمع في ملك بغداد.

ولما قتل كان ولده الأكبر قرواش غائباً وكانت أمواله

معن فأطلقه، ولحق بسلطان بن الحسن من عمال أمير خفاجة وابتعده عسكر من الترك وقاتلهم غربي القرات، وانهزم هو وسلطان، وعاث العسكر في أعماله فبعث إلى بغداد بمراجعة الطاعة وقيل.

ثم كانت الفتنة بينه وبين أبي أسد وخفاجة سنة سبع عشرة وأربعمائة لأن خفاجة تعرضوا لأعماله بالسواد، فسار إليهم من الموصل وأميرهم أبو القتيان منيع بن حسان، فاستجاش بديس بن علي بن مزيد فجاءه في قومه بني أسد، وعسكر من بغداد والتقوا بظاهر الكوفة، وهو يومئذ لقرواش، فخاف قرواش عن لقائهم وأجفل ليلاً للأتبار، وابتعوه فرحل عنها إلى حلله، واستولى القسم على الأتبار وملكوها، ثم فارقوها، واقتروا فاستعادها قرواش.

ثم كانت الحرب بينه وبين بني عقيل في هذه السنة، وكان سببها أن الأثير عنبر الخادم حاكم دولة بني بويه انتقض عليه الجند، وخافهم على نفسه فلاحق بقرواش فجاء قرواش وأخذ له أقطاعه وأملاكه بالقيروان، فجمع مجد الدولة بن قرداد ورافع بن الحسين جمعاً كبيراً من بني عقيل وانضم إليهم بدران أخو قرواش وساروا لحربه وقد اجتمع هو وغريب بن معن والأثير عنبر، وأمدهم ابن مروان فكانوا في ثلاثة عشر ألفاً، والتقوا عند بلدهم فلما تصافوا والتحم القتال خرج بدران بن المقلد إلى أخيه قرواش فصالحه وسط المصاف، وفعل ثوران بن قرداد كذلك مع غريب بن معن فتوادعوا جميعاً واصطلحوا، وأعاد قرواش إلى أخيه بدران مدينة الموصل.

ثم وقعت الحرب بين قرواش وبين خفاجة ثانياً.

وكان سببها أن منيع بن حسان أمير خفاجة وصاحب الكوفة سار إلى الجامعين بلد ديبس ونهبها فخرج ديبس في طلبه إلى الكوفة فقصده الأتبار، ونهبها هو وقومه، فسار قرواش إليهم ومعه غريب بن معن الأتبار.

ثم مضى في اتباعهم إلى القصر فخالقوه إلى الأتبار ونهبوها وأحرقوها واجتمع قرواش وديبس في عشرة آلاف وخاموا عن لقاء خفاجة فلم يكن من قرواش إلا بناء السور على الأتبار.

ثم سار منيع بن حسان الخفاجي إلى الملك كليجار والتزم الطاعة وخطب له بالكوفة وأزال حكم بني عقيل عن سقي القرات.

ثم سار بدران بن المقلد في جموع من العرب إلى نصيبين وحاصرها وهي لنصير الدولة بن مروان فجهز لهم الجند، وبعثهم إليها فقاتلوا بدران فانهمز أولاً، ثم عطف عليهم فانهمزوا وأئخن

الحسين بن علي بن الحسين المغربي، وكان من خبره أن أباه من أصحاب سيف الدولة بن حمدان فذهب عنه إلى مصر وولي بها الأعمال، وولد ابنه أبا القاسم ونشأ هنالك.

ثم قتله الحاكم فلحق أبو القاسم بحسان بن مفرج بن الجراح الطائي بالشام، وأغراه بالانتقاض والبيعة لأبي الفتوح الحسن بن جعفر صاحب مكة ففعل ذلك، ولم يتم أمر أبي الفتوح ورجع إلى مكة ولحق أبو القاسم المغربي بالعراق، واتصل بفخر الملك فارتاب به القادر لاتسابه إلى العلوية فأبعده فخر الملك، فقصده قرواش بالموصل فاستوزره، ثم قبض عليه سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وصادته على مال زعم أنه ببغداد والكوفة فأحضره، وترك سبيله فعاد إلى بغداد ووزر لشرف الدولة بن بويه بعد وزيره مؤيد الملك الرخجي، وكان مداخلاً لعنبر الخادم الملقب بالأثير المستولي على الدولة يومئذ.

ثم سخطه الأتراك وسخطوا الأبهري فأشار عليه بالخروج عن بغداد فخرج الوزير وأبو القاسم معه إلى السندية وبها قرواش فانزلهم، وساروا إلى أوانا وبعث الأتراك إلى الأثير عنبر بالاستعتاب فاستعتب، ورجع وهرب أبو القاسم المغربي إلى قرواش سنة خمس عشرة وأربعمائة لعشرة أشهر من وزارته.

ثم وقعت فتنة بالكوفة كان منشؤها من صهره ابن أبي طالب، فأرسل الخليفة إلى قرواش في إبعاده عنه، فأبعده وسار إلى ابن مروان إلى ديار بكر، وهنالك يذكر بقية خبره.

ثم قبض معتمد الدولة قرواش على أبي القاسم سليمان بن فهر عامل الموصل له ولأبيه، وكان من خبره أنه كان يكتب في حديثه بين يدي أبي إسحاق الصابي، ثم اتصل بالمقلد بن المسيب، وأصعد معه إلى الموصل واقتنى بها الضياع.

ثم استعمله قرواش على الجبايات فظلم أهلها وصادهم فحبسه، وطالبه بالمال فعجز وقتل.

حروب قرواش مع العرب وعساكر بغداد

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة اجتمع العرب على فتنة قرواش، وسار إليه ديبس بن علي بن مزيد الأسدي وغريب بن معن، وجاءهم العسكر من بغداد فقاتلوه عند سر من رأى، ومعه رافع بن الحسين فانهمز ونهبت أثقاله وخزائنه، وحصل في أسرهم، وفتحوا تكريت عنوة من أعماله.

ورجعت عساكر بغداد إليها واستجار قرواش بغريب بن

إليهم الأكراد البشوية أصحاب فتك فادركوهم فاستمات الغز وقتلوهم، ثم تحاجزوا.

وتوجهت العرب إلى العراق للمشتى، وأخربت الغز ديار بكر، ودخل قرواش الموصل ليدفعهم عنها لما بلغه أن طائفة منهم قصدوا بلده.

فلما نزلوا برقعيد عزم على الإغارة عليهم، فتقدموا إليه فرجع إلى مصانعتهم بالمال على ما شرطوه.

وبينما هو يجمع لهم المال وصلوا إلى الموصل فخرج قرواش في عسكره وقتلهم عامة يومه.

وعادوا للقتال من الغد فانهمزمت العرب وأهل البلد، وركب قرواش سفينة في الفرات، وخلف جميع ماله.

ودخل الغز البلد ونهبوا ما لا يحصى من المال والجواهر والحلي والأثاث، ولجأ قرواش إلى السند، وبعث إلى الملك جلال الدولة يستنجد، وإلى ديبس بن علي بن مزيد وأمراء العرب والأكراد يستمددهم وأفحش الغز في أهل الموصل قتلاً ونهباً وعيثاً في الحرم، وصانع بعض الدروب والمحال منها عن أنفسهم بمال ضمنوه فكفوا عنهم وسلموا.

وفرضوا على أهل المدينة عشرين ألف دينار فقبضوها، ثم فرضوا أربعة آلاف آخر وشرعوا في تحصيلها فثار بهم أهل الموصل، وقتلوا من وجدوا منهم في البلد.

ولما سمع إخوانهم اجتماعوا ودخلوا البلد عنوة متصفاً سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ووضعوا السيف في الناس واستباحوها اثني عشر يوماً، وانسدت الطرق من كثرة القتلى حتى واروهم جماعات في الحفائر.

وطلبوا الخطبة للخليفة ثم لطغربك، وطال مقامهم بالبلد، فكتب الملك جلال الدولة بن بويه ونصير الدولة بن مروان إلى السلطان طغربك يشكون منهم، فكتب إلى جلال الدولة معترداً بأنهم كانوا عبيداً وخدماً لنا فأفسدوا في جهات الري فخافوا على أنفسهم وشردوا، ويعدّه بأنه يبعث العساكر إليهم، وكتب إلى نصير الدولة بن مروان يقول له: بلغني أن عبيدنا قصدوا بلادك فصانعتهم بالمال، وأنت صاحب ثغور ينبغي أن تعطي ما تستعين به على الجهاد، ويعدّه أنه يرسل من يدفعهم عن بلاده.

ثم سار ديبس بن مزيد إلى قرواش مدداً، واجتمعت إليه بنو عقيل، وساروا من السن إلى الموصل فتأخر الغز إلى تل أغضر، وأرسلوا إلى أصحابهم بديار بكر ومقدمتهم ناصفلي وبقا فوصلوا إليهم وتزاحفوا مع قرواش في رمضان سنة خمس وثلاثين

فيهم، وبلغه الخبر أن أخاه قرواش قد وصل إلى الموصل فأجفل خوفاً منه.

استيلاء الغز على الموصل

كان هؤلاء الغز من شعوب الترك بمفازة بخارى، وكثر فسادهم في جهاتها فأجاز إليهم محمود بن سبكتكين، وهرب صاحب بخارى وحضر عنده أميرهم أرسلان بن سلجوق فقبض عليه وحسبه بالهند، ونهب أحياءهم وقتل كثيراً منهم فهربوا إلى خراسان وأفسدوا ونهبوا فبعث إليهم العساكر فأتخنوا فيهم وأجلوهم عن خراسان.

ولحق كثير منهم بأصبهان وقتلوا صاحبها وذلك سنة عشرين وأربعمائة.

ثم افترقوا فسارت طائفة منهم إلى جبل بكجار عند خوارزم ولحقت طائفة أخرى بأذربيجان وأميرها يومئذ وهشروان فآكرمهم، ووصلهم ليكفوا عن فسادهم فلم يفعلوا.

وكان مقدموهم أربعة: توقا وكوكناش ومنصور ودانا فدخلوا مراغة سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ونهبوها وأتخنوا في الأكراد الهدبانية، وسارت طائفة منهم إلى الري فحاصروها وأميرها علاء الدين بن كاكويه واقتحموا عليه البلد وأفحشوا في النهب والقتل، وفعلوا كذلك في الكرخ وقزوین.

ثم ساروا إلى أرمينية وعاثوا في نواحيها وفي أكرادها، ثم عاثوا في الدينور سنة ثلاثين.

ثم أوقع وهشروان صاحب تبريز لجماعة منهم في بلده وكانوا ثلاثين ومقدمهم، فضعف الباقون وأكثر فيهم القتل.

واجتمع الغز الذين بأرمينية، وساروا نحو بلاد الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فأتخنوا فيهم، وعاثوا في البلاد.

ثم كر عليهم الأكراد فنالوا منهم وافترقوا في الجبال وغزقوا.

وبلغهم مسير نبال أخي السلطان طغربك وهم في الري وكانوا شاردین منه فاجفلوا من الري، وقصدوا ديار بكر والموصل سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ونزلوا جزيرة ابن عمر، ونهبوا باقردي وبازندی والحسنية وغدر سليمان بن نصير الدولة بن مروان بأمير منهم، وهو منصور بن عزعتيل فقبض عليه وحسبه، وافترق أصحابه في كل جهة وبعث نصير الدولة بن مروان عسكراً في اتباعهم، وأمدهم قرواش صاحب الموصل بعسكر آخر، وانضم

فتنة قرواش وجلال الدولة وصلحهما

كان قرواش قد بعث عسكره سنة إحدى وثلاثين لحصار خميس بن ثعلب بتكريت، واستجار خميس بجلال الدولة فبعث إليه بالكف عنه فلم يفعل، فسار بنفسه يحاصره، وكتب إلى الأتراك ببغداد يستفسدهم عن جلال الدولة.

وسار جلال الدولة إلى الأنبار فامتنت عليه، وسار قرواش للقائه وأعوزت عساكر جلال الدولة الأقوات.

ثم اختلفت عقيل على قرواش، وبعث إلى جلال الدولة بمعاودة الطاعة، فتحالفا وعاد كل إلى بلده.

أخبار ملوك القسطنطينية هذه العصور

كان بسيل وقسطنطين قد تزوج أبوهما أمهما في يوم عيد، ركب إلى الكنيسة فقرأها في النظارة فشغف بها.

وكان أبوها من أكابر الروم فخطبها منه، وتزوجها وولدت الولدين ومات أبوهما وهما صغيران، وتزوجت بعده بمدة نقفور، وملك وتصرف وأراد أن ينجب ولديها، وأغرقت الدمستق بقتله فقتله وتزوجت به، وأقامت معه سنة، ثم خافها وأخرجها بولديها إلى دير بعيد فأقامت فيه سنة أخرى.

ثم دست إلى بعض الرهبان ليقتل الدمستق، فأقام بكنيسة الملك بتحليل لذلك، حتى جاء الملك واستطعمه القريان في العيد من يده، فدس له معه سمًا ومات.

وجاءت هي قبل العيد بليال إلى القسطنطينية فملك ولدها بسيل واستبدت عليه لصغره.

فلما كبر سار لقتال البلغار في بلادهم، وبلغه وهو هنالك وفاتها فأمر خادماً له بتدبير الأمر في غيبته بالقسطنطينية.

وأقام في قتال البلغار أربعين سنة، ثم انهزم وعاد إلى القسطنطينية وتجهز ثانية، وعاد إليهم فظفر بهم وقتل ملكهم وملك بلادهم، ونقل أهلها إلى بلاد الروم.

قال ابن الأثير: وهؤلاء البلغار الذين ملك بلادهم بسيل غير الطائفة المسلمة منهم، وهؤلاء أقرب من أولئك إلى بلاد الروم بشهرين، وكلاهما بلغار انتهى.

وكان بسيل عادلاً حسن السيرة، وملك على الروم نيلاً وسبعين سنة.

ولما مات الملك أخوه قسطنطين، ثم مات وخلف بنات

وأربعمائة فقاتلوهم إلى الظهر، وكشفوا العرب عن حلهم.

ثم استماتت العرب فانهزمت الغز وأخذهم السيف ونهب العرب أحياءهم، وبعثوا برؤوس القتلى إلى بغداد واتبعهم قرواش إلى نصيبين ورجع عنهم، وقصدوا ديار بكر فنهبوا، ثم أرنز الروم كذلك ثم أذربيجان، ورجع قرواش إلى الموصل.

استيلاء بدران بن المقلد على نصيبين

قد تقدم لنا محاصرة بدران نصيبين وزحيله عنها من أخيه قرواش.

ثم اصطلحوا بعد ذلك واتفقا وتزوج نصير الدولة ابنة قرواش فلم يعدل بينها وبين نسائه، وشكت إلى أبيها فبعث عنها.

ثم هرب بعض عمال ابن مروان إلى قرواش وأطمعه في الجزيرة فتعلل عليه قرواش بصدائق ابنته، وهو عشرون ألف دينار. وطلب الجزيرة ونصيبين لأخيه بدران فامتنع ابن مروان من ذلك، فبعث قرواش جيشاً لحصار الجزيرة وآخر مع أخيه بدران لحصار نصيبين.

ثم جاء بنفسه وحاصرها مع أخيه، وامتنت عليه وتسالت العرب والأكراد إلى نصير الدولة بن مروان بميافاوقين.

وطلب منه نصيبين فسلمها إليه، وأعطى قرواش من صدائق ابنته خمسة عشر ألف دينار.

وكان ملك ابن مروان في دقوقا، فزحف إليه أبو الشوك من أمراء الأكراد فحاصره بهاء، وأخذها من يده عشوة، وعفا عن أصحابه.

ثم توفي بدران سنة خمس وعشرين وأربعمائة وجاء ابنه عمر إلى قرواش فأقره على ولاية نصيبين، وكان بنو عمير قد طمعوا فيها وحاصروه، فسار إليهم ودافعهم عنها.

الفتنة بين قرواش وغريب بن معن

كانت تكريت لأبي المسيب رافع بن الحسين من بني عقيل، فجمع غريب جمعاً من العرب والأكراد، وأمدد جلال الدولة بعسكر، وسار إلى تكريت فحاصرها وكان رافع بن الحسين عند قرواش بالموصل، فسار لنصره بالعساكر، ولقيه غريب في نواحي تكريت فانهزم، واتبعه قرواش ورافع، ولم يتعرضوا لخلته وماله ثم تراسلوا واصطلحوا.

وكان قرواش وأخوه زعيم الدولة أبو كامل مشغولين بالعراق فكثروا ذلك لما بلغتهما، ورجعا إلى الموصل، فطلب قرواش من الحميدي والهدباني النجدة على نصير الدولة بن مروان، فجاء الحميدي بنفسه، وبعث الهدباني أخاه، وأصلح قرواش ونصير الدولة، ثم قبض على عكشان وصاحبه على إطلاق أبي الحسن بن موشك، وامتنع أخوه أبو علي وكان عكشان عوناً عليه، فأجاب ورهن في ذلك ولده.

ثم أرسل أبا علي في ذلك الأمر، وحضر بالموصل ليسلم أربل إلى أخيه أبي الحسن، وسلم قرواش إليه قلاعه.

وخرج ابن عكشان وأبو علي ليسلما أربل إلى أبي الحسن بن موشك، فغندرا به وقبضا على أصحابه، وهرب هو إلى الموصل وتأكدت الوحشة بينهما وبين قرواش.

خلع قرواش بأخيه أبي كامل ثم عوده

ثم وقعت الفتنة بين معتمد الدولة قرواش وأخيه زعيم الدولة أبي كامل، وكان سببها أن قريشاً ابن أخيهما بدران فتن عمه أبا كامل، وجمع عليه الجموع وأعانه عمه الآخر.

واستمد قرواش بنصير الدولة بن مروان فبعث إليه بابنه سليمان، وأمدّه الحسن بن عكشان وغيرهما من الأكراد وساروا إلى معلا فنهروها وأحرقوها.

ثم اقتلوا في الحرم سنة إحدى وأربعين يوماً وثانياً، ووقفت الأكراد ناحية عن المصاف ولم يغشوا الجبال.

وتسلل عن قرواش بعض جموعه من العرب إلى أخيه، وبلغه أن شيعة أخيه أبي كامل بالأنبار وبؤوا فيها وملكوها فضضع أمره، وأحس من نفسه الظهور عليه ولم يبرح فركب أخوه أبو كامل وقصد حلته، فركب قرواش للقائه، وجاء به أبو كامل لحلته ثم بعث به إلى الموصل وركل به.

وملك أبو كامل الموصل واشتط عليه العرب فخاف العجز والفضيحة أن يراجعوا طاعة أخيه فسبهم إليها، وأعاده إلى ملكه وبايعه على الطاعة، ورجع قرواش إلى ملكه.

وكان أبو كامل قد أحدث الفتنة بين البساسيري كافل الخلافة ببغداد، وملك الأمراء بها لما فعله بنو عقيل في عراق العجم من التعرض لإقطاعه، فسار إليهم البساسيري، وجمع أبو كامل بني عقيل ولقيه فاقتلوا قتالاً شديداً ثم حاجزوا.

فلما رجع قرواش إلى ملكه نزع جماعة من أهل الأنبار إلى

ثلاثاً فملك الكبرى وتزوجت بأرمانوس من بيت ملكهم، وهو الذي ملك الرها من المسلمين، وكان له من قبل الملك رجل يخدمه من السوق الصيارفة اسمه ميخايل فاستخلصه وحكمه في دولته، فمالت زوجة أرمانوس إليه، وأعملا الخيلة في قتل الملك أرمانوس فقتلاه خنقاً وتزوجته على كره من الروم.

ثم عرض لميخايل هذا مرض شوه خلقته فعهد بالملك إلى ابن أخيه واسمه ميخايل، فملك بعده وقبض على أخواله وأخوتهم وضرب الدنانير باسمه سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

ثم أحضر زوجته بنت الملك وحملها على الرهبانية والخروج له عن الملك، وضربها ونفاها إلى جزيرة في البحر.

ثم اعتزم على قتل البطرك للراحة من تحكمه، فأمره بالخروج إلى الدير لعمل وليمة يحضرها عنده، وأرسل جماعة من الروم وبلغار لقتله، فبذل لهم البطرك مالاً على الإبقاء، ورجع إلى بيته، وحمل الروم على عزل ميخايل، فأرسل إلى زوجته الملكة من الجزيرة التي نفاها إليها فلم تفعل، وأقبلت على رهبانيتها فخلعها البطرك من الملك، وملك أختها الصغيرة بدرونة، وأقاموا من خدم أبيها من يدبر ملكها، وخلعوا ميخايل، وقاتل أشياعه أشياع بدرونة فظفر بهم أشياع بدرونة ونهبوهم.

ونزع الروم إلى التماس ملك يدبرهم، وقسارعو بين المرشحين فخرجت القرعة على قسطنطين فملكوه وتزوجته الملكة الكبرى، ونزلت لها الصغيرة عن الملك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ثم خرج خارجي من الروم اسمه ميناس وكثر جمعه وبلغ عشرين ألفاً، وجهز قسطنطين إليه العساكر فقتلوه وسبق رأسه إليه، وافترق أصحابه.

ثم ورد على القسطنطينية سنة خمس وثلاثين مراكب للروم ووقعت منها محاورات نكرها الروم فحاربوهم، وكانوا قد فارقوا مراكبهم إلى البر فأحرقوها وقتلوا الباقيين.

الوحشة بين قرواش والأكراد

كان للأكراد عدة حصون تجاور الموصل، فمنها للحميدية قلعة العقر وما إليها، وصاحبها أبو الحسن بن عكشان، وللهدبانية قلعة أربل وأعمالها، وصاحبها أبو الحسن بن موشك، ونازعه أخوه أبو علي بن أربل فأخذها منه بإعانة ابن عكشان، وأسر أخاه أبا الحسن.

البساسيري شاكرين شاكين سيرة قرواش، وطلبوا أن يبعث معهم عسكرياً وعاملاً إلى بلدهم ففعل ذلك، وملكها من يد قرواش وأظهر فيهم العدل.

خلع قرواش ثانية واعتقاله

كان قرواش لما أطاعه أخوه أبو كامل بقي معه كالوزير يتصرف، إلا أن قرواش أنف من ذلك وأعمل الحيلة في التخلص منه، فخرج من الموصل سائراً إلى بغداد، وشق ذلك على أخيه أبي كامل فأرسل إليه أعيان قومه ليردوه طوعاً أو كرهاً فلاطفوه أولاً، وشعر منهم بالدخيلة فأجاب إلى العود وشرط سكنى دار الإمارة، فلما جاء إلى أبي كامل قام بمبرته وإكرامه ووكل به من يمنعه التصرف.

وفاة أبي كامل وولاية قريش بن بدران

لما ملك قريش بن بدران وحبس عمه بقلعة الجراحية، ارغحل يطلب العراق سنة أربع وأربعين وأربعمائة فانتقض عليه أخوه المقلد، وسار إلى نور الدولة ديبس بن مزيد فنهب قريش حلله، وعاد إلى الموصل، واختلف العرب عليه، ونهب عمال الملك الرحيم ما كان لقريش بنواحي العراق.

ثم استمال قريش العرب عليه، ونهب عمال الملك الرحيم ما كان لقريش بن المسيب صاحب الحظيرة مخالفاً عليه.

وبعث قريش بعض أصحابه فلقبهم، وأوقع بهم فساد إليه قريش، ولقيه فهزمه واتبعه إلى حلل بلاد ابن غريب ونهبها.

ودخل العراق وبعث إلى عمال الملك الرحيم بالطاعة وضمان ما كان عليه في أعماله فأجابوه إلى ذلك لشغل الملك الرحيم بخوزستان فاستقر أمره وقوي.

(وفاة قرواش) وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة هذه توفي معتمد الدولة أبو منيع قرواش بن المقلد بمحبسه في قلعة الجراحية وحمل إلى الموصل ودفن بها ببلد نينوى شرقها، وكان من رجال العرب.

استيلاء قريش على الأنبار

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة زحف قريش بن بدران من الموصل ففتح مدينة الأنبار وملكها من يد عمال البساسيري

وسار البساسيري إلى الأنبار فاستعادها.

حرب قريش بن بدران والبساسيري ثم

اتفاقهما وخطبة قريش لصاحب مصر

كان قريش بن بدران قد بعث بطاعته إلى طغرل بك وهو بالري، وخطب له بجميع أعماله، وقبض على الملك الرحيم.

وكان قريش معه فنهب معسكره واختفى، وسمع به السلطان فأمنه ووصل إليه فآكرمه وردّه إلى عمله.

وكان البساسيري قد فارق الملك الرحيم عند مسيره من واسط إلى بغداد، ومسير طغرل بك من حلوان.

وقصد نور الدولة ديبس بن مزيد للمصاهرة بينهما.

وكان سبب مفارقة البساسيري للملك الرحيم كتاب القائم له بإبعاده لاطلاعه على كتابه إلى خليفة مصر، فلما وصل قريش بن بدران إلى بغداد وعظم استيلاء السلطان طغرل بك على الدولة، بعث جيشاً وزحف البساسيري للقائهم ومعه نور الدولة ديبس، فالتقوا بسنجار، فانهزم قريش وقطلمش وأصحابهما، وقتل كثير منهم وعاث أهل سنجار فيهم، وسار بهم إلى الموصل وخطب بها للمستنصر خليفة مصر، وقد كانوا بعثوا إليه بطاعتهم من قبل، فبعث إليهم بالخلع ولقريش جملتهم.

استيلاء طغرل بك على الموصل وولاية أخيه

نيال عليها ومعاودة قريش الطاعة

كان السلطان طغرل بك لما طال مقامه ببغداد، ساء أثر عساكره في الرعايا، فبعث القائم وزيره رئيس الرؤساء أن يحضر عميد الملك الكندي وزير طغرل بك ويعظه في ذلك، ويهدده برحيل القائم عن بغداد فبلغه خلال ذلك شأن الموصل، فرحل إليها وحاصر تكريت ففتحها وقبل من صاحبها نصر بن عيسى من بني عقيل ما لا بد له منه.

ورحل عنه فمات نصر وولي بعده أبو الغنائم بن البهلبان فأصلح حاله مع رئيس الرؤساء، ورحل السلطان من البواريج وكان في انتظار أخيه ياقوتي بن تكثير.

ثم توجه السلطان إلى نصيبين وبعث هزارسب إلى البرية لقتال العرب وفيهم قريش وديبس وأصحاب حران والرقّة من غير فاقع بهم، ونال منهم وأسر جماعة قتلهم.

ونزلوا بجوانب بغداد، ونزل عميد العراق بالعسكر قبالة الباسيري ورئيس الرؤساء وزير الخليفة قبالة الآخرين.

وخطب الباسيري للمستنصر صاحب مصر بجوامع بغداد وأذن بـ «حي على خير العمل».

ثم استعجل رئيس الرؤساء الحرب فاستنجد القوم، ثم كروا عليه فهزموه واقتحموا حريم الخلافة، وملكوا القصور بما فيها، ونهب الخليفة فوجد عميد العراق قد استأمن إلى قريش بن بدران فاستأمن هو كذلك، وأمنهما قريش وأعادهما.

وعزل الباسيري في الانفراد بذلك دونه، وقد تعاهدا على خلاف ذلك فاستعجب له بالوزير رئيس الرؤساء، ودفعه إليه وأقام الخليفة والعميد عنه، فقتل الباسيري الوزير ابن عبد الرحيم، وبعث قريش بالخليفة القائم مع ابن عمه مهارش بن نجلى إلى حديثة عانة فأنزله بها مع أهله وحرمة وحاشيته، حتى إذا فرغ السلطان، طغريك من أمر أخيه نبال وقلته ورجع إلى بغداد بعث الباسيري وقريش في إعادة القائم إلى داره فامتنع، وأجفل عن بغداد في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمئة.

وشمل النهب مدينة بغداد وضواحيها من بني شيبان وغيرهم، وبعث السلطان طغريك الإمام أبا بكر محمد بن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على فعله بالخليفة وبأنه أخته زوجة الخليفة أرسلان خاتون، وأنه بعث ابن فورك لإحضارهما، وكتب قريش إلى مهارش ابن عمه بأن يلحق به هو والخليفة في البرية.

فأبى، وسار الخليفة إلى العراق وجعل طريقه على الري، ومر ببدر بن مهلهل فخدمه القائم وخرج السلطان للقاء الخليفة، وقدم إليه الأموال والآلات، وعرضه أرباب الوظائف ولقيه بالنهر، وجاء معه إلى قصره كما تقدم في أخباره.

وبعث السلطان خبائركين الطغرائي في العساكر لاتباع الباسيري والعرب، وجاء إلى الكوفة واستصحب سرايا ابن منيع ببني خفاجة.

وسار السلطان في أثرهم وصبحت السرية الباسيري في حلة ديبس بن يزيد فنهوها، وفر ديبس، وقاتل الباسيري وأصحابه فقتل في المعركة.

وفاة قريش بن بدران وولاية ابنه مسلم

ثم توفي قريش بن بدران سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة ودفن بنصيبين، وجاء فخر الدولة أبو نصر بن محمد بن جهمر من

وعاد إلى السلطان طغريك فبعث إليه قريش وديبس بطاعتها، وأن يتوسط لهما عند السلطان، فعفا السلطان عنهما، وقال للباسيري: ردهما إلى الخليفة فيرى ما عندهما.

فرحل الباسيري عند ذلك إلى الرحبة وتبعه أشراف بغداد ومقبل بن المقلد وجماعة من بني عقيل، وبعث السلطان إلى قريش وديبس هزارسب بن تنكير ليقضي ما عندهما ويحضرهما، وكان ذلك بطلبهما ثم خافا على أنفسهما، فبعث قريش أبا السيد هبة الله بن جعفر وديبس ابنه بهاء الدولة منصوراً لقبيلهما السلطان، وكتب لهما بأعمالهما، وكان لقريش من الأعمال: الموصل ونصيبين ونكريت وأوانا ونهر بيطر وهيت والأنبار وبادرونا ونهر الملك.

ثم قصد السلطان ديار بكر ووصل إليه أخوه إبراهيم نبال، وأرسل هزارسب إلى قريش وديبس يحذرهما منه.

وسار لسنجار لأجل واقعة مع قريش وديبس، فبعث العساكر إليها واستباحهم وقتل أميرها علي بن مرزا وخلق كثير من أهلها رجالاً ونساء، وشفع إبراهيم نبال في الباقي فكف عنهم، وأقطع سنجان الموصل وتلك الأعمال كلها لأخيه إبراهيم نبال، وعاد إلى بغداد فدخلها في ذي القعدة سنة تسع وأربعين وأربعمئة.

مقارنة نبال الموصل وما كان لقريش فيها

وفي بغداد مع الباسيري وحبسهما القائم

وفي سنة خمسين وأربعمئة خرج إبراهيم نبال من الموصل إلى بلاد الروم، فخشي طغريك أن يكون مقتضاً، وبادر بكتابه وكتاب الخليفة إليه، فرجع وخرج الوزير الكندري للقاءه.

وخالفه الباسيري وقريش إلى الموصل فملكها وحاصر القلعة حتى استأمن أهلها على يد ابن موسك وصاحب أربد فأمناهم وهدم القلعة.

وسار السلطان طغريك من وقته إلى الموصل ففارقها، واتبعها إلى نصيبين ففارقه أخوه نبال في رمضان سنة خمسين وأربعمئة.

وسار السلطان طغريك في أثره وحاصره بهمدان، وجاء الباسيري إلى بغداد وكان هزارسب بواسط، وديبس ببغداد قد استدعاه الخليفة للدفاع فستمر المقام، ورجع إلى بلده، وجاء الباسيري وقريش ووزير بني بويه أبو الحسن بن عبد الرحيم

على تسليم البلد للترك، فبادر إلى حران وصالح في طريقه ابن ملاعب صاحب حصص، وأعطاه سليمة ورفسة، وحاصر حران وخرب أسوارها، واقتحمها عنوة وقتل القاضي وابنه.

حرب ابن جهير مع مسلم بن قريش واستيلاؤه على الموصل ثم عودها إليه

كان فخر الدولة أبو نصر محمد بن أحمد بن جهير من أهل الموصل، واتصل بخدمة بني المقلد ثم استوحش من قريش بن بدران واستجار ببعض رؤساء بني عقيل فأجاروه منه، ومضى إلى حلب فاستوزره معز الدولة أبو ثمال بن صالح، ثم فارقه إلى نصير الدولة بن مروان بديار بكر فاستوزره.

ولما عزل القائم وزيره أبا الفتح محمد بن منصور بن دارس استدعاه للوزارة، فتحبل في السير إلى بغداد، واتبعه ابن مروان فلم يدركه.

ولما وصل إلى بغداد استوزره القائم سنة أربع وخمسين وأربعمائة وطرغريك يومئذ هو السلطان المستبد على الخلفاء.

واستمرت وزارته وتخللها العزل في بعض المرات إلى أن مات القائم، وولي المقتدي، وصارت السلطنة إلى ملك شاه فعزله المقتدي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة بشكوى نظام الملك إلى الخليفة به، وسأله عزله فعزله، وسار ابنه عميد الدولة إلى نظام الملك بأصفهان واستصلحه وشفع فيه إلى المقتدي، فأعاد ابنه عميد الدولة، ثم عزله سنة ست وسبعين وأربعمائة فبعث السلطان ملك شاه ونظام الملك إلى المقتدي بتخيلة سبيل بني جهير إليه فوفدوا عليه بأصفهان، ولقوا منه مبرة وتكرمة.

وعقد السلطان ملك شاه لفخر الدولة على ديار بكر، وبعث معه العساكر وأمره أن يأخذ البلاد من ابن مروان، وأن يخطب لنفسه بعد السلطان وينقش اسمه على السكة كذلك فसार لذلك، وتوسط ديار بكر ثم أوقفه السلطان سنة سبع وسبعين وأربعمائة بالعساكر مع الأمير أرتق جد الملوك بمادين لهذا العهد، وكان ابن مروان عندما أحس بمسير العساكر إليه، بعث إلى شرف الدولة مسلم بن قريش يستنجد على أن يعطيه آمد من أعماله.

فجاء إلى آمد وفخر الدولة بنواحيها، وقد ارتاب من اجتماع العرب على نصرة ابن مروان ففتر عزمه عن لقائهم، وسارت عساكر الترك الذين معه فصبحوا العرب في أحيائهم فانهمزوا، وغنموا أموالهم ومراشيتهم، ونجا شرف الدولة إلى آمد،

دارا وجمع بني عقيل على ابنه أبي الكارم مسلم بن قريش فولوه عليهم، واستقام أمره وأقطعه السلطان سنة ثمان وخمسين الأنبار وهي حريم والسن والبراريح، ووصل إلى بغداد فركب الوزير ابن جهير في المركب للقاءه.

ثم سار سنة ستين وأربعمائة إلى الرجة فقاتل بها بني كلاب وهم في طاعة المستنصر العلوي فهزمهم وأخذ أسلابهم، وبعث بأشلائهم وعليها سمات العلوية فطيف بها منكسة ببغداد.

استيلاء مسلم بن قريش على حلب

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة سار شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل إلى مدينة حلب فحاصرها، ثم أفرج عنها فحاصرها تش بن الب أرسلان، وقد كان ملك الشام سنة إحدى وسبعين قبلها فأقام عليها أياماً.

ثم أفرج عنها وملك بزاعة والبيرة، وبعث أهل حلب إلى مسلم بن قريش بأن يمكنوه من بلدهم ورئيسها يومئذ ابن الحسين العباسي، فلما قرب منهم امتنعوا من ذلك فترصد لهم بعض التركمان وهو صاحب حصن بنواحيها، وأقام كذلك أياماً حتى صادف ابن الحسين يتصيد في ضيعته فأسر، وبعث به إلى مسلم بن قريش فأطلقه على أن يسلموا له البلد، فلما عاد إلى البلد ثم له ذلك، وسلم له البلد.

فدخله سنة ثلاث وسبعين، وحصر القلعة واستنزل منها سابقاً ووثاباً ابني محمد بن مرداس، وبعث ابنه إبراهيم وهو ابن عمه السلطان إلى السلطان يخبره بملك حلب وسأل أن يقدر عليه ضمانه فأجاباه السلطان إلى ذلك، وأقطع ابنه عمداً مدينة بالس.

ثم سار مسلم إلى حران وأخذها من بني وثاب النميريين وأطاعه صاحب الرها ونقش السكة باسمه.

حصار مسلم بن قريش دمشق وعصيان أهل حران عليه

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة سار شرف الدولة إلى دمشق فحاصرها، وصاحبها تش فخرج في عسكره وهزم مسلم بن قريش فارتحل عنها راجعاً إلى بلاده.

وقد كان استمد أهل مصر فلم يمدوه، وبلغه الخبر بأن أهل حران نقضوا الطاعة، وأن ابن عطية وقاضيها ابن حلية عازمان

وحاصره فخر الدولة فيمن معه من العساكر.

ويعث مسلم بن قريش إلى الأمير أرتق يغضي عنه في الخروج من آمد على مال بذله له فأغضى له وخرج إلى الرقة.

وسار أحمد بن جهير إلى ميفارقين بلد ابن مروان لحصارها، ففارقه بهاء الدولة منصور بن مزيد وابنه سيف الدولة صدقة إلى العراق، وسار ابن جهير إلى خلاط وكان السلطان ملك شاه لما بلغه المحصار مسلم بن قريش بآمد، بعث عميد الدولة أقتنقر جد الملك العادل محمود في عساكر الترك، ولقيهم الأمير أرتق في طريقهم سائراً إلى العراق فعاد معهم وجاؤوا إلى الموصل فملكوها، وسار السلطان في عساكره إلى بلاد مسلم بن قريش وانتهى إلى البواريح، وقد خلع مسلم بن قريش من الحصار بآمد، ووصل إلى الرجة، وقد ملكت عليه الموصل، وذهبت أمواله فراسل مؤيد الملك بن نظام الملك فتوسل به فقبل وسيلته وأذن له في الوصول إلى السلطان بعد أن أعطاه من العهد ما رضي به وسار مسلم بن قريش من الرجة فأحضره مؤيد الملك عند السلطان، وقدم هدية فاخرة من الخيل وغيرها، ومن جملتها فرسه الذي نجا عليه، وكان لا يجارى وقوع من السلطان موقعاً وصالحه وأقره على بلاده فرجع إلى الموصل وعاد السلطان إلى ما كان بسيله.

مقتل مسلم بن قريش وولاية ابنه إبراهيم

قد قدما ذكر قتلهم قريش قرب السلطان طغرل بك، وكان سار إلى بلاد الروم فملكها، واستولى على قونية وأقصرای، ومات فملك مكانه ابنه سليمان، وسار إلى أنطاكية سنة سبع وسبعين وأربعمئة، وأخذها من يد الروم كما نذكر في أخباره.

وكان لشرف الدولة مسلم بن قريش، بأنطاكية جزية يؤديها إليه صاحب القردروس من زعماء الروم، فلما ملكها سليمان بن قتلهم بعث إليه يطالبه بتلك الجزية، ويخوفه معصية السلطان فأجابه باني على طاعة السلطان وأمري فيها غير خفي، وأما الجزية فكانت مضروبة على قوم كفار يعطونها عن رؤوسهم، وقد أدال الله منهم بالمسلمين ولا جزية عليهم فسار شرف الدولة، ونهب جهات أنطاكية.

وسار سليمان فنهب جهات حلب وشكت عليه الرعايا فرد عليهم.

ثم جمع شرف الدولة جموع العرب وجموع التركمان مع أميرهم جق، وسار إلى أنطاكية فسار سليمان للقائه والتقى في

أعمال أنطاكية في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمئة.

ولما التقوا مال الأمير جق بمن معه من التركمان إلى سليمان فاقتل مصاف مسلم بن قريش، وانهزمت العرب عنه وثبت فقتل في أربعمئة من أصحابه، وكان ملكه قد اتسع من نهر عيسى وجميع ما كان لأبيه وعمه قرواش من البلاد.

وكانت أعماله في غاية الخصب والأمن، وكان حسن السياسة كثير العدل.

ولما قتل مسلم اجتمع بنو عقيل وأخرجوا أخاه إبراهيم من عيسه، بعد أن مكث فيه سنين مقيداً حتى أفسد القيد مشيته، فاطلقوه وولوه على أنفسهم مكان أخيه مسلم.

ولما قتل مسلم سار سليمان بن قتلهم إلى أنطاكية وحاصرها شهرين فامتعت عليه ورجع.

وفي سنة تسع وسبعين وأربعمئة بعدها بعث عميد العراق عسكرياً إلى الأنبار فملكها من يد بني عقيل.

وفيهما أقطع السلطان ملك شاه مدينة الرجة وأعمالها وحران وسروج والرقة والخابور لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وزوجه بأخته خاتون زليخة فتسلم جميع هذه البلاد، وامتنع محمد بن الشاطر من تسليم حران فأكرهه السلطان على تسليمها.

نكية إبراهيم وتنازع محمد وعلي ابني

مسلم بعده علي ملك الموصل ثم استيلاء

علي عليها

لم يزل إبراهيم بن قريش ملكاً بالموصل وأميراً على قومه بني عقيل، حتى استدعاه السلطان ملك شاه سنة اثنتين وثمانين فلما حضر اعتقاله، وبعث فخر الدولة ابن جهير على البلاد فملك الموصل وغيرها، وأقطع السلطان عمته صفية مدينة بلد، وكانت زوجاً لمسلم بن قريش ولها منه ابنه علي، وتزوجت بعده بأخيه إبراهيم.

فلما مات ملك شاه ارتحلت صفية إلى الموصل ومعها ابنها علي بن مسلم، وجاءه أخوه محمد بن مسلم وتنازعا في ملك الموصل وانقسمت العرب عليهما، واقتتلوا على الموصل فانهمز محمد وملك علي ودخل الموصل وانتزعها من يد ابن جهير.

عود إبراهيم إلى ملك الموصل ومقتله

وبعث كربوقا إليه عسكرياً مع أخيه التوتناش فردّه مهزوماً إلى الجزيرة فتمسك بطاعة كربوقا، وجاء مدداً له على حصار الموصل.

واشتد الحصار بعلي بن مسلم فخرج من الموصل، ولحق بصدقة بن مزيد بالحلة، وملك كربوقا بلد الموصل بعد حصار تسعة أشهر.

وانقرض ملك بني المسيب من الموصل وأعمالها واستولى عليها ملوك الغز من السلجوقية أمراؤهم والبقاء لله وحده.

دولة بني صالح

اخبر عن دولة بني صالح بن مرداس بحلب
وابتداء أمرهم وتصاريق أحوالهم

كان ابتداء أمر صالح بن مرداس ملك الرحبة، وهو من بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ومجالاتهم بضواحي حلب. وقال ابن حزم: إنه من ولد عمرو بن كلاب، وكانت مدينة الرحبة لأبي علي بن ثمال الخفاجي، فقتله عيسى بن خلاط العقيلي وملكها من يده، وبقيت له مدة، ثم أخذها منه بدران بن المقلد.

وزحف لؤلؤ الساري نائب الحاكم بدمشق فملك الرقة، ثم الرحبة من يد بدران، وعاد إلى دمشق، وكان رئيس الرحبة ابن مجلكان فاستبد بها، وبعث إلى صالح بن مرداس يستعين به على أمره فأقام عنده مدة، ثم فسد ما بينهما، وقتله صالح، ثم اصطالحا، وزوجه ابن مجلكان ابنته ودخل البلد، ثم انتقل ابن مجلكان إلى عانة بأهله وماله بعد أن أطاعوه وأخذ رهنهم، ثم نقضوا وأخذوا ماله وسار إليهم ابن مجلكان مع صالح فوضع عليه صالح من قتله، وسار إلى الرحبة فملكها واستولى على أموال ابن مجلكان وأقام دعوة العلويين بمصر.

ابتداء أمر صالح في ملك حلب

قد قدمنا أن لؤلؤاً مولى أبي المعالي بن سيف الدولة استبد بحلب على ابنه أبي الفضائل، وأخذ البلد منه ومحا دعوة العباسية وخطب للحاكم العلوي بمصر، ثم فسد حاله معه وطمع صالح بن مرداس في ملك حلب.

ولما مات ملك شاه واستبدت تركمان خاتون بعده بالأمر، وأطلقت إبراهيم من الاعتقال، فبادر إلى الموصل، فلما قاربها سمع أن علي ابن أخيه مسلم قد ملكها ومعه أمه صفية عمة ملك شاه فبعث إليها، وتلطف بها فدفعت إليه ملك الموصل فدخلها وكان تش صاحب الشام أخو ملك شاه قد طمع في ملك العراق، واجتمع إليه الأمراء بالشام وجاء أقسقر صاحب حلب، وسار إلى نصيبين فملكها وبعث إلى إبراهيم أن يخطب له ويسهل طريقه إلى بغداد، فامتنع إبراهيم من ذلك فسار تش ومعه أقسقر وجوع الترك، وخرج إبراهيم للقائه في ثلاثين ألفاً.

والتقى الفريقان بالمغم فانهزم إبراهيم، وقتل وغنم الترك حللهم وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفاً من الفضيحة، واستولى تش على الموصل.

ولاية علي بن مسلم على الموصل ثم

استيلاء كربوقا وانتزاعه إياها من يده

وانقرض أمر بني المسيب من الموصل

ولما قتل إبراهيم وملك تش الموصل ولّى عليها علي بن أخيه مسلم بن قريش فدخلها مع أمه صفية عند ملك شاه، واستقرت هي وأعمالها في ولايته.

وسار تش إلى ديار بكر فملكها، ثم إلى أذربيجان فاستولى عليها.

وزحف إليه بركيارق وابن أخيه ملك شاه، وتقاتلا فانهزم تش، وقام بمكانه ابنه رضوان، وملك حلب وأمره السلطان بركيارق بإطلاق كربوقا فأطلقه.

واجتمعت عليه رجال، وجاء إلى حران فملكها، وكتبه محمد بن مسلم بن قريش وهو بنصيبين ومعه توران بن وهيب وأبو الهيجا الكردي يستصرونه على علي بن مسلم بن قريش بالموصل، فسار إليهم وقبض على محمد بن مسلم وسار به إلى نصيبين فملكها.

ثم سار إلى الموصل فامتنعت عليه ورجع مدينة بلد، وقتل بها محمد بن مسلم غريقاً، وعاد إلى حصار الموصل. واستنجد علي بن مسلم بالأمير جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر فسار إليه متجداً له.

ولما وقعت هذه الواقعة طمع الروم أهل أنطاكية في حلب
فزحفوا إليها في عدد كثير.

مسير الروم إلى حلب وهزيمتهم

ثم سار ملك الروم إلى حلب قى ثلاثمائة ألف مقاتل،
ونزل قريباً من حلب ومعه ابن الدوقس من أكابر الروم، وكان
منافراً له، فخالقه وفارقه في عشرة آلاف مقاتل، ونمي إليه أنه يروم
الفتك به، وأنه دس عليه فكر راجعاً، وقبض على ابن الدوقس
واضطرب الروم واتبعهم العرب وأهل السواد الأرمن، ونهبوا
أنفال الملك أربعمئة حمل، وهلك أكثر عسكره عطشاً.

ثم أشرف بعض العرب على معسكره فهربوا وتركوا
سوادهم وأموالهم وأكرم الله المسلمين بالفتح.

مقتل نصر بن صالح واستيلاء الوزيري

على حلب

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمئة زحف الوزيري من
مصري العساكر إلى حلب وخليفته يومئذ المستنصر، وبرز إليه
نصر فالتقوا عند حماة، وانهزم نصر وقتل وملك الوزيري حلب في
رمضان من هذه السنة.

مهلك الوزيري وولاية ثمال بن صالح

ولما ملك الوزيري حلب واستولى على الشام عظم أمره،
واستكثر من الأتراك في الجند، ونمي عنه إلى المستنصر بمصر
وزيره الجرجاني أنه يروم الخلاف فدس الجرجاني إلى جانب
الوزيري والجند بدمشق في الثورة به، وكشف لهم عن سوء رأي
المستنصر فثاروا به، وعجز عن مدافعهم فاحتل أنقاله، وسار إلى
حلب، ثم إلى حماة فمنع من دخولها فكتب صاحب كفرطاب
فسار إليه وتبعه إلى حلب ودخلها، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين
وأربعمئة ولما توفي فسد أمر الشام وانحل النظام وتزايد طمع
العرب.

وكان معز الدولة ثمال بن صالح بالرجة منذ مهلك أبيه
وأخيه فقصده حلب، وحاصرها فملك المدينة وامتنع أصحاب
الوزيري بالقلعة واستمدوا أهل مصر وشغل الوالي بدمشق بعد
الوزيري، وهو الحسين بن حمدان لحرب حسان بن مفرج صاحب

وذكرنا هنالك ما كان بين صالح ولؤلؤ من الحروب، وأنه
كان له مولى اسمه فتح وضعه في قلعة حلب حافظاً لها،
فاستوحش وانتقض على لؤلؤ بمالأة صالح بن مرداس، ويبيع
للحاكم على أن يقطعه صيدا وبيروت، وسوغه ما كان في حلب
من الأموال، ولحق لؤلؤ بأنطاكية وأقام عند الروم، وخرج فتح
بحرم لؤلؤ وأمه وتركهن في منبج، وترك حلب وقلعتها إلى نواب
الحاكم وتداولت في أيديهم حتى وليها بعض بني حمدان من قبل
الحاكم يعرف بعزير الملك، اصطنعه الحاكم وولاه حلب ثم عصى
على ابنه الظاهر، وكانت عمته بنت الملك مدبرة لدولته، فوضعت
على عزيز الملك من قتله، وولوا على حلب عبد الله بن علي بن
جعفر الكتامي، ويعرف بابن شعبان الكتامي وعلى القلعة صفي
الدولة موصوفاً الخادم.

استيلاء صالح بن مرداس على حلب

ولما ضعف أمر العبيدين بمصر من بعد المائة الرابعة
وانقرض أمر بني حمدان من الشام والجزيرة، تناولت العرب إلى
الاستيلاء على البلاد فاستولى بنو عقيل على الجزيرة، واجتمع
عرب الشام فتقاسموا البلاد على أن يكون لحسان بن مفرج بن
دغفل وقومه طيء من الرملة إلى مصر، ولصالح بن مرداس
وقومه بني كلاب من حلب إلى عانة ولحسان بن عليان وقومه
دمشق وأعمالها وكان العامل على هذه البلاد من قبل الظاهر
خليفة مصر أنوشكين إلى عسقلان، وملكها ونهبها حسان وسار
صالح بن مرداس إلى حلب فملكها من يد ابن شعبان، وسلم له
أهل البلد ودخلها.

وصعد ابن شعبان إلى القلعة فحصرهم صالح بالقلعة حتى
جهدهم الحصار، واستأنوا وملك القلعة وذلك سنة أربع
وعشرين وأربعمئة، واتسع ملكه ما بين بعلبك وعانة.

مقتل صالح وولاية ابنه أبي كامل

ولم يزل صالح مالكاً لحلب إلى سنة عشرين وأربعمئة
فجهز الظاهر العساكر من مصر إلى الشام لقتال صالح وحسان،
وعليهم أنوشكين الديردي فصار لذلك، ولقيهما على الأردن
بطرية، وقاتلها فانهزما، وقتل صالح وولده الأصغر، ونجا ولده
الأكبر أبو كامل نصر بن صالح إلى حلب، وكان يلقب شبل
الدولة.

رجوع ثمال بن صالح إلى ملك حلب وفرار

محمود بن نصر عنها

لما هزم محمود بن حمدان وأخذ القلعة من يد ابن ملهم. وكان معز الدولة ثمال بن صالح بمصر منذ سلمها للمستنصر سنة تسع وأربعين فصرحه المستنصر الآن، وأذن له في ملك حلب من ابن أخيه، فحاصره في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وأربعمئة واستنجد محمود بخاله منيع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران، فأمدّه بنفسه، وجاء لنصره فأفرج ثمال عن حلب وسار إلى البرية في محرم سنة ثلاث وخمسين، ثم عاد منيع إلى حران وملك ثمال حلب في ربيع سنة ثلاث وخمسين وغزا بلاد الروم فظفر وغنم.

وفاة ثمال وولاية أخيه عطية

ثم توفي ثمال بحلب قريباً من استيلائه، وذلك في ذي القعدة سنة أربع وخمسين وأربعمئة وعهد بحلب لأخيه عطية بن صالح وكان بالرحبة من لدن مسير ثمال إلى مصر فسار وملكها.

عود محمود إلى حلب وملكه إياها من يد

عطية

ولما ملك عطية حلب وكان ذلك عند استيلاء السلجوقية على ممالك العراق والشام وافتراقهم على العمال، ونزل به قوم منهم فاستخدمهم وقوي بهم.

ثم خشي أصحابه غائلتهم فأشاروا بقتلهم، فسلط أهل البلد عليهم فقتلوا منهم جماعة ونجا الباقيون، ففقدوا محمود بن نصر بحران فاستنجدوه لملك حلب، وجاءهم فحاصروها وملكها في رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمئة واستقام أمره.

ولحق عطية عمه بالركة، فملكها إلى أن أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ثلاث وستين وأربعمئة، فسار إلى بلد الروم سنة خمس وستين وأربعمئة واستقام أمر محمود بن نصر في حلب.

وبعث الترك الذين جاؤوا في خدمته مع أميرهم ابن خان سنة ستين وأربعمئة إلى بعض قلاع الروم فحاصروها وملكها.

وسار محمود إلى طرابلس فحاصرها وصالحوه على حال

فلسطين، فاستامن أصحاب الوزير إلى ثمال بن صالح بعد حصاره إياها حولاً فأمنهم، وملكها في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمئة فلم يزل مملكاً عليها إلى أن زحفت إليه العساكر من مصر مع أبي عبيد الله بن ناصر الدولة بن حمدان، وبلغت جموعهم خمسة آلاف مقاتل فخرج إليهم ثمال، وقتلهم وأحسن دفاعهم، وأصابهم سيل كاد يذهب بهم فأفرجوا عن حلب، وعادوا إلى مصر.

ثم عادت العساكر ثانية من مصر سنة إحدى وأربعين مع رفق الخادم فقاتلهم ثمال وهزمهم، وأسر الخادم رفقاً ومات عنده.

رغبة ثمال عن حلب ورجوعها لصاحب

مصر وولاية ابن ملهم عليها

لم تزل العساكر تتردد من مصر إلى حلب، وتضيق عليها حتى ستم ثمال بن صالح إمارتها، وعجز عن القيام بها، فبعث إلى المستنصر بمصر وصالحه على أن ينزل له عن حلب، فبعث عليها مكيين الدولة أبا علي الحسن بن ملهم، فتسلمها آخر سنة تسع وأربعين.

وسار ثمال إلى مصر ولحق أخوه عطية بن صالح بالرحبة، واستولى ابن ملهم عليها.

ثورة أهل حلب بابن ملهم وولاية محمود

بن نصر بن صالح

وأقام ابن ملهم بحلب ستين أو نحوها، ثم بلغه عن أهل حلب أنهم كاتبوا محمود بن نصر بن صالح فقبض عليه، فثار به أهل حلب وحصلوه بالقلعة، وبعثوا إلى محمود فجاء منتصف اثنتين وخمسين وأربعمئة وحاصره معهم بالقلعة.

واجتمعت معه جموع العرب واستمد ابن ملهم المستنصر، فكتب إلى أبي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان أن يسير إليه في العساكر، فسار إلى حلب وأجفل محمود عنها، ونزل ابن ملهم إلى البلد ودخلها ناصر الدولة ونهبتها عساكره، وابن ملهم.

ثم تواقع محمود وناصر الدولة بظاهر حلب فانهزم ناصر الدولة بن حمدان وأسر فرجع به محمود إلى البلد وملكها وملك القلعة في شعبان من هذه السنة، وأطلق أحمد بن حمدان وابن ملهم فعاد إلى مصر.

فأخرج عنهم.

إلى أن ملكها السلطان من بعده.

استيلاء السلطان ملك شاه على حلب

ولاية أقسنقر عليها

قد تقدم لنا أن مسلم بن قريش قتل سليمان بن قطلمش كما مر في أخبار مسلم، فلما قتل أرسل إليه ابن الحسين العباسي مقدم أهل حلب يطلب تسليمها إليه.

وكان تش أيضاً قد حاصرها وضيق عليها يطلب ملكها فوعد كلا منهما.

ونمي الخبر إلى تش فسار إلى حلب، وجاءه سليمان بن قطلمش فاقبلاً، وقتل سليمان سنة تسع وسبعين وأربعمائة وبعث برأسه إلى ابن الحسين، فكتب أنه يشارور السلطان ملك شاه في ذلك، فغضب تش وحاصره، ودخله بعض أهل البلد فغدر به وأدخله ليلاً فملك تش مدينة حلب، وشفع الأمير أرتق بن أكسك من أمراء تش في ابن الحثيثي وامتنع بالقلعة سالم بن مالك بن بدران ابن المقلد فحاصره تش وكان ابن الحثيثي قد كاتب السلطان ملك شاه واستدعاه لملك حلب عندما خاف من أخيه تاج الدولة تش، فسار إليها من أصفهان سنة تسع وأربعين وأربعمائة ومر بالوصل، ثم تسلم حران من يد ابن الشاطر، وأقطعها لمحمد بن قريش، ثم سار إلى الرها فملكها من يد الروم.

وكانوا اشتروها من ابن عطية، وسار إلى قلعة جعفر فملكها وقتل من بها من بني قشير وأخذ صاحبها جعفرأ شيخاً أعمى وولدين له، وكانوا يفسدون السابلة ويرجعون إليها.

ثم سار إلى منبج فملكها وسار إلى حلب وأخوه تش يحاصر القلعة سبعة عشر يوماً من حصارها، وعاد إلى دمشق وملك السلطان مدينة حلب وقاتل القلعة ساعة من نهار رشقاً بالسهم، فأذن سالم بن مالك بن بدران بالطاعة والتزول عنها على أن يقطعه قلعة جعفر، فأقطعها له السلطان فلم تزل بيده ويد بنه إلى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد.

وبعث نصر بن علي بن منقذ الكنانني صاحب شيزر بالطاعة، وولى على حلب قسيم الدولة أقسنقر جد العادل نور الدين الشهيد، وارتحل عائداً إلى العراق.

وسأله أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فاستصلحه، وأرسله إلى ديار بكر فتزها إلى أن توفي على حال شديدة من الفقر والإملاق.

ثم سار إليه السلطان ألب أرسلان بعد فراغه من حصار ديار بكر وأمد الرها، ولم يظفر بشي منها كما نذكر في أخبارهم.

وجاء إلى حلب وحاصرها وبها محمود بن نصر.

وجاءت رسالة الخليفة القائم بالرجوع إلى الدعوة العباسية فأعادها وسأل من الرسول أزهري أبو الفراس طراد الزيني أن يعفيه السلطان من الحضور عنده فأبى السلطان من ذلك، واشتد الحصار على محمود وأضر بهم حجارة المجانيق، فخرج ليلاً ومعه والدته منيعة بنت وثاب متطارحين على السلطان، فخلع على محمود في حلب آخر ثمان وستين وأربعمائة وعهد لابنه شبيب إلى الترك الذين ملكوا أباه وهم بالحاضر، وقد بلغه عنهم العيث والفساد، فما دنا من حللهم تلقوه فلم يجيهم، وقتلهم وأصيب بسهم في تلك الجولة ومات.

مهلك نصر بن محمود وولاية أخيه سابق

ولما هلك نصر ملك أخوه سابق.

قال ابن الأثير: وهو الذي أوصى له أبوه بالملك، فلم ينفذ عهده لصغره، فما ولي استدعى أحمد شاه مقدم التركمان الذين قتلوا أباه فخلع عليه، وأحسن إليه وبقي فيها ملكاً.

استيلاء مسلم بن قريش على حلب من يد

سابق وانقراض دولة بني صالح بن مرداس

ولما كانت سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة زحف تش بعد أن ملك دمشق إلى حلب فحاصرها أياماً ووجل أهل حلب من ولاية الترك فبعثوا إلى مسلم بن قريش ليملكوه ثم بدا لهم في أمره ورجع من طريقه، وكان مقدمهم يعرف بابن الحسين العباسي وخرج ولده متصيداً في ضيعة له فأرسل له بعض أهل القلاع بنواحي حلب من التركمان، وأمره وأرسله إلى مسلم بن قريش فعاهده على تمكينه من البلد، وعاد إلى أبيه فلمل البلد إلى مسلم بن قريش وملكها سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ولحق سابق بن محمود وأخوه وثاب إلى القلعة واستنزها بعد أيام على الأمان واستولى على نواحيها.

وبعث إلى السلطان ملك شاه بالفتح، وأن يضمن البلد على العادة فأجاب به إلى ذلك، وصارت في ولاية مسلم بن قريش

والله مالك الأمور لا رب غيره.

بن حسان وسار إلى الجامعين فنهبا وملك الكوفة.

وصار أمر ديبس وقرواش إلى الوفاق واستوى الأمر على ذلك ومنعت خفاجة بني عقيل من سقي الفرات.

الخبر عن دولة بني مزيد ملوك الحلة

وابتداء أمرهم وتصاريق أحوالهم

استيلاء منصور بن الحسين على الجزيرة

الديبسية

كانت الجزيرة الديبسية قد استقرت لطراد بن ديبس، وكان منصور بن الحسين من شعوب بني أسد تغلب عليها، وأخرج طراد بن ديبس عنها سنة ثمان عشرة وأربعمائة ثم مات طراد فسار ابنه أبو الحسن إلى جلال الدولة ببغداد، وكان منصور بن الحسين قد خطب للملك أبي كاليجار، وقطع الخطبة لجلال الدولة فسأل منه علي بن طراد أن يبعث معه عسكرياً ليخرج منصوراً من الجزيرة، فأنفذ معه العسكر، وسار إلى واسط.

ثم أغذ السير وكان منصور جمع لقاته، وأعانه بعض أمراء الترك، وهو أبو صالح كركبر.

وكان قد هرب من جلال الدولة إلى أبي كاليجار فأعان منصوراً على شأنه، ولقوا علي بن طراد فهزموه، وقتلوه وجماعة من الترك الذين يبعثهم جلال الدولة لنصرته، واستقر ملك الجزيرة الديبسية لمنصور بن الحسين.

فتنة ديبس مع جلال الدولة وحروبه مع

قومه

كان المقلد أخو ديبس بن مزيد قد لحق ببني عقيل كما ذكرناه، وكانت بينه وبين نور الدولة ديبس عداوة، فسار إلى منيع بن حسان أمير خفاجة، واجتمعا على قتال ديبس وعلى خلافة جلال الدين، وخطب لأبي كليجار واستقدمه للعراق فجاء إلى واسط، وبها ابن جلال الدولة ففارقها وقصد النعمانية ففجر عليه البثوق من بلده.

وأرسل أبو كليجار إلى قرواش صاحب الموصل، والأثير عنبر الخادم أن ينحدروا إلى العراق فأنحدروا إلى الكحيل.

ومات بها الأثير عنبر وجمع جلال الدولة عساكره واستنجد أبا الشوك صاحب بلاد الأكراد، فأخذه والمحدروا إلى واسط، وأقام بها وتابعت الأمطار والأوحال فسار جلال الدولة إلى الأهواز بلد أبي كليجار لينهبها.

كان بنو مزيد هؤلاء من بني أسد، وكانت خلافتهم من بغداد إلى البصرة إلى نجد وهي معروفة.

وكانت لهم النعمانية، وكانت بنو ديبس من عشائهم في نواحي خوزستان في جزائر معروفة بهم.

وكان كبير بني مزيد أبو الحسن علي بن مزيد وأخوه أبو الغنائم.

وسار أبو الغنائم إلى بني ديبس فأقام عندهم، وفر فلم يدركوه، ولحق بناحية أبي الحسن فسار إليهم أبو الحسن، واستمد عميد الجيوش فأمده بعسكر من الديلم في البحر، ولقيهم فانهزم أبو الحسن وقتل أبو الغنائم وذلك سنة إحدى وأربعمائة.

فلما كانت سنة خمس وأربعمائة جمع أبو الحسن وسار إليهم لإدراك الثار بأخيه، وجمع بني ديبس وهم مضر وحسان ونهبان وطراد فاجتمع إليهم العرب ومن في نواحيهم من الأكراد الشاهجان والحادانية، وتزاحفوا ثم انهزم بنو ديبس، وقتل حسان ونهبان واستولى أبو الحسن بن مزيد على أموالهم وحللهم، ولحق الفل منهم بالجزيرة وقلده فخر الدولة أمر الجزيرة الديبسية واستثنى منها الطيب وقرقوب، وأقام أبو الحسن هناك.

ثم جمع مضر بن ديبس جمعاً وكسبه فنجاً في فل يسير ولحق ببلد النيل منهزماً، واستولى مضر على أمواله وعلى الجزيرة وملكها.

وفاة علي بن مزيد وولاية ابنه ديبس

ثم توفي أبو الحسن بن مزيد سنة ثمان وأربعمائة وقام الأمر مكانه ابنه نور الدولة أبو الأغر ديبس، وقد كان أبوه عهد لأخيه في حياته، وخلع عليه سلطان الدولة، وأذن في ولايته.

فلما ولي بعد أبيه نزح أخوه المقلد إلى بني عقيل فأقام بينهم، وكانت بسبب ذلك بين ديبس وقرواش أميري بني عقيل فتن وحروب.

وجمع ديبس عليه بني خفاجة، وملك الأنبار من يده سنة سبع عشرة وأربعمائة ثم انتفض خفاجة على ديبس وأميرهم منيع

الفتنة بين ديبس وعسكر واسط

كان الملك الرحيم قد أقطع ديبس بن مزيد سنة إحدى وأربعين وأربعمئة حماية نهر الصلة ونهر الفضل، وهي من إقطاع جند واسط فسخطوا ذلك، واجتمعوا وبعثوا إليه بالتهديد فراجعهم إلى حكم الملك الرحيم، فغضبوا وزحفوا إليه فلقبهم وأكمن لهم فهزمهم وأثنى فيهم، وغنم أموالهم ودوابهم ورجعوا إلى واسط يستجدون جند بغداد، ويرغبون من البساسيري في المدافعة عنهم ويعطوه نهر الصلة ونهر الفضل.

إيقاع ديبس بخفاجة

وفي سنة ست وأربعين وأربعمئة قصد بنو خفاجة الجامعين من أعمال ديبس فعاثوا فيها من غربي الفرات، وكان ديبس في شربه فاستجد البساسيري فجاء بنفسه، وعبر ديبس الفرات معه وقاتل خفاجة وأجلاهم عن الجامعين فسلكوا البرية، ورجع عنهم.

ثم عادوا للفساد فعاد إليهم فدخلوا البرية فأتبهم إلى حصن خفان فأوقع بهم، وأثنى فيهم وحاصر خفان ثم اقتحمه، وأخرجهم ورجع إلى بغداد ومعه أسارى من خفاجة فصلبوا.

ثم سار إلى جرى فحاصرها ووضع عليهم سبعة آلاف دينار فالتزموها وأمنهم.

حرب ديبس مع الغز وخطبته للعلوي

صاحب مصر ومعاودته الطاعة

ولما انقضى أمر بني بويه وغلب عليهم الغز، وصارت الدولة للسلطان طغرل بك سلطان السلجوقية، وجاء السلطان طغرل بك إلى بغداد، واستولى على الخليفة، وخطب له على منابر الإسلام، وقبض على الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه حسبما ذلك كله مذكور في أخبارهم.

وكان البساسيري قد فارق الملك الرحيم قبل مسيره من واسط إلى بغداد للقاء طغرل بك مجتمعاً على الخلاف على الغز مع قطلمش ابن عم طغرل بك جد الملوك ببلاد الروم أولاد قليج أرسلان، ومعه متمم الدولة أبو الفتح عمر، وسار معهم قريش بن بدران صاحب الموصل فلقبهم ديبس والبساسيري على سنجان، وهزمهم ورجع قريش إلى ديبس جريماً فخلع عليه، وسار معهم

وبعث أبو كليجار إليه بأن عساكر محمود بن سبكتكين قد قصدت العراق ليرده عن الأهواز فلم يلتفت إلى ذلك، وسار ونهب الأهواز، وبلغ الخبر إلى أبي كليجار فسار إلى مدافعته، وتخلّف عنه ديبس خوفاً على حلّه من خفاجة.

والتقى أبو كليجار وجلال الدولة فانهزم أبو كليجار وقتل من أصحابه كثير.

واستولى جلال الدولة على واسط وأعاد إليها ابنه عبد العزيز كما كان.

ولما فارق ديبس أبا كليجار وجد جماعة من عشيرته قد خالفوا عليه، وعاثوا في نواحي الجامعين فقاتلهم وظفر بهم، وأسر منهم جماعة منهم: أبو عبد الله الحسين ابن عمه أبي الغنائم، وشبيب وسرايا ووهب وبنو عمه حماد بن مزيد وحبسهم بالجوسق.

ثم جمع المقلد أخوه جموعاً من العرب واستمد جلال الدولة فأمدّه بعسكر، وقصدوا ديبس فانهزم وأسر جماعة من أصحابه، ونزل المعتقلون بالجوسق فنهبوا حلّه.

ولحق ديبس بالشريد منهزماً فسار به إلى مجد الدولة، وضمن عنه المال المقرر في ولايته فأجيب إلى ذلك، وخلع عليه، واستقام حاله.

وذهب المقلد مع جماعة من خفاجة فنهبوا مطير أباد والتيل أقيح نهب، وعاثوا في منازلها، ولم تكن الحلة بنيت يومئذ، وعبر المقلد دجلة إلى أبي الشوك فأقام عنده حتى أصلح أمره.

الفتنة بين ديبس وأخيه ثابت

كان أبو قوام ثابت بن علي بن مزيد متصلاً بالبساسيري سنة أربع وعشرين وأربعمئة وتزحّج لهم ديبس عن البلاد وملك ثابت التيل وأعمال ديبس.

وبعث ديبس طائفة من أصحابه لقتال ثابت فانهزموا فسار ديبس عن البلاد، وتركها لثابت حتى رجع البساسيري إلى بغداد فسار في جموع بني أسد وخفاجة، ومعه أبو كامل منصور بن قراد وتركوا حللهم بين حصني خفان وجرى.

وساروا جريدة ولقبهم ثابت عند جرجرا، فاقتلوا ملياً، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يعود ديبس إلى أعماله، ويقطع أخاه ثابتاً بعض تلك الأعمال، وتحالفوا على ذلك وافترقوا وجاء البساسيري منجداً لثابت فبلغه الخبر بالنعمانية فرجع.

وذهب بهم إلى الموصل.

وخرج ديبس وقریش والبسائري إلى البرية، ومعهم جماعة من بني غير أصحاب حران والركة.

واتبعهم عساكر السلطان مع هزارسب من أمراء السلجوقية فأوقع بهم، ورجع بالغنائم والأسرى.

وأرسل ديبس وقریش إلى هزارسب أن يستعطف بهم السلطان ففعل.

وبعث ديبس ابنه بهاء الدولة مع وافد قریش فأكرمهما السلطان طفرليک.

ثم انتقض عليه أخوه نبال بهمذان فسار لخره، وترك بغداد وخالفه البسائري إليها وبعث الخليفة القائم عن ديبس ليقیم عنده ببغداد، فاعتذر بأن العرب لا تقيم، وطلب الخليفة في الخروج إليه حتى يجتمع عليه هو وهزارسب، ويدافعوا عن بغداد.

وجاء البسائري ودخل بغداد ومعه قریش بن بدران فملكها سنة خمسين وأربعمئة وخطب فيها للعالمين واستدتم الخليفة القائم بقریش بن بدران فأذمه، وبعثه إلى عانة عند مهاوش العقيلي من بني عمه وفعل البسائري وجوعه في بغداد الأفاعيل، وأطاعه ديبس بن علي بن مزید وصدقة بن منصور بن الحسين صاحب الجزيرة الديسية، وكان ولي بعد أبيه وقد تقدم ذكر هذا كله.

ثم رجع السلطان من همدان بعد قتل أخيه، وقضى أشغاله فأجفل البسائري وأصحابه من بغداد، ولحق ببلاد ديبس وفارقه صدقة بن منصور إلى هزارسب بواسطة.

وأعاد طفرليک الخليفة إلى داره، وسار السلطان في اتباعه وفي مقدمته خمارتکين الطغرثاني في ألفي فارس، ومعهم سرايا بن منيع الخفاجي فصبحت المقدمة ديبس بن مزید والبسائري، فهرب ديبس ووقف البسائري وقتل وذلك سنة إحدى وخمسين وأربعمئة ورجع السلطان إلى بغداد ثم انحدر إلى واسط.

وجاء هزارسب بن تنکين فاصالح عنده حال ديبس بن مزید وصدقة بن منصور بن الحسين، وحضرا عند السلطان وجاءا في ركابه إلى بغداد فخلع عليهما وردهما إلى عمالتهما.

وفاة ديبس وإمارة ابنه منصور

ولم يزل ديبس على أعماله إلى أن توفي سنة أربع وسبعين وأربعمئة لسبع وخمسين سنة من إمارته، وكان مدوحاً، ورثاه

الشعراء بعد وفاته بأكثر مما مدحوه في حياته.

ولما مات ولي في أعماله وعلى بني أسد ابنه أبو كامل منصور، ولقب بهاء الدولة.

وسار إلى السلطان ملك شاه فأقره على أعماله وعاد في صفر سنة خمس وسبعين وأربعمئة فأحسن السيرة.

وفاة منصور بن ديبس وولاية ابنه صدقة

ثم توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن ديبس بن علي بن مزید صاحب الحلة والنيل وغيرهما في ربيع الأول سنة تسع وسبعين، فأرسل الخليفة تقيب العلويين أبا الغنائم إلى ابنه سيف الدولة صدقة يعزيه، وسار صدقة إلى السلطان ملك شاه فخلع عليه وولاه مكان أبيه.

انتقاض صدقة بن منصور بن ديبس على

السلطان بركيارق

وكان السلطان بركيارق قد خرج عليه أخوه محمود بن ملك شاه ينازعه في الملك، وكانت بينهما عدة وقعات، ولم يزل صدقة بن منصور على طاعته ويحضر حروبه تارة بنفسه، وتارة يبعث إليه العساكر مع ابنه سنة أربع وتسعين وأربعمئة.

فبعث إليه وزير السلطان بركيارق وهو الأغر أبو الحسن الدهستاني يطلبه فيما تخلف عنده من المال، وهو ألف ألف دينار، ويتهده عليه فقطع صدقة الخطبة لبركيارق، وعاد إلى بغداد في هذه السنة منهزماً أمام أخويه محمد وسنجر، فبعث الأمير أياز من أكبر أصحابه، وطرده نائب السلطان عن الحكومة واستضافها إليه.

استيلاء صدقة على واسط وهيت

كان السلطان محمد في سنة ست وتسعين وأربعمئة مستولياً على بغداد والخطبة بها وشحته فيها الغازي بن أرتق، وصدقة بن ديبس على طاعته ومظاهرته.

ثم ظهر في هذه السنة بركيارق على محمد، وحاصره بأصفهان فامتنع عليه فأخرج عنه إلى همدان، وبعث كمستكين القصيري شحنة إلى بغداد فاستدعى أبو الغازي أخاه سقمان بن أرتق من حصن كيفا يستعين به في مدافعة كمستكين.

من السلجوقية، أقام فيها عشر سنين وعظم تمكنه للخلافة الواقع بين بركيارق ومحمد، وكان يظهر طاعة صدقة وموافقته.

فلما صفا الأمر لمحمد رغب إليه صدقة في إبقائه فأبقاه.

وبعث السلطان محمد عاملاً على خاصة البصرة فمنعه إسماعيل، فأمر السلطان صدقة بأخذ البصرة منه.

وأظهر منكبرس الخلاف فشغلوا عن البصرة، وبعث إليه صدقة بتسليم الشرطة إلى مذهب الدولة بن أبي الخير فمنع من ذلك، فسار صدقة إليه، وحصن إسماعيل القلاع التي استجدها حوالي البصرة، واعتقل وجوه البلد من العباسيين والعلويين، والقاضي والمدرس والأعيان، وحاصرها صدقة وخرج إسماعيل لقتاله، وخالفه طائفة من أصحاب صدقة إلى مكان آخر من البلد فاقتحموها، وانهزم إسماعيل إلى قلعة الجزيرة فامتنع بها، ونهبت البلد واغدر المذهب بن أبي الخير في السفن فأخذ القلعة التي كانت لإسماعيل بمطارا، ثم استأمن إسماعيل إلى صدقة فأمنه.

وجاء صدقة فأمن أهل البصرة ورتب عندهم شحنة، وعاد إلى الحلة منتصف سبع وتسعين وأربعمائة لسته عشر يوماً من مقامه بالبصرة.

وسار إسماعيل نحو فارس فطرقه المرض في رامهرمز ومات وكان صدقة قد استعمل على البصرة مملوك جده ديبس، واسمه اليونشاش ورتب معه مائة وعشرين فارساً، فاجتمعت ربيعة والمتقن وقصدوا البصرة فدخلوها بالسيف، وأسروا اليونشاش وأقاموا بها شهراً يهبون ويخربون، وبعث صدقة عسكرياً فوصل بعد خروجهم من البلد فانتزع السلطان البصرة من صدقة وبعث إليها شحنة وعميداً واستقام أمرها.

استيلاء صدقة على تكريت

كانت تكريت لبني معن من بني عقيل، وكانت إلى آخر سبع وعشرين وأربعمائة بيد رافع بن الحسين بن معن، فلما مات وليها ابن أخيه أبو منعة بن ثعلب بن حماد ووجد بها خمسمائة ألف دينار.

وتوفي سنة خمس وثلاثين، ووليها ابنه أبو غشام إلى سنة أربع وأربعين فوثب عليه أخوه عيسى فحبسه وملك القلعة والأموال.

فما اجتاز به طغربك سنة ثمان وأربعين صالحه على بعض المال فرحل عنه، ومات عيسى إثر ذلك وخافت زوجته من عود

وجاء كمستكين إلى بغداد وخطب بها لبركيارق وخرج أبو الغازي وسقمان إلى دجيل فأقاما به مجرى وجاء صدقة بن مزيد إلى صرصر بعد أن جاءه رسول الخليفة في طاعة أبي الغازي وسقمان فعادا وعاثت عساكرهما في نواحي دجيل، وتقدما إلى بغداد وبعث معهما صدقة ابنه ديبساً فخيما بالرملة، وقتلهم العامة وكثر الهرج، وبعث الخليفة إلى صدقة يعظم عليه الأمر فأشار بإخراج كمستكين القيصري من بغداد لتصلح الأحوال، فأخرج إلى النهروان في ربيع سنة ست وتسعين وأربعمائة وعاد صدقة إلى الحلة وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد ولحق القيصري بواسط، وخطب بها لمحمد فسار إليه صدقة وأخرجه وجاء أبو الغازي واتبعوا القيصري واستأمن إلى صدقة فأكرمه وأعيدت خطبة السلطان محمد بواسط، وبعده لصدقة وأبي الغازي.

وولى كل واحد منهما ولده على واسط، وذهب أبو الغازي إلى بغداد وعاد صدقة إلى الحلة، وأرسل ابنه منصوراً مع أبي الغازي إلى المستنصر ليستظهر رضاه فرضي عنه.

ثم استولى صدقة على هيت، وكان بركيارق أنقطعها لبهاء الدولة توران بن تهيبة وكان مقيماً في جماعة من بني عقيل عند صدقة.

ثم تشاجرا ومال بنو عقيل إلى صدقة، وحجج عقب ذلك، ورجع فوكل به صدقة.

وبعث ابنه ديبس ليتسلم هيت فمنعه نائب توران بها، وهو محمد بن رافع بن رفاع بن منيع بن مالك بن المقلد.

فلما أخذ صدقة واسطاً سار إلى هيت وبها منصور بن كثير نائباً عن عمه توران، فلقي صدقة وحاربه.

ثم انتفض جماعة من أهل البلد وفتحوا لصدقة فملكها، وخلع على منصور وأصحابه وعاد إلى الحلة، واستخلف على هيت ابن عمه ثابت بن كامل.

ثم اصطلى السلطان محمد وبركيارق وسار صدقة في شوال إلى واسط فملكها وأخرج الترك الذين كانوا بها وأحضر مذهب الدولة بن أبي الخير فضمنه البلد لثلاثة أشهر بقيت من السنة بخمسين ألف دينار وعاد إلى الحلة.

استيلاء صدقة بن مزيد على البصرة

كانت البصرة منذ سنين في ولاية إسماعيل بن أرسلان جق

أخيه أبي غشام إلى الملك فقتلته في محبه.

وعظم أمر مذهب الدولة وصير كوهرايين أمير البطيحة، وصارت جماعته لحكمه.

وكان حماد شاباً، وكان مذهب الدولة يداريه بجهده، وهو يضم نقضه، فلما مات كوهرايين انتقض حماد عن مذهب الدولة وأظهر ما في نفسه، واجتهد مذهب الدولة في استصلاحه، فلم يقدّر وجمع ابنه القيسر وقصد حماداً فهرب إلى صدقة بالحلة، وبعث معه مدداً من العسكر، وحشد مذهب الدولة وسار في العساكر براً وبحراً، وأكمن حماد لهم وأصحابه واستطردوا بين أيديهم، ثم خرجت عليهم الكمائن فانهزموا.

وأرسل حماد يستمد صدقة فبعث إليه مقدم جيشه، وجمعوا السفن وكان مذهب الدولة جراداً، فبعث إلى مقدم الجيش بالإنعامات والصلوات فمال إليه، وأشار عليه أن يبعث ابن النقيس إلى صدقة فرضي عنه وأصلح بينه وبين حماد ابن عمه، وذلك آخر المائة الخامسة.

مقتل صدقة وولاية ابنه ديبس

كان صدقة بن منصور بن مزيد شيعية للسلطان محمد بن ملك شاه على أخيه بركيارق، ومن أعظم أنصاره.

ولما هلك بركيارق واستبد السلطان محمد بالملك رعى وسائله في ذلك، وأقطعه واسطاً وأذن له في ملك البصرة، وأنزله منزل المصافاة حتى كان يجير عليه.

وسخط مرة على سرخاب بن كيخسرو وصاحب ساوة فلجأ إليه مستجيراً به فأجاره، وطلبه السلطان فمنعه.

وكان العميد أبو جعفر يستبدله السلطان لكثرة السعاية، ويغريه به وينكر دالته وتبسطه فتعين السلطان وسار إلى العراق وأرسل إلى صدقة فاستشار صدقة أصحابه فأشار ابنه ديبس بملاطفته واستعطافه بالهدايا، وأشار سعيد بن حميد صاحب جيشه بالحاربة، فجنح إلى رأيه واستطال في الخطاب وجمع الجند وأفاض فيهم العطاء واعترضهم فكانوا عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل.

وبعث إليه المستظهر مع علي بن طراد الزينبي نقيب النقباء يعظه في المخالفة، ويحضه على لقاء السلطان، فاعتذر بالخوف منه.

ثم بعث إليه السلطان قاضي القضاة أبا سعيد الهروي ليؤمنه، ويستفزه لجهاد الفرنج في جملته فامتنع، ووصل السلطان إلى بغداد في ربيع من سنة إحدى وخمسمائة، ومعه وزيره أحمد بن

وولت على القلعة أبا الغنائم بن المجلبان فسلمها إلى أصحاب طغرلبيك، وسارت هي إلى الموصل فقتلها ابن أبي غشام بأبيه، وأخذ مسلم بن قريش مالها، وولى طغرلبيك على قلعة تكريت أبا العباس الرازي، فمات لسته أشهر، فولي عليها المهرباط وهو أبو جعفر محمد بن أحمد بن غشام من بلد الثغر، فأقام بها إحدى وعشرين سنة، ومات فوليها ابنه ستين، وأخذتها من تركمان خاتون وولت عليها كوهرايين الشحنة.

ثم مات ملك شاه فملكها قسيم الدولة آقسنقر صاحب حلب، فلما قتل صارت للأمير كمستكين الجاندار، فولي عليها رجلاً يعرف بأبي نصر المصارع، ثم عادت إلى كوهرايين إقطاعاً.

ثم أخذها منه محمد الملك الباسلاني فولي عليها لمقا بن هزارسب الديلمي وأقام بها اثني عشرة سنة، فظلم أهلها، وأساء السيرة، فلما أجاز به سقمان بن ارتق سنة ست وتسعين وأربعمائة لنهبها، وكان كيقباز ينهبها ليلاً وسقمان ينهبها نهاراً.

فلما استقر السلطان محمد بعد أخيه بركيارق أقطعها للأمير آقسنقر البرسقي شحنة بغداد، فسار إليها وحصرها مدة تزيد على سبعة أشهر حتى ضاق على كيقباز الأمر، فراسل صدقة بن مزيد ليسلمها إليه، فسار إليها في صفر من هذه السنة، وتسلمها منه.

وانحدر البرسقي ولم يملكها ومات كيقباز بعد نزوله من القلعة بشمانية أيام، وكان عمره ستين سنة، واستتاب صدقة بها ورام بن أبي قريش بن ورام وكان كيقباز ينسب إلى الباطنية.

الخلف بين صدقة وصاحب البطيحة

قد كنا قدما أن السلطان محمداً أقطع صدقة بن مزيد مدينة واسط، فضمنها صدقة لمذهب الدولة بن أبي الخير، وولى في أعمالها أولاده، فبذروا الأموال، وطالبه صدقة عند انقضاء السنة بالمال وحبيه، وسعى في خلاصه بدران بن صدقة، وكان صهراً لمذهب الدولة، وأعادته إلى البطيحة.

وضمن حماد والمختم محمد والد مذهب الدولة كانا أخوين وهما ابنا أبي الخير وكانت لهما رئاسة قومهما وهلك المصطنع وقام ابنه أبو السيد المظفر والد حماد مقامه.

وهلك المختم محمد وقام ابنه مذهب الدولة مقامه، ونازعا إبراهيم صاحب البطيحة حتى غلبه مذهب الدولة وقبض عليه، وسلمه إلى كوهرايين، فحمله إلى أصفهان فهلك في الطريق.

ونجا ابنه بدران إلى الحلة، ومنها إلى البطيحة عند صهره مهذب الدولة، وأسر سرجان بن كيخسرو والمستجير بصدقة على السلطان، وسعيد بن حميد العمدي صاحب الجيش.

وكان مقتل صدقة لإحدى وعشرين سنة من إمارته وهو الذي بنى الحلة بالعراق، وكان قد عظم شأنه وعلا قدره بين الملوك، وكان جواداً حليماً صدوقاً عادلاً في رعيته.

وكان يقرأ ولا يكتب، وكانت له خزانة كتب منسوبة الخط ألوف مجلدات، ورجع السلطان إلى بغداد من دون الحلة، وأرسل أماناً لزوج صدقة فجاءت إلى بغداد، وأمر السلطان الأمراء بتلقيها، وأطلق لها ولها دييساً، واعتذر لها من قتل صدقة، واستحلف دييساً على الطاعة، وإن لا يحدث حدثاً، وأقام في ظله وأقطعه السلطان إقطاعاً كثيراً.

ولم يزل دبیس مقيماً عند السلطان محمد إلى أن توفي، وملك ابنه محمود سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فرغب دبیس من السلطان محمود أن يسرحه إلى بلده، فسرعه، وعاد إليها فملكها واجتمع عليه خلق كثير من العرب والأكراد واستقام أمره.

خبر دبیس مع البرسقي ومع الملك مسعود

لما توفي الخليفة المستظهر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وبوسع ابنه المسترشد خاف ابنه الآخر من غائلة أخيه وانحدر في البحر إلى الماذن، وسار منها إلى الحلة فأبى أن يكرهه فتلف علي بن طراد لأخي الخليفة فاجاب، وتكفل دبیس بما يطلبه، وبينما هو في خلال ذلك برز البرسقي من بغداد مجلباً على دبیس الجموع، وسار أخو الخليفة إلى واسط فملكها في صفر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقوي أمره وكثرت جموعه فبعث الخليفة إلى دبیس في شأنه، وأنه خرج عن جواره فلقى أمره بالطاعة، وبعث إليه وهو بواسط عسكرياً من قبله فلقاه وقبض عليه، وبعثه إلى أخيه المسترشد.

وكان مسعود أخو السلطان محمد بالموصل ومعه أتابكه حيوس بك، فاعتزما على قصد العراق لغية السلطان محمود عنه، فسار لذلك ومعه وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وقسيم الدولة زكي بن أقيسقر أبو المعالي أبو الملك العادل، وكروباوي بن خراسان التركماني صاحب البواريج وأبو الهيجاء صاحب أربل وصاحب سنجار، فلما قاربوا بغداد خاف البرسقي شأنهم وبعث إليه الملك مسعود وحيوس بك أنهم إنما جاؤوا لمخدة على دبیس، وكان البرسقي إنما ارتاب من حيوس بك فصالحهم، ودخل مسعود بغداد ونزل دار المملكة.

نظام الملك، فقدم البرسقي شحنة بغداد في جماعة من الأمراء فنزلوا بصرصر مسلحة لقلعة عسكر السلطان.

وإنه إنما جاء في ألفي فارس للإصلاح والاستتلاف، فلما تبين له لجاح صدقة أرسل إلى الأمراء بأصفهان بأن يستجيشوا ويقدموا، فكتب صدقة إلى الخليفة بالمقاربة وموافقة السلطان.

ثم رجع صدقة عن رأيه، وقال: إذا رحل السلطان عن بغداد مددته بالأموال والرجال لجهاده.

وأما الآن وعساكره متصلة فلا وفاق عندي، وقد أرسل إلى جاولي سكاو، وصاحب الموصل وأبلغازي بن أرتق صاحب ماردین بالانتقاض على السلطان وأيس السلطان من استقامته.

ووصل إليه ببغداد قرواش شرف الدولة وكروباوي بن خراسان التركماني، وأبو عمران فضل بن ربيعة بن خدام بن الجرج الطائي، وكان أباه أصحاب البلقاء وبيت المقدس، ومنهم حسان بن مفرج، وطرده كفرتكين أتابك دمشق لما كان عليه من الأجلاب تارة مع الفرنج، وتارة مع أهل مصر.

فلجأ إلى صدقة وقبله وأكرمه، وأجزل له العطاء سبعة آلاف دينار.

فلما كانت هذه الحادثة رغب عن صدقة وسار في طلائعه فهرب إلى السلطان فخلع عليه وعلى أصحابه، وسوغه دار صدقة عن الهروب، وأذن له فغير من الأنبار وكان آخر العهد به.

ثم أنفذ السلطان في جمادى الأول إلى واسط الأمير محمد بن بوقا التركماني فملكها وأخرج منها أصحاب صدقة، وأنفذ خيله إلى بلد قوسان من أعمال صدقة، فنهيه وأقام أياماً، حتى بعث صدقة ابن عمه ثابت بن سلطان في عسكر، فخرج منها الأمير محمد وملكها ثابت.

وأقاموا على دجلة وخرج ثابت لقتالهم فهزموه واقتحموا البلد، ومنعهم الأمير محمد من النهب ونادى بالأمان، وأمر السلطان الأمير محمداً بنهب بلاد صدقة، فسار إليها وأقطع مدينة واسط لقسيم الدولة البرسقي. ثم سار السلطان من بغداد آخر رجب ولقيه صدقة واشتد القتال وتحاذلت عنه عبادة وخفاجة، ورفع صوته بالابتهاال بالناشرة بالعرب، ورغب الأكراد بالمواعد، ثم غشيه الترك فحمل عليهم وهو ينادي: أنا ملك العرب أنا صدقة فأصابه سهم أثبته وتعلق به غلام تركي يسمى برغش فجنّبه إلى الأرض، فقال: يا برغش إرفق قتلته وحمل رأسه إلى السلطان فأنفذه إلى بغداد، وأمر بدفن شلوه، وقتل من أصحابه ثلاثة آلاف أو يزيدون، ومن بني شيبان نحو مائة، وأسر ابنه دبیس،

فتنة ديبس مع السلطان محمود وإجلاؤه عن بغداد ثم معاودته الطاعة

كان ديبس بن صدقة كثيراً ما يكتب جيوس بك أتابك الملك مسعود، ويفريه بطلب السلطنة ويعدّه بالمساعدة ليحصل له بذلك علو اليد كما كان لأبيه مع بركيارق ومحمد ابني ملك شاه.

وكان قسم الدولة البرسقي شحنة بغداد قد سار للملك مسعود، وأقطعه مراغة مع الرحبة، وكانت بينه وبين ديبس عداوة مستحكمة فأغراهم ديبس بالقبض عليه، ففارقهم البرسقي إلى السلطان محمود فأكرمهم.

ثم اتصل الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصفهاني بالملك مسعود، وكان ولده أبو المؤيد محمد يكتب الطغرائي عن الملك مسعود.

فلما وصل أبوه عزل أبا علي بن عمار صاحب طرابلس واستوزره، وحسن لهم ما أشار به ديبس فعزموا عليه.

ونمي الخبر إلى السلطان محمود فكتبهم بالوعيد فأظهروا أمرهم وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، و ضربوا له النوب الخمس.

ويلغهم أن عساكر محمود متفرقة فأغذوا السير لمحاربتهم، والتقوا عند عقبة استراباد في ربيع سنة أربع عشرة، وأبلى البرسقي وكان في مقدمته.

ثم انهزم مسعود وأضر كثير من أصحابه، وحيء بالوزير أبي إسماعيل الطغرائي فأمر بقتله لسنة من ولايته، وكان حسن الكتابة والشعر وله تصانيف في صنعة الكيمياء، وسار مسعود يطلب الموصل بعد أن استأمن البرسقي وأدركه فردّه إلى أخيه، وعفا عنه وعطف عليه، ولحق جيوس بك بالموصل.

ثم بلغه فعل السلطان محمود ومعه ألف سقينة لعبوره، فبادر ديبس لطلب الأمان بعد أن أرسل حرمه إلى البطيحة، وسار بأمواله عن الحلة وأمر بنهها، ولحق بالبلغازي بن أرتق بماردين، ووصل السلطان إلى الحلة فوجدها خاوية على عروشها فرجع عنها.

وأرسل ديبس أخاه منصوراً من قلعة صفد في عسكر إلى العراق فمر بالحلة والكوفة، وانحدر إلى البصرة وبعث إلى برتقش الزكوي في صلاح حالهما مع السلطان محمود فقبض على منصور أخيه ديبس وولده، وحبسهما ببعض القلاع حذاء الكرخ.

وجاء منكبرس في العساكر فسار البرسقي عن بغداد لمحاربتهم ودفاعه فمال إلى النعمانية، وعبر دجلة واجتمع مع ديبس بن صدقة.

وكان ديبس قد صانع مسعوداً وصاحبه بالهدايا والألطف مدافعة عن نفسه، فلما لقيه منكبرس اعتضد به، وسار الملك مسعود والبرسقي وجيوس بك إلى المدائن للقاءهما.

ثم خاموا عن لقاتهما لكثرة جموعهما، ونكبوا عن المدائن وعبروا نهر صرصر، وأكثروا النهب في تلك النواحي من الطائفتين.

وبعث إليهم المسترشد بالموعظة ويأمرهم بالموادعة والمصالحة فأجابوا إلى ذلك.

ثم بلغهم أن ديبساً ومنكبرساً قد بعثا العساكر مع منصور أخي ديبس وحسين بن أوزبك ربيب منكبرس ليخالفوهما إلى بغداد فخلوها من الحامية، فأغذ البرسقي السير إلى بغداد وترك ابنه عز الدين مسعود على العسكر وصحبه عماد الدين زنكي بن أقتنر وانتهى إلى دبال، ومنع العسكر من العبور.

ثم جاءه الخبر ليومين بصلح الفريقين كما أشار الخليفة ففر نشاطه وعبر إلى الجانب الغربي من بغداد.

وجاء في أثره منصور أخو ديبس وحسين ربيب منكبرس فنزلا في الجانب الشرقي من بغداد.

وأغار البرسقي على نعم الملك مسعود فأخذها، وعاد فخيم بجانب آخر من بغداد، وخيم مسعود وجيوس بك من جانب آخر وديبس ومنكبرس من جانب ومعهما عز الدولة بن البرسقي منفرداً عن أبيه.

وكان جيوس بك قد بعث إلى السلطان محمود بطلب الزيادة له وللملك مسعود فجاء كتاب مع رسوله يذكر بأن السلطان كان أقطعهم أذربيجان، حتى إذا بلغه مسيرهم إلى بغداد تناقل عن ذلك، وقد جهز العساكر إلى الموصل.

وقوع الكتاب بيد منكبرس فبعث إلى جيوس بك وضمن له إصلاح الحال، وكان يؤثر مصلحته إذ كان متزوجاً بأمة فتم الصلح وافترق عن البرسقي أصحابه، وبطل ما كان يحدث به نفسه من الاستبداد بالعراق، وصار مع الملك مسعود واستقر منكبرس شحنة ببغداد، ورجع ديبس إلى الحلة.

البصرة، فتجهز البرسقي للانحدار إليها ففارقها ديبس، ولحق بقلعة جعبر وصار مع الفرنج وأطعمهم في حلب وسار معهم لحصارها سنة ثمان عشرة وخمسمائة فامتعت عليهم فعادوا عنها، ولحق هو بالملك طغرل بن السلطان محمد فأغراه بالمسير إلى العراق كما نذكر.

مسير ديبس إلى الملك طغرل

لما سار ديبس من الشام إلى الملك طغرل بأذربيجان تلقاه بالميرة والتكرمة، وأنظمه في خواصه ووزرائه، وأغراه ديبس بالعراق، وضمن له ملكه فصار معه لذلك، وانتهوا إلى دقوقا في عساكر كثيرة.

وكتب مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت إلى المسترشد بالخبر فتجهز لداقعتهم، وجمع العساكر فبلغوا اثني عشر ألف فارس، وبرز من بغداد في صفر سنة تسع عشرة وخمسمائة وفي مقدمته يرتقش الزكوي ونزل الخالص، وانتهى إلى طغرل خروج المسترشد فعدل إلى طريق خراسان ونزل جلولا، وتفرق أصحابه للنهب.

وبرز إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في عسكر كبير فنزل الدبكرة، ولحقه المسترشد وكان معه، ورحل طغرل وديبس إلى الهارونية.

ثم سارا إلى تمارا ليقطعا جسر النهر وان حفظ ديبس المعابر، وتقدم طغرل إلى بغداد وتملكها ونهبها، ثم رحل ديبس من تمارا وأقام طغرل لخمى أصابته، وحالت بينهما الأمطار والسيول.

ثم أخذ ديبس ثقلأ جاء للخليفة فيه ملبوس وطعام كثير، وكان لحقه الجوع والتعب والبرد فأخذ من ذلك الملبوس ولبسه، وأكل من الطعام كثيراً، واستقبل الشمس فأخذ النوم وورق.

وأما الخليفة لما بلغه الخبر بأخذ النمل رجع إلى بغداد، ففي حال سيره عثر على ديبس وهو نائم فوقف وأيقظه، فحل عينيه ورأى الخليفة فبادر بتقبيل الأرض على العادة، وسأل العفو، فرق له الخليفة وثاء الوزير ابن صدقة عن ذلك، ووقف ديبس أزاء عسكر يرتقش يحادثهم، ثم مدوا الجسر آخر النهار للعبور فقتل ديبس عنهم، ولحق بالملك طغرل، وسار معه إلى عمه الملك سنجر، وعاثوا في أعمالهم هذان واتبعهم السلطان محمود فلم يظفر بهم.

ثم أذن ديبس لجماعة من أصحابه بالمسير إلى أقطاعهم بواسط فممنهم أترك واسط، فبعث إليهم عسكراً مع مهلهل بن أبي العسكر، وأمر مظفر بن أبي الخير فساعدته، واستمد أهل واسط البرسقي فأمدتهم بعسكر.

وسار مهلهل للقائهم قبل مجيء المظفر فهزم وأخذ أسيراً في جماعة من أصحابه، وأصعد المظفر من البطيحة ينهب ويفسد حتى قارب واسط، وسمع بالهزيمة فأسرع متحذراً ووقع على كتاب بخط ديبس إلى مهلهل يأمره بالقبض على مظفر بن أبي الخير، ومطالبته بالأموال، فبعثوا به إلى المظفر.

وسار معهم وبلغ ديبساً أن السلطان كحل أخاه فلبس السواد، ونهب البلاد، وأخذ للمسترشد بنهر الملك، وأجفل الناس إلى بغداد وسار عسكر واسط إلى النعمانية، فأوقعوا بين هنالك من عساكر ديبس وأجلوهم عنها.

وكان ديبس قد أسر في واقعة البرسقي عفيفاً خادماً الخليفة فأطلقه، وحمله إلى المسترشد عقاباً ووعيداً على كحل أخيه فغضب الخليفة، وتقدم إلى البرسقي بالخروج لحرب ديبس، وخبرج نفسه في رمضان سنة عشرة وخمسمائة وأثناء سليمان بن مهارش من الحديثة في جماعة من بني عقيل وقريش بن مسلم صاحب الموصل في كافة بني عقيل.

وأمر المسترشد باستنفاذ الجند كافة، وفرق فيهم الأموال والسلاح، وجاء ديبساً ما لم يكن يحسبه فرجع إلى الاستعطاف وبرز الخليفة آخر ذي الحجة، وعبر دجلة وهو في أكمل زيه، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبين ونقيب النقباء علي بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل.

وبلغ البرسقي مسير المسترشد فعاد إلى خدمته ونزل معه بالحديثة.

ثم سار إلى الموصل على سبيل التعمية والبرسقي في المقدمة، وعبى ديبس أصحابه صفأ واحداً وجعل الرجالة بين يدي الخيالة.

وقد كان وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي حريمها، فالتقى الفريقان فانهزم عسكر ديبس وأسر جماعة من أصحابه فقتلوا صبراً وسبيت حرمه، ورجع المسترشد إلى بغداد يوم عاشوراء من سنة سبع عشرة وخمسمائة.

ونجا ديبس وعبر الفرات، وقصد غزنة من عرب نجد مستنصراً بهم فأبوا عليه، فصار إلى المتفق وحالفهم على أخذ البصرة فدخلوا ونهبوا أهلها، وقتل مقدم عسكرها.

وربع المسترشد إلى البرسقي بالعتاب على إهمال أمر

توفي في هذه السنة، وخلف سرية له فاستولت على القلعة، وأرادت أن تتم أمرها برجل له قوة ونجدة فوصف لها دبيس، وحاله في العراق وكثرة عشيرته، فكتبت تستدعيه لتتزوج به، وتلك القلعة بما فيها فلحقه الكتاب بعد مفارقتها البصرة.

وقفل من العراق إلى الشام، ومعه الأدلاء ومر بدمشق فحبسه واليها عنده، وبعث فيه عماد الدين زنكي وكان عدوه.

وكان عنده ابن تاج الملوك مأسوراً في واقعة كانت بينهما، فطلب أن يبعث إليه دبيس، ويفادي به ابنه والأمراء الذين معه ففعل ذلك تاج الملوك، وحصل دبيس في يد زنكي، وقد أيقن بالهلاك فأطلقه زنكي وحمل له الأموال والدواب والسلاح وخزان الأمتعة كما يفعل مع أكابر الملوك وبلغ المسترشد خبره فبعث سيد الدين بن الأنبار يطلبه من تاج الملوك فسار لذلك من جزيرة ابن عمر، وبلغه في طريقه أنه بعثه إلى زنكي وأنه فاته القصد منه.

مسير دبيس إلى بغداد مع زنكي

وانهزامهما

لما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين وخمسمائة وولي بعده داود، ونازعه عمومته مسعود وسلجوق، ثم استقرت السلطنة لمسعود، وكان أخوهما طغرل عند عمه سنجر بخراسان، وكان كبير بيت أهل السلجوقية، وله الحكم على ملوكهم فنكر على السلطان محمود لقتاله سلجوق وطغرل، وسار به إلى العراق، وانتهى إلى همدان.

وبعث إلى عماد الدين زنكي فولاه شحنة بغداد، وإلى دبيس بن صدقة وهو عند زنكي فأقطعته الحلة ونجهز السلطان محمود لقتال سنجر وطغرل، واستدعى الخليفة للحضور معه فخرج من بغداد وعاجلهم، ورجع المسترشد إلى بغداد وقد سمع بوصول زنكي ودبيس إليها ولقيهم بالعباسية فهزمهم، وقتل من معسكرهم ودخل بغداد وسار دبيس إلى بلاد الحلة، وكانت بيد أقبال خادم المسترشد فبعث إليها بالمدد فهزموا دبيساً ونجاً من المعركة.

ثم جمع جمعاً وقصد واسط وانضم إليه عسكرها وابن أبي الخير صاحب البطيحة، وملكها إلى سنة سبع وعشرين وخمسمائة فبعث أقبال الخادم وبرتقش الشحنة العساكر إلى دبيس فلقبهم في عسكر واسط، وانهزم وسار إلى السلطان مسعود فأقام عنده.

مسير دبيس إلى السلطان سنجر

لما أبس طغرل من ملك العراق عندما سار إليه مع دبيس عاد منه، وسار هو ودبيس إلى السلطان سنجر، وهو يومئذ صاحب خراسان، والمتقدم على بني ملك شاه، فشكى إليه طغرل ودبيس من المسترشد، وبرتقش الشحنة، ووعدهم النصفه منهم، ثم داخله دبيس وأطعمه في ملك العراق، وخيل له أن المسترشد والسلطان محمود متفقان على مباعدته، ولم يزل يقتل له في الذروة والغارب حتى حرك حفيظته لذلك، وسار إلى العراق سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فوصل إلى الري، واستدعى السلطان محموداً من همدان يختبر ما خيل له دبيس، فجاء محمود مبادراً وأكذب دبيساً فيما خيل، وأمر السلطان سنجر العساكر بتلقي السلطان محمود، وأجلسه معه على التخت، وأقام عنده إلى آخر سنة اثنتين وعشرين ثم عاد إلى خراسان وأوصاه بإعادة دبيس إلى بلده، فرجع السلطان محمود إلى همدان ودبيس معه، ثم سار إلى بغداد في محرم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وأنزل دبيس بداره، واسترضى له الخليفة فرضي عنه، وامتنع من ولايته، وبذل دبيس مائة ألف دينار لذلك فلم يقبله، وعاد السلطان محمود إلى همدان منتصف السنة.

فتنة دبيس مع محمود وأسره

كانت زوجة السلطان محمود وهي ابنة عمه سنجر تعين بأمر دبيس، فماتت عند رحيل السلطان إلى همدان فأنزل أمره.

ثم مرض السلطان فأخذ دبيس ابنه الصغير، وقصد العراق فجمع المسترشد لمدافعته.

وكان بهروز شحنة بغداد بالحلة فهرب عنها، وملكها دبيس في رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة.

وبلغ الخبر إلى السلطان محمود، فأحضر الأمير ابن قزل والأحمديلي، وكانا ضمنا دبيس فطالهما بالضمان فسار الأحمديلي في أثره.

وجاء السلطان إلى العراق فبعث إليه دبيس بهدايا عظيمة كان فيها مائتا ألف دينار، وثلاثمائة فرس بسروج مثقلة بالذهب.

ثم جاء إلى البصرة ونهها وأخذ ما في بيوت الأموال.

وبعث السلطان في أثره العساكر فدخل البرية، وجاءه عند مفارقتها البصرة قاصداً من صرصر يستدعيه، وكان صاحبها خصياً

مقتل ديبس وولاية ابنه صدقة

صدقة وأصلح حاله معه ولزم بابه.

مقتل صدقة وولاية ابنه محمد

ولما قتل المسترشد ولي ابنه الراشد بإشارة السلطان مسعود، ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان مسعود، وأغراه بها عماد الدين زنكي صاحب الموصل، ومعه الراشد.

وباع السلطان مسعود للمقتضي سنة ثلاثين وخمسمائة وخلع الراشد ففارق الموصل، وسار الأمراء الذين كانوا مع داود إلى السلطان مسعود، ورضي عنهم، ورجع إلى همدان وأذن للعساكر في العود إلى بلادهم، وتمسك بصدقة بن ديبس وزوجه ابنته.

وسار الراشد من الموصل إلى أذربيجان قاصداً الملك، واجتمع إليه صاحب فارس وخوزستان وجماعة الأمراء، فسار إليهم السلطان مسعود وهزمهم، وأخذ صاحب فارس الأمير منكبرس فقتله صبراً.

وتسلل صاحب خوزستان وعبد الرحمن طغاييرك صاحب خلخال إلى السلطان مسعود وهو في خوف من الناس فحملوا عليه وهزموه، وقبضوا على جماعة من الأمراء الذين معه فقتله منكبرس: فيهم صدقة بن ديبس وعنبر بن أبي العسكر.

وذهب داود إلى همدان فملكها، واستقال السلطان مسعود من عثرته، وولى على الحلة محمد بن ديبس، وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا غنم بريرة، واستقام أمره بالحلة، وكان من شأن الراشد والسلاجقية ما تذكره في أخبارهم.

تغلب علي بن ديبس على الحلة وملكه

إياها من أخيه محمد

ثم خرج على السلطان مسعود سنة ست وأربعين وخمسمائة بوزاية صاحب فارس وخوزستان وباع للسلطان محمد ابن السلطان محمود، وسار معهم عباس صاحب الري، وملكوا كثيراً من البلاد، فسار السلطان مسعود إليهم من بغداد واستخلف بها الأمير مهلهل ابن أبي العسكر ونظر الخادم، وأشار مهلهل على السلطان مسعود عند رحيله من بغداد أن يحبس علي بن ديبس بقلعة تكريت.

ونفي إليه الخبر فهرب في نفر قليل، ومضى إلى بني أسد

لم يزل ديبس مقيماً عند السلطان مسعود إلى أن حدثت الفتنة بينه وبين المسترشد، ومات أخوه طغرل كما هو مذكور في أخبارهم وسار مسعود إلى همدان بعد موت أخيه طغرل فملكها، وفارقه جماعة من أعيان أمرائه، ومعهم ديبس بن صدقة مستوحشين منه.

واستأمنوا للخليفة فحذر من ديبس، ولم يقبلهم فمضوا إلى خوزستان، وانفقوا مع برسق بن برسق.

ثم تدارك الخليفة رأيه وبعث إلى الأمراء الذين مع ديبس بالأمان، وكانوا لما ردهم الخليفة بسبب ديبس أجمعوا القبض عليه، وخدمة الخليفة به، وشعر بهم وهرب إلى السلطان مسعود.

وبرز الخليفة من بغداد في رجب من سنة تسع وعشرين وخمسمائة لقتال مسعود، وكتب إليه أكثر أهل الأعمال بالطاعة.

وأرسل إليه داود ابن السلطان محمود من أذربيجان بأن يقصد المسترشد الدينور ليحضر داود حربه فأبى، وسار على التعبية حتى بلغ وأخرج فالتقوا هنالك.

وانهزمت عساكر المسترشد وأخذ أسيراً ومعه وزيره شرف الدين علي بن طراد، وقاضي القضاة، وابن الأنباري، وجماعة من أعيان الدولة، وغنم ما في عسكره وعاد السلطان إلى بغداد.

وبعث الأمير بكاية شحنة إلى بغداد، وكثر العويل والبكاء والضجيج ببغداد على الخليفة، وجعل الخليفة في خيمة ووكل به، وراسله السلطان مسعود في الصلح، وشرط عليه مالا يؤديه، ولا يجمع العساكر ولا يخرج من داره ما بقي، وانعقد ذلك بينهما.

وبينما هما في ذلك وصل رسول السلطان سنجر فركب السلطان مسعود للقاءه، وافترق المتوكلون بالمسترشد فدخل عليه خيمته آخر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين وخمسمائة جماعة الباطنية، وقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه.

ولما قتل المسترشد اتهم السلطان مسعود أن ديبس بن صدقة دس أولئك نفر عليه فأمر بقتله، وقصده غلام فوقف على رأسه عند باب خيمته، وهو ينكت الأرض بإصبعه فأطار رأسه وهو لا يشعر.

وبلغ الخبر إلى ابنه صدقة وهو بالحلة، فاجتمعت إليه عساكر أبيه ومغاليكه، واستأمن إليه الأمير قطلع تكين وأمر السلطان مسعود الشحنة بك أبي بمعالجته، وأخذ الحلة من يده إلى أن قدم السلطان بغداد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فقصده

ولما علم التشكنج بذكر نهب النهران وقبض على علي بن ديبس، وهرب الطرنطاي إلى النعمانية. ثم وصل السلطان مسعود إلى بغداد فرحل التشكنج من النهران وأطلق علي بن ديبس فسار إلى السلطان مسعود فلقبه ببغداد واستعطفه فرضي عنه.

وفاة علي بن ديبس وانقراض بني مزيد

ثم توفي علي بن ديبس صاحب الحلة علياً بسعدآباد، واهتم طيبه محمد بن صالح بالادهان فيه فمات بعده بقليل. ثم مات السلطان مسعود آخر ملوك السلجوقية الأعظم، وبويع ملك شاه ابن أخيه محمود بعده، واستبد المقتفي على ملوك السلجوقية بعده.

وبعث السلطان ملك شاه سلاكرود إلى الحلة فملكها، ولحق به مسعود بلاك شحنة بغداد، وهرب منها عند موت السلطان مسعود، وأظهر لسلاكرود الوفاق.

ثم قبض عليه وغرقه، واستبد بالحلة، وبعث المقتفي إليه العساكر مع الوزير عون الدين بن هبيرة، فبرز مسعود بلاك للقائهم، فانهزم وعاد إلى الحلة فمنعه أهلها من الدخول، فسار إلى تكريت، وملك ابن هبيرة الحلة، وبعث العساكر إلى الكوفة وواسط فملكوها.

ثم جاءت عساكر السلطان ملك شاه إلى واسط، وخرجت منها عساكر المقتفي إلى واسط فملكها، ثم إلى الحلة كذلك.

ثم عاد إلى بغداد آخر ذي القعدة سنة سبع وأربعين وخمسمائة، ثم قبض الأمراء على ملك شاه سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وبايعوا لأخيه محمد وطلب الخطبة من المقتفي فمنع منها، فسار السلطان محمد بن محمود إلى العراق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

واضطرب الناس ببغداد واهتم المقتفي بالاحتشاد، وجاءته عساكر واسط، وبعث السلطان مهلهل بن أبي العسكر إلى الحلة فملكها، وحاصر السلطان محمد ببغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وامتعت عليه فوجع، وتوفي المقتفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة وبويع ابنه المستجد، واستبد بأمره كما كان أبوه.

ومنع خطبة السلجوقية من بغداد، وكان في نفسه شيء من بني أسد لإجلابهم على بغداد مع مهلهل بن أبي العسكر، أيام

فجمعهم فسار إلى الحلة فبرز إليه محمداً أخوه فهزمه علي، وملك الحلة واستهان السلطان أمره أولاً فاستفحل وضم إليه جمعاً من غلماناه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم، وكثر جمعهم فسار إليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر، وضربوا عليه مصافاً وكسره، وعادوا منهزمين إلى بغداد.

وكان أهلها يتعصبون لعلي بن ديبس فكانوا يعيطون إذا ركب مهلهل أو بعض أصحابه: يا علي كله.

فكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب، ويد علي فوق كل يد في أوضاع الأمراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها على وجل منه، ووضع الخليفة الحامية على الأسوار وأرسل إلى علي يحضه على الاستقامة فأجاب بالآمال والطاعة فسكن الناس.

أخذ السلطان الحلة من يد علي وعوده

إليها

كان علي بن ديبس كثير العسف بالرعية والظلم لهم، وارتفعت شكوى الرعية به إلى السلطان مسعود سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فاشكاهم، وأقطع الحلة سلاكرود فسار إليها من همدان.

وجمع عسكراً من بغداد وقصد الحلة، واحتاط على أهل علي، وأقام بالحلة في مملوكيه وأصحابه.

ورجعت عنه العساكر ولحق علي بن ديبس بالتشكنج و كان في أقطاعه باللحف متجنباً على السلطان مسعود، فاستنجده علي فأجده، وسار معه إلى واسط، وسار معهما الطرنطاي صاحب واسط فانتزعوا الحلة من سلاكرود ورجع إلى بغداد آخر اثنتين وأربعين، واستولى علي على الحلة.

نكبة علي بن ديبس

ثم انتفض على السلطان مسعود سنة أربع وأربعين وخمسمائة جماعة من الأمراء منهم التشكنج والطرنتاي وعلي بن ديبس، وبايعوا ملك شاه ابن السلطان محمود، وساروا به إلى العراق، وراسلوا المقتفي في الخطبة له فامتنع، وجمع العساكر وحصن بغداد وأرسل إلى السلطان مسعود بالخير فشغل عنهم بلقاء عمه السلطان سنجر، كان سار إليه بالري.

ثم كان من بعد ذلك بيعث معاوية بن خديج فيفتح ويثخن إلى أن استملك فتح إفريقية.

وفد على عثمان آخر أيامه عندما احتاجت الفتنة، وكثر الطعن عليه من جماعة جند مصر يتعللون بالشكوى من ابن أبي سرح مع وفد من الجند شاكين من عهله بالأمصار.

وعزله عثمان يسترضيهم به فكانت قضية الكتاب المنسوب إلى مروان وحصارهم عثمان بداره.

وخرج عبد الله من مصر مدداً لعثمان فخالفه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة إلى مصر وانتزى بها.

ورجع عبد الله من طريقه فمنعه الدخول فسار إلى عسقلان، وأقام بها حتى قتل عثمان.

ثم سار إلى الرملة وكانت من مهماته فأقام بها هرباً من الفتنة حتى مات، ولم يبايع علياً ولا معاوية.

ثم قتل عمرو بن العاص محمد بن أبي حذيفة، وفي كيفية قتله إياه اضطراب.

ثم ولي علي على مصر قيس بن سعد بن عباد، وكان ناصحاً له شديداً على عدوه، واستماله معاوية، فأساء في الرد عليه.

وأشاع معاوية خلاف ذلك عنه فعزله علي من أجل ذلك، وولى بعد ذلك الأشتر النخعي، واسمه مالك بن الحارث بن يغوث بن سلمة بن ربيعة بن الحارث بن خزيمه بن سعد بن مالك بن النخع.

وسار إليها فمات بالقلزم قريباً منها سنة سبع وثلاثين، فولى علي مكانه محمد بن أبي بكر، وكان نشأ في حجره.

ثم بعث معاوية إلى عمرو بن العاص وهو بفلسطين قد اعتزل الناس بعد مقتل عثمان، واستماله واجتمع معه على قتال علي وولاه مصر فسار إليها بعد انقضاء أمر صفين وأمر الحكمين.

وطلب معاوية الخلافة وقد اضطرب الأمر على محمد بن أبي بكر وخرج عليه معاوية بن خديج السكوني مع جماعة من العثمانية بنواحي مصر فكاتب عمرو العثمانية، وسرح الكتائب إلى مصر، وفي مقدمتها معاوية بن خديج فهزموا عساكر محمد، وافترق عنه أصحابه وقتل كما هو معروف في أخباره.

ودخل عمرو بن العاص الفسطاط، وملك مصر، إلى سنة ثلاث وأربعين ومائة فترقي، وملك مكانه ابنه عبد الله.

ثم عزله معاوية وولى أخاه عتبة بن أبي سفيان، وتوفي سنة

حصار السلطان محمد لها، فأمر بردن بن قعاج بقتالهم وإجلاتهم، وكانوا منتشرين في البطائح، ولا يقدر عليهم، وجمع عساكره وبعث عن ابن معروف مقدم المتفق من أرض البصرة فجاءه في جمع كبير، وحاصرهم حتى انحسر الماء عنهم.

وأبأ أمرهم على المستجد فبعث إلى بردن يعاتبه وينسبه إلى موافقتهم في التشيع فجهد هو وابن معروف في قتالهم، وسد مسالكهم في الماء، واستسلموا فقتل منهم أربعة آلاف، ونودي عليهم بالجلاء من الحلة فافترقوا في البلاد، ولم يبق منهم بالعراق من يعرف، وسلمت بطائعهم وبلادهم إلى ابن معروف والمتفق وانقرضت دوله بني مزيد والبقاء لله.

الخبر عن ملوك العجم القائمين بالدعوة

العباسية في ممالك الإسلام والمستبدين على

الخلفاء ونبدأ منهم أولاً بدولة ابن طولون

بمصر وبداية أمرهم ومصاير أحوالهم

قد تقدم لنا عند ذكر الفتوحات فتح مصر على يد عمرو بن العاص سنة عشرين من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإذنه، وولاه عليها، وافتتح ما وراءها في المغرب إلى طرابلس وودان وغدامس حسباً ذلك مذكور هنالك، وأقام عمرو في ولايتها أيام عمر كلها وولى عثمان على الصعيد عبد الله بن أبي سرح، وأفردها بالولاية، وكان يعدو على عمرو فغضب عمرو، وأبى من الرجوع إلى ولاية مصر، فضمها عثمان لعبد الله بن أبي سرح وولاه عليها.

وكانت في أيامه غزوة الصواري، جاءت مراكب الروم من القسطنطينية في ألف مركب ونزلوا بسواحل الإسكندرية.

وانتقض أهل القرى، ورغب أهل الإسكندرية من عثمان أن يمدحهم بعمرو بن العاص فبعثه، وزحف إليهم في العرب ومعه المقوقس في القبط، وخرجوا من البحر ومعهم من انتقض من أهل القرى، ففتح الله على المسلمين، وهزموا الروم إلى الإسكندرية.

وأضى عمرو في قتلهم ورد على أهل القرى ما غنم المسلمون منهم، وعذروهم بالإكراه، ورجع إلى المدينة وأقام عبد الله في ولايتهم، وغزا إفريقية وانتحها.

ثم غزا بلد النوبة، ووضع عليهم الجزية المعروفة الباقية على الأيام وذلك سنة إحدى وثلاثين.

في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائة، وولي المغيرة بن عبد الله بن مسعود الفزاري، ثم مات في جمادى سنة ست وثلاثين، واستخلف ابنه الوليد.

وولي مروان بن عبد الملك موسى بن نصير فأمر باتخاذ المنابر في الكور، وإنما كانوا يخطبون على العصي.

ثم قدم مروان بن محمد إلى مصر، وكان فيها مهلكة كما هو معروف.

ثم جاءت الدولة العباسية فولى السفاح على مصر عمه صالح بن علي سنة أربع وثلاثين ومائة، وبقيت في ولايته يستخلف عليها، فاستخلف أولاً محسن بن فاني الكندي ثمانية أشهر.

ثم أبا عون عبد الملك بن يزيد مولى مائة ثمانية أشهر.

وولي داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة في محرم سنة أربع وسبعين، ثم عزله في محرم سنة خمس وسبعين لسنة من ولايته، وأعاد إليها موسى بن عيسى، ثم صرفه في ربيع سنة ست وسبعين وولي ابن عمه إبراهيم بن صالح وتوفي لثلاثة أشهر من ولايته، وقام بالأمر بعده ابنه صالح فولى الرشيد عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي في رمضان سنة ستة وسبعين ومائة، ثم عزله بعد الحول، وولي هرثمة بن أعين، ثم أمره بالمسير إلى إفريقية لثلاثة أشهر من ولايته سلخ ثمان وسبعين ومائة، وولي أخاه عبيد الله بن المسيب.

ثم أعاد موسى بن عيسى في رمضان سنة تسع وسبعين ومائة فاستخلف ابنه يحيى.

ثم صرف موسى في منتصف سنة ثمانين لعشرة أشهر من ولايته، وأعيد عبيد الله بن المهدي.

ثم صرفه في رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائة وأعيد إسماعيل بن صالح بن علي من العمومة فاستخلف، ثم صرف في منتصف اثنتين وثلاثين ومائة وأعيد لعشرة أشهر من ولايته.

وولي الليث بن الفضل من أهل أسبورد فولياها أربع سنين ونصفاً وعزل.

ثم ولي الرشيد من قرابته أحمد بن إسماعيل بن علي منتصف سبع وثلاثين ومائة بقي عليها ستين وشهرين.

ثم ولي مكانه عبد الله بن محمد بن الإمام إبراهيم بن محمد ويعرف بابن زينب، وصرفه عنها آخر شعبان من سنة تسعين ومائة لسنة وشهرين من ولايته.

أربع وأربعين وولي مكانه عقبة بن عامر الجهني، ثم عزله سنة سبع وأربعين ومائة وولي مكانه معاوية بن خديج.

ثم اقتطع عنه إفريقية سنة خمسين وولي عليها عقبة بن نافع. ثم جمع مصر وإفريقية لمسلمة بن خالد الأنصاري، فبعث مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر، وأساء عزل عقبة كما هو معروف.

ثم مات معاوية وولي ابنه يزيد، واضطربت الأمور، وبويع عبد الله بن الزبير بمكة، وانتشرت دعوته في الممالك الإسلامية فبعث على مصر عبد الرحمن بن جحدم القرشي، وهو عبد الرحمن بن عقبة بن أبياس بن الحارث بن عبد بن أسد بن جحدم الفهري، ثم بويع مروان وانتفض ابن الزبير وسار مروان إلى مصر فأخرج منها عبد الرحمن بن جحدم وولي عليها عمر بن سعيد الأشدق.

ثم بعثه للقاء مصعب بالشام، وولي مكانه على مصر ابنه عبد العزيز بن مروان ثم هلك سنة خمس وكان مروان قد مات فولى مكانه ابنه عبد الله بن عبد الملك.

ثم عزله الوليد سنة تسع وثلاثين وولي عليها مرة بن شريك بن مرثد بن الحارث العبيسي، ومات سنة خمس وتسعين فولى الوليد مكانه عبد الله بن رفاعة سنة تسع وتسعين، وكان قد استخلفه عند موته ويقال: بل ولي قبله أسامة بن زيد التنوخي.

ثم عزل عمر بن عبد العزيز عبد الملك بن رفاعة سنة تسع وتسعين وولي مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكرم بن أبرهة بن الصباح الأصبحي.

ثم عزله يزيد بن عبد الملك، وولي مكانه بشر بن صفوان، وأقره يزيد، ثم عزله هشام بن عبد الملك وولي عبد الملك بن رفاعة وتوفي بعد خمس عشرة ليلة.

واستخلف أخاه الوليد بن رفاعة، وأقره هشام فأقام سبعة أشهر، ثم عزله وولي حنظلة بن صفوان في الحرم سنة أربع وعشرين ومائة وأقره هشام.

ثم استعفى مروان بن محمد حين ولي فأعفاه، وولي مكانه حسان بن عتامة بن عبد الرحمن السجيني، وكان بالشام فاستخلف حمير بن نعيم الحصري بمصر ثم قدم ورفض ولايتها، فولى مكانه حفص بن الوليد لسنة عشر يوماً من ولايته.

وبقي حفص شهرين، ثم ولي مروان الحوثرية بن سهل بن العجلان الباهلي في محرم سنة ثمان وعشرين ومائة ثم صرف عنها

المظفر.

ولما صارت الخلافة للمعتصم ولي على مصر مولاه
أشناس، ويكنى أبا جعفر في رجب سنة ثمان عشرة، فاستخلف
عليها موسى بن أبي العباس ثابت من بني حنيفة من أهل الشاش
في رمضان سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه المظفر فأقام
مستخلفاً لأشناس أربع سنين ونصفاً.

ثم عزله بعد ستين، واستخلف مالك بن كيد بن عبد الله
الصفدي، فقدم في ربيع سنة أربع وعشرين ومائتين ثم عزله بعد
ستين واستخلف علي بن يحيى الأرمي، وقدم في ربيع سنة ست
وعشرين ومائة.

ثم عزله بعد ستين وثمانية أشهر، واستخلف عيسى بن
منصور الذي كان مستخلفاً للمعتصم أيام المأمون، وسخطه المأمون
عند قدومه مصر فقدم عيسى في محرم سنة تسع وعشرين ومائتين.
ثم مات أشناس بعد الثلاثين، وقد استخلف على مصر
إتياخ مولى المعتصم وأقيم إتياخ مكان أشناس فأقر الوائق إتياخ
على مصر، فأقر إتياخ عيسى بن منصور في ربيع سنة ست
وثلاثين ومائتين بقي أربعة أشهر.

ثم استخلف إتياخ هرثة بن النصر الجبلي فقدم متصرف
سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وأقام سنة، ثم مات سنة أربع وثلاثين
ومائتين، وقام بأمره ابنه حاتم رضي الله تعالى عنه، فاستخلف
إتياخ علي بن يحيى الأرمي في رمضان سنة أربع وثلاثين ومائتين.
ثم صرف إتياخ عن ولاية مصر في محرم سنة خمس وثلاثين
ومائتين بعد وفاة المعتصم.

وولي المتوكل على مصر ابنه المستنصر فاستخلف عليها
إسحاق بن يحيى بن معاذ الحتلي، وقدم في ذي القعدة من سنته،
وفي أيامه أخرج ولد علي من مصر إلى العراق، ثم صرف في ذي
القعدة من سنة ست وثلاثين ومائتين، واستخلف المستنصر عليها
عبد الرحمن بن يحيى بن منصور بن طلحة وريسق، وهو ابن عم
طاهر بن الحسين، وقدم في ذي القعدة سنة ست وثلاثين ومائتين.
ثم صرفه واستخلف عنبسة بن إسحاق بن عيسى بن عبسة
من أهل هراة.

ويكنى أبا حاتم في صفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

وفي ولايته كبس الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان
وثلاثين ومائتين، واستخلف يزيد بن عبد الله بن دينار من
مواليهم، ويكنى أبا خالد، وفي أيامه منع العلويون من ركوب

وولي حاتم بن هرثة بن أعين، فقدم في شوال سنة أربع
وتسعين ومائة، ثم صرفه الأمير متصرف خمس وتسعين ومائة لسنة
وثلاثة أشهر من ولايته، وولي جابر بن الأشعث بن يحيى بن
النعمان الطائي متصرف خمس وتسعين ومائة فأخرجه الجند منها
سنة وست وتسعين ومائة لسنة من ولايته.

ثم ولي المأمون عليها عباد بن محمد بن حيان البلخي مولى
كندة، ويكنى أبا نصر.

ثم عزله لسنة ونصف من ولايته في صفر سنة ثمان
وتسعين ومائة، وولي المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم
الخرزاعي، وقدمها من مكة في منتصف ربيع الأول.

ثم صرفه في شوال لثمانية أشهر من ولايته، وولي من
عمومته العباس بن موسى بن عيسى فبعث عليها ابنه عبد الله،
ومعه الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه، فأقام
عليها شهرين ونصفاً، فقتله الجند يوم النحر سنة ثمان وتسعين
ومائة، وولوا عليهم المطلب بن عبد الله.

ثم جرت بينه وبين السدي وبين الحكم بن يوسف مولى بني
ضبة من أهل بلخ من قوم يقال لهم الزط، وجرت بينه وبين أهل
المطلب حروب، وخرج هارباً إلى مكة بعد سنة وثمانية أشهر من
ولايتها ووليها السري بإجماع الجند في رمضان سنة مائتين.

ثم وثب به الجند بعد ستة أشهر وولوا سليمان بن غالب
بن جبريل بن يحيى بن قرة العجلي في ربيع الأول سنة إحدى
عشرة ومائتين.

وولي عبد الله بن طاهر بن الحسين مولى خزاعة فأقام
عشرة.

ثم ولي المأمون عليها أخاه أبا إسحاق الملقب في خلافته
بالمعتصم، فأقر عيسى الجلودي، ويعد عمير بن الوليد التميمي في
صفر سنة أربع عشرة ومائتين ثم قتل بعد شهرين، واستخلف ابنه
محمد بن عمير شهراً، ثم أعاد عيسى الجلودي.

ثم جاء أبو إسحاق المعتصم إلى القسطنطينية وعاد إلى الشام،
واستخلف عبدويه بن جبلة في الحرم فاتح خمس عشرة فأقام سنة،
وولي عيسى بن منصور بن موسى الخراساني الرافعي مولى بني
نصر بن معاوية.

ثم قدم المأمون مصر لسنة من ولايته، فسخط على عيسى
بن منصور، وعمر المقياس وجسراً آخر بالقسطنطينية، وولي كندر بن
عبد الله بن نصر الصفدي، ويكنى أبا مالك، ورجع إلى العراق
ومات كندر في ربيع سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه

الخليل واقتناء العبيد.

ثم ولي المستنصر الخلافة في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين فآثر يزيد على ولاية مصر، ثم صرف عنها في ربيع سنة

ثلاث وخمسين لعشر سنين من ولايته.

وولي المعتز مكانه مزاحم بن خاقان ابن عزطوج التركي في ربيع سنة أربع وخمسين، وعهد إلى أزجور بن أولغ طرخان التركي فأقام خمسة أشهر وخرج حاجاً في رمضان سنة أربع وخمسين.

وولي أحمد بن طولون، واستفحل بها أمره، وكانت له ولبنه بها دولة كما نذكر الآن أخبارها.

قال صدر الدين بن عبد الظاهر: ولم أر ذلك لغيره من المؤرخين انتهى.

ولما وقع اضطراب الترك ببغداد وقتل المستعين وولي المعتز واستبد عليه الأتراك وزعيمهم يومئذ بآك بآك وولاه المعتز مصر، ونظر فيمن يستخلفه عليها، فوقع اختياره على أحمد بن طولون فبعثه عليها، وسار معه أحمد بن محمد الواسطي، ويعقوب بن إسحاق، ودخلها في رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين وعلى الخوارج بها أحمد بن المدبر، وعلى البريد سفير مولى قبيلة فاهدى له ابن المدبر، ثم استوحش منه، وكاتب المعتز بأن ابن طولون يروم العصيان وكاتب صاحب البريد بمثل ذلك، فسطا بسفير صاحب البريد ومات من غده.

ثم قتل المعتز وولي المهدي فقتل بآك بآك، ورتب مكانه يارجوج، وولاه مصر.

وكانت بينه وبين أحمد بن طولون مودة أكيدة، فاستخلفه على مصر، وأطلق يده على الإسكندرية والصعيد بعد أن كان مقتصرأ على مصر فقط، وجعل إليه الخراج فسقطت رتبة ابن المدبر.

ثم أعاده المعتمد فلم ينهض إلى مساماة ابن طولون ولا منازعته.

ثم كتب إليه المعتمد بضبط عيسى بن شيخ الشيباني، وكان يتقلد فلسطين والأردن، وتغلب على دمشق، وطمع في مصر ومنع الحمل، واعترض حمل ابن المدبر، وكان خمسة وسبعين حملاً من الذهب فأخذها، فكتب إليه المعتمد يومئذ بولاية أعماله فادعى العجز، وأتكر مال الحمل ونزع السواد، وأنفذ أناجور من الحضرة في العساكر إلى دمشق سنة سبع وخمسين.

ثم خرج أحمد بن طولون إلى الإسكندرية ومعه أخوه موسى وكان يتجنى عليه، ويرى أنه لم يوف بحقه، وظهر ذلك منه

الخبر عن دولة أحمد بن طولون بمصر وبنيه

ومواليه بني طغج وابتداء أمرهم وتصاريق أحوالهم

قال ابن سعيد - ونقله من كتاب ابن الداية في أخبار بني طولون -: كان طولون أبو أحمد من الطغز، غزوه التتر.

حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون في وظيفته من المال والرقيق والبراذين، وولد له أحمد سنة عشرين ومائتين من جارية اسمها ناسم.

وتوفي طولون سنة أربعين ومائتين، وكفله رفقاء أبيه بدار الملك حتى ثبتت مرتبته، وتصرف في خدمة السلطان، وانتشر له ذكر عند الأولياء فاق به على أهل طبقته، وشاع بين الترك صونه ودينه وأمانته على الأسرار والأموال والفروج.

وكان يستصغر عقول الأتراك، ويرى أنهم ليسوا بأهل للرتب، وكان يحب الجهاد.

وطلب من محمد بن أحمد بن خاقان أن يسأل من عبد الله الوزير أن يكتب لهما بأرزاقهما إلى الثغر، وبقيما هتالك مجاهدين.

وسار إلى طرسوس، وأعجبه ما عليه أهل الحق من تغيير المنكر وإقامة الحق فأنس، وعكف على طلب الحديث.

ثم رجع إلى بغداد وقد امتلأ علماً ودينياً وسياسة.

ولما تنكر الأتراك للمستعين وبايعوا المعتز، وآل أمر المستعين إلى الخلع والتغريب إلى واسط، وكلوا به أحمد بن طولون فأحسن عشرته، ووسع عليه، والزمه أحمد بن محمد الواسطي يومه، وكان حسن العشرة فكه المجالسة.

ولما اعتزموا على قتله بعثوا إلى أحمد بن طولون أن يمضي

في خطابه فأوقع به ونفاه، وحبس كاتبه إسحاق بن يعقوب، واتهمه بأنه أفضى بسره إلى أخيه.

وخرج أخوه حاجاً، وسار من هنالك إلى العراق، ووصف أخاه بالجميل فحظي بذلك عند الموقف.

واستفحل أمر أحمد واستكثر من الجند وخافه أناجور بالشام.

وكتب الموقف يغريه بشأه وأنه يخشى على الشام منه.

ثم كتب الموقف إلى ابن طولون بالشخص إلى العراق لتدبير أمر السلطان، وأن يستخلف على مصر فشعر ابن طولون بالمكيدة في ذلك، فبعث كاتبه أحمد بن محمد الواسطي إلى يارجوج وإلى الوزير، وحمل إليهما الأموال والمدايا.

وكان يارجوج متمكناً في الدولة تسعى في أمره، وأعفاه من الشخص وأطلق ولده وحرمه، واشتدت وطأة ابن طولون وخافه أحمد بن المديبر، فكتب إلى أخيه إبراهيم أن يتلطف له في الانتصاف عن مصر فورد الكتاب بتقليده خراج دمشق وفلسطين والأردن، وصانع ابن طولون بضياعه التي ملكها، وسار إلى عمله بمصر وشيعة ابن طولون ورضي عنه وذلك سنة ثمان وخسين ومائتين وولي الوزير على الخراج من قبله، وتقدم لابن طولون باستحثائه، فتتابع حمل الأموال إلى المعتمد.

ثم كتب ابن طولون بأن تكون جباية الخراج له فأسعف بذلك، وأنفذ المعتمد نفيساً الخادم بتقليده خراج مصر وضريبتها، وخراج الشام.

وبعث إليه نفيس الخادم ومعه صالح بن أحمد بن حنبل قاضي الثغور، ومحمد بن أحمد الجزوعي قاضي واسط شاهدين بإعفائه ما زاد على الرسم من المال والطرز.

ومات يارجوج في رمضان سنة تسع وخسين وكان صاحب مصر، ومن أقطاعه، ويدعى له قبل ابن طولون، فلما مات استقل أحمد بمصر.

فتنة ابن طولون مع الموقف

لما استأنم الزنج وتغلبوا على نواحي البصرة، وهزموا العساكر بعث المعتمد إلى الموقف، وكان المهدي نفاه إلى مكة، فعهده له المعتمد بعد ابنه المفوض، وقسم ممالك الإسلام بينهما، وجعل الشرق للموقف ودفعه لحرب الزنج، وجعل الغرب للمفوض، واستخلف عليه موسى بن بغا، واستكتب موسى بن عبيد الله بن

سليمان بن وهب، وأودع كتاب عهدهما في الكعبة.

وسار الموقف لحرب الزنج، واضطرب الشرق، وقعد السيادة عن الحمل، وشكا الموقف الحاجة إلى المال.

وكان ابن طولون يبعث الأموال إلى المعتمد يصطنعه بذلك، فأنفذ الموقف محريراً خادماً المتوكل إلى أحمد بن طولون يستحثه لحمل الأموال والطرز والرقيق والخيل، ودس إليه أن يعتقله وأطلع على الكتب، وقتل بعض القواد وعاتب آخرين وبعث مع محرير ألفي ألف ومائتي ألف دينار ورقياً وطرزاً، وجمع الرسم وبعث معه من أسلمه إلى الثقة أناجور صاحب الشام.

ولما فعل ابن طولون بنحريه ما فعل، كتب الموقف إلى موسى بن بغا بصرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها أناجور.

فكتب إلى أناجور بتقليدها فعجز عن مناهضة أحمد، فسار موسى بن بغا ليسلم إليه مصر، وبلغ الرقة واستحث أحمد في الأموال، فتهماً أحمد لحربه، وحصن الجزيرة معقلاً لحربه وذخيرته.

وأقام موسى بالركة عشرة أشهر، واضطرب عليه الجند وشغبوا وطالبوه بالأرزاق واختفى كاتبه موسى بن عبيد الله بن وهب، فرجع وتوفي سنة أربع وستين ومائتين ثم كتب الموقف إلى ابن طولون باستقلال ما حمله من المال، وعنفه وهدده فأساء ابن طولون جوابه، وأن العمل لجعفر بن المعتمد ليس لك فأحفظ ذلك الموقف، وسأل من المعتمد أن يولي على الثغور من يحفظها، وأن ابن طولون لا يؤمن عليها لقلة اهتمامه بأمرها، فبعث عمده بن هارون التغلبي عامل الموصل، وركب السفن فآلقت الرية بشاطئ دجلة، فقتله الخوارج أصحاب مساو الساري.

ولاية أحمد بن طولون على الثغور

وكانت أمهات الثغور يومئذ أنطاكية وطرسوس والمصيصة وملطية، وكان على أنطاكية محمد بن علي بن يحيى الأرمني، وعلى طرسوس سيما الطويل وإليه أمر الثغور.

وجاء في بعض أيامه إلى أنطاكية فمنعه الأرمني من الدخول فدس إلى أهل البلد بقتله فقتلوه، وأحفظ ذلك الموقف فولى على الثغور أرجون بن أولغ طرخان التركي، وأمره بالقبض على سيما الطويل فقام بالثغور، وأساء التصرف، وحبس الأرزاق عن أهلها.

وكانت قلعة لؤلؤة من قلاع طرسوس في بحر العدو، وأهم أهل طرسوس أمرها، فبعثوا إلى حاميتها خمسة آلاف دينار رزقاً من عندهم، فأخذها أرجون لنفسه، وضاعت حاميتها وافترقوا.

من الشجعان وسار إلى معسكر موسى فأكمن بعضهم ودخل بالباقيين بعض الخيام فعدت، واحتاج العسكر، وهرب أبو الأغر واتبعوه فخرج عليهم الكمين فهزموهم وأسر موسى، وجاء به أبو الأغر إلى ابن جيعونة قائد ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر سنة ست وستين ومائتين.

الخبر عن انتفاض العباس بن أحمد بن طولون على أبيه

لما رحل أحمد بن طولون إلى الشام واستخلف ابنه العباس، وكان أحمد بن الواسطي محكماً في الدولة.

وكان للعباس بطانة يدرسونه الأدب والنحو، وأراد أن يولي بعضهم الوظائف، ولم يكونوا يصلحون لها، فمنع الواسطي من ذلك خشية الخلل في الأعمال، فحمل هؤلاء البطانة عليه عند العباس وأغروه به، وكتب هو إلى أحمد يشكوهم فأجابه بمداواة الأمور إلى حين وصوله.

وكان محمد بن رجاء كاتب أحمد مداخللاً لابنه العباس فكان يبعث إليه بكتب الواسطي يتنزل له، فاطلع على جواب أبيه عن كتبه بالمداواة، فازداد خوفاً وحمل ما كان هنالك من المال والسلاح، وهو ألف ألف دينار.

وتسلف من التجار مائتي ألف أخرى، واحتمل أحمد بن محمد الواسطي وأمين الأسود مقيدتين، وسار إلى برقة.

ورجع أحمد إلى مصر وبعث له جماعة فيهم القاضي أبو بكر بكار بن قتيبة والصابوني القاضي وزيد المري مولى أشهب، فتلطفوا به بالموعظة حتى لان، ثم منعه بطانته وخوفوه فقال لبكار: ناشدتك الله هل تأمنه علي؟ فقال: هو قد حلف، وأنا لا أعلم فمضى على ريته.

ورجع القوم إلى أبيه وسار هو إلى إفريقية يطلب ملكها، وسهل عليه أصحابه أمر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب صاحبها، وكتب إليه بأن المعتمد قلده إفريقية، وأنه أقره عليها.

وانتهى إلى المدينة ليلة، فخرج عليه عامل ابن الأغلب فقبض عليه، ونهب البلد وقتل أهله، وفضح نساءهم فاستغاثوا بالياس بن منصور كبير نفوسة ورئيس الأباضية، وقد كان خاطبه يتهده على الطاعة.

وبلغ الخبر إلى ابن الأغلب فبعث العساكر مع خادمه بلاغ، وكتب إلى محمد بن قهرّب عامل طرابلس بأن يظهر معه على

وكتب الموفق إلى أحمد بن طولون بتقليد الثغور، وأن يبعث عليها من قبله فبعث من قبله طحشي بن بكروان، وحسنت حالهم وطلب منه ملك الروم الهدنة، واستأذن في ذلك ابن طولون فمنعه، وقال: إنما حملهم على ذلك تخريبكم لقلاعهم وحصونهم فيكون في الصلح راحة لهم فحاش الله منه، وأمره برم الثغور وأرزاق الغزاة.

استيلاء أحمد بن طولون على الشام

قد تقدم لنا ولاية أناجور على دمشق سنة سبع وخمسين ومائتين وما وقع بينه وبين أحمد بن طولون.

ثم توفي أناجور في شعبان سنة أربع وستين ومائتين ونصب ابنه علي مكانه، وقام يدبر أمره أحمد بن بغا وعبيد الله بن يحيى بن وهب.

وسار إلى الشام مورياً بمشافة الثغور، واستخلف ابنه العباس على مصر، وضم إليه أحمد بن محمد الواسطي، وعسكر في مينة الإصبع، وكتب إلى علي بن أناجور بإقامة الميرة للعساكر فأجاب الآمال.

وسار ابن طولون إلى الرملة، وبها محمد بن أبي رافع من قبل أناجور، ومدير دولته أحمد بن هنالك منذ نفاه المهتدي فأكرمه. ثم سار عن دمشق، واستخلف عليها أحمد بن دوغياش، ورحل إلى حمص وبها أكبر قواد أناجور فشكت الرعية منه فعزله، وولى يمنا التركي.

ثم سار إلى أنطاكية وقد امتنع بها سيما الطويل بعد أن كتب بالطاعة، وأن ينصرف عنه فأبى وحاصرها وشد حصارها.

وضجر أهلها من سيما فدخل بعضهم أحمد بن طولون ودلوه على بعض المسارب فدخلها منه في فاتحة خمس وستين وقتل سيما الطويل وقبض على أمرائه وكاتبه.

ثم سار إلى طرسوس فملكها، ودخلها في خلق كثير، وشرع في الدخول إلى بلاد الروم للغزو.

وبينما هو يروم ذلك جاءه الخبر بانتفاض ابنه العباس الذي استخلفه بمصر فرجع، وبعث عسكراً إلى الرقة وعسكراً إلى حران، وكانت لمحمد بن أناشر فأخرجوه عنها وهزموه.

وبلغ الخبر إلى أخيه موسى، فسار إلى حران وكان شجاعاً.

وكان مقدم العسكر بجران ابن جيعونة فأهله أمرهم، فقال له أبو الأغر من العرب: أنا أتيك بموسى واختار عشرين فارساً

ثم بعث ابن طولون العسكر إلى العمري فلقي قائدهم وقال: إني لم أخرج بالفساد ولا يؤذى مسلم ولا ذمي وإنما خرجت للجهاد فشاور أميرك في فأبى، ونأجزه الحرب فأنهزم العسكر، ورجعوا إلى ابن طولون فأخبروه بشأنه فقال: هلا كتسم شاورعوني فيه؟ فقد نصره الله عليكم بيغيتكم.

ثم وثب عليه بعد مدة غلامان له فقتلاه وجاءا برأسه إلى أحمد بن طولون فقتلها.

انتفاض برقة

وفي سنة إحدى وستين ومائتين وثب أهل برقة بعاملهم محمد بن فرج الفرغاني فأخرجوه، ونقضوا طاعة ابن طولون فبعث إليهم العساكر مع غلامه لؤلؤ، وأمره بالملاينة فحاصروهم أياماً وهو يلين لهم حتى طمعوا فيه، ونالوا من عسكره فبعث إلى أحمد بنجره فأمره بالاستعداد فشد حصارهم، ونصب عليهم المجانيق فاستأمنوا، ودخل البلد وقبض على جماعة من أعيانهم فضر بهم وقطعهم، ورجع إلى مصر واستعمل عليهم مولى من مواليه، وذلك قبل خلاف العباس على أبيه.

انتفاض لؤلؤ على ابن طولون

كان ابن طولون قد ولى مولاة لؤلؤاً على حلب وحمص وقنسرين وديار مصر من الجزيرة، وأنزله الرقة، وكان يتصرف عن أمره.

ومنى وقع في مخالفته عاقب ابن سليمان كاتب لؤلؤ فسقط لؤلؤ في المال، وقطع الحمل عن أحمد بن طولون.

وخاف الكاتب مغبة ذلك، فحمل لؤلؤاً على الخلاف، وأرسل إلى الموفق بعد أن شرط على المتمدن شروطاً أجابه الموفق إليها، وسار إلى الرقة وبها ابن صفوان العقيلي، فحاربه وملكها منه وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق.

وسار إلى الموفق فوصل إليه بمكانه من حصار صاحب الزنج وأقبل عليه، واستعان به في تلك الحروب، وولاه على الموصل.

ثم قبض عليه سنة ثلاث وسبعين ومائتين وصادته على أربعمائة ألف دينار فاقتصر وعاد إلى مصر آخر أيام هارون بن خارويه فقيراً فريداً.

قتال العباس فسار ابن قهر ب وناوشه القتال من غير مسارعة.

ثم صحبهم الياس في اثني عشر ألفاً من قومه.

وجاء بلاغ الخادم من خلفه فأجفل، واستييح أمواله وذخائره، وقتل أكثر من كان معه، وأفلت بمجاشيته، وانطلق أمين الأسود من القيد ورجع إلى مصر.

وجاء العباس إلى برقة مهزوماً وكان قد أطلق أحمد الواسطي بعد أن ضمن حزب برقة إحضاره، فلما رجع أعاده إلى محبسه فهرب من الحبس، ولحق بالفسطاط ووجد أحمد بن طولون قد سار إلى الإسكندرية عازماً على الرحيل إلى برقة، فهون أمره، ومنعه من الرحيل بنفسه، وخرج طبارجي وأحمد الواسطي فجاؤوا به مقيداً على بغل، وذلك سنة سبع وستين ومائتين وقبض على كاتبه محمد بن رجاء وحبسه لما كان يطلع ابنه العباس على كتبه، ثم ضرب ابنه وهو باك عليه وحبسه.

خروج الصوفي والعمري بمصر

كان أبو عبد الرحمن العمري بمصر، وهو عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، مقيماً بالقاصية من الصعيد، وكان البجاة يغفرون في تلك الأعمال ويعيئون فيها.

وجاؤوا يوم عيد فنهبوا وقتلوا، فخرج هذا العمري غضباً لله، وأكمن لهم في طريقهم فقتل بهم، وسار في بلادهم حتى أعطوه الجزية، واشتدت شوكته.

وزحف العلوي للقائه فهزمه العمري، وذلك سنة ستين ومائتين.

وكان من خبر هذا العلوي أنه ظهر بالصعيد سنة سبع وخسين ومائتين وذكر أن اسمه إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، ويعرف بالصوفي، فملك مدينة أسنا ونهبا، وعاث في تلك الناحية.

وبعث إليه ابن طولون جيشاً فهزمهم، وأسر مقدم الجيش فقطعه فأعاد إليه جيشاً آخر، وانهزم إلى الواحات.

ثم عاد إلى الصعيد سنة تسع وخسين ومائتين وسار إلى الأشمونين.

ثم سار للقاء العمري وانهزم إلى أسوان، وعاث في جهاتها. وبعث إليه ابن طولون العسكر فهرب إلى عينذاب، وعبر البحر إلى مكة فقبض عليه الوالي بمكة، وبعث به إلى ابن طولون فحبسه مدة، ثم أطلقه ومات بالمدينة.

مسير المعتمد إلى ابن طولون وعوده عنه من الشام

اضطراب الثغور ووصول أحمد بن طولون إليها ووفاته

كان عامل أحمد بن طولون على الثغور طلخشي بن بلذدان، واسمه خلف، وكان نازلاً بطرسوس.

وكان مازيار، الخادم مولى فتح بن خاقان معه بطرسوس وارتأب به طلخشي فحبسه فوثب جماعة من أهل طرسوس، واستقدموا مازيار من يده وولوه.

وهرب خلف وتركوا الدعاة لابن طولون فسار ابن طولون من مصر وانتهى إلى أذنة، وكاتب مازيار واستماله فامتنع، واعتصم بطرسوس فرجع ابن طولون إلى حصص ثم إلى دمشق فأقام بها.

ثم رجع وحاصره في فصل الشتاء بعد أن بعث إليه يدعوه وانساح على معسكر أحمد وخيمه، وكادوا يهلكون، فتأخر ابن طولون إلى أذنة، وخرج أهل طرسوس فنهبوا العسكر، وطال مقام أحمد بأذنة في طلب البرد.

ثم ثار إلى المصيصة فأقام بها ومرض هناك.

ثم تماسك إلى أنطاكية فاشتد وجعه ونهاه الطبيب عن كثرة الغذاء فتناوله سرّاً، فكثر عليه الاختلاف، لأن أصل علته هيضة من لبن الجراميس.

وثقل عليه الركوب فحملوه على العجلة فبلغ الفرمار، وركب من ساحل الفسطاط إلى داره، وحضره طبيبه فسهل عليه الأمر وأشار بالحمية فلم يداوم عليها وكثر الإسهال وحميت كبده من سوء الفكر فساءت أفعاله.

وضرب بكار بن قتيبة القاضي، وأقامه للناس في الميدان، وخرق سواده وأوقع بابين هرثمة وأخذ ماله وحبسه، وقتل سعيد بن نوفل مضروباً بالسياط.

ثم جمع أولياءه وغلماناه وعهد إلى ابنه أبي الجيش خارويه. وأوصاهم بإنظاره وحسن النظر فسكنوا إلى ذلك لخوفهم من ابنه أبي العباس المعتقل.

ثم مات سنة ست ومبعين ومائتين لست وعشرين سنة من إمارته، وكان حازماً سائساً وبنى جامعاً بمصر وأنفق فيه مائة وعشرين ألف دينار، وبنى قلعة يافا، وكان يميل إلى مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه.

وخلف من المال عشرة آلاف إلى ألف دينار، ومن الموالي

كان ابن طولون يداخل المعتمد في السر ويكاتبه، ويشكو إليه المعتمد ما هو فيه من الحجر والتضييق عليه من أخيه الموفق، والموفق بسبب ذلك ينافر ابن طولون ويسعى في إزالته عن مصر.

ولما وقع خلاف إلى لؤلؤ على ابن طولون خاطب المعتمد وخوفه الموفق واستدعاه إلى مصر، وأن الجيوش عنده لقتال الفرنج.

فأجاب المعتمد إلى ذلك، وأراد لقاءه بجميع عساكره فمنعه أهل الرأي من أصحابه، وأشاروا عليه بالعدول عن المعتمد جملة، وأن أمره يؤول معه إلى أكثر من أمر الموفق، من أجل بطانته التي يؤثرها على كل أحد.

واتصلت الأخبار بأن الموفق شارف القبض على صاحب الزنج، فبعث ابن طولون بعض عساكره إلى الرقة لانتظار المعتمد، واغتنم المعتمد غيبة الموفق وسار في جمادى، سنة ثمان وستين ومائتين ومعه جماعة من قواده الذين معه فقبض عليهم وقيدهم.

وقد كان ساعد بن مخلد وزير الموفق خاطبه في ذلك عن الموفق فأظهر طاعتهم حين صاروا إلى عمله، وسار معهم إلى أول عمل أحمد بن طولون فلم يرحل معهم حين رحلوا.

ثم جلس معهم بين يدي المعتمد وعظّم في المسير إلى ابن طولون ودخلوهم تحت حكمه وحجّره.

ثم قام بهم عند المعتمد لينظرهم في خلوة فلما دخلوا خيمته قبض عليهم.

ثم رجع إلى المعتمد فعذله في الخروج عن دار خلافته، وفراق أخيه وهو في قتال عدوه، ثم رجع بالمعتمد والذين معه حتى أدخلهم سر من رأى.

وبلغ الخبر إلى ابن طولون فقطع خطبة الموفق ومحا اسمه من الطرز، فتقدم الموفق إلى المعتمد بلعن ابن طولون في دار العامة، فأمر بلعنه على المنابر وعزله عن مصر وفوض إليه من باب الشامية إلى إفريقية، وبعث إلى مكة بلعنه في المواسم فوقعت بين أصحاب ابن طولون وعامل مكة حرب، ووصل عسكر الموفق مع جعفر الباعردي، فانهزم فيها أصحاب ابن طولون وسلبوا وأمر جعفر المصريين وقرأوا الكتاب في المسجد بلعن ابن طولون.

سبعة آلاف، ومن الغلمان أربعة آلاف، ومن الخيل المرتبطة مائة، ومن الدواب لركابه مائتين وثلاثين.

وكان خراج مصر لأيامه مع ما ينضاف إليها من ضياع الأمراء لحضرة السلطان أربعة آلاف إلى ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، وعلى المارستان وأوقافه ستين ألف دينار، وعلى حصن الجزيرة والجزيرة وهي المسماة لهذا العهد بقلعة الروضة ثمانين ألف دينار، وخربت بعد موته وجدها الصالح نجم الدين بن أيوب.

ثم خربت ثانية، ولم يبق منها إلا أطلال دائرة، وكان يتصدق في كل شهر بألف دينار، ويمجري على المسجونين خمسمائة دينار في كل شهر، وكانت نفقة مطابخه وعلوفته ألف دينار في كل يوم.

ولاية خارويه بن أحمد بن طولون

ولما توفي أحمد بن طولون اجتمع أهل الدولة وخواص الأولياء وكبيرهم أحمد بن عماد الواسطي والغالب على الدولة الحسن بن مهاجر، فاتفقوا على بيعته ابنه أبي الجيش خارويه، وأحضروا ابنه العباس من عبسه وعزاه الواسطي وهم يكون.

ثم قال: بايع لأخيكَ فأي، فقام طبارجي وسعد الأيس من الموالي، وسحبوه إلى حجرة في القصر فاعتقلوه بها، وأخرج من الغد ميتاً، وأخرجوا أحمد إلى مدفنه وصلى عليه ابنه أبو الجيش، وواراه ورجع إلى القصر مقيماً لأمر سلطانه.

مسير خارويه إلى الشام وواقعه مع ابن

الموفق

ولما توفي أحمد بن طولون كان إسحاق بن كنداج عاملاً على الجزيرة والموصل، وابن أبي الساج على الكوفة، وقد ملك الرحبة من يد أحمد بن مالك فطمعا في ملك الشام، واستأذنا الموفق فآذن لهما ووعدهما بالمدد.

وسار إسحاق إلى الرقة والثغور والعواصم فملكها من يد ابن دعاس عامل ابن طولون.

واستولى إسحاق على حمص وحلب وأنطاكية، ثم على دمشق.

وبعث خارويه العساكر إلى الشام فملكوا دمشق وهرب

العامل الذي انتقض بها.

ثم سار العسكر إلى شيزر فأقام عليها قبالة إسحاق وابن أبي الساج، وهما ينتظران المدد من العراق.

ثم هجم الشتاء فتفرق عسكر خارويه في دور شيزر ووصل العسكر من العراق مع أبي العباس أحمد بن الموفق الذي صارت إليه الخلافة ولقب المعتضد فكبسوا عسكر خارويه في دور شيزر وفتكوا فيهم.

ونجا الفل إلى دمشق والمعتضد في اتباعهم فارتحلوا عنها، وملكها المعتضد في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ولحق عسكر خارويه بالرملة فأقاموا بها وكتبوا إلى خارويه بالخبر، وسار المعتضد نحوهم من دمشق، وبلغه وصول خارويه وكثرة عساكره، فهم بالعود ومعه أصحاب خارويه الذين خالفوا عليه، ولحقوا به وكان ابن كنداج وابن أبي الساج متوحشين من المعتضد لسوء معاملته لهما.

والتقى العسكران على الماء الذي عليه الطواحين بالرملة، فولى خارويه منهزماً مع عصابة معه ليس لهم دربة بالحرب، ومضى إلى مصر بعد أن أكمن مولاة سعداً الأيس في عسكر.

وجاء المعتضد فملك خيام خارويه وسواده وهو يظن الظفر، فخرج سعد الأيس من كمينه وقصد الخيام وظن المعتضد أن خارويه قد رجع فركب وانهزم لا يلوي على شيء.

وجاء إلى دمشق فمنعوه الدخول فمضى إلى طرسوس، ولما اتفقد سعد الأيس خارويه نصب أخاه أبا العنائر لقيادة العساكر، ووضع العطاء، ووصلت البشائر إلى مصر فسر خارويه بالظفر، وخجل من الهزيمة، وأكثر الصدقة وأكرم الأسرى وأطلقهم.

وسارت عساكره إلى الشام فارتجموه كله من أصحابه فأخرجوهم، ولحقوا بالعراق وغزوا بالصائفة هذه السنة مازيار صاحب الثغر، وغنم وعاد، ثم غزوا كذلك سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج والخطبة

لابن طولون بالجزيرة

كان ابن أبي الساج عاملاً على قنسرين وإسحاق على الجزيرة والموصل فتنافسا في الأعمال واستظهر ابن أبي الساج بخمارويه، وخطب له بأعماله، وبعث ابنه رهينة إليه، فسار في عساكره بعد أن بعث إليه الأموال وانتهى إلى السن، وعبر ابن أبي

أن لا مانع لهم من العبور سار إلى الرقة إلى بغداد، وقدم على الموفق سنة ست وسبعين فأقام عنده إلى أن ولاه أذربيجان في سته واستولى ابن كنداج على ديار ربيعة وديار مصر، وأقام الخطبة فيها لخمارويه.

عود طرسوس إلى ايلة خمارويه

قد كنا قدما أن مازيار الخادم ثار بطرسوس سنة سبعين ومائتين وحاصره أحمد بن طولون فامتنع عليه، فلما ولي خمارويه وفرغ من شواغله، أنفذ إلى مازيار سنة سبع وسبعين ومائتين ثلاثين ألف دينار وخسمائة ثوب وخمسمائة مطرف، واصطنعه فرجع إلى طاعته وخطب له بالثغور.

ثم دخل بالطائفة سنة ثمان وسبعين ومائتين وحاصروا أسكند فأصابه منها حجر منجنيق رثه، ورجع إلى طرسوس فمات بها.

وقام بأمر طرسوس ابن عجيف، وكتب إلى خمارويه فأقره على ولايتها، ثم عزله واستعمل مكانه محمد ابن عمه موسى بن طولون، وكان من خبره أن أباه موسى لما ملك أحمد أخوه مصر تبسط عليه بدلالة القرابة وذوي الأرحام، فلم يحتمله له أحمد ورده عليه، وكسر جباهه فالحرف موسى وسخط دولته.

ثم خاطبه في بعض مجالسه بما لا يحتمله السلطان فضربه ونفاه إلى طرسوس، وبعث إليه بمال يتزوده فأبى من قبوله، وسار إلى العراق، ورجع إلى طرسوس فأقام بها إلى أن مات وترك ابنه محمداً.

وولاية خمارويه وبعث إلى أميرهم راغب فآكرمه خمارويه وأنس به، وطالت إقامته عنده وشاع بطرسوس أن خمارويه حبسه فاستعظم الناس ذلك، وثاروا بأمرهم محمد بن موسى وسجنوه رهينة في راغب.

وبلغ الخبر إلى خمارويه فسرجه إلى طرسوس، فلما وصلها أطلقوا أميرهم محمد بن موسى، وقد سخطهم، فسار عنهم إلى بيت المقدس.

وعاد ابن عجيف إلى ولايته بدعوة خمارويه.

وغزا سنة ثمانين ومائتين بالطائفة ودخل معه بدر الحمامي فظفروا وغنموا ورجعوا.

ثم دخل بالطائفة سنة إحدى وثمانين ومائتين من طرسوس طنج بن جف الفرغاني من قبل خمارويه في عساكره طرابزون

الساج الفرات ولقي إسحاق بن كنداج على الرقة فهزمه، وجاز خمارويه من بعده فعبر الفرات إلى الرافقية، ونجا إسحاق إلى ماردین، وحصره ابن أبي الساج.

ثم خرج وسار إلى الموصل فصدّه ابن أبي الساج عنها، وهزمه فعاد إلى ماردین.

واستولى ابن أبي الساج على الجزيرة والموصل، وخطب في أعمالها لخمارويه، ثم لنفسه بعده.

وبعث العساكر مع غلامه فتح لجباية نواحي الموصل فأوقع بالشرأة اليعقوبية ومكر بهم.

وعلم أصحابهم بما فعل معهم فجاءوا إليه، وهزموه واستلحموا أصحابه، ونجا ابن أبي الساج في قل قليل.

ثم انتفض ابن أبي الساج على خمارويه سنة خمس وسبعين ومائتين وذلك أن إسحاق بن كنداج سار إلى خمارويه بمصر وصار في حملته فانتفض ابن أبي الساج.

وسار خمارويه إليه فلقه على دمشق في المحرم فانهزم ابن أبي الساج، واستيحي معسكره وكان وضع بمحمص خزائنه، فبعث خمارويه عسكراً إلى محص فمنعوه من دخولها، واستولوا على خزائنه.

ومضى ابن أبي الساج إلى حلب، ثم إلى الرقة وخمارويه في اتباعه.

ثم فارق الرقة إلى الموصل، وعبر خمارويه الفرات واحتل مدينة بلد، وأقام بها، وسار ابن أبي الساج إلى الحديثة.

وبعث خمارويه عساكره وقواده مع إسحاق بن كنداج في طلب ابن أبي الساج فعبر دجلة، وأقام بتكريت وإسحاق في عشرين ألفاً، وابن أبي الساج في ألفين، وأقاموا يترامون في العدوتين.

ثم جمع ابن كنداج السفن ليمد الجسر للعبور، فخالقهم ابن أبي الساج إلى الموصل ونزل بظاهرها فرحلوا في اتباعه فسار لقتالهم فانهزم إسحاق إلى الرقة وتبعه ابن أبي الساج.

وكتب إلى الموفق يستأذنه في عبور الفرات إلى الشام وأعمال خمارويه فأجابته بالتريص وانتظار المدد.

ولما انهزم إسحاق سار إلى خمارويه وبعث معه العسكر، ورجع فنزل على حد الفرات من أرض الشام، وابن أبي الساج قبلته على حدود الرقة، فعبرت طائفة من عسكر ابن كنداج لم يشعروا بهم، وأوقعوا بجمع من عسكر ابن أبي الساج، فلما رأى

وفتح مكردية. ثم وثبوا بجيش فقتلوه ونهبوا داره، ونهبوا مصر وحرقوه، ويابعوا لأخيه هارون وذلك لتسعة أشهر من ولايته.

صهر المعتضد مع خمارويه

ولما ولي المعتضد الخلافة بعث إلى خمارويه خاتماً قطر الندى ابنته، وكانت أكمل نساء عصرها في الجمال والآداب.

وكان متولي خطبتها أمينه الخصي ابن عبد الله ابن الجصاص، فزوجه خمارويه بها، وبعثها مع ابن الجصاص، وبعث معها من الهدايا ما لا يوصف.

وقدمت سنة تسع وسبعين ومائتين فدخل بها، وتنتع بجمالها وآدابها، وتمكن سلطانه في مصر والشام والجزيرة إلى أن هلك.

مقتل خمارويه وولاية ابنه جيش

كان خمارويه قد سار سنة اثنتين وثمانين ومائتين إلى دمشق فأقام بها أياماً، وسعى إليه بعض أهل يته بأن جواريه يتخذون الخصيان يفتروشون، وأراد استعلاء ذلك من بعضهن، فكتسب إلى نائبه بمصر أن يقرر بعضهن، فلما وصله الكتاب قرر بعض الجوارى وضربهن.

وخاف الخصيان ورجع خمارويه من الشام، وبات في مخدعه فأتاه بعضهم وذبحه على فراشه في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين.

وهرب الذين تولوا ذلك، فاجتمع القواد صبيحة ذلك اليوم، وأجلسوا ابنه جيش بن خمارويه على كرسي سلطانه، وأفيض العطاء فيهم، وسبق الخدم الذين تولوا قتل خمارويه فقتل منهم نيف وعشرون.

مقتل جيش بن خمارويه وولاية أخيه هارون

ولما ولي جيش كان صبيّاً غراً فعكف على لذاته وقرب الأحداث والسفلة، وتكرر لكبار الدولة، وبسط فيهم القول، وصرح لهم بالوعيد، فاجمعوا على خلعه.

وكان طنج بن جف مولى أبيه من كبار الدولة، وكان عاملاً لهم على دمشق فانتقض وخلع طاعته.

وسار آخرون من القواد إلى بغداد، منهم إسحاق بن كنداج وخاقان المفلجي، وبدر بن جف أبو طنج، وقدموا على المعتضد فخلع عليهم، وأقام سائر القواد بمصر على انتقاضهم وقتل قائداً منهم.

فتنة طرسوس وانتقاضها

قد تقدم لنا أن راغباً مولى الموفق نزل طرسوس للجهاد فأقام بها، ثم غلب عليها بعد ابن عجيف.

ولما ولي هارون بن خمارويه سنة ثلاث وثمانين ومائتين ترك الدعاء له، ودعا لبدر مولى المعتضد، وقطع طرسوس والثغور من عمالة بني طولون.

ثم بعث هارون بن خمارويه إلى المعتضد أن يقاطعه على أعماله بمصر والشام بأربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، ويسلم قسرين والعواصم، وهي الثغور للمعتضد فأجابته إلى ذلك.

وسار من آمد وكان قد ملكها من يد محمد بن أحمد بن الشيخ، فاستخلف ابنه المكفي عليها، وسار سنة ست وثمانين ومائتين فتسلم قسرين والثغور من يد أصحاب هارون وجعلها مع الجزيرة في ولاية ابنه المكفي.

ولاية طنج بن جف على دمشق

ولما ولي هارون بعد أخيه جيش على ما ولي عليه من اختلاف القواد وقوة أيديهم، خشي أهل الدولة من افتراق الكلمة ففوضوا أمرها إلى أبي جعفر بن إيان.

كان مقدماً عند أحمد وخمارويه فأصلح ما استطاع، وبقي يرتق الفتق ويجبر الصدع، ثم نظر إلى الجنود الذين كانوا خالفوا بدمشق مع طنج بن جف فبعث إليهم بدرأ الحمامي والحسين بن أحمد المارداني فأصلحوا مورد الشام وأفرد طنج بن جف بولاية دمشق، واستعملا في سائر الأعمال، ورجعا إلى مصر والأمور مضطربة والقواد طوائف لا يتقاد منهم أحد إلى أحد إلى أن وقع ما نذكر.

زحف القرامطة إلى دمشق

قد تقدم لنا ابتداء أمر القرامطة وما كان منهم بالعراق والشام، وأن ذكرويه بن مهدي دعية القرامطة لما هزم بسواد الكوفة وأثنى أصحابه القتل، لحق ببني القليص بن كلب بن وبرة في السماوة فبايعوه، ولقبوه الشيخ وسموه يحيى، وكنوه أبا القاسم.

ثم أمره المكتفي باتباع القرامطة، وأقام بالرقعة فسار حتى لقيهم وقتلهم حتى هزمهم واستلحمهم، ودفع عن الشام ضررهم، ورجع بالقرمطي صاحب الشامة وأصحابه أسرى إلى المكتفي بالرقعة فرجع إلى بغداد، وقتلهم هنالك وشفى نفسه ونفس المسلمين منهم.

وكان محمد بن سليمان لما تخلف عن المكتفي عند وصوله إلى بغداد فأمره بالعود، وبعث معه جماعة من القواد، وأمه بالأموال، وبعث دميانة غلام مازيار في الأسطول، وأمره بالمسير إلى سواحل مصر، ودخول نهر النيل، والقطع عن أهل مصر ففعل وضيق عليهم.

وسار محمد بن سليمان والعساكر واستولى على الشام وما وراءه، فلما قارب مصر كاتب القواد يستميلهم، فجاء إليه بدر الحمامي وكان رئيسهم فكسر ذلك من شوكتهم.

وتتابع إليه القواد مستأنين، فبرز هارون لقتالهم فيمن معه من العساكر، وأقام قبالتهم واضطرب عسكره في بعض الأيام من فتنة وقعت بينهم.

واقتلوا فركب هارون ليسكنهم فأصابته حربة من بعض المغاربة كان فيها خنفة، فقام عه شييان بن أحمد بن طولون بعده بالأمر، وبذل الأموال للجند من غير حساب ولا تقدير، ثم أباح نهب ما بقي منه يصطنعهم بذلك، فنهبوه في ساعة واحدة، وتشوف إلى جمع المال فعجز عنه واضطرب، وفسد تدبيره، وتسائل إلى محمد بن سليمان جنده، وفاوض أعيان دولته في أمره، فاتفقوا على الاستئمان إلى محمد بن سليمان، فبعث إليه مستأناً فسار إليه ثم تبعه قواده وأصحابه، فركب محمد إلى مصر واستولى عليها، وقيد بني طولون وحبسهم، وكانوا سبعة عشر رجلاً وكتب بالفتح فأمره المكتفي بإشخاص بني طولون جميعاً من مصر والشام إلى بغداد، فبعث بهم.

ثم أمر بإحراق القطنائع التي بناها أحمد بن طولون على شرقي مصر، وكانت ميلاً في ميل فأحرقت ونهب الفسطاط.

ولاية عيسى النوشري على مصر وثورة

الخليجي

ولما اعتزم محمد بن سليمان على الرجوع إلى بغداد وكان المكتفي قد ولاه على مصر، فولى المكتفي عيسى بن محمد النوشري، وقدم في منتصف سنة اثنتين وتسعين ومائتين ثم ثار

وزعم أنه محمد بن عبد الله بن المكتوم بن إسماعيل الإمام فلقبوه المذثر، وزعم أنه المشار إليه في القرآن، ولقب غلاماً من أهله المطوق.

وسار من حصص إلى حماة ومعرة النعمان إلى بعلبك، ثم إلى سلمية فقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان والبهائم، ونهب سائر القرى من كل النواحي.

وعجز طنج بن جف وسائر جيشه وصاحبه هارون عن دفاعهم.

وتوجه أهل الشام ومصر إلى المكتفي مستغيثين، فسار إلى أهل الشام سنة تسعين ومائتين ومر بالموصل، وقدم بين يديه أبا الأغر من بني حمدان في عشرة آلاف رجل، ونزل قريباً من حلب وكبسه القرمطي صاحب الشامة فقتل منهم جماعة ولجا أبو الأغر إلى حلب في فل من أصحابه، وحاصره القرمطي، ثم أخرج عنه، وانتهى المكتفي إلى الرقة.

وبعث محمد بن سليمان الكاتب في العساكر، ومعه الحسين من بني حمدان وبني شييان، فناهضه في المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين على حماة، وانهزم القرامطة، وأخذ صاحب الشامة أسيراً فبعث به إلى الرقة وبين يديه المذثر والمطوق، وتقدم المكتفي إلى بغداد ولحقه محمد بن سليمان بهم، فأمر المكتفي بضربهم وقطعهم، وضرب أعناقهم وحسم دأنهم، حتى ظهر منهم من ظهر بالبحرين.

استيلاء المكتفي على الشام ومصر وقتل

هارون وشييان ابني خمارويه وانقراض دولة

بني طولون

وبنبدأ أولاً بخبر محمد بن سليمان المتولي بتحويل دولة بني طولون، كان أصله من ديار مضر من الرقة اصطنعه أحمد بن طولون وخدمه في مصر، ثم تنكر له وعامله في جاهه وأقاربه بما أحفظه، وخشي على نفسه فالحق ببغداد، ولقي بها مرة وتكرمة.

واستخدمه الخلفاء وجعلوه كاتباً للجيش، فما زال يغريهم بملك مصر إلى أن ولي هارون بن خمارويه، وفشلت دولة بني طولون بالشام، وعاث القرامطة في نواحيه وعجز هارون عن مدافعتهم، ووصل صريخ أهل الشام إلى المكتفي فقام لدفع ضررهم عن المسلمين، ودفع محمد بن سليمان لذلك، وهو يومئذ من أعظم قواده، فسار في العساكر في مقدمته.

بنواحي مصر إبراهيم الخليلجي، وكان من قواد بني طولون، وتغلف عن محمد بن سليمان.

ولاية ذكاء الأعور

لم يزل تكين الخزري والياً على مصر استخلاقاً إلى أن صرف آخر اثنين وثلاثمائة، فولى المقتدر مكانه أبا الحسن ذكاء الأعور، وقدم منتصف صفر من سنة ثلاث فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي سنة سبع وثلاثمائة لأربع سنين من ولايته.

ولاية تكين الخزري ثانية

لما صرف المقتدر ذكاء، ولى مكانه أبا منصور تكين الخزري ولاية ثانية، فقدم في شعبان سنة سبع وثلاثمائة وكان عبيد الله المهدي قد جهز العساكر مع ابنه أبي القاسم، ووصل إلى الإسكندرية في ربيع من سنة سبع وثلاثمائة وملكها.

ثم سار إلى مصر وملك الجزيرة والأشمونين من الصعيد وما إليه، وكتب أهل مكة ببطاعته، وبعث المقتدر من بغداد مؤنساً الخادم في العساكر فواقع أبا القاسم عدة وقعات، وجاء الأسطول من إفريقية إلى الإسكندرية في ثمانين مركباً مدداً لأبي القاسم، وعليه سليمان بن الخادم، ويعقوب الكتامي، فسار إليهم في أسطول طرسوس في خمسة وعشرين مركباً، وفيها النبط والمدد، وعليها أبو اليمن، فالتقت العساكر في الأساطيل في مرسى رشيد، فظفر أسطول طرسوس بأسطول إفريقية وأسر كثير منهم.

وقتل بعضهم وأطلق البعض، وأسر سليمان الخادم فهلك في عبيسه بمصر، وأسر يعقوب الكتامي وحمل إلى بغداد فهرب منها إلى إفريقية، واتصل الحرب بين أبي القاسم ومؤنس، وكان الظفر لمؤنس، ووقع الغلاء والوباء في عسكر أبي القاسم ففني كثير منهم بالموت.

ووقع الموتان في الخيل فعاد العسكر إلى المغرب، واتبعهم عساكر مصر حتى أبعدها فرجعوا عنهم، ووصل أبو القاسم إلى القيروان منتصف السنة.

ورجع مؤنس إلى بغداد وقدم تكين إلى مصر كما مر، ولم يزل والياً عليها إلى أن صرف في ربيع من سنة تسع وثلاثمائة.

ولاية أحمد بن كيغلف

ولاه المقتدر بعد هلال بن بدر، فقدم في جمادى وصرف

وكتب إلى المكتفي عيسى النوشزي بالخبر وكثرت جموع الخليلجي، وزحف إلى مصر، فخرج النوشزي هارباً إلى الإسكندرية وملك الخليلجي مصر، وبعث المكتفي العساكر مع فاتك مولى أبيه المعتضد وبدر الحمامي، وعلى مقدمتهم أحمد بن كيغلف في جماعة من القواد، ولقيهم الخليلجي على العريش في صفر سنة ثلاث وتسعين ومائتين فهزمهم.

ثم تراجعوا وزحفوا إليه وكانت بينهم حروب فني فيها أكثر أصحاب الخليلجي وانهزم الباقون، فظفر عسكر بغداد، ونجا الخليلجي إلى القسطنطين واختفى به، ودخل قواد المكتفي المدينة وأخذوا الخليلجي وحبسوه.

وكان المكتفي عندما بلغته هزيمة ابن كيغلف، وسار ابن كيغلف في ربيع وبرز المكتفي من ورائهم يسير إلى مصر، فجاءه كتاب فاتك بالخبر وبجس الخليلجي، فكتب المكتفي بحمله ومن معه إلى بغداد، وبرز من تكريت فبعث فاتك بهم، وحبسوا ببغداد.

ورجع عيسى النوشزي إلى مصر في منتصف ثلاث وتسعين ومائتين فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين لخمس سنين من ولايته وشهرين، وقام بأمره ابنه محمد، وولى المقتدر على مصر أبا منصور تكين الخزري، فقدمها آخر شوال من سنة سبع وتسعين ومائتين، وقام والياً عليها، واستفحلت دولة العلويين بالمغرب.

وجهاز عبيد الله المهدي العساكر مع ابنه أبي القاسم سنة إحدى وثلاثمائة، فملك برقة في ذي الحجة آخرها.

ثم سار إلى مصر وملك الإسكندرية والقيوم، وبلغ الخبر إلى المقتدر، فقلد ابنه أبا العباس مصر والمغرب وعمره يومئذ أربع سنين، وهو الذي ولى الخلافة بعد ذلك ولقب الراضي.

ولما قلده مصر استخلف له عليها مؤنساً الخادم، وبعثه في العساكر إلى بصر وحاربهم فهزمهم.

ورجعوا إلى المغرب فأعاد عبيد الله العساكر سنة اثنين مع قائده حامسة الكتامي.

وجاء في الأسطول فملك الإسكندرية، وسار منها إلى مصر، وجاءه مؤنس الخادم في العساكر فقاتله وهزمه.

ثم كانت بينهم وقعات، وانهزم أصحاب المهدي آخراً في منتصف اثنين وثلاثمائة وقتل منهم نحواً من سبعة آلاف، ورجعوا

لخمسة أشهر من ولايته.

وأعيد تكيين المرة الثالثة، فقدم في عاشوراء سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، وأقام والياً عليها تسع سنين إلى أن توفي في منتصف ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

وفي أيامه جدد المقتدر عهده لابنه أبي العباس على بلاد المغرب ومصر والشام، واستخلف له مؤنساً، وذلك سنة ثمان عشرة وثلاثمائة.

وقال ابن الأثير: وفي سنة إحدى وعشرين توفي تكيين الخزري بمصر فولى عليها مكانه ابنه محمد، وبعث له القاهر بالخلع وثار به الجند فظفر بهم انتهى.

ولاية أحمد بن كيغلف الثانية

ولاه القاهر في شوال سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بعد أن كان ولي محمد بن طغج، وهو عامل دمشق وصره لشهر من ولايته قبل أن يتسلم العمل، وردده إلى أحمد بن كيغلف كما قلناه، فقدم مصر في رجب سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ثم عزل آخر رمضان من سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وولي الراضي الخليفة بأن يدعى على المنبر باسمه ويزاد في القابهِ الإخشيد فقام بولاية مصر أحسن قيام ثم انتزع الشام من يده كما يذكر.

استيلاء ابن رائق على الشام من يد الأخشيدي

كان محمد بن رائق أمير الأمراء ببغداد وقد مر ذكره، ثم نازعه مولاة تحكم وولى مكانه سنة ست وعشرين وثلاثمائة وهرب ابن رائق ثم استر ببغداد، واستولى عليها، ورجع الخليفة من تكريت بعد أن كان قدم تحكم، ثم كتب إليه واسترده، وقد عقد الصلح مع ناصر الدولة بن حمدان من قبل أن يسمع بخبر ابن رائق.

ثم عادوا جميعاً إلى بغداد، وراسلهم ابن رائق مع أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد في الصلح، فأجيب وقلده الراضي طريق الفرات وديار مضر التي هي حران والرها وما جاورها، وجند قنسرين والعواصم، فسار إليها واستقر بها.

ثم طمحت نفسه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى ملك الشام، فسار إلى مدينة حمص فملكها، وكان على دمشق بدر بن

عبد الله مولى الإخشيد ويلقب بتدبير فملكها ابن رائق من يده، وسار إلى الرملة يريد مصر.

وبرز الإخشيد من مصر فالتقوا بالعريش وأكمن له الإخشيد، ثم التقيا فانهمز الإخشيد أولاً، وملك أصحاب ابن رائق سواده ونزلوا في خيامهم، ثم خرج عليهم كمين الإخشيد فانهمزوا، ونجا ابن رائق إلى دمشق في قل من أصحابه.

فبعث إليه الإخشيد أخاه أبا نصير بن طغج في العسكر، فبرز إليهم ابن رائق وهزمهم، وقتل أبو نصر في المعركة، فبعث ابن رائق شلوه إلى مصر مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق وكتب إليه بالعزاء والاعتذار، وأن مزاحماً في فدائه، فخلع عليه وردّه إلى أبيه، وتم الصلح بينهما على أن تكون الشام لابن رائق ومصر للأخشيدي، والتخم بينهما للرملة.

وحمل الإخشيد عنها مائة وأربعين ألفاً كل سنة، وخرج الشام عن حكم الإخشيد وبقي في عمالة ابن رائق إلى أن قتل تحكم والبريدي.

وعاد ابن رائق من الشام إلى بغداد، فاستدعاه المتقي وصار أمير الأمراء بها، فاستخلف على الشام أبا الحسن علي بن أحمد بن مقاتل.

ولما وصل إلى بغداد قاتله كورتيكين القائم بالدولة فظفر به، وجبسه، وقتل عنه أصحابه من الدليم.

وزحف إليهم البريدي من واسط سنة ثلاثين وثلاثمائة فانهمز المتقي وابن رائق، وسار إلى الموصل وكان المتقي قد استنجد ناصر الدولة بن حمدان، فبعث إليه أخاه سيف الدولة ولقيه المتقي بتكريت، ورجع معه إلى الموصل، وقتل ناصر الدولة بن حمدان محمد بن رائق، وولي إمارة الأمراء للمتقي.

فلما سمع الإخشيد بمقتل ابن رائق سار إلى دمشق، ثم استولى يوسف بعد ذلك عليها سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وولى ناصر الدولة بن حمدان في ربيع سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة على أعمال ابن رائق كلها، وهي طريق الفرات وديار مضر وجند قنسرين والعواصم وحمص أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل، وأنفذه إليها من الموصل في جماعة من القواد.

ثم ولى بعده في رجب ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان على تلك الأعمال، وامتنع أهل الكوفة من طاعته فظفر بهم وملكها.

وسار إلى حلب، وكان المتقي قد سار إلى الموصل سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة مغاضباً لأمير الأمراء تورون فأقام

بالموصل عند بني حمدان.

وفاة أنوجور و وفاة أخيه علي واستبداد

كافور عليه

ثم علت سن أبي القاسم أنوجور، ورام الاستبداد بأمره وإزالة كافور فشر به وقتله فيما قبل مسموماً سنة ونصب أخاه علياً للأمر في كفالته، وتحت استبداده إلى أن هلك.

وفاة علي بن الإخشيد وولاية كافور

ثم توفي علي بن الإخشيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فأعلن كافور بالاستبداد بالأمر دون بني الإخشيد، وركب بالظلمة وكتب له المطيع بعده على مصر والشام والخرميين وكناه العالي بالله، فلم يقبل الكنية، واستوزر أبا الفضل جعفر بن الفرات، وكان من أعظم الملوك جواداً مدحواً سيوساً كثير الخشية لله والخوف منه.

وكان يداري المعز صاحب المغرب ويهاديه، وصاحب بغداد وصاحب اليمن، وكان يجلس للمظالم في كل سبت إلى أن هلك.

وفاة كافور وولاية أحمد بن علي بن

الإخشيد

ثم توفي كافور منتصف سبع وخمسين وثلاثمائة لعشرة سنين وثلاثة أشهر من استبداده منها ستان وأربعة أشهر مستقلاً من قبل المطيع، وكان أسود شديد السواد واشتره الإخشيد بثمانية عشر ديناراً، ولما هلك اجتمع أهل الدولة وولوا أحمد بن علي بن الإخشيد وكنيته أبو الفوارس، وقام بتدبير أمره الحسن بن عمه عبد الله بن طنج، وعلى العساكر شمول مولى جده، وعلى الأموال جعفر بن الفضل، واستوزر كاتبه جابر الرياحي، ثم أطلق ابن الفرات بشفاعة ابن مسلم الشريف، وفوض أمر مصر إلى ابن الرياحي.

مسير جوهري إلى مصر وانقراض دولة بني

طنج

ولما فرغ المعز لدين الله من شواغل المغرب بعث قائده جوهري الصقلي الكاتب إلى مصر، وجهزه في العساكر، وأزاح

ثم سار إلى الرقة فأقام بها، وكتب إلى الإخشيد يشكو إليه ويستقدمه، فأتاهما النصر، ومر مجلب فخرج عنها الحسين بن سعيد بن حمدان، وتحلف عنه أبو بكر بن مقاتل للقاء الإخشيد فأكرمه، واستعمله على خراج مصر، وولى على حلب يانس المؤنسي.

وسار الإخشيد من حلب إلى الرقة في محرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وأهدى له ولوزيره الحسين بن مقلدة وحاشيته، وأشار عليه بالمسير إلى مصر والشام ليقوم بخدمته فأبى فخوفه من تورون، وأن يلزم الرقة.

وكان قد أنفذ رسله إلى تورون في الصلح وجاؤوه بالإجابة فلم يعرج على شيء من إشارته.

وسار إلى بغداد وانصرف الإخشيد إلى مصر وكان سيف الدولة بالرقعة معهم فسار إلى حلب وملكها.

ثم سار إلى حمص وبعث الإخشيد عساكره إليها مع كافور مولاه، فلقبهم سيف الدولة إلى قنسرين، والتقى هنالك وتحاربا، ثم افترقا على منعة وعاد الإخشيد إلى دمشق وسيف الدولة إلى حلب، وذلك سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وسارت الروم إلى حلب وقتلهم سيف الدولة فظفر بهم.

وفاة الإخشيد وولاية ابنه أنوجور واستبداد

كافور عليه واستيلاء سيف الدولة على

دمشق

ثم توفي الإخشيد أبو بكر بن طنج بدمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقيل خمس وولى مكانه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً فاستبد عليه كافور، وسار من دمشق إلى مصر فخالفه سيف الدولة، فسار إلى حلب، وزحف أنوجور في العساكر إليه فغير سيف الدولة إلى الجزيرة، وحاصر أنوجور حلب أياماً.

ثم وقع الصلح بينهما، وعاد سيف الدولة إلى حلب وأنوجور إلى مصر، ومضى كافور إلى دمشق وولى عليها بديراً الأخشيدي المعروف بتدبير، فرجع إلى مصر فأقام يدبر بها سنة، ثم عزل عنها وولي أبو المظفر طنج وقبض على تدبير.

عللها.

وقتل في المعركة، وقد مر الخبر عن ذلك كله.

فلما قتل خلص ابن اخته أبو علي بن مروان من المعركة، ولحق بمحصن كيفا، وبه أهل باد وذخيرته، وهو من أمنع المعازل فتحيل في دخوله بأن خاله أرسله، واستولى عليه وتزوج امرأة خاله.

ثم سار في ديار بكر فملك جميع ما كان لحاله باد، وزحف إليه ابنا حمدان وهو يحاصر ميفارقين فهزمهما.

ثم رجعا إليه وهو يحاصر آمد فهزمهما ثانيًا، وانقرض أمرهما من الموصل، وملك أبو علي بن مروان ديار بكر وضبطها، واستطال عليه أهل ميفارقين، وكان شيخها أبو الأصغر فتركهم يوم الغيد حتى أصحوا وكبسهم بالصحراء، وأخذ أبا الأصغر فאלقاها من السور، ونهب الأكراد عامة البلد، وأغلق أبو علي الأبواب دونهم، ومنعهم من الدخول فذهبوا كل منهم، وذلك كله سنة ثمانين وثلاثمائة.

وسار جوهر من القيروان إلى مصر، ومر ببرقة وبها أفلح مولى المعز فلقية، وترجل له فملك الإسكندرية، ثم الجيزة.

ثم أجاز إلى مصر وحاصرها، وبها أحمد بن علي بن الإخشيد وأهل دولته.

ثم افتتحها سنة ثمان وخسين وثلاثمائة وقتل أبا الفوارس، وبعث بضائعهم وأموالهم إلى القيروان صحبة الوفد من مشيخة مصر وقضاتها وعلماؤها، وانقرضت دولة بني طنج، وأذن سنة تسع وخسين في جامع ابن طولون بـ«حي على خير العمل».

وتحولت الدعوة بمصر للعلمية، واختط جوهر مدينة القاهرة في موضع العسكر.

وسير جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام فغلب القرامطة عليه كما تقدم ذلك في أخبارهم.

الخبر عن دولة بني مروان بديار بكر بعد

بني حمدان ومبادي أمورهم وتصاريق

أحوالهم

كان حتى هذه الدولة أن نصل ذكرها بدولة بني حمدان كما فعلنا في دولة بني المقلد بالموصل، وبني صالح بن مرداس بحلب، لأن هذه الدول الثلاث إنما نشأت وتفرعت عن دولتهم، إلا أن بني مروان هؤلاء ليسوا من العرب، وإنما هم من الأكراد فأخترنا دولتهم حتى ننسقها مع العجم.

ثم أخرجنا عن دولة بني طولون لأن دولة بني طولون متقدمة عنها في الزمن بكثير.

فلنشرح الآن في الخبر عن دولة بني مروان وقد كان تقدم لنا خبر باد الكردي واسمه الحسين بن دوشك، وكنيته أبو عبد الله وقيل كنيته أبو شجاع، وأنه خال أبي علي بن مروان الكردي، وأنه تغلب على الموصل وعلى ديار بكر، ونازع فيها الديلم ثم غلبه عليها وأقام بجبال الأكراد.

ثم مات عضد الدولة وشرف الدولة.

ثم جاء أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسن إلى الموصل فملكها.

ثم حدثت الفتنة بينهما وبين الديلم وطمع باد في ملك الموصل، وهو بديار بكر فسار إلى الموصل فغلبه ابنا ناصر الدولة،

مقتل أبي علي بن مروان وولاية أخيه أبي

منصور

كان أبو علي بن مروان قد تزوج بنت سعد الدولة بن سيف الدولة، وزفت إليه من حلب وأراد البناء بها بآمد فخاف شيخها أن يفعل به وبهم ما فعل في ميفارقين فحذر أصحابه منه، وأشار عليهم أن يثروا النناير والدراهم إذا دخل، ويقصدوا بها وجهه فيضربوه فكان كذلك.

ثم أغفله وضرب رأسه واختلط أصحابه، فرمى برأسه إليهم، وكر الأكراد راجعين إلى ميفارقين فاستراب بهم مستحفظها أن يملكوها عليه، ومنعهم من الدخول.

ثم وصل مهد الدولة أبو منصور بن مروان ثم أخو أبي علي إلى ميفارقين فأمكنه المستحفظ من الدخول فملكه، ولم يكن له فيه إلا السكة والخطبة، ونازعه أخوه أبو نصر فأقام بها مضيقاً عليه فغلبه أبو منصور، وبعثه إلى قلعة أسعد فأقام بها مضيقاً عليه وأما آمد فتغلب عليها عبد الله شيخهم أياماً، وزوج ابنته من ابن دمنة الذي تولى قتل أبي علي بن مروان فقتله ابن دمنة، وملك آمد وبني لنفسه قصرًا ملاصقًا للسور، وأصلح أمره مع مهد الدولة بالطاعة، وهادى ملك الروم وصاحب مصر وغيرهما من الملوك، وانتشر ذكره.

مقتل مهد الدولة بن مروان وولاية أخيه أبي نصر

ثم إن مهد الدولة أقام بميفارقين، وكان قائدته شرورة متحكما في دولته، وكان له مولد قد ولاه الشرطة، وكان مهد الدولة يبغيه ويهم بقتله مراراً، ثم يتركه من أجل شرورة، فاستفسد مولاه شرورة على مهد الدولة لحضوره.

فلما حضر عنده قتله وذلك سنة اثنتين وأربعمائة ثم خرج على أصحابه وقرابته يقبض عليهم كأنه بأمر مهد الدولة ثم مضى إلى ميفارقين ففتحوا له يظنونه مهد الدولة فملكها، وكتب إلى أصحاب القلاع يستدعيهم على لسان مهد الدولة، وفيهم خواجه أبو القاسم صاحب أرزن الروم، فسار إلى ميفارقين، ولم يسلم القلعة لأحد.

وسمع في طريقه بقتل مهد الدولة فرجع من الطريق إلى أرزن الروم، وأحضر أبا نصر بن مروان من أسعرد، وجاء به إلى أبيهم مروان.

وكان قد أضر ولزم قبر ابنه أبي علي بأرزن هو وزوجته فأحضره خواجه عنده، واستحلفه عند أبيه وقبر أخيه، وملك أرزن.

وبعث شرورة من ميفارقين إلى أسعرد عن أبي نصر بن مروان، ففاته إلى أرزن، فأيقن بانتقاض أمره.

ثم ملك أبو نصر سائر ديار بكر، ولقب نصير الدولة، ودامت أيامه، وأحسن السيرة وقصده العلماء من سائر الأفاق وكثروا عنده.

وكان من قصده أبو عبد الله الكازروني، وعنه انتشر مذهب الشافعي بديار بكر، وقصده الشعراء ومدحوه وأجزل جوائزهم، وأقامت الثغور معه أمانة، والرعية في أحسن ملكة إلى أن توفي.

استيلاء نصير الدولة بن مروان على الرها

كانت مدينة الرها بيد عطير، وكانوا أبا نصر بن مروان أن يملكوه فبعث نائبه بآمد ويسمى زنك فملكها، واستشفع عطير بصالح بن مرداس صاحب حلب إلى ابن مروان فأعطاه نصف البلد، ودخل إلى نصير الدولة بميفارقين فآكرمه، ومضى إلى الرها فأقام بها مع زنك.

وحضر بعض الأيام مع زنك في صنيع، وحضر ابن النساب الذي قتله فحملة زنك على الأخذ بثأره فاتبعه لما خرج، ونادى بالثار واستنفر أهل السوق فقتلوه في ثلاثة نفر وكن له بنو نمير خارج البلد ويعثوا من غير منهم عليها، فخرج زنك في العسكر. ولما جاوز الكمين خرجوا عليه وقاتلوه وأصابه حجر فمات من ذلك فاتح ثمان عشرة وأربعمائة وخلصت الرها لنصير الدولة.

ثم شفع صالح بن مرداس في ابن عطير وابن شبل فرد إليهما البلد إلى أن باع ابن عطير من الروم كما يأتي.

حصار بدران بن مقلد نصيبين

كانت نصيبين لنصير الدولة بن نصر بن مروان، فسار إليها بدران بن المقلد في جموع بني عقيل، وحاصرها فظهر على العساكر الذين بها، وأمدهم نصير الدولة بعسكر آخر، فبعث بدران من اعترضهم في طريقهم وهزمهم، فاحتفل ابن مروان في الاحتشاد وبعث العساكر إلى نصيبين، فخرجوا عليه فهزموه أولاً.

ثم كر عليهم فقتك فيهم، وأقام يقاتلهم حتى سمع بأن أخاه قرواش وصل إلى الموصل فخشي منه وارتحل عنها.

دخول الغز إلى ديار بكر

هؤلاء الغز من طوائف الترك، وهم الشعب الذين منهم السلجوقية، وقد تقدم لنا كيف أجازوا إلى خراسان لما قبض محمد بن سبكتكين على أرسلان بن سلجق منهم فحبسه، وما ظهر من فسادهم في خراسان وكيف أوقع بهم مسعود بن سبكتكين من بعد أبيه محمود، ففروا إلى البرية يريدون أذربيجان واللتحاق بمن تقدم منهم هنالك، ويسمون العراقية بعد أن عاثوا في همدان وقزوین وأرمينية.

وعاث الآخرون في أذربيجان وقتل وهشودان صاحب تبريز منهم جماعة، ثم عاثوا في الأكراد واستباحوهم.

ثم جاءهم الخبر بأن نبال إبراهيم أخا السلطان طغرليك سار إلى الري فأجفلوا منها سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ووصلوا أذربيجان واتصلت الأخبار بأن نبال في أثرهم، فأجفلوا ثانياً خوفاً منه، لأنهم كانوا له ولإخوته رعية.

ولما أجفلوا سلك بهم الدليل في الجبال على الزوزان،

صديقاً لسليمان فكان مما استماله به موشك أن زوجته بابنة أبي طاهر فاطمآن موشك إلى سليمان، وسار إلى غزو الروم بأرمينية.

وأمدّه نصير الدولة ابن مروان بالعساكر والهدايا، وقد كان خطب له من قبل ذلك، وأطاعه فشفّع عنده في موشك فقتله سليمان، وقال لطغريك أنه مات.

وشكر له أبو طاهر حيث كان صهره واتخذها ذريعة إلى قتله، فخافه سليمان، وتبرأ إليه مما وقع فأظهر القبول، وولي الاجتماع ونزل من حصنه فلك لذلك.

وخرج سليمان إليه في قلة من أصحابه فقتله عييد الله وأدرك من ثار أبيه وبلغ الخبر إلى نصير الدولة فبادر بابنه نصير، وبعث معه العساكر لحماية الجزيرة.

وسمع قريش بن بدران صاحب الموصل فطمع في ملك جزيرة ابن عمر فسار إليها، واستمال الأكراد الحسنية والبشوية، واجتمعوا على قتال نصير بن مروان فأحسن المدافعة عن بلده، وقاتلهم وجرح قريش جراحاً عديداً، ورجع إلى الموصل وأقام نصير بن مروان بالجزيرة والأكراد على خلافه.

مسير طغريك إلى ديار بكر

ولما انصرف طغريك من الموصل وملكها وفر قريش عنها ثم عاود الطاعة وذلك سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، فسار طغريك بعدها إلى ديار بكر وحاصر جزيرة ابن عمر.

وكان ابن مروان في خدمته وهدايه مترادفة عليه في مسيره إلى الموصل وعورده، فبعث إليه بالمال مفاداة عن الجزيرة، ويذكر ما هو بصده من الجهاد وحماية الثغر فأفرج عنه طغريك، وسار إلى سنجان كما ذكرناه في أخبار قريش.

وفاة نصير الدولة بن مروان وولاية ابنه

نصر

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة توفي نصير الدولة أحمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر، وكان لقبه القادر بالله، ومات لاثنتين وخمسين سنة من ولايته.

وكان قد عظم امتيلاؤه، وتوفرت أمواله، وحسن في عمارة الثغور وضبطها أثره.

وكان يهادي السلطان طغريك بالهدايا العظيمة، ومنها جبل

وأسهلوا إلى جزيرة ابن عمر، فسار بعضهم إلى ديار بكر، ونهبوا قزوين ويزادي والحسنية، وبقي آخرون بالجانب الشرقي من الجزيرة، وسار آخرون إلى الموصل.

وكان سليمان بن نصير الدولة قيماً بها فراسلهم في الصلح على أن يسير معهم إلى الشام فقبلوا.

ثم صنع سليمان صنيعاً ودعا إليه ابن غزعلي وقبض عليه وجبسه.

وأجفل الغز في كل ناحية واتبعهم عساكر نصير الدولة وقرواش والأكراد البشوية.

ثم قصدت العرب العراق للمشتى، وعاد الغز إلى جزيرة ابن عمر فحاصروها، وخربوا ديار بكر نهياً وقتلاً.

وصانعهم نصير الدولة بإطلاق منصور بن غزعلي الذي حبسه سليمان فلم يكف إطلاقه من فسادهم، وساروا إلى نصيبين وسنجان والخابور، ودخل قرواش الموصل كما نهنا، واتبعه طائفة منهم فكان من خبره معهم ما قدمناه في أخباره.

مسير الروم إلى بلد ابن مروان ثم فتح الرها

ولما كانت الدعوة العلوية قد انتشرت في الشام والجزيرة، وكان سبب ذلك أن وثاباً النميري صاحب حران والرقّة يخطب لهم، فلما ولي الوزيري للعلوين على الشام، بعث إلى ابن مروان بالتهديد، وأنه يسير إلى بلاده، فاستمد ابن مروان قرواش صاحب الموصل وشبيب بن وثاب صاحب الرقة، ودعاهما إلى الموافقة، وقطع الدعوة العلوية، فأجابوه وخطبوا للقائم وقطعوا الخطبة للمستنصر، وذلك سنة ثلاثين وأربعمائة.

فقام الوزيري في ركائبه وتهدهدهم، وأعاد ابن وثاب خطبة العلوية بحران في ذي الحجة آخر السنة.

مقتل سليمان بن نصير الدولة

كان نصير الدولة قد ولي ابنه سليمان، ويكنى أبا حرب الأمور وكان مجاوره في الجزيرة بشرموشك بن المحلي زعيم الأكراد في حصون له هنالك منيعة، ووقعت بينهما منافرة.

ثم استماله سليمان ومكر به، وكان الأمير أبو طاهر البشوي صاحب قلعة فنك وغيرها، وهو ابن أخت نصير الدولة، وكان

منها للوزارة فوزر بعد محمد بن منصور بن دؤاد.
ثم تداول العزل والولاية مرات هو وابنه عميد الملك،
واستخدم لنظام الملك والسلطان طغرل بك.
وكان شفع عند الخليفة، فلما عزل ابنه آخراً بعث عنه
السلطان ونظام الملك وعن ابنه وجميع أقاربه، وسار إليه بأصفهان
ولقاءه مرةً وتكريماً.

وبعثه في العساكر لفتح ديار بكر، وأخذها من يد بني
مروان، وأعطاه الآلات وأذن له أن يخطب لنفسه بعد السلطان،
وينقش اسمه على السكة فسار لذلك سنة ست وسبعين
وأربعمئة.

استيلاء ابن جهير على آمد

قد ذكرنا مسير فخر الدولة بن جهير في العساكر إلى ديار
بكر، ثم أمده السلطان سنة سبع وسبعين وأربعمئة بأرتق بن
أكسك في العساكر.

واستجد نصر بن مروان شرف الدولة مسلم بن قريش
على أن يعطيه آمد فأنجده، وسار لمظاهرة فاقصر فخر الدولة بن
جهير عن حريمه عصابة للعرب.

وخالفه أرتق وسار في الترك إليهم وهزمهم، ولحق مسلم
بآمد وحاصره بها فبذل المال لأرتق.
وخلص من أمره، ولحق بالركة وسار ابن جهير إلى
ميفارقين فرجع عنه منصور بن مزيد وابنه صدقة ومن معهما من
العرب.

وسار فخر الدولة المعروف بالقرم فنزل عليها، وشدد
حصارها ونزل يوماً بعض الحامية من السور، وأخطى مكانه فوقف
فيه بعض العامة، ونادى بشعار السلطان، واتبعه سائر الحامية
بالسور.

وبعثوا إلى زعيم الرؤساء ابن جهير فركب إليهم وملك
البلد، وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمئة.
ونصب أهل البلد بيوت النصارى الذين كانوا يستخدمون
لبنى مروان في الجبايات، واتقوا منهم، والله أعلم.

الباقوت الذي كان لبني بويه، اشتراه من أبي منصور بن جلال
الدولة، وأرسل معه مائة ألف دينار فحسنت حاله عنده وكان
يناغي عظماء الملوك في الترف، فيشتري الجارية بمخمسائة دينار
وأكثر، واجتمع عنده منهن للافتراش والاستخدام أزيد من ألف.
واقنتى من الأواني والآلات ما تزيد قيمته على مائتي ألف
دينار.

وجمع في عصمته بنات الملوك، وأرسل طبائخين إلى الديار
المصرية، وأتفق عليهما جملة حتى تعلموا الطبخ هنالك.
ووفد عليه أبو القاسم بن المغربي من أهل الدولة العلوية
بمصر، وفخر الدولة بن جهير من الدولة العباسية، فأقبل عليهما
واستورزهما.

ووفد عليه الشعراء فوصلهم، وقصده العلماء فحمدوا عنده
مقامهم، ولما توفي في كان الظفر فيها لنصر واستقر بميفارقين
ومضى أخوه سعيد إلى آمد فملكها واستقر الحال بينهما على
ذلك.

وفاة نصر بن نصير الدولة وولاية ابنه

منصور

ثم توفي نظام الدين نصر بن نصير الدولة في ذي الحجة سنة
اثنين وسبعين وأربعمئة وولي ابنه منصور، ودبر دولته ابن
الأنباري، ولم يزل في ملكه إلى أن قدم ابن جهير وملك البلاد من
يده.

مسير ابن جهير إلى ديار بكر

كان فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير من أهل
الموصل، واستخدم لجارية قرواش ثم لأخيه بركة، وسار عنه
بالعواد إلى ملك الروم.

ثم استخدم لفريش بن بدران وأراد حسيه، فاستجار ببعض
بني عقيل، ومضى إلى حلب فوزر لمع الدولة أبي ثمال بن صالح.
ثم مضى إلى عطية ولحق منها بنصير الدولة بن مروان،
واستورزه وأصلح حال دولته.

ولما توفي سنة ثلاث وخسين وأربعمئة دبر أمر ابنه نصر
القائم بعده.

ثم هرب إلى بغداد سنة أربع وخسين وأربعمئة استدعى

استيلاء ابن جهير على ميفارقين وجزيرة ابن عمر وانقراض دولة بني مروان

كان فخر الدولة بن جهير لما بعث ابنه إلى آمد، سار هو إلى ميفارقين، وأقام على حصارها منذ سنة سبع وسبعين وأربعمائة وجاءه سعد الدولة كهرابن مدداً واشتد الحصار، وانتلم السور في بعض الأيام فنأدى أهلها بشعار ملك شاه.

ودخل فخر الدولة وملك البلد، واستولى على أموال بني مروان وذخائرهم، وبعث إلى السلطان ملك شاه مع ابنه زعيم الرؤساء، فوصل أصفهان في شوال سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وسار فخر الدولة كهرابن إلى بغداد، وكان قد بعث عسكرياً لحصار جزيرة ابن عمر، فحصرها، وثار بها أهل بيت من أعيانها يعرفون ببني رهان، وفتحوا باباً صغيراً للبلد كان منفذاً للرجالة، وأدخلوا العسكر منه، وملكوه بدعوة السلطان ملك شاه.

وانقرضت دولة بني مروان ولحق منصور بن نظام الدين نصر بن نصير الدولة بالجزيرة، وأقام في إيالة الغز. ثم قبض عليه جكرمش وحبيه بدار يهودي فمات بها سنة تسع وثمانين وأربعمائة والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة بني الصفار ملوك سجستان المتغلبين على خراسان ومبادي أمورها وتصاريف أحوالهم

كان أهل هذه الدولة قوماً اجتمعوا بنواحي سجستان، ونسبوا لقتال الخوارج الشراة بذلك الناحية عندما اضطربت الدولة ببغداد لقتل المتوكل، وسموا أنفسهم المتطوعة.

وكان اجتماعهم على صالح بن نصير الكسائي، ويقال له صالح المتطوعي وصحبه جماعة منهم درهم بن الحسن ويعقوب بن الليث الصفار وغلبوا على سجستان وملكوها.

ثم سار إليهم طاهر بن عبد الله أمير خراسان وغلبهم عليها وأخرجهم منها.

ثم هلك صالح إثر ذلك، وقام بأمره في المتطوعة درهم بن الحسن فكثر أتباعه.

وكان يعقوب بن الليث قائده، وكان درهم مضعفاً فتحيل صاحب خراسان عليه حتى ظفر به، وبعثه إلى بغداد فحبس بها،

واجتمع المتطوعة على يعقوب بن الليث قائده، وكان درهم يكتب المعتز يسأله ولايتها، وأن يقلده حرب الخوارج فكتب له بذلك، وأحسن الغناء في حرب الشراة، وتجاوزته إلى سائر أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم سار من سجستان إلى خراسان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وعلى الأنبار ابن أوس فجمع لمحاربة يعقوب.

وسار إليهم في التعية، فاقتلوا وانهزم ابن أوس، وملك يعقوب هراة وبوشنج، وعظم أمره، وهابه صاحب خراسان وغيرها من الأطراف.

استيلاء يعقوب الصفار على كرمان ثم على فارس وعودها

كان على فارس علي بن الحسين بن شبل، وكتب إلى المعتز يطلب كرمان، ويذكر عجز ابن طاهر عنها.

وكان قد أبطا عن حرب الخوارج فكتب له المعتز بولاية كرمان، وكتب ليعقوب الصفار أيضاً بولايتها بقصد التضريب بينهما لتتحص طاعتها أو طاعة أحدهما.

فأرسل علي بن الحسين من فارس على كرمان طوق بن الفليس من أصحابه فسبق إليه يعقوب وملكها.

وجاء يعقوب فاقام قريباً منها شهرين يترقب خروج طوق إليه، ثم ارتحل إلى سجستان ووضع طوق أوزار الحرب، وأقبل على اللهو واتصل بذلك بيعقوب في طريقه فكر راجعاً، وأغذ السير ودخل كرمان، وحبس طوقاً.

وبلغ الخبر إلى علي بن الحسين وهو على شيراز فجمع عسكره ونزل مضيق شيراز.

وأقبل يعقوب حتى نزل قبائه، والمضيق متوعر بين جبل ونهر ضيق المسلك بينهما فاقتحم يعقوب النهر بأصحابه، وأجاز إلى علي بن الحسين وأصحابه فانهزموا.

وأخذ علي بن الحسين أسيراً، واستولى على سواده، ودخل شيراز وملكها وجبى الخراج وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين وقيل: قد وقع بينهما بعد عبور النهر حروب شديدة، وانهزم آخرها علي وكان عسكره نحواً من خمسة عشر ألفاً من الموالي والأكراد، فرجعوا منهزمين إلى شيراز آخر يومهم، وازدهروا في الأبواب، وبلغ القتلى منهم خمسة آلاف.

ثم افرقوا في نواحي فارس وانتهبوا الأموال.

محمد الطبرسين وقهستان.

ولما دخل يعقوب شيراز وملك فارس امتحن علياً وأخذ منه ألف بدره ومن الفرس والسلاح والآلة ما لا يحصى، وكتب للخليفة بطاعته، وأهدى هدية جليلة منها عشرة بازات بيض، وباز أبلق صيني، ومائة نافجة من المسك، وغير ذلك من الطرف، ورجع إلى سجستان ومعه علي وطوق في اعتقاله، ولما فارق فارس بعث المعتز عماله إليها.

ثم بعث يعقوب إلى محمد في طلبه فأجاره، وأحفظ ذلك يعقوب فسار إلى محمد بنيسابور، فقام محمد عن لقائه. ونزل يعقوب بظاهر نيسابور، وخرج إليه قرابة محمد وعمومته وأهل بيته، ودخل نيسابور واستعمل عليها، وذلك سنة تسع وخمسين ومائتين، وكتب إلى المعتمد بأن أهل خراسان استدعوه لعجز ابن طاهر وتفريطه في أمره.

وغلبة العلوي على طبرستان فكتب إليه المعتمد بالنكير والاقتصار على ما بيده، وإلا سلك به سبيل المخالفين.

ولاية يعقوب الصفار على بلخ وهراة

ولما انصرف يعقوب عن فارس ولى عليها المعتز من قبله، والخلفاء بعده، ولها الحارث بن سيماء، فوثب به محمد بن واصل بن إبراهيم التيمسي من رجال العرب، وأحمد بن الليث من الأكراد الذين بنواحيها فقتلاه، واستولى ابن واصل على فارس سنة ست وخمسين ومائتين وأظهر دعوة المعتمد، وبعث عليها المعتمد الحسين بن الفياض، فسار إليه يعقوب بن الليث سنة سبع وخمسين ومائتين، وكتب إليه المعتمد بالنكير على ذلك.

وبعث إليه الموفق بولاية بلخ وطخارستان فملكها، وخرب المباني التي بناها داود بن العباس بظاهر بلخ، وتسمى بأساديانج.

ثم سار إلى كابل واستولى عليها، وقبض على رتبيل، وبعث بالأصنام التي أخذها من كابل، وملك البلاد إلى المعتمد.

وأهدى إليه هدية جليلة المقدار، وعاد إلى بست معتزماً على العود إلى سجستان فأحفظه بعض قواده بالرحيل قبله فغضب، وأقام منه إلى سجستان، ثم سار إلى خراسان وملك هراة.

ثم إلى بوشنج فملكها وقبض على عاملها الحسين بن علي بن طاهر الكبير، وكان كبير بيتهم، وشفع له فيه محمد بن طاهر صاحب خراسان فأبى من إسعافه، وبقي في قلبه، وولى على هراة وبوشنج وباذغيس ورجع إلى سجستان.

وقيل في ملكه نيسابور غير ذلك: وهو أن محمد بن طاهر لما أصاب دولته العجز والإدبار، كاتب بعض قرابته يعقوب بن الليث الصفار، واستدعوه فكتب يعقوب إلى محمد بن طاهر بمجيئه إلى ناحيته مورياً بقصد الحسن بن زيد في طبرستان.

وأن المعتمد أمره بذلك، وأنه لا يعرض لشيء من أمر خراسان، وبعث بعض قواده عيناً عليه، وعنفه على الإهمال والعجز، وقبض على جميع أهل بيته نحواً من مائة وستين رجلاً وحملهم جميعاً إلى سجستان وذلك لإحدى عشرة سنة من ولاية محمد.

واستولى يعقوب على خراسان وهرب منازعه عبد الله السجزي إلى الحسين بن يزيد صاحب طبرستان، وقد كان ملكها من لدن سنة إحدى وخمسين ومائتين، فأجاره الحسين وسار إليه يعقوب سنة ستين ومائتين، وحاربه فانهمز الحسين إلى أرض الديلم، واعتصم بجبال طبرستان وملك يعقوب سارية وأمد ورجع في طلب السجزي إلى الري وتهدد العامل على دفعه إليه فبعث به وقتله يعقوب.

استيلاء الصفار على فارس

تقدم لنا تغلب محمد بن واصل على فارس سنة ست وخمسين ومائتين ومسير الصفار إليه سنة سبع وثلاثمائة ورجوعه عنها، وأنه أعاضه عنها ببلغ وطخارستان.

ثم إن المعتمد أضاف فارس إلى موسى بن بغا مع الأهواز والبصرة والبحرين واليمامة، وما بيده من الأعمال، فولي موسى على فارس من قبله عبد الرحمن بن مفلح وبعثه إلى الأهواز وأمه بطاشتم.

وزحفوا إلى ابن واصل وسار لحرب موسى بن بغا بواسط،

استيلاء الصفار على خراسان وانقراض أمر

بني طاهر

كان بسجستان عبد الله السجزي ينازع يعقوب بن الليث، فلما قوي يعقوب واستفحل، سار عبد الله إلى خراسان، وطمع في ملكها، وحاصر محمد بن طاهر في كرسي ولايته نيسابور.

ثم تردد الفقهاء بينهم في الصلح حتى تم بينهم، وولاه

انهزموا، وخرج الصفار، واتبعهم أصحاب الموفق، وغنموا من عسكره نحواً من عشرة آلاف من الظهر، ومن الأموال والمسك ما يؤد حمله.

وكان محمد بن طاهر معتقلاً في العسكر منذ قبض عليه بخراسان، فتخلص ذلك اليوم، وجاء إلى الموفق، وخلع عليه وولاه الشرطة ببغداد.

وسار الصفار إلى خوزستان فنزل جند نيسابور، وراسله صاحب الزنج على الرجوع، ويعدّه المساعدة فكتب له ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورة.

وكان ابن واصل قد خالف الصفار إلى فارس وملكها، فكتب إليه المعتمد بولايتها، وبعث إليه الصفار جيشاً مع عمر بن السري من قواده، فأخرجه عنها وولى على الأهواز محمد بن عبيد الله بن هزارمرد الكردي.

ثم رجع المعتمد إلى سامرا والموفق إلى واسط، واعتزم الموفق على اتباع الصفار فبعد به المرض عن ذلك.

وعاد إلى بغداد ومعه مسرور البلخي، وأقطعه ما لأبي الساج من الضياع والمنازل، وقدم معه محمد بن طاهر فقام بولاية الشرطة ببغداد.

انتقاض الخجستاني بخراسان على يعقوب

الصفار وقيامه بدعوة بني طاهر

كان من أصحاب محمد بن طاهر ورجالاته أحمد بن عبد الله بن خجستان، وكان متولياً على وهي من جبال سراة وأعمال باذغيس.

فلما استولى الصفار على نيسابور وخراسان، انضم أحمد هذا إلى أبيه علي بن الليث، وكان شركب الحمال قد تغلب على مرو ونواحيها سنة تسع وخمسين ومائتين وتغلب على نيسابور سنة ثلاث وستين ومائتين وأخرج منها الحسين بن طاهر، وكان لشركب ثلاثة من الولد: إبراهيم وهو أكبرهم، وأبو حفص يعمر، وأبو طلحة منصور، وكان إبراهيم قد أبلى في واقعة المغار مع الحسن بن زيد بجرجان، فقدمه الصفار، وحسده أحمد الخجستاني فخوفه عادية الصفار، وزين له الحرب.

وكان يعمر أخوه محاصراً لبعض بلاد بلخ، فاتفق إبراهيم وأحمد الخجستاني في الخروج إلى يعمر، وسبقه إبراهيم إلى الموعد ولم يلقه فسار إلى سرخس.

فولى على الأهواز مكانه أبا الساج وأمره بمحاربة الزنج فبعث صهره عبد الرحمن لذلك، فلقه علي بن أياز قائد الزنج، وهزمه وقتل.

وملك الزنج الأهواز وعاثوا فيها وأدبل من أبي الساج إبراهيم بن سيماء، وسار لحرب ابن واصل، واضطربت الناحية على موسى بن بغا فاستغنى من ولايتها، وأعفاه المعتمد وطمع يعقوب الصفار في ملك فارس، فسار من سجستان عمداً، ورجع ابن واصل من الأهواز إليه، وترك محاربة ابن سيماء، وأغذ السير ليفجأه علي بغة، ففطن له الصفار وسار إليهم وقد أعياهم وتعبوا من شدة السير والعطش، ولما تراءى الجمعان تخاذل أصحاب ابن واصل وانهزموا من غير قتال، وغنم الصفار في معسكره وما كانوا أصابوا لابن مفلح، واستولى على بلاد فارس ورتب بها العمال وأوقع بأهل ذم لإعانتهم ابن واصل، وطمع في الاستيلاء على الأهواز وغيرها.

حروب الصفار مع الموفق

ولما ملك الصفار خراسان من يد ابن طاهر وقبض عليه وملك فارس من يد ابن واصل، وكان المعتمد ناه عن تلك، فلم يشته، صرح المعتمد بأنه لم يول، ولا فعل ما فعل بإذنه، وأحضر حاج خراسان وطبرستان والري، وخاطبهم بذلك فسار الصفار إلى الأهواز سنة اثنتين أصحابه الذين أسروا بخراسان، فأبى إلا العزم على الوصول إلى الخليفة ولقائه، وبعث حاجبه درهماً يطلب ولاية طبرستان وخراسان وجرجان والري وجارس والشرطة ببغداد، فولاه المعتمد ذلك كله مضافاً إلى سجستان وكرمان، وأعاد حاجبه بذلك، ومعه عمرو بن سيماء فكتب يقول: لا بد من الحضور بباب المعتمد، وارتحل من عسكر مكرم جاثياً.

وخرج أبو الساج من الأهواز لتلقيه لدخول الأهواز في أعماله، فأكرمه ووصله.

وسار إلى بغداد ونهض المعتمد من بغداد فعسكر بالزعفرانية، ووافاه مسرور البلخي من مكانه من مواجهة الزنج، وجاء يعقوب إلى واسط فملكها، ثم سار منها إلى دير العاقول.

وبعث المعتمد أخاه الموفق لمحاربه وعلى ميمته موسى بن بغا، وعلى مسيرته موسى البلخي، فقاتله متصفاً رجب وانهزمت ميسرة الموفق وقتل فيها إبراهيم بن سيماء وغيره من القواد ثم تراحفوا واشتدت الحرب وجاء للموفق محمد بن أوس والدواني مدداً من المعتمد، وفشل أصحاب الصفار، ولما رأوا مدد الخليفة

وفاة يعقوب الصفار وولاية عمرو أخيه

ثم توفي يعقوب الصفار في شوال سنة خمس وستين بعد أن افتتح الزنج، وقتل ملكها وأسلم أهلها على يده، وكانت مملكة واسعة الحدود.

وافتح زابلستان وهي غزنة وأعمالها، وكان المعتمد قد استماله وولاه على سجستان والسند، ثم تغلب على كرمان وخراسان وفارس، وولاه المعتمد على جميعها.

ولما مات قام مكانه أخوه عمرو بن الليث، وكتب إلى المعتمد بطاعته، فولاه الموفق من قبل أعمال أخيه، وهي خراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد.

وبعث إليه بالخلع، فولى عمرو بن الليث على الشرطة ببغداد وسر من رأى من قبله عبيد الله بن عبد الله بن طاهر. وخلع عليه الموفق وعمرو بن الليث وولى على أصفهان من قبله أحمد بن عبد العزيز بن أبي ذلف، وولى على طريق مكة والحرمين محمد بن أبي الساج.

مسير عمرو بن الليث إلى خراسان لقتال الخجستاني

قد تقدم ذكر الخجستاني وتغلبه على نيسابور وهراة بدعوة بني طاهر سنة اثنتين وستين ومائتين فلما توفي يعقوب سار عمرو إلى خراسان سنة خمس وستين ومائتين واستولى على هراة. وسار الخجستاني بنيسابور فقاتله فانهزم عمرو، ورجع إلى هراة.

وكان الفقهاء بنيسابور يشيعون لعمور لولاية الخليفة إياه، فأوقع الخجستاني الفتنة بينهم بالميل إلى بعضهم، وتكرمتهم عن بعض ليشغلهم بها.

ثم سار إلى هراة سنة سبع وستين ومائتين، وحاصر عمرو بن الليث فلم يظفر بشيء فتركه، وخالفه إلى سجستان.

ووثب أهل نيسابور بنائبه عليهم، وأمدهم عمرو بن الليث بجنده فقبضوا على نائب الخجستاني وأقاموا بها، ورجع الخجستاني من سجستان فأخرجهم وملكها.

وكان أبو منصور طلحة بن شريك معاصراً بلخ من قبل ابن طاهر، وكتبه عمرو بن الليث واستقدمه، وأعطاه أموالاً

ولما عاد الصفار إلى سجستان سنة إحدى وستين ومائتين ولى على هراة أخاه عمرو بن الليث فاستخلف عليها طاهر بن حفص الباذغيسي، وجاء الخجستاني إلى علي بن الليث وزين له أن يقيم خراسان نائباً عنه في أموره وأقطاعه، فطلب ذلك من أخيه يعقوب فأذن له.

فلما ارتحلوا عن خراسان جمع أحمد الخجستاني وأخرج علي بن الليث من بلده سنة إحدى وستين ومائتين وملك تونس وأعاد دعوة بني طاهر، وملك نيسابور سنة اثنتين وستين واستقدم رافع بن هرثمة من رجالات بني طاهر فجعله صاحب جيشه وسار إلى هراة فملكها من يد طاهر بن حفص وقتله، ثم قتل يعمر بن شريك، واستولى على بلاد خراسان ومحا منها دعوة يعقوب بن الليث.

ثم جاء الحسن بن طاهر أخو محمد بأصفهان ليخطب له، فأبى فخطب له أبو طلحة بن شريك بنيسابور، وانتقض الخجستاني واضطربت خراسان فتنة، وزحف إليها الحسن بن زيد فقاتلوه وهزموه.

ثم ملك نيسابور من يد عمرو بن الليث، وترك الخطبة لمحمد بن طاهر، وخطب للمعتمد لنفسه من بعده كما هو مشروح في أخبار الخجستاني.

استيلاء الصفار على الأهواز

قد تقدم لنا استيلاء الصفار على فارس بعد خراسان. ثم سار منها إلى الأهواز وكان أحمد بن لسوقه قائد مسرور البلخي على الأهواز قد نزل تستر، فرحل عنها ونزل يعقوب جنديسابور وفرت عساكر السلطان من تلك النواحي.

وبعث يعقوب بالخضر بن العين إلى الأهواز وعلي بن أبان والزنج بمحاصرونها، فتأخروا عنها إلى نهر السدرة، ودخل الخضر الأهواز وملكها بدعوة الصفار، وكان عسكره وعسكر الزنج يغير بعضهم على بعض.

ثم أوقع الزنج بعسكره ولحق الخضر بعسكر مكرم، واستخرج ابن أبان ما كان في الأهواز، ورجع إلى نهر السدرة، وبعث يعقوب الإمداد إلى الخضر، وأمره بالكف عن قتال الزنج والمقام بالأهواز فودع الزنج، وشحن الأهواز بالأقوات وأقام.

واستخلفه على خراسان، ورجع إلى سجستان.

وبقي أبو طلحة بخراسان والنجستاني يقاتله إلى أن قتل النجستاني سنة ثمانين وستين ومائتين قتله بعض مواليه كما مر في أخباره مع رافع بخراسان.

كان رافع بن هرثمة من قواد بني طاهر بخراسان، فلما ملكها يعقوب سار إليه واستقر في منزله بتمامين من قرى باذغيس.

فلما قتل النجستاني اجتمع الجيش على رافع وهو بهرة فأقروه عليهم.

وكان أبو طلحة بن شركب قد سار من جرجان إلى نيسابور، فسار إليه رافع وحاصرها، وخرج عنها أبو طلحة إلى مرو، وخطب بها وبهرة لمحمد بن طاهر، وولى على هرة من قبله.

ثم زحف إليه عمرو بن الليث فغلبه عليها، وولى عليها محمد بن سهل بن هاشم.

ورجع وبعث أبو طلحة إلى إسماعيل بن أحمد يستنجده فأخذه بعسكر سار بهم إلى مرو، وأخرج منها محمد بن سهل وخطب لعمرو بن الليث وذلك في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ثم عزل المعتمد عمرو بن الليث عن سائر أعمال خراسان وقلدها الموفق محمد بن طاهر، وهو مقيم ببغداد، فاستخلف محمد عليها رافع بن هرثمة، وأقر نصر بن محمد أحمد الساماني على ما وراء النهر، فسار رافع إلى إسماعيل يستنجده على أبي طلحة فجاءه في أربعة آلاف مدداً.

واستقدم رافع أيضاً علي بن الحسين المروزي، وساروا جميعاً إلى أبي طلحة وهو بمرو سنة اثنتين وسبعين ومائتين وغلبوه عليها ولحق بهرة، وعاد إسماعيل إلى خوارزم فجبي أموالها ورجع إلى نيسابور.

حروب عمرو مع عساكر المعتمد ومع

الموفق

ولما عزل المعتمد عمرو بن الليث عن خراسان أمر بلعنه على المنابر، وأعلم حاج خراسان بذلك، وقلد محمد بن طاهر أعمالها فاستخلف عليها رافع بن الليث، وكتب المعتمد إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف بعزله عن أصفهان والري.

وبعث إليه العساكر لقتاله سنة إحدى وسبعين ومائتين

فزحف إليه عمرو في خمسة عشر ألفاً من المقاتلة فهزمه أحمد بن عبد العزيز والعساكر واستباحوا معسكره، ودفعوه عن أصفهان والري.

وكان المعتمد لما عزله ولعنه بعث صاعد بن غلغل في العساكر إلى فارس لقتال عمرو بن الليث وإخراجه من فارس، فسار لذلك ولم يظفر، ورجع سنة اثنتين وسبعين ومائتين.

ثم سار الموفق سنة أربع وسبعين ومائتين إلى فارس لحرب عمرو بن الليث، فسير عمرو قائده عباس بن إسحاق إلى شيراز، وابنه محمد بن عمرو إلى أرجان وبعث على مقدمته أبا طلحة بن شركب صاحب جيشه، فاستأمن أبو طلحة إلى الموفق وقت ذلك في عضد عمرو، وخام عن لقائه.

وسار الموفق إلى شيراز وأرتاب بأبي طلحة فقبض عليه، وملك الموفق فارس، وعاد عمرو إلى كرمان فسار الموفق في طلبه، فلاحق بسجستان على المفازة، وتوفي ابنه محمد بن عمرو بها.

وامتنعت كرمان وسجستان على الموفق فعاد إلى بغداد.

وأرتاب عمرو بن الليث بأخيه علي فحبسه بكرمان، وحبس معه ابنه المعدل والليث فهربوا من حبسهم، ولحقوا برافع بن الليث عندما ملك طبرستان وجرجان من محمد بن زيد العلوي سنة سبع وسبعين ومائتين فأقاموا عنده، وهلك علي بن الليث وبقي ولداه عنده.

ثم رضي المعتمد عن عمرو بن الليث وولاه الشرطة ببغداد، وكتب اسمه على الأعلام والرتبة سنة ست وسبعين ومائتين واستخلف في الشرطة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، ثم سخطه لسنة ومحا اسمه من الأعلام.

ولاية عمرو بن الليث على خراسان ثانياً

ومقتل رافع بن الليث

ثم سخط المعتمد رافع بن الليث لامتناعه عن تخليّة قري السلطان بالري بعد أن أمره بذلك، فكتب إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف يأمره بمحاربة رافع وإخراجه عن الري وكتب إلى عمرو بن الليث بولاية خراسان.

وحارب أحمد بن عبد العزيز سنة ثمانين ومائتين فقاتله أخويه عمر ويكرأ ابني عبد العزيز فهزماه إلى أصفهان، وأقام بالري باقي سته.

ثم سار إلى أصفهان فملكها سنة إحدى وثمانين ومائتين

وعاد إلى جرجان، ووافى عمرو بن الليث خراسان والياً عليها بجموعه.

وتورط رافع بن الليث ورجع إلى مصالحة محمد بن زيد، على أن يعيد إليه طبرستان فصالح محمد بن زيد، وخطب له بطبرستان سنة اثنتين وثمانين وماتين على أن يمده بأربعة آلاف من الديلم.

وسار عن طبرستان إلى نيسابور سنة ثلاث وثمانين وماتين فحاربه عمرو وهزمه إلى أبيورد، وأخذ منه المعدل والليث ابني أخيه.

ثم أراد رافع المسير إلى هراة فأخذ عليه عمرو الطريق لسرخس وسرب رافع في المضائق ونكب عن جمهور الطريق فدخل نيسابور وحاصره فيها عمرو بن الليث.

ثم برز للقاءه واستأمن بعض قواد رافع إلى عمرو، فانهزم رافع وأصحابه، وبعث إلى محمد بن وهب يستمده كما شرط له. وكان عمرو قد حذر محمد بن زيد من إمداده فأقصر من ذلك، وتفرق عن رافع أصحابه وعلمائه، وكانوا أربعة آلاف غلام.

وفارقه محمد بن هارون إلى أحمد بن إسماعيل بن سمان ببخارى، وخرج رافع منهزماً إلى خوارزم في فل من العسكر، وحمل بقية المال والآلة، وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين وماتين.

فلما رآه صاحب خوارزم أبو سعيد الغرغاثي في قلة من العسكر، غدر به وقتله في أول شوال، وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث بنيسابور فأنفذه عمرو إلى بغداد.

فكتب إليه المعتضد بولاية الري مضافة إلى خراسان، وأنفذ له الألوية والخلع سنة أربع وثمانين وماتين.

استيلاء بني سامان على خراسان وهزيمة

عمرو بن الليث وحبيه ثم مقتله

لما بعث عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة إلى المعتضد، طلب ولاية ما وراء النهر فولاه وبعث إليه بالخلع واللواء، فسرّح عمرو الجيوش من نيسابور مع قائده محمد بن بشير وغيره من قواده لمحاربة إسماعيل بن أحمد، وانتهوا إلى آمد فحبر إسماعيل جيحون وهزمهم، وقتل محمد بن بشير وغيره من قواده، ورجع الفل إلى عمرو بنيسابور.

وعاد إسماعيل إلى بخارى وتجهز للسير إلى إسماعيل، وسار إلى بلخ.

وبعث إليه إسماعيل: إنك قد حزت الدنيا العريضة فاتركني في هذا الثغر فأبى.

وعبر إسماعيل وأخذ عليه الجهات فصار محصوراً، وندم وطلب المحاجة فأبى إسماعيل، وقاتله فانهزم عمرو ونكب عن طريق العسكر إلى مضيق يتفرد فيه وتوارى في أجمة فوحلت به دابته، ولم يتفطن له أصحابه، فأخذ أسيراً وبعث به إسماعيل إلى المعتضد، بعد أن خيره فاختر المسير إليه، ووصل إلى بغداد سنة ثمان وثمانين وماتين وأدخل على جمل وحبس.

وبعث المعتضد إلى إسماعيل بولايته خراسان إلى أن توفي المعتضد.

وجاء المكثفي إلى بغداد، وكان في نفسه إصطناعه، وكره ذلك الوزير القاسم بن عبيد الله فوضع عليه من قتله سنة تسع وثمانين وماتين.

ولاية طاهر بن محمد بن عمرو على

سجستان وكرمان ثم على فارس

ولما أسر عمرو وسار إلى محبسه، قام مكانه بسجستان وكرمان حافده طاهر بن محمد بن عمرو، وهو الذي مات أبوه محمد بمفازة سجستان عندما هرب عمرو أمام الموفق من فارس، ثم سار طاهر إلى فارس، وسار إليها في الجيوش سنة ثمان وثمانين وماتين واعترضه بدر، فعاد طاهر إلى سجستان، وملك بدر فارس وجبى أموالها.

ثم بعث طاهر بن محمد سنة تسع وثمانين وماتين يطلب المقاطعة على فارس بمال يحمله، وكان المعتضد قد توفي، فعقد له المكثفي عليها، وتشاغل طاهر بالصيد واللّهو، ومضى إلى سجستان فغلب على الأمر بفارس الليث ابن عمه علي بن الليث، وسيكري مولى جده عمرو، وكان معهما أبو قابوس قائد طاهر، فلحق بالخليفة المكثفي وكتب طاهر رده بما جباه من المال، ويحسب له من جلته فلم يجب إلى ذلك.

استيلاء الليث على فارس ثم مقتله واستيلاء سيكري

وسار أحمد بن إسماعيل بن سامان إلى الري فبعث منها جيوشه إلى سجستان سنة ثمان وتسعين ومائتين مع جماعة من قواده وعليهم الحسن بن علي المروروذي.

وكانت سجستان لما أسر طاهر سنة سبع وتسعين ومائتين ولي بها بعده الليث بن علي بن الليث.

فلما أسر الليث كما تقدم ولي بعده أخوه المعدل بن علي بن الليث، فلما بلغه مسير هذه العساكر إليه من قبل أحمد بن إسماعيل بعث أخاه أبا علي بن الليث محمد بن علي بن الليث إلى بست والرخج ليجييهما، وبعث منهما إلى سجستان بالمرّة، فسار إليه أحمد بن إسماعيل بن سامان، وعلى سجستان أبو صالح منصور ابن عمه إسحاق بن أحمد بن إسماعيل بن سامان لما بلغه مسير سيكري من فارس إلى سجستان في المغازة، فبعث إليه جيشاً فأخذه، وكتب الأمير أحمد إلى المتقدر بالخبر وبالفتح، فأمره بمحمل سيكري والليث، فبعث بهما إلى بغداد وحبسهما.

ثورة أهل سجستان بأصحاب ابن سامان ودعوتهم إلى بني عمرو بن الليث بن الصفار ثم عودهم إلى طاعة أحمد بن إسماعيل بن سامان

كان محمد بن هرمز ويعرف بالمولي الصنبللي خارجياً وهو من أهل سجستان.

خرج أيام بني سامان وأقام ببخارى، ومخط بعض الأعيان بها فسار إلى سجستان، واستمال جماعة من الخوارج رئيسهم ابن الحفار فخرجوا، وقبضوا على منصور بن إسحاق عاملهم من بني سامان وحبسوه، وولوا عليهم عمرو بن يعقوب بن محمد بن الليث، وخطبوا له، فبعث أحمد بن إسماعيل الجيوش ثانياً مع الحسين بن علي سنة ثلاثمائة، وحاصرها ستة أشهر، ومات الصنبللي فاستأمن عمرو بن يعقوب الصفار وابن الحفار إلى الحسين بن علي، وخرج منصور بن إسحاق من محبسه.

واستعمل أحمد بن إسماعيل على سجستان سيمجور الدواني، ورجع الحسين بالجيوش إلى الأمير أحمد ومعه يعقوب وابن الحفار في ذي الحجة سنة ثلاثمائة.

ولما تغلب سيكري على فارس لحق الليث بن علي بطاهر ابن عمه وزحف طاهر إلى فارس فهزمه السيكري وأسر، وبعث به وبأخيه يعقوب إلى المتقدر سنة سبع وتسعين ومائتين وضمن فارس بالحمل الذي كان قرره فولاه على فارس.

ثم زحف إليه الليث بن علي بن الليث فملك فارس الليث للقائهم وجاءه الخبر بأن الحسين ابن حمدان صار من قم مدداً لمؤنس، فركب لاعتراضه، وتاه الدليل عن الطريق فأصبح على معسكر مؤنس فناروا واقتتلوا وانهزم عسكر الليث، وأخذ أسيراً، وأشار أصحاب مؤنس بأن يقبض على سيكري معه، وملك بلاد فارس، ويقره الخليفة فودعهم بذلك، ودس إلى سيكري بأن يهرب إلى شيراز.

وأصبح يلوم أصحابه على ظهور الخبر من جهتهم، وعاد بالليث إلى بغداد واستولى سيكري على فارس، واستبد كاتبه عبد الرحمن بن جعفر على أموره، فسعى فيه أصحابه عند سيكري حتى قبض عليه، وحملوه على العصيان فمنع الحمل، فكتب هو من محبسه إلى الوزير ابن الفرات يعرفه بأمرهم وكتب ابن الفرات إلى مؤنس وهو بواسط يأمره بالعود إلى فارس ويعاتبه حيث لم يقبض على سيكري فسار مؤنس إلى الأهواز، وراسله سيكري وهاده.

وعلم ابن الفرات بميل مؤنس إليه فأنفذ وصيفاً وجماعة من القواد ومعهم محمد بن جعفر وأمرهم بالتعويل عليه في فتح فارس وكتب إلى مؤنس باستصحاب الليث إلى بغداد ففعل، وسار محمد بن جعفر إلى فارس ودافع سيكري على شيراز فهزمه، وحاصره بها وحاربه ثانية فهزمه ونهب أمواله، ودخل سيكري مغزاة خراسان فظفرت به جيوش خراسان وأسرته، وبعثوا به إلى بغداد. وولي على فارس فتح خادم الأفشين.

انقراض ملك بني الليث من سجستان وكرمان

وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين توفي فتح صاحب فارس، فولى المتقدر مكانه عبد الله بن إبراهيم المسمعي وأضاف إليه كرمات من أعمال بني الليث.

استيلاء خلف بن أحمد بن علي علي

سجستان ثم انتقاضهم عليه

كان خلف بن أحمد من ذرية عمرو بن الليث الصفار، وهو بسطة برسمه بانوا ولما فشل أمر بني سامان استولى على سجستان وكان من أهل العلم ويحياهم.

ثم حج سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، واستخلف على أعماله طاهر بن الحسين من أصحابه.

فلما عاد من الحج انتقض عليه طاهر بن الحسين من أصحابه، فسار خلف إلى بخارى مستجيشاً بالأمير منصور بن سامان، فبعث معه العساكر وملك سجستان، وكثرت أمواله وجنوده.

وقطع ما كان يحمله إلى بخارى، فسارت العساكر إليه ومقدمهم وحاصروا خلف بن أحمد في حصن أوام من أمنع الحصون وأعلاها.

ولما اشتد به الحصار وفنيت الأموال والآلات، كتب إلى نوح بن منصور صاحب بخارى بأن يستأمنه، ويرجع إلى دفع الحمل، فكتب نوح بن منصور إلى أبي الحسن بن سيمجور عامله على خراسان وقد عزل بالمسير إلى حصار خلف، فسار من قهستان إلى سجستان وحاصر خلف، وكانت بينهما مودة، فأشار عليه سيمجور بتسليم حصن أرك للحسن لتفرق الجيوش عنه إلى بخارى، ويرجع هو إلى شأنه مع صاحبه، فقبل خلف مشورته.

ودخل سيمجور إلى حصن أرك وخطب فيه للأمير نوح.

ثم سلمه للحسن بن طاهر وانصرف إلى بخارى، وكان هذا أول وهن دخل على بني سامان من سوء طاعة أصحابهم.

استيلاء خلف بن أحمد على كرمان ثم

انتزاع الديلم لها

ولما استفحل أمر خلف بسجستان حدث نفسه بملك كرمان، وكانت في أيدي بني بويه وملكهم يومئذ عضد الدولة، فلما وهن أمرهم، ووقع الخلاف بين صمصام الدولة وبهاء الدولة ابني عضد الدولة، جهز العساكر إلى كرمان وعليهم عمرو ابنه وقائدهم يومئذ غمراش من الديلم.

فلما قاربها عمرو هرب غمراش إلى بردشير وحمل ما أمكنه،

وغنم عمرو الباقي وملك كرمان وجبى الأموال.

وكان صمصام الدولة صاحب فارس، فبعث العساكر إلى غمراش مع أبي جعفر وأمره بالقبض عليه لانتهاكه بالميل إلى أخيه بهاء الدولة، فسار وقبض عليه، وحمله إلى شيراز.

وسار بالعساكر إلى عمرو بن خلف فقاتله عمرو بدار زين وانهزم الديلم وعادوا على طريق جيرفت، وبعث صمصام الدولة عسكرياً آخر مع العباس بن أحمد من أصحابه، فلقوا عمرو بن خلف بالسرجان في الحرم سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة فهزموه وعاد إلى أبيه بسجستان مهزوماً، ووجه ثم قتله.

ثم عزل صمصام الدولة العباس عن كرمان فأشاع خلف بأن أستاذ هرمز سمه، واستنفر الناس لغزو كرمان، وبعثهم مع ابنه طاهر، فانتهوا إلى برماشير وملكوها من الديلم، ولحق الديلم بجيرفت واجتمعوا بها، وبعثوا بها إلى بردشير حامية من العسكر، وهو أصل بلاد كرمان ومصرها فحصرها طاهر ثلاثة أشهر، وضيق على أهلها، وكتبوا إلى أستاذ هرمز يستمدونه قبل أن يغلبهم عليها طاهر، فخاطر بنفسه، وكتب إليهم المضائق والأوعار حتى دخلها، وعاد طاهر إلى سجستان واستنفر الناس لغزو الديلم بجيرفت، واجتمعوا بها وبعثوا إلى بردشير حامية من العسكر، وهو أصل بلاد كرمان، وذلك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

استيلاء طاهر بن خلف على كرمان وعوده

عنها ومقتله

كان طاهر بن خلف من العقوق لأبيه على عظيم وانتقض عليه وجرت بينهما وقائع كان الظفر بها لخلف، ففارق طاهر سجستان وسار إلى كرمان، وبها الديلم عسكر بهاء الدولة فصعد إلى جبالها، واحتمى بقوم هنالك كانوا عصاة، ونزل على جيرفت فملكها، ولقيه الديلم فهزمهم، واستولى على الكثير مما بأيديهم فبعث بهاء الدولة عسكرياً مع أبي جعفر بن أستاذ هرمز، فغلب طاهراً على كرمان فعاد إلى سجستان، وقاتل أباه فهزمه، وملك البلاد وامتنع أبوه خلف ببعض حصونه، وكان الناس قد سئموا منه لسوء سيرته، فرجع إلى نخادة ابنه، فتواعد اللقاء تحت القلعة، وأمكن له بالقرب كميناً، فلما لقيه الكمين واستمكن منه أبوه خلف فقتله أبوه.

نيسابور، وانقرض ملك بني الصفار وذويهم من سجستان والبقاء لله وحده.

استيلاء محمود بن سبكتكين على سجستان

ومحو آثار بني الصفار منها

كان خلف بن أحمد قد بعث ابنه طاهراً إلى قهستان فملكها. ثم إلى بوشنج كذلك وكانت هي وهرارة لبغراجن عم محمود، وكان محمود مشغولاً بالفتنة مع قراد بني سامان، فلما فرغ منها استأذنه عمه في إخراج طاهر بن خلف فأذن له.

وسار إليه سنة تسعين وثلاثمائة ولقيه بنو احيي بوشنج فهزمه، ولج في طلبه فكر عليه طاهر وقتله، فساء ذلك محموداً وجمع عساكره وسار إلى خلف بن أحمد، وحاصره بمحصن أصبهيل، وضيق عليه حتى بذل له أموالاً جلييلة، وأعطاه الرهن عليها فافرج عنه.

ثم عهد خلف بملكه إلى ابنه، وعكف على العبادة والعلم خوفاً من محمود بن سبكتكين فلما استولى طاهر على الملك علق أباه وكان من أمره ما تقدم.

ولما قتل طاهر تغيرت نيات عساكره، وساءت فيه ظنونهم، واستدعوا محمود بن سبكتكين وملكوه مدينتهم.

وقعد خلف في حصنه وهو حصن الطاق، له سبعة أسوار محكمة، وعليها خندق عتيق له جسر يرفع ويحط عند الحاجة، فحاصره محمود سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وطعم الخندق بالأعواد والتراب في يوم واحد، وزحف لقتاله بالقبول.

وتقدم عظيمها فاقطع باب الحصن بنابه وألقاه، وملك محمود السور الأول ودفع عنه أصحاب خلف إلى السور الثاني، ثم إلى الثالث كذلك فخرج خلف واستأمن، وحضر عنده محمود وخيره في المقام حيث شاء من البلاد فاختار الجوزجان، وأقام بها أربع سنين.

ثم نقل عنه الخروض في الفتنة، وأنه راسل أيلكخان يغريه بمحمود، فقتله إلى جردين وحبسه هنالك إلى أن هلك سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وورثه ابنه أبو حفص.

ولما ملك محمود سجستان واستنزل خلف من حصن الطاق، ولّى على سجستان أحد الفتي من قواد أبيه.

ثم انتقض أهل سجستان فسار إليهم محمود سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة في ذي الحجة، وحصرهم في حصن أرك واقتحمه عليهم عنوة وقتل أكثرهم وسبى باقيهم حتى خلت سجستان منهم، وصفا ملكها له فأقطعها أخاه نصراً مضافة إلى

الخبر عن دولة بني سامان ملوك ما وراء

النهر المقيمين بها الدولة العباسية وأولية

ذلك ومصادره

أصل بني سامان هؤلاء من العجم، كان جدّهم أسد بن سامان من أهل خراسان وبيوتها، ويتسبون في الفرس إلى بهرام حشيش الذي ولاه كسرى أنوشروان مرزبان أذربيجان.

وبهرام حشيش من أهل الري ونسبهم إليه هكذا أسد بن سامان خذاه بن جثمان بن طغان بن نوشرد بن بهرام نجرين بن بهرام حشيش، ولا وثوق لنا بضبط هذه الأسماء.

وكان لأسد أربعة من الولد: نوح وأحمد ويحيى والياس، وأصل دولتهم هذه فيما وراء النهر أن المأمون لما ولي خراسان اصطنع بني أسد هؤلاء، وعرف لهم حق سلفهم واستعملهم.

فلما انصرف إلى العراق ولي على خراسان غسان بن عباد من قرابة الفضل بن طاهر، مكان ابنه إسحاق ومحمد بن الياس.

ثم مات أحمد بن أسد بفرغانة سنة إحدى وستين، وكان له من الولد سبعة: نصر ويعقوب ويحيى وإسماعيل وإسحاق وأسد، وكنيته أبو الأشعث، وحيد وكنيته أبو غام.

ولما توفي أحمد وكانت سمرقند من أعماله، استخلف عليها ابنه نصراً، وأقام في ولايتها أيام بني طاهر وبعدهم.

وكان يلي أعماله من قبل ولاية خراسان إلى حين انقراض أمر بني طاهر واستولى الصفار على خراسان.

ولاية نصر بن أحمد علي ما وراء النهر

ولما استولى الصفار على خراسان، وانقرض أمر بني طاهر، عقد المعتمد لنصر بن أحمد على أعمال ما وراء النهر، فبعث جيوشه إلى شط جيحون مسلحة من عبور الصفار فقتل مقدمهم، ورجعوا إلى بخارى، وخشيم واليا على نفسه ففر عنها، ولولا عليهم ثم عزلوا، ثم ولوا ثم عزلوا، فبعث نصر أخاه إسماعيل على شط بخارى، وكان يعظم محله ويقف في خدمته.

ثم ولي على غزنة أبا إسحاق بن التكين.

جرجان وقد وصل كتاب المعتضد إلى إسماعيل بولاية خراسان، فكتب إليه ينهيه عن المسير إليها فأبى، فشرح إليه محمد بن هارون قائد رافع، وكان قد فارقته عند هزيمته ومقتله.

ولحق بإسماعيل فسرجه في العساكر لقتل محمد بن زيد العلوي ولقيه على بجرجان فانهزم محمد بن زيد وغنم ابن هارون عسكره، وأصاب محمد بن زيد جراحات هلك لأيام منها، وأسر ابنه زيد فأنزله إسماعيل بخارى وأجرى عليه، وسار محمد بن هارون إلى طبرستان فملكها، وخطب فيها لإسماعيل وولاه إسماعيل عليها.

استيلاء إسماعيل على الري

كان محمد بن هارون قد انتقض في طبرستان على إسماعيل وخلع دعوة العباسية وكان الوالي على أهل الري من قبل المكتفي أغرثمش التركي، وكان سيئ السيرة فيهم فاستدعوا محمد بن هارون من طبرستان فزار إليها، وحارب أغرثمش فقتله، وقتل ابنين له وأخاه كيبلغ من قواد المكتفي، واستولى على الري فكتب المكتفي إلى إسماعيل بولاية الري، وسار إليها فخرج محمد بن هارون عنها إلى قزوین وزنجان وعاد إلى طبرستان، واستعمل إسماعيل بولاية الذين على جرجان فارس الكبير والأزمه بإحضار محمد بن هارون، فكتبه فارس، وضمن له إصلاح حاله، فقبل قوله وانصرف عن حسان الديلمي إلى بخارى في شعبان سنة تسعين ومائتين، ثم قبض في طريقه وأدخل إلى بخارى مقيداً، فحبس بها ومات لشهرين.

وفاة إسماعيل بن أحمد وولاية ابنه أحمد

ثم توفي إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر في منتصف سنة خمس وتسعين ومائتين، وكان يلقب بعد موته بالماضي، وولي بعده أبو نصر أحمد، وبعث إليه المكتفي بالولاية، وعقد له لواء يده، وكان إسماعيل عادلاً حسن السيرة حليماً.

وخرجت الترك في أيامه سنة إحدى وتسعين ومائتين إلى ما وراء النهر في عدد لا يحصى، يقال كان معهم سبعمائة قبة، وهي لا تكون إلا للروساء، فاستنفر لهم إسماعيل الناس، وخرج من الجند والمتطوعة خلق كثير.

وخرجوا إلى الترك وهم غارون فكبسوهم مصبحين، وقتلوا منهم ما لا يحصى وانهزم الباقون، واستبيح عسكرهم.

ثم ولي على خراسان من بعد ذلك رافع بن هرثمة بولاية بني طاهر وأخرج عنها الصفار.

وحصلت بينه وبين إسماعيل أعمال خوارزم فولاه إياها، وفسد ما بين إسماعيل وأخيه نصر، وزحف إليه سنة اثنتين وسبعين فأرسل قائده حمويه بن علي إلى رافع يستنجد، فسار إليه بنفسه منها، وأصلح بينهما ورجع إلى خراسان.

ثم انتقض ما بينهما وتحاربا سنة خمس وسبعين، وظفر إسماعيل بنصر.

ولما حضر عنده ترجل له إسماعيل وقبل يده ورده إلى كرسي إمارته بسمرقند، وأقام نائباً عنه ببخارى، وكان إسماعيل خيراً مكرماً لأهل العلم والدين.

وفاة نصر بن أحمد وولاية أخيه إسماعيل

على ما وراء النهر

ثم توفي نصر سنة تسع وسبعين ومائتين، وقام مكانه في سلطان ما وراء النهر أخوه إسماعيل وولاه المعتضد، ثم ولاه خراسان سنة سبع وثمانين ومائتين.

وكان سبب ولايته على خراسان أن عمرو بن الليث كان المعتضد ولاه خراسان، وأمره بحرب رافع بن هرثمة فحاربه وقتله، وبعث برأسه إلى المعتضد، وطلب منه ولاية ما وراء النهر، فولاه وسير العساكر لمحاربة إسماعيل بن أحمد مع محمد بن بشير من خواصه، فانتصروا إلى آمد بشط جيحون.

وعبر إليهم إسماعيل فهزمهم وقتل محمد بن بشير، ورجع إلى بخارى فزار عمرو بن الليث من نيسابور إلى بلخ يريد العبور إلى ما وراء النهر، فبعث إليه إسماعيل يستعطفه بأن الدنيا العريضة في يدك وإنما في هذا الثغر فأبى ولج، وعبر إسماعيل النهر وأحاط به، وهو على نجد فزار محصوراً وسأل المحاجة فأبى إسماعيل، وقتلته فهزمه، وأخذ بعض العسكر أسيراً، وبعث به إلى سمرقند، ثم خبره في إنفاذه إلى المعتضد فاختره، فبعث به إليه، ووصل إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائتين وأدخل على جمل وحبس وأرسل المعتضد إلى إسماعيل بولاية خراسان كما كانت لهم فاستولى عليها، وصارت بيده.

ولما قتل عمرو بن الليث طمع محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان والديلم في ملك خراسان، فسار إليها وهو يظن أن إسماعيل بن أحمد لا يريد ما ولا يتجاوز عمله، فلما سار إلى

ولما مات ولي ابنه أبو نصر أحمد واستوثق أمره ببخارى بعث عن عمه إسحاق بن أحمد من سمرقند فقبض عليه وحبسه. ثم عبر إلى خراسان ونزل نيسابور، وكان فارس الكبير مولى أبيه عاملاً على جرجان.

وكان ظهر له أن أباه عزله عن جرجان بفارس هذا، وكان فارس قد ولي الري وطبرستان، وبعث إلى إسماعيل بن أحمد بثمانين حملاً من المال، فلما سمع ب وفاة إسماعيل استردها من الطريق، وحقد له أبو نصر ذلك كله، فخافه فارس.

فلما نزل أبو نصر نيسابور كتب فارس إلى المكتفي يستأذنه في المسير إليه، وسار في أربعة آلاف فارس، وأتبعه أبو نصر فلم يدركه.

وتحصن منه عامل أبي نصر بالري، ووصل إلى بغداد فوجد المقتدر قد ولي بعد المكتفي، وقد وقعت حادثة ابن المعين فولاه المقتدر ديار ربيعة، وبعثه في طلب بني حمدان، وخشي أصحاب المقتدر أن يتقدم عليهم فوضعوا عليه غلاماً له فسمه ومات بالموصل، وتزوج الغلام امرأته.

استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان

كانت سجستان في ولاية الليث بن علي بن الليث، وخرج إلى طلب فارس فأمره مؤنس الخادم، وحبس ببغداد وولى على سجستان أخوه المعدل، ثم سار أبو نصر أحمد بن إسماعيل سنة سبع وتسعين من بخارى إلى الري، ثم إلى هراة وطمع في ملك سجستان، فبعث إليه العسكري في عزم سنة ثمان وتسعين مع أعيان قواده: أحمد بن سهل ومحمد بن المظفر وسيمجور الدواتي والحسين بن علي المروروذي.

فلما بلغ الخبر إلى المعدل بعث أخاه محمد بن علي إلى بست والزنج فحاصره العساكر بسجستان وسار أحمد بن إسماعيل إلى بست فملكها، وأسر محمد بن علي، وبلغ الخبر إلى المعدل فاستأمن إلى الحسين فملكها، وحمل المعدل معه إلى بخارى.

وولى الأمير على سجستان أبا صالح منصور بن عمه إسحاق بن أحمد، وكان قد قبض على إسحاق لأول ولايته، ثم أطلقه الآن وأعادته إلى سمرقند وفرغانة.

وقد كان سيكري هزمته عساكر المقتدر بفارس، وخرج إلى مفازة سجستان فبعث الحسين عسكراً لاعتراضه، وأخذ أسيراً، وبعثوا به وبمحمد بن علي إلى بغداد، وبعث المقتدر إلى أحمد بالخلع

والهدايا.

ثم انتقض أهل سجستان على سيجور الدواني وولوا منصور ابن عمه إسحاق على نيسابور.

مقتل أبي نصر أحمد بن إسماعيل وولاية ابنه نصر

ثم قتل أبو نصر أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر آخر جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة، وكان مولعاً بالصيد، فخرج إلى بربر متصيداً، وكان له أسد يربط كل ليلة على باب خيمته فأغفل ليلة، فعدا عليه بعض غلمانهم وذبحوه على سريرته، وحمل إلى بخارى فدفن بها ولقب الشهيد، وقتل من وجد من أولئك الغلمان.

وولى الأمير مكانه ابنه أبا الحسن نصر بن أحمد، وهو ابن ثمان سنين، ولقب السعيد.

وتولى الأمور له أصحاب أبيه ببخارى، وحمله على عاتقه أحمد بن الليث مستولي الأمور، وانتقض عليه أهل سجستان، وعم أبيه إسحاق بن أحمد بسمرقند.

وابناه منصور والياس ومحمد بن الحسين ونصر بن محمد وأبو الحسين بن يوسف والحسن بن علي المروروذي وأحمد بن سهل وليلى بن النعمان من الديلم صاحب العلويين بطبرستان، ومعه سيمجور وأبو الحسين بن الناصر الأطروش وقراتكين، وخرج عليه إخوته يحيى ومنصور وإبراهيم بنو أبيه، وجعفر بن داود ومحمد بن الياس، ومرداويج ووشمكير ابنا زياد من أمراء الديلم، وكان السعيد نصر مظفراً على جميعهم.

انتقاض سجستان

ولما قتل أحمد بن إسماعيل انتقض أهل سجستان وبايعوا للمقتدر، وبعثوا إليه وأخرجوا سيجور الدواني، فأضافها المقتدر إلى بدر الكبير، وأنفذ إليها الفضل بن حميد وأبا يزيد من قبل السعيد نصر وسعيد الطالقاني بغزاة كذلك فقصدها الفضل وخالد واستوليا على غزنة وبسته وقبضا على سعيد الطالقاني وبعثا به إلى بغداد وهرب عبيد الله الجهستاني ثم اعتل الفضل وانفرد خالد بالأمور.

ثم انتقض فأنفذ إليه المقتدر أخا طنجح الطولوني فهزمه

خالد، وسار إلى كرمان، فأنفذ إليه بدر الجيش فأخذ أسيراً ومات، وحمل إلى بغداد.

انتقاض إسحاق العم وابنه الياس

كان إسحاق بن أحمد عم الأمير أحمد بن إسماعيل والياً على سمرقند، فما بلغه مقتل الأمير أحمد، وولاية ابنه السعيد نصر، دعا لنفسه بسمرقند، وتابعه ابنه الياس على ذلك.

وساروا إلى بخارى فبرز إليهم القائد حمويه بن علي فهزمهم إلى سمرقند.

ثم جمعوا وعادوا فهزمهم ثانية، وملك سمرقند من أيديهم عنوة.

واختفى إسحاق وجد حمويه في طلبه فضاقت به مكانه، واستأمن إلى حمويه وحمله إلى بخارى وأقام بها إلى أن هلك، ولحق الياس بفرغانة فأقام بها إلى أن خرج ثانية كما يأتي.

ظهور الأطروش واستيلاؤه على طبرستان

قد تقدم لنا في أخبار العلوية شأن دولة الأطروش وبينه بطبرستان، وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمرو بن علي بن الحسن السبط، وأنه استعمل الأمير أحمد، على طبرستان مكانه أبا العباس أحمد عبد الله بن محمد بن نوح فأحسن السيرة، وعدل في الرعية وأكرم العلوية وبالف في الإكرام والإحسان إليهم.

واستمال رؤساء الديلم وهاداهم، وكان الحسن الأطروش قد دخل إليهم بعد قتل محمد بن زيد وأقام فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان، فأسلم منهم خلق كثير، واجتمعوا إليه، وبني في بلادهم المساجد، ودعاهم للمسير معه إلى طبرستان فلم يجيبوه إلى ذلك.

ثم عزل أبو العباس، وتولى سلام فلم يحسن سياسة الديلم فخرجوا عليه، وقاتلوه فهزمهم، واستعان بالأمير أحمد السعيد، فأعاد الأمير أحمد إليها ابن نوح، فاستعمل عليها أبا العباس محمد بن إبراهيم صعلوك، ففسد ما بينه وبين الديلم بإساءة السيرة وعدم السياسة.

فطلبهم الأطروش في الخروج معه فخرجوا، ولقيهم ابن صعلوك على مرحلة من سالوس وهي ثغر طبرستان فانهزم وقتل

من أصحابه أربعة آلاف، وحصر الأطروش الباقيين.

ثم أمنهم وعاد إلى آمد وسار إليهم الحسن بن القاسم العلوي الداعي صهر الأطروش فقتلهم متعللاً عليهم بأنه لم يحضر لعهدهم.

واستولى الأطروش على طبرستان سنة إحدى وثلاثمائة أيام السعيد نصر، وخرج صعلوك إلى الري متعللاً عليهم، ومنها إلى بغداد.

وكان الذين أسلموا على يد الأطروش الديلم من وراء أسفيجانب إلى آمد، فيهم شيعة زيدية.

وكان الأطروش زدياً، وخرجت طبرستان يومئذ من ملك بني سامان.

انتقاض منصور بن إسحاق العم والحسين والمرودي

كان الأمير أحمد بن إسماعيل لما افتتح سجستان ولى عليها منصور ابن عمه إسحاق، وكان الحسين بن علي هو الذي تولى فتحها وطمع في ولايتها.

ثم افتتحها ثانياً كما ذكرنا فوليا سيجور الدواني، فاستوحش الحسين لذلك، وداخل منصور بن إسحاق في الانتقاض، على أن تكون إمارة خراسان لمنصور والحسين بن علي خليفته على أعماله.

فلما قتل الأمير أحمد انتقض الحسين بهراة، وسار إلى منصور بنيسابور فانتفض أيضاً، وخطب لنفسه سنة اثنتين وثلاثمائة وسار القائد حمويه بن علي من بخارى في العساكر لمحاربتهم، ومات منصور قبل وصوله.

فلما قارب حمويه بنيسابور سار الحسين عنها إلى هراة، وأقام بها، وكان محمد بن جند على شرطته من مدة طويلة، وبعث من بخارى بالكثير، فخشي على نفسه، وعدل عن الطريق إلى هراة فسار الحسين بن علي من هراة إلى نيسابور، بعد أن استخلف عليها أخاه منصوراً فملك نيسابور، فسار إلى محاربه من بخارى أحمد بن سهل فحاصر هراة وملكها من منصور على الأمان.

ثم سار إلى نيسابور فحاصر بها الحسين وملكها عنوة، وأسر الحسين سنة اثنتين وثلاثمائة.

وأقام أحمد بن سهل بنيسابور وجاءه ابن جيد مزمز وقبض

إليها في ذي الحجة سنة ثمان وثلاثمائة فملكها، وأقام بها الخطبة للداعي الحسين بن القاسم، وأنفذ السعيد نصر العساكر من بخارى مع حمويه بن علي ومحمد بن عبيد الله البلغمي وأبي جعفر صعلوك، وخوارزم شاه وسيجور الدواني، فانهزم أكثر أصحاب حمويه وثبت القواد، وجالت العساكر جولة فانهزم ليلى ودخل آمد.

ولحقه بقرخان ملك الترك جاء مع العساكر مدداً فقبض على ليلى في آمد، ويعث إلى حمويه بذلك، فبعث إليه من قطع رأس ليلى في ربيع سنة تسع وثلاثمائة.

ويعث به إلى بخارى وطلب قواد الديلم الذين كانوا مع ليلى الأمان فامنهم بعد أن أشار حمويه بقتلهم والراحة منهم، فلم يوافقوه.

وهؤلاء القواد هم الذين خرجوا بعد ذلك على الجهات وملكوها مثل: أسفار ومرداويج وأنوشكين وبني بويه وستاني أخبارهم وبقي فارس غلام قراتكين بجران واليا عليها.

ثم جاءه قراتكين واستأمن إليه غلامه فارس فأمته، ثم قتله سنة ست عشرة وثلاثمائة وانصرف عن جرجان.

حرب سيجور مع ابن الأطروش

ولما قتل قراتكين غلامه سنة ست عشرة وثلاثمائة وانصرف عن جرجان سار إليها أبو الحسن بن ناصر الأطروش من أستراباذ فملكها.

وأنفذ السعيد لحربه سيجور الدواني في أربعة آلاف فارس فنزل على فرسخين من جرجان، وخرج إليه أبو الحسن في ثمانية آلاف راجل من الديلم فاقتلا، وكان سيجور قد آمن لهم وأبطأ عليه الكمين فانهزم واتبعه سرخاب، وشغل عسكر أبي الحسن بالنهب.

ثم خرج عليهم الكمين بعد ساعة فانهزم أبو الحسن وقتل من عسكره نحو من أربعة آلاف، وركب البحر إلى أستراباذ واجتمع إليه فل من أصحابه، وجاءه سرخاب بعد أن رجع عن سيجور، وجمع عيال أصحابه ومخلفهم وقدم بهم وأقام سيجور بجران.

ثم مات سرخاب ورجع ابن الأطروش إلى سارية بعد أن استخلف ماکان بن كالي على أستراباذ، واجتمع إليه الديلم وأمره.

عليه وسيره والحسين بن علي إلى بخارى فأما ابن جيد مزمر فسير إلى خوارزم ومات بها، وأما الحسين فحبس.

ثم خلاصه أبو عبد الله الجهاني مدبر الدولة، وعاد إلى خدمة السعيد نصر.

انتقاض أحمد بن سهل بنيسابور وفتحها

كان الأمير أحمد بن سهل من قواد إسماعيل، ثم ابنه أحمد، ثم ابنه نصر بن أحمد.

قال ابن الأثير: وهو أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن جبلة بن كامكان بن يزدجرد بن شهربان الملك.

قال: وكان كامكان دهقان بنواحي مرو.

قال: وكان لأحمد إخوة ثلاثة وهم: محمد والفضل والحسين قتلوا في عصية العرب والعجم وكان خليفة عمرو بن الليث على مرو فسخطه وحسبه بسجستان.

ثم فر من محبسه ولحق بمرو فملكها واستأمن إلى أحمد بن إسماعيل، وقام بدعوته فاستدعاه إلى بخارى وأكرمه ورفع منزلته، ونظمه في طبقة القواد وبقي في خدمته وخدمته بنيه، فلما انتقض الحسين بن علي بنيسابور على السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل سنة اثنتين وثلاثمائة، سار إليه أحمد بن سهل في العساكر وظفر به كما مر، وولى السعيد نصر بن أحمد بن إسماعيل على نيسابور قراتكين مولاهم.

مقتل ليلى بن النعمان ومهلكه

كان ليلى بن النعمان من كبار الديلم، ومن قواد الأطروش، وكان الحسن بن القاسم الداعي قد ولاه على جرجان سنة ثلاث وثلاثمائة، وكان أولاد الأطروش يملونه في كتابهم بالمؤيد لدين الله المنتصر لأولاد رسول الله ﷺ، وكان كريماً شجاعاً.

ولما ولي جرجان سار إليه قراتكين وقتله على عشرة فراسخ من جرجان، فانهزم قراتكين، واستأمن غلامه فارس إلى ليلى في ألف رجل من أصحابه، فأمته وأكرمه وزوجه أخته، واستأمن إليه أبو القاسم بن حفص ابن أخت سهل، وحرضه على المسير إلى نيسابور وبها قراتكين، وكان أجناده قد كثروا وضائق عليهم الأموال فاستأذن الداعي في المسير إلى نيسابور، فأذن له، وسار

وحاربه فقتله، واستولى على الري ثم استدعاه المقتدر سنة أربع عشرة وثلاثمائة إلى واسط لقتال القرامطة، وكتب إلى السعيد نصر بن أحمد بولاية الري فاستخلف عليها وأمره بالمسير إليها، وأخذها فاتك مولى يوسف بن أبي الساج فصار نصر السعيد لذلك أول سنة أربع عشرة وأربعمائة فلما وصل إلى جبل قارن منعه أبو نصر الطبري من الاجتياز به، فبذل له ثلاثين ألف دينار واسترضاه.

وسار إلى الري فخرج عنها فاتك، واستولى عليها السعيد منتصف السنة، وأقام بها شهرين.

ثم عاد عنها إلى بخارى واستعمل عليها محمد بن علي الملقب صعلوك، فأقام بها إلى شعبان سنة ست عشرة، ومُرض فكتّاب الداعي وماكان بن كالي في القدوم ليسلم لهم الري.

فقدما واستولوا على الري وسار صعلوك عنها فمات في طريقه، وأقام الحسن الداعي بالري مالكاً لها، واستولى معها على قزوين وزنجان وأبهر وقم ومعه ماكان.

وكان أسفار قد استولى على طبرستان، فصار الداعي وماكان إليه، والتفوا على سارية فانهزم، وقتل الداعي كما مر في أخبار العلوية بطبرستان.

ولاية أسفار علي جرجان والري

كان أسفار بن شيرويه من أعيان الديلم وكان من أصحاب ماكان بن كالي.

وقد تقدم لنا أن أبا الحسن بن الأطروش ولي ماكان على أستراباذ وأن الديلم اجتمعوا إليه وأمره، وأنه ملك جرجان واستولى بعدها على طبرستان، وولى أخاه أبا الحسن بن كالي على جرجان.

وكان أسفار بن شيرويه من قواده، فأنصرف مغاضباً عنه سنة خمس عشرة وثلاثمائة إلى بكر بن محمد بن اليسع بنيسابور فبعثه بكر إلى جرجان ليفتحها، واضطرب أمر جرجان لأن ماكان ابن كالي اعتقل بها أبا علي الأطروش بنظر أخيه ابن كالي، فوثب الأطروش على أخيه أبي الحسن وقتله وملك جرجان.

واستقدم أسفار بن شيرويه فقدم وضبط أمره، وسار إليهم ماكان من طبرستان في جيوشه فهزموه، واتبعوه إلى طبرستان فملكوها، وأقاموا بها.

وهلك أبو علي بن الأطروش بطبرستان، فعاد ماكان بن كالي وأخيه أسفار بن شيرويه من طبرستان.

ثم سار إلى أستراباذ ومعه محمد ليظهر غنائهم فخرج من سارية، وولوا عليها بقرخان، ووصلوا إلى جرجان ثم إلى نيسابور ورجع ماكان إلى أستراباذ مع جرجان ولحق بقرخان بنيسابور. وهذا كان مبتداً أمر ماكان بن كالي وستأتي أخباره.

خروج الياس بن إسحاق

قد تقدم لنا انتفاض إسحاق وابنه الياس بسمرقند سنة إحدى وثلاثمائة، وكيف غلبهم القائد حمويه، وسار بإسحاق إلى بخارى ومات بها.

ولحق ابنه الياس بفرغانة فأقام بها إلى سنة ست عشرة وثلاثمائة، وأجمع المسير إلى سمرقند واستظهر بمحمد بن الحسين برمت من قواد بني سامان، واستمد أهل فرغانة من الترك فأمدوه، واجتمع إليه ثلاثون ألف فارس، وقصد سمرقند وبعث السعيد للمدافعة عنها أبا عمرو ومحمد بن أسد وغيره في ألفين وخمسمائة راجل.

فلما ورد الياس كمنوا له بين الشجر حتى إذا اشتغلت عساكره بضرب الأبنية خرجوا عليه، فانهزم الحسن بن ست ولحق بأسفيجاب ومنها إلى ناحية طراز وكريت فلقية دهقان الناحية فقتله، وأنفذ رأسه إلى بخارى.

ثم استمد الياس صاحب الشاش، وهو أبو الفضل بن أبي يوسف فأمده بنفسه وبعث إليه اليسع بالمدد، وعادو عارية الوالي بسمرقند، فانهزم إلى كاشغر، وأسر أبو الفضل وحمل إلى بخارى فمات بها.

وسار الياس إلى كاشغر وصاحبها طغاتكين من ملوك الترك فصاهره بابنته وأقام معه.

استيلاء السعيد على الري

كان المقتدر قد عقد على الري ليوسف بن أبي الساج، وسار إليه سنة إحدى عشرة وثلاثمائة فملكه من يد أحمد بن علي أخي صعلوك، وقد كان فارق أخاه صعلوكاً وسار إلى المقتدر فولاه على الري.

ثم انتفض على المقتدر ووصل يده بماكان بن كالي قائد الديلم وأولاد الأطروش وهم بطبرستان وجرجان.

وفارق طاعة المقتدر، فصار إليه يوسف بن أبي الساج

ثم زحف أسفار إلى الداعي وماكان والتقوا على السيارة فانهمز الداعي وماكان وقتل الداعي.
واستولى أسفار على طبرستان وجرجان والري وقزوین وزنجان وأبهر وقم والكرخ.

ودعا للسعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان واستعمل على آمد هارون بن بهرام يريد استخلاصه لنفسه، لأن هارون كان يخطف لأبي جعفر من ولد الأطروش فولاه آمد وزوجه ببعض نساء الأعيان فبنى بها.

وحضر عرسه أبو جعفر وغيره من العلويين، فهاجم عليه أسفار يوم العرس فقبض على أبي جعفر والعلويين وحملهم إلى بخارى فاعتقلوا بها، واستنحل أمر أسفار وانتقض على السعيد صاحب خراسان وعلى الخليفة المقتدر.

وسار السعيد من بخارى إلى نيسابور لمحاربه وأشار عليه وزيره محمد بن مطرف الجرجاني بطاعة السعيد، وخوفه منه، فقبل إشارته ورجع إلى طاعة السعيد، وقبل شروطه من حمل المال وغيره ثم انتقض عليه مرداويج واستدعى ماكان من طبرستان وهزم أسفار وقتله، وملك ما يده من الأعمال كما يذكر في أخبار الديلم.

ثم ملك طبرستان وجرجان من يد ماكان، فاستمد ماكان السعيد فأمده بأبي علي بن محمد المظفر فهزمها مرداويج، وعاد أبو علي إلى نيسابور وماكان إلى خراسان.

خروج أولاد الأمير أحمد بن إسماعيل على أخيهام السعيد

وكان جعفر بن أبي جعفر بن داود والياً لبني سامان على كل الختل، فاستراب به السعيد، وكتب إلى أبي علي أحمد بن أبي بكر محمد بن المظفر وهو بالصغانيان أن يسير إليه، فسار إليه وحاربه وكسره، وجاء به إلى بخارى فحبس بها، فلما فتح السجن خرج مع يحيى وصحبهم.

وكان جعفر بن أبي جعفر بن داود والياً لبني سامان على كل الختل، فاستراب به السعيد، وكتب إلى أبي علي أحمد بن أبي بكر محمد بن المظفر وهو بالصغانيان أن يسير إليه، فسار إليه وحاربه وكسره، وجاء به إلى بخارى فحبس بها، فلما فتح السجن خرج مع يحيى وصحبهم.

ثم لما رأى تلاشي أموره استأذنه في السير إلى الختل فأذن له فسار إليها، وأقام بها، ورجع إلى طاعة السعيد سنة ثمان عشرة واصلح حاله.

(والختل بخاء معجمة مضمومة وتاء مثناة فوقانية مشددة مفتوحة).

كان السعيد نصر بن أحمد لما ولي استراب بإخوته، وكانوا ثلاثة: أبو زكريا يحيى وأبو صالح منصور وأبو إسحاق إبراهيم أولاد الأمير أحمد بن إسماعيل، فحبسهم في القندهان ببخارى ووكل بهم.

فلما سار السعيد إلى نيسابور سنة خمس عشرة فتقوا السجن وخرجوا منه على يد رجل خباز من أصفهان يسمى أبا بكر، داخلهم في محبسهم بتسهيل نفقتهم التي كانت على يده.

وجاء إلى القندهان قبل يوم الجمعة الذي كان ميقاتاً لفتحه، وأقام عندهم مظهراً للزهد والدين، وبذل للبويا دنانير على أن يخرجهم ليلحق الصلاة في الجماعة، ففتح له الباب وقد أعدهم جماعة للوثوب، فحبسوا البويا، وأخرجوا أولاد الأمير أحمد ومن

ولاية ابن المظفر على خراسان

كان أبو بكر محمد بن المظفر والياً للسعيد نصر على جرجان.

ولما استفحل أمر مرداويج بالري كما يأتي في أخبار الديلم، خرج عنها ابن المظفر ولحق بالسعيد نصر في نيسابور وهو مقيم بها، فزار السعيد في عساكره نحو جرجان، ووقعت المكاتبة بين محمد بن عبيد الله البلغمي مدير دولته، وبين مطرف بن محمد، واستماله محمد فمال إليه مطرف وقتله سلطانه مرداويج.

ثم بعث محمد يتصح لمرداويج ويذكره نعمة السعيد عنده في اصطناعه وتوليته، وتطوق العار في ذلك المطرف الوزير المهالك ويهول عليه أمر السعيد ويخوفه ويشير عليه بمسألة جرجان إليه، وصالحه السعيد عليها.

ولما فرغ السعيد من أمر جرجان وأحكمه استعمل محمد بن المظفر بن محتاج على جيوش خراسان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ورد إليه تدبير الأمور بجميع نواحيها، وسار إلى كرسي ملكه ببخارى واستقر بها.

استيلاء السعيد على كرمان

كان محمد بن الياس من أصحاب السعيد، ثم سخطه وحبه، وشفع فيه محمد بن عبيد الله البلغمي فأطلقه، وسيره محمد بن المظفر إلى جرجان.

ثم سار إلى يحيى وأخوته عندما توثبوا ببخارى فكان معه في الفتنة، وخطب له بنيسابور كما مر.

فلما زحف السعيد إليهم فارق يحيى ولحق بكرمان، واستولى عليها.

ثم خرج إلى بلاد فارس وبها ياقوت مولى الخلفاء فوصل إليه بأصطخر يريد أن يستأمن له، وأطلع ياقوت على مكره، فرجع كرمان ثم بعث السعيد ماكان بن كالي في العساكر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وقاتل ابن الياس وهزمه وملك كرمان بدعوة السعيد نصر بن أحمد وسار الياس إلى الدينور.

ثم رجع ماكان عن كرمان على ما ذكره بعد، فرجع إليها ابن الياس، وسبب خروج ماكان أن السعيد بعد قتل مرداويج كتب إليه وإلى محمد بن المظفر صاحب خراسان أن يقصد جرجان والري وبها وشمكير أخو مرداويج، فجاء ماكان على المفازة

ووصل إلى نيسابور بعد أن كان محمد بن المظفر قد استولى عليها، بعث إليه مدداً فهزمهم عساكر وشمكير فأقصر ماكان عن حربهم، وأقام بنيسابور وجعلت ولايتها له، وذلك أول سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ثم صفت كرمان لمحمد بن الياس بعد حروب مع جيش نصر كان له الظفر فيها آخراً.

استيلاء ماكان على كرمان وانتقاضه

لما ملك مانحين جرجان وأقام ماكان بنيسابور وجعلت ولايتها له وهلك مانحين لأيام من دخوله جرجان، استنفر محمد المظفر ماكان للمسير إلى جرجان فاعتل بالخروج بجميع أصحابه وسار إلى أسفراين، فأفقد عسكراً إلى جرجان واستولى عليها.

ثم انتقض وسار إلى نيسابور وبها محمد بن المظفر وكان غير مستعد للحرب فزار نحو سرخس، ودخل ماكان نيسابور سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ثم رجع عنها خوفاً من اجتماع العساكر.

ولاية علي بن محمد على خراسان وفتح جرجان

جرجان

كان أبو بكر محمد بن المظفر بن محتاج صاحب خراسان من ولاية السعيد عليها سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة فلما كانت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة اعتل أبو بكر وطال به مرضه، وقصد السعيد راحته فاستقدم ابنه أبا علي من الصفانيان، وبعثه أميراً على خراسان واستدعى أباه أبا بكر فلقى ابنه أبا علي على ثلاث مراحل من نيسابور فوصاه وحمله حملاً من سياسته.

وسار إلى بخارى ودخل ابنه أبو علي نيسابور من السنة فأقام بها أياماً.

ثم سار في محرم سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى جرجان وبها ماكان بن كالي مستنقفاً على السعيد، وقد غروروا المياه في طريقه فسلك إليهم غمرة حتى نزل على فرسخ من جرجان، وحاصرها وضيق عليها وقطع الميرة عنها حتى جهدهم الحصار.

وبعث ماكان بن كالي إلى وشمكير وهو بالري، فأمدته بقائد من قواده فلما وصل إلى جرجان شرع في الصلح بينهما لينجو فيه ماكان فتم ذلك، وهرب ماكان إلى طبرستان واستولى أبو علي على جرجان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة واستخلف عليها إبراهيم بن سيجور الدواني.

ليستعين به على الخراسانية، فوعده وأطعمه.

ولما ملك وشكمير الري طمع فيه بنو بويه لأنه كان قد اختل أمره بمجادثته مع أبي علي، فسار الحسن بن الفيرزان إلى الري، وقاتل وشكمير فهزمه، واستأمن إليه الكثير من جنده.

وسار وشكمير إلى الري فاعترضه الحسن بن الفيرزان من جرجان وهزمه إلى خراسان، وراسل الحسن ركن الدولة وتزوج بنته واتصل ما بينهما.

وفاة السعيد نصر وولاية ابنه نوح

ثم أصاب السعيد نصرأ صاحب خراسان وما وراء النهر مرض السل، فاعتل ثلاثة عشرة شهراً ومات في شعبان سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة لثلاثين سنة من ولايته.

وكان يؤثر عنه الكرم والحلم، وأخلص في مرضه التوبة إلى أن توفي.

ولما مات ولي مكانه ابنه نوح، وكان يؤثر الكرم والحلم عنه، ويابيه الناس ولقب الحميد، وقام بتدبير ملكه أبو الفضل أحمد بن خويه وهو من أكابر أصحاب أبيه، كان أبوه السعيد ولي ابنه إسماعيل بخاري في كفالة أبي الفضل وولايته، فأساء السيرة مع نوح وحقد له ذلك.

وتوفي إسماعيل في حياة أبيه، وكان يؤثر أبا الفضل فحذره من ابنه نوح.

فلما ولي نوح سار أبو الفضل من بخاري وعبر جيحون إلى آمد.

وكان بينه وبين أبي علي بن محتاج صهر، فبعث إليه يخبره بقدومه فنهاه عن القدوم عليه.

ثم كتب له نوح بالأمان وولاه سمرقند وكان على الحاكم صاحب الدولة ولا يلتفت إليه، والآخر يحقد عليه ويعرض عنه.

ثم انتقض عبد الله بن أشكام بخوارزم على الأمير نوح فسار من بخاري إلى مرو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة وبعث إليه جيشاً مع إبراهيم بن فارس فمات في الطريق.

واستجار ابن أشكام ملك الترك، وكان ابنه محبوساً ببخاري فبعث إليه نوح بإطلاق ابنه على أن يقبض على ابن أشكام، وأجابه ملك الترك لذلك.

ولما علم بذلك ابن أشكام عناد إلى طاعة نوح وعفا عنه

استيلاء أبي علي على الري وقتل ماكان بن كالي

ولما ملك أبو علي جرجان أصلح أمورها.

ثم استخلف عليها إبراهيم بن مسيجور وسار إلى الري في ربيع سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، وبها وشكمير بن زياد أخو مرداويج قد تغلب عليها من بعد أخيه.

وكان عماد الدولة وركن الدولة ابنا بويه يكتبان أبا علي صاحب خراسان، ويستحثانه لقصد الري بأن أبا علي لا يقيم بها لسعة ولايته فتصفو لهما.

فلما سار أبو علي لذلك بعث وشكمير إلى ماكان بن كالي يستنجد، فسار إليه من طبرستان وسار أبو علي، وجاءه مدد ركن الدولة بن بويه والتقوا بتواحي الري فانهمز وشكمير وماكان.

ثم ثبت ماكان، ووقف مستميتاً فأصابه سهم فقتله، وهرب وشكمير إلى طبرستان فأقام بها واستولى أبو علي على الري سنة تسع وعشرين وثلثمائة وأنفذ رأس ماكان والأسرى معه إلى بخاري فأقاموا حتى دخل وشكمير في طاعة بني سامان.

وسار إلى خراسان سنة ثلاثين وثلثمائة واستوهمهم الأسرى فأطلقوا له وبقي الرأس ببخاري ولم يحمل إلى بغداد.

استيلاء أبي علي على بلد الجبل

ولما ملك أبو علي بن محتاج صاحب خراسان بلد الري والجبل من يد وشكمير، وأقام بها، دعوة السعيد نصر بعث العساكر إلى بلد الجبل ففتحها، واستولى على زنجان وأبهر وقزوین وقم وكرخ وهمدان ونهاوند والدينور إلى حدود حلوان، ورتب فيها العمال وجبى الأموال.

وكان الحسن بن الفيرزان بسارية وهو ابن عم ماكان بن كالي وكان وشكمير يطمع في طاعته له وهو يتمتع، فقصده وشكمير وحاصره بسارية وملكها عليه.

واستنجد الحسن أبا علي بن محتاج فسار معه لحصار وشكمير بسارية سنة ثلاثين وثلثمائة، وضييق عليه حتى سأل المودعة، فصالحه أبو علي على طاعة السعيد نصر، وأخذ زهنته، ورحل عنه إلى جرجان سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة.

ثم بلغه موت السعيد فعاد أبو علي إلى خراسان فملكها وراسله الحسن بن الفيرزان يستعمله ورد عليه ابنه سنار الزهينة

وأكرمه.

انتقاض أبي علي وولاية منصور بن

قراتكين على خراسان

استيلاء أبي علي على الري ودخول

جرجان في طاعة نوح

ثم إن الأمير نوحاً سار إلى مرو وأمر أبا علي بن محتاج أن يسير بعساكر خراسان إلى الري وينزعها من يد ركن الدولة بن بويه فسار لذلك، ولقي في طريقه وشمكير وأفداً على الأمير نوح فبعثه إليه.

وسار أبو علي إلى بسطام فاضطرب جنوده، وعاد عنه منصور بن قراتكين من أكابر أصحاب نوح، فقصدها جرجان وصدهم الحسن بن الفيرزان فانصرفوا إلى نيسابور، وسار إلى الأمير نوح بمرو فأعاده وأمده بالعساكر.

وسار من نيسابور في منتصف ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وعلم ركن الدولة بكثرة جموعه، فخرج من الري واستولى أبو علي عليها، وعلى سائر أعمال الجبال، وأنفذ نوابه إلى الأعمال وذلك في رمضان من سته.

ثم سار الأمير نوح من مرو إلى نيسابور، وأقام بها، ووضع جماعة من الفوغاء والعامة يستغيثون من أبي علي ويشكون نسوة السيرة منه ومن نوابه، فولى على نيسابور إبراهيم بن سيجور وعاد عنها وقصد أن يقيم أبو علي بالري لحسن دفاعه عنها وينقطع طمعه عن خراسان، فاسترحش أبو علي للعزل وشق عليه.

وبعث أخاه أبا العباس الفضل بن محمد إلى كور الجبال، وولاه همذان، وخلافة العساكر، فقصده الفضل نهاوند والدينور، واستولى عليها واستأمن إليه رؤساء الأكراد بتلك النواحي، وأعطوا رهنهم على الطاعة وكان وشمكير لما وفد على الأمير نوح بمرو كما قدمناه استمده على جرجان، فأمده بعسكر، وبعث إلى أبي علي بمساعدته، فلقي أبا علي منصوره في المرة الأولى من الري إلى نيسابور، فبعث معه جميع من بقي من العسكر، وسار وشمكير إلى جرجان وقتل الحسن بن الفيرزان فهزمه واستولى على جرجان بدعوة نوح بن السعيد وذلك في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

قد تقدم لنا أن الأمير نوحاً عزل أبا علي بن محتاج عن خراسان، وكان من قبلها عزله عن ديوان الجند وهو لنظره، وبعث من يستعرض الجند فمحا وأثبت وزاد في العطاء ونقص فاستوحش لذلك كله، واستوحش الجند من التعرض إليهم بالإسقاط، ولأرزاقهم بالنقصان.

وخلص بعضهم إلى بعض بالشكوى، واتفقوا في سيرهم إلى الري وهم بهمذان على استقدام إبراهيم بن أحمد أخي السعيد الذي كان قد هرب أمامه إلى الموصل كما تقدم.

وظهر أبو علي على شأنهم، فذكر عليهم تهديدوه، وكتبوا إبراهيم واستدعوه، وجاء إليهم بهمذان في رمضان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وكتبه أبو علي، وكتب أخوه الفضل سراً إلى الأمير نوح بذلك، ونمي خبر كتابه إلى أخيه أبي علي فقبض عليه، وعلى متولي الديوان.

وسار إلى نيسابور، واستخلف على الري والجبل، وبلغ الخبر إلى الأمير نوح، فنهض إلى مرو واضطرب الناس عليه، وشكوا من محمد بن أحمد الحاكم مدبر ملكه، ورأوا أنه الذي أوحش أبا علي وأفسد الدولة، فنقموا ذلك عليه، واعتلوا عليه فدفع إليهم الحاكم قتلوه منتصف خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ووصل أبو علي إلى نيسابور وبها إبراهيم بن سيجور ومنصور بن قراتكين وغيرهما من القواد فاستلمهم، وساروا معه، ودخلها في محرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ثم ارتاب بمنصور بن قراتكين فحبسه، وسار من نيسابور ومعه العسم إبراهيم إلى مرو، وهرب أخوه الفضل في طريقه من عبسه، ولحق بقهستان.

ولما قاربوا مرو اضطرب عسكر الأمير نوح، وجاء إليهم أكثرهم، واستولى عليها وعلى طخارستان، وبعث نوح العساكر من بخارى مع الفضل أبي علي إلى الصغانيان فأقام بها، ودس إليهم أبو علي فقبضوا على الفضل وبعثوا به إلى بخارى وعاد أبو علي من طخارستان إلى الصغانيان فأقاموا بها في ربيع سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وقتل العساكر فغلبوه، ورجع إلى الصغانيان، ثم تجاوزها وأقام قريباً منها، ودخلتها العساكر فحربوا قصوره ومساكنه، وخرجوا في اتباعه، فرجع وأخذ عليهم المسالك، فضاقت أخوانهم، وجنحوا إلى الصلح معه على أن يبعث بابنه أبي المظفر عبد الله إلى الأمير نوح رهينة، فاتفقت ذلك منتصف سنة

سبع وثلاثين وثلاثمائة، ويعث بابنه إلى بخارى فأمر نوح بلقائه، وخلع عليه وخلطه بندمائه، وسكنت الفتنة.

قال ابن الأثير: هذا الذي ذكره مؤرخو خراسان في هذه القصة، وأما أهل العراق فقالوا: إن أبا علي لما سار نحو الري استمد ركن الدولة بن بويه أخاه عماد الدولة فكتب يشير عليه بالخروج عن الري وملكها أبو علي، وكتب عماد الدولة إلى نوح سرّاً يبذل له في الري في كل سنة مائة ألف دينار وزيادة على ضمان أبي علي، ويعجل له ضمان سنة وسجله عليه.

ثم دس عماد الدولة إلى نوح في القبض على أبي علي وخوفه منه، فأجاب الأمير نوح إلى ذلك، ويعث تقرير الضمان، وأخذ المال، ودس ركن الدولة إلى أبي علي بهمذان ورجع به على خراسان.

وعاد ركن الدولة إلى الري واضطربت خراسان، ومنع عماد الدولة مال الضمان خوفاً عليه في طريقه من أبي علي، وبعث إلى أبي علي يجرّضه على اللقاء ويعدّه بالمدد.

وفسد ما بينه وبين إبراهيم، وانقبض عنه، وأن الأمير نوحاً سار إلى بخارى عند مفارقتها أبي علي.

وحارب إبراهيم العم ففارقه القواد إلى الأمير نوح فأخذ أسيراً وسلمه الأمير نوح وجماعة من أهل بيته والله أعلم.

انتفاض ابن عبد الرزاق بخراسان

كان محمد بن عبد الرزاق عاملاً بطوس وأعمالها وكان أبو علي استخلفه بنيسابور عندما زحف منها إلى الأمير نوح، فلما راجع الأمير نوح ملكه انتفض ابن عبد الرزاق بخراسان وولى الأمير نوح علي خراسان محمد بن عبد الرزاق وافق وصول وشمكير منهزماً من جرجان أمام الحسن بن فيروزان، واستمد الأمير نوحاً فأخرج معه منصوراً في العساكر وأمرهما بمعالجة ابن عبد الرزاق، فخرج سنة ست وثلاثين وثلاثمائة إلى أستراباذ ومنصور في اتباعه فلحق بجرجان واستأمن إلى ركن الدولة بن بويه ومضى إلى الري.

وسار منصور بن قراتكين إلى طوس، وحاصر رافع إلى قلعة أخرى فحاصره منصور بها حتى استأمن إليه، وجمع ما معه فأنبه أصحابه.

وخرج معم فافترقوا في الجبال واحتوى منصور على ما وجد بالحصن وحمل عيال محمد بن عبد الرزاق وأمه إلى بخارى

فاعتقلوا بها.

ولما وصل محمد بن عبد الرزاق إلى ركن الدولة بن بويه أفاض عليه العطاء وسرحه إلى محاربة المرزيان بأذربيجان كما يأتي.

استيلاء ركن الدولة بن بويه على طبرستان

وجرجان ومسير العساكر إلى جرجان

والصلح مع الحسن بن الفيرزان

ولما وقع من الاضطراب ما وقع بخراسان، اجتمع ركن الدولة بن بويه والحسن بن الفيرزان، وقصدوا بلاد وشمكير فهزموه، وملك ركن الدولة طبرستان.

وسار إلى جرجان فملكها، وأقام بها الحسن بن الفيرزان.

واستأمن قواد وشمكير إليهم فأمنوهم وسار وشمكير إلى خراسان مستنجداً بصاحب خراسان، فسار معه منصور بن قراتكين في عساكر خراسان إلى جرجان، وبها الحسن بن الفيرزان.

واستهرن ابنه، ثم أبلغه عن الأمير نوح ما أقلعه فأعاد على الحسن ابنه وعاد إلى نيسابور وأقام وشمكير بأرزن.

مسير ابن قراتكين إلى الري وعوده إليه

ثم سار منصور بن قراتكين سنة تسع وثمانين وثلاثمائة إلى الري بأمر الأمير نوح لغية ركن الدولة بن بويه في نواحي فارس، فوصل إلى الري، واستولى عليها وعلى الجبل إلى قرميسين فكبس الذين بها من العسكر وهم غازون وأسروا مقدمهم محكماً وحبس ببغداد، ورجع الباقيون إلى همدان.

فسار سيكتكين نحوهم، وجاء ركن الدولة إثر الانهزام، وشاور وزيره أبا الفضل بن العميد فأشار عليه بالثبات.

ثم أجفل عسكر خراسان إلى الري لانتطاع الميرة عنهم، وكان ذلك سواء بين الفريقين، إلا أن الديلم كانوا أقرب إلى البداوة، فكانوا أصبر على الجوع والشطف، فركب ركن الدولة واحتوى على ما خلفه عسكر خراسان.

وفاة ابن قراتكين ورجوع أبي علي بن محتاج إلى ولاية خراسان

ثم توفي منصور بن قراتكين صاحب خراسان بالري بعد عوده من أصفهان في ربيع سنة أربعين، وحملت جنازته إلى أسفيجاف فدفن بها عند والده، فولى الأمير نوح على خراسان أبا علي بن محتاج، وأعادته إلى نيسابور.

وقد كان منصور يستقبل من ولاية خراسان لما يلقى بها من جندها، ويستعفي نوحاً المرة بعد المرة، وكان نوح يعد أبا علي بعوده إلى ولايته.

فلما توفي منصور بعث إليه بالخلع واللواء، وأمره بالمسير وأقطع الري وأمره بالمسير إليها فصار عن الصغانيان في رمضان سنة أربعين وثلاثمائة واستخلف مكانه ابنه أبي منصور وانتهى إلى مرو فأقام إلى أن أصلح أمر خوارزم وكانت شاغرة.

ثم سار إلى نيسابور فأقام بها.

ولما كانت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة كتب وشمكير إلى الأمير نوح بأمر أبا علي بن محتاج بالمسير معه في عساكر خراسان، فساروا في ربيع من السنة، وخام ركن الدولة عن لقاءهم، فامتنع بطزل وأقام عليه أبو علي عدة شهور يقاتله حتى سئم العسكر، وعجفت دوابهم فمال إلى الصلح، وسعى بينهما فيه محمد بن عبد الرزاق المقدم ذكره، فنصالحا على مائتي ألف دينار ضريبة يعطها ركن الدولة في كل سنة، ورجع أبو علي إلى خراسان وكتب وشمكير إلى الأمير نوح بأن أبا علي لم ينصح في الحرب، وأن بينه وبين ركن الدولة مداخل.

وسار ركن الدولة بعد انصراف إلى أبي علي نحو وشمكير فانهزم إلى أسفراين، واستولى ركن الدولة على طبرستان.

عزل الأمير أبي علي عن خراسان ومسيره

إلى ركن الدولة وولاية بكر بن مالك

مكانه

ولما تمكنت سعاية وشمكير من أبي علي عند الأمير نوح، كتب إليه بالعزل عن خراسان سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، وكتب إلى القواد بمثل ذلك.

واستعمل على الجيوش مكانه أبا سعيد بكر بن مالك

الفرغاني، وبعث أبو علي يعتذر فلم يقبل.

وأرسل جماعة من أعيان نيسابور يسألون إبقاءه فلم يجيبوا، فانتقض أبو علي وخطب لنفسه بنيسابور وكتب نوح إلى وشمكير والחסن بن الفريزان بأن يتفقا ويتعاضدا على أولياء ركن الدولة حيث كانوا ففعلا ذلك، فارتاب أبو علي بأمره ولم يمكنه العود إلى الصغانيان، ولا المقام بخراسان، فصرف وجهه إلى ركن الدولة واستأذنه في المسير إليه فأذن.

وسار أبو علي إلى الري سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة فأكرمه ركن الدولة وأنزله معه واستولى بكر على خراسان.

وفاة الأمير نوح وولاية ابنه عبد الملك

ثم توفي الأمير نوح بن نصر ولقبه الحميد في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة لاثنتي عشرة سنة من ولايته، وولي بعده ابنه عبد الملك.

وقام بأمره بكر بن مالك الفرغاني فلما قرر أمر دولته، وثبت ملكه، أمر بكرًا بالمسير إلى خراسان فكان من شأنه مع أبي علي ما قدمناه.

مسير العساكر من خراسان إلى الري

وأصفهان

ثم زحفت عساكر خراسان إلى الري سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وبها ركن الدولة بن بويه قدم إليها من جرجان، واستمد أخاه معز الدولة ببغداد، فأمدّه بالحاجب سيكتكين.

وبعث بكر عسكرياً آخر من خراسان مع محمد بن ماکان على طريق القازة إلى أصفهان.

وكان بأصفهان أبو منصور علي بن بويه بن ركن الدولة فخرج عنها مجرم أبيه وفي خزائنه.

وانتهى إلى خائنجان، ودخل محمد بن ماکان أصفهان وخرج في اتباع ابن بويه، وأدرك الخزانين فأخذها وسار فأدركه.

ووافق وصول أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة في تلك الساعة فقاتله ابن ماکان وهزم أصحابه، وثبت ابن العميد، وشغل عسكر ابن ماکان بالنهب، فاجتمع على ابن العميد لمة من العسكر فاستمات، وحمل على عسكر ابن ماکان فهزمهم وأسبر ابن ماکان.

يوماً ليتصيد فاعترضه خنزير، فأجفل فرسه وسقط إلى الأرض وانهشم ومات، وذلك في المحرم سنة سبع وخسين وثلاثمائة وانتقض ما كانوا فيه، وقام يسون بن وشمكير مقام أبيه، وراسل ركن الدولة وصالحه، فأمدته ركن الدولة بالمال والرجال.

خبر ابن الياس بكرمان

كان أبو علي بن الياس قد ملك كرمان بدعوة بني سامان، واستبد بها وأصابه فالج وأزم من به.

وكان له ثلاثة من الولد: اليسع والياس وسليمان فعهد إلى اليسع وبعده الياس وأمر سليمان بالعود إلى أرضهم ببلاد الصفد، يقيم بها فيما لهم هنالك من الأموال لعداوة كانت بين سليمان واليسع فخرج سليمان لذلك، واستولى على السيرجان، فأنفذ إليه أبوه أبو علي ابنه الآخر في عسكر، وأمره بإجلائه عن البلاد، ولا يمكنه من قصد الصفد إلى طلبها، فصار وحاصره. ولما ضاق الحصار على سليمان جمع أمواله ولحق بخراسان. وملك اليسع السيرجان وسار إلى خراسان.

ثم لحق أبو علي ببخارى ومعه ابنه سليمان فأكرمه الأمير أبو الحارث وقربه.

وأغراه أبو علي بالري، وتجهيز العساكر إليه كما ذكرناه، وأقام عنده إلى أن توفي سنة ست وخسين وثلاثمائة كما نذكر في أخباره.

ولحق اليسع ببخارى فأقام بها، ثم سعى سليمان عند الأمير أبي الحارث منصور في المسير إلى كرمان وأطمعه في ملكها، وأن أهلها في طاعته، فبعث معه عسكراً.

ولما وصل أطاعه أهل نواحيها من القمص والبولص وجميع المتقضين على عضد الدولة، واستفحل أمره فصار إليه كورتكين عامل عضد الدولة بكرمان، وحاربه ونزعت عساكره عنه، فانهزم وقتل معه ابنا أخيه اليسع وهما بكر والحسين وكثير من القواد وصارت كرمان للديلم.

انعقاد الصلح بين منصور بن نوح وبين بني

بويه

ثم انعقد الصلح بين الأمير أبي الحارث منصور بن نوح صاحب خراسان وما وراء النهر، وبين ركن الدولة وزوجه ابنته،

وسار ابن العميد إلى أصفهان فملكها، وأعاد حرم ركن الدولة وأولاده إلى حيث كانوا من أصفهان.

ثم بعث ركن الدولة إلى بكر بن مالك صاحب الجيوش بخراسان وقرر معه الصلح على مال يعمله ركن الدولة إليه على الري وبلد الجبل، فنقرر ذلك بينهما، وبعث إليه من عند أخيه ببغداد بالخلع واللواء بولاية خراسان، فوصلت إليه في ذي القعدة سنة أربع وأربعين وثلاثمائة.

وفاة عبد الملك بن نوح صاحب ما وراء

النهر وولاية أخيه منصور

ثم توفي الأمير عبد الملك لإحدى عشرة خلعت من شوال سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، لسبع سنين من ولايته.

وولي بعده أخوه أبو الحارث منصور بن نوح، واستولى ركن الدولة لأول أيامه على طبرستان وجرجان فملكهما، وسار وشمكير عنها فدخل بلاد الجبل.

مسير العساكر من خراسان إلى الري ووفاة

وشمكير

قد ذكرنا من قبل أن وشمكير كان يقدح في عمال بني سامان بأنهم لا ينصحون لهم، ويداخلون عدوهم من الديلم.

ووفد أبو علي بن الياس صاحب كرمان على الأمير أبي الحارث منصور مستجيئاً به علي بن بويه، فحرضه على قصد الري وحذرته من الاستمالة في ذلك إلى عماله كما أخبره وشمكير، وبعث إلى الحسن بن الفيرزان بالفير مع عساكره.

ثم أمر صاحب جيوش خراسان أبا الحسن بن محمد بن سيجور الدواني بالمسير إلى الري وأوصاه بالرجوع إلى رأي وشمكير.

وبلغ الخبر إلى ركن الدولة، فاضطرب وبعث بأهله وولده إلى أصفهان.

واستمد ابنه عضد الدولة بفارس، وبختيار ابن أخيه عز الدولة ببغداد، فبادر عضد الدولة إلى إمداده وبعث العساكر على طريق خراسان يريد قصدها لخلوها من العسكر، فأجحفت عساكر خراسان، وانهتوا إلى الدامغان، فأقاموا، وبرز ركن الدولة نحوهم في عساكره من الري، وبينما هم في ذلك ركب وشمكير

عليه، وعوتب في ذلك، وعزل عن خراسان بأبي العباس تاش فكتب يتعذر ورحل إلى قهستان يتنظر جواب كتابه، فجاءه كتاب الأمير نوح بالمسير إلى سجستان فسار، واستنزل خلفاً من معقله للحسين بن طاهر، وسار خلف إلى حصن الطاق، وداخله ابن سيجور وأقام خطبة لرضا نوح به وانصرف.

ولما ولي الأمير نوح الحاجب أبا العباس تاش قيادة خراسان سار إليها سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة فلقى هنالك فخر الدولة ابن ركن الدولة، وشمس المعالي قابوس بن وشمكير ناجين من جرجان، وكان من خبرهما أن عضد الدولة لما استولى على بلاد أخيه فخر الدولة وهزمه، ولحق فخر الدولة بقابوس، وبعث عضد الدولة في طلبه ترغيباً وترهيباً فأجاره قابوس، وبعث عضد الدولة في طلبه أخاه مؤيد الدولة في العساكر إليهم، ولقيهم قابوس فهزمه فسار إلى بعض قلاعهم، واحتمل منها ذخائره ولحق بنيسابور.

ولحق به فخر الدولة ناجياً من المعركة فآكرمهم أبو العباس تاش، وأنزلهم خير منزل، وأقاموا عنده واستولى مؤيد الدولة على جرجان وطبرستان.

مسير أبي العباس في عساكر خراسان إلى

جرجان ثم مسيره إلى بخارى

ولما وصل قابوس بن وشمكير وفخر الدولة بن ركن الدولة إلى أبي العباس تاش مستجيرين بالأمير نوح على استرجاع جرجان وطبرستان من يد مؤيد الدولة، كتب بذلك إلى الأمير نوح ببخارى فأمره بالمسير معهم، وإعادتهما إلى ملكهما، فسار معهما لذلك في العساكر، ونازلوا جرجان شهرين حتى ضاق عليهم الحصار، وداخل مؤيد الدولة فائقاً من قواد خراسان ورغبه فوعده بالانضمام.

ثم خرج مؤيد الدولة من جرجان في عساكره مستميتاً فهزمهم، ورجعوا إلى نيسابور وكتبوا إلى بخارى بالخبر فأجابهم الأمير نوح بالوعد.

واستفر العساكر من جميع الجهات إلى نيسابور للمسير مع قابوس وفخر الدولة، فاجتمعوا هنالك.

ثم جاء الخبر بقتل الوزير أبي الحسن العتبي، وكان زمام الدولة بيده، فيقال: إن أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور وضع عليه من قتله، وذلك سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ولما قتل

وحمل إليه الهدايا والتحف ما لم يحمل مثله.

وكتب بينهم كتاب الصلح، شهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق، وتم ذلك على يد أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور صاحب الجيوش بخراسان من جهة الأمير أبي الحارث في سنة إحدى وستين وثلاثمائة.

وفاة منصور بن نوح وولاية ابنه نوح

ثم توفي الأمير أبو الحارث منصور ببخارى منتصف سنة ست وستين وثلاثمائة، وولي بعده ابنه أبو القاسم نوح صبياً لم يبلغ الحلم، فاستوزر أبا الحسن العتبي، وجعل على حجابة بابيه مولاه أبا العباس قاسماً، وكان من موالى أبي الحسن العتبي فأعدها إلى الأمير أبي صالح وشركهما في أمر الدولة أبو الحسن فاتق، وأقر على خراسان أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور وأطردت أمور الدولة على استقامتها.

عزل ابن سيجور عن خراسان وولاية أبي

العباس تاش

قد تقدم لنا شأن خلف بن أحمد الليثي صاحب سجستان وانتصاره بالأمير منصور بن فرج على قريبه طاهر بن خلف بن أحمد بن الحسين المتقض عليه لسنة أربع وخسين وثلاثمائة وأنه مده بالعسكر ورده إلى ملكه.

ثم انتقض طاهر ثانياً بعد انصراف العسكر عن خلف، وبعث مستجيشاً فأمدّه ثانياً.

وقد هلك طاهر وولي ابنه الحسين فحاصره خلف، وأرهمه الحصار فنزل لخلف عن سجستان ولحق بالسعيد نوح بن منصور. وأقام خلف دعوة نوح في سجستان وحمل المال مقررأ عليه كل سنة.

ثم قصر في الطاعة والخدمة، وصار يتلقى الأوامر بالإعراض والإهمال فرمي بالحسين بن طاهر في جيوش خراسان وحاصره بقلعة أرك وطال المحاصرة وأمدّه العتبي الوزير بمجماعة القواد كالحسن بن مالك. وبكتاش فأقاموا عليه سبع سنين حتى فئت الرجال والأموال.

وكان ابن سيجور بخراسان وكانت أيامه قد طالعت بها فلا يطيع السلطان إلا فيما يراه. وكان خلف بن أحمد صاحبه فلم يغن

بنيسابور، وجاءه مدد آخر من فخر الدولة وبرز ابن سيجور للقائهم فهزموه وغنموا منه.

واستولى أبو العباس على نيسابور، وكتب إلى الأمير نوح يستعطفه، ولج ابن عزيز في عزله، ثم شاب لابن سيجور رايه، وعادت إليه قوته، وجاءه الأمراء من بخارى مدداً.

وكتب شرف الدولة أبا الفوارس بن عضد الدولة بفارس يستمده فأمدّه بالقي فارس مراغمة لعمه فخر الدولة.

فلما كثف جمعه زحف إلى أبي العباس وقاتله فهزمه، ولحق بفخر الدولة ابن بويه بجرجان فأكرمه وعظمه، وترك له جرجان ودهستان وأستراباذ إقطاعاً.

وسار عنها إلى الري، وبعث إليه من الأموال والآلات ما يخرج عن الحد، وأقام أبو العباس بجرجان، ثم جمع العساكر وسار إلى خراسان، فلم يقدر على الوصول إليها وعاد إلى جرجان وأقام بها ثلاث سنين، ومات سنة سبع وسبعين وثلاثمائة.

وقام أهل جرجان بأصحابه لما كانوا يحقدون عليهم من سوء السيرة فقاتلهم أصحابه، واستباحوهم حتى استأمنوا وكفوا عنهم.

ثم افترق أصحابه وسار أكثرهم وهم كبار الخواص والغلمان إلى خراسان، وقد كان صاحبها أبو الحسن سيجور مات فجأة، وقام بأمرها مكانه ابنه أبو علي، وأطاعه إخوته وكبيرهم أبو القاسم، ونازعه فائق الولاية فلحق به أصحاب أبي العباس واستكنر بهم لشأنه.

ولاية أبي علي بن سيجور على خراسان

قد تقدم اتفاق أبي الحسن بن سيجور وأبي العباس تاش وفائق على أن تكون نيسابور وقيادة خراسان لتاش، وبلغ لفائق، وهراة لأبي علي بن أبي الحسن سيجور.

ثم عزل تاش بسعاية الوزير ابن عزيز وولى أبو الحسن وكانت بينهما الحرب التي مر ذكرها.

وانهزم تاش إلى جرجان فاستقر أبو علي بهراة وفائق ببلخ، وكان ابن عزيز يستحث الحسن لقصص جرجان.

ثم عزل ابن عزيز ونفي إلى خوارزم، وقام مكانه أبو علي محمد بن عيسى الدامغاني.

ثم عجز لما نزل بالدولة من قلة الخراج وكثرة المصاريف، فصرف عن الوزارة بأبي نصر بن أحمد بن محمد بن أبي يزيد، ثم

كتب الأمير نوح بن منصور إلى الحاجب أبي العباس تاش يستدعيه لتدبير دولته ببخارى، فسار عن نيسابور إليها وقتل من ظفر به من قتلة أبي الحسن.

رد أبي العباس إلى خراسان ثم عزله وولاية

ابن سيجور

ولما سار أبو العباس إلى بخارى وكان أبو الحسن بن سيجور من حين سار إلى سجستان كما مر مقيماً بها، ثم رجع آخراً إلى قهستان.

فلما سار أبو العباس تاش إلى بخارى، وكتب ابن سيجور إلى فائق يطلب مظاهرتة على ملك خراسان، أجابه إلى ذلك، واجتمعا بنيسابور واستوليا على خراسان، وسار إليهما أبو العباس تاش في العساكر.

ثم ترأسوا كلهم واتفقوا على أن يكون بنيسابور، وقيادة العساكر لأبي العباس تاش، وبلغ لفائق، وهراة لأبي الحسن بن سيجور، وانصرف كل واحد إلى ولايته.

وكان فخر الدولة بن بويه خلال ذلك معهما بنيسابور ينتظر النجدة إلى أن هلك أخوه مؤيد الدولة بجرجان في شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

واستدعاه أهل دولته للملك فكتبه صاحب ابن عباد وغيره فسار إليهم، واستولى على ملك أخيه بجرجان وطبرستان، وكان الأمير نوح لما سار أبو العباس من بخارى إلى نيسابور استوزر مكانه عبد الله بن عزيز، وكانت بينه وبين أبي الحسن العتي منافسة وعداوة.

ثم لما ولي الوزارة تقدم على عزل أبي العباس عن خراسان وكتب إلى أبي الحسن محمد بن إبراهيم بخراسان بولاية نيسابور.

انتفاض أبي العباس وخروجه مع ابن

سيجور ومهلكه

ولما عزل أبو العباس تاش عن خراسان كتب إلى الأمير نوح يستعطفه فلم يجبه، فانتفض.

وكتب إلى فخر الدولة يستمده على ابن سيجور فأمدّه بالأموال والعسكر مع أبي محمد عبد الله بن عبد الرزاق، وسار إلى نيسابور في عساكره وعساكر الديلم، وتحصن ابن سيجور

وبلغه مسير بقراخان عن بخارى فأغذ السير إليها، وعادوا
الجلوس على كرسي ملكه، وتباشر الناس بقدمه.

ثم بلغه مهلك بقراخان فتزايد سرورهم، ولما عاد الأمير
نوح إلى بخارى ندم أبو علي على ما فرط فيه من نصرتيه، وأجمع
الاستظهار بفائق، فأزاحوه عن ملكه وملكوها، وخلق فائق بأبي
علي بن سيجور، وتظاهرا على الأمير نوح وذلك سنة أربع
وثمانين وثلاثمائة.

عزل أبي علي بن سيجور عن خراسان ولاية سبكتكين

ولما اجتمع أبو علي بن سيجور وفائق على منافرة الأمير
نوح وعصيانه، كتب الأمير نوح إلى سبكتكين، وكان أميراً على
غزنة ونواحيها يستقدمه لنصره منهما، وإنجاهه عليهما، وولاه
خراسان.

وكان سبكتكين في شغل عن أمرهم بما هو فيه من الجهاد
مع كفار الهند.

فلما جاءه كتاب نوح ورسوله بإدائه إليه، وتلقى أمره في
ذلك، وعاد إلى غزنة فجمع العساكر، وبلغ الخبر أبا علي وفائقاً،
فبعثا إلى فخر الدولة بن بويه يستنجدهما، واستعانا في ذلك بوزيره
الصاحب بن عباد، فبعث إليهما مدداً من العساكر.

ثم سار سبكتكين وابنه محمود نحو خراسان سنة أربع
وثمانين وثلاثمائة.

وسار الأمير نوح واجتمعوا ولقوا أبا علي وفائقاً بنواحي
هراة، وكان معهما دارا بن قابوس بن شمسكير، فنزع إلى الأمير
نوح، وإنهزم أصحاب أبي علي وفائق وقتك فيهم أصحاب
سبكتكين واتبعوهم إلى نيسابور، فلحقا بمرجبان، وتلقاهما فجر
الدولة بالهدايا والتحف والأموال، وأنزلهما بمرجبان.

واستولى نوح على نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش
خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب إياه
سبكتكين ناصر الدولة، وعاد نوح إلى بخارى وترك سبكتكين بهراة
ومحمود بنيسابور.

عود ابن سيجور إلى خراسان

لما افترق نوح وسبكتكين طمع أبو علي وفائق في خراسان،

عزل وأعيد أبو علي الدامغاني، وهلك أبو الحسن بن سيجور
خلال ذلك، وقام ابنه أبو علي مقامه.

وكتب الأمير نوح بن منصور يطلب أن يعقد له الولاية
كما كانت لأبيه فأجيب إلى ذلك ظاهراً، وكتب لفائق بولاية
خراسان، وبعث إليه بالخلق والألوية.

وكان أبو علي يظن أنها له، فلما بدا له من ذلك ما لم
يحتسب، جمع عسكره وأغذ السير، وأوقع بفائق ما بين هراة
وبوشنج، فانهزم فائق إلى مرو الروذ، وملك أبو علي مرو،
ووصله عهد الأمير نوح بقيادة الجيوش وولاية نيسابور وهراة
وقهستان ولقبه عماد الدولة، ثم رقاء الأمير نوح.

واستولى على سائر خراسان، واستبد بها على السلطان
حتى طلبه نوح في بعض أعمالها لثقتة فمنعه، وأقام مظهراً
لطااعته، وخشي غائلة السلطان من طلبه نوح فكتب بقراخان
ملك الترك ببلاد كاشغر وشاغور يغريه ويستحثه لملك بخارى وما
وراء النهر على أن يستقر هو بخراسان.

خبر فائق

وأقام بعد انهزامه أمام أبي علي بمرو الروذ حتى اندملت
جراحه، واجتمع إليه أصحابه، وسار إلى بخارى قبل أن يستأذن،
فارتاب به الأمير نوح فسرح إليه العساكر مع أخيه الحاجب،
وبكثرزون فانهزم وعبر النهر إلى بلخ، فأقام بها أياماً، وسار إلى
ترمد وكتب بقراخان يستحثه.

وكتب الأمير نوح إلى والي الجوزجان أبي الحارث أحمد بن
محمد الفيرقوني بقصد فائق، فقصدته في جموعه، وسرح فائق إليه
بعض عسكره فهزمه وعاد إلى بلخ.

وكان طاهر بن الفضل قد ملك الصغانيان على أبي المظفر
محمد بن أحمد، وهو واحد خراسان فانقطع أبو المظفر إلى فائق
صريحاً، فأمدته وسار إلى طاهر بعسكر فائق، واقتلوا فانهزم طاهر
وقتل، وصارت الصغانيان لفائق.

استيلاء الترك على بخارى

ولما خرج الأمير نوح عن بخارى عبر النهر واستقر بآمل
الشط، وكتب أبا علي بن سيجور يستحثه للنصرة، وكتب فائقاً
أيضاً يستصرخه فلم يصرخه أحد منهما.

وفاة الأمير نوح وولاية ابنه منصور وولاية بكتروزون على خراسان

ثم توفي الأمير نوح بن منصور منتصف سبيع وثمانين وثلاثمائة لإحدى وعشرين سنة من ملكه، وانتفض بموته ملك بني سامان وصار إلى الاخلال.

ولما توفي قام بالملك بعده ابنه أبو الحارث منصور، وتابعه أهل الدولة واتفقوا على طاعته، وقام بتدبير دولته بكتروزون.

واستوزر أبا طاهر محمد بن إبراهيم، وبلغ خبر وفاة نوح إلى إيلك خان، فطمع في ملكهم، وسار إلى سمرقند، وبعث من هنالك فائقاً والخاصة إلى بخارى فاضطرب منصور وهرب عن بخارى وقطع النهر.

ودخل فائق بخارى وأعلم الناس أنه إنما جاء لخدمة الأمير منصور، فبعث مشايخ بخارى بذلك إلى منصور ودخل.

واستقدموه بعد أن أخذوا له موثيق العهد من فائق، فاطمأن وعاد إلى بخارى، وأقام فائق بتدبير أمره وتحكم في دولته وأبعد بكتروزون إلى خراسان أميراً، وقد كان سبكتكين توفي في شعبان من هذه السنة، ووقعت الفتنة بين ابنه إسماعيل ومحمود فقدم بكتروزون أيام فتنتهما واستولى على خراسان.

عود أبي القاسم بن سيجور إلى خراسان وخيئته

قد ذكرنا مسير بكتروزون إلى خراسان عند مفرة أيام محمود بن سبكتكين من خراسان وأقام عند فخر الدولة، وعند أبيه مجد الدولة واجتمع عنده أصحاب أبيه، وكتب إليه فائق من بخارى يغريه بكتروزون ويأمره بقصد خراسان ويخرج بكتروزون منها فسار عن جرجان إلى نيسابور، وبعث جيشاً إلى أسفراين فملكوها من يد أصحاب بكتروزون، ثم تردد السفراء بينهما، ووقع الصلح والصح وعاد بكتروزون إلى نيسابور.

انتقاض محمود بن سبكتكين وملكه

نيسابور ثم خروجه عنها

لما فرغ محمود بن سبكتكين من أمر الفتنة بينه وبين أخيه إسماعيل، واستولى على ملك غزنة، وعاد إلى بلخ وجد بكتروزون

فسار عن جرجان إلى نيسابور في ربيع سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وبرز محمود للقائهما بظاهر نيسابور، وأعجلوه عن وصول المدد من أبيه سبكتكين، وكان في قلة، وانهزم إلى أبيه، وغنموا سواده.

وأقام أبو علي بنيسابور وكان الأمير نوح يستمبله ويتلطف في العذر بما كان سبكتكين فلم يجيبه إلى ما طلب.

ظهور سبكتكين وابنه محمود على أبي علي وفائق ومقتل أبي علي

ولما دخل أبو علي نيسابور، وانهزم عنها محمود، جمع سبكتكين العساكر وسار إليه، فالتقوا بطوس، وجاء محمود على أثره مدداً، فانهزم هو وفائق إلى أبيورد، فاتبعهما سبكتكين بعد أن استخلف ابنه محموداً بنيسابور فلاحقاً بمرو، ثم أسل الشط، وكتب إلى الأمير نوح يستعطفانه، فشرط على أبي علي أن يسزل بالجرجانية ويفارق فائقاً ففعل.

ونزل قريباً من خوارزم بالجرجانية، فأكرمه أبو عبد الله خوارزم شاه وسكن إليه، وبعث من ليلته من جاء به واعتقله وأعيان أصحابه.

وبلغ الخبر إلى مأمون بن محمد صاحب الجرجانية فاستعظم ذلك، وسار بعساكره إلى خوارزم شاه وافتتح مدينته وتسمى كاش عنوة، وخلص أبا علي من محبسه، وعاد إلى الجرجانية واستخلف بعض أصحابه على بلاد خوارزم.

ولما عاد إلى الجرجانية أخرج خوارزم شاه وقتله بين يدي أبي علي بن سيجور، وكتب إلى الأمير نوح يشفع في أبي علي فشفعه.

واستدعى أبا علي إلى بخارى فسار إليها وأمر الأمراء والعساكر بتلقيه، فلما دخل عليه أمر بحبسه، وشفع سبكتكين فيه فهرب ولحق بفخر الدولة، وأقام عنده.

وأما فائق فلما فارقه أبو علي كما شرط عليه الأمير نوح سار إلى إيلك خان ملك الترك بكاشغر، فأكرمه وكتب إلى نوح يشفع فيه فقبل شفاعته وولاه عليها وأقام بها.

استيلاء ايلك خان على بخارى و انقراض دولة بني سامان

ولما ملك محمود خراسان وخلق عبد الملك ببخارى اجتمع إليه فائق وبكثزون وغيرهما من الأمراء، وأخذوا في جمع العساكر لناهضة محمود بخراسان.

ثم مات فائق في شعبان من هذه السنة فاضطربوا ووهنوا لأنه كان المقدم فيهم، وكان خصياً من موالى نوح بن نصر فطمع ايلك خان في الاستيلاء على ملكهم، كما ملكه بقرخان قبله، فسار في جموع الترك يظهر المدافعة لعبد الملك عنه فاطمانوا لذلك، وخرج بكثزون وغيره من الأمراء والقواد للقاءه فقبض عليهم جميعاً، ودخل بخارى عاشر ذي القعدة، ونزل دار الأمارة واختفى عبد الملك فبعث العيون عليه حتى ظفر به وأودعه السجن في أركند فمات.

وحبس معه أخاه أبا الحارث منصور المخلوع وإخوته الآخرين أبا إبراهيم إسماعيل وأبا يعقوب، وأعمامه أبا زكريا وأبا سليمان وأبا صالح القاري وغيرهم من بني سامان.

وانقضت دولتهم بعد أن كانت انتشرت في الآفاق ما بين حلوان وبلاد الترك، ووراء النهر، وكانت من أعظم الدول وأحسنها سياسة.

خروج إسماعيل بن نوح بخراسان

ثم هرب أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح من محبسه في زي امرأة كانت تتعاهد خدمته فاخفى ببخارى.

ثم لحق بخوارزم وتلقب المتصر، واجتمع إليه بقايا القواد والأجناد، وبعث قابوس عسكرياً مع ابنه منوچهر ودارا.

ووصل إسماعيل إلى نيسابور في شوال سنة إحدى وتسعين، وجبى أموالها، وبعث إليه محمود مع التوتناش الحاجب الكبير صاحب هراة، فلقيهم فانهزم المتصر إلى أبيورد وقصد جرجان فمنعه قابوس منها فقصد سرخس وجبى أموالها وسكنها في ربيع سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.

فأرسل إليها محمود العساكر مع منصور، والتقوا فانهزم إسماعيل وأسر أبو القاسم بن سيجور في جماعة من أعيان العسكر، فبعث بهم منصور إلى غزنة، وسار إسماعيل حائراً فوافى أحياء الغز بنواحي بخارى فتعصبوا عليه، وسار بهم إلى

والياً على خراسان كما ذكرناه فبعث إلى الأمير منصور بن نوح يذكر وسائله في الطاعة والمجاوبة، ويطلب ولاية خراسان، فاعتذر له عنها وولاه ترمذ وبلغ وما وراءهما من أعمال بست، فلم يرض ذلك، وأعاد الطلب فلم يجيب، فسار إلى نيسابور وهرب منها بكثزون وملكها محمود سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فسار الأمير منصور من بخارى إليه فخرج عنها إلى مروالروذ وأقام بها.

خلع الأمير منصور وولاية أخيه عبد الملك

ولما سار الأمير منصور عن بخارى إلى خراسان لمدافعة محمود بن سبكتكين عن نيسابور، سار بكثزون للقاءه فلقبه بسرخس، ثم لم يلق من قبله ما كان يؤمله، فشكا ذلك إلى فائق فآلفه واجداً مثل ذلك فخلصا في لجوئهما، واتفقا على خلعهم وإقامة أخيه عبد الملك مقامه، ووافقهما على ذلك جماعة من أعيان العسكر، ثم قبضوا عليه وسلموه أول سنة تسعين لعشرين شهراً من ولايته، وولي مكانه أخوه عبد الملك.

ويعث محمود إلى فائق وبكثزون يقيح عليهما فعلهما، وسار نحوهما طامعاً في الاستيلاء على الملك.

استيلاء محمود بن سبكتكين على خراسان

ثم سار محمود بن سبكتكين إلى فائق وبكثزون ومعهما عبد الملك الصبي الذي نصبوه فساروا إليه، والتقوا بمرو سنة تسعين وثلاثمائة وقاتلهم فهزمهم وافترقوا.

ولحق عبد الملك ببخارى ومعه فائق، ولحق بكثزون بنيسابور، ولحق أبو القاسم بن سيجور بقرهستان وقصد محمود نيسابور، وانتهى إلى طرسوس فقرب بكثزون إلى جرجان، وبعث في إثره أرسلان الحاجب إلى أن وصل جرجان، ورجع فاستخلفه محمود على طرسوس، وسار إلى هراة فخالفه بكثزون إلى نيسابور وملكها.

ورجع إليها محمود فأجفل عنها، ومر بمرو فنهبها ولحق ببخارى واستقر محمود بخراسان وأزال عنها ملك بني سامان، وخطب فيها للقادر العباسي، واستدعى الولاية من قبله فبعث إليه بالعهد عليها والخلع لبني سيجور، وأنزله نيسابور وسار هو إلى بلخ كرسي أبيه فافتقده واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته مثل آل أفريقون بالجوزجان والشاه صاحب غرسيان وبني مأمون بخوارزم.

بني سامان عليه في عدوتي جيحون وما وراء النهر، وخراسان، وعراق العجم، وبلاد الترك، وزيادة بلاد الهند، وكان مبدأ أمرهم عن غزنة، وذلك أن سبكتكين من موالى بني التيكن، وكان التيكن من موالى بني سامان، وكان في جلته، وولاه حجابته، وورد بخارى أيام السعيد منصور بن نوح وهو إذ ذاك حاجبه، ثم تفوي التيكن هذا وعقد له السعيد منصور بن نوح سنة خمس وستين وثلاثمائة، وولى ابنه نوح ويكنى أبا القاسم واستوزر أبا الحسن العتيبي، وولى على نيسابور أبا الحسن محمد بن سيجور، وكان سبكتكين شديد الطاعة له، والقيام بحاجاته.

وطرقت دولة بني سامان النكبة من الترك، واستولى بقرخان على بخارى من يد الأمير نوح.

ثم رجع إليها، ومات أبو الحسن بن سيجور وولى مكانه بخراسان ابنه أبو علي، واستبد على الأمير نوح في الاستيلاء على خراسان عند نكبة الترك.

فلما عاد الأمير نوح إلى كرسيه وثبت في الملك قدمه، كاشفه أبو علي في خراسان بالاتقاض، واستدعى أبا منصور سبكتكين يستمده على أبي علي ويستعين به في أحوال الدولة فبادر لذلك، وكان له المقام المحمود فيه، وولاه الأمير نوح خراسان، فدفع عنها أبا علي.

ثم استبد بعد ذلك على بني سامان بها.

ثم غلبهم على بخارى وما وراء النهر، ومعا أثر دولتهم وخلفهم أحسن خلف، وأورث ذلك بنيهم، واتصلت دولتهم في تلك الأعمال إلى أن ظهر الغز، وملك الشرق والغرب بنسو سلجوق منهم فغلبوهم على أمرهم، وملكوا تلك الأعمال جميعاً من أيديهم حسبما يذكر ذلك كله.

ولنبداً الآن بسبكتكين من الجهاد في بلاد الهند قبل ولايته خراسان. ثم تأتي بأخبارهم.

فتح بست

كانت بست هذه من أعمال سجستان وفي ولايتها ولما فسدت نظام تلك الولاية بانتراض دولة بني الصفار واخترقت تلك العمالات طوائف فانفرد ببست أمير اسمه طغان.

ثم غلبه عليها آخر اسمه كان، يكنى بأبي ثور فاستصرخ طغان سبكتكين على مال ضمنه على الطاعة والخدمة، فسار سبكتكين إلى بست وفتحها، وأخذ الوزير أبا الفتح علي بن محمد

إيلك خان في شوال سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فلقبه بنواحي سمرقند.

وانهزم إيلك واستولى الغز على سواده وأمواله، وأسرى من قواده ورجعوا إلى أحيائهم وتفاوضوا في إطلاق الأسرى من أصحاب إيلك خان، وشعر بهم إسماعيل فسار عنهم خائفاً وعبر النهر إلى أمل الشط، وبعث إلى مرو ونسا وخوارزم فلم يقبلوه، وعاودوا العبور إلى بخارى وقتلته وإليها فانهزم إلى دبوسية وجمع بها، ثم عاد فانهزم من عساكر بخارى وقتلته وإليها.

وجاء جماعة من فتيان سمرقند فصاروا في جلته.

وبعث إليه أهله بأموال وسلاح ودواب، وسار إليه إيلك خان بعد أن استوعب في الحشد ولقيه بنواحي سمرقند في شعبان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة وظهر الغز لإسماعيل فكانت الدبرة على إيلك خان، وعاد إلى بلاد الترك فاحتشد، وزجع إلى إسماعيل وقد افترقت عنه أحياء الغز إلى أوطانهم، وخف جمعهم، فقاتلهم بنواحي مروسية فهزموه وقتل الترك في أصحابه.

وعبر إسماعيل النهر إلى جوزجان فنهبا، وسار إلى مرو وركب المفازة إلى قنطرة راغول، ثم إلى بسطام، وعساكر محمود في اتباعه مع أرسلان الحاجب صاحب طوس، وأرسل إليه قابوس عسكرياً مع الأكراد الشاهجانية فازعجوه عن بسطام، فرجع إلى ما وراء النهر وأدرك أصحابه الكلل والملال ففارقه الكثير منهم، وأخبروا أصحاب إيلك خان وأعلموهم بمكانه فكبسه الجند فطاردهم ساعة، ثم دخل في حي من أحياء العرب بالفلاة من طاعة محمود بن سبكتكين يعرف أميرهم بابن بهيج، وقد تقدم إليهم محمود في طلبه فأنزله عندهم حتى إذا جن الليل وثبوا عليه وقتلوه وذلك سنة خمس وتسعين وثلاثمائة وانقرض أمر بني سامان وانمحت آثار دولتهم.

والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة بني سبكتكين ملوك غزنة

وما ورثوه من الملك بخراسان وما وراء

النهر عن مواليتهم وما فتحوه من بلاد الهند

وأول أمرهم ومصائر أحوالهم

هذه الدولة من فروع دولة بني سامان وناشئة عنها، وبلغت من الاستطالة والعز المبالغ العظيمة، واستولت على ما كانت دولة

يستدعيه للنصرة عليهما، وعقد له على خراسان وأعمالها، وكان في شغل شاغل من الجهاد بالهند كما ذكرناه فبادر بذلك، وسار إلى نوح فلقية واتفق معه، ثم رجع إلى غزنة واحتشد وسار هو وابنه محمود ولقيا الأمير نوحاً بخراسان في الموضع الذي تواعد معه، ولقيهم أبو علي بن سيجور وفاقق فهزمهما.

وفتك فيهم أصحاب سبكتكين واتبعوهم إلى نيسابور، ثم صدوهم عنها إلى جرجان واستولى نوح على نيسابور واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين وأنزله بها، ولقبه سيف الدولة، وأنزل أباه سبكتكين بهراة ولقبه ناصر الدولة ورجع إلى بخارى.

الفتنة بين سيجور وفاقق بخراسان وظهور

سبكتكين وابنه محمود عليهم

ولما رجع نوح إلى بخارى وطمع أبو علي بن سيجور وفاقق في انتزاع خراسان من يد سبكتكين وابنه.

وبادروا إلى محمود بن سبكتكين بنيسابور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وأعجلوه عن وصول المدد إليه من ابنه سبكتكين.

وكان في قلة فانهمز إلى أبيه بهراة، وملك أبو علي نيسابور، وسار إليه سبكتكين في العساكر، والتقوا بطوس، فانهمز أبو علي وفاقق حتى انتهيا إلى أمل الشط.

واستعطف أبو علي الأمير نوحاً فاستدعاه وحبيه.

ثم بعث به إلى سبكتكين وحبيه عنده، ولحق فائق بملك الترك إيلك خان في كاشغر، وشفع فيه إلى الأمير نوح فولاه سموقند كما مر ذلك كله في أخبارهم.

وكان أبو القاسم أخو أبي علي قد نزع إلى سبكتكين يوم اللقاء فأقام عنده مدة مديدة.

ثم انتقض وزحف إلى نيسابور فجاء محمود بن سبكتكين فهرب ولحق بفخر الدولة بن بويه فأقام عنده، واستولى سبكتكين على خراسان.

مزاخرة سبكتكين وإيلك خان

كان إيلك خان ولي بعد بقرخان على كاشغر وشاغور، وعلى أم الترك وطمع في أعمال الأمير نوح كما طمع أبوه، ومد يده إليها شيئاً فشيئاً.

البستي الشاعر المشهور فأحضره واستكتبه، وكتب لابنه محمود من بعده.

ثم استخلف سبكتكين وسار إلى قصدار من وراثها فملكها وتقبض على صاحبها، أعاده إلى ملكه على مال يؤديه وطاعة ييذلها له.

غزو الهند

ثم سار سبكتكين بعدما فتح بست وقصد غازياً بلاد الهند، وتوغل فيها حتى افتتح بلاداً لم يدخلها أحد من بلاد الإسلام.

ولما سمع به ملك الهند سار إليه في جيوشه وقد عسى العساكر والقيلة على عادتهم في ذلك بالتعبية المعروفة بينهم، وانتهى إلى لغمان من ثغورة وتجاوزته، وزحف إليه سبكتكين من غزنة في جموع المسلمين، والتقى الجمعان ونصر الله المسلمين، وأسر ملك الهند وفدى نفسه على ألف ألف درهم، وخسين فيلاً ورهن في ذلك من قومه، وبعث معه رجالاً لقبض ذلك فغدر بهم في طريقه، وتقبض عليهم، فسار سبكتكين في تعيبته إلى الهند، فقبض كل من لقيه من جموعهم، وأئخن فيهم، وفتح لغمان وهدمها وهي ثغر الهند مما يلي غزنة، فاهتز لذلك جييال واحتشد، وسار إلى سبكتكين، فكانت بينهم حرب شديدة، وانهمز جييال وجموع الكفر، وخذت شوكتهم، ولم يبق للملوك الهند بعدها معه قائمة.

ثم صرف وجهه إلى إعانة سلطانه الأمير نوح كما نذكر.

ولاية سبكتكين على خراسان

قد قدمنا أن الأمير نوح بن منصور لما طرقت النكبة ببخارى من الترك، وملكها عليه بقرخان عبر النهر إلى أمل الشط، واستصرخ ابن سيجور صاحب خراسان وفاققاً صاحب بلخ، فلم يصرخاه، وبلغه مسير بقرخان عن بخارى فأغذ السير إليها، وارتجع ملكه كما كان.

وهلك بقرخان فثبت قدمه في سلطانه.

وارتاب أبو علي وفاقق بأمرهم عنده، وغلط فائق بالمبادرة إلى بخارى للتهتة والتقدم في الدولة من غير إذن في ذلك، فسرح الأمير نوح غلمانه ومواليه فحاربوه، وملكوا بلخاً من يده، ولحق بأبي علي بن سيجور، فاستظهر به على فتنة الأمير نوح وذلك سنة أربع وثمانين، فكتب الأمير نوح عند ذلك إلى سبكتكين

بها قليلاً طرقه المرض، فبادر به إلى غزنة، وهلك في طريقه في شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة لعشرين سنة من ملكه في غزنة وخراسان، ودفن بغزنة.

وكان عادلاً خيراً حسن العهد محافظاً على الوفاء كثير الجهاد.

ولما هلك بايع الجند لابنه إسماعيل بعهدة إليه، وكان أصغر من محمود فأفاض فيهم العطاء واتعد أمره بغزنة.

استيلاء محمود بن سبكتكين على ملك أبيه وظفروه بأخيه إسماعيل

ولما ولي إسماعيل بغزنة استضعفه الجند واستولوا عليه، واشتطوا عليه في الطلب حتى أفند خزائن أبيه، وكان أخوه محمود بنيسابور فبعث إليه أن يكتب له بالأعمال التي لنظره مثل بلخ فابى، وسعى أبو الحرب والي الجوزجان في الإصلاح بينهما فامتنع إسماعيل، فسار محمود إلى هراة معتمراً عليه، وتحيز معه عمه بغراجق.

ثم سار إلى بست وبها أخوه نصر فاستماله، وساروا جميعاً إلى غزنة، وقد كتب إليه الأمراء الذين مع إسماعيل واستدعوه ووعدوه بالطاعة.

وأغذ السير ولقيه إسماعيل بظاهر غزنة فاقتتلوا قتالاً شديداً.

وانهزم إسماعيل واعتصم بقلعة غزنة، واستولى محمود على الملك وحاصر أخاه إسماعيل حتى استنزله على الأمان فأكرمه وأشركه في سلطانه، وذلك لسبعة أشهر من ولاية إسماعيل، واستقامت الممالك لمحمود ولقب بالسلطان، ولم يلقب به أحد قبله. ثم سار إلى بلخ.

استيلاء محمود على خراسان

لما ولي أبو الحارث منصور بعد نوح استوزر محمد بن إبراهيم، وفوض أمره إلى فاتق كفالة وتدبيراً لصغره.

وكان عبد الله بن عزيز قد هرب من بخارى عند قدوم محمد إليها في استحثاث الأمير نوح للقاء إيلك خان كما مر، فلما مات الأمير نوح وولي ابنه منصور أطمع عزيز أبا منصور محمد بن الحسين الأميبيجي في قيادة الجيش بخراسان وحمله على الانحدار

ثم اعترزم على الزحف إليه فكتب الأمير نوح إلى سبكتكين بخراسان يستجيشه على إيلك خان، فاحتشد وعبر النهر وأقام بين نسف وكشف حتى لحقه ابنه محمود بالحشود من كل جهة، وهالك وصله أبو علي بن سيجور مقيداً، بعث به إليه الأمير نوح فأبى من ذلك، وجمع إيلك خان أمم الترك من سائر النواحي.

وبعث سبكتكين إلى الأمير نوح يستحثه فخام عن اللقاء، وبعث قواده وجميع عساكره، وجعلهم لنظره وفي تصريفه فالح عليه سبكتكين، وبعث أخاه بغراجق وابنه محموداً لاستحثائه فهرب الوزير ابن عزيز خوفاً منهم، وتنادى نوح من اللقاء فتركوه، وقت ذلك في عزم سبكتكين، وبعث إيلك خان في الصلح فبادر سبكتكين وبعث أبا القاسم.

ثم ارتاب به عند عبوره إلى إيلك خان، فحسبه مع أبي علي وأصحابه حتى رجع سبكتكين من طوس إلى بلخ، فبلغ الخبر بمقتلهم، ووصل نعي مأمون بن محمد صاحب الجرجانية بخوارزم غدر به صاحب جيشه في صنع أعد له وقتله، وصل خبر الأمير نوح أثرهما وأنه هلك منتصف رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

أخبار سبكتكين مع فخر الدولة بن بويه

كان أبو علي بن سيجور وفاق لما هزهما سبكتكين لحقا بجرجان عند فخر الدولة بن بويه، ثم لما أجلب أبو القاسم على خراسان، وسار إليه محمود بن سبكتكين، وعمه بغراجق وكان معه أبو نصر بن محمود الحاجب فهربا إلى فخر الدولة وأقاما في نزله وتحت حرايه بقومس والدماغان وجرجان وأناخ سبكتكين على طوس.

ثم وقعت المهاداة بينه وبين فخر الدولة بن بويه صاحب الري، وكان آخر هدية من سبكتكين جاء بها عبد الله الكاتب من ثغابة.

ونمي إلى فخر الدولة أنه يتجسس عدد الجند، وغوامض الطرق، فبعث إلى سبكتكين بالعتاب في ذلك.

ثم ضعف الحال بينهما، واتصل ما بين فخر الدولة والأمير نوح على يد سبكتكين.

وفاة سبكتكين وولاية ابنه إسماعيل

ولما فرغ سبكتكين من أمر إيلك خان ورجع إلى بلخ، وأقام

به إلى بخارى مستغيثاً بإيالك خان على غرضه، فنهض إليك خان لمصاحبتهما وسار بهما كأنه يريد سمرقند.

ثم قبض على أبي منصور وابن عزيز، وأحضر فائقاً وأمره بالمسير على مقدمته إلى بخارى، فهرب أبو الحارث وملك فائق بخارى ورجع إليك خان.

واستدعى فائق أبا الحارث فاطمان، وبعث من مكانه بكثزون الحاجب الأكبر على خراسان ولقبه بستان الدولة، ورجع إلى بخارى فتلقيه فائق، وقام بتدبير دولته.

وكانت بينه وبين بكثزون ضغن فاصلح أبو الحارث بينهما، وأقام بكثزون وجبى الأموال، وزحف إليه أبو القاسم بن سيجور، وكانت بينهما الفتنة التي مر ذكرها.

وجاء محمود إلى بلخ بعد فراغه من فتنة أخيه إسماعيل، فبعث إلى أبي الحارث منصور رسله وهداياه، فعقد له على بلخ وترمذ وهراة ويست.

واعتذر عن نيسابور فراجع مع ثقته أبي الحسن الحمولي فاستخلصه أبو الحارث لوزارته، وقعد عن رسالة صاحبه فأقبل محمود إلى نيسابور، وهرب عنها بكثزون فنهض أبو الحارث إلى نيسابور، فخرج محمود عنها إلى مرو الروذ، وجمع أبو الحارث وكحلة بكثزون، وبايعوا لأخيه عبد الملك بن نوح.

وبعث محمود إلى فائق وبكثزون بالعتاب على صنيعهما بالسلطان، وزحف إليهما فبرزا من مرو للقاءه، ثم سأله الإبقاء فأجاب وارحل عنهم، وبعض أوياشهم في أعقابهم فرجع إليهم.

وحشدوا الناس للقاءه فهزمهم واقتروا، فسار عبد الملك إلى بخارى وبكثزون إلى نيسابور وكان معهم أبو القاسم بن سيجور، ولحق بهستان واستولى محمود على خراسان وذلك سنة تسع وثمانين وثلاثمائة.

ثم سار إلى طوس وهرب بكثزون إلى جرجان، وبعث محمود أرسلان الحاجب في أثره فأخرجه من نواحي خراسان، فولى أرسلان على طوس وسار إلى هراة لمطالعة أحوالها، فخالفه بكثزون إلى نيسابور وملكها، ورجع فطرده عنها أبو القاسم بن سيجور وملكها.

وولى محمود أخاه نصر بن سبكتكين قيادة الجيوش بخراسان وأنزله بنيسابور، ثم سار إلى بلخ فأنزل بها سريره.

ثم استراب بأخيه إسماعيل فاعتقله ببعض القلاع موسعاً عليه، وكتب بالبيعة للقادر الخليفة من بني العباس، فبعث إليه

بالخلع والألوية على العادة.

وقام بين يديه السامان واستوثق له ملك خراسان وبقي يردد الغزو إلى الهند كل سنة.

استيلاء محمود على سجستان

كان خلف بن أحمد صاحب سجستان في طاعة بني سامان ولما شغل عنه بالفتن استفحل أمره، وشغل للاستبداد.

فلما سار سبكتكين للقاء ملك الهند كما مر، اغتتم الفرصة من يست وبعث إليها عسكرياً فملكوها وجبواها.

ولما رجع سبكتكين من الهند ظافراً تلقاه بالمعاذير والتعزية والهدايا والطاعة فقبل وأعرض عنه، وارتهن عنده على طاعته، وسار معه الحارث أبو علي بن سيجور بخراسان فملاً يده ويد عسكريه بالعطاء، وبتقدمه لقتال إليك خان بما وراء النهر كما مر، ففس إلى إليك خان يغريه بسبكتكين.

واعترزم سبكتكين على غزو سجستان، ثم أدركه الموت فاغتمت خلف الفرصة وبعث طاهراً إلى قهستان وبوشنج فملكها، وكاتب البغراق أخا سبكتكين.

فلما فرغ محمود من شأن خراسان بعث لبغراق عمه بانتزاع قهستان وبوشنج، فسار إلى طاهر فهزمه وابعه، وكر عليه طاهر فقتله وانهزم الفريقان، وزحف محمود إلى خلف سنة تسعين وثلاثمائة، فامتنع في أحصن بلد وهي قلعة عالية منيعة، وحاصره بها حتى لاذ بالطاعة.

وبذل مائة ألف دينار فأفرج عنه وسار إلى الهند فتوغل فيها، وانتهى في اثني عشر ألف فارس وثلاثين ألف راجل، فاختر محمود من عساكره خمسة عشر ألفاً، وسار لقتال جييال فهزمه وأسره في بنيه وحفدته وكثير من قرابته.

ووجد في سلبه مقلد من فصوص يساوي مائة ألف دينار وأمثال ذلك، فوزعها على أصحابه، وكان الأسرى والسبي خمسمائة ألف رأس وذلك سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة وفتح من بلاد الهند بلاداً أوسع من بلاد خراسان.

ثم فادى جييال ملك الهند نفسه بمخمسين رأساً من القبيلة ارتهن فيها ابنه وحافده وخرج إلى بلده، فبعث إلى ابنه أندبال وشاهينة وراء سيجور فأعطوه تلك القبيلة، وسار لا يعود له ملك، وسار السلطان محمود إلى ويهند فحاصرها وافتتحها، وبعث العساكر لتدوين نواحيها فأنخنوا في القتل في أوياش كانوا مجتمعين

للفساد مستترين بخمر الفياض فاستلحموهم.

وأما عند ابن الأثير فعلى ما وقع في أخبار دولة بني الصفار.

غزوة بهاطية والملتان وكوكبر

ولما فرغ السلطان محمود من سجستان اعتزم على غزو بهاطية من أعمال الهند، وهي وراء الملتان، مدينة حصينة عليها نطاق من الأصبيان وآخر من الخنادق، بعيدة المهوى.

وكانت مشحونة بالمقاتلة والعدة، واسم صاحبها بجير، فعبر السلطان إليها جيحون وبرز إليه بجير فاقتلوا بظاهر بهاطية ثلاثة أيام.

ثم انهزم بجير وأصحابه في الرابع وتبعهم المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم، وأخذتهم السيوف من أمامهم ومن ورائهم فبلغ القتل والسبي والسلب والنهب فيهم مبالغه.

وسار بجير في رؤوس الجبال فستر في شعبها وبعث السلطان سرية في طلبه فأحاطوا به، وقتلوا من أصحابه.

ولما أبقر بالملكة قتل نفسه بمجنجر معه.

وأقام السلطان محمود في بهاطية حتى أصلح أمورها، واستخلف عليها من يعلم أهلها قواعد الإسلام، ورجع إلى غزنة فلقى في طريقه شدة من الأمطار في الوحل وزيادة المدد في الأنهار، وغرق كثير من عسكره.

ثم بلغه عن أبي الفتح والي الملتان أنه ملحد، وأنه يدعو أهل ولايته إلى مذهبه فاعتزم على جهاده، وسار كذلك ومنعه سيجور من العبور لكثرة المدد، فبعث السلطان إلى أندبال ملك الهند في أن يبيع له العبور إلى بلاده لغزو الملتان فأبى، فبدأ بجهاذه، وسار في بلاده ودوخها وفر أندبال بين يديه، وهو في طلبه إلى أن بلغ كشمير.

ونقل أبو الفتح أمواله على الفيول إلى سرنديب، وترك الملتان فقصدها السلطان، وامتنع أهلها فحاصروهم حتى افتتحها عنوة، وأغرمهم عشرين ألف درهم عقوبة لهم على عصيانهم.

ثم سار إلى كوكبر واسم صاحبها بيذا، وكان بها ستمائة صنم فافتتحها وأحرق أصنامها.

وهرب صاحبها إلى قلعة وهي كاليجار وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة وعشرون ألف راية، وهو مشحون بالأقوات والمسالك إليه متعذرة بخمر الشجر، وملف

ورجع السلطان محمود إلى غزنة وكان خلف بن أحمد عند منصرف السلطان عنه أظهر النسك، وولى ابنه طاهراً على سجستان، فما طالت غيبة السلطان أراد الرجوع إلى ملكه فلم يمكنه ابنه، فتمارض وبعث إليه بالحضور للوصية والاطلاع على خبايا الذخيرة، فلما حضر اعتقله ثم قتله كما مر.

وجزعت نفوس وبلغت ضمائر قواده لذلك، وخافوه، وبعثوا للسلطان محمود بطاعتهم ما بقيت له الدعوة في سجستان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وسار السلطان محمود إلى خلف فامتنع منه في معقله بمحسن الطاق، وهو في رأس شاهق تحيط به سبعة أسوار عالية، ويحيط به خندق بعيد المهوى، وطريقه واحدة على جسر، فجثم عليه أشهراً.

ثم فرض على أهل العسكر قطع الشجر التي تليه وطم بها الخندق، وزحف إليه وقدم الفيول بين يديه على تعبيتها فحطم الفيل الأعظم على باب الحصن فقلعه ورمى به، وفشا القتل في أصحاب خلف وغماسكو داخل الباب يتناضلون بأحجار المجانيق والسهم والحرا، فرأى خلف هول المطلاع فأناب واستأمن، وخرج إلى السلطان وأعطاه كثيراً من الذخيرة، ورفع من قدره وخيره في مقاماته فاختر الجوزجان فأذن له في المسير إليها على ما بينه وبين إيلك خان من المداخلة.

ثم هلك خلف سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأبقى السلطان على ولده عمر، وكان خلف كثير الغاشية من الوافدين والعلماء، وكان محسناً لهم، ألف تفسيراً جمع له العلماء من أهل إيلاته، وأتفق عليهم عشرين ألف دينار، ووضع في مدرسة الصابوني بنيسابور، ونسخه يستغرق عمر الكاتب، إلا أن يستغرق في النسخ.

واستخلف السلطان على سجستان أحمد الفتحي من قواد أبيه ورجع إلى غزنة.

ثم بلغه انتقاض أحمد بسجستان فسار إليهم في عشرة آلاف، ومعه أخوه صاحب الجيش أبي المظفر نصر والتوتشاش الحاجب، وزعيم العرب أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي فحاصروهم، وفتحها ثانية، وولى عليها أخاه صاحب الجيش نصر بن سبكتكين مضافة إلى نيسابور فاستخلف عليها وزيره أبا منصور نصر بن إسحاق.

وعاد السلطان محمود إلى بلخ مضمراً غزو الهند.

هكذا مساق خبر السلطان محمود مع خلف بن أحمد وخبر سجستان عند العيني.

الغياض، فأمر بقطع الأشجار حتى انتضحت المسالك.

واعترضه دون الحصن واد بعيد المهوى، فطم منه عشرين ذراعاً بالأجرة المحشوة بالتراب، وصيره جسراً، ومضى منه إلى القلعة، وحاصرها ثلاثة وأربعين يوماً حتى جنح صاحبها إلى السلم.

وبلغ السلطان أن ايلك خان جمع غزو خراسان، فصالح ملك الهند على خمسين فيلاً، وثلاثة آلاف من الفضة، وخلع عليه السلطان فلبس خلعته وشد منطقته.

ثم قطع خلعته وأنفذها إلى السلطان، وتبعه بما عقد معه وعاد السلطان إلى خراسان بعد أن كان عازماً على التوغل في بلاد الهند.

مسير ايلك خان إلى خراسان وهزمته

كان السلطان محمود لما ملك ايلك خان بخارى كما مر، وكتب إليه مهنياً، وتردد السفراء بينهما في الرصلة، وأوفد عليه سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي إمام الحديث، ومعه طغان جق والي سرخس في خطبة كريمته بهدية فاخرة من سبائك العقيان واليواقيت والدر والمرجان واللؤلؤ والخمر، وصواني الذهب مملوئة بالنعير والكافور والعود والنصول، وأمامه الفيول تحت الخروج المشاة، فقبلت الهدية بالقبول، والوافد بالتعظيم له ولمن أرسله، وزفت المخطوبة بالهدايا والألطاف، واتحدت الحال بين السلطنتين.

ولم يزل السعاة يغرون ما بينهما حتى فسد ما بينهما، فلما سار السلطان محمود إلى الملتان اغتتم ايلك خان الفرصة، وبعث سياسي تكين قريبه وقائد جيشه إلى خراسان، وبعث معه أخاه جعفر تكين وذلك سنة تسعين وثلاثمائة فملك بلخاً وأنزل بها جعفر تكين، وكان أرسلان الحاجب بهرة أنزله السلطان بها، وأمره إذا دهمه أن ينحاز إلى غزنة.

وقصد سياسي هراة وسكنها، وندب الحسين بن نصر إلى نيسابور فملكها، ورتب العمال، واستخرج الأموال.

وطار الخبر إلى السلطان بالهند، وقصد بلخ فهرب جعفر تكين إلى ترمذ، واستقر السلطان ببلخ، وسرح أرسلان الحاجب في عشرة آلاف من العساكر إلى سياسي تكين بهرة فسار سياسي إلى مرو، واعترضه التركمان، وقتلهم فزهمهم وأثنى فيهم.

ثم سار إلى أبيورد، ثم إلى نسا وأرسلان في اتباعه حتى

انتهى إلى جرجان قصد عنها، وركب قلل الجبال والغياض، وتسلط الكراكلة على أنقاله ورجاله، واستأمن طوائف من أصحابه إلى قابوس لعدم الظهر.

ثم عاد إلى نسا وأصدر ما معه إلى خوارزم شاه أبي الحسن علي ابن مأمون، ودعية لايك خان، واقتحم المفازة إلى مرو، فسار السلطان لاعتراضه ورماه محمد بن سبع بمائة من القواد حملوا إلى غزنة.

ونجا سياسي تكين في فل من أصحابه، فعبر النهر إلى ايلك خان، وقد كان ايلك خان بعث أخاه جعفر تكين في ستة آلاف راجل إلى بلخ ليفتر من عزيمة السلطان عن قصد سياسي تكين فلم يفتر ذلك من عزمه، حتى أخرج سياسي من خراسان.

ثم قصدهم فانهزموا أمامه، وتبعهم أخوه نصر بن سبكتكين صاحب جيش خراسان إلى ساحل جيحون، فقطع دابريهم.

ولما بلغ الخبر إلى ايلك خان قام في ركائبه وبعث بالصريح إلى ملك الختل وهو قدرخان بن بقرخان لقرباة بينهما وصهر، فجاءه بنفسه ونفر معه، واستجاش أحياء النزل ودهاقين ما وراء النهر، وعبر النهر في خمسين ألفاً، وانتهى إلى السلطان خبره وهو بطخارستان فقدم إلى بلخ، واستعد للحرب، واستنفر جموع الترك والهند والخلنجية والأفغانية والفريوية.

وعسكر على أربعة فراسخ من بلخ، وتزاحفوا على التعبئة، فجعل السلطان في القلب أخاه نصرأ صاحب الجيش بخراسان، وأبا نصر بن أحمد الفريغوني صاحب الجوزجان، وأبا عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطائي في كساء الأكراد والعرب والهنود، وفي اليمينه حاجبه الكبير أبا سعيد التمرتاشي، وفي الميسرة أرسلان الحاجب، وحصن الصفوف بمخسمائة من الفيلة.

وجعل ايلك خان على ميمنته قدرخان ملك الختل وعلى ميسرته أخاه جعفر تكين، وهو في القلب.

وطالت الحرب، واستمات الفريقان ونزل السلطان وغفر خده بالأرض متضرعاً.

ثم ركب وحمل في فيلته على القلب فازاله عن مكانه، وانهزم الترك، واتبعهم يقتلون ويأسرون إلى أن عبروا بهم النهر.

وأكثر الشعراء تهمة السلطان بهذا الفتح وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.

ولما فرغ السلطان من هذه الحرب سار للهند للإيقاع بنواسه شاه أحد أولاد الملوك، كان أسلم على يده واستخلفه على بعض

المعادل التي افتتحها، فارتد ونبذ الإسلام، فأغذ السير إليه ففر أمامه، واحتوى على المعادل التي كانت في يده من أصحابه، وانقلب إلى غزنة ظافراً وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.

غزوة بارين

ثم سار السلطان محمود على رأس المائة الرابعة لغزو بلاد الهند فدوخها واستباحها، وأوقع بملكها، ورجع إلى غزنة فبعث إليه ملك الهند في الصلح على جزية مفروضة، وعسكر مقرر عليه، وعلى تعجيل مال عظيم، وهدية فيها خسون فيلاً، وتقرر الصلح بينهما على ذلك.

غزوة الغور وقصران

بلاد الغور هذه تجاور بلاد غزنة، وكانوا يفسدون السابلة ويمتنعون بجبالهم وهي وعرة وضيقة، وأقاموا على ذلك متمردين على كفرهم وفسادهم، فامتعض السلطان محمود، وسار لحسم عليهم سنة إحدى وأربعمئة وفي مقدمته التوتناش الحاجب والي هراة وأرسلان الحاجب والي طوس.

وانتهروا إلى مضيق الجبل وقد شحنوه بالمقاتلة فنزلتهم الحرب ودهمهم السلطان فارتدوا على أعقابهم، ودخل عليهم لبلادهم وملكها.

ودخل حصناً في عشرة آلاف واستطرد لهم السلطان إلى فسيح من الأرض.

ثم كر عليهم فهزمهم وأثنخ فيهم وأسرى ابن سوري وقربائه وخواصه، وملك قلعتهم وغنم جميع أموالهم، وكانت لا يعبر عنها.

وأسف ابن سوري على نفسه فتناول سمّاً كان معه ومات.

ثم سار السلطان سنة اثنتين وأربعمئة لغزو قصران وكان صاحبها يحمل ضमानه كل سنة، فقطع الحمل وامتنع بموالة ايلك خان، وسار إليه فيادر باللقاء وتصل واعتذر، وأهدى عشرين فيلاً والزمه السلطان خمسة عشر ألف درهم، ووكل بقبضها ورجع إلى غزنة.

خبر اليشار واستيلاء السلطان على

غريستان

كان اسم اليشار عند الأعاجم لقباً على ملك غريستان، كما

فتح بهيم نقرا

ثم سار السلطان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة في ربيع منها غازياً إلى الهند فأنتهى إلى سبط وبهند، فلقبه هنالك ابن هزبال ملك الهند في جيوش لا تحصى، فصدقه السلطان القتال فهزمهم، واتبعهم إلى قلعة بهيم نقرا وهي حصن على حصن عالية اتخذها أهل الهند خزانة للصنم، ويودعون به أنواع الذخائر والجواهر التي يتقرب بها للصنم، فدافع عنه خزنته أياماً.

ثم استأمنوا وأمكنوا السلطان من القلعة، فبعث عليه أبا نصر الفريغوني وحاجبه الكبير ابن التمرتاش، وواسع تكين، وكلفهما بنقل ما في الخزان، فكان مبلغ المتقول من الوزن سبعين ألف ألف شامية، ومن الذهبيات والفضيات موزونة، والديباج السوسي ما لا عهد بمثله، ووجد في جملتها بيت من الفضة الخالصة طوله ثلاثون ذراعاً في خمسة عشر، صفائح مضرورية ومعالق لطفي والشر، وشرع من ديباج طوله أربعون ذراعاً في عرض عشرين بقائمتين من ذهب، وقائمتين من فضة، فركلهما بحفظ ذلك.

ومضوا إلى غزنة فأمر بساحة داره ففرشت بتلك الجواهر، واجتمعت وفود الأطراف لمشاهدتها، وفيهم رسول طغان أخي ايلك خان.

خبر الفريغون واستيلاء السلطان على

الجوزجان

وكان بنو فريغون هؤلاء ولاية على الجوزجان أيام بني سامان يتوارثونها، وكان لهم شهرة مكارم.

وكان أبو الحارث أحمد بن محمد غريتهم.

وكان سيكتكين خطب كرمته لابنه محمود وأنكح كرمته أخت محمود لابنه أبي نصر فالتحم بينهما.

وهلك أبو الحارث فأقر السلطان محمود ابنه أبا نصر على ولايته إلى أن مات سنة إحدى وأربعمئة، وكان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني المعروف بالبديع يؤلف له التكايف ويجعلها

أن كسرى على ملك الفرس وقصر على ملك الروم ومعناه الملك الجليل.

وكان اليشار أبو نصر محمد بن إسماعيل بن أسد ملكها إلى أن بلغ ولده محمد سن النجاة فغلب على أبيه، وانقطع أبو نصر للنظر في العلوم لشغفه بها، وصاحب خراسان يومئذ أبو علي بن سيجور.

ولما انتقض على الرضى نوح خطبهم لطاعته وولايته فأبوا من ذلك لانتقاضه على سلطانه، فبعث العساكر إليهم وحاصروهم زماناً.

ثم نهض سبكتكين إلى أبي علي بن سيجور، وانضاف إلى اليشار إلى سبكتكين في تلك الفتنة كلها، فلما ملك السلطان عمود خراسان وأذن له ولاية الأطراف والأعمال بعث إليهم في الخطبة فأجابوه.

ثم استنفر محمد بن أبي نصر في بعض غزواته فقعده عن النفر، فلما رجع السلطان من غزوته بعث حاجبه الكبير أبا سعيد التوتانش في العساكر وأردفه بأرسلان الحاجب والي طوس لمناهضة اليشار ملك غرستان.

واستصحبها معها أبا الحسن المنيعي الزعيم بمرو والروذ لعلمه بمخادع تلك البلاد، فاما أبو نصر فاستأمن إلى الحاجب، وجاء به إلى هراة مرفهاً محتاطاً عليه.

وأما ابنه محمد فتحصن بالقلعة التي بناها أيام ابن سيجور فحاصروها طويلاً، واقتحموها عنوة وأخذ أسيراً، فبعث به إلى غزنة، واستصفت أمواله وصودرت حاشيته.

واستخلف الحاجب على الحصن ورجع إلى غزنة فامتحن الولد بالسياط، واعتقله مرفهاً واستقدم أباه أبا نصر من هراة فأقام عنده في كرامة إلى أن هلك سنة ست وأربعمائة.

وفاة ايلك خان وصلاح أخيه طغان خان مع

السلطان

كان ايلك خان بعد هزمته بخراسان يواصل الأسف، وكان أخوه طغان يكبر عليه على فعلته، ونقضه العهد مع السلطان.

وبعث إلى السلطان يتبرأ ويعتذر فنافره ايلك خان بسبب ذلك وزحف إليه ثم تصالحها.

ثم هلك ايلك خان سنة ثلاثة وأربعمائة وولى مكانه أخوه

طغان خان فراسل السلطان محمود وصالحه.

وقال له: اشتغل أنت بغزو الهند، وأنا بغزو الترك فأجابه إلى ذلك.

وانقطعت الفتنة بينهما وصلحت الأحوال، ثم خرجت طوائف الترك فأجابه إلى ذلك، وانقطعت الفتنة بينهما وصلحت الأحوال.

ثم خرجت طوائف الترك من جانب الصين في مائة ألف خركاة وقصدوا بلاد طغان، فهال المسلمين أمرهم فاستنفر طغان من الترك أزيد من مائة ألف، واستقبل جموع الكفرة فهزمهم وقتل نحواً من مائة ألف وأسر مثلهما، ورجع الباقي منهزمين.

وهلك طغان إثر ذلك، وملك بعده أخوه أرسلان خان سنة ثمان وأربعمائة، وخلص ما بينه وبين السلطان محمود، وخطب بعض كرائمه للسلطان مسعود ولده فأجابه.

وعقد السلطان لابنه على هراة فسار إليها سنة ثمان وأربعمائة.

فتح بارين

ثم سار السلطان سنة ثمان وأربعمائة عندما فصل الشتاء غازياً إلى الهند، وتوغل فيها مسيرة شهرين، وامتنع عظيم الهند في جبل صعب المرتقى ومنع القتال، واستدعى الهنود وملك عليهم القيلة وفتح الله بارين وكثرت الأسرى والغنائم ووجد به في بيت البديجي حجر منقوش، قال التراجمة كتابته إنه مبني منذ أربعين ألف سنة.

ثم عاد إلى غزنة وبعث إلى القادر يطلب عهد خراسان وما بيده من الممالك.

غزوة تيشوة

كان صاحب تيشوة عالياً في الكفر والطغيان، وانتهى الخبر إلى السلطان في ناحيته من القيلة فيلة من الفيتلمان الموصوفة في الحروب، فاعتزم السلطان على غزوه، وسار إليه في مسالك صحبة وعرة بين أودية وقفارات حتى انتهى إلى نهر طام قليل المخاضة وقد استندوا من ورائه إلى سفح جبل، فسرب إليهم جماعة من الكماة خاضوا النهر وشغلوه بالقتال حتى تعدت بقية العسكر.

ثم قاتلوهم وانهزموا، واستباحهم المسلمون وعادوا إلى

غزنة ظافرين ظاهرين.

ثم اعترم على غزو الهند سنة تسع وأربعمئة، وكان قد دوخ بلادها كلها، ولم يبق عليه إلا كشمير ومن دونها الفياقي والمصاعب، فاستنفر الناس من جميع الجهات من المرتزقة والمتطوعة.

وسار تسعين مرحلة وعبر نهر جيحون وحيلم وخيالا، هو وامراؤه، وبث عساكره في أودية لا يعبر عن شدة جريها وبعد أعماقها، وانتهى إلى كشمير.

وكانت ملوك الهند في تلك الممالك تبعث إليه بالخدمة والطاعة، وجاءه صاحب درب كشمير وهو جنكي بن شاهي وشهي فأقر بالطاعة، وضمن دلالة الطريق، وسار أمام العسكر إلى حصن مامون لعشرين من رجب، وهو خلال ذلك يفتح القلاع إلى أن دخل في ولاية هردت، أحد ملوك الهند فجاء طائعا مسلما.

ثم سار السلطان إلى قلعة كلنجد من أعيان ملوكهم، فبرز للقاءه، وانهمز، واعترضهم أنهار عميقة سقطوا فيها وهلكوا قتلاً وغرقاً، يقال: هلك منهم خمسون ألفاً.

وغنم السلطان منهم مائة قبل وخمسة إلى غير ذلك مما جمل عن الوصف ثم عطف إلى سقنالتقيد وهو بيت مبني بالصخور الصم يشرع منها بابان إلى الماء المحيط، موضوعة أبنته فوق التلال، وعن جنبتيه ألف قصر مشتملة على بيوت الأصنام.

وفي صدر البلد بيت أصنام منها خمسة من الذهب الأحمر مضروبة على خمسة أذرع في الهواء قد جعلت عينا كل واحدة منهما ياقوتتين تساويان خمسين ألف دينار، وعين الآخر قطعة ياقوت أزرق تزن أربعمئة وخمسين مثقالاً، وفي وزن قدمي الصنم الواحد أربعة آلاف وأربعمئة مثقال، وجملة ما في الأشخاص من الذهب ثمانية وتسعون ألف مثقال.

وزادت شخوص الفضة على شخوص الذهب في الوزن، فهدمت تلك الأصنام كلها، وخرت.

وسار السلطان طالباً قنوج، وخرّب سائر القلاع في طريقه، ووصل إليها في شعبان سنة تسع وأربعمئة وقد فارقتها نزوجبال حين سمع بقدومه، وعبر نهر كنك الذي تغرق الهند فيه أنفسهم ويذرون فيه رماد المحرقين منهم.

وكان أهل الهند واقفين بقنوج وهي سبع قلاع موضوعة على ذلك الماء، فيها عشرة آلاف بيت للأصنام، تزعم الهند أن تاريخها منذ مائتي ألف سنة، أو ثلاثمئة ألف سنة، وأنها لم تزَل متعبداً لهم.

فلما وصلها السلطان ألفاها خالية قد هرب أهلها، ففتحها

ثم غزا السلطان على عادته فضل الأدياء طريقهم فوقع السلطان في مخاضات من المياه غرق فيها كثير من العسكر، وخاض الماء بنفسه أياماً حتى تخلص ورجع إلى خراسان.

استيلاء السلطان على خوارزم

كان مامون بن محمد صاحب الجرجانية من خوارزم، وكان خالصاً في طاعة الرضى نوح أيام مقامه في آمد كما مر، فأضاف نسا إلى عمله فلم يقبلها لودّة بينه وبين أبي علي ابن سيجور. وكان من خبره مع ابن سيجور واستنقاذه إياه من أسر خوارزم شاه سنة ست وثمانين وثلاثمئة ما مر ذكره، وصارت خوارزم كلها له.

ثم هلك وملك مكانه أبو الحسن علي.

ثم هلك وملك مكانه ابنه مامون، وخطب إلى السلطان محمود بعض كرائمه فزوجه أخته.

وانحد الحال بينهما إلى أن هلك، وولي مكانه أبو العباس مامون، ونكح أخته كما نكحها أخوه من قبله.

ثم دعاه إلى الدخول في طاعته، والخطبة له، كما دعا الناس، فمنعه أصحابه وأتباعه، وتوجس الخيفة من السلطان في ذلك، فرجعوا إلى الفتك به، فقتلوه وباعوا ابنه داود.

وزداد خوفهم من السلطان في ذلك، فتعاهدوا على الامتناع ومقدمهم التكين البخاري.

وسار إليهم السلطان في العساكر حتى أنساخ عليهم وبيتوا محمد بن إبراهيم الطائي، وكان في مقدمة السلطان فقاتلهم إلى أن وصل السلطان فهزمهم، وأثخن فيهم بالقتل والأسر، وركب التكين السفن فغدره الملاحون وجاؤوا به إلى السلطان فقتله في جماعة من القواد الذين قتلوا ماموناً على قبره.

وبعث بالباقيين إلى غزنة، فاخرجوا في البعوث إلى الهند وأنزلوا هنالك في حامية الثغور وأجريت لهم الأرزاق، واستخلف على خوارزم الحاجب التوتانش ورجع إلى بلاده.

فتح كشمير وقنوج

ولما فرغ السلطان من أمر خوارزم، وانضافت إلى مملكته، عدل إلى بست، وأصلح أحوالها ورجع إلى غزنة.

جلته، ووعدهم برد ما غلبهم عليه السلطان محمود، ونمي الخبر بذلك إليه فامتعض، وسار إلى بيدو فغلبه على ملكه.

وكان ابتداءه في طريقه بالأفغانية طوائف من كفار الهند معتمسون بقتل الجبال، ويفسدون السابلة، فسار في بلادهم ودوخها، وعبر نهر كنك، وهو واد عميق، وإذا بجيال من ورائه، فعبّر إليه على عسر العبور فانهزم جيال، وأسر كثير من أصحابه، وخلص جريحاً واستأمن إلى السلطان فلم يؤمنه إلا أن يسلم، فسار ليلحق ببیدو، فغدر به بعض الهنود وقتله.

فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى السلطان في الطاعة على الأتاة، وسار إلى مدينة باري من أحصن بلاد الهند فألفها خالية، فأمر بتخريبها وعشر قلاع مجاورة لها، وقتل من أهلها خلقاً وسار في طلب بيدو، وقد تحصن بنهر أدار ماءه عليه من جميع جوانبه، ومعه ستة وخمسون ألف فارس وثمانون ألف راجل وسبعمئة وخمسون فيلاً، فقاتلهم هنالك يوماً، وحجز بينهم الليل فأجفل بيدو، وأصبحت، دياره بلاقع، وترك خزائن الأموال والسلاح فغنمها المسلمون وتبعوا آثارهم فوجدوهم في الغياض والأكام، فأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا بيدو بدماء نفسه، ورجع السلطان إلى غزنة ظافراً.

فتح سومات

كان للهند صنم يسمونه سومات، وهو أعظم أصنامهم في حصن حصين على ساحل البحر بحيث تلتفقه أمواجه والصنم مبني في بيته على ستة وخمسين سارية من الساج المصنوع بالرصاص، وهو من حجر طوله خمسة أذرع، منها ذراعان غائسان في البناء وليس له صورة مشخصة.

والبيت مظلم يضيء بتناديل الجوهر الفائق، وعنده سلسلة ذهب يجرس وزنها مائة من تحرك بأدوار معلومة من الليل فيقوم عباد البرهمنين لعبادتهم بصوت الجرس.

وعنده خزانة فيها عدد كثير من الأصنام ذهباً وفضة، عليها ستور معلقة بالجواهر منسوجة بالذهب، تزيد قيمتها على عشرين ألف دينار.

وكانوا يحجون إلى هذا الصنم ليلة خسوف القمر فتجتمع إليه عوالم لا تحصى.

وتزعم الهنود أن الأرواح بعد المفارقة تجتمع إليه فيبثها فيمن شاء بناء على التناسخ، والمذ والجزر عندهم هو عبادة البحر.

كلها في يوم واحد، واستباحها أهل عسكره.

ثم أخذ في السير منها إلى قلعة لنج، وتعرف بقلعة البراهمة، فقاتلوا ساعة، ثم تساقطوا من أعاليها على سنا الرماح وضياع الصفاق.

ثم سار إلى قلعة أسا وملكها جندبال فهرب وتركها، وأمر السلطان بتخريبها.

ثم عطف على جندراي من أكابر الهنود في قلعة منيعة. وكان جيال ملك الهند من قبل ذلك يطلبه للطاعة والألفة فيجتمع عليه.

ولحق جيال بنهورجد أحد المغرورين بمحاصرة المعقل، فنجا بنفسه.

ورام جندراي المدافعة وثوقاً بامتناع قلعته، ثم تنصَح له بجيال ومنعة من ذلك، فهرب إليه أمواله وأنصاره إلى جبال وراء القلعة، وافتتحها السلطان وحصل منها على غنائم.

وسار في أتباع جندراي واثخن فيهم قتلاً ونهباً، وغنم منهم أموالاً وفيولاً، وبلغت الغنائم ثلاثة آلاف ألف درهم ذهباً وفضة، ويواقيت والسبي كثير، وبيع بدرهمين إلى عشرة، وكانت الفيول تسمى عندهم جنداي داد.

ثم قضى السلطان جهاده ورجع إلى غزنة فابتنى مسجدها الجامع وجلب إليه جذوع الرخام من الهند، وفرشه بالمرمر، وأعلى جدرانه بالأصباغ وصباب الذهب المفرغة من تلك الأصنام، واحتضر بناء المسجد بنفسه، ونقل إليه الرخام من نيسابور، وجعل أمام البيت مقصورة تسع ثلاثة آلاف غلام، وبنى بأزاء المسجد مدرسة احتوت فيها الكتب من علوم الأولين والآخرين، وأجريت بها الأرزاق، واختصت لنفسه بفضي منه إليه في أمن من العيون، وأمر القواد والحجاب وسائر الخدام فبنوا بجانب المسجد من الدور ما لا يحصى.

وكانت غزنة تحتوي على مبريط ألف فيل يحتاج كل واحد منها لسياسته ومائدته خطة واسعة.

غزوة الأفغانية

لما رجع السلطان إلى غزنة راسل بيدو والي قنوج واسمه راجبان بدله وطال بينهما العتاب وآل إلى القتال فقتل والي قنوج، واستلحمت جنوده.

وطغى بيدو، وغلب على الملوك الذين معه، وصاروا في

وكانوا يقرّبون إليه كل نفيس، وذخائرهم كلها عنده ويعطون سدنته الأموال الجليّة.

وكان له أوقاف تزيد على عشرة آلاف ضيعة، وكان نهرهم المسمى كنك الذي يزعمون أن مصبه في الجنة، ويلقون فيه عظام الموتى من كبرائهم، وبينه وبين سومنات مائتا فرسخ، وكان يحمل من مائه كل يوم لغسل هذا الصنم، وكان يقوم عند الصنم من عباد البرهمنين ألف رجل في كل يوم للعبادة، وثلاثمائة لخلق رؤوس الزوار ولحاهم، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون، ولهم على ذلك الجرايات الواقعة، وكان كلما فتح محمود بن سبكتكين من الهند فتحاً أو كسر صنماً، يقول أهل الهند: إن سومنات ساخط عليهم، ولو كان راضياً عنهم لأهلك محموداً دونه.

دخول قابوس صاحب جرجان وطبرستان

في ولاية السلطان محمود

قد قدمنا وفادة قابوس على الأمير نوح بن منصور بن سامان، وعامله بخراسان أبي العباس تاش مسترخاً على بني بويه عندما ملكوا طبرستان وجرجان من يده سنة إحدى وسبعين، وأنام بخراسان ثمانين سنة وهم يعدونه بالنصرة والمدد حتى يش منهم.

ولما جاء سبكتكين ووعده بمثل ذلك.

ثم شغله شغل بني سيجور، ثم وعده السلطان محمود وشغلته فتنة أخيه، واستولى أبو القاسم بن سيجور على جرجان بعد مهلك فخر الدولة بن بويه.

ثم أمر من بخاري بالمسير إلى خراسان، فسار إلى أسفراين واستمد قابوس رجال الديلم والجيل، فأمدوه وظاهروه على أمره حتى غلب على طبرستان وجرجان، وملكها كما يذكر في أخبار الديلم والجيل.

وكان نصر بن الحسن بن الفيرزان وهو ابن عم ماكان بن كالي ينازعه فيها، فأل الحال بنصر إلى أن اعتقله بنو بويه بالري، واستقل قابوس بولاية جرجان وطبرستان وديار الديلم كلها من ممالك محمود.

استيلاء السلطان محمود على الري والجيل

كان مجد الدولة بن فخر الدولة صاحب الري، وكان قد ضعف أمره وأدبرت دولته، وكان يتشاغل بالنساء والكتاب نسخاً ومطالعة.

وكانت أمه تدبر ملكه، فلما توفيت انتقضت أحواله وطمع فيه جنده، وكتب إلى محمود يشكو ذلك ويستدعي نصرته، فبعث إليه جيشاً عليهم حاجبه، وأمره أن يقبض على مجد الدولة فقبض عليه وعلى ابنه أبي دلف عند وصوله.

فاعتزم محمود بن سبكتكين إلى غزوه، وتكذيب دعاويهم في شأنه، فسار من غزنة في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة في ثلاثين ألف فارس سوى المتطوعة، وقطع القفر إلى الملتان وتزود له من القوت والماء قدر الكفاية، وزيادة عشرين ألف حمل.

وخرج من المفازة إلى حصون مشحونة بالرجال قد غوروا آبارهم مخافة الحصار، فقتل الله الرعب في قلوبهم، وفتحها وقتل سكانها وكسر أصنامها، واستقى منها الماء.

وسار إلى أنهلوارن وأجفل عنها صاحبها بهيم، وسار إلى بعض حصونه، وملك السلطان المدينة، ومر إلى سومنات ووجد في طريقه حصوناً كثيرة فيها أصنام وضعوها كالنقبة والخدمة لسومنات، ففتحها وخرّبها وكسر الأصنام.

ثم سار في قفر معطش، واجتمع من سكانه عشرون ألفاً لدفاعه، فقاتلهم سراياه، وغنموا أموالهم، وانتهوا إلى دبلواه على مرحلتين من سومنات، فاستولى عليها وقتل رجالها.

ووصل إلى سومنات متصفاً ذي القعدة، فوجد أهلها مخنفين في أسوارهم، وأعلنوا بكلمة الإسلام فوقها، فاشتد القتال حتى حجز بينهم الليل.

ثم أصبحوا إلى القتال وأثخنوا في الهتود، وكانوا يدخلون إلى الصنم فيعتفونه ويكون ويتضرعون إليه، ويرجعون إلى القتال.

ثم انهزموا بعد أن أفناهم القتل، وركب فلهم السفن فأدركوا، وانقسموا بين النهب والقتل والغرق، وقتل منهم نحو من خمسين ألفاً، واستولى السلطان على جميع ما في البيت.

ثم بلغه أن بهيم صاحب أنهلوارن اعتصم بقلعة له تسمى كندهة في جزيرة على أربعين فرسخاً من البر، فرام خوض البحر

وكان بينه وبين ايلك خان وأخيه بقرخان حروب وفتن بسبب استظهار بني سامان بهم.

فلما ملك ايلك خان بخارى عرف لأرسلان بن سيجور حقه ورفع محله، وهو مع ذلك مستوحش.

وكان على تكين أخو ايلك خان، وحبس أرسلان ولحق ببخارى فاستولى عليها، وطلب موالاة أرسلان بن سيجور فوالاه، واستفحل أمرهما، ونهض إليهما ايلك خان وقتلتهما فهزماه.

واستوثق أمر تكين في بخارى وكان يسيء جوار السلطان محمود بن سبكتكين في أعماله، ويعترض رسله المتردين إلى ملوك الترك فأحفظ ذلك السلطان، وأجمع المسير إليه، فنهض من بلخ سنة عشرين وأربعمائة، وعبر النهر وقصد بخارى، فهرب منها إلى تكين ولحق بابيلك خان، ودخل السلطان بخارى وملك سائر أعمالها، وأخذ الجزية من سمرقند، وأجفلت أحياء الغز وأرسلان بن سلجوق، وتلطف في استدعائه.

فلما حضر عنده تقبض عليه، وبعث إلى بعض قلاع الهند وحبسه بها، وسار إلى أحياء الغز فنهبهم، وأنخن فيهم قتلاً وأسراً، ورجع إلى خراسان.

خير السلطان محمود مع الغز بخراسان

لما حبس السلطان أرسلان بن سلجوق، ونهب أحياءهم، أجلاهم عن ضواحي بخارى، فعبروا نهر جيحون إلى خراسان، وامتدت فيهم أيدي العمال بالظلم والتعدي في أموالهم وأولادهم ففرقوا، وجاءت منهم طائفة في أكثر من ألفي خروكة إلى كرمان، ثم إلى أصفهان، وكان يسمون العراقية، وطائفة إلى جبل بكجان عند خوارزم القديمة، وعاث كل منهم فيما سار فيه من البلاد.

وبعث السلطان إلى علاء الدولة بأصفهان لرد الذين ساروا إليه إلى الري وقبلهم، وحاول ذلك بالغدر فلم يستطع، وحرارهم فهزموه وساروا عنه إلى أذربيجان، وأفسدوا ما ساروا عليه وصانعهم وهشودان صاحب أذربيجان وآسهم، وكان مقدمهم: يوقا وكوكاش ومنصور ودانا، وأما الذين ساروا إلى خوارزم القديمة فكثروا عيثنهم في تلك النواحي.

وأمر السلطان محمود صاحب طوس أرسلان الحاجب أن يسير في طلبهم فاتبعهم ستين.

ثم جاء السلطان على أثره فشردهم على نواحي خراسان، واستخدم بعضهم، وكان أمرؤهم: كوكاش وبرقنا وقزل ويغسر

وطبر بالخبر إلى السلطان، فسار في ربيع من سنة عشرين وأربعمائة ودخل الري وأخذ أموال مجد الدولة، وكانت ألف الف دينار، ومن الجواربي قيمة خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ستة آلاف ثوب، ومن الآلات ما لا يحصى.

ووجد له خمسين زوجة ولدن نيفاً وثلاثين ولداً، فستل عن ذلك فقال: هذه عادة.

وأحضر مجد الدولة وعنفه، وعرض له بتسفيه رأيه في الانتصار عن جندراي منه، وبعثه إلى خراسان فحبس بها.

ثم ملك السلطان قزوین وقلاعها، ومدينة ساوه وآوه، وصلب أصحاب مجد الدولة من الباطنية ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجوم، وأخذ عما سوى ذلك من الكتب مائة حمل.

ونحصر منه منوچهر بن قابوس ملك الجبل بالجلال الوعرة فقصده فيها، ولم تصعب عليه فهرب منوچهر ونحصر بالغياض، وبعث له بخمسمائة ألف ديناراً استصلاحاً قبله ورجع عنه إلى نيسابور.

وتوفي منوچهر عقب ذلك، وولي بعده ابنه أنوشروان فأقره السلطان على ولايته، وقرر عليه مائة ألف دينار ضريبة. وخطب للسلطان محمود في بلاد الجبل إلى أرمينية.

وافتح ابنه مسعود زنجان وأبهر من يد إبراهيم السيلار بن المرزيان من عقب شروان بن محمد بن مسافر الديلمي، وجميع قلاعه، ولم يبق بيده إلا شهرزاد، قرر عليه فيها ضريبة، كما يأتي في أخبار الديلم.

ثم أطاعه علاء الدولة بن كاكويه بأصفهان، وخطب له، وعاد السلطان إلى خراسان، واستخلف بالري ابنه مسعوداً فقصده أصفهان وملكها من علاء الدولة، واستخلف مسعود عليها بعض أصحابه وعاد عنها فثار أهلها بعامله وقتلوه، فرجع إليهم واستباحهم، ثم عاد إلى الري فأقام بها.

استيلاء السلطان محمود على بخارى ثم

عوده عنها

كان ايلك خان ملك الترك وصاحب تركستان لما ملك بخارى من يد بني سامان سنة تسعين وثلاثمائة، ولى عليها ورجع إلى بلاده كما مر، وكان الغز أحياء بأديّة بضواحي بخارى وزعيمهم أرسلان بن سلجوق عم السلطان طغرليک.

وتأصقلي. أخبارهم فيها وماك أمرهم إلى الملك والدولة ما يأتي ذكره.

افتتاح نرسي من الهند

كان السلطان محمود قد استخلف على الهند من مواله أحمد نبال تكين، فغزا سنة إحدى وعشرين مدينة نرسي من أعظم مدن الهند في مائة ألف مقاتل، فنهب وخرّب الأعمال واستباحها. وجاء إلى المدينة فدخلها من أحد جوانبها، واستباحها يوماً ولم يستوعبها حتى خرجوا فباتوا بظاهرها خوفاً على أنفسهم من أهل البلد، وقسموا الأموال كيلاً، وأرادوا العود من الغد فدافعهم أهلها، ورجع أحمد نبال بعساكره إلى بلده.

وفاة السلطان محمود وولاية ابنه محمد

ثم توفي السلطان محمود في ربيع سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، وكان ملكاً عظيماً استولى على كثير من الممالك الإسلامية، وكان يعظم العلماء ويكرمهم، وقصدوه من أقطار البلاد، وكان عادلاً في رعيته رقيقاً بهم محسناً إليهم، وكان كثير الغزو والجهاد، وفترحاته مشهورة.

ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لابنه محمد وهو ببلخ، وكان أصغر من مسعود إلا أنه كان مقبلاً عليه ومعزّزاً عن مسعود.

فلما توفي بعث أعيان الدولة إلى محمد بخبر الوصية واستحثوه، وخطب له في أقاصي الهند إلى نيسابور، وسار إلى غزنة فوصلها لأربعين يوماً، واجتمعت العساكر على طاعته وقسم فيها الأعباء.

خلع السلطان محمد ابن السلطان محمود

وولاية ابنه الآخر مسعود الأكبر

لما توفي السلطان محمود كان ابنه مسعود بأصفهان، فسار إلى خراسان، واستخلف على أصفهان، فثار أهلها بخليفته وعسكره فقتلوه، فعاد إليهم مسعود وحصرها وافتتحها عنوة واستباحها.

ثم استخلف عليها وسار إلى الري ومنها إلى نيسابور، وكتب إلى أخيه محمد بالخبر وأنه لا يتأزعه، ويقتصر على فتحه من طبرستان وبلد الجبل وأصفهان، ويطلب تقديمه على محمد في الخطبة فأحفظه ذلك، واستخلف العساكر.

ولما مات السلطان محمود استخدمهم ابنه مسعود أيضاً، وساروا معه من غزنة إلى خراسان فسألوه فيمن بقي منهم يجبل بكجان عند خوارزم فأذن لهم أن يسهلوا إلى البسائط على شرط الطاعة.

ثم انتقض أحمد نبال عامل الهند فسار مسعود إليه، وولى على خراسان تاش، وكثر عيث هؤلاء الغز في البلاد فأوقع بهم تاش، وقتل أميرهم بغير.

وبعث السلطان مسعود من إجلائهم عن البلاد، ومثل بهم بالقتل والقطع والصلب.

فساروا إلى الري طالبين أذربيجان للحاق بالعراقية منهم كما مر ذكرهم فملكوا الدامغان ونهبوها، ثم سمنان.

ونهبوا جوار الري وإيجاباذ ومشكوبه من أعمال الري، وخرّبوا كل ما مروا عليه من القرى والضياع فاجتمع لحربهم تاش وأبو سهل الحمدوني صاحب الري.

وسار إليهم تاش في العساكر والفيلة على التبعثة، ولقوه مستميتين، وسبق إليه أحياءهم فهزموه وقتلوه.

ثم ساروا إلى الري فهزموا أبا سهل الحمدوني وعسكره، ولحق بقلعة طبول، ونهبوا الري واستباحوا أموالها، وجاء عسكر من جرجان فاعترضوه وكبسوه، وأثخنوا فيهم قتلاً وأسرّاً، ومضوا إلى أذربيجان ليجتمعوا بالعراقية.

ثم رجع علاء الدولة بن كاكويه إلى أصفهان بعد مسيرهم من الري، وطلبوا مولاه أبا سهل على طاعة مسعود فلم يتم وعاث الغز في أذربيجان وأوقع بهم وهشودان وقتل منهم وجمع عليهم أهل أذربيجان وأوقع بهم ففارقوها إشفاقاً من نبال وأخيه طغرل بك، وانسرقوا بين الموصل وديار بكر فملكوها ونهبوها وعاثوا في نواحيها كما مر ذكره في أخبار قرواش صاحب الموصل وابن مروان صاحب ديار بكر.

هذه أخبار أرسلان بن سلجوق مفصلة إلا ما اختصر منها بالري وأذربيجان فإنه يأتي في مواضعه من دولة الديلم.

وأما طغرل بك وإخوته داود، ويقيم وأخوه لأمه نبال المسمى بعد الإسلام إبراهيم فانهزموا وأقاموا بعد سلجوق ببلاد ما وراء النهر.

وكان بينهم وبين علي تكين صاحب بخارى حروب ظهر عليهم فيها فغلبوا جيحون إلى خوارزم وخراسان، وكان من

السلطان محمود.

ولما توفي السلطان محمود جمع قناخر جمعاً من الديلم والأكراد، وقصد الري وقاتله نائبه مسعود فهزمه، ودفعه عن الري وفك في عسكره قتلاً وأسراً.

وعاد قناخر إلى بلده، وبلغ الخبر إلى علاء الدولة بموت السلطان محمود وهو عند أبي كاليبجار بخوزستان، وقد آيس من النصر، فبادر إلى أصفهان فملكها، ثم همذان.

وقصد الري فقاتله نائب مسعود، ورجع إلى أصفهان.

ثم اقتحموا عليه البلد عنوة ونجا علاء الدولة إلى قلعة قردخان على خمسة عشر فرسخاً من همذان، وخطب لمسعود بالري وجرجان وطبرستان.

فتح التيز ومكران وكرمان ثم عود كرمات لأبي كاليبجار

كان صاحب التيز ومكران لما توفي خلف ولدين أبا العساكر وعيسى، واستبد عيسى منهما بالملك فسار أبو العساكر إلى خراسان مستنجداً بمسعود فبعث معه عسكراً ودعوا عيسى إلى الطاعة فامتنع، وقاتلوه فاستأمن كثير من أصحابه إلى أبي العساكر فانهزم عيسى وقتل في المعركة.

واستولى أبو العساكر على البلاد وملكها، وخطب فيها للسلطان مسعود، وذلك سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وفي هذه السنة ملك السلطان مسعود كرمات وكانت للملك أبي كاليبجار بن سلطان الدولة فبعث إليها السلطان مسعود عساكر خراسان فحاصروا مدينة بردسير، وشدوا في حصارها، واستبد إلى أطراف إلى البلاد، ثم وصل عسكر أبي كاليبجار إلى جيرفت واتبعوا الخراسانية بأطراف البلاد فعاود هزيمتهم، ودخلوا المساواة إلى خراسان وعادت العساكر إلى فارس.

فتنة عساكر السلطان مسعود مع علاء الدولة بن كاكويه وهزيمته

قد تقدم لنا هزيمة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه من الري ونجاته إلى قلعة قردخان.

ثم سار منها إلى يزجرد ومعه فرهاد بن مرداويج مدداً له. وبعث صاحب الجيوش بخراسان عسكراً مع ابن عمران

وسار إلى مسعود، وكان أكثر العساكر يميلون إلى مسعود لقوته وشجاعته وعلو سنه.

وأرسل التوتناش صاحب خوارزم، وكان من أصحاب السلطان محمود يشير على محمد بترك الخلاف فلم يسمع، وسار فأنتهى إلى بكياباد أول رمضان من سنه، وأقام، وكان مشتغلاً باللعب عن تدبير الملك، فتفاوض جنده في خلعه والإدالة منه بأخيه مسعود.

وتولى كبر ذلك عمه يوسف بن سبكتكين، وعلي خشاوند صاحب أبيه.

وحسبوا محمداً بقلعة بكياباد وكتبوا بالخبر إلى مسعود، وارتحلوا إليه بالعساكر فلقوه بهرة فقبض على عمه وعلى صاحب أبيه، وعلى جماعة من القواد.

واستقر في ملك أبيه شهر ذي القعدة من سنه، وأخرج الوزير أبا القاسم أحمد بن الحسن السيمندي من محبسه وفوض إليه الوزارة وأمور المملكة.

وكان أبوه قبض عليه سنة ست عشرة وأربعمائة وصاحده على خمسة آلاف دينار، ثم سار إلى غزنة فوصلها منتصف اثنتين وعشرين وأربعمائة ووفدت عليه رسل جميع الملوك من جميع الآفاق، واجتمع له ملك خراسان وغزنة والهند والسند وسجستان وكرمان ومكران والري وأصفهان والجبل، وعظم سلطانه.

عود أصفهان إلى علاء الدولة بن كاكويه ثم رجوعها للسلطان مسعود

كان قناخر مجد الدولة بن بويه صاحب أصفهان، وملكها السلطان محمود من يده فهرب عنها، وامتنع بمحصن قصران. وأنزل السلطان محمود ابنه مسعود بأصفهان، وأنزل معه علاء الدولة بن كاكويه فاستقل بها، وسار عنه مسعود، ثم زحف إليه وملكها من يده.

ولحق علاء الدولة بخوزستان يستنجد أبا كاليبجار بن سلطان الدولة.

وسار عنه إلى تستر ليستمد له من أخيه جلال الدولة العساكر لمعاودة أصفهان.

وكان ذلك عقب فتنة وحرب بين أبي كاليبجار وأخيه جلال الدولة فوعده أبوه بذلك إذا اصطلحا، وأقام عنده إلى أن توفي

تكنين إلى العصيان بالهند، وجمع الجموع فبعث السلطان سنة ست وعشرين وأربعمائة إليه جيشاً كثيفاً، وكتب إلى ملوك الهند بأخذ المذاهب عليه.

فلما قاتله الجيوش انهزم ومضى هارباً إلى ملتان، وقصد منها بهاطية وهو في جمع فلم يقدّر ملك بهاطية على منعه.

وأراد عبور نهر السند في السفن، فهبأ له الملك ليعبر إلى جزيرة وسط النهر ظنّها متصلة بالبر، وأوصى الملك الملاحين أن ينزلوه بها ويرجعوا عنه.

وعلموا أنّها منقطعة، فضعفت نفوسهم وأقساموا بها سبعة أيام، ففئنت أزوادهم وأكلوا دوابهم، وأوهمهم الجوع. وأجاز إليهم ملك بهاطية فاستوعبهم بالقتل والغرق والأسر وقتل أحد نفسه.

فتح جرجان وطبرستان

كانت جرجان وطبرستان وأعمالهما لدارا بن منوچهر بن قابوس، وكان السلطان مسعود قد أقره عليها، فلما سار السلطان إلى الهند وانتشر الغز في خراسان منع الحمل، ودخل علاء الدولة بن كاكويه وفرهاد بن ماكان في العصيان.

فلما عاد مسعود من الهند وأجلى الغز عن خراسان سار إلى جرجان سنة ست وعشرين وأربعمائة فملكها ثم سار إلى آمد فملكها وفازقها أصحابها، واقتروا في الفياض فتبعهم، وقتل منهم وأسروا.

ثم راسله دارا في الصلح وتقرير البلاد عليه، وحمل ما بقى عليه، فأجابه السلطان إلى ذلك وزجع إلى خراسان.

مسير علاء الدولة إلى أصفهان وهزمته

كان أبو سهل الحمدوني قد أنزله السلطان بأصفهان ودلهم على النواحي القريبة من علاء الدولة فوقع بهم وغنم ما معهم، وقوي طمعه بذلك في أصفهان، فجمع الجموع، وسار إليها، فخرج إليهم أبو سهل وقتلهم.

وتحيز من كان مع علاء الدولة من الأتراك إلى أبي سهل، فانهزم علاء الدولة، ونهب شواده، وسار إلى بروجرد، ثم إلى الطرم فلم يقبله ابن السلاز صاحبها.

الدليمي لاعتراضهما، فلما قاربهما العسكر فر فرهاد إلى قلعة شكمين، ومضى علاء الدولة إلى سابور خرات، وملك علي بن عمران يزدجرد.

ثم أرسل فرهاد إلى الأكراد الذين مع علي بن عمران وداخلهم في الفتك به، وشعر بذلك فسار إلى همدان، ولحقه فرهاد فاعتصم بقلعة في طريقه منيعة، وكادوا يأخذونه لولا عواقب الثلج والمطر في ذلك اليوم، وكانوا ضاحين من الخيام فتركوه ورجعوا عنه.

وبعث ابن عمران إلى تاش قرواش صاحب جيوش خراسان يستمده في العسكر إلى همدان، وبعث علاء الدولة يستدعي أبا منصور ابن أخيه من أصفهان بالسلاح والأموال ففعل.

وسار علي بن عمران من همدان لاعتراضه، فكبسه بجر باذقان وغنم ما معه وقتل كثيراً من عسكره وأسره، وبعث به إلى تاش قرواش صاحب جيوش خراسان.

وسار إلى همدان وزحف إليه علاء الدولة وفرهاد، فانقسموا عليه وجاؤوه من ناحيتين، فانهزم علاء الدولة ونجا إلى أصفهان وفر هارباً إلى قلعة شكين فتحصن بها.

مسير السلطان مسعود إلى غزنة والفتن

بالري والجليل

لما استولى السلطان على أمره سار من غزنة إلى خراسان لتهديد أمورها، وكان عامله وعامله أبيه على الهند أحمد نبال تكنين قد استنحل فيها أمره وحذثته نفسه بالاستبداد فمنع الحمل وأظهر الانتقاض.

فسار السلطان إلى الهند ورجع أحمد نبال إلى الطاعة، وقام علاء الدولة بأصفهان وأظهر الانتقاض، ومعه فرهاد بن مرادويج، فزحف إليهم أبو سهل وهزمهم، وقتل فرهاد ونجا علاء الدولة إلى جبال أصفهان وجرباذقان فامتنع بها، وسار أبو سهل إلى أصفهان فملكها سنة خمس وعشرين وأربعمائة ونهب خزائن علاء الدولة وحمل كتبه إلى غزنة وأحرقها الحسين الغوري بعد ذلك.

عود أحمد نبال تكنين إلى العصيان

ولما غاد السلطان إلى خراسان لقتال الغنم، غاد أحمد نبال

استيلاء طغرلبيك على خراسان

كان طغرلبيك وأخوه يقر وحقيريك، واسم طغرلبيك محمد، ولما أسر السلطان محمود أرسلان بن ملجوق وحبسته كما مر وأجاز أحياء من الغز إلى خراسان فكان من أخبارهم ما قدمناه، وأقام طغرلبيك وإخوته في أحيائهم بنواحي بخارى.

ثم حدثت الفتنة بينهم وبين علي تكين صاحب بخارى، وكانت بينهم حروب وقائع، وأوقعوا بعساكرهم مراراً فجمع أهل البلاد عليهم، وأوقع بهم واستلخمهم واستباحهم، فالحازوا إلى خراسان سنة ست وعشرين وأربعمائة، واستخدموا للصاحب خوارزم وهو هارون بن التونتش.

وغدر بهم، فساروا غنة إلى مفازة نسا، ثم قصصوا مرو وطلبوا الأمان من السلطان مسعود على أن يضمنهم أمان السابلة، فقبض على الرسل ولم يجيبهم على ما سألوا.

وبعث العساكر فأوقعوا بهم على نسا، ثم طار شترزهم في البلاد وعم ضررهم.

وسار السلطان ألب أرسلان إلى نيسابور ففارقها أبو سهل الحمدوني فيمن معه، واستولى عليها داود.

وجاء أخوه طغرلبيك على أثره ولقيهم رسل الخليفة إليهم وإلى العراقي الذين قتلهم بالري وهمدان، يغتفهم وينهاهم عن الفساد ويطمعهم، فلقوا الرسل بالإعظام والتكرمة.

ثم امتدت عين داود إلى نهب نيسابور فمنعة طغرلبيك، وعرض له شهر رمضان، ووصية الخليفة، فليج فقوي طغرلبيك في المنع وقال: والله لئن نهبت لأقتل نفسي، فكف داود عن ذلك.

وقسطوا على أهل نيسابور ثلاثين ألف دينار، فرقوها في أصحابهم.

وجلس طغرلبيك على سرير ملك مسعود بدار الملك، وصار يقعد للمظالم يومين في الأسبوع على عادة ولاية خراسان، وكانوا يخطبون للملك مسعود مغالطة وإيهاماً.

مسير السلطان مسعود من غزنة إلى

خراسان واجلاء السلجوقية عنها

ولما بلغ الخبر إلى السلطان مسعود باستيلاء طغرلبيك والسلجوقية على نيسابور، جمع عساكره من غزنة وسار إلى خراسان فنزل بلسنج في صفر سنة ثلاثين وأربعمائة وأصهر إلى

بعض ملوك الخانية دعماً لشرة، وأقطع خوارزم ولحق إسماعيل بطغرلبيك.

ثم أراح السلطان مسعود وفرغ من خوارزم والخانية، فبعث السلطان منبسي، فسار إليهم في العساكر فلم يشف نفسه، ونزل سرخس، وعدلوا عن لقائه، ودخلوا المفازة التي بين مرو وخوارزم، وأتبعهم السلطان مسعود وواقعهم في شiban من هذه السنة، فهزمهم فما بعدوا حتى عادوا في نواحيه، فأوقع بهم أخرى، وكان القتلى فيها منهم ألفاً وخمسمائة، وهربوا إلى المفازة، وثار أهل نيسابور بمن غندهم وقتلهم، ولحق فلهم بأصحابهم في المفازة.

وغذل السلطان إلى هراة ليجيز العساكر ليطلبهم، فبلغه الخبر بأن طغرلبيك سار إلى استراباذ، وأقام بها في فصل الشتاء يظن أن الثلج يمنهم عنه، فسار السلطان إليه هنالك، ففارقها طغرلبيك وغدل عن طوس إلى جبال الري التي كان فيها طغرلبيك وأصحابه، وقد امتنعوا بجبالهم خوفاً من السلطان لما كان منهم من موالاة السلجوقية، فأغذ إليهم السير، وصحبهم فتركوا أهلهم وأموالهم واعتصموا بوغر الجبل، وغنمت عساكره جميع ما استولوا عليه.

ثم تصعد إليهم بنفسه وعناكره وهلك كثير من العسكر بالثلج في شعاب الجبل ثم ظفروا بهم في قنة الجبل واستلحمهم، وسار مسعود إلى نيسابور في جمادى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ليربح ويخرج في فصل الربيع لطلبهم في المفاوز.

ثم عاد طغرلبيك وأصحابه من المفازة وبعث إليهم السلطان بالوعيد، فيقال: إن طغرلبيك قال لكتابه أكتب إليه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ﴾ الآية، ولا تزده عليها.

ولما ورد الكتاب على السلطان مسعود، كتب إليه وأتته بالمواعيد وبعث إليه بالخلع، وأمره بالرحيل إلى أمل الشط على جيحون، وأقطع نسا لطغرلبيك ودهستان لنداود وبدارة ليقور، وسمى كل واحد منهما بالدهقان، فلم يقبلوا شيئاً من ذلك ولا وثقوا به.

وأكثروا من العيث والفساد.

ثم كفوا عن ذلك، وبعثوا إلى السلطان مسعود يخادعونهم بالطاعة بليغ، وزغوه في أن يترح إليهم أخاهم أرسلان المحبوس بالهند، فبعث إليه السلطان مسعود وجاؤوا بأرسلان من الهند، ولما لم يتم بينهم أمر بإعادته إلى محبته.

هزيمة السلطان مسعود واستيلاء طغرل بك

على مدائن خراسان وأعمالها

ولما تغلبت السلجوقية على نواحي خراسان، وفضوا عساكر السلطان وهزموا الحاجب سباسي، اهتز السلطان لذلك، وأجمع لخراسان الحشد وبث العطاء، وأزاح العلل، وسار من غزنة في الجيوش الكثيفة والقبيلة العديدة على التعبية المألوفة، ووصل إلى بلخ، ونزل بظاهرها، وجاء داود بأحيائه فتزل قريباً منه، وأغار يوماً على معسكره فساق من باب الملك مسعود عدة من الجنائب المقربات، معها الفيل الأعظم، وارتاع الملك لذلك، وارتحل مسعود من بلخ في رمضان سنة تسع وعشرين وأربعمائة ومعه مائة ألف مقاتل.

ومر بالجوزجان فصلب الوالي الذي كان بها للسلجوقية، وانتهى إلى مرو الشاهجان.

ومضى داود إلى سرخس واجتمع معه أخوه طغرل بك وبيقو، وبعث إليهم السلطان في الصلح، فوفد عليه بيقو فأكرمه السلطان وخلع عليه، وأجابه هو عن أصحابه بالامتناع من الصلح للخوف من السلطان.

وسار من عند السلطان فسقط في يده وسار في اتباعهم من هراة إلى نيسابور، ثم سرخس، كلما تبعهم إلى مكان هربوا منه إلى آخر، حتى أظلم فصل الشتاء فأقاموا بنيسابور ينتظرون انسلاخه فانسلخ، والسلطان عاكف على لوه غافل عن شأنه حتى انقضى زمن الربيع.

واجتمع وزراؤه وأهل دولته وعزلوه في إهمال أمر عدوه، فسار من نيسابور إلى مرو في طلبهم فدخلوا المازة، فدخل وراءهم مرحلتين وقد ضجر العسكر من طول السفر وعنائه.

وكانوا منذ ثلاث سنين منقلين فيه منذ سفرهم مع سباسي فتزل بعض الأيام في منزلة على قليل من الماء، وازدحم الناس على السورود واستأثر به أهل الدولة والحاشية، فقاتلهم عليه الجمهور، ووقعت في العساكر لذلك هزيمة، وخالفهم الدعة إلى الخيام ينهبون ويتخطفون.

وكان داود وأحياؤه متابعاً للعسكر على قرب يتخطف الناس من حولهم، فشرع بتلك الهبة فركب في قومه وصدم العساكر وهم في تلك الحال فولوا منهزمين، والسلطان والوزير ثابتان في موقفهما يحرضان الناس على الثبات، فلم يثبت أحد، فانصرفا مع المنهزمين في فل واتبعهم داود وأثنى فيهم بالقتل.

ثم رجع إلى العسكر وقد غنمه أصحابه فأثرهم بالغنائم، وقسم فيهم ما حصل له وقعد على كرسي السلطان، وأقام عسكره ثلاثة أيام ولياليها خشية من كر العساكر السلطانية عليهم.

ونجا السلطان إلى غزنة فدخلها في شوال سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وقبض على سباسي وغيره من الأمراء، وسار طغرل بك إلى نيسابور فملكها آخر إحدى وثلاثين وأربعمائة، ونهب عسكره أهلها، وكان بها هرج عظيم من الدعة، وكانوا ينالون من الناس بالنهب والزنا والقتل فارتدعوا لذلك هزيمة طغرل بك، وسكن الناس.

وملك السلجوقية البلاد فسار بيقو إلى هراة فملكها وسار داود إلى بلخ وبها الحاجب التوتناش فاستخلفه السلطان عليها، فأرسل إليه داود في الطاعة فسجن الرسل، وحاصره داود.

وبعث السلطان مسعود جيشاً كثيفاً لإمداده، ودفع السلجوقية عن البلاد، فسار فريق منهم إلى الرخج، فدفعوا من كان بها من السلجوقية وهزموهم، وأفحشوا في قتلهم وأسرههم.

وسار فريق منهم إلى بيقو في هراة فقاتلوه ودفعوه عنها ثم بعث السلطان ابنه مودود بعساكر أخرى، وجعل معه وزيره أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد يديره، فسار عن غزنة سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة فلما قارب بلخ وداود يحاصرها، بعث داود جماعة من عسكره فلحقوا طلائع مودود فهزمهم، فلما وصلت منهزمة تأخر مودود عن نهايته، وأقام وسمع التوتناش بإحجام مودود عنه فاطاع داود وخرج إليه.

خلع السلطان مسعود ومقتله وولاية أخيه

محمد مكانه

ولما بعث السلطان ولده مودود إلى خراسان لمدافعة السلجوقية عنها، وأقام بعده سبعة أيام، وخرج من غزنة في ربيع سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة يريد الهند للششتي به على عادة أبيه، ويستنفر الهنود لقتال السلجوقية، واستصحب أخاه محمداً المسمول معه.

وكان أهل الدولة قد ضجروا منه فتفاوضوا في خلعه وولاية أخيه محمد، وأجمعوا ذلك.

فلما عبروا نهر سيحون وتقدم بعض الخزائن فتخلف أنوش تكين البلخي في جماعة من الغلمان الفداوية، ونهبوا بقية الخزائن، وبايعوا محمد المسمول وذلك في منتصف ربيع الآخر من

السنة.

إلى الهند أميراً عليها ستة وست وعشرين وأربعمائة فلما بلغه موت أبيه بايع نفسه وقطل إلى هاور والمئات فملكهما، وأخذ الأموال وجمع العساكر وأظهر الخلاف على أخيه مودود.

وحضر عيد الأضحى فأصبح ثالثه ميتاً بلهاور، بعد أن كان مودود يجهز العساكر من غزاة لقتاله، وهو في شغل شاغل من أمره، ففرغ عن الشواغل ورسخت قدمه في ملكه، وخالفه السلجوقية بخراسان وخاطبه خان الترك من وراء النهر بالانقياد والمتابعة.

استيلاء طغرل بك على خوارزم

كانت خوارزم من ممالك محمود بن سبكتكين وابنه مسعود من بعده، وكان عليها التوتاش حاجب محمود من أكابر أمراءه، ووليها لهما معاً، ولما شغل مسعود بفتنة أخيه محمد عند مهلك أبيهما أغار على تكين صاحب بخارى من أطراف البلاد وغيرهما.

فلما فرغ مسعود من مراجعة محمد واستقل بالملك بعث إلى التوتاش بالمسير إلى أعمال علي وانتزاع بخارى وسمرقند منه، وأمدّه بالعساكر فغير جيحون سنة أربع وعشرين وأربعمائة وأخذ من بلاد تكين كثيراً فأقام بها، وهرب تكين بين يديه.

ثم دعت الحاجة إلى الأموال للعساكر، ولم يكن في جبايته تلك البلاد.

وجاء بها فاستأذن في العود إلى خوارزم، وعاد وأتبعه على تكين وكبسه على غرة، فثبت وانهزم علي تكين ونجا إلى قلعة دبوسية.

وحاصره التوتاش وضيق عليه فبعث إليه واستعطفه فأفرج عنه، وعاد إلى خوارزم، وكانت به جراحة من هذه الوقعة، فانتقض عليه ومات وترك من الولد ثلاثة وهم: هارون ورشيد وإسماعيل، وضبط وزيره أحمد بن عبد الصمد البلد والخزائن حتى جاء هارون الأكبر من الولد من عند السلطان بعده على خوارزم، ثم توفي المميدي وزير السلطان مسعود، وبعث على أبي نصر لوزارته، واستتاب أبو نصر عند هارون بخوارزم ابنه عبد الجبار.

ثم استوحش من هارون وسخطه وأظهر العصيان في رمضان سنة خمس وعشرين وأربعمائة فاخفى عبد الجبار خوفاً من غائلته، وسعى عند السلطان مسعود.

وكتب مسعود إلى شاه ملك بن علي أحد ملوك الأطراف

وافترق العسكر واقتتلوا وعظم الخطب وانهزم السلطان مسعود، وحاصروه في رباط هناك.

ثم استنزله على الأمان وخيره أخوه محمد في السكنى فاختر مسعود قلعة كيدي فبعث إليها، وأمر بإكرامه، ورجع محمد بالعساكر إلى غزاة.

وفوض إلى ابنه أحمد أمر دولته وكان أهوج فاعتزم على قتل عمه مسعود، وداخل في ذلك عمه يوسف، وعلي خشاوند فوافقه عليه، وحرضوه فطلب من أبيه خاتمه ليختم به بعض خزانته، وبعث بهم إلى القلعة مع بعض خدمه ليؤدي رسالة مسعود، وهو بخراسان يعتذر بأن أولاد أحمد نبال تكين قتلوا السلطان مسعود قصاصاً بأبيهم، فكتب إليه يتوعده.

ثم طمع الجند في السلطان محمد ومدوا أيديهم إلى الرعايا ونهبوها، وخربت البلاد وارتحل عنها محمد.

وكان السلطان مسعود شجاعاً كريماً غزير الفضل حسن الخط، سخياً عباً للعلماء مقرباً لهم محسناً إليهم وإلى غيرهم من ذوي الحاجات، كثير الصلات والعطاء والجوائز للشعراء، حليت تصانيف العلوم باسمه، وكثرت المساجد في البلاد بعمارته.

وكان ملكه نسيحاً، ملك أصفهان وهمدان والسري وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وبلاد الدارون وكرمان وسجستان والسند والرخج وغزاة وبلاد الغور، وأطاعه أهل البر والبحر وقد صنف في أخباره ومناقبه.

مقتل السلطان محمد وولاية مودود ابن

أخيه مسعود

لما بلغ الخبر بمقتل السلطان مسعود إلى ابنه مودود بخراسان سار مجداً في عساكره إلى غزاة فلقبه عمه محمد في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وانهزم محمد وقبض عليه وعلى ابنه أحمد وعبد الرحمن، وعلى أنوش تكين البلخي الخصي، وعلى علي خشاوند وقتلهم أجمعين، إلا عبد الرحمن لرفقه بأبيه مسعود عند القبض عليه.

وقتل كل من داخل في قبض أبيه وخلعه، وسار سيرة جده محمود، وبلغ الخبر إلى أهل خراسان فثار أهل هراة بمن عندهم من السلجوقية فأخرجوهم، وتشوف أهل خراسان للنصر على الغز من قبل مودود، وكان أبوه السلطان مسعود قد بعث ابنه الآخر

هراية فانهزم منهم، وامتنع بقلعة له هو وعساكره، وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل، وحاصروهم المسلمون، حتى استأمنوا وسلموا ذلك الحصن وجميع الحصون التي من أعمال الملك، وغنموا أموالهم، وأطلقوا من كان في الحصون من أسرى المسلمين بعد أن أعطوهم خمسة آلاف، ثم ساروا إلى ولاية الملك الآخر واسمه باس الري فقاتلوه وهزموه، وقتل في المعركة هو وخمسة آلاف من قومه، وأسر الباقون، وغنم المسلمون ما معهم، وأذعن ملوك الهند بعدها بالطاعة، وحملوا الأموال وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم فأجيبوا

وفاة مودود وولاية عمه عبد الرشيد

ثم توفي أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود بغزنة لعشر سنين من ولايته في رجب سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وقد كان كاتب فاجابوه وجمع أبو كاليبجار صاحب أصفهان العساكر، وسار في المفازة لنصره فمرض في طريقه ورجع.

وسار خاقان إلى ترمذ لنصره، وطائفة أخرى عما وراء النهر إلى خوارزم.

وسار مودود من غزنة فعرض له بعد رحيله من غزنة مرض القولنج، فعاد إلى غزنة، وبعث إلى وزيره أبي الفتح عبد الرزاق بن أحمد التميمي في العساكر إلى سجستان لانتزاعها من الغز.

ثم اشتد وجعه فمات ونصب ابنه للأمر خمسة أيام.

ثم عدل الناس عنه إلى عمه علي بن مسعود، وكان مسعود لأول ولايته قبض على عمه عبد الرشيد أخيه محمود وحجسه بقلعة بطريق بست.

فلما قاربها الوزير أبو الفتح وبلغه وفاة مودود، نزل عبد الرشيد إلى العسكر فبايعوا له ورجعوا به إلى غزنة فهرب علي بن مسعود، واستقر الأمر لعبد الرشيد، ولقب سيف الدولة وقيل جمال الدولة، واستقام أمر السلجوقية بخراسان، واندفعت العوائق عنهم.

مقتل عبد الرشيد وولاية فرخزاد

كان لمودود صاحب اسمه طغرل، وجعله حاجباً ببابه،

بنواحي خوارزم بالمسير لقتال إسماعيل فزار وملك البلد فهزمهما، وهرب إسماعيل وشكر إلى طغرل بك وداود صريحين، فزار داود إلى خوارزم فلقيهما شاه ملك وهزمهما.

ثم قتل مسعود وملك ابنه مودود فدخل شاه ملك بأمواله وذخائره في المفاز إلى دهستان ثم إلى طبس، ثم إلى نواحي كرمان ثم إلى أعمال البتر ومكران.

وقصد أرتاش أخا إبراهيم نبال وهو ابن عم طغرل بك في أربعة آلاف فارس، فأسره وسلمه إلى داود واستأثر هو بما غنم من أمواله.

ثم أعاد أرتاش إلى باذغيس، وأقام على محاصرة هراة على طاعة مودود بن مسعود فامتنعوا منه خوفاً من معرة هجومه عليهم.

مسير العساكر من غزنة إلى خراسان

ولما ملك الغز خراسان واستولوا على سائر أملاكها وأعمالها.

واستولى طغرل بك على جرجان وطبرستان وخوارزم، وإبراهيم نبال على همذان وعلى الري والجيل، وولى على خراسان وأعمالها داود بن ميكائيل، وبعث السلطان أبو الفتح مودود عساكره مع بعض حجاجه إلى خراسان سنة خمس وثلاثين، فسرح إليهم داود ابنه ألب أرسلان في العساكر فاقبلوا، وكان الغلب لألب أرسلان.

وعاد عسكر غزنة مهزوماً، وسار عسكر من الغز إلى نواحي بست، وعاثوا وأفسدوا، فبعث أبو الفتح مودود إليهم عسكراً فقاتلهم، وانهزموا وظفر عسكر مودود بهم وأخذوا فيهم.

مسير الهنود لحصار هاور وامتناعها وفتح

حصون أخرى من بلادهم

وفي سنة خمس وثلاثين اجتمع ثلاثة من ملوك الهند على هاور، فجمع مقدم العساكر الإسلامية هناك عسكره وبعثهم للدفاع عنها.

وبعث إلى السلطان مودود وحاصرها الثلاثة ملوك، ثم أفرج الآخرين وعادوا إلى بلادهم.

وسارت عساكر الإسلام في اتباع أحدهما وهو دويالي

لخسرو شاه وأنكحه ابنته وسوغه ما يريد من الإقطاع على أن يخرج إليه ويخطب لأخيه فأبى من ذلك.

وأقام شهاب الدين يحاصره حتى ضاق مخفقه، وخذله أهل البلد، فبعث القاضي والخطيب يستأمنان له فأمنه ودخل شهاب الدين، وبقي خسرو شاه عنده مكرماً، وبقي شهرين ينظر المعونة من يد غياث الدين، فأنقذ خسرو شاه إليه فارتاب من ذلك، وأمنه شهاب الدين وحلف له، وبعث به وبأهله وولده مع جيش يحفظونهم.

فلما وصلوا بلد الغور حبسهم غياث الدين ببعض قلاعهم، فكان آخر العهد به.

وانقرضت دولة بني سبكتكين بموته، وكان مبدؤها سنة ست وستين وثلاثمائة، فتكون مدة الدولة مائتين وثلاث عشرة سنة.

دولة الترك الخبر عن دولة الترك في كاشغر وأعمال تركستان وما كان لهم من الملك في الملة الإسلامية بتلك البلاد وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم

كان هؤلاء الترك ملوك تركستان، ولا أدري أولية أمرهم بها إلا أن أول من أسلم منهم سبق قراخان، وتسمى عبد الملك، وكانت له تركستان وقاعدتها كاشغر، وساغون وخيمو وما يتصل بها إلى أوان المغازة المتصلة بالصين في ناحية الشمال عنهم، أعمال طراز والشاش وهي للترك أيضاً.

إلا أن ملوك تركستان أعظم ملكاً منهم بكثير.

وفي المغرب عنهم بلاد ما وراء النهر التي كان ملكها لبني سامان وكريهيم بخارى.

ولما أسلم ملكهم عبد الكريم سبق أقام على ملكه بتلك الناحية، وكان يطبع بني سامان هو وعقبه يستنفرونهم في حروبهم إلى أن ملك عهد الأمير نوح بن منصور في عشر التسعين والثلاثمائة على حين اضطراب دولة بني سامان، وانتفاض عاملهم بخراسان.

وانتفض أبو علي بن سيجور فراسل بقراخان وأطمعه في ملك بخارى فطمع بقراخان في البلاد ثم قصد أعمال بني سامان وملكها شيئاً فشيئاً.

وكان السلجوقية قد ملكوا سجستان وصارت في قسم يبقو أخى طغرل بك، وولى عليها أبا الفضل من قبله، فأشار طغرل بك على عبد الرشيد بانتزاعها منهم، وألح عليهم في ذلك، فبعث إليها، طغرل في ألف فارس، فحاصر حصن الطاق أربعين يوماً.

وكتب أبو الفضل من سجستان يستنجد، وسار طغرل، ولما سمع أصوات البوقات والدياب، وأخبر أنه يبقو، فتحاجزوا، وعلم أنه تورط ولقيهم مستميتاً فهزمهم وسار إلى هراة.

واتبعهم طغرل فرسخين وعاد إلى سجستان فملكها، وكتب إلى عبد الرشيد بالخبر، واستمده لغزو خراسان فأمدّه بالعساكر.

ثم حدثته نفسه بالملك، فأغذ السير إلى غزنة حتى كان على خمسة فراسخ منها، كتب إلى عبد الرشيد باستيلاجش العسكر وطلبهم الزيادة في العطاء، فشاوّر أصحابه فكشفوا له وجه المكيدة في ذلك وحذروه من طغرل، فصعد إلى قلعة غزنة وتحصن بها.

وجاء طغرل من الغد فنزل في دار الإمارة، وأرسل أهل القلعة في عبد الرشيد فأسلموه إليه فقتله واستولى على ملكهم، وتزوج ابنة السلطان عبد الرشيد ويحضهم على الأخذ بشأه فأجابوا.

ودخلوا عليه في مجلسه، وقتلوه وجاء خرخيز الحاجب لخمسة أيام من قتله، وجمع وجوه القواد وأعيان البلد، وباع فرخاد ابن السلطان مسعود، وقام بتدبير دولته وقتل الساعين في إلى غزنة ولقي الغز وهزمهم.

ودخل غزنة فملكها من أيديهم. ثم سار من غزنة إلى كرمان وسوران فملكها وكرمان هذه بين غزنة والهند، وليست كرمان المعروفة.

ثم سار غياث الدين إلى نهر السند ليعبر إلى هاور كرمسي خسرو شاه بن بهرام شاه، فبادر خسرو شاه ومنعه العبور فرجع وملك ما يليه من جبال الهند وأعمال الأتبار.

وولى على غزنة أخاه شهاب الدين ورجع إلى بيروذكوه.

استيلاء الغورية على هاور ومقتل خسرو شاه وانقراض دولة بني سبكتكين

ولما ولي شهاب الدين الغوري غزنة أحسن السيرة فيهم، وافتتح جبال الهند مما يليه فاستفحل ملكه، وتطاول إلى ملك هاور قاعدة الهند من يد خسرو شاه، فسار سنة تسع وسبعين وأربعمائة في عسكر غزنة والغور، وعبر إليها وحاصرها، وبذل الأمان

وأخويه الآخرين إسماعيل ويوسف ابني نوح، وأعمامه محموداً وداود وغيرهم، وانقرضت دولة بني سامان والبقاء لله.

ثورة إسماعيل إلى بخارى ورجوعه عنها

قد تقدم لنا أن إسماعيل فر من محبسه ولحق بخوارزم، واجتمع إليه قوادهم وباعوه، ولقبوه المستنصر.

وبعث قائداً من أصحابه إلى بخارى ففر من كان بها من عساكر إيلك خان فهزمهم، وقتل منهم وحبس.

وكان النائب بها جعفر تكين أخي إيلك خان فحبسه، واتبع المهزمين إلى سمرقند، ولحق إسماعيل بأحياء الغز، وجاء إيلك خان في جيوشه، والتقوا فانهمز إيلك خان وأسروا قواده، وغنموا سواده، ورجعوا إلى بلادهم، وتشاوروا في الأسرى فارتاب بهم إسماعيل، وعبر النهر وانضمت إليه فتيان سمرقند.

واتصل الخبر بإيلك خان فجمع والتقى هو وإسماعيل وهزمه بنواحي أسروشة، وعبر النهر إلى نواحي الجوزجان، ثم إلى مرو، وبعث محمود العساكر في أثره من خراسان، وكذلك قابوس من جرجان فعاد إلى ما وراء النهر وقد ضجر أصحابه، ونزل بجي من العرب فأهلوه الليل وقتلوه.

واستقرت بخارى في ملك إيلك خان، وولى عليها أخوه علي تكين.

عبور إيلك خان إلى خراسان

قد تقدم لنا ما كان انعقد بين إيلك خان ومحمود من المواصلات، ثم دبّت عقارب السعاية بينهما، وأكثر محمود من غزو بلاد الهند.

ولما سار إلى الملتان اغتم إيلك خان الفرصة في خراسان وبعث سياسي تكين صاحب جيشه وأخاه جعفر تكين إلى بلخ في عدة من الأمراء وأرسلان الحاجب.

فسار أرسلان إلى غزنة وملك سياسي هراة وأقام بها، وبعث إلى نيسابور عسكرياً فاستولى عليها وبادر محمود بالرجوع من الهند، وفرق العطايا وأزاح الملل واستنفر الأتراك الخنجية.

وسار إلى جعفر تكين ببلخ ففارقها إلى ترمذ، وبعث العساكر إلى سياسي بهراة، ففارقها إلى مرو ليعبر النهر، فاعترضه التركمان فأوقع بهم، وسار إلى أيورود والعساكر في اتباعه.

وبعث الأمير نوح إليه العساكر مع قائده أنج فلقبهم بقرخان وهزمهم أوأسر أنج وجماعة من القواد.

وسار فائق إلى بقرخان واختص به، وصار في جملة، ورجع الأمير نوح إلى بخارى كما مر من قبل، وهلك بقرخان في طريقه.

وفاة بقرخان وملك أخيه إيلك خان

سليمان

ولما ارتحل بقرخان من بخارى وهو على ما به من المرض، أدركه الموت في طريقه، فمات سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

وكان ديناً عادلاً حسن السيرة، محباً للعلماء وأهل الدين مكرماً لهم، متشيعاً سنياً.

وكان موالياً لآل رسول الله ﷺ، ولما مات ولي بعده أخوه إيلك خان سليمان، ولقبه شهير الدولة، واستوثق ملكه، بتركستان وأعمالها، ووفد عليه فائق بعد حروبه بخراسان مع جيوش الأمير نوح، وسبكتكين وابنه محمود، ولحق به مسترخياً فأكرمه ووعدته، وكتب إلى الأمير نوح يشفع في فائق وأن يولييه سمرقند فولاها عليها وأقام بها.

استيلاء إيلك خان على ما وراء النهر

لما عاد بقرخان على بخارى وعاد إليها الأمير نوح، وقد كان من أبي علي بن سيجور وإجلاته عن خراسان ما كان، استدعى الأمير نوح مولاه سبكتكين بعد ذلك، واختلف ابنه بكثزون ومنصور كما تقدم ذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة، ثم هلك سبكتكين كما تقدم ذلك كله قبل.

ثم استوحش بكثزون من منصور واتفق مع فائق على خلعه، فخلعه وسلمه بخراسان سنة تسع وثمانين وأربعمائة وكان فائق خصياً من موالى نوح بن منصور.

وهذه الأخبار كلها مستوفاة في دولة بني سامان.

ثم بلغ الخبر إلى إيلك خان، فطمع في ملك بخارى وأعمالها، وسار في جموع الترك إلى بخارى مورياً بالحاماسة عن عبد الملك والنصرة له، وخرج بكثزون والأمراء والقواد للقائه، فقبض عليهم، وسار فدخل بخارى عاشر ذي القعدة من سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ونزل دار الإمارة، وظفر بعبد الملك فحبسه فانكدر حتى مات، وحبس معه أخاه المخلوع أبا الحارث منصور،

وأربعمئة وكتب السلطان محمود صاحب خراسان يستظهر به على أرسلان خان فعدد السلطان على جيحون جسراً من السفن بحكمة الربط بسلاسل الحديد وعبر إليه.

ثم خام عن لقائه فعاد إلى خراسان، وانقطعت المرواة بينه وبين أرسلان خان، وتصالح مع قراخان واتفقا على محاربة السلطان محمود، والمسير إلى بلاده، فسار إلى بلخ، وقتلها السلطان قتلاً شديداً حتى انهزم الترك، وعبروا النهر إلى بلادهم، وكان من غرق أكثر من نجا وعبر السلطان في أثرهم ثم رجع عنهم.

أخبار قراخان

الذي يظهر من كلام ابن الأثير: أن قراخان ولي بلاد الترك بتركستان وساغون، فإنه ذكره عقب هذا الخبر بالعدل وحسن السيرة وكثرة الجهاد.

ثم قال عقب كلامه: فمن فتوحاته ختن بين الصين وتركستان وهي كثيرة العلماء والفضلاء.

ثم قال: وبقي كذلك إلى سنة ثلاث وعشرين وأربعمئة فتوفي فيها.

ولما توفي خلف ثلاثة بنين: أرسلان خان وكنيته أبو شجاع ولقبه شرف الدولة، وقراخان، ولم يذكر الثالث والظاهر أنه شرف الدولة.

قال: وكان لأرسلان كاشغر وختن وساغون، وخطب له على منابرهما، وكان عادلاً مكرماً للعلماء وأهل الدين، محسناً لهم، وقصد كثير منهم فآكرمهم.

قال: وكان لبقرخان طراز وأسفيجاب، ووقعت الفتنة بين بقرخان وأرسلان فغلبه بقرخان وحبسه وملك بلاده.

وقال في موضع آخر: كان يقنع من إخوته وأقاربه بالطاعة فقسم البلاد بينهم، وأعطى أخاه أرسلان تكين كثيراً من بلاد الترك، وأعطى أخاه طراز وأسفيجاب، وأعطى عمه طغان خان فرغانة بأسرها، وأعطى ابنه علي تكين بخارى وسمرقند وغيرهما، وقنع هو ببلاد ساغون وكاشغر.

قال: وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمئة أسلم كثير من كفار الترك الذين كانوا يطرقون بلاد الإسلام بنواحي ساغون وكاشغر، ويعيشون فيها ويصيفون ببلاد بلغار فأسلموا وافترقوا في البلاد، وبقي من لم يسلم، التز الحظا في نواحي الصين انتهى.

ثم سار إلى خراسان فاعترضه محمود وهزمه، وأسر أخاه وجماعة من قواده، وعبر النهر إلى ايلك، وأجلى عساكره وأصحابه عن خراسان، فبعث ايلك خان إلى قراخان ملك الختل، فاستنفر الترك الغزية والخلنجية والهنود، وعسكر على فرسخين من بلخ، وتقدم ايلك وقراخان في عساكرهما، ونزلوا قبالتة، واقتتلوا يوماً إلى الليل، ومن الغد اشتدت الحرب ونزل الصبر.

ثم حمل محمود في القيلة على ايلك خان في القلب، فاختل المصاف، وانهزم الترك، واتبعهم عساكر محمود وأخذوا فيهم القتل والأسر إلى أن عبر النهر، وأقلب ظافراً غائماً وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمئة.

وفاة ايلك خان وولاية أخيه طغان خان

ثم هلك ايلك خان سنة ثلاث وأربعمئة وكان موالياً للسلطان محمود ومظاهراً له على أخيه طغان خان.

فلما ولي تجدد ما بينه وبين السلطان من الولاية، وصلحت الأحوال وانمحت آثار الفتنة في خراسان وما وراء النهر.

وفاة طغان خان وولاية أخيه أرسلان خان

ثم توفي طغان خان ملك الترك سنة ثمان وأربعمئة بعد أن كان له جهاد مع أمم من الترك خرجوا من الصين في زهاء ثلاثمئة ألف وقصدوا بلاده في ساغون وهما المسلمين أمرهم فاستنفر طغان طوائف المسلمين وغيرهم، واستقبلهم فهزمهم، وقتل منهم نحو مائة ألف وأسر مثلها، ورجع الباقي منهزمين.

ومات طغان إثر ذلك، وولي بعده أخوه أرسلان وكان من الغريب الدال على قصد إيمان طغان، أنه كان عند خروج الترك إلى بلاد ساغون عليلاً، فلما بلغه الخبر تضرع لله أن يعافيه حتى يتقم من هؤلاء الكفرة ويدفعهم عن البلاد، فاستجاب الله دعاه. وكان محباً لأهل العلم والدين.

ولما توفي وأصل أرسلان خان الولاية مع السلطان محمود، وأصهر إلى ابنه مسعود في بعض كرائمه فاستحكم الاتصال بينهما.

انتقاض قراخان على أرسلان وصلحه

كان أرسلان خان قد ولي على سمرقند قراخان يوسف بن بقرخان هارون الذي ملك بخارى، فانتقض عليه سنة تسع

متتصف سنة خمس وستين وأربعمئة فلقية التكين وهزموه وغرق كثير من أصحابه في النهر.

ثم استقامت الأمور للسلطان ملك شاه فسار إلى ترمذ سنة ست وستين وأربعمئة وحاصرها وزمائها بالمنجنيق، وطم خندقها حتى استأمن أهلها واعتصم بقلعتها أخو التكين، ثم استأمن وأطلقه السلطان إلى أخيه.

ثم سار ملك شاه إلى سمرقند ففارقها، وبعث أخوه السلطان في الصلح فأجابته ورده إلى سمرقند ورجع السلطان إلى خراسان انتهى.

قال ابن الأثير: ثم مات شمس الدولة وولي بعده أخوه خضرخان.

ثم مات خضرخان فولي بعده ابنه أحمد خان.

وكان أحمد هذا أسره ملك شاه في سمرقند لما فتحها، واكل به جماعة من الديلم، فلحق عنهم معتقدات الإباحة والزندقة.

فلما ولي أظهر الانحلال، فاعتزم جنده على قتله، وتفاوضوا في ذلك مع نائبه بقلعة قاشان، فأظهر العصيان عليه، فسار في العساكر وحاصر القلعة، وتمكن جنده منه فقبضوا عليه ورجعوا به إلى سمرقند فدفعوه إلى القضاة وقتلوه بالزندقة، ولولوا مكانه مسعود خان ابن عمه.

قال ابن الأثير: وكان جده من ملوكهم وكان أصم.

وقصده طغان خان بن قراخان صاحب طراز فقتله واستولى على الملك، وولى على سمرقند أبا المعالي محمد بن محمد بن زيد العلوي فوليها ثلاث سنين، ثم عصى عليه فحاصره وأخذه فقتله.

ثم خرج طغان خان إلى ترمذ فلقية السلطان سنجر وظفر به وقتله، وأخذها منه عمرخان وملك سمرقند ثم هرب من جنده إلى خوارزم فظفر به السلطان أحمد.

وولي سمرقند محمد خان، وولي بخارى محمد تكين.

وقال ابن الأثير في ذكر كاشغر وتركستان: إنها كانت لأرسلان خان بن يوسف قدرخان كما ذكرنا.

ثم صارت لمحمود نورخان صاحب طراز والشاش فملكها سنة وثلاثة أشهر، ثم مات، فولي بعده طغراخان بن يوسف قدرخان، وملك بلاد ساغون وأقام ست عشرة سنة، ثم توفي فملك ابنه طغرل تكين شهرين.

ثم جاء هارون بقراخان بن طقفاج نورخان وهو أخو يوسف طغرل خان فملك كاشغر، وقبض على هارون واستولى

ورجع إلى بقراخان الأول وقال فيه: حبس أخاه أرسلان خان وملك بلاده، ثم عهد بالملك لولده الأكبر واسمه حسين جعفر تكين، وكان له ولد آخر أصغر من حسين اسمه إبراهيم، فغارت أمه لذلك، وقتلت بقراخان بالسهم، وختقت أخاه أرسلان في عجبسه.

ثم استلحمت وجوه أصحابه وأمرائه، وملك ابنها إبراهيم سنة تسع وثلاثين وأربعمئة وبعثه في العساكر إلى برسخان، مدينة بناوحي تركستان، وكان صاحبها يسمى نبال تكين.

فانهزم إبراهيم وظفر به نبال تكين وقتله واختلف أولاد بقراخان وفسد أمرهم، وقصدهم طقفاج خان صاحب سمرقند وفرغانة، فأخذ من أولاد بقراخان الملك من أيديهم.

الخبر عن طقفاج خان وولده

كان بسمرقند وفرغانة أيام بني بقراخان وإخوته ملك من الترك الخانية اسمه نصر ايلك، ويلقب عماد الدولة ويكنى أبا المظفر.

ثم فليج سنة اثنين وأربعمئة ومات، وقد عهد بملكه لابنه شمس الدولة نصر، فقصده أخوه طغان خان ابن طقفاج وحاصره بسمرقند وبيته شمس الدولة فهزموه وظفر به، وكان ذلك في حياة أبيهما.

ثم جاء بعد ماته إلى محاربة شمس الدولة بقراخان هارون بن قدرخان يوسف وطغرك خان، وكان طقفاج قد استولى على مملكه وحاصره بسمرقند، ولم يظفروا به ورجعوا عنه، وصارت أعمال الخانية كلها في أيديهما، والأعمال المتاخمة لسبحون لشمس الدولة، والتخم بينهما خجندة.

وكان السلطان ألب أرسلان قد تزوج بابنة قدرخان، وكانت قبله زوجاً لمسعود بن محمود بن سبكتكين.

وتزوج شمس الدولة بابنة ألب أرسلان شمس الملك، وذلك سنة خمس وستين وأربعمئة وملكها ونقل ذخائرها إلى سمرقند.

وخاف أهل بلخ منه فاستأمنوا إليه وخطبوا له فيها، لأن أرباس ألب أرسلان سار إلى الجوزجان، وجاء إليها التكين، وولي عليها وعاد إلى ترمذ فثار أهل بلخ بأصحابه وقتلوه فرجع إليهم، وأمر بإحراق المدينة ثم عفا عنهم وصادر التجار، وبلغ الخبر إلى ألب أرسلان فعاد من الجوزجان وسار في العساكر إلى ترمذ في

ذلك، ووقفوا بعدوة النهر حتى وافى محمد خان بشرطه وسكنت الفتنة.

استيلاء السلطان سنجر على سمرقند

كان السلطان سنجر لما ملك سمرقند ولي عليها أرسلان خان بن سليمان بقراخان داود، فأصابه الفالج، واستتاب ابنه نصر خان فوثب به أهل سمرقند وقتلوه.

وتولى كبر ذلك اثنان منهم أحدهما علوي، وكان أبوه محمد المفلوج غائباً فعظم عليه، وبعث عن ابنه الآخر من تركستان فجاء وقتل العلوي وصاحبه.

وكان والد أرسلان خان قد بعث إلى السلطان سنجر يستحثه قبل قدوم ابنه الآخر فصار سنجر لذلك.

فلما قدم إلى أبيه أرسلان وقتل قاتلي أخيه، بعث أرسلان إلى السلطان سنجر يعرفه، ويسأله العود إلى بلده فغضب لذلك، وأقام أياماً ثم جيء إليه بأشخاص واعترفوا بأن محمداً، خان بعثهم لقتله فغضب، وسار إلى سمرقند فملكها عنوة، وتحصن محمد خان ببعض الحصون حتى استنزله سنجر بالأمان بعد مدة وأكرمه، وكانت بنته تحبه، فبعث إليها وأقام عندها.

وولى على سمرقند حسين تكين، ورجع إلى خراسان.

ومات حسين تكين فولي بعده عليها محمود بن محمد خان أخا زوجته.

استيلاء الخطأ على تركستان وبلاد ما وراء

النهر وانقراض دولة الخانية

نقل ابن الأثير هذا الخبر عن اضطراب عنده فيه، على أن أخبار هذه الدولة الخانية في كتابه ليست جلية ولا متضحة، وأرجو إن مد الله في العمر أن أحقق أخبارها بالوقوف عليها في مظان الصحة وألخصها مرتبة، فإني لم أوفها حقها من الترتيب، لعدم وضوحها في نقله.

وحاصل ما قرر في هذا الخبر من أحد طرقه أنه قال: إن بلاد تركستان وهي كاشغر وبلاد ساغون وختن وطراز وغيرها مما يجوارها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانية من الترك، وهم من نسل فراسياب ملكهم الأول المنازع للوك اليكنية من الفرس، وأسلم جدهم الأول سبق قراخان.

على ختن، وما يتصل به إلى ساغون، وأقام عشرين سنة، وتوفي سنة ست وتسعين وأربعمائة، فولي بعده أحمد بن أرسلان خان، وبعث إليه المستظهر بالخلع، ولقبه نور الدولة.

مقتل قدرخان صاحب سمرقند

قال ابن الأثير سنة خمس وتسعين وأربعمائة: ولما سار سنجر إلى بغداد مع أخيه السلطان محمد، طمع قدرخان جبريل بن عمر صاحب سمرقند في خراسان، فخالف إليها سنجر بعد رجوعه إليها، وقد عظم الخلاف بين بركيارق وأخيه محمد وكان بعض أمراء سنجر اسمه كندعري يكاتب قدرخان ويغريه ويستحثه إلى البلاد، فصار قدرخان إلى بلخ سنة سبع وتسعين وأربعمائة في مائة ألف.

وبادر سنجر إليها في ستة آلاف، فلما تقاربا لحق كندعري بقدرخان، فبعثه إلى ترمذ وملكها وجاء الخبر إلى سنجر بأن قدرخان نزل قريباً من بلخ، وأنه خرج متصيداً في ثلاثمائة فارس، فجرد إليه عسكرياً مع أميره برغش فهزمهم، وجاء بكندعري وقدرخان أسيرين.

وقيل: إنه وقع بينهما مصاف، وانهزم قدرخان وأسر فقتله سنجر، وسار إلى ترمذ فحاصرها حتى استأمن إليه كندعري فأمنه، ولحق بغزنة وكان محمد أرسلان خان بن سليمان بن داود بقراخان نازلاً بمرو فبعث عنه السلطان سنجر، وولاه على سمرقند وهو من نسل الخانية مما وراء النهر، وأمه بنت السلطان سنجر، وولي ملك شاه دفع عن ملك آبائه فقصده مرو، وأقام بها، فلما قتل قدرخان وولاه سنجر أعماله، وبعث معه العساكر الكثيرة فاستولى عليها، واستفحل ملكه، ثم انتقض عليه من أمراء الترك تيمورلنك، وجمع وسار إلى محمد خان بسمرقند وغيرها، فاستنجد محمد خان بالسلطان سنجر فأجده بالعساكر، وسار إلى تيمورلنك فهزمه، وفرض جموعه، ورجعت العساكر إليه.

انتقاض محمد خان عن سنجر

ثم بلغ السلطان سنجر سنو سيره محمد في رعيتيه وإعماله لأوامر السلطان، فصار إليه سنة سبع وخمسمائة فخاف محمد خان غائلته، وبعث إلى الأمير قماج أعظم أمراء سنجر يعتذر ويسأله الصلح، فشرط عليه الحضور عند السلطان، فاعتذر بالخوف، وأنه يقف من وراء جيحون ويقبل الأرض من هنالك فأجيب إلى

وكان سبب خروجهم من الصين ونزولهم ساغون، أن أرسلان محمد كان يستجد بهم ويجري عليهم الأرزاق والإقطاعات، وينزلهم مسالح في ثغوره.

ثم استوحشوا منه ونفروا وطلبوا الرحلة إلى غير بلده، وارتادوا البلاد واختاروا منها بلد الساغون فساروا إليها وردد عليهم أرسلان الغزو.

ولما جاء كوخان ملك الصين صاروا في جملة حتى إذا رجع زحفوا إلى بلاد تركستان فملكوها بلداً بلداً.

وكانوا إذا ملكوا المدينة يأخذون ديناراً من كل بيت ولا يزيدون عليه، ويكلفون من يطيعهم من الملوك أن يعلق في منطقته لوحاً من فضة علامة على الطاعة.

ثم ساروا إلى بلاد ما وراء النهر سنة إحدى وثلاثين وخمسة.

ولقيهم محمود خان بن أرسلان خان فهزموه إلى سمرقند وبخارى، واستجد بالسلطان سنجر ودعاه لنصر المسلمين، فجمع العساكر واستجد صاحب سجستان ابن خلف والغوري صاحب غزنة، وملوك ما وراء النهر وغيرهم.

وسار للقائهم عبر النهر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسة.

وشكا إليه محمود من القارغلية، فأراد أخذهم فهربوا إلى كوخان، وسأله أن يشفع لهم عند السلطان سنجر، وكتب إليه يشفع لهم فلم يشفعه.

وكتب إليه يدعوهم إلى الإسلام ويتهدده. ولما بلغ الكتاب إلى كوخان عاقب الرسول، وسار للقائه سنجر في أمم الترك والخطا والقارغلية، فلقية السلطان سنجر أول صفر سنة ست وثلاثين وخمسة وعلى ميمته قماج وعلى ميسرته صاحب سجستان، وأبلى ذلك اليوم وساء أثر القارغلية في تلك الحرب، وانهزم السلطان سنجر والمسلمون، واستمر القتل فيهم.

وأمر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان ابنة أرسلان خان محمد، وأطلقهم الكفار.

ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أفحش قتلاً. واستقرت الدولة فيما وراء النهر للخطا والترك، وهم يومئذ على دين الكفر، وانقرضت دولة الخاتية المسلمين الذين كانوا فيها.

ثم هلك كوخان منتصف سبع وثلاثين وكان جميلاً حسن الصوت، ويلبس الحرير الصيني، وكان له هبة على أصحابه ولا

ويقال: سبب إسلامه أنه رأى في منامه رجلاً نزل من السماء، فقال له باللسان التركي ما معناه: أسلم تسلم في الدنيا والآخرة فأسلم في منامه، وأصبح مطهراً لإسلامه.

ولما مات قام مقامه ابنه موسى واتصل الملك في عقبه إلى أرسلان خان بن محمد بن سليمان سبق فخرج عليه قدرخان في ملكه سنة أربع وتسعين وأربعمائة.

واجتمع الترك عليه وكانوا طوائف فكان منهم القارغلية، وبقية الغز الذين عبروا إلى خراسان ونهبوها على ما مر.

وكان لأرسلان ابن اسمه نصرخان، وفي صحابته شريف علوي اسمه الأشرف محمد بن أبي شجاع السمرقندي، فحسن له طلب الملك من أبيه وأطمعه فيه فقتلها أرسلان.

ثم وقعت بينه وبين القارغلية من الترك وحشة دعتهم إلى الانتفاض والعصيان، واستجد بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسة، ووصل إلى سمرقند وهرب القارغلية بين يديه.

ثم عثر على رجاله استراب بهم قبض عليهم، وتهدهم فذكروا أن أرسلان خان وضعهم على قتله فرجع إلى سمرقند، وملك القلعة وبعث أرسلان أميراً إلى بلخ فمات بها.

وقيل: إنه اختراع منه، ووضع هذه الحكاية وسيلة لذلك.

ثم ولي السلطان سنجر على سمرقند فلج طمناج، وهو أبو المعالي الحسن بن علي المعروف بحسين تكين، كان من أعيان بيت الخاتية فلم تطل أيامه، ومات فولي سنجر مكانه محمود ابن أخته، وهو ابن السلطان أرسلان. فأقام ملكاً عليها.

وكان ملك الصين كوخان قد وصل إلى كاشغر سنة اثنتين وعشرين وخمسة في جيوش كثيفة.

ومعنى كوخان أهل الصين: أعظم، وخان سمة ملوك الترك.

وكان أعور وكان يلبس لبسة ملوك الترك، وهو مانوي المذهب.

ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه طوائف الخطا من الترك، وكانوا قد خرجوا قبله من الصين، وأقاموا في خدمة الخاتية أصحاب تركستان فانضافوا إلى كوخان ملك الصين وكشف جمعه بهم.

وزحف إليه صاحب كاشغر، وهو الخان أحمد بن الحسين بجموعه فهزمه، وأقامت طوائف الخطا معه في تلك البلاد.

الغدر به، وشعر بذلك بهرام فحبسه ثم قتله، واستوحش الغورية لذلك.

مقتل محمد بن الحسين الغوري وولاية أخيه

الحسين شاه ثم أخيه شوري

ولما قتل محمد ولي من بعده أخوه شاه بن الحسين، ثم كانت الورقة.

وملك بعده أخوه شوري بن الحسين، وأجمع الأخذ بشأ أخيه من بهرام شاه فجمع له، وسار إلى غزنة سنة ثلاث وأربعين وخسمائة فملكها، وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند فجمع عسكره الي هناك، ورجع إلى غزنة وعلى مقدمته السلار بن الحسين، وأمير هندوخان إبراهيم العلوي.

وسار شوري للقاءه فانفض عنه عسكر غزنة إلى بهرام شاه فانهزم وأسر بهرام، ودخل غزنة في محرم سنة أربع وأربعين وخسمائة، وصلب شوري على باب غزنة واستقر في ملكه.

مقتل شوري بن الحسين وولاية أخيه علاء

الدين ابن الحسين واستيلاؤه على غزنة

وانتزاعها منه

لما هلك شوري بن الحسين ملك الغور من بعده أخوه الحسين، ولقب علاء الدولة واستولى على جبال الغور ومدينة بيروزكوه المجاورة لأعمال غزنة من بلاد الهند، وهي تقارب في اتساعها بلاد خراسان فاستفحل ملكه، وطمع في ملك خراسان وسار إلى هرة باستدعاء أهلها، فحاصرها ثلاثاً ثم ملكها بالأمان وخطب فيها للسلطان سنجر.

وسار إلى بلخ وبها الأمير قماج من قبل السلطان سنجر، فغدر به أصحابه، فملك علاء الدولة بلخ، وسار إلى السلطان سنجر وقتله وظفر به فأسره ثم خلع عليه ورده إلى بيروزكوه.

ثم سار علاء الدين يريد غزنة سنة سبع وأربعين وخسمائة ففارقها صاحبها بهرام شاه، وملكها علاء الدولة، وأحسن السيرة واستخلف عليهم أخاه سيف الدولة، وعاد إلى بلاد الغور، فلما جاء فصل الشتاء وسد الثلج المسالك، كتب أهل غزنة إلى بهرام شاه واستدعوه، فلما وصل وثبوا بسيف الدولة وصلبوه، وبايعوا لبهرام شاه وملكوه عليهم كما كان.

يقطع أحداً منهم خوفاً على الرعية من العسف، ولا يقدم أميراً على فوق مائة فارس خشية أن تحدته نفسه بالعصيان، وينهى عن الظلم وعن السكر ويعاقب عليه، ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه.

ولما مات ملكك بعده ابنته وماتت قريباً فملكك بعدها أمها زوجة كوخان، وبقي ما وراء النهر بيد الخطأ إلى أن غلبهم عليه علاء الدين محمد بن خوارزم شاه صاحب دولة الخوارزمية سنة اثني عشرة وستمائة على ما يأتي في أخبار دولتهم.

إجلاء القارغلية من وراء النهر

لما ملك ما وراء النهر سمرقند وبخارى جقري خان بن حسين تكين من بيت الخانية، وأمره سنة تسع وخسين وخسمائة بإجلاء الترك القارغلية من أعمال بخارى وسمرقند إلى كاشغر، وإلزامهم الفلاحة ومجانبة حمل السلاح فامتنعوا من ذلك. وألح عليهم جقري خان فامتنعوا واجتمعوا لحربه.

وسار إلى بخارى فبعث إليهم بالوعظ في ذلك والوعد الجميل بخلال ما جمع بقراخان، وكبسه على بخارى فانهزموا، وأئخذ فيهم وقطع دابرهم وأجلاهم عن نواحي سمرقند، وصلحت تلك النواحي والله أعلم.

الخبر عن دولة الغورية القائمين بالدولة

العباسية بعد بني سبكتكين وما كان لهم من

السلطان والدولة وابتداء أمرهم ومصائر

أحوالهم

كان بنو الحسين أيام سبكتكين ملوكاً على بلاد الغور لبني سبكتكين وكانت لهم شدة وشوكة.

وكان منهم لآخر دولة بني سبكتكين أربعة أمراء قد اشتهروا واستفحل ملكهم: وهم محمد وشوري والحسين شاه وسام بنو الحسين، ولا أدري إلى من ينسب الحسين وأظنهم إلى بهرام شاه آخر ملوك بني سبكتكين، والتحم به معظم شأنه.

ثم كانت الفتنة بين بهرام وأخيه أرسلان فمال محمد إلى أرسلان، وارتاب به بهرام لذلك.

ثم انقضى أمر أرسلان، وسار محمد بن الحسين في جموعه إلى غزنة سنة ثلاث وأربعين وخسمائة، مورياً بالزيارة وهو يريد

وافتح جبال الهند مما يليه فاستفحل ملكه، وتناول إلى ملك لهاور قاعدة الهند من يد خسروشاه، فسار سنة تسع وسبعين وخمسمائة في عساكر خراسان والغور وعبر إليها وحاصرها، وبذل الأمان لخسروشاه وأنكحه ابنته وسوغه ما يريد من الأقطاع على أن يخرج إليه ويخطب لأخيه فأبى من ذلك، وبقي شهاب الدين يحاصره حتى ضاق مخنقه بالحصار وخذله أهل البلد، فبعث بالقاضي والخطيب يستأمنان له فأمنه ودخل شهاب الدين البلد، وبقي خسروشاه عنده مكرماً، وبعد شهرين وصل الأمر من غياث الدين بإتقاد خسروشاه إليه، فارتاب من ذلك فأمنه شهاب الدين، وحلف له ويعت به وبأهله وولده مع جيش يحفظونهم، فلما وصلوا بلاد الغور حبسهم غياث الدين ببعض قلاعها، فكان آخر العهد به وبأبنه.

استيلاء غياث الدين على هوارا وغيرها

من خراسان

ولما استقر ملك غياث الدين بلهاور كتب إلى أخيه شهاب الدين الذي تولى فتحها أن يقيم الخطبة له، ويلقبه بالقباب السلطان، فلقبه غياث الدنيا والدين معين الإسلام والمسلمين، قسيم أمير المؤمنين، ولقب أخاه شهاب الدين بعز الدين.

ثم لما فرغ شهاب الدين من أمور لهاور وسار إلى أخيه غياث الدين ببيروزكوه واتفق رأيهما على السير إلى هراة من خراسان سار في العساكر فحاصرها، وبها عسكر السلطان سنجر وأمرأوه فاستأمنوا إليهما، وملكا هراة.

وسار إلى بوشنج فملكها، ثم إلى باذغيس كذلك.

وولى غياث الدين على ذلك وعاد إلى بيروزكوه وشهاب الدين إلى غزنة ظافرين غائبين.

فتح أجرة على يد شهاب الدين

لما عاد شهاب الدين إلى غزنة راح بها أياماً حتى استراحت عساكره.

ثم سار غازياً إلى بلاد الهند سنة سبع وأربعين وخمسمائة وحاصر مدينة أجرة وبها ملك من ملوكهم فلم يظفر منه بطائل، فراسل امرأة الملك في أنه يتزوجها إذا ملك البلد، فأجابت بالعذر، ورغبت في ابتها فأجاب فقتلت زوجها بالسهم وملكته البلد، فاخذ الصبية وأسلمت، وحملها إلى غزنة ووسع عليها الجراية، ووكل بها

انتقاض شهاب الدين وغيث الدين على عمهما علاء الدولة

لما استفحل أمر علاء الدولة واستفحل ملكه استعمل على البلاد العمال وكان فيمن ولاء بلاد الغور ابن أخيه سالم بن الحسين، وهما غياث الدين وشهاب الدين، فأحسن السيرة في عملهما، ومال إليهما الناس، وكثرت السعاية فيهما عند عمهما بأنهما يريدان الثوب فبعث عنهما فامتنعا، فجهز إليهما العساكر فهزماها وأظهرا عصيانها، وقطعا خطبته فسار إليهما فقاتلاه قتلاً شديداً حتى انهزم فاستأمن إليهما فأجلساه على التخت، وقاما بخدمته.

وزوج غياث الدين أحدهما بنتاً له، وبقي مستبداً على عمه علاء الدولة، ثم عهد إليه بالأمر من بعده ومات.

وفاة علاء الدولة وولاية غياث الدين ابن

أخيه من بعده وتغلب الغز على غزنة

ثم توفي علاء الدولة ملك الغورية سنة ست وخسين، وقام بالأمر من بعده ببيروزكوه غياث الدين أبو الفتح ابن أخيه سالم، وطمع الغز بموته في ملك غزنة فملكوها من يده، وبقي غياث الدين في كرسيه ببيروزكوه وأعمالها، وابنه سيف الدين محمد في بلاد الغور.

ثم أساء السيرة الغز في غزنة بعد مقامهم فيها خمس عشرة سنة، واستفحل أمر غياث الدين فسار إلى غزنة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة في عساكر الغورية والخلج والخراسانية ولقي الغز فهزمهم وملك غزنة من أيديهم، وسار إلى كرمان وشنوران فملكهما، وكرمان هذه بين غزنة والهند، ليست كرمان المعروفة.

ثم سار غياث، الدين إلى لهاور ليملكها من يد خسروشاه بن بهرام، فبادر خسروشاه إلى نهر اللد ومنعه العبور منه، فرجع وملك ما يليه من جبال الهند وأعماله الأثغار، وولى غزنة أخاه شهاب الدين ورجع إلى بيروزكوه.

استيلاء شهاب الدين الغوري على لهاور

ومقتل خسروشاه صاحبها

ولما ولي شهاب الدين الغوري غزنة أحسن السيرة فيهم،

وذلك كله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

مقتل ملك الغور محمد بن علاء الدين

قد تقدم لنا أن محمد بن علاء الدين ملك الغور بعد أبيه، وأقام ملكاً عليها.

ثم سار سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بعد أن احتفل في الاحتشاد وجمع العساكر، وقصد بلخ وهي يومئذ للغز فزحفوا إليه.

وجاءهم بعض العيون بأنه خرج من معسكره لبعض الوجه في خوف من الجند، فركبوا لاعتراضه، ولقوه فقتلوه في نفر من أصحابه، وأسروا منهم آخرين، ولجأ الباقون إلى المعسكر فارتحلوا هارين إلى بلادهم، وتركوا معسكرهم بما فيه فغنمه الغز وانقلبوا إلى بلخ ومرو ظافرين غائبين.

الفتنة بين الغورية وبين خوارزم شاه على ما

ملكوه من بلاد خراسان

قد تقدم لنا أن غياث الدين وشهاب الدين ابني أبي الفتح سام بن الحسين الغوري رجعا إلى خراسان سنة سبع وأربعين وخمسمائة فملكا هراة وبوشنج وباذغيس وغيرها، وذلك عند انهزام سنجر أمام الغز، واقترب ملكه بين أمراة ومواليه فصاروا طوائف، وأظهروهم خوارزم شاه بن أنس بن محمد بن أنوشركين صاحب خوارزم.

فلما كان سنة خمس وسبعين وخمسمائة قام بأمره ابنه سلطان شاه، ونازعه أخوه علاء الدين تكش فغلبه على خوارزم، وخرج سلطان شاه إلى مرو فملكها من يد الغز، ثم أخرجوه منها فاستجاش بالخطا وأخرجهم من مرو وسرخس ونسا وأبيورد، وملكها جميعاً، وصرف الخطا إلى بلادهم.

وكتب إلى غياث الدين أن ينزل له عن هراة وبوشنج وباذغيس وما ملكه من خراسان وهدده على ذلك فراجعته بإقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من خراسان، فامتنع لذلك سلطان شاه وسار إلى بوشنج فحاصرها وعاث في نواحها.

وجهاز غياث الدين عساكره مع صاحب سجستان وابن اخته بهاء الدين سام بن باميان لغية أخيه شهاب الدين في الهند، فساروا إلى خراسان، وكان سلطان شاه يحاصر هراة فخام عن

من يعلمها القرآن حتى توفيت والدتها، وتوفيت هي من بعدها لعشر سنين، ولما ملك البلد سار في نواحي الهند فدوخها، وفتح الكثير منها، وبلغ منها ما لم يبلغه أحد قبله.

حروب شهاب الدين مع الهنود وفتح دلهي

وولاية قطب الدين أيلك عليها

ولما اشتدت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند، ترأسل ملوكهم وتلاوموا بينهم وتظاهروا على المسلمين، وحشدوا عساكرهم من كل جهة، وجاؤوا بقضهم وقضيضهم في حكم امرأة ملكت عليهم، وسار هو في عساكره من الغورية والخلنج والخلنجية والخراسانية وغيرهم، والتقوا فمحض الله المسلمين وأئخذ فيهم الكفرة بالقتل.

وضرب شهاب الدين في يده اليسرى فشلت، وعلى رأسه فسقط عن فرسه، وحجز بينهم الليل وحمله جماعة من غلمانة إلى منجاة ببلده.

وسمع الناس بنجاة فتباشروا ووفدوا عليه من كل جهة، وبعث إليه أخوه غياث الدين بالعساكر، وعذله في عجلته.

ثم ثارت الملكة ثانياً إلى بلاد شهاب الدين بالعساكر، وبعثت إلى شهاب الدين بالخروج عن أرض الهند إلى غزنة، فأجاب إلى ذلك بعد أن يستأذن أخاه غياث الدين وينظر جوابه.

وأقاموا على ذلك وقد حفظ الهنود مخاضات النهر بينهم وهو يحاول العبور فلا يجد، وبينما هو كذلك جاء بعض الهنود، فذله على مخاضة فاستراب به حتى عرفه قوم من أهل أجرة والملائن.

وبعث الأمير الحسن بن حرميد الغوري في عسكر كثيف، وعبر تلك المخاضة ووضع السيف في الهنود فأجفل الموكلون بالمخاضات.

وعبر شهاب الدين وباقي العساكر وأحاطوا بالهنود، ونادوا بشعار الإسلام فلم ينج منهم إلا الأقل، وقتلت ملكتهم وأسروا منهم أئماً.

وتمكن شهاب الدين بعدها من بلاد الهند وحملوا له الأموال وضربت عليهم الجزية فصالحوه وأعطوه الرهن عليها.

وأقطع قطب الدين أيلك مدينة دلهي، وهي كرسي الممالك التي فتحها، وأرسل عسكراً من الخلق غتارين ففتحوا من بلاد الهند ما لم يفتحه أحد، حتى قاربوا حدود الصين من جهة الشرق،

كوكه، فملك عليهم مدينة تبرندة ومدينة أسرسني وكوه رام، فامتعض الملك وسار للقاء المسلمين ومعه أربعة عشر فيلاً ولقيهم شهاب الدين في عساكر المسلمين، فانهزمت ميمته وميسرته، وحمل على القيلة فظعن منها واحداً، ورمي بحربة في ساعده فسقط عن فرسه، وقاتل أصحابه عليه، فخلصوه وانهزموا، ووقف الهنود بمكانهم ولما أبعد شهاب الدين عن المعركة نزع من جرحه الدم فأصابه الغشي، وحمله القوم على أكتافهم في حفة اتخذوها من اللبود ووصلوا به إلى لاهور، ثم سار منها إلى غزنة فأقام إلى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

وخرج من غزنة غازياً لطلب الثار من ملك الهند، ووصل إلى برساور وكان وجوه عسكره في سخطه منه منذ انهزموا عنه في النوبة الأولى، فحضرهوا عنده واعتذروا ووعدوا من أنفسهم الثبات، وتضرعوا في الصفح فقبل منهم، وصفح عنهم، وسار حتى انتهى إلى موضع المصاف الأول وتجاوز به أربع مراحل، وفتح في طريقه بلاداً وجمع ملك الهند وسار للقاته فكر راجعاً إلى أن قارب بلاد الإسلام بثلاث مراحل، ولحقه الهنود قريباً من بربر فبعث شهاب الدين سبعين ألفاً من عسكره ليأتوا العدو، من ورائهم، وواعدهم هو الصباح، وأسرى هو ليلة فصاحبهم فذلوا، وركب الملك فرسه للهروب فتمسك به أصحابه، فركب الفيل واستماتت قومه عنده، وكثر فيهم القتل، وخلص إليه المسلمون فأخذوه أسيراً، وأحضره عند شهاب الدين.

فوقف بين يديه وجذبوا بلحيته حتى قبل الأرض، ثم أمر به بقتل ولم ينج من الهنود إلا الأقل، وغنم المسلمون جميع ما معهم وكان في جملة الغنائم الفيول.

ثم سار شهاب الدين إلى حصنهم الأعظم وهو أجير ففتحه عنوة، وملك جميع البلاد التي تقاربه، وأقطعها كلها لمملوكه أبيك نائبه في دلهي وعاد إلى غزنة.

غزوة بناوس ومقتل ملك الهند ثم فتح

بهنكر

كان شهاب الدين ملك غزنة قد أمر مملوكه قطب الدين أيك خليفته على دلهي أن يغزو بلاد الهند من ناحيته، فسار فيها ودوخها وعاث في نواحيها.

وسمع ملك بناوس وهو أكبر ملوك الهند، وولايته من تخوم الصين إلى بلاد ملاوا طولاً، ومن البحر الأخضر إلى عشرة

لقاتهم ورجع إلى مرو، وعاث في البلاد في طريقه، وأعاد الكتاب إلى غياث الدين بالتهديد فاستقدم أخاه شهاب الدين من الهند، فرجع مسرعاً، وساروا إلى خراسان.

وجمع سلطان شاه جموعاً ونزل الطالقان، وترددت الرسل بين سلطان شاه وغياث الدين حتى جنح إلى الصلح بالتزول له عن بوشنج وبادهغيس، وشهاب الدين يمنح إلى الحرب، وغياث الدين يكفهم.

وجاء رسول سلطان شاه لإتمام العقد، فقام شهاب الدين العلوي وقال: لا يكون هذا أبداً، ولا تصالحوه، وقام شهاب الدين ونادى في عسكره بالحرب، والتقدم إلى مرو الروذ.

وتواقع الفريقان فانهزم سلطان شاه ودخل إلى مرو في عشرين فارساً، وبلغ الخبر إلى أخيه فسار لتعرضه عن جيحون وسمع سلطان شاه بتعرض أخيه له فرجع عن جيحون، وقصد غياث الدين فأكرمه وأكرم أصحابه، وكتب أخوه علاء الدين في رده إليه، وكتب إلى نائب هراة يتهدده، فامتعض غياث الدين لذلك، وكتب إلى خوارزم شاه بأنه مجر وشقيع له، ويطلب بلاده وميراثه من أبيه، ويضمن له الصلح مع أخيه سلطان شاه.

وطلب منه مع ذلك أن يخاطب له بخوارزم، ويزوج أخته من شهاب الدين فامتعض علاء الدين لذلك، وكتب بالتهديد فشرح غياث الدين جميع عساكره مع سلطان شاه إلى خوارزم شاه، وكتب إلى المؤيد أبيه صاحب نيسابور يستنجد، فجمع عساكره وقام في انتظارهم، وسمع بذلك علاء الدين تكش، وهو زاحف للقاء أخيه سلطان شاه، وعساكر الغورية، فخشي أن يخالفوه إلى خوارزم وكر إليها راجعاً.

واحتمل أمواله وعبر إلى الخطا وقدم فقهاء خوارزم في الصلح والصر، ووعظه الفقهاء وشكروا إليه بأن علاء الدين يستجيش بالخطا، فإما أن تتخذ مرو كرسيّاً لك فتمنعنا منهم، أو تصالحه، فأجاب إلى الصلح، وترك معاوضة البلاد ورجع إلى كرسيه.

غزوة شهاب الدين إلى الهند وهزيمة

المسلمين بعد الفتح ثم غزوته الثانية وهزيمة

الهنود وقتل ملكهم وفتح أجير

كان شهاب الدين قد سار سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة إلى الهند، وقصد بلاد أجير وتعرف بولاية السواك، واسم ملكهم

وحاصر الخطا بهاء الدين فاشتدت الحرب وثبت المسلمون. وجاء المدد من عند غياث الدين، ثم حملوا جميعاً على الخطا فهزمهم إلى جيحون وألقى الكثير منهم أنفسهم في الماء، فهلك منهم نحو اثني عشر ألفاً، وعظم الأمر على ملك الخطا، وبعث إلى علاء الدين تكش صاحب خوارزم يطوقه الذنب ويطلبه بدية القتلى من أصحابه، وألزمه الحضور عنده، فبعث علاء الدين تكش يشكو ذلك إلى غياث الدين فرد جوابه باللوم على عصيان الخليفة، ودعا ذلك علاء الدين إلى الفتنة مع الخطا وانتزاعه بخارى من أيديهم كما يأتي في أخبارهم.

استيلاء الغورية على ملك خوارزم شاه

بخراسان

ثم توفي علاء الدين تكش صاحب خوارزم وكان قد ملك بعض خراسان وبلاد الري والبلاد الجبالية، فولي بعده ابنه قطب الدين، ولقب علاء الدين بلقب أبيه، وولي علاء الدين أخاه علي شاه خراسان، وأقطعه نيسابور.

وكان هندوخان ابن أخيها ملك شاه فخاف عمه فلحق بمرو، وجمع الجموع وبعث إليه عمه محمد العسكر مع جنقر التركي فهرب هندوخان، ولحق بغياث الدين مستنجداً به على عمه فأكرمه ووعده.

ودخل جنقر إلى مرو، وحمل منها ولدخان وأمه مكرمين إلى خوارزم وأرسل غياث الدين إلى صاحب الطالقان محمد بن خربك بأن يتهدد جنقر، فسار من الطالقان واستولى على مرو الروذ وبعث إلى جنقر يأمره بالخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارقها، فأساء الجواب ظاهراً، واستأمن إلى غياث الدين سراً، ولما علم غياث الدين بذلك قوي طمعه في البلاد، وكتب إلى أخيه شهاب الدين بالمسير إلى خراسان، فسار من غزنة في عساكره في منتصف سنة ست وتسعين وخمسائة ولما انتهى إلى الطالقان استحثه جنقر صاحب مرو للبلد، وأخبره بطاعته حتى إذا وصل إليه خرج في العساكر فقاتله، وهزمه شهاب الدين، وزحف بالقبيلة إلى السور فاستأمن من جنقر وخرج إليه، وملك شهاب الدين مرو وبعث بالفتح إلى غياث الدين فجاء إلى مرو، وبعث جنقر إلى هراة مكرماً، وسلم مرو إلى هندوخان ابن ملك شاه المستنجد به، وأوصاه بالإحسان إلى أهلها.

وسار إلى سرخس فحاصرها ثلاثاً وملكها على الأمان،

أيام من لهاور عرضاً وأهل تلك البلاد من أيام السلطان محمود مقيمون على إسلامهم، فاستقر معه مسلمون كانوا في تلك البلاد، فسار إلى شهاب الدين سنة تسعين وخمسائة والتقوا على ماحون نهر كبير يقارب دجلة فاقتلوا، ونزل الصبر.

ثم نصر الله المسلمين واستلحم الهنود، وقتل ملكهم، وكثر السبي في جوارهم والأسرى من أبنائهم، وغنموا منهم تسعين فيلاً، وهرب بقية الفيل وقتل بعضها.

ودخل شهاب الدين بلاد بناوس، وحمل من خزائنها ألفاً وأربعمائة حمل، وعاد إلى غزنة.

ثم سار سنة اثنتين وتسعين وخمسائة إلى بلاد الهند وحاصر قلعة بهنكر حتى تسلمها على الأمان، ورتب فيها الحامية.

وسار إلى قلعة كواكير، وبينهما خمس مراحل يعترضها نهر كبير فحاصرها شهراً حتى صالحوه على مال يحملونه، فحملوا إليه حمل فيل من الذهب، فرحل عنهم إلى بلاد أبي رسود فأغار ونهب وسبى وأسر، وعاد إلى غزنة ظافراً.

استيلاء الغورية على بلخ وفتنتهم مع الخطا

بخراسان

كان الخطا قد غلبوا على مدينة بلخ وكان صاحبها تركياً اسمه أزية يحمل إليهم الخراج كل سنة وراء النهر، فتوفي أزية سنة أربع وتسعين وخمسائة وكان بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود صاحب باميان من قبل خاله غياث الدين فسار إلى بلخ، وقطع الحمل للخطا، وخطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت في طاعة الكفار، فامتعض الخطا لذلك، واعتزموا على فتنة الغورية.

واتفق أن علاء الدين تكش صاحب خوارزم بعث إليهم يغريهم ببلاد غياث الدين.

وكان سبب ذلك أنه ملك الري وهمذان وأصفهان وما بينهما، وتعرض لعساكر الخليفة، وطلب الخطبة والسلطنة ببغداد مكان ملوك السلجوقية، فبعث الخليفة يشكوه إلى غياث الدين يقبح فعله وينهاه عن قصد العراق، ويتهدده بسلطان شاه وأخذ بلاده، فأنف من ذلك وبعث إلى الخطا يغريهم ببلاده، فجهز ملك الخطا جيشاً كبيراً مع مقدم عساكره وعبروا النهر إلى بلاد الغور.

وسار علاء الدين تكش إلى طوس لحصارها، لأن غياث الدين عاجز عن الحركة بعلة النقرس، فعاتوا في بلاده ما شاء الله

وسار إليه علاء الدين صاحب خوارزم آخر سنة تسع وتسعين وخمسة.

فلما انتهى إلى نسا وأبيورد هرب هندوخان ابن أخيه، ولحق بغياث الدين في فيروزكوه وملك علاء الدين مدينة مرو وسار إلى نيسابور وحاصرها شهرين، فلما أبطل عن نائبها المدد من غياث الدين استأمن لصاحب خوارزم، وخرج إليه هو وأصحابه فأحسن إليهم، وطلب علاء الدين أن يسعى في الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه، فوعده بذلك، وسار إلى هراة فأقام بها ولم يعض إلى غياث الدين مسخه لتأخر المدد عنه.

واختص صاحب خوارزم الحسن بن حرميل من أعيان الغورية، واستحلفه أن يكون معه عند غياث الدين.

ثم سار إلى سرخس وبها الأمير زنكي، فحاصره أربعين يوماً، وتعددت بينهما حروب.

ثم بعث ابنه زنكي بأن يتأخر عن البلد قليلاً حتى يخرج هو وأصحابه، فتأخر بأصحابه، وخرج زنكي فشحن البلد بالآفات والحطب، وأخرج من ضاق به الحصار، وتحصن فندم صاحب خوارزم على تأخره، وجهاز عسكرياً لحصاره ورجع.

فلما بعد سار محمد بن خربك من الطالقان، وأرسل إلى زنكي بأن يكبس العسكر الذي عليه.

ونذر بذلك أهل العسكر، فأفروا من سرخس وخرج زنكي ولقي محمد بن خربك في مرو، وجبوا خراج تلك الناحية، وبعث إليهم صاحب خوارزم عسكرياً من الثلاثة آلاف فارس فلقبهم محمد بن خربك في تسعمائة فهزمهم، وغنم معسكرهم، وعاد صاحب خوارزم إلى بلده وأرسل إلى غياث الدين في الصلح.

فأجابه مع أمير من أكابر الغورية اسمه الحسن بن محمد المرغني فقبض عليه صاحب خوارزم وجبسه.

ومرغن من قرى الغور.

حصار هراة

لما بعث صاحب خوارزم إلى غياث الدين في الصلح وجاء عند الحسن المرغني تبين عنه المغالطة فجبسه، وسار إلى هراة وحاصرها، وكان بها أخوان من خدمة السلطان شاه نكش، فكتبوا إلى صاحب خوارزم ووعده بالثورة له في البلد، وكانا بليان مفاتيح الأبواب وأمور الحصار من داخل، فأطلع الأمير الحسن المرغني

وأرسل إلى علي شاه نائب علاء الدين محمد بن نيسابور، ونذره الحرب إن امتنع من الطاعة فاستعد للحصار، وخرّبوا العمائر بظاهرها وقطعوا الأشجار، وحمل محمود بن غياث الدين فضايق البلد، وملك جانبها ورفع راية أبيه على السور.

وحمل شهاب الدين من الناحية الأخرى، فسقط السور بين يديه وملك البلد ونهب الجند عاتماً.

ثم نادوا بالأمان ورفع النهب، واعتصم الخوارزميون بالجامع فأخرجهم أهل البلد إلى غياث الدين.

ثم سار إلى قهستان، فذكر له عن قرية في نواحيها أن أهلها إسماعيلية فدخلها وقتل المقاتلة وسبى الذرية، وخرب القرية، ثم سار إلى مدينة أخرى، ذكر له عنها مثل ذلك، وأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يستغيثون من شهاب الدين ويذكرونه العهد، فأرسل غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بالرجوع عنهم طوعاً أو كرهاً، ووصل الرسول بذلك فامتنع، فقطع طنط خيمته ورحل العسكر فرحل شهاب الدين كرهاً ورجع إلى غزنة.

فتح نهر واكد من الهند

لما رجع شهاب الدين من خراسان غاضباً من فعل أخيه، لم يعرج على غزنة، ودخل بلاد الهند غازياً سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وبعث في مقدمته مملوكه قطب الدين أيك، ولقيه عساكر الهند دون نهر واكد فهزمهم أيك، واستباحهم وتقدم إلى نهر واكد فملكها عنوة، وفارقها ملكها وجمع، ورأى شهاب الدين أنه لا يقوم بمجابتها إلا مقامه فيها؛ فصالح ملكها على مال يوديه إليه عنها، ورجع إلى غزنة.

إعادة علاء الدين محمد صاحب خوارزم ما

أخذه الغورية من خراسان

لما فصل الغورية عن خراسان وملكوا ما ملكوه منها، وسار شهاب الدين إلى الهند غازياً، بعث علاء الدين محمد صاحب خوارزم إلى غياث الدين يعاتبه على ما فعل في خراسان، ويطلب إعادة بلده، ويهدده باستدعاء عساكر الخطأ، فصانعه في الخطأ حتى قدم شهاب الدين فطمع بالمصانعة.

وبعث إلى نائبهم بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور، ويتهدده، فكتب إلى غياث الدين بذلك، وعيّل أهل نيسابور إلى عدوهم، فوعده النصر.

وجاءه محمود ابن أخيه غياث الدين فولاه على بست وأسفراين وتلك الناحية وأبعده عن الملك جملة.

وكانت لغياث الدين زوجة مغنية شغف بها وتزوجها، فقبض عليها شهاب الدين وضربها ضرباً مبرحاً وضرب ولدها غياث الدين وزوج أختها واستصفاهم وغربهم إلى بلاد الهند، وكانت بنت مدرسة ودفنت فيها أباه، فخر بها ونبش قبرهم ورعى بعظامهم.

وكان غياث الدين ملكاً عظيماً مظفراً على قلة حروبه، فإنه كان قليل المباشرة للحروب، وكان ذا هبة جراداً حسن العقيدة، كثير الصدقة، بنى بخراسان وغيرها المساجد والمدارس للشافعية، وبنى الخوانك في الطرق، وبنى على ذلك الأوقاف الكثيرة، وأسقط المكوس، وكان لا يتعرض إلى مال أحد، ومن مات ووارثه غائب دفعه إلى أمناء التجار من أهل بلده ليوصلوه إلى ورثته، فإن لم يجد تاجراً ختم عليه القاضي إلى أن يصل مستحقه، وإن كان لا وارث له تصدق عنه بماله.

وكان يحسن إلى أهل البلد إذا ملكها، ويفرض الأعطيات للفقهاء كل سنة من خزائنه، ويفرق الأموال على الفقراء، ويصل العلوية والشعراء.

وكان أديباً بليغاً بارع الخط ينسخ المصاحف ويفرقها في المدارس التي بناها.

وكان شافعي المذهب من غير تعصب لهم، ويقول: التعصب في المذاهب هلاك.

فتنة الغورية مع محمد بن تكش صاحب

خوارزم وحصار هراة ثم حصارهم خوارزم

وحروب شهاب الدين مع الخطا

لما هلك غياث الدين ملك أخوه شهاب الدين بعده، فطمع محمد بن تكش صاحب خوارزم في ارتجاع هراة.

وكان قد راسل شهاب الدين في الصلح فلم يتم وسار شهاب الدين عن غزنة إلى هراة غازياً، فسار حيتئذ محمد بن تكش إلى هراة منتصف سنة ستمائة، وحاصرها وكان بها ألب غازي ابن أخت شهاب الدين.

وطال حصارها إلى سلخ شعبان، وقتل بين الفريقين خلق: منهم رئيس خراسان المقيم يومئذ بمشهد طوس.

المحبوس عند صاحب خوارزم على أمرهما، فبعث بذلك إلى أخيه بذلك عمر صاحب هراة فاعتقلهما.

وبعث غياث الدين العساكر مدداً لهراة مع ابن أخته ألب غازي فنزل على خمسة فراسخ منها، ومنع الميرة عن عسكر صاحب خوارزم فبعث صاحب خوارزم عسكراً إلى الطالقان للغارة عليها، فقاتلهم الحسن بن خريك فظفر بهم، ولم يفلت منهم أحد.

ثم سار غياث الدين في عساكره ونزل قريباً من هراة، فاعتزم صاحب خوارزم على الرحيل بعد حصار أربعين يوماً لهزيمة أصحابه بالطالقان، ومسير العساكر مع ألب غازي، ثم مسير غياث الدين، ثم توقعه عود شهاب الدين من الهند.

وكان قد وصل إلى غزنة منتصف ثمان وتسعين وخمسمائة فراسل أمير هراة وصالحه على مال حمله إليه، وارتحل عن البلد وبلغ الخبر شهاب الدين، وجاء إلى طوس وشتى بها عازماً على حصار خوارزم، فجاء الخبر بوفاة أخيه غياث الدين، فأنشئ عزمه وسار إلى هراة.

وفاة غياث الدين وانفراد شهاب الدين

بالمملك

ثم توفي غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام صاحب غزنة وبعض خراسان وفيروزكوه وهاور ودلهي من الهند وكان أخوه شهاب الدين بطوس كما ذكرنا فسار إلى هراة، وأظهر وفاة أخيه، وجلس للعزاء، وخلف غياث الدين ابناً اسمه محمود، فلقب غياث الدين.

ولما سار شهاب الدين عن طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن خريك، وبعث إليه صاحب خوارزم العساكر، فبيتهم ولم ينج منهم إلا القليل، وأنفذ بالأساري والرؤوس إلى هراة وأعاد إليه صاحب خوارزم الجيوش مع منصور التركي، فلقبهم على عشرة فراسخ من مرو فهزموه وحاصروه خمسة عشر يوماً حتى استأمن إليهم وخرج فقتلوه.

وترددت الرسل بين شهاب الدين وصاحب خوارزم في الصلح فلم يتفق بينهما أمر.

ولما اعتزم شهاب الدين على العود إلى غزنة ولّى على هراة ابن أخته ألب غازي وقلد علاء الدين محمد الغوري مدينة فيروزكوه وبلد الغور، وجعل إليه حرب خراسان وأمور المملكة

حروب شهاب الدين مع بني كوكر والتراهمية

كان بنو كوكر هؤلاء موطنين في الجبال بين هاور والمكتان معتمدين بها لمنعتها، وكانوا في طاعة شهاب الدين، يحملون إليه الخراج، فلما وقع الإرجاف بموته، انتقضوا وداخلوا صاحب جبل الجودي وغيره من أهل الجبال في ذلك وجأهروا بالعيث والفساد وقطع السابلة ما بين غزنة وهاور وغيرها.

وبعث شهاب الدين إلى محمد بن أبي علي بلهاور والمكتان يأمره بحمل المال بعد أن قتل مملوكه إليك.

قال: ومهد البلاد فاعتذر بنو كوكر فبعث شهاب الدين مملوكه إليك إلى بني كوكر يتهدهم على الطاعة، فقال كبيرهم: لو كان شهاب الدين حياً لكان هو المرسل إلينا، واستخفوا أمر إليك، فعاد الرسول بذلك، فأمر شهاب الدين بتجهيز العساكر في قرى سابور.

ثم عاد إلى غزنة في شعبان سنة إحدى وستمائة ونادى بالمسير إلى الخطا.

ورجع بنو كوكر إلى حالهم من إخافة السابلة ودخل معهم كثير من الهنود في ذلك وخشي على انتقاض البلاد فأنشئ عزمه عن الخطا وسار إلى غزنة، وزحف إلى جبال بني كوكر في ربيع الأول سنة اثنتين وستمائة ولما انتهى إلى قرى سابور أغذ السير وكبس بني كوكر في محالهم، وقد نزلوا من الجبال إلى البسيط يرومون اللقاء، فقاتلوه يوماً إلى الليل، وإذا بقطب الدين إليك في عساكره منادين بشعار الإسلام فحملوا عليهم، وانهزموا وقتلوا بكل مكان.

واستنجوا بأجدة فأضمرت عليهم ناراً، وغنم المسلمون أهاليهم وأمواهم حتى بيع الممالك خمسة بدينار.

وقتل كبير بني كوكر الذي كان مملوكاً عليهم، وقصد دانيال صاحب الجند الجودي، وسار إليها فاقام بها متصرف رجب، وهو يستنفر الناس.

ثم عاد نحو غزنة وأرسل بهاء الدين سام صاحب باميان بالغير إلى سمرقند، وأن يتخذ الجسر لعبور العساكر.

وكان أيضاً ممن دعاه هذا الإرجاف إلى الانتقاض التراهمية وهم قوم من أهل الهند بنواحي قرى سابور، دينهم المجوسية ويقتلون بناتهم بعد النداء عليهن للتزويج، فإذا لم يتزوجها أحد

وكان الحسين بن حرميل من أعيان الغورية بجوربان وهو، فمكر بصاحب خوارزم، وأظهر له الموالاة وأشار بأن يبعث إليه فوارس يعطيهم بعض الفيلة.

وقعد لهم هو والحسين بن محمد المرغني بالمراصد، فاستلحموهم.

ثم مات ألب غازي وضجر صاحب خوارزم محمد من الحصار فارتحل إلى سرخس وحاصرها، وبلغت هذه الأخبار شهاب الدين ببلاد الهند، فكر راجعاً وقصد مدينة خوارزم، فأغذ محمد بن تكش السير من سرخس، ونزل أنقاله وسبقه إليها وقتلته الخوارزمية قتالاً شديداً وفتكوا فيه.

وهلك من الغورية جماعة: منهم الحسين بن محمد المرغني وأسر جماعة من الخوارزمية فأمر شهاب الدين بقتلهم.

ثم بعث خوارزم شاه إلى الخطا يستنجدهم أن يخالفوا شهاب الدين إلى بلاد الغورية فساروا إليها.

ولما سمع شهاب الدين كر راجعاً إلى البلاد، فلقي مقدمة عسكرهم بصحراء أيدخوي في صفر سنة إحدى وستمائة، فأوقع بهم وأتخن فيهم، وجاءت ساقاتهم على أثر ذلك، فلم يكن لشهاب الدين بهم قبل فانهزم، ونهب أثقاله، وقتل الكثير من أصحابه، ونجا في الفل إلى أيدخوي وحاصروه حتى أعطاهم بعض الفيلة وخلص وكثر الإرجاف في بلاد الغور بمهلكه، ووصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد لحق بها نائبها الحسين بن حرميل ناجياً من الوقعة، فاستكثر له من الزاد والعلوفة وكفا مهمه.

وكان مستوحشاً مع من استوحش من الأمراء بسبب انهزامهم عن شهاب الدين، فحملة شهاب الدين إلى غزنة تأنيساً له، واستحجبه، ولما وقع الإرجاف بموت شهاب الدين جمع مولاة تاج الدين العسكر وجاء إلى غزنة طامعاً في ملكها، فمنعه مستحفظها فرجع إلى إقطاعه، وأعلن بالفساد، وأغرى بالخلج من الترك فكثرت عيشتهم.

وكان له مولى آخر اسمه إليك فلحق بالهند عند نجاته من المعركة، وأرجف بموت السلطان واستولى على المكتان، وأساء فيها السيرة.

فلما وصل خبر شهاب الدين جمع تاج الدين النذر - وهو مملوك اشتراه شهاب الدين - الناس من سائر النواحي ثم جمع شهاب الدين لغزو الخطا والتار منهم.

قتلوا، وتزوج المرأة عندهم عدة أزواج.

وكانوا يفسدون في نواحي قري سابور، ويكثرون الغارة عليها، وأسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغوري.

ثم انتقضوا عند هذا الإرجاف وخرجوا إلى حدود سوران ومكران، وشنوا الغارة على المسلمين فسار إليهم الخلدخي نائب تاج الدين الذي بتلك الجهة، فأوقع بهم وأتخن فيهم وبعث برؤوس الأعيان منهم فعلقت ببلاد الإسلام وصلح أمر البلاد.

مقتل شهاب الدين الغوري وافتراق المملكة

بعده

لما قضى شهاب الدين شأنه من بلاد الغور وأصلح ما كان بها من الفساد، ارتحل من هاور عائدًا إلى غزنة عازمًا على قصد الخطا بعد أن استنفر أهل الهند وأهل خراسان، فلما نزل بدميل قريبًا من هاور طرق خيمته جماعة من الدعار فقتلوا بعض الحرس، وثار بهم الناس وذهل باقي الحرس بالهبة فدخل منهم البعض على شهاب الدين وضربوه في مصلاه وقتلوه ساجدًا، وقتلوا عن آخرهم أول شعبان سنة اثنتين وستمئة.

فيقال إن هذه الجماعة من الكوكرية الذين أحفظهم ما فعل بهم، ويقال من الإسماعيلية لأنهم كانوا غلوا منه، وكانت عساكره تحاصر قلاعهم.

ولما قتل اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين خواجا سحتا، واتفقوا على حفظ المال إلى أن يقوم بالأمر من يتولاه من أهله، وتقدم الوزير إلى أمير العسكر بضبط العسكر، وحملت جنازة شهاب الدين في الحفة، وحملوا خزائنه، وكانت ألفين ومائتي حمل.

وتطاول الموالى مثل صونج صهر الذر وغيره إلى نهب المال، فمنعهم الأمراء الكبار، وصرفوا الجند الذين أقطاعهم عند قطب الدين أبيك ببلاد الهند أن يعودوا إليه، وساروا إلى غزنة متوقعين البيعة على الملك بين غياث الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وبين بهاء الدين سام صاحب باميان ابن أخت شهاب الدين فيملك الخزانة والأثراك يريدون طريق سوران ليقربوا من فارس.

وكان هوى الوزير مؤيد الملك مع الأتراك، فلم يزل بالغورية حتى إذا وصلوا طريق كرمان ساروا عليها، ولقوا بها مشقة من غارات التترامية واقعان وغيرهم.

ولما وصلوا إلى كرمان استقبلهم تاج الدين الذر ونزل عن

فرسه، وقبل الأرض بين يدي الحفة.

ثم كشف عن وجهه فمزق ثيابه وأجد بالبكاء حتى رحمة الناس.

وكان شهاب الدين شجاعاً قرماً عادلاً كثير الجهاد، وكان القاضي بغزنة يحضر داره أربعة أيام في كل أسبوع، فيحكم بين الناس وأمراء الدولة ينفذون أحكامه، وإن رافع أحد خصمه إلى السلطان سمع كلامه ورده إلى القاضي، وكان شافعي المذهب.

قيام الذر بدعوة غياث الدين محمود ابن

السلطان غياث الدين

كان تاج الدين الذر من موالى شهاب الدين وأخصهم به، فلما قتل طمع في ملك غزنة وأظهر القيام بدعوة غياث الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وأنه كتب إليه بالنيابة عنه بغزنة لشغله بأمر خزان.

وتسلم الخزان من الوزير وسار إلى غزنة فدفن شهاب الدين بترته في المدرسة التي أنشأها، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وستمئة وأقام بغزنة.

مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته

وملك بهاء الدين ابنه بعده غزنة

كان بهاء الدين قد أقطع باميان ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود عندما ملكها، وأتبعه أخته فولدت ابنًا هو سام، وكان له ابن آخر من امرأة تركية اسمه عباس، فلما مات ملك ابنه الأكبر عباس، فغضب غياث الدين وشهاب الدين لابن أختهما، وعزلوا عباساً وولوه مكانه على باميان، فعظم شأنه، وجمع الأموال، وترشح للملك بعد أخواله لميل أمراء الغز إليه بعد أخواله.

فلما قتل شهاب الدين كان في قلعة غزنة نائب اسمه أميردان فبعث ابنه إلى بهاء الدين محمود ابن السلطان غياث الدين، وابن حرميل عامل هراة بحفظ أعمالها، وإقامة الخطبة له بها والغورية والأثراك على ما ذكرناه من الاختلاف فسار في عساكره إلى غزنة ومعه ابنه علاء الدين وأمرهما جميعاً بالمسير إلى غزنة، وبلاد الهند.

فلما مات ثار ابنه في غزنة وخرج أمراء الغورية لغياث

من ولد ملوك الغور وسمرقند فأتقوا من خدمته، وانصرفوا إلى علاء الدين وأخيه في باميان، وأرسل غياث الدين محمود أن يصهر إليه في بته بابنه فأبى من ذلك.

ثم جاء في عسكر من الغوريين من باميان، وأرسل غياث الدين وفرق في أهلها الأموال، واستوزر مؤيد الملك فوزر له على كره.

أخبار غياث الدين بعد مقتل عمه

لما قتل السلطان شهاب الدين، كان غياث الدين محمود ابن أخيه السلطان غياث الدين في أقطاعه يست.

وكان شهاب الدين قد ولى على بلاد الغور علاء الدين محمد بن أبي علي من أكابر بيوت الغورية، وكان إمامياً غالباً، فسار إلى بيروزكوه يسابق إليها غياث الدين.

وكان الأمراء الغورية أميل إلى غياث الدين، وكذا أهل بيروزكوه، فلما دخل خوارزم دعا محمد المرغي ومحمد بن عثمان من أكابر الغورية، واستحلفهم على قتال محمد بن تكش صاحب خوارزم.

وأقام غياث الدين بمدينة بست ينتظر مآل الأمر لصاحب باميان لأنهما كان بينهما العهد من أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين، وغزنة والهند ليهما الدين صاحب باميان بعد موت شهاب الدين، فلما بلغه موت شهاب الدين دعا لنفسه، وجلس على الكرسي في رمضان سنة ثلاث وستمئة، واستخلف الأمراء الذين في أثره فأدركوه وجأؤا به، وملك بيروزكوه وقبض على جماعة من أصحاب علاء الدين، ولما دخل بيروزكوه جاء إلى الجامع فصلى فيه.

ثم ركب إلى دار أبيه فسكنها وأعاد الرسوم، وقدم عليه عبد الجبار محمد بن العشير إلى وزير أبيه فاستوزره، واقتضى بأبيه في العدل والإحسان.

ثم كاتب ابن حرميل بهراة ولاطفه في الطاعة، وكان ابن حرميل لما بلغه مقتل السلطان بهراة خشى عادية خوارزم شاه، فجمع أعيان البلد وغيرهم، واستحلفهم على الإنجاد والمساعدة.

وقال القاضي وابن زياد: يحلف كل الناس إلا ابن غياث الدين، وينتظر عسكر خوارزم شاه، وشعر غياث الدين بذلك من بعض عيونه، فاعتزم على المسير إلى هراة.

واستشار ابن حرميل القاضي وابن زياد، فأشاروا عليه بطاعة

الدين وتلقوهما والأتراك معهم مغلين فملكوا البلد، ونزلوا دار السلطنة مستهل رمضان، من سنة اثنتين وستمئة، واعتزم الأتراك على منعهم، وعاد لهم الأمير مؤيد الملك لاشتغال غياث الدين منهم بآبن حرميل عامل هراة فلم يرجعوا، ونبذوا إلى علاء الدين وأخيه العهد وأذنوهما بالحرب إن لم يرجعا، فبعثا إلى تاج الدين الذر، وهو بإقطاعه يستدعيانه ويرغبانه بالأموال والمراتب السلطانية والترغيب في الدولة.

استيلاء الذر على غزنة

كان الذر بكرمان لما بلغه مقتل شهاب الدين، تسلم الأموال والخزائن من الوزير، وأظهر دعوة غياث الدين ابن مولاه السلطان غياث الدين، وسار بهاء الدين سام من باميان كما ذكرنا، ومات في طريقه، وملك ابنه علاء الدين غزنة كما ذكرنا، واستعطف الأتراك وبعث إلى الذر يرغبه ويسترضيه فأبى من طاعته، وأساء الرد عليه.

وسار عن كرمان في عساكر كثيفة من الترك والخلخ والغر وغيرهم، وبعث إلى علاء الدين وأخيه بالنذير، فأرسل علاء الدين وزيره ووزير ابنه صلة إلى باميان وبلغ وترمذ ليحتشد العساكر، وبعث الذر إلى الأتراك الذين بغزنة بأن مولاها غياث الدين.

واجتمعت جماعة الغورية والأتراك فالتقوا في رمضان، ونزع الأتراك إلى الذر فانهمز محمد بن حدودون وأسر.

ودخل عسكر الذر المدينة فنهبوا بيوت الغورية والبامانية.

واعتصم علاء الدين بالقلعة، وخرج جلال الدين في عشرين فارساً إلى باميان، وحاصر الذر القلعة حتى استأمن علاء الدين في المسير من غزنة إلى باميان ولما نزل من القلعة تعرض له بعض الأتراك فأرجلوه عن فرسه وسلبوه، فبعث إليه الذر بالمال والمركب والثياب، فوصل إلى باميان، فشرع في الاحتشاد.

وأقام الذر بغزنة يظهر طاعة غياث الدين، ويترحم على شهاب الدين، ولم يخطف له ولا لأحد.

وقبض على داود والي القلعة بغزنة، وأحضر القضاة والفقهاء، وكان رسول الخليفة مجد الدين أبو علي بن الربيع الشافعي مدرس النظامية ببغداد وفد على شهاب الدين رسولاً من قبل الخليفة، وأحضره الذر ذلك اليوم، وشاورهم بالجلوس على التنخ والمخاطبة بالألقاب السلطانية، وأمضى ذلك.

واستوحش الترك حتى بكى الكثير منهم، وكان هناك جماعة

وأما بلخ فإن خوارزم شاه لما بلغه مقتل شهاب الدين أطلق أسرى الغوريين الذين كانوا عنده، وخلع عليهم واستألفهم، وبعث أخاه علي شاه في العساكر إلى بلخ فقاتله عمر بن الحسين الغوري نائبها، ونزل منها على أربعة فراسخ.

وجاءه خوارزم شاه مدداً بنفسه آخر سنة اثنتين وستمئة فحاصرها، فاستمد عمر بن الحسين علاء الدين وجمال الدين من باميان، وشغلوا عنه بغزنة، فأقام خوارزم شاه محاصراً له أربعين يوماً، وكان عنده محمد بن علي بن بشير، وأطلقه في أسرى الغورية وأقطعته، فبعثه إلى عمر بن الحسين صاحب بلخ في الطاعة فأبى من ذلك، واعتزم خوارزم شاه على المسير إلى هراة، ثم بلغه ما وقع بين الدر وبين علاء الدين وجمال الدين، وأن الدر أسرهما، وأن عمر بن الحسين صاحب بلخ أبى ذلك، فأعاد عليه ابن بشير، فلم يزل يقتل له في الذروة والغارب حتى أطاع صاحب خوارزم، وخطب له، وخرج إليه فخلع عليه وأعادته إلى بلده في سلخ ربيع سنة ثلاث وستمئة ثم سار إلى جورقان ليحاصرها، وبها علي بن أبي علي فوقعت المروضة بينهما.

ثم انصرف عن جورقان وتركها لابن حرميل، واستدعى عمر بن الحسين الغوري وصاحب بلخ فقبض عليه، وبعثه إلى خوارزم، ومضى إلى بلخ فملكها، وولى عليها جعفر التركي ورجع إلى خوارزم.

استيلاء علاء الدين ثانياً على غزنة ثم

انتزاع الدر إياها من يده

قد تقدم لنا استيلاء الدر على غزنة وإخراجه علاء الدين وجمال الدين منها إلى باميان، فأقاما بها شهرين، ولحق كثير من الجند بعلاء الدين صاحبهم، وأقام الدر بغزنة متوقفاً عن الخطبة لغياث الدين يروم الاستبداد، وهو يعمل الأتراك برجوع رسوله من عند غياث الدين مخافة أن ينقضوا عنه.

فلما ظفر بعلاء الدين وملك القلعة أظهر الاستبداد وجلس على الكرسي وجمع علاء الدين وجمال الدين العساكر وساروا من باميان إلى غزنة، وسرح الدر عساكره للقائهما فهزماه وأخذاهما.

وهرب الدر إلى بلد كرمان واتبعه بعض العسكر فقاتلهم ودفعهم.

وسار علاء الدين وأخوه إلى غزنة وملكوها، وأخذوا خزنة

غياث الدين على مكر ابن حرميل، وميله إلى خوارزم شاه، وحشه على قصد هراة ليكون ذلك حجة عليه ففعل، وبعث به مع ابن زياد.

ثم كاتب غياث الدين صاحب الطالقان وصاحب مرو يستدعيهما فتوقفوا عن إجابته.

فقال أهل مرو لصاحبها: إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين وتوجه وإلا سلمناك وقيدناك وأرسلناك إليه فاضطر إلى المجيء إلى فيروزكوه.

فخلع عليه غياث الدين ووفر له الإقطاع، وأقطع الطالقان لسونج مولى أبيه المعروف بأمير شكار.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية

بخراسان

كان الحسن بن حرميل نائب الغورية بهراة منتقفاً عليهم كما ذكرنا، ومداخلاً لخوارزم شاه في الباطن، واستدعى العساكر من عنده، وبعث ابن زياد يستوثق له من غياث الدين، وأقام يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

ووصل ابن زياد بالولاية والخلع، فلم يشته ذلك عما هو فيه من المكاذبة لهم.

ثم وصل عسكر خوارزم شاه فتلقاهم وأكرمهم.

وبلغه أن خوارزم شاه في أثرهم على أربع فراسخ من بلخ، فندم في أمره ورد إليه عسكره، وبلغ غياث الدين عسكر خوارزم شاه ووصلهم إلى هراة، فاستدعى ابن حرميل فقبض على أملاكه، ونكس أصحابه، ورد أقطاعه فاعتزم أهل هراة على القبض عليه، وكتب القاضي وابن زياد بذلك إلى غياث الدين.

ونمي الخبر إلى ابن حرميل فخشي على نفسه منهم، وأوهمهم أنه يكتب غياث الدين وطلبهم في الكتاب مع رسوله، وأوصى الرسول أن يعدل إلى طريق خوارزم شاه.

ولحق بهم فردهم وأصبحوا على البلد الرابعة يوم من سفر الرسول فادخلهم ابن حرميل البلد، وأمكنهم من أبوابها.

وقبض على ابن زياد وسلمه، وأخرج القاضي فلحق بغياث الدين في بيروزكوه، ونمي الخبر بذلك إلى غياث الدين فاعتزم على المسير بنفسه، فبلغه سير علاء الدين صاحب باميان إلى غزنة فاقصر عن ذلك وأقام ينتظر شأنه مع الدر.

انتفاض عباس في باميان ثم رجوعه إلى الطاعة

لما أسر علاء الدين وجلال الدين كما قلناه في غزنة وصل الخبر إلى عمهما عباس في باميان ومعه وزير أبيهما.

وسار الوزير إلى خوارزم شاه يستجده على الذر ليخلص صاحبيه، فاعتنم عباس غييته وملك القلعة، وكان مطاعاً، وأخرج أصحاب علاء الدين وجلال الدين، فرجع الوزير من طريقه فحاصره بالقلعة، وكان مطاعاً في تلك الممالك من لدن بهاء الدين ومن بعده.

فلما خلاص جلال الدين من أسر الذر، وصل إلى مدينة باميان واجتمع مع الوزير، وبعثوا إلى عباس ولاطفوه حتى نزل عما كان استولى عليه من القلاع، وقال: إنما أردت حفظها من خوارزم شاه.

استيلاء خوارزم شاه على ترمذ ثم الطالقان من يد الغورية

كان خوارزم شاه لما ملك بلخ من يد عمر بن الحسين الغوري سار منها إلى ترمذ وبها ابنه.

وقدم إليه محمد بن بشير بما كان من نزول أبيه عن بلخ، وأنه انتظم في أهل دولته.

وبعثه إلى خوارزم مكرماً، ورغبة بالإقطاع والمواعيد، وكان قد ضاق ذرعه من الخطأ وهن من أسر الذر أصحابه بغزنة، فأطاع واستأمن وملك خوارزم شاه ترمذ ورأى أن يسلمها للخطا ليعتصم بذلك من خراسان، ثم يعود عليهم فيتزعجها منهم.

ولما فرغ من ذلك سار إلى الطالقان وبها سونج نائباً عن غياث الدين محمود، وأرسل من يستميله، فليج وسار لحربه حتى إذا التقيا نزل عن فرسه وسأل العفو فذمه بذلك، وأخذ ما كان بالطالقان بعض أصحابه، وسار إلى قلاع كاكوين وسوار، فخرج إليه حسام الدين علي بن أبي علي صاحب كاكوين وقتلته، وطالبه في تسليم البلاد فأبى، وسار خوارزم شاه إلى هراة ونزل بظاهرها وابن حرميل في طاعته، فكف عساكره عن أهل هراة، ولقيه هنالك رسول غياث الدين بالهدايا.

ثم سار ابن حرميل إلى أسفرايين في صفر، وقد كان صاحبها سار إلى غياث الدين فحاصرها حتى استأمن إليه وملك

شهاب الدين التي كان الذر أخذها من يد الوزير مؤيد الدين عند مقدمه بجنازة شهاب الدين إلى كرمان كما مر.

ثم اعتزم علاء الدين وأخوه على العود إلى غزنة وأهلها متوقعون النهب من عسكرهم والفيء. وكان بينهم رسول الخليفة مجد الدين بن الربيع مدرس النظامية، جاء إلى شهاب الدين فقتل وهو عنده.

وأقام بغزنة فقصد أهل غزنة أن يشفع فيهم، فشفع وسكن الناس وعاد علاء الدين وأخوه إلى غزنة.

ثم وقع بينهما تشاجر على اقتسام الخزانة، وعلى وزارة مؤيد الملك فندم الناس على طاعتها.

وسار جلال الدين ومعه عباس إلى باميان، وبقي علاء الدولة بغزنة، وأساء وزيره السيرة في الجند والرعية، ونهسب الأموال حتى باعوا أمهات أولادهم.

ويشكون فلا يشكهم أحد، فسار الذر في جموع الأتراك والغز والغورية، فكبسهم إيدكن الشرقي مولى شهاب الدين في ألفين وملك كرمان.

وجاء الذر إثر ذلك وأنكر على إيدكن وملك كرمان، وأحسن إلى أهلها.

وبلغ الخبر إلى علاء الدين بغزنة، فبعث وزيره إلى أخيه جلال الدين في باميان، وكانت عساكر الغورية قد فارقوه ولحقوا بغياث الدين، ووصل الذر آخر سنة اثنتين وستمئة إلى غزنة فملكها، وامتنع علاء الدين بالقلعة، فسكن الذر الناس وأمنهم، وحاصروا القلعة.

وجاء الخبر إلى الذر بأن جلال الدين قادم عليك بعساكره، ولحق سليمان بن بشير بغياث الدين ببيروزكوه فأكرمه، وجعله أمير داره، وذلك في صفر سنة ثلاث وستمئة وسار الذر فلقي جلال الدين وهزمه، وسبق أسيراً إليه، ورجع إلى غزنة وتهدد علاء الدين بقتل الأسرى إن لم يسلم القلعة.

وقتل منهم أربعمائة أسير فبعث علاء الدين يستأمنه، فأمنه. ولما خرج قبض على وزيره عماد الملك وقتله، وبعث إلى غياث الدين بالفتح.

البلد.

ثم أرسل إلى صاحب سجستان بطاعة خوارزم والخطبة له، فأجاب إلى ذلك بعد أن طلبه في ذلك غياث الدين فامتنع.

وعند مقام خوارزم شاه على هراة عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل الذي كان ابن حرميل أخرجه منها فلحق بشهاب الدين، ثم رجع من عنده إلى خوارزم شاه فسعى به ابن حرميل عنده حتى سجنه بقلعة زوزن، وولى على القضاء بهراة الصفي أبي بكر محمد بن السرخسي.

خبر غياث الدين مع الدر وأبيك مولى أبيه

لما ملك الدر غزنة وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كتب إليه غياث الدين يأمره بالخطبة، وطاول في ذلك فبعث إليه يستحثه بأمر الخطيب بالترحم على شهاب الدين والخطبة لنفسه، فاستراب الأتراك به، وبعث هو يشترط على غياث الدين العتق فأجابه إلى ذلك بعد توقف.

وكان عزمه على أن يصالح خوارزم شاه ويستمدده على الدر، فلما طلب العتق اعتقه، واعتق قطب الدين أبيك مملوك عمه شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند.

وأرسل إلى كل منهما هدية ورد الخبر واستمر الدر على مراوغته وأبيك على طاعته، فاستمد غياث الدين خوارزم شاه على الدر فأمدّه على أن يرد ابن حرميل صاحب هراة إلى طاعته، وأن يقسم الغنيمة أثلاثاً بينهما وبين العسكر.

وبلغ الخبر إلى الدر فسار إلى بكتياد فملكها، ثم إلى بست وأعمالها كذلك، وقطع خطبة غياث الدين منها، وأرسل إلى صاحب سجستان بقطع خطبة خوارزم شاه، وإلى ابن حرميل كذلك ويهددهما، وأطلق جلال الدين صاحب باميان وزوجه بته، وبعث معه خمسة آلاف فارس مع إيدكين مملوك شهاب الدين ليعيدوا جلال الدين إلى ملكه بباميان، ويتزلوا ابن عمه.

فلما سار معه إيدكين أغراه بالعود إلى غزنة وأعلمه أن الأتراك مجمعون على خلاف الدر، فلم يجبه جلال الدين إلى ذلك فرجع عنه إيدكين إلى إقطاعه بكابل، ولقيه رسول من قطب الدين أبيك إلى الدر يهدده على عصيانه على غياث الدين، ويأمره بالخطبة له، ووصل معه الهدايا والألطفات إلى غياث الدين.

وأشار عليه أبيك بإجابة خوارزم إلى جميع ما طلب حتى يفرغ من أمر غزنة.

وكتب إلى أبيك يستأذنه في المسير إلى غزنة ومحاربة الدر فأذن له بمحاربته، ووصل إيدكين في رجب سنة ثلاث وستمئة وخطب لغياث الدين بغزنة، وامتنعت عليه القلعة فنهب البلد، ووصل الخبر إلى الدر بشأن إيدكين في غزنة ومراسلة أبيك له فقت ذلك في عضده، وخطب لغياث الدين في بكتياد وأسقط اسمه ورحل إلى غزنة فرحل إيدكين عنها إلى بلد الغور، وأقام في تمواز، وكتب إلى غياث الدين بالخبر وأنفذ إليه أموالاً، فبعث إليه غياث الدين بالخلع واعتقه وخاطبه بملك الأمراء.

وسار غياث الدين إلى بست وأعمالها فاستردّها وأحسن إلى أهلها وأقام الدر بغزنة.

مقتل ابن حرميل واستيلاء خوارزم شاه على هراة

كان ابن حرميل كما قدمناه استدعى عسكر خوارزم شاه إلى هراة وأنزله معه بهراة، فساء أمرهم في الناس وكثر عيهم فحبسهم، وبعث إلى خوارزم شاه بصنيعهم ويعدده، وكان مشغلاً بقتال الخطأ، فكتب إليه يحسن فعله ويستدعي الجند الذين حبسهم.

وبعث إلى عز الدين خلذك أن يحثال في القبض على ابن حرميل، فسار في ألفي فارس، وكان خلذك أيام السلطان سنجر والياً على هراة، فلما قدم خرج ابن حرميل لتلقيه، فنزل كل واحد منهما إلى صاحبه، وأمر خلذك أصحابه بالقبض على ابن حرميل فقبضوا عليه، وانقض عنه أصحابه إلى المدينة، فأمر الوزير خواجه صاحب بقلق الأبواب والاستعداد للحصار، ونادى بشعار غياث الدين محمود فحاصره خلذك وبذل له الأمان وتهده بقتل ابن حرميل، وخاطبه بذلك ابن حرميل ففعل، وكتب بالخبر إلى خوارزم شاه فبعث ولاته بجراسان يأمرهم بحصار هراة، فساروا في عشرة آلاف وامتنعت هراة عليهم.

وكان ابن حرميل قد حصنها بأربعة أسوار محكمة وخندق، وشحنها بالميرة، وصار يعدهم إلى حضور خوارزم شاه، وأسروه أياماً حتى فادى نفسه ورجع إلى خوارزم كما يذكر في أخبار دولته، وأرجف بموته في خراسان فطعم أخوه علي في طبرستان، وكزل خان في نيسابور إلى الاستياد بالملك، فلما وصل خوارزم شاه حرب أخوه علي شاه ولحق بشهاب الدين في بيروزكوه، فتلّقه وأكرمه، وسار خوارزم شاه إلى نيسابور وأصلح أمرها واستعمل عليها، وسار إلى هراة وعسكره على حصارها، وقيل للوزير قد

مدينة هاور، ثم سار إلى الهند ليملك مدينة دلهي وغيرها من بلاد المسلمين، وكان قطب الدين أيبك صاحبها قد مات، ووليها بعده مولاه شمس الدين فصار إليه، والتقى عند مدينة سمابا. واقتلا، فانهزم الذر وعسكره وأسر قتل.

وكان محمود السيرة في ولايته كثير العدل والإحسان إلى الرعية لاسيما التجار والغرباء.

وكان يملكه انقراض دولة الغورية والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة الديلم وما كان لهم من
الملك والسلطان في ملة الإسلام ودولة بني
بويه منهم المتغلبين على الخلفاء على
العباسيين ببغداد وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا نسب الديلم في أنساب الأمم وأنهم من نسل
ماذاي بن يافث، وماذاي معدود في التوراة من ولد يافث.

وذكر ابن سعيد ولا أدري عن نقله: أنهم من ولد سام بن
ناسل بن آشور بن سام، وأشور مذكور في التوراة من ولد سام.
وقال: إن الموصل من جرموق بن آشور، والفرس والكردي
والخز من إيران بن آشور، والنبط والسوريان من نبط بن آشور.
وهكذا ذكر ابن سعيد والله أعلم.

والجيل عند كافة النساين إخوانهم على كل قول من هذه
الأقوال، وهم أهل جيلان جميعاً عصبية واحدة من سائر أحوالهم.
ومواطن هؤلاء الديلم والجيل يجبال طبرستان وجرجان إلى
جبال الري وكيلان وحفاني البحيرة المعروفة ببحيرة طبرستان من
لدى أيام الفرس وما قبلها، ولم يكن لهم ملك فيما قبل الإسلام.

ولما جاء الله بالإسلام وانقضت دولة الأكاسرة
واستفحلت دولة العرب وافتتحوا الأقاليم بالشرق والمغرب
والجنوب والشمال كما مر في الفتوحات، وكان من لم يدخل من
الأمم في دينهم دان لهم بالجزية، وكان هؤلاء الديلم والجيل على
دين المجوسية، ولم تفتح أرضهم أيام الفتوحات، وإنما كانوا يؤدون
الجزية.

وكان سعيد بن العاص قد صالحهم على مائة ألف في
السنة، وكانوا يعطونها وربما يمنعونها، ولم يأت جرجان بعد سعيد
أحد، وكانوا يمنعون الطريق من العراق إلى خراسان على قومس.
ولما ولي يزيد بن المهلب خراسان سنة ست وثمانين

وصل خوارزم شاه لما وعدته.

وتحدث في ذلك جماعة من أهل البلد فقبض عليهم،
ووقعت بذلك هبة وشعر بها خوارزم شاه فزحف إلى السور
وخرب برجين منه، ودخل البلد فملكه وقتل الوزير وولى على
هراة من قبله، وذلك سنة خمس وستمئة ورجع إلى قتال الخطا.

مقتل غياث الدين محمود

لما ملك خوارزم شاه مدينة هراة وولى عليها خاله أمير
ملك، وأمره أن يسير إلى بيروزكوه ويقبض على صاحبها غياث
الدين محمود بن غياث الدين الغوري، وعلى أخيه علي شاه بن
خوارزم شاه، فصار أمير ملك واستأمن له محمود فأمنه وخرج إليه
هو وعلي شاه فقبض عليهما أمير ملك وقتلها، ودخل بيروزكوه
سنة خمس وستمئة وصارت خراسان كلها لخوارزم شاه.

استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها

ولما استولى خوارزم شاه على عامة خراسان وملك باميان
وغیرها أرسل إلى تاج الدين الذر صاحب غزنة في الخطبة والسكة
وأن يقرر الصلح على غزنة بذلك فشاور أهل دولته، وفيهم
قطلوكتين من موالي شهاب الدين، وهو النائب عن الذر بغزنة،
فأشار عليه بطاعته، وأعاد الرسول بالإجابة، وخطب له وسار عن
غزنة متصدياً، وبعث قطلوكتين إلى خوارزم شاه سراً أن يبعث إليه
من يسلمه غزنة، فجاء بنفسه وملك غزنة، وهرب الذر إلى هاور.

ثم أحضر خوارزم شاه قطلوكتين وقتله بعد أن استصفاه
وحصل منه على أموال جمّة، وولى على غزنة ابنه جلال الدين،
وذلك سنة ثلاث عشرة وستمئة ورجع إلى بلده.

استيلاء الذر على هاور ومقتله

لما هرب الذر من غزنة أمام خوارزم شاه لحق بلهاور، وكان
صاحبها ناصر الدين قباچه من موالي شهاب الدين وله معها ملتان
وأمد والدليل إلى ساحل البحر، وله من العسكر خمسة عشر ألف
فارس، وجاءه الذر في ألف وخمسمائة فقاتله على التعبئة ومعه
الفيلة، فانهزم الذر أولاً، وأخذت فيروله.

ثم كانت له الكرة وحمل فيل له على علم قباچه بإغراء
الفيال، وصدق هو الحملة فانهزم قباچه وعسكره، وملك الذر

للهمجرة، ولم يفتح طبرستان ولا جرجان، وكان يزيد بن المهلب يعيره بذلك إذا قصت عليه أخباره في فتوحات بلاد الترك ويقول: ليست هذه الفتوح بشيء، والشأن في جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور، فلما ولاه سليمان بن عبد الملك خراسان سنة تسع وتسعين، أجمع على غزوها ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال وعناصر، يقوم الرجل على باب منها فيمنعه، وكانت طبرستان مدينة وصاحبها الأصهبدي.

ثم سار إلى جرجان مولاه فراسة، وسار الهادي إليهما وحاصرها حتى استقاما على الطاعة.

ثم بعث المهدي سنة ثمان وتسعين يحيى الحرشي في أربعين ألفاً من العساكر فنزل طبرستان وأذن الديلم. ثم لحق بهم أيام الرشيد يحيى بن عبد الله بن حسن المشي فأجاروه، وسرح الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي لحربهم، فسار إليهم سنة خمس وتسعين ومائة فأجابهو إلى التمكن منه على مال شرطوه وعلى أن يحيى يخط الرشيد وشهادة أهل الدولة من كبار الشيعة وغيرهم، فبذل لهم المال، وكتب الكتاب.

وجاء الفضل يحيى فحبسه عند أخيه جعفر حسبما هو مذكور في أخباره.

وفي سنة تسع وثمانين ومائة كتب الرشيد وهو بالري كتاب الأمان لسروين بن أبي قارن ورندهرمز بارخشان صاحب الديلم، وبعث بالكتاب مع حسن الخادم إلى طبرستان فقدم بارخشان ورندهرمز وأكرمهما الرشيد وأحسن إليهما، وضمن رندهرمز الطاعة والخراج عن سروين بن أبي قارن.

ثم مات سروين وقام مكانه ابنه شهريار، ثم زحف سنة إحدى وثمانين ومائة عبد الله بن أبي خرداذبه وهو عامل طبرستان إلى البلاد والسيوز من بلاد الديلم، فافتحها وافتتح سائر بلاد طبرستان، وأنزل شهريار بن سروين عنها.

وأشخص مازيار بن قارن ورندهرمز إلى المأمون وأسر أبا ليلى ثم مات شهريار بن سروين سنة عشر ومائتين وقام مكانه ابنه سابور، فحاربه مازيار بن قارن بن رندهرمز وأسر، ثم قتله.

ثم انتقض مازيار على المعتصم وحمل الديلم وأهل تلك الأعمال على بيعته كرهاً، وأخذ رهنهم وجبى خراجهم، وخرب أسوار أمل وسارية، ونقل أهلها إلى الجبال وبنى على حدود جرجان سوراً من طمس إلى البحر مسافة ثلاثة أميال وحصنه بخندق، وكانت الأكاسرة بتة سداً على طبرستان من الترك.

وقد نقل أهل جرجان إلى نيسابور وأملى له في انتقاضه

الأفشين مولى المعتصم وكبير دولته، طمعه في ولاية خراسان بما كان يضطغن ابن طاهر صاحب خراسان، فذس إليه بذلك كتاباً ورسالة حتى امتعض.

وجهاز عبد الله بن طاهر العساكر لحربه مع عمه الحسن ومولاه حيان بن جبلة.

وسرح المعتصم العساكر يردف بعضها بعضاً حتى أحاطوا بجباله من كل ناحية، وكان قارن بن شهريار أخو مازيار على سارية فدس إلى قواد ابن طاهر بالرجوع من كل ناحية، وكان قارن قد أتى إلى الطاعة والنزول لهم عن سارية على أن يملكوه جبال آبائه، وأسجل له ابن طاهر بذلك، فقبض على عمه قارن في جماعة من قواد مازيار، وبعث بهم فدخل قواد ابن طاهر جبال قارن وملكوا سارية.

ثم استامن إليهم قوهيار أخو مازيار ووعدهم بالقبض على أخيه على أن يولوه مكانه، فأسجل له ابن طاهر بذلك، فقبض على أخيه مازيار، وبعث به إلى المعتصم ببغداد فصلبه، واطلع منه على دسيسة الأفشين مولاه فنكبه وقتله.

ووثب عماليك مازيار بقوهيار فثاروا منه بأخيه وفروا إلى الديلم، فاعترضتهم العساكر وأخذوا جميعاً، ويقال: إن الذي كان غدر بمازيار هو ابن عمه، كان يضطغن عليه عزله عن بعض جبال طبرستان، وكان مولاه ورأيه عن رأيه.

ثم ثلاثت الدعوة العباسية بعد المتوكل وتقلص ظلها. واستبد أهل الأطراف بأعمالهم وظهرت دعاة العلوية في النواحي إلى أن ظهر بطبرستان أيام المستعين الحسن بن زيد الداعي العلوي من الزيدية، وقد مر ذكره.

وكان على خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، وقد ولي على طبرستان عمه سليمان بن عبد الله بن طاهر فكان محمد بن أوس ينوب عنه مستبداً عليه فأساء السيرة، وانتقض لذلك بعض عمال أهل الأعمال ودعوا جيرانهم الديلم إلى الانتقاض.

وكان محمد بن أوس قد دخل بلادهم أيام السلم وأنخن فيها بالقتل والسبي، فلما استجدهم أولئك الثوار لحرب سليمان ونائبه محمد بن أوس نزعوا لإجابتهم واستدعوا الحسن بن زيد من مكانه، وباعوه جميعاً وزحفوا به إلى أمل فملكوها.

ثم ساروا إلى سارية فهزموا عليها سليمان وملكوها. ثم استولى الحسن الداعي على طبرستان وكانت له ولأخيه

بعده الدولة المعروفة، كما هو معروف في أخبارهم، أقامت قريباً من أربعين سنة، ثم انقضت بقتل محمد بن زيد.

ولما تلاشت دولة العلوية واستفحل هؤلاء القواد بالاستبداد على أعقابهم في طبرستان وجرجان، وكانت خراسان عند تقلص الدولة العباسية على الأطراف قد غلب عليها الصفار وملكها من يد بني طاهر.

ثم نازعه فيها بنو سامان والداعي العلوي فأصبحت مشاعاً بينهم، ثم انفرد بها ابن سامان كل منهم يعطي طاعة معروفة للخلفاء، ومركز ابن سامان وراء النهر وخراسان في أطراف مملكتهم.

وزاد تقلص الخلافة عما وراءها، فتناول ملوك الديلم هؤلاء قواد الدولة العلوية بطبرستان إلى ممالك البلاد، وتجاؤا عن أعمال ابن سامان لقوة سورته واستفحال ملكه.

وساروا في الأرض يرومون الملك وانتشروا في النواحي، وتغلب كل منهم على ما دفع إليه من البلاد.

وربما تنازعوا بعضها فكانت لهم دون طبرستان وجرجان بلاد الري، وظفر بنو بويه منهم بملك فارس والعراقين، وحجر الخلفاء ببغداد فذهبوا بفضل القديم والحديث، وكانت لهم الدولة العظيمة التي باهى الإسلام بها سائر الأمم حسبما نذكر ذلك كله في أخبار دولتهم.

أخبار ليلى بن النعمان ومقتله

كان ليلى بن النعمان من قواد الديلم وكان أولاد الأطروش يعتنونه في كتابهم إليه المؤيد لدين الله المنتصر لأولاد رسول الله ﷺ.

وكان كريماً شجاعاً قد ولاء الحسن بن القاسم الداعي الصغير على جرجان بعد الأطروش سنة ثمان وثلاثمائة، فسار من جرجان إلى الدامغان وهي في طاعة ابن سامان، وعليها مولاه قراتكين، فبرزوا إليه وقاتلوه فهزمهم وأثنى فيهم، وعاد إلى جرجان، فابتنى أهل الدامغان حصناً يمتنعون به.

وسار قراتكين إلى ليلى فبرز إليه من جرجان وقاتله على عشرة فراسخ فانهزم قراتكين وأثنى في عسكره، وسار إليه فارس مولى قراتكين فأكرمه وزوجه أخته وكثرت أجناده، وضاعت أمواله فأغراه أبو حفص القاسم بن حفص بنيسابور، وأمره الحسن الداعي بالمسير إليها فسار وملكها آخر ثمان وثلاثمائة وخطب بها للداعي.

ودخل الديلم الحسن الأطروش من ولد عمر بن زين العابدين وكان زيدي المذهب فنزل فيما وراء السعيد دوى إلى آمل، ولبت في الديلم ثلاث عشرة سنة وملكهم يومئذ حسان بن وهشودان وكان يدعوهم إلى الإسلام ويأخذ منهم العشر ويدافع عنهم ملكهم ما استطاع، فأسلم على يديه منهم خلق كثير، وبنى لهم المساجد، وزحف بهم إلى قزوين فملكها، وسالوس من تغور المسلمين فاطاعوه، وملك آمل ودعاهم إلى غزو طبرستان وهي في طاعة ابن سامان فأجابوه وساروا إليها سنة إحدى وثلاثمائة.

وبرز إليها عاملها ابن صعلوك فهزمه الأطروش واستلحم سائر أصحابه، ولحق ابن صعلوك بالري، ثم سار إلى بغداد، واستولى الأطروش على طبرستان وأعمالها، وقد ذكرنا دولته وأخبارها في دول العلوية، وكان استظهاره على أمره بالديلم وقواده في حروبه وولائه على أعماله منهم.

ثم قتله جيوش السعيد بن سامان سنة أربع وثلاثمائة، ودال الأمر بين عقبه قواد الديلم كما هو مذكور في أخبارهم.

الخبر عن دولة الديلم وتغلبهم على أعمال

الخلفاء بفارس والعراقين

كان للديلم جماعة من القواد بهم استظهر الأطروش وينوه على أمرهم: منهم سرخاب بن وهشودان أخو حسان، وهو معدود في ملوكهم، وكان صاحب جيش أبي الحسين بن الأطروش.

ثم أخوه علي، ولاء المقتدر على أصفهان.

ثم ليلى بن النعمان من ملوكهم أيضاً وكان قائداً للأطروش وولاه بعده صهره الحسن المعروف بالداعي الصغير على جرجان.

ثم ماكان بن كالي، وهو ابن عم سرخاب وحسان ابني وهشودان، وولاه أبو الحسين بن الأطروش مدينة أستراباذ وأعمالها.

ثم كان دون هؤلاء جماعة أخرى من القواد فمنهم من أصحاب ماكان بن كالي أسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار بن بادر وأخوه وشمكير ولشكري.

ومن أصحاب مرداويج بنو بويه الملوك الأعظم ببغداد

وكان سَعِي الخلق صعب العشرة وأخرجه ماكان من عسكره فانصل بيكر بن محمد بن اليسع في نيسابور وهو عامل عليها من قبل ابن سامان فأكرمه واختصه في العساكر سنة خمس عشرة وثلاثمائة لفتح جرجان وكان ما كان بن كالي يومئذ بطبرستان، وولى على جرجان أبا الحسن بن كالي، واستراب بأبي علي بن الأطروش فحبسه بجرجان فجعله عنده في البيت، وقام ليلة إليه ليقتله فأظفر الله العلوي به وقتله، وتسرب من الدار وأرسل من الغد إلى جماعة من القواد فجاءوا إليه وباعوه والبسوه القلنسوة، وولى على جيشه علي بن خرشبة وكاتبوا أسفار بن شيرويه بذلك وهو في طريقه إليهم، واستدعوه فاستأذن بكر بن محمد وسار إليهم، وسار علي بن خرشبة في القيام بأمر جرجان بدعوة العلوي الذي معهم وضبط ناحيتها.

وسار إليهم ما كان بن كالي في العساكر من طبرستان وقتلوه فهزموه واتبعوه إلى طبرستان فملكوها من يده وقاموا بها. ثم هلك أبو علي الأطروش وعلي بن خرشبة صاحب الجيش وانفرد أسفار بطبرستان وسار بكر بن محمد بن اليسع إلى جرجان فملكها وأقام فيها دعوة نصر بن سامان.

ثم رجع ماكان إلى طبرستان وبها أسفار فحاربه وغلبه، وملك طبرستان من يده ولحق أسفار بجرجان فأقام بها عند بكر بن اليسع إلى أن توفي بكر، فولاه السعيد على جرجان سنة خمس عشرة وثلاثمائة ثم ملك نصر بن سامان الري بولاية المقتدر وولى عليها محمد بن علي بن صعلوك فطرقه المرض في شعبان سنة ست عشرة وثلاثمائة.

وكتب الحسن الداعي أسفار ملك جرجان بولاية نصر بن سامان، فاستدعى مرداويج بن زيار من ملوك الجبل وجعله أمير جيشه وسار إلى طبرستان فملكها.

استيلاء أسفار على الري واستفحال أمره

لما استولى أسفار على طبرستان ومرداويج معه، وكان يومئذ على الري وملكها من يد صعلوك كما ذكرناه.

واستولى على قزوین وزنگیان وأبهر وقم والكرخ ومعه الحسن بن القاسم الداعي الصغير وهو قائم بدعوته.

فلما خالفه أسفار إلى طبرستان وملكها واستضافها إلى جرجان سار إليه ماكان والداعي والتقوا بسارية واقتلوا، وانهزم ماكان وقتل الداعي، وكانت هزيمته بتخاذل الديلم عنه فإن الحسن

وأنفذ السعيد نصر بن سامان عساكره من بخارى مع قواده حمويه بن علي ومحمد بن عبد الله البلغمي وأبو حفص بنيسابور وأبو الحسن صعلوك وسيجور الدواني، فقاتلوا ليلى بن النعمان عن طوس وهزموه، فلحق بأمل واختفى فيها، وجاءه بقراخان وأخرجه من الاختفاء وأنفذ بالخير إلى حمويه، فأمره بقتله وتأمين أصحابه، فقتل وحمل رأسه إلى بغداد، وذلك في ربيع سنة تسع وثلاثمائة، وبقي فارس غلام قراتكين بجرجان، وعاد قراتكين إلى جرجان فاستأمن إليه مولا فارس فقتله قراتكين وانصرف عن جرجان.

أخبار سرخاب بن وهشودان ومهلكه وقيام

ماكان بن كالي بمكانه

كان سرخاب بن وهشودان الديلمي من قواد الأطروش وبنيه، وباع لأبي الحسن بن الأطروش الناصر بعد مهلك أبيه بطبرستان وأسترباذ وكان صاحب جيشه، ولما انصرف قراتكين عن جرجان بعد مهلك ليلى بن النعمان، سار إليها أبو الحسن بن الأطروش وسرخاب فملكوها، وأنفذ السعيد نصر بن سامان سنة عشر سيجور الدواني في أربعة آلاف فارس لقتاله، ونزل على فرسخين من جرجان وحاصرها أشهراً، ثم برزوا إليه، وأكمن لهم سيجور كميناً فقباطا الكمين وانهزم سيجور واتبعه سرخاب.

ثم خرج الكمين بعد حين وانهزم أبو الحسن إلى أستراباذ وترك جرجان، واتبعه سرخاب في الفل بمخلقه وغلف أصحابه ورجع سيجور إلى جرجان فملكها.

ثم مات سرخاب ولحق ابن الأطروش بسارية فأقام بها واستخلف ماكان بن كالي وهو ابن عم سرخاب، فسار محمد بن عبيد الله البلغمي وسيجور لحصاره وأقاموا عليه طويلاً.

ثم بذلوا له مالاً على أن يخرج لهم عنها فنقوم لهم بذلك حجة عند ابن سامان ثم يعود ففعل ذلك، وخرج إلى سارية ثم نزل إلى الشمانية عن أستراباذ، وولوا عليها بقراخان فعاد إليها ماكان وملكها ولحق بقراخان بأصحابه في نيسابور.

بداية أسفار بن شيرويه وتغلبه على جرجان

ثم طبرستان

كان أسفار هذا من الديلم من أصحاب ماكان بن كالي،

ذلك فرجع وشرط عليه الخطبة والطاعة فقبل، وانتظم الحال بينهما ورجع إلى السطوة بأهل الري.

ولما كانوا عابوا عليه عسكر القتال ففرض عليهم الأموال وعسف بهم، وخص أهل قزوین بالنهب لما تولوا من ذلك، وسلط عليهم الديلم فضاقت بهم الأرض.

مقتل أسفار وملك مرداويج

كان مرداويج بن زيار من قواد أسفار وكان قد ستم عسفه وطفياه كما ستمه الناس، وبعثه أسفار إلى صاحب سمران الطبر الذي ملك أذربيجان بعد ذلك يدعوه إلى طاعته، ففاوضه في أمر أسفار وسوء سيرته في الناس، واتفقا على الوثوب عليه به فأجابوه وفيهم مطرف بن محمد وزيره فسار هو وسلار إليه، وبلغه الخبر فنار به الجند فهرب إلى الري، وكتب إلى ماكان بن كالي بطبرستان يستألفه على أسفار فسار إليه ماكان فهرب أسفار من يبهق إلى بست، ثم دخل مظارة الري قاصداً قلعة الموت التي حصن بها أهله وذخيرته.

وتخلف عنه بعض أصحابه في المفازة، وجاء إلى مرداويج يخبره، فسار إليه وتقدم بين يديه بعض القواد فلقى أسفار وسأله عن قواده، فأخبره أن مرداويج قتلهم فسر بذلك.

ثم حمله القائد إلى مرداويج فأراد أن يجبسه بالري فحذره بعض أصحابه غائله، فأمر بقتله ورجع إلى الري ولما قتل أسفار تنقل مرداويج في البلاد يملكها، فملك قزوین، ثم الري، ثم همدان، ثم كنكور، ثم الدينور، ثم دجرد، ثم قم، ثم قاشان، ثم أصفهان، ثم جراباد، واستفحل ملكه وعتا وتكبر، وجلس على سرير الذهب، وأجلس أكابر قواده على سرير الفضة، وتقدم لعسكره بالوقوف على البعد منه، ونودي بالخطاب بينهم وبين حاجبه.

استيلاء مرداويج على طبرستان وجرجان

قد ذكرنا أن الألفة الواقعة بين مرداويج وماكان وتظاهرها على أسفار حتى قتل وثبت مرداويج في الملك، واستفحل أمره فتناول إلى ملك طبرستان وجرجان.

وسار إليهما سنة ست عشرة وثلاثمائة فانهزم ماكان أمامه واستولى مرداويج على طبرستان، وولى عليها اسفهلان، وأمر على عسكره أبا القاسم، وكان حازماً شجاعاً.

كان يشتد عليهم في النهي عن المنكر فنكروه، واستقدموا خال مرداويج من الجبل واسمه هزرسندان وكان مع أحمد الطويل بالدامغان، فمكروا بالداعي واستقدمه للاستظهار به، وهم بضمرهم تقديمه عوض ماكان، ونصب أبي الحسن بن الأطروش عوض الحسن الداعي، ودس إليه بذلك أحمد الطويل صاحب الدامغان بعد موت صعلوك، فحذره حتى إذا قدم هزرسندان أدخله مع قواد الديلم إلى قصره بجرجان، ثم قبض عليهم وقتلهم جميعاً، وأمر أصحابه بنهب أموالهم، فامتعض لذلك سائر الديلم وأقاموا على مضض حتى إذا كان يوم لقائه أسفار خذله فقتل.

وفر ماكان واستولى أسفار على ما كان لهم من الري وقزوین وزنجيان وأبهر وقم والكرخ واستضافها إلى طبرستان وجرجان، وأقام فيها دعوة السعيد بن سامان.

ونزل سارية واستعمل على الري هارون بن بهرام صاحب جناح، وكان يخطب فيها لأبي جعفر العلوي، فاستدعاه إليه وزوجه من آمل.

وجاء أبو جعفر لوليمته مع جماعة من العلويين فكيسهم أسفار وبعث بهم إلى بخارى فحبسهم بها إلى أن خلصوا مع يحيى أخي السعيد، وكانوا في فتية حسبما ذكرناه.

ولما فرغ أسفار من الري تناول إلى قلعة الموت لبحصن بها عياله وذخيرته، وكانت لسياه جشم بن مالك الديلمي ومعناه الأسود العين، فاستقدمه أسفار وولاه قزوین، وسأله في ذلك فأجابته فنقل عياله إليها وسرب الرجال إليهم لخدمته حتى كملوا مائة.

ثم استدعاه فقبض عليه، وثار أولئك بالقلعة فملكوها، وكان في طريقه إلى الري استأمن إليه صاحب جبلي نهاوند وقم ابن أمير كان فملكها، ومر بسمان فامتنع منه صاحبها محمد بن جعفر، وبعث إليه من الري بعض أصحابه فاستأمن إليه وخدعه حتى قتله وتدل من ظهر القلعة.

ثم استفحل أمر أسفار وانتفض على السعيد بن سامان، وأراد أن يتوج ويجلس على سرير الذهب، واعتزم على حرب ابن سامان والخليفة، فبعث المقتدر العساكر إلى قزوین مسع هارون بن غريب الحال فقاتله أسفار وهزمه.

ثم سار بن سامان إلى نيسابور لحربه، فأشار على أسفار وزيره مطرف بن محمد الجرجاني بمسالته وطاعته، وبذل الأموال له فقبل إشارته.

وبعث بذلك إلى ابن سامان وتلطف أصحابه في رجوعه إلى

استيلاء مرداويج على أصفهان

ثم بعث مرداويج عسكرياً آخر إلى أصفهان سنة تسع عشرة فملكوها وجددوا له مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فزّلها وعكسره يومئذ أربعون أو خمسون ألفاً، ثم بعث عسكرياً إلى الأهواز وخوزستان فملكوها وجبوا أعمالها، وبعث إلى المقتدر وضمن هذه البلاد بمائتي ألف دينار في كل سنة فقررت عليه، وأقطع المقتدر همذان ورماء الكوفة.

قدوم وشكير على أخيه مرداويج

وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة بعث مرداويج رسوله من الجند ليأتيه بأخيه وشكير، فبعث إليه وأبلغه رسالة أخيه وأعلمه بمقامه في الملك، فاستبعد ذلك، ثم استغربه ونكر على أخيه مشايعته للمسودة، لأن الديلم والجيل كانوا شيعية للعلوية بطبرستان، فلم يزل الرسول به حتى سار به إلى أخيه، فخرج به إلى قزوين وألبسه السواد بعد مراوضة.

وقدم على أخيه بدوياً حافياً مستوحشاً فلم يكن إلا أن رهِف الملك أعطافه فأصبح أرق الناس حاشية وأكثر الناس معرفة بالسياسة.

خبر مرداويج مع ابن سامان على جرجان

كان أبو بكر المظفر صاحب جيوش ابن سامان بخراسان قد غلب على جرجان وانتزعها من ملكه مرداويج، فلما فرغ مرداويج من أمر خوزستان والأهواز رجع إلى الري وسار منها إلى جرجان، فخرج ابن المظفر عن جرجان إلى نيسابور وبها يومئذ السعيد نصر بن سامان، فسار لمدافعة مرداويج عن جرجان، وكتب محمد بن عبد الله البلغمي من قواد ابن سامان مطرف بن محمد وزير مرداويج واستماله.

وشعر بذلك فقتل وزيره وبعث إليه البلغمي يعذله في قصد جرجان، ويطوق ذلك بالوزير مطرف، ويذكره حقوق السعيد بن سامان قبله وقصور قدرته عنه، ويشير عليه بالنزول له عن جرجان وتقرير المال عليه بالري، فقبل مرداويج إشارته وعاد عن جرجان وانتظم الحال بينهما.

ثم سار إلى جرجان فهرب عامل ماكان عنها وملكها مرداويج، وولى عليها صهره أبا القاسم المذكور خليفة عنه، ورجع إلى أصفهان ولحق أبو القاسم وهزمه، فرجع السائر إلى الديلم ولحق ماكان بنيسابور، واستمد أبا علي بن المظفر صاحب جيوش ابن سامان، فسار معه في عساكره إلى جرجان فهزماه أبو القاسم ورجعا إلى نيسابور.

ثم سار ماكان إلى الدامغان فدفعه عنها أبو القاسم فعاد إلى خراسان.

استيلاء مرداويج على همذان والجيل

وحروبه مع عساكر المقتدر

لما ملك مرداويج بلاد الري أقبلت الديلم إليه، فأناض فيهم العطاء، وعظمت عساكره فلم تكفه جباية أعماله، وامتدت عينه إلى الأعمال التي تجاوره، فبعث إلى همذان سنة تسع عشرة جيشاً كبيراً مع ابن أخته، وبها محمد بن خليف وعسكر المقتدر، فاقتتلوا وأعان على همذان عسكر الخليفة فظفروا بعسكر مرداويج، وقتلوا ابن أخته، فسار إليهم مرداويج من الري وهرب عسكر الخليفة من همذان ودخلها عنوة، فأنخن فيهم واستلحمهم وسباهم، ثم أمنهم، وزحفت إليه عساكر المقتدر مع هارون بن غريب الحال فهزماه بنواحي همذان، وملك بلاد الجبل وما وراء همذان، وبعث قائداً من أصحابه إلى الدينور ففتحها عنوة، وبلغت عساكره نحو حلوان، وامتألت أيديهم من الذهب والسي ورجعوا.

خبر لشكري في أصفهان

كان لشكري من الديلم ومن أصحاب أسفار، واستأمن بعد قتله إلى المقتدر، وصار في جند هارون بن غريب الحال.

ولما انهزم هارون أمام مرداويج سنة تسع عشرة وثلاثمائة، أقام في قرقلنين ينتظر مدد المقتدر، وبعث لشكري هذا إلى نهاوند بجيئه بمال منها، فتغلب عليها وجمع بها جنداً، ثم مضى إلى أصفهان في منتصف السنة وبها أحمد بن كيغلغ فحاربه وهزمه، وملك أصفهان، ودخل إليها عسكره، وأقام هو بظاهرها، فرأى لشكري فقصده يظنه من بعض جنده أي أحمد، فلما تراءى دافع أحمد بن كيغلغ عن نفسه فقتل وهرب أصحابه ورجع ابن كيغلغ إلى أصفهان.

بداية أمر بني بويه

وكانوا إخوة ثلاثة أكبرهم عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة الحسن، ومعر الدولة أبو الحسن أحمد.

لقبهم بهذه الألقاب الخلفاء عندما ملكوا الأعمال، وقلدوهم إياها على ما نذكر بعد، وهم الذين تولوا حجر الخلفاء بعد ذلك ببغداد كما يأتي.

وأبوهم أبو شجاع بويه بن قنابخس وللناس في نسبهم خلاف: فأبو نصر بن مأكولا ينسبهم إلى كوهي بن شيرزيك الأصغر ابن شيركوه بن شيرزيك الأكبر ابن سران شاه بن سيرقند بن سيسانشاه بن سير بن فيروز بن شروزيل بن سنسار بن هراهم جور، وبقية النسب المذكور في ملوك الفرس.

وابن مسكويه قال: يزعمون أنهم من ولد يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس.

والحق أن هذا النسب مصنوع تقرب إليهم به من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود، ولو كان نسبهم ذا خلل في الدليل لم تكن لهم تلك الرياسة عليهم، وإن كانت الأنساب قد تغير وتخفى وتنتقل من شعب إلى شعب ومن قوم إلى قوم فإنما هو بطول الأعصار وتناقل الأجيال واندراس الأزمان والأحقاب.

وأما هؤلاء فلم يكن بينهم وبين يزدجرد وانقطاع الملك من الفرس إلا ثلاثمائة سنة، فيها سبعة أجيال أو ثمانية أجيال ميزت فيها أنسابهم وأحصيت أعقابهم فكيف يدرك مثل هذه الأنساب الخفاء في مثل هذه الأعصار.

وإن قلنا كان نسبهم إلى الفرس ظاهراً منع ذلك من رياستهم على الديلم فلا شك في هذه التقادير في ضعة هذا النسب والله أعلم.

وأما بدايتهم فإنهم كانوا من أوسط الديلم نسباً وحالاً.

وفي أخبارهم أن أباهم أبو شجاع كان فقيراً، وأنه رأى في منامه أنه يول فخر من ذكره نار عظيمة فاستضاءت الدنيا بها، فاستطالت وارتفعت إلى السماء، ثم افترقت ثلاث شعب ومن كل شعب عدة شعب فاستضاءت الدنيا بها والناس خاضعون لتلك النيران.

وإن عابراً عبر له الرؤيا بأنه يكون له ثلاثة أولاد يملكون الأرض، ويعلموهم ذكرهم في الأفاق كما علت النار، ويولد لهم ملوك بقدر الشعب.

وأن أبا شجاع استبعد ذلك واستكره لما كانوا عليه من توسط الحال في المعيشة، فرجع المعبر إلى السؤال عن وقت مواليدهم فأخبروه بها، وكان منجماً فعدل طوالهم وقضى لهم جميعاً فوعده وآنصرف.

ولما خرج قواد الديلم للملك البلاد وانتشروا في الأعمال مثل ليلي وماكان وأسفار ومرداويج خرج مع كل واحد منهم جموع من الديلم رؤوس وأتباع، وخرج بنو أبي شجاع هؤلاء في جملة قواد ماكان، فلما اضطرب أمره وغلبه مرداويج عن طبرستان وجرجان مرة بعد مرة لحق آخراً بنيسابور مهزوماً فاعتزم بنو بويه على فراقه واستأذنه في ذلك، وقالوا إنما نفارقك تخفيفاً عليك فإذا صلح أمرك عدنا إليك.

وساروا إلى مرداويج، وتبعتهم جماعة من قواد ماكان فقبلهم مرداويج، وقلد كل واحد منهم ناحية من نواحي الجبل، وقلد علي بن بويه كرمس وكتب لهم العهود بذلك.

وساروا إلى الري وبها يومئذ أخوه وشمكير ومعه وزيره الحسين بن محمد العميد والد أبي الفضل.

ثم بدأ لمرداويج في ولاية هؤلاء القواد المستأمنة فكتب إلى أخيه وشمكير ووزيره العميد بردهم عن تلك الأعمال.

وكان علي بن بويه قد أسلف عند العميد بدأً في بغلة فارهة عرضها للبيع، واستأمنها العميد فوهبها له فرعى له العميد هذه الوسيلة.

فلما قرأ كتاب مرداويج دس إلى ابن بويه بأن يغذ السير إلى عمله فسار من حينه.

وغدا وشمكير على بقية القواد، فاستعاد العهود من أيديهم، وأمر ابن بويه فأشار عليه أصحابه بترك ذلك لما فيه من الفتنة فتركه.

ولاية عماد الدولة بن بويه على كرج

وأصفهان

ولما وصل عماد الدولة إلى كرج ضبط أمورها وأحسن السياسة في أهلها وأعمالها، وقتل جماعة من الخرمية كانوا فيها وفتح قلاعهم، وأصاب فيها ذخائر كثيرة فأنفقها في جنده فشاع ذكره وحمدت سيرته، وكتب أهل الناحية إلى مرداويج بالنبا فغص، وجاء من طبرستان إلى الري وأطلق مალأ لجماعة من قواده على كرج فاستمالهم عماد الدولة وأحسن إليهم، فأقاموا عنده.

عبوره، واضطره للحرب، فتحاربوا واستأمن جماعة من أصحاب ابن بويه إلى ياقوت فقتلهم، فخشيه الباقون واستماتوا.

وقدم ياقوت أمام عسكريه رجاله بقوار النفط، فلما أشعلوها وقذفت أعادتها الريح عليهم فلعلقت بهم فاضطربوا، وخالطهم أصحاب ابن بويه في موقفهم وكانت الدبرة على ياقوت.

ثم صعد إلى ربوة ونادى في أصحابه بالرجوع، فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس، وأراد الحملة عليهم لاستغاثهم بالنهب ففطنوا له، وتركوا النهب وقصدوه فانهزموا وتبعوهم فأتخنوا فيهم.

وكان معز الدولة أحمد بن بويه من أشد الناس بلاء في هذه الحرب، ابن تسع عشرة سنة لم يطر شاربه.

ثم رجعوا إلى السواد فنهبوه وأسروا جماعة منهم، فأطلقهم ابن بويه وخيرهم، فاختاروا المقام عنده فأحسن إليهم، ثم سار إلى شيراز فأمنها ونادى بالملك من الظلم، واستولى على سائر البلاد وعرفوه بذخائر في دار الإمارة وغيرها من ودائع ياقوت وذخائر بني الصفار، فنادى في الجند بالعطاء وأراح عيالهم، وامتلات خزائنه، وكتب إلى الراضي وقد أفضت إليه الخلافة، وإلى وزيره أبي علي بن مقله تقرير البلاد عليه بألف درهم فأجيب إلى ذلك، وبعثوا إليه بالخلع واللواء، وكان محمد بن ياقوت قد فارق أصفهان عند خلع القاهرة وولاية الراضي، وبقيت عشرين يوماً دون أمير، فجاء إليها وشمكير وملكها، فلما وصل الخبر إلى مرداويج باستيلاء ابن بويه على فارس سار إلى أصفهان للتدبير عليه، وبعث أخاه وشمكير إلى الري.

استيلاء ماكان بن كالي على الري

قد ذكرنا في دولة بني سامان أن أبا علي محمد بن الياس كان سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة بكرمان متقضاً على السعيد، فبعث إليه في هذه السنة جيشاً كثيفاً فاستولى على كرمان، وأقام فيها الدعوة لابن سامان، وكان أصل محمد بن الياس من أصحاب السعيد فسخطه وجسه ثم أطلقه بشفاعه البلغمي.

وبعث مع صاحب خراسان محمد بن مظفر إلى جرجان حتى إذا خرج أخوه السعيد من محبسهم، ويأبى ليجي منهم، كان محمد بن الياس معهم حتى تلاشى أمرهم، ففارقه ابن الياس من نيسابور إلى كرمان فاستولى عليها إلى هذه الغاية فأزاله عنها ماكان ولحق بالدينور وأقام ماكان والياً بكرمان بدعوة بني سامان.

واستتاب مرداويج فكتب إلى عماد الدولة في استدعائهم، فدافعه وحذرهم منه فحذروا.

ثم استأمن إليه سبraz من أعيان قواد مرداويج، فكشف به جمعه وسار إلى أصفهان وبها المظفر بن ياقوت من قبل القاهر، في عشرة آلاف مقاتل، وعلى خراجها أبو علي بن رستم، فاستأذنها في الانحياز إليهما، والدخول في طاعة الخليفة، فأعرضا عنه، ومات خلال ذلك ابن رستم وبرز ابن ياقوت من أصفهان لمداغته، واستأمن إليه من كان مع ابن ياقوت من الجليل والديلم، ثم لقيه عماد الدولة في تسعمائة فهزمه وملك أصفهان.

استيلاء ابن بويه على أرجان وأخواتها ثم

على شيراز وبلاد فارس

ولما بلغ خبر أصفهان إلى مرداويج اضطرب، وكتب إلى عماد الدولة بن بويه يعاتبه ويستميله، ويطلب منه إظهار طاعته، ويمدحه بالعساكر في البلاد والأعمال، ويخطب له فيها.

وجهاز له أخاه وشمكير في جيش كثيف ليكبسه وهو مطمئن إلى تلك الرسالة، وشعر ابن بويه بالملكة فرحل عن أصفهان بعد أن جباها شهرين، وسار إلى أرجان وكان أبو بكر بن ياقوت من أصفهان والياً عليها، ففصل عنها.

ولما ملك ابن بويه أرجان كاتبه أهل شيراز يستدعونه إليهم، وعليهم يومئذ ياقوت عامل الخليفة، وثقلت وطأته عليهم وكثر ظلمه، فاستدعوا ابن بويه وخام عن المسير إليهم، فأعادوا إليه الكتاب بالحث على ذلك، وأن مرداويج طلب الصلح من ياقوت فعاجل الأمر قبل أن يجتمعا، فسار إلى النوبندگان في ربيع سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وسبقته إليها مقدمة ياقوت في ألفين من شجعان قومه.

فلما وافاهم ابن بويه انهزموا إلى كرمان وجاءهم ياقوت هنالك في جميع أصحابه.

وأقام عماد الدولة بالنوبندگان، وبعث أخاه ركن الدولة الحسن إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس، فلقى هنالك عسكرياً لياقوت فهزمهم وجبى تلك الأعمال ورجع إلى أخيه بالأموال.

ثم وقعت المراسلة بين مرداويج وياقوت في الصلح وسار وشمكير إليه عن أخيه فخشيها عماد الدولة وسار من نوبندگان إلى اصطخر، ثم إلى البيضاء وياقوت في اتباعه.

وسبقه ياقوت إلى قطرة على طريق كرمان فصده عن

مقتل مرداويج وملك أخيه وشكير من

بعده

فأغلق باب الحمام ودعمه من ورائه بسرير الخشب الذي كان صاعداً عليه، فصعدوا إلى السطح وكسروا الجوامع ورموه بالسهم فانحجر في زوايا الحمام وكسروا الباب عليه وقتلوه.

وكان الذي تولى كبر ذلك جماعة من الأتراك، وهم تورون الذي صار بعد ذلك أمير الأمراء ببغداد، وبارق بن بقرخان ومحمود بن نبال الترجمان ويحكم الذي ولي إمارة الأمراء قبل تورون.

ولما قتلوه خرجوا إلى أصحابهم فركبوا ونهبوا قصر مرداويج وهربوا.

وكان الديلم والجيل بالمدينة فركبوا في أثرهم فلم يدركوا منهم إلا من وقفت دابته فقتلوه، وعادوا لنهب الخزائن، فوجدوا العميد قد أضرعها ناراً.

ثم اجتمع الديلم والجيل ويايعوا أخاه وشكير بن زيار وهم بالري، وحملوا معهم جنازة مرداويج، فخرج وشكير وأصحابه لتلقيهما على أربع فراسخ حفاة، ورجع العسكر الذي كان بالأهواز إلى وشكير واجتمعوا عليه، وتركوا الأهواز لياقوت فملكها، وقام وشكير بملك أخيه مرداويج في الديلم والجيل، وأقام بالري، وجرجان في ملكه.

وكتب السعيد بن سامان إلى محمد بن المظفر صاحب خراسان، وإلى ماكان بن كالي صاحب كرمان بالمسير إلى جرجان والري، فسار ابن المظفر إلى قومس ثم إلى بسطام، وسار ماكان على المفازة إلى الدامغان واعترضه الديلم من أصحاب وشكير في جيش كثيف فهزمهم ولحق بنيسابور آخر ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وجعلت ولايته لماكان بن كالي فأقام بها.

وسار أبو علي بن الياس إلى كرمان بعد انصراف ماكان عنها فملكها وصفت له بعد حروب شديدة طويلة مع جيوش السعيد بن سامان، وكان له الظفر آخراً.

وأما الأتراك الذين قتلوا مرداويج فافترقوا في هزيمتهم فرقتين، فسارت فرقة إلى عماد الدولة بن بويه وهم الأقل، وفرقة إلى الجليل مع يحكم وهم الأكثر فجبوا خراج الدينور وغيره.

ثم ساروا إلى النهروان وكتبوا الرازي في المسير إلى بغداد فأذن لهم واستراب الحجرية بهم، فردهم الوزير ابن مقله إلى بلد الجليل وأطلق لهم مالا فلم يرضوا به، فكتبهم ابن رائق وهو يومئذ صاحب واسط والبصرة فلحقوا به، وقدم عليهم يحكم، فكتب الأتراك من أصحاب مرداويج يقدم عليه منهم عدة وافرة، واختص يحكم وتولاه ونعت بالرائقي نسبة إليه، وأمره أن يرسمها

لما استفحل أمر مرداويج كما قلنا عتا وتجب وتزوج بتاج مرصع على هيئة تاج كسرى، وجلس على كرسي الذهب وأجلس أكبر قواده على كرسي الفضة، واعتزم على قصد العراق، وبنى المدائن وقصور كسرى وأن يدعى بشاه.

وكان له جند من الأتراك، كان كثير الإساءة إليهم، ويسميهما الشياطين والمردة فنقلت وطأته على الناس، وخرج ليلة الميلاد من سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، إلى جبال أصفهان وكانوا يسمونها ليلة القود لما يضرهم فيها من النيران.

فأمر بجمع الخطب على الجبل من أوله إلى آخره أمثال الجبال والتلال، وجمع ألفي طائر من الغربان والحدآت، وجعل النفط في أرجلها ليضرم الجبل ناراً حتى يضيء الليل.

واستكثر من أمثال هذا اللعب، ثم عمل سماً للأكل بين يديه فيه مائة فرس ومائتا بقرة وثلاثة آلاف كبش وعشرة آلاف من الدجاج وأنواع الطير، وما لا يحصى من أنواع الخسوف، وهيا ذلك كله ليأكل الناس، ثم يقوموا إلى مجلس الشرب والندمان فتشعل النيران.

ثم ركب آخر النهار ليطوف على ذلك كله بنفسه، فاحتقره وسخط من تولى تربيته، ودخل خيمته مغضباً ونام، فأرجف القواد بموته فدخل إليه وزيره العميد وأيقظه، وعرفه بما الناس فيه، فخرج وجلس على السباط وتناول لقمتين ثم ذهب، وعاد إلى مكانه، فقام في معسكره بظاهر أصفهان ثلاثاً لا يظهر للناس.

ثم قام في اليوم الرابع ليعود إلى قصره بأصفهان فاجتمعت العساكر ببابه، وكثر صهيل الخيل ومراحها فاستيقظ لكثرة الضجيج، فزاد غضبه وسأل عن أصحاب الدواب، فقيل إنها للأتراك نزلوا للخدمة وتركوها بين يدي الغلمان، فأمر أن تحمل عنها السروج، وتجعل على ظهور الأتراك ويقودونهم إلى اصطبلات الخيل، ومن امتنع من ذلك ضرب، فأمسكوا ذلك على أقبح الهيئات، واصطنعوا ذلك عليه، وانفقوا على الفتك به في الحمام.

وكان كورتيكين يجرسه في خلواته وحمامه، فسخطه ذلك اليوم وطرده، فلم يتقدم إلى الحرس لمراعاته وداخلوا الخادم الذي يتولى خدمته في الحمام في أن يفقده سلاحه، وكان يحمل خنجراً فكسر حديد الخنجر وترك النصاب لمرداويج، فلم يجد له حذاً

في كتابه.

استيلاء ماكان على جرجان وانتقاضه على

ابن سامان

قد ذكرنا انهزام ماكان على جرجان أيام باغين الديلمي ورجوعه إلى نيسابور، فأقام بها ثم بلغ الخبر بمهلك باغين بجرجان فاستأذن ماكان محمد بن المظفر في الخروج لاتباع بعض أصحابه هرب عنه وطالبه به عارض الجيش فأذن له، وسار إلى أسفرايين وبعث معه جماعة من عسكره إلى جرجان فاستولى عليها. ثم أظهر لوقته الانتقاض على ابن المظفر وسار إليه بنيسابور، فتخاذل أصحابه وهرب عنها إلى سرخس، وعاد عنها ماكان خوفاً من اجتماع العساكر عليه. وذلك في رمضان سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

الخبر عن دولة بني بويه من الديلم المتغلبين

على العراقيين وفارس والمستبدين على

الخلفاء ببغداد من خلافة المستكفي إلى أن

صاروا في كفالتهم وتحت حجرهم إلى

انقراض دولتهم وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا التعريف ببني بويه وذكر نسبهم وهم من قواد الديلم الذين تطاولوا للاستيلاء على أعمال الخلفاء العباسيين، ولما لم يروا عنها مدافعاً ولا لها حامية فتقلوا في نواحيها، وملك كل واحد منهم أعمالاً منها.

واستولى بنو بويه على أصفهان والري، ثم انعطفوا على بلاد فارس فملكوا أرجان وما إليها.

ثم استولوا على شيراز وأعمالها وأحاطوا بأعمال الخلافة بنواحي بغداد من شرقها وشمالها، وكانت الخلافة قد طرقها الإغلال، وغلب عليها الموالي والصنائع، وقد كان أبو بكر محمد بن رائق عاملاً بواسط، واضطرب حال الرازي ببغداد فاستقدمه وقلده إمارة الجيوش، ونعته أمير الأمراء.

وكان بنو البريدي في خوزستان والأهواز فغصوا به، ووقعت الوحشة بينه وبينهم فبعث ابن رائق بدارا الخرشني ويحكم الذي نزع إليه أئراك مرداويج، فساروا في العسكر لقتال ابن البريدي، واستولوا على الأهواز سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ولحق ابن البريدي بعماد الدولة بن بويه لما ملك العراق، وسهل

مسير معز الدولة بن بويه إلى كرمان

وهزيمته

لما ملك عماد الدولة بن بويه وأخوه ركن الدولة بلاد فارس والجيل، بعثا أخاهما الأصغر معز الدولة إلى كرمان خالصة له، فسار في العسكر إليها سنة أربع وعشرين وثلاثمائة واستولى على السيرجان وكان إبراهيم بن سيجور الدواني قائد ابن سامان يحاصر محمد بن الياس بن اليسع في قلعة هنالك.

فلما بلغه خبر معز الدولة سار من كرمان إلى خراسان، وخرج محمد بن الياس من القلعة التي كان محاصراً بها إلى مدينة قم على طرف المسافة بين كرمان وسجستان فسار إلى جيرفت وهي قصبه كرمان. وجاء رسول علي بن أبي الزنجي المعروف بعلي بن كلونة أمير القفص والبلوص، كان هو وسلفه متغلبين على تلك الناحية ويعطون طاعتهم للأمراء والخلفاء على البعد ويمحلون إليهم المال.

فلما جاء رسوله بالمال امتنع معز الدولة من قبوله إلا بعد دخول جيرفت، فلما دخل جيرفت صالحه وأخذ رهنه على الخطبة له.

وكان علي بن كلونة قد نزل بمكان صعب المسلك على عشرة فراسخ من جيرفت، فأشار على معز الدولة بعض أصحابه أن يغدر به ويكبسه ففعل ذلك، وأتى لعلي بن كلونة عيونه بالخير، فأرصد جماعة لمز الدولة بمضيق في طريقه، فلما مر بهم سارياً ثاروا به من جوانبه وقتلوا من أصحابه وأسروا وأصابته جراح كثيرة، وقطعت يده اليسرى من نصف الذراع، وأصاب يده اليمنى وسقط بين القتلى، وبلغ الخبر إلى جيرفت فهرب أصحابه منها، وجاء علي بن كلونة فحملة من بين القتلى إلى جيرفت وأحضر الأطباء لعلاجيه، وكتب إلى أخيه عماد الدولة يعتذر ويبدل الطاعة فأجابيه وأصلحه، وسار محمد بن الياس من سجستان إلى بلد خيابة فتوجه إليه معز الدولة وهزمه وعاد ظافراً، ومر بابن كلونة فقاتله وهزمه وأثنى في أصحابه، وكتب إلى أخيه عماد الدولة يخبره مع ابن الياس وابن كلونة، فبعث قائداً من قواده واستقدمه إليه بفارس فأقام عنده بإصطخر إلى أن قدم عليهم أبو عبد الله البريدي منهزماً من ابن رائق ويحكم المتغلبين على الخلافة ببغداد، فبعث عماد الدولة أخاه معز الدولة وجعل له ملك العراق عوضاً عن ملك كرمان كما يذكر بعد.

عليه أمره. والدليم، وأن الوزير أبا جعفر الصيمري كان على خراجها مختصراً بقلعة السوس، فسار ركن الدولة إلى السوس وهرب عساكر ابن البريدي بين يديه.

ثم سار إلى واسط ليستولي عليها لأنه قد خرج عن أصفهان وليس له ملك يستقل به، فنزل بالجانب الشرقي وسار الراضي ويحكم من بغداد لحربه، فاضطرب أصحابه، واستأمن جماعة منهم لابن البريدي فخام ركن الدولة عن اللقاء، ورجع إلى الأهواز فسار إلى أصفهان، وهزم عسكر وشمكير بها وملكها.

وكان هو وأخوه عماد الدولة بعثا لابن محتاج صاحب خراسان يحرضانه على ماكان ووشمكير، واتصلت بينهما مودة.

مسير معز الدولة إلى واسط والبصرة

كان ابن البريدي بالبصرة وواسط قد صالح يحكم أمير الأمراء ببغداد، وحرضه على المسير إلى الجبل ليرجعها من يد ركن الدولة بن بويه، ويسير هو إلى الأهواز فيرتفعها من يد معز الدولة.

واستمد يحكم فأمدته بخمسمائة رجل، وسار إلى حلوان في انتظاره.

واقام ابن البريدي يترى به، ويتنظر أن يبعد عن بغداد فيهجم هو عليها، وعلم يحكم بذلك فرجع إلى بغداد، ثم سار إلى واسط فانتزعها من يد ابن البريدي، وذلك لسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وولي الخلافة المتقي، وكان ظل الدولة العباسية قد تقلص حتى قارب التلاشي والاضمحلال وتحكم على الدولة بعد مولاة ابن رائق وابن البريدي الذي كان يزاحمه في التغلب على الدولة، فبعث عساكره من البصرة إلى واسط، فشرح إليه يحكم العساكر مع مولاة توروون فهزمهم، وجاء يحكم على أثره، ولقيه خير هزيمتهم، فاستقام أمره، ووفق يتصدى في تلك النواحي إلى أن عرض له بعض الأكراد ممن له عنده ثار وهو منفرد عن عسكره فقتله، وافترق أصحابه فلحق جماعة من الأتراك بالشام، ومقدمهم توروون.

وولى الباقون عليهم يكسك مولى يحكم.

وكان الدليم عند مقتله قد ولوا عليهم بأسوار بن ملك بن مسافر بن سلا وسلاز جده صاحب شميران الطرم الذي داخل مرداويج في قتل أسفار وملك ابنه محمد بن مسافر بن سلاز أذربيجان، فكانت له ولولده بها دولة.

استيلاء معز الدولة بن بويه على الأهواز

لما لحق أبو عبد الله البريدي بعماد الدولة ناجياً من الأهواز، مستنجداً له، بعث أخاه معز الدولة في العساكر بعد أن أخذ منه ابنه أبا الحسن محمداً وأبا جعفر الفياض رهناً.

وسار معز الدولة سنة ست وعشرين وثلاثمائة فانتهى إلى أرجان ويحكم جاء للقاءهم، وانهمز أمامهم إلى الأهواز فأقام بها، وأنزل بها بعض عسكره في عسكر مكرم، فقاتلوا معز الدولة ثلاثة عشر يوماً ثم انهزموا إلى تستر، فرحل معز الدولة إلى عسكر مكرم، وأنفذ ابن البريدي خليفته إلى الأهواز.

ثم بعث إلى معز الدولة بأن يتنقل إلى السوس، ويبعد عنه فيؤمن له الأهواز فعزله وزيره أبو جعفر الصيمري، وغيره من أصحابه، وأروه أن البريدي يخادعه، فامتنع معز الدولة من ذلك، وبلغ اختلافهم إلى يحكم، فبعث عسكراً من قبله فاستولى على الناس وجند نيسابور وبقية الأهواز بيد ابن البريدي وعسكر مكرم بيد معز الدولة.

وضاق حال جنده وتحدثوا في الرجوع إلى فارس فواعدهم لشهر، وكتب إلى أخيه عماد الدولة بالخبر، فبعث إليه مدداً من العسكر، فعادوا واستولوا على الأهواز.

وسار يحكم من واسط فاستولى على بغداد وقلده الراضي إمارة الأمراء، وهرب ابن رائق فاخفى ببغداد.

انتزاع وشمكير أصفهان من يد ركن الدولة

ومسيره إلى واسط ثم استرجاعه أصفهان

قد ذكرنا أن وشمكير المستولي بعد أخيه مرداويج على الري، وكان عماد الدولة استولى على أصفهان ودفعها إلى أخيه ركن الدولة فبعث إليها وشمكير سنة سبع وعشرين وثلاثمائة جيشاً كثيفاً من الري فملكوها من يده وخطبوا فيها لوشمكير.

ثم سار وشمكير إلى قلعة الموت فملكها، ورجع فلحق ركن الدولة بإصطخر، وجاءه هنالك رسول أخيه معز الدولة من الأهواز بأن ابن البريدي أنفذ جيشاً إلى السوس وقتل قائدها من

تورون والمستكفي لدفاعه، ففارقها وعاد إلى الأهواز.

استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد

واندراج أحكام الخلافة في سلطانه

ثم إن تورون في فاتح سنة أربع وثلاثين عقد الأتراك الرياسة عليهم لابن شيرزاد، وولاه المستكفي إمرة الأمراء في الأرزاق، فضاقت الجبايات على العمال والكتاب والتجار، وامتدت الأيدي إلى أموال الرعايا، وفشا الظلم وظهرت للصوص، وكبسوا المنازل وأخذ الناس في الجلاء عن بغداد.

ثم استعمل ابن شيرزاد على واصل نبال كوشه، وعلى تكريت الفتح يشكري فاتقضا، وسار الفتح لابن حمدان فولاه على تكريت من قبله وبدعوته، وبعث نبال كوشه إلى معز الدولة وقام بدعوته.

واستدعاه الملك بغداد فزحف إليها في عساكر الديلم، ولقيه ابن شيرزاد والأكراد فهزمهم، ولحقوا بالموصل وأخفي المستكفي وقدم معز الدولة كاتبه الحسن بن محمد المهلي إلى بغداد فدخلها، وظهر الخليفة من الاختفاء، وحضر عند المهلي فبايع له عن معز الدولة أحمد بن بويه، وعن أخويه عماد الدولة وركن الدولة الحسن وولاهم المستكفي على أعمالهم ولقبهم بهذه الألقاب ورسمها على سكته.

ثم جاء معز الدولة إلى بغداد فملكها وصرف الخليفة في حكمه، واختص باسم السلطان، وبعث إليه أبو القاسم البريدي صاحب البصرة فضمن واسط وأعمالها وعقد له عليها.

خلع المستكفي وبيعة المطيع وما حدث في

الجباية والإقطاع

وبعد أشهر قلائل من استيلاء معز الدولة على بغداد غشي إليه أن المستكفي يريد الإزالة منه فتكر له، وأجلسه في يوم مشهود للقاء وafd من أصحاب خراسان، وحضر معز الدولة في قومه وعشيرته، وأمر رجلين من نقباء الديلم بالفنك بالخليفة، فتقدما ووصلا ليقبلا يد المستكفي، ثم جذباه عن سريره وقاده ماشياً واعتقله بداره، وذلك في منتصف أربع وثلاثين وثلاثمائة فاضطرب الناس وعظم النهب، ونهبت دار الخلافة.

وبايع معز الدولة للفضل بن المقتدر ولقبه المطيع لله،

ووقعت الفتنة بين الديلم والأتراك فقتله الأتراك، وولى الديلم مكانه كورتكين، ولحقوا بابن البريدي فزحف بهم إلى بغداد.

ثم تنكروا واتفقوا مع الأتراك على طرده فلحقوا بواسط، واستفحل الديلم وغلبوا الأتراك وقتل كورتكين كثيراً من الديلم، واستبد بإمرة الأمراء ببغداد.

ثم جاء تورون من الشام بابن رائق وهزم كورتكين الديلم وقتل أكثرهم، وانفرد ابن رائق بإمرة الأمراء ببغداد سنة اثنتين وثلاثمائة.

وكان ابن البريدي في هذه الفترة بعد يحكم قد استولى على واسط، فبعث إليه ابن رائق واستوزره ففعل على أن يقيم مكانه ويستخلف ابن شيرزاد ببغداد، ثم سار إليهم إلى واسط فهرب ابن رائق والمقتفي إلى الموصل، وتحلف عنهم تورون، وغاث أصحاب ابن البريدي في بغداد، فشكا له الناس.

ولما وصل المقتفي إلى ابن حمدان إمرة الأمراء مكانه، وقصدوا بغداد فهرب، وخالفه تورون إلى المقتفي وابن حمدان وملكوا بغداد.

وسار سيف الدولة أمام ابن البريدي وخرج ناصر الدولة في اتباعه، فنزل المدائن وانكشف سيف الدولة أمام ابن البريدي حتى انتهوا إلى أخيه ناصر الدولة بالمدائن، فأمدته ورجع فهزم ابن البريدي وغلبه على واسط فملكها، ولحق ابن البريدي بالبصرة وأقام سيف الدولة بواسط ينتظر المدد ليسير إلى البصرة. وجاءه أبو عبد الله الكوفي بالأموال، فشغب عليه الأتراك في طلب المال وثأروا به، ومقدمهم تورون، فهرب إلى بغداد وهم في اتباعه، وكان أخوه قد انصرف إلى بغداد، ثم إلى الموصل فلحق به، ودخل تورون بغداد وولى الأمر بها.

ثم استوحش من المقتفي وتربص مسيره إلى واسط لقتال ابن البريدي، وسار إلى الموصل سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ومعز الدولة بن بويه في أثناء هذا كله مقيم بالأهواز، مطل على بغداد وأعمال الخليفة يروم التغلب عليها، وأخوه عماد الدولة بفارس، وركن الدولة بأصفهان والري، فلما سار المقتفي من الرقة إلى تورون خلعه وسمله ونصب المكتفي.

وقد قدمنا هذه الأخبار كلها مستوعبة في أخبار الدولة العباسية وإنما أعددناها توطئة لاستيلاء بني بويه على بغداد واستبدادهم على الخلافة.

ثم عاد معز الدولة إلى واسط سنة ثلاث وثلاثين فسار

شيرزاد فاستحى إلى بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وخالفه معز الدولة إلى تكريت ونهبها، وتسابقوا جميعاً إلى بغداد، فنزل معز الدولة والمطيع بالجانب الشرقي وابن حمدان بالجانب الغربي، فقطع الميرة عن معسكر معز الدولة فغلت الأسعار وعزت الأقوات، ونهب عسكره مراراً فضاقت به الأمور واعتزم على العود إلى الأهواز فأمر وزيره أبا جعفر الصيمري بالعبور في العساكر لقتال ابن حمدان فظفر به الصيمري وغنم الديلم أموالهم وظهرهم.

ثم أمن معز الدولة الناس وأعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ورجع ابن حمدان إلى عكبرا، وأرسل في الصلح سراً ففكر عليه الأتراك التورونية وهموا بقتله، وفر إلى الموصل ومعه ابن شيرزاد، ثم صالحه معز الدولة كما طلب.

ولما فر عن الأتراك التورونية أعلمهم تكين الشيرازي فقبضوا على من تخلف من أصحابه، وساروا في اتباعه وقبض هو في طريقه على ابن شيرزاد، وتجاوز الموصل إلى نصيبين فملكها تكين، وسار في اتباعه إلى السند، فلحقه هنالك عسكر من معز الدولة كما طلب، وأمد به مع وزيره أبي جعفر الصيمري، وقاتل الأتراك فهزمهم، وسار إلى الموصل هو والصيمري فدفع ابن شيرزاد إلى الصيمري وحمله إلى معز الدولة، وذلك سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

استيلاء معز الدولة على البصرة والموصل

وصلحه مع ابن حمدان

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة انتقض أبو القاسم بن البريدي بالبصرة، فجهز معز الدولة الجيش إلى واسط ولقيهم جيش ابن البريدي في الماء وعلى الظهر، فانهزموا إلى البصرة وأسروا من أعيانهم جماعة.

ثم سار معز الدولة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة إلى البصرة ومنعه المطيع كارهاً من قتال أبي القاسم البريدي، وسلخوا إليها البرية وبعث القرامطة يعذلون في ذلك معز الدولة، فكتب يتهدهم، ولما قارب البصرة استأمنت، إليه عساكر أبي القاسم، وهرب هو إلى القرامطة فأجاروه وملك معز الدولة البصرة ثم سار هو منها إلى الأهواز ليلقى أخاه عماد الدولة، وترك المطيع وأبا جعفر الصيمري بالبصرة، وانتقض على معز الدولة كوكير من أكابر الديلم، فقاتله الصيمري وهزمه وأسره، وحجسه معز الدولة بقلعة رامهرمز.

وأحضر المستكفي فأشهد على نفسه بالخلع، وسلم على المطيع بالخلافة، وسلب الخليفة من معاني الأمر والنهي وصيرت الوزارة إلى معز الدولة بولي فيها من يرى.

وصار وزير الخليفة مقصور النظر على إقطاعه ومقتات داره، وتسلم عمال معز الدولة وجنده من الديلم وغيرهم أعمال العراق وأراضيه ولاية وإقطاعاً حتى كان الخليفة يتناول الإقطاع بمراسم معز الدولة، وإنما ينفرد بالسرير والمثبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك، والجلوس للوفد وإجلال التحية والخطاب.

ويقومون مع ذلك بأوضاع القائم على الدولة وترتيبه.

وكان القائم منهم على الدولة تفرد في دولة بني بويه والسلجوقية بلقب السلطان ولا يشاركه فيه غيره، ومعاني الملك من القدرة والأبهة والعز وتصريف الأمر والنهي حاصل للسلطان دون الخليفة.

وكانت الخلافة حاصلة للعباسي المنصوب لفظاً مسلوبة عنه معنى.

ثم طلب الجند أرزاقهم بأكثر من العادة لتجدد الدولة فاضطر إلى ضرب المكوس، ومد الأيدي إلى أموال الناس، وأقطعت جميع القرى والضياع للجند، فارتفعت أيدي العمال وبطلت الدواوين لأن ما كان منها بأيدي الرؤساء لا يقدر على النظر فيها، وما كان بأيدي الأتباع خرب بالظلم والمصادرات والحييف في الجباية وإهمال النظر في إصلاح القناطر وتعديل المشارب، وما خرب منها عوض صاحبه عنه بآخر، فيخربه كما يخرب الآخر.

ثم إن معز الدولة أفرد جمعها من المكوس والظلمات وعجز السلطان عن ذخيرة يغدها لنوابه، ثم استكثر من الموالي ليعتز بهم على قومه، وفرض لهم الأرزاق والأقطاع فحدثت غيرة قومه من ذلك، وآل الأمر إلى المنافرة كما هو الشأن في الدول.

مسير ابن حمدان إلى بغداد وانهزامه أمام

معز الدولة

ولما بلغ استيلاء معز الدولة على بغداد، وخلعه المستكفي إلى ناصر الدولة بن حمدان امتنع لذلك وسار من الموصل إلى بغداد في شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فقدم معز الدولة عساكره فأوقع بها ابن حمدان بعكبرا.

ثم سار معز الدولة ومعه المطيع إلى مدافعه ولحق به ابن

الحسن بن الفيرزان وزوجّه ابنته، وتمسك بمواصلته ومودته واستفحل بذلك ملك بني بويه وامتنع وصارت لهم أعمال الري والجليل وفارس والأهواز والعراق، ويجعل إليهم ضمان الموصل وديار بكر، ثم سار ركن الدولة بن بويه إلى بلاد وشمكير سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومعه الحسن بن الفيرزان مدداً، ولقيهما وشمكير فانهزم أمامهما، ولحق بجراسان مستنجداً بابن سامان، وملك ركن الدولة طبرستان وسار منها إلى جرجان فأطاعه الحسن بن الفيرزان وولاه ركن الدولة عليها، واستأمن إليه قواد وشمكير ورجع إلى أصفهان.

بداية بني شاهين ملوك البطيحة أيام بني

بويه

كان عمران بن شاهين من أهل الجامدة وكان يتصرف في الجباية، وحصل منها بيده مال قصره وهرب إلى البطيحة ممتنعاً من الدولة.

وأقام هنالك بين القصب والأجام يقتات بسمك الماء وطيره، ويأخذ الرفاق التي تمر به، واجتمع إليه لصوص الصيادين فقري وامتنع على السلطان وتمسك بطاعة أبي القاسم بن البريدي بالبصرة فقلده حامية الجامدة وحماية البطائح ونواحيها، فعز جانبه وكثر جمعه وسلاحه، واتخذ معاقل على التلال بالبطيحة وغلب على تلك النواحي.

وأهم معز الدولة أمره وبعث وزيره أبا جعفر الصيمري في العساكر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وحصره، وأيقن بالهلاك وما نفس عن نخقه إلا وصول الخبر بوفاة عماد الدولة بن بويه، ومبادرة الوزير الصيمري إلى شيراز، فعاد عمران إلى حاله وقري أمره كما يأتي في أخبار دولته.

وفاة عماد الدولة بن بويه وولاية عضد

الدولة ابن أخيه على بلاد فارس مكانه

ثم توفي عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه بمدينة شيراز كرسي مملكة فارس في منتصف سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بعد أن كان طلب من أخيه ركن الدولة أن ينفذ إليه ابنه عضد الدولة، فتأخر ليوليه عهده إذ لم يكن له ولد ذكر، فأنفذه إليه ركن الدولة في جماعة من أصحابه لسنة بقيت من حياته.

ثم لقي أخاه معز الدولة بأرجان في شعبان من السنة، وسلك في تعظيمه وإجلاله من وراء الغاية، وكان عماد الدولة يأمره بالجلوس في مجلسه فلا يفعل.

ثم عاد معز الدولة والمطيع إلى بغداد، ونودي بالمسير إلى الموصل فترددت الرسل من ابن حمدان في الصلح وحمل المال.

ثم سار إليه سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة في شهر رمضان واستولى على الموصل، وأراد الإثخان في بلاد ابن حمدان فجاءه الخبر عن أخيه ركن الدولة بأن عساكر خراسان قصدت جرجان، واضطر إلى الصلح، واستقر الصلح بينهما على أن يعطي ابن حمدان عن الموصل، والجزيرة والشام ثمانية آلاف ألف درهم كل سنة، ويخطب لعماد الدولة ومعز الدولة في بلاده، وعاد إلى بغداد.

استيلاء ركن الدولة على الري ثم

طبرستان وجرجان ومسير عساكر ابن

سامان إليها

قد تقدم لنا استيلاء ركن الدولة على أصفهان من يد وشمكير حين بعث عساكره مدداً لماكان بن كالي، وكان ركن الدولة وأخوه عماد الدولة بعثا إلى أبي علي بن محتاج قائد بني سامان يحرضانه على ماكان وشمكير، ويعدانه المظاهرة عليهما، فسار أبو علي إلى وشمكير بالري ولقيه ركن الدولة بنفسه.

واستمد وشمكير ماكان فجاءه في عساكره والتقوا فانهزم وشمكير ولحق بطبرستان، ثم سار بعساكره إلى بلد الجبل فاقتحمها واستولى على زنجان وأبهر وقزوين وقم وكرج وهمذان ونهاوند والدينور إلى حدود حلوان، ورتب فيها العمال وجبى أموالها.

ثم وقع خلاف بين وشمكير والحسن بن الفيرزان ابن عم ماكان، واستنجد الحسن بأبي علي بن محتاج فأعجبه حتى وقع بينهما صلح، وعاد أبو علي إلى خراسان وصحبه الحسن بن الفيرزان، ولقيه في طريقه رسل السعيد بن سامان، وأمر أبا علي بن محتاج سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بغدر الحسن بأبي علي ونهب سواده وعاد إلى جرجان فملكها وملك معها الدامغان وسمنان، وسار وشمكير من طبرستان إلى الري فاستولى عليها أجمع، وكان في قل من العسكر لفناء رجاله في حروبه مع أبي علي بن محتاج والحسن بن الفيرزان، فتطاول حيثش ركن الدولة إلى الاستيلاء على الري، وسار إلى الري وقاتل وشمكير فهزمه، فلحق بطبرستان واستولى ركن الدولة على الري، وأجمع مخالصة

بهذان، فعدل منصور بن قراتكين إلى أصفهان فملكها، وسار إليها ركن الدولة وسبكتكين في مقدمته، وشغب عليه بعض الأتراك فأوقع بهم وترددوا في تلك الناحية.

وكتب معز الدولة إلى ابن أبي الشوك الكردي يتبعهم فقتل منهم وأسر، ونجا بعض إلى الموصل.

وترك ركن الدولة قريباً من أصفهان، وجرت بينه وبين منصور حروب، وضاعت الميرة على الفريقين إلا أن الديلم كانوا أصبر على الجوع وشظف العيش من أهل خراسان لقرب عهدهم بالبدواة.

ومع ذلك فهم ركن الدولة بالفرار لولا وزيره ابن العميد كان يتيه ويريه أنه لا يغني عنه، وأن الاستماتة أولى به فصر، وشنب على منصور بن قراتكين جنده وانقضوا جميعاً إلى الري وتركوا خلفهم بأصفهان، فاحتوى عليه ركن الدولة، وذلك فاتح سنة أربعين وثلاثمائة ومات منصور بن قراتكين بالري في ربيع الأول من السنة، ورجعت العساكر إلى نيسابور.

استيلاء ركن الدولة ثانياً على طبرستان

وجرجان

قد كنا قدما استيلاء ركن الدولة على طبرستان وجرجان سنة ست وثلاثين، وثلاثمائة وأنه استخلف على جرجان الحسن بن الفيرزان.

وسار وشمكير إلى خراسان مستنجداً بابن سامان، فسار معه صاحب جيوش خراسان منصور بن قراتكين، وحاصر جرجان، فصالحه الحسن بن الفيرزان بغير رضا من وشمكير لالخرافة عنه وعن الأمير نوح.

ورجع إلى نيسابور وأقام وشمكير بجرجان والحسن بزوزن. ثم سار ركن الدولة سنة أربعين وثلاثمائة من الري إلى طبرستان وجرجان ففارقها وشمكير إلى نيسابور، واستولى ركن الدولة عليها، واستخلف بجرجان الحسن بن الفيرزان وعلي بن كتامة، وعاد إلى الري فقصدهما وشمكير وانهزما منه، واسترد البلاد من ركن الدولة، وكتب الأمير نوح يستنجده على ركن الدولة، فأمر أبا علي بن محتاج بالمسير معه في جيوش خراسان، فسار في ربيع سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وامتنع ركن الدولة ببعض معاقله، وحاربه أبو علي بن محتاج في جيوش خراسان حتى ضجرت عساكره وأظلمهم فصل الشتاء، فراسل ركن الدولة في

وركب عماد الدولة للقاءه ودخل به إلى داره في يسوم مشهود، وأجلس على السرير وأمر الناس أن يحياه بتحية الملك.

وكان في قواد عماد الدولة جماعة أكابر لا يستكينون لعماد الدولة فضلاً عن عضد الدولة مكانه بفارس، واختلف عليه أصحابه، فجاء إليه ركن الدولة أبوه من الري بعد أن استخلف عليها علي بن كتامة، وكتب معز الدولة إلى وزيره الصيمري بأن يترك محاربة ابن شاهين ويسير إلى شیراز مدداً لعضد الدولة.

وأقام ركن الدولة في شیراز تسعة أشهر، وبعث إلى أخيه معز الدولة بهدية من الأموال والسلاح، وكان عماد الدولة هو أمير الأمراء وإنما كان معز الدولة نائباً عنه في كفالة الأموال وولاية أعمال العراق، فلما مات عماد الدولة انقلبت إمرة الأمراء إلى ركن الدولة، وبقي معز الدولة نائباً عنه كما كان عن عماد الدولة لأنه كان أصغر منهما.

وفاة الصيمري ووزارة المهلب

كان أبو جعفر أحمد الصيمري وزير معز الدولة قد عاد من فارس إلى أعمال الجامدة، وأقام يحاصر عمران بن شاهين إلى أن هلك منتصف تسع وثلاثين وثلاثمائة وكان يستخلف بمحضرة معز الدولة في وزارته أبا محمد الحسن بن محمد المهلب، فباشره معز الدولة وعرف كفايته واضطلاعه، فاستوزره مكان الصيمري فحسن أثره في جمع الأموال وكشف الظلمات وتقريب أهل العلم والأدب والإحسان إليهم.

مسير عساكر ابن سامان إلى الري

ورجوعها

لما سار ركن الدولة إلى بلاد فارس بعث الأمير نوح بن سامان إلى منصور بن قراتكين صاحب جيوشه بخراسان أن يسير إلى الري، فسار إليها سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وكان بها علي بن كتامة خليفة ركن الدولة ففارقها إلى أصفهان وملك منصور الري، وبث العساكر في البلاد فملكوا الجبل إلى قرميس، واستولوا على همدان، وبعث ركن الدولة من فارس إلى أخيه معز الدولة بإنفاذ العساكر إلى مدافعهم، فبعث سبكتكين الحاجب في جيش كثيف من الديلم وغيرهم، فكبسهم وأسر مقدمهم فأعادوا إلى همدان.

ثم سار إليهم ففارقوها، وملكها وورد عليه ركن الدولة

وخرج في طلب ابن بويه، واتفق وصول الوزير أبي الفضل ابن العميد فلقية محمد بن مكاين فهزمه، وعاد أولاد ركن الدولة وحرمه إلى أصفهان.

وراسل ركن الدولة بكر بن مالك صاحب العساكر بخراسان في الصلح على مال يحمله إليه، وتكون الري وبلد الجبل في ضمانه، فأجاب بكر بن مالك إلى ذلك وصالحه عليه، وكتب ركن الدولة إلى أخيه معز الدولة بأن يبعث إلى بكر بن مالك خلعاً ولواء بولاية خراسان فبعث بها في ذي القعدة من السنة.

خروج روزبهان على معز الدولة وميل

الديلم إليه

كان روزبهان ونداد خرشيد من كبار قواد الديلم، وكان معز الدولة قد رفعه ونوه بذكوره، فخرج سنة خمس وأربعين بالأهواز ومعه أخوه أسفار، وخرج أخوه بلكا بشيراز.

ولما خرج روزبهان زحف إليه الوزير المهلب لقتاله فنزع الكثير من أصحابه إلى روزبهان فالحاز عنه، وبعث بالخبر إلى معز الدولة فسار إليهم واختلف عليه الديلم ومالوا مع روزبهان وفصل معز الدولة من بغداد خامس شعبان من السنة قاصداً لحربه، وبلغ الخبر إلى ناصر الدولة بن حمدان، فبعث ابنه أبا الرجال في العساكر للاستيلاء على بغداد، فخرج الخليفة عنها متحذراً، وأعاد معز الدولة سبكتكين الحاجب وغيره لمداغة ابن حمدان عن بغداد.

وسار إلى أن قارب الأهواز والديلم في شغب عليه وعلى عزم اللحاق بروزبهان إلا نفراً يسيراً من الديلم كانوا خالصة، فكان يعتمد عليهم وعلى الأتراك، وكان يفيض العطاء في الديلم فيمسكون عما يهمون به.

ثم ناجز روزبهان الحرب سلخ رمضان فانهزم وأخذ أسيراً، وعاد إلى بغداد إلى أبي الرجال بن حمدان، وكان بعكراً فلم يجده لأنه بلغه خبر روزبهان فأسرع العود إلى الموصل ودخل معز الدولة بغداد وغرق روزبهان وكان أخوه بلكا الخارج بشيراز أزعج عنها عضد الدولة، وسار إليه أبو الفضل بن العميد وقاتله فظفر به، وعاد عضد الدولة إلى ملكه وانحى أثر روزبهان وإخوته، وقبض معز الدولة على جماعة منهم ممن ارتاب بهم، واصطنع الأتراك وقدمهم وأقطع لهم فاعتزوا وامتدت أيديهم.

الصلح على أن يعطيهم ركن الدولة مائتي ألف دينار في كل سنة، وعاد إلى خراسان وكتب وشمكير إلى الأمير نوح بأن ابن محتاج لم ينصح في أمر ركن الدولة، وأنه عمالي، فسخطه من أجل ذلك وعزله عن خراسان.

ولما عاد ابن محتاج عن ركن الدولة سار هو إلى وشمكير فانهمز وشمكير إلى أسفرايين، واستولى ركن الدولة على طبرستان.

إقامة الدعوة لبني بويه بخراسان

ولما عزل الأمير نوح أبا علي بن محتاج عن خراسان استعمل مكانه أبا سعيد بكر بن مالك الفرغاني، فانتفض حيثش وخطب لنفسه بنيسابور، وتحيز عنه ابن الفيرزان مع وشمكير إلى الأمير نوح، فحاز ابن محتاج عن عداوتهم، واستأذن ركن الدولة في المسير إليه.

ثم سار سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة فتلقياه بأنواع الكرامات وسأل منه ابن محتاج أن يقتضي له عهد الخليفة، بولاية خراسان، فبعث ركن الدولة في ذلك إلى أخيه معز الدولة ببغداد، وجاءه العهد والمدد، فسار إلى خراسان فخطب بها للخليفة وركن الدولة.

ثم مات نوح خلال ذلك وولي ابنه عبد الملك فبعث بكر بن مالك من بخارى إلى خراسان لإخراج ابن محتاج منها، فسار إليه وهرب ابن محتاج إلى الري فأواه ركن الدولة وأقام عنده، واستولى بكر بن مالك على خراسان.

ثم سار ركن الدولة إلى جرجان ومعه ابن محتاج فتركها وملكها، ولحق وشمكير بخراسان.

مسير عساكر ابن سامان إلى الري

وأصفهان

ولما فرغ بكر بن مالك من أمر خراسان وأخرج منها ابن محتاج، وسار منها سنة أربع وأربعين وثلاثمائة في أتباعه إلى الري وأصفهان، وكان ركن الدولة غائباً بجرجان فملكها ورجع إلى الري في الحرم من السنة، وكتب إلى أخيه معز الدولة يستعده فأمدّه بالعساكر مع ابن سبكتكين، وجاء مقدمة العساكر من خراسان إلى أصفهان من طريق المفازة وبها الأمير منصور بن بويه بن ركن الدولة، ومقدم العساكر محمد بن مكاين فملك أصفهان

استيلاء معز الدولة على الموصل ثم عودها

كان ناصر الدولة بن حمدان قد صالح معز الدولة على ألف درهم كل سنة، ثم لم يحمل، فسار إليه معز الدولة سبع وأربعين وثلاثمائة ففارق الموصل إلى نصيبين، وحمل معه سائر أهل دولته من الوكلاء والكتّاب ومن يعرف وجوه المال، وأنزلهم في قلاعهم: كقلعة كواشي والزعفران وغيرهما.

وقطع الميرة عن عسكر معز الدولة فضاقت عليهم الأقوات، فسار معز الدولة إلى نصيبين للميرة، وبلغه أن أبا الرجاء وهبة الله في عسكر سنجان، فبعث إليهم بعض عساكره وكبسوهم فهربوا، واستولى العسكر على خلفهم، ونزلوا في خيامهم، وكر عليهم أولاد ناصر الدولة وهم غارون فاتخذوا فيهم وأقاموا بسنجان.

وسار معز الدولة إلى نصيبين فلحق ناصر الدولة بميفارقين، واستأمن الكثير من أصحابه إلى معز الدولة فلحق بأخيه سيف الدولة بحلب، فبالغ في تكريمته وخدمته، وتوسط في الصلح بينه وبين معز الدولة بثلاثة آلاف ألف فأجابه معز الدولة وتم ذلك بينهما، ورجع معز الدولة إلى العراق في محرم سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

العهد لبختيار

وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة طرق معز الدولة مرض استكان له وخشي على نفسه، فأراد العهد لابنه بختيار، وعهد إليه بالأمر وسلم له الأموال، وكان بين الحاجب سبكتكين والوزير المهلب منافرة فاصلح بينهما ووصاهما بانه بختيار، وعهد إليه بالأمر واعتزم على العود إلى الأهواز مستوحشاً هواء بغداد، فلما بلغ كلواذا اجتمع به أصحابه وسفها رايه في الانتقال من بغداد على ملكه، وأشاروا عليه بالعود إليها وأن يستطيب الهواء في بعض جوانبها المرتفعة ويبني بها دوراً لسكنه ففعل، وأنفق فيها ألف ألف دينار وصادر فيها جماعة من أصحابه.

استيلاء ركن الدولة على طبرستان

وجرجان

وفي سنة إحدى وخسين وثلاثمائة سار ركن الدولة إلى طبرستان وبها وشمكير فحاصره بمدينة سارية وملكها، ولحق

وشمكير بجرجان وترك طبرستان فملكها ركن الدولة وأصلح أمرها، ثم سار إلى جرجان فخرج عنها وشمكير واستولى عليها ركن الدولة، واستأمن إليه من عسكر وشمكير ثلاثة آلاف رجل فآزاد بهم قوة، ودخل وشمكير بلاد الجبل مسلوباً وأهناً.

ظهور البدعة ببغداد

وفي هذه السنة كتب الشيعة على المساجد بأمر معز الدولة لعن معاوية بن أبي سفيان صريحاً، ولعن من غصب فاطمة فذلك، ومن منع أن يدفن الحسن عند جده، ومن نفى أبا ذر الغفاري ومن أخرج العباس من الشورى، ونسب ذلك كله لمعز الدولة لعجز الخليفة.

ثم أصبح محموراً وأراد معز الدولة إعادته، فأشار عليه الوزير المهلب بأن يكتب مكانه لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ، ولا يذكر أحداً باللعن إلا معاوية رضي الله عنه.

وفاة الوزير المهلب

وفي سنة اثنتين وخسين سار المهلب وزير معز الدولة إلى عمان ليفتحها، فلما ركب البحر طرقة المرض فعاد إلى بغداد، ومات في طريقه في شعبان من السنة، ودفن ببغداد.

وقبض معز الدولة أمواله وذخائره وقبض على حواشيه وجسهم، ونظر في الأمور بعده أبو الفضل بن العباس بن الحسن الشيرازي وأبو الفرج محمد بن العباس بن فسانجس، ولم يتسموا باسم الوزارة.

استيلاء معز الدولة ثالثاً على الموصل

كان ناصر الدولة بن حمدان قد ضمن الموصل كما تقدم، وأجابه معز الدولة إلى ضمانه، فبذل له ناصر الدولة زيادة على أن يدخل معه في الضمان أبو ثعلب فضل الله الغضنفر، ويحلف لهما معز الدولة فأبى من ذلك، وسار إلى الموصل منتصف ثلاث وخسين وثلاثمائة ففارقها ابن حمدان إلى نصيبين وملكها معز الدولة.

ثم خرج إلى طلب ابن حمدان منتصف شعبان واستخلف على الموصل بكترون وسبكتكين العجمي وسار ابن حمدان عن نصيبين وملكها معز الدولة، وخالفه ابن حمدان إلى الموصل

والحارب عسكر معز الدولة فيها فهزموه، وجاء الخبر إلى معز الدولة، فظفر أصحابه بابن حمدان، وسار ونزل جزيرة ابن عمر، فسار في اتباعه، فوصل سادس رمضان فوجده قد جمع أولاده وعساكره إلى الموصل، فأوقع بأصحاب معز الدولة وأسر الأميرين اللذين خلفا بها، واستولى على ما خلفوه من مال وسلاح، وحمل الجميع مع الأسرى إلى قلعة كواشي، فأعيا معز الدولة أمره وهو من مكان إلى مكان في اتباعه، فأجابته إلى الصلح وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة والرجة بمال قرره، فاستقر الصلح على ذلك، وأطلق ابن حمدان الأسرى، ورجع معز الدولة إلى بغداد.

وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار

كان معز الدولة قد سار سنة خمس وخمسين وثلاثمائة إلى واسط لمحاربة عمران بن شاهين فطرقة المرض سنة ست وخمسين وثلاثمائة فسار إلى بغداد، وخلف أصحابه بواسط على أن يعود إليهم فاشتد مرضه ببغداد، وجدد العهد لابنه بختيار.

ثم مات منتصف ربيع الآخر من السنة فقام ابنه عز الدولة بختيار مكانه، وكتب إلى العساكر بمصاحبة عمران بن شاهين ففعلوا وعادوا.

وكان فيما أوصى به معز الدولة ابنه بختيار طاعة عمه ركن الدولة والوقوف عند إشارته وابن عمه عضد الدولة لعلو سنه عليه وتقدمه في معرفة السياسة، وأن يحفظ كاتبيه أبا الفضل العباس بن الحسن وأبا الفرج بن العباس والحاجب سبكتكين، فخالف جميع وصاياه وعكف على اللهو وعشرة النساء والمغنين والصفاعين، فأوحش الكاتيين والحاجب، فانقطع الحاجب عن حضور داره.

ثم طرد كبار الديلم عن مملكته طمعاً في أقطاعاتهم، فشغب عليه الصغار واقتدى بهم الأتراك في ذلك، وطلبوا الزيادات، وركب الديلم إلى الصحراء وطلبوا إعادة من أسقط من كبارهم. ولم يجد بداً من إجازتهم لانحراف سبكتكين عنه، فاضطرت أموره وكان الكاتب أبو الفرج العباس في عمان منذ ملكها، فلما بلغه موت معز الدولة خشي أن ينفر عنه صاحبه أبو الفضل العباس بن الحسن بالدولة، فسلم عمان لعضد الدولة، وبادر إلى بغداد فوجد أبا الفضل قد انفرذ بالوزارة ولم يحصل على شيء.

مسير عساكر ابن سامان إلى الري ومهلك

وشمكير

كان أبو علي بن الياس قد سار من كرمان إلى بخارى

وحارب عسكر معز الدولة فيها فهزموه، وجاء الخبر إلى معز الدولة، فظفر أصحابه بابن حمدان، وسار ونزل جزيرة ابن عمر، فسار في اتباعه، فوصل سادس رمضان فوجده قد جمع أولاده وعساكره إلى الموصل، فأوقع بأصحاب معز الدولة وأسر الأميرين اللذين خلفا بها، واستولى على ما خلفوه من مال وسلاح، وحمل الجميع مع الأسرى إلى قلعة كواشي، فأعيا معز الدولة أمره وهو من مكان إلى مكان في اتباعه، فأجابته إلى الصلح وعقد عليه ضمان الموصل وديار ربيعة والرجة بمال قرره، فاستقر الصلح على ذلك، وأطلق ابن حمدان الأسرى، ورجع معز الدولة إلى بغداد.

استيلاء معز الدولة على عمان

قد تقدم لنا أن عمان كانت ليوسف بن وجيه وأنه حارب بني البريدي بالبصرة حتى قارب أخذها حتى عملوا الحيلة في إضرام النار في سفنه فولى هارباً في عزم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وأنه ثار عليه مولاه في هذه السنة فغلبه على البلد وملكها من يده.

ولما استوحش معز الدولة من القرامطة، كتب إليهم ابن وجيه صاحب عمان بطمعهم في البصرة، واستمدهم في البر وسار هو في البحر سنة إحدى وأربعين، وسابقه الوزير المهلب من الأهواز إليها، وأمد معز الدولة بالعساكر والمال فاقتلوا أياماً، ثم ظفر المهلب بمراكبه وما فيها من سلاح وعدة.

ولم يزل القرامطة يناورونها حتى غلبوا عليها سنة أربع وخمسين وثلاثمائة واستولوا عليها وهرب رافع عنها.

وكان له كاتب يعرف بعلي بن أحمد ينظر في أمور البلد، والقرامطة بمكانهم من هجر، فاتفق قاضي البلد وكان ذا مشير وعصابة على أن ينصبوا للنظر في أمورهم أحد قوادهم، فقدموا لذلك ابن طغان فتكك بجميع القواد الذين معه، وثار منه بعض قرابتهم فقتلوه، فاجتمع الناس على تقديم عبد الوهاب بن أحمد بن مروان من قرابة القاضي مكانه فولوه، واستكتب علي بن أحمد كاتب القرامطة قبله من الجند فامتعضوا لذلك فدعاهم إلى بيعته فأجابوه وسواهم في العطاء مع البيض فسخط البيض ذلك، ودارت بهم حرب سكنوا آخرها واتفقوا وأخرجوا عبد الوهاب من البلد، واستقر علي بن أحمد الكاتب أميراً فيها.

ثم سار معز الدولة إلى واسط سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وقدم إليه نافع مولى ابن أخيه الذي كان ملكها بعد مولاه، فأحسن إليه وأقام عنده حتى فرغ من أمر عمران بن شاهين، وانحدر إلى

ولما وصل اليسع إلى بخارى أئذ بني سامان على تقاعدهم عن نصره فوثبوا عليه ففوه إلى خوارزم، وكان قد خلف أثقاله بنواحي خراسان فاستولى عليها أبو علي بن سيجور، وأصاب اليسع رمد اشتد به بخوارزم فحضر منه وقطع عرقه بيده.

وكان ذلك سبب هلاكه، ولم يعد لبني الياس بكرمان بعده ملك.

مسير ابن العميد إلى حسنويه ووفاته

كان حسنويه بن الحسين الكردي من رجالات الكرد، واستولى عن نواحي الدينور واستفحل أمره، وكان يأخذ الخفارة من القوافل التي تمر به ويخيف السابلة، إلا أنه كان فئة للدليم على عساكر خراسان متى قصدتهم.

وكان ركن الدولة يرعى له ذلك ويغضي عن إساءته.

ثم وقعت بينه وبين سلال بن مسافر بن سلال، فتنة وحرب فهزمه حسنويه وحصره وأصحابه من الدليم في مكان، ثم جمع الشوك وطرحه بقربههم وأضرمه ناراً حتى نزلوا على حكمه فأخذهم، وقتل كثيراً منهم، فلحقت ركن الدولة الغيرة لعصية الدليم، وأمر وزيره أبا الفضل بن العميد بالمسير إليه فصار في محرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وقعد ابنه أبو الفتح، وكان شاباً مليحاً قد أبطره الغز والدالة على أبيه، وكان يتعرض كثيراً لما يغضبه.

وكانت بأبي الفضل علة القرس فتزايدت عليه وأفحشت عليه، ولما وصل إلى همدان تسوفي بها لأربع وعشرين سنة من وزارته، وأقام ابنه أبا الفتح مقامه وصالح حسنويه على مال أخذه منه، وعاد إلى الري إلى مكانه من خدمة ركن الدولة.

وكان أبو الفضل بن العميد كاتباً بليغاً، وعالمًا في عدة فنون مجيداً فيها ومطلعاً على علوم الأوائل، وقائماً بسياسة الملك مع حسن الخلق ولين العشرة، والشجاعة المعروفة بتدبير الحروب، ومنه تعلم عضد الدولة السياسية وبه تادب.

انتقاض كرمان على عضد الدولة

ولما ملك عضد الدولة كرمان كما قلناه اجتمع القفص والبرص وفيهم أبو سعيد وأولاده واتفقوا على الانتقاض والخلاف.

واستمد عضد الدولة كورتكين بن حسان بعابد بن علي،

مستنجداً بالأمر متصور بن نوح بن سامان، فتلقيه بالكرمة فأغراه ابن الياس بمالك بني بويه وأشار له قواده في أمرهم فصدق ذلك عندما كان يذكر وشمكير عنهم، وتقدم إلى وشمكير والحسن بن الفيرزان بالمسير مع عساكره إلى الري.

ثم جهز العساكر مع صاحب خراسان أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور الديواني وأمره بطاعة وشمكير وقبول إشارته فصار لذلك سنة ست وخمسين وثلاثمائة وأنزل ركن الدولة أهله بأصفهان، وكتب إلى ابنه عضد الدولة بفارس وإلى ابن أخيه عز الدين بختيار ببغداد يستنجدهما، فأنفذ عضد الدولة العساكر على طريق خراسان ليخالفهم إليها، فأحجموا وتوقفوا وساروا إلى الدامغان، وقصدتهم ركن الدولة في عساكره من الري، وبينما هم كذلك هلك وشمكير، عندما استعرض خيلاً واختار منها واحداً وركب للصيد، واعترضه خنزير فرماه بحربة، وحمل الخنزير عليه فضرب الفرس فسقط إلى الأرض وسقط وشمكير ميتاً وانتقض جميع ما كانوا فيه ورجعوا إلى خراسان.

استيلاء عضد الدولة على كرمان

كان أبو علي بن الياس قد ملك كرمان بدعوة بني سامان، واستبد بها كما مر في أخبارهم، ثم أصابه فالج وأزم من به وعهد إلى ابنه اليسع ثم لالياس من بعده، وأمرهما بإجلاء أخيهما سليمان إلى أرضهم ببلاد الروم يقيم لهم ما هنالك من الأموال، لعداوة كانت بين سليمان واليسع فلم يرض سليمان ذلك، وخرج فوثب على السرجان فملكها، فصار إليه أخوه اليسع فحبسه. وهرب من محبسه واجتمع إليه العسكر وأطاعوه، ومالوا إليه مع أبيه.

ثم إن أبا علي هم أن يلحق بخراسان فلحق، ثم سار إلى الأمير أبي الحارث ببخارى وأغراه بالري كما مر، وتوفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة وصفت كرمان لاليسع.

وكان عضد الدولة مزاحماً لاليسع في بعض حدود عمله، مدلاً بجهل الشباب، فاستحكمت القطيعة بينهما وهرب بعض أصحاب عضد الدولة إليه، فزحف إليه - واستأمن إليه أصحابه، وبقي في قل من أصحابه فاحتمل أهله وأمواله، ولحق ببخارى.

وسار عضد الدولة إلى كرمان فملكها وأقطعها ولده أبا الفوارس الذي ملك العراق بعد، ولقب شرف الدولة، واستخلف عليها كورتكين بن خشتان وعاد إلى فارس وبعث إليه صاحب سجستان الطاعة وخطب له.

فسارا في العساكر إلى جيرفت وحاربوا أولئك الخوارج فهزمهم وأثخنوا فيهم وقتلوا من شجعانهم، وفيهم ابن أبي سعد.

ثم سار عابد بن علي في طلبهم وأوقع بهم عدة وقائع وأثخن فيهم، وانتهى إلى هرمز فملكها واستولى على بلاد التيز ومكران وأسر منهم ألف أسير حتى استقاموا على الطاعة وإقامة حدود الإسلام.

ثم سار عانداً إلى طائفة أخرى يعرفون بالحرومية والجناسكية يخيفون السبيل برأً وبجرأً، وكانت قد تقدمت لهم إعانة سليمان بن أبي علي بن إلياس، فلما أوقع بهم أثخن فيهم حتى استقاموا على الطاعة وصلحت تلك البلاد مدة.

ثم عاد البلوص إلى ما كانوا عليه من إخافة السبيل بها، فسار عضد الدولة إلى كرمان في ذي القعدة سنة اثنتين وانتهى إلى السرجان وسرح عابد بن علي في العساكر لاتباعهم، فأوغلوا في الحرب ودخلوا إلى مضايق يحسبونها تمنعهم، فلما زاحمتهم العساكر بها آخر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وثلاثمائة صابروا يوماً، ثم انهزموا آخره فقتلت مقاتلتهم وسييت ذراريهم ونساؤهم، ولم ينج منهم إلا القليل.

ثم استأمنا فأمنا ونقلوا من تلك الجبال، وأنزل عضد الدولة في تلك البلاد أكره وفلاحين، ثم شملوا الأرض بالعمل وبتبع العابد أثر تلك الطوائف حتى بدد شملهم، ومحا ما كان من الفساد منهم.

عزل أبي الفضل ووزارة ابن بقية

كان أبو الفضل العباس بن الحسن وزيراً لمعز الدولة ولاينه بختيار من بعده، وكان سيئ التصرف وأحرق في بعض أيامه الكرخ ببغداد فاحترق فيه عشرون ألف إنسان وثلاثمائة دكان وثلاثة وثلاثون مسجداً، ومن الأموال ما لا يحصى، وكان الكرخ معروفاً بسكنى الشيعة، وكان هو يزعم أنه يتعصب لأهل السنة، وكان كثير الظلم للرعية غصباً للأموال مفرطاً في أمر دينه، وكان محمد بن بقية وضيعاً في نفسه من الفلاحين في أوانا من ضياع بغداد، واتصل ببختيار وكان يتولى الطعام، بين يديه، ويتولى الطبخ ومنديل الخوان على كتفه: فلما ضاقت الأحوال على الوزير أبي الفضل وكثرت مطالبته بالأرزاق والنفقات عزله ببختيار وصادته وسائر أصحابه على أموال عظيمة أخذت منهم، واستوزر محمد بن بقية فاستقامت أموره وتمت أحواله بتلك الأموال، فلما نفدت عاد إلى الظلم، ففسدت الأحوال وخربت تلك النواحي، وظهر

العيارون وتزايد شرهم وفسادهم.

وعظم الاختلاف بين ببختيار والأتراك، ومقدمهم يومئذ سبكتكين، وتزايدت نفرتهم ثم سعى ابن بقية في إصلاحه وجاء به إلى ببختيار ومعه الأتراك فصالحه ببختيار، ثم قام غلام ديلمى فرمى وتينه بجرية في يده فأثبته، فصاح سبكتكين بغلمانة فأخذوه ويطن أنه وضع قتله، وقرره فلم يعترف، فبعث إلى ببختيار فأمر به فقتل، فعظم ارتيابه وأنه إنما قتل حذراً من إفشاء سره، فعظمت الفتنة، وقصد الديلم قتل سبكتكين، ثم أراضاهم ببختيار بالمال فسكنوا.

استيلاء ببختيار على الموصل ثم رجوعه عنها

فلما قبض أبو ثعلب بن ناصر الدولة بن حمدان على أبيه وجبسه، واستقل بملك الموصل وعصى عليه إخوانه من سائر النواحي عليهم، ولحق أخوه أحمد وإبراهيم ببختيار فاستصرخاه فوعدهما بالمسير معهما، وأن يضمن حمدان البلاد.

ثم أبطا عليهما فرجع إبراهيم إلى أخيه أبي ثعلب، وقارن ذلك وزارة ابن بقية، وقصر أبو ثعلب في خطابه فاغرى به ببختيار فسار إليه، ونزل الموصل، وفارقها أبو ثعلب إلى سنجان وأخلاها من الميرة والكتاب والدواوين.

ثم سار من سنجان إلى بغداد فحاربها، ولم يحدث في سوادها حدثاً، وبعث ببختيار إثره العساكر مع ابن بقية والحاجب سبكتكين، فدخل ابن بقية بغداد، وأقام سبكتكين بجدى.

وثار العيارون واضطربت الفتنة بين أهل السنة والشيعة، وضربوا الأمثال لنشدت على الوزير بحرب الجمل، وهذا كله في الجانب الغربي.

ونزل أبو ثعلب حذاء سبكتكين بجدى واتفقا في سر على خلع الخليفة ونصب غيره والقبض على الوزير وعلى ببختيار وتكون الدولة لسبكتكين ويعود أبو ثعلب إلى الموصل ليتمكن من ببختيار.

ثم قصر سبكتكين عن ذلك وخشي سوء المنية، واجتمع به الوزير بن بقية وصالحوا أبا ثعلب على ضمان أعماله كما كانت، وزيادة ثلاثة آلاف كر من الغلة لبختيار، وأن يرد على أخيه حمدان أملاكه وأقطاعه إلا ماردين، وأرسلوا إلى ببختيار بذلك.

ودخل أبو ثعلب إلى الموصل، فلما نزل الموصل وببختيار بالجانب الآخر فغضب أهل الموصل لأبي ثعلب لما نالهم من عسف ببختيار، فتراسلوا في الصلح ثانياً، وسأل أبو ثعلب لقباً

الأتراك في دور الديلم، وثار العامة بنصر سبكتكين وأوقعوا بالشيعية وقتلوه وأحرقوا الكرخ.

مسير بختيار لقتال سبكتكين وخروج سبكتكين إلى واسط ومقتله

ولما انتفض سبكتكين انتفض الأتراك في كل جهة حتى اضطرب على بختيار غلمانه الذين بداره، وعاتبه مشايخ الأتراك على فعلته، وعذله الديلم أصحابه وقالوا: لا بد لنا من الأتراك ينصحون عنا، فأطلق المعتقلين منهم ورجع؛ وجعل أردويه صاحب الجيش مكان سبكتكين، وكتب إلى عمه ركن الدولة وابنه عضد الدولة يستنجدهما، وإلى أبي ثعلب بن حمدان يستمده بنفسه، ويسقط عنه مال الضمان، وإلى عمران بن شاهين بأن يمدّه بمسك، فبعث عمه ركن الدولة العساكر مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وأمر ابنه عضد الدولة بالمسير معهم، فترى به ابن العميد.

وانفذ أبو ثعلب بن حمدان أخاه أبا عبد الله الحسين بن حمدان إلى تكريت، وأقام ينتظر خروج سبكتكين والأتراك عن بغداد فيملكها؛ وانحدر سبكتكين ومعه الأتراك إلى واسط وحمل معه الخليفة الطائع الذي نصبه وأباه الطمع مكانه أفتكين وساروا إلى بختيار ونزلوه بواسط خمسين يوماً والحرب بينهم متصلة والظفر للأتراك في كلها، وهو يتابع الرسل إلى عضد الدولة ويستحثه.

استيلاء عضد الدولة على العراق واعتقال

بختيار ثم عوده إلى ملكه

ولما بلغ عضد الدولة ما فعله الأتراك مع بختيار اعتزم على المسير إليه بعد أن كان يترى به فزار في عساكر فارس وسار معه أبو القاسم بن العميد وزير أبيه من الأهواز في عساكر الري وقصدوا واسط ورجع أفتكين والأتراك إلى بغداد وكان أبو ثعلب عليها فأجفل، وكتب بختيار إلى طبة الأسدي صاحب عين التمر، وإلى بني شيان بمنع الميرة عن بغداد وإفساد سابقتها، فعدمت الأقوات وسار عضد الدولة إلى بغداد، ونزل في الجانب الشرقي وبختيار في الجانب الغربي.

وخرج أفتكين والأتراك لعضد الدولة فلقبهم بين دباني والمدائن منتصف جمادى سنة أربع وستين وثلاثمائة فهزمهم وغرق

سلطاناً وتسليم زوجته ابنة بختيار فأبى ذلك، ورحل عنه إلى بغداد.

وبلغه في طريقه أن أبا ثعلب قتل مخلفين من أصحاب بختيار، فأقام بالكحل وبعث بالوزير وابن بقية وسبكتكين فجاؤوه في العساكر، ورجع إلى الموصل وفارقها أبو ثعلب، وبعث إلى الوزير كاتبه ابن عرس وصاحبه ابن حوقل معتذراً وحلفاً عنه عن العلم بما وقع، فاستحكم بينهم صلح آخر.

وانصرف كل منهم إلى بلده، وبعث بختيار إليه زوجته واستقر أمرهما على ذلك.

الفننة بين الديلم والأتراك وانتفاض سبكتكين

كان جند بختيار وأبيه معز الدولة طائفتين من الديلم عشيرتهم والأتراك المستجدين عندهم، وعظمت الدولة وكثرت عطاياها وأرزاق الجند حتى ضاقت عنها الجباية وكثر شغب الجند، وساروا إلى الموصل لسد ذلك فلم يقع لهم ما يسده، فتوجهوا إلى الأهواز صحبة بختيار ليظفروا من ذلك بشيء، واستخلف سبكتكين على بغداد، فلما وصلوا إلى الأهواز صحبة بختيار حمل إليه حملين من الأموال والهدايا ملء عينه، وهو مع ذلك يتجنى عليه.

ثم تلاهى خلال ذلك عاملان ديلمي وتركي، وتضاربا ونادى كل منهما بقرمه فركبوا في السلاح بعضهم على بعض، وسالت بينهما الدماء، وصاروا إلى النزاع، واجتهدوا في تسكين الناس فلم يقدروا.

وأشار عليه الديلم بالقبض على الأتراك، فأحضر رؤسائهم واعتقلهم، وانطلقت أيدي الديلم على الأتراك فافترقوا، ونودي في البصرة ببإباحة دمائهم، واستولى بختيار على إقطاع سبكتكين، ودس بأن يرجفوا بموته، فإذا جاء سبكتكين للزعاء قبضوا عليه.

وقيل كان وطاهم على ذلك قبل سفره، وجعل موعده قبضه على الأتراك، فلما أرجفوا بموته ارتاب سبكتكين بالخبر، وعلم أنها مكيدة ودعا الأتراك للأمر عليهم فأبى، ودعا ابن معز الدولة أبا إسحاق إليها فمتمعت أمه، فركب سبكتكين في الأتراك وحاصروا بختيار يومين.

ثم أحرقها وبعث لأبي إسحاق وأبي ظاهر ابني معز الدولة، وسار بهما إلى واسط فاستولى على ما كان لبختيار، وأنزل

أخبار عضد الدولة في ملك عمان

كثير منهم.

لما توفي معز الدولة كان أبو الفرج بعمان، فسار عنها لبغداد ويعث إلى عضد الدولة بأن يتسلمها فولياها عمر بن نيهان الطائي بدعوة عضد الدولة، ثم قتلته الزنج وملكوا البلد.

ويعث عضد الدولة إليها جيشاً من كرمان مع قائده أبي حرب طغان، وساروا في البحر وأرسوا على صحار وهي قسبة عمان، ونزلوا إلى البر فقاتلوا الزنج وظفروا بهم، واستولى طغان على صحار سنة اثنتين وستين وثلاثمائة.

ثم اجتمع الزنج إلى مدين رستاق على مرحلتين من صحار، فأوقع بهم طغان واستلحمهم وسكنت البلاد، ثم خرج بجبال عمان طوائف الشراة مع ورد بن زياد منهم، وبايعوا الحفص بن راشد، واشتدت شوكتهم، ويعث عضد الدولة المظفر بن عبد الله في البحر فنزل في أعمال عمان وأوقع بأهل خرخان.

ثم سار إلى دما على أربع مراحل، وقاتل الشراة فهزهم وهرب أميرهم ورد بن حفص إلى يزوا، وهي حصن تلك الجبال، ولحق حفص باليمن فصار فيه معلماً، واستقامت البلاد ودانت لطاعة عضد الدولة.

اضطراب كرمان على عضد الدولة

كان ظاهر بن الصنمد من الحرومية، وهي البلاد الحارة، قد ضمن من عضد الدولة ضمانات واجتمعت عليه أموال.

ولما سار عضد الدولة إلى العراق وبعث وزيره المظهر بن عبد الله إلى عمان خلت كرمان من العساكر، فطمع فيها ظاهر وجمع الرجال الحرومية.

وكان بعض موالي بني سامان من الأتراك واسمه مؤتمر استرحش من ابن سيجور صاحب خراسان فكاتبه ظاهر وأطعمه في أعمال كرمان، فسار إليه وجعله ظاهر أميراً.

ثم شغب عليه بعض أصحاب ظاهر، فارتاب به مؤتمر وقاتله فظفر به وبأصحابه، وبلغ الخبر إلى الحسين بن علي بن الياس بخراسان فطمع في البلاد وسار إليها، واجتمعت عليه جموع وكتب عضد الدولة إلى المظهر بن عبد الله وقد فرغ من أمر عمان بالمسير إلى كرمان، فسار إليه سنة أربع وستين وثلاثمائة ودوخ البلاد في طريقه وكبس مؤتمراً بنواحي مدينة قم فلحق بالمدينة وحصره فيها حتى استأمن، وخرج إليه ومعه ظاهر فقتله المظهر

وساروا إلى تكريت، ودخل عضد الدولة بغداد ونزل دار الملك، واسترد الخليفة الطائع من أتكين والأتراك، وكانوا أكرهوه على الخروج معهم، وخرج للقائه في دجلة وأنزله بدار الخلافة وحدثه نفسه بملك العراق، واستضعف بختيار ووضع عليه الجند يطالبونه بأرزاقهم، ولم يكن عنده في خزائنه شيء.

وأشار عليه بالزهد في إمارتهم يتصح له بذلك سرّاً، والرسول تتردد إلى بختيار والجند فلا يقبل عضد الدولة تقربهم.

ثم تقبض عليه آخرّاً ووكل به، وجمع الجند ووعدهم بالإحسان والنظر في أمورهم فسكنوا، وبعث عضد الدولة عسكريه إلى ابن بقية ومعه عسكري ابن شاهين فهزموا عسكري عضد الدولة، وكتبوا ركن الدولة، فكتب إليه بالثبات على شأنهم.

فلما علم أهل النواحي بأفعال عضد الدولة اضطربوا عليه وانقطعت عنه مواد فارس، وطمع فيه الناس حتى عامة بغداد، فحمل الوزير أبا الفتح بن العميد إلى أبيه ركن الدولة الرسالة بما وقع، وبضعف بختيار وأنه إن عاد إلى الأمر خرجت المملكة والخلافة عنه، وأنه يضمن أعمال العراق بثلاثين ألف ألف درهم في كل سنة، وبعث إليه بختيار بالري وإلا قتل بختيار وأخويه وجميع شيعتهم وترك البلاد، فخشى ابن العميد من هذه الرسالة، وأشار بأن يبعث بها غيره ويمضي هو إلى ركن الدولة فيحاول على مقاصد عضد الدولة، فمضى الرسول إلى ركن الدولة فحجبه أولاً، ثم أحضره وذكر له الرسالة فهم بقتله، ثم رده وحمله من الإساءة في الخطاب فوق ما أراد.

وجاء ابن العميد، فحجبه ركن الدولة وأنفذ إليه بالوعيد، وشفع إليه أصحابه واعتذر بأنه إنما جعل رسالة عضد الدولة طريقاً إلى الخلاص منه فأحضره، وضمن له ابن العميد إطلاق بختيار.

ثم سار إلى عضد الدولة وعرفه بغضب أبيه فأطلق بختيار من محبسه ورده إلى ملكه على أن يكون نائباً عنه ويخطب له، ويجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش لضعفه عن الملك.

وخلف أبا الفتح بن العميد لقضاء شؤونته فتشاغل هو مع بختيار فيما كان فيه من اللذات عن ركن الدولة، وجاء ابن بقية فأكد الوحشة بين بختيار وعضد الدولة وجبى الأموال واختزنها، وأساء التصرف واحترز من بختيار.

وحبس مؤثراً ببعض القلاع، وكان آخر العهد به.

ثم سار إلى ابن إلياس وقتلته على باب جيرفت وأخذه أسيراً وضاع بعد ذلك خبره، ورجع المظهر ظافراً وصلحت كرمان لعضد الدولة.

وفاة ركن الدولة وملك ابنه عضد الدولة

كان ركن الدولة ساخطاً على ابنه عضد الدولة كما قدمناه وكان ركن الدولة بالري فطره المرض سنة خمس وستين وثلاثمائة فصار إلى أصفهان، وتلطف الوزير أبو الفتح بن العميد إليه في الرضا عن ابنه عضد الدولة، وأن يحضره ويعهد إليه، فأحضره من فارس وجمع سائر ولده.

وكان ركن الدولة قد خف من مرضه فعمل الوزير ابن العميد بداره صنيعاً وأحضرهم جميعاً، فلما قضوا شأن الطعام خاطب ركن الدولة أحد أولاده بولاية أصفهان وأعمالها نيابة عن أخيه عضد الدولة، وخلع عضد الدولة في ذلك اليوم على سائر الناس الأقبية والأكسية بزي الديلم.

وحياه إخوته والقواد بتحية الملك المعتاد لهم، وأوصاهم أبوهم بالاتفاق وخلع عليهم من الخصاص، وسار عن أصفهان في رجب من السنة.

ثم اشتد به المرض في الري فتوفي في محرم سنة ست وستين وثلاثمائة لأربع وأربعين سنة من ولايته.

وكان حليماً كريماً واسع المعروف حسن السياسة لجنده ورعيته، عادلاً فيهم، متحرراً من الظلم عفيفاً عن الدماء، بعيد المهمة عظيم الجدد والسعادة، محسناً لأهل البيوتات، معظماً للمساجد متفقداً لها في المراسم، متفقداً أهل البيت بالبر والصلوات، عظيم الهبة لين الجانب مقرباً للعلماء محسناً إليهم، معتقداً للصالحين برأ بهم رحمه الله تعالى.

مسير عضد الدولة إلى العراق وهزيمة بختيار

ولما توفي ركن الدولة ملك عضد الدولة بعده، وكان بختيار وابن بقية يكاتبان أصحاب القاصية مثل فخر الدولة أخيه وحسنويه الكردي وغيرهم للتظاهر على عضد الدولة، فحركه ذلك لطلب العراق، فصار لذلك وانحدر بختيار إلى واسط لمدافعته، وأشار عليه ابن بقية بالتقدم إلى الأهواز، واقتلوا في ذي القعدة من سنة ست وستين وثلاثمائة ونزع بعض عساكر بختيار إلى عضد

الدولة فانهمزم بختيار ولحق بواسط، ونهب سواده وخلفه، وبعث إليه ابن شاهين بأموال وسلاح وهاداه وأخفه، فصار إليه إلى البطيحة وأصعد منها إلى واسط، واختلف أهل البصرة فمالت مضر إلى عضد الدولة وربيعة مع بختيار، ضربت مضر عند انهزامه، وكاتبوا عضد الدولة فبعث إليهم عسكرياً واستولوا على البصرة، وأقام بختيار بواسط، وقبض الوزير ابن بقية لاستبداده واحتجازه الأموال، وليرضى عضد الدولة بذلك.

وترددت الرسل بينهم في الصلح، وتردد بختيار في إمضائه. ثم وصله ابن حسنويه الكردي في ألف فارس مدداً فاعتزم على محاربة عضد الدولة، ثم بدا له وسار إلى بغداد فأقام بها، ورجع ابن حسنويه إلى أبيهما، وسار عضد الدولة إلى البصرة فأصلح بين ربيعة ومضر بعد اختلافهما مائة وعشرين سنة.

نكبة أبي الفتح بن العميد

كان عضد الدولة يحقد على أبي الفتح بن العميد مقامه عند بختيار ببغداد ومخالطته له، وما عقده معه من وزارته بعد ركن الدولة.

وكان ابن العميد يكاتب بختيار بأحواله وأحوال أبيه، وكان لعضد الدولة عين على بختيار يكاتبه بذلك ويفريه.

فلما ملك عضد الدولة بعد أبيه كتب إلى أخيه فخر الدولة بالري بالقبض على ابن العميد وعلى أهله وأصحابه، واستصفت أموالهم ومحيت آثارهم، وكان أبو الفضل بن العميد ينذرهم بذلك لما يرى من تخاليل أبي الفتح وإنكاره عليه.

استيلاء عضد الدولة على العراق ومقتل

بختيار وابن بقية

ولما دخلت سنة سبع وستين سار عضد الدولة إلى بغداد، وأرسل إلى بختيار يدعوه إلى طاعته، وأن يسير عن العراق إلى أي جهة أراد فيمده بما يحتاج إليه من مال وسلاح، فضعفت نفسه فقلع عينه وبعثها إليه، وخرج بختيار عن بغداد متوجهاً إلى الشام.

ودخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها، ولم يكن خطب لأحد قبله، وضرب على يابه ثلاث نوبات ولم يكن لمن تقدمه، وأمر أن يلقي ابن بقية بين أرجل القيلة فضرته حتى مات وصلب على رأس الجسر في شوال سنة سبع وستين وثلاثمائة، ولما انتهى

إيقاع العساكر ببني شيبان

كان بنو شيبان قد طال إفسادهم للسابلة، وعجز الملوك عن طلبهم، وكانوا يمتنعون بجبال شهرزور لما بينهم وبين أكرادها من المواصل، فبعث عضد الدولة العساكر سنة تسع وستين وثلاثمائة فأنزلوا شهرزور واستولوا عليها وعلى ملكها رئيس بني شيبان، فذهبوا في البسيط، وسار العسكر في طلبهم فأوقعوا بهم واستباحوا أموالهم ونساءهم، وجيء منهم إلى بغداد بثلاثمائة أسير، ثم عاودوا الطاعة وانحسرت عنهم.

وصول ورد بن منير البطريق الخارج على ملك الروم إلى ديار بكر والقبض عليه

كان أرماتوس ملك الروم لما توفي خلف ولدين صغيرين ملكا بعده، وكان تقفور وهو يومئذ الديمستق غائباً ببلاد الشام، وكان نكاه فيها، فلما عاد حمله الجند وأهل الدولة على النيابة عن الولدين فامتنع.

ثم أجاب وأقام بدولة الولدين وتزوج أمهما وليس التاج، ثم استوحشت منه فراسلت ابن الشمسق في قتله، وبيت في عشرة من أصحابه فقتلوا تقفور واستولى ابن الشمسق على الأمر، واستولى على الأولاد وعلى ابنه ورييس واعتقلهم في بعض القلاع، وسار في أعمال الشام فعات فيها وحاصر طرابلس فامتنت عليه.

وكان لوالد الملك أخ خصي وهو الوزير يومئذ فوضع عليه من سقاء السم، وأحس به فأسرع العود إلى القسطنطينية ومات في طريقه، وكان ورد بن منير من عظماء البطارقة فطمع في الملك، وكتب أبا ثعلب بن حمدان عند خروجه بين يدي عضد الدولة وظاهره، واستجاش بالمسلمين بالتقور وساروا إليه وقصد القسطنطينية، وبرزت إليه عساكر الملكين فهزمهم مرة بعد أخرى، فاطلق الملكان ورييس بن لاون وبعثاه في العساكر لقتال ورد فهزمهم بعد حروب صعبة، ولحق ورد ببلاد الإسلام ونزل ميفارقين، وبعث أخاه إلى عضد الدولة ببذل الطاعة وبطلب النصرة.

وبعث إليه ملك الروم واستمالاه فجنح إليهما، وكتب إلى عامله بميفارقين بالقبض على ورد وأصحابه، فيسروا منه، وتسللوا عنه، فبعث أبو علي الغنمي عنه إلى داره للحديث معه، ثم قبض عليه وعلى ولده وأخيه وجماعة من أصحابه، واعتقلهم بميفارقين،

بختيار إلى عكبرا وكان معه حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان فزين له قصد الموصل، واستماله إليه عن الشام، وقد كان عقد معه عضد الدولة أن لا يقصد الموصل لموالاته بينه وبين أبي ثعلب، فسار هو إلى الموصل ونقض عهده، وانتهى إلى تكريت فبعث إليه أبو ثعلب يعده المسير معه لقتال عضد الدولة، وإعادة ملكه على أن يسلم إليه أخاه حمدان، فقبض بختيار عليه وسلمه إلى سفرائه وحجسه أبو ثعلب، وسار بختيار إلى الحديثة، ولقيه أبو ثعلب في عشرين ألف مقاتل، ورجع معه إلى العراق ولقيهما عضد الدولة بنواحي تكريت فهزمهما، وجيء ببختيار أسيراً، فأشار أبو الوفاء طاهر بن إسماعيل كبير أصحاب عضد الدولة بقتله فقتل لائتي عشرة سنة من ملكه.

واستلحم كثير من أصحابه، وانهزم أبو ثعلب بن حمدان إلى الموصل.

استيلاء عضد الدولة على أعمال بني حمدان

ولما انهزم أبو ثعلب سار عضد الدولة في أثره فملك الموصل متصرف ذي القعدة سنة ست وستين وثلاثمائة وكان حمل معه الميرة والعلوفات خوفاً أن يقع به مثل ما وقع بسلفه، فأقام بالموصل مطمئناً وبث السرايا في طلب أبي ثعلب، ولحق بنصيبين ثم بميفارقين، فبعث عضد الدولة في أثره سرية عليها أبو ظاهر بن محمد إلى سنجار، وأخرى عليها الحاجب أبو حرب طغان إلى جزيرة ابن عمر، فترك أبو ثعلب أهله بميفارقين وسار إلى تدلس ووصل أبو الوفاء في العساكر إلى ميفارقين فامتنت عليه، فسار في اتباع أبي ثعلب إلى أرزن الروم ثم إلى الحسنية من أعمال الجزيرة، وصعد أبو ثعلب إلى قلعة كواشي فأخذ أمواله منها وعاد أبو الوفاء وحاصره بميفارقين، وسار عضد الدولة وقد افتتح سائر ديار بكر.

وسار أبو ثعلب إلى الرحبة ورجع أصحابه إلى أبي الوفاء فأمهم وعاد إلى الموصل، فتسلم ديار مضر من يده.

وكان سعد الدولة على الرحبة وتقري أعمال أبي ثعلب وحصوره، مثل هوا والملاسي وفرقى والسفياي وكواشي بما فيها من خزائنه وأمواله، واستخلف أبو الوفاء على الموصل وجميع أعمال بني ثعلب وعاد إلى بغداد، وسار أبو ثعلب إلى الشام فكان فيه مهلكة كما مر في أخباره.

ثم بعث بهم إلى بغداد فحبسوا بها.

دخول بني حسويه في الطاعة وبداية أمرهم

شأن بختيار وابن حمدان وحسنويه، وعظم استيلاؤه أراد إصلاح الأمر بينه وبين أخيه وقابوس بن وشمكير، فكاتب مؤيد الدولة وفخر الدولة يعاتبه ويستميله، وكان الرسول خواشادة من أكبر أصحاب عضد الدولة، فاستمال أصحاب فخر الدولة وضمن لهم الإقطاعات، وأخذ عليهم العهود، واعتزم عضد الدولة على المسير إلى الري وهمذان، وسرب العساكر إليها مسألة، فأبو الوفاء طاهر في عسكر، وخواشادة في عسكر، وأبو الفتح المظفر بن أحمد في عسكر.

ثم سار عضد الدولة في أثرهم من بغداد، ولما أطلت عساكره استأمن قواد فخر الدولة وبنو حسويه ووزيره أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن حدوده، ولحق فخر الدولة ببلاد الديلم، ثم بمرجان، ونزل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير مستجيراً، فأمته وآواه وحمل إليه فوق ما أمله، وشاركه فيما بيده من الملك وغيره.

وملك عضد الدولة همذان والري وما بينهما من الأعمال، وأضافها إلى أخيه مؤيد الدولة بن بويه صاحب أصفهان وأعمالها.

ثم عطف على ولاية حسويه الكردي وفتح نهاوند والدينور وسرماج، وأخذ ما كان فيها لبني حسويه، وفتح عدة من قلاعهم، وخلع على بدر بن حسويه وأحسن إليه وولاه رعاية الأكراد، وقبض على إخوته عبد الرزاق وأبي العلاء وأبي عدنان.

ولما لحق فخر الدولة بمرجان وأجاره قابوس بعث إليه أخوه عضد الدولة في طلبه، فأجاره وامتنع من إسلامه.

فجهز إليه عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة صاحب أصفهان بالعساكر والأموال والسلاح، فسار إلى جرجان، وبرز قابوس للقاءه، والتقوا بنواحي أستراباذ في منتصف إحدى وسبعين وثلاثمائة فانهزم قابوس ومر ببعض قلاعه فاحتل منها ذخيرته ولحق بنيسابور.

وجاء فخر الدولة منهزماً على أثره، وكان ذلك لأول ولاية حسام الدولة تاش خراسان من قبل أبي القاسم بن منصور من بني سامان، فكتب بخرهما إلى الأمير نوح ووزيره العتبي أبي العباس تاش، فجاءه الجواب بنصرهما، فجمع عساكر خراسان وسار معهما إلى جرجان فحاصروا بها مؤيد الدولة شهرين حتى ضاقت أحوال مؤيد الدولة، واعتزم هو وأصحابه على الخروج والاستماتة بعد أن كاتب فائقاً الخاصة الساماني، ورغبه، فوعده بالانهازم عند اللقاء.

وخرج مؤيد الدولة، وانهزم فائق وتبعه العسكر وثبت تاش

كان حسويه بن حسن الكردي من جنس البرز فكان من الأكراد من طائفة منهم يسمون الذولنية وكان أميراً على البرز مكان خاله ونداد، وكان ابنا أحمد بن علي من طائفة أخرى من البرز، فكانوا يسمون العيشانية وغلبا على أطراف الدينور وهمذان ونهاوند والدامغان وبعض أطراف أذربيجان إلى حد شهرزور، وبقيت في أيديهم خمسين سنة، وكانت تجتمع عليها من الأكراد جموع عظيمة، ثم توفي عام ست وخسين وثلاثمائة.

وكانت له قلعة بستان وغاتم آباد وغيرها، فملكها بعده ابنه أبو سالم إلى أن غلبه الوزير أبو الفتح بن العميد.

وتوفي ونداد سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وقام ابنه عبد الوهاب أبو الغنائم مقامه، وأراد الساذغان، وأسلمه إلى حسويه فاستولى على أملاكه وقلاعه.

وكان حسويه عظيم السياسة حسن السيرة، وبنى أصحابه حصن التلصص، وهي قلعة سرماج بالصخور الهندسة، وبنى بالدينور جامعاً كذلك، وكان كثير الصدقة بالحرمين.

ثم توفي سنة تسع وستين وثلاثمائة وافترق أولاده من بعده، فبعضهم صار إلى طاعة فخر الدولة صاحب همذان وأعمال الجبل، والآخرين صاروا إلى عضد الدولة وكان بختيار منهم بقلعة سرماج ومعه الأموال والذخائر، فكاتب عضد الدولة بالطاعة، ثم انتقض.

فبعث عضد الدولة عسكرياً فحاصروه وملكوا القلعة من يده والقلاع الأخرى من إخوته.

واستولى عضد الدولة على أعمالهم واصطنع من بينهم أبا النجم بن حسويه، وأمده بالعسكر فضبط تلك النواحي، وكف عادية الأكراد بها واستقام أمرها.

استيلاء عضد الدولة على همذان والري

من يد أخيه فخر الدولة وولاية أخيهما

مؤيد الدولة عليها

قد تقدم أن ركن الدولة عهد إلى ابنه فخر الدولة، وكان يكاتب بختيار، وعلم بذلك عضد الدولة فأغضى، فلما فرغ من

وفخر الدولة وقابوس إلى آخر النهار، ثم انهزموا ولحقوا بنيسابور، وبعثوا بالخبر إلى الأمير نوح، فبعث إليهم بالعساكر ليعود إلى جرجان، ثم قتل الوزير العتي كما تقدم في أخبار دولتهم وانتقض ذلك الرأي.

استيلاء عضد الدولة على بلاد الهكارية

وقلة سنده

كان عضد الدولة قد بعث عساكره إلى بلاد الأكراد الهكارية من أعمال الموصل، فحاصر قلاعهم وضيق عليهم، وكانوا يؤملون نزول الثلج فترحل عنهم العساكر، وتأخر نزوله فاستأمنوا ونزلوا من قلاعهم إلى الموصل، واستولت عليها العساكر وغدر بهم مقدم الجيش فقتلهم جميعاً، وكانت قلعة بنواحي الجبل لأبي عبد الله المري مع قلاع أخرى، وله فيها مساكن نفيسة، وكان من بيت قديم، فقبض عليه عضد الدولة وعلى أولاده واعتقلهم وملك القلاع.

ثم أطلقهم صاحب بن عباد فيما بعد واستخدم أبا طاهر من ولده واستكتبه وكان حسن الخط واللفظ.

وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام

الدولة

ثم توفي عضد الدولة ثامن شوال سنة اثنتين وسبعين لخمس سنين ونصف من ولايته العراق، وجلس ابنه صمصام الدولة أبو كاليبجار المرزبان للعزاء، فجاءه الطائع معزياً، وكان عضد الدولة بعيد الهمة شديد الهيبة حسن السياسة ثاقب الرأي محباً للفضائل وأهلها، وكان كثير الصدقة والمعروف ويدفع المال لذلك إلى القضاة ليصرفوه في وجوهه.

وكان محباً للعلم وأهله مقرباً لهم محسناً إليهم، ويجلس معهم وينظرهم في المسائل، فقصدته العلماء من كل بلد، وصنفت الكتب باسمه كالإيضاح في النحو والحجة في القراءات والملكي في الطب والتأخي في التواريخ وعمل البيمارستانات وبنى القناطر.

وفي أيامه حدثت المكوس على المبيعات، ومنع من الاحتراف ببعضها، وجعلت متجراً للدولة.

ولما توفي عضد الدولة اجتمع القواد والأمراء على ابنه أبي كاليبجار المرزبان وولوه الملك مكانه، ولقبوه صمصام الدولة،

فخلع على أخيه أبي الحسن أحمد وأبي طاهر فيروز شاه وأقطعهما فارس ويعثمها إليها.

استيلاء شرف الدولة بن عضد الدولة على

فارس واقتطاعها من أخيه صمصام الدولة

كان شرف الدولة أبو الفوارس شريك قد ولاه أبوه عضد الدولة قبل موته كرمان وبعث إليه، فلما بلغه وفاة أبيه سار إلى فارس فملكها وقتل نصر بن هارون النصراني وزير أبيه لأنه كان يسيء عشرته، وأطلق الشريف أبا الحسن محمد بن عمر العلوي، كان أبوه حبسه بما قال عنه وزيره المظهر بن عبد الله عند قتله نفسه على البطيحة.

وأطلق النقيب أبا أحمد والد الشريف الرضي والقاضي أبا محمد بن معروف وأبا نصر خواشادة، وكان أبوه حبسهم وقطع خطبة أخيه صمصام الدولة وخطب لنفسه، وتلقب بأخي الدولة ووصل أخوه أبو الحسن أحمد وأبو طاهر فيروز شاه اللذان أقطعهما صمصام الدولة بشيراز فبلغهما خبر شرف الدولة بشيراز فعد إلى الأهواز، وجمع شرف الدولة وفرق الأموال، وملك البصرة وولى عليها أخاه أبا الحسين.

ثم بعث صمصام الدولة العساكر مع ابن تش حاجب أبيه، وأنفذ مشرف الدولة مع أبي الأغر ديبس بن عفيف الأسدي، والتقى بظاهر عتروق، وانهزم عسكر صمصام الدولة وأسر ابن تش الحاجب واستولى حيثن الحسن بن عضد الدولة على الأهواز ورامهرمز وطمع في الملك.

وفاة مؤيد الدولة صاحب أصفهان والري

وجرجان وعود فخر الدولة إلى ملكه

ثم توفي مؤيد الدولة يوسف بن بويه بن ركن الدولة صاحب أصفهان والري بجرجان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة واجتمع أهله للشورى فيمن يولوه، فآشار الصاحب إسماعيل بن عباد بإعادة فخر الدولة إلى ملكه لكبر سنه.

وتقدم إمارته بجرجان وطبرستان، فاستدعوه من نيسابور، وبعث ابن عباد من استخلفه لنفسه، وتقدم إلى جرجان فتلقيه العسكر بالطاعة وجلس على كرسيه وتفاذى ابن عباس من الوزارة فمنعه واستوزره، والتزم الرجوع إلى إشارته في القليل

وملك باد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة الموصل، وحدث نفسه بملك بغداد، وأخرج الديلم عنها.

واهتم صمصام الدولة بأمره، وبعث زياد بن شهاكونه من أكبر قواد الديلم لقتاله، واستكثر له من الرجال والعدد والمال، وسار إلى باد فلقه في صفر سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وانهزم باد وأسر أكثر أصحابه، ودخل زياد بن شهاكونه الموصل، وبعث سعيد الحاجب في طلب باد فقصده جزيرة ابن عمر وعسكر آخراً في نصيبين.

وجمع باد الجموع بديار بكر، وكتب صمصام الدولة إلى سعد الدولة بن سيف الدولة بتسليم ديار بكر له، فبعث إليها عساكره من حلب وحاصروا ميفارقين وخاموا عن لقاء باد فرجعوا عن حلب، ووضع سعيد الحاجب رجلاً لقتل باد، فدخل عليه وضره في خيمته فأصابه وأشرف على الموت منها، فطلب الصلح على أن يكون له ديار بكر والنصف من طور عبيد، فأجابه الديلم إلى ذلك، واتحدوا إلى بغداد وأقام سعيد الحاجب بالموصل إلى أن توفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة أيام مشرف الدولة فتجرد الكردي وطمع في الموصل، وولى مشرف الدولة عليها أبا نصر خواشاده، وجهزه بالعساكر، ولما زحف إليه باد الكردي كتب إلى مشرف الدولة يستمد العساكر والأموال، فأبطأ عليه المدد، فاستدعى العرب من بني عقيل وبني نعيم وأقطعهم البلاد ليدافعوا عنها، واتحد باد واستولى على طور عبيد ولم يقدر على النزول على الصحراء، وبعث أخاه في عسكر لقتال العرب فهزموه وقتلوه.

ثم أتاهم الخبر بموت مشرف الدولة، فعاد خواشاده إلى الموصل وأقامت العرب بالصحراء يمنعون باد من النزول ويتظرون خروج خواشاده للدفاع بباد وحربه، وبينما هم في ذلك جاء إبراهيم وأبو الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان فملكا الموصل كما ذكرنا في أخبار دولتهم.

استيلاء صمصام الدولة على عمان ورجوعها لمشرف الدولة

كان مشرف الدولة استولى على فارس وخطب له بعمان، وولى عليها أستاذ هرمز فانتقض عليه وصار مع صمصام الدولة، وخطب له بعمان فبعث مشرف الدولة إليه عسكراً فهزموا أستاذ هرمز وأسروه، وحبس ببعض القلاع وطولب بالأموال، وعادت عمان إلى مشرف الدولة.

والكثير، وأرسل صمصام الدولة وعاهده على الاتحاد والمظاهرة.

ثم عزل الأمير نوح أبا العباس تاش عن خراسان، وولى عليها ابن سيجور، فانتقض تاش ولقيه ابن سيجور فهزمه فلحق بجرجان، فكافاه فخر الدولة وترك له جرجان ودهستان وأستراباذ وسار عنها إلى الري وأمدّه بالأموال والآلات، وطلب خراسان فلم يظفر بها فأقام بجرجان ثلاث سنين.

ثم مات سنة سبع وتسعين وثلاثمائة كما ذكرنا في أخبار بني سامان.

انتفاض محمد بن غانم على فخر الدولة

قد تقدم لنا ذكر غانم البرزيكاني خال حسنويه، وأنهم كانوا رؤساء الأكراد، وأنه مات سنة خمسين وثلاثمائة وكان ابنه دلسيم مكانه في قلاعه فستان وغانم أبا، وملكها منه أبو الفتح بن العميد.

ولما كانت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة انتقض محمد بن غانم بناحية كردون من أعمال قم على فخر الدولة، ونهبت غلات السلطان وامتنع بمحسن الفهجان واجتمع إليه البرزيكاني.

وسارت العساكر لقتاله في شوال فهزمها مرة بعد أخرى إلى أن بعث فخر الدولة إلى أبي النجم بدر بن حسنويه بالنكير في ذلك، فصالحه أول أربع وسبعين وثلاثمائة ثم سارت إليه العساكر سنة خمس وسبعين وثلاثمائة فقاتلها وأصيب بطعنة، ثم أخذ أسيراً ومات بطعته.

تغلب باد الكردي على الموصل من يد الديلم ثم رجوعها إليهم

قد تقدم لنا استيلاء عضد الدولة على الموصل وأعمالها، وتقدم لنا ذكر باد الكردي خال بني مروان، وكيف خان عضد الدولة لما ملك الموصل، وطلبه فصار يخيف ديار بكر ويغير عليها حتى استفحل أمره وملك ميفارقين كما ذكرنا ذلك كله في أخبار بني مروان، وأن صمصام الدولة جهز إليه العساكر مع أبي سعيد بهرام بن أردشير، فهزمه باد وأسر أصحابه، فأعاد صمصام الدولة إليه العساكر مع أبي سعيد الحاجب، وقتل باد في الديلم بالقتل والأسر.

ثم اتبع سعيد خانور الحسينية من بلد كواشي فانهزم سعيد الحاجب إلى الموصل وثارت العامة بالديلم.

خروج أبي نصر بن عضد الدولة على أخيه صمصام الدولة وانهزامه وأسره

استيلاء مشرف الدولة على الأهواز ثم على بغداد واعتقال صمصام الدولة

كان أسفار بن كردويه من أكابر قواد الديلم واستوحش من صمصام الدولة فمال عن طاعته إلى أخيه مشرف الدولة وهو بفارس، وداخل رجال الديلم في صمصام الدولة وأن ينصبوا بهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة نائباً عن أخيه مشرف الدولة حتى يقدم من فارس، وتمكن أسفار من الخوض في ذلك، فمرض صمصام الدولة وتأخر عن حضور الدار وراسله صمصام الدولة أنه لا ذنب له لأنه كان صبيّاً، فاعتقله مكرماً، وسعى إليه بابن سعدان وزيره أو هوأه كان معهم فعزله وقتله ومضى أسفار إلى أبي الحسن بن عضد الدولة بالأهواز ومضى بقية العسكر إلى مشرف الدولة بفارس.

استيلاء القرامطة على الكوفة بدعوة

مشرف الدولة ثم انتزاعها منهم

كان للقرامطة محل من البأس والهيبة عند أهل الدول، وكانوا يدافعونهم في أكثر الأوقات بالمال، وأقطعهم معز الدولة وابنه بختيار ببغداد وأعمالها، وكان يأتيهم ببغداد أبو بكر بن ساهويه يحنكهم بحكم الوزراء، فقبض عليه صمصام الدولة وكان على القرامطة في هجر ونيسابور مشتركين في إمارتهما، وهما إسحاق وجعفر.

فلما بلغهما الخبر سارا إلى الكوفة فملكها وخطبا لمشرف الدولة، وكتبهما صمصام الدولة بالعتب فذكرا أمرهما ببغداد، وانتشر القرامطة في البلاد وجبوا الأموال، ووصل أبو قيس الحسن بن المنذر من أكابرهم إلى الجامعين فسرّح صمصام الدولة العسكر ومعهم العرب، فعبروا الفرات وقتلوه فهزموه وأسروه، وقتلوا جماعة من قواد القرامطة.

ثم عاودوا عسكراً آخر ولقيتهم عساكر صمصام الدولة بالجامعين فانهمز القرامطة وقتل مقدمهم وغيره، وأسروا منهم العساكر وساروا في اتباعهم إلى القادسية فلم يدركوهم.

ثم سار مشرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة من فارس لطلب الأهواز، وقد كان أخوه أبو الحسين تغلب عليها عند انهزام عساكر صمصام الدولة سنة اثنتين وسبعين، وكان صمصام الدولة عندما ملك بعث أبا الحسين وأبا ظاهر أخويه على فارس كما قدمناه، فوجدا أخاهما مشرف الدولة قد سبقهما إلى ملكها.

وعندما ملك فارس والبصرة ولاهما على البصرة، فلما انهزمت عساكر صمصام الدولة أمام عسكر مشرف الدولة بعث أبا الحسين على الأهواز فملكها وأقام بها، واستخلف على البصرة أخاه أبا ظاهر، فلما سار مشرف الدولة هذه السنة إلى الأهواز قدم إليه الكتاب بأن يسير إلى العراق، وأنه يقره على عمله، فشق ذلك على أبي الحسين، وتجهز للمدافعة، فعاجله مشرف الدولة عن ذلك.

وأغذ السير إلى أرجان فملكها، ثم رامهرمز، وانتقض أجناده ونادوا بشعار مشرف الدولة، فهرب إلى عمه فخر الدولة بالري، وأثّرله بأصفهان ووعد بالانصر، وأبطأ عليه فثار في أصفهان بدعوة أخيه مشرف الدولة فقبض عليه جنداً وبعثوا به إلى الري، فحبسه فخر الدولة إلى أن مرض واشتد مرضه فأرسل من قتله في محبسه.

ولما هرب أبو الحسين من الأهواز سار إليها مشرف الدولة، وأرسل إلى البصرة قائداً فملكها، وقبض على أخيه أبي ظاهر وبعث إليه صمصام الدولة في الصلح، وأن يخطب له ببغداد، وسارت إليه الخلع والألقاب من الطائع، وجاء من قبل صمصام الدولة من يستخلفه، وكان معه الشريف أبو الحسن محمد بن عمر الكوفي، فكان يستحثه إلى بغداد.

وفي خلال ذلك جاءته كتب القواد من بغداد بالطاعة، وبعث أهل واسط بطاعتهم فامتنع من إتمام الصلح، وسار إلى واسط فملكها وأرسل صمصام الدولة أخاه أبا نصر يستعطفه بالسلافة فلم يعطف عليه.

وشغب الجند على صمصام الدولة فاستشار صمصام الدولة أصحابه في طاعة أخيه فنهوه.

وقال بعضهم: نصعد إلى عكبرا وتبين الأمر، وإن دهمنا ما لا نقوى عليه سرنا إلى الموصل ونتصبر بالديلم، وقال آخرون: نقصد فخر الدولة بأصفهان، ثم نخالقه إلى فارس فنحتوي على

حسنيه ليله مع عمه فخر الدولة، فبعثه إليه في العساكر سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فهزمه بدر بوادي قرمسين بعد أن هزمه قراتكين أولاً.

ونزل العسكر فكر عليهم بدر فهزمهم وأئخن فيهم ونجا قراتكين في الفل إلى جسر النهر وان حتى اجتمع إليه المنهزمون، ودخل بغداد واستولى بدر على أعمال الجبل.

ولما رجع قراتكين أغرى الجند بالشغب على الوزير أبي منصور بن صالحان، فاصلح مشرف الدولة بينه وبين قراتكين.

وحقدها له فقبض عليه بعد أيام وعلى جماعة من أصحابه، واستصفى أموالهم وشغب الجند من أجله فقتله، وقدم عليهم مكانه طغان الحاجب.

ثم قبض سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة على شكر الخادم خالصة أبيه عضد الدولة وخالسته، وكان يحقد عليه من أيام أبيه من سعياته فيه منها إخراجهم من بغداد إلى كرمان تقريباً إلى أخيه صمصام الدولة بإخراجه.

فلما ملك مشرف الدولة بغداد اختفى شكر فلم يعثر عليه، وكان معه في اختفائه جارية حسناء فعلفت بغيره، وفطن لها ففرضها فخرجت مغاضبة له.

وجاءت إلى مشرف الدولة فدلّت عليه فأحضره وهم بقتله، وشفع فيه فحرر الخادم حتى وهبه له.

ثم استأذن في الحج وسار من مكة إلى مصر فاخصه خلفاء الشيعة وأنزلوه عندهم بالمنزلة الرفيعة.

وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه بهاء

الدولة

ثم توفي مشرف الدولة أبو الفوارس سرديك بن عضد الدولة ملك العراق في منتصف سبع وسبعين وثلاثمائة لثمانية أشهر وستين من ملكه، ودفن بمشهد علي.

ولما اشتدت علته بعث ابنه أبا علي إلى بلاد فارس بالخزائن والعدد مع أمه وجواريه في جماعة عظيمة من الأتراك، وسأله أصحابه إن يعهد فقال: أنا في شغل عن ذلك، فسأله نياحة أخيه بهاء الدولة ليسكن الناس إلى أن يستفيق من مرضه، فولاة نيابته.

ولما جلس بهاء الدولة في دست الملك، ركب إليه الطائع فعزاه وخلع عليه خلع السلطنة، وأقر بهاء الدولة أبا منصور بن

خزائن مشرف الدولة وذخائره فيصالح كرهاً فأعرض عنهم، وركب صمصام الدولة إلى أخيه مشرف الدولة في خواصه فتلقيه بالمبرة، ثم قبض عليه وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان سنة ست وسبعين وثلاثمائة وأخوه صمصام الدولة في اعتقاله بعد أربع سنين من إمارته بالعراق.

أخبار مشرف الدولة في بغداد مع جنده

ووزرائه

لما دخل مشرف الدولة بغداد كان الديلم معه في قوة وعدد، تنتهي عدتهم إلى خمسة عشر ألفاً، والأتراك لا يزيدون على ثلاثة آلاف.

فاستطال الديلم بذلك وجرت بين اتباعهم لأول دخولهم بغداد مصاولة أكلت إلى الحرب بين الفريقين، فاستظهر الديلم على الترك وتنادوا بإعادة صمصام الدولة إلى ملكه، فارتاب بهم مشرف الدولة ووكّل بصمصام الدولة من يقتله إن هموا بذلك.

ثم أتيحت الكرة للأتراك على الديلم وفتكوا فيهم، وافترقوا واعتصم بعضهم بمشرف الدولة.

ثم دخل من الغد إلى بغداد فتقبله الطائع وهناه بالسلامة.

ثم أصلح بين الطائفتين واستحلفهم جميعاً، وحمل صمصام الدولة إلى قلعة ورد بفارس فاعتقل بها، وكان تحرير الخادم يشير بقتله فلا يجيبه أحد، واعتقل سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وأشرف على الهلاك، ثم أشار تحرير في قتله أو سمله، فبعث لذلك من يثق به فلم يقدم على سمله حتى استشار أبا القاسم بن الحسن الناظر هناك فأشار به فسمله.

وكان صمصام الدولة يقول: إنما أعماني العلاء لأنه في معنى حكم سلطان ميت.

ولما فرغ مشرف الدولة من فتنة الجند صرف نظره إلى تهذيب ملكه، فرد على الشريف محمد بن عمر الكوفي جميع أملاكه، وكانت تغل في كل سنة ألفي ألف وخمسمائة ألف درهم، ورد على النقيب أبي أحمد والد الرضي جميع أملاكه.

وأقر الناس على مراتبهم، وكان قبض على وزيره أبي محمد بن فسانجيس وأفرج عن أبي منصور صاحب، واستورزه فأقره على وزارته ببغداد.

وكان قراتكين قد أفرط في الدولة والضرب على أيدي الحكام فأرى أن يخرج به إلى بعض الوجوه، وكان حقاً على بدر بن

صالحان على وزارته.

و ثوب صمصام الدولة بفارس وأخباره مع أبي علي ابن أخيه مشرف الدولة

قد تقدم لنا أن صمصام الدولة اعتقله أخوه مشرف الدولة بقلعة ورد قرب شيراز من أعمال فارس عندما ملك بغداد سنة ست وسبعين وثلاثمائة.

فلما مات مشرف الدولة وكان قد بعث ابنه أبا علي إلى فارس، ولحقه موت أبيه بالبصرة فبعث ما معه في البحر إلى أرجان، وسار إليها في البر خفياً.

والتف عليه الجند الذين بها، وكاتبه العلاء بن الحسن من شيراز بخبر صمصام الدولة، فسار إلى شيراز واختلف عليه الجند، وهم الديلم بإسلامه إلى صمصام الدولة، فتحرك الأتراك وقاتل الديلم أياماً، ثم سار إلى نسا والأتراك معه، فأخذوا ما بها من المال وقتلوا الديلم ونهبوا أموالهم وسلاحهم.

وسار أبو علي إلى أرجان، وبعث الأتراك إلى شيراز فقاتلوا صمصام الدولة والديلم ونهبوا البلد، وعادوا إليه بأرجان.

وجاءه رسول عمه بهاء الدولة من بغداد بالمواعيد الجميلة، ودس مع رسوله إلى الأتراك، واستمالهم فحسبوا لأبي علي المسير إلى عمه بهاء الدولة، فسار إليه ولقيه بواسط متصف ثمانين وثلاثمائة وقد أعد له الكرامة والنزول، ثم قبض عليه لأيام وقتله، وتجهز للمسير إلى فارس.

مسير فخر الدولة صاحب الري وأصفهان وهمدان إلى العراق وعوده

كان صاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بن ركن الدولة يحب العراق ويريد بغداد، لما كان بها من الخضارة واستثائر الفضائل.

فلما توفي مشرف الدولة سلطان بغداد رأى أن الفرصة قد تمكنت فدس إلى فخر الدولة من يغريه بملك بغداد، حتى استشاره في ذلك، فتلطف في الجواب بأن أحاله على سعادته فقبل إشارته، وسار إلى حمدان ووفد عليه بدر بن حسويه ودييس بن عفيف الأسدي، وشاوروا في المسير فسار صاحب بن عباد وبدر في المقدمة على الجادة، وفخر الدولة على خوزستان.

ثم ارتاب فخر الدولة بالصاحب بن عباد خشية من ميله مع أولاد عضد الدولة فاستعاده، وساروا جميعاً إلى الأهواز فملكها فخر الدولة وأساء السيرة في جندها وجنده، وحبس عنهم العطاء فتخاذلوا وكان الصاحب منذ اتهمه ورده عن طريقه معرضاً عن الأمور ساكناً، فلم تستقم الأمور بإعراضه.

ثم بعث بهاء الدولة عساكره إلى الأهواز فقاتلوهم وزادت دجلة إلى الأهواز، وانفتحت أنهارها فتوهم الجند وحسبوا مكيده فانهزموا، وأشار عليه الصاحب بإطلاق الأموال فلم يفعل، فانفضت عنه عساكر الأهواز، وعاد إلى الري وقبض في طريقه على جماعة من قواد الديلم والري، وعادت الأهواز إلى دعوة بهاء الدولة.

مسير بهاء الدولة إلى أخيه صمصام الدولة بفارس

ثم سار بهاء الدولة سنة ثمانين وثلاثمائة إلى خوزستان عازماً على قصد فارس، وخلف ببغداد أبا نصر خواشاده من كبار قواد الديلم، ومر بالبصرة فدخلها، وسار منها إلى خوزستان، وأتاه نعي أخيه أبي ظاهر فجلس لعزائه، ودخل أرجان وأخذ جميع ما فيها من الأموال، وكانت ألف ألف دينار وثمانية آلاف ألف درهم، وهرعت إليه الجنود وتفرقت فيهم تلك الأموال كلها.

ثم بعث مقدمته أبا العلاء بن الفضل إلى النوبدجان فهزموا بها عسكر صمصام الدولة، فأعاد صمصام الدولة العساكر مع فولاد بن ماندان فهزموا أبا العلاء بمراسلة وخديعة من فولاد، كبسه في أثرها، فعاد إلى أرجان مهزوماً.

ولحق صمصام الدولة من شيراز بفولاد.

ثم ترددت الرسل في الصلح على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ولبهاء الدولة خوزستان والعراق، ويكون لكل منهما إقطاع في بلد صاحبه، فتم ذلك بينهما وتحالفا عليه، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز، وبلغه ما وقع ببغداد من العيارين وبين الشيعة وأهل السنة وكيف نهبت الأموال وخرجت المساكين فأعاد السير إلى بغداد وصلحت الأحوال.

القبض على الطائع ونصب القادر للخلافة

قد ذكرنا أن بهاء الدولة وقد شغب الجند عليه لقلعة الأموال، وقبض وزيره فلم يغن عنه.

وحمل ذخائر الخلافة إلى داره، ثم حمله على نكبة وزيره أبي نصر سابور واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وبعد مرجعه من خوزستان قبض على أبي خورشاده وأبي عبد الله بن ظاهر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة لأنهما لم يوصلا لابن المعلم هدايأهما، فحمل بهاء الدولة على نكبتهما.

ولما استطال على الناس وكثر الضجر منه شغب الجند على بهاء الدولة وطالبوه بإسلامه إليهم، وراجعهم فلم يقبلوا، فقبض عليه وعلى سائر أصحابه ليسترضيهم بذلك فلم يرضوا إلا به، فأسلمه إليهم وقتلوه.

ثم اتهم الوزير أبا القاسم بمداخلة الجند في الشغب على الوزير، فقبض عليه واستوزر مكانه أبا نصر سابور وأبا نصر بن الوزير الأولين وأقاما شريكين في الوزارة.

خروج أولاد بختيار وقتلهم

كان عضد الدولة قد حبس أولاد بختيار فأقاموا معتقلين مدة أيامه وأيام صمصام الدولة من بعده.

ثم أطلقهم مشرف الدولة وأحسن إليهم وأنزلهم بشيراز وأقطعهم.

فلما مات مشرف الدولة حبسوا في قلعة بيلاد فارس، فاستمالوا الموكل الذي عليهم والجند الذي معه من الديلم، فأفروا عنهم وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة. واجتمع إليهم أهل تلك النواحي وأكثرهم رجالة، وبلغ الخبر إلى صمصام الدولة فبعث أبا علي بن أستاذ هرمز في عسكر، فافتقت تلك الجموع وتحصن بنو بختيار ومن معهم من الديلم، وحاصروهم أبو علي، وأرسل أحد الديلم معهم فأصعدهم سراً وملكوا القلعة وقتلوا أولاد بختيار.

استيلاء صمصام الدولة على الأهواز

ورجوعها منه

ثم انتقض الصلح سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة بين بهاء الدولة صاحب بغداد وأخيه صمصام الدولة صاحب خوزستان، وذلك أن بهاء الدولة بعث أبا العلاء عبد الله بن الفضل إلى الأهواز، وأمر إليه أن يبعث العساكر متفرقة، فإذا اجتمعوا عنده صدم بهم بلاد فارس.

وكان أبو الحسن بن المعلم غالباً على هواه، فأطمعه في مال الطائع، وزين له القبض عليه.

فأرسل إليه بهاء الدولة في الحضور عنده، فجلس على العادة، ودخل بهاء الدولة في جمع كبير وجلس على كرسيه، وأهوى بعض الديلم إلى يد الطائع ليقبلها، ثم جذبه عن سريره، وهو يستغيث ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، واستصفت خزائن دار الخلافة فمضى بها الحال أياماً ونهب الناس بعضهم بعضاً.

ثم أشهد على الطائع بالخلع ونصبوا للخلافة عمه القادر أبا العباس أحمد المقتدر، استدعوه من البطيحة وكان فر إليها أيام الطائع كما تقدم في أخبار الخلفاء، وهذا كله سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

رجوع الموصل إلى بهاء الدولة

كان أبو الرواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل قتل أبا طاهر بن حمدان آخر ملوك بني حمدان بالموصل وغلب عليها، وأقام بها طاعة معروفة لبهاء الدولة، وذلك سنة ثمانين وثلاثمائة كما مر في أخبار بني حمدان وبني المسيب.

ثم بعث بهاء الدولة أبا جعفر الحجاج بن هرمز من قواد الديلم في عسكر كبير إلى الموصل فملكها آخر إحدى وثمانين فاجتمعت عقيل مع أبي الرواد على حربه وجرت بينهم عدة وقائع، وحسن فيها بلاء أبي جعفر بالقبض عليه، فخشي اختلاف أمره هناك وراجع في أمره، وكان بإغراء ابن المعلم وسعايته.

ولما شعر الوزير بذلك صالح أبا الرواد وأخذ رهنه، وأعادته إلى بغداد فوجد بهاء الدولة قد نكب ابن المعلم.

أخبار ابن المعلم

هو أبو الحسن بن المعلم قد غلب على هوى بهاء الدولة وتحكم في دولته، وصدر كثير من عظام الأمور بإشارته، فمنها نكبة أبي الحسن محمد بن عمر العلوي، وكان قد عظم شأنه مع مشرف الدولة وكثرت أملاكه.

فلما ولي بهاء الدولة سعى به عنده وأطمعه في ماله، فقبض عليه واستصفي سائر أملاكه، ثم حمله على نكبة وزيره أبي منصور بن صالحان سنة ثمان واستوزر أبا النصر سابور بن أردشير قبل مسيره إلى خوزستان، ثم حمله على خلع الطائع واستصفي أمواله

الدولة عن اللقاء، فرجع إلى الأهواز، ثم سار إلى البصرة ونزل بها، وانتهى خبره إلى ابن مكرم، فعاد إلى عسكر مكرم واتبعه العلاء والديلم فأجلوه عنها إلى قرب تستر.

وتكررت الوقائع بين الفريقين، فكان بيد الأتراك من تستر إلى رامهرمز، وبيد الديلم من رامهرمز، ورجع الأتراك واتبعهم العلاء فوجدهم قد سلكوا طريق واسط فرجع عنهم، وأقام بعسكر مكرم.

ورجع بهاء الدولة إلى بغداد، وكان مع العلاء قائد من قواد الديلم اسمه شكرستان، فاستأمن إليه من الديلم الذين مع بهاء الدولة نحو من أربعمائة رجل فاستكثر بهم، وسار إلى البصرة وحاصرها، ومال إليهم أبو الحسن بن جعفر العلوي من أهل البصرة، وكانوا يحملون الميرة.

وعلم بهاء الدولة فأنفذ من يقبض عليهم فهربوا إلى ذلك القائد وقوي بهم، وجعوا له السفن فركبها إلى البصرة، وقاتل أصحاب بهاء الدولة وهزمهم وملك البصرة واستباحها.

وكتب بهاء الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيخة بأن يرتفعها من يد الديلم ويتولاها، فأمدته عبد الله بن مرزوق، وأجلى الديلم عنها، ثم رجع للقاء شكرستان، وهجم عليها في السفن فملكها وكتب بهاء الدولة بالطاعة والضمان فأجابته وأخذ ابنه رهينة، وكان يظهر طاعة بهاء الدولة وصمصام الدولة.

وفاة الصاحب بن عباد

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة توفي أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالري، وكان أواحد زمانه علماً وفضلاً ورياسة ورأياً وكرماً وعرفاً بأنواع العلوم، عارفاً بالكتابة ورسائله مشهورة مدونة.

وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد حتى يقال: كانت تنقل في أربعمئة حمل.

ووزر بعده لفخر الدولة أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي الملقب بالكافي.

ولما توفي استصفى فخر الدولة أمواليه بعد أن أوصاه عند الموت، فلم ينفذ وصيته.

وكان الصاحب قد أحسن إلى القاضي عبد الجبار المعتزلي وقدمه وولاه قضاء الري وأعمالها.

فلما مات قال عبد الجبار: لا أرى الترحم عليه لأنه مات

فسار أبو العلاء، وتشاغل بهاء الدولة عن ذلك، وظهر الخبر فجهاز صمصام الدولة عسكره إلى خوزستان، واستمد أبو العلاء بهاء الدولة فتوافت عساكره، والتقى العسكران وانهزم أبو العلاء وأخذ أسيراً، فأطلقت أم صمصام الدولة.

وقلت بهاء الدولة لذلك، واقتدت الأموال فأرسل وزيره أبا نصر سابور إلى واسط، وأعطاه جواهر وألقاً يستريحها عند مهذب الدولة صاحب البطيخة فاستريحها، ولما هرب الوزير أبو نصر استعفى ابن الصالحان من الانفراد بالوزارة فأعفي.

واستوزر بهاء الدولة أبا القاسم علي بن أحمد، ثم عجز وهرب.

وعاد أبو نصر سابور إلى الوزارة بعد أن أصلح الديلم.

ثم بعث بهاء الدولة طغان التركي إلى الأهواز في سبعمئة من المقاتلة فملكوا السوس، ورحل أصحاب صمصام الدولة عن الأهواز، وانتشرت عساكر طغان في أعمال خوزستان، وكان أكثرهم من الترك، فغص الديلم بهم الذين في عسكر طغان، فضل الدليل وأصبح على بعد منهم، ورأهم الأتراك فركبوا إليهم وأكمن الوفاً، واستأمن كثير منهم وأمنهم طغان حتى نزلوا، بأمر الأتراك فقتلهم كلهم، وانتهى الخبر إلى بهاء الدولة بواسط، وسار إلى الأهواز وسار صمصام الدولة إلى شيراز وذلك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وأمر صمصام الدولة بقتل الأتراك في جميع بلاد فارس سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، فقتل منهم جماعة وهرب الباقون، فعاثوا في البلاد ولحقوا بكرمان، ثم ببلاد السند حتى توسطهم الأتراك فأطبقوا عليهم واستلحموهم.

استيلاء صمصام الدولة على الأهواز ثم

على البصرة

ثم بعث صمصام الدولة عساكره الديلم سنة خمس وثمانين وثلاثمائة إلى الأهواز، وكان نائب بهاء الدولة قد توفي وعزم الأتراك على العود إلى بغداد، فبعث بهاء الدولة مكانه أبا كاليبجار المرزبان بن سفيهيون، وأنفذ أبا محمد الحسن بن مكرم إلى رامهرمز مدداً لنائبها لفتكتين، وقد انهزم إليها أمام عسكر صمصام الدولة، فترك أبا محمد بن مكرم بها، ومضى إلى الأهواز وسار إلى خوزستان، فكتبه العلاء بن الحسن بخادعه، ثم سار إلى رامهرمز وحارب ابن مكرم وفتكتين وبعث بهاء الدولة ثمانين من الأتراك يأتون من خلف الديلم، فشحروا بهم وقتلهم أجمعين، وخام بهاء

ونزل القنطرة البيضاء، وجرت بينه وبين أبي علي بن أستاذ هرمز وقائع، وانقطعت الميرة عن عسكر بهاء الدولة، فاستمد بدر بن حسنويه فأمدّه ببعض الشيء، وكثرت سعاية الأعداء في أبي علي بن إسماعيل فكاد ينكبهم، وبينما هم على ذلك بلغهم مقتل صمصام الدولة فصلحت الأحوال واجتمعت الكلمة.

مقتل صمصام الدولة

كان أبو القاسم وأبو نصر ابنا مختيار محبوسين كما تقدم، فخدعا المتوكلين بهما في القلعة، وخرجا فاجتمع إليهما ليف من الأكراد، وكان صمصام الدولة قد عرض جنده وأسقط منهم نحواً من ألف لم يثبت عنده نسبهم في الديلم فبادروا إلى ابني مختيار والتقوا عليهما في أرجان.

وكان أبو جعفر أستاذ هرمز مقيماً، فثار به الجند ونهبوا داره فاخفى، ثم انتقضوا على صمصام الدولة ونهبوه، وهرب إلى الرودمان على مرحلتين من شيراز فقبض عليه صاحبها، وجاء أبو نصر بن مختيار فأنزله منه وقتله في ذي الحجة سنة ثمان لتسع سنين من إمارته بفارس، وأسلمت أمه إلى بعض قواد الديلم فقتلها ودفنها بداره حتى ملك بهاء الدولة فارس، فنقلها إلى تربة بني بويه.

استيلاء بهاء الدولة على فارس وخوزستان

ولما قتل صمصام الدولة وملك ابننا مختيار فارس بعثنا إلى أبي علي بن أستاذ هرمز يستميلانه، ويأمرانه بأخذ العهد لهما على الذين معه من الديلم، ومحاربة بهاء الدولة.

وكتب إليه بهاء الدولة يستميله ويؤمنه ويؤمن الديلم الذين معه ويرغبهم، واضطرب رأي أبي علي لخوفه من ابني مختيار لما أسلف من قتل إخوتهم وحبسهم فمال عنهما، ومال الديلم عن بهاء الدولة خوفاً من الأتراك الذين معه، فما زال أبو علي بهم حتى بعثوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة، واستوثقوا يمينه ونزلوا إلى خدمته، وساروا إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز وأرجان.

واستولى بهاء الدولة على سائر بلاد خوزستان وبعث وزيره أبا علي بن إسماعيل إلى فارس، فنزل بظاهر شيراز وبها ابنا مختيار فحاربهما، ومال بعض أصحابهما إليه.

ثم انفضوا عنهما إلى أبي علي وأطاعوه، واستولى على شيراز ولحق أبو نصر بن مختيار ببلاد الديلم وأخوه أبو القاسم

على غير توبة ظهرت منه، فنسب إليه قلة الوفاء بهذه المقالة.

ثم صادر فخر الدولة عبد الجبار فباع في المصادرة ألف طيلسان وألف ثوب من الصوف الرفيع.

ثم تتبع فخر الدولة آثار ابن عباد وأبطل ما كان عنده من المسامحات، وقبض على أصحابه والبقاء لله وحده.

وفاة فخر الدولة صاحب الري وملك ابنه

مجد الدولة

ثم توفي فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه صاحب الري وأصفهان وهمذان في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة بقلعة طبرك، ونصب للملك من بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم وعمره أربع سنين، نصبه الأمراء وجعلوا أخاه شمس الدولة بهمدان وقرميس إلى حدود العراق.

وكان زمام الدولة بيد أم رستم مجد الدولة وإليها تدبير ملكه، وبين يديها في مباشرة الأعمال أبو ظاهر صاحب فخر الدولة، وأبو العباس الضبي الكافي.

وفاة العلاء بن الحسن صاحب خوزستان

ثم توفي العلاء بن الحسن عامل خوزستان لصمصام الدولة بعسكر مكرم، فبعث صمصام الدولة أبا علي بن أستاذ هرمز بالمال ففرقه في الديلم، ودفع أصحاب بهاء الدولة عن جند نيسابور بعد وقائع كان الظفر فيها له، ثم فدعهم عن خوزستان إلى واسط واستمال بعضهم فنزعوا إليه، ورتب العمال في البلاد وجبى الأموال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

ثم سار أبو محمد بن مكرم من واسط مع الأتراك فدافعهم، وكانت بينه وبينهم وقائع.

ثم سار بهاء الدولة في أثرهم من واسط، وكان لحق بهم في واسط أبو علي بن إسماعيل الذي كان نائباً ببغداد عند مسيره إلى الأهواز سنة ست وثمانين وثلاثمائة وجاء المقلد بن المسيب من الموصل للغيث في جهات بغداد، فبرز أبو علي لقتاله، فنكر ذلك بهاء الدولة مغالطة، وبعث من يصلحه ويقبض على أبي علي، فهرب أبو علي إلى البطيحة، ثم لحق بهاء الدولة وهو بواسط فوزره له وزير أمره وأشار عليه بالمسير لإخماد أبي محمد بن مكرم في قتال أبي علي بن أستاذ هرمز بخوزستان، فسار بهاء الدولة

ببدر بن حسويه ثم بالبطيحة.

مسير ظاهر بن خلف إلى كرمان واستيلاؤه

عليها ثم ارتجاعها

قد تقدم لنا أن ظاهر بن خلف خرج عن طاعة أبيه خلف بن أحمد السجستاني، وحاربه فظفر به أبوه، فسار إلى كرمان يروم التوثب عليها، وتكاسل عاملها عن أمره، فكثر جمعه واجتمع إليه بجياله كثير من المخالفين، فنزل بهم إلى جيرفت فملكها وملك غيرها سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.

وكان بكرمان أبو موسى سياه جشم، فسار إليه بمن معه من الديلم فهزمه ظاهر وأخذ ما بقي بيده، فبعث بهاء الدولة أبا جعفر أستاذ هرمز في العساكر إلى كرمان فهزم ظاهراً إلى سجستان وملك كرمان وعادت الديلم.

حروب عساكر بهاء الدولة مع بني عقيل

كان قرواش بن المقلد قد بعث جمعاً من بني عقيل سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فحاصروا المدائن، وبعث أبو جعفر الحاج بن هرمز وهو ببغداد نائب لبهاء الدولة عساكره فدفعوهم عنها، فاجتمع بنو عقيل وأبو الحسن بن مزيد بن بني أسد، وبرز إليهم الحاج، واستدعى خفاجة من الشام وقاتلهم فانهزم واستبيح عسكره، وانهزم ثانياً، وبرز إليهم فالتقوا بنواحي الكوفة فهزمهم وأخذ فيهم ونهب من حلل بني يزيد ما لا يعبر عنه من العين والمصاغ والثياب.

الفتنة بين أبي علي وأبي جعفر

لما غاب أبو جعفر الحاج عن بغداد قام بها العيارون واشتد فسادهم وكثر القتل والنهب، فبعث بهاء الدولة أبا علي بن جعفر المعروف بأستاذ هرمز لحفظ العراق، فانهزم أبو جعفر بنواحي الكوفة مغضباً.

ثم جمعوا الجموع من الديلم والأتراك والعرب، فانهزم أبو جعفر وأمن أبو علي جانباً، فسار إلى خوزستان وبلغ السوس. فأناء الخير بأن أبا جعفر عاد إلى الكوفة فكر راجعاً، وعادت الحرب بينهم، وبينما هم على ذلك أرسل بهاء الدولة إلى أبي علي يستدعيه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة لحرب ابن واصل بالبصرة فسار إليه، وكانت الحرب بينه وبين ابن واصل كما يأتي في أخبار ملوك البطيحة، ورجع إلى بغداد ونزل أبو جعفر على فلح حامي

وكتب الوزير أبو علي إلى بهاء الدولة بالفتح، فسار إلى شيراز وأمر بنهب قرية الرودمان فملكها، وأقام بهاء الدولة بالأهواز، واستخلف ببغداد أبا علي بن جعفر المعروف بأستاذ هرمز ولقبه عميد العراق. وبقي ملوك الديلم بعد ذلك يقيمون بفارس والأهواز ويستخلفون على العراق مدة طويلة.

مقتل ابن مختيار بكرمان واستيلاء بهاء

الدولة عليها

لما استقر أبو نصر بن مختيار ببلاد الديلم كاتب جند الديلم بفارس وكرمان واستماهم، فاستدعوه إلى فارس، فاجتمع إليه كثير من الرض والديلم والأكراد.

ثم سار إلى كرمان وبها أبو جعفر بن السرجان، ومضى ابن مختيار إلى جيرفت فملكها وملك أكثر كرمان، فبعث بهاء الدولة وزيره الموفق أبا علي بن إسماعيل في العساكر، ولما وصل جيرفت استأمن إليه أهلها وملكها، وهرب ابن مختيار فاختار الوزير من أصحابه ثلاثمائة رجل وسار في أتباعه، وترك باقي العسكر يجيرفت.

ولما أدركه أوقع به وغدر بابن مختيار بعض أصحابه فقتله، وجاء برأسه إلى الموفق، واستلحم الباقيين، وذلك سنة تسعين وثلاثمائة.

واستولى الموفق على كرمان، وولى عليها أبا موسى سياه جشم، وعاد إلى بهاء الدولة فقبض عليه واستصفاه، وكتب إلى وزيره سابور بالقبض على أنسابه وأصحابه، فهدس إليهم سابور بذلك وهربوا.

ثم قتل بهاء الدولة الموفق سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، ثم استعمل بهاء الدولة على خوزستان وأعمالها أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز، ولقبه عميد الجيوش، وعزل عنها أبا جعفر الحاج بن هرمز لسوء سيرته، وفساد أحواله بولايته، وبكثرة مصادراته، فصلحت حالها بولاية أبي علي، وحصل إلى بهاء الدولة منها الأموال مع كثرة العدل.

فلما عادت إلى حالها هرب أبو حفص إليها من العراق، فأعادته إلى أصفهان، ورسخ فيها ملكه وملك بنيه كما يأتي في أخبارهم.

وفاة عميد العراق وولاية فخر الملك

كان أبو جعفر أستاذ هرمز من حجاب عضد الدولة وخواصه، وصبر ابنه أبا علي في خدمة ابنه صمصام الدولة، فلما قتل صمصام الدولة رجع إلى بهاء الدولة، وبلغه ما وقع ببغداد في مغيبه من الهرج وظهور العيارين، فبعث بهاء الدولة مكانه على العراق فخر الملك أبا غالب، وأصعد إلى بغداد فلقبه الكتاب والفقود والأعيان في ذي الحجة من السنة، وبعث العساكر من بغداد لقتال أبي الشوك حتى استقام.

وكانت الفتنة قد وقعت بين بدر بن حسنويه وابنه هلال، واستنجد بدر بهاء الدولة فأنجده من يده وأخذ ما فيها من الأموال، وفتح دير العاقول، وجاء سلطان وعلوان ورجب بنو شمال الخفاجي في أعيان قومهم، وضمنوا حماية سقي الفرات من بني عقيل، وساروا معه إلى بغداد فبعثهم مع ذي السعادتين الحسن بن منصور للأخبار فعاونوا في نواحيها، وحبس ذو السعادتين نفراً منهم.

ثم أطلقهم فهموا بقبضه، وشعر بهم فحاول عليهم حتى قبض على سلطان منهم وحبسهم ببغداد.

ثم شفع فيهم أبو الحسن بن مزيد فأطلقهم، فاعترضوا الحاج سنة اثنتين وأربعمئة ونهبوهم فبعث فخر الملك إلى أبي الحسن بن مزيد بالانتقام منهم، فلحقهم بالبصرة فأوقع بهم وأئخن فيهم، واسترد من أموال الحاج ما وجد وبعث به وبالأسرى إلى فخر الملك.

ثم اعترضوا الحاج مرة أخرى ونهبوا سواد الكوفة فأوقع بهم أبو الحسن بن مزيد مثل ذلك، وبعث بأسراهم إلى بغداد.

وفاة بهاء الدولة وولاية ابنه سلطان الدولة

ثم توفي بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة بن بويه هلك بالعراق منتصف ثلاث وأربعمئة بأرجان، وحمل إلى تربة أبيه بمشهد علي فدفن بها لأربع وعشرين سنة من ملكه، وملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع، وسار من أرجان إلى شيراز، وولى أخاه جلال الدولة أبا ظاهر على البصرة وأخاه أبا الفوارس على

طريق خراسان وأقام هنالك، وكان فليح مبايناً لعميد الجيوش أبي علي، وتوفي سلخ سنة سبع وتسعين وثلاثمئة فولى أبو علي مكانه أبا الفضل بن عنان، وكان بهاء الدولة في محاربة ابن واصل بالبصرة، فأتاهم الخبر بظهور بهاء الدولة عليه، فأوهن ذلك منهم وافترقوا ولحق ابن مزيد ببلده، وسار أبو جعفر وابن عيسى إلى حلوان.

وأرسل أبو جعفر في إصلاح حاله عند بهاء الدولة فأجابه إلى ذلك، وحضر عنده بتستر، فأعرض عنه خوفاً أن يستوحش أبو علي.

وحقد بهاء الدولة لبدر بن حسنويه فسار إليه، وبعث إليه بدرأ في المصالحة فقبله وانصرف، وتوفي أبو جعفر الحجاج بن هرمز بالأهواز سنة إحدى وأربعمئة.

الفتنة بين مجد الدولة صاحب الري وبين

أمه واستيلاء ابن خالها علاء الدين بن

كاكويه على أصفهان

قد تقدم لنا ولاية مجد الدولة أبي طالب رستم بن فخر الدولة على همذان قرميسين إلى حدود العراق، وتدير الدولتين لأمه وهي متحكمة عليهما، فلما وزر لجند الدولة الخطير أبو علي بن علي بن القاسم استمال الأمراء عنها وخوف مجد الدولة منها، فاسترابت وخرجت من الري إلى القلعة، فوضع عليها من يحفظها فأعملت الخيلة حتى لحقت ببدر بن حسنويه مستجدة به.

وجاءها ابنها شمس الدولة في عساكر همذان وسار معهما بدر، وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمئة فحاصروا أصفهان وملكوها عنوة.

وعاد إليها الأمر فاعتقلت مجد الدولة ونصبت شمس الدولة للملك، ورجع بدر إلى بلده ثم بعد سنة استرابت بشمس الدولة، فأعادت مجد الدولة إلى ملكه.

وسار شمس الدولة إلى همذان، وانتفض بدر بن حسنويه لذلك، وكان في شغل بفتنة ولده هلال.

واستمد شمس الدولة فأمده بعسكر وحاصر قم فاستصعبت عليه، وكان علاء الدين أبو حفص بن كاكويه ابن خال هذه المرأة، وكاكويه هو الخال بالفارسية، فلذلك قيل له ابن كاكويه، وكانت قد استعملته على أصفهان، فلما فارق أمرها فسند حاله، فسار هو إلى بهاء الدولة بالعراق، وأقام عنده.

كرمان.

استيلاء شمس الدولة على الري يد

أخيه مجد الدولة ورجوعه عنها

قد تقدم لنا أن شمس الدولة بن فخر الدولة كان ملك همذان وأخوه مجد الدولة ملك الري بنظر أمه، وكان بدر بن حسنويه أمير الأكراد وبينه ولده هلال فتنة وحروب تذكرها في أخبارهم.

واستولى شمس الدولة على كثير من بلادهم وأخذ ما فيها من الأموال كما يذكر في أخبارهم.

ثم سار إلى الري يروم ملكها ففارقها أخوه مجد الدولة ومعه أمه إلى ديباوند واستولى شمس الدولة على الري وسار في طلب أخيه وأمّه فشغب الجند عليه وطالبوه بأرزاقهم، فعاد إلى همذان وعاد أخوه مجد الدولة وأمّه إلى الري.

مقتل فخر الملك ووزارة ابن سهلان

ثم قبض سلطان الدولة على نائبه بالعراق ووزيره فخر الملك أبي غالب وقتله في سلخ ربيع الأول سنة ست وأربعمائة وخمسين ونصف من ولايته، واستصفى أمواله، وكانت ألف ألف دينار سوى العروض وما نهب.

وولى مكانه بالعراق أبا محمد الحسن بن سهلان ولقبه عميد الجيوش، واستوزر مكانه الرجحي بعد أن كان ابن سهلان هرب إلى قرواش فأقامه عنده بهيت، وولى سلطان الدولة مكانه في الوزارة أبا القاسم جعفر بن فسناخس.

ثم رجع ابن سهلان إلى سلطان الدولة.

فلما قتل فخر الملك ولاء مكانه، فسار إلى العراق في محرم سنة تسع وأربعمائة، ومر في طريقه ببني أسد فرأى أن يشار منهم من مضر بن دببى بما كان قد قبض عليه قديماً بأمر فخر الملك، فأمرى إليه وإلى أخيه مهارش، وفي جملة أخوهم طراد، واتبعهما حتى أدركهما، وقتله رجال الحي فقتل جماعة من الديلم والأترك.

ثم انهزموا ونهب ابن سهلان أموالهم ومضى حريمهم، وبذل الأمان لمضر ومهارش وأشرك بينهما وبين طراد في الجزيرة.

ونكر عليه سلطان الدولة ذلك، ورحل هو إلى واسط

والفتن بها فقتل جماعة منهم وأصلحها، وبلغه ما ببغداد من الفتنة فسار إليها ودخلها في ربيع من السنة، وهرب منه العيارون ونفى جماعة من العباسيين وأبا عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وأنزل الديلم بأطراف البلد فكثر فسادهم وفساد الأتراك، وساروا إلى سلطان الدولة بواسط شاكين من ابن سهلان فوعدهم وأمسكهم، وبعث عن ابن سهلان فارتاب وهرب إلى بني خفاجة، ثم إلى الموصل، ثم استقر بالبطيحة.

وبعث سلطان الدولة العساكر في طلبه فأجاره واليهما الشرايبي وهزم العساكر وكان ابن سهلان سار إلى جلال الدولة بالبصرة ثم أصلح الرجحي حاله مع سلطان الدولة ورجع إليه. وضعف أمر الديلم في هذه السنة ببغداد واسط، وثارت لهم العامة فلم يطبقوا مدافعهم.

ثم قبض سلطان الدولة على وزيره فسناخس وأخويه، واستوزر أبا غالب ذا السعادتين الحسن بن منصور، وقبض جلال الدولة صاحب البصرة على وزيره أبي سعد عبد الواحد علي بن ماکولا.

انتفاض أبي الفوارس على أخيه سلطان

الدولة

كان سلطان الدولة قد ولى أخاه أبا الفوارس على كرمان فاجتمع إليه بعض الديلم وداخلوه في الانتفاض فانتفض، وسار إلى شيراز فملكها سنة سبع وأربعمائة.

وسار سلطان الدولة فهزمه إلى كرمان، وسار في اتباعه فلاحق بمحمود بن سبكتكين ببست ووعده بالنصرة، وبعث معه أبا سعيد الطائي في العساكر إلى كرمان، وقد انصرف عنها سلطان الدولة إلى بغداد فملكها أبو الفوارس وسار إلى بلاد فارس فملكها، ودخل إلى شيراز فسار سلطان الدولة إليه فهزمه فعاد إلى كرمان سنة ثمان وأربعمائة.

وبعث سلطان الدولة في أثره فملكوا عليه كرمان، ولحق بشمس الدولة صاحب همذان لأنه كان أساء معاملته أبي سعيد الطائي، فلم يرجع إلى محمود بن سبكتكين.

ثم فارق شمس الدولة إلى مذهب الدولة صاحب البطيحة فبالغ في تكريمه وأنزله بداره، وأنفذ إليه أخوه جلال الدولة مائلاً، وعرض عليه المسير إليه فأبى، ثم ترددت الرسل بينه وبين أخيه سلطان الدولة فعاد إلى كرمان وبعث إليه التقليد والخلع.

الدولة فدفعهم، ولحق علاء الدولة بجزايقان فهلك الكثير من
عسكره بالبرد وسار تاج الملك الفوهي إلى جزايقان فحاصر بها
علاء الدولة حتى استمال بها قوماً من الأتراك الذين مع تاج
الملك.

وخلص من الحصار وعادوا المسير إلى همذان، فهزم
عساكرها وهرب القائد تاج الملك، واستولى علاء الدولة على
سماء الدولة فأبقى عليه رسم الملك، وحمل إليه المال، وسار
فحاصر تاج الملك في حصنه حتى استأمن إليه فأمنه وسار به
وبسماء الدولة إلى همذان فملكها، وملك سائر أعمالها، وقبض
على جماعة من أمراء الديلم فحبسهم وقتل آخرين وضبط الملك،
وقصد أبا الشوك الكردي فشجع فيه مشرف الدولة فشغعه وعاد
عنه، وذلك سنة أربع عشرة وأربعمئة.

وزارة أبي القاسم المغربي لمشرف الدولة ثم عزله

كان عنبر الخادم مستولياً على دولة مشرف الدولة بما كان
حظي أبيه وجده، وكان يلقب بالأثير، وكان حاكماً في دولة بني
بويه مسموع الكلمة عند الجند.

وعقد الوزير مؤيد الملك الرجعي على بعض اليهود من
حواشيه مائة ألف دينار، فسعى الأثير الخادم وعزله في رمضان
سنة أربع عشرة وأربعمئة واستوزر لناصر الدولة بن حدان، ونزع
عنه إلى خلفاء العبيدين، وولاه الحاكم بمصر.

وولد له بها ابنه أبو القاسم الحسين، ثم قتله الحاكم فهرب
ابنه أبو القاسم إلى مفرج بن الجراح أمير طبرستان بالشام، وداخله في
الانتقاض على العبيدين بأبي الفتح أمير مكة فاستقدمه وباع له
بالرمة.

ثم صونع من مصر بالمال فأغل ذلك الأمر ورجع أبو
الفتح إلى مكة، وقصد أبو القاسم العراق واتصل بالعميد فخر
الملك أبي غالب، فأمره القادر بإبعاده، فقصد الموصل واستوزره
صاحبها، ثم نكبه وعاد إلى العراق، وتقلب به الحال إلى أن وزر
بعد مؤيد الملك الرجعي، فساء تصرفه في الجند وشغب الأتراك
عليه وعلى الأثير عنبر بسببه، فخرجوا إلى السندية، وخرج معهم
مشرف الدولة فأنزلهم قرواش.

ثم ساروا إلى أوانا، وندم الأتراك فبعثوا المرتضى وأبا
الحسن الزينبي يسألون الإقالة، وكتب إليهم أبو القاسم المغربي بأن

وثوب مشرف الدولة على أخيه سلطان الدولة ببغداد واستبداده آخرها بالملك

ثم شغب الجند على سلطان الدولة ببغداد سنة إحدى
عشرة وأربعمئة، واندادوا بولاية مشرف الدولة أخيه فهم بالقبض
عليه فلم يتمكن من ذلك، ثم أراد الانحدار إلى واسط لبعض
شؤون الدولة فطلب الجند أن يستخلف فيهم أخاه مشرف الدولة
فاستخلفه، ورجع من واسط إلى بغداد.

ثم اعترم على قصد الأهواز فاستخلف أخاه مشرف الدولة
ثانياً على العراق بعد أن كانا تحالفاً أن لا يستخلف أحد منهما ابن
سهلان.

فلما بلغ سلطان الدولة تستر استوزر ابن سهران
فاستوحش من مشرف الدولة.

ثم بعث سلطان الدولة إلى الأهواز فنهبها، فدافعهم
الأتراك الذين بها، وأعلنوا بدعوة مشرف الدولة، فانصرف سلطان
الدولة عنهم.

ثم طلب الديلم من مشرف الدولة المسير إلى بيوتهم
بخوزستان فأذن لهم وبعث معهم وزيره أبا غالب، ولحق الأتراك
الذين كانوا معه بطراد بن ديبس الأسدي بجزيرة بني ديبس وذلك
لسنة ونصف من ولايته الوزارة، وصودر ابنه أبو العباس على
ثلاثين ألف دينار وسر سلطان الدولة بقتل أبي غالب، وبعث أبا
الكبير إلى الأهواز فملكها.

ثم ترامل سلطان الدولة ومشرف الدولة في الصلح،
وسعى فيه بينهما أبو محمد بن مكرم صاحب سلطان الدولة
ومؤيد الملك الرجعي وزير مشرف الدولة، على أن يكون العراق
لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة، وتم ذلك بينهما
سنة ثلاث عشرة وأربعمئة.

استيلاء ابن كاكويه على همذان

كان شمس الدولة بن بويه صاحب همذان قد توفي وولي
مكانه ابنه سماء الدولة، وكان فرهاد بن مرداويج مقطع يزجر،
فسار إليها سماء الدولة وحاصره، فاستنجد بعلاء الدولة بن
كاكويه، فأنجده بالعساكر، ودفع سماء الدولة عن فرهاد.

ثم سار علاء الدولة وفرهاد إلى همذان وحاصراها،
وخرجت عساكر همذان مع عساكر تاج الملك الفوهي قائد سماء

وفاة مشرف الدولة وملك أخيه جلال

الدولة

ثم توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة بن بويه سلطان بغداد في ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمئة، لخمس سنين من ملكه.

ولما توفي خطب ببغداد لأخيه جلال الدولة وهو بالبصرة، واستقدم فلم يقدم، وانتهى إلى واسط فأقام بها يخطب لأبي كاليجار ابن أخيه سلطان الدولة، وهو يومئذ بخوزستان مشغول بحرب عمه أبي الفوارس كما قدمناه.

فحينئذ أسرع جلال الدولة من واسط إلى بغداد، فسار الجند ولقوه بالنهر وان وردوه كرهاً بعد أن نهبوا بعض خزائنه، وقبض على وزيره أبي سعيد بن ماسكولا واستوزر ابن عمه أبا علي، واستحث الجند أبا كاليجار فعلمهم بالوعد وشغل بالحرب، وكثر المهرج ببغداد من العيارين، وانطلقت أيديهم وأحرقوا الكرخ، ونهاهم الأمير عنبر عن ذلك فلم يتهنؤوا، فخافهم على نفسه، فلاحق بقرواش في الموصل وعظمت الفتن ببغداد.

استيلاء جلال الدولة على ملك بغداد

ولما عظم المهرج ببغداد ورأى الأتراك أن البلاد تخرب وأن العرب والأكراد والعامة قد طمعوا فيهم، ساروا جميعاً إلى دار الخلافة مستعنيين ومعتدلين عما صدر منهم من الانفراد باستقدام جلال الدولة ثم رده واستقدام أبي كاليجار مع أن ذلك ليس لنا وإنما هو للخليفة، ويرغبون في استدعاء جلال الدولة لتجتمع الكلمة ويسكن المهرج، ويسألون أن يستخلف فأجابهم الخليفة القادر، وبعث إلى جلال الدولة، فسار من البصرة، فبعث الخليفة القاضي أبا جعفر السمناني لتلقيه، ويستخلفه لنفسه، فسار ودخل بغداد سنة ثمان عشرة وأربعمئة وركب الخليفة لتلقيه، ثم سار إلى مشهد الكاظم ورجع، ودخل دار الملك وأمر بضرب النوب الخمس، فراسله القادر في قطعها فقطعها غضباً، ثم أذن له في إعادتها، وبعث جلال الدولة مؤيد الملك أبا علي الرجحي إلى الأثير عنبر الخادم عند قرواش بالتأيس والمحبة والعذر عن فعل الجند.

أرزاكم عند الوزير مكرراً به.

وشعر بذلك فهرب إلى قرواش لعشرة أشهر من وزارته، وجاء الأتراك إلى، مشرف الدولة والأثير عنبر فردهما إلى بغداد.

وفاة سلطان الدولة بفارس وملك ابنه أبي

كاليجار وقتل ابن مكرم

ثم توفي سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة صاحب فارس بشيراز، وكان محمد بن مكرم صاحب دولته، وكان هواه مع ابنه أبي كاليجار، وهو يومئذ أمير على الأهواز، فاستقدمه للملك بعد أبيه وكان هوى الأتراك مع عمه أبي الفوارس صاحب كرمان فاستقدموه.

وخشي محمد بن مكرم جانبه وفر عنه أبو المكارم إلى البصرة، وسار العادل أبو منصور بن مافنة إلى كرمان لاستقدام أبي الفوارس وكان صديقاً لابن مكرم فحسن أمره عند أبي الفوارس، وأحال الأجناد بحق البيعة على ابن مكرم فضجر وماطلهم، فقبض عليه أبو الفوارس وقتله.

ولحق ابنه القاسم بأبي كاليجار بالأهواز فتجهز إلى فارس، وقام بترتيبه بآين مزاحم صندل الخادم.

وسار في العساكر إلى فارس ولقيهم أبو منصور الحسن بن علي النسوي وزير أبي، الفوارس فهزموه وغنموا معسكره وهرب أبو الفوارس إلى كرمان وملك أبو كاليجار بشيراز واستولى على بلاد فارس، وتكرر للديلم الذين بهاء، فبعثوا إلى من كان منهم بمدينة نسا فتمسكوا بطاعة أبي الفوارس.

ثم شغب عسكر أبي كاليجار عليه، وطالبوه بالمال فظاهرهم الديلم، فسلم إلى النويندجان ثم إلى شعب بسوان، وكاتب الديلم بشيراز أبا الفوارس يستحثونه، ثم أصلحوا بينهما على أن تكون لأبي الفوارس كرمان، ويعود أبو كاليجار لفارس لما فارقه بها من نعمته.

وكان الديلم يطيعونه فساروا في العساكر وهزموا أبا الفوارس، فلاحق بدارا مجرد واستولى أبو كاليجار على فارس.

ثم زحف إليه أبو الفوارس في عشرة آلاف من الأكراد فاقتلوا بين البيضاء وإصطخر، فانهمز أبو الفوارس ولحق بكرمان، واستولى أبو كاليجار على فارس واستقر ملكه بها سنة سبع عشرة وأربعمئة.

أخبار ابن كاكويه صاحب أصفهان مع الأكراد ومع الأصهب

الكوفة وقصد الأنبار من أعمال قرواش فحاصرها أيام، ثم افتتحها وأحرقها، وجاء قرواش لمداقته ومعه عريب بن معن فلم يجده فمضوا إلى القصر فخالفهم منيع إلى الأنبار فعات فيها ثانية.

فسار قرواش إلى الجامعين واستنجد ديبس بن صدقة فسار معه في بني أسد، ثم خاموا عن لقاء منيع فافترقوا ورجع قرواش إلى الأنبار فأصلحها، ورم أسوارها.

وكان ديبس وقرواش في طاعة جلال الدولة، فسار منيع بن حسان إلى أبي كاليبجار بالأهواز فأطاعه وخلع عليه ورجع إلى بلده يخطب له بها.

شغب الأتراك على جلال الدولة

ولما استقل جلال الدولة بملك بغداد وكثر جنده من الأتراك واتسعت أرزاقهم من الديوان، وكان الوزير أبو علي بن مأكولا فطالبوه بأرزاقهم فعجز عنها، وأخرج جلال الدولة صياغات وياعها وفرقها في الجند.

ثم ثاروا عليه وطالبوه بأرزاقهم وحاصروه في داره حتى فقد القوت والماء وسأل الإنزال إلى البصرة وخرج بأهله ليركب السفن إلى البصرة وقد ضرب سرادقاً على طريقهم ما بين داره والسفن، فقصد الأتراك السرادق فامتعض جلال الدولة لخرميه، ثم نادى في الناس وخرج الجند ونادوا بشعاره ثم شغبوا عليه بعد أيام قلائل في طلب أرزاقهم، واضطر جلال الدولة إلى بيع ملبوسه وفرشه وخيامه، وفرق أثمنها فيهم.

وعزل جلال الدولة وزيره أبا علي واستوزر أبا طاهر، ثم عزله بعد أربعين يوماً وولى سعيد بن عبد الرحيم وذلك سنة تسع عشرة وأربعمئة.

استيلاء أبي كاليبجار على البصرة ثم على كرمان

ولما أصعد جلال الدولة إلى بغداد استخلف على البصرة ابنه الملك العزيز أبا منصور، وكان بين الأتراك وبين الديلم من الفتنة ما ذكرناه، فتجددت بينهم الفتنة فغلب الأتراك، وأخرجوا الديلم إلى الأبله مع بختيار بن علي، فسار إليهم الملك العزيز ليرجعهم فحاربوه ونادوا بشعار أبي كاليبجار بن سلطان الدولة وهو بالأهواز فعاد منهزماً.

كان علاء الدولة بن كاكويه قد استعمل أبا جعفر علياً ابن عمه على نيسابور خوست ونواحها، وضم إليه الأكراد الجوردقان ومقدمهم أبو الفرج البايوني.

فجرت بين أبي جعفر وأبي الفرج البايوني مشاجرة، وترافعا إليه فأصلح بينهما علاء الدولة وأعادهما.

ثم قتل أبو جعفر أبا الفرج فانتقض الجوردقان وعظم فسادهم، فبعث علاء الدولة عسكرياً وأقاموا أربعة أيام ثم فقدوا الميرة، وجاء علاء الدولة وأعطاهم المال فافترقوا واتبعهم.

وجاء إليه بعض الجوردقان وانتهى في اتباعهم إلى وفد وقاتلوه عندها فهزمهم وقتل ابني ولكن في المعركة، ونجا هو في الفل إلى جرجان، وأسر الأصهب وابنان له ووزيره، وهلك في الأسر منتصف سنة تسع عشرة وأربعمئة وتحصن علي بن عمران بقلعة كنيكور فحاصره بهاء الدولة، وصار ولكن إلى صهره منوچهر قابوس وأطمعه في الدخكت.

وكان ابنه صهر علاء الدولة على ابنته وأقطعه مدينة قم فعصى عليه وبعث إلى أبيه ولكن.

فسار بعساكره وعساكر منوچهر ونازلوا مجد الدولة بن بويه بالري وجرت بينهم وقائع فصالح علاء الدولة علي بن عمران ليسر إليهم فارتحلوا عن الري.

وجاء علاء الدولة إليها وأرسل إلى منوچهر يوجئه ويتهدده فسار منوچهر وتحصن بكنكور وقتل الذين قتلوا أبا جعفر ابن عمه وقبل الشرط، وخرج إلى علاء الدولة فأقطعه الدينور عوضاً عن كنيكور، وأرسل منوچهر إلى علاء الدولة في الصلح فصالحه.

دخول خفاجة في طاعة أبي كاليبجار

كان هؤلاء خفاجة وهم من بني عمرو بن عقيل موطنين بضواحي العراق، ما بين بغداد والكوفة وواسط والبصرة. وأميرهم بهذه العصور منيع بن حسان، وكانت بينه وبين صاحب الموصل منافسات جرتها المناهضة والجوار، فترددت الرسل بين السلم والحرب.

وسار منيع بن حسان سنة سبع عشرة وأربعمئة إلى الجامعين من أعمال ديبس فنهبا، وسار ديبس في طلبه ففارق

ورجع قرواش وجمع جلال الدولة العساكر واستنجد أبا الشوك وغيره وسار إلى واسط، وضاعت عليه الأمور لقلة المال. وأشار عليه أصحابه بمخالفة أبي كاليجار إلى الأهواز لأخذ أمواله، وأشار أصحاب أبي كاليجار بمخالفة جلال الدولة إلى العراق.

وبينما هم في ذلك جاءهم الخبر من أبي الشوك بمسير عساكر محمود بن سبكتكين إلى العراق.

ويشير بإجماع الكلمة. وبعث أبو كاليجار بكتابه إلى جلال الدولة فلم يرجع عليه، وسار إلى الأهواز ونهبها وأخذ من دار الإمارة خاصة مائتي ألف دينار سوى أموال الناس، وأخذت الدة أبي كاليجار وبناته وعياله وحملن إلى بغداد.

وسار جلال الدولة لاعتراضه وتخلف عنه ديبس بن مزيد خشية على أحيائه من خفاجة، والتقى أبو كاليجار وجلال الدولة في ربيع سنة إحدى وعشرين وأربعمائة فاقتلوا ثلاثاً، ثم انهزم أبو كاليجار وقتل من أصحابه نحو من ألفين ورجع إلى الأهواز.

وأناه العادل بن مافنة بمال أنفقه في جنده ورجع جلال الدولة إلى واسط واستولى عليها وأنزل ابنه العزيز بها ورجع.

استيلاء محمود بن سبكتكين صاحب

خراسان على بلاد الري والجليل وأصفهان

كان مجد الدولة بن فخر الدولة متشاعلاً بالنساء والعلم، وتدير ملكه لأمه، وتوفيت سنة تسع عشرة وأربعمائة فاختلفت أحواله وطمع فيه جنده، فكتب إلى محمود بن سبكتكين يشكو إليه، فبعث إليه عسكرياً مع حاجبه، وأمره بالقبض عليه، فركب مجد الدولة لتلقيه فقبض عليه وعلى ابنه أبي دلف وطير بالخبر إلى محمود فجاء إلى الري ودخلها في ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة وأخذ منها مال مجد الدولة ألف ألف دينار، ومن الجواهر قيمة خمسمائة ألف دينار وستة آلاف ثوب، ومن الحرير والآلات ما لا يحصى، وبعث بمجد الدولة إلى خراسان فاعتقل بها.

ثم ملك قزوین وقلاعها ومدينة ساوة وآوة وياث وقبض على صاحبها ولكن وبعث به إلى خراسان، وقتل من الباطنية خلقاً ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة، وملك حدود أرمينية وخطب له علاء الدولة بن كاكويه بأصفهان، واستخلف على الري ابنه مسعوداً فافتتح زنجان وأبهر،

ونهب الديلم الأبله ونهب الأتراك البصرة. وبلغ الخبر إلى أبي كاليجار فبعث من الأهواز عسكرياً إلى بختيار والبصرة والديلم، فقاتلوا الملك العزيز وأخرجوه، فلحق بواسط وملكوا البصرة ونهبوا أسواقها سنة تسع عشرة وأربعمائة وهم جلال الدولة بالمسير إليهم وطلب المال للجنود وشغل بمصادرة أرباب الأموال، وبلغ خبر استيلاء أبي كاليجار على البصرة إلى كرمان وكان بها عمه قوام الدولة أبو الفوارس، وقد تجهز لقصد بلاد فارس فأدركه أجله فمات، فنادى أصحابه بشعار أبي كاليجار واستدعوه، فسار ملك بلاد كرمان، وكان أبو الفوارس سيئ السيرة في رعيته وأصحابه.

قيام بني ديبس بدعوة أبي كاليجار

كانت جزيرة بني ديبس بنواحي خوزستان لطراد بن ديبس، وغلب عليه فيها منصور وخطب فيها لأبي كاليجار، ومات طراد فسار إلى منصور ابنه علي، واستنجد جلال الدولة عليه فأمده بعسكر من الأتراك وسار عجلًا.

وانفق أن أبا صالح كوكين هرب من جلال الدولة إلى أبي كاليجار فأراد أن يفتح طاعته باعتراض أصحاب جلال الدولة فسار إلى منصور بالجزيرة.

وخرجوا لقتال علي بن طراد ولقوه بمبرود فهزموه وقتلوه، واستقر منصور الجزيرة على طاعة أبي كاليجار.

استيلاء أبي كاليجار على واسط ثم

انهزامه وعودها لجلال الدولة

ثم إن نور الدولة ديبس على صاحب حلب والنيل، خطب لأبي كاليجار في أعماله لما بلغه أن ابن عمه المقلد بن الحسن ومنيع بن حسان أمير خفاجة سارا مع عساكر بغداد إليه، فخطب هو لأبي كاليجار واستدعاه فسار من الأهواز إلى واسط، وقد كان لحق بها الملك العزيز بن جلال الدولة ومعه جماعة من الأتراك.

فلما وصل أبو كاليجار فارتقا الملك العزيز إلى النعمانية، واستولى أبو كاليجار على واسط.

ووفد عليه ديبس وبعث إلى قرواش صاحب الموصل والأثير عنبر عنده، وأمرهما أن ينحدرا إلى العراق فالحدرا، ومات الأثير عنبر بالكحيل.

الحمدوني أن يضمه على البلد مالا فأبى فارسى علاء الدولة يستدعي الغز فرجع إليه بعضهم وأقام عنده.

ثم استوحشوا منه وعادوا إلى العيث بنواحي البلاد، فكرر علاء الدولة مراسلة أبي سهل في الضمان ليكون في طاعة مسعود بن سبكتكين.

وكان أبو سهل بطبرستان فاجابه وسار إلى نيسابور وملك علاء الدولة الري.

ثم اجتمع أهل أذربيجان لمداغة الغز الذين طرقت بلادهم وانتقموا من الغز، فافترقوا فسارت طائفة إلى الري ومقدمهم يرفاً وطائفة إلى همذان ومقدمهم منصور وكوكاش فحاصروا بها أبا كاليجار بن علاء الدولة، وأنجده أهل البلاد على دفاعهم وطال حصارهم لهمذان حتى صالحهم أبو كاليجار وصاهر كوكاش.

وأما الذين قصدوا الري فحاصروا بها علاء الدولة بن كاكويه وانضم إليهم فناخسرو بن مجد الدولة وكامد صاحب ساوه، فطال حصارهم وشارك البلد في رجب ليلاً إلى أصفهان، وأجفل أهل البلد وتمزقوا ودخلها الغز من الليل واستباحوها.

واتبع علاء الدولة جماعة منهم فلم يدركوه فعدلوا إلى كرج ونهبوها، ومضى ناصفلي منهم إلى قزوین فقاتلهم حتى صالحوه على سبعة آلاف دينار وصاروا إلى طاعته.

ولما ملكوا الري رجعوا إلى حصار همذان ففارقها أبو كاليجار وصحبه الوجوه والأعيان وتحصنوا بكنكون وملك الغز همذان ومقدمهم كوكاش ومنصور ومعهم فناخسرو بن مجد الدولة في عدد من الديلم فاستباحوها، وبلغت سراياهم إلى أستراباذ وقرى الدينور وقاتلهم صاحبها أبو الفتح ابن أبي الشوك فهزمهم وأسر منهم حتى صالحوه على إطلاقهم فأطلقهم.

ثم راسلوا أبا كاليجار بن علاء الدولة في التقدم عليهم يدبر ملكهم بهمذان، فلما جاءهم وثبوا به فنهبوا ماله وانهزم وخرج علاء الدولة من أصفهان فوقع في طريقه بطائفة من الغز فظفر بهم ورجع إلى أصفهان منصوراً.

ولما أجاز الفريق الثاني من الغز السليجوقية من وراء النهر، وهم أصحاب طغريلك وداود وجفر بيك وبقوا وأخوهم إبراهيم نبال في العسكر لاتباع هؤلاء الذين بالري وهمذان وساروا إلى أذربيجان وديار بكر والموصل، وافترقوا عليها وفعلوا فيها الأفاعيل كما تقدم في أخبار قرواش صاحب الموصل وابن مروان صاحب ديار بكر، وكما يأتي في أخبار ابن وهشودان.

ثم ملك أصفهان من يد علاء الدولة، واستخلف عليها بعض أصحابه فنار به أهل أصفهان وقتلوه، فسار إليها وقتك فيهم، ويقال: قتل منهم خمسة آلاف قتيل وعاد إلى الري فأقام بها.

أخبار الغز بالري وأصفهان وأعمالها

وعودهما إلى علاء الدولة

قد تقدم لنا في غير موضع بداية هؤلاء الغز، وأنهم كانوا بمفازة بخاري وكانوا فريقين: أصحاب أرسلان بن سلجوق وأصحاب بني أخيه ميكائيل بن سلجوق، وأن يمين الدولة محمود بن سبكتكين لما ملك بخاري وما وراء النهر قبض على أرسلان بن سلجوق، وسجنه بالهند ونهب أحياءه.

ثم نهض إلى خراسان ولحق بعضهم بأصفهان، وبعث محمود في طلبهم إلى علاء الدولة بن كاكويه فحاول على أخذهم، وشعروا ففروا إلى نواحي خراسان، وكثر عيthem فأوقع بهم تاش الفوارس قائد مسعود بن سبكتكين فساروا إلى الري قاصدين أذربيجان، وكانوا يسمون العراقية، وكان أمراء هذه الطائفة كوكاش ویرفاً وقزل ويعمر وناصفلي، فلما انتهوا إلى الدامغان خرج إليهم عسكرها فلم يطيقوا دفاعهم فتحصنوا بالجيل.

ودخل الغز البلد ونهبوه، ثم فعلوا في سمنان مثل ذلك، ثم في جوار الري وفي إسحاق أباذ وما جاورها من القرى، ثم ساروا إلى مسكويه من أعمال الري فنهبوا.

وكان تاش الفوارس قائد بني سبكتكين بخراسان ومعه أبو سهل الحمدوني من قوادهم فاستجدوا مسعود بن سبكتكين وصاحب جرجان وطبرستان فأغذاهم وقاتلا الغز فانهزما وقتل تاش الفوارس.

وسار إلى الري أبو سهل الحمدوني فهزموه وتحصن بقلعة طبرك، ودخل الغز الري ونهبوه.

ثم قاتلوه ثانياً فأسر منهم ابن أخت لعمر من قوادهم فبذلوا فيه ثلاثين ألف دينار وإعادة ما أخذوا من عسكر تاش من المال والأسرى فأبى أبو سهل من إطلاقه، وخرج الغز من الري ووصل عسكر جرجان وقاتلوا الغز عندما قاربوا الري وأسروا قائدهم والفين معه، وساروا إلى أذربيجان وذلك، سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

ولما سار الغز إلى أذربيجان سار علاء الدولة إلى الري فدخلها بدعوة مسعود بن سبكتكين، وأرسل إلى أبي سهل

غلماناه اطلع له على رية وخشيه قتلته.

وكان قد أحدث في ولايته رسوماً جائرة من المكوس، ويعين فيها، ولما بلغ خبره إلى جلال الدولة استوزر مكانه ابن عمه أبا سعد عبد الرحيم، وبعث الأجناد لنصرة الذين كانوا معه فملكوا البصرة في شعبان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ولحق بختيار بالأبلة في عساكره واستمد أبا كاليبجار فبعث إليه العساكر مع وزيره ذي السعادات أبي الفرج بن فسانجس فقاتلوا عساكر جلال الدولة بالبصرة، فانهزم بختيار أولاً وأخذ كثير من سفنه.

ثم اختلف أصحاب جلال الدولة بالبصرة وتنازعوا واقتروا واستأمن بعضهم إلى ذي السعادات فركبوا إلى البصرة وملكوها، وعادت لأبي كاليبجار كما كانت.

وفاة القادر ونصب القائم للخلافة

وفي ذي الحجة سنة اثنين وعشرين وأربعمائة توفي الخليفة القادر لإحدى وأربعين سنة من خلافته، وكان مهيباً عند الديلم والأتراك.

ولما مات نصب جلال الدولة للخلافة ابنه القائم بأمر الله أبا جعفر عبد الله بعد أبيه ولقبه القائم، وبعث القاضي أبا الحسن الماوردي إلى أبي كاليبجار في الطاعة، فبايع وخطب له في بلاده وأرسل إليه بهدايا جليلة وأموال، ووقعت الفتنة ببغداد في تلك الأيام بين السنة والشيعة، ونهبت دور اليهود وأحرقت من بغداد أسواق، وقتل بعض جياة المكس، وثار العيارون.

ثم هم الجند بالوثوب على جلال الدولة وقطع خطبته، ففرق فيهم الأموال فيسكتوا، ثم عاودوا، فلزم جلال الدولة الأصاغر فشكا من قواده الأكابر وهما بارسطمان وبلدوك، وأنهما استأثرا بالأموال فاستوحشا لذلك، وطالبهما الغلمان بملوقتهم وجراياتهم فسارا إن المدائن، وندم الأتراك على ذلك.

وبعث جلال الدولة مؤيد الملك الرجحي فاسترضاهما ورجعا.

وزاد شغب الجند عليه ونهبوا دوابه وفرشه، وركب إلى دار الخليفة مغضباً من ذلك وهو سكران، فلاطفه ورده إلى بيته.

ثم زاد شغبهم وطالبوه في الدواب لركوبهم فضجر وأطلق ما كان في أسطبله من الدواب، وكانت خمس عشرة وتركها عائرة، وصرف حواشيه وأتباعه لانتقطاع خزانته فعوتب بتلك الفتنة، وعزل وزيره عميد الملك، ووزر بعده أبو الفتح محمد بن الفضل

استيلاء مسعود بن سبكتكين على همدان

وأصفهان والري ثم عودها إلى علاء الدولة

بن كاكويه

ولما فارق الغز همدان بعث إليها مسعود بن سبكتكين عسكرياً فملكها وسار هو إلى أصفهان فهرب عنها علاء الدولة واستولى على ما كان بها من الذخائر، ولحق علاء الدولة إلى أبي كاليبجار يستجده عقب انهزامه أمام جلال الدولة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة كما قدمنا فوعده بالنصر إذا اصطلاح مع عمه جلال الدولة.

ثم توفي محمود بن سبكتكين ورجع مسعود من خراسان، وكان فناخسرو بن مجد الدولة معتصماً بعمران، فطمع في الري وجمع جمعاً من الديلم والأكراد وقصدها فهزمه نائب مسعود بها.

وقتل جماعة من عسكره وعاد إلى حصنه.

وعاد علاء الدولة من عند أبي كاليبجار، وقد كان خائفاً من مسعود أن يسير إليهم ولا طاقة لهم به، فجاء بعد موت محمود، وملك أصفهان وهمدان والري وتجاوز إلى أعمال أنوشروان وسروا إليه بالري واشتد القتال وغلبوه على الري ونهبوها ونجا علاء الدولة جريحاً إلى قلعة فردخان على خمسة عشر فرسخاً من همدان فاعتصم بها، وخطب بالري وأعمال أنوشروان لمسعود بن سبكتكين، وولى عليها تاش القوراس فأساء السيرة فولى علاء الدولة.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثم

عودها لأبي كاليبجار

كما قدمنا أن جلال الدولة خالف أبا كاليبجار إلى الأهواز واتبه أبو كاليبجار من واسط فهزمه جلال الدولة، ورجع إلى واسط فارتجعها.

وبعث أبو منصور بختيار بن علي نائباً لأبي كاليبجار فبعث أربعمائة سفينة للقائهم مع عبد الله السرائي الركازي صاحب البطيحة فانهزموا وعزم بختيار على الحرب، ثم ثبت وأعاد السفن لقتالهم والعسكر في البر، وجاء الوزير أبو علي لحربهم في سفينة، فلما وصل نهر أبي الحصيب وبه عساكر بختيار رجع مهزوماً، وتبعه أصحاب بختيار، ثم ركب بختيار بنفسه وأخذوا سفن أبي علي كلها وأخذوه أسيراً وبعثه بختيار إلى أبي كاليبجار فقتله بعض

جلال الدولة الوزير أبا القاسم فاستوحش الجند، واتهموه بالتعرض لأموالهم فهجموا عليه في دار الملك وأخرجوه إلى مسجد في داره، فاحتمل جلال الدولة الوزير أبا القاسم وانتقل إلى الكرخ، وأرسل إليه الجند بأن ينحدر عنهم إلى واسط على رسمه، ويقيم لإمارتهم بعض ولده الأصاغر فأجاب، وبعث إليهم واستمالهم فرجعوا عن ذلك واستردوه إلى داره، وحلفوا له على المناصحة.

واستوزر عميد الدولة أبا سعد سنة خمس وعشرين وأربعمائة عوضاً من ابن مأكولا فاستوحش ابن مأكولا، وسار إلى عكبرا فرده إلى وزارته، وعزل أبا سعد فيقي أياماً، ثم فارقها إلى أوانا فأعاد أبا سعد عبد الرحيم إلى وزارته.

ثم خرج أبو سعد هارباً من الوزارة ولحق بأبي الشوك، ووزر بعده أبو القاسم فكثر مطالبات الجند له وهرب لشهرين فحمل إلى دار الخلافة مكشوف الرأس، وأعيد أبو سعد إلى الوزارة، وعظم فساد العيارين ببغداد وعجز عنهم النواب، فولي جلال الدولة البلساسيري من قواد الديلم حماية الجانب الغربي ببغداد فحسن فيه غناؤه، وأحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى أغار الأكراد والجند على بستان الخليفة، ونهبوا ثمرته وطلب أولئك الجند جلال الدولة فعجز عن الانتصاف منهم أو إسلامهم للخليفة، فتقدم الخليفة إلى القضاة والشهود والفقهاء بتعطيل رسومهم فوجم جلال الدولة، وحمل أولئك الجند بعد غيبتهم أياماً إلى دار الخليفة فاعترضهم أصحابهم وأطلقوهم، وعجز النواب عن إقامة الأحكام في العيارين ببغداد، وانتشر العرب في ضواحي بغداد وعاثوا فيها حتى سلبوا النساء في المقابر عند جامع المنصور، وشغب الجند سنة سبع وعشرين وأربعمائة بجلال الدولة فخرج متكرراً في سيما بدوي إلى دار المرتضى بالكرخ، ولحق منها برافع بن الحسين بن معن بتكرت، ونهب الأتراك داره وخربوها، ثم أصلح القائم أمر الجند وأعاد.

فتنة بادسطفان ومقتله

قد قلنا ذكر بادسطفان هذا وأنه من أكابر قواد الديلم ويلقب حاجب الحجاب، وكان جلال الدولة ينسبه لفساد الأتراك والأتراك ينسبونه إلى إحجاز الأموال فاستوحش واستجار بالخليفة متصف سبع وعشرين وأربعمائة فأجاره وكان يرأس أبا كاليجار ويستدعيه، فبعث أبو كاليجار عسكرياً إلى واسط وثار معهم العسكر الذين بها وأخرجوا العزيز بن جلال الدولة إلى بغداد،

أياماً ولم يستقم أمره فعزله، ووزر بعده أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسين السهيلي وزير مأمون صاحب خوارزم وهرب خمسة وعشرين يوماً.

وثوب الأتراك ببغداد بجلال الدولة بدعوة

أبي كاليجار ثم رجوعهم إلى جلال الدولة

ثم تجددت الفتنة بين الأتراك وجلال الدولة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة في ربيع الأول فأغلق باب، ونهب الأتراك داره وسلبوا الكتاب وأصحاب الدواوين، وهرب الوزير أبو إسحاق السهيلي إلى حي غريب بن محمد بن معن.

وخرج جلال الدولة إلى عكبرا وخطبوا لأبي كاليجار واستدعوه من الأهواز فمنعه العادل بن مافنه إلى أن يحضره بين قوادهم فعادوا إلى جلال الدولة وتطارحوا عليه، فعاد لثلاث وأربعين يوماً من مغيبه.

واستوزر أبا القاسم بن مأكولا ثم عزله لفتنة الأتراك به، وإطلاق بعض المصادر من يده.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانياً ثم

عودها لأبي كاليجار

ثم توفي أبو منصور بختيار بن علي نائب أبي كاليجار بالبصرة متصف أربع وعشرين وأربعمائة فقام مكانه صهره أبو القاسم لاضطلاله وكفايته، واستبد بها وتكر أبو كاليجار استبداده، وبعث بعزله فامتنع وخطب لجلال الدولة، وبعث لابنه يستدعيه من واسط فجاء وملك البصرة وطرد عساكر أبي كاليجار.

ثم فسد ما بين أبي القاسم والعزيز واستجار منه بعض الديلم بالعزيز، وشكوا منه فأخرجه العزيز عن البصرة وأقام بالأبلة، ثم عاد إلى محاربة العزيز حتى أخرجه عن البصرة ورجع أبو القاسم إلى طاعة أبي كاليجار.

إخراج جلال الدولة من دار الملك ثم

عوده

وفي رمضان من سنة أربع وعشرين وأربعمائة استقدم

وملكوها، وقبض على الظهير واستصفت أمواله، وصودر على تسعين ألفاً فحملها في عشرة أيام، ثم على مائة ألف وعشرة آلاف فحملها كذلك، ووصل الملك أبو كاليبج إلى البصرة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وأنزل بها ابنه عز الملوك والأمير أبا الفرج بن فساحجس وعاد إلى الأهواز ومعه الظهير أبو القاسم.

أخبار عمان وابن مكرم

قد قدمنا خبر أبي محمد بن مكرم وأنه كان مدبر دولة بهاء الدولة وقبله ابنه أبو الفوارس، وأن ابنه أبا القاسم كان أميراً بعمان منذ سنة خمس عشرة وأربعمائة ثم توفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وخلف بنين أربعة وهم: أبو الجيش والمهذب وأبو محمد وآخر صغير لم يذكر اسمه.

وكان علي بن هطال صاحب جيش أبي القاسم فأقره أبو الجيش وبالف في تعظيمه حتى كان يقوم له إذا دخل عليه في مجلسه ففكر ذلك المهذب على أخيه، وحققها له ابن هطال فعمل دعوة واستأذن أبا الجيش في إحضار أخيه المهذب لها، وأحضره وبالف في خدمته حتى إذا طعموا وشربوا وانتشوا فاوضه ابن هطال في الترتب بأخيه أبي الجيش واستكتبه بما يوليه من المراتب ويعطيه من الإقطاع على مناصحته في ذلك.

ثم وقّف أبا الجيش على خطة أخيره أنه لم يوافقته ثم قال له: وبسبب ذلك كان نكيره عليك في شائي، فقبض أبو الجيش على أخيه واعتقله ثم خنقه.

ثم توفي أبو الجيش بعد ذلك بيسير وهم ابن هطال بتولية أخيه محمد فأخفته أمه حذراً عليه، ورفعت الأمر إلى ابن هطال فولي عمان وأساء السيرة وصادر التجار، وبلغ ذلك إلى أبي كاليبج فأمر العادل أبا منصور بن مافنه أن يكتب المرتضى نائب أبي القاسم بن مكرم بجمال عمان، ويأمره بقصد ابن هطال في عمان، وبعث إليه العساكر من البصرة، فسار إلى عمان وحاصرها واستولى على أكثر أعمالها.

ثم دس إلى خادم كان لابن مكرم وصار لابن هطال وأمره باغتياله فاغتاله وقتله.

ومات العادل أبو منصور بهرام بن مافنة وزير أبي كاليبج سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ووزر بعده مهذب الدولة وبعث لمدافعتهم عنها، وكانوا يحاصرون جيرفت فأجفلوا عنها، ولم يزل في اتباعهم حتى دخلوا المقازة ورجع مهذب الدولة إلى كرمان فأصلح فسادهم.

وكشف بادسطفان القناع في الدعاء لأبي كاليبج وحل الخطباء على الخطبة لامتناع الخليفة منها، وجرت بينه وبين جلال الدولة حرب.

وسار إلى الأنبار وفارقه قرواش إلى الموصل، وقبض بادسطفان على ابن فساحجس، فعاد منصور بن الحسين إلى بلده.

ثم جاء الخبر بأن أبا كاليبج سار إلى فارس فانتقض عن بادسطفان الديلم الذين كانوا معه، وترك ماله وخدمه وما معه بدار الخليفة القائم وانحدر إلى واسط، وعاد جلال الدولة إلى بغداد وبعث البساسيري وبني خفاجة في طلب بادسطفان وسار هو وديس في اتباعهم فلحقوه بالخيزرانية فقاتلوه وهزموه، وجاؤوا به أسيراً إلى جلال الدولة ببغداد، وطلب من القائم أن يخطب له ملك الملوك فوقف عن ذلك إلا أن يكون بفتوى الفقهاء فأفتاه القضاة أبو الطيب الطبري وأبو عبد الله الصيمري وأبو القاسم الكرخي بالجواز ومنع أبو الحسن الماوردي، وجرت بينهم مناظرات حتى رجحت فتاؤهم وخطب له بملك الملوك.

وكان الماوردي من أخص الناس بجمال الدولة فخلج وانقطع عنه ثلاثة أشهر، ثم استدعاه وشكر له إثارة الحق وأعادته إلى مقامه.

مصالحه جلال الدولة وأبي كاليبج

ثم ترددت الرسل بين جلال الدولة وأبي كاليبج ابن أخيه، وتولى ذلك القاضي أبو الحسن الماوردي وأبو عبد الله المردوسي، فانعقد بينهما الصلح والصهر لأبي منصور بن أبي كاليبج على ابنة جلال الدولة، وأرسل القائم إلى أبي كاليبج بالخلع النفيسة.

عزل الظهير أبي القاسم عن البصرة

واستقلال أبي كاليبج بها

قد قدمنا حال الظهير أبي القاسم في ملك البصرة بعد صهره أبي منصور بختيار، وأنه عصى على أبي كاليبج بدعوة جلال الدولة، ثم عاد إلى طاعته واستبد بالبصرة، وكان ابن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان يكتب أبا الجيش وأبا كاليبج بزيادة ثلاثين ألف دينار في ضمان البصرة فأجيب إلى ذلك، وجهاز له أبو كاليبج العساكر مع العادل أبي منصور بن مافنه وجاء أبا الجيش بعساكره في البحر من عمان وحاصروا البصرة براً وبحراً

وفاة جلال الدولة سلطان بغداد وولاية أبي

كاليبجار

قرواش.

وافترقوا من يزدجرد فمضى أبو جعفر إلى نيسابور عند الأكراد الجردقان وصعد فرهاد إلى قلعة سمكيس واستمال الأكراد الذين مع علي بن عمران وحملهم على الفتك به، فشنع علي وسار إلى همدان، واتبعه فرهاد والأكراد فحاصروه في قرية بطريقه فامتنع عليهم بكثرة الأمطار ورجعوا عنه، وبعث علي بن عمران إلى الأمير تاش يستمده وعلاء الدولة إلى ابن أخيه بأصفهان يستمد المال والسلاح فاعترضه علي بن عمران من همدان وكبسه بجردقان وغنم ما معه وأسره، وخالفه علاء الدولة وأقره على أصفهان على ضمان معلوم وكذلك قابوس في جرجان وطبرستان وولى على الري أبا سهل الحمدوني وأمر تاش قرواش صاحب خراسان بطلب شهريوس بن ولكن صاحب ساوة، وكان يفسد السابلة ويعترض الحاج، وسار إلى الري وحاصرها بعد موت محمود، فبعث تاش العساكر في أثره وحاصروه ببعض قلاع قم وأخذوه أسيراً فأمر بصلبه على ساوة، ثم اجتمع علاء الدولة بن كاكويه وفرهاد بن مرداويج على قتال أبي سهل الحمدوني وقد زحف في العساكر من خراسان فقاتلاه وقتل فرهاد وانهزم علاء الدولة إلى جبل بين أصفهان وجرجان فاعتصم به.

ثم لحق بأيدج وهي للملك أبي كاليبجار، واستولى أبو سهل على أصفهان ونهب خزائن علاء الدولة وحملت كتبه إلى غزنة إلى أن أحرقها الحسين بن الحسين الغوري، وذلك سنة خمس وعشرين وأربعمائة ثم سار علاء الدولة سنة سبع وعشرين وأربعمائة وحاصر أبا سهل في أصفهان وغدرته الأتراك فخرج إلى يزدجرد ومنها إلى الطرم فلم يقبله ابن السلال خوفاً من ابن سبكتكين، فسار عنه، ثم غلبه طغرل بك على خراسان سنة تسع وعشرين وأربعمائة وارتجعها مسعود سنة ثلاثين وأربعمائة كما ذكرناه ونذكره.

وفاة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه

ثم توفي علاء الدولة شهربان بن كاكويه في محرم سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وقد كان عاد إلى أصفهان عند شغل بن سبكتكين بفتنة طغرل بك فملكها.

ولما توفي قام مكانه بأصفهان ابنه الأكبر ظهير الدين أبو منصور قرامرد.

وسار ولده الآخر أبو كاليبجار كرشاسف إلى نهاوند فملكها، وضبط البلد وأعمال الجبل.

ثم توفي جلال الدولة ببغداد في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لسبع عشرة سنة من ملكه، وقد كان بلغ في الضعف وشغب الجند عليه واستبداد الأمراء والنواب فوق الغاية.

ولما توفي اتخذ الوزير كمال الملك عبد الرحيم وأصحاب السلطان الأكابر إلى حريم دار الخلافة خوفاً من الأتراك والعامّة، واجتمع قواد العسكر فمتعهم من النهب.

وكان ابنه الأكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط فكتبه الجند بالطاعة، وشرطوا عليه تعجيل حق البيعة فأبطأ عنهم، وبادر أبو كاليبجار صاحب الأهواز فكتبهم ورغبهم في المال وتعجيله فعدلوا عن الملك العزيز إليه.

وأصعد بعد ذلك من الأهواز فلما انتهى إلى النعمانية غدر به أصحابه فرجع إلى واسط، وخطب الجند ببغداد لأبي كاليبجار.

وسار العزيز إلى ديبس بن مزيد، ثم إلى قرواش بن المقلد بالموصل، ثم فارقه إلى أبي الشوك لصهر بينهما فغدر به، وألزمه على طلاق بنته، فسار إلى إبراهيم نبال أخي طغرل بك، ثم قدم بغداد مخفياً يروم الثورة بقتل بعض أصحابه ففر ولحق بنصير الدولة بن مروان فتوفي عنده بميفارقين، وقدم أبو كاليبجار ببغداد في صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وخطب له بها واستقر سلطانه فيها بعد أن بعث بأموال فرقته على الجند ببغداد وبعشرة آلاف دينار وهدايا كثيرة للخليفة، وخطب له فيها أبو الشوك وديبس بن مزيد كل بأعماله، ولقبه الخليفة بمحيي الدولة، وجاء في قلعة من عساكره خوفاً أن يستريب به الأتراك فدخل بغداد في شهر رمضان ومعه وزيره أبو السعادات أبو الفرج محمد بن جعفر بن فسانجس، واستعفى القائم من الركوب للقاءه، وتقدم بإخراج عميه من بغداد، فمضيا إلى تكريت وخلع على أصحاب الجيوش وهم البساسيري والساري والهامام أبو اللقاء وثبت قدمه في الملك.

أخبار ابن كاكويه مع عساكر مسعود

وولايته على أصفهان ثم ارتجاعه منها

قد تقدم انهزام علاء الدولة بن كاكويه من الري ومسيره جريماً ومعه فرهاد بن مرداويج الذي جاءه إلى قلعة فردخان مدداً وساروا منها إلى يزدجرد، واتبعهم علي بن عمران قائد تاش

طاعته.

ثم بعث إلى كركاش وموقا من الغز العراقية الذين تقدموا إلى الري واستدعاهم من نواحي جرجان فارتأبوا وشردوا خوفاً منه.

ثم بعث إلى ملك الديلم يدعوهُ إلى الطاعة ويطلب منه المال، فأجاب وحمل، وبعث إلى سلال الطرم بمثل ذلك فأجاب وحمل مائتي ألف دينار وقرر عليه ضماناً معلوماً.

ثم بعث السرايا إلى أصفهان وخروج من الري في اتباعها فصانعه قرامرد بالمال فرجع عنه.

وسار إلى همدان فملكها، وقد كان سار إليه كرشاسف بن علاء الدولة وهو بالري فأطاعه، وسار معه إلى أبهر ورجمان فملكهما، وأخذ منه همدان وتفرق عنه أصحابه.

وطلب منه طغرل بك قلعة كشكور فأرسل إلى مستحفظها بنزولهم عنها فامتنعوا، واتبعه طغرل بك إلى الري واستخلف على همدان ناصر الدين العلوي، وكان كرشاسف قد قبض عليه فأخرجه طغرل بك وجعله رديفاً للذي ولاه البلد من السلجوقية، ثم نزل كرشاسف على كشكور سنة ست وثلاثين وأربعمائة وجاء إلى همدان فملكها وطرد عنها عمال طغرل بك وخطب للملك أبي كاليجار فبعث طغرل بك أخاه إبراهيم نبال سنة سبع وثلاثين وأربعمائة إلى همدان، ولحق كرشاسف بشهاب الدولة أبي الفوارس منصور بن الحسين صاحب جزيرة بني ديبس، وارتاع الناس بالعراق لوصول إبراهيم نبال إلى حلوان، وبلغ الخبر إلى أبي كاليجار فأراد التجمع لإبراهيم نبال فمنعه قلة الظهر.

وحدثت فتنة بين طغرل بك وأخيه إبراهيم نبال وأخذ الري وبلاد الجبل من يده.

ثم سار إلى أصفهان فحاصرها في محرم سنة اثنين وأربعين، وبعث السرايا فبلغت البيضاء، وأقام يحاصرها حولاً كاملاً حتى جهدهم الحصار، وعدموا الأقوات وحرقوا السقف لقوادهم حتى سقف الجامع، ثم استأمنوا وخرجوا إليه وملك أصفهان سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة وأقطع صاحبها أبا منصور وأجنداه في بلاد الجبل ونقل أمواله وسلاحه من الري إليها وجعلها كرسياً للكه، وانقرضت دولة فخر الدولة بن بويه من الري وأصفهان وهمدان، وبقي منهم بالعراق وفارس أبو كاليجار والبقاء لله وحده.

وبعث أبو منصور قرامرد إلى مستحفظ قلعة نظيرا التي كان فيها ذخائر أبيه وأمواله فامتنع بها وعصى، وسار أبو منصور لحصاره ومعه أخوه أبو حرب فلحق أبو حرب بالمستحفظ، ورجع أبو منصور إلى أصفهان.

وبعث أبو حرب إلى السلجوقية بالري يستنجدهم، فسارت طائفة منهم إلى جرجان فنهبوا وسلموها لأبي حرب.

فسير أبو منصور العساكر وارتجمعها، فجمع أبو حرب فهزمه، وحاصروا أبا حرب بالقلعة فأسرى من القلعة ولحق بالملك أبي كاليجار صاحب فارس، واستنجده على أخيه أبي منصور فأنجده بالعساكر وحاصروا أبا منصور وأوقعوه عدة وقائع، ثم اصطلحوها آخرأ على مال يحمل أبو منصور إلى أبي كاليجار، وعاد أبو حرب إلى قلعة نظير واشتد الحصار عليه.

ثم صالح أخاه أبا منصور على أن يعطيه بعض ما في القلعة ويتقى له فاتفقا على ذلك. ثم سار إبراهيم نبال إلى الري وطلب المودعة من أبي منصور فلم يجبه، فسار إلى همدان ويزدجرد فملكهما وسعى الحسن الكيا في اتفائه مع أخيه أبي حرب فاتفقا، وخطب أبو حرب لأخيه أبي منصور في بلاده، وأقطعه أبو منصور همدان.

ثم ملك طغرل بك البلاد من يد ابن سبكتكين واستولى على خوارزم وجرجان وطبرستان.

وكان إبراهيم نبال عندما استولى طغرل بك على خراسان وهو أخوه لأمه تقدم في عساكر السلجوقية إلى الري فاستولى عليها.

ثم ملك يزدجرد، ثم قصد همدان سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ففارقها صاحبها ابن علاء الدولة إلى نيسابور، وجاء إبراهيم إلى همدان بطلب طاعتهم فشرطوا عليه استيلاءه على عساكر كرشاسف، فسار إليها وتحصن في سابور خواست وملك عليه البلاد وعات في نواحيها، وتحصن هو بالقلعة وعاد هو إلى الري.

وقد صمم طغرل بك على قصدها، فسار إليه وترك همدان ورجع كرشاسف وملك طغرل بك الري من يد إبراهيم.

وبعث إلى سجستان وأمر بعمارة ما خرب من الري، ووجد بدار الإمارة مراكب ذهب مرصعة بالجواهر، وبرنيتين من النحاس ملوءتين جواهر وذخائر مما سوى ذلك وأموالاً كثيرة.

ثم ملك قلعة طبرك من يد مجد الدولة بن بويه، وأقام عنده مكراً وملك قزوين فصالحه صاحبها بثمانين ألف دينار وصار في

موت أبي كاليجار

ملك الملك الرحيم بن أبي كاليجار

ومواقعه

قد تقدم لنا أن أبا منصور فلاستون بن أبي كاليجار، سار إلى فارس بعد موت أبيه فملكها، وأنه بعث أخاه أبا سعيد بالعساكر فقبضوا عليه وعلى أمه، ثم انطلق ولحق بقلعة إصطخر ببلاد فارس، فسار الملك الرحيم من الأهواز في أتباعه سنة إحدى وأربعين وأطاعه أهل شيراز وجندها، ونزل قريباً منها.

ثم وقع الخلاف بين جند شيراز وبين جند بغداد، وعادوا إلى العراق فعاد معهم الملك الرحيم لارتبائه بجند شيراز، وبعث الجند والديلم جميعاً ببلاد فارس، إلى أخيه فلاستون ولما عاد استخلف العساكر وسار إلى أرجان عازماً على قصد الأهواز.

وعاد الملك الرحيم للقائه من الأهواز في ذي القعدة من السنة واقتتلوا وانهزم الملك الرحيم، وعاد إلى واسط منهزماً.

وسار بعض إلى الملك الرحيم يستجيشون به للرجوع إلى فارس، فأرسل إلى بغداد واستنفر الجند وسار إلى الأهواز فبلغه طاعة أهل فارس وأنهم ينتظرون قدومه، فأقام بالأهواز ينتظر عساكر بغداد.

ثم سار إلى عسكر مكرم فملكها سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

ثم اجتمع جمع من العرب والأكراد مقدمهم طراد بن منصور ومذكور بن نزار فقصدوا سرف فنهبوا ونهبوا درق.

وبعث الملك الرحيم بعساكره في محرم سنة ثلاث وأربعين فهزموا العرب والأكراد وقتل مطارد وأسر ابنه واسترد النهب.

وبلغ الخبر إلى الملك الرحيم وهو بعسكر مكرم فتقدم إلى قنطرة أريق ومعه ديبس بن مزيد والبساسيري وغيرهما.

ثم سار هزارسب بن تنكر ومنصور بن الحسين الأسدي بمن معهم من الديلم والأتراك من أرجان إلى تستر، فسابقهم الملك الرحيم فكان الظفر له.

ثم زحف في عسكر إلى رامهرمز وبها أصحاب هزارسب فهزمهم وأئخنوا فيهم، وتحيزوا إلى رامهرمز في طاعة الملك الرحيم.

ثم قبض هزارسب عليهم وأرسل إلى الملك الرحيم بطاعته، فبعث أخاه أبا سعيد إليه فملك إصطخر، وخدمه أبو نصر بعسكره وماله، وأطاعته جموع من عساكر فارس من الديلم والترك

ولما رأى أبو كاليجار استيلاء طغرل بك على البلاد، وأخذته الري وأصفهان وهمذان والجيل من قومه، وإزالة ملكهم راسله في الصهر والصلح، بأن يزوجه ابنته، وزوج داود أخو طغرل بك ابنته من أبي منصور بن أبي كاليجار، وانعقد ذلك بينهما في منتصف تسع وثلاثين وأربعمائة وكتب طغرل بك إلى أخيه إبراهيم نبال عن العراق وأعماله ابن سكرستان من الديلم، وقرر عليه مالا فطاول في حمله، ورافع فشكر له أبو كاليجار، وانتزع من يده قلعة يزدشير وهي تعلقه ثم استمال أجناده فقتلهم بهرام، واستوحش فساد إليه أبو كاليجار، وانتهى إلى قصر مجامع من خراسان فطرقة المرض وضعف عن الركوب فرجعوا به إلى مدينة خبايا وتوفي بها في جمادى الأولى سنة أربعين وأربعمائة، لأربع سنين وثلاثة أشهر من ملكه العراق.

ولما توفي نهب الأتراك خزائنه وسلاحه ودوابه وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى غنيم الوزير أبي منصور وكانت منفردة عن العسكر فأقام عنده، واختلف الأتراك والديلم وأراد الأتراك نهب الأمير والوزير فمنعهم الديلم، واختلفوا إلى شيراز فملكها الأمير أبو منصور وامتنع الوزير بقلعة حزقه، وبلغ وفاة أبي كاليجار إلى بغداد وبها ابنه أبو نصر، فاستخلف الجند وأمر القوائم بالخطبة على عادة قومه.

وسأل أن يلقب بالرحيم فمنع الخليفة من ذلك أدباً ولقيه به أصحابه واستقر بالعراق وخوزستان والبصرة. وكان بالبصرة أخوه أبو علي فأقره عليها.

ثم بعث أخاه أبا سعد في العساكر في شوال من السنة إلى شيراز فملكها وخطبوا له بها وقبضوا على أخيه أبي منصور وأمه وجاؤوا بهما إليه.

وكان الملك العزيز بن جلال الدولة عند إبراهيم نبال لحق به بعد مهلك أبيه.

فلما مات أبو كاليجار زحف إلى البصرة طامعاً في ملكها فدافعه الجند الذين بها، وبلغه استقامة الملك ببغداد للرحيم فأقطع وذهب إلى ابن مروان فهلك عنده كما مر.

والعرب والأكراد وحاصروا قلعة بهندر فخالفه هزارسب ومنصور بن الحسين الأسدي إلى الملك الرحيم فهزموه.

وفارق الأهواز إلى واسط وعاد إلى سعد بشيراز فقاتلهم وهزمهم.

ثم عاودوا القتال فهزمهم وأثنخ فيهم واستامن إليه كثير منهم، وصعد فلاستون إلى قلعة بهندر فامتنع بها، وأعيدت الخطبة للملك الرحيم بالأهواز.

ثم مضى فلاستون وهزارسب إلى إيدج وبعثوا بطاعتهم إلى السلطان طغرل بك واستمدوه، وبعث إليهم العساكر والملك الرحيم بعسكر مكرم وقد انصرف عنه البساسيري إلى العراق، وديس بن مزيد والعرب والأكراد، وبقي معه ديلم الأهواز، وأنزل ببغداد فسار من عسكر مكرم إلى الأهواز وحاصروه بها فبعث أخاه أبا سعد صاحب فارس حين طلبه صاحب إصطخر ليفت في عضد فلاستون وهزارسب ويرجعوا عنه.

فلم يهجم ذلك وساروا إلى الأهواز وقاتلوه فهزموه، ولحق في القل بواسط ونهبت الأهواز، وفقد في الواقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي بن عبد الرحيم وكانت السلجوقية قد ساروا إلى فارس، فاستولى ألب أرسلان ابن أخي طغرل بك على مدينة نسا وعاثوا فيها وذلك سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

ثم ساروا سنة أربع وأربعين وأربعمائة إلى شیراز ومعهم العادل بن مافنه وزير فلاستون فقبضوا عليه وملكوا منه ثلاث قلاع وسلموها إلى أبي سعد أخي الملك الرحيم، واجتمعت عساكر شیراز فهزموا الغز الذين ساروا إليها وأسروا بعض مقدمهم.

ثم ساروا إلى نسا وقد كان تغلب عليها بعض السلجوقية فأنزجهم عنها وملكوها.

الفتنة بين البساسيري وبني عقيل واستيلاؤه

على الأنبار

لما سار الملك الرحيم إلى شیراز سنة إحدى وأربعين ثار بعض بني عقيل بأردوفا فنهبوا وعاثوا فيها وكانت من أقطاع البساسيري، فلما عاد من فارس سار إليهم من بغداد فأوقع بأبي كامل بن المقلد، واقتلوا قتالا شديداً.

ثم تخاجزوا ورفع إلى البساسيري إن قرواش أساء السيرة في أهل الأنبار، وجاء أهلها متظلمين منه، فبعث معهم عسكراً

فملكوها، وجاء على أثرهم فاصلح أحوالها.

وزحف قریش إليها سنة ست وأربعين فملكها وخطب فيها لطغرل بك، ونهب ما كان فيها للبساسيري، ونهب حلل أصحابه بالخاص، وجمع البساسيري وقصد الأنبار وخوي فاستعدها من يد قریش ورجع إلى بغداد.

استيلاء الخوارج على عمان

كان أبو المظفر بن أبي كاليبجار أميراً على عمان، وكان له خادم مستبد عليه فأساء السيرة في الناس ومد يده إلى الأموال فنفروا منه، وعلم بذلك الخوارج في جبالها فجمعهم ابن رشد منهم وسار إلى المدينة فبرز إليه أبو المظفر وظفر بالخوارج.

ثم جمع ثانية وعاد لقتال أبي المظفر والديلم وأعانه عليهم أهل البلد لسوء سيرتهم فهزمهم ابن رشد وملك البلد، وقتل الخادم وكثيراً من الديلم والعمال، وأخرب دار الإمارة وأسقط المكروس، وأقتصر على ربع العشر من أموال التجار والواردين، وأظهر العدل ولبس الصوف وبنى مسجداً لصلاته، وخطب لنفسه وتلقب الراشد بالله.

وقد كان أبو القاسم بن مكرم بعث إليه قبل ذلك من حاصره في جبله وأزال طمعه.

الفتنة بين العامة ببغداد

وفي صفر من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة تجددت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة وعظمت، وتظاهر الشيعة بمذاهبهم وكتبوا بعض عقائدهم في الأبواب، وإنكر ذلك أهل السنة، واقتتلوا وأرسل القائم نقيي العباسية والعلوية لكشف الحال فشهدوا للشيعة، ودام القتال وقتل رجل من الهاشمية من أهل السنة، فقصدوا مشهد باب النصر ونهبوا ما فيه وأحرقوا ضريح موسى الكاظم وحافده محمد المتقي وضرائح بني بويه وبعض خلفاء بني العباس، وهموا بنقل شلو الكاظم إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال دون ذلك جهلهم بعين الحدث.

وجاء نقيب العباسية فمنع من ذلك، وقتل أهل الكرخ من الشيعة أبا سعيد السرخسي مدرس الحنفية.

وأحرقوا محال الفقهاء ودورهم، وتعدت الفتنة إلى الجانب الشرقي، وبلغ إحراق المشهد إلى ديس فعظم عليه، وقطع خطبة القائم لأنه وأهل ناحيته كانوا شيعة، وعوتب في ذلك فاعتذر بأن

أبا سعيد عنهم إلى الأهواز، ودخل أبو منصور إلى الأهواز فملكها وخطب لطغربك وللملك الرحيم ثم لنفسه بعدهما.

و قاتع البساسيري مع الأعراب والأكراد لطغربك

لما استولى طغربك على النواحي وأحاط بأعمال بغداد من جهاتها، وأطاعه أكثر الأكراد إلى حلوان وكثر فسادهم وعينهم، والتفت عليهم الأعراب وأهم الدولة شأنهم فسار إليهم البساسيري واتبعهم إلى البوازيح فظفر بهم وقتل وغنم، وعبروا الزاب، وجاء الديلم فتمكن من العبور إليهم وذلك سنة خمس وأربعين وأربعمائة ثم دعاه ديبس صاحب الحلة إلى قتال خفاجة، وقد عاثوا في بلاده، فاستجد به وسار إليهم فأجلاهم عن الجامعين، ودخلوا المفازة واتبعهم فأدركهم بخفان فأوقع بهم وغنم أموالهم وأنعامهم، وحاصر حصن خفان وفتحته وخبره، وأراد تخريب القائم الذي به، وهو بناء في غاية الارتفاع كالعلم يهتدى به.

قبل: إنه وضع لهداية السفن لما كان البحر إلى النجف، فصانع عنه ربيعة بن مطاعم بالمال وترك له، وعاد إلى بغداد فصلب من كان معه من أسرى العرب.

ثم سار إلى خوي فحصرها وقرر عليها سبعة آلاف دينار.

فتنة الأتراك واستيلاء عساكر طغربك على النواحي

كان الأتراك من جند بغداد قد استفحل أمرهم على الدولة، واشتطوا وتطاولوا إلى الفتنة عندما هبت ريحها بظهور طغربك واستيلائه على النواحي، فطالبوا الوزير في محرم سنة ست وأربعين وأربعمائة بمبلغ كبير من أرزاقهم ورسومهم وأرهمهم، واختفى في دار الخلافة فاتبعوه وطلبوه من أهل الدار فجحدوه فشغبوا على الديوان، وتعدوا إلى الشكوى من الخليفة، وساء الخطاب بينهم وبين أهل الديوان وانصرفوا، وشاع بين الناس أنهم محاصرون دار الخلافة فانهزموا، وركب البساسيري وهو النائب يومئذ ببغداد إلى دار الخلافة، وطلب الوزير وكبس الدور من أجله، فلم يوقف له على خير.

وشغب الجند ونهبوا دار الروم وأحرقوا البيع، وكبسوا دار

أهل الناحية تغري القائم بأهل السنة، وأعاد الخطبة مجالها.

ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين وأربعمائة واطرحوا مراقبة السلطان ودخل معهم طوائف من الأتراك وقتل بعض العلوية فصرخ النساء بشاره، واجتمع السواد الأعظم، وركب القواد لتسكين الفتنة فقاتلهم أهل الكرخ قتالاً شديداً، وحرقت أسواق الكرخ ثم منع الأتراك من الدخول بينهم فسكنوا قليلاً.

استيلاء الملك الرحيم على البصرة

قد كنا قدمنا أن الملك الرحيم لما تولى ببغداد بعد أبيه أقر أخاه أبا علي على إمارة البصرة، ثم بدا منه العصيان، فبعث إليه العساكر مع البساسيري القائم بدولته، فزحف أخاه إلى البصرة وبرزوا إليه في الماء فقاتلهم عدة أيام ثم هزمهم وملك عليهم الأنهار، وصارت العساكر في البر إلى البصرة، واستأمنت ربيعة ومضر فأمّنهم وملك البصرة، وجاءته رسل الديلم بخوزستان يعتذرون، ومضى أبو علي فتحصن بشط عثمان وخذق عليه فمضى الملك الرحيم إليه وملكه، ومضى أبو علي وابنه إلى عبادان ولحق منها إلى جرجان متوجهاً إلى السلطان طغربك.

فلما وصل إليه بأصفهان لاقاه بالكرمة وأنزله بعض قلاع جرباذقان، وأقطع له في أعمالها وأقام الملك الرحيم بالبصرة أياماً واستبدل من أجناد أخيه أبي علي بها، واستخلف عليها البساسيري، وسار إلى الأهواز وترددت الرسل بينه وبين منصور بن الحسين وهزارسب فدخلوا في طاعته، وصارت تستر إليه، وأنزل بأرجان فولاد بن خسرو الديلمي، فسار في أعمالها وحمل المتغلبين هناك على طاعة الملك الرحيم حتى أذعنوا.

استيلاء فلاستون على شيراز بدعوة طغربك

قد قدمنا أنه كان بقلعة إصطخر أبو نصر بن خسرو مستولياً عليها، وأنه أرسل بطاعته سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة إلى الملك الرحيم عندما ملك رامهرمز، واستدعى منه أخاه أبا سعيد ليملكه بلاد فارس، فسار إليه بالعساكر وملك البلاد، ونزل شيراز، وكان معه عميد الدولة أبو نصر الظهير قد استبد في دولته، وساءت سيرته في جنده، وأوحش أبا نصر مستدعيهم للملك فانتقض عليهم، وداخل الجند في الانتفاض فشغبوا وقبضوا على عميد الدولة، ونادوا بدعوة أبي منصور فلاستون، واستدعوه وأخرجوا

وثوب الأتراك بالبساسيري ونهب داره

كان هذا البساسيري مملوكاً لبعض تجار بسا من مدائن فارس فنسب إليهم، ثم صار ليهاء الدولة بن عضد الدولة، ونشأ في دولته وأخذت النجابة بضبعه، وتصرف في خدمة بيته إلى أن صار في خدمة الملك الرحيم، وكان يبعثه في المهمات ومدافعة هذه الفتن:

فدافع الأكراد من جهة حلوان، ودافع قريش بن بدران من الجانب الغربي وهما قائمان بدعوة طغرل بك.

ثم سار إلى الملك الرحيم بواسطة وقد تأكدت الوحشة بينه وبين الوزير رئيس الرؤساء كما تقدم.

وبعث إليه وزيره أبو سعد النصراني بجوار خمر، فدرس عليها الوزير قوماً ببغداد كانوا يقومون في تغيير المنكر فكسروها، وأراقوا خمرها فتأكدت الوحشة بذلك، واستفتى البساسيري الفقهاء الحنفية في ذلك فأفتوه باحترام مال النصراني، ولا يجوز كسرها عليه ويغرم من ألتفها.

وتأكدت الوحشة بين الوزير وبين البساسيري وكانت الوحشة بينه وبين الأتراك كما مر.

فدرس الوزير بالشغب على البساسيري فغضبوا، واستأذنوا في نهب دونه، فاذن لهم من دار الخلافة فانطلقت أيدي النهب عليها، وأشاع رئيس الرؤساء أنه كاتب المستنصر العلوي صاحب مصر، واتسع الخرق، وكاتب القوائم الملك الرحيم يابعدا البساسيري، وأنه خلع الطاعة وكاتب المستنصر العلوي فأبعده الملك الرحيم.

استيلاء طغرل بك على بغداد والخليفة ونكبة

الملك الرحيم وانقراض دولة بني بويه

كان طغرل بك قد سار غازياً إلى بلاد الرزم فأنخن فيها، ثم رجع إلى الري فأصلح فسادها، ثم وصل همذان في المحرم سنة سبع وأربعين وأربعمئة عاملاً على الحج، وأن يمر بالشام ويزيل دولة العلوية بمصر.

وتقدم إلى أهل الدينور وقرميس وغيرهما بإعداد العلوفات والزاد في طريقه، وعظم الإرجاف بذلك في بغداد وكثر شغب الأتراك، وقصدوا ديوان الخلافة يطلبون القائم في الخروج معهم للمدافعة، وعسكروا بظاهر البلد.

ابن عبيد وزير البساسيري، ووقف أهل الدروب لمنع بيوتهم من الأتراك فنهبوا الوادين، وعدمت الأقوات، والبساسيري في خلال ذلك مقيم بدار الخلافة إلى أن ظهر الوزير، وقام بهم بما عليهم من أثمان دوابه وقماشه.

واتصل المرح وعاد الأعراب والأكراد إلى العيث والإغارة والنهب والقتل، وجاءت أصحاب قريش صاحب الموصل فكبسوا حلل كامل ابن عمه بالبردوان، ونهبوا منها دواب وجمالاً من البختي، كانت هناك للبساسيري فتضاعف المرح وأعمل نظام الملك.

ووصل عساكر الغز إلى الدسكرة مع إبراهيم بن إسحاق من أمراء طغرل بك ورستارد فاستباحوها.

ثم تقدموا إلى قلعة البردوان وقد عصى صاحبها سعدي على طغرل بك فامتعت عليهم، فعاتوا في نواحيها وخربت تلك الأعمال وأنجلي أهلها. وسارت طائفة أخرى إلى الأهواز فخربوا نواحيها، وقوي طمع السلجوقية في البلاد وخافت الديلم ومن معهم من الأتراك وضعت نفوسهم، ثم بعث طغرل بك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان صاحب البصرة في عساكر السلجوقية إلى خوزستان، فاتتهى إلى سابور خواست وكاتب الديلم بالوعد والوعيد فنزع إليه أكثرهم واستولى على الأهواز، ونهبها عساكر السلجوقية وصادروا أهلها وهرب أهلها منهم.

الوحشة بين القائم والبساسيري

قد قدمنا ما وقع من قريش بن بدران في نهب حلل البساسيري أصحابه سنة ست وأربعين وأربعمئة ثم وصل إلى بغداد أبو الغنائم وأبو سعد ابنا المجلبان صاحب قريش ودخلا في خفية، فهم البساسيري بأخذهما، فأجارهما الوزير رئيس الرؤساء عليه، فغضب وسار إلى خوري والأنبار فملكهما ورجع ولم يعرج على دار الخلافة وأسقط مشاهرات القائم والوزير وحواشي الدار من دار الضرب، ونسب إلى الوزير مكاتبته طغرل بك.

ثم سار في ذي الحجة من سنة ست وأربعين وأربعمئة إلى الأنبار وبها أبو الغنائم بن المجلبان، ونصب عليها الجانيق ودخلها عنوة وأسر أبا الغنائم في خمسمئة من أهلها، ونهب البلاد وعاد إلى بغداد وقد شهر أبا الغنائم وهم بصلبه، فشفع فيه ديبس بن صدقة، وكان قد جاء مدداً له على حصار الأنبار فشفعه وصلب جماعة من الأسرى.

إلى ديبس بإبعاده، فلحق بالرحبة وكاتب المستنصر صاحب مصر بالطاعة.

وخطب ديبس لطغربك في بلاده وانتشر الغز في سواد بغداد فنهبوه، وفشا الخراب فيه، وانجلى أهله، وولى طغربك البصرة والأهواز هزارسب فخطب لنفسه بالأهواز فقط، وأقطع الأمير أبا علي ابن الملك أبي كاليبجار قريسين وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم في نداء الصبح: الصلاة خير من النوم، وأمر بعمارة دار الملك فعمرت على ما اقترحه، وانتقل إليها في شوال سنة سبع وأربعين وأربعمائة واستقرت قدمه في الملك والسلطان، وكانت له الدولة التي ورثها بنوه وقومه السلجوقية ولم يكن للإسلام في العجم أعظم منها، والملك لله بؤتيه من يشاء.

الخبر عن دولة وشمكير وبنيه من الجيل إخوة الديلم وما كان لهم من الملك والسلطان بجرجان وطبرستان وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا ذكر مرودايخ بن زيار، وأنه كان من قواد الديلم للأطروش، وأنه من الجيل إخوة الديلم، وكانت حالهم واحدة.

وكان منهم قواد للعلوية استظهروا بهم على أمرهم حتى إذا انقرضت دولة الأطروش وبنيه على حين فشل الدولة العباسية، وعي أعمالها من السلطان، ساروا في النواحي لطلب الملك متفرقين فلما فملكوا الري وأصفهان وجرجان وطبرستان والعراقين وفارس وكرمان، وكل منهم في ناحية وتغلب بنو بويه على الخليفة وحجروه إلى آخر أيامهم.

وذكرنا أن مرودايخ عندما استفحل ملكه بعث عن أخيه وشمكير من بلاد كيلان سنة عشرين وأربعمائة فاستظهر به على أمره، وولاه على الأعمال الجليية، وكان قد استولى على أصفهان والري وأصبح من أعظم الملوك، وكان له أموال من الأتراك تنكروا له لشدة عليهم فاغتالوه، وقتلوه في محرم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، فاجتمعت العساكر بعده على أخيه وشمكير بالري، وبعث إلى ماكان بن كالي وهو بكرمان بعدما ملكها من أبي علي بن إلياس بالمسير إليه بالري مع ابن محتاج.

وسار ماكان على المفازة إلى الدامغان وبعث وشمكير قائده

فوصل طغربك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وأصعد الملك الرحيم من واسط بعد أن طرد عنه البساسيري بأمر القائم، فلحق بدييس بن صدقة صاحب الحلة لصهر بينهما.

وبعث طغربك إلى القائم بطاعته وإلى الأتراك بالمواعيد الجميلة، فرد الأتراك كتابه وسألوا من القائم رده عنهم فأعرض، وجاء الملك الرحيم يعرض نفسه فيما يختاره فأمر بتقويض الأتراك خيامهم، وأن يبعثوا بالطاعة لطغربك ففعلوا وأمر القائم الخطباء بالخطبة لطغربك، فبعث إلى طريقهم الوزير أبا نصر الكندري، وأمر الأجناد ثم دخل طغربك بغداد يوم الخميس ليومين من رمضان، ونزل بباب الشماسية، ووصل قريش صاحب الموصل وكان في طاعته قبل ذلك.

ثم انتشرت عساكر طغربك في البلد وأسواقها فوقعت الهبة، وظن الناس أن الملك الرحيم أذن بقتال طغربك فأقبلوا من كل ناحية، وقتلوا الغز في الطرقات إلا أهل الكرخ فأنهم آمنوهم، وأجاروهم وشكر الخليفة لهم ذلك، وتمادى العامة في ثورتهم وخرجوا إلى معسكر طغربك.

ودخل الملك الرحيم بأعيان أصحابه إلى دار الخلافة تفادياً من الظنة به، وركبت عساكر طغربك فهزموا العامة وكسروهم، ونهبوا بعض الدروب ودورب الخلفاء والرافضة ودرب الدروب.

وكانت هذه الدروب قد نقل الناس إليها أموالهم ثقة باحترامها، وفشا النهب واتسع الحرق، وأرسل طغربك من الغد إلى القائم بالمتب على ما وقع، ونسبه إلى الملك الرحيم ويطلب حضوره وأعيان أصحابه فيكون براءة لهم، فأمرهم الخليفة بالركوب إليه، وبعث معهم رسوله ليبرتهم فساروا في ذمامه، وأمر طغربك بالقبض عليهم ساعة وصولهم.

ثم حمل الملك الرحيم إلى قلعة السروان فحبس بها وذلك لست سنين من ولايته، وانقرض أمر بني بويه ونهب في الهبة حلة قريش صاحب الموصل.

ونجا سليمان إلى خيمة بدر بن مهلهل فأجاره، ثم خلع عليه طغربك وردّه إلى حلّه.

ونقم القائم على طغربك ما وقع، وبعث في إطلاق الحبوسين فاتهم في ذمامه، وهدده بالرحيل عن بغداد فأطلق بعضهم ومحا عسكر الرحيم من الدواوين، وأذن لهم في السعي في معاشهم، فلحق كثير منهم بالبساسيري فكثر جمعه.

واستصفى طغربك أموال الأتراك ببغداد من أجله، وبعث

رهينة بذلك ورجع هو والحسن إلى خراسان وهو مكابده للصلح، ولقيهما موت سعيد بن سامان قثار الحسن بأبي علي بن محتاج ونهب سواده وأخذ ابن وشمكير الذي كان عنده، ورجع فملكها من يد إبراهيم بن سيجور الدواني ولحق ابن سيجور بنيسابور فعصى أبا علي بن محتاج كما مر في أخبارهم.

رجوع الري لوشمكير واستيلاء ابن بويه

عليها

لما انصرف أبو علي إلى خراسان وفعل به الحسن ما ذكرناه، سار وشمكير إلى الري فملكها وراسله ابن الفيرزان يستميله، ورد عليه ابنه سلال فسانعه ولم يبلغ محافظة على عهد ابن محتاج.

ثم طمع ركن الدولة بن بويه في ملك الري لخلو يده وقلة عسكره فسار إليه وهزمه، واستأمن كثير من عسكره إليه وملك الري، ورجع وشمكير إلى طبرستان فاعترضه الحسن وهزمه فلحق بخراسان، وراسل ابن الفيرزان ركن الدولة بن بويه وواصله.

استيلاء وشمكير على جرجان

لما ملك ابن بويه الري من يد وشمكير ولحق طبرستان واعترضه ابن الفيرزان وهزمه، ولحق بخراسان سار إلى نوح بن سامان مستنجداً به، وبعث معه عسكراً، وأرسل إلى ابن محتاج صاحب خراسان بمظاهرة، فبعثه فيمن معه إلى جرجان وبها الحسن بن الفيرزان فهزمه وشمكير وملك جرجان.

استيلاء ركن الدولة على طبرستان

وجرجان

لما ملك وشمكير جرجان من يد الحسن بن الفيرزان سار إلى ركن الدولة بن بويه، وأقام عنده بالري ثم سار سنة ست وثلاثين وثلاثمائة إلى بلاد وشمكير ولقيهم فهزموه وملك ركن الدولة طبرستان، وسار منها إلى جرجان، واستأمن إليه قواد وشمكير وولى الحسن بن الفيرزان على جرجان ورجع إلى الري وسار وشمكير إلى خراسان مستنجداً بابن سامان، فأمر منصور بن قراتكين صاحب خراسان أن يستوفد العساكر لإغناؤه فسار معه، وكان مصطعناً عليه، وكتب وشمكير إلى ابن سامان يشكو من ابن قراتكين، ثم كتب لأمير نوح إن أبي علي بن محتاج أن يسير معه

تأخير الديلمي مع جيش كثيف لاعتراضه، ومع ماكان عسكر ابن مظفر مدداً له، فتقاتلوا وهزمهم تأخير فعدوا إلى نيسابور، وجعلت ولايتها لماكان وقد مر ذكر ذلك كله.

ثم سار تأخير إلى جرجان وأقام بها، ثم هلك آخر السنة من سقطة عن فرسه، فاستولى عليها ماكان وحاصره ابن محتاج سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة فملكها وسار ماكان إلى طبرستان فأقام بها.

وكان ركن الدولة بن بويه غلب على أصفهان فبعث وشمكير عساكره إلى ماكان مدداً له في حروبه مع ابن محتاج، فاغتنم ركن الدولة خلو وشمكير من العساكر فسار إلى أصفهان فملكها، واتصل ما بينه وبين صاحب خراسان وانفرد وشمكير بملك الري.

استيلاء عساكر خراسان على الري والجيل

وملك وشمكير طبرستان

لما ملك ركن الدولة أصفهان وصل يده بأبي علي بن محتاج صاحب خراسان، هو وأخوه عماد الدولة صاحب فارس، وحرضاه على أخذ الري من وشمكير رجاء أن يكون طرفاً لعمله فيتمكن به من ملكها، فسار أبو علي لذلك، واستمد وشمكير ما كان للمدافعة فجاء بنفسه.

وبعث ركن الدولة مدداً لابن محتاج فلقوه بإسحاقباد وتقاتلوا فانهزم وشمكير ولحق بطبرستان فملكها، وقتل من كان بالمعركة واستولى أبو علي على الري.

ثم بعث أبو علي العساكر إلى بلد الجيل فاستولى على زنكان وأبهر وقزوين وكرج وهمذان ونهاوند والدينور إلى حلوان.

استيلاء الحسن بن الفيرزان على جرجان

كان الحسن بن الفيرزان ابن عم ماكان، وكان مناهضه في الصرامة، فلما قتل ماكان وملك وشمكير طبرستان بعث إليه بالدخول في طاعته فأبى، ونسبه إلى المواطأة على قتل ماكان فقصده وشمكير ففارق سارية وسار إلى ابن محتاج صاحب خراسان.

واستجده فسار معه ابن محتاج وحاصر وشمكير بسارية حولاً كاملاً حتى رجع إلى طاعة ابن سامان، وأعطى ابنه سلال

عضد الدولة وولى ابنه فخر الدولة على همدان وأعمال الجبل، وابنه مؤيد الدولة على أصفهان، وكان مختيار بن معز الدولة ببغداد فاستولى عليه.

ثم سار إلى أخيه فخر الدولة بهمدان فهرب إلى قابوس ونزل عضد الدولة الري، وبعث إلى قابوس في طلب أخيه فخر الدولة فأبى، فأمر أخاه مؤيد الدولة بخراسان أن يسير إليه، وأمدّه بالأموال والعساكر.

وسار إلى جرجان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ولقيه فخر الدولة بخراسان عندما وليها حسام الدولة أبو العباس تاش من قبل الأمير أبي القاسم بن نوح، وكتب إلى العباس تاش يأمره بإنجاد قابوس بن وشكير وفخر الدولة على مؤيد الدولة، وإعادة قابوس إلى بلده، فزحف في العساكر إلى جرجان وحاصرها شهرين حتى ضاقت أحوالهم. وكاتب مؤيد الدولة فائناً الخاصة من قواد خراسان واستماله فوعده أن ينهزم بمن معه يوم اللقاء.

وخرج مؤيد الدولة فقاتلهم وانهمز فائق بمن معه كما وعد، ووقف حسام الدولة وفخر الدولة قليلاً، ثم اتبعوه منهزمين إلى خراسان.

ثم استدعى تاش لتدبير الدولة ببخارى بعد قتل الوزير العتي، فسار إليه سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة مؤيد الدولة وكان من خبر وفاته ما قدمناه.

وقعت الفتنة بين تاش وابن سيجور وانهمز تاش إلى جرجان، وقابله فخر الدولة بكثير من الكرامة والنصرة بما لم يعهد مثله حسبما مر في أخبارهم.

ولما ملك فخر الدولة جرجان وطبرستان والري اعترم على رد جرجان وطبرستان إلى قابوس رغباً لما كان بينهما كما بدار الغربة، وأنه الذي جر على قابوس الخروج عن ملكه فشاور عن ذلك وزيره الصاحب ابن عباد فلم يوافقه، وبقي مقيماً بخراسان، وأنجده بنو سامان بالعساكر المرة بعد المرة فلم يقدر له الظفر حتى كان استيلاء سبكتكين.

عودة قابوس إلى جرجان وطبرستان

ولما ولي سبكتكين خراسان وعد قابوس برده إلى ملكه جرجان وطبرستان، ثم مضى إلى بلخ فمات سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فأقام قابوس إلى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فبعث الأصهبدي إلى جبل شهریار وعليه رستم بن المرزيان خال مجد

إلى الري فسار معه وقاتلوا ركن الدولة فلم يظفروا به حتى صالحهم كما تقدم، ورجع إلى وشكير فانهزم أمامه إلى أسفرين، وملك ابن بويه طبرستان وحاصر سارية وملكها، ولحق وشكير بجرجان وسار إلى جرجان في طلب وشكير إلى بلد الجبل واستولى ابن بويه عليها.

وفاة وشكير وولاية ابنه بهستون

لما غلب بنو بويه على كرمان من يد أبي علي بن إلياس لحق وشكير بالأمير منصور بن نوح ببخارى مستصراً به، وأطمعه في ممالك بني بويه.

وأسر إليه أن قواده بخراسان لا يناصحوه في شأنه فكتب إلى أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور صاحب خراسان بالمسير إلى الري بطاعة وشكير والتصرف عن رايه، واستعد ركن الدولة للقائهم واستنجد ابنه عضد الدولة وخالفهم إلى خراسان وبلغهم الخبر فتوقفوا بالدامغان يستطلعون الأخبار وركب وشكير للصيد فاعترضه خنزير فرماه بحجرة من يده فحمل عليه الخنزير فشب الفرس وسقط وشكير إلى الأرض ومات من سقطته في محرم سنة سبع وخسين وأربعمائة وانتفض جميع من كانوا معه، ولما مات وشكير قام ابنه بهستون مقامه، وراسل ركن الدولة وصالحه فأمدّه بالعساكر والأموال.

وفاة بهستون وولاية أخيه قابوس

ثم توفي بهستون بن وشكير بجرجان سنة ست وستين وثلاثمائة لسبع سنين من ولايته، وكان أخوه قابوس عند خاله رستم بجبل شهریار، وترك بهستون ابناً صغيراً بطبرستان في كفالة جده لأمه فطمع له جده في الملك وبادر به إلى جرجان وقبض على من كان عنده ميل إلى قابوس من القواد، وفي خلال ذلك وصل قابوس فخرج الجيش إليه واجتمعوا عليه وملكوه، وهرب أصحاب ابن منصور فكفله عمه قابوس وجعله أسوة بنييه، وقام بملك جرجان وطبرستان.

استيلاء عضد الدولة على جرجان

وطبرستان

لما توفي ركن الدولة سنة ست وستين وثلاثمائة وعهد لابنه

يظنوا رد الجواب وساروا إليه فدخلوا عليه البيت وجردوه من ثيابه، فما زال يستغيث حتى مات من شدة البرد، وذلك سنة ثلاث وأربعمائة وخمس عشرة سنة من استيلائه، وقام بالملك ابنه منوهر وخطب له على منابرهم ولم يزل في التدبير على الرهط الذين قتلوا أباه حتى أباد كثيراً منهم وشرذم الباقين.

وفاة منوهر وولاية ابنه أنوشروان

ولما سار محمود بن سبكتكين سنة عشرين وأربعمائة عندما قبض حاجبه على مجد الدولة، وملك الري بدعوة محمود، وسار إليه محمود فهرب منوهر بن قابوس من جرجان، وبعث إليه بأربعمائة ألف دينار ليصلحه، وتحصن منه ببجبال وعرة.

ثم أبعد المذهب ودخل في الغياض الملقبة، وأجابه محمود فبعث إليه منوهر بالمال ونكب عنه في رجوعه إلى نيسابور.

ثم توفي منوهر إثر ذلك سنة ست وعشرين وأربعمائة وولي بعده ابنه أنوشروان، فأقره محمود على ولايته وقرر عليه خمسمائة ألف أميري، وخطب لمحمود في بلاد الجبل إلى حدود أرمينية.

ثم استولى مسعود بن محمود أعوام الثلاثين على جرجان وطبرستان، ومحا دولة بني قابوس كأن لم تكن والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة مسافر من الديلم باذريجان

ومصائر

كانت أذربيجان عند ظهور الديلم وانتشارهم في البلاد واستيلائهم على الأعمال أعوام الثلاثين والثلاثمائة بيد رستم بن إبراهيم الكردي من أصحاب يوسف بن أبي الساج. وكان من خبره أن أباه إبراهيم من الخوارج من أصحاب هارون الشاري الخارج بالموصل هرب بعد مقتله إلى أذربيجان.

وأصهر في الأكراد إلى بعض رؤسائهم، فولد له ابنه رستم ونشأ في أذربيجان ولما كبر استضافه ابن أبي الساج، وتنقل في الأطوار إلى أن استولى على أذربيجان بعد يوسف بن أبي الساج، وكان معظم جيوشه الأكراد.

ولما استولى الديلم على البلاد وملك وشمكير الري ولي أعمال الجبل لشكري وجمع الأموال والرجال، وسار لشكري إلى أذربيجان ليملكها سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وحاربه دسيم في

الدولة، وجمع له فقاتله وانهزم رستم واستولى أصبهيد على الجبل، وخطب فيه لشمس المعالي قابوس.

وكان نائب ابن سعيد بناحية الاستدأوية وكان يميل إلى شمس المعالي فسار إلى آمد وطرد عنها عسكر مجد الدولة واستولى عليها، وخطب فيها لقابوس وكتب إليه بذلك.

ثم كتب أهل جرجان إلى قابوس يستدعونه فسار إليهم من نيسابور، وسار أصبهيد، ويأتي ابن سعيد إليها من مكانهما فخرج إليهما عساكر جرجان فقاتلوهما فانهزم العسكر، ورجعوا إلى جرجان فلقوا مقدمة قابوس عندها فانهزموا ثانية إلى الري.

ودخل شمس المعالي قابوس جرجان في شعبان سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة وجاءت العساكر من الري لحصاره فأقاموا ودخل فصل الشتاء وتوالت عليهم الأمطار وعدمت الأقوات فارتحلوا وتبعهم قابوس وقاتلهم فهزيمهم وأسر جماعة من أعيانهم، وملك ما بين جرجان وأستراباد.

ثم أن الأصبهيد حدث نفسه بالملك، واغتر بما اجتمع له من الأموال والذخائر فسارت إليه العساكر من الري مع المرزبان خال مجد الدولة فهزموه وأسروه، وأظهروا دعوة شمس المعالي بالجبل لأن المرزبان كان مستوحشاً من مجد الدولة، فانضافت مملكة الجبل جميعاً إلى مملكة جرجان وطبرستان، وولى عليها قابوس ابنه منوهر ففتح الري وابات وشالوش وقارن ذلك استيلاء محمود بن سبكتكين على خراسان، فراسله قابوس وهاداه وصالحه على سائر أعماله.

مقتل قابوس وولاية ابنه منوهر

كان شمس المعالي قابوس قد استفحل ملكه، وكان شديد السطوة مرهف الحد فعظمت هيئته على أصحابه وتزايدت حتى انقلبت إلى العتو، فأجمعوا على خلعهم، وكان ببعض القلاع فساروا إليه ليمسكوه بها فامتنع عليهم فانتبهوا موجوده، ورجعوا إلى جرجان وجأهروا بالخلعان، واستدعوا ابنه من طبرستان فأسرع إليهم مخافة أن يولوا غيره، وانفقوا على طاعته بأن يخلع أباه فأجاب إلى ذلك كرهاً.

وسار قابوس من حصنه إلى بسطام يقيم بها حتى تضمحل الفتنة فساروا إليه، وأكروه منوهر على السير معهم ويفرد هو للعبادة بقلعة أنجيا وأذن له أبوه بالقيام بالملك حذراً من خروجه عنهم، وبقي المتولسون لكبر تلك الفتنة من الجند مرتابين من قابوس، وكتبوا من جرجان إلى منوهر يستأذونه في قتله، ولم

الديلم وغلبيهم، واستدعى صعلوك بن محمد من قلعة أبيه الطرم فجاء إليه جماعة من الديلم وسار بهم إلى التي تغلب عليها الأكراد فانتزعها منهم، وقبض على جماعة منهم.

ثم استوحش منه وزيره أبو القاسم علي بن جعفر من أهل أذربيجان فهرب إلى الطرم ونزل على محمد بن مسافر عندما استوحش منه ابنه وهشودان والمرزبان، وغلبا على بعض قلاع.

ثم قبضا عليه وانتزعا منه أمواله وذخائره فتقرب الوزير علي بن جعفر إلى المرزبان وكان يشاركه في دين الباطنية، وأطعمه في أذربيجان فاستورزه المرزبان، وكانت الديلم الذين عند دسيم وغيره من جنده واستمالهم فاجابوه، وسار المرزبان إلى أذربيجان وبرز دسيم للقاتل فنزع الديلم إلى المرزبان، واستأمن إليه كثير من الأكراد، وهرب دسيم إلى أرمينية ونزل على صاحبها حاجيق بن الديرياني.

وملك المرزبان أذربيجان سنة ثلاثين وثلاثمائة، وأساء وزيره علي بن جعفر السيرة مع أصحابه فقتلوا عليه وشرعوا في السعاية فيه، فاطمع المرزبان في أموال بتريز يضمها له. وسار إليها في عسكر من الديلم وأسراً لأهلها أنه جاء لمصادرتهم، فوثبوا بمن معه من الديلم وقتلوه، واستدعوا دسيم بن إبراهيم فجاء إلى تبريز وملكوه، ولحق به الأكراد الذين استأمنوا إلى المرزبان، فسار المرزبان في عساكره وحاصره دسيم بتريز، وكاتب علي بن جعفر وحلف له على الوفاء بما يرومه منه فطلب منه السلامة، وترك العمل واجابه واشتد الحصار على دسيم فهرب من تبريز إلى أردبيل، وخرج الوزير إليه فوفى له المرزبان.

ثم طلب دسيم أن ينزله بأهله بقلعة من قلاع الطرم ففعل وأقام المرزبان فيها.

بعض جهات أذربيجان، واستولى لشكري على سائر بلاد أذربيجان إلا أردبيل، فإن أهلها امتنعوا ثقة بمجس بلادهم.

وراسلهم فلم يجيبوه وحاصرها وشد حصارها، وثلم سورها وملكها أياماً يدخل نهراً ويخرج إلى عساكره ليلاً، ثم سدوا ثلم السور وامتنعوا وعادوا إلى الحصار.

واستدعوا دسيماً فجاء لقتال لشكري من ورائه، وناشيتة أهل أردبيل القتال من أمامه فانهمز وقاتل عامة أصحابه، وتحيزوا إلى موقان.

واستنجد أصبهيد بن دواله فجمعوا وساروا إلى دسيم فانهمز أمامهم، وعبر نهر أرس، وقصد وشمكير في السري واستنجد، وضمن له مالاً كل سنة، فبعث معه عسكراً واستمال عسكر لشكري فداخلوه وكاتبوا وشمكير بالطاعة.

وعلم بذلك لشكري فتأخر إلى الزوزن عازماً على الموصل أن يملكها، ومر بأرمينية فتهب وسبى، ولما انتهى إلى الزوزن لقيه بعض الرؤساء من الأرمن وصانعه بالمال على بلده حتى كف عنها وأكمن له في مضيق بطريقه، ودس لبعض الأرمن أن ينهبوا شيئاً من ثقله، ويسلكوا المضيق، وكتب لشكري في أثرهم فقتله الكمين ومن معه، وقدم أهل العسكر عليهم ابنه الشكرستان، ورجعوا إلى بلد الطرم الأرميني ليثأروا من الأرمن بصاحبهم.

وكان أكثر بلده مضايق فقاتلهم الأرمن عليها وفتكروا فيها، ولحق العسكر والشكرستان في الفل بالموصل فأقام بها عند ناصر الدولة بن حمدان، وكانت له معادن أذربيجان وولى عليها ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، وبعث معه الشكرستان وأصحابه فقاتلهم دسيم على المعادن، وغلبيهم عليها ورجعوا واستولى دسيم على أذربيجان.

استيلاء الروس على مدينة بردعة وظفر

المرزبان بهم

هؤلاء الروس من طوائف الترك ويحاورون الروم في مواطنهم وأخذوا بدين النصرانية معهم منذ أزمان متطاولة وببلادهم تجاور بلاد أذربيجان فركبت طائفة منهم البحر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ثم صعدوا من البحر في نهر اللكنهر، وانتهوا إلى مدينة بردعة من بلاد أذربيجان وبها المرزبان فخرج إليهم في نحو خمسة آلاف مقاتل من الديلم وغيرهم فهزمهم الروس، وقتلوا الديلم وتبعوهم إلى البلد فملكوه ونادوا بالأمان، وأحسنوا السيرة،

استيلاء المرزبان بن محمد بن مسافر على

أذربيجان

كان محمد بن مسافر من كبار الديلم وكان صاحب الطرم وكان له أولاد كثيرون منهم سلار ومنهم صعلوك ومنهم وهشودان والمرزبان أمه بنت حسان وهشودان ملك الديلم وقد مر خبره، وكان دسيم بن إبراهيم الكردي بعد مدافعة لشكري وابنه عن أذربيجان أقام عنده بعض الديلم من عسكر وشمكير الذين أنجدوه على شانه، ثم إن قومه من الأكراد استبدوا عليه بأطراف أعماله، وملكو بعض القلاع فاستظهر عليهم بأولئك

وجاءت العساكر الإسلامية من كل ناحية فلم يقدر عليهم.

وظاهرهم العوام والرعاع، فلما انتصرفت العساكر غدرت الروسية بهم فقتلوه، ونهبوا أموالهم واستعبدوهم.

وأحزن المسلمين ذلك واستنفر المربزان الناس وسار لهم وأكمن لهم كميناً، وزحف إليهم، وخرجوا إليه واستنطرد لهم حتى جاوزوا موضع الكمين، فاستمر أصحابه على الهزيمة ورجع هو مع أخيه وصاحب له مستميتين، وخرج الكمين من ورائهم واستلحم الروسية وأميرهم، ونجا فلهم إلى البلد فاعتصموا بمحصنه، وكانوا قد نقلوا إليه السبي والأموال، وحاصروهم المربزان وصابروه.

ثم إن ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل بعث إلى ابن عمه الحسين بن سعد بن حمدان في هذه السنة إلى أذربيجان ليملكها، فبلغ الخبر إلى المربزان بأنه انتهى إلى سلماس، فجهز عسكرياً إلى الروس وسار لقتال ابن حمدان، فقاتله أياماً ثم استدعاه ابن عمه ناصر الدولة من الموصل وأخبره بموت توروون وأنه سائر إلى بغداد، وأمره بالرجوع فرجع.

وأما الروس فحاصروهم العسكر أياماً واشتد فيهم الرواء فانقضوا من الحصن ليلاً وحملوا ما قدروا عليه من الأموال ولحقوا باللكن فركبوا سفنهم ومضوا إلى بلادهم، وطهر الله البلاد منهم.

مسير المربزان إلى الري وهزيمته وحبه

ولما سارت عساكر خراسان إلى الري وظن المربزان أن ذلك يشغل ركن الدولة بن بويه عنه، وكان قد بعث رسوله إلى معز الدولة ببغداد فصرفه مذبذباً مدحوراً، فاعتزم على غزو الري، وطمع في ملكه واستأمن إليه بعض قواد الري وأغراه بذلك.

وراسله ناصر الدولة بن حمدان يستحثه لذلك، ويشير عليه ببغداد قبل الري، وكتب ركن الدولة إلى أخويه عماد الدولة ومعز الدولة يستجدهما، فبعثوا إليه بالعساكر، وسار بها من بغداد سيكتكين الحاجب.

ولما انتهى إلى الدينور انتقض عليه الديلم ووثبوا به، فركب في الأتراك فتخاذل الديلم وأعطوه الطاعة.

وكان المربزان قبل وصول العساكر زحف إلى الري وهزمه ركن الدولة وحبه، ورجع الفل إلى أذربيجان ومعهم محمد بن عبد الرزاق.

واجتمع أصحاب المربزان على أبيه محمد بن مسافر، وأساء

السيرة فهموا بقتله، وكان ابنه وهشودان قد هرب منه واعتصم بمحصن له فلحق به أبوه محمد فقبض عليه وهشودان وضيق عليه حتى مات.

ثم استدعى دسيم الكردي من مكانه بقلعة الطرم حيث أنزله المربزان عند ظفروه به، وبعثه إلى محمد بن عبد الرزاق، وأقام بنواحي أذربيجان، ثم رجع إلى الري سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة واستتب إلى سلطانه نوح بن سامان فاعتبه وعاد إلى طوس.

واستولى دسيم على أذربيجان لوالي القلعة حتى تمكنوا من قتله فقتله المربزان، ولحق بأخيه وهشودان سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة.

وكان علي بن منكلى من قواد ركن الدولة قد لحق به وهشودان، وأغراه بدسيم، فبعثه وهشودان في العساكر، وكتب الديلم واستمالهم، وسار إليه دسيم وخلف وزيره أبا عبد الله النعمي بأردبيل فجمع مالا كان صادرة عليه، وهرب بما معه من المال إلى علي بن منكلى.

وبلغ الخبر إلى دسيم عند أذربيجان، فعاد إلى أردبيل، وشغب عليه الديلم ففرق فيهم ما كان معه من المال، وسار للقاء علي بن منكلى فالتقيا، وهرب الديلم الذين معه إلى علي بن منكلى، وانهزم هو إلى أرمينية.

ثم جاءه الخبر بأن المربزان تخلص من محبسه بقلعة سيرم وملك أردبيل، واستولى على أذربيجان.

وأثقت العساكر في طلبه فهزم دسيم إلى بغداد فأكرمه معز الدولة وأقام عنده.

ثم استدعاه شيعته بأذربيجان سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة فسار إليهم وطلب من معز الدولة المدد لأن أخاه ركن الدولة كان قد صالح المربزان، فسار دسيم إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، واستنجد به فلم ينجده، فسار إلى سيف الدولة، فأقام عنده بالشام.

فلما كان سنة أربع وأربعين خرج على المربزان خارج باب الأبواب فسار إليه، وخالفه دسيم إلى أذربيجان فاستدعاه مقدم من الأكراد وملك سلماس فبعث إليه المربزان قائداً من قواده فهزمه دسيم.

ولما فرغ المربزان من أمر الخارج وعاد إلى أذربيجان هرب دسيم إلى أرمينية واستجاش بابن الديواني، وكتب إليه المربزان بحمل دسيم إليه، فسلمه وحبه حتى إذا توفي المربزان قتله بعض أصحابه خذراً من فتنه.

وفاة المرزبان وولاية ابنه خستان

ثم توفي المرزبان صاحب أذربيجان سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وعهد بالملك إلى أخيه وهشودان وبعده لابنه خستان، وكان قد أوصى نوابه بالقلاع أن يسلموها لابنه خستان، ثم لأخويه إبراهيم وناصر، ثم إلى أخيه وهشودان عندما عهد بالعهد الثاني إلى أخيه عرفه بإمارات بينه وبين نوابه يرجعون إليها في ذلك.

وبعث إلى النواب عبد الله النعيمي وهرب وهشودان من أردبيل فلتحق بالطرم وجاء قواد المرزبان إلى خستان بن شرمول فإنه كان مقيماً على أرمينية فانتقض بها.

مقتل خستان وإخوته واستيلاء عمهم وهشودان على أذربيجان

ولما ولي خستان بن المرزبان انغمس في لذاته وعكف على اللهو، وقبض على وزيره أبي عبد الله النعيمي، وكان خستان بن برسموه منتقضاً بأرمينية وقد ملكها، وكان وزيره أبو الحسن عبد الله بن محمد بن حدوديه صهراً للوزير النعيمي فاستوحش لتكبته، وحمل صاحبه ابن سرمدان على مكاتبة إبراهيم بن المرزبان، فأطمعه في الملك وسار به إلى مراغة فملكها فراسله أخوه خستان، وسار إلى موقان وكان بأذربيجان رجل من ولد المكتفي متكبراً يدعو للرضا من آل محمد ويأمر بالعدل، ويلقب بالجدير، وكثرت جموعه، فبعث إليه النعيمي من موقان وأطمعه في الخلافة، وأن يملكه أذربيجان على أن يقصد بغداد ويترك لهم أذربيجان، فساروا إليه خستان وإبراهيم ابنا المرزبان فهزماء وقتلاه فلما رأى وهشودان الخلاف بين بني أخيه المرزبان استمال إبراهيم، وسار ناصر إلى موقان وطمع الجند في المال فساروا إلى ناصر وملكوا بهم أردبيل.

وطالبه الجند بالمال فعجز وقعد عمه وهشودان عن نصره وتبين له أنه كان يخادعه، فاجتمع مع أخيه خستان واضطربت عليهما الأمور وانتقضت أصحاب الأطراف فاضطرهما الحال إلى طاعة عمهما وهشودان ورأساه في ذلك، واستحلفاه وقدا عليه مع أمهما، فغدر وقبض عليهما، وعقد الإمارة على أذربيجان لابنه إسماعيل، وسلم له أكثر قلاعه.

ولحق إبراهيم بن المرزبان بمراغة، وجمع لإستقذاً أخويه ومنازعة إسماعيل فقتل وهشودان أخويه وأمهما، وأمر خستان بن

سرمدان بقتال إبراهيم بمراغة وبعث إليه بالمدد.

وانضم إبراهيم إلى نواحي أرمينية سنة تسع وأربعين فاستولى ابن سرمدان على مراغة واستضافها إلى أرمينية، وجمع إبراهيم. وكانت ملوك أرمينية من الأرمن والأكراد، وأصلح خستان بن سرمدان.

ثم جاء الخبر بوفاة إسماعيل ابن عمه فسار إلى أردبيل فملكها، وانصرف ابن منكلي إلى وهشودان، وزحف إليهما إبراهيم وهزمهما، فلتحقا ببلاد الديلم، واستولى إبراهيم على أعمال وهشودان.

ثم جمع وهشودان وعاد إلى قلعة بالطرم، وبعث أبو القاسم بن منكلي العساكر لقتال إبراهيم فهزموه، ونجا إلى الري مستنجداً بركن الدولة لصهر بينهما.

استيلاء إبراهيم بن المرزبان ثانياً على أذربيجان

قد تقدم هزيمة إبراهيم بن المرزبان أمام عساكر ابن منكلي، وأنه لحق بركن الدولة مستنجداً به، فبعث معه الأستاذ أبا الفضل بن العميد في العساكر فاستولى على أذربيجان، وحمل أهلها على طاعة إبراهيم، وقاد له خستان بن سرمدان وطوائف الأكراد فتمكن من البلاد وكتب ابن العميد إلى ركن الدولة أن يعطيه ملكها.

ولعله يعرض إبراهيم عنها لكثرة جبايتها وقلة معرفة إبراهيم بالجباية، وأن يشهد فيها بالخروج عن ملكه فأبى من ذلك، وقال: لا أفعل ذلك بمن استجار بي فسلم له ابن العميد البلاد ورجع.

(تنبيه): أخبر بني مسافر المعروفين ببني السلار ملوك أذربيجان نقلتها من كتاب ابن الأثير وإلى هنا انتهى في أخبارهم وأحال على ما بعده فقال بعد ذلك: وكان الأمير كما ذكر ابن العميد قد أخذ إبراهيم وحبيه على ما ذكره، ولم نقف على ذكر شيء من أخبار إبراهيم بعد ذلك ولا من خبر قومه.

وذكر أن محمود بن سيكتكين بعد خبر استيلائه على الري سنة عشرين وأربعمائة أنه بعث إلى المرزبان بن الحسين بن حراييل من أولاد ملوك الديلم، والتجأ إلى محمود فبعثه إلى بلاد السلار، وهو إبراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن وهشودان بن محمد بن مسافر الديلمي، وكان له من البلاد شهرخان وزنجان وشهرزور

وغيرها فقصدها واستمال الدليم.

وعاد محمود إلى خراسان فسار السلار إبراهيم إلى قزوين فملكها وقتل من عساكر محمود الذين بها وتحصن بقلعة الري، وكان بينهما وقائع ظهر فيها السلار، ثم استمال مسعود بن محمود طوائف من عسكره وجاؤوا إليه ودلوه على عورة الحصن الذي فيه السلار وسلخوا بعسكره من طرق غامضة.

وبعث إليه العسكر في رمضان سنة ست وعشرين وأربعمائة فانهزم، وقبض عليه مسعود وحمله إلى سرجهار وبها ولده، وطالب أن يسلم إليه القلعة فأبى، وعاود عنه، وتسلم بقية قلاعها، وأخذ أمواله وقرر على ابنه بسرجهار مალًا وعلى الأكراد الذين في جواره، وعاد إلى الري، وهذا السلار الذي ذكر غير السلار الأول، ولم يتصل الخبر بالخبر المتقدم.

ثم ذكر أخبار الغز الذين تقدموا بين يدي السلجوقية وانتشروا في بلاد الري وملكوها كثير من بلادها، ووصلت طائفة منهم إلى أذربيجان الذين كان مقدمهم بوقا وكركاش ومنصور ودانا.

دخول الغز أذربيجان

يقال: دخل هؤلاء الغز إلى أذربيجان وسمى صاحبها يومئذ وهشودان بن غلاك، فآكرمهم وصاهرهم يدافع شرهم بذلك، ويستميلهم لنصرته فلم يحصل من ذلك بظائل.

وعاثوا في البلاد أشد العيث ودخلوا مراغة سنة تسع وعشرين وأربعمائة فقتلوا أهلها وحرقوا مساجدها.

وفعلوا كذلك بالأكراد الهمدانية، فاتفق أهل البلاد على مدافعهم.

وأصلح أبو الهيجاء ابن ربيب الدولة وهشودان صاحب أذربيجان، واتفقت كلمتهما واجتمع معهما أهل همدان فانصرفت تلك الطائفة عن أذربيجان، وافترقوا على الري كما تقدم في أخبارهم.

وبقي الغز الذين تقدموا قبلهم، فقامى منهم أهل أذربيجان شدة، وقتل فيهم وهشودان بتريز سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة فتكة أوهنت منهم.

ودعا منهم جمعاً كثيراً إلى صنع، وقبض على ثلاثين من مقدميهم فقتلهم، وفر الباقيون من أرمينية إلى بلاد الهكارية من أعمال الموصل، وكانت بينهم وبين الأكراد وقائع ذكرناها في أخبار

الغز بالموصل، ولم يعد ابن الأثير لبني المرزبان ملوك أذربيجان ذكراً إلى أن ذكر استيلاء طغرلبك على البلاد، والمفهوم من فحوى الأخبار أن الأكراد استولوا عليها بعد بني المرزبان والله أعلم.

استيلاء طغرلبك على أذربيجان

قال ابن الأثير: وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك إلى أذربيجان وقصد تبريز، وصاحبها الأمير منصور بن وهشودان بن محمد الروادي فاطاعه وخطب له وحمل إليه، ورهن عنده ولده، فسار طغرلبك عنه إلى الأمير أبي الأسوار صاحب جنزة فاطاع وخطب، وكذلك سائر النواحي أرسلوا إليه يبذلون الطاعة والخطة، وانقاد العساكر إليه فأبقى عليهم بلادهم، وأخذ رهنهم وسار إلى أرمينية كذلك، وقصد ملاذكرد وهي للنصرانية، فعات في بلادها وخرب أعمالها، وغزا من هنالك بلاد الروم وانتهى إلى أرزن الروم فأنخن في بلادهم ودوخها، وعاد ابن السلار إلى العراق وذكر ابن الأثير خلال هذا غزوة فضلون الكردي إلى الخزر من التركمان على ما مر أول الكتاب فقال: كان بيد فضلون الكردي قطعة كبيرة من أذربيجان فغزا إلى الخزر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ودوج البلاد وقفل، فجاءوا في أثره وكبسه وقتلوا أيضاً بمحظط ملك الإنجاز إلى مدينة تفليس فقال: وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة زحف ملك الإنجاز إلى أذربيجان ليتعرف المسلمين على حين وصول الغز إلى أذربيجان وما فعلوه فيها، وسمع الإنجاز بأخبارهم فأجفلوا عن خلفهم، ووصل وهشودان صاحب أذربيجان وصرف نظره إلى ملاطفة الغز ومصاهرتهم ليستعين بهم كما مر.

هذا آخر ما وجدناه من أخبار ملوك أذربيجان، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني شاهين ملوك البطيحة ومن

ملكها من بعدهم من قراباتهم وغيرهم

وابتداء ذلك ومصائره

كان عمران بن شاهين من المصامدة، وكان يتصرف في الجباية، وحصل بيده منها مال فتخوف وألح عليه الطلب فهرب إلى البطيحة ممتنعاً من الدولة.

وكان له نجدة وبأس وصبر على الشظف فأقام هنالك بين القصب والأجام يقاتل بسمك الماء والطيور، ويتعرض للرفاق التي

تمر بالطريق فيأخذها.

وخسين وثلاثمائة، فبعث العساكر من هنالك لقتال عمران مع أبي الفضل العباس بن الحسن، وقدم عليه نافع مولى ابن وجيه صاحب عمان يستتجده عليها، فأنحدر إلى الأبله، وبعث معه المراكب إلى عمان، وسارت عساكره إلى البطائح، فنزلوا الجامدة وسدوا الأنهار التي نصب إليها.

ثم رجع معز الدولة من الأبله وطرقه المرض فجهز العساكر لقتال عمران، وعاد إلى بغداد فهلك، وولي بعده ابنه عز الدولة بختيار فأعاد العساكر الحجرة على عمران، وعقد معه الصلح فاستمر حاله.

ثم زحف بختيار إليه سنة تسع وخسين وثلاثمائة وأقام بواسط يتصيد شهراً، ثم بعث وزيره إلى الجامدة وطرق البطحه فسد مجاري المياه وقلبها إلى أنهارها، وهي الجسور إلى العراق، ثم جاء المد من دجلة وخرب جميع ذلك.

ثم انتقل عمران إلى معقل آخر ونقل ماله إليه حتى إذا حصر المياه وانتهجت الطرق فقدوا عمران من مكانه، وطال عليهم الأمر وشغب الجند على الوزير فأمر بختيار بمصالحته على ألف درهم، ولما رحل العسكر عنه ثار أصحابه في أطراف الناس فنهروا كثيراً من العساكر ووصلوا إلى بغداد سنة إحدى وستين وثلاثمائة.

وفاة عمران بن شاهين وقيام ابنه الحسن بمقامه ومحاربه عساكر عضد الدولة

ثم توفي عمران بن شاهين فجأة في محرم سنة تسع وستين وثلاثمائة لأربعين سنة من ثورته بعد أن طلبه الملوك والخلفاء ورددوا عليه العساكر فلم يقدروا عليه.

ولما هلك قام بعده ابنه الحسن فطمع عضد الدولة فيه، وجهز العساكر مع وزيره وسدوا عليه المياه وأنفق فيها أموالاً وجاء المد فأزالها، وبقا كلما سدوا فوهة فتق الحسن أخرى وفتح الماء أمثالاً لها، ثم واقفهم في الماء فاستظهر عسكر الحسن وكان معه المظفر أبو الحسن ومحمد بن عمر العلوي الكوفي، فاتهمه بمراصلة الحسن وإفشاء سره إليه، وخاف أن تنقص منزلته عند عضد الدولة فطعن نفسه فمات، وأدرك بأخر رمق فقال: محمد بن عمر حملني على هذا، وحمل إلى ولده بكازرون فدفن هنالك، وأرسل عضد الدولة إلى العسكر من رجعه إليه وصالح الحسن بن عمران على مال يحمله وأخذ رهنه بذلك.

واجتمع إليه لصوص الصيادين قسوي وامتنع على السلطان، وتمسك بخدمة أبي القاسم بن البريدي صاحب البصرة فأمنه، ووصل جبل الطاعة بيده وقلده حامية تلك النواحي إلى الجامدة دفعا لضرره عن السابلة، فمز جانبه وكثر جمعه وسلاحه، واتخذ معاقل على التلال بالبطائح وغلب على تلك النواحي، ولما استولى معز الدولة على بغداد، وقام بكفالة الخلافة والنظر في أمورها، أهمه شأن عمران هذا وامتناعه في معاقله في نواحي بغداد، فجهز إليه وزيره أبا جعفر الصيمري في العساكر، وسار إليه سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وتعددت بينهما الحروب والوقائع، ثم هزمه الصيمري.

ثم أتاه الخبر بمسيره إلى شيراز كما تقدم في أخبار دولتهم.

مسير العساكر إلى عمران بن شاهين وانتهزامها

ولما انصرف الصيمري عن عمران عاد إلى حاله فبعث معز الدولة لقتاله روزبهان من أعيان الديلم في العساكر، فتحصن منه في مضائق البطائح، فطاوله فضجر روزبهان واستعجل قتاله فهزمه عمران وغنم ما معهم، فاستفحل وقوي وأفسد السابلة.

وكان أصحابه يطلبون الخفارة من جند السلطان إذا مروا بهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة، فبعث معز الدولة بالعساكر مع المهلي، وزحف إلى البطائح سنة أربعين وثلاثمائة ودخل عمران في مضائقه، وأشاروا عليه بالهجوم فلم يفعل، فكتب إليه معز الدولة بذلك بإشارة روزبهان فدخّل المهلي المضائق بجميع عسكره، وقد أكنن لهم عمران، فخرج عليهم الكمين وتقسّموا بين القتل والغرق والأسر، ونجا المهلي ساجداً في الماء.

وكان روزبهان متأخراً في الزحف فسلم، وأسر عمران كثيراً من قوادهم الأكابر فساداه معز الدولة بمن في أسره من أهله وأصحابه، وقلده ولاية البطائح فاستفحل أمره.

ثم انتقض سنة أربع وأربعين وثلاثمائة لخبر بلغه عن مرض طروق معز الدولة، وأرجف أهل بغداد بموته، ومربّه مال من الأموال يحمل إلى معز الدولة ومعه جماعة من التجار فكبسهم وأخذ جميع ما معهم.

ثم رد ذلك بعد إيلال معز الدولة من مرضه، وفسد ما بينهما من الصلح. ثم سار معز الدولة إلى واسط سنة خمس

مقتل الحسن بن عمران وولاية أخيه أبي

الفرج

كان الحسن بن عمران أسفاً على أخيه أبي الفرج وحنقاً عليه، ولم يزل يتحيل عليه إلى أن دعاه إلى عيادة أخت لهما مرضت، وأكمن في بيتها جماعة أعداء لقتله، فدخل الحسن منفرداً عن أصحابه، فاغلقوا الباب دونهم وقتلوه، وصعد أبو الفرج إلى السطح فأعلمهم بقتله ووعدهم فسكنوا.

ثم بذل لهم المال فأقروه، وكتب إلى بغداد بالطاعة، فكتب له بالولاية، وذلك لثلاث سنين من ولاية الحسن.

مقتل أبي الفرج وولاية أبي المعالي بن

الحسن

ثم إن أبا الفرج لما قتل أخاه الحسن قدم الجماعة الذين قتلوه على أكابر القواد، وكان الحاجب المظفر بن علي كبير قواد عمران والحسن، فاجتمع إليهم القواد وشكوا إليه فسكنهم فلم يرضوا وحملوه على قتل أبي الفرج فقتله، ونصب أبا المعالي ابن أخيه الحسن مكانه لأشهر من ولايته.

ثم تولى تدبيره بنفسه لصغره، وقتل من كان يخافه من القواد واستولى على أموره كلها.

استيلاء المظفر وخلع أبي المعالي

ثم إن المظفر بن علي الحاجب القائم بأمر أبي المعالي طمع في الاستقلال بأمر البطيحة فصنع كتاباً على لسان صمصام الدولة سلطان بغداد بولايته، وجاء به ركابي عليه أثر السفر وهو بدست إمارته فقراه بحضرتهم، وتلقاه بالطاعة وعزل أبا المعالي وأخرجه مع أمه إلى واسط وكان يصلهما بالثقة.

وأحسن السيرة بالناس، وانقرض بيت عمران بن شاهين، ثم عهد إلى ابن أخته علي بن نصر ويكنى أبا الحسن، وتلقب بالأمير المختار، وبعده إلى ابن أخته الأخرى ويكنى أبا الحسن ويسمى علي بن جعفر.

وفاة المظفر وولاية مهذب الدولة

ثم توفي الحاجب المظفر صاحب البطيحة سنة ست وسبعين وثلثمائة لثلاث سنين من ولايته، وولي بعده ابن أخيه أبو الحسن علي بن نصر بعده إليه كما مر.

وكتب إلى شرف الدولة سلطان بغداد بالطاعة، فقلده ولقبه مهذب الدولة، فأحسن السيرة وبذل المعروف وأجار الخائف، فقصده الناس وأصبحت البطيحة معقلاً، واتخذها الأكابر وطناً، وينوا فيها الدور والقصور.

وكتب ملوك الأطراف وصاهره بهاء الدولة بابته، وعظم شأنه واستجار به القادر عندما خاف من الطائع، وهرب إليه فأجاره، ولم يزل عنده بالبطيحة ثلاث سنين إلى أن استدعي منها للخلافة سنة إحدى وثمانين وثلثمائة.

بعث ابن واصل على البطيحة وعزل

مهذب الدولة

كان من خبر أبي العباس بن واصل هذا أنه كان ينوب عن رزيق الحاجب، وارتفع معه ثم استوحش منه ففارقه وسار إلى شيراز، واتصل بخدمة فولاد وتقدم عنده، ثم قبض على فولاد فعاد إلى الأهواز.

ثم أصعد إلى بغداد، ثم خرج منها وخدم أبا محمد بن مكرم، ثم انتقل إلى خدمة مهذب الدولة بالبطيحة وتقدم عنده.

ولما استولى السكرستان على البصرة بعث مهذب الدولة في العساكر لحربه فقتله وغلبه، ومضى إلى شيراز فأخذ سفن محمد بن مكرم وأمواله، ورجع إلى أسافل دجلة فتغلب عليها، وخلع طاعة مهذب الدولة، فأرسل إليه مائة سميرية مشحونة بالمقاتلة فغرق بعضها وأخذ ابن واصل الباقي وعاد إلى الأبله فبعث إليه أبا سعيد بن مأكولا فهزمه ثانية، واستولى على ما معه وأصعد إلى البطيحة وخرج مهذب الدولة إلى شجاع بن مروان وابنه صدقة فغدروا به، وأخذوا أمواله، ولحق بواسط، واستولى ابن واصل على البطيحة وعلى أموال مهذب الدولة، وجمع ما كان لزوجه ابنة بهاء الدولة، وبعث به إلى أبيها وكانت قد لحقت ببغداد.

ثم اضطرب عليه أهل البطائع وبعث سبعمائة فارس إلى البلاد المجاورة فقاتلهم أهلها وظفروا بهم، وخشي ابن واصل على نفسه فعاد إلى البصرة وترك البطائع قوضى، ونزل البصرة في قوة

واستفحال.

واستحلفهم لنفسه.

وبلغه قبل وفاة خاله أن ابنه أبا الحسن أحمد داخل بعض الجند في البيعة له بعد أبيه فاستدعاه، وحمله إليه الجند قبض عليه، ودخلت إليه أمه فخبرته الخبر فلم يزد على الأسف له. وتوفي مهذب الدولة من الغد، وولي أبو محمد بن نسي مكانه وقتل أبو الحسين ابن خاله لثلاث من وفاة أبيه.

وخشي أهل النواحي عاديته فسار بهاء الدولة من فارس إلى الأهواز ليتلافى أمره، واستدعى عميد الجيوش من بغداد وسيره في العساكر إليه فجاء إلى واسط، واستكثر من السفن وسار إلى البطائح وسار إليه ابن واصل من البصرة فهزمه وغنم ثقله وخيامه ورجع ابن واصل مفلولاً.

عود مهذب الدولة إلى البطيحة

وفاة ابن نسي وولاية السراني

ثم توفي أبو عبد الله محمد بن نسي لثلاثة أشهر من ولايته، واتفق الجند على ولاية أبي محمد الحسين بن بكر السراني من خواص مهذب الدولة فولوه عليهم، وبذل لسلطان الدولة ملك بغداد مالاً فأقره على ولايته.

ولما انهزم عميد الجيوش أقام بواسط فجمع عساكره لمعاودة ابن واصل، ثم بلغه أن نائب بن واسط بالبطائح قد خرج منها مجفلاً، فبعث إلى بغداد وبعث بالعساكر، وهم بالانتقاض فاستدعى عميد الجيوش مهذب الدولة من بغداد، وبعثه بالعساكر في السفن إلى البطيحة سنة خمس وستين وثلاثمائة فاستولى عليها.

واجتمع عليه أهل الولايات وأطاعوه، وقرر عليها بهاء الدولة حسين ألف دينار في كل سنة، وشغل عن ابن واصل بتجهيز العساكر إلى خوزستان وطمع في الملك واجتمع عنده كثير من الديلم وأصناف الأجناد. وسار إلى الأهواز وسير بهاء الدولة عسكرياً للقائه فهزمهم، ودخل دار الملك وأخذ ما كان فيها، وبعث إلى بهاء الدولة في الصلح فصالحه وزاد في أقطاعه.

ثم بعث بهاء الدولة العساكر للقائه وسار إلى الأهواز وزحف إليها ابن واصل ومعه بدر بن حسنية، فبعث بهاء الدولة الوزير بالبطيحة فهزمه الوزير ثانية، فغضى مع حسان بن محال الخفاجي الكوفي وملك إلى الكوفة، وملك البصرة.

وسار ابن واصل إلى دجلة قاصداً بدر بن حسنية فبلغ جامعين فأنزله أصحاب بدر، وكان أصحاب أبي الفتح بن عنان قريباً منه فكبسه، وجاء به إلى بغداد فبعثه عميد الجيوش إلى بهاء الدولة فقتله سنة ست وتسعين وثلاثمائة كما مر في أخبار الدولة.

وفاة مهذب الدولة وولاية ابن اخته عبد

الله بن نسي

ثم إن أبا نصر بن مردان زاد في المقاطعة ولم يبلغها سابور، وتغلى عن الولاية وفارق البطيحة إلى جزيرة بني دبيس، واستقر أبو نصر في ولايتها. ثم عادت إلى أبي عبد الله الحسين بن بكر السراني.

ثم توفي مهذب الدولة عبد الله بن علي بن نصر في جهادي سنة ثمان وأربعمائة، وكان ابن اخته أبو عبد الله محمد بن نسي قائماً بأموره ومرشحاً للولاية مكانه، وقد اجتمع عليه الجند

نكبة السراني وولاية صدقة المازياري

وأقام أبو محمد السراني على البطيحة إلى سنة عشر وأربعمائة، وبعث سلطان الدولة صدقة بن فارس المازياري فنكبه وملك البطيحة، وبقي عنده أسيراً إلى أن توفي صدقة وخلص على ما يذكر.

وفاة صدقة وولاية سابور بن المزيان

ثم توفي صدقة بن فارس المازياري في محرم لاثنتي عشرة سنة من ولايته، وكان سابور بن المزيان بن مردان قائد جيشه. وكان أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين قد تنقل بعد موت أبيه في البلاد بمصر، وعند بدر بن حسنيه حتى استقر عند الوزير أبي غالب، ونفق عنده بما كان لديه من الأدب.

عزل سابور وولاية أبي نصر

عصيان أهل البطيحة على أبي كاليجار

وبعث أبو كاليجار سنة ثمان عشرة وأربعمائة وزيره أبا محمد بن نابهشاد إلى البطيحة، ومقدمها يومئذ أبو عبد الله الحسين بن بكر السرائي فعسف بالناس في أموالهم، وقسط عليهم مقادير تؤخذ منهم فأنجلوا إلى البلاد.

وعزم الباقون على قتل السرائي، وغما الخبر إلى السرائي فجاء إليهم واعتذر إليهم، وأوعدهم بالمساعدة وأشار عليه الوزير بإصلاح السفن حتى زحزحها بحيث لا يتمكن منها.

ثم وثبوا به فأخرجوه، وكان عندهم جماعة من عسكر جلال الدولة محبوسين فأخرجوهم، واستعانوا بهم وعادوا إلى الامتناع الذي كانوا عليه أيام مذهب الدولة فتم لهم ذلك.

ثم جاء ابن العبراني فغلب على البطيحة وأخرج منها السرائي فلحق يزيد بن مزيد، وأقام بها ابن العبراني سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة فزحف إليه أبو نصر بن الهيثم فغلبه عليه ونهبها واستقر في ملكها على مال يؤديه لجلال الدولة.

استيلاء أبي كاليجار على البطيحة

ولما كانت سنة تسع وثلاثين وأربعمائة بعث أبو كاليجار أبا الغنائم أبا السعادات الوزير في عسكر لحصار البطيحة فحاصرها، وبها أبو منصور بن الهيثم حتى جنح إلى الصلح، واستأمن نفر من أصحابه إلى أبي الغنائم وأخبروه بضعفه وعزمه على الحرب، فحفظ عليه الطرق ولما كان شهر صفر من السنة وأقنعهم أبو الغنائم فظفر بهم، وقتل من أهل البطيحة خلقاً كثيراً وغرقت منهم سفن متعددة وتفرقوا في الآجام، وركب ابن الهيثم السفن ناجياً بنفسه وأحرقت داره ونهب ما فيها.

ولاية مذهب الدولة بن أبي الخير على

البطيحة

ثم كان بعد ذلك لبني أبي الخير ولاية على البطيحة فيما قبل المائة الخامسة وما بعدها ولا أدري عن هؤلاء بنو أبي الخير، إلا أن ابن الأثير قال: كان إسماعيل ولقبه المصطنع، ومحمد ولقبه المختص، هما ابنا أبي الخير، ولهما رياسة قومهما، وهلك المختص وقام مكانه ابنه مذهب الدولة.

وتنازع ابن الهيثم صاحب البطيحة إلى أن غلبه مذهب الدولة

أيام كوهرايين الشحنة ببغداد، وكان بنو عمه وعشيرته تحت حكمه.

وأقطع السلطان محمد سنة خمس وتسعين وخمسمائة مدينة واسط لصدقة بن مزيد صاحب البطيحة والحلة فضمنها منه مذهب الدولة أحمد بن أبي الخير صاحب البطيحة، وفرق أولاده في الأعمال وطالبه صدقة بالأموال وجسه وضمن حماد ابن عمه واسط.

وكان مذهب الدولة يصانع حماد ابن عمه إسماعيل ويداريه، وحماد يطمح إلى رياسته، فلما هلك كوهرايين تنازع حماد مذهب الدولة ابن عمه، واجتهد مذهب الدولة في إصلاحه فلم يقدر، فجمع النفيس بن مذهب الدولة فهرب حماد إلى صدقة مستجيباً به، فعاد بالجيش وحاربه مذهب الدولة وزاده صدقة المدد، فانهمز مذهب الدولة وهلك أكثر عسكره وقوي طمع حماد. واستمد صدقة فأمده بالعساكر مع مقدم جيشه حميد بن سعيد.

وبعث مذهب الدولة لصاحب الجيش بالإقامات والصلات فمال إليه، وأصلح ما بينه وبين صدقة.

وبعث مذهب الدولة ابنه النفيس إلى صدقة فأصلح بينهم وبين حماد ابن عمهم، وكان ذلك أعوام الثلاثين.

ولاية نصر بن النفيس والمظفر بن حماد من

بعده على البطيحة

ثم كان انتفاض ديبس بن صدقة أيام المسترشد والسلطان محمود، وكان البرسقي شحنة ببغداد فانتزع السلطان البطيحة من يد ديبس وأقطعها إلى سحان الخادم مولاه، فولى عليها نصر بن النفيس بن مذهب الدولة أحمد بن محمد بن أبي الخير.

وأمر السلطان محمود البرسقي بالسير لقتال ديبس فاحتشد وسار لذلك ومعه نصر بن النفيس صاحب البطيحة، وابن عمه المظفر بن حماد بن إسماعيل بن أبي الخير، وبينهما من العداوة المتوارثة ما كان بين سلفهما.

والتقى البرسقي وديبس وهزمه ديبس وجاءت العساكر منهزمة، وبقي نصر بن النفيس وابن عمه حماد عند ساباط النهر فقتله، ولحق بالبطيحة فملكها، وبعث إلى ديبس بطاعته، وبعث ديبس إلى الخليفة يصانعه بالطاعة على البعد، وبلغ الخبر إلى السلطان محمود فقبض على منصور بن صدقة أخي ديبس وولده

بالريزنكاس، وعشيرة منهم يسمون الدويلتية، وكان مالكا قلعة سرياج وأميراً على البرفكان.

وورث الملك عن خاليه ونداد وغانم ابني أحمد بن علي، وكان صنفهما من الأكراد يسمون العباية وغلبا على أطراف الدينور وهمذان ونهاوند والصامغان، وبعض نواحي أذربيجان إلى حدود شهرزور فملكها نحواً من خمسين سنة، ولكل واحد منهما ألوف من العساكر، وتوفي ونداد بن أحمد سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وقام مقامه ابنه أبو الغنائم عبد الوهاب إلى أن أسره الشاذنجان من طوائف الأكراد، وسلموه إلى حسنويه فأخذ قلاعه وأملكه.

وتوفي غانم سنة خمسين وثلاثمائة فقام ابنه أبو سالم دسيم مكانه بقلعة فتنان إلى أن أزاله أبو الفتح بن العميد، واستصفي قلاعه المسماة بستان وغانم أفاق وغيرهما.

وكان حسنويه حسن السيرة ضابطاً لأمره، وبنى قلعة سراج بالصخور المهندسة وبنى بالدينور جامعاً كذلك، وكان كثير الصدقة للحرمين.

ولما ملك بنو بويه البلاد واختص ركن الدولة بالري وما يليه كان شيعه ومدداً على عدوه فكان يرعى ذلك، ويفضي عن أموره إلى أن وقعت بين ابن مسافر من قواد الديلم وكبارهم وقعة هزمه فيها حسنويه، وتحصن بمكان فحاصره فيه وأضرمه عليه ناراً فكان يهلك.

ثم استأمن له فغدر به وامتنع لذلك ركن الدولة وأدركته نكرة العصية، وبعث وزيره أبا الفضل بن العميد في العساكر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة فنزل همذان وضيق على حسنويه، ثم مات أبو الفضل فصالحه ابنه أبو الفتح على مال ورجع عنه.

وفاة حسنويه وولاية ابنه بدر

ثم توفي حسنويه سنة تسع وستين وثلاثمائة وافترق ولده على عضد الدولة لقتال أخويه محمد وفخر الدولة، وكانوا جماعة أبو العلاء وعبد الرزاق وأبو النجم بدر وعاصم وأبو عدنان وبختيار وعبد الملك.

وكان بختيار بقلعة سراج ومعه الأموال والذخائر فكانت عضد الدولة ورغب في طاعته، ثم رغب عنه فسير إليه عضد الدولة جيشاً وملك قلعته وغيرها من قلاعهم.

ولما سار عضد الدولة لقتال أخيه فخر الدولة وملك همذان

فكحلها فاستشاط ديبس وساء أثره في البلاد، وبعث إلى أحيائه بواسط فمَنعهم الأتراك الذين بها، فبعث مهلهل بن أبي العسكر مقدم عساكره في جيش، وكتب إلى المظفر بن حماد صاحب البطيحة بمعاذته على قتال واسط فتجهز وأصعد، وعاجل مهلهل الحرب قبل وصوله فهزمه أهل واسط وغنموا ما معه، وكان في جملتها بخط ديبس وصار معهم، وساء آثار ديبس في البلاد، ولم يزل حال البطيحة على ذلك.

ثم صار أمرها لبني معروف وأجلهم الخلفاء عنها.

إجلاء بني معروف من البطيحة

كان بنو معروف هؤلاء أمراء بالبطيحة في آخر المائة السادسة، ولا أدري من هم.

فلما استجمع للخلفاء أمرهم وخرجوا عن استبداد ملوك السلجوقية واقتطعوا الأعمال من أيديهم شيئاً فشيئاً فصار لهم الحلة والكوفة وواسط والبصرة وتكريت وهيت والأنبار والحديثة.

وجاءت دولة الناصر وبنو معروف على البطيحة وكبيرهم معلى.

قال ابن الأثير: وهم قوم من ربيعة، كانت بيوتهم غربي الفرات تحت سورا وما يتصل بها من البطائح، وكثرت أذيائهم وإفسادهم في النواحي.

وبلغت الشكوى بهم إلى الديوان فأمر الخليفة الناصر مغذاً الشريف متولي بلاد واسط أن يسير إلى قتالهم فاستعد لذلك، وجمع من سائر تلك الأعمال، فسار إليهم سنة ست عشرة وستمائة بالعبير من بلاد البطيحة وفشا القتل بينهم.

ثم انهزم بنو معروف، وتفرقوا بين القتل والأسر والفرق، واستبيحت أموالهم وانتظمت البطيحة في أعمال الناصر، ولم يبق بها ملك ولا دولة.

الخبر عن دولة بني حسنويه من الأكراد
القائمين بالدعوة العباسية بالدينور
والصامغان ومبدأ أمورهم وتصاريف
أحوالهم

كان حسنويه بن الحسين الكردي من طائفة الأكراد يعرفون

السابلة فعظم عمله وسار ذكره.

مسير ابن حسنويه لحصار بغداد مع أبي

جعفر بن هرمز

كان أبو جعفر الحجاج بن هرمز نائباً بالعراق عن بهاء الدولة، ثم عزله فidal منه بأبي علي بن أبي جعفر أستاذ هرمز، وتلقب عميد الجيوش فأقام أبو جعفر بنواحي الكوفة، وقاتل عميد الجيوش فهزمه العميد.

ثم جرت بينهما حروب سنة ثلاث ستين وثلاثمائة وأقاما على الفتنة والاستجداد بالعرب من بني عقيل وخفاجة وبني أسد، وبهاء الدولة مشغل بحرب ابن واصل في البصرة.

واتصل ذلك إلى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وكان ابن واصل قد قصد صاحب طريق خراسان وهو قلعج، ونزل عليه واجتمعا على فتنة عميد الجيوش.

وتوفي قلعج هذه السنة فولى عميد الجيوش مكانه أبا الفتح محمد بن قلعج عنان عدو بدر بن حسنويه.

وفحل الأكراد المسامي لبدر في الشؤون وهو من الشاذليان من طوائف الأكراد، وكانت حلوان له فغضب لذلك بدر ومال إلى أبي جعفر، وجمع له الجموع من الأكراد مثل الأمير هندي بن سعدي، وأبي عيسى سادي بن محمد وورام بن محمد وغيرهم، واجتمع له معهم علي بن مزيد الأسدي، وزحفوا جميعاً إلى بغداد ونزلوا على فرسخ منها.

ولحق أبو الفتح بن عنان بعميد الجيوش، وأقام معه ببغداد حامياً ومدافعاً إلى أن وصل الخبر بهزيمة ابن واصل وظهور بهاء الدولة عليه، فأجفلوا عن بغداد.

وسار أبو جعفر إلى حلوان ومعه أبو عيسى، وراسل بهاء الدولة، ثم سار ابن حسنويه إلى ولاية رافع بن معن من بني عقيل يجتمع مع بني السيب في المقلد، وعاث فيها لأنه كان آوى أبا الفتح بن عنان حين أخرجه بدر من حلوان وقرميسين، واستولى عليها فأرسل بدر جيشاً إلى أعمال رافع بالجناب ونهبوها وأحرقوها.

وسار أبو الفتح بن عنان إلى عميد الجيوش ببغداد فوعده النصر حتى إذا فرغ بهاء الدولة من شأن ابن واصل وقتله، أمر عميد الجيوش بالمسير إلى بدر بن حسنويه لإعائته على بغداد وإمداده ابن واصل فسار لذلك، ونزل جنديسابور وبعث إليه بدر في الصلح على أن يعطيه ما أنفق على العساكر فحمل إليه ورجع

والري وأضافهما إلى أخيه مؤيد الدولة، ولحق فخر الدولة بقابوس بن وشمكير عرج عضد الدولة إلى ولاية حسنويه الكردي فافتتح نهاوند والدينور وسرماج وأخذ ما فيها من ذخائره، وكانت جليلة المقدار وملك معها عدة من قلاع حسنويه ووفد عليه أولاد حسنويه فقبض على عبد الرزاق وأبي العلاء وأبي عدنان، واصطنع من بينهم أبا النجم بدر بن حسنويه وخلع عليه وولاه على الأكراد وقواه بالرجال فضبط ملك النواحي وكف عادية الأكراد بها.

واستقام أمره فحسده أخواه، وأظهر عاصم وعبد الملك منهم العصيان، وجمعا الأكراد المخالفين وبعث عضد الدولة العساكر فأوقعوا بعاصم وهزموه وجاؤوا به أسيراً إلى همدان، ولم يوقف له بعد ذلك على خبر، وذلك سنة سبعين وثلاثمائة وقتل جميع أولاد حسنويه وأقر بدرأ على عمله.

حروب بدر بن حسنويه وعساكر مشرف

الدولة

ولما توفي عضد الدولة وملك ابنه صمصام الدولة ثار عليه أخوه مشرف الدولة بفارس، ثم ملك بغداد، وكان فخر الدولة بن ركن الدولة قد عاد من خراسان إلى مملكة أصفهان والري بعد وفاة أخيه مؤيد الدولة، وأوقع بينه وبين مشرف الدولة فكان مشرف الدولة يحقد عليه.

فلما استقر ببغداد وانتزعها من يد صمصام الدولة، وكان قائده قرائكين الجهشاري مدلاً عليه متحكماً في دولته، وكان ذلك يثقل على مشرف الدولة، جهزه في العساكر لقتال بدر بن حسنويه يروم إحدى الراحتين، فسار إلى بدر سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ولقيه على وادي قرميسين، وانهزم بدر حتى تواری ولم يتلقوه ونزلوا في خيامه، ثم كر بدر فأعجلهم عن الركوب، وقتك فيهم واحتوى على ما معهم.

ونجبا قرائكين في فل إلى جسر النهر وانفلح به المنهزمون، ودخل بغداد واستولى بدر على أعمال الجبل وقويت شوكة واستفحل أمره.

ولم يزل ظاهراً عزيزاً وقلد من ديوان الخلافة سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة أيام السلطان بهاء الدولة ولقب ناصر الدولة.

وكان كثير الصدقات بالخرمين، وكثير الطعام للعرب بالحجاز لخفارة الحاج، وكف أصحابه من الأكراد عن إفساد

استيلاء ظاهر بن هلال على شهرزور

كان بدر بن حسويه قد نزل عن شهرزور لعميد الجيوش ببغداد، وأنزل بها نوبة، فلما كانت سنة أربع وأربعمئة، وكان هلال بن بدر معتقلاً سار ابنه ظاهر إلى شهرزور، وقاتل عساكر فخر الملك منتصف السنة وملكها من أيديهم.

وأرسل إليه الوزير يعاتبه ويأمره بإطلاق من أسر من أصحابه ففعل، وبقيت شهرزور بيده.

مقتل بدر بن حسويه وابنه هلال

ثم سار بدر بن حسويه أمير الجليل إلى الحسن بن مسعود الكردي ليملك عليه بلاده، وحاصره بمحصن كوسجة، وأطال حصاره فغدر أصحاب بدر وأجمعوا قتله.

وتولى ذلك الجورقان من طوائف الأكراد فقتلوه وأجفلوا فدخلوا في طاعة شمس الدولة بن فخر الدولة صاحب همدان وتولى الحسين بن مسعود تكفين بدر ومواراته في مشهد علي.

ولما بلغ ظاهر بن هلال مقتل جده وكان هارباً منه بنواحي شهرزور، وجاء لطلب ملكه، فقاتله شمس الدولة فهزمه وأسره وحجسه بهمدان، واستولى على بلاده، وصار الكرية والشاذنجان من الأكراد في طاعة أبي الشوك.

وكان أبوه هلال بن بدر محبوساً عند سلطان الدولة ببغداد فأطلقه وجهاز معه العساكر ليستعيد بلاده من شمس الدولة، فسار ولقيه شمس الدولة فهزمه وأسره وقتله، ورجعت العساكر منهزمة إلى بغداد.

وكان في ملك بدر سابور خواست والدينور وبروجرد ونهاوند وأستراباذ وقطعة من أعمال الأهواز وما بين ذلك من القلاع والولايات، وكان عادلاً كثير المعروف عظيم الهمة.

ولما هلك هو وابنه هلال بقي حافده ظاهر محبوساً عند شمس الدولة بهمدان.

مقتل ظاهر بن هلال واستيلاء أبي الشوك

على بلادهم ورياستهم

كان أبو الفتح محمد بن عنان أمير الشاذنجان من الأكراد، وكانت بيده حلوان وأقام عليها أميراً وعلى قومه عشرين سنة.

انتفاض هلال بن بدر بن حسويه على أبيه

وحروبهما

كانت أم هلال هذا من الشاذنجان رهط أبي الفتح بن عنان وأبي الشوك بن مهلهل، واعتزلها أبوه لأول ولادته فنشأ مبعداً عن أبيه، واصطفى بدر ابنه الآخر أبا عيسى وأقطع هلالاً الصامغان، فأساء مجاورة ابن المضاضي صاحب شهرزور وكان صديقاً لبدر فنهاه عن ذلك فلم يته وبعث ابن المضاضي يتهدده فبعث إليه أبوه بالوعيد فجمع وقصد ابن المضاضي وحاصره في قلعة شهرزور حتى فتحها، وقتل ابن المضاضي واستباح بيته.

فاتسع الخرق بينه وبين أبيه، واستمال أصحاب أبيه بدر، وكان بدر نسيكاً فاجتمعوا إلى هلال وزحف لحرب أبيه والتقى على الدينور، وانهمز بدر وحمل أسيراً إلى ابنه هلال فردّه في قلعة للعبادة، وأعطاه كفايته بعد أن ملك الحصن الذي تملكه بما فيه.

فلما استقر بدر بالقلعة حصنها وأرسل إلى أبي الفتح بن عنان وإلى أبي عيسى سادي بن محمد بأستراباذ وأغراهما بأعمال هلال، فسار أبو الفتح إلى قرميسين وملكها، وأساء الديلم فاتبه هلال إليها ووضع السيف في الديلم.

وأمكنه ابن رافع من أبي عيسى فعفا عنه وأخذ معه، وأرسل بدر من قلعة يستنجد بهاء الدولة فبعث إليه الوزير فخر الملك في العساكر، وانتهى إلى سابورخواست.

واستشار هلال أبا عيسى بن سادي فأشار عليه بطاعة بهاء الدولة وإلا فالمطالبة وعدم العجلة باللقاء فاتهمه وسار العسكر ليلاً فكبسه.

وركب فخر الملك في العسكر وثبت، فبعث إليه هلال بأبي إنما جئت للطاعة.

ولما عاين بدر رسوله طرده وأخبر الوزير أنها خديعة فسر بذلك، وانتفت عنه الظنة ببدر، وأمر العساكر بالزحف فلم يكن بأسرع من مجي هلال أسيراً فطلب منه تسليم القلعة لبدر فاجاب على أن لا يمكن أبوه منه، واستأمنت أمه ومن معها بالقلعة فأمنهم الوزير وملك القلعة، وأخذ ما فيها من الأموال يقال أربعون ألف بدره دنانير، وأربعمئة ألف بدره دراهم سوى الجواهر والثياب والسلاح، وسلم الوزير فخر الملك القلعة لبدر وعاد إلى بغداد.

الفتنة بين أبي الفتح بن أبي الشوك وعمه مهلهل

كان أبو الفتح بن أبي الشوك نائباً عن أبيه بالدينور، واستفحل بها وملك قلاعاً عدة، وحى أعماله من الغز فأعجب نفسه ورأى التفوق على أبيه.

وسار في شعبان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة إلى قلعة بكورا من قلاع الأكراد وصاحبها غائب وبها زوجته فراسلت مهلهلاً لتسلم له القلعة نكابة لأبي الفتح، وكانت حلة مهلهل في نواحي الضامغان فانتظر حتى عاد أبو الفتح عن القلعة وجمع العساكر لحصارها، وسار إليها أبو الفتح فوري له عن قصده، ورجع فأتبعه أبو الفتح فقاتله عمه مهلهل، ثم ظفر به وأسرته وحبسه، وجمع أبو الشوك وقصد شهرزور وحاصرها.

ثم قصد بلاد مهلهل وطال الأمر ولج مهلهل في شأنه وأغرى علاء الدولة بن كاكويه بيلد أبي الفتح فملك عليه الدينور وقرميسين سنة اثنتين وثلاثين.

ثم سار أبو الشوك إلى دقوقا وقدم إليها ابنه سعدي فحاصرها وجاء على أثره فقبضوا سورها وملكها عنوة، ونهب بعض البلد وأخذت أسلحة الأكراد وثيابهم، وأقام أبو الشوك بها ليلة.

ثم بلغه أن أخاه سرخاب بن محمد قد أغار على مواضع من ولايته فخاف على البندنجين.

ورجع ويعث إلى جلال الدولة سلطان بغداد يستنجد، فبعث إليه العساكر وأقاموا عنده، وسار مهلهل إلى علاء الدولة بن كاكويه يستصرخه على أخيه أبي الشوك على الاعتصام بقلعة السيروان.

ثم بعث إلى علاء الدولة يعرض له بالرجوع إلى جلال الدولة صاحب بغداد فصالحه على أن يكون الدينور لعلاء الدولة ورجع عنه.

ثم سار أبو الشوك إلى شهرزور فحاصرها وعاث في سوادها، وحصر قلعة بيزازشاه فدافعه أبو القاسم بن عياض عنها، ووعدته بخلاص ابنه أبي الفتح من أخيه مهلهل، فسار من شهرزور إلى نواحي سند من أعمال أبي الشوك، ولما بعث إليه ابن عياض بالصلح مع أخيه أبي الشوك امتنع فسار أبو الشوك من حلوان إلى الضامغان.

وكان يزاحم بدر بن حسويه وبنه في الولايات والأعمال بالجليل.

وهلك سنة إحدى وأربعمائة وقام مكانه ابنه أبو الشوك، وطلبت العساكر من بغداد فقاتلهم وهزموه، فامتنع بجلوان إلى أن أصلح حاله مع الوزير فخر الملك لما قدم العراق بعد عميد الجيوش من قبل بهاء الدولة.

ثم إن شمس الدولة ابن فخر الدولة بن بويه أطلق ظاهر بن هلال بن بدر من حبسه بعد أن استخلفه على الطاعة، وولاه على قومه وعلى بلاده بالجليل، وأبو الشوك صاحب حلوان والسهل، وبينهما المنافسة القديمة، فجمع ظاهر وحارب أبا الشوك فهزمه وقتل سعدي بن محمد أخاه.

ثم جمع ثانية فانهزم أبو الشوك أيضاً وامتنع بجلوان وملك ظاهر عامة البسيط، وأقام بالنهر وروان.

ثم تصالحا وتزوج ظاهر أخت أبي الشوك فلما آمنه ظاهر وثب عليه أبو الشوك فقتله بئرا أخيه سعدي ودفنه أصحابه بمقابر بغداد، وملك سائر الأعمال ونزل الدينور.

ولما استولى علاء الدولة بن كاكويه على همذان سنة أربع عشرة وأربعمائة عندما هزم عساكر شمس الدولة بن بويه واستبد عليه، سار إلى الدينور فملكها من يد أبي الشوك، ثم إلى سابورخواست وسائر تلك الأعمال.

وسار في طلب أبي الشوك فأرسل إليه مشرف الدولة سلطان بغداد وشفع فيه فعاد عنه علاء الدولة.

ولما زحف الغز إلى بلاد الري سنة عشرين وأربعمائة وملكوا همذان وعاثوا في نواحيها إلى أستراباذ وقرى الدينور، خرج إليهم أبو الفتح بن أبي الشوك وقاتلهم فهزمهم وأسر منهم جماعة، ثم عقد الصلح معهم على إطلاق أسراهم ورجعوا عنه.

ثم استولى أبو الشوك سنة ثلاثين وأربعمائة على قرميسين من أعمال الجليل، وقبض على صاحبها من الأكراد التهرمية وسار أخوه إلى قلعة أرمنية فاعتصم بها من أبي الشوك، وكانت لهم مدينة خولنجان، فبعث إليها عسكرياً فلم يظفروا وعادوا عنها.

ثم جهز آخر ويعثمهم ليومهم يسابقون جندهم، ومروا بأرمنية فنهبوا ربضها، وقاتلوا من ظفروا به، وانتهوا إلى خولنجان فكبسوها على حين غفلة واستأمن إليهم أهلها وتحصن الحامية بقلعة وسط البلد فحاصروها وملكوها عليهم في ذي القعدة من السنة.

ولما استولى مهلهل بعد موت أخيه أبى الشوك وكان نبال عندما غدا من حلوان ولى على قرميسين بدر بن ظاهر بن هلال بن بدر بن حسنويه، فسار إليها مهلهل سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، فهرب بدر عنها وملكها وبعث ابنه عمداً إلى الدينور وبها عساكر نبال فهزمهم وملكها.

ونهب ولاية مهلهل كلها وأجفل مهلهل بين يديه.
ثم تردد الناس بينهما في الصلح وعاد عنه أبو الشوك.

استيلاء نبال أخى طغرل بك على ولاية أبى الشوك

استيلاء سعدي بن أبى الشوك على أعمالهم بدعوة السلجوقية

ولما ملك مهلهل بعد أخيه أبى الشوك تزوج بأم سعدي وأهله وأساء معاملته الأكراد الشاذنجان فراسل سعدي نبال وسار إليه بالشاذنجان فبعث معهم عسكرياً من الغز سنة تسع وثلاثين وأربعمائة فملك حلوان وخطب فيها لإبراهيم نبال. ورجع إلى مابدشت، فخالفه عمه مهلهل إلى حلوان فملكها، وقطع منها خطبة نبال فعاد سعدي إلى عمه سرخاب فكبسه ونهب حلله وسير إلى البندنجين جمعاً فقبضوا على نائب سرخاب ونهبوها، وصعد سرخاب إلى قلعة دوربلونة، وعاد سعدي إلى قرميسين، وبعث مهلهل ابنه بدرأ إلى حلوان فملكها، فجمع سعدي وأكثر من الغز، وسار فملك حلوان، وتقدم إلى عمه مهلهل فلحق بترازشاه من قلاع شهرزور واستباح الغز سائر تلك النواحي.

وحاصر سعدي تيرازشاه ومعه أحمد بن ظاهر قائد نبال، ونهب الغز حلوان وأراد مهلهل أن يسير إلى ابن أخيه فتكاسلوا، ثم قطع سعدي البندنجين لأبى الفتح بن دارم على أن يحاصر معه عمه سرخاب بقلعة دوربلونة، فساروا إليها وكانت ضيقة المسلك، فدخلوا المضيق فلم يخلصوا، وأسر سعدي وأبى الفتح وغيرهما من الأعيان، ورجع الغز عن تلك النواحي بعد أن كانوا ملكوها.

نكبة سرخاب واستيلاء نبال على أعمالهم كلها

ثم إن سرخاب لما قبض سعدي ابن أخيه أبى الشوك غاضبه ابنه أبو العسكر واعتزله، وكان سرخاب قد أساء السيرة في الأكراد فاجتمعوا وقبضوا عليه وحملوه إلى نبال، فاقطلع عينه وطالبه بإطلاق سعدي بن أبى الشوك فاطلقه أبو العسكر ابنه واستحلفه على السعي في خلاص أبيه سرخاب، فانطلق سعدي،

ثم سار إبراهيم نبال بأمر أخيه طغرل بك من كرمان إلى همدان فملكها، ولحق كرساشف بن علاء الدولة بالأكراد الجورقان وكان أبو الشوك حيثئذ بالدينور ففارقها إلى قرميسين وملكها نبال.

وسار في اتباعه إلى قرميسين ففارقها إلى حلوان وترك كل من في عسكره من الديلم والأكراد الشاذنجان.

وسار إليها نبال وملكها عليهم عنوة واستباحها وقتك في العسكر ولحق فلهم بأبى الشوك في حلوان فقدم أهله وذخيرته إلى قلعة السيروان وأقام.

ثم سار نبال إلى الصيمرة فملكها ونهبها، وأوقع بالأكراد المجاورين لها في الجورقان فانهزموا.

وكان عندهم كرساشف بن علاء الدولة فلحق ببلد شهاب الدولة وشرد أهلها في البلاد، ووصل إليها نبال آخر شعبان فملكها وأحرقها، وأحرق دار أبى الشوك.

وسارت طائفة من الغز في أثر جماعة منهم فأدركهم بخانقين فغنموا ما معهم، وانتشر الغز في تلك النواحي.

وتراسل أبو الشوك وأخوه مهلهل وكان ابنه أبو الفتح قد مات في سجن مهلهل، فبعث مهلهل ابنه وحلف له أنه لم يقتله، وإن ثبت فاقتل أبا الغنائم بشاره فقبل ورضي، واصطلحا على دفاع نبال عن أنفسهما.

وكان أبو الشوك قد أخذ ممتلكات سرخاب أخيه ما عدا قلعة دوربلونة، وتقاطعا لذلك، فسار سرخاب إلى البندنجين وبها سعدي بن أبى الشوك، ففارقها سعدي إلى أبله ونهبها سرخاب.

وفاة أبى الشوك وقيام أخيه مهلهل مقامه

ثم توفي أبو الشوك فارس بن محمد سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقلعة السيروان من حلوان وقام مقامه أخوه مهلهل واجتمع إليه الأكراد مائتين إليه عن ابن أخيه سعدي بن أبى الشوك فلحق سعدي بنبال أخى طغرل بك يستدعيه لملك البلاد.

واجتمع عليه كثير من الأكراد، وسار إلى نبال فاستوحش منه، وسار إلى الدسكرة وكتب أبا كاليبجار بالطاعة.

بقية أخبار مهلهل وابن أبي الشوك وانقراض أمرهم

ثم سار مهلهل أخو أبي الشوك إلى السلطان طغرل بك سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة فأحسن إليه وأقره على أقطاعه السيوان ودقوقا وشهرزور والصامغان، وسعى في أخيه سرخاب وكان محبوباً عنده فأطلقه وسوغه قلعة الماهكي، وكانت له فسار إليها، وأقطع سعدي بن أبي الشوك الراندين ثم بعثه سنة ست وأربعين في عسكر من الغز إلى نواحي العراق، فنزل بمابدشت وسار منها إلى أبي دلف الجواني، فهرب بين يديه وأدركه فنهب أمواله وفلت بنفسه.

وكان خالد ابن عمه مع الوزير ومطر ابني علي بن معن العقيلي، فوفد أولادهم على سعدي يشكون مهلهلاً فوعدهم النصر، ورجعهم من عنده فاعترضهم أصحاب مهلهل فأسرهم بنو عقيل ففداهم مهلهل وأوقع بهم على تل عكبرا ونهبهم، فساروا إلى سعدي وهو بسامراء، وأتبع عمه مهلهلاً وظفر به وأسره وأسر مالكاً ابنه، ورد غنائم بني عقيل ورجع إلى حلوان.

واضطربت بغداد واجتمعت عساكر الملك الرحيم ومعهم أبو الأغر ديبس بن مزيد يسعى عند سعدي في أبيه.

وكان ابن سعدي عند السلطان طغرل بك رهينة فردّه على أبيه عرضاً عن مهلهل، وأمره بإطلاق مهلهل، فامتنع لذلك سعدي وعصى على طغرل بك.

وسار إلى حلوان فامتنعت عليه، وأقام يتردد بين رشقباد والبردان.

وأظهر خالفة طغرل بك، ورجع إلى طاعة الملك الرحيم، فبعث طغرل بك العساكر مع بدران بن مهلهل إلى شهرزور، ووجد إبراهيم بن إسحاق من قواده فأوقعوا به، ومضى إلى قلعة رشقباد.

وسار بدر بن مهلهل إلى شهرزور ورجع إبراهيم بن إسحاق إلى حلوان فأقام بها، ثم نهض سنة ست وأربعين إلى الدسكرة فنهبا واستباحها، وسار إلى رشقباد وهي قلعة سعدي وفيها ذخيرته، وفي القلعة البردان فامتنعت عليه فحرب أعماله ووهن الديلم في كل ناحية.

وبعث طغرل بك أبا علي بن أبي كاليبجار صاحب البصرة في عسكر من الغز إلى الأهواز فملكها، ونهبها الغز ولقي الناس منهم

ثم سار إبراهيم نبال إلى قلعة كلجان وامتنعت عليهم، ثم حاصروا قلعة دوربلونة فقدمت طائفة إلى البندنجين فنهبوا، وسار إبراهيم فيها بالنهب والقتل والعقوبة في المصادرة حتى يموتوا.

وتقدمت طائفة إلى الفتح فهرب وترك حلله، فخرجوا عليها واتبعوه فقاتلهم وظفر بهم، وبعث مستنجداً فلم ينجده، فحبر وأمر بنزول حلله إلى جانب الغز.

وكان سعدي بن أبي الشوك نازلاً على فرسخين من باجس فكبسه الغز فهرب وترك حلله وغنمها الغز ونهبوا تلك الأعمال والدسكرة والهارونية وقصر سابور، وتقسّم أهلها بين القتل والغرق والهلاك بالبرد.

ووصل سعدي إلى دبال ولحق منها بأبي الأغر ديبس بن مزيد، فأقام عنده وحاصر نبال قلعة السيوان وضيق عليها وضربت سراياه في البلاد وانتهت إلى قرب تكريت.

ثم استأمن أهل قلعة السيوان إلى نبال فملكها وأخذ منها ذخيرة سعدي، وولى عليها من أصحابه.

ثم مات صاحب قلعة السيوان وبعث وزيره إلى شهرزور فملكها، وهرب مهلهل وأبعد في الحرب، وحاصر عسكر نبال قلعة هوازاه.

ثم راسل مهلهل أهل شهرزور بالتزبب بالغز الذين عندهم فقتلهم ورجع قائد نبال فقتك فيهم.

ثم سار الغز المقيمون بالبندنجين إلى نهر سليلي، وقاتلوا أبا دلف القاسم بن محمد الجواني فهزمهم وظفر بهم وغنم ما معهم.

وسار في ذي الحجة جمع من الغز إلى بلد علي بن القاسم فعاثوا فيها، فأخذ عليهم المضيّق فأوقع بهم واسترد ما غنموه.

ولم يزل أحمد بن ظاهر قائد نبال محاصراً قلعة تيرازشاه في شهرزور إلى أن دخلت سنة أربعين وأربعمائة، ووقع الموتان في عسكره واستمد نبال فلم يمدّه، فرحل عنها إلى مايدشير، وبلغ ذلك مهلهلاً فبعث أحد أولاده إلى شهرزور فملكها، وأجفل الغز من السيوان، وسارت عساكر بغداد إلى حلوان وحاصروا قلعتها ولم يظفروا فنهبوا خلف الغز وخربوا الأعمال، وسار مهلهل إلى بغداد فأنزل أهله وأمواله بها، وأنزل حلله على ستة فراسخ منها، فسار عسكر من بغداد إلى البندنجين وقاتلوا الغز الذين بها فهزمهم

ياجوج ومأجوج.

وقد قيل: إنهم من شعوب الترك وآخر مواطنهم من جهة الغرب بلاد الصقالبة المجاورين للإفرنج مما يلي رومة إلى خليج القسطنطينية وأول مواطنهم من جهة الجنوب بلاد القور المجاورة للنهر ثم خراسان وأذربيجان وخليج القسطنطينية وآخرها من الشمال بلاد فرغانة والشاش وما وراءها من البلاد الشمالية المجهولة لبعدها.

وما بين هذه الحدود من بلاد غزنة ونهر جيحون وما يحفاه من البلاد وخوارزم ومفاوز الصين وبلاد القفجق والروس حفافي خليج القسطنطينية من جهة الشمال الغربي قد اغتمر هذه البسائط منهم أم لا يخصيهم إلا خالفهم رحالة متنقلون فيها مستنجمين مساقط الغيث في نواحيه يسكنون الخيام المتخذة من اللبود لشدة البرد في بلادهم فقرأوا عليها.

ومر بديار بكر وخرج إليه صاحبها نصر بن مروان وحمل مائة ألف دينار لنفقتة فلما سمع أنه قبضها من الرعايا ردها عليه ثم مر بناهرو وأطاف على السور وجعل يمسحه بيده ويمر بها على خدوده تبركاً بشعر المسلمين ثم مر بالرها وحاصرها فامتنت عليه.

ثم سار إلى حلب فبعث إليه صاحبها محمود ريفول القائد الذي عنده بخير بطاعته وخطبته ويستعفيه من الخروج إليه منكرأ منه الأذى وبـ «حي على خير العمل» فقال: لا بد من خروجه.

واشتد الحصار فخرج محمود ليلاً مع أمه بنت وشاي الهني متطارحاً على السلطان فأكرم مقدمها وخلع عليه وأعادته إلى بلده.

غزاة السلطان ألب أرسلان إلى خلاط

وأسر ملك الروم

كان ملك الروم بالقسطنطينية لهذا العهد اسمه أرمانوس وكان كثيراً ما يخيف ثغور المسلمين.

وتوجه في سنة اثنتين وستين في عساكر كثيرة إلى الشام ونزل على مدينة منبج واستباحها، وجمع له محمود بن صالح بن مرداس الكلابي وابن حسان الطائي قومهما ومن إليهم من العرب فهزمهم الروم.

ثم رجع أرمانوس إلى القسطنطينية واحتشد الروم والفرنج والروس والكرج ومن يليهم من العرب والطوائف وخرج إلى بلاد كرد من أعمال خلاط.

عيناً بالنهب والمصادرة، وأحاطت دعوة طغرل بك ببغداد من كل ناحية، وانقرض الأكراد من أعمالهم واندرجوا في جملة السلطان طغرل بك، تلك الأيام نداؤها بين الناس والله يؤتي ملكه من يشاء والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا راد لأمره.

الخبر عن الدولة السلجوقية من الترك

المستولين على ممالك الإسلام ودوله بالمشرق كلها إلى حدود مصر مستبدين على الخليفة ببغداد من خلافة القائم إلى هذا الزمان وما كان لهم من الملك والسلطان في أقطار العالم وكيف فعلوا بالعلماء وحجروهم وما تفرع عن دولتهم من الدول

قد تقدم لنا ذكر أنساب الأسم والكلام في أنساب الترك وأنهم من ولد كورمر بن يافث أحد السبعة المذكورين من بني يافث في التوراة وهم ماواق وماذاي وماغوغ وقطوبال وماشخ وطيراش.

وعد ابن إسحاق منهم ستة ولم يذكر ماذاي.

وفي التوراة أيضاً: أن ولد كورمر ثلاثة: توغرما واشكان وريعات.

ووقع في الإسرائيليات أن الإفرنج من ريعات والصقالبة من أشكال والخزر من توغرما والصحيح عند نسبة الإسرائيليين أن الخزر هم التركمان، وشعوب الترك كلهم من ولد كورمر ولم يذكر من أي ولده الثلاثة والظاهر أنهم من توغرما.

وزعم بعض النسابة أنهم من طيراش بن يافث.

ونسبهم ابن سعيد إلى ترك بن غامور بن سويل والظاهر أنه غلط وأن غامور تصحيف كما مر وأما سويل فلم يذكر أحد أنه من بني يافث وقد مر ذكر ذلك كله.

والترك أجناس كثيرة وشعوب فمنهم الروس والإعلان ويقال: إيلان والخفشاخ وهم القفجق والمباطلة والخلج والغز الذين منهم السلجوقية والخطا وكانوا بأرض طمغاج وبمك والقور وتزكس واركس والططر ويقال: الطغرغر وأنكر وهم مجاورون للروم.

واعلم أن هؤلاء الترك أعظم أمم العالم وليس في أجناس البشر أكثر منهم ومن العرب في جنوب المعمور وهؤلاء في شماله قد ملكوا عامة الأقاليم الثلاثة من الخامس والسادس والسابع في نصف طوله مما يلي المشرق فأول مواطنهم من الشرق على البحر بلاد الصين وما فوقها جنوباً إلى الهند وما تحتها شمالاً إلى سد

استيلاء السلجوقية على دمشق وحصارهم مصر ثم استيلاء تتش ابن السلطان ألب أرسلان على دمشق

قد تقدم لنا ملك انسر الرملة وبيت المقدس وحصاره
دمشق سنة إحدى وستين ثم عاد عنها وجعل يتعاهد نواحيها
بالعيث والإفساد كل سنة.

ثم سار إليها في رمضان سنة سبع وستين وحاصرها ثم عاد
عنها وهرب منها أميرها من قبل المستنصر العلوي صاحب مصر
المعلى بن حيدرة لأنه كثر عسفه بالجند والرعية وظلمه فثاروا به
فهرب إلى بانياس ثم إلى صور ثم إلى مصر فحبس ومات بها
محبوساً.

واجتمعت المصامدة بدمشق وولي عليهم أنصار بن يحيى
المصمودي ويلقب نصير الدولة.

وغلت الأقوات عندهم واضطربوا فعاد إليها أنسر في
شعبان سنة ثمان وستين فاستأمنوا إليه وعوض انتصاراً منها بقلعة
بانياس ومدينة يافا من الساحل ودخلها في ذي القعدة وخطب بها
للمقتدي ومنع من النداء بحمي على خير العمل وتغلب على كثير
من مدن الشام.

ثم سار سنة تسع وستين إلى مصر وحاصرها وضيق عليها،
واستنجد المستنصر بالبوادي من نواحيها فوعده بالنصر.

وخرج بدر الجمالي في العساكر التي كانت بالقاهرة وجاء
أهل البلاد لمياعدهم فانهزم أنسر وعساكره ونجا إلى بيت المقدس
فوجدتهم قد بمخلفه فتحصنوا منه بالمعاقل فافتحها عليهم عنوة
واستباحها حتى قتلهم في المسجد، وقد تقدم ضبط هذا الاسم وأنه
عند أهل الشام أنسيس والصحيح أنسر وهو اسم تركي.

ثم إن السلطان ملك شاه أقطع أخاه تتش بن ألب أرسلان
بلاد الشام وما يفتح من تلك النواحي سنة سبعين وأربعمائة
ف قصد حلب أولاً وحاصرها ومعه جموع من التركمان.

وكان بدر الجمالي المستولي على مصر قد بعث العساكر
لحصار دمشق وبها أنسر فبعث إلى تتش وهو على حلب يستنجد
فسار إليه وأخرت عساكر مصر عنه منهزمين.

ولما وصل إلى دمشق قعد أنسر على لقائه وانتظر قدومه
فلقيه عند السور وعاتبه على ذلك فتساهل في العذر فقتله لوقته
وملك البلد واستولى على الشام أجمع كما سيأتي وكان يلقب ناج

وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة خوف من أذربيجان
مقبلاً من حلب فبعث بأهله وأثقاله إلى همدان مع وزيره نظام
الملك وسار هو في خمسة عشر ألف مقاتل وتوجه نحوهم متعباً،
ولقيت مقدمته الروس فهزموهم وجاؤوا بملكهم أسيراً إلى
السلطان فجدعه وبعث إسلابهم إلى نظام الملك.

ثم توجه إلى سمرقند ففارقها التكير وأرسل في الصلح
ويعتذر عن تومتق فصالحه ملك شاه وأقطع بلخ وطخارستان
لأخيه شهاب الدين مكي إلى خراسان ثم إلى الري.

فتنة قاروت بك صاحب كرمان ومقتله

كان بكرمان قاروت بك أخو السلطان ألب أرسلان أميراً
عليها فلما بلغه وفاة أخيه سار إلى الري لطلب الملك فسبقه إليها
السلطان ملك شاه ونظام الملك ومعهما مسلم بن قريش ومنصور
بن ديبس وأمراء الأكراد، والتقوا على نهرمان فانهزم قاروت بك
وجيء به إلى أمام سعد الدولة كوهراس فقتله خنقاً، وأمر كرمان
بسير بنه وبعث إليهم بالخلع وأقطع العرب والأكراد مجازاة لما
أبلاؤا في الحرب.

وقد كان السلطان ألب أرسلان شافعاً فيه على الخليفة
فلقيهم خبر وفاة ألب أرسلان في طريقهم فمروا إلى ملك شاه
وسبق إليه مسلم بطاعته.

وأما بهاء الدولة منصور بن ديبس فإن أباه أرسله بالمال إلى
ملك شاه فلقيه سائراً للحرب فشدها معه.

ثم توفي أياز أخو السلطان ملك شاه ببلخ سنة خمس وستين
فكفله ابنه ملك شاه إلى سنة سبع وستين.

وتوفي القائم منتصف شعبان منها لخمس وأربعين سنة من
خلافته ولم يكن له يومئذ ولد وإنما كان له حافد وهو المقتدي عبد
الله بن محمد، وكان أبوه محمد بن القاسم ولي عهده وكان يلقب
ذخيرة الدين ويكنى أبا العباس.

وتوفي سنة وعهد القائم لحافده فلما توفي اجتمع أهل
الدولة وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن
جهر وابنه عميد الدولة والشيخ أبو إسحاق الشيرازي ونقيب
النقباء طراد وقاضي القضاة الدامغاني فبايعوه بالخلافة لعهد جده
إليه بذلك، وأقر فخر الدولة بن جهر على الوزارة وبعث ابنه
عميد الدولة إلى السلطان ملك شاه لأخذ بيعته والله الموفق
للصواب.

الدولة.

سفارة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن الخليفة

كان الخليفة المقتدي وكان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث يسيء معاملته الخليفة فبعث المقتدي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي إلى السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك بأصفهان شاكياً من العميد.

فسار الشيخ لذلك ومعه الإمام أبو بكر الشاشي وغيره من الأعيان، ورأى الناس عجباً في البلاد التي يمر بها من إقبال الخلق عليه وازدحامهم على محفته يتمسحون بها ويلثمون أذيالها وينشرون موجودهم عليها من الدراهم والدنانير لأهلها والمصنوعات لأهل الصنائع والبضائع للتجار والشيخ في ذلك يبكي ويتحب.

ولما حضر عند السلطان أظهر المحرمة وأجابه إلى جميع ما طلبه، ورفعت يد العميد عن كل ما يتعلق بالخليفة، وحضر الشيخ مجلس نظام الملك فجرت بينه وبين إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف.

اتصال بني جهير بالسلطان ملك شاه ومسير فخر الدولة لفتح ديار بكر

كان فخر الدولة أبو نصر بن جهير وزير المقتدي قد عزل سنة إحدى وسبعين على يد نظام الملك ولحق به ابنه عميد الدولة واسترضاه فرضي نظام الملك وشفع إلى الخليفة فاعتمد عميد الدولة دون أبيه كما تقدم في أخبار الخلفاء.

ثم أرسل المقتدي سنة أربع وسبعين فخر الدولة إلى ملك شاه يخاطب له ابنته فسار إليها أصفهان وعقد له نكاحها على خمسين ألف دينار معجلة وعاد إلى بغداد.

ثم عزل المقتدي ابنه عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين وكانوا قد علقوا بخطة من نظام الملك فبعث عن نفسه وعن ملك شاه يطلب حضور بني جهير عندهم فساروا بأهلهم فطمعت حظوظهم عند السلطان، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر وبعث معه العساكر لفتحها من يد بني مروان وأذن له اتخاذ الآلة وأن يخاطب لنفسه ويكتب اسمه على السكة فسار في العساكر السلطانية.

ثم سار في سنة اثنتين وسبعين إلى حلب فحاصرها أياماً وأفرج عنها وملك مراغة والبصرة وعاد إلى دمشق.

وخالفه مسلم بن قريش إلى حلب فملكها كما تقدم في أخباره وضمنها للسلطان ملك شاه فولاه إياها.

وسار مسلم بن قريش فحاصرها آخر سنة أربع وسبعين، ثم أفرج عنها فخرج تتش وقصد طرسوس من الساحل فافتتحها ورجع، ثم حاصرها مسلم ثانية سنة تسع وسبعين، وبلغه أن تاج الدولة تتش سار إلى بلاد الروم غازياً فخالفه إلى دمشق وحاصرها معه العرب والأكراد، وبعث إليه العلوي صاحب مصر بعده بالمدد.

وبلغ الخبر إلى تتش فكر راجعاً وسبقه إلى دمشق فحاصرها أياماً، ثم خرج إليه تتش في جموعه فهزمه واضطرب أمره ووصله الخبر بانتفاض أهل حران فرحل من مرج الصفر راجعاً إلى بلاده.

ثم سار أمير الجيوش من مصر في العساكر إلى دمشق سنة ثمان وسبعين وحاصرها فامتعت عليه ورجع، فلحقوا بأخيه تكش في ققوي به وأظهر العصيان واستولى على مرو الروذ ومرو الساهجان وغيرهما وسار إلى نيسابور طامعاً في ملك خراسان.

وبلغ الخبر إلى السلطان فسبقه إلى نيسابور فرجع تتش وتحصن بترمذ، وحاصره السلطان حتى سأل الصلح وأطلق من كان في أسره من عسكر السلطان ونزل عن ترمذ وخرج إليه فأكرمه، ثم عاود العصيان سنة سبع وسبعين وملك مرو الروذ ووصل قريباً من سرخس وحاصر قلعة هناك لمسعود ابن الأمير فاخر.

وتحيل أبو الفتح الطوسي صاحب نظام وهو بنيسابور على ملطفة وضعوها على شبه خط نظام الملك يخاطب فيها صاحب القلعة بأنه واصل في ركاب السلطان ملك شاه وأنه مصالح للقلعة.

وتعرض حاملها لأهل العسكر حتى أخذوا كتابه بعد الضرب والعرض على القتل، وحدثهم بمثل ما في الصحيفة وأن السلطان وعساكره في الري فأجفلوا لوقتهم إلى قلعة ريح، وخرج أهل الحصن فأخذوا ما في العسكر وجاء السلطان بعد ثلاثة أشهر فحاصره في قلعة حتى افتتحها وحده ودفعه إلى ابنه أحمد فتسلمه وجسه فخرجاً من بينه معه.

استيلاء ابن جهير على الموصل

ولما سار فخر الدولة ابن جهير لفتح ديار بكر استنجد ابن مروان مسلم بن قريش وشرط له أمراً وتحالفا على ذلك واجتمعا لحرب ابن جهير.

وبعث السلطان الأمير أرتق بن أكسك في العساكر مدداً لابن جهير ففتح ابن جهير إلى الصلح وبادر أرتق إلى القتال فهزم العرب والأكراد وغنم معسكرهم.

ولما مسلم بن قريش إلى آمد وأحاطت به العسكر فلما اشتد غنقه راسل الأمير أرتق في الخروج على مال بذله له فقبله وكانت له حراسة الطريق فخرج إلى الرقة، وسار ابن جهير إلى ميفارقين وفارقه منصور بن مزيد وابنه صدقة فعاد منها إلى خلاط.

ولما بلغ السلطان المحصار مسلم في آمد بعث عميد الدولة في جيش كثيف إلى الموصل ومعه أقسقر قسيم الدولة الذي أقطعه بعد ذلك حلب.

وساروا إلى الموصل فلقهم أرتق ورجع معهم، ولما نزلوا على الموصل بعث عميد الدولة إلى أهلها بالترغيب والترهيب فأذعنوا واستولى عليها وجاء السلطان في عساكره إلى بلاد مسلم بن قريش وقد خلص من الحصار وهو مقيم قبالة الرجة فبعث إليه مؤيد الكتاب ولاطف السلطان واسترضاه ووفد إليه بالقوارح وردده السلطان إلى أعماله وعاد لحرب أخيه تش تش الذي ذكرناه آنفاً.

فتح سليمان بن قطلمش أنطاكية والخبر

عن مقتله ومقتل مسلم بن قريش واستيلاء

تش تش على حلب

كان سليمان بن قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق قد ملك قسرة وأقصروا وأعمالها من بلاد الروم إلى الشام.

وكانت أنطاكية بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وكان ملكها لعهد الفردوس فأساء السيرة إلى جنده ورعاياه وتكر لآبته وجبه فدخل الشحنة في عسكرين سلمان من البلد فاستدعوه سنة سبع وسبعين فركب إليها البحر وخرج إلى البر في أقرب السواحل إليها في ثلثمائة ألف فارس ورجل كثير، وسار في جبال وأوعار فلما انتهى إلى السور وأمكنته الشحنة من تسنم السور دخل البلد وقتل أهلها فهزمهم وقتل كثيراً منهم، ثم عفا

عنهم وملك القلعة وغنم من أموالهم ما لا يحصى، وأحسن إلى أهلها وأمر لهم بعمارة ما خرب وأرسل إلى السلطان ملك شاه بالفتح.

ثم بعث إليه مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمل إليه الفردوس ملك أنطاكية من المال ويخوفه معصية السلطان فأجابه بتقرير الطاعة للسلطان وبأن الجزية لا يعطيها مسلم فسار مسلم ونهب نواحي أنطاكية فنهب سليمان نواحي حلب.

ثم جمع سليمان العرب والتركمان وسار لنواحي أنطاكية ومعه جماهير التركمان، وجمع سليمان كذلك والتقى آخر صفر سنة ثمان وسبعين وهاجم جقّ إلى سليمان فانهزمت العرب وقتل مسلم وسار سليمان بن قطلمش إلى حلب وحاصرها فامتعت عليه وأرسل إليه ابن الحثيثي العباسي كبير حلب بالأموال وطلبه أن يمهل حتى يكتب السلطان ملك شاه ودس إلى تاج الدولة تش تش صاحب دمشق يستدعيه لملكها فجاء لذلك ومعه أرسوس أكسك وكان خائفاً على نفسه من السلطان ملك شاه لفعلة في أمر فاستجار بتتش وأقطعه السور وسار معه لهذه الحرب، وبادر سليمان بن قطلمش إلى اعتراضهم وهم على تعبئة.

وأبلى أرتق في هذه الحروب وانهزم سليمان وطعن نفسه بمنجر فمات وغنم تش تش معسكره وبعث إلى ابن الحثيثي العباسي فيما استدعاه إليه فاستهمله إلى مشورة السلطان ملك شاه وأغلظ في القول فغضب تش تش وداخله بعض أهل البلد فتسورها وملكها، واستجار ابن الحثيثي بالأمير أرتق فأجاره وسمع له.

استيلاء ابن جهير على ديار بكر

ثم بعث ابن جهير سنة ثمان وسبعين ابنه زعيم الرؤساء أبا القاسم إلى حصار آمد ومعه جناح الدولة أسلار فحاصرها واقتلع شجرها وضيق عليها حتى جهدهم الجوع وغدر بعض العامة في ناحية من سورها ونادى بشعار السلطان واجتمع إليه العامة لما كانوا يلقون من عسف العمال النصاري فبادر زعيم الرؤساء إلى البلد وملكها وذلك في الحرم وكان أبوه فخر الدولة محاصراً لميفارقين ووصل إليه سعد الدولة كوراثين شحنة بغداد بمدد العساكر فاشتد الحصار وسقطت من السور ثلثة في سادس جمادى فتنادوا بشعار السلطان ومنعوا ابن جهير من البلد واستولى على أموال بني مروان وبعثها مع ابنه زعيم الرؤساء إلى السلطان فسار مع كوراثين إلى بغداد، ثم فارقه إلى السلطان بأصبهان.

ولما انقضى أمر ميفارقين بعث فخر الدولة جيشاً إلى جزيرة

ليلاً، ثم دخل إليه في مجلسه نهراً وأقيضت عليه الخلع، وسلم أمراء السلجوقية على الخليفة ونظام الملك قائم يقرهم واحداً واحداً ويعرف بهم، ثم صرح المقتدي للسلطان ملك شاه بالتفويض وأوصاه بالعدل فقبل يده ووضعها على عينيه وخلع الخليفة على نظام الملك وجاء إلى مدرسته التي فيها الحديث وأملى.

ابن عمر فحاصرها وقام بعض أهلها بدعوة السلطان وفتحوا عما يليهم باباً قريباً دخل منه العسكر فملكوا البلد، وانقرضت دولة بني مروان من ديار بكر والبقاء لله.

ثم أخذ السلطان ديار بكر من فخر الدولة بن جهر وسار إلى الموصل فأقام بها إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانين.

استيلاء السلطان ملك شاه على حلب

ولاية أقسنقر عليها

خبر الزفاف

قد قدمنا أن السلطان ملك شاه زوج ابنته من الخليفة المقتدي سنة أربع وسبعين بخطبة الوزير بن جهر فلما كان سنة ثمانين في الحرم نقل جهازها للزفاف إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين رجلاً مجللة بالديباج الرومي أكثرها ذهب وفضة ومعه ثلاث عماريات ومعه أربع وسبعون رجلاً مجللة بأنواع الديباج المكي وقلاندها الذهب وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة ملوئة بالخلي والجواهر ومهد عظيم من ذهب.

وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوراثين والأمير أرتق وغيرهما من الأمراء والناس يثرون عليهم الدنانير والثياب.

وبعث الخليفة وزيره أبا شجاع إلى زوجة السلطان تركمان خاتون ومعه خادمه ظفر بمحففة لم ير مثلها ومعهم ثلثمائة من الشمع الموكف ومثلها مشاعل، وأوقدت الشموع في دكاكين الحرم الخلافي، وقال الوزير لخاتون: سيدنا أمير المؤمنين يقول: إنَّ الله يامرهم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره فقالت: سمعاً وطاعة، ومشى بين يديها أعيان الدولة مع كل واحد الشمع والمشاعل يحملها الفرسان، ثم جاءت المأمون من بعدهم في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر ما لا يحصى ويحيط بالحفة مائتا جارية من الأتراك على مراكب رائعة، وأولم الخليفة وليمة لم يسمع بمثلها، ثم أطلع للناس من الغد سباط مائدة عليها أربعون ألفاً من السكر وخلع على أعيان العسكر وعلى جميع الحواشي.

استيلاء السلطان ملك شاه على ما وراء

النهر

كان صاحب سمرقند لهذا العهد من الخانية أحمد خان بن خضر خان أخي شمس الملك الذي كان أميراً عليها وعمته خاتون زوجة ملك شاه، وكان رديء السيرة فبعثوا إلى السلطان يسألونه

لما ملك تاج الدولة تش مدينة حلب وكان بها سالم بن ملك بن مروان ابن عم مسلم بن قريش وامتنع بالقلعة وحاصره تش سبعة عشر يوماً حتى وصل الخبر بمقدم أخيه السلطان ملك شاه وقد كان ابن الخثيثي كتب إليه يستدعيه لما خاف من تش فسار من أصفهان منتصفاً تسع وسبعين وفي مقدمته برشق وبدران وغيرهما من الأمراء، ومر بالموصل في رجب.

ثم سار إلى هراة وبها ابن الشاطيء فملكها وأقطعها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش وأقطعها معها مدينة الرحبة وأعمالها، وحران وسروج والرقبة وخابور وزوجة أخته زليخا خاتون.

ثم سار إلى الرها وافتتحها من الروم وكانوا اشتروها من ابن عطية كما مر، وسار إلى قلعة جعفر فملكها وقتل من كان بها من بني ششير وكان صاحبها جعفر أعمى وكان يخيف السابلة هو وولده فآزال ضرهم.

ثم ملك منبج وعبر الفرات إلى حلب فأجفل تش عن المدينة ودخل ومعه الأمير أرتق، ورجع إلى دمشق فلما وصل السلطان إلى حلب ملكها ثم إلى القلعة فملكها من سالم بن ملك على أن يعطيه قلعة جعفر فلم تزل بيد عقبه إلى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد.

ثم بعث إليه نصر بن علي بن منقذ الكنتاني بالطاعة فأقره على شيراز وتسلم منه اللاذقية ويعرطاف وأفامية ورجع.

ثم رجع السلطان بعد أن ولى على حلب قسيم الدولة أقسنقر.

ورغب إليه أهل حلب أن يعفيهم من ابن الخثيثي فأخرجهم عنهم إلى ديار بكر وتوفي بها.

ثم رجع السلطان إلى بغداد فدخلها في ذي الحجة من سسته ونزل بدار المملكة وأهدى للخليفة هدايا كثيرة، واجتمع بالخليفة

الرجوع إلى إيلاته.

فرسحاً بعساكر لا تحصى فكبس ملك كاشغر وأسره فأطلقوا يعقوب، ثم خشي السلطان شأن طغرل بن نبال وكثرة عساكره فرجع على البلد ودس تاج الملك في استصلاح يعقوب فشفع له ورده إلى كاشغر ورد الطغرل ورجع هو إلى خراسان.

ثم قدم إلى بغداد سنة أربع وثمانين العزمة الثانية ووجد عليه أخوه تاج الدولة تش صاحب الشام وقسيم الدولة أقسقر صاحب حلب وبران صاحب الرها عمال الأطراف وأقام صنيع الميلاد ببغداد وتأنق بما لم يعهد مثله وأمر وزيره نظام الملك وأمراه ببناء الدور ببغداد لنزهم ورجع إلى أصفهان.

استيلاء تشش على حمص وغيرها من سواحل الشام

لما قدم السلطان سنة أربع وثمانين وفد عليه أمراء الشام كما قدمنا فلما انصرفوا من عنده أمر أخاه تاج الدولة تشش أن يذهب دولة العلويين من ساحل الشام ويفتح بلادهم، وأمر أقسقر وبران أن يسيرا لانجاده.

فلما رجعوا إلى دمشق سار إلى حمص وبها صاحبها ابن ملاعب وقد عظم ضرره وضرر ولده على الناس فحاصرها وملكها.

ثم سار إلى قلعة عرفة فملكها عنوة ثم إلى قلعة أفامية فاستامن إليه خدام كان بها فأرسل إلى أمراء تشش في إصلاح حاله فسدوا عليه المذاهب فأرسل إلى وزير أقسقر يسعى له عند صاحبه وعمل له على ثلاثين ألف دينار ومثلها عروضاً فجنح إلى مصالحته واختلف مع تشش على ذلك وأغلظ كل منهما لصاحبه في القول فرحل أقسقر مغاضباً واضطر الباقون إلى الرحيل وانتقض أمرهم.

ملك اليمن

كان فيمن حضر عند السلطان ببغداد كما قدمناه عثمان جق أمير التركمان صاحب قرميسس وغيرها فأمره السلطان أن يسير في جموع التركمان للحجاز واليمن فيظهر أمرهم هناك، وفوض إلى سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد فولى عليهم أمير اسمه ترشك.

وسار إلى الحجاز فاستولى عليه وأساء السيرة فيه حتى جاء أمير الحجاز محمد بن هاشم مستغيثاً منهم.

وجاء بذلك مفتي سمرقند أبو طاهر الشافعي قدم حاجاً وأسر ذلك إلى السلطان فسار من أصفهان سنة اثنتين وثمانين ومعه رسول الروم بالخراج المقدر عليهم فاستعجم وأحضر للفتح.

ولما انتهى إلى خراسان جمع العساكر وعبر النهر بجيوش لا تحصى وأخذ ما في طريقه من البلاد، ثم انتهى إلى بخارى فملكها وما جاورها.

ثم سار إلى سمرقند فحاصرها وأخذ بهجتها ثم رماها بالمنجنيق وثلم سورها ودخل من الثلثة وملك البلد.

واختفى أحمد خان ثم جيء به أسيراً فأطلقه وبعث به إلى أصفهان وولى على سمرقند أبيا طاهر عميد خوارزم وسار إلى كاشغر فبلغ إلى نور وكمن وبعث إلى كاشغر بالخطبة وضرب السكة فأطاع وحضر عند السلطان فأكرمه وخلع عليه وأعادته إلى بلده، ورجع السلطان إلى خراسان، وكان بسمرقند عساكر يعرفون بالحكيكية فأرادوا الوثوب بالعميد نائب السلطان فلاطفهم ولحق ببلده خوارزم.

عصيان سمرقند وفتحها ثانياً

كان مقدم الحكيكية بسمرقند اسمه عين الدولة وخاف السلطان لهذه الحادثة فكاتب يعقوب تكين أخا ملك كاشغر وكانت مملكته تغرف ببارياسي فاستحضره وملكه.

ثم شكر له يعقوب وحمل أعداءه من الرعية على طلب الثار منه وقتله بفتاوي الفقهاء واستبد بسمرقند وسار السلطان ملك شاه إليها سنة اثنتين وثمانين.

فلما انتهى إلى بخارى هرب يعقوب إلى فرغانة ولحق بولايته، وجاء بعساكره مستأمنين إلى السلطان فلقوه بالطواويس من قرى بخارى ووصل السلطان إلى سمرقند وولى عليها الأمير أنز وأرسل العساكر في طلب يعقوب وأرسل إلى ملك كاشغر بالجد في طلبه، وشعب على يعقوب عساكره ونهبوا خزائنه ودخل على أخيه كاشغر مستجيراً به، وبعث السلطان في طلبه منه فتردد بين المخافة والأناة.

ثم غلب عليه الخوف فقبض على أخيه يعقوب وبعثه مع ابنه وأصحابه إلى السلطان وأمرهم أن يسملوه في طريقه فلان قنع السلطان بذلك ولا أسلموه إليه فلما قربوا على السلطان وعزموا على سلمه بلغهم الخبر بأن طغرل بن نبال أسرى من ثمانين

تأ في عضدي.

ومضى نكبرد فصدق السلطان الخبر وجاء الآخرون وحاولوا الكتمان فلم يسعهم لما وشي نكبرد بجلية القول فصدقوه كما صدقه.

مقتل الوزير نظام الملك

ومات نظام الملك بعدها بقليل ومات السلطان بعده بنحو شهر وكان أصل نظام الملك من طوس من أبناء الدهاقين اسمه أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق ذهبت نعمة آبائه وماتوا فنشأ يتيماً ثم تعلم وحذق في العلوم والصنائع وعلق بالخدم السلطانية في بلاد خراسان وغزوة وبلغ، ثم لازم خدمة أبي علي بن شاذان وزير ألب أرسلان، ومات ابن شاذان فأوصى به السلطان ألب أرسلان، وعرفه كفايته فاستخدمه ققام بالأمر أحسن قيام فاستوزره، ثم هلك السلطان ألب أرسلان وهو في وزارته.

ثم استوزره ملك شاه بعد أبيه وكان عالماً جواداً صفوحاً مكرماً للعلماء وأهل الدين ملازماً لهم في مجلسه، شديد المدارس وأجرى فيها الجرايات الكثيرة.

وكان يولي الحديث وكان ملازماً للصلوات محافظاً على أوقاتها، واسقط في أيامه كثيراً من المكوس والضرائب وأزال لعن الأشعرية من المنابر بعد أن فعله الكندي من قبله وحمل عليه السلطان طغرليك وأجراه مجرى الرافضة وفارق إمام الحرمين وأبو القاسم القشيري البلاد من أجل ذلك فلما ولي ألب أرسلان حمله نظام الملك على إزالة ذلك ورجع العلماء إلى أوطانهم.

ومناقبه كثيرة وحسبك من عكوف العلماء على مجلسه وتدوينهم الدواوين باسمه، فعل ذلك إمام الحرمين وأشباهه.

وأما مدارسه فقد بنى النظامية ببغداد ونهايك بها ورتب الشيخ أبا إسحاق الشيرازي للتدريس بها.

وتوفي سنة ست وسبعين فرتب ابنه مؤيد الملك مكانه أبا سعيد التولي فلم يررضه نظام الملك وولي فيها الإمام أبا نصر الصباغ صاحب الشامل ومات أبو نصر في شعبان من تلك السنة فولى أبو سعيد من سنة ثمان وسبعين ومات فدرس بعده الشريف العلوي أبو القاسم الدبوسي وتوفي سنة اثنين وثمانين وولي تدريسه بعدها أبو عبد الله الطبري والقاضي عبد الوهاب الشيرازي بالنوبة يوماً بيوم.

ثم ولي تدريسه الإمام أبو حامد الغزالي سنة أربع وثمانين واتصل حكمها على ذلك، وفي أيامه عكف الناس على العلم واعتنوا به لما كان من حسن أثره في ذلك واللّه أعلم.

ثم ساروا سنة خمس وثمانين إلى اليمن وعاثوا في نواحيه وملكوا عدن وأساؤوا السيرة في أهلها وأهلكوا ترشك سابغ دخلوها وأعادته أصحابه إلى بغداد فدفنوه بها.

ثم ارتحل السلطان ملك شاه إلى بغداد سنة خمس وثمانين فأنهى إلى أصفهان في رمضان وخرج نظام الملك من بيته بعد الإنظار عامداً إلى خيمته فاعترضه بعض الباطنية في صورة متظلم فلما استنداه لسماع شكواه طعنه بمنجبر فأشواه، وعشر الباطني في أطناب الحيام ودخل نظام الملك الخيمة فمات ثلاثين سنة من وزارته.

واهتاج عسكره فركب إليه السلطان وسكن الناس، ويقال: إن السلطان ملك شاه وضع الباطني على قتله لما وقع منه ومن بنيه من الدالة والتحكم في الدولة.

وقد كان السلطان دس على ابنه جمال الدين من قتله سنة خمس وسبعين.

كان بعض حواشي السلطان سعى به فسطا به جمال الدين وقتله فأخذ السلطان بذلك وأخذ عميد خراسان فقتله خنقاً فدرس لخدام من خدم جمال الدين بذلك وأنهم إذا تولوا قتله بأنفسهم كان أحفظ لنعمتهم فسقاه لخدام سماً ومات.

وجاء السلطان إلى نظام الملك وأغراه به، وما زال بطانة السلطان يغضون منه ويحاولون السعاية فيه إلى أن ولي حافده عثمان بن جمال الملك على مرو وبعث السلطان إليها كردن من أكابر الماليك والأمراء شحنة، ووقعت بينه وبين عثمان منازعة في بعض الأيام فأهانته وحجسه ثم أطلقه، وجاء إلى السلطان شاكياً فاستشاط غضباً وبعث فخر الملك ألب أرسلان إلى نظام الملك وأغراه به وما زال يقول: إن كنت تابعاً أقف عند حدك وإن كنت شريكاً في سلطانتي فافعل ما بدا لك.

وقرر عليه فعل حافده وسائر بنيه في ولايتهم وأرسل معه نكبرذ من خواصه ثقة على ما يؤديه من القول ويبييه الآخر فانبسط لسان نظام الملك يعدد الوسائل منه والمدافعة عن السلطان وجمع الكلمة وفتح الأمصار في كلام طويل حملته عليه الدالة.

وقال في آخره: إن شاء فله مؤيد مروأتي ومتى أطعت هذه زالت تلك فليأخذ حذره.

ثم زاد في انبساطه وقال: قولوا عني ما أردتم فإن توبيخكم

وفاة السلطان ملك شاه وولاية ابنه محمود

ثم لما سار السلطان بعد مقتل نظام الملك إلى بغداد ودخلها آخر رمضان وكان معه في الدولة أبو الفضل المروستمانى وزير زوجته الخاتون الجلالية من الملوك الخانية فيما وراء النهر وكان من أشد الناس سعاية في نظام الملك وعزم السلطان أن يستورزه لأول دخوله بغداد فعاشت المنية عن ذلك وطرقه المرض ثالث الفطر وهلك منتصف شوال سنة خمس وثمانين.

وكانت زوجته تركمان خاتون الجلالية عنده في بغداد وابنها محمود غائباً في أصفهان فكنمت موته وسارت بشلوه إلى أصفهان وتاج الملك في خدمتها وقدمت بين يديها قوام الدين كربوقا الذي ولي الموصل من بعد وأرسلته بخاتم السلطان إلى مستحفظ القلعة فملكها وجاءت على أثره وقد أفاضت الأموال في الأمراء والعساكر ودعتهم إلى بيعة ولدها محمود وهو ابن أربع سنين فأجابوا إلى ذلك وبايعوه وأرسلت إلى المقتدر في الخطبة له فاجابها على أن يكون الأمير أنز قائماً بتدبير الملك ومجد الملك مشيراً وله النظر في الأعمال والجبابة فنكرت ذلك أمه خاتون وكان السفير أبا حامد الغزالي فقال لها إن الشرع لا يميز ولاية ابنك. فقبلت الشرط وخطب له آخر شوال سنة خمس وثلاثين وأرسلت تركمان خاتون إلى أصفهان في القبض على بركيارق فحبس بأصفهان.

وكان السلطان ملك شاه من أعظم ملوك السلجوقية ملك من الصين إلى الشام ومن أقصى الشام إلى اليمن وحمل إليه ملوك الروم الجزية ومناقبه عظيمة مشهورة.

منازعة بركيارق لأخيه محمود وانتظام

سلطانه

كان بركيارق أكبر أولاد السلطان ملك شاه وكانت أمه زبيدة بنت ياقوتي بن داود وياقوتي عم ملك شاه.

ولما حبس بركيارق وخافت عليه أمه زبيدة دست لماليك نظام الملك فتعصبوا له وكانت خاتون غائبة ببغداد مع ابنها محمود لفقد سلطانه فوثب الماليك النظامية على سلاح لنظام الملك بأصفهان.

وأخرجوا بركيارق من محبسه وخطبوا له وبلغ الخبر إلى خاتون فسارت من بغداد.

وطلب العسكر تاج الملك في عطائهم فهرب إلى قلعة

بوجين لينزل منها الأموال وامتنع فيها ونهب العسكر خزانته وساروا إلى أصفهان وقد سار بركيارق والنظامية إلى الري فأطاعه أرغش النظامي في عساكره وفتحوا قلعة طغرل عنوة وبعثت خاتون العساكر لقتال بركيارق فتزغ إليه سبكرود وكمستكن الجاندار وغيرهما من أمراء عساكره ولقيهم بركيارق فهزمهم وسار في أثرهم إلى أصفهان فحاصروهم بها وكان عز الملك بأصفهان، وكان والياً على خوارزم فحضر عند السلطان قبل مقتل أبيه وبقي هناك بعد وفاة السلطان فخرج إلى بركيارق ومعه جماعة من إخوانه فاستورزه بركيارق وفوض إليه الأمور كما كان أبوه.

مقتل تاج الملك

وهو أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز كان وزيراً لخاتون وابنها، ولما هرب إلى قلعة بوجين خوفاً من العسكر كما قدمنا وملكت خاتون أصفهان عاد إليها واعتذر بأن صاحب القلعة حبسه فقبلت عذره وبعثته مع العساكر لقتال بركيارق.

فلما انهزموا حل أسيراً عنده وكان يعرف كفاءته فأراد أن يستورزه وكان النظامية ينافرونه ويتهمونه بقتل نظام الملك وبذل فيهم أموالاً فلم يغنه ووشوا به فقتلوه في المحرم سنة ست وثمانين. وكان كثير الفضائل جم المناقب وإنما غطى على محاسنه عمالاته على قتل نظام الملك، وهو الذي بنى تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي والمدرسة بإزائها ورتب بها أبا بكر الشاشي مدرساً.

مهلك محمود

ثم هلك السلطان محمود وهو محاصر بأصفهان لسنة من ولايته، واستقل بركيارق بالملك.

منازعة تتش ألب أرسلان وأخباره إلى حين

انهزامه

كان تاج الدولة تتش أخو السلطان ملك شاه صاحب الشام وسار إلى لقاء أخيه ملك شاه ببغداد قبيل موته فلقبه خير موته بهيت فاستولى عليها وعاد إلى دمشق فجمع العساكر وبذل الأموال وأخذ في طلب الملك فبدأ بجلب ورأى صاحبها قسيم الدولة أقسقر اختلاف ولد ملك شاه وحرقهم فاطاع تاج الدولة

كان توران شاه بن قاروت بك صاحب فارس وأرسلت خاتون الجلالية الأمير أنز لفتح فارس سنة سبع وثمانين فهزمه أولاً، ثم أساء السيرة مع الجند فلقحوا بتوران شاه وزحف إلى أنز فهزمه واسترد البلد من يده وأصاب توران شاه في المعركة بسهم هلك معه بعد شهرين.

وفاة المقتدي وخلافة المستظهر وخطبته لبركيارق

ثم توفي المقتدي منتصف محرم سنة سبع وثمانين وكان بركيارق قد قدم بغداد بعد هزيمة عمه تش فخطب له وحملت إليه الخلع فلبسها وعرض التقليد على المقتدي فقراه وتدبره وعلم فيه وتوفي فجأة وبويع لابنه المستظهر بالخلافة فأرسل الخلع والتقليد إلى بركيارق وأخذت عليه البيعة للمستظهر.

استيلاء تش على البلاد بعد مقتل أقسنقر ثم هزيمة بركيارق

لما عاد تش منهزماً من أذربيجان جمع العساكر واحتشد الأمم وسار من دمشق إلى حلب سنة سبع وثمانين واجتمع قسним الدولة أقسنقر وبوران وجاء كربوقا مدداً من عند بركيارق وساروا لحرب تش ولقوه على ستة فراسخ من حلب فهزمهم وأخذ أقسنقر أسيراً فقتله ولحق كربوقا وبوران بحلب واتبعها تش فحاصرها وملك حلب وأخذها أسيرين وبعث إلى حران والرها في الطاعة فامتنعوا فبعث إليهم برأس بوران وملك البلدين وبعث بكربوقا إلى حمص فحبسه بها.

وسار إلى الجزيرة فملكها ثم إلى ديار بكر وخلاط فملكها ثم إلى أذربيجان.

ثم سار إلى همدان ووجد بها فخر الدولة ابن نظام الملك جاء من خراسان إلى بركيارق فلقبه الأمير قماج من عسكر محمود بأصفهان فنهب ماله ونجا إلى همدان فصادف بها تش فأراد قتله وشفع فيه باغي يسار وأشار بوزارته ليل الناس إلى بيته واستوزره. وكان بركيارق قد سار إلى أقسيس فخالفه تش إلى أذربيجان وهمذان فسار بركيارق من نصيين وعبر دجلة من فوق الموصل إلى أربل.

فلما تقارب العسكران أشرف الأمير يعقوب بن أنق من

تش وتبعه في طاعته.

وبعث إلى باغي يسار صاحب أنطاكية وإلى مران صاحب الرها وحران يشير عليهما بمثل ذلك فأجاباه وخطبوا لتاج الدولة تش في بلادهم وساروا معه إلى الرحب فملكها ثم إلى نصيين فملكها واستباحها وسلمها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش.

وساروا إلى الموصل وقدم عليه الكافي بن فخر الدولة بن جهير من جزيرة ابن عمر فاستوزره وكانت الموصل قد ملكها علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش وأمه صفية عمة ملك شاه وأطلقت تركمان خاتون عمه إبراهيم فجاء وملك الموصل من يده كما تقدم في أخبار بني المقلد فبعث إليه تش في الخطبة وأن يهيمى له الطريق إلى بغداد فامتنع وزحف لحربه فانهزم العرب وسبق إبراهيم أسيراً إلى تش في جماعة من أمراء العرب فقتلوا صبراً ونهبت أموالهم واستولى تش على الموصل وغيرها، واستتاب عليها علي بن مسلم وهو ابن صفية عمة أبيه.

وبعث إلى بغداد في الخطبة ووافقه كوهرائن الشحنة وحرر الجواب بانتظار الرسل من العسكر فسار تش إلى ديار بكر فملكها.

ثم سار إلى أذربيجان وزحف بركيارق يعتذر من سعيه مع تش فعزله بركيارق بسعاية كمستكن الجاندار بقسيم الدولة وأقام عوضه شحنة بغداد الأمير مكرد وأعطاه أقطاعه وسار إلى بغداد، ثم رده من دقوقا لكلام بلغه عنه وقتله وولى على شحنة بغداد فتكن حب.

مقتل إسماعيل بن ياقوتي

كان إسماعيل بن ياقوتي بن داود بن عم ملك شاه وخال بركيارق أميراً على أذربيجان فبعث تركمان خاتون إليه فاطمعة في الملك وأنها تزوج به فجمع جمعاً من التركمان وغيرهم وسار لحرب بركيارق فلقبه عند كرخ ونزع عنه مكرد إلى بركيارق فانهزم إسماعيل إلى أصفهان فخطبت له خاتون وضربت اسمه على الدنانير بعد ابنها محمود، وأرادت العقد معه فمنعها الأمير أنز ملبر الدولة وصاحب العسكر وخوفهم وفارقهم، ثم أرسل أخته زبيدة أم بركيارق فأصلحت حاله مع ابنها وقدم عليه فأكرمه.

واجتمع به رجال الدولة كمستكن الجاندار وأقسنقر وبوران وكشفوا سره في طلب الملك، ثم قتلوه وأعلموا بركيارق فأهدر دمه.

وكان بنصيبين أخوه محمد بن مسلم ومعه مروان بن وهب وأبو الهيجاء الكردي وهو يريد الزحف إلى الموصل فكتب كربوقا واستدعاه للنصرة ولقيه على مرحلتين من نصيبين فقبض عليه كربوقا وسار إلى نصيبين وحاصرها أربعين يوماً وملكها ثم سار إلى الموصل فامتعت عليه فتحول عنها إلى بلد وقتل بها محمد بن شرف الدولة تقريباً وعاد إلى حصار الموصل ونزل منها على فرسخ واستجد علي بن مسلم بالأمر مكرس صاحب جزيرة ابن عمر فجاء لإنجاده واعترضه التوسطاش فهزمه ثم سار إلى طاعة كربوقا وأعانه على حصار الموصل ولما اشتدّ صباحه علي بن مسلم الحصار بعد تسعة أشهر هرب عنها ولحق بصدقة بن مزيد.

ودخل كربوقا إلى الموصل وعاث التوسطاش في أهل البلد ومصادرتهم واستطال على كربوقا فأمر بقتله ثالثة دخوله سنة تسع وثمانين وسار كربوقا إلى الرحبة فملكها وعاد فأحسن السيرة في أهل الموصل ورضوا عنه، واستقامت أموره.

استيلاء أرسلان أرغون أخي السلطان ملك

شاه علي خراسان ومقتله

كان أرسلان أرغون مقيماً عند أخيه السلطان ملك شاه ببغداد فلما مات وبويع ابنه محمود سار إلى خراسان في سبعة من مواليه واجتمعت عليه جماعة وقصد نيسابور فامتعت عليه فعاد إلى مرو وكان بها شحنة الأمير قودر من موالى السلطان ملك شاه وكان أحد الساعين في قتل نظام الملك فمال إلى طاعة أرغون وملكه البلد وسار إلى بلخ وكان بها فخر الدين بن نظام الملك ففر عنها ووصل إلى همدان ووزر لتاج الدولة تشش كما مر.

وملك أرسلان أرغون بلخ وترمد ونيسابور وسائر خراسان وأرسل إلى السلطان بركيارق وزيره مؤيد الملك في تقرير خراسان عليه بالضمان كما كانت لجده داود ما عدا نيسابور فأعرض عنه بركيارق لاشتغاله بأخيه محمود وعنه تشش ثم عزل بركيارق مؤيد الملك عن الوزارة بأخيه فخر الملك.

واستولى فخر الملك ألب أرسلان على الأمور فقطع أرسلان مراسلة بركيارق فبعث حينئذ عمه بورسوس في العساكر لقتاله فانهزم أرسلان إلى بلخ وأقام بورسوس بهرة وسار أرسلان إلى مرو وفتحها عنوة وخربها واستباحها وسار إليه بورسوس من هرة سنة ثمان وثمانين وكان معه مسعود بن تاخر الذي كان أبو مقدم عساكر داود ومعه ملك شاه من أعظم الأمراء فبعث إليه أرسلان واستمالة فعاد إليه ووثب لمسعود بن تاخر وابنه فقتلها

عسكر تشش فكبس بركيارق وهزمه ونهب سواده ولم يبق معه إلا برسق وكمستكن الجاندار والبارق من أكابر الأمراء فلجأوا إلى أصفهان وكانت خاتون أم محمود قد ماتت فمنعه محمود وأصحابه من الدخول، ثم خرج إليه محمود وأدخله إلى أصفهان واحتاطوا عليه وأرادوا أن يسلموه فرفض محمود فأبقوه.

مقتل تشش واستقلال بركيارق بالسلطان

ثم مات محمود منسلخ شوال سنة سبع وثمانين واستولى بركيارق على أصفهان.

وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره عوض أخيه عز الملك وكان قد توفي بنصيبين فكتب مؤيد الملك الأمراء واستمالهم فرجعوا إلى بركيارق وكشف جمعه.

وبعث تاج الملك تشش بعد هزيمة بركيارق يوسف بن أنق التركماني شحنة إلى بغداد في جمع التركمان فمنع من دخول بغداد.

وزحف إليه صدقة بن مزيد صاحب الحلة فقاتله في يعقوب وانهزم صدقة إلى الحلة ودخل يوسف بن أنق بغداد وأقام بها.

وكان تشش لما هزم بركيارق سار إلى همدان وقد تحصن بها بعض الأمراء فاستأمن إليه واستولى على همدان وسار في نواحي أصفهان وإلى مرو.

وراسل الأمراء بأصفهان يستميلهم فاجابوه بالمقاربة والوعد وبركيارق مريض، فلما أفاق من مرضه خرج إلى جرباذقان واجتمع إليه من العسكر ثلاثون ألفاً ولقيه تشش فهزمه بركيارق وقتله بعض أصحاب أقتنقر بئار صاحبه.

وكان فخر الملك بن نظام الملك أسيراً عنده فانطلق عند هزمته واستقامت أمور بركيارق وبلغ الخبر إلى يوسف.

استيلاء كربوقا على الموصل

قد كنا قدمنا أن تاج الدولة تشش أسر قوام أبا سعيد كربوقا وحبسه بعدما قتل أقتنقر بوزان فأقام محبوساً بحلب إلى أن قتل تشش واستولى رضوان ابنه على حلب فأمره السلطان بركيارق بإطلاقه لأنه كان من جهة الأمير أنز فاطلقه رضوان وأطلق أخاه التوسطاش فاجتمعت عليهما العساكر وكان بالموصل علي بن شرف الدولة مسلم منذ ولاء عليها تشش بعد وقعة المضيق.

السلطان وكان قد بلغه في طريقه خروج الأمير أنز بفارس عن طاعته فمضى إلى العراق وأعاد داود الحبشي بن التونطاق في العساكر لقتالهما فصار إلى العراق من هراة وأقام في انتظار العسكر فعاجلها فهرب أمامهما وهرب جيحون وتقدم بارقطاش قبل تودن وقاتله فهزموه داود وأسره وبلغ الخبر إلى تودن فثار به عسكره ونهبوا أثقاله ولحق بسنجر فقبض عليه صاحبها ثم أطلقه فلحق بالملك سنجر بيلخ فقتله سنجر وأفرغ هو طاعته في نظمه وجع العساكر على طاعته، ثم مات قريباً وبقي بارقطاش أسيراً عند داود إلى أن قتل.

في خيمته فضعف أمر بورسوس وانفض الناس عنه وجيء به أسيراً إلى أخيه أيلخان أرغون فحسبه بترمز ثم قتله في عيسه بعد سنة وقتل أكابر خراسان وخرب أسوارها: مثل سودان ومرو الشاهجان وقلعة سرخس ونهاوند ونيسابور وصادر وزيره عماد الملك بن نظام الملك على ثلثمائة ألف دينار ثم قتله واستبد بخراسان وكان مرهف الحد كثير العقوبة لمواليه وأكر على بعضهم يوماً بعض فعلاته وهو خلوة وضربه فطعنه الغلام بخنجر معه فقتله وذلك في الحرم من سنة تسعين.

ولاية سنجر على خراسان

ولما قتل أرسلان أرغون ملك أصحابه من بعده صبيّاً صغيراً من ولده وكان السلطان بركيارق قد جهز العساكر لخراسان للقتال ومعه الأتابك قماج ووزيره علي بن الحسن الطغرائي وانتهى إليه مقتل أرسلان بالدماغان فأقاموا حتى لحقهم السلطان بركيارق وساروا إلى نيسابور فملكها في جمادى سنة تسعين وأربعمائة وملك سائر خراسان وسار إلى بلخ وكان أصحاب أرسلان قد هربوا بابنه الذي نصبوه للملك إلى جبل طخارستان وبعثوا يستأمنون له ولهم فأنهم السلطان وجأؤا بالصبي في آلاف من العساكر فأكرمه السلطان وأقطع ما كان لأبيه أيام ملك شاه وانفض عنه العسكر الذين كانوا معه واقتروا على أمراء السلطان وأفردوه فضمته أم السلطان إليها وأقامت من يتولى رتبته وسار السلطان إلى ترمذ فملكها وخطب له بسمرقند ودانت له البلاد وأقام على بلخ سبعة أشهر ثم رجع وترك أخاه سنجر نائباً بخراسان.

ظهور المخالفين بخراسان

لما كان السلطان بخراسان خالف عليه محمود بن سليمان من قرابته ويعرف بأمير أميران وسار إلى بلخ واستمد صاحب غزنة من بني سيكتكين فأمدّه بالعساكر والفيول على أن يخطف له فيما يفتح من خراسان فقويت شوكة فصار إليه الملك سنجر وكسبه فأنهزم وجيء به أسيراً فسلمه ولما انصرف السلطان عن خراسان سار نائب خوارزم واسمه أكتنجي في اتباعه وسبق إلى مرو فتشاغل بلذاته وكان بها الأمير تورق قد تشاغل عن السلطان واعتذر بالمرض فداخل بارقطاش من الأمراء في قتل أكتنجي صاحب خوارزم فكسبه في طائفة من أصحابه وقتلوه وساروا إلى خوارزم فملكوها مظهرين أن السلطان ولأهبا عليها وبلغ الخبر إلى

بداية دولة بني خوارزم شاه

كان أبو شكين مملوكاً لبعض أمراء السلجوقية واشتره من بعض أهل غرشقان فدعى أبا شكين غرشة ونشأ على حال مرضية وكان مقدماً وولد له ابنه محمد فأحسن تربيته وتقدم هو بنفسه ولما سار الأمير داود الحبشي إلى خراسان كما مرّ سار محمد في جملة فلما مهد خراسان وأزال الخوارج نظر فيمن يوليه خوارزم وكان نائبها أكتنجي قد قتله كما مرّ فوق اختياره على محمد بن أبي شكين فولاه ولقبه خوارزم شاه فحسنت سيرته وارتفع محله وأقره السلطان سنجر وزاده عناية بقدر كفايته واضطلاعه وغاب في بعض الأيام عن خوارزم فقصدها بعض ملوك الأتراك وكان طغرلتيكين محمد الذي كان أبوه أكتنجي نائباً بخوارزم ويادر محمد بن أبي شكين إلى خوارزم بعد أن استمد السلطان سنجر وسار بالعساكر مدداً له وتقدم محمد بن أبي شكين فتأخّر الأتراك إلى منقشلاخ ورحل طغرلتيكين إلى جرجان وازداد محمد بذلك عناية عند سنجر ولما توفي ولي ابنه بعده أقسز وأحسن السيرة وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه وباشر الحروب فملك مدينة منقشلاخ ولما توفي اختصه السلطان سنجر وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه واتصل الملك في بني محمد بن أبي شكين خوارزم شاه وكانت لهم الدولة وتمت دولة بني ملك شاه وعليها كان ظهور الططر بعد المائة السادسة ومنهم أخذوا الملك كما سيأتي في أخبارهم.

استيلاء الإفرنج على أنطاكية وغيرها من

سواحل الشام

كان الإفرنج قد ظهر أمرهم في هذه السنين وتغلبوا على

انتفاض الأمير أنز وقتله

لما سار السلطان بركيارق إلى خراسان ولّى على بلاد فارس الأمير أنز وكانت قد تغلبت الشوائكار واستظهروا بإيران شاه بن قاروت بك صاحب كرمان فلما سار إليهم أنز قاتلوه فهزموه ورجع إلى أصفهان فاستأذن السلطان فأمره بالمقام هناك وولاه إمارة العراق وكانت العساكر في جواره بطاعته وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك من بغداد على الحلة فأغراه بالخلاف وخوفه غائله بركيارق وأشار عليه بمكاتبة محمد بن ملك شاه وهو في كنجة وشاع عنه ذلك فزاد خوفه وجمع العساكر وسار من أصفهان إلى الريّ وجاهر السلطان بالخلاف وطلب منه أن يسلم إليه فخر الملك الب أرسلان وبينما هو في ذلك إذ هجم عليه ثلاثة نفر من الأتراك المولدين بخوارزم من جنده فطعنوه وقتلوه واحتاج عسكره فنهروا خزائنه وحمل شلوه إلى أصفهان فدفن بها واشتهر خبر قتله وحُمل إلى السلطان في أحواز الريّ وهو سائر لقتاله فسر بذلك هو وفخر الملك الب أرسلان وذلك في سنة اثنتين وتسعين وكان عمود المذاهب كبير المناقب ولما قتل هرب اصهر صبار إلى دمشق فأقام بها مدة ثم قدم على السلطان محمد سنة إحدى وخمسمائة فأكرمه وأقطعته رجة مالك بن طوق.

استيلاء الفرنج على بيت المقدس

كان بيت المقدس لتاج الدولة تش وأقطعته الأمير سقمان بن أرتق التركماني وكان تش ملكه من يد العلويين أهل مصر فلما وهن الأتراك بوقعة أنطاكية طمع المصريون في ارتجاعه وسار صاحب دولتهم الأفضل بن بدر الجمالي وحاصر الأمير سقمان وأخاه ابلغاري وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج ونصب المجانيق فثلّموا سورهم ثم ملكوه بالأمان لأربعين يوماً من حصاره في شعبان سنة تسع وثمانين وأحسن الأفضل إلى سقمان وابلغاري ومن معهم وأطلقهم فأقام سقمان ببلد الرها وسار ابلغاري إلى العراق وولّى الأفضل على بيت المقدس افتخار الدولة من أمرائهم ورجع إلى مصر فلما رجع الإفرنج من عكا وجاؤوا إلى بيت المقدس فحاصروه أربعين يوماً واقتحموه من جهة الشمال آخر شعبان من سنة اثنتين وتسعين وعاثوا في أهله واعتصم قلوبهم بمحراب داود عليه السلام ثلاثاً حتى استأمنوا وخرجوا ليلاً إلى عسقلان.

وقتل بالمسجد سبعون ألفاً أو يزيدون من المجاورين فيهم

صقلية واعتزموا على قصد الشام وملك بيت المقدس وأرادوا المسير إليها في البرّ فراسلوا ملك الروم بالقسطنطينية أن يسهل لهم الطريق إلى الشام فأجابهم على أن يعطوه أنطاكية فعبروا خليج القسطنطينية سنة تسعين وأربعمائة.

وسار أرسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب مرقية وبلاد الروم لمداغتهم فهزموه.

ثم مرّوا ببلاد ابن ليون الأرمني ووصلوا إلى أنطاكية فحاصروها تسعة أشهر وصاحبها يومتذ باغي سياه فاحسن الدفاع عنها ثم تبوّأ البلد بمداخلة بعض الحامية أصددهم السور بعد أن رغبوه بالأموال والأقطاع وجاؤوا إلى السور فدلّهم على بعض المخادع ودخلوا منه ونفخوا البوق فخرج باغي سياه هارباً حتى إذا كان على أربعة فراسخ راجع نفسه وندم فسقط مغشياً عليه ومّر به أرمني فحمل رأسه إلى أنطاكية وذلك سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

واجتمعت عساكر المسلمين وزحفوا إلى أنطاكية من كل ناحية ليرتجعوها من الإفرنج وجاء قوام الدين كربوقا إلى الشام واجتمعت عليه العساكر بمرج دابق فكان معه دقاق بن تش وطغرل كين أتاك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجر وسقمان بن أرتق وغيرهم وساروا إلى أنطاكية فنزلوها واستوحش الأمراء من كربوقا وأنفوا من ترفعه عليهم وضاق الحصار بالإفرنج لعدم الأقوات لأنّ المسلمين عاجلهم عن الاستعداد فاستأمنوا كربوقا فمنعهم الأمان وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكدميري والقمص صاحب الرها وسمند صاحب أنطاكية وهو مقدّم العساكر فخرجوا مستأمنين وضربوا مصاف وتخاذل الناس لما في قلوبهم من الأضغان لكربوقا فتمت الهزيمة عليهم وآخر من انهزم سقمان بن أرتق واستشهد منهم العرب وغنم العدو سوادهم بما فيه وساروا إلى معرة النعمان فملكوها وأفحشوا في استباحتها ثم ساروا إلى غزة فحاصروها أربعة أشهر وامتنت عليهم وصالحهم ابن منقذ على بلده شيراز وحاصروا حمص فصالحهم صاحبها جناح الدولة ثم ساروا إلى عكا فامتنت عليهم وكان هذا بداية الإفرنج بسواحل الشام ويقال: إنّ المصريين استتابوا رجلاً يعرف بافتخار الدولة من خلفاء العبيد بن نصر لما خشا من السلجوقية عند استيلائهم على الشام إلى غزة وزحف الاقيسيس من أمرائهم إلى مصر وحاصرها وراسلوا الإفرنج واستدعواهم لملك الشام لينشلوهم عن أنفسهم ويحولوا بينهم وبين مصر واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

فلم يقبل وكان سعد الدولة كورائين شحنة بغداد قد استوحش من بركيارق فاتفق هو وكربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسرخاب بن بدر صاحب كنكسون وساروا إلى السلطان محمد بقم فخلع عليهم ورد كورائين إلى بغداد في شأن الخطبة فخطب له بالخليفة ولقبه حياة الدين والدنيا وسار كربوقا وجكرمش مع السلطان محمد إلى أصفهان والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل البارسلاني

كان أبو الفضل سعد البارسلاني ويلقب بمجد الملك متحكماً عند السلطان بركيارق ومتحكماً في دولته ولما فشا القتل في أمرائه من الباطنية استوحشوا ونسبوا ذلك للبارسلاني وكان من أعظم من قتل منهم الأمير برسق فاتهم ابنه زنكي وأقبورني البارسلاني في قتله ونزعوا عن بركيارق إلى السلطان محمد فاجتمع الأمراء ومقدمهم أمير الحيرة لكابك وطغايك من الزور وبعثوا إلى بني برسق يستدعونهم للطلب بئار أبيهم فجاؤوا واجتمعوا قريباً من همدان ووافقهم العسكر جميعاً على ذلك وبعثوا إلى بركيارق يطلبون البارسلاني فامتنع وأشار عليه البارسلاني بإجابتهم لئلا يفعلوا ذلك بغير رأي السلطان فيكون وهناً على الدولة فاستحلفهم السلطان فذفعه إليهم فقتله الغلمان قبل أن يتصل بهم وسكنت الفتنة وحمل رأسه إلى مؤيد الملك واستوحش الأمراء لذلك من بركيارق وأشاروا عليه بالعودة إلى الري ويكفونه قتال أخيه محمد فعدا متشاعلاً ونهبوا سرادقه وساروا إلى أخيه محمد ولحق بأصفهان ثم لحق رستاق كما تقدم.

إعادة الخطبة ببغداد لبركيارق

ولما سار بركيارق إلى خوزستان ومعه نبال بن أبي شكين الحسامي مع عسكره سار من هنالك إلى واسط ولقيه صدقة بن مزيد صاحب الحلة ثم سار إلى بغداد وكان سعد الدولة كورائين الشحنة على طاعة محمد فخرج عن بغداد ومعه أبو الغازي بن أرتق وغيره وخطب لبركيارق ببغداد منتصف صفر سنة ثلاث وتسعين بعد أن فارقها كورائين وأصحابه وبعثوا إلى السلطان محمد ومؤيد الملك يستحثونهما فارسلوا إليهم كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر يستحثونهم في المدافعة. وطلب جكرمش من كورائين السير لبلده خشية عليها فاذن له ثم يش كورائين وأصحابه من محمد فبعثوا إلى بركيارق

العلماء والزهاد والعباد وأخذوا نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمئة درهم ومائة وخمسين قنديلاً من الصفار وتوروا من الفضة زنته أربعون رطلاً بالشامي وغير ذلك مما لا يحصى ووصل الصريح إلى بغداد مستغيثين فامر المقتدي أن يسير إلى السلطان بركيارق أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني وأبو الوفاء بن عقيد وأبو سعد الحلواني وأبو الحسين بن السمك فساروا إلى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فانتهوا إلى حلوان وبلغهم مقتل مجد الملك ألب أرسلان وفتنة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا وتمكن الإفرنج من البلاد ولحقن عازمون على أفراد أخبارهم بالشام وما كان لهم فيه من الدولة على حكم أخبار الدول في كتابنا.

ظهور السلطان محمد بن ملك شاه والخطبة

له ببغداد وحروبه مع أخيه بركيارق

كان محمد وسنجر شقيقين وكان بركيارق استعمل سنجر على خراسان ثم لحق به محمد بأصفهان وهو يحاصرها سنة ثمان وثمانين فاقطعه كنجة وأعمالها وأنزل معه الأمير قطنج تكين أتابك وكانت كنجة من أعمال أَرَّان وكانت لفضلون فانتزعها ملك شاه وأقطعه استراباذ وولى على اران: سرهناسا وتكين الخادم ثم ضمن فضلون بلاده وأعيد إليها فلما قوي رجع إلى العيصان فسرح إليه ملك شاه الأمير بوزان فغلبه على البلاد وأسره ومات ببغداد سنة أربع وثمانين وأقطع ملك شاه بلاد أَرَّان لأصحاب باغي سياه صاحب أنطاكية ولما مات باغي سياه رجع ابنه إلى ولاية أبيه ثم أقطع السلطان بركيارق كنجة وأعمالها ل محمد كما قلناه سنة ست وثمانين ولما اشتدوا واستفحل قتل أتابك قطنج تكين واستولى على بلاد أَرَّان كلها ولحق مؤيد الملك عبد الله بن نظام الملك بعد مقتل صاحبه أنز فاستخلصه وقربه وأشار عليه مؤيد الملك فطلب الأمر لنفسه فخطب له بأعماله واستوزر مؤيد الملك وقارن ذلك مقتل مجد الملك البارسلاني المتغلب في دولة بركيارق فاستوحش أصحابه لذلك ونزعوا إلى محمد وساروا جميعاً إلى الري وكان بركيارق قد سبقهم إليها واجتمع إليه الأمير نبال بن أبي شكين الحامي من أكابر الأمراء وعز الملك بن نظام الملك ولما بلغه مسير أخيه محمد إليه رجع إلى أصفهان فمتعوه من الدخول فسار إلى خوزستان وملك محمد الري في ذي القعدة سنة اثنتين وتسعين ووجد بها زُبَيْدة أم بركيارق قد تخلفت عن ابنها فحبسها مؤيد الملك وصادرها ثم قتلها خنقاً بعد أن تنصَح له أصحابه في شأنها

مسير بركيارق إلى خراسان وانهزامة من أخيه سنجر ومقتل الأمير داود حبشي أمير خراسان

لما انهزم بركيارق من أخيه محمد خلیص في القل إلى الري واجتمع له جوع من شيعته فسار إلى خراسان وانتهى إلى اسفراین وكتب الأمير داود حبشي إلى التوتنطاق يستدعيه من الدامغان وكان أميراً على معظم خراسان وعلى طبرستان. وجرجان فأشار عليه بالمقام بنيسابور فقصدها وقبض على عميدها أبي محمد وأبي القاسم بن إمام الحرمين ومات أبو القاسم في محبسه مسموماً ثم زحف سنجر إلى الأمير داود فبعث إلى بركيارق يستدعيه لنجدته فسار إليه والتقى الفريقان بظاهر بوشنج وفي ميمنة سنجر الأمير برغش وفي مسرته الأمير كوكر ومعه في القلب الأمير رستم فحمل بركيارق على رستم فقتله واقتضى الناس على سنجر وكاد يهزم وأخذ بركيارق أم سنجر أسيرة وشغل أصحاب بركيارق بالنهب فحمل عليهم برغش وكوكر فانهمزوا واستمرت الهزيمة على بركيارق وهرب الأمير داود فجاء به إلى برغش أسيراً فقتله. وسار بركيارق إلى جرجان ثم إلى الدامغان ودخل البرية ثم استدعاه أهل أصفهان وجاءه جماعة من الأمراء منهم جاول صباور وسبقه محمد إلى أصفهان فعدل عنها إلى عسكر مكرم.

المصاف الثاني بين بركيارق ومحمد وهزيمة محمد وقتل وزيره مؤيد الملك والخطبة لبركيارق

لما انهزم بركيارق أمام سنجر سنة ثلاث وتسعين وسار إلى أصفهان فوجد أخاه محمداً قد سبقه إليها فعدل عنها إلى خوزستان ونزل إلى عسكر مكرم.

وقدم عليه هناك الأميران زنكي والبكي ابنا برسق سنة أربع وتسعين وساروا معه إلى همدان وهرب إليه الأمير أياز في خمسة آلاف من عسكر محمد لأن أميراً آخر مات في تلك الأيام وظنوا أن مؤيد الملك دس عليه وزيره فسمه وكان أياز في جملة أمير أضر فقتل الوزير المتهم ولحق بركيارق ثم وصل إليه سرخاب بن كنجر وصاحبه فاجتمع له نحو من خمسين ألف فارس ولقيه محمد في خمسة عشر ألفاً واستامن أكثرهم إلى بركيارق يوم المصاف أول جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين واستولت الهزيمة على محمد

بطاعتهم فخرج إليهم واسترضاهم ورجع إلى بغداد وقبض على عميد الدولة بن جهير وزير الخليفة وطالبه بما أخذ هو وأبوه من الموصل وديار بكر أيام ولايتهم عليها فصادرهم على مائة وستين ألف دينار واستوزر الأغرّ أبا المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني وخلع الخليفة على بركيارق.

المصاف الأول بين بركيارق ومحمد ومقتل كوهرائين وهزيمة بركيارق والخطبة محمد

ثم سار بركيارق من بغداد لحرب أخيه محمد ومر بشهرزور فاجتمع إليه عسكر كثير من التركمان وكاتب رئيس همدان يستحثه فركب وسار للقائه أخيه على فراسخ من همدان في أول رجب من سنة ثلاث وتسعين وفي ميمته كوهرائين وعز الدولة بن صدقة بن مزيد وسرخاب بن بدر وفي مسرته كربوقا وفي ميمنة محمد بن أضر وابنه أياز وفي مسرته مؤيد الملك والنظامية ومعه في القلب أمير سرخو شحنة أصفهان

فحمل كوهرائين من الميمنة على مؤيد الملك والنظامية فهزمهم وانتهى إلى خيامهم فنهبا وحملت ميمنة محمد على مسرة بركيارق فانهمزوا وحمل محمد على بركيارق فهزمه ووقف محمد مكانه وعاد كوهرائين من طلب المهزمين فكبا به فرسه فقتل

وجيء بالأغرّ أبي المحاسن يوسف وزير بركيارق أسيراً فأكرمه مؤيد الملك ونصب له خيمة وبعثه إلى بغداد في الخطبة محمد فخطب له منتصف رجب من السنة وكانت أولية سعد الدولة كوهرائين أنه كان خادماً للملك أبي كاليجار بن بويه وجعله في خدمة ابنه أبي نصر ولما حبسه طغرل بك مضى معه إلى قلعة طغرل فلما مات انتقل إلى خدمة السلطان ألب أرسلان وترقى عنده وأقطع واسط وجعله شحنة بغداد وحضر يوم قتله فوفاه بنفسه ثم أرسله مالك شاه إلى بغداد في الخطبة وجاء بالخلع والتقليد وحصل له من نفوذ الأمر واتباع الناس ما لم يحصل لغيره إلى أن قتل في هذه المعركة وولى شحنة بغداد بعده أبلغازي بن ارتق.

الكوفة واستضافها إليه.

مسير بركيارق عن بغداد ودخول محمد وسنجر إليها

ولما استولى السلطان محمد وأخوه سنجر على همدان سار في اتباع بركيارق إلى حلوان فقدم عليه هنالك أبو الغازي ابن ارتق في عساكره وخدمه وكثرت جموعه فسار إلى بغداد وبركيارق عليل بها فاضطرب أصحابه وعبروا به إلى الجانب الغربي ووصل محمد إلى بغداد آخر سنة أربع وتسعين وتراءى الجمعان بشاطئ دجلة وجرت بينهم المراماة والنشاب وكان عسكر محمد ينادون عسكر بركيارق يا باطنية ثم سار بركيارق إلى واسط ونهب عسكره جميع ما مرّوا عليه ودخل محمد إلى دار الملكة ببغداد وجاءه توقيع المستظهر بالاستبشار بقدومه وخطب له ونزل الملك سنجر بدار كوهراين ووفد على السلطان محمد ببغداد صدقة صاحب الخلّة في محرّم سنة خمس وسبعين.

قتل بركيارق الباطنية

كان هؤلاء الباطنية قد ظهوروا بالعراق وفارس وخراسان وهم القرامطة والدعوة بعينها دعوتهم إلا أنهم سموها في هذه الأجيال الباطنية والإسماعيلية والملاحدة والفداوية وكل اسم منها باعتبار: فالباطنية لأنهم يبطنون دعوتهم والإسماعيلية لانتماء دعوتهم في أصلها لإسماعيل الإمام جعفر الصادق والملاحدة لأن بدعتهم كلها إحد والفداوية لأنهم يفادون أنفسهم بالمال على قتل من يسلطون. والقرامطة نسبة إلى قرمط منشيء دعوتهم وكان أصلهم من البحرين في المائة الثالثة وما بعدها ثم نشأ هؤلاء بالشرق أيام ملك شاه فأول ما ظهوروا بأصفهان واشتدّ في حصار بركيارق وأخيه محمود وأمّه خاتون فيها ثم ثارت عامة أصفهان بهم بإشارة القضاة وأهل الفتيا فقتلوهم في كل جهة وحرقوهم بالنار.

ثم انتشروا واستولوا على القلاع ببلاذ العجم كما تقدّم في أخبارهم ثم أخذ عذّهم نيران شاه بن بدران شاه بن قاروت بك صاحب كرمان حمله عليه كاتب من أهل خوزستان يسمّى أبا زرعة وكان بكرمان فقيه من الحنفية يسمّى أحمد بن الحسين البلخي مطاعاً في الناس فخشي من نكيره فقتله فهرب عنه صاحب جيشه وكان شحنة البلد ولحق بالسلطان محمد ومؤيد

وجيء بمؤيد الملك أسيراً فوفّجه ثم قتله بيده لأنه كان سيئ السيرة مع الأمراء كثير الخيل في تدبير الملك ثم بعث الأغرّ أبو المحاسن وزير بركيارق أبا إبراهيم الاسترابادي لاستقصاء أموال مؤيد الملك وذخائره ببغداد فحمل منها ما لا يسعه الوصف يقال: إنّه وجد في ذخائره ببلاذ العجم قطعة بلخش زنتها أربعون مثقالاً واستوزر محمد بعده خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين.

ثم سار السلطان بركيارق إلى الريّ ووفد عليه هنالك كربوقا صاحب الموصل ودييس بن صدقة وأبوه يومثذ صاحب الخلّة وسار السلطان قافلاً إلى جرجان وبعث إلى أخيه سنجر يستجديه فيبعث إليه ما أقامه ثم طلبه في المدد فسار إليه سنجر من خراسان ثم سارا جميعاً إلى الدامغان فخرّباها وسار إلى الريّ واجتمعت عليه النظامية وغيرهم فكثرت جموعهم وكان بركيارق بعد الظفر قد فرق عساكره لضيق الميرة ورجع ديبس بن صدقة إلى أبيه وخرج بأذربيجان داود بن إسماعيل بن ياقوتي فيبعث لقتاله قوام الدولة كربوقا في عشرة آلاف واستأذنه أياز في المسير إلى ولايته بهمدان ويعود بعد الظفر فيقي في قلّة من العساكر فلما بلغه قرب أخيه محمد وسنجر اضطرب حاله وسار إلى همدان ليجتمع مع أياز فبلغه أنه قد زاسل أخاه محمداً وأطاعه فعاد إلى خوزستان.

ولما انتهى إلى تستر استدعى ابن برسق وكان من جملة أياز فلم يحضر وتأخر فأنه فسار نحو العراق فلما بلغ حلوان لحق به أياز وكان راسل محمداً فلم يقبله.

وبعث عساكره إلى همدان فلحق بهمدان أياز وأخذ محمد محلة أياز بهمدان وكانت كثيراً من كل صنف وصور أصحابه بهمدان بمائة ألف دينار.

وسار بركيارق وأياز إلى بغداد فدخلها متصف ذي العقدة من سنة أربع وتسعين وطلب من الخليفة المال للنفقة فبعث إليه بعد المراجعة بمخمسين ألف دينار وعاث أصحاب بركيارق في أموال الناس وضجروا منه ووفد عليه أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن المصلحية قاضي جيلة من سواحل الشام منهزماً من الإفرنج بأموال جلييلة المقدار فأخذها بركيارق منه وقد تقدّم خبر ابن المصلحية في دولة العباسيين ثم بعث وزير بركيارق الأغرّ بالمحاسن إلى صدقة بن مزيد صاحب الخلّة في ألف ألف دينار يزعم أنها تخلفت عنده من ضمان البلاد وتهدّده عليها فخرج عن طاعة بركيارق وخطب لمحمد أخيه وبعث بركيارق في الحضور والتجاوز عن ذلك وضمن له أياز جميع مطالبه فأبى إلا أن يدفع الوزير واستمرّ على عصيانه وطرده عامل بركيارق عن

بهم فلما صاروا في الجانب الشرقي نهب العسكر البلد فجاء القاضي واستعطفهم فمنعوا النهب واستأمن إليهم عسكر واسط فأمنوهم.

وسار بركيارق إلى بلاد نج برسى في الأهواز وساروا معه ثم بلغه مسير أخيه محمد عن بغداد فصار في اتباعه إلى نهاوند إلى أن أدركه وتضافوا ولم يقتتلوا لشدة البرد ثم عاودوا في اليوم الثاني كذلك وكان الرجل يخرج لقريبه من الصف الآخر فيتضافحان ويتساءلان ويفترقان ثم جاء الأمير بكراج وعبر من عسكر محمد إلى الأمير أياز والوزير الأغبر فاجتمعوا وعقدوا الصلح بين الفريقين على أن السلطان بركيارق لا يعترض أخاه محمداً في الطبل، وتكون المكاتب بينهما من الوزيرين ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء.

والملك محمد يضرب له ثلاث نوب ويكون له من البلاد حرة وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل وبغده بركيارق بالعساكر على من يمتنع عليه منها وتحالفاً على ذلك وافترقا وكان العقد في ربيع الأول سنة خمس وتسعين وسار بركيارق إلى ساوة ومحمد إلى استراباذ وكل أمير على أقطاعه والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتفاض الصلح والمصاف الرابع بين

السلطانين وحصار محمد بأصفهان

لما انصرف السلطان محمد إلى استراباذ وكان اتهم الأمراء الذين سعوا في الصلح بالخديعة فصار إلى قزوين ودرس إلى رئيسها لأن يصنع صنيعاً ويدعوه إليه مع الأمراء ففعل وجاء السلطان إلى الدعوة وقد تقدم إلى أصحابه بحمل السلاح ومعه يشمك وأفتكين من أمرائه فقبض عليهما وقتل يشمك وسمل أفتكين وورد عليه الأمير نبال بن أنشوركس الحسامي نازعاً عن أخيه بركيارق.

ولما التقى الفريقان حمل سرخاب بن كيخسرو الديلمي صاحب ساوة على نبال الحسامي فهزمه واتبعه عامة العسكر واستولت الهزيمة على عسكر محمد ومضى بعضهم إلى طبرستان وبعضهم إلى قزوين وذلك في جمادى من سنة خمس وتسعين لأربعة أشهر من المصاف قبله ولحق محمد في الغل بأصفهان ومعه نبال الحسامي وأصفهان في حكمه فحصبها وسد ما ثلم من سورها وأعظم الخندق وفرق الأمراء في الأسوار وعلى الأبواب ونصب المجانيق وجاء بركيارق في خمسة عشر ألف مقاتل فأقام محاصراً للبلد حتى اشتد الحصار وعمدت الأقوات واستقرض

الملك بأصفهان وثار الجند بعده بنيران شاه فصار إلى مدينة كرمان فمنعه أهلها ونهبوه فقصد قلعة سهدم واستجار بصاحبها محمد بهستون وبعث أرسلان شاه عساكر لحصارها فطرده بهستون وبعث مقدم العساكر في طلبه فجيء به أسيراً وبأبي زرعة الكاتب معه فقتلها أرسلان شاه واستولى على بلاد كرمان.

وكان بركيارق كثيراً ما يسلمهم على من يريد قتله من الأمراء مثل أنز شحنة أصفهان وأرغش وغيرهم فأمنوا جانبهم وانتشروا في عسكره وأغروا الناس ببدعتهم وتجاوزوا إلى التهديد عليها حتى خافهم أعيان العسكر وصار بركيارق يصرفهم على أعدائه والناس يتهمونه باليل إليهم فاجتمع أهل الدولة وعذلوا بركيارق في ذلك فقبل نصيحتهم وأمر بقتل الباطنية حيث كانوا فقتلوا وشردوا كل مشرد وبعث إلى بغداد بقتل أبي إبراهيم الاستراباذي الذي بعثه أبو الأغبر لاستقصاء أموال مؤيد الملك وكان يتهم بمذهبهم فقتل وقتل بالعسكر الأمير محمد من ولد علاء الدين بن كاكويه وهو صاحب مدينة تيرد وكان يتهم بمذهبهم وسعى بالكيا الهراسي مدرّس النظامية أنه باطني فأمر السلطان محمد بالقبض عليه حتى شهد المستظهر ببراءته وعلمو درجته في العلم فأطلقه وحسنت علّة الباطنية بين الجمهور وبقي أمرهم في القلاع التي ملكوها أن انقضوا كما تقدم في أخبارهم مستوفى.

المصاف الثالث بين بركيارق ومحمد

والصلح بينهما

ولما رحل بركيارق عن بغداد إلى واسط ودخل إليها السلطان محمد أقام بها إلى منتصف المحرم من سنة خمس وتسعين ثم رحل إلى همدان وصحبته السلطان سنجر لقصد خراسان موضع إمارته وجاءت الأخبار إلى المستظهر باعتزام بركيارق على المسير إلى بغداد ونقل له عنه قبائح من أقواله وأفعاله فاستدعى السلطان محمداً من همدان وقال: أنا أسير معك لقتاله فقال محمد: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين.

ورجع ورتب ببغداد أبا المعالي شحنة وكان بركيارق لما سار من بغداد إلى واسط هرب أهلها منه إلى الزبديّة ونزل هو بواسط عليلاً فلما أفاق أراد العبور إلى الجانب الشرقي فلم يجد سفناً ولا نواتية وجاءه القاضي أبو علي الفارسي إلى العسكر واجتمع بالأمير أياز والوزير فاستعطفهما لأهل واسط وطلب إقامة الشحنة بينهم فبعثاه وطلباً من القاضي من يعبر فأحضر لهم رجالاً عبروا

وبنى قلعة بالأبلة وقلعة بالشاطئ وقلعة مطاري وأسقط كثيراً من المكوس وأتسعت إمارته لشغل السلاطين بالفتنة وملك المسبار أضافها إلى ما بيده.

ولما كان سنة خمس وتسعين طمع في واسط وداخل بعض أهلها وركب إليها السفن إلى نعماء جار وخيم عليها بالجانب الشرقي أياماً ودافعوه فارتحل راجعاً حتى ظن خلاء البلد من الحامية فدمس إليها من يضرهم النار بها ليرجعوا فرجع عنهم فلما دخل أصحابه البلد فتك أهل البلد فيهم وعاد إلى البصرة منهزماً فوجد الأمير أبا سعيد محمد بن نصر بن محمود صاحب الأعمال لعمان وجنابا وشيراز وجزيرة بني نفيس محاصراً للبصرة وكان أبو سعيد قد استبدّ بهذه الأعمال منذ سنين وطمع إسماعيل في الاستيلاء على أعماله وبعث إليها السفن في البحر فرجعوا خائبين فبعث أبو سعيد خمسين من سفنه في البحر فظفروا بأصحاب إسماعيل واتفقوا معهم على الصلح ولم يقع منه وفاء به فسار أبو سعيد بنفسه في مائة سفينة وأرسل بفوهة نهر الأبلة ووافق دخول إسماعيل من واسط فتزاحفوا برأً وبحراً فلما رأى إسماعيل عجزه عن المقاومة كتب إلى ديوان الخليفة بضممان البلد ثم تصالحا ووقعت بينهما المهادنة وأقام إسماعيل مستبدّاً بالبصرة إلى أن ملكها من يده صدقة بن مزيد في المائة الخامسة كما مرّ في أخباره وهلك برامهرمز.

وفاة كربوقا صاحب الموصل واستيلاء

جكرومش عليها واستيلاء سقمان بن ارتق

على حصن كيفا

كان السلطان بركيارق أرسل كربوقا إلى أذربيجان لقتال مردود بن إسماعيل بن ياقوتي الخارج بها سنة أربع وتسعين فاستولى على أكثر أذربيجان من يده ثم توفي منتصف ذي القعدة سنة خمس وتسعين وكان معه أصبهيد صباوو بن خمارتكنين واستقرجه من بعده وأوصى الترك بطاعته فسار سنقرجه إلى الموصل واستولى عليها.

وكان أهل الموصل لما بلغهم وفاة كربوقا قد استدعوا موسى التركماني من موضع نيابته عن كربوقا بمصن كيفا للولاية عليهم فيأبدر إليهم وخرج سنقرجه لقاتله فظن أنه جاء إليه وجرت بينهما محاورات وردّ سنقرجه الأمر إلى السلطان قال الأمر بينهما إلى المطاعة وكان مع موسى منصور بن مروان بقية أمراء ديار بكر

محمد المال للجنّد من أعيان البلدة مرّة بعد أخرى فلما جهده الحصار خرج من البلد ومعه الأمير نبال وترك باقي الأمراء.

وبعث بركيارق الأمير أياز في عسكر لطلبه فلم يدركه وقيل: بل أدركه وذكره العهد فرجع عنه بعد أن أخذ رايته وجشره وثلاثة أحمال من المال ولما خرج محمد عن أصفهان طمع المفسدون والسوادية في نهبا فاجتمع منهم ما يزيد على مائة ألف وزحفوا بالسلام والذبابات وطمّوا الخندق وصعدوا في السلام بإشارة أهل البلد وجذّوا في دفاعهم وعادوا خائبين.

ورحل بركيارق آخر ذي القعدة من سنة خمس وتسعين واستخلف على البلاد القديم الذي يقال له شهرستان مرشد الهراس في ألف فارس مع ابنه ملك شاه وسار إلى همدان وفي الحصار قتل وزير بركيارق الأغرّ أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني عرض له يوماً بعض الباطنية عندما ركب من خيمته لباب السلطان طعنه طعنات وتركه بآخر رمق وقتل غلام من غلمان بعض المكوس للوزير نار فيه بمولاه.

وكان كريماً واسع الصدر وولى الوزارة على حين فساد القوانين وقلة الجباية فكان يضطرّ لأخذ أموال الناس بالإخافة فنفرت الصفوة منه ولما مات استوزر بركيارق بعده الخطير أبا منصور الميذي كان وزيراً لمحمد وقد وكله في الحصار ببعض الأبواب فبعث إليه محمد نبال بن أبي شكين يطالبه بالأموال لإقامة العسكر فخرج من الباب ليلاً ولحق ببلده وامتنع بقلعتها فأرسل السلطان بركيارق إليها عساكر وحاصروها حتى استأمن وجاء عند قتل وزيره الأغر فاستوزره بركيارق مكانه والله تعالى أعلم بنيه.

مسير صاحب البصرة إلى واسط

كان صاحب البصرة لهذا العهد إسماعيل بن أرسلان حين كان السلطان ملك شاه شحنة بالريّ وولاه عليها عندما اضطّر أهلها وعجز الولاة عنهم فحسنت كفايته وأثنى فيهم وأصلح أمرها ثم عزل عنها وأقطع السلطان بركيارق البصرة للأمير قماج وكان ممن لا يفارقه فاختر إسماعيل لولاية البصرة ثم نزح قماج عن بركيارق وانتقل إلى خراسان فحدثت إسماعيل نفسه بالاستبداد بالبصرة وانتقض وزحف إليه مهذّب الدولة بن أبي الخير من البطيحة ومعقل بن صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي من الجزيرة في العساكر والسفن فقاتلوه في مطاري وقتل معقل بسهم أصابه فعاد ابن أبي الخير إلى البطيحة فأخذ إسماعيل السفن وذلك سنة إحدى وتسعين أسرها واستفحل أمره بالبصرة

وخرج فيها أبو الغازي بن أرتق وأصحاب المستظهر فصار نبال إلى أذربيجان ورجعوا عنه.

ولاية كمستكين النصيري شحنة بغداد وفتنته مع أبي الغازي وحره

كان أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد ولاء عليها السلطان محمد عند مقتل كوهرائين ولما ظهر الآن بركيارق على محمد وحاصره بأصفهان ونزل بركيارق همذان وأرسل إلى بغداد كمستكين النصيري في ربيع سنة ست وتسعين وسمع أبو الغازي بمقدمه فاستدعى أخاه سقمان بن أرتق من حصن كيفا يستنجد به وسار إلى صدقة بن مزيد فحالفه على النصرة والمدافعة ورجع إلى بغداد ووصل إليه أخوه سقمان بعد أن نهب في طريقه ووصل كمستكين إلى قرقيسيا ولقبه شيعة بركيارق وخرج أبو الغازي وسقمان عن بغداد ونهب قرى دجيل واتبعتهما العساكر ثم رفعت عنهما وأرسل كمستكين إلى صدقة صاحب الخلعة فامتنع من طاعة بركيارق وسار من الخلعة إلى صرصر وقطع خطبة بركيارق وعبر بغداد واقتصر على الدعاء للخليفة وبعث صدقة إلى أبي الغازي وسقمان يعرفهما بوصوله وهما بالحرني وجاء إلى دجيل

ونهب القرى واشتد فسادهم وأضر ذلك بحال بغداد في غلاء الأسعار وجاء أبو الغازي وسقمان ومعهما ديبس بن صدقة فخيما بالرملة وقتلهم العامة فقتلوا فيهم.

وبعث المستظهر قاضي القضاة أبا الحسن الدامغانى وتاج الرؤساء بن الرحلات إلى صدقة بن مزيد بمراجعة الطاعة فشرط خروج كمستكين عن بغداد فأخرجه المستظهر إلى النهروان وعاد صدقة إلى الخلعة وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد.

ثم سار كمستكين النصيري إلى واسط وخطب فيها لبركيارق ونهب عسكره سوادها فصار صدقة وأبو الغازي إليه وأخرجاه من واسط ونحصر بدجلة فقصده صدقة فانفض عنه أصحابه ورجع إلى صدقة بالأمان فأكرمه وعاد إلى بركيارق وأعدت خطبة السلطان محمد بواسط وبعده لصدقة وأبي الغازي وولّى كل واحد فيها ولده وعاد أبو الغازي إلى بغداد وعاد صدقة إلى الخلعة وبعث ابنه منصوراً مع أبي الغازي يطلب الرضا من المستظهر لأنه كان سخطه من أجل هذه الحادثة.

وضرب سنقرجه فأبان رأسه وملك موسى البلد ثم زحف جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر إلى نصيين فملكها وخالفه موسى إلى الجزيرة فبادر إليه جكرمش وهزمه واتبعه إلى الموصل فحاصره بها فبعث موسى إلى سقمان بن أرتق بديار بكر يستنجد به على أن يعطيه حصن كيفا فصار سقمان إليه وأفرج عنه جكرمش. وخرج موسى للقاء سقمان فقتله مواله ورجع سقمان إلى كيفا وجاء جكرمش إلى الموصل فحاصرها وملكها صلحاً واستلم قتل موسى ثم استولى بعد ذلك على الخابور وأطاعه العرب والأكراد وأيما سقمان بن أرتق فصار بعد مقتل موسى إلى حصن كيفا واستمر بيده.

قال ابن الأثير: وصاحبها الآن في سنة خمس وعشرين وستمئة محمود بن محمد بن القراء.

وكان صاحبها سنة عشرين وستمئة غازي بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق والله تعالى أعلم.

أخبار نبال بالعراق

كان نبال بن أبي شتكين الحسامي مع السلطان محمد بأصفهان لما حاصرها بركيارق بعد المصاف الرابع سنة خمس وتسعين فلمّا خرج محمد من الحصار إلى أذربيجان ومعه نبال استأذنه في قصد الريّ ليقم بها دعوتهم وسار هو وأخوه عليّ وعسف بأهل الريّ وصادروهم وبعث السلطان بركيارق الأمير برسق بن برسق في ربيع من سنة ست وتسعين فقاتله وهزمه واستولى برسق على الريّ وأعاده على ولاية بقزوين وسلك نبال على الجبال وهلك كثير من أصحابه وخلص إلى بغداد فأكرمه المستظهر وأظهر طاعة السلطان محمد وتحالف هو وأبو الغازي وسقمان بن أرتق على مناصحة السلطان محمد وساروا إلى صدقة بن مزيد بالخلعة فاستحلفوه على ذلك.

ثم إنّ نبال بن أبي شتكين عسف بأهل بغداد وتسلب عليهم وصادر العمال فاجتمع الناس إلى أبي الغازي بن أرتق وكان نبال صهره على أخته التي كانت زوجاً لتش وطلبوا منه أن يشفع لهم عنده وبعث المستظهر إليه قاضي القضاة أبا الحسن الدامغانى بالنهي عمّا يرتكبه فأجاب وحلف ثم نكث فأرسل المستظهر إلى صدقة بن مزيد يستدعيه فوصل في شوال من السنة واتفق مع نبال على الرحيل من بغداد ورجع إلى حلته وترك ولده ديبساً يزعم نبال للخروج فصار نبال إلى أوان، وعاث في السابلة وأقطع القرى لأصحابه وبعث إلى صدقة فأرسل إليه العساكر

المصاف الخامس بين بركيارق ومحمد

كان السلطان محمد لما سار عن كنجة وبلاد أران استخلف بها الأمير غزغلي وأقام بها في طائفة من عسكره مقيماً خطبة السلطان محمد في جميع أعماله إلى زنگان من آخر أذربيجان فلما انحصر محمد بأصفهان سار غزغلي لإنجاده ومعه منصور بن نظام الملك ومحمد ابن أخيه مؤيد الملك فانتهروا إلى الري وملكوها آخر خمس وتسعين ولقوا السلطان عمداً بهمدان عندما خرج من أصفهان ومعه نبال بن أبي شكين وأخوه علي وأقاموا معه بهمدان ثم جاء الخبر بمسير بركيارق إليهم فتوجه السلطان عمداً قادماً شروان وانتهى إلى أذربيجان فبعث إليه مودود بن إسماعيل بن ياقوتي الذي كان بركيارق قتل أباه إسماعيل وكانت اخت مودود هذا تحت محمد وكان له طائفة من أعمال أذربيجان فاستدعى عمداً ليطاهره على بركيارق فسار إليه وانتهى إلى سقمان وتوفي مودود في ربيع سنة ست وتسعين واجتمع عساكره على السلطان محمد وفيهم سقمان القطبي ومحمد بن ياغي سياه، الذي كان أبوه صاحب أنطاكية.

ونزل أرسلان بن السبع الأحمر فسار إليهم بركيارق وقاتلهم على خراسان وسار أياز من عسكر بركيارق وجاء من خلف السلطان محمد فانهزم محمد وأصحابه ولحق بارقيش من أعمال خلاط ولقيه الأمير علي صاحب أرزن الروم فمضى إلى أصفهان وصاحبها منوچهر آخر فضلون الروادي ثم سار إلى هرمز وأما محمد بن مؤيد الملك بن نظام الملك فنجا من الوقعة إلى ديار بكر ثم إلى جزيرة ابن عمر ثم إلى بغداد وكان أيام أبيه مقيماً ببغداد في جوار المدرسة النظامية فشكى إلى أبيه وخاطب كهرائين بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة ولحق سنة اثنتين وتسعين بمجد الملك البارسلاني وأبوه بكنجة عند السلطان محمد فلما خطب السلطان محمد لنفسه واستوزر أباه مؤيد الملك ولحق محمد هذا بأبيه ثم قتل أبوه وبقي في جملة السلطان محمد.

استيلاء ملك بن بهرام على مدينة عانة

كان ملك بن بهرام بن أرتق ابن أخي أبي الغازي بن أرتق مالكاً مدينة سروج فملكها الفرنج من يده فسار عنها إلى عانة وغلب عليها بني العيش بن عيسى من خلاط وكانت لهم فقصدوا صدقة بن مزيد مستنجدين به فالتجدهم وجاء معهم فرحل ملك بن بهرام والتركمان عنها ودخلها بنو العيش وأخذ صدقة رهائنهم

وعاد إلى الحلة فرجع ملك إليها في ألفي رجل من التركمان وحاربها قليلاً ثم عبر المخاضة وملكها واستباح أهلها ومضى إلى هيت ورجع عنها.

الصلح بين السلطان بركيارق ومحمد

ثم استقر الأمر آخراً بالسلطان بركيارق في الري وكان له الجبال وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين ولمحمد أذربيجان وبلاد أران وأرمينية وأصفهان والعراق جميعاً غير تكريت والبطائح بعضها وبعضها والبصرة لهما جميعاً وخراسان لسنجر من جرجان إلى ما وراء النهر يخطب فيها لأخيه محمد وله من بعده والعساكر كلهم يتحكمون عليهم بسبب الفتنة بينهما وقد تطاول الفساد وعمُ الضرر واختلفت قواعد الملك فأرسل بركيارق إلى أخيه محمد في الصلح مع فقيهين من أمثال الناس ورغباه في ذلك وأعاد معهما رسلاً آخرين وتقرر الأمر بينهما أن يستقر محمد على ما بيده سلطاناً ولا يعارضه بركيارق في الطبل ولا يذكر اسمه في أعمال محمد وأن المكتبة تكون بين الوزيرين والعساكر بالخيار في خدمة من شاؤوا منهما ويكون للسلطان محمد من النهر المعروف باسترداباذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والعراق بلاد صدقة بن مزيد وبقية الممالك الإسلامية لبركيارق.

وتحالفوا على ذلك وانتظم الأمر وأرسل السلطان محمد إلى أصحابه بأصفهان بالخروج عنها لأخيه بركيارق واستدعاهم إليه فأبوا وجنحوا إلى خدمة بركيارق وساروا إليه بحريم السلطان محمد الذي كانوا معهم فآكرمهم بركيارق ودلهم إلى أصحابهم.

وحضر أبو الغازي بالديوان ببغداد وسار المستظهر في الخطبة لبركيارق فخطب له سنة سبع وتسعين وكذلك بواسط وكان أبو الغازي قبل ذلك في طاعة محمد فأرسل صدقة إلى المستظهر يذله في شأنه ويخبره بالمسير لإخراجه من بغداد ثم سار صدقة ونزل عند الفجاج وخرج أبو الغازي إلى عفرقوبا وبعث لصدقة بأنه إنما عدل عن طاعة محمد للصلح الواقع بينه وبين أخيه وأنهما تراضيا على أن بغداد لبركيارق وأنا شحنة بها واقطاعي حلوان فلا يمكنني التحول عن طاعة بركيارق فقبل منه ورجع إلى الحلة وبعث المستظهر في ذي القعدة سنة سبع وتسعين بالخلع للسلطان بركيارق والأمير أياز والوزير الخطير واستحلفهم جميعاً وعاد إلى بغداد والله سبحانه ولي التوفيق.

حرب سقمان وجكرمش الإفرنج

قد تقدّم لنا استيلاء الإفرنج على معظم بلاد الشام وشغل الناس عنهم بالفتنة وكانت حرّان لقراجا من مماليك ملك شاه وكان غشوماً فخرج منها لبعض مذهبيه وولّى عليها الأصفهاني من أصحابه فعصى فيها وطرد أصحاب قراجا منها ما عدا غلاماً تركياً اسمه جاوولي جعله مقدّم العسكر وأيس به فقرّره وتركه وملك حرّان وسار الإفرنج إليها وحاصروها وكان بين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسقمان صاحب كيفا حروب وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه فانتدبا لنصر المسلمين واجتمعا على الخابور وتحالفا وسار سقمان في سبعة آلاف من التركمان وجكرمش في ثلاثة آلاف من الترك والعرب والأكراد والتقوا بالإفرنج على نهر بلخ فاستطرد لهم المسلمون نحو فرسخين ثم كرّوا عليهم فقتلوا فيهم وقتلوا سوادهم.

وأخذ القمص بردويل صاحب الرها أسره تركماني من أصحاب سقمان في نهر بلخ وكان يميند صاحب أنطاكية من الإفرنج وطنكري صاحب الساحل منهم قد كمنوا وراء الجبل ليأتيا المسلمين من ورائهم عند المعركة

فلما عاينوا الهزيمة كمنوا يومهم ثم هربوا فاتبعهم المسلمون واستلحموهم وأسروا منهم كثيراً وفلت يميند وطنكري بدماء أنفسهم ولما حصل الظفر للمسلمين عصى أصحاب جكرمش باختصاص سقمان وشق ذلك عليه وأراد أصحابه فأبى حذراً من افتراق المسلمين ورحل وفتح في طريقه عدّة حصون وسار جركمش إلى حرّان ففتحها ثم سار إلى الرها فحاصرها خمس عشرة ليلة وعاد إلى الموصل وقاد من القمص بخمسة وثلاثين ألف ديناراً ومائة وستين أسيراً من المسلمين.

وفاة بركيارق وولاية ابنه ملك شاه

ثم توفي السلطان بركيارق بن ملك شاه بنزدرجرد في أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين لاثنتي عشرة سنة ونصف من ملكه جاء إليها عليلًا من أصفهان واشتد مرضه بنزدرجرد فولّى عهده لابنه ملك شاه وعمره نحو من خمس سنين وخلع عليه وجعل الأمير أياز كافله وأوصى أهل الدولة بالطاعة والمساعدة وبعثهم إلى بغداد فأدركهم خبر وفاته بالطريق ورجع أياز حتى دفنه بأصفهان وجع السراقات والخيام والجشر والشمسية لابنه ملك شاه وكان بركيارق قد لقي في ملكه من الرخاء والشدة والحرب

والسلم ما لم يلقه أحد فلما استقرّ واستقامت سعاداته أدركته المنية ولما توفي خطب لابنه ملك شاه ببغداد وكان أبو الغازي قد سار من بغداد إليه وهو بأصفهان يستحثّه إلى بغداد وجاء معه فلما مات سار مع ابنه ملك شاه والأمير أياز إلى بغداد وركب الوزير أبو القاسم عليّ بن جهير فلقبهم به مالي وحضر أبو الغازي والأمير طغايترك بالديوان وطلبا الخطبة لملك شاه فخطب له ولقب بالقباب جده ملك شاه.

حصار السلطان محمد الموصل

لما انعقد الصلح بين بركيارق ومحمد واختص كل منهما أعماله وكانت أذربيجان في قسمة محمد رجع محمد إلى أذربيجان وحق به سعد الملك أبو الحاسن الذي كان نائباً بأصفهان بعد أن أبلى في المدافعة عنها ثم سلمها بعد الصلح إلى نواب بركيارق واستورزه فأقام محمد إلى صفر من سنة ثمان وتسعين ثم سار يريد الموصل على طريق مراغة ورحل وبلغ الخبر إلى جكرمش فاستعدّ للحصار وأدخل أهل الضاحية إلى البلد وحاصره محمد ثم بعث له يذكره ما استقرّ عليه بينه وبين أخيه وأنّ الموصل والجزيرة له وعرض عليه خط بركيارق بذلك وبإيمانه عليه ووعدّه أن يقرّها في عمالته فقال له جكرمش: إنّ السلطان كتب إليّ بعد الصلح بخلاف ذلك فاشتدّ في حصاره واشتدّ أهل البلد في المدافعة ونفّس الله عنهم برخص الأسعار وكان عسكر جكرمش مجتمعين قريباً من الموصل وكانوا يغزون على أطراف العسكر ويمنعون عنهم الميرة ثم وصل الخبر عاشر جمادى الأولى بوفاة السلطان بركيارق فاستشار جكرمش أهل البلد فردّوا النظر إليه واستشار الجند فأشاروا بطاعة السلطان محمد فأرسل إليه بذلك واستدعى وزيره سعد الملك فدخل عليه وأشار عليه ببقاء السلطان فخرج إليه على كره من أهل البلد فتلّقه السلطان بالكرامة وأعادته سريعاً إلى البلد ليطمئن الناس.

استيلاء السلطان محمد على بغداد وخلع

ملك شاه ابن أخيه ومقتل أياز

قد كنا قدّمنا صلح بركيارق وأخيه محمد من أنه يستقل بركيارق بالسلطنة وينفرد محمد بالأعمال التي ذكرنا وموت بركيارق أثر ذلك وتقدّم ابنه ملك شاه ببغداد.

فوصل الخبر بذلك إلى محمد وهو يحاصر الموصل فأطاعه

استيلاء سقمان بن أرتق على ماردین لا

موته

كان هذا الحصن في ديار بكر أقطعه السلطان بركيارق لمنزله كان عنده وكان حوالها خلق كثير من الأكراد يغيرون عليها ويخيفون ساكنيها.

واتفق أن كربوقا خرج من الموصل لحصار آمد وكانت لبعض التركمان فاستنجد بسقمان فسار لإنجاده ولقيه كربوقا ومعه زنكي بن أفسنقر وأصحابه وأبلوا ذلك اليوم بلاء شديداً فانهمز وأسر ابن أخيه ياقوتي بن أرتق فحبسه بقلعة ماردین عند المغني فبقي مدة محبوساً وكثر خروج الأكراد بنواحي ماردین فبعث ياقوتي إلى المغني يسأله أن يطلقه ويقيم عنده بالريف لدفاع الأكراد ففعل وصار يغير عليهم في سائر النواحي إلى خلاط وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للإغارة فلا يهجمهم ثم حدثت نفسه بالتوئب على القلعة فقبض عليهم بعض الأيام بعد مرجعه من الإغارة ودنا من القلعة وعرضهم للقتل إن لم يفتحها أهلوه ففتحوها وملكها وجمع الجموع وسار إلى نصيبين وإلى جزيرة ابن عمر وهي لجكرمش فكبسه جكرمش وأصحابه، وأصابه في الحرب سهم فقتله وبكاه جكرمش وكانت تحت ياقوتي بنت عمه سقمان فمضت إلى أبيها وجمعت التركمان وجاء بهم إلى نصيبين لطلب الثأر فبعث إليه جكرمش ما أراضه من المال في دية فرجع وأقام بماردین بعد ياقوتي أخوه على طاعة جكرمش وخرج منها لبعض المذاهب وكتب نائبه بها إلى عمه سقمان بأنه تملك ماردین على جكرمش فبادر إليها سقمان واستولى عليها وعوض عنها ابن أخيه جبل جور وأقامت ماردین في حكمه مع حصن كيفا واستضاف إليها نصيبين ثم بعث إليها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يستنجد على الإفرنج وكان استبد بها على الخلفاء العبيديين أهل مصر وثار له الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصليبيخ إلى سقمان بن أرتق سنة ثمان وتسعين فأجابه وبينما هو يتجهز للمسير وإفاه كتاب طغتكين صاحب دمشق المستبد بها من موالي بني تش يستدعيه لحضور وفاته خوفاً على دمشق من الفرنج فأسرع السير معتزماً على قصد طرابلس وبعدها فانتهى إلى القرينتين وندم طغتكين على استدعائه وجعل يدبر الرأي مع أصحابه في صرفه ومات هو بالقرينتين فكفاهم الله تعالى أمره وقد كان أصحابه عندما أيقن بالموت أشاروا عليه بالعودة إلى كيفا فامتنع وقال: هذا جهاد وإن مت كان لي ثواب شهيد.

جكرمش وسار محمد إلى بغداد ومعه جكرمش وسقمان القطبي مولى قطب الدولة إسماعيل بن ياقوتي عم ملك شاه ومحمد وغيرهما من الأمراء وجمع صدقة صاحب الحلة العساكر وبعث ابنه بدران وديساً إلى محمد يستحثانه وجاء السلطان محمد إلى بغداد فاعتزم الأمير أياز أتاك ملك شاه على دفاعه وخيم خارج بغداد وأشار عليه بذلك أصحابه وخالفهم وزيره أبو المحاسن الضبيعي وأبلغ في النصيحة له بطاعة السلطان فأقام متردداً ونزل محمد بالجانب الغربي وخطب له هناك منفرداً ولهما معاً في بعض الجوامع واقتصروا على السلطان العالم في بعضها.

ورجع أياز إلى استخلاف الأمراء ثانياً فوقف بعضهم وقال: لا فائدة في إعادة اليمين وارتاب أياز عندها وبعث وزيره الضبيعي أبا المحاسن لعقد الصلح مع السلطان واستخلافه فقرأ على وزيره سعد الملك أبي المحاسن سعد بن محمد فدخل معه إلى السلطان وأجابه إلى ما طلب وجاء معه من الغد قاضي القضاة والمفتيان واستخلافه لأياز وللأمراء فحلف إلا أن ينال الحسامي وقال: أما ملك شاه فهو ابني وأنا أبوه. وجاء أياز من الغد وقارن وصول صدقة بن مزید فانزلهما واحتفى بهما وذلك آخر جمادی الأولى من سنة ثمان وتسعين.

ثم احتفل أياز بعدها في عمل صنع للسلطان في بيته وهي دار كوهراين وأهدى إليه تحفاً من جملتها جبل البلخش الذي أخذه من تركة نظام الملك بن مؤيد الملك واتفق أن أياز تقدم لمواليه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان وكان عندهم مصفعان فالبسوه درعاً تحت ثيابه وتناولوه بالنخس فهرب عنهم ودخل في حاشية السلطان مذعوراً فلمسوه فإذا الدرع تحت ثيابه فارتابوا ونهض السلطان إلى داره ثم دعا الأمراء بعد ذلك بأيام فاستشارهم في بعث يبعثهم إلى ديار بكر أن أرسلان بن سليمان بن قطلمش قصدها فاتفقوا على الإشارة بمسير أياز وطلب هو أن يكون معه صدقة بن مزید فأسعفه السلطان بذلك واستدعاهما لإنفاذ ذلك وقد أرسد في بعض المخادع بطريقهم جماعة لقتل أياز فلما مر بهم تعاوخته سيوفهم وقطع رأسه وهرب صدقة وأغمي على الوزير وهرب عسكر أياز فنهوا داره وأرسل السلطان من دفعهم عنها وسار السلطان من بغداد إلى أصفهان وهذا أياز من موالي السلطان ملك شاه ثم سار في جملة ملك آخر فساء وأما الضبيعي وزير أياز فاختفى أشهراً ثم حمل إلى الوزير سعد الملك في رمضان فلما وصل كان ذلك سبب رياسته بهمدان.

خروج منكبرس على السلطان محمد ونكته

كان منكبرس بن بورس بن الب أرسلان مقيماً بأصفهان وانقطعت عنه المواد من السلطان فخرج إلى نهاوند ودعا لنفسه وكاتب الأمراء بني برسق بخوزستان ويعثوا به إلى طاعته وكان أخوهم زنكي عند السلطان محمد فقبض عليه وكاتب إخوته في التدبير على منكبرس فأرسلوا إليه بالطاعة حتى جاءهم فقبضوا عليه بخوزستان ويعثوا به إلى أصفهان فاعتقل مع ابن تش وأطلق زنكي بن برسق وأعيد إلى مرتبته وكانت أقطاع بني برسق الأسير وسابور وخوزستان وغيرهما ما بين الأهواز وهمذان فعوضهم عنها بالدينور وأخرجهم من تلك الناحية والله تعالى أعلم.

مقتل فخر الملك بن نظام الملك

قد ذكرنا قبل أن فخر الملك بن نظام الملك كان وزيراً لتش ثم حبسه ولما هزمه بركيارق وجده في محبسه أطلقه وكان أخوه مؤيد الملك وزيراً له فمال إليه فخر الدولة بسعاية مجد الملك البارسلاني واستوزره سنة ثمان وثمانين ثم فارق وزارته ولحق بسنجر بن ملك شاه بخراسان فاستوزره فلما كان في آخر المائة الخامسة جاء باطني يتظلم إلى باب داره فأدخله يسمع شكواه فطعنه بخنجر فقتله وأمر السلطان سنجر بضربه فافقر على جماعة من الناس وقتل.

ولاية جاولي سكاوو على الموصل وموت

جكرمش

كان جاولي سكاوو قد استولى على ما بين خوزستان وفارس فعمر قلاعها وحصنها وأساء السيرة في أهلها فلما استقل السلطان محمد بالملك خافه جاولي وأرسل السلطان إليه الأمير مودود بن أنوتكين فتحصن منه جاولي وحاصره مودود ثمانية أشهر ودس جاولي إلى السلطان بطلب غيره فأرسل إليه خاتمه مع أمير آخر فسار إليه بأصفهان وجهزه في العساكر لجهاد الإفرنج بالشام واسترجاع البلاد منهم وكان جكرمش صاحب الموصل قد قطع الحمل فاقطع السلطان الموصل وديار بكر والجزيرة لجاولي فسار إلى الموصل وجعل طريقه على البواريج فاستباحها إياماً ثم سار إلى إربل وكان صاحبها أبو الهيجاء بن برشك الكردي الهرباني إلى جكرمش يستحثه فسار في عسكر الموصل والتقوا قريباً من

إربل فانهزم أصحاب جكرمش وكان يحمل في الحفة فقاتل عنده غلمانه وأحمد بن قاروت بك فخرج وانهزم إلى الموصل ومات وجيء بجكرمش فحبسه ووصل من الغد إلى الموصل فولوا أزنكين بن جكرمش.

وأقام بالجزيرة وقام بأمره غزغلي مولى مولى أبيه وفرق الأموال والخيول وكتب إلى قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وكان قد شيد الموصل وبنى أسوارها وحصنها بالخندق وبينما هو كذلك سار إليه قليج أرسلان من بلاد الروم باستدعاء غزغلي كما تقدم.

وانتهى إلى نصيبين فرحل جاولي عن الموصل ثم جاء البرسقي شحنة بغداد ونزل عن الموصل وخاطبهم فلم يجيبوه فرجع من يومه وسار قليج أرسلان من نصيبين إلى الموصل وتأخر عنها جاولي إلى سنجر واجتمع أبو الغازي بن ارتق وجماعة من عسكر جكرمش وجاء صريح رضوان بن تش من الشام على الإفرنج فسار إلى الرحبة وبعث أهل الموصل وعسكر جكرمش إلى قليج أرسلان بنصيبين واستحلفوا فحلف وجاء إلى الموصل فملكها في منتصف ختام المائة الخامسة وخلع على ابن جكرمش وخطب لنفسه بعد الخليفة وقطع خطبة السلطان محمد وأحسن إلى العسكر وأخذ القلعة من غزغلي فولى جكرمش وأقر القاضي أبا محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري على القضاء وجعل الرئاسة لأبي البركات محمد بن خيس وكان في جملة فلهم أرسلان إبراهيم بن نبال التركماني صاحب آمد ومحمد بن حوا صاحب خرتبرت كان إبراهيم بن نبال تش على آمد فبقيت بيده وكان ابن حوا ملك خرتبرت من يد القلادروس ترجمان الروم كانت له الرها وأنطاكية فملك سليمان قطنلش أنطاكية وبقيت له الرها وخرتبرت وأسلم القلادروس الرها.

فلما ولي فخر الدولة بن جهر ديار بكر ضعف القلادروس عن الرها على يد ملك شاه وأمره عليها ولما سار جاولي إلى الرحبة قاصداً صريح رضوان بن تش نزل عليها آخر رمضان من السنة وحاصرها وبها محمد بن السباق من بني شيبان ولأه عليها دقاق فاستبد بها وخطب لقليج أرسلان فحاصره جاولي وكتب إلى رضوان يستدعيه ويعدو بالمسير معه للدفاع فجاء رضوان وحاصر معه الرحبة ثم دس إلى جاولي جماعة من حامية الأسوار فوثبوا بها ودخلوا وملك البلد وأبقى على محمد الشيباني وسار معه.

ثم أن قليج أرسلان لما فرغ من أمر الموصل ولّى عليها ابنه ملك شاه في عسكر ومعه أمير يديره وسار إلى قتال جاولي ورجع عنه إبراهيم بن نبال إلى بلدة آمد من الخابور فبعث إلى بلده في

الجميع إلى مصر في البحر.

استيلاء مودود بن أبي شتكين على الموصل من يد جاولي

قد تقدّم لنا استيلاء جاولي على الموصل من يد فليج بن أرسلان وابن جكرمش وهلاكهما على يده واستفحل ملكه بالموصل وجعل السلطان محمد بن أليّة ولاية ما يفتحه من البلاد له فقطع الحمل عن السلطان واستغفره لحرب صدقة فلم ينفّر معه ودخل صدقة بانه معه فلماً فرغ السلطان من أمر صدقة بعث مودود بن أبي شتكين في العساكر وولاه الموصل وبعث معه الأمراء ابن برسق وسقمان القطبي وأفسقر البرسقي ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي وأبو الهيجاء صاحب إربل مدداً فوصلوا الموصل وخيموا عليها فوجدوا جاولي قد استعدّ للحصار وحبس الأعيان وخرج عن البلد وترك بها زوجته هي وابنه برسق في ألف وخمسمائة مقاتل فأحسن في مصادرة الناس واشتدّ عليهم الحصار فلما كان المحرم سنة اثنتين خرج بعض الحامية من فرجة من السور وأدخلوا منها مودود والعساكر وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام ثم استأمنت وخرجت إلى أخيها يوسف بن برسق بأموالها واستولى مودود على الموصل وأعمالها.

وأما جاولي فلما سار عن الموصل وحمل معه القمص الذي كان أسره بنعمان وأخذه منه جكرمش وسار به إلى نصيبين وسأل من صاحبه أبو الغازي بن أرتق المظاهرة على السلطان فلم يجبه إلى ذلك ورحل عن نصيبين إلى ماردين بعد أن ترك ابنه مقيماً مع الحامية فقبه جاولي ودخل عليه وحده بالقلعة متطارحاً عليه فأجابه وسار معه إلى نصيبين ثم إلى سنجر وحاصرها فامتعت عليهما ثم هرب أبو الغازي ليلاً إلى نصيبين وتركه فسار جاولي إلى الرجة وأطلق القمص بردويل خمس سنين من الصرة على مال قرره عليه وأسرى من المسلمين يطلقهم وعلى النصرة مهما طلبه وأرسله إلى سالم بن مالك بقلعة جعفر حتى جاء ابن خالته جوسكر صاحب تل باشر من زعماء الفرنج وكان أسر مع القمص فاقتدى بعشرين ألف دينار وأقام جوسكر رهينة وسار القمص إلى أنطاكية.

ثم أطلق جاولي جوسكر وأخذ رهناً عنه صهره وصهر القمص وبعثه في إقام ما ضمن ولما وصل إلى أنطاكية أعطاه شكري صاحبها ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك وكانت الرها وسروج بيد القمص ولما أسر ملك جكرمش الرها

الحشد فعاجله جاولي بالحرب والتقا في آخر ذي القعدة من السنة وانهزم أصحاب فليج أرسلان على دفاعه وأعاد الخطبة للسلطان واستصفى أصحاب جكرمش ثم سار إلى الجزيرة وبها حبيس بن جكرمش ومعه غزلي من موالى أبيه فحاصره مدة ثم صالحه على ستة آلاف دينار ورجع إلى الموصل وأرسل ملك شاه من فليج أرسلان إلى السلطان محمد والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل صدقة بن مزيد

ولما استوحش صدقة بن مزيد صاحب الحلة من السلطان محمد سار إليه السلطان وملك أعماله ولقيه صدقة فهزمه السلطان وقتل في المعركة كما ذكرنا ذلك في أخبار صدقة في دولة ملوك الحلة والله سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم ابن عمّار صاحب طرابلس على السلطان محمد

كان فخر الدولة أبو علي بن عمّار صاحب طرابلس استبد بها على العبيدين فلما ملك الإفرنج سواحل الشام ردّوا عليها الحصار فضافت أحوالها فلما انتظم الأمر للسلطان محمد واستقام ملكه قصده فخر الملك بن عمّار صريحاً للمسلمين بعد أن استخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب وفرق في الجند عطاءهم لسته أشهر ورتب الجامكية في مقاعدهم للقتال وسار إلى دمشق فلقية طغتكين أتابك وخيم بظاهرها أياماً ورحل إلى بغداد فأركب السلطان الأمراء لتلقيه ولم يدخر عنه براً ولا كرامة وكذلك الخليفة وأتحف السلطان بهدايا وذخائر نفيسة وطلب النجدة وضمن الثقة على العسكر فوعده بالنصر وأقام ثم لقي الأمير حسين بن أتابك طغتكين ليسير بالعساكر إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال صدقة جاولي ثم يسير حسين معه إلى الشام ثم رحل السلطان عن بغداد سنة إحدى وخمسمائة لقتال صدقة واستدعى ابن عمّار وهو بالنهروان فودعه وسار معه الأمير حسين إلى دمشق وكان ابن عمّار لما سار عن طرابلس استخلف عليها ابن عمه ذا المناقب فانتقض واجتمع مع أهل طرابلس على إعادة الدولة العلوية وبعثوا إلى الأفضل ابن أمير الجيوش المستبد على الدولة بمصر بطاعتهم ويسألون الميرة فبعث إليهم شرف الدولة بن أبي الطيّب والياً ومعه الزاد من الأقوات والسلام فدخل البلد وقبض على أهل ابن عمّار وأصحابه واستصفى ذخائرهم وحمل

خزائنه فاضطرب أمره وانفض عنه كثير من أصحابه منهم زنكي بن أقتقر ويكتاش وبقي معه أصبهذ صباو ويدران بن صدقة وابن جكرمش وانضم إليه كثير من المتطوعة ونزل تل باشر وأتى عسكر رضوان وشكري وكاد أن يهزمهم لولا أن أصحابه ساروا عنه وسار في اتباعهم فأبوا عليه فمضى منهزماً وقصد أصبهذ الشام ويدران بن صدقة قلعة جعفر وابن جكرمش جزيرة ابن عمر وقتل من المسلمين خلق ونهب صاحب أنطاكية سوادهم وهرب القمص وجوسكر إلى تل باشر وكان المنهزمون من المسلمين يعمرون بهم فيكرمونهم ويميزونهم إلى بلادهم ولحق جاولي بالرحبة فلقى بها سرايا مودود صاحب الموصل وخفي عنهم فارتاب في أمره ولم ير الخير له من قصد السلطان محمد ثقة بما ألقى إليه حسين بن قطلع تكين في شأنه فاوغر في السير ولحق بالسلطان قريباً من أصفهان ونزل حسين بن قطلع فدخل به إلى السلطان فأكرمه وطلب منه بكتاش ابن عمه تش واعتقله بأصفهان.

مقتل مودود بن أنوتكين صاحب الموصل في حرب الإفرنج وولاية البرسقي مكانه

كان السلطان محمد قد أمر مودوداً صاحب الموصل سنة خمس وخمسمائة بالسير لقتال الإفرنج وأمدّه بسقمان القطبي صاحب ديار بكر وأرمينية وأياكي وزنكي ابني برسق أمراء همدان وما جاورها والأمير أحمد بك أمير مراغة وأبو الهيجاء صاحب إربل والأمير أبو الغازي صاحب ماردين وبعث إليه أياز مكانه فسار إلى سنجر وفتحوا حصوناً للإفرنج وحاصروا مدينة الرها فامتنت عليهم وأقام الإفرنج على الفرات بعد أن طرّقوا أعمال حلب فعانوا فيها ثم حاصر العساكر الإسلامية قلعة باشر فامتنت ودخلوا إلى حلب فامتنت رضوان من لقائهم فعادوا ومات سقمان القطبي في دلاس فحمله أصحابه في تابوت إلى بلاده واعترضهم أبو الغازي بن أرتق ليأخذهم فهزموه.

ثم افترقت العساكر بمرض ابن برسق ومسير أحمد بن صاحب مراغة إلى السلطان لطلب بلاد سقمان القطبي واجتمع قطلغتكين صاحب دمشق بمودود ونزل معه على نهر القاضي وسمع الإفرنج بافتراق العساكر فساروا إلى ماميا.

وجاء السلطان ابن متقذ صاحب شيرز إلى مودود وقطلغتكين وحصرهما على الجهاد ونزلوا جميعاً على شيرز ونزل الفرنج قبالتهم ثم رأوا قوة المسلمين فعادوا إلى أفامية ثم سار

من أصحابه طلبها منه الآن فلم يجبه فخرج القمص مغاضباً له ولحق بتل باشر وقدم عليه جوسكر عندما أطلقه جاولي ثم سار إليهما شكري يعاجلهما قبل اجتماع أمرهما فحاصرهما أياماً ورجع القمص وجوسكر على حصون أنطاكية واستمد أبو سيل الأرميني صاحب رعيان وكيسوم والقلاع شمالي حلب فأنجدهم بألف فارس وسار إليهم شكري وحضر البترك وشهد جماعة من الفسيين والبطارقة أن أسند خال شكري قال له عندما ركب البحر إلى بلاده: أعد الرها إلى القمص إذا خلص من الأسر. فحكم البترك بإعادتها فأعادها تاسع صفر من السنة وعبر القمص الفرات ليرفع إلى جاولي المال والأسرى كما شرط له.

وكان جاولي لما أطلق القمص سار إلى الرحبة ولقيه أبو النجم بدران وأبو كامل منصور وكانا مقيمين بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك فاستنجداه ووعداه أن يسير معهما إلى الخلّة وانفقوا على تقديم أبي الغازي تكين ثم قدم عليهم أصبهذ صباو وقد أقطعه السلطان الرحبة فأشار على جاولي بقصد الشام لخلوها عن العساكر والتجنب عن العراق وطريق السلطان فقبل إشارته وأحصر على الرحبة ثم وفد عليه صريخ سالم بن مالك صاحب جعفر يستغيث به من بني نمير وكان حيوش البصري قد نزل على ابن سالم بالرقة وملكها وسار إليه رضوان من حلب فصالحه بنو نمير بالمال ورجع عليهم فاستنجد سالم الآن جاولي فجاء وحاصر بني نمير بالرقة سبعين يوماً فأعطوه مالاً وخيلاً ورحل عنهم واعتذر لسالم.

ثم وصل جاولي إلى الأمير حسين بن أتابك قطلع تكين كان أبوه أتابك السلطان محمد بكنجة فقتله وتقدم ولده هذا عند السلطان وبعثه مع ابن عمّار ليصلح أمر جاولي وتسير العساكر كلها إلى الجهاد مع ابن عمّار فأجاب جاولي لذلك وقال لحسين: سر إلى الموصل ورحّل العساكر عنها وأنا أعطيك ولدي رهينة وتكون الجباية لوال من قبل السلطان فجاء حسين إلى العساكر قبل أن يفتحوها فكلهم أجاب إلا الأمير مودود فإنه امتنع من الرحيل إلا بإذن من السلطان وأقام محاصراً لها حتى افتتحها وعاد ابن قطلع إلى السلطان فأحسن الاعتذار عن جاولي وسار جاولي إلى بالس فملكها من أصحاب رضوان بن تش وقتل جماعة من أهلها فيهم القاضي محمد بن عبد العزيز بن إلياس وكان فقيهاً صالحاً.

ثم سار رضوان بن دقاق لحرب جاولي واستمد شكري صاحب أنطاكية فأمدّه بنفسه وبعث إلى القمص بالرّها يستمدّه وترك له مال المفاداة فباء إليه بنفسه ولحقه بمنج وجاء الخبر إلى جاولي باستيلاء مودود وعساكر السلطان على الموصل وعلى

منه بالخلف وأعطاه ابنه أياز رهينة ولما خرج سار إلى حلب وجمع التركمان وحاصر قزجان في طلب ابنه إلى أن جاءت عساكر السلطان.

مسير العساكر لقتال أبي الغازي وقطلغتكين والجهاد بعدهما

ولما كان ما ذكرناه من عصيان أبي الغازي وقطلغتكين على السلطان محمد وقوة الفرنج على المسلمين جهز السلطان جيشاً كثيراً مقدّمهم الأمير برسق صاحب همدان ومعه الأمير حيّوس بك والأمير كشغرة وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بقتال أبي الغازي وقطلغتكين فإذا فرغوا منهما ساروا إلى الفرنج فارتجعوا البلاد من أيديهم فساروا لذلك في رمضان من سنة ثمان وعبروا القرات عند الرقة وجاؤوا إلى حلب وطلبوا من صاحبها لؤلؤ الخادم ومن مقدّم العسكر المعروف بشمس الخواص تسليم حلب بكتاب السلطان في ذلك فتعلل عليهم وبعث إلى أبي الغازي وقطلغتكين بالخبر واستنجد بهما فسار إليه في ألفين وامتنعت حلب على عساكر السلطان فسار برسق بالعساكر إلى حماة وهي لقطلغتكين فملكها عنوة وسلمها إلى قزجان صاحب حمص بعهد السلطان له بذلك في كل ما يفتحونه من البلاد فنقل ذلك على الأمراء وتحاذلوا وتسلم قزجان حماة من برسق وأعطاه ابن أبي الغازي ابنه رهينة عنده.

ثم سار أبو الغازي وقطلغتكين وشمس الخواص إلى أنطاكية مستنجدين بصاحبها بردويل وجاءهم بعد ذلك بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من الإفرنج واتفقوا على تأخير الحرب إلى انصرام الشتاء واجتمعوا بقلعة أنامية وأقاموا شهرين وانصرم الشتاء والمسلمون مقيمون فوهنت عزائم الإفرنج وعادوا إلى بلادهم وعاد أبو الغازي إلى ساردين وقطلغتكين إلى دمشق وسار المسلمون إلى كفرطاب من بلاد الإفرنج فحاصروه وملكوه عنوة وأسروا صاحبه واستلحموا من فيه ثم ساروا إلى قلعة أنامية فامتنعت عليهم فعادوا إلى المعرة وفارقهم حيّوس بك إلى مراغة فملكه.

وسارت العساكر من المعرة إلى حلب وقدموا أثقالهم وخيامهم فصادفهم بردويل صاحب أنطاكية في خمسمائة فارس وألفي راجل صريحاً لأهل كفرطاب وصادف نخيم العسكر ففتك فيه وفعل الأفاعيل وهم متلاحقون وجاء الأمير برسق وعابن مصارعهم وأشار عليه إخوته بالنجاء بنفسه فنجاه نفسه واتبهم

مودود سنة ست إلى الرها وسروج فعاث في نواحيها فكبسه جوسكر صاحب تلك باشر في الإفرنج ونال منه.

ثم اجتمع المسلمون سنة سبع للجهاد باستنجد قطلغتكين صاحب دمشق لمودود فاجتمع معه بمنزل صاحب سنجر وأياز بن أبي الغازي وعبروا الفرات إلى قطلغتكين وقصدوا القدس فسار إليهم صاحبها بقزوين ومعه جوسكر ومعه تل باشر على جيشه ونزلوا الأردن واقتلوا قريباً من طبرية فانهمز الإفرنج وقتل كثير منهم وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر الأردن وغنم المسلمون سوادهم ثم لقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية من الفرنج فاستعانوا بهم وعادوا الحرب ونزلوا في جبل طبرية فحاصروهم فيه المسلمون ثم ساروا فعاثوا في بلاد الإفرنج ما بين عكا إلى القدس.

ثم نزلوا دمشق وفرق مودود عساكره وودعهم العود من قابل للجهاد ودخل دمشق ليستريح عند قطلغتكين فضلى الجمعة في الجامع فطعنه باطني فأنثاه وهلك لآخر يومه واتهم قطلغتكين به وقتل الباطني من يومه ولما بلغ الخبر السلطان بقتل مودود ولّى على الموصل وأعمالها أقتنقر البرسقي سنة ثمان وخمسمائة وبعث معه ابنه الملك مسعود في جيش كثيف وأمره بجهاد الإفرنج وكتب إلى الأمراء بطاعته فوصل إلى الموصل واجتمعت إليه عساكر النواحي فيهم عماد الدين زنكي بن أقتنقر وغير صاحب سنجر وسار البرسقي إلى جزيرة ابن عمر فأطاعه نائب مودود بها ثم سار إلى ماردين فأطاعه أبو الغازي صاحبها وبعث معه ابنه أياز فسار إلى الرها فحاصرها شهرين ثم ضاقت الميرة على عسكره.

ثم رحل إلى سميساط بعد أن خرب نواحي الرها وسروج وسميساط وكانت مرعش للإفرنج هي وكيسوم ورعيان وكان صاحبها كراسك واتفقت وفاته وملكت زوجته بعده فراسلت البرسقي بالطاعة وبعث إليها رسوله فأكرمه ورجعته إلى البرسقي بالهدايا والطاعة وفر عنها كثير من الإفرنج إلى أنطاكية ثم قبض البرسقي على أياز بن أبي الغازي لانتهاه إياه في الطاعة فسار إليه أبو الغازي في العساكر وهزمه واستنجد ابنه أياز من أسره كما ترى في أخبار دولة أبي الغازي وبنيه وبعث السلطان يهدده فوصل يده بقطلغتكين صاحب دمشق والفرنج وتحالفوا على التظاهر ورجع أبو الغازي إلى ديار بكر فسار إليه قزجان بن مراجا صاحب حمص وقد تفرّق عنه أصحابه فظفر به وأسره وجاء قطلغتكين في عساكره وبعث إلى قزجان في إطلاقه فامتنع وهم بقتله فعاد عنه قطلغتكين إلى دمشق وكان قزجان قد بعث إلى السلطان يخبره وانتظر من يصل في قتله فأبطل عليه فأطلق أبا الغازي بعد أن توثق

ثم سار جاوولي إلى دارابجرد فهرب صاحبها إلى كرمان وصاحبها أرسلان شاه كرمان شاه ابن أرسلان بك بن قاروت بك فسار جاوولي إلى حصار درابجرد فامتعت عليه فخرج إلى البرية ثم جاءهم من طريق كرمان كآفة مدد لهم من صاحب كرمان فأدخلوه فملك البلد واستلمهم أهله.

ثم سار إلى كرمان وبعث إلى خسرو مقدّم الشوزكان يستدعيه للمسير معه فلم يجد بداً من موافقته وجاء وصاحبه إلى كرمان وبعث إلى ملك كرمان بإعادة الشوزكان الذين عنده فبعث بالشفاعة فيهم فاستخلص السلطان الرسول بالإحسان وحثه على صاحبه ووعد به بأن يرّد العساكر عن وجهه ويخذه عنده ما استطاع وانقلب عنه إلى صاحبها في عساكر كرمان مع وزيره بالسيرجان فترأى لهم أنّ جاوولي عازم على مواصلتهم وأنه مستوحش من اجتماع العساكر بالسيرجان وأشار عليه بالرجوع فرجعوا وسار جاوولي في أثر الرسول وحاصر حصناً بطرف كرمان فارتاب ملك كرمان فنجّر الرسول ثم أطلع عليه من غير جامعة فقتله ونهب أمواله وبعث العساكر لقتاله

واجتمع معهم صاحب الحصن المحاصر وسلك بهم غير الجادة وسمع جاوولي يخبرهم فأرسل بعض الأمراء ليأتيه بالخبر فلم يجد أحداً فرجع وأخبره أن عسكر كرمان قد رجع فاطمأن ولم يكن إلا قليل حتى بيته عساكر كرمان في شوال سنة ثمان وخمسمائة فانهمز وفتكوا فيه قتلاً وأسرأ وأدركه خسرو بن أبي سعد الذي كان قتل أباه فلما رأها خاف منهما فأنساء وأبلغاه إلى أمانه بمدينة نسا ولحقه عساكره وأطلق ملك كرمان الأسرى وجهزهم إليه وبينما هو يجهز العساكر لكرمان لأخذ ثاره توفي جعفري بك ابن السلطان في ذي الحجة من تسع لخمس سنين من عمره فقطعه ذلك عن معاداة كرمان ثم بعث ملك كرمان إلى السلطان ببغداد في منع جاوولي عنه فقال: لا بدّ أن تسلّم الحصن إلى حاصره جاوولي في حدّ كرمان وانهمز عليه وهو حصن فرح ثم توفي جاوولي في ربيع سنة عشر فأمروا بإعادته واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة سنة اثني عشرة من ملكه بعد أن أجلس ولده محموداً على الكرسي قبل وفاته بعشر ليال وفوّض إليه أمور الملك فلما توفي نفذت وصيته لابنه محمود فأمره فيها بالعدل والإحسان وخطب له ببغداد

الإفرنج ورجعوا عنهم على فرسخ وعاثوا في المسلمين في كل ناحية وقتل أياز بن أبي الغازي قتله المولكون به وجاء أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين ما لم يحتسبوه ويشعروا من النصره ورجعت العساكر منهزمة إلى بلادها وتوفي برست زكي سنة عشر بعدها.

ولاية حيّوس بك ومسعود ابن السلطان

محمد علي الموصل

ثم أقطع السلطان الموصل وما كان بيد أفسنغر البرسقي للأمير حيّوس بك وبعث معه ابنه مسعوداً وأقام البرسقي بالرجبة وهي إقطاعه إلى أن توفي السلطان محمد.

ولاية جاوولي سكاو على فارس وأخباره

فيها ووفاته

كان جاوولي سكاو لما رجع إلى السلطان محمد ورضي عنه ولاء فارس وأعمالها وبعث معه ابنه جعفري بك طفلاً كما فصل من الرضاع وعهد إليه بإصلاحها فسار إليها ومّر بالأمير بلداجي في بلاده كليل وسرماة وقلعة إصطخر وكان من ممالك السلطان ملك شاه فاستدعاه للقاء جعفري بك وتقدّم إليه بأمر يأمر بالقبض عليه فقبض عليه ونهبت أمواله وكان أهله وذخائره في قلعة إصطخر وقد استتاب فيها وزيره الخيمي ولم يمكنه إلا من بعض أهله فلما وصل جاوولي إلى فارس ملكها منه وجعل فيها ذخائره ثم أرسل إلى خسرو وهو الحسين بن مبارز صاحب نسا وأمير الشوامكار من الأكرد فاستدعاه للقاء جعفري بك من السلطان خشية عما وقع لبلداجي فأعرض عنه وأظهر الرجوع إلى السلطان ومضى رسول بخبره فبشر بانصرافه عن فارس فما أدى إليه الخبر إلا وجاوولي قد خالطهم رجع من طريقه وأوعز في السير إليهم.

ثم هرب خسرو إلى عدالج وقتك جاوولي في أصحابه وماله ثم سار جاوولي إلى مدينة نسا فملكها ونهب جهرم وغيرها وسار إلى خسرو فامتعت عليه بمحصنه فرجع إلى شيراز وأقام بها ثم سار إلى كازرون فملكها وحاصر أبا سعيد بن محمد في قلعته مدّة عامين وراسله في الصلح فقتل الرسول مرتين ثم اشتدّ عليه الحصار واستأمن فأمنه وملك الحصن ثم استوحش من جاوولي فهرب وقبض على ولده وجيء به أسيراً فقتل

وبعث المسترشد إلى مسعود والبرسقي والحث على المودة والصلح وجاءهم الخبر بأن منكبرس وديس بعثا مع منصور أخني ديس وحسين بن ارز وبني منكبرس عسكرياً لحماية بغداد فرجع البرسقي إلى بغداد ليلاً ومعه زنكي بن أفسقر وترك ابنه عز الدين مسعوداً على العسكر بصرصر فالتقى ومنع عسكر منكبرس من العبور وأقام يومين ثم وافاه كتاب ابنه بأن الصلح تم بين الفريقين بعده ففشل وعبر إلى الجانب الغربي ومنصور وحسين في أثره ونزلا عند جامع السلطان وخيم البرسقي عند القنطرة القبلية وخيم مسعود وخيوس بك عند المارستان وديس ومنكبرس تحت الرقة وعز الدين مسعود بن البرسقي عند منكبرس منفرداً عن أبيه.

وكان سبب انعقاد الصلح أن خيوس بك أرسل إلى السلطان محمود يطلب الزيارة له وللملك مسعود فأقطعهما أذربيجان ثم وصل الخبر بمسيرهما إلى بغداد فاستشعر منهما العصيان وجهز العساكر إلى الموصل فكتب إليه رسوله بذلك ووقع الكتاب بيد منكبرس الشحنة فبعث إليه وضمن له إصلاح الحال له وللسلطان مسعود وكان منكبرس متزوجاً بأم السلطان مسعود واسمها سرجهان فكان يؤثر مصلحته فاستقر الصلح واتفقوا على إخراج البرسقي من بغداد إلى الملك وأقام عنده واستقر منكبرس شحنة بغداد وساء أثره في الرعية وتعرض لأموال الناس وحرمهم وبلغ الخبر إلى السلطان محمود فاستدعاه إليه فبقي يدافع ثم سار خوفاً من عامة بغداد والله سبحانه وتعالى أعلم.

خروج الملك طغرل على أخيه السلطان

محمود

كان الملك طغرل بن السلطان محمد عند وفاة أبيه مقيماً بقلعة سرجهان وكان أبوه أقطعه سنة أربع سماوة وآوه وزنجان وجعل أتاكبه الأمير شيركير الذي حاصر قلاع الإسماعيلية كما مر في أخبارهم وكان عمره يومئذ عشرين عاماً فأرسل السلطان محمد الأمير كسعدى أتاكاً له وأجمله إليه وكان كسعدى حاقداً عليه فحمل طغرل على العصيان ومنعه من الحجى إلى أخيه وانتهى ذلك إلى محمود فأرسل إلى أخيه بتحف وخلع وثلاثين ألف دينار ومواعيد جميلة فلم يصيخوا إليها وأجابه كسعدى: إننا في الطاعة ومعتزون لمراسم الملك فسار إليهم السلطان مغداً ليكسبهم وجعل طريقه على قلعة شهران التي فيها ذخائر طغرل وأمواله

وكان مناهز الخلم وكان السلطان محمد شجاعاً عادلاً حسن السيرة وله آثار جميلة في قتال الباطنية وقد ذكرها في أخبارهم ولما ولي قام بتدبير دولته الوزير أبو منصور وأرسل إلى المستظهر في طلب الخطبة ببغداد له في منتصف المحرم من سنة اثنتي عشرة وأقر طهارون شحنة على بغداد وقد كان السلطان محمد ولاءه عليها سنة اثنتين وخمسمائة ثم عاد البرسقي وقاتله وانهزم إلى عسكر السلطان محمود على الخلعة ديس بن صدقة وقد كان عند السلطان محمد منذ قتل أبوه صدقة وأحسن إليه وأقطعه وولى على الخلعة سعيد بن حميد العمري صاحب جيش صدقة فلما توفي رغب من ابنه السلطان محمود بالعودة إلى الخلعة فأعاده واجتمع عليه العرب والأكراد.

وفاة المستظهر وخلافة ابنه المسترشد

ثم توفي المستظهر بن المقتدي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة منتصف ربيع الآخر ونصب للخلافة ابنه المسترشد واسمه الفضل وقد تقدم ذلك في أخبار الخلفاء.

خروج مسعود ابن السلطان محمد على

أخيه محمود

تقدم لنا أن السلطان ولى على الموصل ابنه مسعوداً ومعه خيوس بك وأن السلطان محموداً وديس بن صدقة سارا إلى الخلعة فلما توفي السلطان محمد وولي ابنه محمود سار مسعود من الموصل مع أتاكب خيوس بك ووزيره فخر الملك علي بن عمّار وقسيم الدولة وزنكي بن أفسقر صاحب سنجر وأبي الهيجاء صاحب إربل وكرباوي بن خراسان صاحب البوازيج وقصدوا الخلعة فدافعهم ديس فرجعوا إلى بغداد وسار البرسقي إلى قتالهم فبعث إليه خيوس بك بأنهم إنما جاؤوا لطلب الصريح على ديس صاحب الخلعة فانفقوا وتعاهدوا ونزل مسعود بدار الملك ببغداد وجاء الخبر بوصول عماد الدين منكبرس الشحنة وقد كان البرسقي هزم ابنه حسينا كما مر فسار بالعساكر إلى البرسقي فلما علم بدخول مسعود إلى بغداد عبر دجلة من النعمانية إلى ديس بن صدقة فاستجده وخرج مسعود وخيوس بك والبرسقي ومن معهم للقائهم وانتهوا إلى المدائن فاتهم الأخبار بكثرة جموع منكبرس وديس فرجعوا وأجازوا نهر صرصر ونهبوا السواد من كل ناحية.

ثم سار السلطان في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً ومعه ابن الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخوارزم شاه محمد والأمير أنز والأمير قماج وكرشاسف بن ضرام بن كاكويه صاحب برد وهو صهره على أخته وكان خصيصاً بالسلطان محمد فاستدعاه بعد موته سنجر وتأخر عنه وأقطع بلده لقراجا السامر فبادر إليه وتراجعوا بقرب ساوة في جهادي ثالث عشرة فسبقت عساكر السلطان محمود إلى الماء من أجل المسافة التي بين ساوة وخراسان وكانت عساكر السلطان ثلاثين ألفاً ومعه الحاجب علي بن عمر ومنكبرس وأتابك غزغلي وبنو برسق وأقسقر البخاري وقراجا الساني ومعه سبعمائة حمل من السلاح فعندما اصطفوا جلى الحرب انهزم عساكر السلطان سنجر ميمنة وميسرة وثبت هو في القلب والسلطان محمود قبائله.

وحمل السلطان سنجر في القيلة فانهزمت عساكر السلطان محمود وأسر أتابك غزغلي وكان يكاتب السلطان سنجر بأنه يحمل إليه ابن أخيه فعاتبه على ذلك ثم قتله ونزل سنجر في خيام عمود واجتمع إليه أصحابه ونجا محمود من الواقعة وأرسل ديبس بن صدقة للمسترشد في الخطبة لسنجر فخطب له أواخر جهادي الأولى من السنة وقطعت خطبة محمود ثم إن السلطان سنجر رأى قلة أصحابه وكثرة أصحاب محمود فراسله في الصلح وكانت تحضه على ذلك والدته فامتنع ولحق البرسقي بسنجر وكان عند الملك مسعود بأذربيجان من يوم خروجه من بغداد فزار سنجر من همدان إلى الكرخ وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح ووعده بولاية عهده فأجاب وتحالفا على ذلك.

وسار محمود إلى عمه سنجر في شعبان بهدية حافلة ونزل على جدته فتقبل منه سنجر وقدم له خمسة أفراس عربية وكتب لعماله بالخطبة لمحمود بعده في جميع ولايته وإلى بغداد بمثل ذلك وأعاد عليه جميع ما أخذه من بلاده سوى الري وصار محمود في طاعة عمه سنجر ثم سار منكبرس عن السلطان محمود إلى بغداد وبعث ديبس بن صدقة من منعه من دخولها فساد وجهه الصلح بين الملكين قد أسفر فقصد السلطان سنجر مستجيراً به من الاستبداد عليه ومسيره لشحنة بغداد من غير إذنه ثم إن الحاجب علي بن عمر ارتفعت منزلته في دولته وكثرت سعاية الأمراء عنه فأضمر السلطان نكته فاستوحش وهرب إلى قلعة له كان ينزل بها أهله وأمواله وسار منها إلى خوزستان وكانت بنو برسق أسوري وابن أخويه أرغوي بن ملتكي وهدد بن زنكي بعثوا عسكرياً يصدونه عن بلادهم ولقوه قريباً من تستر فهزموه وجاؤوا به أسيراً وكتبوا السلطان محموداً بأمرهم فأمرهم بقتله وحمل رأسه

ونمي الخبر إلى طغرل وكسعدني فخرجوا من العسكرة في خفية قاصدين شهران وأخلى الطريق عنها لما سبق من اللطف فوقعا على قلعة سرجهان وجاء السلطان إلى العسكرة فآخذ خزائن أخيه طغرل وفيها ثلاثمائة ألف دينار ثم أقام بزنجان أياماً ولحق منها بالري ولحق طغرل وكسعدني بكنجة واجتمع إليه أصحابه وتمكنت الوحشة بينه وبين أخيه.

فتنة السلطان محمود مع عمه سنجر

ولما توفي السلطان محمود بلغ الخبر إلى أخيه سنجر بخراسان أظهر من الجزع والحزن ما لم يسمع بمثله حتى جلس للغراء على الرماد وأغلق بابيه سبعة ثم سمح بولاية ابنه محمود فتكرر ذلك وعزم على قصد بلاد الجبل والعراق وطلب السلطنة لنفسه مكان أخيه وكان قد سار إلى غزنة سنة ثمان وخمسين وفتحها وتنكر لوزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر بن نظام الملك لما بلغه أنه أخذ عليه الرشوة من صاحب غزنة ليشينه عن قصده إليه وفعل مثل ذلك بما وراء النهر وامتحن أهل غزنة بعد فتحها وأخذ منها أموالاً عظيمة وشكا إليه الأمراء إهانتهم فلما عاد إلى بلخ قبض عليه وقتله واستصفى أمواله وكانت لا يعبر عنها كان فيها من العين وحده ألف دينار مرتين واستوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرزاق ابن أخي نظام الملك وكان يعرف بابن الفقير فلما مات أخوه السلطان محمد عزم على طلب الأمر لنفسه وعارده الندم على قتل وزيره أبي جعفر لما يعلم من اضطجاعه بمثلها.

ثم إن السلطان محموداً بعث إليه يصطنعه بالهدايا والتحف وضمن له ما يزيد عن مائتي ألف دينار كل سنة وبعث في ذلك شرف الدين أنو شروان بن خالد وفخر الدين طغرل فقال لهما سنجر: إن ابن أخي صغير وقد تحكم عليه وزيره وعلى ابن عمر الحاجب فلا بد من المسير وبعث في مقدمته الأمير أنز.

وسار السلطان محمود وبعث في مقدمته الحاجب علي بن محمد وكان حاجب أبيه قبله فلما تقاربت المقدمتان بعث الحاجب علي بن عمر إلى الأمير أنز وهو يجرجان بالعتاب ونوع من الوعيد فتأخر عن جرجان فلحقته بعض العساكر ونالوا منه ورجع الحاجب إلى السلطان محمود بالري فشكل له فعله وأقاموا بالري ثم ساروا إلى كرمان وجاءته الأمداد من العراق مع منكبرس ومنصور بن صدقة أخي ديبس وأمراء فزار إلى همدان وتوفي وزيره الريب فاستوزر أبا طالب الشهيري.

المسلمون وانهزموا وقتل منهم خلق وتبعهم الكفار عشرة فراسخ وعادوا عنهم وحاصروا مدينة تفلّيس وأقاموا عليها سنة وملكوها عنة سنة خمس عشرة ووصل صريحهم سنة ست عشرة إلى السلطان محمود بهمدان فصار لصريحهم وأقام بمدينة تبريز وأنفذ عساكره إلى الكرج فكان من أمرها ما يذكر إن شاء الله تعالى.

الحرب بين السلطان محمود وأخيه مسعود

قد تقدّم مسير مسعود إلى العراق وموت أبيه السلطان محمد وما تقرّر بينهما من الصلح ورجوعه إلى الموصل بلسه وأن السلطان محموداً زاده أذربيجان ولحق به قسيم الدولة البرسقي عندما طرده عن شحنة بغداد فأقطع مسعود مراغة مضافة إلى الرحبة وكاتب ديبس حيّوس بك اتابك مسعود يحرضه على نكبة البرسقي وأنه ياطن السلطان محموداً ووعد على ذلك بالأموال وحرّضهم على طلب الأمر لمسعود ليقع الاختلاف فيحصل له علو الكلمة كما حصل لأبيه في فتنة بركيارق ومحمد وشعر البرسقي بسعاية ديبس فخشي على نفسه ولحق بالسلطان محمود قبله وأعلى عله.

ثم اتصل بالملك مسعود الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصفهاني الطغراني وكان ابنه أبو الوليد بن أبي إسماعيل يكتب الطغراء للملك مسعود فلما وصل أبوه استورزه مسعود وعزل أبا علي بن عمّار صاحب طرابلس سنة ثلاث عشرة فاغرى مسعوداً بالخلاف على أخيه السلطان محمود فكتب إليهم السلطان بالترغيب والترهيب فأظهروا أمرهم وخاطبوا الملك مسعوداً بالسلطان وضرّبوا له النوب الخمس وأغذّوا إليه السير وهو في خوف من العسكر فصار إليهم في خمسة عشر ألفاً وفي مقدّمته البرسقي ولقبهم بعقبة استرأباز منتصف ربيع الأوّل سنة أربع عشرة فانهزم الملك مسعود وأصحابه وأسر جماعة من أعيانهم منهم الأستاذ أبو إسماعيل الطغراني وزير الملك مسعود فأمر السلطان محمود بقتله وقال: ثبت عندي فساد عقيدته وكان قتله لسنة من وزارته وكان كاتباً شاعراً يميل إلى صناعة الكيمياء وله فيها تصانيف معدودة.

ولما انهزم الملك مسعود لحق ببعض الجبال على اثني عشر فرسخاً من المعركة فاخفى فيه مع غلمان صغار وبعث يستأمن إلى أخيه فأرسل إليه أقتنقر البرسقي يؤمنه ويحيي به إليه وخالفه إليه بعض الأمراء فحرّضه على اللحاق بالموصل وأذربيجان ومكاتبة ديبس ومعاودة الحرب فصار معه لذلك وجاء البرسقي إلى مكانه

إليه ثم أمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدّين تهسّدوا إلى شحنة بغداد فعاد إليها وعزل نائب ديبس بن صدقة.

استبداد علي بن سكرمان بالبصرة

كان السلطان محمد قد أقطع البصرة للأمير أقتنقر البخاري واستخلف عليها سنقر الشامي فأحسن السيرة فلما توفي السلطان محمد وثب عليه غزغلي مقدّم الأتراك الإسماعيلية وكان يحج بالناس منذ سنين وسنقر أبا وملكاً البصرة من يده وحبسه وذلك سنة إحدى عشرة.

وهم سنقر أبا بقتله فعارضه غزغلي فلم يرجع وقتله. فقتله غزغلي به وسكن الناس وكان بالبلد أمير اسمه علي بن سكرمان حج بالناس وغاب عن هذه الواقعة فغصّ به غزغلي لتمام الحج على يده وخشي أن يثار منهم يستقر أبا لتقدّمه عليهم فأوغر إلى عرب البرية فنهب الحاج وانثنى علي بن سكرمان في الدفاع عنهم إلى أن قارب البصرة والعرب يقاتلونه فبعث إليه غزغلي بال منع من البصرة فقصّد القرى أسفل دجلة وصدق الحملة على العرب فهزمهم ثم سار إليه غزغلي وقتله فأصابه سهم فمات وسار علي بن سكرمان إلى البصرة وملكها وكاتبه أقتنقر البخاري وصاحب عمان بالطاعة وأقرّ نوابه على أعماله وكان عند السلطان وطلبه أن يوليه البصرة فأبى وبقي ابن سكرمان مستبداً بالبصرة إلى أن بعث السلطان أقتنقر البخاري إلى البصرة سنة أربع عشرة فملكها من علي بن سكرمان.

استيلاء الكرج على تفلّيس

كان الكرج قديماً يغرون على أذربيجان وبلاد أرّان.

قال ابن الأثير: والكرج هم الخزر.

وقد بينا الصحيح من ذلك عند ذكر الأنساب وأن الخزر هم الترمكان إلا أن يكون الكرج من بعض شعوبهم فيمكن ولما استفحل ملك السّلاجوقية أمسكوا عن الإغارة على البلاد المجاورة لهم فلما توفي السلطان محمد رجعوا إلى الغارة فكانت سراياهم وسرايا القفجاق تغير على البلاد ثم اجتمعوا وكانت بلد الملك طفرک وهي أرّان وتنجوان إلى أوس مجاورة لهم فكانوا يغرون عليها إلى العراق لملك بغداد ونزل على ديبس بن صدقة فصار هو واتباعه كبغري وديبس بن صدقة وأبي الغازي بن ارتق. وسار في ثلاثين ألفاً إلى الكرج والقفجاق فاضطرب

السلطان ديبس إلى همدان وخرج في موكبِهِ وضاق الطريق فقَدِمَ الموكب بين يديه فوثب عليه باطنِي وطعنه بسكين فأنفذه واتبعه الغلمان فوثب عليه آخر فجذبه عن سرجه وطعنه طعنات وشردهم الناس عنه فوثب آخر فجذبه وذلك لأربع سنين من وزارته وكان سَيِّئَ السيرة ظلوماً غشوماً كثير المصادرات ولما قتل رفع السلطان ما كان أحدث من المكوس.

رجوع طغرل إلى طاعة أخيه السلطان

محمود

قد ذكرنا عصيان طغرل على أخيه السلطان محمود بالرِّي سنة ثلاث عشرة وأنَّ السلطان محمود سار إليه وكبسه فلحق برجهان ثم لحق منها بكنجة وبلاد أُرَّان ومعه أتابك كبغري فاشتدَّت شوكته وقصد التغلب على بلاد أذربيجان وهلك كبغري في شوال سنة خمس عشرة ولحق بأقسنقر الأرميني صاحب مراغة ليقم له الأتابكية وحرَّضه على قتال السلطان محمود فسار معه إلى مراغة ومروا بآردبيل فامتعت عليهم فساروا إلى هرمز وجاءهم الخبر هنالك بأن السلطان محمود بعث الأمير حيُّوس بك إلى أذربيجان وأقطعها البلاد وأنه وصل إلى مراغة في عسكر كثيف فساروا عن هرمز إلى خونغ وانتقض عليهم وراسلوا الأمير شيركير الذي كان أتابك طغرل أيام أبيه يستنجد به وكان كبغري الأتابك قبض عليه بعد السلطان محمد ثم أطلقه السلطان سنجر وعاد إلى أبهر وزنجان وكانت أقطاعه فاجأب داعيهم وسار أمامهم إلى أبهر ولم يتم أمرهم فراسلوا السلطان في الطاعة وعاد طغرل إلى أخيه وانتظم أمرهم.

مقتل وزير السلطان محمود

وكان وزير السلطان محمود شمس الملك بن نظام الملك وكان حفيّاً عنده فكثرت سعاية أصحابه فيه وكان ابن عمّه الشهاب أبو المحاسن وزير السلطان سنجر قنوفي واستوزر سنجر بعده أبا طاهر القميّ عدواً لبني نظام الملك فأغرى السلطان سنجر حتى أمر السلطان محمود بتكبته فقبض عليه ودفعه إلى طغرل فحبسه بقلعة جلجلال ثم قتله بعد ذلك وكان أخوه نظام الدين أحمد قد استوزره المسترشد وعزل به جلال الدين أبا علي بن صدقة فلما بلغه نكبة شمس الملك ومقتله عزل أخاه نظام الدين وأعاد ابن صدقة إلى وزارته واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الأوّل فلم يجده فاتبه إلى أن أدركه على ثلاثين فرسخاً وأعلمه حال أخيه من الرضا عنه وأعادته فرجع ولقيه العساكر بأمر السلطان محمود وأنزله عند أمه ثم أحضره وهشّ له وبكى وخلطه بنفسه وذلك لثمانية وعشرين يوماً من الخطبة بأذربيجان. وأما حيُّوس بك الأتابك فافترق عن السلطان من المعركة وسار إلى الموصل وجمع الغلال من سوادها واجتمعت إليه العساكر وبلغه فعل السلطان مع أخيه فسار إلى الزاب مورياً بالصيد ثم أجدَّ السير إلى السلطان بهمدان فأمته وأحسن إليه وبلغ الخبر بالهزيمة إلى ديبس وهو بالعراق فنهب البلاد وأخربها وبعث إليه السلطان فلم يصغ إلى كتابه.

ولاية أقسنقر البرسقي على الموصل ثم على

واسط وشحنة العراق

ولما وصل حيُّوس بك إلى السلطان محمود بعثه إلى أخيه طغرل وأتابك كبغري فسار إلى كنجة وبقي أهل الموصل فوضى من غير وال وكان أقسنقر البرسقي قد أبلى في خدمة السلطان محمود وردَّ إليه أخاه مسعوداً يوم الهزيمة فعرف له حقّ نصحه وحسن أثره فأقطعه الموصل وأعمالها وما يضاف إليها كسنجر والجزيرة فسار إليها سنة خمس عشرة وتقدّم إلى سائر الأمراء بطاعته وأمره بمجاهدة الإفرنج واسترجاع البلاد منهم فوصل إلى الموصل وقام بتدبيرها وإصلاح أحوالها ثم أقطع سنة ست عشرة بعدها مدينة واسط وأعمالها مضافة إلى الموصل وجعله شحنة بالعراق فاستخلف عماد الدين زنكي بن أقسنقر وبعثه إليها فسار إليها في شعبان من السنة.

مقتل حيوس بك والوزير الشهيرمي

ثم إنَّ السلطان بعد وصول حيُّوس بك بعثه لحرب أخيه طغرل كما قلناه وأقطع أذربيجان فتنكر له الأمراء وأغروا به السلطان فقتله على باب هرمز في رمضان سنة عشر وأصله تركي من موالى السلطان محمد وكان عادلاً حسن السيرة ولما ولي الموصل والجزيرة وكان الأكراد بتلك الأعمال انتشروا وكثرت قلاعهم وعظم فسادهم فقصدهم وفتح كثيراً من قلاعهم كبلد الهكاريه وبلد الزوزن وبلد النكوسة وبلد التخشية وهربوا منه في الجبال والشعاب والمضايق وصلحت السابلة وأمن الناس.

وأما الوزير الكمال أبو طالب الشهيرمي فإنه برز مع

ظفر السلطان بالكرج

استيلاء البرسقي على حلب

لما سار ديبس إلى الإفرنج حرّضه على حلب وأن ينوب فيها عنهم ووجدهم قد ملكوا مدينة صور وطمعوا في بلاد المسلمين وساروا مع ديبس إلى حلب فحاصروها حتى جهد أهلها الحصار وبها يومئذ تاس بن ابن أرتق فاستجد بالبرسقي صاحب الموصل وشرط عليهم أن يملكوه من القلعة ويسلموها إلى نوابه وسار إلى إغياهم فأجفل عنهم الإفرنج ودخل إلى حلب فأصلح أمورها ثم سار إلى كفرطاب فملكها من الإفرنج ثم سار إلى قلعة إغزاز من أعمال حلب وصاحبها جوسكين فحاصرها وسارت إليه عساكر الإفرنج فانهزم وعاد إلى حلب فخلف فيها ابنه مسعوداً وعبر الفرات إلى الموصل.

ثم وفد سنة سبع عشرة على السلطان محمود جماعة من أهل دنباوند وشروان يستصرخونه على الكرج ويشكون ما يلقون منهم فساد لصريخهم ولما تقارب الفتان هم السلطان بالرجوع وأشار به وزيره شمس وتطارح عليه أهل شروان فأقام وباتوا على وجل ثم وقع الاختلاف بين الكرج وقفجاق واقتتلوا ليلتهم ورحلوا منهزمين وعاد السلطان إلى همدان والله تعالى أعلم.

عزل البرسقي عن شحنة العراق وولاية

برتقش الزكوي

كان الخليفة المسترشد قد وقعت بينه وبين ديبس بن صدقة حروب شديدة بنواحي المباركة من أطراف عانة وكان البرسقي معه وانهزم ديبس فيها هزيمة شنيعة كما مرّ في أخباره وقصد غزنة صريحاً فلم يصرخوه فقصده المنتفق وسار بهم إلى البصرة فدخلوها واستباحوها وقتلوا سلمان نائبها فأرسل الخليفة إلى البرسقي بالكثير على إهمال أمر ديبس حتى فتنك في البصرة فساد البرسقي إليه وهرب ديبس فلحق بالإفرنج وجاء معهم لحصار حلب فامتنعت فلحق بطغرل بن السلطان محمد يستحثه لقصده العراق كما مرّ ذلك في أخبار ديبس وبقيت في نفس المسترشد عليه ولحق بها أمثالها فتنكر له وبعث إلى السلطان محمود في عزله فعزله وأمره بالعود إلى الموصل لجهاد الإفرنج ووصل نائب برتقش إلى بغداد وأقام بها الشحنة وبعث السلطان ابنه صغيراً ليكون معه على الموصل وسار البرسقي به ووصل الموصل وقام بولايتها.

مسير طغرل وديبس إلى العراق

ولما ارتحل الإفرنج عن حلب فارقه ديبس ولحق بالملك طغرل فلتقاه بالكرامة والميرة وأغراه بالعراق وضمن له ملكه فساروا لذلك سنة تسع عشرة وانتهوا إلى دقوقا فكتب مجاهد الدين بهروز من تكريت إلى المسترشد يخبرهم فتجهز للقائهم وأمر برتقش الزكوي أن يتجهز معه خامس صفر وانتهى إلى الخالص وعدل طغرل وديبس إلى طريق خراسان ثم نزلوا رباط جلولا ونزل الخليفة بالدسكرة وفي مقدّمته الوزير جلال الدين بن صدقة وسار ديبس إلى جسر النهروان لحفظ المقابر وقد كان رآيه مع طغرل أن يسير طغرل إلى بغداد فيملكها وتقدّم ديبس في انتظاره فقعده به المرض عن لحاقه وغشيتهم أمطار أثقلتهم عن الحركات وجاء ديبس إلى النهروان طريحاً من التعب والبرد والجوع.

واعترضوا ثلاثين حملاً للخليفة جاءت من بغداد بالملبوس والمأكول فطعموا وأكلوا وناموا في دفة الشمس وإذا بالمسترشد قد طلع عليهم في عساكره بلغه الخبر بأنّ ديبساً وطغرل خالفوه إلى بغداد فاضطرب عسكره وأجفلوا راجعين إلى بغداد فلقوا في طريقهم ديبساً كما ذكرنا على دياي غرب النهروان وقف الخليفة عليه فقبل ديبس الأرض واستعطف حتى همّ الخليفة بالعفو عنه ثم وصل الوزير ابن صدقة فتناه عن رآيه ووقف ديبس مع برتقش الزكوي يجادته ثم شغل الوزير بمدّ الجسر للعبور فتسلل ديبس ولحق بطغرل وعاد المسترشد إلى بغداد ولحق طغرل وديبس بهمدان فعاثوا في أعمالها وصادروا أهلها وخرج إليهم السلطان محمود فانهزموا بين يديه ولحقوا بالسلطان سنجر بخراسان شاكين

بداية أمر بني أقسنقر وولاية عماد الدين

زنكي على البصرة

كان عماد الدين زنكي في جملة البرسقي ولما أقطعه السلطان واسط بعث عليها زنكي فأقام فيها أياماً ثم كان مسير البرسقي إلى البصرة في أتباع ديبس فلما هرب ديبس عنها بعث البرسقي إليها عماد الدين زنكي فأقام بمجايتها ودفع العرب عنها ثم استدعاه البرسقي عندما سار إلى الموصل فضجر من تلون الأحوال عليه واختار للحاق بأصفهان فقدم عليه بأصفهان فأكرمه السلطان وأقطعه البصرة وعاد إليها سنة ثمان عشرة والله تعالى أعلم.

من المسترشد ويرتقش الشحنة والله أعلم بغيه وأحكامه.

مقتل البرسقي وولاية ابنه عز الدين علي

الموصل

الناس برويته فخام المسترشد عن اللقاء وتردد الرسل بينهما فأجاب إلى الصلح وعفا السلطان عن أهل بغداد وأقام بها إلى عاشر ربيع الآخر وأهدى إليه المسترشد سلاحاً وخيلاً وأموالاً ورحل إلى همدان.

وولى زنكي بن أقتسر شحنة بغداد ثقة بكفايته واستقامت أحواله مع الخليفة وأشار به أصحابه ورأوا أنه يرفع الخرق ويصلح الأمر فولاه على ذلك مضافاً إلى ما بيده من البصرة وواسط وسار إلى همدان وقبض في طريقه على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر الشادي اتهمه بمالأة المسترشد لكثرة سعيه في الصلح فقبض عليه واستدعى شرف الدولة أنور شروان بن خالد من بغداد فلحقه بأصفهان في شعبان واستوزره عشرة أشهر ثم عزله ورجع إلى بغداد وبقي أبو القاسم محبوساً إلى أن جاء السلطان سنجر إلى الري فأطلقه وأعادته إلى وزارة السلطان محمود آخر اثنين وعشرين.

وفاة عز الدين بن البرسقي وولاية عماد

الدين زنكي على الموصل وأعمالها ثم

استيلاؤه على حلب

ولما استولى عز الدين على الموصل وأعمالها واستفحل أمره طمحت همته إلى الشام فاستأذن السلطان في السير إليه وسار إلى دمشق ومَرَّ بالرحبة فحاصرها وملكها ثم مات إثر ذلك وهو عليها وافترت عساكره وشغلوا عن دفنه ثم دفن بعد ذلك ورجعت العساكر إلى الموصل وقام بالأمر ملوكه جاوي ونصب أخاه الأصغر وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير الولاية له وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي الشهرزوري وصلاح الدين محمد الباغسياني أمير حاجب البرسقي واجتمعاً بنصير الدين جعفر مولى عماد الدين زنكي وكان بينه وبين صلاح الدين سر فخوفهما جعفر بن جاوي وحملهما على طلب عماد الدين زنكي وضمن لهما عنه الولايات والاقطاع فأجابوه وجاء بهما إلى الوزير شرف الدين أنور شروان بن خالد فقالا له: إن الجزيرة والشام قد تمكن منهما الإفرنج من حدود ماردين إلى عريش مصر، وكان البرسقي يكفهم وقد قتل وولده صغير ولا بد للبلد من يضطلع بأمرها ويدفع عنها وقد خرجنا عن النصيحة إليكم. فبلغ الوزير مقالتهما إلى السلطان فأحضرهما واستشارهما فذكرا جماعة منهم عماد الدين زنكي وبذلا عنه مقيبلاً إلى خزنة السلطان مالاً جزيلاً فولاه السلطان لما يعلم من كفايته وولى

ثم إن المسترشد تنكر للشحنة يرتقش وتهدهه فلحق بالسلطان محمود في رجب سنة عشرين فأغراه بالمسترشد وخوفه غائلته وأنه تعود الحروب وركب العيث ويوشك أن يمتنع عنك ويستصعب عليك فاعتزم السلطان على قصد العراق وبعث إليه الخليفة يلاطفه في الرد لفلاء البلاد وخرابها ويؤخره إلى حين صلاحها فصدق عنده حديث الزكوي وسار مجدداً فعبر المسترشد بأهله وولده وأولاد الخلفاء إلى الجانب الغربي في ذي القعدة راحلاً عن بغداد والناس باكون لفراقه وبلغ ذلك إلى السلطان فشق عليه وأرسل يستعطفه في العودة إلى داره فشرط عليه الرجوع عن العراق في القوت كما شرط أولاً فغضب السلطان وسار نحو بغداد والخليفة بالجانب الغربي ثم أرسل خادمه عفيفاً إلى واسط يمنع عنها نواب السلطان فسار إليه عماد الدين زنكي من البصرة وهزمه وفتك في عسكره قتلاً وأسراً وجمع المسترشد السفن إليه وسد أبواب قصره ووكل حاجب الباب ابن الصاحب بدار الخلافة.

ووصل السلطان إلى بغداد في العاشر من ذي الحجة ونزل باب الشماسية

وأرسل المسترشد في العود والصلح وهو يمتنع وجرت بين العسكرين مناوشة ودخل جماعة من عسكر السلطان إلى دار الخليفة ونهبوا التاج أوّل المحرم سنة إحدى وعشرين وخمسائة فضح العامة لذلك ونادوا بالجهاد وخرج المسترشد من سرادقة ينادي بأعلى صوته وضربت الطبول ونفخت البوقات ونصب الجسر وعبر الناس دفعة وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب في دور الخلافة والأمراء وكان في دار الخلافة ألف رجل كامتون في السرداب فخرجوا عند ذلك ونالوا من عسكر السلطان وأسروا جماعة من أمرائه ونهب العامة دور وزير السلطان وأمرائه وحاشيته وقتل منهم خلقاً.

وعبر المسترشد إلى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد ودفع السلطان وعسكره عن بغداد وحفر عليها الخنادق واعتزموا على كبس السلطان فأخافهم أبو الهيجاء الكردي صاحب اربل ركب للقتال فلحق بالسلطان ووصل عماد الدين زنكي من البصرة في جيش عظيم في البر والبحر أنهل

وتقدّم جوسكين بعسكره إليها فدافعوه بالمال ثم وصل صاحب أنطاكية فحاصره إلى آخر السنة وهم محاصرون القلعة فلما ملك عماد الدين زنكي الموصل والجزيرة والشام أطاعوا وسار عبد الجبار وقطّلع إلى عماد الدين بالموصل وأقام أحد الأميرين بحلب حتى بعث عماد الدين زنكي صاحبه صلاح الدين محمد الباغسياني في عسكر فملك القلعة ورُتب الأمور وولّي عليها وجاء عماد الدين بعساكره في أثره وملك في طريقه منبج ومراغة ثم دخل حلب وأقطع أعمالها الأجناد والأمرء وقبض على قطّلع ابنه وسلّمه لابن بديع فحمله فمات واستوحش ابن بديع فهرب إلى قلعة جعفر وأقام عماد الدين مكانه في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق.

قدوم السلطان سنجر إلى الريّ

ثم قدوم السلطان محمود إلى بغداد

الموصل طغرل وديس إلى السلطان سنجر بخراسان حرّضه ديس على العراق والسلطان محمود قد اتفقا على الامتناع منه فسار سنجر وأخبر السلطان محمود باستدعائه فوافاه لأقرب وقت وأمر العساكر بتلقيه وأجلسه معه على التخت وأقام السلطان محمود عنده إلى آخر اثنين وعشرين ثم رجع سنجر إلى خراسان بعد أن أوصى محمود بديس وأعادته إلى بلده ورجع محمود إلى همدان ثم سار إلى العراق وخرج الوزير للقائه ودخل بغداد في ناسوء سنة ثلاث وعشرين ثم لحقه ديبس بمائة ألف دينار في ولاية الموصل وسمع بذلك زنكي وجاء إلى السلطان وحمل المائة ألف مع هدايا جلييلة فخلع عليه وأعادته وسار منتصف السنة عن بغداد إلى همدان بعد أن ولّى الحلة مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

ثم توفي السلطان محمود بهمدان في شوال سنة خمس وعشرين لثلاث عشرة سنة من ملكه بعد أن كان قبض على جماعة من أمرائه وأعيان دولته منهم عزيز الدولة أبو نصر أحمد بن حامد المستوفي وأبو شكين المعروف بشيركين بن حاجب وابنه عمر خافهم الوزير أبو القاسم الشابادي فأغرى بهم السلطان فنكبهم وقتلهم ولما توفي اجتمع الوزير أبو القاسم والأتابك أقتغر الأحمدي وباعوا لابنه داود وخطبوا له في جميع بلاد الجبل

مكانه شحنة العراق مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت.

وسار عماد الدين زنكي فبدأ بالبواريج وملكها ثم سار إلى الموصل وتلقاه جاولي مطيعاً وعاد إلى الموصل في خدمته فدخلها في رمضان وأقطع جاولي الرحبة وبعث إليها وولّي نصير الدين جعفرأ قلعة الموصل وسائر القلاع وجعل صلاح الدين محمد الباغسياني أمير صاحب وولّي بهاء الدين الشهرزوري قضاء بلاده جميعاً وزاده أملاكاً وأقطاعاً وشركه في رأيه.

ثم سار إلى جزيرة ابن عمر وقد امتنع بها عماليك البرسقي فجدّ في قتالهم وكانت دجلة تحول بينه وبين البلد فعبر بعسكره الماء سبجاً واستولى على المسافة التي بين دجلة والبلد وهزم من كان فيها من الحامية حتى أحجزهم بالبلد وضَيّ حصارهم فاستأنوا وأمنهم ثم سار إلى نصيبين وهي لحسام الدين تمرتاش ابن أبي الغازي صاحب ماردين فحاصرها واستنجد حسام الدين ابن عمه ركن الدولة داود بن سكرمان بن أرتق صاحب كيفا فأغذيه بنفسه وأخذ في جمع العساكر وبعث تمرتاش ماردين إلى نصيبين يعرف العساكر بالخبر وأنّ العساكر واصله إليهم عن خمسة أيام وكتبه في رقعة وعلقها في جناح طائر فاعترضه عسكر زنخي وصادته وقرأ زنكي الرقعة وعوّض الخمسة أيام بعشرين يوماً وأطلق الطائر بها إلى البلد فقرؤوا الكتاب وأسقط في أيديهم واستطالوا العشرين واستأنوا لعماد الدين زنكي فأمنهم وملك نصيبين وسار عنها إلى سنجر فملكها صلحاً وبعث العساكر إلى الخابور فملكها.

ثم سار إلى حرّان وخرج إليه أهل البلد ببطاعتهم وكانت الرُّها وسروج والميرة ونواحيها للإفرنج وعليها جرسكين صاحب الرُّها فكاتب زنكي وهادته ليتفرّغ للجهاد بعد ثم عبر الفرات إلى حلب في الحُرْم سنة اثنين وعشرين وقد كان عز الدين مسعود بن أقتنقر البرسقي لما سار عنها إلى الموصل بعد قتل أبيه استخلف عليها قرمان من أمرائه ثم عزله بآخر اسمه قطّلع أبه وكتب له إلى قرمان فنعنه إلا أن يرى العلامة التي بينه وبين عز الدين بن البرسقي فعاد قطّلع إلى مسعود ليجيء بالعلامة فوجده قد مات بالرحبة فعاد إلى حلب وأطاعه رئيسها فضائل بن بديع والمقدمون بها واستنزلوا قرمان من القلعة على ألف دينار وأعطوه إيّاهما وملك قطّلع القلعة منتصف إحدى وعشرين ثم ساءت سيرته وظهر ظلمه وجوره.

وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق وكان ملكها قبل وخلع عنها فدعاه الناس إلى البيعة وثاروا بقطّلع فامتنع بالقلعة فحاصروه وجاء مهيار صاحب منبج وحسن صاحب مراغة لإصلاح أمرهم فلم يتفق وطمع الإفرنج في ملكها

إلى بلاد الجبال ومع طغرل ابن أخيه محمد وانتهى إلى الري ثم سار إلى همدان فسار مسعود لقتاله ومعه قراجا الساقى وسلجوق شاه وقد كان الخليفة عزم أن لا يتجهز معهم فأبطأ قبعشوا إليه قراجا فسار إلى خاتقين وأقام وقطعت خطبة سنجار من العراق وخالفهم إلى بغداد دبس وزنكي وقد سعى إقطاعه لسنجار الحلة وزنكي ولاه شحنة بغداد فرجع المسترشد إلى بغداد لموافقتهم وسار السلطان وأخوه سلجوق شاه للقاء سنجار ثم سمعا بكثرة عساكره فتأخرا فسار في طلبهم يوماً وليلة ثم تراجعوا عند الدينور وكان مسعود يماطل باللقاء انتظاراً للمسترشد فلم يجد بداً من اللقاء فالتقوا على النقيبة وحمل قراجا عليهم وتوڑط في المعركة وأصيب بجراحات ثم التفتوا عليه وأسروه وانهزم من أصحاب مسعود قزل وقد كان أطاهم على الهزيمة فانهمز السلطان مسعود عند ذلك منتصف ستة وعشرين وقتل كثير من أكابر الأمراء ونزل سنجار في خيامهم وأحضر قراجا فقتله وجيء إليه بالسلطان مسعود فأكرمه وأعاده إلى كنجة وخطب للملك طغرل ابن أخيه في السلطنة وخطب له في جميع البلاد واستوزر له أبا القاسم الساباذي وزير السلطان محمود وعاد إلى نيسابور آخر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة.

هزيمة السلطان داود واستيلاء طغرل بن

محمد على الملك

لما ولي طغرل همدان وولى عنه السلطان سنجار إلى خراسان وبلغه أن صاحب ما وراء النهر المؤرخان قد انتقض عليه فسار لإصلاحه وشغل بذلك فقام الملك داود بأذربيجان وبلاد كنجة وطلب الأمر لنفسه وجمع العساكر وسار إلى همدان ومعه برتقش الزكوي وأتابك أقتنقر الأحمديلي ومعه طغرل بن برسق ونزل وقد استقر ثم اضطرب عسكر داود وأحسوا من برتقش الزكوي بالفشل فذهب التركمان خيامه وهرب أقتنقر أتابك وانهزم في رمضان سنة ست وعشرين ثم قدم بغداد في ذي القعدة ومعه أتابك أقتنقر فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان.

عود السلطان مسعود إلى الملك

وهزيمة طغرل

قد تقدم لنا هزيمة السلطان مسعود من عمه سنجار وعوده إلى كنجة وولاية طغرل السلطان ثم محاربة داود ابن أخيه له

وأذربيجان ووقعت الفتنة بهمدان وسائر بلاد الجبل ثم سكنت وهرب الوزير إلى الري مستجيراً بالسلطان فأمر بها.

منازعة السلطان مسعود لداود ابن أخيه

واستيلاؤه على السلطان بهمدان

لما هلك السلطان عمود سار أخوه مسعود من جرجان إلى تبريز فملكها فسار داود من همدان في ذي القعدة سنة خمس وعشرين وحاصره بتبريز في محرم سنة ست وعشرين ثم اصطالحوا وتأخر داود عن الأمر لعمه مسعود فسار مسعود من تبريز إلى همدان وكاتب عماد الدين زنكي صاحب الموصل يستنجد به فوعده بالنصر وأرسل إلى المسترشد في طلب الخطبة ببغداد وكان داود قد أرسل في ذلك قبله وردّ المسترشد الأمر في الخطبة إلى السلطان سنجر ودسّ إليه أن لا يأذن لواحد منهما وأن تكون الخطبة له فقط وحسن موقع ذلك عنده وسار السلطان مسعود إلى بغداد وسبقه إليها أخوه سلجوق شاه مع أتابك قراجا الساقى صاحب فارس وخوزستان ونزل في دار السلطان واستخلفه الخليفة لنفسه.

ولما سار السلطان مسعود أوعز إلى عماد الدين زنكي أن يسير إلى بغداد فسار من الموصل إليها وانتهى السلطان مسعود إلى عباسة الخالص وبرزت إليه عساكر المسترشد وسلجوق شاه وسار قراجا الساقى إلى مدافعة زنكي فدافعه على المعشوق فهزمه وأسر كثيراً من أصحابه ومروّ منهزماً إلى تكريت وبها يومئذ نجم الدين أيوب أبر الأملاك الأيوبيّة فهبّا له المعابر وعبر دجلة إلى بلاده وسار السلطان مسعود من العباسة وقتلت طلائعه فلاح أخيه سلجوق وبعث سلجوق يستحث قراجا بعد انهزام زنكي فعاد سريعاً وتأخر السلطان مسعود بعد هزيمة زنكي وأرسل إلى المسترشد بأن عمه سنجار وصل إلى الري عازماً على بغداد ويشير بمدافعة عن العراق وتكون العراق لوكيل الخليفة ثم ترأسل القوم واتفقوا على ذلك وتحالفوا عليه وأن يكون مسعود السلطان وليّ العهد ودخلوا إلى بغداد فنزل مسعود ديار السلطان وسلجوق دار الشحنة واللّه سبحانه وتعالى وليّ التوفيق.

هزيمة السلطان مسعود

وملك طغرل أخيه

لما توفي السلطان عمود سار السلطان سنجار من خراسان

وفاة طغرل واستيلاء مسعود على الملك

ولما وصل مسعود إلى بغداد حمل إليه المسترشد ما يحتاج إليه وأمره بالمسير إلى همدان لمداخلة طغرل ووعد بالمسير معه بنفسه فتبسط مسعود عن المسير واتصل جماعة من أمرائه بخدمة الخليفة ثم أطلع على مداخلة بعضهم لطغرل فقبض عليه ونهب ماله وأرتاب الآخرون فهربوا عن السلطان مسعود وبعث المسترشد إعادتهم إليه فدافعه ووقعت لذلك بينهما وحشة فقعد المسترشد عن نصره بنفسه وبينما هم في ذلك وصل الخبر بوفاة أخيه طغرل في الحرم سنة تسع وعشرين فصار مسعود إلى همدان واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد حمله من بغداد وأقبلت إليه العساكر فاستولى على همدان وبلاد الجبل.

فتنة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله

وخلافة ابنه الراشد

قد تقدم لنا أنَّ الوحشة وقعت عندما كان ببغداد بسبب أمرائه الذين اتصلوا بخدمة المسترشد ثم هربوا عنه إلى السلطان مسعود فلما سار السلطان مسعود إلى همدان بعد موت أخيه طغرل وملكها استوحش منه جماعة من أعيان أمرائه منهم برتقش وقزل وقرا سنقر الخمارتكين والي همدان وعبد الرحمن بن طغرلبك ودبيس بن صدقة وساروا إلى خوزستان ووافقهم صاحبها برسق بن برسق واستأمنوا إلى الخليفة فارتاب من دبيس وبعث إلى الآخرين بالأمان مع شديد الدولة بن الأنباري وارتاب دبيس منهم أن يقبضوا عليه فرجع إلى السلطان مسعود وسار الآخرون إلى بغداد فاستحثوا المسترشد للمسير إلى قتال مسعود فاجابهم وبالغ في تكريمهم.

وبرز آخر رجب من سنة تسع وعشرين وهرب صاحب البصرة إليها وبعث إليه بالأمان فأبى فكاسل عن المسير فاستحثوه وسهلوا له الأمر فسار في شعبان ولحق به برسق بن برسق وبلغ عدة عسكره سبعة آلاف وتخلف بالمرق مع خادمه إقبال ثلاثة آلاف وكاتبه أصحاب الأطراف بالطاعة وأبطأ في مسيره فاستعجلهم مسعود وزحفوا إليه فكان عسكره خمسة عشر ألفاً.

وتسلل عن المسترشد جماعة من عسكره، وأرسل إليه داود ابن محمود من أذربيجان يشير بقصد الديتور والمقام بها حتى يصل في عسكره فأبى واستمر في مسيره.

وبعث زنكي من الموصل عسكراً فلم يصل حتى تواقعوا

وانهزام داود ثم رجوع داود إلى بغداد فلما بلغ الخبر إلى مسعود جاء إلى بغداد ولقيه داود قريباً منها وترجل له عن فرسه ودخلا بغداد في صفر سنة سبع وعشرين ونزل مسعود بدار السلطان وخطب له ولداود بعده وطلباً من السلطان عسكراً ليسير معهما إلى أذربيجان فبعث معهما العساكر إلى أذربيجان ولقيهم أفسنقر الأحمديلي في مراغة بالإقامة والأموال وملك مسعود ببلاد أذربيجان وهرب بين يديه من كان بها من الأمراء وامتنعوا بمدينة أذربيجان فحاصروهم بها وملكها عليهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون.

ثم سار إلى همدان لمحاربة أخيه طغرل فهزمه وملك همدان في شعبان من السنة ولحق طغرل بالري وعاد إلى أصفهان ثم قتل أفسنقر الأحمديلي بهمدان غيلة ويقال: إنَّ السلطان مسعوداً دسَّ عليه من قتله ثم سار إلى حصار طغرل بأصفهان ففارقها طغرل إلى فارس وملكها مسعود وسار في أثر طغرل إلى البيضاء فاستأمن إليه بعض أمراء طغرل فأمنه وخشي طغرل أن يستأمنوا إليه فقصده الري وقتل في طريقه وزيره أبا القاسم الساباذي في شوال من السنة ومثل به غلمان الأمير شيركين الذي سعى في قتله كما مرَّ ثم سار الأمير مسعود يتبعه إلى أن تراجعا ودارت بينهما حرب شديدة وانهزم طغرل وأسر من أمرائه الحاجب تنكي وأتى بقرا وأطلقهما السلطان مسعود وعاد إلى همدان والله تعالى أعلم.

عود الملك طغرل إلى الجبل وهزيمة

السلطان مسعود

ولما عاد مسعود من حرب أخيه طغرل بلغه انتفاض داود ابن أخيه محمود بأذربيجان فسار إليه وحاصره بقلعة فحصر جمع طغرل العساكر وتغلب على بلاده وسار إليه واستعمل بعض قواده فسار مسعود للقائه ولقيه عند قزوين وفارق مسعود الأمراء الذين استمالهم طغرل ولحقوا به فانهزم مسعود في رمضان سنة ثمان وعشرين وبعث إلى المسترشد يستأذنه في دخول بغداد فأذن له وكان أخوه سلجوق بأصفهان مع نائبه فيها البقش السلاحي فلما سمع بانهزامة سبقه إلى بغداد وأنزله المسترشد بدار السلطان وأحسن إليه بالأموال ووصل مسعود وأكثر أصحابه رجلاً فوسع عليه الخليفة بالإتفاق والمراكب والظهر واللباس والآلة ودخل دار السلطان متتصف شوال وأقام طغرل بهمدان.

صاحب فروق والبش الكبير صاحب أصفهان وابن برسق وابن الأحمدي وخرج للقائهم كجراية والطنرطاي وكان إقبال خادم المسترشد قد قدم من تكريت فقبض عليه الراشد وعلى ناصر الدولة أبي عبد الله الحسن بن جهر فاسترحش أهل الدولة وركب الوزير جلال الدين بن صدقة إلى لقاء عماد الدين زنكي فأقام عنده مستجيراً حتى أصلح حاله مع الراشد واستجار به قاضي القضاة الزيني ولم يزل معه إلى الموصل وشفع في إقبال فأطلق وسار إليه ثم جدّ الراشد في عمارة السور وسار الملك داود لقتال مسعود استخلفه الراشد واستخلفه عماد الدين زنكي وقطعت خطبة مسعود من بغداد ووُلّي داود شحنة بغداد برتقش بازدار.

ثم وصل الخبر بأنّ سلجوق شاه أخا الأمير مسعود ملك واسط وقبض على الأمير بك أبيه فسار الأمير زنكي لدفاعه فصالحه ورجع وعبر إلى طريق خراسان للحاق داود واحتشد العساكر ثم سار السلطان مسعود لقتالهم وفارق زنكي داود ليسير إلى مراغة ويخالف السلطان مسعود إلى همدان وبزر الراشد من بغداد أول رمضان وسار إلى طريق خراسان وعاد بعد ثلاث وعزم على الحصار ببغداد واستدعى داود الأمراء ليكونوا معه عنده فجاؤوا لذلك ووصلت رسل السلطان مسعود بطاعة الراشد والتعريض بالوعيد للأمراء المجتمعين عنده فلم يقبل طاعة من أجلهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار بغداد ومسير الراشد إلى الموصل

وخلعه وخلافة المفتي

ثم إنّ السلطان مسعوداً أجمع المسير إلى بغداد وانتهى إلى الملكية فسار زين الدين علي من أصحاب زنكي حتى شارف معسكره وقتلهم ورجع ونزل السلطان على بغداد والعيّارون أنسدوا سائر الخال ببغداد وانطلقت أيديهم وأيدي العساكر في النهب ودام الحصار نيفاً وخمسين يوماً تأخر السلطان مسعود إلى النهروان عازماً على العود إلى أصفهان فوصله طرنطاي صاحب واسط في سفن كثيرة فركب إلى غربيّ بغداد فاضطرب الأمراء وافترقوا وعادوا إلى أذربيجان وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الراشد وسار معه إلى الموصل ودخل السلطان مسعود بغداد منتصف ذي القعدة فسكن الناس وجمع القضاة والفقهاء وأوقفهم على عيّن الراشد التي كتبها بخطه: إني متى جمعت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من

وسار السلطان محمود إليهم مجدّاً فوافاهم عاشر رمضان ومالت مسيرة المسترشد إليه وانهزمت ميمته وهو ثابت لم يتحرك حتى أخذ أسيراً ومعه الوزير والقاضي وصاحب التحرّر وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود فأنزل في خيمة ونهب غنيمه وحمل الجماعة أصحابه إلى قلعة ترجعان ورجع بقية الناس إلى بغداد ورجع السلطان إلى همدان وبعث الأمير بك أبيه إلى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عميد وقبضوا أملاك المسترشد وغلاتها وكانت بينهم وبين العائمة فتنة قتل فيها خلق من العائمة وسار السلطان في شوال إلى مراغة وقد تردّدت الرسل بينهما في الصلح على مال يؤذيه المسترشد وأن لا يجمع العساكر ولا يخرج من داره لحرب ما عاش وأجابه السلطان وأذن له في الركوب وحمل الغاشية وفارق المسترشد بعض الموكلين به فهجم عليه جماعة من الباطنية فالحموه جراحاً وقتلوه ومثلوا به جدياً وصلباً وتركوه سليماً في نفر من أصحابه قتلهم معه وتبع الباطنية فقتلوا وكان ذلك منتصف ذي القعدة سنة ستة وعشرين لثمان عشرة سنة من خلافته وكان كاتباً بليغاً شجاعاً قرماً ولما قتل بمراغة كتب السلطان مسعود إلى بك أبيه شحنة ببغداد بأن يبيع لابنه فبوع ابنه الراشد أبو جعفر منصور بعهدته إليه لثمانية أيام من مقتله وحضر بيعته جماعة من أولاد الخلفاء وأبو النجيب الواعظ وأما إقبال خادم المسترشد فلما بلغه خبر الواقعة وكان مقيماً ببغداد كما قدّمناه عبر إلى الجانب الغربيّ ولحق بتكريت ونزل على مجاهد الدين بهروز.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود

لما بوع الراشد بعث إليه السلطان مسعود برتقش الزكوي يطالبه بما استقرّ عليه الصلح مع أبيه المسترشد وهو أربعمائة ألف دينار فأنكر الراشد أن يكون له مال وإنما مال الخلافة كان مع المسترشد فنهب ثم جمع الراشد العساكر وقدم عليهم كجراية وشرع في عمارة السور واتفق برتقش مع بك أبيه على هجوم دار الخلافة وركبوا لذلك في العساكر فقاتلهم عساكر الراشد والعائمة وأخرجوهم عن البلد إلى طريق خراسان وسار بك أبيه إلى واسط وبرتقش إلى سرخس ولما علم داود بن محمود فتنة عمه مسعود مع الراشد سار من أذربيجان إلى بغداد في صفر سنة ثلاثين ونزل بدار السلطان ووصل بعده عماد الدين زنكي من الموصل وصدقة بن دبّيس من الحلة ومعه عش بن أبي العسكر يدبر أمره ويدبره وكان أبوه دبّيس قد قتل بعد مقتل المسترشد بأذربيجان وملك هو الحلة. ثم وصل جماعة من أمراء مسعود منهم برتقش بازدار

إلى أذربيجان سار هو إلى بغداد ليملكها ودافعه البقش النحت ونظم الخادم أمير الحاج وثار العيارون بالبلدان وأفحشوا في النهب فلما رجع الشحنة استأصل شافتهم وأخذ المستورين بجنايتهم فجلا الناس عن بغداد إلى الموصل وغيرها. ولما قتل صدقة بن دبب أقر السلطان مسعود أخاه محمداً على الحلة ومعه مهلهل بن أبي العساكر أخو عرش المقتول كما مرّ في أخباره.

ثم لما ملك بوزابة فارس رجع مع الراشد والملك داود ومعهما خوارزم شاه إلى خوزستان وخربوا الجزيرة فسار إليهم مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود إلى فارس وخوارزم شاه إلى بلده وسار الراشد إلى أصفهان فثار به نفر من الخراسانية كانوا في خدمته فقتلوه عند القائلة في خامس عشر رمضان من السنة ودفن بظاهر أصفهان ثم قبض السلطان آخر السنة على وزيره أبي البركات بن سلامة الدركريني واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الخازن وكان نبهاً حسن السيرة فرفع المظالم وأزال المكوس وأقام وظائف السلطان وجمع له الأموال وضرب على أيدي العمال وكشف خيانتهم فنقل عليهم وأوقعوا بينه وبين الأمراء فبالغوا في السعاية فيه عند السلطان وتولى كبرها قراستقر صاحب أذربيجان فإنه بعث إلى السلطان يتهذبه بالخروج عن طاعته فأشار على السلطان خواصه بقتله خشية الفتنة فقتله على كره وبعث برأسه إلى قراستقر فرضي.

وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة لسبعة أشهر من وزارته واستوزر بعده أبا العزّ طاهر بن محمد اليزدجردي وزير قراستقر ولقب عزّ الملك وضاعت الأمور على السلطان وأقطع البلاد للأمراء ثم قتل السلطان البقش السلاحيّ الشحنة بما ظهر منه من الظلم والعسف فقبض عليه وحجسه بتكريت عند مجاهد الدين بهروز ثم أمر بقتله فلما قرب للقتل ألقى نفسه في دجلة فمات وبعث برأسه إلى السلطان فقدم مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فحسن أثره ثم عزله السلطان سنة ست وثلاثين وولى فيها قرلي أميراً آخراً من موالى السلطان محمود وكانت له يزددجرد والبصرة فأضيف له إليهما والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

فتنة السلطان سنجار مع خوارزم شاه

وهو أول بداية بني خوارزم قد تقدّم لنا ذكر أوليّة محمد خوارزم شاه وهو محمد بن أبي شتكين وأنّ خوارزم شاه لقب له وأنّ الأمير داود حبشي لما ولاء بركيارق خراسان وقتله إكنجي ولى محمد بن أبي شتكين وولي بعده ابنه أتنز فظهرت كفايته

الأمر. فافتوا بخلعه واتفق أرباب الدولة من كان ببغداد ومن أسر مع المسترشد وبقي من عند السلطان مسعود كلهم على ذمّه وعدم أهليته على ما مرّ في أخباره بين أخبار الخلفاء.

وبويح محمد بن المستظهر ولقب المقتفي وقد قدّمت هذه الأخبار بأوسع من ذلك.

ثم بعث السلطان العساكر مع قراستقر لطلب داود فأدركته عند مراغة وقتلته فهزمه وملك أذربيجان ومضى داود إلى خوزستان واجتمع عليه عساكر من التركمان وغيرهم فحاصر تستر وكان عمه سلجوق بواسط فسار إليه بعد أن أمره أخوه مسعود بالعساكر ولقي داود على تستر فهزمه داود ثم عزل السلطان وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد واستوزر كمال الدين أبا البركات بن سلامة من أهل خراسان ثم بلغه أنّ الراشد قد فارق الموصل فأذن للعساكر التي عنده ببغداد في العودة إلى بلادهم وصرف فيهم صدقة بن دبب صاحب الحلة بعد أن أصهر إليه في ابنته وقدم عليه جماعة من الأمراء الذين كانوا مع داود منهم البقش السلافي وبرسق بن برسق وصاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همدان فرضي عنهم وأمنهم وعاد إلى همدان سنة إحدى وثلاثين.

الفتنة بين السلطان مسعود وبين داود

الراشد وهزيمة مسعود ومقتل الراشد

كان الأمير بوزابة صاحب خوزستان والأمير عبد الرحمن طغرل بك صاحب خلخال والملك داود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان فاجتمعوا عند الأمير منكبرس صاحب فارس وبلغهم مسير الراشد من الموصل إلى مراغة فراسلوه في أن يجتمعوا عليه ويردّوه إلى خلافته فأجابهم وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود فسار إليهم في شعبان سنة اثنين وثلاثين وأوقع بهم وأخذ منكبرس أسيراً فقتله وافتترقت عساكره للنهب فانفرد بوزابة وطغرل بك وصدقا الحملة عليه فانهزم وقبض على جماعة من الأمراء مثل صدقة بن دبب صاحب الحلة وكافله بمبشرين أبي العساكر وابن أتابك قراستقر صاحب أذربيجان وحجسهم بوزابة حتى تحقق قتل منكبرس.

ولحق السلطان مسعود بأذربيجان منهزماً وسار داود إلى همدان فملكها ووصل إليه الراشد هنالك وأشار بوزابة وكان كبير القوم بالمسير إلى فارس فساروا معه واستولى عليها وملكها ولما علم سلجوق شاه وهو بواسط أنّ أخاه السلطان مسعود أمضى

ملك خوارزم واستقرّ بها فبعث إلى الخطا وهم أعظم الترك فيما وراء النهر وأغرامهم بمملكة السلطان سنجار واستحثهم لها فساروا في ثلثمائة ألف فارس وسار سنجار في جميع عساكره وعبر إليهم النهر ولقيهم سنة ست وثلاثين واقتتلوا أشد قتال ثم انهزم سنجار وعساكره وقتل منهم مائة ألف فيهم أربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجار ولحق سنجار بترمد وسار منها إلى بلخ وقصد أتنز مدينة مرو فدخلها مراغماً للسلطان وقتك فيها وقبض على جماعة من الفقهاء والأعيان وبعث السلطان سنجار إلى السلطان مسعود يأذن له في النصر وفي الريّ ليدعوه إن احتاج إليه ففاجأ عباس صاحب الريّ بذلك إلى بغداد وسار السلطان مسعود إلى الريّ امتثالاً لأمر عمه سنجار.

قال ابن الأثير: وقيل إنّ بلاد تركستان وهي كاشغر وبلاد سامسون وجيى وطراز وغيرها مما وراء النهر كانت بيد الخانيّة وهم مسلمون من نسل مراسيان ملك الترك المعروف خبره مع ملوك الكينيّة وأسلم جدّهم الأول سبق قراخان لأنه رأى في منامه أن رجلاً نزل من السماء وقال له بالتركيّة ما معناه أسلم تسلم في الدنيا والآخرة. وأسلم في منامه ثم أسلم في يقظته. ولما مات ملك مكانه موسى بن سبق ولم يزل الملك في عقبه إلى أرسلان خان بن سليمان بن داود بن بقرخان بن إبراهيم طغاج خان بن ايلك نصر بن أرسلان بن علي بن موسى بن سبق فخرج عليه قردخان وانتزع الملك منه ثم نصر سنجار وقتل قردخان وخرج بعد ذلك خوارزم ونصره السلطان سنجار منهم وأصاده إلى ملكه وكان في جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغليّة والأتراك الغزيّة الذين نهروا خراسان على ما نذكره بعد وهم صنفان: صنف يقال لهم: حق وأميرهم طوطي بن داديك وصنف يقال لهم: برق وأميرهم برغوث بن عبد الحميد.

وكان لأرسلان نصر خان شريف يصحبه من أهل سمرقند وهو الأشرف بن محمد بن أبي شجاع العلوي فحمل ابن أرسلان نصر خان وطلبوا انتزاع الملك منه فاستصرخ السلطان سنجار فعبّر إليه في عساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وانتهى إلى سمرقند فهرب القارغليّة أمامه وعاد إلى سمرقند فقبض على أرسلان خان وحجبه ببلخ فمات بها وولى على سمرقند مكانه قليج طمقاج أبا المعالي الحسن بن علي بن عبد المؤمن ويعرف بحسن تكرر من أعيان بيت الخانيّة إلا أنّ أرسلان خان أطرّحه فولاه سنجار ولم تطل أيامه فولى بعده محمود ابن أرسلان خان وأبوه هو الذي ملك سمرقند من يده وهو ابن أخت سنجار.

وكان في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد خرج كوهرخان

وقربه السلطان سنجار واستخلصه واستظهر به في حروبه فزاده ذلك تقدماً ورفعة واستفحل ملكه في خوارزم ونغي للسلطان سنجار أنه يريد الاستيلاء فزار إليه سنة ثلاث وثلاثين وبرز أتنز ولقيه في التعبئة فلم يثبت وانهزم وقتل من عسكره خلق وقتل له ابن فحزن عليه حزناً شديداً. وملك سنجار خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمد ورثب له وزيراً وأتابكاً وحاجباً وعاد إلى مرو منتصف السنة فخالفه أتنز إلى خوارزم وهرب سليمان شاه ومن معه إلى سنجار واستولى أتنز على خوارزم وكان من أمره ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى.

استيلاء قراسنقر صاحب أذربيجان على

بلاد فارس

ثم جمع أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وبرز طالباً نار أبيه الذي قتله بوزابة في المصاف كما مرّ. وأرسل السلطان مسعود في قتل وزيره الكمال فقتله كما مرّ فانصرف عنه إلى بلاد فارس وتحصن عنه بوزابة في القلعة البيضاء ووطى قراسنقر البلاد وملكها ولم يمكنه مقام فسلمها لسجلوق شاه ابن السلطان محمود وهو أخو السلطان مسعود وعاد إلى أذربيجان فنزل بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وأسرّه وحجبه ببعض قلاعه واستولى على البلاد ثم هلك قراسنقر صاحب أذربيجان وأران بمدينة أردبيل وكان من مماليك طغرل وولي مكانه جاولي الطغرلي والله سبحانه وليّ التوفيق.

مسير جهان دانكي إلى فارس

ثم أمر السلطان سنة خمس وثلاثين الأمير إسماعيل جهان دانكي فزار إليها ومنعها مجاهد الدين بهروز من الوصول واستعدّ لذلك بخسف المعابر وتغريقها فقصده الحلة فمتنها أيضاً فقصده واسط فقاتله طرناي وانهزم ودخل واسط ونهبها ونهب النعمانيّة وما إليها واتبعهم طرناي إلى البطيحة ثم فارقه عسكره إلى طرناي فلحق بتستر وكتب إسماعيل إلى السلطان فعفا عنه.

هزيمة السلطان سنجار أمام الخطا

واستيلاؤهم على ما وراء النهر

وتلخيص هذا الخبر من كتاب ابن الأثير: أن أتنز بن محمد

الفضل الكرمانى وأعيان أهلها للشورى ثار عامة البلد وقتلوا من كان عندهم من جنده وامتنعوا فطاووا ودخلها عنوة وقتل كثيراً من علمائها ثم رجع في شوال من السنة إلى نيسابور وخرج إليه علماءها وزهادها يسألون معافاتها عما نزل بأهل مرو فأعفاهم واستصفى أصحاب السلطان وقطع خطبة سنجار وبعث عسكرياً إلى أعمال صغد فقاتلهم أياماً ولم يطق سنجار مقاومته لمكان الخطأ وجوارهم له.

ثم سار السلطان سنجار سنة ثمان وثلاثين لقتال خوارزم وحاصرها أياماً وكاد يملكها واقتحمها بعض أمرائه يوماً فدافعه أئسى بعد حروب شديدة ثم أرسل أئسى إلى سنجار بالطاعة والعود إلى ما كان عليه قبله وعاد سنة ثمان وثلاثين.

صلح زنكي مع السلطان مسعود

ثم وصل السلطان مسعود سنة ثمان وثلاثين إلى بغداد عاده فتجهز لقصد الموصل وكان يحمل لزنكي جميع ما وقع من الفتن فبعث إليه زنكي يستعطفه مع أبي عبد الله بن الأنباري وحمل معه عشرين ألف دينار وضمن مائة ألف على أن يرجع عنه فرجع وانعقد الصلح بينهما وكان بما رغب السلطان في صلحه أن ابنه غازي بن زنكي هرب من عند السلطان خوفاً من أبيه فردّه إلى السلطان ولم يجتمع به فوق ذلك من السلطان أحسن موقع والله تعالى أعلم.

انتقاض صاحب فارس وصاحب الري

كان بوزابة صاحب فارس وخوزستان كما قدّمنا فاستوحش من السلطان مسعود فانتقض سنة أربعين وخمسائة ويابح محمد بن محمود وهو ابن أخي السلطان مسعود وسار إلى مامشون واجتمع بالأمير عباس صاحب الري ووافق على شأنه واتصل به سليمان شاه أخو السلطان مسعود وتغلبوا على كثير من بلاده فسار إليهم من بغداد في رمضان من السنة ومعه الأمير طغبارك حاجبه وكان له التحكم في الدولة والميل إلى القوم واستخلفه وسار فلما تقاربوا للحرب نزع السلطان شاه عنهم إلى أخيه مسعود وسعى عبد الرحمن في الصلح فانهقد بينهما على ما أحبه القوم وأضيف إلى عبد الرحمن ولاية أذربيجان وأران إلى خلخال عوضاً من جاوي الطغري واستورز أبا الفتح بن دارست وزير بوزابة وقد كان السلطان سنة تسع وثلاثين قبض

من الصين إلى حدود كاشغر في جموع عظيمة وكوهر الأعظم بلسانهم وخان السلطان فمتاعه أعظم ملك ولقيه صاحب كاشغر أحمد بن الحسن الخان فهزمه وقد كان خرج قبله من الصين أتراك الخطا وكانوا في خدمة الخاتية أصحاب تركسان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان ينزلهم على الدروب بينه وبين الصين مسالح ولهم على ذلك جرايات وإقطاعات وسخط عليهم بعض السنين وعاقبهم بما عظم عليهم فطلبوا نسيحاً من البلاد يأمنون فيه من أرسلان خان لكثرة ما كان يغزوهم ووصفت لهم بلاد سامسون فساروا إليها.

ولما خرج كونان من الصين ساروا إليه واجتمعوا عليه ثم ساروا جميعاً إلى بلاد ما وراء النهر ولقيهما الخان محمود بن أرسلان خان محمد في حدود بلاده في رمضان سنة إحدى وثلاثين فهزمه وعاد إلى سمرقند وعظم الخطب على أهلها وأهل بخارى واستمدّ محمود السلطان سنجار وذكر ما لقي السلطان من العنت واجتمع عنده ملوك خراسان وملك سجستان من بني خلف وملك غزنة من الغوريين وملك مازندران وعبر النهر للقاء الترك في أكثر من ألف وذلك لآخر خمس وثلاثين وخمسائة.

وشكا إليه محمود خان من القارغلية فقصدهم واستجاروا بكوهرخان ملك الصين فكتب إلى سنجار بالشفاعة فيهم فلم يشفعه وكتب إليه يدعو للإسلام ويهذبه بكثرة العساكر فأهان الرسول وزحف للقاء سنجار والتقى الجمعان بموضع يسمى قطوان خامس صفر سنة ست وثلاثين وأبلى القارغلية من الترك وصاحب سجستان من المسلمين ثم انهزم المسلمون قتل كثير منهم وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان سنجار فأطلقهم كوخان ومضى السلطان سنجار منهزماً وملك الترك الكفار والخطا بلاد ما وراء النهر إلى أن مات كوخان ملكهم سنة سبع وثلاثين ووليت بعده ابنته ثم ماتت قريباً وملكت أمها من بعدها وهي زوجة كوخان وابنه محمد وصار ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن غلبهم عليه عماد الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستائة.

أخبار خوارزم شاه بخراسان وصلحه مع

سنجار

ولما عاد السلطان منهزماً سار خوارزم شاه إلى سرخس في ربيع سنة ست وثلاثين فأطاعته ثم إلى مرو الشاهجان فشفع فيهم الإمام أحمد البخارزي ونزل بظاهرها وبينما هو قد استدعى أبا

مزاتكن واشتد القتال بينهما وكبا الفرس ببوزابة وسبق إلى السلطان فقتل بين يديه وقيل: أصابه سهم فسقط ميتاً وانهمزت عساكره وكان هذا الحرب من أعظم الحروب بين السلجوقية.

انتقاض الأمراء على السلطان

ولما قتل طغبارك وعباس وبوزابة اختص بالسلطان ابن خاص بك لميله إليه وأطرح بقية الأمراء فاستوحشوا وارتابوا بأنفسهم أن يقع بهم ما وقع بالآخرين ففارقوه وساروا نحو العراق أبو ركن المسعودي صاحب كنتجة وأران والبقش كون خر صاحب الجبل والحاجب خريطاي الحمودي شحنة واسط وابن طغبارك والركن وقرقوب ومعهم ابن أخي السلطان وهو محمد بن عمود وانتهوا إلى حران فاضطرب الناس ببغداد وغلت الأسعار وبعث إليهم المفتي بالرجوع فلم يرجعوا ووصلوا إلى بغداد في ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين ونزلوا بالجانب الشرقي وهرب أجناد مسعود شحنة بغداد إلى تكريت ووصل إليهم علي بن ديبس صاحب الحلة ونزل بالجانب الغربي وجمع الخليفة العساكر ثم قاتل العامة عساكر الأمراء فاستطردوا لهم ثم كروا عليهم فملؤوا الأرض بالقتلى ثم جاست خيولهم خلال الديار فنهبوا ومبوا ثم جاؤوا مقابل التاج يعتذرون ورددوا الرسل إلى الخليفة سائر يومهم ثم ارتحلوا من الغد إلى النهروان فعاثوا وعاد مسعود من بلاد تكريت إلى بغداد ثم افترق الأمراء وفارقوا العراق ثم عاد البقش كون خر والطرنطاي وابن ديبس سنة أربع وأربعين ومعهم ملك شاه بن عمود وهو ابن أخي السلطان وطلبوا من الخليفة الخطبة لملك شاه فأبى وجمع العساكر وشغل بما كان فيه من أمر عم السلطان سنجار وذلك أن السلطان سنجار بعث إليه يلومه في تقديم ابن خاص بك ويأمره بإبعاده وتهده فغالطه ولم يفعل فسار إلى الري فبادر إليه مسعود وترضاه فرضي عنه ولما علم البقش كون خر مراسلة المفتي لمسعود نهب النهروان وقبض على علي بن ديبس وسار السلطان بعد لقاء عمه إلى بغداد فوصلها منتصف شوال سنة أربع وأربعين فهرب الطرنطاي إلى النعمانية ورحل البقش إلى النهروان بعد أن أطلق علي بن ديبس فجاء إلى السلطان واعتذر فرضي عنه.

على وزيره اليزدجردي واستوزر مكانه المرزبان بن عبد الله بن نصر الأصفهاني وسلم إليه اليزدجردي واستصفى أمواله فلما كان هذه السنة وفعل بوزابة في صلح القوم ما فعل اعتضد بهم على مقامه عند السلطان وتحكم عليه وعزل وزيره واستوزر له أبا الفتح هذا.

مقتل طغبارك وعباس

قد قدمنا أن طغبارك وعبد الرحمن تحكما على السلطان واستبدأ عليه ثم آل أمره إلى أن منعا بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن بنكري من مباشرة السلطان وكان تربته وخاصاً به ونحبي خلوته وتجهز طغبارك لبعض الوجوه فحمله في جملة فأسر السلطان إلى أرسلان الفتك بطغبارك ودخل رجال العسكر في ذلك فأجاب منهم زنكي جاندار أن يباشر قتله بيده ووافق بك أرسلان جماعة من الأمراء واعترضوا له في موكله فضربه الجاندار فصرعه عن فرسه وأجهز عليه ابن خاص بك ووقف الأمراء الذين وأطؤوه على ذلك دون الجاندار فمنعوه وكان ذلك بظاهر صهوة وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود ببغداد ومعه عباس صاحب الري في جيش كثيف فامتعض لذلك ونكره فداراه السلطان حتى سكن ودخل بعض الأمراء في قتله فأجابوه وتولى كبر ذلك البقش حروسوس اللحف وأحضر السلطان عباساً وأدخله في داره وهذان الأميران عنده وقد أكمنا له في بعض المخادع رجالاً وعدلوا به إلى مكانهم فقتلوه ونهبت خيامه وأصاحت البلاد لذلك ثم سكنت وكان عباس من موالى السلطان محمود وكان عادلاً حسن السيرة وله مقامات حسان في جهاد الباطنية وقتل في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين ثم حبس السلطان أخاه سليمان شاه في قلعة تكريت وسار عن بغداد إلى أصفهان والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق.

مقتل بوزابة صاحب فارس

قد تقدم لنا أن طغبارك كان مستظهِراً على السلطان بعباس صاحب الري وبوزابة صاحب فارس وخوزستان فلما قتل طغبارك وامتعض له عباس قتل إثره وانتهى الخبر إلى بوزابة فجمع العساكر وسار إلى أصفهان سنة اثنتين وأربعين فحاصرها وبعث عسكراً آخر لحصار همذان وآخر إلى قلعة الماهكي من بلاد اللحف من قلاع البقش كون خر فسار إليها ودفعهم عنها ثم سار بوزابة عن أصفهان لطلب السلطان مسعود فامتنع وتراجعاً بمخرج

وفاة السلطان مسعود وولاية ملك شاه ابن

أخيه محمود ثم أخيه محمد من بعده

بلغ وكان لهم من الأمراء عمود ودينار وخبثيار وطوطي وأرسلان ومعز وكان صاحب بلخ الأمير قماج فتقدم إليهم أن يبعدوا عن بلخ فصانعوه فتركهم وكانوا يعطون الزكاة ويؤمنون السابلة ثم عاد إليهم في الانتقال فاستمتعوا وجمعوا فخرج إليهم في العساكر وبذلوا له مالا فلم يقبل وقاتلوه فهزموه وقتلوا العسكر والرعايا والفقهاء وسبوا العيال ونجا قماج إلى مرو وبها السلطان سنجان فبعث إليهم يتهدهدهم ويأمرهم بمفارقة بلاده فلاتفوه وبذلوا له فلم يقبل وسار إليهم في مائة ألف فهزموه وأثنخوا في عسكره وقتل علاء الدين قماج وأسروا السلطان سنجان ومعه جماعة من الأمراء فقتلوا الأمراء واستبقوا السلطان سنجان وبإيعوه ودخلوا معه إلى مرو فطلب منه بختيار إقطاعها فقال: هي كرسي خراسان. فسخرها منه.

ثم دخل سنجان خائفاه فقسط على الناس وأطهرهم وعسفهم وعلق في الأسواق ثلاث غرائر وطالبهم بملئها ذهباً فقتله العامة ودخل الغز نيسابور ودمروها تدميراً وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء في كل بلد ولم يسلم من خراسان غير هراة وسبستان لحصانتها.

وقال ابن الأثير عن بعض مؤرخي العجم: إن هؤلاء الغز انتقلوا من نواحي التغرغر من أقاصي الترك إلى ما وراء النهر أيام المفتي وأسلموا واستظهر بهم المفتح الكندي على غارقه وشعوذته حتى تم أمره فلما سارت إليه العساكر خذلوه وأسلموه وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الحانية ثم طردهم الأتراك الفارغلية عن أقطاعهم فاستدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طخارستان وأزله بلاده واستظهر بهم على قماج صاحب بلخ وسار بهم لمحاربه فخذلوه لأن قماج كان استمالهم فانهم زنكي وأسر هو وابنه وقتلها قماج وأقطع الغز في بلاده.

فلما سار الحسين بن الحسين الغوري إلى بلخ برز إليه قماج ومعه هؤلاء الغز فخذلوه ونزعوا عنه إلى الغوري حتى ملك بلخ فسار السلطان سنجان إلى بلخ وهزم الغوري واستردها وبقي الغز بنواحي طخارستان وفي نفس قماج حقد عليهم فأمرهم بالانتقال عن بلاده فتألفوا وتجمعوا في طوائف من الترك وقدموا عليهم أرسلان بوقاء التركي ولقيهم قماج فهزموه وأسروه وابنه أبا بكر وقتلوهما واستولوا على نواحي بلخ وعاثوا فيها وجمع السلطان سنجان وفي مقدمته محمد بن أبي بكر بن قماج المقتول والمؤيد ابنه في عزم سنة ثمان وأربعين وجاء السلطان سنجان على أثره وبعثوا إليه بالطاعة والأموال فلم يقبل منهم وقتلهم فهزموه إلى بلخ ثم عاود قتالهم فهزموه إلى مرو واتبعوه فهرب هو وعسكره من مرو

ثم توفي السلطان مسعود بهمدان في رجب منتصف سبع وأربعين لاثنتين وعشرين سنة من طلبه الملك وبه كمل استفحال ملك السلجوقية وركب الخمول دولتهم بعده وكان عهد إلى ملك شاه بن أخيه محمود فلما توفي بايع له الأمير ابن خاص بك وأطاعه العسكر وانتهى خبر موته إلى بغداد فهرب الشحنة بلاك إلى تكريت وأمر المفتي بالخطوة على داره ودور أصحاب السلطان مسعود ثم بعث السلطان ملك شاه عسكراً إلى الحلة مع ملاذ كرد من أمرائه فملكها وسار إليه بلاك الشحنة فخادعه حتى استمكن منه فقبض عليه وغرقه واستبد بلاك الشحنة بالحلة وجهز المفتي العساكر مع الوزير عون الدين بن هبيرة إلى الجلفة وبعث عساكر إلى الكوفة وواسط فملكها ووصلت عساكر السلطان ملك شاه فملكها وسار إليها الخليفة بنفسه فارتجعها منهم وسار منها إلى الجلفة ثم إلى بغداد آخر ذي القعدة من السنة.

ثم إن ابن خاص بك طمع في الانفراد بالأمر فاستدعى محمد بن محمود من خوزستان فأطاعه في الملك ليقبض عليه وعلى أخيه ملك شاه فقبض على ملك شاه أولاً لسنة أشهر من ولايته ووصل محمد في صفر من سنة ثمان وأربعين فأجلسه على التخت وخطب له بالسلطنة وحمل إليه الهدايا وقد سعى للسلطان محمد بما انطوى عليه ابن خاص بك فلما باكره صبيحة ووصله فتك به وقتله وقتل معه زنكي الجاندار قاتل طغبارك وأخذ من أموال ابن خاص بك كثيراً وكان صبيّاً كما بينا اتصل بالسلطان مسعود وتنصح له فقدمه على سائر العساكر والأمراء وكان أنوغري التركي المعروف بشملة في جملة ابن خاص بك ومن أصحابه ونهاه عن الدخول إلى السلطان محمد فلما قتل ابن خاص بك نجا شملة إلى خوزستان وكان له بها بعد ذلك ملك والله أعلم بغيبه وأحكامه.

تغلب الغز على خراسان وهزيمة السلطان

سنجان وأسر

كان هؤلاء الغز فيما وراء النهر وهم شعب من شعوب الترك ومنهم كان السلجوقية أصحاب هذه الدولة ويقوا هنالك بعد عبورهم وكانوا مسلمين فلما استولى الخطا على ملك الصين وعلى ما وراء النهر هاجر هؤلاء الغز إلى خراسان وأقاموا بنواحي

رعباً منهم ودخلوا البلد وأفشحو فيه قتلاً ونهباً وقتلوا القضاة والأئمة والعلماء ولما خرج سنجان من مرو وأسروه أجلسوه على التخت على عادته وآتوه طاعتهم ثم عاودوا الغارة على مرو فمنعهم أهلها وقتلهم ثم عجزوا واستسلموا فاستباحوها أعظم من الأولى ولما أسر سنجان فارقه جميع أمراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ووصلوا إلى نيسابور واستدعوا سليمان شاه بن السلطان محمود وخطبوا له بالسلطان في منتصف السنة واجتمعت عليه عساكر خراسان وساروا لطلب الغز فبارزوه على مرو وانهزمت العساكر رعباً منهم وقصدوا نيسابور والغز في اتباعهم ومرو بطوس فاستباحوها وقتلوا حتى العلماء والزهاد وخربوا حتى المساجد.

ثم ساروا إلى نيسابور في شوال سنة تسع وأربعين ففعلوا فيها أفحش من طوس حتى ملأوا البلاد من القتل وتخص طائفة بالجامع الأعظم من العلماء والصالحين فقتلوه عن آخرهم وأحرقوا خزائن الكتب وفعلوا مثل ذلك في جوين وأسفران فحاصروهما واقتحموهما مثل ما فعلوا في البلاد الأخرى وكانت أفعال الغز في هذه البلاد أعظم وأقبح من أفعال الغز في غيرها ثم إن السلطان سليمان شاه توفي وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك في شوال سنة ثمان وأربعين فاستوزر ابنه نظام الملك والمحل أمره وعجز عن القيام بالملك فعاد إلى جرجان في صفر سنة تسع وأربعين فاجتمع الأمراء وخطبوا للخان محمود بن محمد بن بقرخان وهو ابن أخت سنجان واستدعوه فملكوه في شوال من السنة وساروا معه لقتال الغز وهم محاصرون هراة فكانت حروبه معهم سجالاً وأكثر الظفر للغز ثم رحلوا عن هراة إلى مرو منتصف خسين وأعادوا مصادرة أهلها وسار الخان محمد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد كما يذكر فراسل الغز في الصلح فصالحوه في رجب.

استيلاء المؤيد على نيسابور وغيرها

استيلاء المؤيد على نيسابور وغيرها

هذا المؤيد من موالى سنجان واسمه..... وكان من أكابر أوليائه ومطاعاً فيهم ولما كانت هذه الفتنة وافترق أمر الناس بخراسان تقدم..... فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وان ورد وشهرستان والدامغان وحصنها ودافع الغز عنها ودانت له الرعية لحسن سيرته فعظم شأنه وكثرت جموعه واستبد بهذه الناحية وطالبه الخان محمود عندما ملكوه بالحضور عنده وتسليم البلاد فامتنع وترددت الرسل بينهما على مال يجعله للخان محمود

استيلاء ايتاخ على الري

كان ايتاخ من موالى السلطان سنجان وكانت الري أيضاً من أعمال سنجان فلما كانت فتنة الغز لحق بالري واستولى عليها وصانع السلطان محمد شاه ابن محمود صاحب همذان وأصبهان وغيرهما وبذل له الطاعة فأقره فلما مات السلطان محمد مد يده إلى أعمال تجاورته وملكها فعظم أمره وبلغت عساكره عشرة آلاف فلما ملك سليمان شاه همذان على ما تذكره وقد كان أنس به عند ولاية سليمان على خراسان سار إليه وقام بخدمته وبقي مستبداً بتلك البلاد والله سبحانه وتعالى أعلم.

الخبر عن سليمان شاه وحبسه بالموصل

كان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجان وجعله ولي عهده وخطب له على منابر خراسان فلما وقعت فتنة الغز وأسّر سنجان قدمه أمراء خراسان على أنفسهم ثم عجز ومضى إلى خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه ثم سعى به عنده فأخرجته من بلده وجاء إلى أصفهان فمنعه الشحنة من الدخول فمضى إلى قاشان فبعث السلطان محمد شاه ابن أخيه محمود عسكرياً ليدفعه عنها فسار إلى خوزستان فمنعه ملك شاه منها فقصد اللحف ونزل وأرسل المقتفي في أثره فطلبه في زوجته رهينة ببغداد فبعث بها مع جواربها وأتباعها فأكرمهم المقتفي وأذن له في القدوم وخرج الوزير ابن هبيرة وقاضي القضاة والفتيان لتلقيه وخلع عليه المقتفي وأقام ببغداد حتى إذا دخلت سنة إحدى وخمسين أحضر بدار الخلافة وحضر قاضي القضاة والأعيان واستحلف على الطاعة والتجافي للخليفة عن العراق وخطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه وأمه بثلاثة آلاف من العسكر وجعل معه الأمير دوران أمير حاجب صاحب الحلة.

وسار إلى بلاد الجبل في ربيع الأول من السنة وسار المقتفي إلى حلوان وبعث إلى ملك شاه بن السلطان محمود يدعوه إلى موافقة عمه سليمان شاه وأن يكون ولي عهده فقدم في ألفي فارس وتحالفا وأمدهما المقتفي بالمال والأسلحة واجتمع معهم أيلدكز صاحب كنجة وأرائنة وساروا لقتال السلطان محمد فلما بلغه خبرهم أرسل إلى قطب الدين مودود بن زنكي ونائبه زين الدين

علي أوان واتصلت الحرب واشتد الحصار وفقدت الأقوات وانقطعت المواد عن أهل بغداد وفت كجك وعسكره في القتال أدباً مع المقتفي وقيل: أوصاه بذلك نور الدين محمود بن زنكي أخو قطب الدين الأكبر ثم جاء الخبر بأن ملك شاه أخا السلطان محمد وإيلدكز صاحب أران وربييه أرسلان بن طغرل قصدوا همدان فسار عن بغداد مسرعاً إلى همدان آخر ربيع الأول وعاد زين الدين إلى الموصل ولما وصل ملك شاه وإيلدكز وربييه أرسلان إلى همدان أقاموا بها قليلاً وسمعوا بمجيء السلطان فأجفلوا وساروا إلى الري فقاتلهم الشحنة أتابيج فهزموه وحاصروه وأمداه السلطان محمد بعسكر بن سقمس بن قماز فوجدتهم قد أفرجوا عنه وقصدوا بغداد فقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره فسار السلطان محمد ليسابقيهم إلى بغداد فلما انتهى إلى حلوان بلغه أن إيلدكز بالدينور ثم وافاه رسول أتابيج بأنه ملك همدان وخطب له فيها وإن شمله صاحب خراسان هرب عن إيلدكز وملك شاه إلى بلاده فعاد إلى أران ورجع السلطان إلى همدان قاصداً للتجهز إلى بلاد إيلدكز بأران.

وفاة سنجان

ثم توفي السلطان سنجان صاحب خراسان في ربيع سنة اثنتين وخمسين وقد كان ولي خراسان منذ أيام أخيه بركيارق وعهد له أخوه محمد فلما مات محمد خوطب بالسلطنة وكان الملوك كلهم بعدها في طاعته نحو أربعين سنة وخطب له قبلها بالملك عشرين سنة وأسره الغز ثلاث سنين ونصف ومات بعد خلاصه من الأسر وقطعت خطبته ببغداد والعراق ولما احتضر استخلف على خراسان ابن اخته محمد بن محمود بن بقرخان فأقام بمرجان وملك الغز مرو وخراسان وملك به المؤيد نيسابور وناحيته من خراسان وبقي الأمر على هذا الخلاف سنة أربع وخمسين وبعث الغز إلى محمود الخان ليحضر عندهم فيملكوه فخافهم على نفسه وبعث ابنه إليهم فأطاعوه مدة ثم لحق هو بهم كما نذكر بعد.

منازعة إيتاق للمؤيد

كان إيتاق هذا من موالى السلطان سنجان فلما كانت الفتنة وافترق الشمل ومات السلطان سنجان وملك المؤيد نيسابور وحصل له التقدم بذلك على عساكر خراسان حسده جماعة من الأمراء وانحرف عنه إيتاق هذا فتارة يكون معه وتارة يكون في مازندران فلما كان سنة اثنتين وخمسين سار من مازندران في عشرة

على كوجك في المساعدة والاتفاق فأجابه وسارا للقاء عمه سليمان شاه ومن معه واقتلوا في جمادى الأولى فهزماه السلطان محمد وافترقوا وتوجه سليمان شاه إلى بغداد على شهرزور وكانت لصاحب الموصل وبها الأمير بوران من جهة علي كوجك نائب الموصل فاعترضه هنالك كوجك وبوران فاحتمله كوجك إلى الموصل فحبسه بها وبعث إلى السلطان محمد بالخبر وأنه على الطاعة والمساعدة فقبل منه وشكر له.

فرار سنجان من أسر الغز

قد تقدم لنا ما كان من أسر السلطان سنجان بيد الغز وافتراق خراسان واجتماع الأمراء بنيسابور وما إليها على الخان محمود بن محمد وامتنعوا من الغز وامتنع أنس بن محمد أنوشكين بخوارزم وانقسمت خراسان بينهم وكانت الحرب بين الغز وبينهما سجلاً ثم هرب سنجان من أسر الغز وجماعة من الأمراء كانوا معه في رمضان سنة إحدى وخمسين ولحق بترمز ثم عبر جيحون إلى دار ملكه بمرو فكانت مدة أسره من جمادى سنة ثمان وأربعين ثلاث سنين وأربعة أشهر ولم يتفق فراجه من الأسر إلا بعد موت علي بك مقدم القارغلية لأنه كان أشد شيء عليه فلما توفي انقطعت القارغلية إليه وغيرهم ووجد فسحة في أمره والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار السلطان محمد ببغداد

كان السلطان محمد بن محمود لأول ولايته الملك بعد عمه مسعود بعث إلى المقتفي في الخطبة له ببغداد والعراق على عاداتهم فمنعه لما رجا من ذهاب دولتهم استفحالهم واستبدادهم فسار السلطان من همدان في العساكر نحو العراق ووعده صاحب الموصل ونائبه بمدد العساكر فقدم آخر إحدى وخمسين وبعث المقتفي في الحشد فجاء خطأ وفرس في عسكر واسط وخالفهم مهلهل إلى الحلة فملكها واهتم المقتفي وابن هبيرة بالحصار وقطع الجسر وجمع السفن تحت التاج ونودي في الجانب الغربي بالعبور فعبروا في محرم سنة اثنتين وخمسين وخرب المقتفي ما وراء الخرسنة صلاحاً في استبداده وكذلك السلطان محمد من الجهة الأخرى ونصبت المنجنيقات والعرادات وفرق المقتفي السلاح على الجند والعامه.

وجاء زين الدين كجك في عسكر الموصل ولقي السلطان

إليهم فعظموه وملكوه في ربيع الآخر من سنة أربع.

ثم سار أبوه محمود إلى خراسان وتخلف عنه المؤيد أي أبه وانتهى إلى حدود نسا وأبيورد فولى عليهم الأمير عمر بن حمزة النسوي فقام في حمايتهما المقام المحمود بظاهر نسا ثم سار الغز من نيسابور إلى طوس لامتناع أهلها من طاعهم فملكوها واستباحوها وعادوا إلى نيسابور فساروا مع جلال الدين عمر بن محمود الخان إلى حصار سارورا وبها النقيب عماد الدين محمد بن يحيى العلوي الحسيني فحاصروه وامتعت عليهم فرجعوا إلى نسا وأبيورد للقاء الخان محمود بمرجان كما قدمناه فخرج منها سائراً إلى خراسان واعترضه الغز ببعض القرى في طريقه فهرب منه وأسر بعضهم ثم هرب منه ولحق بنيسابور فلما جاء الخان محمود إليها مع الغز فارقها متصف شعبان ودخلها الغز وأحسنوا السيرة وساروا إلى سرخس ومرو فعاد المؤيد في عساكره إلى نيسابور وامتنع أهلها عليه فحاصرها واقتحها عنوة وخربها ورحل عنها إلى سبقي في شوال سنة أربع وخمسين.

استيلاء ملك شاه بن محمود على خوزستان

ولما رجع السلطان ملك شاه محمد بن محمود من حصار بغداد وامتنع الخليفة من الخطبة له أقام بهمدان عليلاً وسار أخوه ملك شاه إلى قم وقاشان فأفحش في نهها ومصادرة أهلها وراسله أخوه السلطان محمد في الكف عن ذلك فلم يفعل وسار إلى أصفهان وبعث إلى ابن الجمقري وأعيان البلد في طاعته فاعتذروا بطاعة أخيه فعاش في قراها ونواحيها فساد السلطان إليه من همدان وفي مقدمته كرجان الخادم فافتقرت جموع ملك شاه ولحق ببغداد فلما انتهى إلى قوس لقيه موبدان وسنقر الهمداني فأشارا عليه بقصد خوزستان من بغداد فساد إلى واسط ونزل بالجانب الشرقي وسار أثر عسكره في النواحي ففتحوا عليهم البشوق وغرق كثير منهم ورجع ملك شاه إلى خوزستان فمنعه شملة من العبور فطلب الجوار في بلده إلى أخيه السلطان فمنعه فزل على الأكراد الذين هنالك فاجتمعوا عليه من الجبال والبساتط وحارب شملة ومع ملك شاه سنقر الهمداني وموبدان وغيرهما من الأمراء فانهمز شملة وقتل عامة أصحابه واستولى ملك شاه على البلاد وسار إلى فارس والله هو المؤيد بنصره.

آلاف فارس من المنحرفين عن المؤيد وقصد نسا وأبيورد وأقام بها المؤيد إيتاق فساد إليه وكبسه وغنم معسكره ومضى إيتاق منهزماً إلى مازندران وكان بين ملكها رستم وبين أخيه منازعة علي فتقرب إيتاق إلى رستم بقتال أخيه علي فوجد لذلك غلبة ودفعه عنه وسار يتردد في نواحي خراسان بالبعث والفساد والح علي إسفراين فخربها وراسله السلطان محمود الخان والمؤيد في الطاعة والاستقامة فامتنع فساروا إليه في العساكر في صفر سنة ثلاث وخمسين فهرب إلى طبرستان وبعث رستم شاه مازندران إلى محمود والمؤيد بطاعته بأموال جلييلة وهدية قبلوا منه وبعث إيتاق ابنه رهنأ على الطاعة فرجعوا عنه واستقر بمرجان ودستان وأعمالها.

منازعة سنقر العزيزي للمؤيد ومقتله

كان سنقر العزيزي من أمراء السلطان سنجان وكان في نفسه من المؤيد ما عند الباقيين فلما شغل المؤيد بحرب إيتاق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد إلى هراة فملكها واشترط عليه أن يستظهر بملك الغورية الحسين فأبى وطمع في الاستبداد لما رأى من استبداد الأمراء على السلطان محمود بن محمد فحاصره المؤيد بهراة واستمال الأتراك الذين كانوا معه فطاعوه وقتلوا سنقر العزيزي غيلة وملك السلطان محمد هراة ولحق الفسل من عسكر سنقر بإيتاق وتسلطوا على طوس وقراها واستولى الخراب على البلاد والله تعالى أعلم.

فتنة الغز الثانية بخراسان وخزاب نيسابور

على يد المؤيد

كان الغز بعد فتنهم الأولى أوطنوا بلخ ونزعوا عن النهب والقتل بخراسان واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان محمود بن محمد الخان وكان القائم بدولته المؤيد أي أبه فلما كان سنة ثلاث وخمسين في شعبان سار الغز إلى مرو فزحف المؤيد إليهم وأوقع طائفة منهم وتبعهم إلى مرو وعاد إلى سرخس وخرج معه الخان محمود لحربهم فالتقوا خامس شوال وتوافقوا مراراً ثلاثاً أنهمز فيها الغز على مرو وأحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والأئمة ثم أغاروا على سرخس وطوس واستباحوها وخربوها وعادوا إلى مرو وأما الخان محمود بن محمد فساد إلى جرجان يتنظر مآل أمرهم وبعث إليه الغز سنة أربع يستدعونه ليملكوه فاعتذر لهم خشية على نفسه فطلبوا منه جلال الدين عمر فتوثق منهم بالخلف وبعثه

وفاة السلطان محمد وولاية عمه سليمان

شاه

حصن خسروجور من أعمال بيهق وهو من بناء كنجرو ملك الفرس أيام حربه مع جراسياق وملكه ورتب فيه الحامية وعاد إلى نيسابور ثم قصد مدينة كندر من أعمال طرسا وفيها متغلب اسمه خرسده يفسد السابلة ويغرب الأعمال ويكثر الفتك وكان البلاء به عظيماً في خراسان فحاصره ثم ملك عليه الحصن عنوة وقتله وأراح البلاد منه ثم قصد في رمضان من السنة مدينة بيهق وكانوا قد عصوا عليه فراجعوا الطاعة وقبلهم واستفحل أمره فأرسل إليه الخان محمود بن محمد وهو مع الغز بالولاية على نيسابور وطوس وما إليها فاتصلت يده به واستحكم الصلح بينه وبين الغز وذهبت الفتن.

الحرب بين عسكر خوارزم شاه والأتراك

البرزية

كان هؤلاء الأتراك البرزية من شعوب الترك بخراسان وأميرهم بقراخان بن داود فأغار عليهم جمع من عساكر خوارزم شاه وأوقعوا بهم وفتكوا فيهم ونجا بقراخان في الفل منهم إلى السلطان محمود بخراسان ومن معه من الغز مستصرخاً بهم وهو يظن أن إيتاق هو الذي هيج عليهم فسار الغز معه على طريق نسا وأبورد وقصدوا إيتاق فلم يكن له بهم قوة فاستنصر.... شاه مازندان فسار لنصره واحتشد في أعماله من الأكراد والديلم والتركمان وقاتلوا الغز والبرزية بنواحي دهبستان فهزمهم خساً وكان إيتاق في ميمنة شاه مازندان وأفجش الغز في قتل عسكرهم ولحق شاه مازندان بسارية وإيتاق شهرزور وخوارزم ثم ساروا إلى دهبستان فنهبرها وخربوها سنة ست وخمسين وخربوا جرجان كذلك واقترب أهلها في البلاد ثم سار إيتاق إلى بقراتكن المتغلب على أعمال قزوین فانهزم من بين يديه ولحق بالمؤيد وصار في جملة واكتسح إيتاق سائر أعماله ونهب أمواله فقوي بها.

وفاة ملك شاه بن محمود

قد قدمنا أن ملك شاه بن محمود سار بعد أخيه السلطان محمد من خوزستان إلى أصفهان ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس فطاعه ابن الختندي رئيس أصفهان وسائر أهلها وجمع له الأموال وأرسل ملك شاه إلى أهل الدولة بأصفهان يدعوه إلى طاعته وكان هواهم مع عمه سليمان فلم يجيبوه إلى ذلك وبعثوا عن سليمان من الموصل وملكوه وانفرد ملك شاه

ثم توفي السلطان محمد بن محمود بن ملك شاه آخر سنة أربع وخمسين وهو الذي حاصر بغداد يطلب الخطبة له من الخليفة ومنعه فتوفي آخر هذه السنة لسبع سنين ونصف من ولايته وكان له ولد صغير فسلمه إلى سقز الأحمدلي وقال: هو وديعة عندك فواصل به إلى بلادك فإن العساكر لا تطيعه. فوصل به إلى مراغة واتفق معظم الجند على البيعة لعمه سليمان شاه وبعث أكابر الأمراء بهمدان إلى أتابك زين الدين مودود أتابك ووزير مودود وزيره فأطلقه مودود وجهزه بما يحتاج إليه في سلطانه وسار معه زين الدين علي كجك في عساكر الموصل فلما انتهى إلى بلاد الجبل وأقبلت العساكر للقاء سليمان شاه ذكر معاملتهم مع السلطان ودالتهم عليه فخشي على نفسه وعاد إلى الموصل ودخل سليمان شاه همدان وبايعوا له والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد

ثم توفي المقتفي لأمر الله في ربيع الأول سنة خمس وخمسين لأربع وعشرين سنة من خلافته وقد كان استبد في خلافته وخرج من حجر السلجوقية عند افتراق أمرهم بعد السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الخلفاء ولما توفي بوبع بعده بالخلافة لابنه المستنجد فجرى على سنن أبيه في الاستبداد واستولى على بلاد الماهلي ونزل اللحف وولى عليها من قبله كما كانت لأبيه وقد تقدم ذكر ذلك في أخبارهما انتهى.

اتفاق المؤيد مع محمود الخان

قد كنا قدمنا أن الغز لما تغلبوا استدعوا محمود الخان ليملكوه فبعث إليهم بابنه عمر فملكوه ثم سار محمود من جرجان إلى نسا وجاء الغز فساروا به إلى نيسابور فهرب عنها المؤيد ودخلها محمود والغز ثم ساروا عنها فعاد إليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة وخربها في شوال سنة أربع وخمسين ورحل عنها إلى سرخس فعاد إليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة ورحل عنها إلى بيهق ثم رجع إليها سنة خمس وخمسين وعمر خرابها وبالف في الإحسان إليها ثم سار لإصلاح أعمالها ومحو آثار المفسدين والثوار من نواحيها ففتح حصن أشقيل وقتل الثوار الزيدية وخربه وفتح

وإعادة الأمور إلى عاداتها أيام السلطان مسعود فطرد رسوله بعد الإهانة ثم أرسل ايلدكز إلى أقتسر الأحمديلي بدعوه إلى طاعة السلطان أرسلان فامتنع وكان عنده ابن السلطان شاه بن محمود المدني أسلمه إليه عند موته فتهدده بالبيعة له وكان الوزير ابن هبيرة يكتبه من بغداد ويقعده في الخطة لذلك الصبي قصداً للنصر من بينهم فجهز ايلدكز العساكر مه البهلوان إلى أقتسر واستمد أقتسر شاهر بن سقمان القطني صاحب خلاط وواصله فمده بالعساكر وسار نحو البهلوان وقاتله فظفر به ورجع البهلوان إلى همدان مهزوماً واللّه تعالى أعلم.

الحرب بين ايلدكز وإينانج

لما مات ملك شاه بن محمود بأصبهان كما قلناه حتى طائفة من أصحابه ببلاد فارس ومعهم ابنه محمود فانتزعه منهم صاحب فارس زنكي بن دكلا السلقي وأنزله في قلعة إصطخر فلما ملك ايلدكز السلطان أرسلان وطلب الخطة ببغداد وأخذ الوزير ابن هبيرة في استفساد الأطراف عليهم وبعث لابن أقتسر في الخطة لابن السلطان محمد شاه الذي عنده وكاتب صاحب فارس أيضاً يشير عليه بالبيعة للسلطان محمد بن السلطان ملك شاه الذي عنده ويعدده بالخطة له إن ظفر بايلدكز فبايع له ابن دكلا وخطب له بفارس وضرب النوب الخمس على بابيه وجمع العساكر وبلغ إلى ايلدكز فجمع وسار في أربعين ألفاً إلى أصفهان يريد فارس فأرسل إلى زنكي في الخطة لأرسلان شاه فأبى فقال له ايلدكز: إن المستنجد أقطعني بلادك وأنا سائر إليها. وتقدمت طائفة إلى نواحي أرجان فلقيتها. سرية لأرسلان بوقا صاحب أرجان فأوقعوا بطائفته وقتلوا منهم وبعثوا بالخبر إلى انبانج فنزل من الري في عشرة آلاف وأمدّه أقتسر الأحمديلي بخمسة آلاف فقصده وهرب صاحب ابن البازدان وابن طغايك وغيرهما من أولياء ايلدكز للقاء انبانج ورد عسكر المدافعة زنكي عن شهرم وغيرها من البلاد فهزمهم زنكي بن دكلا ورجعوا إليه فاستدعى عساكره من أذربيجان وجاء هيبس بن مزد أرسلان واستمد انبانج وقتل أصحابه ونهب سواده ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك ثم ترددت الرسل بينه وبين ايلدكز في الصلح وأقطعه حربادفان وغيرها وعاد ايلدكز إلى همدان واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الفتنة بنيسابور وتخريبها

وفي ربيع سنة ست وخمسين قبض المؤيد على أحياء نيسابور

بأصفهان واستفحل أمره وبعث إلى المستنجد في الخطة له ببغداد مكان عمه سليمان شاه وأن تعاد الأمور إلى ما كانت ويهددهم فوعد الوزير عميد الدين بن هبيرة جارية جاعلها على سمه فسمنه في الطعام وفطن الطبيب بأنه مسموم وأخبر بذلك شملة ودكلا فأحضروا الجارية وأقرت ومات ملك شاه وأخرج أهل أصفهان أصحابه وخطبوا لسليمان شاه وعاد شملة إلى خراسان فارتجع ما كان ملك شاه تغلب عليه منها.

قتل سليمان شاه والخطة لأرسلان

كان سليمان لما ملك أتبلى على اللّهُ ومعاقرة الخمس حتى في نهار رمضان وكان يعاشر الصفاعين والمساخر وعكف على ذلك مع ما كان فيه من الخرق والتهور فقعد الأمراء عن غشيان بابيه وشكوا إلى شرف الدين كردبازه الخادم وكان مدبر مملكته وكان حسن التربية والدين فدخل عليه يوماً يعذله على شانه وهو مع ندمائه بظاهر همدان فأشار إليهم أن يعشوا بكرديبازه فخرج مغضباً واعتذر إليه عندما صحا فأظهر له القبول وقعد عن غشيان مجلسه وكتب سليمان شاه إلى انبانج صاحب الري يدعوه إلى الحضور فوعده بذلك إذا أفاق من مرضه وزاد كردبازه استحاشاً فاستحلف الأمراء على خلع سليمان وبدأ يقتل جميع الصفاعين الذين كانوا يتأدّمونه وقال: إنما فعلته صوناً للملك ثم عمل دعوة في داره فحضر سليمان شاه والأمراء وقبض على سليمان شاه ووزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الخاقدي وعلى خواصه وذلك في شوال سنة خمس وخمسين وقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه قليلاً ثم قتله.

ثم أرسل إلى ايلدكز صاحب أران وأذربيجان يستقدم ربيبه أرسلان بن طغرل ليبايع له بالسلطنة وبلغ الخبر إلى انبانج صاحب الري فسار إلى همدان ولقيه كردبازه وخطب له بالسلطنة بجميع تلك البلاد وكان ايلدكز قد تزوج بأم أرسلان وولدت له ابنة البهلوان محمد ومزد أرسلان عثمان فكان ايلدكز أتابك وابنه البهلوان حاجباً وهو أخو أرسلان لأمه وايلدكز هذا من موالي السلطان مسعود ولما ملك أقطعه أران وبعض أذربيجان وحدثت الفتن والحروب فاعتصم هو بأران ولم يحضر عند أحد من ملوكهم وجاء إليه أرسلان شاه من تلك الفتن فأقام عنده إلى أن ملك ولما خطب له بهمدان بعث ايلدكز أتابك إلى انبانج صاحب الري ولاطفه وصاهره في ابنته لابنه البهلوان وتحالفا على الاتفاق.

وبعث إلى المستنجد بطلب الخطة لأرسلان في العراق

سنة ست وخمسين واستباحوها قتلاً وأسرأً وجمع لهم شاه أرمن بن إبراهيم بن سكرمان صاحب خللاط جمعاً من الجند والمتطوعة وسار إليهم فقاتلوه وهزموه وأسر كثير من المسلمين ثم جمع الكرج في شعبان سنة سبع وخمسين ثلاثين ألف مقاتل وملكوا دوس من أذربيجان والجيل وأصبهان فسار إليهم أيلدكر وسار معه شاه أرمن بن إبراهيم بن سكرمان صاحب خللاط وأقسنقر صاحب مراغة في خمسين ألفاً ودخلوا بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين فاستباحوها وأسروا الرجال وسبوا النساء والولدان وأسلم بعض أمراء الكرج ودخل مع المسلمين وكمن بهم في بعض الشعاب حتى زحف الكرج وقاتلوا المسلمين شهراً أو نحوه ثم خرج الكمين من ورائهم فانهزموا واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وعادوا ظافرين.

ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة

للسلطان أرسلان بخراسان

ثم سار المؤيد أي أبه صاحب نيسابور إلى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان وولى بسطام مولاة تنكر فجرى بينه وبين شاه مازندان اختلاف أدى إلى الحرب واقتلوا في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ولما ملك المؤيد قومس بعث إليه السلطان أرسلان بن طغرل بالخلع والأولية لما كان بين المؤيد أيلدكر من المودة وأذن له في ولاية ما يفتحه من خراسان ويخطب له فيها فخطب له في أعمال قومس وطوس وسائر أعمال نيسابور ويخطب لنفسه بعد أرسلان وكانت الخطب في جرجان ودهستان خوارزم شاه أرسلان بن آتسز وبعده للامير إيتاق والخطبة في مرو وبلخ وسرخس وهي بيد الغز وهراة وهي بيد الأمير أتيكين وهو مسالم للغز - للسلطان سنجار يقولون: اللهم اغفر للسلطان السعيد سنجار وبعده لأمير تلك المدينة والله تعالى ولي التوفيق.

إجلاء القارغلية من وراء النهر

كان خان خاقان الصيني ولى على سمرقند وبخارى الخان جفرا بن حسين تكنى وهو من بيت قديم في الملك ثم بعث إليه سنة سبعة وخمسين بإجلاء القارغلية من أعماله إلى كاشغر ويشغلون بالعاش من الزراعة وغيرها فامتنعوا فآلح عليهم فاجتمعوا وساروا إلى بخارى فدخل أهل بخارى إلى جفراخان وهو بسمرقند ووعدوا القارغلية بالمصانة وطاعوهم إلى أن أصبحهم

وجسهم وفيهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وأخذهم على ما فعله آبائهم بأهل البلد من النهب والاعتداء على الناس في أموالهم وأعراضهم فأخذ هؤلاء الأعيان بنهونهم كأنهم لم يضربوا على أيديهم وقتل جماعة من أهل الفساد فخرّب البلد وامتدت الأيدي إلى المساجد والمدارس وخزائن الكتب وأحرق بعضها ونهب بعضها وانتقل المؤيد إلى الشاذياخ فأصلح سوره وسد ثلمه وسكنه وخرّب نيسابور بالكلية وكان الذي اختط هذا الشاذياخ عبد الله بن طاهر أيام ولايته على خراسان يتفرد بسكناءه هو وحشمه عن البلد تحافياً عن مزاحمتهم ثم خربت وجدها الب أرسلان ثم خربت فجدها الآن المؤيد وخربت نيسابور بالكلية ثم زحف الغز والخان محمود معهم وهو ملك خراسان لذلك العهد فحاصروا المؤيد بالشاذياخ شهرين ثم هرب إلخان عنهم إلى شهرستان كأنه يريد الحمام وأقام بها وبقي الغز إلى آخر شوال ثم رجعوا فنهبوا البلاد ونهبوا طوس ولما دخل الخان إلى نيسابور أمهله المؤيد إلى رمضان سنة سبع وخمسين ثم قبض عليه وسلمه وأخذ ما كان معه من الذخائر وحبسه وحبس معه جلال محمد فماتا في حبسهما وخطب المؤيد لنفسه بعد المستنجد ثم زحف المؤيد إلى شهرستان وقرب نيسابور فحاصرها حتى نزلوا على حكمه في شعبان سنة تسع وخمسين ونهبها عسكره ثم رفع الأيدي عنها واستقامت في ملكه والله أعلم.

فتح المؤيد طوس وغيرها

ثم زحف المؤيد إلى قلعة دسكرة من طوس وكان بها أبو بكر جاندار ممتنعاً فحاصره بها شهراً وأعانه أهل طوس لسوء سيرته فيهم ثم جهده الحصار فاستأمن ونزل فحبسه وسار إلى كرمان فأطاعوه وبعث عسكراً إلى إسفراين فتحصن بها رئيسها عبد الرحمن بن محمد بالقلعة فحاصره واستنزله وحمله مقيداً إلى الشاذياخ فحبس ثم قتل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين ثم ملك المؤيد قهنذر ونيسابور واستفحل ملكه وعاد إلى ما كان عليه وعمر الشاذياخ وخرّب المدينة العتيقة ثم بعث عسكراً إلى بوشنج وهراة وهي في ولاية محمد بن الحسين ملك الغور فحاصرها وبعث الملك محمد عسكراً لمداغته فأفروا عنها وصفت ولاية هراة للغورية.

الحرب بين المسلمين والكرج

كان الكرج قد ملكوا مدينة أنسى من بلاد أران في شعبان

جغرا في عساكره فأوقع بهم وقطع دابرهم واللّه تعالى أعلم.

استيلاء سنقر على الطالقان و غرستان

وفي سنة تسع وخمسين استولى الأمير صلاح الدين سنقر من موالي السلطان سنجار على بلاد الطالقان وأغار على غرستان حتى ملكها وصارت في حكمه بمحصولها وقلاعها وصالح أمراء الغز وحمل لهم الأتاوة.

قتل صاحب هراة

كان صاحب هراة الأمير أنيكن وبينه وبين الغز مهادنة فلما قتل الغز ملك الغور محمد بن الحسين كما مر في أخباره طمع أنيكن في بلاده فجمع جموعه وسار إليها في رمضان سنة تسع وخمسين وتوغل في بلاد الغور فقاتله أهلها وهزموه وقتل في المعركة وقصد الغز هراة وقد اجتمع أهلها على أنير الدين منهم فاتهموه بالليل للغز وقتلوه واجتمعوا على أبي الفتح بن علي بن فضل الله الطغرثاني ثم بعثوا إلى المؤيد بقطاعهم فبعث إليهم مملوكه سيف الدين تنكز فقام بأمرهم وبعث جيشاً إلى سرخس ومرو وأغاروا على دواب الغز فأفرجوا عن هراة ورجعوا لطاعته واللّه تعالى أعلم.

ملك شاه مازندران قومس وبسطام ووفاته

قد ذكرنا استيلاء المؤيد على قومس وبسطام وولاية مولاه تنكز عليها ثم إن شاه مازندران وهو رستم بن علي بن هربار بن قاروت جهز إليها عسكرياً مع سابق الدين القزويني من أمرائه فملك دامغان وسار إليه تنكز فيمن معه من العسكر فكبسهم القزويني وهزمهم واستولى على البلاد وعاد تنكز إلى المؤيد بنيسابور وجعل يغير على بسطام وقومس ثم توفي شاه مازندران في ربيع سنة ستين فكتم ابنه علاء الدين موته حتى استولى على حصونه وبلاده ثم أظهره وملك مكانه ونازعه إتياق صاحب جرجان ودهستان ولم يبرح ما كان بينه وبين أبيه فلم يظفر بشيء واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

حصن عسكر المؤيد نسا

ثم بعث المؤيد عساكره في جمادى سنة ستين لحصار مدينة

نسا فبعث خوارزم شاه بك أرسلان بن أنسر في عساكره إليها فأجفلت عنها عساكر المؤيد ورجعوا إلى نيسابور وصارت نسا في طاعة خوارزم شاه وخطب له فيها ثم سار عسكر خوارزم إلى دهستان وغلبوه عليها وأقام فيها بطاعته واللّه أعلم.

الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة

ثم بعث أقتنقر الأحديلي صاحب مراغة سنة ثلاث وستين إلى بغداد في الخطبة للملك الذي عنده وهو ابن السلطان محمد شاه على أن يتجاني عن العراق ولا يطلب الخطبة منه إلا إذا أسعف بها فأجيب بالوعد الجميل وبلغ الخبر إلى ايلدكز صاحب البلاد فبعث ابنه البهلوان في العساكر لحرب أقتنقر فحاربه وهزمه وتحصن بمراغة فنال البهلوان وضيق عليه وتردد بينهما الرسل واصطالحوا وعاد البهلوان إلى أبيه بهمدان.

ملك شملة فارس وإخراجه عنها

كان زنكي بن دكلا قد أساء السيرة في جنده فأرسلوا إلى شملة صاحب خوزستان واستدعوه ليملكوه فسار ولقي زنكي وهزمه ونجا إلى الأكراد الشوابكار وملك شملة بلاد فارس فأساء السيرة في أهلها ونهب ابن أخيه خرستكا البلاد فنفر أهل فارس عنه ولحق بزنكي بعض عساكره فزحف إلى فارس وفارقها شملة إلى بلاده خوزستان وذلك كله سنة أربع وستين وخمسمائة.

ملك ايلدكز الري

كان اينانج قد استولى على الري واستقر فيها بعد حروبه مع ايلدكز على جزية يؤديها إليه ثم منع الضريبة واعتذر بنفقات الجند فسار إليه ايلدكز سنة أربع وستين وحاربه اينانج فهزمه ايلدكز وحاصره بقلعة طبرك وراسل بعض مماليكه ورغبهم فغدروا به وقتلوه واستولى ايلدكز على طبرك وعلى الري وولى عليها علي بن عمر باغ ورجع إلى همدان وشكر لموالي اينانج الذين قتلوه ولم يف لهم بالوعد فافترقوا عنه وسار الذي تولى قتله إلى خوارزم شاه فصلبه لما كان بينه وبين اينانج من الوصلة واللّه سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده

وفاة الأتابك شمس الدين إيلدكز وولاية

ابنه محمد البهلوان

ثم توفي الأتابك شمس الدين إيلدكز أتابك أرسلان شاه بن طغرل صاحب همذان وأصبهان والري وأذربيجان وكان أصله عمك الكمال الشهير ابن وزير السلطان محمود ولما قتل الكمال صار السلطان وترقى في كتب الولاية فلما ولي السلطان مسعود ولاه أراتية فاستولى عليها وبقيت طاعته للملك على البعد واستولى على أكثر أذربيجان ثم ملك همذان وأصبهان والري وخطب لربييه أرسلان بن طغرل وبقي أتابك وبلغ عسكره خمسين ألفاً واتسع ملكه من قفليس إلى مكران وكان متحكماً على أرسلان وليس له من الدولة إلا جراية تتصل إليه.

ولما هلك إيلدكز قام بالأمر بعده ابنه محمد البهلوان وهو أخو السلطان أرسلان لأنه فسار أول ملكه لإصلاح أذربيجان وخالفه ابن سنكي وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان إلى بلد نهاوند فحاصرها ثم تأخر ابن سنكي من تستر وصحبهم من ناحية أذربيجان يومهم أنه مدد البهلوان ففتحوا له البلد ودخل فطلب القاضي والأعيان ونصبهم وتوجه نحو ماسبذان قاصداً العراق ورجع إلى خوزستان ثم سار شملة سنة سبعين وقصد بعض التركمان فاستنجدوا البهلوان بن إيلدكز فأنجدهم وقتلوه فهزمه وأسر شملة جريحاً وولده وابن أخيه وتوفي بعد يومين وهو من التركمان الأتزية وملك ابنه من بعده وسار البهلوان سنة سبعين إلى مدينة تبريز وكان صاحبها أقسقر الأحديلي قد هلك وعهد بالملك بعده لابنه ملك الدين فسار إلى بلاده وحاصره مراغة وبعث أخاه فنزل وعاد عن مراغة إلى همذان والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة السلطان أرسلان بن طغرل

ثم توفي السلطان أرسلان بن طغرل مكفول البهلوان بن إيلدكز وأخوه لأنه بهمذان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بعده لابنه طغرل.

وفاة البهلوان محمد بن إيلدكز وملك أخيه

قزل

ثم توفي البهلوان محمد بن إيلدكز أول سنة اثنتين وخمسمائة

ثم توفي سنة خمس وستين الملك طغرل بن قاروت بك صاحب كرمان وولي ابنه أرسلان شاه مكانه ونازعه أخوه الأصغر بهرام شاه فخاربه أرسلان وهزمه فلحق بالمؤيد في نيسابور فأنجده بالعساكر وسار إلى أخيه أرسلان فهزمه وملك كرمان ولحق أرسلان بأصبهان مستنجداً بالدكز فأنجده بالعساكر وارتجع كرمان ولحق بهرام بالمؤيد وأقام عنده ثم هلك أرسلان فسار بهرام إلى كرمان وملكها ثم توفي المستنجد وولي ابنه المستضيء ولم نترجم لوفاة الخلفاء هنا لأنها مذكورة في أخبارهم وإنما ذكرناها قبل هؤلاء لأنهم كانوا في كفالة السلجوقية وبني بويه قبلهم فوفاتهم من جملة أخبار الدولتين وهؤلاء من لدن المقتضي قد استبدوا بأمرهم وخلافتهم من بعد ضعف السلجوقية بوفاة السلطان مسعود وافتقرت دولتهم في نواحي المشرق والمغرب واستبد بها الخلفاء ببغداد ونواحيها ونازعوا من قبلهم أنهم كانوا يخطبون لهم في أعمالهم ونازعهم فيها مع ذلك حرصاً على الملك الذي سلبوه وأصبحوا في ملك منفرد عن أولئك المنفردين مضافاً إلى الخلافة التي هي شعارهم وتداول أمرهم إلى أن انقرضوا بمهلك المستعصم على يد هلاكو.

وفاة خوارزم شاه وولاية ابنه سلطان شاه

ومنازعته مع أخيه الأكبر علاء الدين تكش

لما انهزم خوارزم شاه أرسلان أمام الخطا رجع إلى خوارزم فمات سنة ثمان وستين وولي ابنه سلطان شاه فنازعه أخوه الأكبر علاء الدين تكش واستنجد بالخطا وسار إلى خوارزم فملكها ولحق سلطان شاه بالمؤيد صريحاً فسار معه بجيوشه ولقيهم تكش فانهزم المؤيد وجيء به أسيراً إلى تكش فقتل بين يديه صبراً وعاد أصحابه إلى نيسابور فولوا ابنه طغان شاه أبو بكر ابن المؤيد وكان من أخبار طغان شاه وتكش ما نذكره في أخبار دولتهم وفي كيفية قتله خبر آخر نذكره هنالك ثم سار خوارزم شاه سنة تسع وستين إلى نيسابور وحاصرها مرتين ثم هزم في الثانية طغان شاه بن المؤيد وأخذ أسيراً وحمله إلى خوارزم وملك نيسابور وأعمالها وجميع ما كان لبني المؤيد بخراسان وانقرض أمرهم والبقاء لله وحده والله تعالى أعلم.

بإقطاعه البلاد فصار من نيسابور إلى الري وأطاعه قتلغ وسار معه إلى همدان وخرج طغرل للقائهم قبل أن يجمع العساكر ولقيهم قريباً من الري في ربيع الأول فحمل عليهم وتورط بينهم فصرع عن فرسه وقتل وملك خوارزم شاه همدان وتلك البلاد جميعاً وانقرضت مملكة بني ملك شاه وولي خوارزم شاه على همدان وملك الأعمال فبلغ إيتانج بن البهلوان وأقطع كثيراً منها عماليكه وقدم عليهم مساحق منهم ثم استولى وزير الخليفة ابن العطاف على همدان وأصبهان والري من يد مواليه وانتزعها منهم خوارزم كما ذكرناه في أخبار الخلفاء وجاءت العساكر من قبل الخليفة إلى همدان مع أبي الهيجاء الشمس من أمراء الأيوبيين وكان أميراً على القدس فعزلوه عنها وسار إلى بغداد فبعثه الناصر سنة ثلاث وتسعين بالعساكر إلى همدان ولقي عندها أربك بن البهلوان مطيعاً فقبض عليه وأنكر الخليفة ذلك وبعث بإطلاقه وخلع عليه وعاد إلى بلاد آذربيجان.

ملك الكرج الدويرة

كان أربك بن البهلوان قد استولى على آذربيجان بعد موته وكان مشغولاً بلذاته فصار الكرج إلى مدينة دويرة وحاصروها وبعث أهلها إليه بالصريخ فلم يصرخهم حتى ملكها الكرج عنوة واستباحوها والله تعالى أعلم.

قتل كوجه ببلاد الجبل وملك ايدغمش

كان كوجه من موالى البهلوان قد تغلب على الري وحمدان وبلاد الجبل واصطنع صاحبه ايدغمش ووثق به فنازعه الأمر وحاربه فقتله واستولى ايدغمش على البلاد وبقي أربك بن البهلوان مغلباً ليس له من الحكم شيء.

قصص صاحب مراغة وصاحب إربل

آذربيجان

قد ذكرنا أن أربك كان مشغولاً بلذاته مهملاً لملكه ثم حدثت بينه وبين صاحب إربل وهو مظفر الدين كوكبري سنة اثنتين وستمئة فتنة حملت مظفر الدين على قصده فصار إلى مراغة واستنجد صاحبها علاء الدين بن قراستغر الأحمديلي فصار معه لحصار تبريز وبعث أربك الصريخ إلى ايدغمش بمكانه من بلاد

وكانت البلاد والرعايا في غاية الطمانينة فوقع عقب موته بأصبهان بين الخفية والشافعية وبالري بين أهل السنة والشيعة فتن وحروب أكت إلى الخراب وملك البلاد بعد البهلوان أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان وكان البهلوان كافلاً للسلطان طغرل وحاكماً عليه ولما هلك قزل لم يرض طغرل بتحكمه عليه وفارق همدان ولحق به جماعة من الأمراء والجند وجرت بينه وبين قزل حروب ثم غلبه طغرل إلى الخليفة فأمره بعمارة دار السلطان فطرد رسوله وهدمت دار السلطنة وألحقت بالأرض وبعث الخليفة الناصر لدين الله سنة أربع وثمانين عسكرياً مع وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس لإخماده قزل على طغرل قبل همدان وهزمهم ونهب جميع ما معهم وأسر الوزير ابن يونس.

قتل قزل أرسلان قطلغ وولاية أخيه

قد تقدم لنا ما كان بين السلطان طغرل وبين قزل بن إيلدكر من الحروب ثم إن قزل غلبه واعتقله في بعض القلاع ودانت له البلاد وأطاعه ابن دكلا صاحب فارس وخوزستان وعادا إلى أصفهان والفتن بها متصلة فأخذ جماعة من أعيان الشافعية وصلبهم وعاد إلى همدان وخطب لنفسه بالسلطنة سنة سبعة وثمانين ثم قتل غيلة على فراشه ولم يعرف قاتله وأخذ جماعة من غلمانته بالظنة وكان كريماً حليماً يحب العدل ويؤثره ولما هلك ولي من بعده قطلغ بن أخيه البهلوان واستولى على الممالك التي كانت بيده.

قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه

الري و وفاة أخيه سلطان شاه

ولما توفي قزل وولي قطلغ بن أخيه البهلوان كما قلناه أخرج السلطان طغرل من عجبسه بالقلعة التي كان بها واجتمع إليه العساكر وسار إلى همدان فلقى قطلغ بن البهلوان فانهزم بين يديه ولحق بالري وبعث إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش ليستنجد به فصار إليه سنة ثمان وثمانين وندم قطلغ على استدعائه فتحصن ببعض قلاعه وملك خوارزم شاه الري وملك قلعة طبرك وصالح السلطان طغرل وولى على الري وعاد إلى خوارزم سنة تسعين فأحدث أحدى السلطان شاه نذكره في أخبارهم وسار السلطان طغرل إلى الري فأغار عليها وفر منه قطلغ بن البهلوان وبعث إلى خوارزم شاه يستنجد به ووافق ذلك وصول منشور من الخليفة إليه

وأقام بها كان أيدغمش قد وفد سنة ثمان وستمئة إلى بغداد وشرفه الخليفة بالخلع والألوية وولاه على ما كان يده ورجع إلى همدان ووعده الخليفة بمسير العساكر فأقام ينتظرها عند سليمان بن مرحم أمير الإيوانية من التركمان فندس إلى منكلي بخبره ثم قتل أيدغمش وحمل أصحابه إلى منكلي وافترق أصحابه واستولى منكلي وبعث إليه الخليفة بالذكير فلم يلتفت إليه فبعث إلى مولاه أذربك بن البهلوان صاحب أذربيجان يحرضه عليه وإلى جلال الدين الإسماعيلي صاحب قلعة لموت لمساعدته على أن يكون للخليفة بعض البلاد ولأذربك بعضها ولجلال الدين بعضها وبعث الخليفة العساكر مع مولاه سنقر الملقب بوجه السبع وأمره بطاعة مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كجك صاحب إربل وشهرزور وهو مقدم العساكر جميعاً فصار لذلك وهرب منكلي وتعلق بالجبل ونزلوا بسفحه قريباً من كوج فناوشهم الحرب فانهزم أذربك ثم عاد ثم أسرى من ليلته منهزماً وأصبحوا فاقسموا البلاد على الشرطة وولي أذربك فيما أخذ منها مولى أخيه فاستولى عليها ومضى منكلي إلى ساوة وبها شحنة كان صديقاً له فقتله وبعث براسه إلى أذربك واستقر في بلاد الجبل حتى قتله الباطنية سنة أربع عشرة وستمئة وجاء خوارزم شاه فملكها كما تذكر في أخباره ودخل أذربك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران في طاعته وخطب له على منابر أعماله وانقرض أمر بني ملك شاه ومواليهم من العراقيين وخراسان وفارس وجميع ممالك المشرق وبقي أوزبك ببلاد أذربيجان ثم استولى التتر على أعمال محمد بن تكش فيما وراء النهر وخراسان وعراق العجم سنة ثمان مائة وستمئة وموالي الهند وسار جنكزخان فاطاعه أذربك بن البهلوان سنة إحدى وعشرين وأمره بقتل من عنده من الخوارزمية ففعل ورجع عنه إلى خراسان ثم جاء جلال الدين بن محمد بن تكش من الهند سنة اثنتين وعشرين فاستولى على عراق العجم وفارس وسار إلى أذربيجان فملكها ومر من أذربك إلى كنجة من بلاد أران ثم ملك كنجة وبلاد أران ومر أذربك إلى بعض القلاع هنالك ثم هلك وملك جلال الدين على جميع البلاد وانقرض أمر بني أذربك واستولى التتر على البلاد وقتلوا جلال الدين سنة ثمان وعشرين كما يأتي في أخبارهم جميعاً.

وانتهى الكلام في دولة السلجوقية فلنرجع إلى أخبار الدول المتشعبة عنها واحدة بعد واحدة والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الجبل فصار إليه وأرسل مظفر الدين بالفتن والتهديد فعاد إلى بلد علاء الدين بن قراستقر إلى بلاد مراغة فصار أيدغمش وأذربك وحاصروه بمراغة حتى سلم قلعة من قلاعهم ورجعوا عنه والله تعالى أعلم.

وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده

ثم توفي حسام الدين أزدشير صاحب مازندران وولي ابنه الأكبر وأخرج أخاه الأوسط عن البلاد فلحق بجرجان وبها علي شاه برتكش نائباً عن أخيه خوارزم فاستنجدته على شرط الطاعة له وأمره أخوه تكش بالمسير معه فصاروا من جرجان وبلغهم في طريقهم مهلك صاحب مازندران المتولي بعد أبيه وأن أخاه الأصغر استولى على الكراع والأموال فصاروا إليه وملكوا البلاد ونهبوها مثل سارية وآمد وغيرها وخطب لخوارزم شاه فيها وعاد علي شاه إلى خراسان وأقام ابن صاحب مازندران وهو الأوسط الذي استصرخ به وقد امتنع أخوه الأصغر بقلعة كوري ومعه الأموال والذخائر وأخوه الأوسط فراسله واستعطف وقد ملك البلاد جميعاً والله ولي التوفيق.

ملك ابن البهلوان مراغة

ثم توفي سنة أربع وستمئة علاء الدين بن قراستقر الأحمدلي صاحب مراغة وأقام بأمرها من بعده خادمه ونصب ابنه طفلاً صغيراً وعصى عليه بعض الأمراء وبعث العسكر لقتاله فانهزموا أولاً ثم استقر ملك الطفل ثم توفي سنة خمس وستمئة وانقرض أهل بيته فصار أذربك بن البهلوان من تبريز إلى مراغة واستولى على مملكة آل قراستقر ما عدا القلعة التي اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن والذخائر.

استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان

وغيرها وهرب أيدغمش وقتله

لما تمكن أيدغمش في بلاد الجبل بهمدان وأصبهان والري وما إليها عظم شأنه حتى طلب الأمر لنفسه وسار لحصار أذربك بن مولاه الذي نصبه للأمر وكان بأذربيجان فخرج عليه مولى من موالي البهلوان اسمه منكلي وكثر جمعه واستولى على البلاد وقدم أيدغمش إلى بغداد واحتفل الخليفة لقدمه وتلقاه وذلك سنة ثمان

بنو أنوشكين

عمر بن أنوشكين إلى خوارزم فازداد بذلك عند سنجار ظهوراً
والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وفاة محمد بن أنوشكين وولاية ابنه أئسر

ثم هلك محمد بن أنوشكين خوارزم ولي بعده ابنه أئسر
وسار بسيرة أبيه وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه وحارب الأعداء
فلما ولي افتتح أمره بالاستيلاء على مدينة مقيشلاخ وظهرت كفايته
في شأنها فاستدعاه السلطان سنجار فاختصه وكان يصاحبه في
أسفاره وحروبه وكلما مر يزيد تقدماً عنده والله تعالى أعلم بغيره
وأحكم.

الحرب بين السلطان سنجار وأئسر خوارزم

شاه

ثم كثرت السعاية عند السلطان سنجار في أئسر خوارزم
شاه وإنه يحدث نفسه بالامتناع فصار سنجار إليه لينتزع خوارزم
من يده فتجهز أئسر للقاءه واقتلوا فانهزم أئسر وقتل ابنه وخلق
كثير من أصحابه واستولى سنجار على خوارزم وأقطعها غياث
الدين سليمان شاه ابن أخيه محمداً ورثب له وزيراً وأتابكاً وحاجباً
وعاد إلى مرو منتصف ثلاث وثلاثين وكان أهل خوارزم يستغيثون
لأئسر فعاد إليهم بعد سنجار فأدخلوه البلد ورجع سليمان شاه
إلى عمه سنجار واستبد أئسر بخوارزم والله أعلم.

انهزام السلطان سنجار من الأتراك الخطا

وملكهم ما وراء النهر

ثم سار سنجار سنة ست وثلاثين لقتال الخطا من الترك
فيما وراء النهر لما رجعوا لملك تلك البلاد فيقال: إن أئسر أغراههم
بذلك ليشغل السلطان سنجار عن بلده وأعماله ويقال: إن محمود
بن محمد بن سليمان بن داود بقرخان ملك الخانية في كاشغر
وتركستان وهو ابن أخت سنجار زحفت إليه أمم الخطا من الترك
ليتملكوا بلاده فصار إليهم وقاتلهم فهزموه وعاد إلى سمرقند
وبعث بالصريخ إلى خاله سنجار فعبر النهر إليه في عساكر
المسلمين وملوك خراسان والتقوا في أول صفر سنة ست وثلاثين
فانهزم سنجار والمسلمون وقشا القتل فيهم يقال: كان القتلى مائة
ألف رجل وأربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجار

كان أنوشكين جدهم تركياً ملوكاً لرجل من غرستان
ولذلك يقال له: أنوشكين غرشة ثم صار لرجل من أمراء
السلجوقية وعظمائهم اسمه ملكابك وكان مقدماً عنده لنجابتة
وشجاعته ونشأ ابنه محمد على مثل حاله من النجابة والشجاعة
وتحلى بالأدب والمعارف واختلط بأمراء السلجوقية وولي لهم
الأعمال واشتهر فيهم بالكفاية وحسن التدبير.

ولما ولي بركيارق ابن السلطان ملك شاه وانتقض عليه عمه
أرسلان أرغون واستولى على خراسان بعث وإليه العساكر سنة
تسعين وأربعمائة مع أخيه سنجار وسار في أثره ولقيهم في طريقهم
خبر مقتل أرغون معهم وأن بعض مواليه خلفه فعدا عليه فقتله
كما مر قبل فصار بركيارق في نواحي خراسان وما وراء النهر حتى
دوخها وولي عليها أخاه سنجار وانتقض عليه أمير أميران من
قربته اسمه محمد بن سليمان قسار إليه سنجار وظفر به وسمله
وعاد بركيارق إلى العراق بعد أن ولي على خوارزم إكنجي شاه
ومعنى شاه بلسانهم: السلطان فأضيف إلى خوارزم على عاداتهم
في تقديم المضاف إليه على المضاف

ولما انصرف بركيارق إلى العراق تأخر من أمرائه قودز
وبارقطاش وانتقضا على السلطان ووثبا بالأمير إكنجي صاحب
خوارزم وهو بمرور ذاهباً إلى السلطان شاه فقتلاه وبلغ الخبر إلى
السلطان وقد انتقض عليه بالعراق الأمير أنزو مؤيد الملك بن نظام
الملك فمضى لحرهبهما وأعاد الأمير داود حبشي بن إيتاق في
عسكر إلى خراسان لقتالهما فصار إلى هراة وعاجلاه قبل اجتماع
عساكره فعبر جيحون وسبق إليه بارقطاش فهزمه داود وأسر
وبلغ الخبر إلى قودز فثار به عسكره وفر إلى بخارى فقبض عليه
نائبها ثم أطلقه ولحق بالملك سنجار فقبله وأقام بارقطاش أسيراً
عند الأمير داود وصفت خراسان من الفتنة والثوار واستقام أمرها
للالأمير داود حبشي فاختر لولاية خوارزم محمد بن أنوشكين
فولاه وظهرت كفايته وكان عجباً لأهل الدين والعلم مقرباً لهم
عادلاً في رعيته فحُسن ذكره وارتفع محله ثم استولى الملك سنجار
على خراسان فأقر محمد بن أنوشكين وزاده تقديماً وجمع بعض
ملوك الترك وقصد خوارزم وكان محمد غائباً عنها ولحق بالترك
محمد بن إكنجي الذي كان أبوه أميراً على خوارزم واسمه طغرل
تكن محمد فحرض الترك على خوارزم وبلغ الخبر إلى محمد بن
أنوشكين فبعث إلى سنجار بينسابور يستعده وسبق إلى خوارزم
فافتقر الترك وطغرل تكن محمد وسار كل منهما إلى ناحية ودخل

خوارزم وجمع أرسلان للقائهم وسار غير بعيد ثم طرده المرض فرجع وأرسل الجيوش لنظر أمير من أمرائه فقاتله الخطا وهزمه وأسروه ورجع إلى ما وراء النهر واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة خوارزم شاه أرسلان وملك ولده

سلطان شاه ويعدده ولده الآخر تكش

وملك طغان شاه بن المؤيد ثم موته وملك

ابنه سنجار شاه

ثم توفي خوارزم شاه أرسلان بن أنسز من مرضه الذي قعد به عن لقاء الخطا وملك بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمود في تدبير أمه وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً في إقطاعه بالجند فاستكف من ولاية أخيه الأصغر وسار إلى ملك الخطا مستنجداً ورغبه في أموال خوارزم وذخائرها فأعجبه بجيش كثيف وجاء إلى خوارزم ولحق سلطان شاه وأمّه بالمؤيد أنه صاحب نيسابور والمتغلب عليها بعد سنجار وأهدى له ورغبه في الأموال والذخائر فجمع وسار معه إذا كان على عشرين فرسخاً من خوارزم سار إليه تكش وهزمه وجيء بالمؤيد أسيراً إلى تكش فأمر بقتله وقتل بين يديه صبراً ولحق أخوه سلطان شاه بدهستان وتبعه تكش فملكها عنوة وهرب سلطان شاه وأخذت أمه قتلها تكش وعاد إلى خوارزم ولحق سلطان شاه بنيسابور وقد ملكوا طغان شاه أبا بكر بن ملكهم المؤيد

ثم سار سلطان شاه من عنده إلى غياث الدين ملك الغورية فأقام عنده وعظم تحكم الخطا على علاء الدين تكش صاحب خوارزم واشتطوا عليه ويعثوا يطلبونه في المال فأنزلهم متفرقين على أهل خوارزم ودس إليهم فيبتوهم ولم ينبج منهم أحد ونبذ إلى ملك الخطا عهده وسمع ذلك أخوه سلطان شاه فسار من غزنة إلى ملك الخطا يستنجده على أخيه تكش وادعى أن أهل خوارزم يميلون إليه فبعث معه جيشاً كثيفاً من الخطا وحاصروا خوارزم فامتنت وأمر تكش بإجراء ماء النهر عليهم فكدادوا بغرقون وأفرجوا عن البلاد ولاموا سلطان شاه فيما غرهم فقال لقائدهم: ابعث معي الجيش لمرو لأنتزعها من دينار الغزي الذي استولى عليها من حين فتنهم مع سنجار فبعث معه الجيش وسار إلى سرخس واقتحمها على الغز الذين بها وأفحش في قتلهم واستباحهم ولجأ دينار إلى القلعة فتحصن بها ثم سار سلطان شاه إلى مرو وملكها وأقام بها ورجع الخطا إلى ما وراء النهر وأقام

وعاد منهزماً وملك الخطا ما وراء النهر وخرجت عن ملك الإسلام وقد تقدم ذكر هذه الواقعة مستوفى في أخبار السلطان سنجار.

ولما انهزم السلطان سنجار قصد أنسز خوارزم شاه خراسان فملك سرخس ولقي الإمام أبا محمد الزيادي وكان يجمع بين العلم والزهد فأكرمه وقبل قوله ثم قصد مرو الشاهجان فخرج إليه الإمام أحمد الباخوري وشفع في أهل مرو وأن لا يدخل لهم أحد من العسكر فشفعه وأقام بظاهر البلد فثار عامة مرو وأخرجوا أصحابه وقتلوا بعضهم وامتنعوا فقاتلهم أنسز وملكها عليهم غالباً أول ربيع من سنة ست وثلاثين وقتل الكثير من أهلها وكان فيهم جماعة من أكابر العلماء وأخرج كثيراً من علمائها إلى خوارزم منهم: أبو بكر الكرمانی ثم سار في شوال إلى نيسابور وخرج إليه جماعة من العلماء والفقهاء متطارحين أن يعفيهم مما وقع بأهل مرو فأعفاهم واستصفى أموال أصحاب السلطان وقطع الخطة لسنجار وخطب لنفسه ولما صرح باسمه على المنبر هم أهل نيسابور بالثورة ثم ردهم خوف العواقب فأقصروا وبعث جيشاً إلى أعمال يهق فحاصرها حساً ثم ساروا في البلاد ينهبون ويكتسحون والسلطان سنجار خلال ذلك متغافل عنه فيما يفعله في خراسان لما وراءه من مدد الخطا وقوتهم.

ثم أوقع الغز سنة ثمان وأربعين بالسلطان سنجار واستولوا على خراسان وكان هؤلاء الغز مقيمين بما وراء النهر منذ فارقهم ملوك السلجوقية وكانوا يدينون بالإسلام فلما استولى الخطا على ما وراء النهر أخرجوهم منها فأقاموا بنواحي بلخ واكثروا فيها العيث والفساد وجمع لهم سنجار وقاتلهم فظفروا به وهزمه وأسروه وانتشر سلك دولته فلم يعد انتظامه وافترت أعمالها على جماعة من مواليه واستقل حيثنذ أنسز بملك خوارزم وأعماله وأورثها بنيه ثم استولوا على خراسان والعراق عندما ركدت ريح السلجوقية وكانت لهم بعد ذلك دولة عظيمة نذكر أخبارها مفصلة عند دول أهلها واللّه تعالى ولي التوفيق بمته وكرمه.

وفاة أنسز وملك ولده أرسلان

ثم توفي أنسز بن محمد بن أنوشكين في منتصف إحدى وخسين وخمسمائة لستين سنة من ولايته وكان عادلاً في رعيته حسن السيرة فيهم ولما توفي ملك بعده أرسلان بن أنسز قتل جماعة من عماله وسمل أخاه ثم بعث بطاعته للسلطان سنجار عندما هرب من أسر الغز فكتب له بولاية خوارزم وقصد الخطا

الدين ابن اخته وصاحب سجستان يحنان إلى الحرب وغيث الدين يكفهم حتى حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين لإتمام العقد والمرك جميعاً حاضرون فقام الدين العلوي اليهودي وكان يختصه وهو يدل عليه فوق في وسط الجمع ونادى بفساد الصلح وصرخ ومزق ثيابه وحشى التراب على رأسه وأفحش لرسول سلطان شاه وأقبل على غياث الدين وقال : كيف تعمد إلى ما ملكناه بأسيافا من الغز والأتراك والسنجارية فتعطيه هذا الطريد إذ لا يقطع منا أخوه وهو الملك بخوارزم ولا بغزنة والهند فأطرق غياث الدين ساكناً فنادى في عسكره بالحرب والتقدم إلى مرو الروذ وتواقع الفريقان فانهزم سلطان شاه وأخذ أكثر أصحابه أسرى ودخل إلى مرو في عشرين فارساً

ولحق الفل من عسكره وبلغ الخبر إلى أخيه تكش فسار من خوارزم لاعتراضه وقدم العساكر إلى جيحون بمنعون إلى الخطا وسمع أخوه سلطان شاه بذلك فرجع عن جيحون وقصد غياث الدين ولما قدم عليه أمر يتلقاه وأنزله معه في بيته وأنزل أصحابه عند نظرائهم من أهل دولته وأقام إلى انصرام الشتاء وكتب أخوه علاء الدين خوارزم إلى غياث الدين في رده إليه ويعدد فعلاته في بلاده وكتب مع ذلك إلى نائب غياث الدين بهراة يتهده فامتعض غياث الدين لذلك وكتب إلى خوارزم شاه بأنه مجر له وشفيع في التجاني عن بلاده وإنصافه من وراثه أبيه ويطلب مع ذلك الخطبة له بخوارزم والصرح مع أخيه شهاب الدين فامتعض خوارزم شاه وكتب إليه يتهده ببعض بلاده فجهر غياث الدين إليه العساكر مع ابن اخته أبو غازي إلى بهاء الدين سامي صاحب سجستان وبعثهما مع سلطان شاه إلى خوارزم وكتب إلى المؤيد أبيه صاحب نيسابور يستنجده وكانت ابنته تحت غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وخيم بظاهر نيسابور.

وكان خوارزم شاه عزم على لقاء أخيه والغورية وسار عن خوارزم فلما سمع خبر المؤيد عاد إلى خوارزم واحتمل أمواله وذخائره وعبر جيحون إلى الخطا وترك خوارزم وسار أعيانها إلى أخيه سلطان شاه والبوغازي ابن اخت غياث الدين فأتوا طاعتهم وطلبوا الوالي عليهم وتوفي سلطان شاه منسلخ رمضان سنة تسع وعاد البوغازي إلى خاله غياث الدين ومعه أصحاب سلطان شاه فاستخدمهم غياث الدين وأقطعهم وبلغ وفاة سلطان شاه إلى أخيه خوارزم تكش فعاد إلى خوارزم وعاد الشحنة إلى بلاد سرخس ومرو فجهر إليهم نائب الغورية بمرو عمر المرغي عسكرياً ومنعهم منها حتى يستأذن غياث الدين وأرسل خوارزم شاه إلى غياث في الصلح والصرح في وفد من فقهاء خراسان والعلوية يعظومونه

سلطان شاه بخراسان يقاتل الغز فيصيب منهم كثيراً وعجز دينار ملك الغز عن سرخس فسلمها لطفان شاه بن المؤيد صاحب نيسابور فولى عليها مراموش من أمرائه.

ولحق دينار بنيسابور فحاصر دينار سلطان شاه وعاد إلى نيسابور ولحق به مراموش وترك قلعة سرخس ثم ملك نطوش والتم وضائق الأمور على طغان شاه بنيسابور إلى أن مات في عزم سنة اثنتين وثمانين وملك ابنه سنجان شاه واستبد عليه منكلي تكين مملوك جده المؤيد وأنف أهل الدولة من استبداده وتحكمه فلحق أكثرهم بسلطان شاه في سرخس وسار الملك دينار من نيسابور في جموع الغز إلى كرمان فملكها ثم أساء منكلي تكين السيرة بنيسابور في الرعية بالظلم وفي أهل الدولة بالقتل فسار إليه خوارزم شاه علاء الدين تكش في ربيع سنة اثنتين وثمانين فحاصره بنيسابور شهرين فامتعت عليه فعاد إلى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين فحاصرها وملكها على الأمان وقتل منكلي تكين وحمل سنجان شاه إلى خوارزم فأنزله بها وأكرمه ثم بلغه أنه يكاتب أهل نيسابور فسلمه وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين

قال ابن الأثير : ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب «سارب التجارب» وذكر غيره أن تكش بن أرسلان لما أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وقصد سلطان شاه إلى مرو فملكها من يد الغز ثم أجمعوها منه ونالوا من عساكره فعبر إلى الخطا واستنجدهم وضمن لهم المال وجاء بجيوشهم فملك مرو وسرخس ونسا وأبورد من يد الغز وصرف الخطا فعادوا إلى بلادهم ثم كاتب غياث الدين الغوري وله هراة وبوشنج وباذغيس وأعمالها من خراسان يطلب الخطبة له ويتوعد فاجابه غياث الدين يطلب الخطبة منه بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان

ثم ساءت سيرة سلطان شاه في خراسان وصادر رعاياها فجهر غياث الدين العساكر مع صاحب سجستان وأمر ابن اخته بهاء الدين صاحب باميان بالمسير معه فساروا إلى هراة وخاف سلطان شاه من لقاءهم فرجع من هراة إلى مرو حتى انصرم فصل الشتاء ثم أعاد مراسلة غياث الدين فامتعض وكتب إلى أخيه شهاب الدين بالخبر وكان بالهند فرجع مسرعاً إليه وساروا إلى خراسان واجتمعوا بعسكرهم الأول على الطالقان وجمع سلطان شاه جموعه من الغز وأهل الفساد ونزل بجموع الطالقان وتواقفوا كذلك شهرين وترددت الرسل بين سلطان شاه وغياث الدين حتى جنح غياث الدين إلى النزول عن بوشنج وباذغيس وشهاب

تعيته وحمل عليهم نفسه وأحيط به قتل في ربيع سنة تسعين وبعث خوارزم شاه برأسه إلى بغداد وملك همذان وبلاد الجبل أجمع وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد بعثه الخليفة الناصر مدداً لخوارزم شاه في أمره فرحل إليه واستوحش ابن القصاب فامتنع ببعض الجبال هنالك وعاد خوارزم شاه إلى همذان وسلمها وأعمالها إلى قطلغ اينانج وأقطع كثيراً منها عماليكه وقدم عليهم مناجي وأنزل معه ابنه وعاد إلى خوارزم ثم اختلف مناجي وقطلغ اينانج واقتلوا سنة إحدى وتسعين فانهزم قطلغ.

وكان الوزير ابن القصاب قد سار إلى خوزستان فملكها وكثيراً من بلاد فارس وقبض على بني شملة وأمرائها وبعث بهم إلى بغداد وأقام هو يهدد البلاد فلحق به قطلغ اينانج هنالك مهزوماً سلباً واستنجد على الري فأزاح علله وسار معه إلى همذان فخرج مناجي وابن خوارزم شاه إلى الري وملك ابن القصاب همذان في سنة إحدى وتسعين وسار إلى الري فاجفل الخوارزميون أمامهم وبعث الوزير العساكر في أثرهم حتى لحقوهم بالدامغان وبسطام وجرجان ورجعوا عنهم واستولى الوزير على الري ثم انتقض قطلغ اينانج على الوزير وامتنع بالري فحاصره الوزير وغلبه عليها ولحق اينانج بمدينة ساوة ورحل الوزير في اتباعه حتى لحقه على دربكرخ فهزمه ونجا اينانج بنفسه.

وسار الوزير إلى همذان فأقام بظاهرها ثلاثة أشهر وبعث إليه خوارزم شاه بالتكبير على ما فعل ويطلب إعادة البلاد فلم يجب إلى ذلك وسار خوارزم إليه وتوفي قبل وصوله فقاتل العساكر بعده في شعبان سنة اثنتين وتسعين فهزمهم وأثنى فيهم وأخرج الوزير من قبره فقطع رأسه وبعث به إلى خوارزم لأنه كان قتل في المعركة واستولى على همذان وبعث عسكره إلى أصفهان فملكها وأنزل بها ابنه وعاد إلى خوارزم وجاءت عساكر الناصر اثر ذلك مع سيف الدين طغرل فقطع بلاد اللحف من العراق فاستداع أهل أصفهان فملكوا البلد ولحق عسكر خوارزم شاه بصاحبهم ثم اجتمع عماليك البهلوان وهم أصحاب قطلغ وقدموا على أنفسهم كركجة من أعيانهم وساروا إلى الري فملكوها ثم إلى أصفهان كذلك وأرسل كركجة إلى الديوان ببغداد يطلب أن يكون الري له مع جوار الري وساة وقم وقاشان وما ينضاف إليها وتكون أصفهان وهمذان وزنجيان ومرو من الديوان فكتب له بذلك والله أعلم.

ويستجرون به من خوارزم شاه أن يميز إليهم الخطا ويستحثهم ولا يحسم ذلك إلا صلحه أو سكناه بمرو فأجابهم إلى الصلح وعقدوه ورد على خوارزم تكش بلاد أخيه وطمع الغز فيها فعاثوا في نواحيها وجاء خوارزم شاه إليها ودخل مرو وسرخس فساد البورد وتطرق إلى طوس وهي للمؤيد ابنه فجمع وسار إليها وعاد خوارزم شاه إلى بلده وأفسد الماء في طريقه واتبعه المؤيد فلم يجد ماء ثم كر عليه خوارزم شاه وقد جهد عسكره العطش فأوقع بهم وجيء إليه بالمؤيد أسيراً فقتله وعاد إلى خوارزم وقام بنيسابور بعد المؤيد ابنه طغان شان ورجع إليه خوارزم شاه من قابل فحاصره بنيسابور وبرز إليه فأسره وملك بنيسابور واحتمل طغان شاه وعباله وقرباته فأنهزم بخوارزم قال ابن الأثير: هذه الرواية مخالفة للآولى وإنما أوردتها ليتأمل الناظر ويستكشف أيهما أوضح فيتمدهما والله تعالى أعلم.

وفاة ايلدكز وملك ابنه محمد البهلوان

قد تقدم لنا في أخبار الدولة السلجوقية ولاية أرسلان شاه بن طغرل في كفالة ايلدكز وابنه محمد البهلوان من بعده ثم أخيه أربك أرسلان بن ايلدكز وأنه اعتقل السلطان طغرل ثم توفي فولد مكانه قطلغ ابن أخيه البهلوان فخرج السلطان من محبسه وجمع لقتاله سنة ثمان وثمانين فهزمه ولحق قطلغ بالري وبعث إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش فساد إليه وندم قطلغ على استدعائه فتحصن منه ببعض قلاعهم وملك خوارزم شاه الري وقلة طبرك ورتب فيها الحامية وعاد إلى خوارزم لما بلغه أن أخاه سلطان شاه خالفة إليها ولما كان ببعض الطريق لقيه الخبر بأن أهل خوارزم منعوا سلطان شاه وعاد خائباً فتمادى إلى خوارزم وأقام إلى انسلاخ فصل الشتاء ثم سار إلى أخيه سلطان شاه بمرو سنة تسع وثمانين وترددت الرسل بينهما في الصلح ثم استأمن إليه نائب أخيه بقلعة سرخس فساد إليها ومات أخوه سلطان شاه سنة تسع فساد خوارزم شاه إلى مرو وملكها وملك أبيورد ونسا وطوس وسائر مملكه أخيه واستولى على خزائنه وبعث على ابنه علاء الدين محمد فولاه مرو وولي ابنه الكبير ملك شاه بنيسابور وذلك آخر تسع وثمانين.

ثم بلغه أن السلطان طغرل أغار على أصحابه بالري قطلغ اينانج فبعث إليه بانه يستنجده ووصل إليه رسول الخليفة يشكو من طغرل وأقطعه أعماله فساد من بنيسابور إلى الري وتلقاه قطلغ اينانج بطاعته وسار معه ولقيهم السلطان طغرل قبل استكمال

وفاة ملك شاه بن خوارزم شاه تكش

قد تقدم لنا أن خوارزم شاه تكش ولي ابنه ملك شاه على نيسابور سنة تسع وثمانين وأضاف إليه خراسان وجعله ولي عهده في الملك فأقام بها إلى سنة ثلاث وتسعين ثم هلك في ربيع منها وخلف ابناً اسمه هندوخان وولي خوارزم شاه على نيسابور ابنه الآخر قطب الدين الذي كان ولاه بمرز الخطا.

انهزام الخطا من الغورية

كان خوارزم شاه تكش لما ملك السري وهمذان وأصبهان وهزم ابن القصاب وعساكر الخليفة بعث إلى الناصر يطلب الخطبة ببغداد فامتنع الناصر لذلك وأرسل إلى غياث الدين ملك غزنة والغور فقصد بلاد خوارزم شاه فكتب إليه غياث الدين يتهده بذلك فبعث خوارزم شاه إلى الخطا يستجدهم على غياث الدين ويجزهم أن يملك البلاد كما ملك بلخ فسار الخطا في عساكرهم ووصلوا بلاد الغور وراسلوا بهاء الدين سام ملك باميان وهو ببلخ يأمرونه بالخروج عنها وعاثوا في البلاد وخوارزم شاه قد قصد هراة وانتهى إلى طوس واجتمع أمراء الغورية بخراسان مثل محمد بن بك مقطع الطالقان والحسين بن مرميل وحروس وجمعوا عساكرهم وكسوا الخطا وهزمهم والحقوقهم يمحون فتقسموا بين القتل والغرق وبعث ملك الخطا إلى خوارزم شاه يتجنى عليه في ذلك ويطلب الدية على القتل من قومه ويجعله السبب في قتلهم فراجع غياث الدين واستعطفه ووافقه على طاعة الخليفة وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام وأجاب ملك الخطا بأن قومه إنما جازوا لانتزاع بلخ من يد الغورية ولم يتأوا لنصرتي وأنا قد دخلت في طاعة غياث الدين فجهز ملك الخطا عساكره إليه وحاصروه فامتنع فرجعوا عنه بعد أن فني أكثرهم بالقتل وسار في أثرهم وحاصر بخارى وأخذ يمحقتها حتى ملكها سنة أربع وتسعين فأقام بها مدة وعاد إلى خوارزم والله تعالى ولي التوفيق.

ملك خوارزم شاه تكين الري وبلاد الجبل

ثم سار خوارزم شاه تكين لارتجاع الري وبلاد الجبل من يد مناجق والبهلوانية الذين انتقضوا عليه فهرب مناجق عن البلاد وتركها وملكها خوارزم شاه واستدعاه فامتنع من الحضور وابتعه فاستأمن أكثر أصحابه ورجعوا عنه ولحق هو بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فبعث خوارزم شاه إلى الخليفة الناصر فبعث

بالخلع له ولولده قطب الدين وكتب له تقليداً بالأعمال التي بيده ثم سار خوارزم شاه لقتال الملاحدة فافتتح قلعة لهم قريبة من قزوین وانتقل إلى حصار قلعة الموت من قلاعهم فقتل عليها رئيس الشافعية بالري صدر الدين محمد بن الوزان وكان مقدماً عنده ولازمه ثم عاد إلى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه فجهز ابنه قطب الدين لقتالهم فسار إلى قلعة ترشيش من قلاعهم فحاصرها حتى سألوه في الصلح على مائة ألف دينار يعطونها فامتنع أولاً ثم بلغه مرض أبيه فأجابهم وأخذ منهم المال المذكور وعاد والله أعلم.

وفاة خوارزم شاه

ثم توفي خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان بن أتمش بن محمد أنوشكين صاحب خوارزم بعد أن استولى على الكثير من خراسان وعلى الري وهمذان وغيرها من بلاد الجبل وكان قد سار من خوارزم إلى نيسابور فمات في طريقه إليها في رمضان سنة ست وتسعين وخمسائة وكان عندما اشتد مرضه بعث لابنه قطب الدين محمد يخبره بحاله ويستدعيه فوصل بعد موته فبايع له أصحابه بالملك ولقبوه علاء الدين لقب أبيه وحمل شلو أبيه إلى خوارزم فدفعته بالمدرسة التي بناها هنالك وكان تكش عادلاً عارفاً بالأصول والفقه على مذهب أبي حنيفة ولما توفي ابنه علاء الدين محمد كان ولده الآخر علي شاه بأصبهان فاستدعاه أخوه محمد فسار إليه ونهب أهل أصفهان فخلعه وولاه أخوه على خراسان فقصد نيسابور وبها هندوخان ابن أخيها ملك شاه منذ ولاد جده تكش عليها بعد أبيه ملك شاه وكان هندوخان يخاف عمه محمداً لعداوة بينه وبين أبيه ملك شاه ولما مات جده تكش نهب الكثير من خزائنه ولحق بمرز وبلغ وفاة تكش إلى غياث الدين ملك غزنة فجلس للوزراء على ما بينهما من العداوة إعظاماً لقدرة ثم جمع هندوخان جمعاً وسار إلى خراسان فبعث علاء الدين محمد بن تكش العساكر لدفاعه مع جنتر التركي فنام هندوخان عن لقائه ولحق بغياث الدين مستجداً فأكرمه ووعدته النصر ودخل جنتر مدينة مرو وبعث بام هندوخان ولده إلى خوارزم مكرمين فأرسل غياث الدين صاحب غزنة إلى محمد بن خربك نائبه بالطالقان أن ينبذ إلى جنتر العهد ففعل وسار من الطالقان إلى مرو الروذ فملكها وبعث إلى جنتر يأمره بالخطبة في مرو لغياث الدين أو يفارقها فبعث إليه جنتر يتهده ظاهراً ويسأله سراً أن يستأمن له غياث الدين فقوي طعمه في البلاد بذلك وأمر أخاه شهاب الدين بالمسير إلى خراسان والله أعلم.

استيلاء ملوك الغورية على أعمال خوارزم

شاه محمد تكش بخراسان وارتجاعه إياها

منهم ثم حصاره هراة من أعمالهم

ولما اتصل بعلاء الدين محمد بن تكش مسيرهما عن خراسان كتب إلى غياث الدين يعاتبه عن أخذه بلاده ويطلب إعادتها ويتوعده باستجداد الخطأ عليه فماتله بالجواب إلى خروج أخيه شهاب الدين من الهند لعجزه عن الحركة لاستيلاء مرض النقرس عليه فكتب خوارزم شاه إلى علاء الدين الغوري نائب غياث الدين بنيسابور يأمره بالخروج عنها فكتب بذلك إلى غياث الدين فأجابته بعده بالنصر وسار إليه خوارزم شاه محمد بن تكش آخر سنة سبع وتسعين وخسمائة فلما قرب أبيورد هرب هندوخان من موالي غياث الدين وملك محمد بن تكش مدينة مرو ونسا وأبيورد وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين الغوري فحاصرها وأطال حصارها حتى استأمنوا إليه واستحلفوه وخرجوا إليه فأحسن إليهم وسأل من علاء الدين الغوري السعي في الإصلاح بينه وبين غياث الدين فضمن ذلك وسار إلى هراة وبها أقطاعه وغضب على غياث الدين لقعوده عن إنجاده، فلم يسر إليه.

وبالغ محمد بن تكش في الإحسان إلى الحسن بن حرميل من أمراء الغورية ثم سار إلى سرخس وبها الأمير زنكي من قرابة غياث الدين فحاصرها أربعين يوماً وضيق تخنقها بالحرب وقطع الميرة ثم سألته زنكي الإفراج ليخرج عن الأمان فأفرج عنه قليلاً ثم ملأ البلد من الميرة بما احتاج إليه وأخرج العاجزين عن الحصار وعاد إلى شأنه فندم محمد بن تكش ورحل عنها وجهز عسكرياً لحصارها وجاء نائب الطالقان مدداً لمحمد بن خربك وأحسن بعد أن أرسل إليه بأنه عساكر الخوارزمية المجهزة عليه وأشاع ذلك فأفرجوا عنه وجاء إليه زنكي من الطالقان فخرج معه ابن خربك إلى مرو الروذ وجي خراجها وما يجاورها وبعث إليه محمد بن تكش عسكرياً نحواً من ثلاثة آلاف مع خاله فلقيهم محمد بن خربك في تسعمائة فارس فهزمهم وأثنى فيهم قتلاً وأسراً وغنم سوادهم وعاد خوارزم شاه محمد بن تكش إلى خوارزم.

وأرسل إلى غياث الدين في الصلح فأجابته مع الحسن بن محمد المرغني من كبراء الغورية وغالطه في القول ولما وصل الحسن المرغني إلى خوارزم شاه وأطلع على أمره قبض على الحسن وسار إلى هراة فحاصرها وكتب الحسن إلى أخيه عمر بن محمد المرغني أمير هراة بالخبر فاستعد للحصار وقد كان لحق بغياث الدين أخوان من حاشية سلطان شاه عم محمد بن تكش المتوفى في سرخس فأكرمهما غياث الدين وأزلهما بهراة فكتب محمد بن تكش ودخله في تملكه هراة فسار لذلك وحاصر البلد وأميرها عمر المرغني مر إلى الآخرين وعندهما مفتاح البلد وأطلع أخوه

ولما استأمن جنتغر نائب مرو إلى غياث الدين طمع في أعمال خوارزم شاه بخراسان كما قلناه واستدعاه أخوه شهاب الدين للمسير إليها فسار إلى غزنة واستشار غياث الدين نائبه بهراة عمر بن محمد المرغني في المسير إلى خراسان فنهاه عن ذلك ووصل أخوه شهاب الدين في عساكر غزنة والغور وسجستان وساروا منتصف سبع وتسعين ووصل كتاب جنتغر نائب مرو إلى شهاب الدين وهو بقرب الطالقان يبحث للوصول وأذن له غياث الدين فسار إلى مرو وقاتل العساكر الذين بها من الخوارزمية فغلبهم وأحجرهم بالبلد وسار بالفيلة إلى السور فاستأمن من أهل البلد وأطاعوا وخرج جنتغر إلى شهاب الدين ثم جاء غياث الدين بعد الفتح إلى هراة مكرماً وسلم مرو إلى هندوخان بن ملك شاه كما وعده ثم سار إلى سرخس فملكها صلحاً وولى عليها زنكي بن مسعود من بني عمه وأقطعته معها نسا وأبيورد ثم سار إلى طوس وحاصرها ثلاثاً واستأمن إليه أهلها فملكها وبعث إلى علي شاه علاء الدين محمد بن تكش بنيسابور في الطاعة فامتنع فسار إليه وقاتل نيسابور من جانب وأخوه شهاب الدين من الجانب الآخر إليه سقوطه ودخلوا نيسابور وملكوها ونادوا بالأمان وجي بعلي شاه من خوارزم إلى غياث الدين فأمنه وأكرمه وبعثه بالأمراء الخوارزمية إلى هراة وولى على خراسان ابن عمه وصهره على ابنته ضياء الدين محمد بن علي الغوري ولقبه علاء الدين وأنزله نيسابور في جمع من وجوه الغورية وأحسن إلى أهل نيسابور وسلم علي شاه إلى أخيه شهاب الدين ورحل إلى هراة ثم سار شهاب الدين إلى قهستان وقيل له عن قرية من قراها أنهم إسماعيلية فأمر بقتلهم وسبى ذراريهم ونهب أموالهم وخرب القرية ثم سار إلى حصن من أعمال قهستان وهم إسماعيلية فملكه بالأمان بعد الحصار وولى عليه بعض الغورية فأقام بها الصواب وشعار الإسلام وبعث صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو من أخيه شهاب الدين ويقول: إن هذا نقض العهد الذي بيني وبينكم فما راعه إلا نزول أخيه شهاب الدين على حصن آخر للإسماعيلية من أعمال دهستان فحاصره فبعث بعض ثقافته إلى شهاب الدين يأمره بالرحيل فامتنع فقطع أطناب سرادقه ورحل مراغماً وقصد الهند مغاضباً لأخيه.

بعض طاعته ويفرج عنه الحصار فامتنع ثم أدركه المرض فخشي أن يشغل المرض عن حماية البلد فيملكها عليه خوارزم شاه فرجع إلى إجابته واستحلفه وأهدى وخرج له ليلقاه ويعطيه بعض الخدمة فمات في طريقه وارتحل خوارزم شاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار إلى سرخس فأقام بها.

حصار شهاب الدين خوارزم شاه وانهزامه أمام الخطا

ولما بلغ شهاب الدين بغزنة ما فعل خوارزم شاه بهراة وموت نائبه بها البوغاني ابن أخته وكان غازياً إلى الهند فأنشئ عزمه وسار إلى خوارزم وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس وأقام بظاهر مرو فلما بلغه خبر سيره أجفل راجعاً إلى خوارزم فسبق الدين إليها وأجرى الماء في السبخة حوالها وجاء شهاب الدين فأقام أربعين يوماً يطرق المسالك حتى أمكنه الوصول ثم التقوا واقتتلوا وقتل بين الفريقين خلق كان منهم الحسن المرغني من الغورية وأسروا جماعة من الخوارزمية فقتلهم شهاب الدين صبراً وبعث خوارزم شاه إلى الخطا فيما وراء النهر يستنجدهم على شهاب الدين فجمعوا وساروا إلى بلاد الغور وبلغ ذلك شهاب الدين فسار إليهم فلقبهم بالمفازة فهزموه وحصلوه في أيديهم حتى صالحهم وخلص إلى الطالقان وقد كثر الإرجاف بموته فقتله الحسن بن حرميل صاحب الطالقان وأزاح علله.

ثم سار إلى غزنة واحتمل ابن حرميل معه خشية من شدة جزعه أن يلحق بخوارزم شاه ويطيحه فولاه حجابته وسار معه ووجد الخلاف قد وقع بين أمراءه لما بلغهم من الإرجاف بموته حسبما مر في أخبار الغورية فأصلح من غزنة ومن الهند وتأهب للرجوع لخوارزم شاه وقد وقع في خبر هزمته أمام الخطا بالمفازة وجه آخر ذكرناه هنالك وهو أنه فرق عساكره في المفازة لقللة الماء فأوقع بهم الخطا منفردين وجاء في الساقة فقاتلهم أربعة أيام مصابراً وبعث إليه صاحب سمرقند من عسكر الخطا وكان مسلماً وأشار عليه بالتحويل عليهم فبعث عسكراً من الليل وجاؤوا من الغد متسائلين وخوفهم صاحب سمرقند بوصول المدد لشهاب الدين فرجعوا إلى الصلح وخلص هو من تلك الواقعة وذلك سنة إحدى وستمئة ومات شهاب الدين أثر ذلك.

الحسن في حبسه على شأن الأخوين في مداخلة محمد بن تكش فبعث إلى أخيه عمر بذلك فلم يسعفه فبعث إليه بخط أحدهما فقبض عليهما وعلى أصحابهما واعتقلهم.

وبعث محمد بن تكش عسكراً إلى الطالقان للغارة عليها فظفر بهم ابن خربك ولم يقلت منهم أحد ثم بعث غياث الدين ابن أخته البوغاني في عسكر من الغورية فنزّلوا قريباً من عسكر خوارزم شاه محمد بن تكش وقطع عنهم الميرة ثم جاء غياث الدين في عسكر قليل لأن أكثرها مع أخيه شهاب الدين بالهند وغزنة فنزل قريباً من هراة ولم يقدم على خوارزم فلما بلغ الحصار أربعين يوماً وانهزم أصحاب خوارزم شاه بالطالقان ونزل غياث الدين وابن أخته البوغاني قريباً منه وبلغه وصول أخيه شهاب الدين من الهند إلى غزنة أجمع الرحيل عن هراة وصالح عمر المرغني على مال حمله إليه وارتحل إلى مرو منتصف ثمان وتسعين. وسار شهاب الدين من غزنة إلى بلخ ثم إلى باميان معتزماً على محاربة خوارزم شاه والتقت طلائعها فقتل بين الفريقين خلق ثم ارتحل خوارزم شاه عن مرو فجفلاً إلى خوارزم وقتل الأمير سنجار صاحب نيسابور لانهزامه بالمخادعة وسار شهاب الدين إلى طوس وأقام بها إلى انسلاخ الشتاء معتزماً على السير لحصار خوارزم فأتاه الخبر ب وفاة أخيه غياث الدين فرجع إلى هراة واستخلف بمرو محمد بن خربك فسار إليه جماعة من أمراء خوارزم شاه سنة تسع وتسعين ابن خربك ولم ينج منهم إلا القليل فبعث خوارزم شاه الجيوش مع منصور التركي لقتال ابن خربك ولقبهم على عشرة فراسخ من مرو وقتلهم فهزموه ودخل مرو منهزماً فحاصروه خمسة عشر يوماً ثم استأمن إليهم وخرج فقتلوه وأسف ذلك شهاب الدين وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه في الصلح فلم يتم وأراد العود إلى غزنة فاستعمل على هراة ابن أخته البوغاني وملك علاء الدين بن أبي علي الغوري مدينة مرو وزكورة وبلد الغور وأعمال خراسان وفوض إليه في مملكته وعاد غزنة سنة تسع وتسعين وخمسائة ثم عاد خوارزم شاه إلى هراة منتصف سنة ستمئة وبها البوغاني ابن أخت شهاب الدين الغوري وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة إلى لهاوون غازياً فحصر خوارزم شاه هراة إلى منسلخ شعبان وهلك في الحصار بين الفريقين خلق وكان الحسن بن حرميل مقيماً بخوزستان وهي إقطاعه فأرسل إلى خوارزم شاه يخادعه ويطلب منه عسكراً يستلمون الفيلة وخزانة شهاب الدين فبعث إليه ألف فارس فاعترضهم هو والحسن بن محمد المرغني فلم ينج منهم إلا القليل فندم خوارزم شاه على إنفاذ العسكر وبعث إلى البوغاني أن يظهر

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية

بخراسان

كان نائب الغورية بهراة من خراسان الحسن بن حرميل ولما قتل شهاب الدين الغوري في رمضان سنة اثنتين وستمئة قام بأمرهم غياث الدين محمود ابن أخيه غياث الدين واستولى على الغور من يد علاء الدين محمد بن أبي علي سروركاہ ولما بلغ وفاة شهاب الدين إلى الحسن بن حرميل نائب هراة جمع أعيان البلد وقاضيه واستحلفهم على الامتناع من خوارزم شاه ظاهراً ودس إلى خوارزم شاه بالطاعة ويطلب عسكرياً يمتنع به من الغورية ويعث ابنه رهينة في ذلك فأنفذ إليه عسكرياً من نيسابور وأمرهم بطاعة ابن حرميل وغياث الدين خلال ذلك يكتب ابن حرميل ويطلبه في الطاعة فبلاغه خبره مع خوارزم شاه فاعتزم على النهوض إليه واستشار ابن حرميل بهراة أعيان البلد يختار ما عندهم فقال: له علي بن عبد الخالق مدرس أمية ونظر الأوقاف: الرأي صدق الطاعة لغياث الدين فقال إن ما أخشاه فسر إليه وتوثق لي منه ففعل وسار إلى غياث الدين فأطلعه عن الجلي من أمر ابن حرميل ووعده الثورة به.

وكتب غياث الدين إلى نائبه بمرو يستدعيه فتوقف وحمله أهل مرو على المسير فصار فخلع عليه غياث الدين وأقطعه واستدعى غياث الدين أيضاً نائبه بالطالقان أميران قطر فتوقف فأقطع الطالقان سونج مملوك ابنه المعروف بأمير شكار ويعث إلى ابن حرميل مع ابن زياد بالخلع ووصل معه رسوله يستنجز خطبته له فمطله أياماً حتى وصل عسكري خوارزم شاه من نيسابور ووصل في أثرهم خوارزم شاه وانتهى إلى بلخ على أربعة فراسخ فندم ابن حرميل عندما عاين مصدوقة الطاعة وعرف عسكري خوارزم شاه بأن صاحبهم قد صالح غياث الدين وترك له البلاد فانصرفوا إلى صاحبهم ويعث إليه معهم بالهدايا ولما سمع غياث الدين بوصول عسكري خوارزم شاه إلى هراة أخذ أقطاع ابن حرميل وقبض على أصحابه واستصفى أمواله وما كان له من الذخيرة في حروبان وتبين ابن حرميل في أهل هراة الميل إلى غياث الدين والانحراف عنه وخشي من ثورتهم به ف أظهر طاعة غياث الدين وجمع أهل البلد على مكاتبة بذلك فكتبوا جميعاً وأخرج الرسول بالكتاب ودس إليه بأن يلحق عسكري شاه خوارزم فيردهم إليه فوصل الرسول بهم لربيع يومه ولقيهم ابن حرميل وأدخلهم البلد وسمل ابن زياد الفقيه وأخرج صاعداً القاضي وشيع الغورية فلحقوا بغياث الدين وسلم البلد لعسكر خوارزم شاه.

وبعث غياث الدين عسكريه مع علي بن أبي علي وسار معه أميران صاحب الطالقان وكان منحرفاً عن غياث الدين بسبب عزله فدس إلى ابن حرميل بأن يكبسه وواعده الهزيمة وحلف له على ذلك فكبسه ابن حرميل فانهزم عسكري غياث الدين وأسر كثير من أمرائه وشن ابن حرميل الغارة على بلاد باذغيس وغيرها من البلاد واعتزم غياث الدين على المسير بنفسه إلى هراة ثم شغل عن ذلك بأمر غزنة ومسير صاحب باميان إلى الدوس فأقصر واستظهر خوارزم شاه إلى بلخ وقد كان عند مقتل شهاب الدين أطلق الغورية الذين كان أسرهم في المصاف على خوارزم وخبرهم في المقام عنده أو اللحاق بقومهم واستصفى من أكابريهم محمد بن بشير وأقطعه فلما قصد الآن بلخ قدم إليها أخوه علي شاه في العساكر وبرز إليه عمر بن الحسن أميرها فدافعه عنها ونزل على أربعة فراسخ وأرسل إلى أخيه خوارزم شاه بذلك فسار إليه في ذي القعدة من السنة ونزل على بلخ وحاصرها وهم ينتظرون المدد من صاحبهم باميان بن بهاء الدين وقد شغلوا بغزنة فحاصرها خوارزم شاه أربعين يوماً ولم يظفر فبعث محمد بن بشير الغوري إلى عماد الدين عمر بن الحسن نائبها يستنزله فامتنع فاعتزم خوارزم شاه على المسير إلى هراة.

ثم بلغه أن أولاد بهاء الدين أمراء باميان ساروا إلى غزنة وأسرهم تاج الدين الذر فاعاد محمد بن بشير إلى عمر بن الحسين فأجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له وخرج إليه فأعاده إلى بلده وذلك في ربيع سنة ثلاث وستمئة ثم سار خوارزم شاه إلى جوزجان وبها علي بن علي فزل له عنها وسلمها خوارزم شاه إلى ابن حرميل لأنها كانت من أقطاعه ويعث إلى غياث الدين عمر بن الحسين من بلخ يستدعيه ثم قبض عليه ويعث به إلى خوارزم شاه وسار إلى بلخ فاستولى عليها واستخلف عليها جفري التركي وعاد إلى بلاده.

استيلاء خوارزم شاه على ترمذ وتسليمها

للخطا

ولما أخذ خوارزم شاه بلخ سار عنها إلى ترمذ وبها عماد الدين عمر بن الحسين الذي كان صاحب بلخ وقدم إليه محمد بن علي بن بشير بالعدر عن شأن أبيه وأنه إنما بعثه لخوارزم مكرماً وهو أعظم خواصه ويعد به بالاطلاع فاتهم على صاحبها أمره واجتمع عليه خوارزم شاه والخطا من جميع جوانبه وأسر أصحابه ملوك باميان بغزنة فاستأمن إلى خوارزم شاه وملك منه البلد ثم

استيلاء خوارزم شاه علي ما وراء النهر وقتاله مع الخطا وأسره وخلاصه

سلمها إلى الخطا وهم علي كفرهم ليسالوه حتى يملك ويتزعمها
منهم فكان كما قدره والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه علي الطالقان

ولما ملك خوارزم شاه ترمذ سار إلى الطالقان وبها سنونج
واستتاب علي الطالقان أمير شكار نائب غياث الدين محمود
وبعث إليه يستميله، فامتنع وبرز للحرب حتى تراءى الجمعان
فنزول عن فرسه ونبذ سلاحه وجاء متطارحاً في العفو عنه فأعرض
عنه وملك الطالقان واستولى علي ما فيها وبعث إليه سنونج
واستتاب الطالقان علي بعض أصحابه وسار إلى قلاع كالومين
ومهور وبها حسام الدين علي بن علي فقاتله ودفعه علي ناحيته
وسار إلى هراة وخيم بظاهرها وجاء رسول غياث الدين بالهدايا
والتحف ثم جاء ابن حرميل في جمع من عساكر خوارزم شاه إلى
أسفراين فملكها علي الأمان في صفر من السنة وبعث إلى صاحب
سجستان وهو حرب بن محمد بن إبراهيم من عقب خلف الذي
كان ملكها منذ عهد ابن سبكتكين في الطاعة لخوارزم والخطبة له
فامتنع وقصد خوارزم شاه وهو علي هراة القاضي صاعد بن
الفضل الذي أخرجه ابن حرميل ولحق بغياث الدين فلما جاء إلى
خوارزم شاه رماه ابن حرميل بالبلل إلى الغورية فحبسه بقلعة
زوزن وولي القضاء بهراة الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي وكان
ينوب عن صاعد وابنه في القضاء.

استيلاء خوارزم شاه علي مازندران

وأعمالها

ثم توفي صاحب مازندران حسام الدين ازدشير وولي ابنه
الأكبر وطرد أخاه الأوسط فقصده جرجان وبها الملك علي شاه
ينوب عن أخيه خوارزم شاه محمد بن تكش واستنجد فاستأذن
أخاه وسار معه من جرجان سنة ثلاث وستمئة ومات الأخ الذي
ولي علي مازندران وولي مكانه أخوهما الأصغر ووصل علي شاه
ومعه أخو صاحب مازندران فعانوا في البلاد وامتنع الملك بالقلاع
مثل سارية وآمد فملكوها من يده وخطب فيها لخوارزم شاه وعاد
علي شاه إلى جرجان وترك ابن صاحب مازندران الذي استجار به
ملكاً في تلك البلاد وأخوه بقلعة كورة.

قد تقدم لنا كيف تغلب الخطا علي ما وراء النهر منذ هزموا
سنجار بن ملك شاه وكانوا أمة بادية يسكنون الخيام التي يسمونها
الحراكوات وهم علي دين الجوسية كما كانوا وكانوا موطنين
بنواحي أوزكندة وبلاد ساغون وكاشغر وكان سلطان سمرقند
وبخارى من ملوك الخانية الأقدمين عريقاً في الإسلام والبيت
والملك ويلقب خان خاقان بمعنى سلطان السلاطين وكان الخطا
وضعوا الجزية علي بلاد المسلمين فيما وراء النهر وكثر عيهم
وثقلت وطأنهم فأنف صاحب بخارى من تحكهم وبعث إلى
خوارزم شاه يستصرخه لمحاربتهم علي أن يحمل اليه ما يحملونه
للخطا وتكون له الخطبة والسكة وبعث في ذلك وجوه بخارى
وسمرقند فحلقوا له ووضعوا رهائنهم عنده فتجهز لذلك وولى
أخاه علي شاه علي طبرستان مع جرجان وولى علي نيسابور
الأمير كزلك خان من أخواله وأعيان دولته وندب معه عسكرياً
وولى علي قلعة زوزن أمين الدين أبا بكر وكان أصله حمالاً فارتفع
وترقى في الرتب إلى ملك كرمات وولى علي مدينة الجام الأمير
جلدك وأقر علي هراة الحسن بن حرميل وأنزل معه ألفاً من
المقاتلة واستتاب في مرو وسرخس وغيرهما وصالح غياث الدين
محموداً علي ما بيده من بلاد الغور وكرمسين وجمع عساكر وسار
إلى خوارزم فتجهز منها وعبر جيحون واجتمع بسلطان بخارى
وسمرقند وزحف إليه الخطا فتواقفوا معه مرات وبقيت الحرب
بينهم سجالاً.

ثم انهزم المسلمون وأسر خوارزم شاه ورجعت العساكر إلى
خوارزم معلولة وقد أرجف بموت السلطان وكان كزلك خان
نائب نيسابور محاصراً هراة ومعه صاحب زوزن فرجما إلى بلادهما
وأصلح كزلك خان سور نيسابور واستكثر من الجند والأقوات
وحشدته نفسه بالاستبصار وبلغ خبر الإرجاف إلى أخيه علي شاه
بطبرستان فدعا لنفسه وقطع خطبة أخيه وكان مع خوارزم شاه
حين أسر أمير من أمرائه يعرف بابن مسعود فتحيل للسلطان بأن
أظهر نفسه في صورته واتفقا علي دعائه باسم السلطان وأوهما
صاحبهما الذي أسرهما أن ابن مسعود هو السلطان وأن خوارزم
شاه خديمه فأوجب ذلك الخطائي حقه وعظمه لاعتقاده أنه
السلطان وطلب متعبد أيام أن يبعث ذلك الخديم لأهله وهو
خوارزم شاه في الحقيقة ليعرف أهله بخبره ويأتيه بالمال فيدفعه إليه
فأذن له الخطائي في ذلك وأطلقه بكتابه ولحق بخوارزم ودخل إليها

إلى السور واقتحموه وملك البلد عنوة وجيء بالوزير أسيراً إلى خوارزم شاه فأمر بقتله فقتل وكان ذلك سنة خمس وستمئة وولى على هراة خاله أمير ملك وعاد وقد استقر له أمر خراسان.

استيلاء خوارزم شاه على بيروzkوه وسائر

بلاد خراسان

لما ملك خوارزم شاه هراة وولى عليها خاله أمير ملك وعاد إلى خوارزم بعث إلى أمير ملك يأمره بيروzkوه وكان بها غياث الدين محمود بن غياث الدين وقد لحق به أخوه علي شاه وأقام عنده فصار أمير ملك وبعث إليه محمود بطاعته ونزل إليه فقبض عليه أمير ملك وعلى علي شاه أخي خوارزم شاه وقتلها جميعاً سنة خمس وستمئة وصارت خراسان كلها لخوارزم شاه محمد بن تكش وانقرض أمر الغورية وكانت دولتهم من أعظم الدول وأحسنها والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة الخطا

ولما استقر أمر خراسان لخوارزم شاه واستنفر وعبر نهير جيحون وسار إليه الخطا وقد احتفلوا للقائه وملكهم يومئذ طانيكوه ابن مائة سنة ونحوها وكان مظفراً مجرباً بصيراً بالحرب واجتمع خوارزم شاه وصاحب سمرقند وبخارى وتراجعوا سنة ست وستمئة ووقعت بينهم حروب لم يهدأ مثلها ثم انهزم الخطا وأخذ فيهم القتل كل مأخذ وأسر ملكهم طانيكوه فأكرمه خوارزم شاه وأجلسه معه على سريريه وبعث به إلى خوارزم وسار هو إلى ما وراء النهر وملكها مدينة مدينة إلى أوركند وأنزل نوابه فيها وعاد إلى خوارزم ومعه صاحب سمرقند فأصهر إليه خوارزم شاه بأخته ورده إلى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان أيام الخطا والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

انتقاض صاحب سمرقند

ولما عاد صاحب سمرقند إلى بلده أقام شحنة خوارزم شاه وعسكره معه نحواً من سنة ثم استقبح سيرتهم وتكره لهم وأمر أهل البلاد فثاروا بهم وقتلوه في كل مذهب وهم يقتل زوجته أخت خوارزم شاه فغلقت الأبواب دونه واسترحته فتركها وبعث إلى ملك الخطا بالطاعة وبلغ الخبر إلى خوارزم شاه فامتعص وهم

في يوم مشهود وعلم بما فعله أخوه علي شاه بطبرستان وكذلك خان نيسابور وبلغهما خبر خلاصه فهرب كزلك خان إلى العراق ولحق علي شاه بغياث الدين محمود فأكرمه وأنزله وسار خوارزم شاه إلى نيسابور فأصلح أمورها وولى عليها وسار إلى هراة فنزل عليها وعسكره محاصر دونها وذلك سنة أربع وستمئة والله أعلم.

مقتل ابن حرميل ثم استيلاء خوارزم شاه

على هراة

كان ابن حرميل قد تنكر لعسكر خوارزم شاه الذين كانوا عنده بهراة لسوء سيرتهم فلما عبر خوارزم شاه جيحون واشتغل بقتال الخطا قبض ابن حرميل على العسكر وحبسهم وبعث إلى خوارزم شاه يعتذر ويشكو من فعلهم فكتب إليه يستحسن فعله ويأمره بإفناذ ذلك العسكر إليه ينتفع بهم في قتال الخطا وكتب إلى جلدك بن طغرل صاحب الجمام أن يسير إليه بهراة ثقة بفعله وحسن سريرته وأعلم ابن حرميل بذلك ودس إلى جلدك بالتحيل على ابن حرميل بكل وجه والقبض عليه فصار في ألفي مقاتل وكان يهوى ولاية هراة لأن أباه طغرل كان والياً بها لسنجار فلما قارب هراة أمر ابن حرميل الناس بالخروج لتلقيه وخرج هو في أثرهم بعد أن أشار عليه وزيره خواجا صاحب فلم يقبل فلما التقى جلدك وابن حرميل ترجلا عن فرسيهما للسلام وأحاط أصحاب جلدك بابن حرميل وقبضوا عليه وانهزم أصحابه إلى المدينة فأغلق الوزير خواجا الأبواب واستعد للحصار وأظهر دعوة غياث الدين محمود.

وجاء جلدك فناداه من السور وتهدهد بقتل ابن حرميل وجاء بابن حرميل حتى أمره بتسليم البلد لجلدك فأبى وأساء الرد عليه وعلى جلدك فقتل ابن حرميل وكتب إلى خوارزم شاه بالخبر فبعث خوارزم شاه إلى كزلك خان نائب نيسابور وإلى أمين الدين أبي بكر نائب زوزن بالمسير إلى جلدك وحصار هراة معه فصار لذلك في عشرة آلاف فارس وحاصروها فامتعت وكان خلال ذلك ما قدمناه من انهزام خوارزم شاه أمام الخطا وأسرهم إياه ثم تخلف ولحق بخوارزم ثم جاء إلى نيسابور ولحق بالساكنين الذين يحاصرون هراة فأحسن إلى أمرائهم لصبرهم وبعث إلى الوزير خواجا في تسليم البلد لأنه كان يعد عسكره بذلك حين وصوله فامتنع وأساء الرد فشدد خوارزم في حصاره وضجر أهل المدينة وجهدهم الحصار وتحدثوا في الثورة فبعث جماعة من الجند للقبض عليه فثاروا بالبلد وشعر جماعة العسكر من خارج بذلك فرجعوا

فسار خوارزم شاه يومهم كل واحد من الفريقين أنه له وأقام متنبذاً عنهما حتى تواقعا وانتهز الخطا فمال التتر عليهم واستلحموهم في كل وجه ولم ينج منهم إلا القليل فتحصنوا بين جبال في نواحي تركستان وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه كانوا معه.

وبعث خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتر يعتد عليه بهزيمة الخطا وإنها كانت بمظاهرته فأظهر له الاعتراف وشكره ثم نازعه في بلادهم وأملأهم وسار لحربهم ثم علم أنه لا طاقة له بهم فمكث يراوهم على اللقاء كشلي خان يعذله في ذلك وهو يغالطه واستولى وكشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون ثم عمد خوارزم شاه إلى الشاش وفرغانة واسحان وكاشان وما حولها من المدن التي لم يكن في بلاد الله منها أنزه منها ولا أحسن عمارة فجلا أهلها إلى بلاد الإسلام وخرب جميعها خوفاً أن يملكها التتر ثم اختلف التتر بعد ذلك وخرج على كشلي طائفة أخرى منهم يعرفون بالمغل وملكهم جنكزخان فشغل كشلي خان مجربهم عن خوارزم شاه فغبر النهر إلى خراسان وترك خوارزم شاه إلى أن كان من أمره ما نذكره والله تعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه على كرمان ومكران

والسند

وقد تقدم لنا أنه كان من جملة أمراء خوارزم شاه تكش تاج الدين أبو بكر وأنه كان كرياً للدواب ثم ترفت به الأحوال إلى أن صار "سروان" لتكش والسروان: مقدم الجهاد ثم تقدم عنده لجلده واستماتته وصار أميراً وولاه قلعة زوزن ثم تقدم عند علاء الدين محمد بن تكش واختصه فأشار عليه بطلب بلاد كرمان لما كانت مجاورة لوطنه فبعث معه عسكرياً وسار إلى كرمان سنة اثني عشرة وصاحبها يومئذ محمد بن حرب أبي الفضل الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجار فغلبه على بلاده وملكها ثم سار إلى كرمان وملكها كلها إلى السند من نواحي كابل وسار إلى هرمز من مدن فارس بساحل البحر واسم صاحبها ميكيك فأطاعه وخطب لخوارزم شاه وضمن مالاً بحمله وخطب له بقلعات وبعض عمان من وراء النهر لأنهم كانوا يتقربون إلى صاحب هرمز بالطاعة وتسير سفنهم بالتجار إلى هرمز لأنه المرسى العظيم الذي تسافر إليه التجار من الهند والصين وكان بين صاحب هرمز وصاحب كيش مغاورات وفتن وكل واحد منهما ينهى مراكب بلاده أن ترسي ببلاد الآخر وكان خوارزم شاه يطيف بنواحي سمرقند خشية أن يقصد التتر أصحاب كشلي خان بلاده.

بقتل من في بلده من أهل سمرقند ثم اتشنى عن ذلك وأمر عساكره بالتوجه إلى ما وراء النهر فخرجوا أرسالاً وهو في أثرهم وعبر بهم النهر ونزل على سمرقند وحاصرها ونصب عليها الآلات وملكها عنوة واستباحها ثلاثاً وقتل فيها نحواً من مائتي ألف واعتصم صاحبها بالقلعة ثم حاصرها وملكها عنوة وقتل صاحبها صبراً في جماعة من أقرانه ومحا آثار الخانية وأنزل في سائر البلاد وراء النهر نوابه وعاد إلى خوارزم والله تعالى ولي النصر بمنه وفضله.

استلحام الخطا

قد تقدم لنا وصول طائفة من أمم الترك إلى بلاد تركستان وكاشغر وانتشارهم فيما وراء النهر واستخدموا للملوك الخانية أصحاب تركستان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان ينزلهم مسالح على الريف فيما بينه وبين الصين ولهم على ذلك الإقطاعات والجرايات وكان يعاقبهم على ما يقع منهم من الفساد والعيث في البلاد ويوقع بهم فقروا من بلاده وابتغوا عنه فسيحاً من الأرض ونزلوا بلاد ساغون ثم خرج كوخان ملك الترك الأعظم من الصين سنة اثنتين وعشرين وخمسائة فسارت إليه أمم الخطا ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بقراخان وهو ابن أخت السلطان سنجار فهزموه وبعث بالصريخ إلى خاله سنجار فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين وعبر جيحون للقائهم في صفر سنة ست وثلاثين ولقيهم أمم الترك والخطا فهزموه وأئخنوا في المسلمين وأسرت زوجة السلطان سنجار ثم أطلقها كوخان بعد ذلك وملك الترك بلاد ما وراء النهر.

ثم مات كوخان ملكهم سنة سبع وثلاثين ووليت بعده ابنته وماتت قريباً وملكته من بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد ثم انقرض ملكهم واستولى الخطا على ما وراء النهر إلى أن غلبهم عليه خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش كما قدما وكانت قد خرجت قبل ذلك خاريجة عظيمة من الترك يعرفون بالتتر ونزلوا في حدود الصين وراء تركستان وكان ملكهم كشلي يخان ووقع بينه وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الأمم المتجاورة فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الانتقام منهم وزحف كشلي في أمم التتر إلى الخطا ليتهم الفرصة فيهم فبعث الخطا إلى خوارزم شاه يتلطفون له ويسألونه النصر من عدوهم قبل أن يستحكم أمرهم وتضيق عنه قدرته وقدرتهم وبعث إليه كشلي يغريه بهم وأن يتركه وإياهم ويحلف له على مسالة بلاده

استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها

عساكره منهزمة وحصل في أسر السلطان.

وبلغ الخبر إلى أذربك بأصبهان فسار إلى همدان ثم عدل عن الطريق في خواصه وركب الأوعار إلى أذربيجان وبعث وزيره أبا القاسم بن علي بالاعتذار فبعث إليه في الطاعة فأجابته وحمله الضريبة فاعتذر بقتال الكرج وأما سعد صاحب فارس فبلغ الخبر بأسره إلى ابنه نصره الدين أبي بكر فهاج بخلعان أبيه وأطلق السلطان سعداً على أن يعطيه قلعة اصطخر ويحمل إليه ثلث الخراج وزوجه بعض قرابته وبعث معه من رجال الدولة من يقبض اصطخر فلما وصل إلى شيراز ودخل على ابنه واستولى على ملكه وخطب لخوارزم شاه واستولى خوارزم شاه على شاور وقزوين وجرجان وأبهر وهمدان وأصبهان وقم وقاشان وسائر بلاد الجبل واستولى عليها كلها من أصحابها واختص الأمير طالين بهمدان وولى ابنه ركن الدولة ياورشاه عليهم جميعاً وجعل معه جمال الدين محمد بن سابق الشاوي وزيراً.

طلب الخطبة وامتناع الخليفة منها

ثم بعد ذلك بعث خوارزم شاه محمد بن تكش إلى بغداد يطلب الخطبة بها من الخليفة كما كانت لبني سلجوق وذلك سنة أربع عشرة وذلك لما رأى من استفحال أمره واتساع ملكه فامتنع الخليفة من ذلك وبعث في الاعتذار عنه الشيخ شهاب الدين السهروردي فأكره السلطان مقدمه وقام لتلقيه وأول ما بدأ به الكلام على حديث الخطبة ببغداد وجلس على ركبتيه لاستماعه ثم تكلم وأطال وأجاد وعرض بالموعظة في معاملة النبي ﷺ في بني العباس وغيرهم والتعرض لإذيتهم فقال السلطان: حاشا لله من ذلك وأنا ما آذيت أحداً منهم وأمير المؤمنين كان أولى مني بموعظة الشيخ فقد بلغني أن في محبسه جماعة من بني العباس مغلدين يتناسلون فقال الشيخ: الخليفة إذا حبس أحداً للإصلاح لا يعترض عليه فيه فما بويح إلا للنظر في المصالح ثم ودعه السلطان ورجع إلى بغداد وكان ذلك قبل أن يسير إلى العراق فلما استولى على بلاد الجبل وفرغ من أمرها سار إلى بغداد وانتهى إلى عقبة سراباد وأصابه هنالك تلج عظيم أهلك الحيوانات وعفن أيدي الرجال وأرجلهم حتى قطعوها ووصله هنالك شهاب الدين السهروردي وعظه فندم ورجع عن قصده فدخل إلى خوارزم سنة خمس عشرة والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

ولما استولى خوارزم شاه محمد بن تكش على بلاد خراسان وملك باميان وغيرها وبعث تاج الدين المرز صاحب غزنة وقد تغلب عليها بعد ملوك الغورية وقد تقدم في أخبار دولتهم فبعث إليه في الخطبة له وأشار عليه كبير دولته قطلغ تكين مولى شهاب الدين الغوري وسائر أصحابه بالإجابة إلى ذلك فخطب له ونقش السكة باسمه وسار قنصيراً وترك قطلغ تكين بغزنة نائباً عنه فبعث قطلغ تكين لخوارزم شاه يستدعيه فأغذ له السير وملك غزنة وقلعتها وقتل الغورية الذين وجدوا بها خصوصاً الأتراك وبلغ الخبر المرز فهرب إلى أساون ثم أحضر خوارزم شاه قطلغ ووجهه على قلة وفاته لصاحبه وصادره على ثلاثين حملاً من أصناف الأموال والأمتعة وأربعمائة مملوك ثم قتله وعاد إلى خوارزم وذلك سنة ثلاث عشرة وستمائة وقيل: سنة اثني عشرة بعد أن استخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرس والله أعلم بغيبه وأحكامه.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل

كان خوارزم شاه محمد بن تكش قد ملك الرها وهمدان وبلاد الجبل كلها أعوام تسعين وخمسمائة من يد قطلغ أبايخ بقية أمراء السلجوقية ونازعه فيها ابن القصاب وزير الخليفة الناصر فغلبه خوارزم شاه وقتله كما مر في أخباره ثم شغل عنها تكش إلى أن توفي وذلك سنة سبع وتسعين وصار ملكه لابنه علاء الدين محمد بن تكش وتغلب موالي البهلوان على بلاد الجبل واحداً بعد واحد ونصبوا أذربك بن مولاها البهلوان ثم انتقضوا عليه وخطبوا لخوارزم شاه وكان آخر من ولي منهم أغمش وأقام بها مدة يخطب لعلاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه ثم وثب عليه بعض الباطنية وطمع أذربك بن محمد البهلوان بقية الدولة السلجوقية بأذربيجان وأران في الاستيلاء على أعمال أصفهان والري وهمدان وسائر بلاد الجبل وطمع سعد بن زنكي صاحب فارس ويقال: سعد بن دكله في الاستيلاء عليها أيضاً كذلك وسار في العساكر فملك أذربك أصفهان بملاة أهلها وملك سعد الري وقزوين وسمنان وطار الخبر إلى خوارزم شاه بأصبهان وسمرقند فسار في العساكر سنة أربع عشرة وستمائة في مائة ألف بعد أن جهز العساكر فيما وراء النهر ويشغور الترك وانتهى إلى قومس ففارق العساكر وسار متجرباً في اثني عشر ألفاً فلما ظفرت مقدمته بأهل الري وسعد نخيم بظاهرها ركب للقتال يظن أنه السلطان ثم تبين الآلة والمركب واستيقن أنه السلطان فولت

قسمة السلطان خوارزم شاه الملك بين

ولده

ولما استكمل السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش ملكه بالاستيلاء على الري وبلاد الجبل قسم أعمال ملكه بين ولده فجعل خوارزم وخراسان ومازندران لولي عهده قطب الدين أولاغ شاه وإنما كان ولي عهده دون ابنه الأكبر جلال الدين منكبرس لأن أم قطب الدين وأم السلطان وهي تركمان خاتون من قبيلة واحدة وهم: فياروت من شعوب يك إحدى بطون الخطا فكانت تركمان خاتون متحكمة في ابناها السلطان محمد بن تكش وجعل غزنة وباميان والغور وبست ومكسا مادومان من الهند لابنه جلال الدين منكبرس وكرمان وكيش ومكرمان لابنه غياث الدين بترشاه وبلاد الجبل لابنه ركن الدين غورشاه كما قدمناه وأذن لهم في ضرب النوب الخمس له وهي: دباب صغار تقرع عقب الصلوات الخمس واختص هو بنبوة سماها نوبة ذي القرنين سبع وعشرين دبدابة كانت مصنوعة من الذهب والفضة مرصعة بالجواهر هكذا ذكر الوزير محمد بن أحمد النسوي المنشئ كاتب جلال الدين منكبرس في أخباره وأخبار أبيه علاء الدين محمد بن تكش وعلى كتابه اعتمدت دون غيره لأنه أعرف بأخبارهما.

وكانت كرمان ومكرمان وكيش لمؤيد الملك قوام الدين وهلك منصرف السلطان من العراق فأقطعها لابنه غياث الدين كما قلناه وكان الملك هذا سوقة فاصبح ملكاً وأصل خبره أن أمه كانت داية في دار نصرة الدين محمد بن أنز صاحب زوزن ونشأ في بيته واستخدمه وسفر عنه للسلطان نسعى به أنه من الباطنية ثم رجع فخوفه من السلطان بذلك فأنقطع نصرة الدين إلى الإسماعيلية وتحصن ببعض قلاع زوزن وكتب قوام الدين بذلك إلى السلطان فجعل إليه وزارة زوزن وولاية جبايتها ولم يزل يخادع صاحبه نصرة الدين إلى أن رجع فتمكن من السلطان وسمله ثم طمع قوام الدين في ملك كرمان وكان بهما أمير من بقية الملك دینار وأمدد السلطان بعسكر من خراسان فمسلک کرمان وحسن موقع ذلك من السلطان فلقبه مؤيد الملك وجعلها في أقطاعه ولما رجع السلطان من العراق وقد نفقت جماله بعث إليه بأربعة آلاف بخي وتوفي أثر ذلك فرد السلطان أعماله إلى ابنه غياث الدين كما قلناه وحمل من تركته إلى السلطان سبعون حملاً من الذهب خلا الأصناف.

أخبار تركمان خاتون أم السلطان محمد بن

تكش

كانت تركمان خاتون أم السلطان محمد بن تكش من قبيلة يياروت من شعوب الترك يك من الخطا وهي بنت خان جبكش من ملوكهم تزوجها السلطان خوارزم شاه تكش فولدت له السلطان محمداً فلما ملك لحق بها طوائف يك ومن جاورهم من الترك واستظهرت بهم وتحكمت في الدولة فلم يملك السلطان معها أمره.

وكانت تولي في النواحي من جهتها كما يولي السلطان وتحكم بين الناس وتتصف من الظلمات وتقدم على الفتك والقتل وتقيم معاهد الخير والصدقة في البلاد وكان لها سبعة من الموقعين يكتبون عنها وإذا عارض توقيعا لتوقيع السلطان عمل بالتأخر منهما وكان لقبها: خدائندجهان أي: صاحبة العالم وتوقيعها في الكتاب عصمة الدنيا والدين أولاغ تركمان ملك نساء العالمين وعلامتها: اعتصمت بالله وحده تكتبها بقلم غليظ وتجود كتابتها أن تزور عليها واستوزرت للسلطان وزيره نظام الملك وكان مستخدماً لها فلما عزل السلطان وزيره أشارت عليه بوزارة نظام الملك هذا فوز له على كره من السلطان وتحكم في الدولة بتحكمها ثم تنكر له السلطان لأمر بلغته عنه وعزله فاستمر على وزارته وكان شأنه في الدولة أكبر وشكاه إليه بعض الولاة بنواحي خوارزم أنه صادرة فأمره بعض خواصه بقتله ففعله تركمان من ذلك وبقي على حاله وعجز السلطان عن إنفاذ أمره فيه والله يؤيد بنصره من يشاء.

خروج التتر وغلبيهم على ما وراء النهر

وفرار السلطان أمامهم من خراسان

ولما عاد السلطان من العراق سنة خمس عشرة كما قدمناه واستقر بنيسابور وفدت عليه رسل جنكزخان بهدية من المعدنين ونوافع المسك وحجر البشم والثياب الطائفة التي تنسج من وبر الإبل البيض ويغير أنه ملك الصين وما يليها من بلاد الترك ويسأل المادعة والأذن للتجار من الجانبين في التردد في متاجرهم وكان في خطابه إطراء السلطان بأنه مثل أعز أولاده فاستنكف السلطان من ذلك واستدعى محموداً الخوارزمي من الرسل واصطنعه ليكون عيناً له على جنكزخان واستخبره على ما قاله في كتابه من ملكه الصين واستيلائه على مدينة طوغاج فصدق ذلك

وانكر عليه الخطاب بالولد.

ناحية العراق بعد أن أودع أمواله قال المنشئ في كتابه: حدثني الأمير تاج الدين البسطامي قال: لما انتهى خوارزم شاه في مسيره إلى العراق استحضرنى وبين يديه عشرة صناديق مملوءة لآلئ لا تعرف قيمتها وقال في اثنين منها فيهما من الجواهر ما يساوي خراج الأرض بأسرها وأمرني بحملها إلى قلعة أردهن من أحصن قلاع الأرض وأخذت خط يد الموالي بوصولها ثم أخذها التتر بعد ذلك حين ملكوا العراق انتهى.

ولما ارتحل خوارزم شاه من نيسابور قصد مازندران والتتر في أثره ثم انتهى إلى أعمال همذان فكبسوه هناك ونجا إلى بلاد الجبل وقتل وزيره عماد الملك محمد بن نظام الملك وأقام هو بساحل البحر بقرية عند القرية يصلي ويقرأ ويعاهد الله على حسن السيرة ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر وخاضوا في أثره فغلبهم الماء ورجعوا ووصلوا إلى جزيرة في بحر طبرستان فأقام بها وطرقه المرض فكان جماعة من أهل مازندران يمرضونه ويحمل إليه كثيراً من حاجته فيوقع لحاملها بالولايات والإقطاع وأمضى ابنه جلال الدين بعد ذلك جميعها ثم هلك سنة سبع عشرة وستمئة ودفن بتلك الجزيرة لإحدى وعشرين سنة من ملكه بعد أن عهد لابنه جلال الدين منكبرس وخلع ابنه الأصغر قطب الدين أولاغ شاه.

ولما بلغ خبر إجفاله إلى أمه تركمان خاتون بخوارزم خرجت هاربة بعد أن قتلت نحواً من عشرين من الملوك والأكابر المحبوسين هنالك ولحقت بقلعة إيلان من قلاع مازندران فلما رجع التتر المغربة عن السلطان خوارزم شاه بعد أن خاض بحر طبرستان إلى الجزيرة التي مات بها فقصدوا مازندران وملكوا قلاعها على ما فيها من الامتناع ولقد كان فتحها متأخر إلى سنة تسعين أيام سليمان بن عبد الملك فملكوها واحدة واحدة وحاصروا تركمان خاتون في قلعة إيلان إلى أن ملكوا القلعة صلحاً وأسروها وقال ابن الأثير: إنهم لقوها في طريقها إلى مازندران فأحاطوا بها وأسروها ومن كان معها من بنات السلطان وتزوجهن التتر وتزوج دوش خان بن جنكزخان بإحداهن وبقيت تركمان خاتون أسيرة عندهن في خمول وذل وكانت تحضر سباط جنكزخان لإحداهن وتحمل قوتها منه وكان نظام الملك وزير السلطان مع أمه تركمان خاتون فحصل في قبضة جنكزخان وكان عندهم معظماً لما بلغهم من تنكر السلطان له وكانوا يشاورونه في أمر الجباية فلما استولى دوش خان على خوارزم وجاء بحرم السلطان الذين كانوا بها وفيهن مغنيات فوهب إحداهن لبعض خدمه فمئنت نفسها منه ولجأت للوزير نظام الملك فشكاه ذلك الخادم

وسأله عن مقدار العساكر فغشه وقللها وصرفهم السلطان بما طلبوه من المودة والإذن للتجار فوصل بعض التجار من بلادهم إلى إنزار وبها نبال خان ابن خان السلطان في عشرين ألفاً من العساكر فشره إلى أموالهم وخاطب السلطان بأنهم عيون وليسوا بتجار فأمره بالاحتياط عليهم فقتلهم خفية وأخذ أموالهم وفشا الخبر إلى جنكزخان فبعث بالكثير إلى السلطان في نقض العهد وإن كان فعل نبال إفتيناً فبعث إليه يتهدهد على ذلك فقتل السلطان الرسل وبلغ الخبر إلى جنكزخان فسار في العساكر واعتزم السلطان أن يحصن سمرقند بالأسوار فجبى لذلك خراج ستين وجبى ثلثة استخدم بها الفرسان وسار إلى أحياء جنكزخان فكبسهم وهو غائب عنها في محاربة كشلي خان فغنم ورجع وأتبعهم ابن جنكزخان فكانت بينهم واقعة عظيمة هلك فيها كثير من الفريقين.

ولما خوارزم شاه إلى جيحون فأقام عليه ينتظر شأن التتر ثم عاجله جنكزخان فأجفل وتركها وفرق عساكره في مدن ما وراء النهر: إنزار وبخارى وسمرقند وترمد وجدند وأنزل أبنائهم من كبراء أمراءه وحجاب دولته في بخارى وجاء جنكزخان إلى إنزار فحاصرها وملكها غلباً وأسرى أميرها نبال خان الذي قتل التجار وأذاب الفضة في أذنيه وعينيه ثم حاصر بخارى وملكها على الأمان وأقاتلوا معه القلعة حتى ملكوها ثم غدر بهم وقتلهم وسلبهم وخربها ورحل جنكزخان إلى سمرقند ففعلوا فيها مثل ذلك سنة تسع عشرة وستمئة ثم كتب كتباً على لسان الأمراء قرابة أم السلطان يستدعون جنكزخان ويعدوا بزيادة خراسان إلى خوارزم وبعث من يستخلفه على ذلك وبعث الكتب مع من يتعرض بها السلطان فلما قرأها ارتاب بأمه وبقرابته.

إجفال السلطان خوارزم شاه إلى خراسان

ثم إلى طبرستان ومهلكه

ولما بلغ السلطان استيلاء جنكزخان على إنزار وبخارى وسمرقند وجاءه نائب بخارى ناجياً في الفل أجفل حيثذ وعبر جيحون ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه وعلاء الدين صاحب قيدر وتخاذل الناس وسرح جنكزخان العساكر في أثره نحواً من عشرين ألفاً يسميهم التتر المغربة لسيرهم نحو غرب خراسان فتوغلوا في البلاد وانتهوا إلى بلاد بيجور واكتسحوا كل ما مروا عليه ووصل السلطان إلى نيسابور فلم يثبت بها ودخل إلى

لجنكرخان ورماء بالجارية فأحضره جنكرخان وعدد عليه خيانه استأذه وقتله.

مسير التتر بعد مهلك خوارزم شاه من العراق إلى أذربيجان وما وراءها من البلاد هنالك

ولما وصل التتر إلى الري في طلب خوارزم شاه محمد بن تكش سنة سبع عشرة وستمئة ولم يجدوه عادوا إلى همدان واكتسحوا ما مروا عليه وأخرج إليهم أهل همدان ما حضرمهم من الأموال والثياب والدواب فأمنوهم ثم ساروا إلى زنجان ففعلوا كذلك ثم إلى قزوین فامتنعوا منهم فحاصروها وملكوها عنوة واستباحوها ويقال إن القتلى بقزوین زادوا على أربعين ألفاً ثم هجم عليهم الشتاء فساروا إلى أذربيجان على شأنهم من القتل والاكتساح وصاحبها يومئذ أزيك بن البهلوان مقيم بتبريز عاكف على لذاته فراسلهم وصانعهم وانصرفوا إلى بوقان ليشنوا بالسواحل ومروا إلى بلاد الكرج فجمعوا لقتالهم فهزمهم التتر وأئخروا فيهم فبعثوا إلى أزيك صاحب أذربيجان وإلى الأشرف بن العادل بن أيوب صاحب خلاط والجزيرة يطلبون اتصال أيديهم على مدافعة التتر وإصاف إلى التتر أقوش من موالي أزيك وإليه جوع من التركمان والأكراد وسار مع التتر إلى الكرج واكتسحوا بلادهم وانتهوا إلى بلقين وسار إليهم الكرج فلقبهم أقوش أولاً ثم لقبهم التتر فانهمز الكرج وقتل منهم ما لا يحصى وذلك في ذي القعدة من سنة سبع عشرة.

ثم عاد التتر إلى مراغة ومروا بتبريز فصانعهم صاحبها كعادته وانتهوا إلى مراغة فقاتلوها أياماً وبها امرأة تملكها ثم ملكوها في صفر سنة ثمان عشرة واستباحوها ثم رحلوا عنها إلى مدينة إربل وبها مظفر الدين فاستمد بدر الدين صاحب الموصل فأمد بالعاسكر ثم هم بالخروج لحفظ الدروب على بلاده فجاءت كتب الخليفة الناصر إليهم جميعاً بالمسير إلى دقوقا ليقيموا بها مع عساكره ويدافع عن العراق وبعث معهم بشتم كبير أمرائه وجعل المقدم على الجميع مظفر الدين صاحب إربل فقاموا عن لقاء التتر وخام التتر عن لقاءهم وساروا إلى همدان وكان لهم بها شحنة منذ ملكوها أولاً فطالبوه بفرض المال على أهلها وكان رئيس همدان شريفاً علوياً قديماً الرياسة بها فضضهم على ذلك فضجروا وأسأوا الرد عليه وأخرجوا الشحنة وقتلوا التتر وغضب العلوي فتسلل عنهم إلى قلعة بقرها فامتنع وزجف التتر إلى البلد فملكوه

عنوة واستباحوه واستحملوا أهلهم.

ثم عادوا إلى أذربيجان فملكوا أردبيل واستباحوها وخربوها وساروا إلى تبريز وقد فارقها أزيك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران وقصد لقجوان وبعث بأهلهم وحرمه إلى خوي فراراً من التتر لعجزه وانهماكه فقام بامر تبريز شمس الدين الطغراني وجمع أهل البلد واستعد للحصار فأرسل إليه التتر في المصانعة فصانعهم وساروا إلى مدينة سوى فاستباحوها وخربوها وساروا إلى بيلقان فحاصروها وبعثوا إلى أهل البلد رجلاً من أكابرهم يقرر معهم في المصانعة والصلح فقتلوه فأسرى التتر في حصارهم وملكوا البلد عنوة في رمضان سنة ثمان عشرة واستلحموا أهلها وأنحسوا في القتل والمثلة حتى بقروا البطون على الأجنة واستباحوا جميع الضاحية قتلاً ونهباً وتخريباً ثم ساروا إلى قاعدة أران وهي كنجة ورأوا امتناعها فطلبوا المصانعة من أهلها فصانعهم ولما فرغوا من أعمال أذربيجان وأران ساروا إلى بلاد الكرج وكانوا قد جمعوا لهم واستعدوا ووقعوا في حدود بلادهم فقاتلهم التتر فهزمهم إلى بلقين قاعدة ملكهم فجمعوا هنالك ثم خاموا عن لقائهم لما رأوا من اقتحامهم المضائق والجبال فعادوا إلى بلقين واستولى التتر على نواحها فخربوها كيف شاؤوا ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة الأوعار والدوسرات فعادوا عنها ثم قصدوا درنبر شروران وحاصروا مدينة سماهي وقتكوا في أهلها ووصلوا إلى السور فعالوه بأشلاء القتلى حتى ساموه واقتحموا البلد فاهلكوا كل من فيه ثم قصدوا الدرنبر فلم يطبقوا عبوره فأرسلوا إلى شروران في الصلح فبعث إليهم رجلاً من أصحابه فقتلوا بعضهم واتخذوا الباقين أذلاء فسلكوا بهم درنبر شروران وخرجوا إلى الأرض الفسيحة وبها أمم القفجاق واللان واللكن وطوائف من الترك مسلمون وكفار فأوقعوا بتلك الطوائف واكتسحوا عامة البسائط وقتلهم قفجاق واللان ودافعوهم ولم يطق التتر مغالبتهم ورجعوا وبعثوا إلى القفجاق وهم واثقون بمسالمتهم فأوقعوا بهم وجبر من كان بعيداً منهم إلى بلاد الروس واعتصم آخرون بالجبال والغياض واستولى التتر على بلادهم وانتهوا إلى مدينتهم الكبرى سراي على بحر نيطش المتصل بخليج القسطنطينية وهي مادتهم وفيها تجارتهم فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال وركب بعضهم إلى بلاد الروم في إيالة بني قليج أرسلان ثم سار التتر سنة عشر وستمئة من بلاد قفجاق إلى بلاد الروس المجاورة لها وهي بلاد فسيحة وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا إلى مدافعتهم في تخوم بلادهم ومعهم جوع من القفجاق سافروا إليهم فاستطرد لهم التتر مراحل ثم كروا عليهم وهم غارون فطاردهم القفجاق والروم أياماً ثم

صابروهم فوجدوا في مصابرتهم ما لم يحتسبوه فولوا منهزمين وأثنى التتر فيهم ثم حاصروا البلد خمسة أيام وبعثوا إلى أميرها يستميلونه للنزول عنها فاستأمن إليهم وخرج فأكرموه أولاً ثم أمروا بإحضار جنده للعرض حتى استكملوا وقبضوا عليهم.

ثم استكتبوا رؤساء البلد وتجارهم وصناعه على طبقاتهم وخرج أهل البلد جميعاً وجلس لهم جنكزخان على كرسي من ذهب فقتل الجند في صعيد واحد وقسم العامة رجالاً وأطفالاً ونساء بين الجند فاقسموهم وأخذوا أموالهم وامتحنوهم في طلب المال ونبشوا القبور في طلبه ثم أحرقوا البلد وتربة السلطان سنجار ثم استلمح في اليوم الرابع أهل البلد جميعاً يقال: كانوا سبعمائة ثم ساروا إلى نيسابور وحاصروها خساً ثم اقتحموها عنوة وفعلوا فيها فعلهم في مرو أو أشد ثم بعثوا عسكرياً إلى طوس وفعلوا فيها مثل ذلك وخربوها وخربوا مشهد علي بن موسى الرضا ثم ساروا إلى هراة وهي من أمتع البلاد فحاصروها عسراً وملكوها وأمنوا من بقي من أهلها وأزلوا عندهم شحنة وساروا لقتال جلال الدين بن خوارزم شاه كما يذكر بعد فوئب أهل هراة على الشحنة وقتلوه فلما رجع التتر منهزمين اقتحموا البلد واستباحوه وخربوه وأحرقوه ونهبوا نواحيه أجمع وعادوا إلى جنكزخان بالطالقان وهو يرسل السرايا في نواحي خراسان حتى أتوا عليها تحريماً وكان ذلك كله سنة سبع عشرة وبقيت خراسان خراباً وتراجع أهلها بعض الشيء فكانوا فوضى واستبد آخرون في بعض مدنها كما نذكر ذلك في أماكنه والله أعلم.

أخبار السلطان جلال الدين منكبرس مع

التتر بعد مهلك خوارزم شاه واستقراره

بغزنة

ولما توفي السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش بجزيرة بحر طبرستان ركب ولده البحر إلى خوارزم يقدمهم كبيرهم جلال الدين منكبرس وقد كان وثب بها بعد منصرف تركمان خاتون أم خوارزم شاه رجل من العيارين فضبطها وأساء السيرة وانطلقت إليها أيدي العيارين ووصل بعض نواب الديوان فاشاعوا موت السلطان ففر العيارون ثم جاء جلال الدين وإخوته واجتمع الناس إليهم فكانوا معهم سبعة آلاف من العساكر أكثرهم الياقونية قرابة أم خوارزم شاه فمالوا إلى أولاغ شاه وكان ابن أختهم كما مر وشاوروا في الوثوب بجلال الدين وخلعه ونغي الخبر إليه فسار إلى خراسان في ثلثمائة فارس وسلك المفازة إلى بلد نسا فلقى هناك

انهزموا وأثنى التتر فيهم قتلاً وسيماً ونهباً وركبوا السفن هارين إلى بلاد المسلمين وتركوا بلادهم فاكسحها التتر ثم عادوا إليها وقصدوا بلغار أواخر السنة واجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد أن أكرموا لهم ثم استطردوا أمامهم وخرج عليهم الكمائن من خلفهم فلم ينج منهم إلا القليل وارتحلوا عائدين إلى جنكزخان بأرض الطالقان ورجع القفجاق إلى بلادهم واستقروا فيها والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

أخبار خراسان بعد مهلك خوارزم شاه

قد كنا قدمنّا مهلك خوارزم شاه ومسير هؤلاء التتر المغربية في طلبه ثم انتهائهم بعد مهلكه إلى النواحي التي ذكرناها وكان جنكزخان بعد إجفال خوارزم شاه من جيحون وهو بسمرقند قد بعث عسكرياً إلى ترمذ فساروا منها إلى كلات من أحصن القلاع إلى جانب جيحون فاستولوا عليها وأوسعوها نهباً وسير عسكرياً آخر إلى فرغانة وكذلك عسكرياً آخر إلى خوارزم وعسكرياً آخر إلى خوزستان فغير عسكر خراسان إلى بلخ وملكوها على الأمان سنة سبع وستمئة ولم يعرضوا لها بعث وأنزلوا شحتهم بها ثم ساروا إلى زوزن وايدخوي وفاراب فملكوها وولوا عليها ولم يعرضوا لأهلها بأذى وإنما استغفروهم لقتال البلد معهم.

ثم ساروا إلى الطالقان وهي ولاية متسعة فقصدوا قلعة صوركوه من أمتع بلادها فحاصروها ستة أشهر وامتعت عليهم فسار إليهم جنكزخان بنفسه وحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى إذا رأى امتناعها أمر بنقل الخشب والتراب حتى اجتمع منه تل مشرف على البلد واستيقن أهل البلد الهلكة واجتمعوا وفتحوا الباب وصدقوا الحملة فنجأ الخيالة وتفرقوا في الجبال والشعاب وقتل الرجالة ودخل التتر البلد فاستباحوها ثم بعث جنكزخان صهره قفجاق قوين إلى خراسان ومرواسا وقتلوا فامتعت عليهم وقتل قفجاق قوين فاقاموا على حصارها وملكوها عنوة واستباحوها وخربوها ويقال: قتل فيها أزيد من سبعين ألفاً وجمع من الجثث عدداً كبيراً فكان كالللال العظيمة وكان رؤساؤها بني حمزة بخوارزم منذ ملكها خوارزم شاه تكش فعاد إليها اختيार الدين جنكي بن عمر بن حمزة وبنو عمه وضبوطها.

ثم بعث جنكزخان ابنه في العساكر إلى مدينة مرو واستغفر أهل البلاد التي ملكوها من قبل مثل بلخ وأخواتها وكان الناجون من هذه الوقائع كلها قد لحقوا بمرو واجتمع بها ما يزيد على مائتي ألف وعسكروا بظاهرها لا يشكون في الغلب فلما قاتلهم التتر

رصداً من التتر فهزمهم ولجأ فلهم إلى نسا وكان بها الأمير اختيار زنكي بن محمد بن عمر بن حمزة قد رجع إليها من خوارزم كما قدمناه وضبطها فاستلحم فل التتر وبلغ وبعث إلى جلال الدين بالمدد فسار إلى نيسابور ثم وصلت عساكر التتر إلى خوارزم بعد ثلاث من مسير جلال الدين فأجفل أولاغ وإخوته وساروا في اتباعه ومروا بنسا فسار معه اختيار الدين صاحبها واتبعتهم عساكر التتر فأدركوهم بنواحي خراسان وكبسوهم فقتل أولاغ شاه وأخوه انشاه واستولى التتر على ما كان معهم من الأموال والذخائر وافترت في أيدي الجند والفلاحين فبيعت بأجنس الأثمان.

ورجع اختيار الدين زنكي إلى نسا فاستبد بها ولم يسم إلى مراسم الملك وكتب له جلال الدين بولايته فراجع أحوال الملك ثم بلغ الخبر إلى جلال الدين بزحف التتر إلى نيسابور وأن جنكزخان بالطالقان فسار إلى نيسابور ومن نيسابور إلى بست واتبه نائب هراة الأمير ملك ابن خال السلطان خوارزم شاه في عشرة آلاف فارس هارباً أمام التتر وقصد سجستان فامتعت عليه فرجع واستدعاه جلال الدين فسار إليه واجتمعوا فكبسوا التتر وهم محاصرون قلعة قندهار فاستلحموهم ولم يفلت منهم أحد فرجع جلال الدين إلى غزنة وكانت قد استولى عليها اختيار الدين قريوشت صاحب الغور عندما ساروا إليها وعندما قدم جلال الدين صريحاً عن أمير ملك خان من سجستان فخالفه قريوشت إليها وملكها فثار به صلاح الدين النسائي وإلى قلعتها وقتله ملك غزنة، وكان بها رضا الملك شرف الدين بن أمير ملك خان ففتك به رضا الملك واستبد بغزنة فلما ظفر جلال الدين بالتتر على قندهار رجع إلى غزنة فقتله وأوطنها وذلك سنة ثمان عشرة.

وقد كنا قدما أن جنكزخان بعدما أجفل خوارزم شاه جيحون بعث عساكره إلى النواحي وبعث إلى مدينة خوارزم عسكراً عظيماً لعظمها لأنها كرسي الملك وموضع العساكر فسارت عساكر التتر إليها مع ابنه جنطاي وأركطاي فحاصروها خمسة أشهر ونصبوا عليها الآلات فامتعت فاستمدوا عليها جنكزخان فأمدهم بالعساكر متلاحقة فزحفوا إليها وملكوا جانباً منها وما زالوا يملكونها ناحية ناحية إلى أن استوعبوها ثم فتحوا السد الذي يمنع ماء جيحون عنها فسار إليها جيحون فغرقها وانقسم أهلها بين السيف والغرق هكذا قال ابن الأثير وقال

استيلاء التتر على مدينة خوارزم وتخريبها

قد كنا قدما أن جنكزخان بعدما أجفل خوارزم شاه جيحون بعث عساكره إلى النواحي وبعث إلى مدينة خوارزم عسكراً عظيماً لعظمها لأنها كرسي الملك وموضع العساكر فسارت عساكر التتر إليها مع ابنه جنطاي وأركطاي فحاصروها خمسة أشهر ونصبوا عليها الآلات فامتعت فاستمدوا عليها جنكزخان فأمدهم بالعساكر متلاحقة فزحفوا إليها وملكوا جانباً منها وما زالوا يملكونها ناحية ناحية إلى أن استوعبوها ثم فتحوا السد الذي يمنع ماء جيحون عنها فسار إليها جيحون فغرقها وانقسم أهلها بين السيف والغرق هكذا قال ابن الأثير وقال

خير آبنايخ نائب بخارى وتغلبه على خراسان ثم فراه أمام التتر إلى الري

كان آبنايخ أمير الأمراء والحجاب أيام خوارزم شاه وولاه ثانياً بخارى فلما ملكها التتر عليه كما قلناه أجفل إلى المفازة وخرج منها إلى نواحي نسا وراسله اختيار الدين صاحبها يعرضها عليه للدخول عنده فأبى فوصله وأمدته وكان رئيس بشخوان من قري نسا أبو الفتح فدخل التتر فكتب إلى شحنة خوارزم بمكان آبنايخ فجرد إليهم عسكراً فهزمه آبنايخ وأثنى فيهم وساروا إلى بشخوان فحاصروها وملكوها عنوة وهلك أبو الفتح أيام الحصار ثم ارتحل آبنايخ إلى أيبورد وقد تغلب تاج الدين عمر بن مسعود على أيبورد وما بينها وبين مرو فجبى خراجها واجتمع عليه جماعة من أكابر الأمراء وعاد إلى نسا وقد توفي نائبها اختيار الدين زنكي وملك بعده ابن عمه عملة الدين حمزة بن محمد بن حمزة فطلب منه آبنايخ خراج سنة ثمان عشرة وسار إلى شروان وقد تغلب عليها أيكجي بهلوان فهزمه وانتزعها من يده ولحق بهلوان بجلال الدين في الهند واستولى آبنايخ خان على عامة خراسان وكان تكين بن بهلوان متغلباً بمرو فعبر جيحون وكبس شحنة التتر ببخارى فهزموه سنة سبع. ورجع إلى شروان وهم باتباعه ولحقوا بآبنايخ خان على جرجان فهزموه ونجا إلى غياث الدين بترشاه بن خوارزم شاه بالري فأقام عنده إلى أن هلك كما نذكر إن شاء الله تعالى.

خير ركن الدين غورشاہ صاحب العراق من ولد خوارزم شاه

قد كان تقدم لنا أن السلطان لما قسم ممالكه بين أولاده جعل العراق في قسمة غورشاہ منهم ولما أجفل السلطان من ناحية الري لقيه ابنه غور شاه ثم سار إلى الري إلى كرمان فملكها تسعة أشهر ثم بلغه أن جلال الدين محمد بن أبي القزويني وكان بهمدان أراد أن يملك العراق واجتمع إليه بعض الأمراء وأن مسعود بن صاعد قاضي أصفهان مائل إليه فعاجله ركن الدولة واستولى على

وعظم فكان بقاطابستي في دولته وتحكم فيها ثم حدثته نفسه بالاستبداد وانتقض وقصد أذربيجان وبها مملوكان منتفضان على أزيك بن البهلوان فاجتمعا معه وزحف إليهم غياث الدين فهزمهم ورجعوا مغلوبين إلى أذربيجان ويقال: إن الخليفة دس بذلك إلى بقاطابستي وأغراه بالخلاف على غياث الدين ثم لحق بغياث الدين آبنايخ خان نائب بخارى مفتاً من واقعته مع التتر بجران فأكرمه وقدمه وناقسه خال السلطان دولة ملك وأخوه وسعوا إليها فزجرهما عنه فذهب مغاضبين ووقع دولة ملك في عساكر التتر بمرور وزيغان فقتل وهرب ابنه بركة خان إلى أزيك بأذربيجان ثم أوقع عساكر التتر بقاطابستي وهزموه ونجا إلى الكرم وخلص الفل إلى غياث الدين وعاد التتر إلى ما وراء جيحون ثم تذكر صاحب فارس سعد الدين بن زنكي وكاتبته أهل أصفهان حين كانوا منهزمين فسار إليه وحاصره في قلعة اصطخر وملكها ثم سار إلى شيراز وملكها عليه عنوة ثم سار إلى قلعة حرة فحاصرها حتى استأمنوا وترقى عليها آبنايخ خان ودفن هنالك بشعب سلمان ويعث عسكراً إلى كازرون فملكها عنوة واستباحها ثم سار إلى ناحية بغداد وجمع الناس الجموع من إربل وبلاد الجزيرة ثم راسل غياث الدين في الصلح فصالحه ورجع إلى العراق.

أخبار السلطان جلال الدين منكبرس

وهزمته أمام التتر ثم عوده إلى الهند

قد كان تقدم لنا أن أباه خوارزم شاه لما قسم البلاد بين ولديه جعل في قسمة غزنة وباميان والغور وبست وهيكايد وما يليها من الهند واستتاب عليها أمير ملك وأنزله غزنة فلما انهزم السلطان خوارزم شاه أمام التتر زحف إليه حربوشة وإلى الغور فملكها من يده وكان من أمره ما قدمناه إلى أن استقر بها رضا الملك شرف الدين ولما أجفل السلطان جلال الدين من نيسابور إلى غزنة واستولى التتر على بلاد خراسان وهرب أمراؤها فلحقوا بجلال الدين فقتل نائب هراة أمين الملك خال السلطان وقد قدمنا محاصرته بسجستان ثم مراجعته طاعة السلطان جلال الدين ولحق به أيضاً سيف الدين بقراق الخلخي وأعظم ملك من بلخ ومظهر ملك والحسن فزحف كل منهم في ثلاثين ألفاً ومع جلال الدين من عسكره مثلها فاجتمعوا وكبسوا التتر المملوكة محاصرين قلعة قندهار كما قلنا واستلحموهم ولحق فلهم بجنكزخان فبعث ابنه طولي خان في العساكر فساروا إلى جلال الدين فلقبهم بشروان

أصفهان وهرب القاضي إلى الأتابك سعد بن زنكي صاحب فارس فأجاره ويعث ركن الدين العساكر لقتال همذان فتخاذلوا ورجعوا دون قتال ثم مضى إلى الري ووجد بها قوما من الإسماعيلية يحاولون إظهار دعوتهم ثم زحف التتر إلى ركن الدولة فحاصروه بقلعة راوند واقتحموها فقاتلوه واستأمن إليهم ابن أبه صاحب همذان فامتوه ودخلوا همذان فولوا عليها علاء الدين الشريف الحسيني عوضاً من ابن أبه.

خبر غياث الدين تيرشاه صاحب كرمان

من ولد السلطان خوارزم شاه

قد كنا قدمنا أن السلطان خوارزم شاه ولّى ابنه غياث الدين تيرشاه كرمان وكيش ولم ينفذ إليها أيام أبيه ولما كانت الكبة على قزوین خلص إلى قلعة ماروت من نواحي أصفهان وأقام عند صاحبها ثم رجع إلى أصفهان ومر به التتر ذاهبين إلى أذربيجان فحاصروه وامتنع عليهم وأقام بها إلى آخر سنة عشرين وستمائة فلما جاء أخوه ركن الدين غورشاه من كرمان إلى أصفهان لقيه هنالك وحرّضه غياث الدين على كرمان فنهض إليها وملكها فلما قتل ركن الدين كما قلناه سار غياث الدين إلى العراق وكان ركن لما ولّاه أبوه العراق جعل معه الأمير بقاطابستي أتابكاً فاستبد عليه فشكاه إلى أبيه وأذن له في حبسه فحبسه ركن الدين بقلعة سرجهان فلما قتل ركن الدين كما قلناه أطلقه نائب القلعة أسد الدين حوّل فاجتمع عليه الناس وكثير من الأمراء واستماله غياث الدين وأصهر إليه بأخته وماطله في الزفاف يستبرئ ذهاب الوحشة بينهما

وكانت أصفهان بعد مقتل ركن الدين غلب عليها أزيك خان واجتمعت عليه العساكر وزحف إليه الأمير بقاطابستي فاستجد أزيك غياث الدين فأنجذه بعسكر مع الأمير دولة ملك وعاجله بقاطابستي فهزمه بظاهر أصفهان وقتله وملكها ورجع دولة ملك إلى غياث الدين فزحف غياث الدين إلى أصفهان وأطاعه القاضي والرئيس صدر الدين وبادر بقاطابستي إلى طاعته ورضي عنه غياث الدين وزف إليه أخته واستولى غياث الدين على العراق ومازندان وخراسان وأقطع مازندان وأعمالها دولة ملك وبقاطابستي همذان وأعمالها

ثم زحف غياث الدين إلى أذربيجان وشن الغارة على مراغة وترددت رسل صاحب أذربيجان أزيك بن البهلوان في المهادنة فهادنه وتزوج بأخته صاحب بقبجوان وقويت شوكة

جلال الدين بما فيه وسار إلى لهاون وفيها ابن قباجة ممنعاً عليه فصالحه على مال يحمله ورحل إلى تشتشان وبها فخر الدين السلوي نائب قباجة فتلقاء بالطاعة ثم سار إلى أوجا وحاصرها فصالحوه على المال ثم سار إلى جانس وهي لشمس الدين اليتشمي من ملوك الهند ومن موالي شهاب الدين الغوري فأطاعه أهلها وأقام بها وزحف إليه أيتش في ثلاثين ألف فارس ومائة ألف راجل وثلاثمائة قبل وزحف جلال الدين في عساكره وفي مقدمته جرجان بهلوان أزيك واختلفت المقدمتان فلم يمكن اللقاء وبعث أيتش في الصلح فجنح إليه جلال الدين ثم اجتمع قباجة وأيتش وسائر ملوك الهند فخام عن لقائهم ورجع لطلب العراق واستخلف جهان بهلوان الملك على ما ملك من الهند وعبر النهر إلى غزنة فولى عليها وعلى الغور الأمير وفاملك واسمه الحسن فزلف وسار إلى العراق وذلك سنة إحدى وعشرين بعد مقدمه لها بستين.

أحوال العراق وخراسان في إيالة غياث الدين

كان غياث الدين بعد مسير جلال الدين إلى الهند اجتمع إليه شراد العساكر بكرمان وسار بهم إلى العراق فملك خراسان ومازندران كما تقدم وأقام منهمكاً في لذاته واستبد الأمراء بالتواحي فاستولى قائم الدين على نيسابور وغلب يقر بن ايلجي بهلوان على شروان وغلبك ينال خطا بهاتر ونظام اسفراين ونصرة الدين بن محمد مستبد بشا كما مر واستولى تاج الدين عمر بن مسعود التركماني على أيبورد وغياث الدين مع ذلك منهمك في لذاته وسارت إليه عساكر التتر فخرج لهم عن العراق إلى بلاد الجبل واكتسحوا سائر جهاته واشتط عليه الجند وزادهم في الإقطاع والإحسان فلم يشعبهم وأظهروا الفساد وعاثوا في الرعايا وتحكمت أم السلطان غياث الدين في الدولة لإغفاله أمرها واقتفت طريقة تركمان خاتون أم السلطان خوارزم شاه وتلقبت بلقبها خادوندجهان إلى أن جاء السلطان جلال الدين فغلب عليه كما قلناه.

وهزمهم وقتل طولي خان بن جنكز في المعركة وذهب التتر منهزمين.

واختلف عسكر السلطان جلال الدين على الغنائم وتنازع سيف الدين بقرق مع أمين الملك نائب هراة وتحيز إلى العراق وأعظم ملك ومظهر ملك وقتالوا أمين الملك فقتل أخ لبقرق وانصرف مغاضباً إلى الهند وتبعه أصحابه ولاطفهم جلال الدين ووعظهم فلم يرجعوا وبلغ خبر الهزيمة إلى جنكزخان فسار في أمم التتر وسار جلال الدين فلقى مقدمة عساكره فلم يقلت من التتر إلا القليل ورجع فنزل على نهر السند وبعث بالصريخ إلى الأمراء المنحرفين عنه وعاجله جنكزخان قبل رجوعه فهزمه بعد القتال والمصاهرة ثلاثاً وقتل أمين الملك قريب أبيه واعترض المنهزمين نهر السند فغرق أكثرهم وأسر ابن جلال الدين فقتل وهو ابن سبع سنين ولما وقف جلال الدين على النهر والتتر في اتباعه فقتل أهله وحرمه جميعاً واقتحم النهر بفرسه فخلص إلى عدوته وتخلص من عسكره ثلاثمائة فارس وأربعة آلاف راجل وبعض أمرائه ولقوه بعد ثلاث وتخلص بعض خواصه بمركب مشحون بالأقوات والملابس فسد من حاجتهم وتحصن أعظم ملك ببعض القلاع وحاصره جنكزخان وملكها عنوة وقتله ومن معه ثم عاد التتر إلى غزنة فملكوها واستباحوها وأحرقوها وخرّبوها واكتسحوا سائر نواحيها وكان ذلك كله سنة تسع عشرة ولما سمع صاحب جبل جردى من بلاد الهند بجلال الدين جمع للقائه وخام جلال الدين وأصحابه عن اللقاء لما نهكتهم الحرب فرجعوا أدرأجهم وأدركهم صاحب جلال الدين صوري فقاتلهم وهزموه وملكوا أمرهم وبعث إليهم نائب ملك الهند فلاطفهم وهاداهم والله تعالى ولي التوفيق.

أخبار جلال الدين بالهند

كان جماعة من أصحاب جلال الدين وأهل عسكره لما عبروا إليهم حصلوا عند قباجة ملك الهند منهم بنت أمين الملك خلصت إلى مدينة أرجاء من عمله ومنهم شمس الملك وزير جلال الدين حياة أبيه ومنهم قزل خان بن أمين الملك خلص إلى مدينة كلور فقتله عاملاً وقتل قباجة شمس الملك الوزير لخبر جلال الدين بأمره وبعث أمين الملك ولحق بجلال الدين جماعة من أمراء أخيه غياث الدين فقوي بهم وحاصر مدينة كلور وافتتحها وافتتح مدينة ترنوخ كذلك فجمع قباجة للقائه وسار إليه جلال الدين فخام عن اللقاء وهرب وترك معسكره فغتمه

وصول جلال الدين من الهند إلى كرمان وأخباره بفارس والعراق مع أخيه غياث الدين

المشئء صاحب التاريخ المعتمد عليه في نقل أخبار خوارزم شاه وبنيه، فأقام فيها تسع عشرة سنة مستبداً على غياث الدين ثم انتقض عليه وقطع الخطبة له فسرّح إليه غياث الدين العساكر مع طوطي بن آبنايخ وأنجده بأرسلان وكاتب المغلبين بمساعدته فراجع نصرة الدين محمد بن حمزة نفسه وبعث نائبه محمد بن أحمد المشئء إلى غياث الدين بمال صالحه عليه فبلغه الخبر في طريقه بوصول جلال الدين واستيلائه على غياث الدين فأقام بأصفهان ينتظر صلاح السابلة وزوال الثلج ثم سار إلى همدان فوجد السلطان غائباً في غزو الأتابك بقطابسي وكان من خبره أنه صهر إلى غياث الدين على أخته كما قدمنا فهرب بعد خلعه إلى أذربيجان واتفق هو والأتابك سعد وسار إليهما جلال الدين فخالفه الأمير ايغان طابسي إلى همدان وسار إلى جلال الدين وكبسه هنالك فأخذه ثم أمته وعاد إلى خيمه ولقيه وأخذ نصرة الدين على بلاد نسا وما يتأخها وبعث إلى ابن آبنايخ بالإفراج عن نسا ثم بلغ الخبر بعد يومين بهلاك نصرة الدين واستيلاء ابن آبنايخ على نسا.

مسير السلطان جلال الدين إلى خوزستان ونواحي بغداد

ولما استولى السلطان جلال الدين على أخيه غياث الدين واستقامت أموره سار إلى خوزستان شاتياً وحاصر قاعدتها وبها مظفر الدين وجه السبع مولى الخليفة الناصر وانتهت سراياه في الجهات إلى بادرايا وإلى البصرة فأوقع بهم تلكين نائب البصرة وجاءت عساكر الناصر مع مولاة جلال الدين قشتمر وخاموا عن اللقاء وأودع ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود السوي العارض على الخليفة ببغداد عاتياً وكان في مقدمته جهان بهلوان فلقى في طريقه جمعاً من العرب وعساكر الخليفة فرجع وأوقع بهم ورجعوا إلى بغداد وجيء بأسرى منهم إلى السلطان فاطلقهم واستعد أهل بغداد للحصار وسار السلطان إلى بعقوبا على سبع فراسخ من بغداد ثم إلى دقوقا فملكها عنوة وخربها وقاتلت بعونه عسكر تكريت وترددت الرسل بينه وبين مظفر الدين صاحب إربل حتى اصطالحوا واضطربت البلد بسبب ذلك وأفسد العرب السابلة وأقام ضياء الملك ببغداد إلى أن ملك السلطان مراغة والله تعالى أعلم.

ولما فارق جلال الدين الهند كما قلناه سنة إحدى وعشرين وسار إلى المفازة وخلص منها إلى كرمان بعد أن لقي بها من المتاعب والمشاق مالا يعبر عنه وخرج معه أربعة آلاف راكب على الحمير والبقر ووجد بكرمان براق الحاجب نائب أخيه غياث الدين وكان من خبر براق هذا أنه كان حاجباً لكوخان ملك الخطا وسفر عنه إلى خوارزم شاه فأقام عنده ثم ظفر خوارزم شاه بالخطا وولاه حجابه ثم صار إلى خدمة ابنه غياث الدين ترشه بمكران فأكرمه ولما سار جلال الدين إلى الهند ورجع عنه التتر سار غياث الدين لطلب العراق فاستتاب براق في كرمان فلما جاء جلال الدين من الهند اتهمه وهم بالقبض عليه فنهاه عن ذلك وزيره شرف الملك فخر الدين علي بن أبي القاسم الجندي خواجها جهان أن يستوحش الناس لذلك.

ثم سار جلال الدين إلى شيراز وأطاعه صاحبها برد الأتابك وأهدى له وكان أتابك فارس سعد بن زنكي قد استوحش من غياث الدين فاصطلحه جلال الدين وأصهر إليه في ابنته ثم سار إلى أصفهان فأطاعه القاضي ركن الدين مسعود بن صاعد وبلغ خبره إلى أخيه غياث الدين وهو بالري فجمع لحربه، وبعث جلال الدين يستعطفه وأهدى له سلب طوطي خان بن جنكزخان الذي قتل في حرب بزوان كما مر وفرسه وسيفه ودس إلى الأمراء الذين معه بالاستمالة فعملوا إليه ووعده بالمظاهرة ونمي الخبر إلى غياث الدين فقبض على بعضهم ولحق الآخرون بجلال الدين فجاءوا به إلى المخيم فمال إليه أصحاب غياث الدين وعساكره واستولى على خيمه وذخائره وأمه ولحق غياث الدين بقلعة سلوقان وعاتب جلال الدين أمه في فراره فاستدعته وأصلحت بينهما ووقف غياث الدين موقف الخدمة لأخيه السلطان جلال الدين وجاء المغلبون بخراسان والعراق وأذعنوا إلى الطاعة وكانوا من قبل مستبدين على غياث الدين فاختر السلطان طاعتهم وعمل على شاكلتها والله أعلم.

استيلاء ابن آبنايخ على نسا

كان نصرة الدين بن محمد قد استولى على نسا بعد ابن عمه اختيار الدين كما مر واستتاب في أموره محمد بن أحمد النسائي

أولية الوزير شرف الدين

هذا الوزير هو فخر الدين علي بن القاسم خواجه جهان ويلقب شرف الملك أصله من أصفهان وكان أول أمره يتوب عن صاحب الديوان بها وكان نجيب الدين الشهرستاني وزير السلطان وابنه بهاء الملك وزير الجند وفخر الدين هذا يخدمه بها ثم تمكن من منصب الإفتاء وطمع إلى مغالبة نجيب الدين على الوزارة وسعى عند السلطان بأنه تناول من جبايتها مائتي ألف دينار فسأحه بها السلطان ولم يعرض له ثم سعى بفخر الدين ثانية فولي وزارة الجند وأقام بها أربع سنين حتى عبر السلطان إلى بخارى فكثرت به الشكايات فأمر بالقبض عليه فاخفى ولحق بالطالقان إلى أن اتصل بجلال الدين حين كان بغزوة بعد مهلك ابنه فرتبه في الحجابة إلى أن أجاز بحر السند وكان وزيره شهاب الدين الهروي فقتله قباجة ملك الهند كما مر واستوزر جلال الدين مكانة فخر الدين هذا ولقبه شرف الملك ورفع رتبته على الوزراء وموقفه وسائر آدابه وأحواله.

عودة التتر إلى الري وهمذان وبلاد الجبل

وبعد رجوع التتر المغرية من أذربيجان وبلاد قفجاق وسروان كما قدمناه وخراسان يومئذ فوضى ليس بها ولاة إلا متغلبون من بعض أهلها بعد الخراب الأول والنهب فعمروها فبعث جنكزخان عسكرياً آخر من التتر إليها فنهبها ثانياً وخربوها وفعلوا في ساوة وقاشان وقم مثل ذلك ولم يكن التتر أولاً أصابوا منها ثم ساروا إلى همذان فأجفل أهلها وأوسعوها نهباً وتخريباً وساروا في اتباع أهلها إلى أذربيجان وكبسوهم في حدودها فأجفلوا وبعضهم قصد تبريز فسار التتر في اتباعهم وراسلوا صاحبها أزيك بن البهلوان في إسلام من عنده فبعث بهم بعد أن قتل جماعة منهم وبعث برؤوسهم وصانهم بما أرضاهم فرجعوا عن بلاده والله تعالى أعلم.

وقائع أذربيجان قبل مسير جلال الدين

إليها

لما رجع التتر من بلاد قفجاق والروس وكانت طائفة من قفجاق لما افترقوا وفروا أمام التتر ساروا إلى دربند شروان واسم ملكه يومئذ رشيد وسألوه المقام في بلاده وأعطوه الرهن على

الطاعة فلم يجيبهم رية بهم فسألوه الميرة فأذن لهم فيها فكانوا يأتون إليها زرافات وتنصح له بعضهم بأنهم يرومون الغدر به وطلب منه الإنجاد بعسكره وسار في أثرهم فأوقع بهم وهم باخلون بالطاعة فرجع ذلك القفجاق بالهجرة ثم بلغه أنهم رحلوا من مواضعهم فاتبعهم ثانياً بالهجرة حتى أوقع بهم ورجع إلى رشيد ومعه جماعة منهم مستأمنين وقد اختفى فيهم كبير من مقدميهم وتلاحق به جماعة منهم فاعتزموا على الوثوب فهرب خائفاً ولحق ببلاد شروان واستولت طائفة القفجاق على القلعة وعلى مخلف رشيد فيها من المال والسلاح واستدعوا أصحابهم فلحقوا بهم واعتزموا وقصدوا قلعة الكرج فحاصروها وخالفهم رشيد إلى القلعة فملكها وقتل من وجد بها منهم فعادوا من حصار تلك المدينة إلى دربند وامتنعت عليهم القلعة فرجعوا إلى تلك المدينة فاكسحوا نواحيها وساروا إلى كنجة من بلاد أران وفيها مولى لأزيك صاحب أذربيجان فراسلوه بطاعة أزيك فلم يجيبهم إليها وعدد عليهم ما بدر منهم في الغدر ونهب البلاد واعتذروا بأنهم إنما غدروا شروان لأنه منعهم الجواز إلى صاحب أذربيجان وعرضوا عليه الرهن فجاءهم بنفسه ولقوه في عدد قليل فعدا عن محال التهمة فبعث بطاعتهم إلى سلطانه وبعث بذلك إلى أزيك وجاء بهم إلى كنجة فأفاض فيهم الخلع والأموال وأصهر إليهم وأزلهم بجبل كيكلون.

وجمع لهم الكرج فأواهم إلى كنجة ثم سار إليهم أمير من أمراء قفجاق ونال منهم فرجعوا إلى جبل كيكلون وسار القفجاق الذين كبسوهم إلى بلاد الكرج فاكسحوها وعادوا فاتبعهم الكرج واستنقذوا الغنائم منهم وقتلوا ونهبوا فرحل القفجاق إلى بردعة وبعثوا إلى أمير كنجة في المدد على الكرج فلم يجيبهم فطلبوا رهنهم فلم يعطهم فمدوا أيديهم في المسلمين واسترهنوا أضعاف رهنهم وثار بهم المسلمون من كل جانب فلحقوا بشروان وتحفظهم المسلمون والكرج وغيرهم فأنهزمهم وبيع سبيهم وأسراهم بأجنس ثمن وذلك كله سنة تسع عشرة وكانت مدينة بيلقان من بلاد أران فأخربها التتر كما قدمناه وساروا عنها إلى بلاد قفجاق فعاد إليها أهلها وعمروها وسار الكرج في رمضان من هذه السنة إليها فملكوها وقتلوا أهلها وخربوها واستفحل الكرج ثم كانت بينهم وبين صاحب خلاط غازي بن العادل بن أيوب واقعة هزمهم فيها وأئخن فيهم كما يأتي في دولة بني أيوب ثم انتفض على شروان شاه ابنه وملك البلاد من يده فسار إلى الكرج واستصرخ بهم وساروا معه فبرز ابنه إليهم فهزمهم وأئخن فيهم فتشاءم الكرج بشروان شاه فطردوه عن بلادهم واستقر ابنه في الملك واغتبط

داخله في فتحها وأفاض العدل في أهلها وأوصلهم إليها وبالغ في الإحسان إليهم ثم بلغه إشار الكرج في أذربيجان وأران وأرمينية ودريند شروان وما فعلوه بالمسلمين فاعتزم على غزوهم وبلغه اجتماعهم برون فسار إليهم وعلى مقدمته جهان بهلوان الكنجي فلما تراءى الجمعان وكان الكرج على جبل لم يستهلوه فتسمنت إليهم العساكر الأوعار فانهزموا وقتل منهم أربعة آلاف أو يزيدون وأسر بعض ملوكهم واعتصم ملك آخر منهم ببعض قلاعهم فجهز جلال الدين عليها عسكرياً لحصارها وبعث عساكره في البلاد فعاتوا فيها واستباحوها.

فتح السلطان مدينة كنجة ونكاحه زوجة أربك

لما فرغ السلطان من أمر الكرج واستولى على بلادهم وكان قد ترك وزيره شرف الدين بتبريز للنظر في المصالح وولى عليها نظام الملك الطغراني فقصد الوزير الوشاية به وكتب إلى السلطان بأنه وعمه شمس الدين داخلوا أهل البلد في الانتفاض وإعادة أربك لشغل السلطان بالكرج فلما بلغ ذلك إلى السلطان أسره حتى فرغ من أمر الكرج وترك أخاه غياث الدين نائباً على ما ملك منها وأمره بتدوين بلادهم وتخريبها وعاد إلى تبريز فقبض على نظام الملك الطغراني وأصحابه فقتلهم وصادر شمس الدين على مائة ألف وجسه بمراغة ففر منها إلى أربك ثم لحق ببغداد وحبس سنة خمس وعشرين وبلغ السلطان تنصله في المطاف ودعاؤه على نفسه إن كان فعل شيئاً من ذلك فاعاده إلى تبريز ورد عليه أملاكه ثم بعث إليه زوجة أربك في الخطبة وأن أربك حث فيها بالطلاق فحكم قاضي تبريز عز الدين القزويني بحلها للنكاح فتزوجها السلطان جلال الدين وسار إليها فدخل في خوي ومات أربك لما لحقه من الغم بذلك.

ثم عاد السلطان إلى تبريز فأقام بها مدة ثم بعث العساكر مع أرخان إلى كنجة من أعمال نقجوان وكان بها أربك ففارقها وترك بها جلال الدين القمي نائباً فملكها عليه أرخان واستولى على أعمالها مثل وشمكور وبردعة وشنة وانطلقت أيدي عساكره في النهب فشكا أربك إلى جلال الدين فكتب إلى أرخان بالمنع من ذلك وكان مع أرخان نائب الوزير إلى السلطان فعزل أرخان وذهب مغاضباً إلى أن قتله الإسماعيلية وفي آخر رمضان من سنة اثنتين وعشرين توفي الخليفة الناصر لسبع وأربعين سنة من خلافته واستخلف بعده ابنه الظاهر أبو نصر محمد بعهدة إليه بذلك كما

الناس بولايته وذلك سنة اثنتين وعشرين ثم سار الكرج من تفليس إلى أذربيجان وأتوها من الأوعار والمضائق يظنون صعبتها على المسلمين فسار المسلمون وولجوا المضائق إليهم فركب بعضهم بعضاً منهزمين ونال المسلمون منهم أعظم النبل وبينما هم يتجهزون لأخذهم النأر من المسلمين وصلهم الخبر بوصول جلال الدين إلى مراغة فرجعوا إلى مراسلة أربك صاحب أذربيجان في الاتفاق على مدافعتهم وعاجلهم جلال الدين عن ذلك كما ذكره إن شاء الله تعالى.

استيلاء جلال الدين على أذربيجان وغزو الكرج

قد تقدم لنا مسير جلال الدين في نواحي بغداد وما ملك منها وما وقع بينه وبين صاحب أربل من الموافقة والصلح ولما فرغ من ذلك سار إلى أذربيجان سنة اثنتين وعشرين وقصد مراغة أولاً فملكها وأقام بها وأخذ في عمارتها وكان بغان طابش خصال أخيه غياث الدين مقيماً بأذربيجان كما مر فجمع عساكره ونهب البلد وسار إلى ساحل أران فشتى هنالك ولما عاث جلال الدين في نواحي بغداد كما قدمناه بعث الخليفة الناصر إلى بغان طابش وأغراه بجلال الدين وأمره بقصد همدان وأقطعه إياها وما يفتحه من البلاد فعاجله جلال الدين وصبحه بنواحي همدان على غرة وعابن الجند فسقط في يده وأرسل زوجته أخت السلطان جلال الدين فاستأمنت له فأمنه وجرّد العساكر عنه وعاد إلى مراغة وكان أربك بن بهلوان قد فارق تبريز كرسى ملكه إلى كنجة فأرسل جلال الدين إلى أهل تبريز يأمرهم بميرة عسكره فأجابوا إلى ذلك وترددت عساكره إليها فتجمع الناس وشكا أهل تبريز إلى جلال الدين ذلك فأرسل إليهم شحنة يقيم عندهم للنصفة بين الناس.

وكانت زوجة أربك بنت السلطان طغرليك بن أرسلان وقد تقدم ذكرها في أخبار سلفها مقيمة بتبريز حاكمة في دولة زوجها أربك ثم ضجر أهل تبريز من الشحنة فسار جلال الدين إليها وحاصرها خساً واشتد القتال وعابهم بما كان من إسلام أصحابه إلى التتر فاعتذروا بأن الأمر في ذلك لغيرهم والذنب لهم ثم استأمنوا فأمنهم وأمر ببيت السلطان طغرل وأبقى لها مدينة طغرل إلى خوي كما كانت وجمع ما كان لها من المال والأقطاع وملك تبريز منتصف رجب سنة اثنتين وعشرين وبعث بنت السلطان طغرل إلى خوي مع خادميه فليح وهلال وولى على تبريز ربيها نظام الدين ابن أخي شمس الدين الطغراني وكان هو الذي

مر في أخبار الخلفاء.

استيلاء جلال الدين على تفليس

الكرج بعد هزيمته إياهم

كان هؤلاء الكرج أخوة الأرمن وقد تقدم نسبة الأرمن إلى إبراهيم عليه السلام وكان لهم استطالة بعد الدولة السلجوقية وكانوا من أهل دين النصرانية فكان صاحب أرمن الروم يخشاهم ويدين لهم بعض الشيء حتى إن ملك الكرج كان يخلع عليه فيلبس خلعتهم وكان شروان صاحب الدريند يخشاهم وكذلك ملكوا مدينة أرجيش من بلاد أرمينية ومدينة فارس وغيرها وحاصروا مدينة خلاط قاعدتها فأسر بها مقدمهم أيواي وفادوه بالرحيل عنهم بعد أن اشترطوا عليه متابعتهم لهم في قلعة خلاط فبنوها وكذلك هزموا ركن الدولة فليحا أرسلان صاحب بلاد الروم لما زحف لأخيه طغرل شاه بارزن الروم استنجدهم طغرل فأنجده هزموا ركن الدين أعظم ما كان ملكاً واستفحالاً وكانوا يجوسون خلال أذربيجان ويعيشون في نواحيها.

وكان ثغر تفليس من أعظم الثغور طرماً على من يجاوره منذ عهد الفرس وملكه الكرج سنة خمس عشرة وخمسمائة أيام محمود بن محمود بن ملك شاه ودولة السلجوقية يومئذ أفحل ما كانت وأوسع إيالة وأعمالاً فلم يطق ارتجاعه من أيديهم واستولى أيلدكز بعد ذلك وابنه البهلوان على بلاد الجبل والري وأذربيجان وأران وأرمينية وخلاط وجاورهم بكرسيه ومع ذلك لم يطلق ارتجاعه منهم فلما جاء السلطان جلال الدين إلى أذربيجان وملكها زحف إلى الكرج وهزمهم سنة اثنتين وعشرين وعاد إلى تبريز في مهمه كما قدمناه فلما فرغ من مهمة ذلك وكان قد ترك العساكر ببلاد الكرج مع أخيه غياث الدين ووزيره شرف الدين فأغذ السير إليه غازياً من تبريز وقد جمع الكرج واحتشدوا وأمدتهم القفقاق وللكرز وساروا للقاء فلما التقى الفريقان انهزم الكرج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ولم يبقوا على أحد حتى استلحمهم وأفنؤهم.

ثم قصد جلال الدين تفليس في ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين ونزل قريباً منها وركب يوماً لاستكشاف أحوالها وترتيب مقاعد القتال عليها وأكمن الكمائن حولها واطلع عليهم في خف من العسكر فطمعوا فيه وخرجوا فاستطرد لهم حتى تورطوا والثفت عليهم الكمائن فهربوا إلى البلد والقوم في اتباعهم ونادى المسلمون من داخلها بشعار الإسلام وهتفوا باسم جلال الدين

فالتقى الكرج بأيديهم وملك المسلمون البلد وقتلوا كل من فيها إلا من اعتصم بالإسلام واستباحوا البلد وامتلات أيديهم بالغنائم والأسرى والسبايا وكان ذلك من أعظم الفتوحات هذه سياقة ابن الأثير في فتح تفليس وقال النسائي الكاتب: إن السلطان جلال الدين سار نحو الكرج فلما وصل نهر أرس مرض واشتد الثلج ومم بتفليس فبرز أهلها للقتال فهزمهم العساكر وأعجلوهم عن دخولها فملكوها واستباحوها وقتلوا من كان فيها من الكرج والأرمن واعتصم أهلها بالقلعة حتى صالحوا على أموال عظيمة فحملوها وتركوهم.

انتقاض صاحب كرمان ومسير السلطان

إليه

ولما اشتغل السلطان جلال الدين بشأن الكرج وتفليس طمع براق الحاجب في الانتقاض بكرمان والاستيلاء على البلاد وقد كنا قدما خبره وأن غياث الدين استخلفه على كرمان عند مسيره إلى العراق وأن جلال الدين لما رجع من الهند ارتاب به وهم بالقبض عليه ثم تركه وأقره على كرمان فلما انتقض الآن وبلغ خبره إلى السلطان وهو معتزم على قصد خلاط فتركها وأغذ السير إليه واستصحب أخاه غياث الدين ووعد بكرمان وترك خلفه بكيكلون وترك وزيره شرف الدين بتفليس وأمره باتساح بلاد الكرج وقدم إلى صاحب كرمان بالخلع والمقاربة والوعد فارتاب بذلك ولم يطمئن وقصد بعض قلاعهم فاعتصم بها ورجع الرسول إلى جلال الدين فلما علم أن المكيدة لم تتم عليه أقام بأصبهان وبعث إليه وأقره على ولايته وعاد وكان الوزير شرف الدين بتفليس كما قلناه وضاف الحل به من الكرج وأرجف عند الأمراء بكيكلون أن الكرج حاصروه بتفليس فسار أرخان منهم في العساكر إلى تفليس ثم وصل البشير من نفجوان برجوع السلطان من العراق فأعطاه الوزير أربعة آلاف دينار ثم افترقت العساكر في بلاد الكرج وبها أيواني مقدمهم مع بعض أعيانهم وبعث عسكرياً آخر إلى مدينة فرس واشتد عليها الحصار ثم جر العساكر عليها وعاد إلى تفليس.

مسير جلال الدين إلى حصار خلاط

كانت خلاط في ولاية الأشرف بن العادل بن أيوب وكان نائبه بها حسام الدين علي الموصلية وكان الوزير شرف الدين حين

أخبار السلطان جلال الدين مع الإسماعيلية

كان السلطان جلال الدين بعد وصوله من الهند ولى أرخان على نيسابور وأعمالها وكان وعده بذلك بالهند فاستخلف عليها وأقام مع السلطان وكان نائبه بها يتعرض لبلاد الإسماعيلية المتاخمة له بهستان وغيرها بالنهب والقتل فأوفدوا على السلطان وهو بخوي - وقد أمنهم - يشكون من نائب أرخان وأساء عليهم أرخان في المجاورة ولما عاد السلطان إلى كنجة وكان قد أقطعها وأعمالها لأرخان فلما خيم بظاهرها وثب ثلاثة من الباطنية ويسمون الفداوية لأنهم يقتلون من أمرهم أميرهم بقتله ويأخذون دينهم منه وقد فرغوا عن أنفسهم فوثبوا به فقتلوه وقتلته العامة وكانت الإسماعيلية قد استولوا على الدامغان أيام الفتنة ووصل رسولهم بعد هذه الواقعة إلى السلطان وهو يبيلقان فطالبهم بالتزول على الدامغان فطلبوا ضمانها بثلاثين ألف دينار وقررت عليهم وكان رسول الوافد في خدمة الوزير وهم راجعون إلى أذربيجان فاستخفه الطرب ليلة واحضر له خمسة من الفداوية معه بالعسكر وبلغ خبرهم السلطان فأمره بإحراقهم انتهى كلام النسائي وقال ابن الأثير: إن السلطان بعد مقتل أرخان سار في العساكر إلى بلاد الإسماعيلية من الموت إلى كردكه فاكسحها وخربها وانتقم منهم وكانوا بعد واقعة قد طمعوا في بلاد الإسلام فكف عاديتهم وقطع أطماعهم وعاد فبلغه أن طائفة من التتر بلغوا الدامغان قريباً من الري فسار إليهم وهزمهم وأخذ فيهم ثم جاء الخبر بأن التتر متلاحقة لحريه فأقام في انتظارهم في الري انتهى.

استيلاء حسام الدين نائب خللاط على

مدينة خوي

قد تقدم لنا أن بنت السلطان طغرل زوجة أربك بن البهلوان لما ملك السلطان جلال الدين تبريز من يدها أقطعها مدينة خوي ثم تزوجها بعد ذلك كما قدمناه وتركها لما هو فيه من أشغال ملكه فوجدت لذلك ما فقدته من العز والتحكم قال النسائي الكاتب: وأضاف لها السلطان مدينتي سلماس وأرمينية وعين رجالاً ليقبض أقطاعها فتكر لها وأغرى بها الوزير فكتب السلطان بأنها تداخل الأتابك أربك وتكاتبه ثم وصل الوزير إلى خوي فتزل بدارها واستصفى وكانت مقيمة بقلعة طلع فحاصرها وسالت المضي إلى السلطان فأبى إلا نزولها على حكمه انتهى.

وكان أهل خوي مع ذلك قد ضجروا من ملكة جلال

أقام بتفليس عند مسير جلال الدين إلى كرمان ضاقت على عساكره الميرة فبعث عسكرياً منهم إلى أعمال أرزن الروم فاكسحوا نواحها ورجعوا فمروا بخلاط فخرج نائبها حسام الدين واعترضهم واستنقذ ما معهم من الغنائم وكتب الوزير شرف الدين بذلك إلى جلال الدين وهو بكرمان فلما عاد جلال الدين من كرمان وحاصر مدينة أنى استقر حسام الدين نائب خلاط للامتناع منه فارتحل هو إلى بلاد أنغاز ليأتيه على غرة ورحل جلال الدين من أنغاز فسار إلى خلاط وحاصر مدينة ملاذكرد في ذي القعدة من السنة وانتقل منها إلى مدينة خلاط وحاصرها وضيق خنقها وقتلها مراراً واشتد أهل البلد في مدافعتهم لما يعلمون من سيرة الخوارزمية الألوتية وكانوا متغلبين على الكثير من بسائط أرمينية وأذربيجان فبلغه أنهم أفسدوا البلاد وقطعوا السابلة وأخذوا الضريبة من أهل خوي وخربوا سائر النواحي وكتب إليه بذلك نوابه وبنت السلطان طغرل زوجته فلما رحل عن خلاط قصدهم على غرة قبل أن يصعدوا إلى حصونهم بجبالهم الشاهقة فأحاطت بهم العساكر واستباحوهم واقسموهم بين القتل والغنيمة وعاد إلى تبريز.

دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها

ولما عاد السلطان من خلاط وغزو التركمان فرق عساكره للمشتى وكان الأمراء أساؤوا السيرة في تفليس وهرب العسكر الذين بها واستلحموا بقيتهم وخربوا البلاد وحرقوها لعجزهم عن حمايتها من جلال الدين وذلك في ربيع سنة أربع وعشرين وستمائة وعند النسائي الكاتب أن استيلاء الفرنج على تفليس وإحراقهم إياها كان والسلطان جلال الدين على خلاط وأنه لما بلغه ذلك رجع وأغار على التركمان في طريقه لما بلغه من إفسادهم فنهب أموالهم وساق مواشيهم إلى موقان وكان خمسها ثلاثين ألفاً ثم سار إلى خوي لملاقاة بنت طغرل ثم سار إلى كنجة فبلغه الخبر بانصراف الكرج عن تفليس بعد إحراقها قال: ولما وصل كنجة قدم عليه هنالك خاموش بن الأتابك أربك بن البهلوان مؤدياً منطقة بلخش قدر الكف مصنوعاً عليه منقوشاً اسم كيكاس وجماعة من ملوك الفرس فغير السلطان صنعتهما ونقشها على اسمه وكان يلبس تلك المنطقة في الأعياد وأخذها التتر يوم كبسوه وحملت إلى الخان الأعظم ابن جنكزخان بقرادوم وأقام خاموش في خدمة السلطان إلى أن صرعه الفقر ولحق بعلاء الملك الإسماعيلية فتوفي عنده انتهى كلام النسائي.

الوحشة بين السلطان جلال الدين وأخيه غيث الدين

كان ابتداءها أن الحسن بن حرميل نائب الغربة بهرة لما قتله عساكر خوارزم شاه محمد بن تش وحاصروا وزيره المنتع بها حتى اقتحموها عليه عنوة وقتلوه، هرب محمد بن الحسن بن حرميل إلى بلاد الهند فلما ملك السلطان جلال الدين وحظي لديه أقامه شحنة بأصفهان فلما سار السلطان إلى أصفهان للقاء التتر انحرف جماعة من غلمان غياث الدين عنه فصاروا إلى نصرة الدين بن حرميل واسترجعهم منه غياث الدين في بيته وطعنه فأشواه ومات لليل وأحفظ ذلك السلطان وأقام غياث الدين مسترحشاً فلما كان يوم اللقاء انحرف عن أخيه ولحق بخوزستان وخاطب الخليفة فبعث إليه ثلاثين ألف دينار وسار من هنالك إلى قلعة الموت عند صلاح الدين شيخ الإسماعيلية فلما رجع السلطان من وقعة التتر إلى الري سار إلى قلعة الموت وحاصرها فاستأمن علاء الدين إلى السلطان غياث الدين فأمنه وبعث من يأتيه به فامتنع غياث الدين وفارق القلعة واعترضه عساكر السلطان بنواحي همذان وأوقعوا به وأسروا جماعة من أصحابه ونجا إلى براق الحاجب بكرمان فتزوج بامه كرهاً ونمي إليه أنها تحاول سمه فقتلها وقتل معها جهان بهلوان الكجي وحبس غياث الدين ببعض القلاع ثم قتله بحبس وقال: بل هرب من محبسه ولحق بأصفهان وقتل بامر السلطان قال النسائي: وقتت على كتاب براق الحاجب إلى الوزير شرف الملك والسلطان بتبريز وهو يعدد سوابقه فعد منها قتله أعدى عدو السلطان والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض البهلوانية

لما ارتحل السلطان والوزير شرف الملك معه وانتهى إلى همذان بلغه أن الأمراء البهلوانية اجتمعوا بظاهر تبريز يرومون الانتقاض واتباعه خاموش بن الأتابك أزيك من قلعة قوطور وكان مقيماً بها فرجع السلطان إليهم وقدم بين يديه الوزير شرف الملك فلقبهم قريباً من تبريز وهزمهم وقبض على الذين تولوا كبر الفتنة منهم ودخل تبريز قصبتهم وقبض على القاضي المعزول فصادمه قوام الدين الخرايي ابن أخت الطغراني وصادره وسار السلطان للقاء التتر وأقام الوزير نائباً للبلاد.

الدين وجوره وتسلط عساكره فانفتحت الملكة معهم وكاتبوا حسام الدين الحاجب النائب عن الأشرف بخلاط فسار إليهم في مغيب السلطان جلال الدين بالعراق واستولى على مدينة خوى وأعمالها وما يجاورها من الحصون وكاتبه أهل نقجوان وسلموها له وعاد إلى خلاط واحتمل الملكة بنت طغرل زوجة جلال الدين إلى خلاط إلى أن كان ما نذكره.

واقعة السلطان مع التتر على أصفهان

ثم بلغ الخبر إلى السلطان بأن التتر زحفوا من بلادهم فيما وراء النهر إلى العراق فسار من تبريز للقاءهم وجرى أربعة آلاف فارس إلى الري والدامغان طليعة فرجعوا وأخبروه بوصولهم إلى أصفهان فنهب للقاءهم واستخلف العساكر على الاستماتة وأمر القاضي بأصفهان باستنفار العامة وبعث التتر عسكراً إلى الري فبعث السلطان عسكراً لاعتراضهم فأوقعوا بالتتر فثالوا منهم ثم التقى الفريقان في رمضان سنة خمس وعشرين لرابعة ووصلهم إلى أصفهان وانتقض عنه أخوه غياث الدين وجهان بهلوان الكجي في طائفة من العسكر وانهمزت مسيرة التتر والسلطان في اتباعهم وكانوا قد أكمنا له فخرجوا من ورائه وثبت واستشهد جماعة من الأمراء وأسر آخرون وفيهم علاء الدولة صاحب يزد.

ثم صدق السلطان عليهم الحملة فأفروا له وسار على وجهه وانهمزت العساكر فبلغوا فارس وكرومان ورجعت ميمنة السلطان من قاشان فوجدوه قد انهزم فتفرقوا أثباتاً وفقد السلطان ثمانية من فرقه وكان بقطابسي مقيماً بأصفهان فاعتزم أهل أصفهان على بيعته ثم وصل السلطان فاقصروا عن ذلك وتراجع بعض العسكر وسار السلطان فيهم إلى الري وكان التتر قد حاصروا أصفهان بعد الهزيمة فلما وصل السلطان خرج معه أهل أصفهان فقاتلوا التتر وهزمهم وسار السلطان في اتباعهم إلى الري وبعث العساكر وراءهم إلى خراسان وعند ابن الأثير أن صاحب بلاد فارس وهو ابن الأتابك سعد الذي ملك بعد أبيه حضر مع السلطان في هذه الواقعة وأن التتر انهزموا أولاً فاتبعهم صاحب فارس حتى إذا أبعدوا انفرد عن العسكر ورجع عنهم فوجد جلال الدين قد انهزم لانحراف أخيه غياث الدين وأمرائه عنه ومضى إلى شهرم تلك الأيام ثم عاد إلى أصفهان كما ذكرناه.

إيقاع نائب خلاط بالوزير

ولما كان ما ذكرناه من مسير حسام الدين نائب خلاط إلى أذربيجان واحتماله زوجة السلطان جلال الدين إلى خلاط امتعض الوزير لذلك فسار إلى موكان من بلاد أران وجمع التركمان وفرق العمال للجباية وطلب الحمل من شروان شاه وهو خمسون ألف دينار فتوقف وأغار على بلاده فلم يظفر بشيء ورجع إلى أذربيجان وكانت بنت الأتابك بهلوان في بقجان فارقتها مولاها إيدغمش وجاء إلى الوزير فأطمعه فيها وصار الوزير مضمرًا الغدر بها وامتنعت عليه ونزل بالمرج فأكرمه وقربته ورحل إلى حورس من أعمالها وكانت للأشرف صاحب خلاط أيام أزيك فاتشرت أيدي العسكر في تلك الضياع وقتلها الوزير وجاء الحاجب صاحب خلاط في عساكره فانهزم الوزير وترك أثقاله وذلك سنة أربع وعشرين وكان مع الحاجب فخر الدين سام صاحب حلب وهشام الدين خضر صاحب تبريزيم وكان الوزير وتكاليفه فظفر الآن بمخلفه وخلص الوزير إلى أران وسار الحاجب علي في اتباعه ثم عاد إلى تبريز ومر بخوي فنهزمها ثم سار إلى بقجان فملكها ثم تدمر كذلك وأقام الوزير بتبريز وكان بها الأتابك أزيك متنسكاً منعه أهل تبريز من الدخول وحملوا إليه الثقة ثم جاء الخبر برجوع السلطان إلى أصفهان بعد الهزيمة كما مر فسار الوزير إلى أذربيجان ولقي ثلاثة من الأمراء جاؤوا مدداً له من عند السلطان وأمره بمحاصر خوي فسار إليها وبها نائب الحاجب حسام الدين صاحب خلاط وهو بدر الدين بن صرهنك والحاجب حسام الدين علي منشهر فنهض إليه الوزير من خوي فتأخر إلى تركري والقبجا هنالك فانهزم الحاجب ودخل تركري فاعتصم بها وحاصره الوزير وطلب الصلح فلم يسعفه ورجع الذين كانوا معه بعساكرهم إلى أذربيجان وأفرج الوزير عن حصار تركري ومر بخوي وقد فارقتها ابن صرهنك إلى قلعة قوطور واستأمن للسلطان من بعد ذلك ودخل الوزير مدينة خوى وصاد أهلها وسار إلى ترمذ ونقجوان ففعل فيهما مثل ذلك وانقطعت إيالة الحاجب صاحب خلاط والله أعلم.

فتوحات الوزير بأذربيجان وأران

ولما تخلف الوزير عن السلطان صرف همهته إلى تهديم البلاد ومداغمة صاحب خلاط وارتجاع البلاد التي ملك من أذربيجان وأران وفتح القلاع العاصية فكان بينه وبين الحاجب حسام الدين صاحب خلاط ما ذكرناه وهو خلال ذلك يستميل أصحاب

القلاع ويقيض فيهم الأموال والخلع حتى أجاب أكثرهم ثم قبض على ناصر الدين محمد من أمراء البهلوانية وكان معتزلاً عند نصرة الدين بن سبكتكين فصادره على مال وتسلم من نائبه قلعة كانت بيده ثم مات نائب السلطان بكنجة أفسقر الأتابكي فنهض إليها وقبض على نائبه شمس الدين كرشاسف وصادره وتسلم منه قلعة هردوجار برد من أعمال أران ثم جهز العساكر لحصار قلعة زونين وبها زوجة السلطان خاموش فأطال حصارها وعرضت عليه نكاحها فأبى ولما رجع السلطان من العراق تزوجها وولى خادمه سعد الدين على القلعة فساء إليها وانتزع أملكها فأخرجوه وعادوا إلى الانتقاض ولما خلاص الوزير من واقعه مع الحاجب نائب خلاط قصد أران فجبى الأموال وجمع واحتشد وقصد قلعة مردانقين وكانت لصهر الوزير ركة الدين فصانعه بأربعة آلاف دينار حملها إليه ثم سار إلى قلعة حاجين وبها جلال الدولة ابن أخت أبواني أمير الكرج فصالحه على عشرين ألف دينار وسبعمئة أسير من المسلمين ثم كانت فتنة البهلوانية فسكنها وسرح الجند عنها وشرح الخبر عنها أن بعض ممالك أتابك أزيك كان قد أفضح في قتل الخوارزمية بأذربيجان عند زحفهم إليها أيام فرارهم من التتر فلما ملك السلطان جلال الدين أذربيجان وعما ملك البهلوانية منها لحق الأمير مقدي هذا بالأشرف بن العادل بن أيوب صاحب الشام وأقام عنده فلما بلغه انهزام الوزير شرف الملك أمام الحاجب حسام الدين نائب الأشرف بخلاط فر من الشام إلى أذربيجان ليقيم مع الأتابكية ومر بالحاجب في خوي فاتبعه وعبر النهر وخاطب من عدوته معتزلاً فرجع عنه ودخل مقدي بلاد قبار وفيها قلاع استولى عليها المنتفضون والعصاة فراسلهم في إقامة الدعوة الأتابكية والبيعية لابن خاموش بن أزيك يستدعونهم من قلعة قوطور واتصل ذلك بالوزير فأقلقه ثم جاء خبر هزيمة السلطان بأصفهان فازداد قلقاً وسار الأمير مقدي إلى نصرة الدين محمد بن سبكتكين يدعوه لذلك فلاطفه في القول وكتب للوزير بالخبر فأجابه بأن يضمن لمقدي ما أحب في مراجعة الطاعة ففعل وجاء به إلى الوزير فأكرمه وخلع عليه وعلى من جاء معه وعاهد على العفو عن دماء الخوارزمية وجاء الخبر برجوع السلطان من أصفهان فارتحل الوزير للقائه ومعه الأمير مقدي وابن سبكتكين وأكرهما السلطان.

أخبار الوزير بخراسان

كان صفى الدين محمد الطغرثي وزيراً بخراسان وأصل خبره أنه كان من قرية كلاجرود وأبوه رئيسها وكان هو حسن الخط

عليها حسام الدين بكتاش مولى سعد أتابك فارس ثم خلف السلطان أثناله بموقان وتجرد لخلاط وعاقه البرد بأرجيش فذهب بعض قلاع وكان عز الدين الخلخالي في كفرطاب قريباً من أرجيش فلهق بخلاط وجهه الحاجب إلى أذربيجان يشغلهم بإثارة الفتنة فيها فلم يتم قصده من ذلك فلهق بجبال زنجان وأقام يخيف السابلة وكتب له السلطان بالأمان ونزل إلى أصفهان فبعث نائبها شرف الدولة برأسه إلى السلطان ثم رجع السلطان من كفرطاب إلى خرت برت فنهبا وخربها ووصله خلال ذلك الخبر بوفاة الخليفة الظاهر منتصف ثلاث وعشرين وولاية ابنه المنتصر وجاء كتابه بأخذ البيعة وأن يبعث إليه بالخلع والله تعالى ولي التوفيق لا رب غيره.

تنكر السلطان للوزير شرف الدين

لما رجعت العساكر إلى موقان وأقام السلطان بخوي شكاً إليه أهلها بكثرة مصادرة الوزير لهم وأطلع على إساءته للملكة بنت طغرل واستصفاه ماها مع براءتها مما نسب إليها ثم جاء إلى تبريز فبلغه عنه أكثر من ذلك وهو بقرية كورتان من أعلاما فافتقد رئيسها وكان يخدمه فقيل: إن الوزير صادره على ألف دينار لمملوكين فلما وصل إلى تبريز حبس من أخذها حتى ردها على صاحبها وأسقط عن أهل تبريز خراج ثلاث سنين وكتب لهم بذلك وكثرت الشناعات على الوزير بما فعله في مغيب السلطان هذا مع ما كان منه في محاربة الإسماعيلية بأن السلطان كاتبه من بغداد بأن يفتش فلول الشام من أجل رسول من عند التتر بعثوه إلى الشام وقصد بذلك معاتبة الخليفة إن عثر على الرسول فمر به فل من الإسماعيلية فقتلهم واستولى على أموالهم فلما عاد السلطان إلى أذربيجان وصله رسول علاء الدين ملك الإسماعيلية يعاتبه على ذلك ويطلب المال فنكر السلطان على الوزير ما فعله ووكل به أميرين حتى رد ما أخذ من أموالهم وكانت ثلاثين ألف دينار وعشرة أفراس فانطوى السلطان للوزير من ذلك كله على سخط وأعرض عن خطابه وكان يكتب فلا يجاب وعجزت تبريز عن علوفة السلطان فأمر بفتح أهراء الوزير والتصرف فيها ورجع السلطان إلى موقان فلم يغير عليه شيئاً ووقع له بتناول عشر الخصاص فكان يأخذ من عشر العراق سبعين ألف دينار في كل سنة والله أعلم.

ورتبة الأطوار ثم لحق بالسلطان في الهند وخدم الوزير شرف الملك فلما عادوا إلى العراق ولاء الطغراء ولما ملك السلطان تغليس من يد الكرج ولى عليها أقستقر عموك الأتابك أزيك وأقام صفى الدين في وزارتها فلما حاصرها الكرج هرب أقستقر وأقام صفى الدين فحاصروه أياماً ثم أفرجوا ووقع ذلك من السلطان أحسن المواقع وولاه وزارة خراسان فأقام بها سنة وضجر منه أهلها فلما جاء السلطان إلى الري وأقام بها كثرت به الشكايات ونكبه السلطان واستصفى أمواله وقبض على مواليه وحاشيته وقيدت خيله إلى مرابط السلطان وكانت ثلثمائة وخلص من مواليه علي الكرمانى إلى قلعة كان حصنها فامتنع بها واستوزر السلطان مكانه تاج الدين البلخي المستوفي وسلم إليه الصفى ليستصفيه ويقلع القلعة من مولاة وشد في امتحانه وكان عدوه فلم يظفر منه بشيء وكان لما نكب طالبة خاتون السلطان باختصار الجواهر وما ساقه لخدمة الوزير وغيره فأحضر أربعة آلاف دينار وسبعين فصاً من ياقوت وبلخش واستأثر الخازن بها لظنه أنه مقول.

ثم كاتب الصفى أرباب الدولة ووعدهم بالأموال فشفعوا فيه وخلصوه وكتب السلطان بخطه بسراحه فجاء واستخلص ماله من الخازن إلا الفصوص فإنه تعذر عليه ردها وولى السلطان على وزارة نسا محمد بن مودود النسوي المعارض من بيت رئاسة بها ورمت به الحادثة إلى غزنة فلما جاء السلطان من الهند ولاء الإنشاء والحبس وعظم أمره وغص به الوزير شرف الملك فلما ورد أحمد بن محمد المنشئ الكاتب رسولاً عن نصرة الدين محمد بن حمزة صاحب نسا كما مر ولاء السلطان الإنشاء فارمض لذلك ضياء الدين وطلب وزارة نسا فولاه السلطان إياها وأقطع له عشرة آلاف دينار في السنة زيادة على أرزاق الوزارة وذهب إليها لإقامة وظيفته واستأناب في ديوان العرض محمد الملك النيسابوري ثم قطع الحمل فعزله السلطان وولى مكانه الكاتب أحمد بن محمد المنشئ وتعرض للسعاية فيه فطرده السلطان وهلك في طرده.

خبر بلبان صاحب خلخال

كان من أتابكية أزيك ولما كانت فتنة التتر وخلاء خراسان واستيلاء السلطان جلال الدين على أذربيجان لحق بمدينة خلخال فاستولى عليها وعلى قلاعها وشغل عنه السلطان بأمر العراق وصاحب خلاط فلما انتصر المسلمون من واقعة التتر بالعراق حاصروه بقلعة فيروز آباد حتى استأمن وملكها السلطان وولى

وصول القفجاق لخدمة السلطان

كان للقفجاق على قديم العهد هوى مع قوم هذا السلطان وأهل بيته وكانوا يصهارون إليهم غالباً بيناتهم ومن أجل ذلك استأصلهم جنكزخان واشتد في طلبهم فلما عاد السلطان من واقعة أصفهان وقد هاله أمر التتر رأى أن يستظهر عليهم بقبائل قفجاق وكان في جلسته سبيرجنكش منهم فبعثه إليهم يدعوهم لذلك ويرغبهم فيه فأجابوا وجاءت قبائلهم أرسالاً وركب البحر كوركان من ملوكهم في ثلثمائة من قرابته ووصل إلى الوزير بموقان فشتى بها ثم جاء السلطان فخلع عليه ورده بوعد جميل في فتح دربند وهو باب الأبواب ثم أرسل السلطان لصاحب دربند وكان طفلاً وأتابكه يلقب بالأسد يدبر أمره فقدم على السلطان فخلع عليه وأقطع له وملكه العمل على أن يفتح له الدربند وجهاز عساكر وأمرأه فلما فصلوا من عنده قبضوا على الأسد وشنوا الغارة على نواحي الباب وأعمل الأسد الحيلة وتخلف من أيديهم وتعذر عليهم ما أرادوه.

استيلاء السلطان على أعمال كستاسفي

كان علم الوزير يشكر أن السلطان أراد أن يتصح له ببعض مذاهب الخدمة فسار في العساكر وعبر نهر أرس فاستولى على أعمال كستاسفي من يد شروان شاه فلما عاد السلطان إلى موقان أقطعها لجلال الدين سلطان شاه بن شروان شاه وكان أسيراً عند الكرج أسلمه أبوه إليهم على أن يزوجه بنت الملك رسودان بنت تاماد فلما فتح السلطان بلاد الكرج استخلصه من الأسر ورباه وبقي عنده وأقطعه الآن كستاسفي وكان أيضاً عند الكرج ابن صاحب أرزن الروم وكان تنصر فزوجه رسودان بنت تاماد فأخرجه السلطان لما فتح بلاد الكرج ثم رجع إلى دندنه ولحق بالكرج فوجد رسودان قد تزوجت.

قدوم شروان شاه

كان السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان لما ملك أراكان أطلق الغارة على بلاد شروان فوجد عليه ملكها أفريدون بن فرتبريز وضمن حمل مائة ألف دينار في السنة فلما ملك السلطان جلال الدين أراكان سنة اثنتين وعشرين ومستمائة طلب شروان شاه أفريدون بالحمل فاعتل بتغلب الكرج وضعف البلاد فأسقط عنه نصف الحمل فلما عاد الآن قدم عليه شروان شاه وأهدى له

خمسائة فرس وللوزير خمسين فاستقلها وأشار على السلطان بحبسه فلم يقبل إشارته ورده بالخلع والتشريف وأسقط عنه من الحمل عشرين ألفاً بقي ثلاثون: قال النسائي الكاتب: وأعطاني في التوقيع ألف دينار والله تعالى أعلم.

مسير السلطان إلى بلاد الكرج وحصاره قلاع بهرام

لما كان السلطان مقيماً بموقان منصرفه من أذربيجان بعث عساكره مع إيلك خان فأغار على بلاد الكرج واكتسحها ومر ببجيرة بتاج فكبسه الكرج وأوقعوا به وفقد أريطاني وامتعض السلطان لما وقع بعسكره وارتحل لوقته وقد جمع له الكرج فهزمت مقدمتهم وجيء بالأسرى منهم فقتلهم وسار في اتباعهم ونازل كوري وطالبهم بإطلاق أسرى البحيرة فأطلقهم وأخبر أن أريطاني خلص تلك الليلة إلى أذربيجان ثم وجده السلطان في نقجوان ثم سار إلى بهران الكرجي وقد كان أغار على نواحي كنتجة فمات في أعماله وحاصر قلعة سكان ففتحتها عنوة وكذلك قلعة كاك وبعث الوزير لحصار كوزاني فحاصرها ثلاثة أشهر حتى طلبوا الصلح على مال حملوه فرحل عنهم إلى خلاط والله أعلم.

مسير السلطان إلى خلاط وحصارها

ولما فرغ السلطان من شأن الكرج قدم أنقاله إلى خلاط على طريق قاقروان وسار هو إلى نقجوان وصبح الكرج واستاق مواشيهم ثم أقام أياماً وقضى أشغال أهل خراسان والعراق ليفرغ لحصار خلاط قال النسائي الكاتب: وحصل لي منهم تلك الأيام ألف دينار ثم ارتحل إلى خلاط ولحق بعساكره ولقيه رسول من عز الدين أليك نائب الأشرف بخلاط وقد كان الأشرف بعثه وأمره بالقبض على نائبها حسام الدين علي بن حماد فقبض عليه ثم قتله غيلة وبعث إلى السلطان يستخدم إليه بذلك وأن سلطانه الأشرف أمره بطاعة السلطان جلال الدين وبالغ في الملاطفة فأبى السلطان إلا إمضاء ما عزم عليه وقال إن كان هذا حقاً فابعث إلي بالحاجب فلما سمع هذا الجواب قتله وسار السلطان إلى خلاط ونزل عليها بعد عيد الفطر من سنة ست وعشرين.

وجاءه ركن الدين جهان بن طغرل صاحب أرزن الروم فكان معه وحاصرها ونصب عليها المجانيق وأخذ بمخقتها حتى فر أهلها عنها من الجوع وتفرقوا في البلاد ثم داخله بعض أهلها في

الحوادث أيام حصار خلاط

منها وفادة نصر الدين أصبهني صاحب الجبل مع أرخا من أمراء السلطان يصهره على أخيه قبض السلطان عليه إلى أن عاد من بلاد الروم منهزماً فأقطعه وأعادته إلى بلاده ومنها رسالة أخت السلطان وكانت عند دوشي خان أخذها من العيال الذين جاؤوا معه وتركمان خاتون من خوارزم وأولدها وكانت تكتتب أخاها بالأخبار فبعثت إليه الآن في الصلح مع خاقان والمصاهرة وأن يسلم له فيما وراء جيحون فلم يجيبها ومنها وفادة ركن الدين شاه بن طغرل صاحب أرزن الروم وكان في طاعة الأشرف ومظاهراً للحاجب نائب خلاط على عداوة السلطان منافرة لابن عمه علاء الدين كيقباد بن كنخسرو صاحب الروم وكان قتل رسول السلطان منقلباً من الروم ومنع الميرة عن العسكر فلما طال حصار السلطان بخلاط استأمن وقدم عليه السلطان فاحتفل لقدمه وأركب الوزير للقائه ثم خلع عليه ورده إلى بلاده واستدعى منه آلات الحصار فبعث بها ثم حضر بعد ذلك واقعة الأشرف مع السلطان كما مر.

ومنها وصول سعد الدين الحاجب برسالة الخليفة إلى السلطان بالخطبة في أعمالها وأن لا يتعرض لمظفر الدين كوكبرون صاحب إربل ولا للولد صاحب الموصل ولا لشهاب الدين سليمان شاه ملك ولا لعماد الدين بهلوان بن هراست ملك الجبال ويعدهم في أولياء الديوان فامثل مراسله وبعث نائب العراق شرف الدين علي بأن ملك العراق لا يتم إلا بطاعة ملك الجبال عماد الدين بهلوان وملك سليمان شاه فبعث إليهما السلطان من لطفهما حتى كانت طاعتهما اختياراً منهما.

وبعث السلطان الحاجب بدر الدين طوطو بن أنبايخ خان فأحسن في تأدية رسالته وجاء بهدية حافلة من عند الخليفة خلعتان للسلطان إحداهما جبة وعمامة وسيف هندي مرصع الحلية والأخرى قنع وكمة وفرجية وسيف محلي بالذهب وقلادة مرصعة ثمينة وفرسان رائعان بعدتين كاملتين ونعال لكل واحدة من أربعمئة دينار وترس ذهب مرصع بالجواهر وفيه أحد وأربعون فصاً من الياقوت وبندهستاني في وسطه فيروزجبة كبيرة وثلاثون فرساً عربية مجللة بالأطلس الرومي المبطن بالأطلس البغدادي بمقاود الحرير ونعال الذهب لكل واحدة منها ستون ديناراً وعشرون مملوكاً بالعدة والمركوب وعشرة فهود بجلال الأطلس وقلاند الذهب وعشرة صقور بالأكماس المكلفة ومائة وخمسون بقجة في كل واحدة عشرة ثياب وخمس أكر من العنبر مضلعة

أن يمكنهم من بقيتها على أن يؤمنوه ويقطعوه في أذربيجان فأقطعه السلطان سلباس وعدة ضياع هنالك وأصعد الرجال ليلاً إلى الأسوار فقاتلوا الجند بالمدينة وهزمهم وملكوها وأسروا من كان بها وأسروا النصاري وأسد بن عبد الله وتحصن النائب عز الدين أيبك بالقلعة فأمنه وحسبه بقلعة درقان فلما وقعت المراسلة في الصلح قفل لثلاثا يشترط وقال ابن الاثير: إن مولى من موالي حسام الدين كان هرب إلى السلطان فلما ملك خلاط طلب أن يثار منه بمولاه فدفعه إليه وقتله ونهب البلد ثلاثاً وسرح السلطان صاحب أرزن وهرب القمهري من محسبه فقتل أسد بن عبد الله المهراني بجزيرته وأقطع السلطان خلاط للأمراء وعاد والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة السلطان جلال الدين مع الأشرف

وكيقباد وانهزاه أمامهما

ولما استولى السلطان جلال الدين على خلاط تجهز الأشرف من دمشق وقد كان ملكها وسار لقتال السلطان جلال الدين في عساكر الجزيرة والشام وذلك في سنة تسع وعشرين ولقيه علاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم على سراس وكان كيقباد قد خشي من اتصال جهان شاه ابن عمه طغرل صاحب أرزن الروم بالسلطان جلال الدين لما بينهما من العداوة فثار الأشرف وكيقباد من سراس وفي مقدمة الأشرف عز الدين عمر بن علي من أمراء حلب من الأكراد الهكارية وله صيت في الشجاعة وجاء السلطان علاء الدين للقائهم فلما تراءى الجمعان حمل عز الدين صاحب المقدمة عليهم فهزمهم وعاد السلطان إلى خلاط.

وكان الوزير على ملاذكرد يحاصرها فلحق به وأرغلوا جميعاً إلى أذربيجان وأسروا ركن الدين جهان شاه بن طغرل وجيء به إلى ابن عمه علاء الدين كيقباد فجاء به إلى أرزن فسلمها وسائر أعمالها ووصل الأشرف إلى خلاط فوجدها خاوية ولما رجع السلطان إلى أذربيجان ترك العساكر مع الوزير سكرمان وأقام بخوري وخلص الترك في الهزيمة إلى موغان وتردد شمس الدين التكريتي رسول الأشرف بينه وبين السلطان جلال الدين في الصلح بينهم ودخل فيه علاء الدين صاحب الروم واتفق بينهم جميعاً وسلم لهم السلطان سر من رأى مع خلاط والله تعالى أعلم.

عود السلطان من بلاد الروم وزحف السلطان إلى أذربيجان فحال قدر الله بينه وبين مرأهه وقتل هناك سنة ثمان وعشرين.

وصول التتر إلى أذربيجان

كان التتر عندما ملكوا ما وراء النهر وزحفوا إلى خراسان فضعفوا ملك بني خوارزم شاه وانتهوا إلى قاصية البلاد وخربوا ما مروا عليه واكتسحوا ونهبوا وقتلوا ثم استقر ملكهم بما وراء النهر وعمروا تلك البلاد واختطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوض منها وبقيت خراسان خالية واستبد بالمدن فيها أمراء شبه الملوك يعطون الطاعة للسلطان جلال الدين لما جاء من الهند وانفرد جلال الدين بملك العراق وفارس وكرمان وأذربيجان وأران وما وراء ذلك وبقيت خراسان بجمالات لغارات التتر وحروبهم ثم سارت طائفة منهم سنة خمس وعشرين فكان بينهم وبين جلال الدين لما جاء من الهند المواقعة على أصفهان كما مر ثم كان بين جلال الدين وبين الأشرف صاحب الشام وعلاء الدين كيقباد صاحب الروم المواقعة سنة سبع وعشرين كما مر وأوهنت من جلال الدين وحلت عرى ملكه.

وكان علاء الدين مقدم الإسماعيلية في قلعة الموت فعاد جلال الدين لما أثنى في بلاده وقرر عليه وظائف الأموال فبعث إلى التتر يخبرهم بالهزيمة الكائنة عليه وأنها أوهنته ويخبرهم على قصده فساروا إلى أذربيجان أول سنة ثمان وعشرين وبلغ الخبر إلى السلطان بمسيرهم فبعث بوغر من أمرائه طليعة لاستكشاف خبرهم فلقى مقدمتهم فانهزم ولم ينسج من أصحابه غيره وجاء بالخبر فرحل من تبريز إلى موغان وخلف عياله بتبريز لنظر الوزير وأعجله الحال عن أن يعيهم إلى بعض الحصون.

ثم ورد كتاب من حدود زنجان بأن المقدمة التي لقيها بوغر باهر أقاموا بمرج الحان وأنهم سبعائة فارس فظن السلطان أنهم لا يجاوزونها فسرى عنه ورحل إلى موغان فأقام بها وبعث في أحشاد العساكر الأمازيغين بغان شحنة خراسان وأوسمان بهلوان شحنة مازندران وشغل بالصيد وبينما هو كذلك كبسه التتر بمكانه ونهبوا معسكره وخلص إلى نهر أوس.

ثم ورى بقصد كنجة وعطف إلى أذربيجان فتكرر لماهان وكان عز الدين صاحب قلعة شاهن غاضبا منذ سنين لإغارة الوزير على بلده فلما نزل السلطان ماهان كان يخدمه بالميرة وباخبار التتر ثم أنذره آخر الشتاء بمسير التتر إليه من أرجان وأشار عليه بالعود إلى أران لكثرة ما فيها من العساكر وأجناد

بالذهب وشجرة من العود الهندي طولها خمسة أذرع وأربع عشرة خلعة نسوانية للخانات من خوالص الذهب وكنائس للخليل تغليسية.

وللأمراء ثلثمائة خلعة لكل أمير خلعة قباء وكمة وللوزير عمامة سوداء وقباء وفرجية وسيف هندي وأكثران من العنبر وخمسون ثوبا وبغلة ولأصحاب الديوان عشرون خلعة في كل خلعة جبة وعمامة وعشرون ثوبا أكثرها أطلس رومي وبغداددي وعشرون بغلة شهباء ورفعت للسلطان خباء فدخلها ولبس الخلعتين وشفع الرسول في أهل خلاط فاعتذر له السلطان.

ومنها وصول هدية من صاحب الروم ثلاثون بغلاً مجللة بثياب الأطلس الخطائي وفرو القندسي والسمور وثلاثون مملوكاً بالخيول والعدة ومائة فرس وخمسون بغلاً ولما مروا بأذربيجان اعترضهم ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب أرزن وكان في طاعة الأشرف فأمسك الهدية عنده إلى أن وفد على السلطان بطاعته فأحضرها.

ومنها أسار وزير المورخا جاء إلى الجبل المطل على قزوین لحصاد الخشيش على عادته وكان السلطان قد تغير على علاء الدين صاحبهم بسبب أخيه غياث الدين ولحاقه بهم في الموت فسار مقطع سارة إلى ذلك الجبل وأكمن لهم الوزير وبعث به إلى السلطان وهو يحاصر خلاط فحبسه بقلعة رزمان وهلك لأشهر قلائل ثم بعث السلطان كاتبه محمد بن أحمد النسائي إلى علاء الدين صاحب قلعة الموت يطلب الخوارج وطلب الخطبة فامتنع منها أولاً واحتج عليه بأن أباه جلال الدين الحسن خطب لخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكتش والد السلطان فأنكر والتزم أن يبعث إلى الديوان مائة ألف في كل سنة.

وصول جهان بهلوان أزيك من الهند

كان السلطان لما فصل من الهند بقصد العراق واستخلف على البلاد التي ملكها هنالك جهان بهلوان أزيك فأقام هنالك إلى أن قصده عسكر شمس الدين أيتماش صاحب لهاوون ففارق مكانه وسار إلى بلاد قشمر فزاحموه وطردوه عن البلاد فقصد العراق وتخلف عنه أصحابه وعادوا إلى أيتماش وفيهم الحسن برلق الملقب رجاملك وكاتب جهان عليها ملك العراق بوصوله في سبعائة فارس فأجاب الحسن رأي السلطان فيه وبعث إليه بعشرة آلاف دينار للنفقة ووصل توقيع السلطان بأن تحمل إليه عشرون ألفاً وأن يشي بالغراق يستريح بها من التعب فصادف

فبعث به. وكان الوزير مكرماً للعلماء والأدباء مواصلاً لهم كثير الخشية والبكاء متواضعاً منبسطاً في العطاء حتى استغرق أموال الديوان لولا أن السلطان جذب من عتائه وكان فصيحاً في لغة الترك وكانت عمالته على التواقيع السلطانية: "الحمد لله العظيم" وعلى التواقيع الديوانية: "يعتمد ذلك" وعلى توقيعه إلى بلاده: "أبو المكارم علي بن أبي القاسم خالصة أمير المؤمنين".

ارتجاع السلطان كنجة

لما ثار أهل كنجة بالخوارزمية كان القائم بأمرهم رجل منهم اسمه بندار وبعث السلطان إليهم رسوله يدعوهم إلى الطاعة فوصلوا قريباً منه وأقاموا وخرج إليهم الرئيس جمال الدين القمي بأولاده وامتنع الباقون ثم وصل السلطان وردد إليهم فلم تغن وبرزوا بعض الأيام للقتال ورموا على خيمته فركب وحمل عليهم فانهزموا وازدحموا في الباب فمتنعهم الزحام من إغلاقه فاقترحم السلطان المدينة وقبض على ثلاثين من أهل الفتنة فقتلهم وجيء ببندار وكان بالغا في الفساد وكسر سرير الملك الذي نصبه بها محمد بن ملك شاه فمشل به وفصل أعضائه بين يديه وأقام السلطان بكنجة نحواً من شهر ثم سار إلى خلاط مستمداً للأشرف فارتحل الأشرف إلى مصر وعلل بالمواعيد ووصل السلطان في وجهته إلى قلعة شمس وبها أراك بن إيوان الكرجي فخرج وقبل الأرض على البعد ثم بعث إلى السلطان ما أمر به وبعث السلطان إلى جيرانه من الملوك مثل صاحب حلب وآمد وماردين يستجدهم بعد يأسه من الأشرف وجرد عسكرياً إلى خرت برت وملطية وأذربيجان فأغاروا في تلك النواحي واستاقوا نعمها لما بين ملكها كيقباد وبين الأشرف من الموالاة فاستوحش جميعهم من ذلك وقعدوا عن نصرته والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة التتر على السلطان بآمد ومهلكه

كان السلطان بلغه وهو بخلاط أن التتر ساروا إليه فبعث السلطان الأمير أترخان في أربعة آلاف فارس طليعة فرجع وأخبر أن التتر رجعوا من حدود ملاذكرد وكان الأمراء أشاروا على السلطان الانتقال بديار بكر وينجرون إلى أصفهان ثم جاءه رسول صاحب آمد وزين له قصد الروم وأطعمه في الاستيلاء عليها ليتصل بالقفجاق ويستظهر بهم على التتر وأنه يمدّه بنفسه في أربعة آلاف فارس وكان صاحب آمد يروم الانتقام من صاحب الروم بما ملك من قلاعهم فجنح السلطان إلى كلامه وعدل عن أصفهان

التركان متحصنين بها فلما فارقتها وكان الوزير فوق بيوت السلطان وخزائنه في قلاع حسام الدين منهم: أرسلان كبير أمراء التركمان بأران وكان قد عمر هنالك قلعة سنك سراخ من أحصن القلاع فأنزل عياله بها وكان مستوحشاً من السلطان فجاهر بالعصيان.

وكانت وحشته من السلطان لأموالها: تبذير أمواله في العطاء والنفقة، ومنها: أنه ظن أن السلطان مجفل إلى الهند فكاتب الأشرف صاحب الشام وكيقباد صاحب الروم فوعدهم من نفسه الطاعة وهما عدوا السلطان ومنها: أنه كاتب قليج أرسلان التركماني فأمره بحفظ حرم السلطان وخزائنه ولا يسلمها إليه وبعث في الكتاب له والكباس قبله ليغزو الروم فلما مر السلطان بقلعته بعث إليه يستدعيه فوصل وحمل كفته في يده فلاطفه السلطان وكأيدته فظنها خالصة فاطمان والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء التتر على تبريز وكنجة

ولما أجفل السلطان بعد الكيسة من موقان إلى أران بلغ الخبر إلى أهل تبريز فثاروا بالخوارزمية وأرادوا قتلهم ووافقهم بهاء الدين محمد بن بشير فأربك الوزير بعد الطغراني وكان الطغراني رئيس البلد كما مر فمتنعهم من ذلك وعدوا على واحد من الخوارزمية وقتلوه فقتل به اثنين من العامة واجتهد في تحصين تبريز وحراستها وشحنها بالرجال ولم تنقطع كتبه عن السلطان ثم هلك فسلمها العوام إلى التتر ثم ثار أهل كنجة وسلموا بلدهم للتتر وكذا أهل بيلغازه والله أعلم.

نكبة الوزير ومقتله

لما وصل السلطان إلى قلعة جابررد بلغه استيحاء الوزير وخشي أن يفر إلى بعض الجهات فركب إلى القلعة مورياً بالنظر في أحوالها والوزير معه وأسر إلى والي القلعة أن يمسك الوزير ويقيده هنالك ففعل ونزل السلطان فجمع عماليك الوزير وكبيرهم الناصر قشتمر وضمهم إلى أوترخان ثم نسي إلى والي القلعة أن السلطان مستبدل منه فاستوحش وبعث بخاتم الوزير إلى قشتمر كبير المماليك يقول: نحن وصاحبكم متوازرون فمن أحب خدمته فليات القلعة فسقط في يد السلطان وكان ابن الوالي في جملة وحاشيته فأمره السلطان أن يكاتب أباه ويعاتبه ففعل وأجابه بالتوصل من ذلك فقال له السلطان: فليبعث إلي برأس الوزير

ولما وصل من الهند كاتبه الخليفة الجنب الرفيع الخافاني فطلب الخطاب بالسلطان فأجيب بأنه لم تجر به عادة مع أكابر الملوك فالح في ذلك حين حمل له الخلع فخطب بالجنب العالي الشاهنشاهي ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميفارقين وسائر ديار بكر فاكسحوها وخربوها وملكروا مدينة اسعرد عنوة فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام ومروا بماردين فامتعت ثم وصلوا إلى نصيبين فاكسحوا نواحيها ثم إلى سنجار وجبالها والخابور ثم ساروا إلى تدليس فأحرقوها ثم إلى أعمال خلاط فاستباحوا بأكري وارنجيس.

وجاءت طائفة أخرى من أذربيجان إلى أعمال إربل ومروا في طريقهم بالتركان الأمومية والأكراد الخوزقان فنهروا وقتلوا وخرج مظفر الدين صاحب إربل بعد أن استمد صاحب الموصل فلم يدرهم وعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وافترق عسكر جلال الدين منكبرس وساروا إلى كيقباد ملك الروم فأنهتهم في ديوانه واستخدمهم ثم هلك سنة أربع وثلاثين وولي ابنه غياث الدين كنخرو فارتاب بهم وقبض على كبيرهم وفر الباقون واكسحوا ما مروا به وأقاموا مستبدين بأطراف البلاد ثم استعالمهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وكان نائباً لأبيه بالبلاد الشرقية حران وكيفا وآمد واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له كما يأتي في أخباره واللّه سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله.

الخبر عن دولة بني تش بن ألب أرسلان

ببلاد الشام دمشق وحلب وأعمالهما

وكيف تناوبوا فيها القيام بالدعوة العباسية

والدعوة العلوية حين انقراض أمرهم

قد تقدم لنا استيلاء السلجوقية على الشام لأول دولتهم وكيف سار آتسز بن ارتق الخوارزمي من أمراء السلطان ملك شاه إلى فلسطين ففتح الرملة وبيت المقدس وأقام فيهما الدعوة العباسية ومحا الدعوة العلوية ثم حاصر دمشق وذلك سنة ثلاث وستين وأربعمائة ثم أقام يردد الحصار على دمشق حتى ملكها سنة ثمان وستين وسار إلى مصر سنة تسع وستين وحاصروها وعاد عنها وولي السلطان ملك شاه بعد أبيه ألب أرسلان سنة خمس وستين فأقطع أخاه تش بلاد الشام وما يفتح من تلك

إلى آمد فنزل بها وبعث إليه التركمان بالندير وأنهم رأوا نيران التتر بالمنزل الذي كانوا به أمس فاتهم خبرهم وصبحه التتر على آمد وأحاطوا بجيمنتهم قبل أن يركب فحمل عليهم أوترخان حتى كشفهم عن الحركات.

وركب السلطان وركض وأسلم زوجته بنت الأتابك سعد إلى أميرين يميلانها إلى حيث تنتهي الحفلة ثم رد أوترخان والعساكر عنه ليتوارى بانفراده عن عين العدو وسار أوترخان في أربعة آلاف فارس فخلص إلى أصفهان واستولى عليها إلى أن ملكها التتر عليه سنة تسعة وثلاثين وذهب السلطان مستخفياً إلى باشورة آمد والناس يظنون أن عسكره غدروا به فوقفوا يردونهم فذهب إلى حدود الدربندات وقد ملئت المضايق بالمفسدين فأشار عليه أوترخان بالرجوع فرجع وانتهى إلى قرية من قرى ميفارقين فنزل في بيدرها وفارقه أوترخان إلى شهاب الدين غازي صاحب حلب لمكاتبات كانت بينهما فحبسه.

ثم طلبه الكامل فبعث إليه محبوساً ثم سقط من سطح فمات وهجم التتر على السلطان بالبيدر فهرب وقتل الذين كانوا معه وأخبر التتر أنه السلطان فاتبعوه وأدركه اثنان منهم فقتلها وشس منه الباقون فرجعوا عنه وصعد جبل الأكراد فوجدهم مترصدين في الطرق للنهب فسلبوه وهما يقتله وأسر إلى بعضهم أنه السلطان فمضى به إلى بيته ليخلصه إلى بعض النواحي ودخل البيت في غيبه بعض سفلتهم ويده حربة وهو يطلب الشار من الخوارزمية بأخ له قتل بخلاط فقتله ولم يغن عنه البيت وكانت الواقعة منتصف شوال سنة ثمان وعشرين هذه سياقة الخبر من كتاب النسائي كاتب السلطان جلال الدين وأما ابن الأثير فذكر الواقعة وأنه فقد فيها ويقوا أياما في انتظار خبره ولم يذكر مقتله وانتهى به التأليف ولم يزد على ذلك.

قال النسائي: وكان السلطان جلال الدين أسمر قصيراً تركباً شجاعاً حليماً وقوراً لا يضحك إلا تبسماً ولا يكسر الكلام مؤثراً للعدل إلا أنه مغلوب من أجل الفتنة وكان يكتب للخليفة والوحشة قائمة بينهما كما كان أبوه يكتب خادمه المطواع فلان فلما بعث إليه بالخلع عن خلاط كما مر كتب إليه عبده فلان والخطاب بعد ذلك سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وإمام المسلمين وخليفة رب العالمين قدوة المشرق والمغرب المنيف على الذروة العليا ابن لؤي بن غالب ويكتب للملك الروم ومصر والشام السلطان فلان بن فلان ليس معها أخوة ولا محبة وعلامته على تواقيعه: النصر من الله وحده وعلامته لصاحب الموصل بأحسن خط وشق القلم شقين ليغلظ.

فلما تقاربوا نزع أقتسر وبوزان إلى بركيارق.

وعاد تش منهزماً إلى الشام وجمع العساكر واستوعب في الحشد وسار إلى أقتسر في حلب فبرز إليه ومعه بوزان صاحب الرها وكربوقا الذي ملك الموصل فيما بعد ولقيهم تش على ستة فراسخ من حلب فانهزموا وحيء بأقتسر أسيراً فقتله صبراً ولحق كربوقا وبوزان بحلب فحاصرها تش وملكها وأخذهما أسيرين وبعث إلى حران والرها في الطاعة فامتنعوا فقتل بوزان وملكهما وحبس كربوقا بجمص ثم سار إلى الجزيرة فملكها جميعاً ثم إلى ديار بكر وخلاط ثم أذربيجان ثم همدان وبعث إلى بغداد في الخطبة وكان بركيارق يومئذ بنصيبين فعبر دجلة إلى أربل ثم منها إلى بلد سرخاب بن بدر وسار الأمير يعقوب بن أرتق من عسكر تش فكسبه وهزمه ونجا إلى أصفهان فكان من خبره ما تقدم وبعث تش يوسف بن أرتق الترمكاني شحنة إلى بغداد فمنع منها فعاث في نواحيها ثم بلغه مهلك تش فعاد إلى حلب وهذه الأخبار كلها قد تقدمت في أول دولة السلجوقية وإنما ذكرناها هنا توطئة لدولة بني تش بدمشق وحلب والله أعلم.

مقتل تش

ولما انهزم بركيارق أمام عمه تش لحق بأصفهان وبها محمود وأهل دولته فأدخلوه وتشاوروا في قتله ثم أبوه إلى إسلال محمود من مرضه فقدر هلاك محمود وبايعوا لبركيارق فبادر إلى أصفهان وقدم أميراً آخر بين يديه لإعداد الزاد والعلوفة وسار هو إلى أصفهان ورجع تش إلى الري وأرسل إلى الأمراء بأصفهان يدعوهم ويرغبهم فأجابوه باستيلاء أمر بركيارق ثم أبل بركيارق من مرضه وسار في العساكر إلى الري فانهزم تش وانهزم عسكره وثبت هو فقتله بعض أصحاب أقتسر بثار صاحبه واستقام الأمر لبركيارق والله تعالى أعلم.

استيلاء رضوان بن تش علي حلب

كان تش لما انفصل من حلب استخلف عليها أبا القاسم الحسن بن علي الخوارزمي وأمكته من القلعة ثم أوصى أصحابه قبل المصاف بطاعة ابنه رضوان وكتب إليه بالسير إلى بغداد ونزول دار السلطنة فسار لذلك وسار معه أبو الغازي بن أرتق وكان أبوه تش تركه عنده وسار معه ومعه محمد بن صالح بن مرداس وغيرهما وبلغه مقتل أبيه عند هيت فعاد إلى حلب ومعه الأميران

النواحي سنة سبعين وأربعمائة فسار إلى حلب وحاصرها وكان أمير الجيوش بدر الجمالي قد بعث العساكر لحصار دمشق وبها أنسز فبعث بالصريرخ إلى تاج الدولة تش فسار لنصرته وأجفلت عساكر مصر وخرج أنسز لتلقيه فتعلل عليه ببطنه عن تلقيه وقتله واستولى على دمشق وقد تقدم ذلك كله.

ثم استولى سليمان بن قطلمش على أنطاكية وقتل مسلم بن قريش وسار إلى حلب فملكها وسمع بذلك تش فسار إليها واقتلا سنة تسع وسبعين وقتل سليمان بن قطلمش في الحرب وسار السلطان ملك شاه إلى حلب فملكها وولى عليها قسيم الدولة أقتسر جد نور الدين العادل ثم جاء السلطان إلى بغداد سنة أربع وثمانين وسار إليه أخوه تاج الدين تش من دمشق وقسيم الدولة أقتسر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها وحضروا معه صنع المولد النبوي ببغداد فلما وعدوه العود إلى بلادهم أمر قسيم الدولة وبوزان بأن يسيرا بعسكرهما مع تاج الدولة تش لفتح البلاد بساحل الشام وفتح مصر من يد المستنصر العلوي وعو الدولة العلوية منها فساروا لذلك.

وملك تش حمص من يد ابن ملاعب وغزة عنوة وأماسية من يد خادم العلوي بالأمان وحاصر طرابلس وبها جلال الدين بن عمار فداخل قسيم الدولة أقتسر وصانعه بالمال في أن يشفع له عند تش فلم يشفعه فرحل مغاضباً وأجفلوا إلى جبلة وانتقض أمرهم وهلك السلطان ملك شاه سنة خمس وثمانين ببغداد وقد كان سار إلى بغداد وسار تش أخوه من دمشق للقاءه ويلقه في طريقه خبر وفاته وتنازع ولده محمود وبركيارق الملك فاعتزم على طلب الأمر لنفسه ورجع إلى دمشق فجمع العساكر وقسم العطاء وسار إلى حلب فأعطاه أقتسر الطاعة لصغر أولاده ملك شاه والتنازع الذي بينهم وحمل صاحب أنطاكية وبوزان صاحب الرها وحران على طاعته.

وساروا جميعاً في محرم سنة ست وثمانين فحاصروا الرجة وملكوها وخطب فيها تش لنفسه ثم ملك نصيبين عنوة واستباحها وأقطعها محمد بن مسلم بن قريش ثم سار إلى الموصل وبها إبراهيم بن قريش بن بدران وبعث إليه في الخطبة على منابره فامتنع وبرز للقاءه في ثلاثين ألفاً وكان تش في عشرة آلاف والتقوا بالمضيق من نواحي الموصل فانهزم إبراهيم وقتل واستبيحت أحياء العرب وقتل أمراؤهم وأرسل إلى بغداد في طلب الخطبة فلم يسعف إلا بالوعد ثم سار إلى ديار بكر فملكها في ربيع الآخر وسار منه إلى أذربيجان وكان بركيارق بن ملك شاه قد استولى على الري وهمذان وكثير من بلاد الجبل فسار في العساكر لمداfectه

ثم لحق بأبيه وحضر معه الواقعة التي قتل فيها ولما قتل تشش أبوه سار به مولاه تكين إلى حلب فأقام عند أخيه رضوان وكان بقلعة من قلاعها ساوتكين الخادم من موالي تشش ولاء عليها قبل موته فبعث إلى دقاق يستدعيه للملك فسار إليه وبعث رضوان في طلبه فلم يدركه ووصل دمشق وكتب إليه باغيسيان صاحب أنطاكية يشير عليه بالاستبداد بدمشق على أخيه رضوان ووصل معتمد الدولة طغتكين مع جماعة من خواص تشش وكان قد حضر المعركة وأسر فخلص الآن من الأسار وجاء إلى دمشق فلقبه دقاق ومال إليه وحكمه في أمره ودخله في مثل ساوتكين الخادم فقتلوه ووفد عليهم باغيسيان من أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي فأكرمهما واستوزر الخوارزمي وحكمه في دولته.

الفتنة بين دقاق وأخيه رضوان

ثم سار رضوان إلى دمشق سنة تسعين وأربعمائة قاصداً انتزاعها من يد دقاق فامتنت عليه فعاد إلى مالس وقصد السورس فامتنت عليه فعاد إلى حلب وفارقه باغيسيان صاحب أنطاكية إلى أخيه دقاق وحض على المسير إلى أخيه محلب فسار لذلك واستجد رضوان سكران من سروج في أمم من التركمان ثم كان اللقاء بقنسرين فانهزمت عساكر دقاق ونهب سوادهم وعاد رضوان إلى حلب ثم سعى بينهما في الصلح على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل دقاق فانهقد ذلك بينهما ثم لحق جناح الدولة بمحص عندما عظمت فيه سعاية 'الجن' كما ذكرناه وكان باغيسيان منافراً له فلما فصل من حلب جاء باغيسيان إلى رضوان وصالحه ثم بعث إلى رضوان المستعلي خليفة العلويين بمصر يعده بالإمداد على أخيه على أن يخطب له على منابره وزين له بعض أصحابه صحة مذهبهم فخطب له في جميع أعماله سوى أنطاكية والمرة وقلعة حلب ثم وفد عليه بعد شهرين من هذه الخطبة سكران بن أرتق صاحب سروج وباغيسيان صاحب أنطاكية فلم يبق بها غير ثلاث حتى وصل الفرنج فحاصروه وغلبوه على أنطاكية وقتلوه كما مر في خبره.

استيلاء دقاق على الرحبة

كانت الرحبة يد كربوقا صاحب الموصل فلما قتل كما مر في خبره استولى عليها قائم من موالي السلطان ألب أرسلان فسار دقاق بن تشش ملك دمشق وأتابكه طغركين إليها سنة خمس وتسعين وحاصروها فامتنت عليهم فعادوا عنها وتوفي قائم

الصغيران أبو طالب وبهرام وأمه وزوجها جناح الدولة الحسن بن أفتكين ولحق بهم من المعركة فلما انتهوا إلى حلب امتنع أبو القاسم بالقلعة ومعه جماعة من المغاربة وهم أكثر جندها فاستمالهم جناح الدولة فثاروا بالقلعة من الليل ونادوا بشعار الملك رضوان واحتاطوا على أبي القاسم فبعث إليه رضوان بالأمان وخطب له على منابر حلب وأعمالها وقام بتدبير دولته جناح الدولة وأحسن السيرة.

وخالف عليهم الأمير باغيسيان بن محمد بن أبيه التركماني صاحب أنطاكية ثم أطاع وأشار على رضوان بقصد ديار بكر وسار معه لذلك وجاءهم أمراء الأطراف الذين كان تشش رأسهم فيها وقصدوا سروج فسبقهم إليها سلمان بن أرتق وملكها فساروا إلى الرها وبها الفارقليط من الروم كان يضمن البلاد من بوزان فتحصن بالقلعة ودافعهم ثم غلبوه عليها وملكها رضوان وطلبها منه باغيسيان وخشي جناح الدولة على نفسه فلحق محلب ورجع رضوان والأمراء على أثره فسار باغيسيان فأقطعها له ثم سار إلى حران وأميرها قراجا فسدس إليهم بعض أهلها بالطاعة واتهم قراجا بذلك ابن المعني من أعيانها كان تشش يعتمد عليه في حفظ البلد فقتله وقتل بني أخيه ثم فسد ما بين جناح الدولة وباغيسيان وخشي جناح الدولة على نفسه فلحق محلب ورجع رضوان والأمراء على أثره فسار باغيسيان إلى بلده أنطاكية وسار معه أبو القاسم الخوارزمي ودخل رضوان إلى حلب دار ملكه وكان من أهل دولته يوسف بن أرتق الخوارزمي الذي بعث تشش إلى بغداد شحنة وكان من الفتيان محلب وكان متبوعاً وكان يعادي يوسف بن أرتق فجاء إلى جناح الدولة القائم بأمر رضوان ورمى يوسف بن أرتق عنده بأنه يكاتب باغيسيان ويدخله في الثورة واستأذنه في قتله فأذن له وأمده بجماعة من الجند وكبس يوسف في داره فقتله ونهب فيها واستطال على الدولة وطمع في الاستبداد على رضوان وفسد لجناح الدولة أن رضوان أمره بقتله فهرب إلى حصص وكانت أقطاعاً له واستبد على رضوان ثم تنكر له رضوان سنة تسع وثمانين وأمر بالقبض عليه فاخفى ونهبت دوره وأمواله ودوابه ثم قبض عليه فامتحن وقتل هو وأولاده.

استيلاء دقاق بن تشش على دمشق

كان تشش قد بعث ابنه دقاقا إلى أخيه السلطان ملك شاه ببغداد فأقام هنالك إلى أن توفي ملك شاه فسار معه ابنه عمود وأمه خاتون الجلالية إلى أصفهان ثم ذهب عنهم سراً إلى بركيارق

واستدعى الأمراء من النواحي لذلك فجاءه أبو الغازي بن أرتق الذي كان شحنة ببغداد وأصبهان وصابور والي بن أرسلان ماش صاحب سنجار وهو صهر جكرمش صاحب الموصل وأشار أبو الغازي بالمسير إلى بلاد جكرمش للاستكثار بعسكرها وأموالها ووافقه الي وساروا إلى نصيبين في رمضان سنة تسع وتسعين وأربعمائة فحاصرها فيها أميران من قبل جكرمش واشتد الحصار وجرح الي بن أرسلان بسهم أصابه فعاد إلى سنجار وأجفل أهل السواد إلى الموصل وعسكر جكرمش بظاهرها معترضاً على الحرب ثم كاتب أعيان العسكر وحثهم على رضوان وأمر أصحابه بنصيبين بإظهار طاعته وطلب الصلح معه وبعث إلى رضوان بذلك والإمداد بما يشاؤه على أن يقبض على أبي الغازي فخره فمال إلى ذلك واستدعى أبا الغازي أن المصلحة في صلح جكرمش ليستعينوا به في غزو الفرنج وجمع شمل المسلمين فجأوه أبو الغازي بالمنع من ذلك

ثم قبض عليه وقبده فانتقض التركمان ولجأوا إلى سور المدينة وقاتلوا رضوان وبعث رضوان بأبي الغازي إلى نصيبين فخرجت منها العساكر لإمداده فافتقر منها التركمان ونهبوا ما قدروا عليه ورحل رضوان من وقته إلى حلب وانتهى الخبر إلى جكرمش بتل أعقد وهو قاصد حرب القوم فرحل عند ذلك إلى سنجار وبعث إليه رضوان في الوفاء بما وعده من النجدة فلم يف له ونازل صهره الي بن أرسلان بسنجار وهو جريح من السهم الذي أصابه على نصيبين فخرج إليه الي محمولاً واعتذر إليه فأعته وأعادته إلى بلده فمات وامتنع أصحابه بسنجار رمضان وشوالاً ثم خرج إليه عم الي وصالح جكرمش وعاد إلى الموصل والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمتة.

استيلاء الفرنج على ألامية

كان خلف بن ملاعب الكلابي في حمص وملكها منه تاج الدولة تش فسار إلى مصر وأقام ثم بعث صاحب ألامية من جهة رضوان بن تش بطاعته إلى صاحب مصر العلوي فبعث إليها ابن ملاعب وملكها وخلع طاعة العلوية وأقام يخيف السيل كما كان في حمص فلما ملك الإفرنج سمرين لحق به قاضيهما وكان على مذهب الرافضة فكتب إلى ابن الطاهر الصانع من أكابر الغلاة ومن أصحاب رضوان وداخلهم في الفتك بابن ملاعب ونمي الخبر إليه من أولاده فحلف له القاضي بما اطمأن إليه ونحيل مع ابن الصانع في جند من قبلهم يستأمنون إلى ابن ملاعب ويعطونه

صاحبها في صفر سنة ست وتسعين وقام بأمرها حسن من موالي الأتراك فطعم في الاستيلاء وقتل جماعة من أعيان البلد وحبس آخرين واستخدم جماعة من الجند وطرده آخرين وخطب لنفسه فسار دقاق إليه وحاصره في القلعة حتى استأمن وخرج إليه وأقطعه بالشام أقطاعات كثيرة وملك الرحبة وأحسن إلى أهلها وولى عليهم وزجج إلى دمشق والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب غيره.

وفاة دقاق وولاية أخيه تلتاش ثم خلعه

ثم توفي دقاق صاحب دمشق سنة سبع وتسعين واستقل أتاكبه طغركين بالملك وخطب لنفسه سنة ثم قطع خطبته وخطب لتلتاش أخيه دقاق صيباً مراهقاً وخوفته أمه من طغركين بزواجه أم دقاق وأنه يميل إلى ابن دقاق من أجل جدته فاستوحش وفارق دمشق إلى بعلبك في صفر سنة ثمان وتسعين ولحقه أيتكين الحلبي صاحب بصرى وكان ممن حسن له لذلك فعات في نواحي خوارزم ولحق به أهل الفساد وراسل هديول ملك الفرنج فأجابهما بالوعد ولم يف لهما فسار إلى الرحبة واستولى عليها تلتاش وقيل: إن تلتاش لما استوحش منه طغركين من دخول البلد مضى إلى حصون له وأقام بها ونصب طغركين الطفل ابن دقاق وخطب له واستبد عليه وأحسن إلى الناس واستقام أمره والله تعالى ولي التوفيق وهو نعم الرفيق.

الحرب بين طغركين والفرنج أشهراً

كان قصص من قمامة الفرنج على مرحلتين من دمشق فلج بالغايات على دمشق فجمع طغركين العساكر وسار إليه وجاء معرون ملك القدس وعكا من الفرنج بإيجاد القمص فأظهر الغنية عليه وعاد إلى عكا وقاتل طغركين القمص فهزمه وأحجزه بحصنه ثم حاصره حتى ملك الحصن عنوة وقتل أهله وأسر جماعته وعاد إلى دمشق ظافراً غانماً ثم سار إلى حصن رمسة من حصون الشام وقد ملكه الفرنج وبه ابن أخت سميل المقيم على طرابلس يحاصرها فحاصر طغركين حصن رمسة حتى ملكه وقتل أهله من الفرنج وخربه والله أعلم.

مسير رضوان صاحب حلب لخصار نصيبين

ثم إن رضوان صاحب حلب اعتزم على غزو الفرنج

غزة في شعبان من السنة وكان نيدغ مولى القاضي فخر الملك ثم علي بن عمار صاحب طرابلس فعصى عليه وحاصره الإفرنج وانقطعت عنه الميرة فأرسل إلى طغركين صاحب دمشق أن يمكنه من الحصن فأرسل إليه إسرائيل من أصحابه فملك الحصن وقتل صاحبه مولى بن عمار غيلة ليستأثر بمخلفه فانتظر طغركين دخول الشتاء وصار إلى الحصن لينظر في أمره وكان السرداني من الإفرنج يحاصر طرابلس فلما سمع بوصول طغركين حصن الأكمة أغذ السير إليه فهزمه وغنم سواده ولحق طغركين بمحمص ونازل السرداني غزة فاستأمنوا إليه وملكها وقبض على إسرائيل فادى به أسيراً كان لهم بدمشق منذ سبع سنين ووصل طغركين إلى دمشق ثم قصد ملك الإفرنج رمة من أعمال دمشق فملكها وشحنها بالآقوات والحامية فقصدها طغركين بعد أن نهي إليه الخبر بضعف الحامية الذين بها فكسها عنوة وأسر الإفرنج الذين بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض طغركين على السلطان محمد

كان السلطان محمد بن ملك شاه قد أمر مودود بن بوشكين صاحب الموصل بالمسير لغزو الإفرنج لأن ملك القدس تابع الغارات على دمشق سنة ست وخمسمائة واستصرخ طغركين بمودود فجمع العساكر وسار سنة تسع ولقيه طغركين بسهولة وقصدوا القدس وانتهوا إلى الانخوانة على الأردن وجاء بغدوين فنزل قبالتهم على النهر ومعه جوسكين صاحب جيشه واقتتلوا متصفي محرم سنة عشر على بحيرة طبرية فانهزم الإفرنج وقتل منهم كثير وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر الأردن ولقيتهم عساكر طرابلس وأنطاكية فاشتدوا وأقاموا بجبل قرب طبرية وحاصروهم المسلمون فيه ثم يشسوا من الظفر به فساحوا في بلادهم واكتسحوها وخربوها ونزلوا مرج الصفر وأذن مودود للعساكر في العود والراحة ليتهاوا للغزو.

وسلخ الشتاء ودخل دمشق آخر ربيع من سنة.... ليقيم عند طغركين تلك المدة وصلى معه أول جمعة ووثب عليه باطني بعد الصلاة فطعنه ومات آخر يومه.

واتهم طغركين بقتله وولى السلطان مكانه على الموصل أقسقر البرسقي فقبض على أياز بن أبي الغازي وأبيه صاحب حصن كيفا فسار بنو أرتق إلى البرسقي وهزموه ونخلص أياز من أسره فلحق أبو الغازي أبوه بطغركين صاحب دمشق وأقام عنده وكان مستوحشاً من السلطان محمد لانتقامه بقتل مودود فبعث إلى

خيلهم وسلاحهم ويقيمون للجهاد معه ففعلوا وأنزلهم بربض أفامية ثم بيته القاضي ليلاً بمن معه من أهل سرمين ورفع أولئك الجنود من الربض بالحبال وقتلوا ابن ملاعب في بيته وقتلوا معه ابنه وفر الآخر إلى أبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.

وجاء الصانع من حلب إلى القاضي فطرده واستبد بأفامية وكان بعض أولاد ابن ملاعب عند طغركين وولاه حامية بعض الحصون فعظم ضرره فطلب طغركين فهرب إلى الإفرنج وأغراهم بأفامية ودلهم على عورتها وعدم الآقوات فيها فحاصروها شهراً وملكوها عنوة وقتلوا القاضي والصانع وذلك سنة تسع وتسعين وقد ذكرنا قبل أن الصانع قتله ابن بديع أيام تتش صاحب حلب إثر مهلك رضوان فأنه أعلم أيهما الصحيح ثم ملك صاحب أنطاكية من الإفرنج حصن الإمارة بعد حصار طويل فملكه عنوة واستلحم أهله وفعل في ذريته مثل ذلك ورحل أهل منبج وبالس وتركوهما خاوين وملكوا حيد بالأمان وطلب الفرنج من أهل الحصون الإسلامية الجزية فأعطوهم ذلك على ضريبة فرضوها عليهم فكان على رضوان في حلب وأعمالها ثلاثون ألف دينار وعلى صور سبعة آلاف وعلي ابن منقذ في شيزر أربعة آلاف وعلى حماة ألفاً دينار وذلك سنة خمس وخمسمائة.

استيلاء طغركين على بصرى

قد تقدم لنا سنة سبع وتسعين حال ثلاثين بن تتش والخطبة له بعد أخيه دقاق وخروجه من دمشق واستنجاهه الفرنج وأن الذي تولى كبر ذلك كله أسكين الحملي صاحب بصرى فسار طغركين آخر المائة الخامسة إلى بصرى وحاصرها حتى أذعنوا وضربوا له أجلاً للفرنج فعاد إلى دمشق حتى انقضى الأجل فأتوه طاعتهم وملك البلد وأحسن إليهم والله تعالى ولي التوفيق لا ريب غيره.

غزو طغركين وهزمته

ثم سار طغركين سنة اثنتين وخمسمائة إلى طبرية ووصل إليها ابن أخت بغدوين ملك القدس من الفرنج فاقتتلوا فانهزم المسلمون أولاً فنزل طغركين ونادى بالمسلمين فكروا وانهزم الفرنج وأسر ابن أخت بغدوين وعرض طغركين عليه الإسلام فامتنع فقتله بيده وبعث بالأسرى إلى بغداد ثم انعقد الصلح بين طغركين وبغدوين بعد أربع سنين وصار بعدها طغركين إلى حصن

مهلك لؤلؤ الخادم واستيلاء أبي الغازي ثم مقتل ألب أرسلان وولاية أخيه سلطان شاه

كان لؤلؤ الخادم قد استولى على قلعة حلب وولى أتاكبة ألب أرسلان ابن مولاة رضوان ثم تنكر له فقتله لؤلؤ ونصب في الملك أخاه سلطان شاه واستبد عليه فلما كان سنة إحدى عشرة سار إلى قلعة جعفر للاجتماع بصاحبها سالم بن مالك فغدر به بمالكة الأتراك وقتلوه عند خربت وأخذوا خزائنه واعترضهم أهل حلب فاستعادوا منهم ما أخذوه وولى أتاكبة سلطان شاه بن رضوان شمس الخواص باريقاس وعزل لشهر وولي بعده أبو المعالي بن الملحي الدمشقي ثم عزل وصودر واضطربت الدولة وخاف أهل حلب من الإفرنج فاستدعوا أبا الغازي بن أرتق وحكموه على أنفسهم ولم يجد فيها مالا فصادر جماعة الخدم وصانع بمالهم الإفرنج حتى صار إلى ماردين بنية العود إلى حمايتها واستخلف عليها ابنه حسام الدين غمراش وانقرض ملك رضوان بن تش من حلب والله سبحانه وتعالى أعلم.

هزيمة طغركين أمام الإفرنج

كان ملك الإفرنج بغدوين صاحب القدس قد توفي سنة اثني عشرة وقام بملكهم بعده القمص صاحب الرها الذي كان أسره جكرمس وأطلقه جاولي كما تقدم في أخبارهم وبعث إلى طغركين في المهادة وكان قد سار من دمشق لغزوهم فأبى من إجابته وسار إلى طبرية فنهبا واجتمع بقواد المصريين في عسقلان وقد أمرهم صاحبهم بالرجوع إلى رأي طغركين ثم عاد إلى دمشق وقصد الإفرنج حصناً من أعماله فاستامن إليهم أهله وملكوه ثم قصدوا أذرعات فبعث طغركين ابنه بوري لمداغتهم ففتحوا عن أذرعات إلى جبل هناك وحاصروهم بوري وجاء إليه أبو طغركين فراسلوه ليفرج عنهم فأبى طمعاً في أخذهم فاستماتوا وحملوا على المسلمين حملة صادقة فهزموهم ونالوا منهم ورجع الفل إلى دمشق وسار طغركين إلى أبي الغازي لمجلب يستنجده فوعده بالنجدة وسار إلى ماردين للحشد ورجع طغركين إلى دمشق كذلك وتواعدوا للجيل وسبق الإفرنج إلى حلب وكان بينه وبين أبي الغازي ما تذكره في موضعه من دولة بني أرتق والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب غيره.

صاحب أنطاكية من الفرنج وغالفوا على المظاهرة وقصد أبو الغازي ديار بكر فظفر به قيرجان بن قراجا صاحب حصص وأسره وجاء طغركين لاستنفاذه فحلف قيرجان ليقتله إن لم يرجع طغركين إلى بلاده وانتظر وصول العساكر من بغداد تحمله فأبطأت فأجاب طغركين إلى إطلاقة.

ثم بعث السلطان محمد بالعساكر لجهاد الإفرنج والبداءة بقتال طغركين وأبي الغازي فساروا في رمضان سنة ثمان وخمسمائة ومقدمتهم برسق بن برسق صاحب همذان واتهوا إلى حلب وبعثوا إلى متوليها لؤلؤ الخادم ومقدم عسكرها شمس الخواص يأمرؤنها بالنزول عنها وعرضوا عليهما كتب السلطان بذلك فداغما بالوعد واستحثا طغركين وأبا الغازي في الوصول فوصلوا في العساكر وامتنعت حلب على العساكر وأظهروا العصيان فسار برسق إلى حماة وهي لطغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثاً وسألهما الأمير قيرجان صاحب حصص الصلح وكان جميع ما يفتح من البلاد له بأمر السلطان فانتقض الأمراء من ذلك وكسلوا عن الغزو وسار أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص إلى أنطاكية يستجدون صاحبها دجيل من الإفرنج ثم توادعوا إلى انصرام الشتاء ورجع أبو الغازي إلى ماردين وطغركين إلى دمشق ثم كان في أثر ذلك هزيمة المسلمين واستشهد برسق وأخوه زنكي وقد تقدم خبر هذه الهزيمة في أخبار البرسقي ثم قدم السلطان محمد بغداد فوفد عليه أنبائك طغركين صاحب دمشق في ذي القعدة من سنة تسع مستعيناً فأعانه وأعادته إلى بلده والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة رضوان بن تش صاحب حلب وولاية

ابنه ألب أرسلان

ثم توفي رضوان بن تش صاحب حلب سنة تسع وخمسمائة وقد كان قتل أخويه أبا طالب وبهرام وكان يستعين بالباطنية في أموره ويدخلهم ولما توفي بايع مولاة لؤلؤ الخادم لابنه ألب أرسلان صبيّاً مغتلباً وكانت في لسانه حبسة فكان يلقب الأخرس وكان لؤلؤ مستبداً عليه ولأول ملكه قتل أخويه وكل ملك شاه منهما شقيقه وكانت الباطنية كثيراً في حلب في أيام رضوان حتى خافهم ابن بديع وأعيانها فلما توفي أذن لهم ألب أرسلان في الإيقاع بهم فقبضوا على مقدمهم ابن طاهر الصائغ وجماعة من أصحابهم فقتلوه وافترق الباقيون.

وبلغ الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا منهزمين وأحرقوا غلظهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون واللّه تعالى ولى التوفيق.

أسر تاج الملك لديس بن صدقة وتمكين عماد الدين زنكي منه

كان بصرخد من أرض الشام أميراً عليها فتوفي سنة خمس وعشرين وخلف سريته واستولت على القلعة وعلمت أنه لا يتم لها واستيلاؤها إلا بتزويج رجل من أهل العصابة فوصف لها ديس فكتبت إليه تستدعيه وهو على البصرة منابذاً للسلطان عندما رجع من عند سنجار فاتخذ الأدلاء وسار إلى صرخد فضل به الدليل بنواحي دمشق ونزل على قوم من بني كلاب شرقي الغوطة فحملوه إلى تاج الملك فحبسه وبعث به إلى عماد الدين زنكي يستدعيه ويهدده على منعه وأطلق سريخ بن تاج الملوك والأمرء الذين كانوا مأسورين معه فبعث تاج الملك بديس إليه وأشفق على نفسه فلما وصل إلى زنكي خالف ظنه وأحسن إليه وسد خلته وبسط أمله وبعث فيه المسترشد أيضاً يطلبه وجاء ثابت الأنباري وسمع في طريقه بإحسان زنكي إليه فرجع ثم أرسل المسترشد يشفع فيه فأطلق.

وفاة تاج الملوك بوري صاحب دمشق وولاية ابنه شمس الملوك إسماعيل

كان تاج الملوك بوري قد ثار به جماعة من الباطنية سنة خمس وعشرين وطعنوه فأصابته جراحة واندملت ثم انتقضت عليه في رجب من سنة ست وعشرين لأربع سنين ونصف من إمارته وولي بعده ابنه شمس الملوك إسماعيل بعهدته إليه بذلك وكان عهد بمدينة بعلبك وأعمالها لابنه الآخر شمس الدولة وقام بتدبير أمره الحاجب يوسف بن فيروز شحنة دمشق وأحسن إلى الرعية وبسط العدل فيهم واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء شمس الملوك على الحصون

ولما تولى شمس الملوك إسماعيل وسار أخوه محمد إلى بعلبك خرج إليها وحاصر أخاه محمداً بها وملك البلد واعتصم محمد بالحصن وسأل الإبقاء فأبقى عليه ورجع إلى دمشق ثم سار إلى باشاش وقد كان الإفرنج الذين بها تقضوا الصلح وأخذوا

منازلة الإفرنج دمشق

ثم اجتمع الإفرنج سنة عشرين وخسمائة ملوكهم وقمامصتهم وساروا إلى دمشق ونزلوا مرج الصفر وبعث أتابك طغركين بالصرينخ إلى تركمان بديار بكر وغيرها وخيم قبالة الإفرنج واستحلف ابنه بوري على دمشق ثم ناجزهم الحرب آخر السنة فاشتد القتال وصرع طغركين عن فرسه فانهزم المسلمون وركب طغركين واتبعهم ومضت خيالة الإفرنج في اتباعهم وبقي رجاله التركمان في المعركة فلما خلص إليهم رجاله الإفرنج اجتمعوا واستماتوا وحملوا على رجاله الإفرنج فقتلوه ونهبوا معسكرهم وعادوا غانمين ظافرين إلى دمشق ورجعت خيالة الإفرنج من اتباعهم منهزمين فوجدوا معسكرهم منهوياً ورجالهم قتلى وكان ذلك من الصنع الغريب.

وفاة طغركين وولاية ابنه بوري

ثم توفي أتابك طغركين صاحب دمشق في صفر سنة اثنتين وعشرين وكان من موالى تاج الدولة تشش وكان حسن السيرة مؤثراً للعدل محباً في الجهاد ولقبه ظهر الدين ولما توفي ملك بعده ابنه تاج الدولة بوري أكبر أولاده بعهدته إليه بذلك وأقر وزير أبيه أبي علي طاهر بن سعد المزدغاني على وزارته وكان المزدغاني يرى رأي الرافضية الإسماعيلية وكان بهرام ابن أخي إبراهيم الاستراباذي لما قتل عمه إبراهيم ببغداد على هذا المذهب لحق بالشام وملك قلعة بانياس ثم سار إلى دمشق وأقام بها خليفة يدعو إلى مذهبه ثم فارقها وملك القدموس وغيره من حصون الجبال وقابل البصرية والدرزة بوادي التيم من أعمال بعلبك سنة اثنتين وعشرين وغلّبهم الضحاك وقتل بهرام.

وكان المزدغاني قد أقام له خليفة بدمشق يسمى أبا الوفاء فكثرت أتباعه وتحكم في البلد وجاء الخبر إلى بوري بأن وزيره المزدغاني والإسماعيلية قد راسلوا الإفرنج بأن يملكوهم دمشق فجاء إليها وقتل المزدغاني ونادى بقتل الإسماعيلية وبلغ الخبر إلى الإفرنج فاجتمع صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وسائر ملوك الإفرنج وساروا لحصار دمشق واستصرخ تاج الملك بالعرب والتركمان وجاء الإفرنج في ذي الحجة من السنة وبشوا سراياهم للنهب والإغارة ومضت منها سرية إلى خوارزم فبعث تاج الدولة بوري سرية من المسلمين مع شمس الخواص من أمرائه لدفاعتهم فلقوهم وظفروا بهم واستلحموهم

أرسلان شهاب الدين محمود وصلحه معه فرحل عن دمشق منتصف السنة.

استيلاء شهاب الدين محمود على حمص

كانت حمص لقيرجان بن قراجا ولولده من بعده والموالي بها من قبلها وطالبهم عماد الدين زنكي في تسليمها وضايقهم في نواحيها فراسلوا شهاب الدين صاحب دمشق في أن يملكها ويعوضهم عنها بتدمر فأجاب واستولى على حمص وسار إليها سنة ثلاثين وأقطعها لملوك جده معين الدين أنز وأزل معه حامية من عسكره ورجع إلى دمشق واستأذنه الحاجب يوسف بن فيروز في العود من تدمر إلى دمشق وقد كان هرب إليها كما قدمناه وكان جماعة من الموالى منحرفين عنه بسبب ما تقدم في مقتل سونج فنكروا ذلك فلاطفهم ابن فيروز واسترضاهم وحلف لهم أنه لا يتولى شيئاً من الأمور ولما دخل رجع إلى حاله فوثبوا عليه وقتلوه وخيموا بظاهر دمشق واشتطوا في الطلب فلم يسعفوا بكلمة فلحقوا بشمس الدولة محمد بن تاج الملك في بعلبك وبثوا السرايا إلى دمشق فعانت في نواحيها حتى أسعفهم شهاب الدين بكل ما طلبوه فرجعوا إلى ظاهر دمشق وخرج لهم شهاب الدين وتحالفوا ودخلوا إلى البلد وولى مرواش كبيرهم على العساكر وجعل إليه الحل والعقد في دولته والله أعلم.

استيلاء عماد الدين زنكي على حمص

وغیرها من أعمال دمشق

ثم سار أتابك زنكي إلى حمص في شعبان سنة إحدى وثلاثين وقدم إليه حاجبه صلاح الدين الباغسياني وهو أكبر أمرائه غاطباً واليها معين الدين أنز في تسليمها فلم يفعل وحاصرها فامتعت عليه فرحل عنها آخر شوال من السنة ثم سار سنة اثنتين وثلاثين إلى نواحي بعلبك فملك حصن المحولي على الأمان وهو لصاحب دمشق ثم سار إلى حمص وحاصرها وعاد ملك الروم إلى حلب فاستدعى الفرنج وملك كثيراً من الحصون مثل عين زربة وتل حمدون وحصر أنطاكية ثم رجع وأفرج أتابك زنكي خلال ذلك عن حمص ثم عاود منازلها بعد مسير الروم وبعث إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخاطب إليه أمه مرد خاتون ابنة جاولي طمعاً في الاستيلاء على دمشق فزوجها له ولم يظفر بما أمله من دمشق وسلموا له حمص وقلعتها وحملت إليه خاتون في

جماعة من تجار دمشق في بيروت فسار إليها طاويا وجه مذهبه حتى وصلها في صفر سنة سبع وعشرين وقتلها ونقب أسوارها وملكها عنوة ومثل بالفرنج الذين بها واعتصم فلهم بالقلعة حتى استأمنا وملكها ورجع إلى دمشق ثم بلغه أن المسترشد زحف إلى الموصل فقطع هو في حماة وسار آخر رمضان وملكها يوم الفطر من غده فاستأمنا إليهم وملكها واستولى على ما فيها ثم سار إلى قلعة شيرز وبها صاحبها من بني منقذ فحاصرها وصانعه صاحبها بمال حمله إليه فأفرج عنه وسار إلى دمشق في ذي القعدة من السنة.

ثم سار في محرم سنة ثمان وعشرين إلى حصن شقيق في الجبل المطل على بيروت وصيدا وبه الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به وتحاماه المسلمون والفرنج يحمي من كل طائفة بالأخرى فسار إليه وملكه من وقته وعظم ذلك على الفرنج فساروا إلى جوران وعاثوا في نواحيها فاحتشد هو واستنجد بالتركمات وسار حتى نزل قبائلهم وجهز العسكر هنالك وخرج في البر وأناخ على طبرية وعكا فالتسح نواحيها وامتلت أيدي عسكره بالغنائم والسبي وانتهى الخبر إلى الفرنج بمكانهم من بلاد حوران فأجفلوا إلى بلادهم وعاد هو إلى دمشق وراسله الفرنج في تجديد الهدنة فهادتهم.

مقتل شمس الملوك وولاية أخيه شهاب

الدين محمود

كان شمس الملوك سبي السيرة كثير الظلم والعدوان على رعيته مرهف الحد لأهله وأصحابه حتى أنه وثب عليه بعض مماليك جده سنة سبع وعشرين وعلاه بالسيف ليقتله فأخذ وضرب وأقر على جماعة داخلوه فقتلهم وقتل معهم أخاه سونج فتنكر الناس له وأشيع عنه بأنه كاتب عماد الدين زنكي ليملكه دمشق واستحثه في الوصول لئلا يسلم البلد إلى الفرنج فسار زنكي فصدق الناس الإشاعة وانتقض أصحاب أبيه لذلك وشكوا لأمه فأشفقت ثم تقدمت إلى غلمانه بقتله في ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وقيل: أنه اتهم أمه بالحاجب يوسف بن فيروز فاعتزم على قتلها فهرب يوسف وقتلته أمه ولما قتل ولي أخوه شهاب الدين محمود من بعده ووصل أتابك زنكي بعد مقتله فحاصر دمشق من ميدان الحصار وجدوا في مدافعه والامتناع عليه وقام في ذلك معين الدين أنز مملوك جده طغركين مقاماً محموداً وجلى في المدافعة والحصار ثم وصل رسول المسترشد أبو بكر بن بهثر الجزري إلى أتابك زنكي يأمره بمسألة صاحب دمشق الملك الب

رمضان من السنة واللّه أعلم.

فاشتد في الزحف فما وهنوا لذلك وولوا من بعد جمال الدين عمداً ابنه مجير الدين أنز وأقام بتريته وتدير دولته معين الدين أنز مدير دولته.

مقتل شهاب الدين محمود وولاية أخيه

محمد

وأرسل إلى الإفرنج يستجدهم على مدافعة زنكي على أن يحاصر قاشاش فإذا فتحها أعطاهم إياها فأجابوا إلى ذلك حذراً من استطالة زنكي بملك دمشق فصار زنكي للقائهم قبل اتصالحهم بعسكر دمشق ونزل حوران في رمضان من السنة فخام الإفرنج عن لقائه وأقاموا ببلادهم فعاد زنكي إلى حصار دمشق في شوال من السنة ثم أحرق قرى المريج والغوطة ورحل عائداً إلى بلده ثم وصل الإفرنج إلى دمشق بعد رحيله فصار معهم معين الدين أنز إلى قاشاش من ولاية زنكي ليفتحها ويعطيها للإفرنج كما عاهداهم عليه وقد كان واليها أغار على مدينة صور ولقيه في طريقه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق للإنجاد صاحبها على زنكي فقتل الوالي ومن معه من العسكر ولجا الباقون إلى قاشاش وجاء معين الدين أنز أثر ذلك في العساكر فملكها وسلمها للإفرنج وبلغ الخبر إلى أتاكب زنكي فصار إلى دمشق بعد أن فرق سراياه ويعوثة على حوران وأعمال دمشق وسار هو متجراً إليها فصحبها وخرج العسكر لقتاله فقاتلهم عامة يومه ثم تأخر إلى مرج راهط وانتظر بعوثة حتى وصلوا إليه وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ورحل عائداً إلى بلده.

مسير الإفرنج لحصار دمشق

كان الإفرنج منذ ملكوا سواحل الشام ومدنه تسير إليهم أمم الإفرنج من كل ناحية من بلادهم مدداً لهم على المسلمين لما يرونه من تفرد هؤلاء بالشام بين عدوهم وسار في سنة ثلاث وأربعين ملك الألمان من أمراء الإفرنج من بلاده في جموع عظيمة قاصداً بلاد الإسلام لا يشك في الغلب والاستيلاء لكثرة عساكره وتوفر عدده وأمواله فلما وصل الشام اجتمع عليه عساكر الإفرنج الذين له ممثلين أمره فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق فساروا لذلك سنة ثلاث وأربعين وحاصروها فقام معين الدين أنز في مدافعتهم المقام المحمود ثم قاتلهم الإفرنج سادس ربيع الأول من السنة فنالوا من المسلمين بعد الشدة والمصابرة واستشهد ذلك اليوم الفقيه حجة الدين يوسف العندلاوي المغربي وكان عالماً زاهداً وسأله معين الدين يومئذ في الرجوع لضغفه وسنه فقال له: «قد بعث واشترى مني فلا أقبل ولا أستقبل يشير إلى آية الجهاد وتقدم حتى استشهد عند أسرت على نصف فرسخ من دمشق.

لما قتل شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاث وثلاثين اغتاله ثلاث من مواليه في مضجعه بخلوته وهربوا فنجا واحد منهم وأصيب الآخرون كتب معين الدين أنز إلى أخيه شمس الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك بالخبر فسارع ودخل دمشق وتبعه الجند والأعيان وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنز مملوك جده وأقطعهم بعلبك واستقامت أموره.

استيلاء زنكي على بعلبك وحصاره دمشق

ولما قتل شهاب الدين محمود وبلغ خبره إلى أمه خاتون زوجة أتاكب زنكي مجلب عظم جزعها عليه وأرسلت إلى زنكي بالخبر وكان بالجزيرة وسألت منه الطلب بئار ابنها فصار إلى دمشق واستعدوا للحصار فعدل إلى بعلبك وكانت لمعين الدين أنز كما قلناه وكان أتاكب زنكي دس إليه الأموال ليمكنه من دمشق فلم يفعل فصار إلى بلده بعلبك وجد في حربها ونصب عليها المجانيق حتى استأنموا إليه وملكها في ذي الحجة آخر سنة ثلاث وثلاثين واعتصم جماعة من الجند بقلعتها ثم استأنموا فقتلهم وأرهب الناس بهم ثم سار إلى دمشق وبعث إلى صاحبها في تسليمها والنزول عنها على أن يعرضه عنها فلم يجب إلى ذلك فزحف إليها ونزل داريا منتصف ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وبرزت إليه عساكر دمشق فظفر بهم وهزمهم ونزل المصلى وقاتلهم فهزمهم ثانياً ثم أمسك عن قتالهم عشرة أيام وتابع الرسل إليه بأن يعرضه عن دمشق ببعلبك أو حصص أو ما يختاره فمنعه أصحابه فعاد زنكي إلى القتال واشتد في الحصار واللّه سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

وفاة جمال الدين محمد بن بوري وولاية ابنه

مجير الدين أنز

ثم توفي جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق رابع شعبان سنة أربع وثلاثين وزنكي محاصر به وهو معه في مراوضة الصلح وجمع زنكي فيما عساه أن يقع بين الأمراء من الخلاف

وشرعوا في الحشد وسبقهم نور الدين إلى دمشق فثار الأحداث الذين كاتبهم وفتحوا له الباب الشرقي فدخل منه وملكها واعتصم بجبر الدين بالقلة فراسله في النزول عنها وعوضه مدينة حصص فسار إليها ثم عوضه عن حصص بألس فلم يرزها وسار إلى بغداد واختط بها داراً قرب النظامية وتوفي بها واستولى نور الدين على دمشق وأعمالها واستضافها إلى ملكه حتى حلب وانقرض ملك بني تش من الشام والبلاد الفارسية أجمع والبقاء لله وحده والله مالك الملك لا رب غيره سبحانه وتعالى.

الخبر عن دولة قطلمش وبنيه ملوك قونية

وبلاذ الروم من السلجوقية ومبادي

أمورهم وتصاريق أحوالهم

كان قطلمش هذا من عظماء أهل هذا البيت ونسبه فيهم فقبل مختلف قطلمش بن ياقو وابن الأثير تارة يقول قطلمش ابن عم طغرل بك وتارة يقول قطلمش بن إسرائيل من سلجوق ولعله بيان ذلك الإجمال ولما انتشر السلجوقية في البلاد طالبين للملك دخل قطلمش بهذا إلى بلاد الروم وملك قونية وأقصر وأواحيمها وبعثه السلطان طغرل بك بالساكر مع قريش بن بدران صاحب الموصل في طلب ديبس بن مزيد عندما أظهر الدولة العلوية في الحلة وأعمالها فهزمهم ديبس والساسري كما تقدم في أخبارهم ثم عصى على السلطان ألب أرسلان بعد طغرل بك وقصد الري ليملكه وقاتله ألب أرسلان سنة ست وخمسين فانهزم عسكر قطلمش ووجد بين القتلى فتجمع له ألب أرسلان وقعد للعزاء فيه كما تقدم في أخبارهم وقام بأمره ابنه سليمان وملك قونية وأقصر وغيرهما من الولاية التي كانت بيد أبيه وافتتح أنطاكية من يد الروم سنة سبع وسبعين وأربعمئة وقد كانوا ملكوها منذ خمس وخمسين وأربعمئة فأخذها منهم وأضافها إلى ملكه.

وقد تقدم خبر ملكه إياها في دولتهم وكان لسلجق بن قريش صاحب الموصل ضريبة على الروم بأنطاكية فطالب بها سليمان بن قطلمش فامتعض لذلك وأنف منه فجمع مسلم العرب والتركمان لحصار أنطاكية ومعه جق أمير التركمان والقبلي سنة ثمان وسبعين وانحاز جق إلى سليمان فانهزم العرب وسار سليمان بن قطلمش لحصار حلب فامتعت عليه وسألوه الإيهال حتى يكاتب السلطان ملك شاه ودسوا إلى تاج الدولة تش صاحب دمشق يستدعونه فأخذ السير واعترضه سليمان بن قطلمش على غير تعبته فانهزم وطعن نفسه بمنجرجر فمات وغنم تش معسكره.

واستشهد معه خلق وقوي الإفرنج ونزل ملك الألمان الميدان الأخضر وكان عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة إحدى وأربعين وولي ابنه سيف الدين غازي الموصل وابنه نور الدين محمود حلب فبعث معين الدين أنز إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده فجاء لإنجاده ومعه أخوه نور الدين وانتهوا إلى مدينة حصص وبعث إلى الإفرنج يتهددهم فاضطروا إلى قتاله وانقسمت مؤنتهم بين الفريقين وأرسل معين الدين إلى الألمان يتهددهم بتسليم البلد إلى ملك المشرق يعني صاحب الموصل وأرسل إلى فرنج الشام يحذرهم من استيلاء ملك الألمان على دمشق فإنه لا يبقى لكم معه مقام في الشام ووعدهم بمحصن قاشاش فاجتمعوا إلى ملك الألمان وخوفوه من صاحب الموصل أن يملك دمشق فرحل عن البلد وأعطاهم معين الدين قلعة قاشاش وعاد ملك الألمان إلى بلاده على البحر المحيط في أقصى الشمال والمغرب ثم توفي معين الدين أنز مدير دولة أرتق والمغلب عليه سنة أربع وأربعين لسنة من حصار ملك الألمان والله أعلم.

استيلاء نوري الدين محمود العادل على

دمشق وانقراض بني تش من الشام

كان سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة أربع وأربعين وملك أخوه قطب الدين وانفرد أخوه الآخر نور الدين محمود بحلب وما يليها وتجرّد لطلب دمشق وجهاد الإفرنج واتفق أن الإفرنج سنة ثمان وأربعين ملكوا عسقلان من يد خلفاء العلوية لضعفهم كما مر في أخبار دولتهم ولم يجد نور الدين سبيلاً إلى ارتجاعها منهم لاعتراض دمشق بينهم وبينهم ثم طمعوا في ملك دمشق بعد عسقلان وكان أهل دمشق يؤدون إليهم الضريبة فيدخلون لقبضها ويتحكمون فيهم ويطلقون من أسرى الإفرنج الذين بها كل من أراد الرجوع إلى أهله فخشي نور الدين عليها من الإفرنج ورأى أنه إن قصدوا استنصر صاحبها عليه بالإفرنج فراسل صاحبها مجير الدين واستماله بالهدايا حتى وثق به فكان يغريه بأمرائه الذين يجد بهم القوة على المدافعة واحداً واحداً ويقول له: إن فلاناً كاتبني بتسليم دمشق. فيقتله مجير الدين حتى كان آخرهم عطاء بن حافظ السلمي الخادم وكان شديداً في مدافعة نور الدين فأرسل إلى مجير الدين بمثلها فيه فقبض عليه وقتله فسار حيتش نور الدين إلى دمشق بعد أن كاتب الأحداث الذين بها واستمالهم فوعده وأرسل مجير الدين إلى الإفرنج يستنجد من نور الدين على أن يعطيهم بعلبك فأجابوه

إربل وتعاقد مع أبي الهيجاء بن موشك الكردي الهدياي صاحب أربل وأنهى إلى البوازيج فعبّر إليه جكرمش دجلة وقاتله فانهزمت عساكر جكرمش وبقي جكرمش واقفاً لفالج كان به فأسره جاولي ولحق الفل بالموصل فنصبوا مكانه ابنه زنكي صبيّاً صغيراً وأقام بأمره غزغلي مولى أبيه وكانت القلعة بيده وفرق الأموال والخيل.

واستعد لمداغة جاولي وكاتب صدقة بن مزيد والبرسقي شحنة بغداد وقلبيج أرسلان صاحب بلاد الروم يستنجدهم ويعد كلاً منهم بملك الموصل إذا دافعوا عنه جاولي فأعرض صدقة عنه ولم يحتفل بذلك ثم سار جاولي إلى الموصل وحاصرها وعرض جكرمش للقتل أو يسلموا إليه فامتنعوا وأصبح جكرمش في بعض أيام حصارها وسمع جاولي بأن قليج أرسلان سار في عساكره إلى نصيبين فأفرج عن الموصل وسار إلى سنجار وسبق البرسقي إليها بعد رحيل جاولي وأرسل إلى أهلها فلم يجيبوه بشيء وعاد إلى بغداد واستدعى رضوان صاحب دمشق جاولي سقاو ومداغة الإفرنج عنه فساروا إليه وخرج من الموصل عسكر جكرمش إلى قليج أرسلان بنصيبين فتحالفوا معه وجاؤوا به إلى الموصل فملكها آخر رجب من سنة خمسمائة.

وخرج إليه ابن جكرمش وأصحابه وملك القلعة من غزغلي وجلس على التخت وخطب لنفسه بعد الخليفة وأحسن إلى العسكر وسار في الناس بالعدل وكان في جملة إبراهيم بن ينال التركماني صاحب آمد ومحمد بن جق التركماني صاحب حصن زياد وهو خرت برت وكان إبراهيم بن ينال قد ولي تش على آمد حين ولي ديار بكر وكانت بيده وأما خرت برت فكانت بيد القلادروس ترجمان الروم والرها وأنطاكية من أعماله فملك سليمان بن قطلمش أنطاكية وملك فخر الدولة بن جيهار ديار بكر فضعف القلادروس وملك جق خرت برت من يده وأسلم القلادروس على يد السلطان ملك شاه وأمره على الرها فأقام بها حتى مات وملكها جق هي وما جاورها من الحصون أورثها ابنه محمداً بعد موته والله تعالى ولي التوفيق.

الحرب بين قليج أرسلان وبين الإفرنج

كان سمند صاحب أنطاكية من الإفرنج قد وقعت بينه وبين ملك الروم بالقسطنطينية وحشة واستحكمت وسار سمند فنهب بلاد الروم وعزم على قصد أنطاكية فاستنجد ملك الروم بقلبيج أرسلان فأمدّه بعساكره وسار مع ذلك الروم فهزموا الإفرنج وأسروهم ورجع الفل إلى بلادهم بالشام فاعتزموا على قصد قليج

وملك بعده ابنه قليج أرسلان وأقام في سلطانه ولما زحف الإفرنج إلى سواحل الشام سنة تسعين وأربعمائة جعلوا طريقهم على القسطنطينية فمَنَعَهُمْ من ذلك ملك الروم حتى شرط عليهم أن يعطوه أنطاكية إذا ملكوها فأجابوا لذلك وعبروا خليج القسطنطينية ومروا ببلاد قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش فلقيتهم في جموعه قريباً من قونية فهزموه وانتهوا إلى بلاد ابن ليون الأرمني فعبروا منها إلى أنطاكية وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فاستعد للحصار وأمر بحفر الخندق فعمل فيه المسلمون يوماً ثم عمل فيه النصاري الذين كانوا بالبلد من الغد فلما جاؤوا للدخول منعهم وقال: أنا لكم في خلفكم حتى ينصرف هؤلاء الإفرنج وزحفوا إليه فحاصروه تسعة أشهر.

ثم عدا بعض الحامية من سور البلد عليهم فأدخلوهم من بعض مسارب البوادي وأصبحوا في البلد فاستباحوه وركب باغيسيان للصلح فهرب ولقيه خطاب من الأرمن فجاء برأسه إلى الإفرنج وولى عليها يشمند من زعماء الإفرنج وكان صاحب حلب وصاحب دمشق قد عزموا على النفر إلى أنطاكية لمداغتهم فكانت الإفرنج بالمسألة وانهم لا يعرضون لغير أنطاكية فأوهن ذلك من عزائمهم وأقصروا عن إجماع باغيسيان وكان التركمان قد انتشروا في نواحي العراق وكان كمستكين بن طلق المعروف أبوه بالوائشمند ومعناه المعلم عندهم قد ملك سيواس من بلاد الروم مما يلي أنطاكية.

وكان بملطية مما يجاورها متغلب آخر من التركمان وبينه وبين الوائشمند حروب فاستنجد صاحب ملطية عليه الإفرنج وجاء يفل من أنطاكية سنة ثلاث وتسعين في خمسة آلاف فلقية ابن الوائشمند وهزمه وأخذ أسيراً وجاء الإفرنج لتخليصه فأنزلوا قلعة أنكورية وهي أنقرة فأخذوها عنوة ثم ساروا إلى أخرى فيها إسماعيل بن الوائشمند وحاصروها فجمع ابن الوائشمند وقاتلهم وأكمن لهم وكانوا في عدد كثير فلما قاتلهم استطرد لهم حتى خرج عليهم الكمين وكر عليهم فلم يفلت منهم أحد وسار إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها وجاءه الإفرنج من أنطاكية فهزمهم.

استيلاء قليج أرسلان على الموصل

كانت الموصل وديار بكر والجزيرة بيد جكرمش من قواد السلجوقية فمَنَعَ الحمل وهم بالانتفاض فاقطع السلطان الموصل وما معها لجاولي سكاو والكل من قوادهم وأمرهم بالمسير لقتال الإفرنج فسار جاولي وبلغ الخبر لجكرمش فسار من الموصل إلى

وفاة مسعود بن قليج وولاية ابنه قليج أرسلان الان قورسن

ثم توفي مسعود بن قليج أرسلان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وملك مكانه ابنه قليج أرسلان فكانت بينه وبين باغي أرسلان بن الوانشمند وصاحب ملطية وما جاورها من ملك الروم حروب بسبب ان قليج أرسلان تزوج بنت الملك طليق بن علي بن أبي القاسم فزوجها إليه بجهاز عظيم وأغار عليه باغي أرسلان صاحب ملطية فأخذها بما معها وزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن الوانشمند أشار عليها بالردة لينفسخ النكاح ثم عادت إلى الإسلام وزوجها بابن أخيه فجمع قليج أرسلان عساكره وسار إلى باغي أرسلان بن الوانشمند فهزمه باغي أرسلان واستنجد ملك الروم فأمده بعسكر وسار باغي أرسلان خلال ذلك.

وولي إبراهيم ابن أخيه محمد وملك قليج أرسلان بعض بلاده واستولى أخوه ذو النون بن محمد الوانشمند على قيسارية وانفرد شاه بن مسعود أخو قليج أرسلان بمدينة أنكوريه وهي أنقرة واستقرت الحال على ذلك ثم وقعت الفتنة بين قليج أرسلان وبين نور الدين محمود بن زنكي وتراجعوا للحرب وكتب الصالح بن رزيق المتغلب على العلوي بمصر إلى قليج أرسلان ينهيه عن ذلك ثم هلك إبراهيم بن محمد الوانشمند وملك مكانه أخوه ذو النون وانتقض قليج أرسلان عليه وملك ملطية من يده والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين العادل إلى بلاد قليج أرسلان

ثم سار نور الدين محمود بن زنكي سنة ثمان وستين إلى ولاية أرسلان بن مسعود ببلاد الروم وهي ملطية وسيواس وأقصر فجهاد قليج أرسلان متصلاً معتذراً فأكرمه وثنى عزمه عن قصد بلاده ثم أرسل إليه شفيعاً قي ذي النون بن الوانشمند يرد عليه بلاده فلم يشفعه فسار إليه وملك مرعش ونهسنا وما بينهما في ذي القعدة من السنة وبعث عسكراً إلى سيواس فملكوها فمال قليج أرسلان إلى الصلح وبعث إلى نور الدين يستعطفه وقد بلغه عن الفرنج ما أزعجه فأجابته على أن يمدّه بالعساكر للغزو وعلى أن يبقى سيواس بيد نواب نور الدين وهي لذي النون بن الوانشمند ثم جاءه كتاب الخليفة بإقطاع البلاد ومن جملتها بلاد

أرسلان بالجزيرة فأتاهم خبر مقتله فأتصروا والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل قليج أرسلان وولاية ابنه مسعود

قد تقدم لنا استيلاء قليج أرسلان على الموصل وديار بكر وأعمالها وجلسه على التخت وأن جاولي سكاو وسار إلى منجار ثم سار منها إلى الرحبة وكان قليج أرسلان خب له بها صاحبها محمد بن السباق من بني شيبان بعد مهلك دقاق وانتقاضه على أبيه فلما حاصرها جاولي بعث إليه رضوان بن تتش صاحب حلب في النجدة على الإفرنج لما ساروا إلى بلاده فوعده لانقضاء الحصار وجاء رضوان فحضر عنده واشتد الحصار على أهل الرحبة وغدر بعضهم فأدخل أصحاب جاولي ليلاً ونهبوها إلى الظهر وخرج إليه صاحبها محمد الشيباني فاطاعه ورجع عنه.

وبلغ الخبر إلى قليج أرسلان فسار من الموصل لحرب جاولي واستخلف عليها ابنه ملك شاه صغيراً مع أمير يديره فلما انتهى إلى الخابور هرب عنه إبراهيم بن نبال صاحب آمد ولحق ببلده واعتزم قليج أرسلان على المطاولة واستدعى عسكره الذين أنجدهم ملك الروم على الإفرنج فجأؤوا إليه واغتسم جاولي قلة عسكره فلقية آخر ذي القعدة من السنة واشتدت الحرب وحمل قليج أرسلان على جاولي بنفسه وصرع صاحب الراية وضرب جاولي بسيفه ثم حمل أصحاب جاولي عليه فهزموه وألقى نفسه في الخابور فغرق وسار جاولي إلى الموصل فملكها وأعاد خطبة السلطان محمد وبعث إليه ملك شاه بن قليج أرسلان وولى مكان قليج أرسلان في قونية وأقصروا وسائر بلاد الروم ابنه مسعود واستقام له ملكها.

استيلاء مسعود بن قليج أرسلان على ملطية وأعمالها

كانت ملطية وأعمالها وسيواس لابن الوانشمند من التركمان كما مر وكانت بينه وبينهم حروب وهلك كمستكين بن الوانشمند وولي مكانه ابنه محمد واتصلت حروبه مع الإفرنج كما كان أبوه معهم ثم هلك سنة سبع وثلاثين فاستولى مسعود بن قليج أرسلان على الكثير منها وبقي الباقي بيد أخيه باغي أرسلان بن محمد.

قليج أرسلان وخلاط وديار بكر ولما مات نور الدين عادت سيواس لقليج أرسلان وطرد عنها نواب ذي النون.

مسير صلاح الدين لحرب قليج أرسلان

وردوا عليه ملطية ثم زاد تغلب ركن الدين وحجر عليه وقتل دائبه في مدينته وهو اختيار الدين حسن فخرج سائر بني عن طاعته وأخذ قطب الدين أباه وسار به إلى قيسارية ليملكها من أخيه فهرب قليج أرسلان ودخل قيسارية وعاد قطب الدين إلى قونية وأقصرها فملكهما وبقي قليج أرسلان يتنقل بين ولده من واحد إلى آخر وهم معرضون عنه حتى استنجد بغيث الدين كسنجار صاحب منهم فالتجده وسار معه إلى قونية فملكها ثم سار إلى أقصرا وحاصرها ثم مرض قليج أرسلان وعاد إلى قونية فتوفي فيها وقيل: إنما اختلف ولده عليه لأنه ندم على قسمة أعماله بينهم وأراد إثارة ابنه قطب الدين بجميعها وانتقضوا عليه لذلك وخرجوا عن طاعته وبقي يتردد بينهم وقصد كسنجار وصاحب قونية فأطاعه وخرج معه بالساكن لحصار محمود أخيه في قيسارية وتوفي قليج أرسلان وهو محاصر لقيسارية ورجع غياث الدين إلى قونية.

وفاة قليج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين

ثم توفي قليج أرسلان بمدينة قونية أو على قيسارية كما مر من الخلاف متصرف ثمان وثمانين لسبع وعشرين سنة من ملكه وكان مهيباً عادلاً حسن السياسة كثير الجهاد ولما توفي واستقل ابنه غياث الدين كسنجار بقونية وما إليها وكان قطب الدين أخوه صاحب أقصرا وسيواس وكان كلما سار من إحداهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود يتلقاه بظاهرها حتى استنم إليه مدة فغدر به وقتله وامتنع أصحابه بقيسارية وكان كبيرهم حسن فقتله مع أخيه ثم أطاعوه وأمكنوه من البلد ومات قطب الدين إثر ذلك.

استيلاء ركن الدين سليمان على قونية

وأكثر بلاد الروم وفرار غياث الدين

ولما توفي قليج أرسلان وولي بعده في قونية ابنه غياث الدين كسنجار وبنيه يومئذ على حالتهم في ولايتهم التي قسمها بينهم أبوهم وملك قطب الدين منهم قيسارية بعد أن غدر بأخيه محمود صاحبها ومات قطب الدين أثر ذلك فسار ركن الدين سليمان صاحب دوقا إلى التغلب على أعمال سلفه ببلاد الروم فسار إلى سيواس وأقصرها وقيسارية أعمال قطب الدين فملكها ثم سار إلى قونية فحاصر بها غياث الدين وملكها ولحق غياث الدين بالشام

كان قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم قد زوج بنته من نور الدين محمود بن قليج أرسلان بن داود بن سقمان صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر وأعطاه عدة حصون فلم يحسن عشرتها وتزوج عليها وهجر مضجعها وامتنع أبوها قليج أرسلان لذلك واعتزم على غزو نور الدين في ديار بكر وأخذ بلاده فاستجار نور الدين بصلاح الدين بن أيوب واستشفع به فلم يشفعه وتعلل بطلب البلاد التي أعطاه عند المصاهرة فامتنع صلاح الدين لذلك وكان يحارب الإفرنج بالشام فصالحهم وسار في عسكره إلى بلاد الروم وكان الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بالشام فعذل عنه ومر على تل باشر إلى زغبان ولقي بها نور الدين محمود صاحب كيفا وبعث إليه قليج أرسلان رسولا يقرر غدره بابتسه فاغتياظ على الرسول وتوعده بأخذ بلادهم فتلفظ له الرسول وخلص معه نجياً فقيح له ما ارتكبه من أجل هذه المرأة من ترك الغزو ومصالحة العدو وجمع العساكر وخساره وأن بنت قليج أرسلان لو بعثت إليه بعد وفاة أبيها تسأل منه النصفه بينها وبين زوجها لكان أحق ما تقصده فامتنعت وعلم أن على نفسه الحق فأمر الرسول أن يصلح بينهم ويكون هو عونا له على ذلك فداخلهم ذلك الرسول في الصلح على أن يطلق هذه المرأة بعد سنة ويعقد بينهم ذلك ورجع كل إلى بلده ووفى نور الدين بما عقد على نفسه والله سبحانه وتعالى أعلم.

قسمة قليج أرسلان أعماله بين ولده

وتغلبهم عليه

ثم قسم قليج أرسلان سنة سبع وثمانين أعماله بين ولده فأعطى قونية بأعمالها لغيث الدين كسنجار وأقصرها وسيواس لقطب الدين ودوقا لركن الدين سليمان وأنقرة وهي أنكورية لمحى الدين وملطية لعز الدين قيصر شاه ولغيث الدين وقيسارية لنور الدين محمود وأعطى تكسار وأماسا لابني أخيه وتغلب عليه ابنه قطب الدين وحمله على انتزاع ملطية من يد قيصر شاه فانتزعها ولحق قيصر شاه بصلاح الدين بن أيوب مستشفعاً به فأكرمه وزوجه ابنة أخيه العادل وشفع له عند أبيه وأخيه فشفعوه

مقتل غياث الدين كسنجار وولاية ابنه كيكائوس

ولما قتل غياث الدين كسنجار وولي بعده ابنه كيكائوس ولقبوه الغالب بالله وكان عمه طغرل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم طلب الأمر لنفسه وسار إلى قتال كيكائوس ابن أخيه وحاصره في سيواس وقصد أخوه كيقباد بن كسنجار بلد أنكورية من أعماله فاستولى عليها وبعث كيكائوس صريحه إلى الملك العادل صاحب دمشق فأنفذ إليه العساكر وأفرج طغرل عن سيواس قبل وصولهم فسار كيكائوس إلى أنكورية وملكها من يد أخيه كيقباد وحبسه وقتل أمراءه وسار إلى عمه طغرل في أرزن الروم فظفر به سنة عشر وقتله وملك بلاده.

مسير كيكائوس إلى حلب واستيلاؤه على بعض أعمالها ثم هزيمته وارتجاع البلد من يده

كان الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب قد توفي وملك بعده ابنه طفلاً صغيراً وكان بعض أهل حلب قد لحق بكيكائوس فراراً من الظاهر وأغراه بملك حلب وهون عليه أمرها وملك ما بعدها ولما مات الظاهر قوي عزمه وطعمه في ذلك واستدعى الأفضل بن صلاح الدين بن شمشاط للمسير معه على أن تكون الخطة لكيكائوس والولاية للأفضل في جميع ما يفتحونه من حلب وأعمالها فإذا فتحوا بلاد الجزيرة مثل حران والرها من يد الأشرف تكون ولايتها لكيكائوس وتعاقداً على ذلك وساروا سنة خمس عشرة فملكوا قلعة زغبان وتسلمها الأفضل على الشرط ثم ملكوا قلعة تل باشر فاستأثر بها كيكائوس وارتاب الأفضل ثم بعث ابن الظاهر صاحب حلب إلى الأشرف بن العادل صاحب الجزيرة وخلاط يستجده على أن يخطب له بحلب وينقش اسمه على السكة فسار لإنجاده ومعه أحياء طبع من العرب فنزل بظاهر حلب وسار كيكائوس والأفضل إلى منبج ولقيت طليعتهم طليعة الظاهر فاقتلوا وعاد عسكر كيكائوس منهزمين إليه فأجفل وسار الأشرف إلى زغبان وتل ناشر وبهما أصحاب كيكائوس فغلبيهم عليهما وأطلقهم إلى أصحابهم فأحرقهم بالنار وسلم الأشرف الحصنين إلى شهاب الدين بن الظاهر صاحب حلب وبلغه الخبر بوفاته أبيه الملك العادل بمصر فرجع عن قصد بلاد الروم.

كما يأتي خبره ثم سار إلى نكسار وأماسا فملكهما وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين فملكها من يد معز الدين قيصر شاه ولحق معز الدين بالعادل أبي بكر بن أيوب ثم سار إلى أرزن الروم وكانت لولد الملك محمد بن حليق من بيت ملك قديم وخرج إليه صاحبها ليقرر معه صلحاً فقبض عليه وملك البلد فاجتمع لركن الدين سائر أعمال إخوته ما عدا أنقرة لخصائنها فجمهر عليها الكتائب وحاصرها ثلاثاً ثم دس من قتل أخاه وملك البلد سنة إحدى وستمئة وتوفي هو عقب ذلك والله تعالى أعلم.

وفاة ركن الدين وولاية ابنه قليج أرسلان

ثم توفي ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان أوائل ذي القعدة من عام سنة إحدى وستمئة وولي بعده ابنه قليج أرسلان فلم تطل مدته وكان ركن الدين ملكاً حازماً شديداً على الأعداء إلا أنه ينسب إلى التزبن بالفلسفة والله تعالى أعلم.

استيلاء غياث الدين كسنجار على بلاد الروم من أخيه ركن الدين

كان غياث الدين كسنجار بن قليج أرسلان لما ملك أخوه ركن الدين قونية من يده لحق بحلب وفيها الظاهر غازي بن صلاح الدين فلم يجد عنده قبولاً فسار إلى القسطنطينية وأكرمه ملك الروم وأصهر إليه بعض البطارقة في ابنته وكانت له قرية حصينة في أعمال قسطنطينية فلما استولى الإفرنج على القسطنطينية سنة ستمئة لحق غياث الدين بقلعة صهره البطريق وبلغ إليه خبر أخيه تلك السنة وبعث إليه بعض الأمراء من قونية يستدعيه للملك فسار إليه واجتمعوا على حصار قونية وخرجت إليهم العساكر منها فهزموه ولحق ببعض البلاد فتحصن بها ثم قام أهل أقصرا بدعوته وطردها واليههم وبلغ الخبر إلى أهل قونية فثاروا بقلج أرسلان بن ركن الدين وقبضوا عليه واستدعوا غياث الدين فملكوه وأمكنوه من ابن أخيه وكان أخوه قيصر شاه قد لحق بصهره العادل أبي بكر بن أيوب فاستنصر به على أخيه ركن الدين عندما ملك ملطية من يده فأمر له بالرها واستفحل ملك غياث الدين وقصده علي بن يوسف صاحب شمشاط ونظام الدين بن أرسلان صاحب خرت برت وغيرهما وعظم شأنه إلى أن قتله أشكر صاحب قسطنطينية سنة سبع وستمئة والله تعالى ولي التوفيق.

الإفرنج قد ملك قلعة منها تسمى صنوبيا مطلة على بحر الخزر فحاصرها براً وبحراً وارتجعها المسلمون واللّه سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

فتنة كيغباد مع جلال الدين

كان صاحب أرزن الروم وهو ابن عم كيغباد صار إلى طاعة جلال الدين خوارزم شاه وحاصر معه خلطاء وفيها أهلك مولى الأشرف فملكها جلال الدين وقتل أهلك كما يأتي في أخباره فخافهما كيغباد صاحب الروم فاستنجد الملك الكامل وهو بخران فأمدّه بأخيه الأشرف من دمشق فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى كيغباد فلقبه بسواس واجتمعوا في خمسة وعشرين ألفاً وساروا من سيواس إلى خلطاء فلقبهم جلال الدين في نواحي أرزنكان فهاله منظرهم ومضى منهزماً إلى خلطاء ثم سار منها إلى أذربيجان فنزلوا عند خوي وسار الأشرف إلى خلطاء فوجد جلال الدين قد خربها فعادوا إلى بلادهم وترددت الرسل في الصلح فاصطلحوا.

مسير ابن أيوب إلى كيغباد وهزيمتهم

كان علاء الدين كيغباد قد استفحل ملكه ببلاد الروم ومدّ يده إلى ما يجاوره من البلاد فملك خلطاء بعد أن دافع عنها مع الأشرف بن العادل جلال الدين خوارزم شاه فنازعه الأشرف في ذلك واستصرخ بأخيه الكامل فسار في العساكر من مصر سنة إحدى وثلاثين وسار معه الملوك من أهل بيته وانتهى إلى النهر الأزرق من تخوم الروم وبعث في مقدمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقبه كيغباد وهزمه وحصره في خرت برت وكانت لبني أرتق ورجع الكامل بالعساكر إلى مصر سنة اثنتين وثلاثين وكيغباد في اتباعهم ثم سار إلى حران والرها فملكها من يد نواب الكامل وولى عليهما من قبله وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين فارتجعهما.

وفاة كيغباد وملك ابنه كنخسرو

ثم توفي علاء الدين كيغباد سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ابنه غياث الدين كنخسرو وقارن ذلك انقراض الدولة السلجوقية من ممالك الإسلام واختلال دولة بني خوارزم شاه وخروج التتر من مفازة الترك وراء النهر واستيلاء جنكزخان سلطانهم على الممالك وانتزاعها من يد بني خوارزم شاه وفر

وفاة كيكائوس وملك أخيه كيغباد

كان كيكائوس بعد الواقعة بينه وبين الأشرف قد اعترم على قصد بلاد الأشرف بالجزيرة واتفق مع صاحب آمد وصاحب أربل على ذلك وكانا يخطبان له ثم سار إلى ملطية يشغل الأشرف عن الموصل حتى ينال منها صاحب إربل ومرضى في طريقه فعاد ومات سنة ست عشرة وخلف بينه صغاراً وكان أخوه كيغباد محبوساً منذ أخذه من أنكورية فأخرجه الجند من محبسه وملكوه وقيل: بل أخرجه هو من محبسه وعهد إليه ولما ملك خالف عليه عمه صاحب أرزن الروم فوصل يده بالأشرف وعقد معه صلحاً.

الفتنة بين كيغباد وصاحب آمد من بني

أرتق وفتح عدة من حصونه

كانت الفتنة قد حدثت بين الأشرف صاحب الجزيرة والمعظم صاحب دمشق وجاء جلال الدين خوارزم من الهند سنة ثلاث وعشرين بعد هروبه أمام التتر فملك أذربيجان واعتضد به المعظم صاحب دمشق على الأشرف وظاهرهما الملك مسعود صاحب آمد من بني أرتق فأرسل الأشرف إلى كيغباد ملك الروم يستنجد على صاحب آمد والأشرف يومئذ محاصر لمباردين فسار كيغباد وأقام على ملطية وجهز العساكر من هناك إلى آمد ففتح حصوناً عدة وعاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف فكتب إلى كيغباد أن يرد عليه ما أخذه فامتنع فبعث عساكره إلى صاحب آمد مدداً على كيغباد وكان محاصراً لقلعة الكحنا فلقبهم وهزمهم وأثنى فيهم وعاد ففتح القلعة واللّه أعلم.

استيلاء كيغباد على مدينة أرزنكان

كان صاحب أرزنكان هذه بهرام شاه من بني الأحذب بيت قديم في الملك وملكها ستين سنة ولم يزل في طاعة قليج أرسلان وولده وتوفي فملك بعده ابنه علاء الدين داود شاه وأرسل عنه كيغباد سنة خمس وعشرين ليعسكر معه إليه وقبض عليه وملك مدينة أرزنكان وكان من حصونه كساح فامتنع نائبه فيه وتهدد داود شاه فبعث إلى نائبه فسلم له الحصن ثم قصد أرزن الروم وبها ابن عمر طغرل شاه بن قليج أرسلان فبعث بن طغرل شاه بطاعته للأشرف واستنجد نائبه بخلطاء حسام الدين علي فسار إليه فخام كيغباد عن لقائه وعاد من أرزنكان إلى بلاده فوجد العدو من

وفاة كيغباد وملك أخيه كيكافوس

ولما كثر عيث التتر الذين مع ييكو في مملكة علاء الدين كيغباد واعتزم على المسير إلى الخان الأعظم منكوخان يؤكد الدخول في طاعته ويقتضي مراسمه إلى ييكو ومن معه من المغل بالكف عن البلاد سار من قونية سنة خمس وخمسين ومعه سيف الدين طرنطاي من موالي أبيه واحتمل معه الأموال والهدايا وسار ووئب أخوه عز الدين كيكافوس على أخيه الآخر قليج أرسلان فاعتقله بقونية واستولى على الملك وكتب في إثر أخيه إلى سيف الدين طرنطاي مع بعض الأكابر من أصحابه أن يمكنه من الهدايا التي معهم يتوجه بها إلى الخان ويردوا علاء الدين فلم يدركوه حتى دخل بلاد الخان ونزل على بعض أمرائه.

فسعى ذلك الرسول في علاء الدين وطرنتاي بأن معهم سماً فكبسهم الأمير فوجد شيئاً من المجمودة فعرض عليهم أكلها فامتنعوا فتخيل تحقيق السعاية فسألوه إحضار الأطباء فآزالوا عنه الشك وبعث بهم إلى الخان ومات علاء الدين أثناء طريقه ولما اجتمعوا عند الخان اتفقوا على ولاية عز الدين كيكافوس وأنه أكبر وعقدوا له الصلح مع الخان فكتب له وخلع عليهم ثم كتب ييكو إلى الخان بأن أهل بلاد الروم قاتلوه ومنعوه العبور فأحضر الرسل وعرفهم الخبر فقالوا: إذا بلغناهم كتاب السلطان أذعنوا. فكتب الخان بتشريك الأميرين عز الدين كيكافوس وأخيه ركن الدين قليج أرسلان على أن تكون البلاد قسمة بينهما فمن سيواس إلى القسطنطينية غرباً لعز الدين ومن سيواس إلى أرزن الروم شرقاً المتصلة ببلاد التتر ركن الدين وعلى الطاعة وحمل الأنساء لمنكوخان ملكهم صاحب الكرسي بقراقوم ورجعوا إلى بلاد الروم وحملوا معه شلو قيقباد إلى أن دفنوه.

استيلاء التتر على قونية

ثم سار ييكو في عساكر المغل إلى بلاد الروم الثالثة فبعث عز الدين كيكافوس العساكر للقائه مع أرسلان ايدغمش من أمرائه فهزمه ييكو وجاء في اتباعه إلى قونية فهرب عز الدين كيكافوس إلى العللايا بساحل البحر فنزل ييكو على قونية وحاصرها حتى استامنوا إليه على يد خطيبهم ولما حضر إليه أكرمه ورفع منزلته وأسلمت امرأته على يده وأمن أهل البلد ثم سار هلاكو إلى بغداد سنة خمس وستين وبعث عن ييكو وعساكره من بلاد الروم بالحضور معه فاعتذر بالأكراد الذين في طريقه من الغراسلية

جلال الدين آخرهم إلى الهند ثم رجع واستولى على أذربيجان وعراق العجم وكان بنو أيوب يومئذ بممالك الشام وأرمينية كما نذكر ذلك كله في أماكنه إن شاء الله تعالى.

وانتشر التتر في سائر النواحي وعاثوا فيها وتغلبوا عليها واستفحل ملكهم فسارت منهم طوائف إلى بلاد الروم سنة إحدى وأربعين فبعث غياث الدين كنخسرو بالصريح إلى بني أيوب وغيرهم من الترك في جواره وجاء المدد من كل جانب فسار للقائهم ولقيتهم المقدمة على قشمر زنجان فانهزمت المقدمة ووصلوا إليه فانهزم ونجا بعباله وذخيرته إلى مدينة على مسيرة شهر من المعترك ونهبوا سواده وخلفه وانتشروا في نواحي بلاد الروم وعاثوا فيها وتحصن غياث الدين بهذه المدينة واستولى التتر على خلاط وأمد ثم استامن لهم غياث الدين ودخل في طاعتهم واستقامت أموره معهم إلى أن مات قريباً من رجوعه وملك التتر قيسارية والله أعلم.

وفاة غياث الدين وولاية ابنه كيغباد

ثم توفي غياث الدين كنخسرو سنة أربع وخمسين وترك ثلاثاً من الولد أكبرهم علاء الدين كيغباد وعز الدين كيكافوس وركن الدين قليج أرسلان وولي علاء الدين كيغباد بعهدته إليه وكان يخطب لهم جميعاً وأمروهم واحد وكان جنكزخان ملك التتر قد هلك وكان كرسي سلطانهم بقراقوم وولي مكانه ابنه طلوخان وجلس على كرسيه وهو الخان الأعظم عندهم وحكمه ماض في ملوك الشمال والعراق من أهل بيته وسائر عشيرته ثم هلك طلوخان وولي مكانه في كرسيه ابنه منكوخان فبعث أخاه هلاكو لفتح العراق وبلاد الإسماعيلية سنة خمسين وستمائة فسار لذلك وملك العراقيين وبغداد ثم جرد الخان الأعظم منكوخان إلى بلاد الروم سنة أربع وخمسين أميراً من أمراء المغل اسمه ييكو في العساكر فسار إلى أرزن الروم وبها سنان الدين ياقوت مولى السلطان علاء الدين فحاصرها شهرين ونصب عليها المجانيق ثم ملكها عنوة وأسر ياقوت واستلمه الجند بأسرهم واستبقى الباعة والصناع ثم سار إلى بلاد الروم فملك قيسارية ومسيرة شهر معها ورجع ثم عاد سنة خمس وخمسين وعاث في البلاد واستولى على أكثر من الأولى والله تعالى أعلم.

خبر عز الدين كيكائوس

ولما انهزم عز الدين كيكائوس ولحق بالقسطنطينية أحسن إليه غيايل الشكري صاحب قسطنطينية وأجرى عليه الرزق وكان معه جماعة من الروم أخواله فحدثهم أنفسهم بالثورة وغلب القسطنطينية ونمي ذلك عنهم فقبض الشكري عليه وعلى من معه واعتقله ببعض القلاع ثم وقعت بين الشكري وبين منكوعر بن طغان ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكزخان فتنة وغزا منكوعر القسطنطينية وعاث في نواحيها فهرب إليه كيكائوس من محبه فمضى معه إلى كرسية بصراي فمات هنالك سنة سبع وسبعين وخلف ابنه مسعوداً وخطب منكوعر ملك صراي أمه فمنعها وهرب عنه ولحق بأبقا بن هلاكو ملك العراق فأحسن إليه وأقطع سيواس وأرزن الروم وأرزنكان فاستقر بها.

مقتل ركن الدين قليج أرسلان وولاية ابنه

كنخسرو

كان معين الدين سليمان البرنواه قد استبد على ركن الدين قليج أرسلان ثم تنكر له ركن الدين فخاف سليمان البرنواه على مكان أخيه عز الدين كيكائوس بالقسطنطينية أن يحدث فيه أمراً فلما بلغه خبر كيكائوس واعتقاله بالقسطنطينية أحكم تدبيره في ركن الدولة فقتله غيلة ونصب للملك ابنه غياث الدين في كفالته وتحت حجره واستقل بملك بلاد الروم واستقامت أموره والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر ملك مصر على قيسارية

ومقتل البرنواه

كان هلاكو قد زحف إلى الشام سنة ثمان وخمسين مراراً وزحف ابنه إيقا كذلك وقتلهم الملك الظاهر صاحب مصر والشام وكان كثيراً ما يخالفهم إلى بلادهم فدخل سنة خمس وسبعين إلى بلاد الروم وأميرها يومئذ من التتر طغا وأمه أبقا بأميرين من التتر وهما كداون وترقوا لحماية بلاد الروم من الظاهر فزحفوا إلى الشام وسار إليهم الظاهر من مصر في مقدمته سقر الأسقر فلقيت مقدمته مقدمتهم على كوكصو فانهزم التتر وتبعهم الظاهر والتقى الجمعان على إيليش فانهزموا ثانية وأنخن فيهم الظاهر بالقتل والأسر إلى قيسارية فملكها وكان البرنواه قد دس

والباروقية فبعث إليهم هلاكو العساكر فأجفلوا وانتهت العساكر إلى أذربيجان وقد أجفل أهلها أمام الأكراد فاستولوا عليها ورجعوا صعبة ييكو إلى هلاكو فحضر معه فتح بغداد وقد مر خبرها في أخبار الخلفاء.

ويأتي في أخبار هلاكو ونبال أن ييكو لما بعث عنه هلاكو لم يحضر معه فتح بغداد واستمر على غدره فلما انقضى أمر بغداد بعث إليه هلاكو من سقاء السم فمات لأنه اتهمه بالاستبداد ثم سار هلاكو بعد فتح بغداد إلى الشام سنة ثمان وخمسين وحاصر حلب وبعث عن عز الدين كيكائوس وركن الدين قليج أرسلان وعن معين الدين سليمان البرنواه صاحب دولتهم. وكان من خبره أن أباه مهذب الدين علي من الديلم وطلب العلم ونبح فيه ثم تعرض للوزير سعد الدين المستوفي أيام علاء الدين كيغباد يسأله إجراء رزقه وكان وصافاً فاستحسنه وزوجه ابنته فولدت سليمان ونشأ في الدولة ومات سعد الدين المستوفي فرقى السلطان مهذب الدين إلى الوزارة وألقى إليه بالمقاليد وتوفي مهذب الدين وترقى ابنه سليمان مهذب الدولة وكان يلقب معين الدين وترقى في الرتب إلى أن ولي الحجابة وكان يدعي البرنواه ومعناه الحجاب بلغتهم وكان مختصاً بركن الدين فلما حضر معهما عند هلاكو كما قلناه حلا بعينه وقال لركن الدين: لا يأتيني في أموركم إلا هذا. فرقت حاله إلى أن ملك بلاد الروم أجمع.

الفتنه بين عز الدين كيكائوس وأخيه قليج

أرسلان واستيلاء قليج أرسلان على الملك

ثم وقعت الفتنة سنة تسع وخمسين بين عز الدين كيكائوس وأخيه ركن الدين قليج أرسلان وسار ركن الدين ومعه البرنواه إلى هلاكو يستمده على أخيه فأمدته بالعساكر وحارب أخاه فهزمه عز الدين أولاً ثم أمدته هلاكو فانهزم عز الدين ولحق بالقسطنطينية واستولى ركن الدين على سائر الأعمال وهرب التركمان إلى أطراف الجبال والنفور والسواحل وبعثوا إلى هلاكو يطلبون الولاية منه على أحيائهم فولاهم وأذن لهم في اتخاذ الآلة فصاروا ملوكاً من جيتند وكان محمد بك أميرهم وأخوه علي بك رديفه فاستدعى هلاكو محمد بك فلم يأت فامر قليج أرسلان وعساكر التتر الذين معه بقتاله فصاروا وقتلوه فانهزم ثم استامن إلى السلطان ركن الدين فأمنه وجاء به إلى قونية فقتله واستقر علي بك أميراً على التركمان وأورثها بنيه واستولى التتر على البلاد إلى أن كان ما سنذكره إن شاء الله.

داود أخو ألب أرسلان وداود أخو طغرليک كما مر ولقب إسماعيل قطب الدولة وكان له مولی ترکی اسمه سكمان بالكاف والقاف وكان ينسب إليه فيقال: سكمان القطبي وكان شهماً عادلاً في أحكامه وكانت خلاط وأرمينية لبني مروان ملوک ديار بكر وكانوا في آخر دولتهم قد اشتد عسفهم وظلمهم وساء حال أهل البلد معهم فاجتمع أهل خلاط وكاتبوا سكمان واستدعوه ليملكوه عليهم فصار إليهم سنة اثنين وخمسمائة إلى ميفارقين من ديار بكر فحاصرها حتى استأمنوا إليه وملكها.

ثم أمر السلطان محمد شاه بن ملك شاه الأمير مودود بن مزيد بن صدقة صاحب الموصل بغزو الإفرنج وانتزاع البلاد من أيديهم وأمر أمراء الثغور بالمسير معه فصار معه برسق صاحب همذان وأحمد بك صاحب مراغة وأبو الهيجاء صاحب إربل وأبو الغازي صاحب ماردين وسقمان القطبي صاحب ديار بكر فساروا لذلك وفتحوا عدة حصون وحاصروا الرها فامتعت عليهم ثم تلّ باشر كذلك واستدعاهم رضوان بن تتش صاحب حلب فلما ساروا إليه امتنع من لقاءهم ومرض سكمان القطبي هنالك فرجع عنهم وتوفي في طريقه ببالس وافتقرت العساكر وملك خلاط وبلاد أرمينية بعد مهلكه ابنه ظهير الدين إبراهيم وسار فيهم بسيرة أبيه إلى أن هلك سنة إحدى وعشرين وملك بعده أخوه أحمد بن سكمان عشرة أشهر ثم توفي فنصب أصحابه للملك بأرمينية وخلاط شاه أرمن سكمان ابن أخيه إبراهيم بن سكمان صبيّاً دارجاً واستبدت عليه جدته أم إبراهيم ثم أزمعت قتله فقتلها أهل الدولة وعمد سنة ثمان وعشرين واستبد شاه أرمن وكانت بينه وبين الكرج وقائع وساروا سنة ست وخمسمائة إلى مدينة أنى من أعمال أران فاستباحوها وسار إليهم في العساكر فهزموه ونالوا منه وكانت عنده أخت طليق بن علي صاحب أرزن الروم ووقعت بينه وبين الكرج حرب فانهزم طليق وأسر وبعث شاه أرمن إلى ملك الكرج وفادى طليقاً ورده إلى ملكه بأرزن.

ثم استولى صلاح الدين بن أيوب على مصر والشام واستفحل ملكه وكاتبه مظفر الدين كوكبري وأغراه بملك الجزيرة ووعده بخمسين ألف دينار وسار صلاح الدين إلى سنجار فحاصرها وهو يجمع المسير إلى الموصل وبها يومئذ عز الدين مودود بن زنكي فاستنجد بشاه أرمن صاحب خلاط فبعث شاه أرمن مولاة مكتمر إلى صلاح الدين شفيعاً في صاحب الموصل ووفد عليه وهو محاصر لسنجار ولم يشفعه صلاح الدين فرجع عنه مغاضباً وسار شاه أرمن لقتاله واستدعى قطب الدين نجم الدين إلى صاحب ماردين وهو ابن أخيه وابن خال عز الدين وحضر

إليه واستحثه للوصول إلى بلاده فأقام الظاهر على قيسارية ينتظره وبلغ ملك التتر إيقا خبر الواقعة فزحف في جموع المغل إلى قيسارية بعد منصرف الظاهر إلى بلاده فلما وقف على مصارع قومه وجد على البرنواه وصدقت عنه السعاية فيه وأنه الذي استحث الظاهر لأنه لم ير في المعركة مصرع أحد من بلاد الروم ورجع إلى معسكره ومعه سليمان البرنواه واستبد بملكه واللّه تعالى ولي التوفيق وهو نعم الرفيق لا رب سواه ولا معبود إلا إياه سبحانه.

خلع كنخسرو ثم مقتله وولاية مسعود ابن عمه كيكائوس

كان قنطغرطاي بن هلاكو مقيماً ببلاد الروم مع غياث الدين كنخسرو وملك بلاد الروم وصار أمير المغل بها منذ عهد أبقا ولي أحمد تكرار بن هلاكو بعد أخيه أبقا بعث عن أخيه قنطغرطاي فامتنع من الوصول إليه خشية على نفسه ثم حمله غياث الدين على إجابة أخيه وسار معه فقتل تكرار أخاه قنطغرطاي واتهم المغل غياث الدين بأنه علم برأي تكرار فيه واعتمد فلما ولي أرغون بن إيقا بعد تكرار عزل غياث الدين عن بلاد الروم وحبسه بأرزنكاي وولى مكانه على المغل ببلاد الروم هولاكو وذلك سنة اثنين وثمانين وأقام مسعود ملكاً ببلاد الروم سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأصابه الفقر والحل أمره وبقي الملك بها للتتر ثم فشل أمرهم واضمحلت دولتهم إلا بقايا بسيواس من بني أرنا ملوك دمرداش بن جومان واستولى التركمان على تلك البلاد أجمع وأصبح ملكها لهم واللّه غالب على أمره يؤتي الملك من يشاء وهو العزيز الحكيم.

ملوك قونية من بلاد الروم وملكها من أيديهم التتر

الخبر عن بني سكمان موالي السلجوقية
ملوك خلاط وبلاد أرمينية ومصر الملك إلى
مواليهم من بعدهم ومباذي أمرهم
وتصاريف أحوالهم

كان صاحب مزيد من أذربيجان إسماعيل بن ياقوتي بن

المسلجوقية وقد زوج ابنته من شاه أرمن طمعاً في ملك خلاط فلما توفي شاه أرمن سار إليها في عساكره فكاتب أهل خلاط صلاح الدين بن أيوب ودافعوا كلاهما بالآخر وسار صلاح الدين في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما ونزلوا قريباً من خلاط فتردد الرسل من صلاح الدين ومن شمس الدين البهلوان إلى أهل خلاط وهم يدافعون الفريقين وكان قد بلغه وفاة صاحبها قطب الدين وإن يرتش نصب ابنه طفلاً صغيراً واستبد عليه فسار صلاح الدين إليها وحاصرها حتى تسلمها على الأمان وأقام مكتمر أميراً بخلاط وطالت مدته وجرت بينه وبين صلاح الدين فتن وحروب إلى أن توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين ف أظهر الشمامسة به وتسمى عبد العزيز وتلقب سيف الدين وتوفي أثر ذلك واللّه تعالى أعلم.

وفاة مكتمر وولاية أقسنقر

كان مكتمر لأول ولايته قد اختص أقسنقر من موالي شاه أرمن وتلقب هزارديناري وزوجه ابنته وجعله أنابكه فأقام على ذلك مدة ثم استوحش من مكتمر وتربص به حتى إذا توفي صلاح الدين تجهز مكتمر من ميفارقين فامكتته فيه الفرصة لعشر سنين من ولايته وذلك بعد وفاة صلاح الدين بشهرين واستبد بملك خلاط وأرمينية واعتقل ابن مكتمر وأمه في بعض القلاع واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة أقسنقر وولاية محمد بن مكتمر

ثم هلك أقسنقر صاحب خلاط وأرمينية سنة أربع وتسعين لخمس سنين من ملكه وقام بملك خلاط بعده حجر اشتد قتلخ الأرمني ولم يرضه خلاط فوثبوا به لسبعة أيام من ولايته وقتلوه واستدعوا محمد بن مكتمر من محبسه وملكوه ولقبوه الملك المنصور وقام بدولته شجاع الدين قتلخ الففجائي ودادار شاه أرمن وأقام تحت استبداده إلى سنة ثلاث وستمئة ثم دير الدوادار وقبض عليه وكان حسن السيرة فاستوحش لذلك الجند والعامّة وعكف بعد نكبة الدوادار على لذاته فاجتمع أهل خلاط والجند وكبيرهم بلبان مملوك شاه أرمن وكتبوا إلى أرتق بن أبي الغازي بن الي صاحب ماردين يستدعونه للملك بما كان ابن أخت شاه أرمن وجاهر بلبان بالعصيان إلى ملاذكرد واجتمع الجند عليه.

معه دولة شاه بن طغرل شاه بن قلیچ أرسلان صاحب.

وسار سنة ثمان وسبعين وقد ملك صلاح الدين سنجان وافترقت العساكر فلما بلغه مسيرهم بعث عن تقي الدين ابن أخيه شاه من حماة فوافاه سريعاً ورحل إلى رأس عين الموصل وافترقت جموعهم وسار صلاح الدين إلى ماردين فعث في نواحيها ورجع ثم سار إلى الموصل آخر إحدى وثلاثين وعبر إلى الجزيرة وانتهى إلى حران ولقيه مظفر الدين كوكبري بن زين الدين ولم يف له بالخمسين ألفاً التي وعده بها وأخذ منه حران والرها ثم أطلقه بما نفذ من مكاتبته وأعاد عليه بلدته وسار من حران فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ولقيه سنجان شاه صاحب الجزيرة ابن أخي عز الدين مودود مفارقاً لطاعة عمه وسار معه إلى الموصل.

ولما انتهى إلى مدينة الأبله بعث إليه عز الدين ابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة راغبين في الصلح فأكرمهم واستشار أصحابه من أعيان الدولة فأشار علي بن أحمد المشطوب كبير الهكارية بالامتناع من ذلك فردهم صلاح الدين واعتذر وسار فنزل على فرسخين من الموصل واشتدوا في مدافعتهم فامتنعوا عليه فندم على عدم الصلح ورجع على علي المشطوب ومن واقفه باللائمة وخاطبه القاضي الفاضل البيهقي من مصر وعزله في ذلك وجاء زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فتلقاهما بالكرمة وأنزلهما مع الحشود الوافدة بالجانب الشرقي وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فحاصرها واجتمع عليه الأكراد ولم يزل محاصراً لها حتى عاد صلاح الدين من الموصل وأقام صلاح الدين على حصارها مدة وبلغ عز الدين أن نأيه بالقلعة يكتبه بمنعه من الصعود إليها وكان يقتدي برأي مجاهد الدين وبعثه في الصلح فسعى فيه إلى أن تحمله ووصل صلاح الدين إلى ميفارقين.

وفاة شاه أرمن سكمان وولاية مكتمر مولى أبيه

أبيه

ثم توفي شاه أرمن سكمان بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط سنة ست وسبعين وكان مكتمر مولى أبيه ميفارقين فأسرع الوصول بمن معه من المماليك واستولى على كرمسي بني سكمان وولى على ميفارقين أسد الدين برتقش من موالي شاه أرمن وكان البهلوان بن إيلدكز صاحب أذربيجان وهمذان مر بقائد مملوك

نكبة ابن مكرم واستيلاء بلبان على خلاط وأعمالها

ولما ملك بلبان مدينة ملاذكرد وأعمالها واجتمع عليه الجند وسار يريد خلاط ووصل أرتق بن أبي الغازي صاحب ماردين لموعدهم ونزل قريباً من خلاط فبعث إليه بلبان أن الجند والرعية اتهموني فيك فارجع وإذا ملكت البلد سلمته إليك فتتح قليلاً فبعث إليه يتوعده على مقاتله وبطشه فعاد إلى ماردين وكان الأشرف موسى بن العادل بن أيوب صاحب الجزيرة وحران لما سمع بمسير أرتق إلى خلاط طمع فيها لنفسه وخشني أن يزداد بملكها قوة عليهم فخالفه إلى ماردين وأقام بتدليس وجبى ديار بكر حتى استوعبها وعاد إلى حران.

ثم جمع بلبان العساكر وسار إلى خلاط فحاصرها وبرز ابن مكرم فيمن عنده فانهزم بلبان وعاد إلى ولايته بملاذكرد وأرجش وغيرها ثم جمع ورجع إلى خلاط فحاصرها وضيق عليها وابن مكرم عاكف على لذاته فلما جهدهم الحصار ثاروا به وقبضوه ومكنوا بلبان منه ودخل إلى خلاط واستولى عليها وعلى سائر أعمالها وحبس ابن مكرم في قلعة هناك واستبد بملكها وكان الأوحدهم نجم الدين أيوب بن العادل بن أيوب قد ولي على ميفارقين من قبل أبيه إلى خلاط سنة أربع وستمئة وقصد مدينة سوس وحاصرها وملك ما يجاورها وعجز بلبان عنه ثم ملك سوس وقصد خلاط فبرز له بلبان وهزمه فعاد إلى ميفارقين وجمع واستمد أباه العادل فأمده بالعساكر ونهض إلى خلاط فبرز له بلبان ثانية وهزمه الأوحده وحاصره في خلاط فبعث بلبان إلى طغرل يستنجد فانهزم الأوحده أمامهما وسار بلبان مع طغرل إلى مراه فحاصرها وغدر به طغرل وقتله وسار إلى خلاط فمنعه أهلها فسار إلى ملاذكرد فمنعوه كذلك فعاد إلى أرزن.

وأرسل خلاط بطاعتهم إلى الأوحدهم نجم الدين فجاء وملك خلاط واستولى على أعمالها وزحف الكرج فأغاروا على خلاط وعاثوا في نواحيها والأوحدهم مقيم بخلاط لم يفارقها وانتقض عليه جماعة من العسكر محصن رام وساروا إلى مدينة أرجش فملكوها واجتمع إليهم المفسدون وبعث نجم الدين إلى أبيه العادل يستنجد فأمده بابنه الآخر شرف الدين موسى فحاصر حصن رام حتى استأمن إليه من كان به من الجند ورجع الأشرف إلى عمله بجران والرها واستقر نجم الدين بخلاط ثم سار إلى ملاذكرد لبطالعه أمورها ومجدها فنار أهل خلاط بعسكره فأخرجوه وحصبوا

أصحاب نجم الدين بالقلعة ونادوا بشعار شاه أرمن وقومه فرجع الأوحده ولقاه عسكر الجزيرة وحاصر خلاط ثم اختلف أهلها فدخلها عليهم عنوة واستباحها ونقل جماعة من أعيانها إلى ميفارقين وقتل كثيراً منهم هنالك واستكان أهل خلاط بعدها وانمحي منها حكم الماليك بعد أن كانوا مستحكمين فيها يولون ملوكها ويخلعونهم وانقرضت دولة بني سكرمان من خلاط وصارت لبني أيوب والبقاء لله وحده والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وإليه المرجع.

آخر دولة السلجوقية بخلاط وأرمينية وقد وملكها منهم بنو أيوب.

أخبار الإفرنج فيما ملكوه من سواحل

الشام وثغوره وكيف تغلبوا عليه وبداية أمرهم في ذلك ومصائرهم

قد تقدم لنا أول الكتاب الكلام في أنساب هذه الأمة عند ذكر أنساب الأمم وأنهم من ولد يافث بن نوح ثم من ولد ريفات بن كورم بن يافث إخوة الصقالبة والخزر والترك.

وقال هروشيوش: إنهم من عصر ابن غورم.

وأما مواطنهم من بلاد المعمور فلأنهم من شمالي البحر الرومي من خليج رومة إلى ما وراء النهر غرباً وشمالاً وكانوا أولاً يدينون لليونان والروم بالطاعة عند استفحال أمرهم فلما انقرضت دولة أولئك استقل هؤلاء الإفرنج بملكهم وافترقوا دولاً مثل دولة القوط بالأندلس والجلالة بعدهم وملك اللمانين - بالتفخيم - من جزيرة انكلطرة بالبحر المحيط الغربي الشمالي وما يجاذيه ويقابله من المعمور ومثل ملوك إفرنسة وهو عندهم اسم إفرنجة بعينه والجيم ينطقون بها سناً وهم ما وراء خليج رومة غرباً إلى الثنايا المقضية إلى جزيرة الأندلس في الجبل المحيط من شرقها وتسمى تلك الثنايا البردت وكانت دولة هؤلاء الإفرنس منهم من أعظم دولهم واستفحل أمرهم بعد الروم وصدرت من دولة الإسلام العربية فسموا إلى ملك بلاد المشرق من ناحيتها وتغلبوا على جزر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة وكان ملكهم لذلك العهد بردويل فبعث رجلاً من ملوكهم إلى صقلية وملكها من يد المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة ثم سموا إلى ملك ما وراء النهر من إفريقية وبلاد الشام والاستيلاء على بيت المقدس وطال ترددهم في ذلك.

فصالحهم ابن منقذ عليها وساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم عليها جناح الدولة وساروا إلى عكا فامتعت عليهم وكان بيت المقدس قد ملكه السلجوقية وصار لتاج الدولة تتش وأقطعه لسكمان بن أرتق من التركمان فلما كانت واقعة الإفرنج بأنطاكية طمع أهل مصر فيهم وسار الأفضل بن بدر الجمال المستولي العلويين بمصر إلى بيت المقدس وبها سكمان وأبو الغازي ابنا أرتق وابن عمهما سوع وابن أخيهما ياقوتي فحاصروه نيفاً وأربعين يوماً ونصبوا عليه نيفاً وأربعين منجنيقاً وملكوه بالأمان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وأحسن الأفضل إلى سكمان وأبي الغازي وأصحابهما وسرحهم إلى دمشق وعبروا الفرات.

وأقام سكمان بالرها وسار أبو الغازي إلى العراق واستناب الأفضل عليها اقتنار الدولة الذي كان بدمشق فقصده الإفرنج بعد أن حاصروا عكا وامتعت عليهم فحاصروه أربعين ليلة وافترقوا على جوانب البلد فملكوها من الجانب الشمالي آخر شعبان من السنة واستباحوها وأقاموا فيها أسبوعاً واعتصم بعض المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثاً حتى استأمنوا ولحقوا بمسقلان وأحصى القتلى من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين بالمسجد فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون وأخذ من المناور المعلقة عند الصخرة أربعون قنديلاً من الفضة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة وستون درهماً من الفضة زنته أربعون رطلاً بالشامي ومائة وخمسون قنديلاً من الصغار وما لا يحصى من غير ذلك.

وجاء الصريح إلى بغداد صحة القاضي أبي سعيد الهروي ووصف في الديوان صورة الواقعة فكثر البكاء والأسف ووسم الخليفة بمسير جماعة من الأعيان والعلماء فيهم القاضي أبو محمد الدماغاني وأبو بكر الشاشي وأبو الوفاء بن عقيل إلى السلطان بركيارق يستصرخونه للإسلام فساروا إلى حلسوان وبلغهم اضطراب الدولة السلجوقية وقتل محمد الملك ألب أرسلان المتحكم في الدولة واختلاف السلاطين فعادوا وتكن الإفرنج من البلاد ولولوا على بيت المقدس كنفري من ملوكهم.

ثم استحثهم وحرضهم عليه فيما يقال خلفاء العبيديين بمصر لما استفحل ملك السلجوقية وانتزعوا الشام من أيديهم وحاصروهم في مصر فيقال: إن المستنصر منهم دس إلى الإفرنج بالخروج وتسهل أمرهم عليه ليحولوا بين السلجوقية وبين مرامهم فتجهز الإفرنج لذلك وجعلوا طريقهم في البر على القسطنطينية ومنعهم ملك الروم من العبور عليه من الخليج حتى شرط عليهم أن يسلموا له أنطاكية لكون المسلمين كانوا أخذوها من ممالكهم فقبلوا شرطه وسهل لهم العبور في خليجه فأجازوا سنة تسعين وأربعمائة في العدد والعدة.

وانتهوا إلى بلاد قليج أرسلان وجمع للقائهم فهزموه وفر بلاد ابن اليون الأرمني ووصلوا أنطاكية وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فحاصروها بها وخذلوا صاحب حلب ودمشق على صريخه بأن لا يقصدوا غير أنطاكية فأسلموه حتى ضاق به الحصار وغدر به بعض الحامية فملك الإفرنج البلاد وهرب باغيسيان فقتل وحمل إليهم رأسه وكان ملوكهم الحاضرون لذلك خمسة: بردويل وصنجيل وكبريري والقمص وأسند وهو مقدم العساكر فردوا إليه أمر أنطاكية وبلغ الخبر إلى المسلمين فسافروا إليهم شرقاً وغرباً.

وسار قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل وجمع عساكر الشام وسار إلى دمشق فخرج إليهم دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان صاحب سنجار وسكمان أرتق وغيرهم من الأمراء وزحفوا إلى أنطاكية فحاصروها ثلاثة عشر يوماً ووهن الإفرنج واشتد عليهم الحصار لما جاءهم على غير استعداد وطلبوا الخروج على الأمان فلم يسعفوا ثم اضطرب أمر عساكر المسلمين وأساء كربوقا السيرة فيهم وأزمعوا من استكثاره عليهم فخرج الإفرنج إليهم واستأمنوا فتخاذل المسلمون وانهزموا من غير قتال حتى ظنوها الإفرنج مكيدة فتقاعدوا عن اتباعهم واستشهد من المسلمين ألف واللّه تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على معرة النعمان ثم على

بيت المقدس

ولما حصلت للإفرنج هذه النكاية في المسلمين طمعوا في البلد وساروا إلى معرة النعمان وحاصروها واشتد القتال في أسوارها حتى داخل أهلها الجزع فتحصنوا بالدور وتركوا السور فملكه الإفرنج ودخلوا عليهم فاستباحوها ثلاثاً وأقاموا بها أربعين يوماً ثم ساروا إلى غزة وحاصروها أربعة أشهر وامتعت عليهم

عساكر مصر وحرب الإفرنج مسير

العساكر من مصر لحرب الإفرنج

لما بلغ خبر الواقعة إلى مصر جمع الأفضل الجيوش والعساكر واحتشد وسار إلى عسقلان وأرسل إلى الإفرنج بالتكبير والتهديد فأعادوا الجواب ورحلوا مسرعين فكبسوه بعسقلان على

ثم عادوا إليه فهزمهم وأسر ملكهم كبرائيل وفادى نفسه منه بمال عظيم ثم ابن صليحة وجهده الحصار فأرسل إلى طغركين صاحب دمشق ويعث ابن عمار في طلبه إلى الملك دقاق على أن يدفعه إليه بنفسه دون ماله ويعطيه ثلاثين ألف دينار فلم يفعل وسار ابن صليحة إلى بغداد فوعده إلى وصول رحلة من الأنبار فبعث الوزير من استولى عليها فوجد فيها ما لا يحصى من الملابس والعنائم والمتاع وانتزع ذلك كله ولما ملك تاج الملوك جيلة أساء فيها السيرة فراسلوا فخر الملك أبا علي بن عمار صاحب طرابلس واستدعوه للمكها فبعث إليهم عسكرياً وقاتلوا تاج الملك ومن معه فهزموه وأخذوه أسيراً وملكوا جيلة بدعوة ابن عمار وحملوا تاج الملك إلى ابن عمار فأحسن إليه وبعث إلى أبيه بدمشق واعتذر له بأنه خاف على جيلة من الإفرنج.

استيلاء الإفرنج على سروج وقيسارية

وغيرهما

ثم سار كبريري ملك الإفرنج من بيت المقدس سنة أربع وتسعين لحصارها فاصابه منهم سهم قتلته فسار أخوه بقديوس في خمسمائة فارس إلى القدس ونهض دقاق صاحب دمشق ومعه جناح الدولة صاحب محمص لاعتراضه فهزموا الإفرنج وأثخنوا فيهم ثم كاتب أهل مدينة الإفرنج وكان أكبرهم ودخل في طاعتهم وكان سقمان بن ارتق صاحب سروج جمع جموعه من التركمان وسار إلى الرها فلقبه الإفرنج وهزموه في ربيع سنة أربع وتسعين وساروا إلى سروج فحاصروهم حتى ملكوها عنوة واستباحوها ثم ملكوا حصن كيفا بقرب عكا عنوة وملكوا أرسوف بالأمان ثم ساروا في رجب إلى قيسارية فملكوها عنوة واستباحوها والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

حصار الإفرنج طرابلس وغيرها

كان صنجيل من ملوك الإفرنج المذكورين قبل قد لازم حصار طرابلس وزحف إليه قليج أرسلان صاحب بلاد الروم فظفر به وعاد صنجيل مهزوماً فأرسل الدولة بن عمار صاحب طرابلس إلى أمير آخر نائب جناح الدولة بمحمص إلى دقاق بن تش يدعوه إلى معالجته فجاء تاج الدولة بنفسه وجاء العسكر مدداً من عند دقاق واجتمعوا على طرابلس وفرق صنجيل الفل الذين معه على قتالهم فانهزموا كلهم وقتك هو في أهل طرابلس وشد

غير أهبة فهزموه واستلحموا المسلمين ونهبوا سوادهم ودخل الأفضل عسقلان وافترق المنهزمون واستبدوا بنحر الحمير ووصل الأفضل من عسقلان إلى مصر ونازلها الإفرنج حتى صانع أهلها الإفرنج بعشرين ألف دينار وعادوا إلى القدس.

إيقاع ابن الدانشمند بالإفرنج

كان كمستكين بن الدانشمند من التركمان ويعرف بطابوا ومعنى الدانشمند المعلم كان أبوه يعلم التركمان وتقليت به الأحوال حتى ملك سيواس وغيرها وكان صاحب ملطية يعاديه فاستنجد عليه اسمند صاحب أنطاكية فجاءه في خمسة آلاف وسار إليه ابن الدانشمند وأسرته ثم جاء الإفرنج إلى قلعة أنكوربه فملكوها وقتلوا من بها من المسلمين ثم حاصروا إسماعيل بن الدانشمند فلقبهم كمستكين وهزمهم واستلحمهم وكانوا ثلثمائة ألف ثم ساروا إلى ملطية فملكوها وأسرُوا صاحبها وزحف إليه اسمند من أنطاكية في الإفرنج فهم بهم ابن الدانشمند فأتاح الله للمسلمين على يده هذا الظهور في مدد متقاربة حتى خلص إسمند من الأسر وجاء إلى أنطاكية والإفرنج بها وبعث إلى قيس العواصم وما جاورها يطلب الإمارة فامتعض المسلمون لذلك وقلدوه بعد العهد الذي التزمه.

حصار الإفرنج قلعة جيلة

كانت جيلة من أعمال طرابلس وكان الروم قد ملكوها وولوا على المسلمين بها ابن رئيسهم منصور بن صليحة يحكم بينهم فلما صارت للمسلمين رجع أمرها لجمال الملك أبي الحسن علي بن عمار المستبد بطرابلس وبقي منصور بن صليحة على عادته فيها ثم توفي منصور فقام إليه أبو محمد عبد الله مقامه وأظهر الشماعة فارتاب به ابن عمار وأراد القبض عليه فعصى هو في جيلة وأقام بها الخطبة العباسية واستنجد عليه ابن عمار دقاق بن تش فجاءه أنابك طغركين فامتنع عليهم ورجعوا ثم جاء الإفرنج فحاصروها فامتنت عليهم أيضاً وشاع أن بركيارق جاء إلى الشام فرحلوا ثم عادوا وأظهروا أن المصريين جاؤوا لإنجاده فرحلوا ثم عادوا فتقدم للنصارى الذين عنده أن يداخلوا الإفرنج في نقب البلد من بعض أسواره فجهزوا إليهم ثلثمائة من أعيانهم فرفعهم بالحبال واحداً بعد واحد وهو قاعد على السور حتى قتلهم أجمعين فرحلوا عنه.

وبيد الإفرنج بيت المقدس غير عسقلان ولهم أيضاً من الشام يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية والأردن واللاذقية وأنطاكية ولهم بالجزيرة الرها وسروج وصنجيل محاصر فخر الملك بن عمار بمدينة طرابلس وهو يرسل أسطوله للإغارة على بلاد الإفرنج في كل ناحية ثم دخلت سنة سبع وتسعين فخرج الإفرنج الذين بالرها فأغاروا على الرقة وقلعة جبر واكتسحوا نواحيها وكانت لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد منذ ملكه السلطان ملك شاه إياها سنة تسع وسبعين كما مر والله أعلم.

استيلاء الإفرنج على جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وصلت مراكب من بلاد الإفرنج تحمل خلقاً كثيراً من التجار والحجاج فاستعان بهم صنجيل على حصار طرابلس فحاصرها حتى يشروا منها فارحلوا إلى جبيل وملكوها بالأمان ثم غدروا بأهلها وأفحشوا في استباحتها ثم استنجدهم بقدوين ملك القدس على حصار عكا فحاصروها براً وبحراً وفيها بهاء الدولة الجبوشي من قبل ملك الجيوش الأفضل صاحب مصر فدافعهم حتى عجزوا وهرب عنها إلى دمشق وملك الإفرنج عكا عنوة وأفحشوا في استباحتها والله تعالى أعلم.

غزو أمراء السلجوقية بالجزيرة الإفرنج

كان المسلمون أيام تغلب الإفرنج على الشام في فتنة واختلاف تمكن بها الإفرنج واستطالوا وكانت حران وحصص لمولى من موالي ملك شاه اسمه قراجا والموصل لجكرمش وحصن كيفا لسقمان بن أرتق وعصى في حران على قراجا بامته فيها فاغتاله جاولي مولى من موالي الترك وقتله فطمع الإفرنج في حران وحاصروها وكان بين جكرمش وسقمان فتنة وحرب فوضعوا أوزارها لتلافي حران واجتمعوا على الخابور وتحالفا ومع سقمان سبعة آلاف من قومه التركمان ومع جكرمش ثلاثة آلاف من قومه الترك ومن العرب والأكراد وسار إليهم الإفرنج من حران فاقتتلوا واستطردهم المسلمون بعيداً ثم كروا عليهم فأنخنوا فيهم واستباحوا أموالهم.

وكان اسمند صاحب أنطاكية وشكري صاحب الساحل قد أكرموا للمسلمين وراء الجبل فلم يظهر لهم أنهم أصحابهم وأقاموا هنالك إلى الليل ثم هربوا وشعر بهم المسلمون فاتبعوهم وأنخنوا فيهم وأسر في تلك الواقعة القمص بردويل صاحب الرها أسره

حصارها وأعانه أهل الجبل والنصارى من أهل سوادها ثم صالحوه على مال وخيل ورحل عنهم إلى طرسوس من أعمال طرابلس فحاصرها عنوة واستباحها إلى حصن الطومار ومقدمه ابن العريض فامتنع عليهم وقتلهم صنجيل فهزموا عسكره وأسروا زعيماً من زعماء الإفرنج بدل صنجيل فيه عشرة آلاف دينار وألف أسير ولم يعاوده وذلك كله سنة خمس وتسعين وأربعمائة ثم سار صنجيل إلى حصن الأكراد وحاصره جناح الدولة لغزوه فوثب عليه باطبي بالمسجد وقتله ويقال: إن رضوان بن تنش وضعه عليه فسار صنجيل إلى حصص وحاصرها وملك أعمالها ثم نزل القمص على عكا في جمادى الآخرة من السنة ففر المسلمون من جميع السواحل لقتاله وهزموه وأحرقوا أهلها والمنجنيقات التي نصبت للحرب ثم سار القمص صاحب الرها إلى سروج وحاصرها فامتنت عليه وزحف عساكر مصر إلى عسقلان للمدافعة عن سواحلهم فزحف إليهم بردويل صاحب القدس فهزمه المسلمون ونجا إلى الرملة وهم في اتباعه فحاصروه وخلص إلى يافا وفشا القتل والأسر في الإفرنج والله تعالى ولي التوفيق.

حصار الإفرنج عسقلان وحروبهم مع

عساكر مصر

لما طمع الإفرنج في عسقلان واستفحل أمرهم بالشام جهز الأفضل أمير الجيوش عساكره من مصر لحربهم سنة ست وتسعين مع سعد الدولة القواسي مولى أبيه وزحف بقدوين ملك الإفرنج من القدس فلقبهم بين الرملة ويافا وهزمهم ومات سعد الدولة متربحاً عن فرسه واستولى الإفرنج على سواده وبعث الأفضل بعده ابنه شرف المعالي فلقبهم في العساكر على بازور قرب الرملة فهزمهم ونال منهم ونجا كثير من أعيانهم إلى بعض الحصون هنالك فحاصروهم شرف المعالي خمس عشرة ليلة وملك الحصن فقتل وأسر ونجا بقدوين إلى يافا ثم إلى القدس فصادف وصول جمع كثير من الإفرنج لزيارة القدس فندبهم للغزو فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالي فامتنت ورجعوا.

وبعث شرف المعالي إلى أبيه فبعث العساكر في البر مع تاج العجم مولى أبيه والأسطول في البحر لحصار يافا مع القاضي ابن دقارس فلما وصل الأسطول إلى يافا بعث عن تاج العجم لياتيه بالعساكر فامتنت فارسيل الأفضل من قبض عليه وولى على العساكر وعلى عسقلان جمال الملك من مواليهم فانصرفت السنة

والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه.

حرب الإفرنج مع طفركين

كان قمص من قمامصة الإفرنج بالقرب من دمشق وكان كثيراً ما يغير عليها ويحارب عساكرها فسار إليه طفركين في العساكر وجاء بقديون ملك القدس لإنجاده على المسلمين فردده ذلك القمص ثقة بكفاته فرجع إلى عكا وسار طفركين إلى الإفرنج فقاتلهم وحجزهم في حصنهم ثم خرب الحصن وألقى حجارتهم في الوادي وأسر الحامية الذين به وقتل من سواهم من أهله وعاد إلى دمشق ظاهراً ثم سار بعد أسبوع إلى وبه ابن أخت صنجيل فملكه وقتل حاميته.

استيلاء الإفرنج على حصن أفامية

كان خلف بن ملاعب الكلابي متغلباً على حصص وملكها منه تتش كما مر وانتقلت الأحوال إلى مصر ثم إن رضوان صاحب حلب انتقض عليه واليه بمحض أفامية وكان من الرافضة فبعث بطاعته إلى صاحب مصر واستدعى منهم والياً فبعثوا خلف بن ملاعب لإيثاره الجهاد وأخذوا رهنة فعبي في أفامية واستبد بها واجتمع عليه المفسدون ثم ملك من أعمال حلب وأهله رافضة ولحق قاضيها بآبن ملاعب في أفامية ثم أعمل التدبير عليه وبعث إلى أبي طاهر الصائغ من أصحاب رضوان وأعيان الرافضة ودعاتهم ودخله في الفتك بآبن ملاعب وتسليم الحصن إلى رضوان وشعر بذلك آبن ملاعب وحذراً أباهما من تدبير القاضي عليه.

وجاء القاضي فحلف له على كذبه وصدقه وعاد القاضي إلى مداخلة أبي طاهر ورضوان في ذلك التدبير وبعثوا جماعة من أهل سمرين بخيول وسلاح يقصدون الخدمة عند آبن ملاعب فانزلهم بريض أفامية حتى تم التدبير وأصدهم القاضي وأصحابه ليلاً إلى القلعة فملكوها وقتلوا آبن ملاعب وهرب ابنه فلحق أحدهما بأبي الحسن بن متقد صاحب شيرز وقتل الآخر وجاء أبو طاهر الصائغ إلى القاضي يعتقد أن الحصن له فلم يتمكن القاضي وأقام عنده وكان بعض بني خلف بن ملاعب عند طفركين بدمشق مغاضباً لأبيه فولاه حصناً من حصونه فأظهر الفساد والعيث فطلبه طفركين فهرب إلى الإفرنج واستحثهم لملك أفامية فحاصروه حتى جهد أهله الجوع وقتلوا القاضي المتغلب فيه

بعض التركمان من أصحاب سقمان فشقق ذلك على أصحاب جكرمش لكثرة ما امتاز به التركمان من الغنائم وحسنوا له أخذ القمص من سقمان فأخذه وأراد التركمان محاربة جكرمش وأصحابه عليه فمنعهم سقمان حذراً من اختلاف المسلمين وسار مفارقاً لهم وكان يمر بحصون الإفرنج فيخرجون إليه ظناً بنصر أصحابهم فملكها عليهم وسار جكرمش إلى حران فملكها وولى عليها من قبله ثم سار إلى الرها وحاصرها أياماً وعاد إلى الموصل وفادى القمص برديول بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين أسيراً والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

حرب الإفرنج مع رضوان بن تتش صاحب حلب

ثم سار سكري صاحب أنطاكية من الإفرنج سنة ثمان وتسعين إلى حصن أريام من حصون رضوان صاحب حلب فضاعت حالهم واستنجدوا برضوان فسار إليهم وخرج الإفرنج للقاءه ثم طلب الصلح من رضوان فمنعه أصبهيد وصاباو من أمراء السلجوقية كان نزاع إليه بعد قتل صاحبه أياز ولقيهم الإفرنج فانهزموا أولاً ثم استماتوا وكروا على المسلمين فهزموهم وأفحشوا في قتلهم وقتل الرجالة الذين دخلوا عسكرهم في الحملة الأولى ونجا رضوان وأصحابه إلى حلب ولحق صباو بطفركين أنابك دمشق ورجع الإفرنج إلى حصار الحصن فهرب أهله إلى حلب وملكه الإفرنج والله تعالى ولي التوفيق.

حرب الإفرنج مع عساكر مصر

كان الأفضل صاحب مصر قد بعث سنة ثمان وتسعين ابنه شرف المعالي في العساكر إلى الرملة فملكها وقهر الإفرنج ثم اختلف العسكر في ادعاء الظفر وكادوا يقتلون وأغار عليهم الإفرنج فعاد شرف المعالي إلى مصر فبعث الأفضل ابنه الآخر سناء الملك حسيناً مكانه في العساكر وخرج معه جمال الدين صاحب عسقلان واستمدوا طفركين أنابك دمشق فجهز إليهم أصبهيد صباو من أمراء السلجوقية وقصدهم بقديون صاحب القدس وعكا فاقتلوا وكثرت بينهم القتلى واستشهد جمال الملك نائب عسقلان ونحاجزوا وعاد كل إلى بلده وكان مع الإفرنج جماعة من المسلمين منهم بكباش بن تتش ذهب مغاضباً عن دمشق لما عدل عنه طفركين أنابك بالملك إلى ابن أخيه دقاق وأقام عند الإفرنج

والصائغ وذلك سنة تسع وتسعين وخسمائة.

خبر الإفرنج في حصار طرابلس

كان صنجيل من ملوك الإفرنج ملازماً لحصار طرابلس وملك جبلة من يد ابن أبي صليحة وبنى على طرابلس حصناً وأقام عليها ثم هلك وحمل إلى القدس ودفن وأمر ملك الروم أهل اللاذقية أن يحملوا الميرة إلى الإفرنج المحاصرين طرابلس فحملوها في السفن وظفر أصحاب ابن عمار ببعضها فقتلوا وأسروا واستمر الحصن خمس سنين فعدمت الأقوات واستنفد أهل الثروة مكسوبهم في الإنفاق وضائق أحوالهم وجاءتهم سنة خسمائة ميرة في البحر من جزيرة قبرص وأنطاكية وجزائر البنادقة فحفظت أرماتهم ثم بلغ ابن عمار انتظام الأمر للسلطان محمد بن ملك شاه بعد أخيه بركيارق فارغى إليه صريحاً واستخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب في طرابلس وخيم ابن عمار على دمشق وأكرمه طغركين ثم سار إلى بغداد فأكرمه السلطان محمد وأمر بتبليغه والاحتفال لقُدومه ووعده بالأنجاد ولما رحل عن بغداد أحضره عنده بالنهر وان وأمر الأمير حسين بن أتابك قطفغتكين بالمسير معه وأن يستصحب العساكر التي بعثها مع الأمير مودود إلى الموصل لقتال جاولي سكاو وأمره بإصلاح جاولي والمسير مع ابن عمار حسبما مر في أخبارهم ثم وقعت الحرب بين السلطان محمد وبين صدقة بن مزيد واصطلحوا وودعه ابن عمار بعد أن خلع عليه وسار معه الأمير حسين فلم يصل إلى قصده من عساكر الموصل مودود والانتقاض فعاد فخر الدين بن عمار إلى دمشق في محرم سنة اثنتين وخسمائة وسار منها إلى فملكها وبعث أهل طرابلس إلى الأفضل أمير الجيوش بمصر يستمدونه ويسألون الوالي عليهم فبعث إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب بالمدد والأقوات والسلاح وعدة الحصار واستولى على ذخائر ابن عمار وقبض على جماعة من أهله وحمل الجميع في البحر إلى مصر.

خبر القمص صاحب الرها مع جاولي ومع صاحب أنطاكية

كان جاولي قد ملك الموصل من يد أصحاب جكرمش ثم انتقض فبعث السلطان إليه مودود في العساكر فسار جاولي عن الموصل وحمل معه القمص بردويل صاحب الرها الذي كان أسره

سقمان وأخذ منه جكرمش وأصحابه وترك الموصل ثم أطلق جاولي هذا القمص في سنة ثلاث وخسمائة بعد خمس سنين من أسره على مال قرره عليه وأسرى من المسلمين عنده يطلقهم وعلى أن يمده بنفسه وعساكره وماله متى احتاج إلى ذلك.

ولما انبرم العقد بينهما بعث يوالي سالم بن مالك بقلعة جعبر حتى جاءه هناك ابن خاله جوسكين تل ناشر فأقام رهينة مكانه ثم أطلقه جاولي ورهن مكانه أخا زوجته وزوجة القمص فلما وصل جوسكين إلى منبج أغار عليها ونهبها وسبى جماعة من أصحاب جاولي وسئل فاعتذر بأن هذه البلاد ليست لكم.

ولما أطلق القمص سار إلى أنطاكية ليسترد الرها من يد لشكري لأنه أخذها بعد أسره فلم يردها وأعطاه ثلاثين ألف دينار ثم سار القمص إلى تل ناشر وقدم عليه أخوه جوسكين الذي وضعه رهينة عند جاولي وسار لشكري صاحب أنطاكية لحرهما قبل أن يستفحل أمرهما وينجدهما جاولي فقاتلوه ورجع إلى أنطاكية وأطلق القمص مائة وستين من أسرى المسلمين.

ثم سار القمص وأخوه جوسكين وأغاروا على حصون أنطاكية وأمداهم صاحب زغبان وكيسوم وغيرهما من القلاع شمال حلب وهو من الأرمين بألف فارس والفسي راجل وخرج إليهم لشكري وتراجعوا للحرب.

ثم حملهم الترك على الصلح وحكم على لشكري برد الرها على القمص صاحبها بعد أن شهد عنده جماعة من البطارقة والأساقفة بأن اسندخال لشكري لما انصرف إلى بلاده أوصاه برد الرها على صاحبها إذا خلص من الأسر فردها لشكري على القمص في صفر سنة ثلاث ووفى القمص لجاولي بما كان بينهما ثم قصد جاولي الشام ليملكه وتنقل في نواحيه كما مر في أخباره وكتب رضوان صاحب حلب إلى لشكري صاحب أنطاكية يحذره من جاولي ويستنجده عليه فأجابه ويرز من أنطاكية وبعث إليه رضوان بالعساكر.

واستنجد جاولي القمص صاحب الرها فأنجده بنفسه ولحق به على منبج وجاءه الخبر هنالك باستيلاء عسكر السلطان على بلدة الموصل وعلى خزائنه بها وفارقه كثير من أصحابه منهم زنكي بن أفسقر فنزل جاولي تل ناشر وتزاحف مع لشكري هنالك واشتد القتال واستمر أصحاب أنطاكية فتخاذل أصحاب جاولي وانهمزوا وذهب الإفرنج بسوادهم فجاء القمص وجوسكين إلى تل ناشر والله تعالى أعلم.

حروب الإفرنج مع طغركين

كان طغركين قد سار إلى طبرية سنة اثنين وخمسمائة فسار إليه ابن أخت بقديون ملك القدس واقتلوا فانكشف المسلمون ثم استماتوا وهزموا الإفرنج وأسروا ابن أخت الملك فقتله طغركين بيده بعد أن فادى نفسه بثلاثين ألف دينار وخمسمائة أسير فلم يقبل منه إلا الإسلام أو القتل.

ثم اصططح طغركين وبقديون لمدة أربع سنين وكان حصن غزية من أعمال طرابلس بيد مولى ابن عمار فعصى عليه وانقطعت عنه الميرة بيعت الإفرنج في نواحيه فأرسل إلى طغركين بطاعته فبعث إسرائيل من أصحابه ليمتلك الحصن ونزل منه مولى ابن عمار فرماه إسرائيل في الزحام بسهم فقتله حذراً أن يطلق الأتابك على خلفه.

وقصد طغركين الحصن لمشاركة أحواله فمنعه نزول الثلج حتى إذا انقشع والمجلى سار في أربعة آلاف فارس وفتح حصوناً للإفرنج منها حصن الأكمة وكان السرداني من الإفرنج يحاصر طرابلس فسار للقائه فلما أشرف عليه انهزم طغركين وأصحابه إلى حمص وملك السرداني حصن غزية بالأمان ووصل طغركين إلى دمشق فبعث إليه بقديون من القدس بالبقاء على الصلح وذلك في شعبان سنة اثنين.

استيلاء الإفرنج على طرابلس وبيروت وصيدا وجبيل وبنانياس

ولما عادت طرابلس إلى صاحب مصر من يد ابن عمار وولي عليها نائبه والإفرنج يحاصرونها وزعيمهم السرداني ابن أخت صنجيل فلما كانت سنة ثلاث وخمسمائة في شعبان ووصل القمص والد صنجيل وليس صنجيل الأول وإنما هو قمص آخر بمراكب عديدة مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وجرت بينه وبين السرداني فتنة واقتلوا.

وجاء لشكري صاحب أنطاكية مددا للسرداني ثم جاء بقديون ملك القدس وأصلح بينهم وحاصروا طرابلس ونصبوا عليها الأبراج فاشتد بهم الحصار وعدموا القوت لتأخر الأسطول المصري بالميرة ثم زحفوا إلى قتالها بالأبراج وملكوها عنوة ثاني الأضحى واستباحوها وأثخنوا فيها وكان النائب بها قد استأمن إلى الإفرنج قبل ذلك بليال وملكها بالأمان ونزل على مدينة جبيل وبها فخر الملك بن عمار فاستأمنوا إلى لشكري وملكها.

ولحق ابن عمار بشيذر فنزل على صاحبها سلطان بن علي بن منقذ الكناني ولحق منها بدمشق فأكرمه طغركين وأقطعه الزيداني من أعمال دمشق في محرم سنة أربع ووصل أسطول مصر بالميرة بعد أخذ طرابلس بثمانية أيام فأرسل بساحل صور وفرقت الغلال في جهاتها في صور وصيدا وبيروت.

ثم استولى الإفرنج على صيدا في ربيع الآخر سنة أربع وخمسمائة وذلك أنه وصل أسطول للإفرنج من ستين مركباً مشحونة بالرجال والذخائر وبها ملوكهم بقصد الحج والغزو فاجتمعوا مع بقديون صاحب القدس ونزلوا صيدا برأ وبحراً وأسطول مصر يعجز عن إيجادهم ثم زحفوا إلى صور في أبراج الخشب المصفحة فضعت نفوسهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت فاستأمنوا فأمهم الإفرنج في جمادى الأولى ولحقوا بدمشق بعد سبعة وأربعين يوماً من الحصار وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان وعاد بقديون إلى القدس.

استيلاء أهل مصر على عسقلان

كانت عسقلان خلفاء العلوية بمصر وقد ذكرنا حروب الإفرنج مع عساكرهم عليها وآخر من استشهد منهم جمال الملك نائبها كما مر آنفاً وولي عليها شمس الخلافة فراسل بقديون ملك القدس وهاداه ليمتنع به من الخليفة بمصر وبعث الأفضل ابن أمير الجيوش العساكر إليه سنة أربع وخمسمائة مع قائد من قوادهم مورياً بالغزو وأسر إليه بالقبض على شمس الخلافة والولاية مكانه بعسقلان.

وشعر شمس الخلافة بذلك فجاهر بالعصيان فخشي أن يملكها الإفرنج فراسله وأقره على عمله وعزل شمس الخلافة جند عسقلان واستنجد جماعة من الأرمن فاستوحش منه أهل البلد ووثبوا به فقتلوه وبعثوا إلى الأمير الأفضل صاحب مصر المستولي عليها بطاعتهم فجاءهم الوالي من قبله واستقامت أمورهم.

استيلاء الإفرنج على حصن الأثارب وغيره

ثم جمع شكري صاحب أنطاكية واحتشد وسار إلى حصن الأثارب على ثلاثة فراسخ من حلب فحاصره وملكه عنوة وأثخن فيه بالقتل والسي ثم سار إلى حصن زدناده ففعل فيه مثل ذلك وهرب أهله منه ومارس على بلديهما.

ثم سار عسكر من الإفرنج إلى مدينة صيدا فملكوها على

فرحلوا إلى حلب فعقد الملك رضوان عن لقائهم ومريض هنالك سقمان القطبي ورجعوا فتوفي في بالس وحمل شلوه إلى بلده ونزلت العساكر السلطانية على معرة النعمان فخرج طغركين صاحب دمشق إلى مودود ونزل عليه ثم ارتاب لما رأى من الأمراء في حقه ففس للإفرنج بالمهادنة.

ثم افترقت العساكر كما ذكرنا في أخبارهم وبقي مودود مع طغركين على نهر العاصي وطمع الإفرنج بافتراقهم فساروا إلى أرامية وخرج سلطان بن منقذ صاحب شيرز إلى مودود طغركين فرحل بهم إلى شيرز وهون عليهم أمر الإفرنج وضاعت الميرة على الإفرنج فرحلوا واتبعهم المسلمون يتخطفون من أعقابهم حتى أبعادوا والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج مدينة صور

ولما افترقت العساكر السلطانية خرج بقدين ملك القدس وجمع الإفرنج ونزلوا على مدينة صور في جمادى الأولى من سنة خمس وهي للأمير الأفضل صاحب مصر ونائبه بها عز الملك الأغر ونصبوا عليها الأبراج والمجانيق وانتدب بعض الشجعان من أهل طرابلس كان عندهم في ألف رجل وصدقوا الحملة حتى وصلوا البرج المتصل بالسور فأحرقوه ورموا الآخرين بالنفط فأحرقوهم واشتد القتال بينهم وبعث أهل صور إلى طغركين صاحب دمشق يستنجذونه على أن يمكنوه من البلد فجاء إلى باتياس وبعث إليهم بمائتي فرس واشتد القتال وبعث نائب البلد إلى طغركين بالاستحثاث للوصول ليمكنه من البلد وكان طغركين يغير على أعمال الإفرنج في نواحيها وملك لهم حصناً من أعمال دمشق وقطع الميرة عنهم فساروا يحملونها في البحر ثم سار إلى صيدا وأغار عليها ونال منها ثم أزهد الثمرة وخشي الإفرنج من طغركين على بلادهم فأفرجوا عن صور إلى عكا وجاء طغركين إلى صور فأعطى الأموال واشتغلوا بإصلاح سورهم وخذلهم والله أعلم.

أخبار مودود مع الإفرنج ومقتله ووفاته

صاحب أنطاكية

ثم سار الأمير مودود صاحب الموصل سنة ست إلى سروج وعاث في نواحيها فخرج جكرمش صاحب تل ناشر وأغار على دوابهم فاستاقها من راعيها وقتل كثيراً من العسكر ورجع ثم توفي

الأمان وأشفق المسلمون من استيلاء الإفرنج على الشام وراسلواهم في الهدنة فامتنعوا إلا على الضريبة فصالحهم رضوان حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وعدة من الخيول والثياب وصاحب صور على سبعة آلاف دينار وابن منقذ صاحب شيرز على أربعة آلاف دينار وعلي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار ومدة الهدنة إلى حصاد الشعير.

ثم اعترضت مراكب الإفرنج التجار من مصر فأخذوها وأسروهم.

وسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد للنفير فدخلوها مستغيثين ومعهم خلق من الفقهاء والغوغاء وقصدوا جامع السلطان يوم الجمعة فمتعوا الناس من الصلاة بضجيجهم وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بإفناد العساكر للجهاد وبعث من دار الخلافة منبراً للجامع.

ثم قصدوا في الجمعة الثانية جامع القصر في مثل جمعهم ومنعهم صاحب الباب فدفعوا ودخلوا الجامع وكسروا شبابيك المقصورة والمنبر وبطلت الجمعة وأرسل الخليفة إلى السلطان في رفع هذا الحزن فأمر الأمراء بالتجهيز للجهاد وأرسل ابنه الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل ليلحق به الأمراء ويسيروا جميعاً إلى قتال الإفرنج.

مسير الأمراء السلجوقية إلى قتال الإفرنج

ولما سار مسعود بن السلطان مع الأمير مودود إلى الموصل اجتمع معهم الأمراء سقمان القطبي صاحب ديار بكر وابنا برسق ابلكي وزنكي أصحاب همدان والأمير أحمد بك صاحب مراغة وأبو الهيجاء صاحب إربل وإياز بن أبي الغازي بعث أخوه صاحب ماردین وساروا جميعاً إلى سنجار وفتحوا عدة حصون للإفرنج ونزلوا على مدينة الرها وحاصروا واجتمعوا مع الإفرنج على الفرات.

وخام الطائفتان عن اللقاء وتأخر المسلمون إلى حران يستطردون للإفرنج لعلهم يعبرون الفرات فخالفهم الإفرنج إلى الرها وشحنوها أقواتاً وعدة وأخرجوا الضعفاء منها ثم عبروا الفرات إلى نواحي حلب لأن الملك رضوان صاحبها لما عبروا إلى الجزيرة ارتجع بعض الحصون التي كان الإفرنج أخذوها بأعمال حلب فطرقوها الآن فاكسحوا نواحيها.

وجاءت عساكر السلطان إلى الرها وقاتلوا فامتعت عليهم فعبروا الفرات وحاصروا قلعة تل ناشر شهراً ونصفاً فامتعت

أنطاكية والله أعلم.

الحرب بين العساكر السلطانية والفرنج

كان السلطان محمد قد تنكر لطغركين صاحب دمشق لاتهامه إياه بقتل مودود فعصى وأظهر الخلاف وتابعه أبو الغازي صاحب ماردين لما كان بينه وبين البرسقي فأهم السلطان شأنهما وشأن الإفرنج وقوتهم وجهاز العساكر مع الأمير برسقي صاحب همذان وبعث معه الأمير حيوس بك والأمير كسكري وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بغزو الإفرنج بعد الفراغ من شأن أبي الغازي وطغركين فساروا في رمضان سنة ثمان وعبروا الفرات عند الرملة.

وجاؤوا إلى حلب وبها لؤلؤ الخادم بعد رضوان ومقدم العساكر شمس الخواص وعرضوا عليهما كتب السلطان بتسليم البلد فدافعا بالجواب واستنجدا أبا الغازي وطغركين فوصلا إليهما في ألقى فارس وامتتعا بها على العسكر فسار الأمير برسقي إلى حماة من أعمال طغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثاً وسلمها للأمير قرجان صاحب حمص بأمر السلطان بذلك في كل بلد يفتحونه فنفس عليه الأمراء ذلك وفسدت ضمائرهم.

وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص قد ساروا إلى أنطاكية مستنجدين بصاحبها روميل على مدافعتهم عن حماة فبلغهم فتحها ووصل إليهم بأنطاكية بقدوين ملك القدس وطرابلس وغيره من شياطين الإفرنج واجتمعوا على أفامية وانفقوا على مطاولة المسلمين إلى فصل الشتاء ليتفرقوا فلما أطل الشتاء والمسلمون مقيمون عاد أبو الغازي إلى ماردين وطغركين إلى دمشق والإفرنج إلى بلادهم وقصد المسلمون كفر طاب وكانت هي وأفامية للإفرنج فملكوها عنوة وفتحوا بالإفرنج فيها وأسروا صاحبها ثم ساروا إلى قلعة أفامية فاستعصت عليهم فعادوا إلى المرة وهي للإفرنج وفارقهم الأمير حيوس بك إلى وادي مراغة فملكه وسارت العساكر من المرة إلى حلب وأتقاهم ودوابهم وهم متلاصقون فوصلت مقدمتهم إلى الشام وخربوا الأبنية.

وكان روميل صاحب أنطاكية قد سار في خمسمائة فارس وألقى راجل للمدافعة عن كفر طاب وأطل على خيام المسلمين قبل وصولهم فقتل من وجد بها من السوق والغلمان وأقام الإفرنج بين الخيام يقتلون كل من لحق بها حتى وصل الأمير برسقي وأخوه زنكي فقصدا ربوة هناك وأحاط القل من المسلمين به وعزم برسقي على الاستماتة ثم غلبه أخوه زنكي على النجاة

الأمير الأرمني صاحب الدروب بيلاد ابن كاور فسار شكري صاحب أنطاكية من الإفرنج إلى بلاده لملكها فمرض وعاد إلى أنطاكية ومات منتصف سنة ست وملكها بعده ابن أخته سرجان واستقام أمره.

ثم جمع الأمير مودود صاحب الموصل العساكر واحتشد وجاءه تميرك صاحب سنجار وأياز بن أبي الغازي صاحب ماردين وطغركين صاحب دمشق ودخلوا في محرم سنة سبع إلى بلاد الإفرنج.

وخرج بقدوين ملك القدس وجوسكين صاحب القدس يغبر على دمشق فعبروا الفرات وقصدوا القدس ونزلوا على الأردن والإفرنج عدوتهم واقتتلوا منتصف المحرم فانهزم الإفرنج وهلك منهم كثير في بحيرة طبرية والأردن وغنم المسلمون سوادهم وساروا منهزمين فلقبهم عسكر طرابلس وأنطاكية فشدوا معهم وأقاموا على جبل طبرية وحاصروهم المسلمون غوا من شهر فلم يظفروا بهم فتركوهم وانساحوا في بلاد الإفرنج ما بين عكا والقدس واكتسحوها.

ثم انقطعت المواد عنهم للبعد عن بلادهم فعادوا إلى مرج الصفر على نية العود للغزاة في فصل الربيع وأذنوا للعساكر في الانطلاق ودخل مودود إلى دمشق يقيم بها إلى أوان اجتماعهم فطعنه باطني في الجامع حين منصرفه من صلاة الجمعة آخر ربيع الأول من السنة ومات من يومه واتهم طغركين بقتله والله تعالى أعلم.

أخبار البرسقي مع الإفرنج

ولما قتل مودود بعث السلطان محمد مكانه أقسقر البرسقي ومعه ابنه السلطان مسعود في العساكر لقتال الإفرنج وبعث إلى الأمراء بطاعته فجاهه عماد الدين زنكي بن أقسقر وتميرك صاحب سنجار وسار إلى جزيرة ابن عمر وملكها من يد نائب مودود ثم سار إلى ماردين فحاصرها إلى أن أذعن أبو الغازي صاحبها وبعث معه ابنه أيازا في العساكر فساروا إلى الرها وحاصروها في ذي الحجة سنة ثمان مدة سبعين يوماً فامتعت وضائق الميرة على المسلمين فرحلوا إلى شمشاط وسروج وعاثوا في تلك النواحي وهلك في خلال ذلك بكواسيل صاحب مرعش وكيسوم وزغبان من الإفرنج وملك زوجته بعده وامتعت من الإفرنج وأرسلت إلى البرسقي على الرها بطاعته فبعث إليها صاحب الحابور فردته بالأموال والهدايا ويطاعتها فعاد من كان عندها من الإفرنج إلى

فنجاً فيمن معه واتبعهم الإفرنج فرسحاً ورجعوا عنه وافتقرت
العساكر الإسلامية منهزمة إلى بلادها.

وأشفق أهل حلب وغيرها من بلاد الشام من الإفرنج بعد
هذه الواقعة وسار الإفرنج إلى رميلة من أعمال دمشق فملكوها
وبالغوا في تحصينها واعتزم طفركين على تخريب بلاد الإفرنج ثم
بلغه الخبر عن خلو رميلة من الحامية فبادر إليها سنة تسع وملكها
عنوة وقاتل وأسر وغنم وعاد إلى دمشق ولم تزل رميلة بيد
المسلمين إلى أن حاصرها الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة وملكوها
والله أعلم.

وفاة ملك الإفرنج وأخبارهم بعده مع المسلمين

ثم توفي بقديون ملك الإفرنج بالقدس آخر سنة إحدى
عشرة وخمسمائة وكان قد زحف إلى ديار بكر طامعاً في ملكها
فانتهى إلى تيس وشنج في الليل فانتقض عليه جرحه وعاد إلى
القدس فمات وعاد القمص صاحب الرها الذي كان أسره
جكرمش وأطلقه جاولي وكان حاضراً عنده لزيارة قمامة.

وكان أنابك طفركين قد سار لقتال الإفرنج ونزل اليرموك
فبعث إليه قصص في المهادة فاشتراط طفركين ترك المناصفة من
جبل عردة إلى الغور فلم يقبل القمص فسار طفركين إلى طبرية
ونهب نواحيها وسار منها إلى عسقلان ولقي سبعة آلاف من
عساكر مصر قد جاؤوا في أثر بقديون عندما ارتحل عن ديار بكر
فأعلموا أن صاحبهم تقدم إليهم بالوقوف عند أمر طفركين فشكر
لهم ذلك وعاد إلى دمشق وأتاه الخبر بأن الإفرنج قصدوا أذرعات
ونهبوها بعد أن ملكوا حصناً من أعماله فأرسل إليهم تاج الملك
بورلي في أثرهم فحاصروهم في جبل هناك حتى يشؤا من أنفسهم
وصدقوا الحملة عليهم فهزمهم وأفحشوا في القتل وعاد الفل إلى
دمشق وسار طفركين إلى حلب يستجد أبا الغازي فوعده بالسير
معه ثم جاء الخبر بأن الإفرنج قصدوا أعمال دمشق فنهبوا حوران
واكتسحوها فرجع طفركين إلى دمشق وأبو الغازي إلى ماردين إلى
حشد العساكر وقصدوا الاجتماع على حرب الإفرنج ثم سار
الإفرنج سنة ثلاثة عشر إلى نواحي حلب فملكوا مراغة ونالوا
المدينة فصانعهم أهلها بمقاسمتهم أملاكهم وزحف أبو الغازي من
ماردين في عشرين ألفاً من العساكر والمطوعة ومعه أسامة بن
مالك بن شيرز الكناني والأمير طغان أرسلان بن أفتكين بن جناح
صاحب أرزن.

وسار الإفرنج إلى صنيبل عرمس قرب الأثارب فنزلوا به في
موضع منقطع المسالك وعزموا على المظالمة فناجزهم أبو الغازي
وسار إليهم ودخل عليهم في مجتمعهم وقاتلوه أشد القتال فلم
يقاوموه وفنك بهم فتكة شنعاء وقتل فيهم سرحان صاحب
أنطاكية وأسر سبعون من زعمائهم وذلك منتصف ربيع من السنة
ثم اجتمع فل الإفرنج وعادوا الحرب فهزمهم أبو الغازي وملك
عليهم حصن الأثارب رزدنا وجاء إلى حلب فأصلح أحوالها وعاد
إلى ماردين ثم سار جوسكين صاحب تل نائسر في مائتين من
الإفرنج ليكس حلة من أحياء طيئ يعرفون ببني خالد فأغار
عليهم وغنم أموالهم ودلوه على بقية قومهم من بني ربيعة فيما بين
دمشق وطبرية فبعث أصحابه إليهم وسار هو من طريق آخر فضل
عن الطريق ووصل أصحابه إليهم وأميرهم وعدة من ربيعة
فقاتلهم وغلهم وقتل منهم سبعين وأسر اثني عشر فسادهم بمال
جزيل من الأسرى وبلغ إلى جوسكين في طريقه فعاد إلى طرابلس
وجمع جمعاً وأغار على عسقلان فهزمه المسلمون وعاد مغلولاً
والله أعلم.

ارتجاع الرها من الإفرنج

ثم سار بهرام أخو أبي الغازي إلى مدينة الرها وحاصرها
مدة فلم يظفر بها فرحل عنها ولقيه النذير بأن جوسكين صاحب
الرها وسروج قد سار لاعتراضه وقد تفرق عن مالك أصحابه
فاستجاب لما وصل إليه الإفرنج ودفعهم لأرض سبخة فوصلت
فيها خيولهم فلم يقلت منهم أحد وأسر جوسكين وخاط عليه
جلد جل وفادى نفسه بأموال جلييلة فأبى مالك من فديته إلا أن
يسلم حصن الرها فلم يفعل وحبسه في خرت برت ومعه كلام
ابن خالته وكان من شياطينهم وجماعة من زعمائهم والله سبحانه
وتعالى أعلم وبه التوفيق.

استيلاء الإفرنج على خرت برت وارتجاعها

منهم

كان مالك بن بهرام صاحب خرت برت وكان في جواره
الإفرنج في قلعة كوكر فحاصروهم بها وسار بقديون إليه في جموعه
فلقيه في صفر سنة سبعة عشر فهزم الإفرنج وأسر ملكهم وجماعة
من زعمائهم وحبسهم مالك في قلعة خرت برت مع جوسكين
صاحب الرها وأصحابه وسار مالك إلى حران في ربيع الأول

ثم مات سنة إحدى وعشرين وولي السلطان محمود عماد الدين زنكي بن أقيصر مكانه على الموصل والجزيرة وديار بكر كما مر في أخبار دولة السلجوقية ثم استولى منها على الشام وأورث ملكها بنوه فكانت لهم دولة عظيمة بهذه الأعمال نذكرها إن شاء الله تعالى ونشأت عن دولتهم دولة بني أيوب وتفرعت منها كما نذكره.

وغن الآن نترك من أخبار الإفرنج هنا جميع ما يتعلق بدولة بني زنكي وبني أيوب حتى نوردها في أخبار تينك الدولتين لئلا تتكرر الأخبار ونذكر في هذا الموضع من أخبار الإفرنج ما ليس له تعلق بالدولتين فإذا طالعنا المتأمل علم كيف يرد كل خبر إلى مكانه بجودة ترتيبه وحسن تأنيه.

الحرب بين طفرकिन والإفرنج

ثم اجتمعت الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة وساروا إلى دمشق ونزلوا مرج الصفر واستنجد طفرकिन صاحبها أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها فجاؤوا إليه وكان هو قد سار إلى جهة الإفرنج آخر سنة عشرين وقاتلهم وسقط في المعترك فظن أصحابه أنه قتل فانهمزوا وركب فرسه وسار معهم منهزماً والإفرنج في اتباعهم وقد أثنخوا في رجاله التركمان فلما اتبعوا المنهمزين خالف الرجال إلى معسكرهم فنهروا سوادهم وقتلوا من وجدوا فيه ولحقوا بدمشق ورجع الإفرنج من المنهمزين فوجدوا خيامهم منهوية فساروا منهزمين.

ثم كان سنة ثلاث وعشرين واقعة المزدغاني والإسماعيلية بدمشق بعد أن طمع الإفرنج في ملكها فأסף ملوك الإفرنج على قتله وسار صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من القمامصة ومن وصل في البحر للتجارة أو الزيارة وساروا إلى دمشق في ألفي فارس ومن الرجال ما لا يحصى.

وجمع طفرकिन من العرب والتركمان ثمانية آلاف فارس وجاء الإفرنج آخر السنة ونازلوا دمشق ويشوا سراياهم للإغارة بالنواحي وجمع الميرة وسمع تاج الملك بسرية في حوران فبعث شمس الخواص من أمرائه ولقوا سرية الإفرنج وظفروا بهم وغنموا ما معهم وجاؤوا إلى دمشق وبلغ الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا عن دمشق بعد أن أحرقوا ما تعذر عليهم حمله وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثم إن اسمند صاحب أنطاكية سار إلى حصن القدموس وملكه والله تعالى يؤيد من يشاء.

وملكها ولما غاب من خرت برت تحيل الإفرنج وخرجوا من محبسهم بمدخله بعض الجند وسار بقدين إلى بلده وملك الآخرون القلعة فعاد مالك إليهم وحاصرها وارتجعها من أيديهم ورتب فيها الحامية والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء الإفرنج على مدينة صور

كانت مدينة صور خلفاء العلوية بمصر وكان بها عز الملك من قبل الأفضل بن أمير الجيوش المستبد على الأمر بمصر وتجهز الإفرنج لحصارها سنة ست فاستمدوا طفرकिन صاحب دمشق فأمدهم بعسكر ومال مع وال من قبله اسمه مسعود فجاء إليها ولم يغير دعوة العلوية بها في خطبة ولا سكة وكتب إلى الأفضل بذلك وسأله تردد الأسطول إليه بالمدد فأجابته وشكره ثم قتل الأفضل وجاء الأسطول إليها من مصر على عادته وقد أمر مقدمه أن يعمل الخيلة في القبض على مسعود الوالي بصور من قبل طفرकिन لشكوى أهل مصر منه فقبض عليه مقدم الأسطول وحمله إلى مصر وبعثوا به إلى دمشق.

وأقام الوالي من قبل أهل مصر في مدينة صور وكتب إلى طفرकिन بالعذر عن القبض على مسعود واليه وكان ذلك سنة ستة عشر ولما بلغ الإفرنج انصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها وتجهزوا لحصارها وبعث الوالي الأمير بذلك وبعجزه عن مقاومة حصارها لها.

وسار طفرकिन إلى بانياس ليكون قريباً من صريغها وبعث إلى أهل مصر يستنجدهم فراسل الإفرنج في تسليم البلد وخروج من فيها فدخلها الإفرنج آخر جمادى الأولى من السنة بعد أن حمل أهلها ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح البرسقي كفر طاب وإنهزاه من الإفرنج

ثم جمع البرسقي عساكره وسار سنة تسعة عشر إلى كفر طاب وحاصرها فملكها من الإفرنج ثم سار إلى قلعة إغزاز شمالي حلب وبها جوسكين فحاصرها واجتمع الإفرنج وساروا لمدافعتهم فلقبهم وقاتلهم شديداً فمحص الله المسلمين وانهزموا وفتك النصاري فيهم ولحق البرسقي بحلب فاستخلف فيها ابنه مسعوداً وعبر الفرات إلى الموصل ليستمد العساكر ويعود لغزوهم فقصى الله بمقتله وولي ابنه عز الدين بعده قليلاً.

هزيمة صاحب طرابلس

استيلاء الإفرنج على جزيرة جربة من
أفريقية

كانت جزيرة جربة من أعمال أفريقية ما بين طرابلس وقابس وكان أهلها من قبائل البربر قد استبدوا بجزيرتهم عندما دخل العرب الهلاليون أفريقية ومزقوا ملك صنهاجة بها وقارن ذلك استفحال ملك الإفرنج برومة وما إليها من البلاد الشمالية وتطاولوا إلى ملك بلاد المسلمين فسار ملكهم بردويل فيمن معه من زعمائهم وأقماصهم إلى الشام فملكوا مدنه وحصونه كما ذكرناه آنفاً وكان من ملوكهم القمص رجار بن نغير بن خميرة وكان كرسيه مدينة ميلكوا مقابل جزيرة صقلية ولما ضعف أمر المسلمين بها وانقرضت دولة بني أبي الحسين الكلبي منها سما رجار هذا إلى ملكها وأغراه التغلبون بها على بعض نواحيها فأجاز إليها عساكره في الأسطول في سبيل التضرير بينهم.

ثم ملكها من أيديهم معقلاً معقلاً إلى أن كان آخرها فتخاطر ابنه وما زرعه من يد عبد الله بن الجواس أحد الثوار بها فملكها من يده صلحاً سنة أربع وستين وأربعمائة وانقطعت كلمة الإسلام بها ثم مات رجار سنة أربع وتسعين فولي ابنه رجار مكانه وطالت أيامه واستفحل ملكه وذلك عندما هبت ريح الإفرنج بالشام وجاسوا خلالها وصاروا يتغلبون على ما يقدرون عليه من بلاد المسلمين وكان رجار بن رجار يتعاهد سواحل أفريقية بالغزو فبعث سنة ثلاث وخمسين أسطول صقلية إلى جزيرة جربة وقد تقلص عنها ظل الدولة الصنهاجية فأحاطوا بها واشتد القتال ثم اقتحموا الجزيرة عليهم عنوة وغنموا وسبوا واستأن من الباقون وأقرهم الإفرنج في جزيرتهم على جزيرة وملكوا عليهم أمرهم والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح صاحب دمشق بعض حصون الإفرنج

ثم بعث شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق عساكره مع الأمير خزواش سنة إحدى وثلاثين إلى طرابلس الشام ومعه جمع كثير من التركمان والمنطوعة وسار إليه القمص صاحب طرابلس فقاتلوه وهزموه وأتخنوا في عساكره وأحجزه بطرابلس وعائوا في أعماله وفتحوا حصن وادي ابن الأحمر من حصونه عنوة واستباحوه واستحلوا من فيه من الإفرنج ثم سار الإفرنج سنة خمس وثلاثين إلى عسقلان وأغاروا في نواحيها وخرج إليهم عسكر مصر الذين بها فهزموا الإفرنج وظفروا بهم وعادوا

ثم اجتمع سنة سبع وعشرين جمع كبير من تركمان الجزيرة وأغاروا على بلاد طرابلس وقتلوا وغنموا فخرج إليهم القمص صاحبها فاستطردوا له ثم كروا عليه فهزموه ونالوا منه ونجا إلى قلعة بقوين فتحصن بها وحاصره التركمان فيها فخرج من القلعة ليلاً في عشرين من أعيان أصحابه ونجا إلى طرابلس واستصرخ الإفرنج من كل ناحية وسار بهم إلى بقوين للمدافعة التركمان فقاتلهم حتى أشرف الإفرنج على الهزيمة ثم تحيزوا إلى أرمينية وتعدز على التركمان اتباعهم فرجعوا عنهم انتهى.

فتح صاحب دمشق بانياس

كان بوري بن طغركين صاحب دمشق لما توفي سنة ست وعشرين وخمسمائة وولي مكانه ابنه شمس الملوك إسماعيل فاستضعفه الإفرنج وتعرضوا لنقض الهدنة ودخل بعض تجار المسلمين إلى سروب فأخذوا أموالهم وراسلهم شمس الملوك في ردها عليهم فلم يفعلوا فتجهز وسار إلى بانياس في صفر سنة سبع وعشرين فنازلها وشدد حصارها ونقب المسلمون سورها وملكوها عنوة واستلحموا الإفرنج بها واعتصم فلبهم بالقلعة حتى استأنوا بعد يومين وكان الإفرنج قد جمعوا للمدافعة شمس الملوك فجاءهم خبر فتحها فأقصرُوا.

استيلاء شمس الملوك على الشقيف

ثم سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق إلى شقيف بيروت وهو في الجبل المظل على بيروت وصيدا وكان يسد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم وهو ممتنع به وقد تحاماه المسلمون والإفرنج وهو يحتمي من كل منهما بالآخر فسار إليه شمس الملوك وملكه في الحرم سنة ثمان وعشرين وعظم ذلك على الإفرنج وخافوا شمس الملوك فساروا إلى بلد حوران وعائوا في جهاتها ونهض شمس الملوك ببعض عساكره وجرم الباقي قبالة الإفرنج وقصد طبرية والناصرة وعكا فاكسح نواحيها وجاء الخبر إلى الإفرنج فاجفلوا إلى بلادهم وعظم عليهم خرابها وراسلوا شمس الملوك في تجديد الهدنة فجددها لهم انتهى والله أعلم.

منهزمين وكفى الله شرهم بمنه وكرمه.

استيلاء الإفرنج على طرابلس الغرب

كان أهل طرابلس الغرب لما اغل نظام الدولة الصنهاجية بأفريقية وتقلص ظلها عنهم قد استبدوا بأنفسهم وكان بالمهدية آخر الملوك من بني باديس وهو الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز فاستبد لعهد في طرابلس أبو يحيى بن مطروح ورفضوا دعوة الحسن وقومه وذلك عندما تكالب الإفرنج على الجهات فطمع رجار في ملكها وبعث أسطوله في البحر فانزلها آخر سنة سبع وثلاثين وخسمائة فنقبوا سورها واستنجد أهلها بالعرب فأنجدوهم وخرجوا إلى الإفرنج فهزموهم وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجع الإفرنج إلى صقلية فتجهزوا إلى المغرب وطرقوا جيجيل من سواحل بجاية وهرب أهلها إلى الجبل ودخلوها فنهبوا وخربوا القصر الذي بناه بها يحيى بن العزيز بن حماد ويسمى التزهة ورجعوا إلى بلادهم ثم بعث رجار أسطوله إلى طرابلس سنة إحدى وأربعين فأرسل عليها ونزل المقاتلة وأحاطوا بها برأً ومحراً وقاتلوا ثلاثاً وكان أهل البلد قد اختلفوا قبل وصول الإفرنج وأخرجوا بني مطروح ولوا عليهم رجلاً من أمراء لمتونة قام حاجباً في قومه فولوه أمرهم فلما شغل أهل البلد بقتال الإفرنج اجتمعت شبيعة بني مطروح وأدخلوهم البلد ووقع بينهم القتال فلما شعر الإفرنج بأمرهم بادروا إلى الأسوار فتصبوا عليها السلام وتسمنوها وفتحوا البلد عنوة وأفحشوا في القتل والسبي والنهب ونجا كثير من أهلها إلى البربر والعرب في نواحيها ثم رفعوا السيف ونادوا بالأمان فتراجع المسلمون إلى البلد وأقروهم على الجزية وأقاموا بها ستة أشهر حتى أصلحوا أسوارها وفنادقها وولوا عليها ابن مطروح وأخذوا رهنه على الطاعة ونادوا في صقلية بالمسير إلى طرابلس فصار إليها الناس وحسنت عمارتها.

استيلاء الإفرنج على المهديّة

كانت قابس عندما اختل نظام الدولة الصنهاجية واستبد بها ابن كامل بن جامع من قبائل رياح إحدى بطون هلال الذين بعثهم الجرجاني وزير المستنصر بمصر على المعز بن باديس وقومه فأضرعوا الدولة وأفسدوا نظامها وملكوا بعض أعمالها واستبد آخرون من أهل البلاد بموضعهم فكانت قابس هذه في قسمة بني دهمان هؤلاء وكان لهذا العهد رشيد أميراً بها كما ذكرنا ذلك في

أخبار الدولة الصنهاجية من أخبار البربر وتوفي رشيد سنة اثنتين وأربعين وخسمائة ونصب مولاه يوسف ابنه الصغير محمد بن رشيد وأخرج ابنه الكبير معمرأ واستبد على محمد وتعرض لحرمه سرا وكان فيهن امرأة رشيد وساروا إلى التمحض بصاحب المهديّة يشكون حله.

وكتبه الحسن في ذلك فلم يجبه وتهده بإدخال الإفرنج إلى قابس فجهز إليه العساكر وبعث يوسف إلى رجار صاحب صرابلس بطاعته وأن يوليّه على قابس كما ولي ابن مطروح على طرابلس وشعر أهل البلد بمدخلته للإفرنج فلما وصل عساكر الحسن ثاروا به معهم وتحصن يوسف بالقصر فملكوه عنوة وأخذ يوسف أسيراً وملك معمر قابس مكان أخيه محمد وامتنح يوسف بأنواع العذاب إلى أن هلك وأخذ بنو قرة أختهم ولحق عيسى أخو يوسف وولد يوسف برجار صاحب صقلية واستجاروا به وكان الغلاء قد اشتد بأفريقية سنة سبع وثلاثين.

ولحق أكثر أهلها بصقلية وأكل بعضهم بعضاً وكثر الموتان فاغتم رجار الفرصة ونقض الصلح الذي كان بينه وبين الحسن بن علي صاحب المهديّة لسنين وجهز أسطوله مائتين وخمسين من الشواني وشحنها بالمقاتلة والسلاح ومقدم الأسطول جرجي بن ميخائيل أصله من المنتصرة وقد ذكرنا خبره في أخبار صنهاجة والموحدين فقصد قوصرة وصادف بها مركباً من المهديّة فغنمه ووجد عندهم حمام البطاقة فبعث الخبر إلى المهديّة على أجنحتها بأن أسطول الإفرنج أطلع إلى القسطنطينية ثم أطلع فاصبح قريباً من المرسى في ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وقد بعث الله الريح فعاقتهم عن دخول المرسى فقاته غرضه.

وكتب إلى الحسن بأنه باق على الصلح وإنما جاء طالباً بشأ محمد بن رشيد ورده إلى بلده قابس فجمع الحسن الناس واستشارهم فأشاروا بالقتال فخام عنه واعتذر بقلّة الأتوات وارتحل من البلد وقد حمل ما خف حمله وخرج الناس بأهاليهم وما خف من أموالهم واختفى كثير من المسلمين في الكنائس ثم ساعد الريح أسطول الإفرنج ووصلوا إلى المرسى ونزلوا إلى البلد من غير مدافع ودخل جرجي القصر فوجده على حاله مملوءاً بالذخائر النفيسة التي يعز وجود مثلها وبعث بالأمان إلى كل من شرد أهلها فرجعوا وأقرهم على الجزية وسار الحسن بأهله وولده إلى المعلقة وبها محرز بن زياد من أمراء الهلاليين ولقيه في طريقه حسن بن ثعلب من أمراء الهلاليين بمال انكسر له في ديوانه فأخذ ابنه يحيى رهينة به.

ولما وصل محرز بن زياد أكرم لقاءه وير مقدمه جزاء بما كان

استيلاء الإفرنج على عسقلان

كانت عسقلان في طاعة الظافر العلوي ومن جملة ممالكه وكان الإفرنج يتعاقدونها بالحصار مرة بعد مرة وكان الوزراء يدونها بالأموال والرجال والأسلحة وكان لهم التحكم في الدولة على الخلفاء العلوية فلما قتل ابن السلار سنة ثمان وأربعين اضطرب الحال بمصر حتى ولي عباس الوزارة فسار الإفرنج خلال ذلك من بلادهم بالشام وحاصروا عسقلان وامتنعت عليهم ثم اختلف أهل البلد وآل أمرهم إلى القتال فاعتمد الإفرنج الفرصة وملكوا البلد وعاثوا فيها والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

ثورة المسلمين بسواحل إفريقية على الإفرنج المتغلين فيها

قد تقدم لنا وفاة رجار وملك ابنه غليالم وأنه ساء تدبير وزيره فاختلف عليه الناس وبلغ ذلك المسلمين الذين تغلبوا عليهم بإفريقية وكان رجار قد ولي على المسلمين بمدينة صفاقس لما تغلب عليها أبو الحسين الغرياني منهم وكان من أهل العلم والدين ثم عجز عن ذلك وطلب ولاية ابنه عمر فولاه رجار وحمل أبا الحسين إلى صقلية رهينة وأوصى ابنه عمرو وقال: يا بني أنا كبير السن وقد قرب أجلي فمتى أمكنتك الفرصة في إنقاذ المسلمين من ملكة العدو فافعل ولا تخش علي واحسبني قد مت فلما احتل أمر غليالم دعا عمر أهل صفاقس إلى الثورة بالإفرنج فثاروا بهم وقتلوه سنة إحدى وخمسين واتبعه أبو يحيى بن مطروح بطرابلس ومحمد بن رشيد بقابس وسار عسكر عبد المؤمن إلى بونة فملكها وذهب حكم الإفرنج عن إفريقية ما عدا المهديّة وسوسة.

وأرسل عمر الغرياني إلى زويلة قريباً من المهديّة يفرهم بالوثوب على الإفرنج الذين معهم فوثبوا وأعانهم أهل ضاحيتهم وقتلوا الإفرنج بالمهديّة وقطعوا الميرة عنهم وبلغ الخبر إلى غليالم فبعث إلى عمر الغرياني بصفاقس وأعذر إليه في أبيه فأظهر للرسول جنازة ودفنها وقال: هذا قد دفتته فلما رجع الرسول بذلك صلب أبا الحسين ومات شهيداً رحمه الله تعالى وسار أهل صفاقس والعرب إلى زويلة واجتمعوا مع أهلها على حصار المهديّة وأمدهم غليالم بالأقوات والأسلحة وصانعوا العرب بالمال على أن يخذلوا أصحابهم ثم خرجوا للقتال فانهزم العرب وركب أهل صفاقس البحر إلى بلادهم أيضاً واتبعهم الإفرنج فعاجلهم

يؤثره على العرب ويرفع حمله وأقام عنده شهراً ثم عزم على السير إلى مصر وبها يومئذ الخافظ فأرصد له جرجي الشواني في البحر فرجع عن ذلك واعتزم على قصد عبد المؤمن من ملوك الموحدين بالمغرب وفي طريقه يحيى بن عبد العزيز ببجاية من بني عمه حماد فأرسل إليه أبناءه يحيى وعميماً وعلياً يستأذنه في الوصول فأذن له وبعث إليه من أوصله إلى جزائر بني مذغنة ووكل به وبولده حتى ملك عبد المؤمن بجاية سنة أربع وأربعين وخبرهم مشروح هنالك.

ثم جهز جرجي أسطولاً آخر إلى صفاقس وجاء العرب لإنجادهم فلما توافوا للقتال استطرد لهم الإفرنج غير بعيد فهزمهم ومضى العرب عنهم وملك الإفرنج المدينة سنة ثمان عشر صفر وفتكوا فيها ثم أمنوهم وفادوا أسراهم وأقروهم على الجزية وكذا أهل سوسة وكتب رجار صاحب صقلية إلى أهل سواحل إفريقيا بالأمان والموايد ثم سار جرجي إلى اقلبيّة من سواحل تونس واجتمع إليها العرب فقاتلوا الإفرنج وهزمهم ورجعوا خائنين إلى المهديّة وحدثت الفتنة بين رجار صاحب صقلية وبين ملك الروم بالقسطنطينية فشغل رجار بها عن إفريقية وكان متولي كبرها جرجي بن ميخائيل صاحب المهديّة ثم مات سنة ست وأربعين فسكنت تلك الفتنة ولم يبق لرجار بعده أحد مقامه والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على بونة ووفاة رجار صاحب صقلية وملك ابنه غليالم

ثم سار أسطول رجار من صقلية سنة ثمان وأربعين إلى مدينة بونة وقائد الأسطول بها وقتان المهديّ فحاصرها واستعان عليها بالعرب فملكها واستباحها وأغضى عن جماعة من أهل العلم والدين فخرجوا بأموالهم وأهاليهم إلى القرى وأقام بها عشراً ورجع إلى المهديّة ثم إلى صقلية ففكر عليه رجار رفقه بالمسلمين في بونة وحجسه ثم اتهم في دينه فاجتمع الأساقفة والقسوس وأحرقوه ومات رجار آخر هذه السنة لعشرين سنة من ملكه وولي ابنه غليالم مكانه وكان حسن السيرة واستوزر مائق البرقياني فأساء التدبير واختلف عليه حصون من صقلية وبلاد قلويرة وتعدى الأمراء على إفريقية على ما سيأتي إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

فيها وكان فصل شتاء فمال عليهم البحر وغرقوا ولم يفلت منهم إلا الأقل.

ودخل عبد المؤمن المهديّة في محرم سنة خمس وخمسين لاثنتي عشرة سنة من ملك الإفرنج وأقام بها عشرين يوماً فأصلح أمورها وشحنها بالحامية والأقوات واستعمل عليها بعض أصحابه وأنزل معه الحسن بن علي وأقطعهم بأرضها له ولأولاده وأمر الولي أن يقتدي برأيه ورجع إلى المغرب والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج أسد الدين شيركوه في

بلبس

كان أسد الدين شيركوه بن شادي عم صلاح الدين قد بعثه نور الدين العادل سنة تسع وخمسمائة منجداً لساور وزير العاضد صاحب مصر على قريعه الضرغام كما سيأتي في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

وسار نور الدين من دمشق في عساكره إلى بلاد الإفرنج ليشغلهم عن أسد الدين شيركوه وخرج ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فهزمه أسد الدين على تيس وتبعه إلى القاهرة ونزلها إلى منتصف السنة وأعاد ساور إلى الوزارة ونقض ما بينه وبين أسد الدين وتأخر إلى تيس وخشي منه ودس إلى الإفرنج يغريهم به وبذل لهم المال فطمعوا بذلك في ملك الديار المصرية وسار ملك القدس في عساكر الإفرنج واجتمعت معه عساكر المسلمين وساروا إلى أسد الدين فحاصروه في بلبس ثلاثة ولم يظفروا منه بشيء ثم جاءهم الخبر بأن نور الدين العادل هزم أصحابهم على خارذ وفتحها.

ثم سار إلى باناس فسقط في أيديهم وطلبوا الصلح من أسد الدين ليعودوا إلى بلادهم لذلك وخرج من بلبس سائراً إلى الشام ثم عاد إلى مصر سنة اثنتين وستين وعبر النيل من اطفح ونزل الجزيرة واستمد ساور الإفرنج فساروا إليه بجمعهم وكان أسد الدين قد سار إلى الصعيد وانتهى إلى فسار الإفرنج والعساكر المصرية في أثره فأدركوه منتصف السنة واستشار أصحابه فاتفقوا على القتال وأدركته عساكر الإفرنج ومصر وهو تعبته وقد أقام مقامه في القلب راشد حذراً من حملة الإفرنج ونحاز فيمن يشق به من شجعان أصحابه إلى الميمنة فحمل الإفرنج على القلب فهزمهم واتبعوهم.

وخالفهم أسد الدين إلى من تركوا وراهم من العساكر

عن زويلة وقتلوه ثم اقتحموا البلد فقتلوا خلفهم بها واستباحوهم.

ارتجاع عبد المؤمن المهديّة من يد الإفرنج

ولما وقع بأهل زويلة من الإفرنج ما وقع لحقوا بعبد المؤمن ملك المغرب يستصرخونه فأجاب صريحهم ووعدهم وأقاموا في نزله وكرامته وتجهز للمسير وتقدم إلى ولاته وعماله بتحصيل الغلات وحفر الآبار ثم سار في صفر سنة أربع وخمسين في مائة ألف مقاتل وفي مقدمته الحسن بن علي صاحب المهديّة ونازل تونس منتصف السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان من بقية دولة صنهاجة وجاء أسطول عبد المؤمن فحاصرها من البحر ثم نزل إليه من سورها عشرة رجال من أعيانها في السلام مستأئين لأهل البلد ولأنفسهم فأمّنهم على مقاسمتهم في أموالهم وعلى أن يخرج إليه ابن خراسان فتم ذلك كله وسار عنها إلى المهديّة وأسطوله محاذيه في البحر فوصلها منتصف رجب من السنة وبها أولاد الملوك والزعماء من الإفرنج وقد أخذوا زويلة وهي على غلوة من المهديّة فعمرها عبد المؤمن لوقتها وامتلاً فضاء المهديّة بالعساكر وحاصرها أياماً وضاق موضع القتال من البر لاستدارة البحر عليها لأنها صورة يد في البحر وذراعها في البر وأحاط الأسطول بها في البحر.

وركب عبد المؤمن البحر في الشواني ومعه الحسن بن علي فرأى حصانته في البحر وأخذ في المطاولة وجمع الأقوات حتى كانت في ساحة معسكره كالتلال وبعث إليه أهل صفاقس وطرابلس وجبال نفوسة بطاعتهم وبعث عسكراً إلى قابس فملكها عنوة وبعث ابنه عبد الله ففتح كثيراً من البلاد ثم وفد عليه يحيى بن تميم بن المقر بن الرند صاحب قفصة في جماعة من أعيانها فبذل طاعته ووصله عبد المؤمن بألف دينار.

ولما كان آخر شعبان وصل أسطول صقلية في مائة وخمسين من الشواني غير الطرائد كان في جزيرة يابسة فاستباحها وبعث إليه صاحب صقلية بقصد المهديّة فلما أشرفوا على المرسى قذفت إليهم أساطيل عبد المؤمن ووقف عسكره على جانب البر وعبد المؤمن ساجد يغفر وجهه بالتراب ويحار بالدعاء فانهمز أسطول الإفرنج وأقلعوا إلى بلادهم وعاد أسطول المسلمين ظافراً وأيس أهل المهديّة من الإنجاد ثم صابروا إلى آخر السنة حتى جهدهم الحصار ثم استأمنوا إلى عبد المؤمن فعرض عليهم الإسلام فأبوا ولم يزالوا يخضعون له بالقول حتى أمّنهم وأعطاهم السفن فركبوا

وسار في ستة آلاف وأزاح علل جنده وأعانهم أسد الدين بعشرين ديناراً لكل فارس وبعث معه جماعة من الأمراء منهم خرديك مولاه وعز الدين قليج وشرف الدين بن بجش وعين الدولة الباروقي وقطب الدين نبال بن حسان وصلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب وسار إلى مصر فلما قاربها ارتحل الإفرنج راجعين إلى بلادهم ودخل هو إليها منتصف السنة وخلع عليه العاضد وأجرى عليه وعلى عسكره الجرايات الوافرة.

ثم شرع شاور في محاطة أسد الدين بما وقع أنفاسهم معه عليه وحدث نفسه بالقبض عليه واستخدام جنده لمداغة الإفرنج ولم يتم له ذلك وشعر به أسد الدين فاعترضه صلاح الدين ابن أخيه وعز الدين خرديك مولاه عند قبر الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وقتلاه وفرض العاضد أمور دولته إلى أسد الدين وتقاصر الإفرنج عنها ومات أسد الدين واستولى صلاح الدين بعد ذلك على البلاد وارتجع البلاد الإسلامية من يد الإفرنج كما نذكر في اختبار دولته والله أعلم.

حصار الإفرنج دمياط

ولما ملك أسد الدين شريكه مصر خشيه الإفرنج على ما بأيديهم من مدن الشام وسواحله وكتبوا أهل ملتهم ونسبتهم بصقلية وإفرنسة يستجدونهم على مصر ليملكوها وبعثوا الأقسمة والرهبان من بيت المقدس يستفرونهم لحمايتها وواعدوهم بدمياط طمعاً في أن يملكوها ويتخذوها ركاباً للاستيلاء على مصر فاجتمعوا عليها وحاصروها لأول أيام صلاح الدين وأمدهم صلاح الدين بالعساكر والأموال وجاء بنفسه وبعث إلى نور الدين يستجده ويخوفه على مصر فتابع إليه الأمداد وسار بنفسه إلى بلاد الإفرنج بالشام واكتسحها وخربها فعاد الفرنج إلى دمياط بعد حصار خمسين يوماً نفس الله عليهم ومن هذه القصة بقية أخبار الإفرنج متعلقة بالدولتين دولة بني زنكي بالشام ودولة بني أيوب بمصر فأخترت بقية أخبارهم إلى أن نسردها في الدولتين على مواقعها في مواضعها حسبما تراه ولم يبق إلا استيلائهم على القسطنطينية من يد الروم فأوردناه هنا.

استيلاء الإفرنج على القسطنطينية

كان هؤلاء الإفرنج بعد ما ملكوه من بلاد الشام اختلفت أحوالهم في الفتنة والمهادنة مع الروم بالقسطنطينية لاستيلائهم على

فهمهم وأئخن فيهم ورجع الإفرنج من أثناء القلب فانهزموا وانهزم أصحابهم ولحقوا بمصر ولحق أسد الدين بالإسكندرية فملكها صلحاً وأنزل بها صلاح الدين ابن أخيه وحاصرته عساكر الإفرنج ومصر وزحف إليهم عمه أسد الدين من الصعيد فبعثوا إليه في الصلح فأجابهم على خمسين ألف دينار يعطونها إياه ولا يقيم في البلد أحد من الإفرنج ولا يملكون منها شيئاً فقبلوا ذلك وعادوا إلى الشام وملك أهل مصر الإسكندرية واستقر بينهم وبين الإفرنج أن ينزلوا بالقاهرة شحنة وأن يكون أبواها في علقها وفتحها بأيديهم وأن لهم من خراج مصر مائة ألف دينار في كل سنة ولم ذلك منه وعاد الإفرنج إلى بلادهم بالسواحل الشامية والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج القاهرة

ثم كان مسير أسد الدين إلى مصر وقتله شاور سنة أربع وستين باستدعاء العاضد لما رأى من تغلب الإفرنج كما نذكر في اختبار أسد الدين وأرسل إلى الإفرنج أصحابهم الذين بالقاهرة يستدعونهم للملكها ويهونونها عليهم وملك الإفرنج يومئذ بالشام مرى ولم يكن ظهر فيهم مثله شجاعة ورأياً فأشار بأن جبايتها لنا خير من ملكها وقد يضطرون فيملكون نور الدين منها وإن ملكها قبلنا احتاج إلى مصانعتنا فأبوا عليه وقالوا: إنما نزداد بها قوة فرجع إلى رأيهم وساروا جميعاً إلى مصر واتفقوا إلى تيسر في صفر سنة أربع وستين فملكوها عنوة واستباحوها.

ثم ساروا إلى القاهرة وحاصروها وأمر شاور بإحراق مصر وانتقال أهلها إلى القاهرة فنهبت المدينة ونهب أموال أهلها وبغتهم قبل نزول الإفرنج عليهم بيوم فلم تحمد النار مدة شهرين وبعث العاضد بالصريح إلى نور الدين واشتد عليه الحصار وبعث شاور إلى ملك الإفرنج يشير بالصلح على ألف ألف دينار مصرية ويهدده بعساكر نور الدين فأجابوا إلى ذلك.

ودفع إليهم مائة ألف ألف دينار وتأخروا قريباً حتى يصل إليهم بقية المال وعجز عن تحصيله والإفرنج يستحثونه فبعثوا خلال ذلك إلى نور الدين يستجدونه على الإفرنج بأن يرسل إليهم أسد الدين شريكه في عسكر يقيمون عندهم على أن لنور الدين ثلث بلاد مصر ولأسد الدين اقطاعه وعطاء العساكر فاستدعى أسد الدين من حصص وكانت اقطاعه وأمره بالتجهز إلى مصر وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الدواب والأسلحة وحكمه في العساكر والخزائن وما يحتاج إليه.

الخبر عن دولة بني أرتق وملوكهم للماردين وديار بكر ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان أرتق بن أكسك ويقال: أكست والأول أصح كلمة أولها همزة ثم كافان الأولى ساكنة بينهما سين من ممالك السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان ملك السلجوقية وله مقام محمود في دولتهم وكان على حلوان وما إليها من أعمال العراق ولما بعث السلطان ملك شاه عساكره إلى حصار الموصل مع فخر الدولة بن جهر سنة سبع وسبعين وأربعمائة أوقفه بعسكر آخر مع أرتق فهزمه مسلم بن قريش فحاصره بأمد ثم داخله في الخروج من هذا الحصار على مال اشترطه ونجا إلى الرقة ثم خشي أرتق من فعلته تلك فلحق بتش حتى سار إلى حلب طامعاً في ملكها فلقبه تش وهزمه وكان لأرتق في تلك الواقعة المقام المحمود ثم سار تش إلى حلب وملكها واستجار مقدمها ابن الحسين بأرتق فأجاره من السلطان تش ثم هلك أرتق سنة ثلاث وثمانين بالقدس وملكه من بعده أرتق ابنه أبو الغازي وسقمان وكان لهما معه الرها وسروج ولما ملك الإفرنج أنطاكية سنة إحدى وتسعين وأربعمائة اجتمعت الأمراء بالشام والجزيرة وديار بكر وحاصروها وكان لسقمان في ذلك المقام المحمود ثم تحاذلوا وافترقوا وطمع أهل مصر في ارتجاع القدس منهم وسار إليها الملك الأفضل المستولي على دولتهم فحاصرها أربعين يوماً وملكها بالأمان وخرج سقمان وأبو الغازي ابنا أرتق وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج وأحسن إليهم الأفضل وولى على بيت المقدس ورجع إلى مصر وجاء الإفرنج فملكوها كما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية ولحق أبو الغازي بالعراق فولي شحنة بغداد وسار سقمان إلى الرها فأقام بها وكان بينه وبين كربوقا صاحب الموصل فتن وحروب أسر في بعضها ياقوتي ابن أخيه.

ثم توفي كربوقا سنة خمس وتسعين وولي الموصل بعده موسى التركماني وكان نائباً بمحصن كيفا فزحف إليه جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وحاصره بالموصل واستنجد موسى سقمان على أن يعطيه حصن كيفا فانجده وسار إليه وأفرج عنه جكرمش وخرج موسى للقاء سقمان فقتله موابه غدرًا ورجع سقمان إلى حصن كيفا فملكه ثم كانت الفتنة بين أبي الغازي وكمستكين القيصري لما بعثه بركيارق شحنة على بغداد وكان هو شحنة من قبل السلطان محمد فمنع القيصري من الدخول

الثغور من بلاد المسلمين التي تجاور الروم التي كانت بأيديهم من قبل وظاهرهم الروم على المسلمين في بعض المرات ثم غلبوا عليهم آخرًا وملكوا القسطنطينية من أيديهم فأقامت في أيديهم مدة ثم ارتجعها الروم على يد لشكري من بطارتهم وكيفية الخبر عن ذلك: أن ملوك الروم أصهروا إلى ملوك الإفرنج وتزوجوا منهم بنتاً لملك الروم فولدت ذكراً خاله الإفرنسيس وثب عليه أخوه فاتنزع الملك من يده وجسه ولحق الولد بملك الإفرنج خاله مستصرخاً به فوصل إليه وقد تجهز الإفرنج لاستنقاذ القدس من يد المسلمين وكان صلاح الدين قد ارتجعها منهم كما يأتي في أخباره إن شاء الله تعالى.

وانتدب لذلك ثلاثة من ملوكهم دوقص البنادقة وهو صاحب الأسطول الذي ركبو فيه وكان شيخاً أعمى لا يركب ولا يمشي إلا بقاءد ومقدم الفرنسيس ويسمى المريكش والثالث يسمى كبدانقليد وهو أكثرهم عدداً فجعل الملك ابن اخته معهم وأوصاهم بمظاهرة على ملكه بالقسطنطينية ووصلوا إليها في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فخرج عم الصبي وقتلهم وأضرم شيعه الصبي النار في نواحي البلاد فاضطرب العسكر ورجعوا وفتح شيعه الصبي باب المدينة وأدخلوا الإفرنج وخرج عمه هارباً ونصب الإفرنج الصبي في الملك وأطلقوا أباه من السجن واستبدوا بالحكم وصادروا الناس وأخذوا مال البيع وما على الصلبان من الذهب وما على تماثيل المسيح والحواريين وما على الإنجيل فغظم ذلك على الروم ووثبوا بالصبي فقتلوه وأخرجوا الإفرنج من البلد وذلك منتصف سنة ستمائة.

وأقام الإفرنج بظاهرها محاصرين لهم وبعث الروم صريحاً إلى صاحب قونية ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان ينهض لذلك وكان بالمدينة متخلفون من الإفرنج يناهزون ثلاثين ألفاً فثاروا بالبلد عند شغل الروم بقتال أصحابهم وأضرموا النار ثانياً فاقتحم الإفرنج وأفحشوا في النهب والقتل ونجا كثير من الروم إلى الكنائس وأعظمها كنيسة سوميلا فلم تنن عنهم وخرج القيسيسون والأساقفة في أيديهم الإنجيل والصلبان فقتلوه ثم تنازع الملوك الثلاثة على الملك بها وتعارفوا فخرجت القرعة على كبدانقليد فملكها على أن يكون لدوقص البنادقة الجزائر البحرية اقريطش ورودس وغيرهما ويكون لمريكش الإفرنسيس شرقي الخليج ولم يحصل أحد منهم شيئاً إلا ملك القسطنطينية كبدانقليد وتغلب على شرقي الخليج بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكري فلم يزل بيده إلى أن مات ثم غلب بعد ذلك على القسطنطينية وملكها من يد الإفرنج والله غالب على أمره.

علي بطاعة جكرمش وخرج منها لبعض المذاهب وكتب ناثه بها إلى عمه سقمان بأنه يملك ماردين لجكرمش فسار إليها سقمان وعوض عليا ابن أخته جبل جور وأقامت ماردين في ملكه مع حصن كيفا واستضاف إليهما نصيبين واللّه أعلم.

وفاة سقمان بن أرتق وولاية أخيه أبي الغازي مكانه بماردين

ثم بعث فخر الدين بن عمار صاحب طرابلس يستنجد سقمان بن أرتق على الإفرنج وكان استبد بها على الخلفاء العلويين أهل مصر ونازله الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريح إلى سقمان بن أرتق سنة ثمان وتسعين وأجابه وبينما هو يتجهز للمسير وإفاه كتاب طغركين صاحب دمشق المستبد بها من موالى بني تشش يستدعيه لحضور وفاته خوفاً على دمشق من الإفرنج فأسرع المسير إليه معتماً على قصد طرابلس وبعدها دمشق فانتهى إلى القريتين وندم طغركين على استدعائه وجعل يدبر الرأي مع أصحابه في صرفه ومات هو بالقدس فكفاهم الله أمره وقد كان أصحابه عندما أشفى على الموت أشاروا عليه بالرجوع إلى كيفا فامتنع وقال: هذا جهاد وإن مات كان لي ثواب شهيد فلما مات حمله ابنه إبراهيم إلى حصن كيفا فدفنه بها.

وكان أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد كما قدمناه ولاء السلطان محمد أيام الفتنة بينه وبين أخيه بركيارق فلما اصطلاح بركيارق وأخوه سنة تسع وتسعين على أن تكون بغداد له ومالك أخرى من الممالك الإسلامية ومن جعلتها حلوان وهي أقطاع أبي الغازي فبادر وخطب لبركيارق ببغداد فنكر عليه ذلك صدقة بن مزيد وكان من شيعه السلطان محمد فجاء إلى بغداد ليزعج أبا الغازي عنها ففارقها إلى يعقوب وبعث إلى صدقة يعتذر بأنه صار في ولاية بركيارق ويحكم الصلح في أقطاعه وولايته فلم يمكنه غير ذلك.

ومات بركيارق على أثر ذلك فخطب أبو الغازي لابنه ملك شاه فنكر ذلك السلطان محمد منه فلما استولى على الأمر عزله عن شحنة بغداد فلاحق بالشام وحمل رضوان بن تشش صاحب حلب على حصار نصيبين من بلاد جكرمش فحاصروها وبعث جكرمش إلى رضوان وأغراه بأبي الغازي ففسد ما بينهما ورحلوا مفترقين على نصيبين وسار أبو الغازي إلى ماردين وقد مات أخوه سقمان كما قلناه فاستولى عليها واللّه تعالى أعلم.

واستنجد أخاه سقمان فجاء إليه من حصن كيفا في عساكره ونهب تكريت وخرج إليها أبو الغازي واجتمع معهم صدقة بن مزيد صاحب الخلة وعاثوا في نواحي بغداد وقتكوا بنفر من أهل البلد.

وبعث إليهم الخليفة في الصلح على أن يسير القيصري إلى واسط فسار إليه ودخل أبو الغازي بغداد ورجع سقمان إلى بلده وقد مر ذلك في أخبارهم ثم استولى مالك بن بهرام أخى سقمان على عامة الخرمية سنة سبع وتسعين وكان له مدينة سروج فملكها منه الإفرنج وسار إلى غانة فملكها من بني يعيش بن عيسى بن خلاط واستصرخوا بصدقة بن مزيد وارتجعها لهم منه وعاد إلى الخلة فعاد مالك فملكها واستقرت في ملكه ثم اجتمع سقمان وجكرمش صاحب الموصل على جهاد الإفرنج سنة سبع وتسعين وهم محاصرون حران فتركوا المنافسة بينهم وقصدوهم وسقمان في سبعة آلاف من التركمان فهزموا الإفرنج وأسروا القمص بردويل صاحب الرها أسره أصحاب سقمان فتغلب عليهم أصحاب جكرمش وأخذوه واقتروا بسبب ذلك وعادوا إلى ما كان بينهم من الفتن واللّه أعلم.

استيلاء سقمان بن أرتق على ماردين

كان هذا الحصن ماردين من ديار بكر وأقطعه السلطان بركيارق بجميع أعماله لمغن كان عنده وكان في ولاية الموصل وكان ينجر إليه خلق كثير من الأكراد يفسدون السابلة واتفق أن كربوقا صاحب الموصل سار لحصار آمد وهي لبعض التركمان فاستنجد صاحبها بسقمان فسار لإيجاده وقاتل كربوقا قتالاً شديداً ثم هزمه وأسر ابن أخيه ياقوتي بن أرتق وحسبه بقلعة ماردين عند المغني فبقي محبوساً مدة طويلة وكثر ضرر الأكراد فبعث ياقوتي إلى المغني صاحب الحصون في أن يطلقه ويقم عنده بالريض للدفاع الأكراد ففعل وصار ينير عليهم في سائر النواحي إلى خلاط وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للإغارة معه فلا يهيجهم.

ثم حدثته نفسه بالتوثب على القلعة فقبض عليهم بعض الأيام مرجعه من الإغارة ودنا من القلعة وعرضهم على القتل إن لم يفتحوا له ففتحها أهلوه وملكها وجمع الجموع وسار إلى نصيبين وأغار على جزيرة ابن عمر وهي لجكرمش فكبسه جكرمش وأصحابه في الحرب بينهم فقتله وبكاه جكرمش وكان تحت ياقوتي ابنة عمه سقمان فمضت إلى أبيها وجمعت التركمان وجاء سقمان بهم إلى نصيبين فترك طلب النار فبعث إليه جكرمش ما أرضاه من المال في ديتة ورجع وقدم بماردين بعد ياقوتي أخوه

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكار وكان أول من وصل منهم الملك فيليب ملك إفرنسيس وهو من أشرف ملوكهم نسباً وإن كان ملكه ليس بالكثير. وكان وصوله إليها ثاني عشر ربيع الأول ولم يكن في الكثرة التي ظنوها وإنما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقوت به نفوس من على عكا منهم ولخوا في قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد. وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك إنكلترا الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرص ليملكها فاقترنت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما لفرنج الذين على عكا فإنهم لازموا قتال من بها عليها سبع منجيات رابع جمادى الأولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لثلاث يتبع العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد. ثم وصل ملك إنكلترا ثالث عشر جمادى الأولى وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرص وأخذها من الروم، فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعاً فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج.

فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالاً فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرًا وجلدًا وصبرًا وبلي المسلمون منه بالدهاية التي لا مثل لها.

ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل: فلحقها ملك إنكلترا مصادفة: فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من

بها إلى أسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقاً واسعاً لثلاث يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر ففرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة إلى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقتلوه بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيراً من التراب مستطيلاً وما زالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلون من وراءه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها. فحيتشد عظم المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع.

ذكر ملك الفرنج عكا:

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن من البلد أن الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثالهم وأكبرهم فخرج إلى ملك إفرنسيس وبذل تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك فعاد علي بن أحمد إلى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتحاذلوا وأهملتهم أنفسهم. ثم إن أمراء من كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيبوا إلى التسليم، اتخذوا الليل جملًا وركبوا في شيء صغير وخرجوا سرًا من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم: عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الرشافي ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهناً على وهنهم وضعفوا على ضعفهم وأيقنوا بالعطب. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصليب فلم يفتنعوا بما بدل فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدًا واحدة ويتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فلما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما زعموا عليه لظهوره. فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف إليهم الفرنج بمجدهم وحديدتهم فظهروا من البلد على سوره يحركون أعلامهم ليراهم المسلمون وكانت هي العلامة إذا اخترتهم أمر.

فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحلوا

لا مال له. فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق.

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من إصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين أياز كوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان قضايقوا الفرنج في مسيرهم، وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس ووقعوا على ساقية الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة. وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير. فبطل المدد وعاد ملك الانكشار إلى ساقية الفرنج، فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون- قرية بالقرب منهم-، واحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض ما هلك من الخيل. ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه فيقتلونهم لأن صلاح الدين كان قد قسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتلهم بمن قتلوا بمن كان بعكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقتلواهم أشد قتال فقتلوا منهم نيلاً كثيراً.

ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريباً منهم، فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فابعدوا عن جماعتهم فأوقع المسلمون الذين كانوا في اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم. ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق.

فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكبة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد. وكان كثير من الخيالة والسوق قد ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون. لكن كان بالقرب من

على الفرنج من جميع جهاتهم طلباً منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم. وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرراً خرج إلى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المروفين، وإعادة صليب الصليبيات وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه، وأن يكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين. فلما حلفوا له سلم البلد إليهم ودخلوه مسلماً فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم. وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم، وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال وكان هو الأمان له إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول.

فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلهم على إطلاق أصحابه وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية: لا تخلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر عتدنا. وقال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عتدنا، فحيث علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئاً وأعاد الرسالة إليهم وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيك رهننا بالباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا: لا نخلف. إنما نرسل المائة ألف دينار التي حصلت والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حيث غدرهم وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤيئه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجيبهم السلطان إلى ذلك، فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم وإذ أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم، ومن

الأيام خرج ملك إنكلتار من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديداً وكاد ملك إنكلتار يؤسر فقاده بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون.

اضطراب أبي الغازي في طاعته وأسره ثم

خلاصه

لما ولي السلطان محمد على الموصل والجزيرة وديار بكر سنة اثنتين وخمسمائة مودود بن أفنديك مكان جاولي سكاو الذي ملكها من يد جكرمش كما مر في أخبارهم فوصل مودود إلى الموصل وسار جاولي إلى نصيبين وهي يومئذ لأبي الغازي وراسله في المظاهرة والإنجاد فوصل إليه بماردين على حين غفلة مستنجداً به فلم يسعه إلا إسعافه وسار معه إلى سنجار والرجة وحاصرها وشدد عليهما فلما نزل الخابور هرب أبو الغازي راجعاً إلى نصيبين ثم إلى بلده وبقي مضطرباً ثم بعث السلطان محمد سنة خمس وخمسمائة إلى الأمير مودود بالمسير إلى قتال الإفرنج وأن يسير الأمراء معه من كل جهة مثل سقمان القطبي صاحب ديار بكر وأحمد بك صاحب مراغة وأبي الهيجاء صاحب إربل وأبي الغازي صاحب ماردين فحضرُوا كلهم إلا أبا الغازي فإنه بعث ولده إياز في عسكر فسارت العساكر إلى الرها وحاصروها وامتنعت عليهم ثم ساروا سنة ست وخمسمائة إلى سروج كذلك.

ثم ساروا سنة سبع إلى بلاد الإفرنج فهزمهم على طبرية ودوخوا بلادهم وعاد مودود إلى دمشق وافترت العساكر ودخل دمشق ليشي بها عند طفركين صاحبها فقتل غيلة بها واتهم طفركين في أمره وبعث السلطان مكانه على العساكر والموصل أفسقر البرسقي وأمره بقصد الإفرنج وقتالهم وكتب إلى الأمراء بطاعته وبعث ابنه الملك مسعوداً في عسكر كثيف ليكونوا معه فسار أفسقر سنة ثمان وخمسمائة وفر أبو الغازي وحاصره بماردين حتى استقام وبعث معه ابنه إياز في عسكر فحاصروا الرها وعاثوا في نواحيها ثم سروج وشمشاط وأطاعه صاحب مرعش وكيسرم ورجع فقبض على إياز بن أبي الغازي ونهب سواد ماردين فسار أبو الغازي من وقته إلى ركن الدولة داود ابن أخيه سقمان وهو بمحصن كيفاً مستنجداً به فأنجده وساروا إلى البرسقي آخر ثمان وخمسمائة فهزمهم وخلصوا ابنه إياز من الأسر وأرسل السلطان إلى أبي الغازي يتهدهد فالحق بطفركين صاحب دمشق صريحاً

المسلمين شعري كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم، وقتل من المسلمين عموك لصلاح الدين اسمه إياز الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل المسلمون وأعنة خيلهم بأيديهم ثم سار الفرنج إلى يافا فزولوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ولما كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ما ذكرناه سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة واجتمع بأقاليمها وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له: قد رأيت ما منا بالأمر، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان، ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا لتزاح عنها وينزلون عليها فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا لأن العدو وقد قوي يأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد إلى ذلك. وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لثلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الأمر كذلك سار إلى وأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان والقيت حجارتهما في البحر وهلك فيها الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطعم. ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها. وكان المكريس لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحسن من ملك إنكلتار بالغدر به فهرب من عنده إلى صور وهي له بيده وكان رجل الفرنج رايماً وشجاعاً. وكل هذه الحروب هو أثارها فلما خربت عسقلان أرسل إلى ملك إنكلتار يقول له: مثلك لا ينبغي أن يكون ويتقدم على الجيوش تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مجدداً فرحلته وملكها صفواً عفواً بغير قتال ولا حصار فإنه ما خربها إلى وهو عاجز عن حفظها. وحق المسيح لو أنني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يجرب منها غير برج واحد!

فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ومضى إلى الرملة فخرّب حصنها وخرّب كنيسة لد. وفي مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه، وعاد إلى المخيم ثامن رمضان. وفي هذه

ثم عزل لشهر وولي أبو المعالي بن الملحي الدمشقي ثم عزل وصودر واضطربت الدولة وخشي أهل حلب على بلدهم من الإفرنج فاستدعوا أبا الغازي بن أرتق من ماردين وسلموا له البلد وانقرض ملك آل رضوان بن تش منها فلم يملكها بعد واحد منهم ولما ملكها لم يجد فيها مالا فصادر جماعة من الخدم وصانع الإفرنج بمالهم ثم سار إلى ماردين بغية العودة إلى حمايتها واستخلف عليها ابنه حسام الدين غمراش.

واقعة أبي الغازي مع الإفرنج

ولما استولى أبو الغازي على حلب وسار عنها طمع في الإفرنج وساروا إليها فملكوا مراغة وغيرها من أعمالها وحاصروها فلم يكن لأهلها بد من مدافعتهم بقتال أو بمال فقاسموهم أملاكهم التي بضاحتها في سبيل المصانة وبعثوا إلى بغداد يستغيثون فلم يثأروا وجمع أبو الغازي من العساكر والمتطوعة نحواً من عشرين ألفاً وسار بهم إلى الشام سنة ثلاثة عشرة ومعه أسامة بن مبارك بن منقذ الكناني وطفان أرسلان بن اسكين بن جناح صاحب أرزن الروم ونزل الإفرنج قريباً من حصون الأماري في ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ونزلوا في تل عفريين حيث كان مقتل مسلم بن قريش وتحصنوا بالجبال من كل جهة إلا ثلاث مسارب فقصدتهم أبو الغازي ودخل عليهم من تلك المسارب وهم غارون فركبوا وصدقوا الحملة فلقوا عساكر المسلمين متتابعة فولوا منهزمين وأخذهم السيف من كل جهة فلم يفلت إلا القليل وأسر من زعمانهم سبعون فاداهم أهل حلب بثلثمائة ألف دينار وقتل سرجان صاحب أنطاكية.

ونجا فلهم من المعركة فاجتمع جماعة من الإفرنج وعادوا للقاء فهزمهم أبو الغازي وفتح حصن الأثارن ورزقنا وعاد إلى حلب فأصلح أمورها وعبر الفرات إلى ماردين وولى على حلب ابنه سليمان ثم وصل ديبس بن صدقة إلى أبي الغازي مستجيراً به فكتب إليه المسترشد مع سرير الدولة عند أبي الغازي بإبعاد ديبس ثم وقع بينه وبين السلطان محمود الاتفاق ورهن ولده على الطاعة ورجع وسار أبو الغازي إلى الإفرنج عقب ذلك سنة أربع عشرة فقاتلهم بأعمال حلب وظفر بهم ثم سار هو وطرغرين صاحب دمشق فحاصروا الإفرنج بالثيرة وخشوا من استماتهم فأفرج لهم أبو الغازي حتى خرجوا من الحصن وكان لا يطيل المقام بدار الحرب لأن أكثر الغزاة معه التركمان يأتون بجرباب دقيق وقديد شاه فيستعجل العود إن فئت أزوادهم والله أعلم.

وكان طغركين مستوحشاً لاتهامه بأمر مودود فانفقا على الاستنجاد وبعثا بذلك إلى صاحب أنطاكية فجاء إليهما قرب حمص وتحالفا وعاد إلى أنطاكية وسار أبو الغازي إلى ديار بكر في خوف من أصحابه فاعترضه قيرجان صاحب حمص فظفر به وأسرهم وبعث إلى السلطان يخبره وأبطأ عليه وصول جوابه فيه وجاء طغركين إلى حمص فدخل على قيرجان وألح عليه بقتل أبي الغازي ثم أطلقه قيرجان وأخذ عليه.

وسار أبو الغازي إلى حلب وبعث السلطان العساكر مع يوسف بن برسق صاحب همذان وغيره من الأمراء لقتال أبي الغازي وقتل الإفرنج بعده فساروا إلى حلب وبها لؤلؤ الخادم مولى رضوان بن تش كفل ابنه ألب أرسلان بعد موته ومعه مقدم العساكر شمس الخواص فطالبوهما بتسليم حلب بكتاب السلطان إليهما في ذلك وبادر أبو الغازي وطرغرين فدخلا إليهما فامتعت عليهما فساروا إلى حماة من أعمال طغركين وبها ذخائره ففتحوها عنوة ونهبوها وسلموها إلى الأمير قيرجان صاحب حمص فأعطاهم أياز بن أبي الغازي وكان أبو الغازي وطرغرين وشمس الخواص ساروا إلى روجيل صاحب أنطاكية يستجدونه على حفظ حماة وجاءهم هنالك بغديون صاحب القدس والقمص صاحب طرابلس وغيرهما وانفقوا على مطاولة العساكر ليتفرقوا عند هجوم الشتاء واجتمعوا عند قلعة أفامية فلم تبرج العساكر مكانها فافترقوا طغركين وعاد إلى دمشق وأبو الغازي إلى ماردين والإفرنج إلى بلادهم ثم كان أثر ذلك فتح كفرطاب على المسلمين واعتزموا على معاودة حلب فاعترضهم روجيل صاحب أنطاكية وقد جاء في خمسمائة فارس مدداً للإفرنج في كفر طاب فانهزم المسلمون وكان تمحيصهم ورجع برسق أمير العساكر وأخوه منهزمين إلى بلادهم وكان أياز بن أبي الغازي أسيراً عندهم فقتله الموكلون به يوم المعركة سنة تسع وخمسمائة والله تعالى أعلم.

استيلاء أبي الغازي على حلب

كان رضوان بن تش صاحب حلب لما توفي سنة سبع وخمسمائة قام بأمر دولته لؤلؤ الخادم ونصب ابنه ألب أرسلان في ملكه ثم استوحش منه ونصب مكانه أخاه سلطان شاه واستبد عليه ثم سار لؤلؤ الخادم إلى قلعة جعبر سنة إحدى عشرة بينه وبين مالك بن سالم بن بدران فغدر به بماليك الأتراك وقتلوه عند خرت برت واستولوا على خزائنه واعترضهم أهل حلب واستفدوا منهم ما أخذوه وولي شمس الخواص أتابك مكان لؤلؤ

انتقاض سليمان بن أبي الغازي بحلب

كان أبو الغازي قد ولي على حلب ابنه سليمان فحمله بطائنه على الخلاف على أبيه وسار إليه أبوه تلقاه ابنه سليمان بالمعاذير فأمسك عنه وقبض على بطائنته الذين داخلوه في ذلك وكان متولي كبرها أمير كان لقيطاً لأبيه ونشأ في بيته فسمله وقطع لسانه وكان منهم آخر من أهل حاة قدمه أبو الغازي على أهل حلب فقطعه وسمله فمات وأراد قتل ابنه ثم تشبه الشفقة عليه وهرب إلى دمشق وشفع فيه فتركين فلم يشفعه ثم استخلف على حلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار ولقبه بدر الدولة وعاد إلى ماردين وذلك سنة خمس عشرة ثم ابنه حسام الدين تمرتاش مع القاضي بهاء الدولة أبي الحسن الشهرزوري شافعاً في ديبس وضامناً في طاعته فلم يتم ذلك فلما انصرف تمرتاش إلى أبيه أقطع السلطان أباه أبا الغازي مدينة ميفارقين وكانت لسقمان القطبي صاحب خلاط فتسلمها أبو الغازي ولم تزل في يده إلى أن ملكها صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخسمائة والله تعالى أعلم.

واقعة مالك بن بهرام مع جوسكين صاحب الرها

قد تقدم لنا أن جوسكين من الإفرنج كان صاحب الرها وسروج وأن مالك بن بهرام كان قد ملك مدينة غانة فسار سنة خمس عشرة إلى الرها وحاصرها أياماً فامتعت عليه وسار جوسكين في اتباعه بعد أن جمع الإفرنج وقد تفرق عن مالك أصحابه ولم يبق معه إلا أربعمائة فلحقوه في أرض رخوة قد نضب عنها الماء فوحلت فيها خيولهم ولم يقدروا على التخلص فظفر بهم أصحاب مالك وأسروهم وجعل جوسكين في إهاب جبل وخطط عليه وطلبوا منه تسليم الرها فلم يفعل وجسبه في خرت برت بعد أن بذل في فديته أموالاً فلم يصادوه والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

وفاة أبي الغازي وملك بنيه من بعده

ثم توفي أبو الغازي بن أرتق صاحب ماردين في رمضان سنة ست عشرة وخسمائة فولي بعده بماردين ابنه حسام الدين تمرتاش وملك سليمان ميفارقين وكان بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار فاستولى عليها ثم سار مالك بن بهرام بن أرتق إلى

مدينة حران فحاصرها وملكها وبلغه أن سليمان ابن عمه عبد الجبار صاحب حلب قد عجز عن مدافعة الإفرنج وأعطاهم حصن الاماري فقطع في ملك بلاده وسار إليها في ربيع سنة عشرة وملكها من يده على الأمان ثم سار سنة ثمان عشرة إلى منبج وحاصرها وملك المدينة وحبس صاحبها حسان التغلبي وامتنع أهلها بالقلعة فحاصرها وسمع الإفرنج بذلك فساروا إليه فترك على القلعة من يحاصرها ونهض إليهم فهزمهم وأثنى فيهم وعاد إلى منبج فحاصرها وأصابه بعض الأيام سهم غرب فقتله فاضطرب العسكر وافترقوا وخلص حسان من محبسه وكان تمرتاش بن أبي الغازي صاحب ماردين معه على منبج فلما قتل حمل شلوه إلى حلب ودفنه بها واستولى عليها ثم استخلف عليها وعاد إلى ماردين وجاء الإفرنج إلى مدينة صور فملكوها وطمعوا في غيرها من بلاد المسلمين ولحق بهم ديبس بن صدقة ناجياً من واقته مع المسترشد فأطعمهم في ملك حلب وساروا معه فحاصروها وبنوا عليها المساكن وطال الحصار وقلت الأقوات واضطرب أهل البلد وظهر لهم العجز من صاحبهم ولم يكن في الوقت أظهر من البرسقي صاحب الموصل ولا أكثر قوة وجمعاً منه فاستدعوه ليدافع عنهم وملكوه وشرط عليهم أن يكونوا من القلعة قبل وصوله ونزل فيها بوابه وسار فلما أشرف على الإفرنج ارتحلوا عائدين إلى بلادهم وخرج أهل حلب فقتلوا البرسقي فدخل واستولى على حلب وأعمالها ولم تزل بيده إلى أن هلك وملكها ابنه عز الدين ثم هلك فولي السلطان محمود عليها أتاك زكريا حسباً يأتي في أخبار دولته ورجع تمرتاش إلى ماردين واستمر ملكه بها وكان مستولياً على كثير من قلاع ديار بكر استولى سنة اثنتين وثلاثين على قلعة الساج من ديار بكر وكانت بيد بعض بني مروان من بقايا ملوك الأولين وكان هذا آخرهم بهذه القلعة وكان ملك ميفارقين قد سار لحسام الدين تمرتاش وملكها من يد أخيه سليمان ولم يزل تمرتاش ملكاً بماردين إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وخسمائة لإحدى وثلاثين سنة من ملكه والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة تمرتاش وولاية ابنه أبي بعده

ثم توفي حسام الدين تمرتاش سنة سبع وأربعين وخسمائة كما قلنا، فملك بعده ابنه بماردين أبي بن تمرتاش وبقي ملكاً عليها إلى أن مات وولي بعده ابنه أبو الغازي بن أبي إلى أن مات ولم يذكر ابن الأثير تاريخ وفاتها وقال مؤرخ حاة: لم يقع إلي تاريخ وفاتها.

ثم استتفد ارتق من الجمر ومرض البقش سنة إحدى
وستمائة فجاء ارتق لعيادته وقتل لؤلؤاً خادمه في بعض زوايا بيته
ورجع إلى البقش فقتله في فراشه واستقل بملك ماردين وتلقب
المنصور وتوفي سنة ست وثلاثين وثلثمائة وملك بعده ابنه السعيد
نجم الدين غازي بن ارتق وتوفي سنة ثمان أو ثلاث وخمسين

دولة بني زنكي بن أفسنقر الخير عن دولة بني زنكي بن أفسنقر من موالي السلجوقية بالجزيرة والشام ومبادئ أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر أفسنقر مولى السلطان ملك شاه وأنه كان يلقب قسيم الدولة وأن السلطان ملك شاه لما بعث الوزير فخر الدولة بن جهر سنة سبع وسبعين وأربعمائة بفتح ديار بكر من يد بن مروان واستنجد ابن مروان صاحب الموصل شرف الدولة مسلم بن عقيل وهزمته العساكر وانحصر بآمد فبعث السلطان عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهر ليخالف شرف الدولة إلى السلطان فلقبه في الرحبة وأهدى له فرضي عنه ورده إلى بلده الموصل واستولى بنو جهر بعد ذلك على ديار بكر كما مر في موضعه من دولة بني مروان ثم كان بعد ذلك شأن حلب واستبد بها أهلها بعد انقراض دولة بني صالح بن مرداس الكلابي وطمع فيها شرف الدولة مسلم بن قريش وسليمان بن قطلمش صاحب بلاد الروم وتش ابن السلطان ألب أرسلان.

وقتل سليمان بن قطلمش مسلم بن قريش ثم قتل تش سليمان بن قطلمش وجاء إلى حلب فملكها وامتنعت عليه القلعة فحاصرها وقد كانوا بعثوا إلى السلطان ملك شاه واستدعوا للملكها فوصل إليهم سنة تسع وسبعين: ورحل تش عن القلعة ودخل البرية واستولى السلطان على حلب وولى عليها قسيم الدولة أفسنقر وعاد إلى العراق فعمرها أفسنقر وأحسن السيرة فيها وسار معه تش حين عهد له أخوه السلطان ملك شاه بفتح بلاد العلوية بمصر والشام ففتح الكثير منها وهو معه كما مر وزحف قبل ذلك سنة ثمانين إلى بني منقذ بشرز فحاصره وضيق عليه ثم رجع عنه عن صلح وأقام بحلب ولم يزل والياً عليها إلى أن هلك السلطان سنة خمس وثمانين.

واختلف ولده من بعده وكان أخوه تش قد استولى على الشام منذ سنة إحدى وسبعين فلما هلك أخوه طمع في ملك السلجوقية من بعده فجمع العساكر وسار لاقتضاء الطاعة من الأمراء معه بالشام وقصد حلب فأطاعه قسيم الدولة أفسنقر وحمل باغيسيان صاحب أنطاكية وتيران صاحب الرها وحران على طاعته حتى يظهر مال الأمر في ولد سيدهم ملك شاه وساروا مع تش إلى الرحبة فملكها وخطب لنفسه فيها ثم إلى نصيبين ففتحها عنوة ثم إلى الموصل فهزم صاحبها إبراهيم بن قريش بن بدران

البغضاء له وأشخصه إلى حصن منصور من آخر عملهم واصطفى مملوكه إياساً وزوجه بأخته وجعله ولى عهده.

ولما توفي ملك بعده مملوكه وشخص أهل الدولة فدرسوا إلى محمود فسار إلى آمد وسبقه إياس إليها ليدافعه فلم يطق وملك محمود آمد واستولى على البلد كلها وحبس إياساً إلى أن أطلقه بشفاعة صاحب بلاد الروم ولحق به وانتظم في أمرائه واستقل محمود بملك كيفا وآمد وأعمالهما ولقب ناصر الدين وكان ظالماً قبيح السيرة وكان يتحلل العلوم الفلسفية وتوفي سنة تسعة عشر وستمائة وولى مكانه المسعود وحدث بينه وبين الأفضل بن عادل فنة واستنجد عليه أخاه الكامل فسار في العساكر من مصر ومعه داود صاحب الكرك والمظفر صاحب حماة فحاصروه بآمد إلى أن نزل عنها وجاء إلى الكامل فاعتقله فلم يزل عنده حبساً إلى أن مات الكامل فذهب إلى التتر فمات عندهم.

وأما عماد الدين بن قرا أرسلان الذي ملك خرت برت من يد قطب الدين سقمان ابن أخيه نور الدين فلم تزل في يده إلى أن توفي سنة إحدى وستمائة لعشرين سنة من ملكه إياها.

وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر وكانت بينه وبين ناصر الدين محمود ابن عمه نور الدين صاحب آمد وكيفا عداوة ودخل محمود في طاعة العادل بن أيوب وحضر مع ابنه الأشرف في حصار الموصل على أن يسير معه بعدها إلى خرت برت فيملكها له وكان نظام الدين مستنجداً به الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم فمات وسار الأشرف مع محمود بعساكره وحاصروا خرت برت في شعبان سن إحدى وستين وملكوا أربضها وبعثوا غياث الدين صاحب الروم إلى نظام الدين المدد بالعساكر مع الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط فلما انتهوا إلى ملطية أفرج الأشرف ومحمود عن خرت برت إلى بعض حصون نظام الدين بالصحرَاء ببحيرة سهنين وفتحت في ذي الحجة سنة إحدى وستين فلما وصل الأفضل بعساكر غياث الدين ووصل الأشرف عن البحيرة راجعاً جاء نظام الدين بالعساكر إلى الحصن فامتنع عليه وبقي لصاحب آمد ثم ملك كيقباد صاحب الروم حصن خرت برت من أيديهم سنة إحدى وثلاثين وانقرض منها ملك بني سقمان والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

طرابلس وزنكي بن قسيم الدولة أفسنقر وجماعة من أمراء الجزيرة ووصلوا إلى بغداد وصالحهم البرسقي وسار معهم.

ودخل مسعود إلى بغداد وجاء منكبرس إلى بغداد ونزع إليه ديبس بن صدقة ووقعت الحرب بينهما على بغداد كما تقدم في أخبار الدولة وأقام منكبرس ببغداد ثم كان له في خدمة السلطان عمود عند حربه مع أخيه مسعود مقامات جلييلة وغلب السلطان أخاه مسعوداً وأخذ عهده واستنزل أتابكه حيوس بك من الموصل وأعاد إليها البرسقي سنة خمسة عشر فعاد زنكي إلى الاختصاص به كما مر ثم أضاف إليه السلطان محمود شحنة بغداد وولاية واسط مضافة إلى ولاية الموصل سنة ستة عشر فولى عليها عماد الدين زنكي فحسن أثره في ولايتهما.

ولما كانت الحرب بين ديبس بن صدقة وبين الخليفة المسترشد وبرز المسترشد لقتاله من بغداد وحضر البرسقي من الموصل وعماد الدين زنكي فانهمز ديبس عماد الدين في ذلك المقام ثم ذهب ديبس إلى البصرة وجمع المتفق من بني عقيل فدخلوا البصرة ونهبوها وقتلوا أميرها وبعث المسترشد إلى البرسقي فعذله في إهماله أمر ديبس حتى فعل في البصرة ما فعل فبادر إلى قصره وهرب ديبس واستولى على البصرة وولى عليها عماد الدين زنكي بن أفسنقر فأحسن حمايتها والدفاع عنها وكبس العرب في حلهم بضواحيها واجفلوا ثم عزل البرسقي سنة ثمان عشرة عن شحنة بغداد وعاد إلى الموصل فاستدعى عماد الدين زنكي من البصرة فضجر من ذلك وقال: كل يوم للموصل جديد يستجندا، وسار إلى السلطان ليكون في جلته فلما قدم عليه بأصفهان أقطعه البصرة وأعاد عليها من قبله.

ثم ملك البرسقي مدينة حلب سنة ثمان عشرة وقتل بها سنة تسع عشرة وكان ابنه عز الدين مسعود يملح فبادر إلى الموصل وأقام ملك أبيه بها ووقع الخلاف بين المسترشد والسلطان محمود وبعث الخليفة عقيفاً الخادم إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان محمود فسار إليه عماد الدين زنكي من البصرة وقتله فهزمه ونمى عفيف إلى المسترشد وأقام عماد الدين في واسط وأمره أن يحضر بالعاسكر في السفن وفي البر فجمع السفن من البصرة وشحنها بالمقاتلة شاكبي السلاح وأصعد في البر وقدم على السلطان وقد تسلحت العساكر فهاله منظرهم ووهن المسترشد لما رأى فأجابه إلى الصلح.

وتولى كبر هزيمته أفسنقر وقتل قريش بن إبراهيم وملك الموصل من يده وولى تشش عليها ابن عمته علي بن مسلم بن قريش وسار إلى ديار بكر فملكها ثم إلى أذربيجان.

وكان بركيارق بن مالك شاه قد استولى على الري وهمذان وكثير من البلاد فسار لمدايمته وجنح قسيم الدولة أفسنقر وبوزان صاحب الرها إلى بركيارق ابن سيدهم فلاحقوا به وتركوا تشش فانقلب عائداً إلى الشام ساخطاً على أفسنقر وبوزان ما فعلاه فجمع العساكر وسار إلى حلب سنة سبع وثمانين لقتال قسيم الدولة وأمد بركيارق بالأمير كربوقا في العساكر فبرزوا إلى لقائهم والتفوا على ست فراسخ من حلب ونزع بعض عساكر أفسنقر إلى تشش فاختلف مصافه وتمت الهزيمة عليه وجيء به أسيراً إلى تشش فقتله صبراً.

ولحق كربوقا وبوزان مجلب وتبعهما فحاصرهما وملكها وأخذهما أسيرين كما مر في أخبار الدولة وكان قسيم الدولة حسن السياسة كثير العدل وكانت بلاده آمنة ولما مات نشأ ولده في ظل الدولة السلجوقية وكان أكبرهم زنكي فنشأ مرموقاً بعين النجلة ولما ولي كربوقا الموصل من قبل بركيارق أيام الفتنة بين بركيارق وأخيه محمد كان زنكي في جلته لأنه كان صاحب أبيه وسار كربوقا أيام ولايته لحصار آمد وصاحبها يومئذ بعض أمراء التركمان والمجده سقمان بن أرتق وكان زنكي بن أفسنقر يومئذ صبيّاً وهو في جملة رجال كربوقا ومعه جماعة من أصحاب أبيه فجلوا في تلك الحرب.

وانهمز سقمان وظهر كربوقا. وفي هذه الحرب أسر بن ياقوتي بن أرتق وسجنه كربوقا بقلعة مارددين فكان ذلك سبباً لملك بني أرتق فيها كما مر في أخبار دولتهم ثم تابعت الولاة على الموصل فوليتها جكرمش بعد كربوقا وبعده جاوي سكاو وبعده مودود بن ايتكين وبعده أفسنقر البرسقي كما تقدم في أخبار السلجوقية وولاه السلطان محمد بن ملك شاه سنة ثمان وخمسين وبعث معه ابنه مسعوداً وكتب إلى سائر الأمراء هناك بطاعته ومنهم يومئذ عماد الدين زنكي بن أفسنقر فاخص به.

ولما ملك السلطان محمود بعد أبيه محمد سنة إحدى عشرة كان أخوه مسعود بالموصل كما تقدم أتابكه حيوس بك ونقل البرسقي من الموصل إلى شحنة بغداد وانتقض ديبس بن صدقة صاحب الحلة على المسترشد والسلطان محمود وجمع البرسقي العساكر وقصد الحلة فكتب ديبس السلطان مسعود وأتابكه حيوس بك بالموصل وأغراهما بالمسير إلى بغداد فسار لذلك مع السلطان مسعود وزيره فخر الملك وأبو علي بن عمار صاحب

ولاية زنكي شحنة بغداد والعراق

ولما ظهر من عماد الدين زنكي من الكفاءة والغناء في ولاية البصرة وواسط ما ظهر ثم كان له المقام المحمود مع السلطان محمود على بغداد كما مر ولاء شحنة بغداد والعراق لما رأى أنه يستقيم إليه في أمور الخليفة بعد أن شاور أصحابه فأشاروا به وذلك سنة إحدى وعشرين وسار عن بغداد بعد أن ولاء على كرسي ملكه بأصفهان والله تعالى أعلم.

ولاية عماد الدين زنكي على الموصل

وأعمالها

قد قدمنا أن عز الدين مسعود بن البرسقي لما قتل الباطنية أباه بالموصل وكان نائبه مجلب فبادر إلى الموصل وضبط أمورها وخطاب السلطان محموداً فولاه مكان أبيه وكان شجاعاً قوياً فقطع في ملك الشام فسار وبدأ بالرحبة فحاصرها حتى استأمن إليه أهل القلعة وطرقة مرض فمات وتفرقت عساكره ونهب بعضهم بعضاً حتى شغلوا عن دفته وكان جاولي مولد أبيه مقدم العساكر عنده فنصب مكانه أخاه الأصغر وكاتب السلطان في تقرير ولايته وأرسل في ذلك الحاجب صلاح الدين محمد الباغيساني والقاضي أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري فأوصى صلاح الدين صهره جقري فيما جاء فيه وكان شعبة لعماد الدين زنكي فخر فالحاجب وحذره مغبة حاله معه، وأشار عليه وعلى القاضي بطلب عماد الدين زنكي وضمن لهما عنده الولايات والإقطاع.

وركب القاضي مع الحاجب إلى الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد وذكر له حال الجزيرة والشام واستيلاء الإفرنج على أكثرها من ماردین إلى العريش وأنها تحتاج إلى من يكف طغيانهم وابن البرسقي المنصوب بالموصل صغير لا يقوى على مدافعتهم وحماية البلاد منهم ونحن قد خرجنا عن العهدة وأنهينا الأمر إليكم فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فشكرهما واستبدعاهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية فذكرا جماعة وأدرجا فيهم عماد الدين زنكي وبذلا عنه مائلاً جزيلاً لحزانه السلطان فأجابهما إليه لما يعلم من كفايته وولاه البلاد كلها وكتب منشوره بها وشافهه بالولاية وسار إلى ولايته فبدأ بالفوارق وملكها ثم سار إلى الموصل وخرج جاولي والعساكر للقائه.

ودخل الموصل في رمضان سنة إحدى وعشرين وبعث

جاولي والياً على الرحبة وولى على القلعة نصير الدين جقري وولى على حجابته صلاح الدين الباغيساني وعلى القضاء ببلاده جميعاً بهاء الدين الشهرزوري وزاد في إقطاعه وكان لا يصدر إلا عن رأيه ثم خرج إلى جزيرة ابن عمر وبها موالى البرسقي فامتنعوا عليه وحاصروهم وكان بينه وبين البلد دجلة فغيرها وبين دجلة والبلد فسيح من الأرض فغير دجلة وقتلهم في ذلك الفسح وهزمهم فتحصنوا بالأسوار، ثم استأمنوا فدخل البلد وملكه وسار لنصيبين وكانت لحسام الدين ترمش بن أبي الغازي صاحب ماردین فاستنجد عليه ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب كيفا فوعده بالنجدة وبعث حسام الدين بذلك إلى أهل نصيبين يأمرهم بالمصاهرة عشرين يوماً إلى حين وصوله فسقط في أيديهم لعجزهم عن ذلك واستأمنوا لعماد الدين فأمهم وملكها وسار عنها لسنجار فامتنعوا عليه أولاً ثم استأمنوا وملكها وبعث منها إلى الخابور فملك جميعه ثم سار إلى حران وكانت الرها وسروج والبيرة في جوارها للإفرنج وكانوا معهم في ضيقة فبادر أهل حران إلى طاعته وأرسل إلى جوسكين وهادنه حتى يتفرغ له فاستقر بينهما الصلح والله تعالى أعلم.

استيلاء الأتابك زنكي على مدينة حلب

كان البرسقي قد ملك حلب وقلعتها سنة ثمانين عشرة واستخلف عليها ابنه مسعود ثم قتل الباطنية البرسقي بالموصل فبادر ابنه مسعود إلى الموصل واستخلف على حلب الأمير قرمان ثم عزله وبعث بولايته إلى الأمير قطغق آبه فمعه قرمان وقال: بيني وبينه علامة لم أرها في التوقيع. فرجع إلى مسعود فوجده قد الرحبة فعاد إلى حلب مسرعاً ومال إليه أهل البلد ورئيسها مضال بن ربيع وأدخلوه وملكوه واستنزلوا قرمان من القلعة وأعطوه ألف دينار وبلغوه مأمته.

وملك قطغق القلعة والبلد منتصف إحدى وعشرين ثم ساءت سيرته وفحش ظلمه واشتمل عليه أشرار فاستوحش الناس منه وثاروا به في عيد الفطر من السنة وقبضوا على أصحابه وولوا عليهم بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق الذي كان ملكها من قبل وحاصروا قطغق بالقلعة ووصل حسان صاحب منبج وحسن صاحب مراغة لإصلاح الأمر فلم يتم وزحف جوسكين صاحب الرها من الإفرنج إلى حلب فصانعوهم بالمال ورجع فزحف صاحب أنطاكية وحاصر البلد وهم يحاصرون القلعة إلى منتصف ذي القعدة من آخر السنة.

زعمائهم وقتل كثير حتى بقيت عظامهم ماثلة بذلك الموضع أكثر من ستين سنة ثم عاد إلى حصن الأتابك فملكه عنوة وخربه وتقسّم جميع من فيه بين القتل والأسر وسار إلى قلعة حارم قرب أنطاكية وهي للإفرنج فحاصرها حتى صالحوه على نصف خراجها فرجع عنها وملئ الإفرنج رعباً منه ومن استبداد المسلمين به وذهب ما كان عندهم من الطمع.

واقعة عماد الدين مع بني أرتق

ولما فرغ عماد الدين من غزو الإفرنج وفتح الأتابك وقلعة حارم عاد إلى الجزيرة وحاصر مدينة سرخس وهي لصاحب ماردين بينها وبين نصيبين فاجتمع حسام الدين صاحب ماردين وركن الدولة صاحب آمد وهما لأبي الغازي صاحب ماردين بن حسام الدين غمراش بن أبي الغازي وصاحب كيفا ركن الدولة داود بن سقمان وغمراش بن أرتق وجمعوا من التركمان نحواً من عشرين ألفاً وساروا لمداغة زنكي فهزمهم وملك سرخس وسار ركن الدولة إلى جزيرة ابن عمر لينهبها فاتبعه عماد الدين فرجع إلى بلده فعاد عنه لضيق مسالكه وملك من قلاعه همد ورجع إلى الموصل إلى آخره.

حصول ديبس بن صدقة في أسر الأتابك زنكي

قد تقدم لنا أن ديبس بن صدقة لما فارق البصرة سار إلى سرخد من قلاع الشام سنة خمس وعشرين باستدعاء الجارية التي خلفها الحسن هنالك ليتزوج بها وأنه مر في الغوطة بجي من أحياء كلب فأسروه وحملوه إلى تاج الملوك صاحب دمشق وبلغ الخبر إلى الأتابك زنكي وكان عدواً له فبعث فيه إلى تاج الملوك بوري وفادى من ابنه سونج والأمراء الذين معه عنده فأطلقهم وبعث بوري إليه بديس وهو مستيقن الهلاك فلما وصله أكرمه وأحسن إليه وأزاح علله وبعث المسترشد فيه إلى بوري بن طغركين صاحب دمشق فوجده قد فات بتسليمه إلى زنكي فذم الرسل زنكي فيما فعله فأرصد لهم في طريقهم وسيقوا إليه وهم شديد الدولة بن الأنباري وأبو بكر بن بشر الجزري فحبسهما حتى شفع فيهما المسترشد وبقي ديبس عنده حتى التحدر معه إلى العراق.

وانتهى عماد الدين زنكي إلى صاحب حران كما ذكرناه فبعث إلى أهل حلب أميرين من أصحابه بتوقيع السلطان له بالموصل والجزيرة والشام فيأدروا إلى الطاعة وسار إليه بدر الدولة ابن عبد الجبار وقطّلع أبه وأقام أحد الأميرين بحلب ولما وصلا إلى عماد الدين أصلح بينهما وأقاما عنده وبعث الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني في عسكر إليهما فملك القلعة ورتب الأمور وولى ثم وصل عماد الدين بعده في محرم سنة اثنتين وعشرين وملك في طريقه منبج من يد حسان ومراغة من يد حسن وتلقاه أهل حلب فاستولى وأقطع أعمالها للأمراء والأجناد ثم قبض على قطّلع أبه وأسلمه إلى ابن بديع فكحله ومات واستوحش ابن بديع فلحق بقلعة جعبر مستنجداً بصاحبها وأقام عماد الدين مكانه في رئاسة حلب علي بن عبد الرازق وغاد إلى الموصل واللّه أعلم.

استيلاء الأتابك زنكي على مدينة حماة

ثم سار عماد الدين زنكي لجهاد الإفرنج وعبر الفرات إلى الشام واستنجد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق فأخذه بعد التوثق باستحلافه وبعث عسكره من دمشق إلى ابنه سونج وأمره بالمسير إلى زنكي فلما وصلوا إليه أكرمهم ثم غدر بهم بعد أيام وقبض على سونج والأمراء الذين معه فاعتقلهم بحلب ونهب خيامهم وبادر إلى حماة وهي خلو من الحامية فملكها وسار عنها إلى حمص وصاحبها قيرجان بن قراجا معه في عساكره وهو الذي أشار بحبس سونج وأصحابه فقبض عليه يظن أن أهل حمص يسلمون بلادهم إليه فامتنعوا وبعث إليهم قيرجان بذلك فلحق إليها فحاصرها مدة وامتنت عليه فعاد إلى الموصل ومعه سونج بن بوري واللّه أعلم.

فتح عماد الدين حصن الأتابك وهزيمة الإفرنج

ولما عاد عماد الدين إلى الموصل أراح عساكره أياماً ثم تجهز سنة أربع وعشرين إلى الغزو وعاد إلى الشام وقصد حلب واعتزم على قصد حصن الأتابك وهو على ثلاثة فراسخ من حلب وكان الإفرنج الذين به قد ضيقوا على حلب فسار إليه وحاصره وجاء الإفرنج من أنطاكية لدفاعه واستفرغوا فتبعهم وترك الحصن وسار إليهم واستمات المسلمون فانهزم الإفرنج وأسر كثير من

مسير الأتابك زنكي إلى العراق لمظاهرة

السلطان مسعود وانهزامه

واقعة الإفرنج على أهل حلب

وفي غيبة الأتابك زنكي سار ملك الإفرنج من القدس إلى حلب فخرج نائبها عن الأتابك زنكي وهو الأمير أسوار وجمع التركمان مع عساكره وقاتل الإفرنج عند قنسرين وصارهم وعص الله المسلمين وانهزموا إلى حلب وسار ملك الإفرنج في أعمال حلب ظافراً ثم سار بعض الإفرنج من الرها للغارة في أعمال حلب فخرج إليهم الأمير أسوار ومعه حسان التغلبي الذي كان صاحب منبج فأوقعوا بهم واستلحمهم وأسروا من بقي منهم وعادوا ظافرين.

حصار المسترشد الموصل

ولما وقع ما قدمناه من وصول زنكي إلى بغداد وانهزامه أمام المسترشد حقد عليه المسترشد ذلك وأقام يتربص ثم كثر الخلاف بين سلاطين السلجوقية واعتزلهم جماعة من أمرائهم فراراً من الفتنة ولحقوا بالخليفة وأقاموا في ظله فأراد الخليفة المسترشد أن يتصف بهم من الأتابك زنكي فقدم إليه بهاء الدين أبا الفتوح الإسفرائيني الواعظ وحمله عتاباً أغلظ فيه وزاده الواعظ غلظة حفظاً على ناموس الخلافة في معتقده فامتعض الأتابك لما شافه به وأهانته وجسه وأرسل المسترشد إلى السلطان مسعود على قصد الموصل وحاصرها لما وقع من زنكي ثم سار في شعبان سنة سبع وعشرين إلى الموصل في ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقه الأتابك زنكي إلى سنجار وترك نائبه بها نصر الدين جقري وجاء المسترشد فحاصرها والأتابك زنكي قد قطع الميرة عن معسكره فتعذرت الأقوات وضاعت عليهم الأحوال وأرادت جماعة من أهل البلد الثوب بها وسعى بهم فأخذوا وصلبوا ودام الحصار ثلاثة أشهر وامتعت عليه فافرج عنها وعاد إلى بغداد وقيل: إن مطراً الخادم جاءه من بغداد وأخبره أن السلطان مسعوداً عازم على قصد العراق فعاد مسرعاً.

ارتجاع صاحب دمشق مدينة حماة

قد كنا قدما أن الأتابك زنكي تغلب على حماة من يد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق سنة ثلاث وعشرين وأقامت في ملكه أربع سنين وتوفي تاج الملوك بوري في رجب سنة

ولما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين واختلف ولده داود وأخوه مسعود وسار داود إلى مسعود وحاصره بتبريز في محرم سنة ست وعشرين ثم صالحه وخرج مسعود من تبريز واجتمعت عليه العساكر وسار إلى همدان وبعث يطلب الخطبة من المسترشد فمنعه وكتب الأتابك عماد الدين زنكي يستنجد به وسار إلى بغداد فحاصرها وكان قد سبق إليها أخوه سلجوق شاه صاحب فارس وخوزستان مع أتابك قراجا الشامي في عسكر كثير وأنزله المسترشد بدار السلطان فلما جاء مسعود ونزل عباسة وبرز عسكر المسترشد وعسكر سلجوق شاه وقراجا الشامي لمحاربة مسعود أتاهاهم الخير بوصول عماد الدين زنكي من ورائهم وأنه وصل إلى المعشوب فرجع قراجا الشامي إلى محاربته وسار سلجوق شاه بالعساكر إلى محاربة أخيه مسعود وأغذ قراجا السير وصبح عماد الدين بعد يوم وليلة على المعشوب وقتلته وهزمه وأسر كثيراً من أصحابه وسار زنكي منهزماً إلى والنائب بها نجم الدين أيوب بن شادي والد السلطان صلاح الدين فتأخر ثم اصطالح مع الخليفة على أن يكون العراق له والسلطنة لمسعود ولولاية العهد لسلجوق شاه وذلك منتصف سنة ست وعشرين.

مسير الأتابك عماد الدين إلى بغداد بابنه

وانهزامه

قد قدما ما كان بعد وفاة السلطان محمود من الخلاف بين ابنه داود وأخويه مسعود و سلجوق شاه ثم استقرار مسعود في السلطنة وصلحه مع أخيه سلجوق على أن يكون ولي عهده ثم إن السلطان سنجار سار من خراسان يطلب السلطنة لطغرل ابن أخيه السلطان محمود وكان عنده مقيماً فبلغ همدان وخرج السلطان مسعود و سلجوق شاه للقاءه وساروا متباطئين ينتظرون لحاق المسترشد بهم وخرج المسترشد إلى فجاءته الأخبار بوصول الأتابك زنكي ودييس بن صدقة إلى بغداد فذكر ديبس أن السلطان سنجار أقطعته الحلة وبعث يسترضي فلم يشفعه وذكر الأتابك زنكي أن السلطان سنجار ولاه شحنة بغداد واستمر السلطان مسعود وأخوه سلجوق على السير للقاء سنجار وكانت الهزيمة على مسعود كما مر فعاد المسترشد إلى بغداد ونزل العباسية من الجانب الغربي ولقي الأتابك زنكي ودييس على حصن البرامكة

أن يغلب عليها وأعطاه قلعة كواشي وولى على أشب رجلاً من الكرد واسمه باد الأرمني وابنه أحمد هذا هو أبو علي بن أحمد المشطوب من أمراء السلطان صلاح الدين ولما مات أبو الهيجاء واسمه موسى وسار أحمد إلى أشب لملكها فامتنع عليه باد وأراد حفظها لعلي الصغير من بني أبي الهيجاء فسار الأتابك زنكي في عساكره ونزل على أشب وبرز أهلها لقتاله واستجرهم حتى ابتعدوا ثم كر عليهم فأفانهم قتلاً وأسراً وملك القلعة في الحال وسبق إليه باد في جماعة من مقدمي الأكراد وقتلهم وعاد إلى الموصل ثم سار غازياً في بعض مذهبهم فبعث نائبه نصر الدين جقري عسكرياً وخلق كنجاً ورسى في قلعة العمادية وحاصروا قلعة الشغبان وفرح وكواشي والزعفراني والغني وسرف وسفروه وهي حصون الهكارية فحاربها وملكها جميعاً واستقام أمر الجبل والزوزان.

وأمنت الرعية من الأكراد وأما باقي قلاع الهكارية وهي حلا وصورا وهزور والملاسي ويامرما ومانرا وبابرا ونسر فإن قراجا صاحب العمادية فتحها بعد قتل زنكي بمدة طويلة كان أميراً على تلك الحصون الهكارية من قبل زين الدين علي على ما قال ابن الأثير ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلها ذكرته هنا.

قال وحدثنني بخلاف هذا الحديث بعض فضلاء الأكراد: أن أبا بكر زنكي لما فتح قلعة أسب وحرساني وقلعة العمادية ولم يبق في الهكارية إلا صاحب جبل صوراً وصاحب هزور، ولم يكن لهما شوكة يخشى منهما ثم عاد إلى الموصل وخافه أهل القلاع الجبلية ثم توفي عبد الله بن عيسى بن إبراهيم صاحب الريبة والغني وفرح وملكها بعده ابنه علي وكانت أمه خديجة ابنة الحسن أخت إبراهيم وعيسى وهما من الأمراء مع زنكي بالموصل فأرسلها ابنها علي إلى أخويها المذكورين وهما خاله ليستأمنوا له من الأتابك فاستحلفاه وقدم عليه فأقره على قلاعه واستقل بفتح قلاع الهكارية وكان الشغبان هذا الأمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فأخذه منه وخبره لكبره وقلة أعماله وكان نصر الدين جقري يكره علياً صاحب الريبة والغني وفرح فسعى عند الأتابك في حبسه فأمره بحبسه ثم ندم وكتب إليه أن يطلقه فوجده قد مات فاتهم نصر الدين بقتله ثم بعث العساكر إلى قلعة الرحية فأنزلوها بقتة وملكوها عنوة وأسروا ولد علي وإخوته ونجته أمه خديجة لمعنيها وجاء البشير إلى الأتابك بفتح الريبة فسرده ذلك وبعث العساكر إلى ما بقي من قلاع علي فأبى إلا أن يزيدوه قلعة كواشي فمضت خديجة أم علي إلى صاحب كواشي من المهرانية واسمه جرك راهروا وسألته النزول عن كواشي لإطلاق أسراهم ففعل

ست وعشرين وولى بعده ابنه شمس الملوك إسماعيل وملك بانياس من الإفرنج في صفر سنة سبع وعشرين ثم بلغه أن المسترشد بالله حاصر الموصل فسار هو إلى حما وحاصرها وقتلها يوم الفطر ويومين بعده فملكها عنوة واستأمنوا فأنهم ثم حصر الوالي ومن معه بالقلعة فاستأمنوا أيضاً واستولى على ما فيها من الذخائر والسلاح وسار منها إلى قلعة شيزر فحاصرها ابن منقذ فحمل إليه مالا صانعه به وعاد إلى دمشق في ذي الحجة من السنة.

حصار الأتابك زنكي قلعة آمد واستيلاؤه على قلعة النور ثم حصار قلاع الحميدية

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسائة اجتمع الأتابك زنكي صاحب الموصل وصاحب ماردين على حصار آمد واستجد صاحبها بداود بن سقمان صاحب كيفا فجمع العساكر وسار إليهما ليدافعهما عنه وقتلاه فهزمه وقتل كثير من عسكره وأطالا حصار آمد وقطعا شجرها وكرومها وامتنعت عليهما فرحلا عنها وسار زنكي إلى قلعة النور من ديار بكر فحاصرها وملكها منتصف رجب من السنة ووفد عليه ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوئي فاستوزره الأتابك وكان حسن الطريقة عظيم الرئاسة والكفاية محبباً في الجند وتوفي سنة ست وثلاثين بعدها.

ثم استولى الأتابك على سائر قلاع الأكراد الحميدية مثل قلعة العقر وقلعة سوس وغيرها وكان لما ملك الموصل أمر صاحب هذه القلاع الأمير عيسى الحميري على ولايتها فلما حاصر المسترشد الموصل قام في خدمته أحسن القيام وجمع له الأكراد فلما عاد المسترشد إلى بغداد من قتال الأتابك زنكي حاصر قلاعهم وحاصرتها العساكر وقتلوا قتالاً شديداً حتى ملكوها في هذه السنة ورفع الله شرهم عن أهل السواد المحاربين لهم فقد كانوا منهم في ضيقة من كثرة عيشتهم في البلاد وتخزيهم والله تعالى أعلم.

استيلاء الأتابك علي قلاع الهكارية وقلعة كواشي

حدث ابن الأثير عن الجنبي: أن الأتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية وأجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله على قلعة أشب والجزيرة وكواشي فاستأمن الأتابك واستحلفه وحمل له مالا ثم وفد عليه بالموصل بعد أن أخرج ابنه أحمد من أشب خشية

ثم قدم عليه طرنتاي صاحب واسط بالسفن فرجع إلى بغداد وعبر إلى الجانب الغربي ثم اختلف العسكر ببغداد ورجع الملك داود إلى ولايته بأذربيجان واقترب الأمراء الذين معه ولحق الراشد بالأتابك زنكي في نفر من أصحابه وهو بالجانب الغربي وسار معه إلى الموصل ودخل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين واستقر بها وسكن الناس وجمع القضاة وانقضاها وعرض عليهم يمين الراشد بخطه بأنه متى جمع أو خرج لحرب السلطان فقد خلع نفسه فافتوا بخلعه.

ثم وقعت الشهادات من أهل الدولة وغيرهم إلى الراشد بموجبيات العزل وكتب وأفتى الفقهاء عقبها باستحقاق العزل وحكم به القاضي المعين حيثئذ لغية قاضي القضاة بالموصل مع الراشد ونصب للخلافة ابن المستظهر وجاء رسول الأتابك زنكي إلى بغداد وهو القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري ويبيع بعد أن ثبت عنده الخلع وانصرف إلى الأتابك بإقطاع من خاص الخليفة ولم يكن ذلك لأحد قبله وعاد كمال الدين إلى الأتابك وحمل كتب الخلع فحكم بها قاضي القضاة بالموصل وانصرف الراشد عن الموصل إلى أذربيجان كما مر في أخبار الخلفاء والسلجوقية والله تعالى ولي التوفيق.

غزاة عساكر حلب إلى الإفرنج

ثم اجتمعت عساكر حلب مع الأمير أسوار نائب الأتابك زنكي مجلب في شعبان سنة ثلاثين وساروا غازين إلى بلاد الإفرنج وقصدوا اللاذقية على غرة فنالوا منها وانساحوا في بساطها واكتسحوها وامتلأت أيديهم من الغنائم وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها وخرجوا على شيرز وملؤوا الشام بالأتراك والظهر ووهن الإفرنج لذلك والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

حصار الأتابك زنكي مدينة حصص

واستيلاؤه على بغداد وهزيمة الإفرنج

واستيلاؤه على حصص

ثم سار الأتابك في العساكر في شعبان سنة إحدى وثلاثين إلى مدينة حصص وبها يومئذ معين الدين بن القائم بدولة صاحب دمشق وحمص من أقطاعه فقدم إليه صاحبه صلاح الدين الباغيساني في تسليمها فاعتذر بأن ذلك ليس من الإصابة

ذلك وتسلم زنكي القلاع وأطلق الأسرى واستقامت له جبال الأكراد والله تعالى أعلم.

حصار الأتابك زنكي مدينة دمشق

كان شمس الملوك إسماعيل بن بوري قد أغل أمره وضعفت دولته واستطال عليه الإفرنج وخشي عاقبه أمرهم فاستدعى الأتابك زنكي سراً ليملكه دمشق ويريح نفسه وشعر بذلك أهل دولته فشكروا إلى أمه فودعتهم الراحة منه ثم اغتالته فقتلته وجاء الأتابك زنكي فقدم رسله من الفرات فآلفوا شمس الملوك قد مات وولي مكانه أخوه عمود واشتمل أهل الدولة عليه ورجعوا الخبر إلى الأتابك فلم يحفل به وسار حتى نزل بظاهر دمشق واشتد أهل الدولة على مدافعتهم ومقدمهم معين الدين أربوه أتابك طغرين ثم بعث المسترشد أبا بكر بن بشر الجزري إلى الأتابك زنكي فأمره بصلح صاحب دمشق فصالحه ورحل عنه منتصف السنة والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود ومسيره

إلى الموصل وخلعه

كان كثير من أمراء السلجوقية قد اجتمعوا على الانتقاض على السلطان مسعود والخروج عليه ولحق داود ابن السلطان عمود من أذربيجان ببغداد في صفر سنة اثنتين وثلاثين فأنزل بدار السلطنة وراسله أولئك الأمراء وقدم عليه بعضهم مثل صاحب قزوین وصاحب أصفهان وصاحب الأهواز وصاحب الأبله وصاحب الموصل الأتابك زنكي وخرجت إليهم العساكر من بغداد وولي داود شحنة بغداد وخرج موكب الخليفة مع الوزير جلال الدين الرضي وكان الخليفة قد تغير عليه وعلى قاضي القضاة الزيني فسمع بهم الأتابك ثم وقعت العزيمة من الراشد والسلطان داود والأتابك زنكي وحلف كل منهم لصاحبه وبعث الراشد إلى الأتابك بمائتي ألف دينار ووصل سلجوق شاه إلى واسط وقبض على الأمير بك أبيه ونهب ماله فانحدر الأتابك زنكي لمدافعتهم فاصطلحا وعاد زنكي إلى بغداد ومر على جميع العساكر لقتال السلطان مسعود.

وخرج على طريق خراسان وبلغهم أن السلطان مسعوداً سار إلى بغداد فعاد إليها ثم عاد الملك داود وجاء السلطان مسعود فنزل على بغداد وحاصره نيفاً وخسين يوماً وارتحل إلى النهروان

ثم غدر بهم واستباحهم ورحل إلى حلب فتزل بدابق ومعه الإفرنج ورجعوا من الغد إلى حلب وحاصروها ثلاثاً فامتعت عليهم وقتل عليها بطريق كبير منهم ورحل عنها إلى قلعة الأتارب في شعبان من السنة فهرب عنها أهلها ووضع الروم بها الأسرى والسبي وأنزلوا بها حامية وبعث إليهم أسوار نائب حلب عسكرياً فقتلوا الحامية وخلصوا الأسرى والسبي ورحل الأتابك من حصن الأتارب بعد فتحه إلى سلمية وقطع الفرات إلى الرقة واتبع الروم فقطع عنهم الميرة وقصد الروم قلعة شيزر وبها سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنتاني فحاصروها ونصبوا المجانيق عليها واستصرخ صاحبها بالأتابك زنكي فسار إليه ونزل نهر العاصي بين شيزر وحماة وبعث السرايا تحتطف من حول معسكر الروم.

وبعث إلى الروم يدعوهم إلى المناجزة والتزول إلى البسيط فخابوا عن ذلك فرجع إلى التضريب بين الروم والإفرنج يحذر أحد الفريقين من الآخر حتى استراب كل بصاحبه فرحل ملك الروم في رمضان من السنة بعد حصار شيزر أربعين يوماً وأتبعه الأتابك فلحقهم واستلحمهم واستباحهم ثم أرسل القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجده على العدو ويخبره الروم واستيلاءهم على حلب وينحدر من الفرات إلى بغداد فوضع القاضي كمال الدين في جامع القصر من ينادي بصريخ المسلمين والخطيب على المنبر وكذا في جامع السلطان فعظم الصراخ والبكاء وتسايلت العوام من كل جانب وجاؤوا إلى دار السلطان في تلك الحالة وقد وقع العويل والصراخ فعظم الهول على السلطان مسعود وجهز عسكرياً عظيماً وخاف القاضي كمال الدين غائلته ثم وصل الخبر برحيل ملك الروم فأخبر القاضي السلطان مسعود بذلك ومن مسير العسكر والله تعالى أعلم.

استيلاء الأتابك زنكي على بعلبك

ثم قتل محمود صاحب دمشق سنة ثلاث وثلاثين في شوال كما مر في أخبار دولتهم وكانت أمه زمردخان متزوجة بالأتابك كما مر فبعثت إليه وهو بالجزيرة تعرفه بالخبر وتطلب منه أن يسير إلى دمشق ويثأر بولدها من أهل دولته فسار لذلك واستعد أهل دمشق للحصار ثم قصد الأتابك مدينة بعلبك ونزلها وكان ابن القائم بالدولة قد نصب كمال الدين محمد بن بوري بدمشق وتزوج أمه وبعث بجاريته إلى بعلبك فلما سار الأتابك إلى دمشق

فحاصرها والرسل تردد بينهما وامتعت عليه فرحل عنها إلى بغدوين من حصون الإفرنج في شوال من السنة فجمع الإفرنج وأوعبوا وزحفوا إليه واشتد القتال بينهم ثم هزم الله العدو ونجا المسلمين منهم ودخل ملوكهم إلى حصن بغدوين فامتعوا به وشد الأتابك حصاره وذهب القسوس والرهبان إلى بلاد النصرانية من الروم والإفرنج يستنجدونهم على المسلمين ويخوفونهم استيلاء الأتابك على قلعة بغدوين وما يخشى بعد ذلك من اتجاعهم بيت المقدس.

وجد الأتابك بعد ذلك في حصارها والتضييق عليها حتى جهدهم الحصار ومنع عنهم الأخبار ثم استأنوا على أن يحملوا إليه خمسين ألف دينار فأجابهم وملك القلعة ثم سمعوا بمسير الروم والإفرنج لإخادهم وكان الأتابك خلال الحصار قد فتح المعرة وكفر طاب في الولايات التي بين حلب وحماة ووهن الإفرنج ثم سار الأتابك زنكي في محرم سنة اثنتين وثلاثين إلى بعلبك وملك حصن المعدل من أعمال صاحب دمشق وبعث إليه نائب بانياس بالطاعة كذلك ثم كانت حادثة ملك الروم ومنازلته حلب كما نذكره فسار إلى سلمية ولما تجلجت حادثة الروم رجع إلى حصار حمص وبعث إلى محمود صاحب دمشق في خطبة أمه مردخان بنت جاولي التي قتلت ابنتها فتزوجها وملك حمص وقلعتها وحملت الخاتون إليه في رمضان وظن أنه يملك دمشق بزواجها فلم يحصل على شيء من ذلك والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

مسير الروم إلى الشام وملكهم مراغة

ولما استنجد الإفرنج ببغدوين ملك أمم النصرانية كما مر جمع ملك الروم بالقسطنطينية وركب البحر سنة إحدى وثلاثين ولحقته أساطيله وسار إلى مدينة قيليقية فحاصرها وصالحه بالمال وسار عنها إلى أدنة والمصيصة وهما لابن ليون الأرمني صاحب قلاع الدروب فحاصرها وملكها وسار إلى عين زربة فملكها عنوة وملك تل حمدون ونقل أهله إلى جزيرة قبرص ثم ملك مدينة أنطاكية في ذي القعدة من السنة وبها ريمند من ملوك الإفرنج فصالحه ورجع إلى بغراس ودخل منها إلى بلاد ابن ليون فصالحه بالأموال ودخل في طاعته ثم خرج إلى الشام أول سنة اثنتين وثلاثين وحاصر مراغة على ستة فراسخ من حلب وبعثوا بالصرىخ إلى الأتابك زنكي فبعث بالعساكر إلى حلب لحمايتها وقتل ملك الروم مراغة فملكها بالأمان منتصف السنة.

استيلاء الأتابك على شهرزور وأعمالها

كان شهرزور بيد قنجاقي بن أرسلان شاه أمير التركمان وصالحهم وكانت الملوك تتجافى عن أعماله لامتناعها ومضايقتها فغظم شأنه واشتمل عليه التركمان وسار إليه الأتابك زنكي سنة أربع وثلاثين فجمع ولقيه فظفر به الأتابك واستباح معسكره وسار في اتباعه فحاصر قلاع وحصونه وملك جميعها واستأمن إليه قنجاقي فأمنه وسار في خدمته وخدمة بنيته بعده إلى آخر المائة.

ثم كان في سنة خمس وثلاثين بين الأتابك زنكي وبين داود بن سقمان صاحب كيفا فتنة وحروب وانهمز داود وملك الأتابك من بلاده قلعة همرود وأدركه فعدا إلى الموصل ثم سار الأتابك إلى مدينة الحرمية فملكها سنة ست وثلاثين ونقل آل مهارش الذين كانوا بها إلى الموصل ورتب أصحابه مكانهم ثم خطب له صاحب آمد وصار في طاعته بعد أن كان مع داود عليه ثم بعث الأتابك لسنة سبع وثلاثين عسكرياً إلى قلعة أشهب وهي من أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها وفيها أهلوهوم وذخائرتهم فحاصرها وملكها وأمره الأتابك بتخريبها وبنى قلعة العمادية عوضاً عنها وكانت خربت قبل ذلك لاتساعها وعجزهم عن حمايتها فأعيدت الآن وكان نصير الدين نائب الموصل قد فتح أكثر القلاع الحربية والله تعالى أعلم.

صلح الأتابك مع السلطان مسعود واستيلاؤه على أكثر ديار بكر

كان السلطان مسعود ملك السلجوقية قد حقد على الأتابك زنكي شأن الخارجين على طاعته من أهل الأطراف وينسب ذلك إليه وكان يفعل ذلك مشغلة للسلطان عنه فلما فرغ السلطان مسعود من شواغله سنة ثمان وثلاثين وخمسائة سار إلى بغداد عازماً على قصد الأتابك وحصار الموصل فأرسل الأتابك يستعطفه ويستميله على أن يدفع إليه مائة ألف دينار ويعود عنه فشرع في ذلك وحمل منها عشرين ألفاً ثم حدثت الفتنة على السلطان فاحتاج إلى مداراته وترك له الباقي وبالغ هو في مخالصة السلطان بحيث إن ابنه غازي كان عند السلطان فهرب إلى الموصل فبعث إلى نائبه نصير الدين جقري يمنعه من دخولها وبعث إلى ابنه بالرجوع إلى خدمة السلطان.

وكتب إلى السلطان بأن ابني هرب للخوف من تغيير السلطان عليه وقد أعدته إلى الخدمة ولم ألقه وأنا مملوكك والبلاد

قدم رسله إلى أنز في تسليم البلد على أن يبذل له ما يريد فأبى من ذلك وسار الأتابك إلى بعلبك فنارها آخر ذي الحجة من السنة ونصب عليها الجنايق وشدد حصارها حتى استأمنوا فملكها واعتصم الحامية بالقلعة حتى يتسوا من أنز فاستأمنوا إلى الأتابك فلما ملكها قبض عليهم وصلبهم وتزوج جارية أنز ونقلها إلى حلب إلى أن بعثها ابنه نور الدين محمود إلى صاحبها بعد موت الأتابك والله تعالى أعلم.

حصار الأتابك زنكي مدينة دمشق

ثم سار الأتابك زنكي إلى حصار دمشق في ربيع الأول من سنة أربع وثلاثين بعد الفراغ من بعلبك فتزل بالبقاع وأرسل إلى جمال الدين محمد صاحبها في أن يسلمها إليه ويعوضه عنها بما شاء فلم يجب إلى ذلك فزحف إليه ونزل داريا والتقت الطلائع فكان الظفر لأصحاب الأتابك ثم تقدم إلى المصلي فتزل بها وقاتله أهل دمشق بالغوطة فظفر بهم وأئخن فيهم ثم أمسك عن القتال عشراً يراود فيها صاحب دمشق ويذل له بعلبك وحمص وما يجتارها من البلاد فجنح إلى ذلك ولم يوافق أصحابه فعدت الحرب ثم توفي صاحب دمشق جمال الدين محمد في شعبان من السنة ونصب معين الدين أنز مكانه ابنه محي الدين أنز وقام بأمره.

وطمع زنكي في ملك البلد فامتعت عليه وبعث معز الدين أنز إلى الإفرنج يستدعيهم إلى النصر على الأتابك ويبذل لهم ويؤفهم غائلته ويشترط لهم إعانتهم على بانياس حتى يملكوها فأجاب الإفرنج لذلك وأجل زنكي إلى حوران خامس رمضان من السنة معتزماً على لقاءهم فلم يصلوا فعدا إلى حصار دمشق وأحرق قراها وارتحل إلى بلاده ثم وصل الإفرنج وارتحل معين الدين أنز في عساكر دمشق إلى بانياس وهي للأتابك زنكي ليوفي للإفرنج بشرطه ثم فيها وقد كان نائبها سار للإغارة على مدينة صور ولقيه في طريقه صاحب أنطاكية ذاهباً إلى دمشق منجداً فهزم عسكر بانياس وقتلوا ولحق فلهم بالبلد وقد وهنوا وحاصروهم معين الدين أنز والإفرنج وملكها عنوة وسلمها للإفرنج وأحفظه ذلك وفرق العسكر في حوران وأعمال دمشق وسار هو فصايح دمشق ولم يعلموا مكانه فبرزوا إليه وقتلوه وقتل منهم جماعة ثم أحجم عنهم لقلّة من معه وارتحل إلى مرج راهط في انتظار عساكره فلما توافوا عنده عاد إلى بلاده.

الشهرزوري فأوهمه بطاعته وأشار عليه بالصعود إلى القلعة ليستولي على المال والسلاح فركب وصعد معه وتقدم إلى حائط القلعة وأشار عليه بأن يمكنه من الدخول ثم يقبض عليه فدخل ودخل معه الذين قتلوا نصير الدين فحبسهم والي القلعة وعاد القاضي إلى البلد وطار الخبر إلى الأتابك زنكي بحصار البيرة فخشي اختلاف البلد وعاد إلى الموصل وقدم زين الدين على بن كجك وولاه القلعة مكان نصير الدين وأقام ينتظر الخبر وخاف الإفرنج الذين بالبيرة من دعوته إليهم فبعثوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها له فملكها المسلمون.

حصار زنكي حصن جعبر وفنك

ثم سار الأتابك زنكي سنة إحدى وأربعين في المحرم إلى حصن جعبر ويسمى دوس وهو مطل على الفرات وكان لسالم بن مالك العقيلي أقطعه السلطان ملك شاه لأبيه حين أخذ منه حلب وبعث جيشاً إلى قلعة فنك على فرسخين من جزيرة ابن عمر فحاصروها وصاحبها يومئذ حسام الدين الكردي فحاصر قلعة جعبر حتى توسط الحال بينهما حسان المنجي ورغبة ورهبة وقال في كلامه: من يمنعك منه فقال الذي منعك أنت من مالك بن بهرام وقد حاصر حسان منبج فأصابه في بعض الأيام سهم فقتله وأفرج عن حسان وقدر قتل الأتابك كذلك والله تعالى أعلم.

مقتل الأتابك عماد الدين زنكي

كان الأتابك عماد الدين زنكي بن أقتغر صاحب الموصل والشام حاصراً لقلعة جعبر كما ذكرنا واجتمع جماعة من مواليه واغتالوه ليلاً وقتلوه على فراشه ولحقوا بجعبر وأخبروا أهلها فنادوا من السور بقتله فدخل أصحابه إليه وألفوه بجوده بنفسه وكان قتله لخمس من ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين عن ستين سنة من عمره ودفن بالرقعة وكان يوم قتل أبوه ابن سبع سنين ولما قتل دفن بالرقعة وكان حسن السياسة كثير العدل مهيباً عند جنده عمر البلاد وأمنها وأنصف المظلوم من الظالم وكان شجاعاً شديداً الغيرة كثير الجهاد ولما قتل رحل العسكر عن قلعة فنك وصاحبها غفار.

قال ابن الأثير: سمعته يزعمون أن لهم فيها نحو ثلثمائة سنة وفيهم رفاة وعصية ويجيرون كل من يلجأ إليهم والله أعلم.

لك فوق ذلك من السلطان أحسن المواقع ثم سار الأتابك إلى ديار بكر ففتح طره وأسعد وحران وحصن الرزق وحصن تطليت وحصن ياسته وحصن ذي القرنين وغير هذه وملك أيضاً من بلاد ماردين الإفرنج حلين والمودن وتل موزر وغيرها من بلاد حصون سجستان وأنزل بها الحامية وقصد آمد فحصرها وسير عسكراً إلى مدينة غانة من أعمال الفرات فملكها والله تعالى أعلم.

فتح الرها وغيرها من أعمال الإفرنج

كان الإفرنج بالرها وسروج والبيرة قد أضروا بالمسلمين جوارهم مثل آمد ونصيبين ورأس العين والرقعة وكان زعيمهم ومقدمهم بتلك البلاد جوسكين الزعيم ورأى الأتابك أنه يوري عن قصدهم بغيره لئلا يجمعوا له فوري بغزو ديار بكر كما قلناه وجوسكين وعبر الفرات من الرها إلى غزنة وجاء الخبر بذلك إلى الأتابك فارتحل منتصف جمادى الأخيرة سنة تسع وثلاثين وحرص المسلمين وحثهم على عدوهم ووصل إلى الرها وجوسكين غائب عنها فاتحز الإفرنج بالبلد وحاصروهم شهراً وشد في حصارهم وقتلهم ولج في ذلك قبل اجتماع الإفرنج ومسيرهم إليه ثم ضعف سورها فسقطت ثلثة منه وملك البلد عنوة ثم حاصر القلعة وملكها كذلك ثم رد على أهل البلد ما أخذ منهم وأنزل فيه حامية وسار إلى سروج وجميع البلاد التي بيد الإفرنج شرقاً فملكها جميعاً إلا البيرة لامتناعها فأقام يحاصرها حتى امتنعت ورحل عنها والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل نصير الدين جقري نائب الموصل

وولاية زين الدين علي كجك مكانه

بالقلعة

كان استقر عند الأتابك زنكي بالموصل الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمد ويلقب الخفاجي وكان شبيهاً به وتوهم السلطان أن البلاد له وأنه نائبه ويتنظر وفاة السلطان مسعود فيخطب له ويملك البلد باسمه وكان يتردد له ويسعى في خدمته فداخله بعض المفسدين في غيبة الأتابك وزين له قتل نصير الدين النائب والاستيلاء على الموصل فلما دخل إليه أغرى به أجناد الأتابك ومواليه فوثبوا به وقتلوه في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين ثم القوا برأسه إلى أصحابه يحسبون أنهم يفترون فاعصوبوا واقتحموا عليه الدار ودخل عليه القاضي تاج الدين يحيى بن

استيلاء ابنه غازي على الموصل وابنه الآخر

محمود على حلب

ولما قتل الأتابك زنكي نزع ابنه نور الدين محمود خاتمه من يده وسار به إلى حلب فاستولى عليها وخرج الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود واجتمعت عليه العساكر وطمع في الاستقلال بملك الموصل وحضر ابنه جمال الدين محمد بن علي بن متولي الديوان وصلاح الدين بن محمد الباغسياني الحاجب وقد اتفقا فيما بينهما على حفظ الدولة لأصحابهما وحسناً لألب أرسلان ما هو فيه من الاشتغال ببلداته وأدخاله الرقة فانغمس بها وهما يأخذان اليهود على الأمراء لسيف الدين غازي ويعيشانهم إلى الموصل.

وكان سيف الدين غازي في مدينة شهرزور وهي أقطاعه وبعث إليه زين الدين علي كوجك نائب القلعة بالموصل يستدعيه ليحضر عنده وسار ألب أرسلان إلى سنجار والحاجب وصاحبه معه ودسوا إلى نائبها بأن يعتذر للملك ألب أرسلان بتأخره حتى يملك الموصل فساروا إلى الموصل ومروا بمدينة سنجار وقد وقف العسكر فاشاروا على ألب أرسلان بعبور دجلة إلى الشرق وبعثوا إلى سيف الدين غازي بخبره وقلعة عسكره فأرسل إليه عسكراً فقبضوا وجاؤوا به فحبسه بقلعة الموصل واستولى سيف الدين غازي على الموصل والجزيرة وأخوه نور الدين محمود على حلب ولحق به صلاح الدين الباغسياني فقام بدولته والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

عصيان الرها

ولما قتل الأتابك زنكي ملك الرها جوسكين. كان جوسكين مقيماً في ولايته بتل باشر وما جاورها فراسل أهل الرها وعامتهم من الأرمن وحملهم على العصيان على المسلمين وتسليم البلد له فأجابوه وواعده ليوم عينه فسار في عساكره وملك البلد وأمنت القلعة وبلغ الخبر إلى نور الدين محمود وهو مجلب فأغذ السير إليها وأجفل جوسكين إلى بلده ونهب نور الدين المدينة وسبى أهلها وارتحلوا عنها وبعث سيف الدين غازي العساكر إليها فبلغهم في طريقهم ما فعله نور الدين فعادوا وذلك سنة إحدى وأربعين.

ثم قصد صاحب دمشق بعد قتل الأتابك حصن بعلبك وبه نجم الدين أيوب بن شادي نائب الأتابك فأبطأ عليه المجاهد بنيه

فصالح صاحب دمشق وسلم له بعلبك على إقطاع ومال أعطاه إياه وعشر قرى من بلاد دمشق وانتقل معه إلى دمشق فسكنها وأقام بها ثم سار نور الدين محمود سنة اثنين وأربعين من حلب إلى الإفرنج ففتح مدينة أرتاج عنوة وحاصر حصوناً أخرى وكان الإفرنج بعد قتل الأتابك يظنون أنهم يستردون ما أخذ منهم فبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون ولما قتل الأتابك زنكي طمع صاحب ماردين وصاحب كيفا أن يستردوا ما أخذ من بلادهم فلما تمكن سيف الدين غازي سار إلى أعمال ديار بكر فملك دارا وغيرها وتقدم إلى ماردين وحاصرها وعاث في نواحيها حتى ترحم صاحبها حسام الدين تمرشاش على الأتابك مع عداوته ثم أرسل إلى سيف الدين غازي وصاحبه وزوجه بنته فعاد إلى الموصل وزفت إليه وهو مريض فهلك قبل زفافها وتزوجها أخوه قطب الدين من بعده والله أعلم.

مصاهرة سيف الدين غازي لصاحب

دمشق وهزيمة نور الدين محمود للإفرنج

كان تقدم لنا في دولة بني طغرلين موالي دقاق بن تشش أن ملك اللمان من الإفرنج سار سنة ثلاث وأربعين وحاصر دمشق بمجموع الإفرنج وبها مجير الدين أرتق بن بوري بن محمد بن طغرلين في كفالة معين الدين أنز مولي.

فبعث معين الدين إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي بالموصل يدعوه إلى نصرة المسلمين فجمع عساكره وسار إلى الشام واستدعى أخاه نور الدين من حلب ونزلوا على حمص فأخذوا بمحجز الإفرنج عن الحصار وقوي المسلمون بدمشق عليهم وبعث معين الدين إلى طائفتي الإفرنج من سكان الشام واللمان الواردين فلم يزل يضرب بينهم وجعل للإفرنج الشام حصن بانياس طعمة على أن يرحلوا بملك اللمانيين فقتلوا له في الذروة والغارب حتى رحل عن دمشق ورجع إلى بلاده وراء قسطنطينية بالشمال.

وحسن أمر سيف الدين غازي وأخيه في الدفاع عن المسلمين وكان مع ملك اللمان حين خرج إلى الشام ابن أدفونش ملك الجلائقة بالأندلس وكان جده هو الذي ملك طرابلس الشام من المسلمين حين خروج الإفرنج إلى الشام فلما جاء الآن مع ملك اللمان ملك حصن العرعة وأخذ في منازلة طرابلس ليملكها من القمص فأرسل القمص إلى نور الدين محمود ومعين الدين أنز وهما مجتمعان ببعلبك بعد رحيل ملك اللمانيين عن دمشق وأغراهما بابن أدفونش ملك الجلائقة واستخلاص حصن العرعة

من يده فساراً لذلك سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

فيأدر إليه في سبعين فارساً من أمرائه وسبق أصحابه في يوم مطير إلى مساكن ودخل البلد ولم يعرفوا منه إلا أنه أمير من جنود التركمان ثم دخل على الشحنة بيته فقبل يده وأطاعه ولحق به أصحابه وساروا جميعاً إلى سنجان وأغذ السير فقطع عنه أصحابه ووصل إلى سنجان في فارسين ونزل بظاهر البلد وبعث إلى المقدم فوصله وكان قد سار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين محمداً بالقلعة فبعث في أثر أبيه وعاد من طريقه وسلم سنجان إلى نور الدين محمود فملكها.

واستدعى فخر الدين قري أرسلان صاحب كيفاً لمودة بينهما فوصل في عساكره وبلغ الخبر إلى قطب الدين صاحب الموصل ووزيره جمال الدين وأمير جيشه زين الدين فساروا إلى سنجان للقاء نور الدين محمود وانتهوا إلى تل اعفر ثم خاموا عن لقائه وأشار الوزير جمال الدين بمصالحته وسار إليه بنفسه فعقد معه الصلح وأعاد سنجان على أخيه قطب الدين وسلم له أخوه مدينة حمص والرحبة والشام فانفرد بملك الشام وانفرد أخوه قطب الدين بالجزيرة واتفقا وعاد نور الدين إلى حلب وحمل ما كان لأبيهم الأتابك زنكي من الذخيرة لسنجان وكان لا يعبر عنها والله تعالى أعلم.

غزو نور الدين إلى أنطاكية وقتل صاحبها

وفتح أفاميا

ثم غزا نور الدين سنة أربع وأربعين إلى أنطاكية فعات فيها وخرب كثيراً من حصونها وبينما هو يحاصر بعض الحصون اجتمع الإفرنج وزحفوا إليه فلقبهم وحاربهم وأبلى في ذلك الموقف فهزم الإفرنج وقتل البرنس صاحب أنطاكية وكان من عتاة الإفرنج وملك بعده ابنه سمند طفلاً وتزوجت أمه برنس آخر يكفل ولدها ويدير ملكها فغزا نور الدين ولقوه فهزمهم وأسر ذلك البرنس الثاني وتمكن الطفل سمند من ملكه بأنطاكية ثم سار نور الدين سنة خمس وأربعين إلى حصن أفاميا بين شيرز وحماة وهو من أحسن القلاع فحاصروه وملكه وشحنه حامية وسلاحاً وأقواتاً ولم يفرغ من أمره إلا والإفرنج الذين بالشام جمعوا وزحفوا إليه وبلغهم الخبر فخاموا عن اللقاء وصالحوه في المهادنة فعقد لهم انتهى.

وبعث إلى سيف الدين وهو بمحمص فأمدهما بعسكر مع الأمير عز الدين أبي بكر الديبسي صاحب جزيرة ابن عمر وحاصروا حصن العريضة أياماً ثم نقضوا سوره وملكوه على الإفرنج وأسروا من كان به من الإفرنج ومعهم ابن أدفونش وعاد إلى سيف الدين عسكره ثم بلغ نور الدين أن الإفرنج تجمعوا في بيقو من أرض الشام للإغارة على أعمال حلب فسار إليهم وقتلهم وهزمهم وأثنى فيهم قتلاً وأسراً وبعث من غنائمهم وأسراهم إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى المقتضي الخليفة انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة سيف الدين غازي وملك أخيه قطب

الدين مودود

ثم توفي سيف الدين غازي بن الأتابك زنكي صاحب الموصل منتصف أربع وأربعين وخمسمائة ثلاث سنين وشهرين من ولايته وخلف ولداً صغيراً ربي عند عمه نور الدين محمود وهلك صغيراً فانقرض عقبه وكان كريماً شجاعاً متسع المائدة يطعم بكرة وعشية مائة رأس من الغنم في كل نوبة وهو أول من حمل الصنجد على رأسه وأمر بتعليق السيوف بالمناطق وترك التوشح بها وحمل الدبوس في حلقة السرج وبنى المدارس للفقهاء والربط للفقراء ولما أنشده حيض بيض الشاعر بمدحه إلام يراك المجد في زي شاعر وقد غلغت شوقاً إليك المنابر فوصله بألف مثقال سوى الخلع وغيرها.

ولما توفي سيف الدين غازي انتقض الوزير جمال الدين وأمير الجيوش زين الدين علي وجاؤوا بقطب الدين مودود بادرُوا إلى تملكه واستخلفوه وحلفوا له وركب إلى دار السلطنة وزين الدين في ركابه فبايعوا له وأطاعه جميع من في أعمال أخيه بالموصل والجزيرة وتزوج الخاتون بنت حسام الدين قمرتاش صاحب ماردین التي هلك أخوه قبل زفافها فكان ولده كلهم منها والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان محمود على سنجان

ولما ملك قطب الدين مودود الموصل وكان أخوه نور الدين محمود بالشام وكان أكبر منه وله حلب وحماة كاتبه جماعة من الأمراء بعد أخيه غازي وفيمن كاتبه نائب سنجان المقدم عبد الملك

هزيمة نور الدين جوسكين وأسر جوسكين

ثم جمع نور الدين بعد ذلك وسار غازياً إلى بلاد زعيم الإفرنج وهي تل باشر وعتاب وعذار وغيرها من حصون شمالي حلب فجمع جوسكين لدافعته عنها ولقيه فاقتلوا ومحض الله المسلمين واستشهد كثير منهم وأسر آخرون وفيهم صاحب صلاح نور الدين فبعثه جوسكين إلى الملك مسعود بن قليج أرسلان يعيره به لمكان صهره نور الدين على ابنته فعمم ذلك عليه وأعمل الحيلة في جوسكين وبذل المال لإحياء التركمان البادين بضواحيه أن يمتثلوا في القبض عليه ففعلوا وظفر به بعضهم فشاركهم في إطلاقه على مال وبعث من يأتي به وشعر بذلك والي حلب أبو بكر بن الرامة فبعث عسكرياً ليسوا من ذلك الحي جاؤوا بجوسكين أسيراً إلى حلب وسار نور الدين إلى القلاع فملكها وهي تل باشر وعتاب وعذار وتل خالد وقورص وداندار ومرج الرصاص وحصن النادة وكفرشود وكفرلات ودلوكا ومرعش ونهر الجلود وشحنها بالآتوات وزحف إليه الإفرنج ليدافعوه فلقبهم على حصن جلدك وانهزم الإفرنج وأخذ المسلمون فيهم بالقتل والاسر ورجع نور الدين إلى دلوكا ففتحها وتأخر فتح تل باشر منها إلى أن ملك نور الدين دمشق واستأمنوا إليه وبعث إليهم حسان المنبجي فتسلمها منهم وحصنها وذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على تل باشر وحصاره

قلعة حارم

ولما فرغ نور الدين من أمر دمشق بعث إليه الإفرنج الذين في تل باشر في شمالي حلب واستأمنوا إليه ومكنوه من حصنهم فتسلمه حسان المنبجي من كبراء أمراء نور الدين سنة تسع وأربعين ثم سار سنة إحدى وخمسين إلى قلعة بهرام بالقرب من أنطاكية وهي لسمند أمير أنطاكية من الإفرنج فحاصرها واجتمع الإفرنج لدافعته ثم خاموا عن لقائه وصالحوه على نصف أعمال حارم فقبل صلحهم ورحل عنها والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمهنة وكرمه.

استيلاء نور الدين على دمشق

كان الإفرنج سنة ثمان وأربعين قد ملكوا عسقلان من يد العلوية خلفاء مصر واعتزضت دمشق بين نور الدين وبينهما فلم يجد سبيلاً إلى المدافعة عنها واستطال الإفرنج على دمشق بعد ملكهم عسقلان ووضعوا عليها الجزية واشتروا عليهم تغيير الأسرى الذين بأيديهم في الرجوع إلى وطنهم وكان بها يومئذ مجير الدين أنز بن محمد بن بوري بن طغركين الأتابك واهن القوى مستضعف القوة فخشي نور الدين عليها من الإفرنج وربما ضايق مجير الدين بعض الملوك من جيرانه فيفرغ إلى الإفرنج فيغلبون عليه وأمعن النظر في ذلك وبدأ أمره بمواصلة مجير الدين وملاطفته حتى استحكمت المودة بينهما حتى صار يداخله في أهل دولته ويرميهم عنده أنهم كاتبوه فيوقع الآخر بهم حتى هدم أركان دولته ولم يبق من أمرائه إلا الخادم عطاء بن حفاظ وكان هو القائم بدولته ففصص به نور الدين وحال بينه وبين دمشق فأغرى به صاحبه مجير الدين حتى نكبه وقتله.

استيلاء نور الدين على شيزر

شيزر هذه حصن قريب من حماة على نصف مرحلة منها على جبل منيع عال لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة وكانت لبني منقذ الكنانيين يتوارثون ذلك من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب من أعوام عشرين وأربعمائة إلى أن انتهى ملكه إلى المرفف نصر بن علي بن نصير بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي فلما حضره الموت سنة تسعين وأربعمائة عهد لأخيه أبي سلمة بن مرشد وكان عالماً بالقراءات والأدب وولي مرشد أخاه الأصغر سلطان بن علي وكان بينهما من الاتفاق والملازمة ما لم يكن بين اثنين ونشأ لمرشد بنون كثيرون وفي السؤدد منهم عز الدولة أبو الحسن علي ومؤيد الدولة أسامة وولده علي وتعدد ولده ونافسوا بني عمهم وفشت بينهم السعاليات فتماسكوا لمكان مرشد والتصامه بأخيه فلما مات مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة تنكر أخوه سلطان لولده وأخرجهم من شيزر ففرقوا وقصد بعضهم نور

استيلاء نور الدين على بعلبك

كانت بعلبك في يد الضحاك البقاعي نسبة إلى بقاعة والآن عليها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك ببعلبك وشغل نور الدين عنه بالإفرنج فلما كانت سنة اثنتين وخسين استنزله نور الدين عنها وملكها والله أعلم.

استيلاء أخي نور الدين على حران ثم ارتجاعها

كان نور الدين سنة أربع وخمسين وخمسمائة مجلب ومعه أخوه الأصغر أمير أميران فمرض نور الدين بالقلعة واشتد مرضه فجمع أخوه وحاصر قلعة حلب وكان شيركوه بن شادي أكبر أمرائه بمحمص فلما بلغه الأزحاف سار إلى دمشق ليملكها وعليها أخوه نجم الدين أيوب فنكر وأمره بالمسير إلى حلب حتى يتبين حياة نور الدين من موته فأخذ السير إلى حلب وصعد القلعة وأظهر نور الدين للناس من سطح مشرف فافترقوا عن أخيه أمير أميران فسار إلى حران فملكها فلما أفاق نور الدين سلمها إلى زين الدين علي كجك نائب أخيه قطب الدين بالموصل وسار إلى الرقة فحاصرها والله تعالى ولي التوفيق.

خبر سليمان شاه وحبيه بالموصل ثم مسيره منها إلى السلطنة بهمدان

كان الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجار بخراسان وقد عهد له بملكه وخطب باسمه على منابر خراسان فلما حصل سنجار في أسر العدو سنة ثمان وأربعين وخمسمائة كما مر في أخبار دولتهم واجتمعت العساكر على سليمان شاه هذا وقدموه فلم يطق مقاومة العدو ففضى إلى خوارزم شاه وزوجه ابنة أخيه ثم بلغه عنه ما ارتاب له فأخرجه من خوارزم وقصد أصفهان فمته الشحنة من الدخول فقصد قاشان فبعث إليه محمد شاه ابن أخيه محمود عسكرياً دافعه عنها فسار إلى خراسان فمته ملك شاه منها فقصد النجف ونزل وأرسل للخليفة المستنصر وبعث أهله وولده رهناً بالطاعة واستأذن في دخول بغداد فأكرمهم الخليفة وأذن له وخرج ابن الوزير ابن هيرة لتلقيه في الموكب وفيه قاضي القضاة والتقى ودخل بغداد وخلع عليه آخر سنة خمسين.

الدين فامتعض لهم وكان مشتغلاً عنهم بالإفرنج.

ثم توفي السلطان وقام بأمر شيزر أولاده وراسلوا الإفرنج فحنق نور الدين عليهم لذلك.

ثم وقعت الزلازل بالشام وخرب أكثر مدنه مثل حماة وحمص وكفرطاب والمرة وأقامية وحصن الأكراد وعرة ولاذقية وطرابلس وأنطاكية هذه سقطت جميعها وتهدمت سنة اثنتين وخمسين وما سقط بعضه وتهدمت أسواره فأكثر بلاد الشام وخشي نور الدين عليها من الإفرنج فوقف بعساكره في أطراف البلاد حتى رم ما تثلم من أسوارها.

وكان بنو منقذ أمراء شيزر قد اجتمعوا عند صاحبها منهم في دعوة فأصابتهم الزلزلة مجتمعين فسقطت عليهم القلعة ولم ينج منهم أحد وكان بالقرب منها بعض أمراء نور الدين فبادر وصعد إليها وملكها منه نور الدين ورم ما تثلم من أسوارها وجدد بناءها فعادت كما كانت هكذا قال ابن الأثير.

وقال ابن خلكان: وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة استولى بنو منقذ على شيزر من يد الروم والذي تولى فتحها منهم علي بن منقذ بن نصر بن سعد وكتب إلى بغداد بشرح الحال ما نصه:

كتابي من حصن شيزر حماء الله وقد رزقني الله من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم ما لم يتأت لمخلوق في هذا الزمان وإذا عرف الأمر على حقيقته علم أنني هزير هذه الأمة وسليمان الجن والمردة وأنا أفوق بين المرء وزوجه وأستزل القمر من محله أنا أبو النجم وشعري شعري نظرت إلى هذا الحصن فرايت أمراً يذهل الأبواب يسع ثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال وتمسكه خمس نسوة فعمدت إلى تل بينه وبين حصن الروم يعرف بالخواص ويسمى هذا التل بالحصن فعمرتة حصناً وجمعت فيه أهلي وعشيرتي ونفرت نفرة على حصن الخواص فأخذته بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت إليهم وأكرمتهم ومزجتهم بأهلي وعشيرتي وخلطت خنسايرهم بغنمي ونواقيسهم بصوت الأذان ورأى أهل شيزر فعلي ذلك فأنسوا بي ووصل إلي منهم قريب من نصفهم فبالت في إكرامهم ووصل إليهم مسلم بن قريش العقيلي فقتل من أهل شيزر نحو عشرين رجلاً فلما انصرف مسلم عنهم سلموا إلي الحصن.

انتهى كتاب علي بن منقذ وبين هذا الذي ذكره ابن خلكان والذي ذكره ابن الأثير نحو خمسين سنة وما ذكره ابن الأثير أولى لأن الإفرنج لم يملكوا من الشام شيئاً في أوائل المائة الخامسة والله سبحانه وتعالى أعلم.

وبعد أيام أحضر بالقصر واستخلف بحضرة قاضي القضاة والأعيان وخطب له ببغداد ولقب القاب أبيه وأمر بثلاثة آلاف فارس وسار نحو بلاد الجبل في ربيع سنة إحدى وخمسين ونزل الخليفة حلوان واستنفر له ابن أخيه ملك شاه صاحب همدان فقدم إليه في ألفي فارس وجعله سليمان شاه ولي عهده وأمدعها الخليفة بالمال والسلاح ولحق بهما اليلدكز صاحب الري فكثرت جموعهم وبعث السلطان محمد إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل وزين الدين علي كجك نائبه في المظاهرة والإنجاد وسار إلى لقاء سليمان شاه فانهزم وتفرق عسكره وفارقه اليلدكز فذهب إلى بغداد على طريق شهرزور وبلغ خبر الهزيمة إلى زين الدين علي كجك فخرج في جماعة من عسكر الموصل وقعد له بشهرزور ومعه الأمير إيراقي حتى مر بهم سليمان شاه فقبض عليه زين الدين وحمله إلى الموصل فحبسه بها مكرماً وطير إلى السلطان محمود بالخبر.

ثم أخذ في الاستعداد للأخذ بشأه من الإفرنج وسار بعضهم إلى ملك مصر فأراد أن يخالفهم إلى بلادهم فبعث إلى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وإلى فخر الدين قرا أرسلان صاحب كيفا وإلى نجم الدين ولي صاحب ماردين بالنجدة فسار من بينهم أخوه قطب الدين وفي مقدمته زين الدين علي كجك صاحب جيشه ثم تبعه صاحب كيفا وبعث نجم الدين عسكره فلما توافقت الأمداد سار نور الدين نحو حارم سنة تسع وخمسين فحاصرها ونصب عليها المجانيق واجتمع من بقي بالساحل من ملوك الإفرنج ومقدمهم البرنس سمند صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وابن جوسكين واستنفر لهم أمم النصرانية وقصدوه فأفرج عن حارم إلى ارتاج.

ثم خاموا عن لقائه وعادوا إلى حصن حارم وسار في اتباعهم وناوشهم الحرب فحملوا على عساكر حلب وصاحب كيفا في ميمنة المسلمين فهزموها ومروا في اتباعهم وحمل زين الدين في عساكر الموصل على الصف فلقبه الرجل فأتخن فيهم واستلحهم وعاد الإفرنج من اتباع الميمنة فسقط في أيديهم ودارت رحا الحرب على الإفرنج فانهزموا ورجع المسلمون من القتل إلى الأسر فأسروا منهم أئماً أيهم سمند صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وبعث السرايا في تلك الأعمال بقصد أنطاكية لخلوها من الحامية فأبى وقال: أخشى أن يسلمها أصحابها لملك الروم فإن سمند ابن أخته ومجاورته أحق إلي من مجاورة ملك الروم ثم عاج على قلعة حارم فحاصرها وافتتحها ورجع مظفراً والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح نور الدين قلعة بانياس

ولما افتتح نور الدين قلعة حارم أذن لعسكر الموصل وحصن كيفا بالانطلاق إلى بلادهم وعزم على منازلة بانياس وكانت بيد الإفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ثم ورى عنها بقصد طبرية فصرف الإفرنج همته إلى حمايتها وخالف هو إلى بانياس لقلعة حمايتها فحاصرها وضيق عليها في ذي الحجة من سنة تسع وخمسين وكان معه أخوه نصير الدين أمير أميران

وبعد أيام أحضر بالقصر واستخلف بحضرة قاضي القضاة والأعيان وخطب له ببغداد ولقب القاب أبيه وأمر بثلاثة آلاف فارس وسار نحو بلاد الجبل في ربيع سنة إحدى وخمسين ونزل الخليفة حلوان واستنفر له ابن أخيه ملك شاه صاحب همدان فقدم إليه في ألفي فارس وجعله سليمان شاه ولي عهده وأمدعها الخليفة بالمال والسلاح ولحق بهما اليلدكز صاحب الري فكثرت جموعهم وبعث السلطان محمد إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل وزين الدين علي كجك نائبه في المظاهرة والإنجاد وسار إلى لقاء سليمان شاه فانهزم وتفرق عسكره وفارقه اليلدكز فذهب إلى بغداد على طريق شهرزور وبلغ خبر الهزيمة إلى زين الدين علي كجك فخرج في جماعة من عسكر الموصل وقعد له بشهرزور ومعه الأمير إيراقي حتى مر بهم سليمان شاه فقبض عليه زين الدين وحمله إلى الموصل فحبسه بها مكرماً وطير إلى السلطان محمود بالخبر.

فلما هلك السلطان محمود بن محمد سنة خمس وخمسين أرسل أكابر الأمراء من همدان إلى قطب الدين أتابك وزيره يطلبون تولية الملك سليمان شاه ويكون جمال الدين وزير قطب الدين وزيراً له وتعاهدوا على ذلك وجهزه قطب الدين جهاز الملك وسار معه زين الدين علي كجك في عسكر الموصل إلى همدان فلما قاربوا بلاد الجبل تابعت العساكر والأمداد للقائهم إرسالاً واجتمعوا على سليمان شاه وجروا معه على مذاهب الدولة فخشيتهم زين الدين على نفسه وفارقهم إلى الموصل وسار سليمان شاه إلى همدان فكان من أمرهم ما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية.

حصار قلعة حارم وانهزام نور الدين أمام

الإفرنج ثم هزيمتهم وفتحها

ثم جمع نور الدين محمود عساكر حلب وحاصر الإفرنج بقلعة حارم وجمعوا لمداغتته ثم خاموا عن لقائه ولم يتاجزوه وطال عليه أمرها فعاد عنها ثم جمع عساكره وسار سنة ثمان وخمسين معتمراً على غزو طرابلس وانتهى إلى البقية تحت حصن الأكراد فكبسهم الإفرنج هنالك وأتخنوا فيهم ونجا نور الدين في الفل إلى بحيرة قطينة قريباً من حصص ولحق به المهزومون وبعث إلى دمشق وحلب في الأموال والخيام والظهر وأزاح علل العسكر وعلم الإفرنج بمكان نور الدين من حصص فككبوا عن قصدها وسألوه الصلح فامتنع فأنزلوا حاميتهم بمحصن الأكراد ورجعوا وفي هذه

وسار نور الدين من دمشق ليأخذ مجزتهم عن المسير فلم يثبهم ذلك وتركوا ببلادهم حامية فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين واجتمع الإفرنج وعساكر مصر فحاصروه ثلاثة أشهر يغاديهم القتال ويرواحهم وجاءهم الخبر بهزيمة الإفرنج على حارم وما هب الله لنور الدين في ذلك فراسلوا أسد الدين شريكوه في الصلح وطوروا عنه الخبر فصالحهم وخرج ولحق بالشام ووضع له الإفرنج المراصد بالطريق فعدل عنها ثم أعاده نور الدين إلى مصر سنة اثنتين وستين فصار بالعساكر في ربيع ونزل اطفح وعبر النيل.

وجاء إلى القاهرة من جانبها الغربي ونزل الجيزة في عدوة النيل وحاصرها خسين يوماً واستمد شاور بالإفرنج وعبر إلى أسد الدين فتأخر إلى الصعيد ولقيهم منتصف السنة فهزمهم وسار إلى ثغر الإسكندرية فملكها وولى عليها صلاح الدين ابن أخيه ورجع فدوخ بلاد الصعيد وسارت عساكره مصر والإفرنج إلى الاسكندرية وحاصروا بها صلاح الدين فسار إليه أسد الدين فتلقوه بطلب الصلح فتم ذلك بينهم وعاد إلى الشام وترك لهم الإسكندرية.

وكتب شجاع بن شاور نور الدين بالطاعة عنه وعن طائفة من الأمراء ثم استطال الإفرنج على أهل مصر وفرضوا عليهم الجزية وأنزلوا بالقاهرة الشحنة وتسلموا أبوابها واستدعوا ملكهم بالشام إلى الاستيلاء عليها فبادر نور الدين وأعاده أسد الدين في العساكر إليها في ربيع سنة أربع وستين فملكها وقتل شاور وطرد الإفرنج عنها وقدمه العاضد لوزارته والاستيلاء عليه كما كان من قبله.

ثم هلك أسد الدين وقام صلاح الدين ابن أخيه مكانه وهو مع ذلك في طاعة نور الدين محمود وهلك العاضد فكتب نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بإقامة الدعوة العباسية بمصر والخطبة للمستضيء ويقال: إنه كتب له بذلك في حياة العاضد وبين يدي وفاته وهلك الخمسين يوماً أو نحوها فخطب للمستضيء العباسي وانقرضت الدولة العلوية بمصر وذلك سنة سبع وستين كما نأتي على شرحه وتفصيله في دولة بني أيوب إن شاء الله تعالى.

ووقعت خلال ذلك فتنة بين نور الدين محمود وبين صاحب الروم قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان سنة ستين وخمسمائة وكتب الصالح بن رزيك إلى قليج أرسلان بنهائه عن الفتنة والله تعالى ولي التوفيق.

فأصيب بسهم في إحدى عينيه وأخذ الإفرنج في الجمع لمداغته فلم يستكملوا أمرهم حتى فتحها وشحن قلعتها بالمقاتلة والسلاح وخافه الإفرنج فشاطروه في أعمال طرية وضرب عليهم الجزية في الباقي ووصل الخبر بفتح حارم وباتياس إلى ملوكهم الذين ساروا إلى مصر فسبقهم بالفتح وعاد إلى دمشق ثم سار سنة إحدى وستين متجراً إلى حصن المنيطرة فنازلهم على غرة وملكه عنوة ولم يجتمع الإفرنج إلا وقد ملكه فافترقوا ويشوا من ارتجاعه والله تعالى أعلم.

وفادة شاور وزير العاضد بمصر على نور الدين العادل صريحاً وإنجاده بالعسكر مع أسد الدين شريكوه

كانت دولة العلويين بمصر قد أخذت في التلاشي وصارت إلى استبداد وزرائها على خلفائها وكان من آخر المسلمين بها شاور السعدي استعمله الصالح بن رزيك على قوص وندم فلما هلك الصالح بن رزيك وكان مستبداً على الدولة قام ابنه رزيك مقامه فعزل شاور عن قوص فلم يرض بعزله وجمع وزحف إلى القاهرة فملكها وقتل رزيك واستبد على العاضد ولقيه أمير الجيوش وكانت سنة ثمان وخسين وخمسمائة ثم نازعه الضرغام وكان صاحب الباب ومقدم البرقية فنار عليه لسبعة أشهر من وزارته وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام وقصد نور الدين محمود بن زنكي مستنجداً به على أن يكون له ثلث الجباية بمصر ويقيم عسكر نور الدين بها مدداً له فاختر من أمرائه لذلك أسد الدين شريكوه بن شادي الكردي وكان بممص وجهزه بالعساكر فسار لذلك في جمادى سنة تسع وخسين واتبعه نور الدين إلى أطراف بلاد الإفرنج فشغلهم عن التعرض للعساكر.

وسار أسد الدين مع شاور وسار معه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب واتهوا إلى بليس فلقبهم ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فانهزم ورجع إلى القاهرة وأتبعه أسد الدين فقتله عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله تعالى عنها وقتل أخوه وعاد شاور إلى وزارته وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر الوفاء بالعهد من شاور بما عاهد عليه نور الدين فنكت شاور العهد وبعث إليه بالرجوع إلى بلده فلج في طلب ضريته ورحل إلى بليس والبلاد الشرقية فاستولى عليها واستمد شاور عليه بالإفرنج فبادروا إلى ذلك لما كان في نفوسهم من تخوف غائلته وطمعوا في ملك مصر.

فتح نور الدين صافيتا وعريمة ومنبج وجعبر

ثم جمع نور الدين عساكره سنة اثنتين وستين واستدعى أخاه قطب الدين من الموصل فقدم عليه بمحصى ودخلوا جميعاً بلاد الإفرنج ومروا بمحصن الأكراد واكتسحوا نواحيه ثم حاصروا عريمة وخرجوا جكة وفتحوا العريمة وصافيتا وبعثوا سراياهم فعالت في البلاد ورجعوا إلى محص فأقاموا بها إلى رمضان وانتقلوا إلى بانياس وقصدوا حصن حموص فهرب عنه الإفرنج فهدم نور الدين سورته وأحرقه واعتزم على بيروت فرجع عنه أخوه قطب الدين إلى الموصل وأعطاه نور الدين من عمله الرقة على الفرات.

ثم انتفض بمدينة منبج غازي بن حسان وبعث إليها العساكر فملكها عنوة وأقطعها أخاه قطب الدين يسال بن حسان وبقيت بيده إلى أن أخذها منه صلاح الدين بن أيوب ثم قبض بنو كلاب على شهاب الدين ملك بن علي بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر وكانت تسمى دوس ثم سميت باسم جعبر بانيتها.

وكان السلطان ملك شاه أعطاه لجده عندما ملك حلب كما مر في أخباره ولم تزل بيده ويد عقبه إلى أن هلك هذا فخرج بتصيد سنة ثلاث وستين وقد أرسد له بنو كلاب فأسروه وحملوه إلى نور الدين محمود صاحب دمشق فاعتقله مكرماً وحاوله في النزول عن جعبر بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى فأبى وبعث بالعساكر مع الأمير فخر الدين محمود بن أبي علي الزعفراني وحاصرها مدة فامتنت فبعث عسكراً آخر وقدم على الجميع الأمير فخر الدين أبا بكر ابن الداية رضيعة وأكبر أمرائه فحاصرها فامتنت ورجع إلى ملاطفة صاحبها فأجاب وعوضه نور الدين عنها سروج وأعمالها وساحة حلب ومراغة وعشرين ألف دينار وملك قلعة جعبر سنة أربع وستين وانقرض أمر بني مالك منها والبقاء لله وحده.

رحلة زين الدين نائب الموصل إلى إربل

واستبداد قطب الدين بملكه

قد كان تقدم لنا أن نصير الدين جقري كان نائب الأتابك زنكي بالموصل وقتل ألب أرسلان ابن السلطان محمود آخر سنة تسع وثلاثين وخسمائة طمعاً في الملك لغية الأتابك فرجع من غيبته في حصار البيرة وقدم مكانه زين الدين علي بن كمستكين بقلعة الموصل فلم يزل بها بقية أيام الأتابك وأيام ابنه غازي وابنه الآخر قطب الدين سنة ثمان وخمسين على وزيرهم جمال الدين

محمد بن علي بن منصور الأصفهاني فاعتقله وهلك لسنة من الاعتقال وحمل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فدفن بها في رباط هناك أعده لذلك وكانت وفاته أيام سيف الدين غازي بن قطب الدين فولى مكانه جلال أبا الحسن ابنه وكان زين الدين علي بن كمستكين ويعرف بكجك قد استبد في دولة قطب الدين واستقل بحكم الدولة.

وصارت بيده أكثر البلاد أقطاعاً مثل أربل وشهزور والقلع التي في تلك البلاد الهكارية منها العمادية وغيرها والحמידية وتكريت وسنجار وقد كان نقل أهله وولده وذخائره إلى إربل وأقام بمحل نيايته من قلعة الموصل فأصابه الكبر وطرقه العمى والصمم فعزم على مفارقة الموصل إلى كسر بيته بإربل فسلم جميع البلاد التي بيده إلى قطب الدين ما عدا إربل وسار إليها سنة أربع وستين وأقام قطب الدين مكانه فخر الدين عبد المسيح خصياً من موالى جده الأتابك زنكي وحكمه في دولته فنزل بالقلعة وعمرها وكان الخراب قد لحقها بإهمال زين الدين أمر البناء والله تعالى أعلم.

حصار نور الدين قلعة الكرك

ثم بعث صلاح الدين سنة خمس وستين إلى نور الدين محمود يطلب إنفاذ أبيه نجم الدين أيوب إليه فبعثه في عسكر واجتمع إليه خلق من التجار ومن أصحاب صلاح الدين وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الإفرنج فسارت العساكر إلى الكرك وهو حصن اختطه من الإفرنج البرنس أرقاط واختط له قلعة فحاصره نور الدين وجمع له الإفرنج فرحل إلى مقدمتهم قبل أن يتلاحقوا فقاموا عن لقائه ونكصوا على أعقابهم وسار في بلادهم فاكسحها وخرب ما مر من القلاع وانتهى إلى بلاد المسلمين حتى نزل حوشب وبعث نجم الدين من هنالك إلى مصر فوصلها متصف خمس وستين وركب العاضد للقائه.

ولما كان نور الدين بعشيراً سار للقاء شهاب الدين محمد بن الياس بن أبي الغازي بن أرتق صاحب قلعة أكبره فلما انتهى إلى نواحي بعلبك لقي سرية من الإفرنج فقاتلهم وهزمهم واستلحمهم وجاء بالأسرى ورؤس القتلى إلى نور الدين وعرف الرؤس مقدم الاستبان صاحب حصن الأكراد وكان شجى في قلوب المسلمين وبلغه وهو بهذا المنزل خبر الزلازل التي عمت البلاد بالشام والموصل والجزيرة والعراق وخربت أكثر البلاد بعمله فسار إليها وشغل في إصلاحها من واحدة إلى أخرى حتى أكملها

نور الدين متصرف جمادى الأولى من سنة ست وستين ودخل المدينة واستتاب بالقلعة حصياً اسمه كمستكين ولقبه سعد الدين فأقر سيف الدين ابن أخيه على ملكه وخلع عليه وردت عليه من الخليفة المستضيء وهو يحاصرها وأمر ببناء جامع بالموصل فبني وشهر باسمه وأمر سيف الدين أن يشاور كمستكين في جميع أموره وأقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين وعاد إلى الشام والله تعالى أعلم.

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين

ثم سار صلاح الدين في صفر سنة تسع وستين من مصر إلى بلاد الإفرنج غازياً ونازل حصن الشوبك من أعمال واستأمن إليه أهله على أن يمهلم عشرة أيام فأجابهم وسمع نور الدين بذلك فسار من دمشق غازياً أيضاً بلاد الإفرنج من جانب آخر وتنصح لصلاح الدين أصحابه بأنك إن ظاهرته على الإفرنج اضمحل أمرهم فاستطال عليك نور الدين ولا تقدر على الامتناع منه فترك الشوبك وكر راجعاً إلى مصر وكتب لنور الدين يعتذر له بأنه بلغه عن بعض سفلة العلويين بمصر أنهم معتزمون على الوثوب فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك واعتزم على عزله عن مصر فاستشار صلاح الدين أباه وخاله شهاب الدين الحارمي وقرباتهم فأشار عليه تقي الدين عمر بن أخيه بالامتناع والعصيان ففكر عليه نجم الدين أبوه وقال له: ليس منا من يقوم بعصيان نور الدين لو حصر أو بعث وأشار عليه بأن يكاتبه بالطاعة وأنه إن عزم على أخذ البلاد منك فسلمها ويصل بنفسه وافترق المجلس فخلا به أبوه وقال: مالك توجد بهذا الكلام السبيل للأبراء في استطاعتهم عليك ولو فعلتم ما فعلتم كنت أول الممتنعين عليه ولكن ملاطفته أولى. وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بما أشار به أبوه من الملاطفة فتركهم نور الدين وأعرض عن قصدهم ثم توفي واشتغل صلاح الدين بملك البلاد.

ثم جمع نور الدين العساكر وسار لغزو الإفرنج بسبب ما أخذوه لأهل البلاد من مراكب التجار ونكثوا فيها العهد مغالطين بأنها تكسرت فلم يقبل مغالطتهم وسار إليهم وبث السرايا في بلادهم نحو أنطاكية وطرابلس وحاصر هو حصن عرقة وخرب ريشه وأرسل عسكرياً إلى حصن صافيتا وعريمة ففتحهما عنوة وخربهما ثم سار من عرقة إلى طرابلس واكتسح كل ما مر عليه حتى رجع الإفرنج إلى الإنصاف من أنفسهم وردوا ما أخذوا من المكرمين الأعززين وسألوا تجديد الهدنة فأجابهم بعد أن خربت

بمبلغ جهده واشتغل الإفرنج بعمارة بلادهم أيضاً خوفاً من غائلته والله تعالى أعلم.

وفاة قطب الدين صاحب الموصل وملك

ابنه سيف الدين غازي

ثم توفي قطب الدين مودود بن الأتابك زنكي صاحب الموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ملكه وعهد لابنه الأكبر عماد الدين بالملك وكان القائم بدولته فخر الدين عبد المسيح وكان شديد الطوعية لنور الدين محمود ويعلم ميله عن عماد الدين زنكي بن مودود فعدل عنه إلى أخيه سيف الدين غازي بن مودود بموافقة أمه خاتون بنت حسام الدين غمراش بن أبي الغازي ولحق عماد الدين بعمه نور الدين منتصراً به وقام فخر الدين عبد المسيح بتدبير الدولة بالموصل واستبد بها والله تعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على الموصل وإقراره ابن

أخيه سيف الدين عليها

ولما ولي سيف الدين غازي بالموصل بعد أبيه قطب الدين واستبد عليه فخر الدين عبد المسيح كما تقدم وبلغ الخبر إلى نور الدين باستبداده أنف من ذلك وسار في خف من العسكر وعبر الفرات عند جعبر أول سنة ست وستين وقصد الرقة فملكها ثم الخابور فملك جميعه ثم نصيبين وكلها من أعمال الموصل وجاءه هناك نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب كيفاً مدداً ثم سار إلى سنجار فحاصرها وملكها وسلمها لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين ثم جاءته كتب الأمراء بالموصل فاستحثوه فأغذ السير إلى مدينة كلك ثم عبر الدجلة ونزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل وسقطت ذلك اليوم ثلثة كبيرة من سور الموصل وكان سيف الدين غازي قد بعث أخاه عز الدين مسعود إلى الأتابك شمس الدين صاحب همدان وبلاد الجبل وأذربيجان وأصفهان والري يستنجد على عمه نور الدين فارسل أيلدكز إلى نور الدين ينهائه عن الموصل فأساء جوابه وتوعده وأقام يحاصر الموصل ثم اجتمع أمراؤها على طلعة نور الدين ولما استحث فخر الدين عبد المسيح استأمن إلى نور الدين على أن يبقى سيف الدين ابن أخيه على ملكها فأجابه على أن يخرج هو عنه ويكون معه بالشام وتم ذلك بينهما وملك

بلادهم وقتلت رجالهم وغنمت أموالهم.

ثم اتخذ نور الدين في هذه السنة الحمام بالشام تطهير إلى أوعارها من لاتساع بلاده ووصول الأخيار بسرعة فيادر إلى القيام بواجبه وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها لتصل الكتب في أجنحتها ثم أغار الإفرنج على حوران من أعمال دمشق وكان نور الدين ينزل الكسوة فرحل إليهم ورحلوا أمامه إلى السواد وتبعهم المسلمون ونالوا منهم ونزل نور الدين على عشرين وبعث منها سرية إلى أعمال طبرية فاكسحها وسار الإفرنج لمدافعتهم فرجعوا عنها وأتبعهم الإفرنج فعمروا النهر وطمعوا في استنقاذ غنائمهم فقاتلهم المسلمون دونها أشد قتال إلى أن استنفذت وتحاجزوا ورجع الإفرنج خائبين والله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين بمنه وكرمه.

واقعة ابن ليون ملك الأرمن بالروم

كان مليح بن ليون صاحب دروب حلب أطاع نور الدين محمود بن زنكي وأمره على الحمالة وأقطعه ببلاد الشام وكان يسير في خدمته ويشهد حروبه مع الإفرنج أهل ملته وكان الأرميني أيضاً يستظهر به على أعدائه وكانت أدنة والمصيصة وطرسوس مجاورة لابن ليون وهي بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فتغلب عليها ابن ليون وملكها وبعث صاحب القسطنطينية منتصف سنة ثمان وستين وخسمائة جيشاً كثيفاً مع عظيم من بطارقه فلقبه ابن ليون بعد أن استنجد نور الدين فأجده بالعساكر وقتلهم فهزمهم وبعث بغنائمهم وأسراهم إلى نور الدين وقويت شوكة ابن ليون وبنس الروم من تلك البلاد والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين إلى بلاد الروم

كان ذو النون بن محمد بن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس وأخصرى وقيسارية ملكها بعد عمه باغي أرسلان وأخيه إبراهيم بن محمد فلم يزل قليج أرسلان بن محمد بن قليج أرسلان يتخيف بلاده إلى أن استولى عليها ولحق ذو النون بنور الدين صريحاً وأرسل إلى قليج أرسلان بالشفاعة في رد بلاده فلم يشفعه فسار إليه وملك من بلاده بكسور ومهنسا ومرعش ومرزبان وما بينهما في ذي القعدة سنة ثمان وستين ثم بعث عسكرياً إلى سيواس فملكوها ثم أرسل قليج أرسلان إلى نور الدين يستعطفه وقد كان يجيز أمامه إلى قاصية بلاده فأجابه نور

الدين إلى الصلح على أن ينجده بعسكر الإفرنج ويبقي سيواس بيد ذي النون وعسكر نور الدين الذي معه فيها ورجع نور الدين إلى بلاده وبقيت سيواس بيد ذي النون حتى مات نور الدين وعاد قليج أرسلان ثم وصل رسول نور الدين من بغداد كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري ومعه منشور من الخليفة المستضيء لنور الدين بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد الروم وديار مصر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى الكرك ورجوعه

ولما كانت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين كما قدمناه واعتزم نور الدين على عزله عن مصر واستعطفه صلاح الدين وكان فيما تقرر بينهما أنهما يجتمعان على الكرك وأيهما سبق انتظر صاحبه فسار صلاح الدين من مصر في شوال سنة ثمان وستين وسبق إلى الكرك وحاصره وخرج نور الدين بعد أن بلغه مسير صلاح الدين من مصر وأزاح علل العساكر وانتهى إلى الرقيم على مرحلتين من الكرك فخافه صلاح الدين على نفسه وخشي أن يعذله عند لقائه وكان استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر فبلغه أنه طرده مرض شديد فوجد فيه عذراً لنور الدين وكر راجعاً إلى مصر وبعث الفقيه عيسى بذلك العذر وإن حفظه مصر أهم عليه فلما وصل مصر وجد أباه قد توفي من سقطة سقطها عن مركوبه هزه المرح فرماه وحمل إلى بيته وقبلاً ومات لأيام قريبة آخر ذي الحجة من السنة ورجع نور الدين إلى دمشق وكان قد بعث رسوله كمال الدين الشهرزوري القاضي ببلاده وصاحب الوقوف والديوان لطلب التقليد للبلاد التي بيده مثل مصر والشام والجزيرة والموصل والتي دخلت في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم وأن يعادله ما كان لأبيه زنكي من الإنقطاع بالعراق وهي صريقين ودرج هارون وأن يسوغ قطعة أرض على شاطئ دجلة بظاهر الموصل يبني فيها مدرسة للشافعية فأسعف بذلك كله.

وفاة نور الدين محمود وولاية ابنه إسماعيل

الصالح

ثم توفي نور الدين محمود بن الأتابك زنكي حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخسمائة لسبع عشرة سنة من ولايته وكان قد شرع في التجهز لأخذ مصر من صلاح الدين بن أيوب

سوى قلعة جعبر لامتناعها وسوى رأس عين كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خاله وكان شمس الدين علي بن الدايدة مجلب وهو من أكبر أمراء نور الدين ومعه العساكر ولم يقدر على مدافعة سيف الدين فخر الدين عبد المسيح وكان نور الدين تركه قبل موته بسبواس مع ذي النون بن الدانشمند فلما مات نور الدين رجع إلى صاحبه سيف الدين غازي وهو الذي كان ملكه فوجده بالجزيرة وقد ملكها فأشار عليه بالعبور إلى الشام وعارضه آخر من أكبر الأمراء في ذلك فرجع سيف الدين إلى قوله وعاد إلى الموصل وأرشد صلاح الدين إلى الملك الصالح وأهل دولته يعاتبهم حيث لم يستدعوه لمداغة سيف الدين عن الجزيرة ويتهدد ابن المقدم وأهل الدولة على انفرادهم بأمر الملك الصالح دونه وعلى قعودهم عن مدافعة سيف الدين غازي ثم أرسل شمس الدين ابن الدايدة إلى الملك الصالح يستدعيه من دمشق إلى حلب ليدافع شمس الدين ابن عمه قطب الدين عن الجزيرة فمنعه أمراؤه عن ذلك مخافة أن يستولي عليه ابن الدايدة والله سبحانه وتعالى أعلم بغيه.

حصار الإفرنج بانياس

ولما مات نور الدين محمود اجتمع الإفرنج وحاصروا قلعة بانياس من أعمال دمشق وجمع شمس الدين بن المقدم العساكر وسار عن دمشق وراسل الإفرنج وتهددهم بسيف الدين صاحب الموصل وصلاح الدين صاحب مصر فصالحوه على مال يبعثه إليهم واشترى من الإفرنج وأطلعهم وتقررت الهدنة وبلغ ذلك صلاح الدين فكره واستعظمه وكتب إلى الصالح وأهل دولته بقبض مرتكبهم ويعددهم بغزوة الإفرنج وقصده إنما هو طريقه إلى الشام ليملك البلاد وإنما صالح ابن المقدم الإفرنج خوفاً منه ومن سيف الدين والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على دمشق

ولما كان ما ذكرناه من استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة خاف شمس الدين ابن الدايدة منه على حلب وكان سعد الدين كمستكين قد هرب من سيف الدين غازي إليه فأرسله إلى دمشق ليستدعي الملك الصالح للمداغة فلما قارب دمشق أنفذ ابن المقدم إليه عسكرياً فنهيه وعاد إلى حلب ثم رأى ابن المقدم وأهل الدولة بدمشق أن مسير الصالح إلى حلب أصلح فبعثوا إلى كمستكين وبعثوا معه الملك الصالح فلما وصل إلى حلب قبض

واستنفر سيف الدين ابن أخيه في العساكر مورياً بغزو الإفرنج وكان قد اتسع ملكه وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما ملكها سيف الدولة بن أيوب وكان معتنياً بمصالح المسلمين مواظباً على الصلاة والجهاد وكان عارفاً بذهب أبي حنيفة ومتحريراً للعدل ومتجافاً عن أخذ المكوس في جميع أعماله وهو الذي حصن قلاع الشام وبنى الأسوار على مدنها مثل: دمشق وحمص وحماة وشيزر وبعبك وحلب وبنى مدارس كثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل والمارستانات والخانات في الطريق والخرائق للصوفية في البلاد واستكثر من الأوقاف عليها يقال: بلغ ريع أوقافه في كل شهر تسعة آلاف دينار صوري وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويمثل لهم قائماً ويؤنسهم في المجالسة ولا يرد لهم قولاً وكان متواضعاً مهيباً وقوراً ولما توفي اجتمع الأمراء والمقدمون وأهل الدولة بدمشق وبايعوا ابنه الملك الصالح إسماعيل وهو ابن إحدى عشرة سنة وحلفوا له وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له هنالك وضرب السكة باسمه وقام بكفالته وتدير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وأشار عليه القاضي كمال الدين الشهرزوري بأن يرجعوا في جميع أمورهم إلى صلاح الدين لئلا ينبذ طاعتهم فأعرضوا عن ذلك والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء سيف الدين غازي على بلاد

الجزيرة

قد كنا قدما أن نور الدين استولى على بلاد الجزيرة وأقر سيف الدين ابن أخيه قطب الدين على الموصل واحتمل معه فخر الدين عبد المسيح الذي ولي سيف الدين واستبد عليه بأمره وولى على قلعة الموصل سعد الدين كمستكين ولما استنفرهم نور الدين بين يدي موته سار إليه سيف الدين غازي وكمستكين الخنادم في العساكر وبلغهم في طريقهم خبر وفاته وكان كمستكين في المقدمة فهرب إلى حلب واستولى سيف الدين على خلفه وسواده وعاد إلى نصيبين فملكها وبعث العساكر إلى الحابور فاستولى عليها وعلى أقطاعها ثم سار إلى حران وبها قايمز الخرائي مولى نور الدين فحاصرها أياماً ثم استنزله على أن يقطعه حران فلما نزل قبض عليه وملكها ثم سار إلى الرها وبها خادماً لنور الدين اقتسلمها وعوضه عنها قلعة الزعفراني من جزيرة ابن عمر وانتزعها منه بعد ذلك.

ثم سار إلى الرقة وسروج فملكها واستوعب بلاد الجزيرة

وركب الملك الصالح وهو صبي مناهز فصار في البلد واستعان بالناس وذكر حقوق أبيه فبكى الناس رحمة له واستماتوا دونه وخرجوا فدافعوا عسكر صلاح الدين ودس كمستكين إلى مقدم الإسماعيلية في الفتك بصلاح الدين فبعث لذلك فداوية منهم وشعر بذلك بعض أصحاب صلاح الدين وجماعة منهم معه وقتلوا عن آخرهم.

وأقام صلاح الدين محاصراً لحلب وبعث كمستكين إلى الإفرنج يستجدهم على منازلة بلاد صلاح الدين ليرحل عنهم وكان القمص عند السنجيلي صاحب طرابلس أسره نور الدين في حارم سنة تسع وخمسين وبقي معتقلاً بحلب فأطلقه الآن كمستكين بمائة وخمسين ألف دينار صورية وآلف أسير وكان متغلباً على ابن مري ملك الإفرنج لكونه مجذوماً لا يصدر إلا عن رأيه فصار بجموع الإفرنج إلى حصن الرستن سابع رجب وصالحهم صلاح الدين من الغد فأجفلوا وحاصروا القلعة وملكها آخر شعبان واستولى على أكثر الشام ثم سار إلى بعلبك وبها بمن الخادم من موالى نور الدين فحاصرها حتى استأمنوا إليه فملكها منتصف رمضان من السنة وأقطعها شمس الدين محمد ابن عبد الملك المقدم بما تولى له من إظهار طاعته بدمشق وتسليمها له والله تعالى أعلم.

كمستكين على ابن الداية وإخوته وعلى رئيس حلب ابن الخشاب وعلى مقدم الأحداث بها واستبد بأمر الصالح وخشي ابن المقدم وأمرأوه بدمشق غائلته فكتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل أن يملكوه فأحجم عن المسير إليهم وظنها مكيدة وبعث بجوهرهم إلى كمستكين وصالحه على مال أخذه من البلاد فكثرت أرتياب القوم في دمشق فكتبوا صلاح الدين بن أيوب فطار إليهم ونكب عن الإفرنج في طريقه وقصد بصرى وأطاعه صاحبها ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج إليه أهل الدولة بمقدمهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم وهو الذي كان أبوه سلم سنجار لنور الدين سنة أربع وأربعين كما مر ودخل صلاح الدين دمشق آخر ربيع سنة سبعين ونزل دار أبيه المعروفة بدار العفيفي وكان في القلعة ريجان خديم نور الدين فبعث إليه صلاح الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بأنه على طاعة الصالح والخطبة له في بلاده وأنه إنما جاء ليرتفع البلاد التي أخذت له فسلم إليه ريجان القلعة واستولى على ما فيها من الأموال وهو في ذلك كله يظهر طاعة الملك الصالح ويخطب له وينقش السكة باسمه. انتهى والله أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حصن وحماة ثم

حصاره حلب ثم ملكه بعلبك

ولما ملك صلاح الدين دمشق من إيالة الملك الصالح استخلف عليها أخاه سيف الدين الإسلام طغركين بن أيوب وكان حصن وحماة وقلعة مرعش وسليمية وتل خالدة والرها من بلاد الجزيرة في إقطاع فخر الدين مسعود الزعفراني من أمراء نور الدين ما عدا القلاع منها ولما مات نور الدين أجفل الزعفراني عنها لسوء سيرته ولما ملك صلاح الدين دمشق سار إلى حصن فملك البلد وامتنتت القلعة بالوالي الذي بها فجهز عسكر لحصارها وسار إلى حماة فنازلها منتصف شعبان وبقلعتها الأمير خرديك فبعث إليه صلاح الدين بأنه في طاعة الملك الصالح وإنما جاء لمداومة الإفرنج عنه وارتجاع بلاده بالجزيرة من ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل واستخلفه على ذلك عز الدين ثم بعث صلاح الدين إلى الملك الصالح بحلب في الاتفاق وإطلاق شمس الدين علي حسن وعثمان تقي الدين من الاعتقال فصار عز الدين لذلك واستخلف بالقلعة أخاه ولما وصل إلى حلب قبض عليه كمستكين وحبس فسلم أخوه قلعة حماة لصلاح الدين وملكها ثم سار صلاح الدين من وقته إلى حلب وحاصرها

حروب صلاح الدين مع سيف الدين

غازي صاحب الموصل وغلبه إياه واستيلائه

على بغدوين وغيرها من أعمال الملك

الصالح ثم مصالحته على حلب

لما ملك صلاح الدين حصن وحماة وحاصر حلب كاتب الملك الصالح إسماعيل من حلب إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستجده فجمع عساكره واستجد أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فلم يبيح له ما كان بينه وبين صلاح الدين وأنه ولاه سنجار ويطمعه في الملك فبعث سيف الدين غازي بالعساكر لمداومة صلاح الدين عن الشام في رمضان سنة سبعين وخمسمائة مع أخيه عز الدين مسعود وأمير جيوش عز الدين القندار وجعل التدبير إليه وسار هو إلى سنجار فحاصر بها أخاه عماد الدين وامتنع عليه وبينما هو محاصره جاءه الخبر بأن صلاح الدين هزم أخاه عز الدين وعساكره فصالح عماد الدين على سنجار وعاد إلى الموصل ثم جهز أخاه عز الدين في العساكر

غاية المنعة فحاصرها أربعين يوماً حتى استأمنوا إليه فتسلمها في الأضحى ثم رحل إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح واشتد أهلها في قتاله فعدل إلى المطاوله ثم سعى بينهما في الصلح وعلى أن يدخل فيه سيف الدين صاحب الموصل وصاحب كيفا وصاحب ماردين فاستقر الأمر على ذلك وخرجت أخت الملك الصالح إلى صلاح الدين فآكرمها وأفاض عليها العطاء وطلبت منه قلعة عزاز فأعطاه إياها ورحل إلى بلاد الإسماعيلية واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين صاحب الموصل ورجوعه

كان مجاهد الدين قايماز متولي مدينة إربل وكان بينه وبين شهاب الدين محمد بن بدران صاحب شهرزور عداوة فلما ولي سيف الدين مجاهد الدين قايماز نيابة الموصل خاف شهاب الدين غائله عن تعاهد الخدمة بالموصل وأظهر الامتناع وذلك سنة اثنتين وسبعين فخطبه جلال الدين الوزير في ذلك مخاطبة بليغة وحذره ورغبه فعاود الطاعة ويادر إلى الحضور بالموصل واللّه تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نكبة كمستكين الخادم ومقتله

كان سعد الدين كمستكين الخادم قائماً بدولة الملك الصالح في حلب وكان يناهضه فيها أبو صالح العجمي فقدم عند نور الدين وعند ابن الملك الصالح وتجاوز مراتب الوزير فعدا عليه بعض الباطنية فقتله وخلا الجو لكمستكين وانفرد بالاستبداد على الصالح وكثرت السعاية فيه بمجر السلطان والاستبداد عليه وأنه قتل وزيره فقبض عليه وامتنحه وكان قد أقطعه قلعة حارم فامتنع بها أصحابه وأرادهم الصالح على تسليمها فامتنعوا وهلك كمستكين في الحنة وطمع فيها وساروا إليها وحاصروها وصانعهم الصالح بالمال فرجعوا عنها وبعث هو عساكره إليها وقد جهدهم الحصار فسلموها له وولي عليها واللّه تعالى أعلم.

وفاة الصالح إسماعيل واستيلاء ابن عمه عز الدين مسعود على حلب

ثم توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود

ثانية ومعه القنذار وساروا إلى حلب فانضمت إليهم عساكره وساروا جميعاً إلى صلاح الدين فأرسل إلى عماد الدين بالموصل في الصلح بينه وبين الملك الصالح على أن يرد عليه حصص وحماة ويسوغه الصالح دمشق فأبى إلا ارتجاع جميع بلاد الشام واقتصره على مصر فنسار صلاح الدين إلى عساكرهم ولقيها قريباً من حماة فانهزمت وثبت عز الدين قليلاً ثم صدق عليه صلاح الدين الحملة فانهزم وغنم سوادهم ومخلفهم واتبع عساكر حلب حتى أخرجهم منها وحاصرها وقطع خطبة الملك الصالح وبعث بالخطبة للسلطان في جميع بلاده ولما طال عليهم الحصار صالحوه على إقراره على جميع ما ملك من الشام ورحل عن حلب عاشر شوال من السنة وعاد إلى حماة ثم سار منها إلى بغدوين وكانت لفخر الدين مسعود بن الزعفراني من أمراء نور الدين وكان قد اتصل بالسلطان صلاح الدين واستخدم له ثم فارقه حيث لم يحصل على غرضه عنده فلحق ببغدوين وبها نائب الزعفراني فحاصرها حتى استأمنوا إليه وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي وأقطع حصص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وعاد إلى دمشق آخر سنة سبعين.

وكان سيف الدين غازي صاحب الموصل بعد هزيمة أخيه وعساكره عاد من حصار أخيه بسنجان كما قلناه إلى الموصل فجمع العساكر وفرق الأموال واستنجد صاحب كيفا وصاحب ماردين وسار في ستة آلاف فارس وانتهى إلى نصيبين في ربيع سنة إحدى وسبعين فأقام إلى انسلاخ فصل الشتاء وسار إلى حلب فبرز إليه سعد الدين كمستكين الخادم مدير الصالح في عساكر حلب وبعث صلاح الدين عن عساكره من مصر وقد كان أذن لهم في الانطلاق فجاؤوا إليه وسار من دمشق إلى سيف الدين وكمستكين فلقيهم بتل الفحول وانهزموا راجعين إلى حلب وترك سيف الدين أخاه عز الدين بها في جمع من العساكر وعبر الفرات إلى الموصل يظن أن صلاح الدين في اتباعه وشاور الصالح وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز في مفارقة الموصل إلى قلعة الحميدية فعارضه في ذلك ثم عزل القنذار عن إمارة الجيوش لأنه كان جر الهزيمة برأيه ومفارقتة وولى مكانه مجاهد الدين قايماز ولما انهزمت العساكر أمام صلاح الدين وغنم مخلفها سار إلى مراغة وملكها وولي عليها ثم سار إلى منبج وبها صاحبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين فملك المدينة وحاصره بالقلعة وضيق نخنقه ثم نقب أسوارها وملكها عليه عتوة وأسره ثم أطلقه سلباً فلحق بالموصل وأقطعته سيف الدين الرقة.

ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة عزاز وهي في

صاحب حلب في منتصف سنة سبع وسبعين لثمان سنين من ولايته وعهد بملكه لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل واستخلف أهل دولته على ذلك بعضهم بعماد الدين صاحب سنجار أخيه عز الدين الأكبر لكان صهره على أخت الصالح وأن أباه نور الدين كان يميل إليه فأبى وقال عز الدين: أنا أقدر على مدافعة صلاح الدين عن حلب فلما قضى نحبه أرسل الأمراء بحلب إلى عز الدين مسعود يستدعونه هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات ولقي هنالك أمراء حلب وجاؤوا معه فدخلها آخر شعبان من السنة وصلاح الدين يومئذ بمصر بعيداً عنهم وتقي الدين عمر ابن أخيه في منبج فلما أحسن بهم فارقها إلى حماة وثار به أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين وأشار أهل حلب عليه بقصد دمشق وبلاد الشام وأطمعوه فيها فأبى من أجل العهد الذي بينه وبين صلاح الدين ثم أقام بحلب شهوراً وسار عنها إلى الرقة والله تعالى أعلم.

استيلاء عماد الدين على حلب ونزوله عن

سنجار لأخيه عز الدين

ولما انتهى عز الدين إلى الرقة متقبلاً من حلب وافقه هنالك رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب منه أن يملكه مدينة سنجار وينزل هو له عن حلب فلم يجبه إلى ذلك فبعث عماد الدين إليه بأنه يسلم سنجار إلى صلاح الدين فحمل الأمراء حيثئذ على معارضته على سنجار وتحمسهم له ولم يكن لعز الدين مخالفاً لتمكنه في الدولة وكثرة بلاده وعساكره فأخذ سنجار من أخيه عماد الدين وأعطاه حلب وسار إليها عماد الدين وملكها وسهل أمره على صلاح الدين بعد أن كان متخوفاً من عز الدين على دمشق والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد الجزيرة

وحصاره الموصل واستيلاؤه على كثير من

بلادها ثم على سنجار

كان عز الدين صاحب الموصل قد أقطع مظفر الدين كوجنكري بن زين الدين كجك مدينة حران وقلعتها ولما سار صلاح الدين لحصار البيرة جنح إليه مظفر الدين ووعدته النصر واستحثه للقدوم على الجزيرة فسار إلى الفرات مورياً بقصد وعبر إليه مظفر الدين فلقبه وجاء معه إلى البيرة وهي قلعة منيعة على الفرات من عدوة الجزيرة وكان صاحبها من بني أرتق أهل ماردين

قد أطاع صلاح الدين فعبر من جسرها وعز الدين صاحب الموصل يومئذ قد سار ومعه مجاهد الدين إلى نصيبين لمدافعة صلاح الدين عن حلب فلما بلغهما عبوره الفرات عادا إلى الموصل وبعثا حامية إلى الرها وكتب صلاح الدين ملوك النواحي بالنجدة والوعد على ذلك وكان تقدم العهد بينه وبين نور الدين محمد بن قري أرسلان صاحب كيفا على أن صلاح الدين يفتح آمد ويسلمها إليه فلما كاتبهم الآن كان صاحب كيفا أول مجيب وسار صلاح الدين إلى الرها فحاصرها في جمادى سنة ثمان وسبعين وبها يومئذ فخر الدين مسعود الزعفراني فلما اشتد به الحصار استأمن إلى صلاح الدين وحاصر معه القلعة حتى سلمها نائبها على مال أخذه وأقطعها صلاح الدين مظفر الدين كوكبري صاحب حران وسار عنها إلى الرقة وبها نائبها قطب الدين نبال بن حسان المنيجي فأجفل عنها إلى الموصل وملكها صلاح الدين وسار إلى الحابور وهو قرقيسيا وماكسين وعمران فاستولى على جميعها وسار إلى نصيبين فملكها لوقتها وحاصر القلعة أياماً وملكها وأقطعها أبا الهيجاء السمين من أكبر أمرائه وسار عنها وملكها ومعه صاحب كيفا وجاء الخبر بأن الإفرنج أغاروا على أعمال دمشق ووصلوا داريا فلم يخفل بخبرهم واستمر على شأنه وأغراه مظفر الدين كوكبري وناصر الدين محمد بن شيركوه بالموصل ورجعا قصلها على سنجار وجزيرة ابن عمر كما أشار عليهما فسار صلاح الدين وصاحبها عز الدين ونائبه مجاهد الدين وقد جمعوا العساكر وأفاضوا العطاء وشحنوا البلاد التي بأيديهم كالجزيرة وسنجار والموصل وإربل وسار صلاح الدين حتى قاربها وسار هو ومظفر الدين وابن شيركوه في أعيان دولته إلى السور فأراه غيايل الامتاع وقال لمظفر الدين ولناصر الدين ابن عمه: قد أغررتماني. ثم صبح البلد وناشبه وركب أصحابه في المقاعد للقتال ونصب منجنيقا فلم يغن ونصب إليه من البلد تسعة ثم خرج إليه جماعة من البلد وأخذوه وكانوا يخرجون ليلاً من البلد بالمشاعل يوهمون الحركة فخشي صلاح الدين من البيات وتأخر عن القصد وكان صدر الدين شيخ الشيوخ قد وصل من قبل الخليفة الناصر مع بشير الخادم من خواصه في الصلح بين الفريقين على إعادة صلاح الدين بلاد الجزيرة فأجاب على إعادة الآخرين حلب فامتنعوا ثم رجع عن شرط حلب إلى ترك مظاهرة صاحبها فاعتذروا عن ذلك ووصلت رسل صاحب أذربيجان قرأ أرسلان وأرسل صاحب خلط شاهرين فلم يتظم بينهما أمر.

ورحل صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار فحاصرها وبها أمير أميران وأخوه عز الدين صاحب الموصل في عسكر ولقيه

ركبته تصدعت لها ومات بعد فتح حلب.

ثم ارتحل صلاح الدين إلى قلعة حارم وبها سرجك من موالي نور الدين ولاء عليها عماد الدين فلما سلم حلب لصلاح الدين امتنع سرجك في قلعة حارم فحاصره صلاح الدين وترددت الرسل بينهما وقد دس إلى الإفرنج ودعاهم وخشي الجند الذين معه أن يسلمها إليهم فحبسوه واستأمنوا إلى صلاح الدين فملكها وولى عليها بعض خواصه وعلى تل خالد الأمير داروم الياروقي صاحب تل باشر وأقطع قلعة إعزاز الأمير سليمان بن جندر فعمرها بعد أن كان عماد الدين خربها وأقطع صلاح الدين أعمال حلب لأمرائه وعساكره والله تعالى أعلم.

نكبة مجاهد الدين قايماز

كان مجاهد الدين قايماز قائماً بدولة الموصل ومتحكماً فيها كما قلناه وكان عز الدين محمود الملقب بالقنديل صاحب الجيش وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان صاحب العراق كانا من أكابر الأمراء عند السلطان عز الدين مسعود صاحب الموصل وكانا يقرئانه بمجاهد الدين ويكثران السعاية عنده فيه حتى اعترزم على نكبته ولم يقدر على ذلك في مجلسه لاستبداد مجاهد الدين وقوة شوكة فأنقطع في بيته لعاراض مرض وكان مجاهد الدين خصياً لا يحتجب منه النساء فدخل عليه يعودوه فقبض عليه وركب إلى القلعة فاحتوى على أمواله وذخائره وولى بها لقنديل نائباً وجعل ابن صاحب العراق أمير حاجباً وحكماً في دولته.

وكان في يد مجاهد الدين إربل وأعمالها فيها زين الدين يوسف ابن زين الدين علي كجك صبيّاً صغيراً تحت استبداده ويده أيضاً جزيرة ابن عمر لمعز الدين سنجار شاه بن سيف الدين غازي وهو صبي تحت استبداده ويده أيضاً شهرزور وأعمالها ودوقا وقلعة عقر الحميدية ونوابه في جميعها ولم يكن لمعز الدين مسعود بعد استيلاء صلاح الدين على الجزيرة سوى الموصل وقلعتها لمجاهد الدين وهو الملك في الحقيقة فلما قبض عز الدين عليه امتنع صاحب إربل واستبد بنفسه وكان صاحب جزيرة ابن عمر وبعث بطاعته إلى صلاح الدين وبعث الخليفة الناصر شيخ الشيوخ وبشير الخادم بالصلح بين عز الدين وصلاح الدين على أن تكون الجزيرة وإربل من أعماله وامتنع عز الدين وقال هما من أعمالي وطمع صلاح الدين في الموصل فتنكر عز الدين لقنديل ولابن صاحب العراق لما حملاه عليه من الفساد لنكبة مجاهد الدين فبدأ أولاً بعزل صاحب أذربيجان فقال له: أنا أكفيكه. وجهز له

شرف الدين وجاءها المدد من الموصل فحال بينهم وبينها وداخله بعض أمراء الأكراد من الدوادية من داخلها فكبسها صلاح الدين من ناحيته واستأمن شرف الدين لوقته فأمته صلاح الدين ولحق بالموصل وملك صلاح الدين سنجار وصارت سباجاً على جميع ما ملكه بالجزيرة وولى عليها سعد الدين بن معين الدين أنز الذي كان متغلباً بدمشق على آخر طغركين وعاد فمر بنصيبين وشكا إليه أهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله وسار إلى حران بلدة مظفر الدين كوكبري فوصلها في القلعة من سنة سبع وثمانين فأراح بها وأذن لعساكره في الانطلاق وكان عز الدين قد بعث إلى شاهرين صاحب خلاط يستنجد به وأرسل شاهرين إلى صلاح الدين بالشفاعة في ذلك رسلاً عديدة آخرهم مولاة سكرجاء وهو على سنجار فلم يشفعه أخاه من ذلك وفارقه مغاضباً وسار شاهرين إلى قطب الدين صاحب ماردين وهو ابن أخته وابن حال عز الدين وصهره على بنته فاستنجد به وسار معه وجاءهم عز الدين من الموصل في عساكره واعتزموا على قصد صلاح الدين وبلغه الخبر وهو مريح بمحران فبعث عن تقي الدين ابن أخيه صاحب حصص وحماة وارتحل للقائهم ونزل رأس عين فهاجموا عن لقائه ولحق كل ببلده وسار صلاح الدين إلى ماردين فأقام عليها أياماً ورجع والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها

ولما ارتحل صلاح الدين عن ماردين قصد آمد فحاصرها سنة تسع وسبعين وملكها وسلمها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان كما كان العهد بينهما وقد أشرنا إليه ثم سار إلى الشام فحاصر تل خالد من أعمال حلب حتى استأمنوا إليه وملكها في محرم سنة تسع وسبعين وسار منها إلى عيتاب وبها ناصر الدين أخو الشيخ إسماعيل خازن نور الدين محمود وصاحبه ولاء عليها نور الدين فلم يزل بها فاستأمن من إلى صلاح الدين على أن يقره على الحصن ويكون في خدمته فأقره وأعلمه ورحل صلاح الدين إلى حلب وبها عماد الدين زنكي بن مودود ونزل عليها بالميلان الأخضر أياماً ثم انتقل إلى جبل حوشن أياماً أخرى وأظهر أنه أبني عليها وعجز عماد الدين عن عطاء الجند فراسل صلاح الدين أن يعوضه عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقعة وسروج فأجاب إلى ذلك وأعطاه عنها تلك البلاد وملكها وكان في شرط صلاح الدين عليه أنه يبادر إلى الخدمة متى دعاه إليها وسار عماد الدين إلى بلاده تلك ودخل صلاح الدين حلب في آخر سنة تسع وسبعين ومات عليها أخوه الأصغر تاج الملوك يوري بضربة في

أخوه العادل وناصر الدولة ابن عمه شريكه وأمنت بلاد الموصل ثم حدثت بعد ذلك فتنة بين التركمان والأكراد بالجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان وقتل فيها ما لا يحصى من الأمم واتصلت أعواماً وسيبها أن عروساً من التركمان أهديت إلى زوجها ومروا بقلعة الزوزان والأكراد وطلبوا منهم الوليمة على عادة القتيان فأغلظوا في الرد فقتل صاحب القلعة الزوج وثار التركمان بجماعة من الأكراد فقتلهم ثم أصلح مجاهد الدين بينهم وأفاض فيهم العطاء فعادوا إلى الوفاق وذهبت بينهم الفتنة واللّه تعالى أعلم.

وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل وولاية أخيه مظفر الدين اقتهبي

كان زين الدين يوسف بن علي كجك قد صار في طاعة صلاح الدين كما ذكرناه قبل وإربل من أعماله ووقع الصلح على ذلك بينه وبين عز الدين صاحب الموصل سنة ست وثمانين للعسكر معه فمات عنده أخريات رمضان من السنة واستولى أخوه على موجوده وقبض على جماعة من أمرائه مثل بلداحي صاحب قلعة حقير كان وغيره وطلب من صلاح الدين أن يقطعه إربل مكان أخيه وينزل عن حران والرها فأقطعه إربل وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودوبر قرابلي وبني قفجاق وراسل أهل إربل مجاهد الدين قائماز واستدعوه ليملكوه وهو بالموصل فلم يتناول لذلك خوفاً من صلاح الدين ولأن عز الدين لما كان ولاه نيابته بعد أن أطلقه من الاعتقال لم يمكنه كما كان أول مرة وجعل معه رديفاً في الحكم كان من بعض غلمانه فكان أسفاً لذلك فلما راسله أهل إربل قال: واللّه لا أفعل لئلا يحكم معي فيها فلان وسار مظفر الدين إليها وملكها.

حصار عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر

كان سنجار شاه بن سيف الدين غازي بن مودود قد ملك جزيرة ابن عمر بوصية أبيه وخرج عن طاعة عمه عز الدين عند نكبة مجاهد الدين كما قلناه وصار عيناً على عمه يكتب صلاح الدين بأخباره ويغري به ويسعى في القطيعة بينهما ثم حاصر صلاح الدين قلعة عكا سنة ست وثمانين واستنفر لها أصحاب الأطراف المتشبهين بدعوته مثل عز الدين صاحب الموصل وأخيه

عسكرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا نحو إربل فاكسحوا البلد وخربوها وسار إليهم زين الدين يوسف بإربل فوجدهم مفترقين في النهب فهزّمهم وما كان معهم وعاد مظفراً ولحق العجم ببلادهم وعاد مجاهد الدين إلى الموصل واللّه سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

حصار صلاح الدين الموصل وصلحه مع عز الدين صاحبها

ثم سار صلاح الدين من دمشق في ذي القعدة سنة إحدى وثمانين فلما انتهى إلى حران قبض على صاحبها مظفر الدين كوكبري لأنه كان لذلك وعده بخمسين ألف دينار حتى إذا وصل لم يف له بها فقبض عليه لانحراف أهل الجزيرة عنه فأطلقه ورد عليه عمله بحران والرها وسار عن حران وجاء معه عساكر كيفا وداري وعساكر جزيرة ابن عمر مع صاحبها معز الدين سنجار شاه ابن أخي عز الدين صاحب الموصل وقد استبد بأمره وفارق طاعة عمه بعد نكبة مجاهد الدين كما قلنا فساروا مع صلاح الدين إلى الموصل ولما انتهوا إلى مدينة الأبله وفدت عليه أم عز الدين وابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة ظناً بأنه لا يردهم وأشار عليه الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردهم ورحل إلى الموصل فقاتلها وامتنعت عليه وتدم على ردّ الوفد وجاءه كتاب القاضي الفاضل باللائمة ثم قدم عليه زين الدين يوسف صاحب إربل فأنزله مع أخيه مظفر الدين كوكبري وغيره من الأمراء ثم بعث الأمير علي بن أحمد المشطوب إلى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فاجتمع عليه الأكراد الهكارية وأقام يحاصرها وكاتب نائب القلعة القنداز ونسي خبر مكاتبة إلى عز الدين فمنعه وأطرحه من المشورة وعدل إلى مجاهد الدين قائماز وكان يقتدي برأيه فضبط الأمور وأصلحها ثم بلغه في آخر ربيع من سنة إثنين وثمانين وقد حصر من حصار الموصل أن شاهرين صاحب خلاط توفي في تاسع ربيع واستولى عليها مولاه بكتمر فرحل عن الموصل وملك ميافارقين كما يأتي في أخبار دولته ولما فرغ منها عاد إلى الموصل ومر بنصيين ونزل الموصل في رمضان سنة اثنين وثمانين وترددت الرسل بينهما في الصلح على أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية الفرائلي وما وراء الزاب ويخطب له على منابرهما وينقش اسمه على سكته ومرض صلاح الدين أثناء ذلك ووصل إلى حران ولحقته الرسل بالإجابة إلى الصلح وتحالفاً عليه وبعث من يسلم البلاد وأقام مرصاً بحران عند

وفاة عز الدين صاحب الموصل وولاية ابنه

نور الدين

ولما رجع عز الدين إلى الموصل أقام بها مدة شهرين واشتد مرضه فتوفي آخر شعبان سنة تسع وثمانين وولى ابنه نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مردود بن الأتابك زنكي وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز مدبر دولة أبيه والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة عماد الدين صاحب سنجار وولاية

ابنه قطب الدين

ثم توفي عماد الدين زنكي بن مردود بن الأتابك زنكي صاحب سنجار والخابور ونصيبين والرقعة وسروج وهي التي عرضه صلاح الدين عن حلب لما أخذها منه توفي في محرم سنة أربع وتسعين وملك بعده ابنه قطب الدين وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرتقش مولى أبيه وكان ديناً خيراً عادلاً متواضعاً محباً لأهل العلم والدين معظماً لهم وكان متعصباً على الشافعية حتى إنه بنى مدرسة للحنفية بسنجان وكان حسن السيرة والله تعالى أعلم.

استيلاء نور الدين صاحب الموصل على

نصيبين

كان عماد الدين صاحب سنجان ونصيبين قد امتدت أيدي نوابه بنصيبين إلى قرى من أعمال الموصل تجاورهم وبعث إليه في ذلك مجاهد الدين قايماز صاحب دولة الموصل يشكو إليه نوابه سراً من سلطانه نور الدين فلعج عماد الدين في ادعاء أنها من أعماله وأساء الرد فأعاد نور الدين الرسالة إليه مع بعض مشايخ دولته وقد طرقة المرض فأجاب مثل الأول فنصح الرسول وكان من بقية الأتابك زنكي وعاد إلى فاغلط له في القول واعتزم نور الدين على المسير إلى نصيبين ووصل الخبر اثر ذلك بوفاة عماد الدين وولاية ابنه قطب الدين فقوي طمع نور الدين في نصيبين وتجهز لها في جمادى سنة أربع وتسعين وسار قطب الدين بن سنجان في عسكره فسبقه نور الدين إلى نصيبين فلما وصل لقيه فهزمه نور الدين ودخل إلى قلعة نصيبين مهزوماً ثم أسرى منها إلى حران ومعه نائبه مجاهد الدين يرتقش وكتبوا العادل أبا بكر بن

عماد الدين صاحب سنجان ونصيبين وسنجان شاه هذا ابن عمه وصاحب كيفاً وغيرهم واجتمعوا عنده على عكا وجاء جماعة من جزيرة ابن عمر يتظلمون من سنجان شاه فخاف واستأذن في الانطلاق فاعتذر صلاح الدين بأن في ذلك افتراق هذه العساكر فالح عليه في ذلك وغدا عليه يوم القطر مسلماً فوعده وانصرف وكان تقي الدين عمر بن شاه أخي صلاح الدين مقبلاً من حماة في عسكر فأرسل إليه صلاح الدين باعتراضه وردده طوعاً أو كرهاً فلقبه بقلعة فنك وردده كرهاً وكتب صلاح الدين إلى عز الدين صاحب الموصل بمحاصر جزيرة ابن عمر يظنها مكيدة فتلقاها بالمراجعة وطلب إقطاع الجزيرة فأسعفه وسار إليها وحاصرها أربعة أشهر فامتنعت عليه ثم صالحه على نصف أعماله ورجع الموصل والله تعالى أعلم.

مسير عز الدين صاحب الموصل إلى بلاد

العادل بالجزيرة ورجوعه عنها

كان صلاح الدين قد ملك من بلاد الجزيرة حران والرها وسميساط وميفارقين وكانت بيد ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاه ثم توفي تقي الدين فأقطعها أخاه العادل أبا بكر بن أيوب ثم توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين فطمع عز الدين صاحب الموصل في ارتجاعها واستشار أصحابه فأشار عليه بعضهم بمعاجلتها وأن يستنفر أصحاب الأطراف لها مثل صاحب إربل وصاحب جزيرة ابن عمر وصاحب سنجان ونصيبين ومن امتنع يعاجله حرباً ويعاجل البلد قبل أن يستعد أهله للمدافعة.

وأشار مجاهد الدين قايماز بمشاوره هؤلاء الملوك والعمل بإشارتهم فقبل من مجاهد الدين وكتبهم فأشاروا بانتظار أولاد صلاح الدين وأن البلد في طاعته وأنه القائم بدولته وأنه بلغه أن صاحب ماردين تعرض لبعض بسلاده فجهز جيشاً كثيفاً لقصد ماردين فوجوا الكتابة وتركوا الحركة ثم بلغهم أنه بظاهر حران في خف من العسكر فتجهز للحركة عليه ولما وقع الاتفاق مع صاحب سنجان جاءت عساكر الشام إلى العادل من الأفضل فامتنع وسار عز الدين في عساكره من الموصل إلى نصيبين واجتمع بأخيه عماد الدين وساروا إلى الرها وقد عسكر العادل قريباً منهم بمرج الريمان وخافهم فأقاموا أياماً كذلك ثم طرق عز الدين المرض فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وساروا إلى الموصل والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة

ثم إن الملك العادل ملك مصر سنة ست وتسعين من يد الأفضل ابن أخيه فخشيه الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وراسلوا نور الدين صاحب الموصل في الاتفاق وأن يسير إلى بلاد العادل بالجزيرة حران والرها والرقه وسنجار فصار نور الدين للملك في شعبان سنة سبع وتسعين وسار معه ابن عمه قطب الدين صاحب سنجان وحسام الدين صاحب ماردين وانتهوا إلى رأس العين وكان بحران الفائز بن العادل في عسكر فارسل إلى نور الدين في الصلح فبادر إلى الإجابة لما وقع في عسكره من الموتان واستحلفهم وحلف لهم ويعثوا إلى العادل فحلف وعاد نور الدين إلى الموصل في ذي القعدة من السنة والله تعالى أعلم.

هزيمة نور الدين صاحب الموصل أمام معسكر العادل

لم يزل الملك العادل يرسل قطب الدين صاحب سنجان ويستميله إلى أن خطب له في أعماله سنة ستمائة فصار نور الدين صاحب الموصل إلى نصيبين من أعمال قطب الدين فحاصرها وملك المدينة وأقام يحاصر القلعة فينما هو قد قارب فتحها بلغه الخبر من نائبه بالموصل بأن مظفر الدين كوكبري صاحب إربل من أعمال الموصل فرحل عن نصيبين معترماً على قصد إربل فلم يجد كل الخبر صحيحاً فصار إلى تل أعفر من أعمال سنجان فحاصرها وملكها وكان الأشرف موسى بن العادل قد سار من حران إلى رأس العين نمجة لصاحب سنجان وقد اتفق معه على ذلك مظفر الدين صاحب إربل وصاحب كيفا وأمد وصاحب جزيرة ابن عمر وتراسلوا وتواعدوا للاجتماع فلما ارتحل نور الدين عن نصيبين اجتمعوا عليها وجاءهم أخو الأشرف نجم الدين صاحب ميافارقين وساروا إلى البقعا من تل أعفر إلى كفر رقان وقصدوا المطاولة حتى جاءه بعض عيونه فقللهم في عينه وأطمعه فيهم وكان من مواله فوثق بقوله ورحل إلى نوشرى قريباً منهم وتراوى الجمعان فالتقوا وانهزم نور الدين وغيا في قل قليل ونزلت العساكر كفرقان ونهبوا مدينة فيد وما إليها وأقاموا هنالك وترددت الرسل في الصلح على أن يعيد نور الدين تل أعفر لقطب الدين صاحب سنجان فاعادها واصطلحوا سنة إحدى وستمائة ورجع كل إلى بلده والله تعالى ولي التوفيق.

أيوب يستحثونه من دمشق وأقام نور الدين بنصيبين حتى وصل العادل إلى الجزيرة ففارتها إلى الموصل في رمضان من السنة وعاد قطب الدين إليها وكان الموتان قد وقع في عسكر نور الدين فمات كثير من أمراء الموصل ومات مجاهد الدين قائماز القائم بالدولة ولما عاد نور الدين إلى الموصل وعاد قطب الدين إلى نصيبين سار العادل إلى ماردين فحاصرها أياماً وضيق عليها ثم انصرف والله تعالى أعلم.

هزيمة الكامل بن العادل على ماردين أمام نور الدين صاحب الموصل وبني عمه ملوك الجزيرة

لما رحل العادل عن ماردين كما قدمناه جمر العساكر عليها للحصار مع ابنه الكامل وعظم ذلك على ملوك الجزيرة وديار بكر وخافوا إن ملكها يغلبهم على أمرهم ولم يكن سار من سار معه منهم عند اشتغاله بحرب نور الدين إلا تقيّة لكثرة عساكره فلما رجع إلى دمشق وبقي الكامل على ماردين استهانوا بأمره وطعموا في مدافعه وأغراهم بذلك الظاهر والأفضل ابنا صلاح الدين لفتتهم مع عمهم العادل فتجهز نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وسار أول شعبان سنة خمس وتسعين وانتهى إلى ديبس فأقام بها ولحق به ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجان وابن عمه الآخر سنجان شاه بن غازي صاحب جزيرة ابن عمر حتى إذا انقضى عيد الفطر ارتحلوا وتقدموا إلى مزاحمة الكامل على ماردين وكان أهل ماردين خلال ذلك قد ضاقت مخنقهم وجهدهم الحصار وبعث النظام المستولي على دولة صاحبها إلى الكامل يراوده في الصلح وتسليم القلعة له إلى أجل سماه على أن يبيع لهم ما يقتولهم من الميرة فأسعفهم بذلك وبينما هم في ذلك جاءهم خبر العساكر فاستمعوا وزحف الكامل مهزوماً إلى معسكره بالربض فخرج أهل القلعة إليهم وقاتلوه إلى المساء ثم أجفل الكامل من ليته متصف شوال وعاد إلى بلاده ونهبت أهل القلعة خلفه وخرج صاحب ماردين وهو بولو أرسلان ابن أبي الغازي فلقى نور الدين وشكره وعاد إلى حصنه ورجع نور الدين وأصحابه إلى تستر ثم سار منها إلى رأس عين فقدم عليها هنالك رسول الظاهر بن صلاح الدين من حلب يطلب له منه السكة والخطبة فوجم لذلك وثنى عزمه عن مظاهرتهم ثم طرده المرض فبعث إليهم بالعذر وعاد إلى الموصل في ذي الحجة آخر السنة والله تعالى أعلم.

مقتل سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمر وولاية ابنه محمود بعده

وراجع نور الدين رأيه فإذا هو قد تورط وأنه يملك البلاد كما يجب دونه إن وفى له وسار نور الدين إلى الجزيرة فرمى حال بنو العادل بينه وبين الموصل وأن انتقض نور الدين عليه سار إليه فاضطرب في أمره وملك العادل الخابور ونصيبين واعتزم قطب الدين على أن يعتاض منه عن سنجار ببعض البلاد فمنعه من ذلك أحمد بن برتقش مولى أبيه وجهز نور الدين عسكرياً مع ابنه القاهر مدداً للعادل كما اتفقا عليه وفي خلال ذلك بعث قطب الدين سنجار ابنه إلى مظفر الدين صاحب إربل يستنجده فأرسل إلى العادل شافعاً في أمره فلم يشفعه لمظاهرة نور الدين إياه فغضب مظفر الدين وأرسل إلى نور الدين في المساعدة على دفاع العدو فأجاب نور الدين إلى ذلك ورجع عن مظاهرة العادل.

وأرسل هو ومظفر الدين إلى الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب والي كسنجار بن قليج أرسلان صاحب الروم يستجديهما فأجاباهما وتداعوا إلى قصد بلاد العادل إن لم يرحل عن سنجار وبعث الخليفة الناصر أستاذ الدار أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك والأمير اقتناش من خواص مواليه في الإفرنج عن سنجار وتحاذل أصحابه عن مضايقة سنجار معه وسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فإنه جاهر بخلافه في ذلك فأجاب العادل في الصلح على أن تكون نصيبين والخابور للذان ملكهما له وتبقى سنجار لقطب الدين وتحالفوا على ذلك ورجع العادل إلى حران ومظفر الدين إلى إربل والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية ابنه القاهر

ثم توفي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الأتابك زنكي منتصف سنة سبع وستمئة لثمان عشرة سنة من ولايته وكان شهماً شجاعاً مهيباً عند أصحابه حسن السياسة لرعيته وجدد ملك آبائه بعد أن أشفى على الذهاب ولما احتضر عهد بالملك لابنه عز الدين مسعود وهو ابن عشرين سنة وأوصاه أن يتولى تدبير ملكه مولاه بدر الدين لؤلؤ لما فيه من حسن السياسة وكان قائماً بأمره منذ توفي مجاهد الدين قايماز وأوصى لولده الأصغر عماد الدين بقلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها ولفته إلى العقر فلما توفي نور الدين بايع الناس ابنه عز الدين مسعوداً ولقبوه القاهر واستقر ملك الموصل وأعمالها له وقام بدر الدين لؤلؤ بتدبير دولته والبقاء لله وحده.

كان سنجار شاه بن غازي بن مودود ابن الأتابك زنكي صاحب جزيرة ابن عمر وأعمالها أوصى له بها أبوه عند وفاته كما مر وكان سيئ السيرة غشوماً ظلوماً مرهف الحد على رعيته وجنده وحرمه وولده كثير القهر لهم والانتقام منهم فاقد الشفقة على بنيه حتى غرب ابنه محموداً ومودوداً إلى قلعة فرح من بلاد الزوزان لتوهم توهمه فيهما وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة ووكل به فسات حاله وكانت الدار كثيرة الخشاش فضجر من حاله وتناول حية وبعثها إلى أبيه فلم يعطف عليه فتسلل من الدار واستخفى في المدينة وبعث إلى نور الدين صاحب الموصل من أومهم بوصوله إليه فبعث إليه بنفقة ورده خوفاً من أبيه وترك أبوه طلبه لما شاع أنه بالشام فلم يزل غازي يعمل الحيلة حتى دخل دار أبيه واختفى عند بعض حظايه وطرق عليه الخلاء في بعض الليالي وهو سكران فطعنه أربع عشرة طعنة ثم ذبحه وأقام مع الحرم وعلم أستاذ الدولة من خارج بالخبر فأحضر أعيان الدولة وأغلق أبواب القصر وبايع الناس لمحمود بن سنجار شاه واستدعاه وأخاه مودوداً من قلعة فرح ثم دخلوا إلى غازي وقتلوه ووصل محمود فملكوه ولقبوه معن الدين لقب أبيه وعمد إلى الجواربي التي واطأت على قتل أبيه ففرقهن في الدجلة والله تعالى أعلم.

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من أعمال صاحب سنجار وحصاره إياه

كان بين قطب الدين محمود بن زنكي بن مودود وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة قد مر كثير من أخبارها ولما كانت سنة خمس وستمئة أصهر العادل بن أيوب صاحب مصر والشام إلى نور الدين في ابنته فزوجها نور الدين من ابنه واستكثر به وطمح إلى الاستيلاء على جزيرة ابن عمر فأغرى العادل بأن يظاھره على ولاية ابن عمه قطب الدين سنجار وتكون ولاية قطب الدين وهي سنجار ونصيبين والخابور للعادل وتكون ولاية غازي بن سنجار شاه لنور الدين صاحب الموصل فأجاب إلى ذلك العادل وأطمع نور الدين في أنه يقطع ولاية قطب الدين إذا ملكها لابنه الذي هو صهره على ابنته وتحالفوا على ذلك وسار العادل سنة ست وستمئة من دمشق لملك الخابور.

وفاة القاهر وولاية ابنه نور الدين أرسلان

شاه في كفالة بدر الدين لؤلؤ

لما توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الأتابك زنكي صاحب الموصل آخر ربيع الأول سنة خمس عشرة وخمسمائة لثمان سنين من ولايته بعد أن عهد بالملك لابنه الأكبر نور الدين أرسلان شاه وعمره عشرون سنة وجعل الوصي عليه والمدير لدولته لؤلؤاً كما كان في دولة القاهر وابنه نور الدين فبايع له وقام بملكه وأرسل إلى الخليفة في التقليد والخلع على العادة فوصلت ويعث إلى الملوك في الأطراف في تجديد العهد كما كان بينهم وبين سلفه وضبط أموره وكان عمه نور الدين زنكي أرسلان شاه بقلعة عقر الحميدية لا يشك في مصير السلطان له فدفعه عن ذلك واستقامت أموره وأحسن السيرة وسمع شكوى المظالمين وأنصفهم ووصل في تقليد الخليفة لنور الدين إسناد التتر في أموره لبدر الدين لؤلؤ والله أعلم.

استيلاء عماد الدين صاحب عقر على

قلاع الهكارية والزوزان

كان عماد الدين زنكي قد ولاه أبوه قلعتي العقر والشوش قريباً من الموصل وأوصى له بهما وعهد بالملك لابنه الأكبر القاهر فلما توفي القاهر كما ذكرنا طمح زنكي إلى الملك وكان يحدث به نفسه فلم يحصل له وكان بالعمادية نائب من موالى جده مسعود فدخله في الطاعة له وشعر بذلك بدر الدين لؤلؤ فعزل ذلك النائب وبعث إليها أميراً أنزله بها وجعل فيها نائباً من قبله واستبد بالنواب في غيرها وكان نور الدين بن القاهر لا يزال عليلاً لضعف مزاجه وتوالي الأمراض عليه فبقي محتجباً طول المدة فأرسل زنكي إلى نور الدين بالعمادية يشيع موته ويقول: أنا أحق بملك سلفي فتوهما صدقه وقبضوا على نائب لؤلؤ ومن معه وسلموا البلد لعماد الدين زنكي منتصف رمضان سنة خمس عشرة.

وجهب لؤلؤ العساكر وحاصروه بالعمادية في فصل الشتاء وكلب البرد وتراكم الثلج ولم يتمكنوا من قتاله وظاهره مظفر الدين صاحب إربل على شأنه وذكر لؤلؤا بالعهد الذي بينهما أن لا يتعرض لأعمال الموصل والنصص فيها على قلاع الهكارية والزوزان وأنه مظاهر لهم على من يتعرض لها فلج في مظاهرتة واعتمد نقض العهد وأقام العسكر محاصراً لزكني بالعمادية

وتقدموا بعض الليالي وركبو الأوعار إليه فبرز إليهم أهل العمادية وهزمهم في المضايق والشعاب فعادوا إلى الموصل وراسل عماد الدين قلاع الهكارية والزوزان في الطاعة له فاجابوه وملكها وولى عليها والله أعلم.

مظاهرة الأشرف بن العادل للؤلؤ صاحب

الموصل

ولما استولى عماد الدين زنكي على قلاع الهكارية والزوزان وظاهره مظفر الدين صاحب إربل خاف لؤلؤ غائلته فبعث بطاعته إلى الأشرف موسى بن العادل وقد ملك أكثر بلاد الجزيرة وخلاط وأعمالها ويسأله المعاضدة فاجابه وكان يومئذ مجلب في مدافعة كيكاوس صاحب بلاد الروم عن أعمالها فأرسل إلى مظفر الدين بالنيكبر عليه فيما فعل من نقضه العهد الذي كان بينهم جميعاً كما مر ويعزم عليه في إعادة ما أخذ من بلاد الموصل ويتوعد إن أصر على مظاهرة زنكي بقصد بلاده فلم يجب مظفر الدين إلى ذلك واستألف على أمره صاحب ماردين وناصر الدين محموداً صاحب كيفا وآمد فوافقوه وفاقوا طاعة الأشرف في ذلك فبعث الأشرف عساكره إلى نصيين لإنجاد لؤلؤ متى احتاج إليه والله تعالى أعلم.

واقعة عساكر لؤلؤ بعماد الدين

ولما عاد عسكر الموصل عن حصار العمادية خرج زنكي إلى قلعة العقر ليتمكن من أعمال الموصل الصحراوية إذ كان قد فرغ من أعمالها الجبلية وأمدّه مظفر الدين صاحب إربل بالعساكر وعسكر جند الموصل على أربع فراسخ من البلد من ناحية العقر ثم اتفقوا على المسير إلى زنكي وصبحوه آخر المحرم سنة ست عشرة وستمئة وهزموه فلحق بإربل وعاد العسكر إلى مكانهم ووصل رسل الخليفة الناصر والأشرف ابن العادل في الصلح بينهما فاصطلحوا وتحالفوا والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية

أخيه ناصر الدين

لما توفي نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر كما قدمناه من سوء مزاجه واختلاف الأسقام عليه فتوفي قبل كمال الحول ونصب لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين محمد بن القاهر في سن

استيلاء عماد الدين على قلعة كواشي ولؤلؤ على تل أعفر والأشرف على سنجار

كانت كواشي من أحسن قلاع الموصل وأمنه وأعلاه ولما رأى الجند الذين بها بعد أهل العمادية واستبدادهم بأنفسهم طمعوا في مثل ذلك وأخرجوا نواب لؤلؤ عنهم وتمسكوا بإظهار الطاعة على البعد خوفاً على رعايتهم بالموصل ثم استدعوا عماد الدين زنكي وسلموا له القلعة وأقام عندهم وبعث لؤلؤ إلى مظفر الدين يذكره المهود التي لم يجر ثلها بعد فأعرض وأرسل إلى الأشرف بجلب يستجده فصار وعبر الفرات إلى حران وكان مظفر الدين صاحب إربل يرأس الملك بالأطراف ويغريهم بالأشرف ويخوفهم غائلته ولما كان بين كيكاسوس بن كنخسرو وصاحب الروم من الفتنة ما ذكره في أخباره وسار كيكاسوس إلى حلب دعا مظفر الدين الملك بناحيته إلى وفاق كيكاسوس مثل صاحب كيفا وأمد صاحب ماردين فأطاعوه وخطبوا له في أعمالهم.

ومات كيكاسوس وفي نفس الأشرف منه ومن مظفر الدين ما في نفسه ولما سار الأشرف إلى حران لمظاهرة لؤلؤ وأرسل مظفر الدين جماعة من أمرائه مثل أحمد بن علي المشطوب وعز الدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما واستمالهم ففارقوا الأشرف ونازلوا ديبس تحت ماردين ليجمعوا مع ملوك الأطراف للدفاع الأشرف واستمال الأشرف صاحب آمد وأعطاه مدينة حالي وجبل حودي ووعد به إذا ملكها فأجاب وفارقهم إليه واضطر آخرون منهم إلى طاعة الأشرف فأغل أمرهم وانفرد ابن المشطوب بمشاقة الأشرف فقصده إربل ومر بنصيبين فقاتله شيخ بها فانهزم إلى سنجار فأسره صاحبها وكان هواه مع الأشرف ولؤلؤ فقصده ابن المشطوب عن رأيه فيهم حتى أجمع خلافه وأطلقه فجمع المفسدين وقصد البقعا من أعمال الموصل فاكسح نواحيها وعاد ثم سار من سنجار ثانية إلى الموصل وأرصد له لؤلؤ عسكرياً فاعترضه فهزمه واجتاز بثل أعفر من أعمال صاحب سنجار فأقاموا عليها وبعثوا إلى لؤلؤ فصار وحاصرها وملكها في ربيع سنة سبع عشرة وستائة وأسر ابن المشطوب وجاء به إلى الموصل ثم بعث به إلى الأشرف فحبسه بجران سنين وهلك في حبسه ولما أطاع صاحب آمد الأشرف رحل من حران إلى ماردين ونزل ديبس وحاصر ماردين ومعه صاحب آمد وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين على أن يرد عليه رأس العين وكان الأشرف قد أقطعها له على أن يحمل إليه ثلاثين ألف دينار وأن يعطي لصاحب آمد الورزني بلد وانهقد الصلح بينهما وارتحل الأشرف

الثلاث واستحلف له الجند وأركبه في المركب فرضي به الناس لما أبلوا من عجز أخيه عن الركوب لمرضه والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة لؤلؤ صاحب الموصل من مظفر الدين صاحب إربل

ولما توفي نور الدين ونصب لؤلؤ أخاه ناصر الدين محمداً على صغر سنه تجدد الطمع لعماد الدين عمه ولمظفر الدين صاحب إربل في الاستيلاء على الموصل وتجهزوا لذلك وعانت سراياه في نواحي الموصل وكذا لؤلؤ قد بعث ابنه الأكبر في العساكر لمجدة للملك الأشرف وهو يقصد بلاد الإفرنج بالسواحل ليأخذ بحجزتهم عن إمداد اخوانهم بدمياط عن أبيه الكامل بمصر فبادر لؤلؤ إلى عسكر الأشرف الذين بنصيبين واستدعاهم فجاؤوا إلى الموصل منتصف سنة عشر وستائة وعليهم أيبك مولى الأشرف فاستقلهم لؤلؤ ورأهم مثل عسكره الذين بالشام أودونهم والحق أيبك على عبور دجلة إلى إربل فمنعه أياماً فلما أصر عبر لؤلؤ معه ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقي دجلة وجمع مظفر الدين زنكي وعبروا الزاب وتقدم إليهم أيبك في عسكره وأصحاب لؤلؤ وسار منتصف الليل من رجب وأشار عليه لؤلؤ بانتظار الصباح فلم يفعل ولقيهم بالليل وحمل أيبك على زنكي في الميسرة فهزمه وانهزمت ميسرة لؤلؤ بقي في نفر قليل فتقدم إليه مظفر الدين فهزمه وعبر دجلة إلى الموصل وظهر مظفر الدين على تبريز ثلاثاً ثم بلغه أن لؤلؤاً يريد تبسنة فأجفل راجعاً وترددت الرسل بينهما فاصطلحا على أن يبقى لكل ما بيده والله أعلم.

وفاة صاحب سنجار وولاية ابنه ثم مقتله وولاية أخيه

ثم توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن الأتابك زنكي صاحب سنجار في ثامن صفر سنة ست عشرة وستائة وكان حسن السيرة مسلماً إلى نوابه وملك بعده ابنه عماد الدين شاهين شاه واشتغل الناس عليه شهراً ثم سار إلى تل أعفر فاغتاله أخوه عمر ودخل إليه في جماعة فقتلوه وملك بعده وبقي مدة إلى أن تسلم منها الأشرف بن العادل مدينة سنجار في جمادى سنة سبع عشرة وستائة والله أعلم.

استيلاء صاحب الموصل على قلعة سوس

كانت قلعة سوس وقلعة العقر متجاورتين على اثني عشر فرسخاً من الموصل وكانتا لعماد الدين زنكي بن نور الدين أرسلان شاه بوصية أبيه كما مر وملك معها قلاع الهكارية والزوزان ورجعت إلى الموصل وسار هو سنة تسعة عشر إلى أربك بن البهلوان صاحب أذربيجان من بقية السلجوقية فسار معه وأقطع له الإقطاعات وأقام عنده فسار لؤلؤ من الموصل إلى قلعة سوس فحاصرها وضيق عليها وامتنعت عليه فجمهر العساكر لحصارها وعاد إلى الموصل ثم اشتد الحصار بأهلها وانقطعت عنهم الأسباب فاستأمنوا إلى لؤلؤ ونزلوا له عنها على شروط اشترطوها وقبلها وبعث نوابه عليها والله تعالى أعلم.

حصار مظفر الدين الموصل

كان الأشرف بن العادل بن أيوب قد استولى على الموصل ودخل لؤلؤ في طاعته واستولى على خلاط وسائر أرمينية وأقطعها أخاه شهاب الدين غازي ثم جعله ولي عهده في سائر أعماله ثم نشأت الفتنة بينهما فاستظهر غازي بأخيه المعظم صاحب دمشق ومظفر الدين كوكبري وتداعروا لحصار الموصل فجمع أخوهما الكامل عساكره وسار إلى خلاط فحاصرها بعد أن بعث إلى المعظم صاحب دمشق وتهدهد فأقصر عن مظاهرة أخيه واستنجد غازي مظفر الدين كوكبري صاحب إربل فسار إلى الموصل وحاصرها ليأخذ بحجزة الأشرف عن خلاط ونهض المعظم صاحب دمشق لإنجاد أخيه غازي وكان لؤلؤ صاحب الموصل قد استعد للحصار فأقام عليها مظفر الدين عشرًا ثم رحل متصفاً إحدى وعشرين لامتناعها عليه ولقيه الخبر بأن الأشرف قد ملك خلاط من يد أخيه فندم على ما كان منه.

انتقاض أهل العمادية على لؤلؤ ثم

استيلاؤه عليها

قد تقدم لنا انتقاض أهل قلعة العمادية من أعمال الموصل سنة خمس عشرة ورجوعه إلى عماد الدين زنكي ثم عودهم إلى طاعة لؤلؤ فأقاموا على ذلك مدة ثم عادوا إلى ديدنهم من التمريض في الطاعة وتجنوا على لؤلؤ بعزل نوابه فعزلهم مرة بعد أخرى ثم استبد بها أولاد خواجا إبراهيم وأخوه فيمن تبعهم

من دبس إلى نصيين يريد الموصل فلقية رسل صاحب سنجار يطلب من يتسلمها منه على أن يعوضه الأشرف منها بالركة بما أدركه من الخوف عند استيلاء لؤلؤ على تل أعفر ونفرة أهل دولته عنه لقتله أخاه كما ذكرناه فاجابه الأشرف وأعطاه الرقة وملك سنجار في جمادى سنة سبع عشرة وستمائة ورحل عنها بأهله وعشيرته وانقرض أمر بني زنكي منها بعد أربع وتسعين سنة والبقاء لله وحده.

صلح الأشرف مع مظفر الدين

ولما ملك الأشرف سنجار سار إلى الموصل ووافاه بها رسل الخليفة الناظر ومظفر الدين صاحب إربل في الصلح ورد القلاع المأخوذة من إيالة الموصل على صاحبها لؤلؤ ما عدا العمادية فبقى بيد زنكي وتردد الحديث في ذلك شهرين ولم يتم فرحل الأشرف بقصد إربل حتى قارب نهر الزاب وكان العسكر قد ضجروا سوء صاحب آمد مع مظفر الدين فأشار بإجابه إلى ما سأل ووافق على ذلك أصحاب الأشرف فانهقد الصلح وساق زنكي إلى الأشرف رهينة على ذلك وسلمت قلعة العقر وشوش لنواب الأشرف وهما لزنكي رهناً أيضاً وعاد الأشرف إلى سنجار في رمضان سنة سبع عشرة وبعثوا إلى القلاع فلم يسلمها جندها وامتنعوا بها واستجار عماد الدين زنكي بشهاب ابن العادل فاستعطف له أخاه الأشرف فأطلقه ورد عليه قلعتي العقر وشوش وصرف نوابه عنهما وسمع لؤلؤ الأشرف يميل إلى قلعة تل أعفر وأنها لم تزل لسنجار قديماً فبعث إليه بتسليمها والله تعالى أعلم.

رجوع قلاع الهكارية والزوزان إلى طاعة

صاحب الموصل

لما رأى زنكي أنه ملك قلاع الهكارية والزوزان وسأوه فلم يروا عنده ما ظنوه من حسن السيرة كما يفعله لؤلؤ وطلبوه في الإقطاع فأجابهم واستأذن الأشرف فلم يأذن له وجاء زنكي من عند الأشرف فحاصر العمادية ولم يبلغ منها غرضاً فأعادوا مراسلة لؤلؤ فاستأذن الأشرف وأعطاه قلعة جديدة ونصيين وولاية ما بين النهرين وأذن له في تملك القلاع وأرسل نوابه إليها ووفى لهم بما عاهدهم عليه وتبعهم بقية القلاع من أعمال الموصل فدخلوا كلهم في طاعة لؤلؤ وانتظم له ملكها والله تعالى أعلم.

مسير التتر في بلاد الموصل وإربل

ولما أوقع بجلال الدين خوارزم شاه على آمد سنة ثمان وعشرين وقتلوه ولم يبق لهم مدافع من الملوك ولا مانع انساحوا في البلاد طولاً وعرضاً ودخلوا ديار بكر واكتسحوا سواد آمد وأرزن وميافارقين وحاصروا وملكوها بالأمان ثم استباحوها وساروا إلى ماردين فعاثوا في نواحيها ثم دخلوا الجزيرة واكتسحوا أعمال نصيبين ثم مرواً إلى سنجار فنهبوها ودخلوا الخابور واستباحوه وسارت طائفة منهم إلى الموصل فاستباحوا أعمالها ثم أعمال إربل وأفحشوا فيها ويرز مظفر الدين في عساكره واستمد عساكر الموصل فبعث بها لؤلؤ إليه ثم عاد التتر عنهم إلى أذربيجان فعاد كل إلى بلاده والله أعلم.

وفاة مظفر الدين صاحب إربل وعودها إلى

الخلافة

ثم توفي مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك صاحب إربل سنة تسع وعشرين لأربع وأربعين سنة من ولايته عليها أيام صلاح الدين بعد أخيه يوسف ولم يكن له ولد فأوصى بإربل للخليفة المستنصر فبعث إليها نوابه واستولى عليها وصارت من أعماله والله تعالى أعلم.

بقية أخبار لؤلؤ صاحب الموصل

كان عسكر خوارزم شاه بعد مهلكه سنة ثمان وعشرين على آمد لحقوا بصاحب الروم كيخباد فاستنجدهم وهلك سنة أربع وثلاثين وستمئة وولي ابنه كنخسرو فقبض على أميرهم ومر الباقون وأتبعوا بأطراف البلاد وكان الصالح نجم الدين أيوب في حران وكيفا وآمد نائباً عن أبيه الملك العادل فرأى المصلحة في استضافتهم إليه فاستماهم واستخدمهم بعد أن أذن أبوه له في ذلك فلما مات أبوه سنة خمس انتفضوا ولحقوا بالموصل واشتمل عليهم لؤلؤ وسار معهم فحاصر الصالح بسنجار إلى الخوارزمية واستماهم فرجعوا إلى طاعته على أن يعطيهم حران والرها ينزلون بها فاعطاهما إياهم وملكوها ثم ملكوا نصيبين من أعمال لؤلؤ وبنو أيوب يومئذ متفرقون على كراسي الشام وبينهم من الأنفة والفرقة ما تلو عليك قصصه في دولتهم ثم استقر ملك سنجار للجواد يونس منهم وهو ابن مردود بن العادل أخذها من الصالح

وأخرجوا من خالفهم وأظهروا العصيان على لؤلؤ فسار إليهم سنة اثنتين وعشرين وحاصروهم وقطع الميرة عنهم وبعث عسكر إلى قلعة هزوران وقد كانوا تبعوا أهل العمادية في العصيان فحاصروهم حتى استأمروا وملكوها ثم جهز العساكر إلى العمادية مع نائبه أمين الدين وعاد إلى الموصل واستمر الحصار إلى ذي القعدة من السنة ثم راسلوا أمين الدين في الصلح على مال وأقطاع وعرض عن القلعة وأجاب لؤلؤ إلى ذلك وكان أمين الدين قد وليها قبل ذلك فكان له فيها بطانة مستمدون على عهده ومكاتبته وسخط كثير من أهل البلد فعل أولاد خواجه إبراهيم واستثارهم بالصلح دونهم فوجد أولئك البطانة سيلاً إلى التسلط عليهم ودسوا لأمين الدين أن يبيت البلد ويصالحهما فصالحهم فوثبوا بأولاد خواجه ونادوا بشعار لؤلؤ فصعد العسكر القلعة وملكوها أمين الدين وبعث بالخبر إلى لؤلؤ قبل أن يتعقد اليمين مع وفد أولاد خواجه والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى أعمال

الموصل وعوده منها

كان جلال الدين شكري بن خوارزم شاه قد غلبه التتر أول خروجهم سنة سبع عشرة وستمئة على خوارزم وخراسان وغزنة وفر امامهم إلى الهند ثم رجع عنها سنة اثنتين وعشرين واستولى على العراق ثم على أذربيجان وجاور الأشرف بن العادل في ولايته بخلاط والجزيرة وحدثت بينهما الفتنة وراسله أعيان الأشرف في الأغراء به مثل مظفر الدين صاحب إربل ومسعود صاحب آمد وأخيه المعظم صاحب دمشق واتفقوا على ذلك وسار جلال الدين إلى خلاط وسار مظفر الدين إلى الموصل وانتهى إلى الزاب ينتظر الخبر عن جلال الدين وسار المعظم صاحب دمشق إلى حمص وحماة وبعث لؤلؤ من الموصل يستنجد الأشرف فسار إلى حران ثم إلى ديبس فاكتسح أعمال ماردين وكان جلال الدين قد بلغه انتقاض نائبه بكرمان فاغذ السير إليه وترك خلاط بعد أن عاث في أعمالها وقت ذلك في أعضاء الآخرين وعظمت سطوة الأشرف بهم وبعث إليه أخوه المعظم وقد نازل حمص وحماة يتوعدة بمحاصرتهما ومحاصرة مظفر الدين الموصل فرجع عن ماردين ورجع الآخرون عن حمص وحماة والموصل ولحق كل ببلده والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة بني أيوب القائمين بالدولة العباسية وما كان لهم من الملك بمصر والشام واليمن والمغرب وأولية ذلك ومصانره

هذه الدولة من فروع دولة بني زنكي كما تراه وجدهم هو
أيوب بن شادي بن مروان بن علي بن عشرة بن الحسن بن علي
بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن هبة بن الحصين بن الحارث
بن سنان بن عمر بن مرة بن عوف الحميري الدوسي هكذا نسبه
بعض المؤرخين لدولتهم.

قال ابن الأثير: إنهم من الأكراد الروادية.

وقال ابن خلكان شادي أبوه من أعيان درين وكان
صاحبه بها بهروز فأصابه خصي من بعض أمرائه وفر حياء من
المثلة فلحق بدولة السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه وتعلق
بخدمة داية بنيه حتى إذا هلك الداية أقامه السلطان لابنه مقامه
فظهرت كفايته وعلا في الدولة عله فبعث شادي بن مروان
صاحبه لما بينهما من الألفة وأكد الصلحة فقدم عليه.

ثم ولي السلطان بهروز شحنة بغداد فصار إليها واستصحب
شادي معه ثم أقطعه السلطان قلعة تكريت فولى عليها شادي
فهلك وهو وال عليها وولى بهروز مكانه ابنه نجم الدين أيوب
وهو أكبر من أسد الدين شيركوه فلم يزل والياً عليها ولما زحف
عماد الدين زنكي صاحب الموصل لمظاهرة مسعود على الخليفة
المسترشد سنة عشرين وخمسائة وانهزم الأتابك وانكفأ راجعاً إلى
الموصل ومر بتكريت قام نجم الدين بعلوفته وأزواده وعقد له
الجسور على دجلة وسهل له عبورها ثم إن شيركوه أصاب دماً في
تكريت ولم يقده منه أخوه أيوب فعزله بهروز وأخرجهما من
تكريت فلحقا بعماد الدين بالموصل فأحسن إليهما وأقطعهما ثم
ملك بعلبك سنة اثنتين وثلاثين وجعله نائباً بها ولم يزل بها أيوب
ولما مات عماد الدين زنكي سنة إحدى وأربعين زحف صاحب
دمشق فخر الدين طغركين إلى بعلبك وحاصرها واستنزل أيوب
منها على ما شرط لنفسه من الإقطاع وأقام معه بدمشق وبقي
شيركوه مع نور الدين محمود بن زنكي وأقطع حصص والرجبة
لاستطلاع وكفايته وجعله مقدم عساكره ولما صرف نظره إلى
الاستيلاء على دمشق واعتزم على مداخلة أهلها كان ذلك على
يد شيركوه وبمكاتبة لأخيه أيوب وهو بدمشق فتم ذلك على
أيديهما ومحاولتهما وملكها سنة تسع وأربعين وخمسائة وكانت

نجم الدين أيوب عوضاً عن دمشق واستولى لؤلؤ على سنجار من
يده سنة سبع وثلاثين ثم حدثت بين صاحب حلب وبين
الخوارزمية فتنة ولجأوا يومئذ لصفيتهم خاتون بنت العادل فبعثت
العساكر إليهم مع المعظم بوران شاه بن صلاح الدين فهزموا
عساكره وأسروا ابن أخيه الأفضل ودخلوا حلب واستباحوها ثم
فتحوا منبج وعاثوا فيها وقطعوا الفرات من الرقة وهم يذهبون
وتبعهم عسكر دمشق وحمص فهزمهم وأثنخوا فيهم ولحقوا
ببلدهم حران فسارت إليهم عساكر حلب واستولوا على حران
ولحق الخوارزمية بغانة وبادر لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين
فملكها من أيديهم.

ثم توفيت صفية بنت العادل سنة أربعين في حلب وكانت
ولايتها بعد وفاة أبيها العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح
الدين فولى بعدها ابنه الناصر يوسف ابن العزيز في كفالة مولاه
حيال الخاتوني فلما كانت سنة ثمان وأربعين وستمائة وقع بين
عسكره وبين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل حرب انهزم فيها
لؤلؤ وملك الناصر نصيبين وقرقيسيا ولحق لؤلؤ لمجلب ثم زحف
هلاكو ملك التتر إلى بغداد سنة وملكها وقتل الخليفة المستعصم
واستلحم العلية من بغداد كما مر في أخبار الخلفاء ويأتي في أخبار
التتر وتخطى منها إلى أذربيجان فبادر لؤلؤ ووصل إليه بأذربيجان
وآتاه طاعته وعاد إلى الموصل والله تعالى يؤيد نصره من يشاء من
عباده.

وفاة صاحب الموصل وولاية ابنه الصالح

ثم توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين
وستمائة وكان يلقب الملك الرحيم وملك بعده على الموصل ابنه
الصالح إسماعيل وعلى سنجار ابنه المظفر علاء الدين علي وعلى
جزيرة ابن عمر ابنه المجاهد إسحاق وأبقاهم هلاكو عليها مدة ثم
أخذها منهم ولحقوا بمصر فزلوا على الملك الظاهر بيبرس كما
نذكر في أخباره وسار هلاكو إلى الشام فملكها وانقرضت دولة
الأتابك زنكي وبنيه ومواليه من الشام والجزيرة أجمع كان لم تكن
والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والبقاء لله
تعالى وحده والله تعالى أعلم.

الدين على بلييس والبلاد الشرقية وبعث شاور إلى الإفرنج يستجدهم ويعدهم فبادروا إلى إجابته وسار بهم ملكهم مري لخوفهم أن يملك أسد الدين مصر واستعانوا بجمع من الإفرنج جاؤوا لزيارة القدس.

وسار نور الدين إليهم ليشغلهم فلم يشنهم ذلك وطمعوا لغزهم ورزا أسد الدين إلى بلييس واجتمعت العساكر المصرية والإفرنج عليه وحاصروه ثلاثة أشهر وهو يغادهم القتال ويروحهم وامتنع عليهم وقصارهم منع الأخبار عنه واستنفر نور الدين ملوك الجزيرة وديار بكر وقصر حارم وسار الإفرنج لمداغته فهزمهم وأثنى فيهم وأسر صاحب أنطاكية وطرابلس وفتح حارم قريباً من حلب ثم سار إلى بانياس قريباً من دمشق ففتحها كما مر في أخبار نور الدين وبلغ الخبر بذلك إلى الإفرنج وهم محاصرون أسد الدين في بلييس فقت في عزائمهم وطوروا الخبر عنه وراسلوه في الصلح على أن يعود إلى الشام فصالحهم وعاد إلى الشام في ذي الحجة من السنة والله تعالى أعلم.

مسير أسد الدين ثانياً إلى مصر وملكه الإسكندرية ثم صلحه عليها وعوده

ولما رجع أسد الدين إلى الشام لم يزل في نفسه ما كان من غدر شاور وبقي يشحن لغزوهم إلى سنة اثنين وستين فجمع العساكر وبعث معه نور الدين جماعة من الأمراء وأكثف له العسكر خوفاً على حامية الإسلام وسار أسد الدين إلى مصر وانتهى إلى أطفح وعبر منها إلى العدو الغربية ونزل الجيزة وأقام نحواً من خمسين يوماً وبعث شاور إلى الإفرنج يستمدهم على العادة وعلى ما لهم من التخوف من استفحال ملك نور الدين وشيركوه فسارعوا إلى مصر وعبروا مع عساكره إلى الجيزة وقد ارتحل عنها أسد الدين إلى الصعيد وانتهى منها إلى وأتبعوه وأدركوه بها متصفين اثنين وستين.

ولما رأى كثرة عددهم واستعدادهم مع تحاذل أصحابه فاستشارهم فأشار بعضهم بعبور النيل إلى العدو الشرقية والعود إلى الشام وأبى زعمائهم إلا الاستماتة سيما مع خشية العتب من نور الدين وتقدم صلاح الدين بذلك وأدركهم القوم على تعبئة وجعل صلاح الدين في القلب وأوصاه أن يتدفع أمامهم ووقف هو في الميمنة مع من وقف باستماتته وحمل القوم على صلاح الدين فسار بين أيديهم على تعبئته وخالفهم أسد الدين إلى خلفهم فوضع السيف فيهم وأثنى قتلاً وأسرأ ورجعوا عن صلاح الدين

دولة العلويين بمصر قد أخلقت جدتها وذهب استفحالها واستبد وزراؤها على خلفائها فلم يكن الخلفاء يملكون معهم وطمع الإفرنج في سواحلهم وأمصارهم لما نالهم من الهرم والوهن فمالوا عليهم وانتزعوا البلاد من أيديهم وكانوا يردون عليهم كرسي خلافتهم بالقاهرة ووضعوا عليهم الجزية وهم يتجرعون المصائب من ذلك ويتحملونه مع بقاء أمرهم كاد الأتابك زنكي وقومه السلجوقية من قبله أن يحو دعوتهم ويذهبوا بدولتهم وأقاموا من ذلك على مضض وقلق وجاء الله بدعوة العاضد آخرهم.

وتغلب عليه بعد الصالح بن رزيك شاور السعدي وقتل رزيك بن صالح سنة ثمان وخسين واستبد على العاضد ثم نازعه الضرغام لثلاثة أشهر من ولايته وغلبه وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام ولحق بنور الدين صريحاً سنة تسع وخسين وشرط له على نفسه ثلث الجباية بأعمال مصر على أن يبعث معه عسكراً يقيمون بها فأجاب به ذلك وبعث أسد الدين شيركوه في العساكر فقتل الضرغام ورد شاور إلى رتبته وآل أمرهم إلى عمو الدولة العلوية وانتظام مصر وأعمالها في ملكة ابن أيوب بدعوة نور الدين محمود بن زنكي ويخطب للخلفاء العباسيين لما هلك نور الدين محمود واستبد صلاح الدين بأمره في مصر ثم غلب على بني نور الدين محمود وملك الشام من أيديهم وكثر عيث ابن عهم مودود واستفحل ملكه وعظمت دولة بنيته من بعده إلى أن انقرضوا والبقاء لله وحده.

مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر وإعادة شاور إلى وزارته

لما اعتزم نور الدين محمود صاحب الشام على صريح شاور وإرسال العساكر معه واختار لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي وكان من أكبر أمرائه فاستدعاه من حصص وكان أميراً عليها وهي أقطاعه وجمع له العساكر وأزاح عللهم وفصل بهم شيركوه من دمشق في جمادى سنة تسع وخسين وسار نور الدين بالعساكر إلى بلاد الإفرنج لباخذ بمجرتهم عن اعتراضه أو صده لما كان بينهم وبين صاحب مصر من الألفة والتظاهر ولما وصل أسد الدين بلييس لقيه هنالك ناصر الدين أخو الضرغام وقتلته فانهزم وعاد إلى القاهرة مهزوماً وخرج الضرغام منسلخ جمادى الأخيرة فقتل عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها وقتل أخوه وأعاد شاور إلى وزارته وتكن فيها وصرف أسد الدين إلى بلده وأعرض عما كان بينهما فطالبه أسد الدين بالوفاء فلم يجب إليه فتغلب أسد

فيضبط الحصار فانتقلوا وأخذهم الحريق وامتدت الأيدي وانتهت أمولهم واتصل الحريق فيها شهرين وبعث العاضد إلى نور الدين يستغيث به فأجاب وأخذ في تجهيز العساكر فاشتد الحصار على القاهرة وضاق الأمر بشاور فبعث إلى ملك الإفرنج يذكره بقدومه وأن هواه معه دون العاضد ونور الدين ويسأل في الصلح على المال لنفور المسلمين مما سوى ذلك فأجابه ملك الإفرنج على ألف ألف دينار لما رأى من امتناع القاهرة وبعث إليهم شاور بمائة ألف منها وسألهم في الإفرنج فارتحلوا.

وشرع في جمع المال فعجز الناس عنه ورسّل العاضد خلال ذلك تردد إلى نور الدين في أن يكون أسد الدين وعساكره حامية عنده وعطاؤهم عليه وثلاث الجباية خالصة لنور الدين فاستدعى نور الدين أسد الدين من حصص وأعطاه مائتي ألف دينار وجهزه بما يحتاجه من الثياب والدواب والأسلحة وحكّمه في العساكر والخزائن ونقد العسكر عشرين ديناراً لكل فارس وبعث معه من أمرائه مولاة عز الدين خردك وعز الدين قليج وشرف الدين مرعش وعز الدولة الباروقي وقطب الدين نبال بن حسان المنبجي وأمد صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عمه أسد الدين فتعلل عليه واعتزم عليه فأجاب وسار أسد الدين متتصفاً ربيع فلما قارب مصر رجع الإفرنج إلى بلادهم فسر بذلك نور الدين وأقام عليه البشائر في الشام.

ووصل أسد الدين القاهرة ودخلها متتصفاً جمادى الأخيرة ونزل بظاهرها ولقي العاضد وخلع عليه وأجرى عليه وعلى عساكره الجرايات والأتاوات وأقام أسد الدين ينتظر شرطهم وشاور يماطله ويعلله بالمواعيد ثم فاض أصحابه في القبض على أسد الدين واستخدام جنده فمنعه ابنه الكامل من ذلك فأقصر ثم أشرف أصحاب أسد الدين على اليأس من شاور وتفاوض أمراؤه في ذلك فاتفق صلاح الدين مع ابن أخيه وعز الدين خردك على قتل شاور وأسد الدين ينههم وغدا شاور يوماً على أسد الدين في خيامه فالتقا قد ركب لزيارة تربة الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه فلقاه صلاح الدين وخردك وركبوا معه لقصد أسد الدين فقبضوا عليه في طريقهم وطيروا بالخبر إلى أسد الدين وبعث العاضد لورقه يمرضهم على قتله فبعثوا إليه برأسه وأمر العاضد بنهب دوره فنهبها العامة وجاء أسد الدين لقصر العاضد فخلع عليه الوزارة ولقيه الملك المنصور أمير الجيوش وخرج له من القصر منشور من إنشاء القاضي الفاضل البيهقي وعليه مكتوب بخط الخليفة ما نصه:

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله فتقلد ما رآك الله وأمر

يظنون أنهم ساروا منهزمين فوجدوا أسد الدين قد استولى على خلفهم واستباحه فانهزموا إلى مصر.

وسار أسد الدين إلى الإسكندرية فتلّقا أهلها بالطاعة واستخلف بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فاستولى عليه وفرق العمال على جباية أمواله ووصلت عساكر مصر والإفرنج إلى القاهرة وأزاحوا عنهم وساروا إلى الإسكندرية فحاصروا بها صلاح الدين وجهده الحصار وسار أسد الدين من الصعيد لإمداده وقد انتفض عليه طائفة من التركمان من عسكره وبينما هو في ذلك جاءت رسل القوم في الصلح على أن يرد عليهم الإسكندرية ويعطوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من أموال الصعيد فأجابهم إلى ذلك على أن يرجع الإفرنج إلى بلادهم ولا يملكو من البلاد قرية فاتفق ذلك بينهم متتصفاً شوال.

وعاد أسد الدين وأصحابه إلى الشام متتصفاً ذي القعدة ثم شرط الإفرنج على شاور أن ينزلوا بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بأيديهم ليتمكنوا من مدافعة نور الدين ففرضوا عليه مائة ألف دينار في كل سنة جزية فقبل ذلك وعاد الإفرنج إلى بلادهم بسواحل الشام وتركوا بمصر جماعة من زعمائهم وبعث الكامل أبا شجاع شاور إلى نور الدين بطاعته وأن ييسر بمصر دعوته وقرر على نفسه مالا يحمل كل سنة إلى نور الدين فأجابه إلى ذلك وبقي شعبة له بمصر والله تعالى أعلم.

استيلاء أسد الدين على مصر ومقتل شاور

ولما ضرب الإفرنج الجزية على القاهرة ومصر وأنزلوا بها الشحنة وملكو أبوابها تمكنوا من البلاد وأقاموا فيها جماعة من زعمائهم فتحكموا واطلعوا على عورات الدولة فطمعوا فيما وراء ذلك من الاستيلاء وراسلوا بذلك ملكهم بالشام واسمه مري ولم يكن ظهر بالشام من الإفرنج مثله فاستدعوه لذلك وأغروه فلم يجبههم واستحثه أصحابه للملكها وما زالوا يقتلون له قبي الذرّة والغارب ويوهونه القوة بتملكها على نور الدين ويريههم هو أن ذلك يؤول إلى خروج أصحابها عنها لنور الدين فبقي بها إلى أن غلبوا عليه فرجع إلى رأيهم وتجهز وبلغ الخبر نور الدين فجمع عساكره واستنفر من في ثغوره وسار الإفرنج إلى مصر مفتتح أربع وستين فملكو بليس عنوة في صفر واستباحوها وكتبهم جماعة من أعداء شاور فأنسوا مكاتبتهم وساروا إلى مصر ونازلوا القاهرة. وأمر شاور بإحراق مدينة مصر ليتنقل أهلها إلى القاهرة

الاستبداد ما يتوهم في غيره من أصحابه وأنهم في سعة من رأيهم مع ولايته فاستدعاه وخلع عليه ولقبه الملك الناصر.

واختلف عليه أصحابه فلم يطيعوه وكان عيسى الهكاري شيعه له واستمالهم إليه إلا الباروقي فإنه امتنع وعاد إلى نور الدين بالشام وثبتت قدم صلاح الدين في مصر وكان نائباً عن نور الدين ونور الدين يكتبه بالأمير الأسفهاش ويجمعه في الخطاب مع كافة الأمراء بالديار المصرية وما زال صلاح الدين يحسن المباشرة ويستميل الناس ويفيض العطاء حتى غلب على أفئدة الناس وضعف أمر العاضد ثم أرسل يطلب أخوته وأهله من نور الدين فبعث بهم إليه من الشام واستقامت أموره واطردت سعاداته والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة السودان بمصر

كان بقصر العاضد خصي حاكم على أهل القصر يدعى مؤتمن الخلافة فلما غص أهل الدولة بوزارة صلاح الدين داخل جماعة منهم وكاتب الإفرنج يستدعيهم ليرز صلاح الدين لدافعهم فيثوروا بمخلفه ثم يتبعونه وقد ناشب الإفرنج فيأتون عليه وبعثوا الكتاب مع ذي طمرين حمله في نعاله فاعترضه بعض التركمان واستلبه وأروا النعال جديدة فاسترأوا بها فجاؤوا به إلى صلاح الدين فقرأ الكتاب ودخل على كاتبه فأخبره بحقيقة الأمر فطوى ذلك وانتظر مؤتمن الخلافة حتى خرج إلى بعض قراره متتراً وبعث من جاء برأسه ومنع الخصيان بالقصر عن ولاية أموره وقدم عليهم بهاء الدين قراقوش خصياً أبيض من خدمه وجعل إليه جميع الأمور بالقصر وامتنع بعض السودان بمصر لمؤتمن الخلافة واجتمعوا لحرب صلاح الدين وبلغوا خمسة آلاف وناجزوا عسكره من القصر في ذي القعدة من السنة وبعث إلى محلتهم بالمنصورة من أخرجها على أهلهم وأولادهم فلما سمعوا بذلك انهزموا وأخذهم السيف في السكك فاستأمنوا وعبروا إلى الجيزة فسار إليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين في طائفة من العسكر فاستلحمهم وأبادهم والله أعلم.

منازلة الإفرنج دمياط وفتح إيلة

ولما استولى صلاح الدين على دولة مصر وقد كان الإفرنج أسفوا على ما فاتهم من صده وصد عنه عن مصر وتواقعوا المهلاك من استطالة نور الدين عليهم بملك مصر فبعثوا الرهبان

المؤمنين أهلاً لحمله وعليك الحجة من الله فيما أوضح لك من مرشد سبله فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعترت خدمتك إلى بنة النبوة واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً.

ثم ركب أسد الدين إلى دار الوزارة التي كان فيها شاور وجلس مجلس الأمر والنهي وولى على الأعمال وأقطع البلاد للعساكر وأمن أهل مصر بالرجوع إلى بلادهم ورثها وعمارتها وكاتب نور الدين بالواقع مفصلاً وانتصب للأمور ثم دخل للعاضد وخطب الأستاذ جوهر الخصي عنه وهو يومئذ أكبر الأساتيد فقال: يقول لك مولانا نؤثر مقامك عندنا من أول قدمك وأنت تعلم الواقع من ذلك وقد يقنا أن الله عز وجل ادخرك لنا نصرة على أعدائنا. فحلف له أسد الدين على النصيحة وإظهار الدولة فقال الأستاذ عن العاضد: الأمر بيدك هذا وأكثر. ثم جدت الخلع واستخلص أسد الدين الجليس عبد القوي وكان قاضي القضاة وداعي الدعاة واستحسنه واختصه وأما الكامل بن شاور فدخل القصر مع أخوته معتمدين به وكان آخر العهد به وأسف أسد الدين عليه لما كان منه في رد أبيه وذهب كل بما كسب والله تعالى أعلم.

وفاة أسد الدين وولاية ابن أخيه صلاح

الدين

ثم توفي أسد الدين شيركوه آخر جمادي الأخيرة من سنة أربع وستين لشهرين من وزارته ولما احتضر أوصى حواشيه بهاء الدين قراقوش فقال له: «الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا وصار أهلها راضين عنا فلا تفارقوا سور القاهرة ولا تفرطوا في الأسطول».

ولما توفي تشوف الأمراء الذين معه إلى رتبة الوزارة مكانه مثل عز الدولة الباروقي وشرف الدين المشطوب الهكاري وقطب الدين نبال بن حسان المنجي وشهاب الدين الحارمي وهو خال صلاح الدين وجمع كل لغالبه صاحبه وكان أهل القصر وخواص الدولة قد تشاوروا فأشار جوهر بإخلاء رتبة الوزارة وإصطفاء ثلاثة آلاف من عسكر الغز يقودهم قراقوش ويعطي لهم الشرقية إقطاعاً ينزلون بها حشداً دون الإفرنج من يستبد على الخليفة بل يقيم واسطة بينه وبين الناس على العادة وأشار آخرون بإقامة صلاح الدين مقام عمه والناس تبع له. ومال القاضي لذلك حياء من صلاح الدين وجنوحاً إلى صغر سنه وأنه لا يتوهم فيه من

ذلك ولم تسعه مخالفته وأحجم عن القيام بذلك ورد على صلاح الدين شخص من علماء الأعاجم يعرف بالخشاني ويلقب بالأمير العالم فلما رأيهم محججين عن ذلك صعد المنبر يوم الجمعة قبل الخطيب ودعى للمستضيء فلما كانت الجمعة القابلة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد والخطبة للمستضيء فتراسلوا بذلك ثاني جمعة من الحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكان المستضيء قد ولي الخلافة بعد أبيه المستنجد في ربيع من السنة قبلها ولما خطب له بمصر كان العاضد مريضاً فلم يشعروه بذلك وتوفي يوم عاشوراء من السنة ولما خطب له على منابر مصر جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره ووكّل به بهاء الدين قراقوش وكان فيه من الذخائر ما يعز وجوده مثل حبل الباقوت الذي وزن كل حصاة منه سبعة عشر مثقالاً ومصاف الزمرد الذي طوله أربعة أصابع طولاً في عرض ومثل طبل القولنج الذي يضربه ضاربه فيعافى بذلك من داء القولنج وكسره لما وجدوا ذلك منه فلما ذكرت لهم منفعتهم ندموا عليه ووجدوا من الكتب النفيسة ما لا يعد.

ونقل أهل العاضد إلى بعض حجر القصر ووكّل بهم وإخراج الأماء والعبيد وقسمهم بين البيع والهبة والعنق وكان العاضد لما اشتد مرضه استدعاه فلم يجب داعيه وظنها خديعة فلما توفي ندم وكان يصفه بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه والانياد ولما وصل الخبر إلى بغداد بالخطبة للمستضيء ضربت الباشائر وزينت بغداد أياماً وبعث الخلع لنور الدين وصلاح الدين مع صندل الخادم من خواص المفتي فوصل إلى نور الدين وبعث بخدمة صلاح الدين وخلع الخطباء بمصر والأعلام السود واللّه تعالى أعلم.

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين

قد كان تقدم لنا ذكر هذه الوحشة في أخبار نور الدين مستوفاة وأن صلاح الدين غزا بلاد الإفرنج سنة سبع وستين وحاصر حصن الشوبك على مرحلة من الكرك حتى استأنوا إليه فبلغ ذلك نور الدين فاعتزم على قصد بلاد الإفرنج من ناحية أخرى فارتاب صلاح الدين في أمره وفي لقاء نور الدين وإظهار طاعته وما ينشأ عن ذلك من تحكمه فيه فأسرع العود إلى مصر واعتذر لنور الدين بشيء بلغه عن شيعة العلويين ليعتزله نور الدين وأخذ في الاستعداد لعزله وبلغ ذلك صلاح الدين وأصحابه

والأسفة إلى بلاد القرانية يدعونهم إلى المدافعة عن بيت المقدس وكاتبوا الإفرنج بصقلية والأندلس يستجدونهم فنفروا واستعدوا لإمدادهم واجتمع الذين بسواحل الشام في فاتح خمس وستين وثلاثمائة وركبوا في ألف من الأساطيل وأرسلوا لدمياط ليملكوها ويقربوا من مصر وكان صلاح الدين قد ولاها شمس الخواص منكبرس فبعث إليه بالخبر فجهز إليها بهاء الدين قراقوش وأمراء الغز في البر متتابعين وواصل المراكب بالأسلحة والإتاوات وخطب نور الدين يستمده لدمياط لأنه لا يقدر على المسير إليها خشية من أهل الدولة بمصر فبعث نور الدين إليها العساكر أرسالاً ثم سار بنفسه وخالف الإفرنج إلى بلادهم بسواحل الشام فاستباحها وخرّبها.

وبلغهم الخبر بذلك على دمياط وقد امتنعت عليهم ووقع فيهم الموتان فأقلعوا عنها خمسين يوماً من حصارها ورجع أهل سواحل الشام لبلادهم فوجدوها خراباً وكان جملة ما بعثه نور الدين في المدد لصلاح الدين في شأن دمياط هذه ألف ألف دينار سوى الثياب والأسلحة وغيرها ثم أرسل صلاح الدين إلى نور الدين في منتصف السنة يستدعي منه أباه نجم الدين أيوب فجهزه إليه مع عسكر واجتمع معهم من التجار جماعة وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الإفرنج الذين بالكرك فسار إلى الكرك وحاصرهم بها.

وجمع الإفرنج الآخرون فصمد للقائهم فحاموا عنه وسار في وسط بلادهم وسار إلى عشيرا ووصل نجم الدين أيوب إلى مصر وركب العاضد لتلقيه ثم سار صلاح الدين سنة ست وستين لغزو بلاد الإفرنج وأغار على أعمال عسقلان والرملة ونهب ربط غزة ولقي ملك الإفرنج فهزمه وعاد إلى مصر ثم أنشأ مراكب وحملها مفصلة على الجمال إلى أيلة فآلفها وألقاها في البحر وحاصر أيلة برّاً وبحراً وفتحها عنوة في شهر ربيع من السنة واستباحها وعاد إلى مصر فعزل قضاة الشيعة وأقام قاضياً شافعيّاً فيها وولى في جميع البلاد كذلك ثم بعث أخاه شمس الدولة توران شاه إلى الصعيد فأغار على العرب وكانوا قد عاثوا وأفسدوا فكفهم عن ذلك واللّه تعالى أعلم.

الخطبة العباسية بمصر

ثم كتب نور الدين بإقامة الخطبة للمستضيء العباسي وترك الخطبة للعاضد بمصر فاعتذر عن ذلك بميل أهل مصر للعلويين وفي باطن الأمر خشي من نور الدين فلم يقبل نور الدين عذره في

ثم استولى على قابس من ورائها وعلى توزر ونقطة وبلاد ونفزاوة من أفريقية وجمع أموالاً جمة وجعل ذخيرته بمدينة قابس وخربت تلك البلاد أثناء ذلك باستيلاء العرب عليها ولم يكن لهم قدرة على منعهم ثم طمع في الاستيلاء على جميع أفريقية ووصل يده ببجاية بن غانية اللمتوني الناصر بتلك الناحية بدعوة لمتونة من بقية الأمراء في دولتهم فكانت لهما بتلك الناحية آثار مذكورة في أخبار دولة الموحدين إلى أن غلبه ابن غانية على ما ملك من تلك البلاد وقتله كما هو مذكور في أخبارهم والله أعلم.

استيلاء نور الدين توران شاه بن أيوب على بلاد النوبة ثم على بلاد اليمن

كان صلاح الدين وقومه على كثرة ارتيابهم من نور الدين وظنهم به الظنون يحاولون ملك القاصية عن مصر ليمتنعوا بها إن طردهم منه حادث أو عزم على المسير إليهم في مصر فصرفوا عزمهم في ذلك إلى بلاد النوبة أو بلاد اليمن وتجهز شمس الدولة توران شاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الأكبر إلى ملك النوبة وسار إليها في العساكر سنة ثمان وستين وحاصر قلعة من ثغورهم ففتحها واختبرها فلم يجد فيها خراجاً ولا في البلاد بأسرها جباية وأقواتهم الذرة وهم في شظف من العيش ومعاناة للفتن فاقصر على ما فتحه من ثغورهم وعاد في غنيته بالعبيد والجواري فلما وصل إلى مصر أقام بها قليلاً وبعثه صلاح الدين إلى اليمن وقد كان غلب عليه علي بن مهدي الخارجي سنة أربع وخمسين وصار أمره إلى ابنه عبد النبي وكرسي ملكه زيد منها وفي عدد ياسر بن بلال بقية ملوك بني الربيع.

وكان عمارة اليمني شاعر العبيدي وصاحب بني رزيك من أمرائهم وكان أصله من اليمن وكان في خدمة شمس الدولة ويغريه به فسار إليه شمس الدولة بعد أن تجهز وأزاح العلل واستعد للمال والعيال وسار من مصر منتصف سنة تسع وستين ومربكة وانتهى إلى زيد وبها ملك اليمن عبد النبي بن علي بن مهدي فبرز إليه وقاتله فانهزم والحجر بالبلد وزحفت عساكر شمس الدولة فتسمنوا أسوارها وملكوها عنوة واستباحوها وأسروا عبد النبي وزوجته وولى شمس الدولة على زيد مبارك بن كامل بن منقذ من أمراء شيزر كان في جملة ودفع إليه عبد النبي ليستخلص منه الأموال فاستخرج من قرنته دفائن كانت فيها أموال جلييلة ولدتهم زوجته الحرة على ودائع استولوا منها على أموال جمة.

فتفاوضوا في مدافعتهم ونهاهم أبوه نجم الدين أيوب وأشار بمكاتبتهم والتلطف له بخافة أن يبلغه غير ذلك فيقوي عزمه على العمل به ففعل ذلك صلاح الدين فسالمه نور الدين وعادت المخالطة بينهما كما كانت واتفقا على اجتماعهما لحصار الكرك فسار صلاح الدين لذلك سنة ثمان وستين وخرج نور الدين من دمشق بعد أن تجهز فلما انتهى إلى الرقيم على مرحلتين من الكرك وبلغ صلاح الدين خبره ارتابه ثانياً وجاءه الخبر بمرض نجم الدين أبيه بمصر فكرر رجاءاً وأرسل إلى نور الدين النقيع عيسى الهكاري بما وقع من حديث المرض بأبيه وأنه رجع من أجله فأظهر نور الدين القبول وعاد إلى دمشق والله تعالى أعلم.

وفاة نجم الدين أيوب

كان نجم الدين أيوب بعد انصراف ابنه صلاح الدين إلى مصر أقام بدمشق عند نور الدين ثم بعث عنه ابنه صلاح الدين عندما استوثق له ملك مصر فجهزه نور الدين سنة خمس وستين في عسكره وسار لحصار الكرك ليشغل الإفرنج عن اعتراضه كما مر ذكره ووصل إلى مصر وخرج العاضد لتلقيه وأقام مكرماً ثم سار صلاح الدين إلى الكرك سنة ثمان وستين المرة الثانية في مواعدة نور الدين وأقام نجم الدين بمصر وركب يوماً في مركب وسار ظاهر البلد والفرس في غلواء مراحه وملاعبة ظله فسقط عنه وحمل وقيذاً إلى بيته فهلك لأيام منها آخر ذي الحجة من السنة وكان خيراً جواداً حسناً للعلماء والفقراء وقد تقدم ذكر أوليته والله ولي التوفيق.

استيلاء قراقوش على طرابلس الغرب

كان قراقوش من موالى تقي الدين عمر بن شاه بن نجم الدين أيوب وهو ابن أخي صلاح الدين فغضب مولاه في بعض النزعات وذهب مغاضباً إلى المغرب ولحق بجبل نفوسة من ضواحي طرابلس الغرب وأقام هنالك دعوة مواليه وكان في بسائط تلك الجبال مسعود بن زمام المعروف بالبلط في أحيائه من رياح من عرب هلال بن عامر وكان منحرفاً عن طاعة عبد المؤمن شيخ الموحدين وخليفة المهدي فيهم فانتبذ مسعود بقومه عن المغرب وأفريقية إلى تلك القاصية فدعاه قراقوش إلى إظهار دعوة مواليه بني أيوب فأجابته ونزل معه بأحيائه على طرابلس فحاصرها قراقوش وافتتحها ونزل بأهله وعياله في قصرها.

شاء الله تعالى والله أعلم.

وصول الإفرنج من صقلية إلى الإسكندرية

لما وصلت رسل هؤلاء الشيعة إلى الإفرنج بصقلية تجهزوا وبعثوا مراكبهم مائتي أسطول للمقاتلة فيها خمسون ألف رجل وألفان وخمسمائة فارس وثلاثون مركباً للخيول وستة مراكب لآلة الحرب وأربعون للأزواد وتقدم عليهم ابن عم الملك صاحب صقلية ووصلوا إلى ساحل الإسكندرية سنة سبعين وركب أهل البلد الأسوار وقاتلهم الإفرنج ونصبوا الآلات عليها وطار الخبر إلى صلاح الدين بمصر ووصلت الأمراء إلى الإسكندرية من كل جانب من نواحيها وخرجوا في اليوم الثالث فقاتلوا الإفرنج فظفروا عليهم ثم جاءهم البشير آخر النهار بمجيء صلاح الدين فاحتاجوا للحرب وخرجوا عند اختلاط الظلام فكبسوا الإفرنج في خيامهم بالسواحل وتبادروا إلى ركوب البحر فتقسموا بين القتل والغرق ولم ينج إلا القليل واعتصم منهم نحو من ثلثمائة برأس رابية هنالك إلى أن أصبحوا فقتل بعضهم وأسر الباقون وأقلعوا بأساطيلهم راجعين والله تعالى أعلم.

واقعة كنز الدولة بالصعيد

كان أمير العرب بنواحي أسوان يلقب كنز الدولة وكان شيعة للعلوية بمصر وطالت أيامه واشتهر ولما ملك صلاح الدين قسم الصعيد أقطاعاً بين أمرائه وكان أخو أبي الهيجاء السمين من أمرائه وأقطاعه في نواحيهم فعصى كنز الدولة سنة سبعين واجتمع إليه العرب والسودان وهجم على أخي أبي الهيجاء السمين في أقطاعه فقتله وكان أبو الهيجاء من أكبر الأمراء فبعثه صلاح الدين لقتال الكنز وبعث معه جماعة من الأمراء والتف له الجند فساروا إلى أسوان ومروا بالصعيد، فحاصروا بها جماعة وظفروا بهم فاستلحموهم ثم ساروا إلى الكثر فقاتلوه وهزموه وقتل واستلحم جميع أصحابه وأمنت بلاد أسوان والصعيد والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء صلاح الدين على قواعد الشام

بعد وفاة العادل نور الدين

كان صلاح الدين كما قدمناه قائماً في مصر بطاعة العادل

وأقيمت الخطبة العباسية في زيد وسار شمس الدولة توران شاه إلى عدن وبها ياسر بن بلال كان أبوه بلال بن جرير مستبداً بها على مواليه بني الزريع وورثها عنه ابنه ياسر فسار ياسر للقائه فهزمه شمس الدولة وسارت عساكره إلى البلد فملكوها وجاؤوا بياسر أسيراً إلى شمس الدولة فدخل عدن وعبد النبي معه في الاعتقال واستولى على نواحيها وعاد إلى زيد ثم سار إلى حصون الجبال فملك تعز وهي من أحصن القلاع وحصن التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون وولى على عدن عز الدولة عثمان بن النجيلي واتخذ زيد سبياً للملك ثم استوخها وسار في الجبال ومعه الأطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء للسكنى فوقح اختياريهم على تعز فاخذت هنالك مدينةً واتخذها كرسياً للملك وبقيت لبنينه ومواليهم بني رسول كما نذكره في أخبارهم والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة عمارة ومقتله

كان جماعة من شيعة العلويين بمصر منهم عمارة بن أبي الحسن اليميني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويدس وابن كامل وداعي الدعاة وجماعة من الجند وحاشية القصر اتفقوا على استدعاء الإفرنج من صقلية وسواحل الشام وبذلوا لهم الأموال على أن يقصدوا مصر، فإن خرج صلاح الدين للقائهم بالعساكر ثار هؤلاء بالقاهرة وأعادوا الدولة العبيدية وإلا فلا بد له إن أقام من بعث عساكره لمداغة الإفرنج فينفردون به ويقبضون عليه وواطهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وتحينوا لذلك غيبة أخيه توران شاه باليمن وثقوا بأنفسهم وصدقوا توهماتهم ورتبوا وظائف الدولة وخططها وتنازع في الوزارة بنو رزيك وبنو شاور وكان على بن نجى الواعظ من داخلهم في ذلك فاطلع صلاح الدين هو في الباطن إليهم ونمي الخبر إلى صلاح الدين من عيونه ببلاد الإفرنج فوضع على رسول الله عنده عيوناً جاؤه بحلية خبره فقبض حيثئذ عليهم وقيل: إن علي بن نجى أعمى خبرهم إلى القاضي فاوصله إلى صلاح الدين ولما قبض عليهم صلاح الدين أمر بصلبهم ومر عمارة ببيت القاضي وطلب لقاءه فلم يسعفه وأنشد البيت المشهور

عبد الرحيم قد احتجب أن الخلاص هو العجب

ثم صلبوا جميعاً ونودي في شيعة العلويين بالخروج من ديار مصر إلى الصعيد واحتيط على سلالة العاضد بالقصر وجاء الإفرنج بعد ذلك من صقلية إلى الإسكندرية كما يأتي خبره إن

حمص ووصل هو إليها عاشر رجب فحاصر قلعتها وملكها آخر شعبان من السنة ثم سار إلى بعلبك وبها بمن الخادم من أيام نور الدين فحاصره حتى استأمن إليه وملكها ربيع رمضان من السنة وصار بيده من الشام دمشق وحماة وبعلبك ولما استولى صلاح الدين على هذه البلاد من أعمال الملك الصالح كتب الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستجده على صلاح الدين فأجابه بعساكره مع أخيه عز الدين مسعود وصاحب جيشه عز الدين زلقندار وسارت معهم عساكر حلب وساروا جميعاً لمحاربة صلاح الدين وبعث صلاح الدين إلى سيف الدين غازي أن يسلم لهم حمص وحماة ويبقى بدمشق نائباً عن الصالح فأبى إلا رد جميعها فسار صلاح الدين إلى العساكر ولقيهم آخر رمضان بنواحي حماة فهزمهم وغنم ما معهم وأتبعهم إلى حلب وحاصرها وقطع خطبة الصالح ثم صالحوه على ما بيده من الشام فأجابهم ورحل عن حلب لعشرين من شوال وعاد إلى حماة وكان فخر الدين مسعود بن الزعفراني من الأمراء التورية وكانت ماردن من أعماله مع حمص وحماة وسلمية وتل خالد والرها فلما ملك أقطاعه هذه اتصل به فلم ير نفسه عنده كما ظن ففارقه فلما عاد صلاح الدين من حصار حلب إلى حماة سار إلى بعلبك واستأمن إليه وإليها فملكها وعاد إلى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود وأقطع حمص ناصر الدولة بن شريكه وأقطع بعلبك شمس الدين ابن المقدم ودمشق إلى عماد والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

واقعة صلاح الدين مع الملك الصالح

وصاحب الموصل وما ملك من الشام بعد

انهزامهما

ثم سار سيف الدين غازي صاحب الموصل في سنة إحدى وسبعين بعد انهزام أخيه وعساكره واستقدم صاحب كيفا وصاحب ماردن وسار في ستة آلاف فارس وانتهى إلى نصيبين في ربيع من السنة فشتى بها حتى ضجرت العساكر من طول المقام وسار إلى حلب فخرجت إليه عساكر الملك الصالح مع كمستكين الخادم وسار صلاح الدين من دمشق للقائهم فلقيهم قبل السلطان فهزمهم وأتبعهم إلى حلب وعبر سيف الدين الفرات منهزماً إلى الموصل وترك أخاه عز الدين بجلب واستولى صلاح الدين على خلفهم وسار إلى مراغة فملكها وولى عليها ثم إلى منبج وبها قطب الدين نبال بن حسان المنبجي وكان حقاً عليه لقب آتار في عداوته

نور الدين محمود بن زنكي ولما توفي سنة تسع وستين ونصب ابنه الصالح إسماعيل في كفالة شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم وبعث إليه صلاح الدين بطاعته ونقم عليهم أنهم لم يردوا الأمر إليه وسار غازي صاحب الموصل بن قطب الدين مودود بن زنكي إلى بلاد نور الدين التي بالجزيرة وهي نصيبين والخابور وحران والرها والركة فملكها ونقم عليه صلاح الدين أنهم لم يجربوه حتى يدفعه عن بلادهم وكان الخادم سعد الدين كمستكين الذي ولاه نور الدين قلعة الموصل وأمر سيف الدين غازي بمطالعة بأمره قد لحق عند وفاة نور الدين بجلب وأقام بها عند شمس الدين علي ابن الداية المستبد بها بعد نور الدين فبعثه ابن الداية إلى دمشق في عسكر ليجيء بالملك الصالح إلى حلب للدفاع سيف الدين غازي فنكروه أولاً وطردوه ثم رجعوا إلى هذا الرأي وبعثوا عنه فسار مع الملك الصالح إلى حلب ولحين دخوله قبض على ابن الداية وعلى مقدمي حلب واستبد بكفالة الصالح وخاف الأمراء بدمشق وبعثوا إلى سيف الدين غازي ليملكوه فظنهم مكيدة من ابن عمه وامتنع عليهم وصالح ابن عمه على ما أخذ من البلاد فبعث أمراء دمشق إلى صلاح الدين وتولى كبر ذلك ابن المقدم فبادر إلى الشام وملك بصرى ثم سار إلى دمشق فدخلها في منسليخ ربيع سنة سبعين وخمسمائة ونزل دار أبيه المعروفة بالعقفي وبعث القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري إلى ربحان الخادم بالقلعة أنه على طاعة الملك الصالح وفي خدمته وما جاء إلا لصرته فسلم إليه القلعة وملكها واستخلف على دمشق أخاه سيف الإسلام طغركين وسار إلى حمص وبها وال من قبل الأمير مسعود الزعفراني وكانت من أعماله ققاتلها وملكها وجر عسكراً لقتال قلعتها وسار إلى حماة مظهراً طاعة الملك للصالح وارتجاع ما أخذ من بلاده بالجزيرة وبعث بذلك إلى صاحب قلعتها خرديك واستخلفه وسار إلى الملك الصالح ليجمع الكلمة ويطلق أولاد الداية واستخلف على قلعة حماة أخاه ولما وصل إلى حلب حبسه كمستكين الخادم ووصل الخبر إلى أخيه بقلعة حماة فسلمها لصلاح الدين وسار إلى حلب فحاصرها ثالث جمادي الأخيرة واستمات أهلها في المداغة عن الصالح وكان بجلب سمند صاحب طرابلس من الإفرنج محبوساً منذ أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخسين فأطلقه كمستكين على مال وأسرى بيلده.

وتوفي نور الدين أول السنة وخلف ابنه مجزوماً فكفله سمند واستولى على ملكهم فلما حاصر صلاح الدين حلب بعث كمستكين إلى سمند يستجده فسار إلى حمص ونازلها فسار إليه صلاح الدين وترك حلب وسمع الإفرنج بمسيره فرحلوا عن

فلحق بالموصل وولاه غازي مدينة الرقة.

دمشق فسار إليهم ولقيهم بالمروج فلم يثبت وهزموه وأسر سيف الدين أبو بكر بن السار من أعيان الجند بدمشق وتجاوز الإفرنج على تلك الولاية ثم اعترم صلاح الدين على غزو بلاد الإفرنج فبعثوا في الهدنة وأجابهم إليها وعقد لهم والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة صلاح الدين بالرملة أمام الإفرنج

ثم سار صلاح من مصر في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين إلى ساحل الشام لغزو بلاد الإفرنج وانتهى إلى عسقلان فأكسح أعمالها ولم يروا للإفرنج خبراً فانساحوا في البلاد وانقلبوا إلى الرملة فما راعهم إلا الإفرنج مقبلين في جموعهم وأبطالهم وقد افترق أصحاب صلاح الدين في السرايا فثبت في موقفه واشتد القتال وأبلى يومئذ محمد ابن أخيه في المدافعة عنه وقتل من أصحابه جماعة وكان لتقي الدين بن شاه ابن اسمه أحمد متكامل الحلال لم يطر شاربه فأبلى يومئذ واستشهد وتمت الهزيمة على المسلمين وكان بعض الإفرنج تخلصوا إلى صلاح الدين فقتل بين يديه وعاد منهزماً وأسر الفقيه عيسى الهكاري بعد أن أبلى يومئذ بلاء شديداً.

وسار صلاح الدين حتى غشيه الليل ثم دخل البرية في فل قليل إلى مصر ولحقهم الجهد والعطش ودخل إلى القاهرة منتصف جمادى الأخيرة.

قال ابن الأثير: ورأيت كتابه إلى أخيه توران شاه بدمشق يذكر الواقعة
ذكرتك والخطي يخطر بيتنا وقد فتكت فينا المتفكة السم
ومن فضوله: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نحانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر انتهى.

وأما السرايا التي دخلت بلاد الإفرنج فتقسمهم القتل والأسر وأما الفقيه عيسى الهكاري فلما ولي منهزماً ومعه أخوه الظهير ضل عن الطريق ومعهما جماعة من أصحابهما فأسروا وفداه صلاح الدين بعد ذلك بستين ألف دينار والله تعالى أعلم.

ثم سار صلاح الدين إلى قلعة إزاز فحاصرها أوائل ذي القعدة من السنة أربعين يوماً وشد حصارها فاستأمنوا إليه فملكها ثاني الأضحى من السنة وثب عليه في بعض أيام حصارها باطني من الفداوية فضربه وكان مسلحاً فأمسك يد الفداوي حتى قتل وقتل جماعة كانوا معه لذلك ورحل صلاح الدين بعد الاستيلاء على قلعة إزاز إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح واعصوب عليه أهل البلد واستماتوا في المدافعة عنه.

ثم ترددت الرسل في الصلح بينهما وبين صاحب الموصل وكيفا وصاحب ماردين فاتفق بينهم في محرم سنة اثنتين وتسعين وعاد صلاح الدين إلى دمشق بعد أن رد قلعة إزاز إلى الملك الصالح بوسيلة أخته الصغيرة خرجت إلى صلاح الدين ثائرة فاستوهبت قلعة إزاز فوهبها لها والله تعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد الإسماعيلية

ولما رحل صلاح الدين عن حلب وقد وقع من الإسماعيلية على حصن إزاز ما وقع قصد بلادهم في محرم سنة اثنتين وتسعين ونهبها وخربها وحاصر قلعة مصيايف ونصب عليها المجانيق وبعث سنان مقدم الإسماعيلية بالشام إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين بحماة يسأله الشفاعة فيهم ويتوعده بالقتل فشفع فيهم وأرحل العساكر عنهم وقدم عليه أخوه توران شاه من اليمن بعد فتحه وإظهار دعوتهم فيه وولى على مدنه وأمصاره فاستخلفه صلاح الدين على دمشق وسار إلى مصر لطول عهده بها أبو الحسن بن سنان بن سقمان بن محمد ولما وصل إليها أمر بإدارة سور على مصر القاهرة والقلعة التي بالجبل دورة تسعة وعشرون ألف ذراع بالهاشمي واتصل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين وكان متولي النظر فيه مولاة قراقوش والله تعالى ولي التوفيق بئنه.

غزوات بين المسلمين والإفرنج

كان شمس الدين محمد ابن المقدم صاحب بعلبك وأغار جمع من الإفرنج على البقاع من أعمال حلب فسار إليهم وأكمن لهم في الغياض حتى نال منهم وقتك فيهم وبعث إلى صلاح الدين بمائتي أسير منهم وقارن ذلك وصول شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن فبلغه أن جمعاً من الإفرنج أغاروا على أعمال

حصار الإفرنج مدينة حماة

ثم وصل في جمادى الأولى إلى ساحل الشام زعيم من طواغيت الإفرنج وقارن وصوله هزيمة صلاح الدين وعاد إلى دمشق يومئذ توران شاه بن أيوب في قلعة من العسكر وهو مع ذلك منهمك في ملذاته فسار ذلك الزعيم بعد أن جمع فرنج الشام

تخريب حصن الإفرنج

كان الإفرنج قد اتخذوا حصناً متيناً بقرب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام ويسمي مكانه غاضة الأضرار فسار صلاح الدين من دمشق إلى بانياس ستة وخمس وسبعين وأقام بها وبث فيها الغارات على بلادهم ثم سار إلى الحصن فحاصره ليختره وعاد عنه إلى اجتماع العساكر وبث السرايا في بلاد الإفرنج للغارة وجاء ملك الإفرنج للغارة على سريته ومعه جماعة من عساكره فبعثوا إلى صلاح الدين بالخبر فوافاهم وهم يقتتلون فهزم الإفرنج وأئخذ فيهم ونجا ملكهم في فل وأسر صاحب الرملة ونابلس منهم وكان رديف ملكهم وأسر أخوه صاحب جبيل وطبرية ومقدم الفداوية ومقدم الأستبارية وغيرهم من طواغيتهم وفادى صاحب الرملة نفسه وهو ارتيزان بمائة وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير من المسلمين.

وأبلى في هذا اليوم عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين بلاء حسناً ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس وبث السرايا في بلاد الإفرنج وسار لحصار الحصن فقاتله قتالاً شديداً وتسلم المسلمون سوره حتى ملكوا برجاً منه، وكان مدد الإفرنج بطبرية والمسلمون يرتقبون وصولهم فأصبحوا من الغد ونقبوا السور وأضرمو فيه النار فسقط وملك المسلمون الحصن عنوة آخر ربيع سنة خمس وسبعين وأسر كل من فيه وأمر صلاح الدين بهدم الحصن فألق بالأرض وبلغ الخبر إلى الإفرنج وهم مجتمعون بطبرية لإمداده فافترقوا وانهزم الإفرنج واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الفتنة بين صلاح الدين وقلبيج أرسلان

صاحب الروم

كان صاحب حصن زغبان من شمالي حلب قد ملكه نور الدين العادل بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وهو بيد شمس الدين ابن المقدم فلما انقطع حصن رعبان عن إيالة صلاح الدين وراء حلب طمع قليج أرسلان في استرجاعه فبعث إليه عسكرياً يحاصرونه وبعث صلاح الدين تقي الدين ابن أخيه في عسكر لمداغتهم فلقبهم وهزمهم وعاد إلى عمه صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الإضرار وكان نور الدين محمود بن قليج أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وأمد وغيرهما من ديار بكر قد قسد ما بينه وبين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم بسبب إضراره ببيته وزواجه عليها واعتزم قليج أرسلان على حربه وأخذ

ويذل لهم العطاء فحاصر مدينة حماة وبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين مريضاً وشد حصارها وقتلها حتى أشرف على أخذها وهجموا يوماً على البلد وملكوا ناحية منه فدافعهم المسلمون وأخرجوهم ومنعوا حماة منهم فأفجروا عنها بعد أربعة أيام وساروا إلى حارم فحاصروها ولما رحلوا عن حماة مات شهاب الدين الحارمي ولم يزل الإفرنج على حارم يحاصرونها وأطعمهم فيها ما كان من نكة الصالح صاحب حلب لكسبتين الخادم كافل دولته ثم صانهم بالمال فرحلوا عنها ثم عاد الإفرنج إلى مدينة حماة في ربيع سنة أربع وسبعين فعاثوا في نواحيها واكتسحوا أعمالها وخرج العسكر حامية البلد إليهم فهزمهم واستردوا ما أخذوا من السواد وبعثوا بالرؤوس والأسرى إلى صلاح الدين وهو بظاهر حمص منقلباً من الشام فأمر بقتل الأسرى واللّه تعالى ولي التوفيق.

انتفاض ابن المقدم بعلبك وفتحها

كان صلاح الدين لما ملك بعلبك استخلف فيها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم جزاء بما فعله في تسليم دمشق وكان شمس الدولة محمد أخو صلاح الدين ناشئاً في ظل أخيه وكفاله فكان يميل إليه وطلب منه أقطاع بعلبك فأمر ابن المقدم بتمكينه منها فأبى وذكره عهده في أمر دمشق فسار ابن المقدم إلى بعلبك وامتنع فيها ونازلته العساكر فامتنع وطاولوه حتى بعث إلى صلاح الدين يطلب العوض فعوضه عنها وسار أخوه شمس الدين إليها فملكها واللّه تعالى ولي التوفيق.

وقائع مع الإفرنج

وفي سنة أربع وسبعين سار ملك الإفرنج في عسكر عظيم فأغار على أعمال دمشق واكتسحها وأئخذ فيها قتلاً وسبياً وأرسل صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه في العسكر لمداغته فسار يطلبهم ولقيهم على غير استعداد فقاتل أشد القتال ونصر اللّه المسلمين وقتل جماعة من زعماء الإفرنج منهم هغري وكان يضرب به المثل ثم أغار البرنس صاحب أنطاكية واللاذقية على صرح المسلمين بشيزر وكان صلاح الدين على بانياس لتخريب حصن الإفرنج بمخاضة الإضرار فبعث تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه وناصر الدين محمد إلى حمص لحماية البلد من العدو كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

غزوة صلاح الدين إلى الكرك

كان البرنس أرناط صاحب الكرك من مرده الإفرنج وشياطينهم وهو الذي اختط مدينة الكرك وقلعتها ولم تكن هنالك واعتزم على غزو المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام وسمع عز الدين فرخشاه بذلك وهو بدمشق فجمع وسار إلى الكرك سنة سبع سبعين واكتسح نواحيه وأقام ليشغله عن ذلك الغرض حتى انقطع أمه وعاد إلى الكرك فعاد فرخشاه إلى دمشق والله تعالى أعلم بغيه.

مسير سيف الإسلام طغركين بن أيوب إلى اليمن والياً عليها

قد كان تقدم لنا فتح شمس الدولة توران شاه لليمن واستيلاؤه عليه سنة ثمان وستين وأنه ولي على يزيد مبارك بن كامل بن منقذ من أمراء شيزر وعلى عدن عز الدولة عثمان الزنجيلي واختط مدينة تعز في بلاد اليمن واتخذها كرسياً لملكه ثم عاد إلى أخيه سنة اثنتين وسبعين وأدركه منصرفاً من حصار حلب فولاه على دمشق وسار إلى مصر ثم ولاه أخوه صلاح الدين بعد ذلك مدينة الإسكندرية وأقطعها إياها مضافة إلى أعمال اليمن وكانت الأموال تحمل إليه من زيد وعدن وسائر ولايات اليمن ومع ذلك فكان عليه دين قريب من مائتي ألف دينار مصرية وتوفي سنة ست وسبعين فقضاها عنه صلاح الدين ولما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر واستخلف على دمشق عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه وكان سيف الدين مبارك بن كامل بن منقذ الكناني نائبه بزيد قد تغلب في ولايته وتحكم في الأموال فنزع إلى وطنه واستأذن شمس الدولة قبل موته فأذن له في الحجى واستأذن أخاه عطف بن زيد وأقام مع شمس الدولة حتى إذا مات بقي في خدمة صلاح الدين وكان معشداً فسمى فيه عنده أنه احتجز أموال اليمن ولم يعرض له فتحيل أعداؤه عليه وكان ينزل بالعدوية قرب مصر فصنع في بعض الأيام صنيعاً دعي إليه أعيان الدولة واختلف موالبه وخدامه إلى مصر في شراء حاجتهم فتحيلوا لصلاح الدين أنه هارب إلى اليمن فتمت حيلتهم فقبض عليه ثم ضاق عليه الحال وصابره على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما أعطى لأهل الدولة فأطلقه وأعادته إلى منزلته فلما بلغ شمس الدين إلى اليمن اختلف نوابه بها حطان بن منقذ وعثمان بن الزنجيلي.

وخشي صلاح الدين أن تخرج اليمن عن طاعته فجهز

بلاؤه فاستجد نور الدين بصلاح الدين ويعث إلى قليج أرسلان يشفع في شأنه فطلب استرجاع حصونه التي أعطاهها لنور الدين عند المصاهرة ولج في ذلك صلاح الدين على قليج وسار إلى زغبان ومر مجلب فتركها ذات الشمال وسلك على تل باشر.

ولما انتهى إلى زغبان جاءه نور الدين محمود وأقام عنده وراسل إليه قليج أرسلان يصف فعل نور الدين وإضراره ببيتته فلما أدى الرسول رسالته امتعض صلاح الدين وتوعدهم بالمسير إلى بلده فتركه الرسول حتى سكن وغدا عليه فطلب الخلوة وتلطف له في فسخ ما هو فيه من ترك الغزو ونفقة الأموال في هذا الغرض الحقيق وإن بنت قليج أرسلان يجب على مثلك من الملوك الامتعاض لها ولا تترك المضارة من دونها فعلم صلاح الدين الحق فيما قاله وقال للرسول: إن نور الدين استند إلى فعلك فأصلح الأمر بينهما وأنا معين على ما تحبونه جميعاً ففعل الرسول ذلك وأصلح بينهما وعاد صلاح الدين إلى الشام ونور الدين محمود إلى ديار بكر وطلق ضرة بنت قليج أرسلان بالأجل الذي أجله للرسول والله تعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد ابن اليون

كان قليج بن اليون من ملوك الأرض صاحب الدروب المجاورة لحلب وكان نور الدين محمود قد استخدمه وأقطع له في الشام وكان يعسكر معه وكان جريئاً على صاحب القسطنطينية وملك وادقة والمصيصة وطرسوس من يد الروم وكانت بينهما من أجل ذلك حروب ولما توفي نور الدين وانتقض دولته أقام ابن اليون في بلاده وكان التركمان يحتاجون إلى رعي مواشيهم بأرضه على حصانتها وصعوبة مضايقتها وكان يأذن لهم فيدخلونها وغدر بهم في بعض السنين واستباحهم واستاق مواشيهم وبلغ الخبر إلى صلاح الدين منصرفه من زغبان فقصده بلده ونزل النهر الأسود وبث الغارات في بلادهم واكتسحها وكان لابن اليون حصن وفيه ذخيرته فخشي عليه فقصده تخريبه وسابقه إليه صلاح الدين فغنم ما فيه وبعث إليه ابن اليون برد ما أخذ من التركمان وإطلاق أسرارهم على الصلح والرجوع عنه فأجابته إلى ذلك وعاد عنه في منتصف سنة خمس وسبعين والله تعالى يؤيد نصره من يشاء من عباده.

فرخشاه نائب دمشق إليها واكتسح نواحيها وخرب قراها وأثنى فيهم قتلاً وسبياً وفتح الشقيف من حصونهم عنوة وكان له نكاية في المسلمين فبعث إلى صلاح الدين بفتحه فسر بذلك.

ثم راح صلاح الدين بدمشق أياماً وسار في ربيع الأول من السنة وقصد طبرية وخيم بالأردن واجتمعت الإفرنج على طبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان فملكها عنوة واستباحها وأغار على الغور فأثنى فيها قتلاً وسبياً وسار الإفرنج من طبرية إلى جبل كوكب وتقدم صلاح الدين إليهم بعساكره فتحصنوا بالجبل فأمر ابني أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه ابني شاهنشاه فقاتلوا الإفرنج قتالاً شديداً ثم تحاجزوا وعاد صلاح الدين إلى دمشق ثم سار إلى بيروت فاكسح نواحيها وكان قد استدعى الأسطول من مصر لحصارها فوفاه بها وحاصرها أياماً ثم بلغه أن البحر قد قذف بدمياط مركباً للإفرنج فيه جماعة منهم جاؤوا لزيارة القدس فآلتهم الريح بدمياط وأسر منهم ألف وستمئة أسير ثم ارتحل عن بيروت إلى الجزيرة كما تذكره إن شاء الله تعالى.

مسير صلاح الدين إلى الجزيرة واستيلاؤه

على حران والرها والرقّة والخابور ونصيبين

وسنجار وحصار الموصل

كان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك الذي كان أبوه نائب القلعة بالموصل مستولياً في دولة مردود وبنه وانتقل آخراً إلى إربل ومات بها وأقطعه عز الدين صاحب الموصل ابنه مظفر الدين وكان هواه مع صلاح الدين ويؤمله ملكه بلاد الجزيرة فراسله وهو محاصر لبيروت وأطمعه في البلاد واستحثه للوصول فسار صلاح الدين عن بيروت مورياً حلب وقصد الفرات ولقيه مظفر الدين وساروا إلى البيرة وقد دخل طاعة عز الدين وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما مسير صلاح الدين إلى الشام ظنوا أنه يريد حلب فساروا لمداغته فلما عبر الفرات عادوا إلى الموصل وبعثوا حامية إلى الرها وكتب صلاح الدين ملوك الأطراف بديار بكر وغيرها بالوعد والمقاربة.

ووعد نور الدين عموداً صاحب كيفاً أنه يملكه آمد ووصل إليه فساروا إلى مدينة الرها فحاصروها وبها يومئذ الأمير فخر الدين بن مسعود الزعفراني واشتد عليه القتال فاستأمن إلى صلاح الدين وملكه المدينة وحاصر معه القلعة حتى سلمها النائب الذي

جماعة من امرائه إلى اليمن مع صارم الدين قطلغ أبه والي مصر من امرائه فساروا لذلك سنة سبع وسبعين واستولى قطلغ أبه على زبيد من حطان بن منقذ ثم مات قريباً فعاد حطان إلى زبيد وأطاعه الناس وقوي على عثمان الزنجيلي فكتب عثمان إلى صلاح الدين أن يبعث بعض قرابته فجهز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغركين فسار إلى اليمن وخرج حطان بن منقذ من زبيد وتحصن في بعض القلاع ونزل سيف الإسلام زبيد وبعث إلى حطان بالأمان فنزل إليه وأولاه الإحسان ثم طلب اللحاق بالشام فمنعه ثم ألح عليه فأذن له حتى إذا خرج واحتمل راحله وجاء ليودعه قبض عليه واستولى على ما معه ثم حبسه في بعض القلاع فكان آخر العهد به ويقال: كان فيما أخذه سبعون حملاً من الذهب ولما سمع عثمان الزنجيلي خبر حطان خشي على نفسه وحمل أمواله في البحر ولحق بالشام وبقيت مراكبه مراكب لسيف الإسلام فاستولى عليها ولم يخلص إلا بما كان معه في طريقه وصفا اليمن لسيف الإسلام والله تعالى أعلم.

دخول قلعة البيرة في إيالة صلاح الدين

وغزوه الإفرنج وفتح بعض حصونهم مثل

الشقيف والغور وبيروت

كانت قلعة البيرة من قلاع العراق لشهاب الدين بن أرتق وهو ابن عم قطب الدين أبي الغازي بن أرتق صاحب ماردين وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام ثم مات وملك البيرة بعده ابنه ومات نور الدين فصار إلى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم وقع بين صاحب ماردين وصاحب الموصل من المخالصة والاتفاق ما وقع وطلب من عز الدين أن يأذن له في أخذ البيرة فأذن له فسار قطب الدين في عسكره إلى قلعة سميساط وأقام بها وبعث العسكر إلى البيرة وحاصرها وبعث صاحبها يستنجد صلاح الدين ويكون له كما كان أبوه لنور الدين فشفع صلاح الدين إلى قطب الدين صاحب ماردين ولم يشفعه وشغل عنه بأمر الإفرنج ورحلت عساكر قطب الدين عنها فرجع صاحبها إلى صلاح الدين وأعطاه طاعته وعاد في إيالته ثم خرج صلاح الدين من مصر في محرم سنة ثمان وسبعين قاصداً الشام ومر بأبلة وجمع الإفرنج لاعتراضه فبعث أثقاله مع أخيه تاج الملوك إلى دمشق ومال على بلادهم فاكتسح نواحي الكرك والشوبك وعاد إلى دمشق منتصف صفر وكان الإفرنج لما اجتمعوا على الكرك دخلوا بلادهم من نواحي الشام فخالفهم عز الدين

ملكها من الجزيرة وسار صلاح الدين إلى نصيبين فشكا إليه أهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله عنهم واستصحبه معه وسار إلى حران في ذي القعدة من سنة ثمان وسبعين وفرق عساكره ليستريحوا وأقام في خواصه وكبار أصحابه والله أعلم.

مسير شاهرين صاحب خلاط الدين لنجدة صاحب الموصل

كان عز الدين قد أرسل إلى شاهرين يستنجد على صلاح الدين فبعث إليه عدة رسل شافعاً في أمره فلم يشفعه وغالطه فبعث إليه مولاة آخراً سيف الدين بكتمر وهو على سنجار يسأله في الإفراج عنها فلم يجبه إلى ذلك وسوفه رجاء أن يفوتها فأبلغه بكتمر الوعيد عن مولاة وفارقه مغاضباً ولم يقبل صلته وأغراه بصلاح الدين فسار شاهرين من خيمه بظاهر خلاط إلى ماردين وصاحبها يومئذ ابن أخته وابن خال عز الدين وصهره على بنته وهو قطب الدين ابن نجم الدين وسار إليهم أتابك عز الدين صاحب الموصل وكان صلاح الدين في حران منصرفه من سنجار وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم استدعى تقي الدين ابن أخيه شاهنشاه من حاة ورحل إلى رأس عين فافترق القوم وعاد كل إلى بلده وقصد صلاح الدين ماردين فأقام عليها عدة أيام ورجع والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

واقعة الإفرنج في بحر السويس

كان البرنس أرناط صاحب الكرك قد أنشأ أسطولاً مفصلاً وحمل أجزاءه إلى صاحب أيلة وركبه على ما تقتضيه صناعة النشابة وقذفه في السويس وشحنه بالمقاتلة وأقلعوا في البحر ففرقة أقاموا على حصن أيلة يحاصرونه وفرقة ساروا نحو عيذاب وأغاروا على سواحل الحجاز وأخذوا ما وجدوا بها من مراكب التجار وطرق الناس منهم بلية لم يعرفونها لأنه لم يعهد ببحر السويس لإفريقي محارب ولا تاجر وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائباً عن أخيه صلاح الدين فعمر أسطولاً وشحنه بالمقاتلة وسار به حسام الدين لؤلؤ الحاجب قائد الأساطيل بديار مصر فبدأ بأسطول الإفرنج الذي يحاصر أيلة فمزقهم كل ممزق.

وبعد الظفر بهم أقلع في طلب الآخرين وانتهى إلى عيذاب فلم يجدهم فرجع إلى رابغ وأدركهم بساحل الحوراء وكانوا عازمين على طروق الحرمين واليمن والإغارة على الحاج فلما

بها على مال شرطه فأضافها صلاح الدين إلى مظفر الدين مع حران وساروا إلى الرقة وبها نائها قطب الدين نبال بن حسان المنبجي ففارقها إلى الموصل وملكها صلاح الدين ثم سار إلى قرقيسيا وماسكين وعربان وهي بلاد الخابور فاستولى على جميعها وسار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها وحاصر القلعة أياماً ثم ملكها وأقطعها للأمير أبي الهيجاء السمين ثم رحل عنها ونور الدين صاحب كيفا معه معتزماً على قصد الموصل وجاءه الخبر بأن الإفرنج أغاروا على نواحي دمشق واكتسحوا قراها وأرادوا تخريب جامع داريا فتوعدهم نائب دمشق بتخريب بيعهم وكنائسهم فتركه فلم يثن ذلك من عزمه وقصد الموصل وقد جمع صاحبها العساكر واستعد للحصار وخلق نائبه في الاستعداد.

وبعث إلى سنجار وإربل وجزيرة ابن عمر فشحنها بالامداد من الرجال والسلاح والأموال وأنزل صاحب الدار عساكره بقربها وتقدم هو ومظفر الدين وابن شيركوه فهالهم استعداد صاحب البلد وأيقنوا بامتناعه وعدل صاحبيه هذين فإنهما كانا أشارا بالبداة بالموصل ثم أصبح صلاح الدين من الغد في عسكره ونزل عليه أول رجب على باب كندة وأنزل صاحب الحصن باب الجسر وأخاه تاج الملوك بالباب العمادي وقتلهم فلم يظفر وخرج بعض الرجال فنالوا منه ونصب منجنيقاً فنصبوا عليه من البلد تسعة ثم خرجوا إليه من البلد فأخذوه بعد قتال كثير وخشي صلاح الدين من البيات فتأخر لأنه رآهم في بعض الليالي يخرجون من باب الجسر بالمشاعل ويرجعون.

وكان صدر الدين شيخ الشيوخ ومشير الخادم قد وصلا من عند الخليفة الناصر في الصلح وترددت الرسائل بينهم فطلب عز الدين من صلاح الدين رد ما أخذ من بلادهم فأجاب على أن يمكنه من حلب فامتنع فرجع إلى ترك مظهرة صاحبها فامتنع أيضاً ثم وصلت أيضاً رسل صاحب أذربيجان ورسل شاهرين صاحب خلاط في الصلح فلم يتم وسار أهل سنجار يعترضون من يقصده من عساكره وأصحابه فافرج عن الموصل وسار إليها وبها شرف الدين أمير أميران هند وأخو عز الدين صاحب الموصل في عسكر وبعث إليه مجاهد الدين النائب بعسكر آخر مدداً وحاصرها صلاح الدين وضيق عليها واستمال بعض أمراء الأكراد الذين بها من الزواوية فواعده من ناحيته.

وطرقه صلاح الدين فملكه البرج الذي في ناحيته فاستأمن أمير أميران وخرج وعسكره معه إلى الموصل وملك صلاح الدين سنجار وولى عليها سعد الدين بن معين الدين الذي كان أبوه كامل بن طغرلين بدمشق وصارت سنجار من سائر البلاد التي

بهم صلاح الدين واللّه تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على تل خالدا وعتتاب

ولما فرغ صلاح الدين من آمد سار إلى أعمال حلب فحاصر تل خالدا ونصب عليه المجانيق حتى تسلمه بالأمان في محرم سنة تسع وسبعين ثم سار إلى عتاب فحاصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ إسماعيل الذي كان خازن نور الدين العادل وصاحبه وهو الذي ولاه عليها فطلب من صلاح الدين أن يقرها بيده ويكون في طاعته فأجابته إلى ذلك وحلف له وسار في خدمته وغنم المسلمون خلال ذلك مغانم.

فمنها في البحر سار أسطول مصر فلقى في البحر مركباً فيه نحو ستمائة من الإفرنج بالسلاح والأموال قاصدون الإفرنج بالشام فظفروا بهم وغنموا ما معهم وعادوا إلى مصر سالمين.

ومنها في البر أغصار الداورن جماعة من الإفرنج ولحقهم المسلمون بأيلة واتبعهم إلى العسيلة وعطش المسلمون فأنزل الله تعالى عليهم المطر حتى رووا وقاتلوا الإفرنج فظفروا بهم هنالك واستلحمهم واستقاموا معهم وعادوا سالمين إلى مصر واللّه أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حلب وقلعة حارم

كان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين العادل صاحب حلب لم يبق له من الشام غيرها وهو يدافع صلاح الدين عنها فتوفي منتصف سنة سبع وسبعين وعهد لابن عمه عز الدين صاحب الموصل وسار عز الدين صاحب الموصل مع نائبه مجاهد الدين قايمز إليها فملكها. طلبها منه أخوه عماد الدين صاحب سنجار على أن يأخذ عنها سنجار فأجابته إلى ذلك وأخذ عز الدين سنجار وعاد إلى الموصل وسار عماد الدين إلى حلب فملكها وعظم ذلك على صلاح الدين وخشي أن يسير منها إلى دمشق وكان بمصر فسار إلى الشام وسار منها إلى الجزيرة وملك ما ملك منها وحاصر الموصل ثم حاصر آمد وملكها ثم سار إلى أعمال حلب كما ذكرناه فملك تل خالدا وعتاب ثم سار إلى حلب وحاصرها في محرم سنة تسع وسبعين ونزل الميدان الأخضر أياماً ثم انتقل إلى جبل جوشق وأظهر البقاء عليها وهو يغادها القتال

أظلم عليهم لؤلؤ بالأسطول أيقنوا بالتغلب وتراموا على الحوراء وأسمنوا إليها واعتصموا بشعابها ونزل لؤلؤ من مراكبه وجمع خيل الأعراب هنالك وقاتلهم فظفر بهم وقتل أكثرهم وأسر الباقين فأرسل بعضهم إلى منى فقتلوا بها أيام النحر وعاد الباقين إلى مصر واللّه تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

وفاة فرخشاه

ثم توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه أخو صلاح الدين النائب عنه بدمشق وكان خليفته في أهله ووثوقه به أكثر من جميع أصحابه وخرج من دمشق غازياً الإفرنج وطرقه المرض وعاد فتوفي في جمادي سنة ثمان وسبعين وبلغ خبره صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى الجزيرة والموصل فأعاد شمس الدين محمد ابن المقدم إلى دمشق وجعله نائباً فيها واستمر لشأنه واللّه تعالى يورث الملك لمن يشاء من عباد.

استيلاء صلاح الدين على آمد وتسليمها لصاحب كيفا

قد تقدم لنا مسير صلاح الدين إلى ماردين وإقامته عليها أياماً من نواحيها ثم ارتحل عنها إلى آمد كما كان العهد بينه وبين نور الدين صاحب كيفا فنالها منتصف ذي الحجة وبها بهاء الدين بن بيسان فحاصرها وكانت غاية في النعمة وأساء ابن بيسان التدبير وقبض يده عن العطاء وكان أهلها قد ضجروا منه لسوء سيرته وتضييقه عليهم في مكاسبهم وكتب إليهم صلاح الدين بالترغيب والترهيب فتخاضلوا عن ابن بيسان وتركوا القتال معه ونقب السور من خارج بيت ابن بيسان وأخرج نساءه مع القاضي الفاضل يستميل إليه صلاح الدين ويؤجله ثلاثة أيام للرحلة فأجابته صلاح الدين وملك البلد في عاشوراء سنة تسع وسبعين.

وبنى خيمة بظاهر البلد ينقل إليها ذخيرته فلم يلتفت الناس إليه وتعذر عليه أمره فبعث إلى صلاح الدين يسأله الإعانة فأمر له بالدواب والرجال فنقل في الأيام الثلاثة كثيراً من موجوده ومنع بعد انقضاء الأجل عن نقل ما بقي ولما ملكها صلاح الدين سلمها لنور الدين صاحب كيفا وأخبر صلاح الدين بما فيها من الذخائر لينقلها لنفسه فأبى وقال: ما كنت لأعطي الأصل وأجمل بالفرع.

ودخل نور الدين البلد ودعا صلاح الدين وأمرائه إلى صنع صنعه لهم وقدم لهم من التحف والهدايا ما يليق بهم وعاد

وسار في العساكر واستدعى أخاه العادل أبا بكر بن أيوب من مصر وهو نائبها ليلحق به على الكرك وكان قد سأل في ولاية حلب وقلعتها فأجابته إلى ذلك وأمره أن يجيء بأهله وماله فوافاه على الكرك وحاصروه أياماً وملكوا أرباضه ونصبوا عليها المجانيق ولم يكن بالغ في الاستعداد لحصاره لظنه أن الإفرنج يدافعون عنه فأفرج عنه منتصف شعبان وبعث تقي الدين ابن أخيه شاه على نيابة مصر مكان أخيه العادل واستصحب العادل معه إلى دمشق فولاه مدينة حلب ومدينة منبج وما إليها وبعثه بذلك في شهر رمضان من السنة واستدعى ولده الظاهر غازي من حلب إلى دمشق.

ثم سار في ربيع الآخر من سنة ثمانين لحصار الكرك بعد أن جمع العساكر واستدعى نور الدين صاحب كيفا وعساكر مصر واستعد لحصاره ونصب المجانيق على ريشه فملكه المسلمون وبقي الحصن وراء خندق بينه وبين الرض عمقه سترن ذراعاً وراموا طمه فنضحهم بالسهام ورموهم بالحجارة فأمر برفع السقف ليمشي المقاتلة تحتها إلى الخندق وأرسل أهل الحصن إلى ملكهم يستمدونه ويخبرونه بما نزل بهم فاجتمع الإفرنج وأوعبوا وساروا إليهم فرحل صلاح الدين للقائهم حتى انتهى إلى حزونة الأرض فأقام ينتظر خروجهم إلى البسيط فقاموا عن ذلك فتأخر عنهم فواسخ ومروا إلى الكرك وعلم صلاح الدين أن الكرك قد امتنع بهؤلاء فتركه وسار إلى نابلس فخربها وحرقها وسار إلى سنطية وبها مشهد زكرياء عليه السلام فاستقذ من وجد بها من أسارى المسلمين ورحل إلى جينين فنهبا وخربها وسار إلى دمشق بعد أن بث السرايا في كل ناحية ونهب كل ما مر به وامتلات الأيدي من الغنائم وعاد إلى دمشق مظفراً واللّه تعالى أعلم.

حصار صلاح الدين الموصل

ثم سار صلاح الدين من دمشق إلى الجزيرة في ذي القعدة من سنة ثمان وعبر الفرات وكان مظفر الدين كوكبري علي كجك يستحثه للمسير إلى الموصل في كل وقت وربما وعده بمخمسين ألف دينار إذا وصل فلما وصل إلى حران لم يف له فقبض عليه ثم خشي معيرة أهل الجزيرة فاطلقه وأعاد عليهم حران والرها وسار في ربيع الأول ولقيه نور الدين صاحب كيفا ومعهز الدين سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمر وقد انحرف عن عمه عز الدين صاحب الموصل بعد نكبة مجاهد الدين نائبه وساروا كلهم مع صلاح الدين إلى الموصل وانتهروا إلى مدينة بلد فلقية

ويراوحها وطلب عماد الدين جنده في العطاء وضايقه في تسليم حلب لصلاح الدين وأرسل إليه في ذلك الأمر طومان الباروقي وكان يعيل إلى صلاح الدين فشارطه على سنجار ونصيين والركة والخابور وينزل له عن حلب وتحالفوا على ذلك وخرج عنها عماد الدين ثامن عشر صفر من السنة إلى هذه البلاد ودخل صلاح الدين حلب بعد أن شرط على عماد الدين أن يعسكر معه متى عاد.

ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين صنع له دعوة احتفل فيها وانصرف وكان فيمن هلك في حصار حلب تاج الملوك نور الدين أخو صلاح الدين الأصغر أصابته جراحة فمات منها بعد الصلح وقبل أن يدخل صلاح الدين البلد ولما ملك صلاح الدين حلب سار إلى قلعة حارم وبها الأمير طرخن من موالى نور الدين العادل وكان عليها ابنه الملك الصالح فحاصره صلاح الدين ووعده وترددت الرسل بينهم وهو يمتنع وقد أرسل إلى الإفرنج يدعوهم للإجماع وسمع بذلك الجند الذين معه فوثبوا به وحبسوه واستأمنوا إلى صلاح الدين فملك الحصن وولى عليه بعض خواصه وقطع تل خالد الباروقي صاحب تل باشر وأما قلعة اعزاز فإن عماد الدين إسماعيل كان خربها فأقطعها صلاح الدين سليمان بن جبار وأقام بحلب إلى أن قضى جميع أشغالها وأقطع أعمالها وسار إلى دمشق واللّه تعالى أعلم.

غزوة بيسان

ولما فرغ صلاح الدين من أمر حلب ولى عليها ابنه الظاهر غازي ومعه الأمير سيف الدين تاو كج كافلاً له لصغره وهو أكبر الأمراء الأسدية وسار إلى دمشق فتجهز للغزو وجمع عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وقصد بلاد الإفرنج فعبّر الأردن منتصف سبع وسبعين وأجفل أهل تلك الأعمال أمامه فقصد بيسان وخربها وأحرقها وأغار على نواحيها واجتمع الإفرنج له فلما رأوه خاموا عن لقاءه واستندوا إلى جبل وخندقوا عليهم وأقام يحاصره خمسة أيام ويستدرجهم للتزول فلم يفعلوا فرجع المسلمون عنهم وأغاروا على تلك النواحي وامتلات أيديهم بالغنائم وعادوا إلى بلادهم واللّه تعالى ينصر من يشاء من عباده.

غزو الكرك وولاية العادل على حلب

ولما عاد صلاح الدين من غزوة بيسان تجهز لغزو الكرك

التسليم على شروط اشترطها من أقطاع ومال وسلم البلد فملكها صلاح الدين وعقد النكاح لبعض ولده على بعض بنات خاتون وأنزلها وبناتها بقلعة هتاج وعاد إلى الموصل ومر بنصيبين وانتهى إلى كفر أروان واعتزم على أن يشتر به ويقطع جميع ضياع الموصل ويجبي أعمالها ويكتسح غلاتها وجنح مجاهد الدين إلى مصالحته وترددت الرسل في ذلك على أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية الغرابلي وما وراء الزاب من الأعمال.

ثم طرقة المرض فعاد إلى حران وأدركه الرسل بالإجابة إلى ما طلب فاتفق هناك وتحالفوا وتسلم البلاد وطال مرضه بمرحان وكان عنده أخوه العادل وبه حلب وبها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين واشتد به المرض فقسم البلاد بين أولاده وأوصى أخاه العادل على الجميع وعاد إلى دمشق في محرم سنة اثنتين وثمانين وكان عنده بمرحان ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه ومن أقطاعه حمص والرجة فعاد قبله إلى حمص ومر بحلب وصانع جماعة من أمرائها على أن يقوموا بدعوته إن حدث بصلاح الدين أمر وبلغ إلى حمص فبعث إلى أهل دمشق يمثل ذلك وأفاق صلاح الدين من مرضه ومات ناصر الدين ليلة الأضحى ويقال: دس عليه من سمه وورث أعماله ابنه شيركوه وهو ابن اثنتي عشرة سنة واللّه تعالى أعلم.

قسمة صلاح الدين الأعمال بين ولده

وأخيه

كان ابنه العزيز عثمان مجلب في كفالة أخيه العادل وابنه الأكبر الأفضل علي بمصر في كفالة تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه بعثه إليها عندما استدعى العادل منها كما مر فلما مرض بمرحان أسف على كونه لم يول أحداً من ولده استقلالاً وسعى إليه بذلك بطائفة فبعث ابنه عثمان العزيز إلى مصر في كفالة أخيه العادل كما كان مجلب ثم أقطع العادل حران والزها وميفارقين من بلاد الجزيرة وترك عثمان ابنه بمصر ثم بعث عن ابنه الأفضل وتقي الدين ابن أخيه فامتنع تقي الدين من الحضور واعتزم على المسير إلى المغرب والحقاق بمولاه قراقوش في ولايته التي حصلت له بطرابلس والجريد من إفريقية فراسله صلاح الدين ولاطفه ولما وصل أقطعه حماة ومنبج والمعة وكفرطاب وجبل جوز وسائر أعمالها.

وقيل: إن تقي الدين لما أُرْجِفَ بمرض صلاح الدين وموته تحرك في طلب الأمر لنفسه وبلغ ذلك صلاح الدين فأرسل الفقيه

هنالك أم عز الدين وابنة عمه نور الدين وجماعة من أهل بيته يسألونه الصلح ظناً بأنه لا يرددهن وسيما بنت نور الدين.

واستشار صلاح الدين أصحابه فآشار الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردهن وساروا إلى الموصل وقاتلوا واستمات أهلها وامتنعوا لرد النساء فامتنعت عليهم وعاد على أصحابه بالوم في إشارتهم وجاء زين الدين يوسف صاحب إربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فأنزلهما بالجانب الشرقي وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة ليحاصرها فاجتمع عليه الأكراد الهكارية إلى أن عاد صلاح الدين عن الموصل وبلغ عز الدين أن نائبه بالقلعة زلفندار يكتب صلاح الدين فمنعه منها والمحرف عنه إلى الاقتداء برأي مجاهد الدين وتصدر عنه.

ثم بلغه خبر وفاة شاهرين صاحب خلاط فطمع صلاح الدين في ملكها وأنه يستعين بها على أموره ثم جاءته كتب أهلها يستدعونه فسار عن الموصل إليها وكان أهل خلاط إنما كتابوه مكرراً لأن شمس الدين البهلوان ابن إيلدكز صاحب أذربيجان وهمذان قصده تملكهم بعد أن كان زوج ابته من شاهرين على كبره وجعل ذلك ذريعة إلى ملك خلاط فلما سار إليهم كاتبوا صلاح الدين ودافعوا كلاً منهما بالآخر فسار صلاح الدين وفي مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين صاحب إربل وغيرهما وتقدموا إلى خلاط وتقدم صاحب أذربيجان فنزل قريباً من خلاط وترددت رسل أهل خلاط بينه وبين البهلوان ثم خطبوا للبهلوان واللّه تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء صلاح الدين على ميفارقين

ولما خطب أهل خلاط للبهلوان وصلاح الدين على ميفارقين وكانت لقطب الدين صاحب ماردين فتوفي وملك ابنه طفلاً صغيراً بعده ورد أمرها إلى شاهرين صاحب خلاط وأنزل بها عسكره فطمع فيها صلاح الدين بعد وفاة شاهرين وحاصرها من أول جمادى سنة إحدى وثمانين وعلى أجنادها الأمير أسد الدين برنيش فآحسن الدفاع وكان بالبلد زوجة قطب الدين المتوفي ومعها بناتها منه وهي أخت نور الدين صاحب كيفا فراسلها صلاح الدين بأن برنيش قد مال إليها في تسليم البلد ونحن ندعي حق أخيك نور الدين فآزوج بناتك من أبنائي وتكون البلد لنا ووضع على برنيش من أخبره بأن الخاتون مالت إلى صلاح الدين وأن أهل خلاط كاتبوه.

وكان خبر أهل خلاط صحيحاً فسقط في يده وبعث في

الخروج ووصل الحاج سالمين.

وسار صلاح الدين إلى الكرك وبث السرايا في أعمالها وأعمال الشوك فاكسحوها والبرنس محصور بالكرك وقد عجز الإفرنج عن إمداده لكان العساكر مع الأفضل بن صلاح الدين ثم بعث صلاح الدين إلى ابنه الأفضل فأمره بإرسال بعث إلى عكا ليكتسحوا نواحيها فبعث مظفر الدين كوكبري صاحب حران والرها وقايمز النجمي وداروم الياروقي وساروا في آخر صفر فصبحوا صفورية وبها جمع من الفداوية والاستبارية فبرزوا إليهم وكانت بينهم حروب شديدة تولى الله النصر فيها للمسلمين وانهزم الإفرنج وقتل مقدمهم وامتلات أيدي المسلمين من الغنائم وانقلبوا ظافرين ومروا بطبرية وبها القمص فلم يهجم لما تقدم بينه وبين صلاح الدين من الولاية وعظم هذا الفتح وسار البشير به في البلاد والله تعالى أعلم.

هزيمة الإفرنج وفتح طبرية ثم عكا

ولما انهزم الفداوية والاستبارية بصفورية ومرو المسلمون بالغنائم على القمص ريمند بطبرية ووصلت البشائر بذلك إلى صلاح الدين عاد إلى معسكره الذي مع ابنه ومرو بالكرك واعتزم على غزو بلاد الإفرنج فاعترض عساكره وبلغه أن القمص ريمند قد راجع أهل ملته ونقض عهده معه وأن البطرك والقسيس والرهبان أنكروا عليه مظاهرتهم للمسلمين ومرو عساكرهم به بأسرى النصاري وغنائمهم ولم يعترضهم مع إيقاعهم بالفداوية والاستبارية أعيان الملة وتهددوه بإلحاق كلمة الكفر به فتصل وراجع رأيهم واعتذر إليهم قبلوا عذره وخلص لكفره وطواغيته فجددوا الحلف والاجتماع وساروا من عكا إلى صفورية وبلغ الخبر إلى صلاح الدين وشاروا أصحابه فمنهم من أشار بترك اللقاء وشن الغارات عليهم حتى يضعفوا ومنهم من أشار باللقاء لتزول عكا واستيفاء ما فعلوه في المسلمين بالجزيرة فاستصوبه صلاح الدين واستعجل لقاءهم.

ثم رحل من الأقحوانة أواخر رمضان فزار حتى خلف طبرية وتقدم إلى معسكر الإفرنج فلم يفارقوا خيامهم فلما كان الليل أقام طائفة من العسكر فزار إلى طبرية فملكها من ليلته عتوة ونهبها وأحرقها وامتنع أهلها بالقلعة ومعهم الملكة وأولادها فبلغ الخبر إلى الإفرنج فضج القمص وعمد إلى الصلح وأطال القول في تعظيم الخطب وكثرة المسلمين فنكر عليه البرنس صاحب الكرك واتهمه ببقائه على ولاية صلاح الدين واعتزموا على اللقاء

عيسى الهكاري وكان مطاعاً فيهم وأمره بإخراج تقي الدين من مصر والمقام بها فزار ودخلها على حين غفلة وأمر تقي الدين بالخروج فأقام خارج البلد وتجهز للمغرب فراسله صلاح الدين إلى آخر الخبر والله تعالى أعلم.

اتفاق القمص صاحب طرابلس مع صلاح

الدين ومناذبة البرنس صاحب الكرك له

وحصاره إياه والإغارة على عكا

كان القمص صاحب طرابلس وهو ريمند بن ريمند بن صنجيل تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل إليها فأقام عندها ومات ملك الإفرنج بالشام وكان مجذوماً كما مر وأوصى بالملك لابن أخيه صغيراً فكفله هذا القمص وقام بتدبير ملكه لعظمه فيهم وطمع أن تكون كفالته ذريعة إلى الملك ثم مات الصغير فانتقل الملك إلى أبيه ويشس القمص عندها مما كان يحدث به نفسه ثم إن الملكة تزوجت ابن غثم من الإفرنج القادمين من المغرب وتوجته وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاستبارية والداوية والبارونية وأشهدتهم وخروجها له عن الملك.

ثم طوّل القمص بالجباية أيام كفالته الصبي فأنف وغضب وجاهر بالشقاق لهم وراسل صلاح الدين وسار إلى ولايته وخلف له على مصره من أهل ملته وأطلق له صلاح الدين جماعة من زعماء النصاري كانوا أسارى عنده فزاداد غبطة بمظاهرتهم وكان ذلك ذريعة لفتح بلادهم وارتجاع القدس منهم وبث صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية في سائر بلاد الإفرنج فاكسحوها وعادوا غائمين وذلك كله سنة اثنين وثمانين وكان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الإفرنج مكرماً وأشدّهم ضرراً وكان صلاح الدين قد سلط الغارة والحصار على بلده حتى سأل في الصلح فصالحه فصلحت السابلة بين الأمتين.

ثم مرّت في هذه السنة قافلة كثيرة التجار والجند فغدر بهم وأسروا وأخذوا معهم وبعث إليه صلاح الدين فأصر على غدرته فنذر أنه يقتله إن ظفر به واستنفر الناس للجهاد من سائر الأعمال من الموصل والجزيرة وإربل ومصر والشام وخرج من دمشق في محرم سنة ثلاث وثمانين وانتهى إلى رأس الماء وبلغه أن البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يتعرض للحاج من الشام وكان معهم ابن أخيه محمد بن لاجين وغيره فترك من العساكر مع ابنه الأفضل علي وسار إلى بصرى وسمع البرنس بمسيره فأحجم عن

أصحابه ثم قسم الأفضل ما بقي في أصحابه بعد مسير صلاح الدين ثم أقام صلاح الدين أياماً حتى أصلح أحوالها ورحل عنها والله تعالى أعلم.

فتح يافا وصيدا وجبيل وبيروت وحصون

عكا

لما هزم صلاح الدين الإفرنج كتب إلى أخيه العادل بمصر يسيره ويأمره بالمسير إلى جهات الإفرنج من جهات مصر فنازل حصن مجدل وفتحها وغنم ما فيه ثم سار إلى مدينة يافا ففتحها عنوة واستباحها وكان صلاح الدين أيام مقامه بعكا بعث بعوثه إلى قيسارية وحيفا وصور وصيدا ولبك وشقيف وغيرها في نواحي عكا فملكوها واستباحوها وامتلأت أيديهم من غنائمها وبعث حسام الدين عمر بن الأصغر في عسكر إلى نابلس فملك سبسطية مدينة الأسباط وبها قبر زكريا عليه السلام ثم سار إلى مدينة نابلس فملكها واعتصم الإفرنج الذين بها بالقلعة فأقهرهم على أموالهم.

وبعث تقي الدين عمر بن شاهنشاه إلى تبسين ليقطع الميرة عنها وعن صور فوصل إليها وحاصرها وضيق عليها حتى استأمنوا فأمتهم وملكها ومر إلى صيدا ومر في طريقه بصرخد فملكها بعد قتال وجاء الخبر بفرار صاحب صيدا فسار وملكها آخر جمادى الأولى من السنة ثم سار من يومه إلى بيروت وقتلها من أحد جوانبها فتوهموا أن المسلمين دخلوا عليهم من الجانب الآخر فهاجوا لذلك فلم يستقروا ولا قدروا على تسكين الميعة لكثرة ما معهم من أخلاط السواد فاستأمنوا إليه وملكها آخر يوم من جمادى لثمانية أيام من حصارها وكان صاحب جبيل أسير بدمشق فضمن لئانها تسليم جبيل لصلاح الدين على أن يطلقه فاستدعاه وهو محاصر لبيروت وسلم الحصن وأطلقه وكان من أعيان الإفرنج وأولي الرأي منهم والله تعالى أعلم.

وصول المراكيش إلى صور وامتناعه بها

كان القمص صاحب طرابلس لما نجا من هزيمة لحق بمدينة صور وأقام بها يريد حايته ومنعها من المسلمين فلما ملك صلاح الدين نيس وصيدا وبيروت ضعف عزمه عن ذلك ولحق ببلده طرابلس وبقيت صيدا وصور بدون حامية وجاء المراكيش من تجار الإفرنج من المغرب في كثرة وقوة فارسي بعكا ولم يشعر بفتحها وخرج إليه الرائد فأخبره بمكان الأفضل بن صلاح الدين فيها وأن

ووصلوا من مكانهم لقصد المعسكر وعاد صلاح الدين إلى معسكره وبعثت المياه من حوالى الإفرنج وعطشوا ولم يتمكنوا من الرجوع فركبهم صلاح الدين دون قصدهم واشتدت الحرب وصلاح الدين يحول بين الصفوف يتفقد أحوال المسلمين ثم حمل القمص على ناحية تقي الدين عمر بن شاه حلة استمات فيها هو وأصحابه فأفرج له الصف وخلص من تلك الناحية إلى منجاته واختل مصاف الإفرنج وتابعوا الحملات وكان بالأرض هشيم أصابه شرر فاضطرم ناراً فجهدهم لفحها ومات جلهم من العطش فوهنوا وأحاط بهم المسلمون من كل ناحية فارتفعوا إلى تل بناحية حطين ليصبوا خيامهم به فلم يتمكنوا إلا من خيمة الملك فقط والسيف يحول فيهم مجالهم حتى فني أكثرهم ولم يبق إلا نحو المائة والخمسين من خلاصة زعمانهم مع ملكهم والمسلمون يكرون عليهم مرة بعد أخرى حتى ألغوا ما بأيديهم وأسروا الملك وأخاه البرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الفداوية وجماعة من الفداوية والاستبارية ولم يصابوا منذ ملكوا هذه البلاد أعوام التسعين والأربعمائة بمثل هذه الواقعة.

ثم جلس صلاح الدين في خيمته وأحضر هؤلاء الأسرى ففرق الملك ووجه بعد أن أجلسه إلى جانبه وفاء بمنصب الملك وقام إلى البرنس فتولى قتله بيده حرصاً على الوفاء بنذره بعد أن عرفه بغدرته وبجسارته على ما كان يرومه في الحرمين وحبس الباقين وأما القمص صاحب طرابلس فنجا كما ذكرناه إلى بلده ثم مات لأيام قلائل أسفاً ولما فرغ صلاح الدين من هزيمتهم نهض إلى طبرية فنازلها واستأمنت إليه الملكة بها فأمته في ولدها وأصحابها ومالها وخرجت إليه فوفى لها وبعث الملك وأعيان الأسرى إلى دمشق فحبسوا بها وجمع أسرى الفداوية والاستبارية بعد أن بذل لمن يجده منهم من المقاتلة خمسين ديناراً مصرية لكل واحد وقتلهم أجمعين.

قال ابن الأثير: ولقد اجتزت مكان الواقعة بعد سنة فرايت عظامهم ماثلة على البعد أجحفها السيول ومزقتها السباع.

ولما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها إلى عكا فنازلها واعتصم الإفرنج الذين بها بالأسوار وشادوا بالاستمات فأمتهم وخبرهم فاختاروا الرحيل فحملوا ما أثقله رحالهم ودخلها صلاح الدين غرة جمادى سنة ثلاث وثمانين وصلوا في جامعها القديم الجمعة يوم دخولهم فكانت أول جمعة أقيمت بساحل الشام بعد استيلاء الإفرنج عليه وأقطع صلاح الدين بلد عكا لابنه الأفضل وجميع ما كان فيه للفداوية من أقطاع وضياح ووهب للفقهاء عيسى الهكاري كثيراً مما عجز الإفرنج عن حمله وقسم الباقي على

المفتحة عليهم وقد اجتمعوا كلهم بالقدس واستماتوا للدين وبعد الصريخ وأكثروا الاستعداد ونصبوا المجانيق من داخله وتقدم إليه أمير من المسلمين فخرج إليه الإفرنج فأوقعوا به وقتلوه في جماعة ممن معه وفجع المسلمون بقتله وساروا فنزلوا على القدس متصف رجب وهلم ككرة حمايته وطاف بهم صلاح الدين خمسة أيام فتحيز متبواً عليه للقتال حتى اختار جهة الشمال نحو باب العمود وكنيسة صهيون فتحول إليه ونصب المجانيق عليها واشتد القتال وكان كل يوم يقتل بين الفريقين خلق وكان ممن استشهد عز الدين عيسى بن مالك من أكابر أمراء بني بدران وأبوه صاحب قلعة جبر فأسف المسلمون لقتله وحملوا عليهم حتى أزالوهم عن مواقعهم وأحجروهم بالبلد وملكوا عليهم الخندق ونقبوا السور فوهن الإفرنج واستأمنوا لصلاح الدين فأبى إلا العنة كما ملكه الإفرنج أول الأمر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة فاستأمن له الباب ابن نيزران صاحب الرملة وخرج إليه وشافهه بالاستئمان واستعطفه فأصر على الامتناع فتهدهه بالاستماتة وقتل النساء والأبناء وحرق الأمتعة وتخريب المشاعر العظيمة واستلحاح أسرى المسلمين وكانوا خمسة آلاف أسير واستهلاك جميع الحيوانات الداجنة بالقدس من الظهر وغيره.

فحينئذ استشار صلاح الدين أصحابه فجنحوا إلى تأمينهم فشارطهم على عشرة دنارين للرجل وخمسة للمرأة ودنارين للولد صبي أو صبية وعلى أجل أربعين يوماً فمن تأخر أداؤه عنها فهو أسير وبذل يليان ابن نيزران عن قفراء أهل ملته ثلاثين ألف دينار وملك صلاح الدين المدينة يوم الجمعة لتسع وعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره وكان يوماً مشهوداً ورتب على أبواب القدس الأمان لقبض هذا المال ولم يبن الأمر فيه على المشاحة فذهب أكثرهم دون شيء وعجز آخر الأمر ستة عشر ألف نسمة فاخذوا أسارى وكان فيه على التحقيق ستون ألف مقاتل غير النساء والولدان فإن الإفرنج أرزوا إليه من كل جانب لما افتحت عليهم حصونهم وقلعهم.

ومن الدليل على مقاربة هذا العدد أن يليان صاحب الرملة أعطى ثلاثين ألف دينار على ثمانية عشر ألفاً وعجز منهم ستة عشر ألفاً وأخرج جميع الأمراء خلقاً لا تحصي في زي المسلمين بعد أن يشارطهم على بعض القطيعة واستوهب آخرون جوعاً منهم يأخذون قطيعتهم فوهبهم ليأهم وأطلق بعض نساء الملوك من الروم كانوا مترهبات فاطلقهم بعيدهم وحشهم وأمواهم وكذا ملكة القدس التي أسر صلاح الدين زوجها ملك الإفرنج بسببها وكان محبوساً بقلعة نابلس فاطلقها بجميع ما معها ولم يحصل من

صور وعسقلان باقية للإفرنج فلم يطق الإقلاع إليهما لركود الرياح فشغلهم بطلب الأمان ليدخل المرسى ثم طابت ريحه وجرت به إلى صور وأمر الأفضل بخروج الشواني في طلبه فلم يدركوه حتى دخل مرسى صور فوجد بها أخلاطاً كثيرة من فل الحصون المفتحة فجأؤوا إليه وضمن لهم حفظ المدينة وبذل أمواله في الإنفاق عليها على أن تكون هي وأعمالها له دون غيره واستحلفهم على ذلك ثم قام بتدبير أحوالها وشرع في تحصينها فحفر الخنادق ورم الأسوار واستبد بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح عسقلان وما جاورها

ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وتلك الحصون صرف همته إلى عسقلان والقدس لعظم شأن القدس ولأن عسقلان مقطع بين الشام ومصر فسار عن بيروت إلى عسقلان ولحق به أخوه العادل في عساكر مصر ونازها أوائل جمادى الأخيرة واستدعى ملك الإفرنج ومقدم الرابية وكانا أسيرين بدمشق فأحضرهما وأمرهما بالإذن للإفرنج بعسقلان في تسليمها فلم يجيبوا إلى ذلك وأسأؤوا الرد عليهما فاشتد في قتالهم ونصب المجانيق عليهم، وملكهم يردد الرسائل إليهم في التسليم عساه ينطلق ويأخذ بالثأر من المسلمين فلم يجيبوه.

ثم جهدهم الحصار وبعد عليهم الصريخ فاستأمنوا إلى صلاح الدين على شروط اشترطوها كان أهمها عندهم أن يمنهم من المهرانية بما قتلوا أسيرهم في الحصار فأجابهم إلى جميع ما اشترطوه وملك المدينة منتصف السنة لأربعة عشر يوماً من حصارها وخرجوا بأهلهم وأمواهم وأولادهم إلى القدس ثم بعث السرايا في تلك الأعمال ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومدن الخليل وبيت لحم والنظرون وكل ما كان للفدائية وكان أيام حصار عسقلان قد بعث عن أسطول مصر فجاء به حسام الدين لؤلؤ الحاجب وأقام بغير على مرسى عسقلان والقدس ويغتم جميع ما يقصده من النواحي والله سبحانه وتعالى يؤيد من يشاء بنصره.

فتح القدس

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها سار إلى بيت المقدس وبها البطرك الأعظم ويليان بن نيزران صاحب الرملة وريسة قرية الملك ومن نجا من زعمائهم من حطين وأهل البلد

القطيعة على خراج.

على مكان القتال وجعل القتال على أقبال عسكره نوباً بين ابنه الأفضل وابنه الظاهر وأخيه العادل وابن أخيه تقي الدين ونصب عليها المجانيق والعرادات.

وكان الإفرنج يركبون في الشواني والحراقات ويأتون المسلمين من ورائهم فيرمون عليهم من البحر ويقاتلونهم ويمنعونهم من الدنو إلى السور فبعث صلاح الدين عن أسطول مصر من مرسى عكا فجاء ودافع الإفرنج وتمكن المسلمون من قتال الأسوار وحاصروها براً وبحراً ثم كبس أسطول الإفرنج خمسة من أساطيل المسلمين ففتكوا بهم ورد صلاح الدين الباقي إلى بيروت لقلتها فاتبعها أساطيل الإفرنج فلما أرهقوهم في الطلب ألقوا بأنفسهم إلى الساحل وتركوها فحكمها صلاح الدين ونقضها وجد في حصار صور فلم يقد وامتنعت عليه لما كان فيها من كثرة الإفرنج الذين أمنهم بعكا وعسقلان والقدس فنزلوا إليها بأموالهم وأمدوا صاحبها واستدعوا الإفرنج وراء البحر فوعدهم بالنصر وأقاموا في انتظارهم ولما رأى صلاح الدين امتناعها شاور أصحابه في الرحيل فترددوا وتحاذلوا في القتال فرحل آخر شوال إلى عكا وأذن للعساكر في المشي إلى أوطانهم إلى فصل الربيع وعادت عساكر الشرق والشام ومصر وأقام بقلعة عكا في خواصه ورد أحكام البلد إلى خرديك من أمراء نور الدين وكان صلاح الدين عندما اشتغل بحصار عسقلان بعث عسكراً لحصار صور فشدوا حصارها وقطعوا عنها الميرة وبعثوا إلى صلاح الدين وهو يحاصر صور فاستأمنوا له ونزلوا عنها فملكها.

وكان أيضاً صلاح الدين لما سار إلى عسقلان جهز عسكراً لحصار قلعة كوكب يحرسون السابلة في طريقها من الإفرنج الذين فيها وهي مظلة على الأردن وهي للإسبانية وجهز عسكراً لحصار صفد وهي للفداوية مظلة على طبرية ولجأ إلى هذين الحصنين من سلم من وقعة حطين وامتنعوا بهما فلما جهز العساكر إليهما صلحت الطريق وارتفع منها الفساد فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الموكلون بالحصار على قلعة كوكب وكانت ليلة شاتية باردة فكبسهم الإفرنج ونهبوا ما عندهم من طعام وسلاح وعادوا إلى قلعتهم وبلغ ذلك صلاح الدين وهو يعتزم على الرحيل عن صور فشذ من عزمته ثم جهز عسكراً على صور مع الأمير قايماز النجمي وارتحل إلى عكا فلما انصرم فصل الشتاء سار من عكا في محرم سنة أربع وثمانين إلى قلعة كوكب فحاصرها وامتنت عليه ولم يكن بقي في البلاد الساحلية من عكا إلى الجنوب غيرها وغير صفد والكرك فلما امتنت عليه جهز العسكر لحصارها مع قايماز النجمي ورحل عنها في ربيع الأول إلى

وخرج البطرك الأعظم بما معه من ماله وأموال البيع ولم يتعرض له وجاءته امرأة البرنس صاحب الكرك الذي قتله يوم حطين تشفع في ولدها وكان أسيراً فبعثها إلى الكرك لتأذن الإفرنج في النزول عنه للمسلمين وكان على رأسه قبة خضراء لها صليب عظيم مذهب وتسلى جماعة من المسلمين إليه واقتلعوه وارتحلت الأرض بالتكبير والعويل ولما خلا القدس من العدو أمر صلاح الدين برد مشاعره إلى أوضاعها القديمة وكانوا قد غيرها فاعيدت إلى حالها الأول وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأذكار فطهروا ثم صلى المسلمون الجمعة الأخرى في قبة الصخرة وخطب محيي الدين بن زكي قاضي دمشق بأمر صلاح الدين وأتى في خطبته بعجائب من البلاغة في وصف الحال وعظمة الإسلام اقشعرت لها الجلود وتناقلها الرواة وتحدثت بها السمار أحوالاً ثم أقام صلاح الدين بالمسجد للصلوات الخمس إماماً وخطيباً وأمر بعمل المنبر له فتحدثوا عنده بأن نور الدين محموداً أخذ له منبراً منذ عشرين سنة وجمع الصناع مجلب فأحسنوا صناعته في عدد سنين فأمر بمجمله ونصبه بالمسجد الأقصى ثم أمر بعمارة المسجد واقتلاع الرخام الذي فوق الصخرة لأن القسيسين كانوا يبيعون الحجر من الصخرة ينحتونها نحتاً ويبيعونها بالذهب وزناً بوزن فتنافس الإفرنج فيها التماس البركة منها ويدعونها في الكنائس فخشي ملوكهم أن تغنى الصخرة فعالوا عليها بقرش الرخام فأمر صلاح الدين بقلعه.

ثم استكثر في المسجد من المصاحف ورتب فيه القراء ووفر لهم الجرايات وتقدم ببناء الربط والمدارس فكانت من مكارمه رحمه الله تعالى وارتحل الإفرنج بعد أن باعوا جميع ما يملكونه من العقار بأرخص ثمن واشترأه أهل العسكر ونصارى القدس الأقدمون بعد أن ضربت عليهم الجزية كما كانوا والله تعالى أعلم.

حصار صور ثم صفد وكوكب والكرك

لما فتح صلاح الدين القدس أقام بظاهره إلى آخر شعبان من السنة حتى فرغ من جميع أشغاله ثم رحل إلى مدينة صور وقد اجتمع فيها من الإفرنج عوالم وقد نزل بها المركيش وضبطها ولما انتهى صلاح الدين إلى عكا أقام بها أياماً فبالغ المركيش في الاستعداد وتعميق الخنادق وإصلاح الأسوار وكان البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها فوصل جانب اليمين بالشمال وصارت كالجزيرة وسار إليها فنزل عليها لتسع بقين من رمضان على تل يشرف منه

دمشق ووافته رسل أرسلان وفرح الناس بقدومه واللّه تعالى ولي التوفيق.

غزو صلاح الدين إلى سواحل الشام وما فتحه من حصونها وصلحه آخرأ مع صاحب أنطاكية

لما رجع صلاح الدين من فتح القدس وحاصر صور وصدد وكوكب عاد إلى دمشق ثم تجهز للغزو إلى سواحل الشام وأعمال أنطاكية وسار عن دمشق في ربيع سنة أربع وثمانين فنزل على حمص واستدعى عساكر الجزيرة وملوك الأطراف فاجتمعوا إليه وسار إلى حصن الأكراد فضرب عسكره هنالك ودخل متجراً إلى القلاع بناوحي أنطاكية فنقض طرفها وأغار على ولايتها إلى طرابلس حتى شفى نفسه من ارتيادها وعاد إلى معسكره فجرت الأرض بالغنائم فأقام عند حصن الأكراد ووفد عليه هنالك منصور بن نبيل صاحب جبلة.

وكان من يوم استيلاء الإفرنج على جبلة عند صاحب أنطاكية حاكماً على جميع المسلمين فيها ومتولياً أمور سمند فلما هبت ريح الإسلام بصلاح الدين وظهوره نزل إليه ليكشف الغماء ودله على عورة جبلة واللاذقية واستحثه لهما فسار أول جمادى ونزل بطرطوس وقد اعتمد الإفرنج منها ببرجين حصينين واخلوا المدينة فخرّبوها واستباحوها وكان أحد الحصنين للفداوية فيه مقدمتهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف وأطلقه عند فتح القدس واستأمن إليه أهل البرج الآخر ونزلوا له عنه فخربه صلاح الدين وألقى حجارته في البحر وامتنع عليه برج الفداوية فسار إلى المرقب وهو للاستتارية ولا يرم لعلوه وارتفاعه وامتناعه والطريق في الجبل إلى جبلة عليه فهو عن يمين الطريق والبحر عن يساره في مسلك ضيق إنما يمر به الواحد تلو الواحد.

فتح جبلة

وكان وصل أسطول من صاحب صقلية مدداً للإفرنج في تلك السواحل في ستين قطعة فأرسوا بطرابلس فلما سمعوا بصلاح الدين أقبلوا إلى المغرب ووقفوا قبالتها ينضحون بسهامهم المارة بتلك الطريق فضرب صلاح الدين على ذلك الطريق سوراً من جهة البحر من المارس ووقف وراء الرماة حتى سلك العسكر المضيق إلى جبلة ووصلها آخر جمادى وسبق إليها القاضي

وملكها صلاح الدين لحينه ورفع أعلام الإسلام على سورها ونفى حاميتها إلى القلعة فاستنزلهم القاضي على الأمان واستمر منهم جماعة في رهن القاضي والمسلمين عند صاحب أنطاكية حتى أطلقهم وجاء رؤساء أهل البلد إلى طاعة صلاح الدين وهو بجبل ما بين جبلة وحماة وكان الطريق عليه بينهم صعباً ففتح صلاح الدين من ذلك الوقت واستناب بجبله سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها لللاذقية واللّه تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

فتح اللاذقية

ولما فرغ صلاح الدين من أمر جبلة سار إلى اللاذقية فوصلها آخر جمادى الأولى وامتنع حاميتها بمحصنين لها في أعلى الجبل وملك المسلمون المدينة وحصروا الإفرنج في القلعين وحفروا تحت الأسوار وأيقن الإفرنج بالهلكة ودخل إليهم قاضي جبلة ثالث نزولها فاستأمنوا معه وأمنهم صلاح الدين ورفعوا أعلام الإسلام في الحصنين وخرب المسلمون المدينة وكانت مبانيها في غاية الوثاق والضخامة وأقطعها لقي الدين ابن أخيه فأعادها إلى أحسن ما كانت من العمارة والتحصين وكان عظيم الهمة في ذلك وكان أسطول صقلية في مرسى اللاذقية وسخطوا ما فعله أهلها ومنعوه من الخروج منها وجاء مقدمهم إلى صلاح الدين فرغب منه بإقامتهم على الجزية وعرض في كلامه بالتهديد بإمداد الإفرنج من وراء البحر فأجابه صلاح الدين باستهانة أمر الإفرنج وهذه فانصرف إلى أصحابه ورحل صلاح الدين إلى صهيون واللّه تعالى أعلم.

فتح صهيون

ولما فرغ صلاح الدين من فتح اللاذقية سار إلى قلعة صهيون وهي على جبل صعبة المرتقي بعيدة المهوى يحيط بجبلها واد عميق ضيق ويتصل بالجبل من جهة الشمال وعليها خمسة أسوار وخندق عميق فنزل صلاح الدين على الجبل لضيقها وقدم ولده الظاهر صاحب حلب فنزل مضيق الوادي ونصب المنجنيقات هنالك فرمى بها على الحصن ونضحهم بالسهم من سائر أصناف القسي وصابروا قليلاً.

ثم زحف المسلمون ثاني جمادى الأخرى وسلخوا بين الصخور حتى ملكوا أحد أسوارها وقاتلوه منه فملكوا عليهم سورين آخرين وغنموا جميع ما كان في البلد من الدواب والبقر

صاحب سنجار وأصعدهم إلى قلعتهم حتى صعب المرتقى على المسلمين وبلغوا مواقع سهامهم وحجارتهم من الحصن وكانوا يدحرجون الحجارة على المقاتلة فلا يقوم لها شيء فلما تعب أهل هذه النوبة عادوا وصعد خاصة صلاح الدين فقاتلوا قتالاً شديداً وصلاح الدين وتقي الدين ابن أخيه يحرضانهم حتى أعيوا وهموا بالرجوع فصاح فيهم صلاح الدين وفي أهل النوبة الثانية فتلاحقوا بهم وجاء أهل نوبة عماد الدين على أثرهم وحشي الوطيس ورد الإفرنج على أعقابهم إلى حصنهم فدخلوه ودخل المسلمون معه.

وكان بقية المسلمين في الخيام شرقي الحصن وقد أهمله الإفرنج فعمد أهل الخيام من تلك الناحية واجتمعوا مع المسلمين في أعقاب الإفرنج عند الحصن فملكوه عنوة وجاء الإفرنج إلى قبة الحصن ومعهم جماعة من أسارى المسلمين في القيود فلما سمعوا تكبير إخوانهم خارج القبة كبروا فدهش الإفرنج وظنوا أن المسلمين خالطوهم فألقوا باليد وأسرهم المسلمون واستباحوهم وأحرقوا البلد وأسروا صاحبها وأهله وولده وافترقوا في أسراهم فجمعهم صلاح الدين حتى إذا قارب أنطاكية بعثهم إليها لأن زوجة صاحب أنطاكية كانت ترأسل صلاح الدين بالأخبار وتهاديه فرعى لها ذلك والله تعالى ولي التوفيق.

فتح دريساك

ولما فرغ صلاح الدين من حصن برزية دخل من الغد إلى الجسر الجديد على نهر العاصي قرب أنطاكية فأقام عليه فلحق به فخلف العسكر ثم سار إلى قلعة دريساك ونزل عليها في رجب من السنة وهي معاقل الفداوية التي يلجأون إلى الاعتصام بها ونصب عليها المجانيق حتى هدم من سورها ثم هجمها بالزحف وكشف المقاتلة عن سورها ونقبوا منها برجاً من أسفله فسقط ثم باكروا الزحف من الغد وصابروهم الإفرنج ينتظرون المدد من صاحبهم سمند صاحب أنطاكية فلما تبينوا عجزه استأمنوا صلاح الدين فأمّنهم في أنفسهم فقط وخرجوا إلى أنطاكية وملك الحصن في عشرين من رجب من السنة والله تعالى أعلم.

فتح بغراس

ثم سار عماد الدين عن دريساك إلى قلعة بغراس على تعددها وقربها من أنطاكية فيحتاج مع قتلها إلى ردة من العسكر بينه وبين أنطاكية فحاصرها ونصب عليها المجانيق فقصرت عنها

والذخائر ولجأ الحامية إلى القلعة وقتلهم المسلمون عليها فنادوا بالأمان فشرط عليهم مثل قطعة القدس وملك المسلمون الحصن وولي عليه ناصر الدين بن كورس صاحب قلعة بوفلس فحضره وافترق المسلمون في تلك النواحي فوجدوا الإفرنج قد فروا من حصونها فملكوها جميعاً وهيؤوا إليها طريقاً على عقبة صعبة لعفاء طريقها السهلة بالإفرنج والإسماعيلية والله تعالى أعلم.

فتح بكاس والشفر

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى إلى قلعة بكاس وقد فارقها الإفرنج وتحصنوا بقلعة شفر فملك بكاس وحاصر قلعة الشفر والطريق منها مسلوكة إلى اللاذقية وجبله وصهيون فقاتلهم ونصب المتجنقات عليها فقصرت حجارتها عن الوصول وكانوا تمنعوا ويعشوا خلال ذلك إلى صاحب أنطاكية وكان الحصن من إيالته فاستمدوه وإلا أعطوا الحصن بما قذف الله في قلوبهم من الرعب فلما قعد عن نصرهم استأمنوا إلى صلاح الدين وسألوه إنظار ثلاث للفتح فانظرهم وأخذ رهنهم ثم سلموه بعد الثلاث في منتصف جمادى من السنة والله تعالى أعلم.

فتح سرمين

كان صلاح الدين عند اشتغاله بفتح هذه الحصون بعث ابنه الظاهر غازياً صاحب حلب إلى سرمين وحاصرها واستنزل الإفرنج الذين بها على قطعة أعطاها وهدم الحصن وكان فتحه آخر جمادى الأخيرة فانطلق جماعة من الأسارى كانوا بهذا الحصن وكانت هذه الفتوحات كلها في مقدار شهر وجميعها من أعمال أنطاكية والله تعالى أعلم.

فتح برزية

ولما فرغ صلاح الدين من قلعة الشفر إلى قلعة برزية قبالة أقامية وتقاسمها في أعمالها وبينهما بحيرة من ماء العاصي والعيون التي تجري وكانوا أشد شيء في الأذى للمسلمين فنازلها في الرابع والعشرين من جمادى الأخيرة وهي متعذرة المصعد من الشمال والجنوب وصعبته من الشرق وبجهة الغرب مسلكت إليها فنزل هنالك صلاح الدين ونصب المجانيق فلم تصل حجارتها لبعد القلعة وعلوها فرجع إلى المزاخرة وقسم عساكره على أمرائها وجعل القتال بينهم نوباً فقاتلهم أولاً عماد الدين زنكي بن مودود

فتح كوكب

لما كان صلاح الدين على صفد خافه الإفرنج على حصن كوكب فبعثوا إليه نجدة وكان قايماز النجمي يحاصره فشعر بتلك النجدة وركب إليهم وهم مختفون ببعض الشعاب فكبسههم ولم يفلت منهم أحد وكان فيهم مقدمان من الاسبتارية فحملها إلى صلاح الدين على صفد فأحضرهما للقتل على عادته في الفداوية والاسبتارية فاستعطفه واحد منهما فعفا عنهما وحبسهما ولما فتح صفد سار إلى كوكب وحاصره وأرسل إليهم بالأمان فاصروا على الامتناع عليه فنصب عليهم المجانيق وتابع المزاخفة ثم عاقه المطر عن القتال وطال مقامه فلما انقضى المطر عاود المزاخفة وضايقهم بالسور ونقب منه برجاً فسقط فارتاعوا واستأمنوا وملك الحصن منتصف ذي القعدة من السنة ولحق الإفرنج بصور واجتمع الزعماء وتابعوا الرسل إلى إخوانهم وراء البحر في حوزة يستصرونهم فتابعوا إليهم المدد واتصل المسلمون في الساحل من أيلة إلى بيروت لا يفصل بينهم إلا مدينة صور ولما فرغ صلاح الدين من صفد وكوكب سار إلى القدس ففضى فيه نسك الأضحى ثم سار إلى عكا قام بها إلى انسلاخ الشتاء واللّه تعالى أعلم.

فتح الشقيف

ثم سار صلاح الدين في ربيع سنة خمس وثمانين إلى محاصرة الشقيف وكان لأرناط صاحب صيدا وهو من أعظم الناس مكرأ ودهاء فلما نزل صلاح الدين بمرج العيون جاء إليه وأظهر له الحجة والميل وطلب المهلة إلى جمادى الأخيرة ليتخلص أهله وولده من المركيش بصور ويسلم له حصن الشقيف فأقام صلاح الدين هنالك لوعده وانقضت مدة الهدنة بينه وبين سمند صاحب أنطاكية فبعث تقي الدين ابن أخيه مسلحة في العساكر إلى البلاد التي قرب أنطاكية ثم بلغه اجتماع الإفرنج بصور عند المركيش وأن الأمداد وافتهم من أهل ملتهم وراء البحر وأن ملك الإفرنج بالشام الذي أطلقه صلاح الدين بعد فتح القدس قد اتفق مع المركيش ووصل يده به واجتمعوا في أمم لا تحصى وخشي أن يتقدم إليهم ويترك الشقيف وراءه فتقطع عنه الميرة فأقام بمكانه.

فلما انقضى الأجل تقدم إلى الشقيف واستدعى أرناط فجاء واعتذر بأن المركيش لم يمكنه من أهله وولده وطلب الإمهال مرة أخرى فتيين صلاح الدين مكره فحبسه وأمره أن يبعث إلى أهل

لعلوها وشق عليهم حمل الماء إلى أعلى الجبل وبينما هم في ذلك إذا جاء رسولهم يستأمن لهم فأمّنهم في أنفسهم فقط كما أمّن أهل ذريساك وتسلم القلعة بما فيها وخربها فجددها ابن اليون صاحب الأرمن وحصنها وصارت في أيالته واللّه أعلم.

صلح أنطاكية

ولما فتح حصن بغراس خاف سمند صاحب أنطاكية وأرسل إلى صلاح الدين في الصلح على أن يطلق أسرى المسلمين الذين عنده وتحامل عليه أصحابه في ذلك ليربح الناس ويستعدوا فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك لثمانية أشهر من يوم عقد الهدنة وبعث إليه من استخلفه وأطلق الأسرى وكان سمند في هذا الوقت عظيم الإفرنج متسع المملكة وطرابلس وأعمالها قد صارت إليه بعد القمص واستخلف فيها ابنه الأكبر وعاد صلاح الدين إلى حلب فدخلها ثالث شعبان من السنة وانطلق ملوك الأطراف بالجزيرة وغيرها إلى بلادهم ثم رحل إلى دمشق وكان معه أبو فليته قاسم بن مهنا أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وآتم التسليم قد عسكر معه وشهد فتوحه وكان يتيمن بصحته ويتبرك برويته ويجتهد في تأنيسه وتكرمه ويرجع إلى مشورته ودخل دمشق أول رمضان من السنة وأشير عليه بتفريق العساكر فأبى وقال: هذه الحصون كوكب وصفد والكرك في وسط بلاد الإسلام فلا بد من البدار إلى فتحها. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

فتح الكرك

كان صلاح الدين قد جهز العساكر على الكرك مع أخيه العادل حتى سار إلى ذريساك وبغراس وأبعد في تلك الناحية فشد العادل حصارها حتى جهدوا وفنيت أقواتهم فراسلوه في الأمان فأجابهم وسلموا القلعة فملكها وملك الحصون التي حوالها وأعظمها الشوك وأمنت تلك الناحية واتصلت بإالة المسلمين من مصر إلى القدس واللّه تعالى أعلم.

فتح صفد

لما عاد صلاح الدين إلى دمشق أقام بها نصف رمضان ثم تجهز لخصار صفد فنزل عليها ونصب المجانيق وكانت أقواتهم قد تسلط عليها الحصار الأوّل فهاقوا من نفاذها فاستأمنوا فأمّنهم وملكها ولحقوا بمدينة صور واللّه تعالى أعلم.

وقسيسهم وزعمائهم السواد حزناً على البيت المقدس وارتحل بطرك من القدس وهم معه يستصرخون أهل الملة النصرانية من وراء البحر للأخذ بثار القدس فخرجوا للجهاد من كل بلد حتى النساء اللواتي يجدن القوة على الحرب ومن لم يستطع الخروج استأجر مكانه وبذلوا الأموال لهم وجاء الإفرنج من كل مكان ونزلوا بصور ومدد الرجال والأقوات والأسلحة متدركة لهم في كل وقت وانتفقوا على الرحيل إلى عكا ومحاصرتها فخرجوا ثامن رجب من سنة خمس وثمانين وسلكوا على الطريق الساحل وأساطيلهم تحاذيهم في البحر ومسلحة المسلمين تتخطفهم من جوانبهم حتى وصلوا إلى عكا متتصف رجب وكان رأي صلاح الدين أن يحاذيهم في سيرهم لينال منهم فخالفه أصحابه واعتذروا بضيق الطريق ووعره فسلك طريقاً آخر ووافاهم على عكا وقد نزلوا عليها وأحاطوا بها من البحر إلى البحر فليس للمسلمين إليها طريق.

ونزل صلاح الدين الدين قبالتهم وبعث إلى الأطراف يستنفر الناس فجاءت عساكر الموصل وديار بكر وسنجار وسائر بلاد الجزيرة وجاء تقي الدين ابن أخيه من حماة ومظفر الدين كوكبري من حران والرها وكانت أمداد المسلمين تصل في البر وأمداد الإفرنج في البحر وهم محصورون في صور وكانت بينهم أيام مذكورة ووقائع مشهورة وأقام السلطان بقية رجب لم يقاتلهم فلما استهل شعبان قاتلهم يوماً بكماله ويات الناس على تعبئة ثم صبحهم بالقتال ونزل بالصبر وحمل عليهم تقي الدين ابن أخيه منتصف النهار من الميمة حملة أزالته عن مواقمهم وملك مكانهم واتصل بالبلد فدخلها المسلمون وشحنها صلاح الدين بالمدد من كل شيء وبعث إليهم الأمير حسام الدين أبا الهيثم السمين من أكابر أمرائه من الأكراد الخطية من إربل ثم نهض المسلمون من الغد فوجدوا الإفرنج قد أداروا عليهم خندقاً يمتنعون به ومنعواهم القتال يومهم وأقاموا كذلك ومع السلطان أحياء من العرب فكمنوا في معاطف النهر من ناحية الإفرنج على الساحل للخطف منهم وكبسوهم منتصف شعبان وقتلوهم وجاؤوا برؤوسهم إلى صلاح الدين فأحسن إليهم والله تعالى أعلم.

الشقيف بالتسليم فلم يجب فبعث به إلى دمشق فحبس بها وتقدم إلى الشقيف فحاصره بعد أن أقام مسلحة قبالة الإفرنج الذين بظاهر صور فجاءه الخبر بأنهم فارقوا صور لحصار صيدا فلقيتهم المسلحة وقاتلوهم فغلبوهم وأسروا سبعة من فرسانهم وقتلوا آخرين وقتل مولى لصلاح الدين من أشجع الناس وردوهم على أعقابهم إلى معسكرهم بظاهر صور وجاء صلاح الدين بعد انقضاء الواقعة فأقام في السلحة رجاء أن يصادف أحداً من الإفرنج فينتقم منهم وركب في بعض الأيام ليشارف معسكر الإفرنج فظن عسكره أنه يريد القتال فنجعوا وأوغلوا إلى العدو.

وبعث صلاح الدين الأمراء في أثرهم يردونهم فلم يرجعوا ورآهم الإفرنج فظنوا أن وراءهم كميناً فأرسلوا من يكشف خبرهم فوجدوهم منقطعين فحملوا عليهم وأناموهم جميعاً وذلك ناسع جمادي الأولى من السنة، ثم انحدر إليهم صلاح الدين في عساكره من الجبل فهزمهم إلى الجسر وغرق منهم في البحر نحو من مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على حصارهم واجتمع إليه الناس ثم عاد الإفرنج إلى صور وعاد السلطان إلى بليس ليشارف عكا ويرجع إلى خيمه.

ولما وصل إلى المعسكر جاء الخبر بأن الإفرنج يتعدون عن صدور مذاهبهم لحاجاتهم فكتب إلى المعسكر بعكا ووعدهم ثامن جمادي الأخيرة يوافونه من ناحيتهم للإغارة عليهم وأكمن لهم في الأودية والشعاب من سائر النواحي واختار جماعة من فرسان عسكره وتقدم إليهم بأن يتعرضوا للإفرنج ثم يستردوا لهم إلى مواضع الكميناء ففعلوا وناشبو الإفرنج وأنشوا من الاستطراد وطال على الكميناء الانتظار فخرجوا خشية على أصحابهم فوافوهم في شدة الحرب فانهمز المسلمون ووقع التمهيص وكان أربعة في الكمين من أمراء طيئ فعدلوا عن طريق أصحابهم وسلكوا الوادي وتبعهم بعض العسكر من موالى صلاح الدين ورآهم الإفرنج في الوادي فعلموا أنهم أضلوا الطريق فاتبعوهم وقتلوهم والله تعالى أعلم.

محاصرة الإفرنج أهل صور لعكا والحروب

عليها

كان صلاح الدين قد بعث عن عسكر مصر وبلغ الخبر الإفرنج فأرادوا معالجته قبل وصولهم وكانت عساكره متفرقة في المسالح على الجهات فمسلحة تقابل أنطاكية وملكها سمند في

كانت صور كما قدمنا ضبطها المراكيش من الإفرنج الواصل من وراء البحر وقام بها وكان كلما فتح صلاح الدين مدينة أو حصناً على الأمان لحق أهلها بصور فاجتمع بها عدد عظيم من الإفرنج وأموال حمة ولما فتح القدس لبس كثير من رهبانهم

أصحابه بإرسال العساكر ليمنع من التحصين فامتنع من ذلك لمرضه فتم للإفرنج ما أرادوه وأهل عكا يخرجون إليهم في كل يوم ويقاتلونهم والله تعالى أعلم.

معاودة صلاح الدين حصار الإفرنج على

عكا

ثم وصل العادل أبو بكر بن أيوب منتصف شوال في عساكر مصر ومعه الجم الغفير من المقاتلة والأصناف الكثيرة من آلات الحصار ووصل على أثره أسطول مصر مع الأمير لؤلؤ وكبس مركباً فغنم ما فيه ودخل به إلى عكا وبرىء صلاح الدين من مرضه وأقام بمكانه بالجزيرة إلى انسلاخ الشتاء وسمع الإفرنج أن صلاح الدين سار إليهم واستقلوا مسلحة المسلمين عندهم فزحفوا إليهم في صفر سنة ست وثمانين واستمات المسلمون وقتل بين الفريقين خلق وبلغ الخبر بذلك صلاح الدين وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماة فتقدم من الجزيرة إلى تل كيسان وتابع القتال على الإفرنج يشغلهم عن المسلمين فكانوا يقاتلون الفريقين.

وكان الإفرنج مدة مقامهم على عكا قد صنعوا ثلاثة أبراج من الخشب ارتفع كل برج ستون ذراعاً وفيه خمس طبقات وغشوها بالجلود وطلوها بالأدوية التي لا تعلق النار بها وشحنوها بالمقاتلة وأدونها إلى البلد من ثلاث جهات في العشرين من ربيع الأول سنة ست وثمانين وأشرفوا بها على السور فكشف من عليه من المقاتلة وشرع الإفرنج في طم الخندق وبعث أهل عكا ساجياً في البحر يصف لهم حالهم فركب في عساكره واشتد في قتال الإفرنج فخفف على أهل البلد ما كانوا فيه وأقاموا كذلك ثلاثة أيام يقاتلون الجهتين وعجزوا عن دفع الأبراج ورموها بالنفط فلم يؤثر فيها وكان عندهم رجل من أهل دمشق يعاني أحوال النفط فأخذ عقاقير وصنعها وحضر عند قراقوش حاكم البلد وأعطاه دواء وقال: ارم بهذا في المنجنيق المقابل لإحدى الأبراج فيحترق فجرد عليه ثم وافق ورمي به في قدر ثم رمي بعده بقدر أخرى ملوثة ناراً فاضطربت النار واحترق البرج بمن فيه ثم فعل بالثاني والثالث كذلك.

وفرح أهل البلد وتخلصوا من تلك الورطة فأمر صلاح الدين بالإحسان إلى ذلك الرجل فلم يقبل وقال: إنما فعلته لله ولا أريد الجزاء إلا منه ثم بعث صلاح الدين إلى ملوك الأطراف ليستنفرهم فجاء عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ثم

البلاد التي من أعمال حلب ومسلحة بمحمص تحفظها من أهل طرابلس ومسلحة تقابل صور ومسلحة بدمياط والإسكندرية واعتزم الإفرنج على مهاجمتهم بالقتال ولم يشعروا بهم وصحبهم لعشرين من شعبان وركب صلاح الدين وعبي عساكره وقصدوا الميمنة وعليها بقي الدين ابن أخيه فتزحزح بعض الشيء وأمد صلاح الدين بالرجال من عنده فحطوا على صلاح الدين في القلب فتضعض واستشهد جماعة منهم الأمير علي بن مردان والظهير أخو الفقيه عيسى والي القدس والحاجب خليل الهكاري وغيرهم.

وقصدوا خيمة صلاح الدين فقتلوا من وزرائه ونهبوا واستشهد جمال الدين بن راحة من العلماء ووضعوا السيف في المسلمين وانهمز الذين كانوا حوالي الخيمة ولم تسقط وانقطع الذين ولوها من الإفرنج عن أصحابهم وراءهم وحملت مسيرة المسلمين عليهم فأحجموا إلى وراء الخنادق وعادوا إلى خيمة صلاح الدين فقتلوا كل من وجدوا عندها من الإفرنج وصلاح الدين قد عاد من اتباع أصحابه يردهم للقتال وقد اجتمعوا عليهم فلم يفلت منهم أحد وأسروا مقدم الفداوية فأمر بقتله وكان أطلقه مرة أخرى وبلغت عدة القتلى عشرة آلاف قاتلوا في النهر وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الأردن ورجع ومنهم من بلغ دمشق واتصل قتال المسلمين للإفرنج وكادوا يلجون عليهم معسكرهم ثم جاءهم الصريخ بنهب أموالهم وكان المنهزمون قد حملوا أنقلاهم فامتدت إليها أيدي الأوباش ونهبوها فكان ذلك مما شغل المسلمين عن استئصال الإفرنج وأقاموا في ذلك يوماً وليلة يستردون النهب من أيدي المسلمين ونفس بذلك عن الإفرنج بعض الشيء والله تعالى أعلم.

رحيل صلاح الدين عن الإفرنج بعكا

ولما انقضت هذه الوقعة وامتلات الأرض من جيوف الإفرنج تغير الهواء وأنتن وحدث بصلاح الدين قولنج كان يعاوده فأشار عليه أصحابه بالانتقال عسى الإفرنج يقتلوه وأن أقاموا عدنا إليهم وحمله الأطباء على ذلك فرحل رابع رمضان من السنة وتقدم إلى عكا بجياظتها وأعلمهم سبب رحيله فلما ارتحل اشتد الإفرنج في حصار عكا وأحاطوا بها دائرة مع أسطولهم في البحر وحفروا خندقاً على معسكرهم وأداروا عليهم سوراً من ترابه حصناً من صلاح الدين أن يعود إليهم ومسلحة المسلمين قبائلهم يناوشهم القتال فلا يقاتلونهم وبلغ ذلك صلاح الدين وأشار

منهم أحد وكان الملك قليج أرسلان يكتب صلاح الدين بأخبارهم ويعدده بمنعهم من العبور عليه فلما عبروا اعتذر بالعجز عنهم وافترق أولاده واستبداهم.

وأما صلاح الدين فإنه استشار أصحابه عند وصول خبرهم فأشار بعضهم إلى لقائهم في طريقهم ومحاربتهم وأشار آخرون بالمقام لئلا يأخذ الإفرنج عكا ومال صلاح الدين إلى هذا الرأي وبعث العساكر من جبلة واللاذقية وشيزر إلى حلب ليحفظوها من عاديتهم والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة المسلمين مع الإفرنج على عكا

ثم زحف الإفرنج على عكا في عشر من جمادى الأخيرة من سنة ست وثمانين وخرجوا من خنادقهم إلى عساكر صلاح الدين وقصد العادل أبو بكر بن أيوب في عساكر مصر فاقتلوا قتلاً شديداً حتى كشفهم الإفرنج عن الخيام وملكوها ثم كر عليهم المصريون فكشفوهم عن خيامهم وخالفهم بعض عساكر مصر إلى الخنادق فقطعوا عنهم بعض مدد أصحابهم فأخذتهم السيوف وقتل منهم ما يزيد على عشرين ألفاً.

وكانت عساكر الموصل قريباً من عسكر مصر ومقدمهم علاء الدين خوارزم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فعدمت ميرتهم وأمر صلاح الدين بمناجرتهم على هذا الحال وبلغه الخبر بموت ملك الألمان وما أصاب قومه من الشتات فسر المسلمون بذلك وظنوا وهن الإفرنج به ثم بعد يومين لحقت بالإفرنج إمداد في البحر مع كند من الكنود يقال له الكندھري ابن أخي الإفرنج وأين أخيه ملك إنكلطرية لأنه ففرق في الإفرنج أموالاً وجند لهم أجناداً ووعدهم بوصول الأمداد على أثره فاعتزموا على الخروج لقتال المسلمين فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الحزونة لثلاث بقين من جمادى الأخيرة لضيق المجال وتنن المكان من جيف القتلى ثم نصب الكندھري على عكا مجانيق وذبابات فأخذها أهل عكا وقتلوا عندها جموعاً من الإفرنج فلم يتمكن من متابعة ذلك ولا من إقامة السائر عليها لأن أهل البلاد كانوا يصيبنونها فعمل تلاً عالياً من التراب ونصب المجانيق من ورائه وضائق الأحوال وقتل الميرة.

وأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يبعث الأقوات في المراكب إلى عكا وبعث إلى بيروت بمثل ذلك فبعثوا مركباً ونصبوا فيها الصليبان يوهمون أنه للإفرنج حتى دخلوا إلى المرسى وجاءت بعد الميرة من الإسكندرية ثم جاءت ملكة من الإفرنج من وراء

علاء الدين بن طالب صاحب الموصل ثم عز الدين مسعود بن مودود وبعثه أبوه بالعساكر ثم زين الدين صاحب إربل وكان كل واحد منهم إذا وصل يتقدم بعسكره فيقاتلون الإفرنج ثم يضربون أبنيتهم وجاء الخبر بوصول الأسطول من مصر فجهز الإفرنج أسطولاً لقتاله وشغلهم صلاح الدين بالقتال ليتمكن الأسطول من دخول عكا فلم يشغلوا عنه وقاتلوا الفريقين براً وبحراً ودخل الأسطول إلى مرسى عكا سالماً والله تعالى أعلم بغيه.

وصول ملك الألمان إلى الشام ومهلكه

هؤلاء الألمان شعب من شعوب الإفرنج كثير العدد موصوف بالبأس والشدة وهم موطنون بمجزيرة إنكلطرية في الجهة الشمالية الغربية من البحر المحيط وهم حديثو عهد بالنصرانية ولما سار القس والربان بجزيرة بيت المقدس واستفار النصرانية لها قام ملكهم لها وقعد وجمع عساكره وسار للجهاد بزعمه وفسح النصراني له الطريق وقصد القسطنطينية فعجز ملك الروم عن منعه بعد أن كان يعد بذلك نفسه وكتب بها إلى صلاح الدين لكنه منع عنهم الميرة فضافت عليهم الأقوات وعبروا خليج القسطنطينية ومروا بمملكة قليج أرسلان وتبعهم التركمان يحفون بهم ويتخطفون منهم وكان الفصل شتاء والبلاد باردة فهلك أكثرهم من البرد والجوع.

ومروا بقونية وبها قطب الدين ملك شاه بن قليج أرسلان قد غلب عليه أولاده وافترقوا في النواحي فخرج ليصدهم فلم يطق ذلك ورجع فساروا في أثره إلى قونية وبعثوا إليه بهدية على أن يأذن لهم في الميرة فأذن لهم واسترهنوا عشرين من أمرائه وتكاثروا عليهم اللصوص فقيدوا أولئك الأمراء وحبسوهم وساروا إلى بلاد الأرمن وصاحبها كاقولي بن خطفاي بن اليون فأمدتهم بالأزواد والعلوفات وأظهر طاعتهم وسار إلى أنطاكية ودخل ملكهم ليغتسل في نهر هنالك فغرق وملك بعده ابنه ولما بلغوا أنطاكية اختلّفوا فبعضهم مال إلى تملك أخيه وبعضهم مال إلى العود فعادوا كلهم.

وسار ابن الملك فيمن ثبت معه يزيدون على أربعين ألفاً وأصابهم الموتان وحسن إليهم صاحب أنطاكية المسير إلى الإفرنج على عكا فساروا على جبلة اللاذقية ومروا بحلب وتحطفت أهلها منهم خلقاً وبلغوا طرابلس وقد أفتاهم الموتان ولم يبق منهم إلا نحو ألف رجل فركبوا البحر إلى عكا ثم رأوا ما هم فيه من الوهن والخلاف فركبوا البحر إلى بلدهم وغرقت بهم المراكب ولم ينج

مقدم الأسدية وابن جاولي وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة زين الدين صاحب إربل وولاية أخيه كوكبري

كان زين الدين يوسف بن زين الدين قد دخل في طاعة صلاح الدين وكانت له إربل كما مر لأيام أبيه وحران والرها لأخيه مظفر الدين كوكبري وكان يعسكر مع صلاح الدين في غزواته وحضر عنده على عكا فأصابه المرض وتوفي في ثامن عشر رمضان سنة أربع وثمانين فقبض أخوه مظفر الدين كوكبري على بلد أمير من أمرائه وبعث إلى صلاح الدين يطلب إربل وينزل عن حران والرها فأجابته وأقطعته إياهما وأضاف إليهما شهرزور وأعمالها ودار بند العرابلي وهي قفجاق وكتب أهل إربل بمجاهد الدين صاحب الموصل خوفاً من صلاح الدين مع أن مجاهد الدين كان عز الدين قد حبسه كما مر ثم أطلقه وولاه نائبه وجعل بعض غلمانه عيناً فكان يناقضه في كثير من الأحوال فقصده مجاهد الدين أن يفعل معه مثل ذلك في إربل فامتنع منها وولاهها مظفر الدين واستفحل أمره فيها.

ولما نزل مظفر الدين عن حران والرها ولاها صلاح الدين لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه مضافة إلى ميفارقين بديار بكر وحماة وأعمالها بالشام وتقدم له أن يقطع أعمالها للجند فيتقوى بهم على الإفرنج فسار تقي الدين إليها وقرر أمورها ثم انتهى إلى ميفارقين وتجدد له طمع فيما يجاورها من البلاد فقصده مدينة حال من ديار بكر وسار إليه سيف الدين بكتمر صاحب خلاط في عساكره وقاتله فهزمه تقي الدين ووطئ به بلاده وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رستق وزير سلطان شاكركين وجسه في قلعة هنالك فلما انهزم كتب إلى والي القلعة بقتله فوافاه الكتاب وتقي الدين محاصر له فلما ملك القلعة أطلق ابن رستق وسار إلى خلاط وحاصرها فامتنعت عليه فعاد عنها إلى ملاذكرد فضيق عليها حتى استأمنوا له وضرب لهم أجلاً في تسليم البلد ثم مرض ومات قبل ذلك الأجل بيومين وحمله ابنه إلى ميفارقين فدفنه بها واستقلحت دولة بكتمر في خلاط والله تعالى أعلم.

وصول إمداد الإفرنج من الغرب إلى عكا

ثم تابعت إمداد الإفرنج من وراء البحر لإخوانهم

البحر في نحو ألف مقاتل للجهاد بزعمها فأخذت ببحر الإسكندرية هي وجميع ما معها ثم كتب البابا كبير الملة النصرانية من كنيسة برومة يأمرهم بالصبر والجهاد ويغيرهم بوصول الإمداد وأنه راسل ملوك الإفرنج يحثهم على إمدادهم فأزادوا بذلك قوة واعتزموا على مناجزة المسلمين وجرؤوا عسكرياً لحصار عكا وارتحلوا حادي عشر شوال من السنة فنقل صلاح الدين أثقال العسكر إلى على ثلاثة فراسخ من عكا ولقي الإفرنج على التعبية.

وكان أولاده الأفضل علي والطاهر غازي والطاهر خضر في القلب وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة بعساكر مصر ومن انضم إليهم وعماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماة ومعر الدين سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمر في الميسرة وصلاح الدين في خيمة صغيرة على تل مشرف نصب له من أجل موضعه فلما وصل الإفرنج وعانوا كثرة المسلمين ندموا على مفارقة خنادقهم وابتأوا ليلتهم وعادوا من الغد إلى معسكرهم فأتبعوهم أهل المقدمة وتخطفوهم من كل ناحية وأحجروهم وراء خنادقهم.

ثم ناوشوهم القتال في الثالث والعشرين من شوال بعد أن أكمناهم لهم عسكرياً فخرج لهم الإفرنج في نحو أربعمئة فارس واستطرد لهم المسلمون إلى أن وصلوا كمينهم فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الإفرنج وبلغت الغرارة مائة دينار صوري مع ما كان يحمل إليهم من البلدان من بيروت على يد صاحبها أسامة ومن صيدا على يد نائبها سيف الدين علي بن أحمد المشطوب ومن عسقلان وغيرها ثم اشتد الحال عليهم عند هيجان البحر وانقطاع المراكب في فصل الشتاء.

ثم هجم الشتاء وأرسل الإفرنج مراكبهم بصور خوفاً عليها على عادتهم في صور في فصل الشتاء ووجد الطريق إلى عكا في البحر فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون ما نزل بهم وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فشكى من ضجره بطول المقام والحرب فأمر صلاح الدين بإفاد نائب وعسكر إليها بدلاً منهم وأمر أخاه العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر عند جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وبعث العساكر إليها شيئاً فشيئاً كلما دخلت طائفة خرج بدلها فدخل عشرون أميراً بدلاً من ستين كانوا وأهملوا أهل الرجل وتعينت دواوين صاحب صلاح الدين وكانوا نصارى على الجند في إثباتهم وإطلاق نفقاتهم فبلغ الحامية بعكا وضعفت وعادت مراكب الإفرنج بعد انحسار الشتاء فانقطعت الأخبار عن عكا وعنهما وكان من الأمراء الذين دخلوا عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسلان

وسيروا مع البحر ويحملوا على العدو حملة مستمتتين ويجيء المسلمون من وراء العدو فعضاهم يخلصون بذلك فلما أصبحوا زحف الإفرنج إلى البلد ورفع المسلمون أعلامهم وأرسل المشطوب من البلد إلى الإفرنج فصالحهم على الأمان على أن يعطيهم مائتي ألف دينار ويطلق لهم خمسمائة أسير ويعيد لهم الصليب ويعطي للمركيش صاحب صور أربعة عشر ألف دينار فأجابوا إلى ذلك وضربروا المدة للمال والأسرى شهرين وسلموا لهم البلد فلما ملكوها غدروا بهم وحبسوهم رهناً بزعمهم في المال والأسرى والصليب.

ولم يكن لصلاح الدين ذخيرة من المال لكثرة إنفاقه في المصالح فشرع في جمع المال حتى اجتمع مائة ألف دينار وبعث نائباً يستحلفهم على أن يضمن الفداوية من الخلف والضمان خوفاً من غدر أصحابه وقال ملوكهم: إذا سلمتم المال والأسرى والصليب تعطوننا رهناً في بقية المال ونطلق أصحابكم وطلب صلاح الدين أن يضمن الفداوية الرهن ويحلفوا فامتنعوا أيضاً وقالوا: ترسلون المائة ألف دينار والأسرى والصليب فنطلق من نراه ونبقي الباقي إلى مجيء بقية المال فبين المسلمون غدرهم وأنهم يطلقون من لا يعاب به ويمسكون الأمراء والأعيان حتى يفادوهم فلم يجيبهم صلاح الدين إلى شيء.

ولما كان آخر رجب ركب الإفرنج إلى ظاهر البلد في احتفال وركب المسلمون فشدوا عليهم وكشفوهم عن مواقفهم فإذا المسلمون الذين كانوا عندهم قتلى بين الصفيين قد استلحموا ضعفاهم وتمسكوا بالأعيان للمفادة فسقط في يد صلاح الدين وتمسك بالمال الذي جمعه لغيرها من المصالح والله تعالى أعلم.

تخريب صلاح الدين عسقلان

ولما استولى الإفرنج على عكا استوحش المركيش صاحب صور من ملك إنكلطرية وأحسن منه بالغدر فلهق ببلده صور ثم سار الإفرنج مستهل شعبان لقصد عسقلان وساروا مع ساحل البحر لا يفارقونه ونادى صلاح الدين باتباعهم مع ابنه الأفضل وسيف الدين أبي زكوش وعز الدين خرديك فاتبعهم يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل ناحية ففتكوا فيهم بالقتل والأسر وبعث الأفضل إلى أبيه يستمده فلم يجد العساكر مستعدة وسار ملك إنكلطرية في ساقية الإفرنج فحملهم وانتهوا إلى يافا فأقاموا بها والمسلمون قبائلهم مقيمون ولحق بهم من عكا من احتاجوا إليه ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يتبعونهم ويقتلون من ظفروا به منهم

المحاصرين لعكا وأول من وصل منهم الملك ملك إنكلطرية وهو ذو ونصب فيهم وملكه ليس بالقوي هكذا قال ابن الأثير: وعنى أنه كان مستفحلاً في ذلك العصر لأنه في الحقيقة ملك الإفرنج وهو في ذلك العصر أشد من كانوا قوة واستفحلاً فوصل ثاني عشر ربيع الأول سنة أربع وثمانين في ستة مراكب عظيمة مشحونة بالمقاتلة والسلاح فقوي الإفرنج على عكا بمكانه وولي حرب المسلمين فيها وكان صلاح الدين على معمر عمر قريباً من معسكر الإفرنج فكان يصاحبهم كل يوم عن مزاحقة البلد وتقدم إلى أسامة في بيروت بتجهيز ما عنده من المراكب والشواني إلى مرسى عكا ليشغل الإفرنج أيضاً فبعثها ولقيت خمسة مراكب في البحر وكان ملك إنكلطرية أقدمها وأقام على جزيرة قبرص طامعاً في ملكها فغتم أسطول المسلمين الخمسة مراكب بما فيها ونفذت كلمة صلاح الدين إلى سائر الثواب بأعماله يمثل ذلك فجهازوا الشواني وملأوا بها مرسى عكا وواصل الإفرنج قتال البلد ونصبوا عليها المنجنيقات رابع جمادى وتحول صلاح الدين لمعسكره قريباً منهم ليشغلهم عن البلد فخفف قتالهم عن أهل البلد ثم فرغ ملك إنكلطرية من جزيرة قبرص وملكها وعزل صاحبها وبلغ إلى عكا في خمس وعشرين مركباً مشحونة بالرجال والأموال ووصل منتصف رجب ولقي في طريقه مركباً مجهز من بيروت إلى عكا وفيه سبعمائة مقاتل فقاتله فلما يش المسلمون الذين به من الخلاص نزل مقدمهم وهو يعقوب الحلبي غلام ابن شثنين فحرق المركب خوفاً من أن يظفر الإفرنج برجاله وذخائره فغرق ثم عمل الإفرنج ذبابات وكباشاً وزحفوا بها فأحرق المسلمون بعضها وأخذوا بعضها فرجع الإفرنج إلى نصب التلال من التراب يقاتلون من ورائها فامتنعت من نفوذ الحيلة فيها وضاق حال أهل عكا.

استيلاء الإفرنج على عكا

ولما جهد المسلمون بعكا الحصار خرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب من أكبر أمرائها إلى ملك إنكلطرية يستأمنه لأهل عكا فلم يجبه وضعفت نفوس أهل البلد لذلك ووهنوا ثم هرب من الأمراء عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاوولي وسنقر الأرجاني في جماعة منهم ولحقوا بالعساكر فازداد أهل عكا وهناً وبعث الإفرنج إلى صلاح الدين في تسليمها فاجاب على أن يؤمنوا أهل البلد ويطلق لهم من أسراهم بعدد أهل البلد ويعطيهم الصليب الذي أخذه من القدس فلم يرضوا بما فعل فبعث إلى المسلمين بعكا أن يخرجوا مجتمعهم ويتركوا البلد

وزاحوهم عند قيسارية فنالوا منهم وياتوا بها مشاورين واختطف المسلمون منهم بالليل فقتلوا وأسروا.

وساروا من الغد إلى أرسوف وسبقهم المسلمون إليها لضيق الطريق فحملوا عليهم عندها حتى اضطروهم إلى البحر فحيتشد استمات الإفرنج وحملوا على المسلمين فهزموهم واثخنوا في تابعهم والحقوقهم بالقلب وفيه صلاح الدين وتستر المسلمون المنهزمون بخمر الشعراء فرجع الإفرنج عنهم وانفرج ما كانوا فيه من الضيق المذكور وساروا إلى يافا فوجدوها خالية وملكوها وكان صلاح الدين قد سار من مكان الهزيمة إلى الرملة وجمع خلفه وأتقائه واعتزم على مسابقة الإفرنج إلى عسقلان فمنعه أصحابه وقالوا نخشى أن يزاحنا الإفرنج عليها ويغلبونا على حصارها كما غلبونا على حصار عكا وملكوها آخرأ ويقووا بما فيها من الذخائر والأسلحة. فندبهم إلى المسير إليها وحمايتها من الإفرنج فلجروا في الامتناع من ذلك فسار وترك العساكر مع أخيه العادل قبالة الإفرنج ووصل إلى عسقلان وخربها تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها في البحر وبقي أثرها وهلك فيها من الأموال والذخائر ما لا يحصى فلما بلغ الإفرنج ذلك أقاموا يافا.

وبعث المريكش إلى ملك إنكلطرية يعذله حيث لم ينجاز صلاح الدين على عسقلان ثاني رمضان إلى الرملة فخرّب حصنها ثم سار إلى القدس من شدة البرد والمطر لينظر في مصالح القدس وترتيبهم في الاستعداد للحصار وأذن للعساكر في العود إلى بلادهم للإراحة وعاد إلى غيمه ثامن رمضان وأقام الإفرنج يافا وشرعوا في عمارتها فرحل صلاح الدين إلى نظرون وخيم به منتصف رمضان وتردد الرسل بين ملك إنكلطرية وبين العادل على أن يزوجه ملك إنكلطرية أخته ويكون القدس وبلاد المسلمين بالساحل للعادل وعكا وبلاد الإفرنج بالساحل لها إلى مملكتها وراء البحر بشرط رضا الفداوية وأجاب صلاح الدين إلى ذلك ومنع الأتمة والرهبان أخت ملك إنكلطرية من ذلك ونكروا عليها فلم يتم وإنما كان ملك إنكلطرية يجادع بذلك ثم اعتزم الإفرنج على القدس ورحلوا من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة وسار صلاح الدين إلى القدس وقد ترك عليه عساكر مصر مع أبي الهيجاء فقويت به نفوس المسلمين وسار الإفرنج من الرملة إلى النظرون ثالث ذي الحجة والمسلمون مجاذونهم وكانت بينهم وقعت أسروا في واحدة منها نيفاً وخمسين من مقاتلة الإفرنج واهتم صلاح الدين بعمارة أسوار القدس ورم ما ثلم منها وضبط المكان الذي ملك القدس منه وسد فروجه وأمر بحفر الخندق خارج الفصيل.

وقسم ولاية هذه الأعمال بين ولده وأصحابه وقلت الحجارة للبينان وكان صلاح الدين يركب إلى الأماكن البعيدة وينقلها على مركوبه فيقتدي به العسكر ثم إن الإفرنج ضاقت أحوالهم بالنظرون وقطع المسلمون عنهم الميرة من ساحلهم فلم يكن كما عهدوه بالرملة وسأل ملك إنكلطرية عن صورة القدس ليعلم كيفية ترتيب حصارها فصورت له ورأى الوادي محيطاً بها إلا قليلاً من جهة الشمال مع عمقه ووعدة مسالكة فقال: هذه لا يمكن حصارها لأننا إذا اجتمعنا عليها من جانب بقيت الجوانب الأخرى وأن افترقنا على جانب الوادي والجانب الآخر كبس المسلمون إحدى الطائفتين ولم تصل الأخرى لإنجادهم خوفاً من المسلمين على معسكرهم وإن تركوه من أصحابه حامية المعسكر فالمدى بعيد لا يصلون للإنجاد إلا بعد الوفاة هذا إلى ما يلحقنا من تعذر القوات بانقطاع الميرة فعملوا صدقه وارتحلوا عائدين إلى الرملة ثم ارتحلوا في محرم سنة ثمان وثمانين إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها وسار ملك إنكلطرية إلى مسلحة المسلمين فواقعهم وجرت بينهم حروب شديدة وصلاح الدين يبعث سراياه من القدس إلى الإفرنج للإغارة وقطع الميرة فيغنمون ويعودون والله تعالى أعلم.

مقتل المريكش وملك الكندھري مكانه

ثم ارتحل صلاح الدين إلى سنان مقدم الإسماعيلية بالشام في قتل ملك إنكلطرية والمريكش وجعل له على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يتمكن قتل ملك إنكلطرية لما رأوه من المصلحة لثلا بتفرغ لهم صلاح الدين وبعث رجلين لقتل المريكش في زي الرهبان فاتصلا بصاحب صيدا وابن بازران صاحب وأقاما عندهما بصور ستة أشهر مقبلين على رهبانيتها حتى أنس بهما المريكش ثم دعاه الأسقف بصور دعوى فوثبا عليه فجرّاه ولجأ أحدهما إلى كنيسة واختفى فيها وحمل إليها المريكش لشدة جراحه فاجهز عليه ذلك الباطني وقتله ونسب ذلك إلى ملك إنكلطرية رجاء أن يفرد بملك الإفرنج بالشام.

ولما قتل المريكش ملك المدينة زعيم من الإفرنج الواردين من وراء البحر يعرف بالكندھري ابن أخت ملك أفرنسة وابن أخي ملك إنكلطرية من أبيه وتزوج بالملكة في ليلته وبنى بها وملك عكا وسائر البلاد بعد عود ملك إنكلطرية وعاش إلى سنة أربع وتسعين وسقط من سطح ولما رحل ملك إنكلطرية إلى بلاده أرسل هذا الكندھري إلى صلاح الدين واستماله للصلح والتمس

منه الخلعة فبعث إليه بها ولبسها بعكا والله تعالى أعلم.

مسير الإفرنج إلى القدس

من الغد فلم يتقدم إليه أحد من المسلمين ثم نزل بين السماطين وجلس للأكل وأمر صلاح الدين بالحملة عليهم فتقدم أخ المشطوب وكان يلقب بالجناح وقال لصلاح الدين: نحن نتقدم للقتال وماليكك للغنيمة. فغضب صلاح الدين وعاد عن الإفرنج إلى خيامه حتى جاء ابنه الأفضل وأخوه العادل فرحل إلى الرملة ينتظر مآل أمره مع الإفرنج وأقاموا بيافا والله تعالى أعلم.

الصلح بين صلاح الدين والإفرنج ومسير

ملك انكلطرية إلى بلاده

كان ملك انكلطرية إلى هذه المدة قد طال مغيبه عن بلاده ويش من بلاد الساحل لأن المسلمين استولوا عليه فأرسل إلى صلاح الدين يسأله في الصلح وظن صلاح الدين أن ذلك مكر فلم يجبه وطلب الحرب فالح ملك انكلطرية في السؤال وظهر صدق ذلك منه فترك ما كان فيه من عمارة عسقلان وغزة والداروم والرملة وبعث إلى الملك العادل بأن يتوسط في ذلك فأشار على صلاح الدين بالإجابة هو وسائر الأمراء لما حدث عند العسكر من الضجر ونفاذ النفقات وهلاك الدواب والأسلحة وما بلغهم أن ملك انكلطرية عائد إلى بلاده وإن لم تقع الإجابة آخر فصل الشتاء امتنع ركوب البحر فيقيم إلى قابل فلما وعي ذلك صلاح الدين وعلم صحته أجاب إلى الصلح وعقد الهدنة مع رسل الإفرنج في عشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين لمدة أربعة وأربعين شهراً فتحالفوا على ذلك وأذن صلاح الدين للإفرنج في زيارة القدس.

وارتحل ملك انكلطرية في البحر عائداً إلى بلده وأقسام الكنديري صاحب صور بعد المراكيش ملكاً على الإفرنج بسواحل الشام وتزوج الملكة التي كانت تملكهم قبله وقبل صلاح الدين كما مر وسار صلاح الدين إلى القدس فأصلح أسواره وأدخل كنيسة صهيون في البلد وكانت خارج السور واختط المدارس والربط والمارستان ووقف عليها الأوقاف واعتزم على الإحرام منه للحج فاعترضته القواطع دون ذلك فسار إلى دمشق خامس شوال واستخلف عليه الأمير جرديك من موالى نور الدين ومر بكفور المسلمين نابلس وطبرية وصفد وبيروت ولما انتهى إلى بيروت أتاه بها سمند صاحب أنطاكية وطرابلس وأعمالها فالتزم طاعة صلاح الدين وعاد ودخل صلاح الدين دمشق في الخامس والعشرين من شوال وسر الناس بقدومه ووهن العدو والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولما قدم صلاح الدين إلى القدس وكان قد بلغه مهلك تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه وأن ابنه ناصر الدين استولى على أعماله بالجزيرة وهي: حران والرها وسميساط وميفارقين وأرجان وبعث إلى صلاح الدين يسأل إيقاعها في يده مضافة إلى ما كان لأبيه من الأعمال بالشام فاستقصه صلاح الدين لصغره وطلب منه ابنه الأفضل أن يعطيها له وينزل عن دمشق فأجابه إلى ذلك وأمره أن يسير إليها وكتب ملوك البلاد الشرقية بالموصل وسنجار والجزيرة وإربل وسار لإنجاده بالعساكر وعلم ناصر الدين أنه لا قبل له بذلك فبعث للملك العادل يستشفع له عند صلاح الدين على أن يبقى بيده له ما كان لأبيه بالشام فقط وينزل عن بلاد الجزيرة فأقطعها صلاح الدين أخاه الملك العادل وبعثه يتسلمها ويرد ابنه الأفضل فلحق بالأفضل بحلب وأعاده وعبر الفرات وتسلم البلاد من ناصر الدين بن تقي الدين وأنزل بها عماله واستصحبه وسائر العساكر الجزرية إلى صلاح الدين بالقدس.

ولما بلغ الإفرنج أن صلاح الدين بعث ابنه الأفضل وأخاه العادل وفرق العساكر عليهما ولم يبق معه بالقدس إلا بعض الخاصة طمعوا فيه وأغاروا على عسكر مصر وهو قاصد إليه ومقدمهم سليمان أخو العادل لأمه فأخذوه بتواحي الخليل وقتلوا وغنموا ونجا فلهم إلى جبل الخليل وساروا إلى الداروم فخرّبوه ثم ساروا إلى القدس وانتهروا إلى بيت فوجه على فرسخين من القدس تاسع جمادى الأولى من سنة ثمان وثمانين واستعد صلاح الدين للحصار وفرق أبراج السور على أمراته وسلط السرايا والبعوث عليهم فأروا ما لا قبل لهم به فتأخروا عن منازلهم بيافا وأصبحت بقوهم وميرتهم غنائم للمسلمين وبلغهم أن العساكر الشرقية التي مع العادل والأفضل عادت إلى دمشق فعادوا إلى عكا وعزموا على محاصرة بيروت فأمر صلاح الدين ابنه الأفضل أن يسير في العساكر الشرقية إليها فسار وانتهى إلى مرج العيون فلم يبرح الإفرنج من عكا.

واجتمع عند صلاح الدين خلال ذلك العساكر من حلب وغيرها فسار إلى يافا فحاصرها وملكها عنوة في العاشر من رجب من السنة ثم حاصر القلعة بقية يومه وأشرفوا على فتحها وكانوا ينتظرون المدد من عكا فشغلوا المسلمين بطلب الأمان إلى الغد فاجابوهم إليه وجاءهم ملك انكلطرية ليلاً وتبعه مدد عكا وبرز

وفاة صلاح الدين وحال ولده وأخيه من

بعده

ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق وقد خف من شواغل الإفرنج بوهنهم وما عقد من الهدنة فأراح قليلاً ثم اعتزم على إحداث الغزو فاستشار ابنه الأفضل وأخاه العادل في مذهبه فأشار العادل بخلاط لأنه كان وعده أن يقطعه إياها إذا ملكها وأشار الأفضل ببلاد الروم إيالة بني قليج أرسلان لسهولة أمرها واعتراض الإفرنج فيها إذا قصدوا الشام لأنها طريقهم فقال لأخيه: تذهب أنت لخلاط في بعض ولدي وبعض العساكر وأذهب أنا إلى بلاد الروم فإذا فرغت منها لحقت بكم فسرنا إلى أذربيجان ثم إلى بلاد العجم. وأمره بالمسير إلى الكرك وهي من أقطاعه ليتجهز منها ويعود لشأنه فسار إلى الكرك ومرض صلاح الدين بعده ومات في صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة خمس وعشرين سنة من ملكه مصر رحمه الله تعالى.

وكان معه بدمشق ابنه الأفضل نور الدين والعساكر عنده فملك دمشق والساحل وبيعلبك وصرخد وبصرى وبناس وشوش وجميع الأعمال إلى الداروم وكان بمصر ابنه العزيز عثمان فاستولى عليها وكان يحلب ابنه الظاهر غازي فاستولى عليها وعلى أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرساك وغيرها وأطاعه صاحب حماة ناصر الدين محمد بن تقي الدين بن شيركوه وله مع حماة سلمية والمرة ومنبج وابن محمد بن شيركوه وله مع الرحبة حصص وتدمر وبيعلبك بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ولقبه الأجدد وبيصرى الظاهر بن صلاح الدين ولقبه الأجدد مع أخيه الأفضل وفي شيزر سابق الدين عثمان ابن الداية وبيالكرك والشوبك الملك العادل وبلغ الخبر إلى العادل فأقام بالكرك واستدعاه الأفضل من دمشق فلم يجبه فخوفه ابن أخيه العزيز صاحب مصر من عز الدين صاحب الموصل وقد كان سار من الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة فوعده بالنصر منه وأوهمه الرسول إن لم يسر إلى الأفضل بدمشق أنه متوجه إلى العزيز بمصر ليحالفه عليه فحيثئذ ارتاب العادل وسار إلى الأفضل بدمشق فتلقاه بالمبرة وجهاز له العساكر للدفاع عه الدين صاحب الموصل عن بلاد الجزيرة.

وأرسل إلى صاحب حصص وصاحب حماة يحضهم على إنقاذ العساكر معه وعبر بها القرات وأقام بنواحي الرها وكان عز الدين مسعود ابن مودود صاحب الموصل لما بلغه وفاة صلاح الدين اعتزم على المسير إلى بلاد العادل بالجزيرة وحران والرها وسائر

ليرتجعها من يده ومجاهد الدين قايمز أتابك دولته يشيه عن ذلك ويعذله فيه فتبين حال العادل مع ابن أخيه وبينما هو في ذلك إذ جاءت الأخبار بأن العادل بحران ثم وافاهم كتابه بأن الأفضل ملك بعد أبيه صلاح الدين وأطاعه الناس فكاتب عز الدين جيرانه من الملوك مثل صاحب سنجار وصاحب ماردين يستنجدهم وجاء إليه أخوه على نصيبن وسار معه إلى الرها فأصابه المرض في طريقه ورجع إلى الموصل فمات أول رجب من السنة واستقرت إيالة العادل في ملكه من الجزيرة فلم يهجه منها أحد والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مسير العزيز من مصر إلى حصار الأفضل

بدمشق وما استقر بينهم في الولايات

كان العزيز عثمان بن صلاح الدين قد استقر بمصر كما ذكرناه وكان موالى أبيه منحرفين عن الأفضل ورؤسائهم يومئذ جهاركس وقراجا وقد استقر بهم عدو الأفضل والأكراد وموالي شيركوه شيعه له فكان العدو يعدون العزيز بهؤلاء الشيع ويغرونه من أخيه الأفضل ويغرونه بانتزاع دمشق من يده فسار لذلك سنة تسعين وخمسمائة ونزل على دمشق واستنزل الأفضل وهو بأعماله بالجزيرة وسار لعمه العادل بنفسه وسار معه الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة وشيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حصص وعساكر الموصل من قبل عز الدين مسعود بن مودود وساروا كلهم إلى الأفضل بدمشق لإيجاده فامتنع على العزيز مرأه وتراسلوا في الصلح على أن يكون القدس وأعمال فلسطين للعزيز وجبله واللاذقية للظاهر صاحب حلب وتبقى دمشق وطبرية والغور للأفضل وأن يستقر العادل بمصر مديراً دولة العزيز على أقطاعه الأول وانعقد الصلح على ذلك ورجع العزيز إلى مصر وعاد كل إلى بلده والله تعالى أعلم.

حصار العزيز ثانياً دمشق وهزيمته

ولما عاد العزيز إلى مصر عاد موالى صلاح الدين إلى إغرائه بأخيه الأفضل فتجهز لحصاره بدمشق سنة إحدى وتسعين وسار الأفضل من دمشق إلى عمه العادل بقلعة جعير ثم إلى أخيه الظاهر غازي فحلب مستنجداً لهما وعاد إلى دمشق فوجد العادل قد سبقه إليها واتفقا على أن تكون مصر للأفضل ودمشق للعادل ووصل

سبحانه وتعالى أعلم بغيه وأحكم.

فتح العادل يافا من الإفرنج واستيلاء الإفرنج على بيروت وحصارهم تبين

ولما توفي صلاح الدين وملك أولاده بعده جدد العزيز المهدنة مع الكندھري ملك الإفرنج كما عقد أبوه معه وكان الأمير أسامة يقطع بيروت فكان يبعث الشوائب للإغارة على الإفرنج وشكوا ذلك إلى العادل بدمشق والعزيز بمصر فلم يشكياهم فأرسلوا إلى ملوكهم وراء البحر يستجدونهم فأمدهم بالعساكر وأكثرهم من الألمان ونزلوا بعكا واستنجد العادل بالعزيز فبعث إليه بالعساكر وجاءته عساكر الجزيرة والموصل واجتمعوا بعين جالوت وأقاموا رمضان وبعض شوال من سنة اثنتين وتسعين ثم ساروا إلى يافا فملكوا المدينة أولاً وخربوها وامتنع الحامية بالقلعة فحاصروها وفتحوها عنوة واستباحوها.

وجاء الإفرنج من عكا لصريخ إخوانهم وانهوا إلى قيسارية فبلغهم خبر وفادتهم وخبر وفادة الكندھري ملكهم بعكا فرجعوا ثم اعزموا على قصد بيروت فسار العادل لتخريبها حذراً عليها من الإفرنج فتكفل له أسامة عاملها بحمايتها وعاد ووصل إليها الإفرنج يوم عرفة من السنة وهرب منها أسامة وملكوها وفرق العادل العساكر فخربوا ما كان بقي من صيدا بعد تخريب صلاح الدين وعاثوا في نواحي صور فساد الإفرنج إلى صور ونزل المسلمون على قلعة هونين ثم نازل الإفرنج حصن تبين في صفر سنة أربع وتسعين وبعث العادل عسكرياً لحمايته فلم يغنوا عنه ونقب الإفرنج أسواره فبعث العادل بالصريخ إلى العزيز صاحب مصر فأغذ السير بعساكره وانتهى إلى عسقلان في ربيع من السنة.

وكان المسلمون في تبين قد بعثوا إلى الإفرنج من يستأمن لهم ويسلمون لهم فأنذرهم بعض الإفرنج بأنهم يغدرون بهم فعادوا إلى حصنهم وأصروا على الامتناع حتى وصل العزيز إلى عسقلان فاضطرب الإفرنج لوصوله ولم يكن لهم ملك وإنما كان معهم الجنصكير القسيس من أصحاب ملك الألمان والمرأة زوجة الكندھري فاستدعوا ملك قبرص واسمه هنري وهو أخ الملك الذي أسر بحطين فجاهم وزوجوه بملكهم فلما جاء العزيز وسار من عسقلان إلى جبل الخليل وأطل على الإفرنج وناوشهم القتال رجع الإفرنج إلى صور ثم إلى عكا ونزلت عساكر المسلمين بالبحور فاضطرب أمراء العزيز واجتمع جماعة منهم وهم: ميمون القصري وقراسنقر والحجاب وابن المشطوب على الغدر بالعزيز

العزيز إلى قرب دمشق وكان الأكراد وموالي شيركوه منحرفين عنه كما قدمناه وشيعة للأفضل ومقدمهم سيف الدين أبو ركوش من الموالي وأبو الهيجاء السمين من الأكراد فدلسا للأفضل بالخروج إلى العزيز وواعده الهزيمة عنه فخرجوا في العساكر وانحاز إليهما الموالي والأكراد وانهزم العزيز إلى مصر.

وبعث الأفضل العادل إلى القدس فتسلمه من نائب العزيز وساروا في اتباعه إلى مصر والعساكر ملتفة على الأفضل فارتأب العادل وخشي أن لا يفي له الأفضل بما اتفقا عليه ولا يمكنه من دمشق فراسل العزيز بالثبات وأن يستزل حامية ووعد من نفسه المظاهرة على أخيه وتكفل له منعه من مقاتلته بليس فترك العزيز بها فخر الدين جهاركس في عسكر من موالي أبيه وأراد الأفضل مناجزتهم فمنعه العادل فأراد الرحيل إلى مصر فمنعه أيضاً وقال له: إن أخذت مصر عنوة انخرقت الهيبة وطمع فيها الأعداء والمطاولة أولى. ودس إلى العزيز بإرسال القاضي الفاضل وكان مطاعاً فيهم لمنزلته عند صلاح الدين فجاء إليهما وعقد الصلح بينهم على أن يكون للأفضل القدس وفلسطين وطبرية والأردن مضافة إلى دمشق ويكون للعادل كما كان القديم ويقم بمصر عند العزيز يدبر أمره وتحالفوا على ذلك وعاد الأفضل إلى دمشق وأقام العادل عند العزيز بمصر انتهى والله أعلم.

استيلاء العادل على دمشق

ثم إن العزيز استمال العادل وأطمعه في دمشق أن يأخذها من أخيه ويسلمها إليه وكان الظاهر صاحب حلب يعدل الأفضل في موالة عمه العادل ويجرضه على إبعاده فيلج في ذلك ثم إن العادل والعزيز سارا من مصر وحاصروا دمشق واستملا من أمراء الأفضل أبا غالب الحمصي على وثوق الأفضل به وإحسانه إليه ففتح لهما الباب الشرقي عشي السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين فدخل العادل منه إلى دمشق ووقف العزيز بالميدان الأخضر وخرج إليه أخوه الأفضل ثم دخل الأفضل دار شيركوه وأظهروا مصالحة الأفضل خشية من جموعه وأعادوه إلى القلعة وأقاموا بظاهر البلد والأفضل يغاديه كل يوم ويرواحهم حتى استفحل أمرهم فأمره بالخروج من دمشق وتسليم أعمالها وأعطوه قلعة صرخد وملك العزيز القلعة ونقل للعادل أن العزيز يريد أن يتردد إلى دمشق فجاء إليه وحمله على تسليم القلعة فسلمها وخرج الأفضل إلى رستاق له خارج البلد فأقام به وسار منه إلى صرخد وعاد العزيز إلى مصر وأقام العادل بدمشق والله

فسار العادل إلى حران وارتحل نور الدين من نصيبين إلى الموصل وسار قطب الدين إليها فملكها وسار العادل إلى ماردين في رمضان من السنة فحاصرها وكان صاحبها حسام الدين بولو أرسلان بن أبي الغازي بن ألبا بن غمراش أبي الغازي بن أرتق وهو صبي وكافله مولى النظام برتقش مولى أبيه والحكم له ودام حصاره عليها وملك الرض وقطع الميرة عنها ثم رحل عنها في العام القابل كما تقدم في أخبار دولة زنكي والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

وفاة العزيز صاحب مصر وولاية أخيه الأفضل

ثم توفي العزيز عثمان بن صلاح الدين آخر عزم سنة خمس وتسعين وكان فخر الدين إياس جهار كس مولى أبيه مستبداً عليه فأرسل العادل بمكانه من حصار ماردين يستدعيه للملك وكان جهار كس هذا مقدم موالى صلاح الدين وكانوا منحرفين عن الأفضل وكان موالى صلاح الدين شريكوه: والأكراد شيعه له وجمعهم جهار كس لينظر في الولاية وأشار بتولية ابن العزيز فقال له سيف الدين أياز كوش مقدم موالى شريكوه لا يصلح لذلك لصغره إلا أن يكفله أحد من ولد صلاح الدين لأن رئاسة العساكر صنعة. واتفقوا على الأفضل ثم مضوا إلى القاضي الفاضل فأشار بذلك أيضاً وأرسل أياز كوش يستدعيه من صرخد فسار آخر صفر من السنة.

ولقيه الخبر في طريقه بطاعة القدس له وخرج أمراء مصر فلقوه ببليس وأضافه أخوه المؤيد مسعود وفخر الدين جهار كس مدير دولة العزيز فقدم أخاه وارتاب جهار كس واستأذنه في المسير ليصلح بين طائفتين من العرب فأذنه فسار فخر الدين إلى القدس وتملكه ولحقه جماعة من موالى صلاح الدين منهم: قواجا الدكرمس وقراسنقر وجاءهم ميمون القصري فقويت شوكتهم به واتفقوا على عصيان الأفضل وأرسلوا إلى الملك العادل يستدعونه فلم يعجل لإجابتهم لطعمه في أخذ ماردين وارتاب الأفضل بموالى صلاح الدين وهم: شقيرة وأنبك مطيش وألبكي ولحق جماعة منهم بأصحابهم بالقدس وأرسل الأفضل إليهم في العود على ما يخارونه فامتنعوا وأقام هو بالقاهرة وقرر دولته وقدم فيها سيف الدين أياز كوش والملك لابن أخيه العزيز عثمان وهو كافل له لصغره وانتظمت أمورهم على ذلك انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومدير دولته فخر الدين جهار كس فأغذ السير إلى مصر وتراسل العادل والإفرنج في الصلح وانعقد بينهم في شعبان من السنة ورجع العادل إلى دمشق وسار منها إلى ماردين كما يأتي خبره والله تعالى أعلم.

وفاة طغتكين بن أيوب باليمن وملك ابنه إسماعيل ثم سليمان بن تقي الدين شاهنشاه

وقد كان قد تقدم لنا أن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سار إلى المدينة سنة ثمان وسبعين بعد وفاة أخيه شمس الدولة توران شاه واختلاف نوابه باليمن واستولى عليها ونزل زبيد وأقام بها إلى أن توفي في شوال سنة ثلاث وتسعين وكان سيئ السيرة كثير الظلم للرعية جمعاً للأموال ولما استفحل بها أراد الاستيلاء على مكة فبعث الخليفة الناصر إلى أخيه صلاح الدين بمنعه من ذلك فمنعه ولما توفي ملك مكانه ابنه إسماعيل وبلغ المعز وكان أهوج فانتسب في بني أمية وادعى الخلافة وتلقب بالمهادي وليس الخضره وبعث إليه عمه العادل باللامه والتوبيخ فلم يقبل وأساء السيرة في رعيته وأهل دولته فوثبوا به وقتلوه.

وتولى ذلك سيف الدين سنقر مولى أبيه ونصب أخاه الناصر سنة ثمان وتسعين فأقام بأمره ثم هلك سنقر لأربع سنين من دولته وقام مكانه غازي بن جبريل من أمرائهم وتزوج أم الناصر ثم قتل الناصر مسموماً وثار العرب منه بغازي المذكور وبقي أهل اليمن فوضى واستولى على طغان وبلاد حضرموت محمد بن محمد الحميري واستبدت أم الناصر وملك زبيد وبعثت في طلب أحد من بني أيوب تملكه على اليمن وكان للمظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه وقيل لابنه سعد الدين شاهنشاه ابن اسمه سليمان ترهب وليس المسوح ولقيه بالموسم بعض غلمانها وجاءته فتزوجته وملكته اليمن والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير العادل إلى الجزيرة وحصاره ماردين

كان نور الدين أرسلان شاه مسعود صاحب الموصل قد وقع بينه وبين قطب الدين محمد ابن عمه عماد الدين زنكي صاحب نصيبين والخابور والرقه وبين أبيه عماد الدين قبله فتنة بسبب الحدود في تخوم أعمالهم فسار نور الدين إليه في عساكره وملك منه نصيبين ولحق قطب الدين بجران والرها بإيالة العادل بن أيوب وبعث إليه بالصريخ وهو بدمشق وبذل له الأموال في إنجاده

حصار الأفضل دمشق وعودته عنها

ثم جاء الخبر بوصول صاحب الموصل ومن معه فنزل القائم للقائهم وترك عسكرياً بالريض ويحث قطب الدين صاحب سنجار إلى الكامل ووعد بالانهازم فلم يغن ولما التقى الفريقان حمل صاحب الموصل عليهم مستميتاً فانهزم الكامل وصعد إلى الريض فوجد أهل ماردین قد غلبوا عسكره الذين هنالك ونهبوا مخلفهم فارتحل الكامل متصفاً شوال مجفلاً ولحق بميفارقين وانتهب أهل ماردین مخلفه ونزل صاحبها فلقني صاحب الموصل وعاد إلى قلعتة وارتحل صاحب الموصل إلى رأس عين لتقصد حلوان والرها وبلاد الجزيرة من بلاد العادل فلقبه هنالك رسول الظاهر صاحب حلب يطلبه في السكة والخطبة فارتأب لذلك وكان عازماً على نصرتهم فقعدهم وسار إلى الموصل وأرسل إلى الأفضل والظاهر يعتذر بمرض طرقة وهم يومئذ على دمشق ووصل الكامل من ميفارقين إلى حران فاستدعاه أبوه من دمشق وسار إليه في العساكر فأفرج عنه الأفضل والظاهر والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء العادل على مصر

ولما رحل الأفضل والظاهر إلى بلادهم تجهز العادل إلى مصر وأغراه موالى صلاح الدين بذلك واستحلفوه على أن يكون ابن العزيز ملكاً وهو كافله وبلغت الأخبار بذلك إلى الأفضل وهو في بليس فسار منها ولقيهم فانهزم لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ست وتسعين ودخل القاهرة ليلاً وحضر الصلاة على القاضي الفاضل عبد الرحيم اليبساني توفي تلك الليلة وسار العادل لحصار القاهرة وتخاذل أصحاب الأفضل عنه فأرسل إلى عمه في الصلح وتسليم الديار المصرية له على أن يعوضه دمشق أو بلاد الجزيرة وهي: حران والرها وسروج فلم يجبه وعوضه ميفارقين وجبال نور وتحالفوا على ذلك وخرج الأفضل من القاهرة ثامن عشر ربيع واجتمع بالعادل وسار إلى بلده صرخد.

ودخل العادل القاهرة من يومه ولما وصل الأفضل صرخد بعث من يتسلم البلاد التي عوضه العادل وكان بها ابنه نجم الدين أيوب فامتنع من تسليم ميفارقين وسلم ما عداها وردد الأفضل رسله في ذلك إلى العادل فزعم أن ابنه عصاه فعلم الأفضل أنه أمره واستفحل العادل في مصر وقطع خطبة المنصور بن العزيز وخطب لنفسه واعترض الجند وعصهم بالمحو والإبتيات فاستوحشوا لذلك وبعث العادل فخر الدين جهاركس مقدم موالى صلاح الدين في عسكر إلى بانياس ليحاصرها ويملكها لنفسه

ولما انتظمت الأمور للأفضل بعث إليه الظاهر غازي صاحب حلب وابن عمه شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يغريانه بملك دمشق لغلبة العادل عنها في حصار ماردین ويعدانه المظاهرة فسار من منتصف السنة ووصل إلى دمشق منتصف شعبان وسبقه العادل إليها وترك العساكر مع ابنه الكامل على ماردین ولما نزل الأفضل على دمشق وكان معه الأمير مجد الدين أخو عيسى الهكاري فدخل قوماً من الأجناد في دمشق في أن يفتحوا له باب السلامة ودخل منه هو والأفضل سرأً وانتهوا إلى باب البريد ففطن عسكر العادل لقتلهم وانقطاع مددهم فتراجعوا وأخرجوهم ونزل الأفضل بميدان الحصار وضعف أمره وأعصوب الأكراد من عساكره فارتأب بهم الآخرون والمجازوا عنهم في العسكر ووصل شيركوه صاحب حمص ثم الظاهر صاحب حلب آخر شعبان وأول رمضان لمظاهرة الأفضل وأرسل العادل إلى موالى صلاح الدين بالقدس فساروا إليه وقوي بهم وبنس الأفضل وأصحابه وخرج عساكر دمشق لبيتوهم فوجدوهم حذرين فرجعوا وجاء الخبر إلى العادل بوصول ابنه محمد الكامل إلى حران فاستدعاه ووصل منتصف صفر سنة ست وتسعين فعند ذلك رحلت العساكر عن دمشق وعاد كل منهم إلى بلاده انتهى والله أعلم.

إفراج الكامل عن ماردین

قد كان تقدم لنا مسير العادل إلى ماردین وسار معه صاحب الموصل وغيره من ملوك الجزيرة وديار بكر وفي نفوسهم غصص من تغلب العادل على ماردین وغلبهم فلما عاد العادل إلى دمشق لمداغة الأفضل وترك ابنه الكامل على حصار ماردین واجتمع ملوك الجزيرة وديار بكر على مدافعتة عنها وسار نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب جزيرة ابن عمر واجتمعوا كلهم ببليس حتى قضا عيد الفطر وارتحلوا سادس شوال وقاربوا جبل ماردین وكان أهل ماردین قد اشتد عليهم الحصار وبعث النظام برتقش صاحبها إلى الكامل بتسليم القلعة على شروط اشترطها إلى أجل ضربه وأذن لهم الكامل في إدخال الأقوات في تلك المدة.

مشتغلين على الأفضل وشيعة له فخيرهم بين المقام والانصراف
ولحق فخر الدين جهاركس وقرابا بدمشق فامتعت عليهم
وعادوا إلى تجديد الصلح مع العادل على أن يكون للظاهر منبج
وأفامية وكفر طاب وبعض قرى المعرة والأفضل له سيمساق
وسروج ورأس عين وحلين فتم ذلك بينهم ورحلوا عن دمشق في
محرم سنة ثمان وتسعين.

وسار الظاهر إلى حلب والأفضل إلى حمص فأقام بها عند
أهله ووصل العادل إلى دمشق في تاسوعاء وجاء الأفضل فلقبه
بظاهر دمشق وعاد إلى بلاده فتسلمها وكان الظاهر والأفضل لما
فصلا من منبج إلى دمشق بعثا إلى نور الدين صاحب الموصل أن
يقصد بلاد العادل بالجزيرة وكانت بينه وبينهما وبين صاحب
ماردين يمين واتفاق على العادل منذ ملك مصر خافة أن يطرق
أعمالهم فزار نور الدين عن الموصل في شعبان ومعه ابن عمه
قطب الدين صاحب سنجار وعسكر ماردين ونزلوا رأس عين
وكان بحران الفاتر بن العادل في عسكر يحفظ أعمالهم بالجزيرة
فبعث إلى نور الدين في الصلح ووصل الخبر بصلح العادل مع
الظاهر والأفضل فأجابهم نور الدين إلى الصلح واستخلفوا وبعث
أرسلان من عنده إلى العادل فاستحلفوه أيضاً وصحت الحال والله
تعالى ولي التوفيق.

حصار ماردين ثم الصلح بين العادل والأشرف

ثم بعث الملك العادل ابنه الأشرف موسى في العساكر
لحصار ماردين فزار إليها ومعه عساكر الموصل وسنجان ونزلوا
بالحرير تحت ماردين وسار عسكر من قلعة البازغية من أعمال
ماردين لقطع الميرة عن عسكر الأشرف فلقبهم جماعة من عسكر
الأشرف وهزموهم وأفسد التركمان السابلة في تلك النواحي
وامتنع على الأشرف قصده فتوسط الظاهر غازي في الإصلاح
بينهم على أن يحمل صاحب ماردين للعادل مائة وخمسين ألف
دينار والدينار أحد عشر قيراطاً من الأميري ويطلب له ببلاده
ويضرب السكة باسمه وتعسكر طائفة من جنده متى دعاهم لذلك
فأجاب العادل وتم الصلح بينهما ورحل الأشرف عن ماردين
والله أعلم.

فصل من مصر للشام في جماعة الموالي الصلاحية وكان بها الأمير
بشارة من أمراء الترك ارتاب العادل بطاعته فبعث العساكر إليه مع
جهاركس والله تعالى أعلم.

مسير الظاهر والأفضل إلى حصار دمشق

ولما قطع العادل خطبة المنصور بن العزيز بمصر استوحش
الأمراء لذلك ولما كان منه في اعتراض الجند فراسلوا الظاهر بحلب
والأفضل بصرخد أن يحاصرا دمشق فيسير إليهما الملك العادل
فيأتخرون عنه بمصر ويقومون بدعوتهما ونمي الخبر إلى العادل
وكتب به إليه الأمير عز الدين أسامة جاء من الحج ومر بصرخد
فلقيه الأفضل ودعاه إلى أمرهم وأطلعه على ما عنده فكتب به إلى
العادل وأرسل العادل إلى ابنه المعظم عيسى بدمشق يأمره بحصار
الأفضل بصرخد وكتب إلى جهاركس بمكانه من حصار بانياس
وإلى ميمون القصري صاحب بانياس بالمسير معه إلى صرخند ففر
منها الأفضل إلى أخيه الظاهر بحلب فوجده يتجهز لأنه بعث أميراً
من أمرائه إلى العادل فردّه من طريقه فزار إلى منبج فملكها ثم
قلعة نجم كذلك وذلك سلخ رجب من سنة سبع وتسعين.

وسار المعظم بقصد صرخند وانتهى إلى بصرى وبعث عن
جهاركس والذين معه على بانياس فغالطوه ولم يجيئوه فعاد إلى
دمشق وبعث إليهم الأمير أسامة يستحثهم فاعلظوا له في القول
وتناوله البكاء منهم وثاروا به جميعاً فتقدم لميمون القصري منهم
فأمنه وعاد إلى دمشق ثم ساروا إلى الظاهر حضر به صلاح الدين
وأنزله من صرخند واستحثوا الظاهر والأفضل للوصول فتابطاً
الظاهر عنهم وسار من منبج إلى حماة فحاصرها حتى صالحه
صاحبها ناصر الدين محمد على ثلاثين ألف دينار صورية فارتحل
عنها تاسع رمضان إلى حمص ومعه أخوه الأفضل ومنها إلى بعلبك
وإلى دمشق ووفاه هنالك الموالي الصلاحية مع الظاهر خضر بن
مولاها وكان الوفاق بينهم إذا فتحوا دمشق أن تكون بيد الأفضل
فإذا ملكوا مصر سار إليها وبقيت للظاهر وأقطع الأفضل صرخند
لمولى أبيه زين الدين قرابا وأخرجوا أهله منها إلى حمص عند
شيركوه بن محمد شيركوه وكان العادل قد سار من مصر إلى الشام
فانتهى إلى نابلس وبعث عسكراً إلى دمشق ووصلوا قبل وصول
هذه العساكر فلما وصلوها قاتلوا يوماً وثانية متصرف ذي القعدة
وأشرفوا على أخذها فبعث الظاهر إلى الأفضل بأن دمشق تكون
له فاعتذر بأن أهله في غير مستقر ولعلهم يأوون إلى دمشق في
خلال ما يملك مصر فلجّ الظاهر في ذلك وكان الموالي الصلاحية

أخذ البلاد من يد الأفضل

إحدى وستمئة وعاد إلى بلده والله تعالى أعلم.

وصول الإفرنج إلى الشام والصلح معهم

ولما ملك الإفرنج القسطنطينية من يد الروم سنة إحدى وستمئة تكالبوا على البلاد ووصل جمع منهم إلى الشام وأرسوا بعكا عازمين على ارتجاع القدس من المسلمين ثم ساروا في نواحي الأردن فاكسحوها وكان العادل بدمشق استقر العساكر من الشام ومصر وسار فنزل بالطور قريباً من عكا لمداقتهم وهم قبالة بمرج عكا وساروا إلى كفر كنا فاستباحوه.

ثم انقضت سنة إحدى وستمئة وتراسلوا في المهادنة على أن ينزل لهم العادل عن كثير من مناصف الرملة وغيرها ويعطيهم وتم ذلك بينهم وسار العادل إلى مصر فقصده الإفرنج حماة وقاتلهم صاحبها ناصر الدين محمد فهزمه وأقاموا أياماً عليها ثم رجعوا والله تعالى أعلم.

غارة ابن ليون على أعمال حلب

قد تقدم لنا ذكر ابن ليون ملك الأرمن وصاحب الدروب فأغار سنة اثنتين وستمئة على أعمال حلب واكتسحها واتصل ذلك منه فجمع الظاهر غازي صاحب حلب ونزل على خمسة فراسخ من حلب وفي مقدمته ميمون القصري من موالي أبيه منسباً إلى قصر الخلفاء بمصر ومنه كان أبوه وكان الطريق إلى بلاد الأرمن متعذراً من حلب لتوعر الجبال وصعوبة المضائق وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده لما يلي حلب ومن ثغورها قلعة دريساك فخشي الظاهر عليها منه وبعث إليها مدداً وأمر ميمون القصري أن يشيعه بطائفة من عسكره ففعل وبقي في خف الجند ووصل خبره إلى ابن ليون فكبس القصري ونال منه ومن المسلمين وانهزموا أمامه فظفر بمخلفهم ورجع فلقى في طريقه المدد الذي بعث إلى دريساك فهزمهم وظفر بما كان معهم وعاد الأرمن إلى بلادهم فاعتصموا بمحصولهم والله تعالى أعلم.

استيلاء نجم الدين بن العادل على خلاط

كان العادل قد استولى على ميفارقين وأنزل بها ابنه الأوحده نجم الدين ثم استولى نجم الدين على حصون من أعمال خلاط وزحف إليها سنة ثلاث وستمئة وقد استولى عليها يليان مولى شاهرين فقاتله وهزمه وعاد إلى ميفارقين فهزمهم.

قد كان تقدم أن الظاهر والأفضل لما صالحا العادل سنة سبع وتسعين أخذ الأفضل سميساط وسروج ورأس عين وحلبين وكانت بيده معها قلعة نجم التي ملكها الظاهر بين يدي الحصار قبل الصلح ثم استرد العادل البلاد من يد الأفضل سنة تسع وتسعين وأبقى له سميساط وقلعة نجم فطلب الظاهر قلعة نجم على أن يشفع له عند العادل في رد ما أخذ منه فلم يجب فتهدده ولم تزل الرسل تتردد بينهما حتى سلمها إليه في شعبان من السنة وبعث الأفضل أمه إلى العادل في رد سروج ورأس عين عليهم فلم يشفعها فبعث الأفضل إلى ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم بطاعته وأن يخطب له فبعث إليه بالخلعة وخطب له الأفضل في سميساط سنة ستمئة وسار من جملة نوابه في أعماله وفي سنة تسع وتسعين هذه خاف على مصر محمود بن العزيز صاحب مصر بعث العساكر إلى الرها لأنه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين خاف على مصر من شيعه أبيه فأخرجه سنة ثمان وتسعين إلى دمشق ثم نقله في هذه السنة إلى الرها ومعه إخوانه وأمه وأهلها فأقاموا بها والله أعلم.

واقعة الأشرف مع صاحب الموصل

كانت الفتنة متصلة بين نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وبين ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار واستمال العادل بن أيوب قطب الدين فخطب له بأعماله وسار إليه نور الدين غيرة من ذلك فحاصر نصيبين في شعبان من سنة ستمئة وبعث قطب الدين يستمد الأشرف موسى بن العادل وهو بحران فسار إلى رأس عين لإمداده ومدافعة نور الدين عنه بعد أن اتفق على ذلك مع مظفر الدين صاحب أربل وصاحب جزيرة ابن عمر وصاحب كيفا وأمد ففارق نور الدين نصيبين وسار إليها الأشرف وجاءه أخوه نجم الدين صاحب ميفارقين وصاحب كيفا وصاحب الجزيرة وساروا جميعاً إلى بلد البقعا ونور الدين صاحب الموصل قد انصرف من تل أعفر وقد ملكها إلى كفر رمان معتزماً على مطاولتهم إلى أن يفتروا ثم أغراه بعض مواليه كان بعثه عيناً عليهم فقللهم في عينه وحرضه على معاجلتهم باللقاء فسار إلى نوسرا ونزل قريباً منهم ثم ركب لقتلهم واقتلوا فانهزم نور الدين ولحق بالموصل ونزل الأشرف وأصحابه كفر رمان وعاثوا في البلاد واكتسحوها وترددت الرسل بينهم في الصلح على أن يعيد نور الدين على قطب الدين قلعة تل أعفر التي أخذها له فتم ذلك سنة

وأظله الشتاء فأذن لعساكر الجزيرة في العود إلى بلادهم وترك عند صاحب حمص عسكرياً أنجده بهم وعاد إلى دمشق فشتى بها والله أعلم.

غارات الكرج على خلاط وأعمالها وملكهم أرجيش

ولما ملك الأوحـد نجم الدين خلاط كما مر رد الكرج الغارات على أعمالها وعائوا فيها ثم ساروا سنة خمس وستمئة إلى مدينة أرجيش فحاصروها وملكوها عنوة واستباحوها وخربوها وخام نجم الدين عن لقائهم ومدافعتهم إلى أن انتقض عليه أهل خلاط لما فارقوا ووقع بينه وبينهم ما مر ثم سار الكرج سنة تسع إلى خلاط وحاصروها وحاربهم الأوحـد وهزمهم وأسر ملكهم ثم فاداه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير وعلى الهدنة مع المسلمين وأن يزوج بنته من الأوحـد فاتفق ذلك والله تعالى أعلم بغيبه.

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من عمل سنجار وحصارها

قد تقدم لنا أن قطب الدين زنكي بن محمود بن مودود صاحب سنجار والخابور ونصيبين وما إليها كانت بينه وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وقتة متصلة وزوج نور الدين صاحب الموصل بنته من ابن العادل بن أيوب سنة خمس وستمئة واتصل بهما لذلك فزين له وزراؤه وأهل دولته أن يستجد بالعادل على جزيرة ابن عمر وأعمالها التي لابن عمه سنجار شاه بن غازي بن مودود فتكون الجزيرة بكمالها مضافة إلى الموصل وملك العادل سنجار وما إليها وهي ولاية قطب الدين فتكون له فأجاب العادل إلى ذلك ورآه ذريعة إلى ملك الموصل وأطمع نور الدين في إيالة قطب الدين إذا ملكها تكون لابنه الذي هو صهره على ابنته وتكون عنده بالموصل.

وسار العادل بعساكره سنة ست وستمئة وقصد الخابور فملكه فتين لنور الدين صاحب الموصل حيث أنه لا مانع منه وندم على ما فرط في رأيه من وفادته ورجع إلى الاستعداد للحصار وخوفه الوزراء والحاشية أن ينتقض على العادل فيبدأ به وسار العادل من الخابور إلى نصيبين فملكها وقام بمدافعتة عن قطب الدين وحماية البلد من الأمير أحمد بن برتقش مولى أبيه

ثم دخلت سنة أربع وستمئة وملك مدينة سوس وغيرها وأمدّه أبوه العادل بالعساكر فقصد خلاط وسار إليه يليان فهزمه نجم الدين وحاصره بخلاط وبعث يليان إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم يستنجد فجاء في عساكره واجتمع مع يليان وانهزم نجم الدين ونزلا على مدينة تلبوس فحاصراها ثم غدر طغرل شاه بيليان وقتله وسار إلى خلاط ليملكها فطرده أهلها فسار إلى ملاذكرد فامتعت عليه فعاد إلى بلاده.

وأرسل أهل خلاط إلى نجم الدين فملكوه خلاط وأعمالها وخافه الملوك المجاورون له وملك الكرك وتابعوا الغارات على بلاده فلم يخرج إليهم خشية على خلاط واعتزل جماعة من عسكر خلاط فاستولوا على حصن وإن من أعظم الحصون وأمنعها فعصوا على نجم الدين واجتمع إليهم جمع كثير وملكوا مدينة أرجيش واستمد نجم الدين على خلاط وأعمالها وعاد أخوه الأشرف إلى أعماله بجران والرها ثم سار الأوحـد نجم الدين إلى ملاذكرد ليرتب أحوالها فوثب أهل خلاط على عسكره فأخرجوهم وحصروا أصحابه بالقلعة ونادوا بشعار بني شاهرين وعاد نجم الدين إليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوي بهم وحاصر خلاط واختلف أهلها فملكها واستلحم أهلها وحبس كثيراً من أعيانها كانوا فارين وذلل أهل خلاط لبني أيوب بعد هذه الواقعة إلى آخر الدولة والله تعالى أعلم.

غارات الإفرنج بالشام

كان الإفرنج بالشام قد أكثروا الغارات سنة أربع وستمئة بجشد ثان ثم ملكوا القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها فأغار أهل طرابلس وحصن الأكراد منهم على حمص وأعمالها وعمجز صاحبها شيركوه بن محمد شيركوه عن دفاعهم واستنجد عليهم فأنجده الظاهر صاحب حلب بعسكر أنساموا عنده للمدافعة عنه وأغار أهل قبرص في البحر على أسطول مصر فظفروا منه بعدة قطع وأسروا من وجدوا فيها وبعث العادل إلى صاحب عكا يستج عليه بالصلح فاعتذر بأن أهل قبرص في طاعة الإفرنج الذين بالقسطنطينية وأنه لا حكم له عليهم فخرج العادل في العساكر إلى عكا حتى صالحه صاحبها على إطلاق أسرى من المسلمين ثم سار إلى حمص ونازل القلعتين عند بحيرة قدس ففتحه وأطلق صاحبه وغنم ما فيه وخربه وتقدم إلى طرابلس فاكسح نواحيها اثني عشر يوماً وعاد إلى بحيرة قدس وراسله الإفرنج في الصلح فلم يجيبهم

قبله فبعث ابنه المسعود يوسف واسمه بالتركي أقسنس في العساكر سنة اثني عشرة وستمئة فملك اليمن وقبض على سليمان شاه وبعث به معتقلاً إلى مصر فلم يزل بها إلى أن استشهد في حروب دمياط مع الإفرنج أعوام تسع وأربعين.

وطالت أيام مسعود باليمن وحج سنة تسع عشرة وقدم أعلام أبيه على أعلام الخليفة الناصر فكتب الناصر يشكوه إلى أبيه فكتب إليه أبوه الكامل: برئت من العادل يا أخس إن لم أقطع يمينك فقد نبذت وراء ظهرك دينك ودينك ولا حول ولا قوة إلا بالله. فاستعتب إلى أبيه وأعتبه ثم غلب سنة ست وعشرين على مكة من يد الحسن بن قتادة سيد بني أدريس بن مطاعن من بني حسن وولى عليها وعاد إلى اليمن فهلك ببقية السنة وغلب على أمر اليمن بعده علي بن رسول أستاذ داره ونصب للملك ابنه الأشرف موسى وكفله ثم هلك موسى واستبد ابن رسول باليمن وأورثه بنيه فكانت لهم دولة اتصلت لهذا العهد كما نذكره في أخبارها إن شاء الله تعالى.

وصول الإفرنج من وراء البحر إلى سواحل الشام ومسيرهم إلى دمياط وحصارها واستيلاؤهم عليها

كان صاحب رومة أعظم ملوك الإفرنج بالعدوة الشمالية من البحر الرومي وكانوا كلهم يدينون بطاعته وبلغه اختلاف أحوال الإفرنج بساحل الشام وظهور المسلمين عليهم فانتدب إلى إمدادهم وجهز إليهم العساكر فامتثلوا أمره من إيالته وتقدم إلى ملوك الإفرنج أن يسروا بأنفسهم أو يرسلوا العساكر فامتثلوا أمره وتوافت الأمداد إلى عكا من سواحل الشام سنة أربع عشرة وسار العادل من مصر إلى الرملة وبرز الإفرنج من عكا ليصدوه فسار إلى نابلس يسابقهم إلى أطراف البلاد ويدافعهم عنها فسبقوه ونزل هو على بيسان من الأردن وزحف الإفرنج لحربه في شعبان من السنة وكان في خوف من العساكر فخام عن لقائهم ورجع إلى دمشق ونزل مرج الصفر واستدعى العساكر ليجتمعها وانتهب الفرنج خلفه في بيسان واكتسحوا ما بينها وبين بانياس ونزلوا بانياس ثلاثاً ثم عادوا إلى مرج عكا بعد أن خربوا تلك الأعمال وامتألت أيديهم من نهبا وسبائها ثم ساروا إلى صور ونهبوا صيدا والشقيف على فرسخين من بانياس وعادوا إلى عكا بعد عيد الفطر ثم حاصروا حصن الطور على جبل قريب من عكا كان العادل اختطها فحاصروها سبعة عشر يوماً وقتل عليها بعض

وشرع نور الدين صاحب سنجار ابنه مظفر الدين يستشفع به إلى العادل لمكانه منه وأثره في مولاته فشفع ولم يشفعه العادل فراسل نور الدين صاحب الموصل في الاتفاق على العادل فأجابته.

وسار بعساكره من الموصل واجتمع مع نور الدين بظاهرها واستنجد بصاحب حلب الظاهر وصاحب بلاد الروم كتنخسرو وتداعوا على الحركة إلى بلاد العادل إن امتنع من الصلح والإبقاء على صاحب سنجار وبعثوا إلى الخليفة الناصر أن يأمر العادل فبعث إليه أستاذ داره أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك والأمير أقباش من خواص مواله فأجاب إلى ذلك ثم غالطهم وذهب إلى المطاولة ثم صالحهم على سنجار فقط وله ما أخذ وغالفوا على ذلك وعاد كل إلى بلده ثم قبض المعظم عيسى سنة عشر وستمئة على الأمير أسامة بأمر أبيه العادل وأخذ منه حصن كوكب وعجلون وكانا من أعماله فخرّ بهما وحصن أردن بالكوكب وبني مكانه حصناً قرب عكا على جبل الطور وشحنه بالرجال والأقوات والله تعالى أعلم.

وفاة الظاهر صاحب حلب وولاية ابنه العزيز

لما توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين بن أيوب صاحب حلب ومنبج وغيرها من بلاد الشام في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وكان مرهف الحد ضابطاً لجأعة للأموال شديد الانتقام محسناً للقضاة وعهد بالملك لابنه الصغير محمد بن الظاهر وهو ابن ثلاث سنين وعدل عن الكبير لأن أمه بنت عمه العادل ولقبه العزيز غياث الدين وجعل أتابكه وكافله وخادمه طغرل بك ولقبه شهاب الدين وكان خيراً صاحب إحسان ومعروف فأحسن كفالة الولد وعدل في سيرته وضبط الإيالة بجميل نظره والله أعلم.

ولاية مسعود بن الكامل على اليمن

ولما ملك سليمان بن مظفر على اليمن سنة تسع وتسعين وخمسمائة أساء إلى زوجته أم الناصر التي ملكته وضارها وأعرض عنها واستبد بملكه وملأ الدنيا ظلاماً وأتأم على ذلك ثلاث عشرة سنة ثم انتفض على العادل وأساء معاملته وكتب إليه بعض الأحيان: أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم فكتب العادل إلى ابنه الكامل أن يبعث العساكر إلى اليمن مع وال من

وفاة العادل واقتسام الملك بين بنيه

قد ذكرنا خبر العادل مع الإفرنج الذين جاؤوا من وراء البحر إلى سواحل الشام سنة أربع عشرة وما وقع بينه وبينهم بعكا وبيسان وأنه عاد إلى مرج الصفر قريباً من دمشق فأقام به فلما سار الإفرنج إلى دمياط انتقل هو إلى خاتنين فأقام بها ثم مرض وتوفي سابع جمادى الأخيرة سنة خمس عشرة وستمئة ثلاث وعشرين سنة من ملكه دمشق وخمس وسبعين من عمره وكان ابنه المعظم عيسى بنابلس فجاء ودفنه بدمشق وقام بملكها واستأثر بمخلفه من المال والسلاح وكان لا يعبر عنه يقال: كان المال العين في سترته سبعمئة ألف دينار وكان ملكاً حليماً صبوراً مسدداً صاحب إفادة وخديعة منجمة في أحواله وكان قد قسم البلاد في حياته بين بنيه: فمصر للكمال ودمشق والقدس وطبرية والكرك وما إليها للمعظم عيسى وخلط وما إليها وبلاد الجزيرة غير الرها ونصيبين وميافارقين للأشرف موسى والرها وميافارقين لشهاب الدين غازي وقلعة جعبر للخضر أرسلان شاه.

فلما توفي استقل كل منهم بعمله وبلغ الخبر بذلك إلى الملك الكامل بمكانه قبالة الإفرنج بدمياط فاضطرب عسكره وسعى المشطوب كما تقدم في ولاية أخيه الفائز ووصل الخبر بذلك إلى المعظم عيسى فأغذ السير من دمشق إليه بمصر وأخرج المشطوب إلى الشام فلحق بأخيهما الأشرف وصار في جلته واستقام للكمال ملكه بمصر ورجع المعظم من مصر فقصد القدس في ذي القعدة من السنة وخرب أسواره حذراً عليه من الإفرنج وملك الإفرنج دمياط كما ذكرناه وأقام الكامل قبالتهم والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

وفاة المنصوب صاحب حماة وولاية ابنه

الناصر

قد تقدم لنا: أن صلاح الدين كان قد أقطع تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه مدينة حماة وأعمالها ثم بعثه إلى الجزيرة سنة سبع وثمانين فملك حران والرها وسروج وميافارقين وما إليها من بلاد الجزيرة فأقطعه إياها صلاح الدين ثم سار إلى بلاد أرمينية وقصد بكتمر صاحب خلط وحاصرها ثم انتقل إلى حصار ملاذكرد وهلك عليها تلك السنة وتولى ابنه ناصر الدين محمد ويلقب المنصور على أعماله ثم انتزع صلاح الدين منه بلاد الجزيرة وأقطعه أخاه العادل وأبقى حماة وأعمالها بيد ناصر الدين

ملوكهم فرجعوا عنها وبعث العادل ابنه المعظم عيسى إلى حصن الطور فخر بها لثلاثاً يملكها الإفرنج ثم سار الإفرنج من عكا في البحر إلى دمياط وأرسوا بسواحلها في صفر والنيل بينهم وبينها وكان على النيل برج حصين تمر منه إلى سور دمياط سلاسل من حديد محكمة تمنع السفن من البحر الملح أن تصعد في النيل إلى مصر فلما نزل الإفرنج بذلك الساحل خندقوا عليهم وبنا سوراً بينهم وبين الخندق وشرعوا في حصار دمياط واستكثروا من آلات الحصار.

وبعث العادل إلى ابنه الكامل بمصر أن يخرج في العساكر ويقف قبالتهم ففعل وخرج من مصر في عساكر المسلمين فنزل قريباً من دمياط بالعادلية والحق الإفرنج على قتال ذلك البرج أربعة أشهر حتى ملكوه ووجدوا السيل إلى دخول النيل ليتمكنوا من النزول على دمياط فبنى الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً يمنع الداخلين إلى النيل فقاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى قطعوه فأمر الكامل بمراكب مملوءة بالحجارة وخرقوها وراء الجسر تمنع المراكب من الدخول إلى النيل فعدل الإفرنج إلى الخليج الأزرق وكان النيل يجري فيه قديماً فحفروه فوق الجسر وأجروا فيه الماء إلى البحر وأصعدوا مراكبهم إلى قبالة معسكر المسلمين ليتمكنوا من قتالهم لأن دمياط كانت حاضرة بينهم فاقتلوا معهم وهم في مراكبهم فلم يظفروا والميرة والإمداد متصلة إلى دمياط والنيل حاجز بينهم وبين الإفرنج فلا يحصل لهم من الحصار ضيق.

ثم بلغ الخبر بموت العادل فاختلف العسكر وسعى مقدم الأمراء عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن المشطوب الهكاري في خلع الكامل وولاية أخيه الأصغر الفائز ونمي الخبر إلى الكامل فأسرى من ليلته إلى أشمون طناح وتفقدته المسلمون من الغد فأجفلوا ولحقوا بالكامل وخلقوا سوادهم بما فيه فاستولى عليه الإفرنج وعبروا النيل إلى البر المتصل بدمياط وجالوا بينها وبين أرض مصر وفستت السابلة بالأعراب وانقطعت الميرة عن دمياط واشتد الإفرنج في قتالها وهي في قلة من الحامية لإجفال المسلمين عنها بغنة ولما جهدهم الحصار وتعذر عليهم القوات استأمنوا إلى الإفرنج فملكوها آخر شعبان سنة ست عشرة وبنا سراياهم فيما جاورها فأقفروه ورجعوا إلى عمارة دمياط وتحصينها وأقام الكامل قريباً منهم لحماية البلاد وبنى المنصورة بقرب مصر عند مفترق البحر من جهة دمياط والله تعالى أعلم.

إليهم سنة خمس عشرة ومعه وأميرهم نافع من خدمه وغيرهم من العرب ونزل بظاهر حلب وتوجه كيكائوس والأفضل من تل باشر إلى منبج وسار الأشرف نحوهم وفي مقدمته العرب فلقوا مقدمة كيكائوس فهزموها فلما عادوا إلى كيكائوس منهزمين أجفل إلى بلاده وسار الأشرف فملك رعبان وتل باشر وأخذ من كان بها عساكر كيكائوس وأطلقهم فلتحقوا بكيكائوس فجمعهم في دار وأحرقها عليهم فهلكوا وسلم الأشرف ما ملكه من قلاع حلب لشهاب الدين الخادم كافل العزيز بحلب واعتزم على اتباع كيكائوس إلى بلاده فادركه الخبر بوفاة أبيه العادل فرجع انتهى والله تعالى أعلم.

محمد المذكور فلم تزل بيده إلى أن توفي سنة سبع عشرة وستمائة لثمان وعشرين سنة من ولايته عليها بعد مهلك عم أبيه صلاح الدين والعادل وكان ابنه ولي عهده المظفر عند العادل بمصر وابنه الآخر قليج أرسلان عند خاله المعظم عيسى بمكانه من حصاره فاستدعاه أهل دولته بحماسة واشترط المعظم عليه ما لا يحمله وأطلقه إليهم فملك حماة وتلقب الناصر وجاءه أخوه ولي العهد من مصر فدفعه أهل حماة فرجع إلى دمشق عند المعظم وكتبه واستمالهم فلم يجيبوه ورجع إلى مصر والله تعالى أعلم.

مسير صاحب بلاد الروم إلى حلب وانهزاه ودخولها في طاعة الأشرف

دخول الموصل في طاعة الأشرف وملكه

سنجار

قد ذكرنا في دولة بني زنكي أن القاهرة عز الدين مسعود صاحب الموصل توفي في ربيع سنة خمس عشرة وستمائة وولى ابنه نور الدين أرسلان شاه في كفالة مولى أبيه نور الدين لؤلؤ مولاه ومدبر دولته وكان أخوه عماد الدين زنكي في قلعة الصفد والسوس من أعمال الموصل بوصية أبيهما إليه بذلك وأنه بعد وفاة أخيه عز الدين طلب الأمر لنفسه وملك العمادية وظهره مظفر الدين كوكبري صاحب إربل على شأنه فبعث نور الدين لؤلؤ إلى الأشرف موسى بن العادل والجزيرة كلها وخلاط وأعمالها في طاعته فأرسل إليه بالطاعته وكان على حلب مدافعاً لكيكائوس صاحب بلاد الروم كما تذكره بعد فأجابته الأشرف بالقبول ووعدته النصر على أعدائه.

وكتب إلى مظفر الدين يقبح عليه ما وقع من نكث العهد في اليمين التي كانت بينهم جميعاً وأمره بإعادة عماد الدين زنكي ما أخذه من بلاد الموصل وإلا فيسير بنفسه ويسترجعها ممن أخذها ويدعوه إلى ترك الفتنة والاشتغال معه بما هو فيه من جهاد الإفرنج فضمم مظفر الدين عن نديته ووافقه صاحب ماردين وصاحب كيفا وأمد يجهز إلى الأشرف عسكرياً إلى نصيبين للؤلؤ صاحب الموصل ثم جهز لؤلؤ العساكر إلى عماد الدين فهزموه ولحق بإربل عند المظفر وجاءت الرسل من الخليفة الناصر والملك الأشرف فأصلحوا بينهما وتحالفا.

ثم وثب عماد الدين زنكي إلى قلعة كراشي فملكها وبعث لؤلؤ إلى الأشرف وهو على حلب يستنجده فغير الفرات إلى حران واستمال مظفر الدين ملوك الأطراف وحملهم على طاعة كيكائوس

قد كنا قدما وفاة الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ومنبج سنة ثلاث عشرة وولايته ابنه الأصغر محمد العزيز غياث الدين في كفالة طغرل الخادم مولى أبيه الظاهر وأن شهاب الدين هذا الكامل أحسن السيرة وأفاض العدل وعف عن أموال الرعية ورد السعاية فيهم بعضهم على بعض وكان يجلب رجلان من الأشرار يكثران السعاية عند الظاهر ويغريانه بالناس ولقي الناس منهما شدة فأبعدهما شهاب الدين فيمن أبعد من أهل الشر ورد عليهما السعاية فكسدت سوقهما وتناولهما الناس بالألسنة والوعيد فلحقا ببلاد الروم وأطمعا صاحبها كيكائوس في ملك حلب وما بعدها ثم رأى أن ذلك لا يتم إلا أن يكون معه بعض بني أيوب لينقاد أهل البلاد إليه.

وكان الأفضل بن صلاح الدين بسمساط وقد دخل في طاعة كيكائوس غضباً من أخيه الظاهر وعمه العادل بما انتزعا من أعماله فاستدعاه كيكائوس وطلبه في المسير على أن يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للأفضل والخطبة والسكة لكيكائوس ثم يقصدون بلاد الأشرف بالجزيرة: حران والزها وما إليهما على هذا الحكم وتحالفوا على ذلك وجمعوا العساكر وساروا سنة خمس عشرة فملكوا قلعة رعبان فتسلمها الأفضل ثم قلعة باشر من صاحبها ابن بدر الدين أرزم الباروقي بعد أن كانوا حاصروها وضيقوا عليها وملكها كيكائوس لنفسه فاستوحش الأفضل وأهل البلد أن يفعل مثل ذلك في حلب.

وكان شهاب الدين كافل العزيز بن الظاهر مقيماً بقلعة حلب لا يفارقها خشية عليها فظير الخبر إلى الملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط لتكون طاعتهم وخطبتهم له والسكة باسمه ويأخذ من أعمال حلب ما اختار فجمع العساكر وسار

شفع عنده صاحب كيفا وغيره من بطانته وأنهوا إليه العساكر فأجاب إلى هذا الصلح وفسح لهم في تسليم القلاع إلى مدة ضربوها وسار عماد الدين مع الأشرف حتى يتم تسليم الباقي ورحل الأشرف عن الموصل ثاني رمضان وبعث لؤلؤ نوابه إلى القلاع فامتنع جندها من تسليمها إليهم وانقضى الأجل واستمال عماد الدين زنكي شهاب الدين غازي أخا الأشرف فاستعطف له أخاه فأطلقه ورد عليه قلعة العقروسسوس وسلم لؤلؤ قلعة تل أعفر كما كانت من أعمال سنجار والله تعالى أعلم.

ارتجاع دمياط من يد الإفرنج

ولما ملك الإفرنج دمياط أقبلوا على تحصينها ورجع الكامل إلى مصر وعسكر بأطراف الديار المصرية مسلحة عليها منهم وبنى المنصورة بعد المنزلة وأقام كذلك سنين وبلغ الإفرنج وراء البحر فتحها واستيلاء إخوانهم عليها فلجوا بذلك وتوالت إمدادهم في كل وقت إليها والكامل مقيم بمكانه وتواترت الأخبار بظهور التتر وروصلهم إلى أذربيجان وأران وأصبح المسلمون بمصر والشام على تخوف من سائر جهاتهم واستنجد الكامل بأخيه المعظم صاحب دمشق وأخيه الأشرف صاحب الجزيرة وأرمينية وسار المعظم إلى الأشرف يستحثه للوصول فوجده في شغل بالفتنه التي ذكرناها فعاد عنه إلى أن انقضت تلك الفتنة.

ثم تقدم الإفرنج من دمياط بعساكرهم إلى جهة مصر وأعاد الكامل خطابه إليهما سنة ثمان مائة يستنجد بهما وسار المعظم إلى الأشرف يستحثه فجاء معه إلى دمشق وسار منها إلى مصر ومعه عساكر حلب والناصر صاحب حماة وشريكه صاحب حمص والأجد صاحب بعلبك فوجدوا الكامل على بحر أشمون وقد سار الإفرنج من دمياط بمجموعهم ونزلوا قبائله بعدوة النيل وهم يرمون على معسكره بالجانيق والناس قد أشفقوا من الإفرنج على الديار المصرية فسار الكامل وبقي أخوه الأشرف بمصر.

وجاء المعظم بعد الأشرف وقصد دمياط يسابق الإفرنج ونزل الكامل والأشرف وظفرت شواني المسلمين بثلاث قطع من شواني الإفرنج فغنموا بما فيها ثم ترددت الرسل بينهم في تسليم دمياط على أن يأخذوا القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبله واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين غير الكرك فاشتطوا واشتروا إعادة الكرك والشوبك وزيادة ثلثمائة ألف دينار لرم أسوار القدس التي خربها المعظم والكامل فرجع المسلمون إلى قتلهم واقتد الإفرنج الأقوات لأنهم لم يحملوها من دمياط ظناً

والخطبة له وكان عدو الأشرف ومنازلاً له في منبج كما نذكره وبعث أيضاً إلى الأمراء الذين مع الأشرف واستمالهم فأجابهم منهم أحمد بن علي المشطوب صاحب القلعة مع الكامل على دمياط وعز الدين محمد بن نور الدين الحميدي وفارقوا الأشرف إلى ديبس تحت مارددين ليجمعوا على منع الأشرف من العبور إلى الموصل.

ثم استمال الأشرف صاحب كيفا وآمد وأعطاه مدينة جانين وجبل الجودي ووعد بهدارا إذا ملكها ولحق به صاحب كيفا وفارق أصحابه الملوك واقتدى به بعضهم في طاعة الأشرف والنزوع إليه فافترق ذلك الجمع وسار كل ملك إلى عمله وسار ابن المشطوب إلى إربل ومر بنصيبين فقاتله عساكرها وهزموه وافترق جمعه ومضى منهزماً واجتاز بسنجان وبها فروخ شاه عمر بن زنكي بن مودود فبعث إليه عسكرياً فجاؤوا به أسيراً وكان في طاعة الأشرف فحبس له ابن المشطوب ثم رجاء فأطلقه وسار في جماعة من المفسدين إلى البقعاء من أعمال الموصل فاكسحها وعاد إلى سنجان.

ثم سار ثانياً للإغارة على أعمال الموصل فأرصد له لؤلؤ عسكرياً بثل أعفر من أعمال سنجان فلما مر بهم قاتلوه وصعد إلى تل أعفر منهزماً وجاء لؤلؤ من الموصل فحاصره بها شهراً أو بعضه وملكها منتصف ربيع الآخر من سنة سبع عشرة وحبس ابن المشطوب بالموصل ثم بعث به إلى الأشرف فحبسه بخران إلى أن توفي في ربيع الآخر من سنة سبع عشرة ولما افترق جمع الملوك سار الأشرف من حران محاصراً لمارددين.

ثم صالحه على أن يرد عليه رأس عين وكان الأشرف أقطعه له وعلى أن يأخذ منه ثلاثين ألف دينار وعلى أن يعطي صاحب كيفا وآمد قلعة المورو من بلده ورجع الأشرف من ديبس إلى نصيبين يريد الموصل وكان عمر صاحب سنجان لما أخذ منه لؤلؤ تل أعفر فحاذل عنه أصحابه وساءت ظنونهم بنفسه لما ساء فعله في أخيه وفي غيره فاعتزم على الإلقاء باليد للأشرف وتسليم سنجان له والاعتياض عنها بالرقه وبعث رسله إليه بذلك فلحقوه في طريقه من ديبس إلى نصيبين فأجاب إلى ذلك وسلم إليه الرقة وسلم سنجان في مستهل جمادى الأولى سنة سبعة عشر وفارقها عمر فروخ شاه وإخوته بأهلهم وأموالهم.

وسار الأشرف من سنجان إلى الموصل فوصلها تاسع عشر جمادى الأولى من السنة وجاءته رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح ورد ما أخذه عماد الدين من قلاع الموصل إلى لؤلؤ ما عدا العمادية وطال الحديث في ذلك ورحل الأشرف يريد إربل ثم

بأنهم غالبون على السواد وميرته بأيديهم فبدا لهم ما لم يحتسبوا. ثم فخر المسلمون النيل إلى العدو التي كانوا عليها فركبها الماء ولم يبق لهم إلا مسلك ضيق ونصب الكامل الجسور عند أشمون فعبرت العساكر عليها وملكو ذلك المسلك وحالوا بين الإفرنج وبين دمياط ووصل إليهم مركب مشحون بالمدد من الميرة والسلاح ومعه حراقات فخرجت عليها شواتي المسلمين وهي في تلك الحال فغنموا بما فيها واشتد الحال عليهم في معسكرهم وأحاطت بهم عساكر المسلمين وهم في تلك الحال يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل جانب فأحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأرادوا الاستماتة في العود فأروا ما حال بينهم وبينها من الرجل فاستأمنوا إلى الكامل والأشرف على تسليم دمياط من غير عوض وبينما هم في ذلك وصل المعظم صاحب دمشق من جهة دمياط كما مر فازدادوا وهناً وخذلاناً وسلموا دمياط منتصف سنة ثمان عشرة وأعطوا عشرين ملكاً منهم رهناً عليها وأرسلوا الأقبسة والرهبان منهم إلى دمياط فسلموها للمسلمين وكان يوماً مشهوداً ووصلهم بعد تسليمها مدد من وراء البحر فلم يغن عنهم ودخلها المسلمون وقد حصنها الإفرنج فأصبحت من أضع حصون الإسلام والله تعالى أعلم.

وفاة الأوحـد نجم الدين بن العادل صاحب خلاط وولاية أخيه الظاهر غازي عليها

ثم رجع سنة إحدى وعشرين وستمائة فاستولى على فارس وغزنة وعراق العجم وأذربيجان ونزل توريز وجاور بني أيوب في أعمالهم فراسله المعظم صاحب دمشق وصالحه واستنجده على أخويه فأجابوه ودعا المعظم الظاهر أخا الأشرف وعامله على خلاط والمظفر كوكبري صاحب إربل إلى ذلك فأجابوه كلهم وانتفض الظاهر غازي على أخيه الأشرف في خلاط وأرمينية وأظهر عصيانه في ولايته التي بيده فسار إليه الأشرف سنة إحدى وعشرين وغلبه على خلاط فملكها وولى عليها حسام الدين أبا علي الموصل كان أصله من الموصل واستخدم للأشرف وترقى في خدمته إلى أن ولاه خلاط وعفا الأشرف عن أخيه الظاهر غازي وأقره على ميافارقين.

وسار المظفر صاحب إربل ولؤلؤ صاحبها في طاعة الأشرف فحاصرها وامتنت عليه ورجع عنها وسار المعظم بنفسه من دمشق إلى حصص وصاحبها شيركوه بن محمد بن شيركوه في طاعة الكامل فحاصرها وامتنت عليه ورجع إلى دمشق ثم سار الأشرف إلى المعظم طالباً للصلح فامسكه عنده على أن ينحرف عن طاعة الكامل وانطلق إلى بلده فاستمر على شأنه ثم زحف جلال الدين صاحب أذربيجان سنة أربع وعشرين إلى خلاط فحاصرها مرة بعد مرة وأفرج عنها فسار حسام الدين نائبها إلى بلاد جلال الدين وملك حصونها واضطرب الحال بينهم وخشي الكامل مغية الأمر مع المعظم بمآلاته لجلال الدين والخوارزمية فاستنجد هو بالإفرنج وكتب الإمبراطور ملكهم من وراء البحر يستحثه للقدوم على عكا في صرخه على أن ينزل له عن القدس وبلغ ذلك إلى المعظم فخشي العواقب وأقصر عن فتنته وكتب إليه يستعطفه والله تعالى أعلم.

قد تقدم لنا أن الأوحـد نجم الدين بن العادل ملك ميافارقين وبعدها خلاط وأرمينية سنة ثلاث وستمائة ثم توفي سنة سبع فاقطع العادل ما كان بيده من الأعمال لأخيه الأشرف ثم أقطع العادل ابنه الظاهر غازي سنة ست عشرة سروج والرها وما إليها ولما توفي العادل واستقل ولده الأشرف بالبلاد الشرقية عقد لأخيه غازي على خلاط وميافارقين مضافاً إلى ولايته من أبيه العادل وهو سروج والرها وجعله ولي عهده لأنه كان عاقراً لا يولد له وأقام على ذلك إلى أن انتفض على الأشرف عندما حدثت الفتنة بين بني العادل فانتزع أكثر الأعمال منه كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فتنة المعظم مع أخويه الكامل والأشرف

وما دعت إليه من الأحوال

كان بنو العادل الكامل والأشرف والمعظم لما توفي أبوهـم قد

وفاة المعظم صاحب دمشق وولاية ابنه الناصر ثم استيلاء الأشرف عليها واعتياض الناصر بالكرك

ثم توفي المعظم بن العادل صاحب دمشق سنة أربع وعشرين وولي مكانه ابنه داود ولقب بالناصر وقام بتدبير ملكه عز الدين أتابك خدام أبيه وجري على سنن المعظم أولاً في طاعة الكامل والخطبة ثم انتقض سنة خمس وعشرين عندما طالبه الكامل بالنزول له عن حصن الشوبك فامتنع وانتقض وسار الكامل إليه في العساكر فانتهى إلى غزة وانتزع القدس ونابلس من أيديهم وولى عليها من قبله واستنجد الناصر عمه الأشرف فجاءه إلى دمشق وخرج منها إلى نابلس ثم تقدم منها إلى الكامل ليصلح أمر الناصر معه فدعاه الكامل إلى انتزاع دمشق من الناصر له وأقطعه إياها فلم يجب الناصر إلى ذلك وعاد إلى دمشق فحاصره الأشرف.

ثم صالح الكامل ملك الإفرنج ليفرغ لأمر دمشق عن الشواغل وأمكنهم من القدس على أن يخرب سورها فاستولوا عليها كذلك وزحف الكامل إلى دمشق سنة ست وعشرين فحاصرها مع الأشرف وخاف الحصار بالناصر فنزل لهما عنها على أن يستقل بالكرك والشوبك والبلقاء فسلموا له في ذلك وسار إليها واستولى الأشرف على دمشق ونزل الكامل عن أعماله وهي حران والرها وما إليهما وبمكانهما من حصار دمشق ووصل الخبر إلى الكامل بوفاة ابنه المسعود صاحب اليمن وقد مرّ خبره والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

استيلاء المظفر بن المنصور على حماة من يد أخيه الناصر

ولما ملك الكامل دمشق شرع في إيجاد نزيلة المظفر محمود بن المنصور صاحب حماة وبها أخوه الناصر وقد كاتبه بعض أهل البلد يستدعون له الملكة فجهزه بالعساكر وسار إليها فحاصرها ودسّ لمن كاتبه من أهلها فأجابوه وواعدوه ليلاً فطرقها وتسورها وملكها وكتب إليه الكامل أن يقطع الناصر قلعة ماردين فأقطعه إياها وانتزع الكامل منه سلمية وأقطعه لصاحب حمص شيركوه بن محمد بن شيركوه واستقل المظفر محمود بملك حماة وفوض أمور دولته إلى حسام الدين علي بن أبي علي الهدباني فقام بها ثم

استوحش منه فلحق بأبيه نجم الدين أيوب ولم تنزل ماردین بيد الناصر أخي المظفر إلى سنة ثلاثين فهمّ الناصر بأن يملكها للإفرنج وشكا المظفر بذلك للكامل فأمره بانتزاعها منه ثم اعتقله الكامل إلى أن هلك سنة خمس وثلاثين انتهى والله أعلم.

استيلاء الأشرف على بعلبك من يد الأجمد واقطاعها لأخيه إسماعيل بن العادل

كان السلطان صلاح الدين قد أقطع الأجمد بهرام شاه بن فرخشاه أخي تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قلعة بعلبك وكانت بصري لخضر ثم صارت بعد وفاة العادل لابنه الأشرف وعليها أخوه إسماعيل بن العادل فجهره سنة ست وعشرين إلى بعلبك وحاصر بها الأجمد حتى تسلمها منه على إقطاع أقطعه إياه وسار إسماعيل إلى دمشق فزها إلى أن قتله مواليه والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتنة جلال الدين خوارزم شاه مع الأشرف واستيلاؤه على خلاط

قد كنا قدما أن جلال الدين خوارزم شاه ملك أذربيجان وجاور أعمال بني أيوب وكان الأشرف قد ولّى على خلاط لما انتزعها من يد أخيه غازي سنة اثنين وعشرين حسام الدين أبا علي الموصلي ثم صالح المعظم جلال الدين خوارزم شاه ودعاه إلى الفتنة مع أخويه كما قدّمناه فزحف جلال الدين خوارزم شاه إلى خلاط وحاصرها مرتين ورجع عنها فصار حسام الدين إلى بلده وملك بعض حصونه وداخل زوجته التي كانت زوجة أزيك بن البهلوان وكانت مقيمة بخوي وهجرها جلال الدين وقطع عنها ما كانت تعتاده من التحكم في الدولة مع زوجها قبله فدست إلى حسام الدين نائب خلاط واستدعته هي وأهل خوي ليملكوه البلاد فصار وملك خوي وما فيها من الحصون ومدينة قزند.

وكاتبه أهل بقجوان وملكوه بلدهم وعاد إلى خلاط ونقل معه زوجة جلال الدين وهي بنت السلطان طغرل فامتعض جلال الدين لذلك ثم ارتاب الأشرف بحسام الدين نائب خلاط وأرسل أكبر أمراءه عز الدين أيبك فقبض على حسام الدين وكان عدواً له وقتله غيلة وهرب مولاه فلحق بجلال الدين ثم زحف جلال الدين في شوال سنة ست وعشرين إلى خلاط فحاصرها ونصب عليها المجانيق وقطع عنها الميرة مدة ثمانية أشهر ثم ألح عليها

الدين ثم أطلقه بعد أن أخذ عليه العهد في طاعته فصار إليه شهاب الدين غازي وحاصره وملك منه أرزن صلحاً وأعطاه عنها مدينة جاني من ديار بكر وكان اسمه حسام الدين وكان من بيت عريق في الملك يعرفون ببني الأحذب أقطعها لهم السلطان ملك شاه والله تعالى أعلم.

بالبatal وملكها عنوة آخر جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين وامتنع أيلك وحاميتها بالقلعة واستماتوا واستباح جلال الدين مدينة خللاط وعاث فيها بما لم يسمع بمثله ثم تغلب على القلعة وأسر أيلك نائب خللاط فدفعه إلى مولى حسام الدين نائبها قبله فقتله بيده والله تعالى أعلم.

مسير الكامل في إنجاد الأشرف وهزيمة

جلال الدين أمام الأشرف

استيلاء العزيز صاحب حلب على شيزر ثم

وفاته وولاية ابنه الناصر بعده

كان سابق الدين عثمان ابن الداية من أمراء الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي واعتقله ابنه الصالح إسماعيل فسكر عليه صلاح الدين ذلك وسار ببنيه إلى دمشق فملكها وأقطع سابق الدين شيزر فلم تزل له ولبنيه إلى أن استقرت لشهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين فصار إليه صاحب حلب محمد بن العزيز بن الغازي الظاهر بأمر الكامل سنة ثلاثين وستماتة وملكها من يده ثم هلك سنة أربع وثلاثين وملك في حلب مكانه ابنه الناصر يوسف في كفالة جدته لأبيه صفية خاتون بنت العادل واستولى على الدولة شمس الدين لؤلؤ الأرميني وعز الدين المجلي وإقبال الخاتوني وكلهم في تصرفها والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

فتنة كيقباد صاحب بلاد الروم واستيلاؤه

على خللاط

كان كيقباد بن كيكافوس صاحب بلاد الروم قد استفحل ملكه بها ومدّ يده إلى ما يجاورها من البلاد فملك خللاط بعد أن دفع عنها مع الأشرف جلال الدين شاه كما قدمناه ونازعه الأشرف في ذلك واستنجد بأخيه الكامل فصار بالعساكر من مصر سنة إحدى وثلاثين وسار معه الملوك من أهل بيته وانتهى إلى النهر الأزرق من تحوم الروم وبعث في مقدمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقه كيقباد وهزموه وحصره في خرت برت وتحاذل عن الحرب ثم استأمن المظفر صاحب حماة إلى كيقباد فأمنه وملك خرت برت وكان لبني أرتق ورجع الكامل بالعساكر إلى مصر سنة اثنتين وثلاثين وكيقباد في أتباعهم ثم سار إلى حران والرها فملكها من يد نواب الكامل وولى عليها من قبله وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين والله أعلم.

ولما استولى جلال الدين على خللاط سار الأشرف من دمشق إلى أخيه الكامل بمصر يستنجد فصار معه وولى على مصر ابنه العادل ولقيه في طريقه صاحب الكرك الناصر بن المعظم وصاحب حماة المظفر بن المنصور وسائر بني أيوب وانتهى إلى سلمية وكلهم في طاعته ثم سار إلى آمد فملكها من يد مسعود بن محمد ابن الصالح بن محمد بن أرسلان بن سقمان بن أرتق وكان صلاح الدين أقطعه إياها عندما ملكها من ابن نغشان فلما نزل إليه اعتقله وملك آمد ثم انطلق بعد وفاة الكامل من الاعتقال ولحق بالتر ثم استولى الكامل على البلاد الشرقية التي نزل له عنها الأشرف عوضاً عن دمشق وهي حران والرها وما إليهما.

ولما تسلمها ولى عليها ابنه الصالح نجم الدين أيوب وكان جلال الدين لما ملك خللاط حضر معه صاحب أرزن الروم فاغتم لذلك علاء الدين كيقباد ملك بلاد الروم لما بينه وبين صاحب أرزن من العداوة والقرابة وخشيتهما على ملكه فبعث إلى الكامل والأشرف بجران يستنجدهما ويستحث الأشرف للوصول فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى علاء الدين فاجتمع معه بسبواس وسار نحو خللاط وسار جلال الدين للقائهما والتقوا بأعمال أرزنكان وتقدم عسكر حلب للقتال ومقدمهم عز الدين عمر بن علي الهكاري من أعظم الشجعان فلم يثبت لهم مصاف جلال الدين وانهزم إلى خللاط فأخرج حاميته منها ولحق بأذربيجان ووقف الأشرف على خللاط وهي خاوية وكان صاحب أرزن الروم مع جلال الدين فجيء به أسيراً إلى ابن عمه علاء الدين صاحب بلاد الروم فصار به إلى أرزن وسلمها له وما يتبعها من القلاع.

ثم ترددت الرسل بينهم وبين جلال الدين في الصلح فاصطلحوا كل على ما بيده وتحالفوا وعاد الأشرف إلى سنجان وسار أخوه غازي صاحب ميافارقين فحاصر مدينة أرزن من ديار بكر وكان حاضراً مع الأشرف في هذه الحروب وأسر جلال

وفاة الأشرف بن العادل واستيلاء الكامل على ممالكه

كان الأشرف سنة أربع وثلاثين قد استوحش من أخيه الكامل ونقض طاعته ومالاه على ذلك أهل حلب وكنخسرو وصاحب بلاد الروم وجميع ملوك الشام من قرابتهما غير الناصر بن المعظم صاحب الكرك فإنه أقام على طاعة الكامل وسار إليه بمصر فتلقيه بالمبرة والتكرمة ثم هلك الأشرف خلال ذلك سنة خمس وثلاثين وعهد بملك دمشق لأخيه الصالح إسماعيل صاحب بصرى فسار إليها وملكها وبقي الملوك في وفاقه على الكامل كما كانوا على عهد الأشرف إلا المظفر صاحب حماة فإنه عدل عنهم إلى الكامل وسار الكامل إلى دمشق فحاصرها وضيق عليها حتى تسلمها صلحاً من الصالح وعوضه عنها بعلبك واستولى على سائر أعمال الأشرف ودخل سائر بني أيوب في طاعته والله أعلم.

وفاة الكامل وولاية ابنه العادل بمصر

واستيلاء ابنه الآخر نجم الدين أيوب على دمشق

ثم توفي الكامل بن العادل صاحب دمشق ومصر والجزيرة سنة خمس وثلاثين بدمشق لسته أشهر من وفاة أخيه الأشرف فانفض الملوك راجعين كل إلى بلاده المظفر إلى حماة والناصر إلى الكرك وبويع بمصر ابنه العادل أبو بكر فنصب العساكر بدمشق الجواد يونس ابن عمه مودود بن العادل نائباً عنه وسار الناصر داود إلى دمشق ليملكها فبرز إليه الجواد يونس وهزمه وتمكن في ملك دمشق وخلع طاعة العادل بن الكامل وراسل الصالح أيوب في أن يملكه دمشق وينزل له الصالح عن البلاد الشرقية التي ولاه أبوه عليها فسار الصالح لذلك سنة ست وثلاثين وملك دمشق وسار يونس إلى البلاد الشرقية فاستولى عليها ولم تزل بيده إلى أن زحف إليه لؤلؤ صاحب الموصل وغلبه عليها واستقرت دمشق في يد الصالح ولما أخذ لؤلؤ البلاد من يونس الجواد سار عن القفر إلى غزة فمنعه الصالح من الدخول إليها فدخل إلى الإفرنج بمكا وباعوه من الصالح إسماعيل صاحب دمشق فاعتقله وقتله انتهى والله أعلم.

أخبار الخوارزمية

ثم زحف التتر إلى أذربيجان واستولوا على جلال الدين وقتلوه سنة ثمان وعشرين وانقض أصحابه وذهبوا في كل ناحية وسار جمهورهم إلى بلاد الروم فنزلوا على علاء الدين كيقباد ملكها حتى إذا مات وملك ابنه كنخسرو ارتاب بهم وقبض على أمرائهم وانقض الباقون عنه وعاثوا في الجهات فاستأذن الصالح أيوب صاحب سنجان وما إليها أباه الكامل صاحب مصر في استخدامهم ليحسم عن بلاد ضررهم فاجتمعوا عنده وأفاض فيهم الأرزاق ولما توفي الكامل سنة خمس وثلاثين انتقضوا عن الصلح وخرجوا فاكسحروا النواحي وسار لؤلؤ إلى سنجان فحاصر الصالح فبعث الصالح الخوارزمية فاستمالهم وأقطعهم حران والرها ولقي بهم لؤلؤاً فهزمه وغنم معسكره والله تعالى أعلم.

مسير الصالح إلى مصر واعتقال الناصر له بالكرك

لما ملك العادل بمصر بعد أبيه اضطرب عليه أهل الدولة وبلغهم استيلاء أخيه الصالح على دمشق فاستدعوه ليملكوه فبعث عن عمه الصالح إسماعيل من بعلبك ليسير معه فاعتذر عن الوصول وسار الصالح أيوب وولى دمشق ابنه المغيث فتح الدين عمر ولما فصل عن دمشق خالفه إليها عمه الصالح إسماعيل فملكها ومعه شيركوه صاحب حمص وقبض على المغيث فتح الدين بن الصالح أيوب وبلغ الخبر إليه وهو بنابلس فانقضت عنه العساكر ودخل نابلس وجاءه الناصر داود من الكرك فقبض عليه واعتقله وبعث فيه أخوه العادل فامتنع من تسليمه إليه ثم قصد داود القدس فملكها من يد الإفرنج وخرب القلعة والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة شيركوه صاحب مصر وولاية ابنه

إبراهيم المنصور

ثم توفي المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص سنة ست وثلاثين وكانت ولايته أول المائة السابعة وولي من بعده ابنه إبراهيم ويلقب بالمنصور والله أعلم.

خلع العادل واعتقاله واستيلاء أخيه الصالح

أيوب على مصر

أخبار حلب

قد كان تقدم لنا ولاية الظاهر غازي على حلب بعد وفاة أبيه ثم توفي سنة أربع وثلاثين ونصب أهل الدولة ابنه الناصر يوسف في كفالة جدته أم العزيز صفية خاتون بنت العادل ولؤلؤ الأرمي وإقبال الخاتوني وعز الدين بن مجلي قائمون بالدولة في تصرفها وما زالت تجهز العساكر لدفاع الخوارزمية وتفتح البلاد إلى أن توفيت سنة أربعين واستقل الناصر بتدبير ملكه وصرف النظر في أموره لجمال الدين وإقبال الخاتوني والله أعلم.

ولما رجع الناصر داود من فتح القدس أطلق الصالح نجم الدين أيوب من الاعتقال فاجتمعت إليه مواله واتصل اضطراب أهل الدولة بمصر على أخيه العادل فكاتبوا الصالح واستدعوه ليملكه فصار معه الناصر داود وانتهى إلى غزوة وبرز العادل إلى بليس وكتب إلى عمه الصالح بدمشق يستجده على أخيه أيوب فصار من دمشق وانتهى إلى الغور ثم وثب بالعادل في معسكره مواله ومقدمهم أيك الأسمر وقبضوا عليه وبعثوا إلى الملك الصالح فجاء ومعه الناصر داود صاحب الكرك فدخل القلعة سنة سبع وثلاثين واستقر في ملكه وارتاب منه الناصر داود فلحق بالكرك واستوحش من الأمراء الذين وثبوا بأخيه فاعتقلهم وفيهم أيك الأسمر وذلك سنة ثمان وثلاثين وحبس أخاه العادل إلى أن هلك في محبسه سنة خمس وأربعين ثم اختط قلعة بين سعي النيل إزاء المقياس واتخذها مسكناً وأزل بها حامية من مواله فكانوا يعرفون بالبحرية آخر أيامهم انتهى والله أعلم.

فتنة الخوارزمية

فتنة الصالح أيوب مع عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستيلاء أيوب آخرها عليها

قد كان تقدم لنا أن الصالح إسماعيل بن العادل خالف الصالح أيوب على دمشق عند مسيره إلى مصر فملك دمشق سنة ست وثلاثين وكان بعد ذلك اعتقال الصالح بالكرك ثم استيلاءه على مصر سنة سبع وثلاثين وبقيت الفتنة متصلة بينهما وطلب الصالح إسماعيل صاحب دمشق من الإفرنج المظاهرة على أيوب صاحب مصر على أن يعطيهم حصن الشقيف وصنف فامضى ذلك ونكره مشيخة العلماء بعصره وخرج من دمشق عز الدين بن عبد السلام الشافعي ولحق بمصر فولاه الصالح خطة القضاء بها ثم خرج بعده جمال الدين بن الحاجب المالكي إلى الكرك ولحق بالإسكندرية فمات بها.

ثم تداعى ملوك الشام لفتنة الصالح أيوب واتفق عليها إسماعيل الصالح صاحب دمشق والناصر يوسف صاحب حلب وجدته صفية خاتون وإبراهيم المنصور بن شيركوه صاحب حمص وخالفهم المظفر صاحب حماة وجنح إلى ولاية نجم الدين أيوب وأقام حالهم في الفتنة على ذلك ثم جنحوا إلى الصلح إلى أن يطلق صاحب دمشق فتح الدين عمر بن نجم الدين أيوب الذي اعتقله بدمشق فلم يجب إلى ذلك واستجدت الفتنة وسار الناصر داود صاحب الكرك مع إسماعيل الصالح صاحب دمشق واستظهروا بالإفرنج وأعطاهم إسماعيل القدس على ذلك واستجدت بالخوارزمية أيضاً فأجابوه واجتمعوا بغزة.

ثم كثر عيث الخوارزمية بالبلاد الشرقية وعبروا الفرات وقصدوا حلب فبرزت إليهم عساكرها مع المعظم تورانشاه بن صلاح الدين فهزموه وأسروه وقتلوا الصالح بن الأفضل صاحب سميح وكن في جلته وملكوا منبج عنوة ورجعوا ثم ساروا من حران وعبروا من ناحية الرقة وعاثوا في البلاد وجمع أهل حلب العساكر وأمدتهم الصالح إسماعيل من دمشق بعسكر مع المنصور إبراهيم صاحب حمص وقصدوا الخوارزمية فانقلبوا إلى حران ثم توافقوا مع العساكر فانهزموا واستولى عسكر حلب على حران والرها وسروج والرقة ورأس عين وما إليها وخلص المعظم تورانشاه فبعث به لؤلؤ صاحب الموصل إلى عسكر حلب ثم سار عسكر حلب إلى آمد وحاصروا المعظم تورانشاه وغلبوه على آمد وأقام بمحصن كيفاً إلى أن هلك أبوه بمصر واستدعي هو للملكها فصار لذلك وولى ابنه الموحد عبد الله بكيفاً إلى أن غلب التتر على بلاد الشام ثم سار الخوارزمية سنة أربعين مع المظفر غازي صاحب ميافارقين من أقاتل صاحب حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص فانهزموا وغنمت العساكر سوادهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

وبعث نجم الدين العساكر مع مولاه بيرس وكانت له ذمة باعتقاله معه فتلاقوا مع الخوارزمية وجاءت عساكر مصر مع المنصور إبراهيم بن شيركوه ولاقوا الإفرنج من عكا فكان الظفر لعساكر مصر والخوارزمية واتبعوه إلى دمشق وحاصروا بها

بمحض ابنه مظفر الدين موسى ولقب الأشرف وجاءت عساكر حلب سنة ست وأربعين مع لؤلؤ الأرمني وحصروا مصر شهرين وملكوها من يد موسى الأشرف وأعضوه عنها تل باشر من قلاع حلب مضافة إلى الرّجة وتدمر وكاتبا بيده مع حصص وغضب لذلك الصالح فسار من مصر إلى دمشق وجهز العساكر إلى حصار حمص مع حسام الدين الهدباني وفخر الدين بن الشيخ فحاصروا مصر مدة وجاء رسول الخليفة المستعصم إلى الصالح أيوب شافعاً فأفرج العساكر عنها وولى على دمشق جمال الدين يغمور وعزل ابن مطروح واللّه تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على دمياط

كانت إفرنسة أمة عظيمة من الإفرنج والظاهر أنهم أصل الإفرنج وأن إفرنسة هي إفرنجة انقلب السنين بها جيماً عندما عربتها العرب وكان ملكها من أعظم ملوكهم لذلك العصر ويسمونه ري الإفرنس ومعنى ري في لغتهم: ملك إفرنس فاعتزم هذا الملك على سواحل الشام وسار لذلك كما سار من قبله من ملوكهم وكان ملكه قد استفحل فركب البحر إلى قبرص في خمسين ألف مقاتل وشتى بها ثم عبر سنة سبع وأربعين إلى دمياط وبها بنو كنانة أنزلهم الصالح بها حامية فلما رأوا ما لا قبل لهم به أجفلوا عنها فملكها ري إفرنس وبلغ الخبر إلى الصالح وهو بدمشق وعساكره نازلة بمحمص فكر راجعاً إلى مصر وقدم فخر الدين ابن الشيخ أتاكب عساكره ووصل بعده فنزل المنصورة وقد أصابه بالطريق وعك واشتد عليه واللّه تعالى أعلم.

استيلاء الصالح على الكرك

كان بين الصالح أيوب وبين الناصر داود ابن عمه المعظم من العداوة ما تقدم وقد ذكرنا اعتقال الناصر له بالكرك فلما ملك الصالح دمشق بعث العساكر مع أتاكبة فخر الدين يوسف ابن الشيخ لحصار الكرك وكان أخوه العادل اعتقله وأطلقه الصالح وألزمه بيته ثم جهزه لحصار الكرك فسار إليها سنة أربع وأربعين وحاصرها وملك سائر أعمالها وخرب نواحيها وسار الناصر من الكرك إلى الناصر يوسف صاحب حلب مستجيراً به بعد أن بعث بذخيره إلى المستعصم وكتب له خطه بوصولها وكان قد استخلف على الكرك عندما سار إلى حلب ابنه الأصغر عيسى ولقبه المعظم فغضب أخواه الأكران الأجمد حسن والظاهر شادي فقبضاً على أخيهما عيسى ووفدا على الصالح سنة ست وأربعين وهو

الصالح إسماعيل إلى أن جهده الحصار وسأل في الصلح على أن يعرض عن دمشق بعلبك وبصرى والسواد فأجابه أيوب إلى ذلك وخرج إسماعيل من دمشق إلى بعلبك سنة ثمان وأربعين وبعث نجم الدين إلى حسام الدين علي بن أبي علي الهدباني وكان معتقلاً عند إسماعيل بدمشق فشرط نجم الدين إطلاقه في الصلح الأول فأطلقه وبعث إليه بالنيابة عنه بدمشق فقام بها وانصرف إبراهيم المنصور إلى حمص وانتزع صاحب حماة منه سلمية فملكها.

واشتط الخوارزمية على الهدباني في دمشق في الولايات والإقطاعات وامتعضوا لذلك فسار بهم الصالح إسماعيل إلى دمشق موصلاً الكرة ومعه الناصر صاحب الكرك فقام الهدباني في دفاعهم أحسن قيام وبعث نجم الدين من مصر إلى يوسف الناصر يستنجد على دفع الخوارزمية عن دمشق فسار في عساكره ومعه إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص فهزموا الخوارزمية على دمشق سنة أربع وأربعين وقتل مقدمهم حسام الدين بركت خان وذهب بقيتهم مع مقدمهم الآخر كشلوخان فلققوا بالشر واندرجوا في جملتهم وذهب أثرهم من الشام واستجار إسماعيل الصالح وكان معهم بالناصر صاحب حلب فأجاره من نجم الدين أيوب وسار حسام الدين الهدباني بعساكر دمشق إلى بعلبك وتسلمها بالأمان وبعث بأولاد إسماعيل ووزيره ناصر الدين يغمور إلى نجم الدين أيوب فاعتقلهم بمصر وسارت عساكر الناصر يوسف صاحب حلب إلى الجزيرة فتواقفوا مع لؤلؤ صاحب الموصل فانهزم لؤلؤ وملك الناصر نصيبين ودارا وقرقيساً وعاد عسكره إلى حلب واللّه تعالى أعلم.

مسير الصالح أيوب إلى دمشق أولاً وثانياً

وحصار حمص وما كان مع ذلك من

الأحداث

ثم بعث الصالح عن حسام الدين الهدباني من دمشق وولى مكانه جمال الدين بن مطروح ثم سار إلى دمشق سنة خمس وأربعين واستخلف الهدباني على مصر ولما وصل إلى دمشق جهز فخر الدين بن الشيخ بالعساكر إلى عسقلان وطبرية فحاصرها مدة وفتحهما من يد الإفرنج ووفد على الصالح بدمشق المنصور صاحب حماة وكان أبوه المظفر توفي سنة ثلاث وأربعين وولى المنصور ابنه هذا واسمه محمد ووفد أيضاً الأشرف موسى صاحب حمص وقد كان أبوه إبراهيم المنصور توفي سنة أربع وأربعين قبلها بدمشق وهو ذاهب إلى مصر وافداً على الصالح أيوب وأقام

دمشق وقد مر ذكر ذلك فصارت طاغيته معهم استمالهم الصالح فصاروا معه وزحفوا مع عساكره إلى عساكر دمشق والإفرنج فهزمهم وحاصروا دمشق وملكوها بدعوة الصالح كما مر واستوحش بيبرس حتى بعث إليه الصالح بالأمان سنة أربع وأربعين ولحقه بمصر فحبسه على ما كان منه ثم أطلقه.

وكان من خواص الصالح أيضاً قلاوون الصالحى كان من موالي علاء الدين قراستقر مملوك العادل وتوفي سنة خمس وأربعين وورثه الصالح بحكم الولاء ومنهم أقطاي الجامدار وأبيك التركماني وغيرهم فأنقوا من استعلاء بطانة المعظم تورانشاه عليهم وتحكمهم فيهم فاعصوا وصبروا واعتزموا على الفتك بالمعظم ورحل من المنصورة بعد هزيمة الإفرنج راجعاً إلى مصر فلما قربت له الحراقة عند البرج ليركب البحر كبسه بمجلسه وتناولوه بيبرس بالسيف فهرب إلى البرج فأضرموه ناراً فهرب إلى البحر فرموه بالسهم فألقى نفسه في الماء وهلك بين السيف والماء لشهيرين من وصوله وملكه.

ثم اجتمع هؤلاء الأمراء المتولون قتل تورانشاه ونصبوا للملك أم خليل شجرة الدر زوجة الصالح وأم ولده خليل المتوفى في حياته وبه كانت تلقب وخطب لها المنابر وضربت السكة باسمها ووضعت علامتها على المراسم وكان نص علامتها أم خليل وقدم أنابك على العساكر عز الدين الجاشنكير أبيك التركماني فلما استقرت الدولة طلبهم الفرنسيين في القداء على تسليم دمياط للمسلمين فاستولوا عليها سنة ثمان وأربعين وركب الفرنسيين البحر إلى عكا وعظم الفتع وأشد الشعراء في ذلك وتساجلوا ولجمال الدين بن مطروح نائب دمشق أبيات في الواقعة يتداولها الناس لهذا العصر والله تعالى ولي التوفيق وهي:

فقل للفرنسيين إذا جتته مقال صدق عن قذول فضيح
أجرك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها تحسب أن الزمر بالطل ربح
فساك الحين إلى أدهم ضاق بهم في ناظريك الفسح
وكل أصحابك أودعتهم بسوء تدبيرك بطن الضريح
خسبون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها لعنا من شركم نستريح
إن كان بابكم بهذا راضياً قرب غش قد أتى من نصيح
أوصيكم خيراً به إنه لطف من الله إليكم أتبع
لو كان ذا رشد على زعمكم ما كان يستحسن هذا القبيح
فقل لهم إن أضرموا عسرة لأخذ ثار أو لقصد قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صيح

بالمقصورة قبالة الإفرنج فملك الكرك والشوبك منهما وولى عليهما بدر الصواي وأقطعهما بالديار المصرية والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الصالح أيوب صاحب مصر والشام وسيد ملوك الترك بمصر وولاية ابنه توران شاه وهزيمة الإفرنج وأسر ملكهم

ثم توفي الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل سنة سبع وأربعين بمكانه من المنصورة قبالة الإفرنج وخشي أهل الدولة من الإفرنج فكتموا موته وقامت أم ولده شجرة الدر بالأمر وجمعت الأمراء وسيروا بالخبر إلى حسام الدين الهدباني بمصر فجمع الأمراء وقوى جاشهم واستحلفهم وأرسل الأتابك فخر الدين بن الشيخ بالخبر إلى المعظم تورانشاه بن الصالح واستدعاه من مكان إمارته بمصن كيفاً ثم انتشر خبر الوفاة وبلغ الإفرنج فشرهوا إلى قتال المسلمين ودلفوا إلى المعسكر فأنكشف المسلمون وقتل الأتابك فخر الدين ثم أتاح الله الكرة للمسلمين وانهزم الإفرنج ووصل المعظم تورانشاه من مكانه بمصن كيفاً لثلاثة أشهر أو تزيد فبايعه المسلمون واجتمعوا عليه واشتدوا في قتال الإفرنج وغلبت أساطيلهم أساطيل العدو وسال الإفرنج في الإفراج عن دمياط على أن يعاضوا بالقدس فلم يجبههم المسلمون إلى ذلك وسارت سرايا المسلمين من حولهم وفيما بين معسكرهم وبين دمياط فرحلوا راجعين إليها وأتبعهم المسلمون فأدركهم الدهش وانهزموا وأسر ملكهم ري إفرنس وهو المعروف بالفرنسيس وقتل منهم أكثر من ثلاثين ألفاً واعتقل الفرنسيين بالدار المعروفة بفخر الدين بن لقمان ووكل به الخادم صبيح المعظمي ثم رحل المعظم بعساكر المسلمين راجعاً إلى مصر والله تعالى أعلم.

مقتل المعظم تورانشاه وولاية شجرة الدر وفداء الفرنسيين بدمياط

ولما بويع المعظم تورانشاه وكانت له بطانة من المماليك جاء بهم من كيفا فتسلطوا على موالي أبيه وتقسموه بين النكبة والإهمال وكان للصالح جماعة من الموالي وهم البحرية الذين كان ينزهم بالدار التي بناها إزاء المقياس وكانوا بطانته وخالصته وكان كبيرهم بيبرس وهو الذي كان الصالح بعثه بالعساكر لقتال الخوارزمية عندما زحفوا مع عمه الصالح إسماعيل صاحب

والطواشي في لغة أهل المشرق: هو الخصي ويسمونه الخادم أيضاً والله أعلم.

استيلاء الناصر صاحب حلب على دمشق وبيعة الترك بمصر لموسى الأشرف بن أطرز بن المسعود صاحب اليمن وتراجعهما ثم صلحهما

ولما قتل المعظم تورانشاه ونصب الأمراء بعده شجرة الدر زوجة الصالح امتعض لذلك أمراء بني أيوب بالشام وكان بدر الصوابي بالكرك والشوك ولاء الصالح عليهما وحبس عنده فتح الدين عمر ابن أخيه العادل فأطلقه من محبسه وباع له وقام بتدبير دولته جمال الدين بن يغمور بدمشق واجتمع مع الأمراء القصرية بها على استدعاء الناصر صاحب حلب وتخليكه فصار ومليك دمشق واعتقل جماعة من موالى الصالح وبلغ الخبر إلى مصر فخلعوا شجرة الدر ونصبوا موسى الأشرف بن مسعود أخي الصالح بن الكامل وهو الذي ملك أخوه أطرز واسمه يوسف باليمن بعد أبيهما مسعود وبايعوا له واجلسوه على التخت وجعلوا أيك أتابكه.

ثم انتقض الترك بغزة ونادوا بطاعة المغيث صاحب الكرك فنادى الترك بمصر بطاعة المستعصم وجددوا البيعة للأشرف وأتابكه ثم سار الناصر يوسف بعسكره من دمشق إلى مصر فجهز الأمراء العساكر إلى الشام مع أقطاي الجامدار كبير البحرية ويلقب فارس الدين فأجفلت عساكر الشام بين يديه ثم قبض الناصر يوسف صاحب دمشق على الناصر داود لشيء بلغه عنه وحبسه بمحمص وبعث عن ملوك بني أيوب فجاءه موسى الأشرف صاحب حمص والرجبة وتدمر والصالح إسماعيل بن العادل من بعلبك والمعظم تورانشاه وأخوه نصر الدين ابن صلاح الدين والأجد حسام الدين والظاهر شادي ابن الناصر وداود صاحب الكرك وتقي الدين عباس بن العادل واجتمعوا بدمشق.

وبعث في مقدمته مولاة لؤلؤ الأرميني وخبر أيك التركماني في العساكر من مصر للقائهم وأفرج عن ولدي الصالح إسماعيل المعتقلين منذ أخذهم الهذباني من بعلبك ليتهم الناس أباهم ويستريوا به والتقى الجمعان في العباسية فانكشفت عساكر مصر وسارت عساكر الشام في اتباعهم وثبت أيك وهرب إليه جماعة من عساكر الناصر ثم صدق أيك الحملة على الناصر

فتفرقت عساكره وسار منهزماً وجيء لأيك بلؤلؤ الأرميني أسيراً فقتله وأسر إسماعيل الصالح وموسى الأشرف وتوران شاه المعظم وأخوه ولحق المنهزمون من عسكر مصر بالبلد وشعر المتبعون لهم من عساكر الشام بهزيمة الناصر ورأهم فرجعوا ودخل أيك إلى القاهرة وحبس بني أيوب بالقلعة.

ثم قتل يغمور وزير الصالح إسماعيل المعتقل ببعلبك مع بنيه وقتل الصالح إسماعيل في محبسه ثم جهز الناصر العساكر من دمشق إلى غزة فتواقفوا مع فارس الدين أقطاي مقدم عساكر مصر فهزمهم واستولوا عليها وترددت الرسل بين الناصر وبين الأمراء بمصر واصطلحوا سنة خمسين وجعلوا التخم بينهم نهر الأردن ثم أطلق أيك حسام الدين الهذباني فصار إلى دمشق وسار في خدمة الناصر وجاءت إلى الناصر شفاعة المستعصم في الناصر داود صاحب الكرك الذي حبسه بمحمص فأفرج عنه ولحق ببغداد ومعه ابنه الأجد والظاهر فمنعه الخليفة من دخولها فطلب وديعته فلم يسعف بها وأقام في أحياء عربية ثم رجع إلى دمشق بشفاعة من المستعصم للناصر وسكن عنده والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

خلع الأشرف بن أطرز واستبداد أيك وأمراء الترك بمصر

قد تقدم لنا أنفاً بيعة أمراء التركمان بمصر للأشرف موسى بن يوسف أطرز بن الكامل وأنهم خطبوا له واجلسوه على التخت بعد أن نصبوا للملك أيك وكان طموحاً إلى الاستبداد وكان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية يدافعه عن ذلك ويغض من عنائه منافسة وغيره فأرصد له أيك ثلاثة من المماليك اغتالوه في بعض سكك القصر وقتلوه سنة اثنتين وخمسين وكانت جماعة البحرية ملتفة عليه فانقضوا ولحقوا بالناصر في دمشق واستبد أيك بمصر وخلع الأشرف وقطع الخطبة له فكان آخر أمراء بني أيوب بمصر وخطب أيك لنفسه ثم تزوج شجرة الدر أم خليل الملكة قبله فلما وصل البحرية إلى الناصر بدمشق أطمعوه في ملك مصر واستحوه فتجهز وسار إلى غزة وبرز أيك بعساكره إلى العباسية فنزل بها.

وانتقض عليه.... فتوهموا بالثورة به فارتأب بهم ولحقوا بالناصر ثم ترددت الرسل بين الناصر وأييك فاصطلحوا على أن يكون التخم بينهم العرش وبعث الناصر إلى المستعصم مع وزيره كمال الدين بن العديم في طلب الخلة وكان أيك قد بعث بالهدية

وانهزمت عساكر الناصر وظفرت البحرية بهم واستفحل أمرهم بالكرك فسار الناصر بنفسه إليهم بالعساكر من دمشق سنة سبع وخمسين وسار معه صاحب حماء المنصور بن المظفر محمود فنزلوا على الكرك وحاصروها وأرسل المغيث إلى الناصر في الصلح فشرط عليه أن يحبس البحرية فأجاب ونمي الخبر إلى بيبرس أميرهم البندقداري فهرب في جماعة منهم ولحق بالناصر وقبض المغيث على الباقيين وبعث بهم إلى الناصر في القيود ورجع الكرك ثم بعث إلى الأمراء بمصر وزيره كمال الدين بن العديم يدعوهم إلى الاتفاق إلى مدافعة التتر وفي أيام مقدم ابن العديم مصر خلع الأمراء على ابن المعز أيبك وقبض عليه أتابك عسكره وموالي أبيه وجلس على التخت وخطب لنفسه وقبض على الأمراء الذين يرتاب منازعتهم كما ذكره في أخبارهم وأعاد ابن العديم إلى مرسله صاحب دمشق بالإجابة والوعد بالمظاهرة والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء التتر على الشام وانقراض ملك بني أيوب وهلاك من هلك منهم

ثم زحف التتر وسلطانهم هلاكو إلى بغداد واستولى على كرسي الخلافة وقتلوا المستعصم وطمسوا معالم الملة وكادت تكون من أشرار الساعة وقد شرحناها في أخبار الخلفاء ونذكرها في أخبار التتر فبادر الناصر صاحب دمشق بمصانعته وبعث ابنه العزيز عمداً إلى السلطان هلاكو بالهدايا والألطاف فلم يغنن ورده بالوعد.

ثم بعث هلاكو عساكره إلى ميفارقين وبها الكامل محمد بن المظفر شهاب الدين غازي بن العادل الكبير فحاصروها ستين ثم ملكوها عنوة سنة ثمان وخمسين وقتلوه وبعث العساكر إلى إربل فحاصروها ستة أشهر وفتحوها وسار ملوك بلاد الروم كيكاوس وقليج أرسلان ابنا كئخسرو إلى هلاكو أثر ما ملك بغداد فدخلوا في طاعته ورجعوا إلى بلادهم وسار هلاكو إلى بلاد أذربيجان ووفد عليه هنالك لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين ودخل في طاعته ورده إلى بلده وهلك أثر ذلك وملك الموصل مكانه ابنه الصالح وسنجا بن ابنه علاء الدين.

ثم أوفد الناصر ابنه على هلاكو بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة واعتذر عن لقائه بالتخوف على سواحل الشام من الإفرنج قتلنى ولده بالقبول وعذره وأرجعه إلى بلده بالمهادنة والمواعدة الجميلة ثم سار هلاكو إلى حران وبعث ابنه في العساكر

والطاعة إلى المستعصم فمطل المستعصم الناصر بالخلعة حتى بعثها إليه سنة خمس وخمسين ثم قتل المعز أيبك قتلته شجرة الدر غيلة في الحمام سنة خمس وخمسين غيرة من خطبته بنت لؤلؤ صاحب الموصل فنصبوا مكانه ابنه علياً ولقبوه المنصور وثاروا به من شجرة الدر كما ذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

مسير المغيث بن العادل صاحب الكرك مع البحرية إلى مصر وانهزامهم

كان البحرية منذ لحقوا بالناصر بعد مقتل أقطاي الجامدار مقيمين عنده ثم ارتاب بهم وطردهم آخر سنة خمس وخمسين فلحقوا بغزة وكاتبوا المغيث فتح الدين عمر بن العادل بالكرك وقد كنا ذكرنا أن بدرأ الصوافي أخرجه من محبسه بالكرك بعد مقتل تورانشاه بمصر وولاه الملك وقام بتبدير دولته وبعث إليه الآن بيبرس البندقداري مقدم البحرية من غزة يدعوهم إلى الملك وبلغ الخبر إلى الناصر بدمشق فجهز العساكر إلى غزة فقاتلهم وانهزموا إلى الكرك فتلقاهم المغيث وقسم فيهم الأموال واستحوه لملك مصر فسار معهم وبرزت عساكر مصر لقتالهم مع قطز مولى أيبك المعز ومواليه فالتقى الفريقان بالعباسية فانهزم المغيث والبحرية إلى الكرك ورجعت العساكر إلى مصر.

وفي خلال ذلك أخرج الناصر داود بن المعظم من دمشق حاجاً ونادى في الموسم بتوسله إلى المستعصم في وديعته وانصرف مع الحاج إلى العراق فأكرهه المستعصم على براءته من وديعته فكتب وأشهد ولحق بالبرية وبعث إلى الناصر يوسف يستعطفه فأذن له وسكن دمشق ثم رجع مع رسول المستعصم الذي جاء معه إلى الناصر بالخلعة والتقليد فأقام بقرقيسيا حتى يستأذن له الرسول فلم يأذن له فأقام عنده بأحياء العرب في التيه فقربوا في قتلهم من الكرك فقبض عليه المغيث صاحب الكرك وحبسه حتى إذا زحف التتر لبغداد بعث عنه المستعصم ليعثه مع العساكر لمدافعتهم وقد استولى التتر على بغداد فرجع ومات ببعض قرى دمشق بالطاعون سنة ست وخمسين انتهى والله تعالى أعلم.

زحف الناصر صاحب دمشق إلى الكرك وحصارها والقبض على البحرية

ولما كان من المغيث والبحرية ما قدمناه ورجعوا منهزمين إلى الكرك بعث الناصر عساكره من دمشق إلى البحرية فالتقوه بغزة

طويلاً ثم تسلموها بالأمان ثم ملكوا بعلبك وهدموا قلعتها وساروا إلى الصينة وبها السعيد بن العزيز بن العادل فملكوها منه على الأمان وسار معهم ووفد على هلاكو فخر الدين بن الزكي من أهل دمشق فولاه القضاة بها ثم اعترم هلاكو على الرجوع إلى العراق فعبروا الفرات وولى على الشام أجمع أميراً اسمه كتيغا من أكابر أمرائه واحتمل عماد الدين القزويني من حلب وولى مكانه آخر.

وأما الناصر فلما دخل في التيه هاله أمره وحسن له أصحابه قصد هلاكو فوصل إلى كتيغا نائب الشام يستأذنه ثم وصل فقبض عليه وسار به إلى حتى سلمها إليه أهلها، وبعث به إلى هلاكو فمر بدمشق ثم بحماة وبها الأشرف صاحب حمص وخسرو شاه نائبها فخرجاً لتلقيه ثم مر بحلب ووصل إلى هلاكو فأقبل عليه ووعده برده إلى ملكه ثم ثار المسلمون بدمشق بالنصارى أهل الذمة وخرّبوا كنيسة مريم من كنائسهم وكانت من أعظم الكنائس في الجانب الذي فتحه خالد بن الوليد رحمه الله وكانت لهم أخرى في الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالأمان ولما ولي طالبهم في هذه الكنيسة ليدخلها في جامع البلد وأعلى لهم في السوم فامتنعوا فهدمها وزادها في الجامع لأنها كانت لصقه فلما ولي عمر بن عبد العزيز استعاضوه فعوضهم بالكنيسة التي ملكها المسلمون بالعمرة مع خالد بن الوليد رحمه الله وقد تقدم ذكر هذه القصة فلما ثار المسلمون الآن بالنصارى أهل الذمة خربوا كنيسة مريم هذه ولم يبقوا لها أثر.

ثم إن العساكر الإسلامية اجتمعت بمصر وساروا إلى الشام لقتال التتر صاحبة السلطان قطز صاحب ومعه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل فسار إليه كتيغا نائب الشام ومعه الأشرف صاحب حمص والسعيد صاحب الضيعة ابن العزيز ابن العادل، والتقوا على عين جالوت بالغور، فانهزم التتر، وقُتل أميرهم النائب كتيغا وأمر السعيد صاحب الضيعة قتلته قطز واستولى على الشام أجمع وأقر المنصور صاحب حماة على بلده ورجع إلى مصر فهلك في طريقه قتله بيبرس البندقداري وجلس على التخت مكانه وتلقب بالظاهر حسبما يذكر ذلك كله في دولة الترك.

ثم جاءت عساكر التتر إلى الشام وشغل هلاكو عنهم بالفتنة مع قومه وأسف على قتل كتيغا نائبه وهزيمة عساكر فاحضر الناصر ولامه على ما كان منه من تسهيله عليه أمر الشام وتجنّى عليه بأنه غره بذلك فاعتذر له الناصر فلم يقبل فرماه بهم فانفذه ثم أتبعه بأخيه الظاهر وبالصالح بن الأشرف موسى صاحب

إلى حلب وبها المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين نائباً عن الناصر يوسف فخرج لقتالهم في العساكر وأكمن له التتر واستجروهم ثم كروا عليهم فأتخنوا فيهم ورحلوا إلى أعزاز فملكوها صلحاً وبلغ الخبر إلى الناصر وهو بدمشق معسكر من ثورة سنة ثمان وخمسين وجاء الناصر بن المظفر صاحب حماة فأقام معه ينتظر أمرهم ثم بلغه أن جماعة من مواليه اعتمروا على الثورة به فكر راجعاً إلى دمشق ولحق أولئك الموالى بغزة ثم اطلع على خيبتهم وإن قصدهم ثمليك أخيه الظاهر فاستوحش منهم ولحق الظاهر بهم فنصبوه للأمر واعصوبوا عليه وكان معهم بيبرس البندقداري وشعر بتلاشي أحوالهم فكاتب المظفر صاحب مصر واستأمن إليه فأمته.

وسار إلى مصر فتلقى بالكرامة وأنزل بدار الوزارة وأقطع السلطان قطز قلوب بأعماله ثم هرب هلاكو إلى الفرات فملك وكان بها إسماعيل أخو الناصر معتقلاً فأطلقه وسرحه إلى عمله بالصينة وبنيناس وولاه عليهما وقدم صاحب أرزن إلى تورانشاه نائب حلب يدعوه إلى الطاعة فامتنع فسار إليها وملكها عنوة وأمنها واعصم تورانشاه والحامية بالقلعة وبعث أهل حماة بطاعتهم إلى هلاكو وأن يبعث عليهم نائباً من قبله ويسمى برطانتهم الشحنة فأرسل إليهم قائداً يسمى خسرو شاه وينسب في العرب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وبلغ الناصر أخذ حلب فأجفل عن دمشق واستخلف عليها وسار إلى غزة واجتمع عليه مواليه وأخوه وسار التتر إلى نابلس فملكوها وقتلوا من كان بها من العسكر وسار الناصر من غزة إلى العريش وقدم رسله إلى قطز تسأله النصر من عدوهم واجتماع الأيدي على المدافعة ثم تقدموا إلى....

واستراب الناصر بأهل مصر فسار هو وأخوه الظاهر ومعهما الصالح بن الأشرف موسى بن شيركوه إلى التيه فدخلوا إليه وفارقهم المنصور صاحب حماة والعساكر إلى مصر فتلقاهم السلطان قطز بالصالحية وآتسهم ورجع بهم إلى مصر واستولى التتر على دمشق وسائر بلاد الشام إلى غزة وولوا على جميعها أمراءهم ثم افتتحت قلعة حلب وكان بها جماعة من البحرية معتقلين منهم سنقر الأشقر فدفعهم هلاكو إلى السلطان جق من أكابر أمرائه وولى على حلب عماد الدين القزويني ووفد عليه بحلب الأشرف موسى بن منصور بن إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص وكان الناصر قد أخذها منه كما قدمناه فأعادها عليه هلاكو ورد جميع ولايته بالشام إلى رأيه.

وسار إلى قلعة حارم فملكها واستباحها وأمر بتخريب أسوار حلب وقلعتها وكذلك حماة وحمص وحاصروا قلعة دمشق

والتغرزية والخزيرية والكيمائية والخزخية والخزر والحاسان وتركش وأركش وخفشاش والخلخ والغزية وبلغار وخجاكت ويمناك وبرطاس وسنجارت وخرجان وأنكر وذكر في موضع آخر أنكر من شعوب الترك وأنهم في بلاد البنادقة من أرض الروم.

وأما مواطنهم فإنهم ملكوا الجانب الشمالي من المعمور في النصف الشرقي منه قبالة الهند والعراق في ثلاثة أقاليم: هي السادس والسابع والخامس كما ملك العرب الجانب الجنوبي من المعمور أيضاً في جزيرة العرب وما إليها من أطراف الشام والعراق وهم رجاله مثلهم وأهل حرب وافتراس ومعاش من التغلب والنهب إلا في الأقل وقد ذكرنا أنهم عند الفتح لم يذعنوا إلا بعد طول حرب وبمارة أيام سائر دولة بني أمية وصدرًا من دولة بني العباس وامتلات أيدي العرب يومئذ من سبيهم فاتخذوهم خولاً في المهن والصنائع ونسأهم فرشاً للولادة كما فعلوه في سبي الفرس والروم وسائر الأمم الذين قاتلوهم على الدين وكان شأنهم أن لا يستعينوا بريققهم في شيء مما يعانونه من الغزو والفتوح ومحاربة الأمم ومن أسلم منهم تركوه لسبيله التي هو عليها من أمر معاشه على طاغية هواه.

لأن عصبية العرب كانت مستفحلة يومئذ وشوكتهم قائمة مرهقة ويدهم ويد سلطانهم في الأمر جميعاً ومرامهم إلى العز والمجد واحد وكانوا كاستنان المشط لتزاحم الأنساب وغضاضة الدين حتى إذا أرهف الملك حده ونهج إلى الاستبذاد طريقه واحتاج السلطان في القيام بأمره إلى الاستظهار على المناسعين فيه من قومه بالعصية المدافعة دونه والشوكة المعترض شباها في أذياله حتى تجذع أنوفهم عن التناول إلى رتبته وتغض أعنتهم عن السير في مضماره اتخذ بنو العباس من لدن المهدي والرشد بطانة اصطنعوهم من موالى الترك والروم والبربر ملأوا منهم المواكب في الأعياد والمشاهد والحروب والصوائف والحراسة على السلطان وزينة في أيام السلم وكثافاً لعصاية الملك حتى لقد اتخذ المعتصم مدينة سامرا لنزلهم تخرجاً من أضرار الرعية باصطدام مراكبهم وتراكم القتال بجوهم وضيق السكك على المارين بزحامهم.

وكان اسم الترك غالباً على جميعهم فكانوا تبعاً لهم ومندرجين فيهم وكانت حروب المسلمين لذلك العهد في القاصية وخصوصاً مع الترك متصلة والفتوح فيهم متعاقبة وأمواج السبي من كل وجه متداركة وربما رام الخلفاء عند استكمال بغيتهم واستجماع عصابتهم اصطفاة عليه منهم للمخالصة وقواد العساكر ورؤساء المراكب فكانوا يأخذون في تدرجهم لذلك بمذهب

حمص وشفت زوجة هلاكو في العزيز بن الناصر وكان مع ذلك يحبه فاستبقاه وانقرض ملك بني أيوب من الشام كما انقرض قبلها من مصر واجتمعت مصر والشام في مملكة الترك ولم يبق لبني أيوب بهما ملك إلا للمنصور بن المظفر صاحب حماة فإن قطز أقره عليها والظاهر بيبرس من بعده وبقي في إمارته هو وبنوه مدة من دولة الترك وطاعتهم حتى أذن الله بانقراضهم وولى عليها غيرهم من أمرائهم كما نذكر في أخبار دولتهم والله واثر الأرض ومن عليها والعاقبة للمتقين.

الخبر عن دولة الترك القائمين بالدولة

العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب

ولهذا العهد ومبادي أمورهم وتصاريق

أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر الترك وأنسابهم أول الكتاب عند ذكر أمم العالم ثم في أخبار الأمم السلجوقية وإنهم من ولد يافث بن نوح باتفاق من أهل الخليفة فعند نسبة العرب أنهم من عامور بن سويل بن يافث وعند نسبة الروم أنهم من طيراش بن يافث هكذا وقع في التوراة.

والظاهر أن ما وقع لنسابة العرب غلط وإن عامور هو مصحف كומר لأن كاهه تنقلب عند التعريب غنياً معجمة قريباً تصحفت عيناً مهملة أو بقيت بحالها وأما سويل فغلط بالزيادة وأما ما وقع للروم من نسبتهم إلى طيراش فهو منقول في الإسرائيليات وهو رأي مرجوح عندهم لمخالفته لما في التوراة.

وأما شعوبهم وأجناسهم فكثيرة وقد عددنا منهم أول الكتاب التفرغز وهم التتر والخطا وكانوا بأرض طغماج وهي بلاد ملوكهم في الإسلام تركستان وكاشغر.

وعددنا منهم أيضاً الخزخية والغز الذين كان منهم السلجوقية والهياطلة الذين منهم الخلج وبلادهم الصغد قريباً من سمرقند ويسمون بها أيضاً وعددنا منهم أيضاً الغور والخزر والقفجاق ويقال: الخفشاش وبمك والعلان ويقال: اللان وشركس وأركش.

وقال صاحب كتاب زجار في الكلام على الجغرافيا أجناس من الترك كلهم وراء النهر إلى البحر المظلم وهي العيسة

يدنسها لؤم الطبايع ولا خالطتها أقدار اللذات ولا دنستها عوائد الحضارة ولا كسر من سورتها غزارة الترف.

ثم يخرج بهم التجار إلى مصر أرسالاً كالقطا نحو الموارد فيستعرضهم أهل الملك منهم ويتنافسون في أثمانهم بما يخرج عن القيمة لا لقصد الاستعباد إنما هو إكثاف للعصية وتغليظ للشوكة ونزوع إلى العصية الحامية يصطفون من كل منهم بما يؤنسونه من شيم قومهم وعشائهم ثم ينزلونهم في غرف الملك ويأخذونهم بالمخالصة ومعاهده التربية ومدارسه القرآن وممارسة التعليم حتى يشتدوا في ذلك ثم يعرضونهم على الرمي والثقافة وركض الخيل في الميادين والمطاعنة بالرماح والمماصة بالسيوف حتى تشتد منهم السواعد وتستحكم الملكات ويستيقنوا منهم المدافعة عنهم والاستماتة دونهم.

فلإذا بلغوا إلى هذا الحد ضاعفوا أرزاقهم ووفروا من إقطاعهم وفرضوا عليهم استجادة السلاح وارتباط الخيل والاستكثار من أجناسهم لمثل هذا القصد وربما عمروا بهم خطط الملك ودرجهم في مراتب الدولة فيسترشح من يسترشح منهم لاقتعاد كرسي السلطان والقيام بأمور المسلمين عناية من الله تعالى سابقة ولطائف في خلقه سارية فلا يزال نشوء منهم يردف نشوءاً وجيل يعقب جيلاً والإسلام يبتهج بما يحصل به من الغناء والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب.

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام وأخوه العادل أبو بكر من بعده ثم بنوهم من بعدهم قد تناغوا في ذلك بما فوق الغاية واختص الصالح نجم الدين أيوب آخر ملوكهم بالمبالغة في ذلك والإمعان فيه فكان عامة عسكره منهم فلما انقض عشرينه وخذله أنصاره وقعد عنه أولياؤه وجنوده لم يدع سبباً في استجلابهم إلا أنه من استجادة المتردين إلى ناحيتهم ومراعاة التجار في أثمانهم بأضعاف ثمنهم وكان رقيقهم قد بلغ الغاية من الكثرة لما كان التتر قد دخوا الجانب الغربي من ناحية الشمال وأوقعوا بسكانه من الترك وهم شعوب القفجاق والروس والعلان والمولات وما جاورهم من قبائل جرکس وكان ملك التتر بالشمال يومئذ دوشي خان بن جنسكزخان قد أصابهم بالقتل والسبي فامتلات أيدي أهل تلك النواحي برقيقهم وصاروا عند التجار من أنفس بضائعهم والله تعالى أعلم.

ذكر ببيرس البندقداري

في تاريخه حكاية غريبة عن سبب دخول التتر لبلادهم بعد

الترشيح فيفتنون من أجود السبي الغلمان كالذنانير والجوار كاللآلئ ويسلمونهم إلى قهارمة القصور وقرمة الدواوين يأخذونهم بحدود الإسلام والشريعة وآداب الملك والسياسة ومراس الثقافة في المران على المناضلة بالسهم والمسالحة بالسيوف والمطاعنة بالرماح والبصر بأمور الحرب والفروسية ومعانة الخيول والسلاح والوقوف على معاني السياسة.

حتى إذا تنازعوا في الترشيح وانسلخوا من جلدة الخشونة إلى رقة الحاشية وملكة التهذيب اصطنعوا منهم للمخالصة وروقهم في المراتب واختاروا منهم لقيادة العساكر في الحروب ورئاسة المواكب أيام الزينة ورتق الفتوق الحادثة وسد الثغور القاصية كل على شاكلة غناؤه وسابق اصطناعه فلم يزل هذا داب الخلفاء في اصطناعهم ودعامة سرير الملك بعمدهم وتجهيد الخلافة بمقاماتهم حتى سموا في درج الملك وامتلات جوانجهم من الغزو وطمحت أبصارهم إلى الاستبداد فتغلبوا على الدولة وحجروا الخلفاء وقعدوا بدست الملك ومدرج النهي والأمر وقادوا الدولة بزمامهم وأضافوا اسم السلطان إلى مراتبهم.

وكان مبدأ ذلك واقعة التوكل وما حصل بعدها من تغلب الموالي واستبدادهم بالدولة والسلطان ونهج السلف منهم في ذلك السبيل للخلف واقتدى الآخر بالأول فكانت لهم دول في الإسلام متعددة تعقب غالباً دولة أهل العصية وشوكة النسب: كمثل دولة بني سامان وراء النهر وبني سيكتكين بعدهم وبني طولون بمصر وبني طنجق وما كان بعد الدولة السلجوقية من دولتهم مثل: بني خوارزم شاه وما وراء النهر وبني طغرلتيكين بدمشق وبني أرترق بماردین وبني زنكي بالموصل والشام وغير ذلك من دولهم التي قصصناها عليك في تصانيف الكتاب.

حتى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف ولبست أثواب البلاء والعجز ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة وطمسوا رونق البلاد وأدالوا بالكفر من الإيمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التعمم والتشاغل في اللذات والاسترسال في الترف من تكاسل المهمل والقعود عن المناصرة والانسلاخ من جلدة اليأس وشعار الرجولية فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رفقته وتلاقي شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها الغزيرة المتوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية يجلبون من دار الحرب إلى دار الإسلام في مقادة الرق الذي كمن اللطف في طيه وتعرفوا العزّ لخير في مغتبه وتعرضوا للعناية الربانية بتلافيه يدخلون في الدين بعزائم إيمانية وأخلاق بدوية لم

الخبر عن استبداد الترك بمصر وانفرادهم بها عن بني أيوب ودولة المعز أيك أول ملوكهم

قد تقدم لنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل قد استكثر من الممالك الترك ومن في معناهم من التركمان والأرمن والروم وجركس وغيرهم إلا أن اسم الترك غالب على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون إليه من نسب أو سلطان: فمنهم العزيزية نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين ومنهم الصالحية نسبة إلى هذا الصالح أيوب ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح بين شعبي النيل إزاء المقياس بما كانوا حاميتها وكان هؤلاء البحرية شوكة دولته وعصاة سلطانه وخواص داره وكان من كبرائهم عز الدين أيك الجاشنكير التركماني ورديفه فارس الدين أقطاي الجامدار وركن الدين بيبرس البندقداري.

ولما كان ما قدمناه و وفاة الصالح بالمنصورة في محاصرة الإفرنج بدمياط في سنة سبع وأربعين وكتماهم موته ورجوعهم في تدبير أمورهم إلى شجرة الدر زوجة الصالح وأم ولده خليل وبعثهم إلى ابنه المعظم تورانشاه وانتظاره وأن الإفرنج شعروا بموت الصالح فدخلوا إلى معسكر المسلمين على حين غفلة فانكشف أوائل العسكر وقتل فخر الدين الأتابك ثم أفرغ الله الصبر وثبت أقدامهم وأبلى أمراء الترك في ذلك اليوم بلاء حسناً ووقفوا مع شجرة الدر زوج السلطان تحت الرايات ينهون بمكانها فكانت لهم الكرة وهزم الله العدو.

و ثم وصل المعظم تورانشاه من كيفا فبايعوا له وأعطوه الصفة وانتظم الحال واستطال المسلمون على الإفرنج براً وبحراً فكان ما قدمناه من هزيمتهم والفتك بهم وأسر ملكهم الفرنسيين.

ثم رحل المعظم إثر هذا الفتح إلى مصر لشهرين من وصوله ونزل بفارس كور يريد مصر وكانت بطائنه قد استطالوا على موالى أبيه وتقسموهم بين النكبة والإهمال فاتفق كبار البحرية على قتله وهم: أيك وإقطاي وبيبرس فقتلوه كما مر ونصبوا للملك شجرة الدر أم خليل وخطب لها على المنابر ونقش اسمها على السكة ووضعت علامتها على المراسم ونصها أم خليل. وقام أيك التركماني باتابكية العسكر ثم نودي الفرنسيين بالنزول عن دمياط وملكها المسلمون سنة ثمان وأربعين وسرحوه في البحر إلى بلاده بعد أن توثقوا منه باليمين أن لا

أن عد شعوبهم فقال: ومن قبائلهم -يعني القفجاق- قبيلة طغصبا وستا وبرج أغلا والبولى وقنغرا على وأوغلي ودورت وقلابا أعلى وجرنان وقد كابركلي وكنن.

هذه إحدى عشرة قبيلة وليس فيها ذكر الشعوب العشرة القديمة الذكر التي عدّها النسابة كما قدمناه أول الترجمة وهذه - والله أعلم - بطون متفرعة من القفجاق فقط وهي التي في ناحية الغرب من بلادهم الشمالية فإن سياق كلامه إنما هو في الترك المجلوين من تلك الناحية لا من ناحية خوارزم ولا ما وراء النهر.

قال بيبرس: ولما استولى التتر على بلادهم سنة ست وعشرين والملك يومئذ بكركس جنكرخان لولده دوشي خان وافق أن شخصاً من قبيلة دورت يسمى منقوش بن كتمر خرج متصيداً فلقبه آخر من قبيلة طغصبا اسمه آفاكيك -وبين القبيلتين عداوة- مستحكمة فقتله وأبداً خبره عن أهله فبعثوا طليعة لاستكشاف أمره اسمه جلنغر فرجع إليهم وأخبرهم بأنه قتل وسمى لهم قاتله فجمعوا للحرب وتزاحفت القبيلتان فانهزمت قبيلة طغصبا وخرج آفاكيك القاتل وتفرق جمعه فارسل أخاه أقصر إلى ملكهم دوشي يستعلم ما على ذوي قبيلة دورت القفجاقية وذكره ما فعل كتمر وقومه بأخيه وأغراه بهم وسهل له الشأن فيهم وبعث دوشي خان جاسوسه لاستكشاف حالهم واختيار مراسلهم وشكيتهم فعاد إليه بتسهيل المرام فيهم.

وقال: إن رأيت كلاباً مكين على فريستهم متى طردتهم عنها تمكنت منها فأطمعه ذلك في بلاد القفجاق واستحثه أقصر الذي جاء صريحاً وقال له ما معناه: نحن ألف رأس تجر ذنباً واحداً وأنتم رأس واحد تجر ألف ذنب فزاده ذلك إغراء ونهض بجموع التتر فاوقع بالقفجاق وأنخن فيهم قتلاً وسيياً وأسراً وفرقهم في البقاع وامتلات أيدي التجار وجلبوهم إلى مصر فعوضه الله بالدخول في الإيمان والاستيلاء على الملك والسلطان. انتهى كلام بيبرس.

ومساق القصة يدل على أن قبيلة دورت من القفجاق وأن قبيلة طغصبا من التتر فيقتضي ذلك أن هذه البطون التي عدت ليست من بطن واحد وكذلك يدل مساقها على أن أكثر هؤلاء الترك الذين بديار مصر من القفجاق والله تعالى أعلم.

يتعرض لبلاد المسلمين ما بقي.

واستقلت الدولة بمصر للترك وانقضت منها دولة بني أيوب بقتل المعظم وولاية المرأة وما اكتنف ذلك فامتعضوا له وكان فتح الدين عمر بن العادل قد حبسه عمه الصالح أيوب بالكرك لنظر بدر الصوابي خادمه الذي ولاه على الكرك والشوبك لما ملكها كما مر فاطلق بدر الدين من محبسه وباع له وقام بأمره ولقبه المغيث واتصل الخبر بمصر وعلموا أن الناس قد نقموا عليهم ولاية المرأة فانفقوا على ولاية زعيمهم أيبك لتقدمه عند الصالح وأخيه العادل قبله فبايعوا له وخلعوا أم خليل ولقبوه بالمعز فقام بالأمر وانفرد بملك مصر وولى مولاة سيف الدين قطز نائباً وعمر المراتب والوظائف بأمراء الترك والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نهوض الناصر صاحب دمشق من بني أيوب إلى مصر وولاية الأشرف موسى مكان أيبك

كان الملك الصالح أيوب قبل موته قد استخلف جمال الدين بن يغمور على دمشق مكان ابن مطروح وأمرأة الدولة الأيوبية بها متوافرون فلما بلغهم استبداد الترك بمصر وولاية أيبك وبيعة المغيث بالكرك أجمعوا النظر في تلافى أمورهم وكبراء بني أيوب يومئذ بالشام الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وحمص وما إليها فاستدعوه وبايعوا له بدمشق وأغروه بطلب مصر واتصل الخبر للترك في مصر فاعتزموا على أن ينصبوا بعض بني أيوب فيكفوا به السنة التكبير عنهم فبايعوا لموسى الذي كان أبوه يوسف صاحب اليمن وهو يوسف أطسز بن المسعود بن الكامل وهو يومئذ ابن ست سنين ولقبوه الأشرف وتزحج له أيبك عن كرسي السلطان إلى رتبة الأتابكية واستمر الناصر على غلوائه في النهوض إلى مصر.

واستدعى ملوك الشام من بني أيوب فأقبل إليه موسى الأشرف الذي كان صاحب حمص وإسماعيل الصالح بن العادل صاحب بعلبك والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين وأخوه نصر الدين وابن داود الناصر صاحب الكرك وهما الأعمد حسن والظاهر شادي وارتحل من دمشق سنة ثمان وأربعين وفي مقدمته أتابكته لؤلؤ الأرمني وبلغ الخبر إلى مصر فاضطرب الأمر ونادوا بشعار الخلافة والدعاء للمستعصم وجددوا البيعة على ذلك

للأشرف وجهزوا العساكر وخرجوا للقائهم وسار في المقدمة أقطاي الجامدار وجمهور البحرية وتبعهم أيبك ساقية في العساكر والتقى الجمعان بالعباسية فانكشف عسكر مصر أولاً وتبعهم أهل الشام وثبت المعز في القلب ودارت عليه رعى الحرب.

وهرب إليه جماعة من عسكر الناصر فيهم أمراء العزيزية مثل جمال الدين لا يدعون وشمس الدين أنسز اليرلي وشمس الدين أنسز الحسامي غضبوا من رياسة لؤلؤ عليهم فهربوا وبقي لؤلؤ في المعركة صامداً ثم حمل المعز على الناصر وأصحابه فانهزموا وانفض عسكره وجيء بلؤلؤ الأتابكي أسيراً فقتله صبراً وبأمره بني أيوب فحبسهم ورجع أيبك من الرقعة فوجد عساكر الناصر مجتمعين بالعباسية يظنون الغلب لهم فعدل إلى بلييس ثم إلى القلعة ورجعت عساكر الشام من أتباع المنهزمين لما شعروا بهزيمة صاحبهم فلحقوا بالناصر بدمشق ودخل أيبك إلى القاهرة وحبس بني أيوب بالقلعة ثم قتل منهم إسماعيل الصالح ووزيره ابن يغمور الذي كان معتقلاً من قبل.

ولما وصل الناصر إلى دمشق أزاح علل عساكره وعجل الكرة إلى مصر ونزل غزة سنة خمسين وبرزت عساكر مصر للقائه فتوافقوا ملياً ثم وصل نجم الدين البادراني إلى رسول المستعصم فاصلح بين الطائفتين على أن يكون القدس والساحل إلى نابلس للمعز والتخيم بين المملكتين نهر الأردن وانعقد الأمر على ذلك ورجع كل إلى بلده وأخرج المعز عن أمراء بني أيوب الذين حبسهم يوم الرقعة والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد مع أقطاي

لما شغل الصالح بالإفرنج وما بعدهم عظم فساد العرب بالصعيد واجتمعوا على الشريف خضر الدين أبي ثعلب بن نجم الدين عمر بن فخر الدين إسماعيل بن حصن الدين ثعلب الجعفري من ولد جعفر بن أبي طالب الذين أجازوا من الحجاز لما غلبهم بنو عمهم بنواحي المدينة في الحروب التي كانت بينهم وإطاعه أعراب الصعيد كافة ولم يقدر على كفههم عن الرأية واتصل ذلك وهلك الصالح واستبد الترك بمصر وشغلوا عنهم بما كان من مطالبة بني أيوب لهم فلما فرغ المعز أيبك من أمر الناصر وعقد الصلح معه بعث لحرهم فارس الدين أقطاي وعز الدين أيبك الأقرم أمير البحرية فساروا إليهم ولقوهم بنواحي أخيم فهزمهم وفر الشريف ناجياً بنفسه ثم قبض عليه بعد ذلك وقتل ورجعت العساكر إلى القاهرة والله تعالى أعلم.

مقتل أقطاي الجامدار وفرار البحرية إلى الناصر ورجوع إليك إلى كرسية

كان عز الدين أبيك الأفرم الصالح والياً على قرص وأخيم وأعمالها فقوي أمره وهم بالاستبداد وأراد المعز عزله فامتنع عليه فبعث بعض الخوازمية مدداً له ودس إليهم الفتك به فلما وصلوا إليه استخدمهم وخلطهم بنفسه فاغتالوه وقبضوا عليه وتراموا إليه للحين فبطشوا بهم وقتلوهم وخلعوه ثم عزله بعد ذلك عز الدين الصيمري عن خدمته واستدعاه إلى مصر فأقام عنده ثم بعثه مع أقطاي إلى مكانه من الدولة وأوعز المعز أبيك إلى الأفرم بالمقام لتهديد بلاد الصعيد وأن يكون الصيمري في خدمته وبلغه وهو هناك أن المعز عدا على أقطاي وقتله وأن أصحابه البحرية فروا إلى الشام فاسترحش وأظهر العصيان واستدعى الشريف أبا ثعلب وتظاهر معه على الفساد وجمعوا الأعراب من كل ناحية.

ثم بعث المعز سنة ثلاث وخمسين شمس الدين البرلي في العساكر فهزمهم واعتقل الشريف فلم يزل في حبسه إلى أن قتله الظاهر ونجا الأفرم في فل من مواله إلى الواحات ثم اعترم على قصد الشام فرجع إلى الصعيد مع جماعة من أعراب جذام مروا به على السويس والطور ورجع عنه مواله إلى قصر ولما انتهى إلى غزة تولع به الناصر فأذنه بالقدوم عليه بدمشق وركب يوم وصوله فلقاه بالكسوة وأعطاه خمسة آلاف دينار ولم يزل عنده بدمشق إلى أن هرب البحرية من الكرك إلى مصر كما يذكر فخشي أن يأخذه الناصر وكاتب الأتابك قطز بمصر وسار إليه فقبله أولاً ثم قبض عليه بعد ذلك واعتقله بالإسكندرية وكان الصيمري قد بقي بعد الأفرم في ولاية الصعيد واستفحل فيه فسولت له نفسه الاستبداد ولم يتم له فهرب إلى الناصر سنة أربع وخمسين انتهى والله تعالى أعلم.

مقتل المعز أبيك وولاية ابنه علي المنصور

كان المعز أبيك عندما استفحل أمره ومهد سلطانه ودفع الأعداء عن حوزته طمحت نفسه إلى مظاهرة المنصور صاحب حاة ولؤلؤ صاحب الموصل ليصل يده بهما وأرسل إليهما في الخطبة وأثار ذلك غيرة من زوجته شجرة الدر وأغرت به جماعة من الحصبان منهم محسن الخزري وخصي العزيزي ويقال: سنجار الحادمان فيتوه في الحمام بقصره وقتلوه سنة خمس وخمسين لثلاث سنين من ولايته وسمع مواله الناعية من جوف الليل فجأوا مع

كان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية وعظماهم ويلقب فارس الدين وكان رديفاً للمعز أبيك في سلطانه وأتابكه وكان يغض من عنانه عن الطموح إلى الكرسي وكان يخفض من جناحه للبحرية يتألفهم بذلك فيميلون له عن أبيك فاعتز في الدولة واستفحل أمره وأخذ من المعز الاسكندرية إقطاعاً وتصرف في بيت المال وبعث فخر الدين محمد بن بهاء الدين بن حياء إلى المظفر صاحب حماة في خطبة ابنته فتزوجها وأطلق يده في العطاء والإقطاع فغم الناس وكثر تابعه وغض به المعز أبيك وأجمع قتله فاستدعاه بعض الأيام للقصر للشورى سنة اثنتين وخمسين وقد أكن له ثلاثة من مواله في عمه بقاعة الأعمدة وهم قطز وبهادل وسنجار فوثبوا عليه عند مروره بهم وبادروه بالسيوف وقتلوه لحينه واتصلت الهيئة بالبحرية فركبوا وطافوا بالقلعة فرمى إليهم برأسه فانفضوا.

واستراب أمراؤهم فاجتمع ركن الدين بيسر البندقداري وسيف الدين قلاوون الصالح وسيف الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بنسر الشمسي وسيف الدين بلبان الرشيد وسيف الدين تنكر وأخوه سيف الدين موافق ولحقوا بالشام فيمن انضم إليهم من البحرية واختفى من تخلف منهم واستصفيت أمواهم وذخائرهم وارتجع ما أخذهم أقطاي من بيت المال ورد ثغر الاسكندرية إلى أعمال السلطان وانفرد المعز أبيك بتدبير الدولة وخلع موسى الأشرف وقطع خطبته وخطب لنفسه وتزوج شجرة الدر زوجة الصالح التي كانوا ملكوها من قبل واستخلص علاء الدين أيدغدي العزيمي وجماعة العزيزية وأقطعهم دمياط.

ولما وصل البحرية وأمراؤهم إلى غزة كاتبوا الناصر يستأذنونهم في القدوم وساروا إليه فاحتفل في مبرتهم وأغروه بملك مصر فأجابهم وجهاز العساكر وكتب المعز فيهم إلى الناصر وطلبوا منه القدس والبلاد الساحلية فأقطعها لهم ثم سار الناصر إلى الغور وبرز إلى القاهرة في العزيزية ومن إليهم ونزل العباسية وتوافق الفريقان مدة ثم اصططحوا ورجع كل إلى بلده سنة أربع وخمسين وبعث أبيك رسوله إلى المستعصم بطاعته وطلب الأولوية والتقليد ولما رجع إلى مصر قبض على علاء الدين أيدغدي لاستراتبه به وأعاد دمياط إلى أعمال السلطان واتصلت أحواله إلى أن هلك في الدولة والله تعالى أعلم.

وسيف الدين قطز وسنجان الغنمي وبهادر فدخلوا القصر وقبضوا على الجوجري فقتلوه وفر سنجان العزيزي إلى الشام وهو ما يقتل شجرة الدر وقام الموالي الصالحية دونها فاعتقلوها ونصبوا للملك علي بن المعز أيك ولقبوه المنصور وكان أتابكه علم الدين سنجان الحلي واشتمل موالي المعز على ابنه المنصور فكبسوا علم الدين سنجان واعتقلوه وولوا مكانه أقطاي المعزي الصالح مولى العزيز على الدولة في نقضها وإيرامها سنة ست وخمسين وأغرته أم المنصور بالصاحب شرف الدين الغازي لأن المعز كان يستودعه سراياه عنده فاستصفاه وقتله.

خلع المنصور علي بن أيك واستبداد قطز بالملك

وفي هذه السنة توفي زهير بن علي المهلي وكان يكتب عن الصالح ويلازمه في سجنه بالكرك ثم صحبه إلى مصر والله تعالى أعلم.

نهوض البحرية بالمغيث صاحب الكرك وإنهزامهم

ثم كان ما ذكرناه ونذكره من زحف هلاكو إلى بغداد واستيلائه عليها وما بعدها إلى الفرات وفتح ميفارقين وإربل ومسير لؤلؤ صاحب الموصل إليه ودخوله في طاعته ووفادة ابن الناصر صاحب دمشق إليه رسولاً عن أبيه بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة والعذر عن الوصول بنفسه خوفاً على سواحل الشام من الإفرنج فارتاب الأمراء بشأنهم واستصغروا سلطانهم المنصور علي بن المعز أيك عن مدافعة هذا العدو لعدم ممارسته للحروب وقلة دربه بالوقاع واتفقوا على البيعة لسيف الدين قطز المعزي وكان معروفاً بالصرامة والإقدام فبايعوا له وأجلسوه على الكرسي سنة ست وخمسين ولقبوه المظفر وخلعوا المنصور لستين من ولايته وحبسوه وأخويه بدمياط ثم غريهما الظاهر بعد ذلك إلى القسطنطينية وكان المتولون لذلك الصالحية والعزيزية ومن يرجع إلى قطز من المعزية وكان بهادر وسنجان الغنمي غائبين فلما قدما استراب بهما قطز وخشي من نكيرهما ومزاحمتهما فقبض عليهما وحبسهما وأخذ في تهديد الدولة فاستوسقت له وكان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية يقال إنه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود أسره التتر عند الحادثة عليهم وبيع واشتراه ابن الزعيم حكاة النووي عن جماعة من المؤرخين والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

قد ذكرنا فرار البحرية إلى الناصر ونهوضهم به إلى مصر وخروج أيك إلى العباسية وما كان بينهما من الصلح فلما انعقد الصلح ورجع الناصر إلى دمشق ورجعوا عنه إلى قلعة ولم يرضوا الصلح فاستراب بهم الناصر وصرفهم عنه فلحقوا بغزة ونابلس وبعثوا إلى المغيث صاحب الكرك بطاعتهم فأرسل الناصر عساكره للإيقاع بهم فهزمهم فصار إليهم بنفسه فهزموه إلى اللقاء ولحقوا بالكرك وأطمعوا المغيث في مصر واستمدوه لها فأمدهم بعساكره وقصدوا مصر وكبرأؤهم بيبرس البندقداري وقلالون الصالحى ويليان الرشيدى وبرز الأمير سيف الدين قطز بعساكر مصر إلى الصالحية فهزمهم وقتل بلغار الأشرف وأسر قلالون الصالحى ويليان الرشيدى وأطلق قلالون الصالحى بعد أيام في كفالة أستاذ الدار فاختنى ثم لحق بأصحابه واستحثوا المغيث إلى مصر فنهض في عساكره سنة ست وخمسين ونزل الصالحة وقدم إليه عز الدين الرومى والكافورى والهاوشر عن كان يكاتبه من أمراء مصر وبرز سيف الدين قطز في عساكر مصر والتقى الجمعان فانهزم المغيث ولحق في الفل بالكرك وفرت البحرية إلى الغور فوجدوا هنالك أحياء من الأكراد فروا من جبال شهرزور أمام التتر فاجتمعوا بهم والتحموا بالصهر معهم وخشي الناصر غائلة اجتماعهم فجهز العساكر من دمشق إليهم والتقوا بالغور فانهزمت عساكره فتجهز ثانياً بنفسه وسار إليهم فحاموا عن لقائه وافترقوا فلحق الأكراد بمصر واعترضهم التركمان في طريقهم بالعريش فأوقعوا بهم

بلده وبعث المنصور على بلده حماة وأقره عليها ورد إليه المعرفة وانتزع منه سلمية فأقطعها لأمر العرب مهنا بن مانع بن جديلة وسار إلى دمشق فهرب من كان بها من التتر وقتل من وجد بها من بقاياهم ورتب العساكر في البلاد وولى على دمشق علم الدين سنجار الحلبي الصالحى وهو الذي كان أنابك علي بن أبيك ونجم الدين أبا الهيجه ابن خشتين الكردي.

وولى على حلب السعيد ويقال المظفر علاء الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل وكان وصل إلى الناصر بمصر هارباً أمام التتر وسار معه فلما دخل الناصر منها لحق هو بمصر وأحسن إليه قطز ثم ولاء الناصر على حلب الآن ليتوصل إلى أخبار التتر من أخيه الصالح بالموصل وولى على نابلس وغزة والسواح شمس الدين دانشير البرلي من أمراء العزيز محمد وهو أبو الناصر وكان هرب منه عند نهوضه إلى مصر في جماعة من العزيزية ولحق بأنابك ثم ارتاب بهم وقبض على بعضهم ورجع البرلي في الباقيين إلى الناصر فاعتقله بقلعة حلب حتى سار إلى التتر فلما دخل إليها سار البرلي مع العساكر إلى مصر فأكرمه المظفر وولاه الآن على السواحل وغزة وأقام المظفر بدمشق عشرين ليلة وأقبل إلى مصر ولما بلغ إلى هلاكو ما وقع بقومه في الشام واستيلاء الترك عليه أنهم صاحب دمشق بأنه خدعه في إشارته وقتله كما مر وانقرض ملك بني أيوب من الشام أجمع وصار للملك مصر من الترك واللّه يرث الأرض من عليها وهو خير الوارثين.

مقتل المظفر وولاية الظاهر بيبرس

كان البحرية من حين مقتل أميرهم أنطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثاره وكان قطز هو الذي تولى قتله فكان مسترياً بهم ولما سار إلى التتر دخل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هارين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المداغة عن الإسلام وأهله فأمتهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ: بيبرس البندقداري وأنز الأصبهاني ولبان الرشيدى وبكتون الجوكندراى وبندوغز التركي فلما انهزم التتر من الشام واستولوا عليه وحسروا ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من التترصد لثار أنطاي.

فلما قتل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به في طريقهم فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيد

استيلاء التتر على الشام وانقراض أمر بني أيوب ثم مسير قطز بالعساكر وارتجاعه الشام من أيدي التتر وهزيمتهم وحصول الشام في ملك الترك

ثم عبر هلاكو الفرات سنة ثمان وخمسين وفر الناصر وأخوه الظاهر إلى التيه ولحق بمصر المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر وملك هلاكو بلاد الشام واحدة واحدة وهدم أسوارها وولى عليها وأطلق المعتقلين من البحرية مجلب مثل سقر الأشقر وشكر وبرانق واستخدمهم ثم قفل إلى العراق لاختلاف بين أخوته واستخلف على الشام كتبنا من أكبر أمرائه في اثني عشر ألفاً من العساكر وتقدم إليه بمطالعة الأشرف إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص بعد أن ولاء على مدينة دمشق وسائر مدن الشام واحتمل معه الناصر وابنه العزيز بعد أن استشاره في تجهيز العساكر بالشام لمداغة أهل مصر عنها فهون عليه الأمر وقللهم في عينه فجهز كتبنا ومن معه ولما فصل سار كتبنا إلى قلعة دمشق وهي ممتنة بعد فحاصرها وافتتحها عنوة وقتل نائبها بدر الدين بربدك وخيم بمصر دمشق وجاءه من ملوك الإفرنج بالساحل.

ووفد عليه الظاهر أخو الناصر صاحب صرخد فرده إلى عمله وأوفد عليه المغيث صاحب الكرك ابنه العزيز بطاعته قبله ورده إلى أبيه واجتمعت عساكر مصر واحتشد المظفر العرب والتركان وبعث إليهم بالعطايا وأزاح العبل وبعث كتبنا إلى المظفر قطز بأن يقيم طاعة هلاكو بمصر فضرب أعناق الرسل ونهض إلى الشام مصعباً للقاء العدو ومعه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل وزحف كتبنا وعساكر التتر ومعه الأشرف صاحب حمص والسعيد صاحب الضيعة ابن العزيز بن العادل وبعث إليهما قطز يستليهما فوعده الأشرف بالانتهزام يوم اللقاء وأساء العزيز الرد على رسوله وأوقع به والتقى الفريقان بالغور على عين جالوت وتحيز الأشرف عندما تناشوا فانهزم التتر وقتل أميرهم كتبنا في المعركة وجيء بالسعيد صاحب الضيعة أسيراً فوجّه ثم قتله.

وجيء بالعزيز بن المغيث وأسر يومئذ الذي ملك مصر بعد ذلك ولقي العادل بيبرس المنهزمين في عسكر من الترك فأنخن فيهم وانتهى إلى حمص فلقى مدداً من التتر جاء لكتبنا فاستأصلهم ورجع إليه الأشرف صاحب حمص من عسكر التتر فأقره على

وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه وتقدم إليه أنز شقيقاً في بعض أصحابه فشفعه فأهوى يقبل يده فأمسكها وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعاً للدين والفم ورشقه الآخرون بالسهم فقتلوه وتبادروا إلى المخيم وقام دون فارس الدين أقطاي على ابن المعز إليك وسأل: من تولى قتله منكم؟ فقالوا: بيبرس فبايع له وأتبعه أهل المعسكر ولقبوه الظاهر وبعثوا أيدمر الحلبي بالخبر إلى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك ووصل الظاهر متصف ذي القعدة من السنة فجلس على كرسيه واستخلف الناس على طبقاتهم وكتب إلى الأقطار بذلك ورتب الوظائف وولى الأمراء وولى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الوزارة مع القضاء واقتدى بآثار أستاذه الصالح نجم الدين.

ومبدأ أمر هذا الظاهر بيبرس أنه كان من موالي علاء الدين أيديكن البندقداري مولى الصالح فسخط عليه واعتقله وانتزع ماله ومواليه وكان منهم بيبرس فصره مع الجامدانية وما زال يترقى في المراتب إلى أن تقدم في الحروب ورياسة المراكب ثم كان خبره بعد الصالح ما قصصناه انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض سنجار الحلبي بدمشق ثم أقوش

البرلي بحلب

ولما بلغ علم الدين سنجار بدمشق مقتل قطز وولاية الظاهر بيبرس انتقض ودعا لنفسه وجلس على التخت بدمشق وتلقب المجاهد وخطب لنفسه وضرب السكة باسمه وتمسك المنصور صاحب حماة بدعوة الظاهر وجاءت عساكر التتر إلى الشام فلما شافوا البيرة جرد إليهم السعيد بن لؤلؤ من حلب عسكرياً فزمهم التتر وقتلوهم واتهم الأمراء العززية والناصرية ابن لؤلؤ في ذلك فاعتقلوه وقدموا عليهم حسام الدين الجوكنداري وأقره الظاهر وزحف التتر إلى حلب فملكوها وهرب حسام الدين إلى حماة ثم زحف إليها التتر فلحق صاحبها المنصور وأخوه علي الأفضل إلى حمص وبها الأشرف بن شيركوه واجتمعت إليه العززية والناصرية وقصدوا التتر سنة تسع وخمسين فهزمهم بعد هزيمتهم ونازلوا حماة.

وسار المنصور والأشرف صاحب حمص إلى سنجار الحلبي بدمشق ولم يدخلها طاعته لضعفه وسار التتر من حماة إلى أفامية فحاصروها يوماً وعبروا الفرات إلى بلادهم وبعث بيبرس الظاهر صاحب مصر أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتال سنجار الحلبي بدمشق وقتلهم فهزموه ولجأ إلى القلعة ثم خرج

منها ليلاً إلى بعلبك وأتبعوه فقبضوا عليه وبعثوه إلى الظاهر فاعتقله واستقر أيديكن بدمشق ورجع صاحب حمص وحماة إلى بلديهما وبعث الظاهر إلى أيديكن بالقبض على بهاء الدين بقري وشمس الدين أقوش البرلي وغيرهما من العززية فقبض على بقري وفر العززية والناصرية مع أقوش البرلي وطالبوا صاحب حمص وصاحب حماة في الانتقاض فلم يجيباهم إلى ذلك فقال لفخر الدين: أطلب لي الظاهر المقدم معك في خدمتك، وبينما هو يسير لذلك خالقه البرلي إلى حلب وثار بها وجمع العرب والتركمان ونصب للحرب فجاءت العساكر من مصر فقاتلوه وغلبوه عليها ولحق بالبيرة فملكها واستقر بها حتى إذا جهز الظاهر عساكره سنة ستين إلى حلب مع سنقر الرومي سار معه صاحب حماة وصاحب حمص للإغارة على أنطاكية ولقيهم البرلي وأعطاهم طاعته وأقره الظاهر على البيرة ثم ارتاب به بعد ذلك واعتقله ثم علاء الدين أيديكن البندقداري مولى السلطان بدمشق وولى عليها بيبرس الوزير ورجع والله ينصر من يشاء من عباده انتهى.

البيعة للخليفة بمصر ثم مقتله بالحديثة

وغانة على يد التتر والبيعة للآخر الذي

استقرت الخلافة في عقبه بمصر

لما قتل الخليفة عبد الله المستعصم ببغداد بقي رسم الخلافة الإسلامية عطلاً باقطار الأرض والظاهر منشوف إلى تجديد عمارته ووصل إلى مصر سنة تسع وخمسين عم المستعصم وهو أبو العباس أحمد بن الظاهر كان بقصورهم ببغداد وخلص يوم البيعة وأقام يتردد في الأحياء إلى أن لحق بمصر فسر الظاهر بقدمه وركب للقائه ودعا الناس على طبقاتهم إلى أبواب السلطان بالقلة وأقره بالجلس أدياً معه وحضر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز فحكم باتصال نسبه بالشجرة الكريمة بشهادة العرب الواصلين به والخدم الناجعين من قصورهم ثم بايع له الظاهر والناس على طبقاتهم وكتب إلى النواحي بأخذ البيعة والخطبة على المنابر ونقش اسمه في السكة ولقب المستنصر وأشهد هو حيثئذ الملاً بتفويض الأمر للظاهر والخروج له عن العهد وكتب بذلك سجله وأنشأه فخر الدين بن لقمان كاتب الترسيل.

ثم ركب السلطان والناس كافة إلى خيمة بنيت خارج المدينة فقرأ التقليد على الناس وخلص على أهل المراتب والخواص ونادى السلطان بمظاهرة وإعادته إلى دار خلافته ثم خطب هذا

الأعز كالأول وجمع الظاهر الناس على مراتبهم وبايع له وفوض إليه هو الأمور وخرج إليه عن التدبير وكانت هذه البيعة سنة ستين ونسبه عند العباسيين في أدراج نسبهم الثابت أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر بن أحمد ابن الإمام المسترشد وعند نسابة مصر أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي القتيبي ابن الأمير حسن ابن الإمام الراشد ابن الإمام المسترشد هكذا قال صاحب حماة في تاريخه وهو الذي استقرت الخلافة في عقبه بمصر لهذا العهد انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

فرار التركمان من الشام إلى بلاد الروم

كان التركمان عند دخول التتر إلى بلاد الشام كلهم قد أجفلوا إلى الساحل واجتمعت أحياءهم بالجرکان قريباً من صفد وكان الظاهر لما نهض إلى الشام اعترضه رسل الإفرنج من يافا وبيروت وصفد يسألونه في الصلح على ما كان لعهد صلاح الدين فأجابهم وكتب به إلى الانبرودر ملكهم بيلاد إفرنسة وراء البحر فكانوا في ذمة من الظاهر وعهد وقعت بين الإفرنج بصفد وبين أحياء التركمان واقعة يقال: أغار فيها أهل صفد عليهم فأوقع بهم التركمان وأسروا عدة من رؤسائهم وفادوهم بالمال ثم خشوا عاقبة ذلك من الظاهر فارتحلوا إلى بلاد الروم وأقفر الشام منهم والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

انتقاض الأشرافية والعزيرية واستيلاء البرلي

على البيرة

كان هؤلاء العزيرية والأشرافية من أعظم جمع هؤلاء الموالى وكان مقدم الأشرافية بهاء الدين بقري ومقدم العزيرية شمس الدين أقوش وكان المظفر قطز قد أقطعه نابلس وغزة وسواحل الشام ولما ولي الظاهر انتقض عليه سنجار الحلبي بدمشق وجهز أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتاله وكان الأشرافية والعزيرية يجلب وقد انتقضوا على نائبها السعيد بن لؤلؤ كما مر فتقدم البندقداري باستدعائهم معه إلى دمشق ثم أضاف الظاهر بيسان للبرلي زيادة على ما بيده فسار وملك دمشق ثم أوعز الظاهر إلى البندقداري بالقبض على العزيرية والأشرافية فلم يتمكن إلا من بقري مقدم الأشرافية وفارقه الباقون وانتقضوا واستولى شرف الدين البرلي على البيرة وأقام بها وشن الغارات على التتر شرقي الفرات فنال منهم ثم جهز عساكره إليه مع جمال الدين

الخليفة يوم الجمعة وخشع في منبره فأبكى الناس وصلى وانصرفوا إلى منازلهم ووصل على أثره الصالح إسماعيل بن لؤلؤ صاحب الموصل وأخوه إسحاق صاحب الجزيرة وقد كان أبوهما لؤلؤ استخدم هلاكو كما مر وأقره على الموصل وما إليها وتوفي سنة سبع وخسين وقد ولي ابنه إسماعيل على الموصل وابنه المجاهد على جزيرة ابن عمر وابنه السعيد على سنجار وأقرهم هلاكو على أعمالهم ولحق السعيد بالناصر صاحب دمشق وسار معه إلى مصر وصار مع قطز وولاه حلب كما مر ثم اعتقل.

ثم ارتاب هلاكو بالأخوين فأجفلا ولحقا بمصر وبالحظ الظاهر في إكرامهم وسأله في إطلاق أخيه المقتل فأطلقه وكتب لهم بالولاية على أعمالهم وأعطاهم الألوية وشرع في تجهيز الخليفة إلى كرسية ببغداد فاستخدم له العساكر وأقام له الفساطيط والخيام ورتب له الوظائف وأزاح علل الجميع يقال: أنفق في تلك النوبة نحواً من ألف ألف دينار ثم سار من مصر في شوال من السنة إلى دمشق ليبعث من هناك الخليفة وابني لؤلؤ إلى ممالكهم ووصل إلى دمشق ونزل بالقلعة وبعث يليان الرشيد وشمس الدين سقز إلى الفرات وصمم الخليفة لقصده وفارقهم وسار الصالح إسماعيل وأخوه إلى الموصل وبلغ الخبر إلى هلاكو فجرد العساكر إلى الخليفة وكيسه بغاته والحديثة فضايرهم قليلاً ثم استشهد وبعث العساكر إلى الموصل فحاصروها تسعة أشهر حتى جهدهم الحصار واستسلموا فملكها التتر وقتلوا الصالح إسماعيل والظاهر خلال ذلك مقيم بدمشق.

وقد وفد عليه بنو أيوب من نواحي الشام وأعطوه طاعتهم: المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص فأكرم ووصلهما وولاهما على أعمالهما وأذن لهما في اتخاذ الآلة ووسط حكمهما على بلاد الإسماعيلية وإلى المنصور تل باشر الذي اعتاضه عن حمص لما أخذها منه الناصر صاحب حلب ووفد على الظاهر أيضاً بدمشق الزاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص وصاحب بعلبك والمنصور والسعيد ابن الصالح إسماعيل بن العادل والأجمد بن الناصر داود الأشرف بن مسعود والظاهر بن المعظم فأكرم وفادتهم وقابل بالإحسان والقبول طاعتهم وفرض لهم الأرزاق وقرر الجرايات ثم قفل إلى مصر وأفرج عن العزيز بن المغيث الذي كان اعتقله قطز وأطلقه يوم الموقعة بالكرك.

وولى على أحياء العرب بالشام عيسى بن مهنا بن مانع بن جربلة من رجالهم ووفر لهم الإقطاع على حفظ السابلة إلى حدود العراق ورجع إلى مصر فقدم عليه رجل من عقب المسترشد من خلفاء بني العباس ببغداد اسمه أحمد فأثبت نسبه ابن بنت

هزيمة التتر على البيرة وفتح قيسارية وأرسوف بعدها

ثم رجعت عساكر التتر إلى البيرة مع ردمانة من أمراء المغل سنة ثلاث وستين فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق فجهاز السلطان العساكر مع لوغان من أمراء الترك فساروا في ربيع من السنة وسار السلطان في أثرهم وانتهى إلى غزة ولما وصلت العساكر إلى البيرة وأشرفوا عليها والعدو يحاصرها أجفلها عساكر التتر وساروا منهزمين وخلفوا سوادهم وألقاهم فنهبتها العساكر وارتحل السلطان من غزة وقصد قيسارية وهي للإفرنج فنزل عليها عاشر جمادى من السنة فنصب المجانيق ودعا أهلها للحرب واقتحمها عليهم فهربوا إلى القلعة فحاصرها خمساً وملكها عنوة وفر الإفرنج منها ثم رحل في خض من العساكر إلى عملها فشن عليها الغارة وسرح عسكراً إلى حيفا فملكها عنوة وخربها وقلعتها في يوم أو بعض يوم ثم ارتحل إلى أرسوف فنازها مستهل جمادى الأخيرة فحاصرها وفتحها عنوة وأسر الإفرنج الذين بها وبعث بهم إلى الكرك وقسم أسوارها على الأمراء فرموها وعمد إلى ما ملك في هذه الغزاة من القرى والضياح والأرضين فقسمها على الأمراء الذين كانوا معه وكانوا اثنين وخمسين وكتب لهم بذلك وقفل إلى مصر وبلغه الخبر بوفاة هلاكو ملك التتر في ربيع من السنة وولاية ابنه ابغا مكانه وما وقع بينه وبين بركة صاحب الشمال من الفتنة ولأول دخوله لمصر قبض على شمس الدين سقر الرومي وحبسه وكانت الفتنة قبل غزاته بين عيسى بن مهنا ولحق زامل بعد ذلك بهلاكو ثم استأمن إلى الظاهر فأمنه وعاد إلى إحيائه والله تعالى أعلم.

غزو طرابلس وفتح صفد

كانت طرابلس للإفرنج وبها سمند بن البرنس الأشتر وله معها أنطاكية وبلغ السلطان أنه قد تجهز للقتال فلقبه النائب بها علم الدين سنجار الباشقر وانهزم المسلمون واستشهد كثير منهم فتجهز السلطان للغزو وسار من مصر في شعبان سنة أربع وستين وترك ابنه السعيد علياً بالقلعة في كفالة عز الدين أيدمر الحلبي وقد كان عهد لابنه السعيد بالملك سنة اثنتين وستين ولما انتهى إلى غزة بعث العساكر صحبة سيف الدين قلاوون أيدغدي العزيزي فنازل القليعات وحلب وعرقا من حصون طرابلس فاستأمنوا إليه وزحفت العساكر وسار السلطان إلى صفد فحاصرها عشراً ثم

بامو الحموي فهزمهم وأطلقهم وأقام الظاهر على استماتته بالترغيب والترهيب حتى جنح إلى الطاعة واستأذن في القُدوم وسار بكباس الفخري للقائه فلقبه بدمشق سنة إحدى وستين ثم وصل فأوسع السلطان يداً وعطاءً والواصلين معه على مراتبهم واختصه بمراكبته ومشورته وسأله النزول عن البيرة فنزل عنها فقبلها الظاهر وأعاضه عنها والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على الكرك من يد المغيث

وعلى حصص بعد وفاة صاحبه

لما قفل السلطان من الشام سنة ستين كما قدمناه جرد عسكراً إلى الشوبك مع بدر الدين أيدمر فملكها وولى عليها بدر الدين بلبان الخصي ورجع إلى مصر وكان عند المغيث بالكرك جماعة من الأكراد الذين أجفلوا من شهرزور أمام التتر إلى الشام وكان قد اتخذهم جنداً لعسكرته فسرهم للإغارة على الشوبك ونواحيه فاعتزم السلطان على الحركة إلى الكرك خافة المغيث وبعث بالطاعة واستأمن الأكراد فقبلهم الظاهر وأمن الأكراد فوصلوا إليه ثم سار سنة إحدى وستين إلى الكرك واستخلف على مصر سنجار الحلبي واستخلف على غزة فلقي هنالك أم المغيث تستعطفه وتستأمن منه لحضور ابنها فأجابها وسار إلى بيسان فسار المغيث للقائه فلما وصل قبض عليه وبعثه من حينه إلى القاهرة مع أفسنفر الفارقاني وقتل بعد ذلك بمصر.

وولى على الكرك عز الدين أيدمر وأرسل نور الدين يسري الشمسي ليؤمن أهل الكرك ويرتب الأمور بها وأقام بالطور في انتظاره فأبلغ يسري القصد من ذلك ورجع إليه فارتحل إلى القدس وأمر بعمارة مسجده ورجع إلى مصر وبلغه وفاة صاحب حصص موسى الأشرف بن إبراهيم المنصور شريكه المجاهد بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه وكانت وراثته له من آبائه أقطعه نور الدين العادل لجدّه أسد الدين ولم تزل بأيديهم وأخذها الناصر يوسف صاحب حلب سنة ست وأربعين وعوضه عنها تل باشر وأعادها عليه هلاكو وأقره الظاهر توفي سنة إحدى وستين وصارت للظاهر وانقرض منها ملك بني أيوب والله سبحانه وتعالى أعلم.

وكانت من أعظم القلاع وأحصنها منها مرزبان ورعبان وقدم سنقر الأشقر على الظاهر بدمشق وأصبح معه في الموكب ولم يكن أحد علم بأمره وأعظم إليه السلطان النعمة ورفع الرتبة ورعى له السابقة والصحة وتوفي هيثوم سنة ستين بعدها والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مسير الظاهر لغزو حصون الإفرنج بالشام وفتح يافا والشقيف ثم أنطاكية

كان الظاهر عندما رجع من غزاة طرابلس إلى مصر أمر بتجديد الجامع الأزهر وإقامة الخطبة به وكان معطلاً منها مائة سنة وهو أول مسجد أسسه الشيعة بالقاهرة حين اختطوها ثم خرج إلى دمشق لخبر بلغه عن التتر ولم يثبت فسار من هنالك إلى صفد وكان أمر عند مسيره بعمارته وبلغه إغارة أهل الشقيف على الثغور فقصدها وشن الغارة على عكا واكتسح بسانطها حتى سأل الإفرنج منه الصلح على ما يرضيه فشرط المقاسمة في صيدا أو هدم الشقيف وإطلاق تجار من المسلمين كسانوا أسروهم ودية بعض القتلى الذين أصابوا دمه وعقد الصلح لعشر سنين ولم يوفوا بما شرط عليهم فنهض لغزوهم ونزل فلسطين في جمادى سنة ست وستين وسرح العساكر لحصار الشقيف ثم بلغه مهلك صاحب يافا من الإفرنج وملك ابنه مكانه وجاءت رساله إليه في طلب المودة فحبسهم وصبح البلد فاقترحها ولجأ أهلها إلى القلعة فاستنزلهم بالأمان وهدمها.

وكان أول من اختط مدينة يافا هذه صنكل من ملوك الإفرنج عند ما ملكوا سواحل الشام سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة ثم مدنها وأتم عمارتها ريد إفرنس المأسور على دمياط عندما خلص من محبسه بدار ابن لقمان ثم رجع إلى حصن الشقيف فحاصره وافتتحه بالأسان وبث العساكر في نواحي طرابلس فاكسحوها وخرّبوا عمرانها وكنائسها وبادر صاحب طرطوس بطاعة السلطان وبعث إلى العساكر بالميرة وأطلق الأسرى الذين عنده ثلثمائة أو يزيدون ثم ارتحل السلطان إلى حمص وحماة يريد أنطاكية وقدم سيف الدين قلاوون في العساكر فنازل أنطاكية في شعبان فسار المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر.

وكان صاحب أنطاكية سمند بن تيمند وكانت قاعدة ملك الروم قبل الإسلام اختطها أنطيوخس من ملوك اليونانيين وإليه تنسب ثم صارت للروم وملكها المسلمون عند الفتح ثم ملكها

اقتحمها عليهم في عشرين من رمضان السنة وجمع الإفرنج الذين بها فاستلحمهم أجمعين وأنزل بها الحامية وفرض أرزاقهم في ديوان العطاء ورجع إلى دمشق والله تعالى أعلم.

مسير العساكر لغزو الأرمن

هؤلاء الأرمن من ولد أخي إبراهيم عليه السلام من بني قوميل بن ناحور وناحور بن تارح وعبر عنه في التزليل بأزر وناحور أخو إبراهيم عليه السلام ويقال: إن الكرج إخوة الأرمن وأرمينية منسوبة إليهم وآخر مواطنهم الدروب المجاورة لحلب وقاعدتها سيس ويلقب ملكهم التكفور وكان ملكهم صاحب هذه الدروب لعهد الملك الكامل وصلاح الدين من بعده اسمه قليج بن اليون واستنجد به العادل وأقطع له وكان يعسكر معه وصالحه صلاح الدين على بلاده ثم كان ملكهم لعهد هلاكو والتتر هيثوم بن قسطنطين ولعله من أعقاب قليج أو قرابته ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته فأقره على سلطانه ثم أمره بالإغارة على بلاد الشام وأمدّه صاحب بلاد الروم من التتر.

وسار سنة اثنتين وستين ومعه بنو كلاب من أعراب حلب وانتهوا إلى سيس وجهاز الظاهر عساكر حماة وحمص فساروا إليهم وهزمهم ورجعوا إلى بلادهم فلما رجع السلطان من غزاة طرابلس سنة أربع وستين سرح العساكر لغزو سيس وبلاد الأرمن وعليهم سيف الدين قلاوون والمنصور صاحب حماة فساروا لذلك وكان هيثوم ملكهم قد ترهب ونصب للملك ابنه كيقيم فجمع كيقيم الأرمن وسار للقائهم ومعه أخوه وعمه وأوقع بهم المسلمون قتلاً وأسراً وقتل أخوه وعمه في جماعة من الأرمن واكتسحت عساكر المسلمين بلادهم واقتحموا مدينة سيس وخرّبوها ورجعوا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والسبي وتلقاهم الظاهر من دمشق عند قارا فلما رآهم ازداد سروراً بما حصل لهم، وشكا إليه هنالك الرعية ما لحقهم من عدوان الأحياء الرحالة وأنهم يتهبون موجودهم ويبيعون ما يتخطفونه منهم من الإفرنج بعكا فأمر باستباحهم وأصبحوا نهياً في أيدي العساكر بين القتل والأسر والسبي ثم سار إلى مصر وأطلق كيقيم من ملك الأرمن وصالحه على بلده ولم يزل مقيماً إلى أن بعث أبوه في فدائه وبذل فيه الأموال والقلاع فأبى الظاهر من ذلك وشرط عليه خلاص الأمراء الذين أخذهم هلاكو من سجن حلب وهم سنقر الأشقر وأصحابه فبعث فيهم تكفور إلى هلاكو فبعث بهم إليه وبعث الظاهر بابنه منتصف شوال وتسلم القلاع التي بذلت في فدائه

استيلاء الظاهر على صهيون

كان صلاح الدين بن أيوب قد أقطعها يوم فتحها وهي سنة أربع وثمانين وخمسمائة لتاصر الدين منكبرس فلم تزل بيده إلى أن هلك وولي فيها بعده ابنه مظفر الدين عثمان وبعده ابنه سيف الدين بن عثمان واستبد الترك بمصر وبعث سيف الدين أخاه عماد الدين سنة ستين بالهدايا إلى الملك الظاهر بيبرس فقبلها وأحسن إليه ثم مات سيف الدين سنة تسع وستين وكان أوصى أولاده بالتزول للظاهر عن صهيون فوفد ابنه سابق الدين الدين على السلطان بمصر فآكرمها وأقطعها وولي سابق الدين منهما أميراً وولي على صهيون من قبله ولم يزل كذلك إلى أن غلب عليها سنقر الأشقر عندما انتقض بدمشق أيام المنصور والله تعالى أعلم.

نهوض الظاهر إلى الحج

ثم بلغ الظاهر أن أبا نجي بن أبي سعد بن قتادة غلب عمه إدريس بن قتادة على مكة واستبد بها وخطب للظاهر فكتب له بالإمارة على مكة واعتزم على النهوض إلى الحج وتجهز لذلك سنة سبع وستين وأزاح علل أصحابه وشيع العساكر مع أقسنقر الفارقاتي استأذنه داره إلى دمشق وسار إلى الكرك مورياً بالصيد وانتهى إلى الشوك ورحل منه لإحدى عشرة ليلة من ذي القعدة ومر بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فأحرم من ميقاتها وقدم مكة لخمس من ذي الحجة وغسل الكعبة بيده وحمل لها الماء على كتفه وأباح للمسلمين دخولها وأقام على بابها يأخذ بأيديهم ثم قضى حجه ومناسكه وولى نائباً على مكة شمس الدين مروان وأحسن إلى الأمير أبي نجي والي صاحب ينبع وخليص وسائر شرفاء الحجاز وكتب إلى صاحب اليمن:

إني بمكة وقد وصلتني في سبع عشرة خطوة. ثم فصل من مكة ثالث عشر ذي الحجة فوصل المدينة على سبعة أيام ووصل إلى الكرك منسلخ السنة ثم وصل دمشق غرة ثمان وستين وسار إلى زيارة القدس وقدم العساكر مع الأمير أقسنقر إلى مصر وعاد من الزيارة فادركهم بتل العجول ووصل القلعة ثالث صفر من السنة والله تعالى أعلم.

الإفرنج عندما ساروا إلى ساحل الشام أعوام التسعين والأربعمائة ثم استطردوا صلاح الدين من البرنس أرناط الذي قتله في واقعة حطين كما مر ثم ارجعها الإفرنج بعد ذلك على يد البرنس الأشتر وأظنه صنكل ثم صارت لابنه تيمند ثم لابنه سمند وكان عندما حاصرها الظاهر بطرابلس وكان بها كنداصطبل عم يغمور ملك الأرمن أفلت من الواقعة عليه بالدراوند واستقر بأنطاكية عند سمند فخرج في جموعه لقتال الظاهر فانهزم أصحابه وأسر كنداصطبل على أن يحمل أهل أنطاكية على الطاعة فلم يوافقوه ثم جردهم الحصار واتحمتها المسلمون عنوة وائتخروا فيهم ونجا فلهم إلى القلعة فاستزلوا على الأمان وكتب الظاهر إلى ملكهم سمند وهو بطرابلس وأطلق كنداصطبل وأقاربه إلى ملكهم هشوم بسيس ثم جمع الغنائم وقسمها وخرّب قلعة أنطاكية وأضرها ناراً واستأمن صاحب بغراس فبعث إليه سنقر الفارقي استأذنه داره فملكها وأرسل صاحب عكا إلى الظاهر في الصلح وهو ابن أخت صاحب قبرس فعقد له السلطان الصلح لعشر سنين ثم عاد إلى مصر فدخلها ثالث أيام التشريق من السنة والله تعالى أعلم.

الصلح مع التتر

ثم نهض السلطان من مصر سنة سبع وستين لغزو الإفرنج بسواحل الشام وخلف على مصر عز الدين أيدمر الحلبي مع ابنه السعيد ولي عهده وانتهى إلى أرسوف فبلغه أن رسلاً جاؤوا من عند ابغا بن هلاكو ومروا بنقفور ملك الروم فبعث بهم إلى فبعث أميراً من حلب لإحضارهم وقرأ كتاب ابغا بنقفور في الصلح ويخال فيما أذاعه من رسالته فأعاد رسله بجوابهم وأذن للأمرء في الانطلاق إلى مصر ورجع إلى دمشق ثم سار منها في خف من العسكر إلى القلاع وبلغه وفاة أيدمر الحلبي بمصر فخيم بخربة اللصوص وأخذ السير إلى مصر متكرراً متصصاً شعبان في خف من التركمان وقد طوى خبره عن معسكره وأوهمهم القعود في خيمته علباً ووصل إلى القلعة ليلة الثلاثاء رابعة سفره فتكر له الحراس وطولع مقدم الطواشية فطلب منهم إمارة على صدقهم فأعطوها ثم دخل عفره وباكرا الميدين يوم الخميس فسر به الناس ثم قضى حاجة نفسه وخرج ليلة الاثنين عائداً إلى الشام كما جاء فوصل إلى خيمه ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان وفرح الأمرء بقدومه ثم فرق البعوث في الجهات وأغاروا على صور وملكوا إحدى الضياع وساحوا في بسيط كركو فاكسحوها وامتألت أيديهم بالغنائم ورجعوا والله تعالى أعلم.

إغارة الإفرنج والتز على حلب ونهوض

السلطان إليهم

استيلاء الظاهر على حصون الإسماعيلية

بالشام

كان الإسماعيلية في حصون من الشام قد ملكوها وهي مصياف والعليقة والكهف والمينقة والقدموس وكان كبيرهم لعهد الظاهر نجم الدين الشمراني وكان قد جعل له الظاهر ولايتها ثم تأخر عن لقائه في بعض الأوقات فعزله وولى عليها خادم الدين بن الرضا على أن ينزل له عن حصن مصياف وأرسل معه العساكر فتسلموه منه ثم قدم عليه سنة ثمان وستين وهو على حصن الأكراد وكان نجم الدين الشمراني قد أسن وهرم فاستعجب وأعتبه الظاهر وعطف عليه وقسم الولاية بينه وبين ابن الرضا وفرض عليهما مائة وعشرين ألف درهم يحملانها في كل سنة.

ولما رجع سنة تسع وستين وفتح حصن الأكراد مر بحصن العليقة من حصونهم فملكه من يد ابن الرضى منتصف شوال من السنة وأزل به حامية ثم سار لقتال التز على البيرة كما يذكر ورجع إلى مصر فوجد الإسماعيلية قد نزلوا على الحصون التي بقيت بأيديهم وسلموها لنواب الظاهر فملكوها وانتظمت قلاع الإسماعيلية في ملكة الظاهر وانقرضت منها دعوتهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار التز البيرة وهزيمتهم عليها

ثم بعث ابنا بن هلاكو العساكر إلى البيرة سنة إحدى وسبعين مع درباي من مقدمي أمرائه فحاصرها ونصب عليها المجانيق وكان السلطان بدمشق فجمع العساكر من مصر والشام وزحف إلى الفرات وقد جهز العساكر على قاصيته فتقدم الأمير قلاوون وخالف التز عليها في تخيمهم فجالوا معه ثم انهزموا وقتل مقدمهم وخاض السلطان بعساكره بحر الفرات إليهم فاجفلوا وتركوا خيامهم بما فيها وخرج أهل البيرة فنهروا سوادهم وأحرقوا آلات الحصار ووقف السلطان بساحتها قليلاً وخلع على النائب بها..... ولحق درباري بسلطانه ابغا مفلولاً فسخطه ولم يعتبه والله تعالى ولي التوفيق.

كان صمغان من أمراء التز مقيماً ببلاد الروم وأميراً عليها فوقعت المراسلة بينه وبين الإفرنج في الإغارة على بلاد الشام وجاء صمغان في عسكره لموعدهم فأغار على أحياء العرب بنواحي حلب وبلغ الخبر إلى الظاهر سنة ثمان وستين وهو يتصيد بنواحي الإسكندرية فنهض من وقته إلى غزة ثم إلى دمشق ورجع التز على أعقابهم ثم سار إلى عكا فاكسح نواحيها وأتخن فيها وفعل كذلك بحصن الأكراد ورجع إلى دمشق آخر رجب ثم إلى مصر ومر بعسقلان فخرها وطمس آثارها وجاءه الخبر بمصر بأن الفرنسيين لويس بن لويس وملك انكلترا وملك اسكوسنا وملك نودل وملك برشلونة وهو ريدراكون وجماعة ملوك الإفرنج جاؤوا في الأساطيل إلى صقلية وشرعوا في الاستكثار من الشواني وآلة الحرب ولم يعرف وجه مذهبهم فاهتم الظاهر بحفظ الثغور والسواحل واستكثر من الشواني والمراكب ثم جاء الخبر الصحيح بأنهم قاصدون تونس فكان من خبرهم ما ذكره في دولة السلطان بها من بني أبي حفص والله تعالى أعلم.

فتح حصن الأكراد وعكا وحصون صور

ثم سار السلطان سنة تسع وستين لغزو بلاد الإفرنج وسرح ابنه السعيد في العساكر إلى المرقب لنظر الأمير قلاوون وبعليق الخزندار وسار هو إلى طرابلس فاكسحوا سائر تلك النواحي وتوافوا الحصن الأكراد عاشر شعبان من السنة فحاصره السلطان عسراً ثم اقتحمت أرباضه وانحجر الإفرنج في قلعته واستأنوا وخرجوا إلى بلادهم وملك الظاهر الحصون وكتب إلى صاحب الاستبار بالفتح وهو بطرطوس وأجاب بطلب الصلح فعقد له على طرسوس والمرقب وارتحل السلطان عن حصن الأكراد بعد أن شحته بالأقوات والحامية ونازل حصن عكا واشتد في حصاره واستأن أهل إليه وملكه ثم ارتحل بعد الفطر إلى طرابلس واشتد في قتالها وسأل صاحبها البرنس الصلح فعقد له على ذلك لعشر سنين ورجع إلى دمشق ثم خرج آخر شوال إلى العليقة وملك قلعتها بالأمان على أن يتركوا الأموال والسلاح واستولى عليه وهدمه وسار إلى اللجون وبعث إليه صاحب صور في الصلح على أن ينزل له عن خمس من قلاعه فعقد له الصلح لعشر سنين وملكها ثم كتب إلى نائبه بمصر أن يجهز عشرة من

غزوة سيس وتخريبها

رحل متاقلاً.

وكتب إليه الأمراء بعده بأن الظاهر قد نهض إلى بلاد الروم بوصيته إليه بذلك فبعث إلى ابغا واستمده فأمدّه بعساكر المغل وأمره بالرجوع لدفاعه الظاهر فرجع واستحوه للقدوم فسقط في أيديهم وحبل بينهم وبين مرامهم ورجع إلى مصر في رجب من السنة وأقام بها حوالاً.

ثم لقي توقو وتدون أمير التتر ببلاد الروم وسار إلى الثغور بالشام وبلغ السلطان خبرهما فسار من مصر في رمضان سنة خمس وسبعين وقصد بلاد الروم وانتهى إلى النهر الأزرق فبعث شمس الدين سقر الأشقر فلقى مقدمه التتر فهزمهم.

ورجع إلى السلطان وساروا جميعاً فلقوا التتر على البلشين ومعهم علاء الدين البروانة في عساكره فهزمهم وقتل الأمير توقو وتدون وفر البروانة وسلطانه كنخسرو لما كان منفرداً عنهم وأسر كثير من المغل منهم سلال بن طغرل ومنهم قفجاق وجاورصى وأسر علاء الدين بن معين الدين البروانة وقتل كثيراً منهم ثم رحل السلطان إلى قيسارية فملكها وأقام عليها ينتظر البروانة لموعده كان بينهما وأبطأ عليه وقفل راجعاً ورجع خبر الهزيمة إلى ابغا ملك التتر واطلع من بعض عيون على ما كان بين البروانة والظاهر من المداخلة فتنكر للبروانة وجاء لوقته حتى وقف على موضع المعركة وارتاب لكثرة القتلى من المغل وأن عسكر الروم لم يصب منهم أحد فرجع على بلادهم بالقتل والتخريب والاكساح وامتنع كثير من القلاع ثم أمنهم ورجع وسار معه البروانة وهم يقتله أولاً ثم رجع لتخليته لحفظ البلاد فأعول نساء القتلى من المغل عند بابه فرحم بكاهن وبعث أميراً من المغل فقتله في بعض الطريق واللّه سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكامه.

وفاة الظاهر وولاية ابنه السعيد

ولما رجع السلطان من واقعه بالتتر على البلستين وقيسارية طرقه المرض في محرم سنة ست وسبعين وهلك من آخره وكان بليك الخزندار مستولياً على دولته فكنتم موته ودفنه ورجع بالعساكر إلى مصر فلما وصل القلعة جمع الناس وباع لبركة بن الملك الظاهر ولقبه السعيد وهلك بليك إثر ذلك فقام بتدبير الدولة أستاذ داره شمس الدين الفارقاني وكان نائب مصر أيام مغيب الظاهر بالشام واستقامت أموره ثم قبض على شمس الدين سقر الأشقر وبدر الدين يسري من أمراء الظاهر بسعاية بطانته

ثم نهض الظاهر من مصر لغزو سيس في شعبان سنة ثلاث وسبعين وانتهى إلى دمشق في رمضان وسار منها وعلى مقدمته الأمير قلاوون وبدر الدين بليك الخزندار فوصلوا إلى المصيصة وافتحوها عنوة وجاء السلطان على أثرهم وسار بجميع العساكر إلى سيس بعد أن كنف الحامية بالبيرة خوفاً عليها من التتر وبعث حسام الدين العتايبي ومهنا بن عيسى أمير العرب بالشام للإغارة على بلاد التتر من ناحيتها وسار إلى سيس فغربها وبث السرايا في نواحيها فانتهوا إلى بانياس وأدنة واكسحوا سائر الجهات ووصل إلى دربند الروم وعاد إلى المصيصة في التعبية فأحرقها ثم انتهى إلى إنطاكية فأقام عليها حتى قسم الغنائم ثم رحل إلى القصر وكان للإفرنج خالصاً لتركهم به إذ أمر ببناءه رئيسهم برومة الذي يسمونه البابا فافتتحه ولقيه هنالك حسام الدين العتايبي ومهنا بن عيسى راجعين من إغارتهم وراء الفرات ثم بلغه مهلك البرنس سمند بن تيمند صاحب طرابلس فبعث الظاهر يليان الدودار ليقرر الصلح مع بنه فقرره على عشرين ألف دينار وعشرين أسيراً كل سنة وحضر لذلك صاحب قبرس وكان جاء معزياً لبني البرنس ورجع الدودار إلى الظاهر فقتل إلى دمشق متصفاً ذي الحجة واللّه تعالى ينصر من يشاء من عباده.

إيقاع الظاهر بالتتر في بلاد الروم ومقتل

البروانة بمداخلته في ذلك

كان علاء الدين البروانة متغلباً على غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم من بني قليج أرسلان وقد غلب التتر على جميع ممالك بلاد الروم وأبقوا على كنخسرو اسم الملك في كفالة البروانة وأقاموا أميراً من أمرائهم ومعه عسكر التتر حامية بالبلاد ويسمونه بالشحنة وكان أول أمير من التتر ببلاد الروم وهو الذي افتتحها وبعده صمغان وبعده توقو وتدون شريكين في أمرهما لعهد الملك الظاهر وكان البروانة يتأفف من التتر لاستطاعتهم عليه وسوء ملكهم ولما استفحل أمر الظاهر بمصر والشام أمل البروانة الظهور على التتر والكرة لبني قليج أرسلان بمالأة الظاهر فدخله في ذلك وكتبه وزحف ابغا ملك التتر إلى البيرة سنة أربع وسبعين وخرج الظاهر بالعساكر من دمشق وكتبه البروانة يستدعيه وأقام الظاهر على حصص وأرسل إليه البروانة يستحثه للقاء التتر وعزم ابغا على البروانة في الوصول فاعتذر ثم

منصرفهم من دمشق سار في بقية العساكر واستنفر الأعراب وبث العطاء وانتهى إلى غزة ففرقت عنه الأعراب واتبهم الناس ثم انتهى إلى بليس ورأى قلة العساكر فرد عن الشام مع عز الدين ايدمر الظاهري إلى دمشق والنائب بها يومئذ أقوش فقبض عليه وبعث به إلى الأمراء بمصر ولما رحل السعيد من بليس إلى القلعة اعتزل عنه سقر الأشقر وسار الأمراء في العساكر لاعتراضه دون القلعة وألقى الله عليه حجاباً من الغيوم المتراكمة فلم يهتدوا إلى طريقه وخلص إلى القلعة وأطلق علم الدين سنجار الحنفي من عبيده ليستعين به.

ثم اختلف عليه بطانته وفارقه بعضهم فرجع إلى مصانعة الأمراء بأن يترك لهم الشام أجمع فأبوا إلا حسيه فسأله أن يعطوه الكرك فأجابوه وحلفهم على الأمان وحلف لهم أن لا يتنقض عليهم ولا يداخل أحداً من العساكر ولا يستميله فيبعثه من حينه إلى الكرك وكتبوا إلى النائب بها علاء الدين ايدكر الفخري أن يمكنه منها ففعل واستمر السعيد بالكرك وقام بدولته ايدكر الفخري واجتمع الأمراء بمصر وعرضوا الملك على الأمير قلاوون وكان أحق به فلم يقبل وأشار إلى شلامس بن الظاهر وهو ابن ثمان سنين فتصبره للملك في ربيع سنة ثمان وسبعين ولقبوه بدر الدين.

وولى الأمير قلاوون أتابك الجيوش وبعث مكان جمال الدين أقوش نائب دمشق بتسلمها منه وسار أقوش إلى حلب نائباً وولى قلاوون في الوزارة برهان الحصري السحاي وجمع المالكة الصالحة ووفر إقطاعاتهم وعمر بهم مراتب الدولة وأبعد الظاهرية وأودعهم السجون ومنع الفساد ولم يقطع عنهم رزقاً إلى أن بلغ العقاب فيهم أجله فأطلقهم تباعاً واستقام أمره والله تعالى أعلم.

خلع شلامس وولاية المنصور قلاوون

أصل هذا السلطان قلاوون من الفقجاك ثم من قبيلة منهم يعرفون برج أعلى وقد مر ذكرهم وكان مولى لعلاء الدين أفسقر الكابلي موالى الصالح نجم الدين أيوب فلما مات علاء الدين صار من موالى الصالح وكان من نفرتهم واستقامتهم ما قدمناه ثم قدم إلى مصر في دولة المظفر قطز مع الظاهر بيبرس ولما ملك الظاهر قره واختصه وأصهر إليه ثم بايع لابنه السعيد من بعده.

ولما استوحش الأمراء من السعيد وخلعوه رغبوا من الأمير قلاوون في الولاية عليهم كما قدمناه ونصب أخاه شلامس بن الظاهر فوافقه الأمراء على ذلك طواعية له واتصلت رغبتهم في

الذين جمعهم عليه لأول ولايته وكانوا من أوغاد الموالى وكان يرجع إليهم لمساعدتهم له على هواه وصارت شبيبته ولما قبض على هذين الأميرين نكر ذلك عليه خاله محمد بن بركة خان فاعتقله معهم فاستوحشت أمه لذلك فأطلق الجميع فارتاب الأمراء وأجمعوا على معاتبته فاستعتب واستحلفوه ثم أغراه بطانته بشمس الدين الفارقاني مدبر دولته فقبض عليه وإعتقله وهلك لأيام من اعتقاله وولى مكانه شمس الدين سقر الألفي ثم سعى أولئك البطانة به فعزله وولى مكانه سيف الدولة كونك الساقى صهر الأمير سيف الدين قلاوون على أخت زوجته بنت كرمون كان أبوها من أمراء التتر قد خرج إلى الظاهر واستقر عنده وزوج بنته من الأمير قلاوون وبنته الأخرى من كوزيك ثم حضر عند السعيد لاشين الربيعي من حاشيته وغلب على هراة واستمال أهل الدولة بقضاء حاجاتهم واستمر معروفة لهم واستمر الحال على ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع السعيد وولاية أخيه شلامس

ولما استقر السعيد بملكه في مصر أجمع المسير إلى الشام للنظر في مصالحه فسار لذلك سنة سبع وسبعين فاستقر بدمشق وبعث العساكر إلى الجهات وسار قلاوون الصالحى وبدر الدين يسري إلى سيس زين له ذلك لاشين الربيعي والبطانة الذين معه وأغروه بالقبض عليهم عند مرجعهم ثم حدث بين هؤلاء البطانة وبين النائب سيف الدين كونك وحشة وآسفوه بما يلقون فيه عند السلطان فغضب لذلك وسارت العساكر فأغاروا على سيس واكتسحوا نواحيها ورجعوا فلقبهم النائب كونك وأسر إليهم ما أضرهم لهم السلطان فخيما بالمرج وقعدوا عن لقاء السلطان وبعثوا إليه بالعدل في بطانته وأن ينصف نائبه منهم فأعرض عنهم ودس لمولى أبيه أن يعاودهم إليه فأطاعوهم على كتابه فزادهم ضغناً وصرحوا بالانتفاض فبعث إليهم سقر الأشقر واستقر التركيتي أستاذ داره بالاستعطاف فردوها فبعث أمه بنت بركة خان فلم يقبلوها وارتحلوا إلى القاهرة فوصلوها في محرم سنة ثمان وسبعين وبالقلعة عز الدين أيبك الأقرم الصالحى أمير جنود علاء الدين اقطوان الساقى وسيف الدين يليان أستاذ داره فضبطوا أبواب القاهرة ومنعوه من الدخول.

وترددت المراساة بينهم وخرج أيبك الأفرام وأقطوان ولاشين التركمانى للحديث فتقوضوا عليهم ودخلوا إلى بيوتهم ثم باكروا القلعة بالحصار ومنعوا عنها الماء وكان السعيد بعد

انتفاض سنقر الأشقر بدمشق هزيمته ثم

امتناعه بصهيون

كان شمس الدين سنقر الأشقر لما استقر في نيابة دمشق أجمع الانتفاض والاستبداد وتسلم القلاع من الظاهرية وولى فيها وطالب المنصور قلاوون دخول الشام بأسرها من العريش إلى القرات في ولايته وزعم أنه عاهده على ذلك وولى السلطان على قلعة دمشق مولاه حسام الدين لاشين الصغير سلحداراً في ذي الحجة سنة ثمان وسبعين فنكر سنقر وانتفض ودعا لنفسه ثم بلغه خبر قلاوون وجلوسه على التخت فدعا الأمراء وأشاع أن قلاوون قتل واستحلفهم على منعته وحبس من امتنع من اليمين وتلقب الكامل وذلك في ذي الحجة من السنة وقبض على لاشين نائب القلعة وجهاز سيف الدين إلى الممالك الشامية والقلاع للاستحلاف وولى في وزارة الشام محمد الدين إسماعيل بن كسيرات وسكن سنقر بالقلعة.

ثم بعث السلطان أيبك الأفرم بالعساكر إلى الكرك لما توفي السعيد صاحبها وانتهى إلى غزة واجتمع إليه بيليك الأيدمرى منقلباً من الشوبك بعد فتحه فحذرهم سنقر الأشقر وخاطب الأفرم يتجنى على السلطان بأنه لم يفرده بولاية الشام وولى في قلعة دمشق وفي حلب وبعث الأفرم بالكتاب إلى السلطان قلاوون فأجابته وتقدم إلى الأفرم أن يكاتبه بال عزل فيما فعله وارثه فلم يرجع عن شأنه وجمع العساكر من عمالات الشام واحتشد العربان وبعثهم مع قراستقر المقرى إلى غزة فلقبهم الأفرم وأصحابه وهزمهم وأسروا جماعة من أمرائهم وبعثوا بهم إلى السلطان قلاوون فأطلقهم وخلع عليهم.

ولما وصلت العساكر مقلولة إلى دمشق عسكر سنقر الأشقر بالمرج وكاتب الأمراء بغزة يستميلهم وبعث السلطان العساكر بمصر مع علم الدين سنجار لاشين المنصوري وبدر الدين بكتاش الفخري السلحدار فصاروا إلى دمشق فلقبهم الأشقر على الجسر بالكسرة فهزموه في صفر سنة تسع وسبعين وتقدموا إلى دمشق فملكوها وأطلق علم الدين سنجار لاشين المنصوري من الاعتقال وولاه نيابة دمشق وولى على القلعة سيف الدين سنجار المنصوري وكتب إلى السلطان بالفتح وسار سنقر إلى الرجة فامتنع عليه نائبها فسار إلى عيسى بن مهنا ورجع عنه إلى الفل وكاتبوا ابناً ملك التتر واستحوه ملك الشام يستميلونه فلم يجب وبعث إليه العساكر فأجفلوا إلى صهيون وملكها سنقر وملك معها شيزر.

ولايته مدة شهرين حتى أجابهم إلى ذلك فبايعوه في جمادى سنة ثمان وسبعين فقام بالأمر ورفع كثيراً من المكوس والظلمات وقسم الوظائف بين الأمراء وولى جماعة من ممالিকে إمرة الألوف وزادهم في الاقطاعات وأفرج لوقته عن عز الدين أيبك الأفرم الصالحى وولاه نائباً بمصر ثم استبقاه فأعفاه وولى مملوكه حسام الدين طرنطاي مكانه ومملوكه علم الدين سنجار الشجاعى رئاسة الدواوين وأقر الصاحب برهان الدين السنجارى في الوزارة ثم عزله بفخر الدين إبراهيم بن لقمان وبعث عز الدين أيدمر الظاهري الذي كان اعتقله جمال الدين أقوش حين رجع بعساكر الشام عن السعيد بن الظاهر من بليس فجيء به مقيداً واعتقله والله تعالى ولي التوفيق.

انتفاض السعيد بن الظاهر بالكرك ووفاته

وولاية أخيه خسرو مكانه

ولما ملك السلطان قلاوون شرع السعيد بالكرك وكاتب الأمراء بمصر والشام في الانتفاض وخاطبه السلطان بالعتاب على نقض العهد فلم يستعجب وبعث عساكره مع حسام الدين لاشين الجامدار إلى الشوبك فاستولى عليها فبعث السلطان نور الدين بيليك الأيدمرى في العساكر فارتدها في ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وقارن ذلك وفاة السعيد بالكرك واجتمع الأمراء الذين بها ومقدمهم نائبه إيدكن الفخري وقال إيدكن: إن نائبه كان أيدغري الحراني فنصبوا أخاه خسرو ولقبوه المسعود نجم الدين واستولى الموالي على رايه وأفاضوا المال من غير تقدير ولا حساب حتى أنفقوا ما كان بالكرك من الذخيرة التي ادخرها الملك الظاهر وبعض أمراء الشام في الخلاف.

ويعثوا العساكر فاستولوا على الصليب وحاصروا صرخند فامتنعت وكاتبوا سنقر الأشقر المتظاهر على الخلاف فبعث السلطان أيبك الأفرم في العساكر لحصار الكرك فحاصرها وضيق عليها ثم سال المسعود في الصلح على ما كان الناصر داود بن المعظم فأجابته السلطان قلاوون وعقد له ذلك ثم انتفض ثانية ونزع عنه نائبه علاء الدين أيدغري الحراني ونزع عنه إلى السلطان فصدق ما نقل عنه من ذلك ثم بعث السلطان سنة خمس وثمانين نائبه حسام الدين طرنطاي في العساكر لحصار الكرك فحاصروها واستنزل المسعود وأخاه سلامش منها على الأمان وملكها وجاء بهما إلى السلطان قلاوون فأكرمهما وخلطهما بولده إلى أن توفي ففرّ بهما الأشرف إلى القسطنطينية.

وعلى قلاع الإسماعيلية وعلى جميع البلاد المستجدة الفتح وما سيفتحه على أن يسكن عمال المسلمين باللادقية وأن لا يستجدوا أسير قلعة ولا غيرها ولا يداخلوا التتر في قننه ولا يأمروا عليهم إلى بلاد المسلمين إن أطاقوا ذلك وعقد معهم ذلك لإحدى عشرة سنة.

وبعث السلطان من أمرائه من يستحلف الإفرنج على ذلك وبلغه الخبر بأن جماعة من أمرائه أجمعوا الفتك به وداخلوا الإفرنج في ذلك وكان كبيرهم كوندك فلما وصل إلى بيسان قبض عليه وعليهم وقتلهم واستراب من داخلهم في ذلك ولحقوا بسنقر في صهيون ودخل السلطان دمشق وبعث العساكر لخصار شيزر ثم ترددت الرسل بينه وبين الأشقر في الصلح على أن ينزل عن شيزر ويتعوض عنها بالشعر وبكاس وعلى أن يقتصر في حامية الحصون التي لقطره على ستمائة من الفرسان فقط ويطرد عنه الأمراء الذين لحقوا به فتم الصلح على ذلك وكتب له التقليد بتلك الأعمال ورجع من عنده سنجار الدوادر فأحسن إليه السلطان وولى على نيابة شيزر يليان الطباخي وكان بنو الظاهر بالكرك يسألون السلطان في الصلح بالزيادة على الكرك كما كان السلطان داود فلما تم الصلح مع سنقر رجعوا إلى القنوق بالكرك وبعث إليهم السلطان بأقاربهم من القاهرة وأتم لهم العقد على ذلك وبعث الأمير سلحدار والقاضي تاج الدين بن الأثير لاستحلافهم والله تعالى أعلم.

واقعة التتر بحمص ومهلك ابغا سلطانهم بأثرها

ثم زحف التتر سنة ثمانين إلى الشام من كل ناحية متظاهرين فصار أبغا في عساكر المغل وجنود التتر وانتهى إلى الرحبة فحاصرها ومعه صاحب ماردين وقدم أخوه منكوغر في العساكر إلى الشام وجاء صاحب الشمال منكوغر من بني دوشي خان من كرسيهم بصراي مظاهراً لأبغا بن هلاكو على الشام فمر بالقسطنطينية ثم نزل بين قيسارية وتغليس ثم سار إلى منكوغر بن هلاكو وتقدم معه إلى الشام وخرج السلطان من دمشق في عساكر المسلمين وسابقهم إلى حمص ولقيه هناك سنقر الأشقر فيمن معه من أمراء الظاهرية وزحف التتر ومن معهم من عساكر الروم والإفرنج والأرمن والكرج ثمانون ألفاً أو يزيدون والتقى الفريقان على حمص.

وجعل السلطان في ميعة صاحب حماة محمد بن المظفر

وبعث السلطان العساكر لخصار شيزر مع عز الدين الأفرم فحاصرها وجاءت الأخبار بزحف أبغا ملك التتر إلى الشام في مواعدة سنقر وابن مهنا واستدعى صغار صاحب بلاد الروم فيمن معه من المغل وأنه بعث بيدو ابن أخيه طرخان صاحب ماردين وصاحب سيس من ناحية أذربيجان وجاء هو على طريق الشام وفي مقدمته أخوه منكوغر فلما تواترت الأخبار بذلك أفرج الأفرم عن حصار شيزر ودعا الأشقر إلى مدافعة عدو المسلمين فأجابته ورفع عن موالاة أبغا وسار من صهيون للاجتماع بعساكر المسلمين.

وجمع السلطان العساكر بحمص وسار إلى الشام واستخلف على مصر ابنه أبا الفتح علياً بعد أن ولاء عهده وقرأ كتابه بذلك على الناس وخرج لجمع العساكر في جمادى سنة تسع وسبعين وانتهى إلى غزة ووصل التتر إلى حلب وقد أجفل عنها أهلها وأفقرت منازلها فأضرموا النار في بيوتها ومساجدها وتولى كبير ذلك صاحب سيس والأرمن وبلغهم وصول السلطان إلى غزة فأجفلوا راجعين إلى بلادهم وعاد السلطان إلى مصر بعد أن جرد العساكر إلى حمص وبلاد السواحل بحمايتهم من الإفرنج ورجع سنقر الأشقر إلى صهيون وفارقه كثير من عسكره فلحقوا بالشام وأقام معه سنجار الدوادر وعز الدين أردبن والأمراء الذين مكنوه من قلاع الشام عند انتفاضه والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير السلطان لخصار المرقب ثم الصلح معههم ومع سنقر الأشقر بصهيون ومع بني الظاهر بالكرك

كان الإفرنج الذين يحصن المرقب عندما بلغهم هجوم التتر على الشام شنوا الغارات في بلاد المسلمين من سائر النواحي فلما رجع التتر عن الشام استأذنه يليان الطباخي صاحب حصن الأكراد في غزوهم وسار إليهم في حامية الحصون بنواحيه وجمع التركمان وبلغ الحصن المرقب ووقف أسفله واستطرد له أهل الحصن حتى تورط في أوعار الجبل ثم هجموا عليه دفعة فانهزم ونالوا من المسلمين وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من مصر لغزوهم آخر سنة تسع وسبعين واستخلف ابنه مكانه وانتهى إلى الروحاء فوصله هنالك رسل الإفرنج في تقرير الهدنة مع أهل المرقب على أن يطلقوا من أسروه من المسلمين في واقعة يليان ففقد لهم في الحرم سنة ثمانين وعقد لصاحب بيت الاستبار وابنه ولصاحب طرابلس سمند بن تيمند ولصاحب عكا على بلادهم

الروم وقطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس وشمس الدين محمد بن صاحب من حاشية صاحب ماردین وكان كتابه مؤرخاً بجمادی سنة إحدى وثمانين وحملوا على الكرامة وأجيب سلطانهم بما يناسبه ثم وصل رسول قودان بن طقان المتولي بكريسي الشمال بعد أخيه منكومر سنة اثنتين وثمانين بخبر ولايته ودخوله في دين الإسلام ويطلب تقليد الخليفة واللقب منه والراية للجهاد فيمن يليه من الكفار فأسعف بذلك واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان قلاوون على الكرك

وعلى صهيون و وفاة صاحب حماة

ثم توفي المنصور محمد بن المظفر صاحب حماة في شوال سنة اثنتين وثمانين وولي السلطان ابنه المظفر وبعث بالخلع له ولأقاربته وسار السلطان قلاوون إلى الشام في ربيع سنة ثلاث وثمانين لحاصرة المرقب بما فعلوه من عمالة العدو فحاصره حتى استأنوا إليه وملك الحصن من أيديهم وانتظر وصول سنقر الأشقر من صهيون فلم يصل فرجع إلى مصر وجهز النائب حسام الدين طرنطاي في العساكر لحصار الكرك بما وقع من شلالمش وخسرو من الانتقاض فسار سنة خمس وثمانين وحاصره حتى استأنوا وجاء بهم إلى السلطان فركب للفائهم وبالغ في إكرامهم ثم ساءت سيرتهم فاسترأب بهم واعتقلهم وغربهم إلى القسطنطينية وولى على الكرك عز الدين المنصوري وبعده بيبرس الدويدار مؤلف أخبار الترك ثم جهز السلطان ثانياً النائب طرنطاي بالعساكر لحصار سنقر الأشقر بصهيون لانتقاضه وإغارتة على بلاد السلطان فسار لذلك سنة ست وثمانين وحاصره حتى استأن من هو ومن معه وجاء به إلى السلطان وأنزله بالقلعة ولم يزل عنده إلى أن هلك السلطان فقبض عليه وتولى ابنه الأشرف من بعده كما ذكره إن شاء الله تعالى.

وفاة ميخائيل ملك القسطنطينية

قد تقدم لنا كيف تغلب الإفرنج على القسطنطينية من يد الروم سنة ستمائة وكان ميخائيل هذا من بطارتهم أقام في بعض الحصون بنواحيها فلما أمكنته الفرصة بيئتها وقتل من كان بها من الإفرنج وفر الباقون في مراكبهم واجتمع الروم إلى ميخائيل هذا وملكوه عليهم وقتل الملك الذي قبله وكان بينه وبين صاحب

ونائب دمشق لاشين السلحدار وعيسى بن مهنا فيمن إليه من العرب وفي الميسرة سنقر الأشقر في الظاهرية مع جموع التركمان ومن إليهم جماعة من أمرائه وفي القلب نائبه حسام الدين طرنطاي والحااجب ركن الدين أياحي وجمهور العساكر والمماليك ووقف السلطان تحت الرايات في مواليه وحاشيته ووقفت عساكر التتر كراديس وذلك منتصف رجب سنة ثمانين واقتلبوا ونزل الصير ثم انقضت ميسرة المسلمين واتبعهم التتر وانقضت ميسرة التتر ورجعوا على ملكهم منكومر في القلب فانهزم ورجع التتر من اتباع ميسرة المسلمين فمروا بالسلطان وهو ثابت في مقامه لم يبرح ورجع أهل المرة.

ونزل السلطان في خيامه ورحل من الغد في اتباع العدو وأوعز إلى الحصون التي في ناحية الفرات باعتراضهم على المقابر فعدلوا عنها وخاضوا الفرات في الجاهل فغرقوا ومصر بعضهم ببر سلمية فهلكوا وانتهى الخبر إلى أبغا وهو على الرحبة فاجفل إلى بغداد وصرف السلطان العساكر إلى أماكنهم وسار سنقر الأشقر إلى مكانه بصهيون وتغلب عنه كثير من الظاهرية عند السلطان وعاد السلطان إلى دمشق ثم إلى مصر آخر شعبان من السنة فبلغه الخبر بمهلك منكومر بن هلاكو بهمدان ومنكومر صاحب الشمال بصراي فكان ذلك تماماً للفتح.

ثم هلك أبغا بن هلاكو سنة إحدى وثمانين وكان سبب مهلكه فيما يقال أنه اتهم شمس الدين الجريض وزيره باغتيال أخيه منكومر منصرفه من واقعة حمص فقبض عليه وامتنحه واستصفاه ففسد له الجويني من سمه ومات وكان أبغا اتهم بأخيه أيضاً أميراً من المغل كان شحنة بالجزيرة ففر منها وأقام مشركاً وبعث السلطان قلاوون بعثاً إلى ناحية الموصل للإغارة عليها وانتهوا إلى سنجار فصادفوا هذا الأمير وجاؤوا به إلى السلطان فحبسه ثم أطلقه وأثبت اسمه في الديوان وكان يحدث بكثير من أخبار التتر وكتب بعضها عنه.

وبعث السلطان في هذه السنة بعثاً أخرى إلى نواحي سيس من بلاد الروم جزاء بما كان من الأرمن في حلب ومساجدها فاكسحوا تلك النواحي ولقيهم بعض أمراء التتر بمكان هنالك فهزموه ووصلوا إلى جبال بلغار ورجعوا غائمين وبعث السلطان شمس الدين قراستقر المنصوري إلى حلب لإصلاح ما خرب التتر من قلعتها وجامعها فأعاد ذلك إلى أحسن ما كان عليه.

ثم أسلم ملوك التتر فبعث أولاً بكدار بن هلاكو صاحب العراق بإسلامه وأنه تسمى أحمد وجاءت رسله بذلك إلى السلطان وهم شمس الدين أتاتك ومسعود بن كيكاسوس صاحب بلاد

ومات ملك النوبة بأسوان ودفن بها وجاء نائبه صريحاً إلى السلطان فبعث معه داود ابن أخي مرتشكين الذي كان أسيراً بالقلعة وتقدم جريس بين يدي العساكر فهرب بيتامون وأمنع بجزيرة وسط النيل على خمس عشرة مرحلة وراء دنقلة ووقف العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب إلى الجزيرة من كثرة الحجر وخرج بيتامون منها فلاحق بالأبواب ورجع عنه أصحابه ورجعت العساكر إلى دنقلة فملكوا داود ورجعوا إلى مصر سنة تسع وثمانين لتسعة أشهر من مسيرهم، بعد أن تركوا أميراً منهم مع الملك داود، ورجعوا إلى مصر ورجع بيتامون إلى دنقلة وقتل داود وبعث الأمير الذي كان معهم إلى السلطان وحمله رغبة في الصلح على أن يؤدي الضريبة المعلومة فأسعف لذلك واستقر في ملكه انتهى والله تعالى أعلم.

فتح طرابلس

كان الإفرنج الذين بها قد نقضوا الصلح وأغاروا على الجهات فاستنفر السلطان العساكر من مصر والشام وأزاح عنهم وجهز آلات الحصار وسار إليها في محرم سنة ثمان وثمانين فحاصرها ونصب عليها الجانيق وفتحها عنوة لأربعة وثلاثين يوماً من حصارها واستباحها وركب بعضهم الشواني للنجاة فردتهم الريح إلى السواحل فقتلوا وأسروا وأمر السلطان بتخريبها فخرت وأحرقت وفتح السلطان ما إليها من الحصون والمعازل وأنزل حاميتها وعاملها بمجنح الأكراد ثم اتخذ حصناً آخر لترك النائب والحامية في العمل وسمي باسم المدينة وهو الموجود لهذا العهد وكان من خبر هذه المدينة من لدن الفتح أن معاوية أيام الشام لعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعث إليها سفیان بن غنخف الأزدي فحاصرها وبنى عليها حصناً حتى جهد أهلها الحصار وهربوا منها في البحر وكتب سفیان إلى معاوية بالفتح وكان يبعث العساكر كل سنة للمرابطة بها.

ثم جاء إلى عبد الملك بن مروان بطريق من الروم وسأله في عمارتها والنزول بها فجمعاً على أن يعطيه الخراج فأجابته وأقام قليلاً ثم غدر بمن عنده من المسلمين وذهب إلى بلاد الروم فتخطفته شواني المسلمين في البحر وقتله عبد الملك ويقال: الوليد وملكها المسلمون وبقي الولاة يملكونها من دمشق إلى أن جاءت دولة العبيديين فأفردوها بالولاية ووليها رمان الخادم ثم سر الدولة ثم أبو السعادة علي بن عبد الرحمن بن جبارة ثم نزال ثم مختار الدولة بن نزال وهؤلاء كلهم من أهل دولته ثم تغلب قاضيها

مصر والناصر قلاوون من بعده اتصال ومهاداة ونزل بنو الظاهر عليه عندما غربوا من مصر ثم مات ميخائيل سنة إحدى وثمانين وولى ابنه ماندر ويلقب الراونس وميخائيل هذا يعرف بالأشكري وبنيه من بعده بنو الأشكري وهم ملوك القسطنطينية إلى هذا العهد والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

أخبار النوبة

كان الملك الظاهر وقد عليه أعوام سنة خمس وسبعين ملك النوبة من تشكيل مستنجداً به على ابن أخيه داود لما كان تغلب عليه وانتزع الملك من يده فوعده السلطان وأقام ينتظر واستفحل ملك داود وتجاوز حدود مملكته إلى قرب أسوان من آخر الصعيد فجهر السلطان العساكر إليه مع أئستقر الفارقاني وأبيك الأفرم أستاذ داره وأطلق معهم مرتشكين ملك النوبة فساروا لذلك واستنفروا العرب وانتهوا إلى رأس الجنادل واستولوا على تلك البلاد وأمنوا أهلها وساروا في البلاد فلقبهم داود الملك فهزموه وأئخنوا في عساكره وأسروا أخاه وأخته وأمه وسار إلى مملكة السودان بالأبواب ورآه فقاتله ملكها وهزمه وأسره وبعث به مقيداً إلى السلطان فاعتقل بالقلعة إلى أن مات واستقر مرتشكين في سلطان النوبة على جراية مفروضة وهدايا معلومة في كل سنة وعلى أن تكون الحصون المجاورة لأسوان خالصة للسلطان وعلى أن يمكن ابن أخيه داود وجميع أصحابه من كل ملهم في بلادهم فوفى بذلك.

ثم مات الظاهر وانقرض دولته ودولة بنيه وانتقل الملك إلى المنصور قلاوون فبعث سنة ست وثمانين العساكر إلى النوبة مع علم الدين سنجان الخياط وعز الدين الكوراني وسار معهم نائب قوص عز الدين إيدمر السيفي بعد أن استنفر العريان أولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيان وأولاد كنز الدولة وجماعة من الغرب وبني هلال وساروا على العدو الغربية والشرقية في دنقلة وملكهم بيتامون هكذا سماه النوبي وأظنه أخوا مرتشكين وبرزوا للعساكر فهزمتهم واتبعتهم خمسة عشر يوماً وراء دنقلة.

ورتب ابن أخت بيتامون في الملك ورجعت العساكر إلى مصر فجاء بيتامون إلى دنقلة فاستولى على البلاد ولحق ابن أخته بمصر صريحاً بالسلطان فبعث معه عز الدين أيلك الأفرم في العساكر ومعه ثلاثة من الأمراء وعز الدين نائب قوص وذلك سنة ثمان وثمانين وبعثوا المراكب في البحر بالأزودة والسلاح

إنشاء المدرسة والمارستان بمصر

كان المنصور قلاوون قد اعتمد على إنشاء المارستان بالقاهرة ونظر له الأماكن حتى وقف نظره على الدار القطبية من قصور العبيدين وما يجاورها من القصرين واعتمد إنشاء هنالك وجعل الدار أصل المارستان وبنى بإزائه مدرسة لتدريس العلم وقبة لدفنه وجعل النظر في ذلك لعلم الدين الشجاعى فقام بإنشاء ذلك لأقرب وقت وكملت العمارة سنة اثنتين وثمانين وستمئة ووقف عليها أملاكاً وضياعاً بمصر والشام وجلس بالمارستان في يوم مشهود وتناول قدحاً من الأشرطة الطيبة وقال وقفت هذا المارستان على مثلي فمن دوني من أصناف الخلق فكان ذلك من صالح آثاره والله أعلم.

وفاة المنصور قلاوون وولاية ابنه خليل

الأشرف

كان المنصور قلاوون قد عهد لابنه علاء الدين ولقبه الصالح وتوفي سنة سبع وثمانين فولي العهد مكانه ابنه الآخر خليل ثم انتفض الإفرنج بعكا وأغاروا على النواحي ومرت بهم رفقة من التجار بريق من الروم والترك جلبوهم للسلطان فنهبهم وأسروهم فأجمع السلطان غزوهم وخرج في العساكر بعد الفطر من سنة تسع وثمانين واستخلف ابنه خليل على القاهرة ومعه زين الدين سيف وعلم الدين الشجاعى الوزير وعسكر بظاهر البلد فطره المرض ورجع إلى قصره فمرض وتوفي في ذي القعدة من السنة فبويع ابنه خليل ولقب الأشرف وكان حسام الدين طرنطاي نائب المنصور إليه فآقره وأشرك معه زين الدين سيف في نيابة العتبة وأقر علم الدين الشجاعى على الوزارة وبدر الدين يبدو أستاذ داره وعز الدين أبيك خزنदार.

وكان حسام الدين لاشين السلحدار نائباً بدمشق وشمس الدين قراستقر الجوكندار نائباً بحلب فأقرهما وجمع ما كان بالشام من ولادة أبيه ثم قبض على النائب حسام الدين طرنطاي لأيام قلائل وقتله واستولى على خلفه وكان لا يعبر عنه كان الناض منها ستمائة ألف دينار وحملت كلها لخزائنه واستقل بدر الدين بالنيابة وبعث إلى محمد بن عثمان بن السلعوس من الحجاز فولاه الوزارة وكان تاجراً من تجار الشام وتقرب له أيام أبيه واستخدم له فاستعمله في بعض إقطاعه بالشام ووفر جبايتها فولاه ديوانه بمصر فأسرف في الظلم وأنهى أمره إلى طرنطاي النائب فصادته المنصور

أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار وتوفي سنة أربع وستين وأربعمائة وكان من فقهاء الشيعة وهو الذي صنف الكتاب الملقب بخراب الدولة ابن منقذ بن كمود فقام بولاية أخيه أبي الحسن بن محمد بن عمار ولقبه جلال الدين.

وتوفي سنة اثنتين وتسعين صنجيل من ملوكهم واسمه ميمنت ومعناه ميمون وصنجيل: اسم مدينة عرف بها وأقام صنجيل يحاصرها طويلاً وعجز ابن عمار عن دفاعه ثم قصد سلطان السلجوقية بالعراق محمد بن ملكشاه مستنجداً به واستخلف بالمناقب ابن عمه على طرابلس ومعه سعد الدولة فتian بن الأغر فقتله أبو المناقب ودعا للأفضل ابن أمير الجيوش المستبد على خلفاء العبيدين بمصر لذلك العهد ثم هلك صنجيل وهو محاصر لها وولي مكانه السرداني من زعمانهم وبعث الأفضل قائداً إلى طرابلس فأقام بها وشغل عن مدافعة العدو بجمع الأموال.

ونفي عنه إلى الأفضل أنه يروم الاستبداد فبعث آخر مكانه ونافر أهل البلد لسوء سيرته فتيين وصول المراكب من مصر بالمد وقبض على أعيانهم وعلى غلغله فخر الملك بن عمار من أهله وولده وبعث بهم إلى مصر وجاء فخر الملك بن عمار بعد أن قطع جبل الرجاء في يده من إجماد السلجوقية لما كانوا فيه من الشغل بالفتنة ورما علله بعضهم بولاية الوزارة له ثم رجع إلى دمشق سنة اثنتين وخمسمائة ونزل على طغتكين الأتابك.

ثم ملكها السرداني سنة ثلاث وخمسمائة بعد حصارها سبع سنين وجاء ابن صنجيل من بلاد الإفرنج فملكها منه وأقامت في مملكته نحواً من ثلاثين سنة ثم ثار عليه بعض الزعماء وقتله بطرس الأعور واستخلف في طرابلس القوش بطرار ثم كانت الواقعة بين صاحب القدس ملك الإفرنج وبين زنكي الأتابك صاحب الموصل وانهمز الإفرنج وأسر القوش في تلك الوقعة ونجا ملك الإفرنج إلى تغريب فتحصن بها وحصره زنكي حتى اصطلحاً على أن يعطي تغريب ويطلق زنكي الأسرى في الواقعة فانطلق القوش إلى طرابلس فأقام بها مدة ووثب الإسماعيلية به فقتلوه وولي بعده رهند صيباً وحضر مع الإفرنج سنة سبع وخمسين وقعة حارم التي هزمهم فيها العادل وأسر رهند يومئذ ويبقى في اعتقاله إلى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب فأطلقه سنة سبعين وخمسمائة ولحق بطرابلس ولم تنزل في ملكه وملك ولده إلى أن فتحها المنصور سنة ثمان وثمانين كما مر والله تعالى أعلم.

مشرفة على سوق الخيل والميدان والله سبحانه وتعالى أعلم.

وامتحته ونفاه عن الشام.

فتح قلعة الروم

ثم سار السلطان سنة إحدى وتسعين في عساكره إلى الشام بعد أن أفرج عن حسام الدين لاشين وردّه إلى إمارته وانتهى إلى دمشق ثم سار إلى حلب ثم دخل منها إلى قلعة الروم فحاصرها في جمادى من السنة وملكها عنوة بعد ثلاثين يوماً من الحصار وقاتل المقاتلة الذريعة وخرب القلعة وأخذ فيها بطرك الأرمن أسيراً وانكف السلطان راجعاً إلى حلب فأقام بها شعبان وولى عليها سيف الدين الطباقي نائباً مكان قراستقر الظاهري لأنه ولاء مقدم المماليك.

ورحل إلى دمشق ف قضى بها عيد الفطر واستراب لاشين النائب فهرب ليلة الفطر وأركب السلطان في طلبه وتقبض عليه بعض العرب في حيه وجاء به إلى السلطان فبعثه مقيداً إلى القاهرة وولى على نيابة دمشق عز الدين أيبك الحميدي عوضاً عن علم الدين سنجار الشجاعى ورجع إلى مصر فأفرج عن علم الدين سنجار الشجاعى وتوفي لسنة بعد إطلاقه ثم قبض على سنقر الأشقر وقتله وسمع نائبه يبدو براءة لاشين فأطلقه وتوفي ابن الأثير بعد شهر فولى مكانه ابنه عماد الدين أيوب وكان أيوب قد اعتقله المنصور لأول ولايته فأطلقه الأشرف هذه السنة لثلاث عشرة سنة من اعتقاله واستخلصه للمجالسة والشورى.

وتوفي القاضي فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء وله التقدم عنده وعند أبيه فولى مكانه فتح الدين أحمد بن الأثير الحلبي وترك ابن عبد الظاهر ابنه علاء الدين علياً فالقى عليه النعمة منتظماً في جملة الكتاب ثم سار السلطان إلى الصعيد يتصيد واستخلف يبدو النائب على دار ملكه وانتهى إلى قوص وكان ابن السلوس قد دس إليه بأن يبدو احتجن بالصعيد من الزرع ما لا يحصى فوقف هنالك على مخازنها واستكثرها وارتاب يبدو لذلك ولما رجع الأشرف إلى مصر ارتجع منه بعض إقطاعه وبقي يبدو مرتاباً من ذلك وأتحف السلطان بالهدايا من الخيام والهجن وغيرهما والله تعالى أعلم.

مسير السلطان إلى الشام وصلح الأرمن

ومكثه في مصيف وهدم الشوبك

ثم تجهز السلطان سنة اثنتين وتسعين إلى الشام وقدم يبدو

وحج في هذه السنة وولى الأشرف فكان أول أعماله البحث عنه وولاه الوزارة فبلغ المبالغ في الظهور وعلو الكلمة واستخدم الخواص له وترفع عن الناس واستقل الرتب وقبض الأشرف على شمس الدين سنقر وحبسه وكان قد قبض مع طرنطاي النائب على عز الدين سيف لما بلغه أنه يدبر عليه مع طرنطاي ثم ثبتت عنده براءته فأطلقه والله تعالى أعلم.

فتح عكا وتخريبها

ثم سار الأشرف أول سنة تسعين وستمئة لحصار عكا متمماً عزم أبيه فيها فجهز العساكر واستنفر أهل الشام وخرج من القاهرة فأخذ السير إلى عكا ووافاه بها أمراء الشام والمظفر بن المنصور صاحب حماة فحاصرها ورمأها بالجنانيق فهدم كثير من أبراجها وتلاها المقاتلة لاقتحامها فشقوهم بالسهام فأمن اللبود وزحفوا في كنها وردموا الخندق بالتراب فحمل كل واحد منهم ما قدر عليه حتى طموه وانتهوا إلى الأبراج المتهمة فالتصقوها بالأرض واقتحموا البلد من ناحيتها واستلحموا من كان فيها وأكثروا القتل والنهب ولجأ الفل من العدو إلى أبراجها الكبار التي بقيت مائلة فحاصرها عشراً آخراً ثم اقتحمها عليهم فاستوعبهم السيف وكان الفتح منتصف جمادى سنة سبعين لمائة وثلاث سنين من ارتجاع الكفار لها من يد صلاح الدين سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

وأمر الأشرف بتخريبها فخربت وبلغ الخبر إلى الإفرنج بصور وصيدا وعتلية وحيفا فأجفلوا عنها وتركوها خاوية ومر السلطان بها وأمر بهدمها فهدمت جميعاً وانكف راجعاً إلى دمشق وتقبض في طريقه على لاشين نائب دمشق لأن بعض الشياطين أوحى إليه أن السلطان يروم الفتك به فركب للفرار واتبه علم الدين سنجار الشجاعى وسار إلى بيروت ففتحها ومر السلطان بالكرك فاستغفى نائبها ركن الدين يبسر الدوادار وهو المؤرخ فولى مكانه جمال الدين أنسز الأشرفي ورجع السلطان إلى القاهرة فبعث شلامش وخسروا ابني الظاهر من محبسهما بالإسكندرية إلى القسطنطينية ومات شلامش هنالك وأفرج عن شمس الدين سنقر الأشقر وحسام الدين لاشين المنصوري اللذين اعتقلهما كما قدمناه وقبض على علم الدين سنجار نائب دمشق ومضى إلى مصر معتقلاً وأمر السلطان ببناء الرفوف بالقلعة على أوسع ما يكون وأرفعه وبني القبة بإزائه لجلوس السلطان أيام الزينة والفرح فبنت

في اتباعهم ومعه سوس الجاشنكير وحسام الدين أستاذ دار وركن الدين سوس وطقجي في طائفة من الجاشنكيرية وادركوا القوم على الطرانة ولما عاينهم يبدو ويسري ويكثر المعتقلين في المخيم رجعوا إلى كتبغا وأصحابه وفرّ عن يبدو من كان معه من العربان والجند وقتل قليلاً ثم قتل ورجع برأسه على القناة وافترق أصحابه قراسنقر ولشين بالقاهرة.

ويقال: إن لاشين كان مختفياً في مأذنة جامع ابن طولون ووصل كتبغا وأصحابه إلى القلعة وبها علم الدين الشجاعى واستدعوا محمد بن قلاوون أخا الأشرف وبايعوه ولقبوه الناصر وقام بالنيابة كتبغا وبالأتابكية حسام الدين وبالوزارة علم الدين سنجار وبالأستاذ دارية ركن الدين سوس الجاشنكير واستبدوا بالدولة فلم يكن الناصر يملك معهم شيئاً من أمره وجدوا في طلب الأمراء الذين داخلوا يبدو في قتل الأشرف فاستوعبهم بالقتل والصلب والقطع وكان بهادر رأس نوبة وأقوش الموصلية فقتلا وأحرقت أشلاؤهما وشفع كتبغا في لاشين وقراسنقر التوليين كبر ذلك فظهروا من الاختفاء وعادا إلى محلما من الدولة ثم تقيض على الوزير محمد بن السلوس عند وصوله من الإسكندرية وصادته الوزير الشجاعى وامتنحه فمات تحت الامتحان وأفرج عن عز الدين أليك الصالحى وكان الأشرف اعتقله سنة اثنتين وتسعين والله سبحانه وتعالى أعلم

وحشة كتبغا ومقتل الشجاعى

ثم إن الشجاعى لطف محله من الناصر واختصه بالمداخلة وأشار عليه بالقبض على جماعة من الأمراء فاعتقلهم وفيهم سيف الدين كرجى وسيف الدين طونجي وطوى ذلك عن كتبغا وبلغه الخبر وهو في موكب بساحة القلعة وكان الأمراء يركبون في خدمته فاستوحش وارتاب بالشجاعى وبالناصر ثم جاء بعض مماليك الشجاعى إلى كتبغا في الموكب وجرد سيفه لقتله فقتله مماليكه وتأخر هو ومن كان معه من الأمراء عن دخول القلعة وتقبضوا على سوس الجاشنكير أستاذ دار ويعثوا به إلى الإسكندرية ونادوا في العسكر فاجتمعوا وحاصروا القلعة وبعث إليهم السلطان أميراً فشرطوا عليه أن يمنحهم من الشجاعى فامتنع وحاصروه سبعا واشتد القتال.

وفر من كان بقي في القلعة من العسكر إلى كتبغا وخرج الشجاعى لمداخمتهم فلم يغن شيئاً ورجع السلطان وقد خامره الرعب فطلب أن يجس نفسه فمضى به المماليك إلى السجن

النائب بالعساكر وعاج على الكرك على المهجن فوقف عليها وأصلح من أمورها ورجع ووصل إلى الشام فوفاه رسول صاحب سبب ملك الأرمن راغباً في الصلح على أن يعطي تهسنا ومرعش وتل حمدون فعقد لهم على ذلك وملك هذه القلاع وهي في قسم الدرب من ضياع حلب وكانت تهسنا للمسلمين ولما ملك هلاكو حلب باعها النائب من ملك الأرمن سبب ثم سار السلطان إلى حمص ووصل إليها في رجب من السنة ومعه المظفر صاحب حماة ونزل سلمية ولقيه مهنا بن عيسى أمير العرب فقبض عليه وعلى أخويه محمد وفضل وابنه موسى وبعثهم معتقلين مع لاشين إلى دمشق ومن هناك إلى مصر فحبسوا بها وولى على العرب مكانهم محمد بن أبي بكر بن علي ابن جديلة وأوعز وهو بمحمص إلى نائب الكرك بهدم قلعة الشوك فهدمت وانكف راجعاً إلى مصر وقدم العساكر مع يبدو وجاء في الساقاة على المهجن مع خواصه ولما دخل علي مصر أفرج عن لاشين المنصوري والله تعالى أعلم.

مقتل الأشرف وولاية أخيه محمد الناصر في

كفالة كتبغا

كان النائب يبدو مستولياً على الأشرف والأشرف مستريب به حتى كأنه مستبد وكان مستوحشاً من الأشرف واعتزم الأشرف سنة ثلاث وتسعين على الصيد في البحيرة فخرج إليها وبعث وزيره ابن السلوس للإسكندرية لتحصيل الأموال والأقمشة فوجد يبدو قد سبقوا إليها واستصفوا ما هنالك فكتب السلطان بذلك فغضب واستدعى يبدو فوجّه وتوعده ولم يزل هو يلاطفه حتى كسر من سورة غضبه ثم خلص إلى أصحابه وداخلهم في التوثب به وتولى كبر ذلك منهم لاشين المنصوري نائب دمشق وقراسنقر المنصوري نائب حلب وكان الأمراء كلهم حاقدين على الأشرف لتقدمه حاشيته عليهم ولما كتب إليه السلوس بقله المال صرف مواليه إلى القلعة تخفيفاً من النفقة وبقي في القليل.

وركب بعض أبامه يتصيد وهو مقيم على فرجة فاتبعوه وأدركوه في صيده فأوجس في نفسه الشر منهم فعاجلوه وعلوه بالسيف ضربه أولاً يبدو وثنى عليه لاشين وتركوه مجندلاً بمصرعه متصف محرم من السنة ورجعوا إلى المخيم وقد أبرموا أن يولوا يبدو فولوه ولقبوه القاهر وتقيض على يسري الشمسي وسيف الدين بكتمر السلحدار واحتملوهما وساروا إلى قلعة الملك وكان زين الدين سيف قد ركب للصيد فبلغه الخبر في صيده فسار

وأوعز غازان إلى التتر الذين من مارتكن فأخذ الطرق عليهم وبعث قطقرا من أمرائه للقبض على طرنتاي ومن معه من أكبر قبيلة فسار لذلك في ثمانين فارساً فقتله طرنتاي وأصحابه وعبروا الفرات إلى الشام وأتبعهم التتر من ديار بكر فكروا عليهم فهزمهم وأمر العادل سنجار الدودار أن يتلقاهم بالرحب واحتفل نائب دمشق لقدهم ثم ساروا إلى مصر فتلقاهم شمس الدين قراستقر وكانوا يجلسون مع الأمراء بباب القلعة فأنفوا لذلك وكان سبباً لخلع العادل كما نذكر ووصل على أثرهم بقية قومهم بعد أن مات منهم كثير ثم رسخوا في الدولة وخطبهم الترك بأنفسهم وأسلموا واستخدموا أولادهم وخطبهم بالصهر والولاء والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع العادل كتبغا وولاية لاشين المنصور

كان أهل الدولة تقموا على السلطان كتبغا العادل تقديم مماليكه عليهم ومساواة الأيرانية سمن التتر بهم فتفاوضوا على خلعهم وسار إلى الشام في شوال سنة خمس وتسعين فعزل عز الدين أيبك الحموي نائب دمشق واستصفاه وولى مكانه سيف الدين عزكرو من مواليه ثم سار إلى حمص متصيداً ولقيه المظفر صاحب حماة فأكرمه ورده إلى بلده وسار إلى مصر والأمراء مجمعون خلعوه والفتك بمماليكه وانتهى إلى العوجاء من أرض فلسطين وبلغه عن يسري الشمسي أنه كاتب التتر فنكر عليه وأغلظ له في الوعيد وأرتاب الأمراء من ذلك وتمشت رجالانهم واتفقوا وركب حسام الدين لاشين ويذر الدين يسري وشمس الدين قراستقر وسيف الدين ققجاق وبهادر الحلبي الحجاب ويكتاش الفخري وبيليك الخازندار وأقوش الموصلية ويكتمر السلحدار وسلاار وطغجي وكرجي ومعطاي ومن انضاف إليهم بعد أن بايعوا لاشين وقصدوا نجيم بكتوت الأزرق فقتلوه وجاءهم ميحاص فقتلوه أيضاً وركب السلطان كتبغا في ليفيه فحملوا عليه فانهزم إلى دمشق وبايع القوم لاشين ولقبوه المنصور وشرطوا عليه أن لا يفرد عنهم برأي فقبل وسار إلى مصر ودخل القلعة.

ولما وصل كتبغا إلى دمشق لقيه نائبه سيف الدين عزكرو وأدخله القلعة واحتاط على حواصل لاشين والأمراء الذين معه وأمن جماعة من مواليه ووصلت العساكر التي كانت مجردة بالرجبة ومقدمهم جاغان وكانوا قد داخلوا لاشين في شأنه ونزلوا ظاهر دمشق واتفقوا على بيعه لاشين وأعلنوا بدعوته وأخل أمر العادل وسال ولاية صرخد وألقى بيده فحبس بالقلعة لستين من ولايته

وقتلوه في طريقهم وبلغ الخبر إلى كتبغا ومن كان معه فذهبت عنهم الهواجس واستأمنوا للسلطان فأمهم واستحلوه فحلف لهم ودخلوا إلى القلعة وأفاض كتبغا العطاء في الناس وأخرج من كان في الطباقي من المماليك بمداخلة الشجاعي فأنزلهم إلى البلد بمقاصر الكسر ودار الوزارة والجوار وكانوا نحو من تسعة آلاف فأقاموا بها.

ولما كان الحرم فاتح سنة أربع وتسعين استعدوا ليلة وركبوا فيها جميعاً وأخرجوا من كان في السجون ونهبوا بيوت الأمراء وأعجلهم الصبح عن تمام قصدهم وباكروهم الحاجب بهادر ببعض العساكر فهزمهم وافترقوا وتقبض على كثير منهم فأنخذ منهم العقاب مأخذه قتلاً وضرباً وعزلاً وأخرج عن عز الدين أيبك الأفرم وأعيد إلى وظيفته أمير جندار ثم هلك قريباً واستحكم أمر السلطان ونائبه كتبغا وهو مستبد عليه واستمر الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله تعالى ولي التوفيق.

خلع الناصر وولاية كتبغا العادل

ولما وقعت الوحشة بين كتبغا والشجاعي وتلتها هذه الفتنة استوحش كتبغا في ظاهر أمره وانقطع عن دار النيابة متمارضاً وتردد السلطان لعيادته ثم حمل بطاقته على الاستبداد بالملك والجلوس على التخت وكان طموحاً لذلك من أول أمره فجمع الأمراء ودعاهم إلى بيعته فبايعوه وخلع الناصر وركب إلى دار السلطان فجلس على التخت وتلقب بالعادل وأخرج السلطان من قصور الملك وكان مع أمه ببعض الحजर وولى حسام الدين لاشين نائباً والصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز الحلبي أستاذ الدار وزيراً نقله إليها من النظر في الديوان لعلاء الدين ولي العهد ابن قلاوون وعز الدين أيبك الأفرم الصالح أمير جندار وبهادر الحلبي أمير حاجب وسيف الدين مناص أستاذ دار وقسم إمارة الدولة بين مماليكه.

وكتب إلى نواب الشام بأخذ البيعة فأجابوا بالسمع والطاعة وقبض على عز الدين أيبك الخازندار نائب طرابلس وولى مكانه فخر الدين أيبك الموصلية وكان الخازندار ينزل حصن الأكراد ونزل الموصلية بطرابلس وعادت دار إمارة ثم وفد سنة خمس وتسعين على العادل كتبغا طائفة من التتر يعرفون بالأيرانية ومقدمهم طرنتاي كان مداخلاً لبديوي كنجاب ابن عمه ملك التتر فلما سار الملك إلى غازان خافه طرنتاي وكانت أحياءه بين غازان والموصل.

ديوان الجيش في انقضاء التفاوت الجيشي وهو تحويل بالأقلام فقط وليس فيه نقص شيء ثم أقطعت البلاد بعد الروك واستثبتت المراتب الجسرية والرزق الأحباسية انتهى كلام النوري رحمه الله والله تعالى أعلم.

فتح حصون سيس

ولما ولي سيف الدين منكوتغر النيابة وكانت مختصاً بالسلطان استولى على الدولة وطلب من السلطان أن يعهد له بالملك فنكر ذلك الأمراء وثنوا عنه السلطان فنكر لهم منكوتغر وأكثر السعاية فيهم حتى قبض على بعضهم وتفرق الآخرون في النواحي وبعث السلطان جماعة منهم سنة سبع وتسعين لغزو سيس وبلاد الأرمن كان منهم بكتاش أمير سلاح وقراسنقر وبكتمر السلحدار وتدلار وغاز ومعهم الألفي نائب صفد في العساكر ونائب طرابلس ونائب حماة ثم أردفهم بعلم الدين سنجان الدوادار وجاءت رسل صاحب سيس وأغاروا عليها ثلاثة أيام واكتسحوها ثم مروا بيغراس ثم بمرج إنطاكية وأقاموا بها ثلاثاً ومروا بجسر الحديد ببلاد الروم ثم قصدوا تل حمدون فوجدوها خاوية وقد انتقل الأرمن الذين بها إلى قلعة النجيمة وفتحوا قلعة مرعش وحاصروا قلعة النجيمة أربعين يوماً وافتتحوها صلحاً وأخذوا أحد عشر حصناً منها المصيبة وحوم وغيرها.

واضطرب أهلها من الخوف فأعطوا طاعتهم ورجع العساكر إلى حلب وبلغ السلطان لاشين أن التتر قاصدون الشام فجهز العساكر إلى دمشق مع جمال الدين أوقش الأفرم وأمره أن يخرج العساكر من دمشق إلى حلب مع قفجق النائب فسار إلى حمص وأقام بها ثم بلغهم الخبر برجوع التتر ووصل أمر السلطان إلى سيف الدين الطباخي نائب حلب بالقبض على بكتمر السلحدار والألفي نائب صفد وجماعة من الأمراء مجلب بسعاية بكتمر وحاول الطباخي ذلك فتعذر عليه وبرز تدلار إلى بسار فتوفي بها وأقام الآخرون وشعروا بذلك فلحقوا بقفجق النائب على حمص فامنهم وكتب إلى السلطان يشفع فيهم فأبطل جوابه.

وعزله سيف الدين كرجي وعلاء الدين يدغري من إجارتهم فاسترباب وولى السلطان مكانه على دمشق جاغان فكتب إلى قفجق بطلبهم فنفروا وافترق عسكره وعبر الفرات إلى العراق ومعه أصحابه بعد أن قبضوا على نائب حمص واحتملوه ولحقهم الخبر بقتل السلطان لاشين وقد تورطوا في بلاد العدو فلم يمكنهم الرجوع ووقدوا على غازان بنواحي واسط وكان قفجق من جند

ويعت الأمراء بيعتهم للآشين ودخل سيف الدين جاغان إلى القلعة ثم وصل كتاب لاشين يبعثه إلى مصر وبعث إلى كتبغا بولاية صرخد كما سأل ووصل قفجق المنصوري نائباً عن دمشق وأفرج لاشين بمصر عن ركن الدين بيبرس الجاشنكير وغيره من المماليك وولى قراسنقر نائباً وسيف الدين سلار أستاذ دار وسيف الدين بكتمر السلحدار أمير جاندار وبهادر الحلبي صاحب وأقر فخر الدين الحلبي على وزارته ثم عزله وولى مكانه شمس الدين سنقر الأشقر وقبض على قراسنقر النائب وسيف الدين سلار أستاذ دار آخر سنة ست وتسعين وولى مكانه سيف الدين منكوتغر الحسامي مولاه واستعمل سيف الدين قفجق المنصوري نائباً.

ثم أمر بتجديد عمارة جامع ابن طولون ونذب لذلك علم الدين سنجان الدوادار وأخرج للنفقة فيه من خالص ماله عشرين ألف دينار ووقف عليه أملاكاً وضياعاً ثم بعث سنة سبع وسبعين بالناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك مع سيف الدين سلار أستاذ دار وقال لزين الدين بن مخلوف فقيه بيته: هو ابن أستاذي وأنا نائبه في الأمر ولو علمت أنه يقوم بالأمر لأقمته وقد خشيت عليه في الوقت فبعثته إلى الكرك فوصلها في ربيع.

وقال النوري: إنه بعث معه جمال الدين بن أوقش.

ثم قبض السلطان في هذه السنة على بدر الدين بيسري الشمسي بسعاية منكوتغر نائبه لأن لاشين أراد أن يعهد إليه بالأمر فرد بيسري عن ذلك وقبحه عليه فهدس منكوتغر بعض ممالك بيسري وأنها إلى السلطان أنه يريد الثورة فقبض عليه آخر ربيع الثاني من السنة وأودعه السجن فمات في محبسه.

وقبض في هذه السنة على بهادر الحلبي وعلى عز الدين أيلك الحموي ثم أمر في هذه السنة برد الأقطاعات في النواحي وبعث الأمراء والكتاب لذلك وتولى ذلك عبد الرحمن الطويل مستوفي الدولة.

وقال مؤرخ حماة المؤيد كانت مصر منقسمة على أربعة وعشرين قباطاً أربعة منها للسلطان والكلف والرواتب وعشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات وعشرة للأجناد الجلقة فصيروها عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد وأربعة عشر للسلطان فضعف الجيش.

وقال النوري: قرر للخاص في الروك الحيزة واطفيح ودمياط ومنفلوط والكوم الأحمر وحولت السنة الخراجية من سنة ست وتسعين وهذا في العدد إنما هو بعد انقضاء ثلاثة وثلاثين سنة واحدة هي تفاوت ما بين السنين الشمسية والقمرية وهو حجة

طعجي على الجلوس على التخت واتفق وصول الأمراء الذين كانوا يجلب منصرفين من غزاة سيس وفيهم سيف الدين كرجي وشمس الدين سرقشاه ومقدمهم بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح فأشار الأمراء على طعجي بالركوب للقاتل فأنف أولاً ثم ركب ولقيهم وسألوه عن السلطان فقال: قتل فقتلوه.

وكان كرجي عند القلعة فركب هارباً وأدرك عند القرافة وقتل ودخل بكتاش والأمراء القلعة لحول من غزاة سيس ثم اجتمعوا بمصر وكان الأمر دائراً بين سلا وبيرس وأبيك الجامدار وأقوش الأفرم وبكتمر أمير جندار وكرت الحاجب وهم ينتظرون وصول الناصر من الكرك وكتبوا إلى الأمراء بدمشق بما فعلوه فوافقوا عليه ثم قبضوا على نائبها جاجان الحسامي وتولى ذلك بهاء الدين قرا أرسلان السيفي فاعتقل ومات لأيام قلائل فبعث الأمراء بمصر مكانه سيف الدين قطلوبك المنصوري.

ثم وصل الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر في جمادى سنة ثمان وتسعين فبايعوا له وولى سلا نائباً وبيرس أستاذ دار وبكتمر الجوكندار أمير جندار وشمس الدين الأعسر وزيراً وعزل فخر الدين بن الخليلي بعد أن كان أقره وبعث على دمشق جمال الدين أقوش الأفرم عوضاً عن سيف الدين قطلوبك واستدعاه إلى مصر فولاه حاجباً وبعث على طرابلس سيف الدين كرت وعلى الحصون سيف الدين كراي وأقر يليان الطباخي على حلب وأفرج عن قراستقر المنصوري وبعثه على الضيعة ثم نقله إلى حماة عندما وصله وفاة صاحبها المظفر آخر السنة وخلع على الأمراء وبعث العطايا والأرزاق واستقر في ملكه وبيرس وسلا مستوليان عليه والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

الفتنه مع التتر

قد كنا قدما ما كان من فرار قنقق نائب دمشق إلى غازان وحدث الوحشة بين المملكتين فشرع غازان في تجهيز العساكر إلى الشام وبعث شلامش بن أمال بن بكر في خمسة وعشرين ألفاً في عساكر المغل ومعه أخوه ققطور وأمره بالمسير من جهة سيس فسار لذلك ثم حدثه نفسه بالملك فخاضع وطلب الملك لنفسه وكتب ابن قزمان أمير التركمان فسار إليه في عشرة آلاف فارس وسار في ستين ألف فارس وسار إلى سيواس فامتعت عليه وكتب إلى صاحب مصر مع غلص الرومي يستجده فبعث إلى نائب دمشق بإنجاده وبلغ الخبر غازان فبعث لقاتله مولاي من أمراء التتر في خمسة وثلاثين ألف فارس ولحقه إلى سيواس فانقض عليه

التتر وأبوه من جند غازان خصوصاً ولما وقعت الفتنة بين لاشين وغازان وكان فيروز أتابك غازان مستوحشاً من سلطانه فكتب لاشين في اللحاق به واطلع سلطانه على كتيبه فارسل إلى قطلو شاه نائب حران فقبض على فيروز وقتله وقتل غازان أخويه في بغداد والله تعالى أعلم.

مقتل لاشين وعود الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه

كان السلطان لاشين قد فرض أمر دولته إلى مولاه منكوتر فاستطال وطمع في الاستبداد ونكره الأمراء كما قدمناه فأغرى السلطان بهم وشدهم كل مشرد بالنكبة والإبعاد وكان سيف الدين كرجي من الجاشنكير ومقدماً عليهم كما كان قراستقر مع الأشرف وكان جماعة المماليك معصوبين عليه وسعى منكوتر في نيابته على القلاع التي افتتحت من الأرمن ببلاد سيس فاستعفى من ذلك وأسرهما في نفسه وأخذ في السعاية على منكوتر وظاهره على أمره ففجعي من كبار الجاشنكيرية وكان لطقجي صهر من كبار الجاشنكيرية اسمه طنطاي أغلظ له منكوتر يوماً في المخاطبة فامتعض وفرغ إلى كرجي وطقجي فاتفقوا على اغتيال السلطان.

وقصدوه ليلاً وهو يلعب بالشطرنج وعنده حسام الدين قاضي الخفية فأخبره كرجي بخلق الأيووب على المماليك فنكره ولم يزل يتصرف أمامه حتى ستر سيفه بمنديل طرحه عليه فلما قام السلطان لصلاة العتمة نحاها عنه وعلاه بالسيف وافتقد السلطان سيفه فتعاوروه بسيفوفهم حتى قتلوه وهموا بقتل القاضي ثم تركوه وخرج كرجي إلى طعجي بمكان انتظاره وقصدوا منكوتر وهو بدار النيابة فاستجار بطعجي فأجاره وحبسه بالجلب ثم راجعوا رأيهم واتفقوا على قتله فقتلوه وكان مقتل لاشين في ربيع سنة ثمان وتسعين وكان من موالى علي بن المعز أيبك فلما غرب للقسطنطينية تركه بالقاهرة واشتره المنصور قلاوون من القاضي بحكم البيع على الغائب بألف درهم وكان يعرف بلاشين الصغير لأنه كان هناك لاشين آخر أكبر منه وكان نائباً بمحصر.

ولما قتل اجتمع الأمراء وفيهم ركن الدين بيرس الجاشنكير وسيف الدين سلا أستاذ دار وحسام الدين لاشين الرومي وقد وصل على البريد من بلاد سيس جمال الدين أقوش الأفرم وقد عاد من دمشق بعد أن أخرج النائب والعساكر إلى حمص وعز الدين أيبك الخزندار وبدر الدين السلحدار فقبضوا القلعة وبعثوا إلى الناصر محمد بن قلاوون بالكرك يستدعونه للملك فاعتزم

فبعث إليه إسماعيل يستنزل بالآمان فامتنع فبعث إليه المشيخة من أهل دمشق فزاد امتناعاً ودس إليه الناصر بالحفظ وأن المدد على غزة ووصل قفجق بكتمر فنزلوا الميدان وبعثوا إلى سنجار صاحب القلعة في الطاعة فأساء جوابهم وقال لهم: إن السلطان وصل وهزم عساكر التتر التي اتبعته.

ودخل قفجق إلى دمشق فقرأ عهد غازان له بولاية دمشق والشام جميعاً وجعل إليه ولاية القضاء وخطب لغازان في الجامع وانطلقت أيدي العساكر في البلد بأنواع جميع العيث وكذا في الصالحية والقرى التي بها المزة وداريا.

وركب ابن تيمية إلى شيخ الشيوخ نظام الدين محمود الشيباني وكان نزل بالعادية فأركبه معه إلى الصالحية وطردها منها أهل العيث وركب المشيخة إلى غازان شاكين فمنعوا من لقائه خذراً من سطوته بالتتر فيقع الخلاف ويقع وبالك ذلك على أهل البلد فرجعوا إلى الوزير سعد الدين ورشد الدين فأطلقوا لهم الأسرى والسبي وشاع في الناس أن غازان أذن للمغل في البلد وما فيه ففرغ الناس إلى شيخ الشيوخ وفرضوا على أنفسهم أربعمئة ألف درهم مصادعة له على ذلك وأكروهوا على غرمها بالضرب والحبس حتى كملت ونزل التتر بالمدرسة العادية فأحرقوها أرجواش نائب القلعة ونصب المنجنيق على القلعة بسطح جامع بني أمية فأحرقوه فأعيد عمله وكان المغل يحرسونه فأنتهكوا حرمة المسجد بكل محرم من غير استثناء وهجم أهل القلعة فقتلوا التجار الذي كان يصنع المنجنيق وهدم نائب القلعة أرجواش ما كان حولها من المساكن والمدارس والأبنية ودار السعادة وطلبوا مالا يقدرون عليه وامتحن القضاء والخطاء وعطلت الجماعات والجمعة وفحش القتل والسبي وهدمت دار الحديث وكثير من المدارس.

ثم قفل إلى بلده بعد أن ولي على دمشق والشام قفجق وعلى حماة وحمص بكتمر السلحدار وعلى صفد وطرابلس والساحل فارس الدين البكي وخلف نائبه قطلوشاه في ستين ألفاً حامية للشام واستصحب وزيره بدر الدين بن فضل الله وشرف الدين ابن الأمير وعلاء الدين بن القلاسي وحاصر قطلوشاه القلعة فامتنعت عليه فاعترزم على الرحيل وجمع له قفجق الأوغاد في جمادى من السنة وبقي قفجق منفرداً بأمره فأمن الناس بعض الشيء وأمر بحالكيه ورجعت عساكر التتر من اتباع الترك بعد أن وصلوا إلى القدس وغزة والرملة واستباحوا ونهبوا وقائداهم يومئذ مولاي من أمراء التتر فخرج إليه ابن تيمية واستنوبه بعض الأسرى فأطلقهم.

وكان الملك الناصر لما وصل إلى القلعة ووصل معه كتيفاً

العسكر ورجع التتر إلى مولاي ولحق التركمان بالجلال ولحق هو بسيس في فل من العسكر وسار إلى دمشق ثم إلى مصر وسأل من السلطان لاشين أن يمدّه بعسكر ينقل به عياله إلى الشام فأمر السلطان نائب حلب أن يتجده على ذلك فبعث معه عسكراً عليهم بكتمر الحلبي وساروا إلى سيواس فاعترضهم التتر وهزموهم وقتل الحلبي ونجا شلامش إلى بعض القلاع فاستنزل غازان وقتله واستقر أخوه قطقطو وغلص بمصر وأقطع لهما وانتظما في عسكر مصر والله تعالى أعلم.

واقعة التتر على الناصر واستيلاء غازان على الشام ثم ارتجاعه منه

قد كنا قدما ما حدث من الوحشة بين التتر وبين الترك بمصر وقدما من أسبابها ما قدمناه فلما بويع الناصر بلغه أن غازان زاحف إلى الشام فتجهز وقدم العساكر مع قطبلك الكبير وسيف الدين غزار، وسار على أثرهم آخر سنة ثمان وسبعين وانتهى إلى غزة فتمسي إليه أن بعض المماليك مجمعون للتوثب عليه وأن الأردانية الذين وفدوا من التتر على كتيفاً داخلوهم في ذلك وبينما هو يستكشف الخبر إذ بمملوك من أولئك قد شهر سيفه واخترق صفوف العسكر وهم مصطفون بظاهر غزة فقتل لحينه وتبع أمرهم من هذه البادرة حتى ظهرت حليتها فسبق الأردانية ومقدمهم طرناطي وقتل بعض المماليك وحبس الباقيين بالكرك.

ورحل السلطان إلى عسقلان ثم إلى دمشق ثم سار ولقي غازان ما بين سلمية وحمص بمجمع المروج ومعه الكرج والأرمن في مقدمته أمراء الترك الذين هربوا من الشام وهم: قفجق المنصوري وبكتمر السلحدار وفارس الدين البكي وسيف الدين غزار فكانت الجولة منتصف ربيع فانهزمت ميمنة التتر وثبت غازان ثم حمل على القلب فانهزم الناصر واستشهد كثير من الأمراء وفقد حسام الدين قاضي الحنفية وعماد الدين إسماعيل ابن الأمير وسار غازان إلى حمص فاستولى على الذخائر السلطانية.

وطار الخبر إلى دمشق فاضطربت العامة وثار الغوغاء وخرج المشيخة إلى غازان يقدمهم بدر الدين بن جماعة وتقي الدين بن تيمية وجلال الدين القزويني وبقي البلد فوضى وخاطب المشيخة غازان في الأمان فقال: قد خالفكم إلى بلدكم كتاب الأمان ووصل جماعة من أمرائه فيهم إسماعيل ابن الأمير والشريف الرضي وقرأ كتاب الأمان ويسمونهم بلغاتهم الفرمان وترجل الأمراء بالبساتين خارج البلد وامتنع علم الدين سلحدار بالقلعة

وفاة الخليفة الحاكم وولاية ابنه المستكفي والغزاة إلى العرب بالصعيد

ثم توفي الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد وهو الذي ولاه الظاهر وبايع له سنة ستين فتوفي سنة إحدى وسبعمئة لإحدى وأربعين سنة من خلافته وقد عهد لابنه أبي الربيع سليمان فبايع له الناصر ولقبه المستكفي وارتفعت شكوى الرعايا في الصعيد من الأعراب وكثر عيظهم فجهز السلطان العساكر مع شمس الدين قرا سنقر فاكسحهم وراجعوا الطاعة وقرر عليهم مائلاً حملوه ألف ألف وخمسمائة ألف درهم وألف فرس واحداً والفني جمل اثنين وعشرة آلاف رأس من الغنم وأظهروا الاستكانة ثم أظهروا الففاق فسار إليهم كافل الملكة سلال وبيبرس في العساكر فاستلحموهم وأبادوهم وأصابوا أموالهم ونعمهم ورجعوا واستأذن بيبرس في قضاء فرضه فخرج حاجاً وكان أبو نسي أمير مكة قد توفي وقام بأمره في مكة ابنه رمشة وخمصة واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث فقبلا السجن وجاءا إلى بيبرس مستعدين على أخويهما فقبض عليهما بيبرس وجاء بهما إلى القاهرة.

وفي سنة ستين وسبعمئة بعدها خرجت الشواني مشحونة بالقتال إلى جزيرة أرواد في بحر طرطوس وبها جماعة من الإفرنج قد حصنوها وسكنوها فملكوها وأسروا أهلها وخربوها وأذهبوا آثارها والله تعالى ولي التوفيق.

تقرير العهد لأهل الذمة

حضر في سنة سبعمئة وزير من المغرب في غرض الرسالة فرأى حال أهل الذمة وترفعهم وتصرفهم في أهل الدولة فنكره وقبح ذلك واتصل بالسلطان نكيره فأمر بجمع الفقهاء للنظر في الحدود التي تقف عندها أهل الذمة بمقتضى عهود المسلمين لهم عند الفتح وأجمع الملاء فيهم على ما نذكر وهو أن يميز بين أهل الذمة بشعار يخصهم فالنصارى بالعمائم السود واليهود بالصفر والنساء منهن بعلامات تناسبن وأن لا يركبوا فرساً ولا يحملوا سلاحاً وإذا ركبوا الحمير يركبونها عرضاً ويتنحون وسط الطريق ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت المسلمين ولا يعلوا بناءهم على بناء المسلمين ولا يظهروا شعائرهم ولا يضربوا بالنواقيس ولا ينصروا مسلماً ولا يهودوه ولا يشترؤا من الرقيق مسلماً ولا من سباه مسلم ولا من جرت عليه سهام المسلمين ومن دخل منهم

العاذل وكان حضر معه المعركة من عل نيابته بصرخد فلما وقعت الهزيمة سار مع السلطان إلى مصر وبقي في خدمة النائب سلال وجرد السلطان العساكر وبث الثقات وسار إلى الصالحية وبلغه رحيل غازان من الشام ووصل إليه يليان الطباخي نائب حلب على طريق طرابلس وجمال الدين الأقرم نائب دمشق وسيف الدين كراي نائب طرابلس واتفق السلطان في عساكرهم وبلغه أن قتلوشاه نائب غازان رحل من الشام على أثر غازان فتقدم بيبرس وسار في العساكر ووقعت المراسلة بينه وبين قفجق ويكتمر والبكي فاذعنوا للطاعة ووصلوا إلى بيبرس وسلال فبعثوا بهم إلى السلطان وهو في الصالحية في شعبان من السنة فركب للقائهم وبالغ في تكرمهم والإقطاع لهم وولى قفجق على الشوك ورحل عائداً إلى مصر ودخل بيبرس وسلال إلى مصر وقرروا في ولايتها جمال الدين أقوش الأقرم بدمشق وفي نيابة حلب قرا سنقر المصوري الجوكندار لاستعفاء يليان الطباخي عنها وفي طرابلس سيف الدين قطلبك وفي حماة كتيبا العادل وفي قضاء دمشق بدر الدين بن جماعة لوفاء إمام الدين بن سعد الدين القزويني وعاد بيبرس وسلال إلى مصر منتصف شوال وعاقب الأقرم كل من استخدم للتتر من أهل دمشق وأغزى عساكره جبل كسروان والدرزية لما نالوا من العسكر عند الهزيمة وألزم أهل دمشق بالرماية وحمل السلاح وفرضت على أهل دمشق ومصر الأموال عن بعت الخيالة والمساكن لأربعة أشهر وضمان للقرى وكثر الأرجاف سنة سبعمئة بحركة التتر فتوجه السلطان إلى الشام بعد أن فرض على الرعية أموالاً واستخرجها لتقوية عساكره وأقام بظاهر غزة أياماً يؤلف فيها الأمصار ثم بعث ألفي فارس إلى دمشق وعاد إلى مصر منسلخ ربيع الآخر وجاء غازان بعساكره وأجفلت الرعايا أمامه حتى ضاقت بهم السبل والجهات فنزل ما بين حلب ومرس ونازلها واكتسح البلاد إلى أنطاكية وجبل السمير وأصابهم هجوم البرد وكثرة الأمطار والرحل وانقطعت الميرة عنهم وعدمت الأقوات وصوحت المراعي من كثرة الثلج وارتحلوا إلى بلادهم وكان السلطان قد جهز العساكر كما قلنا إلى الشام صحبة بكتمر السلحدار نائب صفد وولى مكانه سيف الدين فنحاص المصوري ثم وقعت المراسلة بين السلطان الناصر وبين غازان وجاءت كتبه وبعث الناصر كتبه ورسله وولى السلطان على حمص فارس الدين البكي والله سبحانه وتعالى أعلم.

عهده.

وعلى أحكام هذا الكتاب جرت فتاوى الفقهاء في أهل
الذمة نصاً وقياساً.

وأما كنائسهم فقال أبو هريرة: أمر عمر بهدم كل كنيسة
استحدثت بعد الهجرة ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام وسير عروة
بن محمد فهدم الكنائس بصنعاء وصالح القبط على كنائسهم
وهدم بعضها ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل الهجرة وفي
إياحة رمها وإصلاحها لهم خلاف معروف بين الفقهاء والله تعالى
ولي التوفيق.

إيقاع الناصر بالتر على شقحب

ثم تواترت الأخبار سنة اثنتين وسبعمائة بحركة التتر وأن
قطلو شاه وصل إلى جهة الفرات وأنه قدم كتابه إلى نائب حلب
بأن بلادهم حلة وأنهم يرتادون المراعي بنواحي الفرات فخادع
بذلك عن قصده ويوهم الرعية أن يجفلوا من البساط ثم وصلت
الأخبار بإجازتهم الفرات فاجفل الناس أمامهم كسل ناحية ونزل
التتر مرعش وبعث العساكر من مصر مدداً لأهل الشام فوصلوا
إلى دمشق وبلغهم هنالك أن السلطان قازان وصل في جيوش التتر
إلى مدينة الرحبة ونازلها فقدم نائبها قرى وعلوفة واعتذر له بأنه في
طاعته إلى أن يرد الشام فإن ظفر به فالرحبة أهون شيء وأعطاه
ولده رهينة على ذلك فأمسك عنه ولم يلبث أن عبر الفرات راجعاً
إلى بلاده.

وكتب إلى أهل الشام كتاباً مطولاً يندهم فيه أن يستمدوا
عسكر السلطان أو يستجيشوه ويخادعهم بلىن القول وملاطفته
وتقدم قطلو شاه وجوبان إلى الشام بعساكر التتر يقال: في تسعين
الفاً أو يزيدون.

وبلغ الخبر إلى السلطان فقدم العساكر من مصر وتقدم
بيبرس كافل المملكة إلى الشام والسلطان وسلار على إثره ومعهم
الخليفة أبو الربيع وساروا في التعية ودخل بيبرس دمشق وكان
النائب مجلب قرا سقر المنصوري وقد اجتمع إليه كتبنا العادل
نائب حماة وأسد الدين كرجي نائب طرابلس بمن معهم من
العساكر فأغار التتر على القريتين وبها أحياء من التركمان كانوا
اجفلوا أمامهم من الفرات فاستاقوا أحياءهم بما فيها واتبعهم
العساكر من حلب فأوقعوا بهم واستخلصوا أحياء التركمان من
أيديهم وزحف قطلو شاه وجوبان بمجموعهما إلى دمشق يظنان أن
السلطان لم يخرج من مصر والعساكر والمسلمون مقيمون مخرج

الحمام يجعل في عنقه جرساً يتميز به ولا ينقشوا فص الخاتم
بالعربي ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يجندوا في أعمالهم الشاقة
مسلماً ولا يرفعوا النيران ومن زنا منهم بمسلمة قتل.

وقال البترك بحضرة العدول حرمت على أهل ملتي
وأصحابي مخالفة ذلك والعدول عنه.

وقال رئيس اليهود: أوقعت الكلمة على أهل ملتي وطائفتي
وكتب بذلك إلى الأعمال.

ولنذكر في هذا الموضع نسخة كتاب عمر بالعهد لأهل
الذمة بعد كتاب نصارى الشام ومصر إليه ونصه: هذا كتاب لعبد
الله عمر أمير المؤمنين من نصارى أهل الشام ومصر لما قدمتم
علينا سالنكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا
على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة
ولا عليّة ولا صومعة راهب ولا نجد ما خرب منها ولا ما كان
في خطط وأن نوسع أبوابنا للمارة وليني السيل وأن ننزل من مر
بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا ننزوي في كنائسنا ولا في
منازلنا جاسوساً ولا نكتم عيماً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن
ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحد من ذي قرابتنا
الدخول في دين الإسلام إن أرادوه وأن نوفر المسلمين ونقوم لهم
في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ولا تشبه بهم في شيء من ملابسهم
في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا تسمى
باسمائهم ولا نتكنى بكنائهم ولا نركب السروج ولا نتقلد
بالسيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش
على خواتمنا بالعربية وأن نجز مقدم رؤوسنا ونكرم نزيلنا حيث كنا
وأن نشد الزناير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا نفتح كنفنا
في طريق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب بنواقيسنا في شيء من
حضرة المسلمين ولا نخرج شعائيتنا ولا طواغيتنا ولا نرفع أصواتنا
مع موتانا ولا نوعد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا
نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين
ولا نطلع في منازلهم ولا نعلي منازلنا.

فلما أتى عمر بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحداً من
المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان
فإن نحن خلفنا في شيء مما شرطنا لكم علينا وضمناه على أنفسنا
وأهل ملتنا فلا ذمة لنا عليكم وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل
المعاندّة والشقاق.

فكتب عمر رضي الله عنه: أمض ما سالوه وألحق فيه حرفاً
اشترطه عليهم مع ما اشترطوه: من ضرب مسلماً عمداً فقد خلع

من ولد قويل بن ناحور بن آرز وناحور آخر إبراهيم عليه السلام وكانوا أخذوا بدين النصرانية قبل الملة وكانت مواطنهم أرمينية وهي منسوبة إليهم وقاعدتها خلط وهي كرسى ملكهم ويسمى ملكهم النكفور ثم ملك المسلمون بلادهم وضربوا الجزية على من بقي منهم واختلف عليهم الولاة ونزلت بهم الفتن وخربت خلط فانتقل ملكهم إلى سيس عند الدروب المجاورة لخلط وانزوا إليها وكانوا يؤدون الضريبة للمسلمين وكان ملكهم لعهد نور الدين العادل قليج بن البيون وهو صاحب ملك الدروب واستخدم للعادل وأقطع له ملك المصيصة وأردن وطرشوس من يد الروم وأبقاه صلاح الدين بعد العادل نور الدين على ما كان عليه من الخدمة.

وغدر في بعض السنين بالتركمات فغزاهم صلاح الدين وأخنى عليهم حتى أذعنوا ورجع إلى حاله من أداء الجزية والطاعة وحسن الجوار بشغور حلب ثم ملكهم لعهد الظاهر هيثوم بن قسطنطين ابن يانس ويظهر أنه من أعقاب قليج أو من أهل بيته ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته وأقره على سلطانه وأجلب مع التتر في غزواتهم على الشام وغزا سنة اثنتين وستين صاحب بلاد الروم من التتر واستنفر معه بني كلاب من أعراب حلب وعاثوا في نواحي عتاب ثم تهرب هيثوم بن قسطنطين ونصب ابنه للملك.

وبعث الظاهر العساكر سنة أربع وستين ومعه قلاوون المنصور صاحب حماة إلى بلادهم فلقبهم ليون في جموعه قبل الدربند فانهمز وأسر وخرب العساكر مدينة سيس وبذل هيثوم الأموال والقلاع في فداء ابنه ليون فشرط عليه الظاهر أن يستوهم سقر الأشقر وأصحابه من أبغا بن هلاكو وكان هلاكو أخذهم من سجن حلب فاستوهمهم وبعث بهم وأعطى خمساً من القلاع منها رغبان ومرزبان لما توفي هيثوم سنة تسع وستين وملك بعده ابنه ليون وبقي الملك في عقبه وكان بينهم وبين الترك نفرة واستقامت لقرب جوارهم من حلب والترك يرددون العساكر إلى بلادهم حتى أجابوا بالصلح على الطاعة والجزية وشحنة التتر مقيم عندهم بالعساكر من قبل شحنة بلاد الروم.

ولما توفي ليون ملك بعده ابنه هيثوم ووثب عليه أخوه سنباط فخلعه وجسه بعد أن سمل عينه الواحدة وقتل أخاهما الأصغر يروس ونازلت عساكر الترك لعده قلعة حوض من قبل العادل كتبها فاستضعف الأرمن سنباط وهموا به فلحق بالقسطنطينية وقدموا عليهم أخاه رندبن فصالح المسلمين وأعطاهم مرعش وجميع القلاع على جيحان وجعلوها تحملاً

الصفير وهو المسمى بشقحب مع ركن الدين بيبرس ونائب دمشق أقوش الأفرم ينتظرون وصول السلطان فارتابوا لزحف التتر وناخروا عن مراكزهم قليلاً وارتاعت الرعايا من تأخرهم فأجفلوا إلى نواحي مصر وبينما هم كذلك إذ وصل السلطان في عساكره وجموعه غرة رمضان من السنة فرتب مصافه وخرج لقصدهم فالتقى الجمعان بمرج الصفير وحمل التتر على ميمنة السلطان فثبت الله أقدامهم وصابروهم إلى أن غشيهم الليل واستشهد جماعة في الجولة.

ثم انهزم التتر ولجأوا إلى الجبل يعتصمون به واتبهم السلطان فأحاط بالجبل إلى أن أظلم الصباح وشعر المسلمون باستماتتهم فأفروا لهم من بعض الجوانب وتسلب معظمهم مع قتلوشاه وجويان وحملت العساكر الشامية على من بقي منهم فاستلحمهم وأبادوهم واتبعت الخيول آثار المنهزمين وقد اعترضتهم الأوحال بما كان السلطان قدم إلى أهل الأنهار بين أيديهم فبثقوها وحلت خيولهم فيها فاستوعبهم قتلاً وأسراً وكتب السلطان إلى قازان بما يجدد عليه الحسرة ويملاً قلبه رعباً ويعث البشار إلى مصر.

ثم دخل إلى دمشق وأقام بها عيد الفطر وخرج لثأله منها إلى مصر فدخلها آخر شوال في موكب حفل ومشهد عظيم وقر الإسلام بنصره وتيمن بنقيب نوابه وأنشده الشعراء في ذلك.

وفي هذه السنة توفي كتبغا العادل نائب حماة وهو الذي كان ولي الملك بمصر كما تقدم ذكره بدمشق.

وتوفي أيضاً يليان الجوكندار نائب حمص.

وتوفي أيضاً القاضي تقي الدين بن دقيق العيد بمصر لولايته ست سنين بها وولي مكانه بدر الدين بن جماعة وهلك قازان ملك التتر يقال أصابته حمى حادة للهزيمة التي بلغته فهلك وولى أخوه خربندا.

وفيها أفرج السلطان عن رمية وخيصة ولدى الشريف أبي غمي وولاهما بدلا من أخويهما عطيفة وأبي الغيث والله تعالى أعلم.

أخبار الأرمن وغزو بلادهم وادعائهم

الصلح ثم مقتل ملكهم صاحب سيس على

يد التتر

قد كان تقدم لنا ذكر هؤلاء الأرمن وأنهم وإخوتهم الكرج

المغرب وسائر طرفه وجملة من الذهب العين في ركب عظيم من المغاربة ذاهبين لقضاء فرضهم فقابلهم السلطان بأبلغ وجوه التكرمة وبعث معهم أميراً لإكرامهم وقراهم في طريقهم حتى قضوا فرضهم وعاد الرسول أيدغدي المذكور من حجة سنة خمس فبعث السلطان معه مكافأة هديتهم بما يليق بها من النفاسة وعين لذلك أميرين من بابيه أيدغدي البابلي وأيدغدي الخوارزمي كل منهما لقبه علاء الدين فانتھوا إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان كما هو في ربيع الآخر سنة ست قابلهم بما يجب لهم ولرسلهم وأوسع لهم في الكرامة والحباء وبعثهم إلى مالكة بفاس ومراكش ليتطروفا بها ويعاينا مسرتها.

وهلك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان وانطلق الرسولان المذكوران من فاس راجعين من رسالتهم في رجب سنة سبع في ركب عظيم من أهل المغرب اجتمعوا عليهم لقصد الحج ولقوا السلطان أبا ثابت البزولي من بعد يوسف بن يعقوب في طريقهم فبالغ في التكرمة والإحسان إليهم وبعث إلى مراسلهم الملك الناصر بهدية أخرى من الخيل والبغال والإبل ثم مروا بتلمسان وبها أبو زيان وأبو حو ابنا عثمان بن يغمراس فلم يصرفا إليهما وجهاً من القبول وطلباً منهما خفير يخفرهما إلى تخوم بلادهما لما كانت نواحي تلمسان قد اضطربت بعد مهلك يوسف بن يعقوب وما كان من شأنه فبعث معهما بعض العرب فلم يغن عنهم واعترضهم في طريقهم أشرار حصن من زغبة بنواحي المرية فبالغوا في الدفاع فلم يغن عنهم.

واستولى الأشرار على الركب بما فيه ونهبوا جميع الحجاج ورسل الملك الناصر معهم وخلصوا برؤوسهم إلى الشيخ بكر بن زغلي بني يزيد بن زغبة بوطن حمزة بنواحي بجاية فأوصلهم إلى السلطان ببجاية أبي البقاء خالد من ولد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص ملوك أفريقية فكساهم وحملهم إلى حضرة تونس وبها السلطان أبو عصبدة محمد بن يحيى الوائق من بني عمه فبالغ في تكريمهم وسافر معهم إبراهيم بن عيسى من بني وسار أحد أمراء بني مرين كان أميراً على الغزاة بالأندلس وخرج لقضاء فرضه فمر بتونس واستنهض سلطانها على الإفرنج بجزيرة جربة فسار إليها بقومه ومعه عبد الحق بن عمر بن رحو من أعيان بني مرين وكان الشيخ أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني يحاصرها في عسكر تونس فأقام معهم مدة ثم استوحش أبو يحيى اللحياني من سلطانه بتونس فلحق بطرابلس وساروا جميعاً إلى مصر وتقدم السلطان بإكرامهم حتى قضوا فرضهم وعادوا إلى المغرب واستمد أبو يحيى اللحياني السلطان الناصر فأمد بالأموال والماليك وكان

ورجعت العساكر عنهم ثم أفرج رندين عن أخيه هيثوم الأعور سنة تسع وستين فأقام معه قليلاً ثم وثب برنديين ففر إلى القسطنطينية وأقام هيثوم بيسيس في ملك الأرمن وقدم ابن أخيه تروس معسول أتاكياً واستقامت دولته فيهم.

وسار مع قازان في وقته مع الملك الناصر فعاث الأرمن في البلاد واستردوا بعض قلاعهم وخربوا تل حمدون فلما هزم الناصر التتر سنة اثنتين وسبعمئة بعث العساكر إلى بلادهم فاسترجعوا القلاع وملكوا حمص واكتسحوا بسائط سيس وما إليها ومنع الضريبة المقررة عليهم فأنفذ نائب حلب قراستقر المنصوري سنة سبع وستمئة العساكر إليهم مع أربعة من الأمراء فعاثوا في بلادهم واعترضهم شحنة التتر بيسيس فهزموهم وقتل أميرهم وأسر الباقون وجهز العساكر من مصر مع يكتاش الفخري أمير سلاح من بقية البحرية وانتھوا إلى غزة وخشي هيثوم مغبة هذه الحادثة فبعث إلى نائب حلب بالجزية التي عليهم لسنة خمس وقبلها وتوسل بشفاعته إلى السلطان فشفعه وأمنه وكان شحنة التتر ببلاد الروم لهذا العهد أرفلي وكان قد أسلم لما أسلم أبغا وبني مدرسة بأذنة وشيد فيها مثذنة ثم حدث بينه وبين هيثوم صاحب سيس وحشة فسعى فيه هيثوم عند خربندا ملك التتر بأنه مداخل لأهل الشام وقد اطأهم على ملك سيس وما إليهما واستشهد له بالمدرسة والمثذنة وكتب بذلك إلى أرفلي بعض قرابته فأسرها في نفسه واغتاله في صنيع دعاه إليه وقبض على وافد من مماليك الترك كان عند هيثوم من قبل نائب حلب يطلب الجزية المقررة عليه وهو أيدغدي الشهرزوري ولم يزل في سجن التتر إلى أن فر من محبسه بتوريز سنة عشر وسبعمئة ونصب لملك سيس أوشني بن ليون وسار أرفلي إلى خربندا فسابقه ألتاق أخو هيثوم بنسائه وولده مستعدين عليه فتفجع لهم خربندا وسط أرفلي وقتله وأقر أوشين أخاه في ملكه لسيس فبادر إلى مراسلة الناصر بمصر وتقرير الجزية عليه كما كانت وما زال يبعثها مع الأحيان، والله تعالى أعلم.

مراسلة ملك المغرب ومهاداته

كان ملك المغرب الأقصى من بني مرين المتولين أمره من بعد الموحدين وهو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق قد بعث إلى السلطان الناصر سنة أربع وسبعمئة رسوله علاء الدين أيدغدي الشهرزوري من الشهرزورية المقربين هنالك أيام الظاهر بيبرس ومعه هدية حافلة من الخيل والبغال والإبل وكثير من ماعون

مكانه يريد النهوض إليهم ثم رجع ووصل كتاب نائب دمشق أقوش الأفرم فسكن الحال وبعث الجاشنكير بيبرس إلى السلطان برسالة مع الأمير علاء الدين مغلطاي أيدعلي وقطلوبغا تتضمن الأرجاف فثارت لها حفاظته وعاقب الرسولين وكتب أمراء الشام يتظلم من بيبرس وأصحابه بمصر ويقول: سلمت لهم في الملك ورضيت بالضنك رجاء الراحة فلم يرجعوا عني وبعثوا إلي بالوعيد وأنهم فعلوا ما فعلوا بأولاد العز أيبك وبيبرس الظاهر. ومثل ذلك من القول ويستجدهم وبعث إليهم بوسائل التربية والعق في دفاع هؤلاء عنه وإلا لحقت ببلاد التتر.

وبعث بهذه الرسالة مع بعض الجند كان مستخدماً بالكرك من عهد أقوش الأشرفي وأقام هنالك وكان مرلماً بالصيد فانتصل بالسلطان في مصاديه وبث إليه ذات يوم شكواه فقال: أنا أكون رسولك إلى أمراء الشام فبعث إليهم بهذه الرسالة فامتعضوا وأجابوه بالطاعة كما يجب منهم وسار السلطان إلى البلقاء وأرسل جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق إلى مصر فأخبر الجاشنكير بيبرس بالحال واستمده بالعساكر للدفاع فبعث إليه بأربعة آلاف من العساكر مع كبار الأمراء وأزاح عنهم وأنفق في سائر العساكر بمصر وكثر الأرجاف وشغبت العامة وتعين عماليك السلطان للخروج إلى النواحي استرابة بمكانهم ووصل الخبر برجع السلطان من البلقاء إلى الكرك لرأى رآه واستراب لرجعته سائر أصحابه وحاشيته وخاف أن يهجمهم عساكر مصر بما كان يشاع عندهم من اعتزام بيبرس على ذلك.

ثم دس السلطان إلى عماليكه وشيع إليهم فأجابوه وأعاد الكتاب إلى نواب الشام مثل شمس الدين أفسنقر نائب حلب وسيف الدين نائب حمص فأجابوه بالسمع والطاعة وبعث نائب حلب ولده إليه واستهضوه للوصول فخرج من الكرك في شعبان سنة تسع ولحق به طائفة من أمراء دمشق وبعث النائب أقوش أميرين لحفظ الطرقات فلحقا بالسلطان وكتب بيبرس الجاشنكير إلى نواب الشام بالوقوف مع جمال الدين أقوش نائب دمشق والاجتماع على السلطان الناصر عن دمشق فأعرضوا ولحقوا بالسلطان وسار أقوش إلى البقاع والشقيف واستأمن إلى السلطان فبعث إليه بالأمان مع أميرين من أكابر أمرائه.

وسار إلى دمشق فدخلها وهي خالصة يومئذ لسيف الدين بكتمر أمير جامدار جاءه من صفد وهاجر إلى خدمته فتلقاه وجازاه أحسن الجزاء ثم وصل أقوش الأفرم فتلقاه السلطان بالمبرة والتكرمة وأقره على نيابه دمشق واضطربت أمور الجاشنكير بمصر وخرجت طائفة من عماليك السلطان هارين إلى الشام فسرحت في

سبباً لاستيلائه على الملك بتونس كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

وحشة الناصر من كافليه بيبرس وسلار ولخاقه بالكرك وخلعه والبيعة لبيبرس

ثم عرضت وحشة بين السلطان الناصر وبين كافليه بيبرس وسلار سنة سبع فامتنع من العلامة على المراسم وترددت بينه وبينهم السعاة بالعتاب وركب بعض الأمراء في ساحة القلعة من جوف الليل ودافعتهم الحامية في جوف الليل وافترقوا وامتعض السلطان لذلك وازداد وحشة ثم سعى بكتمر الجوكندار في إصلاح الحال وحمل السلطان على تغريب بعض الخواص من عماليكه إلى القدس وكان بيبرس ينسب إليهم هذه الفتنة ونشأتها من أجلهم ففر بهم السلطان وأعتب الأميرين ثم أعيد الموالي من القدس إلى محلهم من خدمتهم واتهم السلطان الجوكندار في سعائته فسخطه وأبعده وبعثه نائباً عن صفد.

ثم غص بما هو فيه من الحجر والاستبداد وطلب الحج فهجره بيبرس وسلار وسار على الكرك سنة ثمان وودعه الأمراء واستصحب بعضاً منهم فلما مر بالكرك دخل القلعة وأخرج النائب جمال الدين أقوش الأشرف إلى مصر وبعث عن أهله وولده كانوا مع المحمل الحجازي فعادوا إليه من العقبة وصرف الأمراء الذين توجهوا معه وأظهر الانقطاع بالكرك للعبادة وأذن لهم في إقامة من يصلح لأمرهم فاجتمعوا بدار النيابة وتشاوروا واتفقوا على أن يكون بيبرس سلطاناً عليهم وسلار على نيابته وبايعوا بيبرس في شوال سنة ثمان ولقبوه المظفر وقلده الخليفة أبو الربيع وكتب للناصر بنبابة الكرك وعينت له إقطاع يختص بها وقام سيف الدين سلار بالنيابة على عادة من قبله وأقر أهل الوظائف والرتب على مراتبهم وبعث أهل الشام بطاعتهم واستقر بيبرس في سلطانه والله تعالى أعلم.

انتقاض الأمير بيبرس وعود الناصر إلى ملكه

ولما دخلت سنة تسع هرب بعض موالي الناصر فلحقوا بالكرك وقلق الظاهر بيبرس المظفر وبعث في أثرهم فلم يدركوهم واتهم آخرون فقبض عليهم ونشأت الوحشة لذلك واتصلت المكاتب من الأمراء الذين بالشام إلى السلطان بالكرك وخرج من

أبي بكر ثم انصرف بيبرس الجاشنكير متوجهاً إلى صهيون وبها بهادر بها الأشجعي موكل به إلى حيث قصد ورجع عنه الأمراء الذين كانوا عنده إلى السلطان فاستضاف بعضهم إلى عماليكه واعتقل بعضهم ثم بدا للسلطان في أمره وبعث إلى قراستقر وبهادر وهما مقيمان بغزة ولم ينفصلا إلى الشام أن يقبضا عليه فقبضا عليه وبعثا به إلى القلعة آخر ذي القعدة فاعتقل ومات هنالك والله تعالى ولي التوفيق.

خبر سلاار ومآل أمره

لما انتقل السلطان الناصر إلى ملكه بمصر وكان لسلاار من السعي في أمره وتمكين سلطانه ما ذكرناه وكانت له سوء بال عند السلطان يعني برعيها له وكانت الشوبك من أقطاعه فرغب إلى السلطان في المسير إليها والتخلي فيها فأذن له وخلع عليه وزاده في أقطاعه وأقطاع عماليكه واتبه مائة من الطواشية بأقطاعهم وسار من مصر إلى الشوبك في شوال سنة ثمان وسبعمائة ثم بعث له داود المفسور بالكرك مضافاً إلى الشوبك وبالواء وبخلعة مذهبة ومركب ثقيل ومنطقة مجوهره وأقام هنالك فلما كانت سنة عشر بعدها غيى إلى السلطان عن جماعة من الأمراء أنهم معتمرون على الثورة وفيهم أخو سلاار فقبض عليهم جميعاً وعلى شيع سلاار وحاشيته الذين بمصر وبعث علم الدين الجوالي لاستقداه من الكرك تائيساً له وتسكيناً فقدم في ربيع من السنة واعتقل إلى أن هلك في معتقله واستصفت أمواله وذخائره بمصر والكرك وكانت شيئاً لا يعبر عنه من الأموال والفصوص والآلئ والأقمصة والدروع والكراع والإبل ويقال: إنه كان يغل كل يوم من أقطاعه وضياعه ألف دينار وأما أوليته فإنه لما خلاص من أسر التتر صار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور قلاوون ولما مات صار لأبيه قلاوون ثم لابنه الأشرف ثم لأخيه محمد بن الناصر وظهر في دولهم كلها وكان بينه وبين لاشين مسودة فاستخدم له وعظم في دولته متقرباً في المراكب متحريراً لحبة السلطان إلى أن انقرض أمره ويقال: إنه لما احتضر في محبسه قبل له: قد رضي عنك السلطان فوثب قائماً ومشى خطوات ثم مات والله أعلم.

انتفاض النواب بالشام ومسيرهم إلى التتر

وولاية تنكر على الشام

كان قنقجق نائب حلب قد توفي بعد أن ولاه السلطان فنقل

أثرهم العساكر فأدركوهم ونال الهاربون منهم قتلاً وجراحة ورجعوا وثاب العامة والغزاة وأحاطوا بالقلعة وجأهروا بالخلعان وقبض على بعضهم وعوقب فلم يزدهم إلا عتواً وتحاملاً وارتاب الجاشنكير حاله واجتمع الناس للحلف وحضر الخليفة وجدد عليه وعليهم الحلف وبعث نسخة البيعة لتقرأ بالجامع يوم الجمعة فصاح الناس بهم وهموا أن يحصبوهم على المنابر فرجع إلى النفقة وبذل المال واعتزم على المسير إلى الشام.

وقدم أكابر الأمراء فلاحقوا بالسلطان، وزاد اضطراب بيبرس وخرج السلطان من دمشق متصرف رمضان وقدم بين يديه أميرين من أمراء غزة فوصلها واجتمعت إليه العرب والتركان وبلغ الخبر إلى الجاشنكير فجمع إليه شمس الدين سلاار وبدر الدين بكتوت الجوكندار وسيف الدين السلحدار وفأوضحهم في الأمر فأروا أن الحرق قد اتسع ولم يبق إلا البدار بالرغبة إلى السلطان أن يقطعه الكرك أو حماة أو صهيون ويتسلم السلطان ملكه فأجمعوا على ذلك وبعثوا بيبرس الدوادار وسيف الدين بهادر بعد أن أشهد الجاشنكير بالخلع وخرج من القلعة إلى أطفيح بماليكه فلم يستقر بها وتقدم قاصداً أسوان واحتمل ما شاء من المال والذخيرة وخيول الإصطبل.

وقام بحفظ القلعة صاحبه سيف الدين سلاار وكاتب السلطان يطالعه بذلك وخطب للسلطان على المنابر ودعي باسمه على المآذن وهتف باسمه العامة في الطرقات وجهز سلاار سائر شعار السلطنة ووصلت رسل الجاشنكير إلى السلطان بما طلب فأسعفه بصهيون وردداهم إليه بالأمان والولاية ووافى السلطان عيد الفطر بالبركة ولقيه هنالك سيف الدين سلاار وأعطاه الطاعة ودخل السلطان إلى القلعة وجلس باقي العيد بالإيوان جلوساً فخماً واستخلف الناس عامة وسأله سلاار في الخروج إلى إقطاعه فأذن له بعد أن خلع عليه فخرج ثالث شوال وأقام ولده بيباب السلطان.

ثم بعث السلطان الأمراء إلى أخيم فانتزعوا من الجاشنكير ما كان احتمله من المال والذخيرة وأوصلوها إلى الخزانة ووصل معهم جماعة من عماليكه كانوا أمراء واختاروا الرجوع إلى السلطان وولى السلطان سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جاندار نائباً بمصر وقراستقر المنصورى نائباً بدمشق وبعث نائباً الأفرم نائباً بصرخد وسيف الدين قنقجق نائباً بحلب وسيف الدين بهادر نائباً بطرابلس وخرجوا جميعاً إلى الشام.

وقبض السلطان على جماعة من الأمراء ارتاب بهم وولى على وزارته فخر الدين عمر بن الخليلي عوضاً عن ضياء الدين

والله سبحانه وتعالى أعلم.

رجوع حماة إلى بني المظفر شاهنشاه بن أيوب ثم لبني الأفضل منهم وانقراض أمرهم

قد كان تقدم لنا أن حماة كانت من أقطاع تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب أقطعه إياها عمه صلاح الدين بن أيوب سنة أربع وسبعين وخمسائة فلم تول بيده إلى أن توفي سنة سبع وثمانين وخمسائة فأقطعه ابنه ناصر الدين محمداً ولقبه المنصور وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة بعد عمه صلاح الدين والعدل فوليه ابنه قليح أرسلان ويلقب الناصر سنة ست وعشرين وكان أخوه المظفر ولي عهد أبيه عند الكامل بن العدل فجهزه بالعساكر من دمشق وملكها من يد أخيه وأقام بها إلى أن هلك سنة ثلاث وأربعين وولي ابنه محمد ويلقب المنصور ولم يزل في ولايتها إلى أن سار يوسف بن العزيز ملك الشام من بني أيوب هارباً إلى مصر أيام التتر فسار معه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل.

ثم خشي من الترك بمصر فرجع إلى هلاكو واستمر المنصور إلى مصر فأقام بها وملك هلاكو الشام وقتل الناصر وسائر بني أيوب كما مر ثم سار قطز إلى الشام عندما رجع هلاكو عنه عندما شغل عنه بفتنة قومه فارتجعه من ملكة التتر وولى على قواعده وأمصاره ورد المنصور إلى حماة فلم يزل والياً عليها وحضر واقعة قلاوون على التتر بمحصر سنة ثلاثين وكان يتردد إلى مصر سائر أيامه ويخرج مع البعوث إلى بلاد الأرمن وغيرها ويعسكر مع ملوك مصر متى طلبوه لذلك ثم توفي سنة ثلاث وثمانين وأقر قلاوون ابنه المظفر على ما كان أبوه وجري هو معهم على سنته إلى أن توفي سنة ثمان وتسعين عندما بويع الناصر محمد بن قلاوون بعد لاشين، وانقطع عقب المنصور فولى السلطان عليها قراسنقر من أمراء الترك نقله إليها من الضيعة وأمره باستقرار بني أيوب وسائر الناس على أقطاعاتهم.

ثم كان استيلاء قازان على الشام ورجوعه سنة تسع وتسعين ومسير بيبرس وسلاار وانتزاع الشام من التتر وكان كتيغا العدل الذي ملك مصر وخلعه لاشين نائباً بصرخند فجلا في هذه الوقائع وتنصح لبيبرس وسلاار وحضر معهم بدمشق فولوه على حماة وغزا بالعساكر بلاد الأرمن وحضر هزيمة التتر مع الناصر سنة اثنتين وسبعمائة فرجع إلى حماة فمات بها وولى السلطان بعده

مكانه إلى حلب الكرجي من حماة سنة عشر فتظلم الناس منه فقبض عليه ونقل إليها قراسنقر المنصورى من نيابة دمشق وولى مكانه بدمشق سيف الدين كراي المنصورى سنة إحدى عشرة ثم سخطه واعتقله وولى مكانه بدمشق جمال الدين أقوش الأشرفى نقله إليها من الكرك وتوفي بها محمد نائب طرابلس فنقل إليها أقوش الأفرم من صرخند ثم قبض على بكتمر الجوكندار نائب مصر وحجسه بالكرك وجعل مكانه في الثانية يبرس الدودار ثم ارتاب قراسنقر نائب حلب فهرب إلى البرية واجتمع مع مهنا بن عيسى ويقال: إنه استأذن السلطان في الحج فأذن له فلما توسط البرية استوعرها فرجع فمنعه الأمراء الذين تجلب من دخولها إلا بإذن السلطان فرجع إلى الفرات وبعث مهنا بن عيسى شافعاً له عند السلطان فقبله وردة إلى نيابة حلب.

ثم بلغ السلطان أن خربندا ملك التتر زاحف إلى الشام فجهز العساكر من مصر وتقدم إلى عساكر الشام بأن يجتمعوا معهم بمحصر فارتاب قراسنقر وخرج من حلب وعبر الفرات ثم راجع نفسه واستأمن السلطان على أن يقيم بالفرات فأقطعه السلطان الشوبك يقيم بها فلم يفعل وبقي بمكان من الفرات مع مهنا بن عيسى ثم ارتاب جماعة من الأمراء فلحقوا به وفيهم أقوش الأفرم نائب طرابلس وأمصوا عزمهم على اللحاق بخربندا فوصلوا إلى ماردين فلتفاهم صاحبها بالكرامة وحمل إليهم تسعين ألف درهم ورتب لهم الأتاوات ثم ساروا إلى خلاط إلى أن جاءهم إذن خربندا فساروا إليه واستحثوه للشام.

وبلغ الخبر إلى السلطان فاتهم الأمراء الذين في خدمته بالشام بمداخلة قراسنقر وأصحابه فاستدعاهم وبعث على حلب سيف الدين مكان قراسنقر وعلى طرابلس بكتمر الساقى مكان أقوش وبعث على العرب فضل بن عيسى مكان أخيه مهنا ووصل الأمراء إلى مصر فقبض عليهم جميعاً وعلى أقوش الأشرفى نائب دمشق وولى مكانه تنكر الناصري سنة اثني عشرة وجعل له الولاية على سائر الممالك الإسلامية وقبض على نائبه بمصر بيبرس الدودار وحجسه بالكرك وولى مكانه أرغون الدودار وعسكر بظاهر القلعة وأرتحل بعد عيد الفطر من السنة فلقية الخبر أثناء طريقه بأن خربندا وصل إلى الرحبة ونازلها وانصرف عنها راجعاً فانكفأ السلطان إلى دمشق وفرق العساكر بالشام ثم سار إلى الكرك واعتزم على قضاء فرضه تلك السنة وخرج حاجاً من الكرك ورجع سنة ثلاث عشرة إلى الشام وبعث إلى مهنا بن عيسى يستميله وعاد الرسول بامتناعه ثم لحق سنة ست عشرة بخربندا وأقطعه بالعراق وأقام هنالك فلم يرجع إلا بعد مهلك خربندا

الولايات

وفي سنة خمس عشرة سخط السلطان سيف الدين بكتمر نائب طرابلس الذي وليها بعد أقروش الأفرم وأمدّه به وسبق معقلاً إلى مصر وولي مكانه سيف الدين كستاي ثم هلك فولى مكانه شهاب الدين قرطاي نقله إليها من نيابة حمص سيف الدين أقطاي ثم قبض سنة ثمان عشرة على طغاي الحسامي من الجاشنكيرية وصرف نائباً إلى صفد مكان بكتمر الحاجب ثم سخطه فأحضره معقلاً وحبسه بالإسكندرية وبعث على صفد سيف الدين أقطاي نقله إليها من حمص وبعث على حمص بدر الدين بكتوت القرمانى واللّه تعالى أعلم.

العمائر

ابتدأ السلطان سنة إحدى عشرة وسبعمئة ببناء الجامع الجديد بمصر وأكمله ووقف عليه الأوقاف المغلة ثم أمر سنة أربع عشرة ببناء القصر الأبلق من قصور الملك فجاء من أفخر المصانع الملوكية.

وفي سنة ثمان عشرة أمر بتوسعة جامع القلعة فهدم ما حوله من المساكن وزيد فيه إلى الحد الذي هو عليه بهذا العهد.

ثم أمر في سنة ثلاث وعشرين بعمارة القصور لمنازله بسرياقوس وبنى بإزائها الخانقاة الكبيرة المنسوبة إليه.

وفي سنة ثلاث وثلاثين أمر بعمارة الأيوان الضخم بالقلعة وجعله مجلس ملكه وبيت كرسية ودعاه دار العدل واللّه تعالى أعلم.

حجّات السلطان

وحج الملك الناصر محمد بن قلاوون في أيام دولته ثلاث حجّات.

أولاً سنة ثلاث عشرة عند ما انقضى قراستقر نائب حلب وأقروش الأفرم نائب طرابلس ومهنا بن عيسى أمير العرب وجاء خريندا إلى الشام ورجع من الرحبة فسار السلطان من مصر إلى الشام وبلغه رجوع خريندا فسار من هناك حاجاً وقضى فرضه سنة ثلاث عشرة ورجع إلى الشام.

ثم حج الثانية سنة تسع عشرة ركب إليها من مصر في أواخر ذي القعدة ومعه المؤيد صاحب حماة والأمير محمد ابن

سيف الدين ففجق استدعاه إليها من أقطاعه بالشوبك وكان الأفضل علاء الدين أخو المنصور صاحب حماة توفي أيام أخيه المنصور وخلف ولدأ اسمه إسماعيل ولقبه عماد الدين ونشأ في دولتهم عاكفاً على العلم والأدب حتى توفر منهما حظّه وله كتاب في التاريخ مشهور.

ولما رجع السلطان الناصر من الكرك إلى كرسية وسطا ببيبرس وسلار راجع نظره في الإحسان إلى أهل هذا البيت واختار منهم عماد الدين إسماعيل هذا وولاه على حماة مكان قومه ست عشرة وسبعمئة وكان عند رجوعه إلى ملكه قد ولي نيابة حلب سيف الدين قفجق وجعل مكانه بمحماة أيدير الكرجي وتوفي قفجق فنقل أيدير من حماة إلى حلب مكانه وولى إسماعيل على حماة كما قلنا ولقبه المؤيد ولم يزل عليها إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين وولى الناصر ابنه الأفضل محمد برغبة أبيه إلى السلطان في ذلك ثم مات الملك الناصر في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وقام بعده بالأمر مولاة قوص ونصب ابنه أبا بكر محمداً فكان أول شيء أحدثه عزل الأفضل من حماة وبعث عليها مكانه صقر دمول النائب وسار الأفضل إلى دمشق فمات بها سنة اثنتين وأربعين وانقرضت إيالة بني أيوب من حماة والبقاء لله وحده لا ربّ غيره ولا معبود سواه.

غزو العرب بالصعيد وفتح ملطية وآمد

ثم خرج السلطان سنة ثلاث عشرة فعسكر بالأهرام مورياً بالنزهة وقد بلغه ما نزل بالصعيد من عيث العرب وفسادهم في نواحيه وإضرارهم بالسابلة فسرّح العساكر في كل ناحية منه وأخذ الهلاك منهم مأخذة إلى أن تغلب عليهم واستباحهم من كل ناحية وشرّد بهم من خلفهم ثم سرح العساكر سنة أربع عشرة بعدها إلى ملطية وهي للأرمن وملكها عنوة.

وسار لذلك تنكز نائب دمشق بعساكر الشام وستة من أمراء مصر ونازلوها في محرم سنة خمس عشرة وبها جموع من نصارى الأرمن والعربان وقليل من المسلمين تحت الجزية فقاتلوههم حتى القوا باليد واقتحموها عنوة واستباحوها وجاؤوا بملكها مع الأسرى فأبقاه السلطان وأنعم عليه ثم غي عنه أنه يكاتب ملوك العراق فحبسه ثم بعث السلطان العساكر من حلب سنة خمس عشرة إلى عرقية من أعمال آمد ففتحوها وجاءت العساكر سنة سبع عشرة ثانية إلى آمد ففتحوها واستباحوها وغنموا منها أموالاً جمّة واللّه تعالى ينصر من يشاء من عباده.

بلادهم واستوطنوها وملكوها وملئوها عيثاً وفساداً وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تملك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقه شيء من السياسة الملكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعاً لهذا العهد ولم يبق لبلادهم رسم للملك وإنما هم الآن رجالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الأعراب ولم يبق في بلادهم رسم للملك لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والاتحام والله غالب على أمره والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

بقية أخبار الأرمن إلى الفتح أياس ثم فتح سيس وانقراض أمرهم

قد كنا قدما أخبار الأرمن إلى قتل ملكهم هيشوم على يد أيدغددي شحنة التتر ببلاد الروم سنة سبع واستقرار الملك بسيس لأخيه أوسير بن ليون وكان بينه وبين قرمان ملك التركمان مصاف سنة تسع عشرة فهزمه قرمان ولم يزل أوسير بن ليون ملكاً عليهم إلى سنة اثنتين وسبعين فهلك ونصبوا للملك بعده ابنه ليون صغيراً ابن اثني عشرة سنة وكان الناصر قد طلب أوسير أن ينزل له عن القلاع التي تلي الشام فأتسح وجهاز إليه عساكر الشام فاكسحوا بلاده وخربوها وهلك أوسير على أثر ذلك ثم أمر الناصر كتيبا نائب حلب بغزو سيس فدخل إليها بالعساكر سنة ست وثلاثين واكتسح جهاتها وحصر قلعة النقيز وافتحها وأسر من الأرمن عدة يقال بلغوا ثلثمائة وبلغ خبرهم إلى النصاري بآياس فثاروا بمن عندهم من المسلمين وأحرقوهم غضباً للأرمن لشاركتهم في دين النصرانية.

ولم يثبت أن بعث إلى السلطان دمرداش بن جويان شحنة المفل ببلاد الروم يعرفه بدخوله في الإسلام ويستنفر عساكره لجهاد نصارى الأرمن فأسعفه بذلك وجهاز إليه عساكر الشام من دمشق وحلب وحماة سنة سبع وثلاثين ونزلوا مدينة آياس ففتحوها وخربوها ونجا فلهم إلى الجبال فاتبعهم عساكر حلب وعادوا إلى بلادهم ثم سار سنة إحدى وستين بتدمير الخوارزمي نائب حلب لغزو سيس ففتح أذنة وطرسوس والمصيصة ثم قلعي كلال والجرايدة وسنباط كلا وغرور وولي نائين في أذنة وطرسوس وعاد إلى حلب وولي بعده على حلب عشقيم النصاري فسار سنة ست

أخت علاء الدين ملك الهند صاحب دلي ولما قضى حجه انطلق الأمير محمد ابن أخت علاء الدين ملك الهند صاحب دلي من هناك إلى اليمن ورجع إلى مصر فأفرج عن ربيعة أمير مكة من بني حسن وعن المعتقلين بمحبسه ووصله ووصلهم.

ثم حج الثالثة سنة اثنتين وثلاثين ومعه الأفضل بن المؤيد صاحب حماة على عادة أبيه في مراكة السلطان وقتل من حجه سنة ثلاث وثلاثين فأمر بعمل باب الكعبة مصفحاً بالفضة أنفق فيه خمسة وثلاثين ألف درهم وفي منصرفه من هذه الحجة مات بكتمر الساقى من أعظم أمراضه وخواصه ويقال: إنه سمه وهو من ممالك بيبس الجاشنكير وانتقل إلى الناصر فجعله أمير السقاة وعظمت منزلته عنده ولطفت خلته حتى كانا لا يفترقان إما في بيت السلطان وإما في بيته وكان حسن السياسة في الغاية وخلف بعد وفاته من الأموال والجواهر والذخائر ما يفوت الحصر والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

أخبار النبوة وإسلامهم

قد تقدم لنا غزو الترك إلى النوبة أيام الظاهر يبرس والمنصور قلاوون لما كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم وقررها الملوك بعد ذلك وربما كانوا يماطلون بها أو يمتنعون من أدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا وكان ملكهم بدنقلة أيام سارت العساكر من عند قلاوون إليها سنة ثنتين وستمائة واسمه سمامون ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه أي لا أدري أكان معاقباً لسمامون أو توسط بينهما متوسط وتوفي أي سنة ست عشرة وسبعماية وملك بعده في دنقلة أخوه كريس ثم نزع من بيت ملوكهم رجل إلى مصر اسمه نشلي وأسلم فحسن إسلامه وأجرى له رزقاً وأقام عنده فلما كانت سنة ست عشرة امتنع كريس من أداء الجزية فجهز السلطان إليه العساكر وبعث معها عبد الله نشلي المهاجر إلى الإسلام من بيت ملكهم فخام كريس عن لقاءهم وفر إلى بلد الأبواب ورجعت العساكر إلى مصر واستقر نشلي في ملك النوبة على حاله من الإسلام.

وبعث السلطان إلى ملك الأبواب في كريس فبعث به إليه وأقام بباب السلطان ثم إن أهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بمالاة جماعة من العرب سنة تسع وبخثوا عن كريس ببلد الأبواب فآلفوه بمصر وبلغ الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها وانقطعت الجزية بإسلامهم ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في

دوشي سنة عشرين مع كبير المغل وكان مقلداً يحمل على الأعناق ومعهم جماعة من أمرائهم وبرهان الدين أمام أزيك ومروا بالقسطنطينية فبالغ لشكري في كرامتهم يقال: أنه أنفق عليهم ستين ألف دينار وركبوا البحر من هناك إلى الإسكندرية.

ثم ساروا بها إلى مصر محمولة على عجلة وراء مستور من الذهب والحرير يجرها كديش يقوده اثنان من مواليتها في مظهر عظيم من الرقار والتجلة ولما قاربوا مصر ركب للقائهم النائبان أرغون ويكتمر الساقى في العساكر وكريم الدين وكيل السلطان وأدخلت الخاتون إلى القصر واستدعى ثالث وصولها القضاة والفقهاء وسائر الناس على طبقاتهم إلى الجامع بالقلعة وحضر الرسل الوافدون عندهم بعد أن خلع عليهم وانعقد النكاح بين وكيل السلطان ووكيل أزيك وانقض ذلك المجمع وكان يوماً مشهوراً.

ووصلت رسل أبي سعيد صاحب بغداد والعراق سنة اثنين وعشرين وفيهم قاضي توزير يسألون الصلح وانتظام الكلمة واجتماع اليد على إقامة معالم الإسلام من الحج وإصلاح السابلة وجهاد العدو فأجاب السلطان إلى ذلك وبعث سيف الدين أيتمش الحمدي لأحكام العقد معهم وامتضاء إيمانهم فتوجهه لذلك بهدية سنوية وعاد سنة ثلاث وعشرين ومعه رسل أبي سعيد ومعه جربان لمثل ذلك فتم ذلك وانعقد بينهم وقد كانت قبل ذلك تجددت الفتنة بين أبي سعيد وصاحب صراي نفرة من أزيك صاحب صراي من تغلب جربان على أبي سعيد وفكته في المغل.

وكانت بين جربان وبين سبول صاحب خوارزم وما وراء النهر فتنة ظهر فيها أزيك وأمدّه بالعساكر فاستولى أزيك على أكثر بلاد خراسان وطلب من الناصر بعد الالتحام بالصهر المظاهرة على أبي سعيد وجربان فأجاب به إلى ذلك ثم بعث إليه أبو سعيد في الصلح كما قلناه فآثره وعقد له وبلغ الخبر إلى أزيك ورسل الناصر عنده فأغلظ في القول وبعث بالعتاب واعتذر له الناصر بأنهم إنما دعوه لإقامة شعائر الإسلام ولا يسع التخلف عن ذلك فقبل ثم وقعت بينه وبين أبي سعيد مراوضة في الصلح بعد أن استرد جربان ما ملكه أزيك من خراسان فتراجع كل هؤلاء الملوك واصطلحوا ووضعوا أوزار الحرب حيناً من الدهر إلى أن تقلبت الأحوال وتبدلت الأمور والله مقلب الليل والنهار.

وسبعين وحصر سيس وقلعتها شهرين إلى أن نفذت أقواتهم وجهدهم الحصار فاستأنوا ونزلوا على حكمه فخرج ملكهم النكفور وأمرأوه وعساكره إلى عشقيم فبعث بهم إلى مصر واستولى المسلمون على سيس وسائر قلاعها وانقضت منها دولة الأرمن والبقاء لله وحده انتهى.

الصلح مع ملوك التتر وصهر الناصر مع ملوك الشمال منهم

كان للتتر دولتان مستفحلان إحداهما دولة بني هلاكو آخذ ببغداد والمستولي على كرسي الإسلام بالعراق وأصارها هو وبنيه كرسياً لهم وهم مع ذلك عراق العجم وفارس وخراسان وما وراء النهر ودولة بني دوشي خان بن جنكزخان بالشمال متصلة إلى خوارزم بالمشرق إلى القرم وحدود القسطنطينية بالجنوب وإلى أرض بلغار بالمغرب وكان بين الدولتين فتن وحروب كما تحدث بين الدول المتجاورة وكانت دولة الترك بمصر والشام مجاورة لدولة بني هلاكو وكان يطمعون في ملك الشام ويرددون الغزو إليه مرة بعد أخرى ويستميلون أولياءهم وأشياعهم من العرب والتركمان فيستظهرون بهم عليهم كما رأيت ذلك في أخبارهم وكانت بين ملوكهم من الجانبين وقائع متعددة وحروبهم فيها سجال وربما غلبوا من الفتنة بين دولة بني دوشي وبين بني هلاكو ولبعدهم عن فتنة بني دوشي خان لتوسط المسالك بين مملكتهم ومملكة مصر والشام فتقع لهم الصاغة إليهم وتتجدد بينهم المراسلة والمهادنة في كل وقت ويستحث ملك الترك ملك صراي من بني دوشي خان لفتنة بني هلاكو والأجلا ب عليهم في خراسان وما إليها من حدود مملكتهم ليشغلوه عن الشام ويأخذوا بمحزبتهم عن النهوض إليه.

وما زال ذلك دأبهم من أول دولة الترك وكانت رغبة بني دوشي خان في ذلك أعظم فيفتخرون به على بني هلاكو ولما ولي صراي أنبك من بني دوشي خان سنة ثلاث عشرة وكان نائباً ببلاد الروم قطغنمير وفدت عليه الرسل من مصر على العادة فعرض لهم قطغنمير بالصهر مع السلطان الناصر ببعض نساء ذلك البيت على شرطية الرغبة من السلطان في ظاهر الأمر والتمهل منهم في إمضاء ذلك.

وزعموا أن هذه عادة الملوك منهم ففعل السلطان ذلك وردد الرسل والهدايا أعزماً ستة إلى أن استحكم ذلك بينهم وبعثوا إليه بمخطوبته طلبناش بنت طغاجي بن هند وابن بكر بن

مقتل أولاد بني غني أمراء مكة من بني

حسن

قد تقدم لنا استيلاء قتادة على مكة والحجاز من يد الهواشم واستقرارها لبنيها إلى أن استولى منهم أبو غني وهو محمد بن أبي سعيد علي بن قتادة ثم توفي سنة اثنتين وسبعمائة وولي مكانه ابنه رميثة وخبيصة واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث ولما حج الأميران كافلا المملكة بيبرس وسلاز هربا إليهما من مكان اعتقالهما وشكيا ما نالهما من رميثة وخبيصة فأشكاهما الأميران واعتقلا رميثة وخبيصة وأوصلهما إلى مصر ووليا عطيفة وأبا الغيث وبعثا بهما إلى السلطان صحبة الأمير أيدير الكوكبي الذي جاء بالعساكر معهما ثم رضي السلطان عنهما وولاهما مكان رميثة وخبيصة وبعث معهما العساكر ثانياً سنة ثلاث عشرة وفر رميثة وخبيصة عن البلاد ورجع العسكر.

وأقام أبو الغيث وعطيفة فرجع إليهما رميثة وخبيصة وتلاقوا فانهزم أبو الغيث وعطيفة فسارا إلى المدينة في جوار منصور بن حماد فأمدهما ببني عقبة وبني مهدي ورجع إلى حرب رميثة وخبيصة فاقتتلوا ثانياً ببطن مرو فانهزم أبو الغيث وقتل واستمر رميثة وخبيصة ولحق بهما أخوهما عطيفة وسار معهما ثم تشاجروا سنة خمس عشر ولحق رميثة بالسلطان مستعدياً على أخويه فبعث معه العساكر ففر خبيصة بعد أن استصفى أهل مكة وهرب إلى السبعة مدن ولحقته العساكر فاستلحق أهل تلك المدن ولقيهم فانهزموا ونجا خبيصة بنفسه.

ثم رجعت العساكر فرجع وبعث رميثة يستنجد السلطان فبعث إليه العساكر ففر خبيصة ثم رجع وانفق مع أخويه رميثة وعطيفة ثم لحق عطيفة بالسلطان سنة ثمان عشرة وبعث معه العساكر فنقبضوا على رميثة وأوصلوه معتقلاً فسجن بالقلعة واستقر عطيفة بمكة وبقي خبيصة مشرداً ثم لحق بملك التتر ملك العراق خربندا واستنجد على ملك الحجاز فأجده بالعساكر وشاع بين الناس أنه داخل الروافض الذين عند خربندا في إخراج الشيخين من قبريها وعظم ذلك على الناس ولقبه محمد بن عيسى أخو منها حبة وامتعاضاً للدين وكان عند خربندا فاتبعه واعترضه وهزمه ويقال: أنه أخذ منه المعاول والفضوس التي أعدها لذلك وكان سبباً لرضا السلطان عنه.

وجاء خبيصة إلى مكة سنة ثمانين عشرة وبعث الناصر العساكر إليه فهرب وتركها ثم أطلق رميثة سنة تسع عشرة فهرب

إلى الحجاز ومعه وزيره علي بن هنجس فرد من طريقه واعتقل وأفرج عنه السلطان بعد مرجعه من الحج سنة عشرين ثم أن خبيصة استأمن السلطان سنة عشرين وكان معه جماعة من الممالك هربوا إليه فقاموا أن يحضروا معه إلى السلطان فاغتاوه وحضروا وكان السلطان قد أطلق رميثة من الاعتقال فأمكنه منهم فثار من المباشر قتل أخيه وعفا عن الباقيين ثم صرف السلطان رميثة إلى مكة وولاه مع أخيه عطيفة واستمرت حالهما ووفد عطيفة سنة إحدى وعشرين على الأبواب ومعه قتادة صاحب الينبع يطلب الصريخ على ابن عمه عقيل قاتل ولده فأجابه السلطان وجهاز العساكر لصريخه وقوبل كل منهما بالأكراد وانصرفوا.

وفي سنة إحدى وثلاثين وقعت الفتنة بمكة وقتل العبيد جماعة من الأمراء والترك فبعث السلطان أيدغمش ومعه العساكر فهرب الشرفاء والعبيد وحضر رميثة وبذل الطاعة وحلف متبرئاً عما وقع فقبل منه السلطان وعفا له عنها واستمرت حاله على ذلك إلى أن هلك سنة..... وتداولت الإمارة بين ابنه عجلان وبقية ثم استبد عجلان كما نذكره في أخبارهم وورثتها بنوه لهذا العهد كما نذكره مرتباً في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

حج ملك التكرور

كان ملك السودان بصحراء المغرب في الإقليم الأول والثاني منقسماً بين أمم من السودان أولهم بما يلي البحر المحيط أمة صوصو وكانوا مستولين على غانة ودخلوا في الإسلام أيام الفتح وذكر صاحب كتاب رجار في الجغرافيا أن بني صالح من بني عبد الله بن حسن بن الحسن كانت لهم بها دولة وملك عظيم ولم يقع لنا في تحقيق هذا الخبر أكثر من هذا وصالح من بني حسن مجهول وأهل غانة منكرون أن يكون عليهم ملك لأحد غير صوصو ثم يلي أمة صوصو أمة مالي من شرقهم وكرسي ملكهم بمدينة بني ثم من بعدهم شرقاً عنهم أمة كوكو ثم التكرور بعدهم وفيما بينهم وبين النوبة أمة كاتم وغيرها ونحوها الأحوال باستمرار العصور فاستولى أهل مالي على ما وراءهم وبين أيديهم من بلاد صوصو وكوكو وآخر ما استولوا عليه بلاد التكرور واستفحل ملكهم إلى الغاية وأصبحت مدينتهم بني حاضرة بلاد السودان بالمغرب ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين.

وحج جماعة من ملوكهم وأول من حج منهم برمندار وسمعت في ضبطه من بعض فضلائهم برمندانه وسبيله في الحج هي التي اقتضاها ملوكهم من بعده ثم حج منهم منسولي بن ماري

وحبسه وأطلق من حبسه واعتقل عمه المنصور وكان عبد الله الظاهر بن المنصور قائماً بأمر أبيه ومنازلة المجاهد سنة أربع وعشرين فبعث بالصريح إلى الناصر سليمان الترك بمصر وكان هو وقومه يعطونهم الطاعة ويعيشون إليهم الأتاوة من الأموال والهدايا وطرف اليمن وماعونه فجهزهم الناصر صحبة بيبرس الحاجب وطبتال من أعظم أمرائه فساروا إلى اليمن ولقيهم المجاهد بعدن فأصلحوها بين الفريقين على أن تكون ويستقر المجاهد في سلطانه باليمن ومالوا على كل من كان سبياً في الفتنة فقتلوه ودوخوا اليمن وحملوا أهله على طاعة المجاهد ورجعوا إلى محلهم من الأبواب السلطانية والله تعالى ولي التوفيق.

ولاية أحمد ابن الملك الناصر على الكرك

ولما استفحل ملك السلطان الناصر واستمر وكثر ولده طمحت نفسه إلى ترشيح ولده لتقر عينه بملكهم فبعث كبيرهم أحمد إلى قلعة الكرك سنة ست وعشرين ورتب الأمراء المقيمين بوظائف السلطان فسار إلى الكرك وأقام بها أربع سنين متمتعاً بالملك والدولة وأبوه قرير العين بإمارته في حياته ثم استقدمه سنة ثلاثين وأقام فيه سنة الحتان واحتفل في الصنيع به وختن معه من أبناء الأمراء والخواص جماعة انتقامهم ووقع اختياره عليهم ثم صرفه إلى مكان إمارته بالكرك فأقام بها إلى أن توفي الملك الناصر وكان ما نذكره والله تعالى أعلم.

وفاة مرداش بن جويان شحنة بلاد الروم

ومقتله

كان جويان نائب مملكة التتر مستولياً على سلطانه أبي سعيد بن خربندا لصغره وكانت حاله مع أبيه خربندا قريباً من الاستيلاء فولى على مملكة بلاد الروم دمراش ثم وقعت الفتنة بينهم وبين ملك الشمال أزيك من بني دوشي خان على خراسان وسار جويان من بغداد سنة تسع وعشرين لمداغته كما يأتي في أخبارهم وترك عند السلطان أبي سعيد ببغداد ابنه خواجا دمشق فسعى به أعداؤه وأنهوا عنه قبائح من الأفعال لم يحتملها له فسطا به وقتله وبلغ الخبر إلى أبيه جويان فانتقض وعاجله أبو سعيد بالمسير إلى خراسان فتفرقت عنه أصحابه وفر فادرك بهراً وقتل وأذن السلطان أبو سعيد لأهله أن يقتلوه إلى التربة التي اختطها بالمدينة النبوية لدفته فاحتملوه ولم يتوقفوا على إذن صاحب مصر

بن ماري جاطة أيام الظاهر بيبرس وحج بعده منهم مولاهم صاكوره وكان تغلب على ملكهم وهو الذي افتتح مدينة كوكو ثم حج أيام الناصر وحج من بعده منهم منسا موسى حسبما ذلك مذكور في أخبارهم عند دول البربر عند ذكر صنهاجة ودولة لمتونة من شعوبهم.

ولما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج سلك على طريق الصحراء وخرج عند الأهرام بمصر وأهدى إلى الناصر هدية حافلة يقال أن فيها خمسين ألف دينار وأنزله بقصر عند القرافة الكبرى وأقطعه إياها ولقيه السلطان بمجلسه وحدته ووصله وزوده وقرب إليه الخيل والهجن وبعث معه الأمراء يقومون بخدمته إلى أن قضى فرضه سنة أربع وعشرين ورجع فأصابته في طريقه بالحجاز نكبة تخلصه منها أجله وذلك أنه ضل في الطريق عن الحمل والركب وانفرد بقومه عن العرب وهي كلها مجاهل لهم فلم يهتدوا إلى عمران ولا وقفوا على مورد وساروا على السمت إلى أن نفذوا عند السويس وهم يأكلون لحم الحيتان إذا وجدوها والأعراب تخطفهم من أطرافهم إلى أن خلصوا.

ثم جدد السلطان له الكرامة ووسع له في الحياء وكان أعدد لنفقتة من بلاده فيما يقال مائة حل من التبر في كل حمل ثلاثة قناطر فنفذت كلها وأعجزته النفقة فاقترض من أعيان التجار وكان في صحبته منهم بنو الكويك فاقترضوه خمسين ألف دينار وابتاع منهم القصر الذي أقطعه السلطان وأمضى له ذلك وبعث سراج الدين بن الكويك معه وزيره يرد له منه ما أقرضه من المال فهلك هنالك وأتبعه سراج الدين آخراً بأبنة فمات هنالك وجاء ابنه فخر الدين أبو جعفر بالبعض وهلك منسا موسى قبل وفاته فلم يظفروا منه بشيء انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

أنجاد المجاهد ملك اليمن

قد تقدم لنا استبداد علي بن رسول فملك بعد مهلك سيده يوسف أنسز بن الكامل بن العادل بن أيوب ويلقب المسعود وكان علي بن رسول أستاذ داره ومستولياً على دولته فلما هلك سنة ست وعشرين وستمائة نصب ابن رسول ابنه موسى الأشرف لملكه وكفله قريباً واستولى ابن رسول وأورث ملكه باليمن لبنيه لهذا العهد وانتقل الأمر للمجاهد منهم علي بن داود والمؤيد بن يوسف المظفر بن عمر بن المنصور بن علي بن رسول سنة إحدى وعشرين وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه الأشرف فظهر عليه المجاهد واعتقله ثم انتقض عليه عمه المنصور سنة ثلاث وعشرين

فمنعهم صاحب المدينة ودفنه بالبقيع.

ولما بلغ الخبر بمقتله إلى ابنه دمراش في إمارته ببلاد الروم خشي على نفسه فهرب إلى مصر وترك مولاه أرتق مقيماً لأمر البلد وأنزله بسبواس ولما وصل إلى دمشق وركب النائب لتلقيه وسار معه إلى مصر فأقبل عليه السلطان وأحله محل الكرامة وكان معه سبعة من الأمراء ومن العسكر نحو ألف فارس فآكرمهم السلطان وأجرى عليهم الأرزاق وأقاموا عنده.

وجاءت على أثره رسل السلطان أبي سعيد وطلبه بدمه الصلح الذي عقده مع الملك الناصر وأوضحوا العلم السلطان من فساد طويته وطوية أبيه جوبان وسعيهم في الأرض بالفساد ما أوجب إعطاءه باليد وشرط السلطان عليهم إمضاء حكم الله تعالى في قراسنقر نائب حلب الذي كان فر سنة اثني عشرة مع أقوش الأفرم إلى خربندا وأغرؤه بملك الشام ولم يتم ذلك وأقاموا عند خربندا وولى أقوش الأفرم على همدان فمات بها سنة ست عشرة فولي صاحبه قراسنقر مكانه بهمدان فلما شرط عليهم السلطان قتله كما قتل دمراش أمضوا فيه حكم الله تعالى وقتلوه جزاء بما كان عليه من الفساد في الأرض والله متولي جزائهم ثم وصل على أثر ذلك ابن السلطان أبي سعيد ومعه جماعة من قومه في تأكيد الصلح والإصهار من السلطان فقبلوا بالكرامة التي تليق بهم واتصلت المراسلة والمهاداة بين هذين السلطانين إلى أن توفي والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وفاة مهنا بن عيسى أمير العرب بالشام وأخبار قومه

هذا الحي من العرب يعرفون بأل فضل رحالة ما بين الشام والجزيرة وتربة نجد من أرض الحجاز يتقلبون بينها في الرحلتين ويتسبون في طيغ ومعهم آباء من يزيد وكلب وهذيل ومذحج أحلاف لهم ويناهضهم في الغلب والعدد آل مراد يزعمون أن فضلاً ومراداً أبناء ربيعة وزعمون أيضاً أن فضلاً يتقسم ولده بين آل مهنا وآل علي وأن آل فضل كلهم بأرض حوران فغلبهم عليها آل مراد وأخرجوهم منها فنزلوا حصص ونواحيها وأقامت يزيد من أحلافهم بحوران فهم بها حتى الآن لا يفارقونها:

قالوا: ثم اتصل آل فضل بالدول السلطانية ولولهم على أحياء العرب وأقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق فاستظفروا برياستهم على آل مراد وغلبوهم على المشاتي فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريباً من التلول والقرى لا ينجعون

إلى البرية إلا في الأقل وكسنت معهم أحياء من أنفارق العرب مندرجون في لفيفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد كما كان آل فضل إلا أن أكثر من كان مع آل مراد من أولئك الأحياء وأوفرهم عدداً بنو حارثة بن سنسب إحدى شعوب طيغ هكذا ذكر لي الثقة عندي من رجالهم وبنو حارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى العمران ورياسة آل فضل لهذا العهد لبني مهنا وينسبونه هكذا: مهنا بن مانع بن جديلة بن فضل بن بدر بن ربيعة بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن جصة بن بدر بن سميع ويقفون عند سميع.

ويقول رعاؤهم إن سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسية أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي. وحاشى لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته وفي انتساب كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأنسابهم ثم إن الوجدان يجيل رياسة هؤلاء على هذا الحي إن لم يكونوا من نسبهم وقد تقدم مثل ذلك في مقدمة الكتاب. وكان مبدأ رياستهم من أول دولة بني أيوب.

قال العماد الأصهباني في كتاب «البرق السامي» نزل العادل بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الأعراب في جموع كثيرة انتهى وكانت الرياسة قبلهم لعهد الفاطميين لبني جراح من طيء وكان كبيرهم مفرج بن دغفل ابن جراح وكان من إقطاعه الرملة وهو الذي قبض على أفتكين مولى بني بويه لما انهزم مع مولاه بختيار بالعراق وجاء به إلى المعز فأكرمهم ورقاه في دولته.

ولم يزل شأن مفرج هكذا وتوفي سنة أربع وأربعمائة وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجوان وولي حسان بعده وعظم صيته وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين نفرة واستجاشة وهو الذي هدم الرملة وهزم قائدهم هاروق التركي وقتله وسبى نساءه وهو الذي مدحه التهامي.

وقد ذكر المسيحي وغيره من مؤرخي دولة العبيديين في قرابة حسان بن مفرج فضل بن ربيعة بن حازم بن جراح وأخاه بدر بن ربيعة ولعل فضلاً هذا هو جد آل فضل.

وقال ابن الأثير: وفضل بن ربيعة بن حازم كان آباؤه أصحاب اللقاء والبيت المقدس وكان فضل تارة مع الإفرنج وتارة مع خلفاء مصر ونكره لذلك طفركين أنابك دمشق وكافل بني تش وطرده من الشام فنزل على صدقة بن مزيد وحالفه ووصله حين قدم من دمشق بسبعة آلاف دينار فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان محمد بن ملك شاه سنة خمسائة وما بعدها وقعت

ولنرجع الآن إلى سرد الخبر عن رياسة آل فضل أهل هذا البيت منذ دولة بني أيوب فنقول:

كان الأمير منهم لعهد بني أيوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما قلناه ونقلناه عن العماد الأصهباني الكاتب ثم كان بعده حسام الدين مانع بن خدينة بن غصينة بن فضل وتوفي سنة ثلاثين وستمائة وولي عليهم بعده ابنه مهنا.

ولما ارتجع قطز ثالث ملوك الترك بمصر وملك الشام من يد التتر وهزم عسكرهم بعين جالوت أقطع سلمية لمهنا بن مانع وانتزعها من عمل المنصور بن المظفر بن شاهنشاه صاحب حماة ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا ثم ولي الظاهر على أحياء العرب بالشام عندما استفحل أمر الترك وسار إلى دمشق لتشجيع الخليفة الحاكم عم المستعصم لبغداد فولى على العرب عيسى بن مهنا بن مانع ووفر له الإقطاعات على حفظ السابلة وحبس ابن عمه زامل بن علي بن ربيعة من آل علي لإعنته وإعراضه ولم يزل أميراً على أحياء العرب وصلحوا في أيامه لأنه خالف أباه في الشدة عليهم وهرب إليه سنقر الأشقر سنة تسع وتسعين وكتبوا أبغوا واستحثوه لملك الشام.

وتوفي عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين فولى المنصور قلاوون بعده ابنه مهنا ثم سار الأشرف بن قلاوون إلى الشام ونزل حمص ووفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليه وعلى ابنه موسى وأخويه محمد وفضل ابني عيسى بن مهنا وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كتبها عندما جلس على التخت سنة أربع وتسعين ورجع إلى إمارته ثم كان له في أيام الناصر نفرة واستجاشة وميل إلى ملوك التتر بالعراق ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان ولما انتقض سنقر وأقوش الأفرم وأصحابهما سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لحقوا به وساروا من عنده إلى خربندا واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه متقبضاً عن الوفاة.

ووفد أخوه فضل سنة اثنتي عشرة فرعى له حق وفادته وولاه على العرب مكان أخيه مهنا وبقي مهنا مشرداً ثم لحق سنة ست عشرة بخربندا ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق وهلك خربندا في تلك السنة فرجع إلى أحيائه وأوفداً ابنه أحمد وموسى وأخاه محمد بن عيسى مستعنيين للناصر ومتطارحين عليه فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر الأبلق وشملهم بالإحسان وأعتب مهنا ورده على إمارته وإقطاعه وذلك سنة سبع عشرة وحج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل اثنا عشر ألف راحلة ثم رجع مهنا إلى ديدنه في عمالة التتر والإجلاّب على الشام

بينهما الفتنة اجتمع فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل وبعض أمراء التركمان كانوا أولياء صدقة فساروا في الطلائع بين يدي الحرب وهربوا إلى السلطان فأكرمهم وخلع عليهم وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة بن مزيد ببغداد حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة استأذنه في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجة صدقة فأذن له وعبر إلى الأنبار ولم يرجع للسلطان بعدها انتهى كلام ابن الأثير.

ويظهر من كلامه وكلام المسيحي أن فضلاً هذا ويدراً من آل جراح من غير شك ويظهر من سبأه هؤلاء نسبهم أن فضلاً هذا هو جدّهم لأنهم ينسبون فضل بن علي بن مفرج وهو عند الآخرين فضل بن علي بن جراح فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح لطول العهد وقلة المحافظة على مثل هذا من البداية الغفل.

وأما نسبة هذا الحي في طيخ فبعضهم يقول إن الرياسة في طيخ كانت لأياس بن قبيصة من بني سنيس بن عمر وبين الغوث بن طيخ وإياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر عندما قتل النعمان بن المنذر وهو الذي صالح خالد بن الوليد على الحيرة ولم تزل الرياسة على طيخ في بني قبيصة هؤلاء صدراً من دولة الإسلام فلعل آل فضل هؤلاء وآل الجراح من أعقابهم وإن كان انقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي إليه لأن الرياسة في الأحياء والشعوب إنما تتصل في أهل العvisية والنسب كما مر أول الكتاب.

وقال ابن حزم عند ما ذكر أنساب طيخ: أنهم لما خرجوا من اليمن نزلوا أجا وسلمى وأوطونها وما بينهما ونزل بنو أسد ما بينهما وبين العراق وفضل كثير منهم وهم بنو خارجة بن سعد بن عبادة من طيخ ويقال لهم جديلة نسبة إلى أهمهم بنت تيم الله وحبيش والأسعد إخوتهم رحلوا عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب وحاضر طيخ وأوطنوا تلك البلاد إلا بني رمان بن جندب بن خارجة بن سعد فإنهم أقاموا بالجبلين فكان يقال لأهل الجبلين: الجبليون ولأهل حلب وحاضر طيخ من بني خارجة السهلون انتهى.

فلعل هذه أحياء الذين بالشام من بني الجراح وآل فضل من بني خارجة هؤلاء الذين ذكر ابن حزم أنهم انتقلوا إلى حلب وحاضر طيخ لأن هذا الموطن أقرب إلى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بني الجراح بفلسطين من جبل أجا وسلمى اللذين هما موطن الآخرين والله أعلم أي ذلك يصح من أنسابهم.

مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى وزامل بن موسى بن مهنا شريكين في إمارتهما ثم عزلا لسته من ولايتهما وولي بصير بن جبار بن مهنا واسمه محمد وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيئ والله تعالى أعلم.

وفاة أبي سعيد ملك العراق وانقراض أمر بني هلاكو

ثم توفي أبو سعيد ملك العراق من التتر ابن خريندا بن بغو بن أبغا بن هلاكو بن طولي خان بن جنكزخان سنة ست وثلاثين وسبعمائة لعشرين سنة من ملكه ولم يعقب فانقرض بموته ملك بني هلاكو وصار الأمر بالعراق لسواهم وافترق ملك التتر في سائر ممالكهم كما نذكر في أخبارهم. ولما استبد ببغداد الشيخ حسن من أسباطهم كثر عليه المنازعون فبعث رسله إلى الناصر قبل وفاته يستنجد به على أن يسلم له بغداد ويعطي الرهن في العساكر حتى يقضي بها في أعدائه فأجابته الناصر إلى ذلك ثم توفي قريباً فلم يتم والأمر لله وحده.

وصول هدية ملك المغرب الأقصى مع رسله وكريمته صحبة الحاج

كان ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد استفحل لهذه العصور وصار للسلطان أبي الحسن علي بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي يوسف بن يعقوب بن عبد الحق جد ملوكهم وأسف إلى ملك جبرانهم من الدول فزحف إلى المغرب الأوسط وهو في ملكة بني عبد الواد أعداء قومه من زناتة وملوكهم أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي هو موسى بن أبي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان جد ملوكهم أيضاً وكرسيه تلمسان سبعة وعشرين شهراً ونصب عليها الجانيق وأدار بالأسوار مساجاً لمنع وصول الميرة والأقوات إليها وتقرى أعمالها بلداً بلداً فملك جميعها ثم افتتحها عنة آخر رمضان سنة سبع وثلاثين ففض جوعها وقتل سلطانها عند باب قصره كما نذكره في أخبارهم.

ثم كتب للملك الناصر صاحب مصر يخبره بفتحها وزوال العائق عن وفادة الحاج وأنه ناظر في ذلك بما يسهل سبيلهم ويزيل عنهم وكانت كربة من كرائم أبيه السلطان أبي سعيد ومن أهل فراشه قد اقتضت منه الوعد بالحج عندما ملك تلمسان فلما فتحها وأذهب عدوه منها جهز تلك المرأة للحج بما يناسب قرابتها

واتصل ذلك منه فنقم السلطان عليه وسخطه قومه أجمع وكتب إلى نواب الشام سنة عشرين بعد مرجعه من الحج فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم آل علي عديدة نسبهم.

وولي منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر وصرف إقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدة ثم وفد سنة إحدى وثلاثين مع الأفضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلاً به ومتطارحاً على السلطان فأقبل عليه ورد عليه إقطاعه وإمارته.

وذكر لي بعض أكابر الأمراء بمصر عن أدرك وفادته أو حدث عنها: أنه تجافى في هذه الوفادة عن قبول شيء من السلطان حتى أنه ساق من النياق المحلوبة واستقاها وأنه لم يغش باب أحد من أرباب الدولة ولا سألهم شيئاً من حاجته.

ثم رجع إلى أحيائه وتوفي سنة أربع وثلاثين فولي ابنه مظفر الدين موسى وتوفي سنة اثنتين وأربعين عقب مهلك الناصر وولي مكانه أخوه سليمان ثم هلك سليمان سنة ثلاث وأربعين فولي مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى ثم توفي سنة أربع وأربعين بالقدس ودفن عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه وولي مكانه أخوه سيف بن فضل.

ثم عزله السلطان بمصر الكامل بن الناصر سنة ست وأربعين، وولي مكانه مهنا بن عيسى ثم جمع سيف بن مهنا ولقيه فياض بن مهنا فانهزم سيف ثم ولي السلطان حسين بن الناصر في دولته الأولى وهو في كفالة بيقاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم ثم توفي سنة تسع وأربعين فولي مكانه أخوه فياض وهلك سنة اثنتين وستين فولي مكانه أخوه خيار بن مهنا ولاء حسين بن الناصر في دولته الثانية ثم انتقض سنة خمس وستين وأقام ستين بالقفر ضاحياً إلى أن شفع نائب حماة فأعيد إلى إمارته.

ثم انتقض سنة سبعين فولي السلطان الأشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى وجاء إلى نواحي حلب واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم وعاثوا في البلاد وعلى حلب يومئذ قشتمر المصوري فبرز إليهم وانتهى إلى خيمهم واستاق نعمهم وتخطى إلى الخيام فاستماتوا دونها وهزموا عساكره وقتل قشتمر وابنه في المعركة وتولى ذلك زامل بيده وذهب إلى القفر متقضاً فولي مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى ثم بعث معيقيل صاحبه سنة إحدى وسبعين يستأمن لخيار فأمنه ثم وفد خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين فرضي عنه السلطان فأعاده إلى إمارته ثم توفي سنة سبع وسبعين فولي أخوه قارة إلى أن توفي سنة إحدى وثمانين فولي

منه وجهز معها للملك الناصر صاحب مصر هدية فخمة مشتملة على خمسمائة من الجياد المغريبات بعدتها وعدة فرسانها من السروج واللجم والسيوف وطرف المغرب وماعونه من شتى أصنافه ومن ثياب الحرير والصوف والكتان وصنائع الجلد حتى ليزعموا أنه كان فيها من أواني الخبز وأصناف الدر والياقوت وما يشبههما في سبيل التودد.

وعرض أحوال المغرب على سلطان المشرق ولعظم قدر هذه الوافدة عند الناصر أوفد معها من عظماء قومه ووزارته وأهل مجلسه فوفدوا على الناصر سنة ثمان وثلاثين وأحلهم بأشرف محل من التكرمة وبعث من اصطبلاته ثلاثين خطلاً من البغال يحملون الهدية من بحر النيل سوى ما تبعها من البختي والجمال وجلس لهم في يوم مشهود ودخلوا عليه وعرضوا الهدية فعم بها أهل دولته إحساناً في ذلك المجلس واستأثر منها على ما زعموا بالدر والياقوت فقط ثم فرقهم في منازلهم وأزله دار كرامته وقد هيئت بالفرش والماعون ووفر لهم الجرايات واستكثر لهم من الأزودة.

وبعث أمراء في خدمتهم إلى الحجاز حتى قضوا فرضهم في تلك السنة وانقلبوا إلى سلطانهم فجهز الناصر معهم هدية إلى ملك المغرب تشتمل على ثياب الحرير المصنوعة بالإسكندرية وعين منها الحمل المتعارف في كل سنة الخزانة السلطان وقيمتها لذلك العهد خمسون ألف دينار وعلى خيمة من خيم السلطان المصنوعة بالشام فيها أمثال البيوت والقباب والكفات مرسة أطرافها في الأرض بأوتاد الحديد والخشب كأنها قباب مائلة وعلى خيمة موزر باطنها من ثياب الحرير العراقية وظاهرها من ثياب القطن الصرافية مستجادة الصنعة بين الحدل والأوتاد أحسن ما يراه من البيوت وعلى صوان من الحرير مزيج الشكل يقام بالحدل الحافظ ظلّه من الشمس وعلى عشرة من الجياد المقربات الملوكية بسروج ولجم ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة مرصعة بالآلئ والفصوص وبعث مع تلك الجياد خدماً يقومون بنبائها المتعارف فيها ووصلت الهدية إلى سلطان المغرب فوقعت منه أحسن المواقع وأعاد الكتب والرسل بالشكر واستحكمت المودة بين هذين السلطانين واتصلت المهاداة إلى أن مضيا لسيبهما والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة الخليفة أبي الربيع وولاية ابنه

قد ذكرنا أيام الظاهر وأنه أقام خليفة بمصر من ولد الراشد وصل يومئذ من بغداد واسمه أحمد بن محمد وذكرنا نسبه هنالك

إلى الراشد وأنه يبيع له بالخلافة سنة ستين وستمئة ولقبه الحاكم فلم يزل في خلافته إلى أن توفي سنة إحدى وسبعمائة وقد عهد لابنه سليمان قبایع له أهل دولة الناصر الكافلون لها ولقبوه المستكفي فبقي خليفة سائر أيام الناصر ثم تنكر له السلطان سنة ست وثلاثين لشيء غمي له عن بنيه فأسكنه بالقلعة ومنعه من لقاء الناس فبقي حولاً كذلك ثم ترك سبيله ونزل إلى بيته ثم كثرت السعاية في بنيه فغريه سنة ثمان وثلاثين إلى قوص هو وبنيه وسائر أقاربه وأقام هنالك إلى أن هلك سنة أربعين قبل مهلك الناصر وقد عهد بالخلافة لابنه أحمد ولقبه الحاكم فلم يمض الناصر عهده في ذلك لأن أكثر السعاية المشار إليها كانت فيه فنصب للخلافة بعد المستكفي ابن عمه إبراهيم بن محمد ولقبه الوائقي وهلك لأشهر قريبة فاتفق الأمراء بعده على إمضاء عهد المستكفي في ابنه أحمد فبايعوه سنة إحدى وأربعين وأقام في الخلافة إلى سنة ثلاث وخسين فتوفي وولي أخوه أبو بكر ولقب المعتضد ثم هلك سنة ثلاث وستين لعشرة أشهر من خلافته ونصب بعده ابنه محمد ولقب المتوكل ونورد من أخباره في أماكنها ما يحضرنا ذكره والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

نكية تنكر ومقتله

كان تنكر مولى من موالى لآشيين اصطفاه الناصر وقربه وشهد معه وقائع التتر وسار معه إلى الكرك وأقام في خدمته مدة خلعه ولما رجع إلى كرسية ومهد أمور ملكه ورتب الولاية لمن يرضاه من أمرائه بعث تنكر إلى الشام وجعله نائباً بدمشق ومشاركاً لسائر بلاد الروم ففتح ملطية ودوخ بلاد الأرمن وكان يتردد بالوفادة على السلطان يشاوره وربما استدعاه للمفاوضة في المهمات واستفحل في دفاع التتر وكياهم ولما توفي أبو سعيد وانقرض ملك بني هلاكو وافترق أمر بغداد وتورين وكانا معاً يجاورانه ويستجداه وسخطه بعضهم فراسل السلطان بغشه وادهانته في طاعته ومعالجة أعدائه وشرع السلطان في استكشاف حاله وكان قد عقد له على بته فبعث داوداره بإجار يستقدمه للأعراس بها وكان عدواً له للمنافسة والغيرة فأشار على تنكر بالمقام وتحليه عن السلطان وغشه في النصيحة وحذر السلطان منه فبعث الملك الناصر إلى طشتمر نائب صفد أن يتوجه إلى دمشق ويقبض عليه فقبض عليه سنة أربعين لثمان وعشرين سنة لولايته بدمشق وبعث الملك الناصر مولاه لشمك إلى دمشق في العساكر فأحاط على موجوده وكان شيئاً لا يعبر عنه من أصناف الممتلكات وجاء به مقيداً فاعتقل بالإسكندرية ثم قتل في محبسه

والله تعالى أعلم.

ويعث به إلى الإسكندرية فاعتقل بها.

وفاة الملك الناصر وابنه أنوك قبله وولاية

ابنه أبي بكر ثم كجك

ثم أقبل السلطان أبو بكر على لذاته ونزع عن الملك وصار يعيش في سكك المدينة في الليل متنكراً خالطاً للسوقة فنكر ذلك الأمراء وخلعه قوصون وقطلوبغا لسبعة وخمسين يوماً من بيعته وبعثوا به إلى قوص فحبس بها وولوا أخاه كجك ولقبوه الأشرف وعزلوا طقمرمد عن النيابة وقام بها قوصون وبعثوا طقمرمد نائباً على حماة وأدالوا به من الأفضل بن المؤيد فكان آخر من وليها من بني المظفر وقبضوا على طاجار الدويدار وبعثوا به إلى الإسكندرية فغرق في البحر وبعثوا بقتل بشتك في محبسه بالإسكندرية والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مقتل قوصون ودولة أحمد بن الملك الناصر

لما بلغ الخبر إلى الأمراء بالشام باستياد قوصون على الدولة غصوا من مكانه واعتزموا على البيعة لأحمد بن الملك الناصر وكان يومئذ بالكرك مقيماً منذ ولده أبوه إمارتها كما قدمناه فكانت طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب واستدعاه إلى الملك وبلغ الخبر إلى مصر فخرج قطلوبغا في العساكر لحصار الكرك وبعثوا إلى طنغا الصالحى نائب دمشق فسار في العساكر إلى حلب للقبض على طشتمر نائب حمص وأخضر وكان قطلوبغا الفخري قد استوحش من صاحبه قوصون وغص باستيادته عليه فلما فصل بالجند من مصر بعث يبعته إلى أحمد بن الملك الناصر بالكرك وسار إلى الشام فأقام دعوته في دمشق ودعا إليها طقمرمد نائب حماة فأجابه وقدم عليه وانتهى الخبر إلى طنغا نائب دمشق وهو يحاصر حلب فافرج عنها ودعاه قطلوبغا إلى بيعة أحمد فأبى فانتقض عليه أصحابه وسار إلى مصر واستولى قطلوبغا الفخري على الشام أجمع بدعوة أحمد ويعث إلى الأمراء بمصر فاجابوا إليها .

واجتمع أيدغمش وأقسنقر السلاوي وغازي ومن تبعهم من الأمراء على البيعة لأحمد واسترأب بهم قوصون كافل المملكة وهم بالقبض عليهم وشاور طنغا الحيواني من عنده من أصحابه في ذلك فغشوه وخذلوهم وركب القوم ليلاً وكان أيدغمش عنده بالاصطبل وهو أمير الماصورية وهم قوصون بالركوب فخذله وثى عزمه ثم ركب معهم واتصلت الهبة ونادى في الغوغاء بنهب بيوت قوصون فنهبوا وخربوها وخربوا الحمامات التي بناها بالقرافة تحت القلعة ونهب شيخها شمس الدين الأصفهاني فسلبوه ثيابه وانطلقت أيدي الغوغاء في البلد ولحقت الناس منهم مضرات في بيوتهم واقتحموا بيت حسام الدين الغوري قاضي

ثم توفي الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون أجد ما كان ملكاً وأعظم استبداداً توفي على فراشه في ذي الحجة آخر إحدى وأربعين وسبعمائة بعد أن توفي قبله بقليل ابنه أنوك فاحتسبه وكانت وفاته لثمان وأربعين سنة من ولايته الأولى في كفالة طنغا ولاثنين وثلاثين من حين استبداده يأمره بعد بيرس وصفا الملك له وولي النيابة في هذه ثلاثة من أمرائه: بيرس الدوادار المؤرخ ثم بكتمر الجوكندار ثم أرغون الدوادار ولم يول أحد النيابة بعده وبقيت الوظيفة عطلاً آخر أيامه.

وأما دوادارته فأيدمر ثم سلاز ثم الحلبي ثم يوسف بن الأسعد ثم بغا ثم طاجارو كتب عنه شرف الدين بن فضل الله ثم علاء الدين بن الأمير ثم محيي الدين بن فضل الله ثم ابنه شهاب الدين ثم ابنه الآخر علاء الدين وولي القضاة في دولته تقي الدين بن دقيق العيد ثم بدر الدين بن جماعة.

وإنما ذكرت هذه الوظائف وإن كان ذلك ليس من شرط الكتاب لعظم دولة الناصر وطول أمدها واستفحال دولة الترك عندها وقدمت الكتاب على القضاة وإن كانوا أحق بالتقديم لأن الكتاب أمس بالدولة فإنهم من أعوان الملك.

ولما اشتد المرض بالسلطان وكان قوصون أحظى عظيم من أمرائه فبادر القصر في عماليكه مسلحين وكان بشتك يضاهيه فارتأب وسلح أصحابه وبدا بينهما التنافس ودس بشتك الشكوى إلى السلطان فاستدعاهما وأصلح بينهما وأراد أن يعهد بالملك إلى قوصون فامتنع فعهده لابنه أبي بكر ومات فمال من عماله بشتك إلى ولاية أحمد صاحب الكرك وأبى قوصون إلا الوفاء بعهد السلطان.

ثم رجع إليه بشتك بعد مراوضة قوبيع أبو بكر ولقب المنصور وقام بأمر الدولة قوصون وردفه قطلوبغا الفخري فولوا على نيابة السلطان طقمرمد وبعثوا على حلب طشتمر وعلى حمص أخضر عوضاً عن طغراي وأقروا كتبنا الصالحى على دمشق ثم استوحش بشتك من استبداد قوصون وقطلوبغا دونه فطلب نيابة دمشق وكان يعجب بها من يوم دخلها للحوطة على تنكر فاستغفوه فلما جاء للوداع قبض عليه قطلوبغا الفخري

ثورة رمضان بن الناصر ومقتله وحصار الكرك ومقتل السلطان أحمد

الخفية فنهبوه وسبوا عياله وقادهم إليه بعض من كان يحنق عليه من الخصوم فجرت عليه معرة من ذلك.

ثم اقتحم أيدغمش وأصحابه القلعة وتقبضوا على قوصون وبعثوا به إلى الإسكندرية فمات في عيسه وكان قوصون قد أخرج جماعة من الأمراء للقاء طنبغا الصالحى فسار قراستقر السلاري في أثرهم وتقبض عليهم وعلى الصالحى وبعث بهم جميعاً إلى الإسكندرية فيما بعد سنة خمس وأربعين وبعث لأحمد بن الملك الناصر وطير إليه بالخبر وتقبض على جماعة من الأمراء واعتقلهم ثم قدم السلطان أحمد من الكرك في رمضان سنة اثنتين وأربعين ومعه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وقطلوبغا الفخر فولى طشتمر نائباً بمصر وقطلوبغا الفخري بعثه إلى دمشق نائباً ثم قبض على أخضر لشهر أو نحوه وقبض على أيدغمش وأقسنقر السلاري ثم ولى أيدغمش على حلب وبلغ الخبر إلى قطلوبغا الفخري قبل وصوله إلى دمشق فعدل إلى حلب واتبعته العساكر فلم يدركوه وتقبض على أيدغمش مجلب وبعث به إلى مصر فاعتقل مع طشتمر وارتاب الأمراء بأنفسهم واستوحش السلطان منهم انتهى والله أعلم.

مسير السلطان أحمد إلى الكرك واتفاق

الأمراء على خلعه والبيعة لأخيه الصالح

ولما استوحش الأمراء من السلطان وارتاب بهم ارتحل إلى الكرك لثلاثة أشهر من بيعته واحتمل معه طشتمر وأيدغمش معتقلين واستصحب الخليفة الحاكم واستوحش نائب صفد بيبرس الأحدي وسار إلى دمشق وهي يومئذ فوضى فتلقاه العسكر وأنزلوه وبعث السلطان في القبض عليه فأبى من إعطاه يده وقال: إنما الطاعة لسلطان مصر وأما صاحب الكرك فلا وطالت غيبة السلطان أحمد بالكرك واضطرب الشام فبعث إليه الأمراء بمصر في الرجوع إلى دار ملكه فامتنع وقال: هذه ملكتي أنزل من بلادها حيث شئت وعمد إلى طشتمر وأيدغمش الفخري فقتلها فاجتمع الأمراء بمصر وكبيرهم بيبرس العلاني وأرغون الكاملى وخلعوه وبايعوا لأخيه إسماعيل في محرم سنة ثلاث وأربعين ولقبوه الصالح فولى أقسنقر السلاري ونقل أيدغمش الناصري من نيابة حلب إلى نيابة دمشق وولى مكانه مجلب طقمرد ثم عزل أيدغمش من دمشق ونقل إليها طقمرد وولى مجلب طنبغا المارداني ثم هلك المارداني فولى مكانه طنبغا البيحايوي واستقامت أموره والله تعالى ولي التوفيق.

ثم إن بعض الممالك داخل رمضان بن الملك الناصر في الثورة بأخيه وواعدوه قبة النصر فركب إليهم وأخلفوه فوقف في ممالكه ساعة يهتفون بدعوته ثم استمر هارباً إلى الكرك واتبعه العسكر مجدين السير في الطريق وجاؤوا به فقتل بمصر وارتاب السلطان بالكثير من الأمراء وتقبض على نائبه أقسنقر السلاري وبعث به إلى الإسكندرية فقتل هنالك وولى مكانه إنجاح الملك ثم سرح العساكر سنة أربع وأربعين لحصار الكرك مترادفة ونزع بعض العساكر عن السلطان أحمد من الكرك فلحقوا بمصر وكان آخر من سار من الأمراء لحصار الكرك قماري ومساري سنة خمس وأربعين فآخذوا بمخنته ثم اقتحموا عليه وملكوه وقتلوه فكان لبث بالملك في مصر ثلاثة أشهر وأياماً وانتقل إلى الكرك في محرم سنة ثلاث وأربعين إلى أن حوصر ومثل به وتوفي في أيامه طنبغا المارداني نائب حلب فولى مكانه طنبغا البيحايوي وسيف الدين طراي الجاشنكير نائب طرابلس فولى مكانه أقسنقر الناصري والله تعالى أعلم.

وفاة الصالح بن الناصر وولاية أخيه الكامل

ثم توفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر حتف أنفه سنة ست وأربعين لثلاث سنين وثلاثة أشهر من ولايته وبويع بعده أخوه زين الدين شعبان ولقب الكامل وقام بأمره أرغوالعلاوي وولى نيابة مصر وعرض لإنجاح الملك إلى صفد ثم رده من طريقه معتقلاً إلى دمشق وبعث إلى القماري الكبير فبعثه إلى حبس الإسكندرية واستدعى طقمرد نائب دمشق وكجك الأشرف المخلوع بن الناصر الذي ولاه قوصون وهلك إنجاح الملك الجوكندار في عيسه بدمشق انتهى والله أعلم.

مقتل الكامل وبيعة أخيه المظفر حاجي

كان السلطان الكامل قد أرهف حده في الاستبداد على أهل دولته فرأوا ما يتوهم فيهم من الحجر عليه فتراسل الأمراء بمصر والشام وأجمعوا الإدالة منهم وانتقض طنبغا البيحايوي ومن معه بدمشق سنة سبع وأربعين وبرز في العساكر يريد مصر وبعث الكامل منجو اليوسفي يستطلع أخبارهم فحبسه البيحايوي واتصل

وحا أثر الخلاف منه ورجع إلى السلطان سنة ثمان وأربعين وقد استوسق أمره فوجد الأمراء مستوحشين من السلطان ومنكرين عليه اللعب بالحمام فتتصح له بذلك يريد إقلاعه عنه فسخط ذلك منه وأمر بالحمام فذبحت كلها وقال لجبقا: أنا أذبح خياركم كما ذبحت هذه. فاستوحش جبقا وغدا على الأمراء والنائب بيقاروس وثاروا بالسلطان وخرجوا إلى قبة النصر وركب المظفر في مواليه والأمراء الذين معه قد داخلوا الآخرين في الثورة ورايهم واحد في خلعه فبعث إليهم الأمير شيخو يتلطف لهم فأبوا إلا خلعه فجاءهم بالخبر.

ثم رجع إليهم وزحف معهم ولحق بهم الأمراء الذين مع المظفر عندما تورط في اللقاء وحمل عليه بيقاروس فأسلمه أصحابه وأمسكه باليد فذبحه في تربة أمه خارج القلعة ودفن هناك ودخلوا القلعة في رمضان من السنة وأقاموا عامة يومهم يتشاورون فيمن يولونه حتى هم أكثر الموالى بالثورة والركوب إلى قبة النصر فحينئذ بايعوا حسن بن الملك الناصر ولقبوه الناصر بلقب أبيه فوكل بأخيه حسين ومواليه لنفسه ونقل المال الذي بالخوش فوضعه بالخزانة وقام بالدولة ستة من الأمراء وهم شيوخا وطازا والجبقا وأحمد شادي والشرنخانة وأرغون الإسماعيلي والمستبد عليهم جميعاً بيقاروس ويعرف بالقاسمي فقتل الحجازي وأقسنقر القائمين بدولة المظفر بمحبسهما بالقلعة وولي بيقاروس نائباً بمصر فكان أرقطاي وأرغون شاه نائباً بحلب مكان تدمير البديري ثم نقله إلى دمشق منذ مقتل اليحياوي وولى مكانه بحلب أياس الناصر ثم نقض بيقاروس على رفيقه أحمد شادي الشرنخانة وغربه إلى صفد وأبعد الجبقا من رفقة وبعث نائباً على طرابلس وبعث أرغون الإسماعيلي منهم نائباً على حلب.

وفي هذه السنة وقعت الفتنة بينه وبين مهنا بن عيسى ولقبه فهزموه ووفد أحمد أخوه على السلطان فولاه إمارة العرب وهدأت الفتنة بينهم ثم هلك سنة تسع وأربعين بعدها وولى أخوه فياض كما مر في أخبارهم والله تعالى أعلم.

مقتل أرغون شاه نائب دمشق

كان خب هذه الواقعة الغريبة أن الجبقا بعثه نائباً على طرابلس وسار صحبة أياس الحاجب نائباً على حلب سنة خمسين وانتهوا إلى دمشق ونما إلى الجبقا عن أرغون شاه أنه تعرض لبعض حرمه بصنيع جمع فيه نسوان أهل الدولة بدمشق فكتب إليه ليلاً وطرقه في بيته فلما خرج إليه قبض عليه وذبحه في ربيع وصنع

الخبر بالكامل فجرد العساكر إلى الشام واعتقل حاجي وأمير حسين بالقلعة واجتمع الأمراء بمصر للثورة وركبوا إلى قبة النصر مع أيديم الحجازي وأقسنقر الناصري وأرغون شاه فركب إليهم الكامل في مواليه ومعه أرغون العلوي نائبه فكانت بينهما جولة هلك فيها أرغون العلوي.

ورجع الكامل إلى القلعة منهزماً ودخل من باب السر مخفياً وقصد محبس أخويه ليقتلهم فحال الخدام دونهما وغلقت الأبواب وجمع الذخيرة ليحملها فعاجلوه عنها ودخلوا القلعة وقصدوا حاجي بن الناصر فأخرجوه من معتقله وجاؤوا به فبايعوه ولقبوه المظفر وانفتقوا الكامل وتهددوا جواريه بالقتل فدلوا عليه واعتقل مكان حاجي بالدعشة وقتل في اليوم الثاني وأطلق حسين وقام بأمر المظفر حاجي أرغوشاه الحجازي وولوا طقتمر الأحدي نائباً بحلب والصلاحي نائباً بمحصر وحبس جميع موالى الكامل وأخرج صندوق من بيت الكامل قيل: إن فيه السحر فأحرق بمحضر الأمراء ونزع المظفر حاجي إلى الاستبداد كما نزع أخوه فقبض على الحجازي والناصري وقتلها لأربعين يوماً من ولايته وعلى أرغون شاه وبعثه نائباً إلى صفد.

وجعل مكان طقتمر الأحدي في حلب تدمير البديري وولى على نيابة الحاج أرقطاي وأرهدف حده في الاستبداد وارتاب الأمراء بمصر والشام وانتقض اليحياوي بدمشق سنة ثمان وأربعين وداخله نواب الشام في الخلاف ووصل الخبر إلى مصر فاجتمع الأمراء وتواعدوا للوثوب ونفي الخبر إلى المظفر فأركب مواليه من جوف الليل وطافوا بالقلعة وتداعى الأمراء إلى الركوب واستدعاهم من الغد إلى القصر وقبض على كل من اتهمه منهم بالخلاف وهرب بعضهم فأدرك بساحة البلد واعتقلوا جميعاً وقتلوا من تلك الليلة وبعث بعضهم إلى الشام فقتلوا بالطريق وولى من الغد مكانهم خمسة عشر أميراً ووصل الخبر إلى دمشق فلذا اليحياوي بالمغالطة يخادع بها وقبض على جماعة من الأمراء وكان السلطان المظفر قد بعث الأمير الجبقا من خاصته إلى الشام عندما بلغه انتفاض طينغا اليحياوي يستطلع أخباره فحمل الناس على طاعة المظفر وأغراهم باليحيوي حتى قتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر وسكنت الفتنة واستوسق الملك للمظفر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل المظفر حاجي بن الناصر وبيعة أخيه

حسن الناصر ودولته الأولى

قد كنا قدما أن السلطان بعث جبقا إلى الشام حتى مهده

اليمن وقيد المجاهد إلى مصر فاعتقل بها حتى أطلق في دولة الصالح سنة اثنين وخمسين وتوجه معه قشتمر المنصوري ليعيده إلى بلاده فلما انتهى إلى البنيع أشيع عنه أنه هم بالهرب فقبض عليه قشتمر المنصوري وحبسه بالكرك ثم أطلق بعد ذلك وأعيد إلى ملكه والله أعلم.

خلع حسن الناصر وولاية أخيه الصالح

لما قبض السلطان حسن على بيقاروس وحبسه وتنكر لأهل دولته ورفع عليهم مغلطي واختصه واستوحشوا لذلك وتفاوضوا وداخل طاز وهو كبيرهم جماعة من الأمراء في الثورة وأجابه إلى ذلك بيقو الشمسي في آخرين واجتمعوا لخلعه وركبوا في جمادى سنة اثنين وخمسين فلم يمانعهم أحد وملكوا أمرهم ودخلوا القلعة وقبض طاز على حسن الناصر واعتقله وأخرج أخاه حسيناً من اعتقاله فبايعه ولقبه الصالح وقام بحمل الدولة وأخرج بيقو الشمسي إلى دمشق وبيقر إلى حلب أسيرين وانفرد بالأمر ثم نافسه أهل الدولة واجتمعوا على الثورة وتولى كبر ذلك مغلطي ومنكلي وبيقا القمري وركبوا فيمن اجتمع إليهم إلى قبة النصر للحرب فركب طاز وسلطانه الصالح في جموعه وحمل عليهم فقبض جمعهم وأخذ فيهم وقبض على مغلطي ومنكلي فحبسهما بالإسكندرية وأفرج عن منجك وعن شيخو وجعله أتابكه على العساكر وأشركه في سلطانه وولى سيف الدين مسلاي نيابته واختص سرغتمش ورقاه في الدولة وقبض على الشمسي الحمدي نائب دمشق ونقل إليها لكاعة أرغون الكامل من حلب وأفرج عن بيقاروس بالكرك ويعشه مكانه إلى حلب ثم تغير منجك واختفى بالقاهرة والله تعالى أعلم.

انتقاض بيقاروس واستيلاؤه على الشام

ومسير السلطان إليه ومقتله

قد تقدم لنا ذكر بيقاروس وقيامه بدولة حسن الأولى ونكته في طريقه إلى الحج بالكرك ولما أطلقه طاز وولاه على حلب أدركته المنافسة والغيرة من طاز واستبداده بالدولة فحذته نفسه بالخلاف وداخل نواب الشام ووافقه في ذلك بالكمش نائب طرابلس وأحمد شادي الشرخانة نائب صفد وخالفه أرغون الكامل نائب دمشق وتمسك بالطاعة وتعاهد هؤلاء على الخلاف مع شيخو وسرغتمش في رجب سنة ثلاث وخمسين ثم دعا

مرسوماً سلطانياً دافع به الناس والأمراء واستصفى أمواله ولحق بطرابلس وجاء الأمر من مصر باتباعه وإنكار المرسوم الذي أظهروه فزحفت العساكر من دمشق وقبضوا على الجبغا وأياس الحاجب بطرابلس وجاؤوا بهما إلى مصر فقتلا وولي الشمس الناصري نيابة دمشق مع أرغون شاه وصلب أرغون الكافلي وذلك في جمادى سنة خمسين وأصل أرغوشاه من بلاد الصين جلب إلى السلطان أبي سعيد ملك التتر بيغداد فأعطاه للأمير خواجا نائب جوبان وأهداه خواجا للملك الناصر فحظي عنده وقدمه رأس نوبة وزوجه بنت عبد الواحد ثم ولاه الكامل أستاذ دار ثم عظمت مرتبته أيام المظفر وجعل نائباً في صفد ثم حلب. ولما حبس طنبغا اليحياوي على دمشق بسعاية الجبغا كما مر ولى أرغون شاه بدمشق والله سبحانه وتعالى أعلم.

نكبة بيقاروس

ثم إن السلطان حسن شرع في الاستبداد وقبض على منجك اليوسفي أستاذ داره وعلى السلحدار واعتقلهما من غير مشورة بيقاروس وأصحابه وكان لمنجك اختصاص بيقاروس وأخوه معه فارتاب واستأذن السلطان في الحج هو وطاز فأذن لهما ودس إلى طاز بالقبض على بيقاروس وسارا لشأنهما فلما نزلا بالبنيع قبض طاز على بيقاروس فخرج ورغب إليه في أن يتركه يحج مقيداً فتركه فلما قضى نسكه ورجعوا حبسه طاز بالكرك بأمر السلطان وأفرج عنه بعد ذلك وولي نيابة حلب وانتقض بها كما نذكر بعد إن شاء الله تعالى وبلغ خبر اعتقاله إلى أحمد شادي الشرخانة بصدد فانتقض وجهاز السلطان إليه العساكر فقبض عليه وجيء به إلى مصر فاعتقل بالإسكندرية وقام بالدولة مغلطي من أمرائها والله تعالى أعلم.

واقعة الظاهر ملك اليمن بمكة واعتقاله ثم

إطلاقه

كان ملك اليمن وهو المجاهد علي بن داود المؤيد قد جاء إلى مكة حاجاً سنة إحدى وخمسين وهي السنة التي حج فيها طاز وشاع في الناس عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتتكر وفد المصريين لوفد اليمنيين ووقعت في بعض الأيام هبة في ركب الحاج فتحاربوا وانهزم المجاهد وكان بيقاروس مقيداً فأطلقه وأركبه ليستعين به فجلا في تلك الهبة وأعيد إلى اعتقاله ونهب حاج

السلاح ويقبلوا على الفلاحة والله تعالى أعلم.

خلع الصالح وولاية حسن الناصر الثانية

كان شيخو أتابك العساكر قد ارتاب بصاحبه طاز فداخل الأمراء بالثورة بالدولة وتربص بها إلى أن خرج طاز سنة خمس وخمسين إلى البحيرة متصيداً وركب إلى القلعة فخلع الصالح ابن بنت تنكرز وقبض عليه وألزمه بيته ثلاث سنين كوامل من دولته وباع لحسن الناصر أخيه وأعادته إلى كرسيه وقبض على طاز فاستدعاه من البحيرة فبعثه إلى حلب نائباً وعزل أرغون الكامل فلقح بدمشق حتى تقبض عليه سنة ست وخمسين وسبق إلى الإسكندرية فحبس بها وبلغ الخبر بوفاة الشمسي الأحمدي نائب طرابلس وولى مكانه منجك واستبد شيخو بالدولة وتصرف بالأمر والنهي وولى على مكة عجلان بن رميثة وأفرده بإمارتها وكانت له الولاية والعزل والحل والعقد سائر أيامه واعتمده الملوك من النواحي شرقاً وغرباً بالمخاطبات وكان رديفه في حمل الدولة سرغتمش من موالي السلطان والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده بمته.

مهلك شيخو ثم سرغتمش بعده واستبداد السلطان بأمره

لم يزل شيخو مستبداً بالدولة وكافلاً للسلطان حتى وثب عليه يوماً بعض الموالي بمجلس السلطان في دار العدل في شعبان سنة ثمان وخمسين واعتمده في دخوله من باب الإيوان وضربه بالسيف ثلاثاً أصاب بها وجهه ورأسه وذراعيه فخر للبلدين ودخل السلطان بيته وانفض المجلس واتصلت الهيعة بالعسكر خارج القلعة فاضطربوا واقتحم موالي شيخو القلعة إلى الإيوان يقدمهم خليل بن قوصون وكان ربيبه لأن شيخو تزوج بأمه فاحتمل شيخو إلى منزله وأمر الناصر بقتل المملوك الذي ضربه فقتل ليومه وعاده الناصر من الغد وتوكل من الوثبة أن تكون بأمره وأقام شيخو عليلاً إلى أن هلك في ذي القعدة من السنة وهو أول من سمي الأمير الكبير بمصر واستقل سرغتمش رديفه بحمل الدولة وبعث عن طاز فأمسكه بحلب وحبسه بالإسكندرية وولى مكانه الأمير علياً المارداني نقله إليها من دمشق وولى مكانه بدمشق منجك اليوسفي.

ثم تقبض السلطان على سرغتمش في رمضان سنة تسع

ببقاروس العرب والتركمان إلى الموافقة فأجابه جبار بن مهنا من العرب وقراجا بن العادل من التركمان في جموعهما وبرز من حلب بقصد دمشق فأجفل عنها أرغون النائب إلى غزة واستخلف عليها الجبقا العادلي ووصل ببقاروس فملكها وامتنت القلعة فحاصرها وكثر العيث من عساكره في القرى وسار السلطان الصالح وأمراء الدولة من مصر العساكر في شعبان من السنة وأخرج معه الخليفة المعتضد أبا الفتح أبا بكر بن المستكفي وعشر بين يدي خروجه على منجك ببعض البيوت لسنة من اختفائه فبعث به سرغتمش إلى الإسكندرية وبلغ ببقاروس خروج السلطان من مصر فأجفل عن دمشق وثار العوام بالتركمان فأنخنوا فيهم.

ووصل السلطان إلى دمشق ونزل بالقلعة وجهاز العساكر في اتباع ببقاروس فجاؤوا بجماعة من الأمراء الذين كانوا معه فقتل السلطان بعضهم ثالث الفطر وحبس الباقين وولى على دمشق الأمير علياً المارداني ونقل منها أرغون الكامل إلى حلب وسرح العساكر في طلب ببقاروس مع مغلطي الدوادار وعاد إلى مصر فدخلها في ذي القعدة من السنة وسار مغلطي في طلب ببقاروس وأصحابه فأوقع بهم وتقبض على ببقاروس وأحمد وقطلمش وقتلهم وبعث برؤوسهم إلى مصر أوائل سنة أربع وخمسين وأوعز السلطان إلى أرغون الكامل نائب حلب بأن يخرج في العساكر لطلب قراجا بن العادل مقدم التركمان فسار إلى بلده البلسين فوجدها مقفرة وقد أجفل عنها فهدمها أرغون واتبع إلى بلاد الروم فلما أحس بهم أجفل ولحق بابن أرشا قائد المغل في سيواس ونهب العساكر أحياء واستاقوا مواشيه ثم قبض عليه ابن أرشا قائد المغل وبعث به إلى مصر فقتل بها وسكنت الفتنة وأطلق المعتقلون بالإسكندرية وتأخر منهم مغلطي ومنجك أياماً ثم أطلقوا وغربا إلى الشام والله تعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد

وفي أثناء هذه الفتنة كثر فساد العرب بالصعيد وعيئهم واتهبوا الزروع والأموال وتولى كبر ذلك الأحذب وكثرت جموعه فخرج السلطان في العساكر سنة أربع وخمسين ومعه طاز وسار شيخو في المقدمة فهزم العرب واستلحم جموعهم وامتلاأت أيدي العساكر بغنائمهم وخلص السلطان من الظهر والسلاح ما لا يعبر عنه وأسر جماعة منهم فقتلوا وهرب الأحذب حتى استأمن بعد رجوع السلطان فأمنه على أن يمتنعوا من ركوب الخيل وحمل

بالاستراتيجية فركب إليه الناصر بنفسه فيمن حضره من مماليكه وخواص أمرائه تاسع جمادى من السنة وبرز إليه بيبقا وقد أئذره واعتدله فصدقه القتال في ساحة خيمه.

وانهزم أصحاب السلطان عنه ومضى إلى القلعة وبيبقا في اتباعه فامتنع الحراس بالقلعة من إخافة طارقة جوف الليل فتسرب في المدينة واختفى في بيت الأمير ابن الأركشي بالحسينية وركب الأمراء من القاهرة مثل ناصر الدين الحسيني وقشتمر المنصوري وغيرهما لمداغمة بيبقا فلقبهم ببولاق وهزمهم واجتمع ثانية وثالثة وهزمهم وتكرر الناصر مع أيدير الدودار محاولان النجاة إلى الشام واطلع عليهما بعض المماليك فوشى بهما إلى بيبقا فبعث من أحضره فكان آخر العهد به ويقال: إنه امتحنه قبل القتل فدلّه على أموال السلطان وذخائره وذلك لست سنين ونصف من مملكه.

ثم نصب بيبقا للملك محمد بن المظفر حاجي ولقبه المنصور وقام بكفالاته وتدير دولته وجعل طنبغا الطويل رديفه وولى قشتمر المنصوري نائباً وغشتمر أمير مجلس وموسى الأركشي استاذ دار وأفرج عن القاسمي وبعثه نائباً بالكرك وأفرج عن طاز وقد كان عمي فبعثه إلى القدس بسؤاله ثم إلى دمشق ومات بها في السنة بعدها وأقر عجلان في ولاية مكة وولى على عرب الشام جبار بن منها وأمسك جماعة من الأمراء فحبسهم والله تعالى أعلم.

انتقاض استدمر بدمشق

ولما اتصل بالشام ما فعله بيبقا وأنه استبد بالدولة وكان استدمر نائباً بدمشق كما قدمناه امتنع لذلّك وأجمع الانتقاض وداخله في ذلك مندمر وألبري ومنجك اليوسفي واستولى على قلعة دمشق وسار في العساكر ومعه السلطان المنصور ووصل إلى دمشق واعتصم القوم بالقلعة وترددت بينهما القضاة بالشام حتى نزلوا على الأمان بعد أن حلف بيبقا فلما نزلوا إليه بعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وولى الأمير المارداني نائباً بدمشق وقطولوغا الأحدي نائباً بجلب مكان أحمد بن القتمري بصدد وعاد السلطان المنصور وبيبقا إلى مصر والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة المعتضد بن المستكفي وولاية

ابنه المتوكل

قد تقدم لنا أن الخليفة المستكفي لما توفي قبل وفاة الملك الناصر عهد لابنه أحمد ولقبه الحاكم وأن الناصر عدل عنه إلى

وخسين وعلى جماعة من الأمراء معه مثل مغلطاي الدودار وطشتمر القاسمي الحاجب وطنبغا المجاري وخليل بن قوصون ومحا السلحدار وغيرهم وركب مواليه وقتلوا ممالك السلطان في ساحة القلعة صدر نهار ثم انهزموا وقتلوا واعتقل سرغتمش وجماعته المنكوبون بالإسكندرية وقتل بحبسهم لسبعين يوماً من اعتقاله وتحطت النكبة إلى شيعته وأصحابه من الأمراء والقضاة والعمال وكان الذي تولى نكبة هؤلاء كلهم بأمر السلطان منكلي بيبقا الشمسي.

ثم استبد السلطان بملكه واستولى على أمره وقدم مملوكه بيبقا القمري وجعله أمير ألف وأقام في الحجابة الجاي اليوسفي ثم بعثه إلى دمشق نائباً واستقدم منجك نائب دمشق فلما وصل إلى غزة استتر واختفى فولى الناصر مكانه بدمشق الأمير علياً المارداني نقله من حلب وولى على حلب سيف الدين بكتمر المؤمني ثم أдал من علي المارداني في دمشق باستدمر ومن المؤمني في حلب بمندمر الحوراني وأمره السلطان سنة إحدى وستين بغزو سيس وفتح أذنة وطرسوس والمصيصة في حصون أخرى وولى عليها ورجع فولاه السلطان نيابة دمشق مكان استدمر وولى على حلب أحمد بن القتمري ثم عثر بدمشق سنة إحدى وستين على منجك بعد أن نال العقاب بسببه جماعة من الناس فلما حضر عفا عنه السلطان وأمه وخيره في النزول حيث شاء من بلاد الشام وأقام السلطان بقية دولته مستبداً على رجال دولته وكان يأسر بالعلماء والقضاة ويجمعهم في بيته متبذلاً ويفاضهم في مسائل العلم ويصلهم ويحسن إليهم ويغاثلهم أكثر ممن سواهم إلى أن انقرضت دولته والبقاء لله وحده.

ثورة بيبقا ومقتل السلطان حسن وولاية

منصور ابن المعظم حاجي في كفالة بيبقا

كان بيبقا هذا من موالى السلطان حسن وأعلامهم منزلة عنده وكان يعرف بالخاصكي نسبة إلى خواص السلطان وكان الناصر قد رماه في مراتب الدولة وولاه الإمارة ثم رفعه إلى الأتابكية وكان لجنوحه إلى الاستبداد كثيراً ما يوح بشكايه مثل ذلك فأحضره بعض الليالي بين حرمه وصرفه في جملة من الخدمة لبعض مواليه وقادها فأسرّها بيبقا في نفسه واستوحش وخرج السلطان سنة اثنتين وستين إلى كوم برى وضرب بها خيامه وأذن للخاصكي في خيمه قريباً منه ثم غي عنه خبر الانتقاض فأجمع القبض عليه واستدعاه فامتنع من الوصول وربما أشعره داعيه

الحجارة المحيطة بها في كل ناحية.

ثم غلب لهذه العصور أهل جنوة من الإفرنج على جزيرة رودس حازتها من يد لشكري صاحب القسطنطينية سنة ثمان وسبعمائة وأخذوا بمخفها وأقام أهل قبرص معهم بين فتنة وصلح وسلم وحرب آخر أيامهم وجزيرة قبرص هذه على مسافة يوم وليلة في البحر قبالة طرابلس منصوبة على سواحل الشام ومصر واطلعوا بعض الأيام على غرة في الإسكندرية وأخبروا حاجبهم وعزم على انتهاز الفرصة فيها فنهض في أساطيله واستنفر من سائر الإفرنج ووافى مرساها سبع عشر من المحرم سنة سبع وستين في أسطول عظيم يقال: بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدة وبالعدد ومعه الفرسان المقاتلة بجيولهم.

فلما أرسى بها قدمهم إلى السواحل وعى صفوفه وزحف وقد غص الساحل بالنظارة برزوا من البلد على سبيل الزهة لا يلقون بالاً لما هو فيه ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب وحاميتهم يومئذ قليلة وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية ونائبها القائم بمصالحها في الحرب والسلام وهو يومئذ خليل بن عوام غائب في قضاء فرضه فما هو إلا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونضحوا العوام بالنبل فاجفلوا متسابقين إلى المدينة وأغلقت أبوابها وصعدوا إلى الأسوار ينظرون ووصل القوم إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة واضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض ثم اجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيائهم ولولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم وسالت بهم الطرق والأباطح ذاهبين في غير وجه حيرة ودهشة وشعر بهم الأعراب أهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم وتوسط الإفرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور وأسواق البر ودكاكين الصيارفة ومودعات التجار وملأوا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والأسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء ثم تسائل إليهم الصريح من العرب وغيرهم فأنكفأ الإفرنج إلى أساطيلهم وانكشوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد.

وطار الخبر إلى كافل الدولة بمصر الأمير بيقا فقام في مكانه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعه ابن عوام نائب الإسكندرية منصرفه من الحج وفي مقدمته خليل بن قوصون وقطلوبغا الفخري من أمرائه وعزائهم مرهفة ونياتهم في الجهاد صادقة حتى بلغهم الخبر في طريقهم بإقلاع العدو فلم يثب ذلك واستمر إلى الإسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد فأمر بهدم ذلك وإصلاحه ورجع أدراجه إلى دار الملك وقد

إبراهيم بن محمد عم المستكفي ولقبه الوائق فلما توفي الناصر آخر سنة إحدى وأربعين وأغار الأمراء القائمون بالدولة والأمير أحمد الحاكم بن المستكفي ولي عهده فلم يزل في خلافته إلى أن هلك سنة ثلاث وخمسين لأول دولة الصالح سبط تنكز وولى بعده أخوه أبو بكر بن المستكفي ولقب المعتضد ثم توفي سنة ثلاث وستين لعشرة أعوام من خلافته وعهد إلى ابنه أحمد قولي مكانه ولقب المستكفي والله تعالى أعلم.

خلع المنصور وولاية الأشرف

ثم بدا البيقا الخاصكي في أمر المنصور محمد بن حاجي فخلعه استرتابه به في شعبان سنة أربع وستين لسبعة وعشرين شهراً من ولايته ونصب مكانه شعبان بن الناصر حسن بن الملك الناصر وكان أبوه قد توفي في ربيع الآخر من تلك السنة وكان آخر بني الملك الناصر فمات قولي ابنه شعبان ابن عشر سنين ولقبه الأشرف وتولى كفالته وفي سنة خمس وستين عزل المارداني من دمشق وولى مكانه منكلي بغا نقله من حلب. وولى مكانه قطلوبغا الأحدي وتوفي قطلوبغا قولي مكانه غشقتمر المارداني. ثم عزل غشقتمر سنة ست وستين قولي مكانه سيف الدين فرجي وأوعز إليه سنة سبع وستين أن يسير في العساكر لطلب خليل بن قراجا بن العادل أمير التركمان فيحضره معتقلاً تسار إليه وامتنع في خرت برت فحاصره أربعة أشهر واستأمن خليل بعدها وجاء إلى مصر فأمنه السلطان وخلع عليه وولاه ورجع إلى بلده وقومه والله تعالى أعلم.

واقعة الإسكندرية

كان أهل جزيرة قبرص من أمم النصرانية وهم من بقايا الروم وإنما يتسبون لهذا العهد إلى الإفرنج لظهور الإفرنج على سائر أمم النصرانية وإلا لقد نسبهم هروشيوش إلى كيتم وهم الروم عندهم ونسب أهل رودس إلى دوداتم وجلعهم إخوة كيتم ونسبهما معاً إلى رومان وكانت على أهل قبرص جزية معلومة يؤدونها لصاحب مصر وما زالت مقررة عليهم من لدن فتحها على يد معاوية أمير الشام أيام عمر وكانوا إذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون في سواحلها حتى يستقيموا لأداء الجزية وتقدم لنا آنفاً في دولة الترك أن الظاهر يبهرس بعث إليها سنة تسع وستين وستمائة أسطولاً من الشواني وطرقت مرساها ليلاً فتكسرت لكثرة

ثورة المماليك بيبقا ومقتله واستبداد

استدمر

كان طبقاً قد طال استبداده على السلطان وثقلت وطائنه على الأمراء وأهل الدولة وخصوصاً على مماليكه وكان قد استكثر من المماليك وأرهف حده لهم في التأديب وتجاوز الضرب فيهم بالعصا إلى جدد الأنوف واصطلام الأذان فكتبوا الأمر في نفوسهم وضمايرهم لذلك وطوروا على الغش وكان كبير خواصه استدمر واقتان الأحدي ووقع في بعض الأيام بمثل هذه العقوبة في أخي استدمر فاستوحش له وارتاب وداخل سائر الأمراء في الثورة يرون فيها نجاتهم منهم وخلصوا النجوى مع السلطان فيه واقتضوا منه الإذن وسرح السلطان بيبقا إلى البحيرة في عام ثمان وسبعين واتفق هؤلاء المماليك المتفاضون في الثورة بمنزل الطرانة ويتوا له فيها ونمي إليه خبرهم ورأى العلامات التي قد أعطاها من أمرهم فركب مركباً في بعض خواصه وخاض النيل إلى القاهرة وتقدم إلى نوابية البحر أن يرسوا سفنهم عند العدو الشرقية ويمنعوا العبور كل من يرومه من العدو الغربية.

وخالفه استدمر واقتان إلى السلطان في ليلتهم وبايعوه على مقاطعة بيبقا ونكتبته ولما وصل بيبقا إلى القاهرة جمع من كان بها من الأمراء والحجاب من مماليكه وغيرهم وكان بها أيبك البدري أمير ماخورية فاجتمعوا عليه وكان يقيم النظامي وأرغون ططن بالعباسية سارحين فاجتمعوا إليه فخلع الأشرف ونصب أخاه أتوك ولقبه المنصور وأحضر الخليفة فولاه واستعد للحرب وضرب غيمه بالجزيرة الوسطى على عدوة البحر ولحق به من كانت له معه صاغية من الأمراء الذين مع السلطان بصحابة أو أمر أو ولاية مثل بيبقا العلاني الدوادار ويونس الرمام وكمشيقا الحموي وخليل بن قوصون ويعقوب شاه وقرايقا البدري وابتغا الجوهري ووصل السلطان الأشرف من الطرانة صبيحة ذلك اليوم على التعية قاصداً دار ملكه وانتهى إلى عدوة البحر فوجدتها مقفرة من السفن فخيم هنالك وأقام ثلاثاً وبيبقا وأصحابه قبائلهم بالجزيرة الوسطى يفضحونهم بالنبل ويرسلون عليهم الحجارة من المجانيق وصواعق الأنفاط وعوالم النظارة في السفن إلى أن توسط فيركبونها ويحرقونها بالمجاذيف إلى ناحية السلطان حتى كملت منها عدة وأكثرها من القربان التي أنشأها بيبقا وأجاز فيها السلطان وأصحابه إلى جزيرة الفيل وسار على التعية وقد ملأت عساكره وتابعه بسط الأرض وتراكم القتام بالجو وغشيت سحابه موكب بيبقا وأصحابه تقدموا للدفاع وصدقتهم عساكر السلطان القتال

امتلات جوانحه غيظاً وحنقاً على أهل قبرص فأمر بإنشاء مائة أسطول من الأساطيل التي يسمونها القربان معتزماً على غزو قبرص فيها بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية واحتفل في الاستعداد لذلك واستكثر من السلاح وآلات الحصار وكمل غرضه من ذلك كله في رمضان من السنة لثمانية أشهر من الشروع فيه فلم يقدر على تمام غرضه من الجهاد لما وقع من العوائق كما نقصه والله تعالى ولي التوفيق.

ثورة الطويل ونكتبته

كان طنبغا الطويل من موالى السلطان حسن وكانت وظيفته في الدولة أمير سلاح وهو مع ذلك رديف بيبقا في أمره وكان يؤمل الاستبداد ثم حدث له المنافسة والغيرة من بيبقا كما حدث لسائر أهل الدولة عندما استكمل أمره واستفحل سلطانه وداخلوا الطويل في الثورة وكان دوادار السلطان أرغون الأشقري وأستاذ دار الحمدي وبينما هم في ذلك خرج الطويل للسرحة بالعباسية في جمادى سنة سبع وستين وفشا الأمر بين أهل الدولة فمني إلى بيبقا واعتزم على إخراج الطويل إلى بلاد الشام وأصدر له المرسوم السلطاني بنبابة دمشق وبعث به إليه وبالخلعة على العادة مع أرغون الأشقري الدوادار وروس الحمدي أستاذ دار من المداخلين له ومعه أرغون الأرفي وطنبغا العلاني من أصحاب بيبقا فردهم الطويل وأساء إليهم وواعد بيبقا قبة النصر فهزهم وقبض على الطويل والأشقري والحمدي وحبسوا بالإسكندرية.

ثم شفع للسلطان في الطويل في شهر شعبان من السنة وبعثه إلى القدس ثم أطلق الأشقري والحمدي وبعث بهما إلى الشام وولى مكان الطويل طيدمر الباسلي ومكان الأشقري في الدويدارية طنبغا الأبى بكرى ثم عزله بيبقا العلاني وولى مكانه روس العادل الحمدي وكان جماعة من الأمراء أهل وظائف في الدولة قد خرجوا مع الطويل وحبسوا فولى في وظائفهم أمراء آخرين ممن لم تكن له وظيفة واستدعى عن منكلي بيبقا الشمسي نائب دمشق إلى مصر يطلبه فقدم نائباً مجلب مكان سيف الدين برجى وأذن له في الاستكثار من العساكر وجعلت رتبته فوق نائب دمشق وولى مكانه بدمشق أقطمر عبد العزيز انتهى والله تعالى أعلم.

النظامي وعلى بحماس الطازي والجانيي اليوسفي وأرغون التتر وكثير من أمراء الألوف ومن دونهم واستولى استدمر وأصحابه الأجلاب على السلطان كما كانوا وولى مكان المحبوسين من الأمراء وأهل الوظائف وعاد خليل بن قوصون على امرته وعزل قشتمر عن طرابلس وحبس بالإسكندرية واستبدل بكثير من أمراء الشام واستمر الحال على ذلك بقية السنة والإجلاب على حالهم في الاستهتار بالسلطان والرعية فلما كان محرم سنة تسع وستين عادوا إلى الإجلاب على الدولة فركب أمراء السلطان إلى استدمر يشكونهم ويعاتبونهم في شأنهم فقبض على جماعة منهم كسر بهم الفتنة وذلك يوم الأربعاء سادس صفر فلما كان يوم السبت وعاودوا الركوب ونادوا بخلع السلطان فركب السلطان في مماليكه وغو الماتين والتف عليهم العوام وقد حنقوا على الأجلاب بشرائهم فيهم.

وركب استدمر في الإجلاب على التعبئة وهم ألف وخمسمائة وجاؤوا من وراء القلعة على عادتهم حتى شارفوا القوم فأحجموا ووقفوا وأدلفتهم الحجارة من أيدي العوام بالمقاليع وحملت عليهم العساكر فانهزموا وقبض على أبقا السرجتمشي وجماعة معه فحبسوا بالخزانة ثم جيء باستدمر أسيراً وشفع فيه الأمراء فشفعهم السلطان وأطلقه باقياً على أتاكيتيه ونزل إلى بيته يقبض الكيس وكان خليل بن قوصون تولى أتاكياً في تلك الفترة فأمره السلطان أن يباكر به لحبسه من الغد فركب خليل إلى بيته وحمله على الانتفاض على أن يكون الكرسي لخليل بعلاقة نسبته إلى الملك الناصر من أمه فاجتمع منهم جماعة من الأجلاب وركبوا بالرميلة فركب إليهم السلطان والأمراء في العساكر فانهزموا وقتل كثير منهم وبعثوا بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وقتل كثير ممن أسر في تلك الواقعة منهم وطيف بهم على الجمال وفي أقطار المدينة ثم تتبع بقية الأجلاب بالقتل والحبس بالثغور القاصية وكان من حبس منهم بالكرك بقوق العثماني الذي ولي الملك بعد ذلك بمصر وبركة الجولاني وطنبغا الجوساني وجركس الخليلي ونعنع وأقاموا كلهم متلفين بين السجن والثفي إلى أن اجتمع شملهم بعد ذلك كما نذكره واستبد السلطان بأمره بعض الشيء وأفرج عن الجانيي اليوسفي وطفتم النظامي وجماعة من المسجونين من أمرائه وولى الجانيي أمير سلاح وولى بيبقا المنصوري وبكتمر المحمدي من أمراء الإجلاب في أتاكيتية شريكين ثم غي عنهم أنهما يرومان الثورة وإطلاق المسجونين من الأجلاب والاستبداد على السلطان فقبض عليهما وبعث عن منكلي بغا الشمسي من حلب وأقامه في أتاكيتية واستدعى أمير علي المارداني من دمشق وولاه النيابة

فانفضوا عن بيبقا وتركوه أوحش من وتد في قلاع فولى منهزماً ومر بالميدان فصلى ركعتين عند بابه واستمر إلى بيته والعوام ترجمه بطريقه.

وسار السلطان في تعبيته إلى القلعة ودخل قصره وبعث عن بيبقا فجيء به واعتقل بحبس القلعة سائر يومه فلم غشي الليل ارتاب الممالك بحياته وجاؤوا إلى السلطان يطلبونه وقد أضمرؤا الفتك به وأحضره السلطان وبينما هو مقبل على التضرع للسلطان ضربه بعضهم فأبان رأسه وارتاب من كان منهم خارج القصر في قتله فطلبوا معانيته ولم يزلوا يناولون رأسه من واحد إلى واحد حتى رماه آخرهم في مشعل كان بإزائه ثم دفن وفرغ من أمره وقام بأمر الدولة استدمر الناصري ورديفه بيبقا الأحمدي ومعهما بحماس الطازي وقرابقا السرجتمشي وتغري بردي المتولون كبر هذه الفعلة وتقبضوا على الأمراء الذين عدلوا عنهم إلى بيبقا فحبسهم بالإسكندرية وقد مر ذكرهم وعزل خليل بن قوصون وألزم بيته وولوا أمراء مكان المحبوسين وأهل وظائف من كانت له واستقر أمر الدولة على ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة الاجلاب ثم نكبتهم ومهلك استدمر

وذهاب دولته

ثم تنافس هؤلاء القاثمون بالدولة وحبسوا قرابقا السرجتمشي صاحبهم وامتعض له تغري بردي وداخل بعض الأمراء في الثورة ووافقه أليك البدري وجماعة معه وركب منتصف رجب سنة ثمان وستين للحرب فركب له استدمر وأصحابه فتقبضوا عليهم وحبسهم بالإسكندرية وعظم طغيان هؤلاء الإجلاب وكثر عيthem في البلد وتجاوزهم حدود الشريعة والملك وفاوض السلطان أمراءه في شأنهم فأشاروا بمعاجلتهم وحسم دأthem فنبذ السلطان إليهم العهد وجلس على كرسيه بالأساطيل وتقدم إلى الأمراء بالركوب فركب الجانيي اليوسفي وطفتم النظامي وسائر أمراء السلطان ومن استخدموه من ممالك بيبقا وتغيز إليهم أبقا الجلب وبحماس الطازي عن صاحبهما استدمر وركب لقتالهم استدمر وأصحابه وسائر الإجلاب وحاصروا القلعة إلى أن خرج عند الطلحساء السلطانية فاختل مركز الأمراء وفارقهم المستخدمون عندهم من ممالك بيبقا فانفض جمعهم وانهزموا وثبت الجانيي اليوسفي وأرغون التتر في سبعين من ممالكهم فوقفوا قليلاً ثم انهزموا إلى قبة النصر وقتل دروط ابن أخي الحاج الملك وقبض على أبقا الجلب جريحاً وعلى طغتم

محمد بن اسقلاص أستاذ دار وولى بيقا الناصري الحجابة بعد وظائف أخرى نقله منها وزوج أمه الجاني اليوسفي فعلت رتبته بذلك في الدولة واستغلظ أمره وأغلظ له الدوادار يوماً في القول فتفي وولى مكانه منكوعر عبد الغني ثم عزل سنة اثنتين وسبعين لسنة من ولايته وولى السلطان مكانه طشتمر العلاشي الذي كان دوادار البيقا واستقرت الدولة على هذا النمط والجاني اليوسفي مستبد فيها.

ووصل وفود منجك من الشام سنة أربع وسبعين بمالا يعبر عنه اشتمل على الخيل والبخاتي المجللة والجمال والهنج والقماش والحلاوات والحلي والطرف والمواين حتى كان فيها من الكلاب الصائدة والسباع والإبل ما لم ير مثله في أصنافه ثم وصل وفود قشتمر المارداني من حلب على نسبة ذلك واللّه تعالى أعلم.

انتقاض الجاني اليوسفي ومهلكه واستبداد الأشرف بملكه من بعده

لم تزل الدولة مستقرة على ما وصفناه إلى أن هلك الأمير منكلي بغا بالأتابك منتصف سنة أربع وسبعين واستضاف الجاني اليوسفي الأتابكية إلى ما كان بيده ورتبته أشد من ذلك كله وهو القائم المستبد بها ثم توفيت أم السلطان وهي في عصمته فاستحق منها ميراثاً دعاه لؤم الأخلاق فيه إلى الماحكة في المخلف وتحافى السلطان له عن ذلك إلا أنه كان ضيق الصدر شرس الأخلاق فكان يغلظ القول بما يجنش الصدور فأظلم الجو بينه وبين السلطان وتمكنت فيه السعاية وذكرته بهذه انتقاضه الأول وذلك أنه كان سخط في بعض النزعات على بعض العوام من البلد فأسمر بالركوب إلى العامة وقتلهم فقتل منهم كثير ونمي الخبر إلى السلطان على السنة أهل البصائر من دولته وعذلوه عنده فامتشاط السلطان وزجره وأغلظ له غضب وركب إلى قبة النصر منتقضاً وذهب السلطان في مداراة أمره إلى الملاطفة واللين.

وكان الأتابك منكلي بغا يوم ذاك حياً فأوغز السلطان إليه فرجع وخلع عليه وأعادته إلى أحسن ما كان فلما بدرت هذه الثانية حذر السلطان بطاقته من شأنه وخرج هو منتقضاً وركب في مماليكه بساحة القلعة وجلس السلطان وترددت الرسل بينهما بالملاطفة فأصر واستكبر ثم أذن السلطان لمماليكه في قتاله وكان أكثرهم من الأجلاب ممالكك بيقا وقد جمعهم السلطان واستخدمهم في جملة ابنه أمير علي ولي عهده فقاتلوه في محرم سنة خمس وتسعين وكان موقفه في ذلك المعترك إلى حائط الميدان

وولى في جميع الوظائف استبدالاً وإنشاء بنظره واختياره.

وكان منهم مولاة أرغون الأشرفي ومازال يرقيه في الوظائف إلى أن جعله أتابك دولته وكان خالصته كما سذكروا وولى على حلب مكان منكلي بغا طنبغا الطويل وعلى دمشق مكان المارداني بندمر الخوارزمي ثم اعتقله وصادره على مائة ألف دينار ونفاه إلى طرسوس وولى مكانه منجك اليوسفي نقله إليها من طرابلس وأعاد إليها عشقتمر المارداني كما كان قبله ثم توفي طنبغا الطويل بحلب آخر سنة تسع وستين بعد أن كان يروم الانتقاض فولى مكانه استبغا الأبو بكري ثم عزله سنة سبعين وولى مكانه قشتمر المنصوري واللّه تعالى ولي التوفيق بمنه وفصله.

مقتل قشتمر المنصوري بحلب في واقعة

العرب

كان جواز بن مهنا أمير العرب من آل فضل قد انتقض وولى السلطان مكانه ابن عمه نزال بن موسى بن عيسى واستمر جواز على خلافه ووطىء بلاد حلب أيام المصيف واجتمع إليه بنو كلاب وامتدت أيديهم على السابلة فخرج إليهم نائب حلب قشتمر المنصوري في عساكره فأغار على أحيائه واستاق نعمهم ومواشيهم وشره إلى اصطلامهم فتذا مروا دون أحيائهم وكانت بينه وبينهم جولة أجلت عن قشتمر المنصوري وابنه محمد قتيلين ويقال: قتلها يعبر بن جواز ورجعت عساكر الترك منهزمين إلى حلب وذهب جواز إلى القفر ناجياً به وولى السلطان على العرب معيقيل بن فضل ثم استأمن له جواز بن مهنا وعاود الطاعة فأعاده السلطان إلى إمارته واللّه تعالى أعلم.

استبداد الجاني اليوسفي ثم انتقاضه ومقتله

لما أذهب السلطان الأشرف أثر الأجلاب من دولته وقام بعض الشيء بأمره فاستدعى منكلي بغا من حلب وجعله أتابكاً وأمير علي المارداني من دمشق وجعله نائباً وولى الجاني اليوسفي أمير سلاح وولى أصبغا عبد الله دوادار بعد أن كان الأجلاب ولوا في الدوادارية منهم واحداً بعد واحد ثم سخطه وولى مكانه أفطمر الصباحي وعمر سائر الخطط السلطانية بمن وقع عليه اختياره ورقى مولاة أرغون شاه في المراتب من واحدة إلى أخرى إلى أن أربى به على الأتابكية كما يأتي وولى بهادر الجمالي أستاذ دار ثم أمير الماخورية تردد بينهما ثم استقر آخراً في الماخورية وولى

فكان يوماً مشهوداً وولى الأشرف في ذلك اليوم بيقا الناصري الذي قدم به حاجباً ثم سافر عشقتم نائب حلب آخر سنة ست وسبعين بعدها بالعسكر إلى بلاد الأرمن ففتح سائر أعمالها واستولى على ملكها النكفور بالأمان فوصل بأهله وولده إلى الأبواب السلطانية ورتب لهم الأرزاق وولى السلطان على سيس وانقرض منها ملك الأرمن وتوفي منجك آخر هذه السنة فولى السلطان اقتمر الصاجي المعروف بالحلي ثم عزله ورفع مجلسه وولى مكانه اقتمر الأتقي ثم توفي جبار بن مهنا أمير العرب بالشام فولى السلطان ابنه يعبرا مكانه ثم توفي أمير مكة من بني حسن فولى الأشرف مكانه واستقرت الأمور على ذلك والله أعلم.

الخبر عن ممالك بيقا وترشيحهم في الدولة

كان السلطان الأشرف بعد أن سطا بممالك بيقا تلك السطوة وقسمهم بين القتل والنفي وأسكنهم السجون وأذهب أثرهم من الدولة بالجملة أرجع جملة منهم بعد ذلك وعابته منكلي أبغا في شأنهم وأن في إتلافهم قص جناح الدولة وأنهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لملتهم فندم على من قتل منهم وأطلق من بقي من المحبوسين بعد خمس من الستين وسرحهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء وكان فيمن أطلق الجماعة الذين بحبس الكرك وهم برقوق العثماني وبركة الجواني وطبقا الجواني وجركس الخليلي ونعنع فأطلقوا إلى الشام ودعا منجك صاحب الشام كبارهم إلى تعليم الممالك ثقافة الرمح وكانوا بصراء بها فأقاموا عنده مدة أخبرني بذلك الطبقا الجواني أيام اتصالي به قال: وأقمنا عند منجك إلى أن استدعاه السلطان الأشرف وكتب إليه الجانيي اليوسفي يمثل ذلك فاضطرب في أيهما يجيبه فيها ثم أراد أن يخرج من العهدة فرد الأمر إلينا فأينا إلا امتثال أمره فتحير ثم اهتدى إلى أن يبعث إلى الجانيي اليوسفي ودس إلى قرطاي كافل الأمير علي ابن السلطان وكان صديقه بظلبنا من الجانيي بخدمة ولي العهد وصانع الجهتين بذلك قال: وصرنا إلى ولي العهد فعرضنا على السلطان أبيه واخصنا عنده بتعليم الثقافة لممالكه إلى أن دعانا السلطان يوم واقعة الجانيي وهو جالس بالإسطنبول فندبنا لحربه وذكرنا حقوقه وأزاح عللنا بالحياد والأسلحة فجلبنا في قتله إلى أن انهزم وما زال السلطان بعدها يرفع لنا ذلك ويقدمنا. انتهى خبر الجوانيي.

وكان طشتمر الدودار قد لطف عمله عند الأشرف وخلا له وجهه وكان هواه في اجتماع ممالك بيقا في الدولة يستكثر بهم

المحصل بالأساطيل فنفذت له المقاتلة من داخل الأساطيل ونضحوه بالسهام فتحنى عن الحائط حتى إذا حل مركزه ركبوا خيولهم وخرجوا من باب الأساطيل.

وصدقوا عليه الحملة فانهمز إلى بركة الحبش ورجع من وراء الجبل إلى قبة النصر فأقام بها ثلاثاً والسلطان يراوضه وهو يشتت وشيعه يتسللون عنه ثم بعث إليه السلطان لمة من العسكر ففر أمامهم إلى قلوب واتبعوه فخاض البحر وكان آخر العهد به ثم أخرج شلوه ودفن وأسف السلطان لملكه ونقل أولاده إلى قصره ورتب لهم ولحاشيته الأرزاق في ديوانه وقبض على من اتهمه بمداخلته وأرباب وظائفه فصودروا كلهم وعزلوا وغربوا إلى الشام واستبد السلطان بأمره واستدعى القرى الدودار وكان نائباً بطرابلس فولاه نائباً مكان الجانيي ورفع رتبته وولى أرغون شاه وجعله أمير مجلس وولى سرغتمش من مواله أمير سلاح واختص بالسلطان طشتمر الدودار وناصر الدين محمد بن اسقلاص أستاذ دار فكانت أمور الدولة منقسمة بينهما وتصاريها تجري بسياستهما إلى أن كان ما نذكره والله تعالى ولي التوفيق.

استخدام منجك للنياية

كان أمير علي المارداني قد توفي سنة اثنتين وسبعين وبقيت وظيفته خلواً لكان الجانيي اليوسفي وأحكامه ولما هلك سنة خمس وسبعين ولى السلطان أقطمر عبد الغني نائباً ثم بدا له أن يولي في النياية منجك اليوسفي لما رآه فيه من الأهلية لذلك والقيام به ولتقلبه في الإمارة منذ عهد الناصر حسن وأنه كان من مواله أخاً لبيقا روس وطاز وسرغتمش فهو بقية المناجب فلما وقع نظره عليه بعث في استخدام بيقا الناصري من أمراء دولته وولى مكانه بئدمر الخوارزمي وأعاد عشقتمر إلى حلب مكانه ووصل منجك إلى مصر آخر سنة خمس وسبعين ومعه ماله وحقه وحاشيته وصهر إلى روس المحمدي فاحتفل السلطان في تكريمه وأمر أهل الدولة بالركوب لتلقيه فتلقاها الأمراء والعساكر وأرباب الوظائف من القضاة والدواوين وأذن له في أخوئلد من باب السر راجباً وخاصة السلطان مشاة بين يديه حتى نزل عند مقاعد الطواشية بباب القصر حيث يجلس مقدم الممالك.

ثم استدعي إلى السلطان فدخل وأقبل عليه السلطان وشافه بالنياية المطلقة وفوض إليه الولاية والعزل في سائر المراتب السلطانية من الوزراء والخواص والقضاة والأوقاف وغيرها وخلع عليه وخرج ثم قرر تقليده بذلك في الإيوان ثاني يوم وصوله

علمهم وملاً بمعروفه حقائبهم وخرج ثاني عشر شوال في المراكب والقطارات يروق الناظرين كثرة وغنافة وزينة والخليفة والقضاة والأمراء حفا فيه.

وبرز النظارة حتى العواتق من خدورهن وتجللت بمركبهم البسيطة وماجت الأرض بهم موجاً وخيم بالبركة منزل الحاج وأقام بها أياماً حتى فرغ الناس من حاجاتهم وارتحل فما زال يتنقل في المنازل إلى العقبة ثم أقام فيها على عادة الحاج وكان في نفوس المماليك وخصوصاً البيقارية وهم الأكثر شجى يتشربون به إلى الاستبداد من الدولة فتكروا واشتطوا في اقتضاء أرزاقهم والمباشرون يعللونهم وانتهى أمرهم إلى الفساد ثم طلبوا العلوفة المستقبلة إلى دار الأزم فاعتذر المباشررون بأن الأقوات حملت إلى الأمام فلم يقبلوا وكشفوا القناع في الانتفاض وابتأوا ليلتهم على تعبئة واستدعى الأشرف طشتمر الدوادار وكان كبيرهم ففاوضه في الأمر ليفل من عزهم فأجل العذر عنهم وخرج إليهم فخرجوا ثم ركبوا من الغد واصطفوا وأركبوا طشتمر معهم ومنعوه من معاودة السلطان وتولى كبر ذلك منهم مبارك الطازي وسراي عمر المحمدي ويطلقمر العلاني وركب السلطان في خاصته يظن أنهم يرعون أو ينجح إليه بعضهم فأبوا إلا الإحفاف على قتاله.

ونضحوا مركبه بالنبل لما عينوه فرجع إلى خيامه منهزماً ثم ركب البحر في لفيف من خواصه ومعه أرغون شاه الأتابك وبييqa الناصري ومحمد بن عيسى صاحب الدرك من لفائف الأعراب أهل الضاحية وفي ركابه جماعة الشباب الذين أنشأهم في غخالصته وورشحهم للوظائف في دولته كما مر وخام الفل إلى القاهرة وقد كان السلطان عندما سافر عن القاهرة ترك بها جماعة من الأمراء والمماليك مقيمين في وظائفهم كان منهم قرطاي الطازي كافل أمير علي ولي العهد واقتصر الخليلي وقشتمر واستدمر السراشمسي وأبيك البدري وكان شيطان من المتمردة قد أوحى إلى قرطاي بأنه يكون صاحب الدولة بمصر فكان يتشوف لذلك ويرصد له وربما وقع بينه وبين وزير الدولة منازعة في جرایة عماليك مكفوله ولي العهد وعلوفاتهم وأغلظ له فيها الوزير فوجم وأخذ في أسباب الانتفاض وداخل في ذلك بعض أصحابه وواعدهم ثالث ذي القعدة وتقدم إلى داية ولي العهد ليلة ذلك اليوم بأن يصلح من شأنه ويفرغ عليه ملابس السلطان ويهينه لجلوس التخت وركب هو صبيحة ذلك اليوم ووقف بالرميلة عند مصلى العيد وتناول قطعة من ثوب فتصبها لواء وكان صبيان المدينة قد شرعوا في اتخاذ الدبادب والطبيلات فأمر بتناول بعضها منهم وهرعت بين يديه وتسابل الناس إليه من كل أوب ونزل من كان بطباق القصر

فيما يؤمله من الاستبداد على السلطان فكان يشير في كل وقت على الأشرف باستقدامهم من كل ناحية واجتماعهم عصابة للدولة يخادع بذلك عن قصده وكان محمد بن اسقلاص أستاذ دار يساميه في الدولة ويزاحمه في غخالصة الأشرف ولطف المحل عنده ينهى السلطان عن ذلك ويحذره مغبة اجتماعهم فقص طشتمر بذلك.

وكان عند السلطان ممالك دنونه من ممالكه الخاصكية شباباً قد اصطفاهم وهذبهم وخالصهم بالمحبة والصهر ورشحهم للمراتب وولى بعضهم وكان الأكبر من أهل الدولة يفضون إليهم بحاجاتهم ويتوسلون بمساعيهم فصرف طشتمر إليهم وجه السعاية وغشي مجالسهم وأغراهم بآبن اسقلاص وأنه يصد السلطان أكثر الأوقات عن أغراضهم منه ويبعد أبواب الإنعام والصلوات منه وصدق ذلك عندهم كثرة حاجاتهم في وظيفته وتقرر الكثير منها عليهم عنده فوغرت صدورهم منه وأغروا به السلطان بأطباق إغراء طشتمر طاهراً حتى تمت عليهم نكبته وجمعت الكلمة وقبض عليه منتصف جمادى سنة سبع وثمانين ونفاه إلى القدس فخلا لطشتمر وجه السلطان وانفرد بالتدبير واجتمع المماليك البيقارية من كل ناحية حتى كثروا أهل الدولة وعمروا مراتبها ووظائفها واحثاروا من جوانبها إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

حج السلطان الأشرف وانتفاض المماليك

عليه بالعقبة وما كان مع ذلك من ثورة

قرطاي بالقاهرة وبيعة الأمير علي ولي

العهد ومقتل السلطان إثر ذلك

لما استقر السلطان في دولته على أكمل حالات الاستبداد والظهور وأذن الناس لطاعته في كل ناحية وأكمل الله له الإمتاع بملكه ودنياه سمت نفسه إلى قضاء فرضه فاجع الحج سنة ثمان وسبعين وتجهز لذلك واستكثر من الرواحل المستجادة والأزودة المثقلة من سائر الأصناف واستعد للسفر واحتفل في الأبهة بما لم يعهد مثله واستخلف ابنه ولي العهد في ملكه وأوصى النائب اكتمر عبد النبي بمباكرة بايه والانتهاه إلى مراسمه وأخرج بني الملك الناصر المحجوبين بالقلعة مع سرد الشيخوني إلى الكرك يقيمون به إلى منصرفه وتجهز الخليفة العباسي محمد المتوكل بن المعتضد والقضاة للحج معه وجهاز جماعة من الأمراء أهل دولته وأزاح

مجيء طشتمر من العقبة وانهزامه ثم مسيره إلى الشام وتجديد البيعة للمنصور ياذن الخليفة وتقديمه

لما انهزم السلطان من العقبة ومضى إلى القاهرة اجتمع أهل الثورة على قشتمر وألقوا إليه القياد ودعروا الخليفة إلى البيعة له فتفادى من ذلك ومضى الحاج من مكة مع أمير الحمل بهادر الجمالي على العادة ورجع القضاة والفقهاء إلى القدس وتوجه طشتمر والأمراء إلى مصر لتلافي السلطان أو تلفة فلقبهم خبر مهلكه بعجود وما كان من بيعة ابنه واستقلال قرطاي بالملك فتاب لهم رأي آخر في حرب أهل الدولة وساروا على التعية وبعثوا في مقدمتهم قطلقتمر ولقي طلائع مصر فهزمهم وسار في اتباعهم إلى ساحة القلعة فلم يشعر إلا وقد تورط في جمهور العسكر فتقبضوا عليه وكان قرطاي قد بعث عن اقتصر الصاحبي الخنبلي من الصعيد ويرجع في العساكر لحرب قشتمر وأصحابه فبرز إليهم والتقوا في ساحة القلعة وانهزم قشتمر إلى الكيمان بناحية مصر ثم استأمن فأمنوه واعتقلوه ثم جمع الناس ليوم مشهود وحضر الخليفة والأمراء والقضاة والعلماء وعقد الخليفة للمنصور بن الأشرف وفوض إليه وقام قرطاي بالدولة وقسم الوظائف فولى قشتمر اللفاف واستأمر السرغتمشي أمير سلاح، وقلطويغا البدري أمير مجلس وقرطاي الطازي رأس نوبة وإياس السرغتمشي دوادار وأبيك البدري أمير الماخورية وسردون جركس أستاذ دار واقتصر الخنبلي نائباً وجعل له الإقطاع للأجناد والأمراء والنواب وأفرج عن طشتمر العلائي الدوادار وأقطعته الإسكندرية وأحضر بني الملك الناصر من الكرك مع حافظهم سردون الشيوخوني وولاه حاجباً وكذلك قلو ط السرغتمشي. وأصاب الناس في آخر السنة طاعون إلى أول سنة تسع وسبعين فهلك طشتمر اللفاق الأتابك وولي مكانه قرطاي الطازي في وظيفته واستدعى يبقا الناصري من الشام فاخصه الأمير الكبير قرطاي بالمخالصة والمشاورة.

نكية قرطاي واستقلال أبيك بالدولة ثم مهلكه

كان أبيك الغزي هذا قد ردق قرطاي في حمل الدولة من أول ثورتهم وقيامهم على السلطان فخالصه وخلطه بنفسه في

وغرفه وبالقاهرة من الممالك واجتمعوا إليه حتى كظ ذلك القضاء وجاؤوا تعاوي بهم الخيل فاستغلظ لفيهم ثم اقتحم القلعة في جمعه من باب الإصطبل إلى بيت مكفوله ولي العهد أمير علي عند باب الستارة يطلبونه وقبضوا على زمام الذود وكانوا عدة حتى أحضروا ولي العهد وجاؤوا به على الأكتاف إلى الإيوان فأجلسوه على التخت وأحضروا أيدير نائب القلعة فبايع له ثم أنزلوه إلى باب الإصطبل وأجلسوه هناك على الكرسي واستدعى الأمراء القائمين بالقاهرة فبايعوه وحبس بعضهم بالقلعة وبعث أكثر الحلي إلى الصعيد يستكشف أحواله واختص منهم أبيك فجعله رديفاً في دولته وياتوا كذلك وأصبحوا يسائلون الركبان ويستكشفون خبر السلطان.

وكان السلطان لما انهزم من العقبة سار ليلتين وجاء إلى البركة آخر الثانية وجاءه الخبر بواقعة القاهرة وما فعله قرطاي وتشاوروا فأشار محمد بن عيسى بقصد الشام وأشار آخرون بالوصول إلى القاهرة وسار السلطان إليها واستمروا إلى قبة النصر وتهافوا عن رواحهم بإطلاق وقد أنهكهم التعب وأضناهم السير فما هو إلا أن وقعوا لمناكبهم وجنوبهم وغشهم النعاس.

وجاء الناصري إلى السلطان الأشرف من بينهم فتصح له بأن يتسلل من أصحابه ويتسرب في بعض البيوت بالقاهرة حتى يتبين له وجه مذهبه وانطلق بين يديه فقصده بعض النساء ممن كان يتاب قصده واختفى فظن التجاة في ذلك وفارقه الناصري يطلب نفقاً في الأرض وقد كانوا بعثوا من قبة النصر بعض الممالك عنهم روائد يستوضحون الخبر فأصبحوا بالرملية أمام القلعة وتعرف الناس أنه من الحاج فرفعوه إلى صاحب الدولة وعرض عليه العذاب حتى أخبره عن السلطان وأنه وأصحابه بقبة النصر مصرعين من غشي النوم فطار إليهم شراد العسكر مع استدمر السرغتمشي والجمهور في ساقاتهم حتى وقفوا عليهم في مضاجعهم.

وافتقدوا السلطان من بينهم وقتلوهم جميعاً وجاؤوا برؤوسهم ووجروا لانتقاد السلطان ونادوا بطلبه وعرضوا العذاب والقتل على محمد بن عيسى صاحب الدرك فتبرأ وحبس رهينة من ثقاته ثم جاءت امرأة إلى أبيك فدلته عليه في بيت جارتها فاستخرجوه من ذلك البيت ودفعوه إلى أبيك فامتنحه حتى دلهم على الذخيرة والأموال ثم قتلوه خنقاً وجددوا البيعة لابنه الأمير علي ولقبوه المنصور واستقل بدولته كافله من قبل الأمير قرطاي ورديفه أبيك البدري واستقر الأمر على ذلك.

أن يستدعي طشتمر من الشام وينصبوه للإمارة فبعثوا إليه بذلك وانتظروه.

استبداد الأميرين أبي سعيد برقوق وبركة بالدولة من بعد أيك ووصول طشتمر من الشام وقيامه بالدولة ثم نكبته

لما تغلب هؤلاء الأمراء على الدولة ونصبوا ببيقا الناظري ولم يعضوا له بالطاعة بقي أمرهم مضطرباً وآراؤهم مختلفة وكان برقوق وبركة أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير وكان الناظري يخالفهما كما مر فتفاوضوا في القبض على هؤلاء المتصدين للمنازعة وكبح شكائهم وهم دمر دماش اليوسفي وترباي الحسيني وافتقلاص السلجوقي واستدمر ابن العثماني في آخرين من نظرائهم وركبوا منتصف صفر وقبضوا عليهم أجمعين وبعثوا بهم إلى الإسكندرية فحبسهم بها واصطفوا بلاطاً منهم وولوه الإمارة وخطبوه بأنفسهم وأبقوا ببيقا الناظري على أتابكته كما كان وأنزلوه من القلعة فسكن بيت شيخو قبائله وولى برقوق أمير الماخورية ونزل باب الاصطبل وولى بركة الجوباني أمير مجلس واستقرت الدولة على ذلك.

وكان طشتمر نائب الشام قد انتقض واستبد بأمره وجمع عساكر الشام وأمراءه واستنفر العرب والتركمان وخيم بظاهر دمشق يريد السير إلى مصر وبرز أيك من مصر بالسلطان والعسكر يريد الشام لمحاربه فكان ما قدمناه من نكبته وخروج الأمراء عليه ومصيرهم إلى جماعة البيقاوية الظافرين بأيك ومقدمهم ببيقا الناظري ثم تفاوض ببيقا الناظري مع برقوق وبركة في استدعاء طشتمر فوافقاه ونظراه رأياً وفيه طلب الصلح من الذين معه وحسم الداء منه بكونهم في مصر فكتبوا إليه بالوصول إلى مصر للأتابكية وتدير الدولة وأنه شيخ البيقاوية وكبيرهم فسكنت نفسه لذلك ووضع أوزار الفتنة وسار إلى مصر فلما وصلها اختلفوا في أمره وتعظيمه.

وأرکبو السلطان إلى الزيدانية لتلقيه ودفعوا الأمراء إليه وأشاروا له إلى الأتابكية ووضعوا زمام الدولة في يده فصار إليه التولية والعزل والخل والعقد وولى ببيقا الناظري أمير سلاح مكان سباطا وبعثوا بلاطاً إلى الكرك لاستقلال طشتمر بمكانه وولى بتدمير الخوازمي نائباً بدمشق على سائر وظائف الدولة وممالك الشام كما اقتضاه نظره ووافق عليه أستاذ دار برقوق وبركة وولى أيك

الإصهار إليه وكان أيك يروم الاستبداد بشأن أصحابه وكان يعرف من قرطاي عكوفه على لذاته وانقسامه مع ندمائه فعمل قرطاي في صفر سنة تسع وسبعين ضيافة في بيته وجمع ندماءه مثل سودون جركس ومبارك الطازي وغيرهم وأهدى له أيك نبیذاً أذیب فيه بعض المرققات فباتوا يتعاطونه حتى غلبهم السكر على أنفسهم ولم يفكروا فركب أيك من ليلته وأركب السلطان المنصور معه واختار الأمر لنفسه واجتمع إليه الناس وأفاق قرطاي بعد ثلاث وقد انحلت عنه العقدة واجتمع الناس على أيك فبعث إليه قرطاي يستأمن فأمنه ثم قبض عليه فسيره إلى صفد واستقل أيك بالملك والدولة.

ثم بلغه منتصف صفر من السنة انتفاض طشتمر بالشام وانتفاض الأمراء هنالك في سائر الممالك على الخلاف معه فنادى في الناس بالمسير إلى الشام فتجهزوا وسرح المقدمة آخر صفر مع ابنه أحمد وأخيه قطلونجا وفيها من عماليكه وممالك السلطان جماعة من الأمراء كان منهم الأميران برقوق وبركة المستبدان بعد ذلك ثم خرج أيك ثاني ربيع في الساقية بالسلطان والأمراء والعساكر وانتهوا إلى بلبیس وثار الأمراء الذين كانوا مع أخيه في المقدمة ورجع إليه منهزماً فاجفل راجعاً إلى القلعة بالسلطان والعساكر.

وخرج عليه ساعة وصوله يوم الاثنين جماعة من الأمراء وهم قطلنمر العلائي الطويل والطنبقا السلطاني والنعناع وواعدهو قبة النصر فسرح إليهم العساكر مع أخيه قطلونجا فأوقعوا به وقبضوا عليه وبلغ الخبر إلى أيك فسرح من حضره من الأمراء للقاءهم وهم أيذر الشمسي وأقطر عبد الغني وبهادر الجمالي ومبارك الطازي في آخرين ولما تواروا عنه ركب هو هارباً إلى كيمان مصر واتبعه أيذر القنائي فلم يقف له على خبر ودخل الأمراء من قبة النصر إلى الاسطبل وأمضوا الأمراء إلى قطلنمر العلائي وهم يجاذونه وأشير عليه بخلع المنصور والبيعة لمن يقوم على هذا الأمر من أبناء السلطان فأبى.

ثم وصل صبيحة الثلاثاء الأمراء الذين شاروا فجاء أخو أيك في مقدمة العسكر وفيهم ببيقا الناظري ودمرداش اليوسفي وبلاط من أمراء الألوف وبرقوق وبركة وغيرهما من الطلخامات فنازعوهم الأمر وغلبوهم عليه وبعثوا بهم إلى الإسكندرية معتقلين وفوض الأمراء إلى ببيقا الناظري فقام بأمرهم وهو شعاع وآراؤهم مختلفة ثم حضر يوم الأحد التاسع من ربيع أيك صاحب الدولة وظهر من الاختفاء وجاء إلى بلاط منهم وأحضره عند ببيقا الناظري فبعث به إلى الإسكندرية فحبسه بها وكان ببيقا الناظري يختص برقوق وبركة بالمفاوضة استرابة بالآخرين فاتفق رأيهم على

باب الستارة وجاء الأمير برقوق من صيده ومعه الأتابك الشمسي فوصلوا إلى منزله خارج القلعة وأفرغوا السلاح على سائر مملكتهم وركبوا إلى ساحة الاصطبل ثم قصدوا إلى الباب فأحرقوه وتسلق الأمير قرطاي المنصوري من جهة باب السر وفتح لهم فدخلوا منه ودافعوا أنيال وانتفض عليه المماليك الذين كانوا معه من ممالك الأمير برقوق ورموه بالسهام فانهزم ونزل إلى بيته جريحاً وأحضر إلى الأمير برقوق فاعتذر له بأنه لم يقصد بفعلته إلا التغلب على بركة فبعث به إلى الإسكندرية معتقلاً وأعاد بيقا الناصري أمير سلاح كما كان واستدعي لها من نيابة طرابلس ووصل الخبر إلى بركة فأسرع الكر من البحيرة وانتظم الحال ونظروا في الوظائف التي خلت في هذه الفتنة فعمروها بمن يقوم بها واختصوا بها من حسن غناؤه في هذه الواقعة مثل قردم وقرط وذلك سنة إحدى وثمانين.

واقام أنيال معتقلاً بالإسكندرية ثم أفرج عنه في صفر سنة اثنين وثمانين وولاه على طرابلس ثم توفي منكلبي بقا الأحدي نائب حلب فولى أنيال مكانه ثم تقبض عليه آخر السنة وحبس بالكرك وولى مكانه بيقا الأحدي فولى مكانه بندمر الخوارزمي ثم توفي سنة إحدى وثمانين جبار بن المهنا أمير العرب بالشام فولى مكانه معقل بن فضل بن عيسى وزامل بن موسى بن عيسى شريكين ثم عزلا وولي يعبر بن جبار.

ثورة بركة ونكبته واستقلال الأمير برقوق بالدولة

كان هذا الأمير بركة يعادل الأمير برقوق في حمل الدولة كما ذكرناه وكان أصحابه يفوضون إليه الاستبداد في الأموال وكان الأمير برقوق كثير الثبوت في الأمور والميل إلى المصالح فيعارضهم في الغالب ويضرب على أيديهم في الكثير من الأحوال فنفسوا مكانه وأغروا بركة بالثوب والاستقلال بالأمر وسعوا عنده بأشمن من كبار أصحاب الأمير برقوق وأنه يحمل برقوق على مقاطعة بركة ويفسد ذات بينهما وأنه يطلب الأمر لنفسه وقد اعترم على الثوب عليهما فجاء بركة بذلك إلى الأمير برقوق وأراد القبض على أشمن فمنعه الأمير برقوق ودفع عنه وعظم انحراف بركة على أشمن ثم عن الأمير برقوق وسعى في الإصلاح بينهما الأكابر حتى كمال الدين شيخ النكية والخلدي شيخ الصوفية من أهل خراسان وجاؤوا بأشمن إلى بركة مستعتباً فاعتبه وخلع عليه.

اليوسفي فرتب برقوق رأس نوبه مكان الناظري واستمر الحال على ذلك وبرقوق وبركة أثناء هذه الأمور يستكثران من المماليك استغلاظاً لشوكتهم واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمير إلى مراتبهما فيبدلان الجاه لتابعيهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما ويخضعان بالإمرة من ينجح من أهل الدولة إليهما وإلى أبوابهما وانصرفت الرجوه عن سواهما.

وارتاب طشتمر بنفسه في ذلك وأغراه أصحابه بالثوب بهذين الأميرين فلما كان ذو الحجة سنة تسع وسبعين استعجل أصحابه على غير روية وبعثوا إليه فأحجم وقعد عن الركوب واجتمع برقوق وبركة بالاصطبل فركن إليه وقاتل ممالك طشتمر بالريلة ساعة من نهار وانهزموا وافترقوا واستأمن طشتمر فأمناه واستدعوه إلى القلعة فقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه منهم أطمش الأرغوني ومدلان الناظري وأمير حاج بن مغلطي ودواداره أرغون وبعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وبعث معهم بيقا الناصري كذلك.

ثم أفرج عنه لأيام وبعثه نائباً عن طرابلس ثم أفرج عن طشتمر بعد ذلك إلى دمياط ثم إلى القدس إلى أن مات سنة سبع وثمانين واستقامت الدولة للأميرين بعد اعتقالهما وخلت لهما من المنازعين وولى الأمير برقوق أتابكاً وولى الماخورية الجايي الشمسي وولى قريبه أنيال أمير سلاح مكان الناصري وولى اقتصر العثماني دوادار مكان أطمش الأرغوني وولى الطنبا الجوياني رأس نوبة ثانياً ودمرداش أمير مجلس وتوفي بيقا النظامي نائب حلب فولى مكانه عشقتمر المارداني ثم استأذن عشقتمر فأذن له وحبس بالإسكندرية وولى مكانه بحلب غمرتاش الحسيني الدمرداشي ثم أفرج عنه وأقام بالقدس قليلاً ثم استدعاه بركة وأكرم نزلته وبعثه نائباً إلى حلب.

ثورة أنيال ونكبته

كان أنيال هذا أمير سلاح وكان له مقام في الدولة وهو قريب الأمير برقوق وكان شديد الانحراف على الأمير بركة ويحمل قريبه على منافرتة ولا يحميه إلى ذلك فاعتزم على الثورة وتحين لها سفر الأمير بركة إلى البحيرة يتصيد فركب الأمير برقوق في بعض تلك الأيام متصيداً بساحة البلد فرأى أن قد خلا له الجو فركب وعمد إلى باب الاصطبل فملكه ومعه جماعة من ممالك وعمالك الأمير برقوق وتقبضوا على أمير الماخورية جركس الخليلي واستدعوا السلطان المنصور ليظهره للناس فمنعه المقدمون من

ثم عاود اغراقه ثانية فمسح أعطافه وسكن وهو مجمع الثورة والفتك ثم عاود حاله تلك الثالثة واتفق أن صنع في بيت الأمير برقوق لسروره وليمة في بعض أيام الجمعة في شهر ربيع سنة اثنين وثمانين وحضر عنده أصحاب بركة كلهم وأهل شوكته وقد جاءه النصيح بأن بركة قد أجمع الثورة غداه يومه فقبض الأمير برقوق على من كان عنده من أصحاب بركة ليقص جناحه منهم وأركب حاشيته للقبض عليه وأصعد بدلان الناصري على مأذنة مدرسة حسن فنضح بالنبل في اصطبله وركب بركة إلى قبة النصر وخيم بها ونودي في العامة بنهب بيوته فتهبوا للوقت وخربوها ونحيز إليه ببيكا الناصري فخرج معه وجلس الأمير برقوق بباب القلعة من ناحية الاصطبل وسرح الفرسان للقتال واقتلوا عامة يومهم فزحف بركة على تعبيتين إحداهما لبيكا الناصري

وخرج الأق الشعباني للقاءه وأشمس للقاء ببيكا الناصري فانهمز أصحاب بركة ورجع إلى قبة النصر وقد اتخنوا بالخراج وتسلب أكثرهم إلى بيته وأقام الليل ثم دخل إلى جامع البلدة وبات به ونمي إلى الأمير برقوق خبره فأركب إليه الطنبا الجوباني وجاء به إلى القلعة ويحث به الأمير برقوق إلى الإسكندرية فحبس بها إلى أن قتله النائب بها صلاح الدين بن عزام وقتل به في خبر يأتي شرحه إن شاء الله تعالى وقبض على ببيكا الناصري وسائر شيعته من الأمراء وأودعهم السجون إلى أن استحال الأحوال وولى وظائفهم من أوقف عليه نظره من أمراء الدولة وأفرج عن أنيال الثائر قبله وبعثه نائباً على طرابلس واستقل بجمل الدولة وانظمت به أحوالها واستراب سندمر نائب دمشق لصحبته مع بركة فتقبض عليه وعلى أصحابه بدمشق ووى نيابة دمشق عشقتم ونيابة حلب أنيال وولى أشمس الأتابكية مكان بركة والأق الشعباني أمير سلاح والطنبا الجوباني أمير مجلس وأبقا العثماني دوا دار وجركس الخليلي أمير الماخورية والله تعالى ولي التوفيق.

انتفاض أهل البحيرة وواقعة العساكر

كان هؤلاء الظواغن الذين عمروا الدولة من بقايا هوراة ومزانة وزناتة يعمرونها عن تحت أيديهم من هذه القبائل وغيرهم ويقومون بخراج بالسلطان كل سنة في إيانه وكانت الرياسة عليهم حتى في أداء الخراج لبدر بن سلام وآبائه من قبله وهو من زناتة إحدى شعوب لواتة وكان للبادية المتبذين مثل أبي ذئب شيخ أحياء مهرانة وعسرة ومثل بني التركية أمراء العرب بعقبة

كان الأمير بركة استعمل أيام إمارته خليل بن عزام أستاذ داره ثم اتهمه في ماله وسخطه ونكبه وصادته على مال امتحنه عليه ثم أطلقه فكان يطوي له على النكت ثم صار بركة إلى ما صار إليه من الاعتقال بالإسكندرية وتولى ابن عزام نيابته فحاول على حاجة نفسه في قتل بركة ووصل إلى القاهرة متبرئاً من أمره متخوفاً من مغبته ورجع وقد طوى من ذلك على الدغل ثم حمله الحقد الكامن في نفسه على اغتياله في جنح الليل فادخل عليه

مقتل بركة في محبسه وقتل ابن عزام بثأره

كان الأمير بركة استعمل أيام إمارته خليل بن عزام أستاذ داره ثم اتهمه في ماله وسخطه ونكبه وصادته على مال امتحنه عليه ثم أطلقه فكان يطوي له على النكت ثم صار بركة إلى ما صار إليه من الاعتقال بالإسكندرية وتولى ابن عزام نيابته فحاول على حاجة نفسه في قتل بركة ووصل إلى القاهرة متبرئاً من أمره متخوفاً من مغبته ورجع وقد طوى من ذلك على الدغل ثم حمله الحقد الكامن في نفسه على اغتياله في جنح الليل فادخل عليه

جماعة متسلحين قتلوه وزعم أنه أذن له في ذلك.

معروفة بين التسابين ونزولهم بتلك المواطن قبل دخول غسان وتحقيق هذا الرأي أن غسان لما دخلوا مع جيلة إلى هرقل أقاموا عنده ويشوا من الرجوع لبلادهم وهلك هرقل واضطرب ملك الروم وانتشرت الفتنة هنالك في محالكهم واحتاجت غسان إلى الحلف للمدافعة في الفتن وحالفوا قبائل جركس ونزلوا في بسط جبلهم من جانبه الشرقي مما يلي القسطنطينية وخالطوهم بالنسب والصهر واندرجوا فيهم حتى تلاشت أحيائهم وصاروا إلى تلك الأماكن وأووا من البساط إلى الجبال مع جركس فلا يبعد مع هذا أن تكون أنسابهم تداخلت معهم عن انتسب إلى غسان من جركس وهو مصدق في نسبه ويستأنس له بما ذكرناه فهو نسبة قوية في صحته والله تعالى أعلم.

وجلب هذا الأمير برقوق على عهد الأمير بيقا عثمان قراجا من التجار المعروفين يومئذ بتلك الجهات فملكه بيقا ورربي في أطباق بيته وأوى من قصده وشد في الرماية والثقافة وتعلم آداب الملك واتسلخ من جلدة الخشونة وترشح للرياسة والإمارة والسعادة تشير إليه والعناية الربانية تحوم عليه ثم كان ما ذكرناه من شأن ممالك بيقا ومهلك كبيرهم يومئذ استدمر وكيف تقسموا بين الجلاء والسجن وكان الأمير برقوق أعزه الله تعالى عن أدركه التمهيص فلبث في سجن الكرك خمس سنين بين أصحاب له منهم فكانت تهوينا لما لقي من بوائقه وشكراً له بالرجوع إلى الله ليتم ما قدر الله فيه من حمل أمانته واسترعاء عباده ثم خلص من ذلك المحبس مع أصحابه وخُلي سبيله فانطلقوا إلى الشام واستخلصهم الأمير منجك نائب الشام يومئذ وكان بصيراً مجرباً فالتقى محبته وعنايته على هذا الأمير لما رأى عليه من علامات القبول والسعادة ولم يزل هناك في خالسته إلى أن هجس في نفس السلطان الأشرف استدعاء المرشحين من ممالكه وهذا الأمير يقدمهم وأفاض فيهم الإحسان واستضافهم لولده الأمير علي ولم يكن إلا أيام وقد انتقض الجاني القائم بالدولة وركب على السلطان فأحضرهم السلطان الأشرف وأطلق أيديهم في خيوله المقربة وأسلحته المستجادة فاصطفوا منها ما اختاروه وركبوا في مدافعة الجاني وصدقه القتال حتى دافعوه على الرميعة.

ثم اتبعوه حتى ألقى نفسه في البحر فكان آخر العهد به واحتلوا بما كان من أثره السلطان واختصاصه فسرع لهم الإقطاعات وأطلق لهم الجرايات ولهذا الأمير بين يديه من بينهم مزيد مكانة ورفع محل إلى أن خرج السلطان الأشرف إلى الحج وكان ما قدمناه من انتقاض قرطاي واستبداده ثم استبداد أليك من بعده وقد عظم محل هذا الأمير من الدولة وغما عزه وسمت رتبته

ويلغ الجبل إلى كافل الدولة الأمير برقوق وصرح بماليكه بالشكوى إليه فأنكر ذلك وأغلظ على ابن عزام ويعث دوداره الأمير يونس يكشف عن سببه وإحضار ابن عزام فجاء به مقيداً وأوقفه على شنيع مرتكبه في بركة فحلف الأمير ليقاد من به وأحضر إلى القلعة في منتصف رجب من سنة اثنتين وثمانين فحرب بباب القلعة أسواطاً ثم حمل على جبل مشتهراً وأنزل سوق الخيل فتلقه ممالك بركة فتناولوه بالسيف إلى أن تواقعت أشلاؤه بكل ناحية وكان فيه عظة لمن يتعظ أعاذنا الله من درك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء انتهى.

وفاة السلطان المنصور علي بن الأشرف

وولاية الصالح أمير حاج

كان هذا السلطان علي بن الأشرف قد نصبه الأمير قرطاي في ثورته على أبيه الأشرف وهو ابن اثني عشرة سنة فلم يزل منصوراً والأمر ينتقل من دولة إلى دولة كما ذكرناه إلى أن هلك لخمس سنين من ولايته في صفر سنة ثلاث وثمانين فحضر الأمير برقوق واستدعى الأمراء وافقوا على نصب أخيه أمير حاج ولقبوه الصالح وأركبوه إلى الإيوان فأجلسوه على التخت وقلده الخليفة على العادة وجعل الأمير برقوق كافله في الولاية والنظر للمسلمين لصغره حيثئذ عن القيام بهذه المهمة وأفتى العلماء يومئذ بذلك وجعلوه من مضمون البيعة وقرئ كتاب التقليد على الأمراء والقضاة والخاصة والعامة في يوم مشهود وانفض الجمع وانعقد أمر السلطان وبيعته وضرب فيها للأمير برقوق بسهم والله تعالى مالك الأمور.

وصول أنس الغساني والد الأمير برقوق

وانتظامه في الأمراء

أصل هذا الأمير برقوق من قبيلة جركس المواطنين ببلاد الشمال في الجبال المحيطة بوطه القفجاق والروس والبلان من شرقها المطة على بساطهم ويقال: إنهم من غسان الداخلين إلى بلاد الروم مع أميرهم جيلة بن الأيهم عندما أجفل هرقل إلى الشام وسار إلى القسطنطينية وخبر مسيره من أرض الشام وقصته مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه متناقلة معروفة بين المؤرخين وأما هذا الرأي فليس على ظاهره وقبيلة جركس من الترك

ونمي الخبر إليه بذلك فتقبض عليهم وبعث أبنا إلى دمشق على إمارته وغرب الآخرين إلى قوص فاعتقلوا هنالك حتى أنفذ فيهم حكمه وأشقق الأمراء من تدبر مثل هؤلاء عليهم وتفاوضوا في نحو الأصاغر من الدست وقيامه بأمرهم مستقلاً فجمعهم لذلك في تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وحضر الخاصة والعامة من الجند والقضاة والعلماء وأرباب الشورى والفتيا وأطباقوا على بيعته وعزل السلطان أمير حاج فبعث إليه أميرين من الأمراء فأدخلوه إلى بيته وتناولوا السيف من يده فاحضروها.

ثم ركب هذا السلطان من مجلسه بباب الاصطبل وقد لبس شعار السلطنة وخلعة الخلافة فدخل إلى القصور السلطانية وجلس بالقصر الأبلق على التخت وأتاه الناس ببيعتهم أرسالاً وانعقد أمره يومئذ ولقب الملك الظاهر وقرعت الطبول وانتشرت البشائر وخلع على أمراء الدولة مثل أشمس الأتابك والطبقا الجوباني أمير مجلس وجركس الخليلي أمير الماخورية وسودون الشيخوني نائباً والطبقا المعلم أمير سلاح ويونس النوروي دوادار وقردم الحسيني رأس نوبة وعلى كتابه أوحده الدين بن ياسين كاتب سره أдал به من بدر الدين بن فضل الله كاتب سر السلطان من قبل وعلى جميع أرباب الوظائف من وزير وكاتب وقاض ومحتسب وعلى مشاهير العلم والفتيا والصوفية وانتظمت الدولة أحسن انتظام وسر الناس بدخولهم في إيالة السلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أواخيها واستأذنه الطبقا الجوباني أمير مجلس في الحج تلك السنة وأذن له فانطلق لقضاء فرضه وعاد انتهى والله تعالى أعلم.

مقتل قرط وخلع الخليفة ونصب ابن عمه

الواثق للخلافة

كان قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة وكان له إقدام وصرامة رقي بهما إلى محل من مرادفة الأمراء في وجوههم ومذاهبهم ودفع إلى ولاية الصعيد ومغاربة أولاد الكنز من العرب الجائلين في نواحي أسوان فكان له في ذلك غناء وأحسن في تشريحهم عن تلك الناحية ثم بعث إلى البحيرة والياً عند انتقاض بدر بن سلام وفراره ومرجع العساكر من تمهيدها فقام بولايتها وتبع آثار أولئك المنافقين وحسم عهدهم وحضر في ثورة أنبال فجلا في ذلك اليوم لشهامته وإقدامه وكان هو المتولي تسور الحائط وإحراق الباب الظهراني الذي ولجوا عليه وأمسكوه فكان يمت بهذه الوسائل أجمع والسلطان يرعى له إلا أنه كان ظلوماً غشوماً فكثر شكايات الرعايا والتظلمين به فتقبض عليه

ثم فسد أمر أبيك وتغلب على الأمر جماعة من الأمراء مفترقي الأهواء وخشي العقلاء انتقاض الأمر وسوء المغبة فبادر هذا الأمير وتناول الحبل بيده وجعل طرفه في يد بركة رديفه فأمسك معه برهة من الأيام ثم اضطرب وانتفض وصار إلى ما صار إليه من الهلاك واستقل الأمير برقوق بحمل الدولة والعناية الربانية تكفله والسعادة تواخيه.

وكان من جميل الصنع الرباني له أن كيف غريبة في اجتماع شمل أبيه به فقدم وفد التجار بأبيه من قاصية بلادهم بعد أن أعملوا الخيلة في استخلاصه وتلفظوا في استخراجه وكان اسمه أنس فاحتفل ابنه الأمير برقوق من مبرته وأركب العساكر وسائر الناس على طبقاتهم لتلقيه وأعد الخيام بسرياقوس لنزوله فحضروا هنالك جميعاً في ثاني ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين وجلس الأمير أنس الوافد صدر المجلس وهم جميعاً حفافيه من القضاة والأمراء ونصب السماط فطعم الناس واتشروا.

ثم ركبوا إلى البلد وقد زينت الأسواق وأوقدت الشموع وماجت السكك بالنظارة من عالم لا يحصيهم إلا خالقهم وكان يوماً مشهوداً وأنزل بالاصطبل تحت المدينة الناصرية ونظمه السلطان في أقربائه وبني عمه وبني إخوانه واجتمع شملهم به وفرض لهم الأرزاق وقررهم في الوظائف ثم مات هذا الأب الوافد وهو الأمير أنس رحمه الله في أواسط وثمانين بعد أن أوصى بحجة إسلامه وشرفت مراتب الإمارة بمقامه ودفنه السلطان بترية الدوادار يونس ثم نقله إلى المدفن بجوار المدرسة التي أنشأها بين القصرين سنة ثمان وثمانين والله يؤتي الملك من يشاء.

خلع الصالح أمير حاج وجلس برقوق

على التخت واستبداده بالسلطان

كان أهل الدولة من البيقاوية - من ولي منهم هذا الأمير برقوق - قد طمعوا في الاستبداد وظفروا ببلدة الملك والسلطان ورتعوا في ظل الدولة والأمان ثم سمت أحوالهم إلى أن يستقل أمرهم بالدولة ويستبد بها دون الأصاغر المنتخبين بالملكة وربما أشار بذلك بعض أهل الفتيا يوم بيعة أمير حاج وقال: لا بد أن يشرك معه في تفويض الخليفة الأمير القائم بالدولة لنشد الناس إلى عقدة محكمة فأمضى الأمر على ذلك وقام الأمير بالدولة فأنس الرعية بحسن سياسته وجميل سيرته واتفق أن جماعة من الأمراء المختصين بهذا الصبي المنسوب غصوا بهذا الأمير وتفاوضوا في الغدر به وكان متولي ذلك منهم أبنا العثماني دوادار السلطان.

لأول بيعته وأودعه السجن.

فأبى من ذلك صوناً لوفائه بزعمه ودس بذلك إلى سولي فهرب

ونجا من النكبة.

ووفد على السلطان سنة خمس وثمانين وجدد حلفه مع الجوباني ومع أشمس الأتابك ورجع إلى حلب ثم خرج بالعاكر إلى التركمان آخر سنة خمس وثمانين دون إذن السلطان فانهزم وفستد العساكر ونجا بعد ثلاثة جريماً وأحقد عليه السلطان هذه كلها ثم استقدمه سنة سبع وثمانين فلما انتهى إلى سرياقوس تلقاه بها أستاذ دار فتقبض عليه وطير به إلى الإسكندرية فحبس بها مدة عامين وولى مكانه مجلب الحاجب سردون المظفر وكان عية نصيح للسلطان وعيناً على الناصري فيما يأتيه ويذره لأنه من وظائف الحاجب للسلطان في دولة الترك خطة البريد المعروفة في الدول القديمة فهو بطاقة السلطان بما يحدث في عمله ويعترض شجى في صدر من يروم الانتقاض من ولاته وكان هذا الحاجب سردون هو الذي ينمي أخباره إلى السلطان ويطلعه على مكا من مكره فلما حبس الناصري بالإسكندرية ولاه مكانه مجلب وارتاب الجوباني من نكبة الناصري لما كان بينهما من الوصلة والخلف فوجم واضطرب وتبين السلطان منه النكر فنكبه كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى واقصاه والله أعلم.

ثم عفا عنه وأطلقه وبقي مباكراً باب السلطان مع الخواص والأولياء وطوى على الغث وتربص بالدولة ونمي عنه أنه فاض الحليفة المتوكل بن المعتضد في الانتقاض والأجلاص على الدولة بالعرب المخالفين بنواحي برقة من أهل البحيرة وأصحاب بدر بن سلام وأن يفوض الحليفة الأمر إلى سولي هذا السلطان القائم بالدولة بأنه داخل في ذلك بعض ضعفاء العقول من أمراء الترك ممن لا يؤبه له فأحضرهم من غداته وعرض عليهم الحديث فوجوا وتناكروا وأقر بعضهم واعتقل الحليفة بالقلعة وأخرج قرط هذا لوقت طفيف به على الجمل مسمراً إبلاغاً في عقابه ثم سيق إلى مصرعه خارج البلد وقُد بالسيف نصفين وضم الباقون إلى السجن وولى السلطان الخلافة عمر بن إبراهيم الوائى من أقاربه وهو الذي كان الملك الناصر ولى أباه إبراهيم بعد الحليفة أبي الربيع وعزل عن ابنه أحمد كما مر وكان هذا كله في ربيع سنة خمس وثمانين وولى مكانه أخوه زكريا ولقب المعتصم واستقرت الأحوال إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نكبة الناصري واعتقاله

كان هذا الناصري من عماليك بيقا وأرباب الرضائف في أيامه وكان له مع السلطان الظاهر ذمة وداد وخلة من لدن المرسى والعشرة فقد كانوا أتراباً بها وكانت لهم دالة عليه لعلو سنه وقد ذكرنا كيف استبدوا بعد أيك ونصبوا الناصري أتابكاً ولم يحسن القيام عليها وجاء طشتمر بعد ذلك فكان معه حتى في النكبة والمحبس ثم أشخص إلى الشام وولى على طرابلس ثم كانت ثورة أنبال ونكبته في جمادى سنة إحدى وثمانين فاستقدمهم من طرابلس وولى أمير سلاح مكان أنبال واستخلفه الأمير بركة وخلطه بنفسه وكانت نكبته فحبس معه ثم أشخص إلى الشام وكان أنبال قد أطلق من اعتقاله وولى على حلب سنة اثنتين وثمانين مكان منكلي بقرى الأحدي فأقام بها سنة أو نحوها.

ثم نمي عنه خبر الانتقاض فقبض عليه وحبس بالكرك وولى مكانه على حلب بيقا الناصري في شوال سنة ثلاث وثمانين وقعد الظاهر على التخت لسنة بعدها واستبد بملك مصر وكان الناصري لما عنده من الدالة يتوقف في إنفاذ أوامره لما يراه من المصالح بزعمه والسلطان ينكر ذلك ويعقده عليه وكان له مع الطنبقا الجوباني أمير مجلس أحد أركان الدولة حلف لم يغن عنه وأمر السلطان بالقبض على سولي بن بلقادر حين وفد عليه مجلب

إقصاء الجوباني إلى الكرك ثم ولايته على

الشام بعد واقعة بندمر

أصل هذا الأمير الجوباني من قبائل الترك واسمه الطنبقا وكان من موالى بيقا الخاصكي المستولي على السلطان الأشرف وقد مر ذكره ربي في قصره وجو عز ولقن الخلال والآداب في كنفه وكانت بينه وبين السلطان خلة ومصافاة اكتسبتها له تلك الكفالة بما كانا رضيعي ثديها وكوكبي أفقها وتربي مرقاها وقد كان متصلاً فيما قبله بينهما من لدن المربي في بلادهم واشتمل بعضهم على بعض واستحكم الاتحاد حتى بال عشرة أيام التمهيص والاعتراب كما مر فلقد كان معتقلاً معه بالكرك أيام الحنة خمساً من السنين أداً لله لهذا السلطان حزنها بالمسرة والنحوسة بالسعادة والسجن بالملك وقسمت للجوباني بها شائبة من رحمة الله وعنايته في خدمة السلطان بدار الغربية والحنة وألفته به في المنزل الخشن لتعظم له الوسائل وتكرم الأذمة والعهود:

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يالفهم في المنزل الخشن ثم كان انطلاقهما إلى الشام ومقامهما جميعاً واستدعاؤهما إلى دار الملك ورقهما في درج العز والتغريب كذلك وكان

اليوسفي وعشقمتر الناصري وكان له انتفاض بدمشق عند تغلب الخاصكي وحاصره واستنزله بأمانه.

ثم أعيد إلى ولايته ثم تصمرت تلك الدول وتغلب هذا السلطان على الأمر ورافده فيه فولوه على دمشق وكانت صاغيته مع بركة فلما حدث انتفاض بركة كتب إليه وإلى بقري بدمشق أولياؤه هنالك بالاستيلاء على القلعة وكتب برقوقي إلى نائب القلعة يحذرهم فركب جتتمر أخ طاز وإبن جرجي ومحمد بيك وقتلوه ثلاثاً ثم أسكوه وقيدوه ومعه بقري بن برقش وجبريل مرتبه وسبقوا إلى الإسكندرية فحبسوا فلما قتل بركة أطلق بندمر ومن كان حبس من أصحاب بركة مثل بيبقا الناصري ودمرداش الأحدي ثم استخلصه السلطان برقوقي ورده إلى عمله الأول بعد جلوسه على التخت والشام له وكان جماعاً للأموال شديد الظلامة فيها متحياً على استخلاصها من أيدي أهلها بما يطرق لهم من أسباب العقاب مصانعةً للحاشية بماله من حاميته إلى أن سئم الناس إيالته وترحم القلوب منه.

وكان بدمشق جماعة من الموسوسين المسامرين لطلب العلم بزعمهم متهمون في عقيدتهم بين مجسم ورافضي وحلولي جمعت بينهم أنساب الضلال والحرمان وقعدوا عن نيل الرتب بما هم فيه تلبسوا بإظهار الزهد والتكبر على الخلق حتى على الدولة في توسعة بطلان الأحكام والحجاية عن الشرع والسياسة التي تداولها الخلفاء وأرخص فيها العلماء وأرباب الفتيا وحملة الشريعة بما تمس إليه الحاجة من الوازع السلطاني والمعونة على الدفاع.

وقديماً نصبت الشرطة الصغرى والكبرى ووظيفة المظالم ببغداد دار السلام ومقر الخلافة وإيوان الدين والعلم وتكلم الناس فيها بما هو معروف وفرضت أرزاق العساكر في أثمان البياعات عند حاجة الدولة الأموية فليس ذلك من المنكر الذي يعتد بتغييره فليس هؤلاء الحمقى على الناس بأشال هذه الكلمات وداخلوا من في قلبه مرض من الدولة وأوهموا أن قد توثقوا من الحل والعقد في الانتفاض فرية اتحلوها وجمعاً أنهو نهايته وعدوا على كافل القلعة بدمشق وحاميتها يسألونهم الدخول معهم في ذلك لصحابة كانت بين بعضهم وبينه فاعتقلهم وطالع السلطان بأمرهم.

وتحدث الناس أنهم داخلوا في ذلك بندمر النائب بمدخله بعضهم كابنه محمد شاه ونغي الخبر بذلك إلى السلطان فارتاب به وعاجله بالقبض والتوثق منه ومن حاشيته ثم أخرج مستوفي الأموال بالحضرة لاستخلاص ما احتازه من أموال الرعايا واستأثر به على الدولة وأحضر هؤلاء الحمقى ومن بسوء سيرتهم مقتدون

للسلطان أصحاب سراة يمتون إليه يمثل هذه الوسائل ويتنظمون في سلكها وكان متميز الرتبة عنهم سابقاً في مرقى درجات العز أمامهم مجلياً في الحلبة التي فيها طلقهم إلى أن ظفر بالملك واستولى على الدولة وهو يستبهم في مقاماته ويوطنهم عقبه ويذل لهم الصعاب فيقتحموها ويمحز لهم الرتب فيستهمون عليها ثم اقتعد منير الملك والسلطان واستولى على كرسيه وقسم مراتب الدولة ووظائفها بين هؤلاء الأصحاب وآثر الجوباني منهم بالصفاء والمرباع فجعله أمير مجلسه ومعناه: صاحب الشورى في الدولة وهو ثاني الأتابك وتلو رتبته فكانت له القدم العالية من أمرائه وخلصائه والحظ الوافر من رضاه وإشاره وأصبح أحد الأركان التي بها عمد دولته بأساطينها وأرسي ملكه بقواعدها إلى أن دبست عقارب الحسد إلى مهاده وحومت شبة السعاية على قرطاسه وارتاب السلطان بمكانه وأعجل الخزم على إمهاله فتقبض عليه يوم الاثنين لسبع بقين من سنة سبع وثمانين وأودعه بعض حجر القصر عامة يومه.

ثم أقصاه إلى الكرك وعواطف الرحمة تنازعه وسجاي الكرم والوفاء تقض من سخطه ثم سمح وهو بالخبر أسمح وجنح وهو إلى الأدنى من الله أمتح فسرح إليه من الغد بمرسوم النيابة على تلك الأعمال فكانت غريبة لم يسمع بمثلا من حلم هذا السلطان وأناقه وحسن نيته وبصيرته وكرم عهده وجميل وفائه وانطلقت الألسن بالدعاء له وامتلات القلوب بالحبة وعلم الأولياء والخاصة والشيخ والكافة أنهم في كفالة أمن ولطف وملكة إحسان وعدل.

ثم مكث حولاً يتعقب أحواله ويتبع سيره وأخباره طاوياً شأنه في ذلك عن سائر الأولياء إلى أن وقف على الصحيح من أمره وعلم خلوص مصادقته وجمل خلوصه فأخفق سعي الداعين وخابت ظنون الكاشحين وإدالة العتبي من العتاب والرضا من النكري واعتقد أن يحسو عنه هواجس الاسترابة والاستيحاش ورده إلى أرفع الإمارة وبينما هو يطوي على ذلك ضميره ويناجي سره إذ حدثت واقعة بندمر بالشام فكانت ميقناً لبدر السعادة وعلماً على فوزه بذلك الحظ كما نذكر إن شاء الله تعالى.

وخبر هذه الواقعة أن بندمر الخوارزمي كان نائباً بدمشق وقد مر ذكره غير مرة وأصله من الخوارزمية أتباع خوارزم شاه صاحب العراق عند استيلاء التتر وافترقوا عند مهلكه على يد جنكزخان في ممالك الشام واستخدموا لبني أيوب والترك أول استبدادهم بمصر وكان هذا الرجل من أعقاب أصلهم وكان له نجابة جذبت بضعه ونصب عند الأمراء من مسوقه فاستخدم بها إلى ترشح للولاية في الأعمال وتداول إمارة دمشق مع منجك

ولما رحلت إلى هذا القطر سنة أربع وثمانين واتصلت بهذا السلطان بمصر الملك الظاهر سألني عنه لأول لقيه فذكرته له بأوصافه الحميدة وما عنده من الحب والثناء ومعرفة حقه على المسلمين أجمع وعلى الملوك خصوصاً في تسهيل سبيل الحج وحماية البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود أحسن الله جزاءه ومثوبته.

ثم بلغني أن السلطان بإفريقية صد أهلي ولدي عن اللحاق بي غتياً بما كانني وطلباً لفيتي إلى بابيه ورجوعي فتطارحت على هذا السلطان في وسيلة شفاعة تسهل منه الأذن فأسعفني بذلك وخاطبت ذلك السلطان كان الله أغبط له بمودة هذا السلطان والعمل على مواصلته ومهادته كما كان بين سلفهم في الدولتين فقبل مني وبادر إلى إنخافه بمقريات إذ ليس عندنا في المغرب تحفة تطرف بها ملوك الشرق إلا الجياد العرب وأما ما سوى ذلك من أنواع الطرف والتحف بالمغرب فكثير لديهم أمثاله ويقبح أن يطرف عظماء الملوك بالثافة المطروح لديهم.

واختار لتلك سفيتي التي أعددتها لذلك وأنزل بها أهلي ولدي بوسيلة هذا السلطان أيده الله لسهولة سبيل البحر وقرب مسافته فلما قاربوا مرسى الإسكندرية عاثتهم عواصف الرياح عن احتلال السفينة وغرق معظم ما فيها من الحيوان والبضائع وهلك أهلي ولدي فيمن هلك ونفقت تلك الجياد وكانت رائعة الحسن صافية النسب وسلم من ذلك المهلك رسول جاء من ذلك السلطان لمد العهد وتقرر المودة فنلقى بالقبول والكرامة وأوسع النزل والقرى ثم اعتزم على العودة إلى مرسله فاتفق السلطان ثياباً من الوشي المرقوم من عمل العراق والإسكندرية يفوت القيمة واستكثر منها وأتحف بها السلطان ملك إفريقية على يد هذا الرسول على عادة عظماء الملوك في إنخافهم وهذا بهم.

وخاطبت ذلك السلطان معه بحسن الثناء على قصده وجميل موقع هديته من السلطان واستحكام مودته له وأجابني بالعذر من الموقع وأنه مستأنف من الإنخاف للسلطان واستحكام مودته بما يسره الحال فلما قدم الحاج من المغرب سنة ثمان وثمانين وصل فيهم من كبار الغرب بدولته وأبناء الأعظم المستبدين على سلفه عبيد بن القائد أبي عبد الله محمد بن الحكيم بهدية من المقربات رائعة الحلي رائعة الأوصاف متخبة الأجناس والأنساب غريبة الألوان والأشكال فاعترضها السلطان وقابلها بالقبول وحسن الموقع.

وحضر الرسول بكتابه فقري وأكرم حامله وأنعم عليه بالزاد لسفر الحج وأوصى أمراء المحمل فقضى فرضه على أكمل

إلى الأبواب العالية فقفوا في السجون وكانوا أحق بغير ذلك من أنواع العذاب والنكال.

وبعث السلطان لعشقتهم الناصري وكان مقيماً بالقدس أن يخرج نائباً على دمشق فتوجه إليها وأقام رسم الإمارة بها أياماً ظهر فيها عجزه وبيّن عن تلك الرتبة قعوده بما أصابه من وهن الكبر وطوارئ الزمانة والضعف حتى زعموا أنه كان يعمل على الفرائض في بيته إلى منعقد حكمه فعندما بعث السلطان عن هذا الأمير الجوباني وقد خلص من الفتن أبريزه وأينع بنفحات الرضا والقبول عوده وأفرج بمطالعة الأنس والقرب روعه فجاء من الكرك على البريد وقد أعدت له أنواع الكرامة وهيئ له المنزل والركاب والفرش والثياب والآنية والخوان والخرشي والصوان واحتفل السلطان لقدمه وتلقيه بما لم يكن في أمه.

وقضى الناس العجب من حلم هذا السلطان وكرم عهده وجميل وفائه وتحدث به الركبان ثم ولاه نيابة دمشق وبعثه لكرسيها مطلق اليد ماضي الحكم عزيز الولاية وعسكر بالزيدانية ظاهر القاهرة ثالث ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وارتحل من الغد وسعادة السلطان تقدمه ورضاه ينقله إلى أن قارب دمشق والناس يتلقونه أرسالاً ثم دخل المدينة غرة ربيع الثاني وقد احتفل الناس لقدمه وغصت السكك بالمتنزهين وتطاول إلى دولته أرباب الحدود وتحدث الناس بجمال هذا المشهد الحفيل وتناقلوا خبره واستقل بولاية دمشق وعناية السلطان تلاحظه ومذاهب الطاعة والخلوص تهديه بحسن ذكره وأفاض الناس الثناء في حسن اختياره وجمال مذهبه وأقام السلطان في وظيفته أحمد ابن الأمير بيقا فكان أمير مجلس والله غالب على أمره.

هدية صاحب إفريقية

كان السلطان لهذا العهد بإفريقية من الموحدين ومن أعقاب الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهشائي المستبد بإفريقية على بني عبد المؤمن ملوك مراكش أعوام خمس وعشرين وستمائة وهو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم أبي زكريا سلسلة ملوك كلهم ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد يعرفون الملوك الترك بمصر حقهم ويوجبون لهم الفضل والمزية بما خصهم الله من ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الأحيان ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال وكان لي اختصاص بذلك السلطان ومكان من محبة.

المعتقلين فسمهم صوناً للأمر عنهم لما كان ترشيحهم ففكر السلطان ذلك وسخطه من فعلاتهم واقتيحتهم ونسب إلى كيش وأنه يفسد بالفساد بين هؤلاء الأقارب.

ولما خرج الحاج سنة ثمان وثمانين أوصى أمير حاج بعزل الصبي المنصوب والاستبدال عنه بآبن عنان بن مقامس والقبض على كيش ولما وصل الحاج إلى مكة وخرج الصبي لتلقي الحمل الخلفي وقد أرصد الرجال حفاقيه للبطش بكيش وأميره المنصوب فقتل كيش عن الحضور وجاء الصبي وترجل عن فرسه لتقبيل الخف من راحلة الحمل على العادة فوثب به أولئك المرصدون طعنًا بالخناجر يظنونه كيشاً ثم غابوا فلم يوقف لهم على خبر وتركوه طريحاً بالبطحاء ودخل الأمير إلى الحرم فطاف وسعي وخلع على عنان بن مقامس الإمارة على عادة من سلف من قومه ولما كيش إلى جدة من سواحل مكة.

ثم لحق بأحياء العرب المتبذين ببقاع الحجاز صريحاً فقتلوا عن نصرته وفاء بطاعة السلطان وافترق أمره وخذله عشيره وانتقل الأمير بالحاج إلى مصر فعتقه السلطان على قتله الصبي فاعتذر باقتيات أولئك الرجال عليه فعذره وجاء كيش بعد منصرف الحاج وقد انضم إليه أوياش من العرب فقتل بالمرصد يخيف السابلة والركاب والمسافرين ثم زحف إلى مكة وحاصرها أول سنة تسع وثمانين وخرج عنان بن مقامس بعض الأيام وبارزه فقتله واضطرب الأمر بمكة وامتدت أيدي عنان والأشرار معه إلى أموال المجاورين فقتلوا عليها ونهبوا زرع الأمراء هنالك وزرع السلطان للصدقة وولى السلطان علي بن عجلان واعتقله حسماً لمادة طوراق الفساد عن مكة واستقر الحال على ذلك إلى أن كانت فتنة الناصر كما نذكر إن شاء الله تعالى انتهى.

انتفاض منطاش بملطية ولحافه بسيواس

ومسير العساكر في طلبه

كان منطاش هذا وعمرتاي الدمرداشي الذي مر ذكره أخوين لتمرز الناصري من موالى الملك الناصر محمد بن قلاوون وربيا في كفالة أمهما وكان اسم عمرتاي محمداً وهو الأكبر واسم منطاش أحمد وهو الأصغر واتصل عمرتاي بالسلطان الأشرف وترقى في دولته في الوظائف إلى أن ولي بحلب سنة ثمانين وكانت واقعة مع التركمان وذلك أنه وقد عليه أمراؤهم فقبض عليهم لما كان من عيشتهم في التواحي واجتمعوا فصار إليهم وأمدده السلطان بعساكر الشام وحماة وانهزموا أمامهم إلى الدريند ثم كروا على العساكر

الأحوال وكانت أهم أمنياته ثم انقلب ظافراً بقصده وأعادته السلطان إلى مرسله بهدية نحو من الأولى من أجناس تلك الثياب ومستجادهما مما يجاوز الكثرة ويفوت واستحكمت عقدة المودة بين هذين السلطانين وشكرت الله على ما كان فيها من أثر مسعاي ولو قل.

وكان وصل في جملة الحاج من المغرب كبير العرب من هلال وهو يعقوب بن علي بن أحمد أمير رياح المواطنين بضواحي قسنطينة وبجاية والزاب في وفد من بنيه وأقربائه ووصل في جملتهم أيضاً عون بن يحيى طالب بن مهلهل من الكعوب أحد شعوب سليم المواطنين بضواحي تونس والقيروان والجريد وبنو أبيه فقتلوا فرفضهم أجمعون وانتقلوا إلى مواطنهم أواسط شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين واطردت أحوال هذه الدولة على أحسن ما يكون والله متولي أمرها بمنه وكرمه انتهى.

حوادث مكة وأمرائها

قد تقدم لنا أن ملك مكة سار في هذه الأعصار لبني قتادة من بني مطاعن الهواشم بني حسن وذلك منذ دولة الترك وكان ملكهم بها بدوياً وهم يعطون الطاعة للملك مصر ويقيمون مع ذلك منذ الدولة العباسية للخليفة الذي ينصبه الترك بمصر إلى أن استقر أمرها آخر الوقت لأحمد بن عجلان من رميثة بن أبي نمي أعوام سنة ستين وسبعمائة بعد أبيه عجلان فأنظر في سلطانه عدلاً وتعافاً عن أموال الناس وقبض أيدي أهل العيث والظلم وحاشيتهم وعبيدهم وخصوصاً عن المجاورين وأعانه على ذلك ما كان له من الشوكة بقوة أخواله ويعرفون ببني عمر من أتباع هؤلاء السادة ومواليهم فاستقام أمره وشاع بالعدل ذكره وحسنت سيرته وامتلات مكة بالمجاورين والتجار حتى غصت بيوتها بهم.

وكان عنان ابن عمه مقامس بن رميثة ومحمد ابن عمه مقامس بن رميثة ينفسون عليه ما آتاه الله من الخير ويجدون في أنفسهم إذ ليس يقسم لهم برضاهم في أموال جبايته فتتكرروا له وهوما بالانتفاض فقبض عليهم وكان لهم حلف مع أخيه محمد بن عجلان فراوده على تركهم أو حبسهم فحبسوا ولبثوا في حبسهم ذلك حوالاً أو فوقه ثم تقبوا السجن ليلاً وفروا فأدرکوا من ليلتهم وأعيدوا إلى حبسهم وأفلت منهم عنان بن مقامس ونجا إلى مصر سنة ثمان وثمانين صريحاً بالسلطان وعن قليل وصل الخبر بوفاة أحمد بن عجلان على فراشه وأن أخاه كيش بن عجلان نصب ابنه محمداً مكانه وقام بأمره وأنه عمد إلى هؤلاء

باستئصال ملك ابن أريثا وبلده.

ووصلت العساكر خلال ذلك إلى سيواس فحاصروها أياماً وضيقوا عليها وكادت أن تلقي باليد ووصل منطاش إثر ذلك بإحياء التتر فقاتلهم العساكر ودافعوهم ونالوا منهم وجلسى الناصري في هذه الوقائع وأدرك العساكر الملل والضجر من طول المقام وبطء الظفر وانقطاع الميرة بتوغلهم في البلاد وبعد الشقة فتداعوا للرجوع ودعوا الأمراء إليه فجنح لذلك بعضهم فانكفؤوا على تعيينهم وسار بعض التتر في اتباعهم فكسروا عليهم واستلحموهم وخلصوا إلى بلاد الشام على أحسن حالات الظهور ونية العود ليحسموا علل العدو ويمحو أثر الفتنة والله تعالى أعلم.

نكبة الجوباني واعتقاله بالإسكندرية

كان الأمراء الذين حاصروا سيواس قد لحقهم الضجر والسآمة من طول المقام وفزع قردم والطنبغا المعلم منهم إلى الناصري مقدم العساكر بالشكوى من السلطان فيما دعاهم إليه من هذا المرتكب وتفاوضوا في ذلك ملياً وتداعوا إلى الإفراج عن البلد بعد أن بعثوا إلى القاضي بها واتخذوا عنده يداً بذلك وأوصوه بمنطاش والإبقاء عليه ليكون لهم وقوفاً للفتنة وعلم يونس الدوادار أنهم في الطاعة فلم يسعه خلافهم ففوض لهم ولما انتهى إلى حلب غدا عليه دمرداش من أمرائها فنصح له بأن الجوباني نائب بدمشق مداخل للناصر في تمريضه في الطاعة وأنهما مصران على الخلاف وقتل يونس إلى مصر فقص على السلطان نصيحته واستدعى دمرداش فشافه السلطان بذلك واطلع منه على جلي الخبر في شأنهما.

وكان للجوباني عماليك أوغاد قد أبطرتهم النعمة واستهوهم الجاه وشرهوا إلى التوثب وهو يزجرهم فصاروا إلى إغرائه بالحاجب يومئذ طرظاي فقعده في بيته عن المجلس السلطاني وطير بالخبر إلى مصر فاستراب الجوباني وسابقه بالحضور عند السلطان لينضح عنخ ما علق به من الأوهام وأذن له في ذلك فنهض من دمشق على البريد في ربيع سنة تسعين ولما انتهى إلى سرياقوس أزعج إليه أستاذ داره بهادر المنجكي فقبض عليه وطير به السفن إلى الإسكندرية وأصبح السلطان من الغد فقبض على قردم والطنبغا المعلم والحقهما به فحبسوا هنالك جميعاً وانحسم ما كان يتوقع من انتفاضهم وولى السلطان مكان الجوباني بدمشق طرظاي الحاجب ومكان قردم بمصر ابن عمه مجماس ومكان

فهمزوها في المضايق وتوفي تمرتاي سنة اثنتين وثمانين وكان السلطان الظاهر بقرقوق يرعى لهما هذا الولاء فولى منطاش على ملطية ولما قعد على الكرسي واستبد بالسلطان بدت من منطاش علامات الخلاف فهم به ثم راجع ووفد وتنصل للسلطان وكان سودون باق من أمراء الألوف خالصة للسلطان ومن أهل عصيته وكان من قبل ذلك في جملة الأمير تمرتاي فرعاً لمنطاش حق أخيه وشنع له عند السلطان وكفل حسن الطاعة منه وأنه يخرج على التركمان المخالفين ويحسم علل فسادهم وانطلق إلى قاعدة عمله بملطية ثم لم تزل آثار العصيان بادية عليه وربما داخل أمراء التركمان في ذلك ونمي الخبر إلى السلطان فطوى له وشعر هو بذلك فراسل صاحب سيواس قاعدة بلاد الروم وبها قاض مستبد على صبي من أعقاب بني أرشى ملوكها من عهد هلاكو قد اعصوب عليه بقية من أحياء التتر الذين كانوا حامية هنالك مع الشحنة فيها كما نذكره.

ولما وصلت رسل منطاش وكتبه إلى هذا القاضي بادر باجابهته وبعث رسلاً وفداً من أصحابه في إتمام الحديث معه فخرج منطاش إلى لقائهم واستخلف على ملطية دواداره وكان مغفلاً فخشي مغبة ما يرومه صاحبه من الانتقاص فلاذ بالطاعة وتبرا من منطاش وأقام دعوة السلطان في البلد وبلغ الخبر إلى منطاش فاضطرب ثم استمر وسار مع وفد القاضي إلى سيواس فلما قدم عليه وقد انقطع الحبل في يده أعرض عنه وصار إلى مغالطة السلطان عما أتاه من مداخله منطاش وقبض عليه وحبسه وسرح السلطان سنة تسع وثلاثين عساكره مع يونس الدوادار وقردم رأس نوبة والطنبغا الرماح أمير سلاح وسودون باق من أمراء الألوف وأوعز الناصري فأتى وطلب أن يخرج معهم بعساكره وإلى أنيال اليوسفي من أمراء الألوف بدمشق وساروا جميعاً.

وكان يومئذ ملك التتر بما وراء النهر وخراسان تمر من نسب جفطاي قد زحف إلى العراقيين وأذربيجان وملك توزير عنوة واستباحها وهو يحاول ملك بغداد فسارت هذه العساكر توري بغزوه ودفاعه حتى إذا بلغوا حلب أتى إليهم الخبر بأن تمر رجع بعساكره لخارج خرج عليه بقاصية ما وراء النهر فرجعت عساكر السلطان إلى جهة سيواس واتحموا تخومها على حين غفلة من أهلها فبادر القاضي إلى إطلاق منطاش لوقته وقد كان أيام حبسه يوسوس إليه بالرجوع عن موالة السلطان ومآلاته ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى جنح إلى قوله فبعث لإحياء التتر الذين كانوا ببلاد الروم فيشة بن أريثا بن أول فسار إليهم واستجاشهم على عسكر السلطان وحذرهم استئصال شافتهم

المعلم دمر دأش واستمر الحال على ذلك.

السنة.

فتنة الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال السلطان بالكرك

لما بلغ الناصري بحلب اعتقال هؤلاء الأمراء استراب واضطرب وشرع في أسباب الانتفاض ودعا إليه من يشيع الشر وسامسة الفتن من الأمراء وغيرهم فأطاعوه وافتتح أمره بالنكير للأمير سودون المظفري والاعراف عنه لما كان منه في نكبته وإغراء السلطان به ثم ولايته مكانه ومن وظائف الحاجب في دولة الترك خطة البريد المعروفة في الدول القديمة فهو يطالع السلطان بما يحدث في عمله ويعترض شجى في صدر من يريد الانتفاض من ولاته فأظلم الجو بين هؤلاء الرهط وبين المظفري وتفاقم الأمر وطير بالخبر إلى السلطان فأخرج للوقت دواذره الأصغر لتكتمر ليصلح بينهما ويسكن الشائنة وحينما سمعوا بمقدمة ارتسابوا وارتبكوا في أمرهم وقدم تلكتمر فتلقاها الناصري وألقى إليه كتاب السلطان بالندب إلى الصلح مع الحاجب والإغضاء له فاجاب بعد أن التمس من حقائب تلكتمر مخاطبة السلطان وملاطفته للأمراء حتى وقف عليه.

ثم غلب عليه أولئك الرهط من أصحابه بالفتك بالحاجب فأطاعهم وباركهم تلكتمر بدار السعادة ليم الصلح بينهم وتذهب الهواجس والفرقة فدعا الناصر إلى بعض خلواته وبينما هو يجادشه وإذا بالقوم قد وثبوا على الحاجب وقتكوا به وتولى كبر ذلك أبقا الجوهري واتصلت الهيفة فوجم تلكتمر ونهض إلى محل نزوله واجتمع الأمراء إلى الناصري واعصوبوا عليه ودعاهم إلى الخلعان فأجابوا وذلك في محرم سنة إحدى وتسعين.

واتصل الخبر بطرابلس وبها جماعة من الأمراء يرومون الانتفاض منهم بدلار الناصري عميد الفتن فتولى كبرها وجمع الذين غالروا عليها وعمدوا إلى الإيوان السلطاني المسمى بدار السعادة وقبضوا على النائب وجسوه ولحق بدلار الناصري في عساكر طرابلس وأمرائها وفعل مثل ذلك أهل حلب ومحص وسائر ممالك الشام وسرح السلطان العساكر لقتالهم فسار إيتمش الأتابك ويونس الدوادار والخليلي جركس أمير الماخورية وأحمد بن بيبقا أمير مجلس وإيدكاز صاحب الحجاب فيمن إليهم من العساكر وانتخب من أبطال ماليكهم وشجعانهم خمسمائة مقاتل واستضافهم إلى الخليلي وعقد لهم لواءه المسمى بالشاليش وأزاح عنهم وغلل سائر العساكر وساروا على التعية متصف ربيع

وكان الناصري لما فعل فعلته بعث عن منطاش وكان مقيما بين أحياء التتر منذ رجوع العساكر عن سيواس فدعا ليمسك معه حبل الفتنة والخلاف فجاء وملاه مبرة وإحساناً واستنفر طوائف التركمان والعرب ونهض في جموعه يريد دمشق وطرنتاي نائبها يواصل تعريف السلطان بالأخبار ويستحث العساكر من مصر على نائبها الأمير الصفوي وبينه وبين الناصر علاقة وصحبة فاسترابوا به وتقبضوا عليه ونهبوا بيته وبعثوا به حبساً إلى الكرك وولوا مكانه محمد باكيش بن جند التركماني كان مستخدماً عند بدمر هو وأبوه وولى لهذا العهد على نابلس وما يجاورها فنقلوه إلى غزة.

ثم تقدموا إلى دمشق واختاروا من القضاة وفدأ أوفدوه على الناصري وأصحابه للإصلاح فلم يجيبوا وأمسكوا الوفد عندهم وساروا للقاء ولما تراءى الجمعان بالمرج نزح أحمد بن بيبقا وإيدكاز الحاجب ومن معهما إلى القرم فساروا معهم واتبعهم ممالك الأمراء وصدق القوم الحملة على من بقي فانفضوا ولجأ إيتمش إلى قلعة دمشق فدخلها وكان معه مكتوب السلطان بذلك متى احتاج إليه وذهب يونس حيران وقد أفرده ممالكه فلقية عنقا أمير الأمراء وكان عقد له بعض النزعات أيام سلطانه فتقبض عليه وأحيط بجركس الخليلي ومالك السلطان حوله وقد أبلوا في ذلك الموقف واستلحم عاتمهم فخلص بعض العدو إليه وطعنه فأكبه ثم احتز رأسه وذهب ذلك الجمع شعاعاً وافترت العساكر في كل وجه وجيء بهم أسرى من كل ناحية.

ودخل الناصري وأصحابه دمشق لوقتهم واستولوا عليها وعانت عساكرهم من العرب والتركمان في نواحيها وبعث إليهم عنقا يستأذنهم في أمر يونس فأمر بقتله وقتله وبعث إليهم برأسه وأوعزوا إلى نائب القلعة مجبس إيتمش عنده وفرقوا المحبوسين من أهل الواقعة على السجون بقلعة دمشق وصفد وحلب وغيرها وأظهر ابن باكيس دعوته بغزة وأخذ بطاعتهم ومر به أنيال اليوسفي من أمراء الألو فبدمشق ناجيا من الوقعة إلى مصر فقبض عليه وجسه بالكرك واستعد السلطان للدفاع وولى دمر دأش أتابكا مكان إيتمش وقرماش الجندار دواذره مكان يونس وعمر سائر المراتب عن قدام منها وأطلق الخليفة المعتقل المتوكل بن المعتضد وأعادته إلى خلافته وعزل المنسوب مكانه.

وأقام الناصري وأصحابه بدمشق أياماً ثم أجمعوا المسير إلى مصر ونهضوا إليها بجمعهم وعيت أنباؤهم حتى أطلت مقدمتهم على بلبس ثم تقدموا إلى بركة الحاج وخيموا بها لسبع من جمادى

وأركب معه صاحب الكرك موسى بن عيسى في لمة من قومه يوصلونه إلى الكرك وسار معه برهة من الليل مشياً ثم رجع وشعر منطاش من أمره وطوى على الغش وأخذ ثياب الثورة كما يذكر ونجا السلطان إلى الكرك في فل من غلمانته ومواليه ووكل الناصري به حسن الكشكي من خواصه وولاه على الكرك وأوصاه بخدمته ومنعه من يرومه بسوء فتقدمه إلى الكرك وأنزله القلعة وهيا له النزول بما يحتاج إليه وأقام هنالك حتى وقع من لطائف الله في أمره ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى وجاء الخبر أن جماعة من ممالك الظاهر كانوا تخفين منذ الوقعة فاعتزموا على الثورة بدمشق وأنهم ظفروا بهم وحبسوا جميعاً ومنهم أيقا الصغير والله تعالى أعلم.

ثورة منطاش واستيلاؤه على الأمر ونكبة

الجوباني وحبس الناصري والأمراء

البيقايوة بالإسكندرية

كان منطاش منذ دخل مع الناصري إلى مصر مترتباً بالدولة طاوياً جوائحه على الغدر لأنهم لم يوفروا حظه من الإقطاع ولم يجعلوا له اسماً في الوظائف حين اقتسموها ولا راعى له الناصري حق خدمته ومقارعتة الأعداء وكان يتقم عليه مع ذلك إيثاره الجوباني واختصاصه فاستوحش واجمع الثورة وكان ممالك الجوباني لما حبس أميرهم وانتفض الناصري بحلب لحقوا به وجاؤوا به في جلته واشتملوا على منطاش فكان له بهم في ذلك السفر أنس وله إليهم صفو فداخل جماعة منهم في الثورة وحملهم على صاحبهم وتطفل على الجوباني في المخالصة بغشيان مجلسه وملابسة ندمائه وحضور مائدته وكان البيقايوة جميعاً ينقسمون على الناصري ويرون أنه مقصر في الرواتب والإقطاع وطووا من ذلك على النكت ودعاهم منطاش إلى التوثب فكانوا إليه أسرع وزيتوه له وقعدوا عنه عند الحاجة.

ونمي الخبر إلى الناصري والجوباني فعزموا على إشخاص منطاش إلى الشام فتمارض وتخلف في بيته أياماً يطاولهم ليحكم التدبير عليهم ثم عدا عليه الجوباني يوم الاثنين وقد أكنن في بيته رجلاً للثورة فقبضوا على الجرجاني وقتلوه لحينه وركب منطاش إلى الرملة فنهب مراكب الأمراء بباب الاصطبل ووقف عند مأذنة المدرسة الناصرية وقد شحنتها ناشية ومقاتلة مع أمير من أصحابه وقف في حمايتهم واجتمع إليه من داخله في الثورة من الأشرية وغيرهم واجتمع إليه من كان بقي من ممالك الظاهر واتصلت

الأخيرة من السنة وبرز السلطان في ممالিকে ووقف أمام القلعة بقية يومه والناس يتسابلون إلى الناصري من العساكر ومن العامة حتى غصت بهم بسائط البركة واستأمن أكثر الأمراء مع السلطان إلى الناصري فأمّنهم وأطلع السلطان على شأنهم وسارت طائفة من العسكر وناوشوهم القتال وعادوا منهزمين إلى السلطان وارتاب السلطان بأمره وعابن اغتلال عقده فندس إلى الناصري بالصلح وبعث إليه بالملاطفة وأن يستمر على ملكه ويقوم بدولته خدمه وأعوته وأشار بأن يتوارى بشخصه أن يصيبه أحد من غير البيقايوة بسوء فلما غشيه الليل أذن لمن بقي معه من ممالিকে في الانطلاق ودخل إلى بيته ثم خرج متكرراً ومسرّى في غيابات المدينة.

وباركهم الناصري وأصحابه القلعة فاستولوا عليها ودعوا أمير حاج ابن الأشرف فادوه إلى التخت كما كان ونصبوه للملك ولقبوه المنصور وبادروا باستدعاء الجوباني والأمراء المعتقلين بالإسكندرية فأغذوا السير ووصلوا ثاني يومهم وركب الناصري وأصحابه للقائهم وأنزل الجوباني عنده بالإصطبل وأشركه في أمره وأصبحوا ينادون بطلب السلطان الظاهر بقية يومهم ذلك ومن الغد حتى دل عليه بعض ممالك الجوباني وحين رآه قبل الأرض وبالح في الأدب معه وحلف له على الأمان وجاء به إلى القلعة فأنزله بقاعة الغصبة واشتوروا في أمره وكان حرص منطاش وزلار على قتله أكثر من سواهما وأبى الناصري والجوباني إلا الوفاء بما اعتقد معهم واستقر الجوباني أتاكب والناصري رأس النوبة الكبرى ودمرداش الأحدي أمير سلاح وأحد بن بيقا أمير مجلس والأبقا العثماني دودار وأنبقا الجوهرية أستاذدار وعمرت الوظائف والمراتب.

ثم بعثوا زلار نائباً على دمشق وأخرجوه إليها وبعثوا كتيبة البيقايوة على حلب وكان السلطان قد عزله عن طرابلس واعتقله بدمشق فلما جاء في جملة الناصري بعثه على حلب مكانه وقبضوا على جماعة من الأمراء فيهم النائب سودون باق وسودون الطرطاي فحبسوا بعضهم بالإسكندرية وبعثوا آخرين إلى الشام فحبسوا هنالك وتبعسوا ممالك السلطان فحبسوا أكثرهم وأشخصوا بقيتهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء.

وقبضوا على أستاذ دار محمود قهرمان الدولة وقارون القصري فصادروه على ألف درهم ثم أودعوه السجن وهم مع ذلك يتشاورون في مستقر السلطان بين الكرك وقوص والإسكندرية حتى أجمعوا على الكرك ووروا بالإسكندرية حذراً عليه من منطاش فلما أزم مسيره قعد له منطاش عند البحر رصداً وبات عامة ليله وركب الجوباني مع السلطان من القلعة

نواب الممالك بالشام في حلب وغيرها يدعوههم إلى الوفاق فأعرضوا عنه وتمسكوا بطاعتهم وكان الأمير الكبير بدمشق جتتمر أخواطز يداخل الأمراء هناك في الترتيب به وتوثق منهم للدولة وبلغ الخبر إلى بذلار فركب في محاليكه وشيعته يروم القبض عليه فلم يتمكن من ذلك واجتمعوا وظاهرهم عامة دمشق عليه فقاتلوه ساعة من نهار ثم أبقن بالغلب والهلكة فآلقى بيده وقبضوا عليه وطبروا بالخبر إلى منطاش وهو صاحب الدولة فأمر باعتقاله وهلك مريضاً في محبسه وولى منطاش جتتمر نيابة دمشق واستقرت الأحوال على ذلك والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عبادة.

خروج السلطان من الكرك وظفروه بعساكر الشام وحصاره دمشق

ولما بلغ الخبر إلى السلطان الظاهر بالكرك بأن منطاش استقل بالدولة وحس البيقاوية جميعاً وأدال منهم بأصحابه أهمته نفسه وخشي غائلته ولم يكن عند منطاش لأول استقلاله أهم من شأنه وشأن السلطان فكتب إلى حسن الكشكي نائب الكرك بقتله وقد كان الناصري أوصاه في وصيته حين وكله به أن لا يمكنه ممن يرومه بسوء فتجافى عن ذلك واستدعى البريدي وفاوض أصحابه وقاضي البلد وكاتب السر فأشاروا بالتحرز من دمه جهد الطاقة فكتب إلى منطاش معتذراً بالخطر السذي في ارتكابه دون إذن السلطان والخليفة فأعاد عليه الكتاب مع كتاب السلطان والخليفة بالإذن فيه واستحثه في الإجهاز عليه فأنزل البريدي وعلله بالوعد وطاوله يرجو المخلص من ذلك وكانوا يطوون الأمر عن السلطان شفقة وإجلالاً فحسّر بذلك وأخلص اللجأ إلى الله والتوسل بإبراهيم الخليل لأنه كان يراقب مدفنه من شبك في بيته.

وانطلق غلماناه في المدينة حتى ظفروا برجال داخلهم في حسن الدفاع عن السلطان وأفاضوا فيهم فأجابوا وصدقوا ما عاهدوا عليه واتعدوا لقتال البريدي وكان منزله بإزاء السلطان فتوافوا ببابه ليلة العاشر من رمضان وهجموا عليه فقتلوه ودخلوا برأسه إلى السلطان وشفار سيوفهم دامية وكان النائب حسن الكشكي يفطر على سماء السلطان تأسيماً لهم فلما رأهم دهش وهموا بقتله فأجاره السلطان وملك السلطان أمره بالقلعة وبابيه النائب وصعد إليه أهل المدينة من الغد فبايعوه.

ووفد عليه عرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم فأعطوه طاعتهم وفشا الخبر في النواحي فساقط إليه محاليكه من كل جهة وبلغت أخباره إلى منطاش فأوعز إلى ابن باكيش نائب غزة أن

الهيعة فركب الأمراء البيقاوية من بيوتهم ولما أفضوا إلى الرملة وقفوا ينظرون مآل الحال وبرز الناصري من الاصطبل فيمن حضر وأمر الأمراء بالحملة عليهم فوقفوا فأحجم هو عن الحملة وتحاذل أصحابه وأصحاب منطاش.

ومال إلى الناصري بمحاليك الجوباني لنكبة صاحبهم فهددهم منطاش بقتله فافترقوا وتحاجز الفريقان آخر النهار وباكروا شأنهم من الغد وحمل الناصري فانهزم وأقاموا على ذلك ثلاثاً وجمع منطاش في تزايد ثم انفض الناس عن الناصري عشية الأربعاء لسبعين يوماً من دخول القلعة واقتمحها عليه منطاش ونهب بيوته وخزائنه وذهب الناصري حيران وأصحابه يرجعون عنه وباكرو البيقاوية مجلس منطاش من الغد فقبض عليهم وسبق من تخلف منهم عن الناصري أفذاذاً وبعث بهم جميعاً إلى الاسكندرية وبعث جماعة ممن حسبهم الناصري إلى قوص ودمياط ثم جدد البيعة لأمر حاج منصور ثم نادى في محاليك السلطان بالعرض وقبض على جماعة منهم وفر الباكون وبعث بالمحبوسين منهم إلى قوص وصادر جماعة من أهل الأموال وأفرج عن محمود أستاذ دار وخلع عليه لبلويه في وظيفته.

ثم بدا له في أمره وعاود مصادرته وامتحانه واستصفى منه أموالاً عظيمة يقال ستين قنطاراً من الذهب ولما استقل بتدبير الدول عمر الوظائف والمراتب وولى فيها بنظره وبعث عن الأشقتمري من الشام وكان أخوه عمرتاي قد آخى بينهما فولاه النيابة الكبرى وعن استدمر بن يعقوب شاه فجعله أمير سلاح وعن أنبقا الصفوي فولاه صاحب الحجاب واختص الثلاثة بالمشورة وأقام أركاناً للدولة وكان إبراهيم بن بطلقتمر أمير جندار قد داخله في الثورة فرعى له ذلك وقدمه في أمراء الألوف ثم بلغه أنه تفاوض مع الأمراء في الثورة به واستبداد السلطان فقبض عليه ثم أشخصه إلى حلب على إمارته هناك وكان قد اختص أرغون السمندار وآلقى عليه محبته وعنايته فغشيه الناس وباكروا بابه وعظم في الدولة صيته ثم نفي عنه أنه من المداخلين لإبراهيم أمير جندار فسطا به وامتحنه أن له على هؤلاء المداخلين لإبراهيم فلاذ بالإنكار وأقام في محبسه وأفرج عن سودون النائب فجاء إلى مصر فآلزمه بيته واستمر الحال على ذلك انتهى.

ثورة بذلار بدمشق

ولما بلغ الخبر إلى بذلار بدمشق باستقلال منطاش بالدولة أنف من ذلك وارتاب ودخلته الغيرة وأجمع الانتفاض وكاتب

وانكفأ جموعه وسار على العدو الشرقية في جموعه لاعتراضهم فوصل إلى قوص وبادر ابن قرط فخالفه إلى منطاش بطاعته فأكرمه ورده على عمله فوافى ابن يعقوب شاه بقوص وقد استولى على النواحي واستنزل الأمراء المخالفين ثم قبض عليهم وقتل جميع من كان معهم من مماليك السلطان الظاهر وماليك ولاية الصعيد وجاء بالأمراء إلى مصر فدخل بهم منتصف ذي الحجة من السنة فأفرج عن أربعة منهم سوماي السلاي وحبس الباقين والله تعالى أعلم.

ثورة كمشيقا بحلب وقيامه بدعوة السلطان

قد كنا قدما أن الناصري ولي كمشيقا رأس نوبة نيابة حلب ولما استقل منطاش بالدولة ارتاب ودعاه بذلار لما ثار بدمشق إلى الوفاق فامتنع ثم بلغه الخبر بخلاص السلطان من الاعتقال بالكرك فظهر الانتفاض وقام بدعوة السلطان وخالفه إبراهيم بن أمير جندار واعصروص عليه أهل باقوسا من أرباض حلب فقاتلهم كمشيقا جميعاً وهزمهم وقتل القاضي ابن أبي الرضا وكان معه في ذلك الخلاف واستقل بامر حلب وذلك في شوال من السنة ثم بلغه أن السلطان هزم عساكر دمشق وابن باكيش وأنه مقيم بقبة بلبيغا محاصراً لدمشق بعد أن نهبوا أقاله وأخرجوا من الميدان فتهجهز من حلب إليه في العساكر والحشود وجهاز له جميع ما يحتاج إليه من المال والأقمشة والسلاح والخيل والإبل وخيام الملك بفرشها وما عونها وآلات الحصار وتلفاه السلطان وبالغ في تكريمه وفرض إليه في الأتابكية والمشورة وقام معه محاصراً لدمشق.

واشتد الحصار على أهل دمشق بعد وصوله واستكثر السلطان من المقاتلة وآلات الحصار وخرب كثيراً من جوانبها بمحاربة المجانيق وتصدعت حيطانها وأضرمت كثيراً من البيوت على أربابها فاحترقت واستولى الخراب والحريق على القبيبات أجمع وتفاش فيها واشتد أهل القتال والدفاع من فوق الأسوار وتولى كبر ذلك منهم قاضي الشافعية أحمد بن القرشي بما أشار عليهم وفاه أهل العلم والدين بالنكير فيه وكان منطاش لما بلغه حصار دمشق بعث طنبا الحلبي دوادار الأشرف بمجدد من المال بمد به العساكر هنالك وأقام معهم ثم بعث جتتمر إلى أمير آل فضل يعبر بن جبار يستجده به فجاء لقتالهم وسار كمشيقا نائب حلب فلقبه وفض جموعه وأسر خادمه وجاء به أسيراً فمن عليه السلطان وأطلقه وكساه وحمله ورده إلى صاحبه واستمر حصار دمشق إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

يسير العساكر إلى الكرك وتردد السلطان بين لقائه والنهوض إلى الشام ثم أجمع السير إلى دمشق فبرز من الكرك منتصف شوال فمكسر بالقبّة وجمع جموعه من العرب وسار في ألف أو يزيدون من العرب والترك وطوى المراحل إلى الشام وسرح جتتمر نائب دمشق العساكر لدفاعه فيهم أمراء الشام وأولاد بدمر فالتقوا بشقحب وكانت بينهم واقعة عظيمة أجلت عن هزيمة أهل دمشق وقتل الكثير منهم وظفر السلطان بهم واتبعهم إلى دمشق ونجا الكثير منهم إلى مصر.

ثم أحس السلطان بأن ابن باكيش وعساكره في اتباعه فكر إليهم وأسرى ليلته وصحبهم على غفلة في عشر ذي القعدة فانهزموا ونهب السلطان وقومه جميع ما معهم وامتلات أيديهم واستفحل أمره ورجع إلى دمشق ونزل بالميدان وثار العوام وأهل القبيبات ونواحيها بالسلطان وقصدوه بالميدان فركب ناجياً وترك أثقاله فنهبا العوام وسلبوا من لقوه من مماليكه ولحق بقبة بلبيغا فأقام بها وأغلقوا الأبواب دونه فأقام يحاصروهم إلى محرم سنة اثنتين وتسعين وكان كمشيقا الحموي نائب حلب قد أظهر دعوته في عمله وكتبه بذلك عندما نهض من الكرك إلى الشام كما نذكره ولما بلغه حصاره لدمشق تجهز للقاءه واحتمل معه ما يزيح علل السلطان من كل صنف وأقام له أبهة ووصل أنبال اليوسفي وقجماش ابن عم السلطان وجماعة من الأمراء كانوا محبوبين بصفد وكان مع نائبها جماعة من مماليك السلطان يستخدمون فغدروا به وأطلقوا من كان من الأمراء في سجن صفد كما نذكر ولحقوا بالسلطان وتقدمهم أنبال وهو محاصر لدمشق فأقاموا معه والله تعالى أعلم.

ثورة المعتقلين بقوص ومسير العساكر إليهم واعتقالهم

ولم بلغ الخبر إلى الأمراء المحبوسين بقوص خلاص السلطان من الاعتقال واستيلاؤه على الكرك واجتماع الناس إليه فثاروا بقوص أوائل شوال من السنة وقبضوا على الولاي بها وأخذوا من مودع القاضي ما كان فيه من المال وبلغ خبرهم إلى مصر فسرح إليهم العساكر ثم بلغه أنهم ساروا إلى أسوان وشايخوا الولاي بها حسن بن قرط فلحن لهم بالوعد وعرض بالوفاق فطمعوا واعتزموا أن يسيروا من وادي القصب من الجهة الشرقية إلى السويس ويسيروا من هناك إلى الكرك ولما وصل خبر ابن قرط أخرج منطاش سندمر بن يعقوب شاه ثامن عشرين من السنة

ثورة أنيال بصفد بدعوة السلطان

كان أنيال لما انهزم يوم واقعة دمشق فر إلى مصر ومر بغزة فاعتقله ابن باكيش وحبس بالكرك فلما استولى الناصري أشخصه إلى صفد فحبس بها مع جماعة من الأمراء وولى على صفد قلدك النظامي فاستخدم جماعة من عماليك بقوق واتخذ منهم بليغا السامي دودار فلما بلغه خلاص السلطان من الاعتقال ومسيره إلى الشام داخل بليغا عماليك أمثاده قطلوبغا في الخلاف والحق بالسلطان وهرب منهم جماعة فركب قطلوبغا في اتباعهم وأبقى بليغا السامي دودار وحاجب صفد فأطلقوا أنيال وسائر المحبوسين من السلطان فملك أنيال القلعة ورجع قطلوبغا من اتباع المهارين فوجدتهم قد استولوا وامتنعوا وارتاب من عماليكه فصار عن صفد ونهب بيته وغلفه ولحق بالشام فلقى الأمراء المنهزمي أمام السلطان بشقحب قاصدين مصر فصار معهم ولحق أنيال بالسلطان من صفد بعد أن ضبطها واستخلف عليها وأقام مع السلطان والله تعالى أعلم.

مسير منطاش وسلطانه أمير حاجي إلى

الشام وانهزامهم ودخول منطاش إلى

دمشق وظفر السلطان الظاهر بأمير حاجي

والخليفة والقضاة وعوده للملكه

ولما تواترت الأخبار بهزيمة عساكر الشام وحصار السلطان الظاهر دمشق وظهور دعوته في حلب وصفد وسائر بلاد الشام ثم وصلت العساكر المنهزمون وأولاد بندمر ونائب صفد واستحثوه وتواترت كتب جتتمر نائب دمشق وصريحه أجمع منطاش أمره حينئذ على المسير إلى الشام فتجهز ونادى في العساكر وأخرج السلطان والخليفة والقضاة والعلماء سبع عشر ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وخيموا بالزيدانية من ناحية القاهرة حتى أراح العلل واستخلف على القاهرة دودار صراي عمر وأطلق يده في الحل والعقد والتولية والعزل واستخلف على القلعة بكاء الأشرقي وعمد إلى خزانة من خزائن الذخيرة بالقلعة فسد بابها ونقبها من أعلاها حتى صارت كهية الجب ونقل إليها من كان في سجنه من أهل دولة السلطان.

ونقل سودون النائب إلى القلعة فأنزله بها وأمر بالقبض على من بقي من عماليك السلطان حيث كانوا فتمسروا في غيابات

المدينة ولاذوا بالاختفاء وأوعز بسد كثير من أبواب الدروب بالقاهرة فسدت ورحل في الثاني والعشرين من الشهر بالسلطان وعساكره على التعية وطوا المراحل ونمي إليه إنشاء طريقه أن بعض عماليك السلطان المستخدمين عند الأمراء مجمعون على التوثب ومداخلون لغيرهم فأجمع السطوة بهم ففروا ولحقوا بالسلطان ولما بلغ خبره مسيرهم السلطان وهو محاصر دمشق ارتحل في عساكره إلى لقائهم ونزل قريباً من شقحب وأصبحوا على التعية وكمشيقا بعساكر حلب في مينة السلطان ومنطاش قد عبي جيشه.

وجعل السلطان أمير حاجي والخليفة والقضاة والرماء من ورائهم ووقف معهم فمات رأس نوبة وسندمر بن يعقوب شاه أمير سلاح ووقف هو في طائفة من عماليكه وأصحابه في حومة المعترك فلما تراءى الجمعان حمل هو وأصحابه على مينة السلطان ففضوها وانهزم كمشيقا إلى حلب ومروا في اتباعه ثم عطفوا على غنيم السلطان فنهوه وأسروا قجماش ابن عمه كان هناك جريحاً ثم حطم السلطان على الذي فيه أمير حاجي والخليفة والقضاة فدخلوا في حكمه ووكل بهم واختلط الفريقان وصاروا في عمن من أمرهم والسلطان في لمة من فرسانه يخترق جوانب المعترك ويحطم الفرسان ويشردهم في كل ناحية وشراد عماليكه وأمرائه يتساقطون إليه حتى كثف جمعه.

ثم حمل على بقية العسكر وهم ملتزمون على الصفدي فهزمهم ولحقوا بدمشق وضرب خيامه بشقحب ولما وصل منطاش إلى دمشق أوهم النائب جتتمر أن الغلب له وأن السلطان أمير حاجي على الأثر ونادى في العساكر بالخروج في السلاح لتلقيه وخرج من الغد مورياً بذلك فركب إليهم السلطان في العساكر فهزمهم وأثنى فيهم واستلحم كثيراً من عامة دمشق ورجع السلطان إلى خيامه وبعث أمير حاجي بالتبري من الملك والعجز عنه والخروج إليه من عهده فأحضر الخليفة والقضاة فشهدوا عليه بالخلع وعلى الخليفة بالتفويض إلى السلطان والبيعة له والعود إلى كرسية وأقام السلطان بشقحب تسعاً واشتد كلب البرد وافقدت الأقوات لقلة الميرة فأجمع العود إلى مصر ورحل يقصدها وبلغ الخبر إلى منطاش فركب لاتباعه فلما أطل عليه أحجم ورجع واستمر السلطان لقصده وقدم حاجب غزة للقبض على ابن باكيش فقبض عليه ولما وافى السلطان غزة ولى عليها مكانه وحمله معتقلاً وسار وهو مستطلع لأحوال مصر حتى كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

فأنزلهم على الأمان وسرب أصحابه في البلد لنهب بيوت منطاش وأصحابه فعانوا فيها وتسلل إليه ممالك السلطان المختفون بالقاهرة فبلغوا ألفاً أو يزيدون.

ثم استأمن بكا من الغد فأمنه سودون النائب وجاء به إلى الناصري أمير سلاح ودمرداش وكان عنده فحبسهما بكا ثم وقف سودون على مدرسة حسن والأرض تخرج بعوالم النظارة فاستنزل منها سراي تمر وقطلوبغا الحاجب فنزلا على أمانه وهم العوالم بهما فحال دونهما وجاء بهما بكا فحبسهما وركب سودون يوم الجمعة في القاهرة ونادى بالأمان والخطة للسلطان فخطب له من يومه وأمر بكا بفتح السجون وإخراج من كان فيها في حبس منطاش وحكام تلك الدولة وهرب الوالي حسن بن الكوراني خوفاً على نفسه لما كان شيعاً لمنطاش على ممالك السلطان.

ثم عثر عليه بكا وحسبه مع سائر شيعه منطاش وأطلق جميع الأمراء الذين حبسهم بمصر ودمياط والفيوم ثم بعث الشريف عنان بن مقامس أمير بني حسن بمكة وكان محبوساً وخرج معهم فبعثه مع أخيه أيقا على المهجن لاستكشاف خبر السلطان ووصل يوم الأحد بعدها كتاب السلطان مع ابن صاحب الدرك سيف بن محمد بن عيسى العائدي بإعداد الميرة والعلوفة في منازل السلطان على العادة وقص خبر الواقعة وأن السلطان توجه إلى مصر وانتهى إلى الرملة ثم وصل أيقا أخو بكا يوم الأربعاء ثامن صفر بمثل ذلك وتتابع الواصلون من عسكر السلطان ثم نزل بالصالحية وخرج السلطان لتلقيه بالمكرشة.

ثم أصبح يوم الثلاثاء رابع صفر في ساحة القلعة وقلده الخليفة وعاد إلى سريره ثم بعث عن الأمراء الذين كان حبسهم منطاش بالإسكندرية وفيهم الناصري والجوياني وابن بيبقا وقراد مرداش وأبغا الجوهرى وسودون باقى وسودون الطرنطاي وقردمر المعلم في آخرين متعددين واستعبروا للسلطان فأعتهم وأعادهم إلى مراتبهم وولى أنيال اليوسفي أتابكاً والناصرى أمير سلاح والجوياني رأس نوبة وسودون نائباً وبكادادار وقرقمش استاذ دار وكمشيقا الخاصكي أمير مجلس وتظلميش أمير الماخورية وعلاء الدين كاتب سر الكرك كاتب سره بمصر وعمر سائر المراتب والوظائف.

وتوفي قرقمش فولى محمود أستاذ داره الأول ورعى له سوابق خدمته ومحنة العدو له في محبته وانتظم أمر دولته واستوثق ملكه وصرف نظره إلى الشام وتلافيه من مملكة العدو وفساده والله تعالى أعلم.

ثورة بكا والمعتقلين بالقلعة واستيلاؤهم عليها بدعوة السلطان الظاهر وعوده إلى كرسيه بمصر وانتظام أمره

كان منطاش لما فصل إلى الشام بسلطانه وعساكره كما مر واستخلف على القاهرة دوادره سراي تمر وأنزله بالإصطبل وعلى القلعة بكا الأشرفي وركله بالمعتقلين هنالك فأخذوا أنفسهم بالحزم والشدة وبعد أيام نهي إليهم أن جماعة من ممالك السلطان مجتمعون للثورة وقد داخلوا ممالكهم فبيتوهم وقبضوا عليهم بعد جولة دافع فيها ممالك عن أنفسهم ثم قبضوا على من داخلهم من ممالكهم وكانوا جماعة كثيرة وحدث لهم بذلك رتبة واشتداد في الحزم فنادوا بالوعيد لمن وجد عنده أحد من الممالك السلطان ونقلوا ابن أخت السلطان من بيت أمه إلى القلعة وحسوه وأوعزوا بقتل الأمراء المعتقلين بالقيوم فقتلوا وعميت عليهم أنباء منطاش والعساكر وبعثوا من يقتص لهم الطريق ويسائل الركبان واعتزموا على قتل المسجونين بالقلعة.

ثم تلاوموا في ذلك ورجعوا إلى التضييق عليهم ومنع المترددين بأقواتهم فضاحت أحوالهم وضجروا وأهنتهم أنفسهم وفي خلال ذلك عثر بعضهم على منفذ إلى سرب تحت الأرض يفضي إلى حائط الإصطبل ففروا بذلك وتسموا ربح الفرج ولما أظلمت ليلة الأربعاء غرة صفر سنة اثنتين وتسعين مروا في ذلك السرب فوجدوا فيه آلة النقب فنقبوا الحائط وأنفروا إلى أعلى الإصطبل وتقدم بهم خاصكي من أكابر الخاصكية وهجموا على الحراس فثاروا إليهم فقتلوا بعضهم بالقيود من أرجلهم وهرب الباقون ونادوا شعبان بكا نائب القلعة يوهمون أنه انتقض.

ثم كسروا باب الإصطبل الأعلى والأسفل وأفضوا إلى منزل سراي تمر فأيقظه لغتهم وهلج من شأن بكا فأرعى نفسه من السور ناجيا ومر بالحاجب قطلوبغا ولحق بمدرسة حسن وقد كان منطاش أنزل بها ناشبة من التركمان لحماية الإصطبل وأجرى لهم الأرزاق وجعلهم لنظر تنكر رأس نوبة ثم هجم أصحاب بكا على بيت سراي تمر فنهروا ماله وقماشه وسلاحه وركبوا خيله واستولوا على الإصطبل وقرعوا الطبول ليبيتهم وقاتلهم بكا من الغد وسرب الرجال إلى الطبلخانات فملكها ثم أزعجوه عنها وزحف سراي تمر وقطلوبغا الحاجب إلى الإصطبل لقتالهم وبرزوا إليهم فقاتلهم واعتصموا بالمدرسة واستولى بكا على أمره وبعث إلى باب السر من المدرسة ليحرقه فاستأمن إليه التركمان الذين به

ولاية الجوباني على دمشق واستيلاؤه عليها

من يد منطاش ثم هزيمته ومقتله وولاية

الناصرى مكانه

لما استقر السلطان على كرسيه بالقاهرة وانتظمت أمور دولته صرف نظره إلى الشام وشرع في تجهيز العساكر لإزعاج العدو منه وعين الجوباني لنيابة دمشق ورياسة العساكر والناصرى لحلب لأن السلطان كان عاهد كمشيقا على أنابكية مصر وعين قراد مرداش لطرابلس ومأمونا القلحطاوي لحماية فولى في جميع ممالك الشام ووظائفهم وأمرهم بالتجهيز ونودي في العساكر بذلك وخرجوا ثامن جمادى الأولى من سنة اثنتين وتسعين وكان منطاش قد اجتهد جهده في طي خبر السلطان بمصر عن أمرائه وسائر عساكره وما زال يفشو حتى شاع وظهر بين الناس فانصرف هراهم إلى السلطان وبعث في أثناء ذلك الأمير بمازقر نائباً على حلب فاجتمع أهل كانفوسا وحاصر كمشيقا بالقلعة نحواً من خمسة أشهر وشد حصارها وأحرق باب القلعة والجسر ونقب سورها من ثلاثة مواضع واتصل القتال بين الفريقين في أحد الأنقاب لشهرين على ضوء الشموع.

ثم بعث العساكر إلى طرابلس مع ابن إيماز التركمانى وحاصرها وملكوها من يد سندمر حاجب حجابها، وكان مستولياً عليها بدعوة الظاهر، ولما ملكها ولى عليها قشتمر الأشرفي، ثم بعث العساكر إلى بعلبك مع محمد بن سندمر في نفر من قرابته وجنده فقتلهم منطاش بدمشق أجمعين ثم أوعز إلى قشتمر الأشرفي نائب طرابلس بالمسير إلى حصار صفد فسار إليها وبرز إليه جندها فقاتلوه وهزموه فجهز إليها العساكر مع أبقا الصفدي كبير دولته فسار إليها في سبعمائة من العساكر وقد كان لما تيقن عنده استيلاء السلطان على كرسيه بمصر جنح إلى الطاعة والاعتصام بالجماعة وكاتب السلطان بمغامره ووعدته فلما وصل إلى صفد بعث إلى نائبها بطاعته وفارق أصحاب منطاش ومن له هوى فيه وصفوا إليه وبات ليلته بظاهر صفد وارتحل من الغد إلى مصر فوصلها منتصف جمادى الأخيرة وأمراء الشام معسكرون مع الجوباني بظاهر القلعة فأقبل السلطان عليه وجعله من أمراء الألوف ولما رجع أصحابه من صفد إلى دمشق اضطرب منطاش وتبين له نكر الناس وارتاب بأصحابه وقبض جماعة من الأمراء وعلى جتممر نائب دمشق وابن جرجي من أمراء الألوف وابن قفجق الحاجب وقتله والقاضي محمد بن القرشي في جملة من الأعيان واسترحش

الناس ونفروا عنه واستأمنوا إلى السلطان مثل محمد بن سندمر وغيره وهرب كاتب السر بدر الدين بن فضل الله وناظر الجيش وقد كانوا يوم الواقعة على شقحب لحقوا بدمشق يظنون أن السلطان يملكها يومه ذلك فبقوا في علكة منطاش واجمعوا الفرار مرة بعد أخرى فلم يتهياً لهم وشرع منطاش في الفتك بالمتمين إلى السلطان من الممالك المحبوسين بالقلعة وغيرهم وذبح جماعة من الجراكسة وهم يقتل أشمس فدفعه الله عنه وارتحل الأمراء من مصر في العساكر السلطانية إلى الشام مع الجوباني يطرون المراحل والأمراء من دمشق يلقونهم في كل منزلة هاربين إليهم حتى كان آخر من لقيهم ابن نصير أمير العرب بطاعة أبيه ودخلوا حدود الشام.

ثم ارتبك منطاش في أمره واستقر الخوف والهلع والاسترابة بمن معه فخرج منتصف جمادى الأخيرة هارباً من دمشق في خرواصه وأصحابه ومعه سبعون حملاً من المال والأقمشة واحتمل معه محمد بن أنبال وانتقض عليه جماعة من الممالك فرجعوا به إلى أبيه وكان يعبر بن جبار أمير آل فضل مقيماً في أحيائه ومعه أحياء آل مرو وأميرهم عتقا، فلحق بهم هنالك منطاش مستجيراً فأجاروه ونزل معهم.

ولما فصل منطاش عن دمشق خرج أشمس من محبسه وملك القلعة ومعه ممالك السلطان معصوبون عليه وأرسل إلى الجوباني بالخبر فأغذ السير إلى دمشق وجلس بموضع نيابته وقبض على من بقي من أصحاب منطاش وخدمه مع من كان حبس هو معهم ووصل الطنبا الحلبي ودمرداش اليوسفي من طرابلس وكان منطاش استقدمهم وهرب قبل وصولهم وبلغ الخبر إلى إيماز عمر وهو يحاصر حلب وأهل كانفوسا معصوبون عليه فأجفل ولحق بمنطاش وركب كمشيقا من القلعة إليهم بعد أن أصلح الجسر وأركب معه الحجاب وقاتل أهل كانفوسا ومن معهم من أشباع منطاش ثلاثة أيام ثم هزمهم وقتل كمشيقا منهم أكثر من ثمانمائة وخرب كانفوسا فأصبحت خراباً وعمر القلعة وحصنها وشحنها بالآفات وبعث الجوباني بالعساكر إلى طرابلس وملكوها من يد قشتمر الأشرفي نائب منطاش من غير قتال وكذلك حماة ومحض ثم بعث الجوباني نائب دمشق وكافل الممالك الشامية إلى يعبر بن جبار أمير العرب بإسلام منطاش وإخراجه من أحيائه فامتنع واعتذر فبرز من دمشق بالعساكر ومعه الناصري وسائر الأمراء ونهض إلى مصر فلما انتهوا إلى محض أقاموا بها وبعثوا إلى يعبر يعتذرون إليه فلج واستكبر وحال دونه وبعث إليه أشمس خلال ذلك من دمشق بأن جماعة شيعية بئدمر وجتممر يرومون الثورة

والخزائن بما تحصل وتسرب إليها وكفى السلطان مهمه في دولته وماليه ورجاله بما يسوغ لهم من نعمه ويوسع من أرزاقه وعطائه حتى أزاح عنهم بتوالي إنفاقه وقرت عين السلطان باصطناعه وغص به الدواوين والخاصية ففوقوا إليه سهام السعاية وسلطوا عليه السنة المتظلمين فخلص من ذلك خلوص الإبريز ولم تعلق به ظنة ولا حامت عليه ريبة.

ثم طرق الدولة ما طرقها من النكبة والاعتقال وأودعته الخنة غيايات السجون وحفت به أنواع المكاره واصطلمت نعمته واستصفيت أمواله في المصادرة والامتحان حتى زعموا أن الناصري المتغلب يومئذ استأثر منه بخمسة قناطير من دنائير الذهب ومنطاش بعده بخمسة وخمسين ثم خلس إبريزه من ذلك السبك وأهل قمره بعد الحاق واستقل السلطان من نكبته وطلع بأفق مصره وتهدد أريكة ملكه ودفعه لما كان بسيله فأحسن الكرة في الكفاية لمهمه وتوسيع عطياه وأرزاقه وتمكين أحوال دولته وتسربت الجباية من غير حساب ولا تقرير إلى خزائنه وأحسن النظر في الصرف والخرج بحزمه وكفايته حتى عادت الأمور إلى أحسن معهودها يمين تعييته وسديد رأيه وصلابة عوده وقوة صرامته مع بذل معروفه وجاهه لمن تحت يده وبشاشته وكفايته لغاشيته وحسن الكرامة لمتابه ومقابلة من يأتي إليه بكرم مقاصده فأصبح طرازاً للدولة وتاجاً للخواص.

وقدذه المنافسون بخطا السعيات فزلت في جهات حلم السلطان وجعل اعتباراه وتثبته حتى أعيتهم المذاهب وانسدت عليهم الطرق ورسخت قدمه في الدولة واحتل من السلطان بكرم العهد والذمة ووثق بغنائه واضطاعه فرمى إليه مقاليد الأمور.

وأوطأ عقبه أعيان الخاصة والجمهور وأفرده في الدولة بالنظر في الأمور حساباً وتقديراً وجمعاً وتقريباً وكترافاً موفراً وصرفاً لا يعرف تذبذباً وبطراً وفي الإنهاء بالعزل والإهانة مشهوراً مع ما يمتاز به من الأمر والشان وسمو مرتبته على مر الأزمان وهو على ذلك لهذا العهد عند سفر السلطان إلى الشام لمداقعة سلطان المغل كما مر ذكره والله متولي الأمور لا رب غيره.

مسير منتاش ويعبر إلى نواحي حلب
وحصارها ثم مفارقة يعبر وحصاره عنتاب

ثم رجوعه

ولما انهزمت العساكر بسلمية كما قلنا ارتحل يعبر في أحيائه

فركب الناصري إلى دمشق وكبسهم وأنخن فيهم ورجع إلى العسكر وارتحلوا إلى سلمية.

واستمر يعبر في غلوائه وترددت الرسل بينهما فلم تغن ثم كانت بين الفريقين حرب شديدة وحملت العساكر على منتاش والعرب فهزمهم إلى الخيام واتبع دمرداش منتاش حتى جاوز به الحي وارتحلت العرب وحلوا بطائنتهم على العسكر فلم يثبتوا لحملتهم وكان معهم آل علي بمجموعهم فنهبهم من ورائهم وانهزموا وأورد الجرباتي ماليه فأسره العرب وسبق إلى يعبر فقتله ولحق الناصري بدمشق وأسّر جماعة من الأمراء وقتل منهم أبقا الجوهري ومأمون المعلم في عدد آخرين ونهب العرب مخيمهم وأثقالهم ودخل الناصري إلى دمشق فبات ليلته وياكر من الغد آكل علي في أحيائهم فكبسهم واستلحم منهم جماعة فثار منهم بما فعلوه في الواقعة ثم بعث إليه السلطان بنبأه دمشق متتصف شعبان من السنة فقام بأمرها وأحكم التصريف في حمايتها والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

إعادة محمود إلى أستاذية الدار واستقلاله في الدولة

هذا الرجل من ناشئة الترك ولدانهم ومن أعقاب كراي المنصوري منهم شب في ظل الدولة ومرعى نعمها ونهض بنفسه إلى الاضطلاع والكفاية وياشر كثيراً من أعمال الأمراء والوزراء حتى أوفى على ثنية النجابة وعرضته الشهرة على اختيار السلطان فعجم عوده ونقد جوهره ثم ألحق به أغراض الخدمة ببابه فأصاب شاكلة الرمية ومضى قدماً في مذاهب السلطان مرهف الحد قوي الشكيمة فصدق ظنه وشكر اختياره ثم دفعه إلى معاينة الحبس وشد الدواوين من وظائف الدولة فجلا فيهما وهلك خلال ذلك أستاذ الدار بهادر المنجكي سنة تسعين فأقامه السلطان مكانه قهرماناً لداره ودولته ونظارته على دواوين الجباية من قراب اختياره ونقده جماعة للأموال غواصاً على استخراج الحقوق السلطانية قاروناً للكنوز أكسيرا للفقود مغناطيساً للقتية يسابق أقلام الكتاب ويستوفى تفاصيل الحساب بمدارك الهامة وتصور صحيح وحس ناثق لا يرجع إلى حذاقة الكتاب ولا إلى أيسر الأعمال بل يتناول الصعاب فيذلها ويحوم على الأغراض البعيدة فيقرها وربما يحاضر بذكائه في العلوم فينفذ في مسائلها ويفهم جهابذتها موهبة من الله اخصه بها ونعمة أسبغ عليه لبوسها فقام بما دفع إليه السلطان من ذلك وأدر خروج الجباية فضاقت أفنية الخواصل

وأقام له رسوم ملكه وشكر السلطان أفعاله في ذلك وعاهده على أتابكية مصر.

ثم كانت الواقعة على شقحب فانهمز كمشيقا إلى حلب فامتنع بهما وحاصره يازغر أتابك منطاش أشهراً كما مر ثم هرب منطاش من دمشق إلى العرب فأفرج يمازغر عن حلب ثم كانت واقعة الجوباني ومقتله وزحف منطاش ويعبر إلى حلب فحاصروها مدة ثم وقع الخلاف بينهما وهرب منطاش إلى بلاد التركمان ورجع يعبر إلى بلدة سلمية واستأمن إلى السلطان ورجع إلى طاعته منتصف شوال ولما أفرجوا عن حلب نزل كمشيقا من القلعة ورم خرابها وخرب بانقوسا واستلحم أهلها وأخذ في إصلاح أسوار حلب ورم ما سلم منها وكانت خراباً من عهد هلاكو وجمع له أهل حلب ألف ألف درهم للنفقة فيه وفرغ منه لثلاثة أشهر.

ولما استوسق أمر السلطان وانتظمت دولته بعث إليه يستدعيه في شهر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وولى مكانه في حلب قرايمرداش نقله إليها من طرابلس وولى مكانه أنيال الصغير فسار كمشيقا من حلب ووصل مصر تاسع صفر سنة ثلاث وتسعين فاهتزله السلطان وأركب الأمراء للقاءه مع النائب ثم دخل إلى السلطان فحياه وبالح في تكرمه وتلقاه بالرحب ورفع مجلسه فوق الأتابك أنيال وأنزله بيت منجك وقد هيا فيه من الفرش والماعون والخزني ما فيه للمنزل ثم بعث إليه بالأقمشة وقرب إليه الجياد بالركاب الثقيلة وتقدم للأمراء أن يتحفوه بهداياهم فتناغوا في ذلك وجاؤوا من وراء الغاية وحضر في ركابه من أمراء الشام الطبقة الأشرفي وحسن الكشكي فاكرمه السلطان واستقر كمشيقا بمصر في أعلى مراتب الدولة إلى أن توفي أنيال الأتابك في جمادى أربع وتسعين فولاه السلطان مكانه كما عاهده عليه بشقحب وجعل إليه نظر المارستان على عادة الأتابكية واستمر على ذلك لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

استقدام أيتمش

كان أيتمش النجاشي أتابك الدولة قد نكبه السلطان وسار في العساكر إلى الشام منتصف ربيع إحدى وتسعين لقتال الناصري وأصحابه لما انتفض عليه وكانت الواقعة بينهم بالمرج من نواحي دمشق وانهزمت العساكر ونجا أيتمش إلى قلعة دمشق ومعه كتب السلطان في دخولها متى اضطر إليه فامتنع بها وملكها الناصري من الغد بطاعة نائبها ابن الحمصي فوكل بأيتمش وأقام حبساً

ومعه منطاش وأصحابه إلى نواحي حلب وسار يعبر إلى بلد سمرين من أقطاعه ليقسهما في قومه على عادتهم وكان كمشيقا نائب حلب قد أقطعها الجند من التركمان في خدمته فلما وافها يعبر هربوا إلى حلب فلقوا في طريقهم أحمد بن المهدي في العساكر وقد نهض إلى يعبر فرجعوا عنه ولقيهم علي بن يعبر فقاتلوه وهزموه وقتلوا بعض أصحابه صبراً ورجع يعبر إلى أحيائه وارتحلوا إلى حلب فحاصروها وضيقوا عليها أيام رمضان ثم راجع يعبر نفسه وراسل كمشيقا نائب حلب في الطاعة واعتذر عما وقع منه وطوق الذنب بالجوباني وأصحابه أهل الواقعة وسأل الأمان مع حاجبه عبد الرحمن فأرسله كمشيقا إلى السلطان وأخبره بما اشترط يعبر فأجاباه السلطان إلى سؤاله.

وشعر بذلك منطاش بمكانه من حصار حلب فارتاب وخادع يعبر إلى الفارة على التركمان بقرهم فأذن للعرب في المسير معه وسار معه سبعمائة فلما جاوز الدربند أرجلهم عن الخيل وأخذها ولحق بالتركمان ونزل بمرعش بلد أميرهم سولي ورجع العرب مشاة إلى يعبر فارتحل إلى سبيله راجعاً وسار منطاش إلى عنتاب من قلاع حلب ونائبها محمد بن شهري فملكها واعتصم نائبها بالقلعة أياماً ثم ثبت منطاش وأئمن في أصحابه وقتل جماعة من أمرائه وكانت العساكر قد جاءت من حلب وحماة وصغد لقتاله فهرب إلى مرعش وسار منها إلى بلاد الروم وضمحل أمره وفارقه جماعة من أصحابه إلى العساكر وراجعوا طاعة السلطان آخر ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين وبعث سولي بن دلقادر أمير التركمان في عشر ذي الحجة يستأمن إلى السلطان فأمنه وولاه على البلستين كما كان والله سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم كمشيقا من حلب

قد كان تقدم لنا أن كمشيقا الحموي رأس نوبة بيقا كان نائباً بطرابلس وأن السلطان عزله وجسه بدمشق فلما استولى الناصري على دمشق أطلقه من الاعتقال وجاء في جلته إلى مصر فلما ولي على ممالك الشام وأعمالها ولاه على حلب مكانه منتصف إحدى وسبعين ولما استقل السلطان من النوبة وقصد دمشق كما مر أرسل كمشيقا إليه بطاعته ومشايعته على أمره وأظهر دعوته في حلب وما إليها من أعماله ثم سار السلطان إلى دمشق وحاصرها وأمد كمشيقا بجميع ما يحتاج إليه ثم جاءه بنفسه في عساكر حلب صريحاً وحمل إليه جميع حاجاته وأزاح غلله

بالكرامة وركب عمود أستاذ داره ليلتقاه عند نزوله من البحر بساحل بولاق وأنزل بيتبب طشمر بالزميلة قبالة الإصطبل وأجريت عليه التفقة بما لم يجر لأمثاله ورغب من السلطان في الحج فحج وأصبح هدية إلى مرسله من ثياب الوشي والديباج والسلاح بما لم يعهد مثله وانصرف آخر ربيع سنة ثلاث وتسعين والله تعالى أعلم بغيه.

حصار منطاش دمشق ومسير السلطان من

مصر إليه وفراره ومقتل الناصري

لم يزل منطاش شريداً عند التركمان منذ فارق العرب ولما كان منتصف سنة ثلاث وتسعين اعترم على قصد دمشق ويقال: إن ذلك كان بإغراء الناصري يخادعه بذلك ليقبض عليه فسار منطاش من مرعش على نواحي حلب وتقدم خبره إلى حماة فهرب نائبها إلى طرابلس ودخل منطاش حماة ونادى فيها بالأمان ثم سار منها إلى حمص كذلك ثم إلى بعلبك وهرب نائبها إلى دمشق فخرج الناصري نائب دمشق في العساكر لمداغته وسار على طريق الزيداني فخالفه منطاش إلى دمشق وقدم إليها أحمد شكار بن أبي بندمر فثار شيعة الخوارزمية والبندمرية وفتحوا له أبواب البلد ومر بإصطبلات فقاد منها نحواً من ثمانمائة فرس.

وجاء منطاش من الغد على أثره فنزل بالقصر الأبيض وأنزل الأمراء الذين معه في البيوت حوالي القصر وفي جامع سكن وجامع بيبقا وشرع في مصادرة الناس والغريضة عليهم وأقام يومه في ذلك وإذا بالناصري قد وصل في عساكره فاقتتلوا عشية ذلك اليوم مرات ومن الغد كذلك وأقام كل واحد منهما في حومته والقتال متصل بينهما سائر رجب وشعبان ولما بلغ الخبر إلى السلطان ارتاب بالناصري واتهمه بالمداغنة في أمر منطاش وتجهز لقصد الشام ونادى في العساكر بذلك عاشر شعبان وقتل أهل الخلاف من الأمراء المحبوسين وأشخص البطالين من الأمراء إلى الإسكندرية ومياط وخرج يوم عشرين شعبان فخيّم بالريديانة حتى أراح علل العساكر وقضوا حاجاتهم.

واستخلف على القاهرة الأتابك كمشيقا الحموي وأنزله الإصطبل وجعل له التصرف في التولية والعزل وترك بالقاهرة من الأمراء جماعة لنظر الأتابك وتحت أمره وأنزل النائب سردون بالقلعة وترك بها ستمائة من مماليكه الأصاغر وأخرج معه القضاة الأربعة والمفتين وارتحل غرة رمضان من السنة بقصد الشام وجاء الخبر رابع الشهر بأن منطاش لما بلغه مسيرة السلطان من مصر

موسعاً عليه ثم سار الناصري إلى مصر وملكها وعاد السلطان إلى كرسية في صفر سنة اثنتين وتسعين كما فصل ذلك من قبل وأيتمش في أثناء ذلك كله محبوس بالقلعة ثم زحف الجوباني في جمادى الأخيرة وخلص أيتمش من اعتقاله وفقت ممالك السلطان السجن الذي كانوا فيه بقلعة دمشق وخرجوا وأعصوبوا على أيتمش قبل مجيء الجوباني وبعث إليه بالخبر وبعث الجوباني إلى السلطان يمثل ذلك فتقدم إليه السلطان بالمقام بالقلعة حتى يفرغ من أمر عدوه.

ثم كان بعد ذلك واقعة الجوباني مع منطاش والعرب ومقتله وولاية الناصري على دمشق مكانه ثم افترق العرب وفارقهم منطاش إلى التركمان وانتظمت ممالك الشام في ملكة السلطان واستوسق ملكه واستفحلت دولته فاستدعي الأمير أيتمش من قلعة دمشق وسار لاستدعائه قنوياني من ممالك السلطان ثامن ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ووصل إلى مصر رابع جمادى الأولى من السنة ووصل في ركابه حاجب الحجاب بدمشق ومعه الأمراء الذين حبسوا بالشام منهم جتتمر نائب دمشق وابنه وابن أخته وأستاذ داره طنبقا ودمرداش اليوسفي نائب طرابلس والطنبقا الحلبي والقاضي أحمد بن القريشي وفتح الدين بن الرشيد وكاتب السر في ست وثلاثين نفرأ من الأمراء وغيرهم. ولما وصل أيتمش قابله السلطان بالكرامة والرحب وعرض الحاجب المساجين الذين معه وويخ السلطان بعضهم ثم حبسوا بالقلعة حتى نفذ قضاء الله وقتلوا مع غيرهم ممن أوجبت السياسة قتلهم والله تعالى مالك الأمور لا رب سواه انتهى.

هدية أفريقية

كان السلطان قد حصل بينه وبين سلطان أفريقية أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص الموحدى مودة والتمام وكانت كثيراً ما تجدها الهدايا من الجانبين ونذكرها إن شاء الله تعالى ولما بلغ الخبر إلى تونس بما كان من نكبة السلطان وما كان أمره امتعض له هذا السلطان بتونس وتنجع لشأنه وأقام يستطلع خبره ويستكشف من الجار التي تخضر إلى مصر من أهل تونس أنباءه حتى وقف على الجلي من أمره وما كيف الله من أسباب السعادة في خلاصه وعوده إلى كرسية فعلاً السرور جوارحه وأوفد عليه بالتهنئة رسوله بهدية من المقربات على سبيل الوداد مع خالصة من كبراء الموحدين محمد بن علي بن أبي هلال فوصل في العشر الأواخر من رمضان سنة اثنتين وتسعين فتلقاه السلطان

وكتب إليه سالم الرودكاري بالعذر عن أمر منطاش وأن الناصري كتب إليه وأمره بالمحافظة على منطاش وأن فيه زبونا للترك فجلس السلطان بالقلعة جلوساً ضخماً سادس ذي الحجة من السنة واستدعى الناصري فوجّهه ثم قبض عليه وعلى ابن أخيه كشلي ورأس نوبة شيخ حسن وعلى أحمد بن الحمددار الذي أمكنه من قلعة حلب وأمر بقتله وقشتمر الأشرفي الذي وصل من ماردين معهم وولى على نيابة دمشق مكانه بكاء الدوادار وأعطى إقطاعه لقراء دمرداش وأمره بالمسير إلى مصر وولى مكانه بحلب حليان رأس نوبة وولى أبا يزيد دواداراً مكان بكاء ورعى له وسأله في الخدمة وتورده في السفارة بينه وبين الناصري أيام ملك الناصري وأجلب على مصر وأشار عليه الناصري بالإنشاء كما ذكرناه فاخفى عند أصحاب أبي يزيد هذا بسعايته في ذلك ثم أرحل من حلب ووصل إلى دمشق منتصف ذي الحجة وقتل بها جماعة من الأمراء أهل الفساد يبلغون خمسة وعشرين وولى على العرب محمد بن مهنا وأعطى إقطاع يعبر لجماعة من التركمان وقفل إلى مصر.

ولقيه الأتابك كمشيقا والنائب سودون والحاجب سكيكس ثم دخل إلى القلعة على التعبية منتصف الحرم سنة أربع وتسعين في يوم مشهود ووصل الخبر لعاشر دخوله بوفاء بكاء نائب دمشق فولى مكانه سودون الطرنطاي ثم قبض في منتصف صفر على قواد دمرداش الأحدي وهلك في محبسه وقبض على طنبقا المعلم وقودم الحسيني وجاء الخبر أواخر صفر من السنة بأن جماعة من المماليك مقدمهم إيقا دوادار بذلار لما هلك بكاء واضطرب أصحابه وهرب بعضهم عمد هؤلاء المماليك إلى قلعة دمشق وهجموا عليها وملكوها ونقبوا السجن وأخرجوا المعتقلين به من أصحاب الناصري ومنطاش وهم نحو المائة وركبت العساكر إليها وحاصروها ثلاثاً ثم هجموا على الباب فأحرقوه ودخلوا إلى القلعة فقبضوا عليهم أجمعين وقتلوه وفر إيقا دوادار وبذلار في خمسة نفر وانخسعت عللهم ثم وصل الخبر آخر شعبان من السنة بوفاء سودون الطرنطاي فولى السلطان مكانه كمشيقا الأشرفي أمير مجلس وولى مكان كمشيقا أمير شيخ الحاجكي انتهى والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل منطاش

كان منطاش فر مع سالم الرودكاري إلى سنجان وأقام معه أياماً ثم فارقه ولحق يبعير فأقام في أحيائه وأصهر إليه بعض أهل الحي بابنته فتزوجها وأقام معهم ثم سار أول رمضان سنة أربع

هرب من دمشق منتصف شعبان مع عقبا بن أمير آل مرأ الصريح بمنطاش فكانت بينهما وقعة انهزم فيها الناصري وقتل جماعة من أمراء الشام نحو خمسة عشر فيهم إبراهيم بن منجك وغيره.

ثم خرج الناصري من الغد في اتباع منطاش وقد ذكر له أن الفلاحين نزحوا من نواحي دمشق واحتاطوا به فركب إليه منطاش ليقاتله ففارقه أتاكبه يمازغر إلى الناصري في أكثر العساكر وولي هارباً ورجع الناصري إلى دمشق وأكرم يمازغر وأجل له الوعد وجاءه الخبر بأن السلطان قد دخل حدود الشام فسار ليلقاه فلقبه بقانون وبالح السلطان في تكرمته وترجل حين نزوله وعانقه وأركبه بقرية ورده إلى دمشق ثم سار في أثره إلى أن وصل دمشق وخرج الناصري ثانية ودخل إلى القلعة ثاني عشر رمضان من السنة والأمراء مشاة بين يديه والناصري راكب معه يحمل الخبز على رأسه وبعث يعبر في كتاب نائب حماة بالعذر عما وقع منه وأنه اتهم الناصري في أمر منطاش فقصد حسم الفتنة في ذلك واستأمن السلطان وضمن له إحضار منطاش من حيث كان فأمنه وكتب إليه بإجابة سؤاله ولما قضى عيد الفطر برز من دمشق سابع شوال إلى حلب في طلب منطاش ولقيه أثناء طريقه رسول سولي بن دلقادر أمير التركمان بهديته واستتمانه وعذره عن تعرضه لسيس وأنه يسلمها ل نائب حلب فقبل السلطان منه وأمنه ووعدته بالجميل ثم وفد عليه أمراء آل مهنا وآل عيسى في الطاعة ومظاهرة السلطان على منطاش ويعبر وأنهما نازلان بالرجبة من تخوم الشام فأكرم السلطان وقادتهم وتقبل طاعتهم وسار إلى حلب ونزل بالقلعة منها ثاني شوال ثم وصل الخبر إلى السلطان بأن منطاش فارق يعبرا ومر ببلاد ماردين فواقعه عساكر هناك وقبضوا على جماعة من أصحابه وخلص هو من الواقعة إلى سالم الرودكاري من أمراء التركمان فقبض عليه وأرسل إلى السلطان يطالعه بشأنه ويطلب بعض أمراء السلطان قراء دمرداش نائب حلب في عساكره إلى سالم الرودكاري لإحضار منطاش وأتبعه بالناصري وأرسل الأتابك إلى ماردين لإحضار من حصل من أصحاب منطاش وانتهى أنبال إلى رأس العين وأتى أصحاب سلطان ماردين وتسلم منهم أصحاب منطاش وكتب سلطانهم بأنه معتمل في مقاصد السلطان ومرصد لعدوه وانتهى قواد مرداش إلى سالم الرودكاري وأقام عنده أربعة أيام في طلب منطاش وهو يماطله فأغار قراء دمرداش عليه ونهب أحياءه وقتل في قومه وهرب هو ومنطاش إلى سنجان وجاء الناصري على أثر ذلك وتكر على دمرداش ما أتاه وارتفعت الملاحاة بينهما حتى هم الناصري به ورفع الآلة بضربه ولم يحصل أحد منهم بظائل ورجعوا بالعساكر إلى السلطان

رمضان سنة خمس وتسعين فعلقت على باب القلعة ثم طيف بها مصر والقاهرة وعلقت على باب زويلة ثم دفنت إلى أهله فدفنوها آخر رمضان من السنة واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

حوادث مكة

قد كان تقدم لنا أن عنان بن مقابس ولاء السلطان على مكة بعد مقتل محمد بن أحمد بن عجلان في موسم سنة ثمان وثمانين وأن كنيش بن عجلان أقام على خلافه وحاصره بمكة فقتل في حومة الحرب سنة تسع بعدها وساء أثر عنان وعجز عن مغالبة الأشراف من بني عمه وسواهم وامتدت أيديهم إلى أموال المجاورين وصادروهم عليها ونهبوا الزرع الواصل في الشواني من مصر إلى جدة للسلطان والأمراء والتجار ونهبوا تجار اليمن وساءت أحوال مكة بهم وبتابعهم وطلب الناس من السلطان إعادة بني عجلان لإمارة مكة.

ووفد على السلطان بمصر سنة تسع وثمانين صبي من بني عجلان اسمه علي فولاه على إمارة مكة وبعثه مع أمير الحاج وأوصاه بالإصلاح بين الشرفاء ولما وصل الأمير إلى مكة يومئذ قرعماش خشي الأشراف منه واضطرب عنان وركب للقائه ثم توجه إلى الحيفة وكر راجعاً وأتبع الأشراف واجتمعوا على منابذة علي بن عجلان وشيعته من القواد والعييد ووفد عنان بن مقاسم على السلطان سنة تسعين فقبض عليه وحسبه ولم يزل محبوساً إلى أن خرج مع بكا عند ثورته بالقلعة في صفر سنة اثنتين وتسعين وبعثه مع أخيه إيفاً يستكشف خبر السلطان كما مر.

وانتظم أمر السلطان بسعاية بكا في العود إلى إمارته رعيماً لما كان بينهما من العشرة في البحر وأسعفه السلطان بذلك وولاه شريكاً لعلّي بن عجلان في الإمارة فأقاما كذلك سنتين وأمرهما مضطرب والأشراف معصوبيون على عنان وهو عاجز عن الضرب على أيديهم وعلي بن عجلان مع القواد والعييد كذلك وأهل مكة على وجل من أمرهم في ضنك من اختلاف الأيدي عليهم.

ثم استقدمهم السلطان سنة أربع وتسعين فقدموا أول شعبان من السنة فأكرمهما ورفع مجلسهما ورفع مجلس علي على سائرهم ولما انقضى الفطر ولي علي بن عجلان مستقلاً واستبغل في الإحسان إليه بأصناف الأقمشة والخيول والممالك والحروب وأذن له في الجراية والعلوفة فوق الكفاية ثم ظهر عليه بعد شهر

وتسعين وعبر الفرات إلى نواحي حلب وأوقعت به العساكر هناك وهزمهم وأسروا جماعة من أصحابه ثم طال على يعبر أمر الخلاف وضجر قومه من افتقاد الميرة من التلول فأرسل حاجبه يسأل الأمان وأنه يمكن من منطاش على أن يقطع أربع بلاد منها المعرة فكتب له الدوادار أبو يزيد على لسانه بالإجابة إلى ذلك.

ثم وفد محمد بن سنة خمس وتسعين فأخبر أنه كان مقيماً بسلمية في أحيائه ومعه التركمان المقيمون بشيزر فركبوا إليهم وهزمهم وضرب بعض الفرسان منطاش فأكبه وجرحه ولم يعرف في المعركة لسوء صورته بما أصابه من الشظف والحفء فأردفه ابن يعبر ونجّاه وقتل منهم جماعة منهم ابن بردعان وابن أنبال وجيء برؤسها إلى دمشق وأوعز السلطان إلى أمراء الشام أن يخرجوا بالعساكر وينفوه إلى أطراف البلاد لحمايتها حتى يرفع الناس زروعهم.

ثم زحف يعبر ومنطاش في العساكر أول جمادى الأخيرة من السنة إلى سلمية فلقبهم نائب حلب ونائب حماة فهزمهم ونهبوا حماة وخالفهم نائب حلب إلى أحياء يعبر فأغار عليها ونهب سوادها وأموالها واستاق نعمها ومواشيها وأضرم النار فيما بقي وأكمن لهم ينتظر رجوعهم ويلغهم الخبر بجماة فأسرعوا الكر إلى أحيائهم فخرج عليهم الكمائن وأخذوا فيهم وهلك بين الفريقين خلق من العرب والأمراء والمماليك.

ثم وفد على السلطان أواخر شعبان عامر بن طاهر بن جبار طائفاً للسلطان ومنابذاً لعمه وذكوان بن يعبر على طاعة السلطان وأنهم يمكنون من منطاش متى طلب منهم فأقبل عليه السلطان وأثقل كاهله بالإحسان والمواعيد ودس معه إلى بني يعبر بإمضاء ذلك ولهم ما يختارونه فلما رجع عامر ابن عمهم طاهر بمواعيد السلطان تفاوضوا مع آل مهنا جميعاً ورغبهم فيما عند السلطان ووصفوا ما هم فيه من الضنك وسوء العيش بالخلاف والانحراف عن الطاعة وعرضوا على يعبر بأن يجيهم إلى إحدى الحسينين من إمسالك منطاش أو تخلية سبيلهم إلى طاعة السلطان ويفارقهم هو إلى حيث شاء من البلاد فجزع لذلك ولم يسعه خلافهم وأذن لهم في القبض على منطاش وتسليمه إلى نواب السلطان فقبضوا عليه وبعثوا إلى نائب حلب فيمن يتسلمه واستحلفوه على مقاصدهم من السلطان لهم ولأيهم يعبر فحلف لهم وبعث إليهم بعض أمرائه فأمكنوه منه وبعثوا معه الفرسان والرجالة حتى أوصلوه ودخل إلى حلب في يوم مشهود وحبس بالقلعة وبعث السلطان أميراً من القاهرة فاتتحمه وقتله وحمل رأسه وطاف به في ممالك الشام وجاء به إلى القاهرة جادي عشر

النهر أمير اسمه تمر في جموع من المغل والتتر ينسب هو وقومه إلى جفطاي لا أدري هو جفطاي بن جنكزخان أو جفطاي آخر من شعوب المغل والأول أقرب لما قدمته من ولاية جفطاي بن جنكزخان على بلاد ما وراء النهر لعهد أبيه وإن اعترض معترض بكثرة هذا الشعب الذي مع تمر وقصر المدة أن هذه المدة من لدن جفطاي تقارب مائتي سنة لأن جفطاي كان لعهد أبيه جنكزخان يقارب الأربعين فهذه المدة أزيد من خمسة من العصور لأن العصر أربعون سنة وأقل ما يتناسل من الرجل في العصر عشرة من الولد فإذا ضوعفت لعشرة بالضرب خمس مراتب كانت مائة ألف.

وإن فرضنا أن المتناسلين تسعة لكل عصر بلغوا في الخمسة عصور إلى نحو من سبعين ألفاً وإن جعلناها ثمانية بلغوا فوق الاثنين وثلاثين وإن جعلناهم سبعة بلغوا ستة عشر ألفاً والسبعة أقل ما يمكن من الرجل الواحد لا سيما مع البداءة المقتضية لكثرة النسل والستة عشر ألفاً عصابة كافية في استيعاب غيرها من العصابات حتى تنتهي إلى غاية العساكر ولما ظهر هذا فيما وراء النهر عبر إلى خراسان فملكها من يد الشيخ ولي صاحبها أعوام أربعة وثمانين بعد مراجعات وحروب وهرب الشيخ ولي إلى توريز فعمد إليه تمر في جموعه سنة سبع وثمانين وملك توريز وأذربيجان وخربها وقتل الشيخ ولي في حروبه ومر بأصبهان فاعطوه طاعة معروفة.

وأطل بعد توريز على نواحي بغداد فأرجفوا منه وواقعت عساكره بأذربيجان جموع الترك أهل الجزيرة والموصل وكانت الحروب بينهم سجلاً ثم تأخر إلى ناحية أصفهان وجاءه الخبر بخارج خرج عليه من قومه يعرف بقمر لدين تظلمش ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكزخان وهو صاحب كرسي صراي أمدته بأمواله وعساكره فكر راجعاً إلى بلده وعميت أنبأؤه إلى سنة خمس وتسعين ثم جاءت الأخبار بأنه غلب قمرالدين الخارج عليه ومحا أثر فساده واستولى على كرسي صراي فكر تمر راجعاً وملكها.

ثم خطى إلى أصفهان وعراق العجم وفارس وكرمان فملك جميعها من يد بني المظفر البيزدي بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبددت جموعهم وراسله صاحب بغداد أحمد بن أويس وصانعه بالهدايا والتحف فلم يغن عنه وما زال يجادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزم أحمد وافتقرت عساكره فصمد إليه يغذ السير حتى انتهى إلى دجلة وسبق النذير إلى أحمد فأسرى من ليله ومر بجسر الحلة فقطعه وصبح مشهد علي ووافى تمر وعساكره دجلة يوم الحادي والعشرين من شوال سنة خمس وتسعين

وقد أعد الرواحل ليلحق بمكة هارباً فقبض عليه وحبسه بالقلعة وسار علي بن عجلان إلى مكة وقبض على الأشراف لتستقيم إمارته ثم خرد عنهم فأسلمهم فنفروا عنه ولم يعاودوا طاعته فأضطرب أمره وفسد رأيه وهو مقيم على ذلك لهذا العهد والله غالب على أمره إنه على كل شيء قدير.

وصول أحياء من التتر وسلطانهم إلى

صاحب بغداد واستيلاؤه عليها ومسير

السلطان بالعساكر إليه

كان هؤلاء التتر من شعوب الترك وقد ملكوا جوانب الشرق من تخوم الصين إلى ما وراء النهر ثم خوارزم وخراسان وجانبها إلى سجستان وكرمان جنوباً وبلاد القفجاق وبلغار شمالاً ثم عراق العجم وبلاد فارس وأذربيجان وعراق العرب والجزيرة وبلاد الروم إلى أن بلغوا حدود الفرات واستولوا على الشام مرة بعد أخرى كما تقدم في أخبارهم ويأتي إن شاء الله تعالى وكان أول من خرج منهم ملكهم جنكزخان أعوام عشر وستمئة واستقلوا بهذه الممالك كلها ثم انقسمت دولته بين بنينهم فيها فكان لبني دوشي خان منهم بلاد القفجاق وجانب الشمال بأسره ولبني هلاكو بن طولي خان خراسان والعراق وفارس وأذربيجان والجزيرة وبلاد الروم ولبني جفطاي خوارزم وما إليها.

واستمرت هذه الدول الثلاث إلى هذا العهد في مائة وثمانين سنة انقضى فيها ملك بني هلاكو في سنة أربعين من هذه المائة بوفاة أبي سعيد آخرهم ولم يعقب وافترق ملكه بين جماعة من أهل دولته في خراسان وأصبهان وفارس وعراق العرب وأذربيجان وتوريز وبلاد الروم فكانت خراسان للشيخ ولي وأصبهان وفارس وسجستان للمظفر الأزدي وبنيه وخوارزم وأعمالها إلى تركستان لبني جفطاي وبلاد الروم لبني أرشا مولى من موالي مرداش بن جوبان وبغداد وأذربيجان والجزيرة للشيخ حسن بن حسين بن أبيغا بن أيكان وأيكان سبط أرغو بن أبغا بن هلاكو ولبنيه وهو من كبار المغل في نسبه.

ولم يزل ملكهم المفترق في هذه الدول متناحلاً بين أعقابهم إلى أن تلاشى واضمحل واستقر ملك بغداد وأذربيجان والجزيرة لهذا العهد لأحمد بن أويس ابن الشيخ حسن سبط أرغو كما في أخبار يأتي شرحها في دول التتر بعد.

ولما كان في هذه العصور ظهر بتركستان وبخارى فيما وراء

وأجازوا دجلة سحبا ودخلوا بغداد واستولوا عليها.

وهذا آخر ما انتهت إليه دولة الترك بانتهاه الأيام وما يعلم أحد ما في غد والله مقدر الأمور وخالقها.

الخبر عن دولة بني رسول مولى بني أيوب الملوك باليمن بعدهم ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قد كان تقدم لنا كيف استولى بنو أيوب على اليمن واختلف عليها الولاة منهم إلى أن ملكها من بني المظفر شاهنشاه بن أيوب حافده سليمان بن ابن المظفر وانتقض أيام العادل سنة اثنتي عشرة وستمئة فأمر العادل ابنه الكامل خليفته على مصر أن يبعث ابنه يوسف المسعود إلى اليمن وهو أخو الصالح ويلقب بالتركي أطس ويقال: أفسس وقد تقدم ذكر هذا اللقب فملكها المسعود من يد سليمان وبعث به معتقلاً إلى مصر وهلك في جهاد الإفرنج بدمياط سنة سبع وأربعين وهلك العادل أخو المسعود سنة خمس عشرة وستمئة وولي بعده ابنه الكامل وجدد العهد إلى يوسف المسعود على اليمن وحج المسعود سنة تسع عشرة وكان من خبره في تأخير إعلام الخليفة عن إعلامه ما مر في أخبار دولتهم.

ثم جاءت سنة عشرين إلى مكة وأميرهم حسن بن قتادة من بني مطاعن إحدى بطون حسن فجمع لقتاله وهزمه المسعود وملك مكة وولى عليها ورجع إلى اليمن فأقام به ثم طرده المرض سنة ست وعشرين فارتحل إلى مكة واستخلف على اليمن علي بن رسول التركماني أستاذ داره.

ثم هلك المسعود بمكة لأربع عشرة سنة من ملكه وبلغ خبر وفاته إلى أبيه وهو محاصر دمشق ورجع ابن قتادة إلى مكة ونصب علي بن رسول على اليمن موسى بن المسعود ولقبه الأشرف وأقام مملكاً على اليمن إلى أن خلع وخلف المسعود ولد آخر اسمه يوسف ومات وخلفه ابنه واسمه موسى وهو الذي نصبه الترك بعد أبيك ثم خلعه ثم خلع علي بن رسول موسى الأشرف بن المسعود واستبد ملك اليمن وأخذ بدعوة الكامل بمصر وبعث أخويه رهناً على الطاعة ثم هلك سنة تسع وعشرين وولي ابنه المنصور عمر بن علي بن رسول ولما هلك علي بن منصور ولى بعده الكامل ابنه عمر ثم توفي الكامل سنة خمس وثلاثين وشغل بنو أيوب بالفتنة بينهم فاستغلظ سلطان عمر باليمن وتلقب المنصور ومنع الأتاوة التي كان يبعث بها إلى مصر فأطلق صاحب

ويعث العساكر في اتباع أحمد فلهقوا بأعقابهم وخاضوا إليه النهر عند الجسر المقطوع وأدركوه بالمشهد فسكر عليهم في جموعه وقتل الأمير الذي كان في اتباعه ورجعوا عنه بعد أن كانوا استولوا على جميع أثقاله ورواحله بما فيها من الأموال والذخيرة فرجعوا بها ونجا أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وطالع نائبها السلطان بأمره فأخرج إليه بعض خواصه بالنفقات والأزواد ليستقدمه فقدم به إلى حلب آخر ذي القعدة فأراح بها وطرقه مرض ابناً به عن مصر وجاءت الأخبار بأن تمر عاث في خلفه واستصفي ذخائره واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة وأقفرت جوانب بغداد من العيث.

ثم قدم أحمد بن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوه فأجاب السلطان صريحه ونادى في عساكره بالتجهز إلى الشام وقد كان تمر بعدما استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت فأولى المخالفين وعتاء الخرابة ورصد السابلة وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم ثم خربها وأسرها.

ثم انتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها ووقفوا عليها ساعة من نهار فملكوها وأشفاو نعمتها وافترق أهلها وبلغ الخبر إلى السلطان فخيم بالريدانية أياماً أزاح فيها علل عسكره وأفاض العطاء في ممالئكه واستوعب الخشد من سائر أصناف الجنود واستخلف على القاهرة النائب مودود وارتحل إلى الشام على التبعية ومعه أحمد بن أويس صاحب بغداد بعد أن كفاه مهمه وسرب النفقات في تابعه وجنده.

ودخل دمشق آخر جمادى الأولى وقد كان أوعز إلى حلبان نائب حلب بالخروج إلى الفرات واستيعاب العرب والتركمان للإقامة هنالك رصداً للعدو فلما وصل إلى دمشق وفد عليه جلبان وطلعه بمهمات وما عنده من أخبار القوم ورجع لإنفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه وبعث السلطان على أثره العساكر مدداً له مع كيشقا الأتابك وتلكمش أمير سلاح وأحمد بن بيقا وكان العدو قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً ثم ملكها وعاثت عساكره فيها وامتعت عليه قلعتها فارتحل عنها إلى ناحية بلاد الروم ومر بقلع الأكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها والسلطان لهذا العهد وهو شعبان سنة ست وتسعين مقيم بدمشق مستجمع للوثبة به متى استقبل جهته والله ولي الأمور

خمس عشرة يمثل ذلك وفسد ما بينه وبين ملوك الترك بمصر ويعت بهديته سنة ثمان عشرة فردوها عليه ثم هلك سنة إحدى وعشرين وسبعمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه وكان فاضلاً شافعي المذهب وجمع الكتب من سائر الأمصار فاشتملت خزائنه على مائة ألف مجلد وكان يتفقد العلماء بصلاته ويبعث لابن دقيق العيد فقيه الشافعية بمصر جوائزهم ولما توفي المؤيد داود سنة إحدى وعشرين كما قلناه قام بملكه ابنه المجاهد سيف الدين علي ابن اثني عشرة سنة والله وارث الأرض ومن عليها.

ثورة جلال الدين بن عمر الأشرف وحبيه

ولما ملك المجاهد علي شغل بلذاته وأساء السيرة في أهل المناصب الدينية بالعزل والاستبدال بغير حق فنكره أهل الدولة وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه عمر الأشرف وزحف إليه وكانت بينهما حروب ووقائع كان النصر فيها للمجاهد وغلب على جلال الدين وحبيه والله تعالى أعلم.

ثورة جلال الدين ثانياً وحبس المجاهد وببعة المنصور أيوب بن المظفر يوسف

وبعد أن قبض المجاهد على جلال الدين ابن عمه الأشرف وحبيه لم يزل مشتغلاً بلهوه عاكفاً على لذاته وضجر منه أهل الدولة وداخلهم جلال الدين في خلعه فوافقوه فرحل إلى سنة اثنتين وعشرين فخرج جلال الدين من محبيه وهجم عليه في بعض البساتين وقتل بجرمه وقبض عليه وباع لعمه المنصور أيوب بن المظفر يوسف واعتقل المجاهد عنده في نفر وأطلق جلال الدين ابن عمه والله تعالى أعلم بغيه.

خلع المنصور أيوب ومقتله وعود المجاهد إلى ملكه ومنازعة الظاهر بن المنصور أيوب له

ولما حبس المجاهد بقلعة تعز واستقل المنصور بالملك اجتمع شيعه المجاهد وهجموا على المنصور في بيته بتعز وحبسوه وأخرجوا المجاهد وأعادوه إلى ملكه ورجع أهل اليمن لطاعته وكان أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب بالدملوة فعصى عليه وامتنع بها وكتب إليه المجاهد يهدده بقتل أبيه فلجأت واتسع الخرق بينهما

مصر العادل بن الكامل عمومته الذين كان أبوه رهنهم على الطاعة لينازعوه في الأمر فغلبهم وحبسهم وكان أمر الزيدية بصدد قد خرج من بني الرسي وصار لبني سليمان بن داود كما مر في أخبارهم ثم بويغ من بني الرسي أحمد بن الحسين من بني الهادي يحيى بن الحسن بن القاسم الرسي بايع له الزيدية بمحصن ملا وكانوا من يوم أخرجهم السليمانيون من صفد قد أووا إلى جبل مكانه فلما بويغ أحمد بن الحسين هذا لقبوه الموطىء وكان تحصن بملا وكان الحديث شائعاً بين الزيدية بأن الأمر يرجع إلى بني الرسي.

وكان أحمد فقيهاً أديباً عالماً بمذهب الزيدية مجتهداً في العبادة وبويغ سنة خمس وأربعين وستمائة وأهم عمر بن رسول شأنه فشمم لحربه وحاصره بمحصن ملا مدة ثم أفرج عنه وجهاز العساكر لحصاره من الحصون المجاورة له ولم يزل قائماً بأمره إلى أن وثب عليه سنة ثمان وأربعين جماعة من عماليكه بمالاة بني أخيه حسن فقتلوه ثمان عشرة سنة من ولاية المظفر يوسف بن عمر ولما هلك المنصور علي بن رسول كما قلناه قام بالأمر مكانه ابنه المظفر شمس الدين يوسف وكان عادلاً محسناً وفرض الأتاوة عليه للملك مصر من الترك لما استقلوا بالملك وما زال يصانعهم بها ويعطيهم إياها وكان لأول ملكه امتنع عليه حصن الدملوة فشغل بحصاره وتمكن أحمد الموطىء الناصر بمحصن ملا من الزيدية من أعقاب بني الرسي فملك عشرين حصناً من حصون الزيدية وزحف إلى صفد فملكها من يد السلمانيين ونزل له أحمد المتوكل إمام الزيدية منهم فبايعه وأمنه ولما كانوا في خطابة لم يزل في كل عصر منهم إمام كما ذكرناه في أخبارهم قبل.

ولم يزل المظفر والياً على اليمن إلى أن هلك بغته سنة أربع وتسعين لست وأربعين سنة من ملكة الأشرف عمر بن المظفر يوسف ولما هلك المظفر يوسف كما قلناه وولي بعده ابنه الأشرف محمد الدين عمر وكان أخوه داود والياً على الشحر فدعا لنفسه ونازعه الأمر فبعث الأشرف عساكره وقتلوه وهزموه وقبضوا عليه وحبيه واستمر الأشرف في ملكه إلى أن سمته جاريته فمات سنة ست وتسعين لعشرين شهراً من ولايته أخوه داود بن المظفر المؤيد يوسف ولما هلك الأشرف بن عمر بن المظفر يوسف أخرج أخاه مؤيد الدين داود من معتقله وولوه عليهم ولقبوه المؤيد وافتتح أمره بقتل الجارية التي سميت أخاه وما زال يواصل ملوك الترك بهداياه وصلاته وتحفه والضريبة التي قررها سلفه وانتهت هديته سنة إحدى عشرة وسبعمائة إلى مائتي وقر بعير بالثياب والتحف وطرف اليمن ومائتين من الجمال والخيل ثم بعث سنة

نزول الظاهر للمجاهد عن الدملوة ومقتله

ولما استقام الأمر للمجاهد باليمن واستخلفه الظاهر على الدملوة أخذ المجاهد في تأنيسه وأحكام الوصلة به حتى اطمأن، وهو يقتل له في الذروة والغارب حتى نزل له عن الدملوة وولى عليها من قبله وصار الظاهر في جملته، ثم قبض عليه وجسه بقلعة تعز، ثم قتله في محبسه سنة أربع وثلاثين والله تعالى أعلم.

حج المجاهد علي بن المؤيد داود وواقعة مع أمراء مصر واعتقاله بالكرك ثم إطلاقه ورجوعه إلى ملكه

ثم حج المجاهد سنة إحدى وخمسين أيام حسن الناصري الأولى وهي السنة التي حج فيها طاز كافل المملكة أميراً وحج بيقاروس الكافل الآخر مقيداً لأن السلطان أمر طاز بالقبض عليه في طريقه.

فلما قبض عليه رغب منه أن يخلي سبيله لأداء فرضه فأجابه وحج مقيداً.

وجاء المجاهد ملك اليمن للحج وشاع عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتنكر أمراء مصر وعساكرها لأهل اليمن ووقعت في بعض الأيام هبة في ركب اليمن فتحاربوا وانهزم وذهب سواده وركب أهل اليمن كافة وأطلق بيقاروس للقتال فجلا في تلك الورقة وأعيد إلى اعتقاله.

وحمل المجاهد إلى مصر معتقلاً فحبس ثم أطلق سنة اثنتين وخمسين في دولة الصالح، عثا معه قشمر المنصوري إلى بلاده.

فلما انتهى إلى ينبع ظهر عليه بأنه يروم الهرب فردّه وجسه بالكرك.

ثم أطلق بعد ذلك وأعيد إلى ملكه، وأقام على مهادة صاحب مصر ومصانعة إلى أن توفي سنة ست وستين لاثنتين وأربعين سنة من ملكه.

ولاية الأفضل عباس بن المجاهد علي

ولما توفي المجاهد سنة ست وستين ولي بعده ابنه عباس واستقام له ملك اليمن إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين لاثنتي عشرة سنة من ملكه والله تعالى أعلم.

وعظمت الفتنة وافترق عليهما العرب وكثر عيثم وكثر الفساد وبعث المنصور من محبسه إلى ابنه عبد الله أن يسلم الدملوة خوفاً على نفسه من القتل فأبى عبد الله من ذلك وأساء الرد على أبيه ولما يتس المجاهد منه قتل أباه المنصور أيوب بن المظفر في محبسه واجتمع أهل الدملوة وكبيرهم الشريف ابن حمزة وباعوا أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب وبعث عسكراً مع الشهاب الصفوي إلى زيد فحاصروها وفتحوها.

وجهاز المجاهد عساكره إليها مع قائده علي بن الدودار ولما قاربوا زيد أصابهم سيل وبيتهم أهل زيد فنالوا منهم وأسروا أمراءهم واتهم المجاهد قائده علي بن الدودار بمداخلة عدوه فكتب إليه أن يسير إلى عدن لتحصيل موالها وكتب إلى والي عدن بالقبض عليه ووقع الكتاب بيد الظاهر فبعث به إلى الدودار فرجع إلى عدن وحاصرها وفتحها وخطب بها للظاهر سنة ثلاث وعشرين وملك عدن بعدها ثم استمال صاحب صنعاء وخوص فقاموا بدعوة الظاهر وبعث المجاهد إلى مذبح والأكراد يستنجدهم فلم ينجدوه وهو محصن المعديّة وكتب الظاهر إلى أشراف مكة وقاضيه نجم الدين الطبري بأن الأمر قد استقر له باليمن والله تعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وصول العساكر من مصر مدداً للمجاهد واستيلاؤه على أمره وصلحه مع الظاهر

ولما غلب الظاهر بن المنصور أيوب على قلاع اليمن وانتزعها من المجاهد وحاصره بقلعة المعديّة، بعث المجاهد سنة أربع وعشرين بصريته إلى السلطان بمصر من الترك الناصر محمد بن قلاوون سنة خمس وعشرين، فبعث إليه العساكر مع بيبرس الحاجب وأنبال من أمراء دولته، ووصلوا إليه سنة خمس وعشرين فسار إليهم المجاهد من حصن المعديّة بناوحي عدن إلى تغر فاستأمن إليه أهلها فأمهم وراسلوا الظاهر في الصلح فأجاب على أن تكون له الدملوة، وتحالفوا على ذلك.

وطلب أمراء الترك الشهاب الصفوي الذي أنشأ الفتنة بين المجاهد والظاهر فامتنع عن إجابتهم فركب بيبرس وهجم عليه في خيمته وقتله بسوق الخيل بتغر، وأتخوا في العصاة على المجاهد في كل ناحية حتى أطاعوا، وتمهد له الملك ورجعت العساكر إلى مصر سنة ست وعشرين والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولاية المنصور محمد بن الأفضل عباس

ولما توفي الأفضل عباس بن الجاهد سنة ثمان وسبعين ولي بعده ابنه المنصور محمد واستولى على أمره واجتمع جماعة من مماليكه سنة اثنتين وثمانين للثورة به وقتله والى على شأنهم فهربوا إلى الدولة وأخذهم العرب في طريقهم وجاؤوا بهم وعفا عنهم واستمر في ملكه إلى أن هلك والله تعالى أعلم.

ولاية أخيه الأشرف بن الأفضل عباس

ولما توفي المنصور محمد بن الأفضل سنة ولي أخوه الأشرف إسماعيل واستقام أمره وهو صاحب اليمن لهذا العهد لسنة ست وتسعين والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن دولة التتر من شعوب الترك

وكيف تغلبوا على الممالك الإسلامية

وانتروا على كرسي الخلافة ببغداد وما

كان لهم من الدول المفترقة وكيف أسلموا

بعد ذلك ومبدأ أمورهم وتصاريق أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر التتر وأنهم من شعوب الترك وأن الترك كلهم ولد كورم بن يافث على الصحيح، وهو الذي وقع في التوراة.

وتقدم لنا ذكر أجناس الترك وشعوبهم وعددنا منهم الغز الذين منهم السلجوقية والهاطلة الذين منهم القلج، وبلاد الصغد قريباً من سمرقند ويسمون بها أيضاً.

وعددنا منهم الخطا والطغرغر وهم التتر، وكانت مساكن هاتين الأمتين بأرض طمنجاق، ويقال: أنها بلاد تركستان وكاشغر وما إليها من وراء النهر وهي بلاد ملوكهم في الإسلام، وعددنا منهم الخزجية والغور والخزر والخفشاج وهم القفجاق ويمك والعلان ويقال: الآن وجركس وأركش.

وعد صاحب روجار في كتابه على الجغرافيا العسسه والتغز غزية والخزخيرية والكيمائية والخزجية والخزر والخلج وبلغار ويمناك وبرطاس وسنجارت وخرجان وأنكر، وذكر مساكن أنكر في بلاد البنادقة من أرض الروم وجمهور هذه الأمم من الترك فيما وراء النهر شرقاً إلى البحر المحيط بين الجنوب والشمال من الأقليم

الأول إلى السابع، والصين في وسط بلادهم.

وكانت الصين أولاً لبني صيني إخوانهم من بني يافث.

ثم صار لهم واستولوا على معظمه إلا قليلاً من أطرافه على ساحل البحر، وهم رحاله كما مر في ذكرهم أول الكتاب وفي دولة السلجوقية وأكثرهم من المفازة التي بين الصين وبلاد تركستان.

وكان لهم قبل الإسلام دولة، ولهم مع الفرس حروب مذكورة وملكهم لذلك العهد في بني فراسيان.

وكان بينهم وبين العرب لأول الفتح حروب طويلة قاتلوهم على الإسلام، فلم يجيبوا فأنشأ فيهم، وغلبوهم على أطراف بلادهم وأسلم ملوكهم على بلادهم وذلك من بعد القرن الأول وكانت لهم في الإسلام دولة ببلاد تركستان وكاشغر، ولا أدري من أي شعوبهم كان هؤلاء الملوك.

وقد قيل فيهم إنهم من ولد فراسيان ولا يعرف شعب فراسيان فيهم، وكان هؤلاء الملوك يلقبون بالخاقان بالخاء والقاف سمة لكل من يملك منهم، مثل كسرى للفرس وقيصر للروم.

وأسلم ملوكهم بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم فاقاموا بها، وكان بينهم وبين بني سامان الملوك القائمين فيما وراء النهر بدولة بني العباس حرب وسلم اتصلت حالهم عليها إلى أن تلاشت دولتهم ودولة بني سامان جميعاً.

وقام محمود بن سبكتكين من موالي بني سامان بدولتهم وملكهم فيما وراء النهر وخراسان.

وقد ظهر لذلك العهد بنو سلجوق وغلبوا ملوك الترك على أمرهم وأصبحوا في عداد ولايتهم شأن الدول البادية الجديدة مع الدول القديمة الحاضرة، ثم قارعوا بني سبكتكين وغلبوهم على ملكهم فيما بعد المائة الرابعة واستولوا على ممالك الإسلام بأسرها، وملكو ما بين الهند ونهاية المعمور في الشمال وما بين الصين وخليج القسطنطينية في الغرب، وعلى اليمن والحجاز والشام وفتحوا كثيراً من بلاد الروم واستفحلت دولتهم بما لم تنته إليه دولة بعد العرب والخلفاء في الملة.

ثم تلاشت دولتهم وانقضت بعد مائتين من السنين شأن الدول وسنة الله في العباد.

وكانوا بعد خروج السلجوقية إلى خراسان قد خلفتهم في بلاد بضواحي تركستان وكاشغر من أسم الترك أمة الخطا ومن ورائهم أمة التتر إلى تركستان وحدود الصين.

من عدوهم قبل أن يستحكم أمره وتضيق عنه قدرتهم وقدرته. وبعث إليه كشلي ملك التتر بمثل ذلك فتجهز يوهم كل واحد من الفريقين أنه له وأقام متبذراً عنهما وقد تواقعا وانهمز الخطا فمال مع التتر عليهم واستلحمهم في كل وجه ولم ينسج منهم إلا قليل تحصنوا بين جبال في نواحي تركستان وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه فكانوا معه وبعث خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتر يعتد عليه بهزيمة الخطا وأنها إنما كانت بمظاهرتة فأظهر له الاعتراف وشكره ثم نازعه في بلادهم وأملأهم وبعث خوارزم شاه مجربهم ثم علم أنه لا طاقة له بهم فمكث يراوغهم عن اللقاء وكشلي خان يعذله في ذلك وهو يغالطه واستولى كشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون ثم عمد خوارزم شاه إلى الشاش وفرغانة واسيبيجاب وقاشان وما حوله من المدن التي لم يكن في بلاد الله أنزه منها ولا أحسن عمارة فجلا أهلها إلى بلاد المسلمين وخرب جميعها خوفاً أن يملكها التتر بعد ذلك وخرج على كشلي خان طائفة أخرى يعرفون بالمغل وملكهم جنكزخان فشغل كشلي خان مجربهم عن خوارزم شاه وعبر النهر إلى خراسان ونزل خوارزم إلى أن كان من أمره ما نذكره والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء التتر على ممالك خوارزم شاه فيما

وراء النهر وخراسان ومهلك خوارزم شاه

وتولية محمد بن تكش

ولما رحل السلطان إلى خراسان استولى على الممالك ما بينه وبين بغداد من خراسان ومازندان وباميان وغزنة إلى بلاد الهند وغلب الغورية على ما بأيديهم ثم ملك الري وأصفهان وسائر بلاد الجبل وسار إلى العراق وبعث إلى الخليفة في الخطبة كما كانت للوك بني سلجوق فامتنع الخليفة من ذلك كما مر ذلك كله في أخبار دولتهم ثم عاد من العراق سنة ست عشرة وستمئة واستقر بنيسابور فوفدت عليه رسل جنكزخان بهدية من نقرة المعدنين ونوافح المسك وحجر اليشم والثياب الخطائية المنسوجة من وبر الإبل البيض ونجبر أنه ملك الصين وما بينها من بلاد الترك ويطلب المودة والإذن للتجار بالتردد لمناجرهم من الجانبين وكان في خطابه إطرأه السلطان خوارزم شاه بأنه مثل أعز أولاده فاستكف السلطان من ذلك وامتنع له وأجمع عداوته واستدعى عموداً الخوارزمي من رسل جنكزخان واصطنعه ليكون عيناً له على صاحبه واستخبره عما قاله في كتابه من أنه ملك الصين.

ولم يقدر ملوك الخانية بتركستان على دفاعهم لعجزهم عن ذلك فكان أرسلان خان ابن محمد بن سليمان يتزلم مسالحو على الدروب ما بينه وبين الصين، ويقطعهم على ذلك ويوقع بهم على الفساد والعيث ثم زحف من الصين ملك الترك الأعظم كوخان سنة اثنتين وعشرين وخمسائة، ولحقت به أمم الخطا ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بن بقراخان صاحب تركستان وما وراء النهر من الخانية، وهو ابن أخت السلطان سنجار بن ملك شاه صاحب خراسان من ملوك السلجوقية فهزموه.

وبعث بالصريخ إلى خاله سنجار، فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين وعبر جيحون للقائهم، وسارت إليه أمم التتر والخطا وتواقعا في صفر سنة ست وثلاثين وخمسائة، وانهمز سنجار وأسرت زوجته ثم أطلقها كوخان ملك الترك، واستولى على ما وراء النهر.

ثم مات كوخان سنة سبع وثلاثين وملكت بعده بنته، ثم ماتت فملك بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد، ثم انقرض ملكهم واستولى الخطا على ما وراء النهر.

ثم غلب على خوارزم علاء الدين محمد بن تكش كما قدمناه، ويلقب هو وأبوه بخوارزم شاه.

وكان ملوك الخانية ببلادهم فيما وراء النهر فاستنصرخوا به على الخطا لما كثر من عيثهم وفسادهم، فأجاب صريحهم وعبر النهر سنة ست وستمئة، وملكهم يومئذ كبير السن بصير في الحرب فلقبهم فهزموه وأسر خوارزم شاه ملكهم طانيكوه وحسه بخوارزم، وملك سائر بلاد الخطا إلى أوركند، وأنزل به نوابه وزوج أخته من الخان صاحب سمرقند وأنزل معه شحنة كما كانت للخطا وعاد إلى بلاده.

وثار ملك الخانية بالشحنة بعد رجوعه بسنة وقتلهم، وهم يقتل زوجته أخت خوارزم شاه وحاصره بسمرقند واقتحمها عليه عنوة وقتله في جماعة من أقاربه، ومحا أثر الخانية وملكهم مما وراء النهر، وأنزل في سائر البلد نوابه.

وكانت أمة التتر من وراء الخطا هؤلاء قد نزلوا في حدود الصين ما بينها وبين تركستان، وكان ملكهم كشلي خان ووقع بينهم وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الأمم المتجاورة.

فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الانتقام منهم، وزحف كشلي خان في أمم التتر إلى الخطا ليتجهز الفرصة فيهم، فبعث الخطا إلى خوارزم شاه يتلطفون له ويسألونه النصر

ومات سنة سبع عشرة وستمائة وعهد لابنه جلال الدين سكري ولما بلغ خبر إيفاله إلى أمه تركمان خاتون بخوارزم خرجت سارية واعتصمت بقلعة أيلاز من مازندران ورجع التتر عن اتباع خوارزم شاه فافتحوا قلاع مازندران وملكوها وملكوا قلعة أيلاز صلحاً وأسروا أم السلطان وبناته وتزوجهن التتر وتزوج دوشي خان بن جنكزخان واحدة وبقيت تركمان خاتون أسيرة عندهم في ذل وخمول والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير التتر المغربة بعد خوارزم شاه إلى العراق وأذربيجان واستيلاؤهم عليها إلى بلاد قفقيا والروس وبلاد الخزر

ولما رجع التتر المغربة من اتباع خوارزم شاه سنة سبع عشرة عادوا إلى همدان وانتسفوا ما مروا عليه، وصانعهم أهل همدان بما طلبوه، ثم ساروا إلى سنجان كذلك، ثم إلى قومس فامتنعوا منهم وحاصروها وملكوها غلباً وقتلوا أكثر من أربعين ألفاً ثم ساروا إلى أذربيجان وصانعهم صاحب تبريز وانصرفوا إلى موقان ومروا ببلاد الكرج فاكسحوها وجمعوا لهم فهزموهم وأنشؤا فيهم وذلك آخر سنة سبع عشرة ثم عادوا إلى مراغة فملكوها عنوة في صفر سنة ثمان عشرة واستباحوها ورحلوا عنها إلى إربل، وبها مظفر الدين كوكبري، واستمد صاحب الموصل فامده بالساكر.

ثم استدعاهم الخليفة الناصر إلى دقوقا للمدافعة عن العراق مع عساكره وولى عليهم مظفر الدين صاحب إربل فخام عن لقائهم وخاموا عن لقائه.

وساروا إلى همدان وبها شحتهم فامتنعوا من مصانعتهم وقتلوه فملكوها عنوة واستباحوها واستلحموا أهلها، ورجعوا إلى أذربيجان فملكوا أردبيل واستباحوها وخربوها وساروا إلى تبريز، وقد فارقهها أزيك بن البهلوان إلى تقجوان فصانعوهم بالأمان، وساروا إلى يلقان وملكوها عنوة وأفحشوا في القتل والمثلة واكسحوا جميع الضاحية. ثم ساروا إلى كنجة قاعدة أران فصانعهم أهلها فساروا إلى بلاد الكرج فهزموهم وحاصروهم بقاعدتهم تفليس، وردهم كثرة الأوعار عن التوغل فيها.

ثم قصدوا دربند شروان وحاصروا مدينة سماجي ودخلوه عنوة وملكوه واستباحوها، وأعجزهم الدربند عن المسير فراسلوا شروان في الصلح، فبعث إليهم رجالاً من أصحابه فقتلوا بعضهم وقتلوا الباقيين أذلاء. وأفضوا من الدربند إلى أرض أسحمة، وبها

واستولى على مدينة طوغاج فصدق له ذلك وسأله عن مقدار العساكر فقللها وغشه في ذلك ثم نكر عليه الخطاب بالولد ثم صرف الرسل بما طلبوه من المودعة والإذن للتجار ووصل على أثر ذلك بعض التجار من بلادهم إلى أطرار وبها أنيال خان ابن خال السلطان خوارزم شاه فعثره على أموالهم ورفع إلى السلطان أنهم عيون على البلاد وليسوا بتجار فامرهم بالاحتياط عليهم ففعل وأخذ أموالهم وقتلهم خفية وقشا الخبر إلى جنكزخان فبعث بالكبر على السلطان في ذلك وقال له: إن كان فعله أنيال خان فابعثه إلي وتهدده على ذلك في كتابه فأنزعج السلطان لها وقتل الرسل وبلغ الخبر إلى جنكزخان فسار في العساكر إلى بلاده وجبى السلطان من سمرقند خراج مستين حصن به أسوار سمرقند وجبى ثلاثة استخدم بها الفرسان لحمايتها ثم سار للقاء جنكزخان فكانت بينهما واقعة عظيمة هلك فيها كثير من الفريقين فكبسهم وهو غائب عنهم ورجع خوارزم شاه إلى جيحون وأقام عليه وفرق عساكره في أعمال ما وراء النهر بخارى وسمرقند وترمد وأنزل أبنائهم من أكبر أمرائه وأصحاب دولته في بخارى وجعلهم نظره ثم جاء جنكزخان إليه فعبى النهر مجفلاً وقصد جنكزخان أطرار فحاصرها وملكها غلباً وأسرها أنيال خان الذي قتل التجار فاذاب الفضة في أذنيه وعينيه ثم حاصر بخارى وملكها على الأمان وقتلوا معه القلعة حتى خربها ثم غدر بهم فقتلهم وسباهم وفعل مثل ذلك في سمرقند سنة تسع عشرة.

ثم كتب كتباً إلى أمراء خوارزم شاه قرابة أمه كأنها أجوبة عن كتبهم إليه باستدعائه والبراءة من خوارزم وذمه بعقوب أمه فبسط آمالهم في كتبه وواعد تركمان خان أم السلطان وكانت في خوارزم فوعدها بزيارة خراسان وأن تبعث من يستخلفه على ذلك وبعث بالكتب من يعترض بها للسلطان فلما قرأها ارتاب بأمره وبقرابنها فاستوحشوا ووقع التقاطع والنفرة ولما استولى جنكزخان على ما وراء النهر ونجا نائب بخارى في الفل أجفل السلطان وعبر جيحون ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه وتخاذل الناس وصرح جنكزخان العساكر في أثره نحواً من عشرين ألفاً كانوا يسمونهم التتر المغربة لتوغلهم في البلاد غربي خراسان إلى بلاد القفقيا ووصل السلطان إلى نيسابور فلم يلبث بها وارتحل إلى مازندران والتتر في أثره.

ثم انتهى إلى همدان فكبسه هنالك وفرقوا جموعه ونجا إلى جبال طبرستان فأقام بقربة بساحل البحر في فل من قومه ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر إلى جزيرة في بحيرة طبرستان وخاضوا في أثره فغلبهم الماء ورجعوا وأقام خوارزم شاه بالجزيرة ومريض بها

عسكر خوارزم فعبروا إلى بلخ وملكوها على الأمان سنة سبع عشرة وأنزلوا بها شحنة. ثم ساروا إلى الزوزان وأيدحور ومازندران فملكوها وولوا عليها. ثم ساروا إلى الطالقان وحاصروا قلعة بساركوه وكانت منيعه، وجاءهم جنكزخان بنفسه بعد امتناعها سنة أشهر فحاصروها أربعة أشهر أخرى. ثم أمر بنقل الخشب والتراب ليجمع به تل يتعالى به البلد. فلما استيقنوا الهلكة فتحوا الباب وصدقوا الحملة ففجا الخيالة وتفرقوا في البلاد والشعاب وقتل الرجال ودخل التتر فاستباحوها وبعث جنكزخان عسكراً إلى سبا مع صهره قفجاق نون فقتل في حصارها ثم ملكوها فاستباحوها وخرّبوها.

ويقال: قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً. ثم بعث جنكزخان في العساكر إلى مدينة مرو، وقد كان الناجون من هذه الوقائع انزوا إليها فاجتمعوا بظاهرها أكثر من مائتي ألف لا يشكون في الظفر، فلما زحف إليهم التتر ولوا منهزمين وأنخروا فيهم ثم حاصروا البلد خمسة أشهر واستنزلوا أميرها على الأمان. ثم قتلوه جميعاً وحضر جنكزخان قتلهم. يقال: قتل فيها سبع مائة ألف. ثم ساروا إلى نيسابور فاقحموها عنوه وقتلوا وعاثوا، ثم إلى طرابلس كذلك. ثم ساروا إلى هراة فملكوها على الأمان وأنزلوا عندهم الشحنة وعادوا إلى جنكزخان بالطالقان، وهو يرسل العساكر والسرايا في نواحي خراسان حتى أتوا عليها تحريباً، وذلك كله سنة سبع عشرة، والله تعالى أعلم.

من القفجاق واللاز والغز وطوائف من الترك مسلمون وكفار أمم لا تخصى. ولم يطبقوا مغالبتهم لكثرتهم فرجعوا إلى التضريب بينهم حتى استولوا على بلادهم. ثم اكتسحوها وأوسعوهم قتلاً وسبياً وفر أكثرهم إلى بلاد الروس ورأهم واعتصم الباقون بالجبال والغياض. وانتهى التتر إلى مدنتهم الكبرى سرداق على بحر نبطش المتصل بخليج القسطنطينية وهي مادتهم وفيها تجارتهم فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال وركب أهلها البحر إلى بلاد الروم في إيالة بني قليج أرسلان.

ثم سار التتر سنة عشرين وستمائة من بلاد قفجاق إلى بلاد الروس المجاورة لها، وهي بلاد فسيحة وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا إلى مدافنتهم في تخوم بلادهم، ومعهم جموع من القفجاق أياماً. ثم انهزموا وأثنخ فيهم التتر قتلاً وسبياً ونهباً، وركبوا السفن هارين إلى بلاد الإسلام وتركوا بلادهم فاكسحها التتر، ثم عادوا عنها وقصدوا بلغار آخر السنة. واجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد أن أكنوا لهم ثم استظردوا أمامهم وخرج عليهم الكمناء من خلفهم فلم ينج منهم إلا القليل. وارتحلوا عائدتين إلى جنكزخان بأرض الطالقان، ورجع القفجاق إلى بلادهم واستقروا فيها. والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

مسير جنكزخان إلى خراسان وتغلبه على أعمالها وعلى خوارزم شاه

كان جنكزخان بعد أن أجفل خوارزم شاه من جيحون ومسير التتر المغربة في طلبه ملك سمرقند فبعث عسكراً إلى ترمذ، وعسكراً إلى خوارزم وعسكراً إلى خراسان. وكان عسكر خوارزم أعظمها لأنها كرسي الملك ومأوى العساكر، وبعث مع العساكر ابنه جفطاي وأركطاي فحاصروها خمسة أشهر، وامتنعت فأمدهم جنكزخان بالعساكر متلاحقة، وملكوها ناحية ناحية إلى أن استوعبوا. ثم نقبوا السد الذي يمنع ماء جيحون عنها فسال إليها جيحون فغرقها وتقس أهلها بين السند والعراق، وهكذا قال ابن الأثير.

وقال النسائي كاتب جلال الدين: إن دوشي خان عرض عليهم الأمان وخرجوا إليه فقتلهم أجمعين وذلك في محرم سنة سبع عشرة وعاد دوشي خان والعساكر إلى جنكزخان فوجدوه بالطالقان.

وأما عسكر ترمذ فساروا إليها وملكوها وتقدموا إلى كلابه من قلاع جيحون فملكوها وخرّبوها، وعسكر فرغانه كذلك. وأما

إجفال جلال الدين ومسير التتر في اتباعه وفراره إلى الهند

ثم بعث العساكر في طلب جلال الدين وقد كان بعد مهلك أبيه وخروج تركمان خاتون من خوارزم سار إليها وملكها واجتمع إليه الناس ثم غشي إليه أن قرابة تركمان خاتون وهم البياروتية مالوا إلى أخيه يولغ شاه وابن اختهم وأنهم يريدون الوثوب بجلال الدين ففر ولحق بنيسابور وجاءت عساكر التتر إلى خوارزم فأجفل يولغ شاه وأخوه ليلحقوا به بنيسابور فأدركهم التتر وهم محاصرون قلعة قندهار فاستلحمهم ثم سار غزنة فملكها من يد الثوار الذين استولوا عليها أيام هذه الفتنة وذلك سنة ثمان عشرة.

ولحق به أمراء أبيه الذين تغلبوا على نواحي خراسان في هذه الفتنة وأزعجهم التتر عنها فحضرها مع جلال الدين كبسة التتر بقلعة قندهار ولحق فلهم بجنكزخان وبعث ابنه طولي خان

ولقتال جلال الدين فهزمه جلال الدين وقتله ولحق الفل من
عساكره بجنكزخان فسار في أمم التتر ولقي جلال الدين فانهزم ولم
يفلت من التتر إلا الأقل ورجع جلال الدين فنزل على نهر السند
وقد كان جماعة من أمرائه انزلوا عنه يوم الواقعة الأولى بسبب
الغنائم فبعث إليهم يستألفهم فعاجله جنكزخان وقاتله ثلاثاً ثم
هزمه واعترضه نهر السند فاقتحمه وخلص إلى السند بعد أن قتل
حرمه أجمعين وذلك سنة ثمان عشرة والله تعالى أعلم.

**أخبار غياث الدين بن خوارزم شاه مع
التتر**

وسار جلال الدين إلى أذربيجان سنة اثنتين وعشرين
فملكها وكانت له فيها أخبار ذكرناها في دولته ثم بلغ السلطان
جلال الدين أن التتر زحفوا من بلادهم وراء النهر إلى العراق
فنهض من تبريز للقاتلهم في رمضان سنة خمس وعشرين ولقيهم
على أصفهان وانقض عنه أخوه غياث الدين في طائفة من
العساكر وانهزمت ميسرة التتر وسار السلطان في اتباعهم وقد
أكمنا له وأحاطوا به واستشهد جماعة ثم صدق عليهم الحملة
فأفرجوا له ومضى لوجهه وانهزمت العساكر إلى فارس وكرمان
وأذربيجان ورجع المتبعون للتتر من قاشان فوجدوه قد انهزم
فأفترقوا اشتتاً ولحق السلطان بأصفهان بعد ثمانية أيام فوجد التتر
يحصرون أصفهان فيز إليهم في عساكرها وهزمهم وابعثهم إلى
الري وبعث العساكر في اتباعهم إلى خراسان ورجع إلى أذربيجان
وأقام بها وكانت له فيها أخبار مذكورة في دولته والله سبحانه
وتعالى أعلم.

مسير التتر إلى أذربيجان واستيلاؤهم على

تبريز ثم واقعتهم على جلال الدين بآمد

ومقتله

كان التتر لما استقروا فيما وراء النهر عمروا تلك البلاد
واختطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوض عنها وبقيت خراسان
خاوية واستبد بالمدن فيها طوائف من الأمراء أشباه الملوك يعطون
الطاعة للسلطان جلال الدين منذ جاء من الهند وانفرد جلال
الدين بملك العراق وفارس وكرمان وأذربيجان وأران وما إلى ذلك
وبقيت خراسان مجالاً لفزاة التتر وعساكرهم وسارت طائفة منهم
سنة خمس وعشرين إلى أصفهان وكانت بينهم وبين جلال الدين
الواقعة كما مر ثم زحف جلال الدين إلى خلاط وملكها. و زحف

كان خوارزم شاه قد قسم الملك بين ولده فجعل العراق
لغورن شاه وكرمان لغياث الدين تمر شاه فلم ينفذ إليها أيام أبيه
فلما فر خوارزم شاه إلى ناحية الري لقيه ابنه غورن شاه صاحب
العراق ثم كانت واقعة التتر به على حدوده ولحق خوارزم شاه
بجزيرة طبرستان ولحق غورن شاه بكرمان ثم رجع واستولى على
أصفهان وعلى الري ثم زحف التتر إليه وحاصروه بقلعة أوند
وقتلوه وكان أخوه غياث الدين بكرمان وملكه بينه وبين بقا
طرابلسي أتابكه وفر إلى ناحية أذربيجان واستولى غياث الدين على
العراق ومانزدران وخوزستان فأقطع بقا طرابلسي همدان.

ثم سار غياث الدين إلى أذربيجان فسانعه صاحبها أزيك

بن البهلوان ولحق به من كان متغلباً من أمراء أبيه بخراسان وكان
أبنايخ خان نائب بخارى قد تغلب بعد الواقعة على نسا ونواحيها
وجرجان وعلى شيروان وعامة خراسان وكان تكي بن بهلوان متغلباً
على مرو فغبر جيحون سنة سبع عشرة وكبس شحنة التتر وابعثهم
إلى شيروان ولقوا إبنايخ خان على جرجان فهزموه ونجا فلهم إلى
غياث الدين على العراق والري وما وراءها في الجنوب من موكان
وأذربيجان وبقيت خوارزم طوائف وفي كل ناحية منها متغلب
وعساكر التتر في كل وقت تدوخ بلاد العراق وغياث الدين
منهمك في لذاته والله تعالى أعلم.

رجوع جلال الدين من الهند واستيلاؤه

على العراق وكرمان وأذربيجان ثم زحف

التتر إليه

ثم رجع جلال الدين من الهند سنة إحدى وعشرين

والمضايق بالمفسدين من غير صنوفهم بالقتل والنهب، فأشار عليه أوترخان بالرجوع، فرجع إلى قرية من قرى ميفارقين ونزل في بيدها وفارقه أوترخان إلى حلب. وهجم التتر على السلطان بالبيدر وقتلوا من كان معه، وهرب فصعد إلى جبل الأكراد وهم مترصدون الطرق للنهب فسلبوه وهموا بقتله.

وشعر بعضهم أنه السلطان فمضى به إلى بيته ليخلصه إلى بعض النواحي، ودخل البيت في مغيبه بعض سفلتهم وهو يريد الثأر من الخوارزمية بأخ له قتل بخلاط فقتله، ولم يغن عنه أهل البيت.

ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميفارقين وسائر ديار بكر فاكسحوها وخربوها، وملكوا مدينة أسعد عترة فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام، ومروا بميفارقين فامتعت، ثم وصلوا إلى نصيبين فاكسحوا نواحيها، ثم إلى سنجار وجبالها والخابور. ثم ساروا إلى أيدس فأحرقوها، ثم إلى أعمال خلاط فاستباحوها هاركي وأرجيش. وجاءت طائفة أخرى من أذربيجان إلى أعمال إربل ومروا في طريقهم بالترکمان الأيوبي والأكراد الجوزقان فنهبا وقتلوا، وخرج إليهم والي إربل مستمداً أهلها وعساكر الموصل فلم يدركوهم فعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

التعريف بجنكزخان وقسمة الأعمال بين

ولده وانفراده بالكركسي في قراقوم وبلاد

الصين

هذا السلطان جنكزخان هو سلطان التتر لعهد ثم من المثل أحد شعوبهم، وفي كتاب لشهاب الدين بن فضل الله: أنه من قبيلة أشهر قبائل المثل وأكبرهم، وزايه التي بين الكاف والخاء ليست صريحة وإنما مشتملة بالصاد فينطق بها بين الصاد والزاي) وكان اسمه تمرجين ثم أصاروه جنكز، وخان تمام الاسم وهو بمعنى الملك عندهم. وأما نسبه فهي هكذا: جنكز بن بيسوكي بن بهادر بن تومان برتيل خان بن تومينه بن باد سنقر بن تيدوان ديوم بن بقا بن مودنجه، أحد عشر اسماً أعجمياً صعبة الضبط وهذا منجأها.

وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الأصفهاني إمام المعقولات بالمشرق أخذها عن أصحاب نظير الدين الطوسي قال: إن مودنجه اسم امرأة وهي جدتهم من غير

إليه صاحبها الأشرف بن العادل من الشام وعلاء الدين كيقياد صاحب بلاد الروم، وأوقعوا به كما مر في أخباره سنة سبع وعشرين، الواقعة التي أوهنت منه وحلت عرى ملكه. وكان علاء الدين مقدم الإسماعيلية بقلعة الموت عدواً لجلال الدين بما أئخس في بلاده، وقرر عليه وظائف الأموال، فبعث إلى التتر يخبرهم أن الهزيمة أوهنته ويختمهم على قصده، فسار إلى أذربيجان أول سنة ثلاث وعشرين.

وبلغ الخبر إلى السلطان بمسيرهم فرحل من تبريز إلى موقان وأقام بها في انتظار شحنة خراسان ومازندران، وشغل بالصيد فكبسه التتر ونهبوا معسكره، وخلص إلى نهر راس من أران. ثم رجع إلى أذربيجان وشتى بمأمان. ثم جاءه النذير بمسير التتر إليه فرحل إلى أران وتحصن بها، وثار أهل تبريز لما بلغهم خبر الواقعة الأولى بمن عندهم من عساكر الخوارزمية وقتلوهم، ومنعهم رئيسهم الطغرياني من طاعة التتر. ووصل للسلطان جلال الدين ثم هلك قريباً فسلموا بلادهم للتتر، وكذا فعل أهل كنجة وأهل سلعار. ثم سار السلطان إلى كنجة وارتجمها وقتل المعتضين للثورة فيها، وسار إلى خلاط واستمد الأشرف بن العادل صاحب الشام فعلمه بالمواعيد، وسار إلى مصر ويش من إنجاده فبعث إلى جيرانه من الملوك يستجدهم مثل صاحب حلب وآمد وماردين. ووجد عسكراً إلى بلاد الروم في خرت برت وملطية وأذربيجان فاقتحموها لما بين صاحبها كيقياد وبين الأشرف من الموالاة فاستوحش جميع الملوك من ذلك وقعدوا عن نصرته.

وجاءه الخبر وهو بخلاط أن التتر زحفوا إليه فاضطرب في رحله، وبعث أتاكبه أوترخان في أربعة آلاف فارس طليعة، فرجع وأخبره أن التتر رجعوا من حدود ملاذكرد، وأشار عليه قومه بالمسير إلى أصفهان، وزين له صاحب آمد قصد بلاد الروم وأطعمه في الاستيلاء عليها ليتصل بالفقجاق ويستظهر بهم على التتر، ووعد الإمداد بنفسه يروم الانتقام من صاحب بلاد الروم لما ملك من قلاعه فخيم إلى رايه وعدل عن أصفهان ونزل بآمد. وبعث إليه التركمان بالنذير وأنهم رأوا نيران التتر فاتهم خبرهم. وصحبه التتر على آمد منتصف شوال سنة ثمان وعشرين وأحاطوا بخيمته، وحمل عليهم أتاكبه أوترخان وكشفهم عن الخيمة.

وركب السلطان وأسلم أهله وسواده، ورد أوترخان العساكر وانتبذ ليتوارى عن عين العدو. وسار أوترخان إلى أصفهان واستولى عليها إلى أن ملكها التتر من يده سنة تسع وثلاثين. وذهب السلطان منجلاً وقد امتلأت الدربندات

السلطان فأجفل أمامه واتبعه السلطان في عساكره فلما أدركه كر عليه جنكزخان فهزمه وغنم سواده وما معه.

ثم استمرت العداوة وانتبذ عن السلطان واستألف العساكر والأتباع وأفاض فيهم الإحسان فاشتدت شوكته ودخل في طاعته قبيلتان عظيمتان من المغل وهما أورات ومنفورات فعظمت جموعه وأحسن إلى المملوكين اللذين حذرهما من أزيك خان ورفع رتبتهما وكتب لهما اليهود بما اختاراه وكتب فيها أن يستمر ذلك لهما إلى تسعة بطون من أعقابهما ثم جهز العساكر لحرب أزيك خان فهزمه وقتله واستولى على مملكة التتر بأسرها ولما توطأ أمره تسمى جنكزخان وكان اسمه مترجى كما مر وكتب لهم كتاباً في السياسة في الملك والحروب والأحكام العامة شبه أحكام الشرائع.

وأمر أن يوضع في خزائنه وأن تختص بقرابته ولم يكن يؤتى بمثله وإنما كان دينه ودين آبائه وقومه الجوسية حتى ملكوا الأرض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء النهر وأسلم من ملوكهم من هذه الله للإسلام كما نذكره إن شاء الله تعالى فدخلوا في عداد ملوك الإسلام إلى أن انقرضت دولتهم وانقضت أيامهم والبقاء لله وحده.

وأما ولده فكثير وهو الذي يقتضيه حال بداوته وعصبيته إلا أن المشهور منهم أربعة: أولهم دوشي خان ويقال: جرجي وثانيهم: جفطاي ويقال: كداي وثالثهم: أوكداي ويقال: أوكساي ورابعهم: طولي بين الثاء والطاء.

والثلاثة الأول لأم واحدة وهي أوبولي بنت تيكي من كبار المغل.

وعد شمس الدين الأصفهاني الأربعة فقال: جرجي وكداي وطولي وأوكداي.

وقال نظام الدين يحيى بن الخليم نور الدين عبد الرحمن الصيادي كاتب السلطان أبي سعيد فيما نقله عنه شهاب الدين بن فضل الله: إن كداي هو جفطاي وجرجي هو طوشي فلما ملك جنكزخان البلاد قسم الممالك فكان لولده طوشي بلاد فيلاق إلى بلغار وهي دست القفجاق وأضاف إليه أران وهمذان وتبريز ومراغة وعبرلان وكثاي حدود آمد وقرباق وما أدري تفسير هذه وجعله ولي عهده.

وعين جفطاي من الأيقور إلى سمرقند وبخارى وما وراء النهر ولم يعين لطولي شيئاً وعين لأخيه أوتكين نوى بلاد أنجت ولا أدري معنى هذا الاسم.

ولما استفحل ملكه واستولى على هذه الممالك جلس على

أب.

قالوا: وكانت متزوجة وولدت ولدين اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكتوت، ويقال لولدها بنو الدلوكية. ثم مات زوجها وتأتيت وحملت وهي أيم فنكر عليها أقرباؤها فذكرت أنها رأت بعض الأيام نوراً دخل في فرجها ثلاث مرات، وطراً عليها الحمل بعده. وقالت لهم: إن في حملها ثلاثة ذكور، فإن صدق ذلك عند الوضع وإلا فافعلوا ما بدا لكم. فوضعت ثلاثة توائم من ذلك الحمل فظهرت براءتها بزعمهم، اسم أحدهم: برقد والآخر قوناً والثالث لجعو وهو جد جنكزخان الذي في عمود نسبه كما مر، وكانوا يسمونهم النورانيين نسبة إلى النور الذي ادعته. ولذلك يقولون جنكزخان ابن الشمس.

وأما أوليته فقال يحيى بن أحمد بن علي النسائي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته: إن مملكة الصين متسعة ودورها مسيرة تسعة أشهر وهي منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر ويتولى ملك كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الأعظم.

قال: وكان الأعظم الذي عاصر خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش يقال له طرخان توارثها عن آبائه وكان مقيماً بطوغاج وهي وسط الصين وكان جنكزخان من أولئك الخانات الستة وكان من سكان البدو ومن أهل النجدة والشرف وكان مشتهاً فارعون من بلاد الصين وكان من خاناتهم أيضاً ملك آخر اسمه دوشي خان كان متزوجاً بزوجة جنكزخان وانفقت وفاته فحضر جنكزخان يوم وفاة زوجها دوشي خان فولته مكانه وحملت قومها على طاعته.

وبلغ الخبر إلى الخان الأعظم طرخان فنكر ذلك وزحف إليهم فقاتلوه وهزموه وغلبوه على أثر بيلاده ثم صالحهم عليها وأقام متغلباً ثم مات بقية الخانات الستة وانفرد جنكزخان بأمرهم جيعاً وأصبح ملكهم وكان بينه وبين خوارزم شاه من الحروب ما قدمناه.

وفي كتاب ابن فضل الله حكياً عن الصاحب علاء الدين عطاء وحديثه به قال: كان ملك عظيم من التتر في قبيلة عظيمة من قبائلهم يدعى أزيك خان وكان مطاعاً في قومه فاتصل به جنكزخان فقربه واستخلصه ونافسه قرابة السلطان وسعوا به عنده حتى استفسدوه عليه وطوى له وتربص به وسخط أزيك خان على مملوكين عنده فاستجارا بجنكزخان فأجارهما وضمن لهما أمانه وأطلعاه على رأي السلطان فيه فاستوحش وحذر وثبة

ذلك وأن لا يتعدى مكانه ويلتفه رسل ناظو بذلك وهو فيما وراء النهر قبل أن يفصل بالعاكر فأقام سنين امتثالاً لأمره حتى مات ناظو وتولى بركة مكانه فاستأذن أخاه منكوفان ثانية وسار لقصد الملاحدة وأعمال الخليفة فأوقع بالملاحدة وقتلهم قلاعهم واستلمهم وأوقع بأهل همذان واستباحهم لميلهم إلى بركة وأخيه ناظو.

ثم سار إلى بركة بدست القفجاق فزحف إليه بركة في جموع لا تحصى والتقى واستمر القتل في أصحاب هلاكو وهم بالهزيمة ثم حال نهر الكر بين الفريقين وعاد هلاكو في البلاد واستحكمت العداوة بينهما وسار هلاكو إلى بغداد فكانت له الواقعة المشهورة كما مر ويأتي في أخبار دولته إن شاء الله تعالى.

وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الأصفهاني: إن هلاكو لم يكن مستقلاً بالملك وإنما كان نائباً عن أخيه منكوفان ولا ضربت السكة باسمه ولا ابنه أبغا وإنما ضربها منهم أرغو حين استقل فجعل اسمه في السكة مع اسم صاحب التخت.

قال: وكان شحنة صاحب التخت لا يزال ببغداد إلى أن ملك قازان فطرد الشحنة وأفرد اسمه في السكة.

وقال: ما ملكت البلاد إلا بسيفي. وبيت جنكزخان يرون أن بني هلاكو إنما كانوا ثوراً وجنكزخان لم يملك طولي شيئاً وأن أخاه منكوفان الذين ولاه عليها إنما بعثه نائباً مع أن منكوفان إنما ولاه ناظو بن دوشي خان كما مر.

قال: ونقل عن ثقة أنه لم يبق هلاكو من يحقق نسبه لكثرة ما وقع فيهم من القتل غيرة على الملك ومن نجا طلب الاختفاء بشخصه فخفي نسبه إلا ما قيل في عمل المنسوب إلى بحرعي.

قال شمس الدين الأصفهاني ونقله عن أمير كبير منهم إن أول من استقل بالتخت جنكزخان ثم ابنه أوكداي ثم ابنه كغود بن أوكداي ثم منكوفان بن طولي ثم أخوه أريكان ثم أخوهما قبلاي ثم دمرفاي ويقال ترفاي ثم تربي كيزي ثم كيزقان ثم سندمرقان بن طرمالا بن جنكم بن قبلاي بن طولي انتهى كلام ابن فضل الله.

وعن غيره أن منكوفان جهز عساكر التتر أيام ملكه على التخت إلى بلاد الروم سنة مع أمير من أمراء المغل اسمه ييكو فملكها من يد بني قليج أرسلان كما هو مذكور في أخبارهم فأقامت في طاعة القان إلى أن انقضى أمر المغل منها ثم بعث منكوفان العساكر لغزو بلاد الخطا مع أخيه قبلاي بعد أن عهد له

التخت وانتقل إلى وطنه القديم بين الخطا والأيقور وهو تركستان وكاشغر وفي ذلك الوطن مدينة قراقوم وبها كان كرسية ومكانه بين أعمال ولده مكان المركز من الدائرة وكان كبير ولده طوشي ويقال دوشي ومات في حياته وخلف من الولد ناخوا وبركة وداوردة وطوفل هكذا قال ابن الحكيم.

وقال شمس الدين: ناظو وبركة فقط ومات طولي أيضاً في حياته في حربه مع جلال الدين خوارزم شاه بنواحي غزنة وخلف من الولد منكوبلاي وأزييك وهلاكو والله تعالى أعلم بغيه وأحكامه.

ملوك التخت بقراقوم من بعد جنكزخان

قال ابن فضل الله: ولما هلك جنكزخان استقل أوكداي بالتخت وبدست القفجاق وما معه وكان أصغر ولده وانتقل إلى قراقوم بمكانهم الأصلي فأعطى قرايياق التي كانت بيده لابنه كغود ولم يتمكن كداي وهو جفطاي من مملكة ما وراء النهر ونازع ناظو بن دوشي خان في أران وهمذان وتبريز ومراغة وبعث أميراً من أمرائها لحمل أمراها والقبض على عماله بها وقد كان ناظو كتب إليهم بالقبض على ذلك الأمير فقبضوا عليه وحملوه إلى ناظو فطحنه وبلغ ذلك إلى كغود فسار إلى ناظو في ستمائة ألف من العساكر وهلك قبل أن يصل إليه بعشر مراحل فبعث القوم إلى ناظو أن يكون صاحب التخت فأبى وجعله لأخيه منكوفان بن طولي وبعثه إليه وأخويه معه قبلاي وهلاكو وبعث معهم أخاه بركة بن طولي في مائة ألف من العساكر ليجلسه على التخت فلما عاد من بخارى لقي الشيخ شمس الدين الباخوري من أصحاب نجم الدين كبير الصوفية فأسلم على يده وتأكدت صحبته معه وحرضه على التمسك بطاعة الخليفة ومكاتبته المعتصم ومبايعته ومهاداته.

وترددت الرسل بينه وبين المعتصم وتأكدت المروالة واستقل منكوفان بالتخت وولى أولاد جفطاي عمه على ما وراء النهر أمضاء لوصية جنكزخان لأبيهم التي مات دونها ووفد عليه جماعة من أهل قزوین وبلاد الجبل يشكون ما نزل بهم من ضرر الإسماعيلية وفسادهم فجهز أخاه هلاكو لقتالهم واستصلح قلاعهم فمضى لذلك وحسن لأخيه منكوفان الاستيلاء على أعمال الخليفة فأذن له فيه وبلغ ذلك بركة فذكره على أخيه ناظو الذي ولى منكوفان لما كان بين بركة والمعتصم من الولاية والوصلة بوصية الشيخ الباخوري فبعث ناظو إلى أخيه هلاكو بالنهي عن

وبعده ولي منكوفان فلما ولي قيدو نازع صاحب التخت يومئذ وهو قبلاي وكانت بينهما حروب وأعان قبلاي في خلالها بني جفطاي على استرجاع ملكهم وولي منهم براق بن ستف بن منكوفان بن جفطاي وأمدته بالعساكر والأموال فغلب قيدو بن قاشي بن كغود بن أوكداي بن جنكزخان وانتزع من صاحب التخت يومئذ واستبد بملك آبائه.

ثم هلك فولي من بعده دوا ثم من بعد دوا بنون له أربعة واحدا بعد واحد وهم: كجك ثم أسعا ثم كبك ثم ألجكداي ثم ولي بعد الأربعة دوائر ثم ترماشين ثم توزون بن اوماكان بن منكوفان بن جفطاي وتحلل هؤلاء من توثب عل الملك ولم ينتظم له مثل سساور بن أركتم بن بغاقر بن براق ولم يزل ملكهم بعد ترماشين مضطرباً إلى أن ملك منهم جتقصو بن دواتر بن حلو بن براق بن ستف كانوا كلهم على دين المجوسية وخصوصاً دين جنكزخان وعبادته الشمس وكان فيما يقال على دين النجشية فكان بنو جفطاي يعضون عليها بالنواجذ ويتبعون سياسته مثل أصحاب التخت فلما صار الملك إلى ترماشين منهم أسلم رحمه الله سنة خمس وعشرين وسبع مائة وجاهد وأكرم التجار المترددين وكانت تجار مصر ممنوعين من بلاده فلما بلغهم ذلك قصدوها فحمدوها ولما اقترضت دول بني جنكزخان وتلاشت في جميع النواحي ظهر في أعقاب دولة بني جفطاي هؤلاء بسمرقند وما وراء النهر ملك اسمه غر ولا أدري كيف كان يتصل نسبه فيهم ويقال: إنه من غير نسبهم وإنما هو متغلب على صبي من أعقاب ملوكهم اسمه طغتمش أو محمود درج اسمه بعد مهلك أبيه واستبد عليه وأنه من أمرائهم.

وأخبرني من لقيته من أهل الصين أن أباه أيضاً كان في مثل مكانه من الإمارة والاستبداد وما أدري أهو طينة في نسب جفطاي أو من أحلافهم وأتباعهم.

وأخبرني الفقيه برهان الدين الخوارزمي وهو من علماء خوارزم وأعيانها قال: كان لعصره وأول ظهوره ببخارى رجل يعرف بحسن من أمراء المغل وآخر بخوارزم من ملوك صراي أهل التخت يعرف بالحاج حسن الصوفي تهباً وزحف إلى بخارى فملكها من يد حسن ثم إلى خوارزم وطالت حروبه مع الحاج حسن الصوفي وحاصرها مراراً وهلك حسن خلال ذلك وولي أخوه يوسف فملكها غر من يده وخربها في حصار طويل ثم كلف بعمارتها وبناء ما خرب منها وانتظم له الملك بما وراء النهر ونزل قجاري ثم زحف إلى خراسان فملك هراة من يده صاحبها وأظنه من بقايا ملوك الغورية.

بالخانية ثم سار على أثره بنفسه واستخلف أخاه الآخر أزيك على كرسي قراقوم وهلك منكوفان في طريقه ذلك على نهر الطاي من بلاد الغور سنة ثمان وخمسين فجلس أزيك على التخت وعاد قبلاي من بلاد الخطا فزحف إليه أزيك فهزمه إلى بعض النواحي واستأثر بالغنائم عن إخوته وقومه فمالوا إلى قبلاي واستدعوه فجاء وقاتل أخاه أزيك فغلبه وتقبض عليه وجسه واستقر في الغاية.

وبلغ الخبر إلى هلاكو وهو في الشام عندما استولى عليه فرجع لما كان يؤمله من الغاية ولما انتهى إلى جيحون بلغه استقلال أخيه قبلاي في الغاية وتبين له عجزه عنه فساله ونزع بما في يده ورجع إلى العراق ثم نازع قبلاي في الغاية لآخر دولته سنة سبع وثمانين بعض بني أوكداي صاحب التخت الأول وهو قيدو بن قاشي بن كغود بن أوكداي ونزع إليه بعض أمراء قبلاي وزينوا له ذلك فسار له وبعث قبلاي العساكر للقائه مع ابنه تمقان فهزمه قيدو ورجع منهزماً إلى أبيه فسخطه وطرده إلى بلاد الخطا ومات هنالك وسلط قبلاي على قيدو وكان غلب على ما وراء النهر براق بن ستف بن منكوفان بن جفطاي من بني جفطاي ملوك ما وراء النهر بوصية أبيهم جنكزخان فغلبه براق واستولى على ما وراء النهر.

ثم هلك قبلاي صاحب التخت سنة ثمان وثمانين وملك ابنه سمرقوق. هذا ما انتهى إلينا من أخبار ملوك التخت بقراقوم من بني جنكزخان ولم نقف على غيرها والله تعالى ولي التوفيق.

ملوك بني جفطاي بن جنكزخان بتركستان

وكاشغر وما وراء النهر

هذا الإقليم هو مملكة الترك الأولى قبل الإسلام وأسلم ملوكهم على تركستان وكاشغر فأقاموا بها وملك بنو سامان نواحي بخارى وسمرقند واستبدوا ومنها كان ظهور السلجوقية والتر من بعدهم ولما استولى جنكزخان على البلاد أوصى بهذه المملكة لابنه جفطاي ولم يتم ذلك في حياته ومات جفطاي دونه فلما ولي منكوفان بن طولي على التخت ولي أولاد جفطاي عمه على ما وراء النهر إمضاء لوصية جنكزخان لأبيهم التي مات دونها وولي منكوفان فلما هلك ولي أخوه هلاكو ابنه مبارك شاه ثم غلب عليهم قيدو بن قاشي بن كغود بن أوكداي بن جنكزخان وانتزع ما وراء النهر من أيديهم وكان جده كفوك صاحب التخت.

ناظو خان بن دوشي خان

ولما هلك دوشي خان ولي مكانه ابنه ناظو خان ويقال: صامرخان ومعناه الملك المغير فلم يزل ملكاً عليها إلى أن هلك سنة خمسين وستمئة.

طرطو بن دوشي خان

ولما هلك ناظو ولي أخوه طرطو فأقام ملكاً سنتين وهلك سنة اثنتين وخمسين ولما هلك ولي مكانه أخوه بركة هكذا نقل ابن فضل الله عن ابن الحكيم.

وقال المؤيد صاحب حماة في تاريخه: إنه لما هلك طرطو هلك من غير عقب وكان لأخيه ناظو خان ولدان وهما تدان وبركة وكان مرشحاً للملك فعدل عنه أهل الدولة وملكوا أخاه بركة وسارت أم تدان إلى هلاكه عندما ملك العراق تستحته للملك قومها فردوها من الطريق وقتلوا واستمر بركة في سلطانه انتهى.

فنسب المؤيد بركة إلى ناظو خان بن دوشي خان وابن الحكيم على ما نقل ابن فضل الله جعله ابن دوشي خان نفسه.

وذكر المؤيد قصة إسلامه على يد شمس الدين الباخوري من أصحاب نجم الدين وان الباخوري كان مقيماً ببخارى وبعث إلى بركة يدعو إلى الإسلام فأسلم وبعث إليه كتابه بإطلاق يده في سائر أعماله بما شاء فردّه عليه وأعمل بركة الرحلة إلى لقائه فلم يأذن له في الدخول حتى تطارح عليه أصحابه وسهلوا الإذن لبركة فدخل وجدد الإسلام وعاهده الشيخ على إظهاره الإسلام وأن يعمل عليه سائر قومه فحملهم واتخذ في جميع بلاده المساجد والمدارس وقرب العلماء والفقهاء ووصلهم.

وسياق القصة على ما ذكره المؤيد يدل على أن إسلامه كان أيام ملكه وعلى ما ذكر ابن الحكيم أن إسلامه كان أيام أخيه ناظو ولم يذكر ابن الحكيم طرطو وإنما ذكر بعد ناظو أخاه بركة ولم نقف على تاريخ لدولتهم حتى يرجع إليه وهذا ما أدى إليه الاجتهاد، وما بعدها مأخوذ من تاريخ المؤيد صاحب حماة من بني المظفر بن شاهنشاه بن أيوب.

قال: ثم بعث بركة أيام سلطانه أخاه ناظو إلى ناحية الغرب للجهاد وقاتل ملك اللمان من الإفرنج فانهمز ورجع ومات أسفاً ثم حدثت الفتنة بين بركة وبين قبلاي صاحب التخت وانتزع بركة الخاقانية من أعمال قبلاي وولى عليها سرخاد ابن أخيه ناظو وكان على دين النصرانية وداخله هلاكه في الانتفاض على عمه بركة إلى

ثم زحف إلى مازندران وطال تمرسه وحروبه مع صاحبها الشيخ ولي إلى أن أظلملها عليه سنة أربع وثمانين ولحق الشيخ ولي بتوريز إلى أن ملكها تمر سنة ثمان وثمانين فهلك في حروبه معها ثم زحف إلى أصفهان فأتوه طاعة مخرصة وخالفه في قومه كبير من أهل نسبه يعرف بمعمر الدين وأمد طغتمش صاحب التخت بصراي فكر راجعاً وشغل مجريه إلى أن غلبه ومحا أثره وغلب طغتمش على ما بيده من البلاد ثم زحف إلى بغداد سنة خمس وتسعين فأجفل عنها ملكها أحمد بن أويس ابن الشيخ حسن المتغلب عليه بعد بني هلاكو فلحق أحمد ببر الشام سنة ست وتسعين واستولى تمر على بغداد والجزيرة وديار بكر إلى الفرات واستعد ملك مصر للقائه ونزل الفرات فأحجم عنه وتأخر عنه إلى قلاع الأكراد وأطراف بلاد الروم وأناخ على قراباغ ما بين أذربيجان والأبواب ورجع خلال ذلك طغتمش صاحب التخت إلى صراي وملكه فسار إليه تمر أول سنة سبع وتسعين وغلبه على ملكه وأخرجه عن سائر ممالكه ثم وصل الخبر آخر السنة بظفريه بطغتمش وقتله إياه واستيلائه على جميع أعماله والحال على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها وفي خبر العجم أن ظهوره سنة عذب يعنون سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة بحساب الجمل في حروف هذه اللفظة والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

الخبر عن ملوك بني دوشي خان من التتر

ملوك خوارزم ودست القفجاق ومبادئ

أمرهم وتصاريق أحوالهم

قد تقدم لنا أن جنكزخان عين هذه البلاد لابنه دوشي خان وملكه عليها وهي مملكة متسعة في الشمال آخذة من خوارزم إلى ناركند وصفد وصراي إلى مدينة مساجري وأران وسرادق وبلغار وباشقرد وجدلمان وفي حدود هذه المملكة مدينة باكو من مدن شروان وعندها باب الحديد ويسمونه دمرقفو وتمر حدود هذه المملكة في الجنوب إلى حدود القسطنطينية وهي قليلة المدن كثيرة العمارة والله تعالى أعلم.

دوشي خان بن جنكزخان

وأول من وليها من التتر دوشي خان فلم يزل ملكاً عليها إلى أن هلك كما مر.

أخيه قبلاي صاحب التخت ويقطعه الخاقانية وما يشاء معها وشعر بركة بشأنه وأن سرخاد يحاول قتله بالسهم فقتله وولى الخاقانية أخاه مكانه وأقام هلاكو طالباً بثأر سرخاد ووقعت الحرب بينه وبين بركة على نهر آمد سنة ستين ثم هلك هلاكو سنة ثلاث وستين وولى ابنه أبغا فسار إلى حربه وسرح بركة للقاتل ستاي بن بانيخان بن جفطاي ونوغية بن تتر بن مغل بن دوشي خان فلما التقى الجمعان أحجم ستاي ورجع منهزماً وانهزم أبغا أمام نوغية وأثنى في عساكره وعظمت منزلة نوغية عند بركة وسخط بركة ستاي وساءت منزلته عنده إلى أن هلك بركة سنة خمس وستين والله سبحانه وتعالى أعلم.

منكوتر بن طغان بن ناظر خان

ولما هلك بركة ملك الدست بالشمال ملك مكانه منكوتر بن طغان بن ناظر خان ابن دوشي خان وطالت أيامه وزحف سنة سبعين إلى القسطنطينية لجدة وجدها على الأشكر ملكها فتلقاه بالخصوع والرغبة ورجع عنه ثم زحف سنة ثمانين إلى بلاد الشام في مظاهرة أبغا بن هلاكو ونزل بين قيسارية وأبلستين من بلاد الروم ثم أجاز الدربند ومر بأبغا وهو منازل الرحبة وتقدم مع أخيه منكوتر بن هلاكو إلى حماة فنازلوها وزحف إليهم المنصور قلاوون ملك مصر والشام من دمشق ولقيهم بظاهر حمص وكانت الدائرة على ملوك التتر وهلك خلق من عساكرهم وأسروا آخرون وأجل أبغا من منازل الرحبة ورجعوا إلى بلادهم منهزمين.

وهلك على أثر ذلك منكوتر ملك الشمال ومنكوتر بن هلاكو سنة إحدى وثمانين ولما هلك منكوتر ملك مكانه ابنه تدان وجلس على كرسي ملكهم بصراي فأقام خمس سنين ثم ترهب وخرج عن الملك سنة ست وثمانين وانقطع إلى صحبة المشايخ الفقراء ولما ترهب تدان بن منكوتر وخرج عن الملك ملك مكانه أخوه قلابغا وأجمع على غزو بلاد الكرك واستنفر نوغية بن تتر بن مغل بن دوشي خان وكان حاكماً على طائفة من بلاد الشمال وله استبداد على ملوك بني دوشي خان فنفر معه في عساكره وكانت عظيمة ودخلوا جميعاً بلاد الكرك وأغاروا عليها وعاثوا في نواحيها وفصلوا منها وقد تمكن فصل الشتاء وملك السلطان مسافة اعتسف فيها البيداء وهلك أكثر عساكره من البرد والجوع وأكلوا دوابهم.

وسار نوغية من أقرب المسالك فنجا إلى بلاده سالماً من تلك الشدة فاتهمه السلطان قلابغا بالالدهان في أمره وكان يتقم

ولما قتل قلابغا ولوا مكانه طغطاي لوقته ورجع نوغية إلى بلاده وبعث إلى طغطاي في قتل الأمراء الذين داخلوا قلابغا في قتله فقتلهم طغطاي أجمعين ثم تكرر طغطاي לנוغية لما كان عليه من الاستبداد وأثف طغطاي منه وأظلم الجو بينهما واجتمع أعيان الدولة إلى نوغية فكان يوغر صدرهم على طغطاي وأصهر إلى طاز بن منجك منهم بانيته فسار إليه ولقيه نوغية فهزمه واعترضه نهر مل ففرق كثير من عساكره ورجع نوغية عن اتباعه واستولى على بلاد الشمال وأقطع سبطه قراجا بن طشتمر سنة ثمان وسبعين مدينة القرم وسار إليها لقبض أموالها فأضافوه وبيتوه وقتلوه من ليلته.

وبعث نوغية العساكر إلى القرم فاستباحوها وما يجاورها من القرى والضياع وخرب سائرها وكان نوغية كثير الإيثار لأصحابه فلما استبد بأمره أثر ولده على الأمراء الذين معه وأحسوا عليهم وكان رديفه من ملك المغل أياجي بن قرمش وأخوه قراجا فلما أثر ولده عليهما نزعا إلى طغطاي في قومهما وسار ولد نوغية في اتباعهما فرجع بعضهم واستمر الباقون وقتل ولد نوغية من رجع معه من أصحاب أياجي وقراجا وولدهم فامتعض لذلك أمراء المغل الذين معه ولحقوا بطغطاي واستحثوه لحرب نوغية فجمع وسار إليه سنة تسع وتسعين بكونكانك فانهزمت عساكر نوغية وولده وقتل في المعركة وحمل رأسه إلى طغطاي فقتل قاتله وقال: السوق لا تقتل الملوك.

واستبيح معسكر نوغية وبيع سباياهم وأسراهم في الأقطار وكان بمصر منهم جماعة استرقوا بها وانتظموا في ديوان جندها ولما هلك نوغية خلفه في أعماله ابنه جكك وانتفض عليه أخوه

العساكر وسار معه عسكر أهل الشمال هؤلاء وقررت لهم العلوقة بتوريز ولما مات هلاكو طلب بركة من ابنه أبغا أن يأذن له في بناء جامع تبريز ودار لنسخ الثياب والطرز فأذن له فبناها وقام بذلك ثم اصطالحوا وأعيدت فادعى بنو دوشي خان أن توريز ومراغة من أعمالهم ولم يزالوا مطالبين بهذه الدعوة فلما وقعت هذه الفتنة بين أزبك وأبي سعيد افتتح أمره بغزو موغان فبعث العساكر إليها سنة تسعة عشر فاكسحوا نواحيها ورجعوا.

وجمع جوبان على دولته وتحكمه في بني جنكزخان وأنه يأنف أن يكون براق بن ستف بن منكوفان بن جفطاي ملكاً على خوارزم فأغراه أزبك فملك خراسان وأمدّه بالعساكر مع نائبه قطلنمر وسار سيول لذلك وبعث أبو سعيد نائبه جوبان لمداغتهما فلم يطق وغلب سيول على كثير من خراسان وصالحه جوبان عليها وهلك سيول سنة عشرين ثم عزل أزبك نائبه قطلنمر سنة إحدى وعشرين وولي مكانه عيسى كوكز ثم رد سنة أربع وعشرين إلى نيابته.

ولم تزل الحرب متصلة بين أزبك وأبي سعيد إلى أن هلك أبو سعيد سنة ست وثلاثين ثم هلك القان في هذه السنة ولما هلك أزبك بن طغرلجاي ولي مكانه ابنه جاني بك وكان أبو سعيد قد هلك قبله كما قلنا ولم يعقب وولي مكانه على العراق الشيخ حسن من أسباط أبغا بن هلاكو وافترق الملك في عمالاتهم طوائف وردد جاني بك العساكر إلى خراسان إلى أن ملكها سنة ثمان وخمسين ثم زحف إلى أذربيجان وتوريز وكان قد غلب عليها الشيخ الصغير ابن دمرداش بن جوبان وأخوه الأشرف من بعده كما يذكر في أخبارهم إن شاء الله تعالى فزحف جاني بك في العساكر إلى أذربيجان بتلك المطالبة التي كان سلفه يدعون بها فقتل الأشرف واستولى على توريز وأذربيجان وانكفأ راجعاً إلى خوزستان بعد أن ولي على توريز ابنه برديك واعتل جاني بك في طريقه ومات.

برديك بن جاني

ولما اعتل جاني في ذهابه من توريز إلى خراسان طير أهل الدولة الخبر إلى ابنه برديك وقد استخلفه في توريز فولي عليها أميراً من قبله وأغذ السير إلى قومه ووصل إلى صراي وقد هلك أبوه جاني فولوه مكانه واستقل بالدولة وهلك لثلاث سنين من ملكه.

فقتله فاستوحش لذلك أصحابه وأجمعوا الفتك به وتولى ذلك نائبه طغرلجاي وصهره على أخته طاز بن منجك ونفي الخبر بذلك إليه وهو في بلاد اللاز والروس غازياً فهرب ولحق بيلاده ثم لحق به عسكره فعاد إلى حربهم وغلبهم على البلاد ثم أمدّهما طفطاي على جكا بن نوغيتة فانهمزم ولحق بيلاد وألاق وحاول الامتناع ببعض القلاع من بلاد ألاق وفيها صهره فقبض عليه صاحب القلعة واستخدم بها الطفطاي فأمره بقتله سنة إحدى وسبعمئة ونجا أخوه طراي وابنه فراكسك شريدين وخلا الجو لطفطاي من المنازعين والمخالفين واستقرت في الدولة قدمه وقسم أعماله بين أخيه صراي بغا وبين ابنه.

وأنزل منكلي بغا من ابنه في عمل نهر طنا عما يلي باب الحديد ثم رجع صراي بن نوغيتة من مفره واستدّم بصراي بغا أخي طفطاي فأدّمه وأقام عنده فلما أنس به كشف له القناع عما في صدره واستهواه للانتقاض على أخيه طفطاي وكان أخوهما أزبك أكبر منه وكان مقيماً عند طفطاي فركب إليه صراي بغا ليفاوضه في الشأن فاستعظمه واطلع عليه أخاهما طفطاي فأمره لوقته بإحضار أخيه صراي بغا وصراي بن نوغيتة وقتلها واستضاف عمل أخيه صراي بغا لابنه أيل بهادر ثم بعث في طلب فراكسك بن نوغيتة فأبعد في ناحية الشمال واستدّم ببعض الملوك هنالك ثم هلك سنة تسع وسبعمئة أخوه لذلك وابنه إسل بهادر وهلك طفطاي بعدهما سنة اثني عشرة والله تعالى أعلم.

أزبك بن طغرلجاي بن منكوتر

ولما هلك طفطاي بايع نائبه قطلنمر لأزبك ابن أخيه طغرلجاي بإشارة الخاتون توفالون زوج أبيه طغرلجاي وعاهده على الإسلام فأسلم واتخذ مسجداً للصلاة وأنكر عليه بعض أمرائه فقتله وتزوج الخاتون بثالون وكانت الموصلة بين طفطاي وبين ملوك مصر ومات طفطاي ورسله عند الملك الناصر محمد بن قلاوون فرجعوا إلى أزبك مكرمين وجدد أزبك الولاية معه وحببه قطلنمر في بعض كرائمهم برغيه وعين له بنت بذلك أخي طغطان وتكررت الرسالة في ذلك إلى أن تم الأمر وبعثوا بكرميتهم المخطوبة إلى مصر فعقد عليها الناصر وبنى بها كما مر في أخباره ثم حدثت الفتنة بين أزبك وبين أبي سعيد ملك التتر بالعراق من بني هلاكو وبعث أزبك عساكره إلى أذربيجان.

وكان بنو دوشي يدعون أن توريز ومراغة لهم وأن القان لما بعث هلاكو لغزو بلاد الإسماعيلية وفتح بغداد استكثر من

ماماي المتغلب على مملكة هراي

ولما هلك بردبيك خلف ابنه طغتمش غلاماً صغيراً وكانت اخته بنت بردبيك تحت كبير من أمراء المغل اسمه ماماي وكان متحكماً في دولته وكانت مدينة القرم من ولايته وكان يومئذ غائباً بها وكان جماعة من أمراء المغل متفرقين في ولايات الأعمال بنواحي صراي ففرقوا الكلمة واستبدوا بأعمالهم فتغلب حاجي شرکس على ناحية منج طرخان وتغلب أهل خان على عمله وأيبك خان كذلك؛ وكانوا كلهم يسمون أمراء المسيرة فلما هلك بردبيك وانقرضت الدولة واستبد هؤلاء في النواحي خرج ماماي إلى القرم ونصب صيباً من ولد أزيك القان اسمه عبد الله وزحف به إلى صراي فهرب منها طغتمش ولحق بمملكة أرض خان في ناحية جبال خوارزم إلى مملكة بني جغتاي بن جنكزخان في سمرقند وما وراء النهر والمتغلب عليها يومئذ السلطان قمر من أمراء المغل وقد نصب صيباً منهم اسمه عمود أو طغتمش وتزوج أمه واستبد عليه فأقام طغتمش هناك.

ثم تنافس الأمراء المتغلبون على أعمال صراي وزحف حاجي شرکس صاحب عمل منج طرخان إلى ماماي فغلبه على صراي فملكها من يده وسار ماماي إلى القرم فاستبد بها ولما زحف حاجي شرکس من عمله بعث أرض خان عساكره من نواحي خوارزم فحاصروا منج طرخان وبعث حاجي العساكر إليهم مع بعض أمراءه فأعمل الحيلة حتى هزمهم عن منج طرخان وفكك بهم وبالأمر الذي يقودهم وشغل حاجي شرکس بتلك الفتنة فزحف إليه أيبك خان وملك صراي من يده واستبد بها أياماً ثم هلك وولي بعده بصراي ابنه قاريخان ثم زحف إليه أرض خان من جبال خوارزم فغلبه على صراي وهرب قاريخان بن أيبك خان وعادوا إلى عملهم الأول واستقر أرض خان بصراي وماماي بالقرم ما بينه وبين صراي في مملكته وكان هذا في حدود أعوام ستة ست وسبعين وطفتمش في خلال ذلك مقيم عند السلطان قمر فيما وراء النهر.

ثم طمحت نفس طغتمش إلى ملك آبائه بصراي فجهز معه السلطان قمر العساكر وسار بها فلما بلغ جبال خوارزم اعترضه هناك عساكر أرض خان فقاتلوه وانهزم ورجع إلى قمر ثم هلك أرض خان قريباً من منتصف تلك السنة فخرج السلطان قمر بالعساكر مع طغتمش مدداً له إلى حدود عمله ورجع واستمر طغتمش فاستولى على أعمال أرض خان بجبال خوارزم ثم سار إلى صراي وبها عمال أرض خان فملكها من أيديهم واسترجع ما

تغلب عليه ماماي من ضواحيها وملك أعمال حاجي شرکس في منج طرخان واستنزع جميع ما كان بأيدي المتغلبين وعما أثرهم وسار إلى ماماي بالقرم فهرب أمامه ولم يوقف على خبره ثم صح الخبر بمهلكه من بعد ذلك واستوسق الملك بصراي وأعمالها لطفتمش بن بردبيك كما كان لقومه.

حروب السلطان قمر مع طغتمش صاحب

صراي

قد ذكرنا فيما مر ظهور هذا السلطان قمر في دولة بني جغتاي وكيف أجاز من بخارى وسمرقند إلى خراسان أعوام أربعة وثمانين وسبعمائة فنزل على هراة وبها ملك من بقايا الغورية فحاصرها وملكها من يده ثم زحف إلى مازندران وبها الشيخ ولي تغلب عليها بعد بني هلاكو فطالت حروبه معه إلى أن غلبه عليها ولحق الشيخ ولي بتوريز في فل من أهل دولته ثم طوى قمر الماليك طياً وزحف إلى أصفهان فآثاه ابن المظفر بها طاعته ثم إلى توريز سنة سبع وثمانين فملكها وخر بها وكان قد زحف قبلها إلى دست القفجاق بصراي فملكها من يد طغتمش وأخرجه عنها فأقام بأطراف الأعمال حتى أجاز قمر إلى أصفهان فرجع إلى كرسيه وكان للسلطان قمر قريع في قومه يعرف بقمر الدين فراسله طغتمش صاحب صراي وأغراه بالانتقاض على قمر وأمدّه بالأموال والعساكر فعاث في تلك البلاد وبلغ خبره إلى قمر منصرفه من فتحه فكر راجعاً وعظمت حروبه مع قمر الدين إلى أن غلبه وحسم عنته وصرف وجهه إلى شأنه الأول وقرر الزحف إلى طغتمش وسار طغتمش للقائه ومعه إعلان بلاط من أهل بيته فداخله قمر وجماعة الأمراء معه واستراب بهم طغتمش وقد حان اللقاء وتضافحوا للحرب فصد من ناحية من عسكر قمر وصد من لقي فيها وتبدد عياله وافترق الأمراء الذين داخلوا قمر وساروا إلى الثغور فاستولوا عليها.

وجاء طغتمش إلى صراي فاسترجعها وهرب إعلان بلاط إلى القرم فملكها وزحف إليه طغتمش في العساكر فحاصرها وخالفه أرض خان إلى صراي فملكها فرجع طغتمش وانتزعها من يده ولم تزل عساكره تختلف إلى القرم وتعاهدا بالحصار إلى أن ملكها وظفر بأعلان بلاط فقتله وكان السلطان قمر بعد فراغه من حروبه مع طغتمش سار إلى أصفهان فملكها أيضاً واستوعب ملوك بني المظفر وعاملهم بالقتل وانتظم له أعمالهم جميعاً في مملكته ثم زحف إلى بغداد فملكها من يد أحمد بن أويس سنة خمس

وتسعين كما مر ذكره.

ولحق أحمد بالسلطان الظاهر صاحب مصر مستصرخاً به فخرج معه في العساكر وانتهى إلى الفرات وقد سار عمر عن بغداد إلى ماردين فحاصرها وملكها وامتنتع عليه قلعها فعاج من هنالك إلى حصون الأكراد ثم إلى بلاد الأرمن ثم إلى بلاد الروم.

وبعث السلطان الظاهر صاحب مصر العساكر مدداً لابن أريس فسار إلى بغداد وبها شردمة من عسكر تمر فملكها من أيديهم ورجع الملك الظاهر إلى مصر وقد أظل الشتاء ورجع تمر إلى نواحي أعماله فأقام في عمل قراباق ما بين أذربيجان وهمدان والأبواب ثم بلغ الخبر إلى تمر فسار من مكانه ذلك إلى عمارية طغتمش وعميت أنبأوه مدة ثم بلغ الخبر آخر سنة سبع وتسعين إلى السلطان بأن تمر ظفر بطغتمش وقتله واستولى على سائر أعماله والله غالب على أمره انتهى.

ملوك غزنة وباميان من بني دوشي خان

كانت أعمال غزنة وباميان هذه قد صارت لدوشي خان وهي من أعمال ما وراء النهر من جانب الجنوب وتتأخم سجستان وبلاد الهند وكانت في مملكة بني خوارزم شاه فملكها التتر لأول خروجهم من أيديهم وملكها جنكزخان لابنه دوشي خان وصارت لابنه أردنو ثم لابنه أنبجي بن أردنو وهلك على رأس المائة السابعة وخلف من الولد بيان وكبك ومنغطاي وانقسمت الأعمال بينهم وكان كبيرهم بيان في غزنة وقام بالملك بعد أنبجي ابنه كبك وانتقض عليه أخوه بيان واستمد بطغطاي صاحب صراي فأمدته بأخيه بذلك واستجد كبك بقتدو فأمدته ولم يغن عنه وانهمز ومات سنة تسع وسبعمائة واستولى بيان على الأعمال وأقام بغزنة وزحف إليه قوشناي ابن أخيه كبك واستمد بقتدو وغلب عمه على غزنة ولحق بيان بطغطاي واستقر قوشناي بغزنة ويقال: إن الذي غلب عليها إنما هو أخوه طغطاي ولم تغف بعد على شيء من أخبارهم والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

دولة بني هلاكو ملوك التتر كفور بن

وخراسان ومبادي أمورهم وتصاريق

أحوالهم

قد تقدم لنا أن جنكزخان عهد بالتخت وهو كرسي الملك بقرقوم لابنه أوكداي ثم ورثه من بعده كغودين أوكداي وأن

الفتنة وقعت بينه وبين صاحب الشمال من بني جنكزخان وهو ناظو بن دوشي خان صاحب التخت بصراي وسار إليه في جموع المغل والتتر وهلك في طريقه وسلم المغل الذين معه التخت لناظو فامتنع من مباشرته بنفسه وبعث إليه أخاه منكوفان وبعث معه بالعساكر أخويه الآخرين قبلاني وهلاكو ومعهما أخوهما بركة ليجلسه على التخت فأجلسه سنة خمسين وذكرنا سبب إسلام بركة عند مرجعه وأن منكوفان استقل بالتخت وولى بني جفطاي بن جنكزخان على بلاد ما وراء النهر إمضاء لوصية جنكزخان وبعث أخاه هلاكو لتدريخ عراق العجم وقلع الإسماعيلية ويسمون الملاحدة والاستيلاء على ممالك الخليفة.

هلاكو بن طولي

ولما بعث منكوفان أخاه إلى العراق فسار لذلك سنة اثنتين وخمسين وستمائة وفتح الكثير من قلاعهم وضيق بالحصار تخفهم وولى خلال ذلك في كرسي صراي بالشمال بركة بن ناظو بن دوشي خان فحدثت الفتنة بينه وبين هلاكو ونشأت من الفتنة الحرب وسار بركة ومعهم نوغان بن ططر بن مغل بن دوشي خان والتقوا على نهر نول وقد جمد ماؤه لشدة البرد وانخسف من تحته فانهزم هلاكو وهلك عامة عسكره وقد ذكرنا أسباب الفتنة بينهما ثم رجع هلاكو إلى بلاد الإسماعيلية وقصد قلعة الموت وبها صاحبها علاء الدين قبلغه في طريقه وصية من ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب إربل يستحثه للمسير إلى بغداد ويسهل عليه أمرها لما كان ابن العلقمي رافضياً هو وأهل محلته بالكرخ وتعصب عليهم أهل السنة وتمسكوا بأن الخليفة والدوادار بظاهارونهم وأوقعوا بأهل الكرخ.

وغضب لذلك ابن العلقمي ودس إلى ابن الصلايا بإربل وكان صديقاً له بأن يستحث التتر لملك بغداد وأسقط عامة الجند بموه بأئنه يصانع التتر بعبائهم وسار هلاكو والتتر إلى بغداد واستقر بنحو مقدم التتر ببلاد الروم فيمن كان معه من العساكر فامتنع أولاً ثم أجاب وسار إليه.

ولما أطل هلاكو على بغداد في عساكره برز للقائه أيك الدوادار في عساكر المسلمين فهزموا عساكر التتر ثم تراجع التتر فهزموهم واعتزضهم دون بغداد بثوق انبثقت في ليلتهم تلك من دجلة فحالت دونها فقتلوا أجمعين وهلك أيك الدوادار وأسر الأمراء الذين معه ورجعوا إلى البلد فحاصروها مدة ثم استأمن ابن العلقمي للمستعصم ونفسه آملاً بأن هلاكو يستبقه فخرج

إليه في موكب من الأعيان وذلك في محرم سنة ست وخمسين.

وقض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تحافياً عن سفك دمه بزعمهم ويقال: أن الذي أحصى فيها من القتلى ألف ألف وثلاثمائة ألف واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يحصره العدد والضبط والقيت كتب العلم التي كانت في خزائنهم بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن واعتزم هلاكو على إضرام بيوتها ناراً فلم يوافق أهله مملكته واستيقى ابنه العلقمي على الوزارة ولربية ساقطة عندهم فلم يكن قصارى أمره إلا الكلام في الدخول والخروج متصرفاً من تحت آخر أقرب إلى هلاكو منه فبقى على ذلك مدة ثم إضطرب وقته هلاكو.

ثم بعث هلاكو بعد فتح بغداد بالعساكر إلى ميفارقين وبها الكامل محمد بن غازي بن العادل فحاصروها سنين حتى جهد الحصار أهلها ثم اقتحموها عنوة واستلحموا حاميتها ثم بعث إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ابنه ركن الدين إسماعيل بالطاعة والهدية فقبله وبعثه إلى القان الأعظم منكوفان بقراقوم وأبطاً على لؤلؤ خبره فبعث بالولدين الآخرين شمس الدين إسحاق وعلاء الدين بهدية أخرى ورجعوا إليه بخبر ابنه وقرب إيا به فتوجه لؤلؤ بنفسه إلى هلاكو ولقيه بأذربيجان وحضر حصار ميفارقين وجاءه ابنه ركن الدين من عند منكوفان بولاية الموصل وأعمالها.

ثم هلك سنة سبع وخمسين وولي ابنه ركن الدين إسماعيل ويلقب الصالح وبعث هلاكو عسكراً إلى إربل فحاصرها ستة أشهر وامتنعت فأفرجت عنها العساكر فاغتنم ابن الصلايا الفرصة ونزل عنها لشرف الدين الكردي ولحق بهلاكوه فقتله وكان صاحب الشام يومئذ الناصر بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين فلما بلغه استيلاء هلاكو على بغداد بعث إليه ابنه بالهدايا والمصانعة والعذر عن الوصول بنفسه لكان الإفرنج من سواحل الشام يقبل هديته وعذره ورجع ابنه بالمواعيد ولم يتم هلاكوه الاستيلاء على الجزيرة وديار بكر وديار ربيعة وانتهى ملكه إلى الفرات وتاخم الشام وعبر الفرات سنة ثمان وخمسين فملك البيرة ووجد بها السعيد أخا الناصر بن العزيز معتقلاً فأطلقه وردّه إلى عمله بالضبيّة وبانياس.

ثم سار إلى حلب فحاصرها مدة ثم ملكها ومنّ عليه وأطلقه ووجد بها المعتقلين من البحرية عماليك الصالح أيوب الذين حبسهم الناصر وهم سنقر الأشقر وتكز وغيرهما فأطلقهم وكان معهم أمير من أكابر القفجاق لحق به واستخدم له وجعلهم معه وولى على البلاد التي ملكها من الشام ثم جهز العساكر إلى

دمشق وارتحل الناصر إلى مصر ورجع عنه الصالح بن الأشرف صاحب حمص إلى هلاكو فولاه دمشق وجعل نوابه بها لظنه وبلغ الناصر إلى هلاكو ثم استوحش الخليفة من قطز سلطان مصر لما كان بينهما من الفتنة فخرج إلى هلاكو فاقبل عليه واستشاره في أنزال الكتائب بالشام فسهل له الأمر في عساكر مصر ورجع إلى رأيه في ذلك وترك نائبه كتبغا من أمراء التتر في خوف من الجنود فبعث كتبغا إلى سلطان مصر وأساء رسله بمجلس السلطان في الخطاب بطلب الطاعة قتلهم وسار إلى الشام فلقى كتبغا بعين جالوت فانهزمت عساكر التتر وقتل كتبغا أميرهم والسعيد صاحب الضبيّة أخو الناصر كان حاضراً مع التتر فقبض عليه وقتل صبراً.

ثم بعث هلاكو العساكر إلى البيرة والسعيد بن لؤلؤ على حلب ومعه طائفة من العساكر فبعث بعضهم لمداغة التتر فانهزموا وحتى الأمراء على السعيد بسبب ذلك وحسوه وولوا عليهم حسام الدين الجوكندار وزحف التتر إلى حلب فأجفل عنها واجتمع مع صاحبها المنصور على حمص وزحفوا إلى التتر فهزموهم وسار التتر إلى أفاية فحاصروها وهابوا ما وراءها وارتحلوا إلى بلادهم وبلغ الخبر إلى هلاكو فقتل الناصر صاحب دمشق لانهما إياه فيما أشار به من الاستهانة بأهل مصر وكان هلاكو لما فتح الشام سنة ثمان وخمسين بلغه مهلك أخيه القان الأعظم منكوفان في مسيره إلى غزو بلاد الخطا فظمع في القانية ويادر لذلك فوجد أخاه قبلاي قد استقل فيها بعد حروب بدت بينه وبين أخيه أزيك تقدم ذكرها في أخبار القان الأعظم فشغل بذلك عن أمر الشام ثم لما يش من القانية قنع بما حصل عنده من الأقاليم والأعمال ورجع إلى بلاده والأقاليم التي حصلت بيده إقليم خراسان كرسية نيسابور ومن مدنه طوس وهراة وترمز وبلخ همدان ونهوند وكنجة وعراق العجم كرسية أصفهان ومن مدنه قزوین وقم وقاشان وشهرزور وسجستان وطبرستان وطلان وبلاد الإسماعيلية، وعراق العرب كرسية بغداد ومن مدنه الدينور والكوفة والبصرة أذربيجان وكرسية توريز ومن مدنه حران وسلماس وقفجاق خوزستان كرسيةا شستر ومن مدنها الأهواز وغيرها فارس كرسيةا شیراز ومن مدنها كش ونعمان وعمل رزون والبحرين ديار بكر كرسيةا الموصل ومن مدنها ميفارقين ونصيبين وسنجار واسعد وديس وحران والرها وجزيرة ابن عمر بلاد الروم كرسيةا قونية ومن مدنها ملطية وأقصرا وأورنكار وسيواس وأنطاكية والعلايا.

ثم أجلاه أحمد الحاكم خليفة مصر فزحف إلى بغداد وهذا

لأحد من عسكر البروانة أنه صرع فاتهمه وبعث عنه بعد مرجعه فقتله.

ثم سار أبغا سنة ثمانين وعبر الفرات ونازل الرحبة وبعث إلى صاحب ماردين فتزل معه هناك وكان منكوتغر ابن أخيه بركة ملك صراي فسار بعساكره من المغل وحشود الكرج والأرمن والروم ومر بقيسارية وأبلسين وأجاز الدربند إلى الرحبة فنازلها وبعث أبغا إليه بالعساكر مع أخيه منكوتغر بن هلاكو وأقام هو على الرحبة وزحف الظاهر من مصر في عساكر المسلمين فلقبهم التتر على حمص وانهزم التتر هزيمة شنعاء هلك فيها عامة عساكرهم وأجفل أبغا من حصار الرحبة وهلك أخوه منكوتغر بن هلاكو مرجعه من تلك الواقعة يقال: مسموماً وأنه مر ببعض أمرائه مجزيرة تسمى مومواغا كان يضطغن له بعض الفعلات فسقاها سماً عند مروره به وهرب إلى مصر فلم يدركوه وأنهم قتلوا أبناءه ونساءه ثم هلك أبغا سنة إحدى وثمانين بعدها ويقال: مسموماً أيضاً على يد وزيره صاحب شمس الدين الجوني مشير دولته وكبيرها حمله الخوف على ذلك واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

تكدار بن هلاكو ويسمى أحمد

ولما توفي أبغا كما ذكرناه وكان ابنه أرغو غائباً بخراسان فبايع المغل لأخيه تكدار فأسلم وتسمى أحمد وخاطب بذلك الملوك لعصره وأرسل إلى مصر يخبرهم ويطلب المساعدة وجاء بذلك قاضي سيواس قطب الدين الشيرازي وأتابك بلاد الروم وابن الصاحب من وراء ماردين وكان أخوه قنقرطاي مع صمغان الشحنة فبعث تكدار عن أخيه فامتنع من الإجابة وأجاره غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم فتوعدته تكدار فخاف منه وسار هو وقنقرطاي إلى تكدار فقتل أخاه وحبس غياث الدين وولى مكانه أخاه عز الدين وأدال من صمغان الشحنة بأولاطو من أمراء المغل ثم جهز العساكر إلى خراسان لقتال أخيه أرغو فسار إليهم أرغو وكبسهم وهزمهم وقتل فيهم فسار تكدار فهزم أرغو وأسره وأئخن في عساكره وقتل اثني عشر أميراً من المغل فاستوحش أهل معسكره وكانوا يقيمون عليه إسلامه فثاروا عليه وقتلوا نائيه ثم قتلوه سنة اثنتين وثمانين وبعثوا إلى أرغو بن أبغا بطاعتهم واللّه تعالى أعلم.

الحاكم هو عم المستعصم لحق بمصر بعد الواقعة ومعه الصالح بن لؤلؤ بعد أن أزاله التتر من الموصل فنصب الظاهر بيبرس أحمد هذا في الخلافة سنة تسع وخمسين وبعثه لاسترجاع بغداد ومعه الصالح بن لؤلؤ على الموصل فلما أجازوا الفرات وقاربوا بغداد كبسهم التتر ما بين هيت وغانة فكبسوا الخليفة وفر ابن لؤلؤ وأخواه إلى الموصل فنازلهم التتر سبعة أشهر ثم اقتحموها عليهم عنوة وقتلوا الصالح وخشى الظاهر بيبرس غائلة هلاكه ثم إن بركة صاحب الشمال قد بعث إلى الظاهر سنة ستمائة وسبعين بإسلامه فجعلها الظاهر وسيلة للوصلة معه والإنجاد وأغراه بهلاكه لما بينهما من الفتنة فسار بركة لحربه وأخذ بمحجزته عن الشام ثم بعث هلاكو عساكر التتر لحصار البيرة ومعه درباي من أكابر أمراء المغل وأردفه بابنه أبغا وبعث الظاهر عساكره لإنجاد أهلها فلما أطلوا على عسكر درباي وعانينهم أجفل وترك المخيم والآلة ولحق بأبغا منهزماً فاعتقله وسخطه ثم هلك هلاكو سنة ثنتين وستين لعشر سنين من ولايته العراق واللّه أعلم.

أبغا بن هلاكو

ولما هلك هلاكو ولي مكانه ابنه أبغا وسار لأول ولايته لحرب بركة صاحب الشمال فسرّح إليه بركة العساكر مع قريه نوغاي بن ططر بن مغل بن دوشي خان ومع ستف بن منكوفان ابن جفطاي بن جنكزخان وخام ستف عن اللقاء ورجع منهزماً وأقام نوغاي فهزم أبغا وأئخن في عساكره وعظمت منزلته بذلك عند بركة.

ثم بعث سنة إحدى وسبعين عساكره مع درباي لحصار البيرة وعبر الظاهر إليهم الفرات وهزمهم وقتل أميرين مع درباي ولحق درباي بأبغا منهزماً فسخطه وأدال منه بأبطاي.

وفي سنة اثنتين وسبعين زحف أبغا إلى تكدار بن موجي بن جفطاي بن جنكزخان وكان صاحبه فاستنجد بآبن عمه براق بن ستف بن منكوفان بن جفطاي فأمدّه بنفسه وعساكره واستقر أبغا عساكر الروم وأميرهم طمقان والبروانة والنقى الجمعان ببلاد الكرج فانهمز تكدار ولبأ إلى جبل هنالك حتى استامن أبغا فامنه وعهد أن لا يركب فرساً فارها ولا يمس قوساً.

ثم نمي إلى أبغا أن الظاهر صاحب مصر سار إلى بلاد الروم فبعث العساكر إليها مع قائدتين من قواد المغل وهما تدوان وتغوا فساروا وملك الظاهر قيسارية من تخوم بلادهم وبلغ الخبر إلى أبغا فجاء بنفسه إلى موضع الهزيمة وعانين مصارع قومه ولم يسمع ذكراً

أرغو بن أبغا

سبحانه وتعالى أعلم.

قازن بن أرغو

ولما انهزم بيدو وقتل ملك على المغل مكانه قازان بن أرغو فجعل أخاه خربندا والياً على خراسان وجعل نيروز الأتابك مديراً لمملكته وسعى لأول أمره في التدبير على طرغاي من أمرائه ومواليه من المغل الذي داخل بيدو في قتل كتختاتو الذي تولى كبر ذلك فخافه طرغاي على نفسه وكان نازلاً بين بغداد والموصل فبعث إلى كتبغا العادل صاحب مصر والشام يستأذنه في اللحاق به ثم ولى قازان على ديار بكر أميراً من أشياعه اسمه مولان فهزمه وقتل الكثير من أصحابه ونجا إلى الشام وبعث كتبغا من تلقاه وجاء به إلى مصر ودخل مجلس الملك ورفع مجلسه فيها قبل أن يسلم واستقر هو وقومه الأويراتية بمصر واقطع لهم وكان ذلك داعياً إلى الفتنة بين الدولتين.

ثم قتل قازان الأتابك نيروز وذلك أنه استوحش من قازان وكتب لاشين سلطان مصر والشام المتولي بعد كتبغا وأحس نيروز بذلك فلحق بهارة مستجيراً بصاحبها وهو فخر الدين ابن شمس الدين كرت صاحب سجستان فقبض عليه فخر الدين وأسلمه إلى قطلو شاه فقتله وقتل قازان بعد ذلك أخويه ببغداد وهما حاجي ولكري وقفل السفير إليه بالكتاب من مصر ثم كان بعد ذلك مفر شلاس بن آيال بن منجو إلى مصر وكان أميراً في بلاد الروم على الطومار المحجر فيها والطومار عندهم عبارة عن مائة ألف من العساكر عن قازان فارتاب به وأرسل إلى لاشين يستأذنه في اللحاق به.

وبعث قازان العساكر إليه فقاتلوه وانفض عنه أكثر أصحابه ففر إلى مصر وترك أهله وولده وبعث معه صاحب مصر العساكر لتلقي أهله ومروا بسيس فاعترضه عساكر التتر هناك فهزموه وقتلوا أمير مصر الذي معه واعتصم هو ببعض القلاع فاستنزلوه منها وبعثوا به إلى قازان فقتله وأقام أخوه قطفطو بمصر في جملة عسكرها ونشأت بهذه كلها الفتنة بين قازان وأهل مصر ونزع إليه أمراء الشام فلحق نائب دمشق، ويكتمر نائب حلب والبكي الظاهري وعزاز الصالحي واستأربوا بسلطانهم الناصر محمد بن قلاوون فلحقوا به واستحثوه إلى الشام وسار سنة تسع وسبعين في عساكر المغل والأرمن ومعه نائبه قطلوشاه ومولي.

وجاء الملك الناصر من مصر في عساكر المسلمين ولما انتهى إلى غزة أطلع على تدبير بعض المماليك عليه من أصحاب كتبغا

ولما ثار المغل على تكدار وقتلوه وبعثوا بطاعتهم إلى أرغو فجاء وولوه أمرهم فقام بسلطانه وقتل غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم في محبة اتهمه بمداهته في قتل عمه قنقرطاي وتقبض لأول ولايته على الوزير شمس الدين الجوني وكان متهماً بأبيه وعمه فقتله وولى على وزارته سعداً اليهودي الموصلية ولقبه سعد الدولة وكان عالماً بالحكمة وولى ابنه قازان وخربندا على خراسان لنظر نيروز أتابكه. ولما فرغ من أمور ملكه وكان قد عدل عن دين الإسلام وأحب دين البراهمة من عبادة الأصنام وانتحال السحر والرياضة له ووفد عليه بعض سحرة الهند فركب له دواء لحفظ الصحة واستدامتها فأصابه منه صرع فمات سنة سبعين والله سبحانه وتعالى أعلم.

كتختاتو بن أبغا

ولما هلك أرغو بن أبغا وابناه قازان وخربندا غائبان بخراسان اجتمع المغل على أخيه كتختاتو فبايعوه وقدموه للملك ثم ساءت سيرته وأفحش في المناكر وإباحة الحرمات والتعرض للغلمان من أبنائهم وكان في عسكره بيدو بن عمر طرغاي بن هلاكو فاجتمع إليه أمراء المغل وبايعوه سراً وشعر بهم كتختاتو ففر من معسكره إلى جهة كرمان وساروا في أثره فادركوا بأعمال غاندة وقتلوه سنة ثلاث وتسعين لثلاث سنين وأشهر من ولايته والله تعالى أعلم.

بيدو بن طرغاي بن هلاكو

ولما قتل أمراء المغل كتختاتو بن أبغا وبايعوا مكانه لابن عمه بيدو بن طرغاي بن هلاكو وكان قازان بن أرغو بخراسان فصار لحرب بيدو ومعه الأتابك نيروز فلما تقاربوا للقاء تردد الناس بينهما في الصلح على أن يقيم نيروز الأتابك عند بيدو واصطلحا وعاد قازان ثم أرسل نيروز الأتابك إلى قازان يستحثه فصار من خراسان ولما بلغ الخبر إلى بيدو فاوض فيه نيروز الأتابك فقال: أنا أكفيكه فصر حتى أتى إليه فسرجه ولما وصل إلى قازان أطلعته على شأن أمراء بيدو وأنهم راغبون عنه وحرضه على المسير فامتعض لذلك بيدو وسار للقاتلهم فلما التقى الجمعان انتقض عليه أمراؤه بمداخلة نيروز فانهمز ولحق بناوحي همذان فادرك هناك وقتل سنة خمس وتسعين لثمانية أشهر من ملكه والله

فساء اعتقاده وحذف ذكر الشيخين من الخطبة ونقش أسماء الأئمة لاثني عشر على سكتة ثم أنشأ مدينة بين قزوين وهمدان وسماها السلطانية ونزلها واتخذ بها بيتاً لطيفاً بلبن الذهب والفضة وأنشأ بإزائها بستاناً جعل فيه أشجار الذهب بثمر اللؤلؤ والفصوص وأجرى اللبن والعسل أنهاراً وأسكن به الغلمان والجواري تشبيهاً له بالجنة وأفحش في التعرض لحرمات قومه ثم سار إلى الشام سنة ثلاث عشرة وعبر القرات ونزل الرحبة ورجع ثم هلك ويقال: مات مسموماً على يد بعض أمرائه سنة ست عشرة والله تعالى أعلم.

أبو سعيد بن خريندا

ولما هلك خريندا خلف ابنه أبا سعيد طفلاً صغيراً ابن ثلاث عشرة سنة فاستصغره جويان وأرسل إلى أزيك ملك الشمال بصراي يستدعيه الملك العراقي فحذره نائبه فظلم من ذلك وبايع جويان لأبي سعيد بن خريندا على صغره وبدأ أمره بقتل أبي الطيب رشيد الدولة فضل الله بن يحيى الهمداني المتهم بقتل أبيه فقتله وكان مقدماً في العلوم وسرياً في الغاية وله تاريخ جمع فيه أخبار التتر وأنسابهم وقبائلهم وكتبه مشجراً كما في كتابنا هذا وكان جويان يومتد بخراسان يقاتل عليها سيول بن براق بن ستف بن ماسان بن جفطاي صاحب خوارزم أغراه أزيك صاحب الشمال بخراسان وأمدّه بعساكره وكان جويان موافقاً له فلما هلك خريندا طمع سيول في الاستيلاء على خراسان وكاتب أمراء المغل بدولة أبي سعيد يرغبهم فاطمعوهم فسار جويان إلى الأردن ومعناه بلغتهم والمخيم.

وانتهى إلى أبي سعيد خبر أمرائه فقتل منهم أربعين ورجع جويان إلى خراسان سنة ثمان عشرة وقد استولى سيول عليها وعلى طائفة من عراق العجم وبعث إليه أزيك صاحب الشمال نائبه فظلم مدداً في العساكر فلقبهم جويان وكانت بينهم وحروب وانتزع جويان ما ملكه سيول من بلاد خراسان وصالحه على ما بقي ورجع.

ثم سار أزيك ملك الشمال إلى مراغة فأغار عليها وغنم ورجع وأتبعه جويان في العساكر فلم يدرکه وهلك سيول سنة عشرين وارتجع أبو سعيد ما كان بيده من خراسان وكان أزيك صاحب الشمال ينقم على أبي سعيد استبداد جويان عليه وتحكمه في بني جنكرخان ويجرض أهل النواحي على جويان ويتوقع له المهالك وأوصل الملوك في النواحي للمظاهرة على جويان وسلطانه

ومداخلة الأمراء الذين هاجروا من المغل إلى مملكة مصر لهم في ذلك فسبق جميعهم وارتحل إلى حمص للقاء التتر ثم سار فصبجهم بمرج المروج والتقى الجمعان وكانت الدبرة على المسلمين واستشهد منهم عدد ونجا السلطان إلى مصر وسار قازان على التتعية فملك حمص واستوعب خلف السلطان فيها ثم تقدم إلى دمشق فملك المدينة وتقدم إلى قفجاق لجباية أموالها ولحصار القلعة وبها علاء الدين سنجار المنصور فامتنع وهدم ما حولها من العمران وفيها دار السعادة التي بها أيوان الملك.

وسار قازان إلى حلب فملكها وامتعت عليه القلعة وعانت عساكره في البلاد وانتهت غاراتهم إلى غزة ولما امتنت عليه القلاع ارتحل عائداً إلى بلده وخلف قتلوشاه في عساكره لحماية البلد وحصار القلعة ويحيى بن جلال الدين لجباية الأموال وترك قفجاق على نيابة دمشق ويكتمر على نيابة حلب وحمص وحماة وكر الملك الناصر راجعاً إلى الشام بعد أن جمع العساكر وبث العطاء وأزاح العلل وعلى مقدمته سرمز الجاشنكير وسلاح كافلا مملكته فتقدموا إلى حدود الشام وأقام هو بالصالحية وأستأمن لهما قفجاق ويكتمر الثائبان بدمشق وحلب وراجعا طاعة السلطان واستولى سرمز وسلاح على الشام ورجع قتلوشاه إلى العراق.

ثم عاود قازان المسير إلى الشام سنة اثنتين وسبعين وعبر القرات ونزل على الرحبة وكاتب أهل الشام يخادعهم وقدم قتلوشاه فأغار على القدس وبها أحياء التركمان فقاتلوه ونالوا منه وتوقفوا هنالك وسار الناصر من مصر في العساكر ثالث شعبان ولقي قتلوشاه بمرج الصفر فهزمه بعد حرب شديدة وسار في اتباعهم إلى الليل فاعتصموا بجبل في طريقهم وبيات المسلمون يجرسونهم ثم تسللوا وأخذ القتل منهم كل مأخذ واعترضهم الوحل من أمامهم من بثوق بقت لهم من نهر دمشق فلم ينبج منهم أحد وقدم الفل على قازان بنواحي كيلان ومرض هنالك ومات في ذي الحجة من السنة ويقال: إنه مات أسفاً والله تعالى أعلم بالصواب.

خريندا بن أرغو

ولما هلك قازان ولي بعده أخوه خريندا وأبتدا أمره بالدخول في دين الإسلام وتسمى بمحمد وتلقب غياث الدين وأقر قتلوشاه على نيابته ثم جهزه لقتال الكرد في جبال كيلان وقتلهم فهزموه وقتلوه وولى مكانه جويان بن تدوان وأقام في سلطانه حسن الدين معظماً للخلفاء وكتب أسماءهم على سكتة ثم صحب الروافض

والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

اضطراب دولة بني هلاكو وانقسام الملك طوائف في أعمامهم وانفراد الشيخ حسن ببغداد واستيلاء بنيه معها على توريز وما كان لهم فيها من الملك والدولة وابتدائها ومصايرها

لما هلك أبو سعيد بن خربندا ملك التتر بكروسي بغداد سنة ست وثلاثين ولم يعقب نصب أمراء المغل الوزير غياث الدين وخلع أورخان ونصب للملك موسى خان من أسباطهم وقام بدولته الشيخ حسن بن حسين بن بييقا بن أملكان وهو ابن عمه السلطان أبي سعيد سبط أرغو بن أبغا أنزله أبو سعيد بقلعة كانج من بلاد الروم ووكّل به فلما هلك أبو سعيد والمحل عقاله وذهب أبو نور بن ماس عفى عليها وبلغه شأن أهل الدولة ببغداد فلم يرّضه ونهض إليها فقتل علي ماسا القائم بالدولة وعزل موسى خان الملك ونصب مكانه محمد بن عنبرجي وهو الذي تقدم في ملوك التخت صحة نسبه إلى هلاكو واستولى الشيخ حسن على بغداد وتوريز ثم سار إليه حسن بن دمرداش من مكان إمارته وإمارة أبيه ببلاد الروم وغلّبه على توريز وقتل سلطانه محمد بن عنبرجي ولحق الشيخ حسن ببغداد واستقر حسن بن دمرداش في توريز ونصب للملك أخت السلطان أبي سعيد اسمها صاليك وزوجها لسليمان خان من أسباط هلاكو واستقل بملك توريز وكان يعرف بالشيخ حسن الصغير لأن صاحب بغداد كان يشاركه في اسمه وهو آمن وأدخل في نسب الخان فميز بالكبير وميز هذا بالصغير.

ولما استقل حسن الصغير بالملك والخان عنده عجز عنه الشيخ حسن الكبير وغلّيته أمم التركمان بضواحي الموصل إلى سائر بلاد الجزيرة فيقال: إنه أرسل إلى الملك الناصر صاحب مصر بأن يملكه بغداد ويلحق به فيقيم عنده وطلب منه أن يبعث عساكره لذلك على أن يرهن فيهم ابنه فلم يتم ذلك لما اعترضه من الأحوال واقتربت ملكة بني هلاكو فكان هو ببغداد والصغير بتوريز وابن المظفر بعراق العجم وفارس والملك حسين بخراسان واستولى على أكثرها ملك الشمال أزيك صاحب التخت بصري من بني دوشي خان بن جنكزخان ثم استرحش الشيخ حسن من سلطانه سليمان خان فقتله واستبد ثم هلك الشيخ حسن الصغير

أبي سعيد حتى لقد ضاهر صاحب مصر على مثل ذلك ولم يتم الصلح لأبي سعيد معه كما مر في أخبارهم.

وجهاز أزيك العساكر سنة عشرين لحرب جويان فحاصره المديني بنهر كوزل الذي في حدود ملكهم فرجعوا ثم جهاز جيشاً آخر مع قطلقتمر نائبه وكان جويان نائب أبي سعيد قد ولى على بلاد الروم ابنه دمرداش فزحف سنة إحدى وعشرين إلى بلاد سبب واقتح منها قلعة ثلاثاً وخرّبها وبعث إلى الملك الناصر يطلب المظاهرة في جهاد الأرمن بسبب فبعث السلطان عساكره سنة اثنين وعشرين ومعهم من المتطوعة عدد وحاصروا سبب ثم انعقد الصلح سنة ثلاث وعشرين بعدها بين الملك الناصر وبين أبي سعيد واستقامت الأحوال وحج أكابر المغل من قرابة أبي سعيد ملك التتر بالعراقيين واتصلت المهاداة بينهما وسار نائبه جويان سنة خمس وعشرين إلى خراسان في العساكر وقد زحف إليه كبك بن سيول فجرت بينهما حروب وانهزم جويان واستولى كبك على خراسان.

ثم كبسه جويان فهزمه وأتخن في عساكره وغلّبه على خراسان فعادت إلى ملكة أبي سعيد وبينما جويان مشغول بتلك الفتنة والحروب في نواحي خراسان إذ بلغه الخبر بأن السلطان أبا سعيد قبض على ابنه خوا في دمشق فلما بلغه الخبر بذلك انتقض وزحف إليه أبو سعيد فاقترب عنه أصحابه ولحق بهرة فقتل بها سنة ست وعشرين وأذن أبو سعيد لولده أن ينقلوا شلوه إلى تربته التي بناها بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ونقلوه فلم يقدر دفنه بها وتوقف أمير المدينة على أذن السلطان بمصر في ذلك فدفن بالبقيع ولما بلغ خبر جويان لابنه دمرداش وهو أمير ببلاد الروم أنزعج لذلك ولحق بمصر فيمن معه من الأمراء والعساكر.

وأقبل السلطان الملك الناصر عليه وأحلّه محل التكرمة وجاءت على أثره رسل أبي سعيد يطلب حكم الله فيه لسعيه في الفساد والفتنة وأجابه السلطان إلى ذلك على أن يفعل مثل ذلك في قراسفر النازع إليهم من أمراء الشام فأضى ذلك فيهما جزاء بما قدمت أيديهما ثم تأكدت أسباب المواصله والاتحام بين هذين السلطانيين بالإصهار والمهاداة واتصل ذلك وانقطع زبون العرب وفسادهم بين المملكتين وهلك السلطان أبو سعيد سنة ست وثلاثين ولم يعقب ودفن بالسلطانية واختلف أهل دولته وانقرض الملك من بني هلاكو واقتربت الأعمال التي كانت في ملكهم وأصبحت طوائف في خراسان وفي عراق العجم وفارس وفي أذربيجان كله في عراق العرب وفي بلاد الروم كما نذكر ذلك

مقتل إسماعيل واستيلاء حسين على بغداد ثم ارتجاعها منه

كان إسماعيل مستبداً على الشيخ علي ببغداد كما قدمناه فتوثب به جماعة من أهل الدولة منهم مبارك شاه وقنبر وقرا محمد فقتلوه وعنه أمير أحمد متصف إحدى وثمانين واستدعوا قنبر علي بآدك من تستر فولوه مكان إسماعيل واستبد علي الشيخ علي ببغداد ونكر حسين عليهم ما آتوه وسار في عساكره من توريز إلى بغداد فارقه الشيخ علي وقنبر علي بآدك إلى تستر واستولى حسين على بغداد واستمده فاتهمه بمالأة أخيه الشيخ علي ولم يمه ونهض الشيخ علي من تستر إلى واسط وجمع العرب من عبادان والجزيرة فأجفل أحمد من واسط إلى بغداد وسار الشيخ علي في أثره فأجفل حسين إلى توريز واستوسق ملك بغداد للشيخ علي واستقر كل ببلده والله تعالى أعلم.

انتقاض أحمد واستيلاؤه على توريز ومقتل

حسين

ولما رجع حسين من بغداد إلى توريز عكف على لذاته وشغل بلهوه واستوحش منه أخوه أحمد فلحق بأردبيل وبها الشيخ صدر الدين واجتمع إليه من العساكر ثلاثة آلاف أو يزيدون فسار إلى توريز وطرقها على حين غفلة فملكها واختفى حسين إياماً ثم قبض عليه أحمد وقتله والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

انتقاض عادل ومسيره لقتال أحمد

كان الأمير عادل والياً على السلطانية وكانت من أقطاعه فلما بلغه مقتل حسين امتعض له وكان عنده أبو يزيد بن أويس فساروا إلى شجاع بن المظفر اليزدي صاحب فارس يستصرخانه على الأمير أحمد بن أويس فبعث العساكر لصريحهما وبرز الأمير أحمد للقائهم ثم تقاربا واتفقوا أن يستقر أبو يزيد في السلطانية أميراً ويخرج الأمير عادل عن مملكتهما ويقيم عند شجاع بفارس واصطلحوا على ذلك وعاد أبو يزيد إلى السلطانية فأقام بها وأضر أمراؤه وخاصته بالرعايا فندسوا الصريح إلى أحمد بتوريز فسار في العساكر إليه وقبض عليه وكحله وتوفي بعد ذلك ببغداد.

بن دمرdash بتوريز سنة أربع وأربعين وملك مكانه أخوه الأشرف ثم هلك الشيخ حسن الكبير ببغداد سنة سبع وخمسين والله تعالى أعلم.

أويس بن الشيخ حسن

ولما هلك الشيخ حسن الكبير ببغداد ولي مكانه ابنه أويس وكان بتوريز الأشرف بن دمرdash فزحف إليه ملك الشمال جاني بك بن أربك سنة ثمان وخمسين وملكها من يده ورجع إلى خراسان بعد أن استخلف عليها ابنه واعتقل في طريقه فكتب أهل الدولة إلى ابنه بردبيك يستحثونه للملك فأغذ السير إليهم وترك بتوريز عاملها أنخبجوخ فسار إليه أويس صاحب بغداد وغلبه عليها وملكها ثم ارتجاعها منه أنخبجوخ وأقام بها فزحف إليه ابن المظفر صاحب أصفهان وملكها من يده وقتله وانتظم في ملكه عراق العجم وتوريز وتستر وخوزستان ثم سار أويس فاتزعها من يد ابن المظفر واستقرت في ملكه ورجع إلى بغداد وجلس على التخت واستفحل أمره ثم هلك سنة ست وسبعين حسين بن أويس وقد خلف بنين خمسة وهم الشيخ حسن وحسين والشيخ علي وأبو يزيد وأحمد وكان وزيره زكريا وكبير دولته الأمير عادل كان كافلاً لحسين ومن أقطاعه السلطاني فاجتمع أهل الدولة وبابعاو لابنه حسين بتوريز وقتلوا الشيخ حسن وزعموا أن أباهم أويساً أوصاهم بقتله.

وكان الشيخ علي بن أويس ببغداد فدخل في طاعة أخيه حسين وكان قنبر علي بآدك من أمرائهم نائباً بتستر وخوزستان فبايع لحسين وبعث إليه بطاعته واستولى على دولته بتوريز زكريا وزير أبيه وكان إسماعيل ابن الوزير زكريا بالشام هارباً أمام أويس فقدم على أبيه زكريا وبعث إلى بغداد ليقوم بخدمة الشيخ علي فاستخلصه واستبد عليه فغلب شجاع بن المظفر على توريز وارتجاعها منه ولما استقل حسين بتوريز كان بنو المظفر طامعين في ولايتها وقد ملكوها من قبل كما مر وانتزعها أويس منهم فلما توفي أويس سار شجاع إلى توريز في عساكره فأجفل عنها حسين بن أويس إلى بغداد واستولى عليها شجاع ولحق حسين بأخيه الشيخ علي ووزيره إسماعيل ببغداد مستجيشاً بهما فسرخوا معه العساكر ورجع أدراجه إليها فهرب عنها شجاع إلى خوزستان وحسن ملكه بها واستقر فيها.

مقتل الشيخ علي واستيلاء أحمد علي بغداد

لما قتل أحمد أخاه حسيناً جمع الشيخ علي العساكر واستنفر قرا محمد أمير التركمان بالجزيرة وسار من بغداد يريد توريز فيبرز أحمد للقائه واستطرد له لما كان منه فبالغ في اتباعه إلى أن خفت عساكره فكر مستميتاً وكانت جولة أصيب فيها الشيخ علي بسهم فمات وأسر قرا محمد فقتل ورجع أحمد إلى توريز واستوسق له ملكها ونهض إليه عادل بن السلطان أبي سعيد يروم فرصة فيه فهزمه ثم سار أحمد إلى بغداد وقد كان استبد بها بعد مهلك الشيخ علي خوارجاً عبد الملك من صنائعهم بدعوة أحمد ثم قام الأمير عادل في السلطانية بدعوة أبي يزيد وبعث إلى بغداد قائداً اسمه برسق ليقيم بها دعوته فأطاعه عبد الملك وأدخله إلى بغداد ثم قتله برسق ثاني يوم دخوله واضطرب البلد شهراً.

ثم وصل أحمد من توريز وخرج برسق القائد لمداغته فانهزم وحيى به إلى أحمد أسيراً فحبسه ثم قتله وقتل عادل بعد ذلك وكفى أحمد شره وانتظمت في ملكه توريز وبغداد وتستر والسلطانية وما إليها واستوسق أمره فيها ثم انتقض عليه أهل دولته سنة ست وثمانين وسار بعضهم إلى ثمر سلطان بني جفطاي بعد أن خرج من وراء النهر بملكه يومئذ واستولى على خراسان فاستصرخه على أحمد فأجاب صريخه وبعث معه العساكر إلى توريز فأجفل عنها أحمد إلى بغداد واستبد بها ذلك الثائر ورجع ثمر إلى مملكته الأولى وطمع فطمع ملك الشمال من بني دوشي خان في انتزاع توريز من يد ذلك الثائر فسار إليها وملكها، وزحف ثمر في عساكره سنة سبع وثمانين إلى أصفهان وبعث العساكر إلى توريز فاستباحها وخربها واستولى على تستر والسلطانية وانتظمهما في أعماله وانفرد أحمد ببغداد وأقام بها.

استيلاء ثمر علي بغداد ولحاق أحمد بالشام

كان ثمر سلطان المغل بعد أن استولى على توريز خرج عليه خارج من قومه في بلاده يعرف بقمز الدين فجاءه الخبر عنه وأن طغتمش صاحب كرسي صراي في الشمال أمده بأمواله وعساكره فكر راجعاً من أصفهان إلى بلاده وعميت أنبأؤه إلى سنة خمس وسبعين ثم جاءت الأخبار بأنه غلب قمرالدين الخارج عليه ومحا أثر فسادته ثم استولى على كرسي صراي وأعمالها ثم خطى إلى أصفهان وعراق العجم والري وفارس وكرمان فملك جميعها من بني المظفر اليزدي بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم

وشد أحمد ببغداد عزائمه وجمع عساكره وأخذ في الاستعداد ثم عدل إلى مصانعه ومهاداته فلم يغن ذلك عنه وما زال ثمر يخادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزمه وافترت عساكره فنهض إليه يغذ السير في غفلة منه حتى انتهى إلى دجلة وسبق النذير إلى أحمد فأسرى بغلس ليلة وحمل ما أقلته الرواحل من أمواله وذخائره وخرق سفن دجلة ومر بنهر الحلة فقطعه وصبح مشهد علي.

ووافي ثمر وعساكره دجلة في حادي عشر شوال سنة خمس وتسعين ولم يجد السفن فالتحتم بعساكره النهر ودخل بغداد واستولى عليها وبعث العساكر في إتباع أحمد فساروا إلى الحلة وقد قطع جسرهما فخاضوا النهر عندها وأدركوا أحمد بمشهد علي واستولوا على أثقاله ورواحله فكر عليهم في جموعه واستماتوا وقتل الأمير الذي كان في اتباعه ورجع بقية التتر عنهم ونجا أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وطالع نائبها السلطان بأمره فسرح بعض خواصه لتلقيه بالنفقات والأزواد وليستقدمه فقدم به إلى حلب وأراح بها وطرقه مرض أبطأ به عن مصر.

وجاءت الأخبار بأن ثمر عاث في خلفه واستصفى ذخائره واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة وأقفرت جوانب بغداد من العيث ثم قدم أحمد بن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوه فأجاب السلطان صريخه ونادى في عسكره بالتجهز إلى الشام وقد كان ثمر بعدما استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت مأوى المخالفين وعش الحراية ورصد السابلة وأناخ عليها بجموعه أربعين فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم ثم خربها وأقفرها وانتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها ووقفوا عليها ساعة من نهر فملكوها وانتسقوا نعمها وبلغ الخبر إلى السلطان فخيم بالزيدانية أياماً أزاح فيها علل عساكره وأفاض العطاء في مماليكه واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند واستخلف على القاهرة النائب سردون وارتمل إلى الشام على التعبية ومعه أحمد بن أويس بعد أن كفاه مهمه وشرب النفقات في تابعه وجنده ودخل دمشق آخر جمادى الأولى.

وقد كان أوعز إلى جليان صاحب حلب بالخروج إلى الفرات واستنفر العرب والتركمان للإقامة هناك رصداً للعدو فلما وصل إلى دمشق وفد عليه جليان وطالعه بمهماته وما عنده من أخبار القوم ورجع لإتفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه وبعث السلطان على أثره العساكر مدداً له مع كمشيقا الأتابك وتكتمش أمير سلاح وأحمد بن بيقا وكان العدو ثمر قد شغل

وتولى ذلك شجاع وسار إليه محمود من أصفهان بعد أن استجاش بأويس بن حسن الكبير فأمدّه بالعتاك سنة خمس وستين وملك شیراز ولحق شجاع بكرمان من أعماله وأقام بها واختلف عليه عمله ثم استقاموا على طاعته ثم جمع بعد ثلاث سنين ورجع إلى شیراز ففارقها أخوه محمد إلى أصفهان وأقام بها إلى أن هلك سن ست وسبعين فاستضافها شجاع إلى أعماله وأقطعها لابنه زين العابدين وزوجه بابنة أويس التي كانت تحت محمود وولى على مردی ابن أخيه شاه ولي ثم هلك شجاع سنة سبع وثمانين واستقل ابنه زين العابدين بأصفهان وخلفه في شیراز وفارس منصور ابن أخيه شاه ولي.

وكان عادل كبير دولة بني أويس بالسلطانية كما مر ولحق به منصور بن شاه ولي هارباً من شیراز أمام عمه زين العابدين فحبس ثم فر من محبسه ولحق بأحمد بن أويس مستصرخاً به فصارخه وأنزله بستر من أعماله ثم سار منها إلى شیراز ففارقها عمه زين العابدين إلى أصفهان وأخوه يحيى بيزد وعمهما أحمد بن محمد المظفر بكرمان ثم زحف عمر سلطان التتر من بني جفطاي بن جنكزخان سنة ثمان وثمانين وملك توريز وخریها كما مر في أخباره فأطاعه يحيى صاحب يزد وأحمد صاحب کرمان.

وهرب زين العابدين من أصفهان وملكها عليه عمر فلحق بشیراز ورجع عمر إلى بلاده فيما وراء النهر وغنيت أنباؤه إلى سنة خمس وتسعين فزحف إلى بلاد فارس وجمع منصور بن شاه ولي العساكر لحربه فخادعه عمر بولايته وانكفاً راجعاً إلى هراة فافترقت عساكر منصور بن شاه ولي وجاءت عيون عمر بخبر افتراقها إليه فأغذ السير وكبس منصور بن شاه ولي بظاهر شیراز وهو في قل من العساكر لا يجاوزن الفين فهرب الكثير من أصحابه إلى عمر واستمات هو والباقرن وقتلوا أشد قتال وفقد هو في المعركة فلم يوقف له على خبر وملك عمر شیراز واستضافها إلى أصفهان وولى عليها من قبله وقتل أحمد بن محمد صاحب کرمان وابنيه وولى على کرمان من قبله وقتل يحيى بن شاه ولي صاحب يزد وابنيه وولى على يزد من قبله واستلمح بني المظفر واستصفي زين العابدين بن شجاع بن محمود وهرب ابنه فلحق بخاله أحمد بن أويس وهو لهذا العهد مقيم معه بمصر واللّه وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

بمصار ماردين فأقام عليها أشهراً وملكها وعاثت عساكره فيها واكتسحت نواحيها وامتنعت عليه قلعته فارحل عنها إلى ناحية بلاد الروم ومر بقلع الأكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها والسلطان لهذا العهد - وهو شعبان سنة مئمة وتسعين - الشيخ على أحمد بن أويس ابن الشيخ حسن بن أقبغا بن إيلكان سبط أرغو بن أبغا الشيخ حسن أبو زيد مقيم بدمشق مستجمع لظاحه والوثبة به متى استقبل جهته واللّه سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

الخبر عن بني المظفر اليزدي المتغلبين على

أصفهان وفارس بعد انقراض دولة بني

هلاكو وابتداء أمورهم ومصايرها

كان أحمد المظفر من أهل يزد وكان شجاعاً واتصل بالدولة أيام أبي سعيد فولوه حفظ السابلة بفارس وكان منها مبدأ أمرهم وذلك أنه لما توفي أبو سعيد سنة ست وثلاثين وسبع مائة ولم يعقب اضطربت الدولة ومرج أمر الناس واقترب الملك طوائف وغلب ازبك صاحب الشمال على طائفة من خراسان فملكها واستبد بهرة الملك حسين واللان محمود فرشمه من أهل دولة السلطان أبي سعيد عاملاً على أصفهان وفارس فاستبد بأمره واتخذ الكرسي بشیراز إلى أن هلك ولي بعده ابنه أبو إسحاق أمير شيخ سالكاً سبيله في الاستبداد وكانت له آثار جميلة وله صنف الشيخ عضد الدين كتاب المواقف والشيخ عماد الدين الكاشي شرح كتاب المفتاح وسموهما باسمه.

وتغلب أيضاً محمد بن المظفر على کرمان ونواحيها فصارت بيده وطمع في الاستيلاء على فارس وكان أبو إسحاق أمير شيخ قد قتل شريفاً من أعيان شیراز فنادى بالنكير عليه ليتوصل إلى غرض انتزاع الملك من يده وسار في جموعه إلى شیراز ومال إليه أهل البلد لفترتهم عن أمير شيخ فعملته فيهم فأمكنه من البلد وملكها واستولى على كرسيها وهرب أبو إسحاق أمير شيخ إلى أصفهان واتبعه ففر منه أيضاً وملك أصفهان وبث الطلب في الجهات حتى قبض عليه وقتله قصاصاً بالشريف الذي قتله بشیراز وكان له من الولد أربعة: شاه ولي ومحمود وشجاع وأحمد وتوفي شاه ولي أبيه وترك ابنه منصوراً ويحيى وملك ابنه محمود أصفهان وابنه شجاع شیراز وکرمان واستبد عليه محمود وشجاع وخلفاه في ملكه سنة ستين وكحلاه.

الخبر عن بني ارتنا ملوك بلاد الروم من المغل بعد بني هلاكو والإمام مجادي أمورهم ومصايرهم

علاء الدين من يستفسد له منكوفان فلم يحصل من ذلك على طائل وهلك علاء الدين في طريقه وكتب منكوفان بتشريك الملك بين عز الدين وركن الدين والبلاد بينهما مقسومة فلعلّز الدين من سيواس إلى تخوم القسطنطينية ولركن الدين من سيواس إلى أرزن الروم متصلاً من جهة الشرق ببلاد التتر وأفرج عز الدين عن ركن الدين واستقر في طاعة التتر وسار بيكو في بلاد الروم قبل أن يرجع عز الدين فلقبه أرسلان دغش من أمراء عز الدين فهزمه بيكو إلى قونية فأجفل عنها عز الدين إلى العلايا وحاصرها بيكو فملكها على يد خطيبها وخرج إلى بيكو فأسلمت زوجته على يده ومنع التتر من دخولها إلا وحداناً وأن لا يتعرضوا لأحد، واستقر عز الدين وركن الدين في طاعة التتر ولهما اسم الملك والحكم للشحنة بيكو.

ولما زحف هلاكو إلى بغداد سنة ست وخمسين واستنفر بيكو وعساكره فامتنع واعتذر بمن في طريقه من طوائف الأكراد الفراسيلية والياروقية فبعث إليه هلاكو العساكر ومروا بأذربيجان وقد أجفل أهلها وهم قوم من الأكراد فملكوها وساروا مع بيكو إلى هلاكو وحضروا معه فتح بغداد وما بعدها ولما نزل هلاكو حلب استدعى عز الدين وركن الدين فحضر معه فتحها وحضر معهما وزيرهما معين الدين سليمان البروانة واستحسنه هلاكو وتقدم إلى ركن الدين بأن يكون السفير إليه عنه فلم يزل على ذلك ثم هلك بيكو مقدم التتر ببلاد الروم وولي مكانه صمقار من أمراء المغل.

ثم اختلف الأميران عز الدين وغيث الدين سنة تسع وخمسين واستولى عز الدين على أعمال ركن الدين فسار ومعه البروانة إلى هلاكو صريحاً فأمدّه بالعساكر وسار إلى عز الدين فهزمهم واستمده ثانية فأمدّه هلاكو وانهمزم عز الدين فلحق بالقسطنطينية وأقام عند صاحبها لشكري واستولى ركن الدين قليج أرسلان على بلاد الروم وامتنع التركمان الذين بتلك الأعمال بأطراف الأعمال والثغور والسواحل وطلبوا الولاية من هلاكو فولاهم وأعطاهم الله الملك فهم الملوك بها من يومئذ كما يأتي في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

وأقام عز الدين بالقسطنطينية وأراد التوثب بصاحبها لشكري ووشى به أخواله من الروم فاعتقله لشكري في بعض قلاعه ثم هلك ويقال: إن ملك الشمال منكوفتر صاحب التخت بصراي حدث بينه وبين صاحب القسطنطينية فتنة ففازها واكتسح بلاده ومر بالقلعة التي بها عز الدين معتقلاً فاحتلمه معه إلى صراي وهلك عنده ولحق ابنه مسعود بعد ذلك بأبغا بن هلاكو

قد سبق لنا أن هذه المملكة كانت لبني قليج أرسلان من ملوك السلجوقية وهم الذين أقاموا فيها دعوة الإسلام وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل قسطنطينية واستضافوا إليها كثيراً من أعمال الأرض ومن ديار بكر فانفسحت أعمالهم وعظمت ممالكهم وكان كرسهم بقونية ومن أعمالهم أقصر وأنطاكية والعلايا وطغرلو ودمرلو وقرا حصار ومن ممالكهم أذربيجان ومن أعمالها أقشهر وكامخ وقلعة كمرنية ومن ممالكهم قيسارية ومن أعمالها نكره وعدا قليلة ومنال ومن ممالكهم أيضاً سيواس وأعمالها ملكوها من يد الونشمنند كما مر في أخبارهم ومن أعمالها نكسار وأقاسية وتوقات وقمنات وكنكرة كورية وسامسون وصغوى وكسحونية وطرخلوا وبرلوا.

ومما استضافوه من بلاد الأرمن خللاط وأرمينية الكبرى وأني وسلطان وأرجيس وأعمالها ومن ديار بكر خرت برت وملطية وسميساط ومسارة فكانت لهم هذه الأعمال وما يتصل بها من الشمال إلى مدينة برصة ثم إلى خليج القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها وعظمت دولتهم ثم طرقها الهرم والفشل كما يطرق الدول ولما استولى التتر على ممالك الإسلام وورثوا الدول في سائر النواحي واستقر التخت الأعظم لمنكوفان أخي هلاكو، وجهز عساكر المغل سنة أربع وخمسين وستمائة إلى هذه البلاد وعليهم بيكو من أكابر أمرانهم وعلى بلاد الروم يومئذ غياث الدين كتنخسرو بن علاء الدين كيقباد وهو الثاني عشر من ملوكهم من ولد قطلمش فتزلوا على أرزن الروم وبها ستان الدين ياقوت مولى علاء الدين فملكوها بعد حصار شهرين واستباحوها وتقدموا أمامهم ولقيهم غياث الدين بالصحرَاء على أقشهر وزنجان وانهمزم غياث الدين واحتمل ذخيرته وعياله ولحق بقونية واستولى بيكو على خلفه ثم سار إلى قيسارية فملكوها وهلك غياث الدين أثر ذلك وملك بعده ابنه علاء الدين كيقباد وأشرك معه أخويه في أمره وهما: عز الدين كيكافوس وركن الدين قليج أرسلان.

وعانت عساكر التتر في البلاد فسار علاء الدين كيقباد إلى منكوفان صاحب التخت واختلف أخواه من بعده وغلب عز الدين كيكافوس واعتقل أخاه ركن الدين بقونية وبعث في أثر أخيه

كما مر في أخبارهم وبلغ الخبر إلى دمرdash ابنه ببلاد الروم فاضطرب لذلك ولحق بمصر في عساكره وأمرائه فأقبل السلطان عليه وتلقاه بالكرمة والإيثار وجاءت رسل أبي سعيد في اتباعه تطلب حكم الله تعالى فيه بسعيه في الفساد وإثارة الفتنة على أن يفعل مثل ذلك في قراسنقر النازع إليهم من أمراء الشام فقتلوه وقتل دمرdash بمصر وذهب بما كسبها وكان دمرdash لما هرب من بلاد الروم إلى مصر ترك من أمرائه ارتنا وكان يسمى النوير اسم أبناء الملوك فبعث إلى أبي سعيد بطاعته فولاها على البلاد فملكها ونزل سيواس واتخذها كرسي ملكه ثم استبد حسن بن دمرdash بتوريز فباع له إرتنا ثم انتفض وكاتب الملك الناصر صاحب مصر ودخل في طاعته وبعث إليه بالولاية والخلع فجمع له حسن بن دمرdash ومار إليه بسيواس ومار ارتنا للقائه بصحراء كيسنول وهزموه وأسر جماعة من أمرائه وذلك سنة أربع وأربعين.

واستفحل ملك ارتنا من يومئذ وعجز جويان وحسن بن دمرdash عن طلبه إلى أن توفي سنة ثلاث وخمسين وأما بنوه من بعده فلا أدري من ملك منهم ولا ترتيب ولايتهم إلا أنه وقع في أخبار الترك أن السلطان أوعز سنة ست وستين إلى نائب حلب أن يسير في العساكر لإيجاد محمد بك بن ارتنا فمضوا وظفروا وما زال ارتنا وبنوه مستبدين ببلاد الروم وأعمالها واقتطع لهم التركمان منها بلاد الأرمن سيس وما إليها فاستولى عليها بنو دلقادر على خلافه وزحفوا إليه وهي في أيديهم لهذا العهد ولما خالف سعاروس من أمراء الترك سنة اثنتين وخمسين ظهره قراجا بن دلقادر على خلافه وزحف إليه السلطان من مصر فافتقرت جموعه واتبعت العساكر فقتل.

وبعث السلطان سنة أربع وخمسين عسكرياً في طلب قراجا فساروا إلى البليتين وأجفل عنها نائبها فنهبوا أحياءه ولحق هو بابن ارتنا بسيواس فقبض عليه وبعث به إلى السلطان بمصر فقتله واقتطع التركمان ناحية الشمال من أعمالهم إلى القسطنطينية وأنخروا في أمم النصرانية وراهم واستولوا على كثير من تلك الممالك وراء القسطنطينية وأميرهم لهذا العهد في عداد الملوك الأعظم ودولتهم ناشئة متجددة.

وكان صيباً بسيواس منذ أعوام الثمانين وهو من أعقاب بني إرتنا فاستبد عليه قاضي البلد لما كان كافلاً له بوصية أبيه ثم قتل القاضي ذلك الصبي أعوام اثنتين وتسعين واستبد بذلك الملك وكانت هناك أحياء التتر ينهزون ثلاثين ألفاً أو نحوها مقيمين بتلك النواحي ملكهم دمرdash بن جويان ومن قبله من أمراء المغل فكانوا شيعه لبني ارتنا وعصابة لهم وهم الذين استنجد بهم

فأكرمه وولاه على بعض القلاع ببلاد الروم ثم إن معين الدين سليمان البروانة ارتاب بركن الدين فقتله غيلة سنة ست وستين ونصب ابنه كنخسرو للملك ولقبه غياث الدين وكان متغلباً عليه مقيماً مع ذلك على طاعة التتر وربما كان يستوحش منهم فيكاتب سلطان مصر بالدخول في طاعته وأطلع أبغا على كتابه بذلك إلى الظاهر بيبرس فنكره.

وهلك صمغار الشحنة فبعث أبغا مكانه أميرين من أمراء المغل وهما تدوان وتوقر فتقدما سنة خمس وسبعين إلى بلاد الشام ونزلا بأبلستين ومعهما غياث الدين كنخسرو وكافله البروانة في العساكر وسار الظاهر من دمشق فلقبهم بأبلستين وقد قعد البروانة لما كان تواعد مع الظاهر عليه وهزمهما الظاهر جميعاً وقتل الأميرين تدوان وتوقر في جماعة من التتر ونجا البروانة وسلطانه فلم يصب منهم أحد واستراب السلطان بالبروانة لذلك وملك الظاهر قيسارية كرسي بلاد الروم وعاد إلى مصر وجاء أبغا ووقف على مكان الملحمة ورأى مصارع قومه فصدق الريبة بمالأة الظاهر والبروانة وأصحابه فاكسح البلاد وخربها ورجع.

ثم استدعى البروانة إلى معسكره فقتله وأقام مكانه في كفالة كنخسرو أخاه عز الدين محمداً ولم يزل غياث الدين والياً على بلاد الروم والشحنة من المغل حاكم في البلاد إلى أن ولي تكرار بن هلاكو وكان أخوه قنقرطاي مقيماً ببلاد الروم مع صمغار فبعث عنه وامتنع من الوصول فأوعز إلى غياث الدين واعتقله بأرزنكان وولي على بلاد الروم على الشحنة أولاكور من أمراء المغل وذلك سنة إحدى وثمانين ويقال: إن أرغو بن أبغا هو الذي ولي أولاكور شحنة ببلاد الروم بعد صمغار وأن تدوان وتوقر إنما بعث بهما أبغا لقتال الظاهر ولم يرسلهما شحنة.

ثم أقام مسعود بن عز الدين كيكاسوس في سلطانه ببلاد الروم والحكم لشحنة التتر وليس له من الملك إلا اسمه إلى أن افترق واضمحل أمره وبقي أمراء المغل يتعاقبون في الشحنة ببلاد الروم وكان منهم أول المائة الثامنة الأمير علي وهو الذي قتل ملك الأرمن هيشوش بن ليعون صاحب سيس واستعدى أخوه عليه مجربندا فأعاده وقتله كما مر في أخبار الأرمن في دولة الترك وكان منهم سنة عشرين وسبعمائة الأمير أبغا ثم ولي السلطان أبو سعيد على بلاد الروم دمرdash بن جويان سنة ثلاث وعشرين واستفحل بها ملكه وجاهد الأرمن سيس واستمد الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر عليهم فأمداه بالعساكر وافتتحوا إياها عنوة ورجعوا.

ثم نكب السلطان أبو سعيد نائبه جويان بن پروان وقتله

هؤلاء التركمان يؤمنون محمد بك وأخاه الياس بك وصهره علي بك وقريبه سونج، والظاهر أنهم من بني جق فانتقضوا على ركن الدولة وبعثوا إلى هلاكو بطاعتهم وتقرير الأثر عليهم وأن يبعث إليهم باللواء على العادة وأن يبعث شحنة من التتر يختص بهم فأسعفهم بذلك وقلدهم وهم من يؤمنون ملوك بها.

ثم أرسل هلاكو إلى محمد بك الأمير يستدعيه فامتنع من المسير إليه واعتذر فأوعز هلاكو إلى الشحنة الذي ببلاد الروم إلى السلطان قليج أرسلان بمحاربته، فساروا إليه وحاربوه ونزع عنه صهره علي بك ووفد على هلاكو فقدمه مكان محمد صهره ولقي محمد العساكر فانهزم وأبعد في المفز، ثم جاء إلى قليج أرسلان مستائماً فأمنه وسار معه إلى قونية فقتله واستقر صهره علي بك أميراً على التركمان، وفتحت عساكر التتر نواحي بلاد الروم إلى اسطنبول، والظاهر أن بني عثمان ملوكهم لهذا العهد من أعقاب علي بك أو أقاربه يشهد بذلك اتصال هذه الإمارة فيهم مدة هذه المائة سنة.

ولما اضحمل أمر التتر من بلاد الروم واستقر بنو أرتنا بسواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ما وراء الدروب إلى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصة من تلك الناحية، وكان يسمى أورخان بن عثمان جق فاتخذها داراً للملكهم ولم يفارق الخيام إلى القصور، وإنما ينزل بخيامه في بسيطها وضواحيها.

ولي بعده ابنه مراد بك وتوغل في بلاد النصرانية وراء الخليج وافتتح بلادهم إلى قريب من خليج البنادقة وجبال جنوة وصار أكثرهم ذمة ورعايا، وعاث في بلاد الصقالية بما لم يعهد لمن قبله وأحاط بالقسطنطينية من جميع نواحيها حتى اعتقل ملكها من أعقاب لشكري وطلب منه الذمة وأعطاه الجزية، ولم ينزل على جهاد أمم النصرانية وراءه إلى أن قتله الصقالية في حروبه معهم سنة إحدى وتسعين وسبع مائة.

ولي بعده ابنه أبو يزيد وهو ملكهم لهذا العهد. وقد استفحل ملكهم واستنجدت بالغز دولتهم وكان قد غلب على قطعة من بلاد الروم ما بين سيواس وبلادهم من انطاكية والعلايا بجبال البحر إلى قونية بنو قرمان من أمراء التركمان وهم الذين كانوا في حدود أرمينية وجددهم هو الذي هزم هيشوش بن ليعون ملك سبب من الأرمن سنة عشرين وسبع مائة، ثم كان بين بني عثمان جق وبين بني قرمان اتصال ومصاهرة، وكان ابن قرمان لهذا العهد صهر السلطان مراد بك على أخته فغلبه السلطان مراد بك على ما بيده ودخل ابن قرمون صاحب العلايا في طاعته بل والتركمان كلهم وفتح سائر البلاد ولم يبق له إلا سيواس بلد بني

القاضي حين وجهت إليه عساكر مصر في طلب منطاش الشائر الذي فر ثم لحق به وسارت عساكر مصر في طلبه سنة تسع وثمانين فاستنجد القاضي بأحياء التتر هؤلاء وجاؤوا لإخجاده ورجعت عساكر مصر عنهم كما تقدم ذلك كله في أخبار التركم والحال على ذلك لهذا العهد والله مصير الأمور بحكمته وهو على كل شيء قدير.

ج ب ا

إبراهيم بن محمد بك بن أرتنا النوير عامل أبي سعيد على بلاد الروم.

الخبر عن الدولة المستجدة للتركمان في شمال بلاد الروم إلى خليج القسطنطينية وما وراءه لبني عثمان وإخوته

قد تقدم لنا في أنساب العالم ذكر هؤلاء التركمان وأنهم من ولد يافت بن نوح أي من توغرا بن كورم بن يافت كذا وقع في التوراة.

وذكر الفيومي من علماء بني إسرائيل ونسابتهم أن توغرا هم التركمان أخوة الترك ومواطنهم فيما وجدناه من بحر طبرستان ويسمى بحر الخزر إلى جوف القسطنطينية وشرقها إلى ديار بكر وبعد انقراض العرب والأرمن ملكوا نواحي الفرات من أوله إلى مصبه في دجلة وهم شعوب متفرقون وأحياء مختلفون لا يمحصرهم الضبط ولا يحويهم العد وكان منهم ببلاد الروم جموع مستكثرة كان ملوكها يستكثرون بهم في حروبهم مع أعدائهم وكان كبيرهم فيها لعهد المائة الرابعة جق وكانت أحياءهم متوافرة وأعدادهم متكاثرة.

ولما ملك سليمان بن قطلمش قونية بعد أبيه وفتح انطاكية سنة سبع وسبعين من يد الروم طالبه مسلم بن قريش بما كان له على الروم فيها من الجزية فأنف من ذلك وحدثت بينهما الفتنة وجمع قريش العرب والتركمان مع أميرهم جق وسار إلى حرب سليمان بأنطاكية فلما التقيا مال التركمان إلى سليمان لعصية الترك وانهزم مسلم بن قريش وقتل.

وأقام أولئك التركمان ببلاد لروم أيام بني قطلمش موطنين بالجبال والسواحل، ولما ملك التتر ببلاد الروم وأبقوا على بني قطلمش ملكهم وولوا ركن الدولة قليج أرسلان بعد أن غلب أخوه عز الدين كيكاوس وهرب إلى القسطنطينية، وكان أمراء

ارتنا في استبداد القاضي الذي عليها وما أدري ما الله صانع بعد
ظهور هذا الملك تمر المتغلب على ملك المغل من بني جقطاي بن
جنكزخان.

وملك ابن عثمان لهذا العهد مستفحل بتلك الناحية
الشمالية ومتسع في أقطارها ومرهوب عند أمم النصرانية هنالك
ودولته مستجدة عزيزة على تلك الأمم والأحياء، والله غالب
على أمره.

وإلى هنا انتهت أخبار الطبقة الثالثة من العرب ودولهم
وهم الأمم التابعة للعرب بما تضمنه من الدول الإسلامية شرقاً
وغرباً لهم ولن تبعهم من العجم، فلنرجع الآن إلى ذكر الطبقة
الرابعة من العرب وهم المستعجمة أهل الجيل الناشيء بعد
انقراض اللسان المضري ودروسه ونذكر أخبارهم ثم نخرج إلى
الكتاب الثالث في أخبار البربر ودولهم، فنفرغ بفراغها من الكتاب
إن شاء الله تعالى ولي العون والتوفيق بمنه وكرمه.

خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

الطبقة الرابعة

من العرب المستعجمة أهل الجبل الناشئ

لهذا العهد من بقية أهل الدولة الإسلامية

من العرب

لما استقلت مضر وفرسانها وأنصارها من اليمن بالدولة الإسلامية، فيمن تبع دينهم من إخوانهم ربيعة ومن وافقهم من الأحياء اليمنية، وغلبوا الملل والأمم على أمورهم، وانتزعوا الأمصار من أيديهم، وانقلبت أحوالهم من خشونة البداوة وسذاجة الخلافة إلى عز الملك وترف الحضارة، ففارقوا الحلل وافترقوا على الثغور البعيدة والأقطار البائنة عن ممالك الإسلام، فنزلوا بها حامية ومرابطين عصباً وفرداً، وتناقل الملك من عنصر إلى عنصر ومن بيت إلى بيت، واستفحل ملكهم في دولة بني أمية وبني العباس من بعدهم بالعراق، ثم دولة بني أمية الأخرى بالأندلس، وبلغوا من الترف والبذخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم، فانتقسموا في الدنيا ونبتت أجيالهم في ماء النعيم، واستاثروا مهاد الدعة واستطابوا خفض العيش، وطال نومهم في ظل الغرف والسلم، حتى ألفوا الحضارة ونسوا عهد البادية وانفلتت من أيديهم الملكة التي نالوا بها الملك، وغلبوا الأمم من خشونة الدين وبداءة الأخلاق، ومضاء المضرب.

فاستوت الحامية والرعية لولا الثقافة، وتشابه الجند والحضر إلا في الشارة. وأنف السلطان من المساهمة في المجد والمشاركة في النسب، فجدعوا أنوف المتطاولين إليه من أعياصهم وعشائرتهم ووجوه قبائلهم، وغضضوا من عنان طموحهم، واتخذوا البطانة مقرهم من موالى الأعجام وصنائع الدولة، حتى كثروا بهم قبيلتهم من العرب الذين أقاموا الدولة، ونصروا الملة ودعموا الخلافة، وأذاقوهم وبال الخلافة من القهر، وساموهم خطة الخسف والذل، فأنسوهم ذكر المجد وحلاوة العز، وسلبوهم نصرة العvisية حتى صاروا أجزاءً على الحامية، وخولاً لمن استعبدتهم من الخاصة وأوزاعاً متفرقين بين الأمة، وصيروا لغيرهم الحل والعقد والإبرام، والنقض من الموالى والصنائع، فداخلتهم أريجية العز وحدثوا أنفسهم بالملك، فحجحدوا الخلفاء وقعدوا بدمت الأمر والنهي. واندرج العرب أهل الحامية في القهر واختلطوا بالهمج، ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها، ولا تذكروا عهد الأنساب لدروسها. فذثروا وتلاشوا شأن من قبلهم وبعدهم، سنة الله قد

وكان المولدون لتمهيد قواعد الأمر، وبناء أساسه من أول الإسلام والدين والخلافة من بعده، والملك، قبائل من العرب موفورة العدد عزيزة الأحياء. فنصروا الإيمان والملة، ووطدوا أكتاف الخلافة، وفتحوا الأمصار والأقاليم، وغلبوا عليها الأمم والدول. أما من مضر: فقريش وكنانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وغميم وغطفان وسليم وهوازن، ويطونها من ثقيف وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة ومن إليهم من الشعوب والبطون والأفخاذ والعشائر والخلفاء والموالي. وأما من ربيعة: فبنو تغلب بن وائل وبنو بكر بن وائل وكافة شعوبهم من بني شكر وبني حنيفة وبني عجل وبني ذهل وبني شيبان وقيم الله. ثم بنو النمر من قاسط، ثم عبد القيس ومن إليهم. وأما من اليمنية ثم من كهلان بن سبأ منهم: فأنصار الله الخزرج والأوس ابنا قبيلة من شعوب غسان وسائر قبال الأزدي، ثم همذان وخثعم وبجيلة، ثم مذحج وكافة بطونها من عيس ومراد وزبيد والنخع والأشعرين وبني الحرث بن كعب، ثم لحي ويطونها ولخم ويطونها، ثم كندة وملوكها.

وأما من حمير بن سبأ فقصاعة وجميع بطونها ومن إلى هذه القبائل والأفخاذ والعشائر والأحلاف. هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الإسلامية العربية، فنيا منهم الثغور القصية، وأكلتهم الأقطار المتباعدة، واستلحتهم الوقائع المذكورة، فلم يبق منهم حي يطرف، ولا حلة تنجع ولا عشير يعرف، ولا قليل يذكر ولا عاقلة تحمل جناية، ولا عصابة لصريخ إلا سمع من ذكر أسمائهم في أنساب أعقاب متفرقين في الأمصار الوى الخمول بمجملتهم، فنقطعوا في البلاد ودخلوا بين الناس فامتحنوا واستهينوا وأصبحوا خولاً للأمرء، ويهمماً للذائد وعالةً على الحرف. وقام بالإسلام والملة غيرهم، وصار الملك والأمر في أيدي سواهم، وجلبت بضائع العلوم والصنائع إلى غير سوقهم، فغلب أعاجم المشرق من الديلم والسلجوقية والأكراد والغز والترک على ملكه ودولته فلم يزل مناقلة فيهم إلى هذا العهد. وغلب أعاجم المغرب من زناتة والبربر على أمره أيضاً، فلم تزل الدول تتناقل فيهم على ما نذكره بعد إلى هذا العهد. وغلب أعاجم المغرب والبربر على أمره، وانقرض أكثر الشعوب الذين كان لهم الملك من هؤلاء فلم يبق لهم ذكر. واتبذ بقية هذه الشعوب من هذه الطبقة بالقفار وأقاموا أحياء بادين لم يفارقوا الحلل ولا تركوا البداوة والخشونة، فلم يتورطوا في مهلكة الترف ولا غرقوا في بحر النعيم، ولا فقدوا في غيابات الأمصار والحضارة ولهذا أنشد شاعرهم:

فمن ترك الحضارة أعجبته بأي رجال بادية ترانسا

وقال المتنبئ يمدح سيف الدولة ويعرض بذكر العرب الذين أوقع بهم لما كثر عيثهم وفسادهم: وكانوا يروعون الملوك بأن بدوا وأن نبتت في الماء نبت الغلافق فهاجوك أهدى في الفلا من نجومه وأبدى بيوتاً من أداحي النفاق

وأقامت هذه الأحياء في صحارى الجنوب من الغرب والمشرق بأفريقية ومصر والشام والحجاز والعراق وكرمان، كما كان سلفهم من ربيعة ومضر وكهلان في الجاهلية، وعتوا وكثروا وانقرض الملك العربي الإسلامي. وطرق الدول المهرم الذي هو شأنها واعتز بعض أهل هذا الجليل غرباً وشرقاً فاستعملتهم الدول ولولهم الإمارة على أحيائهم وأقطعوهم في الضاحية والأمصار والتلول وأصبحوا جيلاً في العالم ناشئاً، كثروا سائر أهله من العجم. ولهم في تلك الإمارة دول، فاستحقوا أن تذكر أخبارهم، وتلحق بالأجيال من العرب سلفهم. ثم إن اللسان المضري الذي وقع به الإعجاز ونزل به القرآن فثوى فيهم وتبدل إعرابه فمالوا إلى العجمة. وإن كانت الأوضاع في أصلها صحيحة، واستحقوا أن يوصفوا بالعجمة من أجل الأعراب، فلذلك قلنا فيهم العرب المستعجمة.

فلنذكر الآن بقية هؤلاء الشعوب من هذه الطبقة من المغرب والمشرق ونخص منهم أهل الأحياء الناجعة والأقدار النابهة، ولنغي المندرجين في غيرهم. ثم نرجع إلى ذكر المتقلين من هذه الطبقة إلى أفريقية والمغرب فنستوعب أخبارهم لأن العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن، وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هنالك، فكانت أخبارهم من أخبارها، فلذلك استوعبناها. وأما آخر مواطن العرب فكانت برقة، وكان فيها بنو قرة بن هلال بن عامر. وكان لهم في دول العبيدين أخبار، وحكايتهم في الثورة أيام الحاكم والبيعة لأبي ركوكة من بني أمية في الأندلس معروفة، وقد أشرنا إليها في دولة العبيدين.

ولما أجاز بنو هلال وسليم إلى المغرب خالطوهم في تلك المواطن، ثم ارتحلوا معهم إلى المغرب كما نذكره في دخول العرب إلى أفريقية والمغرب. وبقي في مواطنهم برقة لهذا العهد أحياء بني جعفر، وكان شيخهم أوسط هذه المائة الثامنة أبو ذئب وأخوه حامد بن حميد. وهم ينسبون في المغرب تارة في العزة ويزعمون أنهم من بني كعب بن سليم، وتارة في الهيب كذلك، وتارة في فزارة، والصحيح في نسبهم أنهم من مسراتة إحدى بطون هواراة سمعته من كثير ممن نسبناهم، وبعدهم فيما بين برقة والعقبة الكبيرة أولاد سلام، وما بين العقبة الكبيرة والإسكندرية أولاد

ومقدم وهم بطنان: أولاد التركية وأولاد قائد. ومقدم وسلام معاً ينسبون إلى ليبد، فبعضهم يقول ليبد بن لعة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر وبعضهم يقول في مقدم: مقدم بن عزاز بن كعب بن سليم.

وذكر لي سلام شيخ أولاد التركية: أن أولاد مقدم من ربيعة بن نزار، ومع هؤلاء الأحياء حي محارب يتمون بآل جعفر. ويقال: إنهم من جعفر بن كلاب، وحي رواحة يتمون بآل زبيد، ويقال: من جعفر أيضاً. والناجعة من هؤلاء الأحياء كلهم يتمون في شأنهم إلى الواحات من بلاد القبلة. وقال ابن سعيد: ومن غطفان في برقة مهيب ورواحة وفزارة، فجعل هؤلاء من غطفان والله أعلم بصحة ذلك.

وفيما بين الإسكندرية ومصر قبائل رحالة يتقلون في نواحي البحيرة هنالك، ويعمرون أرضها بالسكنى والفلاح، ويخرجون في المشاتي إلى نواحي العقبة وبرقة من مزارت وهواراة وزنارة إحدى بطون لواتة، وعليهم مغارم الفلاح. ويندرج فيهم اختلاط من العرب والبربر لا يحصون كثرة. وبنواحي الصغير قبائل من العرب من بني هلال وبني كلاب من ربيعة. وهؤلاء أحياء كثيرة ويركبون الخيل، ويحملون السلاح، ويعمرون الأرض بالفلاحة ويقومون بالخراج للسلطان. وبينهم مع ذلك من الحروب والفتن ما ليس يكون بين أحياء القفر.

وبالصعيد الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعددة وأحياء متفرقة، كلهم من جهينة إحدى بطون قضاة، ملأوا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها. والذين يلبون أسوان هم يعرفون بأولاد الكنتر، كان جدهم كنز الدولة، وله مقامات مع الدول المذكورة، ونزل معهم في تلك المواطن من أسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبي طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة، وأخرجوهم منها، فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة، ويحترفون في غالب أحوالهم بالتجارة.

وبنواحي مصر من جهة القبلة إلى عقبة أيلة أحياء جذام جمهورهم من المائد وعليهم درك السابلة بتلك الناحية، ولهم على ذلك الأقطاع والعوائد من السلطان. ويليهم من جهة الشرق بالكرك ونواحيها أحياء بني عقبة من جذام أيضاً، ورحالة ناجعة تنتهي رحلتهم إلى المدينة النبوية. وعليهم درك السابلة فيما يليهم. وفيما وراء عقبة أيلة إلى القلزم قبائل من قضاة ومن القلزم إلى الينبع، قبائل من جهينة. ومن الينبع إلى بدر ونواحيه من زبيد

البصرة والكوفة واليمامة. وكذلك ورثوا غطفان ببطن مما يلي وادي القرى.

هكذا قال ابن سعيد. وقال: أشهر الحجازيين منهم الآن بنو لام وبنو نيهان والصولة بالحجاز لبني لام بين المدينة والعراق، ولهم حلف مع بني الحسين أمراء المدينة.

قال: وبنو صخر منهم في جهة تيماء بين الشام وخيبر. قال: وغربة من طيء بنو غربة بن أفلت بن معبد بن معن بن عمرو بن عنبس بن سلامان، ومن بعد بلادهم حي الأتمر والأساور ورثوها من عترة. ومنزلهم لهذا العهد في مصايفهم بالكبيات وفي مشاتهم مع بني لام من طيء. وهم أهل غارة وصولة بين الشام والعراق. ومن بطونهم الأجود والبطنين وإخوانهم زبيد نازلون بالموصل، فقد جعل ابن سعيد: زبيد هؤلاء من بطون طيء، ولم يجعلهم من مذحج. ورئاسة آل فضل في هذا العهد في بني مهنا، وينسبونه هكذا: كنان بن مابع بن مدسة بن عصبية بن فضل بن بدر بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن قصية بن بدر بن سميع. ويقفون عند سميع، ويقول زعماءهم: إن سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسية أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي. وحاشا لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته، وفي بنات كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأمثالهم.

ثم إن الوجود يحيل رئاسة مثل هؤلاء على هذا الحسي إذا لم يكونوا من نسبهم. وقد تقدم مثل ذلك في مقدمات الكتاب.

وكان مبدأ رئاستهم من أول دولة بني يعقوب. قال العماد الأصفهاني: نزل العادل بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الأعراب في جموع كثيرة. وكانت الرئاسة فيهم لعهد الفاطميين لبني جراح من طيء. وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح. وكان من أقطاعه التي معه وهو الذي قبض على أسكى مولى بني بويه لما انهزم مع مولاة يختار بالعراق. وجاء إلى الشام سنة أربع وستين وثلاثمائة وملك دمشق وزحف مع القرامطة لقتال العزيز بن المزعز لدين الله صاحب مصر، فهزمهم العزيز وهرب أفتكين فلقبه مفرج بن دغفل، وجاء به إلى العزيز فأكرمه ورقاه في دولته. ولم يزل شأن مفرج هكذا وتوفي سنة أربع وأربعمئة. وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجرار. وولي حسان بعده وعظم صيته، وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين معزة واستقامة، وهو الذي هزم الرملة وهزم قائدهم باروق التركي وقتله وسبى نساءه، وهو الذي مدحه التهامي. ويذكر المسمي وغيره أن موطنه دولة العبيديين في قرابة حسان بن مفرج هذا فضل بن ربيعة بن حازم وأخوه بدر بن ربيعة وابنا بدر. ولعل فضلاً هذا هو جد آل فضل.

إحدى بطون مذحج، ولهم الأمراء بمكة من بني حسن حلف ومواخاة. وفيما بين مكة والمهجم مما يلي اليمن قبائل بني شعبة من كنانة، وفيما بين الكرك وغزة شرقاً قبائل جذام من قضاعة في جموع وافرة، ولهم أمراء أعزة يقطعهم السلطان على العسكر وحفظ السابلة، وينجعون في المشاتي إلى معان وما يليها من أسافل نجد، مما يلي تيماء، ويعددهم في أرض الشام بنو حارثة بن سنسب وآل مراء من ربيعة إخوة فضل الملوك على العرب في برية الشام والعراق ونجد. وأخبرني بعض أمراء حارثة بن سنسب عن بطون. فلنذكر الآن خبر أولاد فضل أمراء الشام والعراق من طيء فبين أعراب الشام جميعاً.

خبر آل فضل وبني مهنا منهم ودولتهم بالشام والعراق

هذا الحسي من العرب يعرفون بآل فضل، وهم رحالة ما بين الشام والجزيرة وبرية نجد من أرض الحجاز، يتقلون هكذا بينها في الرحلتين ويتنهن في طيء ومعهم أحياء من زبيد وكنب وهزيم ومذحج أحلاف لهم باين بعضهم في الغلب والعدد آل مراء. ويزعمون أن فضلاً ومراء آل ربيعة، ويزعمون أيضاً أن فضلاً ينقسم ولده بين آل مهنا وآل علي، وأن آل فضل كلهم كانوا بأرض حوران فغلبهم عليها آل مراء وأخرجوهم منها، فتركوا حصص ونواحيها، وأقامت زبيد من أحلافهم بحوران فهم بها حتى الآن لا يفارقونها. قالوا: ثم اتصل آل فضل باللد من السلطنة ولولهم على أحياء العرب وأقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق، فاستظهروا برئاستهم على آل مراء، وغلبوهم على المشاتي فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريباً من التلول والقرى، لا ينجعون إلى البرية إلا في الأتق.

وكانت معهم أحياء من أنصاريق الأعراب ينلرجون في لفيفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد كما كان آل فضل. إلا أن أكثر من كان من آل مراء أولئك الأحياء وأوفرهم عدداً بنو حارثة من إحدى سنى بطون طيء، هكذا ذكر الثقة عنهم من رجالاتهم. وحارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى القفار. ومواطن طيء بنجد قد اتسعت، وكانوا أول خروجهم من اليمن نزلوا جبلي أجا وسلمي، وغلبوا عليهما بني أسد وجاوروهم. وكان لهم من مواطن سميراء وفيد من منازل الحاج. ثم انقرض بنو أسد وورث طيء بلادهم فيما وراء الكرخ من أرض غفرو وكذلك ورثوا منازل تميم بأرض نجد فيما بين

قال ابن الأثير إن فضل بن ربيعة بن حازم كان أباه وأصحاب البلقاء والبيت المقدس. وكان الفضل تارة مع الفرنج وتارة مع خلفاء مصر. ونكره لذلك طفركين أتاك دمشق وكافل بني تش فطرده من الشام فنزل على صدقة بن مزيد بالحلة وحالفه. ووصله صدقة بتسعة آلاف دينار. فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان محمد بن ملكشاه سنة خمس مائة وما بعدها، وقعت بينهما الفتنة اجتمع له فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة ومسلم بن قريش صاحب الموصل وبعض أمراء التركمان، وكانوا كلهم أولياء صدقة، فصار في الطلائع بين يدي الحرب، وهربوا إلى السلطان فآوهمهم وخلع عليهم، وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة بن مزيد ببغداد حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة، واستأذنه فضل في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجرة صدقة فآذن له وعبر إلى الأنبار، فلم يراجع السلطان بعدها كلام ابن الأثير. ويظهر من كلامه وكلام المسيحي أن فضلاً هذا ويدراً من آل جراح بلا شك. ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم أن فضلاً هذا هو جددهم لأنهم ينسبون: فضل بن ربيعة بن الجراح. فلعل هؤلاء نسبو ربيعة إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح لبعده العهد وقلة المحافظة على مثل هذا من البادية القفر.

وأما نسبة هذا الحي من آل فضل بن ربيعة بن فلاح من مفرج في طيء، فبعضهم يقول: إن الرئاسة في طيء كانت لأبياس بن قبيصة من بني سبأ بن عمرو بن الغوث من طيء، وأبياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر لما قتل النعمان بن المنذر، وهو الذي صالح خالد بن الوليد عن الحيرة على الجزيرة. ولم تزل الرئاسة على طيء إلى بني قبيصة هؤلاء صدرأ من دولة الإسلام. فلعل بني الجراح وآل فضل هؤلاء من أعقابهم، وإن كان انقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي إليهم، لأن الرئاسة على الأحياء والشعوب إنما تتصل في أهل العصية والنسب كما مر أول الكتاب.

وقال ابن حزم عندما ذكر أنساب طيء وأنهم لما خرجوا من اليمن مع بني أسد نزلوا جبلي أجأ وسلمى، وأوطنهما وما بينهما، ونزل بنو أسد ما بينهم وبين العراق. وفضل كثير منهم وهم: بنو حارثة نسبة إلى أمهم، ويتم الله، وحييش، والأسعد إخوانهم رحلوا عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بجلب، وحاضر طيء وأوطنوا تلك البلاد إلا بني رومان بن جندب بن خارجة بن سعد، فإنهم أقاموا بالجبلين فكانوا جبليين ولأهل حلب وحاضر طيء من بني خارجة السهيليون اه.

فلعل هذه الأحياء الذين بالشام من بني الجراح وآل فضل

ولما افترق بنو عامر على الممالك الإسلامية اختص هؤلاء بنواحي حلب وملكها منهم بنو صالح بن مرداس من بني عمرو بن كلاب. ثم تلاشى ملكهم ورجعوا عنها إلى الأحياء وأقاموا بالفرات تحت خفارة هؤلاء الأمراء من طيء.

وأما ترتيب رئاستهم على العرب بالشام والعراق منذ دولة بني أيوب العادل وإلى هذا العهد، وهو آخر ست وتسعين وسبعمائة، فقد ذكرنا ذلك في دولة الترك ملوك مصر والشام، وذكرناهم واحداً بعد واحد على ترتيبهم. وسنذكرهم هاهنا على ذلك الترتيب فنقول: كان الأمير لعهد بني أيوب عيسى بن عمدة بن ربيعة أيام العادل كما كان بعده حسام الدين مانع بن حارثة بمصر والشام.

وفي سنة ثلاثين وستمائة ولي عليهم بعده ابنه مهنا. ولما ارتجع قطز بن فضل أحد ملوك الترك بمصر والشام من أيدي التتر، وهزمهم بعين جالوت، أقطع سلمية لمهنا بن مانع وانتزعها من عمل المنصور بن مظفر بن شاهنشاه صاحب حماة، ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا. ثم ولي الظاهر على أحياء العرب بالشام عند ما استفحل ملك الترك. وسار إلى دمشق لتشييع الخليفة الحاكم عم المستعصم إلى بغداد عيسى بن مهنا بن نافع، وجر له الإقطاعات على حفظ السابلة، وحبس ابن عمه زامل بن علي بن ربيعة من آل فضل على سعائته وإغرامه. ولم يزل يغير على أحياء العرب، وصلحوا في أيامه لأنه خالف أباه في الشدة عليهم، وهرب إليه سنقر الأشقر سنة تسع وسبعين وستمائة وكتبوا أبغا واستحثوه لملك الشام. وتوفي عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين فولى المنصور قلاوون من بعده ابنه مهنا.

ثم سار الأشرف بن قلاوون إلى الشام ونزل حمص، ووفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه، فقبض عليه وعلى ابنه موسى وإخوانه عمدة وفضل ابني مهنا. وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كتيفاً عندما جلس على التخت سنة أربع وتسعين، ورجع إلى إمارته. وكان له في أيام الناصر نصرة واستقامة وميلة إلى ملوك التتر بالعراق، ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان. ولما انتقض قراسقر وأقوش الأكرم

ثم توفي سنة سبع وأربعين فولي مكانه أخوه قياض، وهلك سنة تسع وأربعين وولي مكانه أخوه خييار بن مهنا، ولاء حسن الناصر في دولته الثانية. ثم انتقض سنة خمس وستين وأقام ستين بالقصر عاصياً إلى أن شفع فيه نائب حماة، فأعيد إلى إمارته. ثم انتقض سنة سبعين فولي السلطان الأشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى، وجاء إلى نواحي حلب واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم، وعاثوا في البلاد وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصورى، فبرز إليهم واتهموا إلى خيمهم واستاق نعمهم ونحطى إلى الخيام فاستجاشوا بها وهزموا عساكره وقتل قشتمر ابنه في المعركة، تولى هو قتله بيده، وذهب إلى القفر منتقياً فولى الأشرف مكانه ابن عمه معقل بن فضل بن عيسى.

ثم بعث ابن معقل صاحبه سنة إحدى وسبعين يستأمن لخيار فأمته. ثم وفد خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين فرفض عنه السلطان وأعادته إلى إمارته. ثم توفي سنة سبع وسبعين فولي أخوه مالك إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين فولى مكانه معقل بن موسى بن عيسى، وابن مهنا شريكين في إمارتهما. ثم عزلا لسنة وولي نعيم بن جابر بن مهنا واسمه محمد، وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيء بالشام. والسلطان الظاهر لعهدده يزاحمه مجمر بن محمد بن قارى حتى سخطه. ثم وصل انتقاضه على السلطان وخلافه، وظاهر السلطان على موالة محمد بن قارى فسخطه، وولى مكانهما ابن عمهما محمد بن كوكتين ابن عمه موسى بن عساف بن مهنا فقام بأمر العرب وبقي نعيم متبذراً بالقفر. وعجز عن المرة لقله ما بيده واختلت أحواله، وهو على ذلك لهذا العهد، والله ولي الأمور لا رب سواه.

ولنرجع إلى ما بقي من شعوب هذه الطبقة فنقول: كان بنو عامر بن صعصعة كلهم بنجد، وبنو كلاب في خنصرة والريذة من جهات المدينة وكعب بن ربيعة فيما بين تهامة والمدينة وأرض الشام. وبنو هلال بن عامر في بساط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان وغير بن حامد معهم. وجشم محسويون منهم بنجد، وانتقلوا كلهم في الإسلام إلى الجزيرة الفراتية فملك ثمر حوران ونواحيها. وأقام بنو هلال بالشام إلى أن ظعنوا إلى المغرب كما نذكر في أخبارهم. وبقي منهم بقية بجبل بني هلال المشهور بهم الذي فيه قلعة صرخد. وأكثرهم اليوم يتعاطون الفلاح. وبنو كلاب بن ربيعة ملكوا أرض حلب ومدنتها كما ذكرناه. وبنو كعب بن ربيعة دخلت إلى الشام، منهم قبائل عقيل وقشير وجرش وجعدة، فانقرض الثلاثة في دولة الإسلام ولم يبق إلا بنو عقيل.

وذكر ابن حزم: أن عددهم في عدد جميع مضر. فملك

وأصحابهما سنة عشر وسبعماية لحقوا به، وساروا من عنده إلى خربندا، واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه متقبضاً عن الوفاة.

ووفد أخوه فضل سنة اثني عشرة وسبعماية فرعى له حق وفادته، وولاه على العرب مكان أخيه مهنا وبقي مهنا مشرداً.

ثم لحق سنة ست عشرة وسبعماية بخربندا ملك التتر فأكرمه وأقطعته بالعراق. وهلك خربندا في تلك السنة فرجع مهنا إلى أحيائه، ووفد ابنه أحمد وموسى وأخوه محمد بن عيسى مستعيتين على الناصر ومتطارحين عليه، فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر الأبلق، وشملهم بالإحسان وأعتب مهنا وزده إلى إمارته وأقطعاه، وذلك سنة سبع عشرة و حج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل في اثني عشر ألف راحلة. ثم رجع مهنا إلى دينه في عمالة التتر والأجلا ب على الشام. واتصل ذلك منه فقم السلطان عليه، وسخط عليه قومه أجمع. وتقدم إلى نواب الشام سنة عشرين بعد مرجعه من الحج، فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم مائة على عدالته. بينهم ولى منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر، وصيرف أقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدة.

ثم وفد سنة إحدى وثلاثين مع الأفضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلاً به ومتطارحاً على السلطان، فاقبل عليه ورد عليه أقطاعه وإمارته.

وذكر لي بعض أمراء الكبراء بمصر فيمن أدرك وفادته أو حدث بها: أنه تخافى في هذه الوفاة من قبول شيء من السلطان، حتى أنه ساق عنده النياق الحلوية والعرا ب، وأنه لم يغش باب أحد من أرباب الدولة ولا سأل منهم شيئاً من حاجاته، ثم رجع إلى أحيائه وتوفي سنة أربع وثلاثين فولي ابنه مظفر الدين موسى، وتوفي سنة اثنتين وأربعين عقب مهلك الناصر، وولى مكانه أخوه سليمان.

ثم هلك سليمان سنة ثلاث وأربعين فولي مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى. ثم توفي سنة أربع وأربعين بالقرتين ودفن عند قبر خالد بن الوليد. وولى مكانه أخوه سيف بن فضل، ثم عزله السلطان بمصر، الكامل ابن الناصر سنة ست وأربعين، وولى مكانه أحمد بن مهنا بن عيسى. ثم جمع سيف بن فضل ولقبه قياض بن مهنا بن عيسى وأنهزم سيف. ثم ولي السلطان حسن الناصر في دولته الأولى وهو في كفالة بيبغاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم.

أفريقية، من ملوك التبابعة وملكها. ثم رجع عنها وترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير، فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندرجوا في عددهم، وذهب ملك العرب منهم. ثم جاءت الملة الإسلامية وظهر العرب على سائر الأمم بظهور الدين، فسارت عساكرهم في المغرب، وافتتحوا سائر أمصاره ومدنه وعانوا من حروب البربر شدة. وقد تقدم لنا ما ذكره ابن أبي زيد من أنهم ارتدوا اثنتي عشرة مرة. ثم رسخ فيهم الإسلام ولم يسكنوا بأجبالهم في الخيام ولا نزلوا أحياء لأن الملك الذي حصل لهم يمنعهم من سكنى الضاحية، ويعدل بهم إلى المدن والأمصار. فلهذا قلنا إن العرب لم يوطنوا بلاد المغرب. ثم أنهم دخلوا إليه في منتصف المائة الخامسة، وأوطنوه وافترقوا بأحيائهم في جهاته كما نذكر الآن ونستوعب أسبابه.

الخبر عن دخول العرب من بني هلال

وسليم المغرب من الطبقة الرابعة وأخبارهم

هنالك

كانت بطون هلال وسليم من مضر لم يزالوا بادين منذ الدولة العباسية وكانوا أحياء ناجحة بمجالاتهم من قفر الحجاز بنجد. فبنو سليم بما يلي المدينة، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف وربما كانوا يطوفون في رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة، ويقطعون على الرفاق، وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة. وما زالت البعوث تجهز والكتائب تكتب من باب الخلافة ببغداد للإيقاع بهم وصون الحاج عن معرّات هجومهم. ثم تحيّر بنو سليم والكثير من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم، وصاروا جنداً لهم بالبحرين وعمان.

ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام، وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى قرارهم بالبحرين، ونقل أشياعهم من العرب من بني هلال وسليم فأنزلهم بالصعيد وفي العدو الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك، وكان لهم أضرار بالبلاد. ولما انساق ملك صنهاجة بالقيروان إلى المعز بن باديس بن المنصور سنة ثمان وأربعمائة قلده الظاهر لدين الله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز باله نزار بن المعز لدين الله معدّ أمر إفريقية على عادة آبائه كما نذكره لك بعد. وكان لعهد

منهم الموصل بنو مالك بعد بني حمدان وتغلب. واستولوا عليها وعلى نواحيها وعلى حلب معها. ثم انقرض ملكهم ورجعوا للبادية، وورثوا مواطن العرب في كل جهة، فمعهم بنو المتفق بن عامر بن عقيل، وكان بنو مالك بن عقيل في أرض تيماء من نجد، وهم الآن بجهات البصرة في الآجام التي بينها وبين الكوفة المعروفة بالبطائح، والإمارة منهم في بني معروف، وبالمغرب من بني المتفق أحياء دخلوا مع هلال بن عامر يعرفون بالخلط، ومواطنهم بالمغرب الأقصى ما بين فاس ومراكش.

وقال الجرجاني: إن بني المتفق كلهم يعرفون بالخلط، ويليه في جنوب البصرة إخوتهم بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف بن عامر، وعوف أخو المتفق قد غلبوا على البحرين وغماره وملكوها من يدي أبي الحسين الأصغر بن تغلب. وكانت هذه المواطن للأزد وبني تميم وعبد القيس، فورث هؤلاء أرضهم فيها وديارهم.

قال ابن سعيد: وملكو أيضاً أرض اليمامة من بني كلاب وكان ملوكهم فيها لعهد الخمسين والستمئة ببني عصفور. وكان من بني عقيل خفاجة بن عمرو بن عقيل، كان انتقلهم إلى العراق فأقاموا به وملكو ضواحيه، وكانت لهم مقامات وذكر، وهم أصحاب صولة وكثرة، وهم الآن ما بين دجلة والفرات. ومن عقيل هؤلاء بنو عبادة بن عقيل، ومنهم الأجافل لأن عبادة كان يعرف بالأجفل. وهم لهذا العهد بالعراق مع بني المتفق. وفي البطائح التي بين البصرة والكوفة واسط والإمارة فيهم على ما يبلغنا لرجل اسمه قيان بن صالح وهو في عدد ومنعة. وما أدري أهو في بني معروف أمراء البطائح ببني المتفق، أو من عبادة الأخائل. هذه أحوال بني عامر بن صعصعة واستيلائهم على مواطن العرب من كهلان وربيعة ومضر.

فأما بنو كهلان فلم يبق لهم أحياء فيما يسمع. وأما ربيعة فأجازوا بلاد فارس وكرمان فهم يتجعون هنالك ما بين كرمان وخراسان. وبقيت بالعراق طائفة منهم ينزلون البطائح وانتسب إلى الكوفة منهم بنو صباح ومعهم لفائف من الأوس والخزرج. فأمر ربيعة اسمه الشيخ ولي، وعلى الأوس والخزرج طاهر بن خضر منهم.

هذه شعوب الطبقة الثالثة من العرب لهذا العهد في ديار المشرق بما أدى إليه الإمكان. ونحن الآن نذكر شعوبهم الذين انتقلوا إلى المغرب: فإن أمة العرب لم يكن لهم إلام قط بالمغرب، لا في الجاهلية ولا في الإسلام، لأن أمة البربر الذين كانوا به كانوا يمانعون عليه الأمم. وقد غزا أفريقش بن ضبيع الذي سميت به

الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة، فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة، كانوا أولياء للدعوة وعمالاً بتلك القاصية. وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها.

وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك، فتغلبوا على هديه وشورانه. وقيل: إن الذي أشار بذلك وفعله وأدخل العرب إلى أفريقية إنما هو أبو القاسم الجرجاني، وليس ذلك بصحيح، فبعث المستنصر وزيره على هؤلاء الأحياء سنة إحدى وأربعين، وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم بعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل. وقال لهم: قد أعطيتكم المغرب، وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الأبق فلا تفتقرون وكتب اليازوري إلى المغرب: أما بعد فقد أنفدنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً. ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً. فطمعت العرب إذ ذاك، وأجازوا النيل إلى برقة، ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها، وكتبوا لإخوانهم شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه، وتقارعوا على البلاد: فحصل لسليم الشرق، ولهلال الغرب، وخبروا المدينة الحمراء وأوجدانية وأسمر وسرت.

وأقامت هيب من سليم وأحلافها راحة وناصرة وغمرة بأرض برقة. وسارت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى أفريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه، حتى وصلوا إلى أفريقية سنة ثلاث وأربعين وكان أول من وصل إليهم أمير رياح مؤنس بن يحيى الصنبري فاستماله المعز واستدعاه واستخلصه لنفسه وأصهر إليه. وفأوضه في استدعاء العرب من قاصية وطنه للاستغلاظ على نواحي بني عمه. فاستنفر القرى وأتى عليهم فاستدعاهم فعانوا في البلاد وأظهروا الفساد في الأرض، ونادوا بشعار الخليفة المستنصر، وسرح إليهم من صنهاجة الأولياء فأوقعوا بها فتمخط المعز لكبره وأشاط بغضبه، وتقبض على أخي مؤنس وعسكر بظاهر القيروان، وبعث بالصرىخ إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حامد بن بلكين، فكتب إليه كنية من ألف فارس سرحهم إليه، استنفروا عن زناتة فوصل إليه المستنصر بن خزرون المغراوي في ألف فارس من قومه.

وكان بالبدو من إفريقية مع الناجعة من زناتة، وهو من أعظم ساداتهم. وارتحل المعز في أولئك نفر ومن لف لفهم من الأتباع والحشم والأولياء ومن في إيالهم من بقايا عرب الفتح، وحشد زناتة والبربر وصمد نحوهم في أمم لا تحصى يناهز عددهم

ولايته غلاماً يفعة ابن ثمان سنين، فلم يكن مجرباً للأمور ولا بصيراً بالسياسة، ولا كانت فيه عزة وأنفقة. ثم هلك الظاهر سنة سبع وعشرين وأربعمائة وولي المستنصر بالله معز الطويل أمر الخلافة بما لم ينله أحد من خلفاء الإسلام. يقال: ولي خساً وسبعين وقيل: خساً وتسعين، والصحيح ثلاث وسبعون لأن مهلكه كان على رأس المائة الخامسة، وكانت أذن المعز بن باديس صاغية إلى مذاهب أهل السنة، وربما كانت شواهدها تظهر عليه، وكبابة فرسه في أول ولايته لبعض مذاهبه فنادى مستغنياً بالشيخين أبي بكر وعمر، وسمعت العامة فثاروا بالرافضة وقتلوه وأعلنوا بالمتعقد الحق ونادوا بشعار الإيمان وقطعوا من الأذان حي على خير العمل. وأغضى عنه الظاهر من ذلك وابنه معز المتنصر من بعد. واعتذر بالعامه فقبل واستمر على إقامة الدعوة والمهاداة، وهو في أثناء ذلك يكتاتب وزيرهما وحاجب دولتهما المظطلع بأمورهما أبا القاسم أحمد بن علي الجرجاني ويستميله ويعرض ببني عبيد وشيعتهم. وكان الجرجاني يلقب بالأقطع بما كان أقطعه الحاكم بجناية ظهرت عليه في الأعمال، وانهضته السيدة بنت الملك عمة المستنصر.

فلما مات استبد بالدولة سنة أربع عشرة وأربعمائة إلى أن هلك سنة ست وثلاثين وولي الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن علي اليازوري أصله من قرى فلسطين، وكان أبوه ملاحاً بها. فلما ولي الوزارة خاطبه أهل الجهات، ولم يولوه فأنف من ذلك، فعظم عليه وحنق عليه ثمال بن صالح صاحب حلب والمعز بن باديس صاحب أفريقية، وانحرفوا عنه وحلف المعز ليفتضن طاعتهم وليحولن الدعوة إلى بني عباس، ويحولن اسم بني عبيد من منابره، ولج في ذلك وقطع أسماءهم من الطراز والرايات، ويباع القائم أبا جعفر بن القادر من خلفاء بني العباس، وخاطبه ودعا له على منابره سنة سبع وثلاثين وبعث بالبيعة إلى بغداد.

ووصله أبو الفضل البغدادي وحظي من الخليفة بالتقليد والخلع، وقرئ كتابه بجامع القيروان ونشرت الرايات السود وهدمت دار الإسماعيلية. وبلغ الخبر إلى المستنصر معد الخليفة بالقاهرة، وإلى الشيعة الرافضة من كتامة وصنائع الدولة فوجءوا وطلع عليهم المقيم المقعد من ذلك، وارتبكوا في أمرهم. وكان أحياء هلال هؤلاء الأحياء من جشم والأشبح وزغبة ورياح وربيعة وعدي في محلاتهم بالصعيد كما قدمناه. وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري باصطناعهم والتقدم لمشائخهم وتوليتهم أعمال أفريقية وتقليدهم أمرها ودفعهم إلى حرب صنهاجة ليكونوا عند نصر

المهدية فزّلوها، وضيقوا عليها بمنع المرافق وإفساد السابلة.

ثم حاربوا زنّانة من بعد صنهاجة وغلّبوهم على الضواحي، واتصلت الفتنة بينهم، وأغزاهم صاحب تلمسان من أعقاب محمد بن خزر جيوشه مع وزيره أبي سعدى خليفة اليفرنى فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة، واضطرب أمر إفريقية، وخرب عمرانها، وفسدت سابلتها. وكانت رئاسة الضواحي من زنّانة والبربر لبني يفرن ومغراوة وبني يمانوا وبني يلومان ولم يزل هذا دأب العرب وزنّانة حتى غلبوا صنهاجة وزنّانة على ضواحي إفريقية والزّاب، وغلّبوا عليها صنهاجة وقهروا من بها من البربر وأصاروهم عبيداً وخدماءً بياجة.

وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم إفريقية رجالات مذكورون. وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض، وينسبون هؤلاء في دريد بن الأثيج وماضي بن مقرب وينسبون في قرّة وسلامة بن رزق في بني كثير من بطون كرفة بن الأثيج وشبان بن الأحيمر وأخوه صليصل وينسبونهم في بني عطية من كرفة، وذباب بن غانم وينسبون في بني ثور، وموسى بن يحيى وينسبون في مرداس رباح لا مرداس سليم، فاحذر من الغلط في هذا. وهو من بني صنبر بطن من بطون مرداس رباح، وزيد بن زيدان وينسبون في الضحّاك، ومليحان بن عباس وينسبون في حمير، وزيد العجاج بن فاضل ويزعمون أنه مات بالحجاز قبيل دخولهم إلى إفريقية، وفارس بن أبي الغيث وعامر أخوه، والفضل بن أبي علي ونسبهم أهل الأخبار منهم في مرداس كل هؤلاء يذكرون في أشعارهم.

وكان زياد بن عامر رائدهم في دخول إفريقية ويسمونه لذلك أبا غيير، وشعوبهم لذلك العهد كما نقلناهم زغبة ورياح والأثيج وقرّة وكلهم من هلال بن عامر. وربما ذكر فيهم بنو عدي، ولم تقف على أخبارهم وليس لهم هذا العهد حي معروف، فلعلهم دثروا وتلاشوا وافترقوا في القبائل. وكذلك ذكر فيهم ربيعة، ولم نعرفهم لهذا العهد إلا أن يكونوا هم المقل كما تراه في نسبهم. وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية، والمقل من بطون اليمنية، وعمرة بن أسد من بني ربيعة بن نزار، وبني ثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة، وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان. وطروود بطن من فهم بن قيس، إلا أنهم كلهم مندرجون في هلال وفي الأثيج منهم خصوصاً، لأن الرئاسة كانت عند دخولهم للأثيج وهلال فأدخلوا فيهم وصاروا مندرجين في

فيما يذكر ثلاثين ألفاً. وكانت رياح وزغبة وعدي حيدران من جهة فاس. ولما تراحف الفريقان اتخذ بقية عرب الفتحة وتحيزوا إلى الهلالين للعصية القديمة، وخاتته زنّانة وصنهاجة، وكانت الهزيمة على المعز، وفر بنفسه وخاصته إلى القيروان، وانتهبت العرب جميع خلفه من المال والمتاع والذخيرة والفساطيط والرايات، وقتلوا فيها من البشر ما لا يحصى. يقال: إن القتلى من صنهاجة بلغوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة، وفي ذلك يقول علي بن رزق الرياحي كلمته. ويقال إنها لابن شدد وأولها:

لقد زار وهناً من أميم خيال وأبدي المطايا بالزميل عجال
وأن ابن باديس لأفضل مالك لعمرى، ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً منهم قد هزمتهم ثلاثة آلاف وذاك ضلال

ثم نازلوه بالقيروان وطال عليه أمر الحصار، وهلكت الضواحي والقرى بإفساد العرب وعيهم، وانتقام السلطان منهم بانتقامهم في ولاية العرب، ولجأ الناس إلى القيروان وكثر النهب واشتد الحصار، وفر أهل القيروان إلى تونس وسوسة، وعم النهب في البلاد والعيث في البلاد ودخلت تلك الأرض سنة خمس وأربعين، وأحاطت زغبة ورياح بالقيروان. ونزل موسى قريباً من ساحة البلد، وفر القراية والأعياص ممن أكل زير فولاهم موسى قابس وغيرها، ثم ملكوا بلاد قسطنطين كلها وغزا عامل ابن أبي الغيث منهم: زنّانة ومغراوة فاستباحهم ورجع.

واقسمت العرب بلاد إفريقية سنة ست وأربعين، وكان لزغبة طرابلس وما يليها، ولرداس بن رياح باجة وما يليها. ثم اقتسموا البلاد ثانية فكان لهلل من تونس إلى الغرب وهم: رياح وزغبة والمقل وجشم وقرّة والأثيج والخلط وسفيان وتصرم الملك من يد المعز، وتغلب عائد بن أبي الغيث على مدينة تونس وسبهاها وملك أبو مسعود من شيوخهم بونة صلحاً. وعامل المعز على خلاص نفسه، وصاهره بيناته ثلاثة من أمراء العرب: فارس بن أبي الغيث وأخاه عائذاً، والفضل بن أبي علي المرادي.

وقدم ابنه تميم إلى المهدية سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ولسنة تسع بعدها بعث إلى أصهاره من العرب وترحم بهم ولحق بهم بالقيروان، واتبعوه فركب البحر من الساحل، وأصلح أهل القيروان فأخبرهم ابنه المنصور بخبر أبيه، فساروا بالسودان والمنصور، وجاء العرب فدخلوا البلد واستباحوه واكتسحوا المكاسب وخرّبوا المباني وعاثوا في محاسنها، وطمسوا من الحسن والرونتق معالمها. واستصفوا ما كان لآل بلّكين في قصورها وشملوا بالعيث والنهب سائر من فيها وتفرق أهلها في الأقطار ف عظمت الرزية، وانتشر الداء وأعضل الخطب. ثم ارتحلوا إلى

في أخته الجازية فأثكحه إياها، وولدت منه ولداً اسمه محمد، وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة، وأجمعوا الرحلة عن نجد إلى أفريقية. وتحملوا عليه في استرجاع هذه الجازية فطلبته في زيارة أبيها فأزارها إياهم، وخرج بها إلى حللهم فارتحلوا به وبها. وكموا رحلتها عنه وموها عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقتص ويروحوون به إلى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه، وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم فقارقه، فرجع إلى مكانه من مكة وبين جوائحه من جبهها داء دخيل، وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفة إلى أن ماتت من جبه.

ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفى عن خبر قيس وكثير ويروون كثيراً من أشعارها بحكمة المباني متفقة الأطراف، وفيها المطبوع والمتحل والمصنوع، لم يفقد فيها من البلاغة شيء وإنما أدخلوا فيها بالإعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة كما قرناه لك في الكتاب الأول من كتابنا هذا. إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب، ومحسبون أن الإعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك. وفي هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم، وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم لكنها لا تنق بروايتها، وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه، وهذا قصارى الأمر فيه. وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفاً عن سلف، وجيلاً عن جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل المقلط لتواترها بينهم. وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم، وهو شكر بن أبي الفتح الحسن بن أبي جعفر بن هاشم محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله بن إدريس، وأبوه أبو الفتح هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدي وبايع له بنوا الجراح أمراء طي بالشام، ويعثوا عنه فوصل إلى أحيائهم وبايع له كافة العرب. ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدي ورجع إلى مكة، وهلك سنة ثلاثين وأربعمئة فولي بعده ابنه شكر هذا، وهلك سنة ثلاث وخمسين وولي ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهالليون أنه من الجازية هذه. وتقدم ذلك في أخبار العلوية. هكذا نسبة ابن حزم.

وقال ابن سعيد: هو من السليمانيين من ولد محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسين السبط الذي بايع له أبو الزاب الشيباني بعد ابن طباطبا، ويسمى الناهض. ولحق بالمدينة

جملتهم. وفرقة من هؤلاء الهالليين لم يكونوا من الذين أجازوا الفيل لعهد اليازوري أو الجرجاني. وإنما كانوا من قبل ذلك بركة أيام الحاكم العبيدي، ولهم فيها أخبار مع الصنهاجيين بركة والشيعية بمصر خطوط، ونسبهم إلى عبد مناف بن هلال كما ذكر شاعرهم في قوله:

طلبتنا القرب منهم وجزيل منهم بلا عيب من عرب ساحل جمودها
وبيت عرت أمره منا وبينها طرود أنكد اللسي يكودها
ماتت ثلاث آلاف مرة وأربعة بحرمه مناتداوي كودها

وقال الآخر منهم:

يا رب خير الخلق من نائع البلا إلا القليل انجار مالا يميزها
وخص بها قرة مناف وعينها دجا لأرياد البوادي تشيرها

فذكر نسبهم في مناف وليس في هلال، مناف هكذا منفرداً إنما هو عبد مناف والله تعالى أعلم. وكان شيخهم أيام الحاكم مختار بن القاسم. ولما بعث الحاكم يحيى بن علي الأندلسي لصريح فلقول بن سعيد بن خزروك بطرابلس على صنهاجة كما ذكره في أخبار بني خزروك، أوعز لهم السير معه، فوصلوا إلى طرابلس وجروا الهزيمة على يحيى بن علي ورجعوا إلى بركة. وبعث عنهم فامتنعوا، ثم بعث لهم بالأمان، ووصل وفداهم إلى الإسكندرية فقتلوا عن آخرهم سنة أربع وتسعين وثلاثمئة. وكان عندهم معلم للقرآن اسمه الوليد بن هشام ينسب إلى الغيرة بن عبد الرحمن من بني أمية. وكان يزعم أن لديه أثارة من علم في اختيار ملك آبائه، وقبل ذلك منه البرابرة من مزانة وزناتة ولواتة وتحدثوا بشأنه فنصبه بنو قرة ويايعوه بالخلافة سنة خمس وتسعين وتغلبوا على مدينة بركة. وزحف إليهم جيوش الحاكم فهزموها، وقتل الوليد بن هشام قائدها من الترك.

ثم زحفوا به إلى مصر فانهزموا، ولحق الوليد بأرض النجاء من بلاد السودان. ثم أخفرت ذمته وميق إلى مصر وقتل، وهدرت لبني قرة جنائهم هذه وعفا عنهم. ولما كانت سنة اثنتين وأربعمئة اعترضوا هدية باديس بن منصور ملك صنهاجة من إفريقية إلى مصر فأخذوها، وزحفوا إلى بركة فغلبوا العامل عليها، وفر في البحر واستولوا على بركة، ولم يزل هذا شأنهم بركة. فلما زحف إخوانهم الهالليون من زغبة ورياح والأثبيج وأتباعهم إلى إفريقية، كانوا ممن زحف معهم. وكان من شيوخهم ماضي بن مقرب المذكور في أخبار هلال.

ول هؤلاء الهالليين في الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق في الخبر غريبة: يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الخجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتح، وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان

صفصفاً أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، وغوروا المياه واحتطوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد، وهجروا ملوك إفريقية والمغرب من صنهجة وولاة أعمالهم في الأمصار، وملكوا عليهم الضواحي بتحفيرون جرائهم ويقعدون لهم بالمرصد، ويأخذون لهم الأتاوة على التصرف في أوطانهم.

ولم يزل هذا دأبهم حتى لقد هجر الناصر بن علناس سكتى القلعة، واختط بالساحل مدينة بجاية، ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لنزله. ونزلها المنصور ابنه من بعده فراراً من ضيم هذا الجبل وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال وتوعر مسالكها على رواحلهم، واستقروا بها بعد وتركوا القلعة. وكانوا يختصون الأتيج من هؤلاء الأحياء بالرئاسة سائر أيامهم. ثم افترق جمع الأتيج وذهبت بذهب صنهجة دولتهم. ولما غلب الموحدون سائر الدول بالمغرب في سني إحدى وأربعين وخمسمائة، وزحف شيخ الموحدين عبد المؤمن إلى إفريقية، وقد عليه بالجزائر أميران منهم لذلك العهد أبو الجليل بن شاعر أمير الأتيج وحباس بن مشيفر من رجالات جيشهم، فتلقاهما بالمرة وعقد لهما على قومهما ومضى لوجهه. وفتح بجاية سنة تسع وخمسين.

ثم انتفض العرب الهلاليون واعصوبوا على دعوة صنهجة، وكان أمير رباح فيهم محرز بن زناد بن بازخ إحدى بطون بني علي بن رباح، فلقيتهم جيوش الموحدين بسطيف وعليهم عبد الله بن عبد المؤمن فتواقفوا ثلاثاً علقوا فيها رواحلهم، وأثبتوا في مستنقع الموت أقدامهم، ثم انتفض في الرابعة جمعهم واستلحمهم الموحدون وغلبوا عليهم، وغنموا أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم واتبعوا أدبارهم إلى فحص سبتة، ثم راجعوا من بعد ذلك بصائرهم واستكانوا لغزو الموحدين وغلبهم، فدخلوا في دعوتهم وتمسكوا بطاعتهم، وأطلق عبد المؤمن أسراهم ولم يزلوا على استقامتهم، ولم يزل الموحدون يستنفرونهم في جهادهم بالأندلس، وربما بعثوا إليهم في ذلك المخاطبات الشعرية، فأجازوا مع عبد المؤمن ويوسف ابنه كما هو في أخبار دولتهم، ولم يزلوا في استقامتهم إلى أن خرج عن الدولة بنو غانية السوفيون أمراء موروقة، أجازوا البحر في أساطيلهم إلى بجاية فكسبوا سنة إحدى وثمانين وخمسمائة لأول دولة المنصور، وكشفوا القناع في نقض طاعة الموحدين، ودعوا العرب بها، فعادت هيف إلى أديانها.

وكانت قبائل جيشهم ورياح وجمهور الأتيج من هؤلاء الهلاليين أسرع إجابة إليها. ولما تحركت جيوش الموحدين إلى إفريقية لكف عدوانهم، تحيزت قبائل زغبة إليهم، وكانوا في

فاستولى على الحجاز واستقرت إمارة مكة في بيته إلى أن غلبهم عليها هؤلاء الهواشم. جداً قريباً من الحسن والحسين. وأما هاشم الأعلى فمسترك بين سائر الشرفاء، فلا يكون مميزاً لبعضهم عن بعض. وأخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر وأنها بقعة من أرض نجد مما يلي الفرات، وأن ولده بها لهذا العهد والله أعلم.

ومن مزاعمهم أن الجازية لما صارت إلى إفريقية وفارقت الشريف، خلفه عليها منهم ماضي بن مقرب من رجالات دريد، وكان المستنصر لما بعثهم إلى إفريقية عقد لرجالاتهم على أمصارها وثغورها، وقلدهم أعمالها، فعقد موسى بن يحيى المرداسي على القيروان وبجاية، وعقد لزغبة على طرابلس وقابس، وعقد لحسن بن سرحان على قسطنطينة، فلما غلبوا صنهجة على الأمصار، وملك كل ما عقد له سميت الرعايا بالأمصار عسفهم وعيهم باختلاف الأيدي، إذ الوازع مفقود من أهل هذا الجبل العربي مذ كانوا ثاروا بهم وأخرجوهم من الأمصار، وصاروا إلى ملك الضواحي والتغلب عليها، وسميت الرعايا بالخسف في النهب والعيث وإفساد السابلة، هكذا إلى هلم.

ولما غلبوا صنهجة اجتهد زناتة في مدافعتهم بما كانوا أملك للباس والتجدة بالبداوة، فحاربوهم ورجعوا إليهم من إفريقية والمغرب الأوسط، وجهاز صاحب تلمسان من بني خزر قائده أبا سعدى اليفرنى فكانت بينهم وبينه حروب إلى أن قتلوه بنواحي الزاب، وتغلبوا على الضواحي في كل وجه. وعجزت زناتة عن مدافعتهم بإفريقية والزاب. وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد، ومصاب من بلاد المغرب الأوسط. فلما استقر لهم الغلب وضعت الحرب أوزارها وصالحهم الصنهاجيون على خطة خسف في انفرادهم بملك الضواحي دونهم، وصاروا إلى التفريق بينهم، وظهروا الأتيج على رباح وزغبة، وحشد الناصر بن علناس صاحب القلعة لمظاهرتهم وجمع زناتة.

وكان فيهم المعز بن زيري صاحب فاس من مغراوة ونزلوا الأرنس جميعاً. ولقيهم رباح وزغبة بسببه.

ومكر المعز بن زيري المغراوي بالناصر وصنهجة بدسيسة زعموا من تميم بن المعز بن باديس صاحب القيروان، فجر عليهم الهزيمة واستباح العرب وزناتة خزائن الناصر ومضاربه، وقتل أخوه القاسم ونجا إلى قسطنطينية ورياح في أتباعه. ثم لحق بالقلعة فنالوها وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجروا على ما هنالك من الأمصار، ثم طنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضباع والمدن فتركوها قاعاً

جملتهم، ولحق بنو غانية بفاس ومعهم كافة جيشهم ورياح، ولحق بهم جل قومهم من مسوفة وإخوانهم لثونة من أطراف البقاع، واستمسكوا بالدعوة العباسية التي كان أمراؤهم بنو تاشفين بالمغرب يتمسكون بها، فأقاموها فيمن إليهم من القبائل والمسالك ونزلوا بفاس.

وطلبوا من الخليفة ببغداد المستنصر تجديد العهد لهم بذلك، وأوفدوا عليه كاتبهم عبد البر بن فرسان، فعقد لابن غانية وأذن له في حرب الموحدنين. واجتمعت إليه قبائل بني سليم بن منصور، وكانوا جاؤوا على أثر الهلاليين عند إجازتهم إلى إفريقية، وظاهره على أمره ذلك قراقوش الأرمي. ونذكر أخباره في أخبار الميروقي، فاجتمع لعلي بن غانية من المثلثين والعرب والعجم عساكر جمة، وغلب الضواحي وافتتح بلاد الجريد، وملك قصعة وتوزر ونفطة. ونهض إليه المنصور من مراکش يجير أمم المغرب من زناتة والمصامدة وزغبة من الهلاليين وجمهور الأثيج، فأوقسوا بمقدمته بفحت غمرة من جهات قصعة. ثم زحف إليهم من تونس فكانت الكرة عليهم، وقلّ جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردهم إلى صحاري بركة، وانتزع بلاد قسطنطية وقابس وقصعة من أيديهم، وراجعت قبائل جيشهم ورياح من الهلاليين طاعته ولاذوا بدعوته فنفاهم إلى المغرب الأقصى. وأنزل جيشهم ببلاد تامستا، ورياحاً ببلاد الهبط وأزغار عما يلي سواحل طنجة إلى سلا.

وانهزمت طائفة من قوم محمد بن مسعود منهم: ابنه عبد الله وابن عمه حركات بن أبي الشيخ بن عساكر بن سلطان، وشيخ من شيوخ قرّة، فضرب أعناقهم. وفر يحيى بن غانية إلى مسقطه من الصحراء. واستمرت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم واتباعها.

ونحن الآن نذكر أخبارهم ومصائر أمورهم ونعدهم فرقة فرقة، ونخص منهم بالذكر من كان لهذا العهد بحية وناجيته، ونطوي ذكر من انقرض منهم، ونبدأ بذكر الأثيج لتقدم رئاستهم أيام صنهاجة كما ذكرناه. ثم نقفي بذكر جيشهم لأنهم معدودون فيهم. ثم نذكر رياحاً وزغبة، ثم المعقل لأنهم من عداد هلال. ثم نأتي بعدهم بذكر سليم لأنهم جاؤوا من بعدهم والله الخلاق العليم.

الخبر عن الأثيج ويطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة

كان هؤلاء الأثيج من الهلاليين أوفر عدداً وأكثر بطوناً وكان التقدم لهم في جملتهم. وكان منهم: الضحّاك وعبّاض ومقدم والعاصم ولطيف ودريد وكرفة وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم. وفي دريد بطنان: توبة وعتر، ويقولون بزعمهم: إن أثيج هو ابن أبي ربيعة ابن نهيك بن هلال. فكرفة هو ابن الأثيج. وكان لهم جمع وقوة، وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية، وكانت مواطنهم حبال جبل أوراس من شرقية. ولما استقر أمر الأثيج بإفريقية على غلب صنهاجة على الضواحي ووقعت الفتنة بينهم، ولذلك أن حسن بن سرحان وهو من دريد قتل شبانة بن الأحيمر من كرفة غيلة، فطوت كرفة له على الهائم.

ثم إن أخته الجازية غاضبت زوجها ماضي بن مقرب بن قرّة، ولحقت بأخيها فمنعها منه، فاجتمعت قرّة وكرفة على فتنة حسن وقومه، وظاهرتهم عبّاض، ولم تزل الفتنة إلى أن قتل حسن

وكانت تخوم بلاد زناتة منذ غلبهم الهلاليون على إفريقية وضواحيها أرض مصاب ما بين صحراء إفريقية وصحراء المغرب الأوسط، وبها قصور اتخذوها فسميت بإسم من ولي خطتها من شعوبهم. وكان بنو بادين وزناتة وهم بنو عبد الواد وتوجين ومصاب وبنو زردال وبنو راشد شيعة للموحدين منذ أول دولتهم، فكانوا أقرب إليهم من أمثالهم بنو مريس وأنظارهم كما يأتي. وكانوا يتولون من أرياف المغرب الأوسط وتلوه ما ليس يليه أحد من زناتة، ويجوسون خلاله في رحلة الصيف بما لم يؤذن لأحد من سواهم في مثله حتى كأنهم من جملة عساكر الموحدين وحاميتهم. وأمرهم إذ ذاك راجع إلى صاحب تلمسان من سادة القرابة، ونزل هذا الحي من زغبة مع بني بادين هؤلاء لما اعتزلوا إخوانهم الهلاليين ونحيزوا إلى فتحهم، وصاروا جميعاً قبله المغرب الأوسط من مصاب إلى جبل راشد، بعد أن كانت قسمتهم الأولى بقابس وطرابلس.

وكانت لهم حروب مع أولاد خزرون أصحاب طرابلس. وقتلوا سعيد بن خزرون فصاروا إلى هذا الوطن الآخر لفتنة ابن غانية، وأخرافهم عنه إلى الموحدين وانعقد ما بينهم وبين بني بادين

وكانت لهم حروب مع أولاد خزرون أصحاب طرابلس. وقتلوا سعيد بن خزرون فصاروا إلى هذا الوطن الآخر لفتنة ابن غانية، وأخرافهم عنه إلى الموحدين وانعقد ما بينهم وبين بني بادين

ذكرناه، وقبره هنالك. وكانوا بطوناً كثيرة منهم أولاد عطية بن دريد وأولاد سرور بن دريد وأولاد جبار الله من ولد عبد الله بن دريد. وتوبة من ولد عبد الله أيضاً وهو توبة بن عطف بن جبر بن عطف بن عبد الله، وكانت لهم بين هلال رئاسة كثيرة ومدهم شعراؤهم بشعر كثير، فمن ذلك قول بعض شعرائهم:

دريد ذات سراة البد وللجود متنع كما كل أرض متنع الماء خيارها
نحن إلى أوطان مرة ناقتي لكن معها جملة دريد كان موارها
وهم عربوا الأعراب حتى تمررت بنوف المعالي ما ينفي قصارها
وتركوا طريق النار برهة وقد كان ما تقوى المطايا حجارها

فأما أولاد عطية فكانت رئاستهم في أولاد بني مبارك بن حباس، وكانت لهم تلة بن حلف من أرض قسطنطينة. ثم دثروا وتلاشوا، وغلبتهم توبة على تلة بن حلف زحفوا إليها من مواطنهم بطارف مصقلة فملكوها وما إليها. ثم عجزوا عن رحلة الفقر وتركوا الإبل واتخذوا الشاة والبقر وصاروا في عداد القبائل الغامرة. وربما طالبهم السلطان بالمسكرة معه فيقتنون له جنداً منهم. ورئاستهم في أولاد وشاح بن عطوة بن عطية بن كمون بن فرج بن توبة، وفي أولاد مبارك بن عابد بن عطية بن عطوة وهم على ذلك لهذا العهد. ويجاورهم أولاد سرور وأولاد جبار الله على سنتهم في ذلك.

فأما أولاد وشاح فرئاستهم لهذا العهد منقسمة بين سجم بن كثير بن جماعة بن وشاح وبين أحمد بن خليفة بن رشاش بن وشاح. وأما أولاد مبارك بن عابد فرئاستهم أيضاً منقسمة بين نجاح بن محمد بن منصور بن عبيد بن مبارك، وعبد الله بن أحمد بن عنان بن منصور ورثها عن عمه راجح بن عثمان بن منصور، وأما أولاد جبار الله فرئاستهم في ولد عنان بن سلام منهم. وأما العاصم ومقدم والضحاك وعباض فهم أولاد مشرف بن أثبيج، ولطيف وهو ابن سرح بن مشرف، وكان لهم عدد وقوة بين الأثبيج.

وكان العاصم ومقدم انحرفوا عن طاعة الموحيدين إلى ابن غانية، فأشخصهم يعقوب المنصور إلى المغرب، وأنزلهم تامتا مع جشم، ويأتي خبرهم، ويقت عباض والضحاك بمواطنهم بإفريقية: فعباض نزلوا بجبل القلعة، قلعة بني حماد وملكوا قبائله وغلبوهم على أمرهم، وصاروا يتولون جبايتهم، ولما غلبت عليهم الدولة بمظاهرة رياح صاروا إلى المدافعة عن تلك الرعايا وجبايتهم للسلطان. وسكنوا ذلك الجبل بطوله من المشرق إلى المغرب ما بين ثنية غنية والقصاب إلى وطن بني يزيد بن زغبة. فأولهم مما يلي غنية للمهاية، ورئاستهم في أولاد ديفل، ومعهم بطن منهم يقال

بن سرحان، قتله أولاد شبانة بن الأحيمر، وثأروا منه بأبيهم. ثم كان الغلب بعده لدريد على كرفة وعباض وقرّة، واستمرت الفتنة بين هؤلاء الأثبيج وافترق أمرهم. وجاءت دولة الموحيدين وهم على ذلك الشتات والفتنة، وكانت لبطونهم ولاية لصنهاجة. فلما ملك الموحدون إفريقية نقلوا منهم إلى المغرب العاصم ومقدماً وقرّة وتوابع لهم من جشم، وأنزلوا جميعهم بالمغرب كما نذكر.

واعترزت رياح بعدهم بإفريقية وملكوا ضواحي قسطنطينة، ورجع إليهم شيخهم مسعود بن زمام من المغرب فاعتز الدواودة على الأمراء والدول. وساء أثرهم فيها وغلبوا بقايا الأثبيج، فنزلوا قرى الزاب، وقعدوا عن الطعن وأوطنوا بالقرى والأطام. ولما نبذ بنو أبي حفص العهد للدواودة كما يأتي في أخبارهم واستجاش عليهم بنو سليم وأنزلوهم القيروان، اصطنعوا كرفة من بطون الأثبيج، فكانوا حرباً لرياح وشيعة للسلطان، وأقطعتهم الدولة لذلك جباية الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيراً من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت غلاتهم الشتوية، حتى إذا اختل ربح الدولة، وأخلقت جذبتها واعتزت رياح عليها وملكوا المجالات على من يظعن فيها نزل كرفة هؤلاء بجبل أوراس حيث إقطاعاتهم وسكنوه حلاً متفرقة واتخذوه وطناً.

وربما يظعن بعضهم إلى تخوم الزاب كما نذكر عن بطونهم وهم بطون كثيرة، فأولهم: بنو محمد بن كرفة ويعرفون بالكليية، وأولاد سهيب بن محمد بن كليب ويعرفون بالشيه، وأولاد صبيح بن فاضل بن محمد بن كليب ويعرفون بالصبيحة، وأولاد سرحان بن فاضل أيضاً ويعرفون بالسرحانية، وهؤلاء هم المودعات وهم موطنون بجبل أوراس مما يلي زاب تهود. ثم أولاد نابت بن فاضل، وهم أهل الرئاسة في كرفة وهم إقطاعات السلطان التي ذكرناها، وهم ثلاثة أفخاذ: أولاد مساعد وأولاد ظافر وأولاد قطيفة. والرئاسة أخص بأولاد مساعد في أولاد علي بن جابر بن فتاح بن مساعد بن نابت. وأما بنو محمد والمروانة فهم طواغن جائلة في القفار تلقاء مواطن أولاد نابت. ويكتالون الحبوب لأقواتهم من زروع أهل الجبل، وأولاد نابت. وربما يستعملهم صاحب الزاب في تصاريق أمره من عسكر وإخفار وغير ذلك من أغراضه.

وأما دريد فكانوا أعز الأثبيج وأعلامهم كعباً بما كانت الرئاسة على الأثبيج كلهم عند دخولهم إلى إفريقية لحسن بن سرحان بن وبرة إحدى بطونهم، وكانت مواطنهم ما بين العناب إلى قسطنطينة إلى طارف مصقلة، وما يجاذبها من القفر. وكانت بينهم وبين كرفة الفتنة التي هلك فيها حسن بن سرحان كما

لم الزير، وبعدهم المرتفع والخراج من بطونهم.

فاما المرتفع فثلاثة بطون: أولاد تبان ورتاستهم في أولاد محمد بن موسى، وأولاد حناش ورتاستهم في بني عبد السلام، وأولاد عبدوس ورتاستهم في بني صالح. ويدعى أولاد حناش وأولاد تبان جميعاً أولاد حناش. وأما الخراج فرتاستهم لأولاد زائد بني عباس بن خفير ويجاوز الخراج من جانب الغرب أولاد صخر، وأولاد رحمة من بطون عياض، وهم مجاورون لبني يزيد بن زغبة في آخر وطن الأتيح من الهلاليين. وأما الضحاك فكانوا بطوناً كثيرة، وكانت رتاستهم مفترقة بين أمرين منهم، وهما أبو عطية وكتب بن منيع، وغلب كلب أبا عطية على رئاسة قبيلتهما لأول دولة الموحدين، فارتحل فيما زعموا إلى المغرب، وسكن صخر سبجلماسة، وكانت له فيها آثار حتى قتله الموحدون أو غريبوه إلى الأندلس، هكذا ينقل أصحاب أخبارهم، وبقي تجمعهم بالزباب حتى غلب مسعود بن زمام والدواودة عليهم وأصاروهم في جملتهم.

ثم عجزوا عن الطعن، ونزلوا بلاد الزاب واتخذوا بها المدن، فهم على ذلك لهذا العهد. وأما لطيف فهم بطون كثيرة منهم اليتامى وهم أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف بني ذوي مطرف وذوي أبي الخليل وذوي جلال بن معافى. ومنهم اللقمان أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف ومنهم: أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان، ونزار بن معن بن محيا بن جري بن علوان، وجرير يزعمون أنهم من محيا بن جري، ومزنة من ديفل بن محيا؛ وإليه يرجع نسب بني مزنى الولاية بالزباب لهذا العهد.

وكان للطيف هؤلاء كثرة ولحجة. ثم عجزوا عن الطعن وغلبهم على الضواحي الدواودة من بعدهم لما قل جمعهم وافترق ملوكهم، وصار إلى المغرب من صار منهم من جمهور الأتيح فاهتموا، وعليهم رياح والدواودة فزلوا بلاد الزاب، واتخذوا بها الأنظام والمدن مثل الدوسن وغريوا وتهودة وتومة وبادس. وهم لهذا العهد من جملة الرعايا الغارمة لأمر الزاب. ولهم عنجبية منذ رتاستهم القديمة لم يفارقوها، وهم على ذلك لهذا العهد. وبينهم في قصورهم بالزباب فتن متصلة بين المتجاورين منهم، وحروب وقتل. وعامل الزاب يدرأ بعضاً ببعض، ويستوفي جبايته منهم جميعاً والله خير الوارثين.

ويلحق بهؤلاء الأتيح العمور، ويغلب على الظن أنهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال إخوة قرة بن عبد مناف وليسوا من ولد عمر بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، لأن رياحاً وزغبة والأتيح من أبي ربيعة، ولا نجد بينهم انتماء بالجملة. ونجد بينهم

وبين قرة وغيرهم من بطون هلال الانتماء، فدل على أنهم لعمرو بن عبد مناف، أو يكونون من عمرو بن ربيعة بن عبد الله بن هلال، وكلهم معروف. ذكره ابن الكلبي والله أعلم بذلك. وهم بطنان: قرة وعبد الله، وليس لهم رئاسة على أحد من هلال ولا ناجعة تظعن لقتلهم وافتراق ملتهم إنما هم ساكنون بالضواحي والجبال، وفيهم الفرسان وأكثرهم رجاله ومواطنهم ما بين جبل أوراس شرقاً إلى جبل راشد. وكان كل ذلك من ناحية الحضنة والصحرَاء. وأما التلول فهم مدفوعون عنها بقتلهم وخوفهم من حامية الدول، فتجدهم أقرب إلى موطن القفر والجذب.

فأما بنو قرة منهم فبطن متسع إلا أنهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا. وبنو عبد الله منهم على رئاسة فيهم وهم: عبد الله بن علي وبنوه: محمد وماضي بطنان، وولد محمد: عنان وعزيز بطنان، وولد عنان: شكر وفارس بطنان. من ولد شكر أولاد يحيى بن سعيد بن بسيط بن شكر بطن أيضاً. فأما أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضي فموطنهم بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب، متصلين كذلك غرباً إلى مواطن غمرة، وهم في جوار رياح وتحت أيديهم، وخول لأولاده وخصوصاً من الدواودة المتولين موطنهم بالمجال. ولصاحب الزاب عليهم طاعة لقرب جواره وحاجتهم إلى سلطانه، فيصرفهم لذلك في حاجته متى عنت من إخفار العبر ومقارفة مدن الزاب مع رجله وغير ذلك.

وأما أولاد شكر وهم أكبر رئاسة فيهم فزلوا جبل راشد، وكانوا فريقين فزلوا واحتربوا وغلب أولاد محيا بن سعيد منهم أولاد زكرير ودفعوهم عن جبل راشد، فصاروا إلى جبل كسال محاذيه من ناحية الغرب وأوطنوه، واتصلت فتنهم معهم على طول الأيام وافتتحهم رجال زغبة باقتسام المواطن، فصار أولاد يحيى أهل جبل راشد في إيالة سويد بن زغبة وأحلافاً لهم، وأولاد زكرير أهل جبل كسال في إيالة بني عامر وأحلافاً لهم، وربما يقتحمون بادية زغبة مع النضر أحلافاً لهم في فتنهم كما نذكر في أخبار زغبة.

وكان شيخهم من أولاد محيا فيما قرب من عهدنا عامر بن أبي يحيى بن محيا. وكان له فيهم ذكر وشهرة. وكان يتحلل العبادة وحج ولقي بمصر شيخ الصوفية لعصره يوسف الكوراني، وأخذ عنه ولقن طرق هدايته ورجع إلى قومه وعاهدهم على طريقته وغلته فاتبعه الكثير منهم، وغزا المفسدون من بادية النضر في جواره، وجاهدتهم إلى أن اغتالوه بعض الأيام في الصيد فقتلوه، وكان شيخ أولاد زكرير يغمور بن موسى بن بوزير بن زكرير،

الأربع، وأحياء كل واحدة منها وتحقق الكلام في أنسابهم، فليست راجعة إلى جيش على ما يتبين. ولكن الشهرة بهذا النسب متصلة والله أعلم بحقائق الأمور.

هذه القبائل معدودة في جيش، وجيش المعهود هو جيش بن معاوية بن بكر بن هوازن أو لعلّه جيش آخر من غيرها. وكان شيخهم المشهور لعهد المأمون وبينه جرمون بن عيسى، ونسبه فيما يزعم بعض المؤرخين أيام الموحدين في بني قره، وكانت بينهم وبين الخلط شعبة للمأمون وبينه فصار سفيان لذلك شعبة لبحيى بن الناصر منازعه في الخلافة بمراكش.

ثم قتل الرشيد مسعود بن حيدان شيخ الخلط كما نذكره بعد، فصاروا إلى يحيى بن الناصر. وصار سفيان إلى الرشيد. ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق أمير بني مرين حياءً مما وقع له معه، وذلك سنة ثمان وثلاثين. وذلك أنه ناداه ذات ليلة حتى سكر وحمل عليه وهو سكران يرقص فرقص طرباً، ثم أفاق فندم وفرّ إلى محمد بن عبد الحق، وذلك سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها. وعلا كعب كانون ابنه من بعده عند السعيد، وخالف عليه عند نهوضه إلى بني مرين سنة ثلاث وأربعين ورجع إلى أزمور فملكها.

وفت ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته، وقصد كانون بن جرمون فقر أمامه، وحضر حركته إلى تامزردكت، وقتل قبل مهلكه يوم قتله الخلط في فتنة وقعت بينهم في حلة السعيد، وهي التي جرت عليها تلك الواقعة. وأقام بأمر سفيان من بعده أبوه يعقوب بن جرمون، وقتل محمد ابن أخيه كانون. وقام بأمر سفيان، وحضر مع المرتضى حركة أمان إيملولين سنة تسع وأربعين فرحل عن السلطان واختل عسكره ورجع فاتبعه بنو مرين وكانت الهزيمة.

ثم رجع المرتضى وعفا له عنها، ثم قتله سنة تسع وخمسين مسعود وعلي ابن أخيه كانون بثار أبيهما، ولحقا يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين، وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام بأمره، فقدم عمه عبيد الله بن جرمون فعجز، فقدم مسعود بن كانون ولحق عبد الرحمن ببني مرين، ثم تقبض المرتضى على يعقوب بن قيطون شيخ بني جابر وقدم عوضاً منه يعقوب بن كانون السفياي. ثم راجع عبد الرحمن بن يعقوب سنة أربع وخمسين فتقبض عليه واعتقل، وأقام مسعود بن كانون شيخاً على سفيان، وكان لابني عمه معه ظهور وهما: حطوش وعيسى ابنا

وكان يسامي عامراً ويناهضه في شرفه إلا أن عامراً كان أسود منه بنحلة العبادة والله مصرف الأمور والخلق اهـ.

الخبر عن جيش الموطنين بسائط المغرب وبطونهم من هذه الطبقة

هؤلاء الأحياء بالمغرب لهذا العهد فيهم بطون من قره والعاصم، ومقدم والأنبج وجشم والخلط. وغلب عليهم جميعاً اسم جيش فعرفوا به. وهم: جيش بن معاوية بن بكر بن هوازن. وكان أصل دخولهم إلى المغرب: أن الموحدين لما غلبوا على إفريقية أذعن لهم هؤلاء القبائل من العرب طوعاً وكرهية. ثم كانت فتنة ابن غانية فأجلبوا فيها وانحرفوا عن الموحدين، وأرجعوا الطاعة لعهد المنصور فنقل جمهور هؤلاء القبائل إلى المغرب ممن له كثرة وشوكة وظواعن ناجعة. فنقل العاصم ومقدم من بطون الأنبج، ومعهم بطون ونقل جيش هؤلاء الذين غلب اسمهم على من معهم من الأحياء وأنزلهم تامستا. ونقل رياحاً وأنزلهم الهبط فنزل جيش بتامستا البسيط الأنبيح ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأقصى، وأبعدها عن الثنايا المقضية إلى القفار لإحاطة جبل درن بها وشموخه بأنفه حذاءها، ووشوج أعراقه حجراً عليها فلم يتجعوا بعدها قفراً ولا أبعداو رحلة، وأقاموا بها أحياء حلولاً، وافتزقت جيوشهم بالمغرب إلى الخلط وسفيان وبني جابر.

وكانت الرئاسة لسفيان من بينهم في أولاد جرمون سائر أيام الموحدين، ولما وهن أمر بني عبد المؤمن وفشلوا وذهبت ريجهم استكثروا بجموعهم، فكانت لهم سورة غلب واعتزاز على الدولة بكثرتهم وقرب عهدهم بالبدواة، وضربوا بين الأعياص، وظاهروا الخلافة وأكثروا الفساد وسائر آثارهم في البغي.

ولما اقتحم بنو مرين بلاد المغرب على الموحدين وملكوا فاس وقربتها لم تكن فيه حامية أشد منهم بأساً ومن رياح لقرب العهد بالبدواة، فكانت لهم معهم وقائع وحروب استلحهم فيها بنو مرين إلى أن حق الغلب واستكانوا لعزّ بني مرين وصولتهم، وأعطوهم صفة الطاعة وأصهر بنو مرين منهم إلى الخلط في بنت بني مهلهل فكان في جملة بني مرين، وكانت لهم الجولة للملك. واستقرت رئاسة جيش وكثرهم في الخلط منهم، في بنت مهلهل بعد أن كانت على عهد الموحدين في سفيان.

ثم ضربت الأيام ضرباتها وأخلقت جدتهم وفشلوا وذهبت ريجهم، ونسوا عهد البدواة والناجعة وصاروا في عداد القبائل الغارمة للجباية والعسكرة مع السلطان. ولنذكر الآن فرقهم

مقدم بن محمد بن هبيرة بن عواج لا نعرف من نسبه أكثر من هذا. فلما ولي العادل بن منصور خالفوا عليه وهزموا عساكره وبعث هلال ببيعته إلى المأمون سنة خمس وعشرين واتبعه الموحدون في ذلك وجاء المأمون وظاهره على أمره، وتحيز أعداؤهم سفيان إلى يحيى بن الناصر منازعه. ولم يزل هلال مع المأمون إلى أن هلك في حركة سبته وباعه بعده لابنه الرشيد وجاء به إلى مراكش وهزم سفيان واستباحهم.

ثم هلك هلال وولي أخوه مسعود، وخالف على الرشيد عمر بن أوقاريط شيخ المساكنة من الموحدين، وكان صديقاً لمسعود بن حميدان، فأغراه بالخلاف على إكسر السلطان فخالف، وحاول عليه الرشيد حتى قدم عليه بمراكش وقتله في جماعة من قومه سنة اثنتين وثلاثين، وولي أمر الخلط بعده يحيى ابن أخيه هلال وتحيز بقومه إلى يحيى بن القاص وحصلوا مراكش ومعهم ابن أوقاريط. وخرج الرشيد إلى سجلماسة واستولوا على مراكش وعاثوا فيها. ثم جاء الرشيد سنة ثلاث وثلاثين وغلّبهم عليها ولحق ابن أوقاريط بالأندلس.

وأبدي علي بن هود بيعة الخلط، وعلموا أنها حيلة من ابن أوقاريط وأنه تخلص من الورطة، فطردوا عنهم يحيى بن الناصر إلى معقل. وراجعوا الرشيد فقبض على علي وشاح ابني هلال وسجنهم بأزمور سنة خمس وثلاثين. ثم أطلقهم ثم غدر بعد ذلك بمشيتهم بعد الاستدعاء والتأيس وقتلهم جميعاً مع عمر بن أوقاريط، كان أهل إشبيلية يعثوا به إليه، ثم حضروا مع السعيد في حركته إلى بني عبد الواد وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بفتنتهم مع سفيان يومئذ، فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم إلى أن تقبض على أشياخهم سنة اثنتين وخمسين وقتلهم. ولحق عواج بن هلال ببني مرين، وقدم المرتضى عليهم علي بن أبي علي من بيت الرئاسة فيهم. ثم رجع عواج سنة أربع وخمسين وأغزاه علي بن أبي علي فقتل في غزاته.

ثم كانت واقعة أم الرجلين على المرتضى سنة ستين، فرجع علي بن أبي علي إلى بني مرين. ثم صار الخلط كلهم إلى بني مرين وكانت الرئاسة فيهم لأول سلطان لبني مرين لمهلل بن يحيى من مقدم، وأصهر إليه يعقوب بن عبد الحق فأنكحه ابنته التي كان منها ابنه السلطان أبو سعيد. ولم يزل مهلهل عليهم إلى أن هلك سنة خمس وتسعين، ثم ابنه عطية. وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنه أبو الحسن، وبعثه سفيراً إلى سلطان مصر الملك الناصر.

ولما هلك قام بأمره أخوه عيسى بن عطية، ثم ابن أخيهما زمام بن إبراهيم بن عطية. وبلغ إلى البالغ من العز والترف والدالة

يعقوب بن جرمون. ونزع مسعود عن يعقوب مقامه إلى أن هلك سنة ست وستين ابن عبد الحق ولحق بسكورة وشب نار الفتنة والحرب، وأقيم حطوش بن يعقوب مقامه إلى أن هلك سنة تسع وستين فولي مكانه أخوه عيسى وهلك مسعود بمسكورة سنة ثمانين ولحق ابنه منصور بن مسعود بالسكسيوي إلى أن راجع الخدمة أيام يوسف بن يعقوب، ووقد عليه بعسكره من حصار تلمسان سنة ست وسبعمئة فتقبله.

واتصلت الرئاسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء إلى عهدنا. وأدركت شيخاً لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى. وكان سفيان هؤلاء حياً حلولاً بأطراف تامستا مما يلي أسفى، وملك بسائطها الفسيحة عليهم الخلط، وبقي من أحيائهم الحرث والكلابية يتجمعون أرض السوس وقفاره، ويطلبون ضواحي بلاد جاجة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس، ورثاستهم في أولاد مطاوع من الحرث، وطال عيثم في ضواحي مراكش وإفسادهم، فلما استبد سلطان مراكش الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوس علي ابن السلطان أبي علي سنة ست وسبعين وسبعمئة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم. واستقدمهم بعض أيامه للعرض بفرسانهم ورجلهم على العادة، وشيخهم منصور بن يعيوش من أولاد مطاوع، وتقبض عليهم أجمعين، وقتل من قتل منهم وأودع الآخرين سجنونه فذهبوا مثلاً في الأيام، وحصدت شوكتهم والله قادر على ما يشاء.

الخلط من جشم

هذا القبيل يعرف بالخلط وهم في عداد جشم هؤلاء، لكن المعروف أن الخلط بنو المتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب، كلهم شيعة للقرامطة بالبحرين. ولما ضعف أمر القرامطة استولى بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة، ثم غلبهم عليها بنو أبي الحسين من بطون تغلب بالدعوة العباسية، فارتحل بنو سليم وبنو المتفق من هؤلاء المسجون بالخلط إلى إفريقية، وبقي سائر بني عقيل بنواحي البحرين إلى أن غلب منهم على التغلبيين بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف بن مالك بن عوف بن عامر بن عقيل إخوة الخلط هؤلاء، لأنهم في المغرب منسوبون إلى جشم تخلطاً في النسب ممن يحققه من العوام.

ولما أدخلهم المنصور إلى المغرب كما قلنا استقروا ببسائط تامستا، فكانوا أولي عدد وقوة، وكان شيخهم هلال بن حميدان بن

على المغرب.

وطلبه عمر فأخرجه عنهم وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة، فكرته الدولة، وتقبض عليه وأودع السجن فمكث فيه سنين وتحافت الدول عنه من بعد ذلك، وأطلق عقابهم. ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ابن السلطان عبد العزيز وأودعه السجن، ونقلوا الرئاسة عن بني علي هؤلاء، والله يقلب الليل والنهار. وقد يزعم كثير من الناس أن ورديقة من بني جابر ليسوا من جشم، وأنهم بطن من بطون سدراتة إحدى شعوب لواتة من البربر، ويستدلون على ذلك بمواطنهم وجوارهم للبربر، والله أعلم بحقيقة ذلك.

العاصم ومقدم من الأثيج

هؤلاء الأحياء من الأثيج - كما ذكرنا في أنسابهم - ونزلوا تامستا معهم، وكانت لهم عزة وعلواء، إلا أن جشم أعز منهم لمكان الكثرة. وكان موطنهم بسيط تامستا، وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية شأن إخوانهم من جشم. وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين، ثم عهد المأمون منهم حسن بن زيد، وكان له أثر في فتنة يحيى بن الناصر. ولما هلك سنة ثلاث وثلاثين أمر الرشيد بقتل حسن بن زيد مع قائد وفائد ابني عامر شيوخ بني جابر فقتلوا جميعاً. ثم صارت الرئاسة لأبي عياد وبنيه، وكان بينهم لعهد بني مرين عياد بن أبي عياد، وكان له تغلب في الفترة والاستقامة، فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة، وفر إلى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة، ولم يزل ذابها هذا. وكانت له ولاية مع يعقوب بن عبد الحق من قبل ذلك، ومقاماته في الجهاد المذكورة، وبقيت رئاسته في بنيه إلى أن انقرض أمرهم وأمر مقدم وذرخوا وتلاشوا. والله خير الوارثين.

الخبر عن رياح ويطونهم من هلال بن عامر

من هذه الطبقة الرابعة

كان هذا القبيل من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعاً عند دخولهم إفريقيا وهم فيما ذكره ابن الكلبي: رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، وكانت رئاستهم حيتيل لموسى بن يحيى الصنبري من بطون مرداس بن رياح. وكان من رجالاتهم لذلك العهد الفضل بن علي المذكور في حروبهم مع صنهاجة، وكانت بطنهم: عمرو ومرداس، وعلى كلهم بنو رياح وسعيد بن رياح

على السلطان والقرب من مجلسه إلى أن هلك، فولي أمره ابنه أحمد بن إبراهيم، ثم غلغوه سليمان بن إبراهيم، ثم أخوهما مبارك على مثل حالهم أيام السلطان أبي عنان، ومن بعده إلى أن كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبي سالم، واستولى على المغرب أخوه عبد العزيز وأقطع ابنه أبا الفضل ناحية مراكش، فكان مبارك هذا معه.

ولما تقبض على أبي الفضل تقبض على مبارك وأودع السجن إلى أن غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد وقتله، فقتل معه مبارك هذا لما كان يعرف به من صحابته ومداخلته في الفتن كما يذكر في أخبار بني مرين، وولي ابنه محمد على قبيل الخلط، إلا أن الخلط، إلا أن الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الأفيج زيادة للرز والدعة، فساكنتهم السنون وذهب بهم الترف والله غالب على أمره.

بنو جابر بن جشم

بنو جابر هؤلاء من عداد جشم بالمغرب، وربما يقال: إنهم من سدراتة إحدى فرق زناتة أو لواتة والله أعلم بذلك. وكان لهم أثر في فتنة يحيى بن الناصر بما كانوا معه من أحزابه، ولما هلك يحيى بن الناصر سنة ثلاث وثلاثين بعث الرشيد بقتل شيخهم فائد بن عامر وأخيه فائد، وولي بعده يعقوب بن محمد بن قيطون. ثم اعتقله يغلو قائد الموحدين، بعثه المرتضى لذلك. وقدم يعقوب بن جرموق، وولي مشيخة بني جابر إسماعيل بن يعقوب بن قيطون، ثم تحيز بنو جابر هؤلاء من أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلاً وما إليها يجاورون هناك صناعة الساكنين بقشته وهضابه من البربر، فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخافة من السلطان أو ذي غلبة.

والرئاسة فيهم لهذه العصور في ورديقة من بطونهم، أدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الوردريقي، ثم هلك وأقيم مقامه الناصر ابنه ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان إلى سالم سنة ستين وسبعمائة، ونهضت إليهم عساكر السلطان فامكنوا منه. ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره عن مراكش سنة ثمان وستين، ونازله السلطان عبد العزيز وأحيط به فلحق برابرة صناعة من قومه، ثم أمكنوا منه على مال حل إليهم، ولحق بهم أثناء هذه الفتن الأمير عبد الرحمن يغلوسن على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب

وخضر بن عامر بن رياح وهم الأخضر. ولمرداس بطون كثيرة: داود بن مرداس وصنبر بن حواز بن عقيل بن مرداس، وإخوتهم مسلم بن عقيل، ومن أولاد عامر بن يزيد بن مرداس بطون أخرى منهم: بنو موسى بن عامر وجابر بن عامر. وقد يقال: إنهم من لطيف كما قدمناه، وسودان ومشهور ومعاوية بنو محمد بن عامر بطون ثلاثة. واسم سودان علي بن محمد. وقد يقال أيضاً: إن المشاهرة وهم بنو مشهور بن هلال بن عامر من غمير رياح والله أعلم.

والرئاسة على رياح في هذه البطون كلها لمرداس، وكانت عند دخولهم إفريقية في صنبر منهم. ثم صارت للدواودة أبناء داود بن مرداس بن رياح. ويزعم بنو عمر بن رياح أن أباهم كُفله ورباه. وكان رئيسهم لعهد الموحدين مسعود بن سلطان بن زمام بن رديني بن داود، وكان يلقب البلط لشدهته وصلابته. ولما نقل المنصور رياحاً إلى المغرب تخلف عساكر أخو مسعود في جماعات منهم لما بلاء السلطان من طاعته والحياشه، وأنزل مسعوداً وقومه لبلاد الهبط ما بين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى إزغار البسيط الفسيح هناك إلى ساحل البحر الأخضر، واستقروا هنالك.

وفر مسعود بن زمام من بينهم في لمة من قومه سني تسعين وخمسمائة، ولحق بإفريقية واجتمع إليه بنو عساكر أخيه ولحقوا بطرابلس، ونزلوا على زغب وذياب يتقلبون بينهم. ثم نزع إلى خدمة قراقش، وحضر معه بقومه فتح طرابلس كما نذكره في أخبار قراقش. ثم رجع إلى ابن غانية الميورقي ولم يزل في خلافة ذلك إلى أن هلك، وقام بأمره من بعده ابنه محمد، وكانت له رفاة وغناء في فتنه الميورقي مع الموحدين.

ولما غلب أبو محمد بن أبي حفص يحيى الميورقي مع الموحدين سنة ثمان مائة عشرة على الحمة من بلاد الجريد، وقتل من العرب من قتل، كان فيمن قتله ذلك اليوم عبد الله بن محمد هذا وابن عمه أبو الشيخ بن حركات بن عساكر.

ولما هلك الشيخ أبو محمد رجع محمد بن مسعود إلى إفريقية وغلب عليها، واجتمع إليه حلف الأتبع طواعن من الضحاك ولطيف فكاثروه واعتزوا به على أقاتلهم من دريد وكرفة، إلى أن عجزت طواعن الضحاك ولطيف عن الرحلة، واقتربوا في قرى الزاب وصدرة. وبقي محمد بن مسعود يتغلب في رحلته وصارت رئاسة البدو في ضواحي إفريقية ما بين قسطنطية والزاب والقبروان والمسيلة له ولقومه. ولما هلك يحيى بن غانية من العرب من بني سليم والرياح سنة إحدى وثلاثين وستمئة كما نذكره انقطع ملكهم، واستغلب سلطان أبي حفص.

واستقل منهم الأمير يحيى بن عبد الواحد بخبطة الخلافة عندما فسد كرسيتها بمراكش، واقترب أنباغ يحيى بن غانية من العرب من بني سليم والرياح، فنكره آل أبي حفص هؤلاء الدواودة، ومكانهم من الوطن مما سلف من عنادهم ومشايعتهم لابن غانية عدوهم فجاء الأمير أبو زكريا في بني سليم من مواطنهم لذلك العهد بقابس وطرابلس وما إليها. والتقدم فيهم يومئذ لمرداس والكعوب كما نذكره في أخبارهم، واصطنعهم لمشايعة الدولة، وضربوا بينهم وبين قبائل رياح وأنزلوهم بالقبروان وبلاد قسطنطية، وكانت أبة لمحمد بن مسعود وقد عليه في بعض السنين وقد مرداس يطلبون المكيل ويتزولون عليهم فشرهوا إلى نعمتهم وقتلوه عليها، وقتلوا رزق بن سلطان عم محمد بن مسعود، فكانت بينهم وبين رياح أيام وحروب حتى رحلهم عن جانب المشرق من إفريقية وأصاروهم إلى جانبها الغربي.

وملك الكعوب ومرداس من بني سليم ضواحي الجانب الشرقي كلها، من قابس إلى بونة ونقطة وأمتاز الدواودة بملك ضواحي قسطنطية وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة، وهلك محمد بن مسعود فولي رئاسته موسى بن محمد، وكان له صيت وغناء في قومه واعتزاز على الدولة.

ولما هلك يحيى بن عبد الواحد بويح ابنه محمد المستنصر الطائر الذكر المشهود له في الشهرة. وخرج عليه أخوه إبراهيم فالحق بالدواودة هؤلاء فبايعوه بجهات قسطنطية واتفقوا على تقديمه، ونهض إليه المستنصر سنة ست وستين وستمئة ففروا أمامه واقترب جمعهم وتحيز إليه بنو عساكر ابن سلطان منهم، ورئاستهم يومئذ لولد مهدي بن عساكر. وتبذوا العهد إلى إبراهيم بن يحيى ولحقوا بتلمسان. وأجاز البحر إلى الأندلس، وأقام بها في جوار الشيخ ابن الأحمر.

ثم هلك موسى بن محمد وولي رئاسته ابنه شبل بن موسى، واستطال على الدولة وكثر عيظهم، فنبذ المستنصر عهدهم، ونهض إليه بعساكره وجموعه من الموحدين والعرب من بني سليم وأولاد عساكر إخوانهم، وعلى مقدمته الشيخ أبو هلال عياد بن محمد المتتاني وكان يومئذ أميراً ببجاية. وحاول عليهم فاستقدم رؤساءهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخاه يحيى، وسباع بن يحيى بن دريد بن مسعود، وحداد بن مولاهم بن خضر بن مسعود، وفضل بن يمون بن دريد بن مسعود، ومعهم دريد بن تازير شيخ أولاد ثابت من كرفة، فقبض عليهم حين قدمهم وضرب أعناقهم في مصرع واحد ابن راية حيث بايعوا أبا إسحاق

ورئاسة أولاد سباع في أولاد علي بن سباع، وأولاد عثمان بن سباع، وأولاد علي أشرف منهم وأغز بالكثرة والعدد ورئاستهم في ولد يوسف بن سليمان بن علي بن سباع ويرادفهم أولاد يحيى بن علي بن سباع. واختص أولاد محمد بنواحي قسطنطينية وأقطعهم الدول كثيراً من أريافها. واختص أولاد سباع بنواحي بجاية وأقطعهم فيها قليل لمنعة بجاية وضواحيها عن ضيم العرب، ولغلبهم بالجبال المطيفة بها وتوعر مسالكها على رواحل الناجعة. وأما ريع وواركلا فقسمت بينهم منذ عهد سلفهم كما قلناه.

وأما الزاب فالجانب الغربي منه وقاعدته طولقة لأولاد محمد وأولاد سباع بن يحيى، وكانت لأبي بكر بن مسعود، فلما ضعف بنوه ودثروا اشتراها منهم علي بن أحمد شيخ أولاد محمد وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع. واتصلت بينهم بسببها الفتنة وصارت في مجالات أولاد سباع بن يحيى فصار غلب سليمان وبنيه عليها أكثر.

والجانب الوسط وقاعدته بسكرة لأولاد محمد وفي مجالاتهم وليعقوب بن علي على عامله بسبب ذلك سلطان وعزة، وله به تمسك وإليه اغنياء في منعته من الدولة واستبداده بوطنه، وحماية ضواحيه من عبث الأعراب وفسادهم غالب الأوقات.

وأما الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته بادس وتنومة فهو لأولاد نائب رؤساء كرفة بما هو من مجالاتهم، وليس هو من مجالات رياح. إلا أن عمال الزاب تأخذ منه في الأكثر جباية غير مستوفاة بمسكر لها إلا في بعض الأحيان ببادية رياح بإذن من كبيرهم يعقوب وإشراكه في الأمر. وبطون رياح كلها تبع هؤلاء الدواودة ومقتسمون عليهم وملتمسون مما في أيديهم، وليس لهم في البلاد ملك يستولون عليه، وأشدهم قوة وأكثرهم جمعاً بطون سعيد ومسلم والأخضر، يعدون النجعة في القفار والرمال، ويسخرون الدواودة في فتنة بعضهم مع بعض ويختصون بالخلف فريقاً دون آخر.

فسعيد أحلاف لأولاد محمد سائر أيامهم إلا قليلاً من الأحيان ينابذونهم ثم يرجعونهم، ومسلم والأخضر أحلاف لأولاد سباع كذلك إلا في بعض الأحيان.

فأما سعيد فرئاستهم لأولاد يوسف بن زيد منهم في ولد ميمون بن يعقوب بن عريف بن يعقوب بن يوسف، وأردافهم أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف، وهم يتسبون بزعمهم إلى بني سليم في أولاد القوس من سليم. والصحيح من نسبهم أنهم من

أخاه والقاسم بن أبي زيد بن أبي حفص النزاع إليهم لطلب الخروج على الدولة.

وافترقت طوائعهم وفروا أمامه، واتبعهم إلى آخر الزاب. وترك شبل بن موسى سباعاً ابنه طفلاً صغيراً، فكفله عمه مولاهم بن موسى، ولم تزل الرئاسة بهم، وترك سباع ابنه يحيى أيضاً طفلاً فكفله عمه طلحة بن يحيى، ولحق فلهم بملوك زناتة بالغرب، فأولاد محمد لحقوا بيعقوب بن عبد الحق بفاس، وأولاد سباع بن يحيى لحقوا ببغمراسن بن زيان بتلمسان فكسوهم وحملوهم، فارتاشوا وقتلوا واحتالوا وزحفوا إلى مواطنهم فتغلبوا على أطراف الزاب من واركلان وقصور ريع وصيروها سهاماً بينهم، وانتزعوها للموحدين فكان آخر عهدهم بملكها.

ثم تقدموا إلى بلاد الزاب وجمع لهم عاملها أبو سعيد عثمان بن محمد بن عثمان ويعرف بابن عتا من رؤساء الموحدين. وكان منزله بمقرة فزحف إليهم بمكانهم من الزاب، وأوقعوا به وقتلوه بقلطاوة، وغلبوا على الزاب وضواحيه لهذا العهد، ثم تقدموا إلى جبل أوراس فغلبوا على من به من القبائل، ثم تقدموا إلى التل وجمع لهم من كان به من أولاد عساكر، وعليهم موسى بن ماضي بن مهدي بن عساكر، فجمع قومه ومن في حلفهم من عياض وغيرهم.

وتزاحفوا فغلبهم أولاد مسعود وقتلوا شيخهم موسى بن ماضي، وتولوا الوطن بما فيه، ثم تلاثت الدولة أمرهم بالاصطناع والاستمالة وأقطعوهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب، ثم الأمصار التي بالبيست الغربي من جبل أوراس المسمى عندهم بالحصنة وهي نقاوس ومقرة والمسيلة، واختص أقطاع المسيلة بسباع بن شبل بن يحيى حتى صارت لعلي بن سباع بن يحيى من بعد ذلك، فهي في قسم بنيه وسهامهم.

واختص أقطاع مقرة بأحمد بن عمر بن محمد، وهو ابن عم شبل بن موسى بن سباع، ونقاوس بأولاد عساكر. ثم هلك سباع بن شبل وقام بأمرهم ابنه عثمان، ويعرف بالعاكر، فنازعه الرئاسة بنو عمه علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود بن دريد بن مسعود وفرقوا جماعة بني مسعود هؤلاء، بعد أن كانوا جميعاً وصاروا فريقيين: أولاد محمد بن مسعود، وأولاد سباع بن يحيى وسلمان بن علي بن سباع بن يحيى. ولم يزلوا كذلك لهذا العهد، ولهم تغلب على ضواحي بجاية وقسطنطينية ومن بها من سدويكش وعياض وأمثالهم، ورئاسة أولاد محمد الآن ليعقوب بن علي بن أحمد، وهو كبير الدواودة بمكانه ومسنه وله شهرة وذكر وعمل من السلطان متوارث.

محمد، سلف الملوك منهم لهذا العهد، فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن عيوى بن أبي بكر بن جماعة أبو الملك وابنه إدريس، فأوجدوا السبيل لبني مرين على أنفسهم في طلب الترة والدماء، فآخضروا فيهم واستلحموهم قتلاً وسيياً مرة بعد أخرى.

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت حافد يوسف بن يعقوب سنة سبع وسبعماية تتبعهم بالقتل إلى أن لحقوا برؤوس المضارب وأمنمة الربى المتوسطة في المرج المستبحر بازغار فصاروا إلى عدد قليل، ولحقوا بالقبائل الغامرة. ثم ذثروا وتلاشوا شأن كل أمة والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين لا رب غيره ولا معبود سواه، وهو نعم المولى ونعم النصير، عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

نسأله سبحانه وتعالى من فيض فضله العظيم، وتوسل إليه بجاه نبيه الكريم، أن يرزقنا إيماناً دائماً، وقلباً خاشعاً، وعلماً نافعاً، وقيناً صادقاً، ودينياً قيماً والعافية من كل بلية، ونظام العافية، ودوام العافية، والشكر على العافية، والغنى عن الناس، وأن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأن يحجزنا من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة، وأن يرزقنا من فضله وكرمه إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقررة عين لا تنقطع، ومرافقة نبينا وسيدنا محمد ﷺ في أعلى جنات الخلد بمنه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الخبر عن سعادة القائم بالسنة في رباح ومآل أمره وتصاريف أحواله

كان هذا الرجل من مسلم إحدى شعوب رباح، ثم من رحمان منهم. وكانت أمه تدعى حضيبة وكانت في أعلى مقامات العبادة والورع، ونشأ هو متحلاً للعبادة والزهد، وارتحل إلى المغرب ولقي شيخ الصالحين والفقهاء لذلك العهد بنواحي تازة أبا إسحاق التسولي، وأخذ عنه ولزمه، وتفقه عليه، ورجع إلى وطن رباح ببقه صحيح وورع وافر، ونزل طولقة من بلاد الزاب، وأخذ بنفسه في تغيير المنكر على أقاربه وعشيرته ومن عرفه أو صحبه، فاشتهر بذلك وكثرت غاشيته لذلك من قومه وغيرهم.

ولزم صحابته منهم أعلام عاهدوه على التزام طريقته كان من أشهرهم: أبو يحيى بن أحمد بن عمر شيخ بني محمد بن مسعود من الداوادة، وعطية بن سليمان بن سباع شيخ أولاد سباع بن يحيى منهم، وعيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد إدريس من

رباح بالخلف والموطن ومع أولاد يوسف هؤلاء لفائف من العرب يعرفون بالمخادمة والغيوث والفجور، فأما المخادمة والغيوث من أبناء خدم فمن ولد مشرف بن أثيج، وأما الفجور فمنهم من البرابر لواتة وزناتة إحدى بطونهم، وفيهم من نقاث، فأما نقاث فمن بطون جذام وسياتي ذكرهم.

وأما زناتة فهم من بطون لواتة كما ذكرناه في بني جابر وتادلاً كثير منهم وأجاز منهم إلى العدو لعهد بني الأحمر سلطان الزناري، وكانت له في الجهاد آثار. وذكرنا أن منهم بأرض مصر والصعيد كثيراً. وأما أحلاف أولاد محمد من الداوادة فبطن من رباب بن سودات بن عامر بن صعصعة، اندرجوا في أعداد رباح، ولهم معهم ظعن ونجعة، ولهم مكان من حلفهم ومظاهرهم. وأما أحلاف أولاد سباع من مسلم والأخضر فقد قدما أن مسلماً من أولاد عقيل بن مرداس بن رباح أخو حوَّاز بن رباح بعضهم يتنسب إلى الزبير بن العوام وهو غلط، ويقول بعض من ينكر عليهم: إنما هو نسب إلى الزبير بن المهابة الذين هم من بطون عياض كما ذكرناه. ورئاسته في أولاد جماعة بن مسلم بن حماد بن مسلم بين أولاد تاسكر بن حامد بن كسلان بن غيث بن رحال بن جماعة. وبين أولاد بن ززارة بن موسى بن قطران بن جماعة.

وأما الأخضر فيقولون: إنهم من ولد خضر بن عامر وليس عامر بن صعصعة؛ فإن أبناء عامر بن صعصعة معروفون كلهم عند النسابين، وإنما هو والله أعلم عامر آخر من أولاد رباح. ولعله عامر بن زيد بن مرداس المذكور في بطونهم، أولهم من الأخضر الذين هم ولد مالك بن طريف بن مالك بن حفصة بن قيس عيلان. ذكرهم صاحب الأغاني وقال: إنما سموا الأخضر لسوادهم، والعرب تسمى الأسود أخضر. قال: وكان مالك شديد السمرة فأشبهه ولده. ورئاستهم في أولاد تامر بن علي بن تمام بن عمار بن خضر بن عامر بن رباح، واختصت مرين بأولاد عامر ولد عامر بن صالح بن عامر بن عطية بن تامر. وفيهم بطن آخر لزائدة بن تمام بن عمار. وفي رباح أيضاً بطن من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، ويظنون مع باديهم.

وأما من نزل من رباح ببلاد الحبش حيث أنزلهم المنصور، فأقاموا هنالك بعد رحلة رئيسهم مسعود بن زنان بتلك المواطن إلى أن انقرضت دولة الموحدين، وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون وقتله سنة ثلاثين وستمئة. ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رباح هؤلاء البعث مع عساكرهم، فقاموا بحماية ضواحيهم وتحيز لهم بنو عسكر بن محمد بن محمد من بني مرين حين كانوا حرباً لإخوانهم بني حماسة بن

ابن مزني في أولياته من الدواودة، واجتمع إليه علي بن أحمد شيخ أولاد محمد، وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع وهما يومئذ أجلاء الدواودة، وخرج ابنه علي بينهم بعساكر السلطان، وتزاحفوا بالصحرَاء سنة ثلاث عشرة فغلبهم المرابطون، وقتل علي بن مزني وتقبض على علي بن أحمد فقادوه أسيراً، ثم أطلقه عيسى بن أحمد رعيّاً لأخيه أبي يحيى بن أحمد.

واستفحل أمر هؤلاء السنية ما شاء الله أن يستفحل. ثم هلك أبو يحيى بن أحمد وعيسى بن يحيى، وخلت أحياء أولاد محرز من هؤلاء السنية، وتفاوض السنية فيمن يقيمونه بينهم في الفتيا في الأحكام والعبادات، فوقع نظرهم على الفقيه أبي عبد الله محمد بن الأزرق من فقهاء مقرة. وكان أخذ العلم ببجاية على أبي محمد الزواري من كبار مشيختها، فقصده بذلك وأجابههم وارتحل معهم، ونزل على حسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة، واجتمع إليه السنة واستفحل بهم جانب أولاد سباع، واجتمعوا على الزاب وحاربوا علي بن أحمد طويلاً.

وكان السلطان أبو تاشفين حين كان يجلب على أوطان الموحدين يخيب عليهم أولياءهم من العرب، يبعث إلى هؤلاء السنة بالجوائز يستدعي بذلك ولايتهم، ويبعث معهم للفقيه أبي الأزرق بجائزة معلومة في كل سنة. ولم يزل ابن الأزرق مقيماً لرسمهم إلى أن غلبهم على أمرهم ذلك علي بن أحمد شيخ أولاد محمد، وهلك حسن بن سلامة وانقرض أمر السنة من رباح، ونزل ابن الأزرق بسكرة فاستدعا يوسف بن مزني لقضاءها تفريقاً لأمر السنة، فأجابه ونزل عنده، فولاه القضاء بسكرة إلى أن هلك سنة...

ثم قام علي بن أحمد بهذه السنة بعد حين ودعا إليها، وجمع لابن مزني سنة أربعين وسبعمائة، ونزل بسكرة وجاءه مدد أهل ريف، وأقام محاصراً لها أشهراً، وامتنعت عليه فاقطع عنها وراجع يوسف بن مزني وصاروا إلى الولاية إلى أن هلك علي بن أحمد وبقي من عقب سعادة في زاويته بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزني الرعاية، وتعرف لهم أعراب القلاة من رباح حقاً في إجازة من يميزونه من أهل السابلة. وبقي هؤلاء الدواودة يتزع بعضهم أحياناً إلى إقامة هذه الدعوة، فيأخذون بها أنفسهم غير متصفين من الدين والتعمق في الورع بما يناسبها ويقضي حقها، بل يعملونها ذريعة لأخذ الزكوات من الرعايا، ويتظاهرون بتغيير المنكر يسرون بذلك حسواً في ارتقاءه، فينحل أمرهم بذلك، وتحقق مساعيهم، ويتنازعون على ما تحصل بأيديهم ويفترقون على غير شيء. والله متولي الأمور لا إله إلا هو سبحانه يحيي ويميت.

أولاد عساكر منهم، وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة بن يحيى بن دريد بن مسعود منهم، وهجرس بن علي من أولاد يزيد بن زغبة، ورجالات من العطف من زغبة في كثير من أتباعهم والمستضعفين من قومهم.

فكثر بذلك تابعه واستظهر بهم على شأنه في إقامة السنة وتغيير المنكر على من جاء به. واشتد على قاطع الطريق من شرار البوادي، ثم تخطى ذلك إلى العمار فطلب عامل الزاب يومئذ منصور بن فضل بن مزني بإعفاء الرعايا من المكوس والظلمات فامتنع من ذلك، واعتزم على الإيقاع به، فحال دونه عشائر أصحابه، وباعوه على إقامة السنة والموت دونه في ذلك.

وآذنهم ابن مزني في الحرب ودعا لذلك أمثالهم ونظراءهم من قومهم. وكان لذلك العهد علي بن أحمد بن عمر بن محمد قد قام برئاسة أولاد محمد، وسليمان بن علي بن سباع قد قام برئاسة أولاد يحيى، وافتسموا رئاسة الدواودة فظاهروا ابن مزني على مدافعه سعادة وأصحابه المرابطين من إخوانهم، وكان أمر ابن مزني والزاب يومئذ راجعاً إلى صاحب بجاية من بني أبي حفص، وهو الأمير خالد ابن الأمير أبي زكريا، والقائم بدولته أبو عبد الرحمن بن عمر، وبعث إليه ابن مزني في المدد فأمده بالعساكر والجيش، وأوعز إلى أهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها، وابتنى بأغاثها زاوية، ونزل بها هو وأصحابه.

ثم جمع أصحابه المرابطين وكان يسميهم السنية وزحفوا إلى بسكرة وحاصروا ابن مزني سنة ثلاث وسبعمائة وقطعوا نخيلها، وامتنعت عليهم فرحلوا عنها. ثم أعادوا حصارها سنة أربع وسبعمائة، وامتنعت. ثم انحدر أصحاب سعادة من الدواودة إلى مشاتهم سنة خمس وسبعمائة، وأقام المرابط سعادة يزأوته من زاب طولقة، وجمع من كان إليه من المرابطين المتخلفين عن الناجعة، وغزا مليلي وحاصرها أياماً، وبعثوا بالصريخ إلى ابن مزني والعسكر السلطاني مقيم عندهم بسكرة، فأرهبهم ليلاً مع أولاد حرب من الدواودة، وصبحوا سعادة وأصحابه على مليلي فكانت بينهم جولة قتل فيها سعادة واستلحم الكثير من أصحابه وحمل رأسه إلى ابن مزني.

وبلغ الخبر إلى أصحابه بمشاتهم فظهروا إلى الزاب، ورؤسأهم أبو يحيى بن أحمد بن عمر شيخ أولاد محرز، وعطية بن سليمان شيخ أولاد سباع، وعيسى بن يحيى شيخ أولاد عساكر، ومحمد بن حسن شيخ أولاد عطية، ورئاستهم جميعاً راجعة لأبي يحيى بن أحمد. ونازلوا بسكرة وقطعوا نخيلها وتقضوا على عمال ابن مزني فأحرقوهم في النار، واتسع الخرق بينهم وبينه، ونادى

الخبر عن زغبة ويطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة

الاستظهار بهم، فتمشت ظعونهم فيه وملكوهم من كل جانب كما نذكره، ويطون زغبة هؤلاء يتعددون من يزيد وحسين ومالك وعامر وعروة، وقد اقتصموا بلاد المغرب الأوسط كما نذكر في أخبارهم.

بنو يزيد بن زغبة

كان لبني يزيد هؤلاء محل من زغبة بالكثرة والشرف، وكان للدول به عناية، فكانوا لذلك أول من أقطعت الدول من العرب التلول والضواحي. أقطعهم الموحدون في أرض حمزة من أوطان بجاية مما يلي بلاد رياح والأنابج فتزلوا هنالك، ولجوا الثنايا المفضية إلى تلول حمزة والدهوس وأرض بني حسن ونزلوها ريفاً وصحراء، وصار للدولة استظهار بهم على جباية تلك الرعايا من صنهاجة وزوارة، فلما عجزت عساكر بجاية من جبايتهم دفعوهم لها فأحسنوا في اقتضاها وزادت الدول بهم تكرمة وعناية بذلك، وأقطعتهم الكثير من تلك الأوطان. ثم غلب زناتة الموحدون على تلك الأوطان فاقطعوا عن أوطان بجاية وأصاروها عن ممالكهم.

فلما فشل ربح زناتة وجاش بحر فتنهم مع العرب استبد بنو يزيد هؤلاء بمملكة تلك الأوطان، وغلبوا عليها من جميع جوانبها، وفرغوا لجبايتها واقتضاء مغارمها، وهم على ذلك لهذا العهد. وهم بطون كثيرة منهم: حيان بن عقبة بن يزيد، وجواب وينو كرز وبنو موسى والمراعبة والخشنة. وهم جميعاً بنو يزيد بن عيسى بن زغبة وإخوانهم عكرمة بن عيس من طعونهم، وكانت الرئاسة في بني يزيد لأولاد لاحق، ثم لأولاد معافى، ثم صارت في بيت سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن مهدي بن يزيد بن عيسى بن زغبة، وهم يزعمون أنه مهدي بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، نسب تأباه رئاستهم على غير عصبيتهم، وقد مر ذلك قبل.

وربما نسبهم آخرون إلى سلول، وهم بنو مرة بن صعصعة أخي عامر بن صعصعة وليس بصحيح كما قلناه. وقد يقال: إن سلولاً وبني يزيد إخوة. ويقال لهم جميعاً: أولاد فاطمة. وبنو سعد هؤلاء ثلاثة بطون: بنو ماضي بن رزق بن سعد، وبنو منصور بن سعد، وبنو زغلي بن رزق بن سعد، واختصت الرئاسة على الطعون والحلول ببني زغلي. وكانت لريان بن زغلي فيما علمناه. ثم من بعده لأخيه ديفل، ثم لأخيها أبي بكر، ثم لابنه ساسي بن أبي بكر، ثم لابنه معتوق بن أبي بكر، ثم لموسى ابن عمهم أبي الفضل بن زغلي ثم لأخيه أحمد بن أبي الفضل، ثم لأخيها

هذه القبيلة إخوة رياح، ذكر ابن الكلبي: أن زغبة ورياحاً أبناء أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر هكذا نسبهم، وهم لهذا العهد عما يزعمون أن عبد الله يجمعهم، بكسر دال عبد، ولم يذكر ابن الكلبي ذلك، وذكر عبد الله في ولد هلال، فلعل انتسابهم إليه بما كفلهم واشتهر دونهم، وكثيراً ما يقع مثل هذا في أنساب العرب أعني انتساب الأبناء لعلمهم أو كافلهم والله أعلم. وكانت لهم عزة وكثرة عند دخولهم إفريقية وتغلبوا على نواحي طرابلس وقابس، وقتلوا سعيد بن خزرون من ملوك مغراوة بطرابلس. ولم يزالوا بتلك الحال إلى أن غلب الموحدون على إفريقية، وثار بها ابن غانية، وتخيرت إليه أناريق هلال بن رياح وجشم، فنزعت زغبة إلى الموحدين، الخرفوا عن ابن غانية فرعوا له حق نزوعهم، وصاروا يداً واحدة مع بني يادين من زناتة في حماية المغرب الأوسط من ابن غانية وأتباعه، واتصلت بمجالاتهم ما بين المسيلة وقبلة تلمسان في القفار، وملك بنو بادين وزناتة عليهم التلول.

ولما ملكت زناتة بلاد المغرب الأوسط ونزلوا بأمصاره، دخل زغبة هؤلاء التلول وتغلبوا فيها، ووضعوا الأتاوة على الكثير من أهلها بما جمعهم وزناتة من البداة وعصية الخلف، وخلا قفرهم من طعونهم وحمايتهم فطرقتهم عرب المعقل المجاورون لهم من جانب المغرب، وغلبوا على من وجدوا من خلف زغبة هؤلاء بتلك القفار، وجعلوا عليهم خفارة يأخذونها من إيلهم، ويختارون عليهم البكرات منها.

وأنفوا لذلك وتآمروا وتعاقدوا على دفع هذه الهضمة، وتولى كبرها من بطونهم ثوابة بن جوة من سديد كما نذكره بعد، فدفعوهم عن أوطانهم من ذلك القفر. ثم استغفلت دولة زناتة وكفحوا العرب عن وطىء تلولهم لما انتشأ عنهم من العبث والفساد فرجعوا إلى صحرائهم، وملك الدولة عليهم التلول والحبوب، واستصعبت المسيرة وهزل الكراع، وتلاشت أحوالهم وضربت عليهم البعوث، وأعطوا الأتاوة والصدقة حتى إذا فشل ربح زناتة وداخل الهرم دولتهم، وانتزى الخوارج من قرابة الملك بالقاصية وجدوا السبيل بالفتن إلى طروق التلول، ثم إلى الغلب فيها، ثم غالبوا زناتة عليها فغلبوهم في أكثر الأحيان، وأقطعتهم الدولة الكثير من نواحي المغرب الأوسط وأمصاره في سبيل

إلى المغرب عنهم. كانوا حياً حلوا هنالك، وكان الريف للحاذي من تيطري ونواحي المرية مواطنين للثعالبية من بطون البعوث، ويأخذون منهم الأتاوات والصدقات. حتى إذا ذهب سلطان بني توجين من أرض المرية وغلبهم عليهم بنو عبد الواد ساموا حصيناً هؤلاء خطة الخسف والذل، وألزمهم الوضائع والمغارم، واستلحمهم بالقتل وهضمهم بالكاليك، وصيروهم في عداد القبائل الغارمة ويأثر ذلك، كان تغلب بني مرين على جميع زناتة كما نذكره، فكانوا لهم أطوع، ولدولتهم أذل. فلما عاد بنو عبد الواد إلى ملكهم لعهد أبي حمو موسى بن يوسف بعد مهلك السلطان أبي عنان هبت ريح العز للعرش، وفشل ريح زناتة، ولحق دولتهم ما يلحق الدول من الهرم، ونزل حصين هؤلاء تيطري وهو جبل أشير وملكوه وتحصنوا به.

وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي حمو لما ملك من قبله لحق بتونس مفتلاً حباله بني مرين، وخرج طالباً لملك أبيه، ومنزلاً لابن عمه هذا، ونزل في خير طويل نذكره بقبائل حصين هؤلاء أحوج ما كانوا لملئها لما راموه من خلع ما كان بأعناقهم من الذل وطرق الاهتضام والعسف فتلقوه بما يجب له. ونزل منهم باكرم نزل وأحسن مشوى. وبإيعونه وأرسلوا إخوانهم وكبراءهم من رؤساء زغبة بني سويد وبني عامر فأصفقوا عليه، وترددت عساكر السلطان أبي حمو وبني عبد الواد إليهم فتحصنوا بجبل تيطري وأوقعوا به.

ونفض إليهم السلطان أبو حمو بعساكره فقتلوه ونالوا منه، ونالت زغبة بذلك ما أرادوه من الاعتزاز على الدولة آخر الأيام، وتقلدوا البلاد إقطاعات وسهماناً، ورجع أبو زيان إلى رباح فنزل بهم على سلم عقد مع ابن عمه وبقي لخصين أثر الاعتزاز من جرائه. وأقطعتهم الدولة ما ولوه من نواحي المرية وبلاد صنهاجة. ولخصين هؤلاء بطنان عظيمان: جندل وخراش، فمن جندل أولاد خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل، ورئاستهم في بني خليفة بن سعد ليلي، وسيدهم أولاد خشعة بن جندل.

وكانت رئاستهم على جندل قبل أولاد الخليفة، ورئاستهم الآن علي بن صالح بن دياب بن مبارك بن يحيى بن مهلهل بن شكر بن عامر بن محمد بن خشعة. ومن خراش أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل بن خراش ورئاستهم لهذا العهد في ولد رحاب بن عيسى بن أبي بكر بن زمام بن مسعود، وأولاد فرج بن مظفر، ورئاستهم في بني خليفة بن عثمان بن موسى بن فرج، وأولاد طريف بن معبد بن خراش، ويعرفون بالعابدة، ورئاستهم

علي بن أبي الفضل، ثم لأبي الليل بن أبي موسى بن أبي الفضل، وهو رئاستهم لهذا العهد. وتوفي سنة إحدى وتسعين وخلفه في قومه ابنه.

وكان من أحلافهم فيما تقدم بنو عامر بن زغبة يظعنون معهم في مجالاتهم ويظاهرونهم في حروبهم. وكانت بين رباح وزغبة فترة طويلة لعهد موسى بن محمد بن مسعود، وابنه شبل أيام المستنصر بن أبي حفص. فكان بنو يزيد هؤلاء يتولون كبرها لمكان الجوار. وكان بنو عامر أحلافهم فيها وظهراؤهم، وكان لهم على مظاهرتهم وضيفة من الزرع تسمى الغرارة وهي ألف غرارة من الزرع، وكان سببها فيما يزعمون: أن أبا بكر بن زغلي غلبته رياح على الدهوس من وطن حمزة أزمان فنتته معهم، فاستصرخ لبني عامر، فجاءه أولاد شافع وعليهم صالح بن بالغ، وبنو يعقوب وعليهم داود بن عطف، وحيد وعليهم يعقوب بن معروف، واسترجع وطنه وفرض لهم على وطنه ألف غرارة من الزرع، واستمرت لبني عامر.

فلما ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيها، ودخلت زناتة إلى التلول والأرياف. كثر عيث المعقل وفسادهم في وطنها فجاء يغمراسن ببني عامر هؤلاء من مجالاتهم بصحراء بني يزيد، وأنزهم في جواره بصحراء لتلمسان كباداً للمعقل، ومزاحمة لهم بأقيالهم فنزلوا هنالك. وتبعتهم حيان من بطون بني يزيد بما كانوا بطوناً وناجعة، ولم يكونوا حلولاً، فصاروا في عداد بني عامر لهذا العهد. وتولت بنو يزيد بلاد الريف وخصبه فاوطن فيه أكثرهم، وقل أهل الناجعة منهم إلا أفارق من عكرمة وبعض بطون عيسى يظعنون مع أولاد زغلي في قفرهم.

وأقصروا عن الظعن في القفر إلا في القليل ومع أحلافهم من ظعون رباح أو زغبة، وهم على ذلك لهذا العهد. ومن بطون بني يزيد بن عيسى زغبة هؤلاء بنو خشين وبنو موسى وبنو معافي وبنو لاحق. وكانت الرئاسة لهم ولبني معافي قبل بني سعد بن مالك، وبنو جواب وبنو كرز وبنو مريع وهم الماربة، وهؤلاء كلهم بطن حمزة لهذا العهد. ومن الماربة حي يتجمعون بضواحي تونس لهذا العهد، وغلب عليهم بسبب زغبة والله الخلاق العليم.

أبو الفضل بن موسى بن زغلي بن رزق بن سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن عبد الله.

حصين بن زغبة

وأما أولاد حصين بن زغبة فكانت مواطنهم بجوار بني يزيد

بن نهار بن عثمان بن عبيد الله، وقيل: علي بن عثمان أخو نهار. وقيل إن البكرات إنما فرضها للمعقل على قومه عامر بن جميل لأجل مظاهرة له على عدوه، وبقيت للمعقل عادة إلى أن تمشت رجالات من زغبة في نقض ذلك، وغدروا برجال المعقل ومنعوا تلك البكرات.

أخبرني يوسف بن علي، ثم غانم عن شيوخ قومه من المعقل أن سبب البكرات وفرضها على زغبة كما ذكرناه، وأما سبب رفعها فهو أن المعقل كانوا يقولون: غرامتها إدالة بينهم، فلما دالت لعبيد الله الدولة في غرامتها جمع ثوبية بن جوثة قومه وحرضهم على منعها، فاختلفوا واحتربوا مع عبيد الله ودفعوهم إلى جانب الشرق، وحالوا بينهم وبين أحيانهم وبلادهم، وطالت الحرب ومات فيها بنو جوثة وابن مرمح من رجالاتهم، وكتب بنو عبد الله إلى قومهم من قصيدة:

بني معقل إن لم تصرخونا على العدو فلا يدلكم تذكر ما طرأ لنا
قتلنا ابن جوثة والمهمام بن مرهج على الوجه مكبوب وذما من فعائنا

فاجتمعوا و جاؤوا إلى قومهم، وفرت أحياء زغبة، واجتمع بنو عبيد الله وإخوانهم من ذوي منصور وذوي حسان، وارتفع أمر البكرات من زغبة لهذا العهد. ثم حدث بين يغمراسن وبينهم فتنة هلك فيها عمر بن مهدي وارتحلوا وأنزلوهم عن التلول والأرياف من بلاد عبد الواد إلى القفر الحاذي لأوطان بني توجين على المهادنة والمصاهرة، فصاروا لهم حلفاء على بني عبد الواد، ومن عجز منهم عن الظعن نزل بيساط البطحاء. وسارت بطونهم كلها من شبابة وبجاهر وغفير وشافع ومالف وبو رحمة وبو كامل، ونزل محسن بن عمارة وأخوه سويد بضواحي وهران، فوضعت عليهم الأتاوات والمغارم وصاروا من عداد الرعايا أهل الجباية، وولي عثمان بن عمر أمر الظعون من سويد ثم هلك وقام بأمره ابنه ميمون وغلب عليه أخوه سعيد واستبد.

وكان بين سويد وبين بني عامر بن زغبة فتنة اتصلت على الأيام وثقلت وطأة الدولة الزبانية عليهم، وزحف يوسف بن يعقوب إلى منازل تلمسان، وطال مقامه عليها، فوفد عليه سعيد بن عثمان بن عمر بن مهدي شيخهم لعهد، فأتى مجلسه وأكرم وفادته، ثم أجمع قتله ففر ولحق بقومه، وأجلب على أطراف التلول وملك السرسو قبله بلاد توجين، ونزعت إليه طائفة من عكرمة بني يزيد وعجزوا عن الظعن، وأزلهم بجبل كريكرة قبله السرسو ووضع عليهم الأتاوة. ولم يزل كذلك إلى أن هلك يوسف بن يعقوب واتصل سلطان آل يغمراسن.

ولما ولي أبو تاشفين بن موسى بن عثمان بن يغمراسن

في أولاد عريف بن طريف لزيان بن بدر بن مسعود بن معرف بن عريف. ولمصباح بن عبد الله بن كثير بن عريف. وربما انتسب أولاد مظفر من خراش إلى بني سليم ويزعمون أن مظفر بن محمد الكامل جاء من بني سليم ونزل بهم والله أعلم بحقيقة الأمر.

بنو مالك بن زغبة

وأما بنو مالك بن زغبة فهم بطون ثلاثة: مسويد بن عامر بن مالك والحارث بن مالك وهم بطنان للعطاف بن ولد عطاف بن رومي بن حارث. والديالم من ولد ديلم بن حسن بن إبراهيم بن رومي فأما سويد فكانوا أحلافاً لبني بادين قبل الدولة. وكان لهم اختصاص ببني عبد الواد، وكانت لهم لهذا العهد أتاوات على بلد سيرات والبطحاء وهوارة، ولما ملك بنو بادين تلول المغرب الأوسط وأمصاره كان قسم بني توجين منه سياج التلول القبيلة ما بين قلعة سعيدة في الغرب إلى المرية في الشرق، فكان لهم قلعة ابن سلامة ومنداس وأنشريس ورينة وما بينهما، فاتصل جوارهم لبني مالك هؤلاء في القفر والتل.

ولما ملك بنو عبد الواد تلمسان ونزلوا بساحتها وضواحيها، كان بنو سويد هؤلاء أخص بمحلفهم ولايتهم من سائر زغبة. وكانت لسويد هؤلاء بطون مذكورون من فليشة وشبابة وبجاهر وجوثة، كلهم من بني سويد. والحساسنة بطن من شبابة إلى حسان بن شبابة وغفير وشافع وما لف، كلهم بنو سليمان بن بجاهر وبو رحمة وبو كامل، وحمدان بنو مقدر بن بجاهر، ويزعم بعض نسابتهم أن مقدراً ليس بجد لهم، وإنما وضع ذلك أولاد بو كامل.

وكانت رئاستهم لعهدهم في يغمراسن وما قبله في أولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان، وكانوا ثلاثة: عمر بن مهدي وعطية وطراد. واختص مهدي بالرئاسة عليهم، ثم ابنه سيف بن مهدي، ثم أخوه عمر بن مهدي، وأقطع يغمراسن يوسف بن مهدي ببلاد البطحاء وسيرات وأقطع عنتر بن طراد بن عيسى قرارة البطحاء وكان يقتضون أتاواتهم على الرعايا ولا يشاكرهم فيها، وربما خرج في بعض خروجه واستخلف عمر بن مهدي على تلمسان وما إليها من ناحية المشرق.

وفي خلال ذلك خلت مجالاتهم بالقفر من ظعونهم وناجعتهم، إلا أحياء من بطونهم قليلي العدد من الجوثة وفليشة وما لف وغفير وشافع وأمثالهم فقلب عليهم هنالك المعقل، وفرضوا عليهم أتاوة من الإبل يعطونها ويختارونها عليهم من البكرات. وكان المتولي لأخذها منهم من شيوخ المعقل أبو الريش

وأجلسه بمكان أبيه من مجلسه جوار أريكته ولم يزل على ذلك، وعقد لأخيه عيسى على البدو من قومه، ثم ابن عبد الواد بعد ملك السلطان أبي عنان عادت لهم الدولة بأبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبي يغماسن من أعياص ملوكهم.

وتولى كبر ذلك صغير بن عامر وقومه لما لهم مع آل زيان من الولاية، وما كان لبني مريين فيهم من النعمات فملكوا تلمسان ونواحيها، وعقدوا على سويد لميمون بن سعيد بن عثمان. وتال لوزمار بن عريف ورأى الترهّب والخروج عن الرئاسة، فبنى حصناً بوادي ملوية من تخوم بني مريين ونزل به، وأقام هنالك لهذا العهد. وملوك بني مريين يرعون له ذمة اختصاصه سلفهم فيؤثرونه بالشورى والمداخلة في الأحوال الخاصة مع الملوك والرؤساء من سائر النواحي، فتوجهت إليه بسبب ذلك وجوه أهل الجهات من الملوك وشيوخ العرب ورؤساء الأقطار.

ولحق أخواه أبو بكر ومحمد بقومهم فمكروا بالميمون ودسوا عليه من قتله غيلة من ذويهم وحاشيتهم، واستبدوا برئاسة البدو. ثم لما نصب بنو حصين بن زيان ابن عم السلطان أبي حمو للملك كما تذكره ورشحوه للمنازعة سنة سبع وستين وسبع مائة هبت من يومئذ ربح العرب وجاش مرجلهم على زناتة ووطشوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط ما عجزوا عن حمايته، وولجوا من فروجها ما قصروا عن سده، ودبوا فيها ديب الظلال في الفيء، فتملكت زغبة سائر البلاد بالأقطاع من السلطان طوعاً وكرهاً رعيّاً لخدمته، وترغياً فيها وعدة وتمكيناً لقوته حتى أفرجت لهم زناتة عن كثيرها، ولجأوا إلى سيف البحر.

وحصل كل منهم في القلول على ما يلي موطنه من بلاد الفقر، فاستولى بنو يزيد على بلاد حمزة وبني حسن كما كانوا من قبل، ومنعوا المغارم، واستولى بنو حسين على ضواحي المدينة أقطاعاً، والعطاف على نواحي مليمانه، والدياليم على وزينة، وسويد على بلاد بني توجين كلها ما عدا جبل ونشريس لتوعره بقيت فيه لمة من توجين رئاستهم لأولاد عمر بن عثمان من الجشم بني تيفرين كما تذكره، وبني عامر على تاسالة وميلانة إلى صيرور إلى كيدزة الجبل المشرف على وهران.

وتعاسك السلطان بالأمصار وأقطع منها كلميتو لأبي بكر بن عريف، ومازونة لمحمد بن عريف، ونزلوا لهم عن سائر الضواحي فاستولوا عليها كافة، وأوشك بهم أن يستولوا على الأمصار. وكل أول فلي آخر، ولكل أجل كتاب، وهم على ذلك لهذا العهد.

استخلص عريف بن يحيى لديه صحابة كانت له معه قبل الملك، ثم أسفه ببعض النزعات الملوكية. وكان هلال مولاة المستولي عليه يغص بما كان عريف منه، فترع عريف بن يحيى إلى بني مريين ملوك المغرب الأقصى ونزل على السلطان أبي سعيد منهم سنة عشرين وسبع مائة، واعتقل أبو تاشفين عمه سعيد بن عثمان إلى أن هلك في محبسه قبيل فتح تلمسان، ولحق أخوه ميمون بن عثمان وولده بملك المغرب وأنزل عريف بن يحيى من سلطان بني مريين أكرم نزل وأدنى مجلسه وأكرم مثواه، ثم اتخذ ابنه السلطان أبو الحسن من بعده بطانة لشوراه ونحياً لخلواته. ولم يزل يجرهم على آل زيان بتلمسان. ونفس ميمون بن عثمان وولده عريف رتبته عند السلطان أبو الحسن، فنزعوا إلى أخيه أبي علي بتافيلالت فلم يزالوا بها إلى أن هلك ميمون.

ثم تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه أبي علي وصار أولاد ميمون في جملة. وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان يجر أمم المغرب، وأحجر على زيان بتلمسان، ثم اقتحمها عليهم عنوة وابتزهم ملكهم، وقتل السلطان أبا تاشفين عند شدونه، وبعث كلمته في أقطار المغرب الأقصى والأدنى إلى تخوم الموحدين من أندلس، وجمع كلمة زناتة واستيعبهم تحت لوائه، وفر بنو عامر من زغبة أولياء بني عبد الواد إلى القفر كما تذكره، ورفع السلطان أبو الحسن قوم عريف بن يحيى بمحلتهم على كل عربي في إيالته من زغبة والمقل. وكان عقد سمعون بن سعيد على التاجعة من سويد، وهلك أيام نزول السلطان بتاسالة سنة اثنتين وثلاثين وسبع مائة قبل فتح تلمسان.

وولي من بعده أخوه عطية وهلك لأشهر من ولايته بعد فتح تلمسان فعقد السلطان لوزمار بن عريف على سويد وسائر بني مالك، وجعل رئاسة البدو حيث كانوا من أعماله، وأخذ الصدقات منهم والأتاوات، فمكثت على بيته أمم البدو واقتدى بشوراه رؤساؤهم. وفر ابن عمه المسعود بن سعيد ولحق ببني عامر، وأجلبوا على السلطان بدعاء جزارشبة ابنه أبي عبد الرحمن، فجمع لهم ونزمار وهزمهم كما تذكره، وسفر عريف بين السلطان أبي الحسن وبين الملوك لعده من الموحدين بإفريقية وبني الأحمر بالأندلس والترك بالقاهرة، ولم يزل على ذلك إلى أن هلك السلطان أبو الحسن.

ولما تغلب السلطان أبو عنان على تلمسان كما سنذكره، رعى لسويد ذمة الانقطاع إليه، وفرع ونزمار بن عريف على سائر رؤساء البدو من زغبة وأقطعه السرمو وقلعة ابن سلامة وكثيراً من بلاد توجين. وهلك أبو عريف بن يحيى، فاستقدمه من البدو،

وكانوا يغلبون غيرهم في مواطن حمزة والدهوس، وبني حسن لميرة أقواتهم في المصيف. ولهم على وطن بني يزيد ضريبة من الزرع متعارفة بين أهله لهذا العهد. يقال: إنها كانت لهم أزمان تغلبهم في ذلك الوطن، وقيل: إن أبا بكر بن زغبة في فتته مع رياح غلبوه على الدهوس من وطنه، فاستصرخ بني عامر فجاؤوا لصريحه، وعلى بني يعقوب داود بن عطف، وعلى بني حميد يعقوب بن معروف، وعلى شافع صالح بن بالغ وغلبوا رياحاً بعزلان، وفرض لهم على وطن بني يزيد ألف غرارة، واستمرت لهم عادة عليهم.

ولما نقلهم يغمراسن إلى مواطنهم هذه لحاذة تلمسان ليكونوا حجراً بين المعقل وبين وطنها، استقروا هنالك يتقلبون في قفارها في المشاتي، ويظهرون إلى التلول في المربيع والمصايف. وكان فيهم ثلاثة بطون: بنو يعقوب بن عامر وبنو حميد بن عامر وبنو شافع بن عامر، وهم بنو شقارة وبنو مطرف، ولكل واحد من البطينين الآخرين أفخاذ وعمائر، ولبيني حميد فصائل أخرى فمنهم: بنو حميد، ومن عبيد الحجز وهم بنو حجاز بن عبيد، وكان له من الولد جحرش وهجيش ابني حجاز، ولجحرش حامد ومحمد ورباب.

ومن محمد الولادة بنو ولاد بن محمد، ومن رباب بنو رباب وهم معروفون لهذا العهد، ومن عبيد أيضاً العقلة بنو عقيل بن عبيد، والحارزة بنو محرز بن حمزة بن عبيد. وكانت الرئاسة على حميد لعلاق من هؤلاء الحارزة، وهم الذين قبل جحرش جد بني رباب، وكانت الرئاسة على بني عامر كافة لبني يعقوب على عهد يغمراسن وابنه لداود بن هلال بن عطف بن رداد بن ركيش بن عياد بن منيع بن يعقوب منهم، وكان بنو حميد أيضاً برئيسهم وشيوخهم - إلا أنه رديف لشيخ بني يعقوب - منهم.

وكانت رئاسة حميد لأولاد رباب بن حامد بن جحرش بن حجاز بن عبيد بن حميد ويسمون الحجز. وعلى عهد يغمراسن لعرف بن سعيد بن رباب منهم، وهو رديف لداود كما قلناه. ووقعت بين عثمان وبين داود بن عطف مغاضبة، وسخطه عثمان لما أجاز الأمير أبا زكريا ابن السلطان أبي إسحاق من آل أبي حفص حين فر من تلمسان طالباً الخروج على الخليفة بتونس، وكان عثمان بن يغمراسن في بيعته، فاعتزم على رجعه فأبى داود من إخفاره ذمته في ذلك، ورحل معه حتى لحق بعتبة بن سليمان من شيوخ الداودة، وتغلب على بجاية وقسطنطينة كما يذكر في أخباره.

وأقطع داود بن هلال رعياً لفعلته وطناً من بلاد حمزة

ومن بطون سويد هؤلاء بطون بنواحي البطحاء يعرفون بهرة، ينسبهم الناس إلى مجاهد بن سويد، وهم يزعمون أنهم من قوم المقداد بن الأسود، وهم بهذا من قضاة، ومنهم من يزعم أنهم من نجيب إحدى بطون كندة والله أعلم. ومن طواغن سويد هؤلاء ناجعة يعرفون بصبيح، ونسبهم إلى صبيح بن علاج بن مالك ولهم عدد وقوة وهم يظعنون بظعن سويد ويقيمون بمقامهم. وأما الحارث بن مالك وهم العطف والديالم فموطن العطف قلة مليانة، ورئاسة ظعنهم لولد يعقوب بن نصر بن عروة بن منصور بن أبي الذئب بن حسن بن عياض بن عطف بن زيان بن يعقوب، وابن أخيه علي بن أحد وبنه، ومعهم طائفة من براز إحدى بطون الأنبج. وأقطعهم السلطان مغارم جبل دراك وما إليه من وادي شلب، وحال بينهم وبين موطن سويد ونشريس ولهم بلاد وزينة في قبلة الجبل رئاستهم في ولد إبراهيم بن رزق بن رعاية من مزروع بن صالح بن ديلم، والسعد بن العباس بن إبراهيم منهم لهذا العهد. وكانت من قبل لعمه أبي يحيى بن إبراهيم وتقبض عليه السلطان أبو عثمان بإشارة عريف بن يحيى وأغرى به وهلك به وهلك في محبسه.

وفيه بطون كثيرة منهم بنو زيادة بن إبراهيم بن رومي والدهاقنة أولاد هلال بن حسن وبنو نوال بن حسن أيضاً، وكلهم إخوة ديلم بن حسن وابن عكرمة من مزروع بن صالح، ويعرفون بالعمارة. وهؤلاء العطف والديالم أقل عدداً من سويد وأولياؤهم في فتنتهم مع بني عامر لمكان العصية من نسب مالك، ولسويد عليهم اعتزاز بالكثرة، والديالم أبعد مجالاً منهم في الفقر ويمحاذيهم في مواطنهم من جانب التلول بطن من بطون الحرث يعرفون بغريب نسبهم إلى غريب بن حارث، حي حلول بتلك المواطن يطلبهم السلطان في العسكرة، ويأخذ منهم المغارم وهم أهل شاء وبقر، ورئاستهم في أبناء مزروع بن خليفة بن خلوف بن يوسف بن بكرة بن منهاب بن مكتوب بن منيع بن مغيث بن محمد الغريب، وهو جدهم ابن حارث. وترادفهم في رئاستهم على غريب أولاد يوسف، وهم جميعاً أولاد بني منيع، وسائر غريب من الأحراف شيوخهم أولاد كامل، والله مالك الخلق والأمر.

بنو عامر بن زغبة

وأما بنو عامر بن زغبة فموطنهم في آخر مواطن زغبة من المغرب الأوسط قبل تلمسان مما يلي المعقل، وكانت مواطنهم من قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق، وكانوا مع بني يزيد حياً جميعاً،

واستأنف السلطان على يد عريف بن يحيى سائر بطون حميد وأولاد رباب فخالقوا صغيراً إخوانه إلى السلطان. وولي عليهم شيخاً من بني عمهم عريف بن سعيد، وهو يعقوب بن العباس بن ميمون بن عريف، ووفد بعد ذلك عمر بن إبراهيم عم صغير فولاه عليهم واستخدمهم، ولحق بنو عامر بن إبراهيم بالدواودة ونزلوا على يعقوب بن علي، ولم يزلوا هناك حتى شبوا نار الفتنة بالدعي بن هيدور المهيمن بشعبة أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن، وأعانته على ذلك أهل الحقود على الدولة والأصخان من الديلم، وأولاد ميمون بن غنم بن سويد تقموا على الدولة مكان عريف وابنه ونزار منها، فاجتمعوا وبايعوا لهذا الدعي.

وأوعز السلطان إلى ونزار مجربهم فنهض إليهم بالعرب كافة، وأوقع بهم وفضهم ومزق جمعهم، وطال مفر صغير بن عامر وإخوته في القفار، وأبعدوا في الهرب، قطعوا العرق الرمل الذي هو سياج على مجالات العرب، ونزل قليعة والد وأوطنها. ووفد من بعد ذلك على السلطان أبي الحسن متذمماً به فقبل وفادته واسترهن أخاه أبا بكر، وصحب السلطان إلى إفريقية وحضر معه واقعة القيروان، ثم رجع إلى قومه وعادوا جميعاً لولاية بني يغمراسن، واستخدموا قبائلهم لأبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن الدائل بتلمسان بعد واقعة القيروان أعوام خمسين وسبعمئة، فكان له ولقومه فيها مكان، ولحق سويد وينو يعقوب بالمغرب حتى جاؤوا في مقدمة السلطان أبي عنان.

ولما هلك بنو عبد الواد وافترق جمعهم فر صغير إلى الصحراء على عادته، وأقام بالقفر يترقب الخوارج، ولحق به أكثر قومه من بني معمر بن سعيد فأجلب بهم على كل ناحية. وخالف أولاد حسين بالمقل على السلطان أبي عنان أعوام خمس وخمسين وما بعدها ونازلوا سجالماً فكاثرهم وكان معهم، وأوقعت بهم عسكار بني مريم في بعض سني خلائهم وهم بنكور يمتارون فاكسحوا عامة أمواهم وأنخنوا فيهم قتلاً وأسراً، ولم يزلوا كذلك شديداً في الصحراء، وسويد وينو يعقوب بمكانهم من المجالات، وفي حظهم عند السلطان حتى هلك السلطان أبو عنان وجاء أبو حمو موسى بن يوسف أخو السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن لطلب ملك قومه بتلمسان، وكان مستقراً بتونس منذ غلبهم أبو علي على أمرهم، فرحل صغير إلى وطن الدواودة، ونزل على يعقوب بن علي أزمان خلافة على السلطان أبي عنان، ودخله في استخلاص أبي حمو هذا من إيالة الموحدين للإجلاب على وطن تلمسان وبني مريم الذين به، فأرسلوا معه وأعطوه الآلة. ومضى به مقيراً وصولاً بن يعقوب بن علي وزيان بن

يسمى كدارة، وأقام داود هنالك في مجالاتهم الأولى إلى أن نازل يوسف بن يعقوب بتلمسان، وطال حصاره لها، فوجد عليه داود مؤملاً صلاح حاله لديه، وحمله صاحب بجاية رسالة إلى يوسف بن يعقوب فاستراب به من أجلها، فلما قفل من وفادته بعث في أثره خيالة من زناتة بيتوه ببني يبقى في سد وقتلوه، وقام بأمره في قومه ابنه سعيد، ونفس خنق الحصار عن تلمسان. وكان قبل بني مريم لأبيه وسيلة رعاها لهم بنو عثمان بن يغمراسن فرجعهم إلى مواطنهم ومع قومهم. وقد اغتر أولاد معرف بن سعيد في غيبتهم تلك يساجلونهم في رئاسة بني عامر، وغص كل واحد بمكان صاحبه، واختص بنو معرف بإقبال الدولة عليهم لسلامتهم من الحزاة والخلاف. ونزع سعيد بن داود لأجل هذه الغيرة إلى بني مريم.

ووفد على السلطان أبي ثابت من ملوكهم يؤمل به الكرة، فلم يصادف لها محلاً ورجع إلى قومه، وكانوا مع ذلك حياً جميعاً ولم تزل السعاية بينهم ندب حتى عدا إبراهيم بن يعقوب بن معرف على سعيد بن داود فقتله، وتناول قتله ماضي بن ردان من أولاد معرف بن عامر بمجالاته، وتعصب عليه أولاد رباب كافة، فافترق أمر بني عامر وصاروا حين. بنو يعقوب وبنو حميد، وذلك لعهد أبي حمو موسى بن عثمان من آل زيان، وقام بأمر بني يعقوب بعد سعيد ابنه عثمان. ثم هلك بعد حين إبراهيم بن يعقوب شيخ بني حميد وقام مقامه من قومه ابنه عامر بن إبراهيم، وكان شهماً حازماً وله ذكر، ونزل المغرب قبل عريف بن يحيى ونزل على السلطان أبي سعيد، وأصهر إليه ابنته فانكحه عامر إياها وزفها إليه ووصله بمال له خطر، فلم يزل عثمان يحاول أن يثأر منه بأبيه بالفتنة تارة والصلح والاجتماع أخرى حتى غدره في بيته وقتله، وارتكب فيه الشنعاء التي تنكرها العرب، فتقاطعت الفريقان لذلك آخر الدهر.

وصارت بنو يعقوب أحلافاً لسويد في قنتهم مع بني حميد هؤلاء. ثم تلاحقت طواغن سويد بعريف بن يحيى في مكانه عند بني مريم، واستطال ولد عامر بن إبراهيم بقومهم على بني يعقوب فلحقوا بالمغرب، ولم يزلوا به إلى أن جاؤوا في عساكر السلطان أبي الحسن، وهلك شيخهم عثمان، قتله أولاد عريف بن سعيد بثأر عامر بن إبراهيم، وولي بعده ابن عمه هجرس بن غانم بن هلال، فكان رديفاً له في حياته، ثم هلك وقام بأمره عمه سليمان بن داود.

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على تلمسان فر بنو عامر بن إبراهيم إلى الصحراء، وكان شيخهم لذلك العهد صغير ابنه،

وقتل عبد الله بن مقير وأخوه ملوك في قرابة لهم آخرين، وسار فلهم شريداً إلى الصحراء، ولحقوا بالديالم والعطاف، واجتمعوا جميعاً إلى سالم بن إبراهيم كبير الثعالب، وصاحب وطن متيجيه وكان يتوجس لأبي هو الخيفة فاتفقوا على الخلاف وبعثوا إلى الأمير أبي زيان بمكانه من وطن رياح فجاءهم وتابعوه، وأمكنه سالم من الجزائر، ثم هلك خالد في بعض تلك الأيام فافترق أمرهم، وولي علي بن عامر المسعود بن مقير، وزحف إليهم أبو هو في سويد وأوليائه من بني عامر، واستخدم سالم بن إبراهيم، وخرج أبو زيان إلى مكانه من وطن رياح، ولحق المسعود بن عامر وقومه بالفقر، ولحق ساسي بن سليم يعقوب بن علي وقومه من الدواودة.

ثم راجعوا جميعاً خدمة السلطان وأوفدوا عليه فأمهم، وقدموا عليه وأظهروا البر والرحب بالمسعود وساسي، وطوى لهم على السوء، ثم داخل بطانة من بني عامر وسويد في نكبتهم، فأجابوه ومكر بهم، وبعث ابنه أبا تاشفين لقبض الصدقات من قومهم حتى اجتمع له ما أراد من الجموع، فقبض على المسعود وعشرة من إخوانه بني عامر بن إبراهيم، ونهض أبو تاشفين والعرب جميعاً إلى أحياء بني يعقوب وكانوا بسيرات، وقد أرصد لهم سويد بوادي مينا فصبحهم بنو عامر بمكانهم واكتسحوهم، وصار فلهم إلى الصحراء، فاعترضهم أبو تاشفين ببني راشد فلم يبق لهم باقية، ونجا ساسي بن سليم إلى الصحراء في قلّ قليل من قومه، ونزل على النضر بن عروة، واستبد برئاسة بني عامر سليمان بن إبراهيم بن يعقوب عم مقير ورديفه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب، وهو أقرب مكاناً من السلطان وخلعه.

ثم بعث صاحب المغرب السلطان أبو العباس أحمد بن الولي أبا سالم بالشفاعة في المسعود وإخوانه بوسيلة من ونزمار بن عريف بعد أن كان مداخلاً لأبي هو وإخوانه في نكبتهم، فأطلقهم أبو هو بتلك الشفاعة، فعادوا إلى الخلاف، وخرجوا إلى الصحراء، واجتمع إليهم الكثير من أولاد إبراهيم بن يعقوب. واجتمع أيضاً قلّ بني يعقوب من مطارحهم إلى شيخهم ساسي بن سليم ونزلوا جميعاً مع عروة، وأوفد إخوانه على السلطان أبي العباس صاحب إفريقية لهذا العهد متذمّراً به وصرخاً على عدوه فقتلناه من البر والإحسان ما يناسبه، وأفاض في وفده العطاء وصرفه بالوعد الجميل.

وشمر بذلك أبو هو فبعث من عيونه من اغتاله ووفد بعدها على السلطان أبي العباس صاحب إفريقية علي بن عمر بن

عثمان بن سباع وشبل ابن أخيه ملوك بني عثمان. ومن بادية رياح دغار بن عيسى بن رحاب بقومه من سعيد، وبلغوا معهم إلى تخوم بلادهم فرجع عنهم رياح إلا دغار بن عيسى وشبل بن ملوك، ومضوا لوجههم. ولقيتهم جموع سويد، وكان الغلب لبني عامر، وقتل يومئذ شيخ سويد بن عيسى بن عريف وأسر أخوه أبو بكر. ثم منّ عليه علي بن عمر بن إبراهيم وأطلقه، ولم يتصل الخبر بفاس إلا والناس منصرفون من جنازة السلطان أبي عنان، ثم أجلب أبو هو بالمغرب على تلمسان فأخذها وغلب عساكر بني مرين عليها، واستوثق ملكه بها. ثم هلك مقير لستين أو نحوهما حمل نفسه في جولة فتنة في الحي يروم تسكينها على بعض الفرسان، فاعترضه سنان رمح على غير قصد فأنفذه وهلك لوقته. وولي رئاستهم من بعده أخوه خالد بن عامر يرادفه عبد الله ابن أخيه مقير، وخلصت رغبة كلها للسلطان أبي هو فأساء بني مرين لما كان بينهم من الفتنة واستخدمهم جميعاً على مضاربهم وعوائلهم من سويد وبني يعقوب والديالم والعطاف، حتى إذا كانت فتنة أبي زيان بن السلطان أبي سعيد عم أبي هو كما ذكره في خبرهم جاش مرجل الفتنة من زغبة، واختلّفوا على أبي هو وقبض على محمد بن عريف أمير سويد لانتهاهم إياه بالإدهان في أمره، فنزع أخوه أبو بكر وقومه إلى صاحب المغرب عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن سنة سبعين وسبعمائة وجاؤوا في مقدمته واستولى على موطنهم.

ولحق بنو عامر وأبو هو بالصحراء، وطال ترددهم فيها وسعى عند أبي هو في خالد من عمومته وأقاربه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب، ومعرف هو أخو إبراهيم بن يعقوب، وكان عبد الله هذا بطانة للسلطان وعيناً، فاستفسد بذلك قلب خالد وتغيّر ونبذ إليه عهده، ونزع عنه إلى السلطان عبد العزيز، وجاءت به عساكر بني مرين فأوقع بالسلطان أبي هو ومن معه من العرب.

وهلك عبد العزيز سنة أربع وسبعين فارحل إلى المغرب هو وعبد الله ابن أخيه مقير، ولحقهم ساسي بن سليم بن داود شيخ بني يعقوب. كان قومه بني يعقوب قتلوا أبناء محمد بن عريف فحدثت بينهم فتنة، ولحق ساسي هذا وقومه بالمغرب، وصحب خالداً يؤمل به الكرة، ويسوا من صريح بني مرين لما بينهم من الفتنة، فرجعوا إلى أوطانهم سنة سبع وسبعين وأضرمو نار الفتنة، وخرجت إليهم عساكر السلطان أبي هو مع ابنه أبي تاشفين، وزحف معه سويد والديالم والعطاف فأوقعوا بهم على وادي مينا قبلة القلعة.

أخبارهم. والله الخلق والأمير وهو رب العالمين.

الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة وأنسابهم وتصاريح أحوالهم

هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بفقار المغرب الأقصى مجاورون لبني عامر من زغبة في مواطنهم بقبيلة تلمسان، ويتنهبون إلى البحر المحيط من جانب الغرب، وهم ثلاثة بطون: ذوي عبيد الله وذوي منصور وذوي حسان. فذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة، ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل مثل تاري وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر، ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، ويتجمعون كلهم في الرمال إلى مواطن المثلثين من كدالة مستوفة ولتونة.

وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل يقال إنهم لم يبلغوا المائتين، واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار والغربة فغفوا وكثروا وأنبتوا في صحارى المغرب الأقصى، فعمروا رماله وتغلبوا على فيافيه. وكانوا هناك أحلاقاً لزناة سائر أيامهم، وبقي منهم بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان، واستتلاف العرب.

فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن قام هؤلاء المعقل في القفار وتفردوا في البيداء فتمصوا نمواً لا كفاء له، وملكو قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غرباً، ثم توات ثم بودة ثم تامنطيت، ثم واركلان ثم تاسبيت ثم تيكورارين شرقاً، وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة، وبينهم فتن وحروب على رئاستها، فجازا عرب المعقل هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الأتاوات والضرائب، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً. وكانوا من تلك السالفة يعطون الصدقات للملك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل ويسمونهم حمل الرحيل. وكان لهم الخيار في تعيينها.

ولم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب

إبراهيم، وهو ابن عم خالد بن محمد وكبير الفر المخالفين من بني عامر على أبي حمو. ووفد معه سليمان بن شبيب بن عامر فوفدوا عليه بتونس يطلبون صريحه، فأجابتهم ووعدهم وأحسب بالإحسان والمبرة أمامهم، ورجعوا إلى قومهم. ثم راجع علي بن عمر خدمة أبي حمو وقدمه على بني عامر، وأدال به من سليمان بن إبراهيم بن عامر، فخرج سليمان إلى أهل بيته من ولد عامر بن إبراهيم الذين بالصحراء، ونزلوا مع بني يعقوب بأحياء أبي بكر بن عريف، وهو على ذلك لهذا العهد. والله مقدر الليل والنهار اه.

عروة بن زغبة

وأما عروة بن زغبة فهم بطنان: النضر بن عروة. وبطون خميس ثلاثة: عبيد الله وفرغ ويقظان. ومن بطون فرغ بنو قاتل أحلاف أولاد يحيى من المعمور القاطنين بجبل راشد. وبنو يقظان وعبيد الله أحلاف لسويد يظعنون لظعنهم ويقيمون لإقامتهم، ورئاستهم لأولاد عابد من بطن راشد. وأما النضر بن عروة فمتبدون بالقفر ينتجعون في رماله ويصعدون إلى أطراف التلول في إيالة الديالم والعطاف وحصين وتخوم أوطانهم، وليس لهم ملك ولا أقطاع لعجزهم عن دخول التلول بلغتهم وممانعة بطون زغبة الآخرين عنها إلا ما تغلبوا عليه في أذنان الوطن بجبل المستند مما يلي وطن رياح، يسكنه قوم من غمرة وزناة استمر عليهم غلب العرب منذ ستين، فوضع النضر هؤلاء عليهم الأتاوة وأصاروهم خولاً ورعية. وربما نزل منهم مع هؤلاء البرابر من عجز عن الظعن في بيوتهم ولهم بطون مذكورة: أولاد خليفة والخماتنة وشريعة والسحاوي وذوي زيان وأولاد سليمان، ورئاستهم جميعاً في أولاد خليفة بن النضر بن عروة، وهي لهذا العهد لمحمد بن زيان بن عسكر بن خليفة ورديفه سمعون بن أبي يحيى بن خليفة بن عسكر، وأكثر السحاري موطنون بجبل المشتل الذي ذكرناه، ورئاستهم في أولاد، وناجعة هؤلاء النضر أحلاف لزغبة دائماً، فتارة للحرب وحصين جيرانهم في المواطن، وتارة لبني عامر في فتنهم مع سويد، ونديتهم مع بني عامر فيما يزعمون بأل حقافة وسمعت من مشايخهم أنه ليس باب لهم، وإنما هو اسم وإد كان به حلفهم قديماً، وربما يظاهرون سويداً على ابن عامر، إلا أنه في الأقل والندرة. وهم إلى حلف بني عامر أقرب وأسرع لما ذكرناه، وربما ظاهروا رياحاً بعض المرات في فتنهم لجوار الوطن، إلا أنه قليل أيضاً وفي النادر، ويتناولون في الأكثر مع البادية من رياح مثل مسلم وسعيد، وربما وقعت بينهم حروب في القفر يصيب فيها بعض من دماء بعض، هذه بطون زغبة وما تأدى إلينا من

جبل السكسيري من جبال أدرن وشيخهم لهذا العهد أو ما قبله يعيش بن طلحة. والبطن الآخر آل علي، وموطنهم في برية هنكية تحت جبل كزولة، وشيخهم لهذا العهد أو ما قرب منه حريز بن علي. ومن جلال: سالم وعثمان الرقيطات بادية لذوي حسان يتتبعون معهم. وولد منصور بن محمد: حسين وأبو الحسين وعمران ونسباً يقال لهم جميعاً ذوي منصور، وهو أحد بطونهم الثلاثة المذكورة. والله سبحانه وتعالى أعلم بغيه وأحكم.

ذو عبيد الله

فأما ذوي عبيد الله فهم المجاورون لبني عامر بن زغبة وفي سلطان بني عبد الواد من زناتة، فمواطنهم ما بين تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبت وادي صامن من القبلة. وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت، وربما عاجوا ذات الشمال إلى تاسايت وتوكرارين، وهذه كلها رقاب الفقر إلى بلاد السودان. وبينهم وبين بني عامر فتن وحروب موصولة. وكان لهم مع بني عبد الواد مثلها قبل السلطان والدولة، فما كانوا أحلافاً لبني مرين. وكان المنبات من ذوي منصور أحلافاً لبني عبد الواد فكان يغمراسن يوقع بهم أكثر أوقاته وينال منهم إلى أن صحبوا بسبب الجوار، واعتزت عليهم الدولة فأعطوا الصدقة والطوائل وعسكروا مع السلطان في حروبه.

ولم يزل ذلك إلى أن لحق الدولة الهرم الذي يلحق مثلها فوطنا التلول، وتلكوا وجدة وندرومة وبني يزنانس ومديونة وبني سنوس أقطاعاً من السلطان إلى ما كان لهم عليها قبل من الأتوات والوضائع فصار معظم جبايتها لهم، وضربوا على بلاد هتين بالساحل ضريبة الإجازة منها إلى تلمسان، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم. وهم بطنان: الهراج والخراج، فالخراج من ولد فزاج بن مطرف بن عبيد الله، ورئاستهم في أولاد عبد الملك وفرج بن علي بن أبي الريش بن نهار بن عثمان بن خراج، لأولاد عيسى بن عبد الملك ويعقوب بن عبد الملك ويعفور بن عبد الملك.

وكان يعقوب بن يعفور شيخهم لعهد السلطان أبي الحسن، ولما تغلب على تلمسان استخدم له عبيد الله هؤلاء وكان يحى بن العز من رجالة بني يزنانس أهل الجبل المطل على وجدة. وكان له قدم في خدمة الدول فاتصل بالسلطان أبي الحسن ورغبة في ملك قصور هذه الصحراء، فبعثه مع هؤلاء العرب في عسكر، ودخل معهم إلى الصحراء وملك تلك القصور واستولى عليها، وأسف

وتلوه حمى، ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزاز الدول وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم، وكان لهم بإزاء ذلك أقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى، وفيهم من مسلم سعيد بن رياح والعمور من الأثيج، وعددهم كما قلنا قليل، وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم فإن فيهم من فزارة ومن أشجع أحياء كبيرة، وفيهم الشظية من كرفة والمهاية من عياض، والشعراء من حصين، والصباح من الأخضر، ومن بني سليم وغيرهم. وأما أنسابهم عند الجمهور فخفية وبجوهلة، ونسابة العرب من هلال يعدونهم من بطون هلال وهو غير صحيح، وهم يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب وليس ذلك بصحيح، لأن الطالبيين والمهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة. والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن، فإن فيهم بطنين يسمى كل واحد منهما بالمعقل، ذكرهما ابن الكلبي وغيره، فأحدهما: من قضاة بن مالك بن حمير وهو معقل بن كعب بن غليم بن خباب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد بن اللات بن ربيعة بن ثور بن كعب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. والآخر: من بني الحرث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج، واسمه مالك، ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زير بن كهلان، وهو معقل واسمه ربيعة بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحرث.

والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر الذي من مذحج، كان اسمه ربيعة، وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين إلى إفريقية، لأن مواطن بني الحرث بن كعب قريب من البحرين حيث كان هؤلاء العرب مع القرامطة قبل دخولهم إلى إفريقية. ويؤيده أن ابن سعيد لما ذكر مذحج وأنهم بجهات الجبال من اليمن، وذكر من بطونهم زيد ومراد ثم قال: وبإفريقية منهم فرقة وبرة ترغل وتزل، وهؤلاء الذين ذكر إنما هم المعقل الذين هم بإفريقية، وهم فرقة من هؤلاء الذين بالمغرب الأقصى.

ومن إملاء نسبتهم: أن معقل جدّهم له من الولد: سحير ومحمد، فولد سحير: عبيد الله وثعلب، فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم، ومن ثعلب الثعلاب الذين كانوا بسيط متيجة من نواحي الجزائر، وولد محمد: مختار ومنصور وجلال وسالم وعثمان. فولد مختار بن محمد: حسان وشبانة، فمن حسان ذوي حسان البطن المذكور أهل السوس الأقصى. ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنالك. ومنهم بطنان: بنو ثابت وموطنهم تحت

نزولهم لها حين كان ذوو عبيد الله في مواطن بني عامر لهذا العهد، وكان بنو عامر في مواطن بني سويد فكانت مواطنهم لذلك العهد متصلة بالتلول الشرقية فدخلوا من ناحية كزول وتدرجوا في المواطن إلى ضواحي المدينة، ونزلوا جبل تيطري وهو جبل أشير الذي كانت فيه المدينة الكبيرة. فلما تغلب بنو توجين على التلول وملكوا ونشريش زحف محمد بن عبد القوي إلى المدينة فملكها، وكانت بينهم وبينه حرب وسلم إلى أن وفدت عليه مشيختهم، فتقبض عليهم وأغزى من وراءهم من بقية الثعالبية واستلحمهم واكسح أموالهم.

وغللبهم بعدها على تيطري وأزاحهم عنها إلى متيجة، وأتزل قبائل حصين بتيطري وكانوا معه في عداد الرعايا يؤذون إليه المغارم والوظائف، ويأخذون بالعسكرة معه ودخل الثعالبية هؤلاء في إيالة ملكيش من صنهاجة بيسيط متيجة، وأوطنوا تحت ملكتهم، وكان لهم عليهم سلطان كما نذكره، حتى إذا غلب بنو مرين على المغرب الأوسط وأذهبوا ملك ملكيش منها، استبد الثعالبية هؤلاء بذلك البسيط وملكوه، وكانت رئاستهم في ولد سباع بن ثعلب بن علي بن مكر بن صغير. ويزعمون أن سباعاً هذا كان ذا وقد على المرحدين يجعلون من فوق عمامته ديناراً يزن عدداً من الدنانير سابقة في تكرمته وترفيهه.

وسمعت من بعض مشيختنا أن ذلك لما كان من كرامته للإمام المهدي حين أجاز بهم فإنه مر بهم ساعياً فحملوه واستقرت الرئاسة في ولد سباع هذا في بني يعقوب بن سباع أولاً، فكانت لهم مدداً، ثم في عقب حنيش منهم. ثم غلب السلطان أبو الحسن على ممالك بني عبد الواد ونقلهم إلى المغرب، وصارت الولاية لهم لأبي الحملات بن عائد بن ثابت، وهو ابن عم حنيش وهلك في الطاعون الجارف أواسط هذه المائة الثامنة لعهد نزول السلطان أبي الحسن بالجزائر من تونس، فولّي عليهم إبراهيم بن نصر.

ولم تزل رئاستهم إليه إلى أن هلك بعد استيلاء السلطان أبي عنان على المغربين كما نذكره في أخباره وقام برئاستهم ابنه سالم، وكانوا أهل مغارم ووضيعه للملكش ومن بعدهم من ولاية الجزائر، حتى إذا هبت ريح العرب أيام خروج أبي زيّان وحصين على أبي حمو أعوام ستين وسبعمئة كما ذكرناه. وكان شيخهم لذلك العهد سالم بن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن ثابت بن محمد بن سباع، فأخب في تلك الفتنة وأوضع، وعاقده أبو حمو وانتقض عليه مراراً، وغلب بنو مرين على تلمسان فتحيز إليهم، وكانت رسله ووفده تقدموا إليهم بالمغرب.

عبيد الله بانتزاع أملاكهم وسوء المعاملة لهم، فوثبوا به وقتلوه في خبائه وانتهبوا عسكر السلطان الذين معه ونقضوا الطاعة، وفر يعقوب بن يغمور فلم يزل شريداً بالصحراء سائر أيامه، ورجع بعد ذلك.

ثم عادت دولة بني عبد الواد فصدوا في ولايتها، فلم يزل على ذلك، وخلفه ابنه طلحة، وكان أيام خلاف يعقوب وانتقاضه رأس على الخراج من أهل بيته منصور بن يعقوب بن عبد الملك وابنه رحو من بعده. وجاء أبو حمو فكان له في خدمته ومغالطته قدم، فقدمه شيخاً عليهم. فرئاستهم لهذا العهد منقسمة بين رحو بن منصور بن يعقوب بن عبد الملك وبين طلحة بن يعقوب المذكور آنفاً، وربما نازعه. ولهم بطون كثيرة فمنهم: الجماعنة من جعوان بن خراج، والغسل من غاسل بن خراج، والمطارفة من مطرف بن خراج، والعثمانة من عثمان بن خراج، وفيهم رئاستهم كما قلنا، ومعهم ناجعة يسمون بالمهاية ينسبون تارة إلى المهاية بن عياض، وقدمنا ذكرهم. وتارة إلى مهيا بن مطرف.

وأما الهراج فمن ولد الهراج بن مهدي بن محمد بن عبيد الله، ومواطنهم في ناحية المغرب عن الخراج فيجاورون بني منصور ولهم تاوريرت وما إليها. وخدمتهم في الغالب لبني مريس وإقطاعاتهم من أيديهم، ومواطنهم تحتهم، ورجوعهم إلى عبد الواد في الأقل، وفي بعض الأحيان ورئاستهم في ولد يعقوب بن هبا بن هراج لأولاد مرين بن يعقوب، وأولاد مناد بن رزق الله ابن يعقوب، وأولاد فكرون بن محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب من ولد حريز بن يحيى الصغير بن موسى بن يوسف بن حريز، كان شيخاً عليهم أيام السلطان عبد العزيز، وهلك عقبه، ورأس عليهم ابنه. ومن ولد مناد أبو يحيى الكبير بن مناد كان شيخاً قبل أبي يحيى الصغير، وبالإضافة إليه وصف بالصغير. ومنهم أبو حيمدة محمد بن عيسى بن مناد وهو لهذا العصر رديف لشيخهم من ولد أبي يحيى الصغير، وهو كثير الثقل في الفغار والغزو للقاوية ولأهل الرمال والمثلثين. والله مالك الملوك لا رب غيره ولا معبود سواه وهو نعم المولى ونعم النصير.

الثعالبية

وأما الثعالبية إخوتهم من ولد ثعلب بن علي بن بكر بن صغير أخي عبيد الله بن صغير، فموطنهم لهذا العهد بمتيجة من بسيط الجزائر، وكانوا قبلها بقطري مواطن حصين لهذا العهد، نزلوها منذ عصور قديمة، وأقاموا بها حياً حلاً. ويظهر أن

وسبعائة وقرّ صغير بن عامر إلى الصحراء ونزل عليهم واستجار بهم فاجاروه. ونزل السلطان عليهم ذلك فأجمعوا نقض طاعته وأقاموا معه بالصحراء وصغير متولي كبير ذلك الخلاف، حتى إذا هلك أبو عنان وكان من سلطان أبي حمو تلمسان ما نحن ذاكروه، وزحف بنو مرين إلى تلمسان فقر منها أبو حمو وصغير، ونزلوا عليهم فأوقعوا بعسكر بني مرين بنواحي تلمسان، واتسع الخرق بينهم وبين بني مرين فالتحازوا إلى أبي حمو وسلطانه، وأقطعهم بضواحيه. ثم رجعوا إلى أوطانهم بعد مهلك السلطان أبي سالم أعوام ثلاث وستين على حين اضطراب المغرب بفتنة أولاد السلطان أبي علي ونزولهم بسجلماسة، فكان لهم في ذلك الفتنة آثار إلى أن انقضت.

ثم كان لأحد بن رحو مع أبي حمو جولة وأجلب عليه بأبي زيان حافد أبي تاشفين فقتل في تلك الفتنة كما نذكره. ثم اعتزوا على الدولة من بعد ذلك وأكثر مغارم درعة لهذا العهد. وأقطع لهم ببلاد تادلا والمعدن من تلك الثنايا التي منها دخولهم إلى المغرب للمربع والمصيف ولميرات الأقوات. وسجلماسة من مواطن إخوانهم الأحلاف كما نذكره، وليست من مواطنهم، فأما درعة فهي من بلاد القبلية موضوعة حقاً في الوداي الأعظم المنحدر من جبل درن من فوهة يخرج منها وادي أم ربيع، ويتسائل إلى البساط والتلول وادي درعة ينحدر إلى القبلية مغرباً إلى أن يصب في الرمل ببلاد السوس، وعليه قصور درعة، ووادي آخر كبير أيضاً ينحدر إلى القبلية مشرقاً بعض الشيء إلى أن يصب في الرمل دون تيكورارين وفي قبلتها.

وعليه من جهة المغرب قصور توات، ثم بعدها تمنطيط، ثم بعدها وركلان. وعندها يصب في الرمل، وفي الشمال عن ركان قصور تساييت. وفي الشمال عنها إلى الشرق قصور تيكورارين، والكل وراء عرب الرمل. وجبال درن هي الجبال العظيمة الجائمة ساجاً على المغرب الأقصى من أسفي إلى تازي، وفي قبلتها جبل نيكسة لصنهاجة، وآخره جبل ابن حبيدي من طرف هسكورة. ثم ينعطف من هنالك جبال أخرى متوازية حتى تنتهي إلى ساحل بادس من البحر الرومي. وصار المغرب لذلك كالجزيرة أحاطت الجبال به من القبلية والشرق والبحر ومن المغرب والجوف.

واعتمر هذه الجبال والبساط التي بينها أمم من البربر لا يحصيهم إلا خالقهم، والمسالك بين هذه الجبال إلى المغرب منحصرة، ثم معدودة، وبزحام القبائل المتمرين لها كاظمة. ومصعب وادي درعة هذا إلى الصحراء والرمال ما بين سجلماسة وبلاد السوس، ويمتد إلى أن يصب في البحر ما بين نون وواديان، وحفافيه

ثم هلك السلطان عبد العزيز ورجع أبو حمو إلى ملكه، ونزلت الغوائل فخشيه سالم، واستدعى أبا زيان ونصبه بالجزائر، وزحف إليه أبو حمو سنة تسع وسبعين ففرض جمعه وراجع سالم خدمته، وفارق أبا زيان كما نذكره في أخباره. ثم زحف إليه أبو حمو وحاصره بجمال متيجة أياماً قلائل، واستنزله على عهده. ثم أخفوه وتقبض عليه وقاده إلى تلمسان أسيراً وقتله قعصاً بالرماح وذهب أثره وماكان له من الرئاسة التي لم تكن الثعالب لها بأهل. ثم تبسّع إخوانه وعشيرته وقبيله بالقتل والسبي والنهب إلى أن دثروا، والله يخلق ما يشاء.

ذوو منصور

وأما أولاد منصور بن محمد فهم معظم هؤلاء المعقل، وجهورهم ومواطنهم تخوم المغرب الأقصى من قبلته ما بين ملوية ودرعة. وبطنهم أربعة: أولاد حسين وأولاد أبي الحسين وهما شقيقان، والعمارة أولاد عمران، والمنايات أولاد منبا وهما شقيقان أيضاً. ويقال لذين البطين جميعاً: الأحلاف. فأما أولاد أبي الحسن فعجزوا عن الظعن ونزلوا قصوراً اتخذوها بالقفر ما بين تافيللات وتيكورارين. وأما أولاد حسين فهم جمهور ذوي منصور، ولهم العزة عليهم ورئاستهم أيام بني مرين في أولاد خالد بن جرمون بن جرار بن عرفة بن فارس بن علي بن فارس بن حسين بن منصور، كانت أيام السلطان أبي الحسن لعلي بن غانم، وهلك إثر كائنة طريف. وصارت لأخيه يحيى، ثم لابنه عبد الواحد بن يحيى، ثم لأخيه زكريا، ثم لابن عمه أحمد بن رحو بن غانم، ثم لأخيه يعيش، ثم لابن عمه يوسف بن علي بن غانم لهذا العهد.

وكنيت لبني مرين فيهم وقائع أيام يعقوب بن عبد الحق وابنه يوسف، وسيأتي في أخبار بني مرين غزوة يوسف بن يعقوب من مراكش إليهم، وكيف أوقع بهم بصحراء درعة. ولما أقام بالشرق على تلمسان محاصراً لها أحلف هؤلاء العرب من المعقل على أطراف المغرب ما بين درعة وملوية إلى تاوريرت. وكان العامل يومتد بدرعة عبد الوهاب بن صاعد من صنائع الدولة وكبار ولاتها، فكانت بينه وبينهم حروب قتل في بعضها. ثم هلك يوسف بن يعقوب ورجع بنو مرين إلى المغرب، فأخذوا منهم بالثأر حتى استقاموا على الطاعة، وكانوا يعطون الصدقة أطوع ما يكون إلى أن فشل ربح الدولة، واعتزت العرب فصاروا يمنعون الصدقة إلا في الأقل يغلبهم السلطان على إعطائها.

ولما استولى السلطان أبو عنان على تلمسان أعوام خمسين

ذوو حسان عرب السوس

وأما بنو مختار بن محمد فهم كما قدمناه: ذوي حسان والشبانات والريقطات. ومنهم أيضاً الجياينة وأولاد بيرة، وكانت مواطنهم بنواحي ملوية إلى مصبه في البحر مع إخوانهم ذوي منصور وعبيد الله إلى أن استصرخهم علي بن يدر الزكندري صاحب السوس من بعد الموحدين، ونسبه بزعمه في عرب الفتح، وكانت بينه وبين كزولة الظواعن بيساط السوس، وجباله فتنة طويلة استصرخ لها بني مختار هؤلاء فصارخوه وارتحلوا إليه بظعنهم، وحدوا مواطن السوس لعدم المزارح من الظواعن فيها فأوطنوها. وصارت مجالاتهم بقفراها وغلبوا كزولة وأصاروهم في جملتهم ومن ظعنهم وغلبوا على القصور التي بتلك المواطن في سوس ونول. ووضعوا عليها الأتاوات مثل تارودانت من سوس وهي ضفة وادي سوس حيث يهبط من الجبل، وبين مصبه ومصب وادي ماسة حيث الرباط المشهور مرحلة إلى القبله.

ومن هناك إلى زوايا أولاد بني نعمان مرحلة أخرى في القبله على سائر البحر، وتواصت على وادي نول حيث يدفع من جبل نكيسة غرباً، وبينها وبين إيفري مرحلة، والعرب لا يغلبونها وإنما يغلبون على البساتن في نواحيها، وكانت هذه المواطن لعهد الموحدين من جملة مالكنهم وأوسع عمالاتهم، فلما انقرض أمر الموحدين حجبت عن ظل الدولة وخرجت عن إيالة السلطان إلا ما كان بها لبني يدر هؤلاء الذين قدما ذكرهم، وكان علي بن يدر مالكاً لقصورها، وكان له من الجنيد نحو ألف فارس، وولي من بعده عبد الرحمن بن الحسن بن يدر، وبعده أخوه علي بن الحسن.

وكان لعبد الرحمن معهم حروب وفتن بعد استظهاره بهم، وهزمه مرات متتابعة أعوام خمس وسعمائة وما بعده، وغدر هو بمشيتهم وقتلهم بتارودانت سنة ثمان من بعد ذلك. وكان لبني مرين على هؤلاء المقل بالسوس وقائع وأيام، وظهر يعقوب بن عبد الحق ببني مرين في بعضها الشبانات على بني حسان واستلحم منهم عدداً، وحاصروهم يوسف بن يعقوب بعدها فأمسكوها وأغرمهم ثمانية عشر ألفاً، وأثنى فيهم يوسف بن يعقوب ثانية سنة ست وثمانين وحاربهم جيوشه أيضاً أياماً حتى بهم بنو كسي من بني عبد الواد، وخالفوا على السلطان، فترددت إليهم العساكر واتصلت الحروب كما نذكر في أخباره.

ولما استفتح أمر زناتة بالمغرب وملك أبو علي ابن السلطان أبي سعيد سجلماسة واقطعها عن ملك أبيه بصلح وقّع على ذلك، انضوى إليه هؤلاء الأعرب أهل السوس من الشبانات

قصور لا تحصى، شجرتها النخل وقاعدتها بلد تادنست بلد كبير يقصده التجّر للسلم في النيلج، انتظار خروجه بالصناعة. ولأولاد حسين هؤلاء استيلاء على هذا الوطن ومن يزارته في فسيح جبلة من قبائل البربر صانكة وغيرهم. ولهم عليهم ضرائب وخفرات ووضائع. ولهم في مجابي السلطان إقطاعات ومجاورهم الشبانات من أولاد حسان من ناحية الغرب، فلهم بسبب ذلك على درعة بعض الأتاوات.

وأما الأحلاف من ذوي منصور وهم العمارنة والمنبات فمواطنهم مجاورة لأولاد حسين من ناحية الشرق، وفي مجالاتهم بالقفر تافلات، وصحراؤها. وبالثل ملوية وقصور وطاط وتازي وبطوية وغساسة، لهم على ذلك كله الأتاوات والوضائع، وفيها الإقطاعات السلطانية. وبينهم وبين أولاد حسين فتنة، ويجمعهم العصبية في فتنة من سواهم. ورئاسة العمارنة في أولاد مظفر بن ثابت بن خلف بن عمران، وكان شيخهم لعهد السلطان أبي عنان طلحة بن مظفر وابنه الزبير. ولهذا العهد محمد بن الزبير وأخوه موسى، ويرادفهم في رئاستهم أولاد عمارة بن قلان بن خلف، فكان منهم محمد العائد. ومنهم لهذا العهد سليمان بن ناجي بن عمارة ينتجع في القفر ويكثر الغزوا إلى اعتراض العير وقصور الصحراء.

ورئاسة المنبات لهذا العهد لمحمد بن عبد بن حسين بن يوسف بن فرج بن منبا، وكانت أيام السلطان أبي عنان لأخيه علي من قبله وترادفهم في رئاستهم ابن عمهم عبد الله بن الحاج عامر بن أبي البركات بن منبا. والمنبات والعمارنة اليوم إذا اجتمعوا جميعاً يكثر أولاد حسين. وكان للمنبات كثيرة لأول دولة بني مرين، وكان خلفهم مع بني عبد الواد. وكان مقدمه يغمراسن بن زيان في افتتاح سجلماسة، وتلكها من أيدي الموحدين، ثم تغلب بنو مرين عليها وقتلوا من حاربها من مشيختهم مع بني عبد الواد، ثم أوقعوا بالمنبات من بعد ذلك في مجالاتهم بالقفر واستلحموهم، فنقص عددهم لذلك آخر الأيام، والله مالك الأمور لا رب سواه.

مواطن العثمانة تلي مواطن بني منصور من جانب الغرب ويليههم أولاد سالم، وفي حيز مواطنهم درعة، ولهم عليها القفر. ويليههم أولاد جلال عند منتهى عمارة درعة عما يلي المغرب والقبله، ويليههم غرباً إلى البحر الشبانات وهو أولاد علي وأولاد بو ثابت وأولاد حسان وراهم من ناحية القبله والغرب ويستزلون مواطنهم بالغلب الذي لهم عليه.

وبني حسان، ورغبوه في ملك هذه القصور فأغزاها من تقوم وطنه بدرعة ودخل القرى عنوة، وفر علي بن الحسن وأمه إلى جبال نكيسة عند صنهاجة ثم رجع، ثم غلب السلطان أبو الحسن واستولى على المغرب كله، ورغبه العرب في مثلها من قصور السوس، فبعث معهم عساكره، وقائده حسون بن إبراهيم بن عيسى من بني يرنان فملكها، وجبى بلاد السوس وأقطع فيه للحرب، وساسهم في الجباية فاستقامت حاله مدة.

ثم انقض أمر السلطان أبي الحسن فانقض ذلك، ورجع السوس إلى حاله وهو اليوم ضاح من ظل الدولة، والعرب يقتسمون جبايته ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة قبائل الجباية. والظواهر منهم يقتسمونهم خولاً للعسكرة مثل كزولة مع بني حسان وزكرز وحسن من لمطة مع الشبانات، هذه حالهم لهذا العهد. ورئاسة ذوي حسان في أولاد أبي الخليل بن عمر بن عفير بن حسن بن موسى بن حامد بن سعيد بن حسان بن مختار لمخلوف بن أبي بكر بن سليمان بن الحسن بن زيان بن الخليل ولأخواته. ولا أدري رئاسة الشبانات لمن هي منهم، إلا أنهم حرب لبني حسان آخر الأيام والرقيطات في غالب أحوالهم أحلاف للشبانات، وهم أقرب إلى بلاد المصامدة وجبال درن وذوي حسان أبعد في القفر، والله تعالى يخلق ما يشاء لا إله إلا هو.

ويافريقية وما إليها من هذا العهد من بطونهم أربعة بطون: زغب وذباب وهيب وعوف، فأما زغب فقال ابن الكلبي في نسبه: زغب بن نصر بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم. وقال أبو محمد التجاني من مشيخة التونسيين في رحلته: أنه زغب بن ناصر بن خفاف بن جرير بن ملاك بن خفاف، وزعم أنه أبو ذياب، وزغب الأصغر الذين هم الآن من أحياء بني سليم بإفريقية. وقال أبو الحسن بن سعيد: هو زغب بن مالك بن بهثة بن سليم، كانوا بين الحرمين وهم الآن بإفريقية مع إخوانهم، ونسب ذياب بن مالك بن بهثة فالله أعلم بالصحيح من ذلك.

ونسب ابن سعيد والتجاني هؤلاء قريب بعضه من بعض ولعله واحد، وسقط لابن سعيد جد وأما هيب فهو ابن بهثة بن سليم ومواطنهم من أول أرض برقة مما يلي إفريقية إلى العقبة الصغيرة من جهة الإسكندرية، أقاموا هنالك بعد دخول إخوانهم إلى إفريقية. وأول ما يلي الغرب منهم بنو حميد لهم أجزائية وجهاتها، وهم عديد يرههم الحاج ويرجعون إلى شماخ وقبائل شماخ لها عدد ولهم العز في هيب لكونها حازت خصب برقة الذي منه المرج. وفي شرقهم إلى العقبة الكبيرة من قبائل هيب بنو لبيد، وهم بطون عديدة، وبين شماخ ولبيد فتن وحروب. وفي شرقهم إلى العقبة الصغيرة شمال ومحارب والرئاسة في هاتين القبيلتين لبني عزاز وهم المعروفون بالعزة، وجمع بطون هيب هذه استولت على إقليم طويل خربوا مدنه، ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا لأشياخهم، وفي خدمتهم بربر ويهود يحترفون بالفلاحة والتجر، ومعهم من رواحة وقزارة أمم، واشتهر لهذا العهد برقة من شيوخ أعرابها أبو ذؤيب. ولا أدري نسبه فيمن هو وهو بعيد وهم يقولون من العزة، وقوم يقولون من بني أحد، وقوم يجعلونه

الخبر عن بني سليم بن منصور من هذه الطبقة الرابعة وتعدد بطونهم وذكر أنسابهم وأولية أمرهم وتصاريق أحوالهم

ونبداً أولاً بذكر بني كعب وأخبارهم. وأما بني سليم هؤلاء فبطن متسع من أوسع بطون مضر وأكثرهم جمعاً، وكانت منازلهم بنجد. وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس، وفيهم شعوب كثيرة ورئاستهم في الجاهلية لبني الشريد بن رياح بن ثعلبة بن عطية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم، وعمر بن الشريد عظيم مضر، وأبناؤه: صخر ومعاوية، فصخر أبو الخنساء وزوجها العباس بن مرداس صحابي حضرت معه القادسية.

ومن بطون سليم: عطية ورعل وذكوان الذين دعا عليهم رسول الله ﷺ لما فكروا بأصحابه فحمد ذكرهم. وكان بنو سليم لعهد الخلافة العباسية شوكة بغى وفتنة، حتى لقد أوصى بعض

بعد أن كانت لهم استطلاعة على جميع بلاد إفريقية.

وكانت أبة إقطاعاً لمحمد بن مسعود بن سلطان أيام الشيخ أبي محمد بن أبي حفص، فاقبل إليه مرداس في بعض السنين غيرهم للكيل ونزلوا به، فأروا نعمة الدواودة في تلولهم تلك، فشرهوا إليها وأجمعوا طلبها فحاربوهم فغلبوهم، وقتلوا رزق بن سلطان، واتصلت الفتنة، فلما حضرهم الأمير أبو زكريا صادف عندهم القبول لتحريضه فاعصروصبا جميعاً على فتنة الدواودة وتأهبوا لها.

وتكررت بينهم وبين رياح الحروب والوقائع حتى أزاحوهم عن إفريقية إلى مواطنهم لهذا العهد بتلول قسطنطينية وبجاية إلى الزاب وما إليه. ثم وضعوا أوزار الحرب وأوطن كل حيث قسمت له قومه. وملك بنو عوف سائر ضواحي إفريقية وتغلبوا عليه، واصطنعهم السلطان وأثبتهم في ديوان العطاء، ولم يقطع شيئاً من البلاد، واختص بالولاية منهم أولاد جامع وقومه فكانوا له خالصة، وتم تدبيره في غلب الدواودة ورياح في ضواحي إفريقية وإزاجهم عنها إلى ضواحي الزاب وبجاية وقسطنطينية، وطال بالدولة واختلف حالهم في الاستقامة معها والنفرة، وضرب السلطان بينهم ابن علاق فنشأت الفتنة وسخط عنان بن جابر شيخ مرداس من أولاد جامع مكانه من الدولة، فذهب مغاضباً عنها. وأقام بناجعة من مرداس ومن إليهم بنواحي المغرب في بلاد رياح من زاغر إلى ما يقاربها، وخاطبه أبو عبد الله بن أبي الحسن خالصة السلطان أبي زكريا صاحب إفريقية يومئذ يؤنبه على فعلته في مراجعة السلطان بقصيدة منها قوله، وهي طويلة:

قدوا المهامه بالمهيرة القود واطووا فلاة بتصويب وتصعيد
ومنها قوله:

سلوا دمنة بين الغضا والسواجر هل استن فيها واكفأت المواطن
فأجاب عن هذه عنان بقوله:

خليلي عوجاً بين سلع وحاجر بهوج عناجيج نواج ضواير

يقيم عمروة في النزوع عنهم ويستعطف السلطان بعض الشيء كما تذكره في أخبار الدولة الحفصية. ثم لحق بمراكش بالخليفة السعيد من بني عبد المؤمن عرضاً له على إفريقية وآل أبي حفص، وهلك في سبيله وقبر بسلا. ولم يزل حال مرداس بين النفرة والأصحاب إلى أن هلك الأمير أبو زكريا واستفحل ملك ابنه المستنصر من بعده، وعلا الكعوب بذمة قوية من السلطان. وكان شيخهم لعهده عبد الله بن شيخة، فسعى عند السلطان في مرداس، وكان ابن جامع مبلغاً سعايته واعصوبت عليه سائر

من فزارة لأن فزارة هنالك قليل عددهم والغلب هيب، فكيف تكون الرئاسة لغيرهم؟

وأما عوف فهو ابن بهثة بن سليم ومواطنهم من وادي قابس إلى أرض بونة، ولهم جذمان عظيمان: مرداس وعلاق، ولعلاق بطنان: بنو يحيى وحصن، وفي أشعار هؤلاء المتأخرين منهم مثل حمزة بن عمر شيخ الكعوب وغيره، أن يحيى وعلاقاً أنخوان، ولبني يحيى ثلاثة بطون: حير ودلاج ورياح، ولحمير بطنان: ترجم وكردم، ومن ترجم: الكعوب بنو كعب بن أحمد بن ترجم، ولحصن بطنان: بنو علي وحكيم. ونحن نأتي على الحكاية عن جميعهم بطناً بطناً. وكانوا عند إجازتهم على أثر الهلايين مقيمين ببرقة كما ذكرناه. وهنالك نزل عليهم القاضي أبو بكر بن العربي وأبوه حين غرقت سفيتهم ونجوا إلى الساحل، فوجدوا هنالك بني كعب فنزل عليهم فأكرمه شيخهم كما ذكر في رحلته.

ولما كانت فتنة ابن غانية وقراقش الغزني بجهات طرابلس وقابس وضواحيها كما نذكر في أخبارهم، كان بنو سليم هؤلاء فيمن تجمع إليهم من ذؤبان العرب وأوشاب القبائل فاعصوصوا عليهم، وكان لهم معهم حروب، وقتل قراقش ثمانين من الكعوب وهربوا إلى برقة، واستصرخوا بربح من بطون سليم، ودبكل من حمير فصارخوهم إلى أن تجلت غمامة تلك الفتنة يهلك قراقش وابن غانية من بعده. وكان رسوخ الدولة الحفصية بإفريقية.

ولما هلك قراقش واتصلت فتنة ابن غانية مع أبي محمد بن أبي حفص، ورجع بنو سليم إلى أبي محمد صاحب إفريقية، وكان ابن غانية الدواودة من رياح، وشيخهم مسعود البلط، فر من المغرب ولحق به، فكان معه هو وبنوه، وبنو عوف هؤلاء من سليم مع الشيخ أبي محمد، فلما استبد ابنه الأمير أبو زكريا بملك إفريقية رجعوا جميعاً إليه والشفوف للدواودة، فلما انقطع دابر ابن غانية صرف عزمه إلى إخراج رياح من إفريقية لما كانوا عليه من العيث بها والفساد، فجاء بمرداس وعلاق وهما بنو عوف بن سليم هؤلاء من مواطنهم بنواحي السواحل وقابس واصطنعهم.

ورئاسة مرداس يومئذ في أولاد جامع، وبعده لابنه يوسف، وبعده لعنان بن جابر بن جامع، ورئاسة علاق في الكعوب لأولاد شيخة بن يعقوب بن كعب. وكانت رئاسة علاق عند دخولهم إفريقية لعهده المعز وبنيه لرافع بن حماد، وعنده راية جده التي حضر بها مع النبي ﷺ وهو جد بني كعب فيما يزعمون.

فاستظهر بهم السلطان على شأنه، وأئزهم بساح القيروان، وأجزل لهم الصلات والعوائد وزاحوا الدواودة من رياح بمنكل

من حصون إفريقية.

وكان لأبي الليل بن أحمد في نجاته ثم في القيام بأمره أثره وقع منه أحسن المواقع فاصطنعه به وشيّد من رئاسته على قومه عندما أزال الله به من الدعي، فاضطلع أبو الليل هذا بأمرهم.

وزاحم أولاد شيحة بمنكب قوي ولحق آخرهم عبد الرحمن بن شيحة بجباية عندما اقتطعها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحاق عن ملك عمه السلطان أبي حفص، فوفد عليه مستجيباً به ومرغباً له في ملك تونس، يرجو بذلك كثرة رئاسته فهلك دون مرامه، وقبر بجباية وانقضت رئاسة أولاد شيحة مهلكه واستبد أبو الليل بالرئاسة في الكعوب، ووقع بينه وبين السلطان أبي حفص وحشة، فقدم على الكعوب مكانه محمد بن عبد الرحمن بن شيحة، وزاحمه به أياماً حتى استقام على الطاعة.

ولما هلك قام بأمرهم ابنه أحمد، واتصل أمر رئاسته ونكبه السلطان أبو عسيبة فهلك في سجنه، وولي بعده أخوه عمر بن أبي الليل وزاحمه هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب إلى أن هلك هراج كما نذكره. ولما هلك عمر قام بأمره في قومه أخوه محمد بن أبي الليل، وكفل مولاها حمزة ابن أخيه عمر. وكان عمر مضعفاً عاجزاً فنازعه أولاد مهلهل ابن عمه قاسم وهم: محمد ومسكيانه ومرغم وطالب وعون في آخرين لم يحضرن أسمائهم، فترشحوا للاستبداد على قومهم ومجادبة محمد ابن عمهم أبي الليل جبل الرئاسة فيهم. ولم يزالوا على ذلك سائر أيامهم.

ولما ظهر هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب وعظم ضعفاته وعته وإنساد الأعراب من أحيائه السابلة، وساء أثره في ذلك، وأسف السلطان بالاعتزاز عليه والاشتراط في ماله. وتوغلت له صدور الغوغاء والعمامة، فوفد على تونس عام خمسة وسبعمئة ودخل المسجد يوم الجمعة لابساً خفيه، ونكر الناس عليه وطأه بين الله يخف لم ينزعه. وربما قال له في ذلك بعض المصلين إلى جنبه، فقال: إني أدخل بها بساط السلطان فكيف الجامع؟ فاستعظم الناس كلمته وثاروا به لحينه فقتلوه في المسجد وأرضوا الدولة بفعلهم. وكان أمره مذكوراً.

وقتل السلطان بعد ذلك أخاه كيسان وابن عمه شبل بن منديل بن أحمد. وقام بأمر الكعوب من بعد محمد بن أبي الليل وهراج بن عبيد مولاها وحمزة أبناء عمر، واستبد برئاسة البدو من سليم بإفريقية على مزاحمة من بني عمهم مهلهل بن قاسم وأقاتلهم وفحول شولهم. وانتقض أحمد بن أبي الليل وابن أخيه مولاها ابن عمر على السلطان سنة سبع وسبعمئة، واستدعيا عثمان بن

علاق، فحاربوا المرادسين هؤلاء وغلبوهم على الأوطان والحفظ من السلطان، وأخرجوهم عن إفريقية وصاروا إلى القفر، وهم اليوم به من جهة بادية الأعراب أهل الفلاة يتزعون إلى الرمل ويمتارون من أطراف التلول تحت أحكام سليم أو رياح ويختصمون بالتغلب على ضواحي قسطنطينة أيام مابع الكعوب ومصافهم بالتلول. فإذا انحدروا إلى مشاتهم بالقفر أجفلت أحياء مرداس إلى القفر البعيد، وبخالطونهم على حلف، ولهم على توزر ونظفة وبلاد قسطنطينة أتاة يؤدونها إليهم بما هي مواطنهم ومجالاتهم وتصرفهم، ولأنها في الكثير من أعراضهم.

وصاروا لهذا العهد إلى تملك القفار بها، فاضطفوا منه كثيراً وأصبح منه عمران قسطنطينة لهم مرتاباً واستقام أمر بني كعب من علاق وفي رئاسة عوف وسائر بطونهم من مرداس وحصين ورياح ودلاج، ومن بطون رياح حبيب وعلا شأنهم عند الدولة. واعتزوا على سائر بني سليم بن منصور، واستقرت رئاستهم في ولد يعقوب بن كعب، وهم بنو شيحة وبنو طاهر وبنو علي. وكان التقدم لبني شيحة بن يعقوب، لعبد الله أولاً ثم لإبراهيم أخيه، ثم لعبد الرحمن ثالثهما على ما يأتي. وكان بنو علي يرادفونهم في الرئاسة، وكان منهم بنو كثير بن يزيد بن علي. وكان كعب هذا يعرف بينهم بالحاج لما كان قضى فرضه، وكانت له صحابة مع أبي سعيد العود الرطب شيخ الموحدين لعهد السلطان المستنصر أفادته جاهاً وثروة، وأقطع له السلطان أربعاً من القرى أصارها لوالده. كان منها بناحية صفاقس وبإفريقية وبناحية الجريد. وكان له من الولد سبعة، أربعة لأم وهم: أحمد وماضي وعلي ومحمد، وثلاثة لأم وهم: بريد وبركات وعبد الغني. فنازع أحمد أولاد شيحة في رئاستهم على الكعوب، واتصل بالسلطان أبي إسحاق وأحفظهم ذلك فلتحقوا بالدعي عند ظهوره، وكان من شأنه ما قدمنا.

وهلك أحمد واستقرت الرئاسة في ولده، وكان له من الولد جماعة، فمن غزوة إحدى نساء بني يزيد من صنهاجة: قاسم ومرا أبو الليل وأبو الفضل، ومن الحكمية: فائد وعبيد ومنديل وعبد الكريم، ومن السرية: كليب وعساكر وعبد الملك وعبد العزيز، ولما هلك أحمد قام بأمرهم بعده ابنه أبو الفضل. ثم من بعده أخوه أبو الليل بن أحمد، وعلت رئاسة بني أحمد هؤلاء على قومهم، وتآلفوا ولد إخوانهم جميعاً. وعرفوا ما بين أحيائهم بالأعشاش إلى هذا العهد. ولما كان شأن الدعي بن أبي عمارة، وليس بأنه الفضل بن يحيى المخلوع وأوقع بالسلطان أبي إسحاق وقلته وأكثر بنيته كما نذكره في موضعه، لحق أبو حفص أخوه الأصغر بقلعة سنان

السلطان أبو يحيى شفاعته وعفا له عن جرائمه وأحله محل الأصفاء والخلوص. فشم عن نصحه واجتهاده وظاهر قائده محمد بن الحكيم على تدويخ إفريقية، وظهر البدو من الأعراب فاستقام أمر الدولة وتوثر مهاده. وهلك حمزة سنة أربعين وسبعمائة بيد أبي عون نصر بن أبي علي عبد السلام من ولد كثير بن زيد المتقدم الذكر في بني علي من بطون بني كعب، طعنه في بعض الحروب فأشواه، وكان فيها مهلكه.

وقام بأمرهم من بعده ابنه عمر بمظاهرة شقيقه قتيبة. ولكن أبا الليل تغلب على سائر الإخوة والقرابة، واستبد برئاسة بني كعب وسائر بني يحيى، وأقتاله بنو مهلهل ينافسونه ويرتقبون الإدارة منه. وكان مساهمه في أمره معن بن مطاعن من فزارة وزير أبيه، وخرجوا على السلطان بعد مهلك حمزة أبيهم واتهموا أن قتل أبي عون إياهم إنما كان بمالأة الدولة فنازلوا تونس، وجمعوا لمحاصرتها أولاد مهلهل أمشاهم، ثم اختلفوا ورحلوا عن البلد واخذل طالب بن مهلهل وقومه إلى السلطان، ونهض في أثرهم فأوقع بهم في القيروان، وفدت مشيختهم على ابنه الأمير أبي العباس بقصره يداخلونه في الخروج على ابنه، وكان فيهم معن بن مطاعن وزيرهم فتقبض عليه وقتله وأفلت الباقيون.

وراجعوا الطاعة وأعطوا الرهن.

ولما هلك السلطان أبو يحيى وقام بالأمر ابنه عمر، انحرفوا عنه وظاهروا أخاه أبا العباس صاحب الجريد وولي العهد، وزحفوا معه بطواعنهم إلى تونس فدخلها، وقتله أخوه عمر كما ذكره في موضعه، وقتل معه أخاهم أبا الهول بن حمزة فأسعفهم بذلك.

ووفد خالد على صاحب المغرب السلطان أبي الحسن فيمن وفد عليه من وجوه الدولة وكافة المشيخة من إفريقية، وجاء في جلته حتى إذا استولى على البلاد قبض أيديهم عما كانت تمتد إليه من إفساد السابلة وأخذ الأتاوة، وانتزع الأمصار التي كانت مقطعة بأيديهم والحقهم بأماثلهم من أعراب بلاد المغرب الأقصى من المعقل وزغبة، فقتلت وطأته عليهم وتكرروا له وساء ظنه بهم، وفشت غارات المفسدين من بداويهم بالأطراف فنسب ذلك إليهم، ووفد عليه بتونس من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله بن مسكين وخليفة بن أبي زيد من شيوخ حلیم، فسعى بهم عنده أنهم داخلوا بعض الأعياص من أولاد اللحياني من بني أبي حفص كما في رحلته، وكما ذكره في موضعه، فتقبض عليهم وبلغ خبرهم إلى الحبي فتأشروا بقسطنطينية والجريد فظفروا بزناي من بقية آل عبد المؤمن من عقب أبي العباس إدريس الملقب بأبي إدريس آخر خلفائهم بمراكش وقتيل

أبي دبوس من مكاته بوطن دباب، فجاءهما وأجلبا به على تونس. ونزل كدية الصعتر بظاهرها. وبرز إليهم الوزير أبو عبد الله بن يزيك فهزمهم، واستخدم أحمد بن أبي الليل.

ثم تقبض عليه واعتقل بتونس إلى أن هلك. ووفد بعد ذلك مولاهم ابن عمر سنة ثمان فاعتقل معه، ولحق أخوه حمزة بالأمير أبي البقاء خالد ابن الأمير زكريا صاحب الثغر الغربي من إفريقية بين يدي مهلك السلطان أبي عصيدة، ومعه أبو علي بن كثير ويعقوب بن الفرس وشيوخ بني سليم هؤلاء. ورغبوا الأمير أبا البقاء في ملك الحضرة. وجاؤوا في صحبته، وأطلق أخاه مولاهم من الاعتقال منذ دخول السلطان تونس سنة عشر وسبعمائة كما ذكره في خبره.

ثم لحق حمزة بالسلطان أبي يحيى زكريا بن اللعياني واتصلت به يده فرفعه على سائر العرب حتى لقد نفس ذلك عليه أخوه مولاهم. ونزع إلى السلطان أبي يحيى الطويل أمر الخلافة، ولي سبعا ببجاية وثلاثين بعد استيلائه على الحضرة وسائر بلاد إفريقية، فاستخلصه السلطان لدولته ونابذه حمزة فأجلب عليه بالقرابة واحداً بعد واحد كما ذكره، وداهل أخوه مولاهم في مناصحة السلطان ومالاً حمزة على شأنه.

ورما نحي عنه الغدر فتقبض عليه السلطان وعلى ابنه منصور وعلي ربييه زغدان ومغران بن محمد بن أبي الليل. وكان الساعي بهم إلى السلطان ابن عمهم عون بن عبد الله بن أحمد، وأحمد بن عبد الواحد أبو عبيد، وأبو هلال بن محمود بن فائد، وناجي بن أبي علي بن كثير، ومحمد بن مسكين وأبو زيد بن عمر بن يعقوب، ومن هواره فيصل بن زعزاع فقتلوا حينهم سنة اثنتين وعشرين وبعث أشلائهم إلى حمزة فاشتد حقنه، ولحق صريحاً بأبي تاشفين صاحب تلمسان لعهد من آل يغمراسن، ومعه محمد ابن السلطان اللحياني المعروف بأبي ضربة قد نصبه للملك.

وأمدهم أبو تاشفين بعساكر زناتة، وزحفوا إلى إفريقية فخرج إليهم السلطان وهزمهم برغيش. ولم يزل حمزة من بعدها مجلباً على السلطان أبي يحيى بالمرشحين من أعياص البيت الحفصي، وأبو تاشفين صاحب تلمسان يمدهم بعساكره. وتكررت بينهم الوقائع والأيام سجلاً كما ذكره في مواضعه.

حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن وقومه من بني مريـن على تلمسان والغرب الأوسط سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، واستبوعوا بني عبد الواد وسائر زناتة أقصي حمزة عن قنته وانقطع حبـلها في يده، ولحق بالسلطان أبي الحسن مستشفعاً به، فتقبل

وكان عشرينه قد ملّوا منه حسداً ومنافسة بسوء ملكته عليهم، فغدا عليه محمد ابن أخيه أبي الليل وطعته فأشواه، وهلك ليومه سنة خمس وسبعين، واقترق جمعهم.

وقام بأمرهم من بعده صولة ابن أخيه خالد بن حمزة، ويرادفه أولاد مولاهم بن عمر، فجهد بعض الشيء في خدمة السلطان ومناصحته. ثم رجع إلى العصيان وكشف القناع في الخلاف، واتصل حاله على ذلك ثلاثاً، وأدال السلطان منه ومن قومه بأقتالهم أولاد مهلهل، ورئاستهم لمحمد بن طالب، فرجع إليهم رئاسة البدو، وجعل لهم المنع والإعطاء فيهم ورفع رتبهم على العرب، وتحيز إليهم مع أولاد مولاهم بن عمر بن أبي الليل، ونقلت أولاد حمزة سائر هذه الأيام في الخلاف، ونهض السلطان سنة ثمانين إلى بلاد الجريد لتقديم رؤسائها عن المروغة، وحملهم على جادة الطاعة، فتعرضوا لمداغته عنها بإملاء هؤلاء الرؤساء ومشارطتهم لهم على ذلك، وبعد أن جمعوا له الجميع من ذبيان العرب الأعراب وذياب البدو، فغلبهم عليها جميعاً، وأزاحهم عن ضواحيها، وظفر بفرائسه من أولئك الرؤساء، وأصبحوا بين معتقل ومشرد، واستولى على قصورهم وذخائرهم، وأبعد أولاد حمزة وأحلافهم من حكم المفر، وجاوزوا تخوم بلادهم من جهة المغرب، واعتزت عليهم الدولة اعتزازاً لا كفاء له، فنامت الرعايا في ظل الأمن وانطلقت منهم أيدي الاعتماد والمعاش وصلحت السابلة بعد الفساد، وانفتحت أبواب الرحمة على العباد.

وقد كان اعتزاز هؤلاء العرب على السلطان والدولة لا يتهي إليه اعتزاز، ولهم عنجهية وإبابة وخلق في التكبر والزهو غريزة لما أنهم لم يعرفوا عهداً للذل، ولا يسامون بإعطاء الصدقات لهذا العهد الأول. وأما في دولة بني أمية فللعصبية التي كانت للعرب بعضها مع بعض، يشهد بذلك أخبار الردة والخلفاء معهم ومع أمثالهم، مع أن الصدقة كانت لذلك العهد تتحرى الحق بجانب الاعتزاز والغلبة، فليس في إعطائها كثير غمط ولا مذلة. وأما أيام بني العباس حين استفحال الملك وحدوث الغلبة على أهل العصاة فلابعادهم بالفقر من بلاد نجد وتهامة وما وراءهما.

وأما أيام العبيديين فكانت الحاجة تدعو الدولة إلى استمالتهم للفتنة التي كانت بينهم وبين بني العباس. وأما حين خرجوا بعد ذلك إلى قضاء برقة وإفريقية فكانوا ضاحين من ظل الملك. ولما اصطنعهم بنو أبي حفص كانوا معهم بمكان من الذل وسوم الخسف حتى كنت واقعتهم بالسلطان أبي الحسن وقومه من زناتة بالقيروان، فنهجوا سبيل الاعتزاز كغيرهم من العرب

يعقوب بن عبد الحق عند غلبه على الموحدین بمراكش واستيلائه على المغرب، وهو أحمد بن عثمان بن إدريس، فنصبوه وباعوه واجتمعوا عليه.

وتأثبت معهم بنو عمهم مهلهل أقتالهم وكان طالب هلك، وقام مكانه فيهم ابنه محمد فصرخهم بقومه واتفقوا جميعاً على حرب زناتة. ونهض إليهم السلطان أبو الحسن من تونس فاتح تسع وأربعين فأجفلوا أمامه حتى نزل القيروان، ثم ناجزوه ففضوا جموعه وملأوا حقائبهم بأسلابه وأسلابهم، وخضدوا من شوكة السلطان، وآلأنا من حد الملك، وخفضوا من أمر زناتة، وغلبهم الأمم وكان يوم له ما بعده في اعتزاز العرب على الدول آخر الأيام. وهلك أبو الليل بن حمزة فعجز عمر عن مقاومة إخوته، واستبد بالرئاسة عليه أخوه خالد، ثم من بعده أخوهما منصور، واعتز على السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى صاحب تونس لعهد اعتزازاً لا كفاء له.

وانسبط أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار والقباب الجابية وختص الملك، وانتفضت الأرض من أطرافها ووسطها، ومازالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية، وقاسمهم في جبايات الأمصار بالأقطاع ريفاً وصحراء وتولوا وجريداً، وعرضون بين أعياص الدولة ويحلبون بهم على الحضرة لما يعطونه طعمة من الدولة. ويرمهم السلطان بأقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد يديل به منهم حتى أحفظوها. ويحرق بينهم بقضاء أوطارها حتى إذا أراد الله إنقاذ الأمة من هوة الخسف وتحليصهم من مكاره الجوع والخوف، وإدانتهم من ظلمات الموت بنور الاستقامة، بعث همة السلطان أمير المؤمنين أبي العباس أحمد أيده الله لطلب إرثه من الخلافة. فبعث من بالحضرة فاتبع لها من مكان إمارته بالثغر العربي، ونزل إليه أمير البدو ومنصور بن حمزة هذا، وذلك سنة إحدى وسبعين وسبعمئة على حين مهلك السلطان أبي إسحاق مقتعد كرسى الحضرة وصاحب عصا الخلافة والجماعة.

وقام ابنه خالد بالأمر من بعده فنهض إلى إفريقية ودخل تونس عنوة، واستولى على الحضرة سنة اثنتين وسبعين بعدها، وأرهف حده للعرب في الاعتزاز عليهم وقبض أيديهم عن المفاسد وذويهم، فحدثت لمنصور نفرة عن الدولة، ونصب الأمير أبو يحيى زكريا ابن السلطان ابن أبي يحيى جدهم الأكبر، كان في أحياء العرب منذ ستين كما نذكر ذلك كله في أخبار الدولة، وأجلب به على تونس سنة ثلاث وسبعين، فامتعت عليهم ولم يظفروا بشيء وراجع منصور حاله عند السلطان، وكشف عن وجه المناصحة.

آل حصن سنة ست وسبعمائة.

ولم يزل بنو أبي الليل على الطلب بئار قاسم بن مرا إلى أن ظهر فيهم حمزة ومولاهم ابنا عمر بن أبي الليل، وصارت إليهم الرئاسة على أحيائهم. واتفق بعض الأيام اجتماع أولاد مهلهل بن قاسم في سيدي حمزة، ومولاهم في مشائهم بالفقر، فأجمع اغتيالهم وقتلهم عن آخرهم بئار ابن عمهم قاسم بن مرا، ولم يفلت منهم إلا طالب بن مهلهل لم يحضر معهم، وعظمت الفتنة من يومئذ بين هذين الحين وانقسمت عليهم أحياء بني سليم وصاروا يتعاقبون في الخلاف والطاعة على الدولة، وهم على ذلك لهذا العهد، والرئاسة في بني مهلهل اليوم لمحمد بن طالب بن مهلهل وأخيه يحيى، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بنو حصن بن علاق

بنو حصن هؤلاء من بطون علاق وحصن أخو يحيى بن علاق كما مر، فهم بطنان أيضاً: بنو علي وحكيم. وقد يقال: إن حكيماً ليس لخصن، وإنما ربي في حجره فانتفى إليه. وأما حكيم فلهم بطون منهم: بنو ظريف بن حكيم وهم أولاد جابر، والشراعة ونعير وجوين لمقدام بن ظريف وزباد بن ظريف. ومنهم: بنو وائل بن حكيم ومنهم بنو طرود بن حكيم. وقد يقال إن طروداً ليس لسليم، وأنهم من منبس إحدى بطون هلال بن عامر، ويقال: إن منهم زيد العجاج بن فاضل المذكور في رجالات هلال، والصحيح في طرود أنهم من بني فهم بن عمر بن قيس بن عيلان ابن غدون وفي تعدادهم، وكانت طرود أحلاف الدلاج، ثم قاطعهم وحالفوا آل ملاعب.

ومن بطون حكيم آل حسين ونوال ومقعد والجميعات، ولا أدري كيف يتصل نسبهم. ومنهم بنو عمر بن حكيم، ولنمير بطنان: ملاعب وأحمد، فمن أحمد بنو محمد والبطين، ومن ملاعب بنو هيكل بن ملاعب. وهم أولاد زمام والفريات وأولاد مياس وأولاد فائد. ومن أولاد فائد: الصرح والمدافعة. وأولاد يعقوب بن عبد الله بن كثير بن حرقوص بن فائد، وإليهم رئاسة حكيم وسائر بطونهم ومواطن حكيم هؤلاء لهذا العهد ما بين سوسة والأجم، والناجعة منهم أحلاف لبني كعب، تارة لأولاد أبي الليل وتارة لأتقاهم أولاد مهلهل، ورئاستهم في بني يعقوب بن عبد السلام بن يعقوب شيخاً عليهم، وانتقض أيام اللحياني.

ووفد على السلطان أبي يحيى بالثغر الغربي من إفريقية في بجاية وقسطنطينة وجاء في جلته، فلما ملك الملك تونس، عقد له

على الدول بالمغرب، فتحامل المعقل وزغبة على ملوك زناتة، واستطالوا في طلبهم بعد أن كانوا مكبوحين بحكمة التغلب على التطاول إلى مثلها. والله مالك الأمور.

الخبر عن قاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنة في سليم ومآل أمره وتصاريف أحواله

كان هذا الرجل من الكعوب من أولاد أحمد بن كعب منهم، وهو قاسم بن مرا بن أحمد. نشأ بينهم ناسكاً متتحلاً للعبادة. ولقي بالقيروان شيخ الصلحاء بعصره أبا يوسف الدهماني وأخذ عنه ولزمه، ثم خرج إلى قومه مقتنياً طريقة شيخه في التزام الورع والأخذ بالسنة ما استطاع، ورأى ما العرب عليه من إفساد السابلة والخروج عن الجادة، فأخذ نفسه بتغيير المنكر فيهم وإقامة السنة لهم، ودعا إلى ذلك عشيره من أولاد أحمد، وأن يقاتلوا معه على ذلك. فأشار عليه أولاد أبي الليل منهم وكانوا عيبة له تنصح له أن ينكف عن طلب ذلك من قومه، مخافة أن يلحوا في عداوته فيفسد أمره. ودفعوه إلى مطالبة غيرهم من سليم وسائر الناس بذلك، وأنهم منعة له من يرومه خاصة، فجمع إليه أوباشاً من البادية تبعوه على شأنه والتزموا طريقته والمرابطة معه، وكانوا يسمون بالجنادة.

وبدا بالدعاء إلى إصلاح السابلة بالقيروان وما إليها من بلاد الساحل، وتبع المحاربين يقتل من يعثر عليه منهم بالطرق، وغزو المشاهير منهم في بيوتهم، واستباحة أموالهم ودمانهم حتى شردهم كل مشرد. وعلت بذلك كلمته على آل حصن وصلحت السابلة بإفريقية ما بين تونس والقيروان وبلاد الجريد وطار له ذكر نفسه عليه قومه، وأجمع عداوته واغتياره بنو مهلهل قاسم بن أحمد، وتنصحبوا بعض ذلك للسلطان بتونس الأمير أبي حفص وأن دعوة هذا الرجل قاذحة في أمر الجماعة والدولة، فاغضى لهم عن ذلك، وتركهم وشأنهم، فخرجوا من عنده مجمعين على قتله.

ودعوه في بعض أيامهم إلى المشاورة معه على عادة العرب، ووقفوا معه بساحة حيهم، ثم خلصوا معه نجياً، وطعنه من خلفه محمد بن مهلهل الملقب بابي عذبتين فخر صريعاً للبدن والغم. وامتنع له أولاد أبي الليل وطلبوا بدمه فافترقت أحياء بني كعب من يومئذ بعد أن كانت جميعاً. وقام بأمره من بعده ابنه رافع على مثل طريقته إلى أن هلك في طلب الأمر على يد بعض رجالات

والجميعات والحمر والمسابهة آل حسين وحجري، وقد يقال: إن حجري ليسوا لسليم وأنهم من بطون كندة صاروا معهم بالخلف، فانتسبوا بنسبهم ورئاسة بني علي في أولاد صورة، وشيخهم لهذا العهد أبو الليل بن أحمد بن سالم بن عقبة بن شبل بن صورة بن مرعي بن حسن بن عوف. ويرادفهم المراعية من أهل نسبهم أولاد مرعي بن حسن بن عوف، ومواطنهم ما بين الأجم والمباركة من نواحي قابس، وناجعتهم أحلاف الكعوب إما لأولاد أبي الليل أو لأولاد مهلهل، وغالب أخوالهم أولاد مهلهل، والله مقدر الأمور لا رب سواه.

ذباب بن سليم

قد ذكرنا الخلاف في نسبهم من أنهم من ذباب بن ربيعة بن زغب الأكبر وأن ربيعة آخر زغب الأصغر. وضبط هذه اللفظة لهذا العهد بضم الزاي وقد ضبطها الأجدابي والرشاطي بكسر الزاي. كذا نقل أبو محمد التجاني في رحلته، ومواطنهم ما بين قابس وطرابلس إلى برقة ولهم بطون فمتهم: أولاد أحمد بن ذباب ومواطنهم غربي قابس وطرابلس إلى برقة، عيون رجال مجاورون لحصن، ومن عيون رجال بلاد زغب من بطون ذباب بنو يزيد مشاركون لأولاد أحمد في هذه المواطن، وليس هذا أباً لهم، ولا اسم رجل، وإنما هو اسم حلفهم انتسبوا به إلى مدلول الزيادة. كذا قال التجاني وهم بطون أربعة: الصهب بسكون الهاء بنو صهب بن جابر بن فائد بن رافع بن ذباب، وإخوتهم الحمادية بنو حمدان بن جابر، والخرجة بسكون الراء بطن من آل سليمان منهم. أخرجهم آل سليمان من مواطنهم بمسلانة فحالفوا هؤلاء ونزلوا معهم، والأصابعة نسبة إلى رجل ذي إصبع زائدة. ولم يذكر التجاني في أي بطن من ذباب يتسبون.

ومنهم النوائل بنو نائل بن عامر بن جابر وإخوتهم أولاد سنان بن عامر، وإخوتهم أولاد وشاح بن عامر، وفيهم رئاسة هذا القليل من ذباب كلهم.

وهم بطنان عظيمان: الحاميد بنو محمود بن طوق بن بقية بن وشاح ومواطنهم ما بين قابس ونفوسة وما إلى ذلك من الضواحي والجبال، ورئاستهم لهذا العهد في بني رحاب بن محمود لأولاد سباع بن يعقوب بن عطية بن رحاب. والبطن الآخر الجوارى بنو حميد بن جارية بن وشاح، ومواطنهم طرابلس وما إليها مثل تاجورا وهزاعة وزنزور وما إلى ذلك، ورئاستهم لهذا العهد في بني مرغم بن صابر بن عسكر بن علي بن مرغم. ومن

على قومه ورفع على أنظاره، وغص به بنو كعب فحرّض عليه حزة من الأعشاش محمد بن حامد بن يزيد قتلته في موقف شورايم، وولي الرئاسة فيهم من بعده ابن عمه محمد بن مسكين بن عامر بن يعقوب بن القوس وانتهت إليه رئاستهم. وكان يرادفه أو ينازعه جماعة من بني عمه، فمتهم سحيم بن سليمان بن يعقوب، وحضر واقعة طريف مع السلطان أبي الحسن، وكان له فيها ذكر، ومنهم أبو الهول وأبو القاسم ابنا يعقوب بن عبد السلام، وكان لأبي الهول مناصحة للسلطان أبي الحسن حين أحلف عليه بنو سليم بالقيروان وأدخله مع أولاد مهلهل في الخروج على القيروان، فخرج معهم جميعاً إلى سوسة.

ومنهم بنو يزيد بن عامر بن يعقوب وابنه خليفة. ولم يزل محمد بن مسكين على رئاسته أيام السلطان أبي يحيى كلها وكان مخالطاً له، ومتهاكاً في نصيحته والانحياز إليه. ولما هلك خلفه في رئاسته ابن أخيه خليفة بن عبد الله بن مسكين وهو أحد الأسيخ الذين تقبض عليهم السلطان أبو الحسن بتونس بين يدي واقعة القيروان. ثم أطلقه وهو محصور بالقيروان فكان له به اختصاص من بعد ذلك. ولما تغلب العرب على النواحي بعد واقعة القيروان تغلب بنو مسكين هؤلاء على سوسة، فأقطعها السلطان خليفة هذا وبقيت في ملكته.

وهلك خليفة فقام برئاستهم في حكيم ابن عمه عامر بن محمد بن مسكين. ثم قتلته محمد بن بشينة بن حامد من بني كعب قتله يعقوب بن عبد السلام، ثم قتله محمد هذا غدرًا بجهاد الجريد سنة خمس وخسين وسبع مائة. ثم افترق أمرهم واستقرت رئاستهم لهذا العهد بين أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين، وتلقب أبا معنونة وهو ابن أخيه خليفة المذكور، وعبد الله بن محمد بن يعقوب وهو ابن أخيه أبي الهول المذكور، ولما تغلب السلطان أبو العباس على تونس وملكها، انتزع سوس من أيديهم، فامتنع أحمد لذلك وصار إلى ولاية صولة بن خالد بن حزة من أولاد أبي الليل وسلخوا سبيل الخلاف والفتنة، وأبعدوا في شأوها. وهم لهذا العهد مشردون عن الضواحي والأرياف متزاحون إلى القفر.

وأما عبد الله بن محمد ويلقب الراوي فتحيز إلى السلطان، وأكد حلفه مع أولاد مهلهل على ولايته ومظاهرته، فعظمت رئاسته في قومه وهو على ذلك لهذا العهد. ثم راجع أبو معنونة خدمة السلطان وانقسمت رئاسة حكيم بينهما، وهم على ذلك لهذا العهد. وأما بنو علي إخوة حكيم فلهم بطون أولاد صورة ويجمعهما معاً عوف بن محمد بن علي بن حصن. ثم أولاد غمي والبدرانة، وأولاد أم أحمد والحضرة أو الرجلان، وهو مقعد

الثامنة وأجلبوا به على تونس أيام السلطان أبي عبيدة من الحفصيين وحاصروها أياماً فلم يظفروا، ورجع إلى نواحي طرابلس وقام بها مدة. ثم ارتحل إلى مصر وأقام بها إلى أن هلك كما يأتي ذكره في خبر ابنه مع السلطان أبي الحسن بالقيروان. ولم يزل هذا شأن الجواري والحمايد إلى أن تقلص ظل الدولة عن أوطان قابس وطرابلس فاستبدت برئاسة ضواحيها. واستعبدوا سائر الرعاية المعتمدة في جبالها وبساتنها واستبد أهل الأمصار برئاسة أمصارهم بنو مكى بقابس وبنو ثابت بطرابلس على ما يذكر في أخبارهم.

وانقسمت رئاسة أولاد وشاح بانقسام المصريين، فتولى الجواري طرابلس وضواحيها، وزننور وغريان ومغر، وتولى الحمايد بلد قابس وبلاد نفوسة وحرب.

وفي ذباب هؤلاء بطون أخرى ناجعة في الفقر، ومواطنهم مزاحة إلى جانب الشرق عن مواطن هؤلاء الشواحين. فمنهم آل سليمان بن هيب بن رابع بن ذباب، ومواطنهم قبلة مغر وغريان، ورئاستهم في ولد نصر بن زائد بن سليمان، وهي لهذا العهد هائل بن حاد بن نصر، وبنيه، والبطن الآخر آل سالم بن هيب أخي سليمان. ومواطنهم بلد مسرارة إلى لبدة ومسلاتة. وشعوب آل سالم هؤلاء الأحامد والعمائم والعلانة وأولاد مرزوق، ورئاستهم في ولد مرزوق، وهو ابن معلّى بن معراني بن قلبية بن قاص بن سالم وكانت في أول هذه المائة الثامنة لغلبون بن مرزوق، واستقرت في بنيه، وهي اليوم حميد بن سنان بن عثمان بن غلبون. والعلانة منهم مجاورون للعزة من عرب برقة والمشابنة من هوارة المقيمين.

وتجاذب ذباب هؤلاء في مواطنهم من جهة القبلة ناصرة، وهم من بطون ناصرة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهشة بن سليم، فإن كان زعب أبو ذباب لملك بن خفاف كما زعم التجاني فهم إخوة ناصرة، ويعد أن يسمى قوم باسم إخوانهم، وإن كانوا الناصرة كما زعم ابن الكلبي وهو أقرب، فيكون هؤلاء اختصوا باسم ناصرة دون ذباب وغيرهم من بنيه، وهذا كثير من بطون القبائل والله أعلم. ومواطنهم بلاد فزان وودان. هذه أخبار ذباب هؤلاء.

وأما العزة جيرانهم في الشرق الذين قدمنا ذكرهم فيهم موطنون من أرض برقة خلاء لاستيلاء الخراب على أمصارها وقراها من دولة صنهاجة، تمرست بعمرانها بادية العرب وناجعتهم، فتحيفرها عارة ونهباً إلى أن فسدت فيها مذاهب المعاش، وانتقض العمران، فخربت وصار معاش الأكثر من هؤلاء

أولاد وشاح بطنان آخران صغيران مندرجان مع الجواري والحمايد وهما: الجوارية بنو جراب بن وشاح، والعمور بنو عمر بن وشاح، هكذا زعم التجاني في العمور هؤلاء. وفي هلال بن عامر بطن العمور كما ذكرناه. وهم يزعمون أن عمور ذباب هؤلاء منهم، وأنهم إنما جمعهم مع ذباب الموطن خاصة وليسوا من سليم والله أعلم بحقيقة ذلك.

وكان من أولاد وشاح بنو حريز بن تميم بن عمر بن وشاح وكان منهم فائد بن حريز من فرسان العرب المشاهير وله شعر متداول بينهم لهذا العهد سمر الحلي وفكاهة المجالس، ويقال: إنه من الحمايد، فائد بن حريز حربي بن محمود بن طوب. وكان بنو ذباب هؤلاء شعبة لقراقش الغزي وابن غانية، ولهما فيه أثر. وقتل قراقش مشيخة الجواري في بعض أيامه، ثم صاروا بعد مهلك ابن غانية إلى خدمة الأمير أبي زكريا وأهل بيته من بعده، وهم الذين أقاموا أمر الداعي بن أبي عمارة وعليهم كان تلبسه لأن يصير أميراً بدل المخلوع، وكان فر إليهم بعد مهلك مولاه وبنيه، ونزل عليهم حتى إذا مر بهم ابن أبي عمارة فعرفه الخبر، فاتفقوا على التلبس وزينوا ذلك هؤلاء العرب فقبلوه. وتولى كبر ذلك مرغم بن صابر وتبعه قومه، وداخلهم في الأمر أبو مروان عبد الملك بن مكى رئيس قابس، فكان ما قدر الله ما كان من تمام أمره وتلويت كرسی الخلافة بدمه حسبما يذكر في أخبار الدولة الحفصية.

وكان السلطان أبو حفص يعتمد عليهم فغلبهم في دعوة عمارة فخالقوا عليه، وسرح لحربهم قائده أبا عبد الله الفزاري، واستصرخوا بالأمير أبي زكريا ابن أخيه، وهو يومئذ صاحب بجاية والثغر الغربي من إفريقية. ووفد عليه منهم عبد الملك بن رحاب ابن محمود فنهض لصريحه سنة سبع وثمانين وستمائة، وحاربوا أهل قابس وهزمهم وأخذوا فيهم، ثم غلبهم الفزاري ومانعهم عن وطن إفريقية، ورجع الأمير أبو زكريا إلى ثغره. وكان مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجواري قد أسره أهل صقلية من سواحل طرابلس سنة اثنتين وثمانين وباعوه لأهل برشلونة، فاشتراه ملكهم وبقي أسيراً عنده إلى أن نزع إليه عثمان بن إدريس الملقب بأبي دبوس بقية الخلفاء من بني عبد المؤمن، وأراد الإجازة إلى إفريقية لطلب حقه في الدعوة الموحدية، فعقد ملك برشلونة بينه وبين مرغم حلفاً وبعثهما، ونزل بساحل طرابلس.

وأقام مرغم الدعوة لأبي دبوس وحمل عليها قومه، وحاصر طرابلس سنة ثمان وثمانين أياماً ثم تركوا عسكراً لحصارها، وارتحلوا لجباية الوطن فاستفرغوه، وكان ذلك غاية أمرهم، وبقي أبو دبوس يتقلب في أوطانهم مدة، واستدعاه الكعوب لأول المائة

العرب الوطنين بها لهذا العهد من الفلح يشيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير، والنساء إذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتركبوا ضرورة المعاش.

وينجعون إلى بلاد النخل في جهة القبلة منهم من أوجلة وشنترية والواحات وما وراء ذلك من الرمال والفقر إلى بلد السودان المجاورين لهم، وتسمى بلادهم برنيق، وشيخ هؤلاء العرب بركة يعرف لهذا العهد بأبي ذئب من بني جعفر. وركاب الحج من المغرب يحمدون مسألهم في عمرهم وحسن نيتهم في التجافي عن حاج بيت الله، وإرفادهم يجلب الأقوات لسريهم وحسن الظن بهم. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

وأما نسبهم فما أدري فيمن هو من العرب، وحدثني الثقة من ذباب عن خريص ابن شيخهم أبي ذيب من بقايا الكعوب بركة. وتزعم نسبة الهلالين أنهم لربيعة بن عامر إخوة هلال بن عامر. وقد مر الكلام في ذلك في أول ذكر بني سليم، وتزعم بعض النسابة أنهم والكعوب من العزة، وأن العزة من هيث، وأن رئاسة العزة لأولاد أحمد وشيخهم أبو ذئب وأن الثانية جيرانهم من هواره. وذكر لي سلام ابن التركية شيخ أولاد مقدم جيرانهم بالعقبة أنهم من بطون مسراتة من بقية هواره، وهو الذي رأيت النسابة المحققين عليه بعد أن دخلت مصر ولقيت كثيراً من المترددين إليها من أهل بركة. وهذه آخر الطبقة الرابعة من العرب، وبانقضائه انقضى الكتاب الثاني في العرب وأجيالهم منذ بدء الخليقة، فلنرجع إلى أحوال البربر في الكتاب الثالث والله ولي العون اهـ.

هما لأب واحد. فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنهما لأب واحد على ما حدثه عنه يوسف الوراق. وقال سالم بن سليم المطاطي وهاني بن مسرور والكومي وكهلان بن أبي لواء وهم نسابة البربر: إن البرانس بتر، وهم من نسل مازيغ بن كنعان. والبتر بنو بر بن قيس بن عيلان، وربما نقل ذلك عن أيوب بن أبي يزيد، إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق.

وأما شعوب البرانس فعند النسابين أنهم يجمعهم سبعة أجناس وهي: ازداجة ومصمودة وأورية وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريفة. وزاد سابق بن سليم وأصحابه: لمطة وهسكورة وكزولة. وقال أبو محمد بن حزم: يقال إن صنهاج ولط إنما هما ابنا امرأة يقال لها تصكي ولا يعرف لهما أب، تزوجها أوريف فولدت له هوارة فلا يعرف لهما أكثر من أنهما أخوان هوارة من أمه. قال: وزعم قوم من أوريف أنه ابن خبوز بن المثني بن السكاسك من كندة وذلك باطل.

وقال الكلبي: إن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر، وإنما هما من شعوب اليمانية تركهما أفريقش بن صيفي بإفريقية مع من نزل بها من الحامية. هذه جماع مذاهب أهل التحقيق في شأنهم، فمن ازداجة مسطاطة، ومن مصمودة: غمارة بنو غمار بن مصطفى بن مليل بن مصمود، ومن أوريفة هوارة وملد ومغر وقلدن. فمن هوارة بن أوريف: مليلة وبنو كهلان، ومن ملد بن أوريف: سبط وورفل وأسيل ومسرارة، ويقال لجميعهم: لمانة بنو لمان بن ملد، ويقال: إن مليلة منهم. ومن مغد بن أوريف: ماواس وزمور وكبا ومصراي، ومن قلدن بن أوريف قمصاة وورسطيف وبيانة وفل مليلة.

وأما شعوب البتر وهم بنو مادغيس الأبرتر فيجمعهم أربعة أجناس: أداسة ونفوسة وضرية وبنو لوا الأكبر، وكلهم بنو زحيك بن مادغيس. فاما أداسة بنو آداس بن زحيك فيطونهم كلها في هوارة لأن أم آداس تزوجها بعد زحيك أوريف ابن عمه برنس والد هوارة، فكان آداس أخا هوارة، ودخل نسب بنيه كلهم في هوارة. وهم سفارة وأندارة وهزولة وضرية وهداغة وأوطيطه وترهته. هؤلاء كلهم بنو آداس بن زحيك بن باذغيس وهم اليوم في هوارة.

وأما لوا الأكبر فمنه بطنان عظيمان وهما: نفاوة بنو نفزا وابن لوا الأكبر، ولواتة بنو لوا الأصغر بن لوا الأكبر، فخلفه أبوه حملاً فسمي به. فمن لواتة: أكوزة وعتروزة وبنو فاصلة بن لوا الأصغر، ومنهم مزاتة بنو زاير بن لوا الأصغر. ومغانة وجدانة بنو كطوف بن لوا الأصغر. ومن لواتة سدرانة بنو نيطط بن لوا

الكتاب الثالث

في أخبار البربر والأمة الثانية من أهل
المغرب وذكر أوليتهم وأجياهم ودولتهم
منذ بدء الخليقة لهذا العهد ونقل الخلاف
الواقع بين الناس في أنسابهم

الفصل الأول

هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البساتن والجبال من تولوه وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي، فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والفقر الأملس. ومكاسيهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة. ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلقة، ويفرغون عليه البرانس الكحل ورؤوسهم في الغالب حاسرة، وربما يتعاهدونها بالخلق. ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم.

يقال: إن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية، وقتل الملك جرجيس، وبنى المدن والأمصار، وباسمه زعموا سميت إفريقية لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر. والبريرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة، ومنه يقال: بربر الأسد إذا زار بأصوات غير مفهومة.

وأما شعوب هذا الجيل ويطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما: برنس ومادغيس. ويلقب مادغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس، وهما معاً ابنا برنس، وبين النسابين خلاف هل

النسبون في ذلك اختلافاً كثيراً، ومجنوا فيه طويلاً. فقال بعضهم: إنهم من ولد إبراهيم عليه السلام من نقشان ابنه، وقد تقدم ذكره عند ذكر إبراهيم عليه السلام. وقال آخرون: البربر بمثنيون، وقالوا: أوزاع من اليمن. وقال المسعودي: من غسان وغيرهم، تفرقوا عندما كان من سيل العرم. وقيل: تخلفهم أبرهة ذو المنار بالمغرب، وقيل: من لحم وجذام كانت منازلهم بفلسطين، وأخرجهم منها بعض ملوك فارس، فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل، وانتشروا في البلاد. وقال أبو عمر بن عبد البر: ادعت طوائف من البربر أنهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ. قال: ورأيت في كتاب الأسفنداد الحكيم: أن النعمان بن حمير بن سبأ كان ملك زمانه في الفترة، وأنه استدعى أبناءه وقال لهم: أريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمره، فراجعوه في ذلك، وعزم عليهم، وأنه بعث منهم لمت أبا لمتونة ومسفو أبا مسوفة ومرطا أبا هسكورة وأصناك أبا صنهاجة ولط أبا لمطة وإيلان أبا هيلانة، فقتل بعضهم بجبل دون، وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعة.

ونزل لمت عند كزول وتزوج ابنته، ونزل أجانا وهو أبو زناته بوادي شلف، ونزل بنو ورتجين ومغراو بأطراف إفريقية من جهة المغرب، ونزل مصمود بمقربة من طنجة. والحكاية طويلة أنكرها أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم. وقال آخرون: إنهم كلهم من قوم جالوت. وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني النسابة في كتاب الأنساب له: لا أعلم قولاً يؤدي إلى الصحة إلا قول من قال: إنهم من ولد جالوت. ولم ينسب جالوت ممن هو، وعند ابن قتيبة: أنه ونور بن هرييل بن حديلان بن جالود بن رديلان بن حطي بن زياد بن زجيك بن مادغيس الأبتري.

ونقل عنه أيضاً أنه جالوت بن هريال بن جالود بن دنيال بن قحطان بن فارس. قال: وفارس مشهور وسفك أبو البربر كلهم. قالوا: والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمّة، وهي: هواراة وزناتة وضريرة ومغيلة وورفجومة ونفزة وكنامة ولوائة وغسارة ومصمودة وصدينة ويسردان وورنجين وصنهاجة وبجكسة وواركلان وغيرهم. وذكر آخرون منهم الطبري وغيره: أن البربر أخلط من كنعان والعماليق، فلما قتل جالوت تفرقوا في البلاد وغزا أفريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم إفريقية وسماهم بربر. وقيل: إن البربر من ولد حام بن نوح بن بربر بن تمل بن مازيغ بن كنعان بن حام. وقال الصولي: هم من ولد بربر بن كسلوجيم بن مصرائيم بن حام. وقيل: إن العمالقة من بربر بن تمل بن مارب بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاود بن إرم بن سام، وعلى هذا القول فهم عمالقة. وقال مالك بن المرحل: البربر

الأصغر. ودخل نسب سدراته في مغراوة. قال أبو محمد بن حزم: كان مغراوة تزوج أم سدراته، فصار سدراته أخا بني مغراوة لأهمهم واختلط نسبه بهم. ومن نفزاوة أيضاً بطون كثيرة وهم ولهاصة وغساسة وزهلة وسوماتة وورسيف ومرنيزة وزاتيمة ووركول ومرنسية ووردغروس ووردين كلهم بنو يطوفت من نفزاوة.

وزاد ابن سابق وأصحابه: مجر ومكلاتة، وقال: ويقال إن مكلاتة ليس من البربر وأنه من حمير وقع إلى يطوفت صغيراً فبناه وهو مكلان بن ريمان بن كلال حاتم بن سعد بن حمير. ولولهاصة من نفزاوة بطون كثيرة من بزغاش ودحية ابني لهاص. فمن بزغاش بطون ورفجومة وهم: رجال وطوبورغيش ووانجيز وكريطط وما انجدل وسيتت بنو رفجوم بن بيزغاش بن لهاص ابن يطوفت بن نفزاوة.

قال ابن سابق وأصحابه: وينسب بيزغاش من لوائة كلهم بجبال أوراس، ومن دحية ورتين ورتيرو ورتبوت ومكرا ولقوس بنو دحية بن لهاص بن تطوفت بن نفزاوة. وأما ضرية وهم بنو ضرى بن زجيك بن مادغيس الأبتري فيجمعهم جذمان عظيمان: بنو تمصيت بن ضرى وبنو يحيى بن ضرى.

وقال سابق وأصحابه: إن بطون تمصيت كلها من فاتن بن تمصيت وأنهم اختصوا بنسب ضرسية دون بطون يحيى. فمن بطون تمصيت: مطماطة وصطفورة، وهم كومية ولماية ومطفرة ومرينة ومغيلة ومكروزة وكشانة ودونة ومديونة، كلهم بنو فاتن بن تمصيت بن ضرى. ومن بطون يحيى: زناتة كلهم وسمكنان وورصطف. فمن ورصطف: مكناسة وأوكنة وورتناج بنو ورصطف بن يحيى. فمن مكناسة ورتيفة وورندوسن وتفلت ومنصارة وموالات وحررات ورفلايس ومن مكن: بولالين وتدين ويصلتن وجرين وفرغال. ومن ورتناج: مكنسة وبطالسة وكريظطة وسدرجة وهناطة وفولال بنو ورتناج بن ورصطف. ومن سمكان زواغة وزواوة بنو سمكان بن يحيى وابن حزم يعد زواوة التي بالواو في بطون كنامة وهو أظهر، ويشهد له الوطن. فالغالب أن زواوة بنو سمكان بن يحيى. وعن ابن حزم: يعد زواوة التي بالواو في بطون كنامة والتي تعد في سكان هي التي بالزاي وهي قبيلة معروفة. ومن زواغة بنو ماجر وبنو واطيل وسمكنين. وسيأتي الكلام فيهم مستوفى عند ذكرهم إن شاء الله تعالى. هذا آخر الكلام في شعوب هذا الجبل جملاً ولا بدّ من تفصيل فيه عند تفصيل أخبارهم اهـ.

وأما إلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية فقد اختلف

قبائل شتى من حمير ومُضَر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش
تلاقوا بالشام ولغطوا فسمّاهم أفريقش البربر لكثرة كلامهم.
وسبب خروجهم عند المسعودي والطبري والسهيلى: أن أفريقش
استجاشهم لفتح إفريقية وسمّاهم البربر وينشدون من شعره:
بربرت كنعان لما سقتها من أراضى الضنك للعيش الخصب

وقال ابن الكلبي: اختلف الناس فيمن أخرج البربر من
الشام، ف قيل: داود بالروحي، قيل: يا داود أخرج البربر من الشام
فأنهم جذام الأرض. وقيل: يوشع بن نون، وقيل: أفريقش، وقيل:
بعض الملوك التابعة. وعند البكري: أن بني إسرائيل أخرجوهم
عند قتل جالوت. وللمسعودي والبكري: أنهم فروا بعد موت
جالوت إلى المغرب، وأرادوا مصر فأجلتهم القبط، فسكنوا برقة
 وإفريقية والمغرب على حرب الإفرنج والأفارقة وأجازوهم على
 صقلية وسردانية وميوزة والأندلس. ثم اصطلموا على أن المدن
 للآفرنجية، وسكنوا القفار عصوراً في الخيام وانتجاع الأمصار من
 الإسكندرية إلى البحر، وإلى طنجة والسوس حتى جاء الإسلام.
 وكان منهم من تهوّد ومن تنصّر وآخرون مجوساً يعبدون الشمس
 والقمر والأصنام، وهم ملوك ورؤساء. وكان بينهم وبين المسلمين
 حروب مذكورة. وقال الصولي البكري: إن الشيطان نزغ بين بني
 حام وبني سام، فانجلى بنو حام إلى المغرب ونسلوا به.

وقال أيضاً: إن حام لما أسود بدعوة أبيه فرّ إلى المغرب حياةً
 واتبعه بنوه وهلك عن أربع مائة سنة، وكان من ولده بربر بن
 كسلاجيم فنسل بنوه بالمغرب. قال: وانضاف إلى البربر حيّان من
 المغرب يمينان عند خروجهم من مازب: كتامة وصنهاجة. قال:
 وهوارة ولطة ولواتة بنو حمير بن سبأ. وقال هانئ بن بكور
 الضريسي وسابق بن سليمان المطماطي وكهلان بن أبي لؤي
 وأيوب بن أبي يزيد وغيرهم من نسبة البربر: أن البربر فرقتان
 كما قدّمناه وهما: البرانس والبتر، فالبتر من ولد بر بن قيس بن
 عيلان، والبرانس بنو برنس بن سفجو بن أبزج بن جناح بن واليل
 بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازنغ بن كنعان بن حام،
 وهذا هو الذي يعتمد نسبة البربر. قال الطبري: خرج بربر بن
 قيس ينشد ضالةً بأحياء البربر فهويّ جارية وتزوجها فولدت.
 وعند غيره من نسبة البربر: أنه خرج فاراً من أخيه عمرو بن
 قيس، وفي ذلك تقول غماضر وهي أخته:

لتكسي كل باكية أخاهما كما أبكي على بر بن قيس
 تحمل عن عشيرته فأسحى ودون لقائه أنشاء عيس
 وما ينسب إلى غماضر أيضاً:
 وشطت برّ داره عن بلادنا وطوح برّ نفسه حيث يَمّا

وازرت بسر لكنة أعجمية وما كان بر في الحجاز بأعجما
 كاتنا وِسراً لم تقف بجيادنا بنجد ولم تقسم نهاباً ومغنما
 وأنشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي:

ألا أيها الساعي لفرقة يتتسا توقف هناك الله سبل الأطناب
 فاقسم إنا والبرابر إخوة غنا وهم جدّ كريم المناصب
 أبونا أبوهم قيس عيلان في الورى وفي حرمة يستقي غليل المحارب
 فنحن وهم ركن منيع وإخوة على رغم أعداء لثام المغارب
 فإن البر ما بقي الناس ناصراً وبرّ لثنا ركن منيع المناكب
 نعد لمن عادى شوائه ضمراً ويضاً تقص الهام يوم التضارب
 وبرّ بن قيس عصبة بضربة وفي الفرع من أحسابها والنواصب
 وقيس قوام الدين في كل بلدة وخير معد عند حفظ المناسب
 وقيس لها المجد السني يقتدى به وقيس لها سيف حديد المضارب

وينشد أيضاً أبيات ليزيد بن خالد يمدح البربر:
 أثبها السائل عتاً أصلنا قيس عيلان بنو العزّ الأول
 نحن ما نحن بنو بر القوي عرف المجد وفي المجد دخل
 وابتنى المجد فساورى زنده وكفنا كل خطب ذي جمل
 إن قيساً يعترى برّ لها ولبر يعترى قيس الأجل
 ولنا الفخر بقيس إنه جدنا الأكبر فكاك الكبل
 إن قيساً قيس عيلان هم معدن الحق على الخير دليل
 حسبك البربر قومي إنهم ملكوا الأرض أطراف الأسبل
 ويبيض تضرب الهام بها هام من كان عن الحق نكل
 ابلغوا البربر عتي مدحاً حيك من جوهر شعر متحل

وعند نسبة البربر، وحكاة البكري وغيره أنه كان لمضر
 ولدان: إلياس وعيلان، أمهما الريباب بنت حيدة بن عمرو بن معدّ
 بن عدنان، فولد عيلان بن مضر قيساً ودهمان، أما دهمان فولده
 قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم: بنو أمامة. وكانت لهم
 بنت تسمى البهاء بنت دهمان، وأما قيس بن عيلان فولد له أربعة
 بنين وهم: سعد وعمر، وأمهما مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار،
 وير وعماضر وأمهما قمرغ بنت مجدل، ومجدل بن غمار بن
 مضمود، وكانت قبائل البربر يومئذ يسكنون الشام ويجاورون
 العرب في المساكن ويشاركونهم في الماء والمراعي ويصهرون إليهم،
 فتزوج بر بن قيس بنت عمه وهي البهاء بنت دهمان، وحسده
 إخوته في ذلك، وكانت أمه قمرغ من دهاة النساء فخشيت منهم
 عليه، ويعتث بذلك إلى أخوالها سرّاً، ورحلت معهم بولدها
 وزوجته إلى أرض البربر وهم إذ ذاك ساكنون بفلسطين وأکناف
 الشام، فولدت البهاء لبر بن قيس ولدين: علوان ومادغيس،
 فمات علوان صغيراً وبقي مادغيس، فكان يلقب الأبتّر، وهو أبو

البر من البربر، ومن ولده جميع زناته.

الترهات في شأن أوليهم، ويحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب. وأفريقش الذي يزعمون أنه نقلهم قد ذكروا أنه وجدهم بها، وأنه تعجب من كثرتهم وعجمتهم، وقال: ما أكثر بربرتكم. فكيف يكون هو الذي نقلهم وليس بينه وبين أبرهة ذي المنار من يتشعبون فيه إلى مثل ذلك أن قالوا أنه الذي نقلهم.

وأما القول أيضاً بأنهم من حمير من ولد النعمان أو من مضر من ولد قيس بن عيلان فمفكر من القول، وقد أبطله إمام النساين والعلماء أبو محمد بن حزم. وقال في كتاب الجمهرة: ادعت طوائف من البربر أنهم من اليمن ومن حمير، وبعضهم ينسب إلى بربر بن قيس، وهذا كله باطل لا شك فيه، وما علم النسابون لقيس بن عيلان ابناً اسمه بر أصلاً، وما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن.

وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت، وأن جالوت من ولد قيس بن عيلان فأبعد عن الصواب. فإن قيس عيلان من ولد معد، وقد قدمنا أن معداً كان معاصراً لبختنصر وأن أرميا النبي خلص به إلى الشام حذراً عليه من يختنصر حين سلط على العرب، ويختنصر هو الذي خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان إياه بأربعمائة وخمسين سنة ونحوها، فيكون معد بعد داود يمثل هذا الأمد، فكيف يكون ابنه قيس أباً لجالوت المعاصر لداود، هذا في غاية البعد وأظنها غفلة من ابن قتيبة وهما.

والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليفة، وأن اسم أبيهم مازيغ وإخوتهم أركيش وفلسطين إخوانهم بنو كسلوحيمن بن مصرايم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له. وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة. وكان بنو كنعان وواكريكيش شيعاً لفلسطين، فلا يقعن في وهمك غير هذا، فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه. ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذي قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكنانة، فإن بين نسابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمنية، وأن أفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها.

وأما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب، مثل لواتة يزعمون أنهم من حمير، ومثل هوارة يزعمون أنهم من كندة من السكاسك، ومثل زناتة تزعم نسابتهم أنهم من العمالة فروا أمام بني إسرائيل. وربما يزعمون فيهم أنهم من بقايا التباينة، ومثل عمارة أيضاً وزواوة ومكلاتة يزعم في هؤلاء كلهم نسابتهم أنهم من حمير حسبما نذكره عند تفصيل شعوبهم في كل فرقة منهم، وهذه كلها مزاعم. والحق الذي شهد به المواطن

قالوا: وتزوج مادغيس بن بر وهو الأبر بأمل بنت واطاس بن محمد بن مجد بن عمّار فولدت له زحيك بن مادغيس. وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد في الأنساب: اختلف الناس في أنساب البربر اختلافاً كثيراً، وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قط بن حام، لما نزل مصر خرج ابنه يريد المغرب، فسكنوا عند آخر عمالة مصر، وذلك ما وراء برقة إلى البحر الأخضر، مع بحر الأندلس إلى مقطع الرمل متصلين بالسودان، فمنهم لواتة أهلين بأرض طرابلس، ونزل قوم بقربها وهم نفزة.

ثم امتدت بهم الطرق إلى القيروان وما وراءها إلى تاهرت إلى طنجة وسجلماسة إلى السوس الأقصى وهم طوائف صنهاجة وكنانة وزكالة وركلاوة وفطواكة من هسكورة ومزطاوة، وذكر بعض أهل الآثار أن الشيطان نزع بين بني حام وبني سام، فوقعت بينهم مناورات كانت الدبرة فيها لسام وبنيه، وخرج سام إلى المغرب، وقدم مصر وتفرق بنوه، ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى بلغ السوس الأقصى، وخرج بنوه في إثره يطلبونه، فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً وانقطع عنهم خبره، فأقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه، ووصلت إليهم طائفة فأقاموا معهم وتناسلوا هنالك.

وكان عمر حام أربعمائة وثلاثاً وأربعين سنة فيما ذكره البكري. وقال آخرون: كان عمره خمسمائة وإحدى وثلاثين سنة. وقال السهيلي فيمن هو يعرب بن قحطان. قال: وهو الذي أجلى بني حام إلى المغرب بعد أن كانوا الجزى من ولد قوط بن يافث. هذا آخر الخلاف في أنساب البربر.

واعلم أن هذه المذاهب كلها مرجوحة وبعيدة عن الصواب، فأما القول بأنهم من ولد إبراهيم فبعيد، لأن داود الذي قتل جالوت وكان البربر معاصرين له ليس بينه وبين إسحاق بن إبراهيم أخي نقشان الذي زعموا أنه أبو البربر إلا نحو عشرة آباء ذكرناهم أول الكتاب، ويبعد أن يتشعب النسل فيهم هذا الشعب.

وأما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق، وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا، فقول ساقط، يكاد يكون من أحاديث خرافة، إذ مثل هذه الأمة المشتتة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض، لا تكون متقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام. فما الذي يجوزنا إلى التعلق بهذه

الهوائية بكثرة تجاربهم، فتبعث الريح من الأماكن وغاية مهبتها في سمتها فكل ريح عندهم معروفة الغاية، فإذا علم أن جريته بالريح المنبعثة من مكان كذا، وبما خرج من ريح إلى ريح بحسب مقصوده وجهته، وهذا مفقود في البحر الكبير لأنه منحصر، ومنبعث الريح، وإن كان معروفاً فغاياته غير معروفة لفقدان العمران وراءه فتفضل السفن إذا جرت به وتذهب فتهلك. وأيضاً فإذا أوغل فيه فربما وقع في المتكاثف من الغيوم والأجخرة كما قلناه فيهلك، فلهذا كان راكبه على غرر وخطر. فحدّ الغرب من جهة المغرب البحر المحيط كما قلناه، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا أزموور وأنفى وأسفى، وهي من مدن الغرب وحواضره. وعليه أيضاً مسجد ماسة وبلدنا كاوصت ونول من بلاد السوس وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم. وتنتهي المراكب إلى وراء ساحل نول ولا تجاوزه إلا على خطر كما قلناه. وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومي والمتفرع من هذا البحر المحيط يخرج في خليج متضايق بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس ويسمى هذا الخليج الزقاق، وعرضه ثمانية أميال فما فوقها، وكانت عليه قطرة ركبها ماء البحر.

ثم يذهب هذا البحر الرومي في سمت الشرق إلى أن ينتهي إلى سواحل الشام وثغوره وما إليها مثل أنطالية وأنطاكية والعلايا وطرسوس والمصيصة وطرابلس وضور والإسكندرية، ولذلك سمي البحر الشامي. وهو إذا خرج من الخليج ينتسح في ذهابه عرضاً، وأكثر انفساحه إلى جهة الشمال، ولا يزال انفساحه ذلك متصاعداً إلى الشمال إلى أن ينتهي إلى غايته. وطوله فيما يقال خمسة آلاف ميل أو ستة. وفيه جزائر مبرقة ومنزقة وباسة وصقلية وأقريطش وسردانية وقبرص. وأما عرضه من جهة الجنوب فإنه يخرج عن سمت واحد، ثم يختلف في ذهابه فتارة يبعد في الجنوب وتارة يرجع إلى الشمال. واعترض ذلك بعروض البلدان التي بساحله، وذلك أن عرض البلد هو ارتفاع قطبه الشمال على أفقه، وهو أيضاً بعد ما بين سمت رؤوس أهله ودائرة معدل النهار.

والسبب في ذلك أن الأرض كروية الشكل، والسماء من فوقها مثلها. وأفق البلد هو فرق بين ما يرى وبين ما لا يرى من السماء ومن الأرض. والفلك ذو قطبين، إذا ارتفع أحدهما على رؤوس معمران انخفض الآخر بقدره عنهم، والعمارة في الأرض كلها هي إلى الجانب الشمال أكثر، وليس في الجنوب عمران لما تقرر في موضعه. فلهذا ارتفع القطب الشمالي على أهل العمران دون الجنوبي. والمارّ على سطح الكرة كلما أبعد في جهة ظهر له من سطح الكرة، ومن السماء المقابل لها ما لم يكن يظهر، فيزيد بعد

والعمارة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسبة العرب في صنهاجة وكتامة. وعندي أنهم من إخوانهم والله أعلم. وقد انتهى بنا الكلام إلى أنسابهم وأوليتهم، فلنرجع إلى تفصيل شعوبهم وذكرهم أمة بعد أمة، ونقتصر على ذكر من كانت له منهم دولة ملك أو سالف شهرة أو تشعب نسل في العالم وعدد لهذا العهد وما قبله من صفى البرانس والبرتر منهم، وترتيبهم شعباً شعباً حسبما تأدى إلينا من ذلك واشتمل عليه محفوظنا، والله المستعان.

الفصل الثاني

في ذكر مواطن هؤلاء البربر بإفريقية والمغرب

اعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه إسم إضافي يدلّ على مكان من الأمكنة بإضافته إلى جهة المشرق، ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى جهة المغرب فكل مكان من الأرض مغرب بالإضافة إلى جهة المشرق، ومشرق بالإضافة إلى جهة المغرب إلا أن العرب قد يخصص هذه الأسماء بجهات معينة وأقطار مخصوصة. وعرف أهل الجغرافيا العتيق بمعرفة هيئة الأرض وقسمتها بأقاليمها ومعمرها وخرايبها وجبالها وبحارها ومساكن أهلها، مثل بطليموس ورجار صاحب صقلية المنسوب إليه الكتاب المشهور بين الناس لهذا العهد في هيئة الأرض والبلدان، وأماهم: أن المغرب قطر واحد يميز بين الأقطار، فحدّه من جهة المغرب بحر المحيط وهو عنصر الماء، وسمي محيطاً لإحاطته بما انكشف من الأرض كما قدما أول الكتاب.

ويسمى أيضاً البحر الأخضر لتلوّنه غالباً بالخضرة، ويسمى بحر الظلمات لما أنه تقل فيه الأضواء من الأشعة المنعكسة على سطح الأرض من الشمس لبعده عن الأرض فيكون مظلماً. وللفقدان الأضواء تقل الحرارة المحللة للأجخرة فلا تزال السحب والغيوم متكاثفة على سطحه منعقدة هناك متراكمة، وتسميه الأعاجم: بحر أوقيانوس يعنون به والله أعلم ما نعني نحن بالعنصر. ويسمونه أيضاً بحر البلاية بتفخيم اللام الثانية. وهو بحر كبير غير منحصر، لا تبعد فيه السفن عن مرأى العين من السواحل للجهل بسموت الرياح هنالك ولنهايتها إذ لا غاية من العمران وراءه.

والبحار المنحصرة إنما جرت فيها السفن بالرياح المعروفة

بلاد المغرب، مثل بلاد بودة وتمطيت في قبلة المغرب الأقصى، وتسايت وتيكورارين في قبلة المغرب الأوسط، وغدامس وفزان وودان في قبلة طرابلس.

كل واحد من هذه إقليم يشتمل على بلدان عامرة ذات قرى وغنيل وأنهار، وينتهي عدد كل واحد منها إلى المائة فأكثر.

وللى هذه العدو الجنوبية من هذا العرق ينتهي في بعض السنين مجالات أهل الشام من صنهاجة ومقلبهم الجائلون هناك إلى بلاد السودان. وفي العدو الشمالية منه مجالات البادية من الأعراب الطواغن بالمغرب. وكانت قبلهم مجالات للبربر كما نذكره بعد هذا حد المغرب من جهة الجنوب، ومن دون هذا العرق سياج آخر على المغرب مما يلي التلول منه، وهي الجبال التي هي تخوم تلك التلول ممتدة من لدن البحر المحيط في الغرب إلى برنيق من بلاد برقة. وهناك تقطع هذه الجبال ويسمى مبدؤها من المغرب جبال درن، وما بين هذه الجبال المحيطة بالتلول وبين العرق الذي وصفناه آنفاً بسائط وقفار أكثر نباتها الشجر، وفيما يلي التلول منها، ويقاربها بلاد الجريد ذات نخل وأنهار.

ففي أرض السوس قبلة مراكش ترودانت والغيرى فويان وغيرهما، بلاد ذات نخل وأنهار ومزارع متعددة عامرة. وفي قبلة فاس سجلماسة وقراها بلد معروف، ودرعة أيضاً وهي معروفة، وفي قبلة تلمسان قصور متعددة ذات نخل وأنهار. وفي قبلة تاهرت القصور أيضاً بلاد متالية على سطر من المشرق إلى المغرب أقرب ما إليها جبل راشد، وهي ذات نخل ومزارع وأنهار، ثم قصور معينات تناهز المائة وأكثر قبلة الجزائر ذات نخل وأنهار، ثم بلد واركلي قبلة بجاية بلد واحد مستبحر العمران كثير النخل، وفي سمته إلى جهة التلول بلاد ريغ تناهز الثلثمائة منتظمة على حفافي وإد ينحدر من المغرب إلى المشرق يناهز مائة من البلاد فأكثر، قاعدتها بسكرة من كبار الأمصار بالمغرب. وتشتمل كلها على النخل والأنهار والقدن والقرى والمزارع.

ثم بلاد الجريد قبلة تونس وهي: نفطة وتوزر وقفصة وبلاد نفزاوة وتسمى كلها بلاد قسطلية مستبحرة العمران مستحكمة الحضارة مشتملة على النخل والأنهار. ثم قابس قبلة سوسة وهي حاضرة البحر من أعظم أمصار إفريقية، وكانت دار ملك لابن غانية كما نذكره بعد، وتشتمل على النخل والأنهار والمزارع. ثم فزان وودان قبلة طرابلس قصور متعددة ذات نخل وأنهار، وهي أول ما افتتح المسلمون من أرض إفريقية لما أغزاها عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص. ثم الواحات قبلة برقة، ذكرها المسعودي في كتابه، وما وراء هذه كلها في جهة الجنوب فقفار

القطب على الأفق كلما أبعد في الشمال، ويتقص كلما رجع إلى الجنوب.

فعرض سبتة وطنجة التي هي على زقاق هذا البحر وخليجها (له) ودقائق. ثم يتصاعد البحر إلى الجنوب فيكون عرض تلمسان (لد) ونصف، فتزيد في الجنوب فيكون عرض وهران (لب) أبعد من فاس بيسير لأن عرض فاس (لج) ودقائق.

ولهذا كان العمران في المغرب الأقصى أعرض في الشمال من عمران المغرب الأوسط بقدر ما بين فاس وسبتة. وصار ذلك القطر كالجزيرة بين البحار لانعطاف البحر الرومي إلى الجنوب. ثم يرجع البحر بعد وهران عن سمته ذلك فيكون عرض تونس والجزائر (له) على مثل سمته الأول عند منبعه من الزقاق. ثم يزيد في الشمال فيكون عرض بجاية وتونس (يوم) على مثل سمث غرناطة ومريه ومالقة. ثم يرجع إلى الجنوب فيكون عرض طرابلس وقابس (له) على مثل السمث الأول بطنجة وسبتة، ثم يزيد في الجنوب فيكون عرض برقة (لج) على مثل سمث فاس وتوزر، فيكون عرض الإسكندرية (لا) على مثل مراكش وأغمات. ثم يذهب في الشمال إلى القطافة إلى متهى سمته بسواحل الشام.

وهكذا اختلافه في هذه العدو الجنوبية، ولسنا على علم من حاله في العدو الشمالية. وينتهي بسواحل عرض هذا البحر في انفساحه إلى سبعمائة ميل أو نحوها ما بين سواحل إفريقية وجنوة من العدو الشمالية والبلاد الساحلية من المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية من لدن الخليج حيث منبعه كلها عليه مثل طنجة وسبتة وبادس وعساسة وهنين ووهران والجزائر وبجاية وبونة وتونس وسوسة والمهدية وصفاقس وقابس وطرابلس وسواحل برقة والإسكندرية.

هذا وصف هذا البحر الرومي الذي هو حد المغرب من جهة الشمال. وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالرمال المنهيلة المائلة حجراً بين بلاد السودان وبلاد البربر.

وتعرف عند العرب الرحالة البادية بالعرق، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدئ من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمث واحد إلى أن يعترضه النيل الهاطب من الجنوب إلى مصر، فهناك ينقطع وعرضه ثلاث مراحل وأزيد. ويعترضه في جهة المغرب الأوسط أرض مججرة تسمى عند العرب الحمادة من دوين مصاب إلى بلاد ريغ، ووراءه من جهة الجنوب وبعض بلاد الجريدية ذات غنيل، وأنهار معدودة في جملة

عظيم يتمتع عبوره أيام الأمطار لآساعه، ويعظم مده إلى البحر فيتتهي إلى سبعين ميلاً أو ما يقاربها، ومصبه في البحر الكبير عند أزبور. ومنبعه من جبال درن من فوهة كبيرة ينبع منها هذا النهر ويتسائل إلى بسط المغرب. وينبع منها أيضاً نهر آخر، وينحدر إلى القبلة. يمر ببلاد درعة ذات النخل المخصوصة بنبات النيلج. وصناعة استخراجها من شجره، وهي قصور ذات نخل موضوعة في سفح جبل درن من آخره، وبها يسمى هذا النهر ويجاورها، إلى أن يغوص في الرمل قبله بلاد لسوس.

وأما نهر ملوية آخر المغرب الأقصى فهو نهر عظيم منبعه من فوهة في جبال قبله تازي، ويصب في البحر الرومي عند غساسمة. وعليه كانت ديار مكناسة المعروفة بهم في القديم، ويسكنها لهذا العهد أمم أخرى من زناتة في قصور منتظمة إلى أعلى النهر يعرفون بوطاط ويجاورهم هنالك وفي سائر نواحيه أمم من البربر أشهر من فيهم بطالسة إخوة مكناسة. وينبع مع هذا النهر من فوخته نهر كبير ينحدر ذاهباً إلى القبلة مشرقاً بعض الشيء، ويقطع العرق على ستمته إلى أن يتهي إلى بودة، ثم بعدها إلى تنطيط، ويسمى لهذا العهد كير وعليه قصورها. ثم يمر إلى أن يصب في القفار ويروغ في قفارها ويفور في رمالها، وهو موضع مغامه قصور ذات نخل تسمى وركلان وفي شرق بودة مما وراء العرق قصور تسابيت من قصور الصحراء. وفي شرقي تسابيت إلى ما يلي الجنوب قصور تيكورارين تنتهي إلى ثلثمائة أو أكثر في واد واحد، فينحدر من المغرب إلى المشرق، وفيها أمم من قبائل زناتة.

وأما المغرب الأوسط فهو في الأغلب ديار زناتة، كان لمغراوة وبني يفرن، وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطغرة ومطماطة. ثم صار من بعدهم لبني ومانوا وبني يلومي. ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين وقاعدته لهذا العهد تلمسان، وهي دار ملكه ويجاوره من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمرية وما يليها إلى بجاية، وقبائله كلهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة. يمر في وادي شلف بني واطيل النهر الأعظم منبعه من بلد راشد في بلاد الصحراء، ويدخل إلى التل من بلاد حصين لهذا العهد. ثم يمر مغرباً ويجتمع فيه سائر أودية المغرب الأوسط مثل مينا وغيره إلى أن يصب في البحر الرومي ما بين كليتا ومستغاثم. وينبع من فوخته نهر آخر يذهب مشرقاً من جبل راشد، ويمر بالزاب إلى أن يصب في سبخة ما بين توزر ونفزاوة معروفة هنالك، ويسمى هذا النهر وادي شدي.

وأما بلاد بجاية وقسططينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة، وهي اليوم ديار للعرب إلا تمتع الجبال، وفيها بقاياهم.

ورمال لا تثبت زرعاً ولا مرعى، إلى أن تنتهي إلى العرق الذي ذكرناه.

ومن ورائه مجالات المتشمين كما قلناه مفاوز معطشة إلى بلاد السودان. وما بين بلاد هذه والجبال التي هي سياج التلول بسائط متلون مزاجها تارة بمزاج التلول، وتارة بمزاج الصحراء، بهوائها ومياهها ومنابتها. وفيها القيروان وجبل أوراس معترض وسطها، وبلاد الحضنة حيث كانت طينة ما بين الزاب والتل، وفيها مقرة والمسيلة، وفيها السرسو قبله تلمسان حيث تاهرت فيها جبل ديرو وقبله فاس معترض في تلك البسائط. هذا حد المغرب من جهة القبلة والجنوب.

وأما من جهة الشرق فيختلف باختلاف الاصطلاحات فعرف أهل الجغرافيا أنه بحر أهل القلزم المنفجر من بحر اليمن، هابط على سمت الشمال وبأخفاف يسير إلى المغرب حتى يتهي إلى القلزم والسويس، ويبقى بينهم من هنالك، وبين سمت من البحر الرومي مسيرة يومين. وينقطع عند السويس والقلزم. ويعد من مصر في جهة الشرق ثلاثة أيام. هذا آخر المغرب عندهم ويدخل فيه إقليم مصر وبرقة.

وكان المغرب عندهم من جزيرة أحاطت بها البحار من ثلاث جهاتها كما تراه. وأما العرف الجاري لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم فلا يدخل فيه إقليم مصر ولا برقة، وإنما يختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب في هذا العرف لهذا العهد. وهذا الذي كان في القديم ديار البربر ومواطنهم. فأما المغرب الأقصى منه وهو ما بين وادي ملوية من جهة الشرق إلى أسفي حاضرة البحر المحيط وجبال درن من جهة الغرب فهي في الأغلب ديار المصامدة من أهل درن وبرغواطة وغمارة. وآخر غمارة بطوية مما يلي غساسمة، ومعهم عوالم من صنهاجة ومطغرة وأوربة وغيرهم، يحيط به البحر الكبير من غريبه، والرومي من شماليه، والجبال الصاعدة المتكاثفة مثل درن وجانب القبلة وجبال تازي من جهة الشرق. لأن الجبال أكثر ما هي وأكثف قرب البحار مما اقتضاه التكوين من ممانعة البحار بها. فكانت جبال المغرب لذلك أكثر وسكانها من المصامدة في الأغلب وقيل من صنهاجة. وبقيت البسائط من الغرب مثل أزغاو وتامستا وتادلا ودكالة. واعتمرها الطواغيت من البربر الطارئين عليه من جشم ورياح فغص المغرب بساكته من الأمم لا يحصيهم إلا خالقهم، وصار كأنه جزيرة وبلد واحد أحاطت به الجبال والبحار، وقاعدته لهذا العهد فاس، وهي دار ملكه.

ويعر فيه النهر العظيم المعروف بوادي أم ربيع، وهو نهر

والأمصار من سجلماسة وقصور توات، وتجورارين وفيجيج ومصاب وواركل وبلاد ريفّة والزّاب ونفزاوة والحمة وغدامس، ثم ما كان لهم من الأيام والوقائع والدول والممالك. ثم ما كان بينهم وبين طوالع العرب من بني هلال في المائة الخامسة بإفريقية. وما كان لهم مع دولة آل حماد بالقلعة ومع لثونة بتلمسان وتاهرت من الموالاة والانحراف. وما استولى عليه بنو بادين آخرّاً بإسهام الموحدين وإقطاعهم من بلاد المغرب، وما كان لبني مرين في الأجلاب على غير عبد المؤمن من الآثار، وما تشهد أخباره كلها بأنه جيل عزيز على الأيام وأنهم قوم مرهوب جانبهم شديد بأسهم كثير جمعهم، مظاهرون لأمم العالم وأجباله من العرب والفرس ويونان والروم.

ولكنهم لما أصابهم الفناء وتلاشت عصابتهم بما حصل لهم من ترف الملك والدول التي تكررت فيهم، قَلَّتْ جموعهم وفنيت عصابتهم وعشائره وأصبحوا خولاً للدول وعبيداً للجبابة. واستنكف كثير من الناس عن النسب فيهم لأجل ذلك، وإلا فقد كانت أوربة أميرهم كسيلة عند الفتح كما سمعت، وزنانة أيضاً حتى أسر أميرهم وزمار بن مولات، وحمل إلى المدينة إلى عثمان بن عفان. ومن بعد ذلك هوارة وصنهاجة وبعدهم كتامة وما أقاموا من الدولة التي ملكوها بها المغرب والمشرق، وزاحموا بني العباس في ديارهم وغير ذلك منهم كثير.

وأما تخلفهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزيل، ورعي الأذمة والوسائل، والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكار والثبات في الشدائد وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعلوم. وقرى الضيف والإعانة على النوائب وعلو الهمة وإبابة الضييم ومشافة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لتبعيه من الأمم، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز، وأوفت بهم على ثنایا الملك حتى علت على الأيدي أيديهم ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم.

وكان مشاهيرهم بذلك من أهل الطبقة الأولى: بلكين بن زيري الصنهاجي عامل لإفريقية للعيدين، ومحمد بن خزر والخير ابنه، وعروبة بن يوسف الكتامي القائم بدعوة عبد الله الشيعي،

وأما إفريقية كلها إلى طرابلس فبساط فبح كانت دياراً لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة ومن لا يحصى من قبائل البربر. وكانت قاعدتها القيروان وهي لهذا العهد مجالات للعرب من سليم وبني يفرن وهوارة مغلوبون تحت أيديهم. وقد تبدوا معهم ونسوا رطانة الأعاجم، وتكلموا بلغات العرب، وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم. وقاعدتها لهذا العهد تونس وهي دار ملكها، وعمر فيها النهر الأعظم المعروف بوادي مجردة يجتمع فيه سائر الأودية بها، ويصب في البحر الرومي على مرحلة من غربي تونس بموضع يعرف ببسنرت. وأما برقة فدرست معالمها وخربت أمصارها، وانقرض أمرها. وعادت مجالات للعرب بعد أن كانت داراً للواتة وهوارة وغيرهم من البربر وكانت بها الأمصار المستبحرة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان وأمثالها، فعدت ياباً ومفاوز كان لم تكن والله أعلم.

الفصل الثالث

في ذكر ما كان لهذا الجيل قديماً وحديثاً من

الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة

الراقية بهم إلى مراقي العز ومعارج

السلطان والملك

قد ذكرنا ما كان من أمر هذا الجيل من البربر وفور عدده وكثرة قبائلهم وأجيالهم، وما سواه من مغالبة الملوك ومزاحمة الدول عدة آلاف من السنين، من لدن حروبيهم مع بني إسرائيل بالشام وخروجهم عنه إلى إفريقية والمغرب، وما كان منهم لأول الفتح في محاربة الطوابع من المسلمين أولاً، ثم في مشايعتهم ومظاهرتهم على عدوهم ثانياً من المقامات الحميدة والآثار الجميلة. وما كان لوهم الكاهنة وقومها يجبل أوراس من الملك والعز والكنة قبل الإسلام وبعده حتى تغلب عليهم العرب، وما كان لمكناسة من مشايعة المسلمين أولاً، ثم ردتهم ثانياً، وتحيزهم إلى المغرب الأقصى وفرارهم أمام عقبة بن نافع ثم غلبهم بعد ذلك طوالع هشام بأرض المغرب.

قال ابن أبي زيد: إن البربر ارتدوا بإفريقية المغرب اثنتي عشرة مرة، وزحفوا في كلها للمسلمين، ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير، وقبل بعدها. وتقدم ذكر ما كان لهم في الصحراء والقر من البلاد، وما شيدوا من الحصون والأطام

وأما وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين في النور الإنساني من أشخاصهم، فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة، ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة والكهان المقطورين على المطلع للأسرار الغيبية. ومن الغرائب التي خرقت العادة وأوضحت أدلة القدرة ما يدل على عظيم عناية الله بذلك الجيل وكرامته لهم، بما آتاهم من جماع الخير وآثرهم به من مذاهب الكمال، وجمع لهم من متفرق خواص الإنسان، ينقل ذلك في أخبار توهم عجائب.

فكان من مشاهير حملة العلم فيهم سعيد بن واسول جد بني مدرار ملوك سجلماسة، أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى العباس، ذكره عريب بن حميد في تاريخه. ومنهم أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى صاحب الحمار، الخارج على الشيعة سنة اثنتين وثلاثمائة الدائن بدين الخارجية. أخذ العلم بتورز عن مشيختها، ورأس في الفتيا وقرأ مذاهب الإضافة من الخوارج، وصدق فيه. ثم لقي عماراً الأعشى الصفري النكار. فتلقن عنه من مذاهبهم ما انسلخ من آية السعادة بانتحاله. وهو مع ذلك من الشهرة في هذا الجيل بحيث لا يغفل.

ومنهم منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة من طواعن ولهاصة، ثم من سوماته منهم، مولده عام عشرة ووفاته عام ثلاثة وثمانين وثلاثمائة. كان من البتر من ولد مادغيس هلك على يد عبد الرحمن الناصر. ومنهم أيضاً أبو محمد بن أبي زيد علم الملة وهو من نفرة أيضاً. ومنهم علماء بالنسب والتاريخ وغير ذلك من فنون العلوم.

ومن مشاهير زناتة أيضاً موسى بن صالح الغمري، معروف عند كافتهم معرفة وضوح وشهرة، وقد ذكرناه عند ذكر غمرة من شعوب زناتة، وهو وإن لم توقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره في دينه، فهو من محاسن هذا الجيل الشاهدة بوجود الخواص الإنسانية فيهم: من ولاية وكهانة وعلم وسحر، وكل نوع من آثار الخلق. ولقد تحدث أهل هذا الجيل فيما يتحدثون به أن أخت يعلى بن محمد اليفرنى جاءت بولد من غير أب سمّوه كلام. ويذكر له أخبار في الشجاعة خرقت العوائد ودلت على أنه موهبة من الله استأثره بها، لم يشاركه فيها غيره من أهل جلدته. وربما ضاقت حواصل الخواص منهم عن ملتقط هذه الكاتنة، ويجهلون ما يتسع لها ولأمثالها من نطاق القدرة، ويتقنون أن حملها كان إثر استحمامها في عين حامية هنالك غب ما صدر عنها بعض السباع، كانت تردّ فيها على الناس، ويردّون عليها ويرون أنها علقت من فضل ولوغه، ويسمون ذلك المولود ابن الأسد لظهور

ويوسف بن تاشفين ملك لثونة بالمغرب، وعبد المؤمن بن علي شيخ الموحدين وصاحب الإمام المهدي. وكان عظماءهم من أهل الطبقة الثانية السابقون إلى الراية بين يدي دولهم والماهدون للكهيم بالمغرب الأقصى والأوسط، كبيرهم يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ويعمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد، ومحمد بن عبد القوي ووزمار كبير بني توجين وثابت بن منديل أمير مغراوة وأهل شلف ووزمار بن إبراهيم زعيم بني راشد المتعاصرين في أزمانهم المتناغين في تأثيل عزهم والتهميد لقومهم كل على شاكلته بقوة جمعه. فكانوا من أرسخهم في تلك الخلال قدماً وأطولهم فيها يداً، وأكثرهم لها جمعاً، طارت عنهم في ذلك قبل الملك وبعده أخبار عني بنقلها الأثبات من البربر وغيرهم، وبلغت في الصحة والشهرة متنى التواتر.

وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصبيانهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقفاء الأئمة للصلوات في بواديمهم، وتدارس القرآن بين أعيانهم وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم التماساً للبركة في آثارهم وسوءاً للدعاء عن صالحهم، وإغشائهم البحر أفضل الرابطة والجهاد، وبيعهم النفوس من الله في سبيله وجهاد عدوه ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكاً لعزمهم ومقاداً إلى سلطانتهم وملكتهم. وكان المبرز منهم في هذا المتحل يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وبنوهم

ثم يعقوب بن عبد الحق من بعدهم وبنوه، فقد كان لهم في الاهتمام بالعلم والجهاد وتشديد المدارس واختطاط الزوايا والربط، وسد الثغور وبذل النفس في ذات الله، وإنفاق الأموال في سبيل الخيرات، ثم مخالطة أهل العلم وترفيه مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الاقتداء بالشريعة والالتقياد لإشاراتهم في الوقائع والأحكام ومطالعة سير الأنبياء وأخبار الأولياء وقراءتها بين أيديهم من دواوين ملكهم ومجالس أحكامهم وقصور عزهم. والتعرض بالمعاقل لسماع شكوى المظلّمين وإنصاف الرعايا من العمال والضرب على يد أهل الجور واتخاذ المساجد بصحن دورهم وسدة خلافتهم وملكتهم، يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتلين لتلاوة كتاب الله أحزاباً بالعشي والإشراق على الأيسام، وتحصين ثغور المسلمين بالبيان المشيد والكتائب المجهزة، وإنفاق الأموال العريضة، شهدت لهم بذلك آثار تخلّفوها بعدهم.

استولوا على رومة. وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب الإسكندرية وبرقة ومصر يؤدون الجباية له، وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الأندلس من الغوط لما كان الروم غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع، وعنهم كلهم أخذوا دين النصرانية، فكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر إفريقية ولم يكن للروم فيها شيء من ولاية، وإنما كان كل من كان منهم بها جنداً للإفرنج ومن حشودهم. وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح إفريقية فمن باب التغليب، لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج، وما قاتلوا في الشام إلا الروم، فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية. فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية

ونقلت الأخبار عن العرب كما هي، فجرير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم، وكذا الأمة الذين كانوا بإفريقية غاليين على البربر وتازلين بمدنها وحصونها، إنما كانوا من الفرنجة. وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دائوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم، لقرب الشام وسلطانه منهم كما كان جرأة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح، وكما كانت نفوسة من برابر إفريقية وقندلاوة ومدبونة وبهلولة وغيانة وبنو فازان من برابرة المغرب الأقصى حتى محاديس الأكبر التاجم بالمغرب من بني حسن بن الحسن جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل، فكان البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج، وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم كما ذكرناه، حتى إذا كان الفتح وزحف المسلمون إلى إفريقية زمان عمر رضي الله عنه سنة تسع وعشرين، وغلبهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي، فجمع لهم جرير ملك الفرنجة يومئذ بإفريقية من كان بأمصاها من الفرنج والروم، ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم.

وكان ملك ما بين طرابلس وطنجة، وكانت دار ملكه سبيطة فلقوا المسلمين في زهاء مائة وعشرين ألفاً، والمسلمون يومئذ في عشرين ألفاً، فكان من هزيمة العرب لهم وفتحهم لسبيطة وتخريبهم إياها وقتلهم جرير ملكهم. وما نقلهم الله من أموالهم وبناتهم التي اختصت منهن ابنة بقاتلة عبد الله بن الزبير لعهد المسلمين له بذلك بعد الهزيمة، وخلوصه بخير الفتح إلى الخليفة والملا من المسلمين بالمدينة ما هو كله مذكور مشهور. ثم أرزء الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة، وخلوصه بخير

خاصة الشجاعة فيه. وكثير من أمثال هذه الأخبار التي لو انصرفت إليها عناية الناقلين للآت الدواوين. ولم يزل هذا دأبهم وحالهم إلى أن مهدوا من الدول وأثلوا من الملك ما نحن في سبيل ذكره.

الفصل الرابع

في ذكر أخبارهم على الجملة من قبل الفتح الإسلامي ومن بعده إلى ولاية بني الأغلب

هؤلاء البربر جيل ذوو شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى حسبما هو معروف في تاريخ الفتح بإفريقية والمغرب، وفي أخبار ردتهم وحروبهم فيها. نقل ابن أبي الرقيق: أن موسى بن نصير لما فتح سقوما كتب إلى الوليد بن عبد الملك أنه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس. فكتب إليه الوليد بن عبد الملك: ويحك إني أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقاً فهذا عشرين ألفاً، ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجبل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها. وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالشرق والمغرب إلا في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم. فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم، فقد غزتهم ملوك اليمن من قراهم مسراراً على ما ذكر مؤرخوهم، فاستكانوا لغلبهم ودانوا بدينهم.

ذكر ابن الكلبي: أن حمير بالقبائل اليمنية ملك المغرب مائة سنة، وأنه الذي ابتنى مدائنه مثل إفريقية وصقلية، واتفق المؤرخون على غزو أفريقش بن صيفي من التبايع إلى المغرب كما ذكرنا في أخبار الروم، واختطوا بسيف البحر وما يليه من الأرياف مدناً عظيمة الخططة وثيقة المباني شهيرة الذكر بآقية المعالم والآثار لهذا العهد مثل: سبيطة وجلولاء ومرناق وطاقة وزانة وغيرها من المدن التي خربها المسلمون من العرب لأول الفتح عند استيلائهم عليها. وقد كانوا دانوا لعهدهم بما تعبدوهم به من دين النصرانية، وأعطوهم المهادة وأدوا إليهم الجباية طواعية.

وكان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال. وأمرأها لا يرامون بذلك، ولا ينالهم الروم والإفرنج في ضواحيهم تلك بمسخرة الإساءة، وقد أصبحهم الإسلام وهم في مملكة قد

كسيلة وقومه، فأرسلوا له شهداءً وانهزوا الفرصة فيه وقتلوه ومن معه وملك كسيلة إفريقية خمس سنين ونزل القيروان وأعطى الأمان لمن بقي بها ممن تخلف من العرب أهل الذراري والأثقال، وعظم سلطانه على البربر.

وزحف قيس بن زهير البلوي في ولاية عبد الملك للثأر بدم عقبة سنة سبع وستين، وجمع له كسيلة سائر البربر، ولقيه بجيش من نواحي القيروان فاشتد القتال بين الفريقين ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم. وأتبعهم العرب إلى مرجنة ثم إلى ملوية وفي هذه الواقعة ذل البربر وفيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد، وخاف البربر من زهير ومن العرب خوفاً شديداً فلجأوا إلى القلاع والحصون. ثم ترمب زهير بعدها وقفل إلى المشرق فاستشهد ببرقة كما ذكرناه. واضطربت إفريقية نارا وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم. وكان من أعظمهم شأناً يومئذ الكاهنة دُها بنت مائية بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جرأوة ملوك البتر وزعمائهم، فبعث عبد الملك إلى حيان بن النعمان الغساني عامله على مصر أن يخرج إلى جهاد إفريقية، وبعث إليه بالمدد، فزحف إليها سنة تسع وسبعين ودخل القيروان وغزا قرطاجنة وافتتحها عنوة، وذهب من كان بقي بها من الإفريقية إلى صقلية وإلى الأندلس.

ثم سأل عن أعظم ملوك البربر فدلوه على الكاهنة وقومها جرأوة فمضى إليها حتى نزل وادي مسكيانة. وزحف إلى فافتلوا قتالاً شديداً. ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسير خالد بن يزيد القيسي. ولم تنزل الكاهنة والبربر في اتباع حيان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس، ولحق حسان بعمل طرابلس. ولقيه كتاب عبد الملك بالمقام فأقام وبنى قصوره وتعرف لهذا العهد به. ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها وانخذت عهداً عند أسيرها خالد بالرضاع مع ابنيها. وأقامت في سلطان إفريقية والبربر خمس سنين. ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالمدد، فرجع إلى إفريقية سنة أربع وسبعين، وخربت الكاهنة جميع المدن والضيايع، وكانت من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً في قرى متصلة.

وشق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسان فأمنهم ووجد السبيل إلى تفريق أمرها، وزحف إليها وهي في جموعها من البربر فانهزموا، وقتلت الكاهنة بمكان البير المعروف بها لهذا العهد بجبل أوراس. واستأمن إليه البربر على الإسلام والطاعة وعلى أن يكون منهم اثنا عشر ألفاً مجاهدين معه، فأجابوا وأسلموا وحسن

الفتح إلى حصون إفريقية، وانساح المسلمون في البسائط بالغارات، ووقع بينهم وبين البربر أهل الصواحي زحوف وقتل وسي، حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمار بن صقلاب جد بني خزر، وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة، ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده، ومن عليه وأطلقه، وعقد له على قومه.

ويقال: إنما وصله وافداً وحصن المسلمين عليهم ولاذ الفرنج بالسلم وشرطوا لابن أبي سرح ثلثمائة قطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب، ويخرج بهم من بلادهم ففعل. ورجع المسلمون إلى المشرق وشغلوا بما كان من الفتن الإسلامية. ثم كان الاجتماع والاتفاق على معاوية بن أبي سفيان، وبعث معاوية بن خديج السكوني من مصر لافتتاح إفريقية سنة خمس وأربعين. وبعث ملك الروم من القسطنطينية عساكره لمدافعتهم في البحر فلم تغن شيئاً وهزمهم العرب بساحل أجم. وحاصروا جلولاء وفتحوها، وقفل معاوية بن خديج إلى مصر فولّى معاوية بن أبي سفيان على إفريقية بعده عقبة بن نافع، فاخبط القيروان وافترق أمر الفرنجة وصاروا إلى الحصون، وبقي البربر بضواحيهم إلى أن ولي يزيد بن معاوية وولّى على إفريقية أبا المهاجر مولى.

وكانت رئاسة البربر يومئذ في أوربة لكسيلة بن لمزم، وهو رأس البرانس، ومرادفه سكرديد بن رومي بن مازرت من أوربة، وكان على دين النصرانية فأسلموا لأول الفتح. ثم ارتدا عند ولاية أبي المهاجر واجتمع إليها البرانس، وزحف إليهم أبو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم وظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه. ثم جاء عقبة بعد أبي المهاجر فنكبه غيظاً على صحابته لأبي المهاجر. ثم استفتح حصون الفرنجة مثل باغاية وليس، ولقيه ملوك البربر بالزاب وتاهرت ففضّهم جمعاً بعد جمع، ودخل المغرب الأقصى، وأطاعته غمارة، وأميرهم يومئذ يليان. ثم أجاز إلى وليلى ثم جبال درن، وقاتل المصامدة، وكانت بينهم وبينه حروب، وحاصروه بجبال درن. ونهضت إليهم جموع زناتة وكانوا خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة فأفرجت المصامدة عن عقبة، وأنخن فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام، ودوخ بلادهم.

ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهو يومئذ على دين المجوسية، ولم يدنيوا بالنصرانية، فأنخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر، وقاتل مسوفة من وراء السوس، وسبى منهم وقتل راجعاً. وكسيلة أثناء هذا كله في اعتقاله يحمله معه في عسكره سائر غزواته. فلما قفل من السوس سرح العساكر إلى القيروان حتى بقي في خف من الجنود. وتراسل

وبائع مسيرة لنفسه بالخلافة داعياً إلى غلته من الخارجية على مذهب الصفورية، ثم ساءت سيرته فقمع عليه البربر ما جاء به فقتلوه وقدموا على أنفسهم خالد بن حميد الزناتي.

قال ابن عبد الحكم: هو من هتورة إحدى بطون زناتة فقام بأمرهم، وزحف إلى العرب وسرح إليه عبد الله بن الحبحاب العساكر في مقدمته ومعهم خالد بن أبي حبيب فالتقوا بوادي شلف، وانهزم العرب وقتل خالد بن أبي حبيب ومن معه وسميت وقعة الأسراب وانتقضت البلاد ومرج أمر الناس، وبلغ الخبر هشام بن عبد الملك فعزل ابن الحبحاب وولى كلثوم بن عياض القشيري سنة ثلاث وعشرين وسرحه في اثني عشر ألفاً من أهل الشام. وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه، فخرج إلى إفريقية والمغرب حتى بلغ وادي طنجة وهو وادي سبس فزحف إليه خالد بن حميد الزناتي فيمن معه من البربر، وكانوا خلقاً لا يحصى، ولقوا كلثوم بن عياض من بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم، وقتل كلثوم وانهزمت العساكر فمضى أهل الشام إلى الأندلس مع بلج بن بشر القشيري ومضى أهل مصر وإفريقية إلى القيروان.

وبلغ الخبر إلى هشام بن عبد الملك فبعث حنظلة بن سفيان الكلبي فقدم القيروان سنة أربع وعشرين وأربعمائة وهوارة يومئذ خوارج على الدولة، منهم: عكاشة بن أيوب وعبد الواحد بن يزيد في قومهما، فثارت هواراة ومن تبعهم من البربر فهزمهم حنظلة بن المعز بظاهر القيروان بعد قتال شديد، وقتل عبد الواحد الهواري وأخذ عكاشة أسيراً، وأحصيت القتلى في هذه الواقعة فكانوا مائة وثمانين ألفاً. وكتب بذلك حنظلة إلى هشام وسميها الليث بن سعد فقال: ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليّ من غزوة القرن والأصنام.

ثم خفت صوت الخلافة بالشرق والثالث أمرها لما كان بين بني أمية من الفتنة، وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان. وأفضى الأمر إلى الإدالة ببني العباس من بني أمية وأجاز البحر عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس إلى إفريقية فملكها وغلب حنظلة عليها سنة ست وعشرين ومائة فعادت هيبة إلى أديانها، واستشرى داء البربر وأعزل أمر الخارجية ورؤوسها، فانتفضوا من أطراف البقاع، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان داعين إلى بدعتهم، وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجة، وتغلب أميرهم ثابت بن زيدون وقومه على باجة، وثار معه عبد الله بن سكرديد من أمرائهم فيمن تبعه.

وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث من هواراة، وكانا يدينان

إسلامهم، وعقد الأكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلى جبل أوراس فقالوا: لزمنا الطاعة له سبقتها إليها وبايعناه عليها. وأشارت عليهم بذلك لأثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها، وانصرف حسان إلى القيروان فدون الدواوين وصالح من ألقى بيده من البربر على الخراج. وكتب الخراج على عجم إفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر والبرانس.

واختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقية والمغرب فخلت أكثر البلاد، وقدم موسى بن نصير إلى القيروان والياً على إفريقية. ورأى ما فيها من الخلاف، وكان ينقل العجم من الأقاليم إلى الأديان وأتخن في البربر ودوخ المغرب وأدى إليه البربر الطاعة. وولي على طنجة طارق بن زياد، وأنزل معه سبعة وعشرين ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر، وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه. ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة.

وذكر أبو محمد بن أبي زيد: إن البربر ارتدوا اثني عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر أمرائهم يرسم الجهاد. فاستقروا هنالك من لدن الفتح، فحيثما استقر الإسلام بالمغرب وأذن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة. ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها، ولقنوها من العرب الناقليها من منبعا بالعراق. وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها، من الأباضية والصفورية كما ذكرنا في أخبار الخوارج.

وفشت هذه البدعة وأعقدها رؤوس النفاق من العرب وجرائم الفتنة من البربر ذريعة إلى الانتزاع على الأمر فاختلوا في كل جهة، ودعوا إلى قائدتهم طغام البربر تلبون عليهم مذاهب كفرها، ويلبسون الحق بالباطل فيها إلى أن رسخت فيهم كلمات منها، ووشجت بينهم عروق من غرائسها. ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمراء العرب، فقتلوا يزيد بن أبي مسلم سنة اثنتين ومائة لما نقموا عليه في بعض الفعلات. ثم انتفض البربر بعد ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائة في ولاية عبد الله بن الحجاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس، وأتخن في البربر وسعى وغنم. وانتهى إلى مسوفة فقتل وسى وداحل البربر منه رعب، وبلغه أن البربر أحسوا بأنهم فيء للمسلمين فانتفضوا عليه. وثار ميسرة المطفري بطنجة على عمرو بن عبد الله فقتله وبائع لعبد الأعلى بن جريج الأفريقي رومي الأصل ومولى العرب، كان مقدم الصفورية من الخوارج في انتحال مذهبهم، فقام بأمرهم مدة

ومائة وضبط ابن الأشعث إفريقية وخافه البربر.

ثم انتقض بنو يفرن من زناتة ومغيلة من البربر بنواحي تلمسان، وقدموا على أنفسهم أبا قره من بني يفرن، ويقال إنه من مغيلة وهو الأصح في شأنه، ويبيع له بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة. وزحف إليه الأغلب بن سود التميمي عامل طَبْنة، فلما قرب منه هرب أبو قره، فستزل الأغلب الزاب، ثم اعتزم على تلمسان ثم طنجة، ورجع إليه الجند فرجع، ثم انتقض السير من بعد ذلك أيام عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخيه المهلب. وكان يلقب هزار مرد سنة إحدى وخمسين.

واجتمعوا بطرابلس، وقدموا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب بن مدين بن يطوفت من أمراء مغيلة، ويسمى أبا قادم.

وزحفت إليهم جنود عمر بن حفص فهزموها وملكوا طرابلس، وزحفوا إلى القيروان فحاصروها. ثم زحف البرابرة من الجانب الآخر بجند عمر بطبنة في اثني عشر معسكراً. وكان منهم أبو قره في أربعين ألفاً من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في ستة آلاف من الأباضية، والمسور بن هانيء في عشرة آلاف كذلك، وجرير بن مسعود فيمن تبعه من مديونة، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي في ألفين منهم من الصفرية. واشتد الحصار على عمر بن حفص فاعمل الحيلة في الخلاف بين جماعتهم، وكان بنو يفرن من زناتة أكثر البرابرة يومئذ جمعاً، وأشدهم قوة، فصالح أبو قره زعيمهم على أربعين ألفاً وأعطى ابنه في إتمام ذلك أربعة آلاف، وافترقوا وارتحلوا عن طبنة. ثم بعث بعضاً إلى ابن رستم فهزمه، ودخل تاهرت مغلولاً، وزحف عمر بن حفص إلى أبي حاتم والبربر الأباضية الذين معه، ونهضوا إليه فخالفهم إلى القيروان، وشحنها بالآلات والرجال.

ثم لقي أبا حاتم والبربر وهزموه، ورجع إلى القيروان وحاصروه. وكانوا في ثلاثمائة وخمسين ألفاً، الحيل منها خمسة وثلاثون ألفاً، وكانوا كلهم أباضية، وطال الحصار وقتل عمر بن حفص في بعض أيامه سنة أربع وخمسين ومائة. وصالح أهل القيروان أبا حاتم على ما أحب وارتحل. وقدم يزيد بن قبيصة بن المهلب سنة أربع وخمسين ومائة والياً على إفريقية، فزحف إليه أبو حاتم بعد أن خالف عليه عمر بن عثمان الفهري، وافترق أمرهم فلقية يزيد بن حاتم بطرابلس فقتل أبو حاتم، وانهزم البربر ولحق عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن من أصحاب أبي حاتم بكتامة وبعث المخارق بن غفار الطائي فحاصره ثمانية أشهر. ثم غلب عليه فقتله ومن كان معه من البربر، وهربوا إلى كل ناحية. وكانت حروبهم مع الجند من لدن قتل عمر بن حفص بطبنة إلى

برأي الأباضية فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيس القيسي لما خرج إليهم يدعوه إلى الصلح، وبقي الأمر على ذلك مدة، وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة، وتغلب على قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين فقتل عبد الجبار والحارث وأوعب في قتل البربر وأثخن فيهم، وزحف إلى تلمسان سنة خمس وثلاثين فظفر بها ودوخ المغرب وأذل من كان فيه من البربر. ثم كانت بعد ذلك فتنة وربجومة وسائر قبائل نفاوة سنة أربعين ومائة، وذلك لما اغترف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر وقتله أخواه إلياس وعبد الوارث، فولّي مكانه ابنه حبيب، وطالبهما بشار أبيه، فقتل إلياس ولحق عبد الوارث بورجومة فأجاره أميرهم عاصم بن جميل، وتبعه على شأنه يزيد بن سكوم أمير ومهاصة واجتمعت لهم كلمة نفاوة ودعوا لأبي جعفر المنصور، وزحفوا إلى القيروان ودخلوها عنوة، وفرّ حبيب بن قابس فأتبعه عاصم في نفاوة وقبائلهم.

وولي على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد النفزي، ثم انهزم حبيب إلى أوراس، وأتبعه عاصم، فاعترضه عبد الملك بن أبي الجعد وجوع نفاوة الذين كانوا بالقيروان وقتلوه واستولت وربجومة على القيروان وسائر إفريقية، وقتلوا من كان بها من قرش وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع، واشتد البلاء على أهل القيروان وأنكرت ذلك من فعل وربجومة ومن إليهم من نفاوة برابرة طرابلس الأباضية من هواره وزناتة، فخرجوا واجتمعوا إلى أبي الخطاب عبد الأعلى ابن الشيخ المصافي وقصدوا طرابلس وأخرجوا عمر بن عثمان القرشي، واستولى أبو الخطاب عليها. واجتمع إليه سائر البربر الذين كانوا هنالك من زناتة وهواره وزحف بهم إلى القيروان فقتل عبد الملك بن أبي الجعد وسائر وربجومة ونفاوة، واستولى على القيروان سنة إحدى وأربعين.

ثم ولي على القيروان عبد الرحمن بن رستم وهو من أبناء رستم أمير فارس بالقادسية، كان من موالى العرب ومن رؤوس هذه البدة. ورجع أبو الخطاب إلى طرابلس واضطرم المغرب ناراً، وانتزى خوارج البربر على الجهات فملكوها، واجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب سنة أربعين ومائة، وقدموا عليهم عيسى بن يزيد الأسود، وأسسوا مدينة سجلماسة ونزلوها، وقدم محمد بن الأشعث والياً على إفريقية من قبل أبي جعفر المنصور فزحف إليه أبو الخطاب ولقيه بسرت، فهزموا ابن الأشعث وقتل البربر قتلاً ذريعاً. وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تاهرت بالمغرب الأوسط، واجتمعت إليه طوائف البربر الأباضية من لماية ورجالة من نفاوة فتزل بها، واختط مدينتها سنة أربع وأربعين

الخبر عن البرابرة البتر وشعوبهم ونبدأ

منهم أولاً بذكر نفوسة وتصاريف أحوالهم

كان مادغيس الأبتّر جدّ البرابرة البتر، وكان ابنه زحيك ومنه تشعبت بطونهم. فكان له من الولد فيما يذكر نسبة البربر أربعة. نفوس وأداس وضرا ولوا، فأما أداس فصار في هواراة لما يقال: إن هواراة خلف أباه زحيك على أمه قبل فصاله فانتسب إليه واختلط بولده، واندرجت بطون أداس في هواراة كما ذكرناه. وأما ضرا ولوا فسنأتي بذكر بطونهم واحداً واحداً. وأما نفوس فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها. وكانوا من أوسع قبائل البربر فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمور وبني مكسور وماطوسة.

وكانت مواطن جمهورهم بمجهاط طرابلس وما إليها، وهناك الجبل المعروف بهم، وهم على ثلاثة مراحل من قبلة طرابلس يسكنه اليوم بقاياهم، وكانت مدينة صيرة قبل الفتح في مواطنهم، وتعزى إليهم، وهي كانت باكورة الفتح لأول الإسلام، وخربها العرب بعد استيلائهم عليها فلم يبق منهم إلا الأطلال ورسوم خافية. وكان من رجالاتهم إسماعيل بن زياد المتغلب على قابس سنة اثنتين وثلاثين ومائة لأول الدولة العباسية. ومنهم لهذا العهد أوزاع متفرقون في الأقطار بعمالات مصر والمغرب، والله وارث الأرض ومن عليها، وأما لوا فمن ولده نفزاة ولواته كما نذكر.

الخبر عن نفزاة وبطونهم وتصاريف

أحوالهم

وهم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك، وبطونهم كثيرة مثل غساسة ومرنسة وزهيلة وسومانة وزاتيمة ولهاصة ومجرة وورسيف، ومن بطونهم مكلاثة. يقال: إن مكلاثة من عرب اليمن وقع إلى يطوفت صغيراً فتبناه، وليس من البربر. ولمكلاثة بطون متعددة مثل: بني ورياغل وكزناية وبني يصلتين وبني ديار وريحون وبني سراين، ويقال: أن غساسة منهم، هكذا عند نسبة البربر مثل سابق المطماطي وغيره، ومن بطون لهاصة ورتدين بن داحية بن لهاصة وورفجومة بن تدغاس بن ولهاص. ومن بطون ورفجومة زكولة رجاله لذاك بن ورفجوم إلى بطون أخرى كثيرة.

وكان ورفجومة هؤلاء أوسم بطون نفزاة واشدهم بأساً

انتقضاء ثلثمائة وخمسة وسبعين حرباً.

وقدم يزيد إفريقية فزال فسادها ورتب القيروان، ولم تنزل البلاد هادئة، وانتقض ورفجومة سنة سبع وخمسين وولوا عليهم رجلاً منهم اسمه أبو زرجونة، فسرح إليهم يزيد من عشيرة ابن عمارة المهلي فهزموه. واستأذنه ابنه المهلب وكان على الزاب وطبنة وكنانة في الزحف إلى ورفجومة فأذن له، وأمدّه بالعلاء بن سعيد ابن مراون المهلي من عشيرتهم أيضاً، فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل. وانتقض نفزاة من بعد ذلك في سلطنة ابنه داود من بعد مهلكه سنة إحدى وستين ومائة، وولّوا عليهم صالح بن نصير النفزي ودعوا إلى رأيهم رأي الأباضية، فسرح إليهم ابن عمه سليمان بن الصمة في عشرة آلاف فهزمهم وقتل البربر أبرح قتل. ثم تحيز إلى صالح بن نصير، ولم يشهد الأولى من البربر الأباضية واجتمعوا بشقنبارية فهزمهم إليها سليمان ثانية وانصرف إلى القيروان.

وركدت ريح الخوارج من البربر من إفريقية وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال، ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة إحدى وسبعين في موادة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، فوادعه وانحصدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا للدين، فغضب الإسلام بجرانه، وألقت الدولة الضريبة على البربر بكلكتها، وتقلد إبراهيم بن الأغلب التميمي أمر إفريقية والمغرب من قبل الرشيد هارون سنة خمس وثمانين ومائة فاضطلع بأمر هذه الولاية، وأحسن السيرة وقوم المشاد ورأب الصدع وجمع الكلمة. ورضيت الكافة واستقل بولايتها غير منازع ولا متشوه، وتوارثها بنوه خالفاً عن سالف.

وكانت لهم بإفريقية والمغرب الدولة التي ذكرناها من قبل إلى أن انقرض أمر العرب بإفريقية على زيادة الله عاقبتهم الفارّ إلى المشرق أمام كتامة سنة ست وتسعين ومائتين كما نذكره. وخرج كتامة على بني الأغلب بدعوة الرافضية، قام بها فيهم أبو عبد الله المحتسب الشيعي داعية عبيد الله المهدي، فكان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بإفريقية. واستقل كتامة بالأمر من يومئذ، ثم من بعدهم من برابرة المغرب. وذهبت ريح العرب ودولتهم من المغرب وإفريقية، فلم يكن لهم بعد دولة إلى هذا العهد. وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلاً بعد آخر، تارة يدعون إلى الأمويين الخلفاء بالأندلس، وتارة إلى الهاشميين من بني العباس وبني الحسن. ثم استقلوا بالدعوة لأنفسهم آخراً حسبما نذكر ذلك كله مفصلاً عندما يعرض لنا من ذكر دول زناتة والبربر الذين نحن في سياقة أخبارهم.

سلطانهم لذلك العهد كما نذكره عثمان بن عبد الرحمن وسجنه بالمطبق بتمسان ثم قتله. ومن أشهر قبائل ولهاصة أيضاً قبيلة أخرى يسيط بونة يركبون الخيل ويأخذون بمذاهب العرب في زيهم ولغتهم وسائر شعارهم كما هو شأن هوراة، وهم في عداد القبائل الغارمة وراثتهم في بني عريف منهم، وهي لهذا العهد في ولد حازم بن شداد بن حزام بن نصر بن مالك بن عريف. وكانت قبلهم لعسكر بن بطنان منهم، هذه أخبار ولهاصة فيما علمناه.

وأما بقايا بطون نفزاوة فمنهم زاتيمة، وبقيّة منهم لهذا العهد بساحل برشك، ومنهم غساسة، وبقيّة منهم لهذا العهد بساحل بطوية حيث القرية التي هناك حاضرة البحر، ومرسى لأساطيل المغرب، وهي مشهورة باسمهم. وأما زهيلة فبقيتهم لهذا العهد بتواحي بادس مندرجون في غمارة وكان منهم لعهد مشيختنا أبو يعقوب البادسي أكبر الأولياء، وآخروهم بالمغرب. وأما مريسة فلا يعلم لهم موطن، ومن أعقابهم أوزاع بين أحياء العرب بإفريقية، وأما سوماتة فمنهم بقيّة في نواحي القيروان، كان منهم منذر بن سعيد القاضي بقرطبة لعهد الناصر والله أعلم.

وأما بقايا بطون نفزاوة فلا يعرف لهم لهذا العهد حي ولا موطن إلا القرى الظاهرة المقدرة السير النسوبة إليهم ببلاد قسطلية، وبها معاهدون من الفرقة أوطنوهم على الجزية واعتقاد الذمة عند عهد الفتح، وأعقابهم بها لهذا العهد، وقد نزل معهم كثير من بني سليم من الشريد وزغبة، وأوطنوها وقلكوها بالعقار والضباع. وكان أمر هذه القرى راجعاً إلى عامل توزر أيام استبداد الخلافة. فلما تقلص ظل الدولة عنهم، حدثت العصبية في الأمصار استبدت كل قرية بأمرها وصار مقدم توزر يحاول دخولهم في إيلاته فمنهم من يعطيه ذلك ومنهم من ياباه حتى أظلتهم دولة مولانا السلطان أبي العباس، وأدرجوا كلهم في طاعته واندرجوا في حبله، والله ولي الأمور لا رب غيره اهـ.

الخبر عن لواتة من البرابرة البتر وتصاريف

أحوالهم

وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البتر يتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك، ولوا الأصغر هو نفزاو كما قلناه. ولوا اسم أبيهم، والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والثاء فصار لوات، فلما عربته العرب حملوه على الأفراد والحقوا به هاء الجمع. وذكر ابن حزم أن نسبة البربر يزعمون أن

وقوة. ولما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر المنصور وقتله أخواه عبد الوارث وإلياس وطالهما ابنه حبيب بالثار فلحق عبد الوارث بورفجومة، ونزل على أميرهم عاصم بن جيل بأوراس، وكان كاهناً فأجاره وقام بدعوة أبي جعفر المنصور، واجتمعت إليه نفزاوة، وكان من رجالهم عبد الملك بن أبي الجعد ويزيد بن سكوم وكانوا يدينون بدين الأباضية من الخوارج، وزحفوا إلى القيروان سنة أربعين ومائة، وفر عنها حبيب بن عبد الرحمن، ودخلها عبد الملك بن أبي الجعد وقتل حبيباً. واستولت نفزاوة على القيروان وقتلوا من كان بها من قریش وسائر العرب، وربطوا دوابهم بالمسجد، وعظمت حوادثهم.

ونكر ذلك عليهم الأباضية من برابرة طرابلس وتولى كبرها زناتة وهوارة فاجتمعوا إلى الخطاب بن السمع ورجال العرب، واستولوا على طرابلس ثم على القيروان سنة إحدى وأربعين ومائة وقتلوا عبد الملك بن أبي الجعد وأثخنوا في قومه من نفزاوة وورفجومة، ثم رجعوا إلى طرابلس بعد أن استعمل أبو الخطاب على القيروان عبد الرحمن بن رستم. واضطرم المغرب نارا وعظمت فتنة ورفجومة هؤلاء إلى أن قدم محمد بن الأشعث سنة ست وأربعين من قبل المنصور فأتى في البربر وأطفأ نار هذه الفتنة كما قدّمناه. ولما اختط عمر بن حفص مدينة طنبنة سنة إحدى وخمسين أنزل ورفجومة هؤلاء بها بما كانوا شيعاً له، وعظم غناؤهم فيها عندما حاصره بها ابن رستم وبنو يفرن.

ثم انتقضوا بعد مهلك عمر على يزيد بن حاتم عند قدومه على إفريقية سنة سبع وخمسين وولوا عليهم أبا زرجونة منهم، وسرح إليهم يزيد العساكر مع ابنه وقومه فأتى خناهم فيهم. ثم انتقضت نفزاوة على أبيه داود، ودعوا إلى دين الأباضية، وولوا عليهم صالح بن نصر منهم فرجعت العساكر إليهم متراسلة وقتلواهم أربح قتل. وعليها كان ركود ربح الخوارج بإفريقية ذعار البربر. وافترق بنو ورفجومة بعد ذلك وانقرض أمرهم وصاروا أوزاعاً في القبائل. وكان رجالة منهم بطناً متسعا. وكان منهم رجالات مذكورون في أول العبيدين وبني أمية بالاندلس منهم الرجالي أحد الكتاب بقرطبة، وبقي منهم لهذا العهد فرق بمراجة. وهناك قرية يسيطها تنسب إليهم.

وأما سائر ولهاصة من ورفجومة وغيرهم فهم لهذا العهد أوزاع، لذلك أشهرهم قبيلة بساحل تلمسان اندرجوا في كومية وعدوا منهم بالنسب والخلط. وكان منهم في أواسط هذه المائة الثامنة ابن عبد الملك استقل برئاستهم وتمكّل بدعوى السلطان بعد استيلاء بني عبد الواد على تلمسان ونواحيها، وتغلب على

عنهم ونزل إلى وادي مينا ثم انصرف إلى القيروان.

وذكر ابن الرقيق: أن المنصور وقف هنالك على أثر من آثار الأقدمين بالقصور التي على الجبال الثلاثة مبنية بالحجر المنجوت، يبدو للناظر على البعد كأنها أسنمة قبور، ورأى كتاباً في حجر فسرّه له أبو سليمان السردغوس: خالف أهل هذا البلد على الملك فأخرجني إليهم، ففتح لي عليهم، وبنيت هذا البناء لأذكر به، هكذا ذكر ابن الرقيق، وكان بنو وجديج من قبائل زناتة بمواطنهم من منداس جيراناً للواتة هؤلاء، والتخيم بينهما وادي مينا وتاهرت. وحدثت بينهما فتنة بسبب امرأة أنكحها بنو وجديج في لواتة فغيروها بالفقر، فكتبت بذلك إلى قومها ورئيسهم يومئذ عنان فتأامروا واستمدوا من وراءهم من زناتة فأمدوهم بعلي بن محمد اليفرني.

وزحفت مطماطة من الجانب الآخر في مظاهرتهم وعليهم غزاة أميرهم، وزحفوا جميعاً إلى لواتة، فكانت بينهم وقائع وحروب هلك في بعضها علاق، وأزاحوا عن الجانب الغربي السرسو، والجزوهوم إلى الجبل الذي في قبلة تاهرت، المسمى لهذا العهد كركيرة، وكان به قوم من مغراوة فغدروا بهم، وتظاهروا جميعاً عليهم إلى أن أخرجوهم عن آخر مواطنهم في جهة الشرق بجبل يعود فتزلوا من ورائه الجبل المسمى لهذا العهد دارك.

وانتشرت عماثرا بتلوله وما وراءه إلى الجبال المطلة على متيجة، وهم لهذا العهد في عداد القبائل الغارمة. وجبل دارك في أقطاع ولد يعقوب بن موسى مشيخة العطف من زغبة ومن لواتة أيضاً بطون بالجبال المعروفة بهم قبلة قابس وصفافس ومنهم بنو مكى رؤساء قابس لهذا العهد.

ومنهم أيضاً بواحات مصر فيما ذكره المسعودي أمة عظيمة بالجيزة التي بينها وبين مصر. وكان لما قرب من هذه القصور شيخهم هنالك بدر بن سالم، وانتقض على الترك وسرحوا إليه العساكر فاستلحموا كثيراً من قومه، وفر إلى ناحية برقة وهو الآن في جوار العرب بها. ومن زناتة هؤلاء أسياء بنواحي تادلا قرب مراکش من الغرب الأقصى، ولهم هنالك كثرة. ويزعم كثير من الناس أنهم بنواحي جابر من عرب جشم، واختلطوا بهم وصاروا في عدادهم، ومنهم أوزاع مفرقون بمصر وقرى الصعيد شامية وفلاحين، ومنهم أيضاً بنواحي بجاية قبيلة يعرفون بلواتة، يتزلون بسيط تاكرارت من أعمالها ويعتمرونها، فدنا لمزارعهم ومسارح لأنعامهم، ومشيختهم لهذا العهد في ولد راجح بن صواب منهم، وعليهم للسلطان بجاية مفروضة وبعث مضروب. هؤلاء المعروفون من بطون لواتة ولهم شعوب أخرى كثيرة اندرجوا في

سدراتة ولواتة ومزاتة من القبط وليس ذلك بصحيح. وابن حزم لم يطلع على كتب علماء البربر في ذلك. وفي لواتة بطون كثيرة وفيهم قبائل كثيرة مثل سدراتة بن نيطط بن لوا، ومثل عزوزة بن ماصلت بن لوا. وعد سابق وأصحابه في بني ماصلت بطوناً أخرى غير عزوزة وهم: أكرورة وجرماتة ومغانة مثل بني زائد بن لوا، وأكثر بطونهم مزاتة. ونسابة البربر يعدون في مزاتة بطوناً كثيرة مثل: بلايان وقرنة وميججة ودكمة وحمرة ومدونة. وكان لواتة هؤلاء طواعن في مواطنهم بنواحي برقة كما ذكره المسعودي، وكان لهم في فتنة أبي يزيد آثار.

وكان منهم بجبل أوراس أمة عظيمة ظاهروا أبا يزيد مع بني كملان على أمره. ولم يزالوا بأوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوارة وكمامة، ويدهم العالية عليهم تناهز خيالهم ألفاً وتجاوز رجالانهم العدة. وتستكفي بهم الدولة في جباية من تحت أيديهم بجبل أوراس من القبائل الغارمة فيحسنون الغناء والكفاية. وكانت البعوث مضروبة عليهم ينفرون بها في معسكر السلطان، فلما تقلص ظل الدولة عنهم صار بنو مساعدة منهم في أقطاع أولاد محمد من الدواودة فاستعملوهم في مثل ما كانت الدولة تستعملهم فيه، فأصاروهم خولاً للجباية وعسكراً للاستنفار وأصبحوا من جملة رعاياهم. وقد كان بقي جانب منهم لم تستوفه الإقطاعات، وهم بنو زنجان وبنو باديس فاستضافهم منصور بن مزني إلى عمله، فلما استبد مزني عن الدولة واستقلوا بالزاب ضاروا يبعدونهم بالجبلية بعض السنين ويعسكرون عليهم لذلك بأفاريق الأعراب، وهم لهذا العهد معتمرون بجبلهم لا يجاوزونه إلى البسيط خوفاً من عادية الأعراب.

ولبي باديس منهم أناوات على بلد نقاوس المختطة في سفح الجبل بما تغلبوا على ضواحيها. فاذا انحدر الأعراب إلى مشابيتهم اقتضوا منها أناواتهم وخفارتهم. وإذا أقبلوا إلى مصابيفهم رجع لواتة إلى معاقلهم الممتعة على الأعراب. وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة، وكانوا طواعن هنالك على وادي مينا ما بين جبل يعود من جهة الشرق وإلى وارصلف من جهة الغرب. يقال: إن بعض أمراء القيروان نقلهم معه في غزوة وأنزلهم هنالك. وكان كبيرهم أورغ بن علي بن هشام قائداً لعبد الله الشيعي.

ولما انتقض حميد بن يصل صاحب تاهرت على المنصور ثالث خلفاء الشيعة ظاهروه على خلافه، وجاوروه في مذاهب ضلاله إلى أن غلبه المنصور. وأجاز حميد إلى الأندلس سنة ست وثلاثين وزحف المنصور يريد لواتة فهربوا أمامه إلى الرمال ورجع

البطون وتوزعوا بين القبائل، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني فاتن من ضريبة إحدى

بطون البرابرة البتر وتصاريح أحوالهم

وهم بطون: مطغرة ولماية وصدينة وكومية ومديونة ومغيلة ومطماطة وملزوزة ومكناسة ودونة، وكلهم من ولد فاتن بن تمصيت بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبر، ولهم ظهور من البرابر وأخبار، نسدها بطناً بطناً إلى آخرها.

مطغرة: وهم من أوفر هذه الشعوب، وكانوا خصائصين آهلين. وكان جمهورهم بالمغرب منذ عهد الإسلام ونوبة الفتح وشؤون الردة وحروبها، وكان لهم فيها مقامات. ولما استوسق الإسلام في البربر أجازوا إلى فتح الأندلس وأجازت منهم أمم واستقروا هنالك. ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذ مطغرة هؤلاء برأي الصفرية، وكان شيخهم ميسرة، ويعرف بالحقير مقدماً فيه.

ولما ولي عبيد الله بن الحبحاب على إفريقية من قبل هشام بن عبد الملك، وأمره أن يمضي إليها من مصر، فقدمها سنة أربع عشرة واستعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى وابنه إسماعيل على السوس وما وراءه، واتصل أمر ولايتهم وساءت سيرتهم في البربر ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأفريقية العسلية الألوان، وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك وانتحاله حتى كانت الصرمة من الغنم تستهلك بالذبح لانتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه.

فكثر عيthem بذلك في أموال البربر وجوزهم عليهم، وامتنع لذلك ميسرة الحفيد زعيم مطغرة وحمل البرابرة على الفتك بعمر بن عبد الله عامل طنجة فقتلوه سنة خمس وعشرين وولى ميسرة مكانه عبد الأعلى بن خدع الأفريقي الرومي الأصل، كان من موالي العرب وأهل خارجيتهم، وكان يرى رأي الصفرية، فولاه ميسرة على طنجة، وتقدم إلى السوس فقتله عامله إسماعيل بن عبد الله، واضطرم المغرب ناراً وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد.

وزحف ابن الحبحاب إليه من القيروان في العساكر وعلى مقدمته خالد بن أبي حبيب الفهري، فلقبهم ميسرة في جموع

البرابرة فهزم المقدمة واستلحمهم، وقتل خالد.

وتسامع البربر بالأندلس بهذا الخبر فثاروا بعاملهم عقبة بن الحجاج السلولي وعزلوه، ولوا عبد الملك بن قطن الفهري، وبلغ الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك فسرح كلثوم بن عياض المري في اثني عشر ألفاً من جنود الشام، وولاه على إفريقية وأدال به من عبيد الله بن الحبحاب.

وزحف كلثوم إلى البرابرة سنة ثلاث وعشرين حتى انتهت مقدمته إلى وادي سبو من أعمال طنجة فلقية البرابرة هنالك مع ميسرة وقد فحصوا عن أوساط رؤوسهم ونادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه.

وكان كيدهم في لقائهم إياه، أن ملأوا الشنان بالحجارة وربطوها بأذناب الخيل تنادي بها فتقعع الحجارة في شنانها، ومرت بمصاف العساكر من العرب ففرت خيولهم واختل مصافهم وانجرت عليهم الهزيمة فافترقوا، وذهب بلج مع الطلائع من أهل الشام إلى سبتة كما ذكرناه في أخبارهم. ورجع إلى القيروان أهل مصر وإفريقية، وظهرت الخوارج في كل جهة، واقطع المغرب عن طاعة الخلفاء إلى أن هلك ميسرة، وقام برئاسة مطغرة من بعده يحيى بن حارث منهم، وكان حليفاً لحمد بن خرز ومغراوة. ثم كان من بعد ذلك ظهور إدريس بالمغرب، فقدم بها البرابرة وتولى كبرها أوربة منهم كما ذكرناه. وكان على مطغرة يومئذ شيخهم يملول بن عبد الواحد، فاحرق مالك عن إدريس إلى طاعة هارون الرشيد بمدخله إبراهيم بن الأغلب عامل القيروان، فصالحه إدريس وأتباعه بالسلم.

ثم ركد ربح مطغرة من بعد ذلك وافترق جمعهم، وجرت الدول عليهم أذيالها واندرجوا في عمال البربر الفارمين لهذا العهد بتلول المغرب وصحرائه.

فمنهم ما بين فاس وتلمسان أمم يتصلون بكومية ويدخلون حلقهم، واندرجوا من لدن الدعوة الموحدية منهم وراثتهم لولد خليفة. كان شيخهم على عهد الموحدين، وبنى لهم حصناً بمواطنهم على ساحل البحر يسمى تاونت. ولما انقرضت دولة بني عبد المؤمن واستولى بنو مرين على المغرب قام هارون بن موسى بن خليفة بدعوة يعقوب بن عبد الحق سلطانهم، وتغلب على ندرومة، وزحف إليه يغمراسن بن زيان فاسترجع ندرومة من يده، وغلبه على تاونت، ثم زحف يعقوب بن عبد الحق إليهم وأخذها من أيديهم وشحنها بالآقوات، واستعمل هارون ورجع إلى المغرب فحدثت هارون نفسه بالاستبداد، فدعا لنفسه معصماً بذلك

الحصن خمس سنين.

ناحية الغرب عنهم. وكانت مطماطة ومكناسة وزناتة جميعاً في ناحية الجوف والشرق، فكانوا جميعاً على دين الخارجية، وعلى رأي الأباضية منهم. وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح، وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية، وقدم إلى إفريقية مع طوابع الفتح فكان بها، وأخذ بدين الخارجية والأباضية منهم، وكان شيعة لليمنية وحليفاً لهم.

ولما تحزب الأباضية بناحية طرابلس منكرين على ورفجومة فعلهم في القيروان كما مر، واجتمعوا إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع الماغري إمام الأباضية فملكوا طرابلس، ثم ملكوا القيروان، وقتل واليها من ورفجومة عبد الملك بن أبي الجعد، وأثخنوا في ورفجومة وسائر نفاوة سنة إحدى وأربعين ورجع أبو الخطاب والأباضية الذين معه من زناتة وهوارة وغيرهم بعد أن استخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم.

ويلغ الخبر بفتنة ورفجومة هذه واضطراب الخوارج من البربر بإفريقية والمغرب وتسلفهم على الكرسي للإمارة بالقيروان إلى المنصور أبي جعفر فسرح محمد بن الأشعث الخزاعي في العسكار إلى إفريقية، وقلده حرب الخوارج بها، فقدمها سنة أربع وأربعين.

ولقيهم أبو الخطاب في جموعه قريباً من طرابلس فأوقع به ابن الأشعث وبقومه. وقتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان إمارته في القيروان، فاحتمل أهله وولده ولحق باباضية المغرب الأوسط من البرابرة الذين ذكرناهم، ونزل على لماية لتقديم حلف بينه وبينهم، فاجتمعوا إليه وبايعوا له بالخلافة، واتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي إمارتهم، فشرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السباح على تلؤل منداس، واختطوها على وادي مينا مناس التابعة منه عيون بالقبلة، وعمر بها وبالبطحاء إلى أن يصب في وادي شلف، فأسسها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن، وولي ابنه عبد الوهاب من بعده، وكان رأس الأباضية.

وزحف سنة ست وتسعين مع هوارة إلى طرابلس وبها عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من قبل أبيه فحاصره في جموع الأباضية من البربر إلى أن هلك إبراهيم بن الأغلب، واستقدم عبد الله بن الأغلب لإمارته بالقيروان، فصالح عبد الوهاب على أن تكون الضاحية لهم وانصرف إلى نفوسة ولحق عبد الله بالقيروان، وولي عبد الوهاب ابنه ميموناً، وكان رأس الأباضية والصفرية والواصلية، وكان يسلم عليه بالخلافة، وكان أتباعه من الواصلية

ثم حاصره يغمراسن واستنزله على صلح سنة اثنتين وسبعين وستمائة. ولحق هارون يعقوب بن عبد الحق. ثم أجاز إلى الجهاد بإذنه واستشهد هنالك. وقام بأمر مطغرة من بعده أخوه تاشفين إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعمئة. واتصلت رئاستهم على عقبه لهذا العهد.

ومن قبائل مطغرة أمة بجبل قبلة فاس معروف بهم. ومنهم أيضاً قبائل كثيرون بناحي سجلماسة وأكثر أهلها منهم. وربما حدثت بها عصية من جرّاهم. ومن قبائل مطغرة أيضاً بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب، فمتهم بنوات قبلة سجلماسة إلى تمتطيت آخر عملها، قوم كثيرون موطنون مع غيرهم من أصناف البربر.

ومنهم في قبلة تلمسان وعلى ستة مراحل منها، وهي قصور متقاربة بعضها من بعض اتلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران البدوي، معدود في أحاد الأمصار بالصحراء، ضاح من ظل الملك والدول لبعده في القفر. ورثاسته في بني سيد الملوك منهم. وفي شرقيها وعلى مراحل منها قرى أخرى متتابعة على سمتها متصاعدة قليلاً إلى الجوف، آخرها على مرحلة من قبلة جبل راشد. وهي في مجالات بني عامر من زغبة وأوطانهم من القفر، وقد تملكوها لحط أنقاسهم وقضاء حاجاتهم حتى نسبت إليهم في الشهرة. وفي جهة الشرق عن هذه القصور وعلى خمس مراحل منها دامة متوغلة في القفر تعرف بقلية.

والآن يعتمرها رهط من مطغرة هؤلاء. ويتهي إليها ظواغن عن المثلثين من أهل الصحراء بعض السنين إذا لفهم الهجير، يستبدون في تلؤلها لتوغلها في ناحيتهم. ومن مطغرة هؤلاء أوزاع في أعمال المغرب الأوسط وإفريقية، والله الخلق جميعاً.

لماية

وهم بطون فائن بن تمصيت كما ذكرناه إخوة مطغرة، ولهم بطون كثيرة عد منها سابق وأصحابه: بنوزكرفا ومزينة ومليزة بنو مدبين كلهم من لماية. وكانوا ظواغن بإفريقية والمغرب، وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط موطنين بتخومة مما يلي الصحراء.

ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذوا برأي الأباضية ودانوا به وانتحلوه وانتحل جيرانهم من مواطنهم تلك من لوانة وهوارة. وكانوا بأرض السرسو قبلة منداس وزواغة وكانوا في

وحدهم ثلاثين ألفاً من ظراعن ساكنين بالخيام. ولم يزل الملك في بني رستم هؤلاء بتاهرت وحاربهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان، وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة فامتنعوا عليهم سائر أيامهم، إلى أن كان استيلاء أبي عبد الله الشيعي على إفريقية والمغرب سنة ست وتسعين فغلبهم على مدينة تاهرت وابتزهم ملكهم بها.

وبث دعوة عبيد الله في أقطار المغربين، فانقرض أمرهم بظهور هذه الدولة وعهد عروبة بن يوسف الكتامي فاتح المغرب للشيعية على تاهرت لأبي حميد دواس بن صولان اللهيصي في غزاته إلى المغرب سنة ثمان وتسعين فائتخن في برابرتها الأباضية من لماية وازداجة ولواتة ومكناسة ومطماطة، وحملهم على دين الرافضة وفسخ بها دين الخارجية حتى استحكم في عقائدهم. ثم

ولها أيام إسماعيل المنصور بصلابين بن جبوس. ثم نزع إلى دعوة الأموية وراء البحر، ولحق بالخير بن محمد بن خزر صاحب دعوتهم في زناتة. واستعمل المنصور بعده على تاهرت ميسوراً الخصي مولاه وأحمد بن الزجالي من صناعته، فزحف إليها حميد والخير وانهزم ميسور. واقتحموا تاهرت عنوة وتقبضوا على أحمد الزجالي وميسور إلى أن أطلقوهما بعد حين.

ولم تزل تاهرت هذه بعد تغيراً لأعمال الشيعة وصنهاجة سائر أيامهم، وتغلب عليها زناتة مراراً ونازلتها عساكر بني أمية زاحفة في أثر زيري بن عطية أمير المغرب من مغراوة أيام أجاز المظفر بن أبي عامر من العدو إلى حربه. ولم يزل الشأن هذا إلى أن انقرض أمر تلك الدول، وصار أمر المغرب إلى لمتونة. ثم صار إلى دولة الموحدين من بعدهم، وملكوا المغربين. وخرج عليهم بنو

غانية بناحية قابس، ولم يزل يحبي منهم يجلب على ثغور الموحدين وشن الغارات على بسائط إفريقية والمغرب الأوسط، وتكرر دخوله إليها عنوة مرة بعد أخرى إلى أن احتمل سكانها وخلأ جوها وعفا رسمها لما يناهز عشرون من المائة السابعة، والأرض لله.

وأما قبائل لماية فانقرضوا وهلكوا بهلاك مصرهم الذي اختطوه وحازوه وملكوه سنة الله في عبادته. وبقيت فرق منهم أوزاعاً في القبائل، ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس، وهم بها لهذا العهد. وقد كان النصرانية من أهل صفلية ملكوها على من بها من المسلمين، وهي قبائل لماية وكتامة مثل: جربة وسدويكس ووضعوا عليهم الجزية وشيدوا على ساحل البحر بها معقلاً لإسارتهم سموه القشتيل. وطال تمرس العساكر به من حضرة الدولة الحفصية بتونس حتى كان

مطماطة

وهم إخوة مطغرة ولماية من ولد فاتن بن تمصيت الذين مر ذكرهم، وهم شعوب كثيرة. وعن سابق المطماطي وأصحابه من النسابة أن اسم مطماط مصكاب، ومطماط لقب له وأن شعوبهم من لوا بن مطماط. وأنه كان له ولد آخر اسمه ورنشيط، ولم يذكروا له عقباً قالوا: وكان للوا أربعة من الولد: وركاسن ويلاغف ووريكول ويليصن. ولم يعقب بليصن وأعقب الثلاثة الباقيون، ومنهم افرقت شعوب مطماطة كلها، فأما ورماس فمنه مصمود ويونس ويقرين، وأما وريكول فكان له من الولد كلثام ومسيدة وفيدن ولم يعقب مسيده ولا فيدن وكان لكثام عصفراصن وسليايان فمن سليايان ووريغني ووصدى وقسطايان وعمرى، ويقال هؤلاء الخمسة بنو مصطلودة سمووا بأهمهم. وكان لعصفراصن يرهاض ويصراصن فمن يصراصن ورتجيجن ووريكول وجليدا وسكوم، ويقال لهم بني تليفكتان سمووا بأهمهم وكان ليزهاض يليت ويصلاصن فمن يليت ورسفلاصن وسكن ومحمد ومكديل ودكوال.

ومن يصلاصن فان يولين ويتماسن وماركسن ومسافر وفلوسن ووريجيد، وناق وعبد الله وغرزاى، وأما يلاغف بن ولوا بن مطماط فكان له من الولد دهيا وثابتة فمن ثابتة ماجرسن وريغ وعجلان ويقام وقرة. وكان لدهيا ورتجيجي ومجلين. فمن ورتجيجي مقرين وتور وسكم وعجمجيس. ومن مجلين ماكور وأشكول وكيلان ومذكون وقطارة وأبورة. هذه شعوب مطماطة كما ذكر نسبة البربر سابق وأصحابه، وهم مفرقون في المواطن، فمنهم من نواحي فاس من قبلتها في جبل هنالك معروف بهم ما بين فاس وصفروى، ومنهم بجحات قابس والبلد المختط على العين الحامية من جهة غربها، منسوب إليهم. ولهذا العهد يقال حمة مطماطة، ويأتي ذكرها في الدولة الحفصية وممالك إفريقية وباقيهم أوزاع من القبائل، وكانت مواطن جمهورهم يتلول منداس عند جبل

معدودون منهم: وكذلك دونة وكشانة ولهم افتراق في الوطن وكان منهم جهوران: أحدهما بالمغرب الأوسط عند مصب شلف في البحر من ضواحي مازونة، المصر لهذا العهد. ومن ساحلهم أجاز عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ونزل بالمنكب فكان منهم أبو قرّة المغيلي الدائن بدين الصقرية من الخوارج ملك أربعين سنة. وكانت بينه وبين أمراء العرب بالقيروان لأول دولة بني العباس حروب ونازل طينة. وقد قيل إن أبا قرّة هذا من بني مطماطة وهذا عندي صحيح. فلذلك أشرت ذكر أخباره إلى أخبار بني يفرن من زناتة.

وكان منهم أيضاً أبو حسان ثار بإفريقية لأول الإسلام، وأبو حاتم يعقوب بن لييب بن مرين بن يطوقت من ملزوز الشائر مع أبي قرّة سنة خمسين ومائة. وتغلب على القيروان فيما ذكر خالد بن خراش وخليفة بن خياط من علمائهم. وذكروا من رؤسائهم أيضاً موسى بن خليلد ومليح بن علوان وحسان بن زروال الداخل مع عبد الرحمن. وكان منهم أيضاً ذلول بن حماد أميراً في سلطان يعلى بن محمد البفرني، وهو الذي اختط بلد إيكرى على اثني عشر ميلاً من البحر، وهي لهذا العهد خراب لم يبق منها إلا الأطلال ماثلة. ولم يبق من مغيلة بذلك الوطن جمع ولا حي. وكان جمهورهم الآخر بالمغرب الأقصى وهم الذين تولوا مع أوربة وصدينة القيام بدعوة إدريس بن عبد الله لما لحق بالمغرب وأجازه، وحلوا قبائل البربر على طاعته والدخول في أمره. ولم يزالوا على ذلك إلى أن اضمحلت دولة الأدارسة وبقيائهم لهذا العهد بمواطنهم ما بين فاس وصفروى ومكناسة والله وارث الأرض ومن عليها.

مدبونة

وهم من إخوة مغيلة ومطماطة من ولد فاتن كما قلناه، وكانت مواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل بني راشد لهذا العهد إلى الجبل المعروف بهم قبلّة وجدة، يتقلبون بطوائعهم في ضواحيه وجهاته. وكان بنو يلومي وبنو يفرن من قبلهم يجاورونهم من ناحية المشرق، ومكناسة من ناحية المغرب وكومية وولهاصة من جهة الساحل.

وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود كان أميراً عليهم، وكان مع أبي حاتم وأبي قرّة في فنتهم، وأجاز إلى الأندلس في طوابع الفتح كثير منهم، فكان لهم هنالك استفحال. وخرج هلال بن أبزيا منهم بشتمية على عبد الرحمن الداخل

وانشريس وجبل كزول من نواحي تاهرت. وكان لهم بتلك المواطن أخريات بدولة صنهاجة استفحال وصولة.

وفي فتنة حماد بن بلكين مع باديس بن المنصور مقامات وآثار. وكان كبيرهم يومئذ عزانة، وكانت له مع البرابرة الجباورين له من لواتة وغيرهم حروب وأيام. ولما هلك عزانة قام بأمره في مطماطة ابنه زيري فمكث فيهم أياماً. ثم غلبت صنهاجة على أمره فأجاز البحر إلى العدو، ونزل على المنصور بن أبي عامر فاصطنعه ونظمه في طبقة الأمراء من البربر الذين كانوا في جلته، واستظفروا على أمره فكان من أوجه رجالهم عنده، وأعظمهم قدراً لديه، إلى أن هلك، وأجراه ابنه المظفر من بعده وأخوه عبد الرحمن الناصر على سنن أبيهما في ترفيع مكانه وإخلاص ولايته، وكان عند ثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار غائباً مع أبي عامر في غزاة النعمان مع من كان معه من أمراء البربر وعرفائهم. فلما رأوا انتقاض أمره وسوء تدبيره لحقوا بمحمد بن هشام المهدي فكانوا معه إلى أن كانت الفتنة البربرية بالأندلس إلى أن هلك هنالك ولا أدري أي السنين كان مهلكه. وأجاز إلى الأندلس وهلك زيري هنالك، لا أدري أي السنين كان مهلكه. وأجاز إلى الأندلس أيضاً من رجالتهم كهلان بن أبي لوا يصلاح ونزل على الناصر، وهو من أهل العلم بأنساب البربر. وكان من مشاهيرهم أيضاً النسابة سابق بن سليمان بن حراث بن مولات بن دوقاس وهو كبير نسابة البربر ممن علمناه. وكان منهم أيضاً عبد الله بن إدريس كاتب الخراج لعبيد الله المهدي في آخرين يطول ذكرهم اه.

وهذا ما تلقيناه من أخبار مطماطة. وأما موطن منداس فزعم بعض الإخباريين من البربر ووقفت على كتابه في ذلك أنه سمي بمنداس بن مفر بن أورغ بن كبوري بن المشي وهو هوار وكانه والله أعلم يشير إلى آداس بن زحيك الذي يقال إنه ربيب هوار كما يأتي في ذكرهم، إلا أنه اختلط عليه الأمر. وكان لمنداس من الولد شراوة وكلثوم وتكم. قال: ولما استفحل أمر مطماطة وكان شيخهم لهذا العهد إرهاب بن عصفر صرن فأخرج منداس من الوطن وغلبه على أمره، واعتمر بنوه موطن منداس ولم يزالوا به اه. كلامه وبقيّة هؤلاء القوم لهذا العهد بجبل وادشنيش، لحقوا به لما غلبهم بنو توجين من زناتة على منداس وصاروا في عداد قبائل الغارمة والله وارث الأرض ومن عليها.

مغيلة

وهم إخوة مطماطة ولماية كما قلناه، وإخوتهم ملزوزة

متبعاً شقياً الكناسي في خروجه. ثم راجع الطاعة فتقبله وكتب له

على قومه، فكان بشرق الأندلس، وشتمرية. ثم خلفه بها من قومه نابتة بن عامر. ولما تغلب بنو توجين وبنو راشد من زناتة على ضواحي المغرب الأوسط وكان مديونة هؤلاء قد قل عددهم وفل حدهم فدخلتهم زناتة على الضواحي من مواطنهم وغللكوها، وضارت مديونة إلى الحصون من بلاده بجبل تاسالة وجبل وجده المعروف بهم وضربت عليهم المغارم وتمرست بهم الأيام، فلم يبق منهم هنالك إلا صباية محترفون بالفلح. ومنهم أيضاً أوزاع في القبائل مندرجون فيهم. وبنواحي فاس ما بينها وبين صفروي قبيلة منهم مجاورة لمغيلة، والله يرث الأرض ومن عليها.

وكان في ارتحالها من المشرق إلى المغرب قد أخذ نفسه من

تغيير المنكر الذي شأنه وطريقته نشر العلم وتبين الفتاوى وتدريس الفقه والكلام. وكان له في طريقته الأشعرية إمامة وقدم راسخة. وهو الذي أدخلها إلى المغرب كما ذكرناه، وتشوق طلبة العلم بتلمسان إلى الأخذ عنه وتفاوضوا في ذلك، وندب بعضهم بعضاً إلى الرحلة إليه لاستجلابه، وأن يكون له السبق بإتحاف القطر بعلمه، فانتدب لها عبد المؤمن على مكانه من صغر السن بنشاطه للسفر لبدأته، فارتحل إلى بجاية للقاءه وترغيبه في نزوله بتلمسان فلقبه بملاة، وقد استحسنت بينه وبين العزيز النفرة وبنو ورياكل متعصبون على إجارته منهم، ومنعه من إذايته والوصول إليه. فالتقى إليه عبد المؤمن ما عنده من الترغيب، وأدى إليه رسالة طلبة العلم بتلمسان فوعاها، وشأنه غير شأنهم.

وعكف عبد المؤمن عن التعليم والأخذ عنه في ظعنه ومقامه. وارتحل إلى المغرب في صحابته، وحذق في العلم وأثره الإمام بمزيد الخصوصية والقرب، بما خصه الله به من الفهم والوعي للتعليم، حتى كأنه خالصة الإمام وكبير صحابته. وكان يؤمله لخلافته لما ظهر عليه من الشواهد المدونة بذلك. ولما اجتازوا في طريقهم إلى المغرب بالعالية من موطن العرب الذين ذكرناهم قبل في نواحي المدينة، قربوا إليه حاراً فارهاً يتخذ له عطية لركوبه، فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه: أركبوه الحمار يركبكم الخيول السومة. ولما بويع له في بهرغة سنة خمس عشرة وخمسمائة، واتفقت على دعوته كلمة المصامدة وحاربوا لمتونة نازلوا مراکش.

وكانت بينهم في بعض أيام منازلها حرب شديدة هلك فيها من الموحدين الألف، فقيل للإمام إن الموحدين قد هلكوا. فقال لهم: ما فعل عبد المؤمن؟ قالوا هو على جواده الأدهم قد أحسن

كومية

وهم المعروفون قديماً بصطفورة أخوة لمايبة ومطغرة، وهم من ولد فاتن كما قدمنا، ولهم ثلاث بطون منها تفرعت شعوبهم وقبائلهم وهي: ندرومة وصغارة وبنو يلول، فمن ندرومة: نغوطة وحرسة وفردة وهفانة ورفاتة ومن بني يلول: مسفة ووتبة وهبيته وهيورة ووالغة. ومن صغارة: ماتيلة وبنو حياسة، وكان منهم النسابة المشهور هاني بن مصدور بن مريس بن نقوط هذا هو المعروف في كتبهم.

وكانت مواطن كومية بالمغرب الأوسط لسيف البحر من ناحية أرشكول وتلمسان. وكان لهم كثرة موفورة وشوكة مرهوية. وصاروا من أعظم قبائل الموحدين لما ظاهروا المصامدة على أمر المهدي وكلمة توحيدده. وربما كانوا رهط عبد المؤمن صاحبه وخليفته، فإنه كان من بني عابد أحد بيوتاتهم، وهم عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلي بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن الأمير بن موسى بن عبد الله بن يحيى بن ورنيع بن صطفور وهكذا نسبه مؤرخو دولة الموحدين إلى صطفور. ثم يقولون صطفور بن نقور بن مطماط بن هودج بن قيس غيلان بن مضر. ويذكر بعضهم أنه منقول من خط أبي محمد عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن، فأما انتسابهم في قيس غيلان فقد ذكرنا أنه غير صحيح. وفي أسماء هذا العمود من نسب عبد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع، إذ هذه الأسماء ليست من أسماء البربر وإنما هي كما تراه كلها عربية والقوم كانوا من البرابرة معروفون بينهم، وانتساب مطغور إلى مطماط تخليط أيضاً فإنهما أخوان عند نسابة البربر أجمع، وعبد المؤمن بلا شك منهم، والله

بطوناً كثيرة: بنو محسطة وبنو مليكش وبنو كوفي ومشدالة وبنو زريقف وبنو كوزيت وكرسفينة ووزلجة وخوجة وزكلاوة وبنو مرانة، ويقال: إن بني مليكش من صنهاجة والله أعلم.

ومن قبائلهم المشهورة لهذا العهد: بنو يجر وبنو مانكلات وبنو يترون وبنو ماني وبنو بوغردان وبنو يتورغ وبنو بو يوسف وبنو عسي وبنو بو شعيب وبنو صدقة وبنو غبرين وبنو كسطولة، ومواطن زواوة بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة أوطنوا منها جبلاً شاهقة متوعدة تنذر منها الأبصار ويضل في خرها السالك مثل: بني غبرين بجبل زيري، وفيه شعراء من شجر الزان يشهد بها لهذا العهد. ومثل بني فراسن وبنو برائن، وجبلهم ما بين بجاية وتدلس وهو أعظم معاقلهم وأمنع حصونهم، فلم يه به الاعتزاز على الدول والخيبر عليها في إعطاء المغرم، مع أن كلهم لهذا العهد قد امتنع لساهمه واعتز على السلطان في أبناء طاعته وقانون مزاجه.

وكانت لهم في دولة صنهاجة مقامات مذكورة في السلم والحرب بما كانوا أولياء لكتامة، وظهر أولهم على أمرهم من أول الدولة، وقتل بادس بن المنصور في إحدى وقائعه بهم، وشيخهم زيري بن أجانا لانتقامه آياه في أمر حماد. ثم اختط بنو حماد بعد ذلك بجاية وقرسوا بهم، فانقادوا وأذعنوا لهم إلى آخر الدولة، واتصل إذعانهم إلى هذا العهد إلا تمرضاً في المغرم يحملهم عليه الموثقون بمتعة جبلهم. وكانت رئاسة بني يراتن منهم في بني عبد الصمد من بوتاتهم وكانت عند تغلب السلطان أبي الحسن على المغرب الأوسط شيخة عليهم من بني عبد الصمد هؤلاء اسمها شمسي، وكان لها عشرة من الولد فاستفحل شأنها بهم وملكت عليهم أمرهم.

ولما تقبّض السلطان أبو الحسن على ابنه يعقوب المكنى بأبي عبد الرحمن عندما فر من معسكره بمتيجة سنة ثمان أو سبع وثلاثين وسرح في أثره الخيالة فرجعوه واعتقله. ثم قتله من بعد ذلك حسبما يذكر في أخبارهم. لحق حينئذ بني بزاتن هؤلاء خازن من مطبخة فموّه عليهم باسمه وشبه بتمثاله ودعا إلى الخروج على ابنه بزعمه فشمرت شمسي هذه عزائمها في إجازته وحملت قومها على طاعته. وسرّب السلطان أبو الحسن أمواله في مومها وهما على السلامة فأبته. ثم نمي إليها الخبر بمكره وتمويهه فنبذت إليه عهده، وخرج عنها إلى بلاد العرب كما نذكر بعض ذلك في أخبارهم. وقدمت على السلطان أبي الحسن في وفد من قومها وبعض بنينا فأبلغ السلطان في تكريمها وأحسن صلتها وأجاز الوفد ورجعت بهم إلى موطنها، ولم تزل الرئاسة في هذا البيت.

البلاء. فقال ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد ولما احتضر الإمام سنة اثنين وعشرين عهد بخلافته في أمره لعبد المؤمن، واستراب من العصية بين المصامدة فكتّم موت المهدي وأرجأ أمره حتى صدق الشيخ أبو حفص أمير هتانة وكبير المصامدة لمصاهرته. وأمضى عهد الإمام فيه فقام بالأمر واستبد بشياخة الموحدين وخلافة المسلمين.

ونهض سنة سبع وثلاثين إلى فتح المغرب فدانت له غمارة. ثم ارتحل منها إلى الريف ثم إلى بطوية، ثم إلى بطالسة ثم إلى بني يزناسن. ثم إلى مديونة ثم إلى كومية وجيرانهم ولهاصة، وكانوا يلونهم في الكثرة فاشتد عضده بقومه، ودخلوا في أمره وشايعوه على تمكين سلطانه بين الموحدين وخلافته. ولما رجع إلى المغرب وافتتح أمصاره واستولى على مراكش استدعى قومه للرحلة إليها والعسكرة عليه فخف جمهورهم إلى المغرب واستوطن مراكش لحمل سرير الخلافة والقيام بأمر الدعوة والذب عن ثغرهم والمدافعة، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر الدولة، وكانوا بمكانتهم فاتحة الكتاب وفذلقة الجماعة. وأفقههم الملك في الفتوح والعاكر وأكلتهم الأقطار في تجهيز الكتابات وتدويخ الممالك، فانقرضوا، وبقي بمواطنهم الأولى بقايا منهم: بنو عابد وهم في عداد القبائل الغارمة قد أثقلت زناته كاهلهم فحملوا المغرم، والعسف ونهوضهم بالتكاليف. ونظموهم مع جيرانهم ولهاصة في سوم الخسف والذل واقتضاء الخراج بالنكال والعذاب، والله مبدل الأمر ومالك الملك سبحانه.

الخبر عن زواوة وزواغة من بطون ضريسة من البرابر البتر والإلام ببعض أحوالهم

هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر، من ولد سميكان بن يحيى بن ضري بن زحيك بن مادغيس الأبر. وأقرب ما يليهم من البرابر زناتة لأن أباهم أجانا هو أخو سميكان ابن أبيه ولذلك كانوا ذوي قرى لهم.

زواوة

فاما زواوة فهم من بطونهم، وقد يقال إن زواوة من قبائل كتامة، ذكر ذلك ابن حزم. ونسابة البربر إما يعدونهم من ولد سميكان كما قلناه، والصحيح عندي ما ذكره ابن حزم. ويشهد له الوطن ونحلة الشيع مع كتامة لعبيد الله. وعد نسبته البربر لهم

زواغة

وأما زواغة فلم يتأد إلينا من أخبارهم وتصاريق أحوالهم ما نعمل فيه الأقلام. ولهم ثلاثة بطون وهي: دمر بن زواغ وبنو واطيل بن زحيك بن زواغ وبنو ماجر بن تيقون من زواغة. ومن دمر بنو سميكان وهم أوزاع في القبائل، ومنهم بنو احسي طرابلس مفترقون في براريها ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر. وفي جهات قسطنطينة أيضاً رط من زواغة، وكذلك بجبال شلف بنو واطيل منهم وبنو احسي فاس آخرون. والله الخلق والامر.

الخبر عن مكناسة وسائر بطون بني

ورصطف وما كان لمكناسة من الدول

بالمغرب وأولية ذلك وتصاريقه

كان لورصطف بن يحيى، وهو أخو أجانا بن يحيى وسميكان بن يحيى ثلاثة من البطون، وهم: مكناسة وورتناجية وأوكه. ويقال: مكنة. وبنو ورتناجة أربعة بطون: سدرجة ومكسة ويطالسة وكرنيطة. وزاد سابق وأصحابه في بطونهم: هناطة وفولالة، وكذلك عدوا في بطون مكنة: بني يصلتن وبني تولالين وبني ترين وبني جرتن وبني فوغال. ولمكناسة عندهم أيضاً بطون كثيرة منها: صولات وبنو حوات وبنو ورفلاس وبنو وريدوس وقنصارة وورنيقة ووريفلثة. ويطون ورصطف كلهم مندرجون في بطون مكناسة، وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه بسجلماسة إلى مصبه في البحر، وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول. وكانت رئاستهم جميعاً في بني أبي يزول واسمه مجدول بن تافريس بن فراديس بن ونيف بن مكناس. وأجاز منهم إلى العدو عند الفتح أمم.

وكانت لهم بالأندلس رئاسة وكثرة، وخرج منهم على عبد الرحمن الداخل شعيا بن عبد الواحد سنة إحدى وخمسين واعتصم بشتمية ودعا لنفسه متسباً إلى الحسن بن علي، وتسمى عبد الله ابن محمد وتلقب بالفاطمي، وكانت بينه وبين عبد الرحمن حروب إلى أن غلبه وحيا أثر ضلالتة. وكان من رجالتهم لعهد دولة الشيعة مصالة بن جبوس بن منازل اتصل بعبيد الله الشيعي، وكان من أعظم قواده وأوليائه، وولاه تاهرت وافتتح له المغرب وفاس وسجلماسة.

ولما هلك أقام أخاه يصلتن بن جبوس مقامه في ولاية

تاهرت والمغرب. ثم هلك وأقام ابنه حميداً مقامه فاعترف عن الشيعة، ودعا لعبد الرحمن الناصر، واجتمع مع بني خنزر أمراء جراوة على ولاية المروانية ثم أجاز إلى الأندلس وولي الولايات أيام الناصر وابنه الحكم، وولي في بعضها تلمسان بدعوتهم. ثم هلك وأقام ابنه نصل بن حميد وأخوه قياطن بن يصلتن وعلي ابن عمه مصالة في ظل الدولة الأموية إلى أن أجاز المظفر بن أبي عامر إلى المغرب فولي يصل بن حميد سجلماسة كما نذكره. ثم أن رئاسة مكناسة بالعدوة انقسمت في بني أبي يزول، وانقسمت قبائل مكناسة بانقسامها. وصارت رئاسة مكناسة في مواطن سجلماسة وما إليها من بني واسول بن مصلان بن أبي يزول، ورئاسة مكناسة بجهات تازا وتسول وملوية ومليلة لبني أبي العافية بن أبي نائل بن أبي الضحاك بن أبي يزول. ولكل واحد من هذين الفريقين في الإسلام دولة وسلطان وصاروا به في عداد الملوك كما نذكره.

الخبر عن دولة بني واسول ملوك سجلماسة

وأعمالها من مكناسة

كان أهل مواطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأول الإسلام بدين الصفرية من الخوارج لقنوه عن أئمتهم ورؤوسهم من العرب لما حقوا بالمغرب وانتزوا على الأصقاع وماجت أقطار المغرب بفتنة ميسرة. فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم نقضوا طاعة الخلفاء وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج. واختطوا مدينة سجلماسة لأربعين ومائة من الهجرة. ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم. ثم سخطوا أميرهم عيسى ونقموا عليه كثيراً من أحواله فشدوه كفافاً ووضعوه على قنّة جبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين، واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم سمو بن مصلان بن أبي يزول. كان أبوه سقمو من حملة العلم، ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس، ذكره غريب بن حميد في تاريخه، وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته فبايعوه من بعده.

وقاموا بأمره إلى أن هلك سنة سبع وستين ومائة لمتهمي عشر سنين من ولايته، وكان أباضياً صفرياً. وخطب في عمله للمنصور والمهدي من بني العباس. ولما هلك ولوا عليهم ابنه إلياس، وكان يدعى بالوزير. ثم انتقضوا عليه سنة أربع وتسعين ومائة فخلعوه وولوا مكانه أخاه إلياس بن أبي القاسم وكنيته أبو

سـجـلـمـاسـة وتقبض على صاحبها أحمد بن ميمون بن مدرار وولي عليها ابن عمه المعتز بن محمد بن بسادر بن مدرار، فلم يلبث أن استبد المعتز، وهلك سنة إحدى وعشرين قبيل ملك المهدي، وولي من بعده ابنه أبو المتصر محمد بن المعتز فمكث عشراً.

ثم هلك وولي من بعده ابنه المتصر سمكو شهرين، وكانت جدته تدبر أمره لصغره. ثم ثار على ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون الأمير وتغلب عليه، وشغب عليه بنو عبيد الله لفتنة ابن أبي العافية وتاهرت، ثم بقتة أبي يزيد بعدهما فدعا محمد بن الفتح لنفسه موعها بالدعوة لبني العباس. وأخذ بمذهب أهل السنة ورفض الخارجية، ولقب الشاكر بالله، واتخذ السكة باسمه ولقبه، وكانت تسمى الدراهم الشاكرية. كذا ذكره ابن حزم وقال فيه: وكان في غاية العدل حتى إذا أفرغ له بنو عبيد وحمى الفتنة زحف جوهر الكاتب أيام المعز لدين الله معداً في مجموع كتابة وصنهاجة وأوليائهم إلى المغرب سنة سبع وأربعين فغلب على سـجـلـمـاسـة وملكها، وفر محمد بن الفتح إلى حصن تاسكرات على أميال من سـجـلـمـاسـة وأقام به.

ثم دخل سـجـلـمـاسـة متكرراً فعرفه رجل من مطفرة وأنذر به، فتقبض عليه جوهر، وقاده أسيراً إلى القيروان مع أحمد بن بكر صاحب فاس كما نذكره، وقفل إلى القيروان، فلما انتقض المغرب على الشيعة، وفشت بدعة الأمية وأخذ زناتة بطاعة الحكم المستنصر، ثار بسـجـلـمـاسـة قائم من ولد الشاكر وباهى المتصر بالله، ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين فقتله، وقام بالأمر مكانه وتلقب المعتز بالله.

وأقام على ذلك مدة وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال، وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم إلى أن زحف خزرون بن فلفول من ملوك مغراوة إلى سـجـلـمـاسـة سنة ست وستين وبرز إليه أبو محمد المعتز فهزمه خزرون وقتله، واستولى على بلده وذخيرته، وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح. وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر، فنسب إليه واحتسب له جداً وعين نقيية، وعقد لخزرون على سـجـلـمـاسـة، فأقام دعوة هشام بأغنائها فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى، وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع وأدبل منهم بمغراوة وبني يفرن حسيماً يأتي ذكرهم في دولتهم، والأمير لله وحده وله البقاء سبحانه وتعالى.

منصور، فلم يزل أميراً عليهم، وبني سور سـجـلـمـاسـة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان أباضياً صغرياً. وعلى عهده استفحل ملكهم بسـجـلـمـاسـة، وهو الذي أتم بناءها وتشبيدها، واختط بها المصانع والقصور، وانتقل إليها آخر المائة الثانية، ودوخ بلاد الصحراء وأخذ الخمس من معادن درعة، وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها.

ولما هلك سنة ثمان ومائتين ولي بعده ابنه مدرار ولقبه المتصر، وطال أمر ولايته. وكان له ولدان اسم كل واحد منهما ميمون، أحدهما لأروى بنت عبد الرحمن بن رستم، وقيل إن اسمه أيضاً عبد الرحمن. والآخر لتقي وتنازعا في الاستبداد على أبيه، ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين. وكانت لأبيهما مدرار صاغية إلى ابن أروى فمال معه حتى غلب أخاه فأخذه وأخرجه عن سـجـلـمـاسـة. ولم يلبث أن خلع أباه واستبد بأمره، ثم ساءت سيرته في قومه ومدينته، فخلعوه وصار إلى درعة وأعاد مدراراً إلى أمره. ثم حدث نفسه بإعادة ابنه ميمون ابن الرستمية إلى إمارته بصاغيته إليه فخلعوه ورجعوا ابنه ميموناً بن التقي، وكان يعرف بالأخير.

ومات مدار إثر ذلك سنة ثلاث وخمسين وخمسين وأربعين من ملكه، وأقام ابنه ميمون في استبداده إلى أن هلك سنة ثلاث وستين ومائتين وولي ابنه محمد، وكان أباضياً وتوفي سنة سبعين فولي إليسع بن المتصر، وقام بأمره ولحق عبيد الله الشيعي وابنه وأبو القاسم بسـجـلـمـاسـة لعهد. وأوعز المعتضد إليه في شأنهما، وكان على طاعته، فاستراب بهما وحسبهما إلى أن غلب الشيعي بني الأغلب، وملك رقادة، فزحف إليه لاستخراج عبيد الله وابنه من محبسه، وخرج إليه إليسع في قومه مكناسة فهزمه أبو عبيد الله الشيعي، واقتحم عليه سـجـلـمـاسـة وقتله سنة ست وتسعين، واستخرج عبيد الله وابنه من محبسهما وباع لهما، وولي عبيد الله المهدي على سـجـلـمـاسـة إبراهيم بن غالب المزاتي من رجالات كتامة، وانصرف إلى إفريقية.

ثم انتقض أمراء سـجـلـمـاسـة على واليهم إبراهيم فقتلوه ومن كان معه من كتامة سنة ثمان وتسعين وباعوا الفتح بن ميمون الأمير ابن مدرار ولقبه واسول، وميمون ليس هو ابن التقي الذي تقدم ذكره وكان أباضياً. وهلك قريباً من ولايته لرأس المائة الثالثة، فولي أخوه أحمد واستقام أمره إلى أن زحف مصالة بن حبوس في مجموع كتامة ومكناسة إلى المغرب سنة تسع وثلاثمائة، فدوخ المغرب وأخذهم بدعوة صاحبه عبيد الله المهدي. وافتتح

الخبر عن دولة بني أبي العافية ملوك تسول من مكناسة وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان مكناسة الطواغن من أهل مواطن ملوية وكرسيف ومليلة وما إليها من التلول بنواحي تازا وتسول، والكل يرجعون في رئاستهم إلى بني أبي باسل بن أبي الضحاك بن أبي يزول، وهم الذين اختطوا بلد كرسيف ورباط تازا، ولم يزالوا على ذلك من أول الفتح.

وكانت رئاستهم في المائة الثالثة لمصالة بن حبوس وموسى بن أبي العافية بن أبي باسل، واستفحل أمرهم في أيامه وعظم سلطانهم وتغلبوا على قبائل البربر بالجماء تازا إلى الكائي، وكانت بينهم وبين الأدارسة ملوك المغرب لذلك العهد فتن وحروب. وكانوا يغلبونهم على كثير من ضواحيها لما كان نزل بدولتهم من الهرم. ولما استولى عبيد الله على المغرب واستفحل أمره كانوا من أعظم أوليائه وشيعه، وكان مصالة بن حبوس من أكبر قواده لا يخياشه إليه، وولاه على مدينة تاهرت والمغرب الأوسط.

ولما زحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة، واستولى على فاس وعلى سجلماسة وفرغ من شأن المغرب واستنزل يحيى بن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عبيد الله وأبقاه أميراً على فاس، عقد حيث لا بين عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة على سائر ضواحي المغرب وأمضاه مضافة إلى عمله من قبل تسول وتازا وكرسيف وقفل مصالة إلى القيروان. وقام موسى بن أبي العافية بأمر المغرب، وناقضه يحيى بن إدريس صاحب فاس لما يضطغن له من المظاهرة عليه.

فلما عاود مصالة غزو المغرب سنة تسع أغراه ابن أبي العافية ببحي بن إدريس، فتقبض عليه واستصفاه وطرده عن عمله فلحق ببني عمه بالبصرة والريف. وولى مصالة على فاس ربحان الكتامي وقفل إلى القيروان فهلك، وعظم ملك ابن أبي العافية بالمغرب، ثم ثار بفاس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس، وكان مقدماً شجاعاً ويلقب بالحجّام لطعته في المحاجم دخل فاس على حين غفلة من أهلها، وقتل ربحان واليهما، واجتمع الناس على بيعته. ثم خرج لقتاله ابن أبي العافية فتزاحقوا بفحص أذا ما بين تازا وفاس، ويعرف لهذا العهد بوادي المطاحن، واشتدت الحرب بينهم، وهلك منهال بن موسى بن أبي العافية في الفتن بمكناسة.

ثم كانت العاقبة لهم وانقضّ عسكر الحسن ورجع مفلولاً إلى فاس، فقدر به عامله على عدوة القرويين حامد بن حمدان الحمداني واستمكن من عاقلة، واستحث ابن أبي العافية للقدوم وأمكنه من البلد، وزحف إلى عدوة الأندلس فملكها وقتل عاملها عبد الله بن ثعلبة بن محارب بن محمود، وولى مكانه أخاه محمداً وطالب حامداً بصاحبه الحسن قدس إليه حامد بالفرار تحمياً عن دعاء أهل البيت، وتدلّ الحسن من السور فسقط وانكسر ساقه ومات مستخفياً بعدوة الأندلس لثلاث ليال منها، وحذر حامد من سطوة أبي العافية فلحق بالمهدي واستولى ابن أبي العافية على فاس والمغرب أجمع، وأجلى الأدارسة عنهم والجأهم إلى حصنهم بقلعة حجر النسر مما يلي البصرة، وحاصروهم بها مراراً، ثم جمر عليهم العساكر، وخلف فيهم قائده أبا الفتح فحاصروهم ونهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة بعد أن استخلف على المغرب الأقصى ابنه مدين، وأنزله بعدوة القرويين.

واستعمل على عدوة الأندلس طوال بن أبي يزيد، وعزل به محمد بن ثعلبة. وزحف إلى تلمسان فملكها وغلب عليها صاحبها الحسن بن أبي العيش بن عسى بن إدريس بن محمد بن سليمان من عقب سليمان بن عبد الله أخي إدريس الأكبر الداخل إلى المغرب بعده، فغلب موسى بن أبي العافية الحسن على تلمسان وأزعجه عنها إلى مليلة من جزائر ملوية ورجع إلى فاس. وقد كان الخليفة الناصر لما فشت دعوته بالمغرب خاطبه بالمقاربة والوعد، فسارع إلى إجابته ونقض طاعة الشيعة، وخطب للناصر على منابر عمله، فسرح إليه عبيد الله المهدي قائده ابن أخي مصالة، وهو حميد بن يصلتن المكناسي قائد تاهرت، فزحف في العساكر إلى حرمة سنة إحدى وعشرين ولقيه موسى بن أبي العافية بفحص مسون فتزاحقوا أياماً، ثم لقيه حميد فهزمه ولحق ابن أبي العافية بتسول فامتنع بها، وأفرج قائده أبو الفتح عن حصن الأدارسة فاتبعوه وهزموه ونهبوا معسكره.

ثم نهض حميد إلى فاس ففر عنها مدين بن موسى إلى ابنه، واستعمل عليها حامد بن حمدان كان في جملته وقتل حميد إلى إفريقية وقد دوخ المغرب. ثم انتفض أهل المغرب على الشيعة بعد مهلك عبيد الله، وثار أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي على حامد بن حمدان فقتله، وبعث برأسه إلى ابن أبي العافية فأرسله إلى الناصر بقرطبة واستولى على المغرب.

وزحف ميسور الخصي قائد أبي القاسم الشيعي إلى المغرب سنة ثلاث وعشرين وخام ابن أبي العافية عن لقائه، واعتصم بمحصن لكأي، ونهض ميسور إلى فاس فحاصرها واستنزل أحمد بن

بكر عاملها. ثم تقبض عليه وأشخصه إلى المهديّة، ويدر أهل فاس بغدّه فامتنعوا وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي، وحاصروهم ميسور مدة حتى رغبوا إلى السلم، واشترطوا على أنفسهم الطاعة والأتاوة فتقبل ميسور ورضي، وأقر حسن بن قاسم على ولايته بفاس وارتحل إلى حرب ابن أبي العافية فكانت بينهما حروب إلى أن غلبه ميسور فتقبض على ابنه الغوري وغرّبه إلى المهديّة، وأجلى موسى بن أبي العافية عن أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء، وقتل إلى القبروان.

ولما مر بأرشكول خرج إليه صاحبها ملاطفاً له بالتحف، وهو إدريس بن إبراهيم من ولد سليمان بن عبد الله أخي إدريس الأكبر، فتقبض عليه واصطلم نعمته، وولى مكانه أبا العيش بن عيسى منهم. وأغذ السير إلى القبروان سنة أربع وعشرين ورجع موسى بن أبي العافية من الصحراء إلى أعماله بالمغرب، فملكها وولّى على الأندلس أبا يوسف بن محارب الأزدي، وهو الذي مدن عدوة الأندلس، وكانت حصوناً. واحتل موسى بن أبي العافية قلعة كومات، وخطب الناصر فيحث إليه مدداً من أسطوله، وزحف إلى تلمسان ففر عنها أبو العيش واعتصم بأرشكول فنازله وغلبه عليها سنة خمس وعشرين ولحق أبو العيش بئكور، واعتصم بالقلعة التي بناها هنالك لنفسه.

ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة نكور فحاصرها مدة، ثم تغلب عليها وقتل صاحبها عبد البديع بن صالح، وخرب مدينتهم. ثم سرح ابنه مدين في العساكر، فحاصر أبا العباس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها. واستفحل أمر ابن أبي العافية في المغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط، وبثا دعوة الأموية في أعمالها، وبعث ابنه مدين بأمره في قومه، وعقد له الناصر على أعمال ابنه بالمغرب واتصلت يده بيد الخبر بن محمد كما كان بين آبائهم.

ثم زحف إلى أعمال مكناسة فاتحهم الحصن وقتل القاسم. وفي بعض تواريخ المغرب أن مهلك إبراهيم بن موسى كان سنة خمس وأربعمئة. وولي ابنه عبد الله أبو عبد الرحمن وهلك سنة ثلاثين وولي ابنه محمد وهلك سنة ست وأربعين، وولي ابنه القاسم وهلك بتسول عند اقتحام لثونة عليه سنة ثلاث وستين وانقرض ملك مكناسة من المغرب بانقراض ملك مغراوة، والأمر لله وحده، وبقي من قبائل مكناسة لهذا العهد بهذه المواطن أنصار في جبال تازا بعد ما تمرست بهم الدول وأناخت بساحتهم الأمم. وهم موصوفون بوفرة الجباية وقوة الشكيمة، ولهم عناء في مظاهرة الدولة وحقوق عند الحشد والعسكرة. وفيهم مؤن من الخيالة، ومن مكناسة «غير هؤلاء» أوزاع في القبائل لهذا العهد مفرقون في نواحي إفريقية والمغرب الأوسط. «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ» وهذا آخر الكلام في بني ورصطيف، فلنرجع إلى من بقي علينا من البربر وهم زناتة، والله ولي العون وبه المستعان.

ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة نكور فحاصرها مدة، ثم تغلب عليها وقتل صاحبها عبد البديع بن صالح، وخرب مدينتهم. ثم سرح ابنه مدين في العساكر، فحاصر أبا العباس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها. واستفحل أمر ابن أبي العافية في المغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط، وبثا دعوة الأموية في أعمالها، وبعث ابنه مدين بأمره في قومه، وعقد له الناصر على أعمال ابنه بالمغرب واتصلت يده بيد الخبر بن محمد كما كان بين آبائهم.

ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة نكور فحاصرها مدة، ثم تغلب عليها وقتل صاحبها عبد البديع بن صالح، وخرب مدينتهم. ثم سرح ابنه مدين في العساكر، فحاصر أبا العباس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها. واستفحل أمر ابن أبي العافية في المغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط، وبثا دعوة الأموية في أعمالها، وبعث ابنه مدين بأمره في قومه، وعقد له الناصر على أعمال ابنه بالمغرب واتصلت يده بيد الخبر بن محمد كما كان بين آبائهم.

ثم فسد ما بينهما وتزاحقا للحرب، وبعث الناصر قاضيه منذر بن سعد لمشاركة أحوالهما وإصلاح ما بينهما فتم ذلك كما أراده ولحق به سنة خمس وثلاثين أخوه البوري فاراً من عسكر المنصور مع أحمد بن بكر الجذامي عامل فاس بعد أن لحقا بأبي يزيد، فسار أحمد بن أبي بكر إلى فاس وأقام بها متكرراً إلى أن وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتي وتغلى له عن العمل، وصار البوري إلى أخيه مدين واقسم أعمال ابنه معه ومع ابنه الآخر منقذ، فكأنوا ثلاث الأنثافي. وأثار الثوري الناصر سنة خمس وأربعين فعقد الناصر لابنه منصور على عمله وكانت وفاته وهو

أخبار البرانس من البربر

ولنبداً أولاً بالخبر عن هواراة من شعوبهم وذكر بطونهم وتصاريق أحوالهم وافراق شعوبهم في عمالات إفريقية والمغرب

وهواراة هؤلاء من بطون البرانس باتفاق من نسابة العرب والبربر ولد هوار بن أوريج بن برنس، إلا ما يزعم بعضهم أنهم من عرب اليمن. تارة يقولون: من عاملة إحدى بطون قضاة، وتارة يقولون: من ولد المسور بن السكاسك بن وائل بن حير. وإذا تحروا الصواب: المسور بن السكاسك بن أشريس بن كندة، وينسبونه هكذا: هوار بن أوريج بن خنون بن المثنى بن المسور. وعند هؤلاء أن هواراة وصنهاجة ولطة وكزولة وهسكورة يعرف جميعهم بني ينهل وأن المسور جددهم جميعاً وأنه وقع إلى البئر ونزل على بني زحيك بن مادغيس الأبت. وكانوا أربعة إخوة: لوا وضرا وأداس ونفوس، وأنهم زوجهوا أختهم تيسكي العرجاء بنت زحيك فولدت منه المثنى أبا هواراة، وتزوجها بعد المسور عاصيل بن زعزاع أبو صنهاجة ولطة وكزولة وهسكورة كما يأتي فيما بعد أنهم إخوة المثنى لأمه، وبها عرف جميعهم.

قالوا: وولد المثنى بن المسور خبوز وولد خبوز بن المثنى ريغ الذي يقال فيه: أوريج بن برنس، ومنه تفرقت قبائل هواراة. قالوا: إنما سميت هواراة لأن المسور لما جال البلاد ووقع في المغرب قال: لقد تهورنا، هكذا عند بعض نسابه البربر. وعندي، والله أعلم، أن هذا الخبر مصنوع وأن أثر الصنعة باء عليه. ويعضد ذلك أن المحققين ونسابتهم مثل سابق وأصحابه قالوا: إن بطون أداس بن زحيك دخلت كلها في هواراة من أجل أن هوار خلف زحيك على أم أداس، فربى أداس في حجره وزحيك على ما في الخبر الأول هو جد هوار، لأن المثنى جد الأعلى هو ابن تبصكي وهي بنت زحيك، فهو الخامس من زحيك فكيف يخلفه على امرأته. هذا بعيد. والخبر الثاني أصح عند نسابتهم من الأول.

وأما بطون هواراة فكثير وأكثرهم بنو نيه وأوريج اشتهروا نسبة لشهرته وكبر سنه من بينهم فانتسبوا جميعاً إليه. وكان لأوريج أربعة من الولد: هوار وهو أكبرهم، ومغر وقلدن وملد، ولكل واحد منهم بطون كثيرة وكلهم ينسبون إلى هوار. فمن بطون مغر ما وس وزمور وكباد وسراي ذكر هذه البطون الأربعة ابن حزم، وزاد سابق المظماطي وأصحابه: ورجين رمنداسة وكركورة ومن بطون قلدن: قمصانة وورصطيف وبيانة. وبل ذكر هذه الأربعة ابن حزم وسابق. ومن بطون ملد مليلة ووسطط وروفل وأسيل

ومساراة ذكرهما ابن حزم، وقال: جميعهم بنو لمان بن ملد، وكذا عند سابق. ويقال: إن ونيفن أيضاً من نهانه.

ومن بطون هواراة بنو كهلان. ويقال: إن مليلة من بطونهم. وعند نسابه البربر من بطونهم غريان وورغة وزكاوة ومسلاتة ومجريس. ويقال إن ونيفن منهم. ومجريس لهذا العهد يتسبون إلى ونيفن وعند سابق وأصحابه أن بني كهلان وريجين إحدى بطون مغر، وأن من بطون بني كهلان بني كسي وورتاكت ولشوه وهواراة. وأما بطون أداس بن زحيك بن مادغيس الأمراء الذين دخلوا في هواراة فكثير. فمنهم: هزاعة وترهوتة وشتانة وأنداوة وهنزونة وأوطيطه وصنبرة هؤلاء باتفاق من ابن حزم وسابق وأصحابه.

وكانت مواطن الجمهور من هواراة هؤلاء، ومن دخل في نسبهم من إخوانهم البرانس والصمغمر لأول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة كما ذكره المسعودي والبكري. وكانوا ظواعن وآهلين، ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل اللثمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان تجاه إفريقية، ويعرفون بنسبهم هكاراة، قلبت العجمة واوه كافاً أعجمية تخرج بين الكاف العربية والقاف. وكان لهم في الردة وحروبها آثار ومقامات ثم كان لهم في الخارجية والقيام بها ذكر، وخصوصاً بالأباضية منها. وخرج على حنظلة منهم عبد الواحد بن يزيد مع عكاشة الفزاري فكانت بينهما وبين حنظلة حروب شديدة. ثم هزمها وقتلها وذلك سنة أربع وعشرين ومائة أيام هشام بن عبد الملك. وخرج على يزيد بن حاتم سنة ست وخمسين ومائة يحيى بن فوناس منهم، واجتمع إليه كثير من قومه وغيرهم.

وزحف إليه قائد طرابلس عبد الله بن السمط الكندي على شاطئ البحر بسواريه من سواحلهم، فانهزم وقتل عامة هواراة. وكان منهم مع عبد الرحمن بن حبيب مجاهد بن مسلم من قواده. ثم أجاز منهم إلى الأندلس مع طارق رجالات مذكورون واستقروا هنالك، وكان من حلفهم بنو عامر بن وهب أمير رندة أيام لمتونة، وبنو ذي النون الذين ملكوها من أيديهم، واستضافوا معها طليطة وبنو رزين أصحاب السهلة. ثم ثارت هواراة من بعد ذلك على إبراهيم بن الأغلب سنة ست وتسعين ومائة، وحاصروا طرابلس واقتحوها فخربرها. وتولى كبير ذلك منهم عياض بن وهب، وسرح إبراهيم إليهم ابنه أبا العباس فهزمهم وقتلهم وبنى طرابلس.

وجأجا هواراة بعبد الوهاب بن رستم من مكان إمارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا إليه ومعهم قبائل نفوسة وحاصروا أبا

عتبة بن مالك بن رياح صاروا في عدادهم وجروا على مجراهم من الطعن والمغرم. ومعهم أيضاً بطن من مرداس بني سليم يعرفون ببني حبيب. ويقولون هو حبيب بن مالك. وهم غارمة مثل سائر هواراة وضواحي إفريقية لهذا العهد معمورة لهؤلاء الطواغن، ومعظمهم من هواراة. وهم أهل بقر وشاء وركوب للخيال وللسلطان بإفريقية، عليهم وظائف من الجباية، وضعها عليهم دهاقين العمال بديوان الخراج، قوانين مقررة وتضرب عليهم مع ذلك البعث في غزوات السلطان بعسكر مفروض يحضر بعسكر السلطان متى استنفروا لذلك.

ولرؤسائهم آراء ذلك قاطعات ومكان في الدول بين رجالات البدو، ويربطون هواراة بمواطنهم الأولى من نواحي طرابلس، طواغن وأهلين، توزعهم العرب من دباب فيما توزعوه من الرعايا وغلبهم على أمرهم منذ ضحا عملهم من ظل الدولة، فتملكوهم تلك العبيد للجباية منهم والاستكثار منهم في الانتجاع والحرب مثل: ترهونه وورقلة، الطواغن ومجريس المواطنين بزرزور من ونيفن وهي قرية من قرى طرابلس، ومن هواراة هؤلاء بأخر عمل طرابلس مما يلي بلد سرت وبرقة قبيلة يعرفون بمسراتة لهم كثرة واعتزاز، ووضائع العرب عليهم قليلة ويعطونها من عزة. وكثيراً ما ينقلون في سبيل التجارة ببلاد مصر والإسكندرية، وفي بلاد الجريد من إفريقية وبأرض السودان إلى هذا العهد.

واعلم أن في قبلة قلابس وطرابلس جبلاً متصلاً بعضها ببعض من المغرب إلى المشرق، فأولها من جانب الغرب جبل دمر يسكنه أمم من لواتة ويتصلون في بسيطة إلى فاس وصفاقس من جانب الغرب، وأمم أخرى من نفوسة من جانب الشرق. وفي سبع طوله سبع مراحل، ويتصل به شرقاً جبل نفوسة تسكنه أمة كبيرة من نفوسة ومغراوة وسدارته، وهو قبلة طرابلس على ثلاث مراحل عنها. وفي طوله سبع مراحل، ويتصل به من جانب الشرق جبل مسلاتة، ويعتمره قبائل هواراة إلى بلد مسراتة ويقضي إلى بلد سرت وبرقة، وهو آخر جبال طرابلس. وكانت هذه الجبال من مواطن هواراة ونفوسة ولواتة. وكانت هنالك مدينة صغيرة بلد نفوسة قبل الفتح. وكانت برقة من مواطن هواراة هؤلاء، ومنهم مكان ببني خطاب ملوك زويلة إحدى أمصار برقة، كانت قاعدة ملكهم حتى عرفت بهم، فكان يقال زويلة بن خطاب.

ولما خربت انتقلوا منها إلى فزان من بلاد الصحراء وأوطونها، وكان لهم بها ملك ودولة حتى إذا جاء قراقوش الغزي الناصري مملوك تقي الدين ابن أخي صلاح الدين كما تذكر في

العباس بن الأغلب بطرابلس إلى أن هلك أبوه إبراهيم بالقبروان، وقد عهد إليه فصالحهم على أن يكون الصحراء لهم. وانصرف عبد الوهاب إلى نفوسه. ثم أصبحوا بعد ذلك وغزوا مع الجيوش صقلية، وشهد فتحها منهم زواوة بن نعم الحلفاء. ثم كان لهم مع أبي يزيد النكاري وفي حروبه مقامات مذكورة، اجتمعوا إليه من مواطنهم بجبل أوراس ومراجنه لما غلب عليه، وأخذ أهلها بدعوته فاتحاشوا إلى ولايته وفعلوا الأفاعيل. وكان من أظهرهم في تلك الفتنة بنو كهلان.

ولما هلك أبو يزيد كما نذكره سطا إسماعيل المنصور بهم وأئذن فيهم، وانقطع ذكر بني كهلان. ثم جرت الدول عليهم أذيالها وأناخت بكلاكلها، وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة من كل ناحية، فمنهم لهذا العهد بمصر أوزاع متفرقون أوطونها أكره وعبارة وشاوية، وآخرون موطنون ما بين برقة والإسكندرية يعرفون بالمثاليينة، ويظعنون مع الحرة من بطون هيب من سليم بأرض التلول من إفريقية ما بين تبسة إلى مرجانة إلى باجة، طواغن صاروا في عداد النابجة عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل، وكسب الإبل وممارسة الحروب، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلوهم. قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب، فلا يكاد يفرق بينهم. فأولهم مما يلي تبسة قبيلة وينقش ورثاستهم لهذا العهد في ولد يفرن بن حناش لأولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد بن يفرن، ثم لأولاد زيتون بن محمد بن يفرن، ولأولاد دحمان بن فلان بعده. وكانت الرئاسة قبلهم لسارية من بطون ونيفن ومواطنهم ببساط مرجانة وتبسة وما إليهما.

وليهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم يعرفون بقبصرون ورثاستهم في بيت بني مؤمن ما بين ولد زعازع وولد حركات ومواطنهم بفحص أبيه وما إليها من نواحي الأريس. وتليهم إلى جانب الشرق قبيلة أخرى منهم يعرفون بنصورة، ورثاستهم في بيت الرامنة لولد سليمان بن جامع منهم. ويرادفهم في رئاسة نصرة قبيلة ورهبامة ومواطنهم ما بين تبسة إلى حامة إلى جبل الزنجار إلى إطار على ساحل تونس وبساتناتها. ويجاورهم متساحلين إلى ضواحي باجة قبيلة أخرى من هواراة يعرفون ببني سليم، ومعهم بطن من عرب مضر من هذيل بن مدركة بن إلياس. جاؤوا من مواطنهم بالحجاز مع العرب الهلاليين عند دخولهم إلى المغرب واستوطنوا بهذه الناحية من إفريقية، واختلطوا بهواراة وحلوا في عدادهم.

ومعهم أيضاً بطن آخر من بطون رياح من هلال يتمون إلى

وكان لهم اعتزاز وآثار في الفتن والحروب. ومسطاسة مندرجون معهم فيقال: إنهم من عداد بطونهم، ويقال: إنهم إخوة مسطاس أخي وزداج واللّه أعلم.

وكان من رجالهم المذكورين شجرة بن عبد الكريم المسطاسي وأبو دليم بن خطاب. وأجاز أبو دليم إلى الأندلس من ساحل تلمسان، وكان لبنه بها ذكر وفي قفها قرطبة مكان. وكان من بطون أزداجة بنو مسقن وكانوا يجاورون وهران ونزل مرس وهران من رجال الدولة الأموية محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون، فدخلوا بني مسكن وملكو وهران سبع سنين مقيمين فيها للدعوة الأموية، فلما ظهرت دعوة الشيعة وملك عبيد اللّه المهدي تاهرت وولى عليها داوس بن صولات اللّهيصي من كتامة، وأخذت البرابرة بدعوتهم أوعز دواس بحصار وهران فزحفوا إليها سنة سبع وتسعين وداخلوا بني مسكن في ذلك فأجابوهم، وفر محمد بن أبي عون فلحق بدواس بن صولات واستبيحت وهران وأضرمت ناراً.

ثم جدد بناءها دواس وأعاد محمد بن أبي عون إلى ولايتها، فعادت أحسن ما كانت، وأمرأ تلمسان لذلك العهد من الأدراسة بنو أحمد بن محمد بن سليمان، وسليمان أخو إدريس الأكبر كما ذكرناه. وكانوا يقيمون دعوة الأموية لذلك العهد. ثم ولي على تاهرت أيام أبي القاسم بن عبد الله أبا ملك يغمراسن بن أبي سمحة، وانتفض عليه البربر فحاصروه عند زحف ابن أبي العافية إلى المغرب الأوسط بدعوة المروانية، وكان عن أخذ بها محمد بن أبي عون صاحب وهران وسرح أبو القاسم ميسوراً فولاه إلى المغرب وأتاه محمد بن عون بطاعته قبلها وأقره على عمله، ثم نكت محمد بن عون عند منصرف ميسور من المغرب وراجع طاعته المروانية.

ثم كان شأن أبي يزيد وانتفاض سائر البرابرة على العبيدين، واستفحل أمر زناتة وأخذوا بدعوة المروانيين. وكان الناصر عقد ليعلى بن أبي محمد اليفرنى على المغرب، فخاطبه بمراوغة محمد بن أبي عون وقبائل أزداجة في الطاعة للعداوة وبين القبيلتين المجاورة، وزحف إلى أزداجة فحصرهم بجبل كيدرة، ثم تغلب عليهم واستأصلهم وفرق جماعتهم وذلك لسنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، ثم زحف إلى وهران ونازلها، ثم افتتحها عنوة وأضرمتها ناراً واستلحم أزداجة ولحق رئاستهم بالأندلس فكانوا بها، وكان منهم خزرون بن محمد من كبار أصحاب المنصور بن أبي عامر وابنه الظفر وأجاز إلى المغرب وبقي أزداجة بعد ذلك على حال من الهضمية والمذلة وانتظموا في عداد المغارم من

مكانه عند ذكر الميورقي بن مسوفة وأخباره، وافتتح زلة وأوجلة وافتتح فزان بعدها، وتقبض على عاملها محمد بن خطاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنفل بن خطاب آخر ملوكهم، وامتحنه وطالبه بالأموال وبسط عليه العذاب إلى أن هلك، وانقرض أمر بني خطاب هؤلاء الهواريين.

ومن قبائل هوارية هؤلاء بالمغرب أمم كثيرة في مواطن من أعمال تعرف بهم، وظواعن شايوية تتجمع لمسرحها في نواحيها، وقد صاروا عبيداً للمغارم في كل ناحية. وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة، وصاروا إلى الافتراق في الأودية بسبب القلة واللّه مالك الأمور. ومن أشهرهم بالمغرب الأوسط أهل الجبل المظلل على البطحاء، وهو مشهور باسم هوارية وفيه من مسراتة وغيرهم من بطونهم، ويعرف رؤساؤهم من بني إسحاق. وكان الجبل من قبلهم فيما زعموا لبني يلومين، فلما انقرضوا صار إليه هوارية وأوطونه، وكانت رئاستهم في بني عبد العزيز منهم. ثم ظهر من بني عمهم رجل اسمه إسحاق واستعمله ملوك القلعة، وصارت رئاستهم في عقبه بني إسحاق واختط كبيرهم محمد بن إسحاق القلعة المنسوبة إليهم.

وورث رئاسته فيهم أخوه حيون وصارت في عقبه. واتصلوا بالسلطان أيام ملك بني عبد الواد على المغرب الأوسط، وانتظموا في شرائعهم، واستعمل أبو تاشفين من ملوكهم يعقوب بن يوسف بن حيون قائداً على بني توجين عندما غلبهم على أمرهم، المغارم عليهم، فقام بها أحسن قيام دوح بلادهم، وأذل من عزمهم. ويعد أن غلب بنو مرين بني عبد الواد على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن عبد الرحمن بن يعقوب على قبيلة هؤلاء. ثم استعمل بعده عمه عبد الرحمن، ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن بن يوسف. ثم تلاشى هذا القبيل وخف ساكن الجبل بما اضطهدتهم دولة بني عبد الواد، وأجحفبت بهم في الظلامات. وانقرض بيت بني إسحاق، والأمر على ذلك لهذا العهد، واللّه وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن أزداجة ومسطاسه وعجيسة من

بطون البرانس ووصف أحوالهم

أما أزداجة ويعرفون أيضاً وزداجة فمن بطون البرانس، وكثير من نسابة البربر يعدونهم في بطون زناتة. وقد يقال إن أزداجة من زناتة ووزداجة من هوارية، وأنها بطنان مفرقان وكان لهم وفور وكثرة. وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط بناحية وهران،

القبائل.

فاضطغن عليه صحابته لأبي المهاجر وتقدم أبو المهاجر في اصطناعه فلم يقبل وزحف إلى المغرب وعلى مقدمته زهير ابن قيس البلوي فدوخه. ولقيه ملوك البربر ومن انضم إليه من القرنجة بالزباب وتاهرت فهزمهم واستباحهم، وأذن له بليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه، ودله على عورات البرابرة وراءه أبو ليلة والسوس وما والاهما من مجالات المثلثين فغنم وسبى، وانتهى إلى ساحل البحر وقفل ظافراً.

وكان في غزاة تلك يستهين كسيلة ويستخف به وهو في اعتقاله. وأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه فدفعها إلى غلمانته، وأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه، وانتهز فقام إليها كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة يمسح بلحيته والعرب يقولون ما هذا يا بريري؟ فيقول: هذا جيد للشعر فيقول لهم شيخ منهم: إن البريري يتوعدكم. وبلغ ذلك أبا المهاجر فنهى عقبة عنه، وقال: كان رسول الله ﷺ يستألف جبابرة العرب، وأنت تعتمد على رجل جبار في قومه بدار عزة قريب عهد بالشرك فتفسد قلبه وأشار عليه بأن يوثق منه. وخوفه فتكه فتهاون عقبة بقوله.

فلما قفل عن غزاة وانتهى إلى طينة صرف العساكر إلى القيروان أفواجا ثقة بما دوخ من البلاد، وأذل من البربر حتى بقي في القليل من الناس، وسار إلى تهودة أو بادس لينزل بها الحامية. فلما نظر إليه القرنجة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة بن لزم ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها، وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر، واتبعوا عقبة وأصحابه رضي الله عنه إذا غشوه بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم، ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه رضي الله عنهم ولم يقلت منهم أحد. وكانوا زهاء ثلثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد، وفيهم أبو المهاجر كان أصحبه في اعتقاله، فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن، وأجدات الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد.

وقد جعل على قبر عقبة أسنمة ثم جصص، واتخذ عليه مسجد عرف باسمه وهو في عدد المزارات ومظان البركة، بل هو أشرف مزار من الأجدات في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه، وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أويس الأنصاري ويزيد بن خلف القيسي ونفر معهم ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة. وكان زهير بن قيس البلوي بالقيروان وبلغه الخبر فخرج هارباً وارتحل بالمسلمين ونزل برقة وأقام بها ينتظر المدد من الخلفاء.

وأما العجيسة: وهم من بطون البرانس من ولد عجيسة من برنس ومدلول هذا الاسم البطن، فإن البربر يسمون البطن بـلغتهم عدس بالبدال المشددة، فلما عربتها العرب قلبت دالها جيماً مخففة، وكان لهم بين البربر كثرة وظهور، وكانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة، وبقياتهم لهذا العهد في ضواحي تونس والجبال المطلّة على المسيلة، وكانت منهم من بطون يسكنون جبل القلعة. وكان لهم في فتنة أبي يزيد أثر. ولما هزمهم المنصور لجأ إليهم واعتصم بقلعة كتامة من حصونهم حتى اقتحم عليه. ثم بادر حماد بن بلكين من بعد ذلك مكاناً لبناء مدينة فاخبطها بينهم. ونزلها ووسع خطتها واستبحر عمرانها. وكانت حاضرة للملك آل حماد فأخلفت هذه المدينة من جدة عجيسة لم تخرست بهم، وخضدت من شوكتهم وراموا كيد القلعة مراراً، وأجلبوا على ملوكها بالأعياص منهم فاستلحمهم السيف، ثم هلكوا وهلكت القلعة من بعدهم وورث مواطنهم بذلك الجبل عياض من أفاريق الرعب الهلاليين وسمي الجبل بهم، وفي القبائل بالمغرب كثير من عجيسة هؤلاء مفترقون فيهم والله أعلم.

الخبر عن أوربة من بطون البرانس وما كان

لهم من الردة والثورة وما صار لهم من

الدعاء لإدريس الأكبر

كانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح أوربة وهوارة وصنهاجة من البرانس، ونفوسة وزناتة ومطغرة ونفراوة من البتر، وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء بما كانوا أكثر عدداً وأشد بأساً وقوة، وهم من ولد أورب بن برنس، وهم بطون كثيرة، فمنهم بجاية ونفاصة ونعجة وزهكوجة ومزيانة ورغيوته وديقوسية. وكان أميرهم بين يدي الفتح سكرديد بن زوجي بن بارزت بن برزيات ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة، وأدرك الفتح الإسلامي ومات سنة إحدى وسبعين، وولي عليهم من بعده كسيلة بن لزم الأوربي فكان أميراً على البرانس كلهم، ولما نزل أبو المهاجر ثلسمائة سنة خمس وخمسين كان كسيلة بن لزم مرتاداً بالمغرب الأقصى في جموعه من أوربة وغيرهم، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم، واستنقذه وأحسن إليه وصحبه.

وقدم عقبة في الولاية الثانية أيام يزيد سنة إثنين ومستين

الخبر عن كتامة من بطون البرانس وما كان لهم من العز والظهور على القبائل وكيف تناولوا الملك من أيدي الأغالبة بدعوة

الشيعية

هذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب وأشدهم بأساً وقوة، وأطولهم باعاً في الملك عند نسبة البربر من ولد كتام بن برنس، ويقال: كتم ونسابة العرب يقولون إنهم من حير ذكر ذلك ابن الكلبي والطبري. وأول ملوكهم أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التابعة، وهو الذي افتتح إفريقية وبه سميت، وقتل ملكها جرجير، وسمى البربر بهذا الاسم كما ذكرناه. ويقال: أقام في البربر من حير صنهجة وكتامة فهم إلى اليوم فيهم، وتشعبوا في المغرب وانبثوا في نواحيه إلا أن جمهورهم كانوا لأول الملة بعد تهيج الردة وطبيعة تلك الفتن، موطنين بأرياف قسطنطينة إلى تخوم بجاية غرباً إلى جبل أوراس من ناحية القبلة. وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكثرها لهم، وبين ديارهم ومجالات تقلبهم مثل أبكجان وسطيف وباغاية، وثقاوس ويلزومه ويتكست وميلسة وقسطنطينة والسبكرة والقل وجيجل من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة.

وكانت بطونهم كثيرة يجمعها كلها غرسن ويسودة ابنا كتم بن برنس فمن: يسودة فلاة ودنهاجة ومتوسة ووريسن كلهم بنو بسودة بن كتم وإلى دنهاجة ينسب قصور كتامة بالمغرب لهذا العهد. ومن غرسن: مصالة وقلان وما وطن ومعاذ بنو غرسن بن كتم، ولحيصة وجيملة ومسالتة بنو بناوة بن غرسن، وإجانة وغسمان وأوفاس بنو يظاسن بن غرسن، وملوسة من أيان بن غرسن. ومن ملوسة هؤلاء بنو زلدوي أهل الجبل المطل على قسطنطينة لهذا العهد. وبعد البرابرة من كتامة بنو يستين وهشتوية ومصالة وبني قنسيلة. وعدّ ابن حزم منهم زاوية بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدم.

وكان من هذه البطون بالمغرب الأقصى كثير متدبون عن مواطنهم، وهم بها إلى اليوم. ولم يزلوا بهذه المواطن وعلى هذه الحالة من لدن ظهور الملة وملك المغرب إلى دولة الأغالبة. ولم تكن الدولة تسومهم بهزيمة ولا ينالهم تعسف لاعتزازهم بكثرة جموعهم كما ذكره ابن الرقيق في تاريخه إلى أن كان من قيامهم في دعوة الشيعية ما ذكرناه في دولتهم عند ذكر دولة الفاطميين إثر دولة بني العباس، فانظره هنالك وتصفح تجد تفصيله. ولما صار

واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجية، وزحف إلى القيروان فخرج العرب منها ولحق بزهير بن قيس وبقي بها أصحاب الذراري والأثقال فأمّتهم ودخل القيروان وأقام أميراً على إفريقية ومن بقي بها من العرب خمس سنين.

وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وقتنة الضحاك بن قيس مع المروانية بمرج راهط وحروب آل الزبير فاضطراب أمر الخلافة بعض الشيء، واضطرم المغرب ناراً وفشت السردة في زناتة والبرانس. ثم استقل عبد الملك بن مروان من بعد ذلك بالخلافة وأذهب بالمشرق آثار الفتنة. وكان زهير بن قيس مقيماً ببرقة منذ مهلك عقبة، فبعث إليه بالمدد وولاه حرب البرابرة والثار بدم عقبة. فزحف إليها في آلاف من العرب سنة سبع وستين. وجمع كسيلة البرانس وسائل البربر، ولقيه بجيش من نواحي القيروان واشتد القتال بين الفريقين.

ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم وأتبعهم العرب إلى مرجانة ثم إلى ملوية وذل البربر ولجأوا إلى القلاع والحصون وخضت شوكة أوربة من بينهم واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى فلم يكن بعدها لهم ذكر. واستولوا على مدينة وليلي بالمغرب كانت ما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زرهون وأقازا على ذلك، والجيوخ من القيروان تدوخ المغرب مرة بعد أخرى إلى أن خرج محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي أيام المنصور وقتل بالمدينة سنة خمس وأربعين. ثم خرج بعده ابن عمه حسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط أيام الهادي وقتل بفتح على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة، واستلحم كثير من أهل بيته وفر إدريس بن عبد الله إلى المغرب ونزل على أوربة سنة اثنتين وسبعين وأميرهم يومئذ بو ليلي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد منهم فأجاره وجمع البرابر على دعوته واجتمعت عليه زواغة ولواتة وسراطة وغمات ونفرة ومكناسة وغمارة وكافة برابرة المغرب، فبايعوه واتمروا بأمره، وتم له الملك والسلطان بالمغرب. وكانت له الدولة التي ورثها أعقابها إلى حين انقراضها، كما ذكرنا في دولة الفاطميين والله تعالى أعلم.

مشيختنا، وأن ذلك كان لعهد دولة الموحدين وكان منهم علي بن علاوة وبعده ابنه طلحة بن علي وبعده أخوه يحيى بن علي وبعده أخوهما منديل بن علي وعزل تاريز ابن أخيه طلحة.

لما برع السلطان أبو يحيى بقسطنطينية سنة عشر من هذه المائة وقع من تاريز انحراف عن طاعته واعتلق بطاعة ابن الخلوف ببجاية، فقدم عوضاً منه عمه منديل، ثم استبدل منهم أجمعين بأولاد يوسف، فشمروا في طاعته وأبلوا، وغلب السلطان على بجاية وقتل ابن الخلوف فظهر أولاد يوسف وزحموا أولاد علاوة، وأخرجوهم من الوطن فصاروا إلى عياض من أفريق هلال، وسكنوا في جوارهم بجبلهم الذي أوطنوه المظل على المسيلة، واتصلت الرئاسة على سدويكش في أولاد يوسف وهم لهذا العهد أربع قبائل: بنو محمد بن يوسف وبنو المهدي وبنو إبراهيم بن يوسف والعززيون وهم بنو منديل، وظافر وجري وسيد الملوك والعباس وعيسى، والستة أولاد يوسف وهم أشقاء، وأهمهم تاعزيت فنسبوا إليها، وأولاد محمد والعززيون يوطنون بنواحي بجاية وأولاد المهدي وإبراهيم بنواحي قسطنطينية.

وما زالت الرئاسة في هذه القبائل الأربع تجتمع تارة في بعضهم وتفرق أخرى إلى هذا العهد، وكانت الأخرى دولة مولانا السلطان أبي يحيى اجتمعت رئاستهم لعبد الكريم بن منديل بن عيسى من العززيين.

ثم افترقت واستقل كل بطن من هؤلاء الأربعة برئاسة، وأولاد علاوة في خلال هذا كله بجبل عياض. ولما تغلب بنو مرين على إفريقية أنكر السلطان أبو عنان أولاد يوسف ورماهم بالميل إلى الموحدين، وصرف الرئاسة على سدويكش إلى مهنا بن تاريز بن طلحة من أولاد علاوة فلم يتم له ذلك، وقتله أولاد يوسف، ورجع أولاد علاوة إلى مكانهم من جبل عياض.

وكان رئيسهم لهذه العصور عدوان بن عبد العزيز بن زروق بن علي بن علاوة، وهلك ولم تجتمع رئاستهم بعده لأحد. وفي بطون سدويكش هؤلاء بطن مرادف أولاد سواق في الرئاسة على بعض أحيائهم وهم بنو سكين، ومواطنهم في جوار لواتة بجبل تابور وما إليه من نواحي بجاية، ورئاستهم في بني موسى بن ثابر منهم، أدركنا ابنه صخر بن موسى واختصه السلطان أبو يحيى بالرئاسة على قومه، وكان له مقامات في خدمته، ثم عرف بعده في الوفاء ابنه الأمير أبو حفص فلم يزل معه إلى أن وقع به بنو مرين بناحية قابس، وجيء به مع أسرى الرقبة فقطعه السلطان أبو الحسن من خلاف، وهلك بعد ذلك وقام برئاسته ابنه عبد الله وكان له فيها وفي خدمة السلطان ببجاية شأن إلى أن هلك لأعوام

لهم الملك بالمغرب زحفوا إلى المشرق فملكوا الإسكندرية ومصر والشام واختطوا القاهرة أعظم الأمصار بمصر، وارتحل المعز رابع خلفاتهم فنزلها وارتحل معه كتامة على قبائلهم واستفحلت الدولة هنالك وهلكوا في ترفها وبذخها.

وبقي في مواطنهم الأولى بجبل أوراس وجوانبه من البسائط بقايا من قبائلهم على أسمائها وألقابها والآخرين بغير لقبهم وكلهم رعيا معبدون للمغارم إلا من اعتصم بفتنة الجبل مثل بني زلدوي بجبالهم وأهل جبال جيجل وزواوة، وزواوة أيضاً في جبالهم. وأما البسائط فأشهر من فيها منهم سدويكش ورئاستهم في أولاد سواق ولا أدري إلى من يرجعون من قبائل كتامة المسمين في هذا الكتاب. إلا أنهم منهم باتفاق من أهل الأخبار، ونحن الآن ذاكرون ما عرفناه من أخبارهم المتأخرة بعد دولة كتامة والله تعالى ولي العون.

الخبر عن سدويكش ومن إليهم من بقايا

كتامة في مواطنهم

هذا الحي لهذا العهد وما قبله من العصور يعرفون بسدويكش وديارهم في مواطن كتامة ما بين قسطنطينية وبجاية في البسائط منها، ولهم بطون كثيرة مثل سيلين وطرسون وطرغيان وموليت وبني فتنة وبني لمائي وكايارة وبني زغلان والبؤرة وبني مزوان وواركسن وسكرال وبني عياد. وفيهم من لامية ومكلاتة وريفة والرئاسة على جميعهم في بطن منهم يعرفون أولاد سواق لهم جمع وقوة وعدة. وكان جميع هذه البطون وعيالهم غارمة فيمطون الخيل ويسكنون الخيام ويظعنون على الإبل والبقر ولهم مع الدول في ذلك الوطن استقامة. وهذا شأن القبائل الأعراب من العرب لهذا العهد. وهم يتفون من نسب كتامة ويفرون منه لما وقع منذ أربعمائة سنة من التكرير على كتامة بانتحال الرافضة وعداوة الدول بعدهم، فيتقادون بالانتساب إليهم. وربما انتسبوا في سليم من قبائل مضر وليس ذلك بصحيح، وإنما هم من بطون كتامة وقد ذكرهم مؤرخو صنهاجة بهذا النسب ويشهد لذلك الموطن الذي استوطنوه من إفريقية.

ويذكر نسبائهم ومؤرخوهم أن موطن أولاد سواق منهم كان في قلاع بني بو خصرة من نواحي قسطنطينية ومنه انتقلوا وانتشروا في سائر تلك الجهات. وأولاد سواق بطنان وهم: أولاد علاوة بن سواق وأولاد يوسف بن حمو بن سواق. فأما أولاد علاوة فكانت الرئاسة على قبائل سدويكش لهم فيما سمعناه من

ثمانين، وولي ابنه محمد من بعده، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني ثابت أهل الجبل المطل على

قسنطينة من بقايا كتامة

ومن بطون كتامة وقبائلهم أهل الجبل المطل على القل ما بينه وبين قسنطينة المعروف برئاسة أولاد ثابت بن حسن بن أبي بكر بن بني تليلان. ويقال: إن أبا بكر هذا الجد هو الذي فرض المغرم على أهل هذا الجبل لأيام الموحدين، ولم يكن قبل ذلك عليه مغم. فلما انقضى ملك صنهاجة وغلب الموحدون على إفريقية وفد أبو بكر هذا على الخليفة براكش ونجح بالطاعة والانقياد، وتقرب إليه بفرض المغرم على قبيلة بالجبل، وكان لثابت هذا من الولد: علي وحسن وسليمان وإبراهيم، كلهم رأسوا بالجبل، وأما حسن منهم فحجب السلطان أبا يحيى لأول دولته وفي عنيته، ولابن عمر لدولة طرابلس أعوام إحدى عشر وسبعمئة كما نذكره. فلما تملك السلطان بجاية وقتل ابن خلوف ورجع ابن عمر من تونس إلى حجابته، وجد حسن بن ثابت معسكراً بفرجوة لانقضاء مغارم الوطن، فبعث إليه من قتله. وكان آخرهم رئاسة بالجبل علي، أدرك دولة بني مرين بإفريقية، وولي بعده ابن عبد الرحمن ووفد على السلطان أبي عنان بفاس.

ولما استجد مولانا السلطان أبو العباس دولته بإفريقية استولى عليهم وبما أثر مشيختهم ورئاستهم وصيرهم من عداد جنده وحاشيته. واستعمل في الجبل عماله وهو جبل مطاوع وجبايته مؤداة لصولته وجواره للعسكر بقسنطينة. ومن بقايا كتامة أيضاً قبائل أخرى بناحية تدلس في هضبة مكتنفة بها وهم في عداد القبائل الغارمة، وبالمغرب الأقصى منهم قبيلة من بني يستين بجبل قبلة جبل يزناسن، وقبيلة أخرى بناحية الهبط مجاورون لنصر بن عبد الكريم وقبائل أخرى بناحية مراكش نزلوا مع صنهاجة هنالك.

ونسب كتامة لهذا العهد بين القبائل المثل السائر في الدولة لما نكرتهم الدول من بعدهم أربعمئة سنة بانتحالهم الراضية ومذاهبها الكفرية، حتى صار كثير من أهل نسبهم يفرون منه، ويتسبون فيمن سواهم من القبائل فراراً من هجسته، والعزة لله وحده.

الإلام بذكر زواوة من بطون كتامة

هذا البطن من أكبر بطون البربر ومواطنهم كما تراه محفة ببجاية إلى تدلس في جبال شاهقة وأوعار متسمة، ولهم بطون وشعوب كثيرة، ومواطنهم متصلة بمواطن كتامة هؤلاء، وأكثر الناس جاهلون بنسبهم. وعامة نسابة البربر على أنهم من بني سميكان بن يحيى بن ضريس، وأنهم إخوة زواغة والمحققون من النسابة مثل ابن حزم وأنظاره إنما يعدونهم في بطون كتامة وهو الأصوب. والمواطن أوضح دليل عليه وإلا فإين مواطن زواغة؟ وهي طرابلس بالمغرب الأقصى من مواطن كتامة.

وإنما حل على الغلط في نسبهم إلى كتامة تصحيف، اسم زواوة بالزاي بعد الواو، وهم إخوة زواغة بلا شك، فصحف هذا القارئ الزاي بالواو فعذ زواوة إخوان زواغة. ثم استمر التصحيف وجما في نسب سميكان والله أعلم، وقد مر ذكرهم هنالك مع ذكر زواغة وتعدد بطونهم.

الخبر عن صنهاجة من بطون البرانس وما

كان لهم من الظهور والدول في بلاد

المغرب والأندلس

هذا القبيل من أوفر قبائل البربر، وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما قبله لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر. وكان لهم في الردة ذكر وفي الخروج على الأمراء شأن تقدم منه في صدر ذكر البرابر، ونذكر منه هنا ما تيسر. وأما ذكر نسبهم فإنهم من ولد صنهاج وهو صناك بالصاد المشمة بالزاي والكاف القرية من الجيم. إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج، وهو عند نسابة البربر من بطون البرانس من ولد برنس بن بر، وذكر ابن الكلبي والطبري أنهم وكتامة جميعاً من حمير كما تقدم في كتامة، وفيما نقل الطبري في تاريخه أنه صنهاج بن يصوكان بن مسور بن الفند بن أفريقش بن قيس.

وبعض النسابة يزعم أنه صنهاج بن المثنى بن المنصور بن المصباح بن يحيى بن مالك بن عامر بن حمير الأصغر من سبأ، كذا نقل ابن النحوي من مؤرخي دولتهم وجعله ليحصب. وقد مر ذكره في أنساب حمير وليس كما ذكر والله أعلم. وأما المحققون

وبنو عثمان وبنو مزغنة وبنو جعد وملكانة وبطوية وبنو يفرن وبنو خليل، وبعض أعقاب ملكانة بمجيات ونواحيها، وكان التقدم منهم جميعاً للمكانة وكان كبيرهم لعهد الأغالبة مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر، وهو صناك بن واسفاق بن جبريل بن يزيد بن واسلي بن سميل بن جعفر بن إلياس بن عثمان بن سكاك بن ملكان بن كرت بن صنهاج الأكبر هكذا نسب ابن النحوي، من مؤرخي الأندلس، وذكر بعض مؤرخي المغرب: أن مناد بن منقوش ملك جانباً من إفريقية والمغرب الأوسط مقيماً لدعوة بني العباس، وراجعاً إلى أمر الأغالبة.

وأقام أمره من بعده ابنه زيري بن مناد، وكان من أعظم ملوك البربر. وكانت بينه وبين مغراوة من زناتة المجاورين له من جهة المغرب الأوسط كما نذكر حروب وفتن طويلة. ولما استوسق الملك للشيعية بإفريقية تحيز إليهم للولاية التي لعلي رضي الله عنه فيهم، وكان من أعظم أوليائهم، واستطال بهم على عدوه من مغراوة فكانوا ظهراً له عليهم، وانخرقت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم وتحيزوا عن المروانيين ملوك العدوة بالأندلس فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى. ولما كانت فتنة أبي يزيد والثالث أمر العبيديين بالقيروان والمهديّة، كان لزيري بن مناد منافرة إلى الخوارج أصحاب أبي يزيد وأعقابهم وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان كما ستره.

واختط مدينة أشير للتحصن بها سفح الجبل تيطرا لهذا العهد حيث مواطن حصين، وحصنها بأمر المنصور، وكانت من أعظم مدن المغرب. واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها، ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية. وحين نازل أبسا إسماعيل المنصور أبا يزيد قلعة كرامة جاءه زيري في قومه ومن انضم إليه من حشود البربر وعظمت نكايته في العدو وكان الفتح، وصحبه المنصور إلى أن انصرف من المغرب ووصله بصلات سنية. وعقد له على قومه وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير. وعقد له على تاهرت وأعمالها.

ثم اختط ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف، ومدينة لدونة. وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط، ولم يزل زيري على ذلك قائماً بدعوة العبيديين منابذاً لمغراوة، واتصلت الفتنة فيهم. ولما نهض جوهر الكاتب إلى المغرب الأقصى أيام معد المعز لدين الله أمره أن يستصحب زيري بن مناد فصحبه إلى المغرب

من نسابه البربر فيقولون: هو صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن كيما بن سدر بن مولان بن يصلين بن يبرين بن مكسيلة بن دهبوس بن حلحال بن شرو بن مصرايم بن حام. ويزعمون أن جزول والملط وهسكور إخوة صنهاج، وأن أهمهم الأربعة تصكي وبها يعرفون وهي بنت زحيك بن مادغس، ويقال لها العرجاء، فهذه القبائل الأربعة من القبائل أخوة لأم والله أعلم.

وأما بطون صنهاجة فكثيرة فمنهم: بلكانة وأنجفة وشرطة ولتونة ومسوفة وكدالة ومنذلة وبنو وارث وبنو يتيسن. ومن بطون أنجفة: بنو مزوارت وبنو سليل وفتشالة وملوانة. هكذا يكاد نقل بعض نسابه البربر في كتبهم وذكر آخرون من مؤرخي البربر أن بطونهم تنتهي إلى سبعين بطناً. وذكر ابن الكلبي والطبري أن بلادهم بالصحراء مسيرة سنة أشهر. وكان أعظم قبائل صنهاجة تلككانة وفيهم كان الملك الأول وكانت مواطنهم ما بين المغرب الأوسط وإفريقية، وهم أهل مدر. ومواطن مسوفة ولتونة وكدالة وشرطة بالصحراء، وهم أهل وير.

وأما أنجفة فبطونهم مفترقة وهم أكثر بطون صنهاجة. ولصنهاجة ولاية لعلي بن أبي طالب، كما أن لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما، إلا أننا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها. وكان من مشاهيرهم في الدولة الإسلامية ثابت بن زريع وثار بإفريقية أيام السفاح عند انقراض الأموية، وعبد الله بن سكرديلك، وعباد بن صادق من قواد حماد بن بلكين وسليمان بن بطعتان بن عليان أيام باديس بن بلكين. وبنو جدون وزاريني بني حماد، وهو حمدون بن سليمان بن محمد بن علي بن عليم، منهم ميمون بن جميل ابن أخت طارق، مولى عثمان بن عفان صاحب فتح الأندلس في آخرين يطول ذكرهم. وكان الملك في صنهاجة في طبقتين: الطبقة الأولى للمكانة ملوك إفريقية والأندلس، والثانية مسوفة ولتونة من الملمتين ملوك المغرب المسمون بالمرابطين. ويأتي ذكرهم كلهم إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الطبقة الأولى من صنهاجة وما كان لهم من الملك

كان أهل هذه الطبقة بنو ملكان بن كرت، وكانت مواطنهم بالمسيلة إلى حمرة إلى الجزائر ولدية ومليانة من مواطن بني يزيد وحصين والعطاف من زغبة، ومواطن الثعالب لهذا العهد. وكان معهم بطون كثيرة من صنهاجة أعقابهم هنالك من متنان وأنوغة

وسائر أعمال المغرب، وضم إليه المسيلة والزاب وسائر عمل جعفر فاستعتب واستفحل أمره واتسعت ولايته وأثنى في البربر أهل الخصوص من مزانة وهراة ونقزة وتوغل في المغرب في طلب زناتة فأثنى فيهم، ثم رجع واستقدمه السلطان لولاية إفريقية فقدم سنة إحدى وستين واستبلغ السلطان في تكريمه ونفس ذلك عليه كرامة، ثم نهض السلطان إلى القاهرة واستخلفه كما نذكره. وكان ذلك أول دولة آل زيري بإفريقية والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة آل زيري بن مناد ولادة

العبيدين من هذه الطبقة بإفريقية وأولية

أمرهم وتصاريح أحوالهم

لما أخذ المعز في الرحلة إلى المشرق وصرف اهتمامه إلى ما يتخلف وراء ظهره من الممالك والعمال، ونظر فيمن يوليه أمر إفريقية والمغرب ممن له الغناء والاضطلاع، وبه الوثوق من صدق التشيع ورسوخ القدم في دراية الدولة، فعثر اختياره على بلكين بن زيري بن مناد ولي الدولة منذ عهد سلفه بموجب عهد أخذه من أيدي زناتة أعدائها في سبيل الإبقاء على الدولة والمظاهرة للدولة.

دولة بلكين بن زيري

فبعث خلف بلكين بن زيري وكان متوغلاً في المغرب في حروب زناتة، وولاه أمر إفريقية والمغرب ما عدا صقلية كانت لبني أبي الحسين الكلبي، وطرابلس لعبد الله بن يثرب الكتامي وسماء يوسف بدلاً من بلكين، وكانه أبا الفتوح، ولقبه سيف الدولة، ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة، وحمله على مقرباته بالمراتب الثقيلة وأنفذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الأعمال، وأوصاه بثلاث: أن لا يرفع السيف عن البربر، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحداً من أهل بيته. وعهد إليه أن يفتح أمره بغزو المغرب لحسم دانه، ويقطع علائق الأموية منه. وارتحل يريد القاهرة سنة اثنين وستين ورجع عنه بلكين من نواحي صفاقس فنزل قصر معز بالقيروان، واضطلع بالولاية وأجمع غزو المغرب فغزاه في جموع صنهاجة وخلف كرامة وارتحل إلى المغرب وفر أمامه ابن خزر صاحب المغرب الأوسط إلى سجلماسة.

وبلغه خلاف أهل تاهرت وإخراج عامله فرحل إليها وخبرها. ثم بلغه أن زناتة اجتمعوا إلى تلمسان فرحل إليهم فهربوا

وظاهره على أمره. ولما قتل يعلى بن محمد اليفرنسي اتهمه زناتة بالمالأة عليه. ولما نزل جوهر فأس وبها أحمد بن بكر الجذامي، وطال حصاره إياه، كان لزيري في حصارها أعظم العناء، وكان فتحها على يده، سهر ذات ليلة وصعد سورها فكان الفتح.

ولما استمرت الفتنة بين زيري بن مناد ومغراوة ووصلوا أيديهم بالحكم المستصيري وأقاموا دعوة المروانية بالمغرب الأوسط، وشمر محمد بن الخير بن محمد بن خزر لذلك، رماه معز بقريعة زيري وقومه من صنهاجة وعقد له على المغرب وأقطع له ما افتتح من أقطاره فنهض زيري في قومه، واحتشد أهل وطنه وقد جمع له محمد بن الخير وزناتة، فسرح إليهم ولده بلكين في مقدمة، وعارضهم قبل استكمالهم التعبئة، فدارت بينهم حرب شديدة بعد العهد بمثلها يومئذ، واختل مصاف مغراوة وزناتة، ولما أيقن محمد بن الخير بالمهلكة وعلم أحيط به مال إلى ناحية من العسكر، وتحامل على سيفه فذبح نفسه وانفض جموع زناتة، واستمرت الهزيمة عليهم سائر يومهم فاستلحموا، ومكثت عظامهم ماثلة بمصارعهم عصوراً.

وهلك فيما زعموا بضعة عشر أميراً منهم، وبعث زيري برؤوسهم إلى المعز بالقيروان فعظم سروره وغم لها الحكم المستصيري صاحب الدعوة بما أوهنوا من أمره. واستطال زيري وصنهاجة على بوادي المغرب، وغلب يده على جعفر بن علي صاحب المسيلة والزاب وسما به في الرتب عند الخلافة وتآخه في العمالة. واستدعى معز جعفر بن علي من المسيلة لتولية إفريقية حين اعتمر على الرحيل إلى القاهرة فاستراب مما كانت السعاية كبرت فيه. وبعث معز المعز بعض مواليه فخافه جعفر على نفسه، وهرب من المسيلة ولحق بمغراوة فاشتملوا عليه، وألقوا بيده زمام أمرهم، وقام فيهم بدعوة الحكم المستصيري. وكانوا أقدم لها إجابة وفاوضهم زيري الحرب قبل استفحالهم فزحف إليهم واقتلوا قتلاً شديداً.

وكانت على زيري الدبرة وكبا به فرسه، وأجلت الهزيمة عن مصرعه ومصارع حاميته من قومه فحزوا رأسه وبعثوا به إلى الحكم المستصيري بقرطبة في وفد أوفدوه عليه من أمرائهم يؤدون الطاعة ويؤكدون البيعة، ويجمعون لقومهم النصرة. وكان مقدم وفدهم يحيى بن علي أخو جعفر هذا كما ذكرناه. وهلك زيري هذا سنة ستين وثلاثمائة لست وعشرين سنة من ولايته، ولما وصل خبره إلى ابنه بلكين وهو بأشير نهض إلى زناتة ودارت بينهم حرب شديدة. فانهزمت زناتة وثار بلكين بأبيه وقومه، واتصل ذلك بالسلطان محمد أثره وعقد له على عمل أبيه بأشير وتيهرت

دولة منصور بن بلكين

ولما توفي بلكين بعث مولاه أبو زغيل بالخبر إلى ابنه المنصور، وكان والياً بأشير وصاحب عهد أبيه، فقام بأمر صنهاجة من بعده ونزل صيره وقلده العزيز نزار بن معد أمر إفريقية والمغرب وكان على سنن أبيه، وعقد لأخيه أبي البهار على تاهرت ولأخيه يطوفت على أشير، وسرحه بالعساكر إلى المغرب الأقصى سنة أربع وسبعين يسترجعه من أيدي زناتة، وقد بلغه أنهم ملكوا سجلماسة وفاس، فلقية زيري بن عطية المغراوي الملقب بالقرطاس أمير فاس فهزموه ورجع إلى أشير. وأقصى المنصور بعدها عن غزو المغرب وزناتة، واستقل به ابن عطية وابن خزرون وبدر بن يعلى كما نذكر بعد.

ثم رحل بلكين إلى رقادة وقتل بعبد الله بن الكاتب عامله وعامل أبيه على القيروان لهنات كانت منه، وسعادات أنجحت فيه فهلك سنة تسع وسبعين وولي مكانه يوسف بن أبي محمد، وكثر التواتر بكتابه فقتلهم وأئخن فيهم حتى أذعنوا، وأخرج إليهم العمال وعقد لأخيه حماد على أشير. وطالت الفتنة مع زناتة ونزل إليه منهم سعيد بن خزرون. ولم يزل سعيد بطبيعة إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وولي ابنه فلفول بن سعيد. وخالف أبو البهار بن زيري سنة تسع وسبعين فزحف إليه المنصور وفر بين يديه إلى المغرب، وأمد المنصور أهل تاهرت وبضى في أتباع أبي البهار حتى نفذ عسكره وأشير عليه بالرجوع فرجع، وبعث أبو البهار إلى أبي عامر صاحب الأندلس في المظاهرة والمدد، واسترهن ابنه في ذلك، فكتب زيري بن عطية صاحب دعوة الأموية من زناتة بفاس أن يكون معه يداً واحدة فظاهره زيري واتفق رأيهما مدة، وحاربهما بدر بن يعلى فهزماه وملكوا فاس وما حولها، ثم اختلفت ذات بينهما سنة اثنتين وثمانين ورجع أبو البهار إلى قومه، ووفد على المنصور سنة اثنتين وثمانين بالقيروان فأكرمه ووصله وأنزله أحسن نزل وعقد له على تاهرت، ثم هلك المنصور سنة خمس وثمانين.

دولة باديس بن المنصور

ولما هلك المنصور قام بأمره ابنه باديس وعقد لعمه يطوفت على تاهرت، وسرح عساكره لحرب زناتة مع عميه يطوفت وحماد، فولوا منهزمين أمام زناتة إلى أشير. ونهض بنفسه سنة تسع وثمانين لحرب زيري بن عطية راجعاً إلى المغرب، فولى باديس أخاه يطوفت

أمامه. ونزل على تلمسان فحاصرها حتى نزل أهلها على حكمه ونقلهم إلى أشير. وبلغه كتاب معد ينهيه عن التوغل في المغرب فرجع. ولما كان سنة سبع وستين رغب بلكين من الخليفة نزار بن المعز أن يضيف إليه عمل طرابلس وسرت وأجدابية فأجابه إلى ذلك وعقد له عليها، ورحل عنها عبد الله بن يخلف الكتامي وولى بلكين عليه من قبله. ثم ارتحل بلكين إلى المغرب، وفرت أمامه زناتة فملك فاس وسجلماسة وأرض أبيض وطرد منها عمال بني أمية، ثم غزا جموع زناتة بسجلماسة وأوقع بهم وتقبض على ابن خزر أمير مغراوة فقتله، وأجفل ملوكهم أمامه مثل بني يعلى بن محمد اليفرنى وبني عطية بن عبد الله بن خزر وبني فلفول بن خزر، ويحيى بن علي بن حمدون صاحب البصرة.

وبرزوا جميعاً بقياطينهم إلى سبتة، وبعثوا الصريخ إلى المنصور بن أبي عامر، فخرج بعساكره إلى الجزيرة الخضراء، وأمدهم بمن كان في حضرته من ملوك زناتة ورؤسائهم النازعين إلى خلفاء الأموية بالأندلس بقرطبة بالمقام في سبيل الطاعة، واغتنام فضل الرباط بثغور المسلمين في إيالة الخلفاء، واجتمعت منهم وراء البحر أمم مع ما انضم إليهم من العساكر والحشود، وأجازهم البحر لقصر جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة، وعقد له على حرب بلكين وأمه بمائة حمل من المال، فتعاقد ملوك زناتة واجتمعوا إليه، وضربوا مصاف القتال بظاهر سبتة. وهرج إليهم المدد من الجزيرة من عساكر المنصور، وكادوا يغوضون البحر من فراش الزقاق إلى مظاهرة أولياتهم من زناتة. ووصل بلكين إلى تطاور وتسمن هضابها، وقطع شعراها لنهج المسالك والطرق لعسكره، حتى أطل على معسكرهم بظاهر سبتة فأرى ما هاله واستيقن امتناعهم.

ويقال: إنه لما عاين سبتة من مستشفه، ورأى اتصال المدد من العدو إلى معسكرهم بها قال: هذه أفعى ففزت إلينا فاها وكرّ راجعاً على عقبه. وكان موقفه ذلك أقصى أثره، ورجع إلى البصرة فهدمها وكانت دار ملك ابن الأندلسي، وبها عمارة عظيمة. ثم انفتح له باب في جهاد برغواطة فارغحل إليهم وشغل بجهادهم، وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار كما نذكره. وأرسل بالسبي إلى القيروان وأذهب دعوة بني أمية من نواحي المغرب وزناتة مشردون بالصحراء إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين بوراكنس ما بين سجلماسة وتلمسان منصراً من هذه الغارة الطويلة.

طبنة والمسيلة ومقره ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة وانقلب بهدية ضخمة. ووضعت الحرب أوزارها من يومئذ، واقتسموا الحطلة والتحموا بالأصهار، واقترب ملك صنهاجة إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة إلى حماد بن بلكين أصحاب القلعة.

ونهض المعز إلى حماد سنة اثنتين وثلاثين فحاصره بالقلعة مدة سنين، ثم أقبل عنها وانكفأ راجعاً ولم يعاود قتله بعد. ووصل زاوي بن زيري من الأندلس سنة عشر وأربعمائة كما ذكرناه في خبره، فتلقاء المعز أعظم لقاء وسلم عليه راجلاً وفرشت القصور لنزله، ووصله أعظم الصلات وأرفعها، واستمر ملك المعز بإفريقية والقيروان، وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأثره وأبذخه. نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولائم والمدايا والجنائز والأعطيات ما يشهد بذلك، مثل ما ذكر أن هدية صندل عامل باغاية مائة حمل من المال، وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان العود الهندي بمسامير الذهب، وأن باديس أعطى فللول بن مسعود الزناتي ثلاثين حملاً من المال وثمانين تحتاً. وأن أعمار بعض أعمال الساحل بناحية صفاقس كان خمسين ألف قفيز وغير ذلك من أخبارهم.

وكانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب في جميعها كما هو مذكور، وكان المعز منحرفاً عن مذاهب الرافضة، ومتحلاً للسنن، فأعلن مذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة، ثم صار إلى قتل من وجد منهم، وكبا به فرسه ذات يوم فنادى مستغيثاً باسم أبي بكر وعمر، فسمعت العامة فثاروا لحينهم بالشيعه وقتلهم أربح قتل وقتل دعاة الرافضة يومئذ وامتنعوا لذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة، وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجاني مخذراً، وهو يراجع بالتعريض بخلفائه والقسد فيهم حتى أظلم الجو بينه وبينهم إلى أن انقطع الدعاء لهم سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر من خلفائهم. وأحرق بنوده ومعا اسمه من الطرز والسكة، ودعا للقائين من القادر من خلفاء بغداد. وجاءه خطاب القائم وكتاب عهده صحبة داعيته أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي، فرماه المستنصر خليفة العبيدين بالعرب من هلال الذين كانوا مع القرامطة، وهم رياح وزغبة والأثيج، وذلك بمشاركة من وزيره أبي محمد الحسن بن علي اليازوري كما ذكرنا في أخبار العرب ودخولهم إلى إفريقية.

وتقدموا إلى البلاد وأفسدوا السابلة والقرى وسرح إليهم المعز جيوشه فهزمهم، فنهض إليهم ولقيهم بجبل حيدران فهزموه، واعتصم بالقيروان فحاصروه وغرسوا به وطال عيبتهم في

على تاهرت وأشير، وخالف عليه عمومته ماكسن وزاوي وحلال ومعتز وعزم واستباحوا عسكر يطوفت وأفلت منهم، ووصل أبو البهار متبرئاً من شأنهم، وشغل السلطان باديس بحرب فللول بن سعيد كما نذكره في أخبار بني خزرون وسرح عمه حماداً لحرب بني زيري إخوته. ووصل بنو زيري أيديهم بفللول ثم رجعوا إلى حماد فهزمهم وتقضى على ماكسن منهم بأطمة الكلاب وقتل أولاد الحسن وباديس، كذا ذكر ابن حزم.

ونجا فلهم إلى جبل سنة فنازلهم حماد أياماً وعقد لهم السلم على الإجازة إلى الأندلس فلحقوا بابن عامر سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.

وهلك زيري بن عطية المغراوي لتسع أيام من مهلك ماكسن، وأقبل باديس عمه حماداً إلى حضرته ليستعين به في حروف فللول، فاضطرب المغرب لقلوله، وأظهرت زناتة الفساد وأضرروا بالسابلة وحاصروا المسيلة وأشير، فسرح إليهم باديس عمه حماداً وخرج على أثره سنة خمس وتسعين فنزل تيجست ودوخ حماد المغرب، وأئخن في زناتة واختط مدينة القلعة. ثم طلب منه باديس أن ينزل على عمل يتحس وقسطنطينة اختياراً للطاغية فأبى وأظهر الخلاف، وبعث إليه أخاه إبراهيم فأقام معه، وزحف إليهم باديس، ثم رحل في طلبه إلى شلف، ونزع إليه بعض العساكر، ودخل في طاعته بنو توجين وجاروا في مدده، ووصل أميرهم عطية بن دافلين وبدر بن أعمان بن المعتز فوصلها، وكان حماد قتل دافلين. ثم نزل باديس نهر واصل والسرسو وكزول وأثنى حماد راجعاً إلى القلعة واتبعه باديس. ونأزله بها وهلك بمعسكره عليها سنة ست وأربعمائة فجأة، وهو نائم بين أصحابه بمضربه، فارتحلوا راجعين واحتملوا باديس على أعواده.

دولة المعز بن باديس

ولما بلغ الخبر بمهلك باديس ببيع ابنه المعز ابن ثمان سنين، ووصل العسكر قبائعه البيعة العامة. ودخل حماد المسيلة وأشير، واستعد للحرب وحاصر باغاية، وبلغ الخبر بذلك فزحف المعز إليه وأفرج عن باغاية، ولقيه فانهزم حماد وأسلم معسكره، وتقضى على أخيه إبراهيم ونجا إلى القلعة، ورغب في الصلح فاستجيب على أن يبعث ولده، وانتهى المعز إلى سطيف وقصر الطين وقفل إلى حضرته، ووصل إليه القائد ابن حماد سنة ثمان وأربعمائة راغباً في الصلح ففقدته، واستقل حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت، وما يفتح من بلاد المغرب، وعقد للقائد ابن حماد على

أفرج عنها، ونازلته العرب سنة ست وسبعين بالمهدية، ثم أفرجوا عنه، وهزمهم فقصدوا القيروان ودخلوها فأخرجهم عنها.

وفي أيامه كان تغلب نصارى جنده على المهدية سنة ثمانين نزلوها في ثلثمائة مركب وثلثين ألف مقاتل، واستولوا عليها وعلى زويلة، فبذل لهم تميم في النزول عنها مائة ألف دينار بعد أن انتهبوا جميع ما كان بها، فاستخلصها من أيديهم ورجع إليها، ثم استولى على قابس سنة تسع وثمانين من يد أخيه عمر بن المعز بايع له أهلها بعد موت قاضي بن إبراهيم. ثم استولى بعدها على صفاقس سنة ثلاث وتسعين وخرج منها هو بن مليل إلى قابس، فأجاره مكن بن كامل الدهماني إلى أن مات بها. وكانت رياح قد تغلبت على زغبة وعلى إفريقية من لدن سبع وستين وأخرجوه منها، وفي هذه المائة الخامسة غلب الأخضر من بطون رياح على مدينة باجة وملكوها، وهلك تميم إثر ذلك سنة إحدى وخمسمائة.

دولة يحيى بن تميم

ولما هلك تميم بن المعز ولَّى ابنه يحيى، وافتتح أمره بافتتاح إقليبية وغلب عليها ابن محفوظ الناصر بها. وثار أهل صفاقس على ابنه أبي الفتح فلفظ الحيلة في تفرق كلمتهم، وراجع طاعة العبيدين ووصلته المخاطبات والهدايا، وكان قد صرف همه إلى غزو النصارى والأساطيل البحرية فاستكثر منها واستبلغ في اقتنائها، وردد البعث إلى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد إفريقية وجنوة وسردنية. وكان له في ذلك آثار ظاهرة عزيزة. وهلك فجأة في قصره سنة تسع وخمسمائة والله أعلم.

دولة علي بن يحيى

ولما هلك يحيى بن تميم ولَّى علي ابنه، استقدم لها من صفاقس، فقدم في خفارة أبي بكر بن أبي جابر مع عسكر ونظرائه من أمراء العرب. وكان أعظم أمراء عساكر صنهاجة محاصرين لقصر الأجم فاجتمعوا إليه وتحت بيعته. ونهض إلى حصار تونس حتى استقام أحمد بن خراسان على الطاعة، وفتح جبل وسلات، وكان متمتعاً على من سلف من قومه، فجرد إليه عسكراً مع ميمون بن زياد الصخري المعادي من أمراء العرب، فافتحوه وقتلوا من كان به. ووصل رسول الخليفة من مصر بالمخاطبات والهدايا على العادة، ثم نهض إلى حصار رافع بن مكن بقابس سنة

البلاد وإضرارهم بالرعيا إلى أن خربت إفريقية. وخرج ابن المعز من القيروان سنقستع وأربعين مع خفيره منهم، وهو مؤنس بن يحيى الصبري أمير رياح، فلحق في خفارته بالمهدية بعد أن أصهر إليه في ابته فانكحه إياها ونزل بالمهدية وقد كان قدم إليها ابنه تميمًا فنزل عليه، ودخل العرب القيروان وانتهبوها.

وأقام المعز بالمهدية وانتزى الثوار في البلاد فغلب هو بن مليل البرغواطي على مدينة صفاقس وملكها سنة إحدى وخمسين، وخالفت سوسة وصار أهلها إلى الشورى في أمرهم، وصارت تونس آخراً إلى ولاية الناصر بن علناس بن حماد صاحب القلعة. وولى عليهم عبد الحق بن خراسان فاستبد بها واستقرت في ملكه وملك بنيه، وتغلب موسى بن يحيى على قابس وصار عاملها المعز بن محمد الصنهاجي إلى ولايته، وأخوه إبراهيم من بعده كما يأتي ذكره. والثالث ملك آل باديس وانقسم في الثوار كما نذكر في أخبارهم بعد وهلك المعز سنة أربع وخمسين والله أعلم.

دولة تميم بن المعز

ولما هلك المعز قام بأمره ابنه تميم وغلبه العرب على إفريقية، فلم يكن له إلا ما ضمه السور، خلا أنه كان يخالف بينهم وتسلط بعضهم على بعض، وزحف إليه هو بن ملين البرغواطي صاحب صفاقس، فخرج تميم للقائه، وانقسمت العرب عليهما فانهزم هو وأصحابه، ذلك سنة خمس وخمسين وسار منها إلى سوسة فافتتحها، ثم بعث عساكره إلى تونس فحاصروا ابن خراسان حتى استقام على الطاعة لتميم. ثم بعث عساكره أيضاً إلى القيروان، وكان بها قائد بن ميمون الصنهاجي من قبل المعز فأقام ثلاثاً، ثم غلبته عليها هواره، وخرج إلى المهدية، ثم رده تميم إلى ولايته بها فخالف بعد ست من ولايته، وكاتب الناصر بن علناس صاحب القلعة فبعث تميم إليه العساكر فلحق بالناصر وأسلم القيروان.

ثم رجع بعد ست إلى هو بن مليل البرغواطي بصفاقس وابتاع له القيروان من مهتاً بن علي أمير زغبة، فولاه عليها وحصنها سنة سبعين، وكانت بين تميم والناصر صاحب القلعة أثناء ذلك فتن كان سماسرتها العرب يجاجتون بالناصر من قلعتهم، ويوطنون عساكره ببلاد إفريقية، وربما ملك بعض أمصارها، ثم يردونه على عقبه إلى داره إلى أن اصطلحها سنة سبعين، وأصهر إليه تميم بابته، ونهض تميم سنة أربع وسبعين إلى قابس وبها ماضي بن محمد الصنهاجي، ولها بعد أخيه إبراهيم فحاصرها، ثم

إحدى عشرة وخمسمائة، ودون لها قبائل فادغ من بني علي إحدى بطون رياح كما نذكره في أخبار رافع. ثم حدثت الفتنة بينه وبين رجار صاحب صقلية بمالأة رجار لرافع بن كامل عليه، وإمداده إياه بأسطوله، يغير على ساحل علي بن يحيى ويرصد أساطيله، فاستخدم علي بن يحيى الأساطيل وأخذ في الأهبة للحرب، وهلك سنة خمس عشرة وخمسمائة والله أعلم.

دولة الحسن بن علي

ولما هلك علي بن يحيى بن تميم ولي بعده ابنه الحسن بن علي غلاماً بفعه ابن اثني عشرة سنة، وقام بأمره مولاة صندل. ثم مات صندل وقام بأمره مولاة موفق. وكان أبوه أصدر المكاتبية إلى رجار عند الوحشة يهدده بالمرايطين ملوك المغرب، ولما كان بينه وبينهم من المكاتبية. واتفق أن غزا أحمد بن ميمون قائد أسطول المرابطين صقلية، وافتتح قرية منها، فسيأها وقتل أهلها سنة ست عشرة، فلم يشك رجار أن ذلك يأملاء الحسن، فنزلت أساطيله إلى المهدي وعليهم عبد الرحمن بن عبد العزيز وجرجي بن غنائيل الأنطاكي، وكان جرجي هذا نصرانياً هاجر من المشرق، وقد تعلم اللسان وبرز في الحساب، وتهذب في الشام بأنطاكية وغيرها، فاصطنعه تميم واستولى عليه، وكان يحيى يشاوره.

فلما هلك تميم أعمل جرجي الخيلة في اللحاق برجار فلحق به، وحظى عنده، واستعمله على أسطوله. فلما اعترم على حصار المهدي بعثه لذلك، فزحف في ثلثمائة مركب، وبها عدد كثير من النصرانية، فيهم ألف فارس. وكان الحسن قد استعد لخرجه، فافتتح جزيرة قوصرة، وقصدوا إلى المهدي ونزلوا إلى الساحل، وضربوا الأبنية وملكوا قصر الدهانين وجزيرة الأملس وتكرر القتال فيهم إلى أن غلبهم المسلمون، وأقلعوا راجعين إلى صقلية بعد أن استمر القتل فيهم، ووصل بأكثر ذلك محمد بن ميمون قائد المرابطين بأسطوله، فعاث في نواحي صقلية، واعتزم رجار على إعادة الغزو إلى المهدي. ثم وصل أسطول يحيى بن العزيز صاحب بجاية لحصار المهدي، ووصلت عساكره في البر مع قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه، فصالح الحسن صاحب صقلية ووصل يده به، واستمد منه أسطوله، واستمد الحسن أسطول رجار فأمدته، وارتحل مطرف إلى بلده.

وأقام الحسن مملكاً بالمهدي، وانتقض عليه رجار وعاد إلى الفتنة معه، ولم يزل يردد إليه الغزو إلى أن استولى على المهدي قائد أسطوله جرجي بن مناسل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ووصلها

الخبر عن بني خراسان من صنهاجة الثوار
بتونس على آل باديس عند اضطراب
أفريقية بالعرب ومبدأ أمرهم ومصاير
أحوالهم

لما تغلب العرب على القيروان وأسلم المعز وتحول إلى المهدي، اضطربت إفريقية نارا. واقتسمت العرب البلاد عمالات، وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة

بينهم وهم مستبدون عليه، وكان بالمعلقة جوارهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح قد تغلب عليها.

وكانت الحرب بينه وبين أهل تونس سجلاً، والتحم بينهما المصاف وكان محرز يستمد عساكر صاحب المهديّة على أهل تونس فتأتيه إلى أن غلب التصاري على المهديّة، وحدثت الفتنة بينهم بالبلد فكان المصاف بين أهل باب السويقة وأهل باب الجزينة، وكانوا يرجعون في أمورهم إلى القاضي عبد النعمان ابن الإمام أبي الحسن. ولما غلب عبد المؤمن على بجاية وقسطنطينة وهزم العرب بسطيف ورجع إلى مراكش انتهت إليه شكوى الرعايا بإفريقية مما نزل بهم من العرب، فبعث ابنه عبد الله من بجاية إلى إفريقية في عساكر الموحدين، فنال تونس سنة اثنتين وخمسين وامتنت عليه. ودخل معهم محرز بن زياد وقومه من العرب، واجتمع جندهم وبرزوا للموحدين فأوقعوا بهم، وأفرجوا عن تونس.

وهلك أميرها عبد الله بن خراسان خلال ذلك، وولي مكانة علي بن أحمد بن عبد العزيز خمسة أشهر، وزحف عبد المؤمن إلى تونس وهو أميرها، فانقادوا لطاعته كما نذكره في أخبار الموحدين. ورحل علي بن أحمد بن خراسان إلى مراكش بأهله وولده، وهلك في طريقه سنة أربع وخمسين وأفرج محرز بن زياد عن المعلقة. واجتمعت إليه قومه وتدامرت العرب عن مدافعة الموحدين واجتمعوا بالقيروان، وبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو منصرف من غزاته إلى المغرب فبعث إليهم العساكر وأدركوهم بالقيروان فأوقعوا بهم واستلحموهم قتلاً وسيباً وتقبض على محرز بن زياد أميرهم فقتل وصلب شلوه بالقيروان، والله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه، وهو على كل شيء قدير.

الخبر عن بني الرند ملوك قفصة الثائرين بها

عند التياث ملك آل باديس بالقيروان

واضطرابه بفتنة العرب ومبدأ دولتهم

ومصاير أمورهم

لما تغلب العرب على إفريقية وتحل نظام الدولة الصنهاجية، وارتحل المعز من القيروان إلى المهديّة، وكان بقفصة عاملاً لصنهاجة عبد الله بن محمد بن الرند وأصله من جربة من بني صديغان. وقال ابن خثعل: هو من بني مريّن من مغراوة، وكان مسكنهم بالجوسين من نفزاوة فقبض قفصة وقطع عنها عادية الفساد، وصالح العرب على الأتاوة فصلحت السابلة واستقام الحال، ثم

وصفاقس وقابس، وصارت صاغية أهل إفريقية إلى بني حاد ملوك القلعة وملكوا القيروان، كما تقدم. وانقطعت تونس عن ملك المعز، ووفد مشيختها على الناصر بن علناس، فولى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، يقال إنه من أهل تونس، والأظهر أنه من قبائل صنهاجة، فقام بأمرهم وشاركهم في أمره وتودد إليهم وأحسن السيرة فيهم، وصالح العرب أهل الضاحية على أتاوة معلومة لكف عاديّتهم. وزحف تميم بن المعز من المهديّة إليه سنة ثمان وخمسين في جموعه، ومعه يبقى ابن علي أمير زغبة، فحاصر تونس أربعة أشهر، إلى أن صالحه ابن خراسان واستقام على طاعته فأفرج عنه.

ولم يزل قائماً بأمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين فولّي ابنه عبد العزيز وكان مضعفاً وهلك على رأس هذه المائة الخامسة وقام بأمره ابنه أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق فقتل عمه إسماعيل بن عبد الحق لكان ترشه، وغريه أبو بكر إلى أن برزت فأقام بها خوفاً على نفسه. ونزع أحمد إلى التخلّق بسير الملك، والخروج عن سير المشيخة، واشتدت وطائته، وكان من مشاهير رؤساء بني خراسان هؤلاء، فاستبد بتونس لأول المائة السادسة وضبطها وبني أسوارها. وعامل العرب على إصلاح سابلتها فصلحت حاله، وبني قصور بني خراسان. وكان مجالساً للعلماء محباً فيهم ونازله علي بن يحيى بن العزيز بن تميم سنة عشر وخمسمائة وضيق عليه، ودافعه بإسعاف غرضه فأفرج عنه. ثم نازله عساكر العزيز بن منصور صاحب بجاية فعاد إلى طاعته سنة أربعة عشر ولم يزل والياً على تونس إلى أن نهض سنة اثنتين وعشرين مطرف بن علي بن حمدون قائد يحيى بن العزيز من بجاية في العساكر إلى إفريقية، وملك عامة أمصارها، فتغلب على تونس وأخرج أحمد بن عبد العزيز صاحبها ونقله إلى بجاية بأهله وولده.

وولّي علي تونس كرامة بن المنصور عم يحيى بن العزيز فبقي والياً عليها إلى أن مات، وولي عليها بعده أخوه أبو الفتوح بن المنصور إلى أن مات وولّي مكانه ابن ابنه محمد، وساءت سيرته فعزل، وولي مكانه عمه محمد بن المنصور إلى أن استولى التصاري على المهديّة وسواحلها ما بين سوسة وصفاقس وطرابلس سنة ثلاث وأربعين، وصارت لصاحب صقلية، وأخرج الحسن بن علي كما هو مذكور، فأخذ أهل تونس في الاستعداد والحذر، واستأسدوا لذلك على واليهم، وانتشر بغاتهم وربما ثاروا بعض الأيام عليه فقتلوا عبيده بمرأى منه، واعتدوا عليه في خاصته. فبعث عنه أخوه يحيى من بجاية فركب البحر في الأسطول، وترك نائبه العزيز بن دافال من وجوه صنهاجة، فأقام

فوليها بكر بن كامل بن جامع أمير المناقشة من دهمان من بني علي إحدى بطون رياح فقام بأمرها، واستبد على صنهاجة. ولحق به مثنى بن تميم بن المعز نازعاً عن أبيه فأجابه، ونازل معه المهديّة حتى امتنعت عليه، وإطلع على قبائع شتى، فأفرج عنها. ولم يزل كذا على حاله في إجابة قابس وإمارة قومه دهمان إلى أن هلك. وقام بأمره بعده رافع واستفحل بها ملكه، وهو الذي اختط قصر العروسيين من مصانع الملك بها، واسمه مكتوب لهذا العهد في جدرانها.

ولما ولي علي بن يحيى بن تميم فسد ما بينه وبين رافع، وأعان عليه رافع صاحب صقلية فغلب أسطول علي بن يحيى على أسطول النصاري. ثم ذرى قبائل العرب والأساطيل، وزحف إلى قابس سنة إحدى عشر وأربعمائة. قال ابن أبي الصلت: دول الثلاثة الأخماس من قبائل العرب الذين هم: سعيد ومحمد ونخبة، وأضاف إليهم من الخمس الرابع أكابر بني مقدم فوافى من كان منهم بفحص القيروان، وفر رافع إلى القيروان وامتنع عليه أهلها. ثم اجتمع شيوخ دهمان واقتسموا البلاد، وعيّنوا القيروان لرافع وأمكنوه. وبعث علي بن يحيى عساكره والعرب المدونة على منازل رافع بالقيروان، وخرج إلى محاربتهم فهلك بالطريق في بعض حروبه مع أشياع رافع.

ثم أن ميمون بن زياد الصخري حمل رافع بن مكن على مسألة السلطان وسعى في إصلاح ذات بينهم، فانصلح وارتفعت بينهما الفتنة. وقام بقابس من ذلك رشيد بن كامل. قال ابن نخيل: وهو الذي اختط قصر العروسيين وضرب السكة الرشيدية، وولّى بعده ابنه محمد بن رشيد، وغلب عليه مولاه يوسف، ثم خرج محمد في بعض وجوه وترك ابنه مع يوسف فطرده يوسف واستبد، وانتهى إلى طاعة رجار فتار به أهل قابس ودفعوه عنهم، فخرج إلى أخيه، ولحق أخوه عيسى بن رشيد وأخبره الخبر فحاصروهم رجار بسبب ذلك مدة من الأيام. وكان آخر من ملكها من بني جامع أخوه مدافع بن رشيد بن كامل. ولما استولى عبد المؤمن على المهديّة وصفاقس وطرابلس بعث ابنه عبد الله بعسكر إلى قابس ففر مدافع بن رشيد عن قابس وأسلمها للموحدين، ولحق بعرب طرابلس من عرب عوف فأجاروه سنتين، ثم لحق بعبد المؤمن بقابس فأكرمه ورضي عنه. وانقرض أمر بني جامع من يؤانس، والبقاء لله وحده اه.

استبد بأمره وخلع الامثال من عتقه سنة خمس وأربعين واستمر على ذلك. وبايعته توزر وقفصة وسوس والحامة ونقزاوة وسائر أعمال قسطنطينة فاستفحل أمره وعظم سلطانه، ووفد عليه الشعراء والقصاد، وكان معظماً لأهل الدين إلى أن هلك سنة خمس وستين.

وروي من بعده ابنه المعتز وكنيته أبو عمر، وانتقاد إليه الناس فضبط الأمور وجبى الأموال واصطنع الرجال، وتغلب على قمودة وجبل هواره وسائر قسطنطينة وما إليها، وحسنت سيرته إلى أن عمي، وهلك في حياته ابنه تميم فعهد لابنه يحيى بن تميم، وقام بالأمر واستبد على جدّه ولم يزالوا بخير حال إلى أن نازلهم عبد المؤمن سنة أربع وخمسين. فمتمهم من الأمر، ونقلهم إلى بجاية فمات المعتز بها سنة سبع وخمسين لمائة وأربع عشرة من عمره وقيل لسبعين، ومات بعده ييسر حافده يحيى بن تميم. وولّى عبد المؤمن على قفصة نعمان بن عبد الحق الهتاني، ثم عزله بعد ثلاث ميمون بن أجانا الكنسيفي، ثم عزله بعمران بن موسى الصنهاجي، وأساء إلى الرعية، فبعثوا عن علي بن العزيز بن المعتز من بجاية. وكان بها في مضيقه يحترف بالخياطة فقدم عليهم، وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحدين فقتلوه وقدموا علي بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته، وأغراه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين أخاه السيد أبا زكريا فحاصره وضيق عليه وأخذته، وأشخصه إلى مراکش بأهله وماله، واستعمله على الأشغال بمدينة سلا إلى أن هلك وفيت دولة بني الرند والبقاء لله وحده اه.

الخبر عن بني جامع الهلاليين أمراء قابس

لعهد الصنهاجيين وما كان لتميم بها من

الملك والدولة وذلك عند فتنة العرب

بأفريقية

ولما دخلت العرب إلى إفريقية وغلبوا المعز على الضواحي ونازلوه بالقيروان، وكان السوالي بقاس المعز بن محمد بن لموية الصنهاجي، وكان أخواه إبراهيم وماضي بالقيروان قائدتين للمعز على جيوشه فعزلهما، ولحقا مغاضيين بمؤنس بن يحيى، وكان ذلك أول تملك العرب. ثم أقام إبراهيم منهم والياً بقابس ولحق المعز بن محمد بمؤنس، فكان معه إلى أن هلك إبراهيم وولي مكانه أخوه ماضي، وكان سيئ السيرة فقتله أهل قابس، وذلك لعهد تميم بن المعز بن باديس، وبعثوا إلى عمر أخي السلطان إلى طاعة العرب،

الحسن عاملاً لهم في أهل بلده وأبوه عندهم. ثم أن النصاري الساكنين بصفاقس امتدت أيديهم إلى المسلمين ولحقوهم بالضرر. وبلغ الخبر أبا الحسن وهو بمكانه من صقلية، فكتب إلى ابنه عمر، وأمره بانتهاز الفرصة فيهم والاستسلام إلى الله في حق المسلمين، فثار بهم عمر لوقته سنة إحدى وخمسين وقتلهم وقتل النصاري أباه أبا الحسن وانتقضت عليهم بسبب ذلك سائر السواحل. ولما افتتح عبد المؤمن المهدي من يد رجار، وصل إليه عمر، وأدى طاعته، فولاه صفاقس، ولم يزل والياً عليها وابنه عبد الرحمن من بعده إلى أن تغلب يحيى بن غانية فرغبه في الحج، فسرعه ولم يعد.

الخبر عما كان بإفريقية من الثوار على

صنهاجة عند اضطرابها بفتنة العرب إلى أن

محا أثرهم الموحدون

لما كان أبو رجاء السورد اللخمي عند اضطراب نار الفتنة بالعرب، وتقويض المعز عن القيروان إلى المهدي، وتغلبهم عليها قد ضم إليه جماعة من الدغار. وكان ساكناً بقلعة قرسبنة من جبل شعيب، فكان يضرب على النواحي بجهة بنزرت ويفرض على أهل القرى الأتاوات بسبب ذلك، فطال عليهم أمره ويشوا من حسم دائه، وكان يبذل بنزرت فريقان أحدهما من لحسم وهم من قوم الورد، ويقوا فوضى واختلف أمرهم، فبعثوا إلى الورد في أن يقوم بأمرهم، فوصل إلى بلدهم، فاجتمعوا عليه وأدخلوا حصن بنزرت، وقدموه على أنفسهم فحاطهم من العرب، ودافع عن نواحيهم. وكان بنو مقدم من الأثبج ودهمان من بني علي إحدى بطون رياح هم المتغلبون على ضاحيتهم فهادنهم على الأتاوة وكف بها عاديتهن، واستفحل أمرهم وتسمى بالأمير، وشيد المصانع والمباني وكثر عمران بنزرت إلى أن هلك، فقام بأمره ابنه طراد وكان شهماً، وكانت العرب تهابه.

وهلك فولى من بعده ابنه محمد بن طراد، وقتله أخوه مقرر لشهر من ولايته في مسامرة، وقام بأمر بنزرت وسمي بالأمير، وحمل حوزته من العرب، واصطنع الرجال، وعظم سلطانه وقصده الشعراء وامتدحوه فوصلهم. وهلك فولى من بعده ابنه عبد العزيز عشر سنين، وجرى فيها على سنن أبيه وجده، ثم ولي من بعده أخوه موسى على سنتهم أربع سنين.

ثم من بعده أخوهما عيسى واقفى أثرهم. ولما نازل عبد الله بن عبد المؤمن تونس وأفرج عنه ومر به في طريقه فاستفرغ

الخبر عن ثورة رافع بن مكن بن مطروح بطرابلس والقريناني بصفاقس على النصاري وأخراجهم واستبدادهم بأمر بلدهم في آخر دولة بني باديس

أما طرابلس فكان رجار صاحب صقلية قد استولى عليها سنة أربعين وخمسمائة على يد قائده جرجي بن ميخائيل الأنطاكي، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم، وبقيت في مملكة النصاري أياماً. ثم إن أبا يحيى بن مطروح من أعيان البلد مشى في وجوه الناس وأعيانهم، وداخلهم في الفتن بالنصاري فاجتمعوا لذلك وثاروا بهم وأحرقوهم بالنار. ولما وصل عبد المؤمن إلى المهدي وافتتحها سنة خمس وخمسين وفد عليه أبو يحيى بن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم برأ وتكرمة. وقدم ابن مطروح المذكور عليهم وردهم إلى بلدهم، فلم يزل عليهم إلى أن هرم وعجز بعهد يوسف بن عبد المؤمن، وطلب الحج فسرعه السيد أبو زيري بن أبي حفص محمد بن عبد المؤمن عامل تونس فارتحل في البحر سنة ست وثمانين واستقر بالإسكندرية.

وأما صفاقس فكانت ولايتها أيام بني باديس من صنهاجة قبيلهم إلى أن ولي المعز بن باديس عليها منصور البرغواطي من صناعته، وكان فارساً مقدماً، فحدث نفسه بالثورة أيام تغلب العرب على إفريقية، وخروج المعز إلى المهدي ففتك به ابن عمه حمو بن مليس البرغواطي وقتله في الحمام غدرًا. وامتنع له حلفاؤه من العرب وحاصروا حمو حتى بذل لهم من المال ما رضوا به. واستبد حمو بن مليس بأمر صفاقس حتى إذا هلك المعز حدثه نفسه بالتغلب على المهدي، فزحف إليها في جموعه من العرب، ولقيه تميم فانهزم حمو وأصحابه سنة خمس وخمسين. ثم بعث ابنه يحيى مع العرب لحصار صفاقس، فحاصرها مدة وأقلع عنها. وزحف إليه تميم بن المعز سنة ثلاث وتسعين فغلبه عليها. ولحق حمو بمكن بن كامل أمير قابس فأجاره، وصارت صفاقس إلى ملكة تميم ووليا ابنه.

ولما تغلب النصاري على المهدي وملكها جرجي بن ميخائيل قائد رجار سنة ثلاث وأربعين وتغلبوا بعدها على صفاقس وأبقوا أهلها، واستعملوا عمر بن أبي الحسن القريناني لكانه فيهم. وحملوا أباه أبا الحسن معهم إلى صقلية رهناً. وكان ذلك مذهب رجار ودينته فيما ملك من سواحل إفريقية، يقيمهم ويستعمل عليهم منهم، ويذهب إلى العدل فيهم بقي عمر بن أبي

جانب إفريقية، وكان أيضاً حماد بن خليفة اللخمي بمزول رقطون من إقليم زغوان على مثل حال ابن علال وابن غنوش وابن بيزون وخلفه ولده في مثل ذلك إلى أن انقطع ذلك على يد عبد المؤمن. وكان عماد بن نصر الله الكلاعي بقلعة شقبارية قد صار إليه جند من أهل الدعارة وأوباش القبائل، فحملها من العرب، واستغاث به ابن فتاة شيخ الأريس من العرب، وشكا إليه سوء ملكتهم، فزحف إليهم وأخرجهم من الأريس، وفرض عليهم مالا يؤدونه إليه إلى أن مات وولي ابنه من بعده، فجرى على سنته إلى أن دخل في طاعة عبد المؤمن سنة أربع وخمسين وخمسمائة، والله مالك الملك لا رب غيره وسبحانه اه.

الخبر عن دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة الداعية لخلافة العبيدين وما كان لهم من الملك والسلطان بإفريقية والمغرب الأوسط إلى حين انقراضه بالموحدين

هذه الدولة شعبة من دولة آل زيري وكان المنصور ولكن قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة، وكان يتداولها مع أخيه يطوف وعمه أبي البهار. ثم استقل بها سنة سبع وثمانين إيام باديس من أخيه المنصور ودفعه لحرب زناتة سنة خمس وتسعين بالمغرب الأوسط من مغراوة وبنى يفرن، وشرط له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه وأن لا يستقدمه. فعظم عناؤه فيها وأثنى في زناتة وكان مظفراً عليهم، واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين، وهو جبل عجيسة وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال. ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخريهما. ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها، وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة. وشيد من بنياتها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والقنادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن. ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها.

ولم يزل حماد إيام باديس هذا أميراً على الزاب والمغرب الأوسط ومتولياً حروب زناتة. وكان نزوله ببلد أشير والقلعة متاخماً للموك زناتة وأحياتهم البادية بضواحي تلمسان وتاهرت. وحاربه بنو زيري عند خروجه على باديس سني تسعين وثلاثمائة وهم زاوي وماكسن وإخوانهما فقتل ماكسن وابناه، وألجأ زاوي

جهده في قراه ونجح بطاعته. وطلب منه الحفاظ على بلده فأسعفه. وولى عليهم أبا الحسن المرغي، فلما قدم عبد المؤمن على إفريقية سنة أربع وخمسين راعى له ذلك وأقطعه، واندرج في جملة الناس. وكان بقلعة ورغة بدوكس بن أبي علي الصنهاجي من أولياء العزيز المنصور صاحب بجاية، والقلعة قد شادها وحصنها.

وكان مبدأ أمره أن العزيز تغير عليه في حروب وقعت بينه وبين العرب نسب فيها إلى نفسه الإقدام، وإلى السلطان العجز، فخافه على نفسه، ولحق ببجاية فأكرمه شيخها عمود بن نزال للبرغي وآواه وترافع إلى محمود أهل ورغة من عمله، وكانوا فتيين مختلفين من زاتمة إحدى قبائل البربر، وهما أولاد مدين وأولاد لاحق. فبعث عليهم بروكس بن أبي علي لينظر في أحوالهم، وأقام معهم بالقلعة. ثم استجلب بعض الدعار كانوا بناحيتهما، وأنزلهم بالقلعة معهم واصطنعهم صاهر أولاد مدين وظاهرهم على أولاد لاحق، وأخرجهم من القلعة واستبد بها.

وقصدته الرجال من كل جانب إلى أن اجتمعت له خمسمائة فارس، وأثنى في نواحيه، وحارب بني الورد بيزرت وابن علال بطبرية، وقتل محمد بن سباع أمير بني سعيد من رياح، وغصت القلعة بالسكان فاختذ لها ريضاً، وجهز إليه العزيز عسكره من بجاية فيارز قائد العسكر وقتك به واسمه غيلاس. وهلك بعد مدة وقام بأمره ابنه منيع، ونازله بنو سباع وسعيد طالبين بثأر أخيهما محمد. وتمادى به الحصار وضاعت أحواله فافتحموا عليه القلعة، واستلحم هو وأهل بيته قتلاً وسيأى والله مالك الأمور.

وكان أيضاً بطبرية مدافع بن علال القيسي شيخ من شيوخها. فلما اضطربت إفريقية عند دخول العرب إليها امتنع بطبرية وحصن قلعتها، واستبد بها في جملة من ولده وبني عمه وجماعته إلى أن ثار عليه ابن بيزون اللخمي في البحرين على وادي مجردة. بإزاء الرياحين. وطالت بينهما الفتنة والحرب. وكان قهرون بن غنوش بمزول دحمون قد بنى حصنه وشيده، وجمع إليه جيشاً من أوباش القبائل، وذلك لما أخرجه أهل تونس بعد أن ولاه العامة عليهم. ثم صرفوه عن ولايتهم لسوء سيرته، فخرج من البلد ونزل دحمون، وبني حصناً بنفسه مع الحنايا وردد الغارة على تونس، وعاث في جهاتها فرغبوا من محرز بن زياد أن يظاهروهم عليه ففعل.

وبلغ خبره ابن علال صاحب طبرية فوصل ابن علال يده بصهر منه، ونقله إلى بعض الحصون ببلده، وهي قلعة غنوش، وتظاهروا على الإنساد. وخلفهما بنوهما من بعدهما إلى أن وصل عبد المؤمن إلى إفريقية سنة أربع وخمسين فمحا آثار الفساد من

وهلك سنة ست وأربعين وولي ابنه محسن وكان جباراً، وخرج عليه عمه يوسف ولحق بالمغرب فقتل سائر أولاد حماد، وبعث محسن في طلبه ولكن ابن عمه محمد بن حماد، وأصبحه من العرب خليفة بن بكير وعطية الشريف وأمرهما بقتل بلكين في طريقهما، فأخبرا بلكين بذلك وتعاهدوا جميعاً على قتل محسن، وأنذر بهم، ففر إلى القلعة وأدركوه، فقتله ولكن تسعة أشهر من ولايته. وولي الأمر سنة سبع وثلاثين وكان شهماً قرماً حازماً سفاكاً للدماء. وقتل وزير محسن الذي تولى قبله.

وفي أيامه قتل جعفر بن أبي رمان مقدّم بسكرة لما أحس بنكته، فحالف أهل بسكرة بأثر ذلك حسبما تذكره. ثم مات أخوه مقاتل بن محمد فاتهم به زوجته ناميرت بنت عمه علناس بن حماد فقتلها، وأحفظ ذلك أخاها الناصر وطوى على التبيت. وكان بلكين كثيراً ما يردد الغزو إلى المغرب، وبلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة فنهض نحوهم سنة أربع وخمسين وفر المرابطون إلى الصحراء، وتوغل بلكين في ديار المغرب، ونزل بفاس، واحتمل من أكابر أهلها وأشرافهم رهناً على الطاعة، وانكفاً راجعاً إلى القلعة فاتهم منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثار بأخته، وماله قومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بإبعاد الغزو والتوغل في أرض العدو، فقتله بتساله سنة أربع وخمسين.

وقام بالأمر من بعده، واستورز أبا بكر بن أبي الفتح، وعقد على المغرب لأخيه كباب وأنزله مليانة وعلى حمزة لأخيه رومان، وعلى نقاوس لأخيه خزر. وكان المعز قد هدم سورها فأصلحه الناصر، وعقد على قسطنطينة لأخيه بلبار، وعلى الجزائر ومرسى الدجاج لابنه عبد الله وعلى أشير لابنه يوسف، وكتب إليه حو بن مليل البرغواطي من صفاقس بالطاعة وبعث إليه بالهدية. ووفد عليه أهل قسطنطينة ومقدمهم يحيى بن واطاس فأعلنوا بطاعته، وأجزل صلتهم وردهم إلى أماكنهم، وعقد عليها ليوسف بن خلوف من صنهاجة ودخل أهل القيروان أيضاً في طاعته وكذلك أهل تونس.

وكان أهل بسكرة لما قتل بلكين مقدمتهم جعفر بن أبي رمان خلعوا طاعة آل حماد واستبدوا بأمر بلدهم، وعليهم بنو جعفر، فسرّح الناصر إليهم خلف بن أبي حيدرة وزيره ووزير بلكين قبله، فنازها وافتتحها عنوة، واحتمل بني جعفر في جماعة من رؤسائها إلى القلعة فقتلهم الناصر وصلبهم، ثم قتل خلف بن أبي حيدرة بسعاية رجالات صنهاجة فيه، أنه لما بلغه خبر بلكين أراد تولية أخيه معمر، وشاورهم في ذلك، فقتله الناصر وولى مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح.

وأخوته إلى جبل شتون وأجازهم البحر إلى الأندلس. ثم إن بطانة باديس ومن إليه من الأعجام والقرابة نفسوا على حماد رتبته وسعوا في مكانه من باديس إلى أن فسد ذات بينهما. وطلب باديس أن يسلم عمل تيجست وقسطنطينة لولده المعز لما قلده الحاكم ولاية عهد ابنه، فأبى حماد وخالف دعوة باديس وقتل الرافضة وأظهر السنة، ورضي عن الشيخين ونبذ طاعة العبيديين جملة، وراجع دعوة آل العباس وذلك سنة خمس وأربعمئة.

وزحف إلى باجة فدخلها بالسيف ودس إلى أهل تونس الثورة على المشاركة والرافضة فثاروا بهم فناصبه باديس الحرب، وعبأ عساكره من القيروان، وخرج إليه فتزع عن حماد أكثر أصحابه مثل: بني أبي واليل أصحاب مبرة من زناتة، وبني حسن كبار صنهاجة، وبني يطوف من زناتة، وبني غمرة أيضاً منهم، وفر حماد، وملك باديس أشير. ولحق حماد بشلف بني واليل وباديس في اتباعه حتى نزل مواطنين فحصر السرسو من بلاد زناتة. ونزع إليه عطية بن داقطن في قومه من بني توجين، لما كان حماد قتل أبيه. وجاء على أثره ابن عمه بدر بن لقمان بن المعز فوصلهما باديس واستظهر بهما على حماد.

ثم أجاز إليه باديس من وادي شلف وناجزه الحرب، ونزع إليه عامة أهل معسكره فانهزم وأغذ السير إلى القلعة، وباديس في أثره نزل فحاصر المسيلة، وانحجر حماد في القلعة وحاصره. ثم هلك بمعسكره من ذلك الحصار فجأة بمضربه وهو نائم بين أصحابه ست وأربعمئة، فباعت صنهاجة لابنه للمعز صبيّاً ابن ثمان سنين. وتلافوا أمر أشير، ويعثوا كرامة بن منصور لسدها فلم يقدر، واقتحمها عليه حماد. واحتلموا باديس على أعواده إلى مدفنها بالقيروان وبأيعوا المعز بالبيعة العامة وزحف إلى حماد بناحية قفصة، وأشفق حماد فبعث ابنه القائد لأحكام الصلح بينه وبين المعز، فوصل إلى القيروان سنة ثمان وأربعمئة بهدية جليسة. وأمضى له المعز ما سأل من الصلح ورجع إلى أبيه.

وهلك حماد سنة تسعة عشر وأربعمئة فقام بأمره ابنه القائد، وكان جباراً فاختر أخاه يوسف على المغرب وويغلان على حمزة في بلد اختطه حمزة بن إدريس. وزحف إليه حمادة بن زيري بن عطية ملك فاس من مغراوة سنة ثلاثين فخرج إليه القائد، وسرب الأموال في زناتة. وأحس بذلك حمادة فصالحه ودخل في طاعته، ورجع إلى فاس، وزحف إليه المعز من القيروان سنة أربع وثلاثين وحاصره مدة طويلة. ثم صالح القائد وانصرف إلى أشير فحاصرها، ثم أفلح عنها وانكفاً راجعاً. وراجع القائد طاعة العبيديين لما تقم عليه المعز ولقبوه شرف الدولة.

عدي من العرب على الفساد وقطع السبيل، وأميرهم إذ ذاك مناد بن عبد الله، فبعث ابنه المنصور إليهم بالعسكر، وتقبض على أمراء بني عدي: ساكن بن عبد الله وحيد بن خزعل ولا حق بن جهان، وتقبض أيضاً على أمير بني توجين وأخيه زيري وعميهما الأغلب وحامة، وأحضرهم فوجئهم وقدر عليهم فغلبه في إجارتهم من أولاد القاسم رؤساء بني عبد الواد، وقتلهم جميعاً على الخلاف.

وفي سنة ستين افتتح جبل بجاية، وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم، إلا أن الكاف فيهم بلغتهم ليست كافاً بل هي بين الجيم والكاف، وعلى هذا القبيل من صنهاجة باقون لهذا العهد أوزاعاً في البربر. فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسمها الناصرية، وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية، وبني بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل إليها الناس، وأسقط الخراج عن ساكنيها وانتقل إليها سنة إحدى وستين.

وفي أيام الناصر هذا كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس إخوانهم بالمهدية، ولما أضرع منه الدهر بفتنة العرب المهلايين حتى اضطرب عليهم أمرهم، وكثر الشوار عليهم والنازعون من أهل دولتهم، فاعتز آل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا، وعظم شأن أيامهم، فبنى المباني العجيبة المؤنقة، وشيد المدائن العظيمة، وردد الغزو إلى المغرب وتوغل فيهم.

ثم هلك سنة إحدى وثمانين وقام بالأمر من بعده ابنه المنصور بن الناصر، ونزل بجاية سنة ثلاث وثمانين، وأوطنها بعساكره وخاصة بعر من منازل العرب، وما كانوا يسومونهم بالقلعة من خطة الخسف وسوء العذاب بوطء ساحتها والعيث في نواحيها، وتخطف الناس من حولها بسهولة طرقها على رواحلهم، وصعوبة المسالك عليها في الطريق إلى بجاية لمكان الأوعار، فاتخذ بجاية هذه معقلاً وصبرها داراً للملك، وجدد قصورها وشيد جامعها. وكان المنصور هذا جماعة مولعاً بالبناء وهو الذي حضر ملك بني حماد وتائق في اختطاط المباني وتشيد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين. فبنى في القلعة قصر الملك والنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون.

وكان أخوه يلباز على قسطنطينية منذ عهد الناصر أبيهما وهم بالاستبداد لأول ولاية المنصور، فسرح إليه أبا يكنى بن حصن بن العابد في العساكر، وعقد له على قسطنطينية وبونة فتقبض على يلباز وأشخصه إلى القلعة، وأقام والياً على قسطنطينية

ثم خرج الناصر ليقتد المغرب فوثب علي بن راكان على تافربوست دار ملكهم وكان لما قتل بلكين هرب إلى إخوانه من عجبسة واهتلوا الغرة في تافربوست لغية الناصر، فطرقوها ليلاً، وملكها علي فرجع الناصر من المسيلة وعاجلهم فسقط في أيديهم، وافتتحها عليهم عنوة وذبح علي بن راكان نفسه بيده. ثم وقعت بين العرب المهلايين فتن وحروب ووفد عليه رجالات الأتبيج صريحاً به على رياح، فأجابهم ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة حتى نزل للأريس، وتواقعوا بسببه فغدرت بهم زناتة وجروا عليه وعلى قومه الهزيمة بدسيسة ابن المعز بن زيري بن عطية، وإغراء تميم بن المعز فانهزم الناصر، واستباحوا خزائنه ومضاربه، وقتل أخوه القاسم وكاتبه، ونجا إلى قسطنطينية في أتباعه.

ثم لحق بالقلعة في فل من عسكره، لم يبلغوا مائتين. وبعث وزيره ابن أبي الفتح للإصلاح، فعقد بينهم وبينه صلحاً وتممه الناصر. ثم وفد عليه رسول تميم، وسعى عنده بالوزير ابن أبي الفتح وأنه مائل إلى تميم فنكسه وقتله. وكان المستنصر بن خزرون الزناتي خرج في أيام الفتنة بيت الترك والمغاربة بمصر، ووصل إلى طرابلس فوجد بني عدي بها قد أخرجهم الأتبيج وزغبة من إفريقية كما ذكرناه، فرغهم في بلاد المغرب، وسار بهم حتى نزل المسيلة، ودخلوا أشير. وخرج إليه الناصر فقر إلى الصحراء ورجع، فرجع إلى مكانه من الإفساد، فراسله الناصر في الصلح فأسعفه، وأقطعته ضواحي الزاب ووريفة، وأوعز إلى عروس بن هندي رئيس بسكرة لعده، وولي دولته أن يمكن به، فوصل المتنصر إلى بسكرة وخرج إليه عروس ابن هندي وأحمد نزله، وأشار إلى حشمه عند انسكاب المتنصر وذوية على الطعام فبادروا مكيبين لطنعه، وفر أتباعه وأخذوا رأسه، وبعث به إلى الناصر فنصبه ببجاية، وصلب شلوه بالقلعة وجعلوه عظة لغيره.

وقتل كثير من رؤساء زناتة، فمن مغراوة: أبي الفتح بن حبوس أمير بني سنجل، وكانت له بلد لمدية والمرية قبيل من بطون صنهاجة سميت البلد بهم، وقتل معتصر بن حماد منهم أيضاً، وكان بناحية شلف فأجلب على عامل مليانة، وقتل شيوخ بني وريسفان من مغراوة، فكاتبهم السلطان لما كان مشتغلاً عنهم بشأن العرب. فزحفوا إلى معتصر وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الناصر فنصبه على رأس القصر. وبعث إليه أهل الزاب أن عمر ومغراوة ظاهروا الأتبيج من العرب على بلادهم، فبعث ابنه المنصور في العساكر ونزل وعلان بلد المتنصر بن خزرون وهدمها.

وبعث سراياه وجوشه إلى بلد واركلا وولى عليها، وقتل بالغناتم والسبي، وبلغه عن بني توجين من زناتة أنهم ظاهروا بني

على أمره، وأجلبوا على الجزائر فنازلوها يومين، مات عقيها محمد بن يغمر صاحب تلمسان.

وولي يوسف بن تاشفين مكان أخيه تاشفين بن يغمر، فنهض إلى أشير واقتحها، فقام المنصور في ركائبه ومعه كافة صنهاجة. ومن العرب أحياء الأتبيج وزغبة وربيعة، وهم العقل من زناتة أمّا كثيرة، ونهض إلى غزو تلمسان سنة ست وسبعين في نحو عشرين ألفاً. ولقي أسطقسيف وبعث العسكر في مقدمته، وجاء على أثرهم. وكان تاشفين قد أفرج عن تلمسان وخرج إلى تسالة، ولقيته عساكر المنصور فهزموه، ولجأ إلى جبل الصخرة. وعاثت عساكر المنصور في تلمسان فخرجت إليه حواً زوجة تاشفين أميرهم متذمة رغبة في الإبقاء، متوسلة بوشايح. الصنهاجة، فأكرم قصدها إليه وأكرم موصلها، وأفرج عنهم صبيحة يومه. وانكفاً راجعاً إلى حضرته بالقلعة. وأئخن بعدها في زناتة وشردهم بنواحي الزاب والمغرب الأوسط. ورجع إلى بجاية وأئخن في نواحيها، ودوخت عساكره قبائلها، فساروا في بجاية المنية مثل: بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصحريج والناطور وحجر الغز، وقد كان أسلافه يرومون كثيراً عنها، فتمتع عليهم فاستقام أمره واستفحل ملكه.

وقدم عليه معز الدولة بن صمادح من المزية فأرأى أمام المرابطين لما ملكوا الأندلس، فنزل على المنصور وأقطعته تدلس وأنزله بها. وهلك سنة ثمان وتسعين فولي من بعده ابنه باديس، فكان شديد البأس عظيم النظر فنكب عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه لأول ولايته، وخرج من القلعة إلى بجاية فنكب سهاماً عامل بجاية، وهلك قبل أن يستكمل سنة، وولي من بعده أخوه العزيز، وقد كان عزله عن الجزائر وغربه إلى جيجل فبعث عنه القائد علي بن حمدون فوصل، وبايعوه، وصالح زناتة وأصهر إلى ماخوخ فأنكحه ابنته. وطال أمر ملكه، وكانت أيامه هدنة وأمناً. وكان العلماء يتناظرون في مجلسه.

ونازلت أساطيله جرية فنزلوا على حكمه وأخذوا بطاعته، ونازل تونس وصالحه صاحبها أحمد بن عبد العزيز وأخذ بطاعته، وكيس العرب في أيامه القلعة وهم غازون فانتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها، وعظم عيهم، وقاتلتهم الحامية فغلبوهم وأخرجوهم من البلد. ثم ارتحل العرب وبلغ الخبر إلى العزيز فبعث ابنه يحيى وقائده علي بن حمدون من بجاية في عسكر وتعبية، فوصل إلى القلعة وسكن الأحوال. وقد أمن العرب واستعتبوا فأعتبوا وانكفاً يحيى راجعاً إلى بجاية في عسكره. وعلى عهد العزيز. وهذا كان وصول مهدي الموحدين إلى بجاية قافلاً من

مكانه، وولى أخاه ويغلان على بونة. ثم بدا له في الخلاف على المنصور وثار بقسطنطينية سنة سبع وثمانين وبعث أخاه من بونة إلى تميم بن المعز بالمهدية، واستدعاه لولاية بونة فبعث معه ابنه أبا الفتوح بن تميم، ونزل بونة مع ويغلان، وكتبوا المرابطين بالمغرب الأقصى وجمعوا العرب على أمرهم.

وسرح المنصور عساكره فحاصروا بونة سبعة أشهر، ثم اقتحموها غلاباً، وتقبضوا على أبي الفتوح بن تميم وبعثوا به إلى المنصور فاعتقله بالقلعة.

ثم نازلت عساكره قسطنطينية واضطرب أحوال ابن أبي يكنى فخرج إلى القلعة بجبل أوراس، وتحصن بها. ونزل بقسطنطينية صليصل بن الأحمر من رجالات الأتبيج. وداخل صليصل المنصور في أن يمكنه من قسطنطينية على مال يبذله ففعل، واستولى عليها المنصور. وأقام أبو يكنى بمحصنه من أوراس، وردد الغارة على قسطنطينية فتوجهت إليه العساكر وحاصروه بقلعته، ثم اقتحموها عليه وقتلوه. وكان بنو ومانو من زناتة حياً جميعاً وقوماً أعزة، وكانت إليهم رئاسة زناتة. وكان رئيسهم لعهد ماخوخ، وكان بينهم وبين آل حماد صهر، فكانت إحدى بناتهم زوجة للناصر، وكانت أخرى عند المنصور.

ولما تجددت الفتنة بينه وبين قومها أغزاهم المنصور بنفسه في جموع صنهاجة وحشوده، وجمع له ما خوخ ولقيته في زناتة، فانهزم المنصور إلى بجاية فقتل أخت ماخوخ التي كانت تحتة. واستحكمت النفرة بين ماخوخ وبينه. وسار إلى ولاية أمراء تلمسان من لتونة وحرضهم على بلاد صنهاجة، فكان ذلك مما دعا المنصور إلى النهوض إلى تلمسان، وذلك أن يوسف بن تاشفين لما ملك المغرب، واستفحل به أمره، سما إلى ملك تلمسان، فغلب عليها أولاد يعلى سنة أربع وسبعين على ما يأتي ذكره، وأنزلها محمد بن يغمر المسوفي وصيرها ثغراً للملكه فاضطلع بأمرها ونازل بلاد صنهاجة وثغورهم، فزحف إليه المنصور وأخرب ثغوره وحصون ماخوخ، وضيق عليه فبعث إليه يوسف بن تاشفين وصالحه.

وقبض أيدي المرابطين عن بلاد صنهاجة، ثم عاود المرابطون إلى شأنهم في بلاده، فبعث ابنه الأمير عبد الله، وسمع به المرابطون فانقبضوا عن بلاده وزحفوا إلى مراكش، واحتل هو بالمغرب الأوسط فشن الغارة في بلاد بني ومانوا، وحاصر الجعبات، وفتحها ثم عاود ذلك مرات كذلك، وعفا عن أهلها، ورجع إلى أبيه. ثم وقعت الفتنة بينه وبين ماخوخ. وقتل أخوه ولحق ابن ماخوخ بتلمسان، وظاهره ابن يغمر صاحب تلمسان

إلى بونة وملكها. ثم غلب عليها الموحدون وقتلوه صبراً. وانقرض ملك بني حماد والبقاء لله وحده، ولم يبق من قبائل ماكسن إلا أوزاع بوادي بجاية ينسبون إليهم، وهم لهذا العهد في عداد الجند، ولهم أقطاع بنواحي البلد على العسكرية في جملة السلطنة مع قواده، والله وارث الأرض ومن عليها اهـ.

ملوك بني حبوس الخير عن ملوك بني

حبوس بن ماكسن من بني زيري من

صنهاجة بغرناطة من عدوة الأندلس وأولية

ذلك ومصايره

لما استبد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد بن هاد بولاية إفريقية سنة خمس وثمانين ولّى عمومته وقربائه ثغور عمله، فأنزل حماداً بأشير وأخاه يطوفت بشاهرت، وزحف زيري بن عطية صاحب فاس من مغراوة بدعوة المؤيد هشام خليفة قرطبة إلى عمل صنهاجة في جموع زناتة، ونزل تاهرت وسرح باديس عساكره لنظر محمد بن أبي العون فالتقوا على تاهرت، وإنهزم صنهاجة، فزحف باديس بنفسه للقائهم، وخالف عليه فلقول بن سعيد بن خزرون صاحب طبنسة ثم أجفل زيري بن عطية أمامه ورجع إلى المغرب، فرجع باديس إلى القيروان، وترك عمومته أولاد زيري بأشير مع حماد وأخيه يطوفت وهم: زاوي وحلال وعمرم ومعين وأجمعوا على الخلاف والخروج على باديس سنة سبع وثمانين، فأسلموا حماداً برمته واستولوا على جميع ما معه، واتصل الخبر بأبي البهار بن زيري، وهم مع باديس فخشيه على نفسه، ولحق بهم واجتمعوا في الخلاف، واشتغل باديس عنهم بحرب فلقول بن يانس مولى الحاكم القادم على طرابلس من قبله، وانفسح مجاهم في الفساد والعيث ووصلوا أيديهم بفلقول وعاندوه.

ثم رجع أبو البهار عنهم إلى باديس فتقبله وصالح له ثم رجعا إلى حماد سنة إحدى وتسعين، ولقيهم فهزمهم وقتل ماكسن وابنه. ولحق زاوي بجبل شتوق من ساحل مليانة، وأجاز البحر إلى الأندلس في بنيه وبني أخيه وحاشيته، ونزل على المنصور بن أبي عامر صاحب الدولة وكافل الخلافة الأموية، فأحسن نزلهم وأكرم وفادتهم، واصطنعهم لنفسه واتخذهم بطانة لدولته وأوليائه على ما يرومه من قهر الدولة والتغلب على الخلافة، ونظمهم في طبقات زناتة وسائر رجالات البربر الذين أдал بمجموعهم من جنود

المشرق سنة اثني عشرة وغير بها المنكر، فسعى به عند العزيز واتمر به، فخرج إلى بني ورياكل من صنهاجة كانوا ساكنين بوادي بجاية فأجاروه. ونزل عليهم بملاة وأقام بها يدرس العلم. وطلبه العزيز فمنعوه وقتلوه دونه إلى أن رحل عنهم إلى المغرب.

وهلك العزيز سنة خمس عشرة وأربعمائة فولي من بعده ابنه يحيى، وطالت أيامه مستضعفاً مغلباً للنساء مولعاً بالصيد على حين انقراض الدولة وذهاب الأيام بقبائل صنهاجة واستحدثت السكة ولم يحدثها أحد من قومه أدياً مع خلفائهم البيهدين، ونقل ابن حماد أن سكته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه، فدائرة الوجه الواحد: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ والسطور: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، يعتصم بجبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور. ودائرة الوجه الآخر: بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالنصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسائة. وفي سطور: الإمام أبو عبد الله المقتضي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي.

ووصل سنة ثلاث وأربعين إلى القلعة لانقادها ونقل ما بقي بها، وانتفض عليه بتوزر بن مروان، فجهز إليه الفقيه مطرف بن علي بن حمدون في العساكر فافتحها عنوة وتقبط على ابن مروان وأوصله إليه فسجنه بالجزائر إلى أن هلك في معتقله، وقيل قتله. وبعث مطرف بابنه إلى تونس فافتحها ونازل في وجهته هذه المهدي فامتنت عليه، ورجع إلى بجاية وتغلب النصارى على المهدي، وقصده الحسن صاحبها فأجازه إلى الجزائر وأنزله بها مع أخيه القائد، حتى إذا زحف الموحدون إلى بجاية وفر القائد من الجزائر وأسلمها، قدموا الحسن على أنفسهم ولقي عبد المؤمن فأمّنهم، وأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء الموحيدين فانهزم وملك الموحدون بجاية.

وركب يحيى البحر إلى صقلية يروم الإجازة منها إلى بغداد. ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث ونكر عليه سوء صنيعه وإخراجه عن البلاد فارتحل عنه إلى قسطنطينة، فنزل على أخيه الحسن فتخلّى له عن الأمر. وفي خلال ذلك دخل الموحدون القلعة عنوة. ودخل حوشن بن العزيز وابن الدحاس من الأتبج معه وخربت القلعة. ثم بايع يحيى لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين. ونزل قسطنطينة واشترط لنفسه فوفى له، ونقله إلى مراکش فسكنها. ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخسين فسكن قصر بني عشيرة إلى أن هلك في سته. وأما الحارث بن عبد العزيز صاحب بونة ففر إلى صقلية واستصرخ صاحبها فصارخه على أمره ورجع

فلقية باديس بظاهر غرناطة فهزمه وقتله وطالت أيامه ومدد ملوك الطوائف أيديهم جميعاً إلى مدده فكان عن استمده محمد بن عبد الله البرزالي لما حاصره إسماعيل بن القاضي بن عباد بعساكر أبيه فأمد به باديس بنفسه وقومه وصار إلى صريخه مع ابن بقية قائد إدريس بن حمود صاحب المالقة سنة إحدى وثلاثين ورجعوا من طريقهم. وطمع إسماعيل بن القاضي بن عباد مع صريخه فيهم فاتبعهم ولحق بباديس في قومه، فاقبلوا، وفر عسكر إسماعيل وأسلموه فقتله صنهاجة، وحمل رأسه إلى ابن حمود.

وكان القادر بن ذي النون صاحب طليطلة أيضاً يستدفع به ويقومه استطالة ابن عباد وأعوانه. وباديس هذا هو الذي مضى غرناطة واختط قصبتها وشاد قصورها وشيد حصونها، وآثاره في مبانيها ومصانعها باقية لهذا العهد. واستولى على مالقة عند انقراض بني حمود سنة تسع وأربعين وأضافها إلى عمله، وهلك سنة سبع وستين وظهر أمر المرابطين بالمغرب واستفحل ملك يوسف بن تاشفين فولي من بعده حافده عبد الله بن بلكين بن باديس، وتغلب المظفر وعقد لأخيه تميم على مالقة فاستقام أمرها إلى أن أجاز يوسف بن تاشفين إلى العدو إجازته المعروفة كما تذكره في أخباره. ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين فتقبض على عبد الله بن بلكين واستصفى أمواله وذخيرته والحق به أخاه تيمماً من مالقة واستصحبها إلى العدو، فأنزل عبد الله وتيمماً بالسوس الأقصى وأقطعهما إلى أن هلكوا في إيالته، ويزعم بنو الماكسن من بيوتات طنجة لهذا العهد أنهم من أعقابهم، فاضمحل ملك بلكانة من صنهاجة ومن إفريقية. والأندلس أجمع والبقاء لله وحده اه.

الطبقة الثانية من صنهاجة وهم المثلثون

وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة

هذه الطبقة من صنهاجة هم المثلثون الوطنون بالفقر وراء الرمال الصحراوية بالجَنُوب، أبعُدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها، فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بالبيان الأنعام ولحومها اتبأذا عن العمران، واستئناساً بالانفراد وتوحشاً بالعر عن الغلبة والقهر، فنزلوا من ريف الحبشة جواراً، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً، واتخذوا اللثام خطماً تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا، وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمبسوقة فوتركة فناوكا فزغاوه ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة

السلطان وعساكر الأموية وقبائل العرب، واستغلظ أمر صنهاجة بالأندلس واستفحلت إمارتهم، وحلوا دولة المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر والناصر من بعده على كاهلهم.

ولما انقرض أمرهم واضمحلت دولتهم ونشأت الفتنة بالأندلس بين البرابرة وأهلها، فكان زاوي كبش تلك الوقائع ومخش حروبها. وتفرس بقرطبة هو وقومه صنهاجة وكافة زناتة والبربر حتى أثبتوا قدم خليفتهم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر الذي أتوه ببيعته، وأعطوه على الطاعة صفتهم كما ذكرناه في أخبارهم. ثم اقتحموا به قرطبة عنوةً واصطلموا عامة أهلها وأنزلوا المعرات بذوي الصون منها وبيوتات السمر من خواصها، فحدث الناس ذلك بأخبارها وتوصل زاوي عند استباحة قرطبة إلى رأس أبيه زيري بن مناد المنصور بجدران قصر قرطبة فأزاله وأصاره إلى قومه ليدفن في جدته.

ثم كان شأن بني حمود من العلوية، وافترق أمر البرابرة واضطربت الأندلس ناراً، وامتلات جوانبها فتنة، وأسرى الرؤساء من البرابرة ورجالات الدولة على التواحي والأمصا فملكوها، ونحيزت صنهاجة إلى ناحية البيرة فكانت ضواحيها وحصل عليها استيلاؤهم، وزاوي يومئذ عضد البرابرة فنزل غرناطة واتخذها داراً للملكة ومعصماً لقومه.

ثم وقع في نفسه سوء أثر البربر بالأندلس أيام الفتنة، وحذر مغبة الفعلة واستعاضت الدولة، فاعتزم على الرحلة وآوى إلى سلطان قومه بالقيروان سنة عشر وأربعمئة بعد غيبة عشرين سنة، وأنزل على المعز بن باديس حافده أخيه بلكين أجل ما كانت دولتهم بأمر إفريقية، وأترف وأوسع ملكاً وأوفر عدداً، فلقية المعز بأحسن أحوال البر والتجلة، وأنزله أرفع المنازل من الدولة وقدمه على الأعمام والقرابة وأسكنه بقصره، وأبرز الحرم للقائه، فيقال: إنه لقية من ذوات محارمه ألف امرأة لا تحل له واحدة منهن، وواري إبراهيم مع شلوه بمجده، وكان استخلف على عمله ابنه وناً فظعن لأهل غرناطة فانتقضوا عليه، وبعثوا عن حبوس ابن عمه ماكسن بن زيري مكانه ببعض حصون عمله، فبادر إليهم، ونزل بغرناطة، فانتقضوا عليه وباعوه، واستحدث بها ملكاً، وكان من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس إلى أن هلك سنة تسع وعشرين.

وولي من بعده ابنه باديس بن حبوس ويلقب بالمظفر، ولم يزل مقيماً لدعوة آل حور أمراء مالقة بعد تخلفهم عن قرطبة سائر أيامه، وزحف إليها العامري صاحب المرية سنة تسع وعشرين،

طرابلس وبرقة.

الخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان

لهم بالعدوتين من الملك وأولية ذلك

ومصايره

كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم كما قلناه، وكانوا على دين الجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة كما ذكرناه، وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدانوا لهم واستوثق لهم الملك. ثم افترقوا وكانت رئاسة كل بطن منهم في بيت غصوص. فكانت رئاسة لمتونة في بني ورتانطق بن منصور بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رقال بن تلميت وهو لمتونة. ولما أفضت الرئاسة إلى يحيى بن إبراهيم الكندالي، وكان له صهر في بني ورتانطق هؤلاء، وتظاهروا على أمرهم، وخرج يحيى بن إبراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سني أربعين وأربعمائة، فلحقوا في منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكي أبو عمران الفاسي، واغتنموا ما متعوا به من هدية وما شافهم به من فروض أعيانهم من فتاويه.

وسأله الأمير يحيى أن يصحبهم من تلميذه من يرجعون إليه في نوازلهم وقضايا دينهم، فندب تلميذه إلى ذلك حرصاً على إيصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه. فاستوعبوا مسغبة بلادهم. وكتب لهم الفقيه أبو عمران إلى الفقيه محمد وكاك بن زلوا اللمطي بسلجماسة من الآخذين عنه، وعهد إليه أن يلتبس لهم من يثق بدينه وفقهه، ويروض نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه، فبعث معهم عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي، ووصل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين. ثم هلك يحيى بن إبراهيم وافترق أمرهم، وأطرحوا عبد الله بن ياسين، واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما تجشمو فيه من مشاق التكليف، فأعرض عنهم وترهب وتسك مع يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة، وأخوه أبو بكر، فنبذوا عن الناس في روبة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحاضاحاً في المصيف وغمرأ في الشتاء، فتعود جزراً منقطعة، فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة، وتسامح بهم من قلبه متقال حبة من خير، فتسايلاو إليهم ودخلوا دينهم وغيضتهم.

ولما كمل معهم ألف من الرجالات، قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين: إن ألفاً لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه، فأخرجوا بنا لذلك، فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة ومسوفة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة، وأذن لهم في

وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم: بنو ورتنطق وبنو زمال وبنو صولان وبنو ناسجة، وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كاكدم وكان دينهم جميعاً الجوسية شأن برابرة المغرب. ولم يزالوا مستقرين بتلك الجبال حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس، وكانت الرئاسة فيهم للمتونة. واستوسق لهم ملك ضخم مذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل توارثه ملوك منهم: تلاكاكين وورثكا وأوراكين بن ورتنطق جد أبي بكر بن عمر أمير لمتونة في مبتدا دولتهم، وطالت أعمارهم فيها إلى الثمانين ونحوها، ودونخوا تلك البلاد الصحراوية وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام، فدان به كثيرهم. واتقاهم آخرون بالجزيرة فقبلوها منهم وملك عليهم بعد تلاكاكين المذكور تيولوتان.

قال ابن أبي زرع: أول من ملك الصحراء من لمتونة تيولوتان، فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان وكان يركب في مائة ألف نجيب. وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وملك بعده بلتان وقام بأمرهم وتوفي سنة سبع وثمانين ومائتين، وقام بأمرهم بعده ابنه تميم إلى سنة ست وثلاثمائة، وقتله صنهاجة وافترق أمرهم. كلام ابن أبي زرع. وقال غيره: كان من أشهرهم تينزوا بن وانثيق بن بيزا وقيل بزيوان بن واشنق بن يزار ملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في المائة الرابعة. وفي عهد عبيد الله وابنه أبي القاسم من خلفاء الشيعة، كان يركب في مائة ألف نجيب، وعمله مسيرة شهرين في مثلها، ودان له عشرون ملكاً من ملوك السودان يعطونه الجزى، وملك من بعده بنوه ثم افترق أمرهم من بعد ذلك، وصار ملكهم طوائف ورئاستهم شيعاً، قال ابن أبي زرع: افترق أمرهم بعد تميم بن بلتان مائة وعشرون سنة إلى أن قام فيهم أبو عبيد الله بن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتوني، فاجتمعوا عليه وأجوه وكان من أهل الدين والصلاح، وحج وهلك لثلاثة أعوام من رئاسته في بعض غزواته. وقام بأمرهم صهره يحيى بن إبراهيم الكندالي. وبعده يحيى بن عمر بن تلاكاكين. اه كلامه. وكان لهذه الطبقة ملك ضخم بالمغرب والأندلس أولاً، وبإفريقية بعده فنذكره الآن على نسقه.

ثم نازل أبو بكر مدينة لتونة وافتتحها عتوة وقتل من كان بها من زناتة سنة اثنين وخمسين. وبلغه وهو لم يستم فتح المغرب بعد ما وقع من الخلاف بين لتونة ومسوقة ببلاد الصحراء، حيث أصل أعياصهم وشايخ أعراقهم ومنيع عددهم، فخشى افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة، وتلافى أمره بالرحلة. وأكد ذلك زحف بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة إلى المغرب سنة ثلاث وخمسين لقتالهم، فارتحل أبو بكر إلى الصحراء، واستعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجه زينب بنت إسحاق ولحق بقومه. ورفع ما كان بينهم من خرق الفتنة، وفتح باباً من جهاد السودان، فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.

وأقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب، ونزل بلكين صاحب القلعة فاس وأخذ رهنها على الطاعة، وانكفأ راجعاً. فحينئذ سار يوسف بن تاشفين في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب. ثم رجع أبو بكر إلى المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبد عليه. وأشارت عليه زينب أن يريه الاستبداد في أحواله وأن يعد له متاع الصحراء وماعونها، فقطن لذلك الأمير أبو بكر وتحافى عن المنازعة وسلم له الأمر، ورجع إلى أرضه فهلك لمرجه سنة ثمانين وأربعمئة.

واختط يوسف مدينة مراكش سنة أربع وخمسين ونزلها بالخيام وأدار سورها على مسجد وقصة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، وكمل تشييدها وأسوارها ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمئة. وجعل يوسف مدينة مراكش لنزله ولعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في جبل درن، فلم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعاً. ثم صرف عزمه إلى مطالبة مغراوة وبني يفرن وقبائل زناتة بالمغرب، وجذب الحبل من أيديهم، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم فقد كانوا من ذلك على ألمٍ حدث المؤرخون في أخبار مدينة فاس ودولتهم فيها بكثير منه _ فنالز أولاً قلعة فازاز وبها مهدي بن توالي من بني يحفش.

قال صاحب نظم الجواهر: وهم بطن من زناتة، وكان أبو توالي صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده، فنالزه يوسف بن تاشفين. ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكزنابي صاحب مكناسة بما كان عدواً لمعنصر المغراوي صاحب فاس، فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس، وجمع إليه معنصر ففض جموعه، وارتحل يوسف إلى فاس وتقرى منازلها وافتتح جميع الحصون المحيطة بها، وأقام عليها أياماً قلائل، وظفر بعاملها بكار

أخذ الصدقات من أموال المسلمين، وسماهم بالمرابطين، وجعل أمرهم في العرب إلى الأمير يحيى بن عمر، فتخطوا الرمال الصحراوية إلى بلاد درعة وسجلماسة فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا، ثم كتب إليهم وكاك اللمطي بما نال المسلمين فيما إليه من العسف والجور من بني وانودين أمراء سجلماسة من مغراوة، وحرضهم على تغيير أمرهم، فخرجوا من الصحراء سنة خمس وأربعين وأربعمئة في عدد ضخم ركباناً على الهارى أكثرهم، وعمدوا إلى درعة. لا بل كانت هنالك بالحمى وكانت تناهز خمسين ألفاً ونحوها.

ونهب إليهم مسعود بن وانودين أمير مغراوة وصاحب سجلماسة ودرة لمداغتهم عنها وعن بلاده، فتواقوا وانهمز ابن وانودين وقتل واستلحم عسكره مع أموالهم، واستلحمهم ودوابهم وإبل الحمى التي كانت يبيلد درعة. وقصدوا سجلماسة فدخلوها غلباً وقتلوا من كان بها من أهل مغراوة، وأصلحو من أحوالها وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس، واقتضوا الصدقات واستعملوا عليها منهم وعادوا إلى صحرائهم، فهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين وقدم مكانه أخاه أبا بكر ونذب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين.

وافتح ماسة وتارودانت وجميع معاقله. ثم افتتح مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى تادلاً واستضاف إلى بني يفرن بها ثم افتتح المرابطون بلاد المصامدة بجبال درن، وجاسوا خلالها سنة خمسين، ثم أغزوا تادلاً فاستباحوها واستلحموا بني يفرن ملوكها وقتل معهم لقوط بن يوسف المغراوي صاحب أغمات وتزوج امرأته زينب بنت إسحاق النفاوية، وكانت مشهورة بالجمال والرئاسة، وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن واطاس، وكان شيخاً على وريكة وهزرجة بزمن هيلانة في دولة أمغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ. وتغلب بنو يفرن على وريكة، وملكوا أغمات فتزوج لقوط زينب هذه، ثم تزوجها بعده أبو بكر بن عمر كما ذكرنا. ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة الذين كانوا بنامستا وإنفا وجهات الريف الغربي، فكانت لهم فيها وقائع وأيام استشهد عبد الله بن ياسين في بعضها سنة خمسين.

وقدم المرابطون بعده سليمان بن عدو ليرجعوا إليه في قضايا دينهم. واستمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه على جهادهم ثم استأصل شأفتهم ومحا أثر دعوتهم من المغرب وهلك في جهادهم سليمان بن عدو سنة إحدى وخمسين لسنة من وفاة عبد الله بن ياسين.

أولياء الدولة الحمودية بسبته، فأعاد إليه ابن عباد الرسل بالمشايعة إليهم، فجهز إليهم قائده صالح بن عمران في عساكر لمتونة، فلقبه سكوت الحاجب بظاهر طنجة في قومه ومعه ابنه ضياء الدولة، فانكشف وقتل الحاجب سكوت ولحق ابنه العزيز ضياء الدولة. وكتب صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف بن تاشفين، ثم أغزى الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأوسط سنة اثنتين وسبعين قائده مزدي بن تبلكان بن محمد بن وركوت من عشيره في عساكر لمتونة لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان، وبها يومئذ الأمير العباس بن بختي من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر، فدخلوا المغرب الأوسط وصاروا في بلاد زناتة، وظفروا بيعلى ابن الأمير العباسي فقتلوه، وانكفأوا راجعين من غزاتهم.

ثم نهض يوسف بن تاشفين سنة ثلاث بعدها إلى الريف وافتتح كرسيف ومليلة وسائر بلاد الريف وخرب مدينة نكور فلم تعمر بعده ثم نهض في عساكره المرابطين إلى بلاد المغرب الأوسط فافتتح مدينة وجدة وبلاد بني يزناسن ثم افتتح مدينة تلمسان واستلمح من كان بها من مغراوة، وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن تينعمر المستوفى بها في عساكر المرابطين، فصارت ثغراً للملك. ونزل بعساكره واختلط بها مدينة تآكرارت بمكان محله، وهو اسم الحلة بلسان البربر. ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس إلى الجزائر، وانكفأ راجعاً إلى المغرب فاحتل مراكش سنة خمس وسبعين ولم يزل محمد بن تينعمر والياً بتلمسان إلى أن هلك، وولي بعده أخوه تاشفين.

ثم إن الطاغية تكالب على بلاد المسلمين وراء البحر، وانتهاز الفرصة فيها بما كان من الفرق بين ملوك الطوائف فحاصر طليطلة، وبها القادر بن يحيى بن ذي النون حتى نالهم الجهد، وتسلمها منه صلحاً سنة ثمان وسبعين على أن يملكه بلنسية، فبعث معه عسكرياً من النصرانية فدخل بلنسية وتملكها على حين مهلك صاحبها أبي بكر بن العزيز بين يدي حصار طليطلة. وسار الطاغية في بلاد الأندلس حتى وقف بفرضة الحجاز من صريف، وأعيا أمره أهل الأندلس واقتضى منهم الجزية فأعطوها. ثم نازل سرقسطة وضيّق على ابن هود بها، وطال مقامه وامتد أمه إلى تملكها، فخاطب المعتمد بن عباد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين متجزاً وعده في صريح الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية.

وكانت أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة فاهتز للجهاد وبعث ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبته فرضة الحجاز، فتألفا برأ، وأحاطت بها أساطيل ابن عباد مجراً فاقترحوها عنوة في ربيع الآخر سنة ست وسبعين وتقبض على ضياء الدولة وقبذ إلى

بن إبراهيم فقتله، ثم نهض إلى صفروي فافتتحها وقتل من كان بها من أولاد وانودين المغراوي ورجع إلى فاس فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين ثم رجع إلى غمارة ونازلهم وفتح كثيراً من بلادهم. وأشرف على طنجة وبها سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبته، وبقيّة الأمراء من موالى الحمودية وأهل دعوتها. ثم رجع إلى منازل قلعة فازاز، وخالفه معنصر إلى فاس فاستولى عليها وقتل عاملها.

واستدعى يوسف بن تاشفين مهدي بن يوسف صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل بأيديهما، وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى وليه ومساهمه في شدته الحاجب سكوت البرغواطي. واستصرخ أهل مكناسة بالأمير يوسف بن تاشفين فسرّح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فآخذوا بمخفئها وقطعوا المرافق عنها، وألحوا بالقتال عليها ففسّهم الجهد. وبرز معنصر إلى مناجزة عدوه لإحدى راحتين فكانت الدائرة عليه وهلك. واجتمع زناتة من بعده على القاسم بن محمد بن عبد الرحمن من ولد موسى بن أبي العافية، كانوا ملوكاً بتازا وتسول، فزحفوا إلى عساكر المرابطين والتقوا بوادي صفير فكان الظهور لزنانة. واستلمح كثير من المرابطين، واتصل خبرهم بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة مهدي من بلاد فازاز فارتحل سنة ست وخمسين، ونزل عليها عسكر من المرابطين وصار يتنقل في بلاد المغرب فافتتح بني مراسن ثم فنزلاوة، ثم بلاد ورغة سنة ثمان وخمسين.

ثم افتتح بلاد غمارة سنة ستين. وفي سنة اثنتين وستين نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وقبائل زناتة حتى أعوزت مدافعهم فرادى، فانخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات، وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد تلمسان وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين القرويين والأندلسيين من عدوتها، وصيرها مصراً واحداً، وأدار عليها الأسوار وحل أهلها على الاستكثار من المساجد، ورتب بناءها، وارتحل سنة ثلاث وستين إلى وادي ملوية، فافتتح بلادها وحصون وطاق من نواحيها. ثم نهض سنة خمس وستين إلى مدينة الدمنة فافتتحها عنوة، ثم افتتح حصن علودان من حصون غمارة. ثم نهض سنة سبع وستين إلى جبال غيائة وبنى مكود من أحواز تازا فافتتحها ودوخها، ثم قسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه، ثم استدعاه المعتمد بن عباد إلى الجهاد فاعتذر له بمكان الحاجب سكوت البرغواطي وقومه من

محمد وركوت على الأندلس وأجازه فقدم عليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه ومبرته فأحفظه ذلك، وطالبه بالطاعة للأمير يوسف والنزول عن الأمر، ففسد ذات بينهما، وغلبه على جميع عمله.

واستنزل أولاد المأمون من قرطبة ويزيد الراضي من رندة وقرمونة واستولى على جميعها وقتلهم. وصمد إلى أشيلية فحاصر المعتمد بها وضيق عليه، واستنجد الطاغية فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار، فلم يغن عنه شيئاً، وكان دفاع لمونة مما فت في عضده، واقتحم المرابطون إشبيلية عليه عنوة سنة أربع وثمانين وتقبض على المعتمد وقاده أسيراً إلى مراكش، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه بأغمار سنة سبعين وأربعمائة ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الأفطس فقتله وابنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية، وأن يملكوه مدينة بطليوس، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث سنة تسعين وزحف إليه الطاغية فبعث عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج فانهمز النصراري أمامه، وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر واقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتمداً بالنصارى. وغزا الأمير مزدي صاحب بلنسية إلى بلاد برشلونة فائتخنها بها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع. وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين، وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن، واستولى على العدوتين، واتصلت هزائم النصارى على يد المرابطين مراراً وتسمى بأمير المسلمين، وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد، وبعث إليه عبد الله بن العرب على يد المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر، فتلفظا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبنا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس، فعد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس، وانتقل إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم. وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي بحضانه على العدل والتمسك بالخير، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين وقد كان ما قدمناه في أخبار بني حماد من زحف المنصور بن الناصر إلى تلمسان سنة سبع وتسعين للفتنة التي وقعت بينه وبين تاشفين بن يتنعم وافتتاحه أكثر بلادهم، فصالحه

المغرب فقتله صبراً، وكتب إلى أبيه بالفتح. ثم أجاز ابن عباد البحر في جماعته والمرابطين، ولقيه بفاس مستقراً للجهاد، وأنزل له ابنه الراضي عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده فأجاز البحر في عساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل الجزيرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ولقيه المعتمد بن عباد وابن الأفطس صاحب بطليوس. وجمع ابن أدونش ملك الجلالة أمم النصرانية لقتاله، ولقي المرابطين بالزلاقة من نواحي بطليوس فكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة إحدى وثمانين.

ثم رجع إلى مراكش وخلف عسكرياً بالإشبيلية لنظر محمد ومجون بن سيمون بن محمد بن وركوت من عشيره، ويعرف أبوه بالحاج، وكان محمد بن بطاتنه وأعظم قواد تكاليب الطاغية على شرق الأندلس، ولم يغن فيه أمراء الطوائف شيئاً، فزحف إليه من سبتة ابن الحاج قائد يوسف بن تاشفين في عساكر المرابطين فهزموا جميع النصارى هزيمة شنيعة. وخلع ابن رشيق صاحب مرسية، وتمادى إلى دانية ففر علي بن مجاهد أمامه إلى بجاية ونزل على الناصر بن علناس فأكرمه ووصل ابن جحاف قاضي بلنسية إلى محمد بن الحاج مغرباً بالقادر بن ذي النون، فأنفذ معه عسكرياً وملك بلنسية، وقتل ابن ذي النون وذلك سنة خمس وثمانين، وانتهى الخبر إلى الطاغية فنزل بلنسية واتصل حصاره بإياها إلى أن ملكها سنة خمس وثمانين، ثم استخلصتها عساكر المرابطين، وولى عليها يوسف بن تاشفين الأمير مزدي، وأجاز يوسف بن تاشفين ثانية سنة ست وثمانين وتناقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به عليهم من الظلمات والمكوس وتلاحق المغارم، فوجد عليهم، وعهد برفع المكوس وتحسرى المعدلة، فلما أجاز انقبضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم، فتقبض على ابن رشيق فأمكن ابن عباد منه العداوة التي بينهما.

وبعث جيشاً إلى المرية ففر عنها ابن صمادح ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية، وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكره ومحلاته فساء نظره، وافتأه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس يخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي، فعهد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبيد الله بن بلكين بن باديس وأخاه تميمًا من مالقة بعد أن كان منهما مداخلة الطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين، وبعث بهما إلى المغرب فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه وفشت السعابيات بينهما. ونهض يوسف بن تاشفين إلى سبتة فاستقر بها، وعقد للأمير سير بن أبي بكر بن

الموحدين واستفحل شأنهم والحوّا في طلبه.

وغزا عبد المؤمن غزوته الكبرى إلى جبال المغرب، ونهض تاشفين بعساكره بالباط إلى أن نزل تلمسان ونازله عبد المؤمن والموحدون بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تطري المطل عليها، ووصله هنالك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب، وشروهوا إلى مدافعة الموحدين فغلبوهم، وهلك طاهر واستلحم الصنهاجيون وفر تاشفين إلى وهران في موادة لب بن ميمون قائد البحر بأساطيله، واتبعه الموحدون واقتحموا عليه البلد فهلك، يقال: سنة إحدى وأربعين، واستولى الموحدون على المغرب الأوسط واستلحموا لتونة. ثم بوع بمرآش ابنه إبراهيم وألفوه مضعفاً عاجزاً، فخلع وبوع عمه إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين. وعلى هيئة ذلك وصل الموحدون إليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب عليه، فخرج إليهم في خاصته فقتلهم الموحدون وأجاز عبد المؤمن والموحدون إلى الأندلس سنة إحدى وخمسين وملكوا واستلحموا أمراء لتونة وكافتهم وفروا في كل وجه، ولحق فلهم بالجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة إلى أن جددوا من بعده للملك بناحية إفريقية، والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة ابن غانية من بقية المرابطين

وما كان له من الملك والسلطان بناحية

قابس وطرابلس وإجلابه على الموحدين

ومظاهرة قراقش الغزي له على أمره وأولية

ذلك ومصابره

كان أمر المرابطين من أوله في كدالة من قبائل المثلثين حتى هلك يحيى بن إبراهيم فاختلفوا على عبد الله بن ياسين إمامهم، وتحول عنهم إلى لتونة وأقصر عن دعوته وتنسك وترهب كما قلناه، حتى إذا أجاب داعية يحيى بن عمر وأبي بكر بن عمر من بني ورتانلق بيت رئاسة لتونة، واتبعهم الكثير من قومهم وجاهدوا معه سائر قبائل المثلثين، وكان مسوفة قد دخل في دعوة المرابطين كثير منهم، فكان لهم بذلك في تلك الدولة حظ من الرئاسة والظهور، وكان يحيى المسوفي من رجالاتهم وشجعانهم، وكان مقدماً عند يوسف بن تاشفين لكانه في قومه. واتفق أنه قتل بعض رجالات لتونة في ملاحاة وقعت بينهما، فتأثروا الحيان وفرّ هو إلى الصحراء، فقتل يوسف بن تاشفين القليل ووداه،

يوسف بن تاشفين واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة سبع وتسعين وبعث إليهما مزحلي من بلنسية، وولي بلنسية عوضاً منه أبا محمد ابن فاطمة، وكثرت غزواته في بلاد النصرانية.

وهلك يوسف على رأس المائة الخامسة، وقام بالأمر من بعده ابنه علي بن يوسف فكان خير ملك. وكانت أيامه صدراتاً منها وداعة ولدوته على الكفر وأهله ظهور وعزة، وأجاز إلى العدو فاتنخ في بلاد العدو قتلاً وسيياً، وولى على الأندلس الأمير تميم بن... وجمع الطاغية للأمير تميم فهزمه تميم، ثم أجاز علي بن يوسف سنة ثلاث ونازل طليطلة واثخن في بلاد النصرارى ورجع، وعلى أثر ذلك قصد ابن ردمير سرقسطة وخرج ابن هود للقائه فانهزم المسلمون ومات ابن هود شهيداً وحاصر ابن ردمير البلد حتى نزلوا على حكمه.

ثم كان سنة تسع شأن برقة وتغلب أهل جنوة عليها وخلأوها. ثم رجع العمران إليها على يد ابن تامرطست من قواد المرابطين كما مر في ذكرها عند ذكر الطوائف، ثم استمرت حال علي بن يوسف في ملكه، وعظم شأنه، وعقد لولده تاشفين على غرب الأندلس سنة ست وعشرين وأنزله قرطبة وإشبيلية، وأجاز معه الزبير بن عمر، وحشد قومه وعقد لأبي بكر بن إبراهيم المسوفي على شرق الأندلس وأنزله بلنسية، وهو مدوح بن خفاجة وغدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصانغ. وعقد لابن غانية المسوفي على الجزائر الشرقية دانية وميورقة، واستقامت أيامه، ولأربع عشرة سنة من دولته كان ظهور الإمام المهدي صاحب دعوة الموحدين، فتيها متحلاً للعلم والفتيا والتدريس، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، متعرضاً بذلك للمكروه في نفسه.

ونالته ببجاية وتلمسان ومكناسة أذايات من الفسقة ومن الظالمين، وأحضره الأمير علي بن يوسف للمناظرة ففلج علي خصومه من الفقهاء بمجلسه، ولحق بقومه هرغة من المصامدة، واستدرك علي بن يوسف رأيته فتفقدته وطالب هرغة بإحضاره فأبوا عليه فسرح إليهم البيعت فأوقعوا به، وتقاسم معهم هتانة وتينملل على إجارته والوفاء بما عاهدهم عليه من القيام بالحق والدعاء إليه حسبما يذكر ذلك كله بعد دولتهم. وهلك المهدي في سنة أربع وعشرين وقام بأمرهم عبد المؤمن بن علي الكومي كبير أصحابه بعهد إليه، وانتظمت كلمة المصامدة وأغزوا مراكش مراراً. وفشل ربح لتونة بالعدوة الأندلسية، وظهر أمر الموحدين وفشت كلمتهم في برايرة المغرب. وهلك علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وقام بالأمر من بعده ولده تاشفين وولي عهده، وأخذ بطاعته وبيعتة أهل العدوتين كما كانوا على حين استغلظ أمر

تحصين تلمسان ورم أسوارها، وأقاما عند السيد يرومان الكرة من صاحب تلمسان. وعاش علي بن محمد ابن غانية في الأموال وفرّقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم، ورحل إلى الجزائر فافتتحها، ولّى عليها يحيى بن أبي طلحة. ثم افتتح مازونة وانتهى إلى مليانة فافتتحها، وولى عليها بدر ابن عائشة. ثم نهض إلى القلعة فحاصرها ثلاثاً ودخلها عنوة، وكانت في المغرب خطة مشهورة. ثم قصد قسطنطينة فامتعت عليه واجتمعت عليه وفرد العرب فاستجدهم وجاؤوا بأحلافهم. ولما اتصل الخبر بالمصور وهو بسنة مرجعه من الغزو، سرح العساكر في البر لئلا ينظر السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وعقد له على المغرب الأوسط.

وبعث الأساطيل إلى البحر وقائدها أحمد الصقلي وعقد عليها لأبي محمد بن إبراهيم بن جامع، وزحف العساكر من كل جهة فثار أهل الجزائر على يحيى بن أبي طلحة ومن معه، وأمكروا منهم السيد أبا يزيد فقتلهم على شلف، وعفا عن يحيى لنجدة عمه طلحة، وكان بدر بن عائشة أسرى من مليانة واتباعه الجيش فلحقوه أمام العدو، فقبضوا عليه بعد قتال مع البرابرة حين أرادوا إجارتها، وقادوه إلى السيد أبي يزيد فقتله.

وسبق الأسطول إلى بجاية فثار يحيى ابن غانية وفر إلى أخيه علي لكانه من حصار قسطنطينة بعد أن كان أخذ بمخنفها. ونزل السيد أبو زيد بعساكره بكتلات من ظاهر بجاية، وأطلق السيد أبا موسى من معتقله. ثم رحل في طلب العدو فأفرج عن قسطنطينة بعد أن كان أخذها ومضى شديداً في الصحراء، والموحدون في اتباعه حتى انتهوا إلى مغرة ونغارس. ثم نقلوا إلى بجاية واستنفر السيد أبا زيد بها وقصد علي ابن غانية في قصبة فملكها، ونازل بورق وقسطنطينة فامتعت وارنخل إلى طرابلس وفيها قراقش الغزي المطغري، وكان من خبره على ما نقل أبو محمد التيجاني في كتاب رحلته: أن صلاح الدين صاحب مصر بعث تقي الدين ابن أخيه شاه إلى المغرب لانتاح ما أمكنه من المدن تكون له معقلاً يتحصن فيه من مطالبة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام الذي كان صلاح الدين عمه من وزرائه. واستعجلوا النصر فخشوا عاديته. ثم رجع تقي الدين من طريقه لأمر عرض له ففر قراقش الأرمي بطائفة من جنوده، وفر إبراهيم بن قرانكين سلاح دار المعظم نسبة للملك المعظم شمس الدولة ابن أيوب أخيه صلاح الدين. فأما قراقش فلحق بسنترية وافتتحها وذلك سنة ست وثمانين وخطب فيها لصلاح الدين ولأستاذة تقي الدين، وكسب لهما بالفتح وافتتح زويلة وغلب بني خطاب الهواري على ملك

واسترجع علياً من مقره لسنين من مغيبه، وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك، فولدت منه محمداً ويحيى ونشأ في ظل يوسف بن تاشفين وحجر كفالته.

ورعى لهما علي بن يوسف ذمام هذه الأواصر وعقد ليحيى على غرب الأندلس وأنزله قرطبة. وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة وباسة سنة عشرين وخمسمائة، وانقرض بعد ذلك أمر المرابطين. وتقدم وفد الأندلس إلى عبد المؤمن وبعث معهم أبا إسحاق براق بن محمد المصمودي من رجالات الموحدين وعقد له على حرب لتونة كما يذكر في أخبارهم، فملك إشبيلية واقتضى طاعة يحيى بن علي ابن غانية، واستنزله عن قرطبة إلى جيان والقلعة، فسار منها إلى غرناطة يستنزل من بها من لتونة، ويحملهم على طاعة الموحدين فهلك هنالك سنة ثلاث وأربعين ودفن بقصر باديس. وأما محمد بن علي فلم يزل والياً إلى أن هلك وقام بأمره بعده ابنه عبد الله.

ثم هلك وقام بالأمر أخوه إسحاق بن محمد بن علي، وقيل: إن إسحاق ولي بعد ابنه محمد، وأنه قتلته غيرة من أخيه عبد الله لكان أباه منه، فقتلها معاً، واستبد بأمره إلى أن هلك سنة ثمانين وخمسمائة. وخلف ثمانية من الولد وهم: محمد وعلي ويحيى وعبد الله والغازي وسير والمصور وجبارة، فقام بالأمر ابنه محمد. ولما أجاز يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى ابن الزبير لاختبار طاعتهم، ولحين وصوله نكر ذلك إخوته وقبضوا عليه واعتقلوه. وقام بالأمر أخوه علي بن محمد بن علي، وتلوموا في رد ابن الزبير إلى مرسله، وحالوا بينه وبين الأسطول حين بلغهم أن الخليفة يوسف القسري استشهد في الجهاد بأركش من العدو، وقام بالأمر ابنه يعقوب واعتقلوا ابن الزبير وركبوا البحر في اثنين وثلاثين قطعة من أساطيلهم وأسطوله، وركب معه إخوته يحيى وعبد الله والغازي، وولي على ميورقة عمه أبا الزبير، وأقلعوا إلى بجاية فطرقوها على حين غفلة من أهلها، وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن، وكان بإيملول من خارجها في بعض مذاهبه، فلم تمنعه أهل البلد واستولوا عليها في صفر سنة إحدى وثمانين واعتقلوا بها السيد أبا موسى بن عبد المؤمن، كان قافلاً من إفريقية يؤم المغرب واكتسحوا ما كان بدار السادة والموحدين.

وكان والي القلعة قاصداً مراکش وهو يستخبر خبر بجاية، فرجع وظاهر السيد أبا الربيع، وزحف إليهما علي ابن غانية فهزمهما واستولى على أموالهما وابتغى لهما ولحقا بتلمسان، فنزلا بها على السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وأخذ في

ثم اتصل بها إلى أن وصل إلى قصصة خلعوا طاعة ابن غانية، فظاهرة قراش عليها فافتحتها عنوة. ثم رحل إلى توزر وقراش في مظاهرتة فافتحتها أيضاً. ولما اتصل بالمنصور ما نزل بإفريقية من أجلاب ابن غانية وقراش على بلاد الجريد نهض من مراكش سنة ثمان وثمانين لحسم هذا الداء واستنقاذ ما غلبوا عليه. ووصل إلى تونس فأراح بها وسرّح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين، فلقبهم ابن غانية في جموعه بعده، فانهزم الموحدون وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم، وأسر علي بن الزبير في آخرين، وامتلات أملاك العدو من أسلابهم ومتاعهم، ووصل سرعان الناس إلى تونس، وصمد المنصور إليهم فأوقع بهم بظاهر الحامة في شعبان من سنته. وأفلت ابن غانية وقراش بمجومة الوفر وبادر أهل قابس وكانت خالصة لقراش دون ابن غانية، فأتوا طاعتهم وأسلموا من كان عندهم من أصحابه وذويه فاحتلموا إلى مراكش، وقصد المنصور إلى توزر فحاصرها فأسلموا إليه من كان فيها من أصحاب ابن غانية. وبادر أهلها بالطاعة.

ثم رجع إلى قصصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه، وقتل من كان بها من الحشود. وقتل إبراهيم بن قراتكين، وامتن على سائر الأعوان وخلق سبيلهم، وأمن أهل البلد في أنفسهم وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة. ثم غزا العرب واستباح حللهم وأحياءهم حتى استقاموا على طاعته. وفرّ ذو المراس كثير الخلاف والفتنة منهم إلى المغرب مثل: جشم والرياح والعاصم كما قدمناه. وقتل إلى المغرب سنة أربع وثمانين، ورجع ابن غانية وقراش إلى حالهما من الأجلاب على بلاد الجريد إلى أن هلك علي في بعض حروبها مع أهل نزاوة سنة أربع وثمانين، أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه فدفن هنالك، وعفى على قبره، وحمل شلوه إلى ميورقة فدفن بها. وقام بالأمر أخوه يحيى بن إسحاق بن محمد ابن غانية وجرى في مظاهرة قراش ومولاته على سنن أخيه علي.

ثم نزع قراش إلى طاعة الموحدين سنة ست وثمانين فهاجر إليهم بتونس وتقبله السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأقام معه أياماً. ثم فر ووصل إلى قابس فدخلها غداًه وقتل جماعة منهم، واستبد على أشياخ ذباب والكعوب من بني سليم فقتل سبعين منهم بقصر العرومين، كان منهم: محمود بن طوق أبو الحاميد وحيد بين جارية أبو الجوارى. ونهض إلى طرابلس فافتحتها ورجع إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثرها، ثم فسد ما بينه وبين يحيى ابن غانية. وسار إليه يحيى فانتهاز قراش ولحق

فران وكانت ملكاً لعنه محمد بن الخطاب بن يصلق بن عبد الله بن صنف بن خطاب وهو آخر ملوكهم، وكانت قاعدة ملكه زويلة. وتعرف زويلة ابن خطاب فقبض عليه وغلبه على المال حتى هلك، ولم يزل يفتح البلاد إلى أن وصل طرابلس واجتمع عليه عرب ذياب بن سليم. ونهض بهم إلى جبل نفوسة فملكه واستخلص أموال العرب، واتصل به مسعود بن زمام شيخ الوداودة من رياح عند مفرّة من المغرب كما ذكرناه. واجتمعت أيديهم على طرابلس وافتحتها واجتمع إليه ذبيان العرب من هلال وسليم، وفرض لهم العطاء واستبد يملك طرابلس وما وراءها. وكان قراش من الأرمن وكان يقال له: المظفري لأنه مملوك المظفر والناصرى لأنه يخطب للناصر صلاح الدين. وكان يكتب في ظهاره ولي أمير المؤمنين بسكون الميم، ويكتب علامة الظهير بخطه: وثقت بالله وحده أسفل الكتاب. وأما إبراهيم بن قراش صاحبه، فإنه سار مع العرب إلى قصصة فملك جميع منازلها، وراسل بني الزند رؤساء قصصة فأمكنوه من البلد لا تخرافهم عن بني عبد المؤمن، فدخلها وخطب للعباسي وللصلاح الدين إلى أن قتله المنصور عند فتح قصصة كما نذكره في أخبار الموحدين.

رجع الخبر إلى ابن غانية

ولما وصل علي ابن غانية إلى طرابلس ولقي قراش اتفقا على المظاهرة على الموحدين واستمال ابن غانية كافة بني سليم من العرب وما جاورهم من مجالاتهم ببرقة وخالطوه في ولايتهم، واجتمع إليه من كان منحرفاً عن طاعة الموحدين من قبائل هلال مثل: جشم ورياح والأبيح. وخالفتهم زغبة إلى الموحدين، فاحتفلوا بطاعتهم سائر أيامهم. ولحق بابن غانية فل قومه من لتونة ومنونة من أطراف البقاع، فانهقد أمره وتجدد بذلك القطر سلطان قومه. وجدد رسوم الملك واتخذ الآلة وافتتح كثيراً من بلاد الجريد وأقام فيها الدعوة العباسية. ثم بعث ولده وكتابه عبد المؤمن من فرسان الأندلس إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد مجدداً ما سلف لقومه من المرابطين بالمغرب من البيعة والطاعة وطلب المدد والإعانة. فعقد له كما كان لقومه وكتب الكتاب من ديوان الخليفة إلى ملك مصر والشام النائب عن الخليفة بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، فجاء إلى مصر فكتب له صلاح الدين إلى قراش واتصل أمرهما في إقامة الدعوة العباسية.

وظاهر ابن غانية على حصار قابس فافتحتها قراش من يد سعيد بن أبي الحسن، وولى عليها مولاة وجعل فيها ذخائره.

وولّى على المهديّة أخاه يونس، وطالب محمد بن عبد الكريم بالسهمان في المغام، وامتنع فأُنزل به النكال وعاقبه بالسجن فدبر ابن عبد الكريم الثورة وداخل فيها بطائنه، وتقبّض على أبي علي يونس سنة خمس وتسعين واعتقله إلى أن فداه أخوه أبو سعيد بخمسمائة دينار من الذهب العين واستبد ابن عبد الكريم بالمهديّة ودعا لنفسه، وتلقب المتوكل على الله. ثم وصل السيد أبو زيد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن والياً على إفريقية فنال ابن عبد الكريم بتونس سنة ست وتسعين واضطرب معسكره بمجلق الوادي وبرز إليه جيوش الموحدين فهزمهم وطال حصاره لهم. ثم سألوه الإفراج عنهم فأجاب لذلك، وارحل عنهم إلى حصار يحيى ابن غانية بفاس فنالته مدة.

ثم ارتحل إلى قصّة وخرج ابن غانية في أتباعه فانهزم ابن عبد الكريم أمامه ولحق بالمهديّة، وحاصره ابن غانية بها سنة سبع وتسعين وأمهده السيد أبو زيد بقطعتين من الغزاة حتى سأل ابن عبد الكريم التزول على حكمه وخرج إليه فقبض عليه ابن غانية وهلك في اعتقاله، واستولى على المهديّة واستضافها إلى ما كان بيده من طرابلس وقابس وصفاقس والجريد. ثم نهض إلى الجانب الغربي من إفريقية فنال باجة، ونصب عليها المجانيق وافتتحها عنوة وخريها، وقتل عاملها عمر بن غالب، ولحق شريدها بالأريس وشقبنارية وتركها خاوية على عروشها، وبعد مدة تراجع إليها ساكنها بأمن السيد أبي زيد، فزحف إليها ابن غانية ونازلها، وزحف إليه السيد أبو الحسن أخو السيد أبي زيد فلقبه بقططنية، وانهزم الموحدون واستولى على معسكرهم.

ثم نهض إلى بسكرة واستولى عليها وقطع أيدي أهلها، وتقبض على حافظها أبي الحسن بن أبي يعلى، وتملك بعدها بلنسية والقيروان ويابعه أهل بونة، ورجع إلى المهديّة وقد استفحل ملكه، فآزمع على حصار تونس وارحل إليها سنة تسع وتسعين واستعمل على المهديّة ابن عمه علي بن الغازي ويعرف بالكافي بن عبد الله بن محمد بن علي ابن غانية، ونزل بالجليل الأحمر من ظاهر تونس ونزل أخوه بمجلق السوادي. ثم ضايقوها بمعسكرهم وردموا خندقها ونصبوا المجانيق والآلات، واقتحموها لأربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة. وقبض على السيد أبي زيد وابنيه ومن كان معه من الموحدين، وأخذ أهل تونس بغرم مائة ألف دينار، وولّى بقبضها منهم كاتبه ابن عصفور وأبا بكر بن عبد العزيز بن السكاك، فأرهبوا الناس بالطلب حتى لاذ معظمهم بالموت واستعجل القتل فيما نقل أن إسماعيل بن عبد الرفيّع من بيوتاتها ألقي بنفسه في بئر فهلك، فرجع الطلب ببقيتها عنهم.

بالجلال وتوغل فيها، ثم فر إلى الصحراء ونزل ودان ولم يزل بها إلى أن حاصره ابن غانية من بعد ذلك بمدة وجع عليه أهل الشار من ذباب، واقتحمها عليه عنوة وقتله ولحق ابنه بالموحدين. ولم يزل بالحضرة إلى أيام المستنصر. ثم فر إلى ودان وأجلب في الفتنة فبعث إليه ملك كام من قتله لسنة ست وخمسين وخمسمائة.

رجع الخبر: واستولى ابن غانية على الجريد، واستنزل ياقوت فولى قراقش من طرده، كذا ذكره التجاني في رحلته. ولحق ياقوت بطرابلس، ونازله ابن غانية بها، وطال أمر حصاره. وبالف ياقوت في المدافعة، وبعث يحيى عن أسطول ميورقة فأمده أخوه عبد الله بقطعتين منه فاستولى على طرابلس، وأشخص ياقوت إلى ميورقة واعتقل بها إلى أن أخذها الموحدون. وكان من خبر ميورقة أن علي ابن غانية لما نهض إلى فتح بجاية ترك أخاه محمداً وعلي بن الزيرتير في معتقلهما. فلما خلا الجو من أولاد غانية وكثير من الحامية داخل ابن الزيرتير في معتقله نفر من أهل الجزيرة، وثاروا بدعوة محمد وحاصروا القصبة إلى أن صالحهم أهلها على إطلاق محمد بن إسحاق فأطلق من معتقله، وصار الأمر له فدخل في دعوة الموحدين، ووفد مع علي بن الزيرتير على يعقوب المنصور. وخالفهم إلى ميورقة عبد الله بن إسحاق، ركب البحر من إفريقية إلى صقلية وأمده بأسطول، ووصل إلى ميورقة عند وقادة أخيه على المنصور فملكها، ولم يزل بها والياً. وبعث إلى أخيه علي بالمدد إلى طرابلس كما ذكرناه، وبعثوا إليه ياقوت فاعتقله عنوة إلى أن غلب عليه الموحدون سنة تسع وتسعين فقتل، ومضى ياقوت إلى مراکش وبها مات.

رجع الخبر: ولما فرغ ابن غانية من أمر طرابلس ولّى عليها تاشفين ابن عمه الغازي، وقصد قابس فوجد بها عامل الموحدين ابن عمر تافراكين بعثه إليهم صاحب تونس الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص، فاستدعاه أهلها لما فر عنهم نائب قراقش أخذ ابن غانية لطرابلس فنال قابس، وضيق عليها حتى سألوه الأمان على أن يغلي سبيل ابن تافراكين فعقد لهم ذلك وأمكنوه من البلد فملكها سنة إحدى وتسعين وأغرمهم ستين ألف دينار، وقصد المهديّة سنة سبع وتسعين فاستولى عليها وقتل الناصر بها محمد بن عبد الكريم الريراكي.

وكان من خبره أنه نشأ بالمهديّة وصار من جندها المرتدين، وهو كوفي الأصل، وكانت له شجاعة معروفة، فجمع لنفسه خيلاً ورجالاً وصار يغير على المفسدين من الأعراب بالأطراف فدخلهم هبة، وبعد في ذلك صيته وأمهده الناس بالدعاء. وقدم أبو سعيد بن أبي حفص على إفريقية من قبل المنصور لأول ولايته،

رياح وعوف وهيئ ومن معهم من قبائل البربر، وعزم على دخول إفريقية. ونهض إليهم الشيخ أبو محمد سنة ست ولقيهم بجبل نفوسة، فقلّ عسكرهم واستلحم أمرهم، وغنم ما كان معهم من الظهر والكرع والأسلحة. وقتل يومئذ محمد بن الغازي وجوار بن يفرن، وقتل معه ابن عمه من كتاب ابن أبي الشيخ ابن عساكر بن سلطان وهلك يومئذ من العرب الهلاليين أمير قرّة سمّاد بن نخيل.

حكى ابن نخيل: أن مغام الموحدين يومئذ من عساكر الملمّين كانت ثمانية عشر ألفاً من الظهر، فكان ذلك مما أوهن من شدته ووطى من بأسه. واثارت قبائل نفوسة بكتابته ابن عصفور فقتلوا ولديه، وكان ابن غانية يبعثه عليهم للمغرم. وسار أبو محمد في نواحي إفريقية ودفع سلبهم واستأثر أشياخهم بأهلهم، وأسكنهم بتونس جسماً لفسادهم. وصحلت أحوال إفريقية إلى أن هلك الشيخ أبو محمد سنة ثمان عشرة وستمئة وولّى أبو محمد السيد أبو العلا إدريس بن يونس بن عبد المؤمن، ويقال: بل وليها قبيل مهلك الشيخ أبي محمد، فاستطار بعد مهلكه ثور ابن غانية، ونجم نفاقه وعيئه، فعابه رعيته ونهض إليه السيد أبو العلا ونزل قابس وأقام بقصر العروسين، وسرح ولده السيد أبا زيد بعسكر من الموحدين إلى درج وغدامس، وسرح عسكراً آخر إلى وذن لحصار ابن غانية، فأرجف بهم العرب ونهضوا وهم السيد أبو العلا، وفر ابن غانية إلى الزاب، وأتبعه السيد أبو زيد فنال بسكرة واقتحمها عليه، ولجأ ابن غانية وجمع أواباشا من العرب والبربر، وأتبعه السيد أبو زيد في الموحدين وقبائل هوار، وتراحفوا بظاهر تونس سنة إحدى وعشرين وستمئة فانهزم ابن غانية وجوعه، وقتل كثير من الملمّين وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم.

وكان لهوارة يومئذ، وأميرهم حناش بن بعة بن ونيفس، في هذا الزحف أثر مذكور وبلاء حسن، وبلغ السيد أبا زيد إثر هذه الواقعة خبر مهلك أبيه بتونس، فانكفأ راجعاً، وأعيد بنو أبي حفص إلى مكان أبيهم الشيخ أبي محمد بن أثال بإفريقية. واستقل الأمير أبو زكريا منهم بأمرها، واقتلها عن ملكه إلى عبد المؤمن وتناولها من يد أخيه أبي محمد عبد الله. وهذا الأمير أبو زكريا هو جد الخلفاء الحفصيين وماعد أمرهم بإفريقية، فأحسن دفاع ابن غانية عنها وشرده في أقطارها. ورفع يده شيئاً فشيئاً عن النيل من أهلها ورعاياها. ولم يزل شريداً مع العرب بالفقار، فبلغ سجلماصة من أقصى المغرب والعقبة الكبرى من تخوم الديار المصرية. واستولى على ابن مذكور صاحب السوق من تخوم برقة، وأوقع بمغراوة بواجر ما بين متيجة ومليانة، وقتل أميرهم منديل بن عبد

وارخل إلى نفوسة والسيد أبو زيد معتقل في معسكره ففعل بهم مثل ذلك، وأغرمهم ألف مرتين من الدنانير، وكثر عيشه وإضراره بالرعية، وعظم طغيانه وعتوه، واتصل بالناصر بمراكش ما دهم أهل إفريقية منه ومن ابن عبد الكريم قبله، فامتعض لذلك ورحل إليها سنة إحدى وستمئة. وبلغ يحيى ابن غانية خبر زحفه إليه، فخرج من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهن على المظاهرة والدفاع، ونازل طرة من حصون مغراوة، فاستباحها، وانتقل إلى حامة مطماطة. ونزل الناصر تونس، ثم قفصة، ثم قابس، وتحصن منه ابن غانية، في جبل دمر، فرجع عنه إلى المهديّة، وعسكر عليها واتخذ الآلة لحصارها.

وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنين وستمئة فلقية بجبل تاجر من نواحي قابس، وأوقع به وقتل أخاه جبارة بن إسحاق واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله، ثم افتتح الناصر المهديّة ودخل إليها علي بن الغازي في دعوة فتقبله، ورفع مكانه ووصله بهدية وافق وصولها من سبّة إليه على يد واصل مولاه وكان بها ثوبان منسوجان بالجواهر فوصله بذلك كله، ولم يزل معه إلى أن استشهد مجاهداً.

وولّى الناصر على المهديّة محمد بن يغمور من الموحدين ورجع إلى تونس. ثم نظر فيمن يوليه أمر إفريقية لسد فرجها والذب عنها ومدافعة ابن غانية وجوعه دونها. فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص، فعقد له على ذلك سنة ثلاث كما ذكرناه في أخباره. ورجع الناصر إلى المغرب وأجمع ابن غانية النهوض لقتال الموحدين بتونس، وجمع ذويان العرب من الدواودة وغيرهم، وأوفد الدواودة يومئذ محمد بن مسعود بن سلطان وتحيز بنو عوف بن سليم إلى الموحدين، والتقوا بشيرو من نواحي تبسة فانهزمت جموع ابن غانية، ولجأ إلى جهة طرابلس.

ثم نهض إلى المغرب في جموعه من العرب والملمّين فاستهى إلى سجلماصة وامتلأت أيدي أتباعه من النهاب، وخرقوا الأرض بالعبث والفساد. وانكفأ إلى المغرب الأوسط ودخله المفسدون من زناته، وأغزوا به صاحب تلمسان السيد أبا عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن فلقية بتاهرت فهزمه ابن غانية، وقتله وأسر وافده، وكر راجعاً إلى إفريقية، فأعترضه الشيخ أبو محمد صاحب إفريقية في جموع الموحدين، واستنقذ الغنائم من أيديهم. ولجأ ابن غانية إلى جبال طرابلس، وهاجر أخوه سيد بن إسحاق إلى مراكش فقبله الناصر وأكرمه. ثم اجتمع إلى ابن غانية طوائف العرب من

الرحمن وصلب شلوه بسور الجزائر.

إفريقية، وأكثر ما عندهم من المواشي الإبل لمعاشهم وحمل أبقاضهم وركوبهم، والخيول قليلة لديهم أو معدومة. ويركبون من الإبل القاهرة ويسمونهم التجيب، ويقاطلون عليها إذا كانت بينهم حرب، وسيرها هملجة، وتكاد تلحق بالركض وربما يغزوهم أهل القفر من العرب وخصوصاً بنو سعيد من بادية رياح، فهم أكثر العرب غزواً إلى بلادهم فيستبيحون من صحبوه منهم يرمونه في بطون مغاير. فإذا اتصل الصائح بأحيائهم وركبوا في أتباعهم اعترضوهم على المياه قبل وصولهم من تلك البلاد فلا يكادون يخلصون، ويشتد الحرب بينهم فلا يخلص العرب من غوائلهم إلا بعد جهد، وقد يهلك بعضهم، والله الخلق والأمير. وإذا عرض لنا ملوك السودان فلنذكر ملوكهم لهذا العهد المجاورين للملك المغرب.

الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين ووصف أحوالهم والإلمام بما اتصل بنا من دولتهم

هذه الأمم السودان من الآدميين هم أهل الإقليم الثاني وما وراءه إلى آخر الأول بل وإلى آخر المعمورة متصلون ما بين المغرب والشرق، ويمجاورون بلاد البربر بالمغرب وإفريقية وبلاد اليمن والحجاز في الوسط، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالشرق، وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالشرق الزنج والحبشة والنوبة، وأما أهل المغرب منهم فنحن ذكرهم بعد، وأما نسبهم فإلى حام بن نوح بالحيش من ولد حبش بن كوش بن حام، والنوبة من ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام فيما قاله السعدي، وقال ابن عبد البر: إنهم من ولد نوب بن قوط بن مصر بن حام، والزنج من ولد زنجي بن كوش، وأما سائر السودان فمن ولد قوط بن حام فيما قاله ابن عبد البر، ويقال: هو قبط بن حام.

وعبد ابن سعيد من قبائلهم وأممهم تسع عشر أمة، منهم في الشرق الزنج على بحر الهند، لهم مدينة فتيحة وهم مجوس، وهم الذين غلب رقيتهم بالبصرة على ساداتهم مع دعي الزنج في خلافة المعتمد. قال: ويليهم بربرا، وهم الذين ذكرهم امرؤ القيس في شعره. والإسلام لهذا العهد فاش فيهم، ولهم مدينة مقدشوا على البحر الهندي يعمرها تجار المسلمين ومن غربيهم وجنوبيهم الدمام وهم حفاة عراة. قال: وخرجوا إلى بلاد الحبشة والنوبة عند خروج التتر إلى العراق، فعاثوا فيها ثم رجعوا. قال: ويليهم الحبشة وهم أعظم أمم السودان وهم مجاورون لليمن على شاطئ البحر

وكان يستخدم الجند فإذا ستموا الخدمة تركهم لسييلهم إلى أن هلك خمسين سنة من إمارته سنة إحدى وثلاثين وستمئة وقيل: ثلاث وثلاثين، ودفن وعفى أثر مدفنه. يقال: بوادي الرجوان قبله الأريس يقال: بجهة مليانة من وادي شلف، ويقال: بصحراء باديس ومديد من بلاد الزاب. وانقرض أمر الملثمين من مسوقة وملتونة ومن جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس بمهلكه. وذهب ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره. وقد خلف بنات بعثن زعموا إلى الأمير أبي زكريا لعهد بذلك إلى عجله جابر فوضعن في يده. وبلغه وفاة أبيهن وحسن ظنه في كفالته إياهن، فأحسن الأمير أبو زكريا كفالتهن، وبني لمن بحضرته داراً لصورتهن معروفة لهذا العهد بقصر البنات.

وأقمن تحت حراسته وفي سعة من رزقه موصولات لوصاة أبيهن بذلك منهن وحفظهن لوصاته. ولقد يقال إن ابن عم لمن خطب إحداهن، فبعث إليها الأمير أبو زكريا فقال لها: هذا ابن عمك وأحق بك، فقالت: لو كان ابن عمنا ما كفلنا الأجانب، إلى أن هلكن عوانس بعد أن تمتن من العمر بمظ.

أخبرني والذي رحمه الله: أنه أدرك واحدة منهن أيام حياته في سني العشر والسبعمئة تناهز التسعين من السنين. قال: ولقيتها وكانت من أشرف النساء نفساً وأسراهن خلقاً وأزكاهن خللاً والله وارث الأرض ومن عليها.

ومضى هؤلاء الملثمون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان حجازاً بينهم وبين الرمال التي هي تقوم بلاد البربر من المغيرين وإفريقية، وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط في المغرب إلى ساحل النيل بالشرق. وهلك من قام بالملك منهم بالعدوتين، وهم قليل من مسوقة وملتونة كما ذكرناه، أكلتهم الدولة وابتلعتهم الآفاق والأقطار، وأفناهم الرق واستلحهم أمراء الموحدين وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة واختلاف الدين، وهم الآن يعطون طاعة للملك السودان، يجيئون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم.

واتصل ببنائهم على بلاد السودان إلى المشرق مناظر السلع العرب بلاد المغربين وإفريقية، فكدالة منهم في مقابلة ذوي حسان من المعقل عرب السوس الأقصى وملتونة وتريكة في مقابلة ذوي منصور وذوي عبد الله من المعقل أيضاً عرب المغرب الأقصى، ومسوقة في مقابلة زغبة عرب المغرب الأوسط، ولمطة في مقابلة رياح عرب الزاب وبجاية وقسنطينة، وتاركا في مقابلة سليم عرب

بعدها أمة أخرى تعرف مآلي ثم بعدها أمة أخرى تعرف كوكو ويقال: كاغو ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتركور.

وأخبرني الشيخ عثمان فقيه أهل غانية وكبيرهم علماً ودينياً وشهرة، قدم مصر سنة تسع وتسعين وستمئة حاجاً بأهله وولده ولقيته بها فقال: إنهم يسمون التركور زغاي ومالي أنكاريه اه.

ثم إن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر المثلثين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر كما ذكرناه، وعبروا على السودان واستباحوا مآهم وبلادهم واقتضوا منهم الآتاوات والجزي، وحملوا كثيراً منهم على الإسلام فدانوا به. ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان واستعبدوهم وأصاروهم في جلتهم. ثم إن أهل مآلي كثروا أمم السودان في نواحهم تلك، واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم، وملك أهل غانة إلى البحر المحيط من ناحية الغرب وكانوا مسلمين، يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك اسمه برمندانة هكذا ضبطه الشيخ عثمان. وحج هذا الملك واقتنى سنته في الحج ملوكهم من بعده.

وكان ملكهم الأعظم الذي تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه ماري جاطة، ومعنى ماري عندهم الأمير الذي يكون من نسل السلطان وجاطة الأسد، واسم الحافد عندهم تكن، ولم يتصل بنا نسب هذا الملك. وملك عليهم خساً وعشرين سنة فيما ذكروه. ولما هلك ولّي عليهم من بعده منساولي ومعنى منسا السلطان، ومعنى ولي بلسانهم علي، وكان منساولي هذا من أعظم ملوكهم، وحج أيام الظاهر بيبرس، وولّي عليهم من بعده أخوه واتى، ثم بعده أخوة خليفة وكان محمداً رامياً، فكان يرسل السهام على الناس فيقتلهم مجّاناً، فوثبوا عليه فقتلوه. وولّي عليهم من بعده سبط من أسباط ماري جاطة يسمى بأبي بكر، وكان ابن بنته فملكوه على سنن الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت. ولم يقع إلينا نسبه ونسب أبيه.

ثم ولي عليهم من بعده مولى من مواليتهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة. وقال الشيخ عثمان: ضبطه بلسانهم أهل غانية سبكرة، وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا، وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم. وافتتح بلاد كوكو وأصارها في ملكه أهل مالي. واتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التركور في المشرق، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان، وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وإفريقية.

الغربي ومنه غزوا ملك اليمن ذي نواس وكانت دار مملكهم كبير، وكانوا على دين النصرانية، وأخذ بالإسلام واحد منهم زمن الهجرة على ما ثبت في الصحيح، والذي أسلم منهم لعهد النبي ﷺ وهاجر إليه الصحابة قبل الهجرة إلى المدينة فأواهم ومنعهم، وصلى عليه النبي ﷺ عندما نعي إليه، كان اسمه النجاشي وهو بلسانهم: انكاش بالكاف المشمة بالجييم عربتها العرب جيماً محضة وأخفقتها ياء النسب، شأنها في الأسماء الأعجمية إذا تصرفت فيها، وليس هذا الاسم سمة لكل من تملك منهم كما يزعم كثير من الناس ممن لا علم له بهذا، ولو كان كذلك لشهروا اسمه إلى اليوم لأن ملكهم لم يتحول منهم.

وملكهم لهذا العهد اسمه الخطى ما أدري اسم السلطان نفسه، أو اسم العشيرة الذين فيهم الملك، وفي غريبه مدينة دامت وكان بها ملك من أعاضتهم وله ملك ضخم، وفي شماليه ملك آخر منهم اسمه حق الدين محمد بن علي بن ولصمغ في مدينة أسلم أولوه في تواريخ مجهولة. وكان جده واصمغ مطيعاً لملك دامون، وأدركت الخطى الغيرة من ذلك فغزاه واستولى على بلاده، ثم اتصلت الفتنة وضعف أمر الخطى فاسترجع بنو ولصمغ بلادهم من الخطى وبنيه، واستولوا على وفات وخربوها. وبلغنا أن حق الدين هلك، وملك بعده أخوه سعد الدين وهم مسلمون ويعطون الطاعة للخطى أحياناً وينابذونه أخرى والله مالك الملك.

قال ابن سعيد: ويليهم البجاوة وهم نصارى ومسلمون، ولهم جزيرة بسواكن في بحر السوس، ويليهم النوبة إخوة الزنج والحيشة ولهم مدينة دنقلة غرب النيل، وأكثرهم مجاورون للديار المصرية، ومنهم رقيق. ويليهم زغاوة وهم مسلمون، ومن شعوبهم تاجرة ويليهم الكاغم وهم خلق عظيم، والإسلام غالب عليهم ومدينتهم حيمي ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان. وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها، ويليهم من غربهم كوكو، وبعدهم تغالة والتركور ولي وتتم وجالي وكوري وأفكرار، ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانية في الغرب اه كلام ابن سعيد.

ولما فتحت إفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك غانية، كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب، وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك، وحاضرة ملكهم غانية مدينتان على حافتي النيل من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمراً، ذكرها مؤلف كتاب رجار وصاحب المسالك والممالك، وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف صوصو بصادين مضومتين أو سنيين مهملتين، ثم

مواصلة ومهاداة سفرت بينهما فيها الأعلام من رجال الدولتين، واستجاد صاحب المغرب من متاع وطنه وتحف مملكة عما تحدث عنه الناس على ما تذكره عند موضعه، بعث بها مع علي بن غانم المغفل وأعيان من رجال دولته. وتوارثت تلك الرصلة أعقابهما كما سيأتي واتصلت أيام منسا موسى هذا خمساً وعشرين سنة.

ولما هلك ولي أمر مالي من بعده ابنه منسا مغا، ومعنى مغا عندهم محمد، وهلك لأربع سنين من ولايته، وولي أمرهم من بعده منسا سليمان بن أبي بكر وهو أخو موسى، واتصلت أيامه أربعاً وعشرين سنة، ثم هلك فولد بعده ابنه منسا بن سليمان وهلك لتسعة من ولايته، فولد عليهم من بعده ماري جاطه بن منسا مغا بن منسا موسى واتصلت أيامه أربعة عشر عاماً وكان أشد وال عليهم بما ساءهم من النكال والعسف وإفساد الحرم. وأتخف ملك المغرب لعهد السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن بالهدية المذكورة سنة اثنتين وستين وسبعمئة وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروف بالزرافقة، تحدث الناس بما اجتمع فيه من متفرق الحلى والشبه في جثمانه ونعوته دهرأ.

وأخبرني القاضي الثقة أبو عبد الله محمد بن وانسول من أهل سجلماسة، وكان أوطن بأرض كوكو من بلادهم واستعملوه في خطة القضاء بما لقيه منذ سنة ست وسبعين وسبعمئة، فأخبرني عن ملوكهم بالكثير مما كتبه وذكر لي عن هذا السلطان جاطة أنه أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم، وكاد أن يتفرض شأن سلطانهم. قال: ولقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عن أبيهم، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً متقولاً من المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية بالنار، كانوا يرونه من أنفس الذخائر والغرائب لندور مثله في المعدن، فعرضه جاطة هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين إلى بلده وابتاعوه منه بأجنس ثمن اذ استهلك من ذخائر ملوكهم سرفاً وتبذيراً في سبيل الفسوق والتخلف.

قال: وأصابته علة النوم، وهو مرض كثيراً ما يطرق أهل الإقليم وخصوصاً الرؤساء منهم يتعاده غشي النوم عامة أزمانه حتى يكاد أن لا يفيق ولا يستيقظ إلا في القليل من أوقاته، ويضرب صاحبه ويتصل سقمه إلى أن يهلك. قال: ودامت هذه العلة بخلطه مدة عامين اثنين وهلك سنة خمس وسبعين وسبعمئة وولوا من بعده ابنه موسى فأقبل على مذاهب العدل والنظر لهم، ونكب عن طرق أبيه جملة وهو الآن مرجو الهداية ويغلب على دولته وزيره ماري جاطة، ومعنى ماري عندهم الوزير وجاطة تقدم وهو الآن

وقال الحاج يونس ترجمان التكرور: إن الذي فتح كوكو هو سغمجنة من قواد منسا موسى، وولّي من بعده ساكورة وهذا هو ابن السلطان ماري جاطة. ثم من بعده ابنه محمد بن قو، ثم انتقل ملكهم من ولد السلطان ماري جاطة إلى ولد أخيه أبي بكر فولد عليهم منسا موسى بن أبي بكر، وكان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه، وحج سنة أربع وعشرين وسبعمئة، لقيه في الموسم شاعر الأندلس أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويين وصحبه إلى بلاده. وكان له اختصاص وعناية ورثها من بعده ولده إلى الآن، وأوطنوا والامر من تخوم بلادهم من ناحية المغرب، ولقبه في منصرفه صاحبنا المعمر أبو عبد الله ابن خديجة الكومي من ولد عبد المؤمن، كان داعية بالزباب للفاطمي المنتظر، وأجلب عليهم بعضائب من العرب فكر به واركلا واعتقله، ثم خلى سبيله بعد حين، فخاض القفر إلى السلطان منسا موسى مستجيباً به عليهم، وقد كان بلغه توجهه للحج، فأقام في انتظاره ببلد غدامس يرجو نصراً على عدوه ومعونة على أمره لما كان عليه منسا موسى من استفحال ملكه بالصحراء الموالية لبلد واركلا وقوة سلطانه فلقى منه مبرة وترجياً ووعده بالمظاهرة والقيام بشأره واستصحبه إلى بلدة أخرى وهو الثقة.

قال: كنا نواكبه أنا وأبو إسحاق الطويين دون وزرائه ووجوه قومه نأخذ بأطراف الأحاديث حيث يتسع المقام، وكان يتحفنا في كل منزل بطرف المأكّل والحلاوات قال: والذي تحمّل آتته وحربته من الوصائف خاصة اثنا عشر ألفاً لا بسات أقبية الديباج والحرير اليماني.

قال الحاج يونس ترجمان هذه الأمة بمصر: جاء هذا الملك منسا موسى من بلده بثمانين حملاً من التبر، كل حمل ثلاثة قناطير، قال: وإنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم فقط، وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا.

قال أبو خديجة: ورجعنا معه إلى حضرة ملكه فأراد أن يتخذ بيتاً في قاعدة سلطانه يحكم البناء مجلبلاً بالكلس لغرابته بأرضهم، فأطرفه أبو إسحاق الطويين ببناء قبة مربعة الشكل استفترج فيها إجاجته. وكان صنّاع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة فجاءت من اتقن المبانى، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله باثني عشر ألفاً من مثاقيل التبر ماثونة عليها، إلى ما كان له من الأثرة والميل إليه والصلات السيئة. وكان بين هذا السلطان منسا موسى وبين ملك المغرب لعهد من بني مزين السلطان أبي الحسن

لمطة ويحاربونهم. ومنهم الآن طواغن بأرض السوس، وكان لهم مع المعتل حروب قبل أن يدخلوا السوس، فلما دخلوه تغلب عليهم، وهم الآن من خولهم وأخلافهم ورعاياهم.

وأما هسكورة وهم لهذا العهد في عداد المصامدة وينسبون إلى دعوة الموحدين، وهم أمم كثيرة ويطون واسعة ومواطنهم يجباهاهم متصلة من درن إلى تادلا من جانب الشرق إلى درعة من جانب القبلة وكان دخول بعضهم في دعوة المهدي قبل فتح مراكش، ولم يستكملوا الدخول في الدعوة إلا من بعده، لذلك لا يعدهم كثير من الناس في الموحدين، وإن عدوا فليسوا من أهل السابقة منهم لمخالفتهم الإمام أول الأمر، وما كان من حروبهم معه ومع أوليائه وشيعته. وكانوا ينادون بخلافهم وعداوتهم ويجهرون بلغتهم، فتقول خطباؤهم في مجامع صلواتهم: لعن الله هتاتة وتينمل وهرنة وهرجة، فلما استقاموا من بعد ذلك لم يكن لهم مزية السابقة كما كانت هتاتة وتينمل وهرجة وهرجة فاستقامتهم على الدعوة كان بعد فتح مراكش.

ويطون هسكورة هؤلاء متعددون فمنهم: مصطاوة وغجرامة وزمراوة وانثيفت وبنو نفال وبنو رسكونت إلى آخرين لم يحضرنني أسماؤهم. وكانت الرئاسة عليهم آخر دولة الموحدين لعمر بن وقاربط المنتسب، وذكره في أخبار المأمون والرشد بن بني عبد المؤمن خلاف الموحدين بمراكش. ثم كان من بعده مسعود بن كلداسن، وهو القائم يأمر دبوس والمظاهر له على شأنه، وأظنه جد بني مسعود بن كلداسن، الرؤساء عليهم لهذا العهد من فطوكة المعروفين ببني خطاب لاتصال الرئاسة في هذا البيت، ولما انقرض أمر الموحدين استعصوا على بني مرين مدة واختلف حالهم معهم في الاستقامة والفرقة، وكانوا ملجأ للنازعين عن الطاعة من عرب جشم، وماوى للثائرين منهم.

ثم استقاموا وأذعنوا لأداء الضرائب والمغارم وجبايتها من قومهم، والخفوف إلى العسكرية مع السلطان متى دعا إليها شأن غيرهم من سائر المصامدة.

وأما انثيفت فكانت رئاستهم في أولاد هنو وكان يوسف بن كنون منهم اتخذ لنفسه حصن تاقوت، وامتنع به، ولم يزل ولده علي وغلوف يشيدانه من بعده، وهلك يوسف وقام بأمره ابنه غلوف، وجاهر بالنفاق سنة اثنتين وسبعمئة. ثم راجع الطاعة وهو الذي تقبض على يوسف بن أبي عباد المتعدي على مراكش أيام أبي ثابت سنة سبع وسبعمئة كما نذكر في أخباره، لما أحيط به، فتقبض عليه غلوف وأمكن منه. وكانت وسيلته من الطاعة وكان من بعده ابنه هلال بن غلوف، والرئاسة فيهم متصلة لهذا

قد حجر السلطان واستبد بالأمر عليه، ونظر في تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب، ودوخ أقطار الشرق من بلادهم وتجاوز تخوم كوكو وجهز إلى منازل تكرت بما وراءها من بلاد الملثمين، كتائب نازلتها لأول الدولة، وأخذت بمخفتها، ثم أفرجت عنها وحاطهم الآن هدنة.

وتكرت هذه على سبعين مرحلة من بلد واركلا في الجانب القبلي الغربي وفيها من الملثمين يعرف بالسلطان، وعليهم طريق الحاج من السودان، وبينه وبين أمير الزاب وواركلا مهادة ومراسلة. قال: وحاضرة الملك لأهل مالي هو بلد بني... بلد متسع الخطة معين على الزرع مستبحر العمارة نافق الأسواق، وهو الآن محط لركاب البحر من المغرب وإفريقية ومصر، والبضائع مجلوبة إليها من كل قطر. ثم بلغنا لهذا العهد أن منسا موسى توفي سنة تسع وثمانين وسبعمئة وولي بعده أخوه منسا مغا ثم قتل لسنة أو نحوها، وولي بعده صندكي زوج أم موسى صندكي الوزير. ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت ماري جاطة. ثم خرج من بلاد الكفرة وراءهم وجاءهم رجل اسمه محمود ينسب إلى منساقو بن منسا ولي ابن ماري جاطة الأكبر، فتغلب على الدولة وملك أمرهم سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة ولقبه منسا مغا، والخلق والأمر لله وحده.

الخبر عن لمطة وكزولة وهسكورة بني

تصكي وهم إخوة هواره وصنهاجة

هؤلاء القبائل الثلاث قد تقدم لنا أنهم إخوة لصنهاجة، وأن أم الثلاثة تصكي العرجاء بنت زحيك بن مادغيس، فأما صنهاجة فمن ولد عاميل بن زعزاع، وأما هواره فمن ولد أورينغ وهو ابنها ابن برنس، وأما الآخرون فلا تحقيق في نسبهم.

قال ابن حزم: إن صنهاجة ولمطة لا يعرف لهما أب، وهذه الأمم الثلاث موطنون بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء وجبال درن ملأوا بسائطه وجباله. فأما لمطة فأكثرهم مجاورون للملثمين من صنهاجة ولهم شعوب كثيرة، وأكثرهم طواغن أهل وبرا ومنهم بالسوس قبيلتا زكن ولخس، صاروا في عداد ذوي حسان من معتل، وبقياء لمطة بالصحراء مع الملثمين ومعظمهم قبيلة بين تلمسان وإفريقية وكان منهم الفقيه واكاك بن زيري صاحب أبي عمران الفاسي وكان نزل سبجلماسة. ومن تلميذه كان عبد الله بن ياسين صاحب الدولة اللمتونية على ما مر.

وأما كزولة فبطونهم كثيرة، ومعظمهم بالسوس ويجاورون

العهد.

استمكن منه بداره معتقلاً وثب عليه فقتله واستلحم بنيه معه، وسخطه السلطان لها فاعتقله قليلاً ثم أطلقه، واستقل برئاسة هسكورة لهذا العهد واللّه قادر على ما يشاء.

الطبقة الثالثة من صنهاجة

وهذه الطبقة ليس فيها ملك، وهم لهذا العهد أوفر قبائل المغرب، فمنهم المواطنون بالجانب الشرقي من جبال درن ما بين تازي وتادلا ومعدن بني فازان حيث الثنية المفضية إلى أكروسلوين من بلاد النخل، وتفصل تلك الثنية بين بلادهم وبلاد المصامدة في المغرب من جبال درن. ثم اعتمروا قنن تلك الجبال وشواهقها، وتنعطف مواطنهم من تلك الثنية إلى ناحية القبلة إلى أن تنتهي إلى أكروسلوين. ثم ترجع مغرباً من أكروسلوين إلى درعة إلى ضواحي السوس الأقصى، وأمصاره من تارودانت وأيفري إلى فونسان وغيرها. ويعرف هؤلاء كلهم باسم صنّاكة حذفت الهاء من اسم صنهاجة، وأسموا صاده زايّاً وأبدلوا الجيم بالكاف المتوسطة المخرج عند العرب لهذا العهد بين الكاف والقاف أو بين الكاف والجيم، وهي معرفة النطق.

ولصنهاجة هؤلاء بين قبائل المغرب وفور عدد وشدة بأس ومنعة، وأعزهم جانباً أهل الجبال المطلة على تادلا وراثتهم لهذا العهد في ولد عمران الصناكي ولهم اعتزاز على الدولة ومنعة عن المضيئة والانقياد للمغرب. وتتصل بهم قبائل خبّانة منهم طواعن يسكنون الخص ويتجعون مواقع القطر في نواحي بلادهم يتغاثثين من قبيلة مكناسة إلى وادي أم ربيع من تامستا في الجانب الشمالي من جانبي جبل درن، وراثتهم في ولد هيري من مشاهيرهم ولهم اعتياد بالمغرب وروم على الدل.

وتتصل بهم قبائل دكالة في وسط المغرب من عدوة أم ربيع إلى مراکش، ويتصل بهم من جهة المغرب على ساحل البحر المحيط قبيلة بناحية آزمو، وأخرى وافة العدد مندرجة في عداد المصامدة وطناً ونحلة وجباية وعمالة، وراثتهم لهذا العهد في دولة عزيز بن بيورك، ورئيسهم لأول دولة زنّانة، ويأتي ذكره ويعرف عقبه الآن ببني بطل، ومن قبائل صنهاجة بطون أخرى بجبال تازي وما والاها مثل بطوية وبخاسة وبني وارتين إلى جبل لكائي من جبال المغرب معروف ببني الكائي إحدى قبائلهم، يعطون المغرب عن عزة. وبطوية منهم ثلاثة بطون: بطوية على تازي، وبني ورياغل على ولد المزمة، وأولاد علي بتافرسيت. وكان لأولاد علي ذمة مع بني عبد الحق ملوك بني مرين، وكانت أم يعقوب بن عبد الحق

وأما بنو نفال فكانت رئاستهم لأولاد تروميت، وكان منهم لعهد السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن، كبيرهم علي بن محمد، وكان له في الخلاف والامتناع ذكر، واستنزله السلطان أبو الحسن من محله لأول ولايته بعد حصاره بمكانه، وأصاره في جلته تحت عنايته وأمراؤه إلى أن هلك بتونس بعد واقعة القيروان في الطاعون الجارف. وولي بنوه من بعده أمر قومهم إلى أن انقرضوا، والرياسة لهذا العهد في أهل بيتهم ولأهل عمومهم.

وأما فطواكة: وهم أوسع بطونهم وأعظمهم رئاسة فيهم وأقربهم اختصاصاً بصاحب الملك واستعمالاً في خدمته. وكان بنو خطاب منذ انقراض أمر الموحيدين قد جنحوا إلى بني عبد الحق، وأعطوهم المقادة واختصوا شيوخهم في بني خطاب بالولاية عليهم. وكان شيخهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب محمد بن مسعود، وابنه عمر من بعده. وهلك عمر سنة أربع وسبعمئة بمكانه من محله، وولي بعده عمه موسى بن مسعود وسخطه السلطان لتوقع خلافه فاعتقله. وكان خلاصه من الاعتقال سنة ست وسبعمئة، وقام بأمر هسكورة من بعده محمد بن عمر بن محمد بن مسعود.

ولما استفحل ملك بني مرين وذهب أثر الملك من المصامدة وبعد عهدهم صار بنو مرين إلى استعمال رؤسائهم في جباية مغارمهم لكونهم من جلدتهم. ولم يكن فيهم أكبر رئاسة من أولاد تونس في هتّانة. وبني خطاب هؤلاء في هسكورة فداولوا بينهم ولاية الأعمال المراكشية ولها محمد بن عمر هذا من بعد موسى بن علي وأخيه محمد شيوخ هتّانة. فلم يزل والياً منها إلى أن هلك قبيل نكية السلطان أبي الحسن بالقيروان. ولحق ابنه ابراهيم بتلمسان ذاهباً إلى السلطان أبي الحسن. فلما دعا أبو عنان إلى نفسه رجع عنه إلى محله، وتمسك بما كان عليه من طاعة أبيه، ورعاه أبو عنان لعمه عبد الحق، وقُلّده الأعمال المراكشية فلم يغن في منازعه إلى أن لحق السلطان أبو الحسن بمراكش، فكان من أعظم دعائه، وأبلى في مظاهرتة. فلما هلك السلطان أبو الحسن اعتقله أبو عنان وأودعه السجن، ثم قتله بين يدي نهوضه إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة وقام بأمره من بعده أخوه منصور بن محمد إلى أن ملك الأمير عبد الرحمن بن أبي يغلو سن مراكش سنة ست وسبعين وسبعمئة فاستقدمه وتقبض عليه، واعتقله بدار ابن عمه بجو بن العلام بن مسرى بن مسعود بن خطاب كان في جلته، وكان هو وأبوه نازعاً إلى بني مرين خوفاً على أنفسهم من أولاد محمد بن عمر لترشحهم للأمر، فلما

الخبر عن برغواطة من بطون المصامدة ودولتهم ومبدأ أمرهم وتصاريق أحوالهم

وهم الجيل الأول منهم، كان لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة وكانوا شعباً كثيرة مفترقين، وكانت مواطنهم خصوصاً من بين المصامدة في بسائط تامستا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفى وأسفى. وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح وكان من قواد ميسرة الخفير طريف المطغري القائم بدعوة الصفرية ومعهما معزوز بن طالوت. ثم انقضى أمر ميسرة والصفرية، وبقي طريف قائماً بأمرهم بتامستا، ويقال أيضاً: إنه تنبأ وشرع لهم الشرائع. ثم هلك وولي مكانه ابنه صالح، وقد كان حضر مع أبيه حروب ميسرة وكان من أهل العلم والخير فيهم.

ثم انسلخ من آيات الله، وانتحل دعوى النبوة، وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده، وهي معروفة في كتب المؤرخين. وأدعى أنه نزل عليه قرآن كان يتلو عليهم سوراً منه، يسمى منها سورة الديك وسورة الجمل وسورة الفيل وسورة آدم وسورة نوح وكثير من الأنبياء، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وفيها العلم العظيم بزعمهم، حرم فيها وحل، وشرع وقصر، وكانوا يقرأونه في صلواتهم، وكانوا يسمونه صالح المؤمنين كما حكاه البكري عن زمور بن صالح بن هاشم بن وراذ الرواد منهم على الحاكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم أبي عيسى بن أبي الأنصاري سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة.

وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسي. قال: وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك سنة سبع وعشرين من المائة الثانية من الهجرة. وقد قيل: إن ظهوره كان لأول الهجرة، وأنه إنما انتحل ذلك عناداً أو محاكاة لما بلغه شأن النبي ﷺ والأول أصح. ثم زعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان، وأن عيسى يكون صاحبه ويصلي خلفه، وأن اسمه في العرب صالح وفي السريان مالك وفي الأعجمي عالم وفي العبراني رويبا وفي البربري روبا ومعناه الذي ليس بعده نبي، وخرج إلى المشرق بعد أن ملك أمرهم سبعاً وأربعين سنة، ووعدهم أنه يرجع إليهم في دولة السابع منهم، وأوصى بدينه إلى ابنه إلياس، وعهد إليه بموالة صاحب الأندلس من بني أمية، ويأظهار دينه إذا قوي أمرهم.

وقام بأمره بعده ابنه إلياس ولم يزل مظهراً للإسلام مُسراً لما

منهم فاستوزرهم، وكان منهم طلحة بن علي وأخوه عمر على ما يأتي ذكره في دولتهم.

ويتصل ببسيط بالمغرب ما بين جبال درن وجبال الريف من ساحل البحر الرومي حيث مساكن حماد الآتي ذكرهم قبائل أخرى من صنهاجة موطنون في عضاب وأودية وبسائط يسكنون بيوت الحجارة والطين مثل قشتالة وسطه وبنو ورياكل وبنو حميد وبنو مزكلدة وبنو عمران وبنو دركون وبنو رتزر وملوانة وبنو وامرد. وموطن هؤلاء كلهم بورغة، وأمر كو يحترفون بالحياسة والحراثة، ويعرفون لذلك صنهاجة البز، وهم في عداد القبائل المغارمة ولقتهم في الأكثر عربية لهذا العهد وهم مجاورون بجبال غمارة.

ويتصل بجبال غمارة من ناحيتهم جبل سريف موطن بني زروال من صنهاجة وبني مغالة لا يحترفون بمعاش ويسمون صنهاجة العز لما اقتضته منعة جبالهم. ويقولون لصنهاجة آزمور الذين قدمنا ذكرهم: صنهاجة الذل، لما هم عليه من الذل والمغرم، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وقد يقال في بعض مزاعم البربر: أن بني وديد من صنهاجة وبنو يزناسن وباطويه هم أحوال وأصل بن يزناسن أجناسن ومعناه بلغة العرب الجالس على الأرض.

الخبر عن المصامدة من قبائل البربر وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريقه

وأما المصامدة وهم من ولد مصمود بن يونس بربر فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم، من بطونهم: برغواطة وغمارة وأهل جبل درن. ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة. وكان المتقدم فيهم قبيل الإسلام وصدره برغواطة. ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد. وكان لبرغواطة في عصرهم دولة، ولأهل درن منهم دولة أخرى أو دول حسبما نذكر، فلنذكر هذه الشعوب وما كان فيها من الدول بحسب ما تأذى إلينا من ذلك.

ودمر ومطماطة وبنو وارزكيت. وكان أيضاً بنو يفرن وإصادة وركانة وإيزمن وورصافة ورغصزارة على دينهم، ولم تسجد ملوكهم إلا له منذ كانوا. كلام زصور. وكان للملك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم أثناء هذه وبعدة آثار عظيمة من الأدارة والأموية والشيعة. ولما أجاز جعفر بن علي من الأندلس إلى المغرب وقلده المنصور بن أبي عامر عمله سنة ست وستين وثلاثمائة فنزل البصرة، ثم اختلف ذات بينه وبين أخيه يحيى واستمال عليه أخوه الجند وأمراء زناته، فتجافى له جعفر عن العمل وصرف وجهه إلى جهاد برغواطة يعتده من صالح عمله، وزحف إليهم في أهل المغرب وكافة الجند الأندلسيين فلقوه وسط بلادهم، وكانت عليه الدبرة، ونجا بنفسه في قل من جنده، ولحق بأخيه بالبصرة. ثم أجاز بعدها إلى المنصور باستدعائه، وترك أخاه يحيى على عمل المغرب. ثم حاربهم أيضاً صنهاجة لما غزا بلكين بن زيري المغرب سنة ثمان وستين وثلاثمائة بعدها وأجفلت زناته أمامه وارزوا إلى حائط سبتة، وامتنعوا منه بأوعارها وانصرف عنهم إلى جهاد برغواطة، وزحف إليهم فلقه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار في قومه، وكانت عليهم الهزيمة.

وقتل أبو منصور واثنان فيهم بلكين بالقتل، وبعث سبيهم إلى القيروان وأقام بالمغرب يردد الغزو فيهم إلى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة وانصرف من المغرب فهلك في طريقه إلى القيروان. ولم أقف على من ملك أمرهم بعد أبي منصور. ثم حاربهم أيضاً جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد عبد الملك بن المنصور لمولاه واضح على المغرب عند قوله من غزاة زيري بن عطية سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، فافتتح واضح أمرة بغزو برغواطة هؤلاء فيمن قبله من الأجناد وأمراء النواحي وأهل الولاية، فغظم الأثر فيهم بالقتل والسبي. ثم حاربهم أيضاً بنو يفرن لما استقل بنو يعلى ابن محمد اليفرنى من بعد ذلك بناحية سلا من بلاد المغرب واقتطعوه من عمل أبناء زيري بن عطية المغراوي بعدما كان بينهما من الحروب.

وانساق أمر أولاد يعلى هؤلاء إلى تميم بن زيري بن يعلى في أول المائة الخامسة، وكان موطناً بمدينة سلا مجاوراً لبرغواطة، فكان له أثر كبير في جهادهم، وذلك في سني عشرين وأربعمائة، فغلبهم على تامستا وولّى عليها من قبله بعد أن أثنى فيهم سبياً وقتلاً. ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة لمتونة وخرجوا من مواطنهم بالصحرى إلى بلاد المغرب، واقتحموا الكثير من معاقل السوس الأقصى وجبال المصامدة. ثم بدا لهم جهاد برغواطة بتامستا وما إليها من الريف الغربي فزحف إليهم أبو بكر بن عمر

أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم. وكان طاهراً عفيفاً زاهداً لخمسین سنة من ملكه، وولي أمرهم من بعده ابنه يونس، فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامستا وما والاها، يقال: إنه حرق ثلثمائة وثمانين مدينة، واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه، وقتل منهم بموضع يقال له: تاملوكاف، وهم حجر عالٍ نابت وسط الطريق فقتل سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين.

قال زصور: ورحل يونس إلى المشرق وحج، ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده، وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه، وانتقل الأمر عن بيته، وولي أمرهم أبو غفير محمد بن معاد بن إيسع بن صالح بن طريف، فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدت شوكتهم وعظم أمره، وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إليها سعيد بن هشام المصمودي في قوله:

قفي قبل التفرق وأخبرنا وقولي وأخبري خبراً يقينا
وهذي أمة هلكوا وضلوا وغاروا لا سقوا ماءً معينا
يقولون: النبي أبو غفير فاخزي الله أم الكاذبين
الم تسمع ولم تر لؤم بيت على آثار خيلهم رينا
رئين الباقيات فبين تكلى وعادمة ومسقطه جتينا
سيعلم أهل تامستا إذا ما توا يوم القيامة مهطعينا
هنالك يونس وبنو أبيه يقودون السراير حائرنا
إذا زر يساور طافت عليهم جهنهم بأيدي المكرنا
فليس اليوم يومكم ولكن ليالي كتتم متيئرينا

واخذ أبو غفير من الزوجات أربعاً وأربعين، وكان له من الولد مثلها وأكثر. وهلك أخريات المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه، وولي بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله فاقتفى سنته وكان كثير الدعة مهاباً عند ملوك عصره يهودونه ويدافعونه بالمواصله، وكان يلبس الملعفة والسراويل ولا يلبس المخيط ولا يعتم، ولا يعتم أحد في بلاده إلا الغرباء. وكان حافظاً للجار وفيّاً بالعهد، وتوفي سنة إحدى وأربعين من المائة الرابعة لأربع وأربعين سنة من ملكه، ودفن بأمسلاخت وبها قبره. وولي بعده ابنه أبو منصور عيسى ابن اثنتين وعشرين سنة، فسار سير آبائه وادعى النبوة والكهانة، واشتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب.

قال زصور: وكان فيما أوصاه به أبوه: يا بني! أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف. قال زصور: وكان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم مثل: جراوة وزواغة والبرانس ومجاصة ومظفرة

اتصل بعضها ببعض سياجاً بعد سياج خمس مراحل أخرى في العرض إلى أن ينحط بسائط قصر كتامة ووادي ورغة من بسائط المغرب، ترتد عنها الأبصار وتزل في حافات الطيور لا بل الهوام وتنفسح في رؤوسها وبين قننها الفجاج، سبل السفر ومراتع السائمة وقدن الزراعة وأدواح الرياض.

ويتبين لك أنهم من المصامدة بقاء هذا النسب المحيط سمة فيهم لبعض شعوبهم يعرفون بمصمودة ساكنين ما بين سبته وطنجة، وإليهم ينسب قصر الحجاز الذي يعبر منه الخليج البحري إلى بلد طريف، ويعضده أيضاً اتصال مواطنهم بموطن برغواطة من شعوب المصامدة بريف البحر الغربي وهو المحيط، إذ كان بنو حسان منهم موطنين بذلك الساحل من لدن أزغار وأصيل إلى أنفى، ومن هنالك تتصل بهم مواطن برغواطة ودكالة إلى قبائل درن من المصامدة فما وراءها من بلاد القبلة. فالمصامدة هم أهل الجبال بالمغرب الأقصى إلا قليلاً منها وغيرهم في البسائط. ولم تزل غمارة هؤلاء بمواطنهم هذه من لدن الفتح، ولم يعلم ما قبل ذلك.

وللمسلمين فيهم أزمان الفتح وقائع الملاحم وأعظمها لموسى بن نصير وهو الذي حملهم على الإسلام واسترهم أبناءهم وأنزل منهم عسكرياً مع طارق بطنجة. وكان أميرهم لذلك العهد يليان وهو الذي وفد عليه موسى بن نصير ورغبه في غزو الأندلس، وكان منزله سبته كما نذكره، وذلك قبل استحواء نكور وكانت في غمارة هؤلاء بعد الإسلام دول قاموا بها لغيرهم وكان فيهم متبشون، ولم تزل الخوارج تقصد جبالهم للمنتعة فيها والاعتصام كما نذكرهم.

الخبر عن سبته ودولة بني عصام بها

كانت سبته هذه من الأمصار القديمة قبل الإسلام، وكانت يومئذ منزل يليان ملك غمارة، ولما زحف إليه موسى بن نصير صانه بالهدايا وأذن للجزية، فأمره عليها واسترهم ابنه وأبناء قومه، وأنزل طارق بن زياد بطنجة للجزية، وضرب عليهم العسكر للنزول معه. ثم كانت إجازة طارق إلى الأندلس فضرب عليهم البعوث، وكان الفتح الذي لا كفاء له كما مر في موضعه. ولما هلك يليان استولى العرب على مدينة سبته صلحاً من أيدي قومه فعمروها. ثم كانت فتنة ميسرة الحقيير وما دعى إليه من ضلالة الخارجية، وأخذ بها الكثير من البرابرة من غمارة وغيرهم، فزحف برابرة طنجة إلى سبته وأخرجوا العرب منها وسبوا

أمير لمتونة في المرابطين من قومه، وكانت له فيهم وقائع استشهد فيها صاحب الدعوة عبد الله بن ياسين الكزولي سنة حسين وأربعماية، واستمر أبو بكر وقومه من بعده على جهادهم حتى استأصلوا شأنتهم ومحووا من الأرض آثارهم وكان صاحب أمرهم لعهد انقراض دولتهم أبو حفص عبد الله من أعقاب أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غنير محمد بن معاذ بن إليسع بن صالح بن طريف، فهلك في حروبهم وعليه كان انقراض أمرهم وقطع دابرهم على يد هؤلاء المرابطين، والحمد لله رب العالمين.

وقد يغلط بعض الناس في نسب برغواطة هؤلاء فيعدّهم في قبائل زناتة، وآخرون يقولون في صالح: إنه يهودي من ولد شمعون بن يعقوب نشأ برباط ورحل إلى المشرق، وقرأ على عبد الله المعتزلي واشتغل بالسحر، وجمع فنوناً وقدم المغرب ونزل تامستا فوجد بها قبائل جهالاً من البربر فآظهم لهم الزهد وسحروهم بلسانه، وموه عليهم فقصدوه واتبعوه، فادعى النبوة وقيل له برباطي نسبة إلى الموطن الذي نشأ به، وهو برباط وإد محصن شريش من بلاد الأندلس، فعربت العرب هذا الاسم وقالوا برغواط، ذكر ذلك كله صاحب كتاب نظم الجواهر وغيره من النسابين للبربر، وهو الأغاليط البينة، وليس القوم من زناتة ويشهد لذلك موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة. وأما صالح بن طريف فمعروف منهم وليس من غيرهم، ولا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل لمتقطع جذمة دخيل في نسبه. سنة الله في عباده وإنما نسب الرجل في برغواطة وهم شعب من شعوب المصامدة معروف كما ذكرناه والله ولي التوفيق.

الخبر عن غمارة من بطون المصامدة وما

كان فيهم من الدول وتصارييف أحوالهم

هذا القبيل من بطون المصامدة من ولد غمار بن مصمود، وقيل: غمار بن مسطاف بن مليل بن مصمود، وقيل: غمار بن أصاد بن مصمود. ويقول بعض العامة: أنهم عرب غمروا في تلك الجبال فسموا غمارة، وهو مذهب عامي، وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تنحصر. والبطون المشهورة منهم: بنو حميد ومتيوة وبنو نال وأغصاوة، وبنو وزروال وعجكسة، وهم آخر مواطنهم يعتمرون جبال الريف بساحل البحر الرومي من عن يمين بسائط المغرب، من لدن غساسة فنكور فبادس فتيكيساس فتيطاوين فسبته فالقصر إلى طنجة خمس مراحل أو أزيد، أوطنوا منها جبالاً شاهقة

وخربوها فبقيت خلاه.

أن هلك بتمسان سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وولي أمرهم من بعده ابنه المعتصم بن صالح، وكان شهيداً شريف النفس كثير العبادة. وكان يلي الصلاة والخطبة لهم بنفسه، ثم هلك لأيام سيرة وولي من بعده أخوه إدريس، فاختط مدينة نكور في عدوة السوادي ولم يكملها. وهلك سني ثلاث وأربعين ومائة وولي من بعده ابنه سعيد، واستفحل أمره، وكان ينزل مدينة تمسان، ثم اختط مدينة نكور لأول ولايته ونزلها وهي التي تسمى لهذا العهد المزمّة بين نهريْن أحدهما نكور ومخرجه من بلاد كزناية ومخرجه ومخرج وادي ورغة واحد، والثاني عيس ومخرجه من بلد بني ورياعل، يجتمع النهران في أكدال، ثم يفرقان إلى البحر وتقابل نكور من عدوة الأندلس بزليانة.

وغزا المجوس نكور هذه في أساطيلهم سنة أربع وأربعين ومائة فتغلبوا عليها واستباحوها ثمانية، ثم اجتمع إلى سعيد الرانس، وأخرجوهم عنها، وانتفضت غمارة بعدها على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلاً منهم اسمه سكن. وتزاحفوا فأظهروه الله عليهم وفرق جماعتهم وقتل مقدمهم واستوسق أمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين ومائة لسبع وثلاثين من ملكه. وقام بأمره ابنه صالح بن سعيد فتقبل مذاهب سلفه في الاستقامة والاعتدال وكان له مع البربر حروب ووقائع إلى أن هلك سنة خمسين ومائتين لاثنتين وسبعين سنة من ملكه.

وقام من بعده ابنه سعيد بن صالح وكان أصغر ولده فخرج إليه أخوه عبيد الله وعمه الرضي وظفر بهما بعد حروب كثيرة، فغرب أخاه إلى المشرق ومات بمكة وأبقى على عمه الرضي لذمة صهر بينهما. وقتل سائر من ظفر به من عمومته وقربائه، وأنهض لهما سعادة الله بن هارون منهم، ولحق ببني يصلتن أهل جبل أبي الحسن ودلهم على عورته، وبيتوا معسكره واستولوا عليه، وأخذوا آتته وقتلوا آلافاً من مواليه، وحاصروا بنكور. ثم كانت له الكرة عليهم وقتل منهم خلقاً، ونجا سعادة الله إلى تمسان وتقبض على أخيه ميمون فضرب عنقه. ثم صار سعادة الله إلى طلب الصلح فأسعفه وأنزله معه مدينة نكور، ثم غزا سعيد بقومه وأهل إيلاته من غمارة بلاد بطوية ومرنيصة وقلوع جارة وبني ورتندي وأصهر باخته إلى أحمد بن إدريس بن محمد بن سليمان صاحبه. وأنزله مدينة نكور معه. وتوطد الأمر لسعيد في تلك النواحي إلى أن خاطبه عبيد الله المهدي يدعوه إلى أمره وفي أسفل كتابه:

فإن تستقيموا مستقم لصالحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلاً وأعلموا بسيفي قاهراً لسيفكم وأدخلها عنفاً وأملوها قتلاً

وأنزله بها ماجكس من رجالاتهم ووجوه قبائلهم، وبه سميت عكسة فبناها ورجع إليها الناس وأسلم. وسمع من أهل العلم إلى أن مات فقام بأمره ابنه عصام ووليتها دهرأ. ولما هلك قام بأمره ابنه مجيز فلم يزل والياً عليها إلى أن هلك، ووليتها أخوه الرضي ويقال: إنه ابنه، وكانوا يعطون لبني إدريس طاعة مضعفة كما نذكروه. ولما سما للناصر أمل في ملك المغرب، وتناول حبله من أيدي بني إدريس المالكين ببلاد الهبط وغمارة حين أجهضتهم مكناسة وزناتة عن ملكهم بفاس، وقاموا بدعوة الناصر وبتوها في أعمالهم نزلوا حيثنل للناصر عن سبتة، وأشاروا له إلى تناولها من بني عصام، فسرح إليها عساكره وأساطيله مع قائده لحاج بن غفير، فكان فتحها سنة تسع عشرة وثلثمائة، ونزل له الرضي بن عصام عنها وأثاه طاعته وانقرض أمر بني عصام. وصارت سبتة إلى الناصر حتى استولى عليها بعد حين بنو حماد واستحدثوا بعدها دولة أخرى كما نذكروه.

الخبر عن بني صالح بن منصور ملوك نكور ودولتهم في غمارة وتصاريق أحوالهم

لما استولى المسلمون أيام الفتح على بلاد المغرب وعمالاته واقتسموه وأمدتهم الخلفاء بالبعوث إلى جهاد البربر، وكان فيهم من كل القبائل من العرب. وكان صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن في البحث الأول. وكان يعرف بالعبد الصالح فاستخلص نكور لنفسه، وأقطعها إياها الوليد بن عبد الملك في أعوام إحدى وتسعين للهجرة، قاله صاحب المقياس، حد بلد نكور ينتهي من المشرق إلى زواغة وجراوة بن أبي العيص مسافة خمسة أيام ونحوه من هنالك مطماطة، وأهل كبدانة ومرنيصة وغساسنة أهل جبل هرك، وقلوع جارة التي لبني ورتندي، وينتهي من الغرب إلى بني مروان من غمارة، وبني حميد وإلى مسطاسنة وصنهاجة ومن ورائهم أوربة، حزب فرحون وبني وليد وزناتة وبني يرنان وبني واسن حزب قاسم صاحب صا والبحر جوفي نكور على خمسة أميال، فأقام صالح هنالك لما اقتطع أرضها وكثر نسله واجتمع إليه قبائل غمارة وصنهاجة مفتاح وأسلموا على يده وقاموا بأمره، وملك تمسان، وانتشر الإسلام فيهم. ثم تقلت عليهم الشرائع والتكاليف وارتدوا وأخرجوا صالحاً وولوا عليهم رجلاً من نفزة يعرف بالرتدي.

ثم تابوا وراجعوا الإسلام وراجعوا صالحاً فأقام فيهم إلى

فكتب إليه شاعره الأحس الطليلي بأمر يوسف بن صالح
أخي الأمير سعيد:

كُنت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفصلا
وما أنت إلا جاهل ومنافق تمشل للجهال في السنة المثلى
وهمتبا العليا للدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فكتب عبيد الله إلى مصالة بن جبوس صاحب تاهرت،
وأوعز إليه بغزوه فغزاه سنة أربع وثلاثمائة لأربع وخمسين من
دولته، فحاربه سعيد وقومه أياماً، ثم غلبهم مصالة وقتلهم، وبعث
برؤوسهم إلى رقادة، فطيف بها وركب بقيتهم البحر إلى مالقة،
فتوسع الناصر في إنزالهم وإجارتهم وبالغ في تكريمهم وأقام مصالة
بمدينة نكور سنة أشهر. ثم قفل إلى تاهرت وولى عليها دلول من
كتامة، فانقبض العسكر من حوله، وبلغ الخبر إلى بني سعيد بن
صالح وقومهم بمالقة، وهم: إدريس المعتصم وصالح، فركبوا
السفن إليها، وسبق صالح منهم، فاجتمع إليه البربر بمرسى
تمسامان وبيايعوه سنة خمس وثلاثماية، ولقبوه اليتيم لصغره،
وزحفوا إلى دلول فظفروا به وجمن معه وقتلوه، وكتب صالح
بافتح إلى الناصر، وأقام دعوته بأعماله وبعث إليه الناصر بالهدايا
والتحف والأكلة، ووصل إليه إخوته وسائر قومه وأنشأ طاعته. ولم
يزل على هدى أوليه من الاقتداء إلى أن هلك سنة خمس عشرة
وثلاثماية.

وولي بعده ابنه عبد البديع، ولقب المؤيد، وزحف إليه
موسى بن أبي العافية القائم بدعوة العبيديين بالمغرب، فحاصره
وتغلب عليه فقتله، واستباح المدينة وخربها سنة سبع عشرة
وثلاثمائة. ثم تراجع إليها فلهم وقام بأمرهم أبو أيوب إسماعيل
بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح بن
منصور وأعاد المدينة التي بناها صالح بن منصور وعمرها وسكنها
ثلاثاً. ثم أغزاه ميسور مولى أبي القاسم بن عبد الله صندلاً مولاه
عندما أناخ على فاس، فبعث عسكراً مع صندل هذا فحاصر
جراوة، ثم عطف على نكور وتحصن منه إسماعيل بن عبد الملك
بقلعة أكنى. وبعث إليه صندل رسله من طريقه فقتلهم فأغذ
السير وقتله ثمانية أيام.

ثم ظفر به فقتله واستباح القلعة وسبها، واستخلف عليها
من كتامة رجلاً اسمه مرمازوا، ورحل صندل إلى فاس فترافع أهل
نكور وبيايعوا موسى بن المعتصم بن محمد بن قره بن المعتصم بن
صالح بن منصور. وكان يجبل أبي الحسين عند بني يصلتن وكان
يعرف بابن رومي.

وقال صاحب المقياس: هو موسى بن رومي بن عبد

السميع بن إدريس بن صالح بن إدريس بن صالح بن منصور،
فاخذ مرمازوا ومن معه وضرب أعناقهم، وبعث برؤوسهم إلى
الناصر. ثم ثار عليه من أعياص بيته عبد السميع بن جرثم بن
إدريس بن صالح بن منصور، فخلعه وأخرجه عن نكور سنة تسع
وعشرين وثلاثمائة وخلق موسى بالأندلس ومعه أهله وولده وأخوه
هارون بن رومي وكثير من عمومته وأهل بيته، فمَنَهم من نزل
معه المربة ومنهم من نزل مالقة. ثم انتفض أهل نكور على عبد
السميع وقتلوه. واستدعوا من مالقة جرثم بن أحمد بن زيادة الله
بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور، فبادر إليهم وبيايعوه
سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فاستقامت له الأمور وكان على مذهب
سلفه في الاقتداء والعمل بمذهب مالك إلى أن مات آخر سنة ستين
وثلاثمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه، واتصلت الولاية في بنيهِ
إلى أن غلب عليهم أزداجة المتغلبون على وهران، وزحف أميرهم
يعلى بن قروح الأزداجي سنة ست وأربعمائة، وقيل سنة عشر
فغلبهم على نكور وخربها، وانقرض ملكهم بعد ثلاثماية سنة
وأربع عشرة سنة من لدن ولاية صالح، وبقيت في بني يعلى بن
قروح وأزداجة إلى أعوام ستين وأربعمائة والله مالك الأمور لا إله
إلا هو.

الخبر عن حاميم المتنبي من غمارة

كان غمارة هؤلاء غريقين في الجهالة والبعد عن الشرائع
بالدأوة والانتباز عن مواطن الخير، وتبا فيهم من بجكسة حاميم
بن من الله بن حرير بن عمر بن رحنو بن أزوال بن بجكسة يكنى
أبا محمد وأبوه أبو خلف. تبا سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة بجبل
حاميم المشتهر به قريباً من تطاوين، واجتمع إليه كثير منهم وأقروا
بنيوته وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام،
وصنع لهم قرآناً كان يتلوه عليهم بلسانهم، من كلامه: «يا من
يخلي البصر، ينظر في الدنيا، خلني من الذنوب يا من أخرج موسى
من البحر آمنت بحاميم وبأبيه أبي خلف من الله، وآمين رأسي
وعقلي وما يكن صدرتي، وما أحاط به دمي ولحمي، وآمنت
بتابعيت عمة حاميم أخت أبي خلف من الله، وكانت كاهنة
ساحرة إلى غير هذا، وكان يلقب المفتري، وكانت أخته دبو ساحرة
كاهنة، وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط، وقتل في
حروب مصمودة بأحواز طنجة سنة خمسة عشر وثلاثماية، وكان
لابنه عيسى من بعده قدر جليل في غمارة، ووفد على الناصر.

ورهمهم بنو رحنو موطنون بوادي لاو ووادي راس قرب

صاحب نكور.

ولما استقل ابن أبي العافية من نكبته ورجع من الصحراء سنة خمس وعشرين وثلاثمائة منصرف ميسور من المغرب نازل بني محمد وبني عمر وهلك بعد ذلك. وأجاز الناصر وزيره القاسم بن محمد بن طملى سنة ثلاث وثلاثين لحربهم، وكتب إلى ملوك مغراوة محمد بن خزر وابنه الخير بمظاهرة عساكره مع ابن أبي العافية عليهم، فتسارع أبو العيش بن إدريس بن عمر المعروف بابن مصالة، إلى الطاعة، وأوفد رسله إلى الناصر فعقد له الأمان، وأوفد ابنه محمد بن أبي العيش مؤكداً للطاعة، فاحتفل لقدومه وأكد له العقد، وتقبل سائر الأدارسة من بني محمد مذهبهم.

وسألوا مثل سؤلهم، فعقد لجميع بني محمد أيضاً، وكان وفد منهم محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد والحسن بن القاسم بن إبراهيم بن محمد، وكان بنو إدريس يرجعون في رئاستهم إلى بني محمد هؤلاء منذ استبد بها آخرهم الحسن بن محمد الملقب بالحجام في ثورته على ابن أبي العافية، فقدموا على أنفسهم القاسم بن محمد الملقب بكنون بعد فرار موسى بن أبي العافية، وملك بلاد المغرب ما عدا فاس مقيماً للدعوة الشيعية إلى أن هلك بقلعة حجر النسر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وقام بأمرهم من بعده أبو العيش أحمد بن القاسم كنون، وكان قتيهاً عالماً بالأيام والأخبار شجاعاً كريماً ويعرف بأحمد الفاضل، وكان منه ميل للمروانية فدعا للناصر، وخطب له على منابر عمله ونقض طاعة الشيعية، وباعه أهل المغرب كافة إلى سجلماسة.

ولما بايعه أهل فاس استعمل عليهم محمد بن الحسن ووفد محمد بن أبي العيش بن إدريس بن عمر بن مصالة على الناصر عن أبيه سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة فاتصلت به وفاة أبيه وهو بالحضرة فعقد له الناصر على عمله وسرجه، وهجم عيسى ابن عمه أبي العيش أحمد بن القاسم كنون على عمله بتيكيسان في غيبة محمد، فملكها واحتوى على مال ابن مصالة، ولما أقبل محمد من الحضرة زحف برابرة غمارة إلى عيسى المذكور ابن كنون ففعلوا به وأثنوه جراحة، وقتلوا أصحابه ببلد غمارة. وأجاز الناصر قواده إلى المغرب، وكان أول من أجاز إلى بني محمد هؤلاء سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة أحمد بن يعلى من طبقة القواد، أجازهم في العساكر ودعاهم إلى هدم تيطاوين فامتنعوا، ثم انقادوا وتصلوا وأجابوا إلى هدمها.

ورجع عنهم فانتفضوا فسرح إليهم حميد بن يصل المكناسي في العساكر سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وزحفوا إليه بوادي لاو فأوقع بهم فأذعنوا من بعدها، وتغلب الناصر على طنجة من يد

تيطاوين، وكذلك تنبأ منهم بعد ذلك عاصم بن جميل اليزدجومي، وله أخبار ماثورة، وما زالوا يتحلون السحر لهذا العهد. وأخبرني المشيخة من أهل المغرب أن أكثر متحلي السحر منهم النساء العواتق. قال: ولهن قوة على استجلاب روحانية ما يشاؤونه من الكواكب، فإذا استولوا عليه وتكيفوا بتلك الروحانية تصرفوا منها في الأكران بما شاؤوا والله أعلم.

الخبر عن دولة الأدارسة في غمارة

وتصاريح أحوالهم

كان عمر بن إدريس عندما قسم محمد بن إدريس أعمال المغرب بين إخوته برأي جدته كنزة أم إدريس اختص منها بتيكساس وترغه وبلاد صنهاجة وغمارة، واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة وما إلى ذلك من بلاد غمارة. ثم غلب عمر عليها عندما تنكر له أخوه محمد واستضافها إلى عمله كما ذكرنا في أخبارهم. ثم تراجع بنو محمد بن القاسم من بعد ذلك إلى عملهم الأول فملكوه، واختط منهم محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم قلعة حجر النسر الدانية من سبتة معقلاً لهم وتغراً لعملهم. وبقيت الإمارة بفاس وأعمال المغرب في ولد محمد بن إدريس. ثم أдалوا منهم بولد عمر بن إدريس، وكان آخرهم يحيى بن إدريس بن عمر وهو الذي بايع لعبيد الله الشيعي على يد مصالة بن حبوس قائده، وعقد له على فاس، ثم نكبه سنة تسع وثلاثمائة.

وخرج عليه سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة من بني القاسم الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس ولقب بالحجام لظعته في الحجام، وكان مقدماً شجاعاً، وثار أهل فاس وبريجان وملكوا الحسن، وزحف إليه موسى فقله ومات. واستولى ابن أبي العافية على فاس وأعمال المغرب، وأجلى الأدارسة وأحجرهم بمحصنهم حجر النسر، ونحيزوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف، وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات، واستجدوا بتلك الناحية ملكاً تورعوه قطعاً، كان أعظمها لبني محمد هؤلاء ولبني عمر بتيكساس ونكور وبلاد الريف. ثم سما الناصر عبد الرحمن إلى ملك العدو ومدافعة الشيعية، فنزل له بنو محمد عن سبتة سنة تسع عشرة وتناولها من يد الرضي بن عصام رئيس بجكة، وكان يقيم فيها دعة الأدارسة فأفروا له عنها ودانوا بطاعته وأخذها من يده.

ولما أغزا أبو القاسم ميسوراً إلى المغرب لمحاربة ابن أبي العافية حين نقض طاعتهم ودعا للمروانية وجد بنو محمد السبيل إلى النيل منه بمظاهرة ميسور عليه، ومالهم على ذلك بنو عمر

أبي العيش أمير بني محمد وبقي يصل على بيعة الناصر. ثم تحطمت عساكر الناصر إلى بسائط المغرب فاذعن له أهله، وأخذ بدعوته فيه أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة كما ذكرناه، فضعف أمر بني محمد واستأذنه أميرهم أبو العيش في الجهاد فاذن له وأمر ببناء القصور له في كل مرحلة من الجزيرة إلى الثغر، فكانت ثلاثين مرحلة، فأجاز أبو العيش واستخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون، وتلقاه الناصر بالمبرة وأجرى له ألف دينار في كل يوم، وهلك شهيداً في مواقف الجهاد سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة.

ولما أغزا معداً قائدته جوهرراً الكاتب إلى المغرب واستنزل عماله، وتحصن الحسن بن كنون منه بقلعة النسر معقلهم. وبعث إليه بطاعته فلم يعرض له جوهر، ولما قفل من المغرب راجع الحسن طاعة الناصر إلى أن هلك سنة خمسين وثلاثمائة فاستجد الحكم عزمه في سد ثغور المغرب وإحكام دعوتهم فيه. وشحذ لها عزائم أوليائهم من ملوك زناتة، فكان بينهم وبين زيري وبلكين ما ذكرناه. ثم أغزى معداً بلكين بن زيري المغرب سنة اثنين وستين وثلاثمائة أولى غزواته، فأتخن في زناتة وأوغل في ديار المغرب. وقام الحسن بن كنون بدعوة الشيعة ونقض طاعة المروانية، فلما انصرف بلكين أجاز الحكم عساكره إلى العدو مع وزيره محمد بن قاسم بن طملس سنة اثنين وستين وثلاثمائة لقتال الحسن بن كنون وبني محمد، فكان الظهور والفلاح للحسن على عسكر الحكم.

واستقام المغرب للحكم وتظافر أمراؤه على مدافعة بلكين، وعقد الوزير المنصور لجعفر بن علي على المغرب، واسترجع يحيى بن محمد بن هاشم وغرب الحسن بن كنون الأدارسة جميعاً إلى المشرق استقلالاً لنفقاتهم، وشرط عليهم ألا يمدوا، فعبروا البحر من المرية سنة خمس وستين وثلاثمائة، ونزلوا من جوار العزيز بن معداً بالقاهرة خير نزل، وبالف في الكرامة ووعد بالنصرة والثرة.

ثم بعث الحسن بن كنون إلى المغرب وكتب له إلى آل زيري بن مناد بالقيروان بالمظاهرة، فلحق بالمغرب ودعا لنفسه. وبعث المنصور بن أبي عامر العساكر لمداغته فغلبوه وتقبضوا عليه، وأشخصوه إلى الأندلس فقتل في طريقه سنة... كما ذكرناه في أخبارهم. وانقرض ملك الأدارسة من المغرب أجمع إلى أن كان رجوع الأمر لبني حمود منهم ببلاد غمارة وسبتة وطنجة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

ولما أغزا معداً قائدته جوهرراً الكاتب إلى المغرب واستنزل عماله، وتحصن الحسن بن كنون منه بقلعة النسر معقلهم. وبعث إليه بطاعته فلم يعرض له جوهر، ولما قفل من المغرب راجع الحسن طاعة الناصر إلى أن هلك سنة خمسين وثلاثمائة فاستجد الحكم عزمه في سد ثغور المغرب وإحكام دعوتهم فيه. وشحذ لها عزائم أوليائهم من ملوك زناتة، فكان بينهم وبين زيري وبلكين ما ذكرناه. ثم أغزى معداً بلكين بن زيري المغرب سنة اثنين وستين وثلاثمائة أولى غزواته، فأتخن في زناتة وأوغل في ديار المغرب. وقام الحسن بن كنون بدعوة الشيعة ونقض طاعة المروانية، فلما انصرف بلكين أجاز الحكم عساكره إلى العدو مع وزيره محمد بن قاسم بن طملس سنة اثنين وستين وثلاثمائة لقتال الحسن بن كنون وبني محمد، فكان الظهور والفلاح للحسن على عسكر الحكم.

وقتل قائدته محمد بن طملس وخلقاً كثيراً من عسكره وأولياؤه. ودخل فلهم إلى سبتة واستصرخوا الحكم، فبعث غالباً مولاه البعيد الصيت المعروف الشهامة، وأمدته بكفاء ذلك من الأموال والجنود، وأمره باستنزال الأدارسة وإجازتهم إليه، وقال له: سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً أو ميتاً معذوراً. واتصل خبره بالحسن بن كنون فافرج عن مدينة البصرة واحتمل منها أمواله وحرمه وذخيرته إلى حجر النسر معقلهم القريب من سبتة، ونازله غالب بقصر مصمودة فاتصلت الحرب بينهم أياماً.

ثم بث غالب المال في رؤساء البربر من غمارة ومن معه من الجنود ففروا وأسلموه، وانحجز بقلعة جبل النسر ونازله غالب وأمدته الحكم بعرب الدولة ورجال الثغور، وأجازهم مع وزيره صاحب الثغر الأعلى يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي فيمن معه من أهل بيته وحشمه سنة ثلاث وستين وثلاثمائة فاجتمع مع غالب على القلعة، واشتد الحصار على الحسن، وطلب من غالب الأمان فعهق له وتسلم الحصن من يده. ثم عطف على من بقي من

غمارة.

الخبر عن دولة بني حمود ومواليهم بسببة وطنجة وتصاريف أحوالهم وأحوال غمارة من بعدهم

واتصلت أيامه إلى أن كانت دولة المرابطين، وتغلب يوسف بن تاشفين على مغراوة بفاس. ونجا فلهم إلى بلد الدمنة من آخر بسبت المغرب مما يلي بلاد غمارة، ونازلهم يوسف بن تاشفين سنة إحدى وسبعين وأربعمئة، ودعا الحاجب سكوت إلى مظهرته عليهم، فهم بالانحياش ومظهرته على عدوه، ثم ثناه عن ذلك ابنه القائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وأوقع بهم وافتتح حصن علودان من حصون غمارة من ورائه، وانقاد المغرب لحكمه، صرف وجهه إلى سكوت فجهز إليه العساكر وعقد عليها للقائد صالح بن عمران من رجالات لثونة، فتباشرت الرعايا بمقدمهم واثالوا عليهم. وبلغ الخبر إلى الحاجب سكوت فأقسم أن لا يسمع أحداً من رعيته هدير طبولهم، ولحق هو بمدينة طنجة ثغر عمله. وقد كان عليه من قبله ابنه ضياء الدولة المعز، وبرز للقائهم فالتقى الجمعان بظاهر طنجة وانكشف عساكر سكوت، وطحنت رضى المرابطين وسالت نفسه على ظباهم، ودخلوا طنجة واستولوا عليها، ولحق ضياء الدولة بسببة.

ولما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس، وبعث ابن عباد صريحه إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مستنجزاً وعده في جهاد الطاغية والذب عن المسلمين، وكتبه أهل الأندلس كافة اهتزازاً إلى الجهاد، وبعث ابنه المعز سنة ست وسبعين وأربعمئة في عساكر المرابطين إلى سببة ففرضه المجاز، فنازلها براً وأحاطت بها أساطيل ابن عباد مجراً، واقتحموها عنوة. وتقبض على ضياء الدولة، واقتدى إلى المعز فطالبه بالمال لائحته فأساء إيجابه فقتله لوقته، وعثر على ذخائره وفيها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وكسب إلى أبيه بالفتح، وانقرضت دولة آل حمود وانحى أثر سلطانهم من بلاد غمارة، وأقاموا في طاعة لثونة سائر أيامهم.

ولما نجح المهدي بالمغرب واستفحل أمر الموحدين بعد مهلكه، تنقل خليفته عبد المؤمن في بلادهم في غزاته الكبرى لفتح المغرب سنة سبع وثلاثين وما بعدها قبل استيلائه على مراكش كما نذكره في أخبارهم، فوحدوا صفوفهم، واتبعوا أمره ونازلوا سببة في عساكره. وامتنعت عليهم، وتولى كبير امتناعها قاضيهم عياض الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد بدينه وأبوته وعلمه ومنصبه. ثم افتتحت بعد فتح مراكش سنة إحدى وأربعين فكانت لغمارة هؤلاء السابقة التي رُعت لهم سائر أيام الدولة.

ولما فشل أمر بني عبد المؤمن وذهبت ريحهم، وكثر الشوار بالقصاية، ثار فيهم محمد بن محمد الكتامي سنة خمس وعشرين، كان أبوه من قصر كتامة منقبضاً عن الناس وكان يتحلل السيميا،

كانت الأدارسة لما أجلاهم الحكم المستنصر عن العدو إلى المشرق، ونجا أثرهم من سائر بلاد المغرب واستقامت غمارة على طاعة المروانية، وأذعنوا لجند الأندلسيين، ورجع الحسن بن كنون لطلب أمرهم، فهلك على يد المنصور بن أبي عامر فانقرض أمرهم، وافتقرت الأدارسة في القبائل وانتشروا في الأرض، ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب، واستحالت صبتهم منه إلى البداوة. ولحق بالأندلس في جملة البرابرة من ولد عمر بن إدريس رجلان منهم وهما: علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس، فطار لهم ذكر في الشجاعة والإقدام. ولما كانت الفتنة البربرية بالأندلس بعد انقراض الدولة العامرية، ونصب البرابرة سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين، واختص به أبناء حمود هذان، وأحسنوا الغناء في ولايته، حتى إذا استولى على ملكه بقرطبة وعقد للمغاربة الولايات، عقد لعلي بن حمود هذا على طنجة وأعمال غمارة فنزلها وراجع عهده معهم فيها.

ثم انقضض ودعا لنفسه وأجاز إلى الأندلس، وولي الخلافة بقرطبة كما ذكرناه فعقد على عمله بطنجة لابنه يحيى، ثم أجاز يحيى إلى الأندلس بعد مهلك أبيه علي منازعاً لعمه القاسم، واستقل أخوه إدريس من بعده بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه بالعدوة من مواطن غمارة. ثم أجاز بعد مهلك أخيه يحيى بمالقة فاستدعى رجال دولتهم، وعقد لحسن ابن أخيه يحيى على عملهم بسببة وطنجة، وأنفذ نحو الخادم معه ليكون تحت نظره واستبداده. ولما هلك إدريس واعتزم ابن بقنة على الاستبداد بمالقة أجاز نحو الخادم بحسن بن يحيى من طنجة فملك مالقة ورتب أمره في خلافته ورجع إلى سببة. وعقد له حسن على عملهم في مواطن غمارة حتى إذا هلك حسن أجاز نحو إلى الأندلس يروم الاستبداد. واستخلف على العمل من وثق به من الموالى الصقالبة، فلم يزل إلى نظرهم واحداً بعد آخر إلى أن استقل بسببة وطنجة من موالى بني حمود هؤلاء الحاجب سكوت البرغواطي، وكان عبداً للشيخ حداد من موالىهم اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم. ثم صار إلى علي بن حمود فاخذت النجابة بضمه إلى أن استقل بأمرهم واقعد كرسي عملهم بطنجة وسببة، وأطاعته قبائل

الخبر عن أهل جبال درن بالمغرب الأقصى من بطون المصامدة وما كان لهم من الظهور والأحوال ومبادئ أمورهم وتصارييفها

هذه الجبال بقاسية المغرب من أعظم جبال المعمور بنا أعرق في الثرى أصلها وذهبت في السماء فروعها، وملأت الجو هياكلها، ومثلت ساجاً على ريف المغرب سطورها تتبدى من ساحل البحر المحيط عند أسفى وما إليها، وتذهب في المشرق إلى غير نهاية. ويقال: إنها تنتهي إلى قبلة برنيق من أرض برقة، وهي في الجانب مما يلي مراكش قد ركب بعضها بعضاً متتالية على نسق من الصحراء إلى التل.

يسير الراكب فيه معترضاً من تامسنا وسواحل مراكش إلى بلاد السوس ودرعة من القبلة ثماني مراحل وأزيد، تفجرت فيها الأنهار، وجلل الأرض خُمر الشعراء وتكاثفت بينها ظلال الأدواح، وزكت فيها الزرع والضرع، وانفسحت مسارج الحيوان ومراتع الصيد، وطابت منابت الشجر، ودرت أفاويق الجبابة يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم، قد اتخذوا المعقل والحصون وشيدوا المباني والقصور واستغنوا بقطرهم منها عن سائر أقطار العالم، فرحل إليهم التجار من الآفاق، واختلقت إليهم أهل النواحي والأمصار، ولم يزلوا مذ أول الإسلام وما قبله معتمرين بتلك الجبال قد أوطنوا منها أقطاراً بل أقاليم تعددت فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم، وافترت أسماءها بافتراق أحيائهم.

تنتهي ديارهم من هذه الجبال إلى ثنية المعدن المعروفة ببني فازان حيث تتبدى مواطن صناكة ويحفون بهم كذلك من ناحية القبلة إلى بلاد السوس، وقبائل هؤلاء المصامدة بهذه المواطن كثيرة فمنهم: هرغة وهتاة وتينمل وكدموية وكنفيسة ووريكة وركراكة ومزمية ودكالة وحاحة وأصادن وبنو وإزكيت وبنو ماکر وإيلانة ويقال هيلانة بالماء. ويقال أيضاً إن إيلان هو ابن بر، أصهر المصامدة فكانوا خلفاءهم. ومن بطون أصادن: مسفاوة وماغوس، ومن مسفاوة: دغاغة ويوطنان، ويقال: إن غمارة ورهون وأمول من أصادن والله أعلم.

ولقنه عنه ابنه محمد هذا. وكان يلقب أبا الطواجن فارتحل إلى سبتة ونزل على بني سعيد وادعى صناعة الكيمياء فاتبعه الغوغاء. ثم ادعى النبوة وشرع شرائع، وأظهر أنواعاً من الشعوذة فكثر تابعه. ثم اطلعوا على خبئه ونبذوا إليه عهده. وزحفت عساكر سبتة إليه ففر عنها، وقتله بعض البرابرة غيلةً.

ثم غلب بنو مرين على بسائط المغرب وأمصاره سني أربعين وستمئة، واستولوا على كرسي الأمر بمراكش سنة ثمان وستين وستمئة فامتنع قبائل غمارة من طاعتهم واستعصوا عليهم، وأقاموا بمنجاة من الطاعة، وعلى ثبج من الخلاف، وامتنعت سبتة من ورائهم على ملوك بني مرين بسبب امتناعهم وصار أمرها إلى الشورى، واستبد بها الفقيه أبو القاسم العزفي من مشيختهم، كما سنذكر ذلك كله، إلى أن وقع بين قبائل غمارة ورؤسائهم فتن وحروب، ونزعت إحدى الطائفتين إلى طاعة السلطان بالمغرب من بني مرين فاتوها طواعيةً.

ودخل الآخرون في الطاعة تلهم طوعاً أو كرهاً، فملك بنو مرين أمرهم، واستعملوا عليهم، ونحطوا إلى سبتة من ورائهم فملكوا أمر العزفين سنة تسع وعشرين وسبعمائة على ما نذكره بعد عند ذكر دولتهم. وهم الآن على أحسن أحوالهم من الاعتزاز والكثرة يؤتون طاعتهم وجبايتهم عند استقلال الدولة، ويعرضون فيها عند التياثها بفشل أو شغل بخارج، فيجهز البعوث إليهم من الخضرة حتى يستقيموا على الطاعة، ولهم بوعورة جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحق بهم من أعياص الملك، ومستأمني الخوارج إلى هذا العهد. ولبيني يكمن بينهم الحظ الوافر من ذلك لأشراف جبلهم على سائرهما وسموه بقلاعه إلى مجاري السحب دونها وتورع مسالكه بهبوب الرياح فيها. وهذا الجبل مطلل على سبتة من غربيها ورئيسه منهم وصاحب أمره يوسف بن عمر وبنوه، ولهم فيه عزة وثروة، وقد اتخذوا به المصانع والغروس وفرض لهم السلطان بدويان سبتة العطاء، وأقطعهم ببسيط طنجة الضياع والفدن استئلاً لهم وحسماً لزبون سائر غمارة بإيناس طاعتهم، والله الخلق والأمر بيده ملكوت السموات والأرض.

ويقال: إن من بطون حاحة: زكن وولخص الظواعن الآن بأرض السوس أحلافاً لذوي حسان المتغلبين عليها من عرب المعلل. ومن بطون كنفيسة أيضاً قبيلة سكسيوة الموطنون بأمنع

سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي إدريس الأكبر، الواقع نسب الكثير من بني في المصامدة وأهل السوس. كذا ذكر ابن نخيل في سليمان هذا، وأنه لحق بالمغرب إثر أخيه إدريس، ونزل تلمسان واقترب ولده في المغرب، قال: فمن ولده كل طالبي بالسوس، وقيل: بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب، وأن رباحاً الذي في عمود هذا النسب إنما هو ابن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن، وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ووشجت عروقه فيهم، والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم، وانتسب بنسبتهم وصار في عدادهم. وكان أهل بيته أهل نسك ورياط. وشب محمد هذا قارئاً محباً للعلم، وكان يسمى أسافو، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل بالمساجد للازمتها، وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة، ومر بالأندلس ودخل قرطبة وهي إذ ذاك دار علم. ثم أجاز إلى الإسكندرية وحج ودخل العراق ولقي جلة من العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علماً واسعاً وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده لما كان الكهان والحزاء يتجنبون ظهور دولة يومئذ بالمغرب، ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي، ففاوضه بذات صدره بذلك فأراه عليه لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار المغرب من اختلال الدولة وتقويض أركان السلطان الجامع للأمة المقيم للملة، بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التي يكون بها الاعتزاز والمنعة، وبشأنها يتم أمر الله في درك البغية وظهور الدعوة. وانطلق هذا الإمام راجعاً إلى المغرب محرراً متفجراً من العلم، وشهاباً ورأياً من الدين. وكان قد لقي بالشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدور أهل البدعة. وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب يبعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإمرار التشابهات كما جاءت، فطعن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القوم بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد. وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامية الذي افتتحه بقوله: أعز ما يطلب، وصار هذا المفتح لقباً على ذلك الكتاب، وأحل بطرابلس أول بلاد المغرب مفتياً بمذهبه ذلك مظهر الكبر على علماء المغرب في عدوهم عنه، أخذ نفسه بتدريس العلم

المعقل من هذه الجبال يطل جبلهم على بسيط السوس من القبلة وعلى ساحل البحر المحيط من المغرب، ولهم بمنعة معقلهم ذلك اعتزاز على أهل جلدتهم تذكره بعد. وكان هؤلاء المصامدة صدر الإسلام بهذه الجبال عدد وقوة وطاعة للدين وغالفة لإخوانهم برغواطة في نخلة كفرهم. وكان من مشاهيرهم كسير بن وسلاس بن شملال بن أصادة، وهو جد يحيى بن يحيى راوي الموطأ عن مالك.

ودخل الأندلس وشهد الفتح مع طارق في آخرين من مشاهيرهم استقروا بالأندلس، وكان لأعقابهم بها ذكر في الدولة الأموية. كان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء. ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أذلت من لمتونة بالعدوتين، ومن صنهجة بإفريقية حسباً هو مشهور ونأتي الآن بذكره إن شاء الله.

الخبر عن مبدأ أمر المهدي ودعوته وما كان

للموحدين القائمين بها على يد بني عبد المؤمن من السلطان والدولة بالعدوتين وإفريقية وبداية ذلك وتصاريفه

لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيماً، وجماعتهم موفورة وبأسهم قوياً، وفي أخبار الفتح من حروبهم مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام ما هو معروف مذكور إلى أن أظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلاً، وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهماً، حتى لقد اختلطوا مدينة مراكش لنزهم جوار مواطنهم من درن ليتمرسوا بهم ويذلوا من صعابهم. وفي عتفوان تلك الدولة على عهد علي بن يوسف منها نجم إمامهم العالم الشهير محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين المشتهر بالمهدي، أصله من هرغة من بطون المصامدة الذين عددناهم يسمى أبوه عبد الله وتومرت، وكان يلقب في صغره أيضاً أمغار، وهو محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصال بن حمزة بن عيسى فيما ذكره ابن رشيح وحققة ابن القطان. وذكر بعض مؤرخي المغرب أنه محمد بن تومرت بن تيطاوين بن سافلا بن مسيغون بن إيكليس بن خالد.

وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت، وأنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن

وتقول نسابتهم: إن فاصكات هو جد وانودين، ويقال لهتاتة بلسانهم يتى فلذلك كان يعرف عمر بيتي وسياي الكلام في تحقيق نسبه عند ذكر دولتهم. ثم ارتحل المهدي عنهم إلى إيكيلين من بلاد هرغة، فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة، وبني رابطة للعبادة واجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة والتوحيد باللسان البربري. وشاع أمره في صحبته واستدرك رئيس الفئة العلمية بمجلس الأمير علي بن يوسف وهو مالك بن وهيب أغراره به، وكان جزاءً ينظر في النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكاً كائن بالغرب لأمة من البربر ويتغير فيه شكل السكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضي ذلك في أحكامهم، وكان الأمير يتوقعها، فقال له: احتفظوا بالدولة من الرجل فإنه صاحب القران.

والدرهم المربع في كلام سفساف بسجع سوقى يتناقل الناس نصه وهو: اجعل على رجله كبلًا ليلاً يسمعك طبلًا. وأظنه صاحب الدرهم المربع، فطلبه علي بن يوسف فتفقدته وسرح الخيالة في طلبه فقاتهم، وداخل عامل السوس، وهو أبو بكر بن محمد اللمتوني بعض هرغة في قتله، ونذر بهم إخوانهم فقتلوا الإمام إلى معقل امتناعهم، وقتلوا من داخل في أمره. ثم دعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد، وقتل المجسمين دونه سنة خمسة عشر وخمسمائة، فتقدم إليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم. وكان فيهم من هتاتة أبو حفص عمر بن يحيى وأبو يحيى بن بكيت ويوسف بن وانودين وابن يغمور، ومن تينمل أبو حفص عمر بن علي أصناك ومحمد بن سليمان وعمر بن تافراكين وعبد الله بن ملويات.

وأوعب قبيلة هرغة فدخلوا في أمره كلهم، ثم دخل معهم كدمية وكنفيسة، ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الإمام. وكان يسمى أصحابه الطلبة، وأهل دعوته الموحدين، ولما تم له خمسون من أصحابه سماهم آيت الحسين. وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرغة، فاستجاشوا بإخوانهم من هتاتة وتينمل فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة فكانت مقدمة الفتح. وكان الإمام يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته، وترددت عساكر لمتونة إليهم مرة بعد أخرى ففضّوهم، وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينمل فأوطنه، وبني داره ومسجده بينهم حوالي منبع وادي نفيس.

وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولاً هرجة وأوقع بهم مراراً، ودانوا بالطاعة. ثم قاتل

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع، حتى لقي بسبب ذلك أذايات في نفسه احتسبها من صالح أعماله. ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة، وكان من المترفين فأغلظ له ولأتباعه بالنكير، وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات في الطرق، ف وقعت بسببها هبة نكرها السلطان والخاصة واتمروا به، فخرج منها خائفاً ولحق بملاة على فرسخ منها، وبها يومئذ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة. وكان لهم اعتزاز ومنعة، فأووه وأجاروه وطلبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامه إليه فأبوا وأسخطوه، وأقام بينهم يدرس العلم أياماً.

وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارة الطريق قريباً من ديار ملاة، وهي لهذا العهد معروفة. وهنالك لقيه كبير صحابته عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه فأعجب بعلمه، وائسى عزمه عن وجهه ذلك، واختص به وشمر للأخذ عنه، وارتحل المهدي إلى المغرب وهو في جلته ولحق بوانشريس، وصحبه منها البشير من جلة أصحابه، ثم لحق بتلمسان وقد تسمع الناس بحجبه فأحضره القاضي بها ابن صاحب الصلاة ووجهه على متحلله ذلك، وخلافه لأهل قطره، وظن أن العذل يزه عن ذلك، فصم عن قبوله، واستمر على طريقه إلى فاس، ثم إلى مكناسة ونهى بها عن بعض المناكير فأوقع به الشرار من الغوغاء. فأوجعوه ضرباً، ولحق بمراكش وأقام بها أخذاً في شأنه. ولقي علي بن يوسف في المسجد الجامع في صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له القول. ولقي ذات يوم الصورة أخت علي بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملمثين في زي نسائهم فوجها، ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقيعه، ففاوض الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من شهرته. وكانوا ملثوا منه حسداً وحفيظة لما كان يتحل مذهب الأشعرية في تأويل المشابه وينكر عليهم جهودهم على مذهب السلف في إمراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقنوه تجسماً، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك أحد قولي الأشعرية في التكفير بمال الرأي فأغروا الأمير به وأحضره للمناظرة معهم فكان له الفتح والظهور عليهم، وخرج من مجلسه ونذر بالشر منهم فلحق من يومه بأغمت، وغير المناكير على عادته وأغرى به أهلها علي بن يوسف وطبّروا إليه بحجبه فخرج عنها هو وتلاميذه الذين كانوا في صحابته، ودعا إسماعيل بن إيكيك من أصحابه مايّتين من أمجاد قومه، وخرج به إلى منجاة من جبال المصامدة، ولحق أولاً بمسفيوة، ثم بهتاتة. ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي، وهو أبو حفص ويعرف بيته بين هتاتة بيني فاصكات.

المؤمن، وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص، وأراد هتاتة وسائر المصاعدة عليه فأظهروا للناس موت المهدي، وعهده لصاحبه وانقياد بقية أصحابه لذلك.

وروى يحيى بن يعمر عن الإمام أنه كان يقول في دعائه إثر صلواته: «اللهم بارك في الصاحب الأفضل» فرضي الكافة وانقادوا وأجمعوا على بيعته بمدينة تينمل سنة أربع وعشرين وخمسمائة فقام بأمر الموحدين وأبعد في الغزوات فصبح تادلا، وأصاب منهم. ثم غزا درعة واستولى عليها سنة ست وعشرين وخمسمائة، ثم غزا تاشعبوت وافتتحها وقتل واليها أبا بكر بن مزروال ومن كان معه من قومه غمارة بني ونام وبني مزرد.

ثم تسابق الناس إلى دعوتهم أفواجاً، وانتقض البرابر في سائر أقطار المغرب على لمتونة، وسرح علي بن يوسف ابنه تاشفين لقتالهم سنة ثلاث وثلاثين فجاءهم من ناحية أرض السوس، واحتشد معه قبائل كزولة وجعلهم في مقدمته، فلقبهم الموحدون بأوائل جبلهم وهزمهم. ورجع تاشفين ولم يلق حرباً، ودخل كزولة من بعدها في دولة الموحدين، وأجمع عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب، فغزا غزاته الطويلة منذ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ولما تراجع فيها تينمل حتى إذا انقضت بالفتح والاستيلاء على المغريين، خرج إليها من تينمل، وخرج تاشفين بعساكره يحاذيه في البسيط، والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن وهو يتنقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والخطب للدفء إلى أن وصل إلى جبال غمارة، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب، وامتنعت الرعايا من المغرم وألح الطاغية على المسلمين بالعودة.

وهلك خلال ذلك علي بن يوسف أمير لمتونة وملك العدوتين سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وولي أمرهم تاشفين ابنه، وهو في غزاته هذه، وقد أحيط به. وحدث بعد أبيه فتنة بين لمتونة ومسوفة، ففرق أمراء مسوفة مثل برآز بن محمد ويحيى بن تاكفت ويحيى بن إسحاق المعروف بأنكار، وكان والي تلمسان، ولحقوا بعبد المؤمن فيمن إليهم من الجملة، ودخلوا في دعوته، ونبذ إليهم لمتونة العهد، وإلى سائر مسوفة، واستمر عبد المؤمن على حاله فنازل سبتة وامتنت عليه، وتولى كبر دفاعه عنها القاضي عياض الشهير الذكر، كان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه، ولذلك سخطه الدولة آخر الأيام حتى مات مغرباً عن سبتة بتادلا مستعملاً في خطة القضاء بالبادية، وتغادى عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غيائة وبطوية فافتتحها، ثم نزل ملوية فافتتح حصونها. ثم تخطى إلى بلاد زناتة فاطاعته قبائل مديونة، وكان بعث إليهم

هسكورة ومعهم أبو درقة الممتوني فغلبهم وقتل فاتبه بنو وازكيت، فأوقع بهم الموحدون وأتخذوا فيهم قتلاً وأسراً. ثم غزا بلد عجدامة وكان قد افتتحه وترك فيه الشيخ أبا محمد عطية من أصحابه فغدروا به وقتلوه فغزاهم واستباحهم. ورجع إلى تينمل وأقام بها إلى أن كان شأن البشير وميز الموحدين من المناق، وكانوا يسمون لمتونة الحشم فاعتزم على غزوهم، وجمع كافة أهل دعوته من المصاعدة، وزحف إليهم فلقوه بكبيك، وهزمهم الموحدون واتبعهم إلى أعماط فلقهم هنالك زحوف لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم بن تاعبانت فهزمهم الموحدون، وقتل إبراهيم واتبعهم إلى مراكش، فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم رجلى إلا أربعمائة فارس.

واحتفل علي بن يوسف في الاحتشاد وبرز إليهم لأربعين من نزولهم عليه خرج عليهم من باب إيلان فهزمهم وأتخن فيهم قتلاً وسبياً، وفقد البشير من أصحابه. واستحضر القتل في هيلانة، وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء. وكانت وفاة المهدي لأربعة أشهر بعدها. وكان يسمى أتباعه بالموحدين تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم، وكان حصوراً لا يأتي النساء، وكان يلبس العباءة المرقعة، وله قدم في التقشف والعبادة، ولم تحفظ عنه فتنة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم.

الخبر عن دولة عبد المؤمن خليفة المهدي

والخلفاء الأربعة من بيته ووصف أحوالهم

ومصائر أمورهم

لما هلك المهدي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة كما ذكرناه وقد عهد بأمره من بعده لكبير صحابته عبد المؤمن بن علي الكومي المقدم ذكره، ونسبه عند ذكر قومه، فقبر بمسجده لصق داره من تينمل. وخشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصاعدة ولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم، فأرجأوا الأمر إلى أن تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم، وكنموا موته، زعموا ثلاث سنين يموتون بمرضه، ويقيمون سته في الصلاة والحزب الراتب، ويدخل صحابته إلى البيت كأنه اختصهم بعبادته، فيجلسون حفا في قبره ويتفاوضون في شؤونهم بمحضر أخته زينب ثم يخرجون لإنفاذ ما أبرموه، ويتولاه عبد المؤمن بتلقيتهم حتى إذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من نفوس كافتهم كشفوا حيثئذ القناع عن حالهم، وتآلوا من بقي من العشرة على تقديم عبد

معسكره وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وبني ومانوا من زناتة فتقدموا إلى بلاد بني يلومي وبني عبد الواد وبني ورسيف وبني توجين وأثنوا فيهم حتى دخلوا في دعوتهم.

وفد على عبد المؤمن برؤسائهم، وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ بني يلومي فلقاهم بالقبول، وسار في جموع الموحدين إلى وهران فجمعوا لثونة بمعسكرهم ففضوهم، ولجأ تاشفين إلى رابية هنالك فأحذقوا بها وأضرمو النيران حولها حتى غشيهم الليل، فخرج تاشفين من الحصن راكباً على فرسه، فتردى من بعض حافات الجبل، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسائة. وبعث برأسه إلى تينمل، ولجأ فل العسكر إلى وهران فالحصروا مع أهلها حتى جهدهم العطش ونزلوا جميعاً على حكم عبد المؤمن يوم الفطر من تلك السنة. وبلغ خبر مقتل تاشفين إلى تلمسان مع فلّ لثونة وفيهم أبو بكر بن لحف وسير بن الحاج وعلي بن فيلو في آخرين من أعيانهم، ففر معهم من كان بها من لثونة. وقدم عبد المؤمن فقتل من وجد بتساكرات بعد أن كانوا بعتوا ستين من وجوههم، فلقبهم يصلين من مشيخة بني عبد الواد فقتلهم جميعاً.

ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تاكرات لما كان أكثرهم من الحشم، وعفا عن أهل تلمسان، ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولّى عليها سليمان بن محمد بن وانودين، وقيل: يوسف بن وانودين. وفيما نقل بعض المؤرخين أنه لم يزل محاصراً تلمسان والفتوح ترد عليه، وهنالك وصلته بيعة سبجلماسة، ثم اعترزم على الرحيل إلى المغرب، وترك إبراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان، فقصد فاس سنة إحدى وأربعين وخمسائة وقد تحصن بها بمحيي الصحراوي ولحق بها من فلّ تاشفين من تلمسان فنازلها عبد المؤمن، وبعث عسكراً لحصار مكناسة، ثم رحل في أتباعه وترك عسكراً من الموحدين على فاس، وعليهم الشيخ أبو حفص وأبو إبراهيم وصحابة المهدي العشرة، فحاصروها سبعة أشهر.

ثم داخلهم ابن الجياتي مشرف البلد وأدخل الموحدين ليلاً، وفرّ الصحراوي إلى طنجة، وأجاز منها إلى ابن غانية بالاندلس، وبلغ خبر فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكناسة من حصار مكناسة، فرجع إليها وولّى عليها إبراهيم بن جامع وولّى على حصار مكناسة يحيى بن يغمور، ورحل إلى مراكش وكان إبراهيم بن جامع لما افتتح تلمسان ارتحل إلى عبد المؤمن وهو محاصر لفاس فاعترضه في طريقه المخضب بن عسكر أمير بني مرين باكر سيف

عسكراً من الموحدين لنظر يوسف بن وانودين وابن يرمور فخرج إليهم محمد بن يحيى بن فانوا عامل تلمسان فيمن معه من عساكر لثونة وزناتة فهزمهم الموحدون وقتل ابن فانوا وانفض عسكر زناتة، ورجعوا إلى بلادهم.

وولى ابن تاشفين على تلمسان أبا بكر بن مزدلي، ووصل إلى عبد المؤمن بمكانه من الريف أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يذر أمراء بني ومانوا، فبعث معهم ابن يغمور وابن وانودين في عسكرهم من الموحدين، فأتخوا في بلاد بني عبد الواد، وبني بلجدي سبياً وأسراً، وأمدتهم عساكر لثونة ومعهم الزبرتير قائد الروم ونزلوا منداس، واجتمعت عليهم زناتة في بني يلومي وبني عبد الواد، وشيخهم حمامة بن مطهر، وبني يكتاس وبني ورسيفان وبني توجين، فأوقعوا ببني ومانوا واستقذروا غنائمهم من أيديهم، وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه، وتحصن الموحدون وابن وانودين بجبال سيرات، ولحق تاشفين بن ماخوخ بعبد المؤمن صريحاً على لثونة وزناتة، فارتحل معه إلى تلمسان. ثم أجاز إلى سيرات وقصد محلة لثونة وزناتة، فأوقع بهم ورجع إلى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل بني ورنيد.

ونزل تاشفين باصطفص ووصل مدده صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر طاهر بن كباب من قواده، أمدوا به تاشفين وقومه لعصية الصنهاجية. وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام ويأس فزارى بلثونة وأميرهم لقعودهم عن المناجزة الموحدين، وقال: إنما جئتكم لأنكنكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا، وأرجع إلى قومي، فامتنع تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة، فحمل على القوم فركبوا وصممو للقاته، فكان آخر العهد به وبمعسكره. وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم الزبرتير في عسكر ضخم كما قلناه، فأغار على بني سنوس وزناتة الذين كانوا في بسيطهم ورجع بالغنائم فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوه، وقتل الزبرتير وصلب.

ثم بعث بعتاً آخر إلى بلاد بني ومانوا، فلقبهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين وأوقعوا بهم. واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النبل.

وتوالت هذه الوقائع على تاشفين فأجمع الرحلة إلى وهران، وبعث ابنه إبراهيم ولي عهده إلى مراكش في جماعة من لثونة، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية، وحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسائة فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون إلى أن وصله من الرية بعشرة أساطيل، فأرساها قريباً من

عليه في طريقه، واعتذر فلم يقبل عذره وقتل. وكان ابنه أحمد كاتباً لإسحاق بن علي بمراكش فشملة عفو السلطان فيمن شمله من ذلك القتل، وخرج في جملة الشيخ أبي حفص في وجهه هذه وطلبه للكتاب في ذلك، فأجاب واستحسن كتابه عبد المؤمن لما وقف عليه فاستكتبه أولاً. ثم ارتفع عنده مكانه فاستورزه، وبعد في الدولة صيته، وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها، ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد في دولتهم إلى أن دبت عقارب السعاية إلى مهاده الوثير، فكان فيها حتفه، وتكبه الخليفة سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وقتله بمحبسه حسبما هو مشهور.

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزاة ماسة أراح بمراكش أياماً. ثم خرج غازياً إلى القائمين بدعوة الماسي بجبال درن، فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأثنى فيهم بالقتل والسي حتى أذعنوا بالطاعة ورجع، ثم خرج إلى هسكورة وأوقع بهم وافتتح معاقلم وحصونهم، ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش، ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مدة ثم هزموه، واضطربت نار الفتنة بالغرب، وانتقض أهل سبتة، وأخرجوا يوسف بن مخلوف التينملي وقتلوه ومن كان معه من الموحدين، وأجاز القاضي عياض البحر إلى يحيى بن علي ابن غانية المسوفي الوالي بالأندلس، فلقية بالخضراء وطلب منه والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحرابي الذي كان بفاس منذ منزلة عبد المؤمن لها. وذكرنا أنه لحق بطنجة فأجاز البحر إلى الأندلس ولحق بابن غانية بقرطبة وصار في جملة.

وبعث ابن غانية إلى سبتة مع القاضي عياض كما ذكرناه. وقام بأمرها ووصل يده بالقبائل الناكسة لطاعة الموحدين من برغواطة ودكالة على حين هزيمتهم للموحدين كما ذكرناه. ولحق بهم من مكانه بسبتة وخرج إليهم عبد المؤمن بن علي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فدوخ بلادهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة وتبرأوا من يحيى الصحرابي ولتونة، ورجع إلى مراكش لسته أشهر من خروجه، ووصلته المرعبة من مشيخة القبائل في يحيى الصحرابي ففعا عنه وصلحت أحوال المغرب. وراجع أهل سبتة طاعتهم فقبل منهم، وكذلك أهل سلا فصفح لهم وأمر بهدم سورهم.

فتح الأندلس وشؤونها

ثم صرف عبد المؤمن نظره إلى الأندلس، وكان من خبرها أنه اتصل بالملثمين مقتل تاشفين بن علي، ومنزلة الموحدين مدينة

ونالوا منه ومن رفقته، فكتب عبد المؤمن إلى يوسف بن وانودين عامل تلمسان أن يجهز إليهم العساكر، فبعثها صحبة عبد الحق بن منقاد شيخ بني عبد الواد، فأوقعوا ببني مرين وقتل المخضب أميرهم.

ولما ارتحل عبد المؤمن من فاس إلى مراكش وصلته في طريقه بيعة أهل سبتة، فولّى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتانة، ومر على سلا فافتتحها بعد موقعة قليلة، ونزل منها بدار ابن عشرة، ثم تمادى إلى مراكش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأثنى فيهم ورجع. ولقيه في طريقه ووصلوا جميعاً إلى مراكش وقد ضموا إليها جميع لمطة، فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلاً، واكتسحوا أموالهم وظلعائهم، وأقاموا على مراكش تسعة أشهر وأميرهم إسحاق بن علي بن يوسف، بايعوه صيباً صغيراً عند بلوغ خبر أبيه، ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين، فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل، واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقتل عامة الملثمين، ونجا إسحاق في جلته وأعيان قومه إلى القصبية حتى نزلوا على حكم الموحدين، وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم وتولى كبير ذلك أبو حفص بن واكك منهم وأحصى أثر الملثمين واستولى الموحدون على جميع البلاد المغرب.

ثم خرج عليهم بناحية السوس ثائر من سوقة سلا يعرف محمد بن عبد الله بن هود وتلقب بالهادي، وظهر في رباط ماسة، فأقبل إليه الشراد من كل جانب، وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الآفاق وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة وركراكة وقبائل تامسنا وهوارة، وفشت ضلالته في جميع المغرب، فسرح إليه عبد المؤمن عسكرياً من الموحدين لنظر يحيى أنكمار اللمتوني النازع إليه من إيالة تاشفين بن علي. ولقي هذا الشار الماسي، ورجع مهزوماً إلى عبد المؤمن فسرح الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين، واحتفل في الاستعداد فنهضوا إلى رابطة ماسة، وبرز إليهم الشار في نحو ستين ألفاً من الرجال وسبعمئة من الفرسان، فهزمهم الموحدون، وقتل داعيتهم في المعركة مع كثرة أتباعه، وذلك في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وكتب الشيخ أبو حفص بالفتح إلى عبد المؤمن من إنشاء أبي جعفر بن عطية الشهير الذكر، كان أبوه أبو أحمد كاتباً لعلي بن يوسف وابنه تاشفين، وتحصل في قبضة الموحدين ففعا عنه عبد المؤمن.

ولما نزل على فاس اعتزم أبو أحمد هذا على الفرار فتقبض

فاس، وكان علي بن عيسى ميمون قائد أسطولهم قد نزع طاعة لمتونة وانتزى بجزيرة قادس، فلحق بعبد المؤمن بمكانه من حصار فاس، ودخل في دعوته وخطب له بجامع قادس أول خطبة خطبت لهم بالأندلس عام أربعين وخسمائة، وبعث أحمد بن قيسي صاحب مرتلة ومقيم الدعوة بالأندلس أبا بكر بن حبيس رسولاً إلى عبد المؤمن فلقبه على تلمسان وأدى كتاب صاحبه فأنكر ما تضمنه من النعت بالمهدي، ولم يجاوب. وكان سدراتي بن وزير صاحب بطليوس واجة وغرب الأندلس قد تغلب على أحمد بن قيسي هذا، وغلبه على مرتلة فأجاز أحمد بن قيسي البحر إلى عبد المؤمن من بعد فتح مراكش لمدخله علي بن عيسى بن ميمون ونزل بسبته، فجهزه يوسف بن مخلوف، ولحق بعبد المؤمن، ورغبه في ملك الأندلس، وأغراه بالملثمين فبعث معه عساكر الموحدين لنظر براز بن محمد السوفي الناظر إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين، وعقد له على حروب من بها من لمتونة والثوار وأمدّه بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي، ولما أجازوا إلى الأندلس نازلوا أبا الغمر بن عزون من الثوار بشريش، وكانت له مع رندة.

ثم قصدوا لبلة وبها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجي فأعطاهم الطاعة، ثم قصدوا مرتلة، وهي تحت الطاعة لتوحيد صاحبها أحمد بن قيسي، ثم قصدوا شلب فافتحوها، وأمكنوا منها ابن قيسي. ثم نهضوا إلى باجة وبطليوس فأطاعهم صاحبها سدراتي بن وزير. ثم براز في عسكر الموحدين إلى مرتلة حتى انصرم فصل الشتاء فخرج إلى منازل إشبيلية فأطاعه أهل طليطلة وحصن القصر، واجتمع إليه سائر الثوار وحاصروا إشبيلية براً وبحراً إلى أن افتتحوها في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخسمائة وفر الملثمون بها إلى قرمونة وقتل من أدرك منهم. وأتى القتل على عبد الله ابن القاضي أبي بكر بن العربي في هيئة تلك الدخلة من غير قصد. وكتبوا بالفتح إلى عبد المؤمن بن علي. وقدم عليه وفدهم بمراكش يقدمهم القاضي أبو بكر فتقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز والإقطاعات لجميع الوفدة سنة اثنتين وأربعين وخسمائة.

وهلك القاضي أبو بكر في طريقه ودفن بمقبرة فاس. وكان عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي من مشيخة العسكر بإشبيلية فساء أثرهما بالبلد واستطالت أيديهما على أهله، واستباحوا الدماء والأموال. ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة فلحق ببلده وأخرج الموحدین الذين بها، وحول الدعوة عنهم. وبعث إلى طليطلة وحصن القصر، ووصل يده بالملثمين الذين كانوا بالعودة وارتد ابن قيسي في مدينة شلب، وعلي بن عيسى

بن ميمون بجزيرة قادس ومحمد بن علي بن الحجام بمدينة بطليوس وثبت أبو الغمر بن عزون على طاعة الموحدین بشريش ورندة وجهاتهما. وتغلب ابن غانية على الجزيرة الخضراء، وانتفض أهل سبته كما ذكرناه، وضاعت أحوال الموحدین بإشبيلية، فخرج منها عيسى وعبد العزيز أخوا المهدي وابن عمهما يصليتان بمن كان معهم. ولحقوا بجبال بيسر وجاءهم أبو الغمر بن عزون، واتصلت أيديهم على حصار الجزيرة حتى افتتحوها وقتلوا من كان بها من لمتونة، ولحق أخوا المهدي بمراكش، وبعث عبد المؤمن على إشبيلية يوسف بن سليمان في عسكر من الموحدین وأبقى براز بن محمد على الجاية، فخرج يوسف ودوخ أعمال البطروجي بلبله وطليلة وعمل ابن قيسي بشلب ثم أغار على طليطلة وأطاعه عيسى بن ميمون صاحب شتمرية، وغزا معهم وأرسل محمد بن علي بن الحجام صاحب بطليوس بهداياه فتغلبت ورعبت له، ورجع يوسف إلى إشبيلية. وفي أثناء ذلك استغلظ الطاغية على يحيى بن علي ابن غانية بقرطبة وألح على جهاته حتى نزل له عن سياسة ورندة، وتغلب على الأشبونة وطروشة ولاردة وأفراغة وشتمرية وغيرها من حصون الأندلس، وطالب ابن غانية بالزيادة في ضريته أو الإفراج له عن قرطبة، فراسل ابن غانية براز بن محمد واجتمعاً بأسجة وضمن له براز إمداد الخليفة على أن يتخلّى عن قرطبة وقرمونة ويدال منها ببيان فرضي بذلك وتم العقد ووصل خطاب عبد المؤمن بإمضائه فارتحل ابن غانية إلى جيان ونازله الطاغية بها فقدر بأقماطه واعتقلهم بقلعة ابن سعيد وأفرج الطاغية عن جيان ولحق هذا بغرناطة وبها ميمون بن بدر اللمترني في جماعة من المرابطين، قصده ابن غانية ليحمله على مثل حاله مع الموحدین فكان مهلكه بها في شعبان سنة ثلاث وأربعين وخسمائة وقبره بها معروف لهذا العهد. وانتهر الطاغية فرصته في قرطبة فزحف إليها ودفع الموحدون بإشبيلية أبا الغمر بن عزون لحمايتها، ووصل إليه مدد يوسف البطروجي من لبلة وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكراً من الموحدین لنظر يحيى بن يغمور ولما دخلها أخرج عنها الطاغية لأيام من مدخله، وبادر الثوار إلى يحيى بن يغمور في طلب الأمان من عبد المؤمن. ثم تلاحقوا به بمراكش فقبلهم وصفح لهم ونهض إلى مدينة سلا سنة خمس وأربعين وخسمائة واستدعى منها أهل الأندلس فوفدوا عليه وبايعوه جميعاً، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الأمر مثل سدراتي بن وزير صاحب باجة، وبايورة والبطروجي صاحب لبلة، وابن عزون صاحب شريش ورندة وابن الحجام صاحب بطليوس، وعامل بن مهيب صاحب طليطلة، وتخلّف ابن قيسي

السيد أبي سعيد واستوزر له محمد بن سليمان. وعلى بجاية للسيد أبي محمد عبد الله واستوزر له يخلف بن الحسين، واختص ابنه عبد الله بولاية عهده. وتغير بذلك كله ضمائر عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي فلحقا بمراكش مضميرين الغدر وأدخلوا بعض الأوغاد في شأنهم فوثبوا بعمر بن تافراكين وقتلوه بمكانه من القصة. ووصل على أثرهما الوزير أبو جعفر بن عطية وعبد المؤمن على أثره فاطفاً نار تلك الثورة وقتل أخوا المهدي ومن داخلهم فيها والله أعلم.

بقية فتح الأندلس

وبلغه بمراكش سنة تسع وأربعين وخمسمائة أن يحيى بن يغمور صاحب إشبيلية قتل أهل لبلة بما كان من غدر الرهبي لها. ولم يقبل معذرتهم في ذلك فسخط يحيى بن يغمور وعزله عن إشبيلية بأبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي التيمللي، وعن قرطبة بأبي زيد بن بكيت، وبعث عبد الله بن سليمان فجاء بابن يغمور معتقلاً إلى الحضرة، وألزمه منزله إلى أن بعثه مع ابنه السيد أبي حفص إلى تلمسان واستقام أمر الأندلس. وخرج ميمون بن بدر الممتوني عن غرناطة للموحدين فملكوها، وأجاز إليها السيد أبو سعيد صاحب سبتة بعهد أبيه عبد المؤمن إليه بذلك، ولحق المثلثون بمراكش، ونازل السيد أبو سعيد مدينة المرية حتى نزل من كان بها من النصاري على الأمان. وحضر لذلك الوزير أبو جعفر بن عطية بعد أن أمدهم ابن مردنيش الشائر بشرق الأندلس والطاغية معه، وعجزوا جميعاً عن المدافعة. ثم وفد أشياخ إشبيلية سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ورغبوا من عبد المؤمن ولاية بعض أبنائه عليهم، فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها، وافتتح أمره بمنازلة علي الوسيبي الشائر بطبيرة ومعه الوزير أبو جعفر بن عطية حتى استقام على الطاعة. ثم استولى على عمل ابن وزير وابن قيسي، واستنزل تاشفين الممتوني من مرتلة سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وكان الذي أمكن المثلثين منها ابن قيسي واستم الفتح. ورجع السيد إلى إشبيلية وانصرف أبو حفص بن عطية إلى مراكش فكانت فيها نكبته ومقتله. واستوزر عبد المؤمن من بعده عبد السلام الكومي، كان يمت إليه بذمة صهر فلم يزل على وزارته.

بقية فتح أفريقية

لما بلغ عبد المؤمن سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ما كان من

وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سبياً لقتله من بعد. ورجع عبد المؤمن إلى مراكش وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم واستصحب الثوار فلم يزالوا محضرتة.

فتح أفريقية وشؤونها

ثم بلغ عبد المؤمن ما هي عليه أفريقية من اختلاف الأمراء واستطالة العرب عليها بالعيث والفساد، وأنهم حاصروا مدينة القيروان، وأن موسى بن يحيى الرياحي المرداسي دخل مدينة باجة وملكها، فأجمع الرحلة إلى غزو إفريقية بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه. وخرج من مراكش في أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة مورباً بالجهاد حتى انتهى إلى سبتة واستوضح أحوال أهل الأندلس، ثم رحل عن سبتة مورباً بمراكش، وأخذ السير إلى بجاية فدخل الجزائر على حين غفلة، وخرج إليه الحسن بن علي صاحب المهدية، فصعبه واعترضته جيوش صنهاجة بأم العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها. وركب يحيى بن العزيز البحر في أسطولين كان أعدهما لذلك، واحتمل فيهما ذخائره وأمواله والحق بقسطنطينة إلى أن نزل بعد ذلك عنها على أمان عبد المؤمن. واستقر بمراكش تحت الجراية والعناية إلى أن هلك رحمه الله.

ثم سرح عبد المؤمن عساكر الموحدين وعليهم ابنه عبد الله إلى القلعة، وبها جوشن بن العزيز في جموع صنهاجة فاتحتهما واستلحم من كان بها منهم، وأضرم النار في مساكنها وقتل جوشن ويقال: إن القتلى بها كانوا ثمانية عشر ألفاً وامتلات أيدي الموحدين من الغنائم والسبي، وبلغ الخبر إلى العرب بإفريقية من الأثنيح وزغبة ورياح وقسرة فعسكروا بظاهر باجة، وتآمروا على الدفاع عن ملكهم يحيى بن العزيز، وارتحلوا إلى سطيف وزحف إليهم عبد الله بن عبد المؤمن في الموحدين الذين معه، وكان عبد المؤمن قد قفل إلى المغرب ونزل متيجة، فلما بلغه الخبر بعث المدد لابنه عبد الله، والتقى الفريقان بسطيف واقتتلوا ثلاثاً، ثم انقضت جموع العرب واستلحموا وسييت نسأوهم واكتسحت أموالهم وأسر أنباؤهم.

ورجع عبد المؤمن إلى مراكش سنة سبع وأربعين وخمسمائة ووفد عليه كبار العرب من أهل إفريقية طائعين فوصلهم، ورجعوا إلى قومهم. وعقد على فاس لابنه السيد أبي الحسن، واستوزر له يوسف بن سليمان، وعقد على تلمسان لابنه السيد أبي حفص واستوزر له أبا محمد بن وانودين، وعلى سبتة لابنه

وقدم السيد أبا سعيد فأجاز البحر ولقيه عامل إشبيلية عبد الله بن أبي حفص بن علي، ونهضوا جميعاً إلى غرناطة، فنهض إليهم ابن همشك وهزمهم. ورجع السيد أبو سعيد إلى مالقة، وردف عبد المؤمن بأخيه السيد أبي يعقوب في عساكر الموحدين، ونهضوا إلى غرناطة وكان قد وصلها ابن مردنيش في جموع من النصارى مدداً لابن همشك، فلقيهم الموحدون بفحص غرناطة وهزمهم، وفر ابن مردنيش إلى مكانه من المشرق، ولحق ابن همشك ببيان فنازله الموحدون، وارغل السيدان إلى قرطبة فأقاما بها إلى أن استدعى السيد أبو يعقوب بمراكش سنة ثمان وخمسين وخمسمائة لولاية العهد والإدالة به من أخيه محمد، فلحق بمراكش وخرج في ركاب أبيه الخليفة عبد المؤمن لما نهض للجهاد. وأدركته المنيّة بسلا في جمادى الآخرة من هذه السنة ودفن بتبلمل إلى جانب المهدي والله أعلم.

دولة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

لما هلك عبد المؤمن أخذ البيعة على الناس السيد أبو حفص لأخيه أبي يعقوب باتفاق من الموحدين كافة، ورضا من الشيخ أبي حفص خاصة، واستقل في رتبة وزارته ورجعوا إلى مراكش وكان السيد أبو حفص هذا وزيراً لأبيه عبد المؤمن، استوزره عند نكبة عبد السلام الكومي، فرجعه من أفريقية سنة خمس وخمسين وخمسمائة. وكان أبو علي بن جامع متصرفاً بين يديه في رسم الوزارة إلى أن هلك عبد المؤمن فأخذ أبو حفص البيعة لأخيه أبي يعقوب. ثم هلك إثر وفاة عبد المؤمن ابنه السيد أبو الحسن صاحب فاس والسيد أبو محمد صاحب بجاية في طريقه إلى الحضرة. ثم استقدم أبو يعقوب السيد أبا سعيد من غرناطة سنة ستين وخمسمائة فقدم ولقيه السيد أبو حفص بسبته.

ثم سرح الخليفة أبو يعقوب معه أخاه السيد أبا حفص إلى الأندلس في عساكر الموحدين لما بلغه من إلحاح ابن مردنيش على قرطبة، بعد أن احتشد معه قبائل العرب، زغبة ورياح والأثبيج، فأجاز البحر وقصد ابن مردنيش، وقد جمع جموعه وأولياؤه من النصارى، ولقيتهم عساكر الموحدين بفحص مرسية، فانهزم ابن مردنيش وأصحابه وفر إلى مرسية من سبته، ونازله الموحدون بها ودوخوا نواحيه. وانصرف السيد أبو حفص وأخوه أبو سعيد سنة إحدى وستين وخمسمائة إلى مراكش، وخمدت نار الفتنة من ابن مردنيش. وعقد الخليفة على بجاية لأخيه السيد أبي زكريا، وعلى إشبيلية للشيخ أبي عبد الله بن إبراهيم. ثم أдал عنه بأخيه السيد

إيقاع الطاغية بابنه السيد أبي يعقوب بظاهر إشبيلية، ومن استشهد من أشياخ الموحدين وحفاظهم، ومن الثوار مثل ابن عزرون وابن الحجام، نهض يريد الجهاد، واحتلّ سلا، قبلغه انتفاض أفريقية، وأهمه شأن النصارى بالمهدية، فلما توافقت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس، ونهض يغذ السير حتى نزل المهديّة وبها من نصارى أهل صقلية، فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين وخمسمائة واستنقذ جميع البلاد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من أيدي العدو.

وبعث ابنه عبد الله من مكان حصاره للمهدية إلى قابس فاستخلصها من يد بني كامل التغلبيين عليها من دهمان، بعض بطون رياح. واستخلص قفصة من يد بني الورد، وورغة من يد بني بروكسن، وطبرقة من يد ابن علّال، وجبل زغوان من يد بني حماد بن خليفة وشقبارية من يد بني عياد، بن نصر الله، ومدينة الأبرص من يد من ملكها من العرب حسبما ذكر ذلك مذكور في أخبار هؤلاء الثوار في دولة صنهاجة.

ولما استكمل الفتح وثنى عنانه إلى المغرب سنة ست وخمسين وخمسمائة بلغه أن الأعراب بأفريقية انتقضوا عليه، فرجع إليهم عسكرياً من الموحدين، فنهضوا إلى القيروان وأوقعوا بالعرب، وقتل كبيرهم محرز بن زياد الفارغي من بني علي إحدى بطون رياح.

أخبار ابن مردنيش الناصر بشرق الأندلس

كان بلغ عبد المؤمن وهو بأفريقية أن محمد بن مردنيش الناصر بشرق الأندلس خرج من مرسية ونازل جيان، وأطاعه واليها محمد بن علي الكومي، ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها وغدر بقرمونة وملكها، ثم رجع إلى قرطبة. وخرج ابن بكيث لحربه فهزمه وقتله، فكتب إلى عماله بالأندلس بفتح إفريقية، وأنه واصل إليهم، وعبر إلى جبل الفتح، واجتمع إليه أهل الأندلس ومن بها من الموحدين، ثم رجع إلى مراكش وبعث عساكره إلى الجهاد، ولقيهم الطاغية فهزموه. وتغلب السيد أبو يعقوب على قرمونة من يد ابن همشك صهر ابن مردنيش. وكان السيدان أبو يعقوب صاحب إشبيلية وأبو سعيد صاحب غرناطة ارتحلا لزيارة الخليفة بمراكش، فخالف ابن همشك إلى مدينة غرناطة وعلا ليلاً بمدخلها من بعض أهلها، واستولى عليها وانحصر الموحدون بقصبتها، وخرج عبد المؤمن من مراكش لاستنقاذها فوصل إلى سلا.

عساكر الموحدين، فنهض من مراکش سنة خمس وستين وخمسائة وفي جلته السيد أبو سعيد أخوه، فوصل إلى إشبيلية وبعث أخاه أبا سعيد إلى بطليوس، فعقد الصلح مع الطاغية وانصرف، ونهضوا جميعاً إلى مرسية ومعهم ابن هشك فحاصروا ابن مردنيش، وثار أهل لورقة بدعوة الموحدين، فملكها السيد أبو حفص. ثم افتتح مدينة بسطة وأطاع ابن عمه محمد بن مردنيش صاحب المربة فحصر بذلك جناحه.

واتصل الخبر بالخليفة بمراكش، وقد توافقت عنده جموع العرب من أفريقية صحبة أبي زكريا صاحب بجاية والسيد أبي عمران صاحب تلمسان، وكان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً، فاعترضهم وسائر عساكره، ونهض إلى الأندلس. واستخلف على مراکش السيد أبا عمران أخاه فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسائة ثم ارتحل بعدها إلى إشبيلية، ولقيه السيد أبو حفص هنالك متصرفاً من غزاته. وكان ابن مردنيش لما طال عليه الحصار ارتاب ففكت بهم، وباد أخوه أبو الحجاج إلى الطاعة وهلك هو في رجب من هذه السنة. ودخل ابنه هلال في الطاعة، وبادر السيد أبو حفص إلى مرسية فدخلها وخرج هلال في جلته، وبعثه إلى الخليفة بإشبيلية. ثم ارتحل الخليفة غازياً إلى بلاد العدو فنال ردة أياًماً وارتحل عنها إلى مرسية. ثم رجع إلى إشبيلية سنة ثمان وستين وخمسائة واستصحب هلال بن مردنيش وأصهر له في ابنته، وولى عمه يوسف على بلنسية وعقد لأخيه السيد أبي سعيد على غرناطة.

ثم بلغه خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القومس الأحذب، فخرج للقائهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح، وأئخن فيهم ورجع إلى إشبيلية وأمر ببناء حصن بالقلعة ليحصن جهاتها، وقد كانت خراباً منذ فتنة ابن حجاج فيه مع كريب بن خلدون بمورة أزمان المنذر بن محمد وأخيه عبد الله من أمراء بني أمية.

ثم انتقض ابن أذفونيش وأغار على بلاد المسلمين، فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره، وافتتح قنطرة بالسييف، وهزم جموعه في كل جهة. ثم ارتحل الخليفة من إشبيلية راجعاً إلى مراکش سنة إحدى وسبعين وخمسائة لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس، وعقد على قرطبة لأخيه الحسن، وعلى إشبيلية لأخيه علي، وأصاب مراکش الطاعون فهلك من السادات أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا، وقدم الشيخ أبو حفص من قرطبة فهلك في طريقه، ودفن بسلا.

واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا علي وأبا الحسن، فعقد لأبي علي على سجلماسة ورجع أبو الحسن إلى قرطبة، وعقد

أبي إبراهيم، وأقر الشيخ أبا عبد الله على وزارته، وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق، وأثر السيد أبا سعيد على غرناطة. ثم نظر الموحدون في وضع العلامة في المكتوبات بخط الخليفة، فاختاروا: الحمد لله وحده، لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض خطباته، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم.

فتنة غمارة

وفي سنة اثنتين وستين وخمسائة تحرك الأمير أبو يعقوب إلى جبال غمارة، لما كان ظهر بها من الفتنة التي تولّى كبرها سيع بن منغداد ونازعهم في الفتنة صنهاجة جيرانهم، فبعث الأمير أبو يعقوب عساكر الموحدين لنظر الشيخ أبي حفص، ثم تعاضمت فتن غمارة وصنهاجة فخرج إليهم بنفسه وأوقع بهم، واستأصلهم، وقتل سيع بن منغداد وأنحسم داؤهم، وعقد لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم. وفي سنة ثلاث وستين وخمسائة اجتمع الموحدون على تجديد البيعة واللقب بأمر المؤمنين، وخطب العرب بأفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويجرضهم. وكتب إليهم في ذلك قصيدة ورسالة مشهورة بين الناس، وكان من إجابتهم ووفودهم عليه ما هو معروف.

أخبار الأندلس

لما استرسق الأمر للخليفة أبي يعقوب بالعدوة وصرف نظره إلى الأندلس والجهاد، واتصل به ما كان من غدر العدو، دمره الله بمدينة ترجالة، ثم مدينة يابرة ثم حصن شبرمة ثم حصن جلمانية إزاء بطليوس، ثم مدينة بطليوس، فسرّح الشيخ أبا حفص في عساكر من الموحدين احتفل في انتقامهم، وخرج سنة أربع وستين وخمسائة لاستنقاذ بطليوس من هوة الحصار، فلما وصل إلى إشبيلية بلغه أن الموحدين وبيطليوس هزموه ابن الرنك الذي كان يحاصرهم بإعانة ابن أذفونيش، وأن ابن الرنك تحصّل في قبضتهم أسيراً وفرّ جوائدة الجليقي إلى حصنه، فقصد الشيخ أبو حفص مدينة قرطبة، وبعث إليهم إبراهيم بن هشك من جيان بطاعته وتوحيده ومفارقة صاحبه ابن مردنيش لما حدث بينهما من الشحناء والفتنة، فآلح عليه ابن مردنيش بالحرب، وردد إليه الغزو، فبعث إلى الشيخ أبي حفص بطاعته.

وكتب الشيخ أبو حفص بذلك إلى الخليفة وبما كان من عيث النصارى بجوانب الأندلس، فسرّح أخاه ووزيره أبا حفص في

أبو إسحاق سائر الناس للغزو ونازل الحصن نحواً من أربعين يوماً. ثم بلغه خروج أذفونس من طليطلة بمدده فانكفأ راجعاً. وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من أشبيلية في جموع الموحدين ونازل طليطلة وبرز إليه أهلها، فاقوع بهم وانصرف بالغنائم، فاعترم الخليفة أبو يعقوب على معاودة الجهاد، وولى على الأندلس أبناءه وقدمهم للاحتشاد، فعقد لابنه أبي إسحاق على أشبيلية كما كان، ولابنه السيد أبي يحيى على قرطبة، ولابنه السيد أبي زيد الحرضاني على غرناطة. ولابنه السيد أبي عبد الله على مرسية.

ونهب سنة تسع وسبعين وخمسمائة إلى سلا، ووافاه بها أبو محمد بن أبي إسحاق بن جامع من إفريقية بحشود العرب. وسار إلى فاس ويعث في مقدمته هتاتة ويتمنل وحشود العرب وأجاز البحر من سبتة في صفر من سنة ثمانين وخمسمائة فاحتل جبل الفتح، وسار إلى أشبيلية فوافقه بها حشود الأندلس. وسخط محمد بن وانودين وغربه إلى حصن غافق، ورحل غازياً إلى شنترين فحاصرها أياماً، ثم ألقع عنها وأسحر الناس يوم إقلاعه، وخرج النصارى من الحصن فوجدوا الخليفة في غير أهبة ولا استعداد، فابلى في الجهاد هو ومن حضره، وانصرفوا بعد جولة شديدة. وهلك في ذلك اليوم الخليفة، يقال: من سهم أصابه في حومة القتال، وقيل من مرض طرقة عفا الله عنه.

دولة ابنه يعقوب المنصور

ولما هلك الخليفة أبو يعقوب على حصن شنترين سنة ثمانين وخمسمائة ببيع ابنه يعقوب، ورجع بالناس إلى إشبيلية واستكمل البيعة. واستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص، واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد أبي يحيى فأتخذ بعض الحصون وأثنى في بلاد الكفار. ثم أجاز البحر إلى الحضرة ولقيه بقصر مصمودة السيد أبو زكريا ابن السيد أبي حفص قادماً من تلمسان مع مشيخة زغبة، ومضى إلى مراكش فغير المناكر وبسط العدل ونشر الأحكام، وكان من أول الأحداث في دولته شأن ابن غانية.

الخبر عن شأن ابن غانية

كان علي بن يوسف بن تاشفين لما تغلب العدو على جزيرة ميورقة وهلك واليها من موالى مجاهد، وهو مبشر، وبقي أهلها فوضى، وقد كان مبشر بعث إليه بالصرىخ، والعدو محاصر له،

لابني أخيه السيد أبي حفص: لأبي زيد منهما على غرناطة، ولأبي محمد عبد الله على مالقة. وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة سطا بذرية بني جامع وغربهم إلى ماردة. وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة عقد لغنام بن محمد بن مردنيش على أسطوله وأغزاه مدينة الأشبونة، فغنم ورجع. وفيه كانت وفاة أخيه السيد الوزير أبي حفص بعدما أبلى في الجهاد وبالغ في نكاية العدو. وقدم ابنه من الأندلس وأخبر الخليفة بانتقاض الطاغية، واعترم على الجهاد وأخذ في استدعاء العرب من أفريقية.

الخبر عن انتقاض قفصة واسترجاعها

كان علي بن المعز ويعرف بالطويل، من أعقاب بني الرند ملوك قفصة قد ثار سنة خمس وسبعين وخمسمائة كما ذكرناه في أخبارهم. وبلغ الخليفة خبره فنهض إليها من مراكش، وسار إلى بجاية وبقي عنده يعلى بن المنتصر الذي كان عبد المؤمن استنزله من قفصة أنه يواصل قريبه الشائر بها ويخطب العرب، فتقبض عليه، ووجدت المخاطبات عنده شاهدة بتلك السعاية واستصفى ما كان بيده، وارتحل إلى قفصة ونازلها. ووفدت عليه مشيخة العرب من رياح بالطاعة فتقبلهم ولم يزل محاصراً لقفصة إلى أن نزل على ابن المعز، وانكفأ راجعاً إلى تونس. وأنفذ عساكر العرب إلى المغرب، وعقد على أفريقية والزاب للسيد أبي علي أخيه، وعلى بجاية للسيد أبي موسى فقلل إلى الحضرة.

معاودة الجهاد

لما قفل من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة وفد عليه أخوه السيد أبو إسحاق من إشبيلية، والسيد أبو عبد الرحمن يعقوب من مرسية، وكافة الموحدين ورؤساء الأندلس يهنونه بالإياب فأكرم موصولهم وانصرفوا إلى بلادهم. واتصل به أن محمد ابن يوسف بن وانودين غزا بالموحدين من أشبيلية إلى أرض العدو فنال مدينة يابرة وغنم ما حولها، واقتح بعض حصونها ورجع إلى أشبيلية، وأن عبد الله بن إسحاق بن جامع قائد الأسطول بأشبيلية التقى بأسطول أهل أشبونة في البحر فهزمهم وأخذوا عشرين من قطائعهم مع السبي والغنائم.

ثم بلغ الخبر بأن أذفونس بن شلمجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهات مالقة ورندة وغرناطة. ثم نزل أسجة وتغلب على حصن شنغيلة. وأسكن بها النصارى وانصرف، فاستنفر السيد

عليها يحيى ابن أخيه طلحة، ثم إلى مليانة فولى عليها بدر بن عائشة. ونهض إلى القلعة، ثم إلى قسطنطينة فأنزلها واتصل الخبر بالمنصور وهو بسبته مرجعه من الغزو، فرح السيد أبا زيد ابن عمه السيد أبي حفص، وعقد له على حرب ابن غانية، وعقد لمحمد بن أبي إسحاق بن جامع على الأساطيل، وإلى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلي.

وانتهى السيد أبو زيد إلى تلمسان وأخوه يومئذ السيد أبو الحسن والياها وقد أنعم النظر في تحصينها، ثم ارتحل بعساكره من تلمسان ونادى بالعفو في الرعية، فثار أهل مليانة على ابن غانية فأخرجوه وسبقت الأساطيل إلى الجزائر فملكوها وقبضوا على يحيى بن طلحة وسبق بدر بن عائشة من أم العلو فقتلوا جميعاً بشلف. وتقدم القائد أحمد الصقلي بأسطوله إلى بجاية فملكها ولحق يحيى بن غانية بأخيه علي بمكانه من حصار قسطنطينة فأقلع عنها. ونزل السيد أبو زيد بتكلات وخرج السيد أبو موسى من اعتقاله فلقبه هنالك. ثم ارتحل في طلب العدو فانفج عن قسطنطينة، وخرج إلى الصحراء واتبعه الموحدون إلى مقررة ونقاوس. ثم قفلوا إلى بجاية واستقر السيد أبو زيد بها، وقصد علي ابن غانية قصة فملكها، ونازل توزر فامتعت عليه، ولحق بطرابلس. وخرج غزي الصنهاجي من جموع ابن غانية في بعض أحياء العرب فتغلب على أشير وسرح إليهم السيد أبو زيد ابنه أبا حفص عمر، ومعه غام بن مردنيش فافوقوا بهم واستولوا على حلهم. وقتل غزي وسبق رأسه إلى بجاية ونصب بها، ولحق به عبد الله أخوه. وغرب بنو محدون من بجاية إلى سلا لانتقامهم بالدخول في أمر ابن غانية. واستقدم الخليفة السيد أبا زيد من مكانه ببجاية، وقدم مكانه أخاه السيد أبا عبد الله وانصرف إلى الحاضرة. وبلغ الخبر أثناء ذلك باستيلاء علي بن الزبريتير على ميورقة. وكان من خبره أن الأمير يوسف بن عبد المؤمن بعثه إلى ميورقة لدعاء بني غانية إلى أمره. لما كان أخوهم محمد خاطبه بذلك، فلما وصل ابن الزبريتير إليهم تكروا شأنه على أخيه محمد واجتمعوا دونه وتقبضوا عليه وعلى ابن الزبريتير وقدموا عليهم أخاه علي وركبوا الأساطيل إلى بجاية فلما خلا الجو منهم، دبر ابن الزبريتير في أمره، ودخل مواليم من العلوج في تخلية سبيله من معتقله على أن يخلى سبيلهم بأهلهم وولدهم إلى أرضهم، فتم له مراده منهم وثار بقصة واستفد محمد بن أبي إسحاق من مكان اعتقاله، ولحقوا جميعاً بالحاضرة. وبلغ الخبر علي ابن غانية بمكانه من طرابلس، فبعث أخاه عبد الله إلى صقلية، وركب منها إلى ميورقة ونزل في بعض قرأها. وأعمل الحيلة في

فلما أخذها العدو وغنم وأحرق وأقلع، وبعث علي بن يوسف والياً عليها وأنور بن أبي بكر من رجالات لمتونة، وبعث معه خمسمائة فارس من معسكره، فأرهب لهم حدة، وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فامتنعوا، وقتل مقدمهم فثاروا به وحبسوه. ومضوا إلى علي بن يوسف فأعقاهم منه، وولى عليهم محمد بن علي بن يحيى المسوقي المعروف بابن غانية. وكان أخوه يحيى على غرب الأندلس، وكان نزله بأشبيلية. واستعمل محمد أخاه على قرطبة فكتب إليه علي بن يوسف يأمره بصرف محمد أخيه إلى ولاية ميورقة فارتحل إليها من قرطبة ومعه أولاده عبد الله وإسحاق وعلي والزبير وإبراهيم وطلحة، وكان عبد الله وإسحاق في تربية عمهما يحيى وكفأته فتبناهما. ولما وصل محمد بن علي بن غانية إلى ميورقة قبض على أنور وبعثه مصفداً إلى مراكش، وأقام على ذلك عشر، وهلك يحيى بن غانية وقد ولى عبد الله ابن أخيه محمد على غرناطة، وأخاه إسحاق بن محمد على قرمونة. ثم هلك علي وضعف أمر لمتونة، وظهر عليهم الموحدون فبعث محمد عن ابنه عبد الله وإسحاق فوصلوا إليه في الأسطول وانقضى ملك لمتونة.

ثم عهد محمد إلى ابنه عبد الله فنافس أخوه إسحاق، وداخل جماعة من لمتونة في قتله فقتلوه، وقتلوا أباه محمداً. ثم أجمعوا على الفتك به فارتاب بهم وداخل لب بن ميمون قائد البحر في أمرهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم سنة ست وأربعين وخمسمائة. وبقي أميراً لميورقة. واشتغل أول أمره بالبناء والغراسة، وضجر منه الناس لسوء ملكته. وفر عنه لب ميمون إلى الموحدين. ثم رجع أخيراً إلى الغزو، وكان يبعث بالأسرى والعلوج للخليفة أبي يعقوب إلى أن هلك قبيل مهلكة سنة ثمانين وخمسمائة.

وخلف من الولد: محمداً وعلياً ويحيى وعبد الله والفازي وسير والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسن، فولى ابنه محمد وبعث إلى الخليفة أبي يعقوب بطاعته، فبعث هو علي بن الزبريتير لاختبار ذلك منه، وأحسن بذلك إخوته فتركوه وتقبضوا عليه. وقدموا علياً منهم. وبلغهم مهلك الخليفة وولاية ابنه المنصور فاعتقلوا ابن الزبريتير وركبوا البحر في أسطولهم إلى بجاية، وولى على ميورقة أخاه طلحة وطرق بجاية في أسطوله على حين غفلة، وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خارجها في بعض مذهبها، فاستولوا عليها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وتقبضوا على السيد أبي الربيع والسيد أبي موسى عمران بن عبد المؤمن صاحب إفريقية، وكان بها مجتازاً واستعمل أخاه يحيى على بجاية، ومضى إلى الجزائر فانتحتها، وولى

تملك البلد فاستولى عليه واضمرت نار الفتنة بإفريقية.

ونازل علي ابن غانية بلاد الجريد وتغلب على الكثير منها، وبلغ الخبر باستيلائه على قصعة فخرج المنصور إليه من مراكش سنة اثنين وثمانين وخمسمائة، ووصل فأس فأراح بها، وسار إلى رباط تازي، ثم سار على التعبئة إلى تونس، وجمع ابن غانية من إليه من المثلثين والأعراب، وجاء معه قراقش الغزي صاحب طرابلس، فسرح إليهم المنصور عساكره لنظر السيد أبي يوسف ابن السيد أبي حفص، ولقيهم بغمرة فانقض جموع الموحدين وانجلت المعركة عن قتل علي بن الزيرير وأبي علي بن يغمور، وفقد الوزير عمر بن أبي زيد، ولحق فلهم بقصعة فأتخنوا فيهم قتلا، ونجا الباقون إلى تونس. وخرج المنصور متلأفاً خبر الواقع في هذا الحال، ونزل القيروان، وأغد السير إلى الحامة فتشاور الفريقان وتزاحفوا فكانت الدبرة على ابن غانية وأحزابه، وأفلت من المعركة بدماء نفسه ومعه خلية قراقش، وأتى القتل على كثيرهم فصبح المنصور قابس فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس. ونشئ العنان إلى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها، ثم إلى قصعة فنازلها أياماً حتى نزلوا على حكمه. وأمن أهل البلد والأغراب أصحاب قراقش، وقتل سائر المثلثين ومن كان معهم من الحشود، وهدم أسوارها وانكفأ راجعاً إلى تونس، فعقد على إفريقية للسيد أبي زيد، وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين وخمسمائة ومصر بالمهدية، وأصحر على طريق تاهرت، والعباس بن عطية أمير بني توجين دليته على تلمسان، فنكب بها عمه السيد أبا إسحاق لشيء بلغه عنه وأحفظه. ثم ارتحل إلى مراكش، ورفع إليه أن أخاه السيد أبا حفص والي مرسية الملقب بالرشيد، وعمه السيد أبا الربيع والي تادلا عندما بلغهم خبر الواقعة بغمرة، حدثوا أنفسهم بالتوثب على الخلافة، فلما قدموا عليه للتهنئة أمر باعتقالهما برياط الفتح خلال ما استجلى أمرهما، ثم قتلها وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية، وقصد يحيى بن غانية قسطنطينة فزحف إليه السيد أبو الحسن من بجاية فهزمه ودخل قسطنطينة وارتحل ابن غانية إلى بسكرة فقطع غلها وافتتحها عنوة. ثم حاصر قسطنطينة فامتعت عليه فارتحل إلى بجاية وحاصرها، وكثر عيته إلى أن كان من خبره ما يذكر إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

أخباره في الجهاد

لما بلغه تغلب العدو على قاعدة شلب، وأنه أوقع بعسكر

أشيبيلة، وترددت سراياهم على نواحيها، وافتتح كثيراً من حصونها، وخاطبه السيد أبو يوسف بن أبي حفص صاحب أشيبيلة بذلك. استنفر الناس للجهاد وخرج سنة ست وثمانين وخمسمائة إلى قصر مصمودة فأراح به. ثم أجاز إلى طريف وأغد السير منها إلى شلب، وواقته بها حشود الأندلس فتركهم لحصارها. وخف إلى حصن طرش فافتحه ورجع إلى أشيبيلة. ثم رجع إلى منازل شلب سنة سبع وثمانين فافتحه. وقدم عليه ابن وزير بعد أن كان افتتح في طريقه إليه حصوناً أخرى. ثم قفل إلى حضرته بعد استكمال غزاته. وكتب بعده لابنه الناصر.

وقدم عليه سنة ثمان وثمانين وخمسمائة السيد أبو زيد صاحب إفريقية، ومعه مشيخة العرب من هلال وسليم فتلقاهم مبرة وتكريماً، وانقلب وفدهم إلى بلادهم. ثم بلغه سنة تسعين وخمسمائة استفحال ابن غانية بإفريقية وكثرة العيث والفساد بها، فاعتزم على النهوض إليها، ووصل إلى مكناسة فبلغه من أمر الأندلس ما أهمه فصرف وجهه إليها، ووصل قرطبة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فأراح بها ثلاثاً وأمداد الحشود تتلاحق به من كل ناحية. ثم ارتحل للقاء العدو ونزل بالأرك من نواحي بطليوس، وزحف إليه العدو من النصارى وأمرأهم يومئذ ثلاثة: ابن أذفونش وابن الرنك ولبابوج. وكان اللقاء يوم كذا سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وأبو محمد بن أبي حفص يومئذ على المطوعة، وأخوه أبو يحيى على العساكر والموحدين، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى واستلحم منهم ثلاثون ألفاً بالسيف.

واعتصم فلهم بمحصن الأرك، وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم، فاستنصرهم المنصور على حكمه وفودي بهم عددهم من المسلمين. واستشهد في هذا اليوم أبو يحيى ابن الشيخ أبي حفص بعد أن أبلى بلاء حسناً، وعرف بنوه بعدها ببني الشهيد وانكفأ المنصور راجعاً إلى أشيبيلة. ثم خرج منها سنة اثنين وتسعين وخمسمائة غازياً إلى بلاد الجوف فافتتح حصوناً ومدناً وخربها. كان منها ترجالة وطلبيرة. وأطل على نواحي طليطلة، فخرّب بسائطها واكتسح مسارحها، وقفل إلى أشيبيلة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة فرفع إليه في القاضي أبي الوليد بن رشد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه وعقله. وربما ألف بعضها بخطه فحبس. ثم أطلق وأشخص إلى الحضرة وبها كانت وفاته.

ثم خرج المنصور من أشيبيلة غازياً إلى بلاد ابن أذفونش حتى احتل بساحة طليطلة، وبلغه أن صاحب برشلونة أمد ابن أذفونش بعساكره، وأنهم جميعاً بمحصن مجريط، فنهض إليهم. ولما أطل عليهم انقضت جموع ابن أذفونش من قبل القتال، وانكفأ

حفص. ثم استوزر أبا محمد ابن الشيخ أبي حفص، وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية، وفوض إليه في شؤونها. وبلغه سنة ست وتسعين وخمسمائة إجحاف العدو بإفريقية، وفساد الأعراب في نواحيها، ورجوع السيد أبي الحسن من قسطنطينة منهزماً أمام ابن غانية، فأنفذ السيد أبا زيد بن أبي حفص إلى تونس في عسكر من الموحدين لصد ثغورها. وأنفذ أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص فتغلب ابن غانية خلال ذلك على حصن المهديّة. وثار بالسوس سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ثائر من كزولة يعرف بأبي قفصة، فسرح الناصر إليه عساكر الموحدين فقصدها جموعه وقتل. وفي أيامه كان فتح مبرقة على ما يتلوا من خبرها.

فتح مبرقة

وكان من خبرها أن محمد بن إسحاق لما فصل إخوته علي ويحيى إلى إفريقية، وولى على مبرقة أخاهم طلحة، داخل محمد بعض الحاشية، وخرج من الاعتقال هو وابن الزبير، وقام بدعوة المنصور، وبعث بها مع ابن الزبير، فبعث المنصور أسطولاً مع أبي العلا بن جامع ليملك مبرقة، فأبى محمد عن ذلك، وراسل طاغية برشلونة في المدد بجند من النصارى يستخدمهم فأجابهم، وانتقض عليه أهل مبرقة لذلك، وخشوا عادية المنصور فطردوا محمد بن إسحاق وولو عليهم أخاه تاشفين. وبلغ ذلك علياً وهو على قسطنطينة، فبعث أخويه عبد الله الغازي فدخلوا بعض أهل البلد وعزلوا تاشفين وولي عبد الله، وبعث المنصور أسطولاً مراراً مع أبي العلا بن جامع. ثم مع يحيى ابن الشيخ إبراهيم المزرجي فامتنعوا منهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وقوي أمره وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ثم لما هلك المنصور بعث الناصر أسطولاً مع عمه السيد أبي العلى والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فانزلوه واخذل عنه أخوه تاشفين بالناس، ودخل البلد عنوة، واستفتحت وقتل. وانصرف السيد إلى مراكش وولى عليها عبد الله بن طاع الله الكومي، ثم ولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد، وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر. وبعد السيد أبي زيد وليها السيد أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، ثم أبو يحيى علي بن أبي عمران التينملي، ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة.

راجعاً إلى أشبيلية. ثم رغب إليه ملوك النصرانية في السلم فبذله لهم.

وعقد على أشبيلية للسيد أبي زيد ابن الخليفة، وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الربيع ابن السيد أبي حفص، وعلى المغرب للسيد أبي عبد الله ابن السيد أبي حفص. وأجاز إلى حضرته سنة أربع وتسعين وخمسمائة فطره المرض الذي كان منه حتفه، وأوصى وصيته التي تناقلها الناس. وحضر لوصيته عيسى ابن الشيخ أبي حفص، وهلك رحمه الله سنة خمس وتسعين وخمسمائة آخر ربيعها، والله تعالى أعلم.

الخبر عن وصول ابن منقذ بالهدية من قبل

صاحب الديار المصرية

كان الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة وملكوا بيت المقدس، فلما استولى صلاح الدين بن أيوب على ديار مصر والشام اعترم على جهادهم، وصار يفتح حصونها واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعها. وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهدم الكنيسة التي بنواحيها، وانقضت أمم النصرانية من كل جهة واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر، فبعث صريحه إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس. ووفد عليه أبو الحرث عبد الرحمن بن منقذ بقية أمراء شيزر من حصون الشام، كانوا استبدوا به عند اختلال الدولة العبيدية. فلما استقام الأمر على يد صلاح الدين، وانتظم ملك مصر والشام واستنزل بني منقذ هؤلاء ورعى لهم سابقتهم، وبعثه في هذه إلى المنصور بالمغرب بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسويين، ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة ثقيلة. ووصل إلى المغرب ووجد المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلى حين وصوله، فلقبه وأدى الرسالة فاعتذر له عن الأسطول وانصرف. ويقال إنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام.

دولة الناصر بن المنصور

لما هلك المنصور وأمر ابنه محمد ولي عهده، وتلقب الناصر لدين الله، واستوزر أبا زيد بن يوجان، وهو ابن أخي الشيخ أبي

خبر إفريقية وتغلب ابن غانية عليها ولاية أبي محمد بن أبي الشيخ أبي حفص

ولما هلك المنصور قوي أمر ابن غانية بإفريقية، وولى الناصر السيد أبا زيد والشيخ أبا سعيد بن أبي حفص، ويقال إن المنصور ولاهما، وكثر المهرج بإفريقية وثار بالمهدية محمد بن عبد الكريم الرركاكي، ودعا لنفسه، ونازع ابن غانية الموحدتين الأمر، وتسمى صاحب قبة الأديم محمد بن عبد الكريم الركي. ونزل تونس وعاث في قراها سنة ست وتسعين وخمسمائة ونازل ابن غانية بفاس فامتنع عليه، وكان محمد ابن مسعود البلطي شيخ رياح من أشياعه فانتقض عليه، وراجع ابن غانية فأتى له الظهور على محمد بن عبد الكريم وقصده وهو على قصصة فهزمه. وأتبعه إلى المهدي فنازله بها. وبعث إلى صاحب تونس في المدد بأسطوله فأمده، فضاقت حال ابن عبد الكريم، فسأل الأمان من ابن غانية فأمنه، وخرج إليه فتقبض عليه واستولى على المهدي سنة تسع وتسعين وخمسمائة وقتله.

وبعث الناصر أسطوله في البحر مع عمه أبي العلى وعساكر الموحدتين مع السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن. ونالوا ابن عبد الكريم قبل استيلاء ابن غانية عليها، فاعتذر ابن عبد الكريم بأنه حافظ للحصن من العدو، ولا يمكنه إلا لثقة الخليفة، وانصرف السيد أبو الحسن إلى بجاية موضع عمله، وقسم العسكر بينه وبين أخيه السيد أبي زيد صاحب تونس وصلحت الأحوال. ثم أن ابن غانية لما تغلب على المهدي وعلى قراقش الغزي صاحب طرابلس، وقد مرت أخباره في ابن غانية. ثم تغلب على بلاد الجريد، ثم نزل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة وافتتحها عنوة، وتقبض على السيد أبي زيد، وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق وبسط عليهم العذاب. وتولى ذلك فيهم كاتبه ابن عصفور حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم. ثم دخل في دعوته أهل بونه وبزتورت وشقينارية والأريص والقيروان وسبته وصفاقس وقابس وطرابلس. وانتظمت له أعمال إفريقية وفرق العمال وخطب للعباسي كما ذكرناه في أخباره. ثم ولى على تونس أخاه الغازي ونهض إلى جبال طرابلس فأغرمهم ألف دينار مكررة مرتين ورجع إلى تونس.

واتصل بالناصر كثرة المهرج بإفريقية واستيلاء ابن غانية عليها وحصول السيد أبي زيد في قبضته، فشاور الموحدتين في أمره، فأشاروا بمسألة ابن غانية. وأشار أبو محمد بن الشيخ أبي حفص بالتهوض إليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه، ونهض من

مراكش سنة إحدى وستمائه، وبعث الأسطول في البحر لنظر أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجي، فبعث ابن غانية ذخيرته وحرمه إلى المهدي مع علي بن الغازي بن محمد بن علي. وانتقض أهل طرابلس على ابن غانية وأخرجوا عاملهم تاشفين بن الغازي بن محمد بن علي ابن غانية، وقصدهم ابن غانية فاقتحمها وخربها.

ووصل أسطول الناصر إلى تونس فدخلوها وقتلوا من كان بها من أشياع ابن غانية، ونهض الناصر في أتباع ابن غانية فأعجزه ونازل المهدي، وبعث أبا محمد بن الشيخ أبي حفص للقاء ابن غانية فلقاه بفتح فوقع به وقتل أخاه جبارة. وكاتبه ابن اللمطي وعامله الفتح بن محمد. قال ابن نخل: وكانت الغنائم من عسكره يومئذ ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والخزنى والآلة ونجما بأهله وولده فاطمى السيد أبا زيد من الاعتقال بعد أن هم حرسه بقتله عند الهزيمة. ثم تسلم الناصر المهدي من يد علي بن الغازي المعروف بالحاج الكافي على أن يلحق بابن عمه فقبل شرطه ومضى لوجهه. ثم رجع من طريقه واختار التوحيد فأناله من الكرامة والتقريب ما لا فوقه. وهلك في يوم العقاب الآتي ذكره. ثم قوض الناصر على المهدي، واستعمل عليها محمد بن يغمور الهرغي، وعلى طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع، ورجع إلى تونس فأقام إلى سنة ثلاث وستمائه. وسرح أخاه السيد أبا إسحاق في عسكر من الموحدتين لاتباع العدو فدخلوها ما وراء طرابلس. واستأصلوا بني دمر ومطماطة وجبال نفوسة ونجاوزوها إلى سويرة بني مذكور. وقتل السيد أبو إسحاق بهم إلى أخيه الناصر بتونس وقد كمل الفتح. ثم اعترم على الرحيل إلى المغرب وأجمع رأيه على تولية أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، وكان شيخ دولته وصاحب رأيه فامتنع إلى أن بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف، فأكبر بجيئه وأناب لذلك على أن يقيم بإفريقية ثلاث سنين خاصة خلاف ما يستحكم صلاحها، وأن يحكم فيمن يقيم معه من العسكر فتقبل شرطه.

ورجع الناصر إلى مراكش فدخلها في ربيع سنة أربع وستمائه، وقدم عبد العزيز بن أبي زيد الهنتاتي على الأشغال بالعدوتين وكان على الوزارة أبو سعيد بن جامع، وكان صديقاً لابن عبد العزيز. وعند مرجعه من إفريقية توفي السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن صاحب بجاية، وقد كان أبو الربيع هذا ولي بجاية من قبل، وهو الذي جدد الرفيع والبديع من رياضها. وكان بنو حماد شيدوها من قبل، فأصابها الخراب وجدهما السيد أبو الربيع. وفي سنة خمس وستمائه بعدها عقد للسيد أبي عمران بن يوسف ابن عبد المؤمن على تلمسان، أزال به من السيد أبي

الحسن فوصل إلى تلمسان في عساكر الموحدين وتطوف أقطارها.

والله أعلم.

ثورة ابن الفرس

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلماء بالأندلس ويعرف بالمهر، وحضر مجلس المنصور في بعض الأيام وتكلم بما خشي عاقبته في عقده وخرج من المجلس فاختفى مدة، ثم بعد مهلك المنصور ظهر في بلاد كزولة وانتحل الإمامة وادعى أنه القحطاني المراد في قوله تعالى:

«لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعضاه يملأها عدلاً كما ملئت جوراً»، إلى آخر الحديث. وكان مما ينسب إليه من الشعر:

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن علي تأهبوا لوقوع الحوادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعاملها ومتهى القول والغلاب للددول
والناس طوعاً وعصاه وهو سائقهم بالأمر وانتهى بحر العلم والعمل
تبادروا أمره فالله ناصره والله خاذل أهل الزيغ والميل
فبعث الناصر إليه الجيوش فهزموه وقتل وسبق رأسه إلى
مراكش فنصب بها.

دولة المستنصر بن الناصر

لما هلك محمد الناصر بن المنصور ببيع ابنه يوسف سنة إحدى عشرة وستمائة وهو ابن ست عشرة سنة ولقب المستنصر بالله، وغلب عليه ابن جامع ومشيوخه الموحدين فقاموا بأمره. وتأخرت بيعة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص من إفريقية لصغر سن المستنصر. ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع صاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته، واشتغل المستنصر عن التدبير بما يقتضيه الشباب، وعقد للسادة على عمالات ملكه، فعقد للسيد أبي إبراهيم أخي المنصور، وتلقب بالظاهر على فاس، وهو أبو المرتضى. وعقد على أشبيلية لعمه السيد أبي إسحاق الأحول. واستولى الفش على المعازل التي أخذها الموحدون، وهزم حامية الأندلس، ووفد رسوله ابن الفخار فحاوله ابن جامع في السلم ففقدته، ثم صرف ابن جامع عن الوزارة بعد مهلك ابن أبي زيد بسعاية أبي زيد بن يوجان، واستوزر أبا يحيى الهزرجي وولى على الأشغال أبا علي بن أشرفي. ثم رضي عن ابن جامع وأعادته، وعزل أبا زيد بن يوجان من ولاية تلمسان بأبي سعيد بن المنصور، وبعثه إلى مرسية فاعتقل

وزحف إليه ابن غانية هنالك فانقض الموحدون وقتل السيد أبو عمران. وارتاع أهل تلمسان وأسرع السيد أبو زكريا من فاس إليها فسكن نفوسهم خلال ما عقد الناصر لأبي زيد بن يوجان على تلمسان، وسرحه في العساكر فنزل بها. وفر ابن غانية إلى مكانه من قاصية إفريقية ومعه محمد بن مسعود البلط شيخ الدواودة من رياح وغيره من أعراب رياح وسليم.

واعترضهم أبو محمد بن أبي حفص فانكشفوا واستولى الموحدون على محلاتهم وما بأيديهم، ولحقوا بمجهاث طرابلس. ورجع عنهم سير بن إسحاق آخذاً بدعوة الموحدين، وفي هذه السنة عقد الناصر على جزيرة ميورقة لأبي يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران، أдал به من السيد أبي عبد الله بن أبي حفص، وعقد له على بنسية وعلى مرسية لأبي عمران بن ياسين المهناتي، أдал به من أبي الحسن بن واكك. وعقد للسيد أبي زيد على كورة جيان، أдал به من أبي موسى بن أبي حفص، وعقد للسيد أبي إبراهيم بن يوسف على أشبيلية ولأبي عبد الله بن أبي يحيى بن الشيخ حفص على غرناطة إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

أخباره في الجهاد

لما بلغ الناصر تغلب العدو على كثير من حصون بنسية أهمه ذلك وأقلق، وكتب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص يستشيريه في الغزو، فأبى عليه فخالفه، وخرج من مراكش سنة تسع وستمائة ووصل أشبيلية واستقر بها واستعد للغزو. ثم خرج من أشبيلية وقصد بلاد ابن أذفونش فانتح قلعة شلبطرة وأثلج في طريقه. ونازل الطاغية قلعة رياح وبها يوسف بن قادم وأخذ بمخنقه فصالحه على الزول، ووصل إلى الناصر فقتله وصار على التبعية إلى الموضع المعروف بالعقاب. وقد استعد له الطاغية، وجاءه طاغية برشلونة مدداً بنفسه، فكانت الدبرة على المسلمين. فانكشفوا في يوم بلاء وتمحيص أواخر صفر سنة تسع وستمائة. وانكفأ راجعاً إلى مراكش فهلك في شعبان من السنة بعدها. وكان ابن أذفونش قد ناظر ابن عمه البيوج صاحب ليون في أن يوالي الناصر ويحرم الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك. ثم رجعوا إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين، فلقبهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من أشبيلية فهزمهم، وانتعش المسلمون بها، واتصلت الحال على ذلك

بها. واستمرت أيام المستنصر في هدنة وموادة إلى أن ظهر بنو مرين بجبهات فاس سنة ثلاث عشرة وستمئة، فخرج إليهم واليها السيد أبو إبراهيم في جموع الموحدين فهزموه وأسروه، ثم عرفوه وأطلقوه، ثم وصل الخبر بمهلك أبي محمد بن أبي حفص صاحب إفريقية فولى عليها أبا العلى أخا المنصور، وكان والياً بأشيلية فعزل. وولى على إفريقية بسعاية ابن مثنى خاصة السلطان فتوجه إليها كما نذكر في أخبار بني أبي حفص. وخرج بناحية فاس رجل من العبيدين انتسب للعاضد، وتسمى بالمهدي، فبعث السيد أبو إبراهيم أخو المنصور والي فاس إلى شيعته وبذل لهم المال فقبضوا عليه، وساقوه إليه فقتل. وفي سنة تسع عشرة وستمئة عقد المستنصر لعنه أبي محمد المعروف بالعادل على مرسية، وعزله عن غرناطة. وهلك سنة عشرين وستمئة وقد التأت الأمور فكان ما نذكر، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن دولة العادل بن المنصور

لما بلغت بيعة الموحدين للعادل وكتاب ابن زكريا بن الشهيد بقصة المخلوع، قارن ذلك تغييره للبياسي فانتقض عليه، ودعا لنفسه ببياسة، وتلقب الظافر وشغل بشأنه، وبعث أخاه أبا العلى لحصاره فامتنع عليه، وبعث بعده أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص فامتنع عليه أيضاً، واختلفت الأحوال بالأندلس على العادل وكثرت إغارة النصارى على أشيلية ومرسية وهو مقيم بها. وانهزمت جيوش الموحدين على طليطلة وأغراه خاصته بابن يوجان فأخذ إلى سبتة. وعظم أمر البياسي بالأندلس وظاهره النصارى على شأنه، فأجاز العادل إلى العدو وولى أخاه أبا العلى على الأندلس. ولما كان بقصر المجاز دخل عليه عبو بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، فقال له: كيف حالك؟ فأنشد:

حالٌ متى علم ابن منصور بها جاء الزمان إليه منها نائباً

فاستحسن ذلك وولاه إفريقية. وكتب للسيد أبي زيد ابن عمه بالقدوم، ووصل إلى سلا فأقام بها. وبعث عن شيوخ جيشه، وكان لابن يوجان عناية واختصاص جهلال بن حمدان بن مقدم أمير الخلط، فتأفل ابن جرمون أمير سفيان عن الوصول، واقتل الخلط وسفيان، وبادر العادل إلى مراکش فدخلها واستوزر أبا زيد بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، وتغير لابن يوجان ففسد باطنه. وتغلب على الدولة ابن الشهيد ويوسف بن علي شيخا هتاتة وتينمل. ثم خالفت هسكورة والخلط وعاثوا في نواحي مراکش، وخرج إليهم ابن يوجان فلم يغن شيئاً فخرّبوا بلاد دكالة فأنفذ إليهم العادل عسكرياً من الموحدين لنظر إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص وهو الذي كان نازع أولاد الشيخ أبي محمد بإفريقية كما نذكره فانهزم وقتل. وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلهم للحشد ومدافعة هسكورة، فاتفقا على خلع

بها. واستمرت أيام المستنصر في هدنة وموادة إلى أن ظهر بنو مرين بجبهات فاس سنة ثلاث عشرة وستمئة، فخرج إليهم واليها السيد أبو إبراهيم في جموع الموحدين فهزموه وأسروه، ثم عرفوه وأطلقوه، ثم وصل الخبر بمهلك أبي محمد بن أبي حفص صاحب إفريقية فولى عليها أبا العلى أخا المنصور، وكان والياً بأشيلية فعزل. وولى على إفريقية بسعاية ابن مثنى خاصة السلطان فتوجه إليها كما نذكر في أخبار بني أبي حفص. وخرج بناحية فاس رجل من العبيدين انتسب للعاضد، وتسمى بالمهدي، فبعث السيد أبو إبراهيم أخو المنصور والي فاس إلى شيعته وبذل لهم المال فقبضوا عليه، وساقوه إليه فقتل. وفي سنة تسع عشرة وستمئة عقد المستنصر لعنه أبي محمد المعروف بالعادل على مرسية، وعزله عن غرناطة. وهلك سنة عشرين وستمئة وقد التأت الأمور فكان ما نذكر، واللّه تعالى أعلم.

الخبر عن دولة المخلوع أخي المنصور

لما هلك المستنصر في الأضحى من سنة عشرين وستمئة اجتمع ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد أخي المنصور، فقام بالأمر وأمر بمطالبة ابن أشرفي بالمال. وكتب أخوه لأبي العلى بتجديد الولاية على إفريقية بعد أن كان المستنصر أوعز بعزله، فأدركته الولاية ميتاً فاستبد بها ابنه أبو زيد المشمر كما نذكره في أخبار إفريقية. وأنفذ المخلوع أمره بإطلاق ابن يوجان فأطلق. ثم صدّه ابن جامع عن ذلك وأنفذ أخاه أبا إسحاق في الأسطول ليغريه إلى موروقة كما كان المستنصر أنفذه قبل وفاته. وكان الوالي بمرسية أبو محمد عبد الله بن المنصور فأغراه ابن يوجان بالتوثب على الأمر، وشهد له أنه سمع من المنصور العهد له بالخلافة من بعد الناصر. وكان الناس على كره ابن جامع، وولاه الأندلس كلهم بنو منصور فأصغى إليه، وكان متردداً في بيعة عمه، فدعا لنفسه وتسمى بالعادل. وكان إخوته أبو العلى صاحب قرطبة، وأبو الحسن صاحب غرناطة، وأبو موسى صاحب مالقة، فبايعوه سراً.

وكان أبو محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان وعزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص فانتقض وبايع للعادل وزحف مع أبي العلى صاحب قرطبة وهو أخو العادل إلى أشيلية، وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع فدخل في دعوتهم وامتنع السيد أبو زيد بن عبد الله أخي البياسي عن بيعة العادل، وتمسك بطاعة

كان معه من الموحدين والعرب، ولحق يحيى بجبل هتاتة. ثم دخل المأمون الحضرة وأحضر مشيخة الموحدين وعدد عليهم فغلاهم وتقبض على مائة من أعيانهم فقتلهم، وأصدر كتابه إلى البلدان بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة، والنعي عليه في النداء للصلاة باللغة البربرية، وزيادة النداء لطلوع الفجر وهو: أصبح والله الحمد، وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي وعبد المؤمن، وجرى على سنتها أبناؤه. فأوعز بالنهاي عن ذلك كله. وشنع عليهم في وصفهم الإمام المهدي بالمعصوم، وأعاد في ذلك وأبدى.

وآذن للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة بمراكش على شرطهم، فضربوا بها نواقيسهم. واستولى ابن هود بعده على الأندلس، وأخرج منها سائر الموحدين، وقتلهم العامة في كل قطر. وقتل السيد أبو الربيع ابن أخي المنصور وكان المأمون تركه والياً بقرطبة. واستبد الأمير أبو زكريا بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بإفريقية، وخلع طاعته سنة سبع وعشرين وستمئة للسيد أبي عمران ابن عمه محمد الحرحراني على بجاية مع أبي عبد الله اللحياني أخي الأمير أبي زكريا. وزحف إليه يحيى بن الناصر فانهزم، ثم ثانية كذلك، واستلحم من كان معه ونصبت رؤوسهم بأسوار الحضرة. ولحق يحيى بن الناصر ببلاد درعة وسجلماسة.

ثم انتقض على المأمون أخوه أبو موسى ودعا لنفسه بسبته وتسمى بالمؤيد، فخرج المأمون من مراكش وبلغه في طريقه أن قبائل بني فازاز ومكلاطة حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها، فسار إليها وحسم عاملها واستمر إلى سبته فحاصرها ثلاثة أشهر، واستمد أخوه أبو موسى صاحب الأندلس ابن هود فأمده بأساطيله. وخالف يحيى بن الناصر المأمون إلى الحضرة فائقمها مع عرب سفيان وشيوخهم جرمون بن عيسى، ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هتاتة، وعاثوا فيها، فأقلع المأمون عن سبته يريد الحضرة وهلك في طريقه بوادي أم الربيع ففتح سنة ثلاثين وستمئة وحين إقلاعه دخل أخوه السيد أبو موسى في طاعة ابن هود، وأمكنه من سبته فأداله منها، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون

لما هلك المأمون بويح ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد، وكنمو موت أبيه وأغذوا السير إلى مراكش، ولقيهم يحيى بن الناصر في طريقهم بعد أن استخلف بمراكش أبا سعيد بن وانودين فهزمه، وقتل أكثر من معه. وصبح الرشيد مراكش فامتنعوا عليه

العادل والبيعة ليحيى بن الناصر، وقصدوا مراكش فائقموا عليه القصر ونهبوه، وقتل العادل خنقاً أيام الفطر من سنة أربع وعشرين وستمئة.

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة

يحيى بن الناصر له

كان المأمون لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب على أخيه، وتلاشي أمره دعا لنفسه بأشيلية فبوع وأجابه أكثر أهل الأندلس وبائع السيد أبو زيد صاحب بلنسية وشرق الأندلس. ثم كان ما قدمناه من انتقاض الموحدين على العادل وقتله بالقصر وبيعتهم ليحيى ابن أخيه الناصر، فكاتب ابن يوجان سراً وعمل على إفساد الدولة، فدخل هسكورة والعرب في الغارة على مراكش، وهزم عساكر الموحدين وفطن ابن الشهيد لتدبير ابن يوجان فقتله بداره. وخرج يحيى بن الناصر إلى معتممه كما ذكرناه فخلع الموحدون العادل وبعثوا ببيعتهم إلى المأمون.

وتولى كبر ذلك الحسن أبو عبد الله الغريفر والسيد أبو حفص بن أبي حفص فبلغ خبرهم إلى يحيى بن الناصر وابن الشهيد، فزولوا إلى مراكش سنة ست وعشرين وستمئة وقتلهم وبائع للمأمون صاحب فاس وصاحب تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان، وصاحب سبته أبو موسى بن المنصور، وصاحب بجاية ابن أخته ابن الأطامي وامتنع صاحب إفريقية وكان ذلك سبباً لاستبداد الأمير أبي زكريا على ما تذكر. ولم يبق على دعوة يحيى بن الناصر إلا إفريقية وسجلماسة.

وزحف البياسي إلى قرطبة فملكها، ثم زحف إلى أشيلية فنازل بها المأمون والطاغية معه، بعد أن نزل له عن غطاة وغيرها من حصون المسلمين فهزمهم المأمون بنواحي أشيلية ولحق البياسي بقرطبة فثاروا به إلى حصن المدور، فقدر به وزيره ميورك، وجاء برأسه إلى المأمون بأشيلية.

ثم ثار محمد بن يوسف بن هود وملك مرسية واستولى على الكثير من شرق الأندلس كما ذكرناه في أخباره. وزحف إليه المأمون وحاصره وامتنع عليه فرجع إلى أشيلية، ثم خرج سنة ست وعشرين وستمئة إلى مراكش لما استدعاه أهل المغرب وبعثوا إليه ببيعاتهم، وبعث إليه هلال بن حميدان أمير الخلط يستدعيه. واستمد الطاغية عسكرياً من النصارى فأمده على شروط قبلها منه المأمون، وأجاز إلى العدو. وبادر أهل أشيلية بالبيعة لابن هود، واعترضه يحيى بن الناصر فهزمه المأمون واستلحم من

واستقدم وزيره وعساكره من باجة فقدموا، ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان، وأجلبوا على سائر النواحي، وأخذوا بدعوة يحيى واستقدموه من مكانه بقاصبة الصحراء.

وداخلهم في ذلك عمر بن وقاريط، وزحفوا لحصار الحضرة، وخرجت العساكر لقاتلهم ومعهم عبد الصمد بن بلولان فرجع ابن وقاريط في جموعه من العساكر فانهزموا، وأحيط بجند النصاري فقتلوا وتفاقم الأمر بالحضرة، وعمدت الأقوات. واعتزم الرشيد على الخروج إلى جبال الموحدية فخرج إليها، وسار منها إلى سجلماسة فملكها، واشتد الحصار على مراكش وافتتحها يحيى بن الناصر وقومه من هسكورة والخلط، وسار أمرهم فيها وتغيرت أحوال الخلافة. وتغلب على السلطان السيد أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حافة، وفي سنة ثلاث وثلاثين وستمئة خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراكش، وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان، فأجازوا وادي أم الربيع وبرز إليه يحيى في جموعه، والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم، ودخل الرشيد إلى الحضرة ظافراً.

وأشار يحيى بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ بآبن هود صاحب الأندلس، والأخذ بدعوته، فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفداهم إلى آبن هود صحبة عمر بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ فاستقر هنالك. وخرج الرشيد من مراكش وفر الخلط أمامه، وسار إلى فاس وسرح وزيره السيد أبا محمد إلى غمارة وفازاز لجباية أموالهم. وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب المقل فآجأروه ووعدوه النصرة، واشتطوا عليه في المطالب، وأسف بعضهم بالمتع اغتاله في جهة تازي، وسبق رأسه إلى الرشيد بفاس فبعثه إلى مراكش، وأوعز إلى نائبه بها أبي علي آبن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم: حسن بن زيد شيخ العاصمة، وفائد وقائد آبنا عامر شيخا بني جابر، فقتلهم وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرة سنة أربع وثلاثين وستمئة وبلغه استيلاء صاحب درعة أبي محمد بن وانودين على سجلماسة، وذلك أن الرشيد لما فصل من سجلماسة استخلف عليها يوسف بن علي بن يوسف التينملي، فاستعمل آبن خالته من بني مردنيش، وهو يحيى بن أرقم بن محمد بن مردنيش، فنار عليه نائر من صنهاجة وقتله في خيائه. وقام ابنه أرقم يطلب الثأر، وبلغ منه ما أراد. ثم حدثه نفسه بالانتفاض خوفاً من عزل الرشيد إياه فانتقض.

ونهب إلى الرشيد سنة اثنتين وثلاثين وستمئة فلم يزل أبو

بأشباعهم، ثم خرجوا إليه واستقاموا على بيعته. وكان وصل في صحبتة عمه السيد أبو محمد سعد فحل من الدولة بمكان، وكان إليه التدبير والحل والعقد، وبعد استقرار الرشيد بالحضرة وصل إليه عمر بن وقاريط كبير الهسكارة بمن كان عنده من أولاد المأمون السيد وإخوته، فجاؤوا من أشبيلية عند ثورة أهلها بهم، واستقروا بسببة عند معهم أبي موسى، ومنها إلى الحضرة عند استيلاء آبن هود على سببة ومروا بهسكورة، وكان آبن وقاريط حذراً من المأمون ومعتقداً أن لا يعود إليه، فتذمم بصحبة هؤلاء الأولاد، وقدم على الرشيد فتقبله واعتلق بوصلة من السيد أبي محمد سعد وصحبة لمسعود بن حميد كبير الخلط.

ولما هلك السيد أبو محمد لحق آبن وقاريط بقومه ومعتصمه، وكشف وجه الخلاف، وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر، واستنفر له قبائل الموحدية ونهبض إليهم الرشيد سنة إحدى وثلاثين وستمئة واستخلف على الحضرة صهره أبا العلي إدريس وصعد إليهم الجبل، فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم. ولحق يحيى ببلاد سجلماسة وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرة، واستأمن له كثير من الموحدية الذين كانوا مع يحيى بن الناصر فأمنهم ولحقوا بحضرة. وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا الكدموي، وجاء الباقون على أثره ويسعيه بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان أزال المأمون من رسوم المهدي فأعيدت. وقدم فيهم أبو بكر بن يعزى التينملي رسولاً عن يوسف بن علي بن يوسف شيخ تينملي، ومحمد بن يريزكن الهتاني رسولاً عن أبي علي عزوز، ورجعا إلى مرسلهما بالقبول، فقدموا على الحضرة وقدم معهم موسى بن الناصر آخر يحيى وكبيره. وجاء على أثرهم أبو محمد بن أبي زكريا وأنسوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية.

وكان مسعود بن حميدان الخلطي قد أغراه عمر بن وقاريط بالخلاف لصحبة بينهما، وكان مدلاً بآسه وكثرة جموعه. يقال: إن الخلط كانوا يومئذ يهازون اثني عشر ألفاً سوى الرجل والأتباع والحشود، فمروض في الطاعة وثاقل عن الوفاة، ولما علم بمقام الموحدية أجمع اعتراضهم وقتلهم تمكيناً للفرقة والشتات في الدولة فأعمل الرشيد الحيلة في استدعائه، وصرف عساكره إلى باجة لنظر وزيره السيد أبي محمد، حتى خلا لآبن حميدان الجؤ وذهب عنه الريب، واستقدمه فأسرع اللحاق بالحضرة، وقدم معه معاوية عم عمر بن وقاريط، فتقبض عليه وقتل لحينه. واستدعى مسعود بن حميدان إلى المجلس الخلافى للحديث فتقبض عليه وعلى أصحابه وقتلوا ساعته بعد جولة وهيعة، وقضى الرشيد حاجة نفسه فيهم،

الخبر عن دولة السعيد بن المأمون

لما هلك الرشيد بويع أخوه أبو الحسن السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين، وتلقب المقتدر بالله واستوزر السيد أبا إسحاق بن السيد أبي إبراهيم ويحيى بن عطوش. وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستصفى أموالهم واستخلص لنفسه رؤساء العرب من جنشم. واستظهر بمجموعهم على أمره وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير بحكة ولأول بيعته انتقض عليه أبو علي بن الخلاص البلنسي صاحب سبته، وكذلك أهل أشبيلية وبايعوا جميعاً للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية.

ثم انتقض عليه بسلمجاسة عبد الله بن زكريا الهزرجي لمقالة كانت منه يوم بيعة الرشيد أسرها له فبايع للأمير أبي زكريا. ثم وصلته في هذه السنة هدية يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان، فنهض الأمير أبو زكريا صاحب إفريقية بسبب ذلك إلى تلمسان، واستولى عليها. ثم عقد عليها ليغمراسن حسبما نذكر في أخباره. وخرج السعيد من مراكش لتهديد بلاد المغرب سنة اثنتين وأربعين وتغير لسعيد بن زكريا الكدميوي فتقبض عليه في معسكره بتانسفت وفر أخوه أبو زيد ومعه أبو سعيد العود الرطب، ولحقوا بسلمجاسة فاستصفى أموالهم بمراكش، وارتحل بقصد سجلماسة وأخذ واليها عبد الله الهزرجي في أسباب الامتناع، فغدر به أبو زيد بن زكريا الكدميوي، ودخل أهل سجلماسة في الثورة عليه وملك البلد. واستدعى السعيد لها فوصل وقتل الهزرجي. وفر أبو سعيد العود الرطب إلى تونس. ثم رجع السعيد إلى المغرب وقتل سعيد بن زكريا ونزل المقرمة من أحواز فاس. وعقد المهادنة مع بني مرين وقتل إلى مراكش فتقبض على أبي محمد بن وانودين واعتقله بأزمور. واعتقل معه يحيى بن مزاحم ويحيى بن عطوش لنظر ابن ماكسن، فأعمل الحيلة في الفرار من معتقله. وخلص ليلاً إلى كانون بن جرمون فأركبه وبعث معه من عرب سفيان من أوصله إلى قومه هتاتة. وراسله السعيد على أثرها وسكنه واعتذر له، وأسعفه بسكنى تافيت من حصون عمله بأهله وولده.

ثم انتقض على السعيد كانون بن جرمون وسفیان، وخالفهم إليه بنو جابر والخلط، وخرج من مراكش واستوزر السيد أبا إسحاق ابن السيد أبي إبراهيم إسحاق أخي المنصور. واستخلف أخاه أبا زيد على مراكش، وأخاهما أبا حفص عمر على سلا وفصل من مراكش سنة، وجمع له أبو يحيى بن عبد الحق جموع بني راشد وبني ورا وسفیان، حتى إذا تراءى الفريقان للقاء، خالف كانون بن جرمون الموحدين إلى أزمور، واستولى عليها

محمد بن وانودين يعمل الحيلة في استخلاصها حتى تمكن منها وعفى عن أرقم. وكان ابن وقاريط لما فصل إلى ابن هود سنة أربع وثلاثين وستمائة ركب البحر في أسطول ابن هود، وقصد سلا وبها السيد أبو العلى صهر الرشيد، فكاد أن يغلب عليها. وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة بايع أهل أشبيلية للرشيد ونقضوا طاعة ابن هود، وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجذ، وأشخص بنو حجاج إلى سبته ووصل فذهبهم إلى الحضرة ومروا في طريقهم بسبته، فاقتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد، وخلصوا أميرهم اليانسي الثائر بها على ابن هود وقدموا الحضرة، وولى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم. ولأيام من مقدمهم وصل عمر بن وقاريط معتقلاً من أشبيلية، أغراههم بالقبض عليه القاضي أبو عبد الله المؤمناني، كان توجه رسولاً إلى ابن هود عن الرشيد، فأمكنهم من ابن وقاريط. وبعثه إلى الرشيد في وفد من رسله فاعتقله بأزمور وقتل وصلب برباط هسكورة، بعد أن طيف به على جمل. وانصرف وقد أشبيلية وسبته، واستقدم الرشيد رؤساء الخلط فتقبض عليهم، وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحياءهم. ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن وقاريط، وقطع دابرهم. وفي سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الثائر بالأندلس على ابن هود. وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة اشتدت الفتنة بالمغرب، وانتشر بنو مرين في بساطه، وقاتلهم رياح بأزغار وشيخهم عثمان بن نصر فهزمهم بنو مرين وقتلهم قتلاً ذريعاً. وكان الرشيد استقدم أبا محمد بن وانودين من سجلماسة سنة خمس وثلاثين وستمائة وعقد له على فاس وسجلماسة وغمارة ونواحيها من أرض المغرب، فكان هنالك. ولما انتشر بنو مرين بالمغرب زحف إليهم فهزموه، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه، وأقام في محاربهم ستين ورجع إلى الحضرة. واشتد عدوان بني مرين بالمغرب، وألحوا على مكناسة حتى أعطوا الأتاوة لبني حمامة منهم، فأسفوا بني عسكر بذلك، واتصل عيهم في نواحيها. وفي سنة سبع وثلاثين وخمسائة قتل الرشيد كاتبه ابن المؤمناني لمداخلة له مع بعض السادة، وهو عمر بن عبد العزيز أخي المنصور، وقف على كتابه إليه بخطه. وغلظ الرسول بها فدفعها بدار الخليفة.

وفي سنة أربعين وستمائة بعدها كانت وفاة الرشيد غريقاً، زعموا في بعض حوائز القصر. ويقال: إنه أخرج من الماء وحماً لوقته، وكان فيها مهلكه، والله تعالى أعلم.

بتماستا من طريقه ومعه أشياخ العرب فبايعوه وتلقب المرتضى، وعقد لعقوب بن كانون على بني جابر ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد أن كان قومه قدموه عليهم، ودخل الحضرة فاستوزر أبا محمد بن يونس وتقبض على حاشية السعيد، ثم وصل أخوه السيد أبو إسحاق من الفل أخذاً على طريق سجلماسة فاستوزره واستبد عليه، واستولى أبو يحيى بن عبد الحق وبنو مرين إثر مهلك السعيد على رباط تازي من يد السيد أبي علي أخي أبي دبوس وأخرجوه فلقح بمراكش. ثم استولوا بعدها على مدينة فاس سنة سبع وأربعين وستمائة كما نذكره في أخبارهم بعد.

وفي هذه السنة ثار بسببة أبو القاسم العزفي وأخرج ابن الشهيد الوالي على سببة من قرابة الأمير أبي زكريا صاحب إفريقية، وحول الدعوة للمرتضى حسبما نذكر في أخبار الدولة الخفصية وأخبار بني الغزي. وفي سنة تسع وأربعين وستمائة وفد على المرتضى موسى بن زيان الونكاسي وأخوه علي من قبائل بني مرين وأغروه بقتال بني عبد الحق فخرج إليهم ولما انتهى إلى أمان إيلولي أشاع يعقوب بن جرمون قضية الصلح بينهما فأصبحوا راحلين، وقد استولى الجزع على قلوبهم فانفضوا ووقعت الهزيمة من غير قتال. ووصل المرتضى إلى الحضرة فعزل أبا محمد بن يونس عن الوزارة لشيء بلغه عنه، وأسكنه بجملة مع حاشيته، وفر من جملة علي بن بدر إلى السوس سنة إحدى وخمسين وستمائة، وجاهر بالعناد. وسرح إليه السلطان عسكرياً من الجند فرجعوا عنه ولم يظفروا به، وتفاقم أمره سنة اثنتين وخمسين وستمائة. وجمع أعراب الشبانات وبني حسان وحمل أموال ونازل تارودانت فحاصر من كان بها. وسرح المرتضى إليه عسكرياً من الموحديين فأفرج عنها. ثم رجع بعد قفولهم إلى حاله، وعثر المرتضى على خطابه لقريبة ابن يونس وكتاب ابن يونس إليه بخطه، فاعتقل هو وأولاده ثم قتل.

وفي هذه السنة استدعى مشيخة الخلط إلى الحضرة وقتلوا لما كان منهم في مهلك السعيد. وفيها خرج أبو الحسن بن يعلو في عسكر من الموحديين إلى تامستا ليكشف أحوال العرب، ومعه يعقوب بن جرمون، وعهد إليه المرتضى بالتقبض على يعقوب بن محمد بن قيطون شيخ بني جابر، فتقبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين.

وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس ونواحيها من يد بني مرين المتغلبين عليها، فوصل إلى بني بهلول، وزحف إليه بنو مرين وأميرهم أبو يحيى فكانت

ورجع السعيد أدراجه في أتباعه، ففر كانون واعترضه السعيد فأوقع به، واستلحم كثيراً من سفيان قومه، واستولى على ماله من مال وماشية، ولحق كانون في فله ببني مرين ورجع السعيد إلى الحضرة. وفي ثلاث وأربعين ثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه، وحذر مشيختها من سطوته فحولوا الدعوة إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص صاحب إفريقية، وبعثوا إليه ببيعتهم، وكانت من إنشاء أبي مطرف بن عميرة، وذلك بمداخلة أبي يحيى بن عبد الحق أمير بني مرين ووفاقه لهم على ذلك. وشارطوا أبا يحيى بن عبد الحق بمال دفعوه إليه على الحماية.

ثم راجعوا أمرهم وأوفدوا صلحاءهم ببيعتهم فرضي عنهم السعيد ورضوا عنه، وفي هذه السنة بعث أهل أشبيلية وأهل سببة بطاعتهم للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية. وبعث ابن خلاص بهديته مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك فغرق عند إقلاعه من المرسى. وفي سنة ست وأربعين كان استيلاء الطاغية على أشبيلية لسبع وعشرين من رمضان ولما بلغ السيد بيعة أهل أشبيلية وسببة للأمير أبي زكريا إلى ما كان من تغلبه على تلمسان، وأخذ يغمراسن بدعوته، ثم ما كان من بيعة أهل مكناسة وأهل سجلماسة له أعمل نظره في الحركة إلى تلمسان ثم إلى إفريقية. وخرج إلى مراكش في ذي الحجة من سنة خمس وأربعين وستمائة ووافاه كانون بن جرمون فعاوده الطاعة واستحشد سفيان وجاء في جملة السعيد مع سائر القبائل من جيشه. ولما احتل السعيد بتازي وافاه وفد بني مرين عن أميرهم أبي يحيى بن عبد الحق، فأعطوه الطاعة وبعثوا معه عسكرياً من قومهم مدداً له.

ثم سار السعيد إلى تلمسان فكان مهلكه بتمازدكت على يد بني عبد الواد في صفر سنة ست وأربعين وستمائة حسبما نشرح في أخبارهم. ويقال: إن ذلك كان بمداخلة من الخلط فاستولوا على الحلة وقتلوا عدوهم كانون، وانفض العسكر إلى المغرب وقد اجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد واعترضهم بنو مرين بجبهات تازي، فقتلوا عبد الله بن السعيد ولحق الفل بمراكش فبايعوا للمرتضى كما نذكر.

الخبر عن دولة المرتضى ابن أخي المنصور

لما لحق فل العسكر بعد مهلك السعيد بمراكش، اجتمع الموحدون على بيعة السيد أبي حفص عمر ابن السيد أبي إبراهيم إسحاق أخي المنصور، واستقدموه لها من سلا، فلقبه وافتدهم

ووفد على المرتضى عواج بن هلال من أمراء الخلط نازعاً إلى طاعته ومقارفاً لبني مرين، فأنزل معه أصحابه بمراكش وجاء على أثره عبد الرحمن بن يعقوب بن جرمون، فتقبض على عواج ودفعه إلى علي بن أبي علي فقتله، وكان تقبض معه على عبد الرحمن بن يعقوب ووزيره فقتلوا جميعاً، واستبد برئاسة سفيان مسعود بن كانون، وبرئاسة بني جابر إسماعيل بن يعقوب بن قيطون.

وفي سنة ستين وستمئة عند رجوع يحيى بن وانودين من واقعة أم الرجلين، خرج عسكر من الموحدين إلى السوس لنظر محمد بن علي أزماط ولقيه علي بن بدر فهزم جموعه وقتله، وعقد المرتضى من بعده على حرب علي بن بدر للوزير أبي زيد بن بكيت، وسرح معه عسكراً من الجند، وكان فيهم ذنلب من زعماء النصرانية، فدارت الحرب بين الفريقين، ولم يكن للموحدين فيها ظهور على كثرتهم وقوة جلدتهم وحسن بلائهم، فعد بهم عن ذلك تكاسل ذنلب وخروجه عن طاعة الوزير. وكتب بذلك للمرتضى فاستقدمه، وأمر أبو زيد بن يحيى الكديميوي باعتراضه في طريقه وقتله. وفي سنة اثنتين وستين وستمئة أقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين فنازلوا مراكش واتصلت الحرب بينهم وبين الموحدين بظاهرها أياماً هلك فيها عبد الله أنعجوب بن يعقوب، فبعث المرتضى إلى أبيه بالتعزية ولاطف وضرب له أناوة يبعث بها إليه في كل عام، فرضي وارتحل عنهم.

الخبر عن انتفاض أبي دبوس وتغلبه على مراكش ومهلك المرتضى وما كان في دولته من الأحداث

لما ارتحل بنو مرين عن مراكش بعد مهلك أنعجوب فر من الحضرة قائد حروبه السيد أبو العلي الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى، وصحبه ابن عمه السيد أبو موسى عمران بن عبد الله بن الخليفة، فلحقا بمسعود بن كلداسن كبير هسكورة فأجاره. ثم لحق يعقوب بن عبد الحق بفاس صريحاً به على شأنه، واشترط له المقاسمة في العمالة والذخيرة فأمده بالمال، يقال: خمسة آلاف دينار عشرية. وأوعز إلى علي بن أبي علي الخلطي بمظاهرته وإعطائه الآلات. ورجع إلى علي بن أبي علي الخلطي فأمده بقومه. ثم سار إلى هسكورة ونزل على صاحبه مسعود بن كلداسن فأطاعه قبائل هسكورة وهزرجة.

الهزيمة على الموحدين بذلك الموضع. ورجع المرتضى مفلولاً إلى مراكش، ورعى بني مرين من بعد ذلك سائر أيامه. واستبد العزفي بسبته، وابن الأمير بطنجة كما نذكره في أخبارهم.

وفي سنة خمس وخمسين وستمئة بعث المرتضى إلى السوس عسكراً من الموحدين لنظر أبي محمد بن أصناك فلقبهم علي بن بدر وهزمهم واستبد بأمره في السوس. وفي هذه السنة استولى أبو يحيى بن عبد الحق على سجلماسة وتقبض على واليها عبد الحق بن أصكو بمداخلة من خديم له يعرف بمحمد القطراني كان أبوه تاجراً في القطران بنواحي سلا، فصرف عبد الحق ابنه محمداً هذا في مهمة وقربه من بين أهل خدمته، وحدته نفسه بالثورة فاستمال عرب المغل أولاً بالمشاركة في حاجاتهم عند خدمته، والإحسان إليهم حتى اشتملوا عليه.

ثم داخل أبا يحيى بن عبد الحق في تمكينه من البلد فجاء بجملته، وقدم وفده إلى البلد رسلاً في بعض الحديث فتقبض محمد القطراني على عبد الحق بن أصكو وأخرجه إلى أبي يحيى بن عبد الحق فقاده وسرعه إلى مراكش. وكان القطراني شرط على أبي يحيى أن يكون والي سجلماسة فامضى له شرطه، وأنزل معه بها من رجالات بني مرين حتى إذا هلك أبو يحيى بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة، وراجع دعوة المرتضى واعتذر إليه واشترط عليه الاستبداد فامضى له شرطه إلا في الأحكام الشرعية.

وبعث أبا عمر بن حجاج قاضياً من الحضرة، وبعض السادات للسكنى في القصبة، وقائداً من النصارى بعسكر للحماية، فأعمل ابن الحجاج الخيلة في قتل القطراني وتولاه قائد النصارى. واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى، واستفحل أمر بني مرين أثناء ذلك. ونزل يعقوب بن عبد الحق بسائط تامستا، فسرح إليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن وانودين فأجفلوا إلى وادي أم ربيع، واتبعهم الموحدون فرجعوا إليهم، وغدر بهم بنو جابر فانهزم الموحدون بأمر الرجلين. ولحق شيخ الخلط علي بن أبي علي ببني مرين وارتحلوا إلى أوطانهم.

وكان المرتضى قدم يعقوب بن جرمون على قبائل سفيان، وكان يعقوب ابن أخيه كانون يناهضه في رئاسة قومه، وغص به فقتله، وثار به أخواه مسعود وعلي بعد حين فقتلاه. وولى المرتضى مكانه ابنه عبد الرحمن فاستوزر يوسف بن وارزك ويعقوب بن علوان. وشغل بلداته وتصدى لقطع السابلة، ثم نكث الطاعة ولحق ببني مرين، فولى مكانه عمه عبيد الله بن جرمون ويكنى بأبي زمام. وعقد له المرتضى، ثم أдал منه بأخيه مسعود لعجزه.

فارتحل إليه لإزالتها. وقدم عبد العزيز بن عطوش سفيراً إليه في ذلك. وبلغه أن يعقوب بن عبد الحق نزل تامستا فأوفد عليه حميدي بن مخلوف المسكوري بهدية فقبلها، وأكد بينهما العهد وانكفاً راجعاً إلى وطنه. ورجع حميدي إلى الواثق، ووافق وصول عبد العزيز بن عطوش بطاعة مسعود بن كلداسن، فرجع أبو دبوس إلى مراكش بعد أن عقد لأبي موسى بن عزوز على بلاد حاحة. وبلغه في طريقه عن عبد العزيز بن السعيد أنه حدث نفسه بالملك، وأن ابن بكيت وابن كلداسن داخلوه في ذلك. وسأل عن ذلك السيد أبا زيد ابن السيد أبي عمران خليفته، وأخبره بما سمع، وأمره بالقبض عليه وقتله، فأنفذ ذلك.

ثم ارتحل إلى السوس لتمهيد، وحسم علل ابن يدر فيه. وقدم يحيى بن وانودين لاستفزاز قبائل السوس من كزولة ولطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم، وسار يتقرى المنازل ويستفر القبائل، ومر بتارودنت فوجدها قفراً خلاءً إلا قلائل من الدور بخارجها. ونزل على حميدي صهر علي بن بدر وقريبه بمحسن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن بدر وملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياماً، وهزم فيها جموعه وداخل حميدي علي بن زكدا في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه، فأعجله الفتح عن ذلك ونجا بدمائه إلى بيته. وطولب بالمال، وبقي معتقلاً عند ابن زكدا، وامتنع ابن بدر بمحضته. ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته، فأنصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة. وبلغه الخبر بانتفاض يعقوب بن عبد الحق وأنه زاحف إلى فبعث بهديته إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطرال وابن أبي عثمان رسول يغمراسن، وخرج بهم من مراكش ابن أبي مديون السكاسني دليلاً. وسلك بهم على الفقر إلى سجلماسة، وبها يحيى بن يغمراسن، فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه فألقوه بجهة مليانة، فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مرين وعسكر المغرب، ونزل بضواحي مراكش وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبوس في عساكر الموحدين فاستجّره يعقوب إلى وادي أغفو، ثم ناجزه الحرب فاقتل مصافه وفرّ عسكره. وانهزم يريد مراكش، والقوم في اتباعه فأدرك وقتل. ويادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وفر بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلم بعد أن كانوا بايعوا عبد الواحد بن أبي دبوس، وسموه المعتصم مدة خمسة أيام وخرج في جملتهم، وانقرض أمر بني عبد المؤمن، والبقاء لله وحده.

وبعث إليه عزوز بن بيورك كبير صنهاجة في ناحية أزمور، وكان منحرفاً عن طاعة المرتضى إلى جملة يعقوب بن عبد الحق، ووفد عليه جماعة من السادة والموحدين والجند والنصارى، وارتاب المرتضى بمسعود بن كانون شيخ سفيان، ويأسماعيل بن قيطون شيخ جابر، فتقبض عليهما واعتقلهما، وصار الكثير من قومه إلى أبي دبوس. وقتل إسماعيل بن قيطون في معتقله، فانتفض أخوه ثائراً ولحق بهم، وحذر علوش بن كانون مثلها على أخيه فاتبعهم، وزحف أبو العلى إلى مراكش. ولما بلغ أغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن بكيت في عساكر حمايتها فناجزه الحرب فانهزم ابن بكيت وقتل عامة أصحابه. وسار أبو دبوس إلى مراكش، وأغار علوش بن كانون على باب الشريعة والناس في صلاة الجمعة، وركز رعيه بمصرعة.

ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس باب والأسوار خالية من الحوأس والحامية فقصده أبو دبوس أغمات فتسور البلد من هنالك ودخلها على حين غفلة. وقصد القصبه فدخلها من باب الطبول وفرّ المرتضى ومعه الوزيران أبو زيد بن يعلو الكومي، وأبو موسى بن عزوز الهشاتي، فلحقوا بهتاتة والفوهم قد بعثوا بطاعتهم فرحل إلى كدمبوة، ومر في طريقه بعلي بن زكدا النوكاسي كان نزع إليه عن قومه، ولم يفد عليه بعد، فنزل به المرتضى ورحل معه علي بن معه إلى كدمبوة، وكان فيها وزيره أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الكريم، فأراد النزول عليه فتمنعه ابن سعد الله، وسار إلى شفشواة، ووجد بها عدداً من الظهر فمناها علي بن زكدا. وكتب إلى ابن وانودين بمعسكره من حاحة. وإلى ابن عطوش بمعسكره من ركركة باللاحاق به فأقلعا إلى الحضرة.

وخطب أبو دبوس علي بن زكدا في رغبته في القدوم عليه، فارتاب المرتضى لذلك ولحق بأزمور فتقبض عليها واليها ابن عطوش. وكان صهره واعتقله، وطير الخبر إلى ابن دبوس، فأمر وزيره السيد أبا موسى أن يكتبه في كشف أماكن الذخيرة، فأجابه بإنكار أن يكون ذخيراً عندهم، والحلف على ذلك. وسألم بالرحم، فعطف أبو دبوس عليه وجنح إلى الإبقاء. وبعث وزيره السيد أبا موسى ومسعود بن كانون في إزعاجه إليه.

ثم بدا له في استحيائه بإشارة بعض السادات، فكتب خطه إلى السيد أبي موسى بقتله، فقتله واستقل أبو دبوس بالأمر، وتلقب الواثق بالله والمعتمد على الله. واستوزر السيد أبا موسى وأخاه السيد أبا زيد، وبذل العطاء ونظر في الولايات ورفع المكوس عن الرعية، وحدث بينه وبين مسعود بن كلداسن وحشة

الخبر عن هسكورة

وأما هسكورة وهم أكثر قبائل المصامدة، وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة. وأما سواهم من بطون كنفيسة فأنفقهم الدولة بما تولوا من مشايعتها، وإبرام عقدتها، فهلك رجالاتهم في إنفاقها سبل الأمم قبلهم في دولهم، وأما هسكورة فكان لهم بين الموحيدين مكان واعتزاز بكثرتهم وغلبهم إلا أنهم كانوا أهل بدو ولم يخالطوهم في ترفهم ولا انغمسوا في نعمهم.

وكان جبلهم الذي أوطنوه من حالة دون القنة منها والذروة. واعتصموا منه بالأفاق القدد واليفاع الأشم والطود الشاقي، قد لس الأنفلاك بيده ونظم النجوم في مفرقه. وتلفع بالحساب في مروطه، وآوى الرياح العواصف الدجوة وألقى إلى خبر السماء بإذنه، وأظل على البحر الأخضر بشماريخه، واستدبر القفر من بلاد السوس بظهوره، وأقام سائر جبال درن في حجره.

ولما انقرض أمر الموحيدين وتغلب بنو مرين على المصامدة أجمع، وساموهم خطة اخفف في وضع الضرائب والمغارم عليهم، فاستكانوا لعزمهم وأعطوهم يد الطواعية، واعتصم هسكورة هؤلاء بمعقلهم واعتزوا فيه بمنعتهم، فلم يغمسوا في خدمتهم يداً، ولا أعطوهم مفاداً، ولا رفعوا بدعوتهم راية، إنما هي منابذة لأمرهم وامتناع عليهم سائر الأيام. فاذا زحفت الحشود وغرست بهم العساكر دافعوهم بطاعة معروفة وأناة غير ملتزمة، ورئيسهم مع ذلك يستخلص جبايتهم لنفسه ويدفعهم في المضايق لحمايته، وربما تحطاهم إلى بعض قبائل الجبل ومن قاربه من أهل بسائط السوس يعسكر بذلك للرجل من قومه هسكورة وكنفيسة، وبالحشد من العرب الموطنين بأرض السوس.

وسفيان وهم بطن الحارث ومن المعقل وهم بطن الشبانات، وكان رئيسهم في ما ذكرنا - بعد انقراض عبد المؤمن بن يوسف، وتحرير لسان الأعجمين - هو عبد الواحد، وكان له في الاستبداد والصرامة ذكر. وهلك سنة ثمانين وستمائة وكان متحلاً للعلم واعية له جماعة لكتبه ودواوينه، حافظاً لفروع الفقه. يقال: إن المدونة كانت من محفوظاته، محباً في الفلسفة مطالعاً لكتبها، حريصاً على نتائجها من علم الكيمياء والسيماياء والسحر والشعوذة، مطلعاً على الشرائع القديمة والكتب المنزلة بكتب التوراة. ويمحالس أجبار اليهود حتى لقد آتهم في عقيدته ورؤي بالريفة عن دينه، ثم ولي من بعده ابنه عبد الله، وكان مقفياً سنن أبيه في ذلك خصوصاً في انتحال السحر والاستشراف إلى صنعة الكيمياء، ولما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أخيه عمر، وسكن فتنة المغرب

ودوخ أقطاره وحل معتصمه بالعساكر وأوطأ ساحاته لكتائب رجاله دون من يمدّه من أعراب السوس من ورائه، بما كان من تغلبه على بلادهم واقتضائه بطاعتهم وإنزال عماله بالعساكر بينهم، فلاذ منه عبد الله السكسيوي بطاعة معروفة رهن فيها ابنه، واشترط للسلطان الهدية والضيافة، فتقبل منه ومنحه جانب الرضى.

ولما كانت نكية السلطان بالقيروان، واضطراب المغرب فتنة وخللا جو البلاد المراكشية من المشايخ اجتمع رأي الملأ من المصامدة على النزول إلى مراكش، وأحكموا عقد الاتفاق بينهم وأجمعوا تخريبها بما كانت داراً للإمرة وللقام الكتاب المجمرة، وزعم عبد الله السكسيوي هذا بإنفاذ ذلك فيها، وضمن هو تخريب المساجد لتجافيه عنها فكانت مذكورة على الأيام. ثم انحل عزمهم وافترت جماعتهم وكلمتهم بما كانت من استقامة الدولة بفاس واجتماع بني مرين على السلطان أبي عنان كما يذكر بعد فانحجر كل منهم بوجاره.

ولما فرغ أبو عنان من شأن أبيه واستولى على المغرب الأوسط وغلب عليه بنو عبد الواد، ولحق أخوه أبو الفضل بن مطرح اغترابه في الأندلس بالطاعة يروم الإجازة إلى المغرب لطلب حقه، فأركبه السفير إلى مراحل السوس فنزل به، ولحق بعبد الله السكسيوي فأواها وظاهر على أمره. فجرد أبو عنان العزائم إليهم وعقد لوزيره فارس بن ميمون بن وادرار على حربهم. واستخرج جيوش المغرب وأناخ بساحته سنة أربع وخمسين وستمائة واختط بسفح الجبل مدينة لحصاره سماها القاهرة. وأخذت بمخفته وزاحت بمناكبها أركان معقله حتى لاوذت للسلم، واشترط أن يئبد العهد إلى أبي الفضل المصري عنده يذهب حيث يشاء فتقبل منه. وعقد له سلماً على عادته وأفرج عنه. وخرج على عبد الله السكسيوي لآيام السلطان أبي سالم ابنه محمد المعروف في لغتهم أيزم ومعناه الأسد، فغلبه على أمره ولحق عبد الله بعامر بن محمد الهتاتي كبير المصامدة لعده، وعامل السلطان عليهم، فاستجاش به ووعد عامر النصر وأمهله عاماً ونصفه حتى وفد على السلطان، واستوهب في ذلك.

ثم أجمع على نصره من عدوه فجمع له الناس وخاطب أهل ولايته أن يكون معه يداً، وزحف عبد الله حتى نزل بالقاهرة وأخذ بمخنت أبيه وأشياعه، ثم داخله بعض بطائته ودله على بعض العورات اقتحم منها الجبل وثاروا بابته أيزم فصاح به عبد الله وقومه. وفر محمد أمامهم فادرك بتلاسم من نواحي الجبل وقتل واسترجع عبد الله ملكه، واستقلت قدمه إلى أن مكر به ابن عمه

جميعاً أهل مغرم واسع وجباية موفورة فيما علمناه، والله الخلق والأمر وهو خير الوارثين.

كان الوائي جهاز حرب أحد أمراء المصامدة، فكان وزيره داخله في ذلك وسائل من ذلك السيد أبا زيد ابن السيد أبي عمران خليفته وأخبره بما سمع، وأمره بالقبض عليه وقتله فأنفذ ذلك. ثم ارتحل إلى السوس لتمهيد، وحسم هلال بن بدر فيه علله وقدم يحيى بن وانودين لاستفتار قبائل السوس من كزولة ولطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم، وسار يتعدى المنازل ويستنفر القبائل وهو بتارودنت فوجدها قفراً خلاء إلا قليلاً من الدور بخارجها، ونزل على حميد بن صهر علي بن بدر وقريبه بمحصن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن بدر وملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياماً وهزم فيها جموعه.

وداخل محمد بن علي بن زكدان في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه، فأعجله الفتح من ذلك ونجا بدمائه إلى بيته، وطولب بالمال وبقي معتقلاً عند ابن زكدان، وامتنع على ابن بدر بمحصنه، ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته فأنصرف الوائي إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنهى إليه فبعث بمرتبته إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطران؟؟ وابن أبي عثمان رسول يغمراسن. وخرج إليهم من مراكش ابن أبي مديون الونكاسي دليلاً وسلك بهم على الثغر إلى سجلماسة، وبها يحيى بن يغمراسن فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه، وألفوه بجهة مليانة فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مرين ونزل بضواحي مراكش، وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبوس بعساكر الموحدين فاستجره يعقوب إلى وادي أعفر. ثم ناجزه الحرب فاختل مصافه وفر عسكره وانهزم يريد مراكش والقوم في اتباعه، فأدرك وقتل ويادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في الحرم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة، وفر بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلمهم بعد أن كانوا بايعوا عبد الحق أحد بني أبي دبوس وسموه المعتصم مدة من خمسة أيام وخرج في جملتهم وانقرض أمر بني عبد المؤمن والبقاء لله وحده اهـ.

يحيى بن سليمان حين بلغ استبداد الوزير عمر بن عبد الله على سلطان المغرب واستبداد عامر بن محمد بولاية مراكش، وثار منه يحيى هذا بأبيه سليمان وهو عم عبد الله، كان قتله أيام إمارته الأولى وأقام مملكاً على سكيوة إلى سني خمس وسبعين وستمائة، فثار عليه أبو بكر بن عمر بن خرو فقتله بأخيه عبد الله، واستقل بأمر سكيوة ومن إليهم. ثم خرج عليهم لأعوام من استقلاله ابن عم له من أهل بيته لم يقتل لي من تعريفه إلا أن اسمه عبد الرحمن، لأن ثورته كانت بعد رحلتي الثانية من المغرب سنة ست وسبعين وستمائة، فأخبرني الثقة بأمره وأنه ظفر بأبي بكر بن عمر وقتله. واستبد بأمر الجبل إلى هذا العهد فيما زعم وهو سنة تسع وسبعين وستمائة، ثم بلغني سنة ثمان وثمانين وستمائة أن عبد الرحمن هذا ويعرف بأبي زيد بن مخلوف بن عمر أجليد قتله يحيى بن عبد الله بن عمر، واستبد بأمر هذا الجبل وهو الآن مالكة، وهو أخو أيزم بن عبد الله، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بقية قبائل المصامدة

وأما بقية قبائل المصامدة من سوى هؤلاء السبع مثل هيلانة وحاجة ودكاكة وغيرهم ممن أوطن هضاب الجبل أو ساحته فهم أمم لا تنحصر. ودكاكة منهم في ساحة الجبل من جانب الجوف مما يلي مراكش إلى البحر من جانب الغرب. وهناك رباط آسفي المعروف ببني مكر من بطونهم وبين الناس اختلاف في انتسابهم في المصامدة أو صنهاجة، وتجاورهم من جانب المغرب في بسيط ينقطع ما بين ساحل البحر وجبل درن في بسيط هناك يفضي إلى السوس، يعمره من حاجة هؤلاء خلق أكثرهم في خمر الشعراء من الشجر المعروف بأرجان، يتحصنون بملثتها وأدواحيها ويعتصرون الزيت لأدامهم من ثمارها، وهو زيت شريف طيب اللون والرائحة والطعم يبعث منه العمال إلى دار الملك في هداياهم فيطوفون به.

وبآخر مواطنهم مما يلي أرض السوس وفي القبلة عن جبل درن بلدة دنست وبها معظم هذه الشعراء يتزها رؤساؤهم، ورئاستهم في بطن منهم يعرفون بمغراوة وكان شيخهم لعهد السلطان أبي عنان إبراهيم بن حسين بن حماد بن حسين، وبعده ابنه محمد بن إبراهيم بن حسين، وبعده ابن عمهم خالد بن عيسى بن حماد، واستمرت رئاسته عليهم إلى أعوام ست وسبعين وستمائة أيام استيلاء السلطان عبد الرحمن بن بطومن على مراكش، فقتله شيخ بني مرين علي بن عمر الورتاجي من بني ويغلان منهم وما أدري لمن صارت رئاستهم من بعده، وهم دكاكة

الخبر عن بقايا قبائل الموحدين من المصامدة بجبال درن بعد انقراض دولتهم بمراكش وتصارييف أحوالهم لهذا العهد

والاشتغال عليه والقيام بأمره حتى تحيز إليهم وبني داره ومسجده بينهم، فكان يعطيهم من الفياء بقدر عظمهم من الابتلاء، وأبعدوا في ممالك الدولة وعمالاتها فانقرض رجالاتهم، وملك غيرهم من المصامدة أمرهم عليهم، وقبر الإمام بينهم بهذا العهد على حاله من التجارة والتعظيم وقراءة القرآن عليه أحزاباً بالغدو والعشي، وتعاوده بالزيارة وقيام الحجاب دون الزائرين من الغرباء لتسهيل الإذن، واستشعار الأبهة وتقديم الصدقات بين يدي زناتة على الرسم المعروف في احتفال الدولة، وهم مصممون مع ذلك وكافة المصامدة أن الأمر سيعود وأن الدولة ستظهر على أهل المشرق والمغرب وغلاً الأرض كما وعدهم المهدي، لا يشكون في ذلك ولا يستربون فيه.

هتاتة

وأما هتاتة وهم تلو القيلتين في الأمر، وكل من بعدهم فلما جاء على أثرهم وتبعاً لهم، بما كانوا عليه من الكثرة والبأس، ومكان شيخهم أبي حفص عمر بن يحيى من صحابة الإمام والاعتزاز على المصامدة. وكانت لهم بإفريقية دولة كما نذكره، فأنفقت الدولتان منهم عوالم في سبيل الاستظهار بهم، وبقي بموطنهم المعروف بهم من جبال درن، وهو الجبل المتاخم لمراكش على توسط من الاستبداد والخضوع وهم في قومهم مكان بامتناع معقلهم وإطلاله على مراكش. ولما تغلب بنو مرين على المصامدة، وقطعوا عنهم أسباب الدعوة كان لرؤسائهم أولاد يونس غياش إليهم بما كانوا مسخوطين في آخر دولة بني عبد المؤمن، فاختصرهم بالأثرة والمخالصة.

وكان علي بن محمد كبيرهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق خالصة له من بين قومه. وهلك سنة سبعين وستمائة على يد ابن الملياني الكاتب بكتاب لبس فيه، وأنفذه على السلطان لابنه أمير مراكش فقتل رهط من مشيخة المصامدة في اعتقاله، كان منهم: علي بن محمد فقام السلطان لها في ركايته، وتدم على ما فرط من أمره في إفلات ابن الملياني على ما نذكره من أمر هذه الواقعة في أخبار السلطان يوسف بن يعقوب. ولما ولي السلطان أبو سعيد وانقطع عن المصامدة ما كان لهم من أثر الملك والسلطان، واتقادوا للدولة رجع بنو مرين إلى التولية عليهم من رجالاتهم، وتداولوا بينهم في ذلك واختار السلطان بعد صدر من دولته موسى بن علي بن محمد للولاية على المصامدة وجبايتهم، ففقد له وأنزله مراكش فاضطلع بهذه الولاية سنين

لما دعا المهدي إلى أمره في قومه من المصامدة بجبال درن وكان أصل دعوته نفي التجسيم الذي آل إليه مذهب أهل المغرب باعتمادهم ترك التأويل في التشابه من الشريعة، وصرح بتكفير من أبى ذلك أخذاً بمذهب التكفير بالمثل فسمي لذلك دعوته بدعوة التوحيد، وأتباعه بالموحدين نعيّاً على المثلثين مثال مذاهبهم إلى اعتقاد الجسمية، وخص بالزنية من دخل في دعوته قبل تمكنها، وجعل علامة تمكنها فتح مراكش، فكان إنما اختص بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح، وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراكش ثمانين قبائل سبعة من المصامدة: هرغة وهم قبيلة الإمام المهدي وهتاتة وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الإجارة والحماية، وكنفيسة وهزرجة وكذميرة ووريكة.

وثمانية قبائل الموحدين: كومية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته، دخلوا في دعوته قبل الفتح فكانت لهم الزنية بسابقة عبد المؤمن وسابقتهم فاخصت هؤلاء القبائل بمزية هذه السابقة واسمها. وقاموا بالأمر وحلوا سريره وأنفقوا في مذاهبه وممالكه في سائر الأقطار على نسبة قريبهم من صاحب الأمر وبعدهم. وبقي من بقي منهم بجبالهم ومعقلهم بقية ختوف. وجرت عليهم ذيل زناتة من بعد الملك أذبال الغلب والقهر حتى أبقوهم بالأنوات، وانتظموا في عداد الغارمين من الرعايا، وصاروا يولون عليهم من زناتة تارة ومن رجالاتهم أخرى، وفي ذلك عبرة وذكرى لأولي الألباب، والملك لله يؤتية من يشاء.

هرغة

فأما هرغة وهم قبيل الإمام المهدي قد دثروا وتلاشوا وانتفقوا في القافية من كل وجه لما كانوا أشد القوم بلاء في القيام بالدعوة، وأصلاهم لنارها بقرائتهم من صاحبها وتعصبهم على أمره. ولم يبق منهم إلا أخلاط وأوشاب أمرهم إلى غيرهم من رجالات المصامدة لا يملكون عليهم منه شيئاً.

تينملل

وكذا تينملل إخوتهم في التعصب على دعوة المهدي

ورسخت فيها قدمه، وأورثها أهل بيته، وصار لهم بها في الدولة مكان انتظموا له في الولاية، وترشحوا للوزارة.

ولما هلك موسى عقد السلطان من بعده لأخيه محمد، وأجراه على سنته إلى أن هلك فاستعمل السلطان بنيه في وجوه خدمته، وعقد لعامر منهم على قومه. ولما ارتحل السلطان أبو الحسن إلى إفريقية صحبه عامر فيمن صحبه من أمراء المصامدة وكافة الوجوه، حتى إذا كانت نكة القيروان سنة تسع وأربعين وسبعمئة عقد له على الشرطة بتونس على رسم الموحدين من تنويه الخطة وسعة الرزق. واستنتم إليه فيها فكفاه مهمها، ولما فصل من تونس ركب الكثير من حرمه وحظاياه السفن لنظر عامر هذا، حتى إذا غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بما أصابهم من عاصف الريح رمى الموج بالسفينة التي كانوا بها إلى المرية من ثغور الأندلس، فأنزل بها كرائم السلطان لنظره وبعث عنهن ابنه أبو عنان المستبد على أبيه بملك المغرب، فامتنع من إسلامهن إليه وفاء بأمانته في خدمتهم.

وخلص السلطان أبو الحسن بعد النكة البحرية إلى الجزائر سنة خمسين وسبعمئة وزحف إلى بني عبد الواد فقلّوه ونهض إلى المغرب، وسلك إليه القفر حتى نزل سجلماسة فقصده أبو عنان فخرج منها إلى مراكش وقام بدعوته المصامدة وعرب جشم، فاحتشد، ولقي ابنه أبا عنان بجهات أم ربيع فكانت الدبرة عليه، ونجا إلى جبل هنتاة. وكان عبد العزيز بن محمد شيخاً عليهم منذ مغيب عامر، وكان في جلته، وخلص معه فأنزله عبد العزيز بداره، وتآمر هو وقومه على إجارته والموت دونه فاعتصم بمعقلهم. وجاء السلطان أبو عنان في كافة بني مريـن إلى مراكش فخيـم بظاهرها واحتشد لحصارهم أشهراً حتى هلك السلطان أبو الحسن كما نذكره بعد، فحملوه على الأعواد ونزلوا على حكم أبي عنان فأكرمهم ورعى لهم وسيلة هذا الوفاء، وعقد لعبد العزيز على إمارته، واستقدم عامراً كبيرهم من مكانه بالمرية، فقام بهن لأمانته من حظايا السلطان وحرمه فلقاه السلطان مبرّة وتكريماً، وأتاله من اعتناؤه حظاً.

وتخلّى له أخوه عبد العزيز عن الأمر فأقره نائباً. ثم عقد السلطان لعامر سنة أربع وخمسين وسبعمئة على سائر المصامدة واستعمله لجبايتهم فقام بها مضطجعاً، وكفاه مُهمّ الأعمال المراكشية حتى عرف عنه فيها وشكر له كفايته. وهلك السلطان أبو عنان واستبد على ابنه السعيد ووزيره الحسن بن عمر المودودي. وكان يفس عليه ما كان له من الترشيع للرتبة، وبيتهما في ذلك شحنة، فخشى بادرته وخرج من مراكش، إلى معقله في

جبل هنتاة، وحمل معه ابن السلطان أبي عنان الملقب بالمتعمد. وكان أبوه عقد له يافعاً قبيل وفاته على مراكش لنظر عامر فخلص به إلى الجبل، حتى إذا استوت قدم السلطان أبي سالم في الأمر واستقل بملك المغرب سنة ستين وسبعمئة وفد عليه عامر بن محمد مع رسله إليه، وأوفد ابن أخيه محمد المتعمد فتقبل السلطان وفادته، وشكر وفاءه، وأقام ببابه مدة. ثم عقد له على قومه، ثم استنفره معه إلى تلمسان، ولم يزل مقيماً ببابه إلى قبيل وفاته فأنفذه لكان إمارته.

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد بالمغرب بعده عمر بن عبد الله بن علي على ما نذكره، وكانت بينه وبين عامر بيباب السلطان صداقة وملاطفة، وصل يده بيده، وأكد العهد معه على سد تلك الفرجة، وعول عليه في حوط البلاد المراكشية وأن لا يؤتى من قبله، وكان زعيماً بذلك. وعقد له على الأعمال المراكشية وما إليها إلى وادي أم ربيع. وفوض إليه أمر تلك الناحية، واقتسما المغرب شق الأبلمة وخلص إليه الأعياص من ولد السلطان أبي سعيد أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم، وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي، فاعتقل عبد المؤمن وأمكن أبا الفضل من إمارته على ما نذكر بعد.

وساءت الحال بينه وبين عمر ونهض إليه من فاس بمجموع بني مريـن وكافة العساكر، واعتصم بجبله وقومه واستبد على الأمر من بعده. ووصل عبد المؤمن من معقله بجاجي به بنو مريـن لما كانوا يؤملون من ولايته واستبداده لما أسفهم من حجر الوزراء للوكهم. فلما رأوا استبداد عامر عليه أعرضوا عنه، وانعقد السلم بينه وبين عمر بن عبد الله على ما كان عليه من مقاسمته إياه في أعمال المغرب، ورجع واستقل عامر بناحية مراكش وأعمالها، حتى إذ هلك عمر بن عبد الله بيد عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن كما نذكره، حدثت أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه بالفتك بعامر بن محمد كما فتك عمه بعمبر بن عبد الله. ونذر بذلك فاحتمل كرائمه وصعد إلى داره بالجبل، فتك أبا الفضل بعبد المؤمن ابن عمه لأنه كان معتقلاً بمراكش. واستحكمت لذلك السقرة بينه وبين عامر بن محمد. وبعث إلى السلطان عبد العزيز فنهض من فاس في جموعه سنة تسع وستين وسبعمئة.

وفر أبو الفضل فلاحق بتادلاً، وتقبض عليه عمه السلطان عبد العزيز وقتله كما نذكر في أخباره. وطلب عامراً في الوفاة فخشيه على نفسه، واعتصم بمعقله فرجع إلى حضرته، واستجمع عزائمه. وعقد على مراكش وأعمالها لعلي بن أجانا من صنائع دولتهم، وأوعز إليه بمنازلة عامر فدافعه عامر وقومه عن معتصمه،

لذلك وأفلت ابن الملياني من معسكره لحصار تلمسان فدخلها. ثم قام بأمر كدميو عبد الحق بن ... من بيت بني سعد الله أيام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، وكانت بينه وبين عامر بن محمد فتنة جرها منصب العمالة، شأن المجتورين من القبائل، وقديم العداوة بين السلف. فلما استفحل أمر عامر بالولاية على مراكش وسائر المصامدة، نبذ إلى عبد الحق العهد ونحلة الخلاف والمداخلة للسكسوي شيخ الفتنة المستعصي منذ أول الدولة، فصمد إليه سنة سبع وخمسين وسبعماية في قومه ومشايخ السلطان التي كانت بمراكش لنظره فاقترح عليه مقله عشرة وقتله. واستولى على كدميو ولحق بنو سعد الله بفاس، فأقاموا بها حتى إذا خاض السلطان أبو سالم البحر إلى ملكه بعد أخيه أبي عنان ونزل بغمارة، نزل إليه يوسف بن سعد الله واعتقد منه ذمة بسابقتها تلك. فلما استولى على البلد الجديد واستقل سلطانه، عقد له على قومه رعيًا لوسيلته، فأقام في ولايته مدة السلطان أبي سالم. وكان عامل مراكش محمد بن أبي العلى من حاشية السلطان ويورت الولاة بالمغرب معولاً فيها على مظاهرتهم.

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد عمر بن عبد الله على الملوك بعده، بادر حين ثورته بالمقد لعامر على أعمال ليستظهر به، وطير إليه الكتاب بذلك، فنزل إلى مراكش وقتل بها يوسف بن سعد الله، ونكت ابن أبي العلى، ثم قتله وأحقه بأبي عبد الحق، وذهبت الرئاسة من كدميو برهة من الدهر، ثم رجعت إليه في بني سعد الله، والله تعالى قادر على ما يشاء، ويبدع تصارييف الأمور.

وريكة

وأما وريكة فهم مجاورون لهتانة، وبينهم فتنة قديمة وحروب متصلة ودماء مطلولة، كانت بينهم سجلاً، وهلك فيها من الفريقين أمم إلى أن غلبهم هتانة باعزازهم بالولاية، فخذلوا منهم الشوكة وأصاروهم في الجملة، والله وارث الأرض ومن عليها.

وأوقع به وتقبض على طائفة من بني مريين وصنائع السلطان في المعركة أودعهم سجنه، فحرك بها عزائم السلطان، ونهض إليه في قومه من بني مريين وعساكر المغرب وأحاط به ونازله حولاً كريئاً.

ثم تغلب عليه سنة إحدى وسبعين وسبعماية، وانقضت جموعه. وتقبض عليه عند اقتحام الجبل فسيق أسيراً إلى السلطان فقيده، وقتل به إلى الحضرة. ولما قضى نسك الفطر من سته أحضره ووجّهه. ثم أمر به قتل إلى مصرعه، وأثنى جلدًا بالسياط وضرباً بالمقارع حتى فاض عفا الله عنه. وعقد السلطان على قومه لفارس ابن أخيه عبد العزيز، كان نزع إليه بين يدي مهلك عمه، وعفا عن ابنه أبي يحيى بسابقتها إلى الطاعة قبيل اقتحام الجبل عليهم، أشار عليه بذلك أبوه نظراً له فظفر بالسلامة والحظ، وأصاره السلطان في جملة.

ثم هلك بعد ذلك فارس بن عبد العزيز، واضطرم المغرب فتنة بعد مهلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعماية، وصارت أعمال مراكش في إيالة السلطان عبد الرحمن بن علي الملقب بأبي فلولس بن ابن السلطان أبي علي. ونزع إليه أبو يحيى بن عامر فعقد له على قومه، ثم اتهمه باحتجاز الأموال منذ عهد أبيه وشره إلى استصفائه، ونذر به ابن عامر فلحق ببعض قبائل المصامدة جيرانهم بأطراف السوس، ونزل عليهم. وكان مهلكه فيهم أعرام ثمانين وسبعماية، والله وارث الأرض ومن عليها.

كدميو

وأما كدميو وكانوا تبعاً لهتانة وتتمل في الأمر، وجلبهم لصق جبل هتانة، وكان رؤساءهم لعهد الموحدين بنو سعد الله. ولما تغلب بنو مريين على المصامدة ووضعوا عليهم الضرائب وامتنع يحيى بن سعد الله بعض الشيء بحصن تافرجا وتيسخت من جلبهم وخالفه عبد الكريم بن عيسى وقومه إلى طاعة بني مريين، واختلفت إليهم العساكر إلى أن هلك يحيى بن سعد الله سنة أربع وتسعين وستمانية، وعساكر يوسف بن يعقوب مجهزة على حصاره، فهدموا حصونه، وأذلوا من قومه. استخلص السلطان يوسف بن يعقوب عبد الكريم بن عيسى منذ عهد أبيه فعقد له عليهم. ثم تقبض على أمراء المصامدة واعتقله فيمن اعتقل منهم، حتى إذا فعل ابن الملياني فعلته في استهلاكهم لعداوة عمه بتلبس الكتاب على لسان السلطان لابنه على أمير مراكش، فقتل عبد الكريم فيمن قتل منهم، وقتل معه بنوه عيسى وعلي ومنصور، وابن أخيه عبد العزيز بن محمد. وامتنع السلطان

الخبر عن بني يدر أمراء السوس من الموحدين بعد انقراض بني عبد المؤمن وتصاريف أحوالهم

كان أبو محمد بن يونس من جملة وزراء الموحدين من هتاتة، وكان المرتضى قد استوزره ثم سخطه، وعزله سنة خمسين وستمائة والأزمه داره بتامصلحت، وفر عنه قومه وحاشيته وقرابته. وكان من أهل قرابته علي بن يدر من بني باداس ففر إلى السوس وجاهر بالخلاف سنة إحدى وخمسين وستمائة ونزل بمحصن تانصايت بسفح الجبل حيث يدفع وادي السوس من درن، وشيده وحصنه وتغلب على حصن تيسخت من أيدي صنهاجة وشيده، وأنزل فيه ابن عمه محمد بن يدر. ثم تغلب على بسيط السوس، وجأجأ ببني حسان من أعراب المعقل من مواطنهم بنواحي ملوية إلى بلاد الريف، فارتحلوا إليه وعاث بهم في نواحي السوس، وأطاع له كثير من قبائله فاستوفى جبايتهم. وأجلب على عامل الموحدين بتارودنت وضيق عليه المسالك، وتفاقم أمره. واتهم الوزير أبو محمد بن يونس بمدخلته وعثر على كتابه إلى علي بن يدر فأمر المرتضى باعتقاله وقتله سنة اثنتين وخمسين وستمائة، وأغزى أبا محمد بن أصناك إلى بلاد السوس في عسكر الموحدين والجند، وعقد له عليها فنزل تارودنت وتحصن علي بن يدر في تيونودين. وزحف إليه ابن أصناك في عسكره فهزمه ابن يدر وقتل كثيراً منهم، ورجع إلى مراكش مفلولاً. وأقام علي بن يدر على حاله من الخلاف، وأغزاه المرتضى محمد بن علي أزملاط في عسكر من الموحدين سنة ستين وستمائة فهزمهم، وقتل ابن أزملاط فعقد المرتضى من بعده على السوس لوزيره أبي زيد بن بكيت فزحف إليه ودارت الحرب بينهما ملياً، وانقلب من غير ظفر، واستفحل ابن يدر ببلاد السوس واستخدم الأعراب من بني الشبانات وذوي حسان. وأطاعته القبائل من كزولة ولطة وزكن ولخس من شعوب لطة وصناكة. وجبى الأموال واستخدم الرجال، يقال: كان جنده ألف فارس، وكان بينه وبين كزولة فتن وحروب يستظهر في أكثرها بذوي حسان.

ولما استولى أبو دبوس على مراكش سنة خمس ومئتين وستمائة وفرغ من تهديد ملكه بها، اعترم على الحركة إلى السوس، ورحل من مراكش، وقدم بين يديه يحيى بن وانودين لاحتشاد القبائل ومزج الجبل ثم أسهل من تامسكروط إلى بسيط السوس،

ونزل على بني باداس وقبيلة ابن يدر على فرسخين من تيونوين. وقصد تيزخت ومزج بتارودنت وعين آثار الخراب الذي بها من عيث ابن يدر، ولما بلغ حصن تيزخت خيم بساحته وحشد أمماً من القبائل لحصاره، وكان به حمدين ابن عم علي بن يدر فحاصره أياماً. ولما اشتد عليه الحصار داخل علي بن زكداز من مشيخة بني مرين، كان في جملة أبي دبوس فدخله في الطاعة، وتقبل السلطان طاعته على الزول عن حصنه.

ثم أعجلته الحرب واقتحم عليهم الجبل ولجوا إلى الحصن وفر حمدين إلى بيت علي بن زكداز فأمره السلطان باعتقاله. واستولى السلطان على الحصن، وأنزل به بعض السادة لولايته. وارتحل أبو دبوس إلى محاصرة علي بن يدر فحاصره أياماً، ونصب عليه الجانيق. ولما اشتد عليه الحصار رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة، فقتل وألق السلطان عن حصاره، وقفل إلى حضرته. ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد علي بن يدر وتملك سوس واستولى على تارودنت وإيفري وسائر أمصاره وقواعده ومعاقله، وأرهف حده للأعراب فزحفوا إليه. وكانت عليه الدبرة، وقتل سنة ثمان وستين وستمائة وقام بأمره علي ابن أخيه عبد الرحمن بن الحسن مدة، ثم هلك وقام بأمرهم أخوه علي بن الحسن بن يدر. ولما صار أبو علي ابن السلطان أبي سعيد إلى ملك سجلماسة يصلح عقده مع أبيه كما نذكر في أخبارهم، فزها وشيد ملكه بها، واستخدم كافة عرب المعقل فرغبه في ملك السوس وأطمعوه في أموال ابن يدر فغزاه من سجلماسة، وفر ابن يدر أمامه إلى جبال نكية. واستولى السلطان أبو علي على حصنه تانصايت وسائر أمصار السوس، واستصفي ذخيره وأمواله، ورجع إلى سجلماسة.

ثم استولى السلطان أبو الحسن من بعد ذلك عليه وانقرض ملك بني يدر. ولحق به عبد الرحمن بن علي بن الحسن، وصار في جملة. وأنزل السلطان بأرض السوس مسعود بن إبراهيم بن عيسى البريناني من طبقة وزرائه، وعقد له على تلك العمالة إلى أن هلك، وعقد لأخيه حسون من بعده إلى أن كانت نكبة القبروان. وهلك حسون وانقض العسكر من هنالك، وتغلب عليه العرب من بني حسان والشبانات، ووضعوا على قبائله الأنابات والضرائب. ولما استبد أبو عنان بملك المغرب من بعد أبيه أغزى عساكره السوس لنظر وزيره فارس بن ودرار سنة ست وخمسين وستمائة فملكه واستخدم القبائل والعرب من أهله، ورتب المشايخ بأمصاره، وقفل إلى مكان وزارته، فانفضت المسال

ولحقت به.

ووريكة وهزميرة، وركراكة وحاحة وبني ماغوس وكلاوة، وغيرهم ممن لا يحصى. وكان منهم قبل الإسلام وبعده رؤساء وملوك. وهتاتة هؤلاء من أعظم قبائلهم وأكثرها جمعاً وأشدها قوة، وهم السابقون للقيام بدعوة المهدي والمهدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده، كما ذكرناه في أخباره. واسم هتات جد هم بلسان المصامدة بنّي وكان كبيرهم لعهد الإمام المهدي الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى، ونقل البيهقي أن اسمه بلسانهم فاصكات.

وهتاتة لهذا العهد تقول إنه اسم جده، وكان عظيماً فيهم متبوع غير مدافع، وهو أول من بايع الإمام المهدي من قومه، فجاع يوسف بن وانودين وأبو يحيى بن بكيت وابن يغمور وغيرهم منهم على أثره. واختص بصحابة المهدي فانظم في العشرة السابقين إلى دعوته. وكان تلو عبد المؤمن فيهم، ولم تكن مزية عبد المؤمن عليه إلا من حيث صحابة المهدي.

وأما في المصامدة فكان كبيرهم غير مدافع، وكان يسمى بين الموحيدين بالشيخ كما كان المهدي يسمى بالإمام، وعبد المؤمن بالخليفة، سمات هؤلاء الثلاثة من بين أهل الدعوة تدل على اشتراكهم في الخلافة، وأما نسبه فهو: عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن وال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن واقتن بن محمد ابن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، هكذا نسبه ابن نخل وغيره من الموحيدين. ويظهر منه أن هذا النسب القرشي وقع في المصامدة والتحم بهم، واشتملت عليه عصبيتهم شأن الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم بهم كما قلناه أول الكتاب.

ولما هلك الإمام وعهد بأمره إلى عبد المؤمن، وكان بعيداً عن عصبية المصامدة إلا ما كان له من أثره المهدي واختصاصه فكنتم موت المهدي وعهد عبد المؤمن ابتلاء لطاعة المصامدة. وتوقف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين، ثم قال له أبو حفص: تقدمك كما كان الإمام يقدمك فلعلم أن أمره منعقد. ثم أعلن بيعته وأمضى عهد الإمام بتقديعه وحمل المصامدة على طاعته، فلم يختلف عليه اثنان. وكان الحل والعقد في المهمات إليه سائر أيام عبد المؤمن وابنه يوسف، واستكفوا به نواب الدعوة فكفاهم همها. وكان عبد المؤمن يقدمه في المواقف قبلها. وبعثه على مقدمته حين زحف إلى المغرب الأوسط قبل فتح مراكش سنة سبع وثلاثين وخمسائة وزناة كلهم مجتمعون بمنداس لحرب الموحيدين مثل: بني ومانوا وبني عبد الراد وبني ورسيفان وبني توجين وغيرهم، فحمل زناتة على الدعوة بعد أن أئخن فيهم. ولأول

وبقي عمل السوس ضاحياً من ظل الملك لهذا العهد، وهو وطن كبير في مثل عرض البلاد الجريدية وهوائها المتصلة من لدن البحر المحيط إلى نيل مصر الهابط من وراء خط الاستواء في القبلة إلى الإسكندرية. وهذا الوطن قبلة جبال درن ذو عمائر وقرى ومزارع وفدن وأمصار وجبال وحصون، يخترقه وادي السوس ينصب من باطن الجبل إلى ما بين كلاوة وسكسيوة، ويدفع إلى بسيطه، ثم يمر مغرباً إلى أن ينصب في البحر المحيط والعمائر متصلة حفا في هذا الوادي ذات الفدن والمزارع، وأهلها يتخذون فيها قصب السكر. وعند مصب هذا الوادي من الجبل في البسيط مدينة تارودنت وبين مصب هذا الوادي في البحر ومصب وادي ماسة مرحلتان إلى ناحية الجنوب على ساحل البحر، وهنالك رباط ماسة الشهير المعروف بتردد الأولياء وعبادتهم. وتزعم العامة أن خروج الفاطمي منه.

ومنه أيضاً إلى زوايا أولاد بو نعمان مرحلتان في الجنوب كذلك على ساحل البحر، وبعدها على مراحل مصب الساقية الحمراء وهي منتهى مجالات المعقل في مشايهت وفي رأس وادي السوس جبل زكندر قبلة جبل الكلاوي، وفي قبلة جبال درن جبال نكيسة تنتهي إلى جبال درعة ويعرف الآخر منها في الشرق بابن حيددي، ويصب من جبال نكيسة وادي نول ويمر مغرباً إلى أن يصب في البحر. وعلى هذا الوادي بلد تاكاوشت محط الرقاق والبضائع بالقبلة، وبها سوق في يوم واحد في السنة يقصده التجار من الآفاق، وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان. وبلد إفري بسفح جبال نكيسة بينها وبين تاكاوشت مرحلتان، وأرض السوس مجالات لكزولة ولطة، فلمطة منهم مما يلي درن وكزولة مما يلي الرمل والقفز. ولما تغلب المعقل على بسائطه اقتسموها مواطن، فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن، وصارت قبائل لمطة من أحلافهم، وصارت كزولة من أحلاف ذوي حسان. والأمر على ذلك لهذا العهد، ويبد الله تصاريح الأمور.

الخبر عن دولة بني أبي حفص ملوك أفريقية

من الموحيدين ومبدأ أمرهم وتصاريح

أحوالهم

قد قدمنا أن قبائل المصامدة بجبل درن وما حوله كثير مثل: هتاتة وتينملل وهرغة، وكنيفيسة وسكسيوة وكدميوة، وهزوجة

وكان في مقدمته يوم المعركة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فجلس عن المسلمين، وكان له في ذلك الموقف من النصرة والثبات ما طار له به ذكر. واستشهد في ذلك الموقف، وعرف أعقابهم ببني الشهيد آخر الدهر، وهم لهذا العهد بتونس.

ولما نهض الناصر إلى إفريقية سنة إحدى وستمئة، لما بلغه من تغلب ابن غانية على تونس فاسترجعها، ثم نازل المهدي فعاونت عليه ذئاب الأعراب. وجمعهم ابن غانية ونزل قابس فسرح الناصر إليهم أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص في عسكر من الموحدين، فأوقع بآبن غانية بتاجرا من نواحي قابس سنة اثنتين وستمئة، وقتل جبارة آخر ابن غانية، وأثنى فيهم قتلاً وسيباً، واستنقذ منهم السيد أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الوالي كان بتونس، وأسره ابن غانية ورجع إلى الناصر بمكانه من حصار المهدي. فكان سبياً في فتحها. وكان ذلك مما حمل الناصر على ولاية الشيخ أبي محمد بأفريقية حسبما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن إمارة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بأفريقية وهي أولية أمرهم بها

لما تكالب ابن غانية وأتباعه على إفريقية واستولى على أمصارها، وحاصر تونس وملكها، وأسر السيد أبا زيد أميرها، ونهض الناصر من المغرب سنة إحدى وستمئة كما ذكرناه فاسترجعها من أيديهم وشردهم عن نواحيها، وحيّم على المهدي محاصرها، وقد أنزل ابن غانية ذخيره وولده بها وأجلب في جموعه خلال ذلك على قابس، فسرح الناصر إليه الشيخ أبا محمد هذا في عساكر الموحدين. وزحف إليهم بتاجرا من جهات قابس فهزمهم واستولى على معسكرهم وما كان بأيديهم، وأثنى فيهم بالقتل والسبي واستنقذ السيد أبا زيد من أسرهم، ورجع إلى الناصر بعسكره من حصار المهدي ظافراً ظاهراً. وعابن أهل المهدي يوم مقدمه بالغنائم والأسرى فبهتوا وسقط في أيديهم، وسألوا النزول على الأمان. وكمل فتح المهدي ورجع الناصر إلى تونس فأقام بها حولاً إلى منتصف سنة ثلاث وستمئة. وسرح أثناء ذلك أخاه السيد أبا إسحاق ليتبع المفسدين، ويحو مواقع عيهم، فدوخ ما وراء طرابلس، وأثنى في بني دمر ومطماطة ونفوسة، وشارف أرض سرت وبرقة، وانتهى إلى سوقة ابن مذكور. وفرّ ابن غانية إلى صحراء برقة وانقطع خبره. وانكفأ السيد راجعاً إلى تونس. واعتزم الناصر على الرحلة إلى المغرب وقد أفاء على إفريقية ظل

دخول عبد المؤمن لمراكش خرج عليه الناصر بماسة، وانصرفت إليه وجود الغوغاء وانتشرت ضلالته في النواحي وتفاقم أمره، فدفع لحربه الشيخ أبا حفص فحسم داءه ومحا أثر غوايته.

ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى إفريقية حركته الأولى لم يقدّم شيئاً على استشارة أبي حفص. ولما رجع منها وعهد إلى ابنه محمد خالفه الموحدون، ونكروا ولاية ابنه، فاستدعى أبا حفص من مكانه بالأندلس، وحمل الموحدين على البيعة له. وأشار بقتل يصلاتي المرغري رأس المخالفين في شأنه فقتله، وتم أمر العهد لابنه محمد. ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى إفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة حركته الثانية لفتح المهدي استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب، وينقل من وصاة عبد المؤمن على الرحلة إلى إفريقية لئنه أنه لم يبق من أصحاب الإمام إلا عمر بن يحيى ويوسف بن سليمان، فأما عمر فإنه من أوليائكم، وأما يوسف فجهزه بعسكرة إلى الأندلس تستريح منه. وكذلك فافعل بكل من تكرهه من المصامدة. وأما ابن مردنيش فاتركه ما تركك وترى به رب المتنون، وأخل إفريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب، وأذخرهم لحرب ابن مردنيش إن احتجت إلى ذلك.

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن تخلف الشيخ أبو حفص عن بيعته، ووجم الموحدون لتخلفه حتى استتب غرضه في حكم أمضاء بمقعد سلطانه، وأعجب بفضلله فأعطاه صفقة يمينه، وأعلن بالرضا بخلافته فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر، وتسمى لها بأمير المؤمنين سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن وتحركت الفتنة بجال غمارة وصنهاجة التي تولى كبرها سبع بن مغفاد سنة اثنتين وستين وخمسمائة عقد للشيخ أبي حفص على حربهم فجلى في ذلك. ثم خرج بنفسه فأثنى فيهم وكمل الفتح كما ذكرناه. ولما بلغه سنة أربع وستين وخمسمائة تكالب الطاغية على الأندلس وغدره بمدينة بطليوس، واعتزم على الإجازة لحمايتها قدم عساكر الموحدين إليها لنظر الشيخ أبي حفص، ونزل قرطبة وأمر من كان بالأندلس من السادة أن يرجعوا إلى رأيهم، فاستنقذ بطليوس من هذا الحصار، وكانت له في الجهاد هنالك مقامات مذكورة.

ولما انصرف من قرطبة إلى الحضرة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة هلك عفا الله عنه في طريقه بسلا ودفن بها، وكان أبناؤه من بعده يتداولون الإمارة بالأندلس والمغرب وإفريقية مع السادة من بني عبد المؤمن، فولى المنصور ابنه سعيد على إفريقية لأول ولايته، وكان من خبره مع عبد الكريم المنتزي بالمهدي ما ذكرناه في أخباره. واستوزر أبا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد،

ليقصدن بلاد زناتة بنواحي تلمسان، وقارن ذلك وصول الشيخ أبي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن والياً عليها من مراكش، وخروجه إلى بلاد زناتة لتمهيد أمخاتهم وجباية مغارمهم. وكتب إليه الشيخ أبو محمد نذيراً بشأنه، وأن لا يتعرض له وأنه في أتباعه فأبى من ذلك، وارتحل إلى تاهرت وصحبه بها ابن غانية فانفض معسكره. وفرت زناتة إلى حصن بها، وقتل السيد أبو عمران. واستيحت تاهرت، فكان آخر العهد بعمرانها، وامتلات أيديهم من الغنائم والسبي، وانقلبوا إلى إفريقية فاعترضهم الشيخ أبو محمد في موضع فأوقع بهم واستنقذ الأسرى من أيديهم، واكتسح سائر مغامتهم، وقتل فيها كثير من المثلثين ولحق فلهم بناحية طرابلس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

واقعة نفوسة ومهلك العرب والمثلثين بها

كان ابن غانية بعد واقعة شبرو واستفتاح أبي محمد تاهرت من يده خلص إلى جهة طرابلس، وتلاحق به فل المثلثين وأولياؤه من العرب.

وكان المجلي معه في مواقف الدواودة من رياح، وكبيرهم محمد بن مسعود فتدامروا واعتزموا على معاودة الحرب، وتعاقدوا على الثبات والصبر، وانطلقوا يستألفون الأعراب من كل ناحية، حتى اجتمع إليهم من ذلك أمم كان فيهم رياح وزغب والشريد وعوف ودباب ونقات. واحتفلوا في الاحتشاد وأجمعوا دخول إفريقية، فبادرهم أبو محمد قبل وصولهم إليه. وخرج من تونس سنة ست وستمئة وأغدأ السير إليهم، وتزاحفوا عند جبل نفوسة، واشتدت الحرب، ولما حمى الوطيس ضرب أبو محمد أبنيتهم وفسطاطيطه، ونحيز إليه بعض الفرق من بني عوف بن سليم واحتل مصاف ابن غانية وأتبعه الموحدون إلى أن دخل في غيايات الليل وامتلات أيديهم بالأسرى والغنائم، وسيقت ظعنات العرب. وقد كانوا قدموها بين أيديهم للحفيظة أفذاذاً في الكر والفر، فأصبحت مغنماً للموحدون وربات خدورهم سبياً.

وهلك في المعركة خلق من المثلثين وزناتة والعرب، كان فيهم عبد الله بن محمد بن مسعود البليط بن سلطان شيخ الدواودة، وابن عمه حركات بن أبي الشيخ بن عساكر بن سلطان وشيخ بني قره وجرار بن ويفرن كبير مغزاوة ومحمد بن الغازي ابن غانية في آخرين من أمثالهم. وانصرف ابن غانية مهبط الجناح مقلول الحد محفوراً باليأس من جميع جهاته، وانقلب أبو محمد والموحدون أعزة ظاهرين، واستفحل أمر أبي محمد بإفريقية وحسم

الرضى وضرب عليهم سراق الحماية. وبدا له أن ابن غانية سيخالفه إليها، فإن مراكش بعيدة عن الصريح، وأنه لابد من رجل يسد فيها مسد الخلاف، ويقيم بها شؤون الملك، فوقع اختياره على أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، ولم يكن ليعده لما كان عليه هو وأبوه في دولتهم من الجلالة، وأن أمر بني عبد المؤمن إنما تم بوفاق الشيخ أبي حفص ومظاهرتهم، وأن أباه المنصور كان قد أوصى الشيخ أبا محمد به وبإخوته. وكان يوليه صلاة الصبح إذا حضره شغل وأمثال ذلك.

وسرى الخبر إلى أبي محمد فامتنع، وشافهه الناصر به فاعتذر، فبعث إليه ابنه يوسف فآكرم موصله. وأجاب على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات إفريقية في ثلاث سنين، وأن يختار عليهم من رجالات الموحدين وأن لا يتعقب عليه في تولية ولا عزل، فقبل شرطه ونودي في الناس بولايته، ورفعت بين الموحدين رأيتهم، وارتحل الناصر إلى المغرب ورجع عنه الشيخ أبو محمد من باجة فبعد مقعد الإمارة بقصة تونس في السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمئة، وأنفذ أوامره، واستكتب أبا عبد الله محمد بن أحمد بن نخيل ورجع ابن غانية إلى نواحي طرابلس، فجمع أحزابه وأتباعه من العرب من سليم وهلال.

وكان فيهم محمد بن مسعود البليط في قومه من الدواودة، وعاودوا عيهم، وخرج إليهم أبو محمد سنة أربع وستمئة في عساكر الموحدين، ونحيز إليه بنو عوف من سلم وهم: مرداس وعلاق فلقهم بشبرو فتواقموا واحتربوا عامة يومهم، ونزل الصبر. ثم انفض عسكر ابن غانية آخر النهار وأتبعهم الموحدون والعرب واكتسحوا أموالهم، وأفلت ابن غانية جريحاً إلى أقصى مفره، ورجع أبو محمد إلى تونس بالظفر والغنيمة. وخاطب الناصر بالفتح واستنجاز وعده في التحول عن الولاية فخاطبه بالشكر والعذر بمهمات المغرب عن إدالته، وأنه يستأنف النظر في ذلك. وبعث إليه بالمال والخيل والكساء للإتفاق والعطاء. كان مبلغها مئة ألف دينار اثنتان وألف وثمانمائة كسرة، وثلاثمائة سيف، ومائة فرس، غير ما كان أنفذ إليه من سبته وبجاية، ووعد بالزيادة. وكان تاريخ الكتب سنة خمس وستمئة فاستمر أبو محمد على شأنه وترادفت الوقائع بينه وبين يحيى الميورقي كما نذكره.

وقية تاهرت وما كان من أبي محمد في

تلافيتها واستنقاذ غنائمها

كان يحيى ابن غانية لما أفلت من وقية شبرو بدا له

على الفساد منها واستوفى جبايتها، وطالت مواقف حروبه، ولم تهزم له راية. وهلك الناصر وولي ابنه يوسف المستنصر واستبد عليه المشيخة لمكان صغره، وشغلوا بفتنة بني مريم وظهورهم بالمغرب، فاستكفى بالشيخ أبي محمد في إفريقية وعول على غنايه فيها، وضبطه لأحوالها وقيامه بملكها فأبقاه على عملها، وسرب إليه الأموال لتفقاتها وأعطياتها، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستمئة.

ولشهر من وصوله تقبض علي محمد بن غنبل كاتب الشيخ أبي محمد، وعلى أخويه أبي بكر ويحيى، واستصفى أموالهم واحتاز عقارهم وضياهم. وكان المستنصر عهد إليه بذلك، لما كان أسفه بقلات من القول والكتاب تنمى إليه أيام رئاسته في خدمة أبي محمد، فاعتقلهم السيد أبو العلا، ثم قتله وأخاه يحيى لشهر من اعتقالهما بعد أن فر من سجنه وتقبض فقتل. ونقل أبو بكر إلى مطبق المهدي فأردع به.

وخرج السيد أبو العلا من تونس سنة تسع عشرة وستمئة في عساكر الموحدين إلى نواحي قابس لقطع أسباب ابن غانية منها، فنزل قصر العروسيين، وسرح ولده السيد أبو زيد في عسكر من الموحدين إلى درج وغدامس من بلاد الصحراء لتمهيداً وجبايتها. وقدم بين يده عسكراً آخراً لمنازلة ابن غانية بودان، وواعدهم هناك منصرفاً من غدامس فأرجف بهم العرب في طريقهم بمداخلة ابن غانية. ومال بذله في ذلك فانقض العسكر، وزحفوا إلى قابس. وأهل السيد أبو زيد في غدامس إليهم فلقية خبر مفرهم. فلحق بأبيه وأخبره بالجلي في أمرهم، فسخط قائد العسكر وهم بقتله. وطرق السيد أبو العلا المرض فرجع إلى تونس. وبلغه أن ابن غانية نهض من ودان إلى الزاب، وأن أهل بسكرة أطاعوه، فسرح السيد أبو زيد في عساكر الموحدين إليه، ودخل ابن غانية الرمل فأعجزهم.

ورجع السيد أبو زيد إلى بسكرة فأنزل بهم عقابه من النهب والتخريب، ورجع إلى تونس. ثم بلغه أن ابن غانية قد رجع إلى جوانب إفريقية، واجتمع إليه أخلاط من العرب والبربر، فسرح السيد أبو زيد إليه في العساكر ونزل بالقيروان، وخالفه ابن غانية إلى تونس فقصده السيد أبو زيد ومعه العرب وهوارة بظلماتهم ومواشيهم. وتزاحفوا بمجدول فاتح إحدى وعشرين وستمئة، واشتد القتال وعضت الموحدون الحرب، وأبلى هوارة وشيوخهم بكرة بن حناش بلاءً جيلًا وضرب أبنيه وتناغوا في الثبات والصبر فانهمز المثلثون وانجلت المعركة عن حصيد من القتلى من أصحاب ابن غانية، واستولى الموحدون على معسكرهم.

وكان بلغ السيد أبو زيد خبر مهلك أبيه السيد أبي العلا بتونس في شعبان سنة عشرين وستمئة. فلما فرغ من موقعة ابن غانية رجع إلى تونس وأقصر عن متابعتة. وخاطب المستنصر

على الفساد منها واستوفى جبايتها، وطالت مواقف حروبه، ولم تهزم له راية. وهلك الناصر وولي ابنه يوسف المستنصر واستبد عليه المشيخة لمكان صغره، وشغلوا بفتنة بني مريم وظهورهم بالمغرب، فاستكفى بالشيخ أبي محمد في إفريقية وعول على غنايه فيها، وضبطه لأحوالها وقيامه بملكها فأبقاه على عملها، وسرب إليه الأموال لتفقاتها وأعطياتها، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستمئة.

الخبر عن مهلك الشيخ أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وولاية ابنه عبد الرحمن

كانت وفاة الشيخ أبي محمد فاتح سنة ثمان عشرة وستمئة ولما هلك ارتاع الناس لمهلكه، وافترق أمر الموحدين في الشورى فرفق بين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي محمد وإبراهيم ابن عمه إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص، فترددوا ملياً ثم اتفقوا على الأمير أبي زيد عبد الرحمن ابنه، وأعطوه صفقة إيمانهم، وأقعدوه بمجلس أبيه في الإمارة، فسكن الثائر وشمر للقيام بالأمر عزائم. وأفاض العطاء وأجاز الشعراء، واستكتب أبا عبد الله بن أبي الحسين، وخاطب المستنصر بالشأن. وخرج في عساكره لتمهيد النواحي وحماية الجوانب إلى أن وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته حسبما تذكره فارتحل إلى المغرب ومعه إخوانه وكاتبه ابن أبي الحسين ولحق بالحضرة.

الخبر عن ولاية السيد أبي العلا على

إفريقية وابنه أبي زيد من بعده وأخبارهم

فيها واعتراضهم في الدولة الحفصية

لما بلغ الخبر إلى مراکش بمهلك أبي محمد بن أبي حفص، وقارن ذلك عزله السيد أبي العلا من إشبيلية، ووصله إلى الحضرة مسخوطاً، وهو أبو العلا إدريس بن يوسف عبد المؤمن أخو يعقوب المنصور، وعبد الواحد المخلوع المبايع له بعد ذلك. وعول على الوزير ابن المثنى في جبر حاله، فسعى له عند الخليفة، وعقد له على إفريقية. ووصل الخطاب بولايته ونبابة إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص عنه خلال ما يصل، واستقدام أبناء الشيخ أبي محمد إلى الحضرة. وقرئ الكتاب شهر ربيع الأول من سنة ثمان عشرة وستمئة، فقام الشيخ بالنبابة في أمره، واستعمل أحمد المشطب في وزارته، وغلب عليه بطاتته، وأساء في

ثم تخطى كذلك إلى تدلس، وأنه عاث في تلك الجهات فرحل من تونس وعقد لأخويه كما ذكرناه. وأغذ السير إلى فحص أبة فصبح به هواره، وقد كان بلغه عنهم السعي في الفساد، فاطلق فيهم أيدي عسكره، واعتقل مشايخهم وأنفذهم إلى المهديّة. ثم مر في أتباع ابن غانية، فانتهى إلى بجاية، وسكن أحوالها، ثم إلى متيحة ومليانة فأدركه الخبر أن ابن غانية قصد سبجلماسة فانكفأ راجعاً إلى تونس، ودخلها في رمضان سنة أربع وعشرين وستمئة، ولم يزل مستبداً بإمارته إلى أن ثار عليه الأمير أبو زكريا، وغلبه على الأمر كما نذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي زكريا مهاد

الدولة لآل أبي حفص بأفريقية ورافع الراية
لهم بالملك وأولية ذلك وبدايته

لما قتل العادل بمراكش سنة أربع وعشرين وستمئة، وبويع المأمون بالأندلس بعث إلى أبي محمد عبد الله بتونس ليأخذ له البيعة على من بها من الموحدّين. وكان المأمون قد فتح أمره بالخلاف، ودعا لنفسه قبل موت أخيه العادل بأيام، فامتنع أبو محمد وردّ رسله إليه، فكتب بذلك لأخيه الأمير أبي زكريا وهو بمكانه من ولاية قابس. وعقد له على أفريقية فأخذ له البيعة على من إليه، ودخله في شأنها ابن مكّي كبير المشيخة بقابس. واتصل ذلك بأبي محمد فخرج من تونس إليهم.

ولما انتهى إلى القيروان نكر عليه الموحدون نهوضه إلى حرب أخيه، وانتقضوا عليه وعزلوه. وطير بالخبر إلى أخيه في وفد منهم فآلفوه معماً في اللحاق برحاب بن محمد وأعراب طرابلس، فبايعوه ووصلوا به إلى معسكرهم. وخلع أبو محمد نفسه، ثم أرغل الأمير أبو زكريا إلى تونس فدخلها في رجب من سنة خمس وعشرين وستمئة، وأنزل أخاه أبا محمد بقصر ابن فاخر، وتقبض على كاتبه أبي عمرو طرا من الأندلس. واستكتبه أبو محمد فغلب على هواه، وكان يغريه بأخيه، فبسط الأمير أبو زكريا عليه العذاب إلى أن هلك. ثم بعث أخاه محمد في البحر إلى المغرب فاستبد بملكه، واستوزر ميمون بن موسى الهتاتي، واستقامت أموره.

بمهلك أبيه وواقعة المثلثين، وكان المستنصر قد عزله واستبدل منه بأبي يحيى بن أبي عمران التينملي صاحب ميورقة، ولم يصل إليه الخبر بعزله بعد. وهلك الملك المستنصر إثر ذلك سنة عشرين وستمئة، وولي عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن فنقض تلك العقدة، وكتب إلى السيد أبي زيد بالإبقاء على عمله، ونقض ما أصدر المستنصر من عزله، فأرسل عنائه في الولاية، وبسط يده في الناس بمكرهه، وتكرت له الوجوه، وأخرف عنه الناس، بما كانوا عليه من الصاغية لأبي محمد بن أبي حفص وولده، إلى أن عزل واستبدل بهم كما نذكره، وركب البحر بذخائره وأهله فلحق بالحضرة.

الخبر عن ولاية أبي محمد عبد الله بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وما كان فيها من الأحداث

لما هلك المخلوع وولي العادل، ولّى علي إفريقية أبا محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد. وولى على بجاية يحيى بن الأطاس التينملي، وعزل عنها ابن يغمور. وكتب إلى السيد أبي زيد بالقنودم. وكتب أبو محمد عبد الله إلى ابن عمه موسى بن إبراهيم ابن الشيخ أبي حفص بالنيابة عنه خلال ما يصل، فخرج السيد أبو زيد في ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وستمئة، واستقل أبو عمران موسى بأمر إفريقية، واستمرت نيابته عليها زهاء ثمانية أشهر. وخرج أبو محمد عبد الله من مراكش إلى إفريقية.

ولما انتهى إلى بجاية قدم بين يديه أخاه الأمير أبا زكريا ليعترضه طبقات الناس للقاءه، فوصل إلى تونس في شعبان من هذه السنة بعد أن أوقع في طريقه بولهاصة. وكان أولاد شداد رؤسأوهم قد جمعوا لاعتراضه بناحية بونة، فسرح أخاه الأمير أبا زكريا لحسم دأهم ولخروج الطبقات من أهل الحضرة للقاءه فكان كذلك. وخرج في رمضان من سنته، وخرج معه الناس على طبقاتهم فلقوه بسطيف، ووصل إلى الحضرة في ذي القعدة من آخر السنة، وتزحزح أبو عمران عن النيابة، ثم لحقه من المغرب أخوه أبو إبراهيم في صفر سنة أربع وعشرين وستمئة، فعقد له على بلاد قسطنطية وعقد لأخيه الأمير أبي زكريا على قابس وما إليها، وذلك في جمادى من هذه السنة.

وبعد استقراره بتونس بلغه أن ابن غانية دخل بجاية عنوة،

الله اللحياني صاحب أشغال بجاية فصار في جلته، وولاه بعدها الولايات الجليلة، وكان يستخلفه بتونس في مغييه.

وفي هذه السنة تقبض على وزيره ميمون بن موسى واستصفي أمواله، وأشخصه إلى قابس فاعتقل بها مدة، ثم غربه إلى الإسكندرية، واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبي العلا بن جامع، إلى أن هلك، فاستوزر بعده أبا زيد ابن أخيه الآخر محمد إلى أن هلك.

الخبر عن مهلك ابن غانية وحركة السلطان إلى بجاية وولاية ابنه الأمير أبي يحيى زكريا عليها

لما استقل الأمير أبو زكريا بإفريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن صرف عزمه أولاً إلى مدافعة يحيى بن غانية عن نواحي أعماله، فكانت له في ذلك مقامات مذكورة، وشرده عن جهات طرابلس والزاب وواركلا. واختط بواركلا المسجد لما نزلها في اتباعه، وأنزل بالأطراف عساكره وعماله لمنعها دونه. ولم يزل ابن غانية وأتباعه من العرب من أفريق سليم وهلال وغيرهم على حالهم من التشريد والجللاء، إلى أن هلك سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وانقطع عقبه فانقطع ذكره، ومحا الله آثار فتته من الأرض. واستقام أمر الدولة ونضت منها عروق الاستيلاء واتسع نطاق الملك. ونهضت عزائمهم إلى تدوين أرض المغرب فخرج من تونس سنة اثنين وثلاثين وستمائة يؤم بلاد زناتة بالمغرب الأوسط. وأغذ السير إلى بجاية فتلوم بها. ثم ارتحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها. ثم نهض منها إلى بلاد مغراوة فطاعه بنو منديل بن عبد الرحمن، وجاهر بنو توجين بخلافه، فنزل البطحاء وأوقع بهم. وتقبض على رئيسهم عبد القوي بن العباس فاعتقله، وبعث به إلى تونس ودوخ المغرب الأوسط وقفل راجعاً إلى حضرته. وعقد مرجعه من المغرب لابنه الأمير أبي يحيى زكريا على بجاية وأنزله بها. واستوزر له يحيى بن صالح بن إبراهيم الهتاتي وجعل شواره لعبد الله بن أبي تهدي، وجبايته لعبد الحق بن ياسين، وكلهم من هتاتة. وكتب إليه بوصيته مشتملة على جوامع الحلال في الدين والملك والسياسة، يجب إثباتها لشرف مغزاها وغرابة معناها ويأتي نصها فيما بعد.

الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد المؤمن

لما اتصل به ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش، وخصوصاً هتاتة وتينمل. وكان منهم أخواه أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم، وأنه أشاع التكبر على المهدي في العصمة، وفي وضع العقائد والنداء للصلوات باللسان البربري، وإحداث النداء للصبح وتربيع شكل الدرهم وغير ذلك من سنته. وأنه غير رسوم الدعوة، وبدل أصول الدولة. وأسقط اسم الإمام من الخطبة والسكة وأعلن بلعنه. ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال إلى تونس بتولية المأمون قصرهم، وأعلن بخلعه سنة ست وعشرين وستمائة. وحول الدعوة إلى يحيى ابن أخيه الناصر المنتزي عليه ببجال المسكرة. ثم اتصل به بعد ذلك عجز يحيى واستقلاله، فأغفله واقتصر على ذكر الإمام المهدي، وتلقب بالأمير ورسم علامته به في صدور مكتوباته. ثم جدد البيعة لنفسه سنة أربع وثلاثين وستمائة، وثبت ذكره في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصرأ على لفظ الأمير، لم يجاوزه إلى أمير المؤمنين. وخاض أولياء دولته في ذلك حتى رفع إليه بعض شعرائه في مفتوح كلمة مدحه بها:

الأصل بالأمير المؤمنين فأتت بها أحق العالمين
فزحزحهم عن ذلك وأبى عنه، ولم يزل على ذلك إلى آخر دولته.

الخبر عن فتح بجاية وقسطنطينية

لما استقل الأمير أبو زكريا بالأمر بتونس، وخلع بني عبد المؤمن، ونهض إلى قسطنطينية سنة ست وعشرين وستمائة، فنزل بساحتها وحاصرها أياماً. ثم داخله ابن علناس في شأنها وأمكنه من غرتها فدخلها، وتقبض على واليها السيد ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري. وولى عليها ابن النعمان. ورحل إلى بجاية فافتتحها، وتقبض على واليها السيد أبي عمران ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني وصيرهما معتقلين في البحر إلى المهدي. وأجريت عليهما هنالك الأرزاق، وبعث بأهلها ولدهما مع ابن أوماز إلى الأندلس، فنزلوا بأشبيلية. وبعث معهم إلى المهدي في الاعتقال محمد بن جامع وابنه وابن أخيه جابر بن عون بن جامع من شيوخ مرداس عوف، وابن أبي الشيخ بن عساكر من شيوخ الداوادة، فاعتقلوا مطبق المهدي وكان أخوه أبو عبد

الخبر عن سطوة السلطان بهوارة

فنفذ الأمر بقتلهم فقتلوا، وبعث برؤوسهم إلى باب السلطان، ونصبت أشلائهم بأسوار طرابلس، وأصبحوا عبرة للمعتبرين وأنشد الشعراء في التهنية بهم وقامت للبشائر سوق لكانتهم.

وكان من قتل معه محمد ابن قاضي القضاة بمراكش أبي عمران بن عمران. وصل علقا إلى تونس وقصد طرابلس فاتصل بهذا المرغي، ونمي عنه أنه أنشأ خطبة ليوم البيعة فكانت سائقة حثفه. وكان بالمهدية رجل من الدعاة يعرف بأبي حمراء اشتهر بالنجدة في غزو البحر، وقدم على الأسطول فردد الغزو حتى هابه الغزى من أمم الكفر، وأمنت سواحل المسلمين من طروقههم. وطار له فيها ذكر ونمي أنه كان مداخلا للجواهري والمرغي، وأن القاضي بالمهدية أبا زكرياء البرقي اطلع على دسيستهم في ذلك، فنفذ الأمر السلطاني للوالي بها أبي علي بن أبي موسى بن أبي حفص بقتل ابن أبي الأحمر، وإشخاص القاضي إلى الحضرة معتقلاً، فأمضى عهده.

ولما وصل البرقي إلى تونس فحص السلطان عن شأنه فبرىء من مداخلتهم، فسرعه وأعادته إلى بلده. وقتل بالحضرة رجل آخر من الجند اتهم بمداخلتهم وسعائته في قيامهم، وكان له تعلق بريحاب بن محمود أمير دباب، فأوعز السلطان إلى بعض الدعار من زناته، فقتله غيلة ثم أهدر دمه. وتبع أهل هذه الخائنة بالقتل حتى حسم الداء، ومحا شوائب الفتنة.

الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق

الأندلس ووفدهم

لما استقل أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج بن سعد بن مردنيش ملك بلنسية، وغلب عليها السيد أبا زيد بن السيد أبي حفص، وذلك عند خلود ربيع بني عبد المؤمن بالأندلس، وخروج ابن هود على المأمون، ثم فتنه هو مع ابن هود، وثورة ابن الأحمر بأرجونة، واضطراب الأندلس بالفتنة. وأسف الطاغية إلى ثغور الأندلس من كل جانب. وزحف ملك أرغون إلى بلنسية فحاصرها، وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين وستمائة سبع محلات لحصار المسلمين: اثنتان منها على بلنسية، وجزيرة شقر وشاطبة. ومحلة بيجان ومحلة بطبرة ومحلة بمرسية ومحلة بلبله، وأهل جنوة من وراء ذلك على سبته.

ثم تملك طاغية قشتالة مدينة قرطبة، وظفر طاغية أرغون بالكثير من حصون بلنسية والجزيرة، وبنى حصن أنيسة لحصار بلنسية. وأنزل بها عسكره وانصرف، فاعتزم زيان بن مردنيش على

كان هواره هؤلاء بإفريقية ظهور وعدد منذ عهد الفتح، وكانت دولة العبيدين قد جرت عليهم بكلكلها لما كان منهم في فتنة أبي يزيد كما نذكره في أخبارهم. وبقي منهم فل بجبل أوراس وما بعده من بلاد إفريقية وبساتنها إلى أبة ومرواجنة وسيببة وتبرسق.

ولما انقرض ملك صنهاجة بالموحدين وتغلب الأعراب من هلال وسليم على سائر النواحي بإفريقية، وكثروا ساكنها، وتغلبوا عليهم أخذ هذا الفل بمذهب العرب وشعارهم وشارتهم في اللبوس والزي والظعون وسائر العوائد. وهجروا لغتهم العجمية إلى لغتهم، ثم نسوها كان لم تكن لهم، شأن المغلوب في الاقتداء بغالبه. ثم كان لهم انحياش أول الدولة إلى الطاعة بغلب عبد المؤمن وقومه. فلما استبد الأمير أبو زكريا، وانقلبت الدولة إلى بني أبي حفص ظهر منهم التياث في الطاعة، وامتناع عن المغرم، وأضرار بالسابلة، فاعتزل السلطان في أمرهم. وخرج من تونس سنة ست وثلاثين وستمائة مورياً بالغزو إلى أهل أوراس، وبعث في احتشادهم فتوافدوا في معسكره. ثم صبحهم في عسكره من الموحدون والعرب ففتك بهم قتلاً وسيئاً، واكتسح أموالهم وقتل كبيرهم أبو الطيب بكرة بن حناش وأفلت من أفلت منهم ناجياً بنفسه، عارياً من كسبه، فألانت هذه البطشة من حدهم وخضدت من شوكتهم، واستقاموا على الطاعة بعد.

الخبر عن ثورة المرغي بطرابلس ومآل أمره

كان هذا الرجل من مشيخة الموحدون وهو يعقوب بن يوسف بن محمد المرغي ويكنى بأبي عبد الرحمن، وكان الأمير أبو زكرياء وقد عقد له على طرابلس وجهاتها، وسرح معه عسكراً من الموحدون لحمايتها من أعراب دباب من بني سليم، فقام بأمرها واضطلع بجباية رعاياها. واستخدم العرب والبربر الذين بساحتها وكان بينه وبين الجواهري مصدوقة ود. فلما قتل الجواهري سنة تسع وثلاثين وستمائة كما قدمناه استوحش لها يعقوب المرغي واستقدمه السلطان فتلكأ، وبعث عنه أخاه ابن أبي يعقوب فازداد نفاره، وحدته نفسه بالاستبداد لما كان أثرى من الجباية وشعر لها أهل البلد. فانطلقوا وهم يتخافون أن يعاجلوه قبل مداخلة العرب في أمره، فقبضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعهما ليلة أجمعوا الثورة في صباحها. وطيروا بالخبر إلى الحضرة

غزو من بقي بها من عسكره، واستقر أهل شاطبة وشقر وزحف إليهم فأنكشف المسلمون، وأصيب كثير منهم. واستشهد أبو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالأندلس، وكان يوماً عظيماً، وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً. ثم ترددت عليها سرايا العدو. ثم زحف إليها طاغية أرغون في رمضان سنة خمس وثلاثين وستمائة فحاصرها واستبلغ في نكايتها. وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ربيعهم، وظهر أمر بني أبي حفص بإفريقية، فأمل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبا زكرياء للكره، وبعثوا إليه يبعثهم، وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن الأبار صريحاً، فوفد وادى يبعثهم في يوم مشهود بالخصرة، وأنشد في ذلك الحفل قصيدته على روي السين، يستصرخه فيها للمسلمين وهي هذه:

أدرك بحملك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درسا لها من عزيز النصر ما التمت فلم يزل منك عز النصر ملتصبا عاش مما تعانیه حشاشتها فظالما ذاق البسوى صباح مسا للجزيرة أضحى أهلها جزراً للثابت وأمسى جدها تمعا كسل شارقة إلصام بانقصة يعود مأتمها عند العدى عرسا وكل غاربة إجحاف نائبة تني الأمان حذاراً والسرور أسا قاسم السروم لا نالت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة الأنسا وفي بلنسية منها وقرطبة ما يذهب النفس أو ما يتزف النفسا مدائن حلها الإشرار مبنياً جذلان وارغسل الإيمان منيشا وصيرتها العوادي عاثت بها يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا ما للمساجد عادت للعدى يبعاً وللنداء يرى أثناءها جرسا لفناً عليها إلى استرجاع فاتتها مدارساً للمشائي أمبجت درسا وأربعاً غنمت أيدي الربيع بها ما شئت من خلع موشية وكسا كانت حدائق للأحداق موقنة فصوح النصر من أداوحها وعسا وحال ما حولها من منظر عجب يستوقف الركب أو يستركب الجلسا سرعان ما عاث جيش الكفر وإحرا عث الدنيا في مغائبا التي كسا وابتر بزتها مما تحيفها تحيف الأسد الضاري لما افترسا فأين عيش جنيها بها خضرراً وأين غصن جنيها بها سلسا عما محاسنها طأغ أتبع لها ما نام عن مضها حيناً وما نعسا ورج أرجاءها لما أحاط بها فغادر الشم من أعلامها خنسا خلا له الجو وامتدت يده إلى إدراك ما لم تسل رجلاه غنلسا وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ولو رأى راية التوحيد ما نيسا صل حبلا أيها المولى الرحيم فما أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا وأحي ما طمست منها العدة كما أحييت من دعوة المهدي ما طمسا أيام صرت لنصر الحق مستبقاً وبت من نور ذاك المهدي مقبسا وقمت فيها لأمر الله متصراً كالصارم اهتر أو كالعارض انبجسا تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم والصبح ماحية أنسواره الغلسا

هذي رسالتها تدعوك من كتب وأنت أفضل مرجو لمن يسا وافتك جارية بالنجح راجية منك الأمير الرضي والسيد الندسا خاضت خضارة يعلوها ويخففها عباة فتعاني اللين والشرسا ورمسا سبجت والريح عاتية كما طلبت بأقصى شدة الفرسا تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبلة من تربة القدس ملك تقلدت الأملاك طاعته ديناً وديناً ففشها الرضى لبسا من كل غاد على يمنه مستلما وكل صا إلى نعماء ملتصا مزيد لورمى نجماً لأبنته ولو دعا ألقاً لبي وما احتبسا أمارة تحمّل المقادار رايتها ودولة عزها يستصحب القعسا يبدي النهار بها من ضروته شنباً ويطلع الليل من ظلماته لعسا كانه البدر والعلواء حالته تحف من حوله شهب الفنا حرسا له الثرى والثريا خطشان فلا أعز من خطيه ما سما ورسا يا أيها الملك المتصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى نعسا وقد تواترت الأنباء أنك من يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا وأوطى الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطى رأس كل من رأسا وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت غيرهم أدمعاً تهمني زكاه وخسا هم شعبة الأمر وهي الدار قد نهكت داء متى لم تبأشر حسمه اتكسا أصلاً هتياً لك التمكن ساحتها جرداً سلاهبا أو خطية دعسا واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسا فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم، وبعث إليهم أسطول مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال، مع أبي يحيى بن يحيى بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص. وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار.

وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار، فنزل بمرسی دانية واستفرغ المدد بها ورجع بالناس إذا لم يخلص إليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه. واشتد الحصار على أهل بلنسية، وعدمت الأقوات وكثر الهلاك من الجوع، فوقعت المارودة على إسلام البلد فتسلمها جاقمة ملك أرغون في صفر سنة ست وثلاثين وستمائة، وخرج عنها ابن مردنيش إلى جزيرة شقر، فأخذ البيعة على أهلها للأمير أبي زكريا. ورجع ابن الأبار إلى تونس، فنزل على السلطان وصار في جلته، وألح العدو على حصار ابن مردنيش بجزيرة شقر، وأزعجه عنها إلى دانية فدخلها في رجب من سته، وأخذ عليهم البيعة للأمير أبي زكريا.

ثم داخل أهل مرسية، وقد كان ببيع بها أبو بكر عزيز بن عبد الملك ابن خطاب في مفتاح السنة، فافتتحها عليه في رمضان من سته وقتله، وبعث يبعثهم إلى الأمير أبي زكريا. وانتظمت

نفسه وألقي شلوه بقارعة الطريق فتفنن أهل الشمات في العبث به، وإلى الله المصير.

الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة الحفصية

كان الأمير أبو زكريا منذ استقل بأمر إفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة. وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل أمراء زناتة فيه ويرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة. وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لولهم وحرماً على عدوهم. وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعأوده الانحاف بأنواع الألفاف والهادايا تعمناً لمسرته، وميلاً إليه عن جانب أقتاله بني مرين المجليين على المغرب والدولة، فاستكبر السلطان أبو زكريا اتصال الرشيد هذا يغمراسن وآله والزمهم من جواره بالحل القريب.

وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض ولد مندبل بن عبد الرحمن أمراء مغراوة صريحاً على يغمراسن فسهلوا له أمره، وسولوا له الاستبداد على تلمسان. وجمع كلمة زناتة، وإعداد ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين بمراكش، وانتظامه في أمره، وسلماً لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وبأبأ لولوج المغرب على أهله، فحركه إملاؤهم وهزه إلى النعرة صريحهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان. واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في طاعته من بني سليم ورياح بظعنهم، فأهبطوا لداعيه.

ونفض سنة تسع وثلاثين وستمئة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة. وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد مندبل بن محمد لحشد من وافي بأوطانهم من أحياء زناتة وذويان قبائلهم، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب. وضرب معهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم. ولما نزل صحراء زاغر قبله تيطري منتهى مجالات رياح وبني سليم من المغرب، تشاقل العرب عن الرحلة بظعنهم في ركاب السلطان، وتولوا بالمعاذير فألطف الأمير أبو زكريا الحيلة. وزعموا في استنهاضهم وتنبه عزائمهم، فارتحلوا

البلاد الشرقية في طاعته، وانتقل وفد ابن مردنيش إليه من تونس بولايته على عمله سنة سبع وثلاثين وستمئة، ولم يزل بها إلى أن غلبه ابن هود على مرسية، وخرج عنها إلى لقنت الحصون سنة ثمان وثلاثين وستمئة، إلى أن أخذها طاغية برشلونة من يده سنة أربع وأربعين وستمئة، وأجاز إلى تونس، والبقاء لله.

الخبر عن المجوسي وأوليته ومآل أمره

اسم هذا الرجل: محمد بن محمد الجوهري، وكان مشتهراً بخدمة ابن أكمازير الهنتائي والي سبتة وغمارة من أعمال المغرب. وكان حسن الضبط مترامياً إلى الرئاسة. ولما ورد على تونس وتعلق بأعمال السلطان نظر فيما يزلفه ويرفع من شأنه، فوجد جباية أهل الحيام بإفريقية من البرابرة الموطنين مع الأعراب غير منضبطة ولا محصلة في ديوان، فنبه على أنها مأكلة للعمال ونهبة للولاة، فدفع إليها فائى جبايتها وقرر ديوانها، وصارت عملاً منفرداً يسمى عمل العمود وطار له بذلك بين العمال ذكر، جذب له السلطان أبو زكريا بضيقه، وعول على نصيحته وآثره باختصاصه. ووافق ذلك موت أبي الربيع الكنفيتي المعروف بابن الغريفر صاحب الأشغال بالحضرة، فاستعمل مكانه، وكان لا يلي تلك الخطة إلا كبير من مشيخة الموحدين، فرشحه السلطان لها لكفايته وغناؤه، فظفر منها بحاجة نفسه، واعتداه ذريعة إلى أميته، فاتخذ شارة أرباب السيوف، وارتبط الخيل واتخذ الآلة في حروبه مع أهل البادية إذا احتاج إليها.

وأسف أثناء ذلك أبا علي بن النعمان وأبا عبيد الله بن أبي الحسن بعدم الخضوع لهما، فنصبا له، وأغريا به السلطان، وحذراه غائلة عصيانته. وكان فيه إقدام أوجد به السبيل على نفسه، ويمكى أن السلطان استشاره ذات يوم في تقويم بعض أهل الخلاف والعصيان، فقال له: عندي ببابك ألف من الجنود أرم بها من تشاء من أمثالهم، فأعرض عنه السلطان واعتداه عليه. وجعلها مصداقاً لما نمي عنه. ولما قدم عنه عبد الحق بن يوسف بن ياسين على الأشغال ببجاية مع زكريا بن السلطان، أظهر له الجوهري أن ذلك بسعائته، وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بكتابه، فألقى عبد الحق ذلك إلى الأمير أبي زكريا فقام لها وقعد، وأنف من استبداد الجوهري عليه. ولم تزل هذه أمثالها تعد عليه حتى حق عليه القول فسطا به الأمير أبو زكريا وتقبض عليه سنة تسع وثمانين وستمئة، ووكّل امتحانه إلى أعدائه ابن لمان والندرومي، فتجلد على العذاب وأصبح في بعض أيامه ميتاً محبسه. ويقال: خنق

فدخل الحضرة واقعد أريكته وأنشده الشعراء في الفتح، وأسنى جوائزهم وتناولت أعناق الأفاق كما نذكره.

الخبر عن دول أهل الأندلس في الدعوة

الحفصية ووصول بيعة إشبيلية وكثير من

أمصارها

كان بإشبيلية أبو مروان أحمد الباجي من أعقاب أبي الوليد وأبو عمرو بن الجد من أعقاب الحافظ أبي بكر الطائر الذكر، ورثا التجارة عن جدهما وأجرامها الخلفاء على سنتهم. وكانا مسمتين وقورين متبوعين من أهل بلدهما مطاعين في أفقهما. وكان السادة من بني عبد المؤمن يقولون على شوراها في مصرها. وكان بعدوة الأندلس التياث في الملك منذ وفاة المستنصر، وانتزى بها السادة وافترقوا. وثار بشرق الأندلس ابن هود وزيان بن مردنيش، وبغربها ابن الأحمر. وغلب ابن هود الموحدتين وأخرجهم عنها. وملك ابن هود أشبيلية سنة ست وعشرين وستمائة واعتقل من كان بها من الموحدتين. ثم انتقصوا عليه سنة تسع وعشرين وستمائة بعدها وأخرجوا أخاه أبا النجاة سالماً، وبايعوا الباجي وتسمى بالمعتضد، واستوزر أبا بكر بن صاحب الرد، ودخلت بيعته قرمونة، وحاصره ابن هود فوصل الباجي يده بمحمد بن الأحمر الثائر بأرجونة وجيان بعد أن ملك قرطبة.

وزحف ابن هود إليهم فلقوه وهزموه، ورجعوا ظافرين، فدخل الباجي إلى أشبيلية وعسكر بخارجها، ثم انتهز فرصته في أشبيلية وبعث قريبه ابن اشقيلولة مع أهل أرجونة والنصارى إلى فسطاط الباجي فتقبضوا عليه وعلى وزيره وقتلوهما سنة إحدى وثلاثين وستمائة. ودخل ابن الأحمر أشبيلية، ولشهر من دخوله إليها ثار عليه أهلها ورجعوا إلى طاعة ابن هود، وولى عليهم أخاه أبا النجاة سالماً. ولما هلك محمد بن هود سنة خمس وثلاثين وستمائة صرف أهل أشبيلية طاعتهم إلى الرشيد بمراكش، وولوا على أنفسهم محمد بن السيد أبي عمران الذي قدما أنه كان والياً بقسطنطينة، وأن الأمير أبا زكريا غلبه عليها واعتقله، وبعث ولده إلى الأندلس فربي محمد هذا في كفالة أمه بأشبيلية.

ولما سار أهل أشبيلية للرشيد قدموه على أنفسهم، وتولى كبر ذلك أبو عمرو بن الجد، وبعثوا وفدهم إلى الحضرة فأقر السيد أبا عبد الله على ولايتهم. واستمرت في دعوة الرشيد إلى أن هلك سنة أربعين وستمائة. وقد ملك الأمير أبو زكريا تلمسان وأشرف

معه حتى نازل تلمسان بجميع عساكر الموحدتين وحشود زناتة وظعن العرب بعد أن كان قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة بالأعذار والدعاء إلى الطاعة، فرجعهم بالخيبة، ولما حلت عساكر الموحدتين بساحة البلد، وبرز يغمراسن وجوعه للقاء بصحبتهم ناشبه السلطان بالنبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران وعجزوا عن حماية الأسوار، فاستمكت المقاتلة من الصعود. ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد فقصده باب العقبة من أبواب تلمسان ملتقاً في ذوبه وخاصته. واعتراضه عساكر الموحدتين فصمم نحوهم وجندل بعض أبطاهم فأفروا له، ولحقوا بالصحرَاء وتسللت الجيوش إلى البلد من كل حذب، فاقتموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكساح الأموال.

ولما تجلج غشي تلك الهيعة، وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم وأنعم الأمير أبو زكريا نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بغربها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرأ أمراء زناتة ضعفاً عن مقاومة يغمراسن علماً بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته.

وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المسكر فاخطف الناس من حوله، واطلعوا من المراقب عليه. ثم بعث وفده متطارحين على السلطان في الملامة والاتفاق، واتصال اليد على صاحب مراكش طالب الوتر في تلمسان وإفريقية. وأن يفرد به الدعوة الموحدية فأجاب به إلى ذلك. ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم موصلها وأسنى جائزتها، وأحسن وفادتها ومقلبها، وسوغ ليغمراسن في شرطه بعض الأعمال بإفريقية، وأطلق أيدي عماله على جبايته، وارتحل إلى حضرته لسمع عشرة ليلة من نزوله.

وفي أثناء طريقه وسوس إليه الموحدون باستبداد يغمراسن، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة وأمراء المغرب الأوسط شجى في صدره، ومعتزلاً عن مرامه، وإلباسهم ما ليس من شارة السلطان وزيه، فأجابهم وقلد كلاً من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي ومنصور المليكشي أمر قومه ووطنه، وعهد إليهم بذلك وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعتهم، فاتخذوه محضرته وتمشهد من ملأ الموحدتين. وأقاموا مراسمها ببابه. وأغذ السير إلى تونس فريز العين بامتداد ملكه، وبلوغ وطره والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته،

ديوان سبتة لأبي علي بن خلاص، كان من أهل بلنسية واتصل بخدمة الرشيد فجلى فيها. ودفعه إلى الأعمال فضبطها، فولاه سبتة فاستقل بها. وولى على طنجة يوسف ابن الأمير قائداً على الرجل الأندلسي وضابطاً لقصبتها. حتى إذا هلك الرشيد سنة أربعين وستمائه، وقد استفحل أمر الأمير أبي زكريا بإفريقية، واستولى على تلمسان وبايعه الكثير من أمصار الأندلس، فصرف ابن خلاص وجهه إليه.

وكان قد اقتنى الأموال واصطنع الرجال، فدخل في دعوته، وبعث الوفد ببيعته. واقتدى به في ذلك أهل قصر ابن عبد الكريم فبعثوا ببيعتهم للأمير أبي زكريا. وعقد لابن خلاص على سبتة وما إليها، فبعث بالهدية إليه في أسطول أنشأه لذلك سماه الميمون، وأركب ابنه أبا القاسم فيه وافتدأ على السلطان، ومعه الأديب إبراهيم بن سهل، فعطب عند إقلاعه.

ولما رجع الأسطول من أشبيلية كما قدمناه على بقية هذا العطب وحزن أبي علي بن خلاص على ابنه، رغب من قائده أبي الربيع بن الغريفر أن يعمل به بجملة إلى الحضرة، فانتقل بأهله واحتمل ذخيرته. ولما مر الأسطول بمرسى وهران نزل بساحلها فأراح، وأحضر له تين فأكله فأصابه مغص في معاه هلك منه فجأة سنة ست وأربعين وستمائه. وعقد السلطان على سبتة لأبي يحيى بن زكريا ابن عمه أبي يحيى الشهيد بن الشيخ أبي حفص. وبعث معه على الجباية أبا عمر بن أبي خالد الأشبيلي، كان صديقاً لشفاف وعدواً لابن الجند. ولما قتل شفاف لحق بالخضرة فولاه الأمير أبو زكريا أشغال سبتة، استمرت الحال إلى أن كان من استبداد العزفي بسبتة على ما نذكره.

الخبر عن بيعة المرية

لما هلك محمد بن هود بالمرية سنة خمس وثلاثين وستمائه كما ذكرناه واستبد وزيره أبو عبد الله محمد بن الرميحي بها، وضبطها لنفسه وضايقه ابن الأحمر فبعث ببيعته سنة أربعين إلى الأمير أبي زكريا حين أخذ أهل شرق الأندلس بطاعته. ولم يزل ابن الأحمر يحاصره إلى أن تغلب عليه سنة ثلاث وأربعين وستمائه كما ذكرناه في أخباره. وخرج منها إلى سبتة بأهله وذخيرته، وأحله أبو علي بن خلاص محل البر والتكرمة، وأنزله خارج المدينة في بساتين بينوش، وأجمع الثورة بأبي خلاص، فنذر به وتغير له.

فلما رجع الأسطول من أشبيلية ركب الرميحي ولحق بتونس، فنزل على الأمير أبي زكريا وحل من حضرته محل

على أعمال المغرب، فاقتدوا بمن تقدم إلى بيعته من أهل شرق الأندلس ببلنسية ومرسية، وبايعوا للأمير أبي زكريا بن أبي محمد بن أبي حفص واقتدى بهم أهل شريش وطريف، وبعثوا إليه وفدهم ببيعته سنة إحدى وأربعين وستمائه. وسألوا منه ولاية بعض أهل قرابته فولى عليهم أبا فارس ابن عمه يونس بن الشيخ أبي حفص، فقدم أشبيلية وقام بأمرها، وسلم له ابن الجند في نقضها وإبرامها.

ثم انتقض عليه سنة ثلاث وأربعين وستمائه وطرده من البلد إلى سبتة واستبد بأمر أشبيلية، ووصل يده بالطاغية. وعقد له السلم وضرب على أيدي أهل المغارة من الجند وأسقطهم من ديوانه فقتلوه بإملاء قائدهم شفاف واستقبل بأمر أشبيلية. ورجع أبا فارس بن أبي حفص فولاه بدعوة الأمير أبي زكريا فسخطهم الطاغية لذلك وانتقض عليهم وملك قرمونة ومرشانة. ثم زحف إلى حصرهم وسأله الصلح فامتنع. وصار أمر البلد شوري بين القائد شفاف وابن شعيب ويحيى بن خلدون ومسعود بن خيار وأبي بكر بن شريح، ويرجعون في أمرهم آخراً إلى الشيخ أبي فارس بن أبي حفص.

وأقاموا في هذا الحصار سنتين ونازلهم ابن الأحمر في جملة الطاغية، وبعث إليهم الأمير أبو زكريا المدد، وجهاز له الأسطول لنظر أبي الربيع بن الغريفر التينملي. وأوعز له إلى سبتة بتجهيز أسطولهم معه فوصل إلى وادي أشبيلية، وغلبهم أسطول الطاغية على مرسية فرجع. واستولى العدو عليها صلحاً سنة ست وأربعين وستمائه بعد أن أعانهم ابن الأحمر بمده وميرته. وقدم الطاغية على أهل الدخن بها عبد الحق بن أبي محمد البياسي من آل عبد المؤمن، والأمر لله.

الخبر عن بيعة أهل سبتة وطنجة وقصر ابن

عبد الكريم وتصاريق أحوالهم ومآل

أمرهم

كان أهل سبتة بعد إقلاع المأمون عنهم، ونزول أخيه موسى عنها لابن هود قد انتفضوا وأخرجوا عنهم القشتيني والي ابن هود، وقدموا عليهم أحمد البشتي وتسمى بالمقوق. ثم رجعوا إلى طاعة الرشيد عندما بايعه أهل أشبيلية سنة خمس وثلاثين وستمائه. وتقبضوا على البشتي وابنه وأدخلوا السيد أبا العباس ابن السيد أبي سعيد، كان والياً بغمراوة فولوه عليهم. ثم عقد الرشيد على

التكرمة. واستوطن تونس، وتلك بها الضياع والقرى، وشيد القصور إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

الخبر عن بيعة ابن الأحمر

كان محمد بن الأحمر قد اتزى على ابن هود ببلده أرجونة، وتلك جيان وقرطبة وأشبيلية وغرب الأندلس وطالت فتته مع ابن هود وراجع طاعته. ثم انتقض عليه وباع للرشيد سنة ست وثلاثين وستمئة عندما بايعه أهل أشبيلية وسبتة، فلم يزل على ذلك إلى أن هلك الرشيد على حين استفحال ملك الأمير أبي زكريا بإفريقية وتأميله للنصرة والكرة، فحول ابن الأحمر إليه الدعوة، وأوفد بها أبا بكر بن عياش من مشيخة مالقة فرجعهم الأمير أبو زكريا بالأموال للنفقات الجهادية، ولم يزل يواصلها لهم من بعد ذلك إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وستمئة، فأطلق ابن الأحمر نفسه من عقال الطاعة واستبد بسلطانه.

الخبر عن بيعة سجلماسة وانتقاضها

كان عبد الله بن زكريا المرزجي من مشيخة الموحدين والياً بسجلماسة لبني عبد المؤمن. ولما هلك الرشيد وبويع أخوه السعيد سنة أربعين وستمئة، ونميت إليه عن المرزجي عزيمة من القول خشن بها صدره وبعث إليه مستعباً فلم يعبه. ومزق كتابه فخشيته المرزجي على نفسه، واتصل به ما كان من استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ونواحيها، فخطبه بطاعته وأوفد عليه يبعته، فعقد له الأمير أبو زكريا على سجلماسة وأغاثها، وفوض إليه في أمرها ووعد بالمدد من المال والعسكر لحمايتها. وخطب له عبد الله بسجلماسة، وفر إليه من مراكش أبو زيد الكدميوي بن واكاك، وأبو سعيد العود الرطب، فلحق بتونس. وأقام أبو زيد معه بسجلماسة. وزحف إليه السعيد سنة إحدى وأربعين وستمئة، وقيل سنة أربعين، ومن معسكره كان مفر أولئك المشيخة. وخاطب السعيد أهل سجلماسة وداخلهم أبو زيد الكدميوي فغندروا بالمرزجي وثاروا به، فخرج من سجلماسة وأسلمها، وقام بأمرها أبو زيد الكدميوي. وطير بالخبر إلى السعيد ف شكر له فعلته، وغفر له سالفته. وتقبض على عبد الله المرزجي بعض الأعراب، وأمكن منه السعيد فقتله وبعث برأسه إلى سجلماسة فنصب بها، ورجع من طريقه إلى مراكش وأقامت سجلماسة على دعوة عبد المؤمن إلى أن كان من خبرها ما تذكره في موضعه.

الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة بني مرين

كان بين بني عبد الواد وبين بني مرين منذ أوليتهم وتقلبهم في القفار فتن وحروب، ولكل منهما أحلاف في المناصرة وأشباع. فلما التاثت دولة بني عبد المؤمن غلب كل منهما على موطنه، وكانت السابقة في ذلك لبني عبد الواد لبعدهم عن حضرة مراكش حيث محشر العساكر ويعسوب القبائل. ولما استبد الأمير أبو زكريا بأمر إفريقية، ودوخ المغرب الأوسط وافتتح تلمسان، وأطاعه بنو عبد الواد، حذر بنو مرين حيث شذ غائلتهم. وخافوا أن يظهروهم الأمير أبو زكريا عليهم، فآلأوا له في القول ولاطفوه على البعد بالطاعة، وخاطبوه بالتمويل، وأوجبوا له حق الخلافة، ووعدوه أن يكونوا أنصاراً لدعوته وأعاوناً في أمره، ومقدمة في عسكره إلى مراكش وزحفه. وحملوا من تحت أيديهم من قبائل المغرب وأمصاره على طاعتهم، والاعتصام ببيعتهم. ولم تنزل المخاطبات بينهم وبين الأمير أبي زكريا في ذلك من أمرهم عثمان بن عبد الحق وأخيه محمد من بعده. ورسلمهم تقد عليه بذلك مرة بعد أخرى إلى أن هلك الرشيد. وقد استولى الأمير أبو زكريا على تلمسان، ودخل في دعوته قبائل زناتة بالمغرب الأوسط واستشرف أهل الأمصار من العدوتين إلى إياكته. وكان أهل مكناسة قد اعتصموا بوصلة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، وجاءهم وال من مراكش وأسأه فيهم السيرة فتوثبوا به وقتلوه. وبعثوا إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، فحملهم على بيعة الأمير أبي زكريا فانفذوها من إنشاء قاضهم أبي المطرف بن عميرة سنة ثلاث وأربعين وستمئة. وضمن أبو يحيى بن عبد الحق حمايتهم خلال ما يأتيهم أمر السلطان من تونس ومدده، وبلغ الخبر إلى السعيد فأرشف حده واعتزم على النهوض إليهم فخامهم الرعب، وراجعوا طاعته وأوفدوا صلحاءهم وعلماءهم في الإقالة واغتفار الجريدة، فتقبل ذلك إلى أن كان من حركته بعد ذلك ومهلكه ما هو معروف.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى زكريا ولي العهد بمكان إمارته من بجاية وتصيير العهد إلى أخيه محمد

كان الأمير أبو زكريا قد عقد لابنه أبي يحيى زكريا على ثغر

الحق. ولا ترع في فاجر متصرف إلا ولا ذمة، ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعية والمتظلمين. ولا تنف عند مراده في أحوالهم.

واتخذ لنفسك ثقة صادقين مصدقين، لهم في جانب الله أوفر نصيب، وفي مسائل خلقه إليك أسرع مجيب. وليكن سؤالك لهم أفذاذ، فأنت متى اقتضت على شخص واحد في نقله ونصحه، حله الهوى على الميل، ودعته الحمية إلى تجنب الحق، وترك قول الصدق. وإذا رفع إليك أحد مظلمة، وأنت على طريق، فادعه إليك وسله حتى يوضح قصته لك. وجاوبه جواب مشفق مصغ إلى قوله، مصيخ إلى نازلته ونقله، ففسي إصاحتك له وحنوك عليه أكبر تأنيس، وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة والعامة، والجمهور أعظم تأسيس.

وأعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالله واليوم الآخر إلا في حق أوجب الكتاب والسنة، وعضدته أقاريل الشريعة والحجة، أو في مفسد عاث في طرقات المسلمين وأموالهم جار على غيه في فساد صلاتهم وأحوالهم، فليس إلا السيف فإن أثره عفا ووقعه لداء الأدمة الفاسدة دواء، ولا تغفل عثرة حسود على النعم، عاجز عن السعي، فإن إقالتة تحمله على القول، والقول يجعله على الفعل، ووبال عمله عائد عليك. فاحسم داءه قبل انتشاره، وتدارك أمره قبل إظهاره، واجعل الموت نصب عينك، ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يديك. لا تنقلب إلى ربك إلا بما قدمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح.

واعلم أن الإيثار أربع المكاسب وأنجح المطالب، والقناعة مال لا ينفد. وقد قال بعض المفسرين في قوله عز من قائل: ﴿وَتَزَكَّيْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ إنه النبا الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الأعمال المشكورة، والفعلات الصالحة المذكورة. فليكنك من دنياك ثوب تلبسه وفرس تذب به عن عباده. وأرجو بك متى جعلت وصيتي هذه نصب عينك، لم تعد من ربك فتحاً يسره على يديك، وتأييداً ملازماً لا يبرح عنك إلا إليك، بمن الله وحوله وطوله. والله يجعلك ممن سمع فوعى، ولبي داعي الرشيد إذ دعا، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تمت الوصية المباركة، فغظم ترشيح الأمير أبي يحيى لذلك، وعلا في الدولة كعبه، وقوي عند الكافة تأميله، وهو بحالة من النظر في العلم والجنوح للدين، إلى أن هلك سنة ست وأربعين وستمئة، فأسى له السلطان، واحتفل الشعراء في رثائه وتأيينه، فكانوا يثيرون بذلك شجو السلطان، ويعثون حزنه، وعقد العهد

بجاية قاعدة ملك بني حماد، وجعل إليه النظر في سائر أعمالها من الجزائر وقسطنطينة وبونة والزاب سنة ثلاث وثلاثين وستمئة كما ذكرناه، فاستقل بذلك، وكان بمكان من الترشيح للخلافة بنفسه وجلاله، وانتظامه في سلك أهل العلم والدين وإيناس العدل. فولاه الأمير أبو زكريا عهده سنة ثمان وثلاثين وستمئة، وأحضر الملأ لذلك وأشهدهم في كتابه، وأوعز بذكره في الخطبة على المنابر مع ذكره. وكسب إليه بالوصية التي تداولها الناس من كلامه ونصها:

اعلم سدك الله وأرشدك، وهداك لما يرضيه وأسعدك، وجعلك عمود السيرة، مأمون السريرة. إن أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه، وجعله مسؤولاً عن رعيته في جل أمرهم ودقه، أن يقدم رضى الله عز وجل في كل أمر يحاوله، وأن يكمل أمره وحوله وقوته لله، ويكون عمله وسعيه وذبه عن المسلمين، وحربه وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه، والبراءة من الحول والقوة إلا إليه. ومتى فاجأك أمر مقلق، أو ورد عليك نبا مرهق، فريض لبك، وسكن جاشك، وارع عواقب أمر تأتبه، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه. ولا تقدم إقدام الجاهل، ولا تحجم إحجام الأخرق المتكامل.

واعلم أن الأمر إذا ضاق بمجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم، وذوي التجارب من نهائهم. ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه، والإحسان لكبير جيشك وصغيره الكثير على قدره، والصغير على قدره. ولا تلحق الحقير بالكبير فتجري الحقير على نفسك، وتغلطه في نفسه وتفسد نية الكبير وتؤثره عليك، فيكون إحسانك إليه مفسدة في كلا الوجهين، ويضيع إحسانك وتشتت نفوس من معك.

واتخذ كبيرهم أباً وصغيرهم ابناً، واخضع لهم جناح الذل من الرحمة، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين.

واتخذ نفسك صغيرة، وذاتك حقيرة، وحقر أمورك، ولا تستمع أقوال الغالطين المغلطين، بأنك أعظم الناس قدراً، وأكثرهم بذلاً، وأحسنهم سيرة وأجلهم صبراً، فذاك غرور وبهتان وزور.

واعلم أن من تواضع لله رفعه الله. وعليك بتفقد أحوال رعيته والبحث عن عمالهم والسؤال عن سير قضائهم فيهم، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحداً فيهم. ومهما دعت لكشف ملمة فاكشفها عنهم، ولا ترع فيهم كبيراً ولا صغيراً إذا عدل عن

والوفاة، واستعمل في خطة القضاء بالحضرة أيام السلطان، وكان له فيه ذكر.

ولما بلغ الخبر بمهلك الأمير أبي زكريا إلى صقلية أيضاً، وكان المسلمون بها في مدينة بلرم قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الاشتراك في البلد والضاحية، فتساقنوا حتى إذا بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى إلى العيث فيهم فلجأوا إلى الحصون والأوعار، ونصبوا عليهم ثائراً من بني عبس، وحاصروهم طاعة صقلية بمعقلهم من الجبل. وأحاط بهم حتى استتزلهم. وأجازهم البحر إلى عدوته، وأنزلهم بوجاره من عمارها. ثم تعدى إلى جزيرة مالطة فأخرج المسلمين الذين كانوا بها، وأحقهم بإخوانهم. واستولى الطاغية على صقلية وجزارها. وعما منها كلمة الإسلام بكلمة كفره، والله غالب على أمره.

الخبر عن بيعه السلطان أبي عبد الله المستنصر وما كان في أيامه من الحوادث

لما هلك الأمير أبو زكريا بظاهر بونة سنة سبع وأربعين وستمائة كما قدمناه اجتمع الناس على ابنه الأمير أبي عبد الله، وأخذ له البيعة عمه محمد اللحياني على الخاصة وسائر أهل المعسكر، وارتحل إلى تونس فدخل الحضرة ثالث رجب من السنة، فجدد بيعته يوم وصوله وتلقب المستنصر بالله. ثم جدد البيعة بعد حين، واختار لوضع علامته: الحمد لله، والشكر لله. وقام بأعباء ملكه، وتقبض على خاصة أبيه الخصي كافور، كان قهرمان داره، فأشخصه إلى المهدي، وأوعز إلى الجهات بأخذ البيعة على أهل العمالات فترادفت من كل جانب. واستوزر أبو عبد الله بن أبي مهدي، واستعمل على القضاء أبا زيد التوزري وكان يعلم ولد عمه اللحياني الناصر عليه كما نذكره.

الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحياني ومقتله ومقتل أبيه

كان للأمير أبي زكريا من الإخوة اثنان: محمد وكان أسن منه ويعرف باللحياني لطول لحيته، والآخر: أبو إبراهيم، وكان بينهم من المخالصة والمصافاة ما لا يعبر عنه.

ولما هلك الأمير أبو زكريا، وقام بالأمر ابنه أبو عبد الله المستنصر، واستوزر محمد بن أبي مهدي اهتاتني، وكان عظيمياً في قومه، فأمل أن يستبد عليه لكان صغره، إذ كان في سن العشرين

من بعده لأخيه الأمير أبي عبد الله محمد، بحضور الملأ، وإيداع الخاصة كتابهم بذلك في السجل، إلى أن كان من خلافته ما نذكره بعده.

الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما كان عقبه من الأحداث

كان السلطان أبو زكريا قد خرج من تونس إلى جهة قسطنطينة للإشراف على أحوالها، ووصل إلى باغاية فعرض العساكر بها، ووافته هنالك الدواودة، وشيخهم موسى بن محمد. وكان منه اضطراب في الطاعة فاستقام. وأصاب السلطان هنالك المرض فرجع إلى قسطنطينة. ثم أبل من مرضه، ووصل منها إلى بونة، فراجع المرض. ولما نزل بظاهر بونة اشتد به مرضه. وهلك لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة لاثنتين وعشرين سنة من ولايته، ودفن بجامع بونة. ثم نقل شلوه بعد ذلك إلى قسطنطينة سنة ست وستين وستمائة بين يدي حصار النصارى تونس. ويبيع إثر مهلكه ابنه ولي عهده أبو عبد الله محمد كما نذكره. وطار خبر مهلكه في الآفاق، فانتفض كثير من أهل القاصية، ونبذوا الدعوة الحفصية، وعطل ابن الأحمر منابره من الدعوة الحفصية. وتمسك بها يغمراسن بن زيان صاحب المغرب الأوسط، فلم يزالوا عليها حتى من الدهر، إلى أن انقطعت في حصار تلمسان كما نذكره. ولما بلغ الخبر بمهلكه إلى سبتة، وكان بها أبو يحيى بن الشهيد من قبل الأمير أبي زكريا كما نذكره، وأبو عمرو بن أبي خالد، والقائد شفاف، فثارت العامة وقتل ابن أبي خالد وشفاف، وطردوا ابن الشهيد فلحق بتونس. وتولى كبير هذه الثورة حجبون الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي.

واتفق الملأ على ولاية العزفي، وحولوا الدعوة للمرتضى، وذلك سنة سبع وأربعين وستمائة، وتبعهم أهل طنجة في الدعوة، واستبد بها ابن الأمير، وهو يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني، وكان والياً عليها من قبل أبي علي بن خلاص. فلما صار الأمر للعزفي والقائد حجبون الرنداحي، خالفهم هو إلى الدعوة الحفصية، واستبد عليهم. ثم خطب للعباسي وأشرك نفسه معه في الدعاء، إلى أن قتله بنو مرين غدرًا كما نذكره، وانتقل بنوه إلى تونس ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها وأصهر إليهم بنو الأمير، وارتحلوا معهم إلى تونس. وعرف دين القاضي أبي القاسم فضله ومعرفته بالأحكام

تلك القوراء، وقد وثقوا باعتراض البناء لها من أمام فيقضي وطراً من ذلك القنيص سائر يومه، فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها. ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطائبة بمخاطين ممتدين بمجوزان عرض العشرة أذرع أو نحوها طريقاً سالكاً ما بينهما، وعلى ارتفاع عشرة أذرع يحتجب به الحرم في خروجهم إلى تلك البساتين عن ارتفاع العيون عليهن، فكان ذلك مصنعاً فخماً واثراً على أيام الدولة خالداً.

ثم بنى بعد ذلك الصرح العالي بفناء داره ويعرف بقبة أساراك. وأساراك باللسان المصمودي هو القوراء الفسيحة. وهذا الصرح هو إيران مرتفع السماك متباعد الأقطار متسع الأرجاء يشرع منه إلى الغرب، وجانيه ثلاثة أبواب لكل باب منها مصرعان من خشب مؤلف الصنعة ينوء كل مصرع منها في فتحه وغلقه بالعصبة أولي القوة. ويقضي بابها الأعظم المقابل لسمت الغرب إلى معارج قد نصبت للظهور عليها عريضة ما بين الجوف إلى القبلة بعرض الأيوان، يناهز عددها الخمسين أو نحوها، ويقضي البابان عن جانبيه إلى طريقتين يتهيان إلى حائط القوراء. ثم ينعتفان إلى ساحة القوراء يجلس السلطان فيها على أريكته مقابل الداخل أيام العرض والفود ومشاهد الأعياد، فجاءت من أضخم الأواوين وأحفل المصانع التي تشهد بأبهة الملك وجلالة الدولة.

واتخذ أيضاً بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبي فهر، يشتمل على جنات معروشات وغير معروشات، اغترس فيها من شجرة كل فاكهة من أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب، وسائر الفواكه وأصناف الشجر. ونضد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلع والشجر البري، وسمى دوح هذه بالشعراء واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحوائز وشجر النور والنزه من الليم والتارنج والسرو والريحان، وشجر الياسمين، والخيري والنبولوفر وأمثاله. وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة، وصنع فيه للماء حائزاً من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة، كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة تسلك بطن الأرض في أماكن، وتركب البناء العادي ذا الهياكل المائلة والقسي القائمة على الأرجل الضخمة في أخرى، فعطف هذه القناة من أقرب السموات إلى هذا البستان. وأمطاها حائطاً وصل ما بينهما حتى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جب عميق المهوى، رصيف البناء متباعد الأقطار مربع القناة مجلل بالكلس، إلى أن يغمره الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية، فينبعث في الصهريج إلى أن يفهق حوضه، وتضطرب أمواجه تترفع الخطايا عن السعي بشاطئه لبعده

ونحوها. واستصعب عليه حجر السلطان بما كان له من الموالى العلوجيين، والصنائع من بيوت الأندلس. فقد كان أبوه اصطنع منهم رجالاً، ورتب جنداً كثراً الموحدون وزاحوهم في مراكزهم من الدولة. فدخل ابن أبي مهدي أخوي السلطان، وبعث عندهما الأسف على ما فاتهما من الأمر، فلم يجد عندهما ما أمل من ذلك. فرجع إلى ابن محمد اللحاني، فأجابه إلى ذلك. وبإيعه ابن أبي مهدي سرّاً، ووعدته المظاهرة. ونمي الخبر بذلك إلى السلطان من عمه محمد اللحاني وحذره من غائلة ابنه، وأبلغه ذلك أيضاً القاضي أبو زيد التوزري منتصهاً.

وبأكر ابن أبي مهدي مقعده للوزارة بباب السلطان لعشرين من جمادى سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتقبض على الوزير أبي زيد بن جامع. وخرج ومشىة الموحدون معه، فبايعوا لابن محمد اللحاني بداره، واستركب السلطان أوليائه. وعقد للقائد ظافر على حربهم فخرج في الجند والأولياء، ولقي الموحدون بالمصلى خارج البلد، ففض جميعهم، وقتل ابن أبي مهدي وابسن وازكلدن وسار ظافر مولى السلطان إلى دار اللحاني عم السلطان فقتله وابنه صاحب البيعة، وحمل رؤوسهما إلى السلطان. وقتل في طريقه أخاه أبا إبراهيم وابنه، وانتهب منازل الموحدون وخربت. ثم سكنت الهبة وهذات الثورة، وعطف السلطان على الجند والأولياء وأهل الاصطناع، فأدر أرزاقهم ووصل تفقدتهم. وأعاد عبد الله بن أبي الحسين إلى مكانه بعد أن كان هجره أول الدولة، وتزحزح لابن مهدي عن رتبته، وتضاءل لاستطالته، فرجع إلى حاله واستقامت الأمور على ذلك. ثم سعى عند السلطان بمولاه الظافر، وقبحوا عنده ما أتاه من الأفتيات في قتل عميه من غير جرم. ونذر بذلك فخشي البادرة ولحق بالداودة، وكان المتولي لكبر هذه السعاية هلال مولاه، فعقد له مكانه واستنفر ظافر في جوار العرب طريداً، إلى أن كان من أمره ما كان.

الخبر عن الآثار التي أظهرها السلطان في

أيامه

فمنها شروعه في اختطاط المصانع الملوكية، وأولها المصيد بناحية بنزرت. اتخذه للصيد سنة خمسين وستمائة، فأدار سياجاً على بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد، بحيث لا يراع فيه سرب الوحش، فإذا ركب للصيد تحطى ذلك السياج إلى قوراء في لمة من مواليه المتخصين وأصحاب بيزرته، بما معهم من جوارح بزة وصقوراً وكلاباً سلوقية وفهوداً، فيرسلونها على الوحش في

السلطان أبي إسحاق، ويبد الله تصارييف الأمور.

الخبر عن بني النعمان ونكبتهم والخروج أثرها إلى الزاب

كان بنو النعمان هؤلاء من مشيخة هتانة ورؤسائهم، وكان لهم في دولة الأمير أبي زكريا ظهور ومكان، وخلصت ولاية قسطنطينة لهم يستعملون عليها من قرابتهم. واتصل لهم ذلك أول دولة المستنصر، وكان كبيرهم أبو علي وتلوه ميمون وعبد الواحد، وكان لهم في مداخلة اللحياني أثر. فلما استوسق للسلطان أمره، وتمهدت دولته نكبتهم وتقبض عليهم سنة إحدى وخمسين وستمائة، فأشخص أبا علي إلى الإسكندرية، وقتل ميمون وانقرض أمرهم. وظهر أثر ذلك بالزاب خارج تسمى بأبي حمارة، فخرج السلطان من تونس وقصده بالزاب، فأوقع به وبجموعه عليه، وسبق إلى السلطان قتلته، وبعث برأسه إلى تونس فنصب بها. وقتل السلطان إلى مقره فنزل بها، وسخط وجوهاً من سليم: من مرداس ودباب، كان فيهم رحاب بن محمود وابنه، فاعتقلهم وأشخصهم إلى المهديّة فأودعهم بمطبخها ورجع إلى تونس ظافراً غانماً.

الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية

كان صاحب مكة ومتولي أمرها من سادة الخلق وشرفائهم ولد فاطمة، ثم من ولد ابنها الحسن صلوات الله عليهم أجمعين، أبو نعيم وأخوه إدريس، وكانوا قائمين بالدعوة العباسية منذ حولها إليهم بمصر والشام والحجاز صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي، وأمر الموسم وولايته راجعة إليه، وإلى بنيه ومواليه من بعده إلى هذا العهد. وجرت بينهم وبين الشريف صاحب مكة مغاضبة وافقها استيلاء الططر على بغداد، ومحوهم رسم الخلافة بها، وظهور الدعوة الحفصية بإفريقية، وتأميل أهل الأناضول فيها وامتداد الأيدي إليها بالطاعة. وكان أبو محمد بن سبعين الصوفي نزلياً بمكة، بعد أن رحل من بلده مرسية إلى تونس، وكان حافظاً للعلوم الشرعية والعقلية، وسالكاً مرتاضاً بزعمه على طريقة الصوفية. ويتكلم بمذاهب غريبة منها، ويقول برأي الوحدة كما ذكرناه في ذكر المتصوفة الغلاة، ويزعم بالتصوف في الأكران على الجملة، فأرهب في عقيدته، ورمي بالكفر أو الفسق في كلماته،

مداه فركين في الجوّاري المنشئات تبعه، فيتبارى بهن تباري الفتح، ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبتان متقابلتان كبيراً وصغيراً على أعمدة المرمر، مشيدة جوانبها بالرخام المنجد، ورفعت سقفها من الخشب المقدّر بالصنائع المحكمة والأشكال المنمقة، إلى ما اشتملت عليه هذه الرياض من المقاصير والأواوين والحوائز والقصور وغرفاً من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، وتأنق في مبانيه هذه واستبلغ وعدل عن مصانع سلفه ورياضهم إلى متنزهاته من هذه، فبلغ فيها الغاية في الاحتفال وطار لها ذكر في الآفاق.

الخبر عن فرار أخيه أبي إسحاق وبيعة رياح له وما قارن ذلك من الأحداث

كان الأمير أبو إسحاق في إيالة أخيه المستنصر، وكان يعاني من خلقه وملكنه عليه شدة، وكان السلطان يخافه على أمره وخرج سنة إحدى وخمسين وستمائة لبعض الوجوه السلطانية، ففر الأمير أبو إسحاق من معسكره، ولحق بالدواودة من رياح، فبايعوه بروايا من نواحي نقاوس، واجتمعوا على أمره. وبايع له ظافر مولى أبيه النازع إليهم واعتقد منه الذمة والرتبة، وقصدوا بسكرة وحاصروها، ونادى بشعار طاعتهم فضل بن علي بن الحسن بن مزني من مشيختها. واتمر به المثل ليقتلوه، ففر إليه وصار في جلته. ثم بايع له أهل بسكرة ودخلوا في طاعته. ثم ارتحلوا إلى قابس فنازلوها، واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب. وأهم السلطان شأنه، وتقبض على ولده فحبسهم بالقصبة جميعاً. ووكل بهم من يحوطهم وألف ابن أبي الحسين الحيلة في فساد ما بين الأمير أبي إسحاق ومولاه ظافر، بتحذير ألقاه إلى أخته بالحضرة تنصحاء، فبعث به إلى أخيه، فتكر لظافر وفارقه، وسار إلى المغرب. ثم لحق بالأندلس، واقترب جموع الأمير أبي إسحاق فلحق بتلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس. ونزل على السلطان محمد بن الأحمر فرعى له عهد أبيه، وأسنى له الجراية. وشهد هنالك الوقائع، وأبلى في الجهاد. ولم يزل السلطان المستنصر يتاحف ابن الأحمر ويهاديه، ويوفد عله مشيخة الموحدين مصانعة في شأن أخيه واستجلاء حاله، إلى أن هلك. وكان من ولاية أخيه أبي إسحاق ما ذكره لحين مهلكه أجاز ظافر من الأندلس إلى بجاية. وأوفد ولده على الواثق مستعباً وراعياً في السبيل إلى الحج. وقلق المستولي على الدولة بمكانه، وراسل شيخ الموحدين أبا هلال عياد بن محمد الهتاني صاحب بجاية في اغتياله من قصده، فذهب دمه هدراً وبقي ولده عند بني توجين حتى جاؤوا في جملة

محمد ﴿حَم﴾ وَالْكِتَابَ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. قد صح أن هذه الليلة فيها تنزل الآيات وترتقب البيئات، وفيها تخصيص القضايا الممكنة وأحكام الأكوام ويفرق الأمر، ويفسر الملك الموكل بقبض الأرواح بحمل الأجال في الأزمان، وفيها تقرر خطة الإمامة والملوك، وتقبض الإمامة بالملك، وهي في القول الأظهر في أفضل الشهور، وفي السابغ والعشرين منه كما ورد في الحديث المشهور. ثم هي في أم القرى وفي حرماها تقدر بقدر زائد، ويعم فضلها إلا للحائد عن الفائد، وإنما قلت هذا ورسمته ليعلم من وقف على الخطبة التي اقتضبتها، واللبلة التي فيها قرأتها، أنها من أفضل المطالب التي قصدت، وأن القرائن التي اجتمعت فيها ولها، زادت على الفضائل التي لأجلها رصدت، وأيضاً تأخر فيها مجد إمام عن إمام، وبعد مجد إمامه وراء إمام وهو وراء الإمام، ورحمت فيها نفس خليفة عبرت وتلقب وعظمت فيها ذات خليفة تحمي التي سلفت، فهذه نعمة بركة ينبغي أن يقرر حدها ويتحقق مجدها، ولا يقدر قدرها فإنها ليلة قدر، ليلة قدرها.

والحمد لله حمداً واصلًا: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على واحد الله في عنايته سيدنا محمد ﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ الحق الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته، وفي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل والمتعارف من عادته التي ربطها بحكمته التي تعدل ولا تعدل، إن لكل هداية نبوية ضلالة فرعونية، وكذا الحال في الأولياء، ومع كل مصيبة فرج، ولا ينعكس الأمر في الأتقاء. ولكل ظلم ظالم متجبر فخر قاهر متكبر، وعند ظهور ظفر المبطل يظهر قصد الحق المفضل. وفي عقب كل فترة أو فيها كلمة قائم بحق يغلب لا يغلب، وفي كل دور أو قرن إمامة تطلب بشخصها ولا تطلب، وكواكب الكفر إذا طلعت على أفق الإيمان فيه نكب آقله، وكلمة الله إذا عورضت تكرر معارضتها قافلة. وإنما ذكرت ذلك بعد الذكر المحفوظ لينذكر بالآيات الظاهرة إلى الآيات القاهرة. وليعلم كل مؤمن أن كلمة الله متصلة الاستصحاب والسبب، وعاملة في الأشياء مع الأزمان والحقب، وأن رجال الملة والخليفة أعلى المنازل والرتب. ولذلك يقول في نوع فرعون الأذل، ونوع موسى الأجل: أشخاصها متعددة، وأكوانها متحدة، والله غالب على أمره. وقد قيل: إن الملة الحنيفية المضربة تنصرها السيرة العمرية المحمدية المستنصرية.

ولعل الذي أقام الدين وأطاعه من المشرق وأتلفه منه،

وأعلن بالنكير عليه والمطالبة له شيخ المتكلمين بأشيلية. ثم بتونس أبو بكر بن خليل السكوني، فتمت له المشيخة من أهل الفتيا وحلة السنة وسخطوا حالته.

وخشي أن تأسره البيئات فلحق بالمشرق ونزل مكة، وتذمم بجوار الحرم الأمين، ووصل يده بالشريف صاحبها. فلما أجمع الشريف أمره على البيعة للمستنصر صاحب إفريقية، داخله في ذلك عبد الحق بن سبعين وحرصه عليه، وأملى رسالة يبعثهم، وكتبها بخطه تنوياً بذكره عند السلطان والكافة، وتأميلاً للكرة ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على الأسوة المختار سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَتَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

هذا النوع من الفتح - أعني المبين - هو من كل الجهات داخل الذهن وخارجه، وهو الذي خصت به مكة، وهو أعظم فتح نذر في أيام الدهر والزمان الفرد منه خير من أيام الشهر، وبه تتم النعمة، ويستقيم صراط الهداية، وتحفظ النهاية، وتغفر ذنوب البداية، ويحصل النصر العزيز، ونور السكينة، وتمكن قواعد مكة والمدينة. وكلمة الله عاملة في الموجودات بحسب قسمة الزمان. ثم لا يقال: إنها متوقفة على شيء، ولا في مكان دون مكان.

وهذا الفتح قد كان بالقصد الأول والقدر الأكمل، للمتبع الذي أفاد الكمال الثاني كالسبع المشائي، فإنه هو الإسوة ﷺ، وكل نعمة تظهر على سعيد ترجع إليه مثل التي ظهرت على خليفته وعلى يديه. وإن كانت نصبة مولده ﷺ ورسالته تقتضي ختم الأنبياء بهذا القرن الذي نحن فيه، وأماننا فيه هو ختم الأولياء. فمن فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة، ورفع له الدرجة، وضفت عليه الرحمة. ومن وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشد وسار على صراطه، ورجح ميزان ترجيحه على أقرانه وأرطاطه. ومن حرم هذا فقد حرم من ذلك، والأمر هكذا.

وسنة الله كذلك، وصلى الله على رسوله الذي طلع المجد من مدينته بعدما أطلعه من بلده، ورضي الله عن خليفته المنتخب من عصر خليفة عمر صاحب نبيه، ثم من عمر صاحبه ووليه والحمد لله على نعمه.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد ولد آدم

والذي يشاركه في الاسم ويقاسمه في إطلاقه فقط لا يصدق عليه، إذ هو أضعف من ذرة في كرة، ومن غلة في رملة. وأقفر من قصد طالب السراب، ويده مع أبيس من التراب فصيح بالسبب والتقسيم، ويتصفح الموجودات والأزمان والدول والمراتب والنوعت إنه هو لا شريك له فيها، والمصحح لذلك كله، والذي يصدق وينطبق عليه مدلول الحديث كرمه الذي يعجز عنه الحد، ولا يتوقف فيه العد. وهذا خليفة الملة كذلك، وهذه دلالة هي أوضح من نار على علم. وهذه خصاله شاهدة له بفصائل السيف والقلم، وهذه خزائنه تغلب الطالب وتعجز عن الدافع، وهذه سعوده في صعوده، وهذه متاجر تعويله على الله راحة وهذه أحواله بالكلية صالحة، وهذه سعائته ناجحة. ثم هذه موازين ترجيحه راجحة، والحمد لله كما يجب. وما النصر إلا من عند الله وصلى الله على عبده محمد بن عبد الله إنه من بكة، وإنه للحق، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، وإنه إلى خضر لا تحصر الحصرة، ويعدر فيها النذر، ويحافظ على سنة الرؤوف الرحيم. ﷺ .

أما بعد فبهذاهم اقتداه، الحمد لله الذي أحسن بمقام الإحسان ونعم النعمة، وبين لمن تبين علم البيان، وحكم لمن أحكم الحكمة وسبقت في صفات أفعاله صفة الرحمة وذكر الهداية في كتابه بعد ذكر النعمة، هو الرؤوف بالبرية وهو الرحيم والحفي بالحنيفية، وهو القاهر الماضي المشيئة الذي يقبض ويبسط المشيئة. شهد له بالكمال الممكن الذي أبرزه وخصصه وعرفه بالجلال من يسره لذلك وخلصه. هو الذي استعمل عليها من اختاره لإقامة النافلة والفرض، وأعمى من أهلها من توسل له بنية العرض وأعتق العقاب وسر العقاب وأهمل العقاب بطاعة من يستعمر به الربيع المعمور، وأنعم على المستضعفين في الأرض بإمام يجر الجدد في بحر خصاله يعد بعض البعض.

سته محمديّة، وسيرته بكرية وسريرته علوية، وسلالته عمرية. فهذه ذرية وأنواع مجد بعضها من بعض، بل هذه خطوط فصل الطول فيها مثل العرض. عرف بالرياسة العالية، ووصف بالفاقة السالية، وشهد له بذلك الخاص العام ونزهه من البقائص. النزاهة النفس، ومن نزاهه في سلطانه علمه العام. صلى الله على الأسوة الرؤوف بالمؤمنين، سيدنا محمد الذي أنزل عليه التنزيل، وكتب اسمه في صحيح القصص والنصوص، وبنى الله أئمة أمته الذين شبههم بالنبيا الموصوف، وعلى آله وصحبه الكرام البررة الذين اصطفاهم وطهرهم، ثم أيدهم فظهروا الأرض من الكفرة الفجرة. وأخرج من ظهورهم ذرياتهم، بالدين

ويجيره من المغرب ولا ينقله عنه، فينبغي لمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما يجب كما يجب أن لا يتغير قصده ولا يتوقف عند سماع المهلكات حمده، قد قيدت أقدام قوم بشرك الشرك، وحملهم الضجر إلى الهلك بطاعة الترك وكع كيد الكنود هلك كنعان وكل بصر بصيرته، وليس لهم الذل بالعرض، وجعل مصيبة الدين تفتته مع جحوده لسلطان السنة والفرض. وأما همامان المرتدين فليس هم بالمؤمنين، وعلا فرعون الشر في الأرض، والله بمن على المستضعفين في الأرض بنصر من عنده، ويهلك المفسدين بجند من رفده. وينبغي أو يجب أن نضرب عن ذكر كائنة مدينة السلام، فإنها تزلزل الطبع وتحمل الروح إلى ساحة الشام أو تفرع في صلاة كسوف شمس سرورها إلى التسليم بالاستسلام وتكبر أربع تكبيرات على الإنس ويودع بعد ذلك وعد وسلام، ويتنظر قيامه بقيام أمر عجيبي الدين والإسلام، والحمد لله على كل حال.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الذي أعجزت خصاله العد والحد، مسلم والطبقة قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمي خليفة يحثي المال حيث لا يعده عداء». وقال ﷺ: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعد». زاد أبو العباس الهمداني، وأشار بيده إلى المغرب.

وذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمة التي زعم أنه لا يثبت فيها من الأخبار إلا ما صححته روايته، ولا يذكر من الأحكام المنسوبة إلى الصنائع العملية إلا ما أبرزته درايته. ولا يعتبر من الأعلام الدينية إلى ما أدركته هدايته. قال في الترجمة الأولى: إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند.

ذكرت هذا ليعلم المقام أيده الله أنه هو المشار إليه، وأنه الذي يعول في إصلاح ما فسد بحول الله عليه. ومن تأمل قوله ﷺ: «يكون في آخر الزمان» الحديث، تبين له ما أردناه وذلك يظهر من وجوه، منها: أن الخليفة المذكور لم يسمع به فيما تقدم، ولا ذكر في الدول الماضية، ولو ذكر لرددنا القول به وأهملناه لأجل تقيده بآخر الزمان.

والثاني: أن آخر الزمان الذي يراد به ظهور الشروط المتوسطة، وأكثر العلامات المنذرة بالساعة هو هذا بعينه.

الثالث: لا خليفة لأهل الملة في وقتنا هذا غير الذي قصدناه.

وهذه أقطار الملة منحصرة ومعلومة لنا من كل الجهات،

أظهرهم، وسر بهم السبيل ثم السبيل يسره.

أي غاية تطلب بعد طاعته، وأي تجارة تنظر مع بضاعته، له الحمد بيده الملك والأمانة، بل له الكل بفضل الله وفيه المقصد والسلامة، لا بل له الفتح المبين وتيسيم النعمة والهداية ونور السكينة، وفيه الإمارة والعلامة. منير مكة بإزاء بيت بكة خطب بخطبته، والذي ذهب بالمدينة يطلب فلعله يسعفه في خطبته أفئدة السر تطير إذا سمعت بذكره، والمهندات البئر تلين لباس ساعده. ويقول طباع أربابها بشكره دولة التوحيد، توحدت له إذ هو واحدها الأوحاد، وسياسة التسديد تحكمت له فهو مدبرها الأرشد. ومع هذا كتابته أهملت صيت الصادين، وكورت شمس الفتح، ثم الفتح والصادين.

وكذلك الثلاثة الذين من قبلهم لا نذكر معه الأديب حبيب في رد الإعجاز على الصدور، فإنه الذي يعتبر في ذلك والذي يصدر عنه واقع في الصدور، وأفعل في طباع المهرة وفي نفوس الصدور يتأخر عن شعره شعر الرجلين. وبعده نذكر الطبقة، ثم شعراء نجد، والخب والجيلي والولد بعده والهذلي، والمؤكد هو تقديمه في المغرب من ذلك. والهذلي علوم الأدب، الخمسة ثمنها وسادسها وسابعها زاده من عند نفسه. وخليل النحو لو حضر عنده كان خليله في تحصيل نوعه وجنسه، والفارسي تلميذه ثم الآخر بعده والأخفش الكبير ثم الصغير ما ضرب لهم من قبل في مثله بنصيب. وأقام أئمة النحو تنحو نحو بنحو ينحو نحو نحو، ثم لا يكون كالمنصب. وكل كوفي بل كل بصري يحب الظهور إذا سمع به اختفى، والمنصف منهم هو الذي ينحو اكتفى. أئمة الفقه الثلاثة هذبها وحصلها، وأصوله كما يجب علمها وفصلها. والمسائل الطولية تكلم على مفصلها ومجملها، وسهل الصعب من شخصها ومهملها.

وإن فسر كتاب الله المعجز عجز أرباب البلاغة بإعجاز بعد إعجازه، وإن تعرض لعوارض ألفاظه أظهر العجب في اختصاره وإيجازه. وإن شرع في شرح قصصه وجدله، وفي تفسير توحيه وترهيه. ومثله يصير الناظر فيه والمستمع لما لم يسمع وما لم يصير، فإنه سلك بقدم كماله وتكميله على قنطرة بعد لم تعبر ويضطر الزعيم به بتحصيله إلى تجديد قطرة أخرى، وبعد هذا يفترق في بيانه إليه في الأولى وإلى الله في الأخرى. وإن تكلم على مثالبه ومحكمه علم الاصطلاح. ثم بيان النوع للخبر به وبحكمه، وكذلك القول على الناسخ والمنسوخ والوعد والوعيد. وإن يشاء طول في مطولاتهم واختصر من مختصراتهم، فيبده الزيادة وضد المزيد، وأما تحرير أمره ونهيه وأسراره ورفاقه، وفواتح سورة وحقائقه. والذي يقال: إنه لا من جنس الذي

ومنهم الخليفة المستنجد بالله المفضل على الناس، ولكن أكثرهم، ورضي الله عنهم وعنه، وضاعف للمحب الثواب الدائم منهم ومنه. وبعد خدمة يتقدم فيها بعد الحمد والتبليغ والدعاء للدولة الدالة على قبول الدعوة أصلية، تحية بعضها مكية وكلها ملكوتية، وروضة ريحها حضرة القدس ونشرها يدرك فيه صحبة النفث، روح القدس. وتكبر عن أن تشبه بالعنبر والنذ والورد وأزهار الربى والرياض. لأن المفاوق للمادة مفارق لغير المفاوق لها مفارقة السواد للبياض. ثم هي مع هذا واجبة القصد غلبة الورد، تذكر الذاكر الذكي بعرفها الذكي لمدركات جنة الخلد والنعيم. وفي مثل هذه فليتافس المتنافسون.

وتدرك النفس النفيسة لذة النعيم لأنها ظاهرة طيبة، كريمة صيبة، وافقة على حضرة الملك والسلطان، ومدار فلك النسك ومستقر الإمامة والجلالة، ومعقل الهداية والدلالة، وأصل الأصالة ودار المتقين، وبيت العدالة وحزب اليقين. وإنسانها الأعظم معلى الموحدي على الملحين وقائم الدين وقيمه، ومقر الإسلام ومقدمه، القائم بالدعوة العامة بعد أبيه إمام المجد والفخر، ثم الأمة الذي إذا عزم أوهم بتخصيص مهمل، اتخذ في خلده ما هو بالفعل مع ما هو بالقوة، وأن يعرض له في طريق إعراضه الممكن العسير يسره سعه وساعده ساعد القوة، وإن سمع بالحمد في جهة حديه بخاصة خصاله بعد مجد الأبوة وفخر النبوة، لا يذكر معه ولا عنده صعب الأمور إلا بالفضد، فإنه مظهر العناية الإلهية، ومرآة المجد والجد. هو علم العلم ثم هو محل الحلم، اسمه متوحد في مدلوله كالاسم العلم، وعهده لا يتوقف على اللسان ولا على رسوم القلم.

كتب في السماء وسمع به في الكرسي وكذلك العرش، وما هنا إنما هو مما هنالك فهو الأعلى. وإن كان في الفرش هو شامخ القدر ظاهر الفضل شديد البطش. ثم هو مما ظهر عليه علم أن الشجاعة لم تنقل من الإنسان إلى الأسد. ولا يقال هذا بحر العلم فينتقل من الطبيعة إلى بحر الخلد، لأن ذلك كله فيه بوجه أكمل وبه وعليه، وفي يديه بنوع أفضل، بلغ ذروة النهاية المخصوصة، بالمطالب العالية، وحصل في الزمان الفرد ما حصله الفرد في الأيام الخالية. وبلغ في تبليغ حمة بصفاته ما بلغ الأشد عمره ونال غاية الإنسان، ويتعجب منه في القيامة عمره، ويسره أمره طلعت سعوده على مولده، ومطالع كلمة مجده لأحكام الفلك وطالع. إن حرر القول فيه وفهم شأنه، قيل: هو فوق الأطلس والمكوكب، وإن قيس سعه بالكلمات الثلاثة كان كالسيط مع المركب.

الحفيظ.

يكتسب والذي هو أعظم من الذي يرد، وإليه الأحوال تنسب
فهو الشارح لها والخبير بها، وإن تأخر. وينوع في ذلك ويزيد غير
الأول وإن تكرر.

وأما علوم الحديث وأنواعها السبعة فهو بعلمها، وصناعتها
بجملتها للعلماء يعلمها. والوراقة والضبط والخط وقفت عليه مهنة
غايته، وحمله الأمر علوم الشريعة كلها عرفها ووعاها ورعاها حق
رعايتها. وكل العلوم العقلية والفنية ورجالها على ذهنه الطاهر
من دنس النسيان، والمقامات السنية المستزلات العلوية أدركها بعد
التبيان. فمن أراد أن يمدحه ويعدل عن إطلاق القول فقد اقترب
أعظم الذنب. ومن ذكره ولم يتلذذ بذلك فقد جاء بما ينضح حمله
الخيب، ونعوت جامها يمنع عن إدراكها نور المتصل، وحضرة
جلاله محفوظة بجدها وجدها وقاطعها المنفصل. ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء، قل اللهم مالك الملك، الله أعلم حيث يجعل
رسالاته.

هذه كلها آياته. والرابعة: ﴿وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فإنها حياته إن حدث الحدث بكرمه يقول: قال رسول
الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده،
ونصر الله إذا جاء لا يرده، وفتح من ذا الذي عن السعيد
يصده»، والمؤرخ يتذكر بتذكره الكلمات الهذلي من حيث المطالب،
إذ قال، وقد سئل عن الإمام علي بن أبي طالب وهو الإمام وفيه
أربعة وهو واحدها حتى في رفع التشبيه وقطع السبب، العلم
والحلم والشجاعة وفضل الحسب، يسر بحكمته ويقتبط بها متى
يتبع جملة، الباحث الحكيم ولا يشعر بشعره إذا تصفح نعوته
الشاعر العليم، وينشد طبعه في الحين والوقت والحزة ويخرج
الحروف من مخارج الهمزة.

شهدت لقد أوتيت جامع فضله وأنت على علمي بذاك شهيد
ولو طلبت في الغيب منك سجية لقد نر موجود وعز وجود

أدام الله له المجد الذي يسلك به على النجدين، وحفظ عليه
مقامه الذي لا يحتقر فيه إلا جوهر التقدين، وبسط له في العلم
والقدرة، وبارك له في نصيب النصر، وجهز به العسرة، ورد به
على الشرك والفتن الكرة، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعا جميلا،
ولطفا خفيا جليلا. وكفا الشر المحض وخير الشرين، كما كشف
له عن الخير المحض وعلم السرين، وأيده بروح منه في السر
والسريرة، وحفظه في حركاته وسكناته من الصغيرة والكبيرة.
وجعل كلمته غالبية للضد والجند، وبلغ صيته الجزائر والبربر، ثم
إلى السند والهند. وخلد ملكه وسلم فلكه، ورفع على أوج المجد
بجده الطويل العريض. وأهبط عدوه من الشرف الأعلى إلى

وفتح الله به باب الفتح في المشرق والمغرب بعد فتح
الثغور، وشرح بنصره وفتح أوساط الصدور، وما استنبطته
الضمائر من ثغرات الصدور وجبر به كسر الظفر، ووصل به ما
انقطع من الأسباب. وعصم جنده من ضد الدنف الأنف، وردهم
إلى ردم الأبواب وقدم كلمته بعد الحرمين في البيت المقدس،
وسلك به مسالك السبل في القبل والمعرس. وبعد هذا فهذه
أدعيتنا، بل هذه أوديتنا، وهذه مسائنا بل هذه وسائنا، وهذه تحية
حياتها ذو الفطرة السليمة، وهذه خدمة يفتخر بها طبيعة النفس
العلمية. واستنبت فيها الكتاب واستنبت فيها الجواب، والموجب
لإصدارها بحجة، أصلها ثابت وفرعها في العلى، وحفز عليها
حافزان شوق قديم، ورعاية الآخرة والأولى، بل الأمر الذي هو
في خير الأمور من أوسطها، وإذا نظم في عقد الأسباب الموجبة
لهذه الخطابة يكون في وسطها، فإنه يحكي أحكام الشأن والقصة،
ويعلم المقام أيده الله الذي حصل له في حرم الله وحرم نبيه من
النصيب والخصصة، وفيه ينبغي أن تذهب الألفاظ وتلحظ عيون
الأغراض ويفتح المقاصد ويحتمل على جواهر الكمالات
كالأغراض، فمن ذلك ذكر الملة التي كملت وكبرت، والأخرى
التي كانت ثم غمرت وصغرت. والمنبر الذي صعد خطبته
على الخطيب، وعرج إلى سماء السمو وهو على درجته، والآخر
الذي درج عنه خطيبه وضاق صدره الأمر حرجه، وقرئت سورة
الإمام بحرف المستنجد المستبصر، لا بحرف المستعصم بن المستنصر.

بسط القول وأطلق ترجمة عبد الله بعدما قبضه الذي أمات
وأحيا، وقبض على مقامه ودفع للإمام محمد بن يحيى، وكان ذلك
في يوم وصول الخبر بمصيبة الاختبار، ثم في ليلة الآيات والاعتبار.
ومن ذلك أيضاً بنعمة الحمد والدعاء الظاهر القول والمقبول في
الحرم الشريف، واتقياد الذي ظهر على طائفة الحق والسيد
والشريف. ومن ذلك صعود علم الأعلام على جبل معظم الحسج
ومقر وفوق الحاج، ووقف به المتكلم في مقام من كانت له سقاية
الحاج، وذكر كما يجب بما يجب في موقف الإمام مالك، وعرف
هنالك أنه الإمام والمالك لكل مالك، وتعرف نكرة دعوة التوحيد
بتخصيص خصوصية المخصوص بعرفة، وتعارف بها من تعارف
معه هناك ونعم التعارف والمعرفة.

ثم ذكر عند المشعر الحرام وفي جهات حدود حرم المسجد
الحرام، وعظم اسمه بعد ذكر الله وذكر الوالدين، وطلع الذاكر
بالتركيب إلى الجدين الساكنين في الخلد والخالدين. فلما وصل
الحجيج إلى عقبة الجمرات، ذكر مع السبع الأولى سبع

يقيموا بها الدعوة له عند فتحها. ولم يزل دأبهم هذا إلى أن كان الفتح.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان، وهو صاحب برنو موطنه قبله طرابلس، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الحلى والشيا، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلى من أهل البلد حتى غص بها الفضاء، وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوتهم، وأخذها من كل حيوان بشبه.

وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة وصل دون الرنك أخو ملك قشتالة مغاضباً لأخيه، ووفد على السلطان بتونس فتلقاء من المبرة والحباء بما يلقي به كرام القوم وعظماء الملوك، ونزل من دولته بأعر مكان. وكان تتابع هذه الوفادات عما شاد بذكر الدولة ورفع من قدرها.

الخبر عن مقتل ابن الأبار وسياقة أوليته

كان هذا الحافظ أبو عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة في الحديث ولسان العرب، وبلغاً في الترسل والشعر. وكتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن بلنسية. ثم عن ابنه السيد أبي زيد. ثم دخل معه دار الحرب حين نزح إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به. ثم كتب عن ابن مردنيش. ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث زيان يوفد بلنسية ويبحثهم إلى الأمير أبي زكريا، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر مجلس السلطان وأشد قصيدته على روي السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسب فوجدهم في هوة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية. ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني لما كان يحسن كتابتها بالخط المغربي، وكان أثر عنده من الخط المغربي، فسخط ابن الأبار أنفة من إشار غيره عليه، وافاتت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها فجاهر بالرد ووضعها استبداداً وأنفة، وعوتب على ذلك فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأشد متمثلاً.

واطلب العز في لظى وذو الذل ولو كان في جنان الخلود

مرات. وكذلك عند الركوع في مسجد الخيف، وكل كلمات تمجده بالكم والكيف، وعند التوجه من هناك ويوم النفر قررت آياته المذكورة في كتاب الجفر. ثم جدد الذكر حول البيت العتيق بالحمد والشكر. فلما وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغداد في شهر رمضان، أظهر الخفي المكنون فكان ذلك مع التسييح والقرآن، وكان الخادم في الزمان الأول وفي الذهاب ينتظر الخطفة من نحو عراق والمغرب. والآن وجد نفسها من نحو اليمن إقليم الأعراب والعرب.

والذي حمل على هذا كله طاعة كاملة وغبطة عاملة، والله تعالى بفضله يعصمه من كيد المعاند، فإنه في إظهار دعوة التوحيد كالجاهد والمكابد، ومعاد التحية على المقام الأرفع والمقر الأنفع، وعلى خدام حضرته العلية، وأرباب دعوته الجليلة وأنواع رحمة تعالى وبركاته. والحمد لله كما يجب وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وسلم. كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، والحمد لله رب العالمين.

ولما وصلت هذه البيعة استحضر لها السلطان الملأ والكافة، وقرئت مجملهم وقام خطيبهم القاضي أبو البراء في ذلك الحفل فاستحضر في تعظيمها والإشادة بحسن موقعها، وإظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم في دعوته. ثم جأ بالدعاء للسلطان وانفض الجمع فكان من الأيام المشهودة في الدولة.

الخبر عن الوفود من بني مرين والسودان

وغيرهم

كان بنو مرين كما قدمناه قد تمسكوا بطاعة الأمير أبي زكريا ودخلوا في الدعوة الخفصية، وحملوا عليها من تحت أيديهم من الرعايا مثل: أهل مكناسة وتازي والقصر، وخاطبوا السلطان بالتمويل والخضوع. ولما هلك السلطان وولي ابنه المستنصر، وقارن ذلك ولاية المرتضى بمراكش. ثم كان بينهم وبين المرتضى من الفتنة والحرب ما ذكرناه ونذكره، فاقبل ذلك بينهم وبعث الأمير أبو يحيى بن عبد الحق بيعة أهل فاس، وأوفد بها مشيخة بني مرين على السلطان وذلك سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فكان لها موقع من السلطان والدولة. وقابلهم من الكرامة كل على قدره، وانصرفوا محبورين إلى مرسلهم. ولما هلك أبو يحيى بن عبد الحق، واستقل أخوه يعقوب بالأمر أوفد إليه ثانية رسله وهديته، وطلب الإعانة من السلطان على المرتضى وأمر أهل مراكش على أن

الولايات حتى شارك كل عامل في عمله بما أظهر من كفايته وتميمته للأموال حتى قصر بهم وأدبل منهم.

وكان الكثير منهم متعلقاً من ابن أبي الحسين رئيس الدولة بذمة خدمة، فأسفه بذلك وأغرى به بطانة السلطان ومواليه، حتى سعوا به عند السلطان، وأنه يروم الثورة بالمهدية، حتى خشن له باطن السلطان. فدخل عليه ذات يوم أبو العباس الغساني فاستجازه السلطان في قوله: اليوم يوم المطر، فقال الغساني: ويوم رفع الضرر، فتنبه السلطان واستزاده فأنشد:

والعام تسعة كمثل عام الجوهري.

فكانت إغراء باللياني، فأمر أن يتقبض عليه وعلى عدوه ابن العطار، وكان عاملاً. وأمر أبا زيد بن يغمور بامتحانهما فعذبهما حتى استصفى أمواليهما، والميل في ذلك على اللياني. وكان في أيام امتحانه يباكر موضع عمله. ثم نفي عنه أنه يروم الفرار إلى صقلية، ويبحث بعض من داخله في ذلك فأقر عليه، فدفع إلى هلال كبير الموالي من العلوج فضره إلى أن قتله، ورمى بشلوه إلى الغوغاء فعبثوا به وقطعوا رأسه، ثم تتبع أقاربه وذووه بالتكال إلى أن استنفذوا.

الخبر عن انتقاض أبي علي الملياني بمليانة

على يد الأمير أبي حفص

كان المغرب الأوسط من تلمسان وأعمالها إلى بجاية في طاعة السلطان منذ تغلب أبوه الأمير زكريا عليه، وفتح تلمسان وأطاعه يغموراسن وكان بين زناتة بتلك الجهات فتن وحروب شأن القبائل اليعاسيب، وكانت مليانة من قسمة مغراوة بني ورسيفان، وكانوا أهل بادية. وتقلص ظل الدولة عن تلك الجهات بعض الشيء. وكان أبو العباس الملياني من مشيخة مليانة صاحب فقه ورواية وسمت ودين، رحل إليه الأعلام وأخذ عنه العلماء، وانتهت إليه رئاسة الشورى ببلده. ونشأ ابنه أبو عليه علي خلوياً من الخلال متهاكاً في الرئاسة متبعاً غواية الشيبية، فلما رأى تقلص ظل الدولة وفتن مغراوة مع يغموراسن ومزاحمته لهم، حدثه نفسه بالاستبداد فخلع طاعة آل أبي حفص ونبد دعوتهم، وانبرى بها داعياً لنفسه. وبلغ الخبر إلى السلطان فسرح إليه أخاه الأمير أبا حفص، ومعه الأمير أبو زيد بن جامع، ودن الرنك أخو الفنش، وطبقات الجند. فخرج من تونس سنة تسع وخمسين وستمئة وأخذ السير إلى مليانة فنازلها مدة، وشد حصارها حتى اقتحموها غلاباً. وفر أبو علي الملياني ولحق ببني يعقوب من آل العطاف أحد

فلمي ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته، ثم استعجب السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب، وأعتب. وسماء أعتاب الكتاب. واستشفع فيه بابنه المستنصر فقفر السلطان له وأقال عثرته، وأعادته إلى الكتابة. ولما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس وأهل تونس، وكان في ابن الأبار أنفة ولباً وضيق خلق، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل ببزرت، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالرحوم. ونبه على ذلك فاستضحك وقال: إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل. ونفيت إلى ابن أبي الحسين فأسرها في نفسه، ونصب له إلى أن حمل السلطان على إشخاصه من بجاية. ثم رضي عنه واستقدمه ورجعه إلى مكانه من المجلس. وعاد هو إلى مساءة السلطان بنزاعته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواصل وساءل عنه السلطان فاستبهم، فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعهما، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والترصص بها كما كان أعداؤه يشنعون عليه، لما كان ينظر في النجوم فتقبض عليه. وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقى أثناءها فيما زعموا رقعة بأيات أولها:

طغى بتونس حلف سموه ظليماً خليفة

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه، ثم يقتله قعصاً بالرماح، وسط محرم من سنة ثمان وخمسين وستمئة، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه.

الخبر عن مقتل اللياني وأوليته وتصاريه

أحواله

أصل هذا الرجل من لليانة قرية من قرى المهدية، مضمومة للام مكسورة الثانية، وكان أبوه عاملاً بالمهدية، وبها نشأ ابنه أبو العباس. وكان يتنحل القراءة والكتاب حتى حذق في علوم اللسان. وتفقه على أبي زكريا البرقي، ثم طالع مذاهب الفلاسفة، ثم صار إلى طلب المعاش من الإمارة فولي أعمال الجبائية. ثم صودر في ولايته على مال أعطاه وتخلص من نكبته، فنهض في

وخشي أن يسلموه إذا أزالهم السلطان عليها، تحول عنهم ولحق بتلمسان وأجاز البحر منها إلى الأندلس، وصحبت الأمير أبا إسحاق ابن عمه في مثنى اغتاربهما بالأندلس. ثم ساءت أفعاله وعظم استهتاره. وفشا التكبر عليه من الدولة، فلحق بالمغرب وأقام بتينملل مدة. ثم رجع إلى تلمسان، وبها مات. وقام الأمير أبو إسحاق بمكانه من جوار ابن الأحمر إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن خروج السلطان إلى المسيلة

لما اتصل بالسلطان شأن أبي قاسم ابن عمه أبي زيد وفصاله عن رياح إلى المغرب بعد عقدهم بيعته، خرج من تونس سنة أربع وستين في عساكر الموحدين وطبقات الجند لتمهيد الوطن، ومحو آثار الفساد منه، وتقويم العرب على الطاعة. وتنقل في الجهات إلى أن وصل بلاد رياح فدوخها ومهد أرجاءها، وفر شبل بن موسى وقومه الدواودة إلى القفر، واحتل السلطان بالمسيلة آخر وطن رياح. ووافاه هنالك محمد من عبد القوي أمير بني توجين من زناتة مجدداً لطاعته، ومتبركاً بزيارته، فتلقاها من البرور تلقى أمثاله، واثقل كاهله بالحباء والجواهر، وجنب له الجياد المقربات بالمرابك المثقلة بالذهب، واللجم المحلات. وضرب له الفساطيط الفسيحة الأرجاء من ثياب الكتان وجدل القطن، إلى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكرام والأسلحة. وأقطع له مدينة مقرة وبلد أوماش من عمل الزاب، وانقلب عنه إلى وطنه.

ورجع السلطان إلى تونس وفي نفسه من رياح ضغن إلى أن صرف إليهم وجه تديبره كما نذكره، والثانية احتلاله في الحضرة كان مهلك مولاة هلال، ويعرف بالقائد، وكان له في الدولة مكان بمكان تلادا للسلطان، وكان شجاعاً جواداً خيراً حياً سهلاً مقبلاً على أهل العلم وذوي الحاجات، وله في سبل الخير آثار منقولة صار له بها ذكر، فارتعص السلطان لمهلكه.

الخبر عن مقتل مشيخة الدواودة

كان شبل بن موسى وقومه من الدواودة فعلوا الأفاعيل في اضطراب الطاغية، ونصب من لحق بهم من أهل هذا البيت للملك، فبايعوا أولاً للأمير أبي إسحاق كما ذكرناه، ثم بعده لأبي القاسم ابن عمه أبي زيد، وخرج إليهم السلطان سنة أربع وستين وستمئة ودوخ أوطانهم، ولحقوا بالصحراء ودافعوه على البعد

شعوب زغبة فأجاروه وأجازوه إلى المغرب الأقصى، إلى أن كان من خبره ما نذكره بعد.

ودخل الأمير أبو حفص مليانة ومهد نواحيها وعقد عليها إلى ابن مندبل أمير مغراوة فملكها مقيماً فيها لدعوة السلطان شأن غيرها من عمالات مغراوة. وقفل الأمير أبو حفص إلى تونس، ولقيه بطريقه كتاب السلطان بالعقد له على بجاية وإمارتها، فكره ذلك غبطة بجوار السلطان. وترددت في ذلك رغبته فأدبل منها بالشيخ أبي هلال عباد بن سعيد الهشتاتي، وعقد له على بجاية. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة إلى أن كان من خلافته ما نذكر بعد. وهلك شقيقه أبو بكر بن الأمير أبي زكريا ثانية مقدمه إلى تونس سنة إحدى وستين وستمئة، فتفجع له الخليفة والقرابة والناس وشهد السلطان جنازته، والبقاء لله وحده.

الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد وخروجه في رياح

كان أبو القاسم بن أبي زيد هذا في جملة ابن عمه الخليفة، وتحت جريته، وأبوه أبو زيد هو القائم بالأمر بعد أبيه الشيخ أبي محمد. ولحق بالمغرب. وجاء أبو القاسم في جملة الأمير أبي زكريا، وأوصى به ابنه إلى أن حدثته نفسه بالتوثب والخروج. وخامره الرعب من إشاعة تناقلها الدهماء، سببها أن السلطان استحدث سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة، حاكى بها سكة الفلوس بالشرق تسهلاً على الناس في المعاملات بإسرافها وتيسيراً لاقتضاء حاجتهم. ولما كان لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها، وسمى سكتها التي استحدثها بالخنندوس. ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الريب ناقصة عن الوزن، وفشا فيها الفساد. واشتد السلطان في العقوبة عليها فقطع وقتل، وصارت ريبة لمن تناولها. وأعلن الناس بالتكبر في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقعت الفتنة. وأشيع من طريق الحدثن الذي تكلف به العامة أن الخارج الذي يثير الفتنة هو أبو قاسم بن أبي زيد، فآزال السلطان تلك السكة وعفا عليه، وأهمه شأن أبي القاسم ابن عمه، وبلغه الخبر فخامره الرعب إلى ما كان يحدث نفسه من الخروج، ففر من الحضرة سنة إحدى وستين وستمئة، ولحق برياح ونزل على أميرهم شبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة، فبايع له وقام بأمره. ثم بلغه اعتزام السلطان على النهوض إليه فخشي بادرته واضطرب أمر العرب من قبيله. ولما أحس أبو القاسم باضطرابهم

ذلك، فصارت ملكاً لهم.

الخبر عن طاعية الإفرنجية ومنازلته تونس في أهل نصرانيته

هذه الأمة المعروفة بالإفرنجية وتسميها العامة بالإفرانسييس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى إفرانسة، ونسبهم إلى يافث بن نوح، وهم بالعدوة الشمالية من عدوتي هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الأندلس وخليج القسطنطينية، مجاورون الروم من جانب الشرق والجلالقة من جانب الغرب. وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع الروم، ومنهم لقنوا دينها. واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم وأجازوا البحر إلى إفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سيطة وجلولا وقرطاجنة ومرناق وباغاية ولس وغيرها من الأمصار وغلبوا على كل من كان بها من البربر حتى اتبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد.

ثم جاء الإسلام وكان الفتح بانتزاع الأعصاب من أيديهم سائر أمصار إفريقية، والعدوة الشرقية والجزر البحرية مثل أقرطش ومالطة وصقلية وميوزة ورجوعهم إلى عدوتهم. ثم أجازوا خليج طنجة وغلبوا القوط والجلالقة والبشكنس، وملكوا جزيرة الأندلس وخرجوا من ثناياها ودورها إلى بسائط هؤلاء الإفرنجية فدحوها وعاثوا فيها. ولم تزل الصوائف تتردد إليها صدى من دولة بني أمية بالأندلس، وكان ولاية إفريقية من الأغالية ومن قبلهم أيضاً يرددون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدوة حتى غلبوهم على الجزر البحرية، ونزلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن، فكان يجالها الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها.

وكان الربع أقرب إلى سواحل الشام وطمع فيها. فلما وصل أمر الروم بالقسطنطينية ورومة، واستفحل ملك الإفرنجية هؤلاء، وكان ذلك على هيئة سمو الخلافة بالشرق. فسموا جيشهم إلى التغلب على معاقل الشام وثغوره، وزحفوا إليها وملكوا الكثير منهم واستولوا على المسجد الأقصى وبنوا فيه الكنيسة العظمى بدل المسجد، ونزلوا مصر والقاهرة مراراً حتى جاد الله للإسلام من صلاح الدين أبي أيوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنة وأقية، وعداباً على أهل الكفر مصوبياً، فأبلى في جهادهم وارتجع ما ملكوه، وطهر المسجد الأقصى من أفكهم وكفرهم، وهلك على حين غرة من الغزو والجهاد.

بطاعة مرضة فتقبلها، وطوى لهم على الثنى. ورجع إلى تونس فأوعز إلى أبي هلال عياد عامل بجاية من مشيخة الموحدين باصطناعهم واستتلافهم لتكون وفادتهم عليه من غير عهد، وجمع السلطان أحلافه من كعوب بني سليم ودباب وأفريق بني هلال، وخرج من تونس سنة ست وستين وثمانمائة في عساكر الموحدين وطبقات الجند، ووافاه بنو عساكر ابن السلطان إخوة بني مسعود ابن السلطان من الدواودة فعقد لمهدي ابن عساكر عن إمارته قومه وغيرهم من رياح، وفر بنو مسعود ابن السلطان مصحرين والسلطان في أثرهم حتى نزل نقاوس وعسكروا بشايا الزاب، ورسلمهم تحتلف إلى أبي هلال إنساناً للمراجعة على يده للدخلة في الساحة، فأشار عليهم بالوفادة على السلطان وفاء بقصده من ذلك، فتقبلوا إشارته.

وفد أميرهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه يحيى، وبنو عمهما أولاد زيد بن مسعود: سباع بن يحيى بن دريد وابنه، وطلحة بن ميمون بن دريد، وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود وأخوه، فتقبض عليهم لحينهم، وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة. وانتهت أسلابهم وضربت أعناقهم ونصبت أشلاؤهم بزراباً من جهات نقاوس حيث كانت بيعتهم لأبي القاسم بن أبي زيد، وبعث برؤوسهم إلى بسكرة فنصبها بها، وأغذ السير غازياً إلى أحيائهم وأحلهم بمكانها من ثاية الزاب.

وصحبهم هنالك فأجفلوا وتركوا الظهر والكراع والأبنية، فامتلات أيدي العساكر وسدويكش منها، ونجوا بالعيال والولد على الأقطاب، والعساكر في اتباعهم إلى أن أجازوا وادي شدى قبله الزاب وهو الوادي الذي يخرج أصله من جبل راشد قبله المغرب الأوسط ويمر إلى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب إلى أن يصب في سبخة نفراوة من بلاد الجريد. فلما جاز فلهم الوادي أصحروا إلى المغازاة المعطشة والأرض الحرة السوداء المستحجرة المسماة بالحمادة، فرجعت العساكر عنهم، وانتقلب السلطان من غزاته ظافراً، ظاهراً وأشد الشعراء في التهتهة، ولحق قل الدواودة بملوك زناتة فنزل بنو يحيى بن دريد على يغمراسن بن زيان، وبنو محمد بن مسعود على يعقوب بن عبد الحق، فأجاروهم وأوسعوهم حباء وملؤوا أيديهم بالصلوات، ومرابطهم بالخيال، وأحياءهم بالإبل ورجعوا إلى مواطنهم فتغلبوا على واركلة وقصور ريفه واقتطعوها من إيالة السلطان. ثم زحفوا إلى الزاب فجمع لهم عامله ابن عتو وكان موطناً بمقرة، ولقيهم على حدود أرض الزاب فهزموه واتبعوه إلى قطاوة فقتلوه عندها، واستطالوا على الزاب وجبل أوراس وبلاد الحضنة إلى أن اقتطعهم الدول إياها من بعد

سبعون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيلاً أو أسيراً جريحاً
ألمسك الله إلى مثلها لعل عيسى منكسب يستريح
إن كان بابكم بنا راضياً فرب غش قد أتى من نصيح
فأخذوه كاهناً إنسه أنصح من شق لكم أو سطوح
وقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثار أو لشغل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

يعني بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالإسكندرية والطواشي
في عرف أهل مصر هو الحصي. فلما استكمل إنشاده لم يزد ذلك
الطاعية إلا عتواً واستكباراً، واعتذر عن نقض العهد في غزو
تونس بما يسمع عنهم من المخالفات، عذراً فدفعهم به، وصرف
الرسول من سائر الأفاق ليومه. فوصل رسل السلطان منزيين
بشأنهم وجمع الطاعية حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي
القعدة سنة ثمان وستين وستمائة فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية.
ثم واعدهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس
بالنذير بالعدو والاستعداد له، النفير إلى أقرب المدائن، وبعث
الشواني لاستطلاع الخبر واستبهم أياماً.

ثم تواتت الأساطيل بمرسى قرطاجنة وتفاوض السلطان مع
أهل الشورى من الأندلس والموحدين في تخليتهم وشأنهم من
النزول بالساحل أو صدهم عنه، فأشار بعضهم بصددهم حتى تنفذ
ذخيرتهم من الزاد والماء فيضطرون إلى الإقلاع. وقال آخرون: إذا
أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبحوا بعض
الثغور سواها فملكوه واستباحوه، واستصعبت مغالبتهم عليه
فوافق السلطان على هذا وخلوا وشأنهم من النزول فنزلوا بساحل
قرطاجنة بعد أن ملئت سواحل رودس بالمرايطة بجند الأندلس
والمطوعة زهاء أربع آلاف فارس لنظر محمد بن الحسين رئيس
الدولة.

ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس،
وثلاثين ألفاً من الرجال فيما حدثني أبي عن أبيه رحمهما الله قال:
وكانت أساطيلهم ثلاثمائة بين كبار وصغار، وكانوا سبعة يعاسب
كان فيهم الفرنسيين وإخوة جرون صاحب صقلية وصاحب
الجزر، والعلمجة زوج الطاعية تسمى الرينة، وصاحب البر الكبير،
وتسميهم العامة من أهل الأخبار ملوكاً ويعنون أنهم متباينون إذ
ظاهروا على غزو تونس وليس كذلك وإنما كان واحداً وهو
طاعية الفرنجية وإخوته وبطارقته، عد كل واحد منهم ملكاً لفضل
قوته وشدة بأسه، فأنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة.
وكانت مائلة الجدران اضطرهم المعسكر بدخلها، ووصلوا ما فصله
الخراب من أسوارها بالواح الخشب ونضدوا شرفاتها وأداروا على

ثم عاودوا الكرة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد
الملك الصالح صاحب مصر والشام، وأيام الأمير أبي زكريا
بتونس، فضربوا أبيتهم بدمياط وافتحوها وتغلبوا في قرى مصر.
وهلك الملك الصالح خلال ذلك، وولي ابنه المعظم وأمكنت
المسلمين في الغزو فرصة أيام فيض النيل، ففتحوا الغياض وأزالوا
مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم، وقيد سلطانهم
أسيراً من المعركة إلى السلطان فاعتقله بالإسكندرية، حتى مر عليه
بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يكتنوا المسلمين من دمياط
فوفوا له. ثم على شرط المسألة فيما بعد فنقضه لمدة قريبة، واعتزم
على الحركة إلى تونس متجنباً عليهم فيما زعموا بمال أديعاء تجار
أرضهم، وأنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك
المال وهو نحو ثلثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه، فغضبوا
لذلك واشتكوه إلى طاعيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس
لما كان فيها من المجاعة والموتان.

فأرسل الفرنسي طاعية الإفرنج واسمه سنلوس بن
لويس وتلقب بلغة الإفرنج روا فرنس ومعناه ملك إفرنس،
فأرسل إلى ملوك النصارى يستغفرهم إلى غزوها، وأرسل إلى القائد
خليفة المسيح بزعمهم فأوعز إلى ملوك النصرانية مظاهرتهم، وأطلق
يده في أموال الكنائس ممدداً له. وشاع خبر استعداد النصارى
للفزو في سائر بلادهم، وكان الذين أجابوه للفزو ببلاد المسلمين
من ملوك النصرانية ملك الإنكار وملك أسكوسيا وملك نزول
وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون من ملوك
الإفرنج، هكذا ذكر ابن الأثير، وأهم المسلمين بكل ثغر شأنهم
وأمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة، وأرسل في
الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب، وانقبض تجار
النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين. وأوفد السلطان رسله إلى
الفرنسيين لاختيار رحاله ومشارطته على ما يكف عزمه. وحملوا
ثمانين ألفاً من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا، فأخذ المال
من أيديهم وأخبرهم أن غزوه إلى أرضهم. فم طلبوا المال اعتل
عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن
مصاحب مصر، فأحضر عند الفرنسيين واستجلس فأبى.

وأنشده قائلاً من قول أبي مطروح شاعر السلطان بمصر
فسل للفرنسيين إذا جنته مقال صدق من وزير نصيح
أجرك الله على ما جرى من قتل عباد نصارى المسيح
أتيت مصرأ تبتغي ملكها تحسب أن الزمر بالطليل ربح
فناقت الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم بسوء تدبيرك بطن الضريح

وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة فتولى عقده وكتابه القاضي ابن زيتون لخمسة عشر عاماً. وحضر أبو الحسن علي بن عمرو وأحمد بن الغمار وزيان بن محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته. وأقلع النصارى بأساطيلهم وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب، وهلك الكثير منهم وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية. يقال: إنه عشرة أحمال من المال وترك النصارى بقرطاجنة تسعين منجيقاً. وخاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح، وأمر بتخريب قرطاجنة وأن يؤتى بنيانها من القواعد، فصور أبييتها طامسة ورجع الفرنجية إلى دعوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال ولم يزلوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم عمالات. واستبد صاحب صقلية لنفسه، وكذا صاحب نايل وجنوة وسردانية، وبقي بيت ملكهم الأقدام لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبد الله بن أبي الحسين وأبي سعيد العود الرطب

أصل هذا الرجل من بني سعيد رؤساء القلعة المجاورة لغرناطة، وكان كثير منهم قد استعملوا أيام الموحدين بالعدوتين، وكان جده أبو الحسن سعيد صاحب الأشغال بالقيروان. ونشأ حافده محمد هذا في كفالته. ولما عزل وقفل إلى المغرب هلك ببونة سنة أربع وستمائة ورجع حافده محمد إلى تونس والشيخ أبو محمد بن أبي حفص صاحب إفريقية لذلك العهد فاعتلق بخدمة ابنه أبي زيد. ولما ولي الأمر بعد وفاة أبيه غلب محمد هذا على هواه. ثم جاء السيد أبو علي من مراكش وعلى إفريقية محمد بن أبي الحسين في جلته إلى أن هلك في حصار هسكورة بمراكش كما قدمناه ورجع ابن أبي الحسين إلى تونس واتصل بالأمير أبي زكريا لأول استبداده فغلب على هواه، وكان مبعثاً في صحابة الملوك. ولما ولي المستنصر أجراه على سنته برهة. ثم تنكر له إثر كائنة اللحياني، وعظمت سعاية أعدائه من الباطنية وأشاعوا مداخلته لأبي القاسم بن غندومه أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد فنكبه السلطان واعتقله بداره تسعة أشهر. ثم سرحه وأعادته إلى مكانه ونار من أعدائه، واستولى على أمور السلطان إلى أن هلك سنة

السور خندقاً بعيد المهوى وتحصنوا. وندم السلطان على إضاعة الخزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها. وأقام ملك الفرنجية وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر والمدد يأتيه في أساطيله في البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأسلحة والأقوات.

وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحيرة واتبعهم العرب فأصابوا غرة في العدو فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم، فكفلوا بجراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم، وبعث السلطان في ممالكه حاشداً فوافته الأمداد من كل ناحية، ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسدويكش ولطاسة وهوارة حتى أمده ملوك المغرب من زناتة، وسرح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان وأخرج السلطان ابنته، وعقد لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمطوعة وهم: إسماعيل بن أبي كلداسن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبو، وأمرهم كلهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر منهم.

واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى، وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم والتزم السلطان القعود بياوائه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم: الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود، وابن أبي الحسين، وقاضيه أبو القاسم بن البراء، وأخو العيش. واتصلت الحرب والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنتصف، فرحف يومئذ يحيى بن صالح وجرون فمات من الفريقين خلق، وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدمير المسلمون عنده، ثم غلبوا عليه بعد أن قتل من النصارى زهاء خمسمائة، فأصبحت ابنته مضروبة كما كانت. وأمر بالخذق على المعسكر فتعاورته الأيدي، واحتفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه، وابتلي المسلمون بتونس، وظنوا الظنون واتهم السلطان بالتحويل عن تونس إلى القيروان.

ثم إن الله أهلك عدوهم وأصبح ملك الفرنجية ميتاً يقال: حنف أنفه، ويقال: أصابه سهم غرب في بعض المواقف فأبته ويقال: أصابه مرض الوباء، ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث إليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه. ولما هلك اجتمع النصارى على ابنه دمياط سمي بذلك ليلاده بها فبايعوه، واعتزموا على الإقلاع. وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم، وترجع بقومها فأسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الإنصراف إلى مشاتيهم.

إحدى وسبعين وستمئة.

بحماية بإنفاذ عسكر آخر فأنفذه لنظر أبي العباس بن أبي الأعلام، ونهضت هذه العساكر براً وبحراً إلى أن نازلتها وأحاطت بها من كل جانب، واشتد حصارها. ثم اقتحمت عنوة واستحز بهم القتل وانتهت المنازل واقتضح الكرائم في أبقارهم. وتقبض على مشيخة البلد فنقلوا إلى تونس مصفدين، واعتقلوا بالقصبة أن سرحهم الواصل بعد مهلك السلطان.

الخبر عن مهلك السلطان المستنصر

ووصف شيء من أحواله

كان السلطان بعد فتح الجزائر قد خرج من تونس للصيد وتفقد العمالات، فأصابه في سفره مرض ورجع إلى داره، واشتدت علته وكثر الإرجاف بموته، وخرج يوم الأضحى سنة خمس وخمسين وستمئة بتهادي بين رجلين، ورجاله لا تخطان في الأرض وجلس للناس على منبر متجلداً. ثم دخل بيته وهلك ليلته تلك رضوان الله عليه، وكان شأن هذا السلطان في ملوك آل حفص عظيماً. وشهرته طائرة الذكر بما انفسح من أمر سلطانه، ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به. وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصاً الأندلس من شاعر مقل وكاتب بليغ وعالم تحرير وملوك أورع وشجاع أهيش متفتين ظل ملكه متناغين في اللياذ به لطموس معالم الخلافة شرقاً، وغرباً على عهده، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه.

فقد كان الطاغية التهم قواعد الملك بشرق الأندلس وغربها، فأخذت قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمئة وبلنسية ستة ست بعدها وأشبيلية سنة ست وأربعين وستمئة، واستولى التتر على بغداد دار خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الإسلام سنة ست وخمسين وستمئة، وانتزع بنو مرين ملك بني عبد المؤمن، واستولوا على حضرة مراکش دار خلافة الموحدين سنة ثمان وستين وستمئة، كل ذلك على عهده وعهد أبيه ودولتهم أشد ما كانت قوة وأعظم رفاهية وجباية وأوفر قبلاً وعصابة، وأكثر عساكر وجنداً، فأمله أهل العلم للكرة، وأجفلوا إلى الإمساك بحقوقه. وكان له في الأبهة والجلال أخبار، وفي الحروب والفتوح آثار مشهودة، وفي أيامه عظمت حضارة تونس، وكثر ترف ساكنها. وتأنق الناس في المراكب والملابس والمباني والماعون والآنية، فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتفاها إلى أن بلغت غايتها ثم رجعت من بعده أدراجها، والله مالك الأمور ومصرفها.

وكان ابن عمه سعيد بن يوسف بن أبي الحسن صاحب اشغال الحضرة، وكان قد اقتنى مالاً جسيماً ونال من الحضرة مثلاً عظيماً. وكان الرئيس أبو عبد الله مفتناً في العلوم مجيداً في اللغة يقرض الشعر فيحسن، ويرسل فيجيد، وله من التأليف كتاب ترتيب المحكم لابن سيده على نسق الصحاح للجوهري واختصاره، وسماه الخلاصة. وكان في رئاسته صليب الرأي قوي الشكيمة عالي المهمة، شديد المراقبة والحزم في الخدمة، وله شعر نقل منه التيجاني وغيره، ومن أشهره ما نقل عنه من شعره يخاطب عنان بن جابر عن الأمير أبي زكريا لما خالف واتبع ابن غانية، وهي على روي الرء، وكان قبلها أخرى على روي الدال. وكان له ولد اسمه سعيد وترقى في حياة أبيه في المراتب السلطانية. ثم اغتبط دون غايته وفي ثالث مهلكه كان مهلك الشيخ أبي سعيد عثمان بن محمد الهنتاتي المعروف بالعود الرطب، ويعرف أهل بيته بالمغرب ببني أبي زيد. وكان منهم عبد العزيز المعروف بصاحب الأشغال كان فر من المغرب أيام السعيد لجفوة نالته، ولحق بسجلماة سنة إحدى وأربعين، وقد كان انتزى بها عبد الله الهزرجي، وبايع للأمير أبي زكريا فاجازه عبد الله إلى تونس، ونزل على الأمير أبي زكريا ونظمه في طبقات مشيخة الموحدين وأهل مجلسه. ثم حظي عند ابنه المستنصر بعد نكبة بني النعمان حظوة لا كفاء لها. واستولى على الرأي والتدبير إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وستمئة فشيح طيب الذكر ملحفاً بالرضوان من الخاصة والكافة، والله مالك الأمور.

الخبر عن انتفاض أهل الجزائر وفتحها

كان أهل الجزائر لما رأوا تقلص ظل الدولة عن زنانة وأهل المغرب الأوسط حدثوا أنفسهم بالاستبداد والقيام على أمرهم، وخلع ربة الطاعة من أعناقهم فجاءوا بالخلعان. وسرح السلطان إليهم العساكر سنة تسع وستين وستمئة وأوعز إلى صاحب ثغر بجاية وهو أبو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي فقدم إليها في عساكر الموحدين سنة إحدى وسبعين وستمئة ونازلها مدة حول، وامتنعت عليه فأقلع عنها ورجع إلى بجاية، وهلك بمعسكر ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمئة.

ثم إن السلطان صرف عزمه إلى منازلهم سنة أربع وسبعين وستمئة وسرح إليهم العساكر في البر وأنفذ الأساطيل في البحر وعقد على عسكر تونس لأبي الحسن بن ياسين وأوعز إلى عامل

وبعث أخاه أبا العلاء والياً على بجاية، وأسف المشيخة والبطانة بعثوه واستبداده وما يتجشمنونه من مكابرة بابيه إلى أن عاد وبال ذلك على الدولة كما نذكره.

الخبر عن إجازة السلطان أبي إسحاق من الأندلس ودخول أهل بجاية في طاعته

كان السلطان المستنصر قد عقد على بجاية سنة ستين وستمئة لأبي هلال عياد بن سعيد الهتاتني، وأدال به من أخيه الأمير أبي حفص، فأقام والياً عليها إلى أن هلك ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمئة كما قدمنا وعقد عليها من بعده لابنه محمد، وكان له غناء في ولايته واضطلع بأمره إلى أن هلك المستنصر وولي ابنه الواثق، فبادر إلى انقياد طاعته، وبعث وفد بجاية يبيعهم. ثم قلد أبو الحسن الحبيبر القائم بالدولة أخاه إدريس ولاية الأشغال ببجاية، فقام بها وأفنى الأموال وتحكم في المشيخة. وأنف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه فهم إدريس بنكبته، فخشي محمد بن أبي هلال بادرته وداخل بعض بطانته في قتله. وفأوض الملاء فيه فعدوا عليه لأول ذي القعدة سنة سبع وسبعين وستمئة بمقعده من باب السلطان فقتلوه ورموا برأسه إلى الغوغاء والزعانف فعبثوا به.

ووافق ذلك حلول السلطان أبي إسحاق بتلمسان، وكان عند بلوغ الخبر إليه بمهلك أخيه المستنصر أجمع أمره على الإجازة لطلب حقه بعدما تردد برهة. ثم اعترم وعاد إلى تلمسان، ونزل على بغمراسن بن زيان فقام لمورده، واحتفل في مبرته، وفعل أهل بجاية وابن أبي هلال فعلتهم وخشوا بواد السلطان بالخضرة فخاطب السلطان أبا إسحاق وأتوه يبيعهم، وبعثوا وفدهم يستحثونه للملك، فأجابهم ودخل إليها آخر ذي القعدة من سنته، فبايعه الموحدون والملاء من أهل بجاية. وقام بأمره محمد بن هلال. ثم زحف في عساكره إلى قسطنطينة فأنزلها، وبها عبد العزيز بن عيسى بن داود، فامتعت عليه فأقلع عنها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن بيعه الواثق يحيى بن المستنصر وهو المشهور بالمخلوع وذكر أحواله

لما هلك السلطان المستنصر سنة خمس وسبعين وستمئة كما قدمناه، اجتمع الموحدون وسائر الناس على طبقاتهم إلى ابنه يحيى، فبايعوه ليلة مهلك أبيه، وفي غدها وتلقب الواثق. وافتتح أمره برفع المظالم وتسريح أهل السجون وإفاضة العطاء في الجند وأهل الديوان، وإصلاح المساجد، وإزالة كثير من الوظائف عن الناس. وامتدحه الشعراء فأسنى جوائزهم، وأطلق عيسى بن داود من اعتقاله وردده إلى حاله. وكان المتولي لأخذ البيعة عن الناس والقائم بأمره سعيد بن يوسف بن أبي الحسين لمكانه من الدولة ورسومه في الشهرة، فقام بالأمر ولم يزل على ذلك إلى أن نكبه وأدال منه بالحبيبر.

الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن الحبيبر على الدولة

هذا الرجل اسمه يحيى بن عبد الملك الغافقي وكنيته أير الحسن أندلسياً من أعمال مرسية، وقد مع الجالية من شرق الأندلس أيام استيلاء العدو، وكان يحسن الكتابة ولم يكن له من الخلال سواها، فصرف في الأعمال، ثم ارتقى إلى خدمة ابن أبي الحسين فاستكتبه، ثم رقاها إلى ولاية الديوان فعظمت حاله، وكانت له أثناء ذلك مداخلة للواثق ابن السلطان، واعتدها له سابقة. فلما استوثق الأمر رفع منزلته واختصه بالشورى، وقلده كتاب علامته. وكان سعيد بن أبي الحسين مزاحماً له منافساً لما كان أسف من تقديره. فأغرى به السلطان ورغبه في ماله فتقبض على أبي سعيد بن أبي الحسين لسته أشهر من الدولة سنة ست وسبعين وستمئة واعتقل بالقصبة. وتقبض على نعله ابن ياسين وابن صياد الرجالة وغيرهم. وقدم على الأشغال مدافعاً في الموالي المعلومين. ووكل أبا زيد بن أبي الأعلام من الموحدين بمصادرة ابن أبي الحسين على المال وامتحانه.

ولم يزل يستخرج منه حتى ادعى الإملاق واستحلف فحلف. ثم ضرب فادعى مؤثماً من ماله عند قوم استكشفوا عنه فادوه. ثم دل بعض مواليه على ذخيرة بداره فدنية فاستخرج منها زهاء ستمائة ألف من الدنانير، فلم يقبل بعدها مقال، وبسط عليه العذاب إلى أن هلك في ذي الحجة من سنته، ودفن شلوه بحيث لم يعرف مدفنه. واستبد أبو الحسن الحبيبر على الدولة والسلطان،

الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء السلطان أبي إسحاق ثم دخوله في طاعته وخلع الوائق

على الزاب، ولأخيه عبد الواحد على بلاد قسطنطينية. ثم تقبض على أبي الخبر وأمر باعتقاله ودفعه إلى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان. ووجد مكان التماسم عليه طوابع وطلسمات مختلفة الأشكال والصور، يسحر بها فيما زعموا بخدومه فحاق به وبأهلها. وكان شأنه في الامتحان والاستحلاف والهلاك بالعذاب شأن سعيد بن أبي الحسين منكوبه أيام دولته، إلى أن هلك في شهر جمادى الأولى من سنته، والله لا يظلم مثقال ذرة.

ولما اقتعد السلطان أبو إسحاق كرسي ملكه، واستوثق عرى خلافته، تقبض على محمد بن أبي هلال وقتله بجر نكبته سنة ست وسبعين وستمائة، لما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة وما عرف به من المساعي في الفتنة.

الخبر عن مقتل الوائق وولده

لما اغلغ الوائق عن الأمر وتحول إلى دار الأقوري فأقام بها أياماً. وكان له ثلاثة من الولد أصغر: الفضل والطاهر، والطيب، فكانوا معه. ثم نجي عنه للسلطان أبي إسحاق أنه يروم الثورة وأنه داخل في ذلك بعض رؤساء النصارى من الجند، فأقلق السلطان مكان ترشيحه واعتقله بمكان اعتقال بنيه، وهو من القصة أيام أخيه المستنصر. ثم بعث إليهم ليلتهم فذبحوا جميعاً في شهر صفر سنة تسع وسبعين وستمائة واستوثق له الأمر وأطلق من عنان الإمارة لولده إلى أن كان من شأنهم ما يذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس ابن السلطان أبي إسحاق على بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك

كان للسلطان أبي إسحاق من الأبناء خمسة: أبو فارس وعبد العزيز وكان أكبرهم، وأبو محمد عبد الواحد، وأبو زكريا يحيى، وخالد، وعمر، وكان السلطان المستنصر قد حبسهم عند فرار أبيهم إلى رباح في أيامه ببعض حجر القصر، وأجرى عليهم رزقاً فنشؤوا في ظل كفالتهم وجيم رزقه، إلى أن استولى أبوهم السلطان أبو إسحاق على الملك فطلعوا بأفاقه. وطالت فروعهم في دوحه، واشتملوا على العز واصطنعوا أهل السوابق من الرجال، وارخى السلطان لهم ظلهم في ذلك. وكان الجلي فيها كبيرهم أبو فارس لما كان مرشحاً لولاية العهد، وكان ممن اصطنعه وألقى عليه

لما بلغ الخبر إلى الوائق ووزيره المستبد عليه ابن الخبر بدخول السلطان أبي إسحاق ببجاية، سرح العساكر إلى حربه، وعقد عليها لعمه أبي حفص. واستوزر له أبا زيد بن جامع، فخرج من تونس واضطرب معسكره ببجاية. وعقد الوائق على قسطنطينية لعبد العزيز بن عيسى بن داود لزمة صهر كانت له من ابن الخبر، فتقدم إلى قسطنطينية، ومنع عنها الأمير أبا إسحاق كما ذكرناه. ثم اضطرب رأي ابن الخبر في خروج الأمير أبي حفص، وأراد انفضاض عسكره فكتب الوائق إلى أبي حفص ووزيره ابن جامع يغري كل واحد منهما بصاحبه، فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي إسحاق، وبعثوا إليه بذلك. واتصل الخبر بالوائق وهو بتونس متبذراً عن الحامية والبطانة. فاستيقن ذهاب ملكه، وأشهد الملاء، واغلق عن الأمر لعمه السلطان أبي إسحاق غرة ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين وستمائة وتحول عن قصور الملك بالقصبة إلى دار الأقوري وانقرضت دولته وأمره، والبقاء لله وحده.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحاق على الحضرة

لما بلغ السلطان أبا إسحاق كتاب أخيه الأمير أبي حفص وابن جامع من بجاية، بادر مغدلاً إليهم. ثم وافاه خبر اغتلاص الوائق ابن أخيه بتونس، فارتحلوا جميعاً وسائر أهل الحضرة على طبقاتهم إلى لقاءه، وآتوه طاعتهم ودخل الحضرة منتصف الحجة آخر سنة ثمان وسبعين وستمائة ومحمد بن هلال شيخ دولته. وعقد على حجابته لأبي القاسم بن الشيخ كاتب أبي الحسين، وعلى خطة الأشغال لابن أبي الحسن ابن خلدون. كان وقد مع أبيه الحسن على الأمير أبي زكريا من اشبيلية لزمة رعاها لهم، لما كانت أم ولده أم الخلافت من هدايا ابن المحتسب أبي زكريا محلهم.

ورحل الحسن إلى المشرق ومات هنالك، وبقي ابنه أبو بكر بالحضرة فاستعمله الأمير أبو إسحاق لأول دخوله في خطة الأشغال، ولم يكن يليها إلا الموحدون كما قلناه. وعقد لفضل بن علي بن مزني على الزاب، ولم يكن أيضاً يليها إلا الموحدون. لكن رعى لفضل بن مزني دمة اغترابه معه إلى الأندلس، فعقد له

ولم يزل أميراً بها إلى آخر دولته.

الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسطنطينية

ومقتله

اسم هذا الرجل أبو بكر بن موسى بن عيسى، ونسبته في كومه من بيوت الموحدين. كان مستخدماً لابن كلداسن الوالي بقسطنطينية بعد ابن النعمان من مشيخة الموحدين أيام المستنصر. ووفد ابن كلداسن على الحضرة، وأقام ابن وزير نائباً عنه بقسطنطينية، فكان له غنى وصرامة. وولاه السلطان أبو إسحاق حافظاً على قسطنطينية. واتصلت ولايته وهلك المستنصر واضطربت الأحوال. ثم ولاه الواثق، ثم السلطان أبو إسحاق وكان ابن وزير هذا طموحاً لأموال الناس لا يمل. وعلم أن قسطنطينية معقل ذلك القطر وحصنه فحدثه نفسه بالامتناع بها، والاستبداد على الدولة. وساء أثره في أهلها فرفعوا أمرهم إلى السلطان أبي إسحاق، واستعدوه فلم يعدهم لما رأى من تخايل اغترافه عن الطاعة. وكتب هو بالاعتذار والتكير لما جاء به، فتقبله وأغضى له عن هنائه. ولما مر به الأمير أبو فارس إلى محل إمارته من بجاية سنة تسع وسبعين وستمائة تعد عن لقائه وأوفد إليه جمعاً من الصلحاء بالمعاذير والاستعطاف، فمنحه من ذلك كفاء مرضاته، حتى إذا أبعد الأمير أبو فارس إلى بجاية، اعتزم على الانتزاع. وكاتب ملك أرغون في جيش من النصاري يكون معهم في ثغره يردد بهم الغزو على أن يكون فيما زعموا داعية له فأجابه ووعده ببعث الأسطول إليه، فجاهر بالخلعان، وانتزى بثغر قسطنطينية داعياً لنفسه آخر سنة ثمانين وستمائة.

وزحف إليه الأمير أبو فارس من بجاية في عساكره، واحتشد الأعراب وفرسان القبائل إلى أن احتل بميلة. ووفد عليه مشيخة من أهل قسطنطينية بمكر من الرغبة والتوسل بعثهم ابن وزير فأعرض عنهم، وقصد قسطنطينية في أول ربيع سنة إحدى وثمانين وستمائة فلنازها وجمع الأيدي على حصارها. ونصب الجانيق وقرب قواعد الرماة، وقاتلها يوماً أو بعض يوم، وتسور عليهم المعقل من بعض جهاته. وكان المتولي لتسوره صاحبه محمد ابن أبي بكر بن خلدون، وأبلى بن وزير عند الصدمة حتى أحيط به، وقتل هو وأخوه وأشياعهما، ونصبت رؤوسهم بسور البلد. وتمشى الأمير في سكك البلد مسكناً ومؤنساً، وأمر برم ما تتلم من الأسوار وبإصلاح القناطر. ودخل إلى القصر وبعث بالفتح إلى أبيه بالحضرة. وجاء أسطول النصاري إلى مرسى القل في مواعدة ابن

رداء محبته في الناس وعنايته أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس البعمري، وأخوه أبو الحسين لسابقة رعاها لهما، وذلك أن أباهما أبا بكر بن سيد الناس، كان من بيوت أشييلية حافظاً للحديث راوية له، ظاهرياً في فقهه على مذهب داود وأصحابه. وكانت لأهل أشييلية خصوصاً من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنه، منذ ولايته غرب الأندلس.

فلما تكالب الطاغية على الدولة والتهم ثغورها واكتسح بسانطها، وأشرف إلى قواعد وأمصارها، أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وإفريقية. وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها. فلما رأى الحافظ أبو بكر اختلال أحوال الأندلس وقبح مصايرها، وخفة ساكنها، أجمع الرحلة عنها إلى ما كان بتونس من سابقته عند هؤلاء الخلفاء. فأجاز البحر ونزل بتونس لقلقه السلطان تكرمة، وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهوا التي أسستها أمه أم الخلائف.

ونشأ بنوه أحمد وأبو الحسين في جو الدولة وحجر كفالتهما للاختصاص الذي كان لأبيهم بها. وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا، وتشوفوا إلى مراتب السلطان، واتصلوا بأبناء السلطان أبي إسحاق بمكانهم من حجر القصر حيث أنزلهم معهم بعد ذهاب أبيهم، فخالطوهم واستخدموا لهم. ولما استولى السلطان على الأمر ورشح ابنه أبا فارس للعهد، وأجراه على سنن الوزارة فاصطنع أحمد بن سيد الناس، ونوه باسمه وخلع عليه لبوس كرامته. واختصه بلقب حجابته، وأخوه أبو الحسين يناهضه في ذلك عنده. ونفس ذلك عليهما البطانة فأغروا السلطان أبا إسحاق بابنه وخوفوه شأنه. وأن أحمد بن سيد الناس داخله في التوثب بالدولة. وتولى كبر هذه السعاية عبد الوهاب بن قائد الكلاعي من عليّة الكتاب وجوهمهم. كان يكتب للعامة يومئذ، فسطا السلطان بابن سيد الناس سنة تسع وستين وستمائة آخر ربيع، استدعى إلى باب القصر فتعاورته السيوف هرباً. ووري شلوه ببعض الحفر. وبلغ الخبر إلى الأمير أبي فارس فركب إلى أبيه في لبوس الحزن، فعزاه أبوه عن ذلك بأنه ظهر لابن سيد الناس على المكر والخديعة بالدولة. وأماط سواده بيده، ونجا أبو الحسين من هذه المهلكة. واعتقل في لمة من رجال الأمير أبي فارس وبطانته بعد أن توارى أياماً إلى أن أطلق من محبسه، وكان من أمره ما تذكره بعد. واستبلغ السلطان في تائيس ابنه، ومسح الضغينة عن صدره، فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنفذ إليها أميراً مستقلاً. وأنفذ معه في رسم الحجابة جدي محمد ابن صاحب أشغاله أبي بكر بن الحسن بن خلدون، فخرج إليها سنة تسع وستين وستمائة وقام بأمرها،

الخبر عن ظهور الدعي ابن أبي عمارة وما وقع من الغريب في أمره

كان أحمد بن مرزوق أبو عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليهما من المسيلة، نشأ ببجاية وسمياً محترفاً بصناعة الخياطة غراً غمراً. وكان يحدث نفسه بالملك لما كان يزعم أن العارفين يخبرونه بذلك. وكان هو يخطط فيريه خطه ذلك. ثم اغترب عن بلده ولحق بصحراء سجلماسة واختلط بعرب المعقل وانتمى إلى أهل البيت، وادعى أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار، وأنه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة، فاشتملوا عليه وحدثوا بشأنه أياماً.

أخبرني طلحة بن مظفر من شيوخ العمارة إحدى بطون المعقل أنه رآه أيام ظهوره بالمعقل ملتبساً بتلك الدعوى حتى فضحه العجز. ثم لما زهدوا فيه لعجز مدعاه ذهب يتقلب في الأرض حتى وصل إلى جهات طرابلس، ونزل على دباب وصحب منهم الفتى نصيراً مولى الوائق بن المستنصر، ويلقب برى، ولما رآه تبين فيه شهاباً من الفضل ابن مولاه فطنق ييكي ويقبل قديمه، فقال له ابن أبي عمارة: ما شأنك؟ فقص عليه الخبر، فقال: صدقتي في هذه الدعوى وأنا أثرك من قاتلهم.

وأقبل نصير على أمراء العرب منادياً بالسرور بابن مولاه، حتى خيل عليهم. ثم لبس بما دس إلى ابن أبي عمارة من محاورات وقعت بين العرب وبين الوائق، قصها عليهم ابن أبي عمارة نقياً للريب بامرهم، فصدقوا واطمانوا، وأنه بيعتهم. وقام بامرهم مرعوم بن صابر بن عسكر أمير دباب وجمع له العرب ونزلوا طرابلس، وبها يومئذ محمد بن عيسى الهتاتي ويُسهر بعنق الفضة، فامتنت عليهم، ورحلوا إلى بحر بين الوطنين بزور وجاهتها من هواراة فأوقعوا بهم. ثم سار في تلك النواحي واستوفى بجاية ولماية وزوارة وزواعة، وأغرم نفوسة وغريان ونقرة من بطون هواراة وضائع الزمهم إياها واستوفاه. ثم زحف إلى قابس فبايع له عبد الملك بن مكي في رجب سنة إحدى وثمانين وستمئة وأعطاه صفته طواعية، وفاء بحق آبائه فيما طوقه وذريعة إلى الاستقلال الذي كان يؤمله، وأعلن بخلافته ونادى بقومه واستخدم له بني كعب بن سليم ورناستهم في بني شيخة لعبد الرحمن بن شيخة، فاجابوا داعيه وأتابوا إلى خدمته، وتوافت إليه بيعة أهل جربة والحامة وقرى نفاوة. ثم زحف إلى توزر وبلاد قسيلية فاطاعوه. ثم رجع إلى قصبة فبايع له أهلها، وعظم أمره وعلا صيته. فجهز إليه السلطان أبو إسحاق العساكر من تونس كما تذكره.

وزير، فأخفق مسعاهم، وارتحل الأمير أبو فارس ثلاثة الفتح إلى بجاية، فدخلها آخر ربيع من سنته.

الخبر عن قيادة أبناء السلطان العساكر إلى الجهاد

كان السلطان يؤثر أبناءه بمراتب ملكه، ويوليهم خطط سلطانه شغفاً بهم وترشيقاً لهم، فعقد في رجب سنة إحدى وثمانين لابنه الأمير زكريا على عسكر من الموحدين والجنود، وبعثه إلى قصبة للإشراف على جهاتها. وضم جبايتها فخرج إليها وقضى شأنه من حركته، وانصرف إلى تونس في رمضان من سنته. ثم عقد لابنه الآخر أبي محمد عبد الواحد على عسكره، وأنفذه إلى وطن هواراة لانتقضاء مغارمهم وجباية ضرائهم وفرائضهم، وبعث معه عبد الوهاب بن قائد الكلاعي مباشراً لذلك وواسطة بينه وبين الناس، فاتته إلى القيروان، وبلغه شأن الدعي وظهوره في دباب بنواحي طرابلس، فطير بالخبر إلى السلطان وأقبل على شأنه. ثم انتشر أمر الدعي وانكفا راجعاً إلى تونس.

الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن

كان السلطان لما أجاز البحر من الأندلس لطلب ملكه، ونزل على يغمراسن بن زيان بتلمسان، فاحتفل لقدمه وأركب الناس للقاءه، وأنه ببيعتة على عادته من سلفه لما علم أنه أحق بالأمر، ووعده النصرة من عدوه والمؤازرة على أمره، وأصهر إليه في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان تشريفاً خطبه منه، فأولاه إسعافاً به. ولما استولى السلطان على حضرته واستبد بأحوال ملكه بعث يغمراسن ابنه إبراهيم المكنى بأبي عامر في وفد من قومه لإتمام ذلك العقد، فاعتمد السلطان مبرتهم وأسعف طلبتهم، وأقاموا بالحصرة أياماً، وظهر من إقدامهم في فتن الدعي مقامات، وانصرفوا بظعنيتهم سنة إحدى وثمانين وستمئة مجبورين محبورين. وابتنى بها عثمان لحين وصولها فكانت من عقائل قصورهم ومفاخر دولتهم، وذكراً لهم ولقومهم إلى آخر الأيام.

الخبر عن انفضاض عساكر السلطان

وتقويضه عن تونس

لما تفاقم امر الدعي بنواحي طرابلس، ودخل الكثير من أهل الأنصار في طاعته، جهز السلطان عساكره وعقد لابنه الأمير أبي زكريا على حربه، فخرج من تونس ونزل القيروان، واقتضى منها غنائم ووضائع استأثر منها بأموال. ثم ارتحل إلى لقاء الدعي وانتهى إلى نموده، وبلغه هنالك ما كان من استيلاء الدعي على قفصة فأرجف به العسكر وانفضوا من حوله، ورجع إلى تونس فدخلها آخر يوم من رمضان من سنته، وارتحل الدعي على أثره من قفصة واحتل بالقيروان، فبايع له أهلها واقتدى به أهل المهدية وصفاقس وسوسة فبايعوا له، وكثر الإرجاف بتونس، فاضطرب السلطان وأخرج معسكره بظاهر البلد في وسط شوال. وضرب الغزو على الناس واستكثر من العدد، وخرج إلى معسكره بالمهدية وتلوم بها لإزاحة العلل. وارتحل الدعي من القيروان زاحفاً إليه فتسريت إليه طبقات الجنود ومشيجة الموحدين، رضي بمكانه وصاغية إلى بني المستنصر خليفتهم الطويل أمد الولاية عليهم، ورحمة لما نال الوائق وأبناءه من عملهم ثم انفض عن السلطان كبير الدولة موسى بن ياسين في معظم الموحدين، ولحق الدعي بطريقه، فاختلف أمر السلطان وانتقضت على ملكه، وفر إلى بجاية كما نذكره.

الخبر عن لحاق السلطان أبي إسحاق ببجاية

ودخول الدعي بن أبي عمارة إلى تونس

وما كان من أمره بها

لما انفض معسكر السلطان أبي إسحاق آخر شوال من سنة إحدى وثمانين وستمائة ركب في خاصته وبعض جنوده ذاهباً إلى بجاية، ومر بتونس فوقف عندها ثم احتمل أهله وولده وسار في كلب البرد، فكان يعاني من قلة الأقوات وتعاور المطر والثلج شدة. وكان يصانع القبائل في طريقه لبذل ماله. ثم مر بقسططنية فمنعه عاملها عبد الله بن بوقيان الهربي من دخولها وقرب إليه بعض القرى من الأقوات، وارتحل إلى بجاية وكان أمره ما يذكر. ودخل الدعي بن أبي عمارة إلى الحضرة، وقلد موسى بن ياسين وزارته، وأبا القاسم أحمد بن الشيخ حجابته، وتقبض على صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصاده

على مال امتحنه عليه. ثم قتله خنقاً، وصرف خطة الجباية إلى عبد الملك بن مكي رثي قابس. واستكمل القاب الملك، وقسم الخطط بين رجال الدولة، وصرف همه إلى غزو بجاية.

الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر

عند وصول أبيه إليه

لما وصل السلطان أبو إسحاق إلى بجاية في شهر ذي القعدة من سنته طريداً عن ملكه غافلاً عن كرسي سلطانه، انتقض عليه ابنه الأمير أبو فارس ومنعه من الدخول إلى قصره، فنزل بروض الرقيق، وأراد على الخلع فاخلع له. وأشهد الملأ من الموحدين ومشيجة بجاية بذلك، وأنزله قصر الكوكب ودعا الناس إلى بيعته آخر ذي القعدة، فبايعوه وتلقب المعتمد على الله. ونادى في أوليائه من رياح وسدويكش. وخرج من بجاية زاحفاً إلى الدعي، واستخلف عليها أخاه الأمير أبا زكريا. وخرج معه عمه الأمير أبو حفص وإخوته، فكان من أمرهم ما نذكر.

الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقاء

الدعي ثم انهزامه أمامه واستلحامه وإخوته

في المعركة وما كان أثر ذلك من مهلك

أبيهم السلطان أبي إسحاق وفرار أخيه

الأمير أبي زكريا إلى تلمسان

لما بلغ الخبر إلى الدعي باستبداد الأمير أبي فارس على أبيه واستعداده للقاء، تقبض على أهل البيت الحفصي، فاعتقلهم بعد أن هم بقتلهم. وخرج من تونس في عساكر من الموحدين وطبقات الجند في صفر سنة اثنتين وثمانين وستمائة فأنتهى إلى مرماجنة، وتراءى الجمعان ثالث ربيع الأول فاقتلوا عامة يومهم. ثم اختل مصاف الأمير أبي فارس، وتخاذل أنصاره فقتل في المعركة، واتهب معسكره وقتل إخوته جميعاً صبراً: عبد الواحد قتله الدعي بيده، وعمر وخالد وأبو محمد بن عبد الواحد وبعث برؤوسهم إلى تونس فطيف بها الرماح ونصبت بأسوار البلد. وتخلص عمه الأمير أبو حفص من الواقعة إلى أن كان من أمره ما نذكر.

ويلغ خبر الواقعة إلى بجاية فاضطرب أهلها ومجا بعضهم في بعض، وجمعهم قاضيه أبو محمد عبد المنعم بن عتيق الجزائري للحديث في الشأن فتكالبوا، وزجرهم ابنه فقتلوا.

الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان أبي حفص على ملكه وغلبه ومهلكه

لما ظهر السلطان أبو حفص وبايعه العرب تسامع به أهل الحضرة واجتمع إليه الناس وأوقع الدعي بأهل الدولة فمقتوه، وخرج من تونس يريد قتاله فأرجف به أهل العسكر ورجع منهزماً، ودخلت البلاد في طاعة السلطان أبي حفص ونهض إلى تونس فنزل بسحوم قريباً منها. وعسكر الدعي بظاهر البلد تجاهه وطالت بينهما الحرب أياماً والناس في كل يوم يستوضحون خبء الدعي ومكره إلى أن تبرؤوا منه وأسلموه، ورحل من مكان معسكره ولاذ بالاختفاء، ودخل السلطان البلد في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمئة واستولى على سرير ملكه، وطهره من الدنس قاصيه ودانيه، واختفى الدعي بتونس وغاص في لجة ساكنيتها وأحاط به البحث فثر عليه لليلال من مدخل السلطان بدور بعض السوق يعرف بأبي قاسم القرمادي فهدمت لحينها. وثل إلى السلطان فأحضر له الملا، ووجّه وساءله فاعترف بأدعائه في نسهم فأمر بامتحانه وقتله. وذهب في غير سبيل مرحة، وطيف بشلوه ونصب رأسه. وكان عبد الله بن بغمور المباشر لقتله، وكان خبره من الثلاث. واستبد السلطان بملكه وتلقب المستنصر بالله، وبادر الناس إلى الدخول في طاعته. وبعث أهل القاصية ببيعتهم من طرابلس وتلمسان وما بينهما وعقد للشيخ أبي عبد الله الفازاني على عساكره وعلى الحروب والضاحية، وأقطع البلاد والمغارم للعرب رعيًا لذة قياهم بأمره، ولم يكن لهم قبلها أقطاع، وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك ولا يفتحون فيه على أنفسهم باباً، وأقام متملياً ملكه وأدعاً في حضرته إلى أن كان ما نذكر.

الخبر عن استيلاء العدو على جزيرة جربة وميورقة ومنازله المهديّة وأجلاجه على السواحل

كان من أعظم الحوادث، تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحرية، فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثلاث وثمانين وستمئة ورتاستها يومئذ من محمد بن سمون بن شيخ الوهبة. ويخلف ابن أمغار شيخ النكازة وهما فرقنا الخوارج. وزحف إليها المراكيا صاحب صقلية نائباً عن

ثم أشخصوا القاضي إلى بلده في البحر وخرج السلطان أبو إسحاق وابنه الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، فقدم أهل بجاية عليهم محمد بن السيد قائماً فيهم بطاعة الدعي، وخرج في أتباع السلطان فأدركه بجبل بني غبرين من زواوة، فتقبض عليه، ونجا الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، وبقي السلطان أبو إسحاق ببجاية معتقلاً ريثما بلغ الخبر إلى تونس، وأرسل الدعي محمد بن عيسى بن داود فقتله آخر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمئة وانقضى أمره والله عاقبة الأمور.

الخبر عن ظهور الأمير أبي حفص وبيعتة وما كان على أثر ذلك من الأحداث

قد ذكرنا أن الأمير أبا حفص حضر واقعة بني أخيه مع الدعي بمراجنة، فخلص من المعركة راجلاً، ونجا إلى قلعة سنان معقل هواره القريب من مكان الملحمة، ولاذ به في ذهابه إلى منجاته ثلاثة من صنائعهم: أبو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس، ومحمد بن القاسم بن إدريس الفازاني، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون، وهو جد المؤلف الأقرب. وربما كانوا يتناقلونه على ظهورهم إذا أصابه الكلال. ولما نجا إلى قلعة سنان تحدث به الناس وشاع خبر منجاة إليها.

وكان الدعي قد أسف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسيءه الملكة فيهم، فليوم دخوله شكاً إليه الناس عيئهم فتقبض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم. ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق بن تافراكين لحسم عليلهم وأوعز إليه بالإنحان فيهم. فاستلحم من لقي منهم. ثم تقبض على مشايخ بني علاق وأودع سجونه منهم نحواً من الثمانين، فساء أثره فيهم وتطلبوا أعياص البيت، وتسامعوا بخبر الأمير أبي حفص بمكانه من قلعة سنان، فرحلوا إليه وأتوه ببيعتهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين وستمئة وجعلوا له شيئاً من الآلة والأخية، وقام بأمره أبو ليل بن أحمد أميرهم. وبلغ الخبر إلى الدعي فداخلته الظنة في أهل دولته. وتقبض على أبي عمران بن ياسين شيخ دولته، وعلى أبي الحسن بن ياسين وابن وانودين، وعلى الحسين بن عبد الرحمن يعسوب زناتة فامتحنهم واستصفى أموالهم. ثم قتلهم آخراً وتوجع لهم الناس واضطرب أمر الدعي إلى أن كان ما نذكره.

الفديرك بن الريدركن ملك برشلونة في أساطيله البحرية وكانوا فيما قيل سبعين أسطولاً من غريان وشواني، وضايقهم مراراً. ثم تغلبوا عليها فانتهبوا أموالها وحملوا أهلها أسراً وسيّاً. ف قيل: إنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضع في الجيوب، فكانت هذه الواقعة من أشجى الوقائع للمسلمين. ثم بنوا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حاميةً وسلاحاً. وفرض عليهم المغرم مائة ألف دينار كل سنة، وأقاموا على ذلك وهلك المراكبا إلى رأس المائة. وبقيت الجزيرة في ملك النصارى إلى أن أعادوها الله في أواخر الأربعين والسبعائة كما نذكر.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة ظفر العدو بجزيرة ميورقة، ركب إليها طاغية برشلونة في أساطيله في عشرين ألفاً من الرجال المقاتلة ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبي عمر بن حكم ورئيسها النزول للاستسقاء فاذن لهم. فلما تساحلوا آذنوا أهلها بالحرب فتزاحوا ثلاثاً يئس فيهم المسلمون في كلها قتلاً وجراحة بما يناهز الآلاف، والطاغية في بطارقه قاعد عن الزحف، فلما كان اليوم الثالث واستولت الهزيمة على قومه زحف الطاغية في العسكر فانهزم المسلمون، ولجؤوا إلى قلعتهم فالحصروا بكعابها، وعقدوا لابن حكم ذمة في أهده وحاشيته، فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو، وسار إلى ميورقة واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدة والأمر بيد الله.

وفي سنة ست وثمانين وستمائة بعدها غدر النصارى بمرسى الخرز فاقتموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها، واحتملوا أهلها أسرى وأضرموها بيوتها ناراً. ثم مروا بمرسى تونس وانصرفوا إلى بلادهم. وفيها أو في سنة تسع وثمانين وستمائة بعدها نازل أسطول العدو مدينة المهديّة، وكان فيها الفرسان لقتالها فزحفوا إليها ثلاثاً ظفر بهم المسلمون في كلها. ثم جاء مدد أهل الأجم فانهزم العدو حتى اقتحموا عليهم الأسطول، وانقلبوا خائبين وتمت النعمة.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي بكر زكريا

على الثغر العربي بجاية والجزائر وقسطنطينية

وأولية ذلك ومصائره

كان للأمير أبي بكر زكريا ابن السلطان من الترشيع للأمل بهديه وشرف همتة وحسن ملكته، وغالطته أهلاً لعلم ما يشهد له بحسن حاله، وهو الذي اختط المدرسة للعلم بأزاء دار الأقوري

حيث كان سكناه بتونس، ولما لحق بتلمسان بعد منجاة من مهلك أبيه بجاية، نزل على صهره عثمان بن يغمراسن بتلمسان، وجاء في أثره أبو الحسن بن أبي بكر بن سيد الناس صنيعة أبيه وأخيه بعد أن خلص مع السلطان أبي حفص من الواقعة إلى مرجنة. فلما بايع له العرب وبدت غحليل الملك، رأى أبو الحسين إشار السلطان للفازاوي عليهم فكتب عنه، ولحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان واستحثه لطلب ملكه. واستقرض من تجار بجاية هنالك مالاً أنفقه في إقامة أهله الملك له، وجمع الرجال واصطنع الأولياء.

وفشا الخبر بما يرومه من ذلك، فصده عثمان بن يغمراسن عنه بما كان تقلد من طاعة السلطان أبي حفص على سبتهم من الخلفاء بالحضرة قبله، فاعتزم الأمير أبو زكريا على شأنه، وخرج من تلمسان موراً بالصيد الذي كان يتحلله أيام مقامه بينهم، ولحق بدادود بن هلال بن عطاف أمير بني يعقوب، وكافة بني عامر من زغبة، أوغر عثمان بن يغمراسن إلى داود برده إليه فأبى من إخفار ذمته، وارتحل معه بقومه إلى آخر بلاد زغبة، ونزلوا على عطية بن سليمان بن سباع من رؤساء الدواودة، فتلقاه بالطاعة وارتحلوا جميعاً إلى ضواحي قسطنطينية فدخل العرب سدويكش في طاعته.

ونزل البلد سنة ثلاث وثمانين وستمائة وعاملها يومئذ أبو يوقيان من مشيخة الموحدين، وكان صاحب الجاية بها أبو الحسن بن طفيل. كان له من العامل صهر فداخل الأمير أبا زكريا في شأن البلد، وشرط لنفسه وصهره فأمضى السلطان شرطهم وأمكنوه من البلد. وأقاموا به دعوته، وارتحل إلى بجاية وكان قد حدث فيها اضطراب بين أهلها أدى إلى الخلاف والتباين، واستحثوا الأمير أبا زكريا فأغذ السير إليهم ودخلها سنة أربع وثمانين وستمائة ويقال: إن ملكه بجاية كان سابقاً على ملكه بقسطنطينية وهو الأصح فيما سمعناه من شيوخنا. وبعث إليه أهل الجزائر بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور القريبة، وتلقب المنتخب لإحياء دين الله. وأغفل ذكر أمير المؤمنين أدباً مع عمه الخليفة بالحضرة، حيث مالاً الموحدين أهل الحل والعقد من الجماعة. ونصب للحجاجة أبا الحسين بن سيد الناس فقام بها، ورسخ ملكه وملك بنيه بهذه الناحية الغربية، وانقسمت به الدولة إلى أن خلص الأمر للملوك من عقبه واستولوا على الحضرة كما نذكر.

واشترطوا أن لا حكم عليهم في سواها، وأن رؤساء نفزاة منهم، فأمضى شرطهم وكان أول استبداد أهل الجريد كما نذكر.

الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي

دبوس داعياً لنفسه بجهاث طرابلس

كان أبو دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش لما قتل سنة ثمان وخمسين وستمائة، وافترق بنوه وتقلبوا في الأرض، لحق منهم عثمان بشرق الأندلس، ونزل على طاغية برشلونة فأحسن تكريمه، ووجد هنالك أعقاب عمه السيد أبي زيد المنتصر أخي أبي دبوس في مئواهم من إيالة العدو. وكان لهم هنالك مكان وجاه لنزوع أبيهم السيد أبي زيد عن دينه إلى دينهم، فاستبلغوا في مساهمة قريتهم هذا الوافد، وخطبوا له عن الطاعة حظاً. ووافق ذلك حصول مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوالي من بني دباب في قبضة أسره، وكان قد أسره العدى من أهل صقلية بنواحي طرابلس سنة اثنتين وثمانين وستمائة وباعوه من أهل برشلونة فاشتره الطاغية، وقام عنده أسيراً إلى أن نزع إليه عثمان بن أبي دبوس هذا كما ذكرناه. وشمر لطلب حقه في الدعوة الموحدة حيث كانت وأمل الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية، فعبر البحر إلى طرابلس، وكان من حظوظ كرامته عند الطاغية أن أطلق له مرغم بن صابر، وعقد له حلفاً معه على مظاهرتة، وجيز لهما الأساطيل وشحنها بالمدد من المقاتلة والأقوات على مال شرطه له، فنزلوا على طرابلس سنة ثمان وثمانين وستمائة واحتشد مرغم قومه وحملهم على طاعة ابن أبي دبوس، ونازلوا البلد معه ومع جنده من النصرانية، فحاصروها ثلاثاً، وساء أثرهم فيها. ثم دخل النصارى بأسطولهم وأرسو بأقرب السواحل إلى البلد وتنقل ابن أبي دبوس ومرغم في نواحي طرابلس بعد أن أنزلوا عليها عسكرياً للحصار، فاستوفوا من جباية المغارم والوضائع مالاً دفعوه للنصارى في شرطهم، وانقلبوا أسطولهم، وأقام ابن أبي دبوس يتقلب مع العرب. واستدعاه ابن مكى من بعد ذلك لأنه يشبه به في استبداده، فلم يتم أمره إلى أن هلك بجمرة، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيد الناس

صاحب بجاية وولاية ابن أبي ججي مكانه

قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته، وأنه لحق بالأمير أبي

الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا إلى ناحية

طرابلس ومنازلة عثمان بن يغمراسن بجاية

في مغيبه

لما استولى الأمير أبو زكريا على الناحية الغربية، واقتطعها من أعمال الحضرة اعتمل في الحركة على تونس، فنهض إليها في عساكره سنة خمس وثمانين وستمائة، ووفد عليه عبد الله بن رحاب بن محمود من مشيخة دباب وماتعه الفزازي عن أحواز تونس فنازل قابس وحاصرها، وكان له في قتلها أثر واستولت الهزيمة على مقاتلتها ذات يوم فأنخن فيهم قتلاً وأسراً، وهدم ريشها وأحرق المنازل في غابتها والنخل، وارتحل إلى مسراته وانتهى إلى الأبيض وأطاعه الجسوري والحاميد وآل سالم وعرب برقة، وبلغه بمكانه من مسراته أن عثمان بن يغمراسن أسف إلى منازلة بجاية وكان من خبره أن الأمير أبا زكريا لما فصل من تلمسان لطلب ملكه على كره منه، وامتنع جاره داود بن عطف من رده، وامتلاً له عداوة وحقدًا، وجدد البيعة لصاحب تونس، وأوفد بها علي ابن محمد الخراساني من صناعته. وكان له أثناء ذلك ظهور على بني توجين ومغراوة بالغرب الأوسط وضاق ذرع أهل الحضرة بمكان الأمير أبي زكريا من مطالبهم وتدويخه لقاصيتهم، فدخلوا عثمان بن يغمراسن في منازلة معقله بعد بجاية ليردوه على عقبه عنهم، فزحف إلى بجاية سنة ست وثمانين وستمائة ونازلها أياماً وامتنع عليه سائر ضواحيها فلم يظفر بأكثر من الإطلال عليها. وانكفأ الأمير أبو زكريا راجعاً إلى بجاية سنة ست وثمانين وستمائة إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن فاتحة استبداد أهل الجريد

كان في بعض الأيام بين سداة وكنومة من عمل تقيوس فتنة قتل فيها ابن شيخ سداة، وأقسم لشارن فيه بشيخ كنومة نفسه، وكان عامل توزر محمد بن يحيى بن أبي بكر التينمللي من مشيخة الموحدين فتذم شيخ كنومة به، وبذل له مالاً على نصره من عدوه، فكتب الحضرة وأعلن بخلاف أهل سداة واحتشد لهم أهل نقطة وتقيوس، وخرج هو في حشد أهل توزر وغزاهم في بلدهم ولاذ بإعطاء الرهن، وبذل المال فلم يقبل فأمدهم أهل نفزاة وزحفوا إليه، فانتهزت جموعه وأنخنوا فيهم قتلاً وأسراً إلى توزر، وذلك سنة ست وثمانين وستمائة. ثم عاود غزوهم عقب ذلك ففتحوا عليه ثم عقد لهم سلماً على الوفاء بمغارهم

فأركبوه وكسبوه ولحق ببجاية سنة إثنين وتسعين وستمائة فنزل بباب السلطان، ورغبه في ملك الزاب، وصانع الحاجب ابن أبي جبي بأنواع التحف، وضمن له تحويل الدعوة بالزاب للسلطان الأمير أبو زكريا وتسريب جبايته إليه، فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وأمداه بالعسكر، ونازل بسكرة فامتعت عليه، ورأى مشيختها بنو رمان بعدهم عن صريخ تونس، وإلحاح عدوهم منصور بن فضل عليهم فاعلنوا بطاعة الأمير أبي زكريا وبغوا إليه بيعتهم ووفدهم ودفع عادية بن مزني عنهم، فأرجعهم بما أملوه من القبول، وأن تكون أحكامهم إلى قائد عسكره. ونظر ابن مزني مصروفاً إلى الجباية فقط. ولما وصل الوفد إلى بسكرة خرجوا إلى القائد ومنصور بن مزني، فادخلوها البلد ودانوا بالطاعة، وتصرفت الأمور على ذلك إلى أن كان من أمر منصور بن مزني ما نذكره في أخباره، ولم يزل الزاب في دعوة الأمير أبي زكريا وبنه إلى أن استولى على الحضرة بعده بنوه لهذا العهد، كما تراه في الأخبار بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك أبي عبد الله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم بن الشيخ رؤساء الدولة بالحضرة

كان أبو عبد الله الفازازي من مشيخة الموحدين، وكان خالصة للسلطان أبي حفص، وعقد له على العساكر كما قدمناه ودفعه إلى الحروب وتجهيد النواحي، فقام في ذلك المقام المحمود، ودوخ الجهات واستنزل الثوار ودفعهم، وجبى الخراج وكانت له في ذلك آثار مذكورة، وفي بلاد الجريد ومشيختها تصارييف وأحوال، وهو الذي امتحن أحمد بن يملول بسعاية المشيخة من أهل توزر، وكبح عنائه عن مراميه إلى الرئاسة عليهم، وهلك آخر حركاته إلى بلاد الجريد على مرحلتين من تونس سنة ثلاث وتسعين وستمائة ولسنة منها كان مهلك الحاجب أبي القاسم بن الشيخ، وكان من خبر أوليته أنه قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة ست وعشرين وستمائة واتصل بعاملها محمد بن ياسين فاستكتبه وغلب عليه.

واستدعى ابن ياسين إلى الحضرة وابن الشيخ في جملة، والتمس السلطان من يرشحه لكتابة ويخف عليه، فاطن ابن ياسين في وصف كاتبه أبي القاسم بن الشيخ وحلاه، وابتلاه السلطان فلم ير ضه وصرفه، ثم راجع رأيه فيه واستحسنه ورسمه في خدمته، وأمر ابن أبي الحسين بتلقيه الآداب وتصريفه في وجوه

زكريا بتلمسان، وأبلى في خدمته، فلما استولى الأمير أبو زكريا على الثغر الغربي واقتطعه عن أعمال الحضرة، ونزل بجاية وظاهر بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته، وفوض إليه فيما وراء بابه وأجراه في رئاسته على سنن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذين كانوا يتلقون طريقه، وينزعون إلى مراميه، بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمون، كما كان ابن أبي الحسين مزاحماً بهم، فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمر خدومه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة تسعين وستمائة أعظم ما كان رئاسة وأقرب من صاحبه مكاناً وسراً، فأقام الأمير أبو زكريا مكانه كاتبه أبا القاسم بن أبي حي ولا أدري من أوليته أكثر من أنه من جالية الأندلس، ورد على الدولة، وتصرف في أعمالها، واتصل بأبي الحسين بن سيد الناس فاستكتبه، ثم رقاها واستخلصه لنفسه، وأجره رسنه، وتناول زمام الدولة من يد سيد الناس، فقادها في يد مطهر خدمته حتى عنت إليه الوجوه وأمله الخاصة، وأطلع السلطان على اضطلاله وكفايته في أمور خدومه. وهلك أبو الحسين ابن سيد الناس، فرشحه السلطان بحفظه فقام بها سائر أيامه وصدرت من أيام ابنه الأمير أبي البقاء حتى كان من أمره ما نذكره بعد.

الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص إلى طاعة الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وانتظام بسكرة في عمله

كان السلطان أبو إسحاق قد عقد على الزاب لفضل بن علي بن مزني من مشيخة بسكرة كما قدمناه، فقام بأمره. ولما هلك السلطان عدا عليه بعض أفريق العرب الموطنين قري الزاب بمداخله قوم من أعدائه، وقتلوه سنة ثلاث وثمانين وستمائة كما نذكره، وأملوا الاستبداد بالبدل فدفعهم عنها المشيخة من بني زيان، واستقلوا بأمر بلدهم وبايعوا للأمير أبي حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاعته على السنن. وتوقعوا عادية منصور بن فضل بن مزني. وكان لحق بالحضرة عند مهلك أبيه فخاطبوا فيه السلطان أبا حفص ورموه بالدواهي فأمر باعتقاله، وأودع السجن سبع سنين إلى أن فر منه ولحق بكرفة من أحياء هلال بن عامر، وهم العرب المتولون أمر جبل أوراس، ونزل على الشبه من أفريقهم

رباط هذا الولي فوضعت في بيته، فسماه الشيخ محمداً، وعق عليه وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الخنطة، فلقب بأبي عصيدة إلى آخر الدهر. ثم صار بعد الاختفاء ودواعيه إلى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء من قومه، حيث شب وبقيت له مع الولي أبي محمد ذمة يثابر كل منهما على الوفاء بها، فلما فاوضه السلطان أبو حفص في شأن العهد وقص عليه نكير الموحدين لولده، أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق فتقبل إشارته وعلم ترشيحه، وأنفذ بذلك عهده بمحضر الملأ ومشبيخة الموحدين، وهلك آخر ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمئة وإلى الله المصير.

الخبر عن بيعه السلطان أبي عصيدة وما كان على أثرها من الأحوال

لما هلك السلطان أبو حفص اجتمع الملأ من الموحدين والأولياء والجند والكافة إلى القصبه، فبايعوا بيعة عامة لولي عهده السلطان أبي عبد الله محمد، ولقب كما ذكرناه بأبي عصيدة ابن السلطان الواثق في الرابع والعشرين لذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمئة فانشرحت بيعته الصدور، ورضيته الكافة، وتلقب المستنصر بالله. وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبي حفص لمكان ترشيحه، وقلد وزارته محمد ابن يرزيكن من مشبيخة الموحدين، وأبقى محمد الشخصي على خطة الحجابة وصرف التدبير والعساكر ورتاسة الموحدين إلى أبي يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني قاتل السلطان المستنصر، عند تعرض ابنه للبيعة، واستنامة الخلافة فقام بما دفع إليه من ذلك. وضايقه فيه عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين قبله، حتى إذا نكب وهلك استبد هو على الدولة، واستقل الشخصي بحجابه. وكان محمد بن إبراهيم بن الدباغ رديفاً له فيها.

وكان من خبر ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وفد على تونس في جالية أثنى عشرة سنة مت وأربعين وستمئة فولد هو بتونس ونشأ بها، وأفاد صناعة الديوان وحسبانه - وكان من المرزفين - أبي الحسن وأبي الحكم ابني مجاهد، وأصهر إليهما في ابنة أبي الحسن فأنكحاه ورشاه للأمانة على ديوان الأعمال. ولما استقل أبو عبد الله الفازاري بالرتاسة استكتبه وكان طياشاً مستضعفاً على الخليفة، فكان كاتبه محمد بن الدباغ يروضه لأغراض الخليفة إذا دسها إليه الحاجب ابن الشيخ، فيقع ذلك من الخليفة أحسن الموقع. ولما ولي السلطان أبو عصيدة وكانت له عنده سابقة رعاها، وكان حاجبه الشخصي بهمة غفلاً عن أدوات

الخدمة ومذاهبها. فكان له في ذلك غناء وخفة على مخدومه إلى أن هلك ابن أبي الحسين، وكان الخراج بدار السلطان موقوفاً على نظره من جملة ما إليه، وكان قلمه عاملاً فيه، فأفرد ابن الشيخ بذلك بعد مهلكه إلى آخر أيام السلطان المستنصر. ولما ولي الواثق استبد ابن أبي الحسين عليه كما قلناه، فأبقاه على خطته واختصه لنفسه ودرجه في جلته. ثم جاءت دولة السلطان أبي إسحاق فأقامه في رسمه وزاحمه بأبي بكر بن خلدون صاحب أشغاله. وكانت الرئاسة الكبرى على عهده لابنه أبي فارس، ثم أبي زكريا وأبي محمد عبد الواحد من بعده. ثم كانت مضلة الدعي، فاستولى على ملكهم فاستخلص أبا القاسم بن الشيخ، واستضاف له إلى خطة التنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات. فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الدعي، خافه ابن الشيخ لما كان من رتبته عند الدعي، فلاذ بالصلحاء لإنارة من الخير والعبادة وصلت بينهم وبينه فشغلوه وتقبلها السلطان، وأظهر لهم ذات نفسه في الحاجة إلى استعماله، وقلده حجابته مجموعة إلى تنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات. فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الخراج وصرف العلامة إلى غيره من طبقة الدولة، فلم يزل ذلك إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وستمئة وبقي اسم الحجابة من بعده في هذه الخطط الثلاث وأمر التدبير والحرب ورثاستهما راجع إلى مشبيخة الموحدين إلى أن تصرفت الأحوال، وأدبل بعضها من بعض كما ياتيكم أثناء الأخبار، وقلد السلطان من بعد ابن الشيخ حجابته لأبي عبد الله التحي من طبقة الجند فقام بها إلى آخر الدولة، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر من بعده

لم يزل السلطان أبو حفص على أكمل حالات الظهور والدعة إلى أن استوفى مدته، وأصابه وجع أول ذي الحجة من سنة أربع وتسعين وستمئة ثم اشتد به الوجع وأهمه أمر المسلمين وما قلده من عدتهم فعهده لابنه عبد الله بالخلافة ثاني أيام التشريق، ونكره الموحدون لتخلفه عن المراتب لصغره وأنه لم يحتلم وتحذوا في ذلك. وأفضى الخبر إلى السلطان فأسخطه، وعدل عنهم إلى الشورى مع الولي أبي محمد المرجاني. وكان رايه فيه جيلاً وظنه به صالحاً. وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وبنيه بمحبهم فرت إحدى جواريه، وقد اشتملت على حمل منه إلى

زكريا، وكان الأمير أبو زكريا قد انتقض عليه أهل الجزائر بعد مهلك عامله عليها من الموحدين من بني الكمازير، أنبرى بها بعده محمد بن علان من مشيختها، واستفحل أمر عثمان بن يغمراسن وبني عبد الواد من ورائه، وتغلبوا على توجسين ومغراوة، ومليكش، وكان شيعة لصاحب الحضرة بما كان متمسكاً بدعوتهم ومتقبلاً مذهب أبيه في بيعتهم، فقويت عزائم السلطان أبي عسيبة لذلك، ونهض من الحضرة سنة خمس وتسعين وستمئة وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسطنطينية، وأجفلت أمامه الرعايا والقبائل وانتهى إلى ميلة، وفيها كان منقلبه إلى حضرته في رمضان من سنته.

ولما ضايق عمل بجاية بغزوه أعمل الأمير أبو زكريا نظره في تسكين الناحية الغربية ليتفرغ عنها إلى مدافعة السلطان صاحب الحضرة، فوصل يده بعثمان بن يغمراسن وأكد معه قديم الصهر بمحادث الود والمواصلة. وفي خلال ذلك زحف يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين إلى تلمسان، وألقى عليها بكلكله، واستجاش عثمان بن يغمراسن بالأمير أبي زكريا فأمدّه بعسكر من الموحدين لقيهم عسكر من بني مرين بناحية تدلس فهزموهم وأخذوا فيهم قتلاً. ورجع فلهم إلى بجاية وسرح يوسف بن يعقوب عساكر بني مرين إلى بجاية وعقد عليها لأخيه أبي يحيى بعد أن كان عثمان بن سباع قد وفد عليها نازعاً عن صاحب بجاية إليه، ومرغباً له في ملكها، فأوسع له في الحياء والكرامة ما شاء، وبعث معه هذا العسكر فانتهوا إلى بجاية، وضايقوها ثم جاوزوها إلى تآكرارت وبلاد سدويكش، وعانوا في تلك الجهات ودوخوها وانقلبوا راجعين إلى السلطان يوسف بن يعقوب بمعسكره من تلمسان.

وكان السلطان أبو عسيبة صاحب الحضرة لما علم بإمداد الأمير أبي زكريا لعثمان بن يغمراسن بعث إلى يوسف بن يعقوب عدوهم وحرّضه على بجاية ونواحيها، وسفر بينهما في ذلك رئيس الموحدين أبو عبد الله بن أكمارير أولى سفارته. ثم سفر ثانية سنة ثلاث وسبعمئة بهدية ضخمة أغرب فيها بسرج وسيف ومهمّاز من الذهب مرصعة صنعة الحلى الفاخر من حصياء البياقوت والجوهر. ورافقه في هذه السفارة الثانية وزير الدولة أبو عبد الله بن برزيكن ورجعا بهدية ضخمة من يوسف بن يعقوب كان من جملة ثلثمائة من البغال، واتصلت المخاطبات والسفارات والمدايا والملاطفات. وكان يوسف بن يعقوب يكتب السلطان في تلك الشؤون تعريضاً ويكتب رئيس الموحدين أبا يحيى بن اللحياني وتردد عساكر بني مرين إلى نواحي بجاية إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما يأتي في أخباره.

الكتاب، فاستكتب السلطان ابن الدباغ ثم رقاها إلى كتاب علامته سنة خمس وتسعين وستمئة وكان يتصرف فيها فأصبح رديفاً للشخشي في حجابته، وجرت أمور الدولة على ذلك إلى أن هلك الشخشي سنة تسع وتسعين وستمئة فقلده السلطان حجابته فاستقل بها على ما قدمناه من أن التدبير والحرب مصروف إلى مشيخة الموحدين.

الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر

بنيه من بعده

كان أبو محمد عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين لعهد السلطان أبي حفص، وأصله من تينملل الموطنين بترسوق منذ أول الدولة، كانت له ولسلفه الرئاسة عليهم، وصارت إليه رئاسة الموحدين كافة بالحضرة أيام هذا السلطان وكان له خالصة وشيعة، وكان حريصاً على ولاية ابنه عبد الله للعهد. وكان يدافع نكير الموحدين في ذلك، فأسرّها له السلطان أبو عسيبة. ولما استوثق له الأمر، وقتل عبد الله بحمسه، تقيض على أبي محمد بن سليمان واعتقله في صفر سنة خمس وتسعين وستمئة. ولم يزل معتقلاً إلى أن قتل بحمسه على رأس المائة السابعة، وفر عند نكبته ابنه محمد وعبد الله، فأما عبد الله فلحق بالأمير أبي زكريا، وصار في جملة إلى أن دخل تونس مع ابنه السلطان أبي البقاء خالد. وأما محمد فأبعد المفر ولحق بالمغرب الأقصى، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين بمعسكره من حصار تلمسان، فاستبلغ في تكريمه وأقام عنده مدة. ثم عاود وطنه ونزع عن طريقه إلى النسك ولبس الصوف. وصحب الصالحين وقضى فريضة الحج، وامتد عمره وحسنت فيه ظنون الكافة، واعتقدوا فيه وفي دعائه، وكثرت غاشيته لالتماس البركة منه. وأوجب الخلفاء أزاء ذلك تجلّة أخرى، وأوفدوه على ملوك زنّانة مرة بعد مرة في مذاهب الود وقصود الخير. وحضر في بعض الجهاد بجبل الفتح عندما نازلته عساكر السلطان أبي الحسن، ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك في الطاعون الجارف في منتصف المائة الثامنة.

الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان

بني مرين ومهاداته

كان السلطان أبو عسيبة لما استفحل أمره واستوسق ملكه حدث نفسه بغزو الناحية الغربية وارتجاع ثغورها من يد الأمير أبي

الخبر عن مقتل هدا ج وفتنة الكعوب

وبيعتهم لأبي دبوس وما كان بعد ذلك من
نكبتهم

كان هؤلاء الكعوب قد اثرتهم الدولة واصطنعتهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص، فاعتزوا وغوا ويطروا النعمة، وكثر عيشتهم وفسادهم وطال إضرارهم بالسابلة وحطهم للجنان، وانتهاهم للزرع، فاضطغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم. ودخل رئيسهم هدا ج بن عبيد الله سنة خمس وسبعمئة إلى البلد فخزرتة العيون وهمت به العامة. وحضر المسجد لصلاة الجمعة فتجنوا عليه بأنه وطىء المسجد بخفيه. وقال: لمن نكر عليه ذلك: إني أدخل بهما مجلس السلطان فناروا به عقب الصلاة وقتلوه، وجروا شلوه في سكك المدينة، فزاد عيشتهم وأجلاهم على السلطان، واستقدم أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان بن أبي دبوس من مكانه بنواحي طرابلس، ونصبه للأمر، وأجلب به على الحضرة ونازها.

وخرج إليهم الوزير أبو عبد الله بن برزكن في العساكر فهزمهم، وسار بالعساكر لتمهيد الجهات وتسكين نائرة العرب، فوفد عليه أحمد بن أبي الليل ومعه سليمان بن جامع من رجالات هواره بعد أن راجع الطاعة. وصرف ابن أبي دبوس إلى مكانه فتقبض عليهما، وبعث بهما إلى الحضرة فلم يزالا معتقلين إلى أن هلك أحمد بحبس سنة ثمان وسبعمئة وقام بأمر الكعوب محمد بن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم ابنا أخيه عمر رديقين له. ثم خرج الوزير بعساكره سنة سبع وسبعمئة، واستوفد مولاهم ابن عمر وتقبض عليه وبعث به إلى الحضرة فاعتقل مع عمه أحمد. وجاهر أخوة حمزة بالخلاف وأتبعه عليه قومه فكثرت عيشتهم، وأضروا بالرعايا وكثرت الشكاية من العامة، ولغطوا بها في الأسواق وتصايحوا. ثم نفروا إلى باب القصبية يريدون الثورة فسد الباب دونهم فرموا بالحجارة، وهم في ذلك يعتدون ما نزل بهم من الحاجب ابن الدباغ ويطلبون شفاء صدورهم بقتله. ورفع أمرهم الحاجب واستلحهم جميعاً فأبى من ذلك السلطان وأمره بملاطفتهم إلى أن سكنت هيئتهم. ثم تتبع بالعقاب من تولى كبر ذلك منهم، وانحسم الداء. وكان ذلك في رمضان من سنة ثمان وسبعمئة واستمر العرب في غلوائهم إلى أن هلك السلطان فكان ما يأتي ذكره.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر واستبداد ابن

علان بها

قد قدما ما كان من انتقاض أهل الجزائر أيام المستنصر ودخول عساكر الموحدين عليهم عنوة، واعتقال مشيختهم بتونس حتى أطلقوا بتونس بعد مهلكه، ولما استقل الأمير أبو زكريا الأوسط بملك الثغور الغربية من بجاية وقسطنطينية. وكان الوالي على الجزائر ابن أكمازير من مشيخة الموحدين فبادر إلى طاعته باتفاق من مشيخة الجزائر، ووفدوا عليه. وكتب لابن أكمازير بولايتها، فلم يزل والياً عليهم إلى أن كان شأن بني مرين وزحفهم إلى بجاية. وكان ابن أكمازير قد أسن وهرم فأدركه الوفاة خلال ذلك. وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به ومتصرفاً بأوامره ونواهيهم ومصدراً لإمارته. حصلت له بذلك الرئاسة على أهل الجزائر سائر أيامه. ويقال: كان له معه صهر، فلما وصل ابن أكمازير حدثه نفسه بالاستبداد والانتزاع بالجزائر، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره، وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد. وشغل الأمير أبو زكريا عنه بما كان من منزلة بني مرين ببجاية إلى أن هلك، وبقيت في انتقاضها على الموحدين آخر الدهر إلى أن تملكها بنو عبد الراد كما نذكره.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب

بجاية وبيعة ابنه الأمير أبي البقاء خالد

كان الأمير أبو زكريا قد استولى على الثغور الغربية كما قلنا، واقتطعها من أعمال الحضرة، وقسم الدعوة الحفصية بدولتين. وكان على غاية من الحزم والتيقظ والصرامة لم يبلغها سواه. وكان كثير الإشراف على وطنه والمباشرة لأعماله بنفسه وسد خلله. ولم يزل على ذلك إلى أن هلك على رأس المائة السابعة. وكان قد عهد بالأمر لابنه الأمير أبي البقاء خالد سنة ثمان وتسعين وستمئة قبلها وعقد له على قسطنطينية وأنزله بها. فلما هلك الأمير أبو زكريا جمع الحاجب أبو القاسم بن أبي جُبى مشيخة الموحدين وطبقات الجند، وأخذ بيعتهم للأمير أبي البقاء وطير له بالخبر واستقدمه فقدم، وبوع البيعة العامة، وأبقى ابن أبي جُبى على حجابته واستوزر يحيى بن أبي الأعلام، وقدم على صنهاجة أبا عبد الرحمن بن يعقوب بن خلوف منهم، وتسمى الزوار. وقلد رئاسة الموحدين أبا زكريا يحيى بن زكريا من أهل البيت الحفصي واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله

بقسطنطينية صهرأ لابن أبي جبي، وهو الذي ولاه عليها فاستراب السلطان به، ونكر له بعد عوده من تونس. وخشي كل منهما بادرة صاحبه. ثم رغب ابن أبي جبي في قضاء فرضه وتخليه سبيله إليه، فأسف وخرج من بجاية ذاهباً إلى الحج، ولحق بالقبائل من ضواحي قسطنطينية وبجاية فنزل عليهم وأقام بينهم مدة. ثم لحق بتونس وأقام بها إلى حين مهلك السلطان أبي عصيدة ويعة أبي بكر الشهيد، وحضر دخول الأمير أبي البقاء عليه بتونس، وخلص من تيار تلك الصدمة فلحق بالمشرق وقضى فرضه. ثم عاد إلى المغرب ومر بإفريقية ولحق بتلمسان وأغرى أبا حمو بالحركة على بجاية فكان ما نذكره.

الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن غمر
ومصائر أموره

هو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن غمر السلمي، وكنيته أبو عبد الرحمن. كان جده محمد فيما حدثني أهل بيتهم قاضياً بشاطبة، وخرج مع الجالية أيام العدو إلى تونس، ونزل بالربض الجوفي أيام السلطان أبي عصيدة، وانتقل ابنه أبو بكر ومحمد إلى قسطنطينية ونزلا على ابن أوقيان العامل عليها من مشيخة الموحدين لعهد الأمير أبي زكريا الأوسط، فأوسعهما عناية وتكرماً. وولى أبا بكر على الديوان بالقل واستخلصه لنفسه. وكان يتردد إلى الحضرة ببجاية في شؤونه فاتصل بمرجان الحفصي من موالى الأمير أبي زكريا وخواص داره، واستخدم على يده للأمير خالد وأمه من كرائم السلطان، فحظي عندهم وتزوج ابنة يعقوب من ربيات القصر، وخوله، ونشأ في جو تلك العناية. وأعلنوا بصحة الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته فاستخدم له سائر أيامه إلى أن هلك. وكان الحاج فضل كثيراً ما يتردد إلى الأندلس لاستجلاب الثياب الحريرية من هنالك وانتقاء أصنافها. وكذلك إلى تونس لاستجادة الثياب منها.

وبعثه السلطان آخر أمره إلى الأندلس فاستصحب ابن غمر وهلك الحاج فضل هنالك، فعدل السلطان عن خطاب ابنه محمد إلى خطاب ابن غمر، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدم به، فقدم هو وابنه محمد إلى خطاب ابن غمر، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدم به، فقدم هو وابن الحاج فضل وساءلها السلطان عن عملهما، فكان ابن غمر أوعى من صاحبه فحلي بعينه وخف عليه، واعتلق بذمة من خدمته أحظته عند السلطان ورقته فاستعمل في الجباية. ثم قلد أعمال الأشغال وزاحم ابن أبي جبي

قد قدما ما كان من زحف بني مرين إلى بجاية بمداخله صاحب تونس. ولما ولي السلطان أبو البقاء اعترم على المواصله مع صاحب تونس قطعاً للزيون عنه، وعين للسفارة في ذلك شيخ القراية ببابه أبا زكريا يحيى بن زكريا الحفصي ليحكم شأن المواصله بينهما. وبعث معه القاضي أبا العباس الغبريني كبير بجاية وصاحب شورها، فأدوا رسالتهم وانتقلوا إلى بجاية، ووجد بطانة السلطان السبيل في الغبريني فأغروه به، وأشاعوا أنه داخل صاحب الحضرة في التوثب بالسلطان. وتولى كبر ذلك ظافر الكبير وذكره بجرأته، وما كان منه في شأن السلطان أبي إسحاق وأنه الذي أغرى بني غبرين به، فاستوحش منه السلطان وتقبض عليه سنة أربع وسبع مائة. ثم أغروه بقتله فقتل بمجسه في سته تلك، وتولى قتله منصور التركي، والله غالب على أمره.

الخبر عن سفارة الحاجب ابن أبي جبي إلى
تونس وتنكر السلطان له بعدها وعزله

ولما ولي السلطان أبو البقاء كانت عساكر بني مرين مترددة إلى أعمال بجاية بمداخله صاحب تونس كما ذكرناه، فدوخوا نواحيها. وكان ابن أبي جبي مستبداً على الدولة في حجابته، فضاق ذرعه بشأنهم وأهمته حال الدولة معهم. ورأى أن اتصال اليد بصاحب الحضرة مما يكف عن عزمهم، فعزم على مباشرة ذلك بنفسه لوئوقه من سلطانه. فخرج من بجاية سنة خمس وسبع مائة وقدم على الحضرة رسلاً عن سلطانه، فاهتزت له الدولة وتلقي بما يجب له ولمسله من البر، وأنزله شيخ الموحدين ومدير الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني بداره استيلاً في تكريمه. وقضى من أمر تلك الرسالة حاجة صدره، وكانت بطانة الأمير أبي البقاء خالد لما خلا لهم وجه سلطانهم منه تهافتوا على النصح إليه والسعاية بابن أبي جبي عنده.

وشمر لذلك يعقوب بن غمر وجلى فيه وتابعه عليه عبد الله الرخامي كاتب ابن أبي جبي وصديقه بما كان ابن طفيل قريه يسخط عليه الناس، ويوغر له صدورهم بباؤه وتحقيره بهم، فآلح له العداوة في كل جائحة وأسخطه على عبد الله الرخامي. وكان صديقه ومداخله فتولى من السعاية فيه مع يعقوب بن غمر كبرها، وألقى إلى السلطان أن ابن أبي جبي داخل صاحب الحضرة في تمكينه من ثغور قسطنطينية وبجاية، بما كان على الأمير العامل

جى لحمة نسب وذمة صهر ووشجت بينهما عروقها. فلما استقل ابن أبي جى بحجابه الأمير أبي زكريا لم يأل جهداً في مشاركة علي بن الأمير وترقيته المنازل إلى أن ولاه ثغر قسطنطينة مستقلاً بها وحاجباً للسلطان أبي بكر بن الأمير أبي زكريا، وأنزله معه فقام بحجابه وأظهر فيها غناؤه وحزمه، حتى إذا سخط السلطان ابن أبي جى وصرفه عن حجابه تنكر أبو الحسن بن الأمين وخشي بواد السلطان فحول الدعوة إلى صاحب الحضرة وطير إليه بالبيعة، واستدعى المدد والنائب فوصله رئيس الموحدين والدولة أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني، وعقد البيعة لسلطانه سنة أربع وسبعمئة.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي البقاء ببجاية فنهض إليه بالعاكر آخر سنة أربع وسبعمئة، ونازله أياماً فامتنع عليه، وهم بالإفراج عنه. ثم داخل رجل من بطانة ابن الأمين يعرف بابن موزة أبا الحسن بن عثمان من مشيخة الموحدين، وكان معسكره بباب الوادي فناجزهم الحرب من هنالك حتى انتهى إلى السور، فتسمنه المقاتلة باغضاء ابن موزة لهم عنه، وركب السلطان في العساكر عند الصدمة ووقف على باب البلد، وقد استمكن أولياؤه منه فخرج إليه بنو المعتمد وبنو باديس ومشيخة البلد، فاقتحم البلد عنوة ومضى أبو محمد الرخامي واستنزل. ثم حمله في رجال السلطان إلى دار ابن الأمين فغشيه بها وقد انفض عنه الناس واستخفى بغرفة من غرف داره واستمات، فلاحظه الرخامي واستنزل. ثم حمله على بردون مستديراً، وأحضره بين يدي السلطان فقتل، ونصب شلوه وأصبح آية للمعتبرين.

الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء إلى

الجزائر

قد قدما ما كان من خبر انتفاض الجزائر على الأمير أبي زكريا واستبداد ابن علان بها. فلما استولى السلطان أبو البقاء على الأمر وتمهدت له الأحوال وأقلع بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب عن تلمسان، أعمل السلطان نظره في الحركة إليها، فخرج إليهم سنة سبع وسبعمئة أو ست وسبعمئة وانتهى إلى متيجيه ودخل في طاعته منصور بن محمد شيخ مليكش وجميع قومه ولجا إليه راشد بن محمد بن ثابت بن متديل أمير مغراوة هارياً أمام بني عبد الواد، فأواه إلى ظله وألقى عليه جناح حمايته. واحتشد جميع من في تلك النواحي من القبائل وزحف إلى الجزائر وأقام عليها أياماً فامتنعت عليه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته ببجاية، وأقام

وعبد الله الرخامي، وغصوا به فأغروا السلطان بكنيته، فنكبه وأشخصه إلى الأندلس فأقام هنالك، واستعطف السلطان أبا البقاء بعد مهلك أبيه، وتشفع بوسائل خدمته فاستقدمه. وقدم مع علي وحسين ابني الرنداحي، وركب معهما البحر إلى بجاية في مغيب ابن أبي جى عن الحضرة فصادف من السلطان قبولاً، وشمّر في السعاية بابن أبي جى مع مرجان إلى أن تم له ما أراد من ذلك. وصرف ابن أبي جى كما ذكرناه، فقلد السلطان حجابه ليعقوب بن غمر، وقدم على الأشغال عبد الله الرخامي، وكان ناهضاً في أمور الحجابة لمباشرتها مع مخدومه، فأصبح رديفاً لابن غمر وغص بمكانه فأغرى به السلطان ودله على مكامن ثورته وعلى عداوته، فنكب وصودر وامتنح وغرب إلى ميورقة، حتى اقتاده يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين من أسره، واستقدمه ليقلده أشغاله عند تنكره لعبد الله بن أبي مدين كما نذكره في أخباره، فهلك يوسف بن يعقوب دون ما أمل من ذلك، وأقام الرخامي بتلمسان وبها كان مهلكه. واستقل يعقوب بن غمر بأعباء خطته واضطلع بها، وفوض إليه السلطان في الإبرام والنقض، فحول المراتب بنظره وأجرى الأمور على غرضه. وكان أول ما أتاه صرعته لمرجان مصطنعه ملا صدر السلطان عليه، وحذره مغبته فتقبض عليه وألقي في البحر فالتقمه الحوت، فخلا وجه السلطان لابن غمر وتفرد بالعقد والحل إلى أن استولى السلطان أبو البقاء على الحضرة وكان من أمره ما نذكره.

الخبر عن ثورة ابن الأمين بقسطنطينة وبيعة

السلطان أبي عسيده ثم فتح السلطان أبي

البقاء خالدها وقتله

كان يوسف بن الأمين الهمداني بعد أن قتله بطنجة أبناء أبي يحيى بن عبد الحق من بني مرين كما يأتي في أخبارهم، انتقل بنوه إلى تونس أيام المستنصر ورعى لهم السلطان وسيلة قيامهم بالدعوة الحفصية أيام أبي علي بن خلاص بسبته وبعدها إلى أن غلبهم عليها العزفي كما نذكره في أخباره فللقاهم مبرة وتكرماً، ونزلوا من الحضرة خير نزل تحت جراية ونعمة وعناية. وكان كبيرهم متحماً متعاضماً فرميا لقي في الدولة لذلك عسفاً إلا أن الإبقاء عليهم كان مانعاً من اضطهادهم. ونشأ بنوهم في ظل ذلك النعيم.

ثم هلك السلطان واضطربت الأمور وضرب الدهر ضرباته، ولحق علي منهم بالثغر الغربي، وتأكدت له مع ابن أبي

من مشيختها، فاستوفى جباية الجريد وعاد إلى قابس.
 وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكى بداره، وصرح بما
 روى عنه من حجه. وصرف العساكر إلى الحضرة وولي بعده
 رئاسة الموحدين وتدير الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن، وتحول عن
 قابس إلى بعض جبالها تجافياً عن هوائها الوخيم. وأقام في انتظار
 الركب الحجازي، وكان مريضاً إلى أن أبلّ فتحول إلى طرابلس
 فأقام بها عاماً ونصفه إلى أن وصل وفد الترك من المغرب الأقصى
 آخر سنة ثمان وسبعمئة فخرج معهم حاجباً حتى قضى فرضه
 وعاد فكان من شأنه واستيلائه على منصب الخلافة ما يأتي ذكره.
 ووصل مدد النصرانية إلى قشتيل جربة سنة ثمان
 وسبعمئة بعد منصرف العساكر عنهم، وفهم فردريك ابن الطاغية
 صاحب صقلية، فقاتلهم أهل الجزيرة من المكارية لنظر أبي عبد
 الله ابن الحسين من مشيخة الموحدين ومعه ابن أومغار في قومه
 من أهل جربة فأظفرهم الله بهم. ولم يزل شأن هذه الجزيرة من
 المكان مع العدو كذلك منذ الثالث دولة صنهاجة، وربما وقعت
 الفتنة بين المكارية فصل إحدى الطائفتين يدها بالنصارى إلى أن
 كان ارتجاعها في هذه النوبة سنة.... وأربعين لعهد مولانا السلطان
 أبي يحيى كما نذكره في أخباره.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وخبر أبي بكر الشهيد

كان السلطان أبو عصيدة بعد ثلثي سلطانه، وتهدد ملكه،
 طرقه مرض الاستسقاء فآزم من منه. ثم مات على فراشه في ربيع
 الآخر سنة تسع وسبعمئة، ولم يخلف ابنأ، وكان بقصرهم سبط
 من أعقاب الأمير أبي زكريا جدهم ثم من ولد أبي بكر ابنه
 الذي ذكرنا وفاته في خبر شقيقه أبي حفص في فتح مليانة أيام
 السلطان المستنصر، فلم يزل بنوه في قصورهم وفي ظل ملكهم.
 ونشأ منهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر في إيالة السلطان
 أبي عصيدة، ورعى في جيم نعمته. فلما هلك السلطان أبو عصيدة
 ولم يعقب، وكان السلطان أبو البقاء خالد قد نزع إليه حمزة بن
 عمر عند إياسه من خروج أخيه من محبسه فرغبه في ملك الحضرة
 واستحثه عليها. ثم وصل أبو عبد الله بن يزريكن فنعى السلطان
 أبا عصيدة واستنهض السلطان أبا البقاء لملك تونس، فنهض كما
 نذكر. واستراب الموحدون بتونس في شأن حركته فخافوه على
 أنفسهم، فبايعوا لهذا الأمير أبي بكر الذي عرف بالشهيد بما كان
 من قبله لسبع عشرة ليلة من بيعته، وأبقى أبا عبد الله بن يزريكن

مليكش على طاعته ومطاولته الجزائر بالقتال إلى أن كان من
 أمرها. وتغلب بنو عبد الواد عليها كما نذكره في أخبارهم. وجاء
 معه راشد بن محمد إلى بجاية متذمماً لخدمته إلى أن قتله عبد الرحمن
 بن خلوف كما يذكر في موضعه.

الخبر عن السلم وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية

لما افتتح السلطان أبو البقاء خالد قسطنطينة وقتل ابن الأمين
 وفرغ من ذلك الشأن أدرك أهل الحضرة الندم على ما استدبروا
 من مهانة صاحب الثغر، وقارن ذلك مهلك يوسف بن يعقوب
 الذي كانوا يرجونه شاغلاً له فجنحوا إلى السلم، وبعثوا وقدمهم في
 ذلك إليه فأسدوا وأحموا. وشرط عليهم السلطان أبو البقاء أن
 من هلك منهما قبل صاحبه فالأمر من بعده للآخر والبيعة له،
 فتقبلوا الشرط وحضر المألا والمشايخ من الموحدين ببجاية، ثم
 بتونس، فاشهدوا به على أنفسهم، وربط ذلك العهد وأحكمت
 أواخيه إلى أن نقضه أهل الحضرة عند مهلك السلطان أبي عصيدة
 كما نذكره.

الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس ابن اللحياني لحصار جربة ومضيه منها إلى الحج

لما انعقد أمر هذا الصلح واستتم، راجع رئيس الدولة أبو
 يحيى زكريا بن اللحياني نظره لنفسه، وأعمل فكره في الخلاص من
 استوطنه، وكان يؤمل رجوع الوفد المقرين بالمهدية من أمراء الديار
 المصرية إلى يوسف بن يعقوب فيصحبهم لقضاء فرضه، وأبطأ
 عليه شأنهم فاعتزم على قصده وورى بحركته إلى جزيرة جربة
 لاسترجاعها من أيدي النصارى والرجوع عنها من بعد ذلك إلى
 الجريد لتمهيد أحواله. وتناول الرأي في الظاهر من أمره مع
 السلطان فاذن له وسرح معه العساكر فخرج من تونس في جمادى
 سنة ست وسبعمئة غازياً إلى جربة. ولم يزل يغذ السير حتى انتهى
 إلى مجازها. ثم عبر منه إلى الجزيرة، وكان النصارى لما تغلبوا عليها
 سنة ثمان وثمانين وستمائة شيدوا بها حصناً لاعتصام الحامية
 سموه بالقشتيل، فنزلت العساكر عليه. وأنفذ الشيخ أبو يحيى عماله
 للجباية وأقام في منازلته شهرين. ثم انقطعت الأقوات واستعصى
 الحصن إلا بالمطاوله فرجع إلى قابس. ثم ارتحل إلى بلاد الجريد
 وانتهى إلى توزر ونزلها، وأعمل في خدمته أحمد بن محمد بن يملول

على وزارته وزحزح محمد بن الدباغ عن رتبة الحجابة. فتوعدة لما كان يحقد عليه من التقصير به أيام سلطانه، فكان عوناً عليه إلى أن هلك عند استيلاء السلطان أبي البقاء كما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء على الحضرة وانفراده بالدعوة الحفصية

لما بلغ السلطان أبا البقاء بمكانه من بجاية وأعمالها الخبر بمرض السلطان أبي عصيدة مع ما كان من العقد بينهما بأن من مات قبل صاحبه جمع الأمر من بعده للأخير، داخلته الظنة أن ينقض أهل الحضرة هذا الشرط واعتزم على النهوض لمشاركة الحضرة، ووصل إليه حمزة بن عمر نازعاً عنهم، فرغبه واستحثه، وخرج من بجاية في عساكره، ووري بالحركة إلى الجزائر لما كان من انتقاضهم على أبيه، واستبداد ابن علان بها. ثم ارتحل إلى قصر جابر وعند بلوغه إليه ورد الخبر بمهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة الموحدين بعده لأبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا، فاضطفتها على الموحدين.

وأخذ السير والغاش إلى كافة أولاد أبي الليل واجتمع أقتاهم أولاد مهلهل إلى صاحب تونس، وخرج معهم شيخ الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن والوزير أبو عبد الله ابن يريكين في العساكر للقاء، ووقروا سلطانهم بأنفسهم. فلما زحف إليهم السلطان أبو البقاء اختل مصافهم وانهزموا واتهب المعسكر، وقتل الوزير ابن يريكين، وأجفلت أحياء العرب إلى القفر، ودخل المعسكر إلى البلد واضطرب الأمر، وخرج الأمير أبو بكر بن عبد الرحمن فوقف بساحة البلد قليلاً، ثم تفرق عنه المعسكر وتسايلوا إلى السلطان أبي البقاء. وفر أبو بكر ثم أدرك ببعض الجهات فشل إلى السلطان فاعتقله في بعض الغارات، وغدا على السلطان أهل الحضرة من مشيخة الموحدين والفقهاء والكافة فعدوا بيعته. وقتل الأمير فسمي الشهيد آخر الدهر، وياشر قتله ابن عمه أبو زكريا يحيى بن زكريا شيخ الموحدين. ودخل السلطان من الغد إلى الحضرة واستقل بالخلافة، وتلقب بالناصر لدين الله المنصور. ثم استضاف إلى لقبه المتوكل. وأبقى أبا يعقوب بن يزدوتن في رئاسته على الموحدين مشاركاً لأبي زكريا يحيى بن أبي الأعلام الذي كان رئيساً عنده قبلها واستمر على خطة الحجابة أبو عبد الرحمن يعقوب بن غمر، وولى على الأشغال بالحضرة منصور بن فضل بن مزني، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن بيعه ابن مزني ليحيى بن خالد ومصادر أموره

كان يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحاق في جملة السلطان أبي البقاء خالد، وتكررت له الدولة لبعض النزعات فخشي البادرة وفر فلحق بمنصور بن مزني. وكان منصور قد استوحش من ابن غمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب، وعقد له على حجابته، وجمع له العرب وأجلب على قسطنطينة أياماً، وبها يومئذ ابن طفيل، وكانت قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفة من الأوغاد اشتهلوا عليه واشتمل عليهم، وأغروه بابن مزني فوعدهم إلى حين ظفروا، واطلع ابن مزني على سوء دخلته ودخلتهم ففرض يده من طاعته، وانصرف عنه إلى بلده، فانقضت جموعه وراجع ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء وغالصة بطانته وحاجبه فتقبلوه، ولحق يحيى بن خالد بتلمسان مستجشاً، ونزل على أميرها أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن فهلك لأيام من مقدمه. وولي بعده أخوه أبو حمر موسى بن عثمان فأمده وزحف إلى محاربة قسطنطينة فامتنت عليه. ثم استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده وأسنى له الجراية، ورتب عليه الحرس. وكان السلطان ابن اللحياني يبعث إليه من تونس بالجائزة مصانعة له في شأنه، حتى لقد أقطع له بتونس من قرى الضاحية ما كان للسلطان وابنه، فلم يزل في إسهام بنيه من بعده إلى أن هلك يحيى بن خالد بمكانه عنده سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.

الخبر عن بيعه السلطان أبي بكر بقسطنطينة على يد الحاجب ابن عمر وأولية ذلك

لما نهض السلطان أبو البقاء إلى الحضرة عقد على بجاية لعبد الرحمن بن يعقوب بن غلوف مضافاً إلى رئاسته على قومه كما كانوا يستخلفون أباه عليها عند سفرهم عنها، وكان يلقب المزوار، وجعله حاجباً لأخيه الأمير أبي بكر على قسطنطينة فانتقل إليها. وعكف السلطان أبو البقاء في تونس على لذاته وأرهف حده وعظم بطشه فقتل عدوان بن المهدي من رجالات سدويكش ودعا ابن حريز من رجالات الأتابج، فتفاوض رجال الدولة في شأنه وخشوا بادرته وأعمل الحاجب ابن غمر وصاحبه منصور بن فضل عامل الزاب الحيلة في التخلص من إيلته، واستغضب راشد بن محمد أمير مغراوة، كان نزاع إليهم عند استيلاء بني عبد الواد على وطنه فتلوه من الكرامة بما يناسبه واستقر في جملتهم، وعليه

وكان يلقب بالزوار. ولما هلك خلفه في سبيله تلك ابنة عبد الرحمن واستخلفه السلطان أبو البقاء على بجاية عندما نهض إلى تونس سنة تسع وسبعمئة وأنزله بها، وكان طموحاً لجوياً مدلاً بياسه وقومه ومكانه من الدولة.

فلما دعا السلطان أبو بكر لنفسه وخلع طاعة أخيه، وأخذ له أبو عبد الرحمن بن غمر البيعة على الناس وخاطبه بأخذ البيعة له على من يليه ببجاية وأعمالها فأبى منها، وتمسك بدعوة صاحبه، ونفس على ابن غمر ما تحصل له بذلك من الحظ فجاهر بخلافهم.

وجمع واحتشد وتقبض على صاحب الأشغال عبد الواحد ابن القاضي أبي العباس الغماري وعلى صاحب الديوان محمد بن يحيى القالون مصطنع الحاجب ابن غمر من أهل المرية كان أسدى إليه عند اجتيازه به معروفاً، ورحل إليه عندما استولى على الرتبة ببجاية، فكافاه عن معرفه واصطنعه وألقى عليه محبة ورقاه إلى الترتب، وصرفه في أعمال الجباية وقلده ديوان بجاية، فتقبض عبد الرحمن بن خلوف عليه وعلى صاحبه. وجمع الناس وأعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد.

وارتحل السلطان أبو بكر من معسكره بظاهر قسطنطينية وأغذ السير إلى بجاية، ونزل مطلاً عليها وأمهل الناس عامة يومهم وشرط ابن الخلوف على السلطان عزل ابن غمر، وترددت الرسل بينهم في ذلك. وكان الوزير أبو زكريا بن أبي الأعلام من الساعين في هذا الإصلاح بما كان له من الصهر مع ابن الخلوف. وحين رجع إليه بامتناع السلطان عن شرطه منعه من الرجوع إليهم وحسبه عنده، وأرجف أهل المعسكر بالسلطان وخاموا عن لقاء صنهاجة ومن معهم من مغراوة أهل الشوكة والعصيبة والعديد والقوة.

وأجفل السلطان من معسكره فانتهب وأخذت أكنه، وسلب من كان في المعسكر من أخلاط الناس. ودخل السلطان إلى قسطنطينية في فل من عسكره، ويعث ابن خلوف عسكراً في اتباعه فوصلوا إلى ميلة فدخلوها عنوة. ثم وصلوا إلى قسطنطينية فقاتلوها أياماً، ورجعوا إلى بجاية. وأقام السلطان واضطرب أمره، وتوقع زحف ظافر إليه من باجة، واتصل به أن أبا يحيى زكريا بن أحمد اللحياني قتل من المشرق، وأنه لما انتهى إلى طرابلس دعا لنفسه لما وجد بأفريقية من الاضطراب، فبيع وتواف إلى إليه العرب من كل جهة، فرأى السلطان من مذاهب الحزم أن يبعث إليه بالحاجب ابن أبي عبد الرحمن بن غمر ليشيد من سلطانه، ويشغل أهل الحضرة عنه، فوري بالقرار عن السلطان وتواطأ معه على المكر

وعلى قومه كانت تدور رحي حروبهم.

واستصحبه السلطان أبو البقاء خالد إلى الحضرة أميراً على زناتة فرفع بعض حشمه إلى الحاجب في مقعد حكمه، وقد استعدى عليه بعض الخدم فأمر بقتله لحينه.

وأحفظ ذلك الأمير راشد بن محمد فركب لها عزائمها، وقوض خيامه لحينه مغاضباً، فوجد الحاجب بذلك سبيلاً إلى قصده وتمت حيلته وحيلة صاحبه. وأهم السلطان شأن بجاية ونواحيها، وخشي عليها من راشد بما كان صديقاً ملاطفاً لعبد الرحمن بن الخلوف وفاوضهما فيمن يدفعه إليها، فأشار عليه الحاجب بمنصور بن مزني، وأشار منصور بالحاجب، وتدافعها أياماً حتى دفعهما جميعاً إليها. وطلب ابن غمر من السلطان العقد لأخيه أبي بكر على قسطنطينية ففقد له، وولى علياً ابن عمه على الحجابة بتونس نائباً عنه. وفصل من الحضرة ولحق بقسطنطينية، وصرف منصور بن فضل إلى عمله بالزراب فكان من خلافه ما يذكر.

وقام ابن غمر بخدمة السلطان أبي بكر فتصرف في حجابته. ثم داخله في الانتقاض على أخيه، وبدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان أبو البقاء وأحسّ علي بن غمر بارتياحه فلحق بقسطنطينية. وجهز السلطان أبو البقاء عسكراً وعقد عليها لظافر مولاه المعروف بالكبير، وسرحه إلى قسطنطينية فانهى إلى باجة وأناخ بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

وبادر ابن غمر إلى المجاهرة بالخلعان ودعا مولانا لسلطان أبا بكر إليه فأجابه، وأخذ له البيعة على الناس فتمت سنة إحدى عشرة وسبعمئة، وتلقب بالمتوكل وعسكر بظاهر قسطنطينية إلى أن بلغه مجاهرة ابن الخلوف بخلافهم، فكان ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان على بجاية ومقتل ابن خلوف وما كان من الإدارة في ذلك

كان يعقوب بن الخلوف ويكنى أبا عبد الرحمن كبير صنهاجة جند السلطان الموطنين بنواحي بجاية، وكان له مكان في الدولة وغناء في حروبهم ودفاع عدوهم. ولما نزلت عساكر بني مرين على بجاية مع أبي يحيى بن يعقوب بن عبد الحق سنة ثلاث وسبعمئة، كان له في حروبهم مقامات مذكورة وآثار معروفة. وكان الأمير أبو زكريا وابنه يستخلفونه ببجاية أزمان سفرهم عنها،

بابن خلوف في ذلك.

ولحق ابن عمر بالليثاني واستحثه لملك تونس وهون عليه الأمر، وغدا السلطان عند فصول ابن غمر على منازل فكبسها وسطا بحاشيته، وولى حجابته حسن بن إبراهيم بن أبي بكر بن ثابت رئيس أهل الجبل المطل على قسطنطينة والقل من كتامة، ويعرف قومه ببني نليلان، وكان قد اصطنعه من قبل، وارتحل بالساكن إلى بجاية سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، واستخلف على قسطنطينة عبد الله بن ثابت أخا الحاجب.

وأشيع بالجهاث أن السلطان تنكر لابن غمر وسخطه، وأنه ذهب إلى ابن الليثاني واستجاشه على الحضرة، وبلغ ذلك ابن خلوف واستيقن اضطراب حال السلطان خالد بتونس فطمع في حجابة السلطان أبي بكر، وتوثق لنفسه منه بالعهد بمداخلة عثمان بن شبل بن وعثمان بن سباع بن يحيى من رجال الدواودة والولي يعقوب الملاري من نواحي قسطنطينة.

وأغذ السير من بجاية ولقي السلطان بفرجيوه من بلاد سدويكش فلقاه مرة ورجباً. ثم استدعاه من جوف الليل إلى رواقه في سرب من مواليه الملعوجي فعاقرهم الخمر إلى أن ثمل، واستغضبوه ببعض التزعات فغضب وأقذع فتناولوه طعنًا بالخناجر إلى أن قتلوه، وجروا شلوه فطرحوه بين القساطيط، وتقبض على سائر قومه وحاشيته، وفر كاتبه عبد الله بن هلال فلحق بالمغرب. وارتحل السلطان مغذاً إلى بجاية فدخلها على حين غفلة من أهلها واستولى السلطان على سائر المملكة التي كانت تحت إيالة ابنه بالجهة المعروفة بالناحية الغربية، واستوثق له أمرها، وأقام في انتظار حاجبه ابن غمر إلى أن كان من الأمر ما نذكره.

الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد

واستيلاء السلطان أبي يحيى بن الليثاني

على الحضرة

كان السلطان أبو البقاء خالد بعد بيعه السلطان أبي بكر بقسطنطينة قد اضطربت أحواله وجهز إليه العساكر لمنازلة قسطنطينة، وعقد عليها لمولاه ظافر المعروف بالكبير فعسكر بياجبة وأراح ينتظر أمر السلطان. وكان أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد الليثاني بن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص قد بوع بطرابلس لما قفل من المشرق، ورأى اضطراب الأحوال ووفد عليه الحاجب أبو عبد الرحمن بن غمر بهدية من السلطان أبي بكر، وأنه

ثمده ومظاهرة على شأنه، فأحكم ذلك من عقدته وشد من أمره، وتوافت إليه رجال الكعوب أولاد أبي الليل وغيرهم، فبايعوه واسخووه للحضرة فارتحل إليها وبعث في مقدمته أولاد أبي الليل ومعهم شيخ دولته أبو عبد الله محمد بن محمد المزدوري فأغدوا السير إلى الحضرة.

وبعث السلطان إلى مولاه ظافر بمكانه من باجة مستجيشاً به، فاعترضوه قبل وصوله وأوقعوا به واعتقلوا ظافراً وصحبوا تونس ثامن جمادى سنة إحدى عشرة وسبعمائة ووقفوا بساحتها فكانت هبة بالبلد قتل فيها شيخ الدولة أبو زكريا الحفصي، وعدا القاضي أبو إسحاق بن عبد الرقيق على السلطان وكان متبوعاً صارماً قوي الشكيمة، فأغراه بمدافعة العدو فخام عن لقاؤه، واعتذر بالمرض وأشهد بالانحلال عن الأمر وحل البيعة. ودخل أبو عبد الله المزدوري القصر فاستمكن من اعتقاله.

ثم جاء السلطان أبو يحيى زكريا بن الليثاني على أثره ثاني رجب فبوع العامة بظاهرها ودخل إلى البلد، واستولى عليها، وولى على حجابته كاتبه أبا زكريا يحيى بن علي بن يعقوب، على الأشغال بالحضرة ابن عمه محمد بن يعقوب، وبنو يعقوب هؤلاء أهل بيت بشاطبة من بيوت العلم والقضاء، وقدموا إلى الحضرة مع الجالية، وكان منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن يعقوب، وفد مع ابن الأمين صاحب طنجة كما قدمناه. وتصرف في القضاء بإفريقية، وولاه السلطان المستنصر قضاء الحضرة. وسفر عنه إلى ملوك مصر، وكان بنو علي هؤلاء عبد الواحد ويحيى ومحمد من أقاربه، فكان لهم ظهور في دولة السلطان أبي حفص وبعدها، وكان عبد الواحد منهم صاحب جباية الجريد، وهلك بتوزر سنة اثنتين وسبعمائة. وكان السلطان أبو يحيى بن الليثاني قد استكتب أخاه أبا زكريا يحيى أيام رئاسته على الموحيدين فحظي عنده واختصه ولازمه وحجج معه. فلما ولي الخلافة أحظاه وولاه حجابته. ولما استقر بتونس استوثق له الأمر أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن غمر إلى مرسله السلطان أبي يحيى بعد أن وثق العهد معه على المهادنة، وضمن له ابن غمر من ذلك ما رضىه وتمسك بآبائهم على ابن غمر فأقام عنده مكرماً متسع الجراية والإسهام إلى أن كان من الأمر ما نذكر.

الخبر عن قدوم ابن غمر على السلطان

ببجاية ونكية ابن ثابت وظافر الكبير

لما قدم ابن غمر على بجاية استبد بحجابته وكفاله كما كان،

وليوم وصوله فر عبد الله بن هلال كاتبه ابن خلوف، ولحق بتلمسان وشمر ابن غمر عزائمه للاضطلاع بأمره، ودفع حسن بن إبراهيم بن ثابت عن الرتبة فلم يتزحزح له، وخرج لبجاية الوطن. ثم أغرى به السلطان وحذره من استبداده بقسطنطينية لمكان معقله المجاور لها وسعيايات تصح بها حتى صادفت القبول لمكانه والوثوق بنصائحه.

وخرج السلطان في العساكر من بجاية إلى قسطنطينية سنة ثلاث عشرة وسبعمئة للنظر في أحوالها. فلما انتهى إلى فرجيوه لقيه عبد الله بن ثابت فتقبض عليه وعلى أخيه حسن بن الحاجب سنة ثلاث عشرة وسبعمئة وقتلها بعد أن استصفى أموالهما، ويقال: إنه بعد خروج حسن بن ثابت إلى أعمال قسطنطينية بعث في أثره بعض مواليه، وأوعز معهم إلى عمل عبد الكريم بن منديل ورجالات سدويكش فقتلوه بوادي القطن. وأن السلطان لم يباشر نكبته، وكان ظافر الكبير بعد انهزامه وحصوله في أسر العرب كما قدمناه ائتمنوا عليه وأطلقوه، ولحق بالسلطان أبي بكر فأثره واستخلصه كما كان لأخيه، وولاه على قسطنطينية عند نكبة ابن ثابت. واستكتب له أبا القاسم بن عبد العزيز خلوه من الأدوات فأقام ظافراً والياً بقسطنطينية. ثم استقدمه السلطان إلى بجاية وقد غص ابن غمر بمكانه، فأغرى به السلطان فتقبض عليه وأشخصه في السفين إلى الأندلس.

الخبر عن منازل عساكر بني عبد الواد ببجاية وما كان في أثر ذلك من الأحداث

كان السلطان أبو يحيى بعد انهزامه عن بجاية سنة عشر وسبعمئة وبعث سعيد بن مخلف عن مواليه إلى أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن. وكان قد أتيح له في زنازة المغرب الأوسط ظفر واعتزاز. وتملك أمصارهم من أيدي بني مرين من بعد مهلك يوسف بن يعقوب على تلمسان ودوخ جهاته، واستولى على أعمال مغراوة وتوجين، وملك الجزائر، واستنزل منها ابن علان الثائر بها وملك تدلس من يد ابن خلوف فبعث إليه السلطان في المواصله والمظافرة، وأن تكون يدهما على ابن خلوف واحدة، فطمع لذلك موسى بن عثمان في ملك بجاية. ثم بلغه مهلك ابن خلوف واستيلاء السلطان على ثغره فاستمر على المطالبة.

وادعى أن بجاية له في شرطه، وقارن ذلك لحاق صنهاجة إليه عند مهلك صاحبهم فرغوه في ملك بجاية وضموا له أمرها. ثم قدم عثمان بن سباع بن يحيى مغاضباً للسلطان لما كان من

ونالت منهم الحامية في المدافعة بالقتل والجراحة أعظم السيل، وقلوا راجعين فشيّدوا حصناً بأصفون وشحنوه بالأقوات. ولما وصل محمد بن يوسف ومسامح وبجهم وطوفهما ذنب القصور والعجز وعزلهما. وبعث السلطان عسكرياً في البر وأسطولاً في البحر بعد رجوعه من قسطنطينية سنة أربع عشرة وسبعمئة لهدم حصن بني عبد الواد بأصفون، فخرّب وانتهت أقواته وعدده، وسرح أبو حمو عسكرياً لحصار بجاية عقد عليه لمسعود ابن عمه أبي عامر بن إبراهيم بن يغمراسن، فنالوها سنة خمس عشرة وسبعمئة واتصل لهم خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن وبني توجين معه على أبي حمو، وأنهم أوقعوا به وهزموه، واستولوا على معسكره، فأجفل مسعود بن أبي عامر وعسكره وأفرجوا عن بجاية. ووصل على أثرها خطاب محمد بن يوسف بالطاعة والانحياض، فبعث السلطان إليه صنيعة محمد بن الحاج فضل بالهدية والآلة، ووعده بالمظاهرة وتسويغ الأسهم التي كانت ليغمراسن بإفريقية. وشغل بنو عبد الواد عن بجاية، وخرج السلطان في عساكره للإشراف على وطنه إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن استبداد ابن غمر ببجاية

لم يزل ابن غمر مستبداً على السلطان في حجابته يرى أن زمامه بيده وأمره متوقف على إنفاذه. وصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغريهم وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه. وداخله بعض أهل قسطنطينية سنة ثلاث عشرة وتسعمئة في اغتياله ابن غمر فهموا بذلك، ولم يتم فقطن لها ابن غمر فأوقع بهم وقسمهم بين النكال والعذاب فرقاً. ثم رجع السلطان إلى بجاية سنة ثلاث عشرة وسبعمئة لما أهمهم حصاره، واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد إلى أن بلغ السلطان أشده وأرهف حده وسطا محمد بن فضل فقتله في خلوة معاقرة من غير مؤامرة الحاجب.

الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها، أخرجت للوارقين بيعت بدكاكينهم. فجمع من ذلك - زعموا - قناطير من الذهب تجاوز العشرين قنطاراً وجواليقين من حصى الدر والياقوت، وخرج من تونس إلى قابس مورياً بمشارفة عملها فاتح سنة سبع عشرة وسبعمائة بعد أن رتب الحامية بالحضرة وباجة والحمامات، واستخلف بالحضرة أبا الحسن بن وانودين وانتهى إلى قابس فأقام بها، وصرف العمال في جهاتها إلى أن كان من بيعة ولده بتونس ما تذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر إلى الحضرة ورجوعه إلى قسطنطينة

لما خرج السلطان من هواراة إلى قسطنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة كما قدمناه استبلغ في جهاد حركة أخرى إلى تونس، فاحتشد وقسم العطاء وأزاح العلل، واعترض الجنود عن طبقاتهم من زناتة والعرب وسديكش. واستخلف على قسطنطينة الحاجب محمد بن القسالون وبعث إلى حاجبه الأعظم أبي عبد الرحمن بن غمر بمكانه من إمارة بجاية في مدد المال للنفقات والأعطيات. فبعث إليه منصور بن فضل بن مزني عامل الزاب، وكان ابن غمر لما رأى من كفايته وأنه جماعة للمال، استضاف له عمل جبل أوراس والحضنة وسديكش وعياض وسائر أعمال الضاحية، فكانت أعمال الجبابة كلها نظره، وأمواها في حسان دخله وخرجه، فبعثه ابن غمر ليقيم إنفاق السلطان. واستخلفه على خطة حجابته، وارتحل السلطان من قسطنطينة في جمادي سنة سبع عشرة وسبعمائة يطوي المراحل. ولقيه في طريقه وفود العرب، وانتهى إلى باجة فانقضت حاميتها إلى تونس.

وكان السلطان أبو يحيى بن اللحاني قد خرج عنها إلى قابس كما قدمناه، واستخلف عليها أبا الحسن بن وانودين، وبعث إليه بنهوض السلطان أبي بكر إلى تونس، وأنه محتاج إلى المدافعة، فاعتذر لهم اللحاني بما قبله من الأموال، وأطلق يدهم في الجيش والمال، فأركبوا واستحلقوا ورتبوا الديوان، وأخرجوا ابنه محمداً ويكنى أبا ضربة فأطلقوه من اعتقاله.

وبغتهم الخبر بإشراف السلطان أبي بكر على باجة، فخرجوا جميعاً من تونس، وخالفهم إلى السلطان مولاهم ابن غمر بن أبي الليل. كان مضطغناً مع الدولة متريصاً بها، لما كان اللحاني يؤثر عليه أخاه حمزة، فلقي السلطان في دوين باجة، فأعطاه صفقته واستحثه، ووصل إلى تونس، فنزل روض السناجرة

وبكر ابن غمر مقعده بباب السلطان فوجد شلوه ملقى في الطريق مضرراً في ثيابه، وأخبر أن السلطان سطا به فدخله الريب من استبداد السلطان وإرهاق حده، وخشي بواده، وتوقع سعاية البطانة ونغي الخلوة. فتحيل في بعده عنه واستبداده بالثغر دونه فأغراه بطلب إفريقية من يد ابن اللحاني، وجهزه بما يصلحه من الآلة والفساطيط والعساكر والخدام، ورتب له المراتب. وارتحل السلطان إلى قسطنطينة سنة خمس عشرة وسبعمائة ثم تقدم غازياً إلى بلاد هواراة، وأجفل عنها ظافراً بمن تعاطى قائداه من مواليهم. فاستوفى جبابة هواراة، وقفل إلى قسطنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة واستبد ابن غمر ببجاية ومدافعة العدو من زناتة عنها.

واستخلف على حجابته السلطان محمد بن القالون، وقرت عنه بما كان يؤمل من استبداده إلى أن كان من أمره ما تذكر.

الخبر عن سفر السلطان أبي يحيى بن اللحاني إلى قابس وتجافيه عن الخلافة

كان هذا السلطان أبو يحيى بن اللحاني قد طعن في السن، وكان بصيراً بالسياسة مجرباً للأمر، وكان يرى من نفسه العجز عن حمل الخلافة واستحقاقها مع أبناء الأمير أبي زكريا الأكبر. وعلم مع ذلك استفحال صاحب الثغور الغريبة الأمير أبي بكر واستغلاظ أمره بمن انتظم في ملكه، وارتسم في ديوان جنده من أعياص زناتة وفحول شلوه من توجين ومغراوة وبني عبد الواد وبني مرين.

كانوا ينزعون إليه مع الأيام عن ملوكهم خشية على أنفسهم لما قاسموهم في النسب وساهموهم في يعسوية القبيل وفحولية الشول، ومنهم من غلبوا على مواطنهم فملكوها عليهم مثل مغراوة وبني توجين ومليكش، فاستكنف بذلك جند السلطان وكثرت جموعه وهابه الملوك.

ونهض سنة ست عشرة وسبعمائة إلى إفريقية وجال في بلاد هواراة وأخذ جبائتها كما ذكرنا، فتوقع السلطان ابن اللحاني زحفه إليه بتونس. وكانت إفريقية مضطربة عليه، وكان تعويله في الحماية والمدافعة على أوليائه من العرب، تولى منهم حمزة بن علي بن عمر بن أبي الليل فحكمه في أمره وأشركه في سلطانه، وأفرده برئاسة العرب وأجره الرسن، وسرب إليه الأموال، وكثر بذلك زبون العرب واختلافهم عليه، فاعتزم على التقيض عن إفريقية ونفض اليد من الخلافة، فجمع الأموال والذخيرة، وباع ما كان بمودعاتهم من الآنية والفرش والحرثي والماعون والمتاع، حتى

جامع، وأخبروه بأن أبا ضربة بن اللحاني أجفل من باجة بعد أن نزلها معترماً على اللقاء، فارتحل مولانا السلطان مغدماً ولقيه مولا هم ابن غمر فراجع الطاعة، وارتحلوا في أتباع أبي ضربة وجموعه حتى شارقوا على القيروان، فخرج إليه عاملها ومشيعتها فآلقوا إليه باليد وأعطوا الطاعة.

وارتحل السلطان راجعاً عن اتباع عدوه إلى الحضرة وقد ترك بها أبو ضربة بن اللحاني من بطانته محمد بن الغلاق ليمانع دونها، فأخرج الرماة إلى ساحتها وقتل العساكر ساعة من النهار. ثم اقتحموها عليه، واستبيح عامة أرباضها وقتل ابن الغلاق ودخل السلطان إلى الحضرة في ربيع من سته، فأقام خلال ما انعقدت العامة. وقدم على الشرطة ميمون بن أبي زيد واستخلفه على البلد. ورحل في أتباع أبي ضربة بن اللحاني وجموعه فأوقع بهم بمصوح من جهات بلاد هوار.

وقتل من مشيخة الموحدين أبو عبد الله بن الشهيد من أهل البيت الحفصي، وأبو عبد الله بن ياسين. ومن طبقات الكتاب أبو الفضل البجائي وتقض على شيخ الدولة أبي محمد عبد الله بن يغمور. وقيد إلى السلطان عفقا عنه ونوهه ليومه. ثم أعاده إلى خطه بعد ذلك. ورجع السلطان إلى تونس في رجب من سته. وكان السلطان أبو عيسى بن اللحاني لما بلغه الخبر بهوض السلطان إلى تونس حركته الثانية سنة سبع عشرة وسبعمئة وما كان من بيعة الموحدين والعرب لابنه أبي ضربة، ارتحل من مقامه بقباس إلى نواحي طرابلس. ثم بلغه رجوع السلطان إلى قسطنطينة فأوطن طرابلس فبنى مقعداً للملكه بسور البلد مما يلي البحر سماه الطارمة، وبعث العمال في الجهات لجباية الأموال، وبعث على جبال طرابلس أبا عبد الله بن يعقوب قريب حاجبه ومعه هجرس بن مرغم كبير الجوارى من دباب فدوخ البلاد وفتح المعالق وجبى الأموال وانتهى إلى برقة. واستخدم آل سالم وآل سليمان من عرب ذباب، ورجع إلى سلطانه بطرابلس ووافاه الخبر بانتهزام أبي ضربة ابنه، فبعث حاجبه أبا زكريا بن يعقوب ووزيره أبا عبد الله بن ياسين بالأموال لاحتشاد العرب، ففرقوها في علاق ودباب وزحف أبو ضربة إلى القيروان. وبلغ خبره إلى السلطان أبي بكر فخرج من تونس آخر شعبان سنة ثمان عشرة وسبعمئة فأجفلوا عن القيروان. ثم تدامروا وعقلوا رواحلهم مستيتين بزعمهم حتى أطلت عليهم العساكر بمكان فج النعام، فانفضت جموعهم وشردت رواحلهم وارتحلوا منهزمين، والقتل والنهب يأخذ منهم ماخذة. ونجا أبو ضربة في فله إلى المهديّة، وكانوا مقيمين على دعوة أبيه فامتنع بها إلى أن كان من شأنه ما سنذكره.

من رياض السلطان في شعبان من سنة سبع عشرة وسبعمئة وخرج إليه الملا وترددوا في البيعة بعض الشيء انتظاراً لشان أبي ضربة وأصحابه. وكان من خبرهم أن السلطان لما أغذ السير من باجة بادر حمزة بن عمر إلى بطانة اللحاني وأوليائه بتونس، فلقيهم وقد خرجوا عنها، فأشار عليهم ببيعة أبي ضربة بن السلطان اللحاني ومزاحمة القوم به، فبايعوه وزحفوا إلى لقاء السلطان.

ودس حمزة إلى أخيه مولا هم أن يزحف بالمعسكر فأجفل السلطان من مقامته بروض السناجره لسبعة أيام من احتلاله قبل أن يستكمل البيعة، وارتحل إلى قسطنطينة ورجع عنه مولا هم من تخوم وطنه، وسرح منصور بن مزني إلى ابن غمر ببجاية ودخل أبو ضربة بن اللحاني والموحدون إلى تونس متصف شعبان من سته. ويوبع بالحضرة البيعة العامة وتلقب بالمستنصر. وأراد أهل تونس على إدارة سرور بالأرباض فيكون سباجاً عليها، فأجابوه إلى ذلك وشرع فيه، وأرهقه العرب في مطالبهم واشتطوا عليه في شروطهم إلى أن عاود مولانا السلطان حركته كما نذكر.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة وإيقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس إلى المشرق

لما قفل السلطان من تونس إلى قسطنطينة بعث قائده محمد بن سيد الناس بين يديه إلى بجاية فارتاب ابن غمر بوصوله، وتكر له وشعر السلطان بذلك وأغضى له عنها وطالبه في المدد، فاحتفل في الحشد والآلة والأبنية. وبعث إليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر وهم: محمد بن سيد الناس، ومحمد بن الحكم، وظافر السنان وأخوه من موالى الأمير أبي زكريا الأوسط، ومحمد المديوني ومحمد الجرسى ومحمد البطونى. وبعث له من فحول زناتة وعظمائهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، كان ارتحل إليه من الأندلس كما نذكر في خبره، وأبا رشيد بن محمد بن يوسف من أعياص بني عبد الواد فيمن كان معهم من قومهم وحاشيتهم.

وتوافوا بعساكرهم عند السلطان بقسطنطينة، فاعتزم على معاودة الزحف إلى تونس، وكان قد اختبر أحوال إفريقية وأحسن في ارتيادها، فخرج في صفر من سنة ثمان عشرة وسبعمئة واستعمل على حاجبته أبا عبد الله بن القالون، ومرادفه أبو الحسن بن عمر ووافاه بالأريس وفد هوار وكبيرهم سليمان بن

تاشفين من بعده سنة ثمان عشرة وسبعمائة فتتس ففتح الحصار عن بجاية ريثما كانت حركة السلطان إلى تونس وفتحها. ثم خرج أبو تاشفين من تلمسان لتهديد أعماله، وقتل محمد بن يوسف بمقله من جبل واتشريس كما ذكرناه في أخبارهم، فارتحل من هنالك غازياً إلى بجاية، فاطل عليه في سنة تسع عشر وسبعمائة وبدا له من حصنها وكثرة مقاتلتها وامتاعها ما لم يحتسب فانكفاً راجعاً إلى تلمسان، وأصاب ابن غمر المرض فبعث إلى علي ابن عمه بمكان عمله بقسطنطينة، وعهد إليه بأمره والقيام بولاية بجاية إلى أن يصل أمر السلطان.

وهلك لأيام على فراشه في شوال من سنة تسع عشرة وسبعمائة، وقام علي بن غمر بأمر بجاية، واتصل الخبر بالسلطان فأهمه شأن الثغر. وطير ابن سيد الناس إليه مع قهرمانه داره لتحصيل تراثه والبحث عن ذخيرته فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت والذخيرة، وقدم به على السلطان واستقدم معه علي بن غمر، فأولاه السلطان من رضاه ما أحسب أمله، وأقام بالخرصة إلى أن كان منه خلاف مع ابن عمران. ثم راجع الطاعة وقد أحفظ السلطان بولاية عدوه. فلما عاد إلى تونس أوعز إلى مولاة نجاح وهلال بقتله، فاغتالوه خارجاً من بستانه فأسووه، وهلك من جراحته.

الخبر عن إمارة الأمير أبي عبد الله علي قسطنطينة وأخيه الأمير أبي زكريا علي بجاية وتولية القالون على حجابته

لما هلك ابن غمر أهم السلطان شأن بجاية بما كانت عليه من شأن الحصار، ومطالبة بني عبد الواد لها فأرى أن يكثف الحامية بالثغور الغربية وينزل بها أبناءه للدفاع والحماية، وعقد على قسطنطينة لابنه الأمير أبي عبد الله وعقد على بجاية لابنه الآخر الأمير أبي زكريا وجعل حجابتها لأبي عبد الله بن القالون مستبداً عليهما لمكان صغرهما، وأكثف له الجند وأمره بالمقام ببجاية لممانعتها من العدو الملح على حصارها وارتحلوا من تونس فاتح سنة عشرين وسبعمائة في احتفال من العسكر والصحاب والأهبة. وأبقى خطة الحجابة خلواً بمن يقوم بها. وأبقى على ابن القالون. وبقي للتصرف في الأمور من رجالات السلطان أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الكردي الملقب بالزوار. وكان مقدماً على بطانة السلطان المعروفين بالدخلة. وعلى الأشغال الكاتب أبو القاسم بن عبد العزيز، وستذكر أوليتهما بعد. وانصرف إلى بجاية رافلاً في

وبلغ الخبر إلى أبيه بمكانه من طرابلس فاضطرب معسكره وبعث إلى النصاري في أسطول يحمله إلى الإسكندرية فوافوه بستة أساطيل فاحتل أهل وولده، وركب البحر ومعه حاجبه أبو زكريا بن يعقوب إلى الإسكندرية، واستخلف على طرابلس أبا عبد الله بن أبي عمران من ذوي قرابته وصهره، فلم يزل بها إلى أن استدعاه الكعوب ونصبوه للأمر، وأجلبوا به على السلطان مراراً كما نذكره بعد. وركب السلطان أبو يحيى بن اللحساني البحر إلى الإسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن القالون من ملوك الترك بمصر والشام واستقدمه إلى مصر فعظم من مقدمه واهتز للقاءه ونوه من مجلسه، وأسنى من جريته وأقطعاه إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ورجع السلطان أبو بكر إلى تونس بعد الواقعة على أبي ضربة وقومه بفتح النعام، فدخلها في شوال من سنته. واستقامت إفريقية على طاعته، وانتظمت أمصارها وثغورها في دعوته إلى المهدي وطرابلس كما ذكرناه إلى أن كان ما يأتي ذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عمر ببجاية وولاية الحاجب محمد بن القالون عليها ثم الإدالة منه بابن سيد الناس

كان الحاجب بن عمر لما استبد ببجاية سنة خمس عشرة وسبعمائة، انتقل السلطان إلى قسطنطينة ولم يراجعها بعد. ثم لما رجع من تونس ثانية حركاته سنة سبع عشرة وسبعمائة صرف إليه منصور بن فضل وبعث في أثره قائده أبا عبد الله محمد بن حاجب أبيه الحسن بن سيد الناس يهيم له قصوره ببجاية للتحول إليها، فرد ابن غمر وتكر له وطالبه السلطان في المدد فبادر به فأقطعه جانب الرضا. وعقد له على بجاية وقسطنطينة كما ذكرنا ذلك كله قبل. فاستبد ابن غمر بالثغر وما إليه من الأعمال مقتصرأ على ذكر السلطان في الخطبة واسمه في السكة. وأقام على ذلك إلى أن ملك السلطان تونس واستولى على جهاتها، وبعث إليه بابن عمه محمد بن غمر فعقد أبو عبد الرحمن الحاجب على قسطنطينة فمضى إليها، وهو في خلال ذلك كله يدافع عساكر زناتة عن بجاية.

وقد كان أبو حمو صاحب تلمسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف واسترجاعه بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدمناه يسرب العساكر لحصارها. وابتنى بالوادي على مرحلتين منها قلعة تكرر ليجمر بها الكتائب لحصارها. ثم هلك أبو حمود وولي ابنه أبو

حلل العز والتوبه إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن استقدام ابن القالون والإدالة منه

بابن سيد الناس في بجاية وبظافر الكبير في

قسطنطينة

لما انصرف أبو عبد الله بن يحيى بن قالون إلى بجاية، وخلا وجه السلطان فيه لبطائه عند ولايته ببجاية، بشوا فيه السعايات ونصبوا له الغوائل، وتولى كبر ذلك المزوار ابن عبد العزيز بمداخلة أبي القاسم بن عبد العزيز صاحب الأشغال. وعظمت السعاية فيه عند السلطان حتى داخلت فيه المظنة، وعقد محمد بن سيد الناس على بجاية، نقله إليها من عمله باجة، وكتب له عهده بخطة واستقدم صاحبه محمد بن القالون فقدم، وقد تغير السلطان له ودخل ابن سيد الناس ببجاية، وقام بأمر حصارها وحجابه أميرها إلى أن استقدم للحجابه، وكان من أمره ما نذكره. ومر ابن القالون بقسطنطينة في طريقه إلى الحضرة فحدثه نفسه بالامتناع بها، وداخل مشيختها في ذلك فأبوا عليه، فأشخصهم إلى الحضرة نكلاً بهم.

ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فأمرها لابن القالون وعزم على استضافة الحجابه بقسطنطينة لابن سيد الناس، فاستغنى مشيختها من ذلك وأرؤه أن ابن الأمين قريه وابن أخيه، وذكره ثروة أبيه فأقصر عن ذلك، وصرف اعتزامه إلى مولاه ظافر الكبير وذلك عند قدومه من المغرب، وكان من خبره أنه كان من مرالي الأمير زكريا، وكان له في دولة ابنه السلطان أبي البقاء ظهور، وهو الذي زحف هو بالعاكر عندما استراب السلطان أبو البقاء بأخيه السلطان أبي بكر فأقام ببجاية. وجاء المزدوري والعرب إلى تونس في مقدمة ابن اللحياني فزحف إليهم ففضوه وتقبطوا عليه كما ذكرنا ذلك كله. ثم لحق بعدها بولانا السلطان أبي يحيى وأعادته إلى مكانه من الدولة، وولاه قسطنطينة عند مهلك ابن ثابت سنة ثلاث عشرة وسبعمئة.

ثم غص به ابن غمر وأغرى به السلطان فأشخصه في سفين إلى الأندلس، وأجاز إلى المغرب. ونزل على السلطان أبي سعيد إلى أن بلغه الخبر بمهلك ابن غمر فكر راجعاً إلى تونس، ولقاه السلطان مبرة وتكرماً. ووافق ذلك وصول الحاجب ابن القالون من بجاية، فعقد السلطان لظافر هذا على حجابه ابنه بقسطنطينة الأمير أبي عبد الله فقدمها وقام بأمرها، واستعمل ذويه وحاشيته

في وجوه خدمتها وصرف من كان هنالك من الخدام أهل الحضرة إلى بلدهم. وكان بها أبو العباس بن ياسين متصرفاً بين يدي الأمير أبي عبد الله، والكاظم أبو زكريا بن الدباغ على أشغال الجباية، وكانا قدما من الحضرة في ركاب الأمير أبي عبد الله فصرهما القائد ظافر لحين وصوله، واستقل بأمره إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن

القالون إليه

كان محمد بن أبي عمران هذا من عقب أبي عمران موسى بن ابراهيم ابن الشيخ أبي حفص، وهو الذي ولي إفريقية نائباً عن أبي محمد عبد الله ابن عمه الشيخ أبي محمد عبد الواحد، كتب له بها من مراكش لأول ولايته، فأقام والياً عليها ثمانية أشهر إلى أن قدم آخر سنة ثلاث وعشرين وستمئة، وأقام أبو عمران هذا في جلنتهم إلى أن هلك ونشأ بنوه في ظل دولتهم إلى أن كان من عقبه أبو بكر والد محمد هذا، فكان له صيت وذكر. وكان السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني قد رعى له ذمة قرايته، ووصله بصهر عقده لابنه محمد على إبتته. واستخلفه على تونس عند خروجه عنها.

ثم استخلفه على طرابلس عند ركوبه السفين إلى الإسكندرية. وكان أبو ضربة بعد انهزامه وافتراق جموعه اعتصم بالمهدية، ونازله بها السلطان أبو بكر فامتنت عليه وأقلع عنها على سلم عقده لأبي ضربة وأقام حمزة بن عمر في سبيل خلافه على السلطان، ويتقلب في نواحي إفريقية حتى عظم زبوره على السلطان ونزع إليه الكثير من الأعراب وكثرت جموعه، فاستقدم محمد بن أبي عمران من مكان ولايته بشفر طرابلس.

وزحف إلى تونس معارضاً للسلطان قبل اجتماع عساكره وكمال تعييته، فخرج السلطان أبو بكر من تونس في رمضان من سنة إحدى وعشرين وسبعمئة ولحق بقسطنطينة وصحبه إليها مولاهم ابن عمر، وكان الحاجب محمد بن يحيى بن القالون قد غصته البطانة والحاشية بالسعاية فيه عند السلطان، وتبين له أخوافه عنه. وكان معز بن مطاع الفزازي وزير حمزة بن عمر وصاحب شواره صديقاً لابن القالون وغالصاً، فداخله في الأجلا ببابن عمران. فلما خرج السلطان أمام زحفه تخلف القالون بتونس، وركب من الغد في البلد منادياً بدعوة ابن أبي عمران. ودخل محمد بن أبي عمران ثانية خروج السلطان، واستولى على الحضرة وأقام بها بقية سنته، وصدر من الأخرى، ولحق السلطان

الخبر عن واقعة رغيص مع ابن اللحياني وزناته وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران

لما انهزم حمزة بن عمر وابن أبي عمران عن تونس مرة بعد أخرى ورأى حمزة ابن أبي عمران غير مغن عنه فصرفه إلى مكان عمله بترابلس، وبعث إلى أبي ضربة ابن السلطان اللحياني بمكانه من المهدي فداخله في الصريخ بزناة والوفود على سلطان بني عبد الواد فرحل معه أبو ضربة ووفدوا على أبي تاشفين صاحب تلمسان ورغبوه في الظفر ببجاية، وأن يشغل صاحب تونس عن مددها بترديد البعوث وتجهيز العساكر إليه، فسرح معهم السلطان آلافاً من العساكر وعقد عليها لموسى بن علي الكردي صاحب الثغر بتميز زدكت، وكثير الحاشية والرجالات. وارتحلوا من تلمسان يغدون السير، وبلغ السلطان خبر فصولهم بتلمسان فبرز للقائهم من تونس في عساكره حتى انتهى إلى رغيص بين بونة وقسطنطينة.

ولما أطلت عساكر زناته والعرب اختل مصاف السلطان، وانهزمت المجنبات وثبت في القلب وصدق العزيمة واللقاء، فاختلف مصافهم وانهزموا في شعبان سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، وامتلات أيدي العساكر من أسلابهم من نساء زناته، ومن عليهن السلطان وأطلقهن. ورجع أبو ضربة وموسى بن علي الكردي في فلهم إلى تلمسان، وعاد السلطان إلى حضرته لأيام من هزيمتهم. ولقيه الخبر في طريقه باجتماع العرب وابن أبي عمران بنواحي القيروان، فتخطى الحضرة إليهم ولقيهم بالشقة، وأوقع بهم ورجع إلى تونس في شوال من سنة أربع وعشرين. فاتبه حمزة ومن معه إلى تونس عندما افرقت العساكر، ومعه إبراهيم بن الشهيد من البيت الحفصي.

وسبق إليه بخبرهم عامر بن بو علي بن كثير وسحيم بن.... فخرج للقائهم من يومه في خوف من الجنود بعد أن بعث عن عسكر باجة، وقائدها عبد الله العاقل مولا فصبحه العرب بنواحي شاذلة فقاتلوه صدرها وحى الوطيس، ووصل عبد الله العاقل والناس متواقفون، واشتدت الحرب ثم كانت الهزيمة على العرب، واستيحت حرماهم وافرقت جموعهم، ورجع السلطان إلى البلد واستقر بالحضرة.

بقسطنطينة فجمع عساكره واحتشد جموعه، وأزاح العلل واستكمل التعية وزحف منها في صفر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وخرج ابن أبي عمران للقائه مع حمزة بن عمر في جموع العرب ولقيهم السلطان أولى وثانية بالرجلة وأوقع بهم، وقتل شيخ الموحد بن أبا عبد الله بن أبي بكر. وكان على مقدمتهم محمد بن منصور بن مزني وغيره. وأتخت العساكر فيهم قتلاً وأسراً، وكان للسلطان فيها ظهور لا كفاء له. ثم تقبض على مولاهم ابن عمر فكان من خبره ما نذكره.

الخبر عن مقتل مولاهم بن عمر وأصحابه من الكعوب

لما أتبع للسلطان من الظهور على ابن عمران وأتباعه والظفر بهم ما أتبع، وصنع له فيه رغم أنف مولاهم ابن عمر، وظهرت مع أصحابه كلمات أنبات بفساد دخلتهم. ثم غي للسلطان أن مولاهم داخل في الفتك به ابنه منصور وربييه زعدان ومعدان ابني عبد الله بن أحمد بن كعب، وسليمان بن جامع من شيوخ هواره. وشى بذلك عنهم ابن عمهم عون بن عبد الله بن أحمد بعد أن داخلوه فيها، فتصحب بها للسلطان. فلما عدوا على السلطان تقبض عليهم وبعثهم إلى تونس فاعتقلوا بها، ورجع هو إلى الحضرة فدخلها في جمادى من سته. وجدد البيعة على الناس، وزحفت العرب في أتباعه حتى نزلوا بظاهر البلد وشرطوا عليه إطلاق مولاهم وأصحابه، فأنفذ السلطان قتلهم فقتلوا بمحبسهم، وبعث بأشلاتهم إلى حمزة فعظم عنده موقع هذا الحزن، وصرخ في قومه وتأمروا أن يثأروا بصاحبهم.

وأغذوا السير إلى الحضرة ودخل ابن أبي عمران معهم على حين افتراق وإراحة السلطان. وظنوا أنهم يتهزون الفرصة، وخرج السلطان عن تونس لأربعين يوماً من دخوله ولحق بقسطنطينة ودخل ابن أبي عمران إلى تونس فأقام بها ستة أشهر خلال ما احتشد السلطان جموعه واستكمل تهيئته. ونهض من قسطنطينة وزحف إليه ابن أبي عمران وحمزه بن عمر في جموعه. فأوقع السلطان بهم وأتخن فيهم وشردهم في النواحي وعاد إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، ومضى حمزة لوجهه إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن أجلاب حمزة بإبراهيم بن الشهيد وتغلبه على الحضرة

لما انهزم أبو ضربة بن اللحياني وحمزة بن عمر وعساكر بني عبد الواد لحق أبو ضربة بتلمسان فهلك بها، ولقي حمزة بعده من الحروب مع السلطان ما لقي، ويتس الكعوب من غلابه وتدامروا لفتنته والإجلاب عليه، فوفد حمزة بن عمر على أبي تاشفين صريحاً ومعه طالب بن مهلهل، قرنه في قومه، ومحمد بن مسكين شيخ بني حكيم من أولاد القوس وكلهم من سليم ومعهم الحاجب ابن القالون، فاستحثوا عساكره لصريحهم فكتب لهم السلطان كتيبة عقد عليها لموسى بن علي الكردي وأعادهم معهم. ونصب لهم لملك تونس من أعياص أبي حفص إبراهيم بن الشهيد منهم، وأبوه الشهيد هو أبو بكر بن أبي الخطاب عبد الرحمن الذي نصب للأمر عند مهلك السلطان أبي عصيدة، وقتله السلطان أبو البقاء خالد كما ذكرناه. وكان إبراهيم هذا قد لحق بالعرب ونصروه للأمر وأجلبوا به على تونس أثر واقعة رغيث وبرزت إليهم العساكر فانهزموا كما ذكرناه، ولحق بتلمسان وجاء هذا الوفد على أثره فنصبه السلطان أبو تاشفين لهم واستعمل على حجابته محمد بن يحيى بن القالون، وبعث معهم العساكر لنظر موسى بن علي الكردي وزحفوا إلى إفريقية. وخرج السلطان أبو بكر من تونس لمداغتهم ذي القعدة من سنة أربع وعشرين وسبعمائة وانتهى إلى قسطنطينية وعاجلوه قبل استكمال التعبئة فنزلوا بساحتها. وأقام موسى بن علي على منازلها بعساكر بني عبد الواد. وتقدم إبراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر إلى تونس فدخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة واستمكن منها، وعقد على باجة لمحمد بن داود من مشيخة الموحدين وثار عليه في بعض ليالي رمضان بعض بطانة السلطان كانوا بالبلد في غيابات الاختفاء، وكان منهم يوسف بن عامر بن عثمان، وهو ابن أخي عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، وفيهم القائد بلاط من وجوه الترك المرتزقة بالحضرة، وابن جसार نقيب الشرفاء فاعتدوا واجتمعوا من جوف الليل وهتفوا بدعوة السلطان وطافوا بالقصبة فامتنعت عليهم، فعمدوا إلى دار كشلي من الترك المرتزقة، وكان بطانة لابن القالون فقاتلوه وامتنت عليهم. ثم أعجلهم الصباح عن مرامهم وتبعوا بالقتل، وفرغ من شأنهم، وكان موسى بن علي ومن معه من العساكر لما تخلف عن ابن الشهيد لخصاص قسطنطينية أقام عليها أياماً، ثم أقلع عنها لخمسة عشرة ليلة من منازلته ورجع إلى صاحبه بتلمسان. وخرج السلطان من قسطنطينية

فاستكمل الحشد والتعبية، ونهض إلى تونس فأجفل منها ابن الشهيد وابن القالون، ودخلها السلطان في شوال سنة خمس وعشرين وسبعمائة واستولى على دار ملكه، وأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمزدكت وانهازم عساكر السلطان عليها

كان أبو تاشفين منذ خلا له الجو وتمكن في الأمر منه القوم يلح على بجاية بترديد البعوث ومطاوله الحصار، والسلطان أبو بكر يدفع لحمايتها والممانعة دونها من رجالات دولته وعظماء وزرائه الأول، فالأول من أهل الكفاية والاضطلاع بما يدفع إليه من ذلك. وسرب إليهم المدد من الأموال والأسلحة والجنود وتعهد إليهم بالصبر والثبات في المواطن ونظره من وراء ذلك. وكان أبو تاشفين كلما أحس من السلطان أبي بكر بنهوضه إلى المدافعة عنها، أو عزم على غزو كتائبه المجمرة عليها رماه بشاغل يوهن من عزمه ويسكن عنان بطشه. وكانت فتنة حمزة ابن عمر من أدهى الشواغل في ذلك بما كان يجنب العرب عن الطاعة، ويجمع الأحزاب للإجلاب على الحضرة، وينصب الأعياص يطمعهم فيما ليس لهم من نيل الخلافة. وكان ذلك ديدناً متصلاً أزمان تلك المدة.

ولما سرح أبو تاشفين العساكر سنة خمس وعشرين وسبعمائة مع إبراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر وأوليائهم من أهل إفريقية، وعقد عليها لموسى بن علي من رجالته، فنازل قسطنطينية ثم أقلع عنها وعاود حصارها سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. وشن الغارة في نواحيها، واكتسح الأموال ورجع إلى وادي بجاية فاخترق مدينة تيكلات على مرحلة منها، وعلى قارعة الطريق الشارع من الغرب إلى الشرق وبما كانت بجاية زائفة عنه إلى البحر، فاخترقوا تلك المدينة وشيدوها وجمعوا الأيدي عليها، وقسموها مسافات على جيوشهم فاستمت لأربعين يوماً وسموها تيمزدكت باسم حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة، حيث امتنع يغمراسن على السعيد ونازله وهلك عليه كما ذكرناه في أخباره. وشحنوا هذه المدينة بالأقوات والمدد وعمروها بالمقاتلة من الرجل والفرسان والقبائل، وأخذت بمخترق البلد.

وقلقت السلطنة بمكانها فأوعز إلى قواد عساكره وأصحاب عمالاته من مواليه وصنائعه أن يتفروا بعساكرهم إلى صاحب الثغر محمد بن سيد الناس ويزحفوا معه إلى هذا البلد المخروب،

جدنا الأقرب فأبى، ورغب في الإقالة فأجحف جنوحاً لما كان بسيله منذ سنين من الصاغية إلى الدين والرغبة في السكون والفرار من الرتب. وأشار على السلطان بصاحب الثغر محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لتقديعه سلفه مع سلف السلطان، وكثرة تابعه وحاشيته وقوة شكيمته في الاضطلاع بما يدفع إليه.

أخبرني بهذا الخبر أبي رحمه الله وصاحبنا محمد بن منصور بن مزني، قال لي: حضرت لاستدعاء جدكم إلى معسكر السلطان بياجة يوم مهلك المزوار، وأدخله السلطان إلى رواقه، وغاب ملياً ثم خرج وقد استفاض بين البطانة والحاشية أنه دعي إلى الخطة فاستنكرها، وأقام السلطان يومئذ في خطة الحجابة الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم، واستقدم خالسته محمد بن حاجب أبيه أبي الحسين بن سيد الناس، فقدم في عزم فاتح ثمان وعشرين وسبعمائة وولاه حجابته فاضطلع لها، وجدد له العقد على بياجة وحجابة ابنه بها، فدفع إليها للنيابة عنه في الحجابة صنيعته محمد بن فرحون، ومعه كاتبه أبو القاسم بن المريد. وجرى الحال على ذلك ببياجة وعساكر زناتة تجوس خلالها ومعاقلمهم تأخذ بمخنتها. وقدم القالون دوين مقدم ابن سيد الناس بشفاعة من نزيله علي بن أحمد سيد الدواودة، وطمع في عوده إلى الخطة.

وكان من خبره أنه لما تخلف عن السلطان بتونس في خدمة ابن أبي عمران رأى ركوب السفين إلى الأندلس، فاعجلهم السلطان عن ذلك وخرج ابن أبي عمران فأجلب معه على الحضرة مراراً، ولحق بتملسان. ثم جاء مع ابن الشهيد وفعل الأفاعيل، ثم اغل أمر ابن الشهيد، ولحق هو بالدواودة من رياح. ونزل على علي بن أحمد رئيسهم لذلك العهد فأجاره وأنزله بطولقة من بلاد الزاب، وخاطب السلطان في شأنه واقتضى له الأمان حتى أسعف ووفد على الحضرة مع أخيه موسى بن أحمد، وفي نفس القالون طمع في الخطة. وسبقه ابن سيد الناس إلى السلطان فاستقل بها. وجاء القالون من بعده فأوصله السلطان إلى نفسه، واعتذر إليه ووعدته وعقد له على قفصة فصار إليها وصحب موالي السلطان من العلوجي بشير وفارح وأوعز ابن سيد الناس إلى مشيخة قفصة أن يتقبضوا على حاميته ليتمكن الموالي منه. فلما نزل بساحة البلد دخل كشلي من جند الترك المرتزة كان في جملة منذ أيام حجابته وكان يستظهر بمكانه. فلما دخل إلى البلد قتل في سككها فكانت لقتله هيعة تسمع الناس بعظمها من خارج البلد، وبرز القالون من فسطاطه وقد جث للربع فتقدم إليه الموالي الذين جاؤوا معه وتناولوه طعناً بالخناجر إلى أن هلك. والله وارث الأرض ومن عليها.

ويستميئوا دون تخريبه، فنهض ظافر الكبير من قسطنطينية وعبد الله العاقل من هواره وظافر السنان من بونة: وتوافرا ببياجة سنة سبع وعشرين وسبعمائة وبلغ موسى بن علي خبرهم فاستنفر من عساكر بني الواد، وخرجت العساكر جميعاً من بياجة تحت لواء ابن سيد الناس. وزحف إلى العدو بمخيمهم من تيكلات فكانت الدبرة عليه وعلى أصحابه، وقتل ظافر الكبير ورجع فلهم إلى بياجة. وداخلت ابن سيد الناس فيهم الفلحة بما كان يداخل موسى بن عيسى في زبون كل واحد منهما بصاحبه على سلطانه. فمتهمهم من دخول البلد ليلتذ وأسحروا قافلين إلى أعمالهم، وعقد السلطان على قسطنطينية لأبي القاسم بن عبد العزيز أياماً. ثم استقدمه إلى الحضرة ليستعين به محمد بن عبد العزيز المزوار في خطة حجابته بما كان غفلاً من الأدوات التي تحتاج إليها الحجابة. وعقد على حجابة ابنه الأمير أبي عبد الله بقسطنطينية لمولاه ظافر السنان إلى أن كان من تحويل بنائه ما نذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن

سيد الناس مكانه ومقتل ابن القالون

هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار، لا أدري من أوليته أكثر من أنه كردي من الأكراد الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب أيام أجلاهم التتر عن أوطانهم بشهرزور عند تغلهم على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة: فمنهم من أقام بتونس، ومنهم من تقدم إلى المغرب فتزلوا على المرتضى براكش فأحسن جوارهم. وصار قوم منهم إلى بني مرين وآخرون إلى بني عبد الواد حسبما نذكر في أخبارهم.

ومن المقيمين بالحضرة كان سلف ابن عبد العزيز هذا إلى أن نشأ هو في دولة الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغور الغربية، وتحت كنف من اصطناعه. واختلط بأبنائه وقدم في جملة ابنه السلطان أبي بكر إلى تونس مقدماً في بطاقته ورئيساً على الحاشية المسمين بالدخلة، وكان يعرف لذلك بالمزوار. وكان شهماً وقوراً متديناً وله في الدولة حظ من الظهور، وهو الذي تولى كبر السعاية في الحاجب ابن القالون حتى ارتاب بمكانه. وفر إلى ابن أبي عمران سنة إحدى وعشرين وسبعمائة كما قدمناه. وولاه السلطان الحجابة مكانه فقام بها مستعيناً بالكاتب أبي القاسم بن عبد العزيز لخلوه هو من الأدوات. وإنما كان شجاعاً بهمة.

ولم يزل على ذلك إلى أن هلك في شعبان سنة سبع وعشرين وسبعمائة وأراد السلطان على الحجابة محمد بن خلدون

الخبر عن ولاية الفضل على بونة

كان السلطان عقد على بونة منذ أول دولته لمولاه مسرور العلوجي فقام فاضطلع بولايتها، وكان من الغلظة ومراس الحروب بمكان. وكان مع ذلك غشوماً جباراً وخروج إلى ولهاصة سنة... فاضطهدهم وذهبوا إلى مدافعتة عن أموالهم فحاربهم. وبلغ خبر مهلكه إلى السلطان فعقد على بونة لابنه أبي العباس الفضل، وبعثه إليها. وولى على حجابته وقيادة عسكره ظافراً السنان من مواليه العلوجين فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من

مهلك الأمير أبي فارس أخيه السلطان

كان السلطان أبو بكر لما قدم إلى تونس قدم معه إخوته الثلاثة محمد وعبد العزيز وعبد الرحمن، وهلك عبد الرحمن منهم وبقي الآخرون. وكانا في ظل ظليل من النعمة، وحظ كبير من المساهمة في الجاه. وكان في نفس الأمير أبي فارس تشوق إلى نيل المرتبة وتربص بالدولة. وكان عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من فحول بني مرين وأعياص ملكهم قدم على الحضرة نازعاً إليها من الأندلس، فنزل على ابن عمر بيجاية قبيل مهلكه سنة ثمان عشر وسبعمئة ثم لحق بالسلطان فلقاه مرة ورحباً، ووفر حظه وحظ حاشيته من الجرايات والأقطاع، وجعل له أن يستركب ويستلحق، وكان يستظهر به في مواقف حروبه، ويتجمل في المشاهد بمكانه من سريره بما كان سيداً في قومه. وكان قد انعقدت له بيعة على أهل وطنه، وكانت فيه غلظة وأنفة وإباء. وغدا في بعض أيامه على الحاجب ابن سيد الناس فتلقيه الإذن بالغدر، فذهب مغاضباً، ومر بدار الأمير أبي فارس فعمله على ذات صدره من الخروج والثورة، وخرجا من يومهما في ربيع سنة تسع وعشرين وسبعمئة ومرا ببعض أحياء العرب فاعترضهما أمير الحي فعرض عليهما النزول، فأما عبد الحق فأبى وذهب لوجهه إلى أن لحق بتلمسان، وأما الأمير أبو فارس فاجاب ونزل، وطير بالخبر إلى السلطان فسرح لوقته محمد بن الحكيم من صناعته وقواد دولته في طائفة من العسكر والنصارى، فصبحوه في الحي وأحاطوا ببيت نزله فامتنع من الإلقاء باليد، ودافع عن نفسه مستميتاً فقتلوه قعصاً بالرماح، وجاؤوا بشلوه إلى الحضرة فدفن بها.

ونزل عبد الحق بن عثمان على أبي تاشفين خير نزل، ورغبه فيما كان بسبيله من مطالبة الدولة الخفصية وتدوين ممالكها، ووفد على أثره حمزة بن عمر ورجالات سليم صريحاً على عاداتهم. فأجاب أبو تاشفين صريحهم ونصب لهم محمد بن أبي عمران وكان من خبره أنه تركه السلطان اللحياني عاملاً على طرابلس. فلما انهزم أبو ضربة وانحل أمره استقدمه العرب وأجلبوا به على الحضرة سنة إحدى وعشرين وسبعمئة فملكها سنة أشهر. ثم أجفل عنها عند رجوع السلطان إليها، ولحق بطرابلس إلى أن انتقض عليه أهلها سنة أربع وعشرين وسبعمئة وثاروا به وأخرجوه فلحق بالعرب وأجلبوا به على السلطان مراراً ينهزمون عنه في كلها.

ثم لحق بتلمسان واستقر بها عند أبي تاشفين في خير جوار وكرامة وجراية إلى أن وصل هذا الوفد إليه سنة تسع وعشرين وسبعمئة فنصبه للأمر بإفريقية. وأمدهم بالعساكر من زناته. عقد عليهم ليحيى بن موسى من بطائه وصنائع أبيه. ورجع معهم عبد الحق بن عثمان بمن في جملة من بنيه وعشيرته ومواليه وحاشيته. وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريمة، فنهضوا جميعاً إلى تونس فزحف السلطان للقائهم وتراى الجمعان بالرياس من نواحي بلاد هوار سنة سبع وعشرين وسبعمئة، فدارت الحرب واختل مصاف السلطان، وأفلت جموعه. وأحيط به فأفلت بعد عصب الريق، وأصابته في حومة الحرب جراحة وهن لها، وقتل كثير من بطائنه وحاشيته، وكان من أشهرهم محمد المديوني. وانتهب المعسكر وتقبض على أحمد وعمر ابني السلطان فاحتلوا إلى تلمسان حتى أطلقهما أبو تاشفين بعد ذلك في مراسلة وقعت بينه وبين السلطان فاتمه فيها أبو تاشفين، وجنح إلى السلم وأطلق الابنين ولم يتم شأن الصلح من بعد ذلك. وتقدم ابن أبي عمران بعد الواقعة إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاثين وسبعمئة واستبد عليه يحيى بن موسى قائد بني عبد الواد، وحجب التصرف في شيء من أمره، ثم عاد يحيى بن موسى إلى سلطانه. ونهض السلطان أبو بكر من قسطنطينة إلى تونس بعد أن استكمل الحشد والتعبية، فأجفل ابن أبي عمران عنها، ودخل إليها السلطان في رجب من سنة إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة على بني عبد الواد وما يتبع ذلك من المصاهرة

كان السلطان أبو بكر لما خلاص من واقعة الرياس نجيا إلى بونة، وركب منها البحر إلى بجاية، وقد ضاق ذرعه بالخاص عبد الواد على ممالكه وتجهيز الكتائب على ثغره وترديد البعوث إلى وطنه، فأعمل نظره في الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد ليذكره ما بين سلفه وسلفهم من السابقة، مع ما لهم عند بني عبد الواد من الأوتار والإحن، ليعث بذلك دواعيهم على مطالبة بني عبد الواد: فيأخذ بمحزتهم عنه.

ثم عين للوفادة عليه ابنه الأمير أبا زكريا، وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين لساناً لخطابه ونجياً لشواره. وركبوا البحر من بجاية فنزلوا بمرسى غساسة، واهتز صاحب المغرب لقدمه وأكرم وفادته واستبلغ في القرى والإجارة، وأجاب دعاءهم إلى محاربة عدوهم وعدوه على شريطة اجتماع اليد عليها وموافاة السلطان أبي سعيد والسلطان أبي يحيى بعساكرهما تلمسان لموعده ضربوه لذلك.

وكان السلطان أبو سعيد قد بعث سنة إحدى وعشرين وسبعمائة يحيى الزنداجي قائد الأسطول بسببة إلى مولانا السلطان أبي بكر في الإصهار على إحدى كرائمه، وشغل عن ذلك بما وقع من شأن ابن أبي عمران. فلما وفد عليه ابن السلطان وأولياؤه أعاد الحديث في ذلك، وعين للنباة عنه في الخطبة من السلطان إبراهيم بن أبي حاتم العزفي وصرفه مع العدو، فوافوا السلطان بتونس آخر سنة ثلاثين وسبعمائة وقد طرد عدوه وشفى نفسه، فجأؤوه بأمنيته من حركة صاحب المغرب على تلمسان. وخطب منه إبراهيم للأمير أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد، فعقد على ابنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكريا السفير إليهم وزفها إليه في أساطيله سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وتقدم لزفافها من مشيخة الموحدين أبو القاسم بن عتو ومحمد بن سليمان الناسك، وقد مر ذكره، فنزلت على محل وثير من الغبطة والعز، وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد أعراسها وولاتها وجهازها كله من المفاخر للدولتين، ولم يزل مذكوراً على الأيام.

الخبر عن حركة السلطان إلى المغرب وقرار بني عبد الواد وتخريب تامرزدكت

كان مهلك السلطان أبي سعيد على تفتية ما قدمناه من الأخبار آخر سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وولي السلطان أبو الحسن من بعده فبعث إلى ابن تاشفين يحاطبه في الغض عن عنان عيئه ببلاد الموحدين وطغيانه عليها، فليج واستكر وأساء الرد، فنهض إليه في سبيل الصريخ لهم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وطوى البلاد طياً إلى تلمسان، وأفرجت عساكرهم عن بجاية إلى سلطانهم. وتقدم السلطان عن تلمسان لمشاركة أحوال بجاية والأخذ بمحزة العدو المحاصر لها وبعث عسكراً من قومه مدداً لهم عقد عليهم لمحمد البطوي، وأركبهم أساطيله من سواحل وهران فدخلوا إليها وقبولوا بما يناسبهم من الكرامة والجراية. واستنهض السلطان أبو الحسن أبا بكر لخصار تلمسان معه كما كان الشرط بين أبيه وبين ابنه الأمير أبي زكريا، فشرع السلطان في جهاز حركته وإزاحة عائلته. وأقام السلطان أبو الحسن في تياسالة في انتظاره شهراً حتى انصرم فصل الشتاء.

وبلغه بمحسكره من تاسالة أن أخاه السلطان أبا علي صاحب سبلماسة انتفض وخرج إلى درعة، فقتل عامله عليها بعد أن كان داخله وعقد له على المهادنة والتجاني عنه بمكانه من سبلماسة. فلما بلغه هذا الخبر كر راجعاً إلى المغرب لإصلاح شأنه.

وكان السلطان أبو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فأنتهى إلى بجاية وبعث مقدماته إلى ثغور بني عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتابها. ثم زحف بمجملته إلى تيمرزدكت، وفرت عنها الكتائب الجعرة بها، فأناخ عليها حتى خربها وانتهب أموالها وأسلمحتها، ونسف آثارها وقتل عنها إلى بلد المسيلة أختها في الغي، وموطن أولاد سباع بن يحيى من الدواودة، كانت مشيختهم سليمان ويحيى ابنا علي بن سباع وعثمان بن سباع عمهم وابنه سعيد، قد تمسكوا بطاعة أبي تاشفين وحملوا عليها قومهم، ونهجوا لعساكره السبيل إلى وطء بلاد الموحدين والعيث فيها ومجاذبة جبلها.

وأقطعهم أبو تاشفين بلد المسيلة وجبل متنان ووانوغة وجبل عياض فأصاروها من أعمالها، فلما شرد السلطان عساكرهم عن بجاية وهدم ثغورهم عليها واسترجع أعمال بجاية إليها سار بجموعه إلى هذا الوطن ليسترجع أعماله ويمجد به دعوته. وزاد في

لأمهرما.

فأما أبو تاشفين فنكسب موسى بن علي كما نذكره في أخباره، وأما السلطان أبو بكر فأغضى لابن سيد الناس عنها. ثم استدعاه وقلده حجابته سنة سبع وعشرين وسبعمئة كما قدمناه، واستخلف على مكانه بيجاية محمد بن فرحون وأحمد بن المزيدي للقيام بما كان يتولاه من مدافعة العدو وكفالة الأمير أبي زكريا ابن السلطان. وقدم هو على السلطان وأسكنه بقصور ملكه، وفوض إليه أمور سلطانه، تفويض الاستقلال، فجري في طلق الاستبداد عليه وأرخص له السلطان حبل الإهمال واعتد عليه فلتات الدالة مع ما كانت الظنون ترجع فيه بالمداينة في شأن العدو والزبون على مولاه باستغلاظهم. وأمهله السلطان لمكانه من حماية الثغر بيجاية والاستقلال به دونه، حتى إذا تجلت غصامتهم، وأطل أبو الحسن عليهم من مرقبه ونهض السلطان أبو بكر إلى بيجاية وخر بيمرزدكت، فأغراه البطانة حيثنذ بالحاجب محمد بن سيد الناس.

وتبته له السلطان فأحفظ له استبداده وتقبض عليه مرجعه من هذه الحركة في ربيع سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة واعتقله. ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال معه فلم ينس بقطرة، وما زال يستغيث ويتوسل بسوابقه من الرضاع والمرسى، وسوابق أبيه عند سلفه حتى لدغه العذاب فأفحش، ونال من السلطان وأقنع فقتل شدخاً بالعصي وجرح شلوه فأحرق خارج الحضرة وعفا رسمه كان لم يكن، وإلى الله عاقبة الأمور.

ولما تقبض السلطان على ابن سيد الناس ومحا أثر استبداده قلد حجابته الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز، وقد كان قدم من الحمة عند مبايعة ابن مكي لعبد الواحد بن اللحياني فلحق بالسلطان في طريقه إلى تيمرزدكت، فلم يزل معه إلى أن دخل حضرته، وتقبض على ابن سيد الناس فولاه الحجابة، وكان مضعفاً لا يقوم بالحرب، فعقد السلطان على الحرب والتدبير لضيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم وفوض له فيما وراء الحضرة، وهو محمد بن علي بن محمد بن حمزة بن إبراهيم بن أحمد اللخمي، ونسبه في بني العزفي الرؤساء بسبته. وجده أحمد هو أبو العباس المذكور بالعلم والدين والد أبي القاسم المستقل برئاسة ستة بعد الموحدين، وكان من خير أوليئه فيما حدثني به محمد بن يحيى بن أبي طالب العزفي آخر رؤساء العزفين بسبته، والمتقضي أمرهم بها بانتقضاء رئاسته، وحدثني بها أيضاً حسين ابن عمه عبد الرحمن بن أبي طالب، وحدثني بها أيضاً الثقة عن إبراهيم ابن عمهما أبي حاتم قالوا جميعاً: إن أبا القاسم العزفي كان له أخ يسمى إبراهيم، وكان مسرفاً على نفسه وأصاب دماً في سبته،

إغرائه بذلك علي بن أحمد كبير أولاد محمد لقتال أولاد سباع هؤلاء ونظرانهم وأهل أوتارهم ودخولهم، فارتحل غازياً إلى المسيلة حتى نزلها، واصطلم نعمها وخرب أسوارها، وبلغه بمكانه منها شأن عبد الواحد ابن السلطان اللحياني وأجلابه على تونس، وكان من خبره أنه قدم من المشرق بعد مهلك أبيه السلطان أبي يحيى زكريا سنة تسع وعشرين وسبعمئة فنزل على دباب وباع له عبد الملك بن مكّي رئيس المشيخة بقابس، وتسامع به الناس وإفريقية شاغرة من الحامية والعساكر لهوضهم مع السلطان، فاغتم حمزة بن عمر الفرصة، واستقدمه فباع له ورحل به إلى الحضرة، فنزل بساحتها، ودخل عبد الواحد بن اللحياني وحاجبه ابن مكّي إلى البلد فاقاموا بها ريثما بلغ الخبر إلى السلطان ففقل من الحضرة وبعث في مقدمته محمد البطوي من بطانته في عسكر اختارهم لذلك، فاجفل ابن اللحياني وجوعه عن تونس لخمس عشرة ليلة من نزولهم، ودخل البطوي إليها وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة.

الخبر عن نكبة الحاجب محمد بن سيد الناس وولاية ابن عبد العزيز وابن الحكيم من بعده

قد قدمنا أولية هذا الرجل وأن أباه أبا الحسين كان حاجباً للأمير أبي زكريا بيجاية. ولما هلك سنة تسعين وستمائة خلف ابنه محمداً هذا في كفالة السلطان ومرعى نعمته، فاشتمل قصرهم عليه وآواه إلى حجره وأرضعه مع الكثير من بنيه، ونشأ في كنفه. وكان الحجاب للدولة من بعد أبيه مثل ابن أبي جى والرخامي صنائع لأبييه فكانوا يعرفون حقه ويؤثرونه على أنفسهم في التجلة. ولم يدرك في سن الرجولة والسعي في المجد إلا أيام ابن غمر آخرهم، فكان له منه مكان حتى إذا ارتحل السلطان أبو يحيى إلى قسطنطينة لطلب تونس، وجهز له ابن غمر الآلات والعساكر، وأقام له الحجاب والوزراء والقواد، كان فيمن سرح معه محمد بن سيد الناس قائداً على عسكر من عساكره. وكان ظنراً للسلطان فكانت له عنده أثره واختصاص، وعقد له من بعد مهلك ابن غمر على بيجاية لما عزل عنها القالون كما قدمناه، فاستبد بها على السلطان وحامها دون عساكر زناتة، ودفع في صدورهم عنها وكان له في ذلك كله مقامات مذكورة.

وكانت بينه وبين قائد زناتة موسى بن علي مداخلة في زبون كل واحد منهما بمكان صاحبه على سلطانه، وقطن

الخبر عن فتح قصبة وولاية الأمير أبي العباس عليها

كان أهل الجريد منذ تقلص عنهم ظل الدولة عند انقسام الملك بين الثغور الغربية والحضرة وما إليها، وصار أمرهم إلى الشورى بين المشيخة إلا في الأحيان يؤملون الاستبداد كما كانوا عليه من قبل الموحدين، فقدم عبد المؤمن إلى إفريقية وبنو الرند على قصبة وقسطنطينة، وابن اطاس على توزر، وابن مطروح على طرابلس فأملا فتكها، وشغل مولانا السلطان أبا بكر عنهم بعد استقلاله بالأمر وانفراده بالدعوة الحفصية شأن الفتنة مع آل يغمراسن بن زيان وإجلاب عساكرهم مع حمزة بن عمر على أوطانه. حتى إذا أخذ السلطان أبو الحسن مجرتهم وأطل عليهم من مراقبه فعادوا إلى أوكارهم بعد أن أسفوا، وتنفس ثغنى الثغور الغربية من حصارهم، وزال عن كاهل الدولة إصر معاناتهم وسكن اضطراب الخوارج على الدولة وخفت أصوات المرجفين في ممالكها، وصرف السلطان نظره في أعطاف ملكه ومحر الشقاق من سائر أعماله، وسمت همته إلى تدويخ القاصية من بلاد الجريد واستنقاذ أهلها من أيدي الذئاب الغاوية والكلاب العادية زعماء أمصارها وأعراب فلاتها، فنهض إلى قصبة سنة خمس وثلاثين وسبعماية وقد كان استبد بشورها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي من بيوتاتها، فنازلها أياماً والعساكر تلح عليها بأنواع القتال، ونصب عليها المجانيق فامتنعوا. ثم جمع الأيدي حتى قطع نخيلهم وإقلاع شجرائهم فنادوا بالأمان فأمتهم. وخرج إليه ابن عبد الجليل رئيسهم الآخر من سته، فأشخصه إلى الحضرة وأنزله بها ورجالات من قومه بني العابد. وفر سائرهم إلى قابس فنزل في جوار ابن مكى ودخل أهل البلد في حكمه، وتفيأوا بعد أن كانوا ضاحين من الملك كله فأحسن التجاوز عنهم، وبسط المعدلة فيهم. وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم بالإسهام والأقطاع وتجديد ما بأيديهم من المكتوبات السلطانية. ثم أترهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ لعهد الأمير أبي العباس، وأنزله بين ظهرانيهم وأوصاه بهم، وعقد له على قسطنطينة وما إليها. وجعل معه على حجابته أبا القاسم ابن عتو من مشيخة الموحدين، وقفل إلى حضرتة فدخلها في رمضان من سته.

وحلف أخوه أبر القاسم ليقطن منه، وفر ولحق بديار المشرق. هذا آخر خبرهم، وإن محمداً هذا من بنه.

وبقية الخبر عن أهل هذا البيت من سواهم أن إبراهيم أنجب محمداً، وأنجب محمد حمزة، ثم أنجب حمزة علياً فكلف بالقراءة واستظهر علم الطب واستقر في إيالة السلطان أبي زكرياء بالثغور الغربية وأصاب السلطان وجع في بعض أزماته وأعياء دواؤه فجمع له الأطباء وكان فيهم علي هذا فحس على المرض وأحسن المداواة، فوقع من السلطان أحسن المواقع واستخلصه لنفسه وخلطه بخاصيته وأهل خلوته، وصار له من الدولة مكان لا يجاريه أحد فيه. وكان يدعى في الدولة بالحكيم وبه عرف ابنه من بعده، وأصهر إلى إحدى بيوت قسطنطينة فزوجوه وخلط أهله بحرم السلطان. وولد له محمد ابنه بقصره، ورضع مع الأمير أبي بكر ابنه، ونشأ في حجر الدولة وكفالتها على أحسن الوجوه من تربيتها.

ولم بلغ أشده وصرف إليه رئيس الدولة يعقوب بن غمر وجه إقباله واختصاصه. فكان له منه مكان. أكسبه ترشيحاً للرئاسة فيما بعد من بين خواص السلطان وخلصائه.

ولما نهض السلطان أبو يحيى إلى إفريقية قلده قيادة بعض العساكر. ثم عقد له بعد مهلك ابن عمر على عمل باجة حين رقى ابن سيد الناس عنها إلى بجاية. وكان عمل باجة من أعظم الولايات في الدولة فاضطلع به. ثم لما أمر السلطان بطانته في نكية ابن سيد الناس دفعه لذلك. فولي القبض عليه وكمن له في عصابة من البطانة في بعض الحجر من رياض رأس الطابية. واستدعي ابن سيد الناس إلى السلطان ومر بمكانهم. فلما انتهى إليهم توثبوا به وشدوه كثافاً وتلوه إلى محبسه بالبرج المد لكثاف مثله بالقصبة.

وتولى ابن الحكيم من امتحانه وعذابه ما ذكرناه إلى أن هلك، وعقد له السلطان مكانه على الحرب والتدبير من خططه، وفرض إليه فيما وراء الحضرة كما قلناه.

وجعل تنفيذ الأمور والكتيب على الأوامر لابن عبد العزيز، فكان عدله في حمل الدولة، إلا أن ابن عبد الحكيم كان أسف فيه لما كان إليه من التدبير في الحرب والرئاسة على الكتابة، لرئاسة السيف على القلم فاضطلع برئاسته وأحسن الغناء والولاية إلى أن كان من خبره وخبر الدولة ما نذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس بن عزوز وأبي البقاء خالد على سوسة ثم إضافة المهدية إليهما

للدافعة العدو، وعقد على قسطنطينة للأمير أبي عبد الله ومعه أحمد بن ياسين. وخرجوا جميعاً من تونس سنة عشرين وسبعمائة ونزل كل بعمله. وقدم ظافر الكبير من الغرب فولاه السلطان حجابة ابنه بقسطنطينة وأنزله بها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين وسبعمائة على تيمز دكت كما ذكرناه، فجاء بحجابته من تونس أبو القاسم بن عبد العزيز الكاتب فأقام أربعين يوماً.

ثم رجع إلى الحضرة وأضاف السلطان حجابة قسطنطينة لابن سيد الناس إلى حجابة بجاية، وبعث إليها نائباً عنه مولاه هلال النازع إليه عن موسى بن علي قائد بني عبد الواد فقام بخدمة الأمير أبي عبد الله إلى أن كانت نكبة ابن سيد الناس عندما بلغ الأمير أبو عبد الله أشده وجرى في طلق استبداده ففوض له في عمله السلطان وأطلق من عنانه، وكان يؤامره في شأنه ويناجيه في خلوته.

وأنزل معه بقسطنطينة مولاه نبيلاً من المعلوجين يقيم له رسم الحجابة. ثم استدعى ظافر السنان من تونس سنة أربع وثلاثين وسبعمائة لقيادة الأعنة والحرب، فقدم لذلك وأقام سنة ونصفها. ثم رجع وقام نبيل بحجابته كما كان ودفع ليعيش بن... من صنائع الدولة لقيادة العساكر وحماية الأوطان فقامه لذلك مراسم الخدمة ورتب الدولة واستمرت حال الأمير أبي عبد الله على ذلك والأيام تزیده ظهوراً ومساعيه الملوكية تكسبه خلافاً وترشياً إلى أن اغتبط دون غايته وإعتاقه الأجل عن مداه، فهلك رضوان الله عليه آخر سبع وثلاثين وسبعمائة وقام بأمره من بعده كبير بنيه الأمير أبو زيد عبد الرحمن، فعقد له السلطان أبو بكر على عمل أبيه لنظر نبيل مولاهم لمكان صغره، واستمرت حالهم على ذلك إلى آخر الدولة، وكان من أمرهم ما ذكره بعد والله تعالى أعلم.

لما نكب السلطان حاجبه ابن سيد الناس، وولى محمد بن فرحون على حجابة ابنه الأمير أبي زكريا، وقارن ذلك ما نزل بيغمراسن من عدوهم وتفرغ السلطان للنظر في ملكه وتمهيد أحواله، وأن يرسي قواعد أعماله بنجباء أبنائه. فعقد على سوسة والبلاد الساحلية لولديه الأميرين عزوز وخالد شريكين في الأمر، وأنزلهما بسوسة، وأنزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الأندلس القادمين في الجالية، ورتاسة سلفهم بمرسية معروفة في أخبار الطوائف. وكان أخوه أبو القاسم صاحب الأشغال بالحضرة فأقاما كذلك. ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية ثقة باستبداد ابنه وأن يولي من شاء على حجابته وأنزل ابن فرحون مع هذين الأميرين لصغرهما سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. ثم استدعاه الأمير أبو زكريا فرجع إليه وأقام هذان الأميران بسوسة حتى إذا نكب السلطان قائده محمد بن الحكيم واستنزل قريبه محمد بن الرزك من المهدية كان أنزله بها ابن الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها من أهل رجيس، ويعرف بابن عبد الغفار واتخذها شحناً لنفسه، وأنزل بها قريبه هذا وأشحنها بالعدد والأقوات فلم يغن عنه. ولما هلك استنزل ابن الرزك وبعث السلطان عليهما ابنه الأمير أبا البقاء، وأفرد الأمير أبا فارس بولاية سوسة فأقاما كذلك إلى أن كان من خبر مهلكهما ما ذكره.

الخبر عن وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب قسطنطينة من الأبناء وولاية بنيه من بعده

كان الأمير أبو عبد الله مخصوصاً من أبيه من بين ولده بالآثرة والعناية قد صرف إليه إقباله وألقى عليه محبته لما كان يتوسم في شواهد من الترشيح، وما تحلى به من خلال الملك. وكان الناس يعرفون له حق ذلك؛ وذلك أن ابن عمر كان مستبداً بالثغور الغربية: ببجاية وقسطنطينة ومدافعاً عنها العدو من زناتة المطالبين لها. فلما هلك ابن عمر سنة تسع عشرة وسبعمائة كما قدمناه صرف السلطان نظره إلى ثغوره، فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي زكريا وعقد على حجابته لابن القالون وسرحه معه

الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم أجلاب بنيه على الحضرة وانهزامهم ومقتل معز وزيرهم وما قارن ذلك من الأحداث

لما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان وأعمالها، وقطع دابر آل زيان واجتث أصلهم وجمع كلمة زناتة على طاعته، واستبجهم غضباً تحت لوائه، ودانت القبائل بالانقياد له ورجفت القلوب لرعبه، وفود عليه حمزة بن عمر يرغب في ممالك إفريقية ويستحثه لها يدنه مع أبي تاشفين من قبله، فكف بالبأس من غلوائه،

وزجره عن خلافه على السلطان وشقاقه. ونهج له بالشفاعة سبيلاً إلى معاودة طاعته والعمل بمرضاته، فرجع حمزة إلى السلطان عائداً بجملة متوسلاً بشفاعة صاحبه راغباً بإذعانه، وقطع مصاد الخلفاء من العرب باستقامته فتلقتاه السلطان بالقبول وأسعاف الرغبة والجزاء على المناصحة والمخالصة. ولم يزل حمزة بن عمر من لادن رضى مولانا السلطان عنه وإقباله عليه صحيح الطاعة خالص الطوية نادياً بمظاهرة محمد بن الحكيم قائد حربه، وشهاب دولته على تدويخ إفريقية وتمهيد أعمالها وحسم أدواء الفساد منها.

وأخذ الصدقات من جميع طوائع البدو الناجعة في أقطارها، وجمع الطوائف المتعاصين بالثغور على إلقاء اليد للطاعة والكف عن أموال الجباية فكانت لهذا القائد آثار في ذلك مهدت من الدولة وأرغمت أنوف المتعاطين بالاستبداد في القاصية حتى استقام الأمر وانمحت آثار الشقاق فاستولى على المهديّة سنة سبع وثلاثين وسبعمئة وغلب عليها ابن عبد الغفار المتزّي بها من أهل رجبس واستولى على تبسة وتقبض على صاحبها محمد بن عبدون من مشيختها وأودعه سجن المهديّة إلى أن أطلق بعد نكته، ونازل توزر من بعد ذلك حتى استقام ابن يملول على طاعته المضعفة، واسترهن ولده، ونازل بسكرة غير مرة يدافعه يوسف بن منصور بن مزني بذمة عليه يدعيها من السلطان أبي بكر وسلفه. ويعطيه الجباية عن يد مع ما كان له من الاعتلاق بخدمة السلطان أبي الحسن فيتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه.

وزحف إلى بلاد ريغة فافتتح قاعدتها تقرت واستولى على أموالها وذخيرتها وسار إلى جبل أوراس فافتتح الكثير من معاقله. وعصفت ريح الدولة بأهل الخلاف من كل جانب وجاست عساكر السلطان خلال كل أرض. وفي أثناء ذلك هلك حمزة بن عمر سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة على يد أبي عون بن علي بن كبير أحد بطون بني كعب بطعنة طعنه غيلة فأشواه وقام بأمره من بعده بنوه، وكبرهم يومئذ عمر، وداخلتهم الظنة بأن قتله بإملاء الدولة فأعصروا وتدامروا واستجاشوا بأقنابهم أولاد مهلهل فجيئوا معهم وزحف إليهم ابن الحكيم في عساكر السلطان من زناتة والجند فقلوه واستلحموا كثيراً من وجوههم. ورجع إلى الحضرة فتحصن بها واتبعوه فتزلوا بساحتها سنة ثلاثين وسبعمئة وقاتلوا العساكر سبع ليال.

ثم اختلّفوا ونزل طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان على تفتية ذلك في جمادى من سته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سته.

ثم اختلّفوا ونزل طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان على تفتية ذلك في جمادى من سته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سته.

ثم اختلّفوا ونزل طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان على تفتية ذلك في جمادى من سته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سته.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز

وولاية أبي محمد بن تافراكين من بعده وما

كان على تفتية ذلك من نكبة ابن الحكيم

هذا الرجل اسمه أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الغساني وكنيته أبو القاسم، وأصل سلفه من الأندلس انتقلوا إلى مراکش واستخدموا بها للموحدين، واستقر أبوه إسماعيل بتونس، ونشأ أبو القاسم بها واستكتبه الحاجب ابن الدباغ، ولما دخل السلطان أبو البقاء خالد إلى تونس، ونكب ابن الدباغ لجأ ابن عبد العزيز إلى الحاجب ابن غمر، وخرج معه من تونس إلى قسطنطينة واستقر ظافر الكبير هنالك فاستخدمه إلى أن غرب إلى الأندلس كما قدمناه. ثم استعمله ابن غمر على الأشغال بقسطنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمئة فقام بها وتعلق بخدمة القالون بعد استبداد ابن عمر بيجاية. فلما وصل السلطان أبو بكر إلى تونس سنة ثمان عشرة وسبعمئة استقدمه القالون واستعمله على أشغال تونس. ثم كانت سعايته في القالون مع المزوار بن عبد العزيز إلى أن فر القالون سنة إحدى وعشرين وسبعمئة وولي الحجابة المزوار بن عبد العزيز، وكان أبو القاسم بن عبد العزيز هذا رديفاً لضعف أدواته.

ولما هلك ابن عبد العزيز المزوار بقي أبو القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم إلى أن قدم ابن سيد الناس من بجاية، وتقلد الحجابة كما قدمناه فقص بمكان ابن عبد العزيز هذا وأشخصه عن الحضرة وولاه أعمال الحامة ثم استقدم منها عندما ظهر عبد الواحد اللحياتي بجهات قابس فلحق بالسلطان في حركته إلى تيمرزكت، وأقام في جملة السلطان إلى أن نكب ابن سيد الناس، وولي الحجابة بالحضرة كما ذكرت ذلك كله من قبل إلى أن هلك

فاتح سنة أربع وأربعين وسبعمائة فعقد السلطان على حجابته لشيخ الموحدين أبي محمد عبد الله بن تافراكين.

وكان بنو تافراكين هؤلاء من بيوت الموحدين في تينملل ومن آيت الخمسين. وولي عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على فاس أول ما ملكها الموحدون سنة أربعين وخسمائة إلى أن فتحوا مراكش، فكان عبد المؤمن يستخلفه عليها أيام مغيبه على الإمارة والصلاة. ولما ثار بمراكش عبد العزيز وعيسى ابنا أومغار أخي الإمام المهدي سنة إحدى وخمسين كان أول ثورتهم أن اعترضوا عمر بن تافراكين عند ندائه للصلاة فقتلوه، وقضاهم الصبح فاستلحمهم العامة، ثم كان ابنه عبد الله بن عمر من بعده من رجالات الموحدين ومشيعتهم. ولما عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق أنزل معه عبد الله بن عمر بن تافراكين للمشورة مع جماعة من الموحدين كان منهم يوسف بن واتودين، وكان عبد الله المقدم فيهم وجاء ابنه عمر من بعده متقبلاً مذهبه مرموقاً بتجلته. ولما ولي السيد أبو سعيد بن عمر بن عبد المؤمن على إفريقية ولاه قابس وأعمالها إلى أن استنزله عنها يحيى بن غانية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ثم كان منهم بعد ذلك عظماء في الدولة وكبراء من المشيخة آخرهم عبد العزيز بن تافراكين، خالف الموحدين بمراكش لما نقضوا بيعة المأمون، فاغتالوه في طريقه إلى المسجد عند الأذان للصبح، بما كان محافظاً على شهود الجماعات. ورعاه له المأمون في أخيه عبد الحق وبنه أحمد ومحمد وعمر، فلما استلحم الموحدون وعمهم الجزع أرغمل عبد الحق مورياً بالحج ونزل على السلطان المستنصر فانزله بمكانه من الحضرة وسرحه بعض الأحياء إلى الحامة لحسم الداء فيها. وقد كان يوقع الخلاف من مشيختها فحسن غناؤه فيها، وقتل أهل الخلاف وحسم العلل، وولاه السلطان أبو إسحاق على بجاية بعد مقتل محمد بن أبي هلال فاضطلع بها. ولما ولي الداعي ابن عمارة سرحه في عسكر من الموحدين لقهز العرب وكف عدوانهم فأثنى فيهم ما شاء. ولم يزل معروفاً بالرياسة مرموقاً بالتجلة إلى أن هلك. وكان بنو أخيه عبد العزيز وهم: أحمد ومحمد وعمر جاؤوا على أثره من المغرب فنزلوا بالحضرة خير منزل، وغذاو بلبان النعمة والجاه فيها. وكان أحمد كبيرهم، وولاه السلطان أبو حفص على قفصة ثم على المهديّة، ثم استعفى من الولاية فأعفي.

وكان السلطان أبو عصيدة يستخلفه على الحضرة إذا أخرج منها على ما كان لأوليائه إلى أن هلك الأول المائة الثامنة سنة ثلاث. ونشأ ابنه أبو محمد عبد الله وأبو العباس أحمد في حجر

الدولة وجو عنايتها، وأصهر عبد الله منهما إلى أبي يعقوب بن يزدوتن شيخ الدولة في ابنته فعقد له عليها. وأصهر من بعده أخوه أحمد إلى أبي محمد بن يغمور في ابنته فعقد له أيضاً عليها، واستخلص أبو ضربة اللجاني كبيرهما أبا محمد عبد الله وأثره بصحبته، فلم يزل معه إلى أن كانت الواقعة عليه بمصوح، وتقبض على كثير من الموحدين فكان في جملتهم. ومن عليه السلطان أبو بكر ورقاه في رتب عنايته إلى أن ولاه الوزارة بعد الشيخ أبي محمد بن القاسم. ثم قدمه شيخاً على الموحدين بعد مهلك شيخهم أبي عمر بن عثمان سنة اثنتين وأربعين وبعثه إلى ملك المغرب مع ابنه الأمير أبي زكريا صاحب بجاية صريحاً على بني عبد الواد فجلى في خدمة السلطان وعرض سفارته. وتوجه للإشارة بعدها إليه. واختص بالسفارة إلى ملك المغرب سائر أيامه. وغص الحاجب ابن سيد الناس بمكانه، وهم بمكرهه فكبح السلطان عنانه عنه، ويقال إنه أفضى إليه بذات صدره من نكته. ولما انقسمت خطط الدولة من الحرب والتدبير وغالصة السلطان وتنفيذ أوامره بين ابن عبد العزيز الحاجب وابن الحكيم القائد. كان له هو القدح العلوي في المشورة والتدبير، وكانوا يرجعون إليه ويعولون على رأيه، وكان ثالث أئامهم ومصقلة آرائهم.

ولما هلك الحاجب ابن عبد العزيز، وكان السلطان قد أضمر نكبة ابن الحكيم، لما كان يعاطاه من الاستبداد ويحتجته من أموال السلطان، وأسر الحاجب ابن عبد العزيز إلى السلطان زعموا بين يدي مهلكه بالتحذير من ابن الحكيم وسوء دخلته، وأنه فاضله أيام نزول العرب عليه بساح تونس سنة اثنتين وأربعين كما قدمناه في الإدالة من السلطان ببعض الأعيان من بني أبي دبوس، كانوا معتقلين بالحضرة، ألقاها الغدر على لسانه ضجراً من تعود السلطان عن الخروج بنفسه إلى العرب وسأمه ما هو فيه من الحصار فاعتدها عليه ابن عبد العزيز حتى ألقاها إلى السلطان عند موته، وبرى منها إليه فاودعها إذناً وأعية وكان حتف ابن الحكيم فيها. ولما هلك ولي شيخ الموحدين أبو محمد بن تافراكين فاضله في نكبة ابن الحكيم، وكان يترصد به لما كان بينهما من المنافسة.

وكان ابن الحكيم غائباً عن الحضرة في تدوين القاصية، وقد نزل جبل أوراس واقتضى مغارمه وتوغل في أرض الزاب واستوفى جبايته من عامله يوسف بن منصور، وتقدم إلى ريغ ونازل تغرت وافتحها، وامتلأت أيدي عساكرهم من مكاسبهم وحليهم. واتصل به خبر مهلك ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين الحجابة فنكر ذلك لما كان يظن أن السلطان لا يعدل

وجد له العقد عليه أبوه. وتلك الكثير من نفزاوة.

ولما استيحت نقطة ونفزاوة سمت همته إلى ملك توزر جرتومة الشقاق وعش الخلاف والتفاق، وخشي مقدمها محمد بن يملول مغبة حاله فذهب إلى مصانعة قائد الدولة محمد بن الحكيم بذات صدره فتجافى عنه إلى أن كان مهلكهما في سنة واحدة، واضطرب أمر توزر وتواثب بنوه وإخوته وقتل بعضهم بعضاً. وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذ عليه الموائيق بالطاعة والجبابة، ومضى إلى توزر فملكها وطالبه الأمير أبو العباس صاحب ققصة وبلاد قسطنطية بالانقياد الذي عاهد عليه، فنازعه ما كان في نفسه من الاستبداد وصارت توزر لذلك شجاً معترضاً في صدر إمارته فخاطب أباه السلطان أبا بكر وأغراه به فنهض إليه سنة خمس وأربعين، وانتهى إلى ققصة وصار الخبر إلى أبي بكر ابن يملول رئيسها يومئذ فادركه الدهش وانفض من حوله الأولياء، وجاهر بطاعة السلطان ولقائه ففر عنه كاتبه وكاتب أبيه المستولي على أمره علي بن محمد التمودي المعروف الشهرة، ولحق ببسكرة في جوار يوسف بن مزني واتخذ السلطان السير إلى توزر فخرج إليه أبو بكر بن يملول وألقى إليه بيده وخلط نفسه بجملته.

ثم ندم على ما فرط من أمره وأحس بالتكراء من الدولة، وأئذ بالمملكة فلحق بالزباب ونزل على يوسف بن منصور ببسكرة فتلقاه من الترحيب والقرى بما تحدث به الناس، ولما استولى السلطان على توزر وانتظما في أعماله عقد عليها لابنه الأمير أبي العباس وأنزل بها وأمكنه من رمتها ورجع السلطان إلى الحضرة ظافراً عزيزاً، وتغلاً أيام ملكه إلى أن هلك على فراشه كما نذكر. واتصلت ممالك الأمير أبي العباس في بلاد الجريد وساور أبو بكر بن يملول توزر مراراً يقلت في كلها من المملكة إلى أن مات ببسكرة سنة سبع وأربعين قبيل مهلك ابن السلطان كما نذكر. وأقام الأمير أبو العباس بمحل إمارته ولم يزل يمهّد الأحوال ويستتزل الثوار. وكان ابن مكّي قد امتنع عليه بقابس، وكان من خبره أنه لما رجع عبد الملك من تونس مع عبد الواحد بن اللحياني الذي كان حاجباً له ذهب ابن اللحياني إلى المغرب وأقام هو بقابس. ثم استراب بمثل أمره مع السلطان حين ذهب ملك آل زيان فأوفد أخاه أحمد بن مكّي على السلطان أبي الحسن متنصلاً من ذنوبه متذعماً بشفاعته منه إلى السلطان أبي بكر فشفع له وأعاده السلطان إلى مكان رئاسته. واستقام هو على الطاعة ونكب عن سنن العصيان والفتنة.

وكان لأحمد بن مكّي حظ من الخلال والأدوات ونفس

بها عنه. وكان يرشح لها كاتبه أبا القاسم بن واران، ويرى أن ابن عبد العزيز قبله لم يتميز بها إثارةً عليه، فبدا له ما لم يحتسبه فظن الظنون ونعر ثم أصحب، وأغذ السير إلى الحضرة وقد واكب السلطان أبا محمد بن تافراكين في نكبته وأعد البطانة للقبض عليه. وقدم على الحضرة منتصف ربيع من سنة أربع وأربعين وجلس له السلطان جلوساً فخماً فعرض عليه هديته من المقربات والرقائق والأنعام، حتى إذا انفض المجلس وشيع السلطان وزراره وانتهى إلى بابهِ أشار إلى البطانة فلحقوا به وتلّوه إلى محبسه. ويسط عليه العذاب لاستخراج الأموال فأخرجها من مكان احتجازها وحصل منها في مودع السلطان أربعمئة ألف من الذهب العين ومثلها أو ما يقاربها قيمة من الجواهر والعقار إلى أن استصفى. ولما أمك عظمه ونفذ ماله خنق بمحبسه في رجب من سنة وذهب مثلاً في الأيام. وغرب ولده مع أمه إلى المشرق، وطرح بهم الاغتراب إلى أن هلك منهم من هلك، وراجع الحضرة علي وعبيد منهم في آخرين من أصاغرهم بعد أيام وأحوال والله يحكم لا معقب لحكمه.

الخبر عن شأن الجريد واستكمال فتحه

ولاية ابنه أبي العباس عليه وولاية صاحب

قابس أحمد بن مكّي على جزيرة جربة

كان أمر الجريد قد صار إلى الشورى منذ شغلت الدولة بمطالبة زناتة بني عبد الواد وما نالها لذلك من الاضطراب، واستبد مشيخة كل بلد بأمرة، ثم انفرد واحد منهم بالرئاسة، وكان محمد بن يملول من مشيخة توزر هو القائم فيها والمستبد بأمرها كما سنذكره. ولما فرغت الدولة إلى الاستبداد وأرهف السلطان حده للثوار وعفى على آثار المشيخة بققصة وعقد لابنه الأمير أبي العباس على قسطنطية. ونزل بققصة فأقام بها مهجداً لإمارته، ومردداً بعونه إلى البلاد اختياراً لما يظهرون من طاعته. وزحف حاجبه أبو القاسم بن عتو بالساكر إلى نقطة ابتلاء لطاعة رؤسائها بني مدافع المعروفين ببني الخلف، وكانوا إخوة أربعة استبدوا برئاستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب، ولاذوا بجدران الحصون التي ظنوا أنها مانعهم وتبرأت منهم الرعايا فادركهم الدهش، وسألوا النزول على حكم السلطان فجنّبوا إلى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين، وأفلت السيف عليّاً صغيرهم لنزوعه إلى العسكر قبل الحادثة، فكانت له ذمة واقية من الهلكة. فانتظم الأمير أبو العباس بلد نقطة في مملكته

فدفن بها وجاهر سحيم بالخلاف، وخرج إلى الرمال فلم يزل كذلك إلى حين مهلك السلطان كما نذكره.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأنباء وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الأمير أبي حفص وولاية ابنه الأمير أبي عبد الله

كان السلطان أبو بكر لما هلك الحاجب ابن غمر عقد على بجاية لابنه الأمير أبي زكريا كبير ولده، وأنفذه إليها مع حاجبه محمد بن القالون كما ذكرناه وجعل أموره تحت نظره. ثم رجع القالون إلى تونس فأنزله معه ابن سيد الناس كذلك، فلما استبد سيد الناس ببجاية الحضرة جعل على حجابته أبا عبد الله بن فرحون. ثم لما تقبض على ابن سيد الناس وعلي ابن فرحون وقد استبد الأمير أبو زكريا بأمره، وقام على نفسه فوض إليه السلطان الأمر في بجاية وبعث إليه ظافراً السنان مولى أبيه الأمير أبي زكريا الأوسط قائداً على عسكره. والكاتب أبا إسحاق بن غلان متصرفاً في حجابته فأقاما بيباه مدة ثم صرفهما إلى الحضرة، وقدم لحجابته أبا العباس أحمد بن أبي زكريا الرندي، كان أبوه من أهل العلم وكان يتحلل مذهب الصوفية الغلاة، ويطالع كتب عبد الحق بن سبعين. ونشأ أحمد هذا ببجاية واتصل بخدمة السلطان وترقى في الرتب إلى أن استعمله الأمير أبو زكريا كما قلناه. ثم هلك وقد أنف السلطان أبو بكر من انتزاع هؤلاء السوقة على حجابته ابنه فأنفذ لها من حضرته كبير الموحدين يومئذ صاحب السفارة أبا محمد بن تافراكين سني أربعين وسبعمائة فأقام أحوال ملكه، وعظم أبهة سلطانه، وجهز العساكر لسفره وأخرجه إلى أعماله فطاف عليها وتفقدتها، وانتهى إلى تخومها من المسيلة ومقرة. ولم يستكمل الحول حتى سخطه مشيخة من أهل بجاية لما نكروا من الأبهة والحجاب حتى استغلظ عليهم باب السلطان، وتولى كبير ذلك القاضي ابن أبي يوسف تعتاً وسلالاً، واستعفى هو من ذلك فأعفى وعاد إلى مكانه بالحضرة.

ثم استقدم الأمير أبو زكريا حاجبه الأول بعهد ابن سيد الناس، وهو أبو عبد الله محمد بن فرحون، وقد كان السلطان بعثه في غرض الرسالة إلى ملك المغرب في الأسطول الذي بعثه مدداً للمسلمين عند إجازة السلطان أبي الحسن إلى طريف. وكان أخوه زيد بن فرحون قائد ذلك الأسطول بما كان قائد البحر ببجاية،

مشغوفة بالرتاسة والسرو، وكان يقرض الشعر فيجيد ويرسل فيحسن، وكان خط كتابته أنيقاً ينحو به منحى الخط الشرقي شأن أهل الجريد فيمتنع ما شاء، فكانت لذلك كله في نفس الأمير أبي العباس صاغية إليه. وكان هو مستريباً بالمخالطة لما شاء من آثاره السالفة. ولم يزل الأمير أبو العباس يقتل له في الذروة والغارب إلى أن جمعه مجلس السيدة أمة الواحدة أخت مولانا السلطان قافلة من حجها فمسح ما كان بصدره، وأحكم له عقد خالصته واصطنعه لنفسه، فحل من إمارته بكان غبطة واعتزاز. وعقد له السلطان على جزيرة جربة، واستضافها إلى عمله وأنزل عنها غلوف بن الكمام من صنائعه كان افتتحها سنة ثمان وثمانين وعقد له السلطان عليها ونزلها أحمد بن مكسي. واستقل عبد الملك أخوه برئاسة قابس فقاما على ذلك وجردا عزائمهما في ولاية أبي العباس صاحب أعمال الجريد فلم يزالوا كذلك إلى أن كان من أمر الجمع ما نذكره.

الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين

كان السلطان أبو بكر عند نكته لقائده ابن الحكيم استعمل على حجابته شيخ الموحدين أبا محمد بن تافراكين كما ذكرناه، وفوض إليه فيما وراء بابه وعقد على الوزارة لأخيه أبي العباس أحمد، وكان أبو محمد جلس بالبان لكان الحجابة فدفن إلى الحرب وقود العساكر، وإمارة الضاحية أخاه أبا العباس فقام بما دفع إليه من ذلك. وكان بنو سليم يعد مهلك حمزة بن عمر تقموا ما كان عليه من الإذعان وسموا إلى الخلاف والعناد، فكان من أبناء حمزة في ذلك من الأجلاب على الحضرة ما ذكرناه، وكان سحيم ابن من أولاد القوس بن حكيم بهمة غوار ومارد وخلاف وعناد، وكان السلطان قد ولي على حجابته ابنه الأمير أبي العباس في أعمال الجريد أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وكان يناهض بني تافراكين بزعمه في الشرف، وينفس عليهم ما آتاهم الله من الرتبة والخط، فلما ولي أبو محمد الحجابة ملئ منه حسداً وحفيظة، وداخل فيما زعموا سحيماً هذا الغوي في النيل من أبي العباس بن تافراكين صاحب العساكر وشارطه على ذلك بما آداه إليه وتكاغوا أمرهم. وخرج أبو العباس بن تافراكين فاتح سنة سبع في العساكر لبجاية هواره فوفد عليه سحيم هذا وقومه وضايقوه في الطلب. ثم انتهزوا الفرصة بعض الأيام وأجلبوا عليه، فانقض معسكره وكبأ به فرسه فقتل وحمل شلوه إلى الحضرة

نفوسهم وأنسوا بولاية ابن مولاهم، وجاءت الأمور إلى مصابرها كما نذكره.

الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر ولاية ابنه الأمير أبي حفص

بينما الناس في غفلة من الدهر وظل ظليل من العيش وأمن من الخطوب تحت سراق من العز وذمة وافية من العدل، إذ ريع بالسرب وتكرر الشرب وتقلصت ظلال العز والأمن، وتعتدل فناء الملك ونعي السلطان أبو بكر بتونس فجأة من جوف الليل ليلة الأربعاء ثاني رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمئة، فهب الناس من مضاجعهم متسايين إلى القصر يستمعون نبأ النعي وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى. ويادر الأمير أبو حفص عمر ابن السلطان من داره إلى القصر فملكه وضبط أبوابه واستدعى الحاجب أبا محمد بن تافراكين من داره، ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي وطبقات الجند، وأخذ الحاجب عليهم البيعة للأمير أبي حفص. ثم جلس من الغداة جلوساً فخماً على الترتيب المعروف في الدولة أحكمه الحاجب أبو محمد لمعرفته بعوائدها وقوانين تربيها، تلقنه عن أشيائه أهل الدولة من الموحدين، وغدا عليه الكافة في طبقاتهم فبايعوا له وأعطوه صفقة أيمانهم. وانفض المجلس وقد انعقدت بيعته وأحكمت خلافته.

وكان الأمير خالد ابن مولانا السلطان مقيماً بالحضرة قدمها سائراً منذ أشهر وأقام متملياً من الزيارة، فلما سمع النعي فر من ليلته، وتقبض عليه أولاد منديل من الكموب وردوه إلى الحضرة فاعتقل بها. وقام أبو محمد بن تافراكين بخطة الحجابة كما كان وزيادة تفويض واستبداد إلا أن بطانة السلطان كانوا يكثرون السعاية فيه ويوغرون صدره عليه. يذكرون منافسات ومناقشات سابقة بين الحاجب والأمير أيام أبيه، واتصل ذلك منهم غصاً بمكانه، وأئذ الحاجب بذلك منهم فأعمل الحيلة في الخلاص من صاحبهم كما نذكر بعد.

فلما رجع ابن عبد الله بن فرحون من سفارته تلك أذن له في المقام عند الأمير أبي زكريا واستعمله على حجابته إلى أن هلك فولي من بعده في تلك الخطة ابن القشاش من صنائع دولته. ثم عزله وولى عليها أبا القاسم بن علناس من طبقة الكتاب، اتصل بدار هذا الأمير وترقى في ديوانه إلى أن ولاه خطة الحجابة. ثم عزله بعلي بن محمد بن المنت الحضرمي. كان أبوه وعمه قدما على جالية الأندلس وكانا يتحلان القراءات.

وأخذ أهل بجاية عن عمه أبي الحسن علم القراءات، وكان طموحاً للرياسة واتصل بمخطة كانت للمولى أبي زكريا تسمى أم الحكم قد غلبت على هواه، فرسخت على ابن المنت هذا بخطة الحجابة واستعمله فيها فقام بها وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره، وجهاز له العساكر وجال في نواحي أعماله.

وهلك هذا الأمير في إحدى سفاراته وهو على حجابته بتكرارات من أعمال بجاية من مرض كان أزم من به في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وسبعمئة، وكان ابنه الأمير أبو عبد الله في حجر مولاه فارح من معلوجي بن سيد الناس. وكان اصطنمه فالفاه قابلاً للترشيح فأقام مع ابن مولاه ينتظر أمر الخليفة، ويادر حاجبه الأول أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة وأئى الخبر إلى الخليفة فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي حفص كان معه الحضرة، وهو من أصاغر ولده، وأنفذه إليها مع رجاله وأولي اختصاصه.

وخرج معه أبو القاسم بن علناس فوصل إلى بجاية ودخلها على حين غفلة. وحمله الأوغاد من البطانة على إرهاب الحد وإظهار السطو فخشى الناس البوادر واتسمروا. ثم كانت في بعض الأيام هيئة تمالأ فيها الكافة على التوثب بالأمير القادم فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بإمارة ابن مولاهم. ثم تسوروا جدرانها واقتحموا داره وملكوا عليه أمره وأخرجوه برمته بعد أن انتهبوا جميع موجوده، وتسابلوا إلى دار الأمير أبي عبد الله محمد ابن أميرهم ومولاهم بعد أن كان معتمراً على التفويض عنهم والحقا بالخليفة جده. وأذن له في ذلك عمه الأمير القادم فبايعوه بداره من البلد. ثم نقلوه من الغد إلى قصره بالقصبة وملكوه أمرهم. وقام بأمره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة واستمر حالهم على ذلك. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة آخر جمادى الأولى من سنة لشهر من يوم ولايته إلى أن كان من شأنه بعد مهلك مولانا السلطان ما نذكره. وتدارك السلطان أمر بجاية وبعث إليهم أبا عبد الله بن سليمان من كبراء الصالحين من مشيخة الموحدين يسكنهم ويؤنسهم، وبعث معهم كتاب العقد عليها لحافده الأمير أبي عبد الله محمد بن الأمير أبا زكرياه ذهاباً مع مرضاتهم فسكنت

الخبر عن زحف الأمير أبي العباس ولي العهد من مكان إمارته بالجريد إلى الحضرة وما كان من مقتله ومقتل أخويه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد

كان السلطان أبو بكر قد عهد إلى ابنه الأمير أبي العباس صاحب أعمال الجريد كما ذكرناه سنة ثلاث وأربعين وسبعمئة، فلما بلغه خبر مهلك أبيه وما كان من بيعة أخيه، نعى على أهل الحضرة ما جاؤوا به من نقض عهده. ودعا العرب إلى مظاهرة أمره، فاجابوه ونزعوا جميعاً إلى طاعته عن طاعة أخيه بما كان مرهفاً لحده في الاستبداد والضرب على أيدي أهل الدولة من العرب وسواهم، وزحف إلى الحضرة ولقيه أخوه أبو فارس صاحب عمل سوسة لقيه بالقيروان فاتاه طاعته وصار في جملة، وجمع السلطان أبو حفص عمر جموعه واستركب واستلحق وأزاح العلل، وأخرج غرة شعبان وارتحل عن تونس، وحاجبه أبو محمد بن تافراكين قد نذر منه بالملكة، واعتمل في أسباب النجاة، حتى إذا تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل وركب الليل ناجياً من المغرب. وبلغ خبر مفره إلى السلطان فأجفل واختل مصافه، وتحيز إلى باجة فتلوم بها وتختلف عنه أهل المعسكر فلحقوا بالأمير أبي العباس، وملك الحضرة ثامن رمضان ونزل برياض رأس الطاية وأطلق أخاه أبا البقاء من معتقله.

ثم دخل إلى قصره لسبع ليال من ملكه وصبحه الأمير أبو حفص ثامنها فافتحم عليه البلد لصاغية كانت له في قلوب الغوغاء من غشيانه أسارهم وطروقه منازلهم أيام جنون الشباب وقضاء لذاته في مرياه. وقتك بأخيه الأمير أبي العباس. ولسرعان ما نصب رأسه على القنائة، وداست شلوه سنابك المعسكر، وأصبح آية للمعتبرين. وثارَت العامة بمن كان بالبلد من وجوه العرب ورجالهم فقتلوا في تلك الهيعة من كتب عليه القتل. وتلوا كثيراً منهم إلى السلطان فاعتقلهم، وقتل أبا الهول بن حمزة بن عمر بن بينهم، وتقبض على أخويه خالد وعزوز، فأمر بقطعهم من خلاف فقطعوا وكان فيه مهلكهم. واستوسق ملكه بالحضرة واستعمل على حاجبته أبا العباس أحمد بن علي بن رزين من طبقة الكتاب، كان كاتباً للشخصي الحاجب وبعده للقائد ظافر الكبير. واتصل بالسلطان أبي بكر لأول ملكه بالحضرة فأسف علي بن عمر بولاية ابن القالون الحاجب فخاطب السلطان فيه ونكبه. ثم أطلق من محبسه ومضى إلى المغرب ونزل على السلطان

أبي سعيد فأحمد نزله، ثم رجع إلى الحضرة ولم يزل مشنوءاً أيام السلطان. كلها، واستكتب الأمير أبو حفص ولده محمداً وكانت له به وصلة، فلما استوسق له الملك بعد مفر أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه، ولي أباه أبا العباس هذا على حاجبته، وعقد على حربه وعساكره لظافر مولى أبيه وجده المعروف بالسنان، واستخلص لنجواه وسره كاتبه أبا عبد الله محمد بن الفضل بن من طبقة الفقهاء ومن أهل البيوت النابذة بتونس، كان له بها سلف مذكور، واتصل بدار السلطان وارتسم بها مكتباً لولده. وقرأ عليه هذا الأمير أبو حفص فيمن قرأ عليه منهم فكانت له من أجل ذلك خصوصية به ومزيد عناية عنده. ولما استبد بأمره كان هو مستبداً بشوراه، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن على إفريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الأبناء من بجاية وقسطنطينية إلى المغرب وما تخلل ذلك من الأحداث

كان السلطان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك إفريقية، ويتربص بالسلطان أبي بكر ويسر له حسواً في ارتقاء، فلما لحق به حاجبه أبو محمد بن تافراكين بعد مهلكه رغبه في سلطانه واستحثه بالقدوم عليها، وجدد له الحوار فتنبهت لذلك عزائمته. ثم وصل الخبر بمهلك ولي العهد وأخويه وخبر الواقعة، فأحفظه لذلك بما كان من رضاه بعهدده، وخطة بالوفاق على ذلك بيده في سجله. وذلك أن حاجب الأمير أبي العباس وهو أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين كان سفر عن السلطان لآخر أيامه إلى السلطان أبي الحسن بهدية. وحمل سجل العهد فوقف عليه السلطان أبو الحسن، وسأل منه أمضاء لمولاه وكتب ذلك بخطه في سجله، فخطه بيمينه وأحكم له عقده. فلما بلغه مهلك ولي العهد تعلل بأن النقض أتى على ما أحكمه فأجمع غزو إفريقية ومن بها، فعسكر بظاهر تلمسان، وفرق الأعطيات، وأزاح العلل. ثم رحل في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمئة يجر الدنيا بما حملت. وأوفد عليه أبناء حمزة بن عمر أمراء البدو بإفريقية، ورجالات الكموب أخاهم خالداً يستصرخه لئلا أخيه أبي الهول المالك يوم الواقعة فاجلبهم.

ونزع إليهم أيضاً أهل القاصية بإفريقية بطاعتهم فجاءوا في

وفد واحد: ابن مكي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب ققصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نقطة، فلقوه بوهران وآتوه ببعثهم رغبة ورهبة. وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس، ولم يتخلف عنهم إلا من بعد داره. ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور بن مزني ومعه مشيخة الموحدين الدواودة، وكبيرهم يعقوب بن علي فلقيه بنو حسن من أعمال بجاية فأوسع الكل حياءً وكرامةً، وأسنى الصلات والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله. وبعث مع أهل الجزائر الولاية للجباية لنظر مسعود بن إبراهيم البرنياني من طبقة وزرائه، وأغذ السير إلى بجاية، فلما أطلت عساكره عليها توامر أهلها في الامتناع، ثم أنابوا وخرج أميرها أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي زكريا فأتاه طاعته، وصرفه إلى المغرب مع إخوانه، وأنزله ببلد ندرومة. وأقطع له الكفاف من جبايتها وبعث على بجاية عماله وخلفاءه. وسار إلى قسنطينة فخرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد وآتوه طاعتهم، وأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعماله، وأطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها، وفيهم أبو عبد الله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه، ومحمد ابن الأمير خالد وإخوانه وبنوه، وأصارهم في جملة حتى صرفهم إلى الغرب من الحضرة من بعد ذلك.

وفد عليه هنالك بنو حمزة بن عمر ومشايخ قومهم الكعوب فأخبروه بإجفال المولى أبي حفص من تونس مع طوائف أولاد مهلهل، واستحثوه باعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر، وسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو العشري من مواليه، وسرح عسكراً آخراً إلى تونس لنظر يحيى بن سلسمان من بني عسكر ومعه أبو العباس بن مكي، وسارت العساكر لطلب الأمير أبي حفص فآذركوه بأرض الحامة من جهات قابس، وصحبوهم فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء، ثم أنفضوا وكبا بالأمير أبي حفص جواده في بعض ناقاء الجرايع، وانجلت الغيايات عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما، وأوثقهما قائد الكتائب بيده، حتى إذا جن الليل وتوقع أن يفلتهما العرب من أساره قبل أن يصل بهما إلى مولاه فذبحهما، وبعث برؤوسهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجة.

وخلص الفل من الواقعة إلى قابس، فتقبض عبد الملك بن مكي على رجاله من أهل الدولة، كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش

الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل على بونة وأولية ذلك ومصائره

كان السلطان أبو الحسن قد أصهر إلى السلطان أبي بكر قبيل مهلكه في إحدى كرائمه، وأوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بني سويد من زغبة وصاحب شوره وخالصة سره مع وفد من رجالات دولته من طبقات الفقهاء والكتاب والموالي كان فيهم صاحب الفتيا بمجلسه أبو عبد الله السطي وكاتب دولته أبو الفضل بن عبد الله بن أبي مدين وأمير الحرم عنبر الخصي، فأسعف السلطان وعقد له على حظيته عزونة شقة ابنه الفضل وزفها إليه بين يدي مهلكه مع أخيها الفضل، ومعه أبو محمد عبد الواحد بن أكماز من مشيخة الموحدين، وأدركهم الخبر بمهلك السلطان في طريقهم. فلما قدموا على السلطان أبي الحسن تقبلهم بقبول حسن، ورفع مجلس الفضل، ولما استتب له ملكها أعرض له عن ذلك، إلا أنه رعى له ذمة الصهر وسابقة الوعد فأقنعه بالعقد على بونة مكان عمله منذ أيام أبيه، وأنزله بها عندما رحل عنها إلى تونس. واضطغن المولى الفضل من ذلك حقداً لما كان يرجوه من تجافيه له عن ملك آبائه، ولحق وفادته وصهره وأقام بمكان عمله منها يؤمل الكرة إلى أن كان من أمره ما نذكره والله أعلم.

وخلص الفل من الواقعة إلى قابس، فتقبض عبد الملك بن مكي على رجاله من أهل الدولة، كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش

الخبر عن بيعة العرب لابن أبي دبوس وواقعته مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما قارن ذلك كله من الأحداث

كان السلطان أبو الحسن لما استوصق له ملك إفريقية أسف العرب بمنعهم من الأمصار التي ملكوها بالإقطاعات، والضرب على أيديهم في الأتاوات، فوجسوا لذلك، واستكانوا لغلبيته، وتربصوا الدوائر. وربما كان بعض البادية يشن الغارات في الأطراف فيعتدها السلطان من كبائرهم. وأغاروا بعض الأيام في ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مراعيها، وأظلم الجو بينهم وبينه، وخشوا عاديته وتوقعوا بأسه. ووجد عليه أيام القطر من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد من بني كعب وخليفة بن عبد الله بن مسكين، وخليفة بن بوزيد من رجالات حكيم.

وساء طنونهم في السلطان لسوء أفعالهم فدخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان. وكان من خبر عبد الواحد هذا أنه بعد إجماله من تونس سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة كما ذكرناه حتى بأبي تاشفين فأقام عنده في مبرة وتكرمة. ولما أخذ السلطان أبو الحسن بمخنق تلمسان واشتد حصارها سال عبد الواحد من أبي تاشفين تخليته للخروج فودعه وخرج إلى السلطان أبي الحسن فنزل عليه. ولم يزل في جملة إلى أن احتل بإفريقية.

فلما خشن ما بينه وبين الكعوب والتمسوا الأعياص من بني أبي حفص ينصبونهم للأمر رجوا أن يظفروا من عبد الواحد بالبيعة فدخلوه وارتاب لذلك، وخشي بادرة السلطان فرفع إليه الخبر، فتقبض السلطان عليهم أربعتهم بعد أن أحضرهم معه فأنكروا وبهتوا. ثم وبخهم واعتقلهم، وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم، وتلوم لبعث الأعطيات وإزاحة العلل، وبلغ الخبر إلى أحيائهم فقطع اليأس أسباب رجائهم. وانطلقوا يجزبون الأحزاب ويلتمسون للملك الأعياص. وكان أولاد مهلهل أقباهم وعديلة حملهم قد أباسهم السلطان من القبول والرضا بما بالغوا في نصيحة المولى أبي حفص ومظاهرته فلحقوا بالقفر، ودخلوا الرمال فركب إليهم قتيبة بن حمزة وأمهم ومعهم ظواغن أبناهما متذممين لأولاد مهلهل بالعصية والقرابة، فأجابوهم واجتمعوا بقسطيلية وتواهبوا التراث والدماء، وتذامروا بما شملهم من رعب السلطان، وتوقع بأسه. وتفقّدوا من أعياص الموحدين من ينصبونه للأمر، وكان بتوزر أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش وقد ذكرنا خبره وخروجه بجهات طرابلس وأجلابه مع

العرب على تونس أيام السلطان أبي عسيمة. ثم انفصوا وبقي عثمان بجهات قابس وطرابلس إلى أن هلك بجزيرة جربة، واستقر بنو ابنه عبد السلام بالحضرة بعد حين فاعتقلوا بها أيام السلطان أبي بكر. ثم غربهم إلى الإسكندرية مع أولاد ابن الحكيم عند نكبته كما ذكرنا ذلك كله، فنزلوا بالإسكندرية وأقبلوا على الحرف لمعاشهم. ورجع أحمد هذا من بينهم إلى المغرب واستقر بتوزر واحترق بالحياطة. ولما تفقد العرب الأعياص دلم على نكرته بعض أهل عرفانه فانطلقوا إليه وجاؤوا به، وجمعوا له الآلة، ونصبوه للأمر وتبايعوا على الاستماتة. وزحف إليهم السلطان في عساكره من تونس أيام الحج من سنة ثمان، ولقيهم بالثنية دون القيروان فغلبهم وأجفلوا أمامه إلى القيروان. ثم تدامروا ورجعوا مستميتين ثاني محرم سنة تسع، فاختلف مصافه ودخل القيروان واتهبوا معسكره بما يشتمل عليه وأخذوا بمخنقة إلى أن اختلفوا فأخرجوا عنه وخلص إلى تونس كما نذكر والله تعالى أعلم.

الخبر عن حصار القصة بتونس ثم الإفراج عن القيروان وغنها وما تخلل ذلك

كان الشيخ أبو محمد بن تافراكين أيام حجابته للسلطان أبي بكر مستبداً بأمره مفوضاً إليه في سائر شؤونه، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على مألوفه لما كان قائماً على أمره وليس التفويض للوزراء من شأنه. وكان يظن أن السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر إفريقية وينصب معه الفضل للملك. وربما زعموا أنه عاهد على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض، وكان العرب يفاضونه بذات صدورهم من الخلاف والإجلاب، فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان أبي الحسن وعساكره وأحاطوا به في القيروان تحيل ابن تافراكين في الخروج على السلطان لما تبين فيه من النكر منه ومن قومه. وبعث العرب في لقائه وأن يحملوه حديث فينهم إلى الطاعة فأذن له وخرج إليهم وقلده حجابة سلطانتهم، ثم مسرحه إلى حصار القصة. وكان السلطان عند رحيله من تونس خلف بها الكثير من حرمه وأبنائه ووجه قومه. فلما كانت واقعة القيروان واتصل الخبر بتونس كانت لبناته هيعة خشي عليها عسكر السلطان على أنفسهم فلجأ من كان معهم من تونس إلى قصبتها، وأحاط بهم الغوصاء فامتنعت عليهم واتخذوا الآلة للحصار، وفرقوا الأموال في الرجال، وعظم فيها غناء بشر من المعلوجين الموالي فطار له ذكر. وكان الأمير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب

الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على

قسطنطينية وبجاية ثم استيلاء أمرائهما

عليهما

كان سنن السلطان أبي الحسن في دولته بالمغرب وفود العمال عليه آخر كل سنة لإيراد جبايتهم والحاسبة على أعمالهم، فوفدوا عليه عامهم ذلك من قاصية المغرب ووافاهم خبر الواقعة بقسطنطينية وكان معهم ابن مزني عامل الزاب وفد أيضاً بجبايته وهديته، وكان معهم أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن كان أسيراً من يوم واقعة طريف. ووقعت المهادنة بين الطاغية وبين أبيه فأطلقه وأوفد معه جمعاً من بطارقه وقدموا معه على أبيه وفد معه أخوه عبد الله من المغرب وكان أيضاً معهم وفد السودان من أهل مالي في غرض السفارة، واجتمعوا كلهم بقسطنطينية، فلما اتصل بهم خبر الواقعة على السلطان كثر الاضطراب، وتجلبت السفاه من الغرغراء إلى ما بأيديهم وخشي الملا من أهل البلد على أنفسهم فاستدعوا أبا العباس الفضل من عمله ببونة. ولما أطل على قسطنطينية ثارت العامة بمن كان هنالك من الوفود والعمال واتهبوا أموالهم واستلحموا منهم، وخلص أبناء السلطان مع وفود السودان والجلالة إلى بسكرة مع ابن مزني، وفي حفارة يعقوب بن علي أمير الدواودة فأوسعهم ابن مزني قرى وتكرمة إلى أن لحقوا بالسلطان أبي الحسن بتونس في رجب من سنة تسع.

ودخل المولى الفضل إلى قسطنطينية وأعاد ما ذهب من سلطان قومه. وشمل الناس بعدله وإحسانه، وسوغ الأقطاع والجوازات ورحل إلى بجاية لما آتس من صاغية أهلها إلى الدعوة الحفصية. فلما أطل عليها ثار أهلها بالعمال الذين كان السلطان أنزلهم بها واستباحوهم وأفلتوا من أيدي نكبتهم بجريرة الذن ودخل الفضل إلى بجاية واستولى على كرسي ملكها. ونظّمها مع قسطنطينية وبونة في ملكه. وأعاد القباب الخلافة ورسومها وشيائنها كما كانت، واعتزم على الرحيل إلى الحضرة. وبينما هو يحدث نفسه بذلك إذ وصل الخبر بقدم أمراء بجاية وقسطنطينية من المغرب، وكان من خبرها أن الأمير أبا عتار لما بلغه خبر الواقعة بأبيه وانتزاع منصور ابن أخيه أبي مالك بالبلد الجديد دار ملكهم، وأحسن بخلاف أبيه من هوة الحصار بالقيروان وثب على الأمر ودعا لنفسه، ورحل إلى المغرب كما نذكره في أخباره. وسرح الأمير أبا عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأبناء إلى عمله. وأمد بالأموال وأخذ عليه المواريث ليكون له

فوافاه الخبر دوين القيروان، فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم بالقصبة.

ولما خرج ابن تافراكين من هوة الحصار بالقيروان إليهم طمعوا في الاستيلاء على قصبة تونس وفض ختامها، فدفعوه إلى ذلك. ثم لحق به سلطانه ابن أبي دبوس وعانى من ذلك ابن تافراكين صعباً لكثرة الرجال الذين كانوا بها، ونصبوا المجانيق عليها فلم يغن شيئاً، وهو أثناء ذلك يحاول النجاء بنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان من القيروان إلى سوسة.

وكان من خبره أن العرب بعد إيقاعهم بعساكره أحاطوا بالقيروان واشتدوا في حصارها، ودخل السلطان أولاد مهلهل من الكعوب وحكيماً من بني سليم في الإفراج عنه، واشترط لهم على ذلك الأموال واختلف رأي العرب لذلك، ودخل عليه فتية بن حمزة بمكانه من القيروان زعماً بالطاعة فتقبله وأطلق أخوه خالداً وأحمد، ولم يبق إليهم.

ثم دخل إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن بو زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وأسرى معهم بعسكره إلى سوسة فصبّحها وركب منها في أساطيله إلى تونس، وسبق الخبر إلى ابن تافراكين بتونس فتسلل من أصحابه وركب السفين إلى الإسكندرية في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمئة.

وأصبحوا وقد تفقدوه فاضطربوا وأجفلوا عن تونس، وخرج أهل القصبة من أولياء السلطان فملكوها وخربوا منازل الحاشية فيها. ونزل السلطان بها من أسطوله في ربيع الآخر فاستقلت قدمه من العثار، ورجا الكرة لولا ما قطع أسبابها عنه مما كان من انتزاع أبنائه بالمغرب على ما نذكره في أخبارهم. وأجلب العرب وابن أبي دبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنعت عليهم فرجعوا إلى مهادنته فعقد لهم السلم، ودخل حمزة بن عمر إليه وأفاد فحبسه إلى أن تقبض على ابن أبي دبوس وأمكنه منه فلم يزل في حبسه إلى أن رحل إلى المغرب، ولحق هو بالأندلس كما نذكره في أخباره، وأقام السلطان بتونس، وفد عليه أحمد بن مكّي فعقد لعبد الواحد بن اللحياني على الثغور الشرقية طرابلس وقابس وصفاس وجربة وسرحه مع ابن مكّي فهلك عند وصوله إليها في الطاعون الجارف، وعقد لأبي القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وهو الذي كان قطعه بإغراء أبي محمد بن تافراكين، فلما ظهر خلافه أعاد ابن عتو إلى مكانه، وعقد له على بلاد قسطنطينية وسرحه إليها وأقام هو بتونس إلى أن كان ما نذكره.

رداء دون أبيه، وليحول بينه وبين الخلوص إليه متى مر به.

وانطلق أبو عبد الله إلى بجاية وقد سبقه إليها عمه الفضل واستولى عليها فنازله بها وطال حصارها، ولحق به بمكانه من منازلها نبيل المولى من العلوجي مع أبناء الأمير أبي عبد الله وكافل بنه من بعده. وتقدم إلى قسطنطينية وبها عامل من قبل الفضل، فثار به الناس لحينه، ودخل نبيل وملك البلد وأقام فيها دعوة الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي عبد الله. وكان الأمير أبو عنان استصحبه وإخوانه إلى المغرب، وبعد احتلاله بفاس سرحهم إلى مكان إمارتهم بقسطنطينية بعد أن أخذ عليهم الموثق في شأن أبيه يمثل موثق ابن عمهم فجاءوا على أثر نبيل مولاهم ودخلوا البلد واحتل أبو زيد منها مكان إمارته وسلطان قومه كما قبل رحلتهم إلى المغرب.

ولم يزل الأمير أبو عبد الله ينازل بجاية إلى أن بيته بعض ليالي رمضان من سنته بمداخلة بعض الأشياع من زعانفتها داخلهم مولاه وكافله فارح في ذلك، فسرب فيهم الأموال وواعدوه للبيات، وفتحوا له باب البر من أبوابها فاتحتمها وفاجأهم هدير الطبول فهب السلطان من نومه وخرج من قصره فتسنى الجبل المظل عليها متسرباً في شعابه إلى أن وضع الصباح وظهر عليه فجاء به إلى ابن أخيه فمن عليه واستبقاه، وأركبه السفين إلى بلده بونة في شوال من سنة تسع وأربعين وسبعمائة ووجد بعض الأعياص من قرابته قد ثاروا بها، وهو محمد بن عبد الواحد من ولد أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا الأكبر كان هو وأخوه عمر بالحضرة، وكان لعمر منهما النظر على القرابة. فلما كان هذا الاضطراب لحقوا بالفضل وتركهم بونة عند سفره إلى بجاية، فحدثهم أنفسهم بالانتراء فلم يتم لهم الأمر. وثار بهم الحاشية والعامّة فقتلوا لوقتهم ووافى الفضل إلى بونة وقد انجلت غيبتهم ومحت آثارهم فدخل إلى قصره وألقى عصا تسياره، واستقل الأمير أبو عبد الله ابن الأمير أبي زكريا ببجاية محل إمارة أبيه والأمير أبو زيد بن الأمير أبي عبد الله بقسطنطينية محل إمارة أبيه، والأمير أبو العباس الفضل ببونة محل إمارته منذ عهد الإمرة والسلطان أبو الحسن بتونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى

الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد

رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب

كان العرب بعدما قدمنا من طاعتهم وإسلامهم السلطان إلى

أبي دبوس قد انقبضوا عن السلطان أبي الحسن وأجلبوا عليه ثانية، وتولى كبر ذلك فتية بن حمزة، وخالف إلى السلطان أخوه خالد مع أولاد مهلهل وافترق أمرهم. وخرج كبيرهم عمر بن حمزة حاجاً فاستقدم فتية وأصحابه الأمير الفضل من مكان إمارته ببونة لطلب حقه واسترجاع ملك آبائه، فأجابهم ووصل إلى أحيائهم آخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فنازلوا تونس وأجلبوا عليها. ثم أفرجوا عنها وعاودوا منازلها أول سنة خمسين وسبعمائة، وأفرجوا عنها آخر المصيف واستدعاهم أبو القاسم بن عتو صاحب الجريد من مكان عمله بتوزر فدخل في طاعة الفضل وحمل أهل الجريد كلهم عليها واتبعه في ذلك بنو مكى وانتقضت إفريقية عن السلطان أبي الحسن من أطرافها فركب أساطيله إلى المغرب أيام الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ونهض المولى الفضل إلى تونس وبها أبو الفضل ابن السلطان أبي الحسن، كان أبوه قد عقد له عليها عند رحيله إلى المغرب فتدأياً من ثورات الغوغاء وممرات هيبتهم، وأمن عليه بما كان قد عقد له من الصهر مع عمر بن حمزة في ابنته، فلما أطلت رايات المولى الفضل على تونس أيام الحج نبضت عروق التشيع للدعوة الخفصية، وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجوه بالحجارة. وأرسل أبو الفضل إلى بني حمزة متذمناً بصهرهم فدخل عليه أبو الليل وأخرجهم ومن معه من قومه إلى الحى واستركب له من رجال بني كعب من أبلغه مأمته وهذاه السيل إلى وطنه، ودخل الفضل إلى الحضرة وقعد بمجلس آبائه من الخلافة وجدد ما طمسه بنو مرين من معالم الدولة واستمر أمره على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الفضل وبيعة أخيه المولى

أبي إسحاق في كفالة أبي محمد بن تافراكين

وتحت استبداده

لما دخل أبو العباس الفضل إلى الحضرة واستبد بملكها عقد إلى حجابته لأحمد بن محمد بن عتو نائباً عن عمه أبي القاسم ريشا يصل من الجريد وعقد على جيشه وحره لمحمد بن الشواش من بطانته. وكان وليه المطارد به أبو الليل فتية بن حمزة مستبداً عليه في سائر أحواله مشتطاً في طلباته. وأنف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكر له وأن يبدل منه بولاية خالد أخيه وبعث عن أبي القاسم بن عتو وقد قلده في حجابته وفوض إليه أمره وجعل مقاد الدولة بيده، فركب إليه البحر من سوسة واستأنف له خالد بن

الخبر عن حركة صاحب قسطنطينية إلى تونس وما كان من حجابة أبي العباس بن مكي وتصاريه ذلك

لما استول أبو محمد بن تافراكين على تونس وباع للمولى أبي إسحاق بالخلافة واستبد عليه نقم عليه الأمراء شأن استبداده وشمر ابن مكي للسعي عليه لمنافسة كانت بينهما قديمة من لدن أيام السلطان أبي بكر. واستعان على ذلك بأولاد مهلهل مقاسمي أولاد أبي الليل في رئاسة الكعوب ومجاذبيهم جبل الإمارة، فلما رأوا صاغية ابن تافراكين إلى أولاد أبي الليل أقتالهم أجمعوا له ولهم، وحالفوا بني حكيم من قبائل علاق، وأجلبوا على الضراحي وشنوا الغارات. ثم وفدوا على الأمير أبي زيد صاحب قسطنطينية وأعمالها يستحثونهم للنهوض إلى إفريقية واستخلاص ملك آبائه عن استبد عليه واحتازه، فسرح معهم عسكريين لنظر ميمون ومنصور الجاهل من مواليه وموالي أبيه، وارتحلوا من قسطنطينية. وارتحل معهم يعقوب بن علي كبير الدواودة بمن معه من قومه وسرح أبو محمد بن تافراكين من الحضرة للقائهم عسكرياً مع أبي الليل بن حمزة لنظر مقاتل من موالى السلطان، والتقى الجمعان ببلاد هواره سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة فكانت الدبرة على أولاد أبي الليل.

وقتل يومئذ أبو الليل فتية بن حمزة بيد يعقوب بن سحيم من أولاد القوس شيوخ بني حكيم، ورجع فلهم إلى تونس وامتدت أيدي أولاد مهلهل وعساكر قسطنطينية في البلاد وجبوا الأموال من أوطان هواره وانتهوا إلى أبة. ثم قفلوا راجعين إلى قسطنطينية، وولي على أولاد أبي الليل مكان فتية أخوه خالد بن حمزة، وقام بأمرهم، وكان أبو العباس بن مكي أثناء ذلك يكتب المولى أبا زيد صاحب قسطنطينية من مكان ولايته بقباس ويعدة من نفسه الوفاة والممد بالمال والأحزاب والقيام بأعطيات العرب، حتى إذا انصرم فصل الشتاء وفود عليه مع أولاد مهلهل فلقاه مرة وتكرماً. وعقد له على حجابته وجمع عساكره وجهازه أكنة وأزاح علل تابعه، ورحل من قسطنطينية سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة من صفر، وجهاز أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحاق لما يحتاج إليه من العساكر والآلة وجعل على حربه ابنه أبا عبد الله محمد بن نزار من طبقة الفقهاء ومشيوخ الكتاب، كان يعلم أبناء السلطان الكتاب ويقرئهم القرآن كما قدمناه، وفصل من تونس في التعية حتى تراءى الجمعان بمجامعته وتزاحفوا فاختلف

حمزة ظهيراً على أخيه بعد أن نبذ إليه عهده وفأوضهم أبو الليل ابن حمزة قبل استحكام أمورهم، فغلب على السلطان وحمله على عزله قائده محمد بن الشواش فدفعه إلى بونة على عساكرها.

واضطربت نار الفتنة بين أبي الليل بن حمزة وبين أخيه خالد، وكاد شملهم أن يتصدع. وبينما هم يجيشون نار الحرب ويجمعون الجموع والأحزاب إذ قدم كبيرهم عمر وأبو محمد عبد الله بن تافراكين من حجهم. وكان ابن تافراكين لما احتل بالإسكندرية بعث السلطان أبو الحسن فيه إلى أهل المشرق، وخاطب ملوك مصر في التحكيم فيه فأجاره عليه الأمير المستبد على الدولة حيتنذ ببيغاروس. وخرج من مصر لقضاء فرضه، وخرج عامنذ عمر بن حمزة لقضاء فريضة الحج أيضاً فاجتمعا في مشاهد الحاج آخر سنة خمسين وسبعمائة وتعاقدا على الرجوع إلى إفريقية والتظاهر على أمرهما وقتلا فآلقيا خالداً وفتية على الصفيين فأشار عمر بن داية فاجتمعا وتوافقا ومسح الإحن من صدورهما، وتواطأوا جميعاً على المكر بالسلطان، وبعث إليه وليه فتية بالراجعة فقبله واتفقوا على أن يقلد حجابته أبا محمد بن تافراكين حاجب أبيه وكبير دولته، ويدل به من ابن عتو فأبى.

ثم أضحت ونزلت أحياءهم ظاهر البلد واستحثوا السلطان للخروج إليهم ليكملوا عقد ذلك معه فخرج ووقف بساحة البلد إلى أن أحاطوا به، ثم اقتادوه إلى بيوتهم وأذنوا لابن تافراكين في دخول البلد، فدخلها لإحدى عشرة من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وعمد إلى دار المولى أبي إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي بكر فاستخرجه بعد أن بذل من العهد لأمه والمواثيق ما رضىته، وجاء به إلى القصر وأقعدته على كرسي الخلافة وباع له الناس خاصة وعامة وهو يومئذ غلام مناهز فانعقدت بيعته. ودخل بنو كعب فأنوه طاعتهم وسبق إليه أخوه الفضل ليلتذ فاعتقل وغط من جوف الليل بمحبسه حتى فاض ولاذ حاجيه أبو القاسم بن عتو يومئذ بالاختفاء في غيايات البلد وعثر عليه لليال وامتحن وهلك في امتحانه، وخوطف العمال في الجهات بأخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا بها واستقام ابن يملول صاحب توزر على الطاعة وبعث بالجباية والمهدية، واتبعه صاحب نفطة وصاحب قفصة وخالفهم ابن مكي وذهب إلى الإجلاب على ابن تافراكين لما كان قد كفل السلطان وحجزه عن التصرف في أمره واستبد عليه إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

ثم جاء على أثرهم فتلقا بالقبول والتكرمة وأنزل به بأحسن نزل. ثم دس إليه من أغراه بالنزول له عن بجاية رغبة فيما عند السلطان إزاء ذلك من التجلة والإدالة منها بمكناسة المغرب، والراحة من زبون الجند والبطانة، وإخفاقاً عما سواه إن لم يتعده فأجاب إليه على اليأس والكراهة، وشهد مجلس السلطان في بني مرين بالرغبة في ذلك، فأسعف وأسنت جائزته، واقتطعت له مكناسة من أعمال المغرب. ثم انتزعها لأيام قلائل ونقله في جملته إلى المغرب، وبعث الأمير أبو عنان أبو عبد الله مولاه فارحاً المستبد كان عليه لبياته بأهله وولده، وعقد أبو عنان على بجاية لعمر بن علي ابن الوزير من بني واطاس، وهم يتسبون بزعهم إلى علي بن يوسف أمير لمتونة فاخضعت له أبو عنان بولايته لثمة هذا النسب الصنهاجي بينه وبين أهل وطنها منهم. وانصرفوا جميعاً من المرية. ولما احتلوا بجاية تأمر أولياء الدعوة الحفصية بها ومن صنهاجة والموالي وتمشت رجالاتهم في قتل عمر بن علي الوزير وأشباع بني مرين، وتصدى لذلك زعيم صنهاجة منصور بن إبراهيم بن الحاج في رجالات من قومه بإملاء فارح كما زعموا. وغدوا عليه في داره من القصة فأكب عليه منصور يناجيه فطعنه وطعن آخر منهم القاضي ابن فركان بما كان شيعاً لبني مرين. ثم أجهزوا على عمر بن علي ومضى القاضي إلى داره فمات.

واتصلت الهبة بفارح فركب إليها وهتف المهاتف بدعوة صاحب قسطنطينية محمد بن أبي زيد، وطيروا إليه بالخبر واستحثوه للقدوم. وأقاموا على ذلك أياماً ثم تأمر الملأ من أهل بجاية في التمسك بدعوة صاحب المغرب خوفاً من بؤاده فثاروا بفارح وقتلوه أيام التشريق من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبعثوا برأسه إلى السلطان بتلمسان. وتولى كبر ذلك هلال صاحبه من موالي ابن سيد الناس ومحمد بن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس ومشيخة البلد، واستقدموا العامل بتدلس من بني مرين وهو يحيى بن عمر بن عبد المؤمن من بني ونكاسن فبادر إليهم. وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح أربع وخمسين وسبعمائة وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق كبارهم وذوو الفعلة منه بتونس، وتقبض على هلال مولى ابن سيد الناس لما داخلته فيه من الظنة، وعلى القاضي محمد بن عمر لما كان شيعاً لفارح، وعلى عرفاء الغوغاء من أهل المدينة وأشخصهم معتقلين إلى المغرب. وصرف نظره إلى عهد الوطن واستدعى كبراء العرب وأهل النواحي وأعمال بجاية وقسطنطينية.

وقد عليه يوسف بن مزني صاحب الزاب ومشيخة

مصاف السلطان أبي إسحاق، وافترقت جموعه وولوا منهزمين. واتبعهم القوم عشية يومهم ولحق السلطان مجاهبه جبي محمد بن تافراكين بتونس وجاؤوا على أثره فنزلوا تونس أياماً وطالت عليها الحرب. ثم امتنعت عليهم وارتحلوا إلى القيروان، ثم إلى قفصة، وبلغهم أن ملك المغرب الأقصى السلطان أبا عنان بعد استيلائه على المغرب الأوسط زحف إلى التخوم الشرقية وأنهى إلى المرية. وكان صاحب بجاية أبو عبد الله قد خالفهم إلى قسطنطينية بمداخلته أبي محمد بن تافراكين واستجاشته. ونازل جهات قسطنطينية وانتسف زروعها وشن الغارات في بساطها فبلغهم أنه رجع إلى بجاية منكشاً من زحف بني مرين، واعتزم الأمير أبو زيد على مبادرة ثغره ودار إمارته قسطنطينية. ورغب إليه أبو العباس بن مكي من أولاد مهلهل أن يخلف بينهم من إخوانه من يجتمعون إليه ويزاحفون به، فولى عليهم أخاه أبا العباس فبايعوه، وأقام فيهم هو وشقيقه أبو يحيى زكريا إلى أن كان من شأنه ما نذكر، وانصرف الأمير أبو زيد عند ذلك من قفصة يغذ السير إلى قسطنطينية واحتل بها في جمادى من سنة والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة صاحب بجاية على ابني عنان واستيلاؤه عليه وعلى بلده ومطالبتة قسطنطينية

كان بين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية وبين الأمير أبي عنان أيام إمارته بتلمسان، ونزول الأعياص الحفصيين بندرومة ووجدة أيام أبيه كما ذكرناه اتصال ومخالصة، أحكمها بينهما نسب الشباب والملك وسابقة الصهر: فكان الأمير أبي عبد الله من أجل ذلك صاغية إلى بني مرين أوجد بها السيل على ملكه. ولما مر به السلطان أبو الحسن في أسطوله عند ارتحاله من تونس كما قدمناه أمر أهل سواحله بمنعه الماء والأقوات من سائر جهاتها رعباً للذمة التي اعتقدها مع الأمير أبي عنان في شأنه وجنوحاً إلى تشييد سلطانه. ولما أوقع السلطان أبو عنان ببني عبد الواد سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة واستولى على المغرب الأوسط ونجا فلهم إلى بجاية أوعز إلى الأمير أبي عبد الله باعتراضهم في جهاته والتقبض عليهم فأجابته إلى ذلك، وبعث العيون بالمرصد فعثروا في ضواحي بجاية على محمد ابن سلطانهم أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن، وعلى أخيه أبي ثابت الزعيم بن عبد الرحمن وعلى وزيرهم يحيى بن داود بن مكن فأتوهم اعتقالاً، وبعث بهم إلى السلطان أبي عنان.

العام المقبل سنة سبع وخمسين وسبعمئة كذلك ونصب عليها المجانيق فامتعت عليه وأرجف في عسكره بموت السلطان فانفضوا وأحرق مجانيقه.

ورجع إلى بجاية وجر الكنايب ببني ياورار لنظر موسى بن إبراهيم الزينياتي عامل سدويكش إلى أن كان من الإيقاع به وبعسكره ما تذكره إن شاء الله تعالى، والله أعلم

الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء

النصارى عليها ثم رجوعها إلى ابن مكى

كانت طرابلس هذه ثغراً منذ الدول القديمة وكانت لهم عناية بحمايتها لما كان وضعها في البسيط، وكانت ضواحيها قفراً من القبائل فكان النصارى أهل صقلية كثيراً ما يحدثون أنفسهم بملكها. وكان ميخائيل الأنطاكي صاحب أسطول رجار قد غلظها من أيدي بني حيزرون من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنهاجة كما ذكرنا. ثم رجعها ابن مطروح ودخلت في دعوة الموحدين ومرت عليها الأيام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليها من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعمئة منقطعاً عن الحضرة مقيماً رسم الدعوة. وكان تجار الجنوبيين يترددون إليها فاطلعوا على عورتها واتمروا في غزوها واتعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين وانتشروا بالبلد في حاجاتهم ثم بيتوها ذات ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها عليهم. وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وهبوا من مضاجعهم، فلما رأوهم بالأسوار لم يكن همهم إلا النجاة بأنفسهم. ونجا ثابت بن عمر مقدمهم إلى حلة الجواري في أعراب وطنها من دباب إحدى بطون بني سليم، فقتل لدم كان أصابه منهم. ولحق إخوته بالإسكندرية، واستباحها النصارى، واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الخرشي والمتاع والعقائل والأسرى وأقاموا بها. وداخلهم أبو العباس بن مكى صاحب قابس في فدائنها فاشترطوا عليه خمسين ألفاً من الذهب العين، فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنان يطرفه بمبوتها. ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخير. وأمكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها وأزال ما دنسها من وضر الكفر. وبعث السلطان أبو عنان بالمال إليه وأن يرد على الناس ما أعطوه وينفرد بمبوتها وذكرها فامتنعوا إلا قليلاً منهم، ووضع المال عند ابن مكى لذلك، ولم يزل ابن مكى أميراً عليها إلى أن هلك كما تذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

الدواودة فاسترهن أبناءهم على الطاعة، وقفل بهم إلى المغرب. واستعمل أبو عنان على بجاية موسى بن إبراهيم الزينياتي من طبقة الوزراء وبعثه إليها. ولما وفدوا على السلطان جلس لهم جلوساً فخماً، ووصلوا إليه ولقاهم تكربة ومبرة، وأوسعهم حياءً وإقطاعاً وأنفذ لهم الصكوك والسجلات وأخذ على طاعتهم العهد والمواثيق والزهن وانتقلوا إلى أهلهم وعقد لحاجبه أبي عمرو على بجاية وأعمالها وعلى حرب قسطنطينة من ورائها، ورجعه إليها فدخلها في رجب من سته.

وأوعز السلطان إلى موسى بن إبراهيم بالولاية على سدويكش والنزول ببني ياورار في كتية جهازها هنالك لمضايقة قسطنطينة وجباية وطنها، وكل ذلك لنظر الحاجب ببجاية، وكان بقسطنطينة أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن معتقلاً من لدن واقعة بني مرين بها. وكان موسوساً في عقله معروفاً بالجنون عند قومه. وكان الأمراء بقسطنطينة قد أسنوا جريته في اعتقاله وأوله من المبرة والخفاوة كفاء نفسه. فلما زحفت كتائب بني مرين إلى بني ياورار آخر عمر بجاية وأذنوا قسطنطينة ومن بها بالحروب والحصار، نصب المولى أبو زيد هذا الموسوس أبا عمر ليجأى به رجالات بني مرين أهل العسكر ببجاية وبني ياورار، وجهاز له الآلة، وتسامعوا بذلك فنزع إليهم الكثير منهم. وخرج نبيل حاجب الأمير أبي زيد إلى أهل الضاحية من بونة ومن كان على دعوته من سدويكش والدواودة فجمعهم وزحفوا جميعاً إلى وطن ببجاية، واتصل الخبر بالحاجب ببجاية فبعث في الدواودة من مشائهم بالصحرَاء فاقبلوا إليه حتى نزلوا التلول. وودد عليه أبو دينار بن علي بن أحمد واستحثه للحركة على قسطنطينة فاعترض عساكره وأزاح عائلهم، وخرج من بجاية في ربيع من سنة خمسين وسبعمئة فكر أبو عمر ومن معه راجعين إلى قسطنطينة. وزحف الحاجب فيمن معه من بني مرين والدواودة وسدويكش، ولقيهم نبيل الحاجب بمن معه فكانت عليه الدبرة. واكتسحت أموال بونة، ورجع ابن أبي عمر بعساكره إلى قسطنطينة فاناخ عليها سبعاً. ثم ارتحل عنها إلى ميلة، وعقد يعقوب بن علي بين الفريقين صلحاً على أن يمكنوه من أبي عمر الموسوس، فبعثوا به إلى أخيه السلطان أبي عنان فأنزله ببعض الحجر، ورتب عليه الحرس. وسار الحاجب في نواحي أعماله وانتهى إلى المسيلة واقتضى مغارمها، ثم انكفأ راجعاً إلى بجاية وهلك فاتح سنة ست وخمسين وسبعمئة وعقد السلطان على بجاية وأعمالها بعده لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد من بني بابان وسرحه إليها فدخلها، وزحف إلى قسطنطينة فحاصرها وامتعت عليه فرجع إلى بجاية. ثم زحف من

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أمير المؤمنين ومفتتح أمره السعيد بقسطنطينية

واستقدمه أخوه أبو زيد إثر ذلك لينصره من عساكر بني مرين عند ما تكاثفوا عليه، وضاق به الحصار فأجابته وقدم عليه بخالد وقومه وخرج الأمير أبو زيد مع زيد إلى منازل تونس.

واستخلف على قسطنطينية أخاه أبا العباس فدخلها ونزل بقصور الملك منها، وأقام بها مدة وعساكر بني مرين قد ملأت عليه الضاحية فدعا الأولياء إلى الاستبداد وأنه أبلغ في المدافعة والحماية لما كانوا يتوقعون من زحف العساكر إليهم من بجاية، فأجاب ويومع سنة خمس وخمسين، وانعقد أمره. وزحف عبد الله بن علي صاحب بجاية إلى قسطنطينية من سسته، وفي سنة سبع بعدها فحاصرها ونصب الجنائيق. ثم أجفل آخرًا للإرجاف كما ذكرناه. وتنفس مخنق الحصار عن قسطنطينية، وكان الأمير أبو زيد أخوه لما ذهب مع خالد إلى تونس ونازلها امتنعت عليه، ورجع وقد استبد أخوه بأمر قسطنطينية فعدل إلى بونة وراسل أبا محمد بن تافراكين في سكنى الحضرة والتزول لهم عن بونة فأجابته ونزل عنها الأمير أبو زيد لعمه السلطان أبي إسحاق. وتحول إلى تونس فأوسعوا له المنازل وأسروا الجرايات والجوازير، وأقام في كفالة عمه إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن واقعة موسى بن إبراهيم واستيلاء أبي عنان بعدها على قسطنطينية وما تخلل ذلك من الأحداث

لما استبد السلطان أبو العباس بالأمر وزحفت إليه عساكر بجاية وبني مرين، فأحسن دفاعها عن بلده. وتبين لأهل الضاحية مخايل الظهور فيه فدخله رجالات من سدويكش من أولاد المهدي بن يوسف في غزو موسى بن إبراهيم وكتائبه الجمجمة ببني ياورار، ودعوا إلى ذلك ميمون بن علي بن أحمد وكان منحرفاً عن أخيه يعقوب ظهر بني مرين ومناصحهم فأجاب. وسرح السلطان أخاه أبا يحيى زكريا معهم بمن في جلته من العساكر وصبحوهم في غارة شعواء، فلما شارفوهم ركبوا إليهم فتقدموا قليلاً ثم أحجموا واختل مصافهم وأحيط بهم وأنخن قائد العسكر موسى بن إبراهيم بالجراحة واستلحم بنوه زيان وأبو القاسم ومن إليهم وكانوا أسود هياج وفرسان ملحمة في آخرين من أمثالهم، وتبعوا بالقتل والنهب إلى أن استباحوا ونجا فلهم إلى بجاية ولحقوا بالسلطان أبي عنان. ولما بلغه الخبر قام في ركائبه وقعد وفتح ديوان العطاء وبعث وزراءه للحشد في الجهات.

كان الأمير أبو زيد قد ولي الأمر من بعد أبيه الأمير أبي عبد الله بولاية جده الخليفة أبي بكر، وكان إخوته جميعاً في جلته، ومنهم السلطان أبو العباس أمير المؤمنين لهذا العهد، والمنفرد بالدعوة الحفصية وكان الناس من لدن مهلك أبيهم يرون أن الوراثة لهم، وأن الأمر فيهم حتى لقد يحكى عن شيخ وقته الولي أبي هادي المشهور الذكر، وكان من أهل المكاشفة، أنه قال ذات يوم وقد جاؤوا لزيارته بأجمعهم على طريقهم وسنن أسلافهم في التبرك بالأولياء فدعا لهم الشيخ ما شاء ثم قال: البركة إن شاء الله في هذه العشر، وأشار إلى الإخوة مجتمعين، وكان الحزبي والمنجمون أيضاً يجربون بمثلها، ويجومون بظنونهم على أبي العباس من بينهم لما يفرسون فيه من الشواهد والمخايل. فلما كان من منازل أخيه أبي زيد بتونس سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ما قدمناه، ثم ارتحل عنها إلى نقطة وأراد الرجوع إلى قسطنطينية للإرجاف بشأن السلطان أبي عنان وأنه زحف إلى آخر عمله من تخوم بجاية، رغب إليه حيثش أولاد مهلهل أولياؤه من العرب وشيعته وحاجبه أبو العباس بن مكي صاحب عملي قابس وجربة أن يستعمل عليهم من إخوته من يقيم معهم لمعاودة تونس بالحصار، فسرح أخاه مولانا أبا العباس فتخلف معهم في ذلك وفي جلته شقيقه أبو يحيى فأقاما بقابس.

وكان صاحب طرابلس محمد بن ثابت قد بعث أسطوله لحصار جربة فدخل الأمير أبو العباس بمن معه الجزيرة وخاضوا إليها البحر فأجفل عسكر ابن ثابت وأفرجوا عن الحصن. ثم رجع السلطان إلى قابس وزحف العرب أولاد مهلهل معه إلى تونس وحاصروها أياماً فامتنعت عليهم. ورجع إلى أعمال الجريد وأوفد أخاه أبا يحيى زكريا على السلطان صريحاً سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فلقا مرة ورجياً، وأسنى جائزته وأحسن وعده وانكفاً راجعاً عنه إلى وطنه، ومر بالحاجب ابن أبي عمر عند إفراجه عن قسطنطينية، ولحق بأخيه مكانه من قاصية إفريقية واتصلت أيديهما على طلب حقهما.

وفي خلال ذلك فسد ما بين أبي محمد بن تافراكين صاحب الأمر بتونس وبين خالد بن حمزة كبير أولاد أبي الليل فعدل عنه إلى أقاتله أولاد مهلهل، واستدعاهم للمظاهرة فأقبلوا عليه. وتمحيز خالد إلى السلطان أبي العباس وزحفوا معه إلى تونس فنازلوها سنة ست وخمسين وسبعمائة، وامتنت عليهم وأفرجوا عنها

واتسفها.

ثم رجع إلى قسطنطينة وارتحل منها يريد إفريقية وقد نهض المولى أبو إسحاق بمن معه من العرب للقائه، وانتهوا إلى حصن سبتة. ثم تمشت رجالات بني مرين واتمروا في الرجوع عنه حذراً أن يصيبهم بإفريقية ما أصابهم من قبل، فانقضوا متسللين إلى المغرب. ولما خف المعسكر من أهله أقصر عن القدوم إلى إفريقية فرجع إلى المغرب بمن بقي معه، واتبع العرب آثاره، وبلغ الخبر إلى أبي محمد بن تافراكين بمكان منجته من المهدية فسار إلى تونس. ولما أطل عليها ثار أهل البلد بمن كان عندهم من عسكر بني مرين وعماهم، فنجوا إلى الأساطيل ودخل أبو محمد بن تافراكين إلى الحضرة وأعاد ما طمس من الدولة. ولحق به السلطان أبو إسحاق بعد أن تقدم الأمير أبو زيد في عسكر الجنود والعرب لاتباع آثار بني مرين ومنازلة قسطنطينة، فأتبعه إلى تخوم عملهم ورجع أبو زيد إلى قسطنطينة وقاتلها أياماً فامتعت عليه فانكفاً راجعاً إلى الحضرة. ولم يزل مقيماً بها إلى أن هلك عفا الله عنه وعنا أمين سنة.

وكان أخوه أبو يحيى زكريا قد لحق بتونس من قبل صريحاً كما قلناه، فلما بلغهم أن قسطنطينة قد أحيط بها تمسكوا به فلحق به القل من مواليتهم وصنائعهم فكانوا معه إلى أن يسر الله أسباب الخير والسعادة للمسلمين، وأعاد السلطان أبا العباس إلى الأمر من بعد مهلك أبي عنان كما يذكر ومد إيالته على الخلق فطلع على الرعايا بالعدل والأمان وشمول العافية والإحسان، وكف أيدي العدوان ورتع الناس من دولته في ظل ظليل ومرعى جميل كما نذكر إن شاء الله.

الخبر عن انتفاض الأمير أبي يحيى زكريا

بالمهدية ودخوله في دعوة أبي عنان ثم

نزوله عنها إلى الطاعة وتصاريه ذلك

كان الحاجب أبو محمد عند رجوعه إلى الحضرة صرف عنايته إلى تحصين المهدية بعدها للدولة وزراً من حادث ما يتوقعه من المغرب وأهله، فشيّد من أسوارها وشحن بالأقوات والأسلحة مخازنها ومستودعاتها وعقد عليها للأمير زكريا أخى السلطان أبي إسحاق، وكان في كفالة وأنزله بها. وبعث على حجابته أحمد بن خلف من أوليائه وذويه مستبداً عليه فأقام على ذلك حولاً أو بعضه. ثم ضجر الأمير أبو يحيى زكريا من الاستبداد عليه واستنكف من حجره في سلطانه فبيت أحمد بن خلف فقتله،

واعترض الجنود وأزاح العلل وشكا له موسى بن إبراهيم بقعود عبد الله بن علي صاحب بجاية عن نصره فسخطه ونكبه وعقد مكانه ليحيى بن ميمون بن مضمود، وتلوم بعده أشهراً في تجهيز العساكر، وبعث السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى إلى تونس صريحاً لعمه السلطان أبي إسحاق فاعجله الأمر عن الإياب إليه، وارتحل أبو عنان في عساكره. ثم بعث في مقدمته وزيره فارس بن ميمون بن ودرار، وزحف على أثره في ربيع سنة ثمان وخسين وسبعمائة، وأخذ السير إلى قسطنطينة وقد نازها وزيره ابن ودرار قبله. فلما نزل بساحتها وقد طبق الأرض الفضاء بجيوشه وعساكره وجم أهل البلد، وأدركهم الدهش فانقضوا وتسللوا إليه. وتخيّر السلطان أبو العباس إلى القصبة فامتنع بها حتى توثق لنفسه بالمعهد. ثم نزل إليه فكفاه تكرمة ورحباً وبني له الفساطيط في جواره. ثم بدا له لأيام قلائل فنقض عهده وأركبه السفن إلى المغرب، وأنزله بسبتة وربت عليه الحرس، وبعث خلال ذلك إلى بونة فدخلت في طاعته، وفر عنها عمال الحضرة. ولما استولى عقد على قسطنطينة لمنصور بن خلوّف شيخ بني بابان من قبائل بني مرين. ثم بعث رسله إلى أبي محمد بن تافراكين في الأخذ بطاعته والنزول عن تونس فردهم، وأخرج سلطانه المولى أبا إسحاق مع أولاد أبي الليل ومن إليهم من العرب بعد أن جهز له العساكر وما يصلح من الآلة والجند، وأقام هو بتونس وأجمع أبو عنان النهوض إليه، ووفد إليه أولاد مهلهل يستحثونه لذلك، فسرح معهم عسكرياً في البر لنظر يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي حشود كبير تربييعين من قبائل بني مرين وصاحب الشورى في مجلسه. وسرح عسكرياً آخر في الأسطول لنظر محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من بني الأحمر من الملوك بالاندلس لهذا العهد، فسبق الأسطول وصبحوا تونس وقتلوا يوماً أو بعض يوم، وأنبج لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين ولحق بالمهدية، واستولت عساكر بن مرين على تونس في رمضان سنة ثمان وخسين وسبعمائة، وحق لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين، ولحق يحيى بن رحو بعسكره فدخل البلد وأمضى فيها أوامر السلطان. ثم دعاه أولاد مهلهل إلى الخروج لمباغثة أولاد أبي الليل وسلطانهم فخرج معهم لذلك، وأقام ابن الأحمر وأهل الأسطول بالبلد، وفي خلال ذلك جاهر يعقوب بن علي بالخلاف لما تبين من نكراء السلطان أبي عنان وإرهاق حده للعرب، ومطالبتهم بالرهن، وقبض أيديهم عن الآتاوات ومسح إعطافه بالمدارات فلم يقبلها يعقوب بالرمل، واتبعه السلطان فأعجزه فعدا على قصوره ومنازله بالثل والصحرَاء فخرها

العساكر. وتلقاهم يعقوب بن علي وظاهرهم على أمرهم وسار أخوه أبو دينار في جملتهم. ولما أطلوا على بجاية ثارت الغوغاء يبغى بن ميمون العامل، كان عليهم منذ عهد السلطان أبي عنان، فألقى بيده وتقبض عليه وعلى من كان من قومه، وأركبوا السفين إلى الحضرة، وأودعهم أبو محمد بن تافراكين مسجونين تحت كرامة وجراية إلى أن من عليهم من بعد ذلك وأطلقهم إلى المغرب.

ودخل السلطان أبو إسحاق إلى بجاية سنة إحدى وستين وسبعمائة واستبد بها بعض الاستبداد وحاجبه وكافله أبو محمد يدبر أمره من الحضرة. ثم استقدم ابنه ونصب لوزارة السلطان أبا محمد عبد الواحد بن محمد من أكمازير من مشيخة الموحدين فكان يقيم له رسم الحجابة. وقام بأمر الرجل بالبلد من الغوغاء علي بن صالح من زعانفة بجاية وأوغادها، التفت عليه الشرار والدعار وأصبحت له بهم شركة كان له بها تغلب على الدولة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة

السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة

هذه الجزيرة جربة من جزر هذا البحر الذي يمر قريباً من قابس وإلى الشرق عنها قليلاً طولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً، وعرضها من ناحية الغرب عشرون ميلاً. ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلاً، وبينها وبين قرقنة في ناحية الغرب ستون ميلاً. وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب، واختصت بالتفاح وعمل الصوف للباسهم فيتخذون منه الأكسية المعلمة للاشتغال وغير المعلمة للباس. ويجلب منها إلى الأقطار فينتقيه الناس للباسهم. وأهلها من البربر من كتامة وفيهم إلى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم، وفيهم أيضاً من نفزة وهوارة وسائر شعوب البربر. وكانوا قديماً على رأي الخوارج، وبقي بها إلى الآن فرقان منهم: الوهبة وهم بالناحية الغربية، ورناسهم لبني سمومن، والنكارة وهم بالناحية الشرقية، وجربة فاصلة بينهما.

والظهور والرئاسة على الكل لبني سمومن. وكان فتحها أول الإسلام على يد ربيعة بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة من بني ملك بن النجار من الأنصار من جند مصر، ولاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا إفريقية وفتح جربة سنة سبع وأربعين بعدها، وشهد الفتح حنش بن عبد الله الصنعاني ورجع إلى برقة فمات بها. ولم تزل في ملكة المسلمين إلى أن دخل دين الخوارج إلى البربر فأخذوا به. ولما كان شأن أبي زيد

وبعث عن أبي العباس أحمد بن مكّي صاحب جربة وقابس ليقسم له رسم الحجابة بما كان منازماً لأبي محمد بن تافراكين كافله فوصل إليه، وطبخوا بالخبر إلى السلطان أبي عنان صاحب المغرب وبغثوا إليه ببيعتهم واستحثوه لصريحهم. واضطراب أمرهم. وسرح أبو محمد بن تافراكين إليها العسكر فأجفلوا أمامه، ولحق المولى أبو يحيى زكريا بقابس، واستولى عليها العسكر واستعمل عليها أبو محمد بن تافراكين محمد بن الجكجك من قرابة ابن ثابت، اصطنعه عندما وقعت الحادثة على طرابلس، ولحق به فاستعمله على المهديّة. ولما وصل الخبر إلى أبي عنان بشأن المهديّة جهز إليها الأسطول وشحنه بالمقاتلة والرجال، وعين الموالي والخاصة فالفوها وقد رجعت إلى إيالة الحضرة، ووصل إليها ابن الجكجك وأقام بها وحسن غناؤه فيها إلى أن كان من أمره ما نذكر.

وأقام الأمير زكريا بقابس، وأجلب به أبو العباس بن مكّي على تونس. ثم بعثوه بالدواودة ونزل على يعقوب بن علي وأصهر إليه في ابنة أخيه سعيد، ففقد له عليها. ولما استولى أخوه أبو إسحاق على بجاية استعمله على سدويكش بعض الأعوام، ولم يزل بين الدواودة إلى أن هلك سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكره بعد.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحاق

على بجاية وإعادة الدعوة الحفصية إليها

لما رجع السلطان أبو عنان من قسطنطينة إلى المغرب أراح بسبته، وسرح عساكره من العام المقبل إلى إفريقية لنظر وزيره سليمان بن داود فسار في نواحي قسطنطينة ومعه ميمون بن علي بن أحمد أدبل به من يعقوب على قومه من الدواودة، وعثمان بن يوسف بن سليمان شيخ أولاد سباع منهم. وحضر معهم يوسف بن مزني عامل الزاب، أوعز إليه السلطان بذلك فدوخ الجهات وانتهى إلى آخر وطن بونة، واقتضى المغارم. ثم انكفأ راجعاً إلى المغرب وهلك السلطان أبو عنان إثر قفوله سنة تسع وخمسين وسبعمائة، واضطرب أمر المغرب ثم استقام على طاعة أخيه السلطان أبي سالم كما نذكره. وكان أهل بجاية قد تقدموا على عاملهم يحيى بن ميمون من بطانة السلطان أبي عنان سوء ملكته وشدة سطوته وعنفه فدخلوا أبا محمد بن تافراكين على البعد في التوثب به، فجهز إليهم السلطان أبا إسحاق ما يحتاج إليه من العساكر والآلة، ونهض من تونس ومعه ابنه أبو عبد الله على

سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة فأخذوا بدعوته بعد أن دخلوها عنوة، وقتل مقدمها يومئذ ابن كلدين وصلبه.

ثم استردها المنصور إسماعيل، وقتل أصحاب أبي يزيد. ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في إنشاء الأساطيل وغزو الساحل. ثم غزاهم علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس سنة تسع وخسمائة بأساطيله إلى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلاح الحال. ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخسمائة عند تغلبهم على سواحل إفريقية. ثم ثار أهلها عليهم وأخرجوهم سنة ثمان وأربعين وخسمائة ثم تغلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واستعملوا على الرعية وأهل الفلج. ثم عادت للمسلمين ولم تنزل مترددة بين المسلمين والنصارى إلى أن غلب عليها الموحدون أيام عبد المؤمن. واستقام أمرها إلى أن استبد بنو أبي حفص بإفريقية. ثم افترق أمرهم بعد حين واستبد المولى أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحاق بالناحية الغربية، وشغل صاحب الحضرة بشأنه كما قدمناه، فتغلب على هذه الجزيرة أهل صقلية سنة ثمان وثمانين وستمائة وبنوا بها حصن القشتيل مربع الشكل في كل ركن منه برج، وبين كل ركنين برج. ويدور به فخير وسوران. وأهم المسلمين شأنها، ولم تنزل عساكر الحضرة تتردد إليها كما تقدم إلى أن كان فتحها أيام السلطان أبي بكر على يد خولف بن الكدام من بطانته سنة ثمان وثلثين وسبعمئة واستضافها ابن مكي صاحب قابس إلى عمله فأضافها إليه، وعقد له عليها فصارت من عمله سائر أيام السلطان ومن بعده.

واتصلت الفتنة بين أبي محمد بن تافراكين وبين ابن مكي، وبعث الحاجب أبو محمد ابن تافراكين عن ابنة أبي عبد الله، وكان في جملة السلطان ببجاية كما قلناه.

ولما وصل إليه سرحه في العساكر لحصار جربة وكان أهلها قد نقموا على ابن مكي سيرته فيهم ودمسوا إلى أبي محمد بن تافراكين بذلك، فسرح إليه ابنه في العساكر سنة ثلاث وستين وسبعمئة وكان أحمد بن مكي غائباً بطرابلس قد نزلها منذ ملكها من أيدي النصارى، وجعلها داراً لإمارته فنهض العسكر من الحضرة لنظر أبي عبد الله ابن الحاجب أبي محمد، ونهض الأسطول في البحر فتزلوا بالجزيرة وضائقوا القشتيل بالحصار إلى أن غلبوا عليه وملكوه. وأقاموا به دعوة صاحب الحضرة. واستعمل أبو عبد الله بن تافراكين كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون، كان من صنائع الدولة منذ العهد، وكانت لأبيه قرابة من ابن عبد العزيز الحاجب ترقى بها إلى ولاية الأشغال بتونس

منافهاً لأبي القاسم بن طاهر الذي كان تولاهما يومئذ، فكان رديفه عليها إلى أن هلك ابن طاهر فاستبد هو بها منذ أيام الحاجب أبي محمد واتصل ابنه محمد هذا بخدمة ابن الحاجب واختص بكتابته إلى أن استعمله على جربة عند استيلائه عليها هذه السنة، وانكفاً راجعاً إلى الحضرة فلم يزل محمد بن أبي العيون والياً عليها. ثم استبد بها على السلطان بعد مهلك الحاجب وفرار ابنه من السلطان إلى أن غلبه عليها السلطان أبو العباس سنة أربع وسبعين وسبعمئة كما نذكره.

الخبر عن عودة الأمراء من المغرب واستيلاء السلطان أبي العباس على قسنطينة

لما هلك السلطان أبو عنان قام بأمره من بعده وزيره الحسن بن عمر، ونصب ابنه محمد السعيد للأمر كما نذكره في أخباره. وكان يضطغن للأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فقبض عليه لأول أمره واعتقله حذراً من وثوبه على عمله فيما زعموا. وكان السلطان أبو العباس بسبته منذ أنزله السلطان أبو عنان بها، ورتب عليه الحرس كما ذكرناه، فلما انتزى على الملك المنصور بن سليمان من أعياص ملكهم، ونازل البلد الجديد دار الملك ودخل في طاعته سائر الممالك والأعمال بعث في السلطان أبي العباس واستدعاه من سبته فنهض إليه. وانتهى في طريقه إلى طنجة ووافق في ذلك إجازة السلطان أبي سالم من الأندلس لطلب ملكه. وكان أول ما استولى عليه من أعمال المغرب طنجة وسبته فأتصل به السلطان أبو العباس وظهره على أمره إلى أن نزح إليه قبيلة بنو مريس عن منصور بن سليمان المتزني على ملكهم فاستوسق أمره واستتب سلطانه به ودخل فاس وسرح الأمير أبا عبد الله من اعتقال الحسن بن عمر كما قدمناه. ورعى للسلطان أبي العباس ذمة سوابقه القديمة والحادثة فرفع مجلسه وأسنى جريته، ووعدته بالمظاهرة على أمره، واستقروا جميعاً في إيالته إلى أن كان من تغلب السلطان أبي سالم على تلمسان والمغرب الأوسط ما نذكره في أخبارهم.

واتصل به ثورة أهل بجاية بعاملهم يحيى بن ميمون ورجالات قبيلهم، فامتعض لذلك وحين قفل إلى المغرب نفذ يده من الأعمال الشرقية ونزل للسلطان أبي العباس عن قسنطينة دار إمارته ومثوى عزه ومنبت ملكه، فأوعز إلى عاملها منصور بن خولف بالنزول له عنها وسرحه إليها وسرح معه

فامتنت عليه خرج إلى أحياء العرب كما قدمناه ولزم صحابته أولاد يحيى بن علي بن سباع فغربوا في الوفاء بها. وأقام بين ظهرانيهم وفي حللهم متقلّبا في طلب بجاية برحلة الشتاء والصيف وتكفلوا نفقة عياله ومؤنة حشمه وأنزلوه ببلد المسيلة من أوطانهم، وتحافوا له عن جبايتهم وأقام على ذلك سنين خمساً ينازل بجاية في كل سنة منها مراراً، وتحول في السنة الخامسة عنهم إلى أولاد علي بن أحمد، ونزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمقرة من بلاده إلى أن بدا لعمه المولى أبي إسحاق رايه في اللحاق بتونس لما توقع من مهلك حاجبه وكافله أبي محمد بن تافراكين، أسره إليه بعض الحزى فحذره مغبته ووقع من ذلك في نفوس أهل بجاية انحراف عنه ومرج أمرهم وراسلوا أميرهم الأقدم أبا عبد الله من مكانه بمقرة وظاهره على ذلك يعقوب بن علي وأخذ له العهد على رجالات سدويكش أهل الضاحية، وارتحلوا معه إلى بجاية ونازلها أياماً. ثم استيقن الغوغاء اعترم سلطانهم على التقيض عنهم، ومثموا ملكة علي بن صالح الذي كان عريفاً عليهم فشاروا به ونبدوا عهده وانفضوا من حوله إلى الأمير أبي عبد الله بالرسة من ساحة البلد. ثم قادوا إليه عمه أبا إسحاق فمن عليه وخلي سبيله إلى حضرته فلحق بها واستولى أبو عبد الله على بجاية محل إمارته في رمضان سنة خمس وستين وسبعماية على علي بن صالح ومن معه من عرفاء الغوغاء أهل الفتنة فاستصفى أمورههم، ثم أمضى حكم الله في قتلهم. ثم نهض إلى تدلس لشهرين من مملكة بجاية فغلب عليها عمر بن موسى عامل بني عبد الواد، ومن أعياص قبيلهم، وتملكها في آخر سنة خمس وستين وسبعماية. وبعث عني من الأندلس كنت مقيماً بها نزيلاً عند السلطان أبي عبد الله بن أبي الحجاج بن الأحمر في سبيل اغتراب ومطوعة تقلب منذ مهلك السلطان أبي سالم المجاذب بضيعي إلى تنويبه، والراقي بي في خطط كتابته من ترسيل وتوقيع ونظر في المظالم وغيرها. فلما استدعاني هذا الأمير أبو عبد الله بادرته إلى امتاله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَغْلَمَ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ فاجزت البحر شهر جمادى من سنة ست وخمسين وسبعماية وقلدني حجابته، ودفع إلي أمور مملكته. وقمت في ذلك المقام المحمود إلى أن أذن الله بانقراض أمره، وانقطاع دولته، ولله الخلق والأمر، ويده تصاريف الأمور.

الأمير أبا عبد الله ابن عمه لطلب حقه في بجاية، والأجلا ب على عمه السلطان أبي إسحاق جزاء بما نال من بني مرين عند افتتاحها من المعرة. وارتحلوا إلى تلمسان في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعماية وأغذوا السير إلى موطنهم. فاما السلطان أبو العباس فوقف منصور بن خلوف عامل البلد على خطاب سلطانه بالنزول عن قسطنطينية فنزل وأسلمها إليه، وأمكنه منها فدخلها شهر رمضان سنة إحدى وستين وسبعماية واقتعد سرير ملكه منها وتباشرت بعودته مقاصر قصورها فكانت مبدءاً لسلطانه ومظهراً لسعاده ومطلعا لدولته على ما نذكر بعد.

وأما الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية فلحق بأول وطنها، واجتمع إليه أولاد سباع أهل ضاحيتها وقفروها من الدواودة. ثم زحف إليها فنازلها أياماً وامتنت عليه فرحل عنها إلى بني ياورار، واستخدم أولاد محمد بن يوسف والعزيزيين أهل ضاحيتها من سدويكش. ثم نزعوا عنه إلى خدمة عمه ببجاية فخرج إلى القفر مع الدواودة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول الأخ الأمير أبي يحيى بن زكريا من تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها

كان الأمير أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه العباس إلى عمهما السلطان أبي إسحاق صريحاً لم يزل مقيماً بتونس، وبلغه استيلاء السلطان أبي عنان على قسطنطينية فخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرته، وتوقع زحفه إليها وغلبيه إياه على الأمر. ورأى أن يخفض جناحه في أخيه، ويتوثق به فاعتقله بالقصبة تحت كرامة ورعي، وبعث فيه السلطان أبو الحسن بعد مراوضة في السلم فأطلقه وانعقد بينهما السلم. ولما وصل الأمير أبو يحيى إلى أخيه بقسطنطينية عقد له على العساكر وزحف إلى بونة فملكها سنة اثنتين وستين وعقد له عليها وأنزله بها مع العساكر وأصارها تخملاً لعمله واستمرت حالها على ذلك إلى أن كان من أمرها ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية ثم على تدلس بعدها

لما قدم السلطان أبو عبد الله من المغرب ونازل بجاية

الخبر عن مهلك الحاجب أبي محمد بن

تافراكين واستبداد سلطانه من بعده

كان السلطان أبو إسحاق آخر دولته بجاية قد تخين مهلك حاجبه المستبد عليه أبي محمد بن تافراكين لما كان أهل صناعة التنجيم يحدثونه بذلك، فأجمع الرحلة إليها، وانقض عنه أهل بجاية إلى ابن أخيه كما قدمناه. واستولى عليه ثم أطلقه إلى حضرته فلاحق بها في رمضان سنة خمس وستين وسبعمئة وتلقاه أبو محمد بن تافراكين ورآه مرهف الحد للاستبداد الذي لفه ببجاية فكابله بصاع الوفاق، وصارفه نقد المصانعة، وازدلف بأنواع القربات. وقاد إليه التجائب ومنحه من الذخائر والأموال وتجاوى له عن النظر في الجبابة. ثم أصهر إليه السلطان في كريمته ففقد له عليها وأعرس السلطان بها. ثم كان مهلكه عقب ذلك سنة ست وستين وسبعمئة فوجم السلطان لنعيه وشهد جنازته حتى وضع بملحده من المدرسة التي اختطها لقراءة العلم إزاء داره جوفي المدينة. وقام على قبره باكياً وحاشيته يتناولون التراب حثياً على جدته فغرب في الوفاء معه بما تحدث به الناس واستبد من بعده بأمره وأقام سلطانه لنفسه.

وكان أبو عبد الله الحاجب ابن أبي محمد غائباً عن الحضرة. خرج منها بالعسكر للجبابة والتمهيد فلما بلغه خبر مهلك أبيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة فصرف العسكر إلى الحضرة، وارتحل مع حكيم من بني سليم، وعرض نفسه على معاقل إفريقية التي كان يظن أنها خالصة لهم. فصدّه محمد بن أبي العيون كاتبه عن جربة، ومحمد بن الجكجك الحكيم صنيعهم وبطانتهم عن المهديّة. وبعث إليه السلطان بما رضىه من الأمان فاستصحب بعد النفور وبادر إلى الحضرة فتلّقه السلطان بالبر والترحيب، وقلده حجابته وأنزله على مراتب العز والتنويه. ونكر هو مباشرة السلطان للناس من رفعه للحجاب، ولم يزل يرضه لما ألف من الاستبداد منذ عهد أبيه فأظلم الجو بينه وبين السلطان ودبت عقارب السعاية لمهاده الوثر، فتكر وخرج من تونس ولحق بقسطنطينية، ونزل بها على السلطان أبي العباس مرغباً له في ملك تونس ومستحثاً فأنزله خير نزل، ووعدّه بالتهوؤ معه إلى إفريقية بعد الفراغ من أمر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمه صاحبها من الفتنة كما نذكرها بعد. واستبد السلطان أبو إسحاق بعد مفر ابن تافراكين عنه، ونظر في أعطاف ملكه، وعقد على حجابته لأحمد بن إبراهيم الياقي مصطنع الحاجب أبي محمد من طبقة العمال، وعلى العساكر والحرب لمولاه منصور سريجه من العلوجي،

وورفع الحجاب بينه وبين رجال دولته وصنائع ملكه حتى باشر جبليات الخراج وعرفاء الحشم، وأوصلهم إلى نفسه والغنى الوسائط بينهم وبينه إلى حين مهلكه كما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس على

بجاية وملك صاحبها ابن عمه

لما ملك الأمير أبو عبد الله بجاية واستقل بإمارتها تنكر للرعية وساءت سيرته فيهم بإرهاق الحد للكافة وإسقاط الخاصة، فنغلت الصدور ومرضت القلوب واستحكمت النفرة، وتوجهت الصاغية إلى ابن عمه السلطان أبي العباس بقسطنطينية لما كان أسوس منه وأغلب للذاته وأقوم على سلطانه. وكانت بينهما فتنة وحروب جرتها المنافسة في تحوم العمالتين منذ عهد الآباء. وكان السلطان أبو العباس أيام نزوله على السلطان أبي سالم محمود السيرة والخلال عنده مستقيم الطريقة في مئوى اغترابه. وربما كان ينقم على ابن عمه هذا بعض النزعات المعرصة لصاحبها للامامة فيستقل نصيحته. ونغل بذلك ضميره، فلما استولى على بجاية عاد إلى الفتنة فشبها، وشمر عزائمها لما فكان مغلياً فيها. واعتلق منه يعقوب بن علي بذمة في المظاهرة على السلطان أبي العباس فلم يغن عنه وراجع يعقوب سلطانه. ثم جهز هو العساكر من بجاية لمزاحمة تحوم قسطنطينية ففضها أبو العباس فنهض إليه ثانية بنفسه في العساكر، وتراجع العرب من أولاد سباع بن يحمي وجمع هو أولاد محمد وزحف فيهم وفي عسكر من زناتة، والتقى الفريقان بناحية سطيف فاحتل مصاف أهل بجاية وانهزموا، واتبعهم السلطان أبو العباس إلى تآكرات وجال في عمله ووطىء نواحي وطنه، وقفل إلى بلده.

ودخل الأمير أبو عبد الله إلى بجاية وقد استحكمت النفرة بينه وبين أهل بلده فدرسوا إلى السلطان أبي العباس بقسطنطينية بالقدوم عليهم، فوعدهم من العام القابل وزحف سنة سبع وستين وسبعمئة في عساكره وشيعته من الدواودة أولاد محمد، وانضوى إليه أولاد سباع شيعه بجاية بالجوار والسابقة القديمة لما نكروا من أحوال سلطانتهم. وعسكر الأمير أبو عبد الله بلبزو في جمع قليل من الأولياء وأقام بها يرجو مدافعة ابن عمه بالصلح، فبيته السلطان بمعسكره من لبزو، وصحبه في غارة شعواء فانفض جمعه، وأحيط به، وانتهب المعسكر، ومروا إلى بجاية، فادرك في بعض الطريق وتقبض عليه، وقتل قعصاً بالرماح. وأغذ السلطان أبو

عم أبي حمو من أعياص بيتهم، وكان من خبره أنه كان خرج من المغرب كما تذكره في أخباره. ونزل على السلطان أبي إسحاق بالحضرة ورعى له أبو محمد الحاجب حق بيته فأوسع في كرامته. ولما غلب الأمير أبو عبد الله على تدلس بعث إليه من تونس ليوليه عليها، وتكون رداء بينه وبين حمو، ويتفرغ هو للأجلا ب على وطن قسطنطينة، فيادر إلى الإجابة وخرج من تونس. وممر السلطان أبو العباس بمكانه من قسطنطينة فصدده عن سبيله واعتقله عنده مكرماً، فلما غلب على بجاية وبلغه الخبر بزحف أبي حمو أطلقه من اعتقاله ذلك واستبلغ في تكرمه وحبائه، ونصبه للملك وجهز له بعض الآلة. وخرج في معسكره مولا به بشر ليجاجى به بني عبد الواد عن ابن عمه أبي حمو لما سئمو من ملكه وعنفه.

وكان زغبة عرب المغرب الأوسط في معسكر أبي حمو، وكانوا حذرين من مقبة أمره معهم فراسلوا أبا زيان واتمروا بينهم في الأرجاف بالمعسكر. ثم تخيروا لذلك أن يشب الحرب بين أهل البلد وأهل المعسكر فأجفلوا خامس ذي الحجة، وانفض بالمعسكر واتهوا إلى مضائق الطرقات بساح البلد فكظت بزحامهم وتركوا عليها فهلك الكثير منهم، وخلفوا من الأثقال والعيال والسلاح والكراع ما لا يحيط به الوصف. وأسلم أبو حمو عياله وأمواله فصار تهاً واحتلبت حظاياه إلى السلطان فوهبها لابن عمه ونجا أبو حمو بنفسه بعد أن طاح في كظيظ الزحام عن جواده فنزل له وزيره عمران بن موسى عن مركوبه فكان نجاةه عليه، ولحق بالجزائر في الفل، ولحق منها بتلمسان وتابع أبو زيان أثره، واضطرب المغرب الأوسط كما تذكره في أخباره. وخرج السلطان أبو العباس من بجاية على إثر هذه الواقعة فنزل تدلس وافتتحها وغلب عليها من كان بها من عمال بني عبد الواد وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط حين قسم الدعوة الحفصية بها إلى أن كان ما تذكره بعده إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف العساكر إلى تونس

كان أبو عبد الله ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لما نزع عن السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة لحق بمجلل أولاد مهلهل من العرب، ووفدوا جميعاً على السلطان أبي العباس فاتح سنة سبع وستين وسبع مائة يستحثونه إلى الحضرة ويرغبونه في ملكها فاعتذر لهم بما كان عليه من الفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية. وزحف إليها في حركة الفتح وصاروا في جملة، فلما استكمل فتح

العباس السير إلى بجاية فأدرك بها صلاة الجمعة تاسع عشر شعبان من سنة سبع وستين وسبع مائة، وكنت بالبلد مقيماً فخرجت إليه في الملاء وتلقاني بالمرة والتوييه. وأشار إلي بالاصطناع واستوسق له ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط في الثغور العربية واقمت في خدمته بعض شهر. ثم توجست الخيفة في نفسي وأذنته في الانطلاق فأذن لي تكرماً وفضلاً وسعة صدر ورحمة، ونزلت على يعقوب بن علي، ثم تحولت عنه إلى بسكرة ونزلت على ابن مزني إلى أن صفا الجو، واستقبلت من أمري ما استدبرت واستأذنته ثلاث عشرة سنة من انطلاقي عنه في خبر طويل نقصه من شأني فأذن لي، وقدمت عليه فقابلتني وجوه عنايته، وأشرقت علي أشعة بخته كما تذكر ذلك من بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف أبي حمو وبني عبد الواد إلى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها

كان الأمير أبو عبد صاحب بجاية لما اشتدت الفتنة بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس مع ما كان بينه وبين بني عبد الواد من الفتنة عند غلبه إياهم على تدلس تكاند عن حمل العداوة من الجانبين، وصغا إلى مهادة بني عبد الواد فنزل لهم عن تدلس، وأمكن منها قائد العسكر المحاصر لها. وأوفد رسله على سلطانهم أبي حمو بتلمسان، وأصهر إليه أبو حمو في ابنته فعقد له عليها وزفها إليه بجهاز أمثالها. فلما غلبه السلطان أبو العباس على بجاية وهلك في مجال حربه، أشاع أبو حمو الامتناع له لمكان الصهر، وجعلها ذريعة إلى الحركة على بجاية. وزحف من تلمسان يمر الشوك والمدد في آلاف من قومه وطبقات العساكر والجند. وتراجع العرب حتى انتهى إلى وطن حمزة فأجفل أمامه أبو الليل موسى بن زغلي في قومه بني يزيد، وتحصنوا في جبال زاوية المطلية على وطن حمزة. وبعث إليه رسله لاقضاء طاعته فأوثقهم كثافاً، وكان فيهم يحيى حافند أبي محمد صالح نزع من السلطان أبي العباس إلى أبي حمو وكان عيناً على غزاة أبي الليل هذا لما بينهما من المربى والجوار في الوطن، وجاء في وفد الرسالة عن أبي حمو فتقبض عليهم وعليه قتلته وبعث برأسه إلى بجاية.

وامتنع على أبي حمو وعساكره فأجازوا على بجاية، ونزل معسكره بساحتها وقائلها أياماً، وجمع الفعلة على الآلات في الحصار. وكان السلطان أبو العباس بالبلد وعسكره مع مولا به بشر بتكرارات، ومعهم أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمن، وهو ابن

وحربهم فكان فيه غناء واستدفعوه مرات ببجائيتهم يعيشون بها إلى السلطان، ومرات بمصانة العرب على الإرجاف بمعسكره. وكان ابن الباقي يغص بمكانه عند السلطان، فلما استبد على ابنه أعظم فيه السعاية وتقبض عليه، وأودعه السجن مع محمد بن علي بن رافع. ثم بعث عليهما من داخلهما في الفرار من الاعتقال حتى دبروه معه، وظهر على أمرهما فقتلها في محبسهما خنقاً والله متولي الجزاء منه. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

ثم أظهر ابن الباقي من سوء سيرته في الناس وجوره عليهم وعسفه بهم وانتزاع أموالهم، وإهانة سبيل الأشراف ببابه منهم ما نقموه، وضروا إلى الله في إنقاذهم من ملكته، فكان ذلك على يد مولانا السلطان أبي العباس كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده بالدعوة الحفصية في سائر عمالات إفريقية وممالكها

لما هلك السلطان أبو إسحاق صاحب الحضرة سنة سبعين وسبعمائة كما قدما وقام بالأمر مولاه منصور سريجه وحاجبه الباقي ونصبوا ابنه الأمير خالداً للأمر صيماً لم يناهز الحلم غرا فلم يحسنوا تدبير أمره ولا سياسة سلطانه، وأسخطوا لوقتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب المتغلبين على الضاحية بما أطمعوه بسوء تدبيرهم في شركته لهم في الأمر. ثم قلبوا له ظهر الجبن فسخطهم ولحق بالسلطان أبي العباس وهو مظل عليهم بمرقة من الثغور الغربية مستجمع للتوثب بهم، فاستحثه للمكهم وحرضه على تلافى أمرهم ورم ما تلم من سياج دولتهم. وكان الأحق بالأمر لشرف نفسه وجلاله واستفحال ملكه وسلطانه، وشياع الحديث عن عدله ورققه وحيد سيرته وأمان أهل مملكته من نظر يعقب نظره فيهم واستبداد سواه عليهم، فأجاب صريحه وشحذ للنهوض عزمه. وكان أهل قسطنطينة قد بعثوا بمثل ذلك، فسرّح إليهم أبا عبد الله بن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لاستخبار طاعتهم وإبتلاء دخلتهم، فسار إليهم واقتضى بيعاتهم وطاعتهم، وسارع إليها يحيى بن يملول مقدم توزر والخلف بن الخلف مقدم نقطة فاتوها طواعية. وانقلب عنهم وقد أخذوا بدعوة السلطان وأقاموها.

ثم خرج السلطان من بجاية في العسكر وأغذ السير إلى

بجاية سرح معهم أخاه المولى أبا يحيى زكريا في العساكر فساروا معه إلى الحضرة، وابن تافراكين في جملته، فنزلوها أياماً وامتنعت عليهم وأقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم، وقفل المولى أبو يحيى بمعسكره إلى مكان عمله. ولحق ابن تافراكين بالسلطان، فلم يزل في جملته إلى أن كان من فتح تونس ما نذكر.

الخبر عن مهلك السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة وولاية ابنه خالد من بعده

لما نزل حال السلطان أبو إسحاق بالحضرة على ما ذكرناه، ويختلف في الفتنة والمهادنة مع السلطان أبي العباس طوراً بطور، واستخلص لدولتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب يستظهر به على أمره، ويستدفع برأيه وشوكته فخلص له سائر أيامه. وعقد سنة تسع وستين وسبعمائة لابنه خالد على عسكر لنظر محمد بن رافع من طبقات الجنود من مغراوة مستبداً على ابنه. وسرحه مع منصور بن حمزة وقومه وأوعز إليهم بتدوين ضواحي بونة واكتساح نعمها وبجاية ضواحيها فساروا إليها. وسرح الأمير أبو يحيى زكريا صاحب بونة عسكره مع أهل الضاحية فأغنوا في مدافعهم وانقلبوا على أعقابهم فكان آخر العهد بظهورهم. ولما رجعوا إلى الحضرة تنكر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر فخرج من الحضرة ولحق بقومه بمكانهم من لحفه من أعمال تونس. واستقدمه السلطان بعد أن استعتب له فلما قدم تقبض عليه وأودعه السجن. وعلى إثر ذلك كان مهلك السلطان فجأة ليلة من سنة سبعين وسبعمائة بعد أن قضى وطراً من محادثة السمر وغلبه النوم آخر ليلة فنام، ولما أيقظه الخادم وجده ميتاً، فاستحال السرور، وعظم الأسف وغلب على البطانة الدهش.

ثم راجعوا بصائرهم ودفعوا الدهش عن أنفسهم وتلافوا أمرهم بالبيعة لابنه الأمير أبي البقاء خالد فأخذها له على الناس مولاه منصور سريجة من العلوجي وحاجبه أحمد بن إبراهيم الباقي، وحضر لها المرحدون والفقهاء والكافة. وانفض المجلس وقد انعقد أمره إلى جنازة أبيه حتى واروه التراب. واستبد منصور وابن الباقي على هذا الأمير المنصوب للأمر فلم يكن له حكم عليهما، وكان أول ما افتتحا به أمرهما أن تقبضا على القاضي محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء، كان نزع إلى السلطان من بلده نقطة مغاضباً لمقدمها عبد الله بن علي بن خلف فرعى له نزوعه إليه واستعمله بمخطة القضاء بتونس عند مهلك أبي علي عمر بن عبد الرفيع. ثم ولاه قيادة العساكر إلى بلاد الجريد

الخبر عن انتفاض منصور بن حمزة وأجلابه بالعم أبي يحيى زكريا على الحضرة وما كان عقب ذلك من نكبة ابن تافراكين

كان منصور بن حمزة هذا أمير البدو من بني سليم بما كان سيد بني كعب. وكان السلطان أبو إسحاق يؤثره بمزيد العناية، وجعل له على قومه المزية. وكان بنو حمزة هؤلاء منذ غلبوا على السلطان أبي الحسن على إفريقية وأزعجوه منها قد استطلت أيديهم عليها وتقاسموها أوزاعاً، وأقطعهم أمراء الحضرة السهمان في جبايتها زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وأمصالها، استتلافاً لهم على المظاهرة وإقامة الدعوة والحماية من أهل الثغور الغربية، فملكوا الأكثر منها، وضعف سهمان السلطان بينهم فيها، فلما استولى هذا السلطان أبو العباس على الحضرة واستبد بالدعوة الحفصية كبح أعتهم عن التغلب والاستبداد وانتزع ما بأيديهم من الأمصار والعمالات التي كانت من قبل خالصة للسلطان وبدا لهم ما لم يكونوا يحسبونه، فأحفظهم ذلك وأهمهم شأنه وتكر منصور بن حمزة وقلب ظهر الجحش ونزع يده من الطاعة وغمسها في الخلاف، وتابعه على خروجه على السلطان أبو صعونة أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم. وارتحل بأحيائه إلى الدواودة صريحاً مستحيشاً بالأمير أبي يحيى بن السلطان أبي بكر القيم بين ظهرانيهم من لدن فعلته بالمهدية وانتزاعه بها على أخيه المولى أبي إسحاق كما ذكرناه، فنصبوه للأمير وباعوه. وارتحل معهم وأغذوا السير إلى تونس، ولقيه منصور بن حمزة في أحيائه بنواحي تبة فبايعوا له وأوفدوا مشيختهم على يحيى بن يملول شيطان الغواية المارد على الخلاف يستحثونه للطاعة والمدد بمدخله كانت بينهم في ذلك سول لهم فيها بالمواعيد، وأملى لهم حتى إذا غمسوا أيديهم في النفاق والأجلا ب سوفهم عن مواعيده ضنانه بماله فأسرهما منصور في نفسه، واعتزم من يومئذ على الرجوع إلى الطاعة.

ثم رحلوا للأجلا ب على الحضرة، وسرح السلطان أبو العباس أخاه الأمير أبا يحيى زكريا للقيهم في العساكر، وتزاحفوا فاتبع لمنصور وقومه ظهورهم على عساكر السلطان وأوليائه لم يستكملهم، وأجلبوا على البلاد أياماً. ونمي إلى السلطان أن حاجبه أبا عبد الله بن تافراكين داخلهم في تبين البلد فتقبض عليه وأشخصه في البحر إلى قسطنطينة فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وسبع مائة. ثم سرب السلطان أمواله في العرب

المسيلة، وكان بها إبراهيم ابن عمه الأمير أبي زكريا الأخير جاجاً به أولاد سليمان بن علي من الدواودة من مثوى اغترابه بتلمسان، ونصبوه لطلب حقه في بجاية من بعد أخيه الأمير أبي عبد الله، وكان ذلك بمدخله أبي محو صاحب تلمسان ومواعيد بالمظاهرة خلفه. فلما انتهى السلطان إلى المسيلة نذروا إلى إبراهيم عهده وتبرأوا منه. ورجعوه من حيث جاء، وانكفأ راجعاً إلى بجاية. ثم نهض منها إلى الحضرة وتلقته وفود إفريقية جميعاً بالطاعة وانتهى إلى البلد فخيم بساحتها أياماً يغادها القتال ويرواحها: ثم كشف عن مصدوقته وزحف إلى أسوارها وقد ترجل أخوه والكثير من بطانته وأوليائه فلم يقم لهم شيء حتى تسنموا الأسوار برياض رأس الطابية، فنزل عنها المقاتلة وفروا إلى داخل البلد. وخامر الناس الدهش وتبرأ بعضهم من بعض، وأهل الدولة في موكبهم وقوف بباب الغدر من أبواب القصبية. فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولوا الأعقاب وقصدوا باب الجزيرة فكسروا أقفاله. وثار أهل البلد جميعاً بهم فخلصوا سلطانهم من البلد بعد عصب الريق، ومضى الجند في اتباعهم فأدرك أحد بن الباقي فقتل وسبق رأسه إلى السلطان. وتقبض على الأمير خالد واعتقل، وشجا العليج منصور سريحه برأس طمرة ولجام وذهل عن القتال دون الأحية.

ودخل السلطان القصر واقعد أريكته، وانطلقت أيدي العيث في ديار أهل الدولة فاكسحت ما كان الناس يضطغنون عليهم تخاملهم على الرعية واغتصاب أموالهم، فاضطربت نار العيث في دورهم وغلفهم فلم تكد أن تنطفئ ولحق بعض أهل العافية معرات من ذلك لعموم النهب وشموله حتى أطفأه الله ببركات السلطان وجبل نيته وسعادة أمره. ولاذ الناس منه بالملك الرحيم والسلطان العادل، وتهافتوا عليه تهافت الفراش على الذبال يلثمون أطرافه، ويجارون بالدعاء له ويتنافسون في التماس بحياه إلى أن غشيهم الليل ودخل السلطان قصره وخلا بما ظفر من ملك آبائه، وبعث بالأمير خالد وأخيه في الأسطول إلى قسطنطينة، فعصفت به الريح وانحوت السفينة وترادفت الأمواج إلى أن هلكا. واستبد السلطان بأمره وعقد لأخيه الأمير أبي يحيى زكريا على حجابته. ورعى لابن تافراكين حق اغتيابه إليه ونزوعه فجعله رديفاً لأخيه، واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الجبكجك أميراً عليها واستبد بها بعد موت الحاجب. فلما وخزته شوكة الاستطالة من الدولة، وطلع نحوه قسام العساكر فرق من الاستيلاء عليه، وركب أسطوله إلى طرابلس ونزل على صاحبها أبي بكر بن ثابت لذمة صهر قديم كان بينهما وبادر مولانا السلطان إلى تسليم المهدية، وبعث عليها عماله وانتظمت في ملكه واطردت أحوال الظهور والنجاح، وكان بعد ذلك ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك

السلطان

كان محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون منذ ولاء أبو عبد الله محمد بن تافراكين على هذه الجزيرة، قد تقبل مذاهب جيرانها من أهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان ومصارفة الاستبداد وانتحال مذاهب الإمارة وطرقها ولبوس شارتها. وقد ذكرنا سلفه من قبل، وأن والده كان صاحب الأشغال بالحضرة أيام الحاجب أبي محمد بن تافراكين وأنه اعتلى بمكاتبة ابنه أبي عبد الله فولاه على جربة عند افتتاحه إيها وأنه قصده عند مفرو عن المولى أبي إسحاق لينزل جربة معولاً على قديم اصطناعه إيها فمنعه. ثم داخل شيوخ الجزيرة من بني سموم في الامتناع على السلطان والاستبداد بأمرهم فأجابوه، وأقام متمتعاً سائر دولة المولى أبي إسحاق وابنه من بعده.

ولما استولى مولانا السلطان أبو العباس على تونس داخله الروح والدش وصار إلى مكائر رؤساء الجريد في التظافر على المدافعة بزعمهم، فأجرى في ذلك شأواً بعيداً مع تحلفه في مضمار بقديمه وحديثه. وصادق السلطان سوء الامتثال وإتيان الطاعة ومنع الحباية فأحفظ ذلك، ولما افتتح أمصار الساحل وثغوره سرح ابنه الأمير أبا بكر في العساكر إلى جربة ومعه خالصة الدولة محمد بن علي بن إبراهيم من ولد أبي هلال شيخ الموحدين، وصاحب مجاية لعهد المستنصر، وقد تقدم ذكره. وأمه في الأسطول في البحر لحصارها، ونزل الأمير بعسكره على مجازها ووصل الأسطول إلى مرساها فأطاف بمحسب القشتيل، وقد لاذ ابن أبي العيون بمجدرانه وافترق عنه شيوخ الجزائر من البربر والنحاش بطانته من الجند المستخدمين معه بها. ولما رأوا ما لا طاقة لهم به وأن عساكر السلطان قد أحاطت بهم براً ومجرأً نزلوا إلى قائد الأسطول وأمكنوه من الحصن، وبادروا إلى معسكر الأمير فأقبل معهم الخاصة أبو عبد الله بن أبي هلال فيمن معه من بطانة الأمير

فانتقض على المنصور قومه وخشي مغبة حاله، وسوغه السلطان جائزته فعاود الطاعة، ورهن ابنه ونبذ إلى السلطان زكريا العم عقده ورجعه على عقبه إلى الدواودة، والتزم طاعة السلطان والاستقامة على المظاهرة إلى أن هلك سنة ست وتسعين وسبعمائة فقتله محمد ابن أخيه قتيبة في مشاجرة كانت بينهما، طعنه بها فاشواه ورجع جريحاً إلى بيته، وهلك دونها آخر يومه. وقام بأمر بني كعب بعده صولة ابن أخيه خالد وعقد له مولانا السلطان على أمرهم واستمرت الحال إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن فتح سوسة والمهدية

كانت سوسة منذ واقعة بني مرين بالقيروان وتغلب العرب على العمالات التي أقطعها السلطان أبو الحسن خليفة بن عبد الله بن مسكين فيما سوغ للعرب من الأمصار والإقطاعات مما لم يكن لهم فاستولى عليها خليفة هذا ونزلها واستقل بجبايتها وأحكامها. واستبد بها على السلطان ولم يزل كذلك إلى أن هلك وقام بأمره في قومه عامر بن عمه مسكين أيام استبداد أبي محمد بن تافراكين فسوغها له كذلك متقبلاً مذهب من قبله ثم قتله بنو كعب، وأقام بأمر حكيم من بعده أحمد الملقب أبو صغوننة بن محمد أخيه خليفة بن عبد الله بن مسكين فاستبد بسوسة على السلطان واقتعدوا دار إمارته، وربما كان يتنقض على صاحب الحضرة فيجلب عليها من سوسة، ويشن الغارات في نواحيها، حتى لقد أوقع في بعض أيامه بمنصور سريجه مولى السلطان أبي إسحاق وقائد عسكره، فتقبض عليه واعتقله بسوسة أياماً. ثم من عليه وأطلقه وعاود الطاعة معه، ولم يزل هذا دأبهم. وكانت لهم في الرعايا آثار قبيحة وملكات سيئة، ولم يزالوا يضرعون إلى الله في إنقاذهم من أيدي جورهم وعسفهم إلى أن تآذن الله لأهل إفريقية باقتبال الخير وفيه ظلال الأمر. واستبد مولانا السلطان أبو العباس بالحضرة وسائر عمالات إفريقية وهبت ريح العز على العرب في جميع النواحي، فتنكر أهل سوسة لعاملهم أبي صغوننة هذا، وأحسن بكرائهم فخرج عنهم وتحافى للسلطان عن البلد. وثارت عامتها بعماله وأجهضوهم، ونزل عمال السلطان.

ثم كانت من بعد ذلك حركة المولى أبي يحيى إلى نواحي طرابلس ودوخ جهاتها واستوفى جباية عمالها. وكان بالمهدية محمد بن الجبكجك استعمله عليها الحاجب أبو محمد بن تافراكين أيام ارتجاعه إيها من يد أبي العباس بن مكى، والأمير أبي يحيى زكريا المتزبي بها ابن مولانا السلطان أبي بكر كما مر. وأقام ابن

وسبعين وسبعائة. ونزل الأمير أبو إسحاق بقسطنطينية دار إمارته وعقد له السلطان عليها وألقاب الملك ورسومه مصروفة إليه. والقائد بشير مولى ابنه مستبد عليه لمكان صغره إلى أن هلك بشير سنة ثمان وسبعين وسبعائة عندما استكمل الأمير أبو إسحاق الخلافة واستجمع الإمارة فجدد له السلطان عهده عليها وفوض إليه في إمارتها فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن مقام، وأكفاه مصداً الظنون وتوهم إلى شهادة المخايل التي دلت عليه، فاستقل هذان الأميران بثغر بجاية وقسطنطينية وأعمالها مفوضاً إليهما الإمارة مآذوناً لهما في اتخاذ الآلة وإقامة الرسوم الملوكية والشارة. وكان الأمير أبو يحيى زكريا الأخ الكريم مستقلاً أيضاً ببنوة وعملها منذ استيلائه عليها قد أضافها السلطان وأصارها في سهمانه، فلما ارتحلوا إلى إفريقية عام الفتح وتيقن الأخ أبو يحيى طول مغيبه واغتيال السلطان أخيه لكونه معه، عقد عليها لابنه الأمير أبي عبد الله محمد وأنزله بقصره منها، وفوض إليه في إمارته لما استجمع من خلال الترشيح والذكر الصالح في الدين. واستمر الحال على ذلك لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعائة، والله مدبر الأمور.

الخبر عن فتح قفصة وتوزر وانتظام أعمال قسطنطينية في طاعة السلطان

كان أمر هذا الجريد قد صار شوري بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتلال الدولة حيثئذ بانقسامها كما مر، فلما استبد السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية وفرغ من الشواغل صرف إليهم نظره وأوطأهم عساكره. ثم نهض بنفسه فمضى أثر الشوري منها، وعقد لابنه أبي العباس عليها كما قلناه. فلما كان بعد مهلكه من اضطراب إفريقية وتغلب الأعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن وبني مريـن بالقيروان عاد أهل الشوري في الجريد إلى دينهم من التوثب على الأمر والاستبداد على السلطان، وتناعى رؤسائهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك ومساربه، يقتعدون الأرائك ويعقدون في المشي بين السكك المراكب، ويهينون في إيوانهم سبال الأشراف، ويتخذون الآلة أيام المشاهد آية للمعتبرين في قلب الأيام، وضحكة لأهل الشمامات، حتى لقد حدثتهم أنفسهم باللقاب الخلافة، وأقاموا على ذلك أحوالاً والدولة في التباها، فلما استبد السلطان أبو العباس بإفريقية وعمالاتها، وأتيح منه بالحضرة البازي المثل من مرقبه والأسد الحادر في عرينه، وأصبحوا فرانس

وحاشيته فاتحموا الحصن، وتقبضوا على محمد بن أبي العيون ونقلوه من حينه إلى الأسطول، واستولوا على داره وولوا على الجزيرة وارتحلوا قافلين إلى السلطان. ووصل محمد بن أبي العيون إلى الحضرة ونزل بالديوان فأركب إلى القفصة على جمل وطيف به على أسواق البلد إظهاراً لعقوبة الله النازلة به، وأحضره السلطان فوجّه على مرتكبه في العناد ومداخلته أهل الغواية من أمراء الجريد في الانحراف عنه. ثم تحافى عن دمه وأودعه السجن إلى أن هلك سنة تسع وسبعين.

الخبر عن استقلال الأمراء من الأبناء بولاية الثغور الغربية

كان السلطان عندما استجمع الرحلة إلى إفريقية باستحثاث أهلها لذلك، وفادة منصور بن حمزة شيخ الكعوب مرغباً فأهمه لذلك شأن الثغور الغربية، وأجال اختياره في بنيه يسبر أحوالهم ويفتش عن الأكفاء لهذه الثغور منهم فوق نظره أولاً على كبير ولده المخصوص بعناية الله في إلقاء محبته عليه الأمير أبي عبد الله فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنزله بقصور الملك منها، وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند. واستعمل على قسطنطينية وضواحيها لمولاه القائد بشير سيف دولته وعنان حربه، ناشىء قصره وتلاد مرباه. وكانت لهذا الرجل نخوة من الصرامة والبأس، ودالة بالقديم والحدث. وخلال لقيها أيام الثقلب في أووين الملك. وكان ملازماً ركاب مولاه في مطارح اغترابه وأيام تحصيه، وربما لقي عند إخلاله على قسطنطينية من المحنة والاعتقال الطويل ما أعاذه الله عنه بجميل التنويه، وعود العز والملك إلى مولاه على أحسن الأحوال. فظفر من ذلك بالبغية وحصل من الرتبة على الأمانة. وكان السلطان يثق بنظره في العسكر ويبعشه في مقدمة الحروب، وكان عند استيلائه على بجاية وصرف العناية إليها ولاه أمر قسطنطينية وأنزله بها، وأنزل معه ابنه الأمير أبا إسحاق وجعل إليه كفالته لصغره ثم استغفره بالعساكر عند النهوض إلى إفريقية فنهض في جلته وشهد معه الفتح. ثم رجع به إلى عمله بقسطنطينية بمزيد التفويض والاستقلال، فلم يزل بما دفع إليه من ذلك إلى أن هلك.

وكان السلطان قد أوفد ابنه أبا إسحاق على ملك المغرب السلطان عبد العزيز عندما استولى على تلمسان مهنيّاً بالظفر ملفحاً غراس الرد وأوفد معه شيخ الموحدين ببابه أبا إسحاق بن أبي هلال، وقد مر من قبل ذكره وذكر أخيه تلتقاهما ملك المغرب بجوه المبرة والاحتفاء، ورجعهما بالحديث الجميل عنه سنة ثلاث

واجتمع المأ والكافة من أهل البلد عند السلطان، وأتوه بيعتهم عليها لابن أبي بكر، وارتحل يغذ السير إلى توزر وقد طار الخبر بفتح قفصة إلى ابن يملول فركب لحينه، واحتمل أهله وما خف من ذخائره ولحق بالزباب. وطير أهل توزر بالخبر إلى السلطان فلقية أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فملكها واستولى على ذخيرة ابن يملول ونزل بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يعد لأعظم ملك من ملوك الأرض، وأحضر بعض الناس ودائع كانت لهم عنده من نفيس الجواهر والحلي والثياب وبرؤوا منها إلى السلطان.

وعقد السلطان على توزر لابنه المنتصر وأنزله قصور ابن يملول، وجعل إليه إمارتها واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نقطة فقدم عليه وأناه طاعته، وعقد له على بلده وولاية حجابة ابنه بتوزر، وأنزله معه وقل إلى الحضرة. وقد كان أهل الخلاف من العرب عند تغلبه على أمصار الجريد خالفوه إلى التلول، فلما قصد حضرته اعترضوه دونها فأوقع بهم وفل من غربهم، وأجفلوا إلى الجهات الغربية يؤملون منها كرامة لما كان ابن يملول قد جأجا بهم إلى خدمة صاحب تلمسان والاستجاشة به، فوفد عليه بتلمسان منصور بن خالد منهم ونصر ابن عمه منصور صريخين به على عادة صريخهم بأبي تاشفين سلفه فدافعهم بالمواعدة، وتبينوا منها عجزه وانكفؤوا راجعين. وقد صولة على السلطان بعد أن توثق لنفسه فاشترط له على قومه ما شاء، ورجع إليهم فلم يرضوا بشرطه ونهض السلطان من الحضرة في العساكر الأولياء من العرب، وأجفلوا أمامهم فاتبعهم وأوقع بهم ثلاث مرات واقفوه فيها. ثم أجفلوا ولحقوا بالقيروان وقدم فدفعهم على السلطان واشترط له كما يشاء، فتقبل ووسعهم عفوه، وصاروا إلى الانقياد والاعتماد في مذاهب السلطان ومرضاته، وهم على ذلك لهذا العهد.

الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن

الخلف

لما استقل الخلف بن علي بن الخلف بحجابة المنتصر ابن السلطان. وعقد له مع ذلك على عمله بنقطة فاستخلف عليها عامله، ونزل بتوزر مع المنتصر. ثم سعى به أنه يداخل ابن يملول ويراسله فبث عليه العيون والأرصاد، وعثر على كتابة بخط كاتبه المعروف إلى ابن يملول وإلى يعقوب بن علي أمير الدواودة يحرضهما على الفتنة، فتقبض عليه وأودعه السجن. وبعث عماله

له يتوقعون انصبا به إليهم وتوثبه بهم، داخلوا حيثشذ الأعراب في مدافعتهم عنهم بإضرام نار الفتنة، واقاعد مطية الخلاف والتفاح يفتون بذلك في عزائمه وأرعى هو لهم طيل الإهمال وفسح لهم مجال الإيناس بالمقاربة والوعد، رجاء الفشة إلى الطاعة المعروفة والاستقامة على الجادة فأصروا وازدادوا عناداً ونفاقاً فشمهم لهم عن عزائمه ونبذ إليهم عهدهم على سواء.

ونهب من الحضرة سنة سبع وسبعين وسبعمائة في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة ومن استألف إليه من العرب أولاد مهلهل وحكيم وإظهار أولاد أبي الليل على المدافعة عن أهل الجريد، ووافقوا السلطان أياماً. ثم أجفلوا أمامه وغلبهم السلطان على رعاياهم مرجيزة، وكانوا من بقايا بني يفرن عمروا ضواحي إفريقية مع طواعن هواره ونفوسة ونفزاوة. وكانت للسلطان عليهم مغارم وجبايات وافرة، فلما تغلب المغرب على بساط إفريقية وتنافسوا في الإقطاعات كانت طواعن مرجيزة هؤلاء في إقطاع أولاد حمزة، فكانت جبايتهم موفورة ومالهم دثراً بما صاروا مدداً لهم بالمال والكرع والدروع والأدم، وبالفرسان منهم يستظهرون بهم في حروبهم مع السلطان ومن قومهم، فاستولى السلطان عليهم في هذه السنة واكتسح أموالهم، وبعث برجالهم أسرى إلى سجون الحضرة وقطع بها عنهم أعظم مادة كانت تمدهم، فحمد ذلك من عتوهم وقص من جناحهم آخر الدهر، وهنوا له. ثم عاد السلطان إلى حضرته وافترق أشياعه، ونزع عنهم أبو صعونة فتألف على أولاد أبي الليل، ورجعوا إلى الحضرة فأجلبوا بساحلها أياماً وشنوا الغارات عليها. ثم انفضوا عنها وخرج على أثرهم لأول فصل الشتاء، وتساحل إلى سوسة والمهدية فاقتضى مغارم الأوطان التي كانت لأبي صعونة، ثم رجع إلى القيروان وارتحل منها يريد قفصة وجمع أولاد أبي الليل للمدافعة عنها، وسرب فيهم صاحب توزر الأموال فلم تغن عنه وزحف السلطان إلى قفصة فنازلها ثلاثاً ولجوا في عصيانهم وقتلوه فجمع الأيدي على قطع نخيلهم وتسايلت إليه الرعية من أماكنهم، وأسلموا أحمد بن العابد مقدمهم وابنه محمد المستبد عليه لكبره وذهوله، فخرج إلى السلطان واشترط ما شاء من الطاعة والخراج ورجع إلى البلد وقد ماج أهلها بعضهم في بعض، وهموا بالخروج فسابقهم ابنه أحمد المستبد على أبيه، وكان السلطان سرح أخاه أبا يحيى في الخاصة والأولياء إلى البلد، فلقية محمد هذا بناوحي ساحتها فبعث به إلى السلطان، ودخل هو إلى القصبه وتملك البلد وتقبض السلطان على محمد بن العابد لورقته، وسبق إليه أبوه من البلد فجعل معه واستولى معه على داره وذخائره.

في بلدهم. ثم سموا إلى الاستبداد عندما فشل ربح الدولة عن القاصية بما حدث من فتن وانفراد الثغور الغربية بالملك. ولم يزالوا جاعنين إلى هذا الاستبداد سائحين إليه بثأر الفتن والانتقاص على السلطان، ومداخلة الثوار والإجلاب بهم على الحضرة. والدولة أثناء ذلك في شغل عنهم وعن سواهم من أهل الجريد منذ أحقاب متطاولة بما كان من انقسام الدولة وإلحاح صاحب الثغور الغربية على مطالبة الحضرة.

ثم استبد مولانا السلطان بالدعوة الحفصية في سائر عمالات إفريقية وشغله عنهم شاغل الفتنة مع صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه ومنازلتهم ثغر بجاية وتسريبه جيوش بني عبد الواد مرة بعد أخرى مع الأعياص من بني أبي حفص والعرب إلى إفريقية. وكان المثولي لرياسة قابس يومئذ عبد الملك بن مكى بن أحمد بن عبد الملك ورديفه فيها أخوه أحمد، وكانا يداخلان أبا تاشفين صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه والثوار القادمين معهم. وربما خالفوا السلطان إلى الحضرة أزمان مغيبه عنها كما وقع له مع عبد الواحد بن اللحياني، وقد مر ذكر ذلك. فلما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان وانحى أثر بني زيان فرغ السلطان أبو بكر لهؤلاء الثوار الرؤساء بالجريد الدائنين بالانتقاص سائر أيامهم. وزحف إلى قفصة فملكها فذعروا ولحق أحمد بن مكى بالسلطان أبي الحسن متذمراً بشفاعته، بعد أن كان الركب الحجازي من المغرب مر بقابس وبه بعض كرائم السلطان فأوسعوا حياءها وسائر الركب قرى وحباء. وقدموا ذلك وسيلة بين يدي وفادته فقبل السلطان وسيلتهم وكتب إلى مولانا السلطان أبي بكر شافعاً فيهم لذمة السلطان والصهر فقبل شفاعته وتجاوز عن الانتقام منهم بما اكتسبوا.

ثم هلك مولانا السلطان أبو بكر وهاج بحر الفتنة والخلاف وعادت الدولة إلى حالها من الانتقاص، واشتدت على صاحب الحضرة وجوه الانتصاف منهم، فعاد بنو مكى وسواهم من رؤساء الجريد إلى حالهم من الاستبداد على الدولة. وقطع أسباب الطاعة ومنع المغارم والجباية ومشايعة صاحب الغربية زبوناً على صاحب الحضرة. فلما استبد مولانا السلطان أبو العباس بالدعوة الحفصية وجمع الكلمة، واستولى على كثير من الثغور المنتقضة ترأس أهل هذه العصور الجريدية وتحدثوا فيما دهمهم وطلبوا وجه الخلاص منه، والامتناع عليه.

وكان عبد الملك بن مكى أقعدهم بذلك لطول مراسه الفتن وانحياشه إلى الثوار، وكان أحمد أخوه ورديفه قد هلك سنة خمس

إلى نفطة واستولى على أمواله وذخائره، وخاطب أباه في شأنه فأمهله بعد أن تبين نقضه للطاعة وسعيه في الخلاف. وكان السلطان قبل فتح قفصة قد نزع إليه من بيوتاتها أحمد بن أبي يزيد، وسار في ركابه إليها. فلما استولى على البلد رعى له ذمة نزوعه إليه، وأوصى به ابنه أبا بكر فاستولى على مشورته وحله وعقده، وطوى على النكت. ثم حدثه نفسه بالاستبداد وتحين له المواقيت واتفق أن سار الأمير أبو زكريا من قفصة لزيارة أخيه المتصر بتوزر وخلف بالبلد عبد الله التريكي من مواليهم، وكان السلطان أنزله معه وولاه حجابته، فلما توارى الأمير عن البلد داخل ابن أبي زيد زعتفة من الأوغاد وطاف في سكك المدينة والمهاتف معه ينادي بالثورة ونقض الطاعة. وتقدم إلى قفصة فأغلقها القائد عبد الله دونه وحاربها فامتعت عليه. وقرع عبد الله الطبل بالقصبة واجتمع عليه أهل القرى فأدخلهم من باب كان بالقصبة يفضي إلى الغابة فكثروا شيع ابن أبي زيد، وتسلسل عنه الناس فلاذ بالاختفاء. وخرج القائد من القصبة فتقبض على كثير من أهل الثورة وأودعهم السجن واستولى على البلد. وسكن الهيعة وطار الخبر إلى المولى أبي بكر فأغذ السير متقبلاً إلى قفصة، ولحين دخوله ضرب أعناق المعتقلين من أهل الثورة وأمر المهاتف فنادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد وأخيه. ولأيام من دخوله عثر بهما الحرس في مقاعدهم بالباب مستترين بزى النساء فتقبضوا عليهما وتلوهما إلى الأمير ف ضرب أعناقهما وصلبهما في جذوع النخل. وكانا من المترفين فأصبحا مثلاً في الأيام وقد خسرا دينهما وديناهما، وذلك هو الخسران المبين، وارتاب المتصر صاحب توزر حينئذ بأبن الخلف وحذر مغبة حاله فقتله بمحبسه وذهب في غير سبيل مرحة وانتظم السلطان أمصار الجريد كلها في طاعته واتصل ظهوره إلى أن كان ما نذكر.

الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة

السلطان

هذه البلد لم تزَل في هذه الدولة الحفصية لبني مكى المشهور ذكرهم في هذه العصور وما إليها، وسيأتي ذكر أخبارهم ونسبهم وأوليتهم في فصل نفرد به فيما بعد، وكان أصل رئاستهم فيها اتصالهم بمخدة الأمير أبي زكريا الأول أيام ولاية قابس سنة ثلاث وعشرين وستمئة فاختصوا به، وداخلهم في الانتقاص على أخيه أبي محمد عبد الله عندما استجمع لذلك، فأجابوه وبأيامه فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبد بإفريقية، وأفردهم برئاسة الشورى

لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة، وأقام عبد الملك بن مكي بعد خروجه من قابس بين أحياء العرب ليالي قلائل. ثم بغته الموت فهلك ولحق ابنه وحافده بطرابلس فمئتهم ابن ثابت الدخول إليها فنزلوا بزور من قراها في كفالة الجوارى من بطون دباب. ولما استكمل السلطان الفتح وشؤونه انكفاً راجعاً إلى الحضرة فدخلها فاتح اثنتين وثمانين وسبعمئة ولحقه رسله من طرابلس بهدية ابن ثابت من الرقيق والمتاع بما فيه الوفاء بمغارمه بزعمه. ووفد عليه بعد استقراره بالحضرة رسل أولاد أبي الليل متطارحين في العفو عنهم والقبول عليهم فأجابهم إلى ذلك. ووفد صولة بن خالد شيخهم وقبلة أبو صعونة شيخ حكيم، ورهنوا أبناءهم على الوفاء واستقاموا على الطاعة. واتصل النجح والظهور والأمر على ذلك لهذا العهد وهو فاتح ثلاث وثمانين وسبعمئة، والله مالك الأمور لا رب غيره.

الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما

اكتنف ذلك من الأحوال

كان هؤلاء الرؤساء المستبدون بالجريد والزباب منذ فرغ السلطان لهم من الشواغل، واسترابوا بمغية حالهم معه ومرأغتهم له بالطاعة يرومون استحداث الشواغل ويؤملون لها سلطان تلمسان لعهدهم أباً حراً الأخير، وأنه يأخذ بحجزته عنهم إن وصلوا به أيديهم واستحوه لذلك لاتلافهم مثلاً من سلف قومه. وأبي حمو وأبي تاشفين من قبله قياساً متروطاً في الغلط بعيداً من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة، وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم وتقدمهم في هذا الشأن أحمد بن مزني صاحب بسكرة لقرب جواره واشتهار مثلها من سلفه فاتبعوه وقلدوه وغطى هواهم جميعاً على بصيرتهم. وقارن ذلك نزول الأمير أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو على ابن يملول بتوزر عند منابذة سالم بن إبراهيم الثعالبي إياه، وكان طارد به أياماً. ثم راجع أبو حمو وصرفه سنة ثمان وسبعين وسبعمئة فخرج من أعمال تلمسان وأبعد المذهب عنهم ونزل على ابن يملول بتوزر.

وطير الخبر إلى إمامه في تلك الفتنة أحمد بن مزني واغبتوا بمكان أبي زيان، وأن تمسكهم به فريعة إلى اعتماد أبي حمو في مرضاتهم، وإجابة إلى داعيهم، وركض بريداهم إلى تلمسان في ذلك ذاهباً وجائياً حتى أعيت الرسل واشتبهت المذاهب ولم

وستين وسبعمئة، وانفرد هو برئاسة قابس فراسلوه وراسلهم في الشأن، واجمعوا جميعاً على تخيب العرب على السلطان وتسريب الأموال فيهم ومشايعة صاحب تلمسان بالترغيب في ملك إفريقية، فانتدبوا لذلك من كل ناحية، وبعثوا البريد إلى صاحب تلمسان فاطمهم من نفسه، وعللهم بالمواعيد الكاذبة، والسلطان أبو العباس مقبل على شأنه يقتل لهم في الذروة والغارب حتى غلب أولاد أبي الليل الذين كانوا يعدونهم بالدفاع عنهم، وافتتح قصعة وتوزر ونقطة. وتبين لهم عجز صاحب تلمسان عن صريحهم، فحيتذ بادر عبد الملك إلى مراسلة السلطان بعده من نفسه الطاعة والوفاء بالجبابة، ويستدعي لاقتضاء ذلك منه بعض حاشيته فأجابه إلى ذلك، وبعث وافده إليه ورجع إلى الحضرة في انتظاره فطاوله ابن مكي في الغرض ورده بالوعد.

ثم اضطرب أمره وانتقض عليه أهل ضاحيته بنو أحمد إحدى بطون دباب، وركبوا إليه فحاصروه وضيقوا عليه، واستدعوا المدد لذلك من الأمير أبي بكر صاحب قصعة وأمداهم بعسكر وقائد فنزلوه واشتد الحصار، واتهم ابن مكي بعض أهل البلد بمدخلتهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم، وتكررت له الرعية وساء حاله، ودس إلى بعض المفسدين من العرب من بني علي في تبيت العسكر المحاصرين له، واشترط لهم على ذلك ما رضوه من المال، فجمعوا لهم وبيتهم فانقضوا ونالوا منهم. وبلغ السلطان خبرهم فأحفظه وأجمع الحركة على قابس وعسكر بظاهر الحضرة في رجب سنة إحدى وثمانين وسبعمئة، وتلوم أياماً حتى استوفى العطاء واعترض العساكر، وتوافت أحياء أوليائه من أولاد مهمل وحلفائهم من سائر سليم. ثم ارتحل إلى القيروان، وارتحل منها يريد قابس، وقد استكمل التعيية وبادر إلى لقائه الأخذ بطاعته مشيخة دباب أعراب قابس من بني سليم. ووفد منهم خالد بن سباع بن يعقوب شيخ الحاميد وابن عمه علي بن راشد فيمن إليهم يستحثونه إلى منازلة قابس، فأخذ السير إليها وقدم رسله بين يديه بالإنذار لابن مكي. وانتهوا إليه فرجعهم بالإنبابة والانقياد إلى الطاعة. ثم احتمل رواجه وعبى ذخائره وخرج من البلد، ونزل على أحياء دباب هو وابنه يحيى وحافده عبد الوهاب ابن ابنه مكي المالك منذ ستين من قبل.

واتصل الخبر إلى السلطان فيادر إلى البلد ودخلها في ذي القعدة من سته، واستولى على منازل ابن مكي وقصوره. ولأهل البلد بطاعته وولى عليها من حاشيته، وكان أبو بكر بن ثابت صاحب طرابلس قد بعث إلى السلطان بالطاعة والالغياش، ووافته رسله دوين قابس. فلما استكمل فتحها بعث إليه من حاشيته

أمرهم فارتحل عنهم ولحق بقسطنطينة. وحملهم ابن علي على اللباز بالطاعة، وأوفد ابن عمه متطرحاً وشافعاً فتقبل السلطان فيته ووسيلته وأغضى لابن مزني عن هنائه وأسعفهم بكبير دولته وخالصة سره أبي عبد الله بن أبي هلال ليتناول منه المخالصة. ويمكن له الألفة وتمسح عنه هواجس الارتباب والمخافة.

وكان لقاؤه أشهى إليهم من الحياة ففصل عن الحضرة، وانتهى السلطان في ذي القعدة آخر سنة اثنتين وثمانين وسبعمئة لتفقد أعماله وابتلاء الطاعة من أهل أوطانه. ولما وصل وافد السلطان إلى أبي مزني ألقى زمامه إليه وحكمه في ذات يده وقبله، ومعاثر المراءوغه واستجد لبؤس الانحياش والطاعة، وبادر إلى استجادة المقربات وانتقاء صنوف التحف، وبعث بذلك في ركاب الوافد مع الذي عليه من الضريبة المعروفة محملاً أكثاد ثقاته وظهور مطايها، ووصلوا إلى معسكر السلطان بساح تبسة فاتح سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة فجلس لهم السلطان جلوساً فخماً ولقاهم قبولاً وكرامة، فعرضوا الهدية، وأعرضوا عن الانحياش والطاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشملهم إحسان السلطان في مقاماتهم وجوائزهم على الطبقات في انصرافهم، وانقلبوا بما ملأ صدورهم إحساناً ونعمة وظفروا برضى السلطان وغطته، وحسبهم بها أمانة ويبد الله تصارف الأمور ومظاهر الغيوب.

الخبر عن انتفاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة

قد ذكرنا ما كان من رجوع أولاد أبي الليل هؤلاء إلى طاعة السلطان إثر منصرفه من فتح قابس، وأنهم وفدوا عليه بالحضرة فتقبلهم وعفا عن كبائرهم واسترهن على الطاعة أبناءهم، واقتضى بالوفاء على ذلك أيمانهم. وخرج الأخ الكريم أبو يحيى زكريا في العساكر لاقتضاء المغارم من هوارة التي استأثروا بها في مدة هذه الفتن. وارتحل معه أولاد أبي الليل وأحلافهم من حكييم حتى استوفى جبايته وجال في أقطار عمله. ثم انكفأ راجعاً إلى الحضرة، ووفدوا معه على السلطان يتوسلون به في إسعافهم بالعسكر إلى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم على العادة واستيفاء إقطاعاتهم، فسرح السلطان معهم لذلك أبا فارس وارتحلوا معه بأحيانهم، وكان ابن مزني وابن يملول من قبله وابن يعقوب بن علي كثيراً ما يرأسلونهم ويستدعونهم لمثل ما كانوا فيه من الانحراف ومشايعة صاحب تلمسان.

يخلصوا على غير المقاربة والوعد لكن على شريطة التوثق من أبي زيان. وبينما هم في ذلك إذ هجم السلطان على الجريد وشرده عنه أولاد أبي الليل الذين تكفلوا لرؤسائه بالمداغة. وافتتح قصعة وتوزر ونقطة ولحق يحيى بن يملول ببسكرة، واستصحب الأمير أبا زيان فنزل على ابن مزني، وهلك لأيام قلائل كما ذكرنا. واستحكمت عندها استرابة يعقوب بن علي شيخ رباح بأمره مع السلطان لما سلف فيه من مداخلة هؤلاء الرهط وتمسكهم بحقوقه والمبالغة في العذر عنهم. ثم غيرته بأنظاره من مشيخة الدواودة الذين انحاشوا إلى السلطان فأفاض عليهم عطاءه، واختصهم بولايته فحدث لذلك منه نفرة واضطراب، وارتحل إلى السلطان أبي حمو صاحب تلمسان فاتح اثنتين وثمانين وسبعمئة يستجيشه هؤلاء الرهط ويهزه بها إلى البدار بصريخهم.

ونزل على أولاد عريف أولياؤه من سويد، وأوفد عليه ابنه فتعلل لهم بمنافرة حدثت في الوقت بينه وبين صاحب المغرب، وأنه لم بالمرصدا متى رابهم ريب من نهوض السلطان أبي العباس إليهم ليمسك بذلك طرف التوثق من أبي زيان، وربما دس إليهم بمشارطة اعتقاله وإلقائه في غيابات السجون. وفي مغيب يعقوب هذا طرق السلطان تمحيص من المرض أرحف له المفسدون بالجريد ودس لشيع آل يملول بخبره إلى صبي من أبناء يحيى غلف ببسكرة، فذهل ابن مزني عن التثبت لها ذهاباً مع صاغية الولد وأولياؤه، وجهزم لانتهاز الفرصة في توزر مع العرب المشارطين في مثلها بالمال، وأخذ السير إلى توزر على حين غفلتهم من الدهر وخف من الجند فجلى المنتصر وأولياؤه في الامتناع، وصدق الدفاع وتمحصت بهذا الابتلاء طاعة أهل توزر ومخالصتهم وانصرف ابن يملول بإخفاق من السعي وأليم من الندم وتوقع للمكارة. ووافق ببسكرة قدوم يعقوب بن علي مرجعه من الغرب فبالغ في تغييبهم بالملامة على ما أحدثوا بعده من هذا الخرق المتسع المعيب على الراقع.

وكان السلطان لأول بلوغ الخبر بأجلابهم على توزر وعمالة ابن مزني على ابنه وأولياؤه، أجمع النهوض إلى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة، وفتح ديوان العطاء وجهاز آلات الحصار. وسرى الخبر بذلك إليهم فخلصوا نجياً ونقضوا عية آرائهم فتمحض لهم اعتقال أبي زيان الكفيل لهم بصريخ أبي حمو على زعمه فتعللوا عليه ببعض النزعات، وتورطوا في إخبار ذمته، وطيروا بالصريخ إلى أبي حمو، وانتظروا فما راعهم إلا وافته بالعذر عن صريخهم والإعاضة بالمال، فتيبنوا عجزه ونبدوا عهده، وبادروا لتخلية السبيل لأبي زيان والعذر له لما كان السلطان نكر عليهم من

تبسة فأراح بهم أياماً حتى توافت أمداده من كل ناحية ونهض يريد توزر. ولما احتل بقفصة قدم أخاه الأمير أبا يحيى وابنه الأمير المتصر في العساكر ومعهما صولة بن خالد بقومه أولاد أبي الليل، وسار على أثرهم في التعبية. ولما انتهى أخوه وابنه إلى توزر حاصروها وضيقوا عليها أياماً. ثم وصل السلطان فزحف إليها العساكر من جوانبها وقتلوا يوماً إلى المساء، ثم باكروها بالقتال فخذل ابن يملول أصحابه وأفردوه فذهب ناجياً بنفسه إلى حلل العرب، ودخل السلطان البلد واستولى عليه وأعاد ابنه إلى محل إمارته منه، وانكفأ راجعاً إلى قفصة، ثم إلى تونس متصفاً أربع وثمانين وسبعماية

ولاية الأمير زكريا ابن السلطان على توزر

ثم عاد ابن يملول إلى الأجلاب على توزر من السنة القابلة وخرج السلطان في عساكره فكر راجعاً إلى الزاب ونزل السلطان قفصة ووافاه هنالك ابنه المتصر، وتظلم أهل توزر من أبي القاسم الشهرزوري الذي كان حاجباً للمتصر فسمع شكواهم، وأنهى إليه الخاصة سوء دخلته وقبيح أفعاله فقبض عليه بقفصة واحتمله مقيداً إلى تونس. وغضب لذلك المتصر وأقسم لا يلي على توزر. وسار معه السلطان إلى تونس وولى السلطان على توزر الأمير زكريا من ولده الأصغر لما كان يتوسم فيه من النجابة فصدمت فراسته فيه وقام بأمرها وأحسن المدافعة عنها، وقام باستئلاف الشارد من أحياء العرب وأمرانهم حتى تم أمره وحسنت ولايته. والله متولي الأمور بحكمته سبحانه.

وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية

كان السلطان لما سار إلى فتح تونس ولى على بجاية ابنه محمداً كما مر وأقام له حاجباً وأوصاه بالرجوع إلى محمد بن أبي مهدي زعيم البلد وقائد الأسطول المتقدم على أهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم. فقام هذا الأمير أبو عبد الله في منصب الملك ببجاية أحسن قيام واصطنع ابن أبي مهدي أحسن اصطناع، فكان يجري في قصوره وأغراضه ويكفيه مهمه في سلطانه، ويراقب مرضاة السلطان في أحواله، والأمير يعرف له ذلك ويوفيه حقه إلى أن أدركته المنية أوائل خمس وثمانين وسبعماية، فتوفي على فراشه، آتس ما كان سرباً وآمن روعاً مشيعاً من رضى أبيه ورعيت بما يفتح له أبواب الرضى من ربه، وبلغ نعيه إلى أبيه بتونس فبادر بإلنفاذ العهد لابنه أبي العباس أحمد

ولما اعتقلوا أبا زيان بيسكرة كما ذكرناه وثوقاً بصريخ أبي هو ومظاهرة. نبضت عروق الخلاف في أولاد أبي الليل ونزعوا إلى اللحاق يعقوب بن علي رجاء فيما توهّموه من استغلاظ أمرهم بصاحب تلمسان وياساً من معاودة التغلب الذي كان لهم على ضواحي إفريقية، ففارقوا الأمير أبا فارس بعد أن أبلغوه مأمته من قفصة، وساروا بأحيائهم إلى الزاب فلم يقبضوا على الغرض ولا ظفروا بالبغيّة، ووافوا يعقوب وابن مزني، وقد جاءهم وافتد أبي هو بالعمود عن نصرتهم، والأمير أبو زيان قد انطلق لسبيله عنهم، فسقط في أيديهم وعادوهم الندم على ما استدبروا من أمرهم، وحلهم يعقوب على مراجعة السلطان وأوفد ابنه محمداً في ذلك مع وافتد العزيز أبي عبد الله محمد بن أبي هلال فقبلهم وأحسن التجاوز عنهم. وبعث أبا يحيى أخاه لاستقدامهم أماناً لهم وتأنيساً. وبذل لهم فوق ما أملوه من مذهب الرضى والقبول واتصال النجح والظهور، والحمد لله وحده.

تغلب ابن يملول على توزر وارتجاعها منه

قد كان تقدم لنا أن يحيى بن يملول لما هلك بيسكرة تخلف صبيّاً اسمه أبو يحيى، وذكرنا كيف أجلب على توزر سنة اثنتين وثمانين وسبعماية مع لفيف أعراب رياح ومرادس. فلما كان سنة ثلاث وثمانين وسبعماية بعدها وقعت مغاضبة بين السلطان وبين أولاد هلال من الكموب، وانحدروا إلى مشاتهم بالصحراء فبعث أميرهم يحيى بن طالب عن هذا الصبي أبي يحيى من بيسكرة، فنزل بأحيائه بساح توزر، ودفع الصبي إلى حصارها، واجتمع عليه شيعته من نواحي البلد وأوشاب من أعراب الصحراء، وأجلبوا على البلد وناوشوا أهلها القتال وكان بها المتصر ابن السلطان فقاتلهم أياماً. ثم تداعى شيعهم من جوانب المدينة وغلّبوا عساكرهم وأحجروهم بالبلد، ثم دخلوا عليهم، وخرج المتصر ناجياً بنفسه إلى بيت يحيى بن طالب. واستدّم به فأجاره وأبلغه إلى مأمته بقفصة، وبها عاملها عبد الله البريكي.

واستولى ابن يملول على توزر، واستنفذ ما معه وما استخرجه من ذخائرهم بتوزر في أعطيات العرب، وزادهم بجاية السنة من البلد بكمالها، ولم يحصل على رضاهم وبلغ الخبر إلى السلطان بتونس، فشمّر عزائمهم وعسكر بظاهر البلد، واعترض الجند وأزاح عنهم وارتحل إلى ناحية الأريص وهو يستألف الأعراب ويجمع لقتال أولاد مهلهل أقتلهم وأعادهم أولاد أبي الليل وأولياءهم وأحلافهم ليستكثر بهم، حتى نزل على فحوص

حركة السلطان إلى قابس

كان السلطان قد فتح مدينة قابس سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وانتظمها في أعماله، وشرذ عنها بني مكى فذهبوا إلى نواحي طرابلس وهلك كبيرهم عبد الملك وعبد الرحمن ابن أخيه أحمد، وذهب ابنه يحيى إلى الحج، وأقام عبد الوهاب بزنزور ثم رجع إلى جبال قابس يحاول على ملكها. واستتب له ذلك بثوب جماعة من أهل البلد بعاملها يوسف الأبار من صنائع السلطان لقبح إيالته وسوء سيرته، فدخلوا جماعة من شيعة بين مكى في ضواحي قابس وقرأها وواعدوهم فجاؤوا لميعادهم وعبد الوهاب معهم، واقتحموا باب البلد وقتلوا البواب. وقصدوا ابن الأبار فقتلوه في مسكنه سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وملك عبد الوهاب البلد واستقل بها كما كان سلفه. وجاء أخوه يحيى من المشرق فأجلب عليه مراراً يروم ملك البلد منه فلم يتهياً له ذلك ونزل على صاحب الحامة وأقام عنده يحاول أمر البلد منها، فبعث عبد الوهاب إلى صاحب الحامة وبذل له المال على أن يمكنه منه فبعث به إليه فاعتقله بقصر العروسيين، وأقام يراوغ السلطان على الطاعة ويبذل ماله في أعراب الضاحية من ذباب وغيرهم للمدافعة عنه، ومنع الضريبة التي كانوا يؤدونها للسلطان أيام طاعتهم، والسلطان مشغول عنهم بمهمه، فلما فرغ من شواغله بإفريقية والزاب نهض إليه سنة تسع وثمانين وسبعمائة بعد أن اعترض عساكره واستألف من العرب أولياءه وسرب فيهم عطاء.

ونزل على قابس وقد استعد لها وجمع الآلات لحصارها فأكسح نواحيها، وجثم عليها بعساكره يقاتلها ويقطع نخيلها حتى أعاد الكثير من الفرفة... براحاً وموج الهواء في ساحتها، فصح بعد أن كانوا يستوخونه لاختفائه بين الشجر، وفي متكاثف الظلال وما يلحقه في ذلك من التعفن، فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوخم رحمة من الله أصابتهم من عذاب هذا السلطان، وربما صحت الأجسام بالعلل.

ولما اشتد بهم الحصار وضاق المختق، وظن ابن مكى أنه قد أحيط به استعجب للسلطان واستأمن فاعتبه وأمنه ورهن ابنه على الطاعة وأداء الضريبة وأفرج عنه السلطان وانكفأ راجعاً إلى تونس، واستقام ابن مكى حتى كان من تغلب عمه يحيى عليه ما ذكره.

بولاية بجاية مكان أبيه وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي مستبداً عليه واستقامت الأمور على ذلك.

حركة السلطان إلى الزاب

كنت أنتهي بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من يد ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس، ثم ركبنا البحر منتصف أربع وثمانين وسبعمائة إلى بلاد المشرق لقضاء الفرض، ونزلت بالإسكندرية ثم بمصر، وصارت أخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين، فمن أول ما بلغنا وفاة هذا الأمير ابن السلطان ببجاية سنة خمس وثمانين، ثم بلغنا بعدها حركة السلطان إلى الزاب سنة ست وثمانين وسبعمائة، وذلك أن أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب لهذه كان مضطرب الطاعة يغير على السلطان وكان يمنع في أكثر السنين المغارم معولاً على مدافعة العرب الذين ملكوا ضواحي الزاب والتلول دونه، وأكثر وثوقه في ذلك يعقوب ابن علي وقومه الدواودة، وقد مر طرف من أخباره في ذلك مثبتاً في أخبار الدولة. وكان ابن يملول قد أوى إلى بلده واتخذ وكراً في وجوه، وأجلب على توزر مراراً برأيه ومعنته فأحفظ ذلك السلطان ونبه له عزائمه.

ثم نهض سنة ست وثمانين وسبعمائة يريد الزاب بعد أن جمع الجموع واحتشد الجنود واستألف العرب من بني سليم فساروا معه وأوعبوا، ومر على فحص تبة. ثم خرج من طرف جبل أوراس إلى بلد تهودا من أعمال الزاب، واعصوصب الدواودة ومن تبعهم من قبائل رياح على المدافعة دون بسكرة والزاب غيرة من بني سليم أن يتركوا أوطانهم أو يردوا مراعيهم إلا بني سباع بن شبل من الدواودة، فإنهم تحيزوا إلى السلطان.

واستفر ابن مزني حماة وطنه ورجالة قومه من الأثبيح فغصت بسكرة بمجموعهم وتوافست الفريقان، وناوشهم السلطان القتال أياماً وهو يرأس يعقوب بن علي ويستحثه لما كان يطعمه به من المظاهرة على ابن مزني، ويعقوب يخادعه بانحراف قومه عنه واتلافهم على ابن مزني ويرغبه في قبول طاعته ووضع أوزار الحرب مع رياح حتى تمكن له فرصة أخرى، فتقبل السلطان نصيحته في ذلك وأغضى لابن مزني ولرياح عنها، وقبل طاعته وضريته المعلومة، وانكفأ راجعاً، ومر بجبل أوراس ثم إلى قسطنطينة فأراح بها، ثم ارتحل إلى تونس فوصل إليها منتصف سنة ثمانين وسبعمائة.

رجوع المنتصر إلى ولايته توزر وولاية أخيه زكريا على نفطة ونفزاوة

كان العرب أيام ولاية المنتصر بتوزر قد حمدوا سيرته وأصفقوا على محبته والتشيع له، فلما رجع السلطان عن قابس رغبوا إليه في طريقه إلى أن تولى المنتصر على بلاد الجريد كما كان ويردد على عمله بتوزر. وتولى ذلك بنو مهلهل وأركبوا نساءهم الظعن في الهودج واعترضوا بهن السلطان سافرات مولولات دخلاء عليه في إعادة المنتصر إلى توزر لما هم فيه من المصالح فقبل السلطان وسيلتهن وأعادته إلى توزر، ونقل ابنه زكريا إلى نفطة وأضاف إليها عمل نفزاوة فسار إليها واستعمله وأظهر من الكفاية والاضطلاع ما تحدث به الناس عنه، وكانت ولايته أول سنة تسعين وسبعمائة.

فتنة الأمير إبراهيم صاحب قسطنطينية مع الدواودة ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة الأمير إبراهيم إثرها

كان للدواودة بقسطنطينية عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة لما بأيديهم من البلاد في التلؤل والزاب باقطاع السلطان وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضاقت الجباية وصار العرب يزرعون الأراضي في بلادهم بالتلؤل ولا يحسبون بمغارمها فيضيق الدخل ويمنعهم العطاء من أجل ذلك، فتفسد طاعتهم وتنطبق بالغيث والنهب أيديهم.

ولما رجع الأمير إبراهيم من حركته في ركاب أبيه إلى قابس، وكان منذ أعوام ينقص من عطائهم لذلك، ويعللهم بالمواعيد، فلما قفل من قابس اجتمعوا إليه وطلبوا منه عطاءهم فتعلل عليهم، وجاءه يعقوب بن علي مرجعه من الحج وأشار عليه بإنصاف العرب من مطالبهم فأعرض عنه وارتمل لبعض مذهبهم، وتركه ونادى في العرب بالفتنة معه يروم استلاف أعدائه فأجابه الكثير من أولاد سباع بن شبل وأولاد سباع بن يحيى وبإيديهم من ذؤبان رياح، وخرج يعقوب من التلؤل فتزل في تقاوس فأقام بها، وانطلقت أيدي قومه على تلؤل قسطنطينية بالنهب وانتساف الزروع حتى اكتسحوا عاصمتها ولحقوا به مالتى اليد مثقلي الظهر.

ثم طرقه المرض فهلك سنة تسعين وسبعمائة ونقلوا شلوه إلى بسكرة فدنفوه بها وقام مكانه في قومه ابنه محمد. واستمر على

العصيان وصعد إلى التلؤل في منتصف إحدى وتسعين وسبعمائة واستألف الأمير إبراهيم أعداءه من الدواودة وأحلافهم من البادية وجنح إليه أبو ستة بن عمر آخر يعقوب بن علي بما معه من أولاد عائشة أم عمر، وخالفه أخوه صميت إلى محمد بن يعقوب، ثم تحاربوا مع الأمير إبراهيم فهزموه وقتل أبو ستة ثم جمع السلطان لحربهم ودفعهم عن التلؤل ومنعهم من المصيف عامهم ذلك. وانحدروا إلى مشاتهم وعجزوا بعدها عن الصعود إلى التلؤل وقضوا مصيفهم عامهم ذلك بالزاب، وانحدروا منه إلى المشاتي فلما رجعوا من مشاتهم وقد فقدوا الميرة انطلقت أيديهم على نواحي الزاب فاتسفوا زروعه، وكاد أن يفسد ما بينهم وبين ابن مزني مظاهرهم على تلك الفتنة. ثم ارتحلوا صاعدين إلى التلؤل وقد جمع الأمير إبراهيم لدفاعهم عنه. وبينما هو في ذلك ألم به طائف من المرض فتوفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وافتقرت جموعه وأغذ محمد بن يوسف السير إلى نواحي قسطنطينية فاحتل بها مظاهراً للطاعة متبرئاً من الخلاف، ونادى في أهل البلاد بالأمان والعمارة فصلحت أحوال الرعايا والسابلة. وبعثوا إلى السلطان بتونس مستأمنين مستعيتين فأمهم وأعجبهم وأقام بقسطنطينية مكان ابنه إبراهيم ابنه، وبعث من حضرته محمد بن مولاه بشير لكفالاته والقيام بدولته فقام بأمرها، وصلحت الأحوال.

منازلة نصارى الفرنج للمهدية

كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم التغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره مثل: دانية وسردانية وميورقة وصقلية، وملأت أساطيلهم فضاءه ونخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها، وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيلهم ومران راكميهم فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أياماً. ثم فشل ربح الفرنجة واختل مركز دولتهم بإفرنسة، وافتقرت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولاً متعددة فتنهت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفراء والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول ويختارون له أبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائره على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً

انتقاض قفصة وحصارها

كان السلطان أبو العباس قد ولى على قفصة عندما ملكها ابنه الأمير أبا بكر وأقام في خدمته من رجال دولتهم عبد الله التركي من موالي جدهم السلطان أبي يحيى فانتظم به أمره وأقام بها حولاً. ثم تجافى عن إمارتها ولحق بابيه بتونس سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة فجعل السلطان أمر قفصة لعبد الله التركي وولاه عليها ثقة بغنائه واضطلاعه. ولم يزل بها والياً إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وسبعمائة وولى السلطان مكانه ابنه محمداً، وكان له إخوة أصغار أبناء علات فنافسوه في تلك الرتبة وحسدوه عليها، وأغراهم به عمد الدنيديون من قرابة أحمد بن العابد كان ينظر في قسمة الماء بالبلد، وكان فيها عدلاً معقلاً، فلم تطرقه النكبة كما طرقت قومه، وأبقاه السلطان بالبلد فأغرى هؤلاء الإخوة بأخيهم ووثبوا به فاعتقلوه وأظهروا العصيان. ثم حمله أعيان البلد على البراءة من بني عبد الله التركي استرابة بهم أن يراجعوا طاعة السلطان فتوئب بهم وأخرجهم واستصفاهم واستقل برئاسة البلد كما كان قومه، والسلطان في خلال ذلك يرعد ويرق ويواصل الأعذار والإنذار، وهم قد لجوا في طغيانهم. ثم جمع جنوده واحتشد واستألف الأعراب ووفر لهم الأعطيات. ونهض إليها حتى نزل بساحتها منتصف خمس وتسعين وسبعمائة وقد استعدوا وتحصنوا فالح عليهم القتال وأذاقهم النكال، وقطع الميرة فضيق مخفقهم. ثم عدا على نخلهم فقطعها حتى صرع جذوعها وفسح المجال بين لفافها.

ولما اشتد بهم الحصار وضاق عليهم المخرج، خرج شيخهم الدنيدن إلى السلطان يعقد معه صلحاً على بلده وقومه فغدر به، وحسبه رجاء أن يملك بذلك البلد. وكان بعض بني العابد اسمه عمرو بن الحسن قد اتبذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد في المغرب، ثم رجع ونزل بأطراف الزاب. ولما استقل الدنيدن بقفصة قدم عليه فأقام معه أياماً ثم استراب به وتقبض عليه وحسبه. فلما غدر به السلطان اجتمعت عليه المشيخة وعقدوا له الإمرة، وبعثوا إلى العرب يسترحمونهم ويعطفونهم على ذخيرتهم فيهم. وسربوا إليهم الأموال فتصدى إلى الدفاع عنهم صولة بن خالد بن حمزة البلد، وكان أولياؤه من العرب قد أبعدوا عنه في الجهات لانتجاع إيلهم فما راعه إلا إطلاق صولة براياته في قومه فأجفل وأتبعوه. وما زال بكر عليهم في بنيه وخواصه حتى ردهم على أعقابهم. وأغذ السير إلى تونس وهو في اتباعه، ولم يظفروا منه

ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما يتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدايهم بما يتعذر معه أو يكاد، فتش ذلك على أمم الفرغية وملا قلوبهم ذلاً وحسرةً وعجزوا عن الثأر به، وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفرقية فصم عن سماعها وتطارحوا بثمهم وئكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزال المسلمين والأخذ بالثأر منهم.

وبلغ خبر استعدادهم إلى السلطان فسرح ابنه أبا فارس يستفر أهل النواحي ويكون رصداً للأسطول هنالك، واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم أو مجاورهم من أمم النصرانية، وأقلعوا من جنوة فحطوا بمرسى المهديّة منتصف اثنتين وتسعين وسبعمائة وطرقوها على حين غفلة، وهي على طرف البر داخل في البحر كأنه لسان دالغ فأرسوا عندها، وضربوا عند أول الطرف سوراً من الخشب بينه وبين البر حتى أصاروا المعقل في حكمهم، وعالوا عليه بالأبراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكنوا من قتال البلد ومن يأتيهم من مدد المسلمين، وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البحر يشرف على أسوار المعقل لتعظم نكابتهم، وتحصن أهل البلد وقتلهم صابرين محتسين. وتوافت إليهم الأمداد من نواحي البلد فحال دونهم الفرغية.

وبلغ الخبر إلى السلطان فأهمه أمرها وسرح العساكر تشرى إلى مظاهرتهم. ثم خرج أخوه الأمير أبو يحيى زكريا وسائر بنيه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا لجهاد هذا العدو، واستتفر المقاتلة من الأعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها أمم، وألخوا على الفرغية بالقتال ونضح السهام حتى أحجروهم في سورهم. وبرز الفرغية للقتال فكان بينهم وبين المسلمين جولة جلى فيها أبناء السلطان، وكاد الأمير أبو فارس منهم أن يتورى لسولا حماية الله التي وقته. ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من أسوار البلد فاحترق البرج المثل عليها من جهة البحر فوجوا لحريقه. ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم، وخرج أهل المهديّة يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الأمراء على ما اعتمدوه في نصرهم، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾. وأمر الأمير أبو يحيى برم ما تلم من أسوارها، ولم ما تشعب منها، وقتل إلى تونس وقد أنجح الله قصدهم وأظهرهم على عدوهم.

فأجابوه وساروا معه بجمعهم سنة ست وتسعين وسبعمائة فبيتها وملكها، وقبض على رئيسها يحيى بن عبد الملك بن مكي فضرب عنقه، وانقرض أمر بني مكي من قابس واستقل بها الأمير عمر مضافة إلى ما كان بيده، والله وارث الأمور.

وفاة السلطان أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس عزوز

كان السلطان أبو العباس قد أزمّن به وجع النقرس حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في الحفة. ثم اشتد به آخر عمره وأشرف في سنة ست وتسعين وسبعمائة على الهلكة. وكان أخوه زكريا رديفه في الملك والمرشح بعده للأمر، وابنه أحمد والياً في بونة موضع إمارته من قبل. وكان للسلطان أولاد كثيرون يتناولون إلى مكان أبيهم وينصون بهمهم زكريا، ويخشون غائلته بعد أبيهم، فلما قارب السلطان منيته اشتد جزعهم وإشفاقهم من عمهم. وبعث السلطان كبيرهم أبا بكر يعهده على قسطنطينية فسار إليها بين أيدي موته، واعصروصب الباقون على كبيرهم بعده أبي فارس عزوز فقبضوا على عمهم زكريا وقد دخل يعود أخاه، وأودعوه في بعض الحجر واكلوا به، وهلك السلطان لثلاث بعدها فبايعوا أخاهم أبا فارس رابع شعبان سنة ست وتسعين وجاء أهل البلد إلى بيعته أفراجاً من الأعيان والكافة فتمت بيعته، وأمر بنقل ما في بيوت عمه من الأموال والذخيرة إلى قصره حتى استوعبها، وضيق عليه في محبسه، وقام بتدبير ملكه وسياسة سلطانه. وولى بعض إخوانه على منابر عمله بإفريقية فبعث أحدهم على سوسة والثاني على المهديّة، وردف أخاه إسماعيل في ملكه بتونس، وأحل الباقيين محل الشورى والمفاوضة.

وبلغ الخبر إلى أخيه المنتصر بتوزر فاضطرب أمره ولحق بالحامة فأقام بها. وكذلك أخوه زكريا بنقطة فلحق بجمال فنزّاه. وكان أخوه أبو بكر لما سار إلى قسطنطينية لولاية أبيه قبيل وفاته مر ببونة فلقه صاحبها الأمير محمد ابن عمه زكريا بما شاء من أنواع الكرامة والمهرة ووافى قسطنطينية فطلب منه القاتمون بها كتاب السلطان يعهده عليها فأقرهم إياه، وفتحوا له الأبواب فدخل واستولى على أمرها. وكان خالصة السلطان محمد بن أبي هلال قد بعثه السلطان قبيل موته إلى السلطان أبي العباس بن أبي سالم في التولي بالمغرب بعد وفاة أبيه السلطان أبي العباس بن أبي سالم في صفر من شهور السنة، وحمله من الهدايا والتحف ما يليق بأمره فأسار. فلما انتهى إلى ميلة بلغه الخبر بوفاة السلطان مرسله وأوعز

بعقال إلا ما كان من طعن القنا ووقع السيوف حتى وصل إلى حضرته. ثم ندم صولة على ما كان منه وأرسل السلطان بطاعته فلم يقبله، وانحدر إلى مشاتيه سنة ست وتسعين وسبعمائة.

واستدعى ابن يملول من عش نفاقه بسكرة فخفف إليه ودفعه إليها تربيته في الغي أحمد بن مزني صاحب الزاب. ووصل ابن يملول إلى صوله فأغراه بحصار توزر، ونزل معه عليها بقومه فجلّى الأمير المنتصر في دفاعهم والامتناع عليهم حتى يشعوا، واضطربت آراؤهم وأفرجوا عنها مفترقين. وصعد صولة إلى التل للمصيف به، وعاد الرغبة من السلطان في قبول طاعته. وكان محمد الدينيدن لما أجفل السلطان عن قصص تركه تلك الناحية، فلما وصل إلى تونس أرسل أهل قصص في الرجوع إليهم فأجاب به بعض أشياخه، ودخل البلد فنذر به عمر بن العابد وكبسه مكانه الذي نزل به وقتله، واستبد بمشيخة قصص وخشي أهل قصص من غائلة السلطان وسوء غيبة العصيان فبعثوا إلى السلطان بطاعتهم، وشرط عليهم نزول عامله عندهم، وهذا آخر ما بلغنا عنهم ولم يبلغنا أنه عقد لهم ولا لصولة أمراً والله يصرف الأمور بحكمته.

ولاية عمر ابن السلطان على صفاقس واستيلائه منها على قايس وجزيرة جربة

هذا الأمير عمر ابن السلطان هو شقيق إبراهيم الذي كان أميراً بقسطنطينية، وكان في كفالة أخيه إبراهيم. فلما توفي كما مر لحق بالسلطان أبيه وأقام عنده. ولما كان من وفاة أبي بكر بن ثابت شيخ طرابلس ما قدمناه واضطرب قومه من بعده، ونزع قائدهم قاسم بن خلف إلى السلطان فبعث معه ابنه عمر هذا سنة اثنين وتسعين وسبعمائة لحصار طرابلس، وأقام عليها حولاً كريئاً يحاصرها ويمنع الأقوات عنها، حتى ضجروا وضجر من طول الإقامة فدافعوه بالضربة وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة ووافاه جائئاً على قصص عندما انتفضوا عليه، وقد كان مر في طريقه على جربة وأراد الدخول إليها فمعه عامل أبيه بها من الموالي العلوجي فانف من ذلك، وشكاه إلى أبيه فولاه على صفاقس، ووعد بولاية جربة فسار هو إلى صفاقس وأجاز البحر إلى جزيرة جربة، وانضم إليه جميع من بها من القبائل. وامتنع العليج منصور العامل بمحبستها المسمى بالقشتيل بلسان الفرنج، حتى كاتب السلطان فأمره بتمكين ابنه من الحصن والإفراج له عن الجزيرة أجمع، فاستبد بها. ثم إن الأمير عمر سما إلى ملك قابس، فداخل أهل الحامة جارتها المجلبة عليها على الأيام في ذلك

مزني لفقاً من لفائق الأعراب، وصلوا إلى إفريقية أحلافاً لطوالع بني هلال بن عامر في المائة الخامسة كما قدمناه.

ونسبهم بزعمهم في مازن من فزارة والصحيح أنهم في لطيف من الأثيج. ثم من بني جرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف، واسم أبيهم مزنة بن ديفل بن محيا بن جرى، هكذا تلقيتهم من بعض نسابة الهلالين، وشهد لذلك الوطن، فإن أهل الزاب كلهم من أفريق الأثيج عجزوا عن الظعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح، وإنما يرغبون عن هذا النسب فزارة لما صار إليه أهل الأثيج بالزاب من المغرب والوضائع، فيستكفون لذلك ويتسبون إلى غرائب الأنساب. وكان أول نزولهم بقرية من قرى بسكرة وكانت تعرف بقرية حياس. ثم عفوا وتأنلوا وأخذوا مع أهل بسكرة يحظ وأفر من ثملك العقار والمياه. ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال، وقاسموا أهلها في الخلو والمر، وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة. ثم استنكف بنو رمان من انتظامهم معهم وحسدوهم على ما آتاهم الله من فضله، وحذروهم على أنفسهم فاضطربت بينهم نار العداوة والإحن، وكان أولها الكلام والترافع إلى سدة السلطان بتونس على حين استقلال أبي حفص بإفريقية، ولعهد الأمير أبي زكريا وابنه السلطان المستنصر. ثم تناجزوا الحرب وتواقعوا سكك المدينة وكانت صاغية الدولة مع بني رمان لتقديم في البلد.

ولما خرج الأمير أبو إسحاق على أخيه محمد المستنصر لأول بيعته، ولحق بالدواودة من العرب ويابح له موسى بن محمد بن مسعود البلط أمير البدو يومئذ، واعتمر به بسكرة وبلاد الزاب، وأناخ عليها بكلكله كما قدمناه. قام يومئذ فضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني بدعوته، وأعلن بين أهل البلد بطاعته واتباعه على كره. ثم عاجلتهم عساكر السلطان وأجهضتهم عن الزاب، فاعتلق فضل بن علي به، واستمسك بذيله وصحبه في طريقه إلى الأندلس، ویدار غربته منها إلى أن هلك المستنصر أخوه، وهيا الله له من أمر الخلافة ما هيا حسباً ذكرناه. ولما تم أمره واقعد بتونس كرسي خلافته عقد لفضل بن علي على الزاب ولأخيه عبد الواحد على بلاد الجريد رعيًا لذمة خدمتهما، وذكرًا لاتلافهما في المنزل الحشن وصحبتهما، فقدم والياً على الزاب، ودخل بسكرة واستكان بنو رمان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة إلى أمره فلم ينسوا بكلمة في شأنه، واضطلع بتلك الولاية ما شاء الله.

ثم كان شأن الداعي بن أبي عمارة وتليسه، ومهلك

إليه الأمير أبو بكر من قسطنطينة بالرجوع إليه فرجع بهديته، واستقر عنده هنالك. هذا آخر ما بلغنا من الأخبار الصحيحة عنهم لهذه السنين وحالهم على ذلك لهذا العهد، والملك بيد الله يؤتیه من يشاء.

الخبر عن بني مزني أمراء بسكرة وما إليها من الزاب

هذا البلد بسكرة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد، وحده من لدن قصر الدوسن بالمغرب إلى قصور تنومة وبادس في الشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمونه الحضنة جبل جاتم من المغرب إلى المشرق، ذو ثنایا تقضي إليه من تلك الحضنة، وهو أبل درن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة بركة. ويعمر ذلك الجبل في محاذة الزاب من غريبه بقايا عمرت من زناتة، ويتصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الشمال. وهو جبل مشهور الذكر يأتي الخبر عن بعض ساكنيه. وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعاً جمعاً، يعرف كل واحد منها بالزاب. وأولها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس. وبسكرة أم هذه القرى كلها، وكانت مشيختها في القديم بعد الأغالبة والشيعا لعهد صنهاجة ملوك القلعة في بني رمان من أهلها بما كثروا ساكنها. وملكوا عامة ضياعها. كان لجعفر بن أبي رمان منهم صيت وشهرة.

وربما نقضوا الطاعة لعهد بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة في سني خسين وأربعمئة، وضبطوا البلد وامتنعوا. وتولى كبر ذلك جعفر بن أبي رمانة، ونازلتهم جيوش صنهاجة إلى نظر الوزير خلف بن أبي حيدرة من صنائع الدولة فاقتمها عليهم، واحتملهم إلى القلعة فقتلهم بلكين جميعاً، وجعلهم عظة لمن بعدهم. وأصار أمر الشورى لبني سندي من أهلها. وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة ونحياش إلى الدولة على حين تقلص ظلها وقشل ريجها، والوى الهرم بشبايها. وهو الذي فتك بالمتنصر بن خزون الزناتي عند وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة وأعراب الأثيج وبني عدي وبني هلال، فمكر به السلطان وأقطعنه ضواحي الزاب وريغة طعمة. ودس إلى عروس في الفتك به ففعل كما قدمنا ذكره في أخبار آل حماد. وانقرضت رئاسة بني سندي بانقراض أمراء صنهاجة من إفريقية. وجاءت دولة الموحدین، والكثرة والبيست لبني زمان. وكان بنو

كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي فساهمهم في جبايتها حتى كاد يغلبهم عليها. ووفر أموال الدولة وأتمى الخراج وصانع رجال السلطان فآلقوا عليه بالحبة، وجذبوا بضيعه إلى أقصى مراتب الاصطناع، فأثرى واحتجزت الأموال ورسخت عروق رئاسته ببسكرة، ورسخت منابت عزه وهلك المولى أبو زكريا الأوسط على رأس المائة السابعة، وولوا مكانه ابنه الأمير أبا البقاء خالداً كما قدمناه، وقام بأمره حاجبه أبو عبد الرحمن بن غمر.

وكان منصور بن فضل هذا اختصاص به واعتلاق بيد جابه فاستنام إليه وعول في سائر الضواحي من ممالك السلطان على نظره، وعقد له على بلاد التل من أرض سدريش وعياض فاستضافها إلى عمله، وجرد عن ساعد كفايته في جبايتها فلحق عقيمها وتفجرت ينابيعها. ثم حدثت بينه وبين الدولة منافرة وأجلب على قسطنطينية يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحاق جأجا به من تلمسان، ويابغ له واستألف الدواودة لمشايسته، ونازل به قسطنطينية ثم أطلع على مكان صدره فيه وما طوى عليه من التريص به فحل عقده، ولحق ببسكرة ببسكرة، وراجع الطاعة. ولحق به يحيى بن خالد واعتقله إلى أن هلك سنة عشرين وسبعمئة وكانت بينه وبين المرابطين أهل السنة من العرب أتباع سعادة المشهور الذكر فتن وحروب، وطالبوه بترك المغارم والمكوس تحفيفاً عن الرعية وعملاً بالسنة التي كانوا ملتزمين لطريقها، ونازلوه من أجل ذلك ببسكرة مراراً. ثم هلك سعادة في بعض حروبه على مليلي كما مر في ذكره سنة خمس وسبعمئة. وجمع منصور بن مزني للمرابطين، وبعث عسكره يقوده ابنه علي بن منصور مع علي بن أحمد شيخ الدواودة، وعلى المرابطين أبو يحيى بن أحمد أخوه ومعه رجالات المرابطين مثل: عيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد عساكر، وعطية بن سليمان بن سباع وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا ابنه علياً وتقبضوا على علي بن أحمد، ثم منوا عليه وأطلقوه. ورجعوا إلى بسكرة فنازلوها وقطعوا نخيلها. ثم عاودوه ثانية وثالثة. ولم يزل الحرب بينه وبين هؤلاء المرابطين فتن سائر أيامه. وكان الحاجب ابن غمر قد استخلصه لنفسه وأحل محل الثقة بمخلته واستقامه إلى صفاته.

ولما نهض السلطان أبو البقاء إلى تونس صحبه الحاجب في جلته حتى إذا عمل المكيدة في الانصراف عن السلطان شاركه في تدبيرها إلى أن تمت كما قدمناه. ورجع الحاجب إلى قسطنطينية ورده إلى مكان عمله من الزاب. وكان يتردد إليه ببجاية للزيارة والمطالعة في أعماله إلى أن غدر به العرب في بعض طرقه إليها.

السلطان أبي إسحاق على يده. ثم ثار منه السلطان أبو حفص بأخيه واسترجع ما ضاع من ملكهم، وكل منهم يشق بغناؤه، ويعول في أمر الزاب على كفايته. وسيم أعداؤه بنو رمان أيام ولايته فداخلوا أولاد حريز من لطيف إحدى بطون الأتابيج، كانوا نزلوا بقربة ماشاش لضيق المدينة حين عجزوا عن الظعن، وخالطوا أهل البلد في أحوالهم وامتزجوا معهم بالنسب والصهر فأغروهم بفضل بن علي أن يكون التقدم لهم في الفتك به، وتناول الأمر من يده، وأن يخرجوا بيوتهم من قرية ماشاش بأيديهم ليسكنوا إليهم ويطمئنا إلى ولايتهم حلفاً عقدوه على المكر بهم. ولما أوقعوا به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة ثلاث وثمانين وستمئة ونزلوا من أمر الزاب ما كان يتولاه، تنكر لهم بنو رمان لحولين من ذلك الحلف، وناذبوهم العهد فخرجوا عن البلد وفقدوا المأوى للتمرس بها من قريب، وتفرقوا في بلاد ريغة، واستبد بنو رمان بشورى بسكرة والزاب منتقذين عليهم وعلى السلطان، والدواودة قد تغلبوا عليه وعلى بلاد الحضنة من ورائه نقاوس ومقرة والمسيلة. وكان منصور بن فضل بن علي عند مهلك أبيه بالحضرة في بعض شؤونه. فلما هلك أبوه واستبد بنو رمان بعده، ثوا السعاليات فيه إلى السلطان بالحضرة فأنجحت، وتقبض عليه واعتقل أيام السلطان أبي حفص.

ولما تغلب المولى أبو زكريا يحيى ابن الأمير أبي إسحاق على بجاية وقسطنطينية وبونة، واستقل بأمرها وانقسمت دولة آل أبي حفص بملكه ذلك منها، تمسك أهل الزاب بدعوة صاحب الحضرة المولى أبي حفص وفر منصور بن فضل بن علي من محبه بتونس ولحق ببجاية بعد مهلك الحاجب القائم بالأمر أبي الحسين بن سيد الناس وتولية السلطان أبي زكريا مكانه كاتبه أبو القاسم بن أبي يحيى سنة إحدى وتسعين وستمئة، فلأزم خدمته وخفف عليه وصنعه بوجوه التحف وتضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه، وتسريب أمواله وجبايته إليه واستماله بذلك، فعقد له على الزاب وأمد به بالعسكر فنازل بسكرة ووجد أهلها بنو رمان على السلطان ببجاية يبيعهم فرجعهم على الأعقاب إلى عاملهم منصور، وكتب إليه بقبول فينتهم، ودخل البلد سنة ثلاث وتسعين وستمئة، وكادهم في بناء القصر لشيئته، وتحصن العسكر بسوره. ثم نابذهم العهد، وثار بهم فأجلاهم عن البلد، واستمكن فيه ورسخت قدم إمارته فيها، واستند بجاية السلطان، واتسع له نطاق العمالة، فاستضاف إلى عمل الزاب جبل أوراس وقرى ريغة وبلاد واركلي وقرى الحصنة: مقرة ونقاوس والمسيلة. فعقد له السلطان على جميعها، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها إذ

وناول عبد الواحد هذا لآل زيان غنائقي الدولة طرفاً من جبل طاعته تقبل فيها مذهب أبيه آخر عمره. وطال تمرس الجيوش به إلى أن استجن منه عبد الواحد بصهر عقده له على ابنته، واشترط المهادنة وتسليم الجباية، وتودع أمره إلى أن اغتاله أخوه يوسف سنة تسع وعشرين وسبعماية بمداخلة بطانتهم من بني سباط وبني أبي كرواية. ولما أحكم مداخلتهم في شأنه آذنه عشاء الشورى معه في بعض المهمات، وطعنه بخنجره فأشواه وهلك لحينه. واستقل يوسف بن منصور بإمارة الزاب ووصله مرسوم السلطان بالتقليد والخلع على العادة، وأجرى الرسم في الدعاء له على منابر عمله.

وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر لحجابه، وفوض له أمور مهلكه، فلهجت نار العداوة والإحـن القديمة بما بينه وبين يوسف بن منصور عامل الزاب، وهم به لولا ما أخذ بحجزته من الشغل الشاغل للدولة بتحيف آل زيان وهلك الحاجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعماية في نكبة السلطان إياه كما ذكرناه، وعقد لمحمد بن الحكيم على القيادة وجعل بيده زمام العساكر، وفوض له سائر القرى والضواحي، فأجرى رئاسته وحكمه في دولته وتقلب على أمره حين فرغ السلطان من الشغل بمداخلة عدوه، وحط ما كان من إصرهم على كاهل دولته. ونهض السلطان أبو الحسن إلى يغمراسن فقلع أظفار أعدائهم وقل شبا عزائهم كما شرحناه قبل، فأذكى القائد محمد بن الحكيم مع يوسف بن منصور نار العداوة، وأثار له من السلطان كامن الحفيظة وصرف وجوه العزائم إلى حمله على الجسادة وتقويمه عن المراوغة في الطاعة، وناهضه بالعساكر مرات ثلاثاً يداخه في كلها بتسليم الجباية إليه. ثم كانت بينه وبين علي بن أحمد كبير الدواودة فن حروب دعا إليها منافسة علي في استئثاره بمال الجباية دونه فواضع الحرب، ودعا العرب إلى منازلته بموها بالدعاء إلى السنة، وحشد أهل ريغة لذلك ونازله، وانحرف عنه ابنه يعقوب ودخل إلى بسكرة فاصهر له ابن مزني في أخته بنت منصور بن فضل، وعقد له عليها، فحسن دفاعه عنه، وبعث ابن مزني عن سليمان بن علي كبير أولاد سباع، وقريع علي بن أحمد في شؤون، فكان عنده ببسكرة يغاديه القتال ويروحه إلى أن امتنع ابن مزني.

ورحل علي بن أحمد عن بسكرة وصار مع ابن مزني إلى الاتفاق والمهادنة أعوام الأربعين من المائة الثامنة. ثم كانت غزاة القائد بن الحكيم إليه نهض من إفريقية بعد أن نازل بلاد الجريد، واقتضى طاعتهم ومغارهم، واسترهن ولد ابن يملول. ثم ارتحل إلى الزاب في جنوده ومعه العرب من سليم فأجفل بالزاب ونزل بلد أوماش من قراه، وفرت العرب من الدواودة وسائر رباح

وتقبض عليه من أمراء الدواودة علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود، وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى بن مسعود على حين اجتذبا جبل الإمارة من يد عثمان بن سباع بن شبل بن موسى بن محمد، واقتسما رئاسة الدواودة قومهما فاستمكنا من هذا العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله ببلاد سدويكش، وأوثقوه اعتقالاً، وهمروا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب وارتاشوا بمكسوبيهم، وصرفوا في وجوه رئاستهم ألفاً منها، وقبض منصور بن فضل عنائه عن السفر بعدها إلا في الأحيان. وبعد أخذ الرهن من العرب إلى أن كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى إلى تونس سنة سبع عشرة وسبعماية أول حركاته إليها، وطالب حاجبه يعقوب بن غمر وهو بثمر بجاية بالأموال للنفقات والأعطيات، فبعث إليه منصور بن فضل وأشار بعقده له على حجابه ليقوم بأمره، ويكفيه مهمات شؤونه واعتدها منصور على ابن غمر فساء ظنه، وتكر له ابن غمر، وحالت صبغة وده وانكفا السلطان من حركته تلك تخفق السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدمناه. ولما احتل بقسنطينة بدت له من يعقوب بن غمر صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به، وترددت بينهما الرسل وبعث له ابن غمر في منصور بن فضل. ونذر منه بالشر فاجاب داعيه، وصحب قائد السلطان يومئذ محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس إليه، حتى إذا كان ببعض الطريق عدل إلى بلدته، وهم به القائد فأجاره أولياؤه من العرب: عثمان بن الناصر شيخ أولاد حربي ويعقوب بن إدريس شيخ أولاد خنفر ومن معهم من ذويهم. ولحق ببسكرة وبلغ الخبر إلى ابن غمر ففرغ سن الندم عليه، وشايع منصور بن مزني عدوهم صاحب تلمسان أبا تاشفين ودخل في دعوته وأوفد ابنه يوسف عليه بالطاعة والهدية.

وملك السلطان خلال ذلك تونس وسائر بلاد إفريقية وهلك ابن غمر سنة تسع عشرة وسبعماية ولم يزل منصور بن مزني ممتنعاً سائر أيامه على الدولة، والعساكر من بجاية تتردد لمنازلته إلى أن هلك سنة خمس وعشرين وسبعماية، وقام بأمره من بعده ابنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل أبيه بالزاب، واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية: قرى ريغة وواركلي. وكان السلطان قد عقد على الثغر بعد مهلك ابن غمر لمحمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، وجعل له كفالة ابنه يحيى ودفعه إليه فتجددت الوحشة بين عبد الواحد هذا وبين صاحب الثغر في سبيل المنافسة في المرتبة عند السلطان لما كانوا جميعاً صنائع وبطانة للحاجب ابن غمر. وبعث العساكر لحربه ومنازلة حصنه.

والبدو ورؤساء النواحي سنة أربع وخمسين وسبعمائة ووفد في جلتهم يوسف بن منصور أمير الزاب ويعقوب بن علي أمير البدو وسائر الدواودة فللقاهم السلطان تكرمة ورعياً لأزمة خلوصهم لأبيه وقومه من بين أهل إفريقية، وأسنى جوائزهم. وعقد ليوسف بن مزني على الزاب وما وراءه من بلاد ريغة وواركلي على عادته وانقلب محبواً محبوراً.

وقد ثبت له من ولاية السلطان ومخاطبته حظ، ورفع له ببساطه مجلس، ولما نهض السلطان إلى إفريقية لافتتاح قسطنطينية سنة ثمان وخمسين وسبعمائة كما سنذكره تلقاه يوسف بن منصور على قسطنطينية فخلطه بأوليائه، ونظمه في طبقات وزرائه. واستوحش يعقوب بن علي يومئذ من مطالبته بالرهن له ولقومه وانتفض، فأجفلت أحياءه إلى بلاد الزاب وخرّب بلاد يعقوب بن علي بالزّاب والتلّ بقطع أشجارها وتغيير مياهها وهدم بناها ونسف آثارها، ودخل يعقوب بأحيائه الرمل وأعجزوا السلطان فأنكفأ راجعاً، واحتل بظاهر بسكرة فتلوم بها ثلاثاً لإراحة العساكر وإزاحة غلظهم من وعاء السفر وشعث الصحراء، فغرب يوسف بن منصور في قرى عساكره أيام مقامه يشملهم فيها من العلوفة والخطّة واللحمان والأدم بما أرغد عيشهم وكفاهم مهمهم. وتحدثت بها الناس دهراً، ورفع إليه جباية الزاب لعامة قناطر من الذهب دفعه ببيت المال فقبضه القاهرة من ثقاته، وأجزل السلطان مئوبته وأسنى عطيته، واختصه بكسوة ثيابه وعياله من كسى حرمه وثياب قصره. وانكفأ راجعاً إلى حضرته. ثم أوفد يوسف بن منصور ابنه أحمد على السلطان بسدته من فاس عند منصرف وزيره سليمان بن داود من حركة إفريقية سنة تسع وخمسين وسبعمائة وأصحبه هدية من عتاق الخيل وفاره الرقيق. وأقام أياماً في نزل كريم ومحل من المجلس رفيع إلى أن هلك السلطان خاتمة تسع وخمسين وسبعمائة فأرغد القائم بالدولة من بعده جازئته وأسنى صلته وصرفه إلى عمله، واستوصى به أمراء النواحي والثغور في طريقه. ولم ينشب أن شبت نار الفتنة وانتزى الخوارج بالجهاث بعد مهلك السلطان فخلص إلى أبيه بعد عناية وعلى يأس من النجاة بعد أن حصل في قبضة أبي حمو سلطان بني عبد الواد عند استيلائه على تلمسان، وهو بها مع بني مرين، وقد مر بهم مجتازاً إلى وطنه فأجاره عليه صغير بن عامر شيخ بني عامر من زغبة رعيّاً لأزمة ابنه يوسف صاحب الزاب، وتأميلاً للعرب فيه وفي أعماله. وبعد أن بذل له من ذات يده ومن طرف ما وصله به بنو مرين من ذخائرهم فبعث معه صغير ركباً من قومه أبلغوه، فكانت إحدى الغرائب في نجاته. واسترجع

أمامه، ودافعه يوسف بن مزني بهديته دفعها إليه وهو بمكانه من أوماش، وأرتحل عنه إلى بلاد ريغة فافتتح تقسرت معقلهم واستباحها ودوخ سائر أعماله. ورجع إلى تونس ونكب السلطان قائده محمد بن الحكيم هذا سنة أربع وأربعين وسبعمائة وولى ابنه أبا حفص عمر. وخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرة بطانته فلحق بملك المغرب المهروب الشبا المظل على الممالك، يعسوب القبائل والعشائر أبي الحسن، وأغراه بملك إفريقية واستجره إليها، فنهض في الأمم العريضة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كما ذكرنا ذلك كله من قبل. ووفد عليه يوسف بن منصور أمير الزاب بمعسكره من بني حسن فلقاه برأ وترحيباً واستبغته في حملته إلى قسطنطينية. ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة ووراكلي، وصرفه إلى عمالته. واستقبل تونس، وأمره برفع الجباية إليه مع العمال القادمين من أقصى المغرب على رأس الحول فاستعد لذلك، حتى إذا سمع بوصولهم من المغرب لحقهم بقسطنطينية وفجأهم هنالك جميعاً الخبر بنكبة السلطان على القيروان كما ذكرناه، فاعتزم على اللحاق ببلده.

واعصوب عليه يعقوب بن علي بن أحمد أمير البدو بالناحية القريبة من إفريقية لأزمة صهر كانت بينهما ومخالصته، وتحيز إليهم من كان بقسطنطينية من أولياء السلطان وحاشيته وعماله، ورسّل الطاغية والسودان الوافدين مع ابنه عبد الله من أصاغر بني، آوأم يوسف بن منصور جميعاً إليه، وأنزلهم ببلده وكفاهم مهماتهم شهوراً من الدهر حتى خلص السلطان من القيروان إلى تونس، ولحقوا به مع يعقوب بن علي فكانت تلك يداً اتخذها يوسف بن يعقوب عند السلطان أبي الحسن وبنيه باقي الأيام. ثم اتبع ذلك بمخالفة رؤساء النواحي من إفريقية جميعاً في الانتقاض عليه، وأقام متمسكاً بطاعته يسرب الأموال إليه بتونس وبالجائر عند خلوصه إليها من النكبة البحرية كما سنذكره، ويدعو له على منابره بعد تفويضه عن الجزائر إلى المغرب الأقصى لاسترجاع ملكه، إلى أن هلك السلطان أبو الحسن بجبل هتاتة من أقصى المغرب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة واستقام أمر الدولة الحية الذكر المرينية لابنه السلطان أبي عنان، ولما استضاف إلى ملكه ملك تلمسان، ومعا ما جده بنو عبد الواد من رسوم ملكهم وجمع كلمة زناتة، وأطل على البلاد الشرقية سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بادر يوسف بن منصور بطاعته فاتأها طواعية، وأوفد على السلطان رسله بكتاب بيعته. ثم أوفد عليه ثانياً مع حاجبه الكاتب أبي عبد الله محمد بن أبي عمر، وبعثه بالعساكر لتدوين إفريقية وتهديد ملكه ببجاية كما سنذكره. وأوفد عليه أمراء القبائل

ووصله.

وصار الأمر للموحدين فمحروا منها آثار المشيخة والاستبداد. ونشأ أحمد هذا الجد مترامياً إلى الرئاسة بهذا القطر يدافع عنه بالراح، ويزاحم بالمناكب من وجوه البلد وأشرف الوطن. وسعى به إلى شيخ الموحدين وقائد العسكر أيام السلطان أبي حفص محمد الفازاري فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه. كانت أول نكباته التي أورت من زنده وأوقدت من جره، فخلص إلى الحضرة يؤمل انتعاد مطيته وثبوت مركزه من دار الخلافة فأوطنها أياماً يباكر أبواب الوزراء والخاصة، ويلثم أطراف الأولياء والحاشية وبذل كرائم ماله فيما يزلفه لديهم، ويؤثره بعنايتهم حتى استعمل بديوان البحر مقعد العمال بحرماً السفن لجباية الأعشار من تجار دار الحرب. ثم استضاف بما كان من غائنه فيها واضطلاعه سائر أعمال الحضرة فتلقدها زعيماً بإمضاء الجرايات وأدار الجباية. واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فائرى واحتجن المال، واستخرج الذخيرة قاطعاً لألسنة السعاية المصانعة والإتحاف بطرف ما يجلبه الروم من بضائعهم حتى أبطره الغنى، ودلت على مكائنه الثروة، ورفع أمره إلى الحاجب فخرج التوقيع بالقبض عليه واستصفاء ماله لعهد السلطان أبي يحيى الليحاني فنكب الثانية وصودر على مئين من آلاف الدنانير وامتحن لها، وباع فيها مكسوبه حتى من الكتب وخلص من النكبة مثلوب الأمانة ممزق الأديم قعيد الرياش، أحوج ما كان إلى ما يعوز من الكن والدفء وبلاة العيش. ولحق ببلده ناجياً بالرمق ضارعاً للدهر.

ودفعه المأل إلى ما يستكفون عنه من خدمة العمال ومباكرة أبوابهم والامتهان في ضروراتهم، وأنجده في ذلك بخت جذب بضيعه. وكان في خلال ذلك شغل الحضرة شأن الثغور الغربية وأمرائها فتقلص ظل الدولة عن هؤلاء بعض الشيء وهملت الرعايا بالبلاد الجريدية، وصار أمرها إلى الشورى التي كانت عليها قبل. فلما أدرك أحمد هذه الشورى التي كان يسمو لها سمو حجاب الماء تلج صدره، وأفتح سعيه، واستبد بمشيخة توزر. وهلك في أعوام ثمانى عشرة فخلفه من بعده في سبيله تلك ولده يحيى طموحاً إلى الرتبة منافساً في الاستقلال، ومزاحماً بيوتات المصر بمناكب استوصلها سائر عمره من الدعار والأوغاد بمعاورة الخمر والمجاعة في فنون الشباب ليستبد أمره، والاستيلاء على نظرائه حتى تطارحوا في هوة الهلاك بين قتل ومغرب غيف العمران، لم تعطفه عليهم عواطف الرحم ولا زجره وازع التقوى والسلطان، حتى خلا له الجو واستوسق الأمر واستقر من أمر البلد والحل

الموحدون ثغورهم بنجاية وقسطنطينية من يد بني مرين وأزعجوا عنها العساكر الجمعة بها من قبائلهم كما قدمناه، فراجع يوسف بن منصور طاعته المعروفة لهم إلى أن هلك سنة سبع وستين وسبعمائة ليوم عاشوراء، وقام بأمره ابنه أحمد، وجرى على سنته وهو لهذا العهد أمير على الزاب بمحل أبيه من إمارته متقبلاً في مذهبه وطريقه إلا أن خلق أبيه كان سخية وخلق هذا تلهوفا لما فيه من التخذلق، وربك يخلق ما يشاء ويختار. وله أولاد كبيرهم أبو يحيى من بنت محمد بن يملول أخت يحيى، وهو لهذا العهد مرشح لمكانه. ولما حلت بأهل الجريد الفارقة ونزل به يحيى بن يملول المشؤوم على وطنه توجس الخيفة من السلطان وتوقع المطالبة بطاعة غير طاعته المعروفة، فسرب الأموال في العرب ومد يده إلى جبل صاحب تلمسان ليتمسك به فوجده قاصراً عنه، وأقام يقدم في أمره رجلاً ويؤخر أخرى. ثم قذف الله نور الهداية في قلبه، وأراه سنن رشدته. وبادر إلى الاستقامة في الطاعة والعدل عن المراوغة، ووصله وافد السلطان أبي العباس شيخ الموحدين أبو عبد الله بن أبي هلال، وكشف له قناع المخالصة والانحياش، وبعث معه وفده بهديته واستقامته وتقبله السلطان وأعادته إلى أحسن الأحوال من الرضى عنه والله متولي الأمور سبحانه.

الخبر عن رئاسة بني يملول بتوزر وبني

الخلف بنفطة وبني أبي المنيع بالحامة

زعيم هؤلاء الرؤساء ابن يملول صاحب توزر لاتساع بلده وتمدد مصره واحتلاله منها بأمر القرى من قطره، وهو يحيى بن محمد بن يملول. ونسبهم بزعمهم في طوالع العرب من تنوخ، استقر أولوه بهذا الصقع كان منذ أول الفتح فعفوا وتائلوا ووشجت به عروقهم نسباً وصهراً حتى انتظموا في بيوت الشورى المتقدمين للوفادة على الملوك وتلقي العمال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة أيام آل حماد بالقلعة، وآل عبد المؤمن بمراكش وآل أبي حفص بتونس: مثل بني واطاس وبني فرقان وبني ماردة وبني عرض، وكان التقدم فيهم أيام عبد الله الشيعي لابن فرقان، وهو الذي أخرج أبا يزيد حين شعر أنه يريد القيام على أبي القاسم القائم، وأيام آل حماد ليحيى بن واطاس، وهو النازع بطاعة أهل قسطنطينية إليهم عن آل بلكين ملوك القيروان حين انقسمت دولة آل زيري، وافترق أمرهم. ثم عادت الرئاسة لبني فرقان لأول دولة الموحدين، ومنهم كان الذي لقي عبد المؤمن وآتاه الطاعة عن نفسه وعن أهل بلده توزر، فتقبله

كبرهم يحيى بن علي. فلما فرغ السلطان من شغله بزنانة وجثم السلطان أبو الحسن على تلمسان يحاصرها. وأقبل السلطان على النظر في تهديد ملكه وإصلاح ثغوره، وافتتح أمره بغزو قفصة ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمئة في عساكره من الموحدین وطبقات الجند والأولياء من العرب، فحاصرها شهراً أو نحو وقطع نخيلها وضاق عنقهم بالحصار وتلاوموا في الطاعة. واستبقوا بها إلى السلطان وفر الكثير من بني العابد فلحقوا بقابس في جوار ابن مكى ونزل أهل البلد على حكم السلطان فتقبل طاعتهم وأحسن التجاوز عنهم، وبسط المعدلة فيهم وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم، وانكفأ راجعاً إلى حضرته بعد أن أثرهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ بعهد الأمير أبي العباس وأنزله بين ظهرانيهم وعقد له على بلاد الجريد، واحتمل مقدم روضة يحيى بن علي إلى الحضرة فلم يزل بها إلى أن هلك سنة أربع وأربعين وسبعمئة، واستبد الأمير أبو العباس بأمر الجريد واستولى على نفطة كما قدمناه. وقتل بني خلف وهم: مدافع وأبو بكر وعبد الله ومحمد وابنه أحمد بن محمد إخوة أربعة، وابن أخيهم الخلف بن علي بن الخلف بن مدافع، ونسبهم في غسان في طوابع العرب.

وانتقل جدهم من بعض قرى نفاوة إلى نفطة وتائل بها، وكان لبنيه بها بيت. واستبد هؤلاء الإخوة الأربعة أزمان الشورى كما قدمناه. ولما استولى السلطان أبو بكر على الجريد وأنزل ابنه أبا العباس بقفصة، وعقد له على سائر أمصارها واقتضى طاعتهم وامتنعوا فسرّح إليهم وزيره أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدین. وجهزت له العساكر من الحضرة ونازلها وقطع نخيلها فلاذ أهلها بالطاعة، وأسلموا بني مدافع المتغلبين فضرب أعناقهم وصلبهم في جذوع النخل آية للمعتبرين. وأفلت السيف منهم علماً صغيرهم لذة اعتدلهما له أبو القاسم بن عتو لتزوجه قبل الحادثة فكانت واقيته من الهلكة.

واستولى الأمير أبو العباس على نفطة واستضافها إلى عمله. ثم مرض أبو بكر بن يملول في طاعته فنهض إليه السلطان أبو بكر من تونس سنة خمس وأربعين وسبعمئة، وكان الفتح كما قدمناه. ولحق أبو بكر بن يملول بيسكرة فلم يزل بها إلى أن أجلب على توزر فنبذ إليه يوسف بن مزني عهده، وانتقل إلى حصون وادي ابن يملول المجاورة لتوزر، وهلك سنة ست وأربعين. ثم كان مهلك السلطان وابنه الأمير أبي العباس صاحب الأعمال الجريدية إثر ذلك سنة سبع وأربعين وسبعمئة، ورجع إلى كل مصر من الجريد مقدموه فرجع أحمد بن العابد إلى قفصة من مكانه في جوار ابن

والعقد بأوفى من استبداد أبيه. وكان مهلكه قريباً من استبداده لخمس سنين فتلقف الكرة من يده أخوه محمد تربه في الرئاسة ومجاريه في مضمارها، فأجرى إلى الغاية واقتعد كرسي الرئاسة وعفى على آثار المشيخة. واستظهر على أمره بمصانة أمراء البدو وأولاد أبي الليل، والمئات إليهم بصهر كان عقده أبوه أحمد لأبي الليل جدهم على اخته أو عمته. فكانوا رداً له من الدولة بعد صيته وعظم استيلاؤه وامتدت أيامه وعني الملوك بخطابه وإسناد الأمور في تلك البلاد إليه خلال ما تعود الكرة وتهب ربح الدولة. وزحف إليه القائد محمد بن الحكيم سني أربعين فلاذ منه بالطاعة والمصانة بالمال، ورهنه ولده يحيى فرجعه إليه ابن الحكيم وتقبل طاعته من غير رهن استقامة لما ابتلاه من خلوصه. وأقام على ذلك إلى أن هلك أعوام أربع وأربعين من المائة الثامنة.

وتصدى ولده عبد الله للقيام بالأمر فوثب عليه عمه أبو زيد بن أحمد فقتله على جدث أبيه صبح مواراته بعد أن كان أظهر الرضا به والتسليم له فثارت به العامة لحينه، وكان مصرعهما واحداً. وقام بالأمر أخوه يملول بن أحمد أربعة أشهر كانت شر مدة وأسوأ ولاية، لما أصاب الناس بسوء ملكته من سفك الدماء واستباحة الحرم واغتصاب الأموال، حتى كان ينسب إلى الجنون مرة وإلى الكفر مرة أخرى فمرج أمرهم واستولى الضجر على نفوسهم، وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فراسله أهل توزر سرّاً وأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذت عليه المواثيق بالطاعة والوفاء بالجباية قصص إليها بمن في لفه من الأعراب، وحشد نفزاوة المجاورين لها في القرى الظاهرة المقدره السير، وأجلب عليهم ثم بيثها فاعتحمها وبادر الناس إلى القبض على يملول أخيه وأمكنه منه فاعتقله بداره وتبراً من دمه، وأصبح لثلاثة اعتقاله ميتاً بمحبسه.

وكانت قفصة من قبل ذلك لما صار أمر الجريد إلى الشورى قد استبد بها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد من بيوتها، ونسبهم في زعمهم في بلى ولهم خلف بزعمهم في الشريد من بطون سليم. والله أعلم بأولية تزولهم بقفصة حتى التحمو بأهلها وانتظموا أمر بيوتاتها. وكانت البيوت بها بيت بني عبد الصمد وبيت بني أبي زيد، وكانت رئاسته لبعض بني أبي زيد لعهد الأمير أبي زكريا الأعلى، كان يستعمله على جباية أموال الجريد، ثم سعى به أنه أصاب منها فنبكه وصودر على آلاف من المال فاعطاهما، وأقامت رئاستهم متفرقة في هذه البيوتات.

ولما حدثت العصية بالبلد أيام صار أمر الجريد إلى الشورى كان بنو العابد هؤلاء أقوى عصية من سائرهم، واستبد بها

وقام بأمره أخوه عبد الله بن علي فأدكى سياسته، وأيقظ حزمه وأرهدف للناس حده فتمقوا عليه سيرته، وسيموا عسفه واستمكن مناهضهم في الشرف ومخاضهم في رئاسة البلد القاضي محمد بن خلف الله من صاحب الحضرة بزمة كانت له في خدمته قديمة استعمله لرعيها في خطة القضاء بمحضرتة، وآثره بالمكان منه والصحة فسعى بعيد الله هذا عند الخليفة ودله على مكانم هلكته، وبصره بعورات بلده. واقتاد عساكر السلطان إليه في زمامه.

ولما احتل بظاهر البلد وعبد الله رئيسها أشد ما كان قوة وأكثر جمعاً وأمضى عزمًا استألف أخوه الخلف بن علي بن الخلف جماعة المشيخة دونه، وحرصهم عليه وداخل القاضي في تبيت البلد وأنه بالمرصاد في اقتحامها، حتى إذا كانت الهبة دس إلى بعض الأوغاد في قتل أخيه عبد الله، ومكر بالقاضي والعسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم. واستقل برئاسة بلده وأقام على ذلك يناغي ابن يملول في سيره ويطارحه الكثير من مذهب، ويجري في الشاؤ الذي بلغ إلى غايته وأوفى على نتيته.

وأما أحمد بن عمر بن العابد فلم يزل من لدن استبداده في قصة سالكا مسالك الخمول منحطاً عن رتبة التكبر منتحلاً مذاهب أهل الخير والعدالة في شارته وزيه ومركبه، جالماً إلى التقليل. فلما أوفى على شرف من العمر استبد عليه ابنه محمد وترفع عن حال أبيه بعض الشيء إلى مناغة هؤلاء الرؤساء المترفين، فبينما هؤلاء المتقدمون في هذه الحال من الاستبداد على السلطان والتخلق بأخلاق الملوك، والثاقل عن الرعايا بالتعسف والجور، واستحداث المكوس والضرائب إذا أطل على مفاسدهم السلطان أبو العباس بالحضرة مستبداً بدعوته، صارفاً إلى فتحها عزائمه فوجوا وتوجسوا الخيفة منه. واتمروا في المظاهرة واتصال اليد بعد أن كانوا يستحثونه إلى الحضرة، ويبعثون إليه بالانقياس على البعد زبوناً على صاحب الحضرة وتراوغاً عن مصدوقية الطاعة.

فلما استبد السلطان أبو العباس بالدعوة استرأوا في أمرهم وسربوا أموالهم في الأعراب المخالفين على السلطان من الكموب، يؤملون مدافعهم عنهم فشم لها أولاد أبي الليل بما كان وقع بينهم وبين السلطان من التفرقة. ونهض إليهم السلطان فغلبهم على ضواحي إفريقية على الظراعن التي كانت جبايتها لهم من مرغيزة كما قلناه، واكتسحهم فأوهن بذلك من قوتهم.

ثم زحف الثانية إلى أمصار الجريد فلاذوا بالامتناع، فأنشأ السلطان بعساكره وأولياته من العرب أولاد مهلهل على قصصه

مكي واستولى على بلده في مكان ابن عمه يحيى بن علي، ورجع علي بن الخلف إلى نفطة واستبد بها. ورجع يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول إلى توزر من مثنى اغترابه ببسكرة، وارتحل إليها مع عمه أبي بكر طفلاً، فلما خلا الجريد من الإمارة درج يحيى هذا من عشه في جوار يوسف بن منصور بن مزني وأطلقه مع أولاد مهلهل من الكموب بعد أن وصلهم وشارطهم، واسترهن فيه أبناءهم فأوصلوه إلى محل رئاسته بتوزر، ونصبه شيعته وأولياء أبيه، وقاموا بأمره. ورجع أمر الجريد كله إلى رئاسة مقدمه كما كان.

ثم وفدوا على السلطان أبي الحسن عند رجعته إلى إفريقية ولقوه بوهران فلما هم مبرة وتكرمة ورجع كلاً إلى بلده ومحل رئاسته بعد أن أسنى الجائزة، ووفر الإسهام والأقطاع، وأنفذ الصكوك والكتب: فرجع إلى توزر يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول صبيّاً متعلماً، وإلى نفطة علي بن الخلف بن مدافع. وإلى قصص أحمد بن عمر بن العابد وأنزل بكل واحد من هذه الأمصار عاملاً وحامية. وعقد على الجريد كله لمسعود بن إبراهيم بن عيسى البريناني من طبقة وزرائه، واستوصى بهؤلاء الرؤساء خيراً في جواره حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان سنة تسع وأربعين وسبعمئة وارتحل عامل الجريد مسعود بن إبراهيم يريد المغرب بمن معه من العمال والحامية، ونمي خبره إلى الأعراب من كرفة فصبحوه في بعض مراحل سفره دون أرض السزاب فاستلحموه ومن كان معه من الحامية، واستولوا على أبنيتهم وذخيرتهم وكراعهم، واستبد رؤساء تلك البلاد بأمصارعهم وعادوا إلى ديدنهم من التمريض، وأذانبوا بالدعاء لصاحب الحضرة منابرهم، واستمروا على ذلك.

فأما يحيى بن محمد بن يملول فنزع إلى مناغة الملوك في الشارة والحجاب واتخاذ الآلة والبيت المقصور للصلاة، واقتعاد الأريكة وخطاب التمويل وفسح للمجون العكوف على اللذات مجالاً يرى أن جماع السياسة والملوك في إدارة الكأس وافتراش الأس والحجبة عن الناس والتأله على الندمان والجلالاس. وفتح مع ذلك على رعيته وأهل إيالته باب العسف والجور. وربما يبت المشاهير منهم غيلة فأنلفت نفوسهم، وامتد أمره في ذلك إلى أن استولى السلطان أبو العباس على إفريقية، وكان من أمره ما نذكره.

وأما جاره الجنب على بن الخلف فلم يلبث لما استبد برئاسته أن حج سنة أربع وستين وسبعمئة والتمزم مذاهب الخير وطرق الرضى والعدالة، وهلك سنة خمس وستين وسبعمئة بعدها وولي مكانه ابنه محمد جارباً على سنته. ثم هلك لسنة من ولايته،

وحدثه نفسه بالاستبداد، وأقام يتحين له الفرصة وذهب الأمير أبو بكر إلى زيارة أخيه بتوزر فكاده بالخلف عنه، وجمع أواباشاً من الغوغاء والزعاف وتقدم بهم إلى القسبة وبعث بالصريح للفتك بعبد الله التريكي ونذر بذلك فأغلق أبواب القسبة وبعث الصريح في أهل القرى، وقتلهم ساعة من نهار حتى وافى إليه المدد. فلما استغلظ بمدد أدر كههم الدهش وانقض الأشرار من حوله ولجأوا إلى الاختفاء في بيوت البلد، وتقبضوا على الكثير ممن داخلهم في الثورة، ووصل الخبر إلى الأمير أبي بكر بتوزر فبادر إلى مكانه، وقد سكنت الهيعة واستلحم جميع من تقبض عليه حاجبه ونادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد فتبرؤوا منه. وعثر الحرس عليه وعلى أخيه خارجين من أبواب البلد في زي النساء فقادهما إليه فقتلهما بعد أن مثل بهما.

ويادر المولى المنتصر بتوزر لقتل الخلف بن الخلف أن يخوض في مثلهما فذهب في غير مرحلة لم يعطف عليه رحم، ولا تكنه سماء ولا أرض. واستبد السلطان بالجريد ومحا منه آثار المشيخة وعفا عليها وانتظمه في عمالات السلطان.

وأما بلد الحامة وهي من عمالة قسطلية وتعرف بحامة قابس وحامة مطماطة نسبة إلى أهلها الموطنين كانوا بها من البربر، وهم فيما يقال الذين اختطوها، وأما الآن ففيها ثلاث قبائل من توجن وبني ورياجن وهم في العصية فرقتان: أولاد يوسف وراثتهم في أولاد أبي منيع وأولاد جحاف وراثتهم في أولاد وشاح، ولا أدري كيف نسب لفرقتين: فاما بنو أبي منيع فالحديث عن راثتهم في قومهم أن جدهم رجا بن يوسف كان له ثلاثة من الولد وهم بوسباك بمحمد وملالة وإن رثاسته بعده كانت لابنه بوساك، ثم ابنه أبي منيع من بعده، ثم لابنه حسن بن أبي منيع، ثم لابنه محمد بن حسن، ثم لأخيه موسى بن حسن ثم لأخيها أبي علان إلى أن كان ما نذكر.

وأما أولاد جحاف فكانت أول راثتهم لمحمد بن أحمد بن وشاح، وقبله خاله القاضي عمر بن كلى، وكان العمال من الحضرة يتعاقبون فيهم إلى أن أسقط السلطان عنهم الخراج والمغارم بأمرها. وكان مقدمهم لأول دولة السلطان أبي بكر من أولاد أبي منيع، وهو موسى بن حسن. وكان المديوني قائد السلطان والياً عليهم، وارتاب بهم بعض الأيام وأحبوا الثورة به، ففسد بها إلى السلطان في بعض حركاته، وغزاهم بنفسه ففروا، وأدرك سبعة من أولاد يوسف هؤلاء وتقبض عليهم فقتلوا. ثم رجع الأمير وولى موسى بن حسن. ولما هلك ولي بعده أخوه أبو عنان، وطال أمد ولايته عليهم وكان منسوباً إلى الخير والعفاف.

فقاتلها يوماً أو بعض يوم، وغدا في ثانية على نخلهم يقطعها فكأنما يقطع بذلك أمعاءهم فتبرأوا من مقدمهم، وشعر بذلك فبادر إلى السلطان ونزل على حكمه فتقبض عليه وعلى ابنه شهير ذي القعدة من سنة ثمانين وسبعماية وتلك البلد، واستولى على ديار ابن العابد بما فيها. وكان شيئاً لا يعبر عنه لطول أيامه في الولاية وكثرة احتجانه للأموال.

وعقد السلطان على قصصة لابنه أبي بكر وارتمل يريد توزر، وطار الخبر لابن يملول في توزر فقوض عنها بأهله، ونزل على أحياء مرداس وسرب فيهم المال فرحلوا معه إلى الزاب، ولحق ببسكرة ماوى نكباته ومنتهى مفره، فنزل بها على أحمد بن يوسف بن مزني وأقام هنالك على قلعة من توقع مطالبة السلطان له ولجاره ابن مزني وخسارة أموالهم في زبون العرب وسوء المغبة إلى أن هلك لسنة أو نحوها واتمر أهل توزر. بعد تقويضه عنهم، وبعثوا إلى السلطان يبيعتهم فلقية أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فنزل بقصور ابن يملول واستولى على ذخيرته وتبرأ إليه أهل البلد من ودائع كانت له عندهم من خالص الذخيرة فرفعوها إلى السلطان. وعقد لابنه المنتصر على توزر واستقدم الخلف بن الخلف من نقطة، وكان يخالف أصحابه إلى الطاعة حتى تقضوها زبوناً على يملول وسالفة من العداوة كان يتقبلها. فلما أحيط بهم أدركه الدهش بطاعته فأتاهما، وقدم عليه فتقبل السلطان ظاهره وأغضى له عن غيرها طمعاً في استصلاحه، وعقد له على حجابة ابنه المنتصر وأنزله معه بتوزر وأمره بالاستخلاف على بلده نقطة وعقد على ولايتها وانكفاً راجعاً إلى الحضرة، وقدم ابن خلف على أمره ورأى أنه قد تورط في الهلكة فراسل ابن يملول بمكانه من توزر، وعثر أولياء السلطان على كتابه إلى يعقوب بن علي شيخ رباح ومدرة حروبهم على صريخ ابن يملول ومعونته، فعلموا نكته ومداجاته وبادروا إلى القبض عليه، وولوا على نقطة من قبلهم وخاطبوا السلطان بالشأن وأقام في اعتقاله إلى أن كانت حادثة قفصة، فبادر الأمير المنتصر إلى قتله.

وكان من خبر قفصة أن ابن أبي زيد من مشيختها كان نزح إلى السلطان قبل فتحها هو وأخوه لمنافسة بينهما وبين ابن العابد وهما: محمد وأحمد ابنا عبد العزيز بن عبد الله بن أحمد بن علي بن عمر بن أبي زيد. وقد ذكرنا أوليتهم واستعمال سلفهم أيام الأمير أبي زكريا الأعلى في جباية الجريد. فلما استولى على البلاد رعى لهما تشيعهما وبادرهما إلى طاعته مع قديهما فأنزلهما مع ابنهما بقفصة وكبيرهما رديف لحاجبه عبد الله من الموالي الأتراك ومدبر لأموال البلد في طاعة السلطان. ثم نزح الشيطان في صدره

وهلك سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة وولي بعده ابن عمر ثم ابنه الآخر أبو زيان. ثم ولي بعدهما ابن عمهما مولاهم ابن محمد. ووفد على السلطان أبي الحسن مع وفد أهل الجريد كما مر. ثم هلك فولى بعده من بني عمهم حسان بن هجرس، وثار به محمد بن أحمد بن وشاح من أولاد جحاف المذكور فعزله، وأقام في ولايته إلى سنة ثمان وسبعين وسبعمئة فثار به أهل الحامة وقتلوا عمر بن كلى القاضي، وولوا عليهم حسان بن هجرس واليه.

ثم ثار به يوسف واعتقله وهو يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن وشاح وهو الآن مقدمها يعطي طاعة معروفة، ويستدعي العامل في الجاية ويرأغ عن المصدوقة والغلب والاستيلاء، وقد أحاط به من كل جهة.

وأملى عليّ بعض نسابتهم أن مشيخة أهل الحامة في بني بوسباك. ثم في بني تامل بن بوساك. وأن تأمل رأس عليهم وأن وشاحاً من ولد تامل وأن بني وشاح، على فرقتين: بنو حسن وبنو يوسف، فحسان بن هجرس ومولاهم وعمر وأبو علان كلهم من بني حسن، ومحمد بن أحمد بن وشاح من بني يوسف، وهذا مخالف للأول، والله أعلم بالصحيح في أمرهم.

وأما نفزاوة وأعمال قسطنطينية فننسب لهذا العهد إلى توزر وهي القرى العديدة المقدرة السير، يعترض بينها وبين توزر إلى القبلة عنها السبحة المشهورة المانعة في الاعتساف، إلا معالم قائمة من الخشب يهتدي بها السالك، وربما يضل خافضها فتبطلعه. ويسكن هذه القرى قوم من بقايا نفزاوة من البرابرة البتر الذين بقوا هنالك بعد انقراض جمهورهم، وتخيف العرب لسائر بطون البربر، ومعهم معاهدون من الفرجة ينسبون إلى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها الآن أعقابهم. ثم نزل عليهم من عرب الشريد وزغب من بني سليم كل من عجز عن الطعن، وملكوا بها العقار والمياه وكثروا نفزاوة، وهم لهذا العهد عامة أهلها وليس في نفزاوة هذه رئاسة لصغرهما ورجوعهما في الغالب إلى أعمال توزر ورئاستها. هذا حال المتقدمين ببلاد الجريد في الدولة الحفصية أوردنا أخبارهم فيها لأنهم من صناعها، وفي عداد ولايتها ومواليها، والله متولي الأمور.

الخبر عن بني مكي رؤساء قابس وأعمالها

كانت قابس هذه من ثغور إفريقية ومنظمة في عمالاتها، وكان ولايتها من القيروان أيام الأغالة والعيديين وصنهاجة من لدن الفتح، ولما دخل الهلاليون إفريقية واضطربت أمورها

واقتسمت دولة صنهاجة الطوائف، انتزى بقابس وصنهاجة المعز ابن محمد الصنهاجي وأدال منه مونس بن بيجي الصنبري من مرداس رياح بأخيه إبراهيم إلى أن هلك. وولي أخوه قاضي بن إبراهيم، ثم نازله أهل قابس فقتلوه أيام تميم بن المعز بن باديس فبايعوا لعمر بن المعز بن باديس كان مخالفاً على أخيه، وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة. ثم غلبه عليها أخوه تميم وكان مغلباً للعرب. وكانت قابس وضواحيها في قسم زغبة من عرب هلال. ثم غلبتهم رياح عليها ونزل مكن بن كامل بن جامع من بني دهمان أخوة فادغ وهما معاً من بني علي إحدى بطون رياح فاستحدث بها مكن ملكاً لقومه بني جامع وأورثه بنيه إلى أن استولى الموحدون على إفريقية وبعث عبد المؤمن عساكره إلى قابس ففر عنها مدافع بن رشيد آخرهم وانتظها كما ذكرناه في أخبارهم وملكها، وانقرض ملك بني جامع وصارت قابس وأعمالها للموحدين، كان ولاية إفريقية من السادة يولون عليها من الموحدن إلى أن تغلب بنو غانية وقراقش على طرابلس وقابس وأعمالها، وكان ما ذكرناه في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون بيجي بن غانية عليها وأنزلوا بها عمالهم. ولما عاد بنو أبي حفص إلى إفريقية العودة الثانية بعد مهلك الشيخ أبي محمد عبد الواحد، وعقد العادل على إفريقية لابنه أبي محمد عبد الله معه على قابس للأمير أبي زكريا أخيه فنزلها أميراً. ثم كان من شأن استبداده وخلعه لأخيه ولطاعة بني عبد المؤمن ما ذكرناه. وكان مشيخة قابس لذلك العهد في بيت من بيوتاتها، وهم بنو مسلم ولم يحضرن فيمن هو نسبهم.

وبنو مكي ونسبهم في لواتة وهو مكي بن فراج بن زيادة الله ابن أبي الحسن بن محمد بن زيادة الله بن أبي الحسين اللواتي. وكان بنو مكي هؤلاء خالصة للأمير أبي زكريا. ولما اعتزم على الاستبداد داخل أبو القاسم عثمان بن أبي القاسم بن مكي وتولى له أخذ البيعة على الناس فكان له ولقومه بذلك مكان من المولى أبي زكريا، رعى لهم ذمتها ورفع من شأنهم بسببها، ورموا بني سليم نظراءهم في رئاسة البلد بصاغيتهم إلى ابن غانية فأخذوا ذبا لهم بماله واستقلوا بشورى بلدهم. وأقاموا على ذلك أيام المولى أبي زكريا الأول وابنه المستنصر. ثم كان ما قدمناه من مهلك الواصل بن المستنصر وبنه على يد عمهم السلطان أبي إسحاق. وكان من أمر الدعي بن أبي عمارة، وكيف شبه على الناس بالفضل بن المخلوع بحيلة من مولا نصير. رام أن يشار بها من قاتلهم فتمت مكيدته في ذلك لما أرواه الله.

ولما أظهر نصير أمره وتسايلت العرب إلى بيعته خاطب

وقفل حمزة بن عمر بشفاعه السلطان أبي الحسن إلى السلطان أبي يحيى في شأنه فتقبل وسيلته واستخلصه لنفسه من بعدها، واستقام هو على الطاعة التي لم تجد وليجة عنها، وسلك سبيله تلك أقتاله من الدولة الطائحين في هرة الشقاق، فأوفد عبد الملك هذا شقيقه أحمد على السلطان أبي الحسن منتصلاً من ذنوبه لانداً بشفاعته متوسلاً بما قدمناه من خدمته حظاياه في طريقهم إلى الحج ذاهباً وجائياً، فخطب السلطان أبي يحيى في شأنه وأعادته إلى مكانه من اصطناع سلفه واستقام على طاعته. ولما انتظم السلطان أبو يحيى سائر البلاد الجريدية في ملكه وعقد عليها لابنه أبي العباس ولي عهده، وأنزله دار إمارتها متردداً ما بين توزر وقفصة إلى أن قفلت عمته من الحج سنة ست وأربعين وسبعمئة، وخرج للقائها تخفياً بين الظعان فجمعه مجلسها بأحمد بن مكي كان قد اعتمد تلقيها والقيام بصحابتها في مراحل سفرها من بلده إلى آخر عمله، فمسح الأمير أبو العباس الإحن عن صدره وأدال له الأمن والرضى من توحشه، واستخلصه لدولته ونجوى أسرارهِ واصطفاه لنفسه وحمله رديفاً لحاجبه، فحل من دولته بمكان غبطة فيه امتيازهِ من أمراء تلك الطوائف.

وعقد له السلطان أبو يحيى على جزيرة جربة بوسيلة أبي العباس ابنه، وقد كان انتحها خلوف بن الكماد من صنائعهم من يد العدو أهل صقلية كما ذكرناه، فضعها إليه وصيرها في أعماله. ولم يزل هذا شأنه معه إلى أن هلك أبو العباس ولي العهد بتونس على يد أخيه أبي حفص عمر عندما دخلها بعد مهلك أبيهما كما ذكرناه، ولحق أحمد بن مكي ببلده. ثم سار في وفد رؤساء الجريد إلى تلقي السلطان أبي الحسن عند نهوضه إلى إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمئة ولقيه معهم بوهران من أعمال تلمسان، وكان قدمه عنده فوق قدمهم. ورجع الوفد على أعقابهم محبورين. وتمسك بأحمد بن مكي في جملته إلى الحضرة، ووفد عليه أخوه عبد الملك مؤدياً طاعة السلطان، فكرم موصله وأحسن متقلبهما جميعاً إلى بلدهما على ما كان بيدهما من عمل قابس وجربة. ثم كانت نكبة السلطان أبي الحسن على القيروان فوفد عليه أحمد بتونس بعد خلوته من القيروان مجدداً لعهد طاعته، فأرادهم السلطان على الامتنان لعبد الواحد اللحياني سلطانهم الأقدم، وعقد له على تلك الثغور الشرقية، وأنزله جربة، وأمرهما بالطاعة له ما دام في طاعته. وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر وقسطيلية بعد أن كان قطعه عندما قبض عليه في واقعة السلطان أبي حفص عمر. ثم استقبل رايه في استخلاصه عندما انتقض عليه أبو محمد بن تافراكين. ولما رجع

لأول أمره رئيس قابس لذلك العهد من بني مكي عبد الملك بن عثمان بن مكي فسارع إلى طاعته وحمل الناس عليها، وكانت له بذلك قدم في الدولة معروف رسوخه.

ولما تلقى الداعي بن أبي عمارة جسداً على كرسي الخلافة سنة إحدى وثمانين وستمئة قلده خطة الجباية بالحضرة مستقلاً فيها بالولاية والعزل والفرض والتقدير والحسبان بعد أن أجزل من بيت المال عطائه وجرايته وأسنى رزقه وجرايته وأهدى الجوارى من القصر إليه. ولما هلك الداعي واستقلت قدم الخلافة من عثارها كما قدمناه سنة ثلاث وثمانين وستمئة لحق عبد الحق بن مكي ببلده وامتنع بها على حين ركود ربح الدولة وفشلها، ومرض في طاعته ودافع أهل الدولة بالدعاء للخليفة على منابره. ثم جاهر بالخلعان سنة ثلاث وتسعين وستمئة وبعث بطاعته إلى صاحب الثغور المولى أبي زكريا الأوسط. وهلك ابنه أحمد ولي عهده سنة سبع وتسعين وستمئة. ثم هلك هو من بعده على رأس المائة السابعة، وتخلّف حافده مكي فنصبوه بقعة. وكفله ابن عمه يوسف بن حسن وقام بالأمر مستبداً عليه إلى أن هلك، وخلفه في كفالة أحمد بن ليران من بيوت أهل قابس أصحاب بني مكي والثلاث أمهم بمهلك يوسف فنقلهم السلطان ابن اللحياني إلى الحضرة، وأقاموا بها أياماً، ثم ردهم إلى بلدهم أيام تحافيه عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس.

ثم هلك خلال ذلك مكي، وتخلّف صبيين يافعين عبد الملك وأحمد فكفلهما أحمد ابن ليران إلى أن شبا واکتھلا، ولهما من الامتناع على الدولة والاستبداد بأمر القطر والاقصا على الدعاء للخليفة مثل ما كان لأبيهما وأكثر لتقص ظل الملك عن قطرهم، وشغل السلطان بمدافعة آل يغمراسن وعساكرهم عن الثغور الغربية، واجلابهم بالأعياص من أهل البيت على الحضرة،

ولما هلك السلطان أبو يحيى اللحياني قفل ابنه عبد الواحد إلى المغرب يحاول أسباب الملك، ونزل بساحتهم على ما كان من صنع أبيه إليهم فذكروا العهد، وأوجبوا الحق وآتوا بيعتهم. وقام كبيرهم عبد الملك بأمره ودعا الناس إلى طاعته، وخالف السلطان أبي يحيى عند نهوضه إلى الثغر بيجاية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة كما قدمناه، فدخل الحضرة وليث بها أياماً لم تبلغ نصف شهر، وبلغ خبرهم إلى السلطان فانكفاً راجعاً وفروا إلى مكانهم من قابس، والدولة تنظر إليهم الشز وتريص بهم الدوائر إلى أن غلب السلطان أبو الحسن على تلمسان ومحا دولة آل يغمراسن، وفرغت الدولة من شأنهم إلى تهديد أعمالها وتقويم المنحرفين عن الطاعة من ولايتها.

مكي على طرابلس فاستقل بها، وعقد لأخيه عبد الملك على قابس وجربة وأقاموا على دعوته. ومد أحمد يده إلى صفاقس فنازلها وتغلب عليها سنة سبع وخمسين وسبعمائة وهلك السلطان أبو عنان وقد شرق صدر ابن تافراكين الغالب على الحضرة بعداً وتهماً فردد عليهما البعوث برأً وبحراً إلى أن استخلص جزيرة جربة من أيديهما أعوام أربعة وستين وسبعمائة وعقد عليها لولده عمدة فاستخلف بها كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون من صنائع الدولة كما ذكرناه.

وهلك أحمد بن مكي سنة ست وستين وسبعمائة على نفثة مهلك الحاجب بن تافراكين بالحضرة فكانهما ضربا موعداً للهلكة وترواياه. وتغلب ابنه عبد الرحمن بطرابلس في كفالة مولاه ظافر العلج، وهلك ظافر إثر مهلكه فاستبد عبد الرحمن بطرابلس وساء سيرته فيها إلى أن نازله أبو بكر بن محمد بن ثابت في أسطوله كما نذكره سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة. وأجلب عليه بالبرابرة والعرب من أهل الوطن فانتقض عليه أهل البلد وثاروا به. ويادر أبو بكر بن ثابت لاحتحامها عليه وأسلموه ففر إلى بيت أحد أمراء دباب فأجاره إلى أن أبلغه مأمنه من حملة قومه، وإيالة عمه عبد الملك بقابس إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وسبعمائة ولم يزل عبد الملك لهذا العهد وهو سنة إحدى وثمانين وسبعمائة والياً على عمله بقابس وابنه يحيى مستبد برزاقته، وحافده عبد الوهاب لابنه مكي رديف له، وقد تراجعت أحوالهم عما كانت وخرجت من أيديهم الأعمال التي كانت في عمالتهم لعهد أخيه أحمد مثل: طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس وما إلى ذلك من العملات حتى كان البخت إنما كان لأخيه، واليمن إنما اقترن بحياته وسيرتهما جميعاً من العدالة وتحري مذهب الخير والسمت، والاسام بسمات أهل الدين وحيلة الفقه معروفة حتى كان كل واحد منهم إنما يدعي بالفقه علماً بين أهل عصره حرصاً على الانتماس في مذاهب الخير وطرقه. وكان لأحمد حظ من الأدب، وكان يقرض الأبيات من الشعر فيجيد عفا الله عنه. وله في الترسل حظ ووساع بلاغة وخط، وينحو في كتابه منحى أهل المشرق في أوضاع حروفهم وأشكال رسومها، ولأخيه عبد الملك حظ من ذلك شارك به جهابذة أهل عصره وأفق.

ولما انتظم السلطان أبو العباس أمصار إفريقية في ملكه واستبد بالدعوة الحفصية على قومه داخل أهل الجريد منه الروع، وفزعوا إليه للمقاوضة في الامتناع فدخلهم في ذلك وأشاروا إلى صاحب تلمسان بالترغيب في إفريقية فعجز عنهم وألحوا عليه فقام عن العداوة. وزحف مولانا السلطان خلال ذلك إلى الجريد

من القيروان إلى تونس عقد له على توزر كما ذكرناه، ولعبد الواحد بن اللحياني على قابس وجربة فأسف بذلك بني مكي هؤلاء.

وهلك ابن اللحياني حين نزوله بجربة بما أصابه من علة الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة فانتقض بنو مكي على السلطان أبي الحسن ودعوا إلى الخروج عليه وبايعوا الأفضل ابن السلطان أبي يحيى عندما أفرج عن حصار تونس سنة خمسين وسبعمائة، وداخلوا أبا القاسم بن عتو وهو إذ ذاك لم يتوزر، فاجابهم وكانت من دواعي رحلة السلطان أبي الحسن من إفريقية وتقويضه عنها كما قدمناه. ولما رجع الحاجب أبو محمد بن تافراكين من المشرق، واستقل بأمر تونس، ونصب الإمام أبا إسحاق ابن السلطان أبي يحيى للخلافة بها في كفالته غصوا بمكانه من التغلب وأنفوا من استبداده، وانحرفوا إلى دعوة الأمير أبي زيد صاحب ثغر قسطنطينية. ووفد عليه أحمد بن مكي مع محمد بن طالب بن مهلهل كبير البدو بإفريقية فيمن إليه فاستهزوه وقلده الأمير أبو زيد حجابته وجعل أمره إليه. وأبرز الحاجب أبو محمد تافراكين سلطانه أبا إسحاق في عساكره مع خالد بن حمزة وقومه فالتقى الجمعان بمرجنة وكانت الدبرة على السلطان أبي إسحاق سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وجاؤوا على أثرهم فنازلوا تونس أياماً وما أفرجوا عنها إلا للصائح يخبرهم باحتلال عساكر بني مرين بالمرية من آخر أعمال تلمسان، وأن السلطان أبا عنان قد استلحم بني عبد الواد، وجمع كلمة زناتة، واستقام له أمر المغربين. وأطل على الثغور الشرقية فافترق جمعهم. ولحق الأمير أبو زيد بقسطنطينية، وأحمد بن مكي بقابس وسأل من الأمير أبي زيد أن يقسم رسم الإمارة بينهم في قابس وجربة بأخيه السلطان أبي العباس فأذن له في ذلك، فكانت أول ولايته السعيدة ومضى إلى قابس فترها، ثم أجاز البحر إلى جربة، ودفع عنها العسكر الذي كان محاصراً للقيشيل من قبل ابن ثابت صاحب طرابلس، ورجع إلى قابس حتى كان من أمره ما ذكرناه.

وأوفد السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى زكريا على أبي عنان ملك المغرب صريحاً على شأنه، وأوفد ابن مكي رسلاً متدماً ومذكراً بوسائله فتقبل وأغضى. ثم كانت واقعة العدو دمره الله بطرابلس سنة أربع وخمسين وسبعمائة كما قدمناه فبعث إلى السلطان أبي عنان يسأله فديتها والنظر لها من بين ثغور المسلمين، فحمل إليه خمسة أحمال من الذهب العين من بيت المال، أوفد بها من أعيان مجلسه: الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق، وأبا عبد الله محمد حافد المولى أبي علي عمر بن سيد الناس. وعقد لأحمد بن

ملك قابس فأجابوه وساروا معه فينتها ودخلها وقبض على يحيى بن عبد الملك فضرب عنقه، وانقرض أمر بني مكى من قابس، والله الأمر من قبل ومن بعد، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس وأعمالها

قد تقدم لنا شأن هذا البلد لأول الفتح الإسلامي، وأن عمرو بن العاص هو الذي تولى فتحه، وبقي بعد ذلك من جملة أعمال إفريقية، تنسحب عليه ولاية صاحبها، فلم يزل ثغراً لهذه الأعمال من لدن إمارة عقبة ومن بعده وفي دول الأغالبة. وكان المعز لدين الله من خلفاء الشيعة لما ارتحل إلى القاهرة، وعقد على إفريقية لبلكين ابن زيري بن مناد أمير صنهاجة، عقد على طرابلس لعبد الله بن يخلف من رجالات كتامة. ثم لما ولي نزار الخلافة سنة سبع وستين وثلاثمائة طلب منه بلكين أن يضيف عمل طرابلس إلى عمله فأجاب وعهد له بها، وولى عليها بلكين من رجالات صنهاجة. ثم عقد عليها الحاكم بعد مهلك المنصور بن بلكين ليأس الصقلي سنة تسعين وثلاثمائة بمدخله عاملها بمصون من صنهاجة، وأعانه على ذلك برجوان الصقلي المتغلب على الدولة يومئذ لما فتت ليأس، فوصل إليها في ألف وخمسمائة فارس فملكها، فسرحد باديي جعفر بن حبيب لحربه في عسكر من صنهاجة، وتزاحا يومين بساحة زنزور، ثم انقض عسكر يأس في الثالث وقتل، ولحق فله بطرابلس فاعتصموا بها. ونازلهم جعفر بن حبيب القائد، وزحف فلفول بن سعيد بن خززون الشائر على باديس وابنه بإفريقية إلى قابس فحاصرها.

ثم قصد جعفر بن حبيب بمكانه من حصار طرابلس فأفرج عنها جعفر ولحق بنفوسة، وأميرهم يحيى بن محمد فامتنع عليهم، ثم لحق بالقيروان ومضى فلفول بن سعيد إلى طرابلس فخرج إليه فتوح بن علي ومن معه من أصحاب يأس فملكوه، وقام فيها بدعوة الحاكم من خلفاء الشيعة وأوطنها. وعقد الحاكم عليها ليحيى بن علي بن حمدون أخي جعفر صاحب المسيلة النازع إليه من الأندلس فوصل إليها واستظهر بفلفول على مجابية، ونازل قابس فامتنت عليه. ثم عجز عن الولاية ورأى استبداد فلفول عليه بعصيته فرجع إلى مصر، واستبد فلفول بطرابلس وتداولها بنوه مع ملوك صنهاجة إلى أن استبدوا بها آخرأ. ودخل العرب الهلاليون إلى إفريقية فخربروا أوطانها وطمسوا معالمها. ولم تنزل بأيدي بني خززون هؤلاء إلى أن غلبهم عليها جرجي بن ميخائيل

فملك قفصة وتوزر ونقطة فبادر ابن مكى إلى التلبس بالاستقامة وبعث إليه بالطاعة. ثم رجع السلطان إلى الحضرة فرجع هو عن المصدوقة واتهم أهل البلد بالليل إلى السلطان فتقبض على بعضهم وفر آخرون. وانتقض بنو أحمد أهل ضواحيه من دباب فنزلوه وبعثوا إلى الأمير الأكبر أبي بكر بقفصة في العسكر لمنازلته، فبعثه إليهم وأحاطوا به. ثم انتهز الفرصة وداخل بعض العرب من بني علي في تبيت العسكر، وبذل لهم في ذلك المال فيتوه وانتفض وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من حضرة سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ونزل القيروان وتوافت إليه أحاديث وبعث رسله للأعذار بين يديه فردهم ابن مكى بالطاعة ثم احتمل رواجه ونزل بأحياء العرب.

وأغذ السلطان السير إلى البلد فدخلها واستولى على قصورها، ولأهل البلد بالبيعة فأتوها واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعاً إلى تونس. وهلك عبد الملك لأيام قلائل بين أحياء العرب. وهلك بعده ابنه عبد الرحمن ابن أخيه أحمد الذي كان صاحب طرابلس بعد أبيه، ولحق ابنه يحيى وحافده عبد الوهاب بطرابلس فمنعهم ابن ثابت من النزول ببلده لما كان متمسكاً بطاعة السلطان، فنزلوا بزنزور من بلاد دباب التي بضواحيها وأقاموا هنالك. واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك.

ثم ذهب يحيى بن عبد الملك إلى المشرق لقضاء فرضه، وأقام عبد الوهاب بين أحياء البربر بالجبال هنالك، وكان الوالي الذي تركه السلطان بقابس قد ساء أثره في أهلها، فسدس شيعتهم إلى عبد الوهاب بذلك وجاء إلى البلد فينتها، وثاروا بالوالي فقتلوه سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وملك عبد الوهاب قابس وجاء أخوه يحيى من المشرق بعد قضاء فرضه، فأجلب عليه مراراً يروم ملكها منه، ولم يتها له، ونزل على صاحب الحمة فداخله عبد الوهاب في أن يمكنه منه، ويشترط ما شاء. وتم ذلك بينهما وأوثقه كتافاً وبعث به إليه واعتقله بقصر العروسيين، فمكث في السجن أعواماً. ثم فر من محبسه ولحق بالحامة على مرحلة من قابس مستجداً بابن وشاح صاحبها، فأخذه. وما زال يجلب على نواحي قابس إلى أن ملكها وتقضى على عبد الوهاب ابن أخيه مكى فقتله أعوام تسعين وسبعمائة. ولم يزل مستبداً ببلده إلى سنة ست وتسعين وسبعمائة وكان الأمير عمر ابن السلطان أبي العباس قد بعث أبوه لخصار طرابلس فحاصرها حولاً كما نذكره، حتى استقام أهلها على الطاعة وأعطوا الضريبة فأفرج عنها. ورجع إلى أبيه فولاه على صفاقس وأعمالها فاستقل بها، ثم داخل أهل الحامة في

سعيد بن طاهر المزوغي وملك أمر البلد، وكان معه أبو البركات بن أبي الدنيا فمات حتف أنفه. واستقل ابن طاهر بأمر طرابلس اثنتي عشرة سنة. ثم هلك وقام بأمرها ثابت بن عمار الزكوجي من قبائل هوار. وثار به لسته أشهر من ولايته أحمد بن سعيد بن طاهر فقتله واستبد به. ثم ثار به جماعة زكوجة وقتلوه في مقتله عند الأذان بالصبح، وولوا محمداً ابن شيخهم ثابت بن عمار أعوام سبعة وعشرين فاستبد بأمر طرابلس نحواً من عشرين سنة وظل الدولة متقلص عنه. وهو يغالط عن الإمارة بالتجارة والاحتراف بها ولبوس شارتها، والسعي راجلاً في سكك المدينة يتناول حاجاته وماعونه بيده ويخالط السوق في معاملاته، يذهب في ذلك مذهب التخلق والتواضع يسر منه حسواً في ارتقاء، ويطلب العامل من تونس، فيبعثه السلطان على طرابلس يقيم عنده معتملاً في تصريفه. وهو يبرأ إليه ظاهراً من الأحكام والنقض والإبرام إلى أن كان تغلب بني مرين على إفريقية. ووصل السلطان أبو الحسن إلى الحضرة على ما ذكره، فذاوله طرف الحبل وهو ممسك بطرفه، ونقل إلى الإسكندرية ماله وذخيرته. ثم اغتاله أثناء ذلك جماعة من مجريش عند داره فقتلوه، وثار منهم للحين بطانته وشيعته. وولي بعده ابنه ثابت، فتزيا بزى الإمارة في اللبوس والركوب بجلية الذهب، واتخاذ الحجاب والبطانة.

وأقام على ذلك إلى أن اجتمع بها أسطول من تجار النصارى أغفلوا أمرهم لكثرة طروقهم وتردهم في سبيل التجارة، وكثرة ما يفشاهم من سفنهم، فغندروها ليلاً وثاروا فيها وكثروا أهلها فأسلم الحامية إليهم باليد. وفر مقدمهم ثابت إلى حلة أولاد مرغم أمراء الجوارى في أمانها فقتلوه صبراً لدم كان أصابه منهم في رئاسته، فكانت مدته ست سنين، وقتلوا معه أخاه عماراً.

واكتسح النصارى جميع ما كان بالبلد من الذخيرة والمتاع والخزني والماعون، وشحنوا السفن بها وبالأمرى من العقائل والحامية مصفدين، وأقاموا بالبلد أياماً على قلق ورهب من الكرة لو كان لها رجال. ثم تحدشوا مع من جاورها من المسلمين في فدائهم فتصدى لذلك صاحب قابس أبو العباس أحمد بن مكى وبذل لهم فيها خمسين ألفاً من الذهب استوهب أكثرها من جماعة المسلمين بالبلاد الجريدية تزلماً إلى الله باستخلاص الثغر من يد الكفر، وذلك سنة... وخمسين ولحق ولد ابن ثابت بنغفر الإسكندرية فأقاموا به يحترفون بالتجارة إلى أن هلك أحمد بن مكى سنة ست وستين وسبعمئة، وقام بأمره ولده عبد الرحمن. فسمّا أبو بكر بن محمد بن ثابت إلى رئاسة أبيه، وذكر عهود الصبا في معاهد قومه فاكثرى من النصارى سفناً شحنها بصنائه وموالي أبيه،

صاحب أسطول رجاء ملك صقلية من الإفرنج سنة أربعين وخمسمئة، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم كما فعل في سواحل إفريقية فأقاموا في ملكة النصارى أياماً. ثم ثار بهم المسلمون بمداخلة أبي يحيى بن مطروح من أعيانهم وفتكوا بهم. ولما افتتح عبد المؤمن المهدي سنة خمس وخمسين وخمسمئة وفد عليه ابن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم تكربة وردهم إلى بلدهم. وولى عليهم ابن مطروح إلى أن كبر منه وعجز وارحل إلى المشرق سنة ست وثمانين وخمسمئة بإذن السيد زيد بن عمر بن عبد المؤمن عامل إفريقية من قبل عمه يوسف واستقر بالإسكندرية.

وتعاقبت عليها ولاية الموحدين، ثم كان من أمر ابن غانية وقراقش ما قدمناه، وصارت طرابلس لقراقش. ثم استبد بشر أبي حفص بإفريقية على بني عبد المؤمن. وهلك قراقش وابن غانية، وانتظم عمل طرابلس في أعمال الأمير أبي زكريا وبينه إلى أن انقسمت دولتهم، واقتطعت الثغور الغربية عن الحضرة. وفشل ربح الدولة بعض الشيء وتقلص ظلمها عن القاصية، فصارت رئاسة طرابلس إلى الشورى ولم يزل العامل من الموحدين يجيء إليها من الحضرة إلا أن رئيسها من أهلها مستبد عليها، وحدثت العصية في البلد لحدوث الشورى والمنافسة فيها. ثم نزلها السلطان أبو يحيى بن اللحياني سنة سبع عشرة وسبعمئة حين تحافى عن ملك الحضرة، وأحسن بزحف السلطان أبي يحيى صاحب بجاية إليها فأبعد عن تونس إلى ثغر طرابلس، وأقام بها وأقام أحمد بن عربي من شيعته بمخدمته.

ولما فارق ابن اللحياني تونس وثنس الموحدون من عوده أخرجوا ابنه محمد المكنى بأبي ضربة من الاعتقال، وباعوا له. وخرج للقاء السلطان أبي بكر ومدافعتة فهزمه السلطان أبو بكر وحمله الأعراب الذين معه على قصد طرابلس لانتزاع الأموال والذخائر الملوكية من يد أبيه. ولما أحس بذلك أبوه ركب البحر من طرابلس إلى الإسكندرية كما هو مذكور في خبره، واستخلف على طرابلس صهره محمد بن أبي عمر بن إبراهيم بن أبي حفص فقام بأمرها، وولى حجابته رجلاً من أهله يشهر بالبطيسي، فساء أثره في أهل طرابلس، وحجب عنهم وجه الرضى من سلطانه، وحمله على مصادرتهم واستخلاص أموالهم حتى أجمعوا الثورة بالسلطان فركب السفين ناجياً منهم بعد أن تعرض بعضهم لوداعه فاطلعه على سعايات البطيسي بهم فقتلوه لوقتته، وقتلوا قاضياً بطرابلس من أهل تونس كان بماله على ذلك. وتولى كبر ذلك أحمد بن عربي. ثم هلك وقام بأمر طرابلس محمد بن كعبور فقتله

الخبر عن زناته من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من العز والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة

هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد، معروف العين والأثر؛ وهم لهذا العهد أخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين، وتحطف الناس من العمران، والإيابة عن الانقياد للنصفة.

وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر. ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب.

فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسنوس الأقصى، حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما نذكره.

ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية، وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم؛ والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال: وطن زناته.

ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربيين، وكانت لهم فيه دول أخرى في القديم.

ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم حسبما نذكره بعد لكل شعب منهم إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نسبة زناته وذكر الخلاف الواقع فيه وتعدد شعوبهم

أما نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسباتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم، وأما شانا فقال أبو محمد بن حزم في كتاب «الجمهرة»: قال بعضهم: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورمك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر.

وقال أيضاً في كتاب «الجمهرة»: ذكر لي يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد - يعني حين وفد على قرطبة عن أبيه الناصر أيام الناصر - قال: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن مقبويو بن قروال بن يملا بن مادغيس بن رحيك بن همرحق بن كراد بن مازيغ بن هريك بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام هذا ما ذكره ابن حزم.

ونازها سنة إحدى وسبعين وسبعمائة في أسطول من أساطيلهم. واجتمع إليه ذبيان العرب ففرق فيهم الأموال وأجلب عليها بمن في قراها وأريافها من الرجل، فاقترحهما على عبد الرحمن بن أحمد بن مكى عنوة، وأجاره العرب من أولاد مرغم بن صابر، وتولى ذلك منهم إلى أن أبلغوه مأمنه في إيالة عمه عبد الملك بمكان إمارتهم بقابس.

واستوسق أمر طرابلس لأبي بكر هذا، واستقل بولايتها. ودخل في طاعة السلطان أبي العباس بتونس، وخطب له على منابر، وقام يصانعه بما للسلطان من الضريبة، ويتحفه حيناً بعد حين بالهدايا والطرف إلى أن هلك سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، وولي مكانه علي ابن أخيه عمار، وقام بكفالاته عمه. وكان قائده قاسم بن خلف الله متهماً بالتشيع للصبي المخلف عن أبي يحيى، فارتاب ودفعوه لاقضاء المغارم من مسرته، فتوحش الخليفة من علي وانتقض. ثم بعث إليه بأمانته فرجع إلى طرابلس، ثم استوحش وطلب الحرج فخلوا سبيله وركب البحر إلى الإسكندرية. ولقي بها خالصة السلطان محمد بن أبي هلال عام حج فأخذ منه ذمة، وكر راجعاً في السفين إلى تونس يستحث السلطان للملك طرابلس. فلما مر بهم راسلوه ولاطفوه واستعادوه إلى مكانه فعاد إليهم. ثم جاءته النذر بالهلكة ففر، ولحق السلطان بتونس واستحثه للملك طرابلس. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعث معه ابنه الأمير أبا حفص عمر لخصار طرابلس فنزل بساحتها، وافترق عرب دباب عليه وعلى ابن ثابت، وقام ابن خلف الله في خدمته المقام المحمود، ووفر له جباية الوطن ومغارمه ونقل العرب إلى طاعته ويستألفهم به، وأقام عليها حولاً كريئاً يمنع عنهم الأقوات ويرزون إليه فيقاتلهم بعض الأحيان. ثم دفعوه بالضريبة التي عليهم لعدة أعوام نائطة وكان قد ضجر من طول المقامة فرضي بطاعتهم وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة فولاه على صفاقس وافتتح منها قابس كما قدمناه. وأقام علي بن عمار على إمارته بطرابلس إلى هذا العهد، والله مدبر الأمور بحكمته.

هذا آخر الكلام في الدولة الحفصية من الموحدون وما تبعها من أخبار المقدمين المستبدين بأمصاير الجريد والزباب والثغور الشرقية، فلنرجع إلى أخبار زناته ودولهم، ويكملها يكمل الكتاب إن شاء الله تعالى.

قيس متأخر عن داود بأضعاف ذلك الزمن.

وكيف يكون ذلك مع أن داود هو الذي قتل جالوت بنص القرآن؟

وأما إدخاله نسب جالوت في نسب البربر، وأنه من ولد مادغيس أو سفك فخطأ، وكذلك من نسبه إلى العمالة.

والحق أن جالوت من بني فلسطين بن كسلو حيم بن مصرام بن حام أحد شعوب حام بن نوح، وهم إخوة القبط والبربر والخبشة والنوبة كما ذكرناه في نسب أبناء حام.

وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل حروب كثيرة، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم، ومن سائر أولاد كنعان يضاهونهم فيها، ودثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبهما لهذا العهد، ولم يبق إلا البربر، واختص اسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم فاعتقد سامع اسم البربر مع ذكر جالوت أنه منهم وليس كذلك.

وأما ما رأي نسبة زناتة أنهم من حمير فقد أنكره الحفاظ أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم وقالوا: ما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في أكاذيب مؤرخي اليمن، وإنما حمل نسبة زناتة على الانتساب في حمير الترفع عن النسب البربري لما يرونهم في هذا العهد خولاً وعبداً للجبابة وعوامل الخراج، وهذا وهم فقد كان في شعوب البربر من هم مكافؤون لزناتة في العصبية أو أشد منهم مثل هؤارة ومكناسة، وكان فيهم من غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة ومن تلقف الملك من يد صنهاجة مثل المصامدة، كل هؤلاء كانوا أشد قوة وأكثر جمعاً من زناتة.

فلما فتيت أجيالهم أصبحوا مغلبين فنالهم ضر المغرم، وصار اسم البربر مختصاً لهذا العهد بأهل المغرم، فأنف زناتة منه فراراً من الهزيمة.

وأعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحتهم وما فيه من المزية بتعدد الأنبياء ولا سيما نسب مضر وأنهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم بن نوح بن شيث بن آدم، خمسة من الأنبياء ليس للبربر إذا نسبوا إلى حام مثلها مع خروجهم عن نسب إبراهيم الذي هو الأب الثالث للخلقة إذ الأكثر من أجيال العالم لهذا العهد من نسله.

ولم يخرج عنه لهذا العهد إلا الأقل مع ما في العروبة أيضاً من عز التوحش، والسلامة من مذمومات الخلق بانفرادهم في البيداء.

ويظهر منه أن مادغيس ليس نسبة إلى البربر وقد قدمنا ما في ذلك من الخلاف، وهو أصح ما ينقل في هذا الآن ابن حزم موثوق ولا يعدل به غيره.

ونقل عن ابن أبي زيد وهو كبير زناتة: ويكون البربر على هذا من نسل برنس فقط، والبر الذين هم بنو مادغيس الأبر ليسوا من البربر ومنهم زناتة وغيرهم كما قدمنا لكنهم إخوة البربر لرجوعهم كلهم إلى كنعان بن حام كما يظهر من هذا النسب.

ونقل عن أبي محمد بن قتيبة في نسب زناتة هؤلاء أنهم من ولد جالوت في رواية أن زناتة هو شانا بن يميم بن ضريس بن جالوت، وجالوت هو ونور بن هرييل بن جديلان بن جاد بن رديلان بن حصي بن باد بن زجيك بن مادغيس الأبر بن قيس بن عيلان.

وفي رواية أخرى عنه: أن جالوت بن جالود بن ديال بن قحطان بن فارس، وفارس مشهور.

وفي رواية أخرى عنه: أنه ابن هوبال بن بالود بن ديال بن برنس بن سفك، وسفك أبو البربر كلهم، ونسابة الجيل نفسه من زناتة يزعمون أنهم من حمير، ثم من التبابعة منهم.

وبعضهم يقول: إنهم من العمالة، ويزعمون أن جالوت جدهم من العمالة.

والحق فيهم ما ذكره أبو محمد بن حزم أولاً وما بعد ذلك فليس شيء منه بصحيح.

فأما الرواية الأولى عن أبي محمد بن قتيبة فمختلطة وفيها أنساب متداخلة.

وأما نسب مادغيس إلى قيس عيلان فقد تقدم في أول كتاب البربر عند ذكر أنسابهم وأن أبناء قيس معروفون عند النسابة.

وأما نسب جالوت إلى قيس فأمر بعيد عن القياس، ويشهد لذلك أن معد بن عدنان الخامس من آباء قيس إنما كان معاصراً لبحثنصر كما ذكرناه أول الكتاب.

وأنه لما سلب على العرب أوحى الله إلى أرمياء نبي بني إسرائيل أن يخلص معداً ويسير به إلى أرضه، ويختصر كان بعد داود بما يناهز أربعمائة وخمسين من السنين، فإنه خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان له بمثل هذه المدة.

فمعد متأخر عن داود بمثلها سواء، فقيس الخامس من أبنائه متأخر عن داود بأكثر من ذلك، فجالوت على ما ذكر أنه من أبناء

ومرغيصة ووركلة وثمالة وسيرترة، ولم يذكر أبو محمد بن حزم سيرترة وذكر الأربعة الباقية.

وأما الديرت بن جانا فمن ولده عند نسبة زناتة جراو بن الديرت، ولم يذكره ابن حزم.

وإنما قال عند ذكر الديرت ومن شعوبه: ينورسيك بن الديرت وهم بطنان دثر بن ورسيك وزاكيا بن ورسيك. قال: ودمر لقب واسمه الغانا.

قال: فمن ولد زاكيا بن مغراو وبنو يفرن وبنو واسين. قال: وأُمهم واسين مملوكة لأم مغراو وهم ثلاثتهم بنو يصلتن بن مسرا بن زاكيا.

ويزيد نسبة زناتة في هؤلاء يرنيان يصلتن أخاً لمغراو ويفرن وواسين ولم يذكره ابن حزم.

قال: ومن ولد دمر بنو ورنيد بن وائتن بن واديرن بن دمر، وذكر لبني دمر أفعاذاً سبعة وهم غرزول ولقورة ورتاتين، وهؤلاء الثلاثة مخصصون بنسب دمر، وبرزال وصدريين وصغمان ويطوفت، هكذا ذكر أبو محمد بن حزم وزعم أنه من إسماء أبي بكر بن يكتي البرزالي الأباضي.

وقال فيه: كان ناسكاً عالماً بأنسابهم، وذكر أن بني بواسين وبني برزال كانوا أباضية وأن بني يفرن ومغراوة كانوا سنية.

وعند نسبة البربر مثل سابق بن سليمان المطماطي وهاني بن يصدور والكومي وكهلان بن أبي لواء، وهو مسطر في كتبهم أن بني ورسيك بن الديرت بن جانا ثلاثة بطون وهم: بنو زاكيا وبنو دمر وآشمة بنو آتش، وكلهم بنو واديرن بن ورسيك.

فمن زاكيا بن واديرن أربعة بطون: مغراوة وبنو يفرن وبنو يرنيان وبنو واسين، كلهم بنو يصلتن بن مسرا بن زاكيا ومن آتش بن واديرن أربعة بطون: بنو برنال وبنو صقمان وبنو صدورين وبنو يطوفت كلهم بنو آتش بن واديرن.

ومن دمر بن واديرن ثلاثة بطون: بنو تقورت وبنو غرزول وبنو رتاتين كلهم بنو وتيد بن دمر، هذا الذي ذكره نسبة البربر وهو خلاف ما ذكره ابن حزم.

ويذكر نسبة زناتة آخرين من شعوبهم ولا ينسبونهم مثل يحفش وهم أهل جبل قازاز قريب مكناسة وسنجاسن وورسيقان وتحليلة وتيسات وواغمرت وتيغرض ووجديجن وبنو يلومي وبنو وماتوا وبنو توجين على أن بني توجين يتسبون في بني واسين نسباً ظاهر صحيحاً بلا شك على ما يذكر في أخبارهم.

فأعجب زناتة نسبهم وزينه لهم نسباتهم، والحق بمزول عنه، وكونهم من البربر بعموم النسب لا ينافي شعارهم من الغلب والعزة، فقد كان الكثير من شعوب البربر مثل ذلك وأعظم منه.

وأيضاً فقد تميزت الخليفة وتباينوا بغير واحد من الأوصاف، والكل بنو آدم ونوح من بعده.

وكذلك تميزت العرب وتباينت شعوبها والكل لسام ولإسماعيل بعده.

وأما تعدد الأنبياء في النسب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولا يضّر الاشتراك مع الجليل في النسب العام إذا وقعت المبانيّة لهم في الأحوال التي ترفع عنهم، مع أنّ المذلة للبربر إنما هي حادثة بالقلة ودثور أجيالهم بالملك حصل لهم، ونفقوا في سبيله وترفه كما تقدّم لك في الكتاب الأوّل من تأليفنا.

ولاً فقد تقدم لهم من الكثرة والعزّ والملك والدولة ما هو معروف.

وأما أن جيل زناتة من العمالة الذين كانوا بالشام فقول مرجوح وبعيد عن الصواب لأنّ العمالة الذين كانوا بالشام صنفان: عمالة من ولد عيصو بن إسحاق، ولم تكن لهم كثرة ولا ملك، ولا نقل أنّ أحداً منهم انتقل إلى المغرب بل كانوا لقلّتهم ودثور أجيالهم أخفى من الخفاء، والعمالة الأخرى كانوا من أهل الملك والدولة بالشام قبل بني إسرائيل وكان أريخاء دار ملكهم.

وغلب عليهم بنو إسرائيل وابتزّوهم ملكهم بالشام والحجاز وأصبحوا حصائد سيوفهم؛ فكيف يكون هذا الجليل من أولئك العمالة الذين دثرت أجيالهم؟ وهذا لو نقل لواقع به الاستربة فكيف وهو لم ينقل؟ هذا بعيد في العبادة والله أعلم بمخلقه.

وأما شعوب زناتة ويطونهم فكثير ولندكر المشاهير منها فنقول:

اتفق نسب زناتة على أن بطونهم كلّها ترجع إلى ثلاثة من ولد جانا وهم: وديك وفرنّي والديرت. هكذا في كتب أنساب زناتة.

وذكر أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة له من ولد ورسيك عند نسباتهم مسارت ورغاي وواشروجن، ومن واشروجن وأريفن بن واشروجن.

وقال أبو محمد بن حزم: ولد ورسيك أنهم مسارت وناجرت وراسين.

وأما فرنّي بن جانا فمن ولده عند نسبة زناتة يزمرتن

من صيغة جانا التي هي إسم أبي الجيل كله، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبهم.

وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا: جانات.

وإذا أرادوا التعميم زادوا مع التاء نوناً فصار جاناتن، ونطقهم بهذه الجيم ليس من خرج الجيم عند العرب بل ينطقون بها بين الجيم والشين وأميل إلى الشين، ويقرب للسمع منها بعض الصغير فأبدلوه زايأ محضة لاتصال مخرج الزاي بالشين، فصارت زانات لفظاً مفرداً دالاً على الجنس.

ثم الحقوا به هاء النسبة وحذفوا الألف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة والله أعلم.

فصل في أولية هذا الجيل وطبقته

أما أولية هذا الجيل بإفريقية والمغرب فهي مساوقة لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا يعلم مبدأها إلا الله تعالى.

ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن وجراوة وبني يربان ووجديين وغمرة وبني ويجفش وواسين وبني تبغرس وبني مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم.

وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعددة.

وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تلمسان ثم إلى وادي ملوثة.

وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة لهم لمغراوة وبني يفرن.

ولما ملك الإفرنجية بلاد البربر ودانوا لهم بدين النصرانية ونزلوا الأمصار بالسواحل، وكان زناتة هؤلاء وسائر البربر في ضواحيهم صاروا يؤدون لهم طاعة معروفة، وخارجاً معروفاً مؤقتاً، ويسكرون معهم في حروبهم ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك حتى جاء الله بالإسلام، وزحف المسلمون إلى إفريقية وملك الإفرنجية بها يومئذ جرجير، فظاهرة زناتة والبربر على شأنه مع المسلمين وانقضوا جميعاً.

وقتل جرجير وأصبحت أموالهم مغنم ونساؤهم سبايا، وافتتحت سبيلة.

ثم عاود المسلمون غزو إفريقية وافتتحوا جلولاة وغيرها من الأمصار، ورجع الإفرنجية الذين كانوا يملكونهم على أعقابهم

وبعضهم يقول في وجديجن وواغمرت بنو ورتنيض أنهم من البرانس من بطون البربر على ما قدمناه.

وذكر ابن عبد الحكم في كتابه فتح مصر خالد بن حميد الزناتي، وقال فيه: هو من شورة إحدى بطون زناتة، ولم نره لغيره.

هذا ملخص الكلام في شعوب زناتة وأنسابهم بما لا يوجد في كتاب.

والله الهادي إلى مسالك التحقيق لا رب غيره.

فصل في تسمية زناتة ومبنى هذه الكلمة

أعلم أن كثيراً من الناس يبحثون عن مبنى هذه الكلمة واشتقاقها على ما ليس معروفاً للعرب ولا لأهل الجيل أنفسهم فيقال: هو اسم وضعته العرب على هذا الجيل، ويقال بل الجيل وضعوه لأنفسهم أو اصطلاحوا عليه.

ويقال: هو زانا بن جانا فيزيدون في النسب شيئاً لم تذكره النسابة.

وقد يقال: إنه مشتق ولا يعلم في لسان العرب أصل مستعمل من الأسماء يشتمل على حروفه المادية، وربما يحاول بعض الجهلة اشتقاقه من لفظ الزنا، ويعضده بمحاكية خيسية يدفعها الحق، وهذه الأقوال كلها ذهاب إلى أنّ العرب وضعت لكل شيء اسماً، وأنّ استعمالها إنما هو لأوضاعها التي من لغتها ارتجالاً واشتقاقاً.

وهذا إنما هو في الأكثر وإلا فالعرب قد استعملت كثيراً من غير لغتها في مسماه إما لكونه علماً فلا يغير مثل إبراهيم ويوسف وإسحاق من اللغة العبرانية، وإما استعانة وتخفيفاً لتداوله بين الألسنة كاللجام والديباج والزنجيل والنيروز والياسمين والأجر، فنصير باستعمال العرب كأنها من أوضاعهم. ويستونها المعربة وقد يغيرونها بعض التغيير في الحركات أو في الحروف، وهو شائع لهم لأنه بمنزلة وضع جديد.

وقد يكون الحرف من الكلمة ليس من حروف لغتهم فيبدلونه بما يقرب منه في المخرج فإن مخرج الحروف كثيرة منضبطة وإنما نطقت العرب منها بالثمانية والعشرين حروف أبجد.

وبين كل مخرجين منها حروف أكثر من واحد فمنها ما نطقت به الأمم، ومنها ما لم تنطق به، ومنها ما نطق به بعض العرب كما هو مذكور في كتب أهل اللسان.

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أنّ أصل هذه اللفظة التي هي زناتة

إلى مواطنهم وراء البحر.

بن مصكسري بن أفرد بن وصيلا بن جراو.

وظن البربر بأنفسهم مقاومة العرب فاجتمعوا وتمسكوا بحصون الجبال واجتمعت زناته إلى الكاهنة وقومها جراوة بجبل أوراس حسبما نذكر، فأتى العرب فيهم واتبعهم في الضواحي والجبال والقفار حتى دخلوا في دين الإسلام طوعاً وكرهاً، وانتقدوا إلى إيالة مصر وتولوا من أمرهم ما كان الإفريقية يتولونه حتى إذا انحلت بالمغرب عرى الملك العربي وأخرجهم من إفريقية البربر من كتامة وغيرهم، قدح هذا الجيل الزناتي زناد الملك فأورى لهم، وتداول فيهم الملك جيلاً بعد جيل في طبقتين حسبما نقصه عليك إن شاء الله تعالى.

الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناته

وشأنهم مع المسلمين عند الفتح

كانت هذه الأمة من البربر بإفريقية والمغرب في قوة وكثرة وعديد وجوع، وكانوا يعطون الإفريقية بأمصارهم طاعة معروفة، ملك الضواحي كلها لهم، وعليهم مظاهرة الإفريقية مما احتاجوا إليهم ولما أطل المسلمون في عساكرهم على إفريقية للفتح ظاهروا جريحاً في زحفه إليهم حتى قتله المسلمون وانقضت جموعهم وافترقت رياستهم ولم يكن بعدها بإفريقية موضع للقاء المسلمين بجمعهم لما كانت غزواتهم لكل أمة من البربر في ناحيتها وموطنها مع من تحيز إليهم من قبل الإفريقية.

ولما اشتغل المسلمون في حرب عليّ ومعاوية أغفلوا أمر إفريقية ثم ولاها معاوية بعد عام عقبة بن نافع الفهري فأتى في المغرب في ولايته الثانية، وبلغ إلى السوس وقتل بالزاب في مرجعه. واجتمعت البربر على كسيلة كبير أوربة، وزحف إليه بعد ذلك زهير بن قيس البلوي أيام عبد الملك بن مروان فهزمه وملك القيروان وأخرج المسلمين من إفريقية.

وبعث عبد الملك حسان بن النعمان في عساكر المسلمين فهزموا البربر، وقتلوا كسيرة واسترجعوا القيروان وقرطاجنة وإفريقية وفر بقية الإفريقية والروم إلى صقلية والأندلس، وافترقت رياسة البربر في شعوبهم.

وكانت زناته أعظم قبائل البربر وأكثرها جوعاً وبطوناً، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس، وهم ولد كراو بن الديرث بن جانا.

وكانت رياستهم للكاهنة دها بنت تابة بن نيقان بن باورا

وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم وعلى قومهم بهم، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بنىب أحوالهم وعواقب أمورهم فأنتهت إليها رياستهم.

قال هاني بن بكور الضريسي: ملكت عليهم خمساً وثلاثين سنة وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة.

وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبله جبر أوراس بإغرائها برابرة يهودا عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها.

فلما انقضى جمع البربر وقتل كسيلة زحفوا إلى هذه الكاهنة بعتصمها من جبل أوراس، وقد ضوي إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناته وسائر البتر، فلقيتهم بالبسيط أمام جبلها، وانهمز المسلمون واتبعت آثارهم في جموعها حتى أخرجتهم من إفريقية، وانتهى حسان إلى برقة فأقام بها حتى جاءه المدد من عبد الملك، فزحف إليهم سنة أربع وسبعين وفرض جموعهم، وأوقع بهم وقتل الكاهنة، واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف.

وكان للكاهنة ابنان قد لحقا بحسان قبل الواقعة، أشارت عليهما بذلك أمهما دها لأشارة علم كان لديها في ذلك من شيطانها فتقبلهما حسان وحسن إسلامهما واستقامت طاعتهما، وعقد لهما على قومها جراوة ومن انضوى إليهم بجبل أوراس.

ثم افترق فلهم من بعد ذلك وانقرض أمرهم.

وافترق جراوة أوزاعاً بين قبائل البربر، وكان منهم قوم بسواحل مليلة، وكان لهم آثار بين جيرانهم هناك.

وإليهم نزح بن أبي العيش لما غلبه موسى بن أبي العافية على سلطانه بتلمسان أول المائة الرابعة حسبما نذكره.

فنزل عليهم وبنى القلعة بينهم إلى أن خربت من بعد ذلك.

والقل منهم بذلك الوطن إلى الآن لهذا العهد مندرجون في يطوفت ومن إليهم من قبائل غمارة والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مبتدأ دول زناته في الإسلام

ومصير الملك إليهم بالمغرب وإفريقية

لما فرغ شأن الردة من إفريقية والمغرب وأذن البربر لحكم

ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق، ولم يبق لهم في نواحي المغرب دولة، ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مضر بعد أن رسخت الملة فيهم، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، واستيقنوا بوعد الصادق أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

فلم تنسلخ الملة بانسلاخ الدولة ولا تقوّضت مباني الدين بتقويض معالم الملك، وعداً من الله لن يخلفه في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كله.

فتناغى حينئذ البربر في طلب الملك والقيام بدعوة الأعياص من بني عبد مناف يسترون منها حسواً في ارتغاء إلى أن ظفروا من ذلك بحظ مثل كتامة بإفريقية، ومكناسة بالمغرب، ونافسهم في ذلك زناتة، وكانوا من أكثرهم جمعاً وأشدّهم قوة فشتموا له حتى ضربوا معهم بسهم، فكان لبني يفرن بالمغرب وإفريقية على يد صاحب الحمار، ثم على يد يعلى بن محمد وبينه ملك ضخم. ثم كان لغزوة على يد بني خزر دولة أخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة.

ثم انقرضت تلك الأجيال ونجّرد الملك بالمغرب بعدهم في جيل آخر منهم، فكان لبني مرين بالمغرب الأقصى ملك، ولبني عبد الواد بالمغرب الأوسط ملك آخر تقاسمهم فيه بنو توجين والفل من مغزاة حسبما تذكر ونستوفي شرحه، ونجلب أيامهم ويطونهم على الطريقة التي سلكتها في أخبار البربر، والله المعين سبحانه لا رب سواه، ولا معبود إلا إياه.

الطبقة الأولى من زناتة ونبدأ منها بالخبر

عن بني يفرن وأنسابهم وشعوبهم وما كان

لهم من الدول بإفريقية والمغرب

وبنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونهم، وهم عند نسابة زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، وإخوته مغزاة وبنو يرينان وبنو واسين، والكل بنو يصلتين.

ويفرن في لغة البربر: هو القار وبعض نسابتهم يقولون: إن يفرن هو ابن روتيز بن جانا وإخوته مغزاة وغمرت ووجدلين.

وبعضهم يقول: يفرن بن مرة بن ورسيك بن جانا، وبعضهم يقول: هو ابن جانا لصلبه والصحيح ما نقلناه عن أبي محمد بن حزم.

الإسلام وملك العرب، واستقل بالخلافة ورياسة العرب بنو أمية اقتعدوا كرسي الملك بدمشق، واستولوا على سائر الأمم والأقطار، وأنخروا في القاصية من لدن الهند والصين في المشرق، وفرغانة في الشمال، والحيشة في الجنوب، والبربر في المغرب، وبلاد الجلالقة والإفريقية في الأندلس.

وضرب الإسلام بجرانه، وألقت دولة العرب بكلكلها على الأمم.

ثم جدع بنو أمية أنوف بني هاشم مقاسمهم في نسب عبد مناف، والمدعين استحقاق الأمر بالوصية.

وتكرّر خروجهم عليهم، فأنخروا فيهم بالقتل والأسر، حتى توغّرت الصدور واستحكمت الأوتار وتعدّدت فرق الشيعة باختلافهم في مساق الخلافة من علي كرم الله وجهه إلى من بعده من بني هاشم.

فقوم ساقوها إلى آل العباس، وقوم إلى آل الحسن، وآخرون إلى آل الحسين، فدعت شيعة آل العباس بخراسان وقام بها اليمينية فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلاً وسبياً.

وخلص من جاليتهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فجذّد بها دعوة الأمويين واقتطع ما وراء البحر عن ملك الهاشمين فلم تحفّق لهم به راية.

ثم نفس آل أبي طالب على آل العباس ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك، فخرج المهدي محمد بن عبد الله المدعو بالنفس الزكية في بني أبي طالب على أبي جعفر المنصور، وكان من أمرهم ما هو مذكور واستلحمتهم جيوش بني العباس في وقائع عديدة.

وفرّ إدريس بن عبد الله أخو المهدي ناجياً من بعض وقائعهم إلى المغرب الأقصى فأجاره البرابرة من أوربة ومغيلة وصدينية، وقاموا بدعوته ودعوة بنييه من بعده، ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط، وبثوا دعوة إدريس وبنييه من أهله بعده في أهله من زناتة مثل بني يفرن ومغزاة وقطعوه من ممالك بني العباس. واستمرت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العبيديين.

ولم يزل الطالبيون أثناء ذلك بالمشرق ينزعون إلى الخلافة ويثبّون دعائهم بالقاصية إلى أن دعا أبو عبد الله المحتسب بإفريقية إلى المهدي ولد إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا إفريقية من يد الأغالبة،

وقدم ابن الأشعث إفريقية من قبل أبي جعفر المنصور.

وخافه البربر فحسم العلل وسكن الحروب.

ثم انتقض بنو يفرن بنواحي تلمسان ودعوا إلى الخارجيّة، وبايعوا أبا قرّة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة، وسرح إليهم ابن الأشعث الأغلب بن سودة التميمي فأنتهى إلى الزاب وفرّ أبو قرّة إلى المغرب الأقصى، ثم راجع موطنه بعد رجوع الأغلب.

ولما انتقض البرابرة على عمر بن حفص بن أبي صفرة الملقّب (هزار مرد) عام خمسين ومائة وحاصروه بطبنة كان فيمن حاصره أبو قرّة الفيرني في أربعين ألفاً صفريّة من قومه وغيرهم حتى اشتدّ عليه الحصار، ودخل أبا قرّة في الإفراج عنه على يد ابنه على أن يعطيه أربعين ألفاً، ولابنه أربعة آلاف، فارتحل بقومه وانقضّ البرابرة عن طبنة.

ثم حاصروه بعد ذلك بالقيروان واجتمعوا عليه وأبو قرّة معهم ثلاثمائة وخمسين ألفاً، الحباله منها خمسة وثمانون ألفاً. وهلك عمر بن حفص في ذلك الحصار.

وقدم يزيد بن حاتم والياً على إفريقية ففضّ جموعهم وفرّق كلمتهم، ولحق أبو قرّة ببني يفرن أصحابه بمواطنهم من تلمسان بعد أن قتل صاحبه أبو حاتم الكنديّ رأس الخوارج، واستلحم بن يفرن وتوغّل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وأثنى في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا.

ولم يكن لبني يفرن من بعدها انتفاض حتى كان شأن أبي يزيد بإفريقية في بني واركوا ومرنجيسة منهم حسبما ذكره إن شاء الله تعالى الكريم.

وبعض المؤرخين ينسب أبا قرّة هذا إلى مغيلة، ولم أظفر بصحيح في ذلك، والطرائق متساوية في الجانبين، فإنّ نواحي تلمسان، وإن كانت موطناً لبني يفرن فهي أيضاً موطن لمغيلة، والقيلتان متجاورتان.

لكن بني يفرن كانوا أشدّ قوّة وأكثر جمعا، ومغيلة أيضاً كانوا أشهر بالخارجية من بني يفرن لأنهم كانوا صفريّة.

وكثير من الناس يقولون: إنّ بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنّة كما ذكره ابن حزم وغيره والله أعلم.

وأما شعوبهم فكثير ومن أشهرهم بنو واركوا ومرنجيسة.

وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدها شوكة، وكان منهم بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب، فلما كان الفتح غشي إفريقية ومن بها من البربر جنود الله المسلمون من العرب فتطامنوا لباسهم حتى ضرب الدين بجوانه، وحسن إسلامهم.

ولما فشا دين الخارجيّة في العرب وغلبهم الخلفاء بالشرق واستلحموهم نزعوا إلى القاصية، وصاروا يشّون بها دينهم في البربر فتلقفه رؤساؤهم على اختلاف مذاهبه باختلاف رؤوس الخارجية في أحكامهم من أباضية وصفرية وغيرهما كما ذكرناه في باب، ففشا في البربر وضرب فيه يفرن هؤلاء بسهم واتحلوه وقتلوا عليه.

وكان أوّل من جمع لذلك منهم أبو قرّة من أهل المغرب الأوسط.

ثم من بعده أبو يزيد صاحب الحمار وقومه بنو واركوا ومرنجيسة.

ثم كان لهم بالمغرب الأقصى من بعد الانسلاخ من الخارجية دولتان على يد يعلى بن محمد صالح وبينه حسبما تذكر ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أبي قرّة وما كان لقومه من الملك

بتلمسان ومبدأ ذلك ومصادره

كان من بني يفرن بالمغرب الأوسط بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد المعروف بهم لهذا العهد، وهم الذين اختطوا تلمسان كما ذكره في أخبارها.

وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس أبو قرّة ولا نعرف من نسبه أكثر من أنه منهم.

ولما انتقض البرابرة بالمغرب الأقصى وقام ميسرة وقومه بدعوة الخارجيّة وقتله البرابرة قدّموا على أنفسهم مكانه خالد بن حميد من زناتة، فكان من حروبه مع كلثوم بن عياض وقتله إيّاه ما هو معروف. ورأس على زناتة من بعده أبو قرّة هذا.

ولما استأثرت دولة بني أمية كثرت الخارجيّة في البربر، وملك ورفجومة القيروان، وهوارة وزناتة طرابلس ومكناسة سجلماسة، وابن رستم تاهرت.

الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع الشيعة ومصادره

هذا الرجل من بني واركوا إخوة مرغبيصة، وكلهم من بطون بني يفرن، وكنيته أبو يزيد، واسمه غلذ بن كيداد لا يعلم من نسبه فيهم غير هذا.

وقال أبو محمد بن حزم: ذكر لي أبو يوسف الورّاق عن أيوب بن أبي يزيد أن اسمه غلذ بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن غلذ بن عثمان بن وريث بن حونيفر بن سميران بن يفرن بن جانا وهو زنّانة.

قال: وقد أخبرني في بعض البربر بأسماء زائدة بين يفرن وجانا، أهد. كلام ابن حزم.

ونسبه ابن الرقيق أيضاً في بني واسين بن ورسيك بن جانا، وقد تقدّم نسبهم أوّل الفصل.

وكان كيداد أبوه يختلف إلى بلاد السودان في التجارة، فولد له أبو يزيد بكرهما من بلادهم، وأمه أم ولد اسمها سبيكة ورجع به إلى قبطون زنّانة ببلاد قسطنطية.

ونزل توزر متردداً بينها وبين تقيوس، وتعلّم القرآن وتأدّب، وخالط النكارية فمال إلى مذهبهم وأخذها عنهم، ورأس فيها ورحل إلى مشيختهم بتهرت، وأخذ عن أبي عبيدة منهم أيام اعتقال عبيد الله المهدي بسجلماسة.

ومات أبوه كيداد وتركه على حال من الخصاصة والفقر، فكان أهل القيطون يصلونه بفضل أموالهم، وكان يعلم صبيانهم القرآن ومذاهب النكارية.

واشتهر عنه تكفير أهل الملّة وسب عليّ فخاف وانتقل إلى تقيوس.

وكان يختلف بينها وبين توزر، وأخذ نفسه بالتغيير على الولاة.

ونفي عنه اعتقاد الخروج عن السلطان فنذر الولاة بقسطنطية دمه، فخرج إلى الحج سنة عشر وثلاثمائة وأرهفه الطلب فرجع من نواحي طرابلس إلى تقيوس.

ولما هلك عبد الله أوعز إلى أهل قسطنطية في القبض عليه، فلحق بالشرق وقضى الفرض وانصرف إلى موطنه، ودخل توزر سنة خمس وعشرين مستتراً.

وسعى به ابن فرقان عند والي البلد فتقبّض عليه واعتقله، وأقبل سرعان زنّانة إلى البلد ومعهم أبو عمّار الأعمى رأس النكارية واسمه كما سبق عبد الحميد، وكان بمن أخذ عنه أبو يزيد فتعرضوا للوالي في إطلاقه، فتعلّل عليهم بطلبه في الخراج، فاجتمعوا إلى فضل ويزيد ابني أبي يزيد، وعمدوا إلى السجن فقتلوا الحرس وأخرجوه، فلحق ببلد بني واركلا، وأقام بها سنة يختلف إلى جبل أوراس وإلى بني برزال في مواطنهم بالجبال قبالة المسيلة، وإلى بني زنداك من مغراوة إلى أن أجابوه، فوصل إلى أوراس ومعه أبو عمّار الأعمى في اثني عشر من الراحلة، ونزلوا على النكارية بالوالات.

واجتمع إليه القرابة وسائر الخوارج، وأخذ له البيعة عليهم أبو عمّار صاحبه على قتال الشيعة وعلى استباحة الغنائم والسبي، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى، وذلك سنة إحدى وثلاثين.

وترصدوا غيبة صاحب باغاية في بعض وجوهه فضربوا على بسطها، واستباح بعض القصور بها سنة اثنتين وثلاثين وغمس بذلك أيدي البربر في الفتنة.

ثم زحف بهم إلى باغاية واستولت عليه وعلى أصحابه الهزيمة فلحقوا بالجبل.

وزحف إليهم صاحب باغاية فانهزم ورجع إلى بلدته، فحاصره أبو يزيد وأوعز أبو القاسم القائم إلى كتامة في إمداد كتون صاحب باغاية، فتلاحقت به العساكر فيبشهم أبو يزيد وأصحابه ففلوهم، وامتنعت عليه باغاية وكتب أبو يزيد البربر الذين حول قسطنطية من بني واسين وغيرهم، فحاصروا توزر سنة ثلاث وستين ورحل إلى تبسة فدخلها صلحاً، ثم إلى بجاية كذلك، ثم إلى مرامجة كذلك، وأهدوا له حماراً أشهب فلزم ركوبه حتى اشتهر به.

وبلغ خبره عساكر كتامة بالإريس فانفضوا وملك الإربض وقتل إمام الصلاة بها. وبعث عسكرياً إلى تبسة فملكوها وقتلوا عاملها. وبلغ الخبر القائم وهو بالمهدية فهاه.

وسرح العساكر لضبط المدن والثغور، وسرح مولاة بشرى الصقلي إلى باجة، وعقد ليسور على الجيوش فمسكر بناحية المهدية، وسرح خليل بن إسحاق إلى القيروان فمسكر بها.

وزحف أبو يزيد إلى بشرى بباجة، واشتدّت الحرب بينهم، وركب أبو يزيد حماره وأمسك عصاه فاستمات النكارية، وخالفوا بشرى إلى معسكره فانهزم إلى تونس، واقتحم أبو يزيد باجة

ولما وقف بالمصلّى قال القائم لأصحابه من ههنا يرجع،
واتصل حصاره للمهدية، واجتمع إليه البربر من قابس وطرابلس
ونقوسة.

وزحف إليهم ثلاث مرات فانهزم في الثالثة ولم يفلح،
وكذلك في الرابعة، واشتد الحصار على أهل المهدية ونزل الجوع
بهم.

واجتمعت كتامة بقسنطينة وعسكروا بها لإمداد القائم،
فسرّح إليهم أبو يزيد يكومس المزاتي من ورفجومة، فانقضّ
معسكر كتامة من قسنطينة.

وينس القائم من مددهم وتفرقت عساكر أبي زيد في
الغارات والنهب فخفّ المعسكر، ولم يبق به إلا هواره ورأس بنو
كملان وكثرت مراسلات القائم للبربر.

واستراب بهم أبو يزيد وهرب بعضهم إلى المهدية، ورحل
آخرون إلى مواطنهم، فأشار عليه أصحابه بالإفراج عن المهدية
فأسلموا معسكرهم، ولحقوا بالقيروان سنة أربع وثلاثين.

وذُبر أهل القيروان في القبض عليه فلم يتهبأ لهم، وعذله
أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا فتاب وأقلع، وعاد
لبس الصوف والتخشف.

وشاع خبر إجماله عن المهدية فقتل النكارية في كل بلد،
وبيعث عساكره فعاثوا في النواحي وأوقعوا بأهل الأمصار وخربوا
كثيراً منها.

وبيعث ابنه أيوب إلى باجة فعسكر بها ينتظر وصول المدد
من البربر وسائر النواحي فلم ينجأه إلا وصول علي بن حمدون
الاندلسي صاحب المسيلة في حشد كتامة وزواوة، وقد مرّ
بقسنطينة والإربس وسقنبارية، واصطحب منها العساكر فيّته
أيوب وانقضّ معسكره، وتردّى به فرسه في بعض الأوعار فهلك.

ثم زحف أيوب في عسكره إلى تونس وقائدها حسن بن
علي من دُعاة الشيعة فانهزم، ثم أتيحت له الكرة ولحق حسن بن
علي بيلد كتامة فعسكر بهم على قسنطينة. وسرّح أبو يزيد جموع
البربر لحربه.

ثم اجتمعت لأبي يزيد حشود البربر من كل ناحية وثابت
إليه قوّته. وارتحل إلى سوسة فحاصرها ونصب عليها المجانيق.

وهلك القائم سنة أربع وثلاثين في شوال وصارت الخلافة
لابنه إسماعيل المنصور فبعث بالمدد إلى سوسة بعد أن اعتزم على
الخروج إليها بنفسه فمنعه أصحابه.

واستباحها، ودخل بشرى إلى تونس وارتدت البرابر من كل ناحية
فأسلم تونس ولحق بسوسة.

واستأمن أهل تونس إلى أبي يزيد فأمنهم وولّى عليهم،
وانتهى إلى وادي مجرّدة فعسكر بها. ووافته الحشود هنالك.

ورعب الناس منه فأجفلوا إلى القيروان، وكثرت الأراجيف
وسرّب أبو يزيد جيوشه في نواحي إفريقية، فشنّوا الغارات وأكثروا
السيي والقتل والأسر.

ثم زحف إلى رقادة فانقضّ كتامة الذين كانوا بها ولحقوا
بالمهدية. ونزل أبو يزيد رقادة في مائة ألف.

ثم زحف إلى القيروان فانحصر بها خليل بن إسحاق ثم
أخذه بعد مراوضة في الصلح، وهم يقتله فأشار عليه أبو عمار
باستبقائه فلم يطعه وقتله.

ودخلوا القيروان فاستباحوها ولقيه مشيخة الفقهاء فأمنهم
بعد التقرّيع والعتب، وعلى أن يقتلوا أولياء الشيعة، وبعث رسله
في وفد من أهل القيروان إلى الناصر الأموي صاحب قرطبة ملتزماً
لطاعته والقيام لدعوته وطالباً لمده، فرجعوا إليه بالقبول والوعد.

ولم يزل يردّد ذلك سائر أيام الفتنة حتى أوفد ابنه أيوب في
آخرها سنة خمس وثلاثين، فكان له اتصال بالناصر سائر أيامه.

وزحف ميسور من المدينة بالعساكر وفرّ عنه بنو كملان من
هواره ولحقوا بأبي يزيد وحرضوه على لقاء ميسور، فزحف إليه
واستوى اللقاء.

واستمات أبو يزيد والنكارية فانهزم ميسور وقتله بنو
كملان وبعث برأسه إلى القيروان، ثم إلى المغرب واستبيح
معسكره.

وسرّح أبو يزيد عساكره إلى مدينة سوسة فاقتحموها عنوة
وأكثروا من القتل والمثلة.

وعظم القتل بضواحي إفريقية، وخلت القرى والمنازل ومن
أفلته السيف أهلكه الجوع.

واستخفّ أبو يزيد بالناس بعد قتل ميسور فلبس الحرير
وركب الفاره.

ونكر عليه أصحابه ذلك، وكتبه به رؤساؤهم من البلاد،
والقائم خلال ذلك بالمهدية يخندق على نفسه ويستنفر كتامة
وصنهاجة للحصار معه.

وزحف أبو زيد حتى نزل المهدية وناوش عساكرها الحرب،
فلم يزل الظهور عليهم، وملك زويلة.

اقتحمها عليهم فاعتصم أبو يزيد بقصر في ذروة القلعة فأحيط به واقتحم، وقتل أبو عمار الأعمى ويكموس المزاني ونجا أبو يزيد مثخناً بالجراحة محمولاً بين ثلاثة من أصحابه فسقط في مهواة من الأوعار فوهن وسبق من الغداة إلى المنصور فامر بمداواته.

ثم أحضره ووثقه وأقام الحجّة عليه وتجاوى عن دمه، وبعثه إلى المهديّة وفرض له بها الجراية فجزاه خيراً، وحمل في القفص فمات من جراحته سنة خمس وثلاثين. وأمر به فسلخ وحشي جلده بالثين وطيف به في القيروان.

وهرب القلّ من أصحابه إلى ابنه فضل، وكان مع معبد بن خزر فاغاروا على ساقّة المنصور، وكمن لهم زيري بن مناد أمير صنهاجة فوقع بهم. ولم يزل المنصور في أتباعه إلى أن نزل المسيلة وانقطع أثر معبد، ووافاه بمعسكره هنالك انتقاض حميد بن يصل عامل تيهرت من أوليائهم، وأنه ركب البحر من تنس إلى العدوّة فارتحل إلى تيهرت وولّي عليها وعلى تنس.

ثم قصد لوائّة قهريو إلى الرمال، ورجع إلى إفريقية سنة خمس وثلاثين.

ثم بلغه أنّ فضل بن أبي يزيد اغار على جهات قسطنطينة، فرحل من سنته في طلبه وانتهى إلى قصّة ثم ارتحل إلى ميظلة من أعمال الزاب، وفتح حصن ماداس مما يليه.

وهرب فضل في الرمال فأعجزه ورجع إلى القيروان سنة ست وثلاثين. ومضى فضل إلى جبل أوراس، ثم سار منه إلى باغاية فحاصرها. وغدر به ماطيط بن يعلى من أصحابه، وجاء برأسه إلى المنصور. وانقرض أمر أبي يزيد وبنيه وافتقرت جموعهم.

واغتال عبد الله بن بكّار من رؤساء مغراوة بعد ذلك أيوب بن أبي يزيد وجاء برأسه إلى المنصور متقرباً إليه.

وتبع المنصور قبائل بني يفرن بعدها إلى أن انقطع أثر الدعوة. والبقاء لله تعالى وحده.

ووصل المدد إلى سوسة فقاتلوا أبا يزيد فانهزم ولحق بالقيروان، فامتعت عليه فاستخلص صاحبه أبا عمار من أيديهم وارتحل عنهم.

وخرج المنصور من المهديّة إلى سوسة، ثم إلى القيروان فملكها وعفا عن أهلها وأمنهم وأحسن في خلف أبي يزيد وعياله.

وتوافى المدد إلى أبي يزيد ثلاثة فاعتزم على حصار القيروان، وزحف إلى عسكر المنصور بساحتها فيبتهم، واشتدّ الحرب واستمات الأولياء وافترقوا آخر نهارهم.

وعادوا الزحف مرّات ووصل المدد إلى المنصور من الجهات حتى إذا كان منتصف المحرم كان الفتح، وانهزم أبو يزيد وعظم القتل في البربر ورحل المنصور في أتباعه فمرّ بسببية ثم تسه حتى انتهى إلى باغاية.

ووافاه بها كتاب محمد بن خزر بالطاعة والولاية والاستعداد للمظاهرة، فكتب إليه برصد أبي يزيد والقبض عليه، ووعدّه في ذلك بعشرين حملاً من المال.

ثم رحل إلى طينة فوافاه بها جعفر بن عليّ عامل المسيلة بالهدايا والأموال.

وبلغه أنّ أبا يزيد نزل بسكرة وأنه كاتب محمد بن خزر يسأله النصرة، فلم يجد عنده ما يرضيه، فارتحل المنصور إلى بسكرة فتلقّاه أهلها.

وفرّ أبو يزيد إلى بني برزال بجبل سالات، ثم إلى جبل كتامة وهو جبل عياض لهذا العهد.

وارتحل المنصور في أثره إلى ومرة وبيته أبو يزيد هنالك فانهزم ولم يظفر والحاز إلى جبل سالات.

ثم لحق بالرمال ورجع عنه بنو كملان، وأمنهم المنصور على يد محمد بن خزر.

وسار المنصور في التبعية حتى نزل جبل سالات، وارتحل وراءه إلى الرمال.

ثم رجع ودخل بلاد صنهاجة، وبلغه رجوع أبي يزيد إلى جبل كتامة فرجع إليه، ونزل عليه المنصور في كتامة وعجيسة وزواوة وحشد بني زنداك ومزاتة ومكناسة ومكلامة وتقدّم المنصور إليه فقاتلوا أبا يزيد وجموع النكارية فهزموهم واعتصموا بجبل كتامة، ورحل المنصور إلى المسيلة وانحصر أبو يزيد في قلعة الجبل، وعسكر المنصور إزاءها واشتدّ الحصار، وزحف إليها مرّات، ثم

الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب

الأوسط والأقصى ومبادئ أمورهم

ومصايرها

كان لبني يفرن من زناتة بطون كثيرة وكانوا متفرّقين بالمواطن، فكان منهم بإفريقية بنو واركوا ومرنجيسة وغيرهم كما قدّمناه، وكان منهم بنواحي تلمسان ما بينها وبين تاهرت أمم كثير

من بلده، وأسر إلى بعض مستخلصيه من الأتباع فأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة. وزناته، وتقبّض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة فغص بالراح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة، وذهب دمه هدرًا في القبائل. وخرّب جوهر مدينة إيفكان وفرت زناته أمامه وكشف القناع في مطالبتهم. وقد ذكر بعض المؤرخين أنّ يعلى إنما لقي جوهرًا عند منصرفه من الغزاة بمدينة تاهرت، وهناك كان فتكه به بناحية شلف، ففترقت بعدها جماعة بني يفرن وذهب ملكهم. فلم يجتمعوا إلا بعد حين على ابنه بدوي بالمغرب كما نذكره.

ولحق الكثير منهم بالأندلس كما يأتي خبره في موضعه وانقرضت دولة بني يفرن هؤلاء إلى أن عادت بعد مدة على يد يعلى بفاس. ثم استقرت آخرًا بسلا وتعاقبت فيهم هنالك إلى آخرها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلا من المغرب الأقصى وأولية ذلك وتصاريفه

لما أوقع جوهر الكاتب قائد المعزّ بيعلى بن محمد أمير بني يفرن وملك المغرب سنة سبع وأربعين وثلاثمائة كما ذكرناه. وتفرقت جموع بني يفرن لحق ابنه بدوي بن يعلى بالمغرب الأقصى وأحسن بجوهر من ورائه فأبعد المقر وأصحر إلى أن رجع جوهر من المغرب.

ويقال: إن جوهرًا تقبّض عليه واحتمله أسيرًا فاعتقل إلى أن فرّ من معتقله بعد حين، واجتمع عليه قومه من بني يفرن وكان جوهر عند منصرفه من المغرب ولّى على الأدارسة المتحيزين إلى الريف وبلاد غمارة الحسن بن كتون شيخ بني محمد منهم فنزل البصرة.

وأجاز الحكم المستنصر لأول ولايته سنة خمس وثلاثمائة وزيره محمد بن قاسم بن طملس في العساكر لتدوين المغرب فجمع له الحسن بن كتون وأوقع به، ورجع إلى الأندلس مفلولاً فسرح الحكم فولاه غالبًا لتدوين المغرب واقتلاع جرثومة الأدارسة، فأجاز في العساكر وغلّبهم على بلادهم وأزعجهم جميعًا عن المغرب إلى الأندلس سنة خمس وستين وثلاثمائة كما ذكرناه. ومهد دعوة الأموية بالمغرب، وأقبل الحكم مولاه غالبًا

عددهم وهم الذين اختطوا مدينة تلمسان كما نذكره بعد. ومنهم أبو قرّة المتزّي بتلك الناحية لأول الدولة العباسية، وهو الذي حاصر عمر بن حفص بطبنة كما تقدّم.

ولما انقرض أمر أبي يزيد وأئخذ المنصور فيمن كان بإفريقية من بني يفرن أقام هؤلاء الذين كانوا بنواحي تلمسان على وفودهم. وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح.

ولما تولّى المنصور محمد بن خزر وقومه مغراوة، وكان بينه وبين بني يفرن هؤلاء فتنة هلك فيها محمد بن صالح على يد عبد الله بن بكّار من بني يفرن، كان متحيزًا إلى مغراوة.

وولي أمره في بني يفرن من بعده ابنه يعلى فعظم صيته، واختط مدينة إيفكان.

ولما خطب عبد الرحمن الناصر طاعة الأموية من زناته أهل العدو واستألف ملوكهم، سارع يعلى لإجابته، واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة، وأجلب على وهران فملكها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة من يد محمد بن عون، وكان ولاه عليها صولات اللميطي أحد رجالات كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين فدخلها يعلى عنوة على بنيه وخرّبها.

وكان يعلى قد زحف مع الخير بن محمد إلى تاهرت وبرز إليه ميسور الخصي في شيعته من مائة فهزمهم وملكوا تاهرت، وتقبّضوا على ميسور وعبد الله بن بكّار فبعث به الخير إلى يعلى بن محمد ليثأر به، فلم ير ضه كفؤاً لدمه ودفعه إلى من ثأر به من بني يفرن.

واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ما بين تاهرت إلى طنجة.

واستدعى من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب فعقد على فاس لمحمد بن الخير بن محمد بن عسيرة ونسك محمد لسنة من ولايته، واستأذن في الجهاد والرباط بالأندلس فأجاز لذلك واستخلف على عمله ابن عمّه أحمد بن عثمان بن سعيد، وهو الذي اختطّ مأذنة القرويين سنة أربع وأربعين كما ذكرناه ولم يزل سلطان يعلى بن محمد بالمغرب عظيمًا إلى أن أغزى بعد المعزّ لدين الله كاتبه جوهر الصقلي من القيروان إلى المغرب سنة سبع وأربعين فلما فصل جوهر بالجند عن تخوم إفريقية بادر أمير زناته بالمغرب يعلى بن محمد اليفرنى إلى لقائه والإذعان لطاعته والانخياش إليه، ونبذ عهد الأموية، وأعمل إلى لقيه الرحلة من بلده إيفكان وأعطاه يد الانقياد وعهد البيعة عن قومه بني يفرن وزناته، فتقبلها جوهر وأضمر الفتك به، وتخبر لذلك يوم فصوله

ورثه إلى الثغر لصدّه، وعقد على المغرب لبحيى بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان أجازته مدداً لغالب في رجال العرب وجند الثغور حتى إذا انغمس الحكم في علّة الفالاج وركدت ريع المروانية بالمغرب واحتاجت الدولة إلى رجالها لصدّ الثغور ودفاع العدو، استدعى يحيى بن محمد بن هاشم من العدو، وأداله الحاجب المصحفي بجعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب والمسيلة النازع إليهم من دعوة الشيعة، وجمعوا بين الانتفاع به في العدو والراحة مما يتوقع منه على الدولة ومن البرابرة في التباث الخلافة لما كانوا أصاروا إليه من النكبة، وطوقوه من الحنة.

ولما كان اجتمع بقرطبة من جموع البرابرة ففقدوا له ولأخيه يحيى على المغرب واخلعوا عليهما وأمكنهما من مال دثر وكسي فاخرة للخلع على ملوك العدو، فنهض جعفر إلى المغرب سنة خمس وستين وضبطه.

واجتمع إليه ملوك زناتة مثل بدوي بن يعلى أمير بني يفرن وابن عمّه نوبخت بن عبد الله بن بكّار، ومحمد بن الخير بن خزر وابن عمّه بكساس بن سيد الناس، وزيري بن خزر وزيري ومقاتل ابنا عطية بن تبادلت وخزرون بن محمد وفلقول بن سعيد أمير مغراوة، وإسماعيل بن البوري أمير مكناسة، ومحمد ابن عمّه عبد الله بن مدين وخزرون بن محمد الأزداجي، وكان بدوي بن يعلى من أشدّهم قوة وأحسنهم طاعة.

ولما هلك الحكم وولّي مكانه هشام المؤيد، وانفرد محمد بن أبي عامر بحجابه اقتصر من العدو لأول قيامه على مدينة سبتة، فضبطها بجند السلطان ورجال الدولة، وقلدّها الصنائع من أرباب السيوف والأقلام، وعوّل في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة وتمدهم بالجوائز والخلع، وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب في الإثبات في ديوان السلطان منهم، فجردوا في ولاية الدولة وبث الدعوة.

وفسد ما بين أمير العدو جعفر بن علي وأخيه يحيى واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال.

ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبه برغواطة في غزاته إيّاهم، واستدعا محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رآه من استقامته إليه، وشدّ أزره به وتلوى عليه كراهية لما يلقى بالأندلس من الحكم.

ثم أصلحه وتخلّى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابن أبي عامر فحلّ منه بالمكان الأثير، وتناغت زناتة في التزلف إلى الدولة بقرب الطاعات، فزحف خزرون بن فلقول سنة ست

وستين إلى مدينة سجلماسة فافتتحها ومحا أثر دولة آل مدرار منها، وعقد له المنصور عليها كما ذكرنا ذلك قبل.

وزحف عقب هذا الفتح بلّكين بن زيري قائد إفريقية للشيعة إلى المغرب سنة تسع وستين زحفه المشهور وخرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافته بنفسه، واحتمل من بيت المال مائة حمل ومن العساكر ما لا يحصى عدّه.

وأجاز جعفر بن علي بن حمدون إلى سبتة، وانضمت إليه ملوك زناتة ورجع بلّكين عنهم إلى غزو برغواطة إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين كما ذكرناه.

ورجع جعفر إلى مكانه من ابن أبي عامر، لم يسمح بمقامه عنه، ووصل حسن بن كنّون خلال ذلك من القاهرة بكتاب العزيز نزار بن معدّ إلى بلّكين صاحب إفريقية في إعائته إلى ملوك المغرب وإمداده بالمال والعساكر، فامضاه بلّكين لسيبله، وأعطاه مالاّ ووعد به بإضعافه ونهض إلى المغرب فوجد طاعة المروانية قد استحكت فيه.

وهلك بلّكين إثر ذلك وشغل ابنه المنصور عن شأنه فدعا لحسن بن كنّون إلى نفسه، وأنفذ أبو محمد بن أبي عامر ابن عمّه محمد بن عبد الله ويلقب عسكلجة لحربه سنة خمس وسبعين وجاء أثره إلى الجزيرة كيما يشارف القصة، وأحيط بالحسن بن كنّون فسال الأمان وعقد له مقارعه عمر وعسكلجة، وأشخصه إلى الحضرة فلم يمض ابن أبي عامر أمامه، ورأى أن لا دمة له لكثرة نكته فبعث من ثقاته من أناه برأسه، وانقرض أمر الأدارسة وانحى أثرهم فاغضب عمر وعسكلجة لذلك.

واستراح إلى الجند بأقوال نمت عنه إلى المنصور فاستدعا من العدو والحقه بمقتوله ابن كنّون.

وعقد على العدو للوزير حسن بن أحمد بن عبد الورود السلمي، وأكثف عدده، وأطلق في المال يده، ونفذ إلى عمله سنة ست فضبط المغرب أحسن ضبط وهابته البرابرة، ونزل فاس من العدو، فعزّ سلطانه وكثر جمعه، وانضمّ إليه ملوك النواحي حتى حذر ابن أبي عامر مغبة استقلاله، واستدعا ليلبر صحة طاعته، فأسرع للحاق به، فضاغف تكرمته وأعادته إلى عمله، وكان بدوي بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمرأغة لهم بالطاعة.

وكان لمنصور بن أبي عامر يضرب بينه وبين قرينه زيري بن عطية ويقرن كلاّ منهما بمناعة صاحبه في الاستقامة، وكان إلى زيري أميل ويطاعته أوثق، لخلوصه وصدق طويته ونحيائه فكان

وأنه لما وفد زيري على المنصور خالفه بدوي إلى فاس فملكها، وقتل بها خلقاً من مغراوة، وأنه لما رجع زيري اعتصم بدوي بفاس فتنازله زيري وهلك من مغراوة بني يفرن في ذلك الحصار خلق.

ثم اقتحمها زيري عليهم عنوة فقتله وبعث برأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة سنة ثلاث وثمانين والله أعلم.

ولما اجتمع بنو يفرن على حماسة تحيّر بهم إلى ناحية شاله من المغرب فملكها وما إليها من تادلا، واقتنعها من زيري، ولم يزل عميد بني يفرن في تلك العمالة، والحرب بينه وبين زيري ومغراوة متصلة، وكانت بينه وبين المنصور صاحب القيروان مهادة، فاهدى إليه وهو محاصر لعمه حماد بالقلعة سنة ست وأربعمئة، وأوفد بهديته أخاه زايي بن زيري فلقى بالطبول والبند.

ولما هلك حماسة قام بأمر بني يفرن من بعده أخوه الأمير أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى فاستبدّ بملكهم، وكان مستقيماً في دينه مولعاً بالجهاد، فانصرف إلى جهاد برغواطة وسالم مغراوة وأعرض عن قتلهم.

ولما كانت سنة أربع وعشرين وأربعماية تجددت العداوة بين هذين الحثين بني يفرن ومغراوة، وثارت الإحن القديمة، وزحف أبو الكمال صاحب شالة وتادلا وما إلى ذلك في جموع يفرن.

وبرز إليه حماسة بن المعزّ في قبائل مغراوة، ودارت بينهم حروب شديدة وانكشفت مغراوة وفرّ حماسة إلى وجدة، واستولى الأمير أبو الكمال تميم وقومه على فاس وغلبوا مغراوة على عمل المغرب.

واكتسح تميم اليهود بمدينة فاس، واصطلم نعمهم واستباح حرهم.

ثم احتشد حماسة من وجدة سائر قبائل مغراوة وزناتة وبعث الحاشدين في قبايطينهم لجميع بلاد المغرب الأوسط، ووصل إلى تنس صريحاً لزعمائهم.

وكتب من بعد عنه من رجالاتهم، وزحف إلى فاس سنة تسع وعشرين فافرج عنها أبو الكمال تميم ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة، وأقام بمكان عمله وموطن أمارته منها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وولي ابنه حماد إلى أن هلك سنة تسع وأربعين.

وولي بعده ابنه يوسف إلى أن توفي سنة ثمان وخمسين، فولّي بعده عمه محمد ابن الأمير أبي تميم إلى أن هلك في حروب لتونة حين غلبوهم على المغرب أجمع حسبما ذكره، والمملك لله يؤتية من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

يرجو أن يتمكن من قياد بدوي بن يعلى بمناغاته، فاستدعى بزيري بن عطية إلى الحضرة سنة سبع وسبعين فبادر إلى القدوم عليه وتلقاه أكبر موصله وأحسن مقامه ومنقلبه وأعظم جائزته، وسام بدوي مثلها فامتنع، وقال لرسوله: قل لابن أبي عامر: متى عهد حمر الوحش تنقاد للبيطرة؟

وأرسل عنانه في العيث والفساد ونهض إليه صاحب المغرب الوزير حسن بن عبد الودود في عساكره وجموعه من جنود الأندلس وملوك العدو مظاهراً عليه لعدوه زيري بن عطية، وجمع لهم بدوي ولقيهم سنة إحدى وثمانين فكان الظهور له.

وانهزم عسكر السلطان وجموع مغراوة، واستلحموا وجرح الوزير حسن بن عبد الودود جراحات كان فيها لليال مهلكه.

وطار الخبر إلى ابن أبي عامر فاعتّم لذلك وكتب إلى زيري بضبط فاس ومكاتب أصحاب حسن، وعقد له على المغرب كما نستوفي ذكره عند ذكر دولتهم.

وغالبه بدوي عليها مرة بعد أخرى ونزع أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي عن قومه، ولحق بسواحل تلمسان ناقضاً لطاعة الشيعة، وخارجاً على ابن أخيه المنصور بن بلكين صاحب القيروان.

وخاطب ابن أبي عامر من وراء البحر وأوفد عليه ابن أخيه ووجه قومه فسرّب إليه الأموال والصلوات بفاس مع زيري حسبما تذكره، وجمع أيديهما على مدافعة بدوي، فساء أمره فيهما جميعاً إلى أن راجع أبو البهار ولاية منصور ابن أخيه كما نذكر بعد.

وحاربه زيري فكان له الظهور عليه ولحق أبو البهار بسبته، ثم عاد إلى قومه.

واستفحل زيري من بعد ذلك، وكانت بينه وبين بدوي وقعة اكتسح زيري من ماله ومعسكره مالا كفو له، وسبى حرمه. واستلحم من قومه زهاء ثلاثة آلاف فارس. وخرج إلى الصحراء شريداً سنة ثلاث وثمانين. وهلك هناك فولّي أمره في قومه حبوس ابن أخيه زيري بن يعلى، ووثب به ابن عمه أبو يداس بن دوناس فقتله طمعاً في الرياسة من بعده، واختلف عليه قومه فأخفق أمره وعبر البحر إلى الأندلس في جمع عظيم من قومه.

وولّي أمر بني يفرن من بعده حماسة بن زيري بن يعلى أخو حبوس المذكور، فاستقام عليه أمر بني يفرن وقد مرّ ذكره في خبر بدوي غير مرة، وأنه كانت الحرب بينه وبين زيري بن عطية سجلاً، وكانا يتعاقبان ملك فاس بتناول الغلب.

وأما أبو یداس بن دوناس قاتل حبوس بن زيري بن یعلی بن محمد فإنه لما اختلف علیه بنو یفرن وأحقق أمره في اجتماعهم له، أجاز البحر إلى الأندلس سنة اثنتين وثمانين فرفعه إخوانه أبو قرّة وأبو زید وعطاف، فحلّ كلهم من المصور محلّ التكرمة والإيثار ونظّمه في جملة الرؤساء والأمراء وأسنى له الجراية والأقطاع، وأثبت رجاله في الديوان، ومن أجاز من قومه فبعد صيته وعلا في الدولة كعبه.

الخبر عن مرغیصة من بطون بني یفرن وشرح أحوالهم

كان هذا البطن من بني یفرن بضواحي إفريقية وكانت لهم كثرة وقوة. ولما خرج أبو یزید علی الشيعة وكان من أخوالهم بنو واركوا ظاهره على أمره بما كان له معهم من العصية.

ثم انقرض أمره وأخذتهم دولة الشيعة وأولياؤهم صنهاجة وولاتهم على إفريقية بالسطوة والقهر، وإنزال العقوبات بالأنفس والأموال إلى أن تلاشوا وأصبحوا في عداد القبائل الغامرة.

وبقيت منهم أحياء نزلوا ما بين القيروان وتونس أهل شاء وبقر وخيام يظعنون في نواحيها، ويتحللون الفلح في معاشهم، وملك الموحدون إفريقية وهم بهذا الحال، وضربت عليهم المغارم والضرائب والعسكرة مع السلطان في غزواته بعدة مفروضة يحضرون بها متى استقروا.

ولما تغلب الكعوب من بني سليم على ضواحي إفريقية وأخرجوا منها الدواودة من رباح أعداء الدولة لذلك العهد، واستظهر بهم السلطان عليهم، اتخذوا إفريقية وطناً من قابس إلى باجة.

ثم اشتدت ولايتهم للدولة وعظم الاستظهار بهم وأقطعهم ملك الدولة ما شاؤوه من الأعمال والخراج فكان في إقطاعهم خراج مرغیصة هؤلاء.

ولما كانت وقعة بنو مريـن على القيروان وكان بعدها في الفترة ما كان من طغيان الفتنة التي اعتزّ فيها العرب على السلطان والدولة، كان هؤلاء الكعوب المتغلبين مدد قوي من أحياء مرغیصة هؤلاء من الحيل للحملاان، والجباية للإتفاق، والإنعام للحملاان والحيالة للاستظهار بأعدهم في الحروب فصاروا لهم لحمة وخولا، وتكبرهم تلك العبيد، حتى إذا ذهب الله بحمى الفتنة وأقام مائل الخلافة والدولة وصار تراث هذا الملك الحفصي إلى الأحقّ به مولانا السلطان أبي العباس أحمد، فانقشع الجو وأضاء الأفق ودفع المتغلبين من العرب عن أعماله، وقبض أيديهم عن رعاياه وأصار مرغیصة هؤلاء من صفايها بعد إنزال العقوبة

ولما افترقت الجماعة وانتشر سلك الخلافة كان في حروب البربر مع جند الأندلس آثار بعيدة وأخبار غريبة، ولما ملك المستعين قرطبة سنة أربعمئة واجتمع إليه من كان بالأندلس من البرابرة لحق المهدي بالثغور واستجاش طاغية الجلالقة، فزحف معه إلى غرناطة وخرج المستعين في جموعه من البرابرة إلى الساحل واتبعهم المهدي في جموعه فتواقعوا بوادي أيرة فكانت بين الفريقين جولة عظم بلاء البرابرة، وطار لأبي یداس فيها ذكر، وانهمز المهدي والطاغية وجموعهم بعد أن تضايقت المعركة وأصابا أبو یداس بن دوناس جراحة كان فيها مهلكه، ودفن هناك.

وكان لابنه خلوف وحافده غم بن خلوف من رجالات زناتة بالأندلس شجاعة ورياسة، وكان يحيى بن عبد الرحمن ابن أخيه عطاف من رجالاتهم، وكان له اختصاص ببني حمود، ثم بالقاسم منهم، ولاء كل قرطبة أيام خلافته والبقاء لله وحده.

الخبر عن أبي نور بن أبي قرّة وما كان له من الملك بالأندلس أيام الطوائف

هذا الرجل اسمه أبو نور بن أبي قرّة بن أبي یفرن من رجالات البربر الذين استظهر بهم قومهم أيام الفتنة، تغلب على رندة أزمان تلك الفتن، وأخرج منها عامر بن قسوح من موالي الأموية سنة خمس وأربعمئة فملكها واستحدث بها لنفسه سلطناً.

ولما استفحل أمر ابن عبّاد بإشبيلية وأسف إلى تمكك ما جاوره من الأعمال والثغور، نشأت الفتنة بينه وبين أبي نور هذا. واختلف حاله معه في الولاية والانحراف، وسجل له سنة ثلاث وأربعين وأربعمئة برندة وأعمالها فيمن سجل له من البربر.

واستدعاه بعدها سنة خمسين لبعض ولائمه وكاده بكتاب أوقفه عليه على لسان جارية بقصره تشكو إليه ما نال منها ابنه من الحرم، فانطلق إلى بلده وقتل ابنه. وشعر بالملكيدة فمات أسفاً وولى ابنه الآخر أبو نصر إلى سنة سبع وخمسين فغدر به بعض جنده،

بهم على لياذهم بالعرب وطمعهم معهم، فراجعوا الحق وأخلصوا في الانحياش ورجعوا إلى ما القوه من الغرامة وقوانين الحراج، وهم على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الدول بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه

هؤلاء القبائل من مغراوة كانوا أوسع بطون زناتة وأهل

البأس والغلب منهم، ونسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا إخوة بني يفرن وبني يرنبان، وقد تقدّم الخلاف في نسبهم عند ذكر بني يفرن، وأما شعوبهم ويطونهم فكثر مثل بني يلت وبني زنداك وبني وراق وورتمير وبني أبي سعيد وبني ورسيقان ولغواط بني ريفة وغيرهم ممن لم يحضرنني أسماؤهم.

وكانت مجالاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما إليها ولهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع واقتراق ومناعة في أحوال البدو.

وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدرتهم عليه الإسلام فاقرّه لهم وحسن إسلامهم. وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة، ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فلقاه برّاً وقبولاً لهجرته، وعقد له على قومه ووطنه. وانصرف إلى بلاده محبباً محبباً بالدين مظاهراً لقبائل مُضر، فلم يزل هذا دأبه.

وقيل: إنه تقبض عليه أسيراً لأول الفتح في بعض حروب العرب مع البربر قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فمنّ عليه وأسلم فحسن إسلامه، وعقد له على عمله فانخصّ صولات هذا وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية، وكانوا خاصّة لهم دون قريش، وظاهروا دعوة الرواية بالأندلس رعيّاً لهذا الولاء على ما تراه بعد في أخبارهم.

ولما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زناتة من بعده ابنه حفص وكان من أعظم ملوكهم، ثم لما هلك قام بأمره ابنه خزر وعندما تقلّص ظلّ الخلافة عن المغرب الأقصى بعض الشيء، وأطلّت فتنة ميسرة الحقيير ومطخرة فاعتزّ خزر وقومه

على ألبانهم بآرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما إليها ولهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع واقتراق ومناعة في أحوال البدو.

وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدرتهم عليه الإسلام فاقرّه لهم وحسن إسلامهم.

وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة، ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فلقاه برّاً وقبولاً لهجرته، وعقد له على قومه ووطنه.

وانصرف إلى بلاده محبباً محبباً بالدين مظاهراً لقبائل مُضر، فلم يزل هذا دأبه.

وقيل: إنه تقبض عليه أسيراً لأول الفتح في بعض حروب العرب مع البربر قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فمنّ عليه وأسلم فحسن إسلامه، وعقد له على عمله فانخصّ صولات هذا وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية، وكانوا خاصّة لهم دون قريش، وظاهروا دعوة الرواية بالأندلس رعيّاً لهذا الولاء على ما تراه بعد في أخبارهم.

ولما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زناتة من بعده ابنه حفص وكان من أعظم ملوكهم، ثم لما هلك قام بأمره ابنه خزر وعندما تقلّص ظلّ الخلافة عن المغرب الأقصى بعض الشيء، وأطلّت فتنة ميسرة الحقيير ومطخرة فاعتزّ خزر وقومه

ولما خرج إسماعيل من حصار أبي يزيد وزحف إلى المغرب في أتباعه خشية محمد بن خزر على نفسه لما سلف منه في نقض دعوتهم وقتل أتباعهم، فبعث إليه بطاعة معروفة وأوعز إليه إسماعيل بطلب أبي يزيد ووعده في ذلك بعشرين حملاً من المال. وكان أخوه معبد بن خزر في موالة أبي يزيد إلى أن هلك. وتقبض إسماعيل بعد ذلك على معبد سنة أربعين وقتله، ونصب رأسه بالقيروان.

ولم يزل محمد بن خزر وابنه الخير متغلباً على المغرب الأوسط، ومقاسماً فيها ليعلى بن محمد.

ووفد فتوح بن الخير سنة أربعين على الناصر مع مشيخة تاهرت ووهران فأجازهم وصرفهم إلى أعمالهم.

ثم حدثت الفتنة بين مغراوة وصنهاجة وشغل محمد وابنه الخير مجربهم، وتغلب يعلى بن محمد على وهران وخربها وعقد الناصر لحمد بن يصل على تلمسان وأعمالها، وليعلى بن محمد على المغرب وأعماله، فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة من أجل قريعة يعلى بن محمد.

ووفد على المعز بعد مهلك أبيه إسماعيل سنة اثنتين وأربعين فأولاه تكريمة على طاعتهم إلى أن حضر مع جوهر في غزاته إلى المغرب بأعوام سبع أو ثمان وأربعين ثم وفد على المعز بعد ذلك سنة خمسين، وهلك بالقيروان، وقد نيف على المائة من السنين.

وهلك الناصر المرواني عامئذ على حين انتشرت دعوة الشيعة بالمغرب وانقبض أولياء الأموية إلى أعمال سبتة وطنجة فقام بعده ابنه الحكم المستنصر، واستأنف مخاطبة ملوك العدو فأجابه محمد بن الخير بن محمد بن خزر بما كان من أبيه الخير وجده محمد في ولاية الناصر، والولاية التي لبني أمية على آل خزر بوصية عثمان بن عفان لصولات بن زمار جدّهم كما ذكرناه. فأثنى في الشيعة ودوّخ بلادهم. ورماه معدّ بقرع زيري بن مناد أمير صنهاجة ففقد له على حرب زناتة وسوّغه ما غلب عليه من أعمالهم، وجعوا للحرب سنة ستين ومائتين فلقي بلكين بن زيري جموعهم بدسياسة من بعض أولياء محمد بن الخير قبل أن يستكمل تعيينهم، فأبلى منهم ثباتاً وصبراً واشتدّت الحرب بينهم وانهمزمت زناتة، حتى إذا رأى محمد بن الخير أن قد أحيط به انتدب إلى ناحية من العسكر وذبح نفسه.

واستمرت الهزيمة على قومه وجندل منهم في المعركة سبعة عشر أميراً سوى الأتباع. وتحيز كل إلى فريضة.

من الشيعة وسرّح عبيد الله المهدي مصالة قائد المغرب في عساكر كتامة سنة تسع، ولقيه محمد بن خزر في جموع مغراوة وسائر زناتة ففلّ عساكر مصالة وخلص إليه فقتله، وسرّح عبيد الله ابنه أبا القاسم في العساكر إلى المغرب سنة عشر، وعقد له على حرب محمد بن خزر وقومه، فأجفلوا إلى الصحراء، وأتبع آثارهم إلى ملوية فلحقوا بسلجماسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوّخ أنظاره وجال في نواحيه وجدّد لابن أبي العافية على عمله ورجع ولم يلق كيداً.

ثم إن الناصر صاحب قرطبة سما له أهل في ملك العدو، فخطب ملوك الأدارسة وزناتة، وبعث إليهم خالصته محمد بن عبيد الله بن أبي عيسى سنة ستة عشر فبادر محمد بن خزر إلى إجابته وطرّد أولياء الشيعة من الزاب.

وملك شلب وتسن من أيديهم، وملك وهران وولّى عليها ابنه الخير، وبث دعوة الأموية في أعمال المغرب الأوسط ما عدا تاهرت.

وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن إبراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول.

ثم فتح الناصر سبتة سنة سبع عشرة من يد الأدارسة وأجار موسى بن أبي العالية على طاعته، واتصلت يده بمحمد بن خزر وتظاهروا على الشيعة وخالف فلفول بن خزر أخاه محمد إلى طاعة الشيعة، وعقد له عبد الله على مغراوة.

وزحف إلى المغرب حميد بن يصل سنة إحدى وعشرين في عساكر كتامة إلى عبد الله على تاهرت فأنتهى إلى فاس وأجفلت أمامه طواغيت زناتة ومكناسة ودوّخ المغرب.

وزحف من بعده ميسور الخصي سنة اثنتين وعشرين فحاصر فاس وامتنت عليه ورجع.

ثم انتفض حميد بن يصل سنة ثمان وعشرين وتحيز إلى محمد بن خزر. ثم أجاز إلى الناصر وولاه على المغرب الأوسط.

ثم شغل الشيعة بفتنة أبي يزيد وعظمت آثار محمد بن خزر وقومه من مغراوة، وزحفوا إلى تاهرت مع حميد بن يصل قائد الأموية سنة ثلاث وثلاثين زحف معه الخير بن محمد وأخوه حمزة وعمه عبد الله بن خزر، ومعهم يعلى بن محمد في قومه بني يفرن، وأخذوا تاهرت عنوة وقتلوا عبد الله بن بكّار، وأسروا قائدها ميسور الخصي بعد أن قتل حمزة بن محمد بن خزر في حروبها.

وكان محمد بن خزر وقومه زحفوا قبل ذلك إلى بسكرة ففتحوا وقتلوا زيدان الخصي.

وكانوا أربعة إخوة: محمد ومعبد الذي قتله إسماعيل وفلقول الذي خالف محمداً إلى ولاية الشيعة وعبد الله هذا وكان يعرف بأمه واسمها تبادل.

وقد قيل: إن عبد الله هذا هو ابن محمد بن خزر، وأخوه حمزة بن محمد المالك في حربه مع ميسور عند فتح تاهرت.

ولما هلك الخير بن محمد كما قلناه بيد بلكين سنة إحدى وستين وارتحلت زناته إلى ما وراء ملوية من المغرب الأقصى، وصار المغرب الأوسط كله لصنهاجة، واجتمع مغراوة إلى بقية آل خزر وأمرأهم يومئذ محمد بن خير المذكور ومقاتل وزيري ابنا مقاتل بن عطية بن عبد الله وخزرون بن فلقول.

ثم كان ما ذكرناه من ولاية بلكين بن زيري على إفريقية، وزحف إلى المغرب الأقصى زحفه المشهور سنة تسع وستين وأجفلت أمامه ملوك زناته من بني خزر وبني محمد بن صالح، وانحازوا جميعاً إلى سبته.

وأجاز محمد بن الخير البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريحاً، فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة ممداً لهم بنفسه.

وعقد لجعفر بن علي على حرب بلكين، وأجازه البحر وأمدّه بمائة حمل من المال، فاجتمعت إليه ملوك زناته وضربوا مصافهم بساحة سبته.

وأظلّ عليهم بلكين من جبل تطاون فرأى ما لا قبل له به فارتحل عنهم، وأشغل نفسه بجهاد برغواطة إلى أن هلك منصرفاً من المغرب سنة اثنتين وسبعين كما ذكرناه.

وعاد جعفر بن علي إلى مكانه من الحضرة، وسأهمه المنصور في حمل الرياسة وبقي المغرب غفلاً من الولاية، واقتصر المنصور على ضبط سبته ووكل إلى ملوك زناته دفاع صنهاجة وسائر أولياء الشيعة.

وقام يبلو طاعتهم إلى أن قام بالمغرب الحسن بن كسون من الأدارسة، بعثه العزيز نزار من مصر لاسترجاع ملكه بالمغرب، وأمدّه بلكين بمسكر من صنهاجة وهلك على ثقيفة ذلك بلكين، ودعا الحسن إلى أمره بالمغرب، وانضمّ إليه بدوي ابن يعلى بن محمد اليفرنى وأخوه زيري وابن عمّه أبو يئاس فيمن إليهم من بني يفرن، فسرح المنصور لحربه ابن عمّه أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر الملقب عسكلاجه، وبعثه بالعساكر والأموال فأجاز البحر، وانحاش إليه ملوك آل خزر محمد بن الخير، ومقاتل وزيري ابنا عطية، وخزرون بن فلقول في جمع مغراوة، وظاهره على شأنه.

وولّى بعد محمد في مغراوة ابنه الخير وأغرى بلكين بن زيري الخليفة معدّ وجندل بن جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب بموالة حمد بن الخير فاستراب جعفر وبعث عنه معدّ لولاية إفريقية حتى اعتزم على الرحيل إلى القاهرة، فاشتدّت استرابته ولحق بالخير بن محمد وقومه.

وزحفوا إلى صنهاجة فأتيحت لهم الكرة وأصيب زيري بن مناد كبير العصابة، وبعثوا برأسه إلى قرطبة في وفد من وجوه بني خزر مع يحيى بن علي أخى جعفر.

ثم استراب بعدها جعفر من زناته ولحق بأخيه يحيى، ونزلوا على الحكم وعقد معدّ لبلكين بن زيري على حرب زناته وأمدّه بالأموال والعساكر، وسوّعه ما تغلب عليه من أعمالهم، فنهض إلى المغرب سنة إحدى وستين وأوغر بالبرابرة منهم وتقرّى أعمال طبة وباغاية والمسيلة ويسكرة وأجفلت زناته أمامه.

وتقدّم إلى تاهرت فمحا من المغرب الأوسط آثار زناته، ولحق بالمغرب الأقصى.

واتبع بلكين آثار الخير بن محمد وقومه إلى سجلماسة، فأوقع بهم وتقتض عليهم، فقتله صبراً وفضّ جموعهم، ودوّخ المغرب وانكفّ راجعاً، ومصرّ بالمغرب الأوسط فاستلحم بوادي زناته ومن إليهم من الخصاصين ورفع الأمان على كلّ من ركب فرساً أو أنتج خيلاً من سائر البربر. ونذر دماءهم فأقفر المغرب الأوسط من زناته وساروا إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى إلى أن كان من رجوع بني يعلى بن محمد إلى تلمسان وملكهم إياها، ثم هلك بنو خزر بسجلماسة وطرابلس، وملك بني زيري ابن عطية بفاس ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.

الخبر عن آل زيري بن عطية ملوك فاس

وأعمالها من الطبقة الأولى من مغراوة وما

كان لهم بالمغرب الأقصى من الملك والدولة

ومبادئ ذلك وتصاريفه

كان زيري هذا أمير آل خزر في وقته، ووارث ملكهم البدوي، وهو الذي مهدّ الدولة بفاس والمغرب الأقصى وأورثها بنيه إلى عهد لتونة حسبما نستوفي في شرحه.

واسمه زيري بن عطية بن عبد الرحمن بن خزر وجده عبد الله أخو محمد داعية الناصر الذي هلك بالقيروان كما ذكرناه.

تأجرتني فما أهديت إليه حطاً للقيم، ثم غالطني بما بدّله تبتيتاً للكرم، إلا أن يحتسب بشمن الوزارة التي حطّني بها عن رتبتي.

ونمي ذلك إلى ابن أبي عامر فصّر عليها أذنه وزاد في اصطناعه، وبعث يدو بن يعلى اليفرنى قريعه في ملك زناته يدعوهُ إلى الوفاة فأساء إجابته وقال: متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد إلى البيطرة.

وأخذ في إفساد السابلة والأجلاب على الأحياء والعيث في العمالة، فأوعز المنصور إلى عامله على المغرب الوزير حسن بن عبد الودود بنبذ العهد إليه، ومظاهرة عدوّه زيري بن عطية عليه، فجمعوا له سنة إحدى وثمانين ولقوه فكانت الدائرة عليهم، وتخرّم العسكر وأثبت الوزير ابن عبد الودود جراحة كان فيها حتفه.

وبلغ الخبر إلى المنصور فشقّ عليه وأهمّه شأن المغرب، وعقد عليه لوقته لزيري بن عطية، وكتب إليه بهده وأمر بضبط المغرب ومكاتبة جند السلطان وأصحاب حسن بن عبد الودود، فاضطلع بأعبائه وأحسن الغناء في عمله.

واستفحل شأن يدو بن يعلى وبني يفرن، واستغلظوا على زيري بن عطية وأصلوه نار الفتنة، وكانت حروبهم سجالاً، وسيمت الرعايا بفاس كثرة تعاقبهم عليها وواترائهم على عملها.

وبعث الله لزيري بن عطية ومغراوة مدداً من أبي البهار بن زيري بن مناد بما كان انتقض لذلك العهد على أخيه منصور بن بلّكين صاحب القيروان وإفريقية، ونزع عن دعوة الشيعة إلى المروانية.

واقفى أثره في ذلك خلوف بن أبي بكر صاحب تيهرت وأخوه عطية لصهر كان بينهما وبين زيري، فاقطعوا أعمال المغرب الأوسط ما بين الزاب وانشريش، ووهران، وخطبوا في سائر منابرهما باسم هشام المؤيد، وخاطب أبو البهار من وراء البحر المنصور بن أبي عامر، وأوفد عليه أبا بكر ابن أخيه حبّوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجه قومه، فاستقبلوا بالجيش ولقاه رجلاً وتسيلاً، وأعظم موصله وأسنى جوائز وفده وصلاتهم، وأنفذ معه إلى عمّه أبي البهار بمجسماية قطعة من صنوف الثياب الخرز والعبيد، وقيمته عشرة آلاف درهم من الأتية والحلي، وخمسة وعشرين ألفاً من الدنانير، ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطية على بدوي بن يعلى، وقسم بينهما عمل المغرب شقّ الأبلّة حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعد عدوة، فلم يرع ذلك يدو ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والأجلاب على البدو والحاضرة،

وزحف بهم أبو الحكم بن أبي عامر إلى الحسن بن كنون حتى الجأوه إلى الطاعة، وسأل الأمان على نفسه ففقد له عمرو بن أبي عامر ما رضىه من ذلك، وأمكن به من قياده، وأشخصه إلى الحضرة فكان من قتله وإخفار ذمة أبي الحكم بن أبي عامر وقته بعده ما تقدّم حسبما ذكرنا ذلك من قبل.

وكان مقاتل وزيري ابناً عطية من بين ملوك زناته أشدّ الناس اغتياباً للمنصور وقياماً بطاعة المروانية.

وكان بدوي بن يعلى وقومه بنو يفرن منحرفين عن طاعتهم.

ولما انصرف أبو الحكم بن أبي عامر من المغرب عقد المنصور عليه للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي وأطلق يده في انتقاء الرجال والأموال فانفذه إلى عمله سنة ست وسبعين وأوصاه بملوك مغراوة من زناته، واستبلغ بمقاتل وزيري من بينهم لحسن اغتيابهم وطاعتهم، وأغراه ببدوي بن يعلى المضطرب الطاعة الشديد المراوغة، فنفذ لعمله ونزل بفاس، وضبط أعمال المغرب، واجتمعت إليه ملوك زناته.

وهلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين واستقل برياسة الظواعن البدو عن مغراوة أخوه زيري بن عطية، وحسنت مخالته لابن عبد الودود صاحب المغرب واغتيابهم بقومه إليه.

واستدعاه المنصور من محله بفاس سنة إحدى وثمانين إشادة بتكريهه وأغراه ببدوي بن يعلى بمنافسته في الخط وإيثار الطاعة فبادر إلى إجابته بعد أن استخلف على المغرب ابنه المعز، وأنزله بتلمسان ثغر المغرب وولّى على عدوة القرويين من فاس علي بن محمود بن أبي علي قشوش، وعلى عدوة الأندلسيين عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة.

وقدّم بين يديه هدية إلى المنصور، ووفد عليه فاستقبله بالجيش والعدّة واحتفل للاقائه، وأوسع نزله وجرايته ونسّوه باسمه في الوزارة وأقطعهم رزقها.

وأثبت رجاله في الديوان ووصله بقيمة هديته وأسنى فيها وأعظم جائزة وفده وعجلّ تسريحه إلى عمله فقفّل إلى إمارته من المغرب.

ونمي عنه خلاف ما احتسب فيه من غمط المعروف وإنكار الصنيع، والاستكفاف من لقب الوزارة الذي نوّه به، حتى أنه قال لبعض حشمه، وقد دعاه بالوزير: وزير من يا لكع لا والله إلا أمير ابن أمير، وأعجباً من ابن أبي عامر وخرفته، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله، إن له متناً ليوماً، والله لقد

وشرق عصا الجماعة.

وانتفض خلوف بن أبي بكر على المنصور لوقته، وراجع ولاية المنصور بن بلكين.

ومرض أبو البهار في المظاهرة عليه للوصلة التي بينهما، وقعدَ عما قام له زيري بن عطية من حرب خلوف بن أبي بكر، وأوقع به زيري في رمضان سنة إحدى وثمانين واستلمحه وكثيراً من أوليائه، واستولى على عسكره، وانحاش إليه عامة أصحابه.

وفرّ عطية شريداً إلى الصحراء، ثم نهض على أثرها ليدّو بن يعلى وقومه فكانت بينهما لقاء صعبة انكشف فيها أصحاب يدّو استلمح منهم زهاء ثلاثة آلاف، واكتسح معسكره وسييت حرمة التي كانت منهنّ أمه وأخته، وتحيز سائر أصحابه إلى فئة زيري وخرج شريداً إلى الصحراء إلى أن اغتاله ابن عمّه أبو يذّاس بن دوناس حسبما ذكرناه، وورد خبر الفتحين متعاقبين على المنصور فغظم موقعهما لديه.

قيل: إن مقتل يدّو إنما كان عند إياب زيري من الوفاة، وذلك أنه لما استقدمه المنصور ووفد عليه كما ذكرناه، خالفه يدّو إلى فاس فدخلها وقتل بها من مغاوة خلقاً واستمكن بها أمره فلما رجع زيري من وفادته امتنع به يدّو فنازله زيري وطال الحصار وهلك من الفريقين خلق ثم اقتحمها عليه عنوة فقتل وبعث يرأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة.

إلا أن راوي هذا الخبر يجعل وفادة زيري على المنصور وقته ليدّو سنة ثلاث وثمانين قاله أعلم أيّ ذلك كان.

ثم إن زيري فسد ما بينه وبين أبي البهار الصنهاجي وتزاحفا فأوقع به زيري وانهزم أبو البهار إلى سبتة مورياً بالعبور إلى المنصور فبادر بكتابه عيسى بن سعيد بن القطاع في قطعة من الجند إلى تلقّيه فحاذ عن لقائه.

وصعد إلى قلعة جراوة، وقد قدم الرّسل إلى ابن أخيه المنصور صاحب القيروان مستملياً إلى أن التحم ذات بينهما.

ثم تحيز إليه وعاد إلى مكانه من عمله، وخلع ما تمسك به من طاعة الأموية وراجع طاعة الشيعة فجمع المنصور لزيري بن عطية أعمال المغرب.

واستكفى به في سدّ الثغر وعول عليه من بين ملوك المغرب في الذّب عن الدعوة، وعهد إليه بمناجزة أبي البهار وزحف إليه زيري في أمم عديدة من قبائل زناتة وحشود البربر وفرّ أمامه، ولحق بالقيروان. واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار. وملك ما بين السوس الأقصى والزاب فأنسج ملكه

وانبسط سلطانه واشتدّت شوكته، وكتب بالفتح إلى المنصور وبعث إليه بامتئين من عتاق الخيل وخمسين جلاً من المهارى السُّبقي، وألف دوقه من جلود اللطم وأحمال من قسي الزان وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللطم وغيره، وألف حمل من التمر وأحمال من ثياب الصوف الرفيعة كثيرة، فجدد له عهده على المغرب سنة إحدى وثمانين وأنزل أحياءه بأغصاء فاس في قياطنهم.

واستفحل أمر زيري بالمغرب ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا، واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وأنزلها عساكره وحشمه، واستعمل عليها ذويه، ونقل إليها ذخيرته، وأعدّها معتمداً، وكانت ثغراً لعمله بين المغرب الأقصى والأوسط.

ثم فسد ما بينه وبين المنصور بما نفي عنه من التأنف لهشام باستبداد المنصور عليه فسامه المنصور الهضيمة وأبى منها، وبعث كاتبه ابن القطاع في العسكر، فاستعصى عليه وأمكنه صاحب قائد قلعة حجر النسر منها، فأشخصه إلى الحضرة.

وأحسن إليه المنصور وسمّاه الناصح، وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به والتشيع لهشام المؤيد والإمتعاض له من هضيته وحجره، فسخطه عند ابن أبي عامر وقطع عنه رزق الوزارة، وعي اسمه من ديوانها ونادى بالبراءة منه.

وعقد لواضح مولاه على المغرب وعلى حرب زيري بن عطية، وانتقى له الحماة من سائر الطبقات، وأزاح عللهم وأمكنه من الأموال للنفقات وأحمال السلاح والكسي، وأصبحه طائفة من ملوك العدو كانوا بالحضرة، منهم: محمد بن الخير بن محمد بن الخير وزيري بن خزر وابن عمّهما بكساس بن سيد الناس.

ومن بني يفرن أبو نوحخت. بن عبد الله بن بكّار.

ومن مكناسة: إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبد الله بن مدين، ومن أرداجة خزرون بن محمد وأمدّه بوجه الجند.

وفصل من الحضرة سنة سبع وثمانين وسار في التبعية وأجاز البحر إلى طنجة فعسكر بسوادي رداً وزحف زيري بن عطية في قومه، فعسكر إزاءه وتواقفا ثلاثة أشهر، وأتهم واضح رجالات بني برزال بالأدهان فأشخصهم إلى الحضرة وأغرى بهم المنصور فوبّخهم وتنصلوا فصصح عنهم، وبعثهم في غير ذلك الوجه.

ثم تناول واضح حصن أصيلاً ونكّور فضبطهما واتصلت

المنصور بعد مهلك أبيه، وأنه خرج عليه بعد عمومته مع ماكسن بن زيري، فصرف وجهه حيثذ إلى أعمال صنهاجة يتنهنز فيها الفرس.

واقترح المغرب الأوسط ونازل تاهرت وحاصر بها يطوفون بن بلكين.

وخرج باديس من القيروان صريحاً له.

فلما مرّ بطينة امتنع عليه فلفول بن خزرون وخالفه إلى إفريقية فشغل بحربه.

وقد وكان أبو سعيد بن خزرون لحق بإفريقية وولاه المنصور على طينة كما نذكره، فلما انتقض سار إليه باديس ودفع حماد بن بلكين في عساكر صنهاجة إلى مدافعة زيري بن عطية فالتقيا بوادي ميناك قرب تاهرت، فكانت الدبرة على صنهاجة، واحتوى زيري على معسكرهم واستلحم ألوفاً منهم.

وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف وتس والمسيلة، وأقام الدعوة فيها كلها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور من بعده.

ثم أتبع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم، فأناخ عليها واستأمن إليه زاوي بن زيري ومن معه من أكابر أهل بيته المنازعين لباديس فأعطاه منه ما سأل، وكتب إلى المنصور بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى الولاية، ويسأذنه في قدوم زاوي وأخيه خلال، وأذن لهما وقدم سنة تسعين، وسأل أخوهما أبو البهار مثل ذلك، وأنفذ رسله يذكر تقديمه فسوفه المنصور لما سبق من نكته.

واعتل زيري بن عطية وهو بمكانه من حصار أشير فأفرج عنها.

وهلك في منصرفه سنة إحدى وتسعين واجتمع آل خزر وكافة مغاوة من بعده على ابنه المعز بن زيري فبايعوه، وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة ثم استجدي للمنصور واعتلّق بالدعوة العامرية وصلحت حاله عندهم، وهلك المنصور خلال ذلك ورغب المعز من ابنه عبد الملك المظفر أن يعيده إلى عمله على مال يحمله إليه وعلى أن يكون ولده معنصر رهينة بقرطبة فأجابته إلى ذلك وكتب له عهده وأنفذ به وزيره أبا علي بن خديم ونسخته: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله من الحاجب المظفر سيف الدولة دولة الإمام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة مدنّي فاس وكافة أهل المغرب سلّمهم الله. أمّا بعد أصلح الله شأنكم وسلّم أنفسكم وأديانكم، فالحمد لله علام

الوقائع بينه وبين زيري، وبیت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غازون فأوقع بهم. وخرج ابن أبي عامر من الحضرة لاستشراف أحوال واضح وإمداده، فسار في التعيشة واحتل بالجزيرة عند فرة الجاز، ثم بعث عن ابنه المظفر من مكان استخلافه بالزاهرة، وأجاز إلى العودة واستكمل معه أكابر أهل الخدمة وجلة القواد.

وقفل المنصور إلى قرطبة واستداع خير عبد الملك بالمغرب ورجع إليه عامة أصحاب زيري من ملوك البربر وتناولهم من إحسانه وبره ما لم يعهدوا مثله.

وزحف عبد الملك إلى طنجة واجتمع مع واضح، وتلّوم هناك مزيجاً لعلل العسكر، فلما استمّ تدبيره زحف في جمع لاكفاء له. ولقيه زيري بوادي منى من أحواز طنجة في شوال سنة ثمان وثمانين فدارت بينهم حرب شديدة. همّ فيها أصحاب عبد الملك وثبت هو وبينما هم في حومة الحرب إذا طعن زيري بعض الموتورين من أتباعه اهتبل الغرة في ذلك الموقف فطعنه ثلاثاً في نحرة وأشواه بها، ومرّ يشتدّ نحو المظفر، وبشّره فاستكذبه به لثبوت رايته، ثم سقط إليه الصحيح فشدّ عليهم فاستوت الهزيمة وأئخن فيهم بالقتل، واستولى على ما كان في معسكرهم مما يذهب فيه الوصف. ولحق زيري بفاس جريحاً في قلعة، فامتنع عليه أهلها ودافعوه بحرمه، فاحتملهم وفرّ أمام العساكر إلى الصحراء، وأسلم جميع أعماله.

وطير عبد الملك بالفتح إلى أبيه فعظم موقعه عنده وأعلن بالشكر لله والدعاء وبث الصدقات وأعتق الموالى، وكتب إلى ابنه عبد الملك بعهده على المغرب فأصلح نواحيه وسدّ ثغوره، وبعث العمال في جهاته: فأنفذ محمد بن الحسن بن عبد الودود في جند كثيف إلى تادلا واستعمل حميد بن يصل الكناسي على سجلمااسة فخرج كلّ لوجهه، واقتضوا الطاعة وحملوا إليه الخراج، فأقلل المنصور ابنه عبد الملك في جمادى من سنة سبع وثمانين وعقد على المغرب لواضح فضبطه واستقام على تدبيره.

ثم عزله في رمضان من سنة بعيد الله ابن أخيه يحيى، ثم ولّى عليه من بعده إسماعيل بن البوري، ثم من بعده أبا الأحوص معن بن عبد العزيز النجّبي إلى أن هلك المنصور.

وأعاد المظفر بن المعز بن زيري من متبذه بالمغرب الأوسط لولاية أبيه بالمغرب فزل بفاس، وكان من خبر زيري أنه لما استقل من نكته وهزيمة عبد الملك إياه، واجتمع إليه بالصحراء فل مغاوة، وبلغه اضطراب صنهاجة واختلافهم على باديس بن

لذلك، ونهض إليه سنة سبع وأربعمائة وبرزوا إليه في جموعهم فهزموه، ورجع إلى فاس في قل من قومه وأقام على الاضطراب من أمره إلى أن هلك سنة سبع عشرة وولّي من بعده ابن عمّه حمامة بن المعزّ بن عطية، وليس كما يزعم بعض المؤرّخين أنه ابنه وإنما هو اتفاق في الأسماء أوجب هذا الغلط، فاستولى حمامة هذا على عملهم واستفحل ملكه، وقصده الأمراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء ثم نازعه الأمر أبو كمال تميم بن زيري بن يعلى اليفرنى سنة أربع وعشرين وأربعمائة من بني يذو بن يعلى المتغلّين على نواحي سلا، وزحف إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة.

وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم فكانت بينهم حروب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة.

وهلك من مغراوة أمم واستولى تميم على فاس أمال المغرب، ولما دخل فاس استباح يهود وسبى حرهم واصلهم نعمتهم، ولحق حمامة بوجدة فامتد من هنالك من قبائل مغراوة من أنجاد مديونه وملوثة.

وزحف إلى فاس فدخلها سنة تسع وعشرين وتخيّر تميم إلى موضع إمارته من سلا وأقام حمامة في سلطان المغرب.

وزحف إليه سنة ثلاثين وأربعمائة القائد ابن حماد صاحب القلعة في جموع صنهاجة، وخرج إليه مجعاً حرب، وبث القائد عطاءه في زناتة واستفدسهم على صاحبهم حمامة، فاقصر عن لقائه ولاذ منه بالسلم والطاعة، رجع القائد عنه ورجع هو إلى فاس. وهلك سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة فولّي بعده ابنه دوناس ويكنى أبا العطف، واستولى على فاس وسائر عمل أبيه، وخرج عليه لأول أمره حماد ابن عمّه معنصر بن المعزّ فكانت له معه حروب ووقائع، وكثرت جموع حماد فغلب دوناس على الضواحي وأحجره بمدينة فاس وخندق دوناس على نفسه الخندق المعروف بسياج حماد، وقطع حماد جرية الواذي عن عدوة القرويين إلى أن هلك محاصراً لها سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فاستقامت دولة دوناس، وانفسحت أيامه، وكثر العمران ببلده، واحتفل في تشييد المصانع وأدار السور على أرباضها، وبنى بها الحمامات والفنادق فاستبحر عمراتها ورحل التجار بالبضائع إليها، وهلك دوناس سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وولّي من بعده ابنه الفتوح ونزل بعدوة الأندلس ونازعه الأمر أخوه الأصغر عجيسة وامتنع بعدوة القرويين، وافترق أمرهم بافتراقهما وكانت الحرب بينهما سجالاً، ومجالها بين المدينتين حيث يفضي باب النقبة بعدوة القرويين لهذا العهد، وشيّد الفتوح باب عدوة الأندلسيين وهو مسمّى به إلى

الغيوب وغفّار الذنوب ومقلب القلوب ذي البطش الشديد المبدي المعيد الفعّال لما يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقّب لحكمه، بل له الملك والأمر، ويده الخير والشر، إياه نعبد وإياه نستعين، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

وصلّى الله على محمد سيّد المرسلين وعلى آله الطيّين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والسلام عليكم أجمعين.

وإن المعزّ بن زيري بن عطية أكرمه الله تابع لدينا رسله وكتبه متنصلاً من هنات دفعته إليها ضرورات، ومستغفراً من سيئات حطّتها من توبته حسنات، والتوبة عناية للذنوب، والاستغفار منقذ من العيب وإذا أذن الله بشيء يسره، وعسى أن تكرهوا شيئاً ولكم فيه خير وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة، ولزوم الجادة، واعتقاد الإستقامة وحسن المعونة وخفة المونة، فولّيناه ما قبلكم، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم، وأن يرفع أعمال الجور عنكم وأن يعمر سبلكم، وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلا في حدود الله تبارك وتعالى وأشهدنا الله عليه بذلك وكفى الله شهيداً.

وقد وجّهنا الوزير أبا محمد علي بن جدلم أكرمه الله وهو من ثقافتنا ووجه رجالنا ليأخذ بشأنه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك، وأمرناه بإشراككم فيه ونحن بأمركم معتنون وأحرالكم مطالعون، وأن يقضي على الأعلى للأدنى، ولا يرتضي فيكم بشيء من الأدنى فتقوا بذلك وأسكنوا إليه وليمض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدوداً ظهره بنا، معقوداً سلطانه بسلطانتنا، ولا تأخذ في الله لومة لائم، فلذلك طبنا به إذ ولّيناه، وأملنا فيه إذ قلّدناه، والله المستعان، وعليه التكلان، لا إله إلا هو، وتبلغوا منّا سلاماً طيباً جزيلاً ورحمة الله وبركته كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة.

ولما وصل إلى المعزّ بن زيري عهد المظفرّ إليه بولايته على المغرب ما عدا كورة سجلماسة، فإنّ واضحاً مولى المنصور عهد بها في ولايته على المغرب بها لوانودين بن خزرون بن فلفول حسبما نذكره بعد، فلم تدخل في ولاية المعزّ هذه.

فلما وصله عهد المظفرّ ضمّ نشره وثاب إليه نشاطه، وبثّ عمّاله في جميع كور المغرب وجبى خراجها، ولم تزل ولايته متسقة، وطاعة رعاياه منتظمة.

ولما افترق أمر الجماعة بالأندلس واختلّ رسم الخلافة وصار الملك فيها طوائف استحدث المعزّ في التغلّب على سجلماسة وانتراعها من أيدي بني وانودين بن خزرون فأجمع

الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الأولى من مغراوة وأولية ملكهم ومصانره

كان خزرون بن فلفول من أمراء مغراوة وأعيان بني خزر، ولما غلبهم بلكين بن زيري وصنهاجة على المغرب الأوسط تَحَيَّزُوا إلى المغرب الأقصى وراء ملوثة.

وكان بنو خزر يدينون بالدعوة المروانية كما ذكرناه.

وكان المنصور بن أبي عامر القائم بدولة المؤيد قد اقتصر لأول حجابته من أحوال العدو على ضبط سببة برجال الدولة ووجوه القواد وطبقات العسكر، ودفع ما وراءها إلى أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة. وعول في ضبط كوره وسداد ثغوره عليهم وتعهدهم بالعطاء وأفاض فيهم الإحسان فازدلفوا إليه بوجوه القربات وأسباب الرصائل.

وإن خزرون بن فلفول هذا زحف يومئذ إلى سجلماسة وبها المعتز من أعقاب آل مدرار، فانتزى بها أخوه المنتصر بعد قفول جوهري إلى المغرب وظفر بأمرهم الشاكر لله محمد بن الفتح، فوثب المنتصر من أعقابهم بعده على سجلماسة وتملكها.

ثم وثب به أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية فقتله وقام بأمر سجلماسة، وأعاد بها ملك بني مدرار وتلقب المعتز بالله فزحف إليه خزرون بن فلفول سنة ست وستين في جموع مغراوة، وبرز إليه المعتز فهزمه خزرون واستولى على مدينة سجلماسة ومحا دولة آل مدرار والخوارج منها آخر الدهر، وأقام الدعوة بها للمؤيد هشام، فكانت أول دعوة أقيمت للمروانيين بذلك الصقع ووجد للمعتز مالا وسلاحاً فاحتقها وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ رأس المعتز فنصب بيباب سددته ونسب الأثر في ذلك الفتح لصحابة محمد بن أبي عامر وعين طائره، وعقد لخزرون على سجلماسة وأعمالها، وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها إلى أن هلك، فولّى أمر سجلماسة من بعده ابنه وانودين.

ثم كان زحف زيري بن مناد إلى المغرب الأقصى سنة تسع وستين وفرت زناتة أمامه إلى سببة وملك أعمال المغرب وولّى عليها من قبله وحاصر سببة.

ثم أفرج عنها وشغل بمجهاد برغواطة، وبلغه أن وانودين بن

الآن، واختط عجيسة باب الجيسة وهو أيضاً مسمى به إلى الآن، وإنما حذفت عنه لكثرة الدوران في استعمالهم وأقاموا على ذلك إلى أن غدر الفتح بعجيسة أخيه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وبينه فظفر به وقتله، ودهم المغرب إثر ذلك على ما دهمه من أمر المرابطين من ثلثة، وخشي الفتح مغبة أحوالهم فأفرج عن فاس.

وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد إلى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة على عادتهم في غزوه، ودخل فاس واحتمل من أكابرهم وأسرأفهم رهناً على الطاعة، وقفل إلى قلعته. وولّى على المغرب بعد الفتح معنصر بن حماد بن منصور، وشغل بحروب ثلثة.

وكانت له عليهم الواقعة المشهورة سنة خمس وخمسين وأربعمائة ولحق بصديقه وملك يوسف بن تاشفين والمرابطون فاس، وخلّف عليها عامله وارتحل إلى غمارة فخالفه معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من ثلثة، ومثل بهم بالحرق والصلب.

ثم زحف إلى مهدي ابن يوسف الكزنائي صاحب مدينة مكناسة، وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وبعث برأسه إلى سكون البرغواطي الحاجب صاحب سببة.

وبلغ الخبر إلى يوسف بن تاشفين فسرح عساكر المرابطين لخصار فاس فأخذوا بمخنقها، وقطعوا المرافق عنها حتى اشتدّ بأهلها الحصار ومسّمهم الجهد.

وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدبرة عليه، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة وبايع أهل فاس من بعده لابن تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وثنة وجهد وغلاء.

وشغل يوسف بن تاشفين عنهم.

بفتح بلاد غمارة حتى إذا كان سنة اثنتين وستين وأربعمائة وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أياماً، ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة.

وهلك تميم في جلته حتى أعوزت مزاراتهم فرادى، فانخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات.

وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان، وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين العدوتين وصيرهما مصرأ، وأدار عليهما سوراً واحداً، وانقرض أمر مغراوة من فاس والبقاء لله سبحانه وتعالى.

لتونة ومسوفة وسائر المثلثين، واقتحروا أمرهم بغزو درعة سنة خمس وأربعين وأربعمئة فأغاروا على إبل كانت هناك في حمى لمسعود بن وانودين حماه لها وهو بسجلماسة فنهض لمداغتهم وتواقفوا، فانهزم مسعود بن وانودين وقتل كما ذكرناه في أخبار لتونة.

ثم عادوا الغزو إلى سجلماسة فدخلوها من العام المقبل فدخلوها، وقتلوا من كان بها من فل مغراوة.

ثم تبعوا من بعد ذلك أعمال المغرب وبلاد سوس وجبال المصامدة، واقتحموا صفروي سنة خمس وخمسين وأربعمئة وقتلوا من كان بها من أولاد وانودين وبقية مغراوة.

ثم اقتحروا حصون ملولة سنة ثلاث وستين وأربعمئة وانقرض أمر بني وانودين كأن لم يكن، والبقاء لله وحده وكل شيء هالك إلا وجهه، سبحانه وتعالى لا رب سواه، ولا معبود إلا إياه، وهو على كل شيء قدير.

الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون

بن فلفل من أهل الطبقة الأولى وأولية

أمرهم وتصاريح أحوالهم

كان مغراوة وبنو خزر ملوكهم قد تحيزوا إلى المغرب الأقصى أمام بلقين، ثم اتبعهم سنة تسع وستين في زحفه المشهور، وأحجرهم بساحل سبتة حتى بعثوا صريحهم إلى المنصور.

وجاءهم إلى الجزيرة مشارفاً لأحوالهم وأملتهم بجعفر بن يحيى ومن كان معه من ملوك البربر وزناتة، فامتنعوا على بلقين، ورجع عنهم فقرى أعمال المغرب، وهلك في منصرفه سنة اثنتين وسبعين وثلاثمئة ورجع أحياء مغراوة وبنو يفرن إلى مكانهم منه.

وبعث المنصور الوزير حسن بن عبد اللودود عاملاً على المغرب، وقدم سنة ست وسبعين وثلاثمئة واختص مُقاتلاً وزيري ابني عطية بن عبد الله بن خزر بمزيد التكرمة، ولحق نظرهما من أهل بيتهما الغيرة من ذلك، فترع سعيد بن خزرون بن فلفل بن خزر إلى صنهاجة سنة سبع وسبعين منحرفاً عن طاعة الأموية.

ووافق المنصور بن بلقين بأشير منصرفه من إحدى غزواته، فتلقاه بالقبول والمساهمة، وبالغ في تكرمه وعقد له على عمل طبنة سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة وعقد لابنه وزو بن سعيد على إحدى بناته إحكاماً للمخالصة، فنزل سعيد وأهل بيته بمكان إمارته من طبنة.

خزرون أغار على نواحي سجلماسة، وأنه دخلها عنوة وأخذ عامله وما كان معه من المال والذخيرة، فدخل إليها سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة وفصل عنها فهلك في طريقه، ورجع وانودين بن خزرون إلى سجلماسة.

وفي أثناء ذلك كان استيلاء زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر على المغرب وملك فاس بعهد هشام.

ثم انتقض على المنصور آخرأ وأجاز ابنه عبد الملك في العساكر إلى العدو سنة ثمان وثمانين وأربعمئة فغلب عليها بني خزر ونزل فاس، وبث العمال في سائر نواحي المغرب لصد الثغور وجباية الخراج، وعقد فيما عقد على سجلماسة حميد بن يصل الكناسي النازع إليهم من أولياء الشيعة فعقد له على سجلماسة حين فر عنها بنو خزرون فملكها وأقام فيها الدعوة.

ولما قتل عبد الملك إلى العدو وأعاد وأضحاً إلى عمله بفاس، استأنم إليه كثير من وجوه بني خزر كان منهم وانودين بن خزرون صاحب سجلماسة وابن عمه فلفل بن سعيد فأمتهم، ثم رجع وانودين إلى علمه بسجلماسة بعد أن تضامن أمرها وانودين وفلفل بن سعيد على مال مفروض، وعدة من الخيل والدوق يحملان ذلك إليه كل سنة.

وأعطيا في ذلك أبناءهما رهناً ففقد لهما واضح بذلك، واستقل وانودين بعد ذلك بملك سجلماسة منذ أول سنة تسعين وأربعمئة مقيماً فيها للدعوة المروانية.

ورجع المعز بن زيري إلى ولاية المغرب بعهد المظفر بن أبي عامر سنة ست وتسعين وأربعمئة واستثنى عليه فيها أمر سجلماسة لمكان وانودين بها.

ولما انتشر سلك الخلافة بقرطبة، وكان أمر الجماعة للطوائف واستبد أمراء الأمصار والثغور وولاء الأعمال بما في أيديهم، استبد وانودين هذا بأعمال سجلماسة وتغلب على عمل درعة واستضافه إليه.

ونهض المعز بن زيري صاحب فاس سنة سبع وأربعمئة مع جموع من مغراوة يحاول انتزاع هذه الأعمال من يد وانودين، فبرز إليه في جموعه وهزمه، وكان ذلك سبباً في اضطراب أمر المعز إلى أن هلك، واستفحل ملك وانودين واستولى على صفروي من أعمال فاس وعلى جميع قصور ملوثة، وولى عليها من أهل بيته.

ثم هلك وولي أمره من بعده ابنه مسعود بن وانودين، ولم أقف على تاريخ ولايته ومهلك أبيه.

ولما ظهر عبد الله بن ياسين واجتمع إليه المرابطون من

ثم بلغه وصول باديس فأخرج عنها، واتبعه باديس إلى مرجئة، فتزاحفوا وقد اجتمع لفلول من قبائل زناتة والبربر أمم، فلم يثبتوا للقاء وانكشفوا عنه. وانهزم إلى جبل الخناش، ونزل القيطون بما فيه.

وكتب باديس بالفتح إلى القيروان، وقد كان الإرجاف أخذ منهم المأخذ، وفرّ كثير منهم إلى المهديّة وشرعوا في عمل الدروب بما كانوا يتوقعون من لفلول بن سعيد حين قتل أبا زعيل، وهزم جيوش صنهاجة، وكانت الواقعة آخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وانصرف باديس إلى القيروان، ثم بلغه أن أولاد زيري اجتمعوا مع لفلول بن سعيد وعاقده، ونزلوا جميعاً بمحصن تبسة فخرج باديس من القيروان إليهم، فافترقوا ولحق العمومة بزيري بن عطية ما خلا ماكسن وابنه محسن، فإنهما أقاما مع لفلول. ورجل باديس في أثره سنة إحدى وتسعين وثلثمائة وانتهى إلى بسكرة ففرّ لفلول إلى الرمال.

وكان زيري بن عطية محاصراً لأشير أثناء هذه الفتنة، فأخرج عنها، ورجع عنها أبو البهار بن زيري إلى باديس، وقفل معه إلى القيروان وتقدّم لفلول بن سعيد إلى نواحي قابس وطرابلس فاجتمع إليه من هنالك من زناتة، وملك طرابلس على ما نذكره. وذلك أن طرابلس كانت من أعمال مصر وكان العامل عليها بعد رحيل معدّ إلى القاهرة عبد الله بن يخلف الكتامي.

ولما هلك معدّ رغب بلّكين من نزار العزيز إضافتها إلى عمله، فأسعه بها، وولّى عليها تمصولة بن بكّار من خواصّ مواليه نقله إليها من ولاية بونة، فأقام والياً عليها عشرين سنة إلى أيام باديس، فتنكرت له الأحوال عمّا عهد، وبعث إلى الحاكم بمصر يرغب الكون في حضرته، وأن يتسلّم منه عمل طرابلس.

وكان يرجوان الصقلي يستبد على الدولة، وكان يخصّص مكان يأس الصقلي منها، فأبعده عن الحضرة لولاية برقة ثم لما تابعت رغبة تمصولة صاحب طرابلس، أشار بروجوان بيعت يأس إليها، فعقد له الحاكم عليها، وأمره بالتهوؤ إلى عملها فوصلها سنة تسعين وثلثمائة ولحق تمصولة بمصر وبلغ الخبر إلى باديس، فسرح القائد جعفر بن حبيب في العساكر ليصدّه عنها وزحف إليه يأس فكانت عليه الهزيمة وقتل.

ولحق فتوح بن علي من قواده بطرابلس، فامتنع بها ونازله جعفر بن حبيب وأقام عليها مدة.

وبينما هو محاصر له إذ وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يذكر أن لفلول بن سعيد نزل على قابس، وأنه قاصد إلى

ووفد على المنصور ثمانية بالقيروان سنة إحدى وثمانين، وخرج للقاءه، واحتفل في تكريمته ونزله. وأدركه الموت بالقيروان فهلك لسته.

ووفد ابنه لفلول من مكان عمله، فعقد له على عمل أبيه وخلع عليه، وزفّ إليه ابنته، وسوّغه ثلاثين حلاً من المال، وثلثين تحتاً من الثياب، وقرب إليه مراكب بسروج مثقلة وأعطاه عشرة من البنود مذهبة، وانصرف إلى عمله.

وهلك المنصور بن بلّكين سنة خمس وثمانين وثلثمائة وولّى ابنه باديس فعقد لفلول على عمله بطبنة، ولما انتقض زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر، وسرح إليه ابنه المظفر في العساكر كما قلناه، فغلبه على أعمال المغرب.

ولحق زيري بالفقر، ثم عاج على المغرب الأوسط، ونازل ثغور صنهاجة، وحاصر تيهرت، وبها يطوّفت بن بلّكين.

وزحف إليه حماد بن بلّكين من أشير في العساكر من تلكّانة، ومعه محمد بن أبي العرب قائد باديس، بعثه في عساكر صنهاجة من القيروان مدداً ليطوّفت.

وأوغر إلى حماد بن بلّكين وهو بأشير أن يكون معهم ولقيهم. زيري بن عطية لفضّ جموعهم، واستولى على معسكرهم، واضطمرت إفريقية فتنة وتكرّرت صنهاجة لمن كان بجبهاتها من قبائل زناتة.

وخرج باديس بن المنصور من رقادة في العساكر إلى المغرب. ولما مرّ بطبنة استقدم لفلول بن سعيد بن خزرون ليستظهر به على حربه، فاستراب واعتذر عن الوصول. وسأل تجديد العهد إلى مقدم السلطان فأسعف.

ثم اشتدت استرابته ومن كان معه من مغاوة فارتحلوا عن طبنة وتركوها. ولما أبعد باديس رجع لفلول إلى طبنة فعات في نواحيها، ثم فعل في تيجس كذلك، ثم حاصر باغاية.

وانتهى باديس إلى أشير وفرّ زيري بن عطية إلى صحراء المغرب ورجع باديس بعد أن ولّى على تاهرت وأشير عمّه يطوفت بن بلّكين وانتهى إلى المسيلة فبلغه خروج عمومته ماكسن وزاوي وعزم ومغنين فخاف أبو البهار إحق زيري ولحق بهم من معسكره.

وبعث باديس في أثرهم عمّه حماد بن بلّكين، ورحل هو إلى لفلول بن سعيد بعد أن كان سرح عساكره إليه، وهو محاصر باغاية، فهزمهم وقتل قائدهم أبا زعيل.

خزرون وأخيه وإلى النعيم بن كُتُون وأمرأه الجريد من زناتة بأن يخرجوا لحرب صاحبهم، فخرجوا إليه وتواقفوا بصيرة ما بين قابس وطرابلس، ثم اتفقوا ولحق أصحاب خزرون بأخيه ورؤا.

ورجع خزرون إلى عمله وأتهمه السلطان بالمداينة في شأن أخيه ورؤا.

فاستقدمه من نفزاوة فاستراب وأظهر الخلاف وسرح السلطان إليه فتوح بن أحمد في العساكر فأجفل عن عمله، وأتبعه النعيم وسائر زناتة، ولحقوا جميعاً بورؤا بن سعيد سنة أربع وأربعمئة وتظاهروا على الخلاف ونصبوا الحرب على مدينة طرابلس.

واشتد فساد زناتة فقتل السلطان من كان عنده من رهن زناتة، واتفق وصول مقاتل ابن سعيد نازعاً عن أخيه ورؤا في طائفة من أبنائه وأخواله فقتلوا معهم جميعاً، وشغل السلطان بحرب عمه حماد.

ولما غلبه بشلف وانصرف إلى القيروان بعث إليه ورؤا بطاعته، ثم كان مهلك ورؤا سنة خمس وأربعمئة وانقسم قومه على ابنه خليفة وأخيه خزرون بن سعيد، واختلفت كلمتهم ودس حسن بن محمد عامل طرابلس في التضريب بينهم.

ثم صار أكثر زناتة إلى خليفة، وناجز عنه خزرون الحرب فغلبه على القيطنون وضبط زناتة، وقام فيهم بأمر أبيه وبعث بطاعته إلى السلطان باديس بمكانه من حصار القلعة فتقبلها.

ثم هلك باديس وولّي ابنه المعزّ سنة ست وأربعمئة وانتقض خليفة بن ورؤا عليه، وكان أخوه حماد بن ورؤا يضرب على أعمال طرابلس وقابس، ويواصل عليه الغارة والنهب إلى سنة ثلاث عشرة وأربعمئة فانتقض عبد الله بن حسن صاحب طرابلس على السلطان وأمكنه من طرابلس.

وكان سبب ذلك أنّ المعزّ بن باديس لأول ولايته استقدم محمد بن حسن من عمله، واستخلف عليها أخاه عبد الله بن حسن وقدم على المعزّ وفوّض إليه أمر مملكته، وأقام على ذلك سبباً، وتمكنت حاله عند السلطان، وكثرت السعاية فيه فنكبه وقتله، وبلغ الخبر إلى أخيه فانتقض كما قلناه، وأمكن خليفة بن ورؤا وقومه بني خزرون بطرابلس، وقتلوا الصنهاجيين واستولوا عليهم.

ونزل خليفة بقصر عبد الله وأخرجه عنه، واستصفى أمواله وحرمه. واتصل ملك خليفة بن ورؤا وقومه بني خزرون بطرابلس.

طرابلس، فرحل جعفر عن البلد إلى ناحية الجبل، وجاء فلفول بن سعيد فنزل بمكانه، وضاعت الحال لجمعهم وأصحابه فارتحلوا مصمّمين على المناجزة وقاصدين قابس، فتخلّى فلفول عن طريقهم وانصرفوا إلى قابس.

وقصد فلفول مدينة طرابلس فتلّقاه أهلها، ونزل له فتوح بن علي عن إمارتها فملكها، وأوطنها من يومئذ وذلك سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة وبعث بطاعته إلى الحاكم فسرّح الحاكم يحيى بن علي بن حدون، وعقد له على أعمال طرابلس وقابس، فوصل إلى طرابلس، وارتحل معه فلفول بن سعيد وفتوح بن علي بن غفيانان في عساكر زناتة إلى حصار قابس، فحاصروها مدة ورجعوا إلى طرابلس.

ثم رجع يحيى بن علي إلى مصر واستبدّ فلفول بعمل طرابلس، وطالت الفتنة بينه وبين باديس، ويش من صريخ مصر فبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن عبد الجبار بقرطبة، وأوفد إليه رسله في الصريخ والمدة، وهلك فلفول قبل رجوعهم إليه سنة أربعمئة، واجتمعت زناتة إلى أخيه ورؤا بن سعيد.

وزحف باديس إلى طرابلس وأجفل ورؤا ومن معه من زناتة عنها، ولحق بباديس من كان بها من الجند، فلقوه في طريقه، وتمادى إلى طرابلس فدخلها ونزل قصر فلفول، وبعث إليه ورؤا بن سعيد يسأل الأمان له ولقومه، فبعث إليه محمد بن حسن من صناعته، فاستقدم وفدهم بأمانه فوصلهم، وولّى ورؤا على نفزاوة والنعيم بن كُتُون على قسطلية وشرط عليهم أن يرحلوا بقومهم عن أعمال طرابلس، فرجعوا إلى أصحابهم.

وارتحل باديس إلى القيروان، وولّى على طرابلس محمد بن حسن. ونزل ورؤا بنفزاوة والنعيم بقسطلية.

ثم انتقض ورؤا سنة إحدى وأربعمئة، ولحق ببجال إيدمر فتعاقدوا على الخلاف، واستضاف النعيم بن كُتُون نفزاوة إلى عمله.

ورجع خزرون بن سعيد عن أخيه ورؤا إلى السلطان باديس، وقدم عليه بالقيروان سنة اثنتين وأربعمئة فتقبله ووصله، وولاه عمل أخيه نفزاوة، وولّى بني مجلية من قومه على قصصه، وصارت مدن الماء كلها لزناتة، وزحف ورؤا بن سعيد فيمن معه من زناتة إلى طرابلس، وبرز إليه عاملها محمد بن حسن فتواقفوا ودارت بينهم حرب شديدة انهزم فيها ورؤا، وهلك الكثير من قومه.

ثم راجع حصارها وضيّق على أهلها فبعث بباديس إلى

وخطب الخليفة بالقاهرة الظاهر بن الحكم سنة سبع عشر وأربعمائة بالطاعة وضمان السابلة وتشجيع الرفاق، ويخطب عهده على طرابلس فأجابه إلى ذلك، وانتظم في عمله.

وأوفد في هذه السنة أخاه حمّاداً على المعزّ بهديته فتقبّلها وكافاه عليها.

هذا آخر ما حدث به ابن الرقيق من أخبارهم، ونقل ابن حمّاد وغيره أن المعزّ زحف أعوام ثلاثين وأربعمائة إلى زناتة بمجھات طرابلس، فبرزوا إليه وهزموه.

وقتلوا عبد الله بن حمّاد وسبوا أخته أم العلوّ بنت باديس، ومثّوا عليها بعد حين وأطلقوها إلى أخيها. ثم زحف إليهم ثانية فهزموه.

ثم أُنِيحت له الكُرّة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانهم، واتّقه بالمهادنة، فاستقام أمرهم على ذلك.

كان خزرون بن سعيد لما غلبه خليفة بن وروا على زناتة لحق بمصر، فأقام فيها بدار الخلافة ونشأ بنوه بها، وكان منهم المتتصر بن خزرون وأخوه سعيد.

ولما وقعت الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر وغلبهم الترك وأجلّوهم عنها، لحق المتتصر وسعيد بطرابلس وأقاما في نواحيها.

ثم ولّى سعيد أمر طرابلس ولم يزل والياً عليها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

وقال أبو محمد التيجاني في رحلته عند ذكر طرابلس: ولما قتلت زغبة سعيد بن خزرون سنة تسع وعشرين وأربعمائة قدم خليفة بن خزرون من القبطون بقومه إلى ولايتها، فأمكنه منها رئيس الشورى بها يومئذ من الفقهاء أبو الحسن بن المنمّر المشتهر بعلم الفرائض، وباع له، وقام بها خزرون إلى سنة ثلاثين وأربعمائة بعدها فقدم المتتصر بن خزرون في ربيع الأول منها، ومعه عساكر زناتة، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس مخفياً، وملكها المتتصر بن خزرون، وأوقع بآبن المشر ونفاه، واتصلت بها إمارته انتهى ما نقله التيجاني.

وهذا الخبر مشكل من جهة أن زغبة من العرب الهلاليين وإنما جاؤوا إلى إفريقية من مصر بعد الأربعين من تلك الماية، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين وأربعمائة إلا أن كان تقدّم بعض أحيائهم إلى إفريقية من قبل ذلك فقد كان بنو قرّة بركة، وبعثهم الحاكم مع يحيى بن علي بن حمدون إلا أن ذلك لم ينقله أحد.

ولم تزل طرابلس بأيدي بني خزرون الزناتيين ولما وصل العرب الهلاليون وغلبوا المعزّ بن باديس على أعمال إفريقية واقتسموها كانت قابس وطرابلس في قسمة زغبة، والبلد لبني خزرون.

ثم استولى بنو سليم على الضاحية وغلبوا عليها زغبة ورخلّوهم عن تلك المواطن ولم تزل البلد لبني خزرون.

وزحف المتتصر بن خزرون مع بني عدّي من قبائل هلال جلباً على أعمال بني حمّاد حتى نزل المسيلة ونزل أشير.

ثم خرج إليهم الناصر، ففرّ أمامه إلى الصحراء، ورجع إلى القلعة، فرجعوا إلى الأجلاب على أعماله، فراسله الناصر على الصلح وأقطعهم ضواحي الزاب وزغبة، وأوعز إلى عروس بن سندي رئيس بسكرة لعده أن يكر به، فلما وصل المتتصر إلى بسكرة أنزله عروس ثم قتله غيلة أعوام ستين وأربعمائة، وولّى طرابلس من بني خزرون لم يحضرني اسمه. واختلّ ملك صنهاجة واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة أربعين وخمسمائة.

ثم نزل بطرابلس ونواحيها في هذه السنة جماعة، وأصابهم منها شدّة هلك فيها الناس، وفرّوا عنها وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها، فجهّز إليها رجار طاغية صقلية أسطولاً لحصارها بعد استيلائه على المهديّة وصفاسق واستقرار ولايته فيهما، ووقع بين أهل طرابلس الخلاف فغلب عليهم جرجي بن ميخايل قائد الأسطول وملكها، وأخرج منها بني خزرون وولّى على البلد شيخهم أبا يحيى بن مطروح التميمي، فانقرض أمر بني خزرون منها وبقي منهم من بقي بالضاحية إلى أن افتتح الموحدون إفريقية وكانت ثورة المسلمين بهم، وإخراج النصارى من بين أظهرهم كما ذكرناه في أخبار إفريقية آخر الدولة الصنهاجية.

والملك لله وحده يؤتبه من يشاء من عباده سبحانه لا إله غيره.

الخبر عن بني يعلى ملوك تلمسان من آل

خزر من أهل الطبقة الأولى والإمام بعض

أحوالهم ومصائرهم

قد ذكرنا في أخبار محمد بن خزر وبنه أن محمد بن الخير الذي قتل نفسه في معركة بلّكين كان من ولده الخير ويعلى.

وأنهم الذين ثاروا منهم بأيهم زيري فقتلوه واتبعهم بلّكين من بعد ذلك وأجلاهم إلى المغرب الأقصى حتى قتل محمد منهم

أمراء تلمسان حروب ووقائع وكان زغبة أقرب إليهم بالمواطن وكان أمير تلمسان لعهدهم بجني من ولد يعلى وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعدى بن خليفة بن اليفرنى، فكان كثيراً ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الأنيج وزغبة، ويحتشد من إليهم من زناتة من أهل المغرب الأوسط مثل مغراوة وبني يلوموا وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين، وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعدى أعوام خمسين وأربعمئة.

ثم ملك المرابطون أعمال المغرب الأقصى بعد مهلك بجني، وولاية ابنه العباس بن بجني بتلمسان.

وسرح يوسف بن تاشفين قائده مزديل في عساكر لمونة لحرب من بقي بتلمسان من مغراوة، ومن لحق بهم من فل بني زيري وقومهم، فدوخ المغرب الأوسط وظفر بيعلى بن العباس بن بجني، برز لمدافعتهم، فهزموه وقتله وانكفأ راجعاً إلى المغرب.

ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه في جموع المرابطين سنة ثلاث وسبعين فانتشع تلمسان واستلحم بي يعلى ومن كان بها من مغراوة وقتل العباس بن بجني أميرها من بني يعلى.

ثم افتتح وهران وتنس وملك جبل وانشرش وشلف إلى الجزائر وانكفأ راجعاً وقد حيا أثر مغراوة من المغرب الأوسط وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر من المرابطين بتلمسان، واختط مدينة تآكرات بمكان معكسره وهو اسم محله بلسان البربر، وهي التي صارت اليوم مع تلمسان القديمة التي تسمى أكادير بلداً واحداً، وانقرض أمر مغراوة من جميع المغرب كان لم يكن والبقاء لله وحده سبحانه.

الخبر عن أمراء أغمات من مغراوة

لم أقف على أسماء هؤلاء إلا أنهم كانوا أمراء باغمات آخر دولة بي زيري بفاس، وبني يعلى اليفرنى بسلا وتادلا في جوار المصامدة وبرغواطة.

وكان لقوط بن يوسف بن علي آخرهم في سني الخمسين وأربعمئة، وكانت امرأته زينب بنت إسحاق التفزاوية من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة.

ولما غلب المرابطون على أغمات سنة تسع وأربعين ووأربعمئة فرّ لقوط هذا إلى تادلا ونزل على محمد بن تميم اليفرنى صاحب سلا وأعمالها، إلى أن افتتح المرابطون تادلا سنة إحدى وخمسين وأربعمئة، وقتل الأمير محمد. واستلحم بني يفرن،

صبراً أعوام ستين وثلاثمئة بنواحي سجلماسة قبل وصول معد إلى القاهرة، وولاية بلكين على إفريقية وقام بأمر زناتة بعد الخير ابنه محمد، وعمه يعلى بن محمد.

وتكررت إجازة محمد بن الخير هذا وعمه يعلى إلى المنصور بن أبي عامر كما ذكرنا ذلك من قبل.

وغلّبهم ابننا عطية بن عبد الله بن خزر وهما مقاتل وزيري على رياسة مغراوة.

وهلك مقاتل واختص المنصور زيري بن عطية بإثرته، وولاه على المغرب كما ذكرناه، وقارن ذلك مهلك بلكين وانتقاض أبي البهار بن زيري صاحب المغرب الأوسط على باديس، فكان من شأنه مع زيري ويدو بن يعلى ما قدّمناه.

ثم استقل زيري وغلّبهم جميعاً على المغرب، ثم انتقض على المنصور فأجاز إليه ابنه المظفر وأخرج زناتة من المغرب الأوسط، فتوغلّ زيري في المغرب الأوسط ونازل أمصاره وانتهى إلى المسيلة وأشير.

وكان سعيد بن خزون قد برع إلى صنهاجة وملك طبنة واجتمع زناتة بإفريقية عليه وعلى ابنه فلفول من بعده.

وانتقض فلفول على باديس عند زحف زيري إلى المسيلة وأشير، وشغل باديس ثم ابنه المنصور على المغرب الأوسط بحروب فلفول وقومه، ودفعوا إليه حماد بن بلكين فكانت بينه وبين زناتة حروب سجال، وهلك زيري بن عطية واستقل المعز ابنه بملك المغرب سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة وغلّب صنهاجة على تلمسان وما إليها، واختط مدينة وجدة كما ذكرنا ذلك كله من قبل.

ونزل يعلى بن محمد مدينة تلمسان فكانت خالصة له، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه.

ثم هلك حماد بعد استبداده ببلاد صنهاجة على آل بلكين وشغل بنوه مجرب بني باديس، فاستوسق ملك بني يعلى خلال ذلك بتلمسان، واختلفت أيامهم مع آل حماد سلماً وحرباً.

ولما دخل العرب الهلائيون إفريقية وغلّبوا المعز وقومه عليها واقتسموا سائر أعمالها، ثم تحطّوا إلى أعمال بني حماد فأحجروهم بالقلعة وغلّبوهم على الضواحي فرجعوا إلى استيلائهم واستخلصوا الأنيج منهم وزغبة.

فاستظهروا بهم على زناتة المغرب الأوسط وأنزلوهم بالزاب، وأقطعوهم الكثير من أعماله فكانت بينهم وبين بني يعلى

فكان الأمير لَقُوط فيمن استلحم وخلفه أبو بكر بن عمر أمير المرباطين على زينب بنت إسحاق حتى إذا ارتحل إلى الصحراء سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وإستعمل ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب، نزل له عن زوجه زينب هذه فكان لها في سياسة أمره وسلطانه، وما أشارت إليه عند مرجع أبي بكر من الصحراء في إظهار الاستبداد حتى تحافى عنه منازعته، وخلص ليوسف بن تاشفين ملكه كما ذكرنا في أخبارهم.

ولم نقف من أخبار لَقُوط بن يوسف وقومه على غير هذا الذي كتبناه، واللّه وليّ العون سبحانه.

الحبر عن بني سنجاس وريفة والأغواط

وبني ورا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة

الأولى وتصاريف أحوالهم

هذه البطون الأربعة من بطون مغراوة وقد زعم بعض الناس أنهم من بطون زناتة غير مغراوة.

أخبرني بذلك الثقة عن إبراهيم بن عبد الله التيمزوغتي قال وهو نسابة زناتة لعده: ولم تزل هذه البطون الأربعة من أوسع بطون مغراوة.

فأما بنو سنجاس فلهم مواطن في كل عمل من إفريقية والمغربين، فمنهم قبلة المغرب الأوسط بجبل راشد وجبل كريكرة ويعمل الزاب ويعمل شلف، ومن بطونهم بنو غيار ببلاد شلف أيضاً، وبنو غيار يعمل قسنطينة.

وكان بنو سنجاس هؤلاء من أوسع القبائل وأكثرهم عدداً، وكان لهم في قننة زناتة وصنهاجة آثار بإفريقية والمغرب، وأكثرها في إفساد السبيل والعيث في المدن، ونازلوا قصة سنة أربع عشرة وخمسماية بعد أن عاثوا بجهات القصر، وقتلوا من وجدوا هنالك من عسكر ملكانة.

وخرجت إليهم حامية قصصة فأتوا فيها، ثم كثر فسادهم، وسرح السلطان قائده محمد بن أبي العرب في العساكر إلى بلاد الجريد فشردهم عنها وأصلح السابلة.

ثم عادوا إلى مثلها سنة خمس عشرة وخمسماية فأوقع بهم قائد بلاد الجريد وأتخن فيهم بالقتل، وحمل رؤوسهم إلى القيروان فعظم الفتح فيهم، ولم تزل الدولة تتبعهم بالقتل والإتخان إلى أن خضدوا من شوكتهم.

وجاء العرب الهلاليون وغلبوا على الضواحي كل من كان بها من صنهاجة وزناتة، وتحيز فلهم إلى الحصون والمعاقل، وضربت عليهم المغارم إلا ما كان ببلاد القفر مثل جبل راشد، فإنهم لبعدهم عن منازل الملك لا يعطون مغرمات، إلا أنه غلب عليهم هنالك العمور من بطون الهلالين، ونزلوا معهم.

وملكوا عليهم أمرهم وصاروا لهم قنينة ومن بني سنجاس من نزل بالزاب، وهم لهذا العهد أهل مغارم لمن غلب على ثغورهم من مشايخهم، وأما من نزل منهم ببلاد شلف ونواحي قسنطينة فهم لهذا العهد أهل مغارم الدول.

وكان دينهم جميعاً الخارجية على سنن زناتة في الطبقة الأولى، ومن بقي منهم بالزاب فعلى ذلك.

ومن بني سنجاس هؤلاء بأرض المشتل ما بين الزاب وجبل راشد أوطنوا جباله في جوار غمرة وصاروا عند تغلب الهلالين في ملكهم يقبضون الأتاوة منهم.

ونزل معهم لهذا العهد السحاري من بطون عروة من زغبة، وغلبوهم على أمرهم وأصاروهم خوفاً.

وأما بنو ريفة فكانوا أحياء متعددة ولما افرق أمر زناتة تحيز منهم إلى جبل عياض وما إليه من البسيط إلى نقاوس وأقاموا في قباطتهم، فمن كان بجبل عياض منهم أهل مغارم لأمراء عياض يقبضونها منهم للدولة الغالبة ببجاية، وأما من كان ببسيط نقاوس فهم في أقطاع العرب لهذا العهد.

ونزل أيضاً الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا فاخترتوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم قد رف عليها الشجر ونضدت حفافيفها النخيل، واتساحت خلالها المياه، وزهت بنابعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريفة هؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد، وهم أكثرها.

ومن بني سنجاس وبني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة. وتفرقت جماعتهم للتنازع في الرياسة فاستقلت كل طائفة منهم بقصور منها أو بواحد.

ولقد كانت فيما يقال أكثر من هذا العدد أضعافاً وأن ابن غانية المسوفي حين كان يجلب على بلاد إفريقية والمغرب في قنته مع الموحدين خرب عمرانها، واجتث شجرها، وغور مياهها، ويشهد لذلك أثر العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المتفعر، وكان هذا العمل يرجع في أول الدولة الحفصية لعامل الزاب وكان من الموحدين، ويتزل بسكرة يتردد ما

والسوس ومنهم بيلاد شلف ومنهم بناحية قسنطينة ولم يزالوا على حالهم منذ انقراض زناتة الأولين، وهم لهذا العهد أهل مغارم وعسكرة مع الدول، وأكثر الذين كانوا بمراكش قد انتقل رؤسائهم إلى ناحية شلف فنقلهم يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين في أول هذه المائة الثامنة، لما ارتاب بأمرهم في تلك الناحية، وخشي من فسادهم وعيهم، فنقلهم في عسكر إلى موطن شلف لحمايته، فنزلوا به.

ولما ارتحل بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب أقاموا بيلاد شلف فأعقابهم به لهذا العهد، وأحوالهم جميعاً في كل قطر متقاربة في المغمم والعسكرة مع السلطان و لله الخلق والأمر جميعاً. سبحانه لا إله إلا هو الملك العظيم.

الخبر عن بني يرنان إخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم

قد ذكرنا بني يرنان هؤلاء، وأنهم إخوة مغراوة وبني يفرن، والكل ولد يصلين ونسبهم جميعاً إلى جانا مذكور هنالك، وهم ميثوثون كثيراً بين زناتة في المواطن.

وأما الجمهور منهم فموطنهم بملوئة من المغرب الأقصى ما بين سجلماسة وكرسيف، كانوا هنالك مجاورين لمكناسة في مواطنهم، واختلطوا حفاقي وادي ملوئة قصوراً كثيرة متقاربة الخطّة، ونزلوها وتعدّت بطونهم وأفخاذهم في تلك الجهات.

ومنهم بنو وطاط متوطنون لهذا العهد بالجبال المطلّة على وادي ملوئة من جهة القبلة، ما بينه وبين تازي وفاس، بهم تُعرف تلك القصور لهذا العهد، وكان لبني يرنان هؤلاء صولة واعتزاز، وأجاز الحكم بن المستنصر منهم، والمنصور بن أبي عامر من بعده فيمن أجازوه من زناتة ثم في المائة الرابعة، وكانوا من أفحل جند الأندلس وأشدهم شوكة.

وبقي أهل المواطن منهم في مواطنهم مع مكناسة أيام ملكهم، ويجمعهم عصبية يحمي.

ثم كانوا مع مغراوة أيضاً أيام ملكهم المغرب الأقصى ومّا ملك لتونة والموحدون من بعدهم لحق الظواغن منهم بالفقر، فاختلطوا بأحياء بني مرين الموالين لتلول المغرب من زناتة، أقاموا معهم في أحيائهم، وبقي من عجز عن الظعن منهم بمواطنهم: مثل بني وطاط وغيرهم، ففرضت عليهم المغارم والجبايات.

ولما دخل بنو مرين للمغرب ساهمواهم في أقسام أعماله،

بينها وبين مقرّة، وكان من أعماله قصور واركلة أيضاً.

ولما فتك المنتصر بمشيخة الدواودة كما قلناه في أخباره، وقتلوا بعد ذلك عامل الزاب ابن عتوّ من مشيخة الموحدين، وغلبوا ضواحي الزاب وريغة وواركلة. وأقطعهم إياها الدول بعد ذلك فصارت في إقطاعهم.

ثم عقد صاحب بجاية بعد ذلك على العمل كله للمنصور بن مزني واستقر في عقبه.

فربما يسومون بعض الأحيان أهل تلك القصور الغرم للسلطان بما كان من الأمر القديم، ويعسكر عليهم في ذلك كتاب من رجالة الزاب وخيالة العرب، ويهون عليها الأمر الدواودة ثم يقاسمهم فيما يمتريه منهم.

وأكثر هذه الأمصار تسمى تُقَرّت، مصر مستبحر العمران بدوي الأحوال، كثير المياه والنخل، ورياسته في بني يوسف بن عبد الله كانت لعبيد الله بن يوسف، ثم لابنه داود، ثم لأخيه يوسف بن عبيد الله.

وتغلب على واركلة من يد أبي بكر بن موسى أزمان حدثته، وأضافها إلى عمله.

ثم هلك وصار أمر تُقَرّت لأخيه مسعود بن عبيد الله، ثم لابنه حسن بن مسعود، ثم لابنه أحمد بن حسن شيخها لهذا العهد. وبنو يوسف بن عبيد الله هؤلاء من ريغة، ويقال: إنهم من سنجاس، وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقتهم كثير، وأكثرهم على دين العزابة ومنهم النكارئة، وأقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن مثال الأحكام.

ثم بعد مدينة تُقَرّت بلسد غماسين وهي دونها في العمران والخطّة ورياسته لبني إبراهيم من ريغة وسائر أمصارهم كذلك، كل مصر منها مستبدّ بأمره وحرب لجاره.

وأما لقواط وهم فخذ من مغراوة أيضاً فهم في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد، ولهم هنالك قصر مشهور بهم، فيه فريق من أعقابهم على سغب من العيش لتوغّله في الفقر، وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب، وبينهم وبين الدوسن أقصى عمل الزاب مرحلتان، وتختلف قصودهم إليهم لتحصيل المرافق منهم.

والله يخلق ما يشاء ويختار.

وأما بنو ورا فهم فخذ من مغراوة أيضاً، ويقال من زناتة وهم متشعبون ومفترقون بنواحي المغرب: فمنهم بناحية مراكش

منه منداس ما بين بني يفرن من جانب الغرب، ولوالة من جانب القبلة في السرسو، ومطماطة من جانب الشرق في وانشرش، وكان أميرهم لعهد يعلى بن محمد اليفرنى رجلاً منهم اسمه عَنان، وكانت بينهم وبين لوالة الوطنين بالسرسو فتنة متصلة، يذكر أنها بسبب امرأة من وجديجن تكحت في لوالة وتلا، جامعها نساء قيوطنهم فعيرنوها بالفقر، فكتبت بذلك إلى عَنان تدمره، فغضب واستجاش بأهل عصبة من زناتة وجيرانه، فزحف معه يعلى في بني يفرن وكلام بن حياتي في مغيلة وغرابة في مطماطة، ودارت الحرب بينهم وبين لوالة ملياً.

ثم غلبوا لوالة على بلاد السرسو وانتهوا بهم إلى كدية العابد من آخرها وهلك عَنان شيخ وجديجن في بعض تلك الوقائع بملاكو من جهات السرسو.

ثم لجأت لوالة إلى جبل كريكرة قبله السرسو، وكان يسكنه أحياء من مغراوة يعرف شيخهم لذلك العهد علاهم ربيب لشيخهم عمر بن تامصا المالك قبله، ومعنى تامصا بلسان البربر الغول.

ولما لجأت لوالة إليه غدر بهم وأغرى قومه، فوضعوا أيديهم فيهم سلباً وقتلاً فلاذوا بالفرار ولحقوا بجبل لعود وجبل دراك فاستقروا هنالك آخر الدهر.

وورثت وجديجن مواطنهم بمنداس إلى أن غلبهم عليها بنو يلومين، وبنو ومانو كل من جهته، ثم غلب الآخرين عليها بنو عبد الواد، بنو توجين إلى هذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها.

وأما واغمرت ويسمون لهذا العهد غمرت، وهم إخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا كما قلناه.

فكانوا من أوفر القبائل عدداً، ومواطنهم متفرقة، وجمهورهم بالجبال إلى قبله بلاد صنهاجة من المشتل إلى الدوسن وكان لهم مع أبي يزيد صاحب الحمار في الشبة آثار، وأوقع بهم إسماعيل القائم عند ظهوره على أبي يزيد وأخن فيهم، وكذلك بلكين وصنهاجة من بعده.

ولما افترق أمر صنهاجة لحمد وبنيه كانوا شيعاً لهم على بني بلكين.

ونزع عن حمد أيام فتته ابن أبي جلى من مشيختهم، وكان مختصاً به، فنزع إلى باديس، فوصله وحمل أصحابه، وعقد له على طينة وأعمالها.

حتى إذا جاء العرب الهلاليون وغلبوهم على الضواحي

وأقطعهم البلد الطيب من ضواحي سلا والمعمورة، وزيادة إلى وطهم الأول بملوثة، وأنزلوهم بنواحي سلا بعد أن كان منهم اغراف عنهم في سبيل المدافعة عن مواطنهم الأولى.

ثم أصبحوا ورعى لهم بنو عبد الحق سابقتهم معهم فاصطفوهم للوزارة والتقدم في الحروب، ودفعوهم إلى المهمات وخطوهم بأنفسهم.

وكان من أكابر رجالاتهم لعهد السلطان أبي يعقوب وأخيه أبي سعيد الوزير إبراهيم بن عيسى، استخلصوه للوزارة مرة بعد أخرى، واستعمله السلطان أبو سعيد على وزارة ابنه أبي علي، ثم لوزارته.

واستعمل ابنه السلطان أبو الحسن أبناء إبراهيم هذا في أكابر الخدام فعقد لمسعود بن إبراهيم على أعمال السوس عندما فتحها أعوام الثلاثين وسبعماية، ثم عزله بأخيه حسن، وعقد لمسعود على بلاد الجريد من إفريقية عند فتحه إياها سنة ثمان وأربعين وسبعماية وكان فيها مهلكه.

ونظم أخاهما موسى في طبقة الوزارة، ثم أفرده بها أيام نكبته ولحقه بجبل هنتاتة، واستعمله السلطان أبو عَنان بعد في العظيمات، وعهد له على أعمال سدويكش بنواحي قسنطينة ورشح ابنه محمد السبيع لوزارته إلى أن هلك، وتقلبت بهم الأيام بعده.

وقد عبد الحليم المعروف بجلي ابن السلطان أبي علي وزارته محمد بن السبيع بعد هذا أيام حصاره لدار ملكهم سنة اثنتين وستين وسبعماية. كما نذكره في أخبارهم، فلم يقدر لهم الظفر.

ثم رجع السبيع بعدها إلى غله من دار السلطان وطبقة الوزارة، وما زال يتصرف في الخدم الجليلة والأعمال الواسعة ما بين سجماسة ومراكش وأعمال تازى وتادلا وغمارة، وهو على ذلك لهذا العهد.

والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الخبر عن وجديجن وواغمرت من قبائل

زناتة ومبادئ أحوالهم وتصاريقها

قد تقدم أن هذين البطين من بطون زناتة من ولد ورتنيص بن جانا، وكان لهم عدد وقوة، ومواطنهم مفرقة في بلاد زناتة.

فأما وجديجن فكان جمهورهم بالمغرب الأوسط، ومواطنهم

خمس وعشرين وثلاثمائة، وكان مقامه بينهم سنة يختلف إلى بني برزال قبله المسيلة بسالات، وإلى قبائل البربر بجبل أوراس، يدعوهم جميعاً إلى مذهب النكارية، إلى أن ارتحل إلى أوراس، واستبحر عمران هذا المصر واعتصم به بنو واركلا هؤلاء، والكثير من طواغيت زناتة عند غلب الهلاليين إليهم على المواطن، واختصاص الأتبع بضواحي القلعة والزاب وما إليها.

ولما استبد الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك إفريقية وجال في نواحيها في اتباع ابن غانية، مر بهذا المصر فاعجبه وكلف بالزيادة في تحصيره، فاختط مسجده.

العتيق وماذنته المرتفعة، وكتب عليها اسمه وتاريخ وضعه نقشاً في الحجارة.

وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب إلى المقازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان يسلكها التجار الداخلون إليها باليضائع وسكانها لهذا العهد من أعقاب بني واركلا وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة، ويعرف رئيسه باسم السلطان، شهرة غير نكيرة بينهم، ورياسته لهذه الأعصار مخصوصة ببني أبي غبول، ويزعمون أنهم من بني واكير إحدى بيوت بني واركلا، وهو هذا العهد أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني أبي غبول، ورياستهم متصلة في عمود هذا النسب وعلى عشرين مرحلة من هذا المصر في القبلة منحرفاً إلى الغرب ييسر بلد تكدة قاعدة وطن المثلثين وركاب الحاج من السودان اختطه المثلثون من صنهاجة وهم ساكنوه لهذا العهد، وصاحبه أمير من بيوتاتهم يعرفونه باسم السلطان، وبينه وبين أمير الزاب مراسلة ومهاداة.

ولقد قدمت على بكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبي عنان في بعض الأغراض السلطانية ولقيت رسول صاحب تكدة عند يوسف بن مزني أمير بكرة، وأخبرني عن استحجار هذا المصر في العمارة ومرور السابلة، وقال لي: اجتاز بنا هذا العام سفر من تجار المشرق إلى بلد مالي كانت ركايبهم اثني عشر ألف راحلة.

وذكر لي غيره أن ذلك هو لشان في كل سنة.

وهذا البلد في طاعة سلطان مالي من السودان كما في سائر تلك البلاد الصحراوية المعروفة بالمثلثين لهذا العهد، والله غالب على أمره سبحانه.

اعتصموا بتلك الجبال قبله المسيلة وبلاد صنهاجة، وصدوا بها عن الظعن، وتركوا القيطن إلى سكنى المدن.

ولما تغلب الدواودة على ضواحي الزاب وما إليها، أقطعتهم الدولة مغارم هذه الجبال التي لغمرت.

وهم لهذا العهد في سهان أولاد يحيى بن علي بن سباع من بطونهم وكان في القديم من غمرت هؤلاء كاهن زناتة موسى بن صالح مشهور عندهم حتى الآن، ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريقة الرجز، فيها أخبار بالحدثان فيما يكون لهذا الجيل الزناتي من الملك والدولة، والتغلب على الأحياء والقبائل والبلدان.

شهد كثير من الواقعات على وفقها بصحتها، حتى لقد نقلوا من بعض كلماته ما معناه باللسان العربي أن تلمسان ينالها الخراب، وتصير دورها فدنا حتى يثير أرضها حراث أسود بشور أسود أعور.

وذكر الثقات أنهم عابوا ذلك بعد انتشار كلمته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سنة ستين وسبعماية، وأفرط الخلاف بين هذا الجيل الزناتي في التشيع له والحمل عليه، فمنهم من يزعم أنه ولي أو نبي، وآخرون يقولون: كاهن، ولم تقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره.

والله وتعالى أعلم لا رب غيره.

الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة

والمصر المنسوب إليهم بصحراء إفريقية

وتصاريف أحوالهم

بنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناتة كما تقدم، من ولد فريبي بن جانا، وقد مر ذكرهم.

وإن إخوانهم يزمرون ومنجصة ومثالة المعروفون لهذا العهد، منهم بنو واركلا وكانت فتهم قليلة، وكانت مواطنهم قبله الزاب، واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثمانين مراحل من بكرة في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب، بنوها قصوراً متقاربة الخطية.

ثم استبحر عمرانها فالتفت وصارت مصراً واحداً.

وكان معهم هنالك جماعة من بني زنداك من مغراوة، وإليهم كان هرب ابن أبي زيد النكاري عند فراره من الاعتقال لسنة

الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالأندلس وأولية ذلك ومصائره

بنو دمر هؤلاء من زناتة وقد تقدم أنهم من ولد ورسيك بن أديدت بن جانا، وشعوبهم كثيرة، وكانت مواطنهم بإفريقية في نواحي طرابلس وجبالها وكان منهم آخرون ظواعن بالضواحي من عرب إفريقية.

ومن بطون يدمر هؤلاء بنو ورغمة، وهم لهذا العهد مع قومهم بجبال طرابلس.

ومن بطونهم أيضاً بطن متسع كثير الشعوب وهم: بنو ورنيد بن واثن بن واردة بن دمر، وأن من شعوبهم بني ورتاتين وبني غرزول وبني تفورت، وربما يقال: إن هؤلاء الشعوب لا يتسبون إلى دمر من ورنيد كما تقدم، وبقايا بني ورنيد لهذا العهد بالجبل المطل على تلمسان، بعد أن كانوا في البسيط قبلته، فزحهم بنو راشد حين دخولهم من بلادهم بالصحراء إلى التل، وغلبوهم على تلك السائط فازاحوا إلى الجبل المعروف بهم لهذا العهد، وهو المطل على تلمسان وكان قد أجاز إلى الأندلس من يدمر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن أجاز إليها من زناتة وسائر البربر، أيام أخذهم بدعوة الحكم المستنصر فضمهم السلطان إلى عسكره، واستظهر بهم المنصور بن أبي عامر من بعد ذلك على شأنه، وفرى بهم المستعين أديم دولته، ولما اعصوب البربر على المستعين وبني حمود من بعده وغالبوا جنود الأندلس من العرب، وكانت الفتنة الطويلة بينهم التي ثرت سلك الخلافة وفرقت شمل الجماعة، واقتسموا خطط الملك وولايات الأعمال، وكان من رجالاتهم نوح الدمري، وكان من عظماء أصحاب المنصور، وولاه المستعين أعمال مودور وأركش فاستبد بها سنة أربع في غمار الفتنة، وأقام بها سلطاناً لنفسه إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين، فولي ابنه أبا مناد محمد بن نوح وتلقب بالحاجب عز الدولة لقبين في قرن شأن ملوك الطوائف.

وكانت بينه وبين ابن عبّاد صاحب غرب الأندلس خطوب وممر المعتضد في بعض أسفاره بمجن أركش، وتطوّف ختفياً فقبض عليه بعض أصحاب ابن نوح، وساقه إليه، فخلّى سبيله وأولاه كرامة احتسبها عنده يداً وذلك سنة ثلاث وأربعين، فانطلق إلى دار ملكه ورجع بعدها إلى ولاية الملوك الذين حوله من البربر.

واسجل لابن نوح هذا على عملي أركش ومورور فيمن أسجل له منهم، فصاروا إلى مخالصته إلى أن استدعاهم سنة خمس

وأربعين بعدها إلى صنع دعا إليه الجفلى من أهل أعماله، واختصهم بدخول حمام أعد لهم استبلاغاً في تكرمهم.

وتخلّف ابن نوح عنده من بينهم، فلما حصلوا داخل الحمام طبقه عليهم، وسد المنافس للهواء دونهم إلى أن هلكوا.

ونجا منهم ابن نوح لساقه يده، وطير في الحين من تسلّم معاقلهم وحصونهم، فانظمتهم في أعماله.

وكان منهم وفدة وشريش وسائر أعمالها، وهلك من بعد ذلك الحاجب أبو مناد بن نوح، وولي ابنه أبو عبد الله، ولم يزل المعتضد يضايقه إلى أن اغلخ له سنة ثمان وخمسين، فانظمتها في أعماله وصار إليه محمد بن أبي مناد إلى أن هلك سنة ثمان وستين وانقرض ملك بني نوح والبقاء لله وحده سبحانه.

الخبر عن بني برزال إحدى بطون دمر وما كان لهم من الملك بقرمونة وأعمالها بالأندلس أيام الطوائف وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا أن بني برزال هؤلاء من ولد ورنيد بن واثن بن واردة بن دمر، كما ذكره ابن حزم، وأن إخوانهم بنو يصدرين وبني صمغارة وبني يطوفت.

وكان بنو برزال هؤلاء بإفريقية، وكانت مواطنهم منها جبل سالات وما إليها من أعمال المسيلة.

وكان لهم ظهور ووفور عدد، وكانوا نكارية من فرق الخوارج.

ولما قرّ أبو زيد أمام إسماعيل المنصور، وبلغه أن محمد بن خزر يترصد له، أجمع الاعتصام بسالات وصعد إليهم، ثم أرهقته عساكر المنصور فانتقل عنهم إلى كمامة. وكان من أمره ما قدّمناه.

ثم استقام بنو برزال على طاعة الشيعة وموالاة جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب، حتى صاروا له شيعاً.

ولما انتفض جعفر على معدّ سنة ستين وثلاثمائة كان بنو برزال هؤلاء في جلته ومن أهل خصوصيته، فأجازوا به البحر إلى الأندلس أيام الحكم المستنصر، فاستخدمهم ونظّمهم في طبقات جندة إلى من كان لحق به من قبائل زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بالدعوة الأموية، وعاربهم عليها للدارسة، فاستقرّوا جميعاً بالأندلس وكان لبني برزال من بينهم ظهور وغناء مشهور.

الخبر عن بني ومانوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الملك والدولة بأعمال المغرب الأوسط ومبدأ ذلك وتصاريقه

هاتان القبيلتان من بطون زناتة ومن توابع الطبقة الأولى، ولم تقف على نسبها إلى جانا، إلا أن نسبتهما متفقون على أن يلومي وورتاجن الذي هو أبو مرين أخوان، وأن مديون أخوهما للام، ذكر لي ذلك غير واحد من نسبهم.

وينو مرين لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب، ويوجبون لهم العصية به.

وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناتة وأشدّهم شوكة، ومواطنهم جميعاً بالمغرب الأوسط.

وينو ومانوا منهم إلى جهة الشرق عن وادي في مينا من مرات وما إليهما من أسافل شلف وينو يلومي بالعدوة الغربية منه بالجعات والبطحاء وسبك وسيرات وجبل هواره وبني راشد.

وكان لغراوة وبني يفرن التقدم عليهم في الكثرة والقوة.

ولما غلب بلكين بن زيري مغراوة وبني يفرن على المغرب الأوسط، وأزاحهم إلى المغرب الأقصى بقيت هاتان القبيلتان بمواطنهما، واستعملهم صنهاجة في حروبهم، حتى إذا تقلص ملك صنهاجة عن المغرب الأوسط واعتزوا عليهم واختص الناصر بن علناس صاحب القلعة وغتط بجاية بني ومانوا هؤلاء بالولاية، فكانوا سيفاً لقومه دون بني يلومي.

وكانت رئاسة بني ومانوا في أبيت منهم يعرفون ببني ماخوخ.

وأصهر المنصور بن الناصر إلى ماخوخ منهم في أخته، فزوجها إياه فكان لهم بذلك مزيد ولاية في الدولة.

ولما ملك المرابطون تلمسان أعوام سبعين وأربعماية وأنزل يوسف بن تاشفين بها عامله محمد بن تينعمر المسوفي، ودوخ أعمال المنصور وملك أمصارها إلى أن نازل الجزائر.

وهلك فولّي أخوه تاشفين على عمله، فغزا أشير وافتتحها وخربها وكان لهُذين الحين من زناتة أثر في مظاهرتهم وإمدادهم أحقد عليهم المنصور بعدها وغزا بني ومانوا في عساكر صنهاجة، وجمع له خلع ماخوخ فهزمه وأتبعه منهزماً إلى بجاية، وقتل لمدخله إلى

ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على خليفته هشام، وتوقع الكثير من رجالات الدولة وموالي الحكم، استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر وأناض فيهم الإحسان، فاعتز أمره واشتدّ أزره حتى أسقط رجال الدولة وعما رسومها، وأثبت أركان سلطانه ثم قتل صاحبهم جعفر بن يحيى كما ذكرناه خشية عصيته بهم واستمالهم من بعده فأصبحوا له عسبة وكان يستعملهم في الولايات النائية والأعمال الرفيعة وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن....، فولاه في قرمونة وأعمالها، فلم يزل والياً عليها أيام بني أبي عامر وجدّد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة ووليها من بعده ابنه عبد الله.

ولما انقرض ملك بني حمود من قرطبة ودفع أهلها القاسم المأمون عنهم سنة أربع عشرة أربعماية أراد للحاق بإشبيلية، وبها نائبه محمد بن أبي زيري من وجوه البربر، وبقرمونة عبد الله بن إسحاق البرزالي فداخلهما القاضي ابن عبّاد في خلع طاعة القاسم، وصده عن العملين فأجابا إلى ذلك ثم دس للقاسم بالتحذير من عبد الله بن إسحاق فعدّل القاسم عنهم جميعاً إلى شريش، واستبد كل منهم بعمله.

ثم هلك عبد الله من بعد ذلك، وولي ابنه محمد سنة... وكانت بينه وبين المعتضد بن عباد حرب، وظاهر عليه يحيى بن على بن حمود في منازلة إشبيلية سنة ثمان عشرة وأربعماية ثم اتفق معه ابن عباد بعدها وظاهره على عبد الله بن الأنطس.

وكانت بينهما حرب كانت الدبرة فيها على ابن الأنطس. وتحصل ابنه المظفر قائد العسكر في قبضة محمد بن عبد الله بن إسحاق إلى أن منّ عليه بعد ذلك وأطلقه.

ثم كانت الفتنة بين محمد بن إسحاق وبين المعتضد وأغار إسماعيل بن المعتضد على قرمونة في بعض الأيام بعد أن كمن الكمان من الخيالة والرجل، وركب إليه محمد في قومه فاستطرد لهم إسماعيل إلى أن بلغوا الكمان فثاروا بهم وقتلوا محمد البرزالي وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعماية وولي ابنه العزيز بن محمد وتلقب بالمستظهر مناعياً في ذلك الملوك الطوائف في عهده.

ولم يزل المعتضد يستولي على غرب الأندلس شيئاً فشيئاً إلى أن ضايقه في عمل قرمونة، واقتطع منها أسيجة والمدور، ثم انخلع له العزيز عن قرمونة سنة تسع وخمسين وأربعماية ونظّمها المعتضد في مملكه، وانقرض ملك بني برزال من الأندلس ثم انقرض بعد ذلك حيه من جبل سالات، وأصبحوا في الغابرين والبقاء لله وحده سبحانه.

قصره وقتل زوجه أخت ماخوم تشفياً وضغناً.

ثم انتقضت زناته بعدها وامتنع بنو يلومي بحصنهم الجعبات ومعهم شيوخهم سيد الناس وبلدح ابننا أمير الناس فحاصروهم عساكر الموحدنين وغلبرهم عليها وأشخصوهم إلى الغرب. ونزل سيد الناس بمراكش، وبها كان مهلكه أيام عبد المؤمن. وهلك بعد ذلك بنو ماخوخ.

ثم نهض إلى تلمسان في العساكر واحتشد العرب من الألبج ورياح وزغبة ومن لحق به من زناته وكانت الغزاة المشهورة سنة ست وثمانين وأربعمائة أبقى فيها على ابن تينعمر المسوفي بعد استمكانه من البلد كما ذكرناه في أخبار صنهاجة.

ثم هلك المنصور وولي ابنه العزيز، وراجع ماخوخ ولايتهم وأصهر إليه العزيز أيضاً في ابنته فزوجها إياه.

ولما أخذ أمير هذين الحين في الانتفاض جاذب بني يلومي في تلك الأعمال بنو توجين، وشاجروهم في أحواله ثم واقعهم الحرب في جوانبه وتولى ذلك فيهم عطية الخير كبير بني توجين، وصلي بنارها منهم معه بنو منكوش من قومه حتى غلبهم على مواطنهم وأذلهم وأصاروهم جبراً لهم في قياتينهم.

واعتر البدو في نواحي المغرب الأوسط، واشتعلت نار الفتنة بين هذين الحين من بني ومانوا وبني يلومي فكانت بينهم حروب ومشاهد.

واستعلى بنو عبد الواد وتوجين على هذين الحين وغيرهم بولايتهم للموحدنين وغسلتهم إياهم، فذهب شأنهم وافترق قيطونهم أوزاعاً في زمانه الراثين أوطانهم من عبد الواد وتوجين والبقاء لله سبحانه.

وهلك ماخوخ وقام بأمره في قومه بنوه تاشفين وعلي وأبو بكر، وكان أحياء زناته الثانية من بني عبد الواد وتوجين وبني راشد وبني ورسيفان من مغراوة مدداً للفرقيين، وربما ماد بنو مرين إخوانهم بني يلومي لقرب مواطنهم منهم، إلا أن زناته الثانية لذلك العهد مغلوبون لهذين الحين، وأمرهم تبع لهم إلى أن ظهر أمر الموحدنين.

ومن بطون بني ومانوا هؤلاء بنو يالدس وقد يزعم زاعمون أنهم من مغراوة ومواطنهم متصلة بقلعة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمرانها المذكور قبل.

وزحف عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط في اتباع تاشفين بن علي، وتقدم أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدر من بني ومانوا إلى طاعته، ولحقوه بمكانه من أرض الريف، فسرح معهم عساكر الموحدنين لنظر يوسف بن وانودين وابن يغفور، فأنخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي بن ابن يوسف، فأمدهم بالعساكر ونزلوا منداس.

واختطوا في المواطن القصور والأطم، واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه، فمنا على ثلاثة مراحل قبلة سجلماسة، وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المائتين، آخذة من الغرب إلى الشرق وآحرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر العمران، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالي إليه، وبينه وبين ثغر بلد مالي المسمى غار، المفازة المجهلة لا يهتدي بها للسبل، ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخريت من المثلثين الطواعن بذلك القفر، يستأجره التجار على البذرة بهم بأوفى الشروط، ولقد كانت بلد بودي وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من ناحية السوس هي الركاب إلى والاتن الثغر الأخير من أعمال مالي.

واجتمع لبني يلومي بنو ورسيفان من مغراوة وبنو توجين من بني بادين وبنو عبد الواد منهم أيضاً، وشيخهم حمامة بن مظهر، وبنو يكاسن من بني مرين وأوقعوا ببني ومانوا وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة منهم واستنقذوا غنائمهم.

وتحصن الموحدون وقل بني ومانوا بجبل سيرات، ولحق تاشفين بن ماخوخ صريحاً بعبد المؤمن، وجاء في جملة حتى نازل تاشفين بن علي بتلمسان.

ثم أهملت لما صارت الأعراب من بادية السوس يغيرون على سابقتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت.

ولما ارغل في أثره إلى وهران كما قدمناه سرح الشيخ أبو حفص في عساكر الموحدنين إلى بلاد زناته فنزلوا منداس وسط بلادهم، وأنخنوا فيهم حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا في الدعوة.

وفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وهران بمشيختهم يقدمهم سيد الناس بن أمير الناس شيخ بني يلومي وحمامة بن مظهر شيخ بني عبد الواد. وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم، فلتفاهم بالقبول.

ووفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وهران بمشيختهم يقدمهم سيد الناس بن أمير الناس شيخ بني يلومي وحمامة بن مظهر شيخ بني عبد الواد. وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم، فلتفاهم بالقبول.

الدول إلى مظاهرتهم ومسالتهم، حتى انقضت دولة الموحد بن قنطاولوا إلى الملك وضرى فيه مع أهلهم بهم. وكانت لهم دول نذكرها إن شاء الله تعالى.

وكان أكثر هذه الطبقة من بني واسين بن يصلتين إخوة مغراوة وبني يفرن، ويقال: إنهم من بني وانت بن ورسك بن جانا إخوة مسارت وتاجرت، وقد تقدم ذكر هذه الأنساب وكان من بني واسين هؤلاء ببليد قسطنطية.

وذكر ابن الرقيق: أن أبا يزيد النكاري لما ظهر بجبل أوراس كتب إليهم بمكانهم حول توزر يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

وربما أن منهم ببليد الحامة لهذا العهد، ويعرفون ببني ورتاجن إحدى بطونهم.

وأما جمهورهم فلم يزالوا بالمغرب الأقصى ما بين ملوية إلى جبل راشد.

وذكر موسى بن أبي العافية في كتابه إلى الناصر الأموي يعرفه بحريه مع ميسور مولى أبي القاسم الشيعي، وبمن صار إليه من قبائل البربر وزناتة، فذكر فيمن فيهم من كان على ملوية، وصا من قبائل بني واسين وبني يفرن وبني ورتاسن وبني وريعت ومطماطة، فذكر منهم بني واسين لأن تلك المواطن من مواطنهم قبل الملك.

وفي هذه الطبقة منهم بطون: فمنهم بنو مرين، وهم أكثرهم عدداً وأقوامهم سلطاناً وملكاً وأعظمهم دولة.

ومنهم: أبو عبد الواد تلوه في الكثرة والقوة، وبنو توجين من بعدهم كذلك هؤلاء أهل الملك من هذه الطبقة.

وفيها من غير أهل الملك بنو راشد إخوة بني بادين كما نذكره، وفيها أهل الملك أيضاً من غير نسبهم بقية مغراوة بمواطنهم الأولى من وادي شلف نبضت فيهم عروق الملك بعد انقراض جيلهم الأول، فتجاذبوا حبله مع أهل هذا الجيل وكانت لهم في مواطنهم دولة كما نذكره.

ومن أهل هذه الطبقة كثير من بطونها ليس لهم ملك نذكرهم الآن حين تفصيل شعوبهم.

وذلك أن أحياءهم جميعاً تشعبت من زحيك بن واسين فكان منهم بنو بادين بن محمد، وبنو مرين بن ورتاجن، فأما بنو ورتاجن فمنهم من ولد ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن بدر بن يحنف بن عبد الله بن ورتيد بن المغر بن إبراهيم بن

هؤلاء ومعهم من سائر قبائل زناتة والبربر مثل ورتطفير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين، وهم أهل عديد وعدة وبعد عن هضيمة الأحكام وذلل المغارم، وفيهم الرجالة والخيالة وأكثر معاشهم من فلاح النخل، وفيهم التنجر إلى بلد السودان وضواحيها كلها مشنة للعرب، ومختصة بعبيد الله من المعقل، عتيها لهم قسمة الرحلة.

وربما شاركهم بنو عامر بن زغبة في تيكورارين فتصل إليهما ناجعتهم بعض السنين.

وأما عبيد الله فلا بد لهم في كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصور توات وبلد تمنطيت، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار والتلول حتى يخطوا بتمنطيت. ثم يذرقون منها إلى بلاد السودان.

وفي هذه البلاد الصحراوية إلى ما وراء العرق غربية في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلبة، فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها على الماء، فينبعث صاعداً فينعم البئر ثم يجري على الأرض وادياً، ويزعمون أن الماء ربما أعجل بسرعه عن كل شيء.

وهذه الغربية موجودة في قصور توات وتيكورارين وواركلا وريخ.

والعالم أبو العجائب والله الخلاق والعليم.

وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من زناتة ولنرجع إلى أخبار الطبقة الثانية فهم وهم الذين اتصلت دولتهم إلى هذا العهد.

أخبار الطبقة الثانية من زناتة وذكر

أنسابهم وشعوبهم وأوليتهم ومصائر ذلك

قد تقدم لنا في تضاعيف الكلام قبل انقراض الملك من الطبقة من زناتة ما كان على يد صنهجة والمرابطين من بعدهم، وأن عصبة أجيالهم افترقت بانقراض ملكهم ودولهم، وبقيت منهم بطون لم يمارسوا الملك، ولا أحلقهم ترفه، فأقاموا في قياتهم بأطراف المغربين ينتجعون جانبي القفر والتل، ويعطون الدول حق الطاعة.

وغلبوا على بقايا الأجيال الأولى من زناتة بعد أن كانوا مغلبين لهم فأصبحت لهم السورة والعزة وصارت الحاجة من

قصور بني ريغة في المغرب، وهذا الاسم اسمٌ للقوم الذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين حسبما ذكرناهم الآن. ووضعوها في أرض حرة على آكام وضراب متمتعة في قننها. وبينها وبين الأرض الحجرية المعروفة بالحماة في سمت العرق متوسطة فيه قبالة تلك البلاد فراسخ في ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن يضاف إليهم من شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب وحالها في المباني والأغراس وتفرق الجماعات بتفرق الرئاسة شبيهة بحال بلاد بني ريغة والزاب.

ومنهم بجبل أوراس بإفريقية طائفة من بني عبد الواد موطنه منذ العهد الأقدم لأول الفتح، معروفون بين ساكنيه.

وقد ذكر بعض الأخباريين أن بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب عند إيغاله في ديار المغرب، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس في ولايته الثانية.

وهي الغزاة التي هلك فيها في منصرفه منها، وأنهم ألبوا البلاء الحسن فدعا لهم وأذن في رجوعهم قبل استتمام الغزاة. ولما تحيزت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتمانة وصنهاجة اجتمع شعوب بني واسين هؤلاء كلهم ما بين ملوية وصا كما ذكرناه.

وتشعبت أفخاذهم وبطنهم، وانبطوا في صحراء المغرب الأقصى والأوسط إلى بلاد الزاب وما إليها من صحارى إفريقية إذ لم يكن للعرب في تلك المجالات كلها مذهب ولا مسلك إلى الماية الخامسة كما سبق ذكره.

ولم يزالوا بتلك البلاد مشتملين لبوس العز مستمرين للألفة، وكان جُلُّ مكاسبهم الأنعام والماشية، وابتغاهم الرزق من تحيف السابلة، وفي ظل الرماح المشرعة، وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع، تلم بها ولم تعظم العناية باستيعابها، فتأتي به.

والسبب في ذلك أن اللسان العربي كان غالباً بغلب دولة العرب وظهور اللغة العربية، فالكتاب والخط بلغة الدولة ولسان الملك، واللسان العجمي مستر بجناحه مندرج في غماره، ولم يكن لهذا الجيل من زناتة في الأحقاب القديمة ملك يجعل أهل الكتاب على العناية بتقيد أيامهم وتدوين أخبارهم، ولم تكن مغالطة بينهم وبين أهل الأرياف والحضر، حتى يشهدوا آثارهم لإبعادهم في القفار كما رأيت في مواطنهم، وتوحشهم عن الانقياد، فبقيت

زحيك.

وأما بنو مرين بن ورتاجن فتعددت أفخاذهم وبطنهم كما نذكره بعد، حتى كثروا سائر شعوب بني ورتاجن، وصار بنو ورتاجن معدودين في جملة أفخاذهم وشعوبهم.

وأما بنو بادين بن محمد فمن ولد زحيك ولا أذكر الآن كيف يتصل نسبهم به.

وتشعبوا إلى شعوب كثيرة، فكان منهم: بنو عبد الواد وبني توجين وبني مصاب وبني أزردال يجمعهم كلهم نسب بادين بن محمد.

وفي محمد هذا يجتمع بادين وبني راشد، ثم يجتمع محمد مع ورتاجن في زحيك بن واسين، وكانوا كلهم معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين قبل أن تعظم هذه البطون والأفخاذ، وتشعبت مع الأيام.

وبأرض إفريقية وصحراء برقة وبلاد الزاب منهم طوائف من بقايا زناتة الأولى قبل انسياحهم إلى المغرب، فمنهم بقصور غدامس على عشرة مراحل قبل سرت، وكانت مختطة منذ عهد الإسلام، وهي خطة مشتملة على قصور وأطام عديدة، وبعضها لبني واطاس من أحياء بني مرين، يزعمون أن أوائلهم اختطوها، وهي لهذا العهد قد استبحرت في العمارة واتسعت في التمدن بما صارت محطاً لركاب الحاج من السودان، وقفل التجار إلى مصر والإسكندرية عند إراحتهم من قطع المفازة ذات الرمال المعترضة أمام طريقهم دون الأرياف والتلول، وباباً لولوج تلك المفازة والحاج والتاجر في مرجعهم ومنهم ببلاد الحمة على مرحلة من غربي قابس أمة عظيمة من بني ورتاجن.

وفرت منهم حاميتها، واشتدت شوكتها وارتحل إليها التجارة بالبضائع لنفاق أسواقها، وتبحر عمارتها، وامتنعت لهذا العهد على من يرومها من مجاورها، فهم لا يؤدون خراجاً ولا يسامون بمغرم، حتى كأنهم لا يعرفونه عزة جناب، وفضل بأس ومنعة.

وزعمون أن سلفهم من بني ورتاجن اختطوها، ورياستهم في بيت منهم يعرفون ببني وشاح، ولربما طال على رؤسائهم عهد الخلافة ووطأة الدول فيطاولون إلى التي تنكر على السوق من اتخاذ الآلات، ويرزون في زي السلطان أيام الزينة تهاوناً بشعار الملك، ونسياناً لمآلوف الانقياد شأن جيرانهم رؤساء توزر ونقطة وسابق الغاية في هذه المضحكة هو يملول مقدم توزر.

ومن بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطري في القبلة بما دون الرمال وعلى ثلاث مراحل من

بمدافعتهم أيضاً، فاجتمع لذلك بنو يعلو ملوك تلمسان من مغراوة وجمعو من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مريين وعبد الواد وتوجين وبني راشد.

وعقدوا على حرب الهلالين لوزيرهم بو سعدى خليفة ابن اليفرنى، فكان له مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب والمغرب الأوسط وما إليه من بلاد إفريقية والمغرب الأوسط إلى أن هلك في بعض أيامه معهم، وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بلاد إفريقية، وانتشر بنو واسين هؤلاء من بني مريين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى موطنهم من بصرى المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية وفيكيك.

ثم إلى سجلماسة ولاذوا ببني ومانوا وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط، وتغلبوا عليهم واقتسموا ذلك القفر بالمواطن، فكان لبني مريين الناحية الغربية منها قبله المغرب الأقصى بتيكرارين ودبدوا إلى ملوية وسجلماسة، وبعدوا عن بني ومانوا وبني يلومي إلا في الأحيان وعند الصريخ، وكان لبني بادين منها الناحية الشرقية قبله المغرب الأوسط ما بين فيكيك ومديونة إلى جبل راشد ومصاب.

وكانت بينهم وبين بني مريين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواطن سبيل القبائل الجيران في مواطنهم، وكان الغلب في حروبهم أكثر ما يكون لبني بادين لما كانت شعوبهم أكثر وعددهم أوفر، فإنهم كانوا أربعة: شعوب بني عبد الواد وبني توجين وبني زردال وبني مصاب، وكان معهم شعب آخر وهم إخوانهم بنو راشد، لأننا قدمنا أن راشد أخو بادين.

وكان موطن بني راشد الجبل المشهور بهم بالصحراء، ولم يزلوا على هذه الحال إلى أن ظهر أمر الموحدين، فكان لبني عبد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحدين ما هو مذكور في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون على المغرب الأوسط وقبائله من زناتة فأطاعوا وأقادوا، وتحيز بنو عبد الواد وبنو توجين إلى الموحدين وازدلفوا إليهم بإعاض النصيحة ومشايعة الدعوة، وكان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الأخرى، وأعضوا النصيحة للموحدين فاصطنعواهم دون بني مريين كما نذكر في أخبارهم وأقطعهم الموحدون ضواحي المغرب الأوسط كما كانت لبني يلومي وبني ومانوا فملكوها.

وتفرد بنو مريين بعد دخول بني بادين إلى المغرب الأوسط

غفلاً إلى أن درس منها الكثير، ولم يصل إليها منها بعد مهلكهم إلا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المظطلع في مسالكه، ويتقراه في شعبه ويسيره من مكانه، وأقاموا بتلك القفار إلى أن تسنوا منها هضبات الملك على ما نصفه.

الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت تصاريه أحوالهم إلى أن غلبوا على الممالك والدول

وذلك أن أهل هذه الطبقة من بني واسين وشعوبهم التي سميها كانوا تبعاً لزناتة الأولى.

ولما انتزاحت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة، خرج بنو واسين هؤلاء إلى القفر ما بين ملوية وصا، فكانوا يرجعون إلى ملك المغرب لذلك العهد. مكناسة أولاً ثم مغراوة من بعدهم.

ثم حسر تيار بني صنهاجة عن المغرب وتقلص ملكهم، بعض الشيء وصاروا إلى الاستجاشة على القاصية بقبائل زناتة، فأومضت بروقهم، ورفت في ممالك زناتة منابتهم كما قدمناه.

واقتسم أعمالها بنو ومانو وبنو يلومي ناحيتين، وكانت ملوك صنهاجة أهل القلعة إذا عسكروا للمغرب يستنفروهم لغزوه، ويجمعون حشدهم للتوغل فيه، وكان بنو واسين هؤلاء ومن تشعب منهم من القبائل الشهيرة الذكر مثل بني مريين وبني عبد الواد وبني توجين ومصاب قد ملكوا القفر ما بين ملوية وأرض الزاب، وامتنعت عليهم الأرياف من المغربين بمن ملكها من زناتة الذين ذكرناهم.

وكان أهل الرياسة بتلك الأرياف والضواحي من زناتة مثل بني ومانوا وبني يلومي بالمغرب الأوسط، وبني يفرن ومغراوة بتلمسان يستجيشون ببني واسين هؤلاء وشعوبهم، ويستظهرون بجموعهم على من زاحهم أو أقارعه من ملوك صنهاجة وزناتة وغيرهم، يجأنون بهم عن مواطنهم لذلك، ويقرضونهم القرض الحسن من المال والسلاح والحبوب المعوزة لديهم بالقفار، فيتأثلون منهم ويرتاشون.

وعظمت حاجة بني حماد إليهم في ذلك عندما عصفت بهم ريح العرب الطوابع من بني هلال بن عامر، وأصرعوا دولة المعز وصنهاجة بالقيروان والمهدية والأنوا من حنهم، وزحفوا إلى المغرب الأوسط فدافع بنو حماد عن حوزته وأوعزوا إلى زناتة

أيليت.

ويقال: إنهم من ورتزمان وبنو سعيد وبنو زجك وبنو سنجاس، وربما يقال: إنهم من زناتة ولبسوا من مغراوة، وكان بنو خزرون الملوك بطرابلس لما انقرض أمرهم، وافترقوا في البلاد، ولحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بجبل أوراس فراراً من أهل بيته هنالك الذين استولوا على الأمر وجده خزرون بن خليفة هو السادس من ملوكهم بطرابلس، فأقام بجبل أوراس مدة، ثم انتقل إلى زواوا، فأقام بينهم أعواماً.

ثم ارتحل عنهم فنزل على بقايا قومه مغراوة بشلف من بني ورسيفان وبني ورتزمان وبني بو سعيد وغيرهم، فثقلوه بالمربة والكرامة، وأوجبوا له حق البيت الذي يتسب إليه فيهم، وأصهر إليهم فأنكحوه وكثر ولده وعرفوا بينهم ببني محمد، ثم بالخيرية نسبة إلى سلفه الأول.

وكان من ولده الملقب أبو ناس بن عبد الصمد بن ورجيع بن عبد الصمد.

وكان متحلاً للعبادة والخيرية، وأصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني ومانوا بابته، فأنكحه إياها، فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره.

وجاءت دولة الموحدين على أثر ذلك فرمقوه بعين التجلة لما كان عليه من طرق الخير، فأقطعوه بوادي شلف وأقام على ذلك.

وكان له من الولد: ورجيع وهو كبيرهم، وعزيز ويغريان وماكور، ومن بنت ابن ماخوخ عبد الرحمن، وكان أجلمهم شأناً عنده وعند قومه عبد الرحمن هذا، لما يوجبون له بولادة ماخوخ لأمه، ويتفرون فيه أن له ولعقبه ملكاً.

ويزعمون أنه لما ولد خرجت به أمه إلى الصحراء فألقته إلى شجرة وذهبت في بعض حاجتها، فاطاف به يعسوب من النحل متواقنين عليه، وبصرت به على البعد فجاءت تعدو لما أدركها من الشفقة، وقال لها بعض العرافين: احتفظي عليه فوالله ليكون له شأن.

ونشأ عبد الرحمن هذا في جو هذه التجلة مدلاً بنسبه وبأسه، وكثر عشيره من بني أبيه، واعصوب عليه قبائل مغراوة، فكان له بذلك شوكة وفي دولة الموحدين تقدمة، لما كان يوجب لهم على نفسه من الانقياد والمخالطة والتقدم في مذاهب الطاعة. وكان السادة منهم يبرون به في غزواتهم إلى إفريقية ذاهبين وراجعين، فينزلون منه خير نزل، وهم يتقبلون محمده والشكر

بتلك الصحراء، لما اختار الله لهم من وفور قسمهم في الملك، واستيلائهم على سلطان المغرب الذي غلبوا به الدول، واشتملوا الأقطار ونظموا المشارق إلى المغرب، واقتعدوا كراسي الدول المسامحة لهم بأجمعها ما بين السوس الأقصى إلى إفريقية.

والملك لله يؤتیه من يشاء من عباده.

فأخذ بنو مرين وبنو عبد الواد من شعوب بني واسين هؤلاء يحظ من الملك أعادوا فيه لزناطة دولة وسلطاناً في الأرض، واقتادوا الأمم برسن الغلب، وناغاهم في ذلك الملك البدوي إخوانهم بنو توجين.

وكانت في هذه الطبقة الثانية بقية أخرى مما ترك آل خزر من قبائل مغراوة الأولى، كانوا موطنين بقرار عزهم ومنشأ جيلهم بوادي شلف، فجاذبوا هؤلاء القبائل حبل الملك وناغوه في أطوار الرياسة، واستطالوا بمن وصل جناحهم من هذه العشائر فطاولوا إلى مقاسمتهم في الملك مساهمتهم في الأمر، وما زال بنو عبد الواد في الغضب من عنانهم وجدع أنوف عصيانهم حتى أوهنوا من بأسهم، وخضت الدولة العبد الوادية ثم المرينية بسمة الملك المخلفة من جناح تطاولهم، وتمحض ذلك كله عن استبداد بني مرين واستياعهم بجميع هؤلاء العصائب كما نذكر لك الآن دولتهم واحدة بعد أخرى، ومصابير أمور هؤلاء القبائل الأربعة التي هي رؤوس هذه الطبقة الثانية من زناتة.

والملك لله يؤتیه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ولنبداً منها بذكر مغراوة بقية الطبقة الأولى وما كان لرؤسائهم أولاد منديل من الملك في هذه الطبقة الثانية، كما ستراه إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما

أعادوا لقومهم من مغراوة من الملك

بموطنهم الأول من شلف وما إليه من

نواحي المغرب الأوسط

لما ذهب الملك من مغراوة بانقراض ملوكهم آل خزر، واضمحلت دولتهم بتلسمان وسجلماسة وفاس وطرابلس، وبقية قبائل مغراوة متفرقة في مواطنهم الأولى بنواحي المغربين وإفريقية والصحراء والتلول، والكثير منهم بعنصرهم ومركزهم الأول بموطن شلف وما إليه، فكان به بنو ورسيفان وبنو ورتزمان وبنو

لذهبه، فيزيد خلفاؤهم اغتباطاً به.

وأدرك بعض السادة وهو بأرض قومه الخبر بمهلك الخليفة بمراكش، فخلف الذخيرة والظهر، وأسلمها إلى عبد الرحمن هذا، فنجأ بدمائه بعد أن صحبه إلى تخم وطنه، فكانت له فيها ثروة أكسبته قوة وكثرة فاستركب من قومه، واستكثر من عصابته وعشيرته وهلك خلال ذلك وقد فشل ربح بني عبد المؤمن وضعف أمر الخليفة بمراكش.

وكان له من الولد منديل وتهيم، وكان أكبرهما منديل، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة، وأجلب ابن غانية على أعمال المغرب الأوسط وسما لمنديل أمل في التغلب على ما يليه، فاستأسد في عرينه وحى عن أشباله.

ثم فسح خطوته إلى ما جاوره من البلاد فملك جبل وانشرش والمرية وما إلى ذلك واختط قصبة مرات.

وكان بسيط متبعة لهذا العهد مستبحراً في العمران أهلاً بالقرى والأمصا.

ونقل الأخباريون أن أهل متبعة لذلك العهد كانوا يجمعون في ثلاثين مصراً فجاس خلالها وأوطأ الغارات ساحتها وخرب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها وهو في ذلك يومهم التمسك بطاعة الموحدين، وأنه سلم لمن سالمهم وحرب على من عاداهم.

وكان ابن غانية منذ غلبه الموحدون على إفريقية قد أراحوه إلى قابس وما إليها، فنزل الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بتونس ودفعه إلى إفريقية إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستمئة فطمع يحيى بن غانية في استرجاع أمره وسبق إلى الثغور والأمصا يعيث فيها ويخربها، ثم تجاوز إفريقية إلى بلاد زناتة وشن عليها الغارات واكتسح البساط، وتكررت الوقائع بينه وبينهم، فجمع له منديل بن عبد الرحمن ولقيه بمتبعة، وكانت الدبرة عليه وانفضت عنه مغراوة، فقتله ابن غانية صبراً سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين وستمئة وتغلب على الجزائر إثر نكته، فصلب بها شلوه وصيره مثلاً للآخرين.

وقام بأمره في قومه بنوه، وكانوا غيباء فكان لهم العدة والشرف، وكانوا يرجعون في أمرهم إلى كبيرهم العباس، فقبل مذاهب أبيه وأقصر عن بلاد متبعة.

ثم غلبهم بنو توجين على جبل وانشرش وضواحي المرية وما إلى ذلك.

وانقبضوا إلى مراكزهم الأولى شلف، وأقاموا بها ملكاً بدوياً

لم يفارقوا فيه الظعن والحيام والضواحي والبساط.

واستولوا على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال مقيمين فيها الدعوة الحفصية واختطوا قرية مازونة.

ولما استوسق الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان، واستفحل سلطانه بها وعقد له عليها ولأخيه من قبله بنو عبد المؤمن، سما إلى التغلب على أمصار المغرب الأوسط، وزاحم بني توجين وبني منديل هؤلاء بمناكة فلفلتوا وجوههم جميعاً إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص مدبل الدولة بإفريقية من آل عبد المؤمن، وبعثوا إليه الصريخ على يغمراسن، فاحتشد لها جموع الموحدين والعرب، وغزا تلمسان واقتحها كما ذكرناه.

ولما قفل إلى الحضرة عقد في مرجعه لأمرأة زناتة كل على قومه ووطنه، فعقد للعباس ابن منديل على مغراوة، ولعبد القوي على توجين ولأولاد حبورة على ملكيش، وسوغ لهم اتخاذ الآلة فاتخذوها بمشهد منه.

وعقد العباس السلم مع يغمراسن، ووفد عليه بتلمسان فلقاه مبرة وتكرعاً، وذهب عنه بعدها مغاضباً.

يقال: إنه تحدث بمجلسه يوماً فزعم أنه رأى فارساً واحداً يقاتل مائتين من الفرسان، ففكر ذلك من سمعه من بني عبد الواد وعرضوا تكذيبه، فخرج العباس لها مغاضباً حتى أتى قومه، وأتى يغمراسن مصداق قوله، فإنه كان يعني بذلك الفارس نفسه.

وهلك العباس لخمس وعشرين سنة من بعد أبيه سنة سبع وأربعين وستمئة وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن منديل وصلحت الحال بينه وبين يغمراسن وصاروا إلى الاتفاق والمهادنة، ونفر معه بقومه مغراوة إلى غزو المغرب سنة كلدمان وهي سنة سبع وأربعين وستمئة، وهزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق فرجعوا إلى أوطانهم وعادوا شأنهم في العداوة وانتقض عليهم أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية.

وكان من خبر هذا الانتقاض أن أبا العباس أحمد الملباني كان كبير وقته علماً ودينياً ورواية، وكان عالي السند في الحديث فرحل إليه الأعلام، وأخذ عنه الأئمة وأوقت به الشهرة على ثانيا السيادة، فانتفتت إليه رئاسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه.

ونشأ ابنه أبو علي في جو هذه العناية وكان جوارحاً للرئاسة طاعاً إلى الاستبداد، وهو مع ذلك خلوا من المغارم.

فلما هلك أبوه جرى في شأو رياسته طلقاً، ثم رأى ما بين مغراوة وبني عبد الواد من الفتنة، فحدثه نفسه بالاستبداد ببلده، فجمع لها جراميزه، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر سنة تسع

تس، ثم ردد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخراً على ما بأيديهم، وملك المرية بمداخلة بني لمدينة أهلها سنة سبع وثمانين وستمائة وغلب ثابت بن منديل على مازونة، فاستولى عليها ثم نزل له عن تس أيضاً فملكها.

ولم يزل عثمان مراغماً لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين وستمائة فاستولى على أمصارهم وضواحيهم، وأخرجهم عنها وأجأهم إلى الجبال.

ودخل ثابت بن منديل إلى برشك مماناً دونها، فزحف إليه عثمان وحاصره بها حتى إذا استيقن أنه أحيط به، ركب البحر إلى المغرب، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين صريحاً سنة أربع وتسعين وستمائة فأكرمه ووعدته بالنصرة من عدوه، وأقام بفاس وكانت بينه وبين ابن أشهب من رجالات بني عسكر صحابة ومداخلة، فجاء بعض الأيام إلى منزله، ودخل عليه من غير استئذان وكان ابن الأشهب ثملاً، فسطا به وقتله ونار السلطان به منه، وانفجع لموته.

وكان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمداً للأمر في قومه، وولاه عليهم لعهد واستبد بملك مغراوة دونه.

ولما انصرف أبوه ثابت إلى المغرب أقام هو بأمارته على مغراوة.

وهلك قريباً من مهلك أبيه، فقام بأمرهم من بعده شقيقه علي، ونازعه الأمر أخواه رحمون ومنيف، فقتله منيف ونكر ذلك هو منهم وأبوا من أمارتهما عليهم، فلحقا بثمان بن يغمراسن فأجازهما إلى الأندلس.

وكان أخوهما معمر بن ثابت قائداً على الغزاة بالغيرة فنزل لمنيف عنها، فكانت أول ولاية وليها بالأندلس.

ولحق بهم أخوهم عبد المؤمن فكانوا جميعاً هنالك ومن أعقاب عبد المؤمن يعقوب بن زيان بن عبد المؤمن، ومن أعقاب منيف بن عمر بن منيف وجماعة منهم هم لهذا العهد بوطن الأندلس.

ولما هلك ثابت بن منديل سنة أربع وتسعين وستمائة كما قلناه، كفل السلطان ولده وأهله، وكان فيهم حافده راشد بن محمد، فأظهر إليه في أخته فأنكحه إياها.

ونهض إلى تلمسان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأنشأ عليها، واختط مدينة لحصارها وسرح عساكره في نواحيها، وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن ويغرن بن منديل، وبعث معه جيشاً فافتتح مليانة وتس مازونة سنة تسع وتسعين وستمائة ووجد

وخسين وستمائة، وبلغ الخبر إلى تونس فسرح الخليفة أخاه أبا حفص في عسكر من الموحدين في جلته دون الريب بن هرائدة من آل أدفونش ملوك الجلالة، كان نازعاً إليه عن أبيه في طائفة من قومه، فنازلوا مليانة أياماً.

وداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن أبي علي الملياني، فسرب إليهم جنداً بالليل واتحموها من بعض المداخل، وفر أبو علي الملياني تحت الليل وخرج من بعض قنوات البلد، فلحق بأحياء العرب، ونزل على يعقوب بن موسى أمير العطف من بطون زغبة، فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق، فكان من أمره ما ذكرناه في أخبارهم.

وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى الحضرة، وعقدوا محمد بن منديل على مليانة، فأقام بها الدعوة الحفصية على سنن قومه.

ثم هلك محمد بن منديل سنة اثنتين وستين وستمائة لخمس عشرة من ولايته، قتله أخواه ثابت وعابد بمنزل طواعنهم بالخمس من بسط بلادهم، وقتل معه عطية ابن أخيه منيف وشاركه ثابت في الأمر، واجتمع إليه قومه وتقطع ما بين أولاد منديل وخشت صدورهم.

واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم، ودخله عمر بن منديل أخوهم في أن يمكنه من مليانة، ويشد عضده على رئاسة قومه، فشارطه على ذلك وأمكنه من أزمة البلد سنة ثمان وستين وستمائة ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر على الأمر فتم لهما ما أحكما من أمرهما في مغراوة واستمكن بها يغمراسن من قيادة قومه.

ثم تناهى أولاد منديل في الازدلاف إلى يغمراسن يمثلها نكاية لعمر، فاتفق ثابت وعابد أولاد منديل على أن يحكما في تس فأمكنه منها سنة اثنتين وسبعين وستمائة على اثني عشر ألفاً من الذهب.

واستمرت ولاية عمر إلى أن هلك سنة ست وسبعين وستمائة، فاستقل ثابت بن منديل برئاسة مغراوة، وأجاز عابد أخوه إلى الأندلس للرباط والجهاد مع صاحبه زيان بن محمد بن عبد القوي وعبد الملك بن يغمراسن فحول زناته واسترجع ثابت بلاد تس ومليانة من يد يغمراسن، ونبذ إليه العهد، ثم استغلظ يغمراسن عليهم واسترد تس سنة إحدى وثمانين وستمائة بين يدي مهلكه.

ولما هلك يغمراسن وقام بالأمر ابنه عثمان انتقضت عليه

بن عثمان سلطان بني عبد الواد على أن يخلي له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من أمصارهم وأعمالهم وثغورهم وبعثوا في حاميتهم وعملهم وأسلموها لعمال أبي زيان.

وكان راشد قد طمع في استرجاع بلاده، وزحف إلى مليانة فأحاط بها.

فلما نزل عنها بنو مرين لأبي زيان وصارت مليانة وتنس له، أخفق سعي راشد وأفرج عن البلد.

ثم كان مهلك أبي زيان قريباً، وولي أخوه أبو حمو موسى بن عثمان واستولى على المغرب الأوسط فملك تافركينت سنة سبع وسبعمائة وملك بعدها مليانة والمرية، ثم ملك تنس وعقد عليها لسامح مولاه مسامح، وقارن ذلك حركة صاحب بجاية السلطان أبي البقاء خالد ابن مولانا الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي إسحاق إلى متيجة لاسترجاع الجزائر من يد ابن علان الثائر عليهم، فلقية هنالك راشد بن محمد وصار في جلته وظاهره على شأنه.

ولقاء السلطان تكرمة ويراً، وعقد له ولقومه حلفاً مع صنهاجة أولياء الدولة والمتغلبين على ضاحية بجاية وجبال زاوارة، فاتصلت يد راشد بيد زعيمهم يعقوب بن خلوف أحد وزراء الدولة.

ولما نهض السلطان خالد للاستيثار بملك الحضرة تونس، استعمل يعقوب بن خلوف على بجاية وعسكر راشد معه بقومه، وأبلى في الحروب بين يديه وأغنى في مظاهرة أوليائه حتى إذا ملك حضرتهم واستولى على تراث سلفهم، أسف حاجب الدولة راشد هذا وقومه بإمضاء الحكم في بعض حشمه، وتعرض للخربة في السابلة، فنقبض عليه ورفع إلى سدة السلطان فأمضى فيه حكم الله.

وذهب راشد مغاضباً ولحق بوليه ابن خلوف ومضطربه من زاوارة.

وكان يعقوب بن خلوف قد هلك وولى السلطان مكانه ابنه عبد الرحمن، فلم يرع حق أبيه في إكرام صديقه راشد.

وتشاجر معه في بعض الأيام مشاجرة نكر عبد الرحمن فيها ملاحاة راشد له، وأنف منها، وأدل فيها راشد مكانه من الدولة وبأس قومه، فلدغه بالقول وتناوله عبد الرحمن وحشمه وخزاً بالرماح إلى أن أقصوه وانذعر جميع مغراوة ولحقوا بالثغور القاصية، وأقفر منهم شلف وما إليه كان لم يكونوا به فأجاز منهم بنو منيف وبنو يغرن إلى الأندلس للمرابطة بثغور المسلمين، فكانت

راشد في نفسه إذ لم يوليه على قومه، وكان يرى أنه الأحق بنسبه وصهره، فتنزع عن السلطان ولحق بجبال متيجة ودس إلى أوليائه في مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة، فأغذ السير ولحق بهم، فافترق أمر مغراوة، ودخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وبیت عمر بن يغرن بأزمور من ضواحي بلادهم فقتله، واجتمع عليه قومه وسرح السلطان إليه الكتاب من بني عسكر لنظر الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومن بني ورتاجن لنظر علي بن محمد الخبزي، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن إبراهيم بن عبد القوي. ومن الجند لنظر علي بن حسان الصبحي من صناعته، وعقد على مغراوة محمد بن عمر بن منديل، وزحفوا إلى مازونة وقد ضبطها راشد، وخلف عليها علياً وحمو ابني عمه يحيى بن ثابت.

ولحق هو ببني بو سعيد مطلاً عليهم وأناخت العساكر بمازونة، ووالوا عليها الحصار ستين حتى أجهدوهم.

وبعث علي بن يحيى أخاه حمو إلى السلطان من غير عهد فنقبض عليه ثم اضطره الجهد إلى مركب الغرور فخرج إليهم ملقياً بيده سنة ثلاث وسبعمائة وأشخصه إلى السلطان فعفا عنه واستبقاه، واحتسبها تائيساً واستمالة لراشد ثم سرح العساكر إلى قاصية الشرق لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب، فنازل راشد بن محمد في معقل بني بو سعيد، وطال حصاره إياه، وأمكته الغرة بعض الأيام في العساكر، وقد تعلقوا بأوعار الجبل زاحفين إليه فهزمهم وهلك في تلك الواقعة خلق من بني مرين وعساكر السلطان، وذلك سنة أربع وسبعمائة.

وبلغ الخبر إلى السلطان فأحفظه ذلك عليهم، وأمر بابن عمه علي بن يحيى وأخيه حمو ومن معهم من قومهم، فقتلوا رشقاً بالسهم واستلحمهم.

ثم سرح أخاه أبا يحيى بن يعقوب ثانية سنة أربع وسبعمائة فاستولى على بلاد مغراوة ولحق راشد بجبال صنهاجة من متيجة، ومعه عمه منيف بن ثابت ومن اجتمع إليهم من قومهم، فنازلهم أبو يحيى بن يعقوب.

وراسل راشد يوسف بن يعقوب فاتفقت بينهما السلم، ورجعت العساكر عنهم.

وأجاز منيف بن ثابت مع بنيه وعشيرته إلى الأندلس، فاستقروا هنالك آخر الأيام.

ولما هلك يوسف بن يعقوب بمنأخه على تلمسان آخر سنة ست وسبعمائة انعقدت السلم بين حافده أبي ثابت وبين أبي زيان

واستلحقوا وصاروا جنداً للدول وحشماً وأتباعاً، وانقرض أمرهم من بلاد شلف.

ثم كانت لبني مرين الكرة الثانية إلى تلمسان، وغلبوا آل زيان وعخوا آثارهم.

ثم فاء ظلمهم بملك السلطان أبي عَنان، وحسر تيارهم، وجدد الناجون من آل يغمراسن دولة ثالثة بمكان عملهم على يد أبي حُو الآخر ابن موسى بن يوسف كما نذكره في أخبارهم.

ثم كانت لبني مرين الكرة الثالثة إلى بلاد تلمسان، ونهض السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن إليها فاتح سنة اثنين وسبعين وسبعمئة وسرح عساكره في اتباع أبي حُو الناجم بها من آل يغمراسن حين فر أمامه في قومه وأشياعه من العرب كما يأتي ذلك كله.

ولما انتهت العساكر إلى البطحاء تلموا هنالك أياماً لإراحة عليلهم وكان في جملتهم صبي من ولد علي بن راشد الذبيح اسمه حزة، ربيّ تيمماً في حجر دولتهم لذمام الصهر الذي لقومه فيهم، فكفلته نعمتهم وكفنه جوههم، حتى شب واسترى وسخط رزقه في ديوانهم وحاله بين ولدانهم، واعترض بعض الأيام قائد الجيوش الوزير أبا بكر بن غازي شاكياً، فجبّه وأساء رده، فركب الليل ولحق بمعقل بني بوسعيد من بلد شلف فأجاروه ومنعوه، ونادى بدعوة قومه فأجابوه، وسرح إليهم السلطان عبد العزيز وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حامة كبير تيريغين في جيش كثيف من بني مرين والجند فنزل بساحة ذلك الجبل فحاصروهم حولاً كرياً ينال منهم وينالون منه، وامتنعوا عليه واتهم السلطان وزيره بالدهانة، وسعى به منافسوه، فتقبض عليه، وسرّح وزيره الآخر أبا بكر بن غازي، فنهض يجر العساكر الضخمة والجيوش الكثيفة إلى أن نزل بهم وصحبهم القتال، فقتل في قلوبهم الرعب وأنزلهم من معقلهم.

وفر حمزة بن علي في فل من قومه، فلحق ببلاد حصين المتقضين كانوا على الدولة مع أبي زيان بن أبي سعيد الناجم من آل يغمراسن حسباً نذكره.

وأتى بنو أبي سعيد طاعتهم، وأخلصوا الضمائر في مغيهم وحسن موقعها وبدا لحمزة في الرجوع إليهم فاغذ السير في لة من قومه، حتى إذا لم بهم نكره مكان ما اعتقلوا به من جبل الطاعة، فتسهّل إلى البسائط وقصد تيمزوغت يظن بها غرّة يتنزهها، وبرزت إليه حاميتها فقلّوا حده وردّوه على عقبه، وتسابقوا في اتباعه إلى أن تقبضوا عليه، وقادوه إلى الوزير ابن غازي بن

منهم عصابة حامية موطنة هنالك أعقابهم لهذا العهد.

وأقام في جوار الموحدين فلّ آخر من أوساط قومهم كانوا شوكة في عساكر الدولة إلى أن انقرضوا ولحق على بن راشد طفلاً بعُمته في قصر بني يعقوب بن عبد الحق فكفلته، وصار أولاد منديل غصباً إلى وطن بني مرين فتولّوهم وأحسنوا جوارهم، وأصهروا إليهم سائر الدولة، إلى أن تغلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيان، وجمع كلمة زناتة، وانتظم مع بلادهم بلاد إفريقية وعمل الموحدين وكانت نكبتة على القيروان صدر سنة تسع وأربعين وسبعمئة كما شرحناه قبل.

وانتفضت العمالات والأطراف وانتزى أعياص الملك بمواطنهم الأولى، فتوثب علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل على بلاد شلف وتملكها وتغلب على أمصارها مليانة وتنس وبرشك وشرشال، وأعاد ما كان لسلفه فيها من الملك على طريقتهم البدوية، وأرهقوا حدهم لمن طالهم من القبائل.

وخلص السلطان أبو الحسن من ورطته بإفريقية، ثم من ورطة البحر بمرسى بجاية إلى الجزائر يحاول استرجاع ملكه المفقود، فبعث إلى علي بن راشد وذكره ذمته فتذكر وحن، واشترط لنفسه التجاني له عن ملك قومه بشلف على أن يظاھره على بني عبد الواد فأبى السلطان أبو الحسن من اشتراط ذلك له، فتحيز عنه إلى فينة بني عبد الواد الناجين بتلمسان كما ذكرناه قبل، وظاھروهم عليه وبرز إليهم السلطان أبو الحسن من الجزائر والتقى الجمعان بشريوة سنة إحدى وخمسين وسبعمئة فاختلّ مصاف السلطان أبي الحسن وانهزم جمعه، وهلك ابنه الناصر، وطاح دمه في مغرّوة وهؤلاء وخرج إلى الصحراء ولحق منها بالمغرب الأقصى كما نذكره بعد.

وتطاوّل الناجون بتلمسان من آل يغمراسن إلى انتظام بلاد مغرّوة في ملكهم كما كان لسلفهم، فنهض إليهم بعساكر بني عبد الواد رديف سلطانهم وأخوه أبو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن بن يغمراسن، فأوطأ قومه بلاد مغرّوة سنة اثنين وخمسين وسبعمئة وقلّ جموعهم وغلبهم على الضاحية والأمصار.

وأحجر علي بن راشد بتنس في شردمة من قومه، وأناخ بعساكره عليه وطال الحصار ووقع الغلب. ولما رأى على بن رشد أن قد أحيط به دخل إلى زاوية من زوايا قصره انتبذ فيها عن الناس، وذبح نفسه بحد حسامه، وصار مثلاً وحديثاً للآخرين.

واقترح البلد لحينه، واستلحم من عشر عليه من مغرّوة، ونجا الآخرون إلى أطراف الأرض، ولحقوا بأهل الدول فاستركبوا

الكاس.

ويقولون بلسانهم: أيت القاسم، وأيت حرف الإضافة

النسبية عندهم.

ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنهم من أولاد القاسم بن إدريس.

وربما قالوا في هذا القاسم أنه ابن محمد بن إدريس، أو ابن محمد بن عبد الله، أو ابن محمد بن القاسم وكلهم من أعقاب إدريس، مزعماً لا مستند له إلا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه، مع أن البادية بعداء عن معرفة هذه الأنساب والله أعلم بصحة ذلك.

وقد قال يغمرا بن زيان أبو ملوكهم لهذا العهد لما رفع نسبهم إلى إدريس كما يذكرونه فقال برطتهم ما معناه: إن كان هذا صحيحاً فينفعنا عند الله وأما الدنيا فأنما نلناها بسيوفنا.

ولم تزل رياسة بني عبد الواد في بني القاسم لشدة شوكتهم واعتزاز عصبيتهم، وكانوا بطوناً كثيرة فمتهم: بنو يكتيمن بن القاسم.

وكان منهم ويغرن بن مسعود بن يكتيمن وأخوه يكتيمن وعمر. وكان أيضاً أعدوي بن يكتيمن الأكبر. ويقال الأصغر ومنهم أيضاً عبد الحق بن منغفاد من ولد ويغرن، وكانت الرياسة عليهم لعهد عبد المؤمن لعبد الحق بن منغفاد وأعدوي بن يكتيمن وعبد الحق بن منغفاد هو الذي استنفذ الغنائم من يد بني مريـن، وقتل المخضب بمسوف حين بعثه عبد المؤمن مع الموحديين لذلك، والمؤرخون يقولون: عبد الحق بن معاد بميم وعين مهملة مفتوحتين وألف بعدها دال، وهو غلط، وليس هذا اللفظ بهذا الضبط من لغة زناتة، وإنما هو تصحيف منغفاد بميم ونون بعدها مفتوحتين وغين بعدهما معجمة ساكنة وفاء مفتوحة، والله أعلم.

ومن بطون بني القاسم أيضاً: بنو مطهر بن يمل بن يزكن بن القاسم وكان حمامة بن مطهر من شيوخهم لعهد عبد المؤمن، وأبلى في حروب زناتة مع الموحديين. ثم حسنت طاعته وانحياشه.

ومن بطون بني القاسم أيضاً: بنو علي، وإليهم انتهت رياستهم وهم أشدّهم عصية وأكثر جماعاً، وهم أربعة أفخاذ: بنو طاع الله، وبنو دلول وبنو كمي وبنو معطي بن جوهـر، والأربعة بنو علي.

ونصاب الرياسة في بني طاع الله لبني محمد بن زكدان بن تيدوكسن بن طاع الله، هذا ملخص الكلام في نسبهم.

ولما ملك الموحدون بلاد المغرب الأوسط وبلوا من طاعتهم وانحياشهم ما كان سبباً لاستخلاصهم، فأقطعهم عامة بلاد بني ومانوا، وأقاموا بتلك المواطن، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله

وأوعز إليه السلطان بقتله في جملة أصحابه، فضرب أعناقهم، وبعث بها إلى سدة السلطان وصلب أشلاءهم على خشب مسندة نصها لهم ظاهر مليانة، وأمّحى أثر مغراوة، وانقرض أمرهم وأصبحوا خولاً للأمراء، وجنداً في الدول، وأوزاعاً في الأقطار كما كانوا قبل هذه الدولة الأخيرة لهم.

والبقاء لله وحده، وكل شيء هالك إلا وجهه.

الخبر عن دولة بني عبد الواد من هذه

الطبقة الثانية وما كان لهم بتلمسان وبلاد

المغرب الأوسط من الملك والسلطان

وكيف كان مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم

قد تقدم لنا في أول هذه الطبقة الثانية من زناتة ذكر بني عبد الواد هؤلاء وأنهم من ولد بادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد، وأن نسبهم يرتفع إلى زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا، وذكرنا كيف كانت حالهم قبل الملك في مواطنهم تلك.

وكان إخوانهم بمصاب وجبل راشد وفيكيك وملوية، ووصفنا من حال قتلهم مع بني مريـن إخوانهم المجتمعين معهم بالنسب في زحيك بن واسين.

ولم يزل بنو عبد الواد هؤلاء بمواطنهم تلك وكان إخوانهم وبنو راشد وبنو زردال وبنو مصاب منجدين إليهم بالنسب والحلف، وبنو توجين منابذين لهم أكثر أزمانهم.

ولم يزلوا جميعاً متغلبين على ضاحية المغرب الأوسط عامة الأزمان. وكانوا تبعاً فيه لبني ومانوا وبني يلومي حين كان لهم التغلب فيه.

وربما يقال: إن شيخهم لذلك العهد كان يُعرف بيوسف بن تكفا، حتى إذا نزل عبد المؤمن والموحدون نواحي تلمسان، وسارت عساكرهم إلى بلاد زناتة تحت راية الشيخ أبي حفص، فاقفوا بهم كما ذكرناه، وحسنت بعد ذلك طاعة بني عبد الواد وانحياشهم إلى الموحديين.

وكانت بطونهم وشعوبهم كثيرة أظهرها فيما يذكرون ستة: بنو ياتكين وبنو ولّوا وبنو ورصطف ومصموحة وبنو تومرت وبنو القاسم.

الخبر إلى ابن غانية فأغذ إليه السير.

ثم بدا له في أمر بني عبد الواد، ورأى أن ملك أمره في خضد شكوتهم وقص جناحهم، فحدث نفسه بالفتك بمشيختهم، ومكر بهم في دعوة وأعدهم لها، وفطن لتدبيره ذلك جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد، فواعده اللقاء والمؤازرة، وطوى له على النكت، وخرج إبراهيم بن علان إلى لقائه فتك به جابر.

وبادر إلى البلد فتأدى بدعوة المأمون وطاعته، وكشف لأهلها القناع عن مكر ابن علان بهم، وما أوقعهم فيه من ورطة ابن غانية، فحمدوا رايه وشكروا جابراً على صنيعه، وجددوا البيعة للمأمون.

واجتمع إلى جابر في أمره هذا كافة بني عبد الواد وأحلافهم من بني راشد، وبعث إلى المأمون بطاعته واعتماله في القيام بدعوته فخاطبه بالشكر، وكتب له العهد على تلمسان وسائر بلاد زناتة على رسم السادة الذين كانوا يلون ذلك من القرابة، فاضطلع بأمر المغرب الأوسط.

وكانت هذه الولاية ركوباً إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه.

ثم انتفض عليه أهل ندرومة بعد ذلك فنازلهم وهلك في حصارها بسهم غرب أثبتته سنة تسع وعشرين وسبعمئة.

وقام بالأمر بعده ابنه الحسن وجدد له المأمون عهده بالولاية، ثم ضعف عن الأمر وتخلّى عنه لسته أشهر من ولايته.

ودفع إليه عمه عثمان بن يوسف، وكان سبيء الملكة كثير العسف والجور فتارت به الرعايا بتلمسان وأخرجوه سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة وارتضوا مكانه ابن عمه زكران، بن زيان بن ثابت الملقب بأبي عزة فاستدعوه لها، وولوه على أنفسهم وبلدهم، وسلموا له أمرهم وكان مضطعاً بأمر زناتة ومستبداً برياستهم ومستولياً على سائر الضواحي، فنفس أبو مطهر عليه وعلى قومه بني علي إخوانهم ما آتاهم الله من الملك، وأكرمهم به من السلطان وحسدوا زكران وسلفه فيما صار لهم من الملك، فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه، واتبعهم بنو راشد بن محمد أحلافهم منذ عهد الصحراء، وجمع لهم أبو عزة سائر قبائل بني عبد الواد، فكانت بينه وبينهم حرب سجال هلك في بعض أيامها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة وقام بالأمر بعده أخوه يغمراسن بن زيان، فوقع التسليم والرضى به من سائر القبائل، ودان له بالطاعة جميع الأمصار.

وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله وكان له ذلك سلماً إلى الملك الذي أورثه بنيه سائر الأيام.

وبني كمي إلى أن قتل كندوز من بني كمي زيان بن ثابت كبير بني محمد بن زكدان وشيخهم. وقام بأمرهم بعده جابر ابن عمه يوسف بن محمد، فثار من كندوز بزيان ابن عمه وقتله في بعض أيامهم وحروبهم.

ويقال: قتله غيلة، وبعث برأسه ورؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت، فنصبت عليها القدور أثافي شفاية لنفوسهم من شأن أبيه زيان.

وافترق بنو كمي، وفر بهم عبد الله كبيرهم بن كندوز، فلحقوا بتونس ونزل على الأمير أبي زكرياء كما نذكره بعد. واستبد جابر بن يوسف بن محمد برياسة بني عبد الواد.

وأقام هذا الحلي من بني عبد الواد بضواحي المغرب الأوسط، حتى إذا فشل ريح بني عبد المؤمن، وانتزى بجيى بن غانية على جهات قابس وطرابلس، وردد الغزو والغارات على سناط إفريقية والمغرب الأوسط فأكسحها وعاث فيها.

وكبس الأمصار فاقتحمها وانتهب بلاد زناتة وقتل أمراءهم، ودخل تلمسان ووهران واستباحهما وغيرهما من بلاد المغرب الأوسط، والحق على تاهرت بالغارة وإفساد السابلة وانتهاب الزرع، وحطم النعم إلى أن خربت، وعفى رسمها لسني الثلاثين من المائة السابعة.

وكانت تلمسان لذلك العهد نزلاً للحامية ومناخاً للسيد من القرابة الذي يضم نثرها، ويذب عن أعناقها وكان المأمون استعمل على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد، وكان غفلاً ضعيف التدبير.

وغلب الحسن بن حبون من مشيخة قومه كومية، وكان عاملاً على الوطن.

وكانت في نفسه من بني عبد الواد ضغائن جرهما ما كان حدث لهم من التغلب على الضاحية وأهلها، فأغرى السيد أبا سعيد بجماعة مشيخة منهم وفدوا عليه فتقبض عليهم واعتقلهم.

وكان في حامية تلمسان لمة من بقايا لمتونة تحياقت الدولة عنهم، وأثبتهم عبد المؤمن في الديوان وجعلهم مع الحامية.

وكان زعيمهم في ذلك العهد إبراهيم بن إسماعيل بن علان، وشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني عبد الواد فردوه، فغضب وحى أنه وأجمع الانتقاض والقيام بدعوة ابن غانية، فجدد ملك المرابطين من قومه بقاصية الشرق، فاغتار الحسن بن حبون لحينه، وتقبض على السيد أبي سعيد وأطلق المشيخة من بني عبد الواد، ونقض طاعة المأمون وذلك سنة أربع وعشرين فطير

والملك لله يؤتبه من يشاء.

وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبد الله فنزلها وولاه أمرها ثم هلك إدريس وضعف أمرهم.

ولما بويغ لابنه إدريس من بعده واجتمع إليه برابرة المغرب نهض إلى تلمسان سنة تسع وتسعين ومائة، فجدد مسجدها وأصلح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين ودوخ فيها بلاد زناتة واستوسقت له طاعتهم وعقد عليها لبني محمد ابن عمه سليمان.

ولما هلك إدريس الأصغر واقتسم بنوه أعمال المغربين بإشارة أمه كتنزة، كانت تلمسان في سهمان عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان وأعمالها لبني أبيه محمد بن سليمان.

فلما انقرضت دولة الأدارسة من المغرب، وولي أمره موسى بن أبي العافية بدعوة الشيعة، نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة ومائتين وغلب عليها أميرها لذلك العهد الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان، ففر عنها إلى مليلة، وبنى حصناً لامتناعه بناحية نكور، فحاصره مدة، ثم عقد له سلماً على حصنه.

ولما تغلب الشيعة على المغرب الأوسط أخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من سائر أعمال تلمسان، فأخذوا بدعوة بني أمية من وراء البحر وأجازوا إليهم.

وتغلب يعلى بن محمد اليفرنى على بلاد زناتة والمغرب الأوسط، ففقد له الناصر الأموي عليها وعلى تلمسان أعوام أربعين وثلاثمائة.

ولما هلك يعلى وقام بأمر زناتة بعده محمد بن الخير بن محمد بن خزر داعية الحكم المستنصر فملك تلمسان أعوام ستين وثلاثمائة.

وهلك في حروب صنهاجة وغلبوهم على بلادهم، وانجلي إلى المغرب الأقصى ودخلت تلمسان في عمالة صنهاجة إلى أن انقسمت دولتهم، واقترب أمرهم.

واستقل بإمارة زناتة وولاية المغرب زيري بن عطية، وطرده المنصور بن أبي عامر عن المغرب، فصار إلى بلاد صنهاجة وأجلب عليها، ونازل معاقلها وأمصارها مثل تلمسان ووهران وتنس وأشير والمسلية.

ثم عقد المظفر بعد حين لابنه المعز بن زيري على عمل المغرب سنة ست وتسعين وثلاثمائة واستعمل على تلمسان ابنه يعلى بن زيري واستقرت ولايتها في عقبه إلى أن انقرض أمرهم على يد لمتونة.

الخبر عن تلمسان وما تأدى إلينا من أحوالها من الفتح إلى أن تأثل بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم

هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط، وأم بلاد زناتة اختطها بنو يفرن بما كانت في مواطنهم، ولم تقف على أخبارها فيما قبل ذلك.

وما يزعم بعض العوام من ساكنها أنها أزيلية البناء، وأن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أكادير منها، فأمر بعيد عن التحصيل لأن موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب، وبنو إسرائيل لم يتسع ملكهم لإفريقية، فضلاً عما وراءها.

وإنما هي من مقالات التشيع المجهول عليه أهل العالم في تفضيل ما ينسب إليهم أو ينسبون إليه من بلد أو أرض أو علم أو صناعة.

ولم تقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق بأن أبا المهاجر الذي ولي إفريقية بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية، توغل في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان، وبه سميت عيون المهاجر قريباً منها.

وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرة اليفرنى وأجلاؤه مع أبي حاتم والخوارج على عمر بن حفص بطينة.

ثم قال: فأفروا عنه وانصرف أبو قرة إلى مواطنه بنواحي تلمسان.

وذكرها ابن الرقيق أيضاً في أخبار إبراهيم بن الأغلب قبل استبداده بإفريقية، وأنه توغل في غزوه إلى المغرب ونزلها، واسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين: تلم سين ومعناها تجمع اثنين يعنون البر والبحر.

ولما خلاص إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن إلى المغرب الأقصى واستولى عليه، نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلقاه محمد بن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان، فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن وأمكنه من تلمسان فملكها، واختط مسجدها وصنع منبره وأقام بها أشهراً وانكفاً راجعاً إلى المغرب.

النظر في تشييد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها وسد فروجها، وأعماق الحفائر نطاقاً عليها، حتى سبّرها أمنع معاقل المغرب وأحصن أمصاره، وتقبل ولاتها بهذا المذهب من بعده في المتعصم بها.

واتفق من الغريب أن أخاه السيد أبا زيد هو الذي دفع لحرب بني غانية فكان لهما في رقع الخرق والمدافعة عن الدولة آثار.

وكان ابن غانية قد اجتمع إليه ذؤبان العرب من الهلاليين بإفريقية، وخالفهم زغبة إحدى بطونهم إلى الموحدين، وتحيزوا إلى زناتة المغرب الأوسط، وكان مفزعهم جميعاً ومرجع نقضهم وإبرامهم إلى العامل بتلمسان من السادة في مآوهم وحامي حقيقتهم.

وكان ابن غانية كثيراً ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة ويطرقها بمن معه من ناعق الفتنة إلى أن خرب الكثير من أمصارها مثل تاهرت وغيرها، فأصبحت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وأم هؤلاء الأحياء من زناتة المغرب الكافلة لهم المهينة في حجرها مهادر نومتهم بما خربت المدينتان اللتان كانتا من قبل قواعد الدول السالفة والعصور الماضية، وهما أرشكول بسيف البحر وتاهرت فيما بين الريف والصحراء قبلة البطحاء وكان خراب هاتين المدينتين فيما خرب من أمصار المغرب الأوسط في فتنة ابن غانية وبأجلاط هؤلاء الأحياء من زناتة وظلوعهم على أهلها بسوم الخسف والعيث والنهب، وتحطف الناس من السابلة وتخرب العمران ومغالبتهم حاميتهم من عساكر الموحدين، مثل: قصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجمعيات والقلعة، فلم تُصبر بها نار، ولفحت بها لنافع ضربة، ولا صرخت لها آخر الدهر ديكمة ولم يزل عمران تلمسان يزايد وخطتها تسع والصروح بها بالآجر والقرميد تعلى وتشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً للملكهم، وكرسباً لسلطانهم، فاخبطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب.

ورحل إليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافة.

والله وارث الأرض ومن عليها.

وعقد يوسف بن تاشفين عليها لحمد بن تينعمر المسوفي وأخيه تاشفين من بعده، واستحكمت الفتنة بينه وبين المنصور بن الناصر صاحب القلعة من ملوك بني حماد، ونهض إلى تلمسان وأخذ بمخنتها، وكان يغلب عليها كما ذكرنا ذلك كله في مواضعه.

ولما غلب عبد المؤمن لموتة وقتل تاشفين بن علي بوهران خربها وخرب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة.

ثم راجع رأيه فيها وندب الناس إلى عمرانها، وجمع الأيدي على رم ما تثلّم من أسوارها، وعقد عليها لسليمان بن وانودين من مشايخ هتانة وآخى بين الموحدين وبين هذا الحلي من بني عبد الواد بما بلي من طاعتهم وانغياشهم.

ثم عقد عليها لابنه السيد أبي حفص، ولم يزل آل عبد المؤمن بعد ذلك يستعملون عليها من قربانهم وأهل بيتهم ويرجعون إليه أمر المغرب كله وزناتة أجمع اهتماماً بأمرها واستعظماً لعملها.

وكان هؤلاء الأحياء من زناتة بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو راشد قد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب الأوسط وملكوها وتقلبوا في بساطتها، واحتازوا بأنطاق الدولة الكثير من أرضها والطيب من بلادها والوافر للجباية من قبائلها، فإذا خرجوا إلى مشايخهم بالصحراء خلفوا أتباعهم بالتلول لاعتماد أرضهم وازدراع فدنهم وجباية الخراج من رعاياهم.

وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية ساحله وريفه وصحراءه.

وصرف ولاية الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم إلى تحصينها وتشيد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها، والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور.

وكان من أعظمهم اهتماماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً السيد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة ست وخمسين وستمائة على عهد أبيه يوسف بن عبد المؤمن.

واتصلت أيام ولايته فيها، فشيّد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها، ووليها من بعد السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن، وتقبل فيها مذهبها.

ولما كان من أمر بني غانية وخرجوهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين ما قدمناه وكبسوا بجاية فملكوها، وتحطّوا إلى الجزائر ومليانة فغلبوا عليهما، تلافى السيد أبو الحسن أمره بإمعان

الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك

والدولة بتلمسان وما إليها وكيف مهد

الأمر لقومه وأصاره تراثاً لبنيه

وبينه وبين أقاتله بني مرين قبل ملكهم المغرب ويعبد ملكه وقائع متعددة.

وله على زناتة الشرق من توجين ومغراوة في قل جموعهم وانتساف بلادهم وتخريب أوطانهم أيام مذكورة وآثار معروفة، نشير إلى جميعها إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا على

تلمسان ودخول يغمراسن في دعوته

لما استقل يغمراسن بن زيان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط، وظفر بالسلطان وعلا كعبه على سائر أحياء زناتة، نفسوا عليه ما آتاه الله من العز، وكرمه به من الملك، فنبذوه العهد وشاقوه الطاعة، وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة، فشمّر لحربهم ونازلهم في ديارهم وأحجرهم في حصونهم ومعصماتهم من شواحق الجبال وتمتع الأمصار وكانت له عليهم أيام مشهورة وقائع معروفة.

وكان متولي كبر هذه المشاققة عبد القوي بن العباس شيخ بني توجين أقاتلهم من بني بادين، والعباس بن منديل بن عبد الرحمن، وإخوته أمراء مغراوة.

وكان المولى الأمير أبو زكريا بن أبي حفص منذ استقل بأمر إفريقية وأقطعها عن الإيالة المؤتمنة سنة خمس وعشرين وستمائة كما ذكرناه متطاولاً إلى احتياز المغرب والاستيلاء على كرسي الدعوة بمراكش، وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل أمراء زناتة فيرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة.

وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لأولهم وحرباً على عدوهم.

وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الإنخاف بأنواع الألفاظ والهدايا عام سبع وثلاثين وستمائة تقمناً لمسيراته، وميلاً إليه عن جانب أقاتله بني مرين المجلبين على المغرب والدولة.

وأحفظ الأمير أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية ما كان من اتصال يغمراسن بالرشيد، وهو من جواره بالحل القريب، واستكره ذلك.

وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي بن العباس،

كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشد هذا الحي بأساً، وأعظمهم في النفوس مهابة وجلالة، وأعرفهم بمصالح قبيله، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، مهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده.

وكان مرموقاً بعين التجارة مؤملاً للأمر عند المشيخة وتعظمة من أمره عند الخاصة، ويفزع إليه في نوائبها العامة.

فلما ولي هذا الأمر بعد مهلك أخيه أبي عزة زكدان بن زيان سنة ثلاث وثلاثين فقام به أحسن قيام، واضطلع بأعبائه وظهر على بني مطهر وبني راشد الخارجين على أخيه، وأصارهم في جملة وتحت سلطانه.

وأحسن السيرة في الرعية، واستمال عشيرته وقبيله وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار، واتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالخ، واستلحق العساكر من الروم والغز راحة وناشبة.

وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث في الجهات العمال ولبس شارة الملك والسلطان، واقعد الكرسي وعما من آثار الدولة المؤتمنة، وعطل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش، وتناول التقليد والعهد من يده تأنيباً للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه.

ووفد عليه لأول دولته ابن وضاح إثر دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس، فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله، وأحلّه من الخلّة والشورى بمكان اصطفاه له.

ووفد في جملة أبو بكر بن الخطاب المباح لأخيه بمرسية، وكان مرسلأً بليغاً، وكتاباً مجيداً، وشاعراً محسناً، فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوّل وحفظ ولم يزل يغمراسن محامياً عن غيله محارباً لعدوه.

وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلهم من آل أبي حفص مواطن في التمرس به ومنازلة بلده، نحن ذاكره كذلك.

وخاطب بغيراسن خلال ذلك الأمير أبا زكرياء رغباً في القيام بدعوته بتلمسان، فراجعته بالإسعاف واتصال اليد على صاحب مراكش، وسوغه على ذلك جباية اقتطعها له، وأطلق أيدي العمال لبغيراسن لجبايتها.

ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فآكرم وصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها ومقلبها، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله وفي أثناء طريقه وسوس إليه بعض الحاشية باستبداد بغيراسن عليه، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة، وأمراء المغرب الأوسط شجاً في صدره ومعتزلاً عن مرأه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيه. فأجابهم وقلد عبد القوي بن عطية التوجيبي، والعباس بن منديل المغراوي، وعلي بن منصور المليكشي من قومهم ووطنهم، وعهد إليهم بذلك، وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنتي بغيراسن قريعهم، فاتخذوها محضرته وبعثه من ملك الموحدين، وأقاموا مراسمها ببابه، وأخذ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه، وبلوغ طره، والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته.

ودخل بغيراسن بن زيان ووفى للأمير أبي زكرياء بعهده، وأقام له الدعوة على سائر منابر، وصرف إلى مشايقه من زناتة وجوه عزائمه، فأذاق عبد القوي بن العباس وأولاد منديل نكال الحرب، وسامهم سوء العذاب والقتنة، وجاس خلال ديارهم وتوغل في بلادهم وغلبهم على الكثير من ممالكهم، وشرذ من الأمصار والقواعد ولاتهم وأشياهم ودعاتهم، ورفع عن الرعية ما نالهم من عدوانهم وسوء ملكتهم وثقل عسفهم وجورهم.

ولم يزل على تلك الحال إلى أن كان من حركة صاحب مراكش بسبب أخذ بغيراسن بالدعوة الحفصية ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراكش

ومنازلته بغيراسن بجبل تامرز يزدكت

ومهلكه هنالك

لما انتقضت دولة بني عبد المؤمن وانتزى الشوار والدعاة بقاصية أعمالهم وقطعوها عن ممالكهم، فاقطع ابن هود ما وراء البحر من جزيرة الأندلس واستبد بها، وورى بالدعاء للمستعصر بن الظاهر خليفة بغداد من العباسيين لعهد، ودعا الأمير أبو

وليد منديل بن محمد صريحاً على بغيراسن، فسهلوا له أمره وسولوا له الاستيلاء على تلمسان، وجمع كلمة زناتة واعتداد ذلك ركباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين وانتظامه في أمره، وسلموا لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وياًباً للولولج على أهله، فحركه أملاؤهم وهززه إلى النعرة صريحهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان، واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في عمله من بني سليم ورياح بظعنهم فأهبطوا لداعيه، ونهض سنة تسع وثلاثين وستمائة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة، وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من بأوطانهم من أحياء زناتة، وأتباعهم وذويان قبائلهم، وأحياء زغبة أحلافهم من العرب، وضرب لهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم.

ولما نزل زاغر قبله تيطرى انتهى مجالات رياح وبني سليم في المغرب، واقفه هنالك أحياء زغبة من بني عامر وسويد، وارتحلوا معه حتى نازل تلمسان، فجمع عساكر الموحدين وحشد زناتة وظعن المغرب، بعد أن قدم إلى بغيراسن الرسل من مليانة والأعذار والبراءة والدعاء والطاعة فرجعهم بالخفية.

ولما حلت العساكر الموحدين بساحة البلد وبرز بغيراسن وجوعه للقاء فضحتهم ناشبة السلطان بالنبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران، وعجزوا عن حماية الأسوار، فاستمكنت المقاتلة من الصعود.

ورأى بغيراسن أن قد أحيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتجئاً على ذويه وخاصته، واعترضته عساكر الموحدين فصمم محوهم وجندل بعض أبطالهم، فأفروا له، ولحق بالصحرَاء.

وانسلت الجيوش إلى البلد من كل حذب، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان، واكتساح الأموال.

ولما تجلّى غشي تلك الهيعة وحسر تيار الصدمة، وخذت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم، وأنعم الأمير أبو زكرياء نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، ويتزله بشغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة عبد المؤمن والمدافعة عنها.

واستكبر ذلك أشراهم وتدفعوهم وتبرا أمراء زناتة منه ضعفاً عن مقاومة بغيراسن، وعلموا بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرُق غيله، ولا يصعد عن فريسته، وسرح بغيراسن الغارات في نواحي العسكر فاخطفوا الناس من حوله، وأطلوا من المراقب عليه.

فثوابت به هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه، وذلك لصفر من سنة ست وأربعين وستمائة.

ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فأجفلوا، وبادر بغمراسن إلى السعيد وهو صريع بالأرض فنزل إليه وحياء وفداء وأقسم له على البراءة من هلكته، والخليفة واجم بمصرعه فيجود بنفسه إلى أن فاض وانتهب المعسكر بمجملته، وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخيصة والفايزات.

واختص بغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه، منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه يزعمون أنه أحد المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته، وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل، حتى صار إلى ذخائر لثونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس، ثم إلى ذخائر الموحدين من خزائن لثونة، وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين بفاس فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان حين غلبهم إياهم على تلمسان، واقتحامها عنوة على ملكها منهم عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن بغمراسن فريسة السلطان أبي الحسن، مقتحمها غلباً سنة سبع وثلاثين وسبعمئة كما نذكره.

ومنها العقد المتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر، المشتمل على مئين متعددة من حصائبه يسمى بالشعبان، وصار في خزائن بني مرين منذ ذلك الغلاب فيما اشتهلوا عليه من ذخيرتهم إلى أن تلف في البحر عند غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمراسي مجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه بما يستخلصه الملوك لخزائنتهم ويعنون به من ذخائرهم.

ولما سكنت النفرة وركد عاصف تلك الهيعة نظر بغمراسن في شأن مواراة الخليفة، فجهز ورفع على الأعواد إلى مدفته بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفا الله عنه.

ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر، بعد أن جاءها واعتذر إليها بما وقع، وأصبحهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمئهم الحقوهن بدرعة عند تقوم طاعتهم، فكان له بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعى مراتب الملك ورجع إلى تلمسان.

وقد خضدت شوكة بني عبد المؤمن وأمنهم على سلطانة والبقاء لله وحده.

زكريا بن أبي حفص بإفريقية لنفسه، وسما إلى جمع كلمة زناتة والتغلب على كرسي الدعوة بمراكش، فنازل تلمسان وغلب عليها سنة أربعين وستمائة وقارن ذلك ولاية السعيد علي بن المأمون إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان شهماً حازماً يقطأ بعيد الهمة، فنظر في أعطاف دولته، وفاوض الملاً في تنقيف أطرافها وتقويم مائلها، وأثار حفاظهم ما وقع من بني مرين في ضواحي المغرب ثم في أمصاره واستيلائهم على مكناسة، وإقامتهم الدعوة الحفصية فيها كما نذكره.

فجهز والعساكر وأزاح عنهم، واستنفر عرب المغرب وقبائله، واحتشد كافة المصامدة ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد القاصية، ويشرد بني مرين عن الأمصار الدانية.

واعترض العساكر والحشود بوادي بهت، وأغذ السير إلى تازي، فوصلته هنالك طاعة بني مرين كما نذكره.

ونفر معه عسكر منهم، ونهض إلى تلمسان وما وراءها ونجا بغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامز وزدكت قبلة وجدة، فاعتصموا بها.

ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير بغمراسن مؤدياً للطاعة ثابتاً في مذاهب الخدمة، ومتولياً من حاجات الخليفة بتلمسان لما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله، ومعذراً عن وصول بغمراسن، فلج الخليفة في شأنه ولم يعذره وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه، وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفيناني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الجلة ورجعوا عبدوناً لاستقدامه، فتناقل خشية على نفسه.

واعتمد السعيد الجبل في عساكره وأناخ بها في ساحه وأخذ بمخنتهم ثلاثاً، ولرابعها ركب مهجراً على حين غفلة من الناس في قابلتهم ليتطوف على المعتصم، ويتقرى مكانه، ويصر به فارس من القوم يعرف بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان، كان أسفل الجبل للاحتراس وقريباً منه بغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر فانقضوا عليه من بعض الشعبان، وطعنه يوسف فأكبه عن فرسه، وقتل يعقوب بن جابر وزيره بجيح بن عطوش.

ثم استلحموا لوقتهم موليه ناصحاً من العلوج وعبراً من الخصيان، وقائد جند النصارى أخو القمط، ووليدا يافعا من ولد السعيد.

ويقال: إنما كان ذلك يوم عبأ العساكر وصعد الجبل للقتال، وتقدم أمام الناس فاقتطعه بعض الشعبان المتوعدة في طريقه،

يعقوب بن عبد الحق.

ولما قفلوا إلى المغرب صمد يغمراسن إلى سجلماسة،
لداخلة كانت بينه وبين المنيات من عرب المعقل، أهل مجالاتها
وذئاب فلاتها، حدثته نفسه اهتبال الغرة في سجلماسة من أجلها،
وكانت قد صارت إلى إيالة أبي يحيى بن عبد الحق منذ ثلاث كما
ذكرناه في أخبارهم.

ونذر بذلك أبو يحيى، فسابق إليها يغمراسن بمن حضره من
قومه فتقفها وسد فرجها.

ووصل يغمراسن عقيب ذلك بعساكره، وأناخ بها وامتنعت
عليه فأفرج عنها قافلاً إلى تلمسان.

وهلك أبو يحيى بن عبد الحق إثر ذلك منقلبه إلى فاس،
فاستقر يغمراسن أوليائه من زناتة وأحياء زغبة، ونهض إلى
المغرب سنة سبع وخمسين وستمئة وانتهى إلى كلدان.

ولقيه يعقوب بن عبد الحق في قومه فأوقع به وولى
يغمراسن منزهماً، ومر بطريقه بتافرسيت فانتسفها وعاث في
نواحيها.

ثم تداعوا للسلم ووضع أوزار الحرب، وبعث يعقوب بن
عبد الحق ابنه أبا مالك بذلك، فتولى عقده وإبرامه.

ثم كان التقاؤهما سنة تسع وخمسين وستمئة براجر قبالة
بني يزنانس، واستحكم عقد الوفاق بينهما بعد ذلك، واتصلت
المهادنة إلى أن كان بينهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن كائنة النصارى وإيقاع يغمراسن

بهم

كان يغمراسن من بعد مهلك السعيد وانفضاض عساكر
الموحدين قد استخدم طائفة من جند النصارى الذين كانوا في
جملته مستكثراً بهم معتداً بمكانهم ومباهاً بهم في المواقف
والمشاهد.

وناولهم طرفاً من حبل عنائته، واعتزوا به واستفحل أمرهم
بتلمسان حتى إذا كانت سنة اثنين وخمسين وستمئة بعد مرجعه
من بلاد توجين في إحدى حركاته إليها، كانت قصة غدرهم
الشنعاء التي أحسن الله في دفاعها عن المسلمين.

وذلك أنه ركب في بعض أيامه لاعتراض الجنود بباب
المغرمادين من أبواب تلمسان.

الخبر عما كان بينه وبين بني مرين من

الأحداث سائر أيامه

قد ذكرنا ما كان بين هذين الحيين من المناغة والمنافسة منذ
الأماد المتطاولة بما كانت مجالات الفريقين بالصحراء متجاورة،
وكان التخم بين الفريقين وادي صا إلى فيكيك.

وكان بنو عبد المؤمن عند فشل الدولة وتغلب بني مرين
على ضاحية المغرب يستجيشون ببني عبد الواد مع عساكر
الموحدين على بني مرين فيجوسون خلال المغرب ما بين تازي إلى
فاس إلى القصر في سبيل المظاهرة للموحدين والطاعة لهم.

وسنذكر في أخبار بني مرين كثيراً من ذلك.

فلما هلك السعيد وأسف بنو مرين إلى ملك المغرب سما
ليغمراسن أمل في مزاحمتهم.

وكان أهل فاس بعد تغلب أبي يحيى بن عبد الحق عليهم
قد نعموا على قومه سوء السيرة، وتمشت رجالاتهم في اللياذ
بطاعة الخليفة المرتضى ففعلوا فعلتهم في الفتك بعامل أبي يحيى بن
عبد الحق، والرجوع إلى طاعة الخليفة.

وأغد أبو يحيى السير إلى منازلهم، فحاصروهم شهوراً وفي
أثناء هذا الحصار اتصلت المخاطبة بين الخليفة المرتضى ويغمراسن
بن زيان في الأخذ بمجرة أبي يحيى بن عبد الحق عن فاس،
فأجاب يغمراسن داعيه، واستقر لها إخوانه من زناتة فنفر معه عبد
القوي بن عطية بقومه من توجين وكافة القبائل من زناتة والمغرب،
ونهبوا جميعاً إلى المغرب.

وبلغ خبرهم إلى أبي يحيى بن عبد الحق بمكانه من حصار
فاس، فجمر كتائبه عليها ونهض للقائهم في بقية العساكر، والتقى
الجمعان بأيسلى من ناحية وجدة، وكانت هنالك الواقعة المشهورة
بذلك المكان انكشفت فيها جوع يغمراسن، وهلك منهم يغمراسن
بن تاشفين وغيره، ورجعوا في فلهم إلى تلمسان، واتصلت بعد
ذلك بينهم الحروب والفتنات سائر أيامه، وربما تخللتها المهادنات
قليلاً.

وكان بينه وبين يعقوب بن عبد الحق ذمة مواصلة أوجب
له رعيها، وكثيراً ما كان يثني عنه أخاه أبا يحيى من أجلها.

ونهب أبو يحيى بن عبد الحق سنة خمس وخمسين وستمئة
إلى قتاله وبرز إليه يغمراسن، وتزاحفت جموعهم بأبي سليط،
فانهزم يغمراسن واعتزم أبو يحيى على اتباعه، فثناه عن ذلك أخوه

علي بن قاسم بن درع من ولد محمد. وأنزل معها يغمراسن بن حماسة فيمن معهم من عشائهم وحشمهم فأقام ابنه يحيى أميراً عليها إلى أن هلك، فأدال منه بعبد الملك ابن أخته، فلم يزل والياً عليها إلى أن غلب يعقوب ابن عبد الحق الموحدين على دار خلافتهم.

وإطاعته طنجة وعامة بلاد المغرب، فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من طاعة يغمراسن وحف إليها في العساكر والحشود من زناتة والعرب والبربر، ونصبوا عليها آلات الحصار إلى أن سقط جانب من سورها فاقتحموها منه عنوة في صفر سنة ثلاث وسبعين وستمائة واستباحوها وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حماسة ومن معهم من بني عبد الواد وأمرأه المنبات، وصارت إلى طاعة بني مرين آخر الأيام: والمملك بيد الله يؤتبه من يشاء من عباده.

الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن

عبد الحق

قد ذكرنا ما كان من شأن بني عبد المؤمن عند فشل دولتهم، واستطالة بني مرين عليهم في الاستظهار ببني عبد الواد واتصال اليد بهم في الأخذ بحجرة عدوهم من بني مرين عليهم. ولما هلك المرتضى وولي أبو دبوس سنة خمس وستين وستمائة وحفي وطيس فتته مع يعقوب بن عبد الحق، فراسل يغمراسن في مدافعته، وأكد العهد وأسنى الهدية، فأجابه إليها يغمراسن وشن الغارات على ثغور المغرب وأضررها ناراً. وكان يعقوب بن عبد الحق محاصراً لمراكش فأفرج عنها ورجع إلى المغرب.

واحتشد جموعه، ونهض إلى لقائه وتزاحف الفريقان بوادى تلاغ، وقد استكمل كلٌ تميمته، وكانت الواقعة على يغمراسن استباحت فيها حرمة واستلحم قومه، وهلك ابنه عمر أبو حفص أعز ولده عليه في أثراب له من عشيره مثل: ابن عبد الملك بن حنينة، وابن يحيى بن مكن، وعمر بن إبراهيم بن هشام، فرجع عنه يعقوب بن عبد الحق إلى مراكش حتى انقضى شأنه في التغلب عليها، ومحا أثر بني عبد المؤمن منها، وفرغ لمحاربة بني عبد الواد وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة والجموع والقبائل، ونهض إلى بني عبد الواد سنة سبعين وستمائة فبرز إليه يغمراسن في قومه وأوليائه من مغراوة والعرب، وتزاحفوا بأيسلي من نواحي وجدة،

وبينما هو واقف في مركبه عند قابلة الضحى عدا عليه قائدهم، وبادر النصارى إلى محمد بن زيان أخي يغمراسن فقتلوه، وأشار له بالنجوى فبرز من الصف لإسراره وأمكنه من أذنه، فتنكبه النصراتي وقد خالطه روعة أحس منها يغمراسن بمكره فألحاص منه، وركض النصراتي أمامه يطلب النجاة، وتبين الغدر، وثار بهم الدهماء من الحامية والرعايا، فأحيط بهم من كل جانب وتناولتهم أيدي الهلاك في كل مهلك قعصاً بالرماح وهرباً بالسيوف وشدخاً بالعصي والحجارة حتى استلحموا، وكان يوماً مشهوداً.

ولم يستخدم من بعدها جند النصارى بتلمسان حذراً من غائلتهم.

ويقال: إن محمد بن زيان هو الذي داخل القائد في الفتك بأخيه يغمراسن، وأنه إنما قتله عندما لم يتم لهم الأمر تبرئاً من مداخلته، فلم يمهله غاشي الهية للتثبت في شأنها والله أعلم.

الخبر عن تغلب يغمراسن على سجلماسة

ثم مصيرها بعد إلى إيالة بني مرين

كان عرب العقفل منذ دخول العرب الهلالين إلى الصحراء المغرب الأقصى أحلافاً وشيعاً لزناتة، وأكثر أغنياسهم إلى بني مرين إلا ذوي عبيد الله منهم بما كانت مجالاتهم لصق بمجالات بني عبد الواد ومشاركة لها.

ولما استفحل شأن بني عبد الواد بين يدي ملكهم زاحومهم عنها بالمناكب، وتبذوا إليهم العهد واستخلصوا دونهم المنبات من ذوي منصور أقتلهم، فكانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن ولقومه.

وكان سجلماسة في مجالاتهم ومنقلب رحلتهم، وكانت قد صارت إلى ملك بني مرين، ثم استبد بها القطراني، ثم ثاروا به ورجعوا إلى طاعة المرتضى.

وتولى كبر ذلك علي بن عمر كما ذكرناه في أخبار بني مرين.

ثم تغلب المنبات على سجلماسة وقتلوا عاملها علي بن عمر سنة اثنتين وستين وستمائة وأثروا يغمراسن بملكها، وداخلوا أهل البلد في القيام بدعوته وحلومهم عليها.

وجاءوا بيغمراسن فنهض إليها في قومه، وأمكنوه من قيادها فضبها، وعقد عليها لولده يحيى.

وأنزل معه ابن أخته حنينة، واسمه عبد الملك بن محمد بن

تلمسان ما قدمناه، وألبس جميعهم شارة الملك على ما ذكرناه ونذكره في أخبارهم، فزاحوا يغمراسن بعدها بالملكاب وصرف هو إليهم وجه النقمات والحروب.

ولم يزل الشأن ذلك حتى انقضى ملك هذين الحيين لعهد ابنه عثمان بن يغمراسن وعلى يده، ثم على يد بني مرين من بعدهم كما يأتي ذكره.

ولما رجع يغمراسن بن زيان من لقاء بني مرين بأيسلي من نواحي وجدة التي كانت سنة سبع وأربعين وستمئة، وكان معه فيها عبد القوي بن عطية بقومه من بني توجين، وهلك مرجعه منها، فنبذ يغمراسن العهد إلى ابنه محمد الأمير بعده، وزحف إلى بلاده فجاس خلالها، ونازل حصونها فامتعت عليه.

وأحسن محمد بن عبد القوي في دفاعه، ثم زحف ثانية سنة خمسين وستمئة إليهم فنازل حصن تافركيت من حصونهم.

وكان به على بني زيان حافد محمد بن عبد القوي فامتنع به في طائفة من قومه.

ورحل عليه يغمراسن كظيماً، ولم يزل يغمراسن بعدها يشن الغارة على بلادهم، ويحمر الكتاب على حصونهم.

وكان بتافركيت صنيعة من صنائع بني عبد القوي ونسبه في صنهاجة أهل ضاحية بجاية، اختص بهذا الحصن ورسخت قدمه فيه، واعتز بكثرة ماله وولده فأحسن الدفاع عنه، وكان له مع يغمراسن في الامتناع عليه أخبار مذكورة حتى سطا به بنو محمد بن عبد القوي حين شرهوا إلى نعمته، وأنفوا من استبداده فأتلفوا نفسه وتخطفوا نعمته، فكان حثف ذلك الحصن في حثفه كما يأتي ذكره.

وعندما شبت نار الفتنة بين يغمراسن وبين محمد بن عبد القوي وصل محمد يده بيعقوب بن عبد الحق.

فلما نازل يعقوب تلمسان سنة سبعة وستمئة بعد أن هدم وجدة، وهزم يغمراسن بأيسلي، جاءه محمد بن عبد القوي بقومه من بني توجين، وأقام معه على حصارها ورحلوا بعد الامتناع عليهم، فرجع محمد إلى مكانه.

ثم عاود يعقوب بن عبد الحق منازلة تلمسان سنة ثمانين وستمئة بعد إيقاعه يغمراسن في خرزوزة، فلقبه محمد بن عبد القوي بالقبضات واتصلت أيديهم على تخريب بلاد يغمراسن ملياً، فنازلوا تلمسان أياماً ثم افترقوا ورجع كل إلى بلده.

ولما خلى يغمراسن بن زيان من حصاره زحف إلى

فكانت الدبرة على يغمراسن وانكشفت جموعه، وقتل ابنه فارس، ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره ناراً تقادياً من معرة اكساحه، ونجا إلى تلمسان فانحجر بها، وهدم يعقوب بن عبد الحق وجدة، ثم نازله بتلمسان، واجتمع إليه هنالك بنو توجين مع أميرهم محمد ابن عبد القوي، وصل يده بيد السلطان على يغمراسن وقومه، وحاصروا تلمسان أياماً فامتعت عليهم، وأفرجوا عنها.

وولى كل إلى عمله ومكان ملكه حسبما ذكره في أخبارهم.

وانعقدت بينهما المهادنة من بعد ذلك وفرغ يعقوب بن عبد الحق للجهاد، ويغمراسن لمغالية توجين ومغراوة على بلادهم إلى أن كان من شأنهم ما نذكره والله أعلم.

الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني

توجين وما كان بينهم من الأحداث

كانت أحياء من مغراوة في مواطنهم الأولى من نواحي شلف قد سالتهم الدول عند تلاشي ملكهم، وساموهم الجباية فرضوا بها مثل: بني ورسفين وبني يليت وبني ورتزير، وكان فيهم سلطان لبني منديل بن عبد الرحمن من أعقاب آل خنزر ملوكهم الأولى منذ عهد الفتح وما بعده على ما ذكرناه في خبرهم.

فلما انتشر عقد الخلافة بمراكش وتشظت عصاها وكثر الثوار والخواارج بالجهات، استقل منديل بن عبد الرحمن وبنوه من بعده بتلك الناحية وملكوا مليانة وتنس وبشرشك وما إليها، وتطاولوا إلى متيجة فتغلبوا عليها.

ثم مدوا أيديهم إلى جبل وانشرش وما إليه، فتناولوا الكثير من بلاده ثم أزاحهم عنها بنو عطية وقومهم من بني توجين المجاورون لهم في مواطنهم بأعلى شلف شرقي أرض السرسو وكان ذلك لأول دخول أحياء زناتة الناجعة بأرض القبلة إلى التلول، فتغلب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي صا.

وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلد المرية إلى جبل وانشرش، إلى مبرات إلى الجعبات، وصار التخيم لملك بني عبد الواد سيك والبطحاء، فمن قبلها مواطن بني توجين ومن شرقها مواطن مغراوة.

وكانت الفتنة بين بني عبد الواد وبين هذين الحيين منذ أول دخولهم إلى التلول.

وكان المولى الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص يستظهر بهذين الحيين على بني عبد الواد ويراعهم بهم، حتى كان من فتح

فأذن لهم في الانطلاق ولحقا يغمراسن بن زيان حتى إذا كانت الواقعة عليه بخروزة سنة ثمانين كما قدمناه، وزحف بعدها إلى بلاد مغراوة وتحافى له ثابت بن منديل عن مليانة وانكفاً راجعاً إلى تلمسان، استعمل على ثغر مستغانم الزعيم بن يحيى بن مكن.

فلما وصل إلى تلمسان انتقض عليه ودعا إلى الخلاف ومالاً عدوه من مغراوة على المظاهرة عليه، فصمد إليه يغمراسن وأحجره بها حتى لاذ منه بالسلم على الإجازة، فعقد له وأجازه.

ثم أجاز له على أثره أباه يحيى واستقر بالأندلس إلى أن هلك يحيى سنة اثنتين وتسعين وستمئة ووفد الزعيم بعد ذلك على يوسف بن يعقوب وسخطه لبعض النزعات، فاعتقله وفر من محبسه ولم يزل الاغتراب مطوحاً به إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

ونشأ ابنه الناصر بالأندلس فكانت مثواه وموقف جهاده إلى أن هلك.

وأما أخوه علي بن يحيى فأقام بتلمسان وكان من ولده داود بن علي كبير مشيخة بني عبد الواد وصاحب شورايم وكان منهم أيضاً إبراهيم بن علي عقد له أبو حو الأوسط على ابنته، فكان منها ولد ذكر، وكان لداود ابن اسمه يحيى بن داود استعمله أبو سعيد بن عبد الرحمن في دولتهم الثانية على وزارته فكان من شأنه ما نذكره في أخبارهم والأمر لله.

الخبر عن شأن يغمراسن في معاقبته مع ابن الأحمر والطاغية على فتنة يعقوب بن عبد الحق والأخذ بحجزته

كان يعقوب بن عبد الحق لما أجاز إلى الجهاد وأوقع بالعدو وخرب حصونهم، نازل أشبيلية وقرطبة، وزلزل قواعد كفرهم.

ثم أجاز ثانية، وتوغل في دار الحرب وأثنى فيها، وتخلّى له ابن أشقيلولة عن مالقة فملكها.

وكان سلطان الأندلس يومئذ الأمير محمد المدعو بالفقيه ثاني ملوك بني الأحمر، هو الذي استدعى يعقوب بن عبد الحق للجهاد بما عهد له أبوه الشيخ بذلك.

فلما استفحل أمر يعقوب بالأندلس وتعاقب الثوار إلى اللياذ به خشية ابن الأحمر على نفسه، وتوقع منه مثل فعله يوسف بن تاشفين بإبن عباد، فاعتمل في أسباب الخلاص مما توهم وداخل

بلادهم وأوطأ عساكره أرضهم، وغلب على الضاحية وخرب عمرانها إلى أن تملكها بعده ابنه عثمان كما نذكر.

وأما خبره مع مغراوة فكان عماد رأيه فيهم التضريب بين بني منديل بن عبد الرحمن للمنافسة التي كانت بينهم في رئاسة قومهم.

ولما رجع من واقعة تلاغ سنة ست وستين وستمئة وهي الواقعة التي هلك فيها ولده عمر زحف بعدها إلى بلاد مغراوة، فتوغل فيها وتجاوزها إلى من وراءهم من مليكش والثعالبة، وأمكنه عمر من مليانة سنة ثمان وستين وستمئة على شرط المؤازرة، والمظاهرة على إخوته، فملكها يغمراسن يومئذ وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته، وزحفوا معه إلى المغرب سنة سبعين وستمئة ثم زحف بعدها إلى بلادهم سنة اثنتين وسبعين وستمئة فتجافى له ثابت بن منديل عن تنس بعد أن أثنى في بلادهم ورجع عنها، فاسترجعها ثابت، ثم نزل له عنها ثانياً سنة إحدى وثمانين وستمئة بين يدي مهلكه عندما تم له الغلب عليهم والإنخان في بلادهم إلى أن كان الاستيلاء عليها لابنه عثمان على ما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن انتزاع الزعيم بن مكن ببلد مستغانم

كان بنو مكن هؤلاء من عالية القراية من بني زيان يشاركونهم في نسب محمد بن زكदान بن تيدوكسن بن طاع الله، وكان لمحمد هذا أربعة من الولد كبيرهم يوسف ومن ولده جابر بن يوسف أول ملوكهم وثابت بن محمد ومن ولده زيان بن ثابت أبو الملوك من بني عبد الواد، ودرع بن محمد ومن ولده عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع المشتهر بأمه حنينة أخت يغمراسن بن زيان ومكن بن محمد.

وكان له من الولد يحيى وعمرش، وكان من ولد يحيى الزعيم وعلي، وكان يغمراسن بن زيان كثيراً ما يستعمل قرابته في الممالك ويوليهم على العمالات، وكان قد استوحش من يحيى بن مكن وابنه الزعيم وغريهما إلى الأندلس، فأجازا من هنالك إلى يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستمئة ولقياه بطنجة في إحدى حركات جهاده.

وزحف يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان عامئذ وهما في جملته فأدركتها النعرة على قومها وآثرا مفارقة السلطان إليهم،

ما دانوا به ولايته المستنصر من بعده من خطاب التمويل والإشادة بالطاعة والانتقاد حتى غلبوا على مراكز، وخطبوا باسم المستنصر على منابرهما حيناً من الدهر.

ثم تبين لهم بعد متناول تلك القاصية عليه، فعملوا منابرهم من أسماء أولئك وأقطعهم جانب الوداد والموالة.

ثم سمو إلى اللقب والتفنن في الشارة الملوكية كما تقتضيه طبيعة الدول، وأما يغمراسن وبنيه فلم يزلوا آخذين بدعوتهم واحداً بعد واحد متجافين عن اللقب أدباً معهم، مجددين البيعة لكل من يتجدد قيامه بالخلافة، منهم يوفدون بها كبار أبنائهم وأولى الرأي من قومهم ولم يزل الشأن ذلك.

ولما هلك الأمير أبو زكرياء وقام ابنه محمد المستنصر بالأمير من بعده، وخرج عليه أخوه الأمير أبو إسحاق في إحياء الدواودة من رياح، ثم غلبهم المستنصر جميعاً.

ولحق الأمير أبو إسحاق بتلمسان في أهله فأكرم يغمراسن نزلهم وأجاز إلى الأندلس للمرابطة بها والجهاد، حتى إذا هلك المستنصر سنة خمس وسبعين وستمئة واتصل به خبر مهلكه ورأى أنه أحق بالأمر فأجاز البحر من حينه ونزل بمرسى هنين سنة سبع وسبعين وستمئة ولقاء يغمراسن مرة وتوقيراً، واحتفل بقدومه وأركب الناس لتلقيه، وأثناء بيعته على عادته مع سلفه، ووعدته النصرة من عدوه والموازرة على أمره.

وأصهر إليه يغمراسن في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنة عثمان ولي عهده وأسعفه وأجل في ذلك وعده.

وانتقض محمد بن أبي هلال عامل بجاية على الوائق، وخلع طاعته ودعا للأمير أبي إسحاق واستحثه للقدوم، فأغذ إليه السير من تلمسان وكان من شأنه ما قدمناه في أخباره، فلما كانت سنة إحدى وثمانين وستمئة وزحف يغمراسن إلى بلاد مغراوة، وغلبهم على الضواحي والأمصار، بعث من هنالك ابنه إبراهيم وتسميه زناتة برهوم، ويكنى أبا عامر أوفده في رجال من قومه على الخليفة أبي إسحاق لإحكام الصهر بينهما، فنزلوا منه على خير نزل من أسناء الجراية، ومضاعفة الكرامة والمبرة، وظهر من آثاره في حروب ابن أبي عامر ما مد الأعناق إليه وقصر الشيم الزناتية على بيته.

ثم انقلب آخرًا بظيعته محبراً محبراً، وابتنى بها عثمان حين وصولها وأصبحت عقيلة قصره، فكان ذلك مفخراً لدولته وذكرًا له ولقومه.

ولحق الأمير أبو زكرياء ابن الأمير أبي إسحاق بتلمسان بعد

الطاغية في اتصال اليد والمظاهرة عليه، وكانت مألقة لعمر يحيى بن علي، استعمله عليها يعقوب بن عبد الحق حين ملكها من يد ابن أشقيلولة، فاستماله ابن الأحمر وخاطبه مقارنة ووعداً وأداله بشلويانية من مألقة طعمة خالصة له فتخلى عن مألقة إليها.

وأرسل الطاغية أساطيله في البحر لمنع الزقاق من إجازة السلطان وعساكره، وراسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجزة يعقوب وشن الغارات على ثغوره ليكون ذلك شاغلاً له عنهم.

فبادر يغمراسن بإجابتهم وترددت الرسل منه إلى الطاغية ومن الطاغية إليه كما نذكره.

وبث السرايا والبعوث في نواحي المغرب، فشغل يعقوب عن شأن الجهاد حتى لقد سألته المهادة وأن يفرغ لجهاد العدو فأبى عليه.

وكان ذلك مما دعى يعقوب إلى الصمود إليه ومراقبته بمخرورة كما ذكرناه.

ولم يزل شأنهم ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة، وهو يتنزه الفرصة في كل واحد منهم متى أمكنه منهم حتى هلك وهلكوا. والله وارث الأرض ومن عليها سبحانه.

الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني

أبي حفص الذي كان يقيم بتلمسان

دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم

كان زناتة يدينون بطاعة خلفاء الموحدين من بني عبد المؤمن أيام كونهم بالفقار، وبعد دخولهم إلى التلول.

فلما فشل أمر بني عبد المؤمن ودعا الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بإفريقية لنفسه، ونصب كرسي الخلافة للموحدين بتونس انصرفت إليه الوجوه من سائر الآفاق بالدعوتين، وأملوه للكررة، وأوفد زناتة عليه رسلهم من كل حي بالطاعة، ولأذ مغراوة وبنو توجين يظل دعوته ودخلوا في طاعته، واستنهضوه لتلمسان، فنهض إليها وافتتحها سنة أربعين وستمئة ورجع إليها يغمراسن واستعمله عليها وعلى سائر ممالكها، فلم يزل مقيماً لدعوته واتباع أثره بنو مرين في إقامة الدعوة له فيما غلبوا عليه من بلاد المغرب، وبعثوا إليه ببيعة مكناسة وتازى والقصر كما نذكره في أخبارهم إلى

الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان في دولته من الأحداث

كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسان سنة إحدى وثمانين وستمئة واستعمل عليها ابنه عثمان، وتوغل في بلاد مغراوة وملك ضواحيهم.

ونزل له ثابت بن منديل عن مدينة تنس، فتناولها من يده.

ثم بلغه الخبر بإقبال ابنه أبي عامر برهوم من تونس بآبنة السلطان أبي إسحاق عرس ابنه عثمان، فتلوم هنالك إلى أن لحقه بظاهر مليانة، فارتحل إلى تلمسان وأصابه الوجع في طريقه.

وعندما أحل سريرته اشتد به وجعه فهلك هنالك آخر ذي القعدة من سنته، والبقاء لله وحده.

فحمله ابنه أبو عامر على أعواد وواراه في خدر مورياً لمرضه إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيك.

ثم أغذ السير إلى تلمسان، فلقى أخوه عثمان بن يغمراسن ولي عهد أبيه في قومه، فبايعه الناس وأعطوه صفقة أيمانهم.

ثم دخل تلمسان فبايعه العامة والخاصة، وخاطب لحينه الخليفة بتونس أبا إسحاق وبعث إليه ببيعته، فراجع بالقبول وعقد له على عمله على الرسم.

ثم خاطب يعقوب بن عبد الحق يخطب منه السلم، لما كان أبوه يغمراسن أوصاه به.

حدثنا شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآيلي قال: سمعت من السلطان أبي هو موسى بن عثمان، وكان قهرماناً بداره، قال: أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان - دادا حرف كتابه عن غاية التعظيم بلغتهم - فقال له: يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا الوفور مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها.

فياك واعتماد لقائهم، عليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدون وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكافئ حشد العدو بحشدك ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلاً لذكيرتك.

فعلقت وصية الشيخ بقلبه، وعقد عليها ضمائره، وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك.

خلوصه من مهلك قومه في واقعة الدعي ابن أبي عمارة عليهم بمرمجة سنة اثنتين وثمانين وستمئة فنزل من عثمان بن يغمراسن صهره خير نزل برأ واحتفاءً وتكريماً وملاطفةً.

وسرى إليه أخته من القصر أنواع التحف والإنس، ولحق به أولياؤه من صنائع دولتهم وكبيرهم أبو الحسن محمد بن الفقيه المحدث أبي بكر بن سيد الناس البعمري، فتفياؤا من كرامة الدولة بهم ظلاً وافتراً واستنهضوه إلى ثرات ملكه.

وفاوض أبا مئوثة عثمان بن يغمراسن في ذلك، فنكره لما كان قد أخذه بدعوة الحضرة.

وأوفد عليه رجال دولته بالبيعة على العادة في ذلك، فحدث الأمير أبو زكرياء نفسه بالفرار عنه.

ولحق بداد بن هلال بن عطاء أمير البدو من بني عامر إحدى بطون زغبة، فأجاره وأبلغه أمانته بمجي الدواودة أمراء البدو بعمل الموحدين.

نزل منهم على عطية بن سليمان بن سبياع كما قدمناه، واستولى على بجاية سنة أربع وثمانين وستمئة بعد خطوب ذكرناها، واقتطعها وسائر عملها عن ملك عمه صاحب الدولة بتونس أبي حفص، ووفى لداود بن عطاء وأقطعه بوطن بجاية عملاً كبيراً أفرده لجبايته، كان فيه ايقدارن بالخميس من وادي بجاية.

واستقل الأمير أبو زكرياء بمملكة بونة وقسنطينة وبجاية والجزائر والزاب وما وراءها وكان هذا الصهر وصله له مع عثمان بن يغمراسن وبنيه.

ولما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان سنة ثمان وتسعين وستمئة، بعث الأمير أبو زكرياء المدد من جيوشه إلى عثمان بن يغمراسن، وبلغ الخبر بذلك إلى يوسف بن يعقوب، فبعث أخاه أبا يحيى في العساكر لاعتراضهم، والتقوا بجبل الزاب، فكانت الدبرة على عسكر الموحدين واستلحموا هناك وتسمى المعركة لهذا العهد بمرسی الرؤوس.

واستحكت من أجل ذلك صاغية الخليفة بتونس إلى بني مرين، وأوفد عليهم مشيخة من الموحدين يدعوهم إلى حصار بجاية، وبعث معهم الهدية الفاخرة وبلغ خبرهم إلى عثمان بن يغمراسن من وراء جدرانها فتذكر لها وأسقط ذكر الخليفة من منابر، ومجاه من عمله، فنفى هذا العهد.

والله مالك الأمر سبحانه.

فامتنعوا عليه، ثم أعطوه أيديهم على الطاعة ومفارقة قومهم بني توجين إلى سلطان بني يغمراسن، فنبذوا العهد إلى بني محمد بن عبد القوي أمرتهم منذ العهد الأول.

ووصلوا أيديهم بعثمان والزموا رعاياهم وعمالهم المغارم له إلى أن ملك وانشرس من بعدها كما نذكر ذلك في أخبارهم.

وصارت بلاد توجين كلها من عمله، واستعمل الحشم ببجل وانشرس.

ثم نهض بعدها إلى المرية وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية وإلهم تنسب، فأمكنه منها سنة ثمان وثمانين وستمئة وبقيت في إيالته سبعة أشهر ثم انتقضت عليه ورجعت إلى ولاية أولاد عزيز وصالحوه عليها، وأعطوه من الطاعة ما كانوا يعطونه محمد بن عبد القوي وبنيه فاستقام أمره في بني توجين ودانت له سائر أعمالهم.

ثم خرج سنة تسع وثمانين وستمئة إلى بلاد مغراوة لما كانوا البأ عليه لبني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان، فدوخها وأنزل ابنه أبا حو بشفل مركز عملهم، فأقام به وقفل هو إلى الحضرة.

وتحيز فل مغراوة إلى نواحي متيجة، وعليهم ثابت بن منديل أميرهم، فلم يزالوا بها.

ونفض عثمان إليهم سنة ثلاث وتسعين وستمئة بعدها فاتحجزوا بمدينة برشك، وحاصروهم بها أربعين يوماً ثم افتتحها. وخاض ثابت البحر إلى المغرب فنزل على يوسف بن يعقوب كما ذكرناه ونذكره.

واستولى عثمان على سائر عمل مغراوة كما استولى على عمل بني توجين، فانتظم بلاد المغرب الأوسط كلها وبلاد زناتة الأولى ثم شغل بفتنة بني مرين كما نذكر بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن منازلة بجاية وما دعا إليها

قد ذكرنا أن المولى أبا زكريا الأوسط ابن المولى أبي إسحاق بن أبي حفص لحق بتلمسان عند فراقه من بجاية أمام شيعة الدعي ابن أبي عمارة، ونزل على عثمان بن يغمراسن خير نزل.

ثم هلك الدعي ابن أبي عمارة واستقل عمه الأمير أبو حفص بالخلافة، وبعث إليه عثمان بن يغمراسن بطاعته على العادة، وأوفد عليه وجوه قومه، ودس الكثير من أهل بجاية إلى المولى أبي زكريا يستحثونه للقدوم، ويعدون له إسلام البلد إليه.

وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدو الأندلسية في إجازته الرابعة إليها فخاض إليه البحر ووصله بأركش، فلقيه برأ وكرامة، وعقد له على السلم ما أحب وانكفا راجعاً إلى أخيه، فطابت نفسه وفرغ لافتتاح البلاد الشرقية، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع

مغراوة وبني توجين وغلبه على معاقلمهم

والكثير من أعمالهم

لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق صرف وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما وراءها من أعمال الموحدين، فتغلب أولاً على ضواحي بني توجين ومغراوة وما وراءها، ودوخ قاصيتها، وسار إلى بلاد مغراوة كذلك، ثم إلى متيجة فانتسق نعمها وخطم زرعها ثم تجاوزها إلى بجاية فحاصرها كما نذكره بعد.

وامتنعت عليه فانكفا راجعاً ومراً في طريقه بمازونة، فحاصرها وأطاعته، وذلك سنة ست وثمانين وستمئة ونزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن تنس فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في إيالته.

ثم عطف في سته على بلاد توجين فاكسح حيوها واحتكرها بمازونة استعداداً لما يتوقع من حصار مغراوة لإياها.

ثم دلف إلى تافركيت فحاصرها وأخذ بمخنفها وداخل قائدها غالباً الخضي من موالى بني محمد بن عبد القوي، كان مولى سيد الناس منهم، فنزل له غالب عنها واستولى عليها، وانكفا إلى تلمسان.

ثم نهض إلى بني توجين سنة سبع وثمانين وستمئة فغلبهم على وانشرش مثنى ملكهم ومنبت عزهم، وفر أمامه أميرهم مولى بني زارة من ولد محمد بن عبد القوي.

وأخذ الحلف منهم فلحق بضواحي المرية في الأعشار وأولاد عزيز من قومه.

واتبع عثمان بن يغمراسن آثارهم وشردهم من تلك القاصية، وهلك مولى زارة في مغرة.

وكان عثمان قبل ذلك قد دوخ بلاد بني بدلتين من بني توجين، ونازل رؤسأهم أولاد سلامة بالقلعة المنسوبة إليهم مرات

فلما أفرجوا عن تلمسان نهض عثمان إلى بلادهم فدوخها وغلبهم عليها، وأنزل ابنه أبا حو بها كما قدمناه.

فلما كانت سنة خمس وتسعين وستمائة نهض يوسف بن يعقوب إلى حركته الثانية فنازل ندرومة، ثم ارتحل عنها إلى ناحية وهران وأطاعه أهل جبل كيدره وتاسكدلت رباط عبد الحميد بن الفقيه أبي زيد البرناسي ثم كرّ راجعاً إلى المغرب.

وخرج عثمان بن يغمراسن فائخن في تلك الجبال لطاعتهم عدوه واعتراضهم جنده، واستباح رباط تاسكدلت.

ثم أغزاه يعقوب بن يوسف ثلاثة سنة ست وتسعين وستمائة ثم رجع إلى المغرب.

ثم أغزاه رابعة سنة سبع وتسعين وستمائة فتأثّل تلمسان وأحاط بها معسكره وشرعوا في البناء.

ثم أفرج عنها لثلاثة أشهر، ومر في طريقه بوجدة، فأمر بتجديد بنائها وجمع الفعلة عليها.

واستعمل أخاه أبا يحيى بن يعقوب على ذلك، وأقام لشانه، ولحق يوسف بالمغرب.

وكان بنو توجين قد نازلوا تلمسان مع يوسف بن يعقوب، وتولى كبر ذلك منهم أولاد سلامة أمراء بني يدللتين، وأصحاب القلعة المنسوبة إليهم.

فلما أفرج عنها خرج إليهم عثمان بن يغمراسن فدوخ بلادهم وحاصروهم بالقلعة ونال منهم أضعاف ما نالوا منه، وطال مغيبه في بلادهم، فخالفه أبو يحيى بن يعقوب إلى ندرومة فاقتحمها عنوة بعسكره بمدخله من قائدها زكريا بن يخلف بن المظفري صاحب تاونت.

فاستولى بنو مرين على ندرومة وتاونت، وجاء يوسف بن يعقوب على أثرها فوافاهم ودلفوا جميعاً إلى تلمسان.

وبلغ الخبر إلى عثمان بمكانه من حصار القلعة فظوى المراحل إلى تلمسان، فسبق إليها يوسف بن يعقوب ببعض يوم.

ثم أشرفت طلائع بني مرين عشي ذلك اليوم، فأنساخوا بها في شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها.

وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجاً من الأسوار محيطاً بها، وفتح فيه أبواباً مدخل لحربها، واختط لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سماها المنصورة وأقام على ذلك سنين يغادها القتال ويرواوحها.

وفاوض عثمان بن يغمراسن في ذلك فأبى عليه وفاء بحق البيعة لعمه الخليفة بالخصرة فظوى عنه الخبر وتردد في النقص أياماً.

ثم لحق بأحياء زغبة في مجالاتهم بالقفر، ونزل على داود بن هلال بن عطا فطلب عثمان بن يغمراسن من داود إسلامه فأبى عليه وارتحل معه إلى أعمال بجاية، ونزلوا على أحياء الدواودة كما قدمناه ثم استولى المولى أبو زكريا بعد ذلك على بجاية في خبر طويل قد ذكرناه في أخباره.

واستحكمت القطيعة بينه وبين عثمان، وكسنت سبباً لاستحكام الموالاة بين عثمان وبين الخليفة بتونس.

فلما زحف إليه عثمان سنة ست وثمانين وستمائة وتوغل في قاصية المشرق، أعمل الرحلة إلى عمل بجاية، ودوخ سائر أقطارها.

ثم نازها من بعد ذلك يروم كيدها بالاعتماد في مرضاة خليفته بتونس، ويسر بذلك حسواً في ارتقاء، فأناخ عليها بعساكره سبعاً، ثم أفرج عنها منقلباً إلى المغرب الأوسط، فكان من فتح تافركنيت ومازونة ما قدمناه.

الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن

تلمسان في الحصار الطويل

لما هلك يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين على السلم المتعقد بينه وبين بني عبد الواد لشغله بالجهاد، وقام بالأمر من بعده في قومه ابنه يوسف كبير ولده على حين اتبعهم أنفسهم شأن الجهاد.

وأسفهم يغمراسن وابنه بمالأة الطاغية وابن الأحمر فعقد يوسف بن يعقوب السلم مع الطاغية لحينه، ونزل لابن الأحمر عن ثغور الأندلس التي كانت لهم، وفرغ لحرب بني عبد الواد، واستتب له ذلك لأربع من مهلك أبيه، دلف إلى تلمسان سنة تسع وثمانين وستمائة، ولأذ منه عثمان بالأسوار فنازها أربعين صباحاً، وقطع شجرها ونصب عليها المجانيق والآلات ثم أحس بامتناعها فافرج عنها وانكفأ راجعاً.

وتقبل عثمان بن يغمراسن مذهب أبيه في مداخلة ابن الأحمر والطاغية، وأوفد رسله عليها فلم يغن ذلك عنه شيئاً. وكان مغراوة قد لحقوا بيوسف بن يعقوب بتلمسان فنالوا منه أعظم النيل.

ويلغ الخبر إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم فتفجع له، وعجب من صرامة قومه من بعده.

واستمر حصاره إياهم إلى تمام ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله، نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفيران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي، وخربوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد.

وعجز وجدهم عنه فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به، مقداره اثني عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين.

وثنم الرأس الواحد من البقر مستين مثقالاً، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفاً، وأثمان اللحمان من الجيف الرطل من لحم البغال والحمر بثمان المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم، والرطل من الجلد البقري مئة أو مئتي بثلاثين درهماً، والهر الواحد بمثقال ونصف، والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله، والدجاجة بستة عشر درهماً، والبيض واحدة بستة دراهم، والعصافير كذلك والأوقية من الزيت بإثني عشر درهماً، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين، ومن الفول بمثلها، ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال.

ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً، والواحدة من القشاء والفقوس بأربعين درهماً، والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهماً، والحبة من التين والإجاص بدرهمين.

واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضائق أحوالهم، واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها، واتسعت خطة مدينة المنصور المشيدة عليها.

ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة، وخطب الملوك سلمه ووده، ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية، وكذلك رسل صاحب مصر والشام وهديتهم، واعتز اعتزازاً لا كفاء له كما يأتي في أخباره وأنهك الجهد حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة، فكيف الله لهم الصنيع الغريب، ونفس عن خنقهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصي من العبدى، فأمسخت بعض

وسرح عسكره لانتتاح المغرب الأوسط وثغوره، فملك بلاد مفرأة وبلاد توجين كما ذكرناه في أخباره وجشم هو بمكانه من حصار تلمسان لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته إلى أن هلك عثمان وهلك هو من بعده كما نذكره.

وإلى الله المصير سبحانه وتعالى لا رب غيره.

الخبر عن مهلك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان وانتهاء الحصار من بعده إلى غايته

لما أناخ يوسف بن يعقوب بعساكره على تلمسان، انحجز بها عثمان وقومه واستسلموا، والحصار أخذ بمخيقهم.

وهلك عثمان لخامسة السنين من حصارهم سنة ثلاث وسبعمائة، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو زيان محمد.

أخبرني شيخنا العلامة محمد بن إبراهيم الأيلي، وكان في صباه قهرمان دارهم قال: هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس، وكان قد أعد لشربه لبناً، فلما أخذ منه الديماس وعطش، دعا بالقدح فشرب اللبن ونام فلم يكن بأوشك أن فاضت نفسه.

وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم تفادياً من معرة غلب عدوهم إياهم.

قال: وجاء الخادم إلى عقيدة بيته زوجته بنت السلطان أبي إسحاق ابن الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس، وخبرها الخبر فجاءت ووقعت عليه واسترجعت وخيمت على الأبواب بسداها.

ثم بعثت إلى ابنه محمد أبي زيان وموسى أبي حمو فعزتهما عن أبيهما.

وأحضرا مشيخة بني عبد الواد وعرضوا لهم بمعرض السلطان فقال أحدهم مستهتماً عن الشأن ومترجماً عن القوم: السلطان معنا آتفاً، ولم يمتد الزمن لوقوع المرض، فإن يكن هلك فخيرونا، فقال له أبو حمو: وإذا هلك فما أنت صانع؟ فقال: إنما نخشى من مخالفتك، وإلا فسلطاننا أخوك الأكبر أبو زيان.

فقام أبو حمو من مكانه وأكب على يد أخيه يقبلها، وأعطاه صفقة يمينه واقتدى به المشيخة، فانعدت بيعته لوقتته واشتمل بنو عبد الواد على سلطانهم واجتمعوا إليه، وبرزوا لقتال عدوهم على العادة فكان عثمان لم يمت.

وكانت إحدى المقربات في الأنام.

وكان من خبر هذه الرسالة إلى يعقوب بن يوسف لما هلك تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته، وتحيز أبو ثابت حافده إلى بني ورتاجن لخزلة كانت له فيهم، فاستجاش بهم واعصروا عليه وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن أن يعطوه الأكلة ويكونوا مفزعاً له ومأمناً إن أخفق مسعاه على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين فعاقده عليها.

وفى لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من بلادهم، وجاء بجميع الكتاب التي أنزلها في ثغورهم وقتلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأقصى، واستمكن السلطان أبو زيان من ثغور المغرب الأوسط كلها إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى حين مهلكه

كان من أول ما افتتح به السلطان أبو زيان أمره بعد الخروج من هوة الحصار وتناوله الأعمال من يد بني مرين، أن نهض من تلمسان ومعه أخوه أبو حو آخر ذي الحجة من سنة ست وسبعمئة، فقصد بلاد مغراوة وشرذ من كان هنالك منهم في طاعة بني مرين، واحتاز الثغور من يد عمالهم ودوخ قاصيتها.

ثم عقد عليها السامح مولاه، ورجع عنها، فنهض إلى السرسو، وكان العرب قد تملكوه أيام الحصار، وغلبوا زناتة عليه من سويد والديالم ومن إليهم من بني يعقوب بن عامر فأجفلوا أمامه.

واتبع آثارهم إلى أن أوقع بهم وانكفاً راجعاً ومر ببلاد بني توجين، فاقتضى طاعة من كان بقي بالجليل من بني عبد القوي والحشم فأطاعوه، ورياستهم يومئذ لمحمد بن عطية الأصم من بني عبد القوي.

وقفل إلى تلمسان لتسعة أشهر من خروجه، وقد ثقف أطراف ملكه، ومسح أعطاف دولته.

فنظر في إصلاح قصوره ورياضه، ورم ما تثلّم من بلده، وأصابه المرض خلال ذلك فاشتد وجعه سبعة، ثم هلك أخريات شوال من سنة سبع وسبعمئة والبقاء لله وحده.

النزعات الملوكية فاعتمده في كسر بيته وخدع نومه، وطعته بمخنجر قطع أمعاه، وأدرك فسيق إلى وزرائه ومزقوا أشلاءه ولم ييؤء بشسع من نعل عبيدهم كما ذكرناه والأمر لله وحده.

وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم كأنما نشروا من الأجداث وكتبوا لها في سكتهم ما أقرب فرج الله استغراباً لحادثها.

وحديثي شيخنا محمد بن ابراهيم الأبلبي قال: جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره، واستدعى ابن حجاج خازن الزرع فسأله: كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتماها.

وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حو فآخبره فوجم لها، وجلسوا سكوتاً لا ينطقون.

وإذا بالخادم دعد قهرمانه القصر من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق وحظية أيهم خرجت من القصر إليهم، فوفقت وجنتهم تحيتها وقالت: تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم: ما لنا وللبقاء، وقد أحيط بكم وأسف لانتهاكم عدوكم، ولم يبق إلا فواق بكيسة لمصارعكم فأريحونا من معرة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم وقربونا إلى مهالكنا فالحياء في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم.

فالتفت أبو حو إلى أخيه وكان من الشفقة مكان وقال: قد صدقتك الخبر فما تنظر فيهم؟ فقال: يا موسى! أرجنتي ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسراً، ولا تشاورني بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلن وتعال إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستमित، ويقضي الله ما يشاء.

فغضب له أبو حو ونكر الإرجاء في ذلك، وقال: إنما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا، وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالباء.

قال ابن حجاج: وأنا بمكاني بين يديه وأجم لا أملك متأخراً ولا متقدماً إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسى الباب يشير إلي أن أذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين بسيدة القصر، فلم أطلق أرجع جوابه إلا بالإشارة واتبه السلطان من خفيف إشارتنا فزعاً، فأذنته واستدعاه.

فلما وقف بين يديه قال له: إن يوسف بن يعقوب هلك الساعة، وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم، فاستبشر السلطان واستدعى أخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته بمسمع منهم،

الخبر عن حو الدعوة الحفصية من منابر

تلمسان

كانت الدعوة الحفصية بإفريقية قد انقسمت بين أعياصهم في تونس وبجاية وأعمالها، وكان التختم بينهما بلسد عجيسة وورشتانة.

وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكريا الأول منهم، وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالخرصة.

فكانت بيعة بني زيان له والدعاء على منابرهم باسمه، وكانت لهم مع المولى الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه، وكانت الوحشة قد اعترضت ذلك عندما نزل عثمان بجاية كما قدمناه.

ثم تراجعوا إلى وصلتهم واستمروا عليها إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان، والبيعة يومئذ للخليفة بتونس السلطان أبي عصيد بن الوائق، والدعوة على منابر تلمسان باسمه، وهو حاقده عليهم ولايتهم للأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغر، فلما نزل يوسف بن يعقوب على تلمسان وبعث عساكره في قاصية المشرق استجاش عثمان بن يغمراسن بصاحب بجاية، فسرح عسكرياً من الموحدون لمداغتهم عن تلك القاصية، والتفوا معهم بجبل الزاب فانكشف الموحدون بعد معترك صعب واستلحهم بنو مرين، ويسمى المعترك لهذا العهد بمرسى الرؤوس لكثرة ما تساقط في ذلك المجال من الرؤوس.

واستحكمت المناورة بذلك بين يوسف بن يعقوب وصاحب بجاية فأوفد الخليفة بتونس على يوسف بن يعقوب مشيخة من الموحدون تجديداً لوصلة سلفهم مع سلفه وإغراء بصاحب بجاية وعمله، فجاء موقع ذلك من عثمان بن يغمراسن وأحفظه عمالة خليفته لعدوه، ففعل منابرهم من ذكره، وأخرج قومه وإبائهم عن دعوته، وكان ذلك آخر المائة السابعة.

والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبي حو الأوسط وما كان

فيها من الأحداث

لما هلك الأمير أبو زيان قام بالأمر بعده أخوه أبو حو في أخريات سنة سبع كما قدمناه، وكان صارماً يقظاً حازماً داهية،

قوي الشكيمة صعب العريكة، شرس الأخلاق مفرط الذكاء والحدة.

وهو أول ملوك زناتة، رتب مراسم الملك وهذب قواعده، وأرهف في ذلك لأهل ملكه حدة، وقلب لهم مجن بأسه حتى دلوا لعز الملك وتادبوا بأداب السلطان.

سمعت عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية لزنانة يقول ويعنيه: موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزنانة، ولما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان، فحد حدودها، وهذب مراسمها ولقن عنه ذلك أقتاله وأنظاره منهم، فقبلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه انتهى كلامه.

ولما استقل بالأمر افتتح شأنه بعقد السلم مع سلطان بني مرين لأول دولته فأوفد كبراء دولته على السلطان أبي ثابت، وعقد له السلم كما رضي.

ثم صرف وجهه إلى بني توجين ومغراوة، فردد إليهم العساكر حتى دوخ بلادهم وذلل صعايهم، وشرذ محمد بن عطية الأصم عن نواحي وانشرش، وراشد بن محمد عن نواحي شلف، وكان قد لحق بها بعد مهلك يوسف بن يعقوب فازاحه عنها، واستولى على العملين، واستعمل عليهما، وقفل إلى تلمسان، ثم خرج سنة عشر وسبعماية في عساكره إلى بلاد بني توجين، ونزل تافركنيت وسط بلادهم فشرذ الفل من أعقاب محمد بن عبد القوي عن وانشرش، واحتاز رياستهم في بني توجين دونهم وأدال منهم بالحشم وبني تيفرين.

وعقد لكبيرهم يحيى بن عطية على رئاسة قومه في جبل وانشرش، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المربة وأعمالها، وعقد لسعد من بني سلامة بني علي على قومه بني يدللتين إحدى بطون بني توجين وأهل الناحية الغربية من عملهم. وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجباية، واستعمل عليهم جميعاً من صناعته قائده يوسف بن حيون الهواري، وأذن له في اتخاذ الآلة.

وعقد لمولاه مسامح على بلاد مغراوة وأذن له أيضاً في اتخاذ الآلة.

وعقد لمحمد ابن عمه يوسف على مليانة، وأنزله بها وقفل إلى تلمسان والله أعلم.

الخبر عن استنزال زيرم بن حماد من ثغر برشك وما كان من قتله

كان هذا الغمر من مشيخة هذا المصر لوفور عشيره من مكلاته داخله وخارجيه، واسمه زيري بالياء، فتصرفت فيه العامة وصار زيرم بالميم.

ولما غلب يغمراسن على بلاد مغراوة دخل أهل هذا المصر في طاعته.

حتى إذا هلك حدثت هذا الغمر نفسه بالانتزاع والاستبداد بملك برشك ما بين مغراوة وبني عبد الواد، ومدافعة بعضهم ببعض.

فاعتزم على ذلك وأمضاه وضبط برشك لنفسه سنة ثلاث وثمانين وستماية ونهض إليه عثمان بن يغمراسن سنة أربع وثمانين وستماية بعدها، ونازله فامتنع.

ثم زحف سنة ثلاث وتسعين إلى مغراوة، فلجأ ثابت بن منديل إلى برشك وحاصره عثمان بها أربعين يوماً ثم ركب البحر إلى المغرب كما قلناه.

وأخذ زيرم بعده بطاعة عثمان بن يغمراسن دافعه بها، وانتقض عليه مرجعه إلى تلمسان، وشغل بنو زيان بعدها بما دهمهم من شأن الحصار، فاستبد زيرم هذا ببرشك واستفحل شأنه بها.

واتقى بني مرين عند غلبهم على أعمال مغراوة وتردد عساكرهم فيها بإخلاص الطاعة والافتقاد، فلما انتشع إيالة بني مرين بمهلك يوسف بن يعقوب، وخرج بنو عثمان بن يغمراسن من الحصار رجوع إلى ديدنه من التمريض في الطاعة، ومقاولة طرفها على البعد حتى إذا غلب أبو حمو على بلاد مغراوة وتجاوزت طاعته هذا المصر إلى ما وراءه، خشيه زيري على نفسه، وخطب منه الأمان على أن ينزل له عن المصر، فبعت إليه صاحب الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام، كان أبوه من أهل برش، وكان زيري قد قتله لأول ثورته غيلة.

وفر ابنه عبد الرحمن هذا وأخوه عيسى، ولحقا بتونس فقراً بها، ورجعا إلى الجزائر فاوطناهما.

ثم انتقلا إلى مليانة واستعملهما بنو مرين في خطة القضاء بمليانة.

ثم وفدا بعد مهلك يوسف بن يعقوب على أبي زيان وأبي

حمو مع عمال بني مرين وقوادهم بمليانة، وكان فيهم منديل بن محمد الكتاني صاحب أشغالهم المذكور في أخبارهم.

وكانا يقرئان ولده محمد فاشاد على أبي زيان وأبي حمو بمكانهم من العلم، ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقع حتى إذا استقل بالأمر ابنتى المدرسة بناحية المطمر من تلمسان لطلب العلم وابنتى لهما دارين عن جانيها وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك.

واختصهما بالفتيا والشورى، فكانت لهما في دولته قدم عالية فلما طلب زيري هذا الأمان من أبي حمو وأن يبعث إليه من يأمن معه في الوصول إلى بابه، بعث إليه أبا زيد عبد الرحمن الأكبر منهما، فنهض لذلك بعد أن استأذنه في أن يثار منه بأبيه إن قدر عليه، فأذن له.

فلما احتل ببرشك أقام بها أياماً يناديه فيها زيري ويرأوجه بمكان نزله، وهو يعمل الحيلة في اغتياله حتى أمكته فقتله في بعض تلك الأيام سنة ثمان وسبعمائة، وصار أمر برشك إلى السلطان أبي حمو وانمحي منها أثر المشيخة والاستبداد والأمور بيد الله سبحانه.

الخبر عن طاعة الجزائر واستنزال ابن علان منها وذكر أوليته

كانت مدينة الجزائر هذه من أعمال صنهاجة، ومخططها بلكين بن زيري ونزلها بنوه من بعده.

ثم صارت إلى الموحدين وانتظمها بنو عبد المؤمن في أمصار المغرب وإفريقية، ولما استبد بنو أبو حفص بأمر الموحدين وبلغت دعوتهم بلاد زناتة.

وكانت تلمسان ثغراً لهم، واستعملوا عليها يغمراسن وبنيه من بعده، وعلى ضواحي مغراوة بني منديل بن عبد الرحمن، وعلى وأنشريس وما إليه من عمل بني توجين محمد بن عبد القوي وبنيه.

وبقي ما وراء هذه الأعمال إلى الحضرة لولاية الموحدين من أهل دولته، فكان العامل على الجزائر من الموحدين أهل الحضرة.

وفي سنة أربع وستين وستماية انتقضوا على المستنصر ومكثوا في ذلك الانتقاض سبعاً.

ثم أوعز إلى أبي هلال صاحب بجاية بالنهوض إليها في سنة

الخبر عن حركة صاحب المغرب إلى تلمسان وأولية ذلك

لما خرج عبد الحق بن عثمان من أعياص الملك على السلطان أبي الربيع بقاس، وبايع له الحسن بن علي بن أبي الطلاق شيخ بني مرين بمداخلة الوزير رحو بن يعقوب كما قدمناه في أخبارهم.

وملكوا تازي، وزحف إليهم السلطان أبو الربيع فبعثوا وفداهم إلى السلطان أبو حو صريحاً.

ثم أعجلهم أبو الربيع وأجهضهم على تازي، فلحقوا بالسلطان أبي حو ودعوه إلى المظاهرة على المغرب ليكونوا رداء له دون قومهم.

وهلك السلطان أبو الربيع خلال ذلك واستقل بملك المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، فطالب السلطان أبا حو بإسلام أولئك النازعين إليه، فأبى من إسلامهم وإخفار ذمته فيهم وأجازهم البحر إلى العدو، فأغضى له السلطان أبو سعيد عنها، وعقد له السلم.

ثم استراب يعيش بن يعقوب بن عبد الحق بمكانه عند أخيه السلطان أبي سعيد لما سعى به عنده، فنزع عنه إلى تلمسان وأجاره السلطان أبو حو على أخيه فأحفظه ذلك، ونهض إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعمائة وعقد لابنه الأمير أبي علي وبعثه في مقدمته، وسار هو في الساقية.

ودخل أعمال تلمسان على هذه التعبية فاكسح بسائطها، ونازل وجدة فقاتلها وضيق عليها.

ثم تخطأها إلى تلمسان فنزل بساحتها وانحجز موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب على ضواحيها ورعاياها، وسار السلطان أبو سعيد في عساكره يتقرى شعارها وبلادها بالخطم والاتساف والعيث.

فلما أحبط به وثقلت وطأة السلطان عليه وحذر المغبة منهم اللطف الحيلة في خطاب الوزراء الذين كان يسرب أمواله فيهم ويخادعهم عن نصائح سلطانهم حتى اقتضى مراجعتهم في شأن جاره يعيش بن يعقوب وإدالته من أخته.

ثم بعث خطوطهم بذلك إلى السلطان أبي سعيد فامتلاً قلبه منها خشية وrehبة، واستراب بالخاصة والأولياء ونهض إلى المغرب على تعييته.

إحدى وسبعين وستماية فحاصرها أشهراً وأفرج عنها.

ثم عاودها بالحصار سنة أربع وسبعين وستماية أبو الحسن بن ياسين بعساكر الموحدين فافتحمها عليهم عنوة واستباحها.

وتقبض على مشيختها فلم يزالوا معتقلين بها إلى أن هلك المستنصر ولما انقسم أمر بني أبي حفص واستقل الأمير أبو زكرياء الأوسط بالثغور الغربية وأبوه، وبعثوا إليه بالبيعة، وولى عليهم ابن أكمازير، وكانت ولايتها لبطة من قبل، فلم يزل هو والياً عليها إلى أن أسن وهم.

وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به، ومتصرفاً في أوامره ونواهي، ومصدراً لأمارته وحصل له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه.

فلما هلك ابن أكمازير حدثه نفسه بالاستبداد والانتزاع بمدنيته، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد، واتخذ الآلة واستركب واستلحق من الغرباء والثعالب عرب متبعة، واستكثر من الرجال والرامة ونازله عساكر بجاية مراراً فامتنع عليهم.

وغلب مليكش على جباية الكثير من بلاد متبعة، ونازله أبو يحيى بن يعقوب بعساكر بني مرين عند استيلائهم على البلاد الشرقية، وتوغلهم في القاصية، فأخذ بمخنفها وضيق عليها، ومر بابن علان القاضي أبو العباس الغماري رسول الأمير خالد إلى يوسف بن يعقوب، فأودعه الطاعة للسلطان والضراعة إليه في الإبقاء، فأبلغ ذلك عنه وشفع له، فأوعز إلى أخيه أبي يحيى بمصالحته.

ثم نازله الأمير خالد بعد ذلك فامتنع عليه وأقام على ذلك أربع عشرة سنة وعيون الخطوب تحززه، والأيام تستجمع لحربه.

فلما غلب السلطان أبو حو على بلاد بني توجين واستعمل يوسف بن حيون الهواري على وانشرش، ومولاه مساعداً على بلاد مغراوة، ورجع إلى تلمسان.

ثم نهض سنة اثني عشرة وسبعمائة إلى بلاد شلف فنزل بها، وقدم مولاه مساعداً في العساكر فدوخ متبعة من سائر نواحيها، وترس الجزائر، وضيق حصارها حتى مسهم الجهد وسال ابن علان النزول على أن يسترط لنفسه، فتقبل السلطان اشتراطه، وملك السلطان أبو حو الجزائر وانتظمها في أعماله.

وارتمل ابن علان في جملة مسامح، ولحقوا بالسلطان بمكانه من شلف فانكفاً إلى تلمسان وابن علان في ركابه، فأسكنه هنالك ووفى له بشرطه إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

عمه أبي عامر يرهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية، وعقد محمد ابن عمه يوسف قائد مليانة على عسكر، ولولاه مسامح على عسكر آخر، وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدوين البلاد.

وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخيم، وسرحه مع العرب من الدواودة وزغبة على طريق الصحراء.

وانطلقوا إلى وجههم ذلك، وفعلوا الأفاعيل كلُّ فيما يليه وتوغلوا في البلاد الشرقية، حتى انتهوا إلى بلاد بونة ثم انقلبوا من هنالك ومروا في طريقهم بقسنطينة، ونازلوها أياماً وصعدوا جبل ابن ثابت المطل عليها فاستباحوه ثم مروا ببني باورار فاستباحوها وأضرموها، واكتسحوا سائر ما مروا عليه.

وحدث بينهم المنافرة حسداً ومنافسة، فافترقوا ولحقوا بالسلطان وأقام مسعود بن يرهوم محاصراً لبجاية وبنى حصناً باصفوان لمقامته وكان يسرح الجيوش لقتالها فتجول في ساحتها، ثم تراجع إلى الحصن ولم يزل كذلك حتى بلغه خروج محمد بن يوسف فأجفل عنها على ما نذكره الآن فلم يرجعوا لحصارها إلا بعد مدة والله تعالى أعلم.

الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني

توجين وحروب السلطان معه

لما رجع محمد بن يوسف من قاصية المشرق كما قدمناه، وسابقه إلى السلطان موسى بن علي الكردي، وجوانحه تلتهب غيظاً وحقداً عليه وسعى به عند السلطان فعزله عن مليانة، فوجم لها وسأله زيارة ابنه الأمير أبي تاشفين بتلمسان، وهو ابن أخته فأذن له وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه، فأبى عن ذلك، وأراد هو الرجوع إلى معسكر السلطان فخلى سبيله.

ولما وصل إليه تنكر له وحجبه، فاستراب وملاً قلبه الرعب، وفر من المعسكر ولحق بالمدينة، ونزل على يوسف بن حسن بن عزيز عاملها للسلطان من بني توجين.

فيقال: إنه أوثقه اعتقالاً حتى غلبه قومه على بغيته من الخروج معه، لما كان السلطان أبو حر يوسفهم به من نزاعته، فأخذ له البيعة على قومه ومن إليهم من العرب.

وزحفوا إلى السلطان بمعسكره من نهل، فلقاهم في عساكره، فكانت الدبرة على السلطان، ولحق بتلمسان وغلب محمد بن يوسف على بلاد بني توجين ومغراوة ونزل مليانة.

وخرج السلطان من تلمسان أياماً من دخولها، وقد جمع

ثم كان خروج ابنه عمر عليه بعد مرجعه، وشغلوا عن تلمسان وأهلها برهة من الدهر حتى تم أمر الله في ذلك. عند وقته، والله تعالى أعلم.

الخبر عن مبدأ حصار بجاية وشرح الداعية

إليه

لما خرج السلطان أبو سعيد إلى المغرب وشغل عن تلمسان، ففرغ أبو حر لأهل القاصية من عمله.

وكان راشد بن محمد بن ثابت بن منديل قد جاء من بلاد زواوة أثناء هذه الغمرة، فاحتل بوطن شلف واجتمع إليه أوشاب قومه، وحين تجملت الغمرة عن السلطان أبي حر نهض إليه بعد أن استعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان، وجمع له الجموع ففر أمامه ناجياً إلى مثنوى اغترابه ببجاية.

وأقام بنو أبي سعيد بمعقلهم من جبال شلف على دعوته، فاحتل السلطان أبو حر بوادي نهل فخم به وجمع أهل أعماله لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد، واتخذ هنالك قصره المعروف باسمه.

وسرح العساكر لتدوين القاصية ولحق به هنالك الحاجب ابن أبي حي مرجعه من الحج سنة إحدى عشرة وسبعماية، فأغراه بملك بجاية ورغبه فيه وكان له فيها طمع منذ رسالة السلطان أبي يحيى إليه.

وذلك أنه لما انتقض على أخيه خالد ودعى لنفسه بقسنطينة، ونهض إلى بجاية فانهزم عنها كما قدمناه في أخباره وأوفد على السلطان أبي حر بعض رجال دولته مغرياً له بآبن خلوف وبجاية ثم بعث إليه ابن خلوف أيضاً يسأله المظاهرة والمدد فأطمعه ذلك في ملك بجاية.

ولما هلك ابن خلوف كما قدمناه، لحق به كاتبه عبد الله بن هلال، فأغراه واستحثه، وعدها عن ذلك شأن الجزائر.

فلما استولى على الجزائر، بعث مساعداً مولاه في عسكر مع ابن أبي حي، فبلغوا إلى جبل الزان وهلك ابن أبي حي ورجع مسامح.

ثم شغله عن شأنها زحف، وفرغ من أمر عدوه، ونزل بلد شلف كما ذكرنا آنفاً ولحق به عثمان بن سباع بن يحيى، عثمان بن سباع بن شبل أمير الدواودة، يستحثانه للملك الثغور الغربية من عمل الموحدين، فاهتز لذلك وجمع له الجموع، وعقد لمسعود ابن

وتبناه من بين عشيرته وأولي قرياه لمكان صرامته ودهائه، واختصاص أبيه برهوم المكتى أبا عامر بعثمان بن يغمراسن شقيقه من بين سائر الإخوة، فكان يؤثره على بنيه ويفاوضه في شؤونه، ويصله إلى خلواته.

وكان قد دفع إلى ابنه عبد الرحمن أبا تاشفين أثراً له من المعلوجي يقومون بمخدمته في مرباه ومنشأه، كان منهم: هلال المعروف بالقطلاتي، ومسامح المسمى بالصغير، وفرج بن عبد الله وظافر ومهدي وعلي بن تكرارت وفرج الملقب شقورة، وكان الصقهم وأعلقهم بنفسه تلاد له منهم يسمى هلالاً، وكان أبو حمو كثيراً ما يقرعه ويوجه إرهافاً في اكتساب الخلال، وربما يقذع في تقريره لما كان عفا الله عنه فحاشاً فيحفظه لذلك.

وكان مع ذلك شديد السطوة متجاوزاً بالعقاب حدوده في الزجر والأدب، فكان أولئك المعلوجي تحت رهب منه، وكانوا يغرون لذلك مولاهاً أبا تاشفين بأبيه، ويعثون غيرته لما يذكرون له من اصطفائه ابن أبي عامر دونه.

وقارن ذلك أن مسعود بن أبي عامر أبلى في لقاء محمد ابن يوسف الخارج على أبي حمو البلاء الحسن عندما رجع من حصار بجاية، فاستحمد له السلطان ذلك، وعير ولده عبد الرحمن بمكان ابن عمه هذا من النجاة والصرامة يستجد له بذلك خلالاً ويغريه بالكمال.

وكان عمه أبو عامر إبراهيم بن يغمراسن مثرياً بما نال من جوائز الملوك في وفادته، وما أقطع له أبوه وأخوه سائر أيامهما.

ولما هلك سنة ست وتسعين وستمائة استوصى أخاه عثمان بولده فضمهم، ووضع تراثهم بمودع ماله، حتى يؤنس مسعود منهم الرشد في أحوالهم، حتى إذا كانت غزاة ابنه أبي سرحان مسعود هذه، وعلا فيها ذكره وبعد صيته، رأى السلطان أبو حمو أن يدفع إليه تراث أبيه لاستجماع خلالة، فاحتمل إليه من المودع.

ونمي الخبر إلى ولده أبي تاشفين وباطشه السوء من المعلوجي، فحسبوه مال الدولة قد احتمل إليه لبعده عهدهم عما وقع في تراث أبي عامر أبيه، واتهموا السلطان بإيثاره بولاية العهد دون ابنه، فأغروا أبا تاشفين بالتوثب على الأمر وحملوه على الفتك بمشتويه مسعود بن أبي عامر، واعتقال السلطان أبي حمو ليمت له الاستبداد.

وتحنينا لذلك قابلة المهاجرة عند منصرف السلطان من مجلسه، وقد اجتمع إليه ببعض حجر القصر خاصة من البطانة وفيهم مسعود بن أبي عامر والوزراء من بني الملاح.

الجموع وأزال العلل وأوعز إلى مسعود ابن عمه برهوم بمكانه من حصار بجاية بالوصول إليه بالعساكر، ليأخذ بمجزتهم من ورائهم، وخرج محمد بن يوسف من مليانة لاعتراضه، واستعمل على مليانة يوسف بن حسن بن عزيز، فلقية ببلاد مليكش وانهزم محمد بن يوسف.

ولجا إلى جبل موصاية وحاصره بها مسعود بن برهوم أياماً، ثم أفرج عنه ولحق بالسلطان فنزلوا جميعاً مليانة.

وافتحها السلطان عنوة وجمي يوسف بن حسن أسيراً من مكمنه ببعض المسارب فعفا عنه وأطلقه، ثم زحف إلى المدينة فملكها وأخذ الرهن من أهل تلك النواحي، وقفل إلى تلمسان.

واستطال محمد بن يوسف على النواحي ففشست دعوته في تلك القاصية وخاطب مولانا السلطان أبا يحيى بالطاعة فبعث إليه بالهدية والآلة، وسوغه سهام يغمراسن بن زيان من إفريقية، ووعدته بالمظاهرة وغلب ساق سائر بلاد بني توجين وسابع له بنو تيغرين أهل جبل وانشرش، فاستولى عليه.

ثم نهض السلطان إلى الشرق سنة سبع عشرة وسبعماية وملك المدينة واستعمل عليها يوسف بن حسن للدافعة محمد بن يوسف، واستبلغ في أخذ الرهن منه ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه بني عبد الواد.

ورجع إلى تلمسان ونزلهم بالقصبة وهي الغور الفسيحة الحطلة تمائل بعض الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن وكان يبالغ في ذلك حتى كان يأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط.

وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور والمشيجة والسوقة فملأ تلك القصبة بأبنائهم وأخوانهم، وشحنها بالأمم تلو الأمم، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء.

واختط لهم المساجد فجمعوا بها لصلاة الجمعة، ونفقت بها الأسواق والصنائع وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكى في العصور عن سجن.

ولم يزل محمد بن يوسف بمكان خروجه من بلاد بني توجين إلى أن هلك السلطان، والبقاء لله.

الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية

ابنه أبي تاشفين من بعده

كان السلطان أبو حمو قد اصطفى مسعود ابن عمه برهوم

وأصبح مثلاً في الآخرين والبقاء لله.

وأشخص السلطان لأول بيعته سائر القراية الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن، وأجازهم إلى العدو حذراً من مغية ترشيحهم، وما يتوقع من الفتى على الدولة من قبلهم وقلد حجابته مرلا هلالاً فاضطلع بأعبائها، واستبد بالعقد والحل والإبرام والتقض صدرأ من دولته، إلى أن نكبه حسبما نذكره.

وعقد ليحيى بن موسى السنوسي من صنائع دولتهم على شلف وسائر أعمال مغراوة، وعقد لمحمد بن سلامة بن علي على عمله من بلاد بني يدلتن من توجين، وعزل أخاه سعداً، فلحق بالمغرب.

وعقد لموسى بن علي الكردي على قاصية الشرق، وجعل له حصار بجاية، وأغرى دولته بتشديد القصور واتخاذ الرياض والساتين، فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك وأرى عليه، فاحتفلت القصور والمصانع في الحسن ما شاءت، واتسعت أخباره على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين إلى محمد بن يوسف بجبل وانشرش واستيلائه عليه

كان محمد بن يوسف بعد مرجع السلطان أبي حمو كما ذكرناه قد تغلب على جبل وانشرش ونواحيه واجتمع إليه الفل من مغراوة فاستفحل أمره، واشتدت في تلك النواحي شوكته.

وأهم السلطان أبا تاشفين أمره فاعتزم على النهوض إليه، وجمع لذلك وأزاح العلل.

وخرج من تلمسان سنة تسع عشرة وسبعمائة واحتشد سائر القبائل من زناتة والعرب، وأناخ على وانشرش وقد اجتمع به توجين ومغراوة مع محمد بن يوسف.

وكان بنو تيغرين من بني توجين بطانة ابن عبد القوي يرجعون في رئاستهم إلى عمر بن عثمان بن عطية حسبما نذكره وكان قد استخلص سواه من بني توجين دولته فأسفه بذلك، وداخل السلطان أبا تاشفين وواعده أن ينحرف عنه، فأتحم السلطان عليهم الجبل وأنحجروا جميعاً بمحصن توكال، فخالفهم عمر بن عثمان في قومه إلى السلطان بعد أن حاصروهم ثمانية، فتخرم الجمع واختل الأمر وانفض الناس فأتحم الحصن، وتقبض على محمد بن يوسف وجيء به أسيراً إلى السلطان وهو

وكان بنو الملاح هؤلاء قد استخلصهم السلطان لحجابته سائر أيامه، وكان مسمى الحجابة عندهم قهرمانه الدار والنظر في الدخل والخرج، وهم أهل بيت من قرطبة كانوا يحترفون فيها بسكة الدنانير والدرهم، وربما دفعوا إلى النظر في ذلك ثقة بأماناتهم، ونزل أولهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى وزادوا إليها الفلاحة واتصلوا بخدمة عثمان بن يغمراسن وابنه، وكان لهم في دولة أبي حمو مزيد حظوة وعناية، فولى على حجابته منهم لأول دولته محمد بن ميمون بن الملاح ثم ابنه محمد الأشقر من بعده ثم ابنه إبراهيم بن محمد من بعدهما، واشترك معه من قرابته علي بن عبد الله بن الملاح، فكانا يتوليان مهمة بداره ويحضران خلوته مع خاصته، فحضروا يومئذ مع السلطان بعد انقضاء مجلسه كما قلناه، ومعه من القرابة مسعود القتيل وحموش بن عبد الملك بن حنية.

ومن الموالي معروف الكبير ابن أبي الفتوح بن عنتر من ولد نصر بن علي أمير بني يزنات من توجين، وكان السلطان قد استوزره.

فلما علم أبو تاشفين باجتماعهم هجم ببطانته عليهم وغلبوا الحاجب على بابيه حتى وجوه متسايلين بعد أن استمسكوا من إغلاقه، حتى إذا توسطوا الدار اعتوروا السلطان بأسيانهم فقتلوه.

وخام أبو تاشفين عنها، فلم يعرجوا عليه ولاذ أبو سرحان منهم ببعض زوايا الدار، واستمكن من غلقها دونهم، فكسروا الباب وقتلوه، واستلحموا من كان هنالك من البطانة، فلم يفلت إلا الأقل وهلك الوزراء بنو الملاح واستيحت منازلهم.

وطاف الهاتف بسكك المدينة بأن أبا سرحان غدر بالسلطان، وأن ابنه أبا تاشفين ثار منه، فلم يخف على الناس الشأن.

وكان موسى بن علي الكردي قائد العساكر قد سمع الصيحة فركب إلى القصر، فوجده مغلقاً دونه، فظن الظنون فخشي استيلاء مسعود على الأمر فبعث إلى العباس بن يغمراسن كبير القرابة، فأحضره عند باب القصر حتى إذا مر بهم الهاتف واستيقن مهلك أبي سرحان، رد العباس على عقبه إلى منزله.

ودخل إلى السلطان أبي تاشفين، وقد أدركه الدهش من الواقعة فثبته ونشطه لحقه، وأجلسه بمجلس أبيه وتولى له عقد البيعة على قومه خاصة وعلى الناس عامة، وذلك آخر جمادى الأولى من تلك السنة.

وجهاز السلطان إلى مدفنه بمقبرة سلفه من القصر القديم،

وقتل مسامح مولاه، ورجع موسى بن علي بالفل، فاتهمه السلطان بالادهان وكان من نكبته ما نذكر في أخباره وسير العساكر سنة أربع وعشرين وسبعمائة فدخلت نواحي بجاية، ولقيه ابن سيد الناس فهزموه، ونجا إلى البلد.

وفد على السلطان سنة خمس وعشرين وسبعمائة مشيخة سليم: حمزة بن عمر بن أبي الليل وطالب بن مهلهل، الفحلان المتراحان في رئاسة الكعوب ومحمد بن مسكين من بني القوس كهراء حكيم، فاستحثوه للحركة واستصرخوه على إفريقية، وبعث معهم العساكر لنظر قائده موسى بن علي ونصب لهم إبراهيم بن أبي بكر الشهيد من أعيان الحفصيين.

وخرج مولانا السلطان أبو يحيى من تونس للقائهم وخشيمهم على قسنطينة فسابقهم إليها، فأقام موسى بن علي بعساكره على قسنطينة، وتقدم إبراهيم بن أبي بكر الشهيد في أحياء سليم إلى تونس فملكها كما ذكرناه في أخبارهم.

وامتنعت قسنطينة على موسى بن علي فأخرج عنها لخمس عشرة ليلة من حصارها وعاد إلى تلمسان.

ثم أغزاه السلطان سنة ست وعشرين وسبعمائة في الجيوش وعهد إليه بتدوين الضاحية ومحاصرة الثغور، فنازل قسنطينة وأفسد نواحيها. ثم رجع إلى بجاية فحاصرها، حتى إذا اعتزم على الإقلاع ورأى أن حصن بكر غير صالح لتجهيز الكتائب عليها لبعده، وارتاد للبناء عليها فيما هو أقرب منه، فاخط بمكان سوق الخميس على وادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب بها على بجاية، وجمع الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر، فتمت لأربعين يوماً وسموها تاميزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجل قبله وجدة، وأنزل بها عسكرياً تناهز ثلاثة آلاف، وأوعز السلطان إلى جميع عماله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إليها حيث كانت، والأدم وسائر المرافق حتى الملح، وأخذ الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم فقلت وطأنهم على بجاية واشتد حصارها وغلّت أسعارها.

وبعث مولانا السلطان أبو يحيى جيوشه وقواده سنة سبع وعشرين وسبعمائة فسلخوا إلى بجاية على جبل بني عبد الجبار، وخرج بهم قائدها أبو عبد الله بن سيد الناس إلى ذلك الحصن.

وقد كان موسى بن علي عند بلوغ خبرهم إليه استنفر الجنود من ورائه، وبعث إلى القواد قبله بالبراز فالتقى الجمعان بتاحية تاميزدكت، فأنكشف ابن سيد الناس ومات ظافر الكبير مقدم الموالي من العلوجي بباب السلطان واستبيح معسكرهم.

في مركبه فعدد عليه، ثم وخزه برمح، وتناوله الموالي برماحهم فأقصروه، وحمل رأسه على القنطرة إلى تلمسان، فنصب بشرفات البلد، وعقد لعمر بن عثمان على جبل واتشريس وعمال بني عبد القوي، ولسعبد العربي من مواليه على عمل المدينة.

وزحف إلى الشرق فأغار على أحياء رياح وهم بوادي الجنان حيث الثنية المفضية من بلاد حمزة إلى القبلة، وصبح أحياءهم فاكتسح أموالهم ومضى في وجهه إلى بجاية، فعرس بساحتها ثلاثاً وبها يومئذ الحاجب يعقوب بن عمر فامتعت عليه، فظهر له وجه المعذرة لأولياتهم في استحسانها لهم.

وقفل إلى تلمسان إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي كان فيها حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الأمر عن قومه برهة من الدهر

لما رجع السلطان أبو تاشفين من حصار بجاية سنة تسع عشرة وسبعمائة اعتمل في ترديد البعوث إلى قاصية الشرق، والإلحاح بالغزو على بلاد الموحدين، فأغزاه جيوشه سنة عشرين وسبعمائة فدخلوا ضواحي بجاية وقفلوا.

ثم غزاهم ثانية سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وعليهم موسى بن علي الكردي فأنتهى إلى قسنطينة وحاصرها فامتعت عليه فأفرج عنها، وأبتى حصن بكر لأول مضيق الوادي، وادي بجاية، وأنزل به العسكر لنظر يحيى بن موسى قائد شلف وقفل إلى تلمسان.

ثم نهض موسى بن علي ثلاثة سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة فدخل نواحي بجاية ونازلها أياماً وامتعت عليه فأفرج عنها.

وفد سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة على السلطان حمزة بن عمر بن أبي الليل كبير البدو بإفريقية صريحاً على صاحب إفريقية مولانا السلطان أبي يحيى، فبعث معه العساكر من زناتة وعامتهم من بني توجين وبني راشد، وأمر عليهم القواد وجعلهم لنظر قائده موسى بن علي الكردي، ففصلوا إلى إفريقية، وخرج السلطان للقائهم، فانهمزوا بنواحي مرجنة، وتحفظتهم الأيدي فاستلحموا،

كان لم تغن بالأمس، حسبما ذكرنا ذلك في أخباره.
والله تعالى أعلم.

الخبر عن معاودة الفتنة بين بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين بن أبي هو

كان السلطان أبو تاشفين قد عقد السلم لأول دولته مع السلطان أبي سعيد ملك المغرب، فلما انتقض عليه ابنه عمر في سنة اثنتين وعشرين وسبعائة من بعد المهادنة الطويلة من لدن استبداده بسجلماسة، بعث ابنه القعقاع إلى أبي تاشفين في الأخذ بحجزة أبيه عنه، ونهض إلى مراکش فدخلها.

وزحف إليه السلطان أبو سعيد فبعث أبو تاشفين قائده موسى بن علي في العسكار إلى نواحي تازي، فاستباح عمل كارت، واكسح زروعه وقفل.

واعتدها عليه السلطان أبو سعيد، وبعث أبو تاشفين وزيره داود بن علي بن مكن رسولاً إلى السلطان أبي علي بسجلماسة، فرجع عنه مغاضباً وجنح أبو تاشفين بعدها إلى التمسك بسلم السلطان أبي سعيد، فعقد لهم ذلك وأقاموا عليها مدة.

فلما وفد ابن مولانا السلطان أبي يحيى على السلطان أبي سعيد ملك المغرب، واتخذ الصهر بينهم كما ذكرناه في أخبارهم، وهلك السلطان أبو سعيد، نهض السلطان أبو الحسن إلى تلمسان بعد أن قدم رسله إلى السلطان أبي تاشفين في أن يقلع جيوشه عن حصار بجاية، ويتجافى للموحدين عن عمل تدلس فأبى وأساء الرد، وأسمع الرسل بمجلسه هجر القول.

وأفزع لهم الموالي في الشتم لمرسلمهم بمسمع من أبي تاشفين، فأحفظ ذلك السلطان أبو الحسن ونهض في جيوشه سنة اثنتين وثلاثين إلى تلمسان فتخطاها إلى تاسالة وضرب لها معسكره، وأطال المقامة وبعث المدد إلى بجاية مع الحسن البطوي من صنائعه، وركبوا في أساطيله من سواحل وهران ووافاهم مولانا السلطان أبو يحيى ببجاية وقد جمع لحرب بني عبد الواد وهدم تاميزدكت وجاء لموعد السلطان أبي الحسن معه أن يجتمعا بعساكرهما لحصار تلمسان، فنهض من بجاية إلى تاميزدكت وأجفل منها عسكر بني عبد الواد وتركوها قواء.

ولحقت بها عساكر الموحدين، فعاثروا فيها تخريباً ونهباً وانطلقت الأيدي على الأكساح بما كان فيها من الأقوات والأدم،

ولما سخط السلطان قائده موسى بن علي ونكبه كما نذكره في أخباره أغزى يحيى بن موسى السنوسي في العساكر إلى إفريقية ومعه القواد، فعاثروا في نواحي قسنطينة واثتهوا إلى بلد بونة ورجعوا.

وفي سنة تسع وعشرين وسبعائة بعدها وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين صريحاً، ووفد معه أو بعده عبد الحق بن عثمان، فحل الشول من بني مزين.

وكان قد نزل على مولانا السلطان أبي يحيى منذ سنين، فسخط بعض أحواله ولحق بتلمسان، فبعث السلطان معهم جميع قواده بجيوشه لنظر يحيى بن موسى.

ونصب لهم محمد بن أبي بكر بن أبي عمران من أعياص الخفصيين، ولقيهم مولانا السلطان أبو يحيى بالرياس من نواحي بلاد هواره، واغذّل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه، وانكشفت جموعه واستولوا على ظعائنه بما فيها من الحريم، وعلى ولديه أحمد وعمر، فبعثوا بهم إلى تلمسان، ولحق مولانا السلطان أبو يحيى بقسنطينة وقد أصابه بعض الجراحة في حومة الحرب، وسار يحيى بن موسى وابن أبي عمران إلى تونس، واستولوا عليها ورجع يحيى بن موسى عنهم بجموع زناتة لأربعين يوماً من دخولها، ففقل إلى تلمسان وبلغ الخبر إلى مولانا السلطان أبي يحيى بفقول زناتة عنهم، فنهض إلى تونس وأجهض عنها ابن أبي عمر بعد أن كان أوفد من بجاية على ملك الغرب ابنه أبا زكريا يحيى ومعه أبو محمد بن تافراكين من مشيخة الموحدين صريحاً على أبي تاشفين، فكان ذلك داعية إلى انتقاض ملكه كما نذكره بعد.

وداخل السلطان أبا تاشفين بعض أهل بجاية، ودلوه على عورتها، واستقدموه فنهض إليها ودخلها ونذر بذلك الحاجب ابن سيد الناس فسابقه إليها، ودخل يوم نزوله عليها، وقتل من اتهمه بالمداخلة فانحسم الداء.

وأقلع السلطان أبو تاشفين عنها، وولى عيسى بن مزروع من مشيخة بني عبد الراد على الجيش الذي بتاميزدكت، وأوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية من تاميزدكت فبناه بالياقوته من أعلى الوادي قبالة بجاية فأخذ بمخفها واشتد الحصار إلى أن أخذ السلطان أبو الحسن بحجزتهم، فانحفلوا جميعاً إلى تلمسان، وتنفس خنق الحصار عن بجاية.

ونهض مولانا السلطان أبو يحيى بجيوشه من تونس إلى تاميزدكت سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة فخر بها في ساعة من نهار

جناحا عسكره، وعقبا جحافلها وتهافت إليهم صقور بني مرين من كل جو، فانكشفت عساكر البلد ورجعوا القهقري، ثم ولوا الأديار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه، فكان الهالك يومئذ بالردم أكثر من الهالك بالقتل.

وهلك من بني توجين يومئذ كبير الحشم وعامل جبل وانشرش، ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدلتن وصاحب قلعة تاوعزدوت وما إليها من عملهم، وهما ما هما في زناته إلى أشباههما وأمثال استلحموا في هذه الوقائع فقص هذا اليوم جناح الدولة وحطم منها، واستمرت منازلة السلطان أبي الحسن إليها إلى آخر شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاقتمها يوم السابع والعشرين منه غلاباً.

ولما السلطان أبو تاشفين إلى باب قصره في لمة من أصحابه، ومعه ولدان عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي وعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من أعياص بني مرين، وهو الذي لحق بهم من تونس كما ذكرناه، وسيأتي ذكره وخبره.

ومعه يومئذ ابنا أخيه أبو رزين وأبو ثابت فمانعوا دون القصر مستعينين إلى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصي الرماح، فطيف بها، وغصت سكك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر، وكظت أبوابها بالزحام، حتى لقد كب الناس على أذقانهم وتواقفوا فوطشوا بالخوافر وتراكت أشلائهم ما بين البابين حتى ضاق المذهب ما بين السقف ومسلك الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهباً واكتساحاً، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع، واستدعى رؤوس الفتيا والشورى أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى ابني الإمام، قدمهما من أعماله لمكان معتقه في أهل العلم، فحضره ورفعا إليه أمر الناس وما نالهم من معرة ووعظاه فأجاب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك، فسكن الاضطراب وأقصر العيث وانتظم السلطان أبو الحسن أمصار المغرب الأوسط وعمله إلى سائر أعماله.

وتأخم الموحدين بشغوره وطمس رسم الملك لآل زيان ومعاليه، واستتب زناته عصياً تحت لوائه من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وأقظعهم ببلاد المغرب أسهاماً أدا لهم بها من تراثهم بأعمال تلمسان، فانقرض ملك آك يغمرا من برهة من الدهر إلى أن أعاده منهم أعياص سموا إليه بعد حين عند نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان كما ذكره، فأومض بارقه، وهبت ريحه، والله يؤتي ملكه من يشاء.

فُسفت وألصقت جدرانها بالأرض وتنفس غنق بجاية من الحصار، وانكمش بنو عبد الواد إلى ما وراء تخومهم.

وفي خلال ذلك انتقض أبو علي ابن السلطان أبي سعيد على أخيه، وصمد من مقره بسجلماسة إلى درعة، وقتك بالعمل وأقام فيها دعوته كما نذكر ذلك بعد.

وطار الخبر إلى السلطان أبي الحسن بمحله من تاسالة، فنكص راجعاً إلى المغرب لحسم دانه، وراجع السلطان أبو تاشفين عزه وانتسبط عساكره في ضواحي عمله، وكتب الكتائب وبعث بها مدداً للسلطان أبي علي.

ثم استنفر قبائل زناته وزحف إلى تخوم المغرب سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ليأخذ بحجزة السلطان أبي الحسن على أخيه، وانتهى إلى ثغر تاويرت ولقيه هناك تاشفين ابن السلطان أبي الحسن في كتيبة جمهرها أبوه معه هنالك لسد الثغور، ومعه منديل بن حماسة شيخ تيريين من بني مرين في قومه.

فلما برزوا إليه انكشف ورجع إلى تلمسان.

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه وقتله سنة أربع وثلاثين وسبعمائة جمع لغزو تلمسان وحصارها ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وقد استنفذ وسعه في الاحتفال بذلك وأحاطت بها عساكره وضرب عليها سياج الأسوار وسراذقات الخفافر أطبق عليهم، حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم.

وسرح كتائبه إلى القاصية من كل جهة، فتغلب على الضواحي وافتتح الأمصار جميعاً، وخرب وجدة كما يأتي ذكر ذلك كله.

وألح عليها بالقتال يغادها ويروحها، ونصب المجانيق وانحجز بها مع السلطان أبي تاشفين زعماء زناته من بني توجين وبني عبد الواد وكان عليهم في بعض أيامها اليوم المشهور الذي استلحمت فيه أبطاهم وهلك أمراؤهم.

وذلك أن السلطان أبا الحسن كان يياكرهم في الأسحار فيطوف من وراء أسواره التي ضرب عليهم شرطاً يرتب فيه المقاتلة وينتقف الأطراف ويسد الفروج ويصلح الخلل، وأبو تاشفين يبيت العيون في ارتصاد فرصة فيه، وأطاف في بعض الأيام متنبذاً عن الجملة فكمنوا له حتى إذا سلك ما بين الجبل والبلد انقضوا عليه يحسبونها فرصة قد وجدوها، وضايقوه حتى كاد سرعان الناس أن يصلوا إليه، وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحداناً، وركب ابنه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك

الخبر عن رجال دولته وهم موسى بن علي
ويحيى بن موسى ومولاه هلال وأوليتهم
ومصائر أمورهم واختصاصهم بالذكر لما
طار من شهرتهم وارتفع من صيتهم

فأما موسى بن علي الحجاب المالك مع السلطان، فأصله من قبيلة الكرد من أعاجم المشرق، وقد أشرنا إلى الخلاف في نسبهم بين الأمم.

وذكر المسعودي منهم أصنافاً سماهم في كتابه من الشاهجان والبرسان والكيكان إلى آخرين منهم، وأن مواطنهم ببلاد أذربيجان والشام والموصل، وأن منهم نصارى على رأي اليعقوبية وخوارج على رأي البراءة من عثمان وعلي انتهى كلامه.

وكان منهم طوائف بجبل شهرزور من عراق العرب وعامتهم يتقلبون في الرحلة ويتجمعون لسائماتهم مواقع الغيث، ويتخذون الخيام لسكنائهم من اللبود، وجل مكاسيهم الشاء والبقر من الأنعام، وكانت لهم عزة وامتناع بالكثرة ورياسات ببغداد أيام تغلب الأعاجم على الدولة واستبدادهم بالرياسة.

ولما طمس ملك بني العباس وغلب التتر على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة، وقتل ملكهم هلالون آخر خلفاء العباسيين، وهو المستعصم.

ثم ساروا في ممالك العراق وأعماله، فاستولوا عليها وعبر الكثير من الكرد نهر الفرات فراراً أمام التتر لما كانوا يدينون به من المجوسية وصاروا في إيالة الترك، فاستكف أشرافهم وبيوتاتهم من المقام تحت سلطانهم.

وأجاز منهم إلى المغرب عشرين يعرفان ببني لوين وبين تابير فيمن إليهم من الأتباع ودخلوا المغرب لآخر دولة الموحدين ونزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن تلقيهم وأكرم مثواهم، وأسنى لهم الجراية والأقطاع وأحلهم بالحل الرفيع من الدولة.

ولما انتفض أمر الموحدين مجدثان وصولهم صاروا إلى ملكة بني مرين، ولحق بعضهم بيغمراسن بن زيان، ونزع إلى صاحب إفريقية يومئذ المستنصر بيت من بني تابير لا أعرفهم، كان منهم محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار، صاحب مولانا السلطان أبي يحيى وآخرون غيره منهم وكان من أشهر من بقي في إيالة بني مرين منهم.

ثم من بني تابير علي بن حسن بن صاف وأخوه سلمان، ومن بني لوين خضر بن محمد، ثم بنو محمود، ثم بنو بوسة. وكانت رياسة بني تابير لسلمان وعلي، ورياسة لوين لخضر بن محمد.

وكادت تكون الفتنة بينهم كما كانت في مواطنهم الأولى، فإذا تعدوا للحرب توافت إليهم أشبايعهم من تلمسان، وكان نصالهم بالسهم لما كانت القسي سلاحهم.

وكانت من أشهر الوقائع بينهم وقعة بفاس سنة أربع وسبعين وستمائة، جمع لها خضر رئيس بني لوين وسليمان وعلي رئيسا بني تابير، واقتتلوا خارج باب الفتوح.

وتركهم يعقوب بن عبد الحق لشأنهم من الفتنة حياء منهم، فلم يعرض لهم.

وكان مهلك سلمان منهم بعد ذلك مرابطاً لثغر طريف عام تسعين وستمائة، وكان لعلي بن حسن ابنه موسى اصطفاه السلطان يوسف بن يعقوب، وكشف له الحجاب عن داره، وربي بين حرمة فتمكنت له دالة سخط بسببها بعض الأحوال مما لم يرضه، فذهب مغاضباً ودخل إلى تلمسان أيام كان يوسف بن يعقوب محاصراً لها، فتلقيها عثمان بن يغمراسن من التكرمة والترحيب بما يناسب محله من قومه ومنزلته من اصطناع السلطان.

وأشار يوسف بن يعقوب على أبيه باستمالاته فلقياه في حومة القتال وحادثه واعتذر له بكرامة القوم إياه، فحضه على الوفاء لهم، ورجع إلى السلطان فخبه الخبر فلم ينكر عليه.

وأقام هو بتلمسان وهلك أبوه علي بالمغرب سنة سبع وسبعمائة.

ولما هلك عثمان بن يغمراسن زاده بنوه اصطناعاً ومداخلة، وخلطوه بأنفسهم وعقدوا له على العساكر لمحاربة أعدائهم.

وولوه الأعمال الجليلة والرتب الرفيعة من الوزارة والحجاجة.

ولما هلك السلطان أبو حمو وقام بأمره ابنه أبو تاشفين، وكان هو الذي تولى له أخذ البيعة على الناس، وغص بمكانه مولاه هلال فلما استبد عليه وكان كثيراً ما يثافي موسى بن علي وينافسه، فخشي على نفسه، وأجمع على إجازة البحر للمرابطة بالأندلس، فبادره هلال وتقبض عليه وغربه إلى العدة ونزل بغرناطة، وانتظم في الغزاة المجاهدين وأمسك عن جراية السلطان فلم يمد إليها يد أيام مقامه، وكانت من أنزه ما جاء به وتحدث به

ويوتي من عرض مرسله، ولما خرجوا من الحصار أوفوا به على رتب الاصطناع والتتويه.

ولما ملك أبو تاشفين استعمله بشلف مستبداً بها وأذن له في اتخاذ الآلة.

ثم لما عزل موسى بن علي عن حرب الموحيدين وقاصية الشرق عزله به، وكانت المدينة وتنس من عمله.

فلما نازل السلطان أبو الحسن تلمسان راسله بالطاعة والكون معه، فتقبله وجاجاً به من مكان عمله، فقدم عليه بمخيمه على تلمسان، فاخضعه بإقباله ورفع مجلسه من بساطه، ولم يزل عنده بتلك الحال إلى أن هلك بعد افتتاح تلمسان والله مصرف الأقدار.

وأما هلال فأصله من سبي النصاري القطلونيين أهدها السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن، وصار إلى السلطان أبي حمو فأعطاه إلى ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من الموالي العلوجين، ونشأ معه تريباً، وكان مختصاً عنده بالمداخلة والدالة، وتولى كبر تلك القفلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو.

ولما ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولاه على حجابته، وكان مهيباً فظاً غليظاً، فقعده مقعد الفصل ببابه وأرهب للناس سطوته، وزحزح المرشحين عن رتب المائلة إلى التعلق بأهله، فاستولى على أمر السلطان.

ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب، فاستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هتين بعض السفن اشتراها بماله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة، وأقام كاتبه الحاج محمد بن حوتة بباب السلطان على رسم النيابة عنه، وأقلع سنة أربع وعشرين وسبعمئة فنزل بالإسكندرية وصحب الحاج من مصر في جملة الأمير عليهم، ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى، واستحكت بينهما المودة.

ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان فلم يجد مكانه من السلطان ولم يزل بعد ذلك يتنكر له وهو يسياسه بالمدارة والاستجداء إلى أن سخطه، فقبض عليه سنة تسع وعشرين وسبعمئة وأودعه سجنه، فلم يزل معتقلاً إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان، ومهلك السلطان بأيام، فكان آية عجباء في تقارب مهلكهما واقتران سعادتهما ونحوسهما.

وقد كان السلطان أبو الحسن يتبع الموالي الذين شهدوا مقتل السلطان أبي حمو، وأفلت هلال هذا من عقابه بموته والله بالغ حكمه.

الناس فأغربوا، وأنفذت جوانح هلال لها حسداً وعداوة، فأغري سلطانه فخطب ابن الأحمر في استقدامه، فأسلمه إليه.

واستعمله السلطان في حروبه وعلى قاصيته حتى كان من نهوضه بالعاكر إلى إفريقية للقاء مولانا السلطان أبي يحيى سنة سبع وعشرين وسبعمئة.

وكانت الدبرة عليه واستلحمت زناتة، ورجع في الفل فأغرى هلال السلطان وألقى في نفسه التهمة به.

ونمي ذلك إليه فلحق بالعرب الدواودة، وعقد مكانه على محاصرة بجاية ليحيى بن موسى صاحب شلف، ونزل هو على سليمان ويحيى ابني علي بن سباع بن يحيى من أمراء الدواودة المذكورين في أخبارهم فلقوه مبرة وتعظيماً، وأقام بين أحيائهم مدة، ثم استقدمه السلطان ورجعه إلى محله من مجلسه.

ثم قبض عليه لأشهر، وأشخصه إلى الجزائر فاعتقله بها وضيق عليه محبسه ذهاباً مع أغراض منافسة هلال، حتى إذا أسخط هلالاً استدعاه من محبسه أضيق ما كان، فانطلق إليه.

فلما قبض على هلال قلد موسى بن علي حجابته، فلم يزل مقيماً لرسمها إلى يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان، فهلك مع أبي تاشفين وبنيه في ساحة قصرهم كما قلناه وانقضى أمره والبقاء لله.

وانتظم بنوه بعد مهلكه في جملة السلطان أبي الحسن وكان كبيرهم سعيد قد خلص من بين القتلى في تلك الملحمة بباب القصر بعد هدم من الليل مثخنًا بالجراح، وكانت حياته بعدها تعد من الغرائب، ودخل في عفو السلطان إلى أن عادت دولة بني عبد الواد، فكان له في سرفها نفاق كما نذكره والله غالب على أمره.

وأما يحيى بن موسى فأصله من بني سنوس إحدى بطون كومية، ولهم ولاء في بني كمين بالاصطناع والترية.

ولما فصل بنو كمين إلى المغرب قعدوا عنهم واتصلوا ببني يغمراسن وأصطنعواهم، ونشأ يحيى بن موسى في خدمة عثمان وبنيه وأصطناعهم.

ولما كان الحصار ولاه أبو حمو مهمة من الطواف بالليل على الحرس بمقاعدهم من الأسوار، وقسم القوات على المقاتلة بالمقدار، وضبط الأبواب والتقدم في حومة القتال، وكان له أعوان على ذلك من خدامه قد لزموا الكون معه في البكر والأصاال والليل والنهار، وكان يحيى هذا منهم فعرفوا له خدمته وذهبوا إلى اصطناعه وكان أول ترشيحه ترديد أبي يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم فيما يدور بينهم من المضاربة، فكان يجلي في ذلك

الخبر عن انتزاع عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان وعود الملك بذلك لبني زيان

كان بنو جرار هؤلاء من فصائل تيدوكسن بن طاع الله وهم بنو جرار بن يعلى بن تيدوكسن، وكان بنو محمد بن زكندان يغصون بهم مذ أول الأمر، حتى صار الملك إليهم واستبدوا به، فجزروا على جميع الفصائل من عشائهم ذيل الاحتقار.

ونشأ عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار من بينهم مرموقاً بعين التجارة والرياسة، وسعى عند السلطان أبي تاشفين بأن في نفسه تطاولاً للرياسة فاعتقله مدة.

وفر من محبسه فلحق بملك المغرب السلطان أبي سعيد فآثر محله وأكرم نزله، واستقر بمواها فنسك وزهد.

واستأذن السلطان عند تغلبه على تلمسان في الحج بالناس فأذن له.

وكان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن على أعمال الموحدين، وحشد أهل المغرب من زناتة والعرب لدخول إفريقية اندرج عثمان هذا في جملة، واستأذنه قبيل القيروان في الرجوع إلى المغرب فأذن له ولحق بتلمسان فنزل على أميرها من ولده الأمير أبي عنان، كان قد عقد له على عملها، ورشحه لولاية العهد بولايته، فازدلف إليه بما يشه من الخبر عن أحوال أبيه، فتلطف فيما أودع سمعه من تورط أبيه في مهالك إفريقية، وإيأسه من خلاصه، ووعد بمصير الأمر إليه على السنة الحزى والكهان.

وكان يتظن فيه أن لديه من ذلك علماً، وعلى نفيسة ذلك كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان.

وظهر مصداق ظنه وإصابة قياسه فأغراه بالتوثب على ملك أبيه بتلمسان، والبدار إلى فاس لغلب منصور ابن أخيه أبي مالك عليها، وكان استعمله جده أبو الحسن هنالك وأراه آية سلطانه وشواهد ملكه، وتحيل في إشاعة مهلك السلطان أبي الحسن وإلقائه على الألسنة حتى أوهم صدقه.

وتصدى الأمير أبو عنان للأمر، وتسائل إليه الفل من عساكر بني مرين، فاستلحق ويث العطاء وأعلن بالدعاء لنفسه في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة وعسكر خارج تلمسان للنهوض إلى المغرب ثم استعمل عثمان بن جرار على تلمسان وعملها

وارتغل إلى المغرب كما نذكره في أخبارهم ولما فصل دعا عثمان لنفسه وانتزى على كرسية واتخذ الآلة وأعاد من ملك بني عبد الواد رسماً لم يكن لآل جرار، واستبد أشهراً قلائل إلى أن خلص إليه من آل زيان من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن من طمس معالمه، وخسف به وبداره، وأعاد أمر بني عبد الواد في نصابه حسبما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من آل يغمراسن وما كان فيها من الأحداث

كان الأمير أبو يحيى جد هما من أكبر ولد يغمراسن بن زيان، وكان ولي عهده بعد مهلك أخيه عمر الأكبر.

ولما تغلب يغمراسن على سجلماسة سنة إحدى وستين وستمائة استعمله عليها، فأقام بها أحوالاً وولد له هناك ابنه عبد الرحمن.

ثم رجع إلى تلمسان فهلك بها ونشأ عبد الرحمن بسجلماسة، ولحق بتلمسان بعد أبيه، فأقام مع بني أبيه إلى أن غص السلطان بمكانه وغربه إلى الأندلس، فمكث بها حيناً، وهلك في مرابطته بشتر قرمونة في بعض أيام الجهاد.

وكان له بنون أربعة: يوسف وعثمان والزعيم وإبراهيم، فرجعوا إلى تلمسان وأوطنوها أعواماً حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن على ملكهم، وأضاف إلى دولته دولتهم نقلهم من تلمسان إلى المغرب في جملة أعياصهم.

ثم سألوا إذنه في المرابطة بشغور الأندلس التي في عمله، فأذن لهم وفرض له العطاء وأزلهم بالجزيرة فكانت لهم في الجهاد مواقف مذكورة ومواطن معروفة.

ولما استنفر السلطان أبو الحسن زناتة لغزو إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كانوا في جملة مع قومهم بني عبد الواد وفي رأيهم، ومكانهم معلوم بينهم.

فلما اضطرب أمر السلطان أبي الحسن وتآلب عليه الكعوب من بني سليم أعراب إفريقية، وواضعوه الحرب بالقيروان، كان بنو عبد الواد أول النازعين عنه إليهم.

فلما كانت النكبة والحجز بالقيروان وانطلقت أيدي الأعراب على الضواحي وانتقض المغرب من سائر أعماله، أذنوا لبني عبد الواد في اللحاق بقطرهم ومكان عملهم، فمروا بتونس وأقاموا بها أياماً، وخلص الملا منهم نجياً في شأن أمرهم ومن

يقدمون عليهم فأصفقوا بعد الشورى على عثمان بن عبد الرحمن واجتمعوا عليه لعهد بهم يومئذ، وقد خرجوا به إلى الصحراء وأجلسوه بباب مصلى العيد من تونس على درقة.

ثم ازدحموا عليه بحيث توارى شخصه عن الناس، يسلمون عليه بالإمارة ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة حتى استكملوا جميعاً ثم انطلقوا به إلى رحالهم.

واجتمع مغراوة أيضاً إلى أميرهم علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن مندبل الذي ذكرناه من قبل، وتعاهدوا على الصحابة إلى أعمالهم والمهادنة آخر الأيام واستتار كل سلطانته وتراث سلفه، وارتحلوا على تهيئة ذلك جميعاً إلى المغرب.

وشنت البوادي عليهم الغارات في كل وجه، فلم يظفروا منهم بقلامة الظفر: مثل ونيف ونونة وبرية وأهل جبل بني ثابت.

ولما مروا ببجاية وكان بها فل من مغراوة وتوجين، نزلوا بها منذ غلبوا على أعمالهم، وصاروا في جند السلطان فارتحلوا معهم.

واعترضهم بجبل الزاب برابرة زواوة، فأوقعوا بهم وظهر من نغبتهم ويلائهم في الحروب ما هو معروف لأولئهم.

ثم لحقوا بشلف فتلقتهم قبائل مغراوة، وبإيعا سلطانهم علي بن راشد فاسترسق ملكه.

وانصرف بنو عبد الواد والأميران أبو سعيد وأبو ثابت بعد أن أحكموا العهد وأبرموا الوثائق مع علي بن راشد وقومه.

وكان في طريقهم بالبطحاء أحياء سويد ومن معهم من أحلافهم قد نزلوا هنالك مع شيخهم ونزار بن عريف، منهزمهم من تاسالة أمام جيوش السلطان أبي عنان فأجفلوا من هنالك، ونزل بنو عبد الواد مكانهم، وكان في جملتهم جماعة من بني جرار بن تيدوكسن كبيرهم عمران بن موسى، ففر إلى ابن عمه عثمان بن يحيى بن جرار بتلمسان فعقد له على حرب أبي سعيد وأصحابه، فنزع الجند الذين خرجوا معه إلى السلطان أبي سعيد.

وانقلب هو إلى تلمسان والقوم في أثره، فأدرك بطريقه وقتل.

ومر السلطان إلى البلد فثارت العامة بعثمان بن جرار فاستأمن لنفسه من السلطان فأمنه ودخل إلى قصر الملك آخر جمادى الآخرة من سنة تسع وأربعين وستمائة فاقتعد أركته وأصدر أوامره واستوزر واستكتب، وعقد لأخيه أبي ثابت الزعيم على ما وراء بابه من شؤون ملكهما، وعلى القليل والحروب، واقصر هو على القاب الملك وأسمائه ولزم الدعة.

وكان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان قد لحق بتونس، فأقام بها والعرب محاصرون له ينصبون الأعياص من الموحدين لطلب تونس واحداً بعد آخر كما ذكرناه في أخبارهم.

وبينما هو مؤمل الكرة ووصول المدد من المغرب الأقصى إذ بلغه الخبر بانتشار السلك أجمع، وبانتفاض ابنه وحافده، ثم استيلاء أبي عنان على المغرب كله، ورجوع بني عبد الواد ومغراوة

الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن

السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان قد لحق بتونس، فأقام بها والعرب محاصرون له ينصبون الأعياص من الموحدين لطلب تونس واحداً بعد آخر كما ذكرناه في أخبارهم.

وبينما هو مؤمل الكرة ووصول المدد من المغرب الأقصى إذ بلغه الخبر بانتشار السلك أجمع، وبانتفاض ابنه وحافده، ثم استيلاء أبي عنان على المغرب كله، ورجوع بني عبد الواد ومغراوة

وكان على إثر ذلك وصول السلطان أبي الحسن من تونس، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولحقه بعد الهزيمة بالمغرب

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان وحصار العرب إياه، قد طال مقامه بتونس واستدعاه أهل المغرب الأقصى وانتقض عليه أهل بلاد الجريد ويأبوا للفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى، فأجمع الرحلة إلى المغرب وركب السفن من تونس أيام الفطر من سنة خمسين وسبعماية فعصفت به الريح وأدركه الغرق، ففرق أسطوله على سواحل بجاية ونجا بدمائه إلى بعض الجزر هنالك، حتى لحقه أسطول من أساطيله، فنجا فيه إلى الجزائر وبها حو بن يحيى بن العسري قائده وصنيعة أبيه، فنزل عليه.

ويادر إليه أهل ضاحيتها من مليكش والتعالبة، فاستخدمهم ويث فيهم العطاء.

واتصل خبره بوزمار بن عريف وهو في أحياء سويد، فوفد عليه في مشيخة من قومه، ووفد معه نصر بن عمر بن عثمان صاحب جبل وانشرش من بني تيفرين، وعدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي الثائر بنواحي المدينة من ولد عبد القوي، فأعطوه الطاعة واستحثوه للخروج معهم، فردهم للحشد، فجمعوا من إليهم من قبائل العرب وزناتة.

وبينما الأمير أبو ثابت ببلاد مغراوة محاصراً لهم في معاقلمهم إذ بلغه الخبر بذلك في ربيع سنة إحدى وخمسين وسبعماية فعقد السلم معهم ورجع إلى قتال هؤلاء، فأخذ على منداس وخرج إلى السرسو قبله وانشرش.

وأجفل أمامه ونزمار وجويع العرب الذين معه، ولحق به هنالك مدد السلطان أبي عنان قائدهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي، فاتبع أبو ثابت آثار العرب وشردهم ولحق أحياء حصين بمعاقلهم من جبل تيطرى، ثم عطف على المدينة ففتحها وعقد عليها لعمران بن موسى الجلولي من صنائعهم.

ثم نهض إلى حصين فافتتح عليهم الجبل فلاذوا بالطاعة وأعطوا أبناءهم رهناً عليها، فتجاوزها إلى وطن حمزة فدوخها،

وتوجين إلى ملكهم بالمغرب الأوسط ووفد عليه يعقوب بن علي أمير الدواودة، فاتفق مع عريف بن يحيى، أمير سويد وكبير مجلس السلطان، على أن يغرياه ببعث ابنه الناصر إلى المغرب الأوسط للدعوة التي كانت قائمة بأمصاره في الجزائر ووهران وجبل وانشرش، وكان به نصر بن عمر بن عثمان بن عطية قائماً بدعوته، وأن يكون عريف بن نصر في جملة الناصر لكانه من السلطان ومكان قومه من الولاية.

وكان ذلك من عريف تفادياً من المقام بتونس فأجاب إليه السلطان وبعثهم جميعاً، ولحق الناصر ببلاد حصين فأعطوه الطاعة وارتحلوا معه، ولقيه العطاء والديلم وسويد فاجتمعوا إليه وتآلبوا معه، وارتحلوا يريدون منداس.

وبينما الأمير أبو ثابت يروم معارضة الغزو إلى وهران إذ فجأه الخبر بذلك، فطير به إلى السلطان أبي عنان وجاء العسكر من بني مرين مدداً صحبة أبي زيان ابن أخيه أبي سعيد، كان مستقراً بالمغرب منذ نهوضهم إلى القيروان وبعث عنه أبوه فجاء مع المدد من العساكر والمال، ونهض أبو ثابت من تلمسان أول الحرم سنة خمسين وسبعماية وبعث إلى مغراوة بالخبر فقعدها عن مناصرته، ولحق ببلاد العطاء فلقبه الناصر هنالك في جموعه بوادي ورك آخر شهر ربيع الأول، فانكشفت جموع العرب وانهزموا، ولحق الناصر بالزاب فنزل على ابن مزني بيسكرة إلى أن أصبح من رجالات سليم من أوصله إلى أبيه بتونس.

ولحق عريف بن يحيى بالمغرب الأقصى، واحتل عند السلطان أبي عنان مكانه من مجلسهم، فحصل على البغية ورجع العرب كلهم إلى طاعة أبي ثابت وخدمته، واستراب بصغير بن عامر بن إبراهيم فتقبض عليه وأشخصه معتقلاً مع البريد إلى تلمسان، فاعتقل بها إلى أن أطلق بعد حين.

وقفل أبو ثابت إلى تلمسان فتلوم بها أياماً، ثم نهض إلى وهران في جمادى من سته، فحاصرها أياماً، ثم افتتحها عنوة وعفا عن علي بن جانا القائم بها بعد مهلك أخيه عبو وعلى من معه، وأطلق سبيلهم واستولى على ضواحي وهران وما إليها، ورجع إلى تلمسان وقد استحكمت العداوة بينه وبين مغراوة، وكان قد استجرها ما قدمناه من قعودهم عن نصره، فنهض إليهم في شوال من سته والتقوا في عدوة وادي رهيو فاقتلوا ملياً.

ثم انكشفت مغراوة ولحقوا بمعاقلهم واستولى أبو ثابت على معسكرهم وملك مازونة، وبعث ببيعته إلى أخيه السلطان أبي سعيد.

الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت على بلادهم ثم على الجزائر ومقتل علي بن راشد بتنس على إثر ذلك

كان بين هذين الحين من عبد الواد ومغراوة فنن قديمة سائر
أيامهم، قد ذكرنا الكثير منها في أخبارهم.

وكان بنو عبد الواد قد غلبوهم على أوطانهم حين قتل
راشد بن محمد في جلانته أمامهم بين زواوة.

ولما اجتمعوا بعد نكبة القيروان على أميرهم علي بن راشد
وجاؤوا من إفريقية إلى أوطانهم مع بني عبد الواد، ولم يطيقوهم
حينئذ أن يغلبوهم رجعوا إلى توثيق العقد وتأكيد العهد فأبرموه
وأقاموا على المودة والتظاهر على عدوهم، وعروق الفتنة تنبض
في كل منهم.

ولما جاء الناصر من إفريقية وزحف إليه أبو ثابت، قعد عنه
علي بن راشد وقومه، فاعتدهم عليها وأسرها في نفسه.

ثم اجتمعوا بعد ذلك للقاء السلطان أبي الحسن حتى انهزم
ومضى إلى المغرب.

فلما رأى أبو ثابت أن قد كفى عدوه الأكبر وفرغ إلى عدوه
الأصغر نظر في الانتفاض عليهم.

فبينما هو يروم أسباب ذلك إذ بلغه الخبر أن بعض
رجال بني كمي من مغراوة جاؤوا إلى تلمسان ليغتالوه فحمي
لها أنفه وأجمع لحربهم.

وخرج من تلمسان فاتحة اثنتين وخمسين وسبعمائة وبعث في
أحياء زغبة من بني عامر وسويد، فجاءوه بفارسهم وراجلهم
وظعاتهم، وزحف إلى مغراوة فقاموا عن لقائه، وتحصنوا بالجبل
المطل على تنس، فحاصروهم فيه أياماً اتصلت فيهما الحروب
وتعددت الوقائع.

ثم ارتحل عنهم فجاء في نواحي البلد، ودوخ أقطارها،
وأطاعته مليانة والمدينة وورشك وشرشال.

ثم تقدم بمجموعه إلى الجزائر فأحاط بها وفيها فل بني مريـن
وعبد الله بن السلطان أبي الحسن، تركه هناك صغيراً في كفالة
علي بن سعيد بن أجانا، فغلبهم على البلد وأشخصهم في البحر
إلى المغرب، وأطاعته الثعالبية ومليكش وقبائل حصين.

وعقد على الجزائر لسعيد بن موسى بن علي الكردي،
ورجع إلى مغراوة فحاصروهم بمعتلهم الأول بعد أن انصرف

واستخدم قبائلها من العرب والبربر، والسلطان أبو الحسن أثناء
ذلك مقيم بالجزائر.

ثم قفل أبو ثابت إلى تلمسان وقد كان استراب ييجيى بن
رحو وعسكره من بني مريـن.

وأنهم داخلوا السلطان أبا الحسن وبعث فيه إلى السلطان
أبي عنان، فأداله بعيسى بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن
يعقوب فبعثه قائداً على الحصنة المرينية، فتقبض على ييجيى بن رحو
ولحقوا مع أبي ثابت بتلمسان.

ثم أجازوا إلى المغرب واعتز السلطان أبو الحسن بعد
منصرفهم بابنه الناصر مع أوليائه من زناتة والعرب فاستولى على
المدينة وقتل عثمان بن عيسى الجلولي.

ثم تقدم إلى مليانة فملكها، وإلى تيمزوغت كذلك.

وجاء على أثره السلطان أبو الحسن أبوه، وقد اجتمعت إليه
الجموع من زغبة وزناتة ومن عرب إفريقية سليم ورياح: مثل
محمد بن طالب بن مهلهل، ورجال من عشيره، وعمر بن علي بن
أحمد الدواودي، وأخيه أبي دينار، ورجالات من قومهما.

وزحف على هذه التعيبة وابنه الناصر أمامه، فأجفل علي
بن راشد وقومه مغراوة عن بلادهم إلى البطحاء، وطير الخبر إلى
أبي ثابت فوافاه في قومه وحشوده، وزحفوا جميعاً إلى السلطان أبي
الحسن، فالتقى الجمعان بتغمزين من شلف.

وصابروا ملياً، ثم انكشف السلطان أبو الحسن وقومه،
وطعن الناصر بعض فرسان مغراوة فأنبته وهلك آخر يومه.

وقتل محمد بن علي العزفي قائد أساطيله وابن البواق
والقبائلي كاتبه.

واستبيح معسكره وما فيه من متاع وحرم، وخلص بناته إلى
وانشريس، وبعث بهن أبو ثابت إلى السلطان أبي عنان بعد
استيلائه على الجبل.

وخلص السلطان أبو الحسن إلى أحياء سويد، بالصحراء
فنجابها ونزمار بن عريف إلى سجلماسة كما ذكره في أخباره،
ودوخ أبو ثابت بلاد بني توجين وقفل إلى تلمسان والله تعالى
أعلم.

المصاف.

وركب السلطان أبو عنان لثلاثي الأمر، فاجتمع إليه أوشاب من الناس وانتقض سائر المعسكر ثم زحف إليهم فيمن حضره وصدقهم القتال، فاختلف مصافهم ومنحوا أكتافهم وخاضوا بحر الظلمات.

واتبع بنو مريـن آثارهم وتقبض على أبي سعيد ليلتذ فقيد أسيراً إلى السلطان، فأحضره بمشهد الملأ ووجه ثم تل على محبسه وقتل لتاسعة من ليالي اعتقاله.

وارتحل السلطان أبو عنان إلى تلمسان، ونجا الزعيم أبو ثابت بمن معه من فل بني عبد الواد ومن خلص إليه منهم ذاهباً إلى بجاية ليجد في إيالة الموحدين وليجة من عدوه، فيئس زواوة في طريقه وأبعد عن صحبه وأرجل عن فرسه وذهب راجلاً عارياً ومعه رفقاء من قومه منهم أبو زيان محمد ابن أخيه السلطان أبي سعيد، وأبو حمو وموسى ابن أخيهم يوسف، ووزيرهم يحيى بن داود بن مكن وكان السلطان أبو عنان أوعز إلى صاحب بجاية يومئذ المولى أبي عبد الله حفيد مولانا السلطان أبي بكر بأن يأخذ عليهم الطرق، ويذكي في طلبهم العيون، فعثر عليهم بساحة البلد وتقبض على الأمير أبي ثابت الزعيم وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود وأدخلوا إلى بجاية.

ثم خرج صاحبها الأمير أبو عبد الله إلى لقاء السلطان أبي عنان، واقتادهم في قبضة أسره فلقبه بمعسكره من ظاهر المدينة، فأكرم وفادته وشكر صنيعة، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان فدخلها في يوم مشهود.

وحمل يومئذ أبو ثابت ووزيره يحيى على جملين يتهاديان بهما بين سماطي ذلك الحفل، فكان شأنهما عجباً.

ثم سبقا ثاني يومهما إلى مصرعهما بصحراء البلد، فقتلا قصصاً بالرماح وانقرض ملك آل زيان، وذهب ما أعاده لهم بنو عبد الرحمن هؤلاء من الدولة بتلمسان إلى أن كانت لهم الكرة الثالثة على يد أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن التمليلها إلى هذا العهد على ما سنذكره ونستوفي من أخباره إن شاء الله تعالى.

العرب إلى مشاتيها، فاشتد الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش، فانحطت دفعة واحدة من على أعلى الجبل تطلب المورد فأصابهم الدهش.

ونجا ساعتد علي بن راشد إلى تنس، فأحاط به أبو ثابت أياماً.

ثم اقتحمها عليه غلاباً منتصف شعبان من سنته، فاستعجل المنية ونحامل على نفسه فذبح نفسه، وانفترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعاً في القبائل وقفل أبو ثابت إلى أن كان من حركة السلطان على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان على

تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية

لما لحق السلطان أبو الحسن بالمغرب، وكان من شأنه مع ابنه أبي عنان إلى أن هلك بجبل هتانة على ما نذكره في أخبارهم.

فاستوسق ملك المغرب للسلطان أبي عنان وفرغ لعدوه وسما لاسترجاع الممالك التي انتزعها أبوه ممن توثب عليها، وكان قد بعث إليه علي بن راشد من مكان امتناعه بجبل تنس يسأل منه الشفاعة فرد أبو ثابت شفاعته وأحفظه ذلك وبلغه مقتل علي بن راشد فأجمع غزو تلمسان، ونذر بذلك أبو سعيد وأخوه، فخرج أبو ثابت لحشد القبائل من زناتة والعرب منتصف ذي القعدة، ونزل بوادي شلف.

واجتمع الناس عليه وواصلته هناك بيعة تدلس في ربيع من سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة.

غلب عليها الموحدين جابر الخراساني من صنائعهم، وبلغه من مكانه ذلك زحف السلطان أبي عنان فرجع إلى تلمسان، ثم خرج إلى المغرب.

وجاء على أثره أخوه السلطان أبو سعيد في العساكر من زناتة ومعه بنو عامر من زغبة والفـل من سويد، إذ كان جمهورهم قد لحقوا بالمغرب لمكان عريف بن يحيى وابنه من ولاية بني مريـن، فزحفوا على هذه التـعية وزحف السلطان أبو عنان في أمم المغرب من زناتة والعرب المعقل والمصامدة وسائر طبقات الجنود والحشد، وانتـهوا جميعاً إلى أنكاد من بسيط وجدة، فكان اللقاء هنالك آخر ربيع الثاني من سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المعسكر وقت القائلة، وبعد ضرب الأبنية وسقاء الركاب وانفراق أهل المعسكر في حاجاتهم، فأعجلوهم عن ترتيب

الخبر عن دولة السلطان أبي حمو الأخير

مدبل الدولة بتلمسان في الكرة الثالثة

لقومه وشرح ما كان فيها من الأحداث

لهذا العهد

كان يوسف بن عبد الرحمن هذا في إيالة أخيه السلطان أبي سعيد بتلمسان هو وولده أبو حمو موسى وكان متكاسلا عن مراتب الظهور، متجافياً عن التهالك في طلب العز جاعاً إلى السكون ومذاهب أهل الخير، حتى إذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين، وتغلب السلطان أبو عنان عليهم وابتزهم ما كان بأيديهم من الملك، وخلص ابنه أبو حمو موسى مع عمه أبي ثابت إلى الشرق، وقذفت النوى بيوسف مع أشراف قومه إلى المغرب فاستقر به.

ولما تقبض على أبي ثابت بوطن بجاية أغفل أمر أبي حمو بينهم ونبت عنه العيون، فتجا إلى تونس ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين، فأكرم نزله وأحله بمكان أعياص الملوك من مجلس سلطانه ووفر جرابته، ونظم معه آخرين من فل قومه، وأوعز السلطان أبو عنان إليه بإنزعاجهم عن قرارهم في دولته، فحمي لها أنفه وأبى عن المضيمية لسلطانه، فأغرى ذلك السلطان أبا عنان بمطالبتة، وكانت حركته إلى بلاد إفريقية ومناذلة العرب من رياح وسليم لعهدته وتقصهم لطاعته كما نستوفي أخباره.

ولما كانت سنة تسع وخمسين وسبعماية قبل مهلكه اجتمع أمراء الدواودة من رياح إلى الحاجب أبا محمد بن تافراكين، ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بن يوسف بالمغرب من غرته، وأنهم ركابه لذلك ليحلب على نواحي تلمسان، ويحصل للسلطان أبي عنان شغلاً عنهم وسالوه أن يجهز عليه ببعض آلة السلطان.

ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة في هذا الشأن، وكان يومئذ في أحياء يعقوب بن علي وجواره، فأصلح الموحدون شأنه بما قدروا عليه ودفعوه إلى مصاحبة صغير وقومه من بني عامر، وارتحل معهم من الدواودة، عثمان بن سباع ومن أحلافهم بني سعيد دعار بن عيسى بن رحاب وقومه ونهضوا بجمعهم يريدون تلمسان وأخذوا على القفر ولقيهم أثناء طريقهم الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان فتويت عزائمهم على ارتجاع ملكهم، ورجع عنهم صولة بن يعقوب.

وأغذ السير إلى تلمسان وبها الكتائب المجرمة من بني مرين، واتصل خبر أبي حمو بالوزير الحسن من عمر القائم بالدولة من بعد مهلك السلطان أبي عنان، والمتغلب على ولده السعيد الخليفة من بعده، فجهز المدد إلى تلمسان من الحامية والأموال، ونهض أولياء الدولة من أولاد عريف بن يحيى أمراء البدو من العرب في قومهم من سويد ومن إليهم من العرب لمدافعة السلطان أبي حمو وأشباعه، فانفض جمعهم وغلبوا على تلك المواطن واحتل السلطان أبو حمو وجموعه بساحة تلمسان، وأناخوا ركائبهم عليها، ونزلوها ثلاثاً، ثم اقتحموها في صبيحة الرابعة، وخرج ابن السلطان أبي عنان الذي كان أميراً عليها في لمة من قومه، فنزل على صغير بن عامر أمير القوم، فأحسن تجلته وأصبحه من عشيرته إلى حضرة أبيه، ودخل السلطان أبو حمو إلى تلمسان يوم الأربعاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ستين وسبعماية واحتل منها بقصر ملكه، واقتعد أركيته، وبويع بيعة الخلافة، ورجع إلى النظر في تمهيد جوانب ملكه وأخرج بني مرين عن أمصار مملكته. والله أعلم.

الخبر عن إجفال أبي حمو عن تلمسان أمام

عساكر المغرب ثم عودته إليها

كان القائم بأمر المغرب من بعد السلطان أبي عنان وزيره الحسن بن عمر كافل ابنه السعيد الذي أخذ له البيعة على الناس، فاستبد عليه وملك أمره، وجرى على سياسة السلطان المهالك واقتنى أثره في الممالك الدانية والقاصية في الحماية والنظر لهم وعليهم.

ولما اتصل به خبر تلمسان وتغلب أبي حمو عليها قام في ركائبه وشاور الملا في النهوض إليه، فأشاروا عليه بالعود وتسريح الجنود والعساكر، فسرح لها ابن عمه مسعود بن رحو بن علي بن عيسى بن ماساي من بني فردود وحكمه في اختيار الرجال واستجادة السلاح وبذل الأموال واتخاذ الآلة، فزحف إلى تلمسان واتصل الخبر بالسلطان أبي حمو وأشباعه من بني عامر، فأفرج عنها ولحق بالصحراء.

ودخل الوزير مسعود بن رحو تلمسان وخالفه السلطان أبو حمو إلى المغرب، فنزل ببسيط أنكاد.

وسرح إليهم الوزير مسعود بن رحو ابن عمه عامر بن عو بن ماساي في عسكر من كتائبه ووجوه قومه، فأوقع بهم العرب

المغرب، وتوثب أبو عثان على الأمر، وبيع له بتلمسان واستجمع حافده منصور بن أبي مالك عبد الواحد لدفاعته، وحشد حاميه الثغور للقاءه، وانقضت جموعه بتأزى وخلص إلى البلد الجديد ونازله، وكان عبد الله بن مسلم في جملته.

ولما نازله السلطان أبو عثان واتصلت الحرب بينهم أياماً، كان له فيها ذكر.

ولما رأى أنهم أحيط بهم، سبق الناس إلى السلطان أبي عثان فرعى سابقتها وقلده عمل درعة، فاضطلع بها مدة خلافته وتأكدت له أيام ولايته مع عرب المعقل وصلة وعهد ضرب بهما في مؤاخاتهم بهم.

وكان السلطان أبو عثان عند خروج أخيه أبي الفضل عليه لحقه بجبل ابن حمدي من معقل درعة، أوعز إليه بأن يعمل الخيلة في القبض عليه، فداخل ابن حمدي ووعده وبذل له فأجاب وأسلمه وقاده عبد الله بن مسلم أسيراً إلى أخيه السلطان أبي عثان فقتله.

ولما استولى السلطان أبو سالم رفيق أبي الفضل في مشوى اغتراهما بالأندلس على بلاد المغرب من بعد مهلك السلطان أبي عثان، وما كان أثره من الخطوب، وذلك آخر سنة ستين وسبعماية خشيته ابن مسلم على نفسه، ففارق ولايته ومكان عمله وداخل أولاد حسين أمراء المعقل في النجاة به إلى تلمسان فأجابوه، ولحق بالسلطان أبي حمو في ثروة من المال وعصبة من العشير وأولياء من العرب، فسر بمقدمه وقلده لحينه وزارته وشد به أواخيه سلطانه، وفوض إليه تدبير ملكه، فاستقام أمره وجمع القلوب على طاعته وجأجأ بالمعقل من مواطنهم الغريبة، فأقبلوا إليه وعكفوا على خدمته وأقطعهم بمواطن تلمسان وأخى بينهم وبين زغبة، فعلا كعبه واستفحل أمره، واستقامت رياسته إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان ورجوعه إلى المغرب بعد أن ولي عليها أبا زيان حافد السلطان أبي تاشفين وما آل أمره

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحا أثره الخوارج على الدولة، سما إلى امتداد ظله إلى أقصى تخوم زناتة كما كان لأبيه وأخيه، وحركه إلى ذلك ما كان من فرار عبد الله

وأبو حمو ومن معهم واستباحوهم.

وطار الخبر إلى تلمسان واختلفت أهواء من كان بها من بني مرين، وبدا ما كان في قلوبهم من المرض لتغلب الحسن بن عمر على سلطانهم ودولتهم، فتحيزوا زرافات لمبايعة بعض الأعياص من آل عبد الحق.

وفطن الوزير مسعود بن رحو لما دبروه، وكان في قلبه مرض من ذلك فاغتنمها وبيع لمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق كبير الأعياص المنفرد بالتجلة.

وارتحل به ويقومه من بني مرين إلى المغرب، وتحافى عن تلمسان وشأنها واعترضهم عرب المعقل في طريقهم إلى المغرب، فأوقع بهم بنو مرين وصمموا لطيتهم، ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان، واستقر بحضرته ودار ملكه، ولحق به عبد الله بن مسلم فاستوزره واستنم إليه فاشتد به أزره وغلب على دولته كما نذكره إلى أن هلك، والبقاء لله وحده.

الخبر عن مقدم عبد الله بن مسلم من مكان عمله بدرعة ونزوعه من إيالة بني مرين إلى أبي حمو وتقليده إياه الوزارة وذكر أوليته ومصائر أموره

كان عبد الله بن مسلم هذا من وجوه بني زردال من بني بادين إخوة بني عبد الواد وتوجين ومصاب، إلا أن بني زردال اندرجوا في بني عبد الواد لقتلهم واختلطوا بنسبهم، ونشأ عبد الله بن مسلم في كفالة موسى بن علي لعهد السلطان أبي تاشفين مشهوراً بالبسالة والإقدام، طار له ذكر وحسن بلاؤه في حصار تلمسان.

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على بني عبد الواد وابتزهم وملكهم استخدمهم، وكان يتقي أولي الشجاعة والإقدام منهم، فيرمي بهم ثغور المغرب، ولما اعترض بني عبد الواد ومر به عبد الله هذا ذكر له شأنه وتعت بياسه، فبعثه إلى درعة واستوصى عاملها به، فكان له عنه غناء في مواقفه مع خوارج العرب ببلاء حسن، جذب ذلك بضبيعة، ورقى عند السلطان منزلته، وعرفه على قومه.

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان ومرج أمر

إبناء وزرائهم مبايعاً لولد السلطان أبي الحسن واحداً بعد آخر كما تذكره عند ذكر أخبارهم إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله

كان أبو زيان هذا، وهو محمد بن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، لما قبض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيرهم يحيى بن داود ببجاية من أعمال الموحدين، وسبقوا إلى السلطان أبي عنان، قتل أبا ثابت ووزيره واستبقوا محمداً هذا وأودعه السجن سائر أيامه، حتى إذا هلك واستوسق أمر المغرب لأخيه أبي سالم من بعد خطوط وأهوال يأتي ذكرها، امتن عليه السلطان أبو سالم وأطلقه من الاعتقال ونظمه بمجلسه في مراتب الأعياص وأعد له لمزاحمة ابن عمه.

وحدث بينه وبين السلطان أبي حمو سنة اثنتين وستين وسبعمئة بين يدي مهلكة نكراء بعد مرجعه من تلمسان، ومرجع أبي زيان حافد السلطان أبي تاشفين من بعده، فحقق السعي فيما نصبه له، وسما له في أبي زيان هذا أمل أن يستأثر بملك أبيه، ورأى أن يحسن الصنيع فيه فيكون فيته له، فأعطاه الآلة ونصبه للملك، وبعث إلى وطن تلمسان، وانتهى إلى تازي ولحقه الخبر هناك بمهلك السلطان أبي سالم.

ثم كانت فتن وأحداث تذكرها في محلها.

وأجلب عبد الحليم بن السلطان أبي علي بن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق على فاس، واجتمع إليه بنو مريس ونازلوا البلد الجديد.

ثم انقض جمعهم ولحق عبد الحليم بنزاري كما تذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

ورجا من السلطان أبي حمو المظاهرة على أمره فراسله في ذلك واشترط عليه كبح ابن عمه أبي زيان فاعتقله مرضاة له، ثم ارتحل إلى سجلماسة كما تذكره بعد ونازله في طريقه أولاد حسين من المعقل بجلهم وأحيائهم فاستقبل أبو زيان ذات يوم التوكلين به، ووثب على فرس قائم حذاءه وركضه من معسكر عبد الحليم إلى حلة أولاد حسين مستجيراً بهم، فأجاروه.

ولحق ببني عامر على حين، وجفوة كانت بين السلطان أبي حمو وبين خالد بن عامر أميرهم ذهب لها مغاضباً، فأجلب به على

بن مسلم إلى تلمسان بجبابة عمله، فأجمع أمره على النهوض إلى تلمسان وعسكر بظاهر فاس متصفاً إحدى وستين وسبعمئة وبعث في الحشود تفرقت ببابه واكتملت.

ثم ارتحل إليها، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو ووزيره عبد الله بن مسلم فنادوا في العرب من زغبة والمعقل كافة فأجابوهم إلا شردمة قليلة من الأحلاف، وخرجوا بهم إلى الصحراء ونازل حللهم بعسكره.

ولما دخل السلطان أبو سالم وبنو مريس تلمسان خالفوهم إلى المغرب فنزلوا وطاط وبلاد ملوية وكرسيف، وحطموا زروعها وانتسفوا أقواتها وخرّبوا عمرانها.

وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من صنيعهم، فأهمه أمر المغرب وأجلب المفسدين عليه.

وكان في جملة من آل يغمراسن محمد بن عثمان بن السلطان أبي تاشفين ويكنى بأبي زيان، ويعرف بالقبي ومعناه العظيم الرأس فدفعه للأمر وأعطاه الآلة وكتب له كتية من توجين ومغراوة كانوا في جملة، ودفع إليه أعطيائهم وأنزله أبيه بتلمسان وانكفأ راجعاً إلى حضرته، فأجفلت العرب والسلطان أبو حمو أمامه وخالفوه إلى تلمسان فأجفل عنها أبو زيان وتحيز إلى بني مريس بامصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وأوليائهم من بني توجين وسويد من قبائل زغبة ودخل السلطان أبو حمو ووزيره عبد الله بن مسلم إلى تلمسان، وكان صغير بن عامر هلك في مذهبهم ذلك.

ثم خرجوا فيمن إليهم من كافة العرب المعقل وزغبة في اتباع أبي زيان ونازلوا بجبل واتشريس فيمن معه إلى أن غلبوه عليه وانقض جمعه، ولحق بمكانه من إيالة بني مريس بفاس.

ورجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مريس، فافتتح كثيرها وغلب على مليانة والبطحاء.

ثم نهض إلى وهران ونازلها أياماً واقتحمها غلاباً، واستلحم بها من بني مريس عدداً.

ثم غلب على المدينة والجزائر، وأزعج عنها بني مريس فلحقوا باوطانهم.

وبعث رسله إلى السلطان أبي سالم فعقد معه السلم ووضعوا أوزار الحرب.

ثم كان مهلك السلطان أبي سالم سنة اثنتين وستين وسبعمئة، وقام بالأمر من بعده عمر بن عبد الله بن علي من

تلمسان.

وسرح إليهم السلطان أبو حمو عسكرياً فشردهم عن تلمسان.

ثم بذل المال لخالد بن عامر على أن يقصيه إلى بلاد رياح، ففعل وأوصله إلى بلاد الدواودة فأقام فيهم.

ثم دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد وصاحب وطن حمزة وبني حسن وما إليه، ونصبه للأمر مشافهة وعناداً للسلطان أبي حمو.

ونفض إليه الوزير عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد وحشود العرب وزناتة فأيقن أبو الليل بالغلب وبذل له الوزير المال وشرط له التجاني عن وطنه على أن يرجع عن طاعة أبي زيان ففعل، وانصرف إلى بجاية ونزل على المولى أبي إسحاق ابن مولانا السلطان أبي يحيى أكرم نزل، ثم وقعت المراسلة بينه وبين السلطان أبي حمو وتمت المهادنة وانعقد السلم على إقصاء أبي زيان عن بجاية المتاخمة لوطنه، فارتحل إلى حضرة تونس.

وتلقاه الحاجب أبو محمد بن تافراكين، قيوم دولة الحفصيين لذلك العهد من المبرة والترحيب وإسناء الجراية به، وترفع المنزلة بما لم يعهد بمثله من الأعياص.

لم يزل حاله على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم أبي زيان حافد السلطان

أبي تاشفين ثانية من المغرب إلى تلمسان

لطلب ملكها وما كان من أحواله

كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة فيشة لبني مرين وشيعة من عهد أميرهم عريف بن يحيى مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عثان، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوهم من بني مرين مع صاغية الدولة لبني عامر أقاتهم، فكانوا منابذين لبني عبد الواد آخر الأيام، وكان كبيرهم ونزمار بن عريف أوطن كرسيف في جوار بني مرين، مذ مهلك السلطان أبي عثان، وكان مرموقاً لديهم بعين التجلة يرجعون إلى رأيه ويستقيمون إلى قوله.

وأهمه شأن إخوانه في موطنهم ومع أقاتهم بني عامر، فاعتزم على نقض الدولة من قواعدهما، وحمل صاحب المغرب عمر بن عبد الله على أن يسرح محمد بن عثمان حافد أبي تاشفين

للمعاودة الطلب بملكه، ووافق ذلك نفرة استحكمت بين السلطان أبي حمو وأحمد بن رحو بن غانم كبير أولاد حسين من المعقل بعد أن كانوا فيئة له ولوزير عبد الله بن مسلم، فاغتنمها عمر بن عبد الله وخرج أبو زيان محمد بن عثمان سنة خمس وستين وسبعماية فنزل في حقل المعقل بملوية.

ثم نهضوا إلى وطن تلمسان وارتاب السلطان أبو حمو بخالد بن عامر أمير بني عامر فتقبض عليه وأودعه المطبق، ثم سرح وزيره عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد والعرب، فأحسن دفاعهم وانقضت جموعهم ورحلهم إلى ناحية الشرق، وهو في اتباعهم إلى أن نزلوا بالمسيلة من وطن رياح، وصاروا في جوار الدواودة.

ثم نزل بالوزير عبد الله بن مسلم داء الطاعون الذي عاود أهل العمران عامئذ من بعد ما أهلكهم سنة سبع وأربعين وسبعماية قبلها، فأنكفأ به ولده وعشيرته راجعين، وهلك في طريقه وأوصلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها.

وخرج السلطان أبو حمو لمدافعة عدوه وقد فتى مهلك عبد الله في عضده.

ولما انتهى إلى البطحاء وعسكر بها، ناجزته جموع السلطان أبي زيان الحرب وأطلت راياته على المعسكر فداخلهم العرب وانفضوا، وأعجلهم الأمر عن أنيتهم وأزودتهم، فتركوها وانفضوا وتسلل أبو حمو يبغي النجاة إلى تلمسان وأضرب أبو زيان فسطاطه بمكان معسكره، وسابقه أحمد بن رحو أمير المعقل إلى منجاته فلحقه بسبك وكر إليه السلطان أبو حمو فيمن معه من خاصته، وصدقه الدفاع فكبا به فرسه وقطع رأسه.

ولحق السلطان أبو حمو بحضرته وارتحل أبو زيان والعرب في اتباعه إلى أن نازلوا بتلمسان أياماً.

وحدثت المنافسة بين المعقل وزغبة، وأسف زغبة استبداد المعقل عليهم وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم، فاغتنمها أبو حمو وأطلق أميرهم خالد بن عامر من مجبسه، وأخذ عليه الموثق من الله ليخذل الناس عنه ما استطاع، وليرجعن بقومه عن طاعة أبي زيان وليفرقن جموعه، فوفى له بذلك ونفس عليه المختق وتفرقت أحزابهم ورجع أبو زيان إلى مكانه من إيالة بني مرين واستقام أمر السلطان أبي حمو وصلحت دولته بعد اللاتيات، إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي حو على ثغور المغرب

كان وزمار من عريف متولي كبر هذه الفتى على أبي حو، وبعث الأعياص عليه واحداً بعد واحد، بما كان بينهم من العداوة المتصلة كما قدمناه.

وكان منزله كرسيف من ثغور المغرب.

وكان جاره محمد بن زكدان كبير بني علي من بني ونكاسن المواطنين بجبل دبدو، وكانت أيديهما عليه واحدة فلما سكن غرب النوار عنه وأزاحهم عن وطنه إلى المغرب، وانعقد سلمه معهم، رأى أن يغزو هذين الأميرين في ثغورهما، فاعتمل الحركة إلى المغرب فاتح سنة ست وستين وسبعمئة وانتهى إلى دبدو وكرسيف، وأجفل وزمار وامتنع بمعاقل الجبال، فانتهب أبو حو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي.

وقصد محمد بن زكدان أيضاً في معقل دبدو فامتنع بمحصنه الذي اتخذ هناك، وعاج عليه أبو حو بركابه، وجاس خلال وطنه، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلده، وانكفأ راجعاً إلى حضرته، وقد عظمت في نخوم بني مرين وثغورهم نكايته، وثقلت عليهم وطأته، وانعقدت بينهما تعديل المهادنة والسلام.

انصرفت عزائمه إلى بلاد إفريقية، فكانت حركته إلى بجاية من العام المقبل ونكبه عليها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي حو إلى بجاية ونكبه عليها

كان صاحب بجاية المولى الأمير أبو عبد الله لما استولى عليها وعادت إليه العودة الثانية سنة خمس وستين وسبعمئة كما ذكرناه في أخباره، زحف بعدها إلى تدلس، فغلب عليها بني عبد الواد، وأنزل بها عامله وحاميته.

ثم أظلم الجو بينه وبين صاحب قسنطينة السلطان أبي العباس بن عمه الأمير أبي عبد الله لما جرت بينهم المناخة في العمالات، فنشأت بينهما فتى وحروب شغل بها عن حماية تدلس، وألحت عليها عساكر بني عبد الواد بالحصار.

وأحيط بها فاوئذ رسله على السلطان أبي حو صاحب تلمسان في المهادنة على النزول له عن تدلس، فتسلمها أبو حو وأنزل بها حاميته وعقد معه السلم وأصهر إليه في ابنته فأجابته،

وزفها إليه فتلهاها قبيله ووزراؤه بآخر عملهم من حدود بجاية. وفرغ صاحب بجاية لشأنه، وكان أثناء الفتنة معه قد بعث إلى تونس عن أبي زيان ابن عمه السلطان أبي سعيد لينزله بتدلس، ويشغل به السلطان أبا حو عن قنته.

وكان من خبر أبي زيان هذا أنه أقام بتونس بعد مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه إلى أن دس إليه مرضى القلوب من مشيخة بني عبد الواد بتلمسان بالأجلا ب على السلطان أبي حو.

ووعده عن أنفسهم الجنوح معه، فصنى إليها واعتدها وارتحل يريد نخوم تلمسان وعمل بجاية.

ومر بقسنطينة فتجافى عن الدخول إليها، وتكر لصاحبها، وبلغ خبره السلطان أبا العباس صاحبها يومئذ فأجمع أمره في صده عن وجهه، وحجسه بقسنطينة واتصلت الفتنة بينه وبين ابن عمه صاحب بجاية، وكان شديد الوطأة على أهل بلده مرهف الحد لهم بالعقاب الشديد، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يستكمل ستين في ملكه، فاستحكمت النفرة وساءت الملكة، وأعضل الداء وفزع أهل البلد إلى مداخلة السلطان أبي العباس في استقازهم من ملكة العسف والهلاك، بما كان أتيح له من الظهور على أميرهم، فنهض إليها آخر سنة سبع وستين وسبعمئة وبرز الأمير أبو عبد الله للقائه بلبرو الجبل المطل على تآكررت وصبحه السلطان أبو العباس بمعسكره هنالك، فاستولى عليه وركض هو فرسه ناجياً بنفسه.

ومرت الجنود تعادي في أثره حتى أدركوه، فأحاطوا به وقتلوه قعصاً بالرماح عفا الله عنه.

وأجاز السلطان أبو العباس إلى البلد فدخلها منتصف يومه لعشرين من شعبان، ولأذ الناس به من دهش الواقعة وتمسكوا بدعوته، وأتوه طاعتهم، فانجلت الغيابة واستقام الأمر، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حو فأظهر الامتناع لمملكه والقيام بشأه ويسر من ذلك حسوا في ارتغاء ونهض يجر الأمم إلى بجاية من العرب وزناته والحشد حتى أتاه بها وملاً بخيامه الجهات بساحتها، وجنح السلطان إلى مبارزته، فتمسك به أهل البلد ولاذوا بمقامه فأسعفهم وطير البريد إلى قسنطينة، فأطلق أبا زيان من الاعتقال وسوغه الملابس والمراكب والآلة، وزحف به مولاة بشير في عسكر إلى أن نزل حذاء معسكر أبي حو واضطربوا فحلتهم بسفح بني عبد الجبار وشنوا الغارات على معسكر أبي حو صباح ومساء لما كان غي إليهم من مرض قلوب جنده والعرب الذين معه.

الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من بلاد حصين وتغلبه على المدينة والجزائر ومليانة وما كان من الحروب معه

لما انهزم السلطان أبو حو بساحة بجاية عشي يومه من أوائل ذي الحجة، خاتم سبع وستين وسبعائة قرع الأمير أبو زيان طوبله واتبع أثره، وانتهى إلى بلاد حصين من زغبة.

وكانوا ستمين من الهزيمة والعسف إذا كانت الدول تجرهم مجرى الرعايا المعتدة في المغرب، وتعذل بهم عن سبيل إخوانهم من زغبة أمامهم ووراءهم فارتكبوا صعب الشقاق لمغبة العز وبأيحوه على الموت الأحمر ووثقوا بمعصمهم من جبل تيطري أن دهمتهم عسكر السلطان.

ثم أجلبوا على المدينة وكان بها عسكر ضخم للسلطان أبي حو لنظر وزرائه: عمران بن موسى بن يوسف، وموسى بن برغوث، ووادفل بن عبر بن حماد، ونالوهم أياماً ثم غلبوهم على البلد.

وملكها الأمير أبو زيان ومن على الوزراء ومشيجة بني عبد الواد وترك سيلهم إلى سلطانهم، وسلك الثعالبية في سبيل حصين في التجافي عن ذل المغرب، فأعطوه يد الطاعة والانقياد للأمير أبي زيان، وكانت في نفوس أهل الجزائر نفرة من جور العمال عليهم، فاستمالهم بها سالم بن إبراهيم بن نصر أمير الثعالبية إلى طاعة الأمير أبي زيان ثم دعا أبو زيان أهل مليانة إلى مثلها فأجابوه.

واعتمل السلطان أبو حو نظره في الحركة الحاسمة لرايهم، فبعث في العرب وبذل المال، وأقطع البلاد على اشتطاط منهم في الطلب.

وتحرك إلى بلاد توجين ونزل قلعة ابن سلامة سنة ثمان وستين وسبعائة يحاول طاعة أبي بكر بن عريف أمير سويد.

فلم يلبث أن انخرط أيضاً عنه خالد بن عامر ولحق بأبي بكر بن عريف، واجتمعا على الخلاف عليه ونقض طاعته.

وشنوا الغارة على معسكره، فاضطرب وأجفلوا وانتهبت محلاته وأثقاله، ورجع إلى تلمسان.

ثم نهض إلى مليانة فافتتحها، وبعث إلى رياح على حين طاعتهم إليه من يعقوب بن علي بن أحمد وعثمان بن يوسف بن سليمان بن علي أمير الدواودة لما كان وقع بينهما وبين السلطان مولانا أبي العباس من النفرة، فاستنصوه للحركة على الأمير أبي

وبدا للسلطان أبي حو ما لم يحتسب من امتناعها، وكان قد تقدم إليه بعض سماسرة الفتى بوعد على لسان المشيخة من أهل البلد أطمعه فيها، ووثق بأن ذلك يغنيه عن الاعتداء، فاستبق إليها وأغفل الحزم فيما دونها، فلما امتنعت عليه أطبق الجو على معسكره وفسدت السابلة على العير للميرة، واستحكم الزبون في أحياء معسكره بظهور العدو المساهم في الملك.

وتبادرت رجالات العرب من سوء المغبة ومطوة السلطان، فتمشوا بينهم في الانفضاض وتحينوا لذلك وقت المناوشة، وكان السلطان لما كذبه وعد المشيخة أجمع قتالهم، وأمر بضرب الفساطيط مضايقة للأسوار، متسمة وعراً من الجبل لم يرضه أهل الرأي.

وخرج رجال البلد على حين غفلة فجاولوا من كان بتلك الأخبية من المقاتلة فانهزموا أمامهم وتركوها بأيديهم فمزقوها بالسيف.

وعاين العرب على البعد انتهاب الفساطيط فأجفلوا وانفض المعسكر بأجمعه.

وحمل السلطان أبو حو أثقاله للرحلة ثم أجهده عنها فتركها، وانتهب مخلفه أجمع.

وتصايح الناس بهم من كل حذب، وضائق المسالك من ورائهم وأمامهم، وكظلت بزحامهم، وتواقعوا لجنوبهم، فهلك الكثير منهم وكانت من غرائب الوقائع، تحدث الناس بها زماناً وسيقت حظاياه إلى بجاية، واستأثر منهن الأمير أبو زيان بحظيته الشهيرة ابنة يحيى الزابي، ينسب إلى عبد المؤمن بن علي.

وكان أصهر فيها إلى أبيها أيام تغلبه في الاغتراب ببلاد الموحد بن كما سبق، وكانت أعلق بقلبه من سواها، فخرجت في مغام الأمير أبي زيان.

وتخرج عن موافقتها حتى أوجده أهل الفتيا السبيل إلى ذلك بحيث زعموا وقع من السلطان أبي حو في نسائه.

وخلص السلطان أبو حو من هوة ذلك العطب بعد غصة الريق، ونجا إلى الجزائر لا يكاد يرد النفس من شناعة ذلك الهول.

ثم خرج منها ولحق بتلمسان، واقعد سرير ملكه واشتدت شوكة أبي زيان ابن عمه، وتغلب على القاصية واجتمعت إليه العرب، وكثر تابعه.

وزاحم السلطان أبا حو بتلك الناحية الشرقية سنين تباعاً نذكر الآن أخبارها، إن شاء الله تعالى.

لجموع الخارث من بني مالك ومن وراءهم من حصين، واعتصموا بالجلال من دراك وتيطري، ونزل السلطان بجموعه لعود بلاد الديال من الحرث، فانتسفها والتهمها وحطم زروعها ونهب مذارها.

وامتنع عليه أبو بكر ومن معه من الخارث وحصين والأمير أبي زيان بينهم، فارتحل عنهم وعطف على بلاد أولاد عريف وقومهم من سويد فملأها عثاً، وخرب قلعة ابن سلامة لما كانت أحسن أوطانهم.

ورجع إلى تلمسان وهو يرى أن كان قد شفا نفسه في أولاد عريف، وغلبيهم على أوطانهم، ورجع عليهم منزلة عدوهم، فكان من لحاق أبي بكر بالمغرب وحركة بني مرين ما نذكره.

الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان واستيلائه عليها ونكبة أبي هو وبني عامر بالدوسن من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تيطري إلى أحياء رياح

لما تقبض أبو هو على محمد بن عريف وفرق شمل قومه سويد، وعاث في بلادهم أجمع، رأى أخوه الأكبر أبو بكر علي الصريخ بملك المغرب.

فارتحل إليه بناجته من بني مالك أجمع من أحياء سويد والديال والعطاف حتى احتل بسائط ملوية من تقوم المغرب.

وسار إلى أخيه الأكبر ونزمار بمقره من قصر مرادة الذي اختصه بإرجاع وادي ملوية في ظل دولة بني مرين وتحت جوارهم لما كان ملاك أمرهم بيده، ومصادره عن آرائه خطة ورثها عن أبيه عريف بن يحيى مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وابنه أبي عنان.

فتقبل ملوك المغرب مذاهب سلفهم فيه، وتمنوا برأيه واستأموا إلى نصيحته.

فلما قدم عليه أخوه أبو بكر مستجيلاً بملك المغرب، وأخبره باعتقال أخيه الآخر محمد، قذح عزائمهم، وأوفد أخاه أبا بكر ومشيجة قومهم من بني مالك على السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن منصرفه من افتتاح جبل هتانة، وظفروه بعامر بن محمد بن علي النازع إلى الشقاق في معتمصه، فلقوه في طريقه

زيان وبعدها إلى بجاية.

وضمنوا له طاعة البدو من رياح، وبعثوا إليه ذمتهم على ذلك فردها وثوقاً بهم، ونهض من تلمسان وقد اجتمع إليه الكثير من عرب زغبة.

ولم يزل أولاد عريف بن يحيى وخالد بن عامر في أحيائهم منحرفين عنه بالصحراء.

وصمم إليهم فأجفلوا أمامه، وقصد المخالفين من حصين والأمير أبي زيان إلى معتمصهم يجبل تيطري.

وأغذ إليه السير يعقوب بن علي وعثمان بن يوسف بمن معهم من جموع رياح حتى نزلوا بالقطة حذاهم.

وبادر أولاد عريف وخالد بن عمر إلى الدواودة ليشردوهم عن البلاد قبل أن تتصل يد السلطان يدهم، فصبحوهم يوم الخميس أخريات ذي القعدة من سنة تسع وستين وسبع مائة ودارت بينهم حرب شديدة، وأجفل الدواودة أولاً، ثم كان الظهور لهم آخراً.

وقتل في المعركة من زغبة عدد، ويشسوا من صدهم عما جاؤوا إليه، فانعطفوا إلى حصين والأمير أبي زيان، وصعدوا إليهم بناجتهم، وصاروا لهم مدداً على السلطان أبي هو، وشنوا الغارة على معسكره، فقصموا نحوه وصدقوه القتال، فاختلف مصافه، وانهزمت عساكره، ونجا بنفسه إلى تلمسان على طريق الصحراء.

وأجفل الدواودة إلى وطنهم، وتحيز كافة العرب من زغبة إلى الأمير أبي زيان، واتبع آثار المنهزمين، ونزل بسيرات.

وخرج السلطان أبو هو في قومه ومن بقي معه من بني عامر.

وتقدم خالد إلى مصادمته فقله السلطان وأجفل القوم من ورائه.

ثم تطف في مراسلته وبذل له المال وأوسع له في الاشتراط فنزع إليه والتبس بمخدمته، ورجع الأمير أبو زيان إلى أوليائه من حصين متمسكاً بولاية أولاد عريف.

ثم نزع محمد بن عريف إلى طاعة السلطان، وضمن له العدول بأخيه عن مذاهب الخلاف عليه، وطال سعيه في ذلك، فاتهمه السلطان وحمله خالد بن عامر عدوه على نكبته، فتقبض عليه وأودعه السجن.

واستحكمت نفرة أخيه أبي بكر، ونهض السلطان بقومه وكافة بني عامر إليه سنة سبعين وسبع مائة واستغلظ أمر أبي بكر

ولقاهم ميرة وتكرمة واستصرخوه لاستنقاذ أخيههم فأجاب صرخيهم، ورغبوه في ملك تلمسان وما وراءها، فوافق صاغيته إلى ذلك بما كان في نفسه من المودة على السلطان أبي حمو بقبوله كل من ينزع إليه من عربان المعقل أشياء الدولة وبدوها، وما كان بعث إليه في ذلك، وصرف عن استماعه، فاعتزم على الحركة إلى تلمسان، وألقى زمامه بيد ونزار وعسكر بساحة فاس.

وبعث الحاشدين في الثغور والنواحي من المغرب، فتوافقت الحشود ببابه، وارتحل بعد قضاء النسك من الأضحي سنة إحدى وسبعين وسبعمائة واتصل الخبر بالسلطان أبي حمو وكان معسكراً بالبطحاء، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان، فبعث في أوليائه من عبيد الله والأحلاف من عرب المعقل، فصموا عن إجابته ونزعوا إلى ملك المغرب، فأجمع رأيهم على التحيز إلى بني عامر وأجفل غرة المحرم سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة واحتل السلطان عبد العزيز تلمسان في يوم عاشوراء بعدها وأشار ونزار بن عريف بتسريح العساكر في اتباعه، فسرّح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس حتى انتهى إلى البطحاء.

ثم لحق به هنالك ونزار وقد حشد العرب كافة، وأغذ السير في اتباع السلطان أبي حمو وبني عامر، وكانوا قد أبعدها المذهب، ونزلوا على الدواودة وسرحني إليهم يومئذ السلطان عبد العزيز يحملهم على طاعته، والعدول بهم عن صحابة بني عامر وسلطانهم.

وسرح فرج بن عيسى بن عريف إلى حصين لاقتضاء طاعتهم واستدعاء أبي زيان إلى حضرته، أو نبذهم عهده، وانتهيا جميعاً إلى أبي زيان ففارقه أوليائه، ولحق بأولاد يحيى بن علي بن سباع من الدواودة، وانتهيت أنا إليهم فحفظت عليهم الشأن في جواره لما كانت مرضاة السلطان، وحذرتهم شأن أبي حمو وبني عامر، وأوفدت مشيختهم على ونزار والوزير أبي بكر بن غازي فدلوهما على طريقه، وأغذوا السير وبيتوهم بمنزلهم على الدوس آخر عمل الزاب من جانب المغرب ففوضوا جموعهم، وانتهبوا جميع معسكر السلطان أبي حمو بأموالهم وأمتعته وظهره.

ولحق فلهم بمصايب ورجعت العساكر من هنالك، فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء قبلة جبل راشد التي منها ربا ولون سمعون وما إليهما فاتهبوها وخربوها وعاثوا فيها وانكفؤوا راجعين إلى تلمسان.

وفرق السلطان عماله في بلاد المغرب الأوسط من وهران ومليانة والجزائر والمدينة وجبل وانشرش.

وأوفدت أنا عليه يومئذ مشيخة الدواودة، فأوسعهم حباً وكرامة، وصدروا مملوءة حقائبهم خالصة قلوبهم منطلقاً بالشكر إلى تلمسان.

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلى تيطري وأجلاب أبي حمو على تلمسان ثم انهزامهما وتشريدتهما على سائر النواحي

كان بنو عامر من زغبة شيعة خالصة لبني عبد الواد مذ أول أمرهم، وخلص سويد لبني مريس كما قدمناه، فكان من شأن عريف وبنيه عند السلطان أبي الحسن وبنيه ما هو معروف.

فلما استيحت أحياءهم بالدوسن مع أبي حمو، ذهبوا في القفر إشفاقاً وبأساً من قبول بني مريس عليهم لكان ونزار بن عريف وإخوانه من الدولة، فحدثوا على سلطانهم أبي حمو يتقبلون معه في القفار.

ثم نزع إليهم رحو بن منصور فيمن طاعه من قومه عبيد الله من المعقل.

وأجلبوا على وجدة فاضطرم للنفاق على الدولة ناراً، وخشي حصين مغبة أمرهم مع السلطان بما اتسموا به من الشقاق والعناد، فمدوا أيديهم إلى سلطانهم أبي زيان، وأوفدت مشيختهم لاستدعائه من حلة أولاد يحيى بن علي فاحتل بينهم وأجلبوا له على المدينة فملكوا نواحيها، وامتنع عليهم مصرها، واستمر الحال على ذلك واضطرب المغرب الأوسط على السلطان، وانتفضت به طاعته وسرح الجيوش والعساكر إلى قتال مغراوة وحصين، واجتمع مع أبو حمو وبني عامر على قصده بتلمسان حتى إذا احتلوا قايماً منها دس السلطان عبد العزيز بعض شيعته إلى خالد بن عامر ورغبه في المال والحظ منه، وكان أبو حمو قد أسفه

الخبر عن عودة السلطان أبي حمو الأخير إلى تلمسان الكرة الثالثة لبني عبد الواد في الملك

لما هلك السلطان عبد العزيز ورجع بنو مريم إلى المغرب، نصبوا من أعياص بني يغمراسن لمدافعة أبي حمو من بعدهم عن تلمسان، إبراهيم بن السلطان أبي تاشفين، كان ناشأاً بدولتهم منذ مهلك أبيه.

وتسلل من جملتهم عطية بن موسى مولى السلطان أبي حمو وخالفهم إلى البلد غداة رحيلهم، فقام بدعوة مولاة ودافع إبراهيم بن تاشفين عن مرامه، وبلغ الخبر أولياء السلطان أبي حمو من عرب العقل أولاد يغمور بن عبيد الله، فطبروا إليه التحيب على حين غلب عليه اليأس.

وأجمع الرحلة إلى بلاد السودان لما بلغه من اجتماع العرب للحركة عليه كما قلناه، فأغذ السير من مطرح اغترابه.

وسابقه ابنه ولي عهده في قومه عبد الرحمن أبو تاشفين مع ظهيرهم عبد الله بن صغير فدخلوا إلى البلد، وتلاههم السلطان لرابعة من دخولهم، وعاود سلطانه واقعد أريكته، وكانت إحدى الغرائب وتقبيض ساعته على وزرائه، واتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فما نقض من عهده وظاهر عليه عدوه، فأودعهم السجن وذبحهم ليومهم حقاً عليهم.

واستحكمت لها نفرة خالد وعشيرته، وخلصت ولاية أولاد عريف بن يحيى لمنافرة بني عامر إياه، وإقبال السلطان عبد العزيز عليه، ووثق بمكان ونزمار كبيرهم في تسكين عادية ملوك العرب عنه.

ورجع إلى تمهيد وطنه، وكان بنو مريم عند انفضاضهم إلى مغربهم قد نصبوا من أتيا لمغراوة، ثم بني منديل علي بن هارون بن ثابت بن منديل ويعتوه إلى شلف مزاحمة للسلطان أبي حمو، ونقضاً لأطراف ملكه.

وأجلب أبو زيان ابن عمه على بلاد حصين، فكان من خبره معهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

بمخالطة بعض عشيره وتمقّب رأيه برأي من لم يسلم إلى خطته ولم يرتض كفاءته فجنح إلى ملك المغرب، ونزع يده من عهد أبي حمو، وسرح السلطان عبد العزيز عسكره إلى خالد فاوقع بأبي حمو ومن كان معه من العرب عبيد الله وبني عامر، واتهب معسكره وأمواله، واحتقت حرمه وحظاياه إلى قصر السلطان، وتقبيض على مولاة عطية، فمُنّ عليه السلطان وأصاره في حاشيته، ونجا بنفسه إلى تيكورارين آخر بلاد الصحراء، فنزل بها منفرداً عن أهله وحاشيته ووزرائه، وأصفقت زناته على خدمة ملك المغرب وافق هذا الفتح عند السلطان فتح بلاد مغراوة، وتغلب وزيره أبو بكر بن غازي على جبل بني بو سعيد، وتقبيض على حمزة بن علي بن راشد في لمة من أصحابه، فضرب أعناقهم وبعث بها إلى سدة السلطان، وصلب أشلاءهم بساحة مليانة فتظاهر الفتح واكمل الظهور.

وأوعز السلطان إلى وزيره أبي بكر بن غازي بالتهوض إلى حصين، فنهض إليهم وخاطبني وأنا مقيم ببسكرة في دعايته بأن أحشد أولياءه من الدواودة ورياح، وأتقى الوزير والعساكر على حصن تطري، فنازلاه أشهراً.

ثم انفض جموعهم وفروا من حصنهم، وغزقوا كل عمزق، وذهب أبو زيان على وجهه، ولحق ببلاد واركلي قبلة الزاب لبعدها عن منال الجيوش والعساكر، فأجاروه وأكرموا نزله.

وضرب الوزير على قبائل حصين والثعالب المغارم الثقيلة، فأعطوها عن يد وبهضهم باقتضائها، ودوخ قاصية الثغور ورجع إلى تلمسان عالي الكعب عزيز السلطان ظاهر اليد.

وقعد له السلطان بمجلسه يوم وصوله قعوداً فخماً، وصل فيه إليه، وأوصل من صحبه من وفود العرب والقبائل فقسم فيهم بره وعنايته وقبوله كل على شاكلته.

واقتضى من أمراء العرب زغبة أبناءهم الأعزة رهناً على الطاعة، وسرحهم لغزو أبي حمو بمجتذبه من تيكورارين، فانطلقوا لذلك، وهلك السلطان عبد العزيز ليال قلائل من مقدم وزيره، وعساكره أواخر شهر ربيع الآخر من سنة أربع وسبعين وسبعمائة لمرض مزمن كان يتفادى بالكتمان والصبر من ظهوره.

وانكفأ بنو مريم وراجعين إلى عمالكهم بالمغرب بعد أن بايعوا لولده دراجاً حماسياً، ولقبوه بالسعيد وجعلوا أمره إلى أبي بكر بن غازي، فملك أمرهم عليهم واستمر حاله كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد إلى بلاد حصين ثم خروجه عنها

كان الأمير أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد، لما هلك السلطان عبد العزيز وبلغه الخبر بمنجاته من واركلي، نهض منها إلى التلول، وأسف إلى الناجعة التي كان متزياً بها مساهماً لأبي هو فيها، فاقتطعها لدعوته كما كانت، ورجع أهلها إلى ما عرفوا من طاعته، فنهض السلطان أبو هو لتمهيد نواحيه وتثقيف أطراف ملكه، ودفع الخوارج عن مملكه، وظهره على ذلك أمير البدو من زغبة أبو بكر ومحمد ابنا عريف بن يحيى، دس إليهما بذلك كبيرهما ونزمار، وأخذهما بمناسحة السلطان ومخالصته، فركبا من ذلك أوضح طريق وأسهل مركب.

ونبذ السلطان العهد إلى خالد وعشيرته، فضاقت عليهم الأرض ولحقوا بالمغرب لسابقة نزوعهم إلى السلطان عبد العزيز.

وابتدأ السلطان بما يليه، فازعج بمظاهرتهم علي بن هارون عن أرض شلف سنة خمس وسبعين وسبعمائة بعد حروب هلك في بعضها أخوه رحمون بن هارون.

وخلص إلى بجاية، فركب منها السفن إلى المغرب، ثم تخطى السلطان أبو هو إلى ما وراء شلف.

وسفر محمد بن عريف بينه وبين ابن عمه بعد أن نزع إليه الكثير من أوليائه حصين والثعالبية بما بذل لهم من المال، وبما ستموا من طول الفتنة، فشارطه على الخروج من وطنه إلى جيرانهم من رياح على أتاة تحمل إليه، فقبل ووضع أوزار الحرب، وفارق مكان ثورته، وكان لمحمد بن عريف فيها أثر محمود، واستألف سالم بن إبراهيم كبير الثعالبية المتغلب على بسيط متيجة وبلد الجزائر، بعد أن كان خب في الفتنة، وأوضع فاقتضى له من السلطان عهده من الأمان والولاية على قومه وعمله وقلده السلطان ابنه ثغور أعماله.

فأنزل ابنه بالجزائر لنظر سالم بن إبراهيم من تحت استبداده، وابنه أبا زيان بالمدينة، وانقلب السلطان إلى حضرته بتلمسان بعد أن دوخ قاصيته، وثقف أطراف عمله، وأصلح قلوب أوليائه واستألف شيعه عدوه، فكان فتحاً لا كفاء له من بعد ما خلع من ربة الملك، ونزع من لبوس السلطان فاتتد من قومه ومالكة إلى قاصية الأرض، ونزل في جوار من لا ينفذ أمره ولا يقوم بطاعته.

والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء وبذل من يشاء.

الخبر عن أجلاب عبد الله بن صغير وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان ورجوع أبي بكر إلى الطاعة

كان خالد بن عامر وابن أخيه عبد الله بن صغير وسائر إخوانهم من ولد عامر بن إبراهيم قد لحقوا بالمغرب صريحاً ببني مرين لما وقع بينهم وبين أبي هو من الفعلة التي فعل خالد معه.

وبس عبد الله بن صغير من صريحهم بما عقد ونزمار بن عريف من السلم بين صاحب المغرب وصاحب تلمسان، فخاص القفر بمن معه من قومه ولحق بوطن زغبة، وأجلب على جبل راشد وبه العمور أحلاف سويد من بني هلال فاعترضتهم سويد ودارت بينهم حرب شديدة، كان الظهور فيها لسويد عليهم.

وفي خلال ذلك فسد بين السلطان وبين أبي بكر بن عريف بسبب صاحب جبل واتشريح يوسف بن عامر بن عثمان، أراداه السلطان على النزول عن عمله، فغضب له أبو بكر لتقديم الصداقة بين سلفهما، ووصل يده بعبد الله بن صغير بعد الواقعة. ودعاه إلى بيعة أبي زيان فأجابيه وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح، فوصل معهم ونصبوه للأمير، وتحيز محمد بن عريف إلى السلطان في جموع سويد.

ونهض السلطان من تلمسان فاتح سنة سبع وسبعين وسبعمائة فيمن معه من قبائل بني عبد الواد وعرب المعقل وزغبة، ودس إلى أولياء أبي زيان يرغبهم في المواعد وحكم أبا بكر في الاشتراط عليه ففاه إلى الطاعة والمخالصة.

ورجع أبو زيان إلى مكانه من حلال الدواودة، وأغذ السلطان السير إلى حضرته فتملى أريكته، وحدث بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك فيها عبد الله بن صغير وإخوانه

لما بلغ خالد بن عامر بمكانه من المغرب خبر عبد الله ابن

أخيه صغير، قتل من المغرب يشأ من مظاهرة بني مرين فحقق السعي في صريخه بهم لما كانوا عليه من افتراق الأمر كما ذكرناه قبل.

ووصل معه ساسي بن سليم في قومه بني يعقوب، وتظاهر الحيان على العيث في بلاد السلطان أبي حمو.

الخبر عن انتقاض سالم بن إبراهيم ومظاهرة خالد بن عامر على الخلاف وبيعتهما للأمير أبي زيان ثم ملك خالد ومراجعة سالم الطاعة وخروج أبي زيان إلى بلاد الجريد

كان سالم بن إبراهيم هذا كبير الثعالب المتغلين على فحص متيجة منذ انقراض مليكش، وكانت الرئاسة فيهم لأهل بيته حسبما ذكرناه في أخبارهم عند ذكر المقل.

ولما كانت فتنة أبي زيان بعد نكبة أبي حمر على بجاية، وهبت ريح العرب واستغلظ أمرهم، وكان سالم هذا أول من غمس يده في تلك الفتنة، ومكر بعلي بن غالب من بيوتات الجزائر، كان مغرباً عنها من لدن تغلب بني مرين على المغرب الأوسط أيام أبي عنان، ولحق بها عندما أظلم الجو بالفتنة، واستحكمت نفرة أهل الجزائر عن أبي حمر، فأظهر بها الاستبداد واجتمع إليه الأوشاب والطغام.

ونكره سالم أمير الضاحية لطمعه في الاستيلاء على الجزائر، فدخل في شانه الملا من أهل المدينة، وحذرهم منه أنه يروم الدعوة للسلطان أبي حمر، فاستشاطوا نفرة وثاروا به، حتى إذا رأى سالم أنه قد أحيط به تخلصه من أيديهم وأخرجه إلى حيه وأتلفه هنالك.

وحول دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيان تحت استبداده، حتى إذا كان من أمر بني مرين وحلول السلطان عبد العزيز بتلمسان ما قدمناه، أقام دعوتهم في الجزائر إلى حين مهلكه ورجوع أبي حمر إلى تلمسان.

وأقبل حيثن جيش أبي زيان إلى تطيرى، فأقام سالم هذا دعوته في أحيائه وفي بلد الجزائر، خشية على نفسه من السلطان أبي حمر، لما كان يعتمد عليه في الإدالة من أمره بالجزائر بأمر ابن عمه.

ولما كان من خروج أبي زيان إلى أحياء رياح على يد محمد بن عريف ما قدمناه واقتضى سالم عهده من السلطان، وولى ابنه على الجزائر، أقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الأعمال واستضافة جبايتها لنفسه، وأوعز السلطان إلى عماله باستيفاء

واجتمع إليهم أبناء الفتنة من كل أوب، وأجلبوا على الأطراف وشنوا الغارة في البلاد، وجمع أولاد عريف لحرهم قومهم من سويد وأحلافهم من العطاف، وبعثوا بالصرىخ إلى السلطان فسرح لحرب عدوه وعدوهم ابنه أبا تاشفين ولي عهده في قومه، وبرز لذلك في العسكار والجنود.

ولما انتهى إلى بلاد هواره، واضطرب معسكره بها، أعجله صريخ أوليائه عن مناخ الركاب، فاستعجل الرحلة ولحق بأوليائه أولاد عريف ومن معهم من أشياع الدولة من زغبة.

وأخذ السير إلى وادي مينا بشرقي القلعة، فترأى الجمعان وتوافقوا للقاء سائر يومهم واستضاءوا بإضرام النيران مخافة البيات، وأصبحوا على التبية.

ونشمت الرجالات في مواضع الحرب، فأعجلهم مناشبة القوم، وتزاحفت الصفوف، وأعلم الكمأة، وكشفت الحرب عن ساقها، وحي الوطيس، وهبت الرياح المبشرة، ففخفت لها رايات الأمير وهدرت طبوله، ودارت رضى الحرب وصمدت إليها كتائب العرب، فتردى فيها الأبطال منهم وانكشفوا، وأجلت المعركة عن عبد الله بن صغير صريعاً، فأمر أبو تاشفين فاحتز رأسه وطير به البريد إلى أبيه.

ثم عثرت المراكب بأخيه ملوك من صغير مع العباس ابن عمه موسى بن عامر، ومحمد بن زيان من وجوه عشيرتهم متواقين لجنوبهم متضاجعين في مراقدهم كأنما اتعدوا للردى، فوططهم سناك الخيل وغشيه قنم المراكب.

وأطلقت العسكار أعتتها في اتباع القوم فاستاقوا نعمهم وأموالهم وكثرت يومئذ الأنفال، وغشيم الليل فتسرتوا بجناحه.

ولحقهم فلهم بجبل راشد، وأطرب أبو تاشفين أبيه بمتهى ظهوره وملاء السرور بما صنع الله إليه على يده، وما كان له ولقومه من الأثر في مظاهرة أوليائه.

وطار له بها ذكر على الأيام، ورجع إلى أبيه بالحضرة مملوء الحقايب بالأنفال والجوانح بالسرور والأيام بالذكر عنه وعن قومه، ومضى خالد لوجهه في فل من قومه.

جبايتها، فاستراب وبقي في أمره على المداهنة. وحدث إثر ذلك فتنة خالد بن عامر، فترى دواثرها رجاء أن يكون الغلب له، فيشتغل السلطان عنه ثم بدا له ما لم يحتسب، وكان الغلب للسلطان ولأوليائه.

وكان قد حدثت بينه وبين محمد بن عريف عداوة فخشى أن يحمل السلطان على النهوض إليه، فبادر بالانتقاص على أبي حمو، واستقدم الأمير أبو زيان فقدم عليه وجأجأ بخالد بن عامر والمخالفين معه من العرب، فوصلوا إليه أول سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وعقد بينهم حلفاً مؤكداً، وأقام الدعوة للأمير أبي زيان بالجزائر.

ثم زحفوا إلى حصار مليانة وبها حامية السلطان فامتنعت عليهم، ورجعوا إلى الجزائر فهلك خالد بن عامر على فراشه ودفن بها، وولي أمر قومه من بعده المسعود ابن أخيه صغير، ونهض إليهم السلطان أبو حمو من تلمسان في قومه وأوليائه من العرب، فامتنعوا بجبال حصين وناوشتهم جيوش السلطان القتال بأسافل الجبل فغلبوهم عليها، وانقضت الناجعة عنهم من الديالم والعطاف وبني عامر، فلقحوا بالقر.

ورأى سالم أصحابه أن قد أحيط بهم فلاذ بالطاعة، وحمل عليها أصحابه.

وعقد لهم السلطان من ذلك ما أرادوه على أن يفارقوا الأمير أبا زيان ففعلوا.

وارتحل عنهم فلقح ببلاد ريف، ثم أجازها إلى نقطة من بلاد الجريد، ثم إلى توزر، فنزل على مقدمها يحيى بن يملول، فآكرم نزله وأوسع قراه إلى أن كان من أمره ما نذكر.

ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان وفي نفسه من سالم حرارة لكثرة اضطرابه ومسارعة إلى الفتى، حتى توسط فصل الشتاء، وأبعدت العرب في مشاتها، فنهض من تلمسان في جيوش زناتة، وأخذ السير فصيح فحسب متيجة بالغارة الشعواء.

وأجفلت الثعالب فلقحوا برؤوس الجبال وامتنع سالم بجبل بني خليل وبعث ابنه وأوليائه إلى الجزائر فقامتوا بها وحاصروه أياماً ثم غلبوه على مكانه فانتقل إلى بني ميسرة من جبال صنهاجة وخلف أهله ومتاعه، وصار الكثير من الثعالب إلى الطاعة، وابتهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحص متيجة، وبعث هو أخاه ثابتاً إلى السلطان فاقضى له العهد، ونزل من رأس ذلك الشاهق إلى ابنه أبي تاشفين فأوصله إلى السلطان إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان، فأخفر عهده وذمة ابنه، وتقبض عليه صبيحة ليلته.

وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها وأقام دعوته بها، وأوفد عليه مشيختها فتقبض عليهم، وعقد على الجزائر لوزيره موسى بن برغوث، ورجع إلى تلمسان فقضى بها عيد النحر، ثم أخرج سالم بن إبراهيم من محبسه إلى خارج البلاد، وقتل قعصاً بالرماح، ونصب شلوه وأصبح مثلاً للآخرين، والبقاء لله. وعقد السلطان لابنه المنتصر على مليانة وأعمالها، ولابنه أبي زيان على وهران.

ورأسله ابن يملول صاحب توزر، وصهره ابن مزني صاحب بسكرة وأوليائهما من الكعوب والدواودة لما أهمهم أمر السلطان أبي العباس، وخافوه على أمصارهم فراسلوا أبا حمو يضمنون له مسألة أبي زيان على أن يوفي له بما اشترط له من المال، وعلى أن يشب نار الفتنة من قبله على بلاد الموحدين ليشغل السلطان أبا العباس عنهم على حين عجز أبو حمو وضعف الدولة عنه فأوهمهم من نفسه القدرة وأطمعهم في ذلك.

وما زال يراجعهم ويراجعون بالمقاربة والوعد إلى أن أحيط بابن يملول، واستولى السلطان على بلده فلقح ببسكرة وهلك بها لسنة من بعده متعللاً بتلك الأمانى الكاذبة إلى أن ظهر أمره وتبين مزني من بعده متعللاً بتلك الأمانى الكاذبة إلى أن ظهر أمره وتبين عجزه، فراجع طاعة السلطان أبي العباس واستقام على المودة، ولحق الأمير أبو زيان بحضرة السلطان بتونس فنزل بها أكرم نزل مؤملاً منه المظاهرة على عدوه.

والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد على ما شرحنه مراراً من تغلب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار.

وتقلص ظل الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم، وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار، والقنوع بالتضرب بينهم، والإغراء بعضهم ببعض والله ولي الأمور.

قصة السلطان للأعمال بين ولده وما

حدث بينهم من التنافس

كان لهذا السلطان أبي حمو جماعة من الولد كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن.

ثم بعده أربعة لأم واحدة، كان تزوجها بميلة من أعمال قسنطينة أيام جولته في بلاد الموحدين، كبيرهم المنتصر ثم أبو زيان

استخلصه وجعله عيناً على أبيه.

وكان هو أيضاً يتغص بآبن خلدون كاتب السلطان، ويغار من تقدمه عنده ويغري به أبا تاشفين جهده، فدس إليه أثناء هذه المطاولة أن الكاتب ابن خلدون إنما مظهره بالكتاب خدمة لأبي زيان أخيه وإثارة له عليه، فاستشاط لها أبو تاشفين، وترصده منصرفه من القصر إلى بيته بعد التزاويح في إحدى ليالي رمضان سنة ثمانين وسبعمائة في رهط من الأوغاد، كان يطوف بهم في سكك المدينة، ويطرق بهم بيوت أهل السرو والخشمة في سبيل الفساد، فعرضوا له وطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتاً.

وغدا الخبر على السلطان صبيحة تلك الليلة فقام في ركابه وبعث الطلب عن أولئك الرهط في جوانب المدينة.

ثم بلغه أن ابنه أبا تاشفين صاحب الفعلة، فأغضى وطوى عليها جوانحه، وأقطع أبا تاشفين مدينة وهران كما وعده.

وبعث ابنه أبا زيان على بلاد حصين والمدينة كما كان.

ثم طلب أبو تاشفين من أبيه أن تكون الجزائر خالصة له فأقطعه إياها، وأنزل بها من إخوته يوسف ابن الزاوية بما كان شيعه له من بينهم وفيته في صحبته ومخالصته، فأقام والياً عليها، والله أعلم.

حركة السلطان أبي جو على ثغور المغرب

الأقصى ودخول ابنه أبي تاشفين إلى جهات مكناسة

كان السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد نهض في عساكره سنة إحدى وثمانين وسبعمائة إلى مراكش، وبها الأمير عبد الرحمن بن بوفلوس ابن السلطان أبي علي مقاسمه في نسبة وملكه.

وكان قد سوغ له مراكش وأعمالها عندما أجلب معه على البلد الجديد سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما في أخبارهم واستقر الأمير عبد الرحمن بمراكش.

ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أحمد، ونهض إليه من فاس فحاصره أولى وثانية يفرج فيها عنه.

ثم نهض إليه سنة أربع وثمانين وسبعمائة فحاصره وأخذ بمخنقه وأطال الحصار.

وكان يوسف بن علي بن غام أمير المعقل من العرب

عمد ثم عمر ويلقب عمير، ثم بعدهم ولد كثيرون أبناء علات.

وكان أبو تاشفين ولي عهده، وقد رفعه على الباقيين وأشركه في أمره، وأوجب له الحق على وزراء دولته، فكان لذلك رديفه في ملكه ومظهر سلطانه.

وكان مع ذلك يتعاهد أولئك الإخوة الأشقاء بمجنوه، ويقسم لهم من ترشيحه والنجي في خلوته، فيغص أبو تاشفين منهم، فلما استفحل أمر السلطان وانمحت من دولته آثار الخلاف، أعمل نظره في قسمة الأعمال بين ولده وترشيحهم للإمارة والبعد بهم عن أخيه أبي تاشفين، أن يصيبهم بمكره عند إيناس الغيرة منهم، فولى المنتصر كبيرهم على مليانة وأعمالها، وأنفذه إليها ومعه أخوه عمر الأصغر في كفالته، وولى أخاهما الأوسط أبا زيان على المدينة وما إليها من بلاد حصين.

وولى ابنه يوسف ابن الزاوية على تدلس وما إليها من آخر أعماله واستقر أمرهم على ذلك.

ثم كان من انتقاض سالم الثعالبي بالجزائر ما قدمناه، فمسي إلى السلطان أن ابنه أبا زيان داخله في الخلاف، فلما فرغ من أمر سالم كما مر وطرد أبا زيان ابن عمه عن أعماله إلى الجريد، أعمل نظره في نقل ابنه أبي زيان من المدينة إلى ولاية وهران وأعمالها بعداً به عن العرب المجلبين في الفتنة، وأنزل معه بعض وزرائه عيناً عليه، وأقام والياً عليها والله أعلم.

وثبة أبي تاشفين ببحيى بن خلدون كاتب أبيه

كان أول شيء حدث من منافسة أبي تاشفين لإخوته، أن السلطان لما ولى ابنه أبا زيان على وهران وأعمالها طلبه أبو تاشفين في ولايتها لنفسه فأسعفه ظاهراً، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بمطالته في كتابها حتى يرى المخلص من ذلك، فأقام الكاتب بطاوله.

وكان في الدولة لنسيم من سفلة الشرط يدعى بموسى بن يخلف، صحبهم أيام الاغتراب بتيكوارارين أيام ملك تلمسان عليهم عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن كما مر.

وخلاله وجه السلطان أبي جو وابنه، فتقرب إليه بخدمته ورعاها له.

فلما رجع السلطان إلى تلمسان بعد مهلك عبد العزيز قدمه واثره واستخلصه، فكان من أخلص بطالته وكان أبو تاشفين أيضاً

الرحلة إلى تلمسان، وخرج في عساكره وراجع يوسف بن علي الطاعة ورحل معه في جموعه.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي هو فتردد بين الحصار بتلمسان ومفارتها.

وكان بينه وبين ابن الأحمر صاحب الأندلس مواصلة، ولابن الأحمر دالة على السلطان أبي العباس كما مر.

فكان ينفذ له الشأن في قصد تلمسان ويلبث عنها فيعطيه المقادة في ذلك، فيعمل هو السلطان أبا هو بأن السلطان أبا العباس لا يصل إليه.

ثم أجمع السلطان أبو العباس أمره، ونهض على حين غفلة مغذاً إلى تلمسان.

وتقدم الخبر إلى أبي هو فأجمع مفارقة تلمسان بعد أن أظهر لأوليائه وأهل دولته أنه على الحصار.

ثم خرج حين غشيه الليل إلى معسكره بالصفيف، وافتقده أهل بلده من صبيحتهم، فتبادر أكثرهم إليه متعلقين بأذياله خوفاً من معرة العدو، ثم ارتحل يطوي المراحل إلى البطحاء، ودخل السلطان أبو العباس تلمسان واستولى عليها، وجهاز العساكر لاتباع أبي هو وقومه، فأجفل من البطحاء ولحق بتاجحموت فاعتصم بمقلها ولحق به ابنه المتصر من مليانة بما كان معه من الذخيرة، فاستمد بها وأقام هناك عازماً على الامتناع والله تعالى أعلم.

رجوع السلطان أبي العباس إلى المغرب واختلال دولته ورجوع السلطان أبي هو إلى ملكه بتلمسان

كان السلطان أبو العباس لما استولى على مملكة تلمسان، طير كبه ورسله بفتحها إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس، ويعتذر له من مخالفة رأيه في الحركة إليها.

وقد كان ابن الأحمر أسفه ذلك إلى ما انضم إليه من النزعات الملوكية التي يؤسف بها بعضهم بعضاً، وهو يطوي جوائحه عليها، واطلع على فساد طاعة السلطان أبي العباس في أهل دولته ونغل ضماثرهم له، فأزعج لوقته موسى ابن السلطان أبي عنان من أعياص ملكهم، كان عنده بالأندلس، وجهزه بما يحتاج إليه ويبعث في خدمته مسعود بن رحو بن ماساي إلى وزيرهم المشهور، وأركبه السفن إلى سبتة، فنزلوا بساحتها أول

منتقضاً على السلطان وقد بعث السلطان العساكر إلى أحيائه، فهزموه وخربوا بيوتهم وبساتينهم بسجلماسة ورجعوا وأقام هو بصحرائه منتقضاً.

فلما جهد الحصار الأمير عبد الرحمن بمراكش، بعث أبا العشاير ابن عمه منصور بن السلطان أبي علي إلى يوسف بن علي بن غانم، ليجلب به على فاس وبلاد المغرب، فيأخذ بمجيزة السلطان وينسف من مخرقه، فسار يوسف بن علي مع أبي العشاير إلى السلطان أبي هو بتلمسان يستجده على هذا الغرض لقدرة عليه دون العرب، بما له من العساكر والأبهة، فأنجده على ذلك.

وقدم ابنه أبا تاشفين معهم، وخرج هو في أثرهم، فساروا إلى المغرب ونزل يوسف بن علي بقومه قريباً من مكناسة، ومعه الأميران أبو العشاير وأبو تاشفين.

وجاء أبو هو من خلفهم فحاصر تازي سبعا، وخرب قصر تازروت المعد هنالك لنزل السلطان.

وكان السلطان قد استخلف على فاس في مغييه علي بن مهدي العسكري من عمال دولته ووجوه قبيلته، وكان هنالك عرب المنبات من المقل قد دخلوا للميرة، فأهاب بهم ونزمار بن عريف ولي الدولة من عرب سويد، وهو نازل بقصر مرادة من أحواز تازي، فاستألفهم لمداغة أبي هو وابنه، وخرج بهم علي بن مهدي.

ثم وصل الخبر باستيلاء السلطان على مراكش متصف خمس وثمانين وسبعمائة فأجفل أبو تاشفين وأبو العشاير ومن معهما من العرب، واتبعهم على بن مهدي بمن معه من المنبات. وأجفل أبو هو على تازي ومر بمراة على قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه، وانكفاً راجعاً إلى تلمسان.

وفارق ابنه أبو تاشفين أصحابه أبا العشاير والعرب ولحق بأبيه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نهوض السلطان أبي العباس صاحب المغرب إلى تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي هو بمحصن تاجحموت

لما استولى السلطان أبو العباس على مراكش كما قلناه، رجع إلى دار ملكه بفاس وقد أسفه السلطان أبو هو بأجلاته على وطنه هو وابنه أبو تاشفين مع العرب أيام مغييه بمراكش، فأجمع

ربيع سنة ست وثمانين وسبعمائة واستولوا عليها.
ثم تقدموا إلى فاس فنزلوا دار الملك أياماً وبها محمد بن عثمان القائم بدولة السلطان أبي العباس والمستبد عليه، واشتدوا في حصارها وتوافت إليهم الأمداد والحشود فداخله الخور والقي بيده، ودخل السلطان موسى إلى دار الملك تاسع عشر ربيع الأول من السنة، وجلس على أريكته، وآتاه الناس طاعتهم.

وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس بتلمسان وقد تجهز الأتباع أبي حمو، ونزل على مرحلة من تلمسان بعد أن أغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور الملك بتلمسان، وكانت لا يعبر عن حسنهما، اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصنائع والقلة من الأندلس لحضارتها وبدواة دولتهم يرمون بتلمسان، فبعث إليها السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والخذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجدوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثلها، فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً برزعه من أبي حمو، وأخذاً بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب دار الملك بتازي، وتخريب قصره هو بمراة، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر.

خلع السلطان أبي حمو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك واعتقاله إياه

ولما رجع السلطان من البطحاء وبطل ما كان يؤمله من الاتصال بالمتنصر، دس إليه مع خالصة من أهل دولته يعرف بعلي بن عبد الرحمن بن الكليب بأحمال من المال ويودعها عنده إلى أن يجد السبيل لحاجة نفسه.

وكتب له بولاية الجزائر ليقم بها حتى يخلص إليه واطلع موسى بن يخلف على ذلك فاطلع أبا تاشفين على الخبر، فبعث في أثره من حاشيته من اغتال ابن الكليب في طريقه وجاء إليه بالمال والكتب، فاطلع منها على حقيقة أمرهم وأنهم متربصون به، فاستشاط وجاهر أباه وغدا عليه بالقصر، فوقفه على الكتاب وبالف في عدله وتوحيذ موسى بن يخلف إلى أبي تاشفين، وهجر باب السلطان وأغرى به ابنه فغدا على أبيه بالقصر يعد أيام وخلعه، وأسكنه بعض حجر القصر، ووكّل به، واستخلص من كان معه من الأموال والذخيرة.

ثم بعث به إلى قسبة وهران فاعتقله بها واعتقل من حضر بتلمسان من إخوانه، وذلك آخر ثمان وثمانين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى المتنصر بمليانة وأبي زيان وعمر، فلهقوا بقبائل حصين واستدعوا بهم فادّعواهم وأنزلوهم عندهم بمجل تيطري.

وجمع أبو تاشفين العساكر واستألف العرب من سويد، وبني عامر، وخرج في طلب المتنصر وإخوانه، ومر بمليانة فملكها.

ثم تقدم إلى جبل تيطري وأقام في حصارهم به، وهم ممتنعون عليه.

والله تعالى أعلم.

تجدد المنافسة بين ولد السلطان أبي حمو ومجاهرة أبي تاشفين بذلك لهم وولايته

كان التنافس بين هؤلاء الأولاد خفياً على الناس بما كان السلطان أبوهم يدامل بينهم ويداري بعضهم عن بعض.

فلما خرجوا أمام بني مرين وعادوا إلى تلمسان صار تنافسهم إلى العداوة.

وانهم أبو تاشفين أباه بممالة إخوانه عليه، فشمّر لعقوته وعداوتهم وشعر السلطان بذلك فعمل الحركة إلى ناحية البطحاء

خروج السلطان أبي حو من الاعتقال ثم القبض عليه وتغريبه في السفين إلى المشرق

نزول السلطان أبو حو ببجاية من السفين واستيلاؤه على تلمسان ولحاق أبي تاشفين بالمغرب

لما طال مقام أبي تاشفين على تيطرى لحصار إخوته، ارتاب بأمر أبيه وطول مغيبه عنه وشاور أصحابه في شأنه، فأشاروا بقتله وأصفقوا على ذلك، فبعث أبو تاشفين ابنه أبا زيان في لمة من حاشيته فيهم: ابن الوزير عمران بن موسى، وعبد الله بن الخراساني، فقتلوا من كان معتقلاً بتلمسان من أبناء السلطان، وتقدموا إلى وهران وسمع أبو حو بقدهمهم، فأوجس الخيفة منهم وأطلع من جدران القصبه يتادي بالصريخ في أهل البلد، فتبادروا إليه من كل جهة، وتدلّى لهم بجبل وصله من عمامته كان متعمماً بها، فتناولوه حتى استقر بالأرض واجتمعوا إليه.

وكان الرهط الذين جاؤوا لقتلة بباب القصر، وقد أغلقه دونهم.

فلما سمعوا الهبة واستيقنوا الأمر، طلبوا النجاة بدمائهم. واجتمع على السلطان أهل البلد، وتولى كبر ذلك خطيئهم، وجددوا له البيعة وارتحل من حينه إلى تلمسان، فدخلها أوائل سنة تسع وثمانين وسبعمائة وهي يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا أسوارها وأزالوا حصنها.

وبعث فيمن كان غلغلاً بأحياء بني عامر من أكابرهم ووجوههم، فقدموا عليه.

وطار الخبر إلى أبي تاشفين بمكانه من حصار تيطرى، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان فيمن معه من العساكر والعرب، وياديه قبل أن يستكمل أمره فأحيط به ونجا إلى مأذنة المسجد الجامع فاعتصم بها، ودخل أبو تاشفين القصر، وبعث في طلبه.

وأخبر بمكانه فجاء إليه بنفسه واستنزل من المأذنة، وأدركته الرقة، فجهش بالبكاء وقبل يده، وغدا به إلى القصر واعتقله ببعض الخنجر هنالك، ورغب إليه أبوه في تسريحه إلى المشرق لقضاء فرضه، فشارط بعض تجار النصارى المترددين إلى تلمسان من القبطان على حمله إلى الإسكندرية، وأركبه السفين معهم بأهله من فرضه وهران ذاهباً لطيبة موكلاً به، وأقبل أبو تاشفين على القيام بدولته، والله تعالى أعلم.

لما ركب السلطان أبو حو السفين ذاهباً إلى الإسكندرية، وفارق أعمال تلمسان وحاذى بجاية، داخل صاحب السفينة في أن ينزله ببجاية، فأسعفه بذلك.

فخرج من الطارمة التي كان بها معتقلاً، وصار الموكلون به في طاعته.

وبعث إلى محمد بن أبي مهدي قائم الأسطول ببجاية المستبد على أميرها من ولد السلطان أبي العباس بن أبي حفص.

وكان محمد بن وارث خالصة المستنصر بن أبي حو من ناشئة دولتهم قد خلص إلى بجاية من تيطرى بعدما تنفس الحصار عنهم فبعثه ابن أبي مهدي إلى السلطان أبي حو بالإجابة إلى ما سأل وأنزله ببجاية آخر سنة تسع وثمانين وسبعمائة وأسكنه بستان الملك المسمى بالرفيع، وطير بالخبر إلى السلطان بتونس، فشكر له ما أتاه من ذلك، وأمره بالاستبلاغ في تكريمه، وأن يخرج عساكر بجاية في خدمة أبو حو إلى حدود عمله متى احتاج إليها.

ثم خرج السلطان أبو حو من بجاية ونزل متيحة واستنفر طوائف العرب من كل ناحية فاجتمعوا إليه ونهض يريد تلمسان وأعصوب قومهم بنو عبد الواد على أبي تاشفين بما بذل فيهم من العطاء وقسم من الأموال، فنبذوا السلطان أبا حو واستصعب عليه أمرهم وخرج إلى الصحراء وخلف ابنه أبا زيان في جبال شلف مقيماً لدعوته وبلغ إلى تامة من ناحية المغرب.

وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فبعث عسكرياً إلى شلف مع ابنه أبي زيان ووزيره محمد بن عبد الله بن مسلم، فتواقعوا مع أبي زيان ابن السلطان أبي حو فهزمهم وقتل أبو زيان بن أبي تاشفين ووزيره ابن مسلم، وجماعة من بني عبد الواد.

وكان أبو تاشفين لما بلغه وصول أبيه إلى تامة، سار إليه من تلمسان في جموعه، فأجفل أبو حو إلى وادي صا واستجاس بالأخلاف من عرب العقول هنالك، فجاءوا لتصره، وعادوا تامة فنزلها، وأقام أبو تاشفين قبائله وبلغه هنالك هزيمة ابنه ومقتله، فولى منهزماً إلى تلمسان وأبو حو في اتباعه.

ثم سرح أبو تاشفين مولاه سعادة في طائفة من العسكر لمحاولة العرب في التخلي عن أبي حو، فاتتهز أبو حو به الفرصة

وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فقدم إلى تلمسان فجدد المكر والخديعة وشيطان الفتنة والشر موسى بن يخلف، فاستولى عليها وأقام دعوة أبي تاشفين فيها، فطير أبو حو ابنه عمير إليه، فصبه بها ليلة من مسيره، فأسلمه أهل البلد.

وتقبض عليه، وجاء به أسيراً إلى أبيه بمكانه من الغيران، فوجّه أبو حو على فعاله ثم أذاقه أليم عقابه ونكاله، وأمر به فقتل أشنع قتلة.

وجاءت العيون إلى أبي فارس ابن صاحب المغرب ووزيره ابن علال بمكان أبي حو وأعرابه بالغيران، فهض الوزير ابن علال في عساكر بني مرين لغزوه، وسار أمامهم سليمان بن ناجي من الأحلاف إحدى بطون المعقل، يدل بهم طريق القفر حتى صبحوه ومن معه من أحياء الخراج في مكان مقامهم بالغيران.

وناوشوهم القتال فلم يطيقوهم لكثرتهم، وولوا منهزمين، وكبا بالسلطان أبي حو فرسه فسقط وأدركه بعض فرسانهم وعرفه فقتله قعصاً بالرمح، وجاؤوا برأسه إلى الوزير ابن علال وأبي تاشفين، وجاءوا بابنه عمير أسيراً.

وهم أبو تاشفين أخوه بقتله فمنعوه أياماً، ثم أمكنوه منه فقتله، ودخل أبو تاشفين إلى تلمسان أواخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وخيم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال.

ثم قفلوا إلى المغرب وأقام هو بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابر، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما اشترط على نفسه إلى أن كان ما ذكره إن شاء الله تعالى.

مسير أبي زيان بن أبي حو حصار تلمسان ثم إجماله عنها ولحاقه بصاحب المغرب

كان السلطان أبو حو قد ولى على الجزائر ابنه أبا زيان لما عاد إلى ملكه بتلمسان، وأخرج منها أبا تاشفين.

فلما قتل أبو حو بالغيران كما قلناه، وخرج أبو زيان من الجزائر نجياً إلى أحياء حصين يؤمل الكرة بهم والأخذ بشار أبيه وأخيه، فاشتعلوا عليه وأجابوا صريحه.

ثم وفد عليه أمراء بني عامر من زغبة يدعونه للكه، فسار إليهم وقام بدعوته وطاعته شيخهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة اثنين وتسعين وسبعمائة

وهزمه وقبض عليه، وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين بتلمسان، وكان يؤمل الحج عند سعادة فيما توجه فيه، فأخفق سعيه، وانقض عنه بنو عبد الواد والعرب الذين معه، وخرج هارباً من تلمسان مع أوليائه، من سويد إلى مشاتهم بالصحراء.

ودخل السلطان أبو حو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعمائة وقدم عليه أبناءه فأقاموا معه بتلمسان، فطرق المتصر ابنه المرض فهلك بها لأيام من دخوله تلمسان، واستقر الأمر على ذلك، والله أعلم.

نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان أبي حو

لما خرج أبو تاشفين من تلمسان أمام أبيه، واتصل بأحياء سويد، أجمعوا رأيهم على الاستجداء بصاحب المغرب، فوفد أبو تاشفين ومعه محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صاحب فاس، وسلطان بني مرين صريخين على شأنهما، فقبل وفادتهما ووعدهما بالنصر من عدوهما.

وأقام أبو تاشفين عنده ينتظر إجماع عدوه، وكان بين أبي حو وابن الأحمر صاحب الأندلس وشيجة ود وعقيدة وصله، ولابن الأحمر دالة وتحكم في دولة أبي العباس صاحب المغرب بما سلف من مظاهرتة على أمره منذ أول دولته، فبعث أبو حو في الدفاع عنه بإجازة أبي تاشفين من المغرب إليه، فلم يبيح صاحب المغرب وفاء بدمته وعلله بالقعود عن نصره وألح عليه ابن الأحمر في ذلك، فتعلل بالمعاذير.

وكان أبو تاشفين قد عقد لأول قدومه مع وزير الدولة محمد بن يوسف بن علال حلفاً اعتقد الوفاء به، فكان هواه في إنجاده ونصره من عدوه، فلم يزل يقتل للسلطان في الذروة والغارب، ويلوي عن ابن الأحمر المواعيد حتى أجابه السلطان إلى غرضه.

وسرح ابنه الأمير أبا فارس والوزير محمد بن علال في العساكر لمصارحة أبي تاشفين.

وفصلوا من فاس أواخر إحدى وتسعين وسبعمائة وانتهوا إلى تازي.

وبلغ خبرهم إلى السلطان أبي حو فخرج من تلمسان وجمع أشياعه من بني عامر والجراح بن عبيد الله وقطع جبل بني ورنيد المثل على تلمسان، وأقام بالغيران من جهاته.

وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازي،
وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها، وأقام هو بتازي يشارف
أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدم الفتح البلاد الشرقية.

وكان يوسف بن علي بن غام أمير أولاد حسين من المقل
قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة واتصل بملك مصر من
الترك الملك الظاهر برقوق، وتقدمت إلى السلطان فيه وأخبرته
بمحله من قومه، فأكرم تلقية وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى
صاحب المغرب، يطوقه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة
الملوك فلما قدم يوسف بن علي بها على السلطان أبي العباس
أعظم موقعها، وجلس في مجلس حفل لعرضاها والمباهاة بها،
وشرع في المكافأة عنها بتخير الجياد والبضائع والثياب، حتى
استكمل من ذلك ما رضى، واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن
علي حاملها الأول وأنه يرسله من تازي أيام مقامته تلك، فطرقه
هنالك مرض كان فيه حثفه في عزم سنة ست وتسعين وسبعمائة
واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتازي، وولوه مكانه،
ورجعوه إلى فاس، وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال،
وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها، وقائماً بدعوة السلطان أبي
فارس فيها، فسار إليها وملكها، وكان أخوه يوسف بن الزاوية قد
اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والأجلا ب عليها،
فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك ويدلهم عطاء جزيلاً على
أن يبعثوا به إليه، فأجابوا إلى ذلك وأسلموه إلى ثقات أبي زيان،
وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا
بقتله، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان فسكنت أحواله، وذهبت
الفتنة بنهاية، واستقامت أمور دولته، وهم على ذلك لهذا العهد
والله غالب على أمره.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية،
وبقي علينا خبر الرهط الذين تحيزوا منهم إلى بني مريم منذ أول
الدولة، وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله
بن علي، وخبر بني كندوز أمرائهم بمراكش، فلنرجع إلى ذكر
أخبارهم، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد.

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

فحاصروها أياماً ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب، فافترقوا
عن أبي زيان، وخرج إليه أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة.
ولحق بالصحرَاء واستألف أحياء المقل، وعادوا حصار
تلمسان في شوال، وبعث أبو تاشفين ابنه صريحاً إلى المغرب، فجاءه
بمدد من العسكر.

ولما انتهى إلى تاوريرت أفرج أبو زيان عن تلمسان، وأجفل
إلى الصحرَاء ثم أجمع رأيته على الوفاة إلى صاحب المغرب فوفد
عليه صريحاً، فتلقا وبر مقدمه، ووعد النصر من عدوه، وأقام
عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين والله تعالى أعلم.

وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً
فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم،
ومؤدياً للضريبة التي فرضها عليه منذ ملك، وأخوه الأمير أبو
زيان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه حتى
تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزاعات
الملوكية، فأجاب داعي أبي زيان وجهزه بالعساكر للملك تلمسان،
فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة وانتهى إلى
تازي وكان أبو تاشفين قد طرقه مرض أزم به ثم هلك منه في
رمضان من السنة.

وكان القائم بدولته أحمد بن العز من صنائعهم، وكان يمت
إليه بمجولة، فولى بعده مكانه صبياً من أبنائه وقام بكفالاته، وكان
يوسف بن أبي حمو وهو ابن الزاوية والياً على الجزائر من قبل أبي
تاشفين، فلما بلغه الخبر أغذ السير مع العرب، ودخل تلمسان
فقتل أحمد بن العز والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين.

فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب،
خرج إلى تازي وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر، ورد
أبا زيان بن أبي حمو إلى فاس ووكل به.

وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها، وأقام فيها دعوة
أبيه، وتقدم وزير أبيه صالح بن حمو إلى مليانة فملكها وما بعدها
من الجزائر وتدلّس إلى حدود بجاية.

واعتمص يوسف بن الزاوية بمصن تاجحموت.

وأقام الوزير صالح يحاصره، وانقرضت دعوة بني عبد الواد
من المغرب الأوسط، والله غالب على أمره.

الخبر عن بني كمي إحدى بطون بني القاسم بن عبد الواد وكيف نزعوا إلى بني مرين وما صار لهم بنواحي مراكش وأرض السوس من الرياسة

قد تقدم لنا أول الكلام في بني عبد الواد أن بني كمي هؤلاء من شعوب القاسم، وأنهم بنو علي بن يمل بن يركن بن القاسم إخوة بني طاع الله وبني دلوک وبني معطي بن جوهر بن علي.

وذكرنا ما كان بين بني طاع الله وبين إخوانهم بني كمي من الفتنة، وكيف قتل كندوز بن عبد الله كبير بني كمي زيان بن ثابت بن محمد كبير بني طاع الله، وأن جابر بن يوسف بن محمد القاسم بالأمر من بعده ثار منهم بزيان، وقتل به كندوزاً غيلة أو حرباً، وبعث برأسه إلى يغمراسن بن زيان فنصب عليها أهل بيته القدور شفاية لنفوسهم.

واستمر الغلب بعدها على بني كمي، فلحقوا بحضرة تونس وكبيرهم إذ ذاك عبد الله بن كندوز.

ونزلوا على الأمير أبي زكريا حتى كان من استيلائه على تلمسان ما قدمنا ذكره.

وطمع عبد الله في الاستبداد بتلمسان، فلم يتفق ذلك.

ولما هلك مولانا الأمير أبو زكريا، وولي ابنه المتنصر، أقام عبد الله صدراً من دولته.

ثم ارتحل هو وقومه إلى المغرب ونزل على يعقوب بن عبد الحق قبيل فتح مراكش، فاهتز يعقوب لقدمه وأحله بالمكان الرفيع من دولته.

وانزل قومه بجهات مراكش، وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم وجعل السلطان انتجاع إليه وراحته في أحيائهم.

وقدم على رعايتها حسان بن أبي سعيد الصنيحي وأخاه موسى، وصلا في لفيفة من بلاد المشرق، وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها، وأقاموا يتقلبون في تلك البلاد، ويبعدون في نجعتها إلى أرض السوس.

وأوفد يعقوب بن عبد الحق عبد الله بن كندوز هذا على المستنصر صاحب إفريقية سنة خمس وستين وستمئة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدمنا.

والتحم بنو كمي ببني مرين وأصبحوا إحدى بطونهم.

وهلك عبد الله بن كندوز، وصارت رئاستهم من بعده لابنته عمر بن عبد الله.

فلما نهض يوسف بن يعقوب بن عبد الحق إلى المغرب الأوسط وشغل بمحاصر تلمسان، وتحدث الناس بما نزل بعبد الواد من بني مرين، أخذت بني كمي الحمية وأمتعضوا لقومهم، وأجمعوا الخلاف والخروج على السلطان.

ولحقوا بالجاجة سنة ثلاث وسبعمئة، واستولوا على بلاد السوس، فخرج إليهم أخو السلطان الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب، فناجزوه الحرب بتادارت وغلبوه، واستمروا على خلافهم.

ثم عاود محاربتهم بتامطريت سنة أربع وسبعمئة بعدها، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصت جناحهم.

وقتل عمر بن عبد الله وجماعة من كبارهم، وفروا أمامه إلى الصحراء، ولحقوا بتلمسان وهدم يعيش بن يعقوب تارودنت قاعدة أرض السوس، وأقام بنو كندوز بعدها بتلمسان نحواً من ستة أشهر ثم توجهوا للقدر من ولد عثمان بن يغمراسن فرجعوا إلى مراكش واتبعتهم عساكر السلطان وأبلى منهم في القتال عنهم محمد بن أبي بكر بن حمزة بن كندوز، وخلصوا إلى منجاتهم مشردين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان يوسف بن يعقوب.

وراجعوا طاعة الملوك بالمغرب فعموا لهم عما سلف من هذه الجريرة وعاودوهم إلى مكانهم من الولاية، فأحضروا النصيحة والمخالصة.

وكان أميرهم من بعد عمر ابنه محمد، وأقام في إمارتهم ستين ثم ابنه موسى بن محمد من بعده كذلك واستخلصه السلطان أبو الحسن أيام الفتنة بينه وبين أخيه أبي علي، لعهد أبيهما السلطان أبي سعيد ومن بعده، فكانت له في المدافعة عن نواحي مراكش آثار وأيام.

ثم هلك موسى بن محمد فولى السلطان أبو الحسن مكانه ابنه يعقوب بن موسى.

ولما غلب على تلمسان وأصار بني عبد الواد في خوله وجنوده، تمشت رجالاتهم وتباثوا أشجانهم حتى إذا كانت واقعة القيروان المشهورة وتواقف السلطان وبني سليم داخلهم يعقوب بن موسى في أن ينخذل عن السلطان إليهم ببني عبد الواد ومن إليهم من مغراوة وتوجين، وواعدهم لذلك، ثم مشى في قومه وكافة بني عبد الواد فأجابوه إلى ذلك.

يفرن الذين كانوا ملوك تلمسان لأول الإسلام، وكان منهم أبو قرة الصفري كما قدمناه وكان منهم بعد ذلك يعلى بن محمد الأمير الذي قتله جوهر الصقلي قائد الشيعة كما ذكرناه في أخبارهم.

ويعلى هذا هو الذي اختط بهذا الجبل مدينة إيفكان التي هدمها جوهر يوم قتله.

فلما ملك بنو راشد هذا الجبل استوطنوه وصار حصناً لهم، وبجالاتهم في ساح القبيلة إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد، والجؤوهم إلى الجبل وكان غلب بني راشد على هذه الأوطان بين يدي دخول بني عبد الواد إلى المغرب الأوسط، وكانوا شيعة لهم وأحلاًفاً في قتلهم مع بني توجين وبني مرين، وكانت رياستهم في بيت منهم يعرفون ببني عمران، وكان القائم بها لأول دخولهم إبراهيم بن عمران واستبد عليه إخوه ونزمار وقام بأمرهم إلى أن هلك، فولى ابنه مقاتل بن ونزمار وقتل عمه إبراهيم وتفرقت رئاسة بني عمران من يومئذ بين بني إبراهيم وبني ونزمار إلا أن رئاسة بني إبراهيم أظهر، فولي بعد إبراهيم بن عمران ابنه ونزمار وكان معاصراً ليغمراسن بن زيان وطال عمره، ولما هلك لتسعين من المائة السابعة ولي أمرهم غانم ابن أخيه محمد بن إبراهيم.

ثم كان فيهم من بعده موسى بن يحيى بن ونزمار، لا أدري معاقباً لغانم أو توسطهما أحد.

ولما زحف بنو مرين إلى تلمسان آخر زحفهم، صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبي الحسن، وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار بن إبراهيم.

وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجون بن ونزمار وانقرض أمر بني عبد الواد وأشياهم.

ونقل بنو مرين رؤوس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى، فكان بنو ونزمار هؤلاء عن صار إلى المغرب وأوطنوه إلى أن صار الأمر لبني عبد الواد في الكرة الثالثة على يد أبي حمو الأخير موسى بن يوسف.

وكان شيخ بني راشد لعده زيان بن أبي يحيى بن موسى المذكور أقبل إليهم من المغرب من إيالة بني مرين، فاتهمه أبو حمو بمدخلتهم، فتقبض عليه واعتقله مدة بوهراة وفر من معتقله فلقق بالمغرب وارتحل بين أحيائهم مدة.

ثم رجع إلى الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبي حمو، وولاه على قومه.

ثم تقبض عليه واعتقله إلى أن قتله بحجسه سنة ثمان

ولحقوا جميعاً ببني سليم، فجزوا بذلك الهزيمة على السلطان وكانت نكبة القيروان المشهورة.

ولحق بعدها بنو عبد الواد بتلمسان، وولوا أمرهم في بني يغمراسن.

وهلك يعقوب بن موسى بإفريقية، ولحق أخوه رحو بالمغرب.

وكان السلطان أبو عنان قد استعمل على جماعتهم وعملهم عيو بن يوسف بن محمد وهو ابن عمهم دنيا، فأقام فيهم كذلك حتى هلك، فولي من بعده ابنه محمد بن عيو وهم على ذلك لهذا العهد، يعسكرون للأمير بمراكش، ويتولون من خدمة السلطان هنالك ما لهم فيه الغناء والكفاية.

فكانهم بمعزل عن بني عبد الواد لاستحكام العداوة بمقتل زيان بن ثابت.

والله وأرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، لا رب غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن بني راشد بن محمد بن بادين وذكر أوليتهم وتصاريف أحوالهم

ولما قدمنا ذكرهم قبل استتمام بطون بني بادين لأنهم لم يزالوا أحلاًفاً لبني عبد الواد ومن جملتهم، فكانت أخبارهم من أخبارهم، وأما راشد أبوهم فهو آخر بادين.

واختص بنوه كما قلنا ببني عبد الواد، وكانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف برائد اسم أبيهم.

وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبلة تاسالة وينو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان إلى قصر سعيد.

وكان جبل هوراة موطناً لبني يلومان الذين كان لهم الملك كما قدمنا.

ولما اضمحل أمر بني يلومان وذهبت دولتهم، زحف بنو راشد هؤلاء من موطنهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبني ورنيد، فنشروا عليهم الغارات، وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم والجؤوهم إلى الأوعار: فاستوطن بنو ورنيد الجبل المطل على تلمسان، واستوطن مديونة جبل تاسالة.

وملك بنو راشد بسائطهم القبيلة.

ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد، وهو بلد بني

وستين وسبعمائة، وانقرض أمر بني ونزمار بن إبراهيم، وأما بنو ونزمار بن عمران فقام بأمرهم بعد مقاتل بن ونزمار أخوه أبو زركن بن ونزمار، ثم ابنه يوسف بن أبي زركن، ثم آخرون من بعدهم لم تحضرني أسماؤهم إلى أن غلب عليهم بنو ونزمار بن إبراهيم.

وقد ذهبت لهذا العهد رياسة أولاد عمران جميعاً، وصار بنو راشد خولاً للسلطان وجباية، وبقيتهم على الحال التي ذكرناها، والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني توجين من شعوب بني بادين

من أهل هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما

كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب

الأوسط وأولية ذلك ومصائره

كان هذا الحي من أعظم أحياء بني بادين وأوفرهم عدداً وكانت مواطنهم حشافي وادي شلف قبلة جبل وانشرش من أرض السرسو، وهو المسمى لهذا العهد نهر واصل وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منهم بطون من لواتة، وغلبهم عليها بنو وجديين ومطماطة.

ثم صارت أرض السرسو لبني توجين هؤلاء واستضافوها إلى مواطنهم الأولى صارت مواطنهم ما بين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة.

وكانت رياستهم أيام صنهاجة لعطية بن دافلتن، وابن عمه لقمان بن المعتز كما ذكره ابن الرقيق.

ولما كانت فتنة حماد بن بلكين مع عمه باديس، ونهض إليه باديس من القيروان حتى احتل بوادي شلف، تحيز إليهم بنو توجين هؤلاء، وكانت لهم في حروب حماد آثار مذكورة.

وكان لقمان بن المعتز أظهر من عطية بن دافلتن، وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف.

وأوفد لقمان ابنه بدر على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشاً.

فلما انهزم حماد رعى لهم باديس اغنياشهم إليه، وسوخ لهم ما غنموه، وعقد للقمان على قومه ومواطنه، وعلى ما يفتح من البلاد بدعوته ثم انفرد برياستهم بعد حين بنو دافلتن.

ويقال إنه دافلتن بن أبي بكر بن الغلب.

وكانت رياستهم لعهد الموحدين لعطية بن مناد بن العباس بن دافلتن، وكان يلقب عطية الحيو.

وكانت بينهم لعهد ويين بني عبد الواد حروب، كان متولي كبرها من بني عبد الواد شيخهم لذلك العهد أعدوى بن يكتمن بن القاسم، فلم تزل تلك الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الواد آخراً على مواطنهم كما نذكره.

ولما هلك عطية الحيو قام بأمرهم ابنه العباس، وكانت له آثار في الإجلاب على ضواحي المغرب الأوسط.

ونقض طاعة الموحدين إلى أن هلك سنة سبع وستماية، دس عليه عامل تلمسان يومئذ أبو زيد بن بوجان من اغتاله فقتله.

وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوي، فانفرد برياستهم وتوارثها عقبه من بعده كما نذكره.

وكان من أشهر بطون بني توجين هؤلاء يومئذ بنو يدلتن وبنو غمزي وبنو مادون وبنو زنداك وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن.

ثم بنو تيغرين وبنو يرانتان وبنو منكوش، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو رسوغين، ونسب بني زنداك دخيل فيهم، وإنما هم من بطون مغراوة.

وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوي بن العباس ابن عطية الحيو، هكذا رأيت نسبه لبعض مؤرخي زناتة المنكوشي.

وكانت رياسة بني توجين جميعاً عند انقراض أمر بني عبد المؤمن لعبد القوي بن العباس بن عطية الحيو، وأحيائهم جميعاً بتلك المجالات القبلية.

فلما وهن أمر بني عبد المؤمن وتغلب مغراوة على بسائط متيجة، ثم على جبل وانشرش، نازعهم عبد القوي وقومه أمر وانشرش، وغالبوهم إلى أن غلبوهم عليه، واستقر في ملكهم وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم.

ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بني مدن جميعاً. وكان الظهور منهم لبني يدلتن، ورياسة بني يدلتن لبني سلامة.

وبقي بنو يرانتان من بطونهم بمواطنهم الأولى قبلة وانشرش.

وكان من أحلاف بني عطية الحيو بنو تيغرين منهم خاصة، وأولاد عزيز بن يعقوب، ويعرفون جميعاً بالحشم ولما تغلبوا على الأوطان والتلول، وأزاحوا مغراوة عن المدينة وانشرش

وتافركنيت، واستأثروا بملكها وملك الأوطان عن غريبها مثل:

منداس والجعبات وتاوغزوت، ورئيسهم لذلك العهد عبد القوي بن العباس، والكل لأمره.

فصار له ملك بدوي ولم يفارق فيه سكنى الخيام ولا إبعاد النجعة ولا إيلاف الرحلتين.

يتنهون في مشائيتهم إلى مصاب والزاب، وينزلون في المصايف بلادهم هذه من التل ولم يزل هذا شأن عبد القوي وابنه محمد، إلى أن تنازع بنوه الأمر من بعده، وقتل بعضهم بعضاً.

وتغلب بنو عبد الواد على عامة أوطانهم وأحيائهم، واستبد عليهم بنو يرانان وبنو يدلتن فصاروا إلى بني عبد الواد.

وبقي أعقابهم بجبل وانشرش إلى أن انقرضوا كما نذكره.

وكان عبد القوي لما غلب مغراوة على جبل وانشرش، اختط حصن مرات، بعد أن كان منديل المغراوي شرع في اختطاطه، فبنى منه القصبية ولم يكمله، فأكمله محمد بن عبد القوي من بعدهم.

ولما استبد بنو أبي حفص بأمر بإفريقية، وصارت لهم خلافة الموحدين نهض الأمير أبو زكرياء إلى المغرب الأوسط، دخلت في طاعته قبائل صنهاجة، وفرت زناتة أمامه وردد إليهم الغزو فأصاب منهم وتقبض في بعض غزواته على عبد القوي بن العباس أمير بني توجين فاعقله بالحضرة ثم من عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه، فصاروا شيعه له ولقومه آخر الدهر.

ونهض الأمير أبو زكرياء بعدها إلى تلمسان، فكان عبد القوي وقومه في جملة حتى إذا ملك تلمسان، ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القوي هذا على قومه ووطنه، وأذن له في اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسم الملك لبني توجين هؤلاء وكانت حالهم مع بني عبد الواد تختلف في السلم والحرب.

ولما هلك السعيد عل يدي يغمراسن وقومه كما ذكرناه، استنفر يغمراسن سائر أحياء زناتة لغزو المغرب، ومسايقه بني مرين إليه، ففر معه عبد القوي في قومه سنة سبع وأربعين وستماية وانتهوا إلى تازي، واعترضهم أبو يحيى بن عبد الحق أمير بني مرين في قومه، فنكصوا واتبعهم إلى انكاد فكان اللقاء، وانكشفت جموع بني بادين وكانت الهزيمة التي ذكرناها في أخبار بني عبد الواد.

وهلك عبد القوي مرجعه منها في سسته بالموضع المعروف ماحنون من مواطنهم وتصدى للقيام بأمرهم بعده ابنه يوسف، فمكث في تلك الإمارة أسبوعاً، ثم قتله على جدت أبيه أخوه

محمد بن عبد القوي، وولي عهد أبيه سابع مواراته.

وفر ابنه صالح بن يوسف إلى بلاد صنهاجة ببجبال المدينة، فأقام بها هو وبنوه.

واستقل محمد برياسة بني توجين، واستغلظ ملكه، وكان الفحل الذي لا يقرع أنفه.

ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين وستماية وعمد إلى حصن تافراكنيت فنزله، به يومئذ حافده علي بن زيان بن محمد في عصابة من قومه، فحاصره أياماً وامتنعت عليه فارتحل عنها، ثم تواضعوا أوزار الحرب ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا إليه أباه من غزو بني مرين في بلادهم فأجاب.

ونهبوا سنة سبع وخمسين وستماية ومعهم مغراوة فأنتهوا إلى كلدمان ما بين تازي وأرض الريف ولقيهم يعقوب بن عبد الحق في جموعه فانكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه.

وكانت بينه بعد ذلك وبين يغمراسن فتن وحروب، فنزله فيها بجبل وانشرش مرات، وجاس خلال وطنه ولم يقع بعدها بينهما مراجعة لاستبداد يغمراسن بالملك، وسموه إلى التغلب على زناتة أجمع وبلادهم، وكانوا جميعاً منحاشين إلى الدعوة الحفصية.

وكان محمد بن عبد القوي كثير الصاغية إلى السلطان المستنصر.

ولما نزل النصارى الإفريقية بساحل تونس سنة ثمان وستين وستماية وطمعوا في ملك الحضرة، بعث المستنصر إلى ملوك زناتة بالصريخ فصرخوا وجوههم إليه، وخف من بينهم محمد بن عبد القوي في قومه ومن احتشد من أهل وطنه، ونزل على السلطان بتونس وأبلى في جهاد العدو أحسن البلاء، وكانت له في أيامه معهم مقامات مذكورة، ومواقف، عند الله محترمة معدودة.

ولما ارتحل العدو عن الحضرة وأخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه، أسنى السلطان جائزته، وعم بالإحسان وجوه قومه وعساكره، وأقطعهم بلد مقرة وأوماش من وطن الزاب، وأحسن منقلبه.

ولم يزل بعد ذلك متعلقاً بطاعته مستظهِراً على عدوه بالانغياش إليه.

ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب واستبدادهم بملكه، وصل محمد يده بهم في الاستظهار على يغمراسن، وأودع ابنه زيان بن محمد عليهم.

ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان سنة سبعين

وفر بنو صالح ابن أخيه يوسف بن عبد القوي من مكانهم بين صنهاجة منذ مقتل أبيه يوسف كما ذكرناه ولحقوا ببلاد الموحدين بإفريقية، فلقوهم مرة وتكريماً.

وأقطعوا لهم بضواحي قسنطينة، وكانوا يعملون عليهم أيام حروبهم وفي مواطن قتالهم.

وكان من أظهرهم عمر بن صالح وابناه صالح ويحيى بن عمر، وحافده يحيى بن صالح بن عمر في آخرين مشاهير.

وأعقابهم لهذا العهد بنواحي قسنطينة وفي إيالة الملوك من آل أبي حفص، يعسكرون معهم في غزواتهم ويبلون في حروبهم، ويقومون بوظائف خدمتهم.

وكان الوالي من أولاد عزيز على المدينة حسن بن يعقوب، وبنوه من بعده يوسف وعلي، وكانت مواطنهم ما بين المدينة وموطنهم الأول ماخزون.

وكان بنو يذللتن أيضاً من بني توجين قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيماً على طاعة محمد بن عبد القوي وقومه، فانصل ملك محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى بلاد صنهاجة بنواحي المدينة، وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله إلى أرض الزاب.

وكان يبعد الرحلة في مشاته فينزل الدوسن ومقرة والمسيلة. ولم يزل دأبه ذلك.

ولما هلك يغمراسن سنة إحدى وثمانين وستماية كما ذكرناه استجدت الفتنة بين عثمان ابنه وبين محمد بن عبد القوي فنهذ إليه عثمان في جموعه من بني عبد الواد والعساكر سنة اثنتين وثمانين. فحاصره بجبل وانشرش وامتنع عليه، فعاث في نواحي وطنه وقفل إلى تلمسان. وهلك محمد بن عبد القوي، على أثر ذلك سنة أربع وثمانين وستماية وولي من بعده ابنه سيد الناس، فلم تطل مدة ملكه وقته أخوه موسى لسنة أو نحوها من بعده مهلك أبيه.

وأقام موسى بن محمد في أماره بني توجين نحو من عامين. وكان أهل مرات من أشد أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة، فحدثه نفسه أن يستلحم مشيختهم ويربح نفسه من محاذرتهم، فأجمع لذلك ونزلها، ونذروا بشأنه ورأيه فيهم فاستماتوا جميعاً وثاروا به فقاتلهم.

ثم انهزم متخذاً بالجراحة والجأوه إلى مهاوي الحصن فتردى

وستماية وأوقع بيغمراسن في إيسلى من أنكاد الواقعة التي هلك فيها ابنه فارس نهض إلى محمد بن عبد القوي للقاتله ومر في طريقه بالبطحاء، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها ولقي يعقوب بن عبد الحق في ساحة تلمسان مباحياً بآلته فأكرم يعقوب وفادته وبر مقدمه ونازلوها أياماً فامتنعت عليهم، وأجمعوا على الإفراج وتأذن لهم يعقوب بن عبد الحق لتيلومن عليها إلى أن يلحق محمد وقومه ببلادهم، حذراً عليهم من غائلة يغمراسن ففعل، وملاً حقائبهم بأنحافه، وجنب لهم مائة من الجياد العتاق بالراكب الثقيلة، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب، وعصمهم بالصلوات والخلع الفاخرة، واستكثر لهم من السلاح والفايزات والأخييات والحملان وارتحلوا، ولحق محمد بن عبد القوي بمكانه من جبل وانشرش، واتصلت حروبه مع يغمراسن، وكثر إجلاله على وطنه وعيشه في بلاده وهو مع ذلك مقيم على موالاة يعقوب بن عبد الحق وإنحافه بالعناق من الخيل والمستجاد من الطرف.

حتى كان يعقوب إذا اشترط على يغمراسن في مهادنته جعل سلمهم من سلمه، وحربهم من حرب، وبسببهم كان نهوض يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين وستماية لما اشترط عليه ذلك، ولج في قبوله، فنهض إليه وأوقع به بمخزوزة.

ثم أئاخ عليه بتلمسان، ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي فلقية في القصبات، وعاثوا في نواحي تلمسان نهياً وتخريباً.

ثم أذن يعقوب محمداً وقومه في الانطلاق إلى بلادهم، وتلوم هو بمكانه من ضواحي تلمسان بمدة منجاتهم إلى مكانهم من وانشرش حذراً عليهم من اعتراض يغمراسن.

ولم يزل شأنهم ذلك إلى أن هلك يغمراسن بشدوية من بلاد مغراوة خاتمة إحدى وثمانين وستماية وفي خلال ذلك استغلاظ بني مرين على بني عبد الواد، استوسق لمحمد هذا ملكه، فتغلب على أوطان صنهاجة بجبال المدينة، وأخرج الثعالب من جبل تيطري بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم، فانزاحوا عنه إلى بسائط متيجة وأوطنها.

واستولى محمد على حصن المدينة وهو المسمى بأهله المدينة (بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وهاء النسب في آخرها).

وهم بطن من بطون صنهاجة وكان المختط لها بلكين بن زيري.

ولما استولى محمد عليها وعلى ضواحيها أنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه وجعلها لهم موطناً وولاية.

منها وهلك.

ثم هلك فنصب بنو تيغرين بعده أخاه عطية المعروف بالأصم، وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين فبايعوا ليوسف ابن زيان بن محمد.

وزحفوا إلى جبل وانشرش فحاصروا به عطية وبني تيغرين عاما أو يزيد وكان يحيى بن عطية كبير بني تيغرين هو الذي تولى البيعة لعطية الأصم.

فلما اشتد بهم الحصار واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان ورغبه في ملك جبل وانشرش فبعث معه الجيوش لنظر أخيه أبي سرحان، ثم أخيه أبي يحيى.

وكان نهوض أبي يحيى سنة إحدى وسبعمئة، فتوغل في ناحية الشرق، ولما رجع صمد إلى جبل وانشرش، فهدم حصونه، وقتل ونهض ثانية إلى بلاد بني توجين فشردهم عنها، وأطاعه أهل تافركنيت، ثم انتهى إلى المدينة فافتتحها صلحاً، واختط قصبتها ورجع إلى أخيه يوسف بن يعقوب، فانتقض أهل تافركنيت بعد صدوره عنهم.

ثم راجع بنو عبد القوي بصانهم في التمسك بالطاعة. ووفدوا على يوسف بن يعقوب فتقبل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم، وأقطعهم.

وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي، وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته، واستقام ملكه.

وهلك خلال ذلك فعقد يوسف بن بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصم، واستقام على طاعته وقتاً، ثم انتقض بين يدي مهلكة سنة ست وسبعمئة وحمل قومه على الخلاف.

ولما هلك يوسف بن يعقوب وتجاوى بنو مريش من بعدها لبني يغمراسن عن جميع الأمصار التي تملكوها بالغرب الأوسط، استمكن بنو يغمراسن منها ودفعوا المتغلبين عليها.

ولحق الفل من أولاد عبد القوي ببلاد الموحدين، فحلوا من دولتهم محل الإيثار والتكرمة.

وكان للعباس بن محمد بن عبد القوي مع الملوك من آل أبي حفص مقام الخلة والمصافاة إلى أن هلك، وبقي عقبه في جند السلطان.

ولما خلا الجو من هؤلاء المرشحين تغلب على جبل وانشرش من بعدهم كبير بني تيغرين وهو يحيى بن عطية بن يوسف بن المنصور، ويزعمون أنهم دخلاء في بني تيغرين، وأن المنصور هو أحمد بن محمد من أعقاب يعلى بن محمد

وولي من بعد عمر ابن أخيه إسماعيل بن محمد مدة أربعة أعوام، ثم غدر به أولاد عمه زيان بن محمد فقتلوه وولوا كبيرهم بن زيان وكان حسن الولاية عليهم، يقال: ما ولي بعد محمد فيهم مثله.

وفي خلال هذه الولاية استغلظ عليهم بنو عبد الواد واشتدت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد، فنهض إليهم سنة ست وثمانين وستماية وحاصروهم بجبل وانشرش وعاث في أوطانهم ونقل زروعها إلى مازونة حين غلب عليها مغراوة.

ثم نازل حصن تافركنيت وملكها بمدخله القائد بها غالب الخصي مولى سيد الناس بن محمد، وقتل إلى تلمسان.

ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوغزوت، وامتنعوا عليه مراراً، ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بني محمد بن عبد القوي فبذلوا لهم العهد وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن وفرضوا لهم المغارم على بني يدلتن.

وسلك عثمان بن يغمراسن مسلك التضريب بين قبائل بني توجين وتحريضهم على إبراهيم بن زيان أميرهم، فعدا عليه زكران بن أعجمي شيخ بني مادون وقتله بالبطحاء في إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه.

وولي من بعده موسى بن زرارعة بن محمد بن عبد القوي، بايع له بنو تيغرين واختلف سائر بني توجين فأقام بعض سنة.

وعثمان بن يغمراسن في خلال هذا يستألف بني توجين شعباً فشحاً إلى أن نهض إلى جبل وانشرش فملكه وفر أمامه موسى بن زرارعة إلى نواحي المدينة وهلك في مفره ذلك.

ثم نهض عثمان إلى المدينة سنة ثمان وثمانين وستماية بعدها فملكها بمدخله المدينة من قبائل صنهاجة، غدروا بأولاد عزيز وأمكنوه منها.

ثم انتفضوا عليه لسبعة أشهر ورجعوا إلى إيالة أولاد عزيز، فصالحوا عثمان بن يوسف على الأتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوي وبنيه، فملك عثمان بن يغمراسن على عامة بلاد توجين.

ثم شغل بما دمه من مطالبة بني مريش أيام يوسف بن يعقوب، فولى على بني توجين من بني محمد بن عبد القوي أبو بكر بن إبراهيم بن محمد مدة عامين، أخاف فيها الناس وأساء السيرة.

سلطان بني يفرن.

فأقام يحيى بن عطية هذا في رياستهم أياماً ثم هلك، وقام بأمرة من بعده أخوه عثمان بن عطية.

ثم هلك وولي من بعد ابنه عمر بن عثمان، واستقل مع قومه بجبل وانشرش، واستقل أولاد عزيز بالمدينة ونواحيها ورياستهم ليوسف وعلي ابني حسن ابن يعقوب، والكل في طاعة أبي هو سلطان بني عبد الواد بما غلبهم على أمرهم، وانتزع الرياسة من بني عبد القوي أمرتهم إلى أن خرج على السلطان أبي هو محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن، ولحق بأولاد عزيز فبايعوه وداخلوا في شأنه عمر بن عثمان كبير بني تيغرين وصاحب جبل وانشرش، فأجابهم وأصفق معهم سائر الأعشار ومنكوشة وبني يرناتن.

وزحفوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبي هو في معسكره بتهل ففصره، وكان من شأن فتنته معهم ما ذكرناه في أخبار بني عبد الواد إلى أن هلك السلطان أبو هو وولي ابنه أبو تاشفين، فهض إليهم في العساكر، وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغيرة من مخالصة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه، فداخل السلطان أبا تاشفين في الانحراف عنه، فلما نزل بالجبل، ولحق محمد بن يوسف بمحصن توكال ليمتنع له، نزع عنه عمر بن عثمان ولحق بأبي تاشفين ودله على مكانم الحصن، فدلّف إليه أبو تاشفين وأخذ بمخفقه.

وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه فتقبض عليه، وقيد أسيراً إلى السلطان أبي تاشفين فقتل بين يديه قصصاً بالرماح سنة تسع عشرة وسبعمئة وبعث برأسه إلى تلمسان، وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع فيه أيام انتزاعه.

ورجع أمر وانشرش إلى عمر بن عثمان هذا، وحصلت ولايته لأبي تاشفين إلى أن هلك بتلمسان في بعض أيامهم مع بني مرين، أعوام نازها السلطان أبو الحسن كما ذكرنا في أخبار الحصار.

ثم لما تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه نصر بن عمر على الجبل، وكان خير وال وفاء بأزمة والطاعة، وخلصاً في الولاية، وصدقاً في الاغياش، وإحساناً للملكة، وتوفيراً للجباية.

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان، وتناول الأعياص من زناتة إلى استرجاع ملكهم، انتزى بضواحي المدينة من آل عبد القوي عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي،

وناعى الخوارج في دعوتهم، واشتمل عليه بنو عزيز هؤلاء وبني يرناتن جيرانهم، وزحف إلى جبل وانشرش لينال مع الحشم من مدبلي أمرهم والمداخيل لعدوهم في قطع دابرهم، وكبيرهم يومئذ نصر بن عمر بن عثمان.

وبايع نصر المسعود ابن بو زيد بن خالد بن محمد بن عبد القوي من أعقابهم، ثم خلص إليه من جملة عدي بن يوسف حذراً على نفسه من أصحابه.

وقاتلهم عدي وقومه فامتنعوا عليه، ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر وقومه.

ثم دخل عدي في جملة السلطان أبي الحسن لما خلص من تونس إلى الجزائر، وبقي مسعود بينهم وملكه أبو سعيد بن عبد الرحمن لما ملك تلمسان هو وقومه فلم يزل هنالك إلى أن غلبه السلطان أبو عنان، فصار في جلته بعد أن فر إلى زواوة.

واستنزله منها ونقله إلى فاس وانقضى ملكهم ودولتهم، وانقطع أثر بني محمد بن عبد القوي.

وأقام نصر بن عثمان في ولاية جبل وانشرش وعقد له السلطان أبو عنان عليه سائر دولته.

ولم يزل قائماً بدعوة بني مرين من بعده إلى أن غلبهم السلطان أبو هو الأخير، وهو موسى بن يوسف على الأمر، فأعطاه نصر الطاعة.

ثم اضطربت نار الفتنة بين العرب وبين بني عبد الواد أعوام سبعين وسبعماية، وقاموا بدعوة أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبو هو، فأنحاش نصر بن عمر إليهم وأخذ بدعوة الأمير أبي زيان حيناً ثم هلك أيام تلك الفتنة وقام بأمرهم من بعده أخوه يوسف بن عمر متقبلاً لمذهبه وهو لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعماية صاحب جبل وانشرش، وحاله مع أبي هو مختلف في الطاعة والخلاف، والله مالك الأمور، لا رب غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة

تاوغزوت ورؤساء بني يدللت من بطون

توجين من هذه الطبقة الثانية وأوليتهم

ومصائرهم

كان بنو يدللت هؤلاء من شعوب بني توجين وأشدّهم

إلى أن هلك يوسف بن يعقوب ورجع أمر المغرب الأوسط لبني عبد الواد فوضعوا الآتاوات على بني توجين وأصاروهم إلى الجباية.

ولم يزل سعد على ولايته إلى أن هلك أبو حمو وولي أبو تاشفين، فسخط سعداً وبعث عن أخيه محمد من جبل راشد، فولاه مكانه.

ولحق سعد بالمغرب، وجاء في جملة السلطان أبي الحسن، ودخل أخوه محمد مع أبي تاشفين فاحصر بتلمسان، وولي سعد بن سلامة مكانه.

ثم هلك محمد في بعض أيام الحصار وحروبه.

ولما انقرض أمر بني عبد الواد رغب سعد من السلطان تخليقه سبيله لقضاء فرضه، فحج وهلك مرجعه من الحج في طريقه وعهد إلى السلطان أبي الحسن واستوصاه ببنيه على لسان وليه عريف بن يحيى كبير بني سويد.

فولى السلطان أبو الحسن ابنه سليمان بن سعد على بني يدلتن والقلعة، وانقرض أمر السلطان أبي الحسن وعاد الأمر إلى أبي سعيد وأبي ثابت ابني عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، فكانت بينه وبينهم ولاية أخراف.

وكان أولياؤهم من العرب بني سويد من زغبة بما كانوا جيرانهم في مواطنهم من ناحية القبلة، فطمع ونزمار بن عريف شيخهم في التغلب على وطن بني يدلتن، ومانعه دونه سليمان هذا، وبالغ في دفاعه إلى أن ملك السلطان أبو عنان بلاد المغرب الأوسط، ورعى لنزمار، وابنه عريف حق الحياشهم إليه وهجرتهم إلى قومه، فأقطع ونزمار بن عريف القلعة وما إليها وجباية بني يدلتن أجمع.

ولحق سليمان بن سعد بن سلامة في جنده ووجوه عسكره إلى أن هلك السلطان، وعاد الأمر لبني عبد الواد على يد أبي حمو الأخير، فولى سليمان على القلعة وعلى قومه واستغلظ العرب عليه.

فاستراب سليمان هذا ونذر بالشر منه، فلحق بأولاد عريف، ثم راجع الطاعة فتقبض عليه واغتاله، وذهب دمه هدراً.

ثم غلبه العرب على عامة المغرب الأوسط، وأقطع القلعة وبني يدلتن لأولاد عريف استلاقاً لهم.

ثم أقطعهم بني مادون ثم منداس، فأصبحت بطون توجين كلها خولاً لسويد وعبيداً لجبايتهم إلا جبل وانشرش فإنه لم يزل

شركة وأوفرهم عدداً، وكان لهم ظهور من بين سائر تلك البطون. وكان بنو عبد القوي ملوك بني توجين يعرفون لهم ذلك، ويوجبون لهم حقه.

ولما دخلوا إلى التلول بعد انقراض بني يلومي وبني ومانوا نزل بنو قاضي منهم وبنو مادون بأرض منداس، فأوطنوها.

وجاء بنو يدلتن على أثرهم، فأوطنوا الجعبات وتاوغزوت ورياستهم يومئذ لنصر بن سلطان بن عيسى.

ثم هلك فقام بأمرهم ابنه مناد بن نصر، ثم أخوه علي بن نصر من بعده ثم ابنه إبراهيم بن علي من بعده.

ثم هلك وقام بأمرهم أخوه سلامة بن علي على حين استفحل ملك عبد القوي وبنيه، فاستفحل أمره هو في قومه واختط القلعة تاوغزوت المنسوبة إليه وإلى بنيه، وكانت من قبل رباطاً لبعض المنقطعين من عرب سويد.

ويزعم بنو سلامة هؤلاء أنهم دخلاء في نسب توجين، وأنهم من العرب ثم من بني سليم بن منصور.

وجاء جدهم عيسى أو سلطان نازعاً عن قومه لدم أصابه فيهم، فخلطه شيخ بني يدلتن من بني توجين بنسبه، وكفل بنيه من بعده فكانت له سبباً في رياسته على بني يدلتن وبنيه من بعده.

ولما هلك سلامة بن علي قام بأمرهم من بعده ابنه يغمراسن بن سلامة، على حين استغلظ بنو عبد الواد على بني توجين من بعد مهلك محمد بن عبد القوي سلطانهم الأكبر.

فكان عثمان بن يغمراسن يتردد إلى بلادهم بالغزو، ويطيل فيها العيث ونازل في بعض غزواته قلعتهم هذه، وبها يغمراسن فامتنع عليه وخالفه يوسف بن يعقوب وبنو مريـن إلى تلمسان، فأجفل على القلعة وسابق بني مريـن إلى دار ملكه واتبعه يغمراسن بن سلامة مغيراً في أعقابه، فكر إليه بالمكان المعروف بتليوان.

ودارت بينهم هنالك حرب هلك فيها يغمراسن بن سلامة، وقام بالأمر من بعده أخوه محمد بن سلامة، فأذعن لطاعة عثمان بن يغمراسن، وخالف بني محمد بن عبد القوي وجعل الآتاوة على قومه ووطنه للملك بني عبد الواد، فلم تزل عليهم للملك تلمسان.

ولحق أخوه سعد بالمغرب، وجاء في جملة السلطان يوسف بن يعقوب في غزوته التي حاصر فيها تلمسان حصاره الطويل، فرعى لسعد بن سلامة هجرته إليه وولاه على بني يدلتن والقلعة. وفر أخوه محمد بن سلامة فلحق بجبل راشد وأقام هنالك

ومن مشاهيرهم عمر الذي قتله السلطان أبو الحسن بمرات حين سعى به أنه داخل في اغتياله، ففر وأدرك فقتل بمرات. ومنهم منديل الذي قتله بنو تيغرين أيام ولوا علي بن الناصر وقتلوا معه عيو بن حسن بن عزيز، ومنهم عنان ومات قتيلاً في حصار تلمسان أيام أبي تاشفين، ومنهم مسعود ومهيب وسعد وداود وموسى ويعقوب والعباس ويوسف في آخرين معروفين عندهم.

هذا شأن أولاد نصر بن علي بن نصر بن مهيب.

وأما ولد عنتر أخيه فكان منهم أبو الفتوح بن عنتر.

ثم من ولده عيسى بن أبي الفتوح، فكان رئيساً على بني أبيه، وكانت إحدى وصانفهم سقطت بدار عثمان بن يغمراسن، وادعت الحمل من سيدها أبي الفتوح، وجاءت بأخ لعيسى سمي معروفاً، ربي بدارهم.

واستورزه أبو حمو وابنه من بعده، وبلغ المبالغ في دولتهم وكان يدعى معرف الكبير.

ولحق به أيام رياسته في دولة أبي حمو الأول أخوه عيسى بن أبي الفتوح مغاضباً لقومه، فسعى له في الولاية على بني راشد وجباية أوطانهم، وأنزله بلد سعيدة، فكانت له بها إمارة، وكان له من الولد أبو بكر وعيو وطاهر ووزمار، وعندما غلب بني مرين على بني عبد الواد ولاهم السلطان أبو الحسن على بني يرناتن متداولين وأما ولد تاسرعين من بني علي بن نصر بن مهيب، فلم يكن لهم ذكر في رئاسة قومهم، إلا أن بعض وصانفهم سقطت أيضاً إلى دار أبي تاشفين فولدت غلاماً يعرف بعطية بن موسى نشأ في دارهم فنسب إلى بني تاسرعين فولاه.

وتناولته النجابة في خدمتهم، فولوه الأعمال النبيهة، وهو لهذا العهد عامل أبي حمو الأخير على شلف وما إليه.

وقد غلب العرب لهذا العهد على وطن بني يرناتن، وملكوا عليهم يعود وماحون وبقيت صبايتهم بجبل وريثة.

وعليهم لهذا العهد أمير من ولد نصر بن علي بن نصر بن مهيب، يعطون المغرم للسلطان ويصانعون العرب بالأتاوة.

ويبد الله تصارييف الأمور سبحانه لا رب غيره.

لبي تيغرين والوالي عليهم يوسف بن عمر منهم كما قلناه.

ونظم أبو حمو أولاد سلامة في جنده وأثبتهم في ديوانه وأقطعهم القصبات من نواحي تلمسان في عطائهم وهم على ذلك لهذا العهد.

والله الخلق والأمر، لا رب سواه ولا معبود إلا إياه، له الحكم، إليه ترجعون، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الخبر عن بني يرناتن إحدى بطون توجين

من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم من

التغلب والإمارة وذكر أوليتهم ومصائرهم

كان بنو يرناتن هؤلاء من أوفر قبائل بني توجين وأعزهم جانباً وأكبرهم صيتاً.

ولما دخل بنو توجين إلى تلول المغرب الأوسط، أقاموا بمواطنهم الأولى ما بين وماحون وورينة.

ثم يعودون من القبلة يجولون جانبي نهر واصل من أعلى وادي شلف.

وكانت رياستهم في نصر بن علي بن تميم بن يوسف بن بو نوال، وكان شيخهم مهيب بن نصر منهم، وكان عبد القوي بن العباس وابنه محمد أمراء بني توجين يختصونهم بالإثرة والتجلة لمكانهم من قومهم، وما يؤنسون من عظيم عنائهم.

وكان محمد بن عبد القوي في سلطانه يولي عليهم من الحشم أولاد عزيز، وكان واليهم لعده وعهد بنه عيو بن حسن بن عزيز.

وقد كان أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوي في ابنته، فأثكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب، فثرفت خولته بمحمد بن عبد القوي وعلا كعبه في أمارته.

ثم ولي بعده ابنه علي بن نصر، وكان له من الولد نصر وعنتر وآخرون يعرفون بأهمهم، واسمها تاسرعين.

وولي بعده ابنه نصر بن علي فطال أمد إمارته في قومه.

واختلف بنو عبد القوي وغلبيهم بنو عبد الواد على ما بأيديهم، فصرفت ملوك زناتة وجه العناية إليه فبعد صيته وعرف بنوه من بعده بشهرته، وكان ولوداً فيقال: إنه خلف ثلاثة عشر من البنين، ما منهم إلا صاحب حرب أو مقبب.

فحاصره بتلمسان.

وسرح الشيخ أبا حفص في العساكر لحرب زناتة بالمغرب الأوسط، وجمع له بنو بادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة فقص الموحدون جموعهم واستلحموا أكثرهم.

ثم راجع بنو يلومي وبنو بادين طاعتهم، وأخلص بنو عبد الواد في خدمتهم ولتصيحهم.

ولحق بنو مرين بالفقر، فلما غلب عبد المؤمن على وهران واستولى على أموال لتونة وبعث ذخيرتهم بتلك الغنائم إلى جبل تينملل حيث داره، ومن أين كان منبعث الدعوة.

وبلغ الخبر إلى بني مرين بمكانهم من الزاب، وشيخهم يومئذ المخضب بن عسكر، فأجمع اعتراضها بقومه ولحق العير بوادي تلاغ، فاحتازها من أيدي الموحدين.

واستنفر عبد المؤمن لاستقاذاها أوليائه من زناتة، وسرحهم مع الموحدين لذلك، فأبلى بنو عبد الواد فيها بلاء حسناً.

وكان اللقاء في فحص مسون، وانكشف بنو مرين، وقتل المخضب بن عسكر، واكتسح بنو عبد الواد حللهم، وذلك سنة أربعين وخمسماية فلحق بنو مرين بعدها بصحرائهم، ومجالات فقرهم، وقام بأمرهم من بعد المخضب أبو بكر ابن عمه حمادة ابن محمد إلى أن هلك، فقام بأمره ابنه محيو، ولم يزل مطاعاً فيهم إلى أن استغفرهم المنصور لغزاة الأركة، فشهدوها وأبلاوا البلاء الحسن وأصاب محيو يومئذ جراحة انتقضت عليه مرجعه منها، فهلك بصحراء الزاب سنة إحدى وتسعين وخمسماية.

وكان من رئاسة عبد الحق ابنه من بعده، وبقائنا في عقبه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أمارة عبد الحق بن محيو المستقرة

في بنيه وإمارته ابنه عثمان من بعده ثم أخيه

محمد بن عبد الحق بعدهما وما كان فيها

من الأحداث

لما هلك محيو بن أبي بكر بن حمادة من جراحته كما قلناه، وكان له من الولد عبد الحق ووسناف وبجياتن.

وكان عبد الحق أكبرهم، فقام بأمر بني مرين، وكان خير أمير عليهم قياماً بمصالحهم وتعففاً عما في أيديهم، وتقوى لهم على الجادة ونظراً في العواقب، واستمرت أيامهم.

الخبر عن بني مرين وأنسابهم وشعوبهم وما

تأثروا بالمغرب من السلطان والدولة التي

استتبعت سائر زناتة وانتظمت كراسي

الملك بالعدوتين وأولية ذلك ومصائره

قد ذكرنا أن بني مرين هؤلاء من شعوب بني واسين، وذكرنا نسب واسين في زناتة، وذكرنا أنهم بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن بدر بن يخفت بن عبد الله بن ورتنيص بن المعز بن إبراهيم بن سحيك بن واسين، وأنهم إخوة بني يلومي ومدبونة.

وربما يشهد بذلك جوار مواطنهم قبل الملك ما بين صا وملوية.

وذكرنا كيف اقتسموا الضاحية والفقر مع أخوانهم بني بادين بن محمد، وكيف اتصلت فتنتهم معهم سائر أيامهم.

وكان الغلب أولاً لبني بادين بن محمد لكثرة عددهم فإنهم كما ذكرنا خمسة بطون: بنو عبد الواد وتوجين ومصاب، وبنو زردال وإخوانهم بنو راشد بن محمد.

وكانوا أهل تلول الغرب الأوسط دونهم.

وبقي هذا الحكي من بني مرين بمجالات الفقر من فيكيك إلى سجلماسة إلى ملوية وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب.

ويذكر نسبهم أن الرئاسة فيهم قبل تلك العصور كانت لمحمد بن ورزين بن فركوس بن كومات بن مرين، وأنه كان لمحمد إخوة آخرون يعرفون بأهمهم تنالفت وكان بنو عمه ونكاسن بن فركوس.

وكان لمحمد من الولد سبعة: شقيقان وهما: حمادة وعسكر.

وأبناء غلات أمهات أولاد: وهم سنكمان وسكميان وسكم ووراغ وقزونت وتسمى هذه الخمسة في لسانهم تيريعين، ومعناه عندهم الجماعة.

يزعمون أن محمداً لما هلك قام بأمره في قومه ابنه حمادة، وكان الأكبر ثم من بعده أخوه عسكر، وكان له من الولد ثلاثة: نكروم وأبو يكتي، ويلقب المخضب، وعلي ويلقب لاعد.

ولما هلك قام برياسته فيهم ابنه المخضب فلم يزل أميراً عليهم إلى أن كان أمر الموحدين.

وزحف عبد المؤمن إلى تاشفين بن علي بن يوسف

اختلفت بنو محمد ورؤسأؤهم وانتبذ عنهم من عشائرهم بنو عسكر بن محمد، لمناقسة وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم، بعد أن كان أرمض عنهم منها في عسكر، وابنه المخضب إيماض من اخلف بارقة.

فحالفوا عبد الحق أميرهم وقومه إلى مظاهرة أولياءه الموحدين، وحامية المغرب من قبائل رياح الموطنين بالهبط وأزغار لحديث عهدهم بالتوحش والعز منذ إنزال المنصور إياهم بذلك القطر من إفريقية، فتحيزوا إليهم وكاثروهم على قومهم وصمدوا جميعاً للقاء بني مريـن سنة أربع عشرة وستمئة، ودارت بينهم حرب تولى الصبر مقامها وهلك فيها أميرهم عبد الحق وكبير بنيـه إدريس وتذامر لهلكها بنو مريـن وجلى تلك الحومة حمامة بن يصلين من بني عسكر، والأمير ابن محيو السلمي فانكشفت رياح آخرأ، وقتل منهم أبطال.

وولى بنو مريـن عليهم بعد مهلك عبد الحق ابنه عثمان تلو إدريس، وشهرته بينهم أدريال، ومعناه برطانتهم الأعور.

وكان لعبد الحق من الولد عشرة، تسعة ذكور وأختهم ورتطليم: فإدريس وعبد الله ورحو لامرأة من بني علي اسمها سوط النساء، وعثمان ومحمد لامرأة من بني ونكاسن اسمها النوار بنت تصاليت، وأبو بكر لامرأة من بني تنالفت وهي تاغزونت بنت أبي بكر بن حفص، وزيان لامرأة من بني ورتاجن، وأبو عباد لامرأة من بني دلو إحدى بطون عبد الواد واسمها أم الفرج، ويعقوب لأم اليمن بنت محلى من بطوية.

وكان أكبرهم إدريس المالك مع أبيه عبد الحق، فقام بأمر بني مريـن من بعد عبد الحق ابنه عثمان، بإيعه لوقته حمامة بن يصلين ولمير بن محيو ومن إليهما من مشيخة قومها وأتبعوا منهزمة رياح وأئخنوا فيهم.

وثار عثمان بأبيه وأخيه حتى شفا نفسه منهم ولاذوا بالسلم، فسالهم على أناة يؤدونها إليه وإلى قومه كل سنة.

ثم استشرى من بعد ذلك داء بني مريـن وأعضل خطبهم، وكثر الثوار بالمغرب، وامتنع عامة الرعايا عن المغرب، وفسدت السابلة.

واعتصم الأمراء والعمال من السلطان فيمن دونه بالأمصار والمدن، وغلبوا أولئك على الضاحية وتقلص ظل الحكام عن البدو جملة.

واقفد بنو مريـن الحامية دون الوطن والدفاع، فمدوا إلى البلاد يداً.

ولما هلك الناصر رابع خلفاء الموحدين بالمغرب سنة عشر وستماية مرجعه من غزاة العقاب، وقام بأمر الموحدين من بعده ابنه يوسف المستنصر، نصبه الموحدون للأمر غلاماً لم يبلغ الحلم.

وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك، فأضاع الخزم وأغفل الأمور وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه ونفس عن مخنثهم من قبضة الاستبداد والقهر، فضاعت الثغور وضعفت الحامية وتهاونوا بأمرهم، وفشلت ريجهم.

وكان هذا الحي لذلك العهد بمجالات القفار، من فيكيك إلى صا وملوية كما قدمناه من شأنهم.

وكانوا يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحدين وما قبلها جهات كرسيف إلى واط، ويأسون بمن هنالك من بقايا زناتة الأولى: مثل مكناسة بجبال تازى، وبني يربان من مغراوة الموطنين قصور واط من أعالي ملوية فيتقلبون بتلك الجهات عام المربع والمصيف، وينحدرون إلى مشاتيهم بما امتاروه من الخوب لأقواتهم.

فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها الفرصة، ونحطوا إليها القفر، ودخلوا ثلياه، وتفرقوا في جهاته وأرجفوا بحيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسانطهم ولجأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاقلمهم، وكثر شاكيهم وأظلم الجو بينهم وبين السلطان والدولة، فأآذنوهم بالحرب وأجمعوا لغزوهم وقطع دابرهم.

وأغرى الخليفة المستنصر عظيم الموحدين أبا علي بن وأنودين بجميع العساكر والحشود من مراكش، وسرحه إلى السيد أبي إبراهيم ابن أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بمكانه من إمارة فارس وأوعز إليه أن يخرج لغزو بني مريـن، وأمره أن يثخن ولا يستقي.

واتصل الخبر ببني مريـن وهم في جهات الريف وبلاد بطوية، فتركوا أئقاهلم بمحصن تازوفا، وصمدوا إليهم.

والتقى الجمعان بسوادي نكور، فكان الظهور لبني مريـن والذبرة على الموحدين وامتألت الأيدي من أسلايهم وأمتعتهم، ورجعوا إلى تازى وفاس عراة يخفصون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشغلة يوارون به سؤاتهم لكثرة الخصب عامتد، واعتماد القدن بالزروع وأصناف الباقلا حتى لقد سميت الواقعة يومئذ بعام المشغلة.

وصمد بنو مريـن بعدها إلى تازى، فقلوا حاميتها أخرى. ثم

وزحف إليهم بنو مريـن بوادي ياباش، وصبر الفريقان، وهلك الأمير محمد بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الروم.

وانكشفت بنو مريـن واتبعهم الموحدون، ودخلوا تحت الليل، فلهقوا بجبال غيثة من نواحي تازي واعتصموا بها أياماً. ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء، وولوا عليهم أبا يحيى بن عبد الحق، فقام بأمرهم على ما تذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مدبل الأمر لقومه بني مريـن وفتح الأمصـار ومقيم الرسوم الملوكية من الآلة وغيرها لمن بعده من أمرائهم

لما ولي أبو يحيى بن عبد الحق أمر بني مريـن سنة اثنتين وأربعين وستمئة، كان من أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه، أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبابته بين عشائر بني مريـن وأنزل كلأ منهم في ناحية تسوغها سائر الأيام طعمة فاستركبوا الرجل أتباعهم، واستلحقوا من غاشيتهم، وتوفرت عساكرهم.

ثم نبضت نار المنافسة بين أحيائهم، وخالف بنو عسكر جماعتهم، وصاروا إلى الموحدين، فحرضوهم على أبي يحيى بن عبد الحق وبني حمامة وأغروهم بهم وبعثوا الصريخ إلى يغمـراسن بن زيان، فوصل في قومه إلى فاس واجتمعوا جميعاً إلى قائد الموحدين، وأعطوا الزهن على صدق البلاء في الأمير أبي يحيى وأتباعه، وصمدوا إليه حتى انتهوا إلى ورغة، ثم إلى كرت، وأعجزهم فانكفؤوا راجعين إلى فاس.

ونذر يغمـراسن بغدر الموحدين، فخرج في قومه مع أوليائه بني عسكر، وعارضهم الأمير أبو يحيى بوادي سبو، فلم يطق حريهم، ورجع عنهم عسكر الموحدين بما صرخ في معسكرهم من موت الخليفة السعيد.

ثم بعثوا إليه للاطفئهم في الفيتة إلى الطاعة ومذاهب الخدمة، القائد عنبر الخصي مولى الخليفة في حصـة من الروم والناشبة، فتقبض عليهم بنو عسكر وتمسكوا بهم في رهنهم، وقتلوا كافة الصـاري، فأطلق أبناءهم ولحق يغمـراسن وقومه بتلمسان، ثم رجع بنو عسكر إلى ولاية أميرهم أبي يحيى، واجتمع بنو مريـن لشأنهم وتكلموا الأعمال.

وسار بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعبه، ويضع المغارم على أهله حتى دخل أكثرهم في أمره، فبايعه من الطواعن الشاوية والقبائل الأهلة: هواره وزكارة، ثم تسول ومكناسة، ثم بطوبة وقشتالة، ثم سدراتة، ويهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وألزمهم المغارم، وفرق فيهم العمال ثم فرض على أمصـار المغرب مثل فاس وتازي ومكناسة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها إليه على رأس كل حول، على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سبلتهم.

ثم غزا طواعن زناتة سنة عشرين وستمئة، وأثنخ فيهم حتى أذعنوا، وقبض أيديهم عما امتدت إليه من الفساد والنهب. وعطف بعدها على رياح أهل أزغار والمهبط وأثار به بآبيه، فأثنخ فيهم وأبادهم ولم يزل دأبه ذلك إلى أن هلك باغتيال علجة سنة سبع وثلاثين وستمئة.

وقام بأمر بني مريـن من بعده أخوه محمد بن عبد الحق، فتقبل سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصـاره وجباية المغارم والوضائع من طواعنه وبدوه وسائر رعاياه وبعث الرشيد أبا محمد بن واتودين لحربهم وعقد له على مكناسة، فدخلها وأجحف بأهلها في المغارم.

ثم نزل بنو مريـن بتيجد وغير من ضواحيها، فنادى في عساكره وخرج إليهم، فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين.

وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائداً من الروم، واختلفا ضربتين هلك العليج بإحداهما، وانجرح محمد في وجهه بالأخرى وأندمل جرحه، فصار أثر في وجهه لقب من أجله أبا ضربة.

ثم شد بنو مريـن على الموحدين، فانكشفوا ورجع ابن واتودين إلى مكناسة مفلولاً وبقي بنو عبد المؤمن أثناء ذلك في مرض من الأيام، وتناقل عن الحماية ثم أومضت دولتهم آخرأ إجماض الخمود.

وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمئة، وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد، وبايعه أهل المغرب، انصرفت عزائم إلى غزو بني مريـن، وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك الوطن، فأغزى عسكر الموحدين لقتالهم، ومعهم قبائل العرب والمصادة وجوع الروم.

فنهضوا سنة اثنتين وأربعين وستمئة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفاً فيما زعموا.

الخشوع ووجوم الذنب والتوسل، فعفا عنهم وتقبل فيهم، وارتحل إلى تازي في اتباع بني مرين.

وأجمع بنو أوطاس الفتك بأبي يحيى بن عبد الحق غيرة ومنافسة، ودس إليه بذلك مهيب من مشيختهم، فترحل عنهم إلى بلاد بني يزناسن، ونزل بعين الصفا.

ثم راجع نظره في مسألة الموحددين والفيثة إلى أمرهم ومظاهرتهم على عدوهم يغمراسن وقومه من بني عبد الواد، ليكون فيها شفاء نفسه منهم، فأوفد مشيخة قومه عليه بتازي، فادوا طاعته وقيته، فتقبلها وصفح لهم عن الجرائر التي أتوها، وسأله أن يستكفي بالأمير أبي يحيى في أمر تلمسان ويغمراسن، على أن يمد بالعساكر راحة وناشبة.

فاتهمهم الموحدون وحذروا منهم غائلة العصبية، فأمهم السعيد بالعسكرة معه فأمده الأمير أبو يحيى بمجسماية من قبائل بني مرين.

وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد بن يحيى بن أبي بكر بن حمامة، وخرجوا تحت رايات السلطان، ونهض من تازي يريد تلمسان وما وراءها، وكان من خبر مهلكه على جبل تامزيز دكت بيد بني عبد الواد ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما هلك وانقضت عساكره متسابقين إلى مراكش، وجهوهم مجتمعون إلى عبد الله بن الخليفة السعيد ولي عهده، وتحت رايات أبيه، وطار الخبر بذلك إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، وهو بجبهات بني يزناسن، وقد خلص إليه هنالك ابن عمه أبو عياد.

وبعث بني مرين من تيار تلك الصدمة، فانتهاز الفرصة وأرصد لعسكر الموحددين وفلمهم بكرسيف، فأوقع بهم وامتلأت أيدي بني مرين من أسلابهم، وانتزعوا الآلة من أيديهم. وأصار إلى كتيبة الروم والناشبة من الغزو، واتخذ الموكب الملوكي، وهلك الأمير عبد الله بن السعيد في جوانب تلك الملحمة، ويشوا للموحددين بعدها من الكرة.

ونفض الأمير أبو يحيى وقومه إلى بلاد المغرب مسابقين إليه يغمراسن بن زيان بما كان ملوك الموحددين أوجدوهم السبيل إلى ذلك باستجاشة على بني مرين أيام فتنتهم معهم، فكانوا يبيحونه حرم المغرب ويوطئونه عساكر قومه ما بين تازي إلى فاس، إلى القصر مع عساكر الموحددين، فكان ليغمراسن وقومه بذلك طمع فيها لولا ما بكجهم فأس بني مرين وجدع من أنوفهم.

وكان أول ما بدأ به أبو يحيى بن عبد الحق أعمال وطاق،

ثم مدوا عينهم إلى تلك الأمصار، فنزل أبو يحيى بمجملته جبل زرهون، ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب إفريقية، لما كان يومئذ على دعوته وفي ولايته، فحاصرها وضيق عليها بقطع المرافق وتريد الغارات ومعاودة الحرب، إلى أن أذعنوا لطاعته، فافتتحها صلحاً بمدخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية.

وبعثوا يبعثهم إلى الأمير أبي زكرياء، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عميرة، وكان قاضياً فيهم يومئذ، فأقطع السلطان يعقوب ثلث جبايتها، ثم أحس الأمير أبو يحيى بن عبد الحق من نفسه الاستبداد، ومن قبيلة الاستيلاء فاتخذ الآلة.

وبلغ الخبر إلى السعيد بتغلبه على مكناسة وصرفها إلى دعوة ابن أبي حفص، فوجم لها وفأوض الملأ من أهل دولته في أمره، وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئاً شيئاً: فابن أبي حفص اقتطع إفريقية، ثم يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط، وأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص، وأطعموه في الحركة إلى مراكش بمظاهرتهم.

وابن هود اقتطع عدوة الأندلس، وأقام فيها دعوة بني العباس، وابن الأحمر في الجانب الآخر مقيم للدعوة ابن أبي حفص.

وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب، ثم سمر إلى تلك الأمصار، ثم افتتح أميرهم أبو يحيى مكناسة وأظهر فيها دعوة ابن أبي حفص، وجاهر بالاستبداد، ويوشك إن رضينا هذه الدنيا، وأغضينا عن هذه الوقائع أن يثتل الأمر أو تقرض الدعوة، فتدامروا وامتعضوا وتداعوا للصدود إليه.

فجهز السعيد عساكره، واحتشد عرب المغرب وقبائله، واستنفر الموحددين والمصامدة، ونهض من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة: وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن ثانياً، ثم إفريقية وابن أبي حفص آخراً، واعترض العساكر والحشود بوادي بهت.

ووصل الأمير أبو يحيى إلى معسكره متوارياً عنهم عيناً لقرمه، حتى صدقهم كنه الخبر، وعلم أن لا طاقة له بهم، فأفرج عن البلاد، وتآذر بنو مرين بذلك من أمكانهم، فتلاحقوا به واجتمعوا إليه بتازوطة من بلاد الريف.

ونزل سعيد مكناسة، ولاذ أهلها بالطاعة، وسألوا العفو عن الجزيرة، واستشفعوا بالمصاحف، يرز بها الأولاد على رؤوسهم، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من

الخبر عن انتفاض أهل فاس على أبي يحيى

بن عبد الحق وظفروه بهم بعد إيقاعه

بيغمراسن وقومه بأيسلى

لما ملك الأمر أبو يحيى بن عبد الحق بمدينة فاس سنة ست وأربعين وستماية، استولى على بلاد المغرب بعد مهلك السعيد.

وقام بأمر الموحدين بمرakash أبو حفص عمر لمرضى بن السيد أبي إبراهيم إسحاق الذي كان قائد عسكر الموحدين في حربهم مع بني مرين عام المشغلة، ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، كان السعيد تركه والياً بقصبة رباط الفتح من سلا، فاستدعاه الموحدون وبايعوه بيعة الخلافة، وقام بأمرهم.

فلما تغلب الأمير أبو يحيى على بلاد المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرناه، خرج إلى بلاد فازاز والمعدن لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها، واستعمل على فاس مولاة السعود بن خرياش، من جماعة الحشم أخلاف بني مرين وصنائعهم.

وكان الأمير أبي يحيى استبقى بها من كان فيها من عسكر الموحدين من غير عيصهم في السيل التي كانوا عليها من الخدمة. وكان فيهم طائفة من الروم، استخدمهم إلى نظر قائدهم شأنه، وكانوا من حصة السعود هنالك.

ووقعت بينهم وبين شيع الموحدين من أهل البلد مداخلة، وفتكوا بالسعود عاملهم وقلبو الدعوة للمرتضى الخليفة بمرakash سكيت الحلبة وغلف المضمار.

وكان المتولي لكبر تلك الثورة ابن حشار المشرف وأخوه وابن أبي طاطو وابنه، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي، زعيم فئة الشورى بينهم يومئذ وتوأمروا فيها، وأغروا قائد الروم بقتل السعود، وعدوا عليه بمقعد حكمه من القصبة، وهاجوه ببعض المحاورات فغضبت ووثب عليه الرومي، فقتله وطاف برأسه الهاتف بسكك المدينة في شوال سنة سبع وأربعين وستماية، وانتهت داره، واستبيحت حرمه، ونصبوا قائد الروم لضبط البلد، وبعثوا بيعتهم إلى المرتضى.

واتصل الخبر بالأمير أبي يحيى، وهو منازل بلد فازاز، فأفرج عنها، وأغذ السير إلى فاس، فأناخ بعساكره عليها، وشمّر لحصارها، وقطع السابلة عنها.

وبعثوا إلى المرتضى بالصريخ، فلم يرجع إليهم قولاً، ولا ملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ولا وجه لما نزل بهم وجهاً، حاشا إنه

فافتتح حصونهم ملوية ودوخ جبلهم.

ثم رحل إلى فاس، وقد أجمع أمره على انتزاعها من ملكة بني عبد المؤمن، وإقامه الدعوة لابن أبي حفص بها ويسائر نواحيها، والعامل بها يومئذ السيد أبو العباس، فأناخ عليها بركابه، وتلطف في مداخلة أهلها، وضمن لهم جميل النظر وحيد السياسة، وكف الأيدي عنهم، والحماية لهم بحسن المنبة، وصالح العائدة، فأجابوه ووثقوا بعهدته وعنايته، وأووا إلى ظله وركنوا إلى طاعته، وانتحال الدعوة الحفصية بأمره، ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن ياساً من صريحهم وكثرتهم.

وحضر أبو محمد القشتالي، وأشهده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم، وحسن الملكة والكفالة، وتقبل مذاهب العدل فيهم، فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة، وكانت البيعة بالرابطة خارج باب الفتح.

ودخل إلى قصبة فاس لشهرين اثنين من مهلك السعيد، فاتح ست وأربعين وستماية، وأخرج السيد أبا العباس من القصبة، وبعث معه خمسين فارساً أجازوه أم ربيع ورجعوا، ثم نهض إلى منازل تازي، وبها السيد أبو علي، فنازلها أربعة أشهر، ثم نزلوا على حكمه، وقتلهم ومن على آخرين منهم، وسد ثغرها، وثقف أطرافها، وأقطع رباط تازي وحصون ملوية لأخيه يعقوب بن عبد الحق.

ورجع إلى فاس، فوفد عليه بها مشيخة أهل مكناسة، وجددوا بيعتهم وعادوا طاعتهم، ولحق بهم على أثرهم أهل سلا ورباط الفتح، فتملك الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمهات أمصار المغرب، واستولى على نواحيها إلى وادي أم ربيع، فأقام فيها دعوة ابن أبي حفص، وبعث بها إليه.

واستبد بنو مرين بملك المغرب الأقصى، وبنو عبد الواد بملك المغرب الأوسط، وبنو أبي حفص بإفريقية، وخد ذبال آل عبد المؤمن، وركدت ريجهم، وأذنت بالانقراض دولتهم، وأشرف على الفناء أمرهم.

وإلى الله عاقبة الأمور.

ثم تخطى إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين
وستماية، فملكها وتآخم الموحدین بثغرها.

واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله ابن عبد
الحق، وعقد له على ذلك الثغر، وضم إليه الأعمال.

وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى، فأهمه الشأن.

وأحضر الملا من الموحدین وفاوضهم، واعتزم على حرب
بني مرين.

وسرح العساكر سنة خمسين وستماية، فأحاطت بسلا،
فافتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى.

وعقد عليها لأبي عبد الله بن أبي يعلى من مشيخة
الموحدین.

وكان المرتضى قد صمد بنفسه سنة تسع وأربعين وستماية
إلى محاربة بني مرين في جموع الموحدین وعساكر الدولة، صمد بنو
مرين للقائه.

والتقى الجمعان بيمبلولين، ففضوا جموعه، وكانت الدبرة
عليه والظهور لهم.

ثم كان بعدها فتح سلا، وغلب الموحدین عليها.

وأجمع المرتضى بعدها على احتشاد أهل سلطانه، ومعاودة
الخروج بنفسه إلى غزوهم لما خشي من امتداد أمرهم.

وتقلص ملك الموحدین، فمسكر خارج حضرته سنة ثلاث
وخمسين وستماية وبعث الحاشرين في الجهات، فاجتمع إليه أمم
الموحدین والعرب والمصامدة.

وأغذ السير تلقاءهم، حتى إذا انتهى إلى جبال بهلوله من
نواحي فاس، وصمد إليه الأمير أبو يحيى في عساكر بني مرين،
ومن اجتمع إليهم من دونهم، والتقى الجمعان هنالك.

وصدقهم بنو مرين القتال، فاختلف مصاف السلطان،
وانهزمت عساكره وأسلمه قومه، ورجع إلى مراكش مفلولاً.

واستولى القوم على معسكره واستأخوا سرادقه وفساطيطه،
وانتهبوا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة واستأقوا سائر
الكراع والظهر، وامتألت أيديهم من الغنائم، واعتز أمرهم وانسبط
سلطانهم، وكان يوماً ما بعده.

وأغرى أثر هذه الحركة عساكر بني مرين تادلاً واستباح بني
جابر حاميتها من چشم بيلد أبي نفيس، واستلحم أبطالهم، وألان
من حدهم، وخضد من شوكتهم.

استجاش بالأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان على أمره، وأغراه
بعده، وأمله لكشف هذه النازلة عمن اغتاش إلى طاعته.

وتعلقت أطماع يغمراسن بطروق بلاد المغرب، فاحتشد
لحركته، ونهض من تلمسان للأخذ بمحجزة الأمير أبي يحيى عن
فاس، وإجابة صريخ الخليفة لذلك.

وبلغ الأمير أبي يحيى خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من
منازلته البلد، فجمع الكتائب عليها، صمد إليه قبل وصوله من
تخوم بلاده، والتقى الجمعان بإسلى من بسائط وجدة، فتزاحف
القوم وأبلوا، وكانوا ملحمة عظيمة، هلك فيها عبد الحق بن محمد
بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد.

ثم انكشف بنو عبد الواد، وهلك يغمراسن بن تاشفين من
أكابر مشيختهم، ونجا يغمراسن بن زيان إلى تلمسان.

وانكفا الأمير أبو يحيى إلى معسكره للأخذ بمخنيق فاس،
فسقط في أيدي أهلها، ولم يجدوا وليجة من دون طاعته، فسألوا
الآمان، وبذله لهم على غرم ما تلف له من المال بداره يوم الثورة،
وقدره مائة ألف دينار، فتحملوها وأمكنوه من قياد البلد، فدخلها
في جمادى من سنة ثمان وأربعين وستماية.

وطالبهم بالمال، فعجزوا ونقضوا شرطه، فحق عليهم
القول.

وتقبض على القاضي أبي عبد الرحمن وابن أبي طاطو
وابنه، وابن حشار وأخيه المتولين كبر الفعلة قتلهم، ورفع على
الشرفات رؤوسهم، وأخذ الباقي بغرم المال طوعاً أو كرهاً، فكان
ذلك مما عبد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين، وضرب
الرهب على قلوبهم لهذا العهد، فخشعت منهم الأصوات
وانقادت لهم، ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمى يد في فتنة.

والله مالك الأرض ومن عليها.

الخبر عن تغلب الأمير أبي يحيى على مدينة

سلا وارتجاعها من يده وهزيمة المرتضى

بعدها

لما كمل للأمير أبي يحيى فتح مدينة فاس، واستوسق أمر
بني مرين بها، رجع إلى ما كان فيه من منازل بلاد فازاز فافتحها.
ودوخ أوطان زناتة، واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين
فيها.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى وما كان
أثر ذلك من الأحداث التي تمخضت عن
استبداد أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر

لما رجع الأمير أبو يحيى من حرب يغمراسن بسجلماسة،
أقام أياماً بفاس.

ثم نهض إلى سجلماسة متفقداً لغورها، فانقلب منها
عليلاً، وهلك خنق أنفه على سرير ملكه في رجب سنة ست
وخمسين وستمائة أمضى ما كان عزمًا، وأطول إلى تناول الملك يدًا.
اختطفته يد المنون عن شأنه ودفن بمقبرة باب الفتوح من
فاس، ضجيعاً للمولى أبي محمد القشتالي كما عهد لأهل بيته.
وتصدى للقيام بأمره ابنه عمر واشتمل عليه عامة قومه.

ومالت المشيخة وأهل الحل والعقد إلى عمه يعقوب بن عبد
الحق، وكان غائباً عن مهلك أخيه بتازي، فلما بلغه الخبر أسرع
للحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر.

وأحسن عمر بصاغية الناس إليه، وحرصه أتباعه على
الفتك بعمره، فاعتصم بالقصبة، وسعى الناس في الإصلاح بينهما،
فتفادى يعقوب عن الأمر، ودفعه إلى ابن أخيه، على أن يكون له
بلاد تازي وبطوية وملوية، ولما لحق بتازي واجتمع إليه كافة بني
مرين، غدلوهم فيما كان منه فاستلام، وحملوه على العودة في الأمر،
ووعده من أنفسهم المظاهرة والمؤازرة فأجاب، وبايعوه وصمد إلى
فاس، وبرز عمر للقائه فاتته إلى المسجدين، ولما تراءى الجمعان
خذله جنوده وأسلموه، فرجع إلى فاس مفلولاً، وجه الرغبة إلى
عمره أن يقطعه مكناسة ونزل له عن الأمر، فأجابه إلى ذلك،
ودخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة فاس
فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة وتمشت طاعته في بلاد المغرب
ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماسة وقصر كاتمة.

واقصر عمر على إمارة مكناسة فتملكها أياماً ثم اغتاله من
عشيرته عمر وإبراهيم ابنا عمه عثمان بن عبد الحق والعباس ابن
عمر محمد بن عبد الحق فقتلوه وثاروا منه بدم كانوا يعتدونه عليه.
وهلك لعام ويعض عام من إمارته، فكفى يعقوب شأنه
واستقام سلطانه، وذهب المنازع والمشاق عن أمره.

وكان يغمراسن بعد مهلك قرنه الأمير أبي يحيى سما له
الأمل في الأجلاب على المغرب، فجمع لذلك قومه واستجاش
بني توجين ومغراوة وأطعمهم في غيل الأسود ونهضوا إلى المغرب

وفي أثناء هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد
الحق، وهو ابن أخي الأمير أبي يحيى، شعر منه بفساد الدخلة
والاجتماع للتوثب به، فدس لابنه أبي حديد مفتاح بقتله، بجهات
مكناسة سنة إحدى وخمسين وستمائة والله تعالى أعلم.
والله تعالى أعلم.

الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك من الأحداث

لما يش بنو عبد المؤمن من غلبهم بني مرين على ما صار في
أيديهم من بلاد المغرب وعادوا إلى مدافعتهم عن صباية الدولة
التي تحلبت إياها شفاهم لو أطاقوا المدافعة عنها وملك بنو مرين
عامة بلاد التلول، اعترم الأمير أبو يحيى بعدها على الحركة إلى
بلاد القبلة ففتح سجلماسة ودرعة وما إليها سنة ثلاث وخمسين
وستمائة فانفتحها بمداخله من ابن القطراني، غدر بعامل الموحدنين
فتقبض عليه، وأمكن منها الأمير أبي يحيى فملكها، وما إليها من
درعة سائر بلاد القبلة، وعقد عليها لابنه أبي حديد.

وبلغ الخبر إلى المرتضى فرشح العساكر سنة أربع وخمسين
وستمائة لاستنقاذها، وعقد عليهم لابن عطوش من مشيخة
الموحدنين، فأغذ الأمير أبو يحيى السير إليها وابنه أبو حديد
مفتاح. وأحسن به ابن عطوش. ففر راجعاً إلى مراکش، ثم نهض
سنة خمس وخمسين وستمائة إلى مغاربة يغمراسن ولقيه بأبي سليط،
فأوقع به واعتزم على أتباعه، فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب
بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن فرجع.

ولما انتهى إلى المقرمدة هذه، بلغه أن يغمراسن قصد
سجلماسة ودرعة لمداخله من بعض أهلها أطمعته في ملكها، فأغذ
السير إليها بجموعه، ودخلها. ولصبيحة دخوله وصل يغمراسن
لشأنه، فلما علم بمكان أبي يحيى من البلد سقط في يده ويش من
غلابه، ودارت بينهم حرب تكافيا فيها وهلك سليمان بن عثمان
بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي يحيى، وانقلب يغمراسن إلى
بلده، وعقد الأمير أبو يحيى على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد
القبلة ليوسف بن يزكاسن، واستعمل على الجباية عبد السلام
الأوربي وداود بن يوسف، وانكفأ راجعاً إلى فاس.

والله تعالى أعلم.

رباط الفتح وأسلمه فضببطه السلطان وثقفه.

ثم نهض إلى بلاد تامسنا وأنفى، فملكها وضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بمحصن علودان من جبال غمارة، فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته.

وسار إلى لقاء يغمراسن لقاء المهادة، فلقبه بوادي محرمان وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب، ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه بنو أخيه أولاد إدريس، ولحقوا بقصر كتامة، شايخوا يعقوب ابن عمهم عبد الله على راية.

واجتمعوا إلى كبيرهم محمد بن إدريس فيمن إليهم من العشير والصنائع، فنهض إليهم واعتصموا بجبال غمارة، ثم استترهم واسترضاهم وعقد لعامر بن إدريس سنة ستين وستمئة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المطوعة من بني مرين، وأغراهم إلى العسدة لجهاد العدو وحملهم، وفرض لهم وشفع بها عمله في واقعة سلا وهو أول جيش أجاز من بني مرين، فكان لهم في الجهاد والمرابطة مقامات محمودة وذكر خالد تقبل سيبلهم فيها خلفهم من بعدهم حسباً نذكره.

واقام يعقوب بن عبد الله خارجاً بالنواحي متنقلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن علفي بساقيه غبولة من ناحية سلا سنة ثمان وستين وستمئة فكفى السلطان شأنه.

وكان المرتضى من توالى عليهم الوقائع واستمر الظهور لبني مرين المحجز في جدرانه وتواري بالأسوار عن عدوه، فلم يسم إلى لقاء زحف ولا حدث نفسه إلى شهود حرب، واستأسد بنو مرين على الدولة وشروها إلى التهام البقية، وأسفوا إلى منازلة مراکش دار الخلافة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف

حضرة مراکش دار الخلافة وعنصر الدولة

وما كان أثر ذلك من نزوع أبي دبوس إليه

وكيف نهبه للأمر وكان مهلك المرتضى

على يده ثم انتقض عليه

لما فرغ السلطان من شأن الخوارج عليه من عشيره، استجمع لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم، ورأى أنه أوهن لدولتهم وأقوى لأمره عليهم.

وبعث قومه واحتشد أهل مملكه، واستكمل تعييته وسار

حتى انتهوا إلى كلدان وصمد السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى لقائهم فغلبهم ورجعوا على تعيية، ومر يغمراسن ببلاد بطوية فأحرق وانتسف واستباح وأعظم فيها النكابة.

ورجع السلطان إلى فاس وتقبل مذهب أخيه الأمير أبي يحيى في فتح أمصار المغرب وتدوين أقطاره.

وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى، فكان له بها أثر جميل وذكر خالد، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فجاعة العدو مدينة سلا

واستنقاذها من أيديهم

كان يعقوب بن عبد الله قد استعمله عمه الأمير أبو يحيى على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه.

فلما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها مرصداً لأهلها وحاميتها.

ولما بويغ عمه يعقوب بن عبد الحق أسفته بعض الأحوال، فذهب مغاضباً حتى نزل غبولة، وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدها ذريعة لما أسر في نفسه، فتمت له الحيلة، وركب عاملها ابن يعلو البحر فاراً إلى أزموور وخلف أمواله وحرمه فتملك يعقوب بن عبد الله البلد وجاهر بالخلعان، وصرف إلى منازعة عمه السلطان أبي يوسف وجوه العزم، ودخل تجار الحرب في الإمداد بالسلاح.

فتحاوروا في ذلك وكثرت سفر المترددين بينهم، حتى كثروا أهلها واهتبلوا يوم الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمئة عند شغل الناس بعيدهم.

وثاروا بسلا، وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال، وضبطوا البلد وامتنع يعقوب بن عبد الله برياط الفتح، وطار الصريخ إلى السلطان أبي يوسف، وكان يتأذى متشرفاً لأحوال يغمراسن، فنادى في قومه، وطاروا بأجنحة الخيول ووصلها ليوم وليلة، وتلاحقت به أمداد المسلمين من أهل الديوان والمطوعة.

وناظها أربع عشرة ليلة، ثم اقتحمها عليهم عنوة، وأثخن فيهم بالقتل، ثم رم بالبناء ما كان مثملاً من سورها الغربي حيث أمكنت منه الفرصة في البلد وتناول البناء فيه بيده والله لا يضيع عمل عامل.

وخشي يعقوب بن عبد الله بادرة السلطان، فخرج من

التهماء على ما نذكر لو أمهله الأيام، وانفسح له الأجل.

الخبر عن وقعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان ياغراء أبي دبوس وتضريبه

لما نازل السلطان أبو يوسف حضرة مراكش وقعد على برائه للتوثب علمه، لم يجد أبو دبوس وليجة من دون قصده إلا استجاشته بيغمراسن وقومه عليه، ليأخذوا مجزته عنه، ويشغلوه من ورائه.

فبعث إليه الصريخ في كشف بلواه ومدافعة عدوه، وأكد العهد وأسنى الهدية، فشمير يغمراسن لاستفادته وجذب عدوه من ورائه، وشن الغارات على ثغور المغرب وأضرمت ناراً فأهاج عليه وعلى قومه من السلطان يعقوب ليثاً عادياً، وأرهدف منه عزماً ماضياً، وأفرج يعقوب على مراكش بعزم النهوض إلى تلمسان، ونزل بفاس، وتلرم بها أياماً حتى أخذ أهبة الحرب، وأكمل استعدادها ورحل فاتح ست وستين وستمئة وسلك على كرسيف، ثم على تافرا، وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ، وعبأ كل منهم كتابه ورتب مصافه، وبرز النساء سافرات الوجوه في سبيل التحريض يحين ويعتدين ويترغبن ولما فاء الفياء ومال النهار، وكثر حشود المغرب جموع بني عبد الواد ومن إليهم، انكشفوا ومنحو العدو أكتافهم.

وهلك أبو حفص عمر كبير والد يغمراسن وولي عهده في جماعة من عشيره، ذكرناهم في أخباره.

وأخذ يغمراسن بأعقاب قومه، فكان لهم ردة إلى أن خلصوا من المعترك ووصلوا إلى بلادهم في جمادى من سنتهم، وعاد السلطان أبو يوسف إلى مكانه من حصار مراكش والله أعلم.

الخبر عن السفارة والمهاداة التي وقعت بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق وبين المستنصر الخليفة بتونس من آل أبي حفص

كان الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص منذ دعا لنفسه بتونس سنة خمس وعشرين وستمئة طموحاً إلى ملك مراكش مقر الدعوة ومنبعث الدولة وأصل الخلافة.

حتى انتهى إلى إيكليز فأعترم على ذلك سنة ستين وستمئة وشارف دار الخلافة، ثم نزل بقعرها وأخذ بمخنفها.

وعقد المرتضى على حربهم للسيد أبي العلاء إدريس المكنى بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فعبأ كتابه ورتب مصافه، وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة، فكانت بينهم حروب بعد العهد يمثلها، استشهد فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، وكانوا يسمونه برطانتهم أيعجوب فقت مهلكه في عضدهم، وارتحلوا عنها إلى عملهم، واعترضتهم عساكر الموحدين بوادي أم ربيع، وعليهم يحيى بن عبد الله بن وانودين، فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين.

وكان في مسيل الوادي كدى تحسر عنها غمر الماء وتبدو كأنها أرجل، فسميت الواقعة بها أم الرجلين.

ثم سعى بعض سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه السيد أبي دبوس بطلبه الأمر لنفسه، وشعر بالسعاية فخشي بادرة المرتضى ولحق بالسلطان أبي يوسف مدخله إلى فاس من منازلته آخر سنة إحدى وستين وستمئة نازعاً إليه، فأقام عنده ملياً.

ثم سأل منه الإعانة على أمره بعسكر يمدد وآلة يتخذها للملكه، ومال يصرفه في ضروراته على أن يشركه في الغنيمة والفتح والسلطان، فأمدده بخمسة آلاف من بني مرين، وبالكفاية من المال والمستجد من الآلة وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل ممالكه ومن سواهم أن يكونوا يداً معه.

وسار في الكتائب حتى شارف الحضرة، ودس إلى أشياعه ومن يداخله من الموحدين في أمره، فشاروا بالمرتضى وأجهضوه عنها، فلحق بأزمور مستجيشاً بصهره ابن عطوش.

ودخل أبو دبوس الحضرة في المحرم فاتح خمس وستين وستمئة وتقبض ابن عطوش عامل أزمور على المرتضى واقتاده أسيراً إلى أبي دبوس، فبعث مولاه مزاحماً احتز رأسه في طريقه، واستقل بالخلافة وصباية آل عبد المؤمن.

ثم بعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة، فعتا واستنكف، ونقض العهد وأساء الخطاب، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب، فخام عن اللقاء وانحجز بمراكش، ونزله السلطان أياماً تباعاً ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزرع وينسف الأقوات.

وعجز أبو دبوس عن دفاعه، فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده ويشغله من ورائه، ويأخذ مجزته عن

ثم أوفد المستنصر على السلطان يعقوب بن عبد الحق آخر سنة تسع وستين وستمائة بعدا شيخ الجماعة من الموحدين لعده أبا زكريا يحيى بن صالح الهتاتي مع جماعة من مشيخة الموحدين في مرافقة محمد الكنتاني، وبعث معهم إلى السلطان هدية سنية يلاطفه بها ويتاحفه، انتخب فيها من الجياد والسلاح وأصناف الثياب الغريبة العمل ما انتقاه.

ورقف رضاه وهمته على الاستكثار منه، فحسن موقعها وتحدث بها وانقلب وفده أحسن منقلب بعد أن تلطف محمد الكنتاني في ذكر الخليفة المستنصر على منبر مراكش، فتم له، وشهده وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا مجبورين مسرورين، واتصلت بعد ذلك مهادة المستنصر ليعقوب بن عبد الحق إلى أن هلك، وجرى ابنه الراجي من بعده على سنته، فبعث إليهم سنة سبع وسبعين وستمائة هدية حافلة، بعث بها القاضي أبا العباس الغماري قاضي بجاية فعظم موقعها، وكان لأبي العباس الغماري بالمغرب ذكر تحدث به الناس والله أعلم.

الخبر عن فتح مراكش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين من المغرب

لما رجع السلطان أبو يوسف من حرب يغمراسن ورأى أنه قد كف من غربه ورد من كيده وكيد أبي دبوس صريحه، صرف حيثئذ عزائمه إلى منازلة مراكش، والعودة إلى مضايقتها كما كان لأول أمره، ونهض لغزاته من فاس في شعبان من سنته.

ولما أجاز أم الربيع، بث السرايا وسرح الغارات، وأطلق الأيدي والأعنة للنهب، فحطموا من زروعها وانتسفوا آثارها، وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه.

ثم غزا عرب الخلط من حشم بتادلا، فأتخن فيهم واستباحهم.

ثم نزل وادي العبيد، ثم غزا بلاد صنهاجة، ولم يزل ينتقل ركابه بأنحاء البلاد المراكشية وأحوازها حتى حصرت صدور بني عبد المؤمن وقومهم، وأغراههم أولياء الدولة من عرب جشم بنهوض الخليفة لمداغمة عدوه، فجمع لذلك وبرز في جيوش ضخمة وجموع وافرة، واستجره أبو يوسف بالفرار أمامه ليعبد عن مدد الصريح، فيستمكن منه حتى نزل عفو.

ثم كر إليه والتحم القتال فاختلف مصافه وفر عساكره، وانهمز يريد مراكش فأدركه دون أمه، وأعتاقه أجله، فطعن في

وكان يؤمل لذلك زناته، وإلا فلما دونة من خضد شوكة آل عبد المؤمن، وتقليم أطافر بأسهم، وردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه، وتغلب على تلمسان سنة أربعين وستمائة ودخل يغمراسن بن زيان في دعوته وصار فئة له وشيعته على عدوه كما ذكرناه، فوصل به جناحه للمدافعة.

وناغاه بنو مرسين في مراسلة ابن أبي حفص ومخاطبته، وتخفيض عليه فيما يهيمه من شأن عدوه، وحمل ما يفتحون من بلاد المغرب على البيعة له والطاعة مثل: فاس ومكناسة والقصر.

وكان هويلاظهم بالتحف والهدايا، ويريهم البر في الكتاب والخطاب والمعاملة وتكريم الوفد غير سبيل آل عبد المؤمن، فكانوا يجنحون بذلك إلى تجديد مراسلته، وإيفاد قراباتهم عليه.

وولى ابنه المستنصر من بعده سنة سبع وأربعين وستمائة فتقبل مذاهب أبيه وأوفي عليه بالإيعاز إليهم بمنازلة مراكش، وضمان الإنفاق عليهم فيها، فكان يبعث لذلك أحمالاً، من المال والسلاح وأعداد وافرة من الخيل بمراكبها للحملان، ولم يزل دأبه ذلك معهم.

ولما فعل ابن أبي دبوس فعلته في نقض العهد واستجمع السلطان لمنازلته، قدم بين يدي عمله مراسلة الخليفة المستنصر بخبره الخبر ويتلطف له في استئزال المدد، فأوفد عليه ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق، وأصاحبه عبد الله بن كندوز لعبد الوادي كبير بني كمي، وقرع بني يغمراسن الذي ثار يغمراسن من أبيه كندوز بأبيه زيان كما ذكرناه في أخبارهم.

وكان خلص إليه من حضرة المستنصر فلقيه مبرة وتكريماً، وأوفد معهما الكاتب أبا عبد الله محمد بن محمد الكنتاني من صنائع دولة آل عبد المؤمن، كان نزاع إلى أخيه الأمير أبي يحيى لما رأى من اختلال الدولة، وأنزله مكناسة وآثره بالصحية والخلعة، فجمع له يعقوب بن عبد الحق في هذا الوفد من الأشراف من يحسن الرياسة، ويعرب عما في الضمائر، ويدل على شرف مرسله.

فوفدوا على المستنصر سنة خمس وستين وستمائة وأدوا رسالتهم وحركوا له جوار المظاهرة على صاحب مراكش وكبح عنانه، فحسن واهتز سروراً من أعوده، ولقاهم مبرة التكريم وأحسن النزول، ورد الأمير عامر بن إدريس، وعبد الله بن كندوز لوقتهما.

وتمسك بالكنتاني من بينهم لمصاحبة وفده، فطال مقامه عنده إلى أن كان من فتح مراكش ما تذكره.

من ولد أخويه عبد الله وإدريس لأمه سوط النساء، ووجدوا في أنفسهم لما يرون أن عبد الله وإدريس أكابر ولد عبد الحق، ولهما التقدم على من بعدهما من ولده، وأنهما أحق بالأمر، فعدت هيف إلى أديانها، ونفسوا على ابن السلطان ما أخذ له من البيعة والعهد، ونزعوا عنه إلى جبل علودان من جبال غمارة عش خلفهم، ومدرج فتتهم، وذلك سنة تسع وستين وستمائة ورياستم يومئذ لمحمد بن إدريس وموسى بن رحو بن عبد الله، وخرج معهم ولد أبي عياد بن عبد الحق وأغزاهم السلطان ولده أبا يعقوب يوسف في خمسة آلاف من عسكره، فأحاط بهم وأخذ بمخنتهم، ولحق به أخوه أبو مالك في عسكره، ومعه مسعود بن كاتون شيخ سفيان.

ثم خرج في أثرهم السلطان أبو يوسف واجتمع معسكرهم بتافركا ونالوهم ثلاثاً، وهلك في حروبهم مندبل بن ورتظليم. ولما رأوا أن قد أحيط بهم سألوا الأمان، فبذله وأنزلهم، واستل سخانهم ومسح ما في صدورهم، ووصل بهم إلى حضرته.

وسألوا منه الأذن في اللحاق بتلمسان حياء من كبر ما ارتكبه، فأذن لهم، وأجازوا البحر إلى الأندلس، وخالفهم عامر بن إدريس لما أنس من صاغة السلطان إليه، فتخلف عنهم بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد منزلة السلطان بتلمسان كما نذكره الآن.

واحتل بنو إدريس وعبد الله وابن عمهم عياد بالأندلس على حين أفر من الحامية جوها، واستأسد العدو على ثغرها.

وتغلبت شفاهم للالتهاهما فاحتلوا أسوداً ضاربة، وسيوفاً ماضية، معودين لقاء الأبطال وقراع الختوف والنزال، مستغلطين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا شجى في صدره دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه، وارتدوه على عقبه، ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر وسيطوا من آمالهم لمداغة طاغيتهم.

وزاحوا أمير الأندلس في رياستها بمنكب، فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدو من أعياصهم وقبائلهم ومن سواهم من أمم البرابرة، وتناقلوه وساهموا في الجباية بفرض العطاء والديوان، فبذله لهم واستمروا على ذلك العهد وحسن أثرهم فيها كما سنذكره بعد في أخبار القراية.

ثم أعمل السلطان نظره في غزو تلمسان على ما نذكره إن

مفره وخر صريعاً للبدن والغم واحتز رأسه، وهلك بمهلكه وزيره عمران وكاتبه علي بن عبد الله المغيلي.

وارتغل السلطان أبو يوسف إلى مراكش وفر من كان بها من الموحدين، فلحقوا بجبل تيملل، وباعوا لإسحاق أخشي المرتضى، فبقي ذبالة هنالك سنين.

ثم تقبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة، وسبق إلى السلطان هو وأبو سعيد ابن عمه السيد أبي الربيع والقبائلي وأولاده فقتلوا جميعاً، وانقرض أمر بني عبد المؤمن.

والله وارث الأرض ومن عليها.

وخرج الملا وأهل الشورى من الحضرة إلى السلطان فأمهم ووصلهم.

ودخل مراكش في بروز فخم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وورث ملك آل عبد المؤمن وتولاه.

واستوسق أمره بالمغرب، وتطامن الناس لباسه، وسكنوا لظل سلطانه.

وأقام بمراكش إلى رمضان من سته، وأغزى ابنه الأمير أبا مالك إلى بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها، ثم خرج بنفسه إلى المغرب للبلاد فأوقع بهم الواقعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم، ورجع لشهرين من غزاته، ثم أجمع الرحلة إلى داره بفاس فعقد على مراكش وأعمالها محمد بن علي من كبار أوليائهم ومن أهل خولته، وكان من طبقة الوزراء حسبما يأتي التعريف به وبمشيره، وأنزله بقصبة مراكش، وجعل المصالح أعمالها لنظرة، وعهد إليه بتدوين الأقطار وعمر آثار بني عبد المؤمن، وفصل إلى حضرته وأراح بسلا، فكان من خبر عهده لابنه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك وما

كان عقب ذلك من خروج القراية عليه

أولاد أخيه إدريس وإجازتهم إلى الأندلس

لما تلوم السلطان بسلا منصرفه من رباط الفتح وأراح بها ركابه عرض له طائف من المرض وعكاً شديداً.

فلما أبل جمع قومه وعهد بأمره فيهم لابنه أبي مالك عبد الواحد كبير ولده، بما علم من أهليته لذلك.

وأخذ له البيعة عليهم، وأعطوها طواعية، وأسف القراية

شاء الله تعالى.

الحرب واستعد للقاء.

الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف إلى

تلمسان وواقعه على يغمراسن وقومه

بإيسلى

لما غلب السلطان أبو يوسف على بني عبد المؤمن وفتح مراکش واستولى على ملكهم سنة ثمان وستين وستمائة وعاد إلى فاس كما ذكرنا، تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد، وما أسفوا به من تخذيل عزائمه ومجاذبه عن قصده.

ورأى أن واقعة تلاغ لم تشف صدره، ولا أطفأت نار موجدته، فأجمع أمره على غزوهم.

واقترع بما صار إليه من الملك والسلطان على حشر أهل المغرب لحربهم وقطع دابرهم، فعسكر بظاهر فاس، وسرح ولده وولي عهده أبا مالك إلى مراکش في خواصه ووزرائه حاشرين في مدائنهم وضواحيها وقبائل العرب والمصامدة وبني ورا وغمرة وصنهاجة، ويقايا عساكر الموحدين بالخضرة، وحامية الأمصار من جند الروم وناشبة الغزو فاستكثر من أعدادهم واستوفى حشدتهم.

واحتفل السلطان بحركته وارتحل إلى فاس سنة سبعين وستمائة وتلوم بملوية إلى أن لحقته الحشود وتوافقت إليه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم، وبنو جابر ومن معهم من الأنيج، وقبائل ذوي حسان والشبانات من العقول أهل السوس الأقصى، وقبائل رياح أهل أزغار والمهبط.

فاعترض هنالك عساكره وعبا مواكبه، فيقال: بلغت ثلاثين ألفاً، وارتحل يريد تلمسان، ولما انتهى إلى أنكاد وافته رسل ابن الأحمر هنالك فد المسلمين بالأندلس صريحاً على العدو ويستجيشون بأخوانهم المسلمين ويسألونهم الإعانة، فتحركت همته للجهاد ونصر المسلمين من عدوهم.

ونظر في صرف الشواغل عن ذلك، وجنح إلى السلم مع يغمراسن، وصوب الملا في ذلك رايه لما كانوا عليه من إثار الجهاد.

وانتدب جماعة من المشيخة إلى السعي في إصلاح بينهما، والكف عن غرب عداوتهما.

وساروا إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهبة

واحتشد زناته أهل مملكه بالشرق من بني عبد الواد وبني راشد ومغراوة وأحلافهم من العرب زغبة، فلج في ذلك واستكبر وصم عن إسعافهم.

وزحف في جموعه، والتقى الجمعان بوادي إيسلى من بسائط وجدة، والسلطان أبو يوسف قد عبأ كتابه، ورتب مصافه وجعل ولديه الأميرين أبي مالك وأبي يعقوب في الجناحين، وسار في القلب، فدارت بينهم حرب شديدة انحلت عن مهلك فارس بن يغمراسن، وجماعة من بني عبد الواد.

وكاثرتهم حشود المغرب الأقصى وقبائله، وعسكر الموحدين والبلاد المراكشية فولوا الأديار، وهلك عامة عسكر الروم لثباتهم بثبات السلطان فطحتهم رحى الحرب، وتقبض على قائدهم بيرنيس، ونجا يغمراسن بن زيان في فله مدافعاً دون أهله إلى تلمسان، ومر بقماطية، فأضرمها ناراً، وانتهب معسكره، واستيحت حرمة.

وأقام السلطان أبو يوسف على وجدة حتى خربها واضرع بالتراب أسوارها، والصق بالرغام جدرانها.

ثم نهض إلى تلمسان فحاصرها أياماً وأطلق الأيدي في ساحاتها بالنهب والعيث، وشن الغارات على البسائط، فاكسحها سبياً ونسفها نسفاً.

وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي، وكان من عليّة وزرائه وحماة ميدانه له في ذلك أخبار مذكورة، وكان مهلكه في شوال من هذه السنة، ووصله بمثواه من حصارها محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، ومستصرخه على بني عبد الواد لما نال منه يغمراسن من ضيم القهر وذل الغلب والتخيف وصله في كافة قبيله مباهياً بآكته، فأكرم السلطان أبو يوسف وفادته واستركب الناس للقاءه وبرور مقدمه.

واتخذوا رتبة السلاح لمباهاته، وأقام محاصراً لتلمسان معه أياماً حتى وقع اليأس وامتنع البلد، واشتدت شوكة حاميته ثم أجمع السلطان أبو يوسف على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي وقومه بالفصول قبل قفوله، وأن يغذوا السير إلى بلادهم.

وملاء حقايقهم بإتحافه وجنب لهم من المائة من المقربات بمراكبها، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب، وعمهم بالصلات من الخلع والكساء الفاخرة.

واستكثر لهم السلاح والفازاز والفساطيط، وحملهم على

وأراح ببجاية، فكان فيها هلاكه سنة ست وأربعين وستمئة ويقال: بل هلك في سفينة ودفن ببجاية، ولما هلك الأمير أبو زكريا سنة سبع وأربعين وستمئة بعدها انتقض أهل سبتة على ابنه المستنصر وطردوا ابن الشهيد، وقتلوا العمال الذين كانوا معه، وصرفوا الدعوة إلى المرتضى.

وتولى كبر ذلك حجبون الزنادحي بمداخله أبي القاسم العزفي كبير المشيخة بسبتة، وأعظمهم تجلّة، ونشأ في حجر أبيه الفقيه الصالح أبي العباس أحمد مكفوفاً بالجلالة مغدوراً بالعلم والدين، بما كان له فيهما قدم إلى أن هلك، فأوجب أهل البلد لابنه ما عرفوه لحقه وحق أبيه من قبله، فكانوا يفزعون إليه في المهمات ويسلمون له في الشورى، فأغرى الزنادحي بهذه الفعلة ففعلها ففقد المرتضى لأبي القاسم العزفي على سبتة مستقلاً من غير إشراف أحد من السادة، ولا من الموحددين، واكتفى بغناكه في ذلك الثغر وعقد لحجبون الزنادحي على قيادة الأساطيل بالمغرب، فورثها عنه بنوه إلى أن زاحمهم العزفي بمنابك رياسته، فقوضوا عن سبتة فمنهم من نزل بمالقة على ابن الأحمر ومنهم من نزل ببجاية على آل أبي حفص، ولهم في الدولتين آثار تشهد برياستهم.

واستقل الفقيه أبو القاسم العزفي برياسة سبتة، وأورثها بنييه من بعده على ما نذكره بعد.

وكانت طنجة تالية سبتة في سائر الأحوال وتبعاً لها، فاتبع ابن الأمير صاحبها إمارة الفقيه أبي القاسم.

ثم انتقض عليه لسته واستبد وخطب لابن أبي حفص، ثم للعباسي، ثم لنفسه، وسلك فيها مسلك العزفي في سبتة، ولشبوا كذلك ما شاء الله، حتى إذا ملك بنو مرين المغرب وانبشوا في شعباه، ومدوا اليد إلى ممالكه فتناولوها، ونزلوا معاقله وحصونه فاقتموها، وهلك الأمير أبو يحيى ابن عبد الحق وابنه عمر من بعده.

وتحيز بنوه في ذويهم وأتباعهم وحشهم إلى ناحية طنجة وأصيلا، فآوونوا ضاحتها وأفسدوا سابقتها وضيّقوا على ساكنها، واكتسحوا ما حوالئها، وشارطهم ابن الأمين على خراج معلوم على أن يكفوا الأذى ويمعوا الحوزة ويصلحوا السابلة، فاتصلت يده بأيديهم، وترددوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم.

ثم مكروا وأضرموا الغدر ودخلوا في بعض أيامهم متأطنين السلاح، وفتكوا بابن الأمين غيلة، فثارت بهم العامة حينهم واستلحموا لمصرع واحد سنة واحد وستين وستمئة واجتمعوا إلى ولده وبقيت في ملكه خمسة أشهر.

الظهر، وارتحلوا وتلوم السلطان أياماً لمنجاتهم إلى مقرهم من جبل وانشرش حذراً من غائلة يغمراسن من انتهاز الفرصة فيهم.

ثم قفل إلى فاس ودخلها مفتوح إحدى وسبعين وستمئة وهلك ولده الأمير أبو مالك ولي عهده لأيام من مقدمه، فأسف لمهلكه، ثم تعزى بالصبر الجميل عن فقدته، ورجع إلى حاله في افتتاح بلاد المغرب.

وكان في غزوته هذه ملك حصن تاونت، وهو معقل مطفرة، وشحنه بالأقوات لما رآه ثغراً مجاوراً لعدوه، وأسلمه لنظر هارون شيخ مطفرة.

ثم ملك حصن مليلة بساحل الريف مرجعه من غزاته هذه، وأقام هارون بحصن تاونت، ودعا لنفسه.

ولم يزل يغمراسن يردد الغزو إليه حتى فر من الحصن وأسلمه سنة خمس وسبعين وستمئة ولحق بالسلطان أبي يوسف كما ذكرناه في أخباره، عند ذكر قبيلة مطفرة وكان من شأنه ما ذكرناه هنالك.

الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة أهل سبتة وفرض الأتاوة عليهم وما قارن ذلك من الأحداث

كانت هاتان المدينتان سبتة وطنجة مذ أول دولة الموحدين من أعظم عمالاتهم، وأكبر ممالكهم بما كانت ثغر العدو ومرفأ الأساطيل، ودار إنشاء الآلة البحرية، وفرضة الجواز إلى الجهاد. فكانت ولايتها مخصصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن.

وقد ذكرنا أن الرشيد كان عقد على أعمالها لأبي علي بن خلاص من أهل بلنسية، وأنه بعد استفحال الأمير أبي زكريا بإفريقية ومهلك الرشيد، صرف الدعوة إليه سنة أربعين وستمئة وبعث إليه بالمال والبيعة مع ابنه أبي القاسم.

وولى على طنجة يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمين قائداً على الرجل الأندلسيين، وضابطاً للقبصة.

وعقد الأمير أبو زكريا على سبتة لأبي يحيى بن أبي زكريا، ابن عمه أبي يحيى الشهيد ابن الشيخ أبي حفص فتزل بها فاستراب أبو علي ابن خلاص من العواقب عند مهلك ابنه الوافد على السلطان غريقاً في البحر، فرحل بمجملته إلى تونس في السفن،

وأن يغمراسن بن زيان من بعد واقعة أبي سليل سنة خمس وخمسين وستمئة، قصد لها لعودة دل عليها، وغرة أمل أصابته، فسابقه إليها أبو يحيى وماتنه من دونها ورجع عنها خائب المسعى مفلول الحامية.

وكان الأمير أبو يحيى من بعد أن عقد عليها ليوسف بن يزكاسن عقد عليها من بعده لسنة ونصف من ولايته ليحيى بن أبي منديل كبير بني عسكر أقاتهم، ومقاسمهم نسب محمد بن ورصيص ثم عقد عليها لشهرين لمحمد بن عمران ابن عبله من بني يربنان صنائع دولتهم.

واستعمل معه على الجاية أبا طالب بن الحبسي وجعل مصلحة الجند بها إلى نظر أبي يحيى القطراني، وملكه قيادتهم، وأقاموا على ذلك سنتين اثنتين.

ولما هلك الأمير أبو يحيى وشغل السلطان أبو يوسف مجرب يغمراسن ومنزلة مراكش، سما للقطراني أمل في الاستبداد بها، ودخل في ذلك بعض أهل الفتن وظاهره يوسف بن فرج العزفي وفتكروا بعمار الورد غزاني شيخ الجماعة بالبلد، واتمروا بمحمد بن عمران بن عبله، فخرج ولحق بالسلطان، واستبد القطراني بها، ثم ثار به أهل البلد سنة ثمان وخمسين وستمئة لسنة ونصف من لدن استبداده وقتلوه، وصرفوا بيعتهم إلى الخليفة المرتضى بمراكش، وتولى كبر ذلك القاضي ابن حججاج وعلي بن عمر، فعقد له المرتضى عليهم وأقام بها أميراً.

ونازلته عساكر بني مرين والسلطان أبو يوسف سنة سنتين وستمئة ونصب عليها آلات الحصار فأحرقوها وامتنعوا، فأفرج عنهم، وأقام علي بن عمر في سلطانه ذلك ثلاث سنين، ثم هلك.

وكان الأمير يغمراسن بن زيان منذ غلب الموحدين على تلمسان والمغرب الأوسط، وصار في مملكته، تحيز إليه من عرب المعقل قبيل المبات من ذوي منصور، بما كانت مجالات المعقل مجاورة لمجالات بني بادين في القفر.

وإذا ارتحلوا عنها من بعد ما جأجأ يغمراسن ببني عامر من مجالاتهم بمصايب بلاد بني يزيد، فزاحموا المعقل بالمناكب عن مجالاتهم ببلاد فيكيك وصا.

ورحلوهم إلى ملوية وما وراءها من بلاد سجلماسة، فملكوا تلك المجالات.

ونبذ يغمراسن العهد إلى ذوي عبيد الله منهم واستخلص المبات هؤلاء، فكانوا له حلفاً وشيعة ولقومه ودعوته خالصة.

وكانت سجلماسة في مجالاتهم ومقلب ظعنهم وناجعتهم،

ثم استولى عليها العزفي فنهض إليه بعساكره من الرجل برأً وبحراً، واستولى عليها، وفر ابن الأمين ولحق بتونس ونزل على المستنصر واستقرت طنجة في إيالة العزفي فضبها وقام بأمرها، وولى عليها من قبله، وأشرك الملاء من أشرفه في الشورى.

ونازلها الأمير أبو مالك سنة ست وستين وستمئة فامتعت عليه وأقامت على ذلك ستاً، حتى إذا انتظم السلطان أبو يوسف ببلاد المغرب في مملكته، واستولى على حضرة مراكش ومحا دولة بني عبد المؤمن، وفرغ من أمر عدوه يغمراسن، وهم بتلك الناحية واستضافه عملها، فاجمع الحركة إليها ونازل طنجة مفتتح سنة اثنتين وسبعين بما كانت في البسيط من دون سبتة، وأقام عليها أياماً.

ثم اعزم على الإفراج، فحذف الله في قلوبهم الرعب، وافترق بينهم، وتنادى بعض الناشية من السور بشعاب بني مرين، فبادر سرعان الناس إلى تسور حيطانها فملكوه عليهم، وقاتلوا أهل البلد ظلام ليلتهم، ثم دخلوا البلد من صبيحتها عنوة، ونادى منادي السلطان في الناس بالأمان والعفو عن أهل البلد، فسكن ومهد وفرغ من شأن طنجة.

ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب في عساكر ضخمة لمنازلة العزفي بسبتة وإرغامه على الطاعة، فنازلها أياماً، ثم لاذ بالطاعة على المنعة.

واشترط على نفسه خراجاً يؤديه كل سنة، فتقبل السلطان منه، وأفرجت عساكره عنهم، وقفل إلى حضرته.

وصرف نظره إلى فتح سجلماسة وإزعاج بني عبد الواد المتغلبين عليها، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها

عنوة على بني عبد الواد والمبات من عرب

المعقل

قد ذكرنا ما كان من تغلب الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مدينة على سجلماسة وبلاد درعة وأنه عقد عليها وعلى سائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن، وأنزل معه ابنه مفتاحاً المكنى بأبي حديد في مشيخة لحيايتها.

وأن المرتضى سرح وزيره ابن عطوش سنة أربع وخمسين وستمئة في العساكر لاسترجاعها، فنهض إليه الأمير أبو يحيى إليه وشرده عنها ورجعه على عقبه.

ولهم فيها طاعة معروفة.

وبلغه الخبر بوفادة أبي طالب ابن صاحب سبته الفقيه أبي القاسم العزفي على فاس، فأغذ السير إلى حضرته، وأكرم وفادته وأحسن متقلبه إلى أبيه مملوء الحقائق ببره، رطب اللسان بشكره. ثم شرع في إجازة ولده إلى العدو كما نذكر الآن إن شاء الله تعالى.

الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف على النصارى وقتل زعيمهم دننه وما قارن ذلك

كانت عدوة الأندلس منذ أول الفتح ثغراً للمسلمين، فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم وسبيل سعادتهم.

وكانت مواطنهم فيه على مثل الرضف، وبين الظفر والنباب من أسود الكفر لتوفر أمتهم في جوارها وإحاطتهم بها من جميع جهاتها، وحجز البحر بينهم وبين إخوانهم المسلمين وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يخرج المسلمين منها لانتقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم، ويعدمهم عن الصريخ، وشاور في ذلك كبار التابعين وأشرف العرب فرأوه رأياً.

واعتزم عليه لولا ما اعتاقه من المنية وعلى ذلك، فكان للإسلام فيه اعتزاز على من جاورهم من أهل الكفر، بطول دولة العرب من قریش ومضر واليمن.

وكانت نهاية عزهم وسورة غلبهم أيام بني أمية بها، الطائفة الذكر الباسطة جناحها على العدوتين منذ ثلاث مئتين من السنين أو ما يقاربها.

حتى انتشر سلكها بعد المائة الرابعة من الهجرة، وافتרכת الجماعة طوائف وفشلت ریح المسلمين وراء البحر بفناء دولة العرب.

واعترز البربر بالمغرب واستفحل شأنهم وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان مفترقاً بالمغرب من كلمة الإسلام، وتمسكوا بالسنة وتشبثوا إلى الجهاد، واستدعاهم إخوانهم من وراء البحر للمدافعة عنهم، فأجازوا إليهم وألبوا في جهاد العدو أحسن بلاء، وأوقعوا بالطاغية ابن أذفونش يوم الزلاقة وغيرها، وفتحوا حصوناً واسترجعوا أخرى واستنزفوا الثوار ملوك الطوائف، وجمعوا الكلمة بالعدوتين.

وجاء على أثرهم الموحدون سالكين أحسن مذاهبهم،

فلما هلك علي بن عمر آثروا يغمراسن بملكها، فحملوا أهل البلد على القيام بدعوته، وخاطبوه وجأجأوا به، فغشيهم بعساكره وملكها وضبطها.

وعقد عليها لعبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد بن زكدان بن تيدوكسن ويعرف بابن حنينة نسبة إلى أم أبيه أخت يغمراسن بن حمامة، وأنزل معها ولده الأمير يحيى لإقامة الرسم الملوكي، ثم أдалه بأخيه من السنة الأخرى، وكذا كان شأنه في كل سنة.

ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته، وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم، ومحا رسمهم، وافتتح طنجة وطوع سبنة مرقى الجواز إلى العدو، ونصر المغرب، سما أمله إلى بلاد القبلة فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من أيدي عبد الواد المتغلبين عليها وإدالة دعوته فيها من دعوتهم، فنهض إليها في العساكر والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين وستمائة فنازلها وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات، وهندام النفط القاذف بمحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باربها.

فأقام عليها حولاً كريئاً يهاديها القتال ويرأوحها، إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليه، فبادروا إلى اقتحام البلد، فدخلوها عنوة من تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين وستمائة فقتلوا المقاتلة والحامية وسبوا الرعية، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة، ومن كان معهم من بني عبد الواد وأمراء المناب، وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان أبي يوسف، وتمشت طاعته في أقطاره.

فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته، ولا جماعة تتحيز إلى غير فيته ولا أمل ينصرف إلى سواه، ولما كملت له نعم الله في استيساق ملكه وتمهيد أمره، انصرف أمله إلى الغزو وإيثار طاعة الله بجهاد أعدائه، واستنقاذ المستضعفين وراء البحر من عباده على ما نذكر.

ولما انكفأ زاجعاً من سجلماسة، قصد مراكش من حيث جاء، ثم قفل إلى سلا فأراح بها أياماً ونظر في شؤونها، وسد نغرها.

فكانت لهم في الجهاد آثار على الطاغية وأيام:

بينهما من الحصون والقواعد والمعازل التي لا تعد ولا تحصى، وانقرض أمر الثوار بالشرق وتفرّد ابن الأحمر بغرب الأندلس، وضاق نطاقه عن الممانعة دون البساط الفيج من أرض الفرنتيرة وما قاربها، ورأى أن التمسك بها مع قلة العدد وضعف الشوكة مما يوهن أمره ويطمع فيه عدوه، فعقد السلم للطاغية على النزول عنها أجمع، ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر معتمدين بأوعاره من عدوهم، واختار لنزله مدينة غرناطة، وابتنى بها لسكانه حصن الحمراء حسبما شرحنا ذلك كله في مواضعه.

وفي أثناء هذا كله لم يزل صريحه ينادي بالمسلمين من وراء البحر والملا من أهل الأندلس يفدون على أمير المسلمين أبي يوسف للإعانة ونصر الملة، واستنقاذ الحرم والولدان من أياب العدو فلا يجد مفرعاً إلى ذلك بما كان فيه من مجاذبة الجبل مع الموحدين، ثم مع يغمراسن، ثم تشغله بفتح بلاد المغرب وتدوين أقطاره إلى أن هلك السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن الأحمر المعروف بالشيخ، وأبي دبوس، لقبين كانا له على حين استكمل أمير المسلمين فتح المغرب وفراغه من شأن عدوه سنة إحدى وسبعين ومستمائة على أن بني مريّن كانوا يؤثرون الجهاد ويسمون إليه وفي نفوسهم جنوح إليه وصاغية.

ولما استوحش بنو إدريس بن عبد الحق وخرجوا سنة إحدى وستين ومستمائة على السلطان يعقوب بن عبد الحق واستصلحهم انتدب الكثير منهم للغزو وإجازة البحر لصريح المسلمين بالأندلس، واجتمع إليهم من مطوعة بني مريّن عسكر ضخم من الغزاة ثلاثة آلاف أو يزيدون وعقد السلطان على ذلك العسكر لعامر بن إدريس فوصلوا إلى الأندلس فكان لهم فيها ذكر ونكاية في العدو، وكان الشيخ ابن الأحمر عهد إلى ولده القائم بالأمر بعده محمد، الشهير بالفقيه، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه.

وأوصاه بأن يتمسك بعروة أمير المسلمين ويخطب نصره، ويدرا به ويقومه عن نفسه وعن المسلمين تكالب الطاغية.

فبادر لذلك حين مواراة أبيه وأوفد مشيخة الأندلس كافة عليه، ولقيه وفدهم منصرفاً من فتح سجلماسة خاتم الفتوح بالثغور المغربية ومقاد الملك.

وتنادوا للإسلام بالثار وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين، وتقل وطاته، فحيا وفادتهم وبرّ رؤسائهم، وبادر لإجابة داعي الله واستنام الجنة.

وكان أمير المسلمين منذ أول أمره مؤثراً عمل الجهاد كلفاً به مختاراً له متى أعطي الخيار من سائر أماله، حتى لقد كان اعترم

منها يوم الأرك ليعقوب المنصور وغيره من الأيام، حتى إذا فشلت ريح الموحدين وافترقت كلمتهم وتنازع الأمر سادة بني عبد المؤمن الأمراء بالأندلس، وتحاربوا على الخلافة واستجاشوا بالطاغية وأمكنوه من كثير من حصون المسلمين طعمة على الاستظهار، فخشى أهل الأندلس على أنفسهم وثاروا بالموحدين وأخرجوهم وتولى ذلك ابن هود بمرسية وشرق الأندلس، وعم بدعوته سائر أقطارها، وأقام فيها الدعوة للعباسيين، وخاطبهم ببغداد كما ذكرناه في أخباره، واستوفينا كلاً ما وصفناه في مكانه.

ثم عجز ابن هود عن الغربة لبعدها عنه، وفقدته للعصابة المتناولة لها، وأنه لم تكن صنعتته في الملك مستحكمة وتكالب الطاغية على الأندلس من كل جهة، وكثر اختلاف المسلمين بينهم، وشغل بنو عبد المؤمن بما دهم المغرب من شأن بني مريّن وزناته.

فتلافى محمد بن يوسف بن الأحمر أمر الغربة، وثار بمحضنه أرجونة وكان شجاعاً قديماً ثباتاً في الحروب، فتلقف الكرة من يد ابن هود خلع الدعوة العباسية، ودعا للأمير أبي زكريا بن أبي حفص سنة تسع وعشرين ومستمائة فلم يزل في فتنة ابن هود يجاذبه الجبل ويقارعه على عمالات الأندلس واحدة بعد أخرى إلى أن هلك ابن هود سنة خمس وثلاثين ومستمائة.

وتكالب العدو خلال ذلك على جزيرة الأندلس من كل جانب ووفر له ابن هود في الجزيرة وبلغ بها أربعمائة ألف من الدنانير في كل سنة، ونزل له عن ثلاثين من حصون المسلمين.

وخشي ابن الأحمر أن يستغلظ عليه بالطاغية فجنح هو إليه وتمسك بعروته، ونفر في حملته إلى منازل إشبيلية نكاية لأهلها.

ولما هلك الأمير أبو زكريا نبذ الدعوة الحفصية، واستبد لنفسه، وتسمى بأمير المسلمين، وتنازع بالشرق أعقاب ابن هود وبني مردنيش، ودعاه الأمر إلى النزول للطاغية من بلاد الفرنتيرة، فنزل عنها بأسرها.

وكانت هذه المدة من سنة اثنين وعشرين إلى سنة سبعين، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح محامهم، والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهباً في الحروب، ووضيعة ومدارة في السلم.

واستولى طواغيت الكفر على أمصارها وقواعدها فملك ابن أذفونش قرطبة سنة ست وثلاثين، وجيان سنة أربع وأربعين، وأشبيلية سنة ست وأربعين.

وتملك قمص برشلونة مدينة بلنسية سنة سبع وثلاثين إلى ما

المسلمين، وعظم موقع هذا السلم من أمير المسلمين لما كان في نفسه من الصاغية إلى الجهاد، وإيثاره مبرورات الأعمال، وبث الصدقات بشكر الله على ما منحه من التفرغ لذلك.

ثم استفر الكافة واحتشد القبائل والجموع، ودعا المسلمين إلى الجهاد، وخطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البرابرة وأهل المغرب من المرتزقة والمطوعة.

وأهاب بهم وتيسر في إجازة البحر، فأجازه من فرضة طنجة لصف من سنة أربع وسبعين وستمئة واحتل بساحل طريف.

وكان لما استصرخه السلطان ابن الأحمر وأودع عليه مشائخ الأندلس اشترط عليه النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره، فتجافى له عن ردة وطريف.

ولما احتل بطنجة بادر إليه ابن هشام الناصر بالجزيرة الخضراء، أجاز البحر إليه، ولقيه بظاهر طنجة فأدى له طاعته وأمكنه من قياد بلده.

وكان الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو إسحاق صهر السلطان بن الأحمر تبعاً له في أمره ومؤازراً له على شأنه كله.

وأبوهما أبو الحسن هو الذي تولى له كبر الثورة على ابن هود ومداخلة أهل إشبيلية في الفتك بابن الباجي.

فلما استوت قدمه في ملكه وغلب الثوار بالأندلس واستولى على أمره فسد ما بينهما بعد أن كان ولي أباً محمد على ماله وأباً إسحاق على وادي آش، فامتنع أبو محمد بن أشقيلولة بمالقة واستأثر بها وبغريبتها دونه.

ومع ذلك كانوا على الطاغية فيئة ولحمة، ولما أحس أبو محمد بن أشقيلولة بإجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق، قدم إليه الوفد من أهل مالقة يبيعهم وصرخهم، وانحاش إلى جانب السلطان وولايته، وأعضه المخالصة والنصيحة.

فلما احتل السلطان بساحة طريف ملأت كتابته ساحة الأرض ما بينهما وبين الجزيرة وتسايق السلطان ابن الأحمر، وهو محمد الفقيه بن محمد الشيخ أبي دبوس صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة والغريبة، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش إلى لقاء السلطان وتناغوا في برور مقدمه والإذعان له، فقاوضهما في أمور الجهاد، ورجعهما لحينه إلى بلديهما.

على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي يحيى وطلب إذنه في ذلك عندما ملكوا مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمئة فلم يأذن له وفصل إلى الغزو في حشمه وذويه ومن أطاعه من عشيرته.

وأوعز الأمير أبو يحيى لصاحب الأمر بسببة لذلك العهد أبي على بن خلاص بأن يمنعه الإجازة، ويقطع عنه أسبابها.

ولما انتهى إلى قصر الجواز، ثنى عزمه عن ذلك الولي يعقوب بن هارون الخيري، ووعدته بالجهاد أميراً مستنصراً للمسلمين ظاهراً على العدو، فكان في نفسه من ذلك شغل وإليه صاغية.

فلما قدم عليه هذا الرفد نبهوا عزائمهم وذكروا همته، فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير.

ونهض من فاس في شهر شوال من سنة ثلاث وسبعين وستمئة إلى فرضة الجواز من طنجة.

وجهب خمسة آلاف من قومه أزاح عليلهم واستوفى عطاءهم وعقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية.

واستدعى من العزفي صاحب سببة السفن لإجازتهم فوافاه بقصر الجواز عشرون من الأساطيل، فأجاز العسكر ونزل بطريف، وأراح ثلاثاً، ودخل دار الحرب وتوغل فيها، وأجلب على ثغورها وبساتنها.

وامتلأت أيديهم من الغنائم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الأنار، حتى نزل بساحة شريش، فخام حاميتهما عن اللقاء وانحجزوا في البلد، فقفل عنها إلى الجزيرة وقد امتلأت أيديهم من الأموال وحقائبهم من السبي وركائبهم من الكراع والسلاح.

ورأى أهل الأندلس أن قد ثاروا بعام العقاب حتى جاءت بعدها الطامة الكبرى على أهل الكفر، واتصل الخبر بأمير المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه، وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن في الفتنة، فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والمودعة.

ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكبر موصله وموصل قومه.

وبادر إلى الإجابة والألفة، وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان لعقد السلم.

وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة

بدرهم واحد، وكذلك السلاح.

وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياماً ثم خرج لجمادى غزياً إلى أشيلية فجاس خلالها وتقرى نواحيها وأفطارها، وأثنى بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها، وارتحل إلى شريش فأذاقها وبال العيث والاكساح.

ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته، ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدو لنزل عسكره متبذراً عن الرعاية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم، وتخبر لها مكاناً لصق الجزيرة، فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية وجعل ذلك لنظر من يثق به من دونه.

ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنة أربع وسبعين وستمئة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر، واحتل بقصر مصودة وأمر ببناء السور على بادس مرفأ الجواز ببلاد غمارة.

وتولى ذلك إبراهيم بن عيسى كبير بني وسناف بن محبو، ثم رحل إلى فاس فدخلها في شعبان، وصرف النظر إلى أحوال دولته، واختطاط البلد الجديد لنزله ونزل حاشيته، واستتزل الثوار عليه بالمغرب على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن اختطاط البلد الجديد بفاس وما

كان على تقيته ذلك من الأحداث

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الجهادية، وتم صنع الله لديه في ظهور الإسلام على يده واعتزاز أهل الأندلس بفتيته راح بالمغرب إلى نعمة أخرى من ظهور أوليائه وحسم أدواء الفساد في دولته، شفعت مواهب السعادة، وأكملت عوائد الصنع، وذلك أن صباية بني عبد المؤمن وفلهم، لما فروا من مراکش عند الفتح لحقوا بجبل تينمل جرنومة أمرهم، ومنبت دعوتهم، وملاحد خلفائهم، وحضرة سلفهم، ودار إمامهم، ومسجد مهديهم.

كانوا يكفون عليه ميتينين بطيره، ملتسين بركة زيارته، ويقدمون ذلك أمام غزولتهم قربة بين يدي أعمالهم يعتدون بها من صالح مساعيمهم.

فلما خلص الفل إليه اعتصموا بمقله وآووا إلى وكونه، ونصبوا للقيام بأمرهم عيصاً من أعياص خلفاء بني عبد المؤمن ضعيف المنية خاسر الصفقة من مواهب الحظ، وهو إسحاق آخر عمر المرتضى.

وباعوه سنة تسع وستين وستمئة يرجون منه رجوع الكرة،

وانصرف ابن الأحمر مغضباً لبعض النزعات أحفظته وأغذ السلطان السير إلى الفرتيرة، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره، وسرح كتابه في البساط وخلال المعافل ينسف الزرع وتحطم الغروس وتخرب العمران وتتهب الأموال وتكتسح السرح وتقاتل المقاتلة وتسبى النساء والولرية، حتى انتهى إلى المدور وبياصة وأبدت واقتم حصن بلمة عنوة.

وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها، وقفل والأرض عوج سيباً إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب.

وجاءه النذير باتباع العدو وأثارهم لاستفزاز أسراهم وارتجاع أموالهم، وأن زعيم الروم وعظيمهم دنه خرج في طلبهم بأمر بلاد النصرانية من المحتلم فما فوقه.

فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفاً من الفرسان أمامها، وسار يقضيها، حتى إذا أطلت رايات العدو من ورائهم كان الزحف، ورتب المصاف وحرص وذكر.

وراجعت زناته بصائرها وعزائمها وتحركت هممها، وأبلى في طاعة ربها والذب عن دينها، وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقعها.

ولم يك إلا كلا ولا، حتى هبت ريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية، وقتل الزعيم دنه والكثير من جموع أهل الكفر، ومنح الله المسلمين أكتافهم، واحتل القتل فيهم.

وأحصي القتلى في المعركة فكانوا ستة آلاف، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله بالشهادة وأثرهم بما عنده، ونصر الله حزيه وأعز أوليائه وأظهر دينه، وبدل العدو ما لم يحتسبه بمحاربة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة.

وبعث أمير المسلمين برأس الزعيم دنه إلى ابن الأحمر فردده زعموا سراً إلى قومه بعد أن طيحه وأكرمهم، ولأية أخلصها لهم، مداراة والمخافة عن أمير المسلمين، ظهرت شواهد عليه بعد حين كما نذكره، وقتل أمير المسلمين من غزاته إلى الجزيرة منتصف ربيع من سنته، فقسم في المجاهدين الغنائم وما نقله الله من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم، بعد الاستيثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه.

ويقال: كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة من البقر مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، ومن الأسرى سبعة آلاف وثمان مائة وثلاثين، ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وستمئة، وأما الغنم فانتسعت عن الحصر كثرة، حتى لقد زعموا بيعت الشاة في الجزيرة

وأحضر لها الحزى والمعدلين لحركات الكواكب، فاعتاموا في الطوالع النجومية بما يرضون أثره، ورصدوا أوانه.

وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك، المقدمان في الصناعة، فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم وكما رضي، ونزلها بمحاشيته، وذويه سنة أربع وسبعين وستمائة كما ذكرناه.

واختطوا بها الدور والمنازل، وأجرى فيها المياه إلى قصوره، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام.

ثم أوعز بعد ذلك ببناء قصبة مدينة مكناسة، فشرع في بنائها من سته، وكان حين إجازته البحر قافلاً من غزاته لحق طلحة بن علي بجبل أزور نازعاً إلى قبائل زناتة من صنهاجة، فأغذ إليه السلطان بعساكره وأناخ عليه، واستنزله لشهر على ما سأل من الأمان والرتبة، وحسم الداء من خروجه، واستوزر صنيعته فتح الله السدراتي، وأجرى له رزق الوزارة على عوائدهم.

ثم بعث إلى ينمراسن كفاء هديته التي أنحفه بها بين يدي غزاته، وكان شغله عنها أمر الجهاد، فبعث له فسطاطاً رائعاً كان صنع له بمراكش، وحكمات مموهة بالذهب والفضة، وثلاثين من البغال الفارهة ذكوراً وإناثاً بمراكبها الفارسية من السروج، والنسوانية من الولايا، وأحمالاً من الأديم المعروف دباعة بالشركسي، إلى غير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب وينافسون فيه.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة من بعدها أهدى له محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، وصاحب جبل وانشرش أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة، ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية.

وفي نفسه أثناء هذا كله من الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائر أعماله حسبما نذكر.

الخبر عن إجازة أمير المسلمين ثانية وما

كان فيها من الغزوات

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الأولى، واستنزل الخوارج وتقف الثغور، وهادى الملوك واختط المدينة لنزله كما ذكرنا ذلك كله.

ثم خرج فاتح سنة ست وسبعين وستمائة إلى جهة مراكش لسد ثغوره، وتثقيف أطرافه، وتوغل في أرض السوس، وبعث وزيره فتح الله بالعساكر فجاس خلالها، ثم انكفاً راجعاً.

وإدالة الدولة، وكان التولي لكبر ذلك وزير دولتهم ابن عطوش.

ولما عقد السلطان يعقوب بن عبد الحق لمحمد بن علي بن محلى على أعمال مراكش، لم يقدم عملاً على محاربتهم، وتحذيل الناس عنهم، واستمالة أشياعهم.

وجمعوا له سنة أربع وسبعين وستمائة على غزة ظنوها، فأوقع بهم وفل من غربهم، ثم صعد إلى الجبل لشهر ربيع من سته فافض عذرتيه وفض ختامه، واقتحمه عليهم عنوة بعد مداولة النزال والحرب.

وهلك الوزير ابن عطوش في جوانب الملحمة، وتقبط على خليفته المستضعف، وابن عمه أبي سعيد ابن السيد أبي الربيع ومن معهما من الأولياء، وجنبوا إلى مصارعهم بيباب الشريعة بمراكش، فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم.

وكان فيمن قتل منهم كاتبه القبانلي وأولاده، وعائت العساكر في جبل تينملل واكتسحت أمواله.

وبعثت قبور خلفاء من بني عبد المؤمن، واستخرج شلو يوسف وابنه يعقوب المنصور، فقطعت رؤوسهم، وتولى كبر ذلك أبو علي الملياني النازع إلى السلطان أبي يوسف من مليانة عش غوابته ومواطن انتزاهته كما قدمناه.

وكان السلطان أقطعه بلاد أغمات إكراماً لوفادته، فحضر هذه الغزاة في جملة العساكر ورأى أن قد شفى نفسه بإخراج هؤلاء الخلفاء من أرماسهم، والعيث بأشلائهم لما نقم منه الموحدون، وأزعجوه من قراره، فنكرها السلطان لجلاله.

وتجاوز عنها للملياني تأنيساً لقرتبه وجواره، وعددها من هناته.

ولما وصل أمير المسلمين إلى حضرته من غزاة الجهاد، ترادفت عليه أخبار هذه الملحمة، وقطع دابر بني عبد المؤمن، فتظاهر السرور لديه، وارتفعت إلى الله كلمات الشكر طيبة منه.

ولما سكن غرب الثوار، وتمهد أمر المغرب، ورأى أمير المسلمين أن أمره قد استفحل، وملكه قد استوسق، واتسع نطاق دولته، وعظمت غاشيته وكثر واقده، رأى أن يجتبط بلداً يتميز بسكانه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين سريره ملكه.

فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس، بساحة الوادي المخترق وسطها من أعلاه، وشرع في تأسيسها لثالث من شوال في سنة أربع وسبعين وستمائة هذه وجمع الأيدي عليها، وحشد الصناع والفعلة لبنائها.

وسبيت النساء ونقلت الأموال وخرب الحصن، ثم بث السرايا والغارات في البساط فاكسحها وامتلأت الأيدي وأثرى العسكر، وتقروا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها، وانحجرت حامية العدو من وراء أسوارها وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها، فنسفوا آثارها، وخربوا عمرانها واكسحوا قراها وضياعها، وتردد على جهاتها، فدخل حصن بركونة عنوة، ثم أرجونه كذلك، وقدم بعثاً إلى جيان قاسمها حظها من الخسف والدمار، وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه، وتلاف بلاده.

فجنح إلى الصلح وخطبه من أمير المسلمين، فدفعه إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكريماً لمشهده ووفاء بحقه، فأجابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه فيه وإبداء ما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدة الطويلة، فانهقد السلم.

وقتل أمير المسلمين من غزاته وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلها، فاحتوى عليها.

ودخل أمير المسلمين إلى الجزيرة في أول رجب من عام يومئذ، فأراح ونظر في ترتيب المسالح على الثغور، وتملك مالقة كما نذكره.

الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد ابن أشقيلولة

كان بنو أشقيلولة هؤلاء من رؤساء الأندلس المؤمنين لمداغة العدو، وكانوا نظراء لابن الأحمر في الرئاسة، وهما أبو محمد عبد الله وأبو إسحاق إبراهيم ابنا أبي الحسن بن أشقيلولة.

وكان أبو محمد منهم صهراً له على ابنته فكانوا له بذلك خالصة فأشركهم في أمره واعتضد بعصابتهم وبأيهم من قبل على مقاومة ابن هود وسائر الثوار حتى إذا استمكن من فرصته واستوى على كرسيه استبد دونهم وأنزلهم إلى مقامات الوزراء.

وعقد لأبي محمد صهره على ابنته على مدينة مالقة والغربية، وعقد لأبي الحسن صهره على أخته على وادي آش وما إليه، وعقد لابنه أبي إسحاق إبراهيم بن علي على قمارش وما إلى ذلك، ووجدوا في أنفسهم، واستمر الحال على ذلك.

ولما هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة

وخطب قبائل المغرب كافة بالنفير إلى الجهاد، فتباطؤوا واستمر على تحريضهم، ونهض إلى رباط الفتح وتلوم بها في انتظار الغزاة وثبطوا، فخف هو في خاصته وحاشيته واحتل بالفرضة من قصر المجاز، وتلاحق به الناس فأجاز البحر واحتل بطريف آخر محرم، ثم ارتحل إلى الجزيرة، ثم إلى رندة.

ووافاه هنالك الرئيس أبو إسحاق بن أشقيلولة صاحب قمارش، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه.

وارتحلوا إلى منازل أشبيلية فعرسوا عليها يوم المولد النبوي، وكان بها ملك الخلاقة ابن أدفونش، فخام عن اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محامياً عن أهلها.

ورتب أمير المسلمين مصافه وجعل ولده الأمير أبا يعقوب في المقدمة، وزحف في التعبئة فأحجزوا العدو البلد، واقتحموا أثرهم الوادي وأنخوا فيهم، وباتت العساكر ليلتهم بجولان في متون جيادهم وقد أضرموا النيران بساحتها، وارتحل من الغد إلى أرض الشرق، وبث السرايا والغوار في سائر النواحي، وأناخ بجمهور العساكر عليها، فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها، ودخل حصن قطنانية وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة، وأثنى بالقتل والسي.

ثم قفل بالغنائم والأنفال إلى الجزيرة لسرار شهره، فأراح وقسم الغنائم في المجاهدين.

ثم خرج غازياً إلى شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب، وأقرر نواحيها، وقطع أشجارها وأباد غصراءها وحرق ديارها، ونسف آثارها، وأثنى فيها بالقتل والأسر.

وبعث ولده الأمير أبا يعقوب في سرية من معسكره للغوار على أشبيلية وحصون الوادي، فبالغ في النكاية واكسح حصن روضة وشلوقة ومليانة والقناطر.

ثم صبح لإشبيلية بغاره فاكسحها وانكفأ إلى أمير المسلمين، فقفلوا جميعاً إلى الجزيرة، وأراح وقسم في المجاهدين غنائمهم.

ثم ندب إلى غزو قرطبة، ورغبهم في عمرانها وثروة ساكنها، وخصب بلادها، فأهبطوا إلى إجابته، وخطب ابن الأحمر يستنفه.

وخرج لأول جمادى من الجزيرة، ووافاه ابن الأحمر بناحية أرشدونة، فكرم وصوله وشكر خوفه إلى الجهاد ويدراره.

ونازلوا حصن بني بشير فدخل عنوة، وقتلت المقاتلة

وولى ابنه الفقيه محمد، سموا إلى منازعته.
وأوفد أبو محمد صاحب مالقة ابنه أبا سعيد على السلطان يعقوب بن عبد الحق، وهو منازل طنجة.

ووفد معه أبو عبد الله بن منديل فكرم وفادتهما وأحسن وانكفيا راجعين فبعث الرئيس أبو محمد إلى السلطان بطاعته وبيعه أهل مالقة سنة ثلاث وسبعين وستمئة وعقد له عليها، ونزع ابنه أبو سعيد فرج إلى دار الحرب، ثم رجع لسته قتل بمالقة.

ولما أجاز السلطان إلى الأندلس إجازته الأولى سنة أربع وسبعين وستمئة تلقاه أبو محمد بالجزيرة مع ابن الأحمر وفاوضهما السلطان في شؤون الجهاد وردهما إلى أعمالهما.

ولما أجاز إجازته الثانية سنة ست وسبعين وستمئة لقيه بالجزيرة الرئيس ابن أشقيلولة: أبو محمد صاحب مالقة، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش وقمارش، فشهدا معه الغزاة.

ولما قفل اعتل أبو محمد صاحب مالقة، ثم هلك غرة جمادى من ستة فلحق ابنه محمد بالسلطان آخر شهر رمضان، وهو متلوم بالجزيرة، منصرفه من الغزو كما ذكرناه، فنزل له عن البلد ودعاه إلى احتيازاها، فعقد عليها لابنه أبي زيان منديل، فسار إليها في بعث، وكان ابن أشقيلولة حين فصوله إلى لقاء السلطان، أمر ابن عمه محمد الأزرق بن أبي الحجاج يوسف بن الزرقاء بإخلاء منازل للسلطان بالقصبة وإعدادها، فتم ذلك ثلاث ليال، وضرب الأمير أبو زيان معسكره بخارجها، وأنفذ محمد بن عمران بن عبلية في رهط من رجال بني مرين إلى القصبة فنزلها وملك أمر البلد.

وكان السلطان ابن الأحمر لما بلغه وفاة أبي محمد بن أشقيلولة سما أمه إلى الاستيلاء على مالقة وأن ابن اخته شيعة له، وبعث لذلك وزيره أبا سلطان عزيز الداني، فوافى معسكر الأمير أبي زيان بساحتها، ورجا أن يتجافى عنها لسلطانه، فأعرض عن ذلك وتجهم له، ودخل إليها ثلاث بقين من رمضان، وانقلب الداني عنها بحفي حنين.

ولما قضى السلطان بالجزيرة صومه ونسكه، خرج إلى مالقة فوافاه سادس شوال، وبرز إليه أهلها في يوم مشهود، احتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بمقدم السلطان، ودخلهم في إبالته، وأقام فيهم إلى خاتم سنته.

ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلى من صنائع دولتهم. وأنزل معه المسالحي وزيان بن أبي عباد بن عبد الحق في طائفة نظره من أبطال بني مرين، واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة وارتحل إلى الجزيرة.

ثم أجاز إلى المغرب سنة سبع وسبعين وستمئة وقد اهتزت الدنيا لقدمه وامتلأت القلوب بما كفه الله من نصر المسلمين بالعدوة، وعلو راية السلطان على كل راية.
وعظمت لذلك موجدة ابن الأحمر، ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تظاهر ابن الأحمر والطاغية على

منع السلطان أبي يوسف من إجازة البحر

وإصفاق يغمراسن بن زيان معهم من وراء

البحر على الأخذ بحجزته عنهم وواقعة

السلطان على يغمراسن بخرزوزة

لما أجاز أمير المسلمين إلى العدو إجازته الأولى، ولقي العدو بأستجة، وقتل الله دننه بأيدي عسكره، وصنع له من الظهور والعز ما لا كفاء له، ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدا له من ذلك ما لم يحسب، وظن بأمر المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس.

وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه وانقيادهم لأمره، فقص بمكانه وحذر غوائله.

وتكرر الجو بينهما وأجاز إجازته الثانية، فانقبض ابن الأحمر عن لقائه، ودارت بينهما مخاطبات شعرية في معنى العتاب على السنة كتابهما نسردها الآن، فمن ذلك قصيدة كتبها إليه ابن الأحمر سنة أربع وسبعين وستمئة بعد واقعة دننه واعتزاه على الرجوع إلى المغرب، فخاطبه بها ليلة الإقامة بالجزيرة حذراً من غائلة العدو، ونحو فيها منحنى الاستعطاف وهي من نظم كاتبه أبي عمر بن المرباط:

هل من معيني في الهوى أو منجدي من متهم في الأرض أو من منجد
هذا الهوى دافع فهل من مسعف بإجابة وإنابسة أو مسعد
هذه سبيل الرشد قد وضحت فهل بالعدوتين من أمرىء مترشد
يرجو النجاة بمنجة الفردوس أو ينحس المسير إلى الجحيم الموقد؟
يا أمل النصر العزيز على العدى أجب الهدى تسعد به وتؤيد
سر النجاة إلى النجاة مشمراً إن الهدى هو النجاة لمن هدى
يا من يقول غداً أتوب ولا غداً اللبيك علم أن تعيش إلى غدا
لا تغتر بنسيئة الأجل الذي إن لم يحسن لك نقده فكان قد
سفر عليك طويلة أيامه لم تستعد لطولك فاستعد

إخواننا صلوا عليه وسلموا وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد واسعوا لنصرة دينه يسقيكم من حوضه في الحشر أعذب مورد وصدر جوابها من نظم عبد العزيز شاعر السلطان يعقوب بن عبد الحق بما نصه:

لبيك لا تخش اعتداء المعتدي.. إلخ.

وكذلك أجاب عنها أيضاً مالك بن المرحل بقوله:

شهد الإله وأنت يا أرض شهدي... الخ فأجابهما أبو عمرو بن المرباط كاتب ابن الأحمر بقوله:

قل للبغا وللعداء الحسد إلخ.

ولما أجاز السلطان يعقوب بن عبد الحق إجازته الثانية سنة ست وسبعين وستمائة كما نذكره، وصار ابن الأحمر إلى الاستعتاب والرضا ولقي يعقوب بن عبد الحق فأنشده كاتبه أبو عمر بن المرباط يوم اجتماعهما بقوله:

بشرى لحرب الله والإيمان إلى آخرها.

ولما انقضى المجلس أمر السلطان شاعره عبد العزيز بمساجلة قصيدته، فأنشدها ثاني المجلس محضرة ابن الأحمر ونصها:

اليوم كن في غبطة وأمان، إلى آخرها.

ثم كان أثناء ذلك ما وقع من استيلاء السلطان يعقوب بن عبد الحق على مدينة مالقة والغريبة، جل عمله بعد مهلك صاحبها أبي محمد بن أشقيلولة، فبرم لذلك وخيل عليه، ففرع إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده، وأن يعود إلى مكان أبيه من ولايته ليدفع به السلطان وقومه عن أرضه، ويأمن معه من زوال سلطانه، لما كانت كلمة الإسلام حجزاً دونه.

فاهتبل الطاغية غرتها، وانتكث عهد أمير المسلمين، ونقض السلم، ونبد إليه العهد، وأغزى أساطيله بالجزيرة الخضراء حيث مسالح السلطان وعساكره، وأرست بالزقاق حيث فراض الجواز، وانقطع المسلمون من جنود السلطان وقومه وراء البحر ويشوا من صريحه.

واتبذ عمر بن يحيى بن محلى عن قومه بمكان إمارته من مالقة، وكان بنو محلى هؤلاء من كبار قومهم بطوية وكانوا حلفاء بني حمامة بن محمد منذ دخولهم المغرب.

وأصهر عبد الحق أبو ملاك إلى أبيهم محلى في ابته أم اليمن، فكان من ولده السلطان يعقوب بن عبد الحق.

وكانت امرأة صالحة خرجت إلى الحج سنة ثلاث وأربعين وستمائة فقصت فريضة الله عليها وعادت إلى المغرب لرابعة من

زاد لكل مسافر فترود خذ منه زادك لا تحالك تسعد منه لما يرضي الهك واغتدي وجهاً للقياء الله غير مسود عمت الدموع خطبة المعمد أو يقتدي بنبيسه أو يهتدي مشحوة في نصير دين محمد والله في أقطارها لم يعبد بمثلين سطوا بكل موحد فاهلك عليه أسى فلا تتجلد والخمر والخنزير وسط المسجد من قاتنين وراكعين وسجد مستكبر مذ كان لم يتشهد فكلهما يبغى القداء فما فدي فيهم تود لو أنها في ملحد ولدها ودأ أنه لم يولد يكي لآخر في الكبول مقيد ما بين حدي ذابل ومهند ورثى لهم من قلبه كالجلمد ما دهانا من ردى أو من ردي من حرمة ومحبة وتودد وسيفوكم للشار لم تقلد خمدت وكانت قبل ذا توقد هل يقطع الهندي غير مجرد وأحق من في صرخة بهم أبتدي جبريل حقاً في الصحيح المسند في المغرب الأدنى لنا والأبعد منه إلى فرض الأحق الأوكد حسنا تفوزوا بالחסان الخرد والحور قاعدة لكم بالمرصد منه الحصول على النعيم السرمد صدق فنسوروا بالتبجاز الموعد شكوى العليم إلى الفنى الأوحد فيها وشمل الكفر غير مبدد تأسون للدين الغريب المفرد وطريق هذا العذر غير ممد وتركتوهم للعدو المعتدي لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

أوما علمت بأنه لا بد من هذا الجهاد رئيس أعمال القنى هذا الرباط بأرض أندلس فرح سرود وجهك بالمعاصي فالتمس وامح الخطايا بالدموع فربما من ذا يتوب، لربه من ذنبه من ذا يظهر نفسه بعزيمة أنجز من أرض العدو مبادئ وتذل أرض المسلمين وتبلى كم جامع فيها أعيد كنيسة القس والناقرس فوق مناره أسفاً عليها أقفرت صلواتها وتعوضت منهم بكل معاند كم من أسير عندهم وأسيرة كم من عقيلة معشر معقولة كم من وليد بينهم قد ود من كم من تقى في السلاسل موثق وشهيد معترك توزعه الردى ضجت ملائكة السماء لحالم أفلا تنوب قلوبكم لإخواننا أفلا تراعون الأذمة بيننا أكذا يبعث السروم في إخوانكم يا حصرة لحماية الإسلام قد أين العزائم ما لها لا تقضي أبني مريم أنتم جيراننا فالجار كان به يوصي المصطفى أبني مريم والقبائل كلها كتب الجهاد عليكم فتبادروا وارضوا بإحدى الحسين وأقرضوا هذي الجنان فتحت أبوابها هل من بائع من ربه من مشتر لله في نصر الخنفة موعد هذي الثغور بكم إليكم تشكي ما بال شمل المسلمين مبدد أنتم جيوش الله ملء فضائه ماذا اعتاركم غداً لتيكم إن قال لم فرطتم في أمي؟ لله لو أن العقوبة لم تخف

قائد بني مرين ومحمد بن أشقيلولة.

وامكن ابن الأحمر من البلد فداخلها آخر رمضان من سته. وأنزل ابن محلى بشلوبانية واحتمل ذخيرته وما كان السلطان اتمنه عليه من المال والعدة الجهادية.

واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية على منع أمير المسلمين من الإجازة، وراسلوا يغمراسن بن زيان من وراء البحر وراسلهم في مشاققة السلطان وإفساد ثغوره وإنزال العوائق به المانعة من حركته، والأخذ بأذيله عن النهوض إلى الجهاد، وأسنو فيما بينهم بينهما الإنحاف والمهاداة.

وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف، وبعث إليه ابن الأحمر صحبة ابن مروان التجاني كفاء ذلك عشرة آلاف دينار، فلم يرض بالمال في هديته ورده.

وأصفت أيديهم جميعاً على السلطان، ورأوا أن قد بلغوا في إحكام أمرهم وسد مذهبهم إليهم، واتصل الخبر بأمر المسلمين وهو بمراكش.

كان صمد إليها مرجعه من الغزو في شهر المحرم فاتح سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث العرب جشم بتاسنا وإفسادهم السابلة، فتقف أطرافها وحسم أدواءها.

ولما بلغه خبر ابن محلى ومالقة ومنازلة الطاغية للجزيرة، نبض لثالثة من شوال يريد طنجة.

ولما انتهى إلى تاسنا، وافاه الخبر بنزول الطاغية على الجزيرة، وإحاطة عساكره بها سادس شوال، بعد أن كانت أساطيله منازلها منذ ربيع، وأنه مشرف على التهامها، وبعثوا إليه يستعدونه فاعتزم على الرحيل.

ثم اتصل به الخبر بخروج مسعود بن كانون أمير سفيان من جشم بيلاد نفيس من المصامدة خامس ذي القعدة، وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم، فكر إليه راجعاً وقدم بين يديه حافده تاشفين بن بو مالك، ووزيره يحيى بن حازم، وجاء على ساقتهما وفروا أمام جيوشه، وانتهب معسكرهم وحللهم، واستباح عرب الحارث ابن سفيان.

ولحق مسعود بمعقل السكسيوي، ونازله السلطان بعساكره أياماً.

ثم سرح ابنه الأمير أبا بن زيان منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها، فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه خاتم

السنين سنة سبع وأربعين وستمائة ثم خرجت ثانية سنة اثنتين وخمسين وستمائة فتطوعت بحجة أخرى وهلكت بمصر منصرفها من تلك السنة سنة ثلاث وخمسين وستمائة فكان لبني محلى أبيها مكان من الدولة ودالة على السلطان خزولتهم ووشايخ قرابتهم وغنائهم في قومهم. ولما استولى السلطان على حضرة الموحدين مراكش، عقد لمحمد بن علي بن محلى على جميع أعمالها، فكانت له في الاضطلاع بها مقامات محمودة.

واتصلت أيام ولايته عليها من لدن سنة ثمان وستين إلى سنة سبع وثمانين وستمائة ثم كان مهلكه أيام يوسف بن يعقوب كما نذكره.

ولما نزع محمد بن أشقيلولة إلى السلطان بالجزيرة سنة ست وسبعين وستمائة متجافياً له عن ولاية مالقة بعد وفاة أبيه الرئيس أبي محمد، واستولى السلطان عليها، واعتزم على الإجازة كما قدمناه، عقد على مالقة والغريبة وسائر ثغورها وأعمالها لعمر بن يحيى بن محلى.

وكان أخوه طلحة بن يحيى ذا بأس وصرامة وقوة شكيمة، واعتاز على السلطان بمكان الخزولة، وهو الذي قتل يعقوب بن عبد الحق بغولة سنة ثمان وستين وستمائة كما قلناه، وظهر فتح الله السدراتي مولى السلطان ووزيره على قتال أبي العلاء بن أبي طلحة بن أبي قريش، عامل المغرب بكدية العرايش من ظاهر فاس سنة اثنتين وستين وستمائة ونزع سنة أربع وسبعين وستمائة إلى جبل أزور عند مرجع السلطان من إجازته الأولى، فاستزله ورجعه إلى مجلسه من جملة.

ثم نزع من الجزيرة إلى غرناطة سنة ست وسبعين وستمائة عند مرجع السلطان من أمر مالقة، وأجاز البحر إلى بلاد الريف.

ثم رجع إلى القبلة وأقام بين بني توجين.

ثم أجاز البحر إلى الأندلس سنة سبع وسبعين وستمائة عندما أضرم نار هذه الفتنة بين السلطان وبين ابن الأحمر والطاغية، واحتل أسطول النصاري بالزقاق، وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر.

وأحسن أخوه عمر صاحب مالقة بإظلام الجو بينه وبين السلطان بما كان من أمر أخيه طلحة من قبل فلاطفه ابن الأحمر عند استقراره بغرناطة في مداخلة أخيه عمر في النزول عن مالقة، والاعتياض عنها بشلوبانية والمنتكب طعمة.

وخاطبه في ذلك أخوه طلحة فأجاب وخرج ابن الأحمر بعساكره إلى مالقة، وتقبض عمر بن محلى على زيان بن بو عياد

سته.

واتصل بالسلطان ما نال أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وأعواز الأقوات، وأنهم قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرفة الكفر، فأهمه ذلك وأعمل النظر فيه، وعقد لولي عهده ابنه الأمير أبي يعقوب من مراکش على الغزو إليها.

وأغزى الأساطيل في البحر إلى جهاد عدوهم، فوصل إلى طنجة لصفر من سنة ثمان وسبعين وستمئة وأوعز إلى البلاد البحرية لإعداد الأساطيل للغزاة بسببة وطنجة وسلا، وقسم الأعطيات وتوفرت همم المسلمين على الجهاد، وصدقت عزائمهم على الموت.

وإلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب مبنية لما بلغه خطاب أمير المسلمين في ذلك البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود، واستنفر كافة أهل بلده فركبوا البحر أجمعين من المحتلم فما فوقه.

ورأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة، وإشراف الطاغية على أخذها، فندم في مآلاته ونبذ عهده، وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة مدداً للمسلمين.

واجتمعت الأساطيل بمرقا سببة تناهز السبعين، قد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأحسن قوة وأكمل عدة وأوفر عديد، وعقد لهم الأمير أبو يعقوب رايته، وأقلعوا عن طنجة ثامن ربيع الأول.

وانتشرت قلعوهم في البحر فأجازوه، وبيتوا ليلة المولد الكريم بمرقى الجبل، وصبحوا العدو وأساطيلهم تناهز الأريمائه، فتظاهروا في دروعهم وأسبغوا من سكتهم، وأخلصوا لله عزائمهم، وصدقوا مع الله نيائهم، وتنادوا بالجنة شعارهم، ووعظ وذكر خطبائهم، والتحم القتال ونزل الصبر.

ولم يكن إلا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنيل، فانكشفوا وتساقطوا في العباب، فاستلحهم السيف وغشيهم اليم، وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرمى الجزيرة وفرضتها عنوة، فاختل معسكر الطاغية، ودخلهم الرعب من إجازة الأمير أبي يعقوب ومن معه من الحامية، فأفرج لحينه عن البلد، وانتشر النساء والصبيان بساحته، وغلبت المقاتلة كثيراً من المعسكر على خلفهم، فغنموا من الخنطة والدم والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياماً، حتى وصلتها الميرة من النواحي.

وأجاز الأمير أبو يعقوب لحينه فأرهب العدو في كل ناحية، وصده عن الغزو إلى دار الحرب شأن الفتنة مع ابن الأحمر، فرأى أن يعقد مع الطاغية سلفاً، ويصل به لمنازلة غرناطة يداً.

وأجابه إلى ذلك الطاغية رهبة من بأسهم، وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة، وبعث أساقفته لعقد ذلك فأجازهم الأمير أبو يعقوب إلى أبيه أمير المسلمين فغضب لها، ونكرها على ابنه، وزوى عنه وجه رضاه، ورجعهم إلى طاغيتهم خفقي السعي.

وأجاز أبو يعقوب ابن السلطان إلى أبيه ومعه وفد أهل الجزيرة، فلقوا السلطان بمكانه من بلاد السوس.

وولى عليهم ابنه أبا زيان متديلاً فنزل بالجزيرة، وأحكم العقدة مع الطاغية، ونازل مريلة من طاعة ابن الأحمر برأ ومجراً فامتنت عليه ورجع إلى الجزيرة، وأنضوى إليه أهل الحصون الغربية بطاعتهم حثراً من الطاغية فتقبلهم، ثم جاءه المدد من المغرب، ونازل رندة فامتنت، والطاغية أثناء ذلك يحوس خلال الأندلس.

ونازل ابن الأحمر بغرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل.

ثم راجع ابن الأحمر مسألة بني مرين، وبعث لأبي زيان ابن السلطان بالصلح، واجتمع معه بأحواز مريلة كما ذكر بعد.

ولما ارتحل السلطان من معسكره إلى جبل السكسيوي يريد السوس، ثم أغزى العساكر ورجع من طريقه إلى مراکش حتى إذا انقضت غزاة البربر قفل إلى فاس، وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفرًا للجهاد.

وفصل في رجب من سنة ثمان وسبعين وستمئة حتى انتهى، إلى طنجة وعان ما اختل من أحوال المسلمين في تلك الفترة، وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية، وما حدثت نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها.

وظاهره على ابن الأحمر منافسوه في رياسته بنو أشقيلولة، فاستجره الرئيس أبو الحسن بن أبي إسحاق صاحب وادي آش، ونازل معه غرناطة سنة تسع وسبعين وستمئة خمسة عشر يوماً ثم أفرجوا عنها، ولقيتهم عساكر غرناطة من زناتة فعد ذلك من ستهم، وعليهم طلحة بن علي وتاشفين بن معطى كبير تيريين بحصن المسلى، فأظهرهم الله عليهم.

وهلك من النصاري ما يناهز سبعمائة من فرسانهم، واستشهد فيها من أعيان بني مرين عثمان بن محمد بن عبد الحق.

واستجر الطاغية سنة ثمانين وستمئة بعدها الرئيس أبو محمد عبد الله أخو صاحب وادي آش إلى منازل غرناطة، فنازها الطاغية وأقام عليها أياماً.

من سنة ثمانين وستمئة ثم نهض إلى مراكش فاحتل بها فاتح إحدى وثمانين وستمئة بعدها، وسرح ابنه الأمير أبا يعقوب إلى السوس لتدوين أقطاره، ووافاه بمراكش صريخ الطاغية على ابنه شاذية الخارج عليه، فاغتمت الفرصة في فساد بينهم لقضاء أربه من الجهاد، وارتحل مبادراً بالإجازة إلى الأندلس.

والله تعالى أعلم.

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف ثالثة باستدعاء الطاغية لخروج ابنه شاذية عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه

الإجازة من الغزوات

لما رجع السلطان من غزاة تلمسان إلى فاس، وارتحل إلى مراكش ووافاه وفد الطاغية من بطارقه وزعماء دولته، وقواميص ملته صريحاً على ابنه شاذية.

خرج عليه في طائفة من النصارى وغلّبوه على أمره، فاستنصر أمير المسلمين ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من أيديهم، فأجاب أمير المسلمين داعية رجاء للكرة بافتراقهم، وارتحل حتى انتهى إلى قصر الحجاز، وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد، وأجاز إلى الخضراء فاحتل بها لربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين وستمئة واجتمعت عليه مسالحو الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عياد، فوافاه بها الطاغية ذليلاً لعز الإسلام مؤملاً صريخ السلطان، فأكبر وفادته وكرم موصله وعظم قدره، وأمد له لنفقاته بمائة ألف من مال المسلمين استرهن فيها التاج الذخيرة عند سلفه، وبقي بدارهم فخراً للأعقاب لهذا العهد.

ودخل معه دار الحرب غازياً حتى نازل قرطبة، وبها شاذية ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفة، فقاتلها أياماً ثم أفرج عنها، وتقل في جهاتها ونواحيها وارتحل إلى طليطلة فعات في جهاتها، وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر، فامتلات أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها.

وقفل إلى الجزيرة فاحتل بها لشعبان من سته، وكان عمر بن محلى نزع إلى طاعة السلطان فهم به ابن الأحمر، ونبد إليه عهده.

وارتجع المنكب من يده ونازله بعساكره فاتح هذه السنة، فجهز السلطان إليه لوصوله الجزيرة أسطوله، وأفرج ابن الأحمر

ثم ارتحل وقد اعتر عليهم، وأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من خسف الطاغية، فراسله في المودعة واتفاق الكلمة وشرط عليه النزول عن مائقة، وامتنع فرجع السلطان إلى إزالة العوائق المانعة عن شأنه من الجهاد، وكان من أعظمها فتنة يغمراسن.

واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أخي أدفونش من الاتصال والإصفاق فبعث إليه في تجديد الصلح والاتفاق، فلج وكشف الوجه في العناد وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدو مسلمهم وكافرهم من الوصلة، وأنه معتمزم على وصل بلاد المغرب، فصرف أمير المسلمين عزمه إلى غزو يغمراسن.

وقفل إلى فاس لثلاثة أشهر من نزوله طنجة، فدخلها آخر شوال وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجة عليه، والتحلي بمسألة بني توجين والتجافي عنهم لمواالاتهم أمير المسلمين، فقام يغمراسن في ركائبه وقعد ولج في طغيانه.

وارتحل أمير المسلمين من فاس خاتمة سنة تسع وسبعين وستمئة وقدم ابنه أبا يعقوب في العساكر وأدركه بتازى.

ولما انتهى إلى ملوية تلوم في انتظار العساكر ثم ارتحل إلى نامه ثم تافنا وصمد إليه يغمراسن بمجشود زناتة والعرب بجلهم وكافة ناجعتهم، والتقت عيون القوم، فكانت بينهم حرب.

وركب على آثارهما العساكران فالتحم القتال، وكان الزحف بخرزوزة من ملعب تيفني، ورتب أمير المسلمين مصافه وجعل كتيبه وكتيبة ابنه الأمير أبي يعقوب جناحين للعسكر.

واشتد القتال سائر النهار، وانكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم، وانتهب جميع خلفهم وما كان في معسكرهم من المتاع والكرع والصلاح والفساطيط، وبات معسكر أمير المسلمين ليلتهم في سهوات خيلهم، واتبعوا من الغد آثار عدوهم، واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن، وامتلات أيدي بني مرين من نعمهم وشانهم.

ودخلوا بلاد يغمراسن وزناتة.

ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، لقيه بناحية القصبات، وعاثوا جميعاً في بلاده نهياً وتخريباً ثم أذن لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمنخني تلمسان متلوماً لوصول محمد بن عبد القوي وقومه إلى منجاتهم من جبل وانشرش حذراً عليهم من غائلة يغمراسن.

ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب ودخل فاس شهر رمضان

عنه، فبادر إلى السلطان بطاعته، ووصل بيعة شلوبيانية فأبقاه فيها بدعوته.

ثم راجع طاعة ابن الأحمر في شوال من مسته، فتقبل فيته وأعاضه عنها بالمتكب إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن شأن السلم مع ابن الأحمر وتجنابي السلطان له عن مאלقة ثم تجديد الغزو بعد ذلك

لما اتصلت يد السلطان بيد الطاغية، خشي ابن الأحمر غائلته، فجنح إلى موالاة شاذغة الخارج عن أبيه، ووصل يده بيده، وأكد له العقد على نفسه واضطرم له الأندلس ناراً وقتنة.

ولم يغن شاذغة عن ابن الأحمر شيئاً ورجع السلطان من غزاته مع الطاغية، وقد ظهر على ابنه فأجمع على منازل مאלقة، ونهض إليها من الجزيرة فاتح اثنتين وثمانين وستمئة فتغلب على الحصون الغربية كلها، ثم أسف إلى مאלقة فأناخ عليها بعساكره.

وضاق النطاق على ابن الأحمر وبدا له سوء المغبة في شأن مאלقة ومداخله ابن محلى في الغدر بها، وأعمل نظره في الخلاص من ورطتها.

ولم ير لها إلا ولي عهد السلطان ابنه أبا يوسف، فخطبه بمكانه من المغرب مستصراً لرقع هذا الخرق، وجمع كلمة المسلمين على عدوهم، فأجابه واغتم الثوبة في مسعاه.

وأجاز لشهر صفر، فوافى أمير المسلمين بمعسكره على مאלقة، ورغب منه السلم لابن الأحمر عن شأن مאלقة والتجاني له عنها، فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله في جهاد وعدوه إعلاء كلمته.

وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر، وتجددت عزائم المسلمين، وقفل السلطان إلى الجزيرة وبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا.

ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج غازياً غرة ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين وستمئة حتى انتهى إلى قرطبة، فأنخن وغتم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البيرة وخلف معسكراً بظاهر بياسة وأغد السير في أرض قصر، ولليتين انتهى إلى البيرة من نواحي طليطلة، فسرح الخيل في البسائط حتى

تقرت جميع ما فيها.

ولم يته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم، وأثخن في القتل، وقفل على غير طريقه فأنخن وخرب وانتهى إلى أبدة.

ووقف بساحتها والعدو منجزون، ثم رجع إلى معسكره بياسة وأراح ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع شجرها وقفل إلى الجزيرة فاحتل بها شهر رجب وقسم الغنائم وقفل من الخمس.

وولى على الجزيرة قاهده عيسى ابن الأمير أبي مالك ابنه، فهلك شهيداً بالمعترك لشهرين من ولايته، وأجاز السلطان غرة شعبان إلى المغرب، ومعه ابنه أبو زيان منديل، وأراح بطنجة ثلاثاً وأغد السير إلى فاس فاحتل بها آخر شعبان، ولما قضى صيامه ونسكه، ارتحل إلى مراكش لتتهديها، وتفقد أحوالها.

وقسم من نظره لنواحي سلا وأزور، فأقام برباط الفتح شهرين اثنين، واحتل مراكش فاتح ثلاث وثمانين وستمئة وبلغه مهلك الطاغية ابن أدفونش واجتماع النصرانية على ابنه شاذغة الخارج عليه، فتحررت إلى الجهاد عزائمته وسرح الأمير أبا يعقوب ولي عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب، وكف عاديهم، وعمر آثار الخوارج المنتزين على الدولة، فاجفوا أمامه، واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس، فهلك أكثر العرب في تلك القفار مسغبة وعطشاً، وقفل لما بلغه من اعتلال أمير المسلمين، ووصل إلى مراكش وقد أبل، واعتزم على الجهاد والغزو شكر الله، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف

الرابعة ومحاصرة شريش وما تحلل ذلك من الغزوات

لما اعتزم أمير المسلمين على الإجازة واعترض جنوده وحاشيته، وأزاح عنهم، وبعث في قبائل المغرب بالنفير، ونهض من مراكش في جمادى الآخرة ثلاث وثمانين وستمئة.

واحتل رباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه، ثم ارتحل إلى قصور مضمودة وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزة المطوعة خاتم سته، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين وستمئة بعدها واحتل بطريف، ثم سار منها إلى الخضراء وأراح أياماً.

ثم خرج غازياً حتى انتهى إلى وادي لك، وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطها تغير وتحرق وتنسف.

واعترض العساكر المرافية يومئذ فكانت ثلاثة عشر ألفاً من المصامدة، وثمانية آلاف من برابرة المغرب متطوعون كلهم بالجهاد، فعقد له السلطان على خمسة آلاف من المرتزقة والفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفاً من الرجل والفين من الناشبة وسرحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها، فعبى كتابه ونهض لوجهه، وبث الغارات بين يديه، فأتخنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الأموال.

وعاج على الشرف والغاية من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتحم من حصونها عدة، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين ظاهراً عزيزاً غانماً.

ولسادس ربيع الثاني وصل الأمير أبو زيان منديل بن طريف بعسكر وافر من المسلمين فعقد له غداة وصوله وأمه بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادي الكبير، فأغار على قرمونة، وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدهم القتال فانكشفوا حتى احتجزوهم في البلد، ثم أحاطوا ببرج كان قريباً من البلد، فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة، ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية، فأغار واكتسح واقتحم برجاً كان هنالك عيناً على المسلمين، وأضرمه ناراً، وامتلأت أيدي عساكره، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين.

ولثلاث عشرة من ربيع الثاني عقد للأمير أبي يعقوب لمنازلة جزيرة كبوتر، فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة.

وفي ثاني جمادى عقد لطلحة بن يحيى بن علي، وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مائة سنة خمس وسبعين وستمائة خرج إلى الحج، فقفضي فرضه ورجع، وممر في طريقه بتونس واتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذ فاعتقله سنة اثنتين وثمانين، ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب.

ثم أجاز الأندلس غازياً في ركاب السلطان، فعقد له في هذه الغزاة على مائتين من الفرسان وسرحه إلى إشبيلية ليكون رية للمعسكر وبعث معه لذلك عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى، يتعرفون له أخبار الطاغية شاذجة وأمير المسلمين أثناء ذلك يغادي شريش ويرواحها بالقتال والتخريب، ونسف الآثار، وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو، فلا يخلو يوماً عن تجهيز عسكر أو اغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية، حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية، وخرب بسائط إشبيلية وبلدة وقرمونة وأستجة وجبال الشرف وجميع بسائط الفرنترة.

وأبلى في هذه الغزوات عياد العاصي من شيوخ جيش،

فلما خرب بلاد النصرانية ودمر أرضهم قصد مدينة شريش، فنزل بساحتها وأناخ عليها، وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها، وبعث عن المسالحي التي كانت بالثغور، فتوافت لديه.

ولحقه حافذه عمر بن أبي مالك يجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرساناً ورجالاً، وواقته حصّة العزفي من سبّة غزاة ناشبة تناهز خمسمائة من الرجل.

وأوعز إلى ولي عهده الأمير أبي يعقوب باستنفار من بقي بالعدوة من المسلمين إلى الجهاد، وعقد لحافذه الآخر منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من الغزاة.

وأعطاه الراية وسرحه لغزو إشبيلية لآخر صفر من مسته، فغنموا ومروا بقرمونة في منصرفهم فاستباحوها واتخنوا بالقتل والأسار ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم.

وبعث وزيره محمد بن عتو ومحمد بن عمران بن عبلّة عيوناً، فوافوا حصن القناطر وروطة، واستكشفا ضعف الحامية واختلال الثغور، فعقد ثانية لحافذه عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان لثلاثة من ربيع وأعطاه الراية، وسرحه إلى بسائط وادي لك، فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد أن أئخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار، وإبادوا عمرانها.

ثم سرح ثامن ربيع عسكراً للإغارة على حصن أركش، ووافوه على غرة فاكشحو أموالهم، ثم عقد تاسع ربيع لابنه أبي معروف على ألف من الفرسان، وسرحه لغزو إشبيلية فساروا حتى توقف عليها، وانحجزت منه حاميتها، فخرب عمرانها وحرق زروعها وقطع شجرها، وامتلأت أيدي عسكره سبياً وأموالاً، ورجع إلى معسكر السلطان مملؤ الحقائق.

ثم عقد ثالثة لحافذه عمر متصف ربيع لغزو حصن كان بالقرب من معسكره، وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلّة بالآلات، وأمه بالرجل من المصامدة، وغزاة سبّة فاقتحموه عنوة على أهله، وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية، وأضرعوا خده بالتراب.

ولسبع عشرة من الشهر ركب السلطان إلى حصن سقوط قريباً من معسكره، فخربه وحرقه بالنار، واستباحه، وقتل المقاتلة وسبى أهله.

ولعشرين من شهره وصل ولي عهده، الأمير أبو يعقوب من العدوة بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة، وعساكر موفورة، وركب أمير المسلمين للقائهم وبرور مقدمهم.

ذلة، متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال، وحملوه على الضراعة لأمر المسلمين في السلم، وانفاذ الملا من كبار النصرانية عليه في ذلك، وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة، وتحل قريباً من دارهم فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والمضيعة لدينه.

وأوفد على أمير المسلمين من بطارتهم وقصاصتهم وأساقفتهم يخطبون السلم ويضربون في المهادنة والإبقاء ووضع أوزار الحرب، فردهم أمير المسلمين اعتراضاً عليهم.

ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه. فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن صاغيتهم إليه وذلم لعز الإسلام، وأجابهم إلى ما سألوه واشترط عليهم ما تقبلوه من مسألة المسلمين كافة من قومه وغير قومه، والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم، ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة.

وبعث ثقتة عبد الحق ابن الترجمان لاشتراط ذلك وأحكام عقده، فاستبلغ وأكد في الوفاء.

ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه دون أمير المسلمين وعلى مدافعته عنه، فأحضرهم بمشهد ابن الترجمان وأسمعهم ما عقد لأمر المسلمين على قومه وأهل ملته وقال لهم: إنا أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم أو الحرب، وهذا ملك المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا.

ولما رأى عبد الحق صاغيته إلى مرضاة السلطان وسوس إليه بالوفادة لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة، وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة وتمكين الألفة، فصنى إلى وفاقه وسأل لقي الأمير أبي يعقوب ولي عهده من قبل ليطمئن عليه، فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش، وباتا بمعسكر المسلمين هنالك.

ثم ارتحلا من الغد للقاء أمير المسلمين وقد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه، وإظهار شعار الإسلام وأبنته، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية.

ولقيه أمير المسلمين بأحسن مرة وأتم كرامة يلقي بها مثله من عظماء الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية تحف بها أمير المسلمين وابنه من طرف بلاده، كان فيها زوج من الحيوان الوحشي المسمى بالليل، وحمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الطرف.

وخضر الغزي أمير الأكراد بلاء عظيمًا، وكان لهم فيها ذكر، وكذلك غزاة سبتة وسائر المجاهدين والعرب من جيشهم وغيرهم.

فلما دمرها تدميراً ونسفها تخريباً واكتسحها غارة ونهياً، وزحم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن المعسكر، اعترم على القبول وأفرج عن شريش لآخر رجب، ووافاه مدد غرناطة من عساكر الغزاة وقائدهم يعلى بن أبي عياد بن عبد الحق بوادي بردة، فلقاهم مرة، وتكريماً وانقلبوا إلى أهلهم.

واتصل به أن العدو أوعز إلى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز أمير المسلمين إلى جميع سواحله من سبتة وطنجة والمنكب وجزيرة وطيف وبلاد الريف ورباط الفتح، واستدعى أساطيله فتوافت منها ستة وثلاثون أسطولاً متكاملة في عدتها وعديدها، فأحجمت أساطيل العدو عنها وارادت على أعقابها، واحتل بالجزيرة غرة رمضان.

واستيقن الطاغية شانجة وأهل ملته أن بلادهم قد فنيت وأرضهم خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية، فجنحوا إلى السلم وضرعوا إلى أمير المسلمين في كف عاديته عنهم على ما يذكر ووصل إلى السلطان بمكانه من منزلة شريش عمر بن أبي يحيى بن محلى نازعاً إلى طاعته، فاتهم لما سبق من تلاعبه وأمر أخاه طلحة بنكبه.

واحتمل إلى طريف فاعتقل بها، وسار طلحة إلى المنكب فاستصفى أموال أخيه عمر وذخائره وحملها إلى السلطان.

وأقر ثانية أخاه موسى على عمله بالمنكب، وأمدّه بعسكر من الرجل، ثم أطلق عمر لليال من اعتقاله، وأجاز طلحة وعمر في ركاب السلطان.

ونزع منصور بن أبي مالك حافد السلطان إلى غرناطة، ثم لحق منها بالمنكب وأقام مع موسى بن أبي يحيى بن محلى، فأقره السلطان ورضي بمقامه والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد

السلم ومهلك السلطان على تفتية ذلك

لما نزل بأمر النصرانية بلاد ابن أدفونش من أمير المسلمين ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبي نسائهم وإبادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم، زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم من أمير المسلمين، فاجتمعوا إلى طاغيتهم شانجة، خاشعة أبصارهم ترهقهم

الخبر عن دولة السلطان أبي يعقوب وما كان فيها من الأحداث وشأن الخوارج عليه لأول دولته

لما اعتل أمير المسلمين أبو يوسف بالجزيرة، مرضه نساؤه، وطير بالخبر إلى ولي العهد الأمير أبي يعقوب وهو بمكانه من المغرب، فأغذ السير، وقضى أمير المسلمين قبل وصوله، فآخذ له البيعة على الناس وزراء أبيه وعظماء قومه، وأجاز إليهم البحر، فجددوا بيعته غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها على الكفاية.

وانعقد أمر السلطان يومئذ ففرق الأموال وأجزل الصلات، وسرح من في السجون في ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر، ووكلهم فيها إلى أمانتهم.

وقبض أيدي العمال عن الظلم والاعتداء والجور على الرعايا، ورفع المكوس ومحا رسوم الرتب، وصرف اعتناؤه إلى إصلاح السابلة.

وكان أول شيء أحدث من أمره إلى أن بعث إلى ابن الأحمر وضرب موعداً للقائه، فبدر إليه ولقيه بظاهر مربالة، لأول ربيع. ولقاه مبرّة وتكرماً وتحافاً له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمملكته ما عدا الجزيرة وطريف.

وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة، ورجع السلطان إلى الجزيرة ووفاه بها وفد الطاغية شاذبة مجددين حكم السلم الذي عقد له أمير المسلمين عفا الله عنه فأجابهم.

ولما تمهد أمر الأندلس وفرغ من النظر إليها، عقد لأخيه أبي عطية العباس على الثغور الغربية والإمارة عليها.

وعقد لعلي بن يوسف بن يذكاسن على مسالحها، وأمهدة بثلاثة آلاف من عساكره.

وأجاز إلى المغرب فاحتل بقصر مصمودة سابع ربيع الثاني. ثم ارتحل إلى فاس، واحتل بها لاثنتي عشرة خلت من جمادى، ولحين استقراره بدار ملكه، خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في إخوانه وبنيه وذويعهم، ولحق بمجبل درعة، ودعا لنفسه، وسرح إليهم السلطان أخاه أبا معرف، فبدا له في النزوع إليهم، فلحق بهم، فأغزاهم السلطان بعساكره وردد إليهم البعوث والكتائب، وتلطف في استئزال أخيه، فنزل عن الخلاف وعاد إلى حسن طاعته.

تقبّلها السلطان وابنه وقابلوه بكفائتها ومضاعفتها، وكمل عقد السلم، وتقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الإسلام عليه وانقلب إلى قومه بملاء صدره من الرضا والمسرة وسأل منه أمير المسلمين أن يبعث من كتب العلم التي بأيدي النصاري من لدن استيلائهم على مديان الإسلام، فاستكثر من أصفائها في ثلاثة عشر حملاً بعث بها إليه، فوقفها السلطان بالمدسة التي أسسها بفاس لطلب العلم.

وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة لليتين بقيتا لرمضان، ففضى صومه ونسكه، وجعل من قيام ليله جزءاً لمحاضرة أهل العلم.

وأعد الشعراء كلمات أشدوها يوم الفطر بمشهد الملاء في مجلس أمير المسلمين.

وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة عزوز المكناسي، ذكر فيها سير أمير المسلمين وغزواته على نسق.

ثم أعمل أمير المسلمين نظره في الثغور فرتب بها المسالح وعقد عليها لابنه الأمير أبي زيان منديل، وأنزله بركوان مقربة مالقة، واستوصاه بأن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثاً.

وعقد لعبيد بن أبي عياض العاصمي على مسلحة أخرى، وأنزله بأصطبونة.

وأجاز ابنه الأمير أبا يعقوب لتفقد أحوال المغرب ومباشرة أموره، فأجاز في أسطول القائد محمد بن أبي القاسم الرنداحي قائد سببة، وأوعز إليه بالبناء على قبر أبيه الملوك عبد الحق، وابنه إدريس بتافرطست، فاخط هنالك رباطاً وبني على قبورهم أسعنة من الرخام، ونقشها بالكتابة، ورتب عليها قراء لتلاوة القرآن، ووقف على ذلك ضياعاً وفدناً.

وهلك خلال ذلك وزيره يحيى بن أبي منديل العسكري لمتصف رمضان.

ثم اعتل بعد ذلك أمير المسلمين لشهر ذي الحجة وممرض واشتد وجعه وهلك لآخر محرم سنة خمس وثمانين وستمائة من الهجرة والله أعلم.

بالحق والسي.

واستكثر من رؤوسهم فعلقت بشرفات مراكش وسجلماصة وفاس.

وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوال، فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية عليها من لدن غلب الموحدين، لما وقع من الارتياح بأولاد محلى بما آتاه كبيره طلحة، فنكب عزة المحرم من سنة سبع وثمانين وستمئة، وهلك في محبسه لشهر صفر بعده.

وهلك على إثر ذلك المزوار قاسم بن عبو.

وعقد السلطان على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطو الجاناتي من موالى دولتهم ولاء الحلف، وترك معه ابنه أبا عامر.

ثم ارتحل إلى حضرة فاس، فاحتل بها منتصف ربيع، ووافته بها عروسه ابنة موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر وأهل دولته، فأعرس بها وكان بحث إلى أبيها من قبل في الإصهار بها.

ووافته معها رسل ابن الأحمر يسألونه التجاني عن وادي آش، فأسعفهم بها، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دخول وادي آش في طاعة

السلطان ثم رجوعها إلى طاعة ابن الأحمر

كان أبو الحسن بن أشقيلولة ظهير السلطان ابن الأحمر على ملكه، ومعينه على شأنه، وكان له في الدولة بذلك مكان.

ولما هلك خلف من الولدان أبا محمد عبد الله وأبا إسحاق إبراهيم، فعقد ابن الأحمر لأبي محمد على مالقة ولأبي إسحاق على قمارش ووادي آش.

ولما هلك السلطان ابن الأحمر حدثت مغاضبات ومنافسات بينهما وبينه، وتآذى ذلك إلى الفتنة كما قلناه ودخل أبو محمد في طاعة السلطان أبي يوسف.

ثم هلك فلحق ابنه محمد بالسلطان، ونزل له عن البلد سنة ست وسبعين وستمئة ثم هلك أبو إسحاق سنة اثنتين وثمانين وستمئة وغلب ابن الأحمر على حصن قمارش وصار إليه.

وكان الرئيس أبو إسحاق قد عقد لابنه أبي الحسن على وادي آش وحصونها، واتصلت الفتنة بينه وبين ابن الأحمر، وظاهر أبو الحسن عليه الطاغية وأجلب أخوه أبو محمد على غرناطة هو

وفر أولاد إدريس إلى تلمسان، وتقبض عليهم أثناء طريقهم، وسرح السلطان أخاه أبا زيان إلى تازي، وأوعز إليه بقتلهم بمليي خارج تازي لرجب من سنة خمس وثمانين وستمئة ورهب الأعياص عند ذلك من بادرة السلطان ففرقوا ولحق بغرناطة أولاد أبي العلاء إدريس بن عبد الحق، وأولاد أبي يحيى بن عبد الحق، وأولاد عثمان بن يزول.

ورجع أولاد أبي يحيى إلى السلطان بعد القضاء عهده وأمانه.

وهلك أخوه محمد بن اجليلد بن يعقوب بن عبد الحق لشعبان من سنته، وهلك عمر ابن أخيه أبي مالك بطنجة.

ثم خرج على السلطان عمر بن عثمان بن يوسف العسكري بقلعة قندلاوة، ونبذ الطاعة وأذن بالحرب.

وأوعز السلطان إلى بني عسكر ومن إليهم من القبائل المجاورين لها، فاحتشدوا له ونزلوه، ثم نهض بركابه وعساكره إلى منازلته، واحتل ببندورة، وخافه عمر على نفسه، وأيقن أنه أحيط به، فسأل الأمان وبذله السلطان على شريطة اللحاق بتلمسان، فبعث من تونق له من الخيرة فنزل. فوفى له السلطان بعهده، ولحق بتلمسان بأهله وولده.

ثم ارتحل السلطان في رمضان من سنته إلى مراكش لتمهيد أنحائها، وتثقيف أطرافها، واحتل بها في شوال، واعتمل النظر في مصالحها، ونزع خلال ذلك طلحة بن محلى البطوي إلى بني حسان من المعقل، وخرج على السلطان ودعا لنفسه.

وعقد السلطان لمصور ابن أخيه أبي مالك على العساكر، وعهد له بولاية السوس وسرحه لاستئزال الخوارج، ومحو آثار الفساد.

وارتاب بمكان أخيه عمر فغربه إلى غرناطة، فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها، فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب، وغزا عرب المعقل وأثنى فيهم.

وقتل طلحة بن محلى في بعض حروبهم لثلاث عشرة من جمادى سنة ست وثمانين وستمئة وبعث برأسه إلى سدة السلطان فعلق بتازي.

ثم نهض السلطان في رمضان لغزو المعقل بصحراء درعة بما أضروا العمران وأنسدوا السابلة.

وسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الفرسان، ومر على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن، وأدركهم بالقفر نواجع، فأنخن فيهم

وابن الدليل.

ولبثوا عنده أياماً.

ثم عطف السلطان على ابنه رحم لما عطفت ابنته عليه، فرضي عنه وأعادته إلى مكانه، وطالب عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان أن يسلم إليه ابن عطر التاجم في التفاف مع ابنه، فأبى من إضاعة جواره، وإخفار ذمته، وأغلظ له الرسول في القول فسطا به واعتقله، فثارت من السلطان الحفاظ الكامنة، وتحركت الإحن القديمة، والتراث المتواترة.

واعتزم على غزو تلمسان والله أعلم.

الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن

يغمراسن وغزو السلطان مدينة تلمسان

ومنازلته إياها

كانت الفتنة بين هذين الحيين قديمة من لدن مجالاتهم بالقفار من صحراء ملوية إلى صا، إلى فيكيك إلى مصاب، ولما انتقلوا إلى التلول وتغلبوا على الضواحي بالمغرب الأقصى والأوسط، لم تنزل فتنتهم متصلة وأيام حروبهم فيها مذكورة.

وكانت دولة الموحدين عند اعتلالها والنيانها تستنصر منهم بالتضريب بينهم والفتنة، فتأكدت لذلك أحوالها واتصلت أيامها.

وكان بين يغمراسن بن زيان وأبي يحيى بن عبد الحق فيها وقائع ومشاهد، نقلنا منها بعضاً من كل واستظهر الموحدين بيغمراسن عليه في بعضها.

وكان الغلب أكثر ما يكون لأبي يحيى بن عبد الحق لوفور قبيله إلا أن يغمراسن كان يتصدى لمقاومته في سائر وقائعه.

ولما طمس أثر بني عبد المؤمن واستولى يعقوب ابن عبد الحق على ملكهم، وصارت في جلته عساكرهم، فضاعف عليه، وأسف على ملك يغمراسن ملكه.

وجمع له فأوقع به في تلاغ الواقعة المعروفة، ثم أوقع به ثانية وثالثة.

ولما استولت قدم يعقوب بن عبد الحق في ملكه، واستكمل فتح المغرب وسائر أمصاره، وكبح يغمراسن عن التطاول إلى مقاومته، وأوهن قواه بفل جموعه ومنازلته في داره، ومظاهرة أقاتله من زناتة بني توجين ومغراوة عليه فانصرف بعد ذلك إلى الجهاد، فكان له فيه شغل عما سواه كما نقلناه في أخباره.

ولما ارتاب ابن الأحمر بمكان السلطان يعقوب بن عبد الحق

وطال أمر الفتنة بينهما وبين ابن الأحمر وأجلب أخوه أبو محمد على غرناطة مع الطاغية.

ثم انعقد السلم بين المسلمين والنصرانية، وخشي أبو الحسن بن أشقيلولة على نفسه عادية ابن الأحمر، فتذمم بطاعة صاحب المغرب، وأقام دعوته بوادي آش سنة ست وثمانين وستمئة فلم يعرض لها ابن الأحمر حتى إذا وقعت المواصله بينه وبين السلطان أبي يعقوب، وكان شأن هذا الصهر على يده، بعث رسله إلى السلطان يسأله التجاني عن وادي آش، فتجافى له عنها وبعث إلى أبي الحسن بن أشقيلولة بذلك فتركها.

وارتحل إليه سنة سبع وثمانين وستمئة ولقيه بسلا، فأعطاه القصر الكبير وأعماله طعمة سوغه إياها، ثم نزل لبنيه آخر دولتهم.

واستمكن ابن الأحمر من وادي آش وحصونها، ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابته.

والله يؤتي ملكه من يشاء.

الخبر عن خروج الأمير أبي عامر ونزوعه

إلى مراكش ثم فيثته إلى الطاعة

لما احتل السلطان بفاس وأقام بها خرج عليه ابنه أبو عامر، ولحق بمراكش، ودعا لنفسه أخريات شوال من سنة سبع وثمانين وستمئة وساعده على الخلاف والانتزاع عاملها محمد بن عطر.

وخرج السلطان في أثره إلى مراكش، فبرز إلى لقائه، فكانت الدائرة عليهم وحاصرهم السلطان بمراكش أياماً.

ثم خلص أبو عامر إلى بيت المال فاستصفى ما فيه وقتل المشرف ابن أبي البركات، ولحق بجلل المصامدة، ودخل السلطان من غده إلى البلد يوم عرفة، فغفا وسكن ونهض منصور ابن أخيه أبي مالك من السوس إلى حاحة فدوخ أنجاها.

ثم سرح إليه المدد من مراكش، فأوقعوا بزنة من برابرة السوس، وقتل منهم ما يناهز أربعين من سرواتهم.

وكان فيمن قتل شيخهم حبون بن إبراهيم.

ثم إن ابنه أبا عامر ضاق ذرعه بسخط أبيه، وإجلاجه في الخلاف، فلحق بتلمسان ومعه وزيره ابن عطر فاتح سنة ثمان وثمانين وستمئة فأواهم عثمان بن يغمراسن، ومهد لهم المكان

ثم خرج ابنه عليه آخراً كما ذكرناه بمسألة الشيطان محمد بن عطفو، ثم فاء إلى طاعة أبيه ورضي عنه، وأعادته إلى مكانه من حضرته.

وطالب عثمان بن يغمراسن كما ذكرناه في ابن عطفو المنتري عليه مع ابنه، فأبى عثمان من إسلامه وتحركت حفيظة السلطان واعتزم على غزوهم، فارتحل من مراكش لصفر من سنة تسع وثمانين وعقد عليها لابنه الأمير أبي عبد الرحمن.

ثم نهض لغزاته من فاس آخر ربيع من سنته في عساكره وجنوده، وحشد القبائل وكافة أهل المغرب، وسار حتى نزل تلمسان فأنحجز عثمان وقومه بها، ولاذوا منه بجدرانها.

فسار في نواحيها ينسف الآثار ويحرب العمران ويحطم الزرع، ثم نزل بذراع الصابون من ساحتها.

ثم انتقل منه إلى ثمامة وحاصرها أربعين يوماً، وقطع شجرها، وأباد غرضاءها، ولما امتعت عليه أفرج عنها وانكفاً راجعاً إلى المغرب، وقضى نكس الفطر بعين الصفا من بلاد بني يزنات، ونكس الأضحى وقربانه بتازي، وتلبث بها، ومنها كان فصوله للغزو عند انتفاض الطاغية كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتفاض الطاغية وإجاعة السلطان

لغزوه

لما رجع السلطان من غزو تلمسان وافاه الخبر بأن الطاغية شاذغة انتقض ونبد العهد، وتجاوز التخوم وأغار على الثغور، فأوعز إلى قائد المسالح علي بن يوسف بن يزكاسن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمئة وجاس خلالها، وتوغل في أقطارها، وأبلغ في النكاية.

وفصل السلطان من تازي غازياً على أثره في جمادى، واحتل قصر مصمودة، واستنفر أهل المغرب وقبائله.

ونفروا وشرع في إجازتهم البحر.

وبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزاً دون الإجازة، فأوعز السلطان إلى قواد أساطيله بالسواحل وأغزاهم.

والتقت الأساطيل ببحر الزقاق في شعبان فاقتلوا وانكشف المسلمون ومعهم الله.

ثم أغزاهم ثانية وخامت أساطيل العدو عن اللقاء،

من الأندلس، وحذره على ملكه، وتظاهر مع الطاغية على منعه من الإجازة إلى عدوتهم، خشوا أن يستقلوا بمدافعتهم، فراسلوا يغمراسن في الأخذ بحجزته، وأجابهم إليها وجرد عزائمها، واتصلت أيديهم في التظاهر عليه.

ثم فسد ما بين ابن الأحمر والطاغية ولم يكن له بد من ولاية يعقوب بن عبد الحق، فتولاه بواسطة ابنه يوسف بن يعقوب كما ذكرناه وأطلموه على خباء يغمراسن في مظاهرتهم، فأغزاه سنة تسع وسبعين وستمئة وهزمه بخزوزة.

ونازله بتلمسان وأوطأ عدوه من بني توجين ساحته كما ذكرناه.

ثم انصرف إلى شأنه من الجهاد، وهلك يغمراسن بن زيان على تقيته ذلك سنة إحدى وثمانين وستمئة، وأوصى ابنه عثمان ولي عهده، زعموا أن لا يحدث نفسه بمقاومة بني مرين ومساماتهم في الغلب، وأن لا يبرز إلى لقائهم بالصحراء، وأن يلوذ منهم بالجدران متى سماوا إليه.

والتقى إليه، - زعموا - أن بني مرين بعد تغلبهم على مراكش، وإضافة سلطان الموحيدين إلى سلطانهم، ازدادت قوتهم وتضاعف غلبهم.

وقال له - زعموا - فيما أوصاه: لا يغرنك أنني زحفت بعدها إليهم، وبرزت إلى لقائهم، فإني أنفت أن أرجع عن مقاومتهم بعد اعتيادها، وأترك مبارزتهم وقد عرفها الناس وأنت فلا يضرك العجز عن مبارزتهم والنعول عن لقائهم، فليس لك في ذلك مقام معلوم، ولا عادة سالفة، واجهد جهدك في التغلب على إفريقية وراءك، فإن فعلت كانت المناهضة.

وهذه الوصاة - زعموا - هي التي حملت عثمان وبينه من بعده على طلب ملك إفريقية، ومنازلة بجاية وحريهم مع الموحيدين.

ولما هلك يغمراسن ذهب عثمان ابنه إلى مسألة بني مرين، فبعث أخاه محمداً إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق، وأجاز البحر إليه بالأندلس.

ووافاه مراكش في إجازته الرابعة سنة أربع وثمانين وستمئة فغعد له ما جاء إليه من السلم والمهادنة، ورجعه إلى أخيه وقومه مثلياً كرامة وسروراً.

وهلك يعقوب بن عبد الحق أثر ذلك سنة خمس وثمانين وستمئة وقام بالأمر ابنه يوسف بن يعقوب، وانتزى الخوارج عليه بكل جهة، فشمهم واستنزلهم وحسم أدواءهم.

وضرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريباً منه، وسرب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات، وبعث عسكرياً لئلازلة حصن أصطوبنة، وتغلب عليه بعد مدة من الحصار.

واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد، ونال منهم الحصار، فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد، فصالحهم واستنزهم سنة إحدى وتسعين وستمئة ووفى لهم بعهده واستشرف ابن الأحمر إلى تحافي الطاغية عنها لما عهدا عليه، فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً منها، ففسد ذات بينهما، ورجع ابن الأحمر إلى تمسكه بالسلطان واستغاثه به لأهل ملته على الطاغية.

وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير العذرة عن شأن طريف، فوافوه مكانه من منزلة تازوفا كما نذكر بعد.

فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وستمئة بإسعاف غرضه من المواخاة واتصال اليد.

وهلك خلال ذلك قائد المسالحي بالأندلس علي بن يزكاسن في ربيع الأول سنة اثنين وتسعين وستمئة وعقد السلطان لابنه ولي عهده، الأمير أبي عامر على ثغور الأندلس التي في طاعته، وعهد له بالنظر في مصالحها.

وانفذه إلى الجاز بعسكره فوافاه هنالك السلطان ابن الأحمر كما نذكر إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن وفادة ابن الأحمر على السلطان

والتقائهما بطنجة

لما رجعت الرسل إلى ابن الأحمر، وقد كرمت وفادتهم وقضيت حاجاتهم، وأحكمت في المواخاة مقاصدهم، وقع ذلك من ابن الأحمر أجل موقع، وطار سروراً من أعواده.

وأجمع الرحلة إلى السلطان لاستحكام العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف وشأنها، واستعدادهم لإغاثة المسلمين ونصرهم من عدوهم، فاعتزم على ذلك وأجاز البحر ذا القعدة سنة اثنتين وتسعين وستمئة واحتل بنيونش من ساحة سبتة.

ثم ارتحل إلى طنجة، وقدم بين يدي غجواه هدية سنينة تحف بها السلطان، كان من أحفلها وأحسنها موقعاً لديه فيما زعموا

وصاعدوا عن الزقاق، وملكته أساطيل السلطان فأجاز أخريات رمضان واحتل بطريف.

ثم دخل دار الحرب غازياً، فنازل حصن بيجر ثلاثة أشهر، وضيق عليهم.

وبث السرايا في أرض العدو، وردد الغارات على شريش، وإشبيلية ونواحيهما إلى أن بلغ في النكاية والإثخان.

وقضى من الجهاد وطراً، وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن المعسكر، فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة.

ثم أجاز إلى المغرب فاتح إحدى وتسعين وستمئة فتنظاره ابن الأحمر والطاغية على منعه الإجازة كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن انتفاض ابن الأحمر ومظاهرة

الطاغية على طريف أعادها الله

لما قفل السلطان من غزاة فاتح إحدى وتسعين وستمئة كما ذكرناه وقد أبلغ في نكاية العدو وأتخن في بلاده، فأهم الطاغية أمره، وثقلت عليه وطأته، والتمس الوليجة من دونه.

وحذر ابن الأحمر غائلته، ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الأندلس وغلبه على أمره، ففاوض الطاغية وخلصوا نحيباً.

وتحدثوا أن استمكانه من الإجازة إليهم إنما هو بقرى مسافة بحر الزقاق، وانتظام ثغور المسلمين حفافيه بتصرف شوانهم وسفنهم متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل وأن أم تلك الثغور طريف، وأنهم إذا استمكنا منها كانت ربيته لهم على بحر الزقاق.

وكان أسطولهم من مرقاها بمرصد الأساطيل صاحب المغرب الخائضين لجة ذلك البحر، فاعتزم الطاغية على منزلة طريف.

وزعم له ابن الأحمر بمظاهرة على ذلك، وشرط له المدد والميرة لأقوات العسكر أيام منازلتها، على أن تكون له إن حلصت، وتعاونوا على ذلك وأناخ الطاغية بساكر النصرانية على طريف.

وألح عليها بالقتال ونصب الآلات وانقطع عنها المدد والميرة.

واحتلت أساطيله ببحر الزقاق، فحالفوا دون الصريخ من السلطان، وإخوانهم المسلمين.

وطاس من لدن دخول بني مرين المغرب واقتسامهم لأعماله فكانت ضواحيها لتزهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم.

وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب وكان الملوك من أولاد عبد الحق يتعنتون بشأنه، ويتزولون به من أولياتهم من يثقون بغنائه وإطلاعه، ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط وشجراً في صدورهم عما يسمون إليه وكان السلطان قد عقد عليه لمنصور ابن أخيه الأمير أبي مالك بعد مهلك أبيه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق.

وكان عمر بن يحيى ابن الوزير وأخوه عامر رئيسين على بني وطاس لذلك العهد، فاستهوا أمر السلطان بعد مهلك أبيه، وحذروا أنفسهم بالانتزاع بتازوطا والاستبداد بتلك الناحية، فوثب عمر منهم بمنصور ابن أخيه السلطان شهر شوال من سنة إحدى وتسعين وستمائة وقتك برجاله وذويه وأزعجه عنه، وغلبه على مال الجباية الذي كان بقصره، فاستصفاه واستأثر به، واستبد وشحن الحصن برجاله وحاشيته ووجوه قومه.

ووصل منصور إلى السلطان وهلك لليل من مناجاته أسفاً لما أصابه، وسرح السلطان وزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرياش بالساكن لمنازلته فأناخ عليه، ثم نهض السلطان على أثره ووافاه وضرب معسكره بساحته.

وخالف عامر أخاه عمر إلى السلطان بقومه حذراً من مغية الأمر، وأشفق عمر لشدة الحصار ويش من الخلاص، وظن أن قد أحيط به ودس إلى أخيه عامر، فأذن السلطان في مداخلته في النزول على الحصن فأذن له، واحتمل ذخيره وفر إلى تلمسان.

ويدا لعامر في رأيه عندما خلص إلى الحصن وخلا له من عمر أخيه الجور، وحذر غائلة السلطان وخشي أن يثار منه بأخيه، فامتنع بالحصن، ثم ندم وسقط في يده.

وفي خلال ذلك كان وصول وفد الأندلس، وأرسوا أساطيلهم بمرقى غساسة، فبعث إليهم عامر أن يشفعوا له عند السلطان لوجهاتهم لديه، فتقبلت شفاعتهم على شريطة إجازته إلى الأندلس، وكره ذلك وقدم بين يديه بعض حاشيته إلى الأسطول مكرراً بهم، وخاض الليل إلى تلمسان، فتقبض السلطان على ولده وقتل.

وأسلم أهل الأسطول من كان من حاشيته لديهم، وتحافوا عن إجازتهم على السلطان لما مكر بهم عامر، فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرباتهم وذرياتهم وتملك السلطان حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحته، وقفل إلى حضرته بفاس.

المصحف الكبير، أحد مصاحف عثمان بن عفان أحد الأربعة المنبثقة إلى الأفاق، المختص هذا منها بالمغرب، كما نقله السلف.

كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة، فتلقيهم الأمير أبو عامر هنالك، وأخوه الأمير أبو عبد الرحمن ابن السلطان واحتفلا في مبرته.

ثم جاء السلطان على أثرهما من حضرته لتلقيه وبرور مقدمه، ووافاه بطنجة، وأبلغ في تكرمته وبر وفادته ما يكرم به مثله.

ويست ابن الأحمر العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان عن العذل وأعرض عنه وقبل منه وبر واحتفى ووصل وأجزل، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة وردة والغربة وعشرين حصناً من ثغور الأندلس كانت من قبل لطاعة صاحب المغرب ونزل عساكره، وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتماً اثنتين وتسعين وستمائة محبوراً.

وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد على حربها ومنزلتها لوزير الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرياش الجشمي، فنازلها مدة، وامتنعت فأفرج عنها، وصرف السلطان همته إلى غزو تلمسان وحصارها، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتزاع الوزير الوطاس بمحسن تازوطا من جهة الريف واستئزال السلطان إياه

كان بنو الوزير هؤلاء رؤساء بني وطاس من قبائل بني مرين، ويرون أن نسبهم دخيل في بني مرين.

وأنهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس، ورسخت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم.

ولم يزل السرو متربعا بين أعينهم لذلك، والرياسة شائعة بأنوفهم، وكانوا يرومون الفتك بالأمراء من أولاد عبد الحق، فلم يطبقوه.

ولما احتل السعيد بتازى غازياً إلى تلمسان كما ذكرناه، ولحق ببلدهم الأمير أبو يحيى بن عبد الحق ائتمروا في الفتك به، ونذر بشأنهم فارتحل، وفر إلى غبولة وعين الصفا من بلاد بني يزناسن، وهنالك بلغه خير مهلك السعيد وكانت بلاد الريف لبني

آخر جمادى من سنة اثنتين وتسعين وستمائة والله تعالى أعلم.

الخبر عن ترديد الغزو الى تلمسان

ومنازلتهما

كان عثمان بن يغمراسن بعد إفراج السلطان سنة تسع وثمانين وستمائة وانتقاض الطاغية وابن الأحمر عليه كما قلناه، صرف إلى ولايتهما وجه تدبيره وأوفد على الطاغية ابن بریدی من صنائع دولته سنة اثنتين وتسعين وستمائة ورجعه الطاغية مع الريك ريكسن رسول من كبار قومه.

ثم أعاد إليه الحاج المسعود من حاشيته، ووصل يده بيده يظن ذلك دافعاً عنه، واعتدها السلطان عليه وطوى له على النكت.

حتى إذا فرغ من شأن الأندلس وهلك الطاغية شاغبة سنة ثلاث وتسعين وستمائة لإحدى عشرة من سني ملكه، وارتحل السلطان إلى طنجة لمشاركة أحوال الأندلس سنة أربع وتسعين وستمائة فأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ولقيه بطنجة، وأحكم معه المواجهة.

ولما استيقن سكون أحوالها، نزل لابن الأحمر عن جميع الثغور التي بها لطاعته، وأجمع غزو تلمسان، ولحق به بين يدي ذلك ثابت بن منديل المغراوي صريحاً على ابن يغمراسن ومستجيباً بقومه فتقبله وأجاره.

وكان أصاب الناس أعوام اثنتين وتسعين وستمائة وما بعدها قحط، ونالته سنة وهتوا لها.

ثم إن الله رحم خلقه وأدر نعمته، وأعاد الناس إلى ما عهدوه من سبوغ نعمهم وخصب عيشهم.

ووفد عليه سنة أربع وتسعين وستمائة ثابت بن منديل أمير مغراوة مستصرخاً به من عثمان بن يغمراسن، فبعث من كبار قومه موسى بن أبي هو إلى تلمسان شقيقاً لثابت بن منديل فردده عثمان أقبح رد وأساء في إجابته، فعاود الرسالة إليه في شأنه، فلم ترددهم إلا ضرراً فاعتزم على غزو بلادهم واستعد لذلك، ونهض سنة أربع وتسعين وستمائة حتى انتهى إلى بلاد تاوريرت، وكانت تحملاً لعمل بني مرين وبني عبد الواد في جانبها عامل السلطان أبي يعقوب، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن.

فطرد السلطان عامل ابن يغمراسن وتميز بها، واختط الحصن الذي هنالك لهذا العهد تولاه بنفسه بغادي الفعلة ويراوحهم، وأكمل بناءه، في شهر رمضان من سته.

الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان إلى

بلاد الريف وجبال غمارة

كان الأمير أبو عامر بعد إجازة ابن الأحمر إلى السلطان أبيه ورضاه عنه، وتأكيده مؤاخاته، وإغراء وزيره عمر بن السعود لمنازلة طريف، واستنزاله أولاد الوزير المتزين بمحصن تازوطا رجع من قصر مصمودة إلى بلاد الريف بليعار أبيه إليه بذلك لتسكين أحوالها.

وكان أولاد الأمير أبي يحيى بن عبد الحق قد نزعوا إلى تلمسان لسعاية فيهم، وقرت في صدر السلطان، فأقاموا بها أياماً، ثم استعطفوا السلطان واسترضوه، فرضي وأذن لهم في الرجوع إلى عجلهم من قومهم ودولتهم.

وبلغ الخبر الأمير أبا عامر وهو بمعسكره من الريف، فأجمع على اغتيالهم في طريقهم يظن أنه يرضي بذلك أباه.

واعترضهم بوادي القطف من بلاد ملوية سنة خمس وتسعين وستمائة فاستلحهم وانتهى الخبر إلى السلطان فقام في ركائبه وقعد، وتبرأ إلى الله من إخفار ذمته، ومن صينع ابنه، وسخطه وأقصاه، فذهب مغاضباً ولحق ببلاد الريف، ثم صعد إلى جبل غمارة، فلم يزل طريداً بينهم.

ونازلته عساكر أبيه لنظر ميمون بن ودران الجشمي، ثم لنظر زيك بن المولاة تاميمونت.

وأوقع بهم مراراً آخرها بيزيكن سنة سبع وتسعين وستماية، وذكر الزليخي مؤرخ دولتهم أن خروجه بجبل غمارة كان سنة أربع وتسعين وستماية وقتله لأولاد الأمير أبي يحيى كان سنة خمس وتسعين وستماية بعدما أغراب بهم من مشوى انتزائه، وقتلهم كما ذكرناه والله أعلم.

ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك ببني سعيد من جبال غمارة سنة ثمان وتسعين وستماية ونقل شلوه إلى فاس فووري بيباب الفتوح بملجد قومهم هنالك.

وأعقب ولدين كلتهما السلطان جدهما، فكانا الخليفتين من بعده على ما نذكر إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث

لما توفرت عزائم السلطان عن النهوض إلى تلمسان، ومطاوله حصارها إلى أن يظفر بها ويقومها، واستيقن أنه لا مدافع له عن ذلك، فنهض من فاس في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وستمئة بعد أن استكمل حشده.

ونادى في قومه، واعترض عساكره وأجزل أعطيائهم وأزاح عنهم.

وارتحل في التعبية واحتل بساحة تلمسان ثاني شعبان وأناخ عليها وضرب معسكره بقنائها.

وأحجز عثمان بن يغمراسن وحاميتها من قومه، وأدار الأسوار سياجاً على عمرانها كله، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى.

ورتب المسالحي على أبوابها وفرجها، وسرح عساكره إلى حين فافتتحها وأتوا طاعتهم، وأوفدوا مشيختهم وسط شعبان.

ثم سرح عسكره لمخاصرة وهران وتقرى البسائط ومنازلة الأمصار، فأخذت مازونة في جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين وستمئة ونهض في شعبان بعده، فافتتح تالوت والقصبات وتامزردكت في رمضان منه، وفيه كان فتح مدينة وهران، وسارت عساكره في الجهات إلى أن بلغت بجاية كما نذكره.

وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي، وتغلب على ضواحي مغراوة وتوجين، وسارت فيها عساكره ودوختها كتابه، واقتنحت أمصارها رأياته مثل مليانة ومستغانم وشرشال والبطحاء ووانشريس والمرية وتافركينت، وأطاعه زيري المنتزي ببرشك وأتى بيعته.

وابن علان المنبري بالجزائر وأتى بيعته.

وأزعج الناكين منهم عن طاعته، واستألف أهل الصاغية كما نذكره.

وحذره الموحدون من ورائهم بإفريقية ملوك بجاية وملوك تونس، فمدوا إليه يد المواصله ولاطفوه بالمحافة والمهاداة، وخاطب صاحب الديار المصرية ملك الترك وهاداه وراجعه كما نذكره، وفود عليه شرفاء مكة بنو أبي نجي كما نذكره.

وهو في خلال ذلك مستجمع للمطاوله بالحصار والتضييق، متجاف عن القتال إلا في بعض الأيام، ولم تبلغ - زعموا - أربعة

واخذة ثغراً للملكه، وأنزل بني عسكر لحياطته وسد فروجه، وعقد عليهم لأخيه أبي يحيى بن يعقوب، وانكفاً راجعاً إلى الحضرة.

ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين وستمئة غازياً إلى تلمسان، ومر بوجدة، فهدم أسوارها وتغلب على مسيفة والزعارة، وانتهى إلى ندرومة، ونازها أربعين يوماً ورمها بالجنانيق، وضيق عليها فامتنعت عليه فأفرج عنها ثاني القطر.

ثم غزا تلمسان سنة ست وتسعين وستمئة وبرز لمداغتة عثمان بن يغمراسن، فهزمه وأحجزه بتلمسان، ونزل بساحتها وقتل خلقاً من أهلها، ونازها أياماً، ثم ألق عنها وقفل إلى المغرب وقضى منسك الأضحى من سنته بتازي.

فأعرس هنالك بمخافة ثابت بن منديل، كان أصهر فيها إلى جدها قبل مهلكه سنة ست وتسعين وستمئة قتيلاً ببجيرة الزيتون من ظاهر فاس، قتله بعض بني ورتاجن في دم كان لهم في قومه، فثار السلطان به من قاتله وأعرس بمخافته، وأوعز ببناء القصر بتازي، وقفل إلى فاس فاتح سنة سبع وتسعين وستمئة، ثم ارتحل إلى مكناسة وانكفاً إلى فاس.

ثم نهض في جمادى غازياً لتلمسان ومر بوجدة فأوعز ببنايتها وتحصين أسوارها، واتخذ فيها قصبة وداراً لسكناه ومسجداً وأغزى إلى تلمسان، ونزل بساحتها، وأحاطت عساكره إحاطة الهالة بها، ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار ازدلف إليه الصناع والمهندسون بعملها، وكانت توقر على أحد عشر بطلاً.

ثم لما امتنعت عليه تلمسان أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمئة ومر بوجدة، فأنزل بها الكتائب من بني عسكر لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت، وأوعز إليهم فتردد الغارات على أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها.

وضاقت أحوالهم ويشروا من صريخ صاحبهم، فأوفدوا على الأمير أبي يحيى وفداً منهم يسألون الأمان لمن وراءهم من قومهم، على أن يمكنهم من قياد بلدتهم، ويدنو بطاعة السلطان، فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم، ودخل البلد بعسكره، واتبعهم أهل تاوونت وأوفد مشيختهم جميعاً على السلطان آخر جمادى، فقدموا عليه بحضرته وأدوا طاعتهم، وقبلها، ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريجهم من ملكة وعدوهم ابن يغمراسن، ووصفوا من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية، ما استهض السلطان لذلك على ما نذكر إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

واعتصم راشد بن محمد بن ثابت بن منديل صهر السلطان بمليانة فنازلوه بها، ثم استنزله على الأمان سنة تسع وتسعين وستمائة فأوفدوه على السلطان، فلقاه مبرةً وتكرمةً، وخلطه بجملته لكان صهره معه.

ثم افتتحوا مدينة تدلس ومازونة وشرشال، وأعطى زيري بن حماد المتري على برشك من بلادهم يد الطاعة، وأوفد على السلطان للبيعة، واستولوا على ضواحي شلف كلها، ولذت مغراوة بطاعة السلطان.

وعقد عليهم وعلى جميع بلادهم لعمر بن ويغرن بن منديل فأسف لذلك راشد بن محمد لما كان يراه لنفسه من الاختصاص.

ولما كانت أخته حظية السلطان وكرمته، ونافس عمر بن ويغرن في إمارة قومه، فلحق بجبال متيجة، وأجلب على من هنالك من عمال السلطان وعساكره وانحاش إليه مرضى القلوب من قومه، فاعصوبوا عليه.

وداخل أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وملكوه أمرهم في ربيع من المائة السابعة.

ثم بيت عمر بن ويغرن بمعسكره من وازمور، فقتله واستباح المعسكر.

وبلغ الخبر إلى السلطان، فسرح العساكر من بني مرين وعقد لعلي بن الحسن بن أبي الطلاق على قومه من بني عسكر، ولعلي بن محمد الخيرى على قومه من بني ورتاجن، وجعل الأمر شورى بينهما، وأشرك معهما علياً الحساني من صنائع دولته، وأبا بكر بن إبراهيم بن عبد القوي من أعياص بني توجين، وعقد على مغراوة محمد بن عمر بن منديل، وأشركه معهم، وزحفوا إلى راشد.

ولما أحس بالعساكر لجأ إلى معقل بني بو سعيد فيمن معه من شعبة مغراوة.

وانزل بمازونة علياً وحمو ابني عمه يحيى بن ثابت، واستوصاهم بضبط البلد، وأنه مشرف عليهم من الجبل.

وجاءت عساكر السلطان إلى بلاد مغراوة فتغلبوا على البساط وأناخوا بمازونة، وضربوا معسكرهم بساحتها، وأخذوا بمخقتها، واهتل علي وقومه غرة في معسكر بني مرين فبيتهم سنة إحدى وسبعمئة.

وانفض المعسكر وتقبض على علي بن محمد الخيرى، ثم امتنعوا عليه وعاد المعسكر إلى مكانهم من حصارهم، وجهدهم حالهم فنزل إليهم حمو بن يحيى على حكم السلطان، وأنفذوه إليه

أو خمسة ينزل شديد العقاب والسطوة بمن يديرها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلل بالأقوات إليها.

قد جعل سرداق الأسوار المحيطة ملاكاً لأمره في ذلك، فلا يخلص إليهم الطيف ولا يكاد يصل إليهم العيث مدة مقامه عليها، إلى أن هلك بعد مائة شهر كما نذكره.

واختط بمكان فساطيط المعسكر قصرًا لسكنائه، واتخذ فيه مسجداً لمصلاته وأدار عليها السور، وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين وأجروا المياه.

ثم أمر بإدارة السور سياجاً على ذلك سنة اثنتين وسبعمئة، وصيرها مصراً، فكانت من أعظم الأمصار والمدن وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق، واحتفال بناء وتشيد منعة.

وأمر باتخاذ الحمامات والخانات والمراستان، وابتنى بها مسجداً جامعاً، وشيد له مأذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها، وسماها المنصورة، واستبحرت عمرانها ونفقت أسواقها، ورحل إليها التجار بالبضائع من الأفاق فكانت إحدى مدائن المغرب.

وخربها آل يغمراسن عند مهلكه، وارتحال كتابه عنها، بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك، وأفنوا بالانقراض كما نذكره، فتداركهم من لطف الله ما شأنه أن يتدارك المتورطين في المهالك، والله غالب على أمره.

الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تحفل ذلك من الأحداث

لما أناخ السلطان عن تلمسان وتغلب على ضواحي بني عبد الواد، وافتتح أمصارهم، سما إلى التغلب على ممالك مغراوة وبني توجين.

وكان ثابت بن منديل قد وفد على السلطان بمقر ملكه من فاس سنة أربع وتسعين وستمائة وأصهر إليه في حادثة، فعقد له عليها.

وهلك ثابت بمكان وفادته من دولتهم، وأعرس السلطان بمحافدته سنة ست وتسعين وستمائة كما ذكرنا ذلك من قبل، فلما تغلب السلطان على مال بني عبد الواد جهز عساكره إلى بلاد مغراوة، وعقد عليها لعلي بن محمد من عظماء بني ورتاجن، فتغلبوا على الضواحي وشدروا مغراوة إلى رؤوس المعاقل.

فتقبض عليه.

جبل وانشرش وهدم حصونهم به، ورجع إلى الحضرة.

ثم بادره أهل تافركينت سنة ثلاث وسبعمائة بإتيان الطاعة. ونقضوا بعدها.

ثم نزل علي ثانية من غير عهد، فأشخصوه إلى السلطان فلقاه مبرّة وتكريماً، تائبين لراشد المتزي بمقله.

واقتمحت مازونة على أهلها عنوة سنة ثلاث وسبعمائة فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى سدة السلطان، فرميت في حفائر البلد المحصور إرهاباً لهم وتخديلاً، ولما عقد السلطان لأخيه أبي يحيى على بلاد الشرق وسرحه لتدويخ التخوم، نازل راشد بمقله من بني بو سعيد، فبيت راشد معسكرهم إحدى لياليه، فانفضوا وقتل طائفة من بني مرين.

ووجد السلطان لها فامر بقتل علي وحمو ابني عمه يحيى، ومن كان معتقلاً معهم من قومها.

ورفعوا كل الجذوع وأثبتهم بالسهام، ونزل راشد بعدها عن مقله ولحق بمتيجة، وانحاش إليه عمّه منيف بن ثابت، وأوشاب من مغراوة وتحيز الآخرون إلى أميرهم محمد بن عمر بن منديل الذي عقد له السلطان عليهم ثم تأشبت على راشد ومنيف خوارج الثعالب ومليكش، وصمد إليهم الأمير أبو يحيى في عساكره ثانية، ونازهم بمعاقلهم ورغبوا في السلم، فبذله السلطان لهم، وأجاز منيف بن ثابت إلى الأندلس فيمن إليه من بنيه وعشيرته، فاستقروا بها آخر الأيام.

ولحق راشد ببلاذ الموحدين وفود محمد بن منديل سنة خمس وسبعمائة على السلطان، فأوسعه حباً وتكريماً.

وتعهدت بلاد مغراوة واستبد ملكها السلطان، وصرف إليها العمال، ولم يزل كذلك إلى أن هلك سنة ست وسبعمائة والله تعالى أعلم.

الخبر عن افتتاح بلاد بني توجين وما تخلل ذلك

لما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها، وتغلب على بلاد بني عبد الواد، سما إلى تملك بلاد بني توجين.

وكان عثمان بن يغمراسن قد غلبهم على مواطنهم، وملك جبل وانشرش وتصرف في بلاد عبد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأتاوة سنة إحدى وسبعمائة، وأوعز إليه السلطان ببناء البطحاء التي هدمها محمد بن عبد القوي، فبنها وتوغل في قاصية المشرق، ثم انكفأ راجعاً إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني توجين سنة اثنتين وسبعمائة وفر بنو عبد القوي إلى ضواحيهم بالقفر، ودخل

كان لبني أبي حفص ملوك إفريقية مع زناتة هؤلاء أهل المغرب من بني مرين وبني عبد الواد سوابق مذكورة، فكانت لهم على يغمراسن وبنيه طاعة معروفة يدودون بيعتها ويخطبون على منابرهم بدعوتها مذ تغلب الأمير أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد على تلمسان.

وعقد عليها ليغمراسن، واستمر حالهم على ذلك.

وكانت لهم أيضاً مع بني مرين ولاية سابقة بما كان بنو مرين مذ أول أمرهم يخاطبون الأمير أبا زكرياء، ويعثون له ببيعة البسلاد التي تغلبوا عليها: مثل مكناسة والقصر ومراكش آخراً.

ثم صارت خالصة من لدن عهد المستنصر ويعقوب بن عبد الحق.

وكانوا يتحفونهم بالمال والهدايا في سبيل المدد على صاحب مراكش، وقد ذكرنا السفارة التي وقعت بينهما سنة خمس وستين وستمائة وإن يعقوب أوفد عامر بن إدريس وعبد الله بن كندوز ومحمد الكتاني، وأوفد عليه المستنصر سنة سبع وستين وستمائة بعدها كبير الموحدين يحيى بن صالح الهتاني في وفد من مشيخة

الموحدين، ومعهم هدية سنية.

ثم أوفد الوائث ابنه سنة سبع وسبعين قاضي بجاية المذكور أبا العباس أحمد الغماري، وأسنى الهدية معه.

ولم يزل الشأن بينهم هذا إلى أن افترق أمر آل أبي حفص.

وظار الأمير أبو زكرياء ابن الأمير أبي إسحاق بن يحيى بن عبد الواحد من عشه بتلمسان في وكر عثمان بن يغمراسن، وأسف إلى بجاية فاستولى عليها سنة ثلاث وثمانين وستمائة، واستضاف إليها قسنطينة وبونة، وصيرها عملاً للملك، ونصب بها كرسيًا لأمره، وأسف عثمان بن يغمراسن لفراره من بلده لما كان عليه من التمسك بدعوة عمه أبي حفص صاحب تونس، فشق ذلك عليه ونكره، واستمرت الحال على ذلك.

ولما أخذ السلطان يوسف بن يعقوب بمخنق تلمسان وأوسع قواعد ملكه بساحتها، وسرح عساكره لالتهام الأمصار والجهات، وتوجس الموحدون الخيفة منه على أوطانهم.

وكان الأمير أبو زكرياء في جهات تدلس محامياً عن حوزته وعمله.

ووصله هنالك راشد بن محمد نازعاً عن السلطان أبي يعقوب.

ثم طلعت العساكر على تلك الجهات في أتباعه، فزحف إليه عسكر الموحدين سنة تسع وتسعين وستمائة بناحية جبل الزاب، ففوضوا جمعه وأوقعوا به واستلحموا جنوده، واستبحر القتل فيهم، وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين.

ورجع الأمير أبو زكرياء إلى بجاية فأغصر بها وهلك على نفية ذلك على رأس المائة السابعة.

وقارن ذلك مغاضبة بينه وبين أمير الدواودة لمعهده عثمان بن سباع بن يحيى بن دريد بن مسعود البلط، فوفد على السلطان أخريات إحدى وسبعمائة، ورغبه في ملك بجاية.

واستغذ للسير إليها، فأوعز إلى أخيه الأمير أبي يحيى بمكانه من منزلة مغراوة ومليكش والثعالبة، بأن ينهض إلى عمل الموحدين.

وسار عثمان بن سباع وقومه بين يدي العساكر يتقصون الطريق إلى أن تجاوز الأمير أبو يحيى بعساكره بجاية، واحتل بتاكرات من أوطان سدويكش من أعمال بجاية.

وأطل على بلاد سدويكش وانكفاً راجعاً، فأوطأ عساكره بساحة بجاية وبها الأمير خالد بن يحيى، وناشبهم القتال ببعض

أيام، جلا فيها أولياء السلطان أبي البقاء عن أنفسهم وسلطانهم، وأمر بروض السلطان المسمى بالبديع فخربه، وكان من أنيق الرياض وأحفلها.

وقفل إلى مكانه من تدويخ البلاد، وأعرض عن أعمال الموحدين.

وكان صاحب تونس لذلك العهد محمد المستنصر الملقب بأبي عصيدة بن يحيى الوائث، فأوفد على السلطان شيخ الموحدين بدولته محمد بن أكمازير في أسباب الولاية، ومحكماً مذاهب الرولة، ومقرراً سوابق السلف، فوفد في مشيخة من قومه لشعبان سنة ثلاث وسبعمائة.

وناغاه الأمير أبو البقاء خالد صاحب بجاية، وأوفد مشيخة من أهل دولته كذلك وبر السلطان وفادتهم وأحسن متقلبهم.

ثم عاد ابن أكمازير سنة أربع وسبعمائة، ومعه شيخ الموحدين وصاحب السلطان أبو عبد الله بن يرزكن في وفد من عظماء الموحدين، وأوفد صاحب بجاية حاجبه أبا محمد الرخامي، وشيخ الموحدين بدولته عياد بن سعيد بن عثيمين.

وفدوا جميعاً على السلطان ثالث جمادى، فأحسن السلطان في تكريمهم ما شاء، وأوصلهم إلى نفسه بمساكن داره وأراهم أبهة ملكه وأطافهم قصوره ورياضه بعد أن فرشت وغمقت، فملا قلوبهم جلالاً وعظمة، ثم بنهم إلى المغرب ليطوفوا على قصور الملك بفاس ومراكش، وشاهدوا آثار سلفهم، وأوعز إلى عمال المغرب بالاستبلاغ في تكريمهم وتحافهم، فأنتهوا من ذلك إلى الغاية، وانقلبوا إلى حضرته آخر جمادى، وانصرفوا إلى ملوكهم بالحديث عن شأن رسالتهم وكرامة وفدهم.

ثم أعاد ملوكهم مراسلة السلطان سنة خمس وسبعمائة بعدها، فوفد أبو عبد الله بن أكمازير من تونس وعياد بن سعيد بن عثيمين من بجاية.

وأوفد السلطان على صاحب تونس مع رسوله صاحب الفتيا بحضرته الفقيه أبا الحسن التنسي وعلي بن يحيى البرشكي رسولين يسألانه المدد بأسطوله، ففوضوا رسالتهم سنة خمس وسبعمائة.

ووصل بخبرها أبو عبد الله المزدوري من مشيخة الموحدين، واقرن بذلك وصول حسون بن محمد بن حسون المكتاسي من صنائع السلطان.

كما أوفده مع ابن عثيمين على مراسلة الأمير أبي البقاء خالد صاحب بجاية في طلب الأسطول أيضاً، فرجعوه بالمعاذير.

المغرب وماعونه، ونهج بها السبيل بها للحجاج من أهل المغرب، فأجمعوا الحج سنة أربع وسبعمائة بعدها وعقد السلطان على دلالتهم لأبي زيد الغفائري، وفصلوا من تلمسان لشهر ربيع الأول.

وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مقدم الحاج الأولين حملة المصحف ووفد معهم على السلطان الشريف لبيدة بن أبي غني نازعاً عن سلطان الترك لما كان تقبض على أخويه خيصة ورميته إثر مهلك أبيهم أبي غني صاحب مكة سنة إحدى وسبعمائة، فاستبغ السلطان في تكريمه وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره، ويطوف على معالم المملكة وقصوره، وأوعز إلى العمال بتكريمه وإتحافه كل على شاكلته.

ورجع إلى حضرة السلطان سنة خمس وسبعمائة وفصل منها إلى المشرق، وصحبه من أعلام المغرب أبو عبد الله فوزي حاجاً، ولشعبان من سنة خمس وسبعمائة وصل أبو زيد الغفائري دليل ركب الحاج الآخرين، ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان، لما أسفهم صاحب مصر بالتقبض على إخوانهم، وكان شأنهم ذلك حتى غاضبهم السلطان.

فقد سبق في أخبار المستنصر بن أبي حفص مثلهما، وأهدى إلى السلطان ثوباً من كسوة البيت شغف به، واتخذ منه ثوباً للباسه في الجمع والأعياد يستبطنه بين ثيابه تبركاً به، ولما وصلت هدية السلطان إلى صاحب مصر لعهد الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي حسن موقعها لديه، وذهب إلى المكافأة، فجمع من طرف بلاده من الثياب والحيوان ما يستغفر جنسه وشكله، من نوع الفيل والزرافة، وأوفد بها من عظماء دولته الأمير التليلي وفصل من القاهرة أخريات سنة خمس وسبعمائة ووصلت إلى تونس في ربيع من سنة ست وسبعمائة بعدها.

ثم كان وصولها إلى سدة السلطان بالمنصورة من البلد الجديد في جمادى الآخرة، واهتز السلطان لقدومها واستركب الناس للقاءها، واحتفل للقاء هذا الأمير التليلي ومن معه من أمراء الترك، وبر وفادتهم، واستبغ في تكريمهم نزلاً وقرى، وبعثهم إلى المغرب على العادة في مرة أمثالهم، وهلك السلطان خلال ذلك وتقبل أبو ثابت ستة من بعده في تكريمهم، فأحسن متقلبهم وملاً حقائبهم صلة ويراً، وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنة سبع وسبعمائة ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان وسبعمائة اعترضهم الأعراب بالفقر فأنهبهم وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن، فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفيراً ولا لفتوا إليه وجهاً.

وأوفدوا معه عبد الحق بن سليمان فتلقاهم السلطان بالمبرة، وأوعز إلى عامله بوهرا أن يستبغ في تكريم عمرة الأسطول، فجرى في ذلك على مذهبه واتقبلوا جميعاً أحسن متقلب.

وغني السلطان عن أسطولهم لقوات وقت الحاجة إليه من منازل بلاد السواحل إذ كان قد غلظها أيام ماطلتهم بيعته.

واتصل الخبر بصاحب تلمسان الأمير أبي زيان بن عثمان المايح أيام الحصار عند مهلك أبيه عثمان بن يغمراسن آخر سنة ثلاث وسبعمائة فبلغه صنع الموحدين في موالاتهم عدوهم السلطان يوسف بن يعقوب ومظاهرتهم بأساطيلهم عليه، فأسفه ذلك وأخرس منابريهم عما كانت تنطق به من الدعاء من عهد يغمراسن، فلم يراجع دعوتهم من بعد، وهلك السلطان على تقيته ذلك، والبقاء لله وحده.

الخبر عن مراسلة المشرق الأقصى ومهاداتهم ووفادة أمراء الترك على السلطان وما تخلل

لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بمملكه وأعماله، وهنائه ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الأفاق، استجد أهل المغرب عزماً في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفن إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول.

فسما للسلطان في ذلك أمل ودخله بجرم الله وروضة نبيه الشوق، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه وثمعه أحمد بن حسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه وجعل غشاه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالقات الذهب المنظم بخمرزات الدر والياقوت، وجعلت منها حصاة وسط المثلث تقوت الحصيات مقداراً وشكلاً وحسناً، واستكثر من الأصونة عليه ووقفه على الحرم الشريف، وبعث به مع الحاج سنة ثلاث وسبعمائة وعني بشأن هذا الركب، فسرّح معهم حامية من زناتة تناهز خمس مائة من الأبطال، وقلد القضاء عليهم محمد بن رغبوش من أعلام أهل المغرب، وخطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته، واتخذه بهدية من طرف بلاد المغرب فاستكثر فيها من الخيل العرب والمطايا الفارسة. يقال: إن المطايا كانت منها أربعمائة حدثني بذلك من لقيته إلى ما يناسب ذلك من طرف

وقام بأمر الأندلس من بعده ابنه محمد المعروف بالملخوع. واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم من مشيخة رندة، كان اصطفاه لكتابته أيام أبيه، فاضطلع بأمره وغلب عليه.

وكان هذا السلطان الملخوع ضريب البصر ويقال: إنه ابن الحكيم، فغلب عليه واستبد إلى أن قتلها أخوه أبو الجيوش نصر سنة ثمان وسبعمائة كما نذكره، وكان من أول آرائه عند استيلائه على الأمر من بعد أبيه المبادرة إلى إحكام ولاية السلطان، واتصال يده بيده، فأوفد إليه لحين ولايته وزير أبيه السلطان عزيز الداني، ووزيره الكاتب أبا عبد الله بن الحكيم، فوفدوا على السلطان بمعسكره من حصار تلمسان وتلقوا بالقبول والمبرة، وجددت له أحكام الود والولاية، وانقلب إلى مرسلهما خير منقلب.

وتقدم السلطان إليهم في المدد برجل الأندلس وناشبتهم المعودين منازل الحصون والمنساعة بالرباط، فتبادروا إلى إسعافه، وبعثوا حصتهم لحين مرجعهم إلى سلطانهم، فوصلت سنة اثنتين وسبعمائة، وكانت لهم نكاية في العدو وأثر في البلد المحروب.

ثم بدا لمحمد بن الأحمر الملخوع في ولاية السلطان بمنافسات جرت إلى ذلك.

وبعث إلى ابن أدفونش هرائدة بن شانجه، وأحكم له عقد السلم ولاطفة في الولاية، فانقعد ذلك بينهما سنة ثلاث وسبعمائة واتصل خبره بالسلطان فخطه ورجع إليهم حصتهم آخر سنة ثلاث وسبعمائة، لسنة من مقدمهم بعد أن أبلوا وأثخنوا، وطوى لهم على النكت واعتمل ابن الأحمر وشيعته في الاستعداد لمدافة السلطان والإرصاد لسطوه بهم.

وأوعز إلى صاحب مالقة عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن محمد بن نصر، وليه من دون القرابة بما كان له الصهر على أخته، والمضطلع بشغر الغربية، فأوعز إليه بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان والقبض على بني العزفي، والرجوع إلى ولاية ابن الأحمر.

وكان أهل سبتة منذ هلك إبراهيم الفقيه أبو القاسم العزفي سنة سبع وسبعين وستمائة قام بأمرهم ولده أبو حاتم، وكان أخوه أبو طالب رديفاً له في الأمر إلا أنه استبد عليه بصاغيته إلى الرئاسة، وإيثار أبي حاتم للخمول مع إيجابه حتى أخيه الأكبر، وإجابته الداعي متى روعف إليه فاستقام أمرهما مدة.

وكان من سياستهما من أول أمرهما، الأخذ بدعوة السلطان فيما لظرفهما، والعمل بطاعته والتجاني عن السكنى بقصور الملك والتخرج عن أهبة السلطان لمكانهم، فانزلوا بالقصبة

وطال ما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه به، يهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً، وكان الناس لعهدهم ذلك يهتمون أن الذين نهوهم أعراب حصين بدسياسة من صاحب تلمسان أبي حمو لعهدهم، منافسة لصاحب المغرب لما بينهم من العداوات والإحسان القديمة.

أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الألبلي قال: حضرت بين يدي السلطان وقد وصله بعض الحاج من أهل بلده مستصحباً كتاب الملك الناصر بالعتاب على شأن هؤلاء الأمراء، وما أصابهم في طريقهم من بلاده، وأهدى له مع ذلك كوزين بدهن البلسان المختص ببلدهم، وخمسة ممالك من الترك رماة بمخمة أقواس من قسي الغز المؤنفة الصنعة من العرى والعقب، فاستقل السلطان هديته تلك بنسبة ما أهدوا إلى ملك المغرب، ثم استدعى القاضي محمد بن هدية، وكان يكتب عنه فقال له: الآن أكتب إلى الملك الناصر ما أقول لك، ولا تحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيه صناعة الأعراب، وقل له: أما عتابك على شأن الرسل وما أصابهم في طريقهم فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذراً مما أصابهم، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من غوائل الأعراب، فكان جوابهم: إنا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف! مغترين بشأنهم يحسبون أن أمره نافذ في أعراب قبائلنا.

وأما الهدية فردت عليك، أما دهن البلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت وحسبنا به دهنًا.

وأما الممالك الرماة قد افتحنا بهم إشبيلية وصرفناها إليك لتفتح بهم بغداد والسلام.

قال لي شيخنا: وكان الناس إذ ذاك لا يشكون أن انتهابهم كان بإذن منه، وكان هذا الكتاب دليلاً على ما في نفسه.

وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

الخبر عن انتفاض ابن الأحمر واستيلاء

الرئيس أبي سعيد على سبتة وخروج

عثمان بن أبي العلاء في غمارة

لما أحكم السلطان عقد المهادنة والولاية مع السلطان ابن الأحمر المعروف بالفقيه، عند إجازته إليه بطنجة سنة اثنتين وتسعين وستمائة كما ذكرناه، وفرغ لعدوه تمسك ابن الأحمر بولايته تلك إلى أن هلك سنة إحدى وسبعمائة في شهر شعبان منه.

عبد الله بن مخلص قائداً من البيوتات اصطنعوه وجعلوا له أحكام البلد، وضبط الحامية له فاضطلع بذلك ستين.

ثم أسفه يحيى بن أبي طالب ببعض النزعات الرياسية وحجر عليه الأحكام في ذويه، ثم أغزى به أباه وطالبه بحساب الخراج لعطاء الحامية وغفلوا عما وراءها من التظنن فيه والريبة به ثقة بمكانه واستنامة إليه.

وهم مع ذلك على أولهم في موالة السلطان والأخذ بدعوته والوفود عليه في أوقاته.

ولما فسدت ولاية ابن الأحمر للسلطان وعقد على محاولة سبته وجد السبيل إلى ذلك بما طوى صاحب الأحكام بالقصبة على النكت، فداخله الرئيس أبو سعيد صاحب الثغر بمالقة جارة

سبته، ووعدته الغدر ببني العزفي وأن يصحبهم بأساطيله، فشرع الرئيس أبو سعيد في إنشاء الأساطيل البحرية، واستنفر الناس للمناغرة، وإن العدو له ولمالقة بمرصد، وشحنها بالفرسان والرجل والناشبة والأقوات، وأخفى وجه قصده عن الناس، حتى إذا أقلعت أساطيله وبيت سبته لسبع وعشرين من شوال سنة خمس وسبعمئة وأرسل بساحتها لموعد صاحب القصبة، فأدخله إلى حصنه فملكه، ونشر رايته بأسوارها، وسرب جيوشه إلى البلد فتسابلوا وركب إلى دور بني العزفي فتقبض عليهم، وعلى ولدهم وحاشيتهم.

وطير الخبر إلى السلطان بغرناطة، فوصل الوزير أبو عبد الله بن الحكيك، ونادى في الناس بالأمان، ويسط المعدلة، وأركب بني العزفي في السفن إلى مالقة.

ثم أجازوا إلى غرناطة وقدموا على ابن الأحمر، فأجل قدومهم وأركب الناس إلى لقائهم، وجلس له جلوساً فخماً حتى أدوا بيعتهم وقضوا وفادتهم، وأنزلوا بالقصور وأجريت عليهم سنيات الأرزاق، واستقروا بالأندلس إلى أن صاروا إلى المغرب بعد كما نذكر.

واستبد الرئيس أبو سعيد بأمر سبته وثقف أطرافها وسد ثغورها، وأقام دعوة ابن عمه صاحب الأندلس بانهاها.

وكان عثمان بن أبي العلاء بن عبد الحق من أعياص الملك المريني أجاز معه البحر إليها أميراً على الغزاة الذين كانوا بمالقة، وقائداً لعصبتهم تحت لوائه فموه بنصبه للملك بالمغرب.

وخطب قبائل غمارة بذلك، فوقفوا بين الإقدام والإحجام واتصل ذلك كله بالسلطان وهو بمعسكره من حصار تلمسان، فاستشاط لها غضباً وحمي أنفه بعزه، واستنفره الصريخ، فبعث ابنه

الخبر عن انتقاض بني كمي من بني عبد الواد وخروجهم بأرض السوس

كان هؤلاء الرهط من بني عبد الواد ثم من بطون بني عليّ من شعب أبي القاسم، وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كندوزين بن كمي. ولما استقل برياسة أولاد عليّ زيان بن ثابت بن محمد من أولاد طاع الله، نفس عليه كندوز هذا ما أناه الله من الرياسة، وجاذبه جبلها، واحتقر زيان شأنه فلم يحفل به، ثم ناشب عليه أخلاط من قومهم وواضعهم الحرب.

وهلك زيان بيد كندوز، وقام بأمر أولاد عليّ جابر بن يوسف بن محمد.

ثم تناقلت الرياسة فيهم إلى أن عادت في ولد ثابت بن محمد، واستقل بها أبو عزة زكدان بن زيان ولم تطل أيامه.

والتحم بين أولاد كمي وبين أولاد طاع الله، وتناسوا الإحن، وصارت رياسة أولاد طاع الله يغمراسن بن زيان، واستبوعوا قبائل عبد الواد كافة، واعتمل يغمراسن في الشار بأبيه زيان من قاتله كندوز، فاغتاله بيته، دعاه لمأدبة جمع لها بني أبيه، حتى إذا أطمأن المجلس تعاوروه بأسيايفهم واحتزوا رأسه، ويعثوا به إلى أمهم، فنصبت عليه القدر ثالث اثافيها تشفياً منه وحفيظة.

وطالب يغمراسن بقية بني كندوز ففروا أمام مطالبته، وأبعدوا المذهب ولحقوا بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص، فأقاموا بسدته أحوالاً، وكانوا يرجعون في رياستهم لعبد الله بن كندوز، ثم تذكروا عهد البداوة وحثوا إلى عشير زناتة، فراجعوا المغرب ولحقوا ببني مرين أقتانهم.

كابر عن كابر، ولقد أدركت بفاس على عهد السلطان أبي عنان وأخيه أبي سالم من بعده شيخاً كبيراً من ولد عبد الرحمن هذا، فحدثني بمثل ذلك، وأنهم ولد أبي بكر الصديق، واللّه أعلم. ولم يزل بنو كندوز مشردين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان، وراجعوا طاعة الملوك من بني مرين من بعده وعفوا لهم عما سلف من هذه الجريمة، وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية، فأحضوا النصيحة والمخالصة إلى هذا العهد كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك المشيخة المصامدة بتليس أبي الملياني

قد ذكرنا شأن أبي علي الملياني وأوليته في أخبار مغراوة الثانية، وما كان من ثورته بمليانة وانتزاعه عليها.

ثم إزعاج العساكر إياه منها ولحاقه بيقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين، وما أحله من مراتب التكرمة والمبرة.

وأقطعه بلد أغمات طعمة، فاستقر بها، وما كان منه في العيث بأشلاء الموحدين ونبش أجدانهم، وموجدة السلطان والناس عليه لذلك.

وأرصد له المصامدة الغوائل لما كان منه في ذلك، ولما هلك ياقوب بن عبد الحق استعمله يوسف بن يعقوب على جباية المصامدة، فلم يضطلع بها وسعى به مشيختهم عند السلطان أنه احتجن المال لنفسه، وحاسبوه فصدقوا السعاية، فاعتقله السلطان فأقصاه، وهلك سنة ست وثمانين وستمائة واصطنع السلطان أحمد ابن أخيه واستعمله في كتابته، وأقام على ذلك ببابه وفي جملة.

وكان السلطان سخطه على مشيخة المصامدة علي بن محمد كبير هتائة، وعبد الكريم بن عيسى كبير كدميرة، وأوعز إلى ابنه علي الأمير بمراكش باعتقالهما، فاعتقله فيمن لهما من الولد والحاشية، وأحسن بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثار.

وكانت العلامة السلطانية على الكتاب في الدولة لم تختص بكتاب واحد، بل كل منهم يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله، لما كانوا كلهم ثقة أمناء، وكانوا عند السلطان كأسيان المشط.

فكتب أحمد بن الملياني إلى ابن السلطان الأمير بمراكش سنة سبع وتسعين وستمائة كتاباً عن أمر أبيه، يأمره فيه بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين، ووضع عليه العلامة التي تنفذ بها الأوامر، وختم الكتاب، وبعث به مع البريد ونجا بنفسه إلى البلد

ونزل عبد الله بن كندوز على يعقوب بن عبد الحق خير نزل، لقاءه من البر والترحيب بما ملأ صدره وأكد اغتباطه وأقطعه بناحية مراكش الكفاية له ولقومه، وأنزلهم هنالك.

وجعل انتجاع إبله وراحلته لحسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخيه موسى من ذويهم وحاشيتهم، وألطف منزلة عبد الله ورفع مكانه بمجلسه، واكتفى به في كثير من أموره وأوفده على المستنصر صاحب إفريقية سنة خمس وستين وستمائة مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدمناه.

واستقر بنو كندوز هؤلاء بالغرب الأقصى، واستمرت الأيام على ذلك وصاروا من جملة قبائل بني مرين وفي عدادهم.

وهلك عبد الله بن كندوز وصارت رياستهم لعمر ابنه من بعده.

ولما لفت السلطان يوسف بن يعقوب عزائمهم إلى بني عبد الواد ونازل تلمسان، وطاول حصارها، واستطال بنو مرين وذوهم على بني عبد الواد، وأحسوا بها أخذتهم العزة بالإثم، وأدركتهم النفرة، فأجمع بنو كندوز هؤلاء الخلاف والخروج على السلطان ولحقوا بحاجة سنة ثلاث وسبعمئة.

واحتفل الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب لغزوهم سنة أربع وسبعمئة، فنانجزوه الحرب بتادرت، واستمروا على خلافهم.

ثم قاتلهم يعيش وعساكره ثانية بتامطريت سنة أربع وسبعمئة فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصّت جناحهم وأوهنت بأسهم.

وقتل جماعة من بني عبد الواد بأرعارن وبامكا، وأثنى يعيش بن يعقوب في بلاد السوس، وهدم تارودانت قاعدة أرضها وأم قراها، كان بها عبد الرحمن بن الحسن بن يدر من بقية الأمراء على السوس من قبل بني عبد المؤمن، وقد مر ذكرهم.

وكانت بينه وبين عرب المعقل من الشبانان وبني حسان منذ انقضت دولة الموحدين حروب سجال هلك في بعضها عمه علي بن يدر سنة ثمان وستين وستمائة وصارت أمارته بعد حين إلى عبد الرحمن هذا، ولم يزالوا في حربه إلى أن تملك السوس يعيش بن يعقوب، وهدم تارودانت.

ثم راجع عبد الرحمن أمره وبني بلده تارودانت هذه سنة ست بعدها.

وتزعم بنو يدر هؤلاء أنهم مستقرون بذلك القطر من لدن عهد الطوالع من العرب، وأنهم لم يزالوا أمراء بها يعقد لهم ولاية

عليهم، فسطا بهم سطوة واحدة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعمائة بمعسكره من حصار تلمسان.

وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثل بهم، وأنت النكبة على حاشيتهم وذويهم وأقاربهم، فلم يبق منهم باقية، واستبقى منهم خليفة الصغير احتقاراً لشأنه، حتى كان من قتله بعد ما نذكر، وعبث بسائرهم، وطهرت الدولة من رجسهم، وأزيلت عنها معرة رياستهم، والأمور بيد الله سبحانه.

الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب

كان في جملة السلطان وحاشيته مولى من العبيدي الخصيان من موالي ابن الملياني يسمى سعادة، صار إلى السلطان من لدن استعماله إياه بمراكش، وكان على ثبج من الجهل والغباء.

وكان السلطان يخلط الخصيان بأهله ويكشف لهم الحجاب عن ذوات محارمه، ولما كانت واقعة العز مولاه، واتهم بمداخلة بعض الحرم، وقتل بالظنة، واستراب السلطان بكثير من حاشيته الملايين لداره، اعتقل جملة من الخصيان كان فيهم عنبر الكبير عريفهم، وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وسولت لهذا الخصي الخيثة نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان، فعمد إليه وهو ببعض الحجر من قصره، وآذنه فأذن له فألفاه مستلقياً على فراشه مختضباً بالحناء، فوثب عليه فطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هارباً، وانطلق الأولياء في أثره، فادرك من العشي بناحية تاسالة فقبض عليه، وسبق إلى القصر فقتله العبيد والحاشية، وصابر السلطان مشبه إلى آخر النهار، ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة وقبر هنالك، ثم نقل بعد ما سكنت الميعة إلى مقبرتهم بشالة، فدفن بها مع سلفه والبقاء لله وحده.

الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت

واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من

الأحداث

كان الأمير أبو عامر ابن السلطان أبي يعقوب وولي عهده لما هلك طريداً ببلاد بني سعيد من غمارة والريف سنة ثمان وتسعين وستمئة كما ذكرناه، خلف ولديه عامراً وسليمان في كفالة السلطان جدهما، فكان لهما بعينه حلاوة وفي قلبه لوطه،

الجديد، وعجب الناس من شأنه.

ولما وصل الكتاب إلى ابن السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين من المصامدة إلى مصارعهم، وقتل علي بن محمد، وعبد الكريم بن عيشي وولد عيسى، وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز.

وطير الأمير وزيره إلى أبيه بالخبر فقتله حينه حتقاً عليه، وأنفذ البريد باعتقال ابنه، وحرّد على ابن الملياني فافتقد ولحق بتلمسان ونزل على آل زيان، ثم لحق من بعدها بالأندلس عند إفراج السلطان عنها في تلك السنة كما ذكرناه، وبها هلك.

واقصر السلطان من يومئذ في صنع علامته على من يختاره لها من صنائعه، ويثق بأمانته.

وجعلها لذلك العهد لعبد الله بن أبي مدين خالسته المظطلع بأمور مملكته، فاخصت من بعده لهذا العهد، والله تعالى أعلم.

الخبر عن رياسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم

كان السلطان يوسف بن يعقوب في صباه مؤثراً للذاته مستتراً بها عن أبيه يعقوب بن عبد الحق لمكانه من الدين والوقار، وكان يشرب الخمر ويعاقب بها الندمان.

وكان خليفة بن رقاصة من اليهود المعاهدين بفاس قهرماناً لداره على عادة الأمراء في مثله من المعاهدين، فكان يزدلف إليه بوجوه الخدم ومذاهبها، فاستعمله هذا الأمير في اعتصارها والقيام على شؤونها، فكانت له بذلك خلوة منه أوجبت له الحظ عنده، حتى إذا هلك يعقوب بن عبد الحق واستقل ابنه يوسف بأعباء ملكه، واتصلت خلواته في معاقرة الندمان، انفرد ابن رقاصة بخلوته لذلك مع ما كان من القهرمة، فعظمت رياسته وعلا كعبه في الدولة، وتلقى الخاصة الأوامر منه، فصارت له الوجاهة بينهم وعظم قدره بعظم الدولة.

أخبرنا شيخنا الألبلي أنه كان لخليفة هذا أخ يسمى إبراهيم، وابن عم يسمى خليفة، لقبوه بالصغير لمكانه هو من هذا الاسم.

وكان له صهر يعرفون ببني السبي، كبيرهم موسى، وكان رديفه في قهرمته، فلم يبق السلطان من نشوة صباه وملهاه حتى وجدهم على حال استبعوا فيها العلية من القبيل والوزراء والشرفاء والعلماء فأهمه ذلك وترصد بهم وتفتن لذهبه فيهم خالسته عبد الله بن أبي مدين فسعى عنده فيهم، وأوجده السبيل

لمكان حبه لأبيهما واغترابه عنه، فحذب عليهما وأنزلهما من نفسه بمكان.

وكان الأمير أبو ثابت عامر منهما صقر قومه، إقداماً وشجاعة وجراً، وكانت له في بني ورتاجن خذولة، فلحين مهلك السلطان عرضوا له ودعوه للبيعة فبايعوه، وحصر لها الأمير أبو يحيى بن يعقوب عم أبيه، عشر بمجمعهم اتفاقاً، وحملوه على الطاعة، وكان أقرب للأمر منه لو حضره رجال، فأعطى القياد في المساعدة، وطوى على النكت.

وبادر الخاشية والوزراء بالبلد الجديد عند مهلك السلطان، فبايعوا ابنه الأمير أبا سالم.

وكاد أمر بني مريس أن يفترق وكلمتهم أن تفسد، فبعث الأمير أبو ثابت لحينه إلى تلمسان للأمير أبي زيان وأبي محو ابني عثمان بن يغمراسن، وعقد لهما حلفاً على الإفراج عنهما، على أن يمدها بالأكل ويرفعها له كسر البيت إن كان غير ما أمل.

وحضر للعقد أبو محو فأحكمه ومال أكثر بني مريس وأهل الحل والعقد إلى الأمير أبي ثابت.

وتفرد ببيعة أبي سالم البطانة والوزراء والخاشية والأجناد ومن إليهم، وكان مسكنه بالبلد الجديد، وأشاروا عليه بالمناجزة فخرج وقد عبأ كتابه، فوقف وبهت وخام عن اللقاء ووعدهم الإقدام بالغداة، وكر راجعاً إلى قصره، فيسوا منه، وتسلبوا لواءاً إلى الأمير أبي ثابت، وهو بمقرب من الجبل يطل عليهم حتى إذا انحجز أبو سالم بالبلد، انحاش إليه الجملة دفعة واحدة.

فلما استوفت العساكر والقبائل لديه، زحف إلى البلد الجديد مثنى السلطان وسياج قصوره ومخطط عزمه، وانتهى إلى ساحتها معتماً.

وخرج إليه الوزير يحلف بن عمران الفودودي، فأرجل عن فرسه بأمر أبي يحيى، وقتل بين يديه قصصاً بالرمح، وكان قريب عهد بالوزارة، استوزره السلطان قبل مهلكه في شعبان من سنة ست وسبعمائة.

وفر أبو سالم إلى جهة المغرب وصحبه من عشيره من أولاد رحو بن عبد الله بن عبد الحق العباسي وعيسى وعلي ابنه رحو وابن أخيه جمال الدين بن موسى.

وأنبعهم الأمير أبو ثابت شزيمة من عسكره أدركوهم بندرومة، فتقبضوا عليهم ونفذوا أمر السلطان بقتل أبي سالم وجمال الدين، واستبقى الآخرين، وأمر بإحراق باب البلد ليفتحها العسكر، فساطل عليه قهرمان دارهم عبد الله بن أبي مدين

الكاتب، وأخبره بفرار أبي سالم، وباتفاق الناس على طاعته.

ورغب إليه في المسألة ليلتهم حتى يفجر الصباح خشية على دارهم من معرة العساكر وهجومها ففعل.

وأمره الأمير أبو يحيى باعتقال أبي الحجاج بن أشقيلولة، فاعتقله لتقديم من العداوة كانت بينهما، ثم أمر بقتله، وإنفاذ رأسه فقتل.

وأمر السلطان ليلتذ بإضرام النيران حتى إذا أضاء الظلام بات راكباً، ودخل القصر لصبحه فوارى جسد السلطان بعد أن صلى عليه.

وغص بمكان الأمير أبي يحيى لما تعدد فيه الترشيح وفأوض في شأنه كبير القربة يومئذ عبد الحق بن عثمان ابن الأمير أبي يفرن، محمد بن عبد الحق ومن حضره من الوزراء: مثل إبراهيم بن عبد الجليل الونكاسي وإبراهيم بن عيسى الزيناني وغيرهما من الخاصة، فأشاروا بقتله، ونميت عنه كلمات في معنى التربص بالسلطان ودولته، وابتغاء العصابة لأمره.

وركب الأمير أبو يحيى إلى القصر ثالث البيعة، فأخذ السلطان بيده ودخل معه إلى الحرم، لعزائهن عن أخيه السلطان.

ثم خرج على الخاصة وتحلف عنه السلطان وقد دس إلى عبد الحق بن عثمان أن يتقبض عليه ففعل.

ثم برز السلطان إليهم وهو موقوف فأمر بالإجهاز عليه، ولم يمهله، والحق به يومئذ وزيره عيسى بن موسى الفودودي، وفشا الخبر بمهلك هؤلاء الرهط، فرغب منه القربة، ففر يعيش بن يعقوب أخو السلطان وابنه عثمان المعروف بأمه قضيب ومسعود بن أبي مالك، والعباس بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق ولحقوا جميعاً بعثمان بن أبي العلاء بمكانه من غمارة، وخلا الجو من المرشحين، واستبد السلطان بملك قومه، وأمن غوائل المنازعين.

ولما تم له الأمر واستوسق الملك، وفي لبني عثمان بن يغمراسن بالإفراج عنهم، ونزل لهم عن جميع البلاد التي صارت إلى طاعته من بلاد المغرب الأوسط من أعمالهم، وأعمال بني توجين ومغراوة، ودعاه إلى بدار المغرب، ما كان من اختلال عثمان بن أبي العلاء بن عبد الله بن عبد الحق بسبته، ودعائه لنفسه بين يدي مهلك السلطان، وخروجه إلى بلاد غمارة، واستيلائه على قصر كتامة، واعتزم على الرحلة إلى المغرب وفوض الأمر في الرحلة بأهل المدينة الجديدة للوزير إبراهيم بن عبد الجليل لما كانت حيثئذ عامرة بالسكان مستبحرة في الاعتماد، ممثلة من الخرائن والآلة، فأحسن السياسة في أمرهم وضرب لهم

ولما لحق يوسف بن أبي عياد بجبال هسكورة، نزل على مخلوف بن عبو، وتذمم بجواره، فلم يجره على السلطان، وتقبض عليه، واقتاده إلى مراكش مع ثمانية من أصحابه تولوا كبر ذلك الأمر، فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم بالسياط.

وبعث رأس يوسف إلى فاس، فنصب بسورها وأثنى بالقتل فيمن سواهم ممن داخله في الانتزاع، فاستلحم منهم أمماً بمراكش وأغماط.

وسخط خلال ذلك وزيره إبراهيم بن عبد الجليل فاعتقله واعتقل عشرة من بني دولين من بني ونكاسن، وقتل الحسن بن دولين منهم، ثم عفا عنهم.

وخرج منتصف شعبان إلى منازل السكسيوي وتدويخ جهات مراكش، فتلقاها السكسيوي بطاعته المعروفة، وأسنى الهدية فتقبل طاعته وخدمته.

ثم سرح قائدة يعقوب بن أصناك في اتباع زكنة حتى توغل في بلاد السوس ففروا أمامه إلى الرمال، انقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان.

وانكفأ السلطان بعساكره إلى مراكش، فاحتل بها غرة رمضان.

ثم قفل إلى فاس بعد أن قتل جماعة من شيوخ بني دورا، وجعل طريقه على بلاد صنهاجة، وسار في بلاد تامسنا، وتلقاه عرب جشم من قبائل الخلط ومفيان وبني جابر والعاصم، فاستصحبهم إلى أنفى وتقبض على ستين من أشياخهم، فاستلحم منهم عشرين ممن نمي عنهم إفساد السابلة، ودخل رباط الفتاح أخريات رمضان فقتل هنالك من الأعراب أمة ممن يؤثر عنه الحراية، ثم ارتحل منتصف شوال لغزو رياح أهل أزغار والهبط، وأثار منهم بالإحن القديمة، فأنخن فيهم بالقتل والسبي وقفل إلى فاس، فاحتل بها منتصف ذي القعدة.

وجاءه الخبر بهزيمة عبد الحق بن عثمان، واستلحم الروم من عسكره، ومهلك عبد الواحد الفردودي من رجالات دولته.

وإن عثمان بن أبي العلاء قد استغفل أمره بجيات غمارة، فاجمع لغزوه، والله أعلم.

الآجال والمواعيد أن استوفوا بالرحلة، وتركوها قواء، خربها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين إلى المغرب، وتحينوا لذلك فترات الفتن، وطمسوا معالمها طمساً ونسفوها نسفاً.

وقدم السلطان بين يديه من القرابة الحسن بن عامر بن عبد الله أتعجوب في العساكر والجنود، وعقد له على حرب ابن أبي العلاء.

وتلوم بالبلد الجديد لموافاة المسالحي التي كانت ببنغور الشرق، لما نزل عنها جميعاً لبني عثمان بن يغمراسن وارتحل غرة ذي القعدة، ودخل فاس فاتح سبع وسبعمائة والله أعلم.

الخبر عن انتزاع يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلب السلطان عليه

لما فصل السلطان أبو ثابت من معسكرهم بتلمسان إلى المغرب، قدم بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الله أتعجوب ابن السلطان أبي يوسف في العساكر والجنود، وعقد له على حرب عثمان بن أبي العلاء كما ذكرنا، وعقد له على بلاد مراكش ونواحيها لابن عمه الآخر يوسف بن محمد بن أبي عياد بن الحق، وعهد له بالنظر في أحوالها، فسار إليها واحتل بها.

ثم حدثته نفسه بالانتزاع، فقتل السوالي بمراكش، واستركب واستلحق، واتخذ الآلة، وجاهر بالخلعان.

وتقبض على والي البلد فقتله بالسوط في جمادى سنة سبع وسبعمائة، ودعا لنفسه.

واتصل الخبر بالسلطان لأول قدومه، فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود الجشمي، ويعقوب بن أصناك في خمسة آلاف من عساكره، ودفعهم إلى حربه، وخرج في أطهرهم بكتائبه.

وبرز يوسف بن أبي عياد، وأجاز وادي أم الربيع فانهمز أمام الوزير وعساكره وأتبعه الوزير ففر إلى أغماط.

ثم فر إلى جبال هسكورة، ولحق به موسى بن أبي سعيد الصبيحي من أغماط، تلى من سورها، ودخل الوزير يوسف في مراكش، ثم خرج في أثره ولحقه، فكانت بينهما جولة، وقتل منهم خلقاً، ولحق بهسكورة.

ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين كانوا له في انتزاعه فاستلحموا.

الخبر عن غزاة السلطان لمدافعة عثمان بن أبي العلاء ببلاد الهبط ومهلكه بطنجة من

بعد ظهوره

الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من رجال بيته، فزحف إليه، ونهض عثمان إلى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع وسبعمائة فهزمه واستلحم من كان معه من جند الروم.

وهلك في تلك الواقعة عبد الواحد القودودي من رجالات السلطان المرشحين ردفاء الوزارة، وصار عثمان إلى قصر كتامة فنأزله، واستولى على جهاته.

وعلى تهيئة ذلك كان رجوع السلطان من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحا أثر النفاق، فاعتزم على الحركة إلى بلاد غمارة ليمحو منها دعوة ابن أبي العلاء التي كانت تلج عليه بمالكة بالمغرب، ويرده على عقبه ويستخلص سبته من يد ابن الأحمر لما صارت ركاباً لمن يروم الانتزاع والخروج من القرابة والأعياص المستغفرين وراء البحر غزاة في سبيل الله، فنهض من فاس منتصف ذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة. ولما انتهى إلى قصر كتامة تلزم بها ثلاثاً حتى توافت عساكره وحشوده، وكمل اعتراضها وفر عثمان بن أبي العلاء أمامه، وارتحل السلطان في اتباعه فنال حصن علودان واقتحمها عنوة، واستلحم بها زهاء أربعمائة.

ثم نازل بلد الدمنة، فاقتحمها وأثنى فيها قتلاً وسيياً لتمسكها بطاعة ابن أبي العلاء ومظاهرتها له، على كبس القصر واستباحته.

ثم ارتحل إلى طنجة واحتل بها غرة سنة ثمان وسبعمائة وانحجز ابن أبي العلاء بسبته مع أوليائه وسرح السلطان عساكره، ففترت نواحي سبته بالاكساح والغارة.

وأمر باختطاط بلد تيطاوين لنزول عساكره والأخذ بمخنق سبته، وأوقد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إليهم في شأن النزول له عن البلد.

وفي خلال ذلك اعتل السلطان بمرض وقضى لأيام قلائل في ثامن صفر من سته، ودفن بظاهر طنجة، ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك.

رحمة الله عليه وعليهم.

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع وما

كان فيها من الأحداث

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمه رزيكة، وخلص الملا من

لما ملك الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بسبته سنة خمس وسبعمائة، وأقام بها الدعوة لابن عمه المخلوع محمد بن محمد الفقيه بن محمد بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر كما ذكرناه، وأجاز معه رئيس الغزاة المجاهدين بمحل إمارته من مالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق من أعياص هذا البيت، كان مرشحاً للملك فيهم.

واستقدمه معه ليفرق به الكلمة في المغرب ويشغل بفتنة الدولة مدافعة عن سبته لما كانوا أهاجوا السلطان وقومه بأخذها واستنام ملكها.

وطمع عثمان في ملك المغرب بإمدادهم ومظاهرتهم، وسولت له نفسه ذلك، فخرج من سبته وولى على جيش الغزاة بعده عمر ابن عمه رحو بن عبد الله.

ونجم هو ببلاد غمارة، فدعا لنفسه وأجابه القبائل منهم. واحتل بحصن علودان من أمنع معاقلمهم، وبايعوه على الموت، ثم نهض إلى أصيلا والعرائش فغلب عليها.

واتصل ذلك كله بالسلطان الهالك أبي يعقوب فلم يحركه استهانة بأمرهم.

وبعث ابنه أبا سالم بالعساكر، فنال سبته أياماً، ثم ألق عنها، وبعث بعده أخاه يعيش بن يعقوب وأنزله طنجة، وجهاز معه الكتاب وجعلها ثغراً.

وزحف إليه عثمان بن أبي العلاء فتأخر عن طنجة إلى القصر، ثم اتبعه فخرج أهل القصر فرساناً ورجالاً ورماة مع يعيش، فوصلوا إلى وادي ورا، ثم انهزموا إلى البلد.

ومات عمر بن ياسين، ونال عثمان عليهم القصر يوماً، ثم دخله من غده.

ثم كان مهلك السلطان، ومفر يعيش بن يعقوب خيفة من أبي ثابت، فلحق بعثمان بن أبي العلاء واستقام أمره بتلك الجهات برهة.

وكان السلطان أبو ثابت لما احتل بالمغرب شغله ما كان من انتزاع يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه، فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء مكان عمه يعيش بن يعقوب لعبد

وكان بنو عبد الحق قد تخيروا شعيب هذا فيمن تخيروا للصحابه من أهل الدين، فكان إمام صلاتهم. وكان يعقوب بن عبد الحق أشدهم صحابة له، وأوفاهم به ذماماً فاتصل به حبله، واستمرت صحابته، وعظم في الدولة قدره وانبسط بين الناس جاه ولده وأقاربه وحاشيته. ورى بنو شعيب هذا: عبد الله ومحمد المعروف بالحاج، وأبو القاسم من بعدهم من إخوتهم بقصر كتامة في جو ذلك الجاه.

وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستخلصهم يوسف بن يعقوب خدمته، واستعملهم على تختصاته، ثم ترقى بهم في رتب خدمته وأخصائه، درجة بعد أخرى إلى أن هلك أبوهم مدين شعيب سنة سبع وتسعين وستمائة وكان المقدم منهم عند السلطان عبد الله، فأوفى به على ثنيات العز والوزارة والخلة والولاية.

وتقدم بخطوته في مجلسه كل خطوة، واختصه بوضع علامته على الرسائل والأوامر الصادرة عنه، وجعل إليه حسابان الخراج والضرب على أيدي العمال، وتقييد الأوامر باليسط والقبض، واستخلصه لمناجاة الخلوات والإفضاء بذات الصدور، فوقف ببابه الأشراف من الخاصة والقبيل والقرابة والولد، وتوددوا وخطبوا نائله.

وكان عبد الله استعمل مع ذلك أخاه محمداً على جباية المصادمة بمراكش، وهنا أبا القاسم الدعة بفاس، فاقام بها متملياً راحته عريضاً جاهه، طاعماً كاسياً، تسرب إليه أموال العمال في سبيل الإنحاف، وتقف ببابه صدور الركايب إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب يوسف.

ويقال: إن له خاتنة في دمه مع سعاية الملباني.

ولما ولي السلطان أبو ثابت ضاعف رتبته وشفع لديه خطته ورفع على الأقدار قدره. ثم ولي من بعده أخوه أبو الربيع فتقبل فيه مذهب سلفه.

وكان بنو رقاصة اليهود حين نكبوا، باشر نكبتهم لكانه من إصدار الأوامر، ويزعمون أن له فيهم سعاية، وكان خليفة الأصغر منهم قد استبقي كما ذكرناه، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة بداره في بعض المهن، ولايس الخدم حتى اتصل بمباشرة السلطان، فجعل غاية السعاية بعبد الله بن أبي مدين.

وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه لا يؤمن بوائقه مع حزم ذويه، وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس، فدرس إلى

بني مرين أهل الحل والعقد إلى أخيه أبي الربيع فبايعوه.

وتقبض على عمه علي بن رزيكة المستام للأمر، فاعتقله بطنجة إلى أن هلك سنة عشر وسبعماية لجمادى، وبث العطاء في الناس وأجزل الصلات وارتحل نحو فاس.

واتبعه عثمان بن أبي العلاء في جيش كثيف، وبيته وقد نذر به العسكر فأيقظوا ليلهم ووافاهم على الظهر بساحة علودان، فناجزهم الحرب، وكانت الدائرة على عثمان وقومه، وتقبض على ولده وكثير من عسكره، وأئخن أولياء السلطان فيهم بالقتل والسبي، وكان الظهور الذي لا كفاء له.

ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر إلى الأندلس، وقد أحكم عقدة الصلح، وقد كان ابن الأحمر جاء للقاء السلطان أبي ثابت، ووصل إلى الجزيرة الخضراء فأدركه خبر مهلكه، فتوقف عن الجواز، وأجاز ابن أبي الصبر بإحكام المؤاخاة.

واجتاز عثمان بن أبي العلاء إلى العدو فيمن معه من القرابة، فلحق بفرناطة.

وأخذ السلطان السير إلى حضرته، فدخل فاس آخر ربيع من سنة ثمان وسبعماية واستقامت الأمور وتمهد الملك، وعقد السلم مع صاحب تلمسان موسى بن عثمان بن يغمراسن، وأقام وادعاً بحضرته.

وكانت أيامه خير أيام، هدنة وسكونة وترفاً لأهل الدولة، وفي أيامه تغال الناس في أثمان العقار، فبلغت قيمتها فوق المعتاد، حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين. وتنافس الناس في البناء فعالوا الصروح، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام وزخرفوها بالزليج والنقوش.

وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره، وأكل الطيب واقتناء الحلبي من الذهب والفضة.

واستبحر العمران، وظهرت الزينة والترف، والسلطان وادع بداره متملاً أريكته إلى أن هلك كما نذكره، إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل عبد الله بن أبي مدين

كان أبو شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان من قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير، وكان متحلاً للدين مشتهراً به.

ولما أجلب بنو مرين على المغرب وجالوا في بسائطه، وتغلبوا على ضواحيه، سحب البر منهم والفاجر من أهله.

السلطان أن عبد الله بن أبي مدين يعرض باتهام السلطان في ابنته، وأن صدره وغر بذلك، وأنه متعرض بالدولة.

وكان يخشى الغائلة لما كان عليه من مداخلة القبيل، ولما كان داعية من دعاة آل يعقوب، فتعجل السلطان دفع غائلته واستدعاه صبيحة زفاف ابنته، زعموا على زوجها فاستحثه قائد الروم من داره بفاس، ونذر بالشر، فلم يغنه النذر، ومر في طريقه إلى دار السلطان بمقبرة أبي يحيى بن العربي، فطعنه القائد هنالك من ورائه طعنة أكبه على ذقنه، واحتز رأسه فألقاه بين أيدي السلطان.

ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجده بين يديه، فذهبت نفسه عليه على مكانه من الدولة حسرة وأسفاً، وأيقظ السلطان لكر اليهودي، فوقفه على براءة كان ابن أبي مدين بعثها معه إلى السلطان بالتوصل والخلف، فتيقظ وعلم مكر اليهودي به، فندم وفنك لحينه بخليفة بن رقاصة وذويه من اليهود المتصدين للخدمة، وسطا بهم سطوة الملكة، فأصبحوا مثلاً للآخرين، والله أعلم.

الخبر عن ثورة أهل سبتة بالأندلسيين

ومراجعتهم طاعة السلطان

لما قفل السلطان أبو الربيع من غزاة سبتة بعد أن شرد عثمان بن أبي العلاء وأحجزه بسبتة، وأجاز منها إلى العدو ومن كان معه من القرابة كما قلناه، بلغه الخبر بضجر أهل سبتة، ومرض قلوبهم من ولاية الأندلسيين عليهم وسوء ملكتهم.

ودس إليه بعض أشياعه بالبلد يمثل ذلك، فأغزى صنيعته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخا وزيره في عساكر ضخمة من بني مرين، وسائر الطبقات من الجنند.

وأوعز إليه بالتقدم إلى سبتة ومنازلتها، فأخذ إليها السير ونزل بساحتها، ولما أحس به أهل البلد بهشت رجالاتهم وتنادوا بشعارهم، وثاروا على من كان منهم من قواد ابن الأحمر وعماله وأخرجوا منها حاميته وجنوده، واقتحموا العساكر واحتل تاشفين بن يعقوب بقصبتها عاشر صفر من سنة تسع وسبعماية.

وطير الفرائق بالخبر إلى السلطان فعم السرور وعظم شأن الفتح، وتقضى على قائد القصة أبي زكريا يحيى بن مليلة، وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة، وعلى قائد الحروب بها من الأعياص عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، كان صاحب الأندلس عقد له مكان ابن عمه عثمان بن أبي العلاء عند إجازته البحر إلى الجهاد كما ذكرنا، وكتب إلى السلطان بالفتح، وأوقد

عليه الملأ من مشيخة سبتة وأهل الشورى.

وبلغ الخبر إلى ابن الأحمر فارتاع لذلك وخشي عادية السلطان، وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة.

وكان الطاغية في تلك الأيام نازل الجزيرة الخضراء، وأقلع عنها على الصلح بعد أن أذاقها من الحصار شدة، وبعد أن نازل جبل الفتح، فتغلب عليه وملكه.

وانهزم زعيم من زعمائه يعرف بالفنش بيرس، هزمه أبو يحيى بن عبد الله بن أبي العلاء صاحب الجند بمالقة، لقيه يجوس خلال البلاد بعد تملك الجبل، فهزم النصارى وقتلوا أبرح قتل.

وأهم المسلمين شأن الجبل قبادر السلطان أبو الجيوش، بإنفاذ رسله راغبين في السلم خاطبين للولاية، وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها، ترغياً للسلطان في الجهاد، فتقبل منه السلطان وعقد له الصلح على ما رغب، وأصهر إليه في أخته، فأنكحه ليأها، وبعث بالمدد للجهاد، أموالاً وخيولاً وجنائب مع عثمان بن عيسى البرناباني، واتصلت بينهما والمهادنة والولاية إلى مهلك السلطان والبقاء لله وحده.

الخبر عنبيعة عبد الحق بن عثمان بممالاة

الوزير والمشيخة وظهور السلطان عليهم ثم

مهلكه بعد ذلك

كانت رسل ابن الأحمر خلال هذه المهادنة والمكاتبات تختلف إلى باب السلطان، ووصل منهم في بعض أحيانها خلف من مترفيهم، فجاهر بالكباثر، فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر والإدمان عليه.

وكان السلطان منذ شهر جمادى الأول سنة تسع وسبعماية قد عزل القاضي بفاس أبا غالب المغربي، وعهد بأحكام القضاء لشيخ الفتيا المذكور بها أبي الحسن الملقب بالصغير.

وكان على شبح من تغيير المنكرات والتعسف فيها، حتى لقد كان مطاوعاً في ذلك وسواس السك الأعجمي، متجاوزاً بها الحدود المتعارفة من أهل الشريعة في سائر الأمصار، وأحضر عنده ذات يوم هذا الرسول ثملاً، وحضر العدول فاستروحوه، ثم أمضى حكم الله فيه، وأقام عليه الحدود، وأضرمت هذه الموجدة، فاضطرم غيظاً وتعرض للوزير رحو بن يعقوب الوطاسي منصرفه من دار السلطان في موكب، وكشف عن ظهره يريه أثر السياط وينعي عليهم سوء هذا المرتكب مع الرسل.

وذويهم بالقتل والسبي، ثم اعتل أثناء ذلك وهلك لليال من اعتلاله سلخ جمادى الآخرة من سنة عشر وسبعمائة ووري بصحن الجامع الأعظم من تازى، وبويح السلطان أبو سعيد، كما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد وما كان فيها من الأحداث

لما هلك السلطان أبو الربيع بتازى تطاول للأمر عمه عثمان ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمه قضيب، واستلم المنصب وأسدى في ذلك والحكم، وحضر الوزراء والمشايخ بالقصر بعد هدوء من الليل، فاستشاروا بشيخ القرابة يومئذ وكبير الأعياص المرشحين العاليي القعد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. ودست أخته عربية إليهم بالوعد، وسريت إليهم الأموال.

وجاءهم عثمان ابن السلطان أبي يعقوب مستأماً، فجزروه واستدعوا السلطان أبا سعيد، فحضر وبايعوه ليلتذ وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة.

وسرح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن إلى فاس، فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمائة، ودخل القصر واطلع على أمواله وذخيرته، وفي غد ليلته أخذت البيعة العامة للسلطان بظاهر تازى على بني مرين، وسائر زناتة والقبائل والعرب والعساكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونبلاء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء.

فقام بالأمر واستوسق له الملك، وفرق الأعطيات وأسنى الجوائز، وتفقّد الدواوين ورفع الظلمات، وحط المغارم والمكوس.

وسرح أهل السجون، ورفع عن أهل فاس وظيفة الرباع وارحل لعشرين من شهر رجب إلى حضرته، فاحتل بفاس، وقدم عليه وفود التهته من جميع بلاد المغرب.

ثم خرج لذي القعدة بعدها إلى رباط الفتح لتفقّد الأحوال والنظر في أحوال الرعايا، واهتم بالجهاد، وإنشاء الأساطيل للغزو في سبيل الله.

ولما قضى منسك الأضحى بعده، رجع إلى حضرته بفاس. ثم عقد سنة إحدى عشرة وسبعمائة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس: الجزيرة ووندرة وما إليهما من الحصون.

ثم نهض من الحصون سنة ثلاث عشرة وسبعمائة إلى

فتبرم لذلك الوزير وأدركته حفيظة، وسرح وزعته وحشمه في إحضار القاضي على أسوأ الحالات من التتكيل والتل لذفته، فمضوا لذلك الوجه، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع، ونادى المسلمين، فنارت العامة بهم، ومرج أمر الناس.

واتصل الخبر بالسلطان فتلافاه بالبعث في أولئك النفر من وزعة الوزير، وضرب أعناقهم، وجعلهم عظة لمن وراءهم، فأسرهما الوزير في نفسه، وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد شيخ بني مرين، والمسلم له في شوارهم. وقائد الروم غنصاله المنفرد برياسة العسكر وشوكته، وكان لهم بالوزير اختصاص أثروه له على سلطانه، فدعاهم إلى بيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياص، وخلع طاعة السلطان فأجابوه وبايعوا له، وتم أمرهم نجياً.

ثم خرجوا عاشر جمادى من سنة عشر وسبعمائة إلى ظاهر البلد الجديد بمكان الرمكة، وجأهروا بالخلعان وأقاموا الآلة وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملأ وعسكروا بالعدوة القصوى من سبو تخم بلاد العسكر، وأزاء نبذورة من معاقل الحسن بن علي زعيم تلك الثورة.

ثم ارتحلوا من الغد إلى تازى وخرج السلطان في إثرهم فعسكر بسبو وتلوم لاعتراض العساكر، وإزاحة العلل، واحتل القوم برياط تازى، وأوفدوا على موسى عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد يدعونه إلى المظاهرة واتصال اليد، والمدد بالعساكر والأموال جنوحاً إلى التي هي أثر لديه من تفریق كلمة عدوه، فتناقل عن ذلك لمكان السلم الذي عقد له السلطان أول الدولة، وليستين سبيل القوم.

وقدم السلطان بين يديه يوسف بن عيسى الجشعي، وعمر بن موسى الفودودي في جموع كثيفة من بني مرين.

وسار في ساقتهم، فانكشف القوم عن تازى ولحقوا بتلمسان صريحاً.

وحمد السلطان مغبة نظره في التناقل عن نصرهم ووجد بها الحجة عليهم، إذ غاية مظاهراته إليهم أن يملكهم تازى، وقد انكشفوا عنها فيتموا من صريحه وأجاز عبد الحق بن عثمان ورحو بن يعقوب إلى الأندلس، فأقام رحو بها إلى أن قتله أولاد ابن أبي العلاء، ورجع الحسن بن علي إلى مكانه من قبيلة وعمله من مجلس السلطان بعد أن اقتضى عهده بالأمان على ذلك ولما احتل الحسن بتازى حسم الداء ومحا أثر الشقاق، وأنخن في حاشية الخوارج

الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه من الوقعات

كان للسلطان أبي سعيد اثنان من الولد أكبرهما لأمته الحيشية، وهو علي، والآخر لملوكة من سبي النصرانية وهو عمر. وكان هذا الأصغر أثرهما لديه، وأعلقهما بقلبه منذ نشأ، فكان عليه حديقاً وبه مشغولاً.

ولما استولى السلطان على ملك المغرب، رشحه لولاية عهده، وهو شاب لم يطر شاربه، ووضعوا له القاب الإمارة، وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه.

وعقد على وزارته لإبراهيم بن عيسى اليرباني من صنائع دولتهم وكبار المرشحين بها.

ولما رأى أخوه الأكبر أبو الحسن صاغية أبيهما إليه، وكان شديد البرور لوالديه، انحاش إليه وصار في جملة، وخلط نفسه بمحاشيته طاعة لأبيه واستمرت حال الأمير أبي علي على هذا، وخاطبه الملوك من التواحي وخاطبهم، وهادوه وعقد الرايات، وأثبت في الديوان ومحا وزاد في العطاء ونقص، وكاد أن يستبد.

ولما قتل السلطان أبو سعيد من غزاته إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعمئة أقام بتازي وبعث ولديه إلى فاس، فلما استقر الأمير أبو علي بفاس حدثه نفسه بالاستبداد على أبيه، وخلعه ورواؤه المداخلون له في المكر بالسلطان حتى يتقبض عليه، فأبى وركب الخلاف وجاهر بالخلعان ودعا لنفسه، فأطاعه الناس لما كان السلطان جعل إليه من أمرهم، وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو السلطان، فبرز من تازي بعسكره يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

ثم بدا للأمير أبي علي في شأن وزيره، وحدثه نفسه بالتقبض عليه استجابة به لما كان بلغه من المكاتبة بينه وبين السلطان، فبعث لذلك عمر بن بخلف الفودودي، وتقطن الوزير لما جاء به من المكر، فتقبض عليه ونزع إلى السلطان أبي سعيد فتقبله ورضي عنه، وارحل إلى لقاء ابنه.

ولما تراءى الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازي، اختل مصاف السلطان وانهزم عسكره وأفلت بعد أن أصابته جراحه في يده وهن لها، ولحق بتازي قليلاً جريحاً.

ولحق ابنه الأمير أبو الحسن نازعاً إليه من جملة أخيه أبي علي بعد الحنة وفاء بحق أبيه، فاستبشر السلطان بالظهور والفتح،

مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال، وخروج عدي بن هنو المسكوري، ونقضه للطاعة، فنزل به وحاصره مدة، واقتحم حصنه عنوة عليه، وحمله مقيداً إلى دار ملكه، فأودعه المطبق، ثم رجع إلى غزو تلمسان، والله أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد إلى تلمسان أولى حركاته إليها

لما خرج عبد الحق بن عثمان على السلطان أبي الربيع، وتغلب على تازي، بمظاهرة الحسن بن علي بن أبي الطلاق كبير بني عسكر، واختلف رسلهم إلى أبي هو موسى بن عثمان سلطان بني عبد الواد، اسف ذلك بني مريـن وحرك مزاجهم، ولما لحق الخارجون على الدولة بالسلطان أبي هو وأقبل عليهم أضرم ذلك حقد بني مريـن.

وولى السلطان أبو سعيد الأمر وفي أنفسهم من بني عبد الواد غصة فلما استوسق أمر السلطان، ودوخ الجهات المراكشية، وعقد على البلاد الأندلسية وفرغ من شأن المغرب، اعترزم على غزو تلمسان فنهض إليها سنة أربع عشرة وسبعمئة. ولما انتهى إلى وادي ملوية قدم ابنه أبا الحسن وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين، وسار في ساقتهما، ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية، فاكسح نواحيها واصطلم نعمها، ونازل وجدة، فقاتلها قتالاً شديداً وامتنعت عليه ثم نهض إلى تلمسان فتزل بالملعب من ساحتها.

وانحجز موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب على معاقلها ورعاياها وسائر ضواحيها، فحطمها حطماً، ونسف جهاتها نسفاً، ودوخ جبال بني يزناسن وفتح معاقلها وأخسن فيها وانتهى إلى وجدة.

وكان معه في عسكره أخوه يعيش بن يعقوب، وقد أدركته بعض الاستجابة بأمره ففر إلى تلمسان، ونزل على أبي هو ورجع السلطان على تعيينه إلى تازي، فأقام بها.

وبعث ولده الأمير أبا علي إلى فاس فكان من خروجه على أبيه ما نذكر إن شاء الله تعالى.

وأباد سلطانه.

وأقام لبني مرين في بلاد القبلة ملكاً وسلطاناً، وانتقض على السلطان سنة عشرين وسبعمائة وتغلب على درعا، وسما إلى طلب مراکش، فعقد السلطان على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن، وجعله إليه، وأغزاه ونهض على أثره، فاحتلوا بمراكش، وثقفوا أطرافها وحسموا عللها، وعقد عليها لکندوز بن عثمان من صنائع دولتهم، وقفلوا بعسكرهم إلى الحضرة.

ثم نهض الأمير أبو علي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بجموعه من سجالمة وأغذ السير إلى مراکش، فاحتلت عساكره بها قبل أن يجمع لکندوز أمره، فتقبض عليه وضرب عنقه ورفعها على القناة وملك مراکش وسائر ضواحيها.

وبلغ الخبر إلى السلطان، فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلل، واستوفى الأعطيات، وقدم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن ولي عهده والغالب على أمره في عساكره وجموعه، وجاء في ساقته، وسار على هذه التعيية.

ولما انتهى إلى توتو من وادي ملوية نذروا بالبيات من أبي علي وجنوده، فحذروهم وأيقظوا ليلتهم، وبيتهم بمعسكرهم ذلك، فكانت الدائرة عليهم، وفل عسكره، وارتحلوا من الغد في أثره.

وسلك على جبال درن، وافترقت جنوده في أوعاره، ولحقهم من معراتها شناعات، حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه، وسعى على قدميه، وخلصوا من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق، ولحق بسجالمة، ومهد السلطان نواحي مراکش واستعمل عليها ورتب الحامية بها. وعقد على جباية أموال المصامدة ونواحي مراکش لموسى بن علي بن محمد المهناتي، فغظم عناؤه في ذلك واضطلاعه وامتدت أيام ولايته وارتحل السلطان إلى سجالمة، فدافعه الأمير أبو علي بالخضوع في الصفح والرضى والعودة إلى السلم، فأجابته السلطان لما كان شغفه من حبه، فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب، ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي بمكانه من القبلة إلى أن هلك السلطان، وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نكبة منديل الكنانى ومقتله

كان أبوه محمد بن محمد الكنانى من عليّة الكتاب بدولة الموحدين، ونزع من مراکش عندما انحل نظام بني عبد المؤمن وانقض جمعهم إلى مكانسة، فآوئها في إيالة بني مرين، واتصل بالسلطان يعقوب بن عبد الحق فصحبه فيمن كان يتأثر على

وحيد المغبة، وأناخ الأمير أبو علي بعساكره على تازى، وسعى الخواص بين السلطان وبينه في الصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازى وجهاتها، فتم ذلك بينهما واتعد، وشهد الملا من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار، فاستحكم عقده وانكفا الأمير أبو علي إلى حضرة فاس مملكاً، وتوافقت إليه بيعة الأمصار بالمغرب ووفودهم، واستوسق أمره.

ثم اعتل على إثر ذلك واشتد وجعه، وصار إلى حال الموت وخشي الناس على أنفسهم ثلاثي الأمر بهلكه، فتسايلا إلى السلطان بتازى، ثم نزع على الأمير أبي علي وزيره أبو بكر بن النوان وكاتبه منديل بن محمد الكنانى، وسائر خواصه، فلحقوا بالسلطان وحملوه على ثلاثي الأمر، فنهض من تازى واجتمع إليه كافة بني مرين والجند.

وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصراً لها، وابتنى داراً لسكناء وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الأمر.

وتفرد أبو علي بطائفة من النصارى المستخدمين بدولته، كان قائدهم يمت إليه بالخوذة، وضبط البلد مدة مرضه حتى إذا أفاق وتبين اختلال أمره، بعث إلى أبيه في الصفح والرضى، وأن ينزل له عما انتزى عليه من الأمر على أن يقطعه سجالمة وما إليها، ويسوغه ما احتمل من المال والذخيرة من دراهم، فأجابه إلى ذلك، واتعد بينهما سنة خمس عشرة وسبعمائة وخرج الأمير أبو علي بخاصته وحشمه، وعسكر بالزيتون من ظاهر البلد، ووفى له السلطان بما اشترط وارتحل إلى سجالمة، ودخل السلطان إلى البلد الجديد ونزل بقصره، وأصلح شؤون ملكه، وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره، وقروض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال، وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب، ووضع العلامة على كتابه وسائر ما كان لأخيه، ووفدت إليه بيعات الأمصار بالمغرب، ورجعوا إلى طاعته.

ونزل الأمير أبو علي بسجالمة فأقام بها ملكاً، ودون الدواوين، واستلحق واستركب، وفرض العطاء واستخدم طواغن العرب من المعقل، وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكورارين وتمنطيت، وغزا بلاد السوس فافتتحها وتغلب على ضواحيها، وأثنى في إعرابها من ذوي حسان والشبانات وزكنة، حتى استقاموا على طاعته.

وبيت عبد الرحمن بن الحسن بن يدر أمير الأمصار بالسوس في تارودانت مقره، فافتتحها عليه عنوة وقتله، واضطلم نعمته

وسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأذن لابنه أبي الحسن في نكبته، فاعتقله واستصفى أمواله، وطوى ديوانه وامتنحه أياماً، ثم قتله بمجلسه خنقاً، ويقال: جوعاً، وذهب مثلاً في الغابرين، والله خير الوارثين.

الخبر عن انتفاض العزفي بسبته ومنازلته ثم مصيرها إلى طاعة السلطان بعد مهلكه

كان بنو العزفي لما تغلب عليهم الرئيس أبو سعيد ونقلهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعمائة واستقروا بها في إيالة المخلوع، ثالث ملوك بني الأحمر، حتى إذا استولى السلطان أبو الربيع على ستة سنة تسع وسبعمائة آذنوا في الإجازة إلى المغرب، وأجازوا إلى فاس، واستقروا بها وكان يحيى وعبد الرحمن ابنا أبي طالب من سراتهم وكبارهم، وكانوا يغشون مجالس أهل العلم، بما كانوا عليه من انتحال الطب.

وكان السلطان أبو سعيد أيام أماره بني أبيه يجالس بالمسجد الجامع للقرويين شيخ الفتيا أبا الحسن الصغير وكان يحيى بن أبي طالب يلازمه، فاتصل به وصارت له وسيلة يحسبها عنده.

فلما ولي الأمر واستقل به، رعى لهم زمام صحابتهم، ووفى لهم مقاصدهم وعقد ليحيى على سبته، ورجعهم إلى مقر إمارتهم منها ومحل رياستهم، فارتحلوا إليها سنة عشر وسبعمائة وأقاموا دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته.

ثم تغلب الأمير أبو علي علي أمر أبيه، واستبد عليه فعقد على سبته لأبي زكريا جيون بن أبي العلاء القرشي، وعزل يحيى بن أبي طالب عنها، واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه حاتم، واستقروا في جملة السلطان.

وهلك أبو طالب بفاس خلال ذلك حتى إذا كان من خروج الأمير أبي علي علي أبيه ما قدمناه، لحق يحيى بن أبي طالب وأخوه بالسلطان نازعين من جملة الأمير أبي علي.

فلما احتل بالبلد الجديد ونازله السلطان بها فحينئذ عقد السلطان ليحيى بن أبي طالب على سبته، وبعثه إليها ليقم دعوته بتلك الجهات وتمسك بابنه محمد رهناً على طاعته، فاستقل بإمارتها، وأقام طاعة السلطان دعوته بها وأخذ يبعثه على الناس، واتصل ذلك سنين، وهلك عمه أبو حاتم هنالك بعد مرجعه معه من المغرب.

ولسنة ست عشرة وسبعمائة انقض على السلطان ونبت

صحابته من أعلام المغرب.

وسفر عنه إلى الملوك كما ذكرنا، في سفارته إلى المستنصر سنة خمس وستين وستمائة وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق وازداد الكنانة عند ابنه يوسف حظوة ومكانة إلى أن سخطه ونكبه سنة سبع وستين وستمائة وأقصاه من يومئذ وهلك في حال سخطه وبقي من بعده ابنه منديل هذا في جملة السلطان أبي يعقوب متبرماً بمقام عبد الله بن أبي مدين المستولي على قهمة دار السلطان ومخالصته في خلواته غضباً لذلك، متوقفاً للنكبة في أكثر أيامه مضطربة له بالحدس جوانحه، مع ما كان عليه من القيام على حسابان الديوان عرف فيه بسبقه وشهد به صديقه وعدوه.

ولما تغلب السلطان على ضاحية شلف وأمصار من بلاد مغراوة واستعمله على حسابان الجباية، وجعل إليه ديوان العسكر هنالك، وإلى نظره اعتراضهم وتمحيضهم، فنزل على بمليانه مع من كان هنالك من الأمراء: مثل علي بن محمد الخيري والحسن بن علي بن أبي الطلاق العسكري إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب، ورجع أبو ثابت البلاد إلى أبي زيان وأخيه أبو حمو ملوك بني عبد الواد. ونزل لهم عنها فرجع إلى المغرب ولحق بالسلطان أبي ثابت ومر في طريقه بأبي زيان وأخيه أبي حمو، فخف عليهما، وحلا بعبونهما، واستبلغا في تكرمه وانصرف إلى مغربه.

وكان أيام معسكر السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان قد صحب أخاه أبا سعيد عثمان بن يعقوب في حال خموله، وتأكدت بينهما الحلة التي رعاها له السلطان أبو سعيد.

فلما ولي أمر المغرب مت بذلك إليه، فعرفه له واختصه وخالصه، وجعل إليه وضع علامته وحسابان جبايته، ومستخلص أحواله، والمفاوضة بذات صدره، ورفع مجلسه، وقدمه على خاصته.

وكان كثير الصاغة للأمير أبي علي ابنه المتغلب على أبيه أول أمره، ولما استبد وخلع أباه انحاش منديل هذا إليه، ثم نزع عنه حين تبين اختلال أمره، وكان الأمير أبو الحسن يحقد له ولاية أخيه أبي علي لما كان بينهما من المناسفة وكان كثيراً ما يوغر صدره بإيجاب حق عمر عليه، وامتنانه في خدمته، وطوى له على النكث حتى حق إذا انفرد بمجلس أبيه وفصل عمر إلى سجالمة أحكم السعاية فيه والآلاء التي أصر السلطان عليها أذناً واعية، حتى تاذن الله بإهلاكه.

وكان منديل هذا كثيراً ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبراً، فاعتد عليه من ذلك كلمات وأحوالاً،

أفراك على سبته، فشرعوا في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمائة وانكفأ راجعاً إلى حضرته.

الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة

والعلامة

كان بنو عبد المهيمن من بيوتات سبته، ونسبهم في حصرموت، وكانوا أهل تجلة ووقار، متحلين للعلم.

وكان أبو ومحمد قاضياً بسبته أيام أبي طالب وأبي حاتم، وكان له معهم صهر.

ونشأ ابنه عبد المهيمن هذا في حجر الطب والجلالة، وقرأ صنعة العربية على الأستاذ الغافقي وحذق فيها.

ولما نزلت بهم نكبة الرئيس أبي سعيد سنة خمس وسبعمائة واحتلموا إلى غرناطة، احتمل فيهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه.

وقرأ عبد المهيمن بغرناطة على مشيختها، وازداد علماً وبصراً باللسان والحديث، واستكتب بدار السلطان محمد المخلوع، واختص بوزيره المتغلب على دولته محمد بن عبد الحكيم الرندي فिम اختص به من رؤسائهم بني العزفي.

ثم رجع بعد نكبة ابن الحكم إلى سبته، وكتب عن قائدها بن مسلمة مدة.

ولما استخلص بنو مرين سبته سنة تسع وسبعمائة اقتصر على الكتابة، وأقام متحلاً بمذاهب سلفه في اتحال العلم ولزوم المروءة.

ولما استولى السلطان أبو سعيد على المغرب واستقل بولاية العهد، وتغلب على الأمر ابنه أبو علي، وكان محباً للعلم مولعاً بأهله متحلاً لفنونه، وكانت دولته خلواً من صناعة الترسيل منذ عهد الموحدين للبداءة الموجودة في دولتهم.

وحصل للأمير أبي علي بعض البصر بالبلاغة واللسان تظن به لسان ذلك، وخلو دولتهم من الكتاب المرسلين، وأنهم إنما يحكمون الخط الذي حذقوا فيه.

ورأى فيه الأصابع تشير إلى عبد المهيمن في رئاسة تلك الصناعة، فولع به، وكان كثير الوفادة مع أهل بلده أوقات وفادتهم، فيختصه الأمير أبو علي بمزيد من بره وكرامته، ويرفع مجلسه، ويخطبه للكتابة وهو يتمتع عليه، حتى إذا أمضى عزيمته في

طاعة الأمر، ورجع إلى حال سلفه من أمر الشورى في البلد.

واستقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان فقدم إليه وعقد له على الحرب ليفرق به الكلمة، ويوهن بيباسه عزائم السلطان في مطالبته.

وجهاز السلطان إليه العساكر من بني مرين وعقد على حربه للوزير إبراهيم بن عيسى، فزحف إليه وحاصره، وتعلل عليهم بطلب ابنه، فبعث به السلطان إلى وزيره إبراهيم ليعطي الطاعة، فتسلمه، وجاءه الخبر من عيون كانت بالعسكر أن ابنه كان في فسطاط الوزير بساحة البحر، بحيث يتأتى الفرصة في أخذه، فبيت العسكر، وهجم عبد الحق بن عثمان بمجشمه وذويه على فسطاط الوزير، فاحتلمه إلى أبيه وركبت العساكر للهيعة، فلم يبقوا على خبر حتى تفقد الوزير ابن العزفي، واتهموا قائدهم إبراهيم بن عيسى الوزير بمالأة العدو على ذلك، فاجتمعت مشيختهم وتقبضوا عليه، وحملوه إلى السلطان ابتلاء للطاعة واستصاراً في نصيح السلطان، ف شكر لهم وأطلق وزيره لابتلاء نصيحته، ورغب يحيى بن العزفي بعدها في رضى السلطان وولايته.

ونهب السلطان سنة تسع عشرة وسبعمائة إلى طنجة لاختبار طاعته، فعقد له على سبته واشترط هو على نفسه الوفاء ببجاية السلطان، وأسنى هديته في كل سنة.

واستمرت الحال على ذلك إلى أن هلك يحيى العزفي سنة عشرين وسبعمائة.

وقام بالأمر ابنه محمد إلى نظر ابن عمه محمد بن علي بن النقيب أبي القاسم شيخ قراباتهم.

وكان قائد الأساطيل بسبته ولي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الزنداحي إلى الأندلس، واختلف الغوغاء بسبته، وانتهز السلطان الفرصة فأجمع على النهوض إليها سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وبادروا بإيئاء طاعتهم.

وعجز محمد بن يحيى عن المناهضة، وظنها محمد بن علي من نفسه، فعرض للأمر في أوغاد من اللفييف، فاجتمعوا إليه ودافعهم الملاء عن ذلك، وحملوهم على الطاعة، واقتادوا بني العزفي إلى السلطان فانقادوا، واحتل السلطان بقصة سبته، وثقف جهاتها ورم مثلها وأصلح خللها، واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في أعمالها، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتها، وعقد لأبي القاسم بن أبي مدين على جبايتها والنظر في مبانيتها، وإخراج الأموال للنفقات فيها، وأسنى جوائز الملاء من مشيختها، ووفر إقطاعاتهم وجراياتهم، وأوعز ببناء البلد المسمى

يسير فيه عشرون راجياً.

وتفطن لهم المسلمون وحفروا قبائلهم مثله إلى أن نفذ بعضهم لبعض، واقتتلوا تحت الأرض وعقد ابن الأحمر لعثمان بن أبي العلاء زعيم الأعياص على عسكر بعثه مدداً لأهل المرية، فلقبه جمع من النصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مرشانة، فهزمهم عثمان واستلحمهم، ونزل قريباً من معسكر الطاغية وألح بمغادرتهم ومراوحتهم إلى أن رغبوا إليه في السلم وأفرج عن البلد.

وتغلب الطاغية، خلال ذلك على جبل الفتح، وأقامت عساكره على شمانة واصطوبونة، وزحف العباس بن رحو بن عبد الله وعثمان بن أبي العلاء في العساكر لإغاثة البلدين، فأوقع عثمان بمعسكر اصطوبونة، وقتل قائدهم الفتح بترس في نحو ثلاثة آلاف فارس واستلحموا.

ثم زحف عثمان لإغاثة العباس وكان دخل عوجين فحاصرتهم جموع النصارى به، فانفضوا خبر زحفه، وبلغ الخبر إلى الطاغية بمكانه من ظاهر الجزيرة بفتك عثمان في قومه، فسرح جموع النصرانية إليه، ولقيهم عثمان فأوقع بهم، وقتل زعماءهم.

وارتحل الطاغية يريد لقاءهم فخالفه أهل البلد إلى معسكره، وانتهبوا محلاته وفساطيطه، وأتيحت للمسلمين عليهم الكرة، وامتألت الأيدي من غنائمهم وأسراهم.

ثم هلك الطاغية إثر هذه الهزائم سنة اثنتي عشرة وسبعمئة وهو هراندة بن شانجة.

وولي من بعده ابنه الهنشة طفلاً صغيراً، جعلوه لنظر عمه دون بطرة بن شانجة، وزعيم النصرانية جوان فكفلاه.

واستقام أمرهم على ذلك، وشغل السلطان أبو سعيد ملك المغرب بشأن ابنه وخروجه، فاهتبل النصرانية الغرة في الأندلس وزحفوا إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمئة وأناخوا فيها بعساكرهم وأعمهم.

وبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان واعتذر لهم بمكان أبي العلاء من دولتهم، ومحلّه من رياستهم، وأنه مرشح للأمر في قومه بني مرين، يخشى معه تفريق من الكلمة، وشرط عليهم أن يدفعوه إليه برمته حتى يتم أمر الجهاد، ويعد هو إليهم حوطة على المسلمين، ولم يكنهم ذلك لمكان عثمان بن أبي العلاء لصرامته وعصابته من قومه، فاختفى سعيهم واستلحموا.

وأطالت أمم النصرانية بغرناطة، وطعموا في التهامها، ثم إن الله نفس مختقمهم، ودافع بيد قدرته عنهم، وكيف لعثمان بن أبي العلاء وعصبته واقعة فيهم كانت من أغرب الوقائع.

ذلك أوعز إلى عامله بسبئة سنة اثنتي عشرة وسبعمئة أن يشخصه إلى بابه فقلده كتابته وعلامته حتى إذا خرج أبو علي على أبيه تحيز عبد المهيمن إلى الأمير أبي الحسن، فلما صولح أبو علي على النزول عن البلد الجديد وكتب شروطه على السلطان كان من جلستها كون عبد المهيمن معه، وأمضى له السلطان ذلك وأنف الأمير أبو الحسن منها، فاقسم ليقبلته إن عمل بذلك، فرفع عبد المهيمن أمره إلى السلطان ولاذ به، وألقى نفسه بين يديه، ففرق لشكواه وأمره باعتزالهما معاً والرجوع إلى خدمته، وأنزله بمعسكره وقام على ذلك، واختصه مندبيل الكنانى كبير الدولة وزعيم الخاصة، وأنكحه ابنته.

ولما نكب مندبيل الكنانى جعل السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مدين، وكان غفلاً خلواً من الآداب، فكان يرجع إلى عبد المهيمن في قراءة الكتب وإصلاحها، وإنشائها حتى عرف السلطان له ذلك، فاقصر عليه وجعل وضع العلامة إليه سنة ثمان عشرة وسبعمئة فاضطلع بها ورسخت قدمه في مجلس السلطان، وارتفع صيته.

واستمر على ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده إلى أن هلك بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمئة والله خير الوارثين.

الخبر عن صريخ أهل الأندلس بالسلطان

ومهلك بطرة على غرناطة

كان الطاغية شانجة بن أدفونش قد تكالب على أهل الأندلس من بعد أبيه هراندة الهالك سنة اثنتين وثمانين وستمئة ومنذ غلب على طريف وشغل السلطان يوسف بن يعقوب بعده بني يغمراسن، ثم تشاغل حفدته من بعده بأمرهم وتقاصرت مددهم، وهلك شانجة سنة ثلاث وسبعين وولى ابنه هراندة ونازل الجزيرة الخضراء ففرض الجهاد لبني مرين حولاً كاملاً، ونازلت أساطيله جبل الفتح واشتد الحصار على المسلمين.

وراسل هراندة بن أدفونش صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم، ويأخذ بمجزتهم، فنازل المرية وحاصرها الحصار المشهور سنة تسع وسبعمئة ونصب عليها الآلات.

وكان منها برج العود المشهور بطول الأسوار بمقدار ثلاث قامات، وتحمل المسلمون على إحراقه فأحرق.

وحفر العدو تحت الأرض مسرباً عريض المسافة مقدار ما

ابن عمه أبي عامر إبراهيم لمضايقتها.
وكان خلال ذلك ما قدمناه من خروج محمد بن يوسف بن
يغمراسن عليه سنة وقيام بني توجين بأمره، واقتطاع جبل
وانشريس من عمالة ملكه.
واستمرت الحال على ذلك حتى هلك السلطان أبو حمر
سنة ثمان عشرة وسبعمئة وقام بأمرهم ابنه أبو تاشفين عبد
الرحمن فصنع له في ابن عمه محمد بن يوسف.

ونهب إلى بعساكر بني عبد الواد حتى نازله بمعتصمه من
جبل وانشريس وداخله عمر بن عثمان كبير بني تيجرين في المكر
به، فتقبض عليه وقتله سنة تسع عشرة وسبعمئة وارتحل إلى بجاية
حتى احتل بساحتها، وامتنع عليه الحاجب ابن غمر فأقام يوماً أو
بعضه، ثم انكفأ راجعاً إلى تلمسان، وردد البعوث إلى أوطان بجاية،
وابتني الحصون لتجوير الكتائب، فابتني بسوادي بجاية من أعلاه
حصن بكر، ثم حصن تميزدكت يليه.
ثم اختط بنيكلات على مرحلة منها بلداً سماه تميزدكت
على اسم المعقل الذي كان لأولهم بالجبل قبالة وجدة.

وامتنع يغمراسن به على السعيد كما قدمناه، فاخط بلد
تيكلات هذه، وشحنها بالآقوات والعساكر، وصبرها ثغراً للملكه،
وانزل بها جنده، وعقد عليها لموسى بن علي العزفي كبير دولته،
ودولة ابنه.

واستحثه أمراء الكعوب من بني سليم للملك إفريقية حين
مغاضبتهم مولانا السلطان أبي يحيى فأغرس معهم جيوش زناتة،
وعقد على تونس للأعياص من آل أبي حفص: الأمير أبي عبد
الله محمد بن أبي يحيى اللحياني، وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر
بن عمران، وأبي إسحاق بن أبي يحيى الشهيد، مرة بعد أخرى
كما ذكرناه في أخبارهم جميعاً.

وكانت حروبهم سجلاً إلى أن كان بين جيوش زناتة
الموحدين الزحف المشهور بالرياش من نواحي مرماجة سنة تسع
وعشرين وسبعمئة زحفت فيه إلى السلطان أبي يحيى عساكر زناتة
مع حمزة بن عمر أمير بني كعب، ومن إليه من البدو، وعليهم يحيى
بن موسى من صنائع دولة آل يغمراسن.

وقد نصبوا للملك محمد بن أبي عمران بن أبي حفص،
ومعهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني عبد الحق في بنيه
وذويه، وكان نزح إليهم من عند الموحدين كما ذكرناه، فاختل
مصاف مولانا السلطان أبي يحيى وانهمز، واستولوا على فساطيطه
بما فيها من الذخيرة والحرم، واتهبوا معسكره، وتقبضوا على

صمدوا إلى موقف الطاغية يجمتهم، وكانوا زهاء مائتين أو
أكثر، وصابروهم حتى خالطوهم في مراكزهم، فصرعوا بطرة
وجوان، ولولهم الأدبار، واعترضتهم من ورائهم مسارب الماء
للشرب من شيل فتطارحوا فيها، وهلك أكثرهم، واكتسحت
أموالهم، وأعز الله دينه، وأهلك عدوه، ونصب رأس بطرة بسور
البلد عبرة لمن يتذكر، وهو باق هنالك لهذا العهد، والله تعالى
أعلم.

الخبر عن صهر الموحدين والحركة إلى تلمسان على أثره وما تخلل ذلك من الأحداث

لما انفرج الحصار عن ولد عثمان بن يغمراسن بن زيان أحد
ملوك بني عبد الواد سنة ست وسبعمئة وتحافى أبو ثابت عن
بلادهم، ونزل لهم عما كان بنو مرين منها بسيوهم.

واستقل أبو حمر بملك بني عبد الواد على رأس الحول منها،
صرف نظره واهتمامه إلى بلاد المشرق، فتغلب على بلاد مغراوة،
ثم على بلاد بني توجين، ومعا أثر سلطانهم.

ولحق أعياصهم من ولد عبد القوي بن عطية وولد مندبل
بن عبد الرحمن بالموحدين آل أبي حفص مع من تبعهم من
رؤوس قبائلهم، وصاروا في جملة عساكرهم.

واستلحق مولانا السلطان أبو يحيى وحاجبه يعقوب بن
غمر منهم جنداً كثيراً أثبتهم في الديوان، وغالب بهم الخوارج
والمنازعين للدولة.

ثم زحف أبو حمر إلى الجزائر وغلب ابن علان عليها سنة
ونقله إلى تلمسان ووفى له.

وفر بنو منصور أمراء ملكيش أهل بسيط متيجة من
صنهاجة، فلققوا بالموحدين واصطنعوهم، وتلك قاصية المغرب
الأوسط وتآخم عمل الموحدين بعمله.

ثم تغلب على تدلس سنة اثنتي عشرة وسبعمئة وتجنى
على مولانا السلطان أبي يحيى بما وقع بينهم من المراسلة أيام انتزاع
ابن مخلوف ببجاية كما ذكرناه في أخباره، بحث عزائمه لمنازلتها
وبطلب بلاد الموحدين، وأوطأ عساكره أرضهم، ونازل أمصارهم
بجاية وقسنطينة.

واختص بجاية بشوكته من ذلك، وجهاز العساكر مع مسعود

ولديه المولين أحمد وعمر، وأشخصوهما إلى تلمسان.
وأصيب السلطان في بدنه بجراحات أوهنته، وخلص إلى
بونة ناجياً برمقة، وركب السفين منها إلى بجاية، فأقام بها يداًمل
جراحه، واستولت زناته على تونس.

وتولت قهارة الدار من عجز من النساء ما يتولاه مثلهم
من ذلك الصنيع، وتحدث الناس به، وهلك السلطان أبو سعيد بين
يدي موصلها، والبقاء لله وحده.

الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد عفا الله عنه وولايه ابنه السلطان أبي الحسن وما تخلل ذلك من الأحداث

كان السلطان لما بلغه وصول العروس بنت مولانا السلطان
أبي يحيى سنة إحدى وثلاثين وسبعائة واهتزت الدولة لقدمها
عليهم تعظيماً لحق أبيها وقومها واحتفاءً بها، ارتحل السلطان أبو
سعيد إلى تازي ليشارف أحوالها بنفسه احتفاءً في تكريمها وسروراً
بعرس ابنه.

واعتل هنالك ومرض حتى أشفى على الهلاك، وارتحل به
ولي العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة، وحمله في فراشه على
أكثاف الحاشية والخول، حتى نزل بسبو، ثم ادخله كذلك ليلاً إلى
داره، وأدركته المنية في طريقه، فقفى رحمة الله عليه، فوضعه
بمكانه من البيت.

واستدعى الصالحين لمواراته، فوري لشهر ذي الحجة من
سنة إحدى وثلاثين وسبعائة والبقاء لله وحده، وكل شيء هالك
إلا وجهه.

ولما هلك السلطان أبو سعيد اجتمع الخاصة من المشيخة
ورجال الدولة لولي عهده الأمير أبي الحسن، وعقدوا له على
أنفسهم، وآتوه طاعتهم وبيعتهم، وأمر بنقل معسكره من سبو،
وأضرب بالزيتون من ساحة فاس.

ولما ووري السلطان، خرج إلى معسكره بالتبعية، واجتمع
إليه الناس على طبقاتهم لأداء البيعة، وجلس بفسطاطه، وتولى
أخذ البيعة له يومئذ على الناس المزوار عبو بن قاسم رئيس
الوزعة والمتصرفين وحاجب الباب القديم الولاية بذلك في دارهم
منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب.

وزفت إليه ليلتذ عروسه بنت السلطان أبي يحيى، فأعرس
بها بمكانه من المعسكر، وأجمع أمره على الانتقام لأبيها من عدوه.

ودخلها محمد بن أبي عمران وسموه باسم السلطان
ومقاته في يد يحيى بن موسى أمير زناته.

واعتزم مولانا السلطان أبو يحيى على الوفادة على ملك
المغرب السلطان أبي سعيد بنفسه صريحاً على آل يغمراسن.

وأشار حاجبه محمد بن سيد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي
زكريا صاحب الثغر استنكافاً له عن مثلها، فتقبل إشارته وأركب
ابنه البحر لذلك.

وبعث إليه معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة
الموحدين نافضاً أمامه طرق المقاصد والمجاوزات، ونزلوا بفاساسة
من سواحل المغرب، وقدموا على السلطان أبي سعيد بمحضرته،
وأبلغوه صريح مولانا السلطان أبي يحيى، فاهتز لذلك هو وابنه
الأمير أبو الحسن، وقال للأمير في ذلك الحفل: يا بني لقد أكبر
قومنا قصدك وموصلك، والله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي
ونفسي، ولأسيرن بعساكري إلى تلمسان فأنزلها مع أبيك.
فانصرفوا إلى منازلهم مسرورين.

وكان فيما شرطه عليهم السلطان أبو سعيد مسير مولانا
السلطان أبي يحيى بعسكره إلى منزلة تلمسان معه فقبلوا.

ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين
وسبعائة ولما انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصيرة، جاءهم الخبر
اليقين باستيلاء السلطان أبي يحيى على حضرة تونس، وإجهاضه
زناته وسلطانهم عنها.

واستدعى مولانا السلطان الأمير أبا زكريا يحيى ابنه ووزيره
أبا محمد عبد الله بن تافراكين وأمرهم بالانصراف إلى صاحبهم
وأسنى جوائزهم وحاجاتهم، وركبوا أساطيلهم من غساسة
وأرسل معهم للخطبة والصهر إبراهيم بن أبي حاتم العزفي
والقاضي محضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق، وانكفاً على عقبه
راجعاً إلى حضرته.

ولما انعقد الصهر بين الأمير أبي الحسن، والسلطان أبي
يحيى في ابنته شقيقة الأمير يحيى، زفها إليهم في أساطيله مع مشيخة
من الموحدين: كبيرهم أبو القاسم بن عتو، ووصلوا بها إلى مرسى
غساسة سنة إحدى وثلاثين بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد،
فقاموا بها على إقدام البر والتكرمة، وبعثوا الظهر إلى غساسة

والعرب والبربر وسائر الحشود، فغضبوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات مختزناً بها، وكان مجراً لا يدرك ساحله، لما كان السلطان أبو حمو من لدن اختطها قد أوعز إلى العمال بسائر البلاد الشرقية، من عمل البطحاء أن يقتلوا أعشار الحبوب إليها وسائر الأقوات، وتقبل ابنه السلطان أبو تاشفين مذهبه في ذلك.

ولم يزل دأبهم إلى حين حلت بها هذه الفاقة فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاة له.

وأضرعوا مخططها بالأرض ففسفوها نسفاً، وذروها قاعاً صفصفاً.

والسلطان أبو الحسن خلال ذلك متشوف لأحوالهم منتظر قدوم مولانا السلطان أبي يحيى بعساكره عليه لمنازلة تلمسان، حتى وافاه الخبر بانتفاض أخيه كما نذكره، فانكفاً راجعاً، واتصل الخبر بمولانا السلطان أبي يحيى فقتل إلى حضرته.

وحمل البطوي معه وأسنى جائزته وجوائز عسكره، وانصرفوا إلى السلطان مرسلهم في سفنهم من ساعتها، وانقبض عنان السلطان أبي تاشفين عن غزو بلاد الموحدين إلى أن انقرض أمره، والبقاء لله وحده.

الخبر عن انتفاض الأمير أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن إليه وظفره به

لما توغل السلطان أبو الحسن في غزاة تلمسان وتجاوزها إلى تاسالة لوعد مولانا السلطان أبي يحيى، دس أبو تاشفين إلى الأمير أبي علي في اتصال اليد والاتفاق على السلطان أبي الحسن، وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه متى هم به، وانعقد بينهما على ذلك.

وانتقض الأمير أبو علي على أخيه السلطان أبي الحسن، ونهض من سجلماسة إلى درعة فقتل بها عامل السلطان، واستعمل عليها من ذويه، وسرح العسكر إلى بلاد مراکش.

واتصل الخبر بالسلطان وهو بمعسكره بتاسالة، فأحفظه شأنه، وأجمع على الانتقام منه، فانكفاً راجعاً إلى الحضرة.

وأنزل بغير تاوريرت تخم عمله معسكراً، وعقد عليه لابنه تاشفين، وجعله إلى نظر وزيره منديل بن حمامة بن تيريغين، وأغذ السير إلى سجلماسة، فتزل عليها وأحاطت عساكره بها، وأخذ بمخنتها وحشد الفعلة والصناع لعمل الآلات لحصارها، والبناء بساحتها.

وبدا باستكشاف حال أخيه أبي علي، وكان السلطان أبوهما يستوصيه به لما كان له بقلبه من العلاقة.

وكان ولي العهد هذا يؤثر لرضاه جهده، فاعتزم على الحركة إلى سجلماسة لمشاهدة أحواله، والله تعالى أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن إلى سجلماسة وانكفائه عنها إلى تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق

لما هلك السلطان أبو سعيد وكملت بيعة السلطان أبي الحسن، وكان كثيراً ما يستوصيه بأخيه أبي علي لما كان كلفاً به شفوفاً عليه، فأراد مشاركة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان، فارتحل معسكره بالزيتون قاصداً سجلماسة، وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤدياً حقه، موجباً مبرته، مهتماً له بما آتاه الله من الملك، متجافياً عن المنازعة فيه، قانعاً من تراث أبيه بما حصل في يده، طالباً العقد له بذلك من أخيه.

فأجاباه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل، وعقد له على سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما.

وشهد الملا من القبيل وسائر زناته والعرب، وانكفاً راجعاً إلى تلمسان لإجابة صريخ الموحدين، وأغذ السير إليها.

ولما انتهى إلى تلمسان تنكب عنها متجاوزاً إلى جهة المشرق لوعد مولانا السلطان أبي يحيى بالتزول معه على تلمسان، كما كان عليه وفاقهم ومشارطتهم مع الأمير أبي زكريا الرسول إليهم.

فاحتل بتاسالة في شعبان من سنة اثنتين وثلاثين وسبع مائة وتلوم بها وأوعز إلى أساطيله بمراسي المغرب فأغزاهما إلى سواحل تلمسان.

وجهم لولانا السلطان أبي يحيى مدداً من عسكره أركهم الأساطيل من سواحل وهران، وعقد عليهم محمد البطوي من صنائع دولته، ونزلوا بجاية، ووافوا بها مولانا السلطان أبي يحيى فصاروا في جملة.

ونهبوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد الجمجرة بها الكتاب لحصار بجاية، وبها يومئذ ابن هزوع من قوادهم، وأفضل من كان بها من العسكر قبل وصوله إليهم، فلحقوا بآخر عملهم من المغرب الأوسط.

وأناخ مولانا السلطان أبو يحيى عليها بعساكره من الموحدين

صاحب المغرب سنة تسع وعشرين وسبعمائة وولى عليها السلطان أبو سعيد من أهل دولته سلطان بن مهلهل من عرب الخلط أخواله.

وأסף الطاغية إلى حصونها عند مهلك السلطان أبي سعيد فملك أكثرها، ومنع البحر من الإجازة، وقارن ذلك استبداد صاحب الأندلس، وقتله لوزيره ابن المحروق، وأهمه شأن الطاغية، فبادر إلى إجازة البحر.

ووفد على السلطان أبي الحسن بدار ملكه من فاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأكبر موصله وأركب الناس للاقائه، وأنزله بروض المصاراة لصق داره، واستبلغ في تكريمه.

وفاضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر، وما أهمهم من عدوهم، وشكا إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدر الثغور، فأشكاه السلطان، وعامل الله في أسباب الجهاد، وكان مشغولاً به متقبلاً مذهب جده يعقوب فيه.

وعقد لابنه الأمير أبي مالك على خمسة آلاف من بني مرين، وأنفذ مع السلطان محمد بن إسماعيل منازلة الجبل، فاحتل بالجزيرة، وتابع إليه الأسطول بالمدد.

وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الأندلس، فتسايلاو إليه، وأضربوا معسكرهم جميعاً بساحة الجبل، وأبلوا في حربه ومنازلته البلاد الحسن، إلى أن تغلبوا عليه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة، ونفلهم الله من كان به من النصرانية بما معهم، ووافاه الطاغية بأهم الكفر لثلاثة فتحة، وقد شحنة المسلمون بالآقوات، ونقلوها من الجزيرة على خيولهم، وياشر نقلها الأمير أبو مالك وابن الأحمر، فنقلها الناس عامة.

وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن علي من وزراء أبيه.

ووصل الطاغية بعد ثلاث فأناخ عليه، وبرز أبو مالك بعساكره، فنزل قبائله وبعث إلى الأمير أبي عبد الله صاحب الأندلس، فوصل بحشد المسلمين بعد أن دوح أرض النصرانية.

وخرج فنزل بإزاء عسكر الطاغية، وتحصن العدو في محلتهم.

وأقاموا كذلك عادية لقرب العهد بارتجاعه، وخفة ما به من الحامية والسلاح، فبادر السلطان ابن الأحمر إلى لقاء الطاغية.

وسبق الناس إلى فسطاطه عجلاناً بئاعاً نفسه من الله في رضى المسلمين، وسد فرجتهم، فتلقياه الطاغية راجلاً حاسراً

وأقام يغادها القتال ويرأوحها حولاً كريئاً.

ونهبض أبو تاشفين في عساكره وقومه إلى ثغر المغرب ليوطئه عساكره، وبعث في نواحيه يجاذب السلطان عن مكانه من حصاره.

ولما انتهى إلى تاوريرت برز إليه ابن السلطان في وزرائه وعساكره، وزحفوا إليه في التعبئة، فاختل مصافه وانهمزم ولم يلق أحداً، وعاد إلى منحجزه وبادر إلى إمداد الأمير أبي علي بعساكره، فعقد على حصنة من جنده وبعث بهم إليه، فتسربوا إلى البلد زرافات ووحداً حتى استكملوا عنده، وطاولهم السلطان الحصار وأنزل بهم أنواع الحرب والتكال حتى تغلب عليهم، واقتحم البلد عنوة، وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره، وسبق إلى السلطان فأمهله واعتقله، واستولى على ملكه.

وعقد على سجنلماسة واستعمل عليها، ورحل منكفئاً إلى الحضرة، فاحتل بها سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقل أخاه في إحدى حجر القصر إلى أن قتله لأشهر من اعتقاله خنقاً بمحبسه.

وعذر له هذا الفتح بفتح الجبل واسترجاعه من يد العدو ودمره الله بأيدي عساكره، وتحت راية ابنه أبي مالك، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن منازلة جبل الفتح واستئثار الأمير

أبي مالك والمسلمين به

لما هلك السلطان أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش، قام بالأمر من بعده ابنه محمد طفلاً صغيراً لنظر وزيره محمد بن المحروق من بيوت الأندلس وصنائع الدولة، واستبد عليه.

فلما شب وناهز أنف من الاستبداد عليه، وأغراه المعلوجي من حشمة بالوزير، فاغتاله وقتله سنة تسع وعشرين وسبعمائة وشمّر للاستبداد وشد أواخي الملك.

وكان الطاغية قد أخذ جبل الفتح سنة تسع، وجاورت النصرانية به تغور الفرضة، وكان شجى في صدرها، وأهم المسلمين شأنه.

وشغل عنهم صاحب المغرب بما كان فيه من فتنة ابنه، فرجعوا الجزيرة وحصونها إلى ابن الأحمر منذ سنة اثنتي عشر وسبعمائة لأول المائة الثامنة.

واستغلظ الطاغية عليهم بعد ذلك فرجعوا الجزيرة إلى

إعظاماً لموصله، وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المقل،
واتخفه بذخائر مما لديه، وارتحل لقروره.

وأخذ الأمير أبو مالك في تثقيب أطراف الثغر، وسد
فروجه، وأنزل الحامية به، ونقل الأقوات إليه، وكان فتحاً طوق
دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر إلى آخر الأيام.

ثم رجع بعدها إلى شأنه من منازلة تلمسان وحصاره، كما
سنذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حصار تلمسان وتغلب السلطان

أبي الحسن عليها وانقراض أمر بني عبد
الواد بمهلك أبي تاشفين

لما تغلب السلطان على أخيه وحسم علة انتزاعه ومنازعته
وسد ثغور المغرب، وعظمت لديه نعمة الله بظهور عسكره على
النصرانية، وارتجاع جبل الفتح من أيديهم بعد أن أقام في ملكة
الطاغية نحواً من عشرين سنة، فرغ لعدوه وأجمع على غزو
تلمسان.

ووفد عليه رسل السلطان أبي يحيى في سبيل التهتة بالفتح
والأخذ بمجزة أبي تاشفين على الثغور.

وأوفد السلطان إلى أبي تاشفين شفعاء في أن يتخلى عن
عمل الموحدین جملة، ولتراجع لهم عن تدلس، ويرجع إلى تحرم
عمله منذ أول الأمر، ولو عايند ليعلم الناس جباه السلطان عند
الملك، ويقدره حق قدره، واستنكف أبو تاشفين مع ذلك ولج
وأغلظ للرسل في القول، وأفحش بمجلسه بعض السفهاء من
العبيد في الرد عليهم والنيل من مرسلهم، فانقلبوا إليه بما أحفظه،
فانبعثت عزائم السلطان للصمود إليهم.

وعسكر بساحة البلد الجديد، وبعث وزراءه إلى قاصية
البلاد المراكشية لحشد القبائل والعساكر، ثم تعجل فاعترض جنوده
وأزاح عنهم وعبى مواكبهم، وسار في التعية، وفصل بمعسكره من
فاس أواسط خس وثلاثين وسبعماية وسار يجر الشوك والمد من
أمم المغرب وجنوده، ومر بوجدة، فجمر الكتائب لحصارها.

ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم واقتحمها، فقتل حاميتها
واستولى عليها آخر سنة خمس وثلاثين وسبعماية ثم سار على
تعييته حتى أناخ على تلمسان، وبلغه الخبر بتغلب عساكره على
وجدة سنة ست وثلاثين وسبعماية فأوعز إليه بتخريب أسوارها،
فأضرعها بالأرض.

وتوافت إليه إمداد النواحي وجهاتها وحشودها، وريض
على فريسته، ووفدت إليه قبائل مغراوة وبني توجين فسأته
طاعتهم.

ثم سرح عساكره إلى الجهات فتغلب على وهران وهنين،
ثم على مليانة وتسن والجزائر كذلك سنة ست وثلاثين وسبعماية
ونزع إليه يحيى بن موسى صاحب القاصية الشرقية من عمله،
والتاخم كان لعمل الموحدین، والقائم بحصار بجاية بعد نكبة
موسى بن علي فلقاه مبرة وتكريماً، ورفع مجلسه في بساطه ونظمه
في طبقات وزرائه وجلساته.

وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري
كبير بني عسكر بن محمد وشيخ بني مريين، وصاحب شورايم
بمجلس السلطان، والمخصوص بالصهر من السلطان، عقد له على
ابنته فسار في الألوية والجنود وطوع ضاحية الشرق وقبائله، وافتتح
أمصاره حتى انتهى إلى المرية.

ونظم البلاد في طاعة السلطان، وأحشد مقاتلتها إلى
معسكره فلحقوا له وكاثروا جنوده.

واستعمل السلطان على وانشريش وعمل الحشم من بني
توجين.

وعقد لسعد بن سلامة بن علي على كل بني يدلتن،
وجعل الوالي بالقلعة إلى نظره، وكان خلص إليه بالمغرب قبل
فصوله نازعاً عن أبي تاشفين لمكان أخيه قريعه محمد من الدولة.
واستعمل السلطان أيضاً على شلف وسائر أعمال المغرب
الأوسط.

واختط السلطان بغربي تلمسان البلد الجديد لسكنائه، ونزل
عساكره وسماه المنصورية، وأدار على البلد المخروب سياجاً من
الصور ونطاقاً من الخندق، ونصب المجانيق والآلات من وراء
خندقه وشيد قبالة كل برج من أبراج البلد برجاً على ساقه خندقه
ينضح رماته بالنبل رماثهم، ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيد برجاً
آخر أقرب منه، وترتفع شرفاته فوق خندقهم.

ولم يزل يتقرب بوضع الأبراج من حد إلى ما بعده، حتى
اختطها من قرب على ساقه خندقهم.

ومقاصع المقاتلة بالسيوف من أعاليها، ورتب المجانيق إلى
رجحها ودكها، فنالت من ذلك فوق الغاية، واشتد الحرب وضاق
نطاق الحصار.

وكان السلطان يصحبهم كل يوم بالبكور والتطواف على

وذكروه بما نال الناس من النهب، فركب لذلك بنفسه وسكن وأوزع جنوده وأشياعه من الرعية، وقبض أيديهم عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد.

وقد كمل الفتح وعز النصر، وشهد ذلك اليوم أبو محمد عبد الله بن تافراكين، وإفاه رسولاً عن مولانا السلطان أبي يحيى مجدداً للعهد، فأعجله السلطان إلى مرسله بالخبر وسابق السابقين.

ودخل تونس لسيح عشرة ليلة من نوبة الفتح، فعظم السرور عند السلطان أبي يحيى بمهلك عدوه والانتقام منه بشاره، واعتدها بمساعيه.

ورفع السلطان أبو الحسن القتل عن بني عبد الواد أعدائهم، وشفى نفسه بقتل سلطانهم، وغفا عنهم وأثبتهم في الديوان، وفرض لهم العطاء، واستبعبهم على راياتهم ومراكزهم.

وجمع كلمة بني واسين من بني مريـن وبني عبد الواد وتوجين، وسائر زنانة وأنزلهم ببلاد المغرب وسد بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله، وساروا عصباً تحت لوائه، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة، وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالاندلس حامية ومرايطين، واندرجوا في جملة، واتسع نطاق ملكه.

وأصبح ملك زنانة بعد أن كان ملك بني مريـن وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب.

والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

الخبر عن نكبة الأمير عبد الرحمن بمتيحة وتقبيض السلطان عليه ثم مهلكه آخرأ

قد قدمنا ما كان من اشتراط السلطان أبي سعيد على الموحدين منازلهم، تلمسان مع عساكره، وتلوم السلطان أبي الحسن بتسالة لانتظار مولانا السلطان أبي يحيى.

ولما نازل تلمسان بعساكره المرة الثانية، لم يطالبهم بذلك.

وكان أبو محمد بن تافراكين يتردد إليه وهو بمعسكره من حصار تلمسان مؤدياً حقه مستخبراً مآل عدوهم.

فلما تغلب على تلمسان أسر إليه سفيره أبو محمد بن تافراكين بأن سلطانه قادم عليه للقائه وتهنته بالظفر بعدوه.

وتشوف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به، وارتحل من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمئة، وعسكر بيسيط بمتيحة منتظراً وفادة مولانا السلطان أبي يحيى عليه.

البلد من جميع جهاته لتفقد المقاتلة في مراكزهم، وربما ينفرد في طوافه بعض الأيام عن حاشيته، فاهتبلوا الأمر بحسبونه غرة.

وصفوا جيوشهم من وراء السور مما يلي الجبل المطل على البلد، حتى إذا حاذاه السلطان في طوافه فتحوا أبوابهم، وأرسلوا عليه عقبان جنودهم، واضطروه إلى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره، وكاد أن ينزل عن فرسه هو ووليـه عريف بن يحيى أمير سويد.

ووصل الصائح إلى المعسكر فركب الأميران ابناه: أبو عبد الرحمن وأبو مالك، في جموع بني مريـن، وتهافت فرسان المعسكر من كل جانب، فشمر جنود بني عبد الواد إلى مراكزهم، ثم دفعوهم عنها، وحملوهم على هوة الخندق فتطارحوا فيه وترادفوا وهلك بالكثيظ أكثر ممن هلك بالقتل.

واستلحم في ذلك اليوم زعماء ملاحهم مثل عمر بن عثمان كبير الحشم من بني توجين، ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدلتن منهم أيضاً وغيرهم، وكان يوماً له ما بعده، واعتز بنو مريـن عليهم من يومئذ، ونذر بنو عبد الواد بالتغلب عليهم، واتصلت الحرب مدة عامين.

ثم اقتحمها السلطان غلباً لسيح وعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمئة، ووقف أبو تاشفين بساحة قصره مع خاصته، وقاتل هنالك حتى قتل ابنه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي ووليـه عبد الحق بن عثمان بن محمد من أعياص عبد الحق، نزع إليه من جملة الموحدين كما أشرنا إليه ونستوفي خبره، فهلك هو وابنه وابن أخيه، وأئخت السلطان أبا تاشفين الجراحة ووهن لها، فتقبض عليه.

واحتقبه بعض الفرسان إلى السلطان فلقبه الأمير أبو عبد الرحمن صالي تلك الحروب وأورد غمرتها بنفسه، فاعترضه وقد غض الطرف بموكبه، فأمر به في الحين فقتل، واحتز رأسه، وسخط ذلك السلطان من فعله لحرصه على توبيخه وتقريعه، وذهب مثلاً في الغابرين.

واقنحم السلطان بكافة عساكره، وتواقع الناس بيباب كشرط لجنوبهم من كظيظ الزحام، فهلك منهم أمم.

وانطلقت أيدي النهب على البلد فلحقت الكثير من أهله معرات في أموالهم وحرهم، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع مع لمة من خواصه وحاشيته.

واستدعى شيوخ الفتيا بالبلد: أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام، وفاء بحق العلم وأهله، فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه

وتكاسل السلطان عنها لما أراه سيفه المتحكم في دولته محمد بن الحكيم من حذر مغبتها، وقال له: إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما، فكره ذلك السلطان وتقاعد عنه. وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظار الموعد الذي التقي إليه أبو محمد بن تافراكين، واعتل لأشهر من مقامه ومرض بفسطاطه، وتحدث أهل المعسكر بمهلكه.

وكان ابنه الأمير أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدتهما أبي سعيد.

وكان السلطان قد جعل لهما من أول دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء.

واستلحاق الفرسان والانفراد بالعساكر، فكانا من ذلك على شئج، وجعل لهما مع ذلك الجلوس لمقعد فصله، مناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية، فكانا لذلك رديفين له في سلطانه.

ولما اشتد وجع السلطان تمشت سماسرة الفتى بين هذين الأميرين وحزب أهل المعسكر لهما أحزاباً، ويث كل واحد منهما المال وحمل على القربات، وصارت شيعاً وانقسموا فرقاً.

وهم الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الأمر قبل أن يتبين حال السلطان بإغراء وزرائه وبطانته بذلك.

وتفطن خاصة السلطان لها، فأخبروه الخبر وحضروه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق، فبرز إلى فسطاط جلوسه وتسامح أهل المعسكر به، فازدحموا على مجلسه وتقبل يده.

وتقبض على أهل الظنة من العسكر، فأودعهم السجن وسخط على الأميرين، ورحل الناس من معسكرهما، فردهما إلى معسكره.

ثم رجع إلى فسطاطه فارتاب الأميران لذلك ووجعا، وطفئت نار فنتهما وسكن سعي المفسدين عندهما واتبذ الناس عنهما.

فاشدت روعة الأمير أبي عبد الرحمن، وركب من فسطاطه وخاض الليل، وأصبح بحلة أولاد زغلى أمراء زغبة الموطنين بأرض حزة، فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل، وردده إلى أبيه، فاعتقله بوجدة، ورتب العيون لحراسته من حشمه إلى أن قتله بعد ذلك سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة، توثب بالسجان فقتله.

وأنفذ السلطان حاجبه علال بن محمد فقتل عليه.

ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين فأجاروه.

ورضي السلطان صبيحة نزوع أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك، وعقد له على ثنور عمله بالأندلس، وصرفه إليها، وانكفا إلى تلمسان، والله أعلم.

الخبر عن خروج ابن هيدور وتليسه بأبي

عبد الرحمن

لما تقبض السلطان على ابنه عبد الرحمن وأودعه السجن، تفرق خدمه وحشمه وانذعروا في الجهات.

وهمل جازر من مطبخه، كان يعرف بأبن هيدور، كان شبيهاً له في الصورة، فلحق ببني عامر من زغبة، وكانوا لذلك العهد منحرفين عن الطاعة، خوارج على الدولة لما كان السلطان وأبوه قد اختصا عريف بن يحيى أمير بني سويد أقتالهم، منذ نزح إليهم عن أبي تاشفين، فركبوا سنن الخلاف وليسوا جلدة النفاق، واتبذوا بالقمار، ورياستهم لذلك العهد لصغير بن عامر، وإخوته.

وعقد السلطان على حريهم لوزنمار ابن وليه عريف، وكان سيد البدو يومئذ، فجمع لهم وشمّر لطلبهم، وأبعدوا إمامه في المذاهب، وأوقع بهم مراراً.

ولحق بهم هذا الجازر، وانتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه أبو عبد الرحمن ابنه النازع عنه، فشبّه لهم ويأيعوه وأجلبوا به على نواحي المدينة.

وبرز إليهم قائدها مجاهد من صنائع الدولة، ففضوا جمعه وانهمز أمامهم.

ثم جمع لهم وزنمار وفروا عن تلك النواحي وافترق جمعهم، ونبذوا لذلك الجازر عهده، فلحق ببني يراتن من زاوية، ونزل على سيدتهم شمسي فقامت بأمره، وحمل بنوها من بني عبد الصمد قومهم على طاعته.

وشاع في الناس خبره: فمن مصدق ومن مكذب حتى تبينت حاله ووقفوا على كذبه في انتسابه، فنبذوا عهده ولحق بالدواودة أمراء رياح، ونزل على سيدهم يعقوب بن علي، وانتسب له في مثل ذلك النسب، فأجاره إلى أن صدق نسبه.

وأوعز السلطان إلى مولانا السلطان أبي يحيى في شأنه، فبعث إلى يعقوب بن علي فيه وأرسل إليه زيان بن عمر وزير أبي

الخبر عن واقعة المند والظفر به وظهور أساطيل المسلمين على أسطول النصارى

لما بلغ الخبر إلى السلطان باستشهاد ابنه، أخرج وزاره إلى السواحل لتجهيز الأساطيل، وفتح ديوان العطاء، واعترض الجنود وأزاح عنهم، واستنفر أهل المغرب وارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد، وتسامعت أمم النصرانية بذلك، فاستعدوا للدفاع، وأخرج الطاغية أسطولها إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة.

واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مرسى العدو، وبعث إلى الموحدين بتجهيز أسطولهم إليه، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية من صنائع دولتهم، وأوفى سبتة في ستة عشر من أساطيل إفريقية، كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية.

وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة، وعقد السلطان عليها لمحمد بن علي العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها، وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق، وقد اكتمل عديدهم وعدتهم، فاستألموا وتظاهروا في السلاح، وتزاحموا إلى أسطول النصارى وتواقفوا ملياً.

ثم قربوا الأساطيل بعضها إلى بعض وقرنوها للمصاع، فلم يكن إلا كلا ولا حتى هبت ريح النصر، وأظفر الله المسلمين بعدوهم، وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم قهراً بالسيوف، وطعنوا بالرمح، وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم المند واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة، فبرز الناس لمشاهدتها وطيفت بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد، ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء.

وعظم الفتح وجلس السلطان للتهتة، وأنشدت الشعراء بين يديه، وكان يوماً من أغر الأيام، والمنة لله سبحانه.

الخبر عن واقعة طريف وتحييص المسلمين

لما ظفر المسلمون بأسطول النصارى وخضدوا شوكتهم عن مناعة الجواز، شرع السلطان في إجازة العسكر الغزاة من المرتزقين، وانتظمت الأساطيل بسلسلة واحدة من العدو إلى العدو.

ولما اكتمل إجازة العساكر أجاز هو في أسطوله وخاصة وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها، واضطرب معسكره بفنائها، وبدأ بمنازلتها.

عبد الرحمن النازع إليهم فكشف لهم عن خبثه فتقبض عليه يعقوب وأشخصه إلى السلطان مع ذويه، فلحق به بمكانه من سبتة فامتحنه السلطان وقطعه من خلاف وانحسم داؤه، وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة إلى أن هلك سنة ثمان وستين وسبعمائة والله تعالى أعلم.

الخبر عن شأن الجهاد وإغزاء السلطان ابنه الأمير أبا مالك واستشهاد

لما فرغ السلطان من أمر عدوه وما تبع ذلك من الأحوال، صرف اعتزامه إلى الجهاد لما كان كلفاً به.

وكان الطاغية منذ شغل بنو مرين عن الجهاد منذ عهد يوسف بن يعقوب وقد اعتزوا على المسلمين بالعدوة، ونازلوا معاقليهم، وتغلبوا على الكثير منها، وارتجعوا الجبل ونازلوا السلطان أبا الوليد في عقر داره بغرناطة، ووضعوا عليهم الجزية فتقبلوها وأسفوا إلى التهام المسلمين بالأندلس.

فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وغلب على الأيدي يده، وانفسح نطاق ملكه، دعت نفسه إلى الجهاد.

وأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور من عمله من الدعوة سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب.

وجهب إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه السوزراء فشخص غازياً في الحجل، وتوغل في بلاد الطاغية واكتسحها، وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدره من أرضهم وأناخ بها.

واتصل به الخبر بأن النصارى جمعوا له، وأغذوا السير في اتباعه، وأشار عليه المملأ بالخروج من أرضهم وإجازة الوادي الذي كان تخملاً بين أرض الإسلام ودار الحرب، وأن يسير إلى مدن المسلمين فيمتنع بها، فلجج في إيايته وصمم على التعريس.

وكان قدماً ثباً إلا أنه غير بصير بالحروب لمكان سنه، فصحبته عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا وخاطبوهم في أبياتهم.

وأدرك الأمير أبو مالك قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه، واحتوا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين، ورجعوا على أعقابهم.

واتصل الخبر بالسلطان فتفجع لهلاك ابنه، واسترحم له، واحتسب عند الله أجره وفي سبيله قتله، وشرع في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل.

الخبر عن منازل الطاغية الجزيرة، ثم تغلبه عليها بعد أن غاب على القلعة من ثغور ابن الأحمر

لما رجع الطاغية من واقعة طريف استأسد على المسلمين بالأندلس، وطعم في التهامهم، وجمع عساكر النصرانية، ونزل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة، وعلى مرحلة منها. وجمع الآلات والأيدي على حصارها، واشتد نخقها وأصابهم الجهد من العطش، فنزلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وأدال الله الطيب منها بالخيث، وانصرف إلى بلده.

وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجع الكرة وبعث في الأمصار للاستتار، وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى أكمل له منها عدد.

ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها، وقدم عسكره إلى العدو مع وزيره عسكر بن تاحضريت.

وبعث على الجزيرة محمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير، وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن إبراهيم اليرباني من المرشحين للوزارة ببابه، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافته.

وتلاقت الأساطيل فمحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية يجر عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرقى أساطيل المسلمين وفرضة المجاز، وأمل أن ينظمها في ملكته مع جارتها طريف، وحشد الفعلة والصناع للآلات، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار، واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاول.

وجاء السلطان أبو الحجاج بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل المانعة.

وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إليها المدد من الفرسان والمال والزرع في أحياين الغفلة من أساطيلهم، وتحت جناح الليل، فلم يغتحم ذلك، واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد.

وأجاز إليه السلطان أبو الحجاج يفارضة في شأن السلم مع الطاغية، بعد أن أذن له الطاغية في الإجازة مكرراً به.

ووفاه سلطان الأندلس أبو الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس من غزاة زناتة وحامية الثغور ورجل البدو، فعسكروا حذو معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً، وأنزلوا بهم أنواع القتال، ونصبوا عليها الآلات.

وجهب الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال ثواهم بمكانهم من حصار البلد، ففتيت أزودتهم واقتقدوا العلوفات، فوهن الظهر واختلت أحوال المعسكر.

واحتشد الطاغية أمم النصرانية وظناهره البرتغال صاحب أشبونة، وغرب الأندلس، فجاء معه في قومه، وزحف إليهم لسته أشهر من نزولهم.

ولما قرب معسكرهم سرب إلى طريف جيشاً من النصاري أكرمهم بها، فدخلوها ليلاً على حين غفلة من العسس الذي أروى لهم.

وأحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مرادهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته.

وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبا السلطان عساكر المسلمين صفوفاً، وتزاحفوا. ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فساطيط السلطان ودافعهم عنها الناشبة الذين أعدوا لخراستها فاستلحمهم.

ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان: عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى ملك إفريقية، وغيرهما من حظاياهم فقتلوهن واستلبوهن.

وانتهبوا سائر الفساطيط وأضرمو المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختلف مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم، فأحاطوا به وتقبضوا عليه، وولى السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين، واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحلة وانكر قتل النساء والولدان، ووقف منها بمتهى أثره، وانكفاً راجعاً إلى بلاده، ولحق ابن الأحمر بغرناطة، وخلص السلطان إلى الجزيرة، ثم إلى الجبل، ثم ركب السفين إلى سبتة في ليلته ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم، وأرجأ لهم الكرة على عدوهم.

وداخلوا في ذلك مواليه من العلوجي لما أسفهم به من إرهاف حده والتضييق عليهم في جاهه، فبرموا وطوروا على النكت، حتى إذا وجدوا من أبي العلاء داعية إلى ذلك، خفوا إلى إجابتها ونذر بهم محمد بن الأحمر فبعث عن السفين تعرضه في طريقه وساحل إليه، وتسابقوا لشأنهم قبل فوته، فأدركوه دون حصن أصطبونة، وعتبوه فاستعتب، وأغلظوا له في القول، وقتلوا مولاه عاصماً صاحب ديوان العطاء تحنياً عليه.

ونكر السلطان ذلك فتناولوه بالرماح طعناً حتى قعصوه. ورجعوا إلى المعسكر فاستدعوا من كان داخلهم من الموالى. وجاؤوا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد، فبايعوا له وأصفقوا على تقديمه.

وسرح لحينه قائده ابن عزون، فاستولى له على دار ملكه، وتم أمره وحجبه رضوان مولى أبيهم، واستبد عليه، وسكن بين جنبيه من بني أبي العلاء وقتلهم لأخيه داء دخيل، حتى إذا سما السلطان أبو الحسن إلى الجهاد، وأجاز المدد إلى ثغور عمله بالأندلس، وعقد لابنه الأمير أبي مالك، أسر إليهم في شأن بني أبي العلاء بما كان أبوه السلطان أبو سعيد اشترط عليهم في مثلها، ووافق منهم داعية لذلك فتقبض عليهم أبو الحجاج وأودعهم المطبق أجمع.

ثم أشخصهم في السفين إلى مراسي إفريقية، فتنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى، وبعث فيهم السلطان أبو الحسن إليه فاعتقلهم، ثم أوعز إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون في إشخاصهم إلى حضرته، فتوقف عنها، وأبى من إخفار ذمتهم وتوسوس إليه وزيره أبو محمد بن تافراكين بأن مقصد السلطان فيهم غير ما ظنوا به من الشر، ورغب في منة السلطان بيعتهم إليه والمبالغة في الشفاعة فيهم، علماً بأن شفاعته لا ترد فأجابته إلى ذلك، وجنبوهم إليه مع ابن بكرون.

واتبعهم أبو محمد بن تافراكين بكتابة الشفاعة فيهم من السلطان.

وقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعماية فتلقاهم بالر والترحيب إكراماً لشفيهم، وأنزلهم بمعسكره وجنب لهم القربات بالمرائب الثقيلة، وسرب لهم الفساطيط، وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم أعلى رتب العطاء وصاروا في جملة.

ولما احتل بسببة لمشارفة أحوال الجزيرة، سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثب على الملك،

وترصدته بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق، وضائق أحوال هذه الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان، وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد فبذله وخرجوا فوفى لهم.

وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعماية فأنزلهم السلطان ببلاده خير نزل، ولقاهم من المبرة والكرامة ما أعاضهم عما فاتهم، أو خلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدث به الناس.

وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة على تقصيره في المدافعة، مع تمكنه منها لما كان لديه من العساكر.

وانكفأ السلطان إلى حضرته مؤقتاً بظهور أمر الله، وإحجاز وعده في رجوع الكرة وعلو الدين، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

الخبر عن شفاعة صاحب تونس في أولاد

أبي العلاء ووصولهم إلى السلطان

كان عثمان بن أبي العلاء من أعياص آل عبد الحق، شيخ الغزاة المجاهدين من زناتة والبربر بالأندلس.

وكان له فيها مقام معلوم في حماية الثغور ومدافعة العدو، وغزو دار الحرب، ومساهمة صاحب الأندلس الجهاد كما نستوفي في أخباره.

وكان السلطان أبو سعيد لما استصرخ به أهل الأندلس اعتذر بمكانه بينهم، واشترط عليهم أن يمكنوه من قياده حتى يقضي نوبة الجهاد، فلم يسعفوه بذلك.

ولما هلك عثمان بن أبي العلاء، قام بالأمر من بعده في مراسم الجهاد بنوه وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كبيرهم أبي ثابت عامر.

وقويت عصابتهم والأبناء والموالي، وغلبت على يد السلطان يدهم، واستبدوا عليه في أكثر الأحوال، واستكف لها، وكان ذلك مما دعاه إلى القدوم على السلطان أبي الحسن.

وارتاب بنو أبي العلاء بإجازته إليه، واثمهم على أنفسهم، واستعدهم إلى منازلة جبل الفتح على كره.

فلما تغلب المسلمون عليه، وقضى ابن الأحمر من مدافعة الطاغية عنه بالرغبة ما قضى كما ذكرناه، واعتزم على القفول إلى حضرته، أجمعوا على الفك به في طريقه.

وما عونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية ويرانس وعمائم، وأزراً معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفاقد المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون، وساذجاً منمقاً، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللط.

ومن حرش المغرب وماعونه وما يستظرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكمل من حصى الجواهر والياقوت.

واعزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ركابه ذلك، فأذن لها واستبلغ في تكريمها، واستوصى بها وأفده وسلطان مصر في كتابه.

وفصلوا من تلمسان وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم، فقبلها وحسن لديه موقعها.

وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً، تحدث به الناس دهرًا، ولقاهم في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم، ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبهم.

وأسنى هدية السلطان من فساطيطهم الغريبة الهيكل والصنعة بالمغرب، ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرسلمهم وقد استبلغ في تكريمهم ووصلتهم، وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد.

ثم اتسخ السلطان نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول، ووقفها على القراء بالمدينة، وبعثها مع من تخيره لذلك العهد من أهل دولته.

واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل، فخطابه السلطان وأخفه وعزاه عن أبيه، وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج ببابه أبا الفضل بن عبد الله بن أبي مدين فقضى من وفادته ما حمل.

وكان شأنه عجباً في إظهار أبهة سلطانه، والإنفاق على المستضعفين من الحاج في سيلهم، وإتحاف رجال الدولة التركية بذات يده والتعفف عما في أيديهم.

ثم شرع السلطان بعده عند استيلائه على إفريقية كما ذكره في كتابة نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها بيت المقدس، فلم يقدر على إتمامها، وهلك قبل فراغه من نسخها، كما ذكره إن شاء الله تعالى.

فتقبض عليهم وأودعهم في السجن بمكناسة، إلى أن كان من خبرهم مع ابنه أبي عنان ما تذكره إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

الخبر عن هدية السلطان إلى المشرق وبعثه

بنسخة المصحف من خطه إلى الحرمين

والقدس

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في ولاية ملوك المشرق، والكلف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه، وضاعفه لديه متين ديانته.

ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى، وتغلب على المغرب الأوسط، وصار أهل النواحي تحت ريقه منه، واستطال بجناح سلطانه، وخطب لحيته صاحب مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر، وعرفه بالفتح وارتفع العوائق عن الحاج في سابلتهم، وكان فرانقه في ذلك فارس بن ميمون بن ودرار، وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين السلف.

وأجمع السلطان على كتابة نسخة أنيقة من المصحف الكريم بخط يديه ليوقفها بالحرم الشريف قرية إلى الله تعالى، وابتغاء للمثوبة، فانتسخها وجمع الوراقين لمعانة تذهيبها وتمييقها، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها.

وصنع لها وعاء مؤلف من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب، ونظم بالجواهر والياقوت، واتخذت له أصونة الجلد المحكمة الصنعة، المرقوم أديمها بخيوط الذهب ومن فوقها غلاف الحرير والديباغ وأغشية الكتان.

وأخرج من خزائنه أموالاً عتيماً لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها، وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام من خواص مجلسه وكبار أهل دولته، عريف بن يحيى أمير زغبة، والسابق القدم في بساطه على كل خالصة وعطية بن مهلهل بن يحيى كبير الختلة.

وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة بدولته وصاحب الباب عمو بن قاسم المزوار، واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالاً تحدث به الناس دهرًا.

ووقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين هذا الرسول ووعيته وأنسيته وذكر لي بعض قهارة الدار أنه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقربات، بسروج الذهب والفضة ولجمها، خالصاً ومغشًى وعموهاً، وخمسمائة حمل من متاع الغرب

الخبر عن هدية السلطان إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب

الخبر عن إصهار السلطان إلى صاحب تونس

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر معروف يتناول به إلى مناغة الملوك الأعظم واقتفاء سنتهم في مهادة الأتقال والأنظار، وإنفاذ الرسل على ملوك النواحي القاصية والتخوم البعيدة.

وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهد مجاوراً للملكه بالمغرب على مائة مرحلة في القفر من ثغور مملكه القبليّة.

ولما غلب بني عبد الواد على تلمسان وابترهم ملكهم، واستولى على ممالك المغرب الأوسط، وتحدث الناس بشأن أبي تاشفين وحصاره ومقتله، وما كان للسلطان في ذلك من سورة التغلب وآية العز وإهانة العدو وشاعت أخبار ذلك في الآفاق.

وسما سلطان مالي منسا موسى المتقدم ذكره في أخبارهم إلى مخاطبته، فأوفد عليه فرانتين من أهل مملكته مع ترجمان من الملمثين المجاورين لممالكهم من صنهاجة، فوفدوا على السلطان في التهشة بالتغلب والظفر بالعدو، فآكرم وفادتهم وأحسن مئواهم ومقبلهم.

ونزع إلى طريقته في الفخر، فانتخب طرفاً من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها، وعين رجالاً من أهل دولته، كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي، وأوفدهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى، لمهلك أبيه قبل مرجع وفده.

وأوعز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير معهم ذاهبين وجائين، فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جبار الله من المعقل، وصحبهم في طريقهم امثالاً لأمر السلطان.

وتوغل ذلك الركاب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول المشقة، فأحسن مبرتهم وأعظم موصولهم وأكرم وفادتهم ومقبلهم.

وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون سلطانه، ويوجبون حقه، ويؤدون طاعته من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به، فأدوا رسالتهم وبلغ السلطان إرباً من اعتزازه على الملوك وخضوعهم لسلطانه، وقضى حق الشكر لله في صنعه.

لما هلكت ابنة مولانا السلطان أبي يحيى بطريف فيمن هلك من حظايا السلطان أبي الحسن بفساطيطه، بقي في نفسه منها شيء. حيناً إلى ما شغفته به من خلالها وعزة سلطانه، وقيامها على بيتها، وظرفها في تصرفاتها، والاستماع بأحوال الترف ولذاته العيش في عشرتها، فسمّا أمه إلى الاعتياض منها ببعض أخواتها.

وأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير زغبة، وكاتب الجباية والعاكر بدولته أبا الفضل بن عبد الله بن أبي مدين، وفقه الفتيا بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي، ومولاه عنبر الخصي، فوفدوا يوم مثنى من سنة ست وأربعين وسبعمئة وأنزلوا منزل البر، واستبلغ في تكريمهم ودس الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراكين إلى سلطانه غرض وفادتهم، فأبى عن ذلك صونا لحرمة عن جولة الأقطار وتحكم الرجال، واستعظماً لمثل هذا العرس.

ولم يزل حاجبه ابن تافراكين يخفّض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع الأزمنة السالفة بينهما من الصهر والمخالطة إلى أن أجاب وأسعف.

وجعل ذلك إليه فانهقد الصهر بينهما وأخذ الحاجب في شوار العروس، وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال ثواء الرسل إلى أن استكمل وارتحلوا من تونس لشهر ربيع من سنة سبع وسبعمئة وأوعز مولانا السلطان أبو يحيى إلى ابنه الفضل صاحب بونة وشقيق هذه العروس أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياماً لحقه، وبعث من بابيه مشيخة من الموحدون مقدمهم عبد الواحد بن أكمازير، صحبوا ركابها إليه.

وفدوا جميعاً على السلطان واتصل بهم الخبر أثناء طريقهم بمهلك مولانا أبي يحيى عفا الله عنه، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا إليه، واستبلغ في تكريمهم وأجل موعد أخيه الفضل بسلطانه ومظاهرتة على تراث أبيه فاطمأنت به الدار إلى أن سار في جملة السلطان وتحت ألويته إلى إفريقية كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان إلى إفريقية واستيلائه عليها

الأمير أبي العباس ولي العهد عنها، ومهلكه بتونس، وأحمد بن عمر بن العابد رئيس نفطة، رجعا إليها كذلك بعد مهلك وفي العهد، فلقية هؤلاء الرؤساء بوهران في ملأ من وجوه بلادهم، فأتوه بيعتهم وقضوا حق طاعته.

وتناقل محمد بن ثابت أمير طرابلس عن اللحاق به، فبعث بيعته معهم، فأكرم وفدهم وعقد لهم على أمصارهم، وصرهم إلى أعمالهم، وتمسك بأحمد بن مكي لصحابة ركابه، وفي جلسته، وأغذ السير.

ولما احتل بيني حسن من أعمال بجاية، وأفاه بها منصور بن مزني أمير بسكرة وبلاد الزاب في وفد من أهل وطنه، ويعقوب بن علي بن أحمد سيد الدواودة وأمير البدو بضاحية بجاية وقسنطينة، فتلقاهم بالبرة والاحتراف والزمهم ساقته، وسرح بين يديه قائده حمو بن يحيى العشري من صنائع أبيه.

فلما عسكر بساحة بجاية أبي عبد الله أبي عليه أهل البلد رهبة من السلطان ورغبة فيه، وانقضوا من حوليه، ولحقت مشيختهم بالقضاة وأهل الفتيا والشورى بمجلس السلطان.

وسابهم إليه حاجيه فارح مولى ابن سيد الناس، فأدى طاعته ورجعه إليه بالخروج لقاء ركابه.

وارتحل حتى إذا أطلت راياته على البلد، بأدر المولى أبو عبد الله ولقيه بساحة البلد، واعتذر من تخلفه فتقبل عذره وأحلّه من البرور والتكرمة محل الولد العزيز، وأقطعته عمل كومية من ضواحي هنين، وأسنى جرابته بتلمسان وأصحبه إلى ابنه أبي عنان صاحب المغرب الأوسط واستوصاه به، ودخل بجاية فرفع عنهم الظلمات وحط عنهم الربيع من المغارم، ونظر في أحوال ثغورها فنتفها وسد فروجها.

وعقد عليها لمحمد بن الثوار من طبقة الوزراء والمرشحين لها، وأنزل معه حامية من بني مرين، وكاتب الخراج ببابه بركات بن حسون بن البواق، وارتحل مغذاً لسيده حتى احتل بقسنطينة.

وتلقاه أميرها أبو زيد حافد مولانا السلطان أبي يحيى وإخوته أبو العباس أحمد وأبو يحيى زكريا وسائر إخوتهم، فأتوه بيعتهم ونزلوا عن عملهم.

وأداهم السلطان منه بندرومة من عمل تلمسان، عقد للمولى أبي زيد على إمارتها، وجعل له إسوة لإخوته في إقطاع جابيتها، ودخل البلد وعقد عليها لمحمد بن العباس، وأنزل معه العباس بن عمر في قومه من بني عسكر.

وأمضى إقطاعات الدواودة ووافاه هنالك عمر بن حمزة

كان السلطان أبو الحسن قد امتدت عينه إلى ملك إفريقية لولا مكان مولانا السلطان أبي يحيى من ولاية صهره، وأقام يتحين لها الوفاة، ولما بعث إليه في الصهر وأشيع بتلمسان أن الموحدين ردوا خطبته، نهض من المنصورة بتلمسان وأغذ السير إلى فاس ففتح ديوان العطاء، وأزاح علل عساكره، وعقد على المغرب الأقصى لحافده منصور ابن الأمير أبي مالك، وفوض إلى الحسن بن سليمان بن يرزكن في أحكام الشرطة، وعقد له على الضاحية، وارتحل إلى تلمسان مضمراً الحركة إلى إفريقية حتى إذا جاءه الخبر اليقين بالإسعاف إلى والزفاف سكن غربه وهذا طائره.

فلما هلك السلطان أبو يحيى في رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمئة، وكان من قيام ابنه عمر بالأمر، ونزوع الحاجب أبي محمد بن تافراكين في رمضان منها ما ذكرناه، تحركت عزائمهم لذلك، ورغبه ابن تافراكين في ملك الموحدين، فرغب وجاء على أثره الخبر بما كان من قتل عمر لأخيه أحمد ولي العهد، وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه، وما أودعه السلطان بطرته من الوفاق على ذلك بخطه، اقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عتو في سفارته إليه، فامتعض السلطان لما أضاع عمر من عهد أبيه، وهدر من دم أخيه، وارتكب مذاهب العقوق فيهم، وخرق السياج الذي فرضه بخطه عليهم، فاجمع الحركة إلى إفريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر نازعاً إليه مستغذاً مسيره، ففتح ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير إلى إفريقية، وأزاح عنهم.

وكان صاحب بجاية المولى أبو عبد الله حافد مولانا السلطان أبي يحيى، وفد على السلطان أبي الحسن إثر مهلك جده يقرر المئات بسفارة أبيه إليه، ويطلب الإقرار على عمله.

فلما استيأس منه واستيقن حركته بنفسه إلى إفريقية، طلب الرجوع إلى مكانه فأسعف وفصل إلى بجاية.

ولما قضى السلطان منسك الأضحى من سنة سبع وأربعين وسبعمئة عقد لابنه الأمير أبي عنان على المغرب الأوسط، وعهد إليه بالنظر في أموره كافة، وجعل إليه جابيته، وارتحل يريد إفريقية، وسار في جلته هو وخالد بن حمزة أمير البدو.

ولما احتل بوهران وأفاه هنالك وفد قسطنطينية وبلاد الجريد، يقدمهم أحمد بن مكي أمير جربة ورديف أخيه عبد الملك في إمارة قابس، ويحيى بن محمد بن لملول أمير توزر سقط إليها بعد خروج

سيد الكعوب لعهدده وأمير البدو مستحثاً لركابه.

وأخبره برحيل السلطان عمر بن مولانا أبي يحيى من تونس فيمن اجتمع إليه من أولاد مهلهل أقاتلهم من الكعوب متوجهاً إلى ناحية قابس.

وأشار على السلطان بتسريح العساكر لاعتراضه قبل أن يخلص إلى طرابلس، فسرح معه هو بن يحيى العشري قائده في عسكر من بني مرين والجنود.

وارتحلوا في اتباع السلطان أبي حفص، وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة، واعترض عساكره بسطح الجماع منها.

وصرف يوسف بن مزني إلى عمله بالزاب، بعد أن خلع عليه وحمله.

ثم عقد للمولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى على مكان عمله ببنوة، وملأ حقايقه جائزة وخلعاً نفيسة وسرحه، ثم ارتحل على أثرهم وأعدّ هو بن يحيى مع السير الناجعة من أولاد أبي الليل، ولحقوا بالأمير أبي حفص بمباركة من ناحية قابس، فأوقفوا به وتردى عن فرسه في حومة القتال هو ومولاه ظافر السنان القائم بدولته من العلوجي، فتقبض عليهما وسيقا إلى حمو فاعتقلهما إلى الليل، ثم ذبحهما وأنفذ برؤوسهما إلى السلطان.

ولحق الفل بقابس، فتقبض عبد الملك بن مكى على أبي القاسم بن عتو صاحب الأمير أبي حفص وشيخ الموحدين، وعلى صخر بن موسى شيخ بني سكين فيمن تقبض عليه من ذلك الفل، وأشخصهم مقرنين في الأصفاة إلى السلطان.

وسرح السلطان عساكره إلى تونس، وعقد عليهم ليحيى بن سليمان صهره من بني عسكر على ابنته، وأنفذ معه أحمد بن مكى فاحتلوا بتونس، واستولوا عليها.

وانطلق ابن مكى إلى مكان عمله من هنالك لما عقد له السلطان عليه وسرحه إليه بعد أن خلع عليه وعلى حاشيته وحملهم.

ونزل السلطان بناحية باجة، فوافاه هنالك البريد برأس الأمير أبي حفص، وعظم الفتح.

ثم ارتحل إلى تونس واحتل بها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان.

وتلقاه وفد تونس وملؤها من شيوخ الشورى وأرباب الفتيا، فأتوا طاعتهم وانقلبوا مسرورين بملكهم.

ثم عبأ يوم السبت لدخولها مواكب، وصف جنده سباطين

من معسكره بسيجوم إلى باب البلد يناهز ثلاثة أميال أو أربعة.

وركب بنو مرين في جموعهم على مراكزهم وتحت راياتهم. وركب السلطان من فسطاطه وواكبه من عن يمينه وليمه عريف بن يحيى أمير زغبة، وليمه أبو محمد عبد الله بن تافراكين ومن عن يساره الأمير أبو عبد الله محمد أخو مولانا السلطان أبي يحيى، وليمه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالد، كانا معتقلين بقسنطينة مع ولدهما منذ خرج الأمير أبو فارس فاطلهم السلطان أبو العباس وصحبوه إلى تونس، فكانوا طرازاً في ذلك المركب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم، وهدرت طبوله، وخفقت راياته، وكانت يومئذ مائة.

وجاء والمواكب تجتمع عليه صفّاً صفّاً إلى أن وصل إلى البلد، وقد ماجت الأرض بالجيش، وكان يوماً لما ير مثله فيما عقلناه.

ودخل السلطان إلى القصر وخلع على أبي محمد بن تافراكين كسوته وقرب اليد فرسه بسرجه ولجامه، وطعم الناس بين يديه وانتشروا.

ودخل السلطان مع أبي محمد بن تافراكين إلى حجر القصر ومسكن الخلفاء، فطاف عليها ودخل منه إلى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطابية، فطاف على بساطينه وجوائزه، وأفضى منه إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها.

ووصل إليه فل الأمير أبي حفص والأسرى بقابس مقرنين في أصفادهم، فأودعهم السجن بعد أن قطع أبا القاسم بن عتو وصخر بن موسى من خلاف، لفتيا الفقهاء بجرايتهم.

وارتحل من الغد إلى القيروان فجال في نواحيها، ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول المائلة لصنهاجة والعبيدين، وزار أجداد العلماء والصالحين.

ثم سار إلى المهديّة ووقف على ساحل البحر، ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وأثراً في الأرض، واعتبر بأحوالهم.

ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المستير، وانكفأ راجعاً إلى تونس، واحتل بها غرة رمضان وأنزل المسالحي على غور إفريقية، وأقطع لبني مرين البلاد والضواحي، وأمضى إقطاعات الموحدين للغرب.

واستعمل على الجهات وسكن القصر وقد كُمل وعظم

فكس في سبيل الله شن إغارة
ولما أراد الله إتمام منة
أنسى بك للدين الخيفي آية
فجئت كما يرضى بك الله سالكا
وقمت بأمر الله حق قيامه
وأصبح أهل الله أهلاً وشيعه

وحل بأهل الفتن ما حل عزمهم
وجاهدت في الرحمن حق جهاده
وأقذت من أيدي الإغارة أمة
فأصبحت الدنيا عروساً يزفها
فلا مصر إلا قد تمنك أهله
وما الأرض إلا منزل أنت ربه
تملك شطر الأرض كسباً وشطرها
بجيش على الألواح والماء يمتطي
وجيش من الإحسان والعدل والتقى
فلا مركب إلا يزين راكباً
ولا رمح إلا وهو أبيض خاطر
فكس كاتب خطيه ودواته
يسر على الأبطال وهو كانه
وكس كاتب لا ينكر الطعن رعه
له من عجب السحر بالقول أضرب
فها هو في الأقوال واش عبر
ومن صاحب برداً من العلم والتقى
له صفة في العلم جاءت بأصغ
فيا عسكرياً قد ضم أعلام عالم
هم الفئة العليا والمعشر الذي
لك الفضل في الدنيا على كل قاطن
وما ملكاً عدلاً رضى متورعاً
شرعت من الإحسان فينا شريعة
واسميت أهل النسك إذ كنت منهم
وأعليت قدر العلم إذ كنت عالماً
فمدحك عتوم على كل قائل
فله كم تطعي وتطعي وتحني
فلا برحت كفاك في الأرض مزنة
ولا زلت في علياء مجسدي راقباً
توفي على أقصى أمانيك أمناً

الفتح وعظمت في الاستيلاء على الممالك والدول المنه، واتسعت
ممالكه ما بين مسراته والسوس الأقصى من هذه العدو، وإلى
رندة من عدوة الأندلس، والملك لله يؤتية من يشاء من عباده،
والعاقبة للمتقين ورفع إليه الشعراء بتونس يهنونه بالفتح، وكان
سابقهم في تلك النبوة أبو القاسم الرحوي من ناشئة أهل الأدب
فرفع إليه قوله:

أجابه شرق إذ دعوت ومغرب فمكة هشت للقضاء ويثر
وناداك مصر والعراق وشامه بداراً، فصلح الدين عندك يشعب
وحبك أو كسادت تحبي منابر عليها دعاة الحق باسمك تخطب
فسارع كل دان وشاسع إلى طاعة من طاعة الله تحب
وتأقت لك الأرواح حباً ورغبة وأنت على الآمال تنأى وتقرب
فبالبلدة البيضاء لبك معشر وأنت بافق الناصرية ترقب
ووافتك من ذات الخيل وفودها فلاقاهم أهل لديك ومرحب
ولم تتركاً عن إياء بجاية ولكن تراضي الضعب حيناً وتركب
تأبت فلما أن أطلت عساكر ترى الشهب مما يستباح وينهب
تبادر منهم مذعن ومسلم وأذعن منهم شاغب ومؤلب
وما تونس إلا بمصر مروع وفي حرم أمست لديك تسرب
وما أهلها إلا بغات لصائد وبالعز منك استسروا وتعقبوا
وقد كنت قبل اليوم كهف زعيمهم فها أنت كهف للجميع ومهرب
فكل يرى أن الزمان أداله بكم فأجاب العيش والعيش غصب
وكذلك ابن طائع وإن اعتلت به السن لإجلالاً وأنت له أب
وما ذاك إلا أن عدلك يتمي إلى الخلفاء الراشدين وينسب
تسامت في ملك ونسك مخطئة حنيك عراب لديها ومركب
إذا لئد للأملاك خسر مدارة فلذلك القرآن تكلو وتكتب
وإن آدم من القوم الصبور فإنما على ركعات بالضحى أنت تداب
وإن حمدوا شرب الغبوق فإنما شرايك بالإسماء ذكر مرتب
وإن خشت أخلاقهم وتحججوا فما أنت فظ لا، ولا متحجب
لقد كرمت منك السجيا فأصبحت إذا ما أمد الدهر تحلو وتعذب
كما شدت بيتاً في ذؤابة معشر يزيد بهم قحطان فخراً ويعرب
هم التاركو قلب القساور خضعاً وعن شأوهم كفت عيب وأغلب
هم الناس والأملاك تحت جوارهم هم العظم والأرض العظيمة تغرب
هم المالكو الملك العظيم ودستهم على كاهل السبع الشداد مطنب
لقد أصبحت بغداد تحمد فاسهم ودجلة ودت أن يكون بهاسب
تجلت سماء الجند منهم كواكباً لقد حل منها شارق ومغرب
فالله منهم ثلثة يعريضة يروم بهاها الأعجمي فيعرب
لقد قام عبد الحق للحق طالباً فما فاتته منه الذي قام يطلب
وأعقب يعقوباً يؤم سبيله فلم يخطه وهو السبيل الملح
وخلف عثماناً فالله صارم به بان للإسلام شرع ومذهب

فأعطوها بالكرامة.

ثم هلك باغتيال الدولة له فيما يزعمون، وقام بالأمر بنوه فلم يعرفوا عواقب الأمور وبلغا باعتساف الدول، ولم يعهدوا ولا سمعوا لسلفهم غير الاعتزاز فحدثهم أنفسهم بالفتنة والاعتزاز على قائد الدولة. وحاربوه فغلبوه، وأجلبوا على السلطان في ملكه، ونازلوه بعقر داره سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة ولما سامهم الأمير عمر ابن مولانا الأمير أبي يحيى الهضيمة بعد مهلك أبيه نزعوا إلى أخيه ولي العهد، فجاء إلى تونس وملكها سبعا.

ثم اقتحمها عليه أخوه الأمير أبو حفص فقتله، وتقضى يوم اقتحامه البلد على أبي الهول بن حمزة أخيه، فقتله صبرا بباب داره بالقصبة، فأسفهم بها، وتدابعوا إلى السلطان أبي الحسن ورغبوه في ملك إفريقية واستغذوه إليها.

ولما تغلب السلطان على الوطن وكانت حاله في اعتزاز على من في طاعته غير حال الموحدين وملكته للبدو غير ملكتهم، وحين رأى اعتزازهم على الدولة وكثرة ما أقطعهم من الضواحي والأمصار، نكره وأداهم من الأمصار التي أقطعهم الموحدون بأعطيات فرضها لهم في الديوان.

واستكثر جبايتهم، فنقصهم الكثير منها وشكى إليه الرعية من البدو ما ينالونهم به من الظلمات والجور بفرض الأتاوة التي يسمونها الخفارة، فقبض أيديهم عنها وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها، فارتابوا لذلك، وفسدت نياتهم وثقلت وطأة الدولة عليهم فترصدوا لها.

وتسامع ذويانهم ويواديهم بذلك، فأغاروا على قياطين بني مرين ومساحهم بشغور إفريقية وفروجها، واستاقوا أموالهم، وكثر شكاتهم وأظلم الجو بينهم وبين السلطان والدولة.

وفد عليه بتونس بعد مرجعه من المهديّة وفد من مشيختهم، كان فيهم خالد بن حمزة مستحثة إلى إفريقية، وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله بن مسكين، وابن عمه خليفة بن بو زيد من أولاد القوس، فأنزلهم السلطان وأكرمهم.

ثم رفع إليه الأمير عبد الواحد ابن السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني كان في جلته، وكان من خبره أنه رجع من المشرق بعد مهلك أبيه بمصر كما قدمناه سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة فدعا لنفسه بمجرات طرابلس.

وتابعه أعراب دباب، وباع له عبد الملك بن مكّي صاحب قابس، ونهض معه إلى تونس في غيبة السلطان لتخريب تميزدكت كما ذكرناه، فملكها أياما وأحسن بمرجع السلطان

الخبر عن واقعة العرب مع السلطان

بالقيروان وما تخلصها من الأحداث

كان هؤلاء الكعوب من بني سليم رؤساء البدو بإفريقية، وكان لهم اعتزاز على الدولة لا يعرفون غيره مذ أولها بل وما قبله، إذ كان سليم هؤلاء منذ تغلب العرب من مضر على الدول والممالك أول الإسلام انتبذوا إلى الضواحي والفقر، وأعطوا من صدقاتهم عن عزة، وارتاب الخلفاء بهم لذلك حتى لقد أوصى المنصور ابنه المهدي أن لا يستعين بأحد منهم كما ذكر الطبري.

فلما التاثت الدولة العباسية واستبد الموالي من العجم عليهم، واعتز بنو سليم هؤلاء بالفقر من أرض نجد، وأجلبوا على الحاج بالخرمين، ونالهم منهم معرات، ولما انقسم ملك الإسلام بين العباسية والشيعة واحتطوا القاهرة، نفقت لهم إذ ذاك أسواق الفتنة والتعزز، وساموا الدولتين بالهضيمة وقطع السابلة.

ثم أغزاهم العبيديون بالمغرب وأجازوا إلى برقة على إثر الهلاليين فخرّبوا عمرانها وأجروا في خلعتها، حتى إذا خرج ابن غانية على الموحدين وانتزى بالثغور الشرقية: طرابلس وقابس، واجتمع معه على ذلك قراقش الغزي مولى بني أيوب ملوك مصر والشام، وانضاف إليهم أفاريق العرب من بني سليم هؤلاء وغيرهم، فأجلبوا معهم على الضواحي والأمصار، وصاروا في جملتهم من ناعق فنتهم.

ولما هلك قراقش وابن غانية واستبد آل أبي حفص بإفريقية واعتز الدواودة على الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، استظهر عليهم بني سليم هؤلاء، وزاحمهم بطواعتهم وأقطعهم بإفريقية ونقلهم عن مجالاتهم بطرابلس وأنزلهم بالقيروان، فكان لهم من الدولة مكان وعليها اعتزاز، ولما افترق سلطان بني أبي حفص، واستبد الكعوب برياسة البدو، وضرّبوا بين أعياصها وسعوا في شقاقها، أصابت منهم وأصابوا منها، وكان بين مولانا الأمير أبي يحيى وبين حمزة بن عمر أخي الأمير منازعة وفتن وحرب سجال أعانه عليها ما كان من زحف بني عبد الواد إلى إفريقية وطمعهم في تملك ثغورها، فكان يستجر جيوشهم لذلك، وينصب الأعياص من آل أبي حفص يزاحمهم بهم، ثم غلبه مولانا السلطان أبو بكر آخراً وقاده إلى الطاعة ما كان من قطع كلمة الزبون عن مولانا السلطان أبي يحيى، وهلاك عدوه من آل يغمراسن، بسيف وليه وظهره السلطان أبي الحسن، فأذعن وسكن غرب اعتزازه، وحمل بني سليم على إعطاء صدقاتهم،

فأجفل عنها.

وانقطع أمر بني عبد المؤمن منها، وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقدمة فنسي أمرهم.

وهلك عثمان بن إدريس هذا بجربة، ثم ابنه عبد السلام بعده، وترك من الولد ثلاثة أصغرهم أحمد، وكان صناع اليدين.

ولحقوا بتونس بعدما طوحت بهم طوائف الاغتراب، وظنوا أن قد تنوسي شان أبيهم، فتقبض عليهم مولانا السلطان أبو يحيى وأودعهم السجن إلى أن غرهم إلى الإسكندرية سنة أربع وأربعين وسبعمئة ورجع أحمد منهم إلى إفريقية، واحتل بتوزر محترفاً بجربة الخياطة يتعيش منها، فاستدعاه بنو كعب هؤلاء حين اتفقت أهواؤهم ومن اتبعهم من أحلافهم أولاد القوس، وسائر شعوب علاق، وخرج إليهم من توزر فنصبوه للأمر وجعلوا له شيئاً من القساطيط والآلة والكسوة الفاخرة والمقربات، وأقاموا له رسم السلطان، وعسكروا عليه بجللهم وقياطينهم، وارتحلوا لمناجزة السلطان، ولما قضى منسك الأضحى من سنة ثمان وأربعين وسبعمئة ارتحل من ساحة تونس يريدهم، فوافاهم في العرج ما بين وتبسط تونس وتبسط القيروان المسمى بالثنية، فأجفلوا أمامه وصدقوه القتال منهزمين، وهو في اتباعهم إلى أن احتل بالقيروان، ورأوا أن لا ملجأ منه، فتدامروا واتفقوا على الاستماتة، ودس إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين فغلبوا بني مريس، ووعدهم بالمناجزة صبيحة يومهم ليتحيزوا إليهم برأياتهم، فصبحوا معسكر السلطان، وركب إليهم في الآلة والتعبية، واختل المصاف، وتحيز إليهم للكثير، ولحق السلطان إلى القيروان فدخلها في الفل من عساكره ثامن المحرم فاتح تسع وعشرين وسبعمئة، وتداغت ساقات العرب في أثره وتسابقوا إلى المعسكر، فانهبوه ودخلوا فسطاط السلطان، فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه، وأحاطوا بالقيروان، وأحدثت حللهم بها سياجاً، وتعلت ذيابهم بأطراف البقاع، وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان.

وبلغ الخبر إلى تونس فاستحصن بالقصبة أولياء السلطان وحرمه، ونزع ابن تافراكين من جملة السلطان بالقيروان إليهم، ففقدوا له على حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبوس ودفعوه إلى محاربة من كان بقصبة تونس، فأغذ إليها السير واجتمع إليه أنشباع الموحدين وزعائن الغوغاء والجنود، وأحاطوا بالقصبة، وغادها بالقتال، ونصب المنجنيق لحصارها.

ووصل سلطانه أحمد على أثره، وامتنعت عليهم، ولم يغنوا فيها غناً، واقترق أمر الكعوب وخالف بعضهم بعضاً إلى السلطان، وتساقطوا إليه، فتنفس غثق الحصار عن القيروان، واختلقت إليه

ولحق عبد الواحد بن اللحياني إلى تلمسان، إلى أن دلف إليها السلطان أبو الحسن بعساكره، ففارقهم وخرج إليه، فأحله محل التكرمة والمبرة واستقر في جلته إلى أن ملك تونس.

ورفع إليه عند مقدم هذا الوفد أنهم دسوا إليه مع بعض حشمهم، وطلبوه في الخروج معهم لينصبوه للأمر بإفريقية وتبراً إلى السلطان من ذلك، فأحضروا بالقصر ووجههم الحاجب علال بن محمد بن المصمود، وأمر بهم، فسحبوا إلى السجن.

وفتح السلطان ديوان العطاء وعسكر بسيجوم بساحة البلد بعد قضائه منسك الفطر من سته.

وبعث في المسالح والعساكر فتوافوا ببابه واتصل الخبر بأولاد أبي الليل القوس باعتقال وفدهم وعسكرة السلطان لهم، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتعاقدا على الموت، وبعثوا إلى أقتانهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد.

وكانوا بعد مهلك سلطانهم أبي حفص قد لحقوا بالقفر وانتبذوا عن إفريقية فراراً من مطالبة السلطان بما كانوا شيعاً لعدوه.

فاغذ السير إليهم أبو الليل بن حمزة مطارحاً عليهم بنفسه في الاجتماع للخروج على السلطان، فأجابوه وارتحلوا معه.

وتوافت أحياء بني كعب وحكيم جميعاً بتوزر من بلاد الجريد، فهدروا الدماء بينهم وتدامروا وتبايعوا على الموت، والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر، فدلهم بعض سماسرة الفتى على رجل من أعقاب أبي دبوس فريسة بني مريس من حلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، عندما استولوا عليها.

وكان من خبره أن أباه عثمان بن إدريس بن أبي دبوس لحق بعد مهلك أبيه بالأندلس، وصحب هنالك مرغم بن صابر شيخ بني دباب وهو أسير ببرشلونة.

فلما انطلق من أسره صحبه إلى وطن دباب بعد أن عقد قمص ببرشلونة بينهما حلفاً، وأمدهما بالأسطول على مال التزامه له.

ونزل بضواحي طرابلس وجبال البربر بها، ودعا لنفسه هنالك وقام بدعوته كافة العرب من دباب، وقاتل طرابلس، فامتنت عليه.

ثم بايعه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب بإفريقية، وأجلب به على تونس، فلم يتم أمره لرسوخ دعوة الحفصيين بإفريقية

حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان، سما إلى التوثب على ملك سلفه.

وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من الدولة، واستقلوا وطأة الإيالة لما اعتادوا من الملكة الرقيقة، فأشربوا إلى الثورة عندما بلغهم خبر النكبة.

وقد كان توافي بقسنطينة ركاب من المغرب فيه طوائف من الوفود والعساكر، وكان فيهم ابن صغير من أبناء السلطان، عقد له على عسكر من أهل المغرب، وأوعز إليه باللاحاق بتونس، وفيهم عمال المغرب قدموا عند رأس الحول بجبايتهم وحسبانهم، وفيهم أيضاً وقد من زعماء النصارى بعثهم الطاغية ابن أدفونس مع تاشفين ابن السلطان لما أطلقه من الأسر بعد عقد السلم والمهادنة، وكان أسيراً عندهم من لدن واقعة طريف كما ذكرناه، وكان أصابه مس من الجنون.

فلما خلصت الولاية بين السلطان والطاغية، وعظم عنده الإتحاف والمهاداة، وبلغه خبر السلطان وتملكه إفريقية، أطلق ابنه تاشفين وبعث معه هؤلاء الزعماء للتهنته، وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي ملوك السودان بالمغرب، أوفدهم ملكهم منسا سليمان للتهنته بسلطان إفريقية، وكان معهم أيضاً يوسف بن مزني عامل الزاب وأميره، قدم بجباية عمله، واتصل به خبر الركاب بقسنطينة فلحق بهم مؤثراً صاحبهم إلى سدة السلطان.

وتوافي هؤلاء الوفود جميعاً بقسنطينة، واعصو صبروا على ولد السلطان.

فلما وصل خبر النكبة اشرب الغوغاء من أهل البلد إلى الثورة، وتجلت شفاهم إلى ما بأيديهم من أموال الجباية وأحوال الثروة، فنقموا عليهم سوء الملكة، ودس مشيختهم إلى السولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى بمكانه من بونة، وقد كشف القناع في الانتزاء على عمله والدعاء لنفسه، فخطبوه للأمر، واستحثوه للقدوم، فأخذ السير.

وتسامع بخبره أولياء السلطان، فخشي ابن مزني على نفسه، وخرج إلى معسكره بجلة يعقوب بن علي أمير الدواودة، ولجا ابن السلطان وأولياؤه إلى القصبية.

ومكر بهم أهل البلد في الدفاع دونهم حتى إذا أطلت رايات مولانا الفضل وثبوا بهم وأحجروهم بالقصبية وأحاطوا بهم حتى استنزلوهم على أمان عقده لهم.

ولحقوا بجلة يعقوب، فمكروا بها بعد أن نقض أهل البلد عهدهم في ذات يدهم، فاستصفوه وأشار عليهم ابن مزني

رسل أولاد مهلهل، وأحسن بهم أولاد أبي الليل فدخل أبو الليل بن حمزة بنفسه، وعاهد السلطان على الإفراج، ولم يف بعهده.

وداخل السلطان وأولاد مهلهل في الخروج معهم إلى سوسة، فعاهدوه على ذلك.

وواعد أسطولهم بمرساها وخرج معهم ليلاً على تعبية، فلحق بسوسة وبلغ الخبر إلى ابن تافراكين بمكانه من حصار القصبية، فركب السفين ليلاً إلى الإسكندرية.

وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس، لما وقف على خبره فانفض جمعهم وأفرجوا عن القصبية.

وركب السلطان أسطولهم من سوسة، ونزل بتونس آخر جمادى واعتمل في إصلاح أسوارها وإدارة الخندق عليها، وأقام لها من الامتناع والتحصين رسماً ثبت له من بعده، ودفع به نحو عدوه، واستقل من نكبة القيروان وعثرتها، وخلص من هوتها والله يفعل ما يشاء.

ولحق أولاد أبي الليل وسلطانهم أحمد بن أبي دبوس بتونس، فأحاطوا بالسلطان واستبلغوا في حصاره، وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان، فعول عليهم ثم راجع بنو حمزة رأيهم في طاعة السلطان ودخل كبيرهم عمر إليه في شعبان، وتقضوا على سلطانهم أحمد بن أبي دبوس وقادوه إلى السلطان استبلاغاً في الطاعة، وإعاضاً للولاية فتقبل فيتهم، وأودع ابن أبي دبوس السجن، وأصهر إلى عمر بابنه أبي الفضل، فعقد له على بته، واختلفت أحوالهم في الطاعة والانحراف إلى أن كان ما نذكر. والله غالب على أمره.

الخبر عن انتفاض الثغور الغربية ورجوعها

إلى دعوة الموحدين

كان المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى، لما قدم على السلطان أبي الحسن بتملسان في زفاف شقيقته سنة سبع وأربعين وسبعمائة بعدما اتصل به في طريقه مهلك أبيه، أوسع له السلطان كنفه، ومهد له جانب كرامته وبره، وغمز له بوعده في المظاهرة على ملك أبيه يعزي به عن فقده.

وارتحل السلطان إلى إفريقية، والمولى أبو الفضل يرجي أن يجعل سلطانها إليه، حتى إذا استولى السلطان على الثغرين بجاية وقسنطينة، وارتحل إلى تونس، عقد له على مكان إمارته أيام أبيه ببونة، وصرفه إليها، فانقطع أمه وفسد ضميره وطوى إلى النكت

فصادف منه أذنًا واعية، واشتمل عليه ابن جرار من بعده.

فلما ورد الخبر بنكبة السلطان أغراه ابن جرار بالتوثب على الملك، وسول له الاستئثار به على إخوانه يفتناً بمهلك السلطان، ثم أوهمه الصدق بإرجاف الناس بموت السلطان، فاعتزم وشحذ عزمه في ذلك ما اتصل به من حافد السلطان منصور ابن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المغرب من الانتزاع على عمله، وأنه فتح ديوان العطاء واستلحق واستركب لغيبة بني مريش عن بلادهم، وخلا جوه من عساكرهم، وأظهر العسكر والحشد لاستنقاذ السلطان من هوة القيروان يسر منها حسواً في ارتفاع، وتظن لشانه الحسن بن سليمان بن يرزيكن عامل القصة بفاس، وصاحب الشرطة بالضواحي، فاستأذنه باللاحق بالسلطان، فأذن له راحة من مكانه.

وأصبحه عمال المصامدة ونواحي مراکش ليستقدمهم على السلطان بجباياتهم، فلحق بالأمير أبي عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب والدعاء لنفسه، فقبض أموالهم وأخرج ما كان بمودع السلطان بالنصورة من المال والذخيرة، وجاهر بالدعاء لنفسه، وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع من سنة تسع وأربعين وسبع مائة فبايعه الملا.

وقرأ كتاب بيعتهم على الأشهاد، ثم بايعه العامة، وانفض المجلس وقد انعقد سلطانه ورست قواعد ملكته، وركب في التعيينة والآلة حتى نزل بقية الملعب.

وأهم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن يرزيكن، ثم لفارس بن ميمون بن ودرار وجعله رديفاً له وتبعاً، ورفع مكان ابن جرار عليهم.

واختص لولايته ومناجاة خلوته كاتبه أبا عبد الله بن محمد ابن القاضي عبد الله بن أبي عمر وسنذكر خبره.

ثم فتح الديوان واستركب من تساقط إليه من فل أبيه، وخلع عليهم ودفع إليهم أعطيائهم وأزاح عنهم.

وبينما هو يريد الرحلة إلى المغرب إذ بلغه أن ونزمار ابن ولي السلطان، وخالصته عريف بن يحيى، وكان أمير زغبة لعهدده ومقدماً على سائر البدو، وبلغه أنه قد جمع له يريد حربه، وغلبه على ما صار إليه من الانتزاع والثورة على أبيه.

وأنه قصد تلمسان بمجموعه من العرب وزناتة المغرب الأوسط، ففقد للحسن بن سليمان وزيره على حربه وأعطاه الآلة وسرحه للقائه، وسرح معه من حضره من بني عامر أقتال سويد، وارتحل الوزير بعسكره حتى احتل بتاسالة، وناجزه ونزمار

باللاحق ببسكرة لتكون ركبهم إلى السلطان، فارتحلوا جميعاً في جوار يعقوب لما له من ملك تلك الضواحي، حتى لحقوا ببسكرة، ونزلوا منها على ابن مزني خير نزل، وكفاهم كل شيء بهمهم على طبقاتهم ومقاماتهم، وعناية السلطان بمن كان وافداً منهم، حتى سار بهم يعقوب بن علي إلى السلطان وأوفدهم عليه في رجب من سنة.

واتصل الخبر بأهل بجاية بالفعلة التي فعل أهل قسنطينة، فساجلوه في الثورة، وكبسوا منازل أولياء السلطان وعسكره وعماله، فاستباحوها واستلبوهم وأخرجوهم من بين ظهرانيهم عراة، فلحقوا بالمغرب وطيروا بالخبر إلى المولى أبي الفضل، واستحثوه للقدوم، فقدم عليهم وعقد على قسنطينة وبونة لمن استكنفى به من خاصته ورجالات دولته، واحتل ببجاية لشهر ربيع من سنة، وأعاد ملك سلفه.

واستوسق أمره بهذه الثغور إلى أن كان من خبره مع السلطان بعد خروجه من بجاية ما ذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتزاع أولاد السلطان المغرب

الأوسط والأقصى ثم استقلال أبي عنان

بملك المغرب كله

لما اتصل خبر النكبة بالقيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان، وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط، وتساقط إليه الفل من عسكر أبيه عراة زرافات ووجداناً، وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان، فطاول الأمير أبو عنان للاستئثار بملك أبيه، دون الأبناء، لما كان له من الإيثار عند أبيه لصيائنه وعفافه، واستظهار القرآن، فكان محلاً بعين أبيه لأمثالها.

وكان عثمان بن يحيى بن جرار من مشيخة بني عبد الواد وأولاد تيدوكسن بن طاع الله منهم، وكان له محل من الدولة كما ذكرناه في خبره، وكان السلطان أذن له في الرجوع إلى المغرب، فرجع من معسكره بالمهدية، ونزل بزاوية العباد من تلمسان، وكان مسماً وقوراً، جهينة خبر متعاً في حديثه، وكان يرجم فيه الوقوف على الخلدان.

وكان الأمير أبو عنان متشوقاً إلى أخبار أبيه، ففزع إلى عثمان بن جرار في تعرفها، واستدعاه وأنس به، وكان في قلبه مرض من السلطان، فأودع أذن الأمير أبي عنان ما أراد من الأفاويل من تورط السلطان في المهلكة، وبشره بمصير الأمر إليه،

واجتمع إليه قومه من بني مرين إلا من أقام مع السلطان بتونس وفاء بحقه، وحص جناح أبيه عن الكرة على الكموب الناكثين لعهد، الناكثين عن طاعته، فأقام بتونس يرجي الأيام، ويأمل الكرة، والأطراف تنقض والخوارج تتجدد إلى أن ارتحل إلى المغرب بعد اليأس، كما ذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتفاض النواحي وانتزاع بني عبد الواد بتلمسان ومغراوة بشلف وتوجين بالمدينة

لما كانت نكبة السلطان بالقيروان وانتشر ملك زناتة، وانتقضت قواعد سلطانهم، اجتمع كل قوم منهم لإبرام أمرهم والنظر في شأن جماعتهم، وكانوا جميعاً نزعوا إلى الكموب الخارجين على السلطان، وبزوعهم كانت الدائرة عليه. ولحقوا بتونس مع الحاجب أبي محمد بن تافراكين ليلحقوا منها بأعمالهم.

وكان في جملة السلطان جماعة من أعياصهم: منهم عثمان وإخوته الزعيم ويوسف وإبراهيم أبناء عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد، صاروا في إيالة السلطان منذ فتح تلمسان وأنزلهم بالجزيرة للرباط.

ثم رجعوا بعد استئثار الطاغية بها إلى مكانهم من دولتهم، وساروا إلى القيروان تحت لوائه ومنهم علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن مندبل.

وقد ذكرنا أخبار أبيه وأنه ربي في إيالة السلطان وجو الدولة يتيماً، وكفلته نعمتها منذ نشأته حتى كانه لا يعرف سواها، فاجتمع بنو عبد الواد بتونس وعقدوا على أنفسهم لعثمان بن عبد الرحمن بما كان كبير إخوته، وأتوه ببيعتهم بشرقي المصلى العتيق المثل على سيجوم من ساحة البلد، لهذه بهم يومئذ.

وقد وضعوا له بالأرض درقة من اللط أجلسوه عليها، ثم ازدحموا مكين على يده يقبلونها للبيعة.

ثم اجتمع من بعدهم مغراوة إلى علي بن راشد وبايعوه وحضروا به.

وتعاهد بنو عبد الواد ومغراوة على الألفة وانتظام الكلمة وهدر الدماء.

وارتحلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط، فنزل علي بن راشد

الحرب، فقلت جموعه ومنحوا أكتافهم، وأتبع الوزير وعسكره آثارهم، واكتسح أموالهم وحللهم، وعاد إلى سلطانه بالفتح والغنائم.

وارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب، وعقد على تلمسان لعثمان بن جرار وأنزله بالقصر القديم منها، حتى كان من أمره مع عثمان بن عبد الرحمن ما ذكرنا في أخبارهم.

ولما انتهى إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان أنه مضمير الفتك به بتأزي تزلفاً إلى السلطان ووفاء بطاعته، وأنه داخل في ذلك الحافد منصور صاحب أعمال المغرب، بما كان يظهر من طاعة جده، وارتاب الأمير أبو عنان به واستظهر وأشبه على ذلك بكتابه.

فلما قرأه نقبض عليه، وقتله بالمساء خفياً، وأغذ السير إلى المغرب.

وبلغ الخبر منصور بن أبي مالك صاحب فاس فزحف للقائه، والتقى الجمعان بساحة تازي وبوادي أبي الأجراف، فاختل مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس.

وانحجز بالبلد الجديد وارتحل الأمير أبو عنان في أثره، وتسايل الناس على طبقاتهم إليه، وآتوه الطاعة وأناخ بعساكره على البلد الجديد في ربيع الآخر من سنة تسع وأربعين، وأخذ بمخنتها وجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها، ولحين نزوله على البلد الجديد أوعز إلى الوالي بمكناسة، أن يطلق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة، فأطلقهم ولحقوا به فأقاموا معه على حصار البلد الجديد، وطال تمرسه بها إلى أن ضاقت أحوالهم واختلفت أهواؤهم، ونزع إليه أهل الشوكة منهم.

ونزع إليهم إدريس بن عثمان بن أبي العلاء فيمن إليه من الخاشية بإذنه له في ذلك سرراً ليتمكن بهم، فدس إليه وواعده الثورة بالبلد، فنار بها واقتحمها الأمير أبو عنان عليهم، ونزل منصور بن أبي مالك على حكمه، فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه، واستولى على دار الملك وسائر أعمال المغرب وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنئة والبيعة.

ومسك أهل سبتة بطاعة السلطان والاقبياد لقائدهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء حيناً، ثم توثبوا به وعقدوا على أنفسهم للأمير أبي عنان، وقادوا أعمالهم إليه.

وتولى كبر الثورة فيهم زعيمهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن رافع من بيت أبي الشريف من آل الحسن، كانوا انتقلوا إليها من صقلية، واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب،

تغرين في رياسته، وتحاش إلى أولاد عزيز من بني توجين أهل ضاحية المدية ققاموا بأمره، واعصوبوا عليه، وكانت بينه وبين أبناء عمر بن عثمان حرب سجال إلى أن هلك، وخلص أمر بني توجين لأبناء عمر بن عثمان، وهم على مذهبهم من طاعة السلطان وتمسكهم بدعوته، وهو مقيم خلال ذلك بتونس إلى أن أزمع الرحلة، واحتل بالجزائر كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رجوع أمراء الثغور الغربية من الموحدين إلى ثغورهم ببجاية وقسنطينة

لما توثب الأمير أبو عنان على ملك أبيه ويبيع بتلمسان، وكانت للأمير أبي عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية لديه خلة ومصافاة، من لدن بعثه إليه السلطان أبوه من بجاية. وأنزله بتلمسان فرعى له السابقة وأثره في الإمارة، وعقد له على محل إمارته من بجاية، وأمه بما يرضيه من المال والسلاح.

ودفعه إليها ليكون حجزاً دون السلطان بتونس، وضمن له هذا الأمير صده عن الخلوص إليه، وسد المذاهب دونه.

وأوعز أبو عنان إلى أساطيله بوهران، فركبها الأمير إلى تدلس ودخلها.

ونزع إليه صنهاجة أهل ضاحية بجاية، عن عمه المولى أبي العباس الفضل واعصوبوا عليه وقاموا بأمره لتقديم نعمته وسالف إمارة أبيه.

ولما ارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب، رحل في جملة المولى أبو زيد عبد الرحمن ابن مولانا الأمير أبي عبد الله صاحب قسنطينة ومعه إخوته، فاخصمهم يومئذ بتقريبه وخطبهم بنفسه.

فلما غلب الأمير أبو عنان منصور ابن أخيه أبي مالك على البلد الجديد، واستولى على المغرب رأى أن يبعث ملوك الموحدين إلى بلادهم، ويدفع في صدر أبيه بمكانهم فسرّح المولى أبو زيد وجميع إخوته، وكان منهم مولانا السلطان أبو العباس الذي جبر الله به الصدع ونظم الشمل، فوصلوا إلى موطن ملكهم ومحل إمارتهم.

وكان مولاهم نبيل حاجب أبيهم قد تقدم إلى بجاية، ولحق بالمولى أبي عبد الله بمكانه من حصارها.

ثم تقدم إلى قسنطينة وبها مولى من موالى السلطان المتغلب عليها، وهو المولى أبو العباس الفضل، فلحين إطلااله على جهاتها وشعور أهلها بمكانه لفحت منهم عزائز المودة وذكروا جميل

وقومه بموضع عملهم من ضواحي شلف، وتغلبوا على أمصاره وافتتحوا تنس وأخرجوا منها أولياء السلطان وعسكره، وقتلوا القاضي بمازونة سرحان، كان مقيماً لدعوة السلطان بها، ثم سولت له نفسه التوثب والانتزاع، فدعا لنفسه، وقتله علي بن راشد وقومه.

وأجاز عثمان بن عبد الرحمن وقومه من بني عبد الواد إلى محلّ ملكهم بتلمسان، وألقوا عثمان بن جرار قد انتزى بها بعد منصرف الأمير أبي عنان ودعا لنفسه، فنجهم له الناس لتوثبه على المنصب الذي ليس لأبيه، واستمسك بالبلد أياماً يؤمل نزوع قومه إليه.

ثم زحف إليه بنو عبد الواد وسلطانهم فصدقوه الزحف، وثارت به الغوغاء، وكسروا أبواب البلد، وخرجوا إلى السلطان فأدخلوه القصر، واحتل به في جمادى من سنة تسع وأربعين وسبعمئة وتسابق الناس إلى مجلسه مثنى وفرادى، وبابعوه البيعة العامة.

وتفقد ابن جرار، ثم أغرى به البحث، فعثر عليه ببعض زوايا القصر، واحتمل إلى المطبخ فأودع به إلى أن سرب إليه الماء فمات غريقاً في هوته.

وساهم السلطان أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت الزعيم في سلطانه، وشركه في أمره، وأردفه في ملكه، وجعل إليه أمر الحرب والضواحي والبدو كلها.

واستوزر قريبه يحيى بن داود بن مكن، من ولد محمد بن تيدوكسن بن طاع الله، واستوسق ملكهم، وأوفدوا مشيختهم على الأمير أبي عنان صاحب المغرب، وسلطان بني مرين، ففقدوا معه السلم والمهادنة، واشترطوا له على أنفسهم دفاع السلطان أبيه عن الخلوص إليه.

وزحفوا إلى وهران من ثغور أعماهم، ونازلوا بها أولياء السلطان وعساكره، وعاملها يومئذ عيو بن جانا من صنائع السلطان إلى أن غلبوه عليها، واستنزوه صلحاً لأشهر من حصارها.

واستمسك أهل الجزائر بطاعة السلطان، واعتصموا بها، وعقد عليها لقائده محمد بن يحيى العشري من صنائع أبيه، بعثه إليهم من تونس بعد نكبة القيروان.

ونجم بالمدية عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي داعياً لنفسه، وطالباً سلطان سلفه، وامتنع عليه معقل ملكهم بجبل وانشرش لكان ولد عمر بن عثمان وقومهم بني

الإيالة، وأجمعوا التوثب بالديهم.

واحتل نبيل بظاهر قسنطينة فشرهت العامة إلى إمارته والقيام بدعوة مواليه.

وتوثب أشياءهم على أولياء عمهم فأخرجوهم واستولى القائد نبيل على قسنطينة وأعمالها وأقام دعوة المولى أبي زيد وإخوته كما كانت أول مرة بها: وجاؤوا من المغرب إلى مركز إمارتهم ودعوتهم بها قائمة، ورايتهم على أبحاثها خافقة فاحتلوا بها حلول الأساد بعربيتها والكواكب بأفاتها، ونهض المولى أبو عبد الله محمد فيمن اجتمع إليه من البطانة والأولياء، إلى محاصرة بلد بجاية، فأحجز عمه بالبلد، وأخذ بمخنتها أياماً، ثم أفرج عنها، ثم رجع إلى مكانه من حصارها.

ودس إليه بعض أشياعه بالبلد، وسرب المال في الغوغاء، فواعدوه فتح أبواب الربيض في إحدى ليالي رمضان سنة تسع وأربعين وسبع مائة واقتحم البلد وملأ الفضاء بهدير طبوله، فهب الناس من مراقدهم فزعين وقد ولج الأمير وقومه البلد.

ولج الأمير أبو العباس الفضل إلى شعاب الجبل وكواريه المطل على القصبه راجلاً خافياً، فاختفى إلى أن عثر عليه ضحى النهار، وسيق إلى ابن أخيه، فمن عليه وأركبه السفين إلى محل إمارته من بونة.

وخلص ملك بجاية للمولى الأمير أبي عبد الله هذا واقعد سرير آباءه بها، وكتبوا للأمير أبي عنان بالفتح، وتجديد المخالصة والموالاتة، والعمل على مدافعة أبيه من جهاته، والله تعالى أعلم.

الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان

ووليه عريف بن يحيى من تونس إلى المغرب

الأوسط

لما بلغ السلطان خبر ما وقع بالمغرب من انتفاض أطرافه، وتغلب الأعياص من قومه وسواهم على أعماله، ووصل إليه يعقوب بن علي أمير الداوادة بولده وعماله ووفده، نظر في تلافي أمره فسرح ولده الناصر إلى المغرب الأوسط لارتجاع ملكهم، وعو آثار الخوارج من أعمالهم.

فنهض مع يعقوب بن علي وأصحابه ولية عريف بن يحيى أمير زغبة ليستظهر به على ملك المغرب، وقدمهما طليعة بين يديه، وسار الناصر إلى بسكرة، واضطرب معسكره بها، ثم فصل من بلاد رياح إلى بلاد زغبة، واجتمع إليه أولياؤه من العرب

ومن زناتة من بني توجين أهل وانشرش وغيرهم.

وزحف إليهم الزعيم أبو ثابت من تلمسان في قومه من بني عبد الواد وغيرهم للمدافعة.

والنقى الجمعان بوادي ورك وانفضت جموع الناصر وانذعروا، ورجع على عقبه إلى بسكرة وخلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد، ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى.

ولحق بالأمير أبي عنان فنزل منه بالطف محل، ورجع الناصر إلى بسكرة، وارتحل مع أوليائهم أولاد مهلهل للمدافعة أولاد أبي الليل وسلطانهم المولى الفضل عن تونس كما ذكرناه.

وأحسوا بهم، فنهضوا إليهم، وفروا أمامهم، إلى أن خلاص الناصر إلى بسكرة ثانية، واتخذها مئوى إلى أن لحق بابيه بالجزائر عند رحلته من تونس إليها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن إلى

المغرب وتغلب المولى الفضل على تونس

وما دعا إلى ذلك من الأحوال

لما خلاص المولى أبو العباس الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى من نكتبة ببجاية، وامتن عليه ابن أخيه، فلحق بمحل إمارته من بونة.

ووافته بها مشيخة أولاد أبي الليل، أوفدهم عليه بنو حمزة بن عمر يستحثونه للملك إفريقية، يرغبونه فيه، فأجاب داعيتهم ونهض إليهم بعد قضاء نسك الفطر من سنة تسع وأربعين، ونزل بجلهم وأرجفوا بجلهم وركابهم على ضواحي إفريقية، وجبوا، وصمدوا إلى تونس فأنزلوها وأخذوا بمخنتها أياماً، ثم أخذ بحجزتهم عنها شيعة السلطان وأولياؤه من أولاد مهلهل وابنه الناصر عند قفوله من المغرب الأوسط مفلولاً فرحلوهم وشردوهم، ثم رجعوا إلى مكانهم من حصارها، ثم انفضوا عنها.

وتحيز خالد بن حمزة إلى شيعة السلطان أبي الحسن من أولاد مهلهل وقومه، فاعتزوا به وذهب عمر بن حمزة إلى المشرق لقضاء فرضه، وأجفل أبو الليل أخوه والمولى الفضل إلى القفر حتى كان من دخول أهل الجريد في طاعته ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وكان السلطان لما خلاص من القيروان إلى تونس، وقد إليه أحمد بن مكى مهنيًا ومفاوضاً في شأن الثغر وما مني به من انتفاض

الأطراف وفساد الرعية.

وتدارك السلطان أمره عند فواته بالتولية على أهل القطر من جنسهم استئلاً للكافة، واستبقاء لطاعتهم.

فقد على عمل قابس وجربة والحمة، وما إليها لعبد الواحد ابن السلطان أبي زكريا بن أحمد اللحياني، وأنفذه مع أحمد بن مكّي إلى عمله، فهلك بجربة ليال من مقدمه بالطاعون الجارف عامئذ.

وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر ونقطة وسائر بلاد الجريد، بعد أن كان استخلصه عند مفر أبي محمد بن تافراكين قريعه، وما ظهر من سوء دخلته، فنزل بتوزر وجمع أهل الجريد على الولاية والمخالصة، ولما نازل المولى أبو العباس الفضل تونس مرتين، وشرذ أولاد مهلهل وامتنعت عليه، عمد إلى الجريد سنة خمس وسبعمائة يحاول فيه ملكاً، وخطب أبا القاسم بن عتو يذكره عهده وعهد سلفه وحقوقهم، فتذكر وحن، ونظر إلى ما ناله به السلطان من المثلة في أطرافه، واستثار كامن حقه، فاعترف وحمل الناس على طاعة المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى، فسارعوا إلى الإجابة وبإيعه أهل توزر وقصبة ونقطة والحمة، ثم دعا ابن مكّي إلى طاعته فأجاب إليها وبإيعه أهل قابس وجربة أيضاً.

وانتهى الخبر إلى السلطان باستيلاء المولى الفضل على أمصار إفريقية، وأنه ناهض إلى تونس، فأهمه الشأن وخشي على أمره، وكانت بطائنه يوسوسون إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه، فأجابهم إليها وشحن أساطيله بالأقوات، وأزاح علل المسافرين.

ولما قضى منسك الفطر من سنة خمس وسبعمائة ركب البحر أيام استفحال فصل الشتاء، وعقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر، وتقادياً بمكانه عن معرة الغوغاء وثورتهم.

وأقلع من مرسى تونس، وخمس دخل مرسى بجاية، وقد احتاجوا إلى الماء فمنعهم صاحب بجاية من الورد، وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم، فزحفوا إلى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبوهم عليه واستقوا وأقلعوا، وعصفت بهم الرياح ليلتد وجاءهم الموج من كل مكان، وألقاهم اليم بالساحل بعد أن تكسرت الأجبان، وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس، وقذف الموج بالسلطان فآلقاه إلى الجزيرة قرب الساحل من بلاد زواوة مع بعض حشمه عراة، فمكثوا ليلتهم وصبحهم جفن من

الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف، فقدموا إليه حين رآوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه فاخطفه أولياؤه من أهل الجفن قبل أن يصل إليه البربر، وقذفوا به إلى الجزائر فنزل بها، ولأم صدعه.

وخلع على من وصل من فل الأساطيل ومن خلص إليه من أوليائه، ولحق به ابنه الناصر من بسكرة، واتصل بالمولى الفضل خبر رحيله من تونس وهو ببلاد الجريد، فأغذ السير إلى تونس، ونزل بها على ابنه ومن كان بها من خلف أوليائه، فغلبوهم عليها، واتصل أهل البلد بهم وأحاطوا يوم منى بالقصة.

واستزلوا ابن السلطان أبا الفضل الأمير بالقصة على الأمان، فخرج إلى بيت أبي الليل بن حمزة، وأنفذ معه من بلغه إلى مأمته، فلحق بالجزائر بأبيه وبأذر إلى السلطان عدي بن يوسف المتزي بالمدينة من بني عبد القوي، فصار في جملة، وخرج له عن الأمر، وزعم أنه إنما كان قائماً بدعوته، فتقبل منه وأقره على عمله.

ووفد عليه أولياؤه من المغرب: سويد والحرث وحصين ومن إليهم ممن اجتمع إلى وليه ونزار بن عريف المتمسك بطاعته. ووفد عليه أيضاً علي بن راشد أمير مغراوة، وأغراه ببني عبد الواد، واشترط عليه إقراره بوطنه وعمله إذا تم أمره، فأبى من قبول الاشتراط ظناً بعهدته عن النكت، فترج عنه وصار إلى مظاهرة بني عبد الواد عليه.

وبعث أبو سعيد عثمان صاحب تلمسان إلى الأمير أبي عنان في المدد، فبعث إليه بعسكر من بني مرين عقد عليهم ليحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي من تيريفين، وزحف الزعيم أبو ثابت إلى حرب السلطان أبي الحسن فيمن اجتمع إليه من عسكر بني مرين ومغراوة.

وخرج السلطان من الجزائر وعسكر بمتيجة، واحتشد ونزار سائر العرب مجللهم، ووافاه بهم، وارتحلوا إلى شلف، ولما التقى الجمعان، بشدبونة صدقه مغراوة الحملة وصابروهم ابنه الناصر وطعن في الجولة فهلك فاحتل مصاف السلطان واستبيح معسكره، وانتهت فساطيطه، وخلص مع وليه ونزار بن عريف وقومه بعد أن استبيحت حللهم، فخرجوا إلى جبل وانشرش، ثم لحقوا بجبل راشد، ورجع القوم عن اتباعهم، وانكفؤوا إلى الجزائر فتغلبوا عليها، وأخرجوا من كان بها من أولياء السلطان ومحو آثار دعوته من المغرب الأوسط جملة، والأمر بيد الله يؤتيه من يشاء.

عبد المؤمن كبير بني ونكاسن، وبلغه قصد السلطان إلى مراكش، فاعتزم على الرحلة إليها وأبى عليه قومه، فرجع إلى فاس إلى أن كان من خبرهم مع السلطان ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان على مراكش ثم انهزامه أمام الأمير أبي عنان ومهلكه بجبل منتاة عفا الله عنه

لما أجفل السلطان من سجلماسة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بين يدي الأمير أبي عنان وعساكر بني مرين، وقصد مراكش، وركب إليها الأوعار من جبال المصامدة.

ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب، ونسلوا من كل حذب.

ولحق عامل مراكش بالأمير أبي عنان ونزع إلى السلطان صاحب ديوان الجباية أبو المجد محمد بن أبي مدين بما كان في المودع من مال الجباية، فاخصه واستكتبه وجعل إليه علامته، واستركب واستلحق وجبى الأموال، وبث العطاء، ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة.

وثاب له ملك بمراكش أمل معه أن يستولي على سلطانه، ويرتفع فارط أمره من يد مبتزّه.

وكان الأمير أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها، وشرع في العطاء وأزاح العلل، وتقبص على كاتب الجباية حمزة بن شعيب بن محمد بن أبي مدين، اتهمه بمالأة بني مرين في الإباية عليه عن اللحاق بمراكش من سجلماسة.

وأثار حقه في ذلك ما كان من نزوع عمه أبي المجد إلى السلطان بأموال الجباية، ووسوس إليه في السعاية به كاتبه وخالصته أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو لما بينهما من المنافسة، فتقبض عليه وامتحنه، ثم قطع لسانه وهلك في ذلك الامتحان، وارتحل الأمير أبو عنان وجموع بني مرين إلى مراكش، وبرز السلطان إلى لقائهم ومدافعتهم، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم ربيع، وتربص كل واحد بصاحبه إجازة الوادي.

ثم أجازاه السلطان أبو الحسن وأصبحوا جميعاً في التعبئة، والتقى الجمعان بتامدغرس في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره، ولحق به أبطال بني مرين فرجعوا عنه حياء وهيبة.

الخبر عن استيلاء السلطان على سجلماسة ثم فراره عنها أمام ابنه إلى مراكش ثم استيلاؤه عليها وما تخلل ذلك

لما انفضت جموع السلطان بشدونة ونلت عساكره، وهلك الناصر ابنه، خلص إلى الصحراء مع وليه ونزمار ولحق بجبل قومه سويد وأوطانهم قبلة جبل وانشرش، وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه.

وارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه، وخرجوا إلى جبل راشد.

ثم أبعدوا المذاهب وقطعوا المفاوز وسلكوا إلى سجلماسة في القفر.

فلما اطلوا عليها وعاین أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش، وخرج إليه العذارى من وراء ستورهن صاغية إليه، وإثارة لإيائته، وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته.

وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد سجلماسة، ارتحل إليها في قومه وكافة عساكره بعد أن أزاح عللهم وأفاض عطاءه فيهم، وكان لبني مرين نفرة عن السلطان وحذر من غائلته لجناياتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهلك، فكأنوا لذلك مجتمعين على منابذته، ومخلصين في مناصحة ابنه منازعة، فما لبث السلطان أن جاءه الخبر بوصولهم إليه في العساكر الضخمة، مغذين السير إلى دفاعه، وعلم من حاله أنه لا يطيق لقاءهم، وأجفل عنه ونزمار وليه في قومه سويد.

وكان من خبره أن عريف بن يحيى كان نزع إلى الأمير أبي عنان وأحلّه بمحله المعهود من تشریفهم ولولايتهم، حتى إذا بلغه الخبر بمناصحة ونزمار للسلطان ومظاهرتة وقصده المغرب معه بتناجعت، زوى عنه وجه رضاه بعض الشيء، وأقسم له لئن لم يفارق السلطان لأوقعن بك وبابنك عترة. وكان معه من جملة الأمير أبي عنان، وأمره بأن يكتب له بذلك، فأثر ونزمار رضى أبيه، وعلم أن غناه عن السلطان في وطن المغرب قليل، فأجفل عنه ولحق بالزباب وانتبذ عن قومه، وألقى عصاه بيسكرة، فكان نواؤه بها إلى أن لحق بالأمير أبي عنان على ما نذكره.

ولما أجفل السلطان عن سجلماسة، ودخل الأمير أبو عنان إليها وتقف أطرافها وسد فروجها، وعقد عليها ليحيى بن عمر بن

الخبر عن حركة السلطان أبي عنان إلى تلمسان وإيقاعه بيني عبد الواد بأنكاد ومهلك أبي سعيد سلطانهم

لما هلك السلطان أبو الحسن وانقضى شأن الحصار وارتحل
السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلو أبيه إلى مقبرتهم بشالة فدفنه
مع من هنالك من سلفه.

وأخذ السير إلى فاس وقد استبد بالأمر، وخلت الدولة عن
المنازع، فاحتل بفاس وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع
ما بأيديهم من الملك الذي سمو لاستخلاصه.

ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء
وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد، واعترض العساكر
وارتحل يريد تلمسان، واتصل الخبر بأبي سعيد وأخيه، فجمعوا
قومهم ومن إليهم من الأشياع والأحزاب من زناتة والعرب،
وارتحلوا إلى لقائه، ونزل السلطان بمعسكر وادي ملوية، وتلوم به
أياماً لا اعتراض الحشد والعرب.

ثم رحل على التعية حتى إذا احتل ببسيط أنكاد وتراءى
الجمعان، انفض سرعان المعسكر ولحقوا بالمغرب وركب السلطان
في التعية وخاض بحر القتال، وقد أظلم الجو به حتى إذا خلص
إليهم من غمره، وخالطهم في صفوفهم، ولوا الأدبار، ومنحوهم
الأكثاف، واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم
واستباحوه واستلحموهم قتلاً وسيياً، وصفدوهم أسارى،
وغشيه الليل وهم متسايلون في آثارهم، وتقبض على أبي سعيد
سلطانهم، فسبى إلى السلطان وأمر باعتقاله، وأطلق أيدي بني مرين
من الغد على حلل العرب من المعقل، فاستباحوهم واكتسحوا
أموالهم جزاء بما شروهوا إليه من النهب في الخنة في هيعة ذلك
المجال.

ثم ارتحل به على تعية إلى تلمسان فاحتل بها لربيع من
سنه، واستوثق في ملكها قدمه، وأحضر أبا سعيد فقرعه وبجحه
وأراه أعماله حسرة عليه، وأحضر الفقهاء وأرباب الفتيا، فأفتوا
بجرايته وقتله.

وأضى حكم الله فيه، فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله،
وجعله مثلاً للآخرين.

وخلص أخوة الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق، فكان من
خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

وكبا به فرسه يومئذ في مفره، فسقط إلى الأرض والفرسان
نحوم حوله.

واعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير
الدواودة، ورديف أخيه يعقوب، كان هاجر مع السلطان من
الجزائر، ولم يزل في جملة إلى يومئذ، فدافع عنه حتى ركب وسار
من ورائه ردهاً له.

وتقبض على حاجبه غلال بن محمد، فصار في يد الأمير
أبي عنان وأودعه السجن إلى أن امتن عليه بعد مهلك أبيه.

وخلص السلطان إلى جبل هنتانة ومعه كبيرهم عبد العزيز
بن محمد بن علي، فنزل عليه وأجاره واجتمع إليه الملا من هنتانة
ومن انضاف إليهم من المصامدة، وتدامروا وتعاهدوا على الدفاع
عنه، وبأيعوه على الموت، وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل
بمراكش، وأنزل عساكره على جبل هنتانة، ورتب المسالحي لحصاره
وحربه، وطال عليه ثوابه، وطلب السلطان من ابنه الإبقاء، وبعث
في حاجبه محمد بن أبي عمرو فحضر عنده، وأحسن العذر عن
الأمير أبي عنان والتمس له الرضى منه، فرضي عنه، وكتب له
بولاية عهده.

وأوعز إليه بأن يبعث له ملاً وكس، فسرح الحاجب ابن
أبي عمرو إلى إخراجها من المودع بدار ملكهم، واعتل السلطان
خلال ذلك، فمرضه أولياؤه وخاصته، وانفصد لإخراج الدم، ثم
باشر الماء بعضوه للطهارة، فورم وهلك ليال قريبة عفا الله عنه،
لثلاث وعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة
وبعث أولياؤه بالخبر إلى ابنه بمعسكره من ساحة مراكش، ورفعوه
على أعواده إليه فتلقاه حافياً حاسراً، وقبل أعواده وبكى،
واسترجع ورضي عن أوليائه وخاصته، وأنزلهم بالحل الذي رضوه
من دولته، ووارى أباه بمراكش إلى أن نقله إلى مقبرة سلفه بشالة في
طريقه إلى فاس وتلقى أبا دينار بن علي بن أحمد بالقبول والكرامة،
وأحله من كنفه محل الرحب والسعة، وأسنى جوازته، وخلع عليه
وحمله.

وانصرف من فاس إلى قومه يستحثهم للقاء السلطان أبي
عنان بتلمسان لما كان أجمع على الحركة إليها بعد مهلك أبيه،
ورعى لعبد العزيز بن محمد أمير هنتانة إجارته للسلطان واستماتته
دونه، ففقد له على قومه وأحله بالحل الرفيع من دولته ومجلسه،
واستبلغ في تكريمه، والله تعالى أعلم.

الخبر عن شأن أبي ثابت وإيقاع بني مرين به بوادي شلف وتقبض الموحدين عليه

ببجاية

لما أوقع السلطان ببني عبد الواد بأنكاد، وتقبض على أبي سعيد سلطانهم، خلص أبو ثابت أخوه في فل منهم، ومسر بتلمسان، فاحتمل حرمهم ومخلفهم، وأجفل إلى الشرق، فاحتل بشلف من بلاد مغراوة وعسكر هنالك.

واجتمع إليه أوشاب من زناتة، وحدث نفسه باللقاء، ووعدوا بالصبر والثبات، وسرح السلطان وزيره فارس بن ميمون بن ودرار في عساكر بني مرين والجند، فاغذ السير إليهم وارتحل من تلمسان على أثره، ولما تراءى الجمعان صدق الفريقان الجأولة، وخاضوا النهر بالقراع.

ثم صدق بنو مرين الحملة وأجازوا النهر إليهم، فأنكشفوا واتبعوا آثارهم واستلحموهم، واستباحوا معسكرهم واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم، وارتحلوا في أتباعهم، وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان، ومسر أبو ثابت بالجزائر طارقاً، وأجاز إلى قاصية الشرق، فاعترضتهم قبائل زواوة وأرجلهم عن خيلهم، وانتهبوا أسلحتهم، ومروا حفاة عراة، واحتل الوزير بالجزائر، واستولى عليها واقتضى بيعة السلطان منهم فأتوها، واحتل الوزير بالمدينة وأوعز إلى أمير بجاية المولى أبي عبد الله محمد حافد مولانا الأمير أبي يحيى مع وليه ونزمار وخالفه يعقوب بن علي بالتقبض على أبي ثابت وأشياعه فأذكروا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد، وعثر بعض الجشم على أبي ثابت وأبي زيان ابن أخيه أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود، فرفعوهم إلى الأمير ببجاية، فاعتقلهم وارتحل إلى لقاء السلطان بالمدينة ويعتهم مع مقدمته، وجاء على أثرهم ونزل على السلطان بمعسكره من المدينة خير نزل، بعد أن تلقاه بالمبرة والاحتفاء، وركب لقاؤه، ونزل عن فرسه للسلطان، فنزل السلطان برأ به، وأودع أبا ثابت السجن.

وتوافت إليه وفود الدواودة بمكانه من المدينة، فآكرم وفدهم وأسنى أعطياتهم من الخلع والحملان والذهب، وانقلبوا خير منقلب، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل الزاب وفدهم، فآكرمهم ووصلهم.

وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط، وبث العمال في نواحيه، وثقف أطرافه، وسما إلى ملك إفريقية كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قتل السلطان أبي عنان بجاية وانتقال صاحبها إلى المغرب

لما وصل المولى أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا يحيى صاحب بجاية إلى السلطان بمكانه من المدينة في شعبان من سته، وأقبل السلطان عليه، ويواه كتف ترحيبه وكرامته، خلص الأمير به غيياً، وشكى إليه ما تلقاه من أهل عمله من الامتناع من الجبابة والسعي في الفساد، وما يتبع ذلك من زبون الحامية واستبداد البطانة وكان السلطان متشوقاً لملئها، فأشار عليه بالنزول عنها، يعرضه عنها ما شاء من بلاده، فسارع إلى قبول إشارته، ودس إليه مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يستبد بذلك على رؤوس الملاء، ففعل، ونقم عليه بطائته ذلك، وفر بعضهم من معسكره، فلحق بإفريقية، ومنهم علي بن القائد محمد بن الحكم.

وأمره السلطان أن يكتب بخطه إلى عامله على البلد بالنزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل وعقد السلطان عليها لعمر بن علي الوطاسي من أولاد الوزير الذي ذكرنا خبر انتزاعهم بتازوطا من قبل، ولما قضى السلطان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجاية، انكفأ راجعاً إلى تلمسان لشهود الفطر بها، ودخلها في يوم مشهود، وحمل أبا ثابت ووزيره يحيى بن داود على جملين يخطران بهما في ذلك الحفل بين السماطين، فكانا عبرة لمن حضر وسيقا من الغد إلى مصارعها، فقتلا قعصاً بالمصاح، وأنزل السلطان المولى الأمير أبا عبد الله صاحب بجاية خير نزل، وفرض له في مجلسه تكربة به إلى أن كان من توثب صنهاجة وأهل بجاية بعمر بن علي ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ثورة أهل بجاية ونهوض الحاجب إليها في العساكر

كان صنهاجة هؤلاء من أعقاب تكلاتة ملوك القلعة وبجاية، نزل أولوهم بوادي بجاية بين القبائل من برابرتها الكتامين في مواطن بني ورياكل منذ أول دولة الموحدين، وأنظموهم على العسكرية معهم، ولما ضعفت جنود الموحدين وقل عددهم انفردوا بالعسكر مع السلطان، وصار لهم بذلك اعتزاز وزبون على الدولة.

وكان المولى الأمير أبو عبد الله هذا قد أصاب منهم لأول أمره، وقتل محمد بن تميم، من أكابر مشيختهم، وكان حاجبه فارح

فلما بلغ الخبر إلى السلطان أمر حاجبه محمد بن أبي عمرو بالنهوض إلى بجاية، فعسكر بساحة تلمسان.

وانتقى له السلطان من قومه وجنوده خمسة آلاف فارس أزاح عنهم، واستوفى أعطياتهم وسرحه فنهض من تلمسان بعد قضاء منسك الأضحى، وأغذ السير إلى بجاية، ولما نزل بيني حسن جمع له صنهاجة ثم خاموا عن اللقاء، ولحقوا بقسنطينة وأجازوا إلى تونس واختل الحاجب بمعسكرهم من خميس يتكلات، وخرج إليه المشيخة والوزراء، فتقبض على القائد هلال وأشخصه إلى السلطان ودخل البلد على التعية، واحتل بقصبتها لحرم فاتح أربع وخمسين وسبعمائة وسكن الناس وخلع على المشيخة، واختص علي بن أليت ومحمد بن سيد الناس، واستظهر بهم على أمره، وتقبض على جماعة من الغوغاء نقباء علي من تحت أيديهم ممن يتهم بالمداخلة في التوثب يناهزون مائتين، واعتقلهم وأركبهم السفين إلى المغرب، فودع الناس وسكنوا وتوافت وفود الدواودة من كل جهة، فأجزل صلاتهم واقتضى على الطاعة رهنهم.

ووصل عامل الزاب يوسف، وسد فروجه وارتمل إلى تلمسان أول جمادى لشهرين من مدخله وأغذ السير بمن معه من العرب والوفود، وكنت يومئذ في جملتهم، وقد خلع علي وحملي وأجزل صلي، وضرب لي الفساطيط، فوفدت في ركابه، وقدم تلمسان لأول جمادى الآخرة، فجلس السلطان للوفد واعترض ما جنب له من الجياد والهدية، وكان يوماً مشهوداً.

ثم أسنى السلطان جوائز الوفد، واختص يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد من البر والصلة، وخصوصيات من الكرامة، واتمهم في شأن إفريقية ومنازلة قسنطينة.

ورجع معهم الحاجب ابن أبي عمرو على كره منه لما نذكره من أخباره، وانصرفوا إلى مواطنهم لأول شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعمائة وانقلب مع بعد إسناء الجائزة والخلع والحمالان من السلطان، والوعد الجميل بتجديد ما لي ولقومي ببلدنا من الأقطاع والله أعلم.

الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو وما عقد

له السلطان علي ثغر بجاية وعلى منازل

قسنطينة ونهوضه لذلك

سلف هذا الرجل من أهل المهديّة من أجناد العرب من بني تميم بإفريقية، وانتقل جده علي إلى تونس باستدعاء السلطان

مولي ابن سيد الناس عريقاً عليهم من عهد أبيه الأمير أبي زكريا، وكان مستبداً على المولى أبي عبد الله، فلما نزل عن إمارته للسلطان أبي عنان سخط ذلك ونقمه عليه، وأسرهما في نفسه ولم يبدها له، وسرحه أميره مع عمر بن علي الوطاسي لنقل حرمه ومتاعه وماعون داره، فوصل إليها وشكى إليه الصنهاجيون مغبة أمرهم في ثقل الرطاة وسوء الملكة فاشكاهم ودعاهم إلى الثورة ببني مرين، والقيام بدعوة الموحدين للمولى أبي زيد صاحب قسنطينة، فأجابوه وتواعدوا بالفتك بمعمر بن علي بمجلسه من القصة.

وتولى كبرها منصور بن الحاج من مشيختهم، وبكره بداره على عادة الأمراء، ولما أكب عليه للثم أطرافه طعنه بخنجره، وفر إلى بيته جريماً فوجلوا عليه واستلحموه.

وثارت الغوغاء من أهل البلد أول ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

وركب الحاجب فراح وهتف الهاتف بدعوة المولى أبي زيد، وطهروا بالخبر إليه واستدعوه، فتناقل عن إجابتهم، وبعث مولى من العلوي للقيام بأمره.

ويبلغ الخبر إلى السلطان فاتهم المولى أبا عبد الله بمداخلة حاجبه، فاعتقله بداره.

واعتقل وفداً من ملاء بجاية كان ببابه، وثابت آراء المشيخة من أهل بجاية، وتمشت رجالاتهم وأولوا الرأي والشورى منهم في، الفتك بصنهاجة والعلي، ودخلهم القائد هلال ابن سيد الناس من العلوي، وعلي بن محمد بن أليت حاجب الأمير أبي زكريا يحيى، ومحمد بن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس وتواعدوا للفتك بفارح يوم وصول النائب من قبل صاحب قسنطينة، فجهروا بالنكير على الحاجب، ودعوه إلى المسجد ليؤامروه، ونذر أمرهم فاعتمدوا دار شيخ الفتيا أحمد بن إدريس فافتحموا عليه الدار، وباشره مولاة محمد بن سيد الناس، قطعنه وأشواه، ورمى بشلوه في سقف الدار، وقطع رأسه، فبعثوا به إلى السلطان، وفر منصور بن الحاج وقومه صنهاجة من البلد، وكان بالمرسى أحمد بن سعيد القرموني من حاشية السلطان، جاء في السفين لبعض حاجاته من تونس، ووافى مرسي بجاية يومئذ فانزلوه واعصوبوا عليه، وتنادوا بدعوة السلطان وطاعته، فأشار عليهم أحمد القرموني أن يبعثوا إلى قائد تدلس من مشيخة بني مرين بجيات بن عمر بن عبد المؤمن الونكاسي، فاستدعوه ووصل إليهم في لمة من العسكر، وبعثوا بأخبارهم إلى السلطان وانتظروا.

لهم وجه السلطان منه عند نهوضه إلى بجاية، حامت أعراض السعاية على مكانه فقرطست وألقى السلطان أذنه إلى استماعها. فلما رجع من بجاية، وكانت له الدالة على السلطان، وجد عليه في قبول الألاقي.

ولقيه مغاضباً فتتكر له السلطان، ثم تجنى بطلب الغيبة عن الدولة، أن يعقد له على بجاية متوهماً أن السلطان ضنين به، فبادر السلطان إلى إسعافه، وبدا له ما يجتنب من الإعراض عنه، ورجع إلى الرغبة في الإقالة فلم يسعف.

وعقد له على حرب قسنطينة وحكمه في المال والجيش، وارتحل في شعبان من سنة أربع وخمسين وسبعمائة واحتل بجاية آخرها وأشتى بها.

ونصب الموحدون تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المعتقل عندهم من لدن عهد المولى الفضل واعتقاله إياه، فنصبوه للأمر لتفريق كلمة بني مرين وأجمعوا له الآلة والفساطيط، وقام بأمره ميمون بن علي لمنافسته مع أخيه يعقوب، وسمع بخبره يعقوب، فاغذ السير إليه بجله من بلاد الزاب، وفرق جمعهم وردهم على أعقابهم، وأحجزهم بالبلد.

ولما انصرم الشتاء وقضى منسك الأضحى، عسكر بساحة البلد، واعترض العساكر وأزاح غلهم، وفرق أعطياتهم، وارتحل إلى منازل قسنطينة، واجتمع إليه الدواودة لمجلهم، وجمع المولى أبو زيد صاحب قسنطينة من كان على دعوته من أحياء بونة وميمون بن علي بن أحمد وشيعته من الدواودة، وعقد عليهم لحاجبه نبيل وسرحه للقاء ابن أبي عمرو وعساكره، فأوقع بهم الحاجب لجمادى من سنة خمس وسبعمائة واكتسح أموالهم ونازل قسنطينة حتى تفادوا منه بتمكينه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنسوب للأمر، فاقادوه إليه وأشخصه إلى أخيه السلطان.

وأوفد المولى أبو زيد ابنه على السلطان أبي عنان، فتقبل وفادته وشكر مراجعته، وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية وأقام بها إلى أن هلك في الحرم فاتح سنة ست وستين وسبعمائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد، وتفجعوا لهلكه، وبعث السلطان دوابه لارتحال عياله وولده، ونقل شلوه إلى مقبرة أبيه بلمسان، وسرح ابنه أبا زيان في عساكر بني مرين لمواراته بها.

وعقد على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد وزيره، فنهض إليها في شهر ربيع من سنة ست وخمسين وسبعمائة واستقر بها وتقتل ما حمده الناس من مذاهب الحاجب وسيره فيها على ما نذكره، وجهر العساكر إلى حصار قسنطينة إلى أن كان من فتحها ما

المستصر، وكان فقيهاً عارفاً بالفتيا والأحكام، وقلده القضاء بالحضرة واستعمله على كتابة علامته في الرسائل والأوامر الكبرى والصغرى، فاضطلع بذلك، وهلك على حالة من التجلة والمنصب، وقلد ابنه عبد الله من بعده العلامتين أيام أبي حفص عمر ابن الأمير أبي زكريا كما كان لأبيه، فاضطلع بذلك وكان أخوه أحمد بن علي مسمتاً وقوراً متحلاً للعلم، ونشأ ابنه محمد وقرأ بتونس، وتفقّه على مشيختها.

ولما التأت أموره وتلاشت أحوالهم، خرج محمد بن أحمد بن علي مبتغياً للرزق والمعاش، وطوحت به الطوائف إلى بلد القل. وكان متحلاً للطلب والكتابة، فاستعمل شاهداً بمرسى القل أيام رياسة الحاجب ابن غمر، وكانت له صحبة مع حسن بن محمد السبتي المتحل بنسب الشرف، وكانا رفيقين في مطارح اغترابهما، فسعى له في مرافقته في الشهادة، فأسعفا واتصلا بابن غمر فحمد مذاهبهما.

ولما نزع الشريف عبد الوهاب زعيم تدلس إلى طاعة الموحدين أيام التياث أبي هو بخروج محمد بن يوسف عليه، واعتلال الدولة، ودخل في أمر ابن غمر وجملته، فبعث محمد بن أبي عمرو إلى تدلس، واستعمل حسن الشريف في القضاء، ومحمد بن عمرو في شهادة الديوان.

فلما برئت الدولة من مرضها، واستفحل أمر أبي هو وتغلب على تدلس، وجاء رئيس الفتيا ابن الإمام لاقتضاء طاعتها، وإنفاذ أهلها على السلطان كانوا في الوفد، واستقروا بلمسان يرمون واستعملا معاً في خطة القضاء متعاقبين أيام بني عبد الواد وأيام السلطان أبي الحسن.

وتعصب على ابن أبي عمرو أيام قضائه جماعة من مشيخة البلد، وسعوا به إلى السلطان أبي الحسن، وتظلموا فأشكاهم على علم ببراءته، واختصه بتأديب ولده فارس هذا وتعليمه، فأفرغ وسعه في ذلك وربي ولده محمد هذا الحاجب مع السلطان أبي عنان مرقاً جليلاً وألقى عليه محبته حتى إذا خلص له الملك رفع رتبة محمد بن أبي عمرو هذا، ورقاه من منزلة إلى أخرى حتى إذا أوفى به على سائر المراتب، وجعل إليه العلامة والقيادة والحجاجة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته، وخصوصيات داره، فانصرفت إليه الوجوه، ووقعت ببابه أشرف من الأعياص والقبائل والشرفاء والعلماء، وسرب إليه العمال أموال الجاية تزلفاً، وطال أمره واستيلاؤه على السلطان ونفس عليه رجال الدولة ووزراؤها ما آتاه الله من الحظ، حتى إذا خلا

في ثغوره وأمصاره مثل إفري وفوريان وتارودانت، وثقف أطرافه
وسد فروجه.

وسار أبو الفضل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى
صناكة، وألقى بنفسه على ابن حميدي منهم مما يلي بلاد درعة،
فأجاره وقام بأمره.

ونازله عامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزردالي من
مشيخة دولة بني عبد الواد، كان اصطنعه السلطان أبو الحسن منذ
تغلبه عليهم، وفتح لتلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعماية فاستقر
في دولتهم، ومن جملة صنائعهم، فأخذ بمخنق ابن حميدي وأرهبه
بوصول العساكر والوزراء إليه، وداخله في التقبض على أبي
الفضل، وأن يذلل له في ذلك ما أحب من المال، فأجاب ولاطف
عبد الله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعدته من نفسه الدخول في
الأمر، وطلب لقاءه، فركب إليه أبو الفضل. ولما استمكن منه عبد
الله بن مسلم تقبض عليه، ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من
المال، وأشخصه معتقلاً إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس
وخمسين وسبعماية فأودعه السجن، وكتب بالفتح إلى القاصية، ثم
قتله لليل من اعتقاله ختقاً بمحبسه.

وانتضى أمر الخوارج، وعهدت الدولة إلى أن كان ما ذكره
إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتفاض عيسى بن الحسن بجبل الفتح ومهلكه

كان عيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق هذا من
مشيخة بني مرين، وكان صاحب شورا لهمه وقد كنا قصصنا
من أخبار أبيه الحسن عند ذكر دولة أبي الربيع.

وكان السلطان أبو الحسن قد عقد له على ثغور عمله
بالأندلس وأنزله بجبل الفتح عندما أكمل بناءه وجعل إليه النظر في
مسالح الثغور وتفريق العطاء على مسالحها، فطال عهد ولايته
ورسخ فيها قدمه، وكان السلطان أبو الحسن يبعث عنه في
الشورى متى عنت.

وحضره عند سفره إلى إفريقية وأشار عليه بالإقصار عنها،
وأراه أن قبائل بني مرين لا تقي أعدادهم بمسالح الثغور إذا رتبت
شرقاً وغرباً وعدوة البحر وأن إفريقية تحتاج من ذلك إلى أوفر
الأعداد وأشد الشوكة لتغلب العرب عليها، وبعد عهدهم بالانقياد
فأعرض السلطان عن نصيحته لما كان شره إلى تملكها، وصرفه إلى

نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان بجبل السكسيوي ومكر عامل درعة به ومهلكه

كان السلطان أبو عنان بعد مهلك أبيه لحق به في جملة
أخواه أبو الفضل محمد وأبو سالم إبراهيم، وتدبر في ترشيحهما
وحذر عليهما مغبته، فأشخصهما إلى الأندلس، واستقرا بها في
إيالة أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد.

ثم ندم على ما آتاه من ذلك، فلما استولى على تلمسان
والغرب الأوسط، ورأى أن قد استفحل أمره واعتز بسلطانه،
أوعز إلى أبي الحجاج أن يشخصهما إليه ليكون مقامهما لديه
أحوط للكلمة من أن يعتمد على ترفيقهما سمسرة الفتن.

وخشي أبو الحجاج عليهما غائلته فأبى من إسلامهما إليه،
وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته وجوار المسلمين المجاهدين،
فأحفظ السلطان كلمته، وأوعز إلى حاجبه محمد بن أبي عمرو بأن
يخاطبه في ذلك بالتوبيخ واللائمة، فكتب له كتاباً أبدع فيه وقفي
عليه الحاجب ببجاية أيام كوني معه، فقضيت العجب من فصوله
وأغراضه، ولما قرأه أبو الحجاج دس إلى كبيرهما أبي الفضل
باللحاق بالطاغية، وكانت بينهما ولاية ومخالصة منذ مهلك أبيه
الهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعماية، فترع إليه
أبو الفضل وأجاره، وجهز له أسطولاً إلى مراسي المغرب، وأنزله
بساحل السوس، فلحق بالسكسيوي عبد الله ودعا لنفسه.

وبلغ الخبر إلى السلطان بين يدي مقدم حاجبه ابن أبي
عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعماية فجهز عساكره
إلى المغرب وعقد على حرب السكسيوي لوزيره فارس بن ميمون
بن ودرار وسرحه إليه، فنهض من تلمسان لربيع سنة أربع
وخمسين وسبعماية وأغذ السير إلى السكسيوي ونزل بمخنفه،
وأحاط به، واختط مدينة لمسكره ونجهز كتابه بسفح جبله،
وسماها القاهرة.

واشدت الحصار على السكسيوي وراسل الوزير في الرجوع
إلى الطاعة المعروفة، وأن يتبذ العهد إلى أبي الفضل، ففارقه وتقل
في جبال المصامدة.

ودخل الوزير فارس إلى أرض السوس فدوخ أقطاره،
ومهد أنحاء، وسارت الألوية والجيوش في جهاته، ورتب المسالح

مكان عمله بالثغور الأندلسية.

برمته.

ولما كانت نكبة القيروان وانتزى الأبناء بفاس وتلمسان، أجاز البحر لحسم الداء ونزل بفساسة ثم انتقل إلى وطنه بتنازي وجمع قومه بني عسكر، وألفى السلطان أبا عنان قد هزم عساكر ابن أخيه وأخذ بمخفته، فأجلب عليه وبيته بمعسكره من ساحة البلد الجديد وعقد السلطان أبو عنان على حربه لصنيعة سعيد بن موسى العجيسي وأنزله بثمر بلاد بني عسكر على واد بوحلوا.

وتوافقا كذلك أياماً حتى تغلب السلطان أبو عنان على البلد الجديد، ثم راسل عيسى بن الحسن في الرجوع إلى طاعته وأبطأ عنه صريح السلطان أبي الحسن بإفريقية فراجعه واشترط عليه، فتقبل وسار إليه فتلقيه السلطان وامتلاً سروراً بمقدمه وأنزله قصوره وجعل الشورى إليه في مجلسه واستمرت على ذلك حاله.

ولما تمكنت حال ابن أبي عمرو بعد مهلك السلطان أبي الحسن وانفرد بمخلة السلطان ومناجاته وحجب عن الخاصة والبطانة أحفظه ذلك ولم يدها واستأذن السلطان في الحج فأذن له وقضى فرضه ورجع إلى عمله من بساط السلطان سنة ست وخمسين وسبعمائة ولقي ابن أبي عمرو ببجاية، وتطارح عليه في أن يصلح حاله عند سلطانه، فوعده في ذلك، ولما وفد على السلطان وجده قد استبد في الشورى، وتكر للخاصة والجلساء، فاستأذنه في الرجوع إلى مجلسه من الثغر لإقامة رسم الجهاد فأذن له.

وبعث عمر ابن وزيره عبد الله بن علي وعمر بن العجوز وقائد جند النصاري، فأحضروهما بدار السلطان يوم منى من سنة ست وسبعمائة وجلس لهما السلطان ووقفا بين يديه وتنصلا واعتذرا، فلم يقبل منهما وأودعما السجن وشد وثاقهما، حتى قضى منسك الأضحى.

ولما كان خاتم سته أمر بهما فجنبا إلى مصارعهما وقتل عيسى قعصاً بالرماح، وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف، وأبى من مداواة قطعه، فلم يزل يتشخط في دمه إلى أن هلك لثانية قطعه، وأصبحا مثلاً في الآخرين، وعقد على جبل الفتح وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود إلى أن كان من الأمراء ما تذكره إن شاء الله تعالى.

وأجاز البحر إلى جبل الفتح من سته، وكان صاحب ديوان العطاء بالجبل يحيى الفرقاجي، وكان مستظهِراً على العمال، وكان ابنه أبو يحيى قد برم بمكانه.

الخبر عن نهوض السلطان إلى قسنطينة

وفتحها ثم فتح تونس عقبها

لما هلك الحاجب محمد بن أبي عمرو، عقد السلطان على ثغور بجاية وما وراءها من بلاد إفريقية لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد، وسرحه إليها وأطلق يده في الجباية والعطاء. وكانت جبال ضواحي قسنطينة قد تملكها السلطان بما كانت الدواودة متغلبة عليها.

فلما وصل عيسى إلى الجبل اتبعه السلطان بأعطيات المسالحي مع مسعود بن كندوز من صنائع دولته، فسرب الفرقاجي إلى الضرب على يده شأنه مع ابنه أيام مغيبه، وأنف عيسى من ذلك فتقبض عليه، وأودعه المطبق، ورد ابن كندوز على عقبيه، وأركبه السفين من ليلته إلى سبتة، وجاهر بالخلعان، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فقلق لذلك، وقام في ركائبه وقعد، وأوعز بتجهيز الأساطيل، وظن أنه قد تدبر من الطاغية وابن الأحمر وبعث أحمد بن الخطيب قائد البحر بطنجة عيناً على شأنهم، فوصل إلى مرسى الجبل.

وكان عيسى بن الحسن لما جاهر بالخلعان تمشت رجالات الثغر وعرفاء الرجل من غمارة الغزاة الوطنيين بالجبل، وتحدثوا في شأنه، وامتنعوا من الخروج على السلطان، وتأمروا في إسلامه

وكان عيسى بن الحسن لما جاهر بالخلعان تمشت رجالات الثغر وعرفاء الرجل من غمارة الغزاة الوطنيين بالجبل، وتحدثوا في شأنه، وامتنعوا من الخروج على السلطان، وتأمروا في إسلامه

الأرض بعساكره، دحر أهل البلد، وألقوا بأيديهم إلى الإذعان، وانفضوا من حول سلطانهم مهطعين إلى السلطان، وتحيز صاحب البلد في خاصته إلى القصة.

ووصل أخوه المولى الفضل يطلب الأمان، فبذله السلطان لهم وخرجوا، وأنزلهم بمعسكره أياماً، ثم بعث بالسلطان في الأسطول إلى سبتة فاعتقله بها إلى أن كان من أمره ما تذكره بعد.

وعقد على قسنطينة لمصور بن الحاج مخلوف الياباني من مشيخة بني مرين وأهل الشورى منهم، وأنزله بالقصبة في شعبان من سته، ووصل إليه بمعسكره من ساحة قسنطينة بيعة يحيى بن يملول صاحب توزر، وبيعة علي بن الخلف صاحب نفطة، ووفد ابن مكى فجدد طاعته.

ووصل إليه أولاد مهلهل أمراء الكعوب وأقتال بني أبي الليل يستحثونه للكمك تونس، فسرح معهم العساكر وعقد عليها ليحيى بن رحو بن تاشفين، وبعث أسطوله في البحر مدداً لهم، وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف الأيك، وساروا إلى تونس وأخرج الحاجب أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحاق إبراهيم مولانا السلطان أبي يحيى مع أولاد أبي الليل، وجهاز له العساكر لما أحس بقدوم عساكر السلطان.

ووصل الأسطول إلى مرسى تونس فقاتلهم يوماً أو بعض يوم، وركب الليل إلى المهديّة فتحصن بها.

ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وسبعمئة وأقاموا بها دعوته.

واحتل يحيى بن رحو بالقصبة، وأنفذ الأوامر، وكتبوا إلى السلطان بالفتح.

ونظر السلطان بعد ذلك في أحوال الوطن، وقبض أيدي العرب من رياح عن الأناوة التي يسمونها الخفارة فارتأوا، وطالبهم بالرهن فأجمعوا على الخلاف، فأرهب لهم حده، وتبين يعقوب بن علي أميرهم مكروه، فخرج معهم ولحقوا جميعاً بالزاب، وارتحل في أثرهم، وسار يوسف بن مزني عامل الزاب ينفذ الطريق أمامه حتى نزل بعسكره.

ثم ارتحل إلى طولقة فتقبض على مقدمها عبد الرحمن بن أحمد بإشارة ابن مزني، وخرّب حصون يعقوب بن علي، وأجفلوا إلى القفر أمامه، ورجع عنهم.

وحمل له ابن مزني جباية الزاب بعد أن وعد عامة معسكره بالقرى من الخنطة والأدم واللحمان والعلوفة لثلاث ليال نفذت في ذلك، وكافاه السلطان على صنيعه، فخلع عليه وعلى ولده

ولما نزل ابن أبي عمرو بجاية وأخذ بمخنق قسنطينة، ثم ارتحل عنها على ما عقد من السلم مع المولى الأمير أبي زيد، أنزل موسى بن إبراهيم بميلة، فاستقر بها.

ولما ولي الوزير عبد الله بن علي أمر إفريقية، أوعز إليه السلطان بمنازلة قسنطينة، فنازلها سنة سبع وخمسين وسبعمئة وأخذ بمخنتها، ونصب المنجنق عليها، واشتد الحصار بأهلها، وكادوا أن يلقوا باليد لولا ما بلغ المعسكر من الإرجاف مهلك السلطان فأفرجوا عنها، ولحق المولى أبو زيد ببونة، وأسلم البلد إلى أخيه مولانا أمير المؤمنين أبي العباس أيده الله تعالى، عندما وصل إليه من إفريقية، كان بها مع العرب طالباً ملكهم بتونس، ومجلباً بهم على ابن تافراكين منذ نازلوا تونس سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة كما مر، فلما رجع الآن إلى قسنطينة مع خالد بن حمزة، داخل المولى أبا زيد في خروجه إلى حصار تونس، وإقامة مولانا أبي العباس بقسنطينة، فأجاب لذلك وخرج معه، ودخل مولانا أبو العباس إلى قسنطينة، فدعا لنفسه، وضبط قسنطينة وكان مدلاً بياسه وإقدامه، وداخله بعض المنحرفين من بني مرين من أولاد يوسف رؤساء سدويكش في تبيت موسى بن إبراهيم بمعسكره من ميلة، فبيتوه وانتهبوا معسكره وقتلوا أولاده وخلصوا إلى تاوريرت، ثم إلى بجاية، ولحق بمولانا السلطان مقلولاً.

ونكر السلطان على وزيره عبد الله بن علي ما وقع بموسى بن إبراهيم، وأنه قصر في إمداده، فسرح شبيب بن ميمون وتقبط عليه، وأشخصه إلى السلطان معتقلاً، وعقد على بجاية مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود من صنائع دولته، وفي خلال ذلك راسل المولى أبو زيد الحاجب أبا عبد الله بن تافراكين المتغلب على عمه إبراهيم في النزول لهم عن بونة، والقدوم عليهم بتونس، فقبلوه وأحلوه محل ولي العهد، واستعملوا على بونة من صنائعهم، ولما بلغ خبر موسى بن إبراهيم إلى السلطان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمئة اعترم على الحركة إلى إفريقية واضطرب معسكره بساحة البلد الجديد، وبعث في الحشد إلى مراكش.

وأوعز إلى بني مرين بأخذ الأهبة للسفر، وجلس للعباء والاعتراض من لدن وصول الخبر إليه إلى شهر ربيع من سنة ثمان وسبعمئة.

ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر، وسار في الساقه على التعيبة إلى أن احتل ببجاية، وتلوم لإزاحة العلل، ونازل الوزير قسنطينة.

ثم جاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته، وماجت

السلطان طوائف من أولاد سباع بن يحيى وكبيرهم يومئذ عثمان بن يوسف بن سليمان، فأنحاشوا جميعاً للوزير ونزلوا على معسكره مجملهم.

وارتحل السلطان في أثره حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشاركة أحواله منها، واحتل الوزير سليمان بوطن قسنطينة.

وأوعز السلطان إلى عامل الزاب يوسف بن مزني بأن تكون يده معه، وأن يؤامره في أحوال الدواودة لرسوخه في معرفتها، فارتحل إليه من بسكرة، ونزلوا جبل أوراس واقتضوا جبابته ومغارمه، وشردوا المخالفين من الدواودة عن العيث في الوطن، فتم غرضهم من ذلك.

وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان إفريقية من آخر مجالات رياح، وانكفأ راجعاً إلى المغرب.

ووافى السلطان بتلمسان، ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة، فوصلهم السلطان وخلع عليهم وحملهم، وفرض لهم العطاء بالزاب وكتب لهم به، وانتقلوا إلى أهلهم، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني، أوفده أبوه بهدية السلطان من الخيل والرقيق والدروق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته وأنزله، واستصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته، ويستبلغ في الاحتفاء به، واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة والله أعلم.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان ونصب السعيد للأمر باستبداد الوزير الحسن بن

عمر في ذلك

لما وصل السلطان إلى دار ملكه بفاس، احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض، وأعجله طائف الوجع عن الجلوس يوم العيد على العادة، فدخل إلى قصره ولزم فراشه، واشتد به وجعه، وأطاف به النساء يمرضنه.

وكان ابنه أبو زيان ولي عهده، وكان وزيره موسى بن عيسى العقولي من صنائع دولتهم وأبناء وزرائهم، قد عقد له السلطان على وزارته واستوصاه به، فتعجل الأمر، ودخل رؤوس بني مرين في الانحاش إلى أميرهم والفتك بالوزير الحسن بن عمر ودخله في ذلك عمر بن ميمون لعداوة بينهما وبين الوزير فخشيهما الحسن بن عمر على نفسه.

وأسنى جوائزهم ورجع إلى قسنطينة، واعتزم على الرحلة إلى تونس.

وضاق ذرع العساكر بشأن النفقات والأبعاد في المذاهب وارتكاب الخطر في دخول إفريقية، فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان.

وداخلوا الوزير فارس بن ميمون فوافقهم عليه وأذن المشيخة والنباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا، ونمي الخبر إلى السلطان أنهم تأمروا في قتله.

ونصب إدريس بن عثمان بن أبي العلاء للأمر، فأسرها في نفسه ولم يدها لهم.

ورأى قلة العساكر وعلم بانفضاضهم، فكر راجعاً إلى المغرب بعد أن ارتحل عن قسنطينة مرحلتين إلى المشرق، وأغذ السير إلى فاس، واحتل بها غرة ذي الحجة من سنته.

وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون، اتهمه بمداخلة بني مرين في شأنه، وقتله رابع أيام التشريق قصصا بالرماح، وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع منهم السجن، وبلغ إلى الجهات خبر رجوعه من قسنطينة إلى المغرب فارتحل أبو محمد بن تافراكين من المهديّة إلى تونس، ولما أطل عليها ثار شيعته بالبلد على من كان بها من عساكر السلطان، وخلصوا إلى السفين، فنجوا إلى المغرب، وجاء على أثرهم يحيى بن رحو بمس معه من العساكر كان معه أولاد مهلهل، بناحية الجريد لاقتضاء جبابته، واجتمعوا بباب السلطان، وأرجأ حركته إلى اليوم القابل، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وزارة سليمان بن داود ونهوضه

بالعساكر إلى إفريقية

لما رجع السلطان من إفريقية ولم يستم فتحها، بقي في نفسه منها شيء، وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الدواودة المخالفين، فأهمه شأنهم، واستدعى سليمان بن داود من مكانه بثغور الأندلس، وعقد له على وزارته، وسرحه في العساكر إلى إفريقية، فارتحل إليها في ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمائة وكان يعقوب بن علي لما كشف وجهه في الخلاف، أقام السلطان مكانه أخاه ميمون بن علي منازعه، وقدمه على أولاد محمد من الدواودة، وأحلّه بمكانه من رئاسة البدو والضواحي، ونزع إليه عن أخيه يعقوب الكثرة من قومه، وتمسك بطاعة

الخبر عن تجهيز العساكر إلى مراكش ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة عامر بن محمد بن علي

كان عامر بن محمد بن علي شيخ هتاتة من قبائل المصامدة، وكان السلطان يعقوب قد استعمل أباه محمد بن علي على جبايتهم، والسلطان أبو سعيد استعمل عمه موسى بن علي وربي عامر هذا في كفالة الدولة، وسار في جملة السلطان إلى إفريقية، وولاه السلطان أحكام الشرطة بتونس.

ولما ركب البحر إلى المغرب أركب حرمه وحظايه في السفين، وجعلهم إلى نظر عامر بن محمد.

وأجازوا البحر إلى الأندلس فنزلوا المرية وبلغتهم غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن وعساكره، فأقام بهم مكانه من المرية، وبعث السلطان أبو عنان عنه، فلم يجب داعيه وفاء بيعة أبيه، حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بدارهم بالجبل، ورعى لهم السلطان أبو عنان إجارتهم لأبيه، حين لفظته البلاد وتحاماه الناس، أجمع أمره على الوفاة عليه، فوفد بمن معه من الحرم.

وأكرم السلطان أبو عنان وفادته وأحسن نزله، ثم عقد له على جباية المصامدة سنة أربع وخمسين وسبعمئة وبعثه لها من تلمسان، فاضطلع بهذه الولاية وأحسن الغناء فيها، والكفاية عليها، حتى كان السلطان أبو عنان يقول: وددت لو أصبت رجلاً يكفيني ناحية المشرق من سلطاني كما كفاني عامر بن محمد ناحية الغرب، واتورع، ونافسه الوزراء في مقامه ذلك عند السلطان وربته.

وانفرد الحسن بن عامر آخر الأمر بوزارة السلطان، واشتدت منافستهم وانتهت إلى العداوة والسعاية.

وكان السلطان بين يدي مهلكه ولّى أبناءه الأصاغر على أعمال ملكه، فعقد لابنه محمد المعتمد على مراكش، واستوزر له، وجعله إلى نظر عامر واستوصاه به.

فلما هلك السلطان وانتقل الحسن بن عامر بالأمر ونص السعيد للملك، استقدم الأبناء من الجهات، فبعث عن المعتمد بمراكش فأبى عليه عامر من الوفاة عليهم، وصعد به إلى معقله من جبل هتاتة، وبلغ الحسن بن عامر خبره، فجهز إليه العساكر وأزاح عللهم، وعقد على حربه للوزير سليمان بن داود مساهمة في القيام بالأمر، وسبرحه في الحرم سنة ستين وسبعمئة، فأغذ

وفأوض عليه أهل المجلس بذات صدره، وكانت نفرتهم عن ولي العهد مستحكمة لما بلوا من سوء دخلته وشر ملكته، فاتفقوا على تحويل الأمر عنه.

ثم نفي لهم أن السلطان مشرف على الملكة لا محالة، وأنه موقع بهم من قبل مهلكه، فأجمعوا أمرهم على الفتك به والبيعة لأخيه السعيد طفلاً خاسياً، وباكروا دار السلطان وتقبضوا على وزيره موسى بن عيسى وعمر بن ميمون فقتلوهما وأجلسوا السعيد للبيعة.

وأوعز وزيره مسعود بن رحو بن ماساي بالتقبض على أبي زيان من نواحي القصر، فدخل إليه وتلفظ في إخراجيه من بين الحرم، وقاده إلى أخيه فبايعه وتله إلى بعض حجر القصر، فأتلف فيها مهجته.

واستقل الحسن بن عامر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة تسع وخمسين وسبعمئة والسلطان أثناء ذلك على فراشه يجود بنفسه.

وارتقب الناس دفنه يوم الخميس والجمعة بعده، فلم يدفن فارتابوا، وفشا الكلام وارتاب الجماعة، فأدخل الوزير -زعموا- إليه مكانه من بيته من غظه حتى أثلفه.

ودفن يوم السبت، وحجب الحسن بن عامر الولد السعيد المنصوب للأمر، وأغلق عليه بابه، وتفرّد بالأمر والنهي دونه.

ولحق عبد الرحمن ابن السلطان أبي عنان بجبل كاي يوم بيعة أخيه، وكان أسن منه وإنما أثروه لكان ابن عمه مسعود بن ماساي من وزارته، فبعثوا إليه من لافقه واستنزله على الأمان، وجاء به إلى أخيه فاعتقله الحسن بالقصبة من فاس.

وبعث عن أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور: فجاء المعتصم من سجلماسة، وامتنع المعتمد بمراكش، وكان بها كفالة عامر بن محمد الهتاتي استوصاه به السلطان وجعله هنالك لنظره، فمنعه من الوصول، وخرج به من مراكش إلى معقله من جبل هتاتة، وجهاز الوزير العساكر لمحاربتة، ولم يزل هنالك إلى أن استنزله عمه السلطان أبو سالم عند استيلائه على ملك المغرب، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

السير إلى مراكش واستولى عليها، وصمد إلى الجبل فأحاط به، وضيق على عامر وطاول منازلته.

وأشرف على اقتحام معقله إلى أن بلغه خبر افتراق بني مرين، وخروج منصور بن سليمان من أعياص الملك على الدولة، وأنه منازل للبلد الجديد، فانفض المعسكر من حوله وتسابقوا إلى منصور بن سليمان، فلحق به الوزير سليمان بن داود وتنفس المختق عن عامر، إلى أن استولى السلطان أبو سالم على ملك المغرب في شعبان من سنة ستين وسبعماية واستقدم عامر والمعتمد ابن أخيه من مكانهم بالجبل، فقدم عليه وأسلمه إليه كما تذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان

وتجهيز العساكر لمدافعته، ثم تغلبه عليها

وما تخلل ذلك من الأحداث

كان أبناء عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن هؤلاء أربعة كما ذكرناه في أخبارهم، وكان يوسف كبيرهم وكان سكوتاً متحلاً لطرق الخير لا يريد علواً في الأرض، ولما هلك أخوه عثمان بتلمسان، عقد له على تنس، وكان ابنه موسى متقبلاً مذهبه في السكون والدعة، ومجانبة أهل الشر، ولما تغلب السلطان أبو عنان عليهم سنة ثلاث وخمسين وسبعماية وفر أبو ثابت إلى قاصية الشرق، واهتبلتهم قبائل زواوة وأرجلهم عن خيلهم سعوا على أقدامهم، وانتبذ أبو ثابت وأبو زيان ابن أخيه أبي سعيد وموسى ابن أخيه يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ناحية عن قومهم، وسلخوا غير طريقهم، وتقبض على أبي ثابت ويحيى بن داود محمد بن عثمان، وخلص موسى إلى تونس فنزل على الحاجب أبي محمد بن تافراكين وسلطانه خير نزل، وأجاره مع فل من قومه خلصوا إليهم وأسوا جرائتهم.

وبعث السلطان أبو عنان فيهم إلى ابن تافراكين فأبى من إسلامهم وجاهر بإجارتهم على السلطان.

ولما استولت عساكر السلطان على تونس، وأجفل عنها سلطانتها أبو إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى، خرج موسى بن يوسف هذا في جلته، ولما رجع السلطان إلى المغرب صمد المولى أبو إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى، وابن أخيه المولى أبو زيد صاحب قسنطينة مع يعقوب بن علي وقومه من الدواودة إلى منازل قسنطينة وارتجاعها، وسار في جلته

موسى بن يوسف هذا فيمن كان عندهم من زناتة قومه وكان بنو عامر من زغبة خارجين على السلطان أبي عنان منذ غلبه بنو عبد الواد على تلمسان وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن إبراهيم، فلحق بإفريقية في قومه ونزلوا على يعقوب بن علي، وجاوروه بجللهم وطعنهم، فلما أفرجوا عن قسنطينة بعد امتناعها، واعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب الأوسط، دعوا موسى بن يوسف هذا إلى الرحلة معهم لينصبوه للأمر، ويجلبوا به على تلمسان، فخلى الموحدون سبيله، وأعانوه بما اقتدروا عليه لوقتهم، وعلى حال سفرهم من آلة وفسطاط وارتحل معهم بني عامر، وارتحل مع صولة بن يعقوب بن علي وزيان بن عثمان بن سباع من أمراء الدواودة، ودغار بن عيسى في حلله من بني سعيد إحدى بطون رياح وأغذ السير إلى المغرب للعبث في نواحيه.

وجمع لهم أقاتهم من سويد أولياء السلطان والدولة، والتقوا بقبيلة تلمسان، فانهزمت سويد وهلك عثمان بن كبيرهم ونزمار، وكان مهلك السلطان في خلال ذلك.

وكان السلطان حين استعمل الأبناء على الجهات، عقد لحمد المهدي من أولاده على تلمسان.

ولما اتصل الخبر ب وفاة السلطان بالعرب، أغذوا السير إلى تلمسان، وملكوا ضواحيها، وجهر الحسن بن عمر إليها عسكرياً عقد عليه وعلى الحامية الذين بها لسعيد بن موسى العجيسي من صنائع السلطان، وسرحه إليها، وسار في جلته أحمد بن مزني فاصلاً إلى عمله بعد أن وصله وخلع عليه وحمله، وسار سعيد بن موسى في العساكر إلى تلمسان، فاحتل بها في صفر من سنة ستين وسبعماية وزحف إليهم جموع بني عامر وسلطانهم أبو موسى بن يوسف، فغلبوهم على الضاحية وأحجزوهم بالبلد.

ثم نالوهم الحرب أياماً، واقتحموها عليهم لثمان خلون من ربيع، واستباحوا من كان بها من العسكر، وامتلات أيديهم من أسلابهم ونهابهم.

وخلص سعيد بن موسى بابن السلطان إلى حلة صغير بن عامر فأجاره ومن جاء على أثره من قومه، وأوفد معهم رجالات من بني عامر ينفضون الطريق أمامه إلى أن أبلغوه مأمنه من دار ملكهم، واستولى أبو حمو على ملك تلمسان، واستأثر بالهدية التي ألقي بمودعها، كان السلطان انتقاها وبعث بها إلى صاحب برشلونة بطرة بن ألقظ وبعث إليه بها بفرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام ذهبيين ثقلين.

فاتخذ أبو حمو ذلك الفرس لركوبه، وصرف الهدية في مصارفه ووجوه مذهب، والله غالب على أمره.

الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماساي إلى تلمسان وتغلبه عليها ثم انتقاضه ونصبه منصور بن سليمان للأمر

لما بلغ الوزير الحسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها، جمع مشيخة بني مرين وأمرهم بالنهوض إليها، فأبوا عليه من النهوض بنفسه، وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه بمسيرهم كافة، ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلات وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد.

ثم عقد عليهم لمسعود بن رحو بن ماساي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في الألوية والعساكر.

وكان في جلته منصور بن سليمان بن منصور بن أبي مالك بن يعقوب بن عبد الحق، وكان الناس يرجون بأن سلطان المغرب صائر إليه بعد مهلك أبي عنان، وشاع ذلك على السنة الناس وذاع وتحدث به السمر والندمان، وخشي منصور على نفسه لذلك، فجاء إلى الوزير وشكا إليه ذلك، فانتهره بأن لا يمتلج بفكره مثل هذا الوسواس انتهاراً خلا من وجه السياسة، فازدجر واقتصر.

ولقد شهدت هذا الموطن، ورحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه.

ورحل الوزير مسعود في التعيبة وأفرج أبو حمو عن تلمسان، ودخلها مسعود في ربيع الثاني واستولى عليها.

وخرج أبو حمو إلى الصحراء، وقد اجتمعت إليه جموع العرب من زغبة والمعلل.

ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بأنكاد مجملهم وظواعنهم، وجهاز مسعود بن رحو إليهم عسكرياً من جنوده انتقى فيه مشيخة من بني مرين وأمرائهم، وعقد عليهم لعامر ابن عمه عبو بن ماساي، وسرحهم فزحفوا إليه بساحة وجدة، وصدقهم العرب الحملة، فانكشفوا واستبيح معسكرهم، واستلبت مشيختهم، وأرجلوا عن خيلهم، ودخلوا إلى وجدة عراة.

وبلغ الخبر إلى بني مرين بتلمسان، وكان في قلوبهم مرض من استبداد الوزير عليهم وحجزه لسلطانهم، فكانوا يترصدون

بالدولة.

فما بلغ الخبر وجاض الناس لها جيضة الحمر، خلص بعضهم نجياً بساحة البلد، واتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيان ابن السلطان أبي يعقوب فبايعوه.

وانتهى الخبر إلى الوزير مسعود بن رحو، وكان متحيزاً السلطان منصور بن سليمان فاستدعاه وأكرمه على البيعة، وبايعه معه الرئيس الأكبر من بني الأحمر، وقائد جند النصارى القمدوز، وتسائل إليه الناس، وتسامع الملا من بني مرين بالخبر، فبادروا إليه من كل جانب.

وذهب يعيش بن أبي زيان لوجهه، فركب البحر وخلص إلى الأندلس، واتخذ الأمر لمنصور بن سليمان.

واجتمع بنو مرين على كلمته، وارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب.

واعترضتهم جموع العرب في طريقهم فأوقعوا بهم، وامتلات أيديهم من أسلابهم وظعنهم.

وأغذوا السير إلى المغرب، واحتلوا بسبوا في منتصف جمادى الآخرة، وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فاضطرب معسكره بساحة البلد، وأخرج السلطان في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه.

ولما غشيم الليل انفضوا عنه ونزع الملا إلى السلطان منصور بن سليمان، فأوقد الشموع وأذكى النيران حول الفسطاط، وجمع الموالي والجند وأركب السلطان ودخل إلى قصره، وانحجز بالبلد الجديد، وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعيبة حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين لجمادى، واضطرب معسكره بها، وغدا عليها بالقتال وشد عليها الحملات، وامتنت ليومها، ثم جمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار.

واجتمعت إليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة، ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مجمرة بمراكش لحصار عامر مع الوزير سليمان بن داود فاستوزره، وأطلق عبد الله بن علي وزير السلطان أبي عنان من معتقله فاستوزره أيضاً. وأوعز بإطلاق مولانا أبي العباس صاحب قسنطينة من معتقله بسبته، فخلص منه خلوص الإبريز بعد السبك.

وأمر منصور بن سليمان بتسريح السجون، فخرج من كان بها من دعار بجاية وقسنطينة، وكانوا معتقلين من لدن استحواذ السلطان أبي عنان على بلادهم.

وانطلقوا إلى مواطنهم، وأقام على البلد الجديد يغاديهما

القمص بالزقاق، وضربوا بذلك الموعد وأتحفه السلطان بهدية سنينة من متاع المغرب وماعونه، ومركب ذهبي صنيع، ومقرب من جياده وأنفذها إليه، فبلغت تلمسان، وهلك قبل وصولها إلى محلها، ولما هلك السلطان أبو عنان أمل أخوه المولى أبو سالم ملك أخيه، وطمع في مظاهرة أهل الأندلس له على ذلك لما كان بينهم وبين أخيه، واستدعاه أشياخ من أهل المغرب، ووصل البعض منهم إليه بمكانه من غرناطة، وطلب الإذن من رضوان في الإجازة، فأبى عليه، فأحفظه ذلك.

ونزع إلى ملك قشتالة متطارحاً بنفسه عليه أن يجهز له الأسطول للإجازة إلى المغرب، فاشتراط عليه وتقبل شرطه.

وأجازته في أسطوله إلى مراكش، فامتنع عامر من قبوله لما كان فيه من التضييق والحصار بحصة سليمان بن داود كما ذكرناه، فانكفاً راجعاً على عقبه.

فلما حاذى طنجة وبلاد غمارة وألقى بنفسه إليهم، ونزل بالصفيحة من بلادهم، واشتملت عليه قبائلهم، وتسايلاوا إليه من كل حذب ويابعوه على الموت، وملك سبتة وطنجة، وبها يومئذ السلطان أبو العباس بن أبي حفص صاحب قسنطينة لحق بها بعد الخروج من اعتقاله بسبتة كما ذكرناه، فاختصه المولى أبو سالم بالصحابة والخلة، وألفه في اغترابه ذلك، إلى أن استولى على ملكه، وألقى بطنجة الحسن بن يوسف الورتاجي، وكتب ديوان الجند أبا الحسن بن علي بن السعود، والشريف أبا القاسم التلمساني، كان منصور بن سليمان ارتاب بهم واتهمهم بمداخلة الحسن بن عمر بمكانه من البلد الجديد، فصرهم من معسكره.

إلى الأندلس، فوافوا المولى أبا سالم عند استيلائه على طنجة، فساروا في إيلاته، واستوزر الحسن بن يوسف، واستكتب لعلامته أبا الحسن علي بن السعود، واختص الشريف بالمجالسة والمراكمة.

ثم قام أهل الثغور الأندلسية بدعوته، وأجاز يحيى بن عمر صاحب جبل الفتح إليه بمن كان معه من المعسكر، وطالت حصاة المولى أبي سالم واتسع معسكره، وبلغ خبره إلى الشائر على البلد الجديد منصور بن سليمان، فجهز عسكرياً لدفاعه وعقد عليه لأخويه عيسى وطلحة وأنزلهم قصر كتامة، وقاتلوه فهزموه، واعتصم بالجبل وبادر الحسن بن عمر من وراء الجدران فبعث إليه بطاعته، ووعده بالتمكن من دار ملكه.

وداخل بعض أشياخ المولى أبي سالم مسعود بن رحو بن ماساي وزير منصور في النزوع إلى السلطان، وكان قد ارتاب بمنصور وابنه علي، فتنزع وانتفض الناس من حول منصور، وتحاذل

بالتقال ويرأوها ونزع عنه إلى الوزير الحسن بن عمر طائفة من بني مرين، ولحق آخرون ببلادهم، وانتفضوا عليه ينتظرون مآل أمره.

ولبت على هذه الحال إلى غرة شعبان، فكان من قدوم السلطان أبي سالم للملك سلفه بالمغرب، واستيلائه عليه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نزول المولى أبي سالم بجبال غمارة واستيلائه على ملك المغرب ومقتل منصور بن سليمان

كان السلطان أبو سالم بعد مهلك أبيه واستقراره بالأندلس، وخروج أبي الفضل بالسوس لطلب الأمر، ثم ظفر السلطان أبي عنان به ومهلكه كما ذكرناه، قد تورع وسكن وسالمة السلطان.

ثم هلك سلطان الأندلس أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمئة يوم الفطر بمصلى العيد طعته أسود مدسوس كان ينسب إلى أخيه محمد من بعض إماء قصرهم.

ونصبوا للأمر ابنه محمداً وأحجبه مولاه رضوان، واستبد عليه، وكان للسلطان أبي عنان اعتزاز كما ذكرناه، وكان يؤمل ملك الأندلس.

وأوعز إليهم عندما طرقه من طائف المرض سنة سبع وخمسين وسبعمئة أن يبعثوا إليه طيب دارهم إبراهيم بن زرزر الذمي، وامتنع من ذلك اليهودي، واعتذروا عذره فنكر لهم السلطان قبله، ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وإفريقية وتقبض على وزيره والمشيخة من قبله، تحنياً عليهم إذ لم يبادر السلطان بنفسه وحاجبه للتهنئة.

وأظلم الجو بينهم، واعتزم على النهوض إليهم وكانوا منحاشين بالجملة إلى الطاغية بطرة بن أدفونش صاحب قشتالة، منذ مهلك أبيه الهشنة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمئة ثم استبد رضوان على الدولة بعد مهلك أبي الحجاج، فكانت له صاغية إليهم، ظاهرها النظر للمسلمين بمسألة عدوهم، وكان السلطان أبو عنان يعتد ذلك عليهم، وعلم أنه لا بد أن يمدهم بأساطيله ويدافعوه عن الإجازة إليهم.

وكان بين الطاغية بطرة وبين قمص برشلونة فتنة هلك فيها أهل ملتهم، فصرف السلطان قصده إلى قمص برشلونة وخاطبه في اتصال اليد على أدفونش، واجتماع أسطول المسلمين وأسطول

الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمئة ونصب ابنه محمد للأمر، واستبد عليه رضوان مولى أبيه، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبة. فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم، وكان له صهر من ابن عمه محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد في شقيقه فكان يدعوهم سرّاً إلى القيام بأمره متى أمكنته فرصة في الدولة، فخرج السلطان إلى بعض متزهاته برياضه، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين من رمضان من سنة ستين وسبعمئة في أوشب، جمعهم من الطعام لثورته.

وعمد إلى دار الحاجب رضوان فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمة وبناته، وقرّبوا إلى إسماعيل فرسه فركبه فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء، وفر السلطان من مكانه يمتنزه بوادي آش وغدا الخاصة والعامة على إسماعيل؛ فبايعوه واستبدّ عليه هذا الرئيس ابن عمه. ثم قتله لأشهر من بيعته، واستقل بسلطان الأندلس ولما لحق أبو عبد الله بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان، واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم، امتنع لهلك رضوان، وخلع السلطان رعيّاً لما سلف له في جوارهم، وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأندلس وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله بن الخطيب، كانوا اعتقلوه لأول أمره لما كان رديفاً للحاجب رضوان وركناً لدولة المخلوع.

فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه ولحق الرسول أبو القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب وأجازا لذي القعدة من سته.

وقدم على السلطان بفاس وأجل قدومه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل بزيته، وغص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب فأشاد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثه لمظاهرة على أمره.

واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة ورحمة، ونص القصيدة:

سلا هل للنبيها من غيرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الزهر
وهل باكر الرسمي داراً على اللوا عفت آيها إلا التوهم والذكر

أشباعه من بني مرين، ولحق بيادس من سواحل المغرب.

ومشى أهل المعسكر بأجمعهم في ساقاتهم ومواكبهم على التعبية، فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستقذّوه إلى دار ملكه، فأغذ السير وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد عن الأمر، وأسلمه إلى عمه وخرج إليه فبايعه.

ودخل السلطان إلى البلد الجديد يوم الجمعة متصفاً شعبان من سنة ستين وسبعمئة واستولى على ملك المغرب، وتوافقت وفود النواحي بالبيعات، وعقد للحسن بن عمر على مراكش، وجهزه إليها بالساكر رية بمكانه.

واستوزر مسعود بن رحو بن ماساي والحسن بن يوسف الورتاجني، واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق، وجعل إلى مؤلف هذا الكتاب توقيعه وكتابة سره.

وكنّت نزعته إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلال أحواله، ومصير الأمر إلى السلطان، فأقبل علي وأنزلني بمحل البتوه واستخلصني لكتابته.

واستوسق أمره بالمغرب وتقبض شيعه السلطان بياديس على منصور بن سليمان وابنه علي وقادوهم مصفدين إلى سدته، وأحضرهم ووجّهم، وجنبوا إلى مصارعهم، فقتلوا قعصاً بالرماح آخر شعبان من سته.

وجمع الأبناء والقرابة المرشحين من ولد أبيه وعمه، وأشخصهم إلى رندة من تغورهم بالأندلس، ووكّل بهم من يجرسهم، ونزع محمد بن أبي أخيه أبي عبد الرحمن منهم إلى غرناطة، ثم لحق منها بالطاغية، واستقر لديه حتى كان من غلّكه المغرب ما نقصه، وهلك الباقون غرقاً في البحر بإيعاز السلطان بذلك بعد مدة من سلطانه، أركبهم السفين إلى المشرق، ثم غرقهم، وخلّص الملك من الخوارج والمنازعين، واستوسق له الأمر، والله غالب على أمره.

واحتفل السلطان في كرامة مولانا السلطان أبي العباس، وشاد بيرة وأوعز بانحاذ دار عامر بن فتح الله وزير أبيه لنزله، ومهد له المجلس لضيق أركبته، ووعده بالمظاهرة على ملكه إلى أن بعثه من تلمسان عند استيلائه عليها، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى
 وجوي الذي ريس جناحي وكسر
 نبت بي لا عن جفوة وملالة
 ولكنها الدنيا قليل متاعها
 فمن لي بنيل القرب منها ودوننا
 والله عينا من رأسا وللأسى
 وقد بددت در الدموع يد النوى
 بكينا على النهر السرور عشية
 أقول لأظماني وقد غالها السرى
 رويدك بعد العسر ير فأبشري
 والله فينا سر غيب وربما أتى النفع
 وإن تحين الأيام لم يمين النهى
 وإن عركت مني الخطوب مجرباً
 فقد عجمت عوداً صلياً على النوى
 إذا أنت بالبيضاء قد زرت منزلي
 زجرنا بإبراهيم ملء همونا
 بمتخب من آل يعقوب كلما
 تنقلت الركبان طيب حديثه
 ندى لو حواء البحر لذ مذاقة
 وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى
 اطاعته حتى العصم في قنن الربا
 قصداك يا مولى الملوك على النوى
 كففت بك الأيام عن غلواتها
 وعدنا بذاك المجد فاتصرف السرى
 ولما أتينا البحر يرهب موجه
 خلافتك العظمى ومن لم يدن بها
 ووصفك يهدي الملاح قصد صوابه
 دعتك قلوب المسلمين وأخلصت
 ومدت إلى الله الأكف ضراعة
 وألبسها التعمى ببيعتك السي
 فأصبح نثر الثمر ييسم ضاحكا
 وأمنت بالسلم البلاد وأهلها
 وقد كان مولانا أبوك مصرحاً
 وكنت حقيقاً بالخلافة بعده
 فأوحشت من دار الخلافة هالة
 ورد عليك الله حقك إذ قضى
 وقاد إليك الملك رفقاً بخلقه
 وزادك بالتتمحيص عزاً ورفعته

وأنت الذي تدعى إذا دهم الردى
 وأنت إذا جبار الزمان يحكمه
 وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه
 غريب يرجى منك ما أنت أهله
 فعد يا أمير المسلمين لبيعة
 ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
 وخذ يا إمام الحق للحق ثاره
 وأنت لها يا ناصر الحق فلقم
 فإن قيل مال مالك الدثر وافر
 يكف بك العادي ويجا بك الهدى
 أعده إلى أوطانه عنك ثانيا
 وعاجل قلوب الناس فيه بغيرها
 وهم يرقبون الفعل منك وصفة
 مرامك سهل لا يؤدك كفله
 وما العمر إلا زينة مستعارة
 ومن باع ما يفنى يباق غلده
 ومن دون ما يقيه يا مالك العلا
 وراد وشقر واضحات شباتها
 وشهب إذا ما ضمرت يوم غارة
 وأسد رجال من مرين أعززة
 عليهم من الماضي كل مغاضة
 هم القوم إن هبوا الكشف لمعة
 إذا سئلوا أعطوا، وإن نوزعوا سطوا
 وإن سمعوا العوراء وفروا بأنفس
 وإن مدحوا اهتروا ارتياحاً كأنهم
 وتسم ما بين الوشيح ثغورهم
 أمولاي غاضت فكرتي وتبلدت
 ولولا حنان منك داركتني به
 فأوجدت مني فاتحاً أي فائت
 بدأت بفضل لم أكن لعظمه
 وطوقني التعمى المضاعفة السي
 وأنت بتعميم الصنائع كافل
 جزاك الذي أسنى مقامك رحمة
 إذا نحن أثينا عليك بملحة
 ولكننا نسأني بما نستطيعه
 ومن بذل المجهود حتى له العذر

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نرله، وقد فرشت
 له القصور وقربت الجياد بالمرائب المذهبة، وبعث إليه بالكسى
 الفاخرة، ورتبت الجرايات له ولواليه من المولوجي وبطانتة من

وضرب بالعصا، وتل إلى محبسه، وقتل الليال من اعتقاله قعصاً بالرماح بساحة البلد، وصلب شلوه بسور البلد عند باب المحروق، وأصبح مثلاً في الآخرين.

الخبر عن وفد السودان وهديتهم وإغرابهم فيها بالزرافة

كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى هديته المذكورة في خبره، اعتمل في مكافاته وجمع لمهاداته من طرف أرضه وغرائب بلاده، وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك، ووصلت الهدية إلى أقصى تخومهم من والاتن هلك منسا سليمان قبل وصولها.

واختلف أهل مالي واقترب ملكهم، وتوالت ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً، وشغلوا بالفتنة حتى قام فيهم منسا جاطة واستوسق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه، وأخبر بشأن الهدية وأخبر أنها بالواتن فأمر بإفناذها إلى ملك المغرب، وضم إليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل، العظيم الهيكل، المختلف الشبه بالحيوانات.

وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبع مائة وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض.

ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء، فبرزوا ينسلون من كل حذب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على الزرافة إعجاباً بمختلفتها وأنشد الشعراء في عرض المدح والتهنئة، ووصف الحال.

وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالاتهم بتأكيد الود والمخالصة، والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتوالتهم على الأمر، وتعظيم سلطانهم وما صاروا إليه.

والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم.

وحيا السلطان يثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم.

ثم ركب السلطان وانفض ذلك المجلس وقد طار به الذكر. واستقر ذلك الوفد في إيالة السلطان ونحت جرابته، وهلك السلطان قبل انصرافهم، فوصلهم القاتم بالأمر من بعده، وانصرفوا إلى مراكش وأجازوا منها إلى ذوي حسان عرب السوس

الصنائع، وانغفظ عليه رسم سلطانه في الموكب والرجل، ولم يفقد من القاب ملكه إلا الآلة أدياً مع السلطان، واستقر في جلته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين وسبع مائة ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الحسن بن عمر وخروجه بتادلا وتغلب السلطان عليه ومهلكه

لما فصل الوزير الحسن بن عمر إلى مراكش واستقر بها، تأمل له بها سلطان ورياسة، نفسها عليه الوزراء بمجلس السلطان وسعوا في تنكر السلطان له، حتى أظلم الجو بينهما، وشعر الوزير بذلك فارتأى بمكانه، وخشي بادرة السلطان على نفسه، وخرج من مراكش في شهر صفر من سنة إحدى وستين وسبع مائة فلحق بتادلا متحرفاً عن الطاعة، مرتباً في أمره، وتلقاه بنو جابر من جيش، واعصوبوا عليه وأجاروه.

وجهاز السلطان عساكره إلى حربيه، وعقد عليها لوزير الحسن بن يوسف وسرحه إليه فاحتل بتادلا، ولحق الحسن بن عمر بالجبل، واعتصم به مع حسين بن علي الوردغي كبيرهم.

وأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنتهم، وداخل الوزير بعض أهل الجبل من صناكة في الثورة بهم، وسرب إليهم المال فثاروا بهم، وانفض جمعهم، وتقبض على الحسن بن عمر، وقادوه برمته إلى عسكر السلطان فاعتقله الوزير، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة.

وقدم به على السلطان في يوم مشهود، واستركب السلطان فيه العسكر وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد لاعتراض عساكره.

وحمل الحسن بن عمر على جمل طائف به بين أهل ذلك المحشر، وقرب إلى المجلس فأومأ إلى تقبيل الأرض فوق جلته، وركب السلطان إلى قصره، وانفض الجميع وقد شهدوا عبدة من عبر الدنيا.

ودخل السلطان قصره واقتعد أريكته واستدعى خاصته وجلساءه، وأحضره فونجه وقرر عليه مرتكبه، فتلوى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار.

وحضرت يومئذ هذا المجلس فيمن حضره من العلية والخاصة، فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبدة.

ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه، وتفتت لحيته

من المعتقل المتصلين ببلادهم.

ولحقوا من هنالك بسلطانهم، والأمر لله سبحانه.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان

واستيلائه عليها وإيثار أبي زيان حافد أبي

تاشفين بملكها وما كان مع ذلك من صرف

أمراء الموحدين إلى بلادهم

أميرهم الزبير بن طلحة متحيزاً إلى السلطان، وأجفلوا عن تلمسان
وخرجوا إلى الصحراء.

ودخل السلطان إلى تلمسان ثالث رجب، وخالفه أبو حمو
وأشباعه إلى المغرب، فنزّلوا كرسيف بلد ونزمار بن عريف،
وخرّبوه واكتسحوا ما وجدوا فيه حقاً على ونزمار وقومه بولاية
بني مرين.

وتخطّوا إلى وطاط، فعاثوا في نواحيه، وانقلبوا إلى أنكاد،
وبلغ السلطان خبرهم فتلافى أمر المغرب.

وعقد على تلمسان لحافد من حفدة السلطان أبي تاشفين،
كان ربي في حجرهم وتحت كفالة نعمتهم، وهو أبو زيان محمد بن
عثمان، وشهرته بالفتى، وأنزله بالقصر القديم من تلمسان وعسكر
عليه زناتة الشرق كلهم، واستوزر له ابن عمته عمر بن محمد بن
إبراهيم بن مكن ومن أبناء وزرائهم سعيد بن موسى بن علي،
وأعطاه عشرة أحمال من المال دنائير ودراهم، ودفع إليه الآلة.

وذكر حيثنّ لمولانا السلطان أبي العباس سوابقه وإيلافه في
المنزل الحشن، فنزل له عن محل إمارته قسنطينة.

وصرف أيضاً المولى أبا عبد الله صاحب بجاية لاسترجاع
بلده بجاية، فعقد لهما بذلك ومهلما، وخلع عليهما وأعطاهما
حليين من المال.

وكانت بجاية لذلك العهد قد تغلب عليها عنهم المولى أبو
إسحاق إبراهيم صاحب تونس، فكتب إلى عاملهم على قسنطينة
منصور بن الحاج خلوف أن ينزل عن بلده لمولانا السلطان أبي
العباس، ويمكنه منها، وودع هؤلاء الأمراء وانكفأ راجعاً إلى
حضرتة لسد ثغور المغرب، وحسم داء العدو، فدخل فاس في
شعبان من سنته.

ولم يلبث أن رجع أبو زيان على أثره بعد أن أجفل عن
تلمسان ولحق بوانشريس.

وتغلب عليه أبو حمو وفض جموعه، فلحق بالسلطان
واستقل أبو حمو بملك تلمسان، وبعث في السلم إلى السلطان فعقد
له من ذلك ما رضىه كما ذكرناه.

لما استقل السلطان بملك المغرب سنة ستين وسبعمئة كما
ذكرناه، وكان العامل على درعة عبد الله بن مسلم الزردالي من
أخلاف بني عبد الواد وشيعة آل زيان، اصطنعه السلطان أبو
الحسن عند تغلبه على تلمسان.

واستعمله ابنه أبو عنان بعد ذلك على بلاد درعة كما
ذكرناه.

وتولى المكر بأبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن حين
خروجه على أخيه السلطان أبي عنان بجبل ابن حميدي فارتاب عند
استقلال المولى أبي سالم بالأمر، وخشي بادرته لما نابه من حقد
عليه بسبب أخيه أبي الفضل، لما بينهما من لمة الاغتراب،
فداخل بطانة له من عرب المعتقل، واحتمل ذخائره وأمواله وأهله
وقطع القفر إلى تلمسان، ولحق بالسلطان أبي حمو آخر سنة ستين
وسبعمئة فنزل منه خير نزل، وعقد له حين وصوله على وزارته،
ويأباه وبمكانه، وفوض إليه في التدبير والحل والعقد، فشمر هو
عن ساعده في الخدمة، وجأجأ بعرب المعتقل من مواطنهم رغبة في
ولايته وإيثاراً لمكانه من الدولة، ورهبة من السلطان بالمغرب لما
كانوا ارتكبوه من موافقة بنى مرين مرة بعد أخرى، فاستقروا
بتلمسان وانحاشوا جميعاً إلى بني عبد الواد، وبعث السلطان إلى أبي
حمو في شأن عاملهم عبد الله بن مسلم، فلم يرجع له جواباً عنه،
وحظر عليه ولاية المعتقل أهل وطنه، فلج في شأنهم فأجمع
السلطان أمره على النهوض إليه.

واضطرب معسكره بساحة البلد وفتح ديوان العطاء ونادى
في الناس بالنفير إلى تلمسان، وأزاح العلل.

وبعث الحاشدين من وزرائه إلى مراكز فتوافت حشود
الجهات ببابه، وفصل من فاس في جمادى من سنة إحدى وستين
وسبعمئة وجمع أبو حمو من في إيالته وعلى التشيع لدولته من
زناتة والعرب من بني عامر والمعتقل كافة، ما عدا العمارنة، كان

والوزراء، وعكف على بابيه القواد والأمراء وصار زمام الدولة بيده.

وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته حذراً من المغبة، ويزجر من يتعرض له في الشكاية ويردهم إلى أصحاب المراتب والخطط بباب السلطان، وهم يعلمون أنه قد ضرب على أيديهم، فنقموا ذلك وسخطوا الدولة من أجله.

ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه. ونفس عليه الوزراء ما تعين له عند السلطان من الحظ، فتربصوا بالدولة وشمل هذا الداء الخاصة والعامة.

وكان عمر بن عبد الله بن علي لما هلك أبوه الوزير عبد الله بن علي في جمادى سنة ستين وسبعمئة عند استيلاء السلطان علي ملكه، تجملت شفاه الدولة إلى تراثه، وكان مثرياً فاستجار مهم بابن مرزوق، وسأهمه من تراث أبيه بعد أن حملوا السلطان على النيل منه، والإهانة به، فأجاره منهم.

ورفع عند السلطان رتبته وحمله على الإصهار إليه في أخته، وقلده السلطان أمانة البلد الجديد دار ملكه متى عنت له الرحلة عنها وأصهر عمر إلى وزير الدولة مسعود بن ماسي تسكيناً لغربه واستخلاصاً لمودته، وسفر عن السلطان إلى صاحب تلمسان في شعبان من سنة اثنتين وستين وسبعمئة ونمي عنه أنه داخل صاحب تلمسان في بعض المكر فهم بنكته وقتله، ودافع عنه ابن مرزوق وخلص من عقابه، وطوى من ذلك على النكت وتربص الدولة.

وأعيد إلى مكانه من الأمانة عل دار الملك أول ذي القعدة مرجعه من تلمسان لما كان السلطان قد تحول عنها إلى القصبة بفاس، واختط إيرائناً فخماً جلوسه بها، لضيق قصوره متعياً الأبردين.

فلما استولى عمر على دار الملك حدثته نفسه بالتوثب وسول له ذلك ما اطلع عليه من مرض القلوب والتكير على الدولة، بمكمان ابن مرزوق من السلطان فداخل قائد الجند النصارى غريبة بن انطون وتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء لسبع عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمئة وخلصوا إلى تاشفين الموسوس ابن السلطان أبي الحسن بمكانه من البلد الجديد، فخلعوا عليه والبسوه شارة الملك، وقربوا له مركبة وأخرجوه إلى أريكة السلطان فأقعده عليها.

وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له، وجهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى مودع المال،

الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم واستيلاء حمو بن عبد الله على ملك المغرب ونصبه للملوك واحداً بعد آخر إلى أن هلك

كان السلطان قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وكان من خبره أن سلفه من أهل رباط الشيخ أبي مدين كان جده قائماً على خدمة قبره ومسجده واتصل القيام على هذا الرباط في عقبه، وكان جده الثالث محمد معروفاً بالولاية، ولما مات دفنه بغمراسن بالقصر القديم ليجاوره بجدته تركاً به، وكان ابنه أحمد أبو محمد هذا قد ارتحل إلى المشرق، وجاور الحرمين إلى أن هلك ورثه محمد ابنه بالمشرق ما بين الحجاز ومصر.

وقفل إلى المغرب بعد أن شدا شيئاً في الطلب وتفقه على أولاد الإمام، ولما ابتنى السلطان أبو الحسن مسجد العباد ولاه الخطابة به، وسمعه يخطب على المنبر وقد أحسن في ذكره والدعاء له، فحلي بعينه واستخلصه لنفسه وأحله على القرب من مجلسه، وجعله خطيباً حيث يصلى من مساجد المغرب، وسفر عنه إلى الملوك، ولما كانت نكبة القيروان خلص إلى المغرب واستقر برباط العباد على سلفه، بعد أحوال أضربنا عن ذكرها اختصاراً.

ولما خلص السلطان إلى الجزائر داخله أبو سعيد صاحب تلمسان في السفارة عنه إلى السلطان أبي الحسن وإصلاح بينهما فسار لذلك ونقمة أبو ثابت وبنو عبد الواد ونكروه على سلطانهم، وسرحوا صغير بن عامر في اتباعه، فتقبض عليه وأودعه المطبق.

ثم أشخصوه بعد حين إلى الأندلس فاتصل بأبي الحجاج صاحب غرناطة، وولاه خطابته لما اشتهر به من إجادة الخطبة للملوك بزعمهم.

وآلف السلطان أبا سالم في مشوى غربته من غرناطة، وشاركه عند أبي الحجاج في مهماته.

ولما نزل بجبال غمارة داخل بني مريين والوزراء في القيام بدعوته، وكان له في ذلك مقام محمود.

فرعى السلطان وسائله ومولاته القديمة والحادثة إلى مقامه عند أبيه، فلما استرتق له ملك المغرب اختصه بولايته وألقى عليه محبة وعنايته، وكان مؤامره ونحبي خلوته والغالب على هواه، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطئ عتبة الأشراف

بن ونصار فلما رجع عن السلطان ليلة انتقاضهم نزل عليه وكان يعاقره الخمر فبثه شجوه وتفاوضا في اغتيال عمرو وإقامة معتقله سليمان بن داود في الوزارة لما هو عليه من السن ورسوخ القدم في الأمر، ونمي إلى عمر الخبر.

فارتاب وكان خلواً من العصابة ففزع إلى قائد الموكب السلطاني من الرجل الأندلسيين يومئذ إبراهيم البطروحي، فبأته أمره وبايعه على الاستماتة دونه.

ثم استقل عصابتهم ففزع إلى يحيى بن رحو شيخ بني مريس وصاحب شوراهم فشكا إليه، فاشكاه ووعده الفتك بابن أنطون وأصحابه.

وانبرم عقد ابن أنطون وسليمان بن ونصار على شأنهم وغدوا إلى القصر.

وأدخل ابن أنطون طائفة من النصارى للاستظهار بهم ولما توافت بنو مريس بمجلس السلطان على عاداتهم وطعموا دعا عمر بن عبد الله القائد ابن أنطون بين يدي يحيى بن رحو وقد أحضر البطروحي رجل الأندلسيين فسأله تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى ورض به عن الإهانة حتى ينال مثلها من ابن ماسي صاحبه فأمر عمر بن عبد الله بالتقبض عليه، فكشر في وجوه الرجال واختلط سكينه للمدافعة فتواثبت بنو مريس وقتلوه لحينه، واستلحموا من وجدوا بالدار من جند النصارى بعد جولة، وفروا إلى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار البلد الجديد.

وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطون غدر بالوزير فقتل جند النصارى حيث وجدوا من سكك المدينة، وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من به من الجند، وركب بنو مريس لحماية جندهم من معرة الغوغاء.

وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وأمتعتهم وقتل النصارى كثيرا من المجان كانوا يعاقرون الخمر بالملاح.

واستبد عمر بالدار واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل، وبعث من قتله بمجسه.

وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور بدار الملك واعتقله بها، واستولى على أمره ورجع في الشورى إلى يحيى بن رحو، واعصوب بنو مريس عليه، واعتز على الوزراء والدولة، وكان عدواً الخاصة السلطان أبي سالم حريصاً على قتلهم، وكان عمر يريد استبقاهم لما أمله في ابن ماسي، فاختلفت أهواؤهما وتبين ليحيى بن رحو والمشيخة صاغيته إلى ابن ماسي فخشنت صدورهم عليه ودبروا في شأنه.

فأفاضوا العطاء من غير تقدير ولا حسيان، وماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض، واختطفوا ما وصلوا إليهم من العطاء، وانتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلع والعدة وأضرمو النار في بيوتها سترأ عل ما ضاع منها، وأصبح السلطان بمكانه من القصة، فركب واجتمع إليه من حضر من الأولياء والقبائل، وغدا على البلد الجديد وطاف بها يروم فيها منفذاً، فاستصعبت واضطرب معسكره بكذبة العرائس لحصارها، ونادى في الناس بالاجتماع إليه.

ونزل عند قائلة المهاجرة بفسطاطه فتسائل الناس عنه إلى البلد الجديد فوجأ بعد فوج بمراى منه إلى أن سار إليها أهل مجلسه وخاصته، فطلب النجاة بنفسه وركب في لمة من الفرسان مع وزرائه: مسعود بن رحو بن سليمان بن داود ومقدم الموالي والجند ببابه سليمان بن ونصار، وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره، ومضى على وجهه.

ولما غشيهم الليل انفضوا عنه، ورجع الوزيران إلى دار الملك فتقبض عليهما عمر بن عبد الله ومساهمه غربية بن أنطون واعتقلاهما متفرقين، وأشخص علي بن مهدي بن يريجين في طلب السلطان، فعثر عليه نائماً في بعض الجاشر بوادي ورغة، وقد نزع عنه لباسه اختفاء بشخصه، وتوارى على العيون بمكانه، فتقبض عليه وحمله على بغل، وطير الخبر إلى عمر بن عبد الله فازعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن داود، وفتح الله بن عامر بن فتح الله، وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه، فلقياه بخندق القصب وراء كدية العرائس، وأمروا بعض جنود النصارى أن يتولى ذبحه وحمل رأسه في غللة، فوضعه بين يدي الوزير والمشيخة.

واستقل عمر بالأمر ونصب الموسوس تاشفين يمويه به على الناس، وجرت الأمور إلى غاياتها ولكل أجل كتاب.

الخبر عن الفتكة بابن أنطون قائد العسكر

من النصارى ثم خروج يحيى بن رحو وبني

مريس عن الطاعة

لما تقبض عمر بن عبد الله على الوزير، جعل معتقل سلمان بن داود بدار غربية قائد النصارى ومعتقل ابن ماسي بداره صيانة عن الامتحان لمكان صهره.

ولما كان يؤمل منه من الاستظهار على أمره بعصابته من الأبناء والأخوة والقرابة وكان غربية بن أنطون صديقاً لسليمان

من المغاضبة لذلك ما قدمناه.

ولما اعتقل السلطان أبو سالم الأبناء المرشحين برندة، كما قدمناه، نزع منهم عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن إلى غرناطة فلحق بأعمامه.

وكان السلطان أبو سالم بمكانهم مسترياً بشأنهم حتى لقد قتل محمد بن أبي يفلوسن ابن اخته تاحضريت وهو في حجرها وحجره، استرابة بما غي عنه.

ولما أجاز أبو عبد الله المخلوع ابن أبي الحجاج، إلى المغرب ونزل عليه وصار إلى إيالته، ورأى أن قد ملك أمره في هؤلاء المرشحين بغرناطة، وراسل الرئيس محمد بن إسماعيل عند توثيه على الأمر واستلحاهم أبناء السلطان أبي الحجاج، فراسله في اعتقالهم على أن يسك المخلوع عن التهامه ويقبض عنانه عن الهوى عليه فاعتقلهم ثم فسد ما بين الرئيس والطاغية، وزحف إليهم والتهم كثيراً من حصون المسلمين.

ويعث إلى السلطان أبي سالم في أن يخلي سبيل المخلوع إليه، فامتنع وفاء للرئيس.

ثم دافع الطاغية عن ثغوره بإسعاف طلبه، فجهز المخلوع وملاً حقائبه صلات وأعطاه الآلة، وأوعز إلى أسطوله بسبته فجهز ويعث علال بن محمد ثقة إليه فأركبه الأسطول وركب معه إلى الطاغية.

وخلص الخبر إلى الرئيس بمكانه من سلطان غرناطة، وكان أبو حمو صاحب تلمسان يرأسه في أولاد أبي علي، وأن يجهزهم إليه ليجهزهم زبوناً على السلطان أبي سالم، فبادر لحينه وأطلقهم من مكان اعتقالهم، وأركب عبد الحليم وعبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيهما على أبي يفلوسن في الأسطول، وأجازهم إلى هنين بين يدي مهلك السلطان أبي سالم، فتزلوا من صاحب تلمسان بأعز جوار، ونصب عبد الحليم منهم لملك المغرب.

وكان محمد السبيع بن موسى بن إبراهيم نزع عن عمر ولحق بتلمسان، فتوافى معهم وأخبرهم بمهلك السلطان وبإيع له وأغراه بالرحلة إلى المغرب ثم تسابعت رسل بني مريين بمثلها، فسرعه أبو حمو وأعطاه الآلة، واستوزر له محمد السبيع وارتحل معه يغدان السير.

ولقيه بطريقه محمد بن زكدان من أولاد علي من شيوخ بني ونكاسن أهل دبدو ثغر المغرب منذ دخول بني مريين إليه، فبايعه وحمل قومه على طاعته، وأغذ السير وكان يحى بن رحو والمشيخة لما نبذ عمر بن عبد الله إليهم العهد، وعسكروا بباب الفتوح،

وخاطب هو عامر بن محمد في اتصال اليد واقتسام ملك المغرب، وبعث إليه بابي الفضل ابن السلطان أبي سالم، اعتده عنده وليجة لخلاصه من ربة الحصار الذي هم به مشيخة بني مريين.

وكان أبو الفضل هذا بالقصبة تحت الرقة والإرصاد، فتفقد من مكانه، وأغلظ المشيخة في العتب لعمر على ذلك، فلم يستعيب، ونبذ إليهم العهد وامتنع بالبلد الجديد، ومنعهم من الدخول إليه فاعصوبوا على كبريزهم يحيى بن رحو وعسكروا بباب الفتوح، وجازوا بعبد الحليم ابن السلطان أبي علي وكان من خبرهم معه ما نذكره.

وأطلق عمر بن عبد الله مسعود بن ماساي من محبسه وسرجه إلى مراكش، وواعدوه في الاجلاب عليهم أن حاصروه كما نذكره.

الخبر عن وصول عبد الحليم ابن السلطان

أبي علي من تلمسان وحصار البلد الجديد

كان السلطان أبو الحسن لما قتل أخاه الأمير أبا علي وقضى الحق الذي له في ذمته عمل بالحق الذي عليه في ولده وحرمة، فكفلهم وأغذاهم نعمته، وسأواهم بولده في كافة شؤونهم، وأنكح ابنته تاحضريت العزيزة عليه علياً منهم المكنى بابي يفلوسن ونزع عنه وهو بالقيروان أيام النكة ولحق بالعرب.

وأجلب معهم على السلطان بالقيروان وتونس، ثم انصرف من إفريقية ولحق بتلمسان ونزل على سلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن فبؤاه كرامته.

ثم شرع في الإجازة إلى الأندلس، وبعث فيه السلطان أبو عنان قبل فصوله، فأشخصه إليه فاعتقله ثم أحضره ووجّحه على مرتكبه مع السلطان أبي الحسن وجحدته حقه.

ثم قتله لليلتين من شهور إحدى وخمسين وسبعماية، ولما هلك السلطان أبر الحسن ولحقت جملة من الخاصة والأبناء بالسلطان أبي عنان، وأشخص إخوته إلى الأندلس، وأشخص معهم ولد الأمير أبي علي هؤلاء: عبد الحليم وعبد المؤمن والمنصور والناصر وسعيد ابن أخيهما أبي زيان، فاستقروا بالأندلس في جوار ابن الأحمر.

ثم طلب أبو عنان إشخاصهم بعد، كما طلب إشخاص أخيه، فاجارهم ابن الأحمر جميعاً وامتنع من إسلامهم إليه، وكان

أوفدوا مشيخة منهم على تلمسان لاستقدام السلطان عبد الحليم، فوافوه بتأزي ورجعوا معه، وتلقته جماعة بني مرين بسبو، ونزلوا

على البلد الجديد يوم السبت سابع محرم من سنة ثلاث وستين وسبعمئة وأضربوا معسكرهم بكدية العرائس، وغادوا البلد القتال وراوحوها سبعة أيام، وبيعت الأمصار توافيهم والحشود تساليل إليهم ثم إن عمر بن عبد الله برز من السبت القابل في مقدمة السلطان أبي عمر بمن معه من الجند المسلمين والنصارى، راحة وناشبة، وكل السلطان من جاذبه في الساقة على التعية المحكمة.

وناشبهم الحرب فدخلوا إليه فاستطردهم ليتمكن الناشبة من عقرهم من الأسوار حتى فشيت فيهم الجراحات.

ثم صمم نحوهم وانفرج القلب وانقضت الجموع وزحف السلطان في الساقة فاندعروا في الجهات.

وافترق بنو مرين إلى مواطنهم ولحق يحيى بن رحو بمراكش مع مبارك بن إبراهيم شيخ الخلط، ولحق عبد الحليم وإخوته بتأزي بعد أن شهد لهم أهل المقام بصدق الجلال وحسن البلاء في ذلك المجال وصابر عمر بن عبد الله أمره ينتظر قدوم محمد بن أبي عبد الرحمن كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحليم وإخوته إلى سجلماسة بعد الواقعة عليهم بمكناسة

لما سمع عبد الحليم بقدوم محمد بن أبي عبد الرحمن من سبتة إلى فاس وهو بمكانه من تأزي، سرح أخاه عبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيه إلى اعتراضه، فانتهروا إلى مكناسة وخاموا عن لقائه، فلما دخل إلى البلد الجديد أجلبوا بالغارة على النواحي وكثر العيث.

وأجمع الوزير عمر على الخروج إليهم بالعساكر، فبرز في التعية والآلة، وبات بوادى النجاء.

ثم أصبح على تعية وأغد السير إلى مكناسة، فزحف إليه عبد المؤمن وابن أخيه عبد الرحمن في جموعهم فجاولهم القتال ساعة، ثم صمد إليهم فدفعهم عن مكناسة.

وانكشفوا فلحقوا بأخيهم السلطان عبد الحليم بتأزي، ونزل الوزير عمر بساحة مكناسة، وأوفد بالفتح على السلطان، وكنت وافده إليه يومئذ، فعمت البشرى واتصل السرور، وتهناً السلطان ملكه وتودع من يومئذ سلطانه.

الخبر عن قدوم محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن وبيعته بالبلد الجديد في كفالة عمر بن عبد الله

لما نبذ عمر إلى بني مرين عهدهم واعصوبوا عليه، ونكروا ما جاء به من البيعة لأبي عمر مع فقدانه العقل الذي هو شرط الخلافة شرعاً وعادة، وتقموه عليه، اتهم نفسه في نظره، وفزع إلى التماس المرشحين، فوقع نظره على حافد السلطان أبي الحسن محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن النازع لأول دولة السلطان أبي سالم من رندة إلى الطاغية.

وكان قد نزل منه بخير مشوى، فبعث إليه مولاه عتيقاً الخصي، ثم تلاه بعثمان بن الياسمين، ثم تلاهما بالرئيس الأبكم من بني الأحمر في كل ذلك يستحث قدومه، وخاطب المخلوع ابن الأحمر وهو في جوار الطاغية كما قدمناه وقريب عهد بجوارهم، فخاطبه في استحثائه واستخلاصه من يد الطاغية.

وكان المخلوع يرتاد لنفسه نزولاً من ثغور المسلمين لما كان فسد بينه وبين الطاغية ورام الزواج عن إيالته فاشتراط على الوزير عمر النزول له عن رندة فتقبل شرطه، وبعث إليه الكتاب بالنزول

وكان عامر بن محمد مجتمعاً القدام على السلطان فقدم في صحابته ونزل من الدولة بغير منزل، وعقد السلطان لمسعود بن رحو على وزارته بإشارة الوزير عمر واضطلع بها، ودفعه عمر إليها استئماناً إليه وثقة بمكانه واستظهاراً بعصابته.

وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب من تخم وادي أم ربيع وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إسعافاً بغرض عامر بن محمد في ذلك وأصهر عامر إليهم في بنت مولانا السلطان أبي يحيى المتوفى عنها السلطان أبو الحسن، فحملوا أوليائها على العقد له عليها وانكفاً راجعاً إلى مكان عمله بمراكش يمر الدنيا وراءه عزا وثروة وتاباً لجمادي من سنة ثلاث وستين وسبع مائة وصرف عمر عزيته إلى تشريد عبد الحليم وأخيه من سجلماسة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله إلى سجلماسة

لما احتل عبد الحليم وإخوته بسجلماسة، اجتمع إليهم عرب المعقل بكافة حللهم.

واقترضوا خراج البلاد فوزعوه فيهم، واقترضوا على الطاعة رهنهم.

واقطعهم جهات المختص بأسرها واعصروصبا عليه.

واستحثه يحيى بن رحو ومن هنالك من مشيخة بني مرين إلى النهوض للمغرب، فأجمع أمره على ذلك.

وتدبر الوزير عمر أمره وخشي أن يضطرم جمره، فأجمع الحركة إليه، ونادى في الناس بالعتاء والصلة فاجتمعوا إليه وبث العطاء فيهم.

واعترض العساكر وأزاح العلل وارتحل من ظاهر فاس في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبع مائة وارتحل معه ظهيره مسعود بن ماساي وبرز السلطان عبد الحليم إلى لقائهم.

ولما تراءت الفئتان بتاعز مطت عند فرج الجبل المفضي من تلون المغرب إلى الصحراء، هموا باللقاء.

ثم توافقوا أياماً وتمتد بينهم رجالات العرب في الصلح والتجاني لعبد الحليم عن سجلماسة تراث أبيه، فانهقد مسعود ما بينهما وافترقا، ورجع كل واحد منهما إلى عمله ومكانه من سلطانه.

ولما وصل عبد المؤمن إلى أخيه عبد الحليم بتأزي مفلولاً انقض معسكره ونزعوا عنه إلى فاس، وذهب لوجهه هو وإخوته مع وزيرهم السبيع ومن كان معهم من العرب المعقل، فالحقوا بسجلماسة.

وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم واستقروا بها، وجددوا رسم الملك والسلطان إلى أن كان من خروجهم عنها ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماساي من مراكش وما كان من وزارة ابن ماساي واستبداد عامر بن محمد بمراكش

كان السلطان أبو سالم لما استقل بملك المغرب، استعمل على جباية المصامدة وولاية مراكش محمد بن أبي العلاء بن أبي طلحة من أبناء العمال، وكان مضطرباً بها، ونافس الكثير من ذوي عامر فأحفظه ذلك وربما تكررت سعابته في عامر عند السلطان ولم يقبل.

ولما بلغ عامر خبر مهلك السلطان أبي سالم وقيام عمر بالأمر، وكانت بينهما خلة بيت محمد بن أبي العلاء فتقبض عليه وامتنحه وقتله، واستقل بامر مراكش وبعث إليه الوزير عمر بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم يعتده لما توقع من حصار بني مرين إياه أن يجلب به عامر عليهم ويستغذيه كما ذكرناه.

ثم سرح مسعود بن ماساي كما ذكرناه، ولما أحاط بنو مرين بالبلد الجديد جمع عامر من إليه من الجند والحشود وزحف بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إلى أنفى، ونزل بوادي أم ربيع، ولما انقض جمعهم من على البلد الجديد، لحق به يحيى بن رحو، وكان له صديقاً ملاطفاً، فتكر له توفية لعمر بن عبد الله وصاحبه مسعود، وبعثه إلى الجبل ولم يشهده الجمع، فذهب مغاضباً، ولحق بسجلماسة بالسلطان عبد الحليم وهلك في بعض حروبه مع العرب.

ولما انقض عبد المؤمن وأجفل عبد الحليم من تأزي ولحقوا بسجلماسة، واستوسق الأمر لعمر بن عبد الله وفرغ من شأن المنازعين ومضايقتهم له، رجع إلى ما كان يؤمله من الاستظهار على أمره بمسعود بن رحو وإخوته وأقاربه لكان الصهر الذي بينهما، فاستقدمه للوزارة مرضاة لبني مرين لما كاتوا عليه من استمالتهم لجميع المذاهب والإغضاء عما نالوه به من النكاية.

الإسكندرية سنة ست وستين وسبعمائة واستقل عبد المؤمن بأمر سجلماصة حتى كان من نهوض العساكر إليه ما تذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض ابن ماساي بالعساكر إلى سجلماصة واستيلائه عليها ولحاق عبد

المؤمن بمراكش

لما افترقت كلمة أولاد السلطان أبي علي وخلع عبد المؤمن أخاه تطاول الوزير عمر إلى التغلب عليهم.

ونزع إليه الأحلاف عدو أولاد حسين وشيعة عبد الحليم المخلوع، فجهز العساكر وبث العطاء وأزاح العلل، وسرح ظهيره مسعود بن ماساي إلى سجلماصة، فنهض إليها في ربيع من سنة أربع وسبعمائة.

وتلقاه الأحلاف مجلهم وناجعتهم، وأغذ السير ونزع الكثير من أولاد حسين إلى الوزير مسعود.

وبعث عامر بن محمد عن عبد المؤمن فرحل عن سجلماصة، فتركها ولحق بعامر فتقبض عليه واعتقله بداره من جبل هتانة.

ودخل الوزير مسعود إلى سجلماصة واستولى عليها. واقتلع منها جرثومة الشقاق باختلاع دعوة أولاد أبي علي منها.

وكرر رجاءاً إلى المغرب لشهرين من حركته، فاحتل بفاس إلى أن كان من خبره وانتفاضه على عمر وفساد ما بينهما ما تذكره.

الخبر عن انتفاض عامر ثم انتفاض الوزير

ابن ماساي على أثره

لما استقل عامر بالناحية الغربية من جبال المصامدة ومراكش وما إلى ذلك من الأعمال واستبد بها، ونصب لأمره أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم واستوزر له واستكتب، وصارت كأنها دولة مستقلة، فصرف إليه النازعون من بني مريـن على الدولة وجوه مفرهم ولجاوا إليه، فأجارهم عن الدولة واجتمع إليه منهم ملا. وأشاروا عليه باستقدام عبد المؤمن وأنه أبلغ ترشيحاً من

ودخل عمر والوزير مسعود إلى البلد الجديد في رمضان من سنته، وتلقاهما سلطانهما بأنواع المبرة والكرامة.

ونزع الوزير محمد السبيع عن السلطان عبد الحليم إلى الوزير عمر وسلطانه فتقبل وحل محل الكرامة والردافة للوزارة واستقر كل بمكانه، وتودعوا أمرهم إلى أن كان من خلع عبد المؤمن لأخيه عبد الحليم، ما تذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج

عبد الحليم إلى المشرق

لما رجع عبد الحليم بعد عقد السلم مع الوزير عمر إلى سجلماصة واستقر بها. وكان عرب المعقل من ذوي منصور فريقين: الأحلاف وأولاد حسين.

وكانت سجلماصة وطناً للأحلاف وفي مجالاتهم مذ أول أمرهم ودخلهم المغرب.

وكان من أولاد حسين في مملأة الوزير عمر ما قدمناه، فكانت صاغية السلطان عبد الحليم إلى الأحلاف بسبب ذلك أكثر، فأسف ذلك أولاد حسين على الأحلاف. وتجددت بينهما لذلك فتنة وتزاحفاً.

وأخرج السلطان عبد الحليم أخاه عبد المؤمن لرقع ما بينهما من الخرق ولأتمته، فلما قدم على أولاد حسين دعوه إلى البيعة والقيام بأمره فأبى وأكرهه عليها وباعوه.

وزحفوا إلى سجلماصة في صفر من سنة أربع وستين وستمائة وبرز عبد الحليم إليهم في أولياته من الأحلاف وتواقفوا ملياً وعقلوا رواحلهم ثم انكشف الأحلاف وانهزموا.

وهلك يحيى بن رحو كبير المشيخة من بني مريـن يومئذ في حربهم.

وتغلبوا على سجلماصة، ودخل إليها عبد المؤمن وتخلى له أخوه عبد الحليم عن الأمر وخرج إلى المشرق لقضاء فرضه، فودعه وزوده بما أراد وأرسل إلى الحج وقطع المفازة إلى بلد مالي من السودان.

وصحب منها ركاب الحاج إلى مصر، ونزل على أميرها المتغلب على سلطانها يومئذ، وهو يلبغا الخاصكي وأنهى خبره إليه وعرف بمقامه، فاستبلغ في تكريمه بما يناسب بيته وسلطانه.

وقضى حجه وانصرف إلى المغرب، فهلك بقرب

أبي الفضل بنسبه وقيامه على أمره وصاغية بني مرين إليه، فاستدعاه وأظهر لعمر أنه يوم بذلك مصلحته والمكر لعبد المؤمن. ونمي ذلك كله إلى عمر فارتاب به ونزع إليه آخر من نزع السبيع بن موسى بن إبراهيم الوزير.

كان لعبد الحليم فكشف عمر القناع في مطالبته وتجهيز العساكر إليه.

واستراب بأهل ولايته، وعثر على كتاب من الوزير مسعود بن ماساي إليه يخالسه ويبدل له النصيحة، فتقبض على حامله وأودعه السجن، فتكر مسعود وأغراه صاحبه الملاسون له من بني مرين بالخروج ومنازعة عمر في الأمر، ووعده النصر منه، فاضطرب معسكره بالزيتون من خارج فاس مورياً بالنزعة إيان الربيع، وزخرف الأرض في شهر رجب من سنة خمس وسبعمئة.

وبنى أصحابه الفساطيط في معسكره حتى إذا استوفوا جمعهم واعتزم على الخروج، ارتحل مجاهراً بالخالاف، وعسكر بوادي النجا من كان يعده الخروج معه من بني مرين.

ثم ارتحل إلى مكناسة، وكتب إلى عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلسن، يستقدمه للبيعة، وكان يجهاات تادلا قد خرج بها بعد انصرافهم من سجلماسة، وتحلفه عن أخيه عبد المؤمن.

وبعث عامر إليه بعثاً فهزموه ثم لحق ببني ونكاسن، فبعث إليه ابن ماساي وأصحابه، فقدم عليهم وبايعوه.

وأخرج عمر سلطانه محمد بن أبي عبد الرحمن وعسكر بكدية العرائس، وبث العطاء وأزاح العلل.

ثم ارتحل إلى وادي النجا، فبينه مسعود وقومه فثبت هو ومعسكره في مراكزهم حتى انجاب الظلام وفروا أمامهم، فاتبعوا آثارهم وانقض جمعهم وبدا لهم ما لم يحتسبوه من أصفاق الناس على السلطان ووزيره عمر واعتصامهم بطاعته، فاندعروا.

ولحق مسعود بن ماساي بن رحو بتادلا، ولحق الأمير عبد الرحمن ببلاد بنى ونكاسن، ورجع عمر والسلطان إلى مكانهم من الحاضرة.

واستمال مشيخة بني مرين فرجعوا إليه وعفا لهم عنها واستصلحهم.

وتمسك أبو بكر بن حمادة بدعوة عبد الرحمن بن أبي يفلسن وأقامها في نواحيه، وبايعه عليها موسى بن سيد الناس من بني علي أهل جبل دبدو من بني ونكاسن بما كان صهراً له.

وخالفه قومه إلى الوزير عمر وأغراه بالنهوض إلى أبي بكر

بن حمادة، فنهض وغلبه على بلاده. واقتحم حصنه إيكولوان وفر هو وصهره موسى وفارقوا سلطانهم عبد الرحمن ونبذوا إليه عهده.

ورجعوا إلى طاعة صاحب فاس، فلحق هو بتلمسان ونزل على السلطان أبي هو فاستبلغ في تكرعه ولحق وزيره مسعود بن ماساي بدبدة ونزل على أميره محمد بن زكدان صاحب ذلك الثغر.

ثم بدا له في أمره وداخل صاحب الثغر وبعث عن الأمير عبد الرحمن من تلمسان ليطارده لفرصة ظنها في المغرب يتهزها وأبى عليه أبو هو من ذلك، فركب مطية الفرار ولحق بابن ماساي وأصحابه، فنصوه للأمر وأجلبوا على تازي.

ونهض الوزير إليهم في العساكر واحتل بتازي وتعرضوا للقاته، ففض جموعهم ورددهم على أعقابهم إلى جبل دبدو وسعى بينهم وتزمار بن عريف ولي الدولة في قبض عنانهم عن المنازعة والتجاني عن طلب الأمر، وأن يتحيزوا إلى الأندلس للجهاد فأجاز عبد الرحمن بن أبي يفلسن ووزيره ابن ماساي من غساسة فاتح سبع وستين وسبعمئة وخلا الجو من أجلاهم وعنادهم ورجع الوزير إلى فاس واحتشد إلى مراكش كما تذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه إلى

مراكش

لما فرغ عمر من شأن مسعود وعبد الرحمن بن أبي يفلسن صرف نظره إلى ناحية مراكش وانتزاع عامر بن محمد بها.

وأجمع أمره على الحركة إليه فافاض العطاء ونادى بالسفر إلى حرب عامر وأزاح العلل، وارتحل إليه لرجب من سنة سبع وسبعمئة وصعد عامر وسلطانه أبو الفضل إلى الجبل.

فاعتصم به وأطلق عبد المؤمن من معتقله، ونصب له الآلة وأجلسه على سرير حذاء سرير أبي الفضل يوههم أنه بايع له، وأنه قد حكم أمره، يجأى بذلك لبني مرين لما علم من صاغيهم إليه.

وخشي عمر مغبة ذلك، فالان له في القول ولاطفه في الخطاب، وسعى بينهما في الصلح حسون بن علي العبيحي فعقد له عمر من ذلك ما ابتغاه، وانتقل إلى فاس.

ورجع عامر عبد المؤمن إلى معتقله وأجرى الأحوال على ما كانت من قبل إلى أن بلغهم قتل الوزير عمر لسلطانه، كما

نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبد الله

واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره

كان عمر قد عظم استبداده على السلطان عبد العزيز فحجّره ومنعه من التصرف في شيء من أمره، ومنع الناس من التعرض له في شيء من أمورهم.

وكانت أمه حذرة عليه إشفاقاً وحجاً.

وكان عمر لما ملك أمره واستبد عليه، سما إلى الإصهار إليهم في بنت السلطان أبي عنان، واشترط لها - زعموا - تولية أخيه الأمير ونمي ذلك إلى السلطان، وأن عمر مغتاله لا محالة.

وقارن ذلك أن عمر أوعز إلى السلطان بالتحول عن قصره إلى القصة، فركب أسنة الغدر لاضطراره واعتزم على الفتك به، وأكمن بزوايا داره جماعة من الرجال وأعدهم بالتوثب به.

ثم استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه على سسته، فدخل معه وأغلق الموالى من الحصيان باب القصر من ورائه، ثم أغلظ له السلطان بالقول وعته.

ودلف الرجال إليه من زوايا الدار فتناولوه بالسيوف هرباً.

وصرخ ببطانته بحيث أسمعهم فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه فألفوه مضرجاً بدمائه، فولوا الأدبار وانفضوا من القصر واندفعوا وخرج السلطان إلى مجلسه فاقعدت أريكته واستدعى خاصته.

وعقد لعمر بن مسعود بن منديل بن حماسة من بني مريـن وشعيب بن ميمون بن ودرار من الجشم ويحيى بن ميمون المصمود من الموالي، وكملت بيعته منتصف ذي القعدة سنة ثمان وستين وسبعمئة وتقبض على علي بن الوزير عمر وأخيه وعمه وحاشيتهم، وذويهم واعتقلهم حتى أتى القتل عليهم لليال.

واستأصل النكال شائتهم وسكن وأمن ورد النافرين بأمانه ويسط لهم في وجه بشره ثم تقبض لأيام على سليمان بن داود ومحمد السبيح، وكانا في مخالصة عمر بمكان فاعتقلهما استرابة بهما ولشيء نعى له عنهما.

وأودعهما السجن إلى أن هلكا واعتقل معهما علال بن محمد والشريف أبا القاسم ربة بصحابتها.

ثم امتن عليهما بشفاعة ابن الخطيب وزير ابن الأحمر وأقصاه.

ثم أطلق عنانه في الاستبداد وقبض أيدي الخاصة والبطانة

الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد

الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن السلطان أبي

الحسن

كان شأن هذا الوزير عمر في الاستبداد على سلطانه هذا عجباً حتى بلغ مبلغ الحجر للسناه من الصبيان.

وكان جعل عليه العيون والرقباء حتى من حرمه وأهل قصره.

وكان السلطان كثيراً ما يتنفس الصعداء من ذلك مع ندائه ومن يختصه بذلك من حرمه إلى أن حدث نفسه باغتيال الوزير، وأمر بذلك طائفة من العبيد كانوا يختصون به، فمسي القول، وأرسل به إلى الوزير بعض الحرم كانوا عيناً له عليه، فخشي على نفسه، وكان من الاستبداد والدولة أن الحجاب مرفوع له عن خلوات السلطان وحرمه، ومكاشفة رتبته، فخلص إليه في حشمة وهو معاقر لندمائه، فطردهم عنه وتناولوه غطاءً حتى فاض والقوه في بئر بروض الغزلان.

واستدعى الخاصة فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته وهو نمل في تلك البئر، وذلك في الحرم فاتح ثمان وستين وسبعمئة لست سنين من خلافته.

واستدعى من حينئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وكان في بعض الدور من القصة بفاس تحت الرقباء والحراسة من الوزير لما كان السلطان محمد يروم الفتك به غيرة منه على الملك، لمكان ترشيحه، فحضر بالقصر وجلس على سرير الملك.

وفتحت الأبواب لبني مريـن والخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته.

وكمل أمره وبادر الوزير من حينه إلى تجهيز العساكر إلى مراکش ونادى بالعتاء وفتح الديوان وكمل الاعتراض وارتحل بسلطانه من فاس في شهر شعبان، وأغذ السير إلى مراکش ونازل عامر بن محمد بمقله من جبل هتانة ومعه الأمير أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي، أطلقه من الاعتقال أيضاً وأجلسه موازي ابن عمه، واتخذ له الآلة يمويه به في شأنه الأول، ثم سعى بينه وبين عمر في الصلح، فاتفق بينهما وانكفا راجعاً بسلطانه إلى فاس في شهر شوال، فكان حظه إثر ذلك، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

مسطقه.

ثم لحق بعامر بن محمد ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة من ورائهم.

وداخلهم أشياخ السلطان من بني جابر وبذلوا لهم المال الدثر في إسلامه، فأسلموه وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون، فجاء به أسيراً وأحضره السلطان فوجّهه وقرعه واعتقله بفسطاط في جواره، ثم غط من الليل.

وكان مهلكه في رمضان من سنة تسع وستين وسبعمائة ستين من إمارته على مراكش، وبعث السلطان إلى عامر يختبر طاعته بذلك فأبى عليه وجاهر بالخلاف إلى أن كان من شأنه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن المصمود ومقتله

كان يحيى بن ميمون هذا من رجالات دولتهم وربي في دولة السلطان أبي الحسن، وكان عمه غلال عدواً له لعداوة أبيه.

ولما انتزى السلطان أبو عنان على ملك أبيه، استخلص يحيى هذا سائر أيامه، وهلك عمر يوم مهلكه كما ذكرناه.

واستعمل يحيى هذا ببجاية، فلم يزل بها إلى أن تقبض عليه الموحدون، لما استخلصوا ببجاية من يده.

وسار إلى تونس واعتقل بها مدة، ثم صرفوه إلى المغرب أيام عمر، فاخص به.

ولما عقد له السلطان عبد العزيز على وزارته وكان قروي الشكيمة شديد الحزم وصعب العداوة مرهف الحد، وكان عمه غلال بعد أن أطلقه السلطان من الاعتقال مكنه عن إذنه وأقامه متصرفاً بين يديه، فألقى إلى السلطان استبداد يحيى عليه وحذره من شأنه، ورفع إليه أنه يروم تحويل الدعوة لبعض القراية من آل عبد الحق، وأنه داخل في ذلك قواد الجند من النصارى.

وأصاب الوزير وجع قعد به عن مجلس السلطان، فاختلف الناس إلى زيارته وعكف ببابه قواد النصارى، فاستراب بأمرهم وتيقن الأمر بعكوفهم، فأرسل السلطان من حشمه من تقبض عليه وأودعه السجن.

ثم جنب إلى مصرعه من الغد وقتل قصصاً بالرماح، وقتل المتهمون من القراية وقواد الجند، واستلحموا جميعاً وصاروا مثلاً

عن التصرف في شيء من سلطانه إلا بإذنه وعن أمره، وهلك لأشهر من استبداد الوزير شعيب بن ميمون.

ثم هلك يحيى بن ميمون على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتزاع أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان إليه ومهلكه

لما فتك السلطان عبد العزيز بعمر بن عبد الله المتغلب عليه، سولت لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه مثلها في عامر بن محمد، لكان استبداده عليه، وأغراه بذلك بطاقته، وتوجس لها عامر فتمارض بداره، واستأذنه في الصعود إلى معتمضه بالجبل ليمرضه هنالك حرمة وأقاربه، وارتحل بجملته، ويثس أبو الفضل من الاستمكان منه وأغراه حشمه بالراحة من عبد المؤمن.

ولليل من منصرف عامر ثمل أبو الفضل ذات ليلة، وبعث عن قائد الجند من النصارى، فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه إليه، وطار الخبر إلى عامر فارتاع وحمد الله أن خلص من غائلته.

وبعث يبيعه إلى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراكش.

ووعده بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض إلى مراكش، ونادى في الناس بالعطاء، وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة واستبد أبو الفضل بعد مهلك عبد المؤمن واستوزر طلحة السنوري وجعل علامته لمحمد بن محمد بن منديل الكنانى، وجعل شوراه المبارك بن إبراهيم بن عطية الخلطي.

ثم أشخص طلحة التينوري بسعاية الكنانى، فقتله واعتمد بعساكره منازل عامر.

ولما فصل لذلك من مراكش جاءه الخبر بحركة السلطان عبد العزيز إليه، فانفض معسكره ولحق بتادلا ليعتصم بها في معقل بني جابر.

وعاج السلطان إليها بعساكره عن مراكش إليها، فنازله وأخذ بمخيقه وقاتله، فقلع عسكره وداخله بعض بني جابر في الإخلال بمصافه يوم الحرب مع مال بذله لهم، ففعلوا، وانهزمت عساكر أبي الفضل وجموعه، وتقبض على أشياعه.

وسيق مبارك بن إبراهيم إلى السلطان فاعتقله إلى أن قتله مع عامر عند مهلكه كما نذكره وفر الكنانى إلى حيث لم يعلم

في الآخرين، والأمر لله. الحد وتفضيل ابنه أبي بكر عليه فبلغ خبره إلى السلطان واقتضى له وثيقة من الأمان والعهد بعث به إليه فثار بعمه.

واستدعى القبائل من الجبل إلى طاعة السلطان فأجابوه واستحث السلطان للزحف إليهم، فزحفت العساكر، الجنود واستولت على معتمصم الجبل.

ولما استيقن عامر أن قد أحيط به أوعز إلى ابنه أن يلحق بالسلطان موهماً بالزروع، فالتقى بنفسه إليه وبذل له الأمان والحقه بجملته.

وانتبهذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس فردده الثلج.

وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام برداً وثلجاً حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض، وسد المسالك فاقتحمه عامر وهلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه.

وعاين الهلكة العاجلة فرجع خفياً أثره إلى غار أوى إليه مع أدلاء بذل لهم المال يسلكون به ظهر الجبل إلى الصحراء بالسوس، وأقاموا ينتظرون إمساك الثلج، وأغرى السلطان بالبحث عنه فذهلهم عليه بعض البربر عثروا عليه فسيق إلى السلطان وأحضره بين يديه ووجهه فاعتذر ونجم بالطاعة.

ورغب في الإقالة واعترف بالذنب، فحمل إلى مضرب بني له بإزاء فسطاط السلطان، واعتقل هنالك.

وتقبض يومئذ على محمد بن الكناني فاعتقل وانطلقت الأيدي على معاقل عامر ودياره، فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزروع والأفوات والخرشي ما لا عين رأت ولا خطر على قلب أحد منهم.

واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة حول من يوم حصاره.

وعقد على هتاتة لفارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي وارغل إلى فاس واحتل بها آخر رمضان ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس.

وحمل عامر وسلطانة تاشفين على جملين وقد أفرغ عليهما الرث وعبث بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه ولما قضى منسك الفطر أحضر عامراً فقرعه بذنوبه وأوتي بكتابه بخطه يخاطب فيه أبا هو ويستنجد على السلطان فشهد عليه وأمر به السلطان فامتنح ولم يزل يجلد حتى انتثر لحمه، وضرب بالعصي حتى ورمت أعضاؤه، وهلك بين يدي الزعرة، وأحضر الكناني

الخبر عن حركة السلطان إلى عامر بن محمد ومنازلته بجبله ثم الظفر به

لما فرغ السلطان من شأن أبي الفضل عقد على مراكش لعلي بن محمد بن أجانا من صنائع دولتهم.

وأوعز إليه بالضيق على عامر والأخذ بمخنته وإجائه إلى الطاعة.

وانقلب إلى فاس، واعتزم على الحركة إلى تلمسان. وبينما هو في الاستنفار كذلك إذ جاءه الخبر بأن علي بن أجانا نهض إلى عامر وحاصره أياماً، وأن عامراً زحف إليه.

ففض معسكره وتقبض على ابن أجانا والكثير من العسكر، فاعتقلهم، فقام السلطان في ركائبه وقعد، وأجمع أمره على النهوض إليه بكافة بني مرين وأهل المغرب، فبعث في الحشود وبث العطاء، وعسكر بظاهر البلد حتى استوفى الغرض وعقد على وزارته لأبي بكر بن الغازي بن يحيى بن الكاس، لما كان فيه من مخايل الرياسة والكفاية، ورفع محله.

وارتحل سنة سبعين وسبعمائة فاحتل بمراكش، ثم خرج إلى منازلته الجبل ونازله، وكان عامر بن محمد قد نصب بعض الأعياص من آل عبد الحق من ولد أبي ثابت بن يعقوب بن عبد الله اسمه تاشفين، ولحق به علي بن عمر ويغلان من شيوخ بني ورتاجن كبير بني مرين، وصاحب الشورى فيهم لعده، فاشتد أثره به.

وتوافى به كثير من الجند النازعين عن السلطان رهبة من بأسه أو سخطه لحاله، أو رغبة فما عند عامر فرتبهم، وأمسك الله يده عن العطاء، فلم يسلم بقطرة، وطال مشوى السلطان بساحته وعلى حصاره، وبوأ المقاعد للمقاتلة وغاداه للقتال وراوجه.

وتغلب على حصونه شيئاً فشيئاً إلى أن تغلق بأعلى جبل تامسكروط، وكان لأبي بكر بن غازي غناء مذكور، ويشس أصحاب عامر وأشياعه من عطائه.

وفسد ما بينه وبين علي بن عمر هذا، فندس إلى السلطان يطلب الأمان، وتوثق لنفسه ثم نزع إليه.

وداخله فارس بن عبد العزيز بن أخي عامر في القيام بدعوة السلطان والخلاف على عمه، لما كان يوصف به من إرهاف

ثم رجع إلى غرناطة، ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلب عليه القمط وقتله.

وفي خلال هذه الفتنة بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة.

وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين.

وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد، فراسل صاحب الأندلس في أن يزحف إليه بعساكره على أن عليه عطاءهم وإمداده بالمال والأساطيل وعلى أن يكون ثوية جهادها خالصة له، فأجاب إلى ذلك وبعث إليه أحمال المال.

وأوعز إلى أساطيله بسبعة فعمرت وأقلعت إلى مرسى الجزيرة لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل، واستعد الآلة للحصار، فنازلها أياماً قلائل.

ثم أيقن النصراني بالملكه لبعدهم عن الصريح وبأسهم من مدد ملوكهم والقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فاجابه السلطان عليه ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام ومراسمه، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته، وكتب الله أجراها لمن أخلص في معاملته وكان وذلك سنة سبعين وسبعماية وولى ابن الأحمر عليها من قبله.

ولم تزل لنظره إلى أن تمحض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها، فهدمت أعوام ثمانين وسبعماية وأصبحت خاوية كان لم تغن بالأمس، والبقاء لله وحده.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان

واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وفرار

أبي حمو عنها

كان عرب المعقل موطنين بصحراء المغرب من لدن السوس ودرعة وتافيلالت وملوية وصا.

وكان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف مختصين بطاعة بني مرين وفي وطنهم.

وكانوا مغليين للدولة تحت قهر من سلطانها، ولما ارتجع بنو عبد الواد ملكهم، بتلمسان على يد أبي حمو، وكان الاختلاف

فجعل به مثله.

وجنب تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصاً بالرماح وجنب مبارك بن إبراهيم من محسه بعد طول الاعتقال، فألحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجو للسلطان من المنازعين، وفرغ لغزو تلمسان كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء

قد تقدم لنا ذكر تغلب الطاغية الهنشة على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وسبعماية وأنه نازل بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعماية وهلك بالطاعون وهو محاصر له عندما استفحل أمره، واشتدت شوكته.

فكفى الله شأنه وولي أمر الجلالقة بعده ابنه بطرة، وعدا على سائر إخوته.

وفر أخوه القمط ابن حظية أبيه السمة بلغتهم الرقيق بهمة إلى قمص برشلونة فأجاره وأنزله خير نزل.

ولحق به من الزعماء المركش ابن خالته وغيره من أقماصهم وبعث إليه بطرة ملك قشتالة في إسلام أخيه فأبى من إخفار جواره.

وحدث بينهما بسبب ذلك الفتنة الطويلة افتتح بطرة فيها كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي أرضه، وحاصر بلنسية قاعدة شرق الأندلس مراراً وأرجف عليها بعساكره، وملأ البحر إليها بأساطيله إلى أن نقلت على النصرانية وطائره وساءت فيهم ملكته، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف إلى قرطبة.

وثار على بطرة أهل إشبيلية وتيقن صاغية النصراني إليه، ففر عن مملكه ولحق بملك الإفرنج وراء جليقية وفي الجوف عنها وهو صاحب انكلطرة، واسمه الفنس غالس.

ورفد عليه صريحاً سنة سبع وستين وسبعماية فجمع قومه وخرج في صريحه إلى أن استولى على مملكه، ورجع ملك الإفرنج فعاد النصراني إلى شأنهم مع بطرة.

وغلب القمط على سائر الممالك فتحيز بطرة إلى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين، ونادى صريحه بابن الأحمر فانتهاز فيها الفرصة.

ودخل بعساكر المسلمين فأتخن في أرض النصرانية، وخرّب معاقلهم ومدنهم مثل أبدة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم.

بالمغرب، عاث هؤلاء المقل وأكثروا في الوطن الفساد.

ولما استقلت الدولة من عثرها تحيزوا إلى بني عبد الواد وأقطعوهم في أوطانهم.

واستقروا هنالك من لدن نزوع عبد الله بن مسلم العامل كان بدرعة إلى أبي حمو ووزارته له، وفسد ما بين سلطان المغرب وبين أبي حمو من جراء ذلك.

ونهب أبو حمو سنة ست وستين وسبعمائة إلى المغرب، وعاث في نواحي دبدو ثغر المغرب فنشبت لذلك نار العداوة بينه وبين صاحب الثغر محمد بن زكدان فكان داعية لعداء صاحب المغرب على الأيام.

ولما استبد السلطان عبد العزيز وهلك صاحبهم عبد الله بن مسلم، وترددت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز، كان فما اشترط عليه التجاني عن قبول المقل عرب وطنه، لما فيه من الاستكثار بهم عليه.

وأبى عليهم أبو حمو منها لاستظهاره بهم على زغبة من أهل وطنه وغيرهم.

وكثر التلاحي في ذلك وأحفظ السلطان وهم بالتهوض إليه سنة سبعين وسبعمائة وأقصر لما أخذ مججزته من خلاف عامر.

وصاحب الثغر محمد بن زكدان أثناء ذلك يعرضه على الحركة إلى أبي حمو ببرغبه في ملك تلمسان.

ولما قضى السلطان من حركة مراكش وفرغ من شأن عامر ورجع إلى فاس، وافاه بها أبو بكر بن عريف أمير سويد في قومه من بني مالك بجللهم وناجحتهم، صريحاً على أبي حمو لما نال منهم.

وتقبض على أخيههم محمد ورؤساء بني مالك جزاء بما يعرف لهم ولسلفهم من ولاية صاحب المغرب.

ووفد عليه معهم رسل أهل الجزائر يبيعهم يستحثون السلطان لاستنقاذهم من لهواته.

ووامر السلطان بذلك وليه ونزار بن عريير ومحمد بن زكدان صاحب دبدو فزعموا له بالغناء في ذلك واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشرين إلى مراكش للاحتشاد، وتوافى الناس ببابه على طبقاتهم أيام منى من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وأفاض العطاء وأزاح العلل، ولما قضى منسكه في الأضحى اعترض العساكر وارتحل إلى تلمسان، واحتل بتازى.

وبلغ خبر نهوضه إلى أبي حمو، فجمع من إليه من زنانة

الشرق وبني عامر من عرب زغبة.

وتوافت جموعه بساحة تلمسان واضطرب هنالك معسكره واستعرض جنوده واعتزم على الزحف للقاء بني مرين ثقة بمكان المقل.

وتحيز من كان معه من عرب المقل الأحلاف وعييد الله إلى السلطان عبد العزيز بمدخلة وليهم ونزار.

واجتمعوا إليه وسرح معهم صناعه فارتحلوا بين يديه وسلكوا طريق الصحراء.

وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم إلى أبي حمو فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر وسلكوا على البطحاء.

ثم ارتحلوا عنها وعاجوا على منداس وخرجوا إلى بلاد الديالم.

ثم لحقوا بوطن رياح فتزلوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى.

وارتحل السلطان عبد العزيز من تازى وقدم بين يديه وزيره أبا بكر بن غازي، فدخل تلمسان وملكها.

ورحل السلطان على أثره واحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على العسكر من بني مرين والجنود والعرب من المقل وسويد، وسرحه في اتباعهم وجعل شوراه إلى وليه ونزار وفوض إليه في ذلك.

وارتحلوا من تلمسان آخر المحرم وكنت وافتدأ على أبي حمو، فلما أجفل عن تلمسان ودعته وانصرفت إلى هنين للإجازة إلى الأندلس.

ووشى بعض المفسدين عند السلطان بأني احتملت مالا للأندلس، فبعث جريدة من عسكره للقبض علي، وافوه بوادي الزيتون قبل مدخله إلى تلمسان فأحضرني وسألني، وتبين كذب الواشين فأطلقني وخلع علي وحلني.

ولما ارتحل الوزير في اتباع أبي حمو استدعاني وأمرني بالتهوض إلى رياح والقيام فيهم بطاعته، وصرفهم عن طاعة أبي حمو وصريحه، فنهضت لذلك، ولحقت بالوزير بالبطحاء، وارتحلت معه إلى وادي وراك من بلاد العطاف فودعته وذهبت لوجهي وجمعت رياحاً على طاعة السلطان ونكبت بهم عن صريح أبي حمو فنكبوا عنه.

وخرج أبو زيان من محل بؤرته بمحصين، فلحق بأولاد محمد

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط
ورجوع أبي زيان إلى تيطرى وأجلاب
العرب بأبي حمو على تلمسان إلى أن غلبهم
السلطان جميعاً على الأمر واستوسق له
الملك

لما خلاص أبو حمو من واقعة الدوسن هو وأحياء بني عامر
وأشباعه، لحقوا بالصحراء وأبعدوا فيها عن قصورهم قبلة جبل
راشد.

ورجع الوزير ونزار بن عريف بأحياء العرب كافة من
زغبة والمقل.

وكان السلطان لما احتل بتلمسان طلب العرب منه إطلاق
أيديهم على ما أقطعهم أبو حمو إياه من الوطن على الزبون
والاعتزاز عليه، فاستكف من ذلك لعظم سلطانه واستبداد ملكه،
فسخطوا أحواله ورجوا أن يكون لأبي حمو ظهور ينالون به من
ذلك ما أملوه.

فلما انهزم وفلت عساكره، وظهر السلطان ظهوراً لا كفاء له
فيتسوا، وأزعج رحو بن منصور بن يعقوب أمير الخوارج من
عبيد الله إحدى بطون المقل الخروج على السلطان، ولما خرج
العرب إلى مشاتهم لحق بأبي حمو وأحياء بني عامر وكاثرهم
وقادهم إلى العيث في الأوطان، وأجلبوا على ممالك السلطان
ونازلوا وجدة في رجب من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وصمد
نحوهم العساكر من تلمسان، فأجفلوا وعادوا إلى البطحاء
فاكسحروا أوطانهم.

ونفض إليهم الوزير في العساكر ففروا أمامه، واتبع آثارهم
إلى أن أصحروا.

واستنسر خلال ذلك بغاث حمزة بن علي بن راشد، فبيت
معسكر الوزير بمكانه من حصاره بشلف، ففض جموعه ولحق
مفلولاً بالبطحاء وبلغ الخبر إلى حصين وكانوا راهبين من
السلطان، لما اشتهر عنهم من الخلاف على الدول والقيام بأمر
الخوارج، فجاجؤا بأبي زيان الثائر كان عندهم من مكانه بأحياء
أولاد يحيى بن علي بن سباع من الدواودة، فلحق بهم وأجلبوا
على ضواحي المدينة ونازلوا عسكر السلطان بها، واضطرم المغرب
الأوسط نارا، واتصل ذلك به مدة.

ولما كان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة واستمال السلطان

بن علي بن سباع من الدواودة.

وارتحل أبو حمو من المسيلة فنزل بالدوسن وتلوم بها،
وأوفدت من الدواودة على الوزير ونزار فكانوا أدلاءهم في
النهوض إليه، ووافوه بمكانه من الدوسن في معسكره من زناتة
وحلل بني عامر، والوزير في التعيبة، وأمم زناتة والعرب من المقل
وزغبة ورياح محدقة به، فأجهضوه عن ماله ومعسكره، فانتهب
بأسره.

واكتسحت أموال العرب الذين معه، ونجا بدمه إلى مصاب.
وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة، وتلوم
الوزير بالدوسن أياماً.

ووافاه بذلك الخفاف بني مزني وانقلب إلى المغرب.

ومر على قصور بني عامر بالصحراء فاستباحها، وشردهم
عنها إلى قاصية القفر ومفازة العطش، ولحق بتلمسان في ربيع
الثاني.

ووفدت أنا بالدواودة على السلطان ورئيسهم أبو الدينار بن
علي بن أحمد، فبر السلطان مقدمه ورعى له سوابقه عند أبيه،
وخلع عليه وحمله وخلع على الوفد كافة وانصرفوا إلى مواطنهم.

وبعث السلطان عماله في الأمصار، وعقد لصنائه على
النواحي، وجهاز الكتائب مع وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن
حماسة، لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل، كان
ربي في حجر الدولة ونشأ في جو نعمتها وسخط حاله لديهم،
فنزح إلى وطن سلفه من بلاد مغراوه.

ونزل بجبل بني بو سعيد فأجاروه ويابعوه على الموت دونه.
وسرح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنتهم، فنزل عليهم
وقاتلهم وامتنعوا في رأس شاقق لهم، فأوطن الوزير بالخميس من
وادي شلف وأحجرهم بمعتصمهم.

وتوافت لديه الأمداد من تلمسان، فجمرها كتائب وبراهم
المقاعد للحصار، وأقام هنالك واستولى السلطان على سائر الوطن
من الأمصار والأعمال، وعقد عليها واستوسق له ملك المغرب
الأوسط كما كان لسلفه.

والله تعالى أعلم. والملك بيد الله يؤتبه من يشاء من عباده.

القعدة من سنة ثلاث وسبعين وسبعماية من بني عامر وأولاد
ينمور من المقل، وعقد عليهم لحمد بن عثمان من قرابة أبي بكر
بن غازي وتعرضوا للقاتلهم، فانقض جمعهم ومنحوا أكثافهم
وأحيط بمعسكر أبي حمو وحلل العرب فاكسح ما فيها واستولى
بنو مرين على أمواله وحرمه وولده، فاستاقوهم إلى السلطان
فأشخصهم إلى فاس فأنزلهم بقصوره.

وتقبض على مولاة عطية بن موسى صاحب شلف، فامتن
عليه وألحقه بجملته.

ونجا أبو حمو وألقى بنفسه إلى عبد الله بن صغير مستميتاً،
فامتن عليه وبعث معه الأدلاء إلى تيكورارين من بلاد القبلة، فنزلها
وكان ذلك بين يدي فتح تيطرى بليال.

واستوت قدم السلطان في ملكه واستولى على المغرب
الأوسط، ودفع الثوار والخوارج عنه، واستمال كافة العرب إلى
طاعته فأنوها راغبين راهبين.

ووفد عليه الوزير أبو بكر بن غازي من قاصية الشرق
ومعه مشيخة العرب من كل حي من أحيائهم فوصلهم واحتفى
بقدمهم، وركب للقاء الوزير وطلب المشيخة في الرهن على
الطاعة والاستحاث لتشيرد أبي حمو من تيكورارين، وأوسع
حفايتهم ويرهم وانصرفوا إلى مشائيتهم معتملين في أسباب الحركة
إلى تيكورارين إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم الوزير ابن الخطيب على

السلطان بتلمسان نازعاً إليه عن سلطانه

ابن الأحمر صاحب الأندلس

أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة من
البيسط الذي فيه ساحتها المسمى بالمرج على وادي شنجيل،
ويقال: شنييل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال،
كان له بها سلف معدود في وزارتها.

وانتقل أبو عبد الله إلى غرناطة واستخدم للملك بي الأحمر،
واستعمل على مخازن الطعام، ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ
وتأدب على مشيخته واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن
هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الأدب.

وأخذ عن أشياخه وامتلأ من خوض اللسان من نظمه
ونثره مع انتقاء الجيد منه، ونبع في الشعر والترسل حيث لا يجارى
فيهما.

رحو بن منصور عن أبي حمو وبذل له مالاً وأقطعه ما أحب من
الضواحي، وفعل ذلك بسائرهم وملاً صدورهم ترغيباً.

واعتزمت على تجهيز العساكر معهم لحسم أدواء الفساد
وإخراج الثوار من النواحي.

وأتهم وزيره عمر بن مسعود بالمداينة في أمر المغراوي،
فسرّح من دويه من تقبض عليه وأشخصه إلى حضرته مقيداً.

واعقله بفاس وجهاز عساكره واعترض جنوده، وعقد
لوزيره أبي بكر بن غازي على حرب الثوار والخوارج، فنهض من
تلمسان في رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعماية واعتمد حمزة بن
علي بن راشد في معتمه بجبل بني بو سعيد، وألح عليهم بالقتال
فعضتهم الحرب بنابها وداخلهم الرعب وأوفدوا مشيختهم على
الوزير بالطاعة، ونبذ العهد إلى حمزة فعد لهم ما ابتغوه.

ولحق حمزة بأبي زيان بمكانه من حصين، ثم أثنى عزمه عن
ذلك ورجع إلى ضواحي شلف.

وبيته بعض الحامية يتيروغت فثبتوا في مراكزهم وانفض
جمعه وتقبض عليه وسبق إلى الوزير فاعتقله وبعث إلى السلطان في
شأنه، فأمر بقتله، فاحتز رأسه ورؤوس أشياعه وبعث بهم إلى
السلطان وعلق أشلاءهم بأسوار مليانة.

ثم زحف إلى حصين فأحجرهم بمقلهم بتيطري،
واجتمعت إليه أحياء زغبة كافة.

فأحاط بهم من كل جانب وطاولهم الحصار وغاداهم
الحرب، وخاطبني السلطان بمكاني من الزاب، وأوعز إلي بنفير
رياح كافة إلى معسكر الوزير واستغفرتهم بأحيائهم وناجعتهم،
ونازلنا الجبل من جانب الصحراء مما يلي ضواحي رياح، فأصابهم
الجهد وداخلهم الرعب، وانفضوا من المقل واندعروا في الجهات
في الحرم فاتح أربع وسبعين وسبعماية ولحق أبو زيان بواركلي،
واستولى الوزير على المقل وانتهب ما فيه، واقتضى رهن حصين
على الطاعة وقرر عليهم الرضائع والمغارم، فأعطوها عن يد.

وكان أبو حمو في خلال ذلك قد أجلب على تلمسان يتنهز
الفرصة في انتباز العساكر عن السلطان.

وكان وليه خالد بن عامر أمير بني عامر من زغبة مريد
الطاعة، لما اتهم أبو حمو به من ولاية رديفة عبد الله بن عسكر بن
معروف دونه، فأسخطه ذلك، وداخل السلطان عبد العزيز في
الإحراف إليه عن أبي حمو على مال إليه، فنزع عنه.

وجهاز له السلطان عسكراً لحرب أبي حمو وأشياعه في ذي

والناس طراً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير عليك ماله وطر
ومن به مذ وصلت جبلهم ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهتمهم نفوسهم فوجهوني إليك وانتظروا
فاهتز السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس، وقال له
قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم.

ثم أثقل كاهلهم بإحسانه، وردهم بجميع ما طلبوه.
وقال لي شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في
ذلك الوفد: لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على
السلطان إلا هذا، ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين.

ثم نازلهم محمد الرئيس ابن عم السلطان شركه في جده
الرئيس أبي سعيد، ونحى خروج السلطان إلى منزله خارج
الحمراء.

وتسور دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضواناً في بيته،
فقتله، ونصب للملك إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج، لما كان
صهره على شقيقته، وكان معتقلاً بالحمراء، فأخرجه وباعه وقام
بأمره مستبداً عليه.

وأحسن السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان، فركب
ناجياً إلى وادي آش وضبطها.

وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك
آبائه بالمغرب، وقد كان مشواه أيام أخيه أبي عنان عندهم
بالأندلس.

واعقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب
وضيق عليه في محبسه.

وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استلحمت أيام
مقامه بالأندلس كما مر.

وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم، فزين له استدعاء
هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبوناً على أهل
الأندلس، ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحو
إلى ملك المغرب، فقبل ذلك منه.

وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش
إليه.

وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني، وحمله
مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب، وحل معتقله.

وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره
وملاً الدولة بمدائحهم وانتشرت في الأفاق، فرقاه السلطان إلى
خدمته وأثبت في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بابي الحسن بن
الجياش شيخ العدوتين في النظم والشعر وسائر العلوم الأدبية.

وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من
سلفه، عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه كما مر في
أخبارهم.

فاستبد ابن الجياش برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك
في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولى السلطان
أبو الحجاج حينئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب ببابه مثناة
بالوزارة، ولقبه بها فاستقل بذلك.

وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبات جيرانهم من
ملوك العدو.

ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشارطات،
فجمع له بها أموالاً، وبلغ في المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن
قبله.

وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة
مقرباً بابيه السلطان أبي الحسن فجلى في أغراض سفارته.

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة
عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة،
وطعنه فاشواه وفاض لوقته، وتعاورت سيوف الموالى العلوجي
هذا القاتل فمزقوه أشلاء.

وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته، وقام بأمره مولا هم رضوان
الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم.

واستبد بالدولة، وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه،
واتخذ لكتابته غيره، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره ومشاركاً
في استبداده معني، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة.

ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان
مستمداً له على عدوهم الطاغية على عاداتهم مع سلفه.

فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذين
معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شيء من
الشعر يقدمه بين يدي نجواه، فأذن له، وأنشد وهو قائم:

خليفة الله ساعد القدرُ علاك ما لاح في الدجى قمر

ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيم دفعه البشر

وجهك في النابسات بدر لنا وفي المحل كفضل المطر

وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك، وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله دمة مرعية ومخالصة متأكدة، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله.

وحملته على أن يرد عليه مدينة رندة إذ هي تراث سلفه، فقبل إشارتي في ذلك، وتسوَّغها السلطان المخلوع، ونزل بها وعلى بن يحيى في جلته، وهو مقدم في بطانته، ثم غزوا منها مالقة، فكانت ركاباً للفتح.

وملكها السلطان واستولى بعده على دار ملكها بغرناطة، وعثمان بن يحيى مقدم القوم في الدولة عريق في المخالصة، وله على السلطان دالة واستبداد على هواه.

فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده، وأعادته السلطان إلى مكانه في الدولة من علو يده وقبول إشارته، فأدركته الغيرة من عثمان، ونكر على السلطان الاستكفاء به، والتخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمئة وأودعهم المطبق.

ثم غريهم بعد ذلك، وخلا لابن الخطيب الجور وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة، وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال، وغشي بابه الخاصة والكافة.

وغصت به بطانة السلطان وحاشيته، ففتنوا على السعائيات فيه وقد صم السلطان عن قبولها، ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب، فشم عن ساعده في التقويض عنهم.

واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدو يومئذ في التقبض على ابن عمه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي.

كانوا قد نصبوه شيخاً على الغزاة بالأندلس لما أجاز من العدو بعدما جاس خلالها لطلب الملك، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بني مرين، فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماسي ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبع وستين وسبعمئة فأكرم نزلهم، وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة، فقدم عبد الرحمن مكانه.

وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد قتله الوزير عمر بن عبد الله، فغص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك، وتوقع انتقاض أمره منهم.

فانطلق، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش وسار في ركاب سلطانه.

وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتز لقدوم ابن الأحمر وركب في موكب لتلقيه، وأجلسه إزاء كرميه، وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مر يستصرخ السلطان لنصره، فوعده وكان يوماً مشهوداً وقد مر ذكره.

ثم أكرم مئواه وأرغد نزله، ووفر أرزاق القادمين في ركابه وانتظر به، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع.

ثم استأنس واستأذن السلطان في التحول إلى جهات مراکش والوقوف على آثار الملك بها، فأذن له وكتب إلى العمال بالتحافه، فتبارزوا في ذلك وحصر منه على حظ وعندما مر بسلا في قفوله من سفره، دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدة على روي الرءاء الموصولة يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بقرطبة مطلعها:

إن بان منزله وشطت داره قامت مقام عيانه أخباره
قسم زمانك عبرة أو عبرة هذا ثراه وهذه آثاره
فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة، فشفعوه، واستقر هو بسلا متبذراً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة.

ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى مكانه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمئة كما مر في أخباره.

ويعد عن خلفه بفاس من الأهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره.

وسر السلطان بقدومه ورده إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله.

وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن شيوخهم قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه عندما أحس بالشر من الرئيس صاحب غرناطة.

وأجاز يحيى من هنالك إلى العدو وأقام عثمان بدار الحرب، فصحب السلطان في مثنى اغترابه هنالك، وتقلب في هذا مذاهب خدمته، وانحرفوا عن الطاغية عندما يشوا من الفتح على يديه، فتحولوا عنه إلى ثغور بلاده، وخاطبوا عمر بن عبد الله في أن يملكهم من بعض الثغور الغربية التي لطاعتهم بالأندلس، يرتقبون منها الفتح.

ووقف على مخاطبات ابن عبد الرحمن يسريها في بني مرين، فجزع لذلك.

وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وإراحة نفسه من شغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه، فأجابته إلى ذلك وكتب له العهد بخطه، على يد سفيره إلى الأندلس، وكتبه أبي يحيى بن أبي مدين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماسي فتقبض عليهما، واعتقلهما وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية.

وربما تخيل له أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد أحفظوه عليه، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب، واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية، وسار إليها في لمة من فرسانه، ومعه ابنه علي الذي كان خالصة السلطان وذهب لطبنة.

فلما حاذى جبل الفتح فرضة المجاز إلى العدو، مال إليه وسرح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقيه.

وقد كان السلطان عبد العزيز قد أوعز إليه بذلك، وجهز إليه الأسطول من حينه، فأجاز إلى سبتة وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامثال المراسيم.

ثم سلك لقصد السلطان، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة بمقامته من تلمسان، فاهتزت له الدولة.

وأركب السلطان خاصته لتلقيه، وأحله بمجلسه بمحل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان الشرف والعزة.

وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة.

ثم لفظ المنافسون له في شأنه وأوعزوا سلطانه بتتبع عثراته، وأبدى ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالته، وإحصاء عصابته.

وشاع على السنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوا إليه، ورفعت إلى قاضي الحضرة الحسن بن الحسن، فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة، وراجع صاحب الأندلس رايه فيه.

وبعث القاضي أبو الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات، وإمضاء حكم الله فيه، فصم لذلك وأنف لذمته أن تخفر وجواره أن يرد وقال لهم: هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك

أحد ما كان في جوارى.

ثم وفر الجراية والأقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملة.

فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمئة ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة، فزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفي.

واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما تذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة

ابنه السعيد واستبداد أبي بكر بن غازي

عليه ورجوع بني مرين إلى المغرب

كان السلطان منذ أول نشأته قد أزمته به الحمى بما أصابه من مرض التحول، ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم على احتماله مع الأبناء إلى رندة، ولما شب أفاق من مرضه وصلاح بدنه، ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوله.

ولما كمل الفتح واستفحل الأمر واشتد به الوجع وصابر المرض وكتمه عن الناس خشية الإرجاف، واضطرب معسكره خارج تلمسان للحاق بالمغرب، ولما كان ليلة الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمئة قضى متودعا بين أهله وولده ودس الخدم بالخبر إلى الوزير، فخرج على الناس وقد احتمل محمد السعيد ابن السلطان على كتفه فعزى الناس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته، وألقى ابنه بين أيديهم فازدحوا عليه باكين متفجعين، يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة، وأخرجوه إلى المعسكر.

ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه وأيقظ بالليل بجحاسة العسكر، وأذن في الناس بالرحيل، فخرجوا أفواجا إلى المحلة.

ثم ارتحلوا ثلاث، وأغذوا السير إلى المغرب واحتلوا بتازي ثم أغذوا السير إلى فاس، واحتل ابن السلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامة بقصره، وتوافت وفود الأمصار يبيعانهم على العادة.

واستبد عليه الوزير أبو بكر بن غازي، وحجبه بقصره

الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن إلى المغرب واجتماع بطوية إليه وقيامهم بدعوته

كان محمد المخلوع ابن الأحمر قد رجع من رندة إلى ملكه
بغرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وقتل له
الطاغية عدوة الرئيس المتري على ملكه حين هرب من غرناطة
إليه وفاءً بعهد المخلوع، واستوى على كرسيه واستقل بملكه،
ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب فاستخلصه وعقد له
على وزارته، وقوض إليه في القيام بملكه فاستولى عليه وملك
هواه.

وكانت عنه عمدة إلى المغرب وسكانه إلى أن نزلت به آفة في
رياسته، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه، وكان
لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبي
علي ويخشونهم على أمرهم.

ولما لحق الأمير عبد الرحمن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب
واستخلصه لنجواه، ورفع في الدولة رتبته وأعلى منزلته، وحمل
السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة مكان بني
عمه من الأعياص، فكانت له آثار في الاضطلاع بها، ولما استبد
السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه، وكان ابن الخطيب ساعياً
في مرضاته عند السلطان، فُدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن كآبي
يفلوسن ووزيره المطارد به مسعود بن ماساي، وأدار ابن الخطيب
في ذلك مكروه وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر
واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز وتغير الجو من بين ابن
الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم فتكر له، فتنزع عنه إلى عبد العزيز
إلى سلطان المغرب سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم من
الوسائل ومهد من السوابق فتقبله السلطان وأحله من مجلسه محل
الاصطفاء والقرب.

وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده، فبعثهم إليه واستقر في
جملة السلطان.

ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان في
ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند مرجعه من
تلمسان إلى المغرب.

ونمي ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان بهدية لم يسمع
بمثلتها، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارسة
ومعلوجي السبي وجواريه، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره

وحججه عن التصرف في شيء من سلطانه، ولم يكن في سن
التصرف، واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفضل،
واشتغل بأمر المغرب إيراً وتفضاً إلى أن كان ما ذكره إن شاء
الله تعالى.

الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

لما فصل بنو مريين من تلمسان إثر مهلك السلطان عبد
العزيز واحتلوا بتأزي اجتمع المشيخة وعقدوا على تلمسان
لإبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين كان ربي في كفالة دولتهم منذ
مهلك أبيه، فأثروه بذلك لخلوصه، وبعثوه مع رحو بن منصور
أمير عبيد الله من المعقل، وسرحوا معهما من كان بالمغرب من
مغراوة إلى وطن ملكهم بشف.

وعقدوا عليهم لعلي بن هارون بن منديل بن عبد الرحمن
وأخيه رحمون وانصرفوا إلى بلادهم.

وكان عطية بن موسى مولى أبي حمو قد صار إلى السلطان
عبد العزيز وألحقه بجملته وبطانته، فلما هلك السلطان خرج من
القصر واختفى بالبلد حتى إذا فصل بنو مريين من معسكرهم
ظاهر البلد، خرج من مكان اختفائه، وقام بدعوة مولا أبي حمو،
واجتمع إليه شيعة من أهل البلد مع من تأشب إليهم من الغوغاء،
وحملوا الخاصة على البيعة لأبي حمو، ووصلهم إبراهيم بن أبي
تاشفين مع رحو بن منصور وقومه من عبيد الله، فأنبذوه وامتنعوا
عليه، فرجع عنهم إلى المغرب، وطير أولاد يغمور أولياء أبي حمو
من عبيد الله بالخبر إليه وهو بمشواه من تيكورارين.

وانصل بابنه أبي تاشفين وهو محي بني عامر فيبادر إلى
تلمسان ودخلها ومن معه من بني عبد الواد، وتساقط إليه فلهم
من كل جانب، ووصل السلطان على إثرهم بعد اليأس منه،
فدخلها في جمادى من سنة أربع وسبعين وسبعمائة واستقل بملكه،
وتقبض على بطانته الذين آسفوه في اغترابه، ونمي له عنهم السعي
عليه، فقتلهم، ورجع ملك بني عبد الواد وسلطانهم، ونهض إلى
مغراوة أولياء بني مريين بمكانهم من شلف، فغلبهم عليه بعد
مطاوله وحروب سجال هلك فيها رحمون بن هارون، ومحا دعوة
بني مريين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره، واستقل بالأمر
حسبما ذكرناه في أخباره، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي
فهم بالنهوض إليه، ثم نى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد
الرحمن بناحية بطوية فشغله شأنه عن ذلك.

ويعثوا إليه بقية الأبناء والقرابة فتقبل محمد بن عثمان شرطه وكان سفيره في ذلك أحمد الرعيني من طبقة كتاب الأشغال بسبته، كان السلطان أبو الحسن تزوج أمه ليلة إجازته من واقعة طريف واقتاد حظاياه، حتى لحق به الحرم من فاس، فردها إلى أهلها ونشأ الرعيني في توهم هذه الكفالة، فانتفخ غره لذلك ويحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن، وكان سفيراً بين محمد بن عثمان وابن الأحمر، فأمل رياسته في هذه الدولة، ركب محمد بن عثمان من سبته إلى طنجة، وقصد مكان اعتقالهم.

واستدعى أبا العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم من مكانه مع الأبناء فبايع له، وحمل الناس على طاعته، واستقدم أهل سبته بكتاب البيعة، فقدموا وأخطب أهل الجبل فبايعوا، وأفرج ابن الأحمر عنهم.

وبعث إليه محمد بن عثمان بالتزول له عن جبل الفتح، وأخطبوا أهله بالرجوع إلى طاعته، فأرسل من مالقة إليه ودخله واسترلى عليه، ومحا دعوة بني مريم مما وراء البحر، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمه بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره.

وكان محمد بن عثمان عند فصوله من فاس، وودعه الوزير ابن عمه وفأوضه في شأن السلطان، وأن يقدم للناس إماماً يرجعون إليه ويترك لهم أمرهم وأمره في ذلك، ولم يفترقا على مبرم من أمرهم.

فلما ارتكب هذا المرتكب وجاء بهذا الأمر، خاطب الوزير بموه عليه بأنه فعل بمقتضى المؤامرة، وأنه عن إذنه واللّه أعلم بما دار بينهما وليج الوزير في تكذيبه والبراءة للناس مما رمى به ولاطفه في نقض ذلك الأمر، ورد أبا العباس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحوطة، وأبى محمد بن عثمان من ذلك ودافعه باجتماع الناس وانعقاد الأمر.

وبينما الوزير يروم ذلك جاءه الخبر بأن محمد بن عثمان اشخص الأبناء المعتقلين كلهم إلى الأندلس، وأنهم حصلوا في كفالة ابن الأحمر، فوجم وأعرض عن ابن عمه وسلطانه، ونهض إلى تازي ليفرغ من عدوه إليهم، فأنزله الأمير عبد الرحمن وأخذ بمخيقه، واهتبل محمد بن عثمان الغرة في ملك المغرب، ووصله مدد السلطان ابن الأحمر وعسكره تحت رايته، عقدتها عليهم لبوسف بن سليمان بن عثمان بن أبي العلاء من مشيخة الغزاة المجاهدين، وعسكر آخر من رجال الأندلس الناشبة يناهزون سبعمائة.

ابن الخطيب إليه وأبى السلطان من ذلك ونكره، ولما هلك واستبد الوزير ابن غازي بالأمر تحيز إليه ابن الخطيب ودخله وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان، فلج واستنكف عن ذلك وأقبح الرد، وانصرف رسوله إليه، وقد رهب سطوته، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطورية ومعه الوزير مسعود بن ماسي ونهض إلى جبل الفتح وأنزله بعساكره.

ونزل عبد الرحمن ببطورية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين وسبعمائة، ومعه وزيره مسعود بن ماسي، فاجتمع قبائل بطورية إليه وبايعوه على القيام بدعوته والموت دونه، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبته وبعثه لسد ثغورها لما خشي عليها من ابن الأحمر، ونهض من فاس بالعساكر والإالة وأنزل عبد الرحمن ببطورية، فامتنع عليه فقاتله أياماً ثم رجع إلى تازي ثم إلى فاس، ودخل الأمير عبد الرحمن تازي واستولى عليها، ودخل الوزير إلى فاس وقعد بمجلس الفصل، وهر جمع العودة إلى تازي لتشريد عدوه إلى أن جاءه الخبر ببيعة السلطان أبي العباس أحمد بن السلطان أبي سالم حسبما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن

أبي سالم واستقلاله بالملك وما كان خلال

ذلك من الأحداث

لما نزل محمد بن عثمان بالثغر من سبته لسد فروجها، ومدافعة ما يخشى من عادية ابن الأحمر عليها، وكان قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخيقه، وتكررت المواصلات بينه وبين محمد بن عثمان بالعتاب، فاستعجب له وقبح ما جاء به ابن عمه من الاستغلاظ له، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه، ودخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً مستبداً يجوز بسياجهم ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملأ.

ويجب بيعة الصبي الذي لم تتعد بيعة شرعاً، واختص هذا بالسلطان من بين أولئك الأولاد وفاءً بحقوق أبيه، ووعد بالمظاهرة على ذلك، واشترط عليه أن يزلوا له عن الجبل إذا انعقد أمرهم، ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقرابة من طنجة ليكونوا في إيالته وتحت حوطته، وأن يبعثوا إليه بابن الخطيب متى قدروا عليه،

مراكش، وأن يدينوه بها من سجلماسة فعقدوا له عل كره، وطووا على المكر.

وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبي العباس أحمد، وباعه واقتضى عهده بالأمان وتخليه سبيله من الوزارة فبذله.

ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد لجديد سابع المحرم، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها، وارتحل معه علي بن عمر بن ويغلان شيخ بني مرين والوزير ابن ماساي، ثم نزع عنه ابن ماساي ألفاس لعهد كان قد اقتضاه من السلطان أبي العباس، وأجاز البحر إلى الأندلس واستقر بها في إيالة ابن الأحمر، واستقل السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم بملك المغرب ووزيره محمد بن عثمان بن الكاس، وفوض إليه شؤونه وغلب على هواه.

وصار أمر الشورى إلى سليمان بن داود، كان نزع إليه من البلد الجديد من جملة أبي بكر بن غازي بعد أن كان أطلقه من محبسه، واستخلصه.

وجعل إليه مرجع إبراهيم ونقضه فتركه أحوج ما كان إليه، ولحق بالسلطان أبي العباس مكانه من حصار البلد الجديد.

فلما استوسق ملكه ألقى الوزير محمد بن عثمان إليه بمقاد الدولة، وصار إليه أمر الشورى ورياسة المشيخة.

واستحكمت المودة بينهم وبين السلطان ابن الأحمر وتأكدت المداخلة، وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم لمكان الأبناء المرشحين في إيالته.

ولما ارتحل الأمير عبد الرحمن إلى مراكش نبذوا إليه العهد وتعللوا عليه بأن العقد الأول له: إنما كان على ملك سلفه ومراكش إنما ألجأهم إلى العقد عليها إلقاء، واعتزموا على النهوض إليه ثم أقصروا وانعقدت بينهم السلم سنة ست وسبعين وسبعمئة وجعلوا التخم بينهما أزمور وعقدوا على ثغرها لحسون بن علي الصبيحي فلم يزل عليها إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل ابن الخطيب

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين وسبعمئة واستقل بسلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه، وسليمان بن داود من أعراب بني عسكر رديف له، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر

وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليه بأبن عمه السلطان أبي العباس أحمد، ومظاهرتة على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتهما، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا، وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس خالفوا إليه الوزير وانتهوا إلى قصر ابن عبد الكريم، وبلغ الخبر إلى الوزير بمكانه من حصار تازي فانفض معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكدية العرائس.

وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون، فصمد إليه الوزير بعساكره، وصمم نحوه بمكانه من قنة الجبل، فاختلف مصافه وانهزمت ساقفة العسكر من ورائه، ورجع على عقبه مقلوباً وانتهب المعسكر ودخل إلى البلد الجديد وجأجأ بالعرب من أولاد حسين أن يعسكروا له بالزيتون ظاهر فاس، ويخرج بمجموعه إلى حللهم، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازي بمن كان معه من العرب الأحلاف وشردهم إلى الصحراء، وشارف السلطان أبا العباس أحمد بمجموعة من العرب وزناته، ويعثوا إلى والي سلفهم ونزار بن عريف بمكانه من قصر مرادة الذي اختطه بملوية فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق فاجتمعوا بوادي النجا.

وحضر لعقدهم واتفاقهم وحلفهم على اتصال اليد على عدوهم ومنازلته بالبلد الجديد حتى تمكن الله إليه منه وارتحلوا بزحفهم إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وسبعمئة وبرز إليهم الوزير بعساكره فدارت الحرب وحسي الوطيس واشتد القتال ملياً.

ثم زحف إليه العسكران بساقتهم وأكثهما فاختلف مصافه وانهزمت جيوشه وجموعه وأحيط به، وخلص إلى البلد الجديد بعد عصب بالريق.

وأضرب السلطان أبو العباس معسكره بكدية العرائس، ونزل الأمير عبد الرحمن بأزائه، وضربوا على البلد الجديد سياجاً بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب.

ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر من الرجالة الإندلسية.. حصارها، واحتكموا في ضياع ابن الخطيب بفاس، فهدموها وعاثوا فيها.

ولما كان فاتح سنة ست وسبعين وسبعمئة داخل محمد بن عثمان ابن عمه أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان، لما كان الحصار قد اشتد به وئس من الصرخ، وأعجزه المال فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجاني عن أعمال

ومما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا لوعده ونحن صموت
وأفاناسنا سكنت دفعةً كجهر الصلات تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً وكنا نقوت فيها نحن قوت
وكنا شمس سماء العلا عربن فباحث علينا السمون
فكم جدلت ذا الحسام الظبا وذو البحث كم جدلته
وكم سيق للقبر في خرقه فتى ملئت من كسائه
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات فمن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم له فقل يفرح اليوم من لا يموت

الخبر عن إجازة سليمان بن داود الأندلس ومقامه بها إلى أن هلك

كان سليمان بن داود هذا منذ عضته الخطوب واختلفت
عليه النكايات يروم الفرار بنفسه إلى الأندلس للمقامة مع الغزاة
المجاهدين من قومه.

ولما استقر السلطان ابن الأحمر بفاس عند خلعه ووفادته
على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة داخله
سليمان بن داود في تأمل الكون عنده، فعاهده على ذلك وأن
يقدمه على الغزاة المجاهدين.

فلما عاد إلى ملكه وفد عليه سليمان بن داود بفرناطة في
سبيل السفارة عن عمر بن عبد الله سنة ست وستين وسبعمائة
وأن يؤكد عقده من السلطان، فحال دون ابن الخطيب وثنى رأي
السلطان عن ذلك بأن شياخة الغزاة مخصوصة بأعياص الملك من
بني عبد الحق لمكان عصابتهم بالأندلس، فأخفق أمل سليمان
حيثئذ وحدها على ابن الخطيب ورجع إلى مرسله، ثم كانت
نكبته أيام السلطان عبد العزيز فلم يخلص منها إلا بعد مهلكه،
أطلقه أبو بكر بن غازي الأمر من بعده، ليمتضد بمكانه على شأنه.

فلما اشتد الحصار على ابن غازي خرج عنه سليمان ولحق
بالسلطان أبي العباس ابن المولى أبي سالم بمكانه من ظاهر البلد
الجديد، فكان ذلك من أسباب الفتح، ولما دخل السلطان إلى دار
ملكه من البلد الجديد فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة
واستوسق أمره، رفع مجلس سليمان وأحله محل الشورى، واعتضد
به وزيره محمد بن عثمان واستخلصه كما ذكرناه.

عندما بوع بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نمي إليه
عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس.

فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبو
بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولاذ منه
بالخصار، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه،
فلما استولى السلطان على البلد الجديد أقام أياماً، ثم أغراه
سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن
وطبروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود
شديد العداوة لابن الخطيب بما كان سليمان بن داود قد بايعه
السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس، متى أعاده الله
إلى ملكه.

فلما استقر له سلطانه أجاز إليه سفيراً عن عمر بن عبد الله
ومقتضياً عهده من السلطان.

فصده ابن الخطيب عن ذلك بأن تلك الرياسة لأعياص
الملك من آل عبد الحق، لأنهم يعسوب زناتة فرجع سليمان يائساً
وحقد ذلك لابن الخطيب.

ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع
بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفس كل واحد منهما بصاحبه بما
يحفظه لما كمن في صدورهما.

وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن
الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله بن
زمر، فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب
بالشورى في مجلسه الخاصة وأهل الشورى، وعرض عليه بعض
كلمات وقعت له في كتابته، فعظم عليه التكبر فيها فويخ ونكل
وامتنح بالعباد بمشهد ذلك الملأ من الناس تل إلى محبسه،
واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى
بعض الفقهاء فيه ودرس سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد من
حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانقة جاؤوا في لفيق
الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في محبسه،
وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح
من الغد على شافة قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد وأضرمت
عليه ناراً، فاحترق شعره واسود بشره، فأعيد إلى حفرة، وكان في
ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه الشتماء التي جاء بها
سليمان واعتدوها من هنائه وعظم التكبر فيها عليه وعلى قومه
وأهل دولته، والله الفعال لما يريد وكان عفا الله عنه أيام امتحانه
بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فتجيش هواتفه لشعر ييكى نفسه

عنه من المنافسة، فخاطب السلطان ابن الأحمر من وراء البحر ولاطفه بالتحف والهدايا.

فكتب إلى ابن عمه محمد بن عثمان يحضه على إعادته إلى مكانه دفعاً لغوائله، غابى من ذلك، وداخله ونزمار بن عريف في بعضها كذلك، فلج في الامتناع وعمل سلطانه على نبذ العهد إلى أبي بكر بن غازي، فتكر له وأجمع المسير إليه بعساكر العرب، فخرج من فاس سنة تسع وسبعين وسبعائة وبلغ الخبر إلى أبي بكر بن غازي فاستجاش بالعرب وأستحثهم للوصول، فوصل إليه الأحلاف من المقل، وسرب فيهم أمواله، وخرج من غساسة فالتقى بينهم، وعمد إلى بعض العرب الطائرين فنصبه للامر مشبهاً ببعض أولاد السلطان أبي الحسن.

وزحف إليه السلطان حتى نزل بتازي، فأجفلت أحياء العرب أمام العساكر من بني مرين والجن، ولجأ ابن غازي منهم ندمائه.

ثم داخله ونزمار بن عريف في الإذعان للسلطان عن شق الخلاف، فأجاب ووصل به إلى سدة الملك، فبعث به السلطان محتاطاً عليه إلى فاس فاعتقل بها.

ونزلت مقدمات العساكر بوادي ملوية، وداخل صاحب تلمسان منها رعب، فأوفد على السلطان من قومه وكبار مجلسه ملاطفاً ومدارياً، فتقبل منه وعقد له السلم، وأصدر به كتابه وعهده بخطه، وانكفاً راجعاً إلى حضرته بعد أن بعث العمال في تلك النواحي على جبايتها، فجمعوا له منها ما رضي.

ولما احتل بدار ملكه، أنفذ أمره بقتل أبي بكر بن غازي فقتل بحبسه طعناً بالخنجر وذهب مثلاً في الأيام، واستوسق للسلطان أمره.

وأحكم العقد مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب مراكش واتصل بينهما، وترددت المهادة بينهما بعض إلى بعض، وإلى صاحب الأندلس وإليهما منه فامتألت المغرب هدنة وأمناء، وانبعثت الآمال بساطاً وغبطة والحال متصلة على ذلك لهذا العهد آخر سنة إحدى وثمانين وسبعائة أيام إشرافنا على هذا التأليف، والله مقدر الليل والنهار.

وكان يرجع إلى رأيه وهو في خلال ذلك يحاول اللحاق بالأندلس، فكان من أول أمره التقرب إلى السلطان ابن الأحمر بإغراء الوزير محمد بن عثمان بقتل ابن الخطيب مشنونه، فتم ذلك لأول الدولة.

وجرت الأمور بعدها على الاعتمال في مرضاته إلى أن حاول السفارة إليه في أغراض سلطانه، سنة ثمان وسبعماية في صجة ونزمار بن عريف، فلقاهما السلطان ابن الأحمر بما يتلقى به أمثالهما وأغرب في تكرمتهما.

وأما ونزمار فانقلب راجعاً لأول بداية الرسالة، اقتضى من السلطان خطه لقواد أسطوله بتسهيل الإجازة متى رامها.

وخرج يتصيد فلحق بمرسى مائقة ودفع أمر السلطان بخطه إلى قائد الأسطول، فأجازه إلى سبتة ولحق بمكانه.

وأما سليمان فاعتزم على المقام عند ابن الأحمر وأقام هنالك خالصة ونخباً ومشاوراً، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعماية.

الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه إلى مابرة ثم رجوعه وانتقاضه بعد ذلك ومهلكه

لما اشتد الحصار بالوزير أبي بكر بن غازي وفنيت أمواله وأموال السلطان، وظن أنه أحيط به، داخله الوزير محمد بن عثمان من مكانهم بحصاره بالنزول عن البلد على الأمان والإبقاء فأجاب وخرج إلى السلطان أبي العباس بن أبي سالم، فعقد له أماناً بخطه، ونحو إلى داره بفاس وسلم سلطانه المنصوب للأمر، فتسلمه منه الوزير محمد بن عثمان، واشتد في الاحتياط عليه إلى أن بعثه إلى السلطان ابن الأحمر، فكان في جملة الأبناء عنده، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار ملكه واقتعد سريره ونفذت في الممالك أوامره.

وأقام أبو بكر بن غازي على حاله بداره والخاصة بياكرونة والنفوس منظوية على تأمليه، فغض به أهل الدولة وترددت فيه السعاية، وتقبض عليه السلطان وأشخصه إلى غساسة، وركب منها السفين إلى مابرة آخر ست وسبعين وسبعائة فأقام بها شهراً ومخاطباته مترددة إلى الوزير محمد بن عثمان.

ثم عطفته عليه رحم، فأذن له في القدوم على المغرب والمقامة بغساسة فقدمها أوائل سنة سبع وسبعين وسبعائة واستبد بإمارتها، وبدا له رأي في تأميل الرتبة وظهر ما كان يخفيه لابن

الخبر عن انتفاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزموور ومقتل عاملها حسون بن علي

كان علي بن عمر كبير بني ورتاجن وشيخ بني ويغلان منهم، قد تحيز إلى الأمير عبد الرحمن منذ إجازته من الأندلس واستيلائه على تازي ثم زحفه إلى حصار البلد الجديد مع السلطان أبي العباس كما مر.

فوصل في جملة إلى مراكش، وكان صاحب شوره وكبير دولته.

وكان يضطغن على خالد بن إبراهيم المبدازي شيخ حاحة من قبائل المصامدة ما بين مراكش وبلاد السوس، وقد كان علي بن عمر انتفض على ابن غازي الوزير المستبد بعد السلطان عبد العزيز، ولحق بالسوس.

ومر بخالد بن إبراهيم هذا فاعترضه في طريقه وأخذ الكثير من أثقاله ورواحله، وخلص هو إلى منجاته بالسوس، وقد حقق ذلك لخالد.

ثم بعث عن شيوخ المعقل عندما أجاز الأمير عبد الرحمن من الأندلس إلى نواحي تازي يروم اللحاق بهم، فوفدوا عليه.

وسار معهم إلى أحيائهم وأقام معهم وهو في طاعة الأمير عبد الرحمن ودعوته إلى أن اتصل به بين يدي حصاره البلد الجديد مع السلطان أبي العباس.

فلما فتح السلطان البلد الجديد أول سنة ست وسبعين وسبعماية واستولى على ملكهم بها، وفصل عبد الرحمن إلى مراكش كما كان الوفاق بينهم، وسار علي بن عمر في جملة الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، واستأذنه في قتل خالد صاحبه، فلم يأذن له، فأحفظه ذلك وطوى عليه، وبعد أيام صعد إلى جبل وريكة في غرض من أغراض الدولة، وتقدم إلى حافده عامر ابن ابنه محمد بقتل خالد، فقتله في بعض الأيام بظاهر مراكش، ولحق بجده علي بن عمر بوريقة، فتلطف له الأمير عبد الرحمن وأرسله بالملاينة والاستعطاف.

ثم ركب إليه بنفسه واستخلصه ونزل به إلى مراكش فأقام معه أياماً.

ثم ارتاب ولحق بأزموور وعاملها يومئذ حسون بن علي

الصيحي وأغراه بالإجلاب على عمل مراكش، وزحفوا جميعاً إلى عمل صنهاجة.

وسرح الأمير عبد الرحمن لمداغتهم كبير دولته يومئذ وابن عمه عبد الكريم بن عيسى بن سليمان بن منصور بن بني مالك، وهو عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، فخرج في العساكر ومعه منصور مولى الأمير عبد الرحمن، فلقوا علي بن عمر وهزموه وأخذوا سواده، ونجا إلى أزموور، ثم وفد هو وحسون بن علي إلى السلطان بفاس.

ووقعت أثناء ذلك المراسلة بين السلطانتين، واتعقد بينهما الصلح.

فأقام علي بن عمر بفاس ورجع حسون بن علي إلى مكان عمله بأزموور، ثم انتفض ما بين السلطانتين ثانياً.

وكان للأمير عبد الرحمن أخوان من ولد محمد بن يعقوب بن حسان الصيحي وهما علي وأحمد، جرثوما بغى وفساد، وعدا على كبيرهما علي ابن عمه علي يعقوب بن علي بن حسان فقتله، واستعدى أخوه موسى عليه السلطان فأعداه.

وأذن له أن يثار منه بأخيه فيقتله فجزع لذلك أحمد أخو علي، وهم بقتل موسى، فاستجار موسى بيعقوب بن موسى بن سيد الناس كبير بني ونكاسن، وصهر الأمير عبد الرحمن.

وأقام أياماً في جواره، ثم هرب إلى أزموور فلفحت نار الفتنة.

ونهب الأمير عبد الرحمن إلى أزموور فلم يطق حسون بن علي دفاعه فملكها عليه وقتله واستباحها.

وبلغ الخبر إلى السلطان بفاس فنهض في عساكره وانتهى إلى سلا.

ورجع الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، وسار السلطان في اتباعه حتى نزل بفحص أكلميم قريباً من مراكش، وأقام هنالك نحواً من ثلاثة أشهر والقتال يتردد بينهم.

ثم سعى بين السلطانتين في الصلح، فاصطلحا على حدود العمالات أولاً، وانكفا صاحب فاس إلى بلاده.

وبعث الحسن بن يحيى بن حسون الصنهاجي عاملاً على الثغر بأزموور، فأقام بها، وكان أصله من صنهاجة أهل وطن أزموور، وله سلف في خدمة بني مرين منذ أول دولتهم، وكان أبوه يحيى في دولة السلطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزموور وغيرها.

وهلك في خدمته بتونس أيام مقام السلطان بها، وترك ولده

حدوداً بين الدولتين ووادي أم ربيع.

واستمر صاحب فاس على الإباية من ذلك، فنهض الأمير عبد الرحمن من مراكش، ودخل الحسن بن يحيى في طاعته فملكها، وبعث مولاه منصوراً في العساكر إلى أنف فاستولى عليها وصادر أعيانها وقاضيتها وواليها وبلغ الخبر إلى السلطان، فنهض من فاس في عساكره، وانتهى إلى سلا، فهرب منصور من أنف وتركها.

ولحق بمولاه عبد الرحمن فأجفل من أزمور إلى مراكش، والسلطان في أثره حتى انتهى إلى قطرة الوادي، على غلوة من البلد، وأقام خمسة أشهر يحاصرها، واتصل الخبر بالسلطان ابن الأحمر صاحب الأندلس، فبث خالسته الوزير أبا القاسم ابن الحكيم الرندي ليعقد الصلح بينهما، فعقده على أن استرهن السلطان أولاد الأمير عبد الرحمن وحافدا أبي الحسن، وانكفاً السلطان راجعاً إلى سلا.

ولحق به جماعة من جملة الأمير عبد الرحمن من بني مريـن وغيرهم، نزعوا عنه، وكان منهم أحمد بن محمد بن يعقوب الصبيحي لقي في طريقه مولى الأمير عبد الرحمن، جاء به مكرهاً إلى السلطان.

وكان من النازعين أيضاً يعقوب بن سيد الناس كبير بني ونكاسن، وأبو بكر بن رحو بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومحمد بن مسعود الإدريسي وزيان بن علي بن عمر الوطاسي وغيرهم من المشاهير.

وقدموا على السلطان بسلا فتقبلهم وأحسن كرامتهم، ورحل راجعاً إلى فاس. والله أعلم.

انتقاض علي بن زكريا شيخ المهاجرة على

الأمير عبد الرحمن وقتكه بمولاه منصور

ومقتل الأمير عبد الرحمن

لما رجع السلطان إلى فاس وبدا من الخلل في دولة الأمير عبد الرحمن وانتقاض الناس عليه ما قدمناه، نزح يده ممن التعويد على العساكر، وشرع في تحصين البلد. وضرب الأسوار على القسبة وحفر الخنادق وتبين بذلك اختلال أمره.

وكان علي بن زكريا شيخ هسكورة كبير المصامدة في دعوته منذ دخل مراكش فتلافى أمره مع صاحب فاس، ومد إليه بدأ من

يستعملون في مثل ذلك، ونزع الحسن هذا منهم إلى الجندية فلبس شارتها وتصرف في الولاية المناسبة لها، واتصل بخدمة السلطان أبي العباس لأول بيعته بطنجة.

وكان يومئذ عاملاً بالقصر الكبير فدخل في دعوته وصار في جلته، وشهد معه الفتح واستعمله في خطط السيف، حتى ولاه أزمور هذه الولاية فقام بها كما ذكرناه.

وأما الصبيحيون فالخبر عن أوليتهم أن جدهم حسان من قبيلة صبيح من أفريق سويد، جاء مع عبد الله بن كندوز الكمي من بني عبد الواد حين جاء من تونس وأفداً على السلطان يعقوب بن عبد الحق إليه بتجنّد كما مر، وكان حسان من رعاة إله.

فلما استقر عبد الله بن كندوز بناحية مراكش وأقطعاه السلطان يعقوب في أعمالها، وكان الظهر الذي يحمل عليه السلطان متفرقاً في شاية المغرب، فجمعه وجعله لنظر عبد الله بن كندوز، فجمع له الرعاة وكبيرهم يومئذ حسان الصبيحي، فكان يباشر السلطان في شأن ذلك الظهر ويطلعه في مهماته، فحصلت له بذلك مداخلة وأجتلبت إليه الخط، حتى ارتفع وكبر.

ونشأ ولده في ظل الدولة وعزها وتصرفوا في الولايات فيها، وانفردوا بالشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات، وكان لحسان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم، ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم في ولده، وهم لهذا العهد متصرفون في الدولة على ما كان سلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل، ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة، والله أعلم.

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب

مراكش ونهوض صاحب فاس إليه

وحصاره ثم عودهما إلى الصلح

لما رجع السلطان إلى فاس على ما استقر من الصلح، طلب الأمير عبد الرحمن أن يدخل عمالة صنهاجة ودكاكة في أعماله، وكتب السلطان إلى الحسن بن يحيى عامل أزمور وتلك العمالة بأن يتوجه إليه ويسد المذاهب دونه في ذلك.

وكان الحسن بن يحيى مضطغناً على الدولة، فلما وصل إليه داخله في الخلاف وأن يملكه تلك العمالة، فازداد الأمير عبد الرحمن بذلك قوة على أمره، وتعلل على صاحب فاس بأن يكون

أعمال المغرب، وظفر بعدوه ودفع النازعين عن ملكه، والله أعلم.

طاعته.

اجلاب العرب على المغرب في مغيب

السلطان بقرية من ولد أبي علي وبأبي

تاشفين بن أبي هو صاحب تلمسان ومجيء

أبي هو على أثرهم

كان أولاد حسين من عرب المعقل مغالين على السلطان

من قبل مسيره إلى مراكش.

وكان شيخهم يوسف بن علي بن غانم قد حدثت بينه وبين

الوزير القائم على الدولة محمد بن عثمان منافرة وفتنة.

وبعث العساكر إلى سجلماسة، فحرب ما كان له بها من

العقار والأملك، وأقام متقضاً بالفقر.

فلما حاصر السلطان الأمير عبد الرحمن بمراكش وأخذ

بمخفته أرسل أبا العشائر ابن عمه منصور إلى يوسف بن علي

وقومه، ليجلبوا به على المغرب ويأخذوا بحجزة السلطان عن

حصاره، فسار لذلك ولما قدم على يوسف سار به إلى تلمسان

مستجيباً بالسلطان أبي هو لذلك القصد، بما كان بينه وبين الأمير

عبد الرحمن من العهد على ذلك.

فبعث أبو هو معهم ابنه أبا تاشفين في بعض عساكره،

وسار في الباقيين على أثرهم.

وسار أبو تاشفين وأبو العشائر إلى أحياء العرب، فدخلوا

إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها.

وكان السلطان عند سفره إلى مراكش استخلف على دار

ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجنود.

واستجد بونزمار بن عريف شيخ سويد وولي الدولة المقيم

بأحيائه بنواحي ملوية، فخالف بين العرب المعقل واستألف منهم

العمارة والنبات وهم الأحلاف واجتمع مع علي بن مهدي،

وساروا لمداغمة العدو بنواحي مكناسة فصدوهم عن مرامهم

ومنعوهم من دخول البلاد فأقاموا متواقين أياماً.

وقصد أبو هو في عسكره مدينة تازي وحاصرها سبعا،

وخرب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت.

وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل

الأمير عبد الرحمن، فأجفلوا من كل ناحية.

ثم انتقض على الأمير عبد الرحمن ودخل في دعوة

السلطان، وبعث إليه الأمير عبد الرحمن مولاه منصوراً يستألفه،

فأرصد إليه في طريقه من حاشيته من قتله، ثم بعث برأسه إلى

فاس، فنهض السلطان في عساكره إلى مراكش.

واعتصم الأمير عبد الرحمن بالقصبة وقد كان أفرادها عن

المدينة بالأسوار.

وخذلق عليها فملك السلطان المدينة ورتب على القصبة

المقاتلة من كل جهة، ونصب الآلة وأدار عليها من جهة المدينة

حائطاً وأقام يحاصرها سبعة أشهر يغادها بالقتال ويرأوها.

وكان أحمد بن محمد الصبيحي من الذين بوئوا المقاعد

لقتالها، فهم بالانتقاض وحدثه نفسه بغدرة السلطان والتوثب به.

وسعى بذلك إلى السلطان، فتقبض عليه وحبسه.

وبعث السلطان بالنفير إلى أعماله فتوافت الأمداد من كل

ناحية، وبعث صاحب الأندلس إليه مدداً من العسكر.

فلما اشتد الحصار بالأمير عبد الرحمن ونفذت الأقوات،

وأيقن أصحابه بالهلاك، وأهمتهم أنفسهم.

فهرب عنه وزيره نحو بن العلم من بقية محمد بن عمر شيخ

المسكرة والمصامدة لعهد السلطان أبي الحسن وابنه، وقد مر ذكره.

فلما لحق هذا بالسلطان وعلم أنه إنما جاء مضطراً قبض

عليه وحبسه.

ثم انفض الناس عن الأمير عبد الرحمن ونزلوا من الأسوار

ناجين إلى السلطان.

وأصبح في قصبته منفرداً، وقد بات ليلته يراوض ولديه

على الاستماتة وهما: أبو عامر وسليم.

وركب السلطان من الغد في التعية وجاء إلى القصبة

فاتحها بمقدمته، ولقيهم الأمير عبد الرحمن وولده بأسارك

الميدان الذي بين أبواب دورهم، فجالوا معهم جولة قتل فيها هو

وولده، تولى قتلهم علي بن إدريس الشالقي وزيان بن عمر

الوطاسي وطالما بما كان زيان يمتري يدي نعمهم ويحر ذيله خيلاء

في جاههم، فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء، والله لا

يظلم مثقال ذرة.

وكان ذلك خاتم جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين

وسبعمائة.

ثم رحل السلطان متقلباً إلى فاس، وقد استولى على سائر

إجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس إلى المغرب واستيلائه على الملك وظفره بآبن عمه السلطان أبي العباس وإزعاجه إلى الأندلس

وخرج أولاد حسين وأبو العشائر وأبو تاشفين والعرب
الأحلاف في اتباعهم، وأجل أبو حمو عن تازي راجعاً إلى تلمسان
ومر بقصر ونزمار في نواحي بطوية المعروف بمراة، فهدمه ووصل
السلطان إلى فاس وقد تم له الظهور والفتح إلى أن كان ما ذكره
إن شاء الله تعالى.

نهوض السلطان إلى تلمسان وفتحها وتخريبها

كان السلطان لما بلغه ما فعل العرب وأبو حمو بالمغرب لم
يشغله ذلك عن شأنه، ونقم على أبي حمو ما آتاه من ذلك، وأنه
نقض عهده من غير داع إلى التقصص.
فلما احتل بدار ملكه بفاس أراح أياماً، ثم أجمع عزمه على
النهوض إلى تلمسان.

وخرج في عساكره على عادتهم وانتهى إلى تاوريرت.
وبلغ إلى أبي حمو، فاضطرب في أمره واعتزم على الحصار،
وجمع أهل البلد عليه واستعدوا له.
ثم خرج في بعض تلك الليالي بولده وأهله وفي خاصته،
وأصبح غميماً بالصفصف وانقض أهل البلد إليه بعضهم بعياله
ولده مستمسكين به، متفادين من مرة هجوم عساكر المغرب ولم
يزعه ذلك عن قصده، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء.
ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني بو سعيد قريباً من شلف،
وانزل ولده الأصغر وأهله بحصن تاجمومت.
وجاه السلطان إلى تلمسان فملكها واستقر بها أياماً.

ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها، بإغراء وليه ونزمار
جزاء بما فعله أبو حمو في تخريب قصر تازروت وحصن مراة.
ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمو، ونزل على مرحلة
منها.

وبلغه الخبر هنالك بإجازة السلطان موسى ابن عمه أبي
عنان من الأندلس إلى المغرب وأنه خالقه إلى دار الملك، فانكفاً
راجعاً وأغذ السير إلى المغرب كما نذكر.
ورجع أبو حمو إلى تلمسان واستقر في ملكه بها، كما تقدم
في أخباره.

قد تقدم أن السلطان محمد بن الأحمر المخلوع، كان له تحكم
في دولة السلطان أبي العباس بن أبي سالم صاحب المغرب بما كان
من إشارته على محمد بن عثمان ببيعته وهو معتقل بطنجة، ثم بما
أمده من مدد العساكر والأموال، حتى تم أمره واستولى على البلد
الجديد كما قدمناه في أول خبره، وبما كان له من الزيون عليهم
بالقربة المرشحين الذين كانوا معتقلين بطنجة مع السلطان أبي
العباس من أسباط السلطان أبي الحسن من ولد أبي عنان وأبي
سالم والفضل وأبي عامر وأبي عبد الرحمن وغيرهم.

وكانوا متعاهدين في معتقلهم أن من أتاح الله له الملك
منهم فيخرجهم من الاعتقال ويميزهم إلى الأندلس.

فلما بويع السلطان أبو العباس وفي لهم بهذا العهد
وأجازهم، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر أكرم نزل، أنزلهم
بقصور ملكه بالحمرأ وقرب لهم المراكب، وأفاض عليهم العطاء
ووسع لهم الجرايات والأرزاق وأقاموا هنالك في ظل ظليل من
كنفه فكان له بهم زيون على ملك المغرب وكان الوزير القائم بها
محمد بن عثمان يقدر له قدر ذلك كله فيجري في أغراضه
وقصوده وتحكمه في الدولة ما شاء الله أن يحكمه، حتى توجهت
الوجوه إلى ابن الأحمر وراء البحر من شيوخ بني مرين والعرب،
وأصبح المغرب كائنه من بعض أعمال الأندلس.

ولما نهض السلطان إلى تلمسان خاطبوه وأوصوه بالمغرب،
وانزل محمد بن عثمان بدار الملك كاتبه محمد بن الحسن، كان
مصطنعاً عنده من بنية شيع الموحدين ببجاية، فاخصه ورقاه
واستخلفه في سفره هذا على دار الملك.

فلما انتهوا إلى تلمسان وحصل له من الفتح ما حصل،
كتبوا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر مع شيطان من ذرية عبو بن
قاسم المزود كان بدارهم وهو عبد الواحد بن محمد بن عبو كان
يسمو بنفسه إلى العظام التي ليس لها بأهل ويتريص لذلك
بالدولة.

وكان ابن الأحمر مع كثرة تحكمه فيهم يجني عليهم بعض
الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون

عنها وليجة، فيضطغن لهم ذلك.

مع العرب أو قصد المغرب.

فلما قدم عليه عبد الواحد هذا بخبر الفتح وقص عليه القصص، دس له أن أهل الدولة مضطربون على سلاطنتهم ومستبدلون به لو وجدوا، وأبلغ من ذلك ما حل ولم يحمل.

ثم استمر عزمه، ونازل بتازي وأقام بها أربعاً، وتقدم إلى الركن، وأهل دولته خلال ذلك يخوضون في الانتقاض عليه ميلاً إلى ابن عمه السلطان موسى المستولي على فاس، ويوم أصبح من الركن مرتحلاً أرجفوا به، ثم انفضوا عنه طوائف قاصدين فاس، ورجع هو إلى تازي بعد أن انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه وخزائنه.

وأشار له بخلاء المغرب من الحامية جملة وأن دار الملك ليس بها إلا كاتب حضري لا يحسن المدافعة، وهو أعرف به، فانتهاز ابن الأحمر الفرصة وجهز موسى ابن السلطان أبي عنان من الأسباط المقيمين عنده.

ثم صبح تازي من ليلته فدخلها، وعاملها يومئذ الخير من موالى السلطان أبي الحسن.

واستوزر له مسعود بن رحو بن ماساي من طبقة الوزراء من بني مرين ومن بني فودود من أحلافهم.

وذهب محمد بن عثمان إلى ولي الدولة ونزمار بن عريف وأمراء المغرب من المقل.

وله في ذلك سلف وقد كان بعثه من قبل وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن حين أجاز إلى المغرب أيام استبداد أبي بكر بن غازي، فلم يزل معه حتى كان حصار البلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليها.

ولما دخل السلطان أبو العباس إلى تازي كتب إلى ابن عمه السلطان موسى يذكره العهد بينهما، وقد كان السلطان ابن الأحمر عهد إليه أن يبعث به إليه إن ظفر به، فبادر السلطان موسى باستدعائه مع جماعة من وجوه بني عسكر، أهل تلك الناحية، وهم زكريا بن يحيى بن سليمان ومحمد بن سليمان داود بن عراب، ومعهم العباس بن عمر الوستاني فجاءوا به وأنزلوه بالزاوية بغدير الحمص من ظاهر فاس، فقيده هنالك ثم بعثه إلى الأندلس موكلاً به مع عمر بن رحو أخي الوزير مسعود بن ماساي.

وذهب الأمير عبد الرحمن إلى مراکش فاستأذنه مسعود في الانصراف إلى الأندلس، فأذن له ورجع عنه إلى فاس.

واستصحب معه ابنه أبا فارس وترك سائرهم بفاس وأجاز البحر من سبتة فأنزله السلطان ابن الأحمر بقلعة ملكه الحمراء، وفك قيوده ووكّل به، ووسع له الجراية وأقام هنالك محتطاً به إلى أن كان ما تذكره إن شاء الله تعالى.

ثم فارقهم وأجاز إلى الأندلس متودعاً ومتودداً للكل ومعولاً على ابن الأحمر، فتلقاه بالقبول وأوسع له بالنزول والجراية وخلطه بنفسه وأحضره مع ندمائه، ولم يزل كذلك إلى أن جهزه وزيراً للمغرب مع موسى ابن السلطان أبي عنان وبعث معهم عسكرياً، ثم ركب معهم السفين إلى سبتة وكانت بينه وبين، شرفائها ورؤساء الشورى بها مداخلة، فقاموا بدعوة السلطان موسى وأدخلوه وقبضوا على عاملها رحو بن الزعيم المكديلي وجاءوا به إلى السلطان فملكها غرة صفر من سنة ست وثمانين وسبعمائة وسلمها إلى ابن الأحمر، فدخلت في طاعته وسار هو إلى فاس، فوصلها لأيام قريبة، وأحاط بدار الملك، واجتمع إليه الغوغاء، ونزل الدهش بمحمد بن الحسن فبادر بطاعته.

نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله

أصل هذا الوزير من بني الكاس إحدى بطون بني ورتاجن، وكان بنو عبد الحق عندما تأثّلوا ملكهم بالمغرب يستعملون منهم في الوزارة.

ودخل السلطان موسى إلى دار الملك، وقبض عليه لوقتته، وذلك في عاشر ربيع الأول من السنة.

وربما وقعت بينهم وبين الحشم وبني فودود المختصين بالوزارة عندهم مزاحمة، أجازوا بسببها إلى الأندلس، وربما وقع بينهم هنالك وبين بني إدريس وبني عبد الله منافسات، قتلوا فما بعض بني الكاس، منهم في دولة السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن، وتهذب بالخلال ثم استوزره السلطان أبو الحسن بعد مهلك وزيره يحيى بن طلحة ابن علي بمكانه من حصار تلمسان، وقام بوزارته أعواماً، وحضر معه واقعة طريف سنة إحدى

وجاء الناس بطاعتهم من كل جانب، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس بمكانه من نواحي تلمسان بأن السلطان موسى قد نزل بسبتة، فجهز علي بن منصور ترجمان الجند النصاري ببابه مع طائفة منهم، وبعثهم حامية لدار الملك فانتهبوا إلى تازي وبلغتهم خبر فتحها فاقاموا هنالك.

وأغذ السلطان أبو العباس السير إلى فاس، فلقه خبر فتحها بتاوريرت فتقدم إلى ملوية وتردد في رأيه بين المسير إلى سجلماسة

وأربعين وسبعماية من هذه الماية، واستشهد فيها، ونشأ ابنه أبو بكر في ظل الدولة متمتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق، وكانت أمه أم ولد، وخلفه عليها ابن عمه محمد بن عثمان هذا الوزير، فنشأ أبوه بكر في حجره.

وكان أعلى رتبة منه بأولية أبيه وسلفه، حتى إذا بلغ أشده واستوى سمت به الخلال، وجالت أبصار الملوك في اختياره وترشيحه، حتى استوزره السلطان عبد العزيز كما قلناه.

وقام بوزارته أحسن قيام، وأصبح محمد بن عثمان هذا

رديفه.

وهلك السلطان عبد العزيز فنصب الوزير أبو بكر ابنه السعيد للملك صبيّاً لم يثغر، وكان من انتقاض أمره وحصاره بالبلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليه ما قدمناه، وقام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس مستبداً عليه، ودفع إليه أمور ملكه، وشغل بلذاته، فعانى محمد بن عثمان من أمور الدولة ما عاناه حتى كان من استيلاء السلطان موسى على ملكتهم ما مر.

وانفض بنو مرين عن السلطان أبو العباس وفارقه محمد بن عثمان إلى ولي الدولة ونزار بن عريف وهو مقيم بظاهر تازي، وتذمم له فتجهم له ونزار وأعرض عنه، فسار مغنّاً إلى أحياء المنبات من عرب المعقل.

كانوا هنالك قبلة تازي لذمة صحابة كانت بينه وبين شيخهم أحمد ابن عبو فنزل عليه متذمماً، فخادعه وبعث بخبره إلى السلطان، فجهز إليه عسكرياً مع المزوار عبد الواحد بن محمد بن عبو بن قاسم وزروق بن توقريط والحسن أوافو من الموالى فترا منه العرب وأسلموه إليهم، فجاؤوا به وأشهره يوم دخوله إلى فاس.

واعقل أياماً وامتحن في سبيل المصادرة حتى استصفى، ثم قتل ذبيحاً بمحبسه، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوراثين.

الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغمارة

ونهُوض الوزير ابن ماساي إليه بالعساكر

لما استقل السلطان موسى بملك المغرب وقام مسعود بن ماساي بوزارته مستبداً عليه، وكان من تفريبهم السلطان أبا العباس إلى الأندلس ونكتبهم وزيره محمد بن عثمان وقتلهم إياه

وبلغ الخبر إلى مسعود ابن ماساي بفاس، فجهز العساكر مع أخيه مهدي بن ماساي، فحاصرها بجبل الصفيحة أياماً، وامتنع عليهم، فتجهز الوزير مسعود بن ماساي بالعساكر لطلبه من دار الملك وساروا لحصاره، ثم رجع من طريقه لما بلغه من وفاة السلطان بعد والله أعلم.

وفاة السلطان موسى والبيعة للمنتصر ابن

السلطان أبي العباس

كان السلطان موسى لما استقل بملك المغرب استنكف من استبداد ابن ماساي عليه وداخل بطانته في الفتك به.

وأكثر ما كان يفادس في ذلك كاتبه وخالسته محمد ابن كاتب أبيه، وخالسته محمد بن أبي عمر.

وكان للسلطان موسى ندمان يطلعهم كل الكثير من أموره منهم العباس بن عمرو بن عثمان الوسناقي، وكان الوزير مسعود بن ماساي قد خلف أباه عمر على أمه وربي في حجر، فكان يدلي إليه بذلك، ويشي له بما يدور في مجلس السلطان في شأنه.

فحصلت للوزير بسبب ذلك نفرة طلب لأجلها البعد عن السلطان، وبادر للخروج لمداغة الحسن القائم بغمارة واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن رحو بن ماساي.

فلما انتهى إلى القصر الكبير لحقه الخبر بوفاة السلطان موسى، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة طرقة المرض فهلك ليوم وليلة حتى.

كان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمه، وبادر يعيش فنصب ابن أخيه للملك، وهو المنتصر ابن السلطان أبي العباس، وانكفأ الوزير مسعود راجعاً من القصر، وقتل السبيع محمد بن موسى بن إبراهيم موسى من طبقة الوزراء، وقد مر ذكره وذكر قومه، وكان اعتقله أيام السلطان موسى فقتله بعد وفاته،

واستمرت أمور الدولة في استقلاله والله أعلم.

إجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الأندلس والبيعة له بفاس

كان الوزير مسعود بن ماساي لما استوحش من السلطان موسى بعث ابنه يحيى وعبد الواحد المزوار إلى السلطان ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدو.

فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره، ودس للسلطان ابن الأحمر برده، وأن يبعث إليه بالواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من القرابة المقيمين عنده.

وراه أليق بالاستبداد والحجر، فأسعفه ابن الأحمر في ذلك، ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمر، وجاء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده وفي خلال ذلك وصل جماعة من أهل الدولة انتقضوا على الوزير مسعود، ولحقوا بسبته وأجازوا إلى السلطان ابن الأحمر وهم يعيش بن علي بن فارس الياباني وسيور بن يحياتن بن عمر الونكاسي وأحمد بن محمد الصبيحي، فرفع إليهم الواثق، ورجعوا به إلى المغرب على أنهم في خدمة الوزير، حتى إذا انتهوا إلى جبل زرهون المظلل على مكناسة أظهرها الخلاف على الوزير وصعدوا إلى قبائل زرهون واعتصموا بجبلهم.

ولحق بهم من كان على مثل دينهم من الخلاف على ابن ماساي وصاروا معهم يداً مثل طلحة بن الزبير الورتاجي وسيور بن يحياتن بن عمر الونكاسي ومحمد التونسي من بني أبي الطلاق وفارح بن مهدي من معلوجي السلطان، وأصله من موالي بني زيان ملوك تلمسان.

وكان أحمد بن محمد الصبيحي من حين جاء مع الواثق قد استطاع على أصحابه فأظهر الاستبداد بما كان من طائفة الجند المستخدمين، فغض به أهل الدولة وتبرأوا منه للسلطان الواثق، فأظهر لهم البراءة منه، فوثبوا به وقتلوه عند باب خيمة السلطان، وتولى كبر ذلك يعيش بن علي بن فارس الياباني كبير بني مرين، فذهب مثلاً في الغابرين، ولم تبق عليه سماء ولا أرض.

وكان رروق ابن توقريط من موالي بني علي بن زيان من شيوخ بني وانكاسن وكان من أعيان الدولة ومقدمي الجند، قد انتقض على الدولة أيام السلطان موسى ولحق بأحياء أولاد حسين

من عرب المعقل المخالفين منذ أيام السلطان موسى، ونزل على شيخهم موسى بن بن غانم لذمة صحابة بينهما من جوارهم في المواطن.

وكان معه في ذلك الخلاف محمد بن يوسف بن علال، كان أبوه يوسف من صنائع السلطان أبي الحسن، ونشأة دولته استوحشا من الوزير، فلحقا بالمغرب فلما جاء هذا السلطان الواثق قدما عليه، فلقيهما بالكرمة وأحلهم في مقامهما من الدولة، وخرج الوزير مسعود بن ماساي في العساكر، ونزل قبائلهم بجبل مغيلة وقتلهم هناك أياماً ودخل الذين مع الواثق واستمالهم.

وبعث عساكر إلى مكناسة فحاصروها، وكان بها يومئذ عبد الحق بن الحسن بن يوسف الورتاجي، فاستنزل منها وملكها، وترددت المراسلات بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبه للأمر.

وبعث بالمتصر المصوب عنده إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وانعقد الأمر بينهم على ذلك.

وسار الواثق في أصحابه إلى الوزير ابن ماساي فتزل عليه، ومضى يعيش بن علي بن فارس عنهم ذاهباً لوجهه.

وسار الوزير بالواثق إلى دار الملك، فبايعه في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعماية بعد أن اشترط عليه نفسه وأصحابه ما شاء.

وأجاز سلطانه المتصر إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وقبض على جماعة ممن كان مع الواثق مثل المزوار عبد الواحد وقتله، وعلى فارح بن مهدي وحبه، وعلى الخير مولى الأمير عبد الرحمن وأمتحنه، وعلى آخرين سواهم.

ثم قبض على جماعة من بطانة السلطان موسى كانوا يداخلونه في الفتك به، فحبسهم وقتل بعضهم.

وعلى جند الأندلس الذين جاؤوا مدداً للواثق، وعلى قوادهم من معلوجي ابن الأحمر فأودعهم السجن.

ثم قبض على كاتب السلطان موسى بن أبي الفضل بن أبي عمر مرجعه من السفارة عن سلطانه إلى الأندلس، فاعتقله وصادره ثم أخلى سبيله ثم بعث إلى الحسن بن الناصر الناصر بجبل الصفيحة من غمارة مع إدريس بن موسى بن يوسف الياباني، فخداعه باستدعائه للملك والبيعة له، فخدعه واستنزله وجاء به فاعتقله الوزير أياماً ثم أجازاه إلى الأندلس، واستقر الأمر على ذلك، والله أعلم.

الفتنة بين الوزير ابن ماساي وبين السلطان ابن الأحمر واجازة السلطان أبي العباس إلى سبته لطلب ملكها واستيلاؤه عليها

لما بلغ الوزير ابن ماساي للوائق ورأى أنه قد استقل بالدولة ودفع عنها الشواغب وصرف نظره إلى استرجاع ما فرط من أعمال الدولة، وافتتح أمره بسبته، كان السلطان موسى لأول إجازته أعطاها لابن الأحمر كما مر.

فبعث إليه الآن الوزير ابن ماساي في ارتجاعها منه على سبيل الملاطفة، فاستشاط لها ابن الأحمر ولج في الرد، فنشأت الفتنة لذلك، وجهاز ابن ماساي العساكر لحصار سبته مع العباس بن عمر بن عثمان الوسناني ويحيى بن علال بن أمصمود، والرئيس محمد بن محمد الأبكم من بني الأحمر.

ثم من بيت السلطان الشيخ فاتح أمرهم ومعه دولتهم، وراسل السلطان إشبيلية والجلالة من بني أدفونش وراء البحر، بأن يبعث إليهم ابن عم السلطان ابن الأحمر محمد بن إسماعيل مع الرئيس الأبكم ليجلبا من ناحيته على الأندلس.

وجاءت عساكر الوزير إلى سبته فحاصروها ودخلوها عنوة. واعتصم حامية الأندلس الذين كانوا بها بالقصبة، واتصلت الجولة بين الفريقين وسط البلد، وأوقد أهل القصبة النيران بالجبل علامة على أمرهم ليراهم ابن الأحمر، وكان مقيماً بمالقة، فبادر بتجهيز الأسطول مشحوناً بالمقاتلة مدداً لهم.

ثم استدعى السلطان أبا العباس من مكانه بالحمرء، وأركبه اسفين إلى سبته، فأصبح إلى القصبة في غرة صفر سنة تسع وثمانين وسبعماية وأشرف عليهم من الغد وناداهم من السور يدعوه إلى طاعته.

فلما رآه اضطربوا واقتربوا وخرج إليهم، فذهب سوادهم ودخلوا في طاعته متسائلين، ورجع جمهور العرب ومقدموهم إلى طنجة واستولى السلطان على مدينة سبته.

وبعث إليه ابن الأحمر بالتزول عنها، وردّها إليه فاستقرت في ملكه وكملت بها بيعته، وكان يولييه أمور الضيفان الواردين واللّه تعالى أعلم.

مسير السلطان أبي العباس من سبته لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماساي لدفاعه ورجوعه منهزماً

ولما استولى السلطان أبو العباس على سبته وتم له ملكها، واعتزم على السير لطلب ملكه بفاس، وأغراه ابن الأحمر بذلك ووعدّه بالمداد لما كان من مداخلة ابن ماساي لجماعة من بطانته في أن يقتلوه ويملكوا الرئيس الأبكم يقال: إن الذي داخله في ذلك من بطانة ابن الأحمر يوسف بن مسعود البلنسي، ومحمد ابن الوزير أبي القاسم بن الحكيم الرندي وشعر بهم السلطان ابن الأحمر وهو يومئذ على جبل الفتح يطالع أمور السلطان أبي العباس، فقتلهم جميعاً وإخوانهم.

ويقال: إن ذلك كان بسعاية القائم على دولته مولاه خالد، كان يغض بهم ويعاودهم، فاحتال عليهم بهذه.

وتحت سعائته بهم، فاستشاط ابن الأحمر غضباً على ابن ماساي، وبعث إلى السلطان أبي العباس يستنفره للرحلة إلى طلب ملكه، فاستخلف على سبته رحو ابن الزعيم المكودودي عاملها من قبل كما مر وسار إلى طنجة وعاملها من قبل الوائق صالح بن هو الياباني ومعه بها الرئيس الأبكم من قبل العساكر، فحاصرها أياماً وامتنعت عليه فجمر عليها عسكرياً وسار معها إلى أصيلا، فدخلت في دعوته وملكها.

ونفض الوزير ابن فاس في العساكر بعد أن استخلف أخاه يعيش على دار الملك وسار.

ولحقته مقدمته بأصيلا فنارقتها السلطان أبو العباس، وصعد إلى جبل الصفيحة، فاعتصم به وجاء الوزير ابن ماساي فتقدم إلى حصاره بالجبل، وجمع عليه رماة الرجل من الأندلس الذين كانوا بطنجة، وأقام يحاصره بالصفيحة شهرين.

وكان يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين من عرب المقل، مخالفاً على الوزير مسعود وداعية إلى السلطان أبي العباس وشيعة له، وكان يرأسل ابن الأحمر في شأنه.

فلما سمع باستيلائه على سبته وإقباله على فاس، جمع أشياعه من العرب، ودخل إلى بلاد المغرب ونزل ما بين فاس ومكناسة، وشن الغارات على البسائط واكتسحها، وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون، وكان وتزامر بن عريف ولي الدولة شيعة للسلطان، وكان يكاتبه وهو بالأندلس ويكتب ابن الأحمر في

فلما بلغ الخبر بوصول السلطان إلى سبتة واستيلائه عليها تطاولت رؤوس أوليائه إلى إظهار دعوته بجبل الهسكرة وشيخهم علي بن زكريا.

وبعث الوزير مسعود من مكانه في حصار السلطان بالصفيحة في إمداده بالعساكر من مراكش، فزحف إليه مخلوف بن سليمان الوارثي صاحب الأعمال ما بين مراكش والسوس، وقعد الباقون عن قصده وتفرقوا.

وصعد أبو ثابت حافد علي بن عمر إلى جبل الهسكرة ومعه يوسف بن يعقوب بن علي الصبيحي، فاستمد من علي بن زكريا ورجع إلى مراكش مجلباً على عمر بن رحو مناوشة القتال ساعة، ثم غلبه على البلد وملكها من يده ونزل بقصبة الملك، وحبس عمر بن رحو بها.

وكتب للسلطان بذلك، وهو بمكناسة متوجهاً إلى فاس، فكتب إليه بأن يصله بعساكر مراكش لحصار دار الملك فجمع العساكر واستخلف على قصبة مراكش بعض بني عمه ولحق بالسلطان، وأقام معه في حصار البلد الجديد، والله أعلم.

ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراكش واستقلاله بها

كان السلطان أبو العباس حين ملك المغرب بعث ابنه المنتصر في البحر إلى سلا واستوزر له عبد الحق بن الحسن بن يوسف فوصل إلى سلا وأقام بها، ومرو به زورق بن توقريط راجعاً من دكالة، وقد بلغه نزول السلطان على البلد الجديد، فتلطف في استدعائه، ثم قبض عليه وبعث به إلى أبيه مقيداً فأودعه السجن وقتل بعد ذلك في محبسه.

ثم بعث السلطان إلى ابنه المنتصر بولاية مراكش وأن يسير إليها فلما وصل امتنع النائب بالقصبة من أن يتمكن من البلد إلا أن يدخل إليه منفرداً عن أصحابه وبطانته وكان علي بن عبد العزيز شيخ هنتانة مدخلاً لنائب القصبة، فدس لعبد الحق وزير المنتصر أن النائب قد هم بقتله، وحينئذ تمكن المنتصر من القصبة.

فاجفل بالمنتصر وصعد إلى جبل هنتانة، وطير بالخير إلى السلطان، فتغير لأبي ثابت وأمره أن يكاتب نائبه بتمكين ابنه من القصبة.

واستوزر له سعيد بن عبدون وبعثه بالكتاب، وعزل عبد

شانه.

فلما اشتد الحصار على السلطان بالصفيحة، بعث ابنه أبا فارس إلى ونزمار بمكانه من نواحي تازي، وبعث معه سيور بن يحياتن بن عمر، فقام ونزمار بدعوته، وسار به إلى مدينة تازي، وعاملها سليمان بن بوجيه الفودوي من قرابة الوزير ابن ماساي.

فلما نزل به أبو فارس ابن السلطان بادر إلى طاعته، وأمكنه من البلد، فاستولى عليها واستوزر سليمان هذا.

وسار إلى صفروي ومعه ونزمار للاجتماع بعرب المعقل وأصافقهم على حصار فاس.

وكان محمد بن الدمعة عاملاً على ورغة، فبعث إليه السلطان عسكرياً مع العباس بن المقداد ابن أخت الوزير محمد بن عثمان فقتلوه وجاؤوا برأسه، ونجم الخلاف على يعيش نائب البلد الجديد من كل جهة، وطير يعيش بن ماساي النائب بدار الملك بالخبر بذلك كله إلى أخيه بمكانه من حصار السلطان بالصفيحة، فانفضت عنه العساكر وأجفل راجعاً إلى فاس.

وسار السلطان في أتباعه ودخل في طاعته عامل مكناسة، الخير مولى الأمير عبد الرحمن ولقيه يوسف بن علي بن غانم ومن معه من أحياء العرب، وساروا جميعاً إلى فاس.

وكان أبو فارس ابن السلطان قد رحل من تازي إلى صفروي للقاء أبيه، فاعترضه الوزير ابن ماساي في العساكر ورجا أن يفله.

ولقيه ببني بهلول فنزع أهل العسكر إلى أبي فارس ورجع الوزير منهزماً ودخل البلد الجديد، فاعتصم بها وبلغ خبره إلى السلطان وهو بمكناسة، فارتحل يغذ السير إلى فاس، وسار ابنه أبو فارس للقاءه على وادي النجا.

وصبحوا البلد الجديد فنزلوا عليه بجمعهم وقد اعتصم به الوزير في أوليائه وبطانته، ومعه يغمراسن بن محمد الثناقي ورهائن بني مرين الذين استرهنهم عند مسيره للقاء السلطان بأصيلا، والله أعلم.

ظهور دعوة السلطان أبي العباس في

مراكش واستيلاء أوليائه عليها

كان الوزير مسعود بن ماساي قد ولى على مراكش وأعمال المصامدة أخاه عمر بن رحو وكانت منتظمة في طاعته.

وزارة محمد بن هلال

كان أبوه يوسف بن هلال من نشأة الدولة وصنيعة السلطان أبي الحسن، وربى في داره.

ولما ضخم أمره سما به إلى ولاية الأعمال، فولاه على درعة فأثرى وأنجب وباهى أولياء الدولة، ثم ولاه السلطان أبو عنان أمر مطبخه ومائدته وضيوفه واستكفى في ذلك، وولاه أخوه أبو سالم بعده كذلك.

ثم بعثه إلى سجنلماسة فعانى بها من أمور العرب مشقة، وعزله عنها، فهلك بفاس وكان له جماعة من ولد قد نشأوا في ظل هذه النعمة، وحدثت النجاسة بمحمد منهم.

فلما ولي السلطان أبو العباس استعمله في أمور الضياف والمائدة كما كانت لأبيه، ثم رقاها إلى المخالصة وخلطه بنفسه، فلما خلع السلطان واستولى الوزير ابن ماساي على المغرب، وكانت بينه وبين أخيه يعيش بن ماساي إحن قديمة، فسكن لصلولتهم حتى إذا اضطربت نار الفتنة بالمغرب وأجلب عرب في المعقل الخلاف، واستوحش محمد هذا فلحق بأحيانهم مع زروق بن توفريط كما مر ذكره ونزلا على يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين، وأقاما معه في خلافه، حتى إذا أجاز السلطان الواصل من الأندلس ووصل مع أصحابه إلى جبل زرهون، وأظهروا الخلاف على الوزير ابن ماساي بادر محمد هذا وزروق إلى السلطان، ودخلا في طاعته متبرئين من النفاق الذي حملهم عليه عداوة الوزير ابن ماساي.

فما كان إلا أن انعقد الصلح بين الواصل وابن ماساي وسار به وبأصحابه إلى فاس، وحصلوا في قبضة ابن ماساي فعفا لهم عما كان منهم، واستعملهم في معهود ولايتهم.

ثم جاء الخبر بإجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة فاضطرب محمد بن يوسف وذكر لخالصة السلطان ومنافرة بني ماساي، فأجمع أمره ولحق بسبتة فتلقاء السلطان بالكرامة، وبر بمقدمه ودفعه إلى القيام بأمر دولته، فلم يزل متصرفاً بين يديه إلى أن نزل على البلد الجديد.

ولأيام من حصارها خلع عليه للوزارة ودفعه إليها، فقام بها أحسن قيام، ثم كان الفتح وانتظمت أمور الدولة، ومحمد هذا يصرف الوزارة على أحسن أحوالها إلى أن كان ما تذكره إن شاء الله تعالى.

الحق عن وزارة ابنه، واستدعاه إلى فاس، فوصل سعيد بن عبدون إلى مراکش، ودفع إلى النائب بالقصبة كتاب مستخلفه فأجاب إلى الامتثال، وأمكنه من القصبة واعتزل عنها فدخلها.

وبعث عن المنتصر ابن السلطان، واستولوا عليها، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شيعته وبطانته، وامتحنوهم واستصفوهم إلى أن كان ما تذكره إن شاء الله تعالى.

حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير

ابن ماساي ومقتله

لما نزل السلطان على البلد الجديد واجتمع إليه سائر قبيله وأوليائه وبطانته، داخل الوزير مسعود الحقن على وجوه بني مرسين لانتباذهم عنه.

وهم يقتل أبنائهم الذين استرهنهم على الوفاء له، فلاطفه يغمراسن السالفي في المنع من ذلك، فأقصر عنه وضيق السلطان تخفه بالحصار ثلاث أشهر حتى دعا إلى النزول والطاعة، فبعث السلطان إليه ولي الدولة ونزار بن عريف وخالصته محمد بن يوسف بن علال فعقد معهم الأمان لنفسه ولمن معه على أن يستمر على الوزارة ويبعث بسلطانه الواصل إلى الأندلس، واستحلفهم على ذلك وخرج معهم السلطان فدخل السلطان البلد الجديد خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعماية لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه.

ولحين دخوله قبض على الواصل وبعث به معتقلاً إلى طنجة وقتل بها بعد ذلك، ولما استوى على أمره قبض على الوزير ابن مسعود ليومين من دخوله وعلى إخوانه وحاشيته وامتحنهم جميعاً فهلكوا في العذاب.

ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه، ونقم عليه ما فعله في بدور بني مرسين النازعين إلى السلطان فإنه كان متى هرب منه أحد منهم يعمد إلى بيوته فينهبها ويحرقها فأمر السلطان بعقابها في أطلالها فكان يؤتى به إلى كل بيت منها، فيضرب عشرين سوطاً إلى أن أفحش فيه العذاب وتجاوز الحد.

ثم أمر به فقطع الثانية من الأربعة، فهلك عند قطع الثانية. فذهب مثلاً في الآخرين.

ظهور محمد بن السلطان عبد الحليم بسجلماصة

قد تقدم لنا ذكر السلطان عبد الحليم ابن السلطان أبي علي، وكان يدعى حلى كيف، بايع له بنو مرين وأجلبوا به على عمر بن عبد الله سنة ثلاث وستين وسبعمائة أيام يبعته للسلطان أبي عمر ابن السلطان أبي الحسن.

وحاصروا معه البلد الجديد حتى خرج لدفاعهم وقتلهم، فانهزموا واقتروا.

ولحق السلطان عبد الحليم بتازى وأخوه عبد المؤمن بمكناسة، ومعه ابن أخيهما عبد الرحمن بن أبي يفلوسن.

ثم بايع الوزير عمر بن عبد الله لحمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن واستبدل به من أبي عمر لما كان بنو مرين يرمونه به من الجنون والوسوسة، فاستدعى محمد بن أبي عبد الرحمن من مطروح اغترابه بإشيلية وبايع له وخرج في العساكر لمدافعة عبد المؤمن وعبد الرحمن عن مكناسة فلقهما وهزمهما ولحقا بالسلطان عبد الحليم بتازى وساروا جميعاً إلى سجلماصة فاستقروا فيها والسلطان لعبد الحليم، وقد تقدم خبر ذلك كله في أماكنه.

ثم كان الخلاف بين عرب المعقل أولاد حسين والأحلاف وخرج عبد المؤمن للإصلاح بينهم، فبايع له أولاد حسين ونصبوه كرهاً للملك.

وخرج السلطان عبد الحليم إليهم في جموع الأحلاف فقاتلوه وهزموه، وقتلوا كبار قومه، كان منهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي شيخ بني تريبغن وكبير دولة بني مرين، أجلت المعركة عن قتله، ودخل عبد المؤمن البلد منفرداً بالملك.

وصرف السلطان أخاه عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فرضه لرغبته في ذلك، فسار على طريق القفر مسلك الحاج من التكرور إلى أن وصل القاهرة، والمستبد بها يومئذ يلبغا الخاضكي، على الأشرف شعبان بن حسين من أسباط الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأكرم وفادته ووسع نزله وجرايته، وأدر لحاشيته الأرزاق، ثم أعانه على طريقه إلى الحج بالأزواد والآنية والظهر من الكراع والخف.

ولما انصرف من حجه زوده لسفر المغرب، وهلك بتروجه سنة سبع وستين وسبعمائة ورجع حاشيته إلى المغرب مجرمه وولده.

وكان ترك محمداً هذا رضيعاً، فشب متقبلاً من الدول من ملك إلى آخر، متبذراً عن قومه لغيرة بني السلطان أبي الحسن من بنى عمهم السلطان أبي علي.

وكان أكثر مما يكون مقامه عند أبي حمو سلطان بني عبد الواد بتلمسان لما يروم به من الأجلاب على المغرب، ودفع عادية بني مرين عنهم.

فلما وقع بالمغرب من انتفاض عرب المعقل على الوزير مسعود بن ماساي سنة تسع وثمانين وسبعمائة ما وقع واستمروا على الخلاف عليه، انتهز أبو حمو الفرصة، وبعث بمحمد بن علي بن عبد الحليم هذا إلى المعقل ليأجلبوا به على المغرب، ويمزقوا من ملكه ما قدروا عليه، فليحق بأحياهم ونزل على الأحلاف الذين هم أمس رهماً بسجلماصة وأقرب موطناً إليها.

وكان الوزير مسعود بن ابن ماساي قد ولى عليها من قرابته علي بن إبراهيم بن عبو بن ماساي، فلما ظهر عليه السلطان أبو العباس وضيق تخنقه بالبلد الجديد، دس إلى الأحلاف وإلى قريبه علي بن إبراهيم أن ينصبوا محمد ابن السلطان أبي العباس عنه، ويتفلسوا من خناقه، ففعلوا ذلك.

ودخل محمد إلى سجلماصة فملكها، وقام علي بن إبراهيم بوزارته حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد، وقتك بالوزير مسعود بن ماساي وبأخوته وسائر قرابته، اضطرب علي بن إبراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد، فخرج عنه من سجلماصة وعاد إلى أبي حمو سلطان تلمسان كما كان.

ثم زادت هواجس على بن إبراهيم وارتبابه فخرج عن سجلماصة وتركها، ولحق بأحياء العرب، وسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه أمانته.

ونزل على السلطان أبي حمو إلى أن هلك، فسار إلى تونس وحضر وفاة السلطان أبي العباس بها سنة ست وتسعين وسبعمائة ولحق محمد ابن السلطان عبد الحليم بعد مهلك أبي حمو بتونس.

ثم ارتحل بعد وفاة السلطان أبي العباس إلى المشرق في سبيل جولة ومطاعة واغتراب لحجة، والله تعالى أعلم.

نكبة ابن أبي عمرو ومهلكه وحركات ابن

حسون

لما استقل السلطان بملكه واقتعد سريره، صرف نظره إلى أولياء تلك الدولة ومن يرتاب منه، وكان محمد بن أبي عمرو قد

تقدم ذكره وأوليته، من جملة خواصه وندمائه.
وكان السلطان يقسم له من عنايته وجمل نظره ويرقعه عن نظرائه.

خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبه

لما ملك السلطان البلد الجديد واستوى على ملكه، وفد عليه علي بن زكريا شيخ هسكرة مستصباً بما قدم من سوابقه. وقد كان حضر معه حصار البلد الجديد واستدعاه، فجاء بقومه وعساكر المصادمة وأبلى في حصارها، فرعى السلطان سوابقه وولاه الولاية الكبرى على المصادمة على عادة الدولة في ذلك.

ثم وفد بعده محمد بن إبراهيم المبرازي من شيوخ المصادمة وكانت له ذمة صهر مع الوزير محمد بن يوسف بن علل على أخته، فولاه السلطان مكان علي بن زكريا فغضب لها علي واستشاط ويادر إلى الانتقاض والخلاف.

ونصب بعض القرابة من بني عبد الحق، فجهز إليه السلطان العساكر مع محمد بن يوسف بن علل وصالح بن هو الباباني وأمر صاحب درعة وهو يومئذ عمر بن عبد المؤمن بن عمر أن ينهد إليه بعساكر درعة من جهة القبلة، فساروا إليه وحاصروه في جبلة، وجاولوه مرات ينهزم في جميعها حتى غلبوه على جبلة.

وسار إلى إبراهيم بن عمران الصناكي المجاور له في جبلة فاستدّم به.

وخشي إبراهيم معرفة الخلاف والغلب، ورغبه الوزير محمد بن يوسف بمال بذله له، فأمكنه منه، وقبض عليه الوزير وجاء به إلى فاس، فأدخله في يوم مشهود وشهره، واعتقل فلم يزل في الاعتقال إلى أن هلك السلطان أبو العباس، وارتاب به أهل الدولة بعده فقتلوه، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريحاً على أبيه ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي هو

كان أبو تاشفين ابن السلطان أبي هو قد وثب على أبيه آخر ثمان وثمانين وسبعماية بمالته لغيره من إخوته واعتقله بوهران.

فلما ولي السلطان موسى نزعت به إليه نوازع المخالصة لأبيه من السلطان أبي عنان فقد كان أبوه من أعز بطائه كما مر، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفعه على منابر أهل الدولة.

وجعل إليه كتابه علامته على المراسم السلطانية، كما كان لأبيه.

وكان يفاضه في مهماته ويرجع إليه في أموره حتى غص به أهل الدولة ونمي عنه للوزير مسعود بن ماساي أنه يداخل السلطان في نكبه.

وربما سعى عند سلطانه في جماعة من بطانة السلطان أحمد، فأتى عليهم النكال والقتل لفتنات كانت بينهم وبينه في مجالس المنادمة عند السلطان حقداهم.

فلما ظفر بالخط من سلطانه، سعى بهم فقتلهم.

وكان القاضي أبو إسحاق إبراهيم الزناسي من بطانة سلطانه وكان يحضر مع ندمائه فحقد له ابن أبي عمرو بعض الكلمات، وأغرى به سلطانه فضربه وأطافه، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح.

وسفر عن سلطانه إلى الأندلس، وكان يمر بمنزلة السلطان هذا ومكان اعتقاله، وربما تلقاه فلم يلم ولا بتحيه، ولا يوجب له حقاً، فأحفظ ذلك السلطان.

ولما فرغ من أمر ابن ماساي قبض على ابن أبي عمر ووأودعه السجن، ثم امتحنه بعد أيام إلى أن هلك ضرباً بالسياط، عفا الله عنه.

وحمل إلى داره، وبينما أهله يجهزونه إلى قبره إذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب في نواحي البلد إيلغاً في التنكيل، فحمل من نعهه وقد ربط حبل برجله، وسحب في سائر أنحاء المدينة، ثم ألقي على بعض الكتبان، من أطرافها وأصبح مثلاً في الآخرين ثم قبض على حركات ابن حسون النباطي وكان مخبأ في الفتنة، موضعاً وكان العرب المخالفون من المعقل، ولما أجاز السلطان إلى سبتة وحركات هذا بتدلاً، أرادوه على طاعة السلطان فامتنع أولاً، ثم أكرهوه وجاؤوا به إلى السلطان فطوى له على ذلك حتى استقام أمره.

وبعث السلطان أبو حو إلى السلطان ابن الأحمر لما يعلم من استطالته على دولة بني مرين كما مر، يتوسل إليه في أن يصددهم عن صريح أبي تاشفين وإمداده عليه فخلا ابن الأحمر في ذلك وجعلها من أهم حاجاته.

وخاطب السلطان أبا العباس في أن يجيز إليه أبا تاشفين، فتعلل عليه في ذلك بأنه استجار بابنه أبي فاس واستند به.

ولم يزل الوزير ابن علال يقتل لسلطانه ولابن الأحمر في الذروة والغارب، حتى تم أمره وأُخِذَ له السلطان بالنظر موعده.

وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوزير ابن علال في العساكر صريحين له، وانتهوا إلى تازي.

وبلغ الخبر إلى أبي حمو فخرج من تلمسان في عساكره، واستألف أوليائه من عبيد الله.

ونزل بالغيران من وراء جبل بني ورتيد المظل على تلمسان، وأقام هناك متحصناً بالجبل، وجاءت العيون إلى عساكر بني مرين بتازي من مكانه هو وأعرابه من الغيران، فأجمعوا غزوه.

وسار الوزير علال وأبو تاشفين وسلخوا القفر ودليلهم سليمان بن ناجي من الأحلاف، حتى أصبحوا أبا حمو ومن معه من أحياء الخراج في مكانهم من القيران.

فجاولوهم ساعة، ثم ولوا منهزمين، وكبا بالسلطان أبي حمو فرسه فسقط، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه قعصاً بالرمح، وجاؤوا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال، فبعثوا به إلى السلطان، وجيء بابنه عمير أسيراً، فهم أخوه أبو تاشفين بقتله، فمنعه بنو مرين أياماً.

ثم أمكنوه منه فقتله، ودخل تلمسان آخر إحدى وتسعين وسبعماية وختم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال.

ثم قفلوا إلى المغرب وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقسم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة، كما اشترط على نفسه.

وكان أبو حمو لما ملك تلمسان ولّى ابنه أبا زيان على الجزائر، فلما بلغه مقتل أبيه امتعض ولحق بأحياء حصين ناجياً وصريحاً، وجاءه وفد بني عامر من زغبة يدعونه للملك.

فسار إليهم.

وقام بدعوتهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعاً إلى

وخرج بالعساكر لطلب إخوته المتصر وأبي زيان وعمر فامتنعوا عند حصين بجبل تطري فحاصروهم أياماً، ثم تذكر غائلة أبيه، فبعث ابنه أبا زيان في جماعة من بطاقته منهم موسى ابن الوزير عمران بن موسى وعبد الله بن جابر الخراساني، فقتلوا بعض ولده بتلمسان، ومضوا إليه وهو بمحبسه في وهران.

فلما شعر بهم أشرف من الحصن ونادى في أهل المدينة متذمراً بهم، فهرعوا إليه.

وتدلى إليهم في عمامته وقد احتزم بها فأنزلوه وأحرقوا به وأجلسوه على سريره.

وتولى كبر ذلك خطيب البلد ابن خزروت ولحق أبو زيان بن أبي تاشفين ناجياً إلى تلمسان، واتبعه السلطان أبو حمو ففر منها إلى أبيه.

ودخل أبو حمو تلمسان وهي ظلل وأسوارها خراب، فأقام فيها رسم دولته.

وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فأجفل من تطري وأغذ السير فدخلها، واعتصم أبوه بمثناة المسجد، فاستنزله منها وتجاوى عن قتله.

ورغب إليه أبو حمو في رحلة المشرق لقضاء فرضه، فأسعفه وأركبه السفين مع بعض تجار النصارى إلى الإسكندرية موكلاً به.

فلما حاذى مرسى بجاية لاطف النصارى في تخلية سبيله فأسعفه وملك أمره.

وبعث إلى صاحب الأمر ببجاية يستأذنه في النزول، فأذن له. وسار منها إلى الجزائر، واستخدم العرب واستصعب عليه أمر تلمسان، فخرج إلى الصحراء.

وجاء إلى تلمسان من جهة المغرب فهزم عساكر ابنه أبي تاشفين وملكها.

وخرج أبو تاشفين هارباً منها، فلحق بأحياء سويد في مشاتهم.

ودخل أبو حمو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعماية، وقد تقدم شرح هذه الأخبار كلها مستوعبة.

ثم وفد أبو تاشفين مع محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صريحاً على أبيه، ومؤملاً الكرة بإمداده.

فقبله السلطان وأجل عليه المواعيد وقام أبو تاشفين في انتظارها والوزير محمد بن يوسف بن علال يعده ويمنيه ويحلف له على الرفاء.

تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فحاصروها أياماً. ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب فافترقوا عن أبي زيان، وخرج إليهم أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة. ولحق بالصحرَاء واستألف أحياء العقل، وعادوا حصار تلمسان في شوال. وبعث أبو تاشفين ابنه صريحاً إلى المغرب، فجاءه بمدد من العساكر.

وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء

أبي زيان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازي وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها، وأقام هو بتازي يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدم لفتح البلاد الشرقية.

وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من العقل قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق.

وتقدمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحله من قومه، فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب، يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك.

فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم مرقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها.

وشرع في المكافأة عليها بتجهيز الجياد والبضائع والثياب، حتى استكمل من ذلك ما رضى.

واعترزم على إنفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول.

وأنه يرسله من تازي أيام مقامته تلك، فطره هنالك مرض كان فيه حنفة في شهر محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتازي وولوه مكانه، ورجعوا به إلى فاس.

وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها، وقائماً بدعوة السلطان أبي فارس فيها، فسار إليها وملكها، وكان أخوه يوسف بن الزاوية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والإجلاب عليها، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يعيشوا به إليه، فأجابوه إلى ذلك، وأسلموه إلى ثقات أبي زيان.

ولما انتهى إلى تاوريرت، أفرج أبو زيان عن تلمسان وأجفل إلى الصحراء.

ثم أجمع رأيهم على الوفاة إلى صاحب المغرب، فوفد عليه صريحاً فلقاه وير مقدمه ووعده النصر من عدوه.

وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين، والله أعلم.

وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب

على تلمسان

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين ملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم، ومؤيداً الضريبة التي فرضها عليه منذ ملك، وأخوه الأمير أبو زيان عند صاحب المغرب ينتظر وعده بالنصر عليه، حتى تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية، فأجاب داعي أبي زيان وجهزه بالعساكر لملك تلمسان، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة

وانتهى إلى تازي، وكان أبو تاشفين قد طرقة مرض أزمته، ثم هلك منه في رمضان من السنة.

وكان القائم بدولته أحمد بن العز من صنائعهم وكان يمت إليه بخولة، فولى بعده مكانه صيباً من أبنائه، وأقام بكفالاته.

وكان يوسف بن أبي حمو وهو ابن الزاوية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين، فلما بلغه الخبر أغد السير مع العرب فدخل تلمسان، وقتل أحد بن العز والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين، فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب خرج إلى تازي، وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر ورد أبا زيان بن أبي حمو إلى فاس، ووكل به.

وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها وأقام فيها دعوة أبيه.

القيام بدعوته، وأوفدوا عليه المشيخة بيعتهم.
وكان يعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه.
فاعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجازة لذلك، فمنعه
ضنة به على الاعتراب عنه.

وأوعز إلى صاحب سبته يومئذ أبي علي بن خلاص بمنعه
منها، فوعد له السبيل وسد عليه المذاهب.

ولم ينشب يعقوب بن عبد الحق أن قام بسلطان المغرب بعد
أخيه أبي يحيى وشغل بشأنه.

وأهمه شأن ابن أخيه إدريس بن الحق بما كان فيهم من
الترشيح والمنافسة لبنيه واستأذنه عامر بن إدريس منهم في
الجهاد بعد العدو، فاغتنمها منه وعقد له من مطوعة زناتة على
ثلاثة آلاف أو يزيدون، وأجاز معه رحو ابن عمه عبد الله بن عبد
الحق.

وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين وستمائة فحسننت
آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم.

ثم رجع عامر بن إدريس إلى المغرب وكثر انتقاض القرابة.
ونافسهم أقبال زناتة في مثلها، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب
الأوسط مثل عبد الملك ويغمراسن بن زيان وعابدين بن منديل بن
عبد الرحمن وزيان بن محمد ابن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة
إلى الأندلس إلى الجهاد، وأجازوا فيمن خف معهم من قومهم سنة
ست وسبعين وستمائة، فامتلت الأندلس بأقبال زناتة وأعياص
الملك منهم.

وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن
وسناف بن عبو ابن أبي بكر بن حمامة.

ومنهم سليمان وإبراهيم وكانت لهما آثار في الجهاد
ومقامات حمودة، وكان موسى بن رحو لما نازله السلطان وبنو
عبد الله بن عبد الحق بمحصن علودان ونزلوا على عهده لحق
بتلمسان.

وكان بنو عبد الله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق
عصبة من بين سائرهم، لأن عبد الله وإدريس كانا شقيقين لسوط
النساء بنت عبد الحق، فاقفني أثر يعقوب بن عبد الحق بن عبد
الله محمداً ابن عمه إدريس، وخرج على السلطان بقصر كتامة سنة
ثلاث وستين وستمائة، ثم استرضاه عمه واستنزل.

ويبقى يعقوب بن عبد الله في انتفاضه يتنقل في الجهات إلى
أن قتله طلحة بن علفى من أولياء السلطان سنة ثمان وستين

وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم،
فبادروا بقتله، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان فسكنت أحواله
وذهبت الفتنة بذهابه، واستقامت أمور دولته، وهم على ذلك لهذا
العهد، والله غالب على أمره، وهو على كل شيء قدير.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية،
وبقي علينا خبر الرهط الذين تحيزوا منهم إلى بني مرين من أول
الدولة.

وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله
بن علي، وخبر بني كندوز أمرائهم بمراكش.

فلنرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني
عبد الواد، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة المجاهدين بالأندلس الذين قاسموا ابن الأحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده

كانت الجزيرة الأندلسية وراء البحر منذ انقراض أمر بني
عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمرها، قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال
إلا من يلهمه الله لعمل الجهاد من قبائل زناتة المؤمنين كرهة الملك
والمقتسمين ممالك المغرب، وخصوصاً بني مرين أهل المغرب
الأقصى لاتصال عدوة الأندلس ببساطته ولتعدد الفراض يبحر
الزقاق القريب العدوتين.

وما زال هذا الزقاق على قديم الزمان لأجل ذلك فرضة
دون سواحل المغرب.

ولما استولى بنو مرين على ممالكهم، وضافت أحوال المسلمين
بالأندلس، وأخذ بمخنقهم الطاغية حتى الجأهم إلى سيف البحر
واستأثر بالفزنية وما وراءها.

واستأثر بنو القمص أهل برشلونة وقطلوسة بشرق
الأندلس.

وانتشر في الأقطار ما كان من أمر قرطبة واختيها إشبيلية
وبلنسية، وامتعض لذلك المسلمون وتنافسوا في الجهاد وإمداد
الأندلس بأموالهم وأنفسهم، وسابق الناس إلى ذلك الأمير أبو
زكرياء بن أبي حفص بما كان صاحب الوقت والمؤمل للكره،
فاستنفذ الكثير من أمواله ومقرباته في إمدادهم بعد أن كانوا آثروا

وستماية بجهات سلا، فكفى السلطان شأنه.

ولما كان من عهد السلطان لابنه أبي مالك ما قدمناه نفس عليه هؤلاء القراية هذا الشأن، فانتفضوا ولحق محمد ابن ادریس بمحسن علودان.

ولحق موسى بن رحو بن عبد الله ببجبال غمارة ومعه أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق، ونازلهم السلطان حتى نزلوا على عهده، وأجازهم إلى الأندلس سنة سبعين وستماية، فأقاموا بها للجهاد سوقاً ونافسهم أقبال زناتة في مثلها بتلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس سنة سبعين وستماية، فولاه السلطان ابن الأحمر على جميع الغزاة المجاهدين هنالك، لما كان كبيرهم ومحل سؤلهم.

ولم يلبث أن عاد إلى المغرب، فولى السلطان مكانه أخاه عبد الحق.

ثم رجع عنه مغاضباً إلى تلمسان، فولي مكانه على الغزاة المجاهدين إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسنان إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة

بالأندلس وخبر أخيه عبد الحق من بعده

وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما

لما هلك السلطان الشيخ بن الأحمر وولى ابنه السلطان الفقيه، ووفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق صريحاً للمسلمين، فأجاز إليه أول إجازته سنة ثلاث وسبعين وستماية وأوقع بجيوش النصرانية.

وقتل الزعيم دنه واستولى له الغلب على الأندلس، ويدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغيبته، وتوقع أن يكون شأنه معه شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عياد.

وكان بالأندلس قرابته بنو أشقيلولة قد قاسموه في ممالكها، وانفردوا بوادي آش ومالقة وقمارش، حسبما ذكرناه في أخباره مع السلطان، وانتقض عليه أيضاً من رؤساء الأندلس ابن عبدويل وابن الدليل، فكانوا يجلبون على بلاد المسلمين.

وكانوا قد استنجدوا جيوش النصرانية ونازلوا غرناطة، وعائوا في الجهات، فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق بالأندلس، وصل هؤلاء الثوار به أيديهم، فخشيتهم ابن الأحمر جميعاً على نفسه.

وقلب للسلطان ليوسف ظهر الجحش، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته.

وكان هؤلاء القراية من أولاد رحو بن عبد الله بن عبد الحق وإدریس بن عبد الله وإدریس بن عبد الحق، ويسبون جميعاً إلى سوط النساء كما ذكرناه، ومن أولاد أبي عياد بن عبد الحق لما أوجسوا الخيفة من السلطان واستشعروا النكير منه، لحقوا بالأندلس تورية بالجهاد، وانتبذوا عن الشول فراراً من محله.

وقد كان السلطان أبو يوسف متى أحس برية منه في ذلك إذا انتفضوا عليه أشخصهم إلى الأندلس، فاجتمع منم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق كما قلناه، وأولاد وسنان وأولاد نزول وتاشفين بن معطي كبير بني تيريين من بني محمد.

وتبعهم أولاد محلى أخوال السلطان أبي يوسف، وكان ابن الأحمر كثيراً ما يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة لدار الحرب، ففقد أولاً لموسى بن رحو سنة ثلاث وسبعين وستماية ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب، ثم لإبراهيم بن عيسى بعد انصرافهما معاً كما قلناه.

ثم رجعا ففقد لموسى بن رحو ثانية على أشياخه، أثبت له قدما في الرياسة ليحسن به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم، ثم تداولت الإمارة فيهم ما بينهم وبين عمومهم.

وربما عقد قبل ذلك أزمان الفترة لعلي بن أبي عياد بن عبد الحق في بعض الغزوات، ولتاشفين بن معطي في أخرى سنة تسع وسبعين وستماية ومعه طلحة بن محلى، فاعترضوا الطاغية دون حصر المسلمين وربما كان لهم الظهور.

ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أبي تاشفين وعقد ابن الأحمر في بعض حروبه معه لعلي بن أبي عياد على زناتة جميعاً، وحاشهم إلى رايته، فانفضت جموع أبي يوسف، وظهروا عليه، وتقوضوا في المعركة على ابنه منديل، واستاقوه أسيراً إلى أن أطلقه السلطان ابن الأحمر في سلم عقده بعد مهلكه، مع ابنه يوسف بن يعقوب.

واستبد موسى بن رحو من بعدها بإمارة الغزاة بالأندلس إلى أن هلك، فولياها من بعده أخوه عبد الحق إلى أن هلك سنة تسع وتسعين وستماية وكان مظفر الراية على عدو المسلمين.

ولما هلك ولي من بعده ابنه حمو بن عبد الحق فكانت هذه الإمارة متصلة في بني رحو إلى أن انتقلت منهم إلى إخوانهم من بني أبي العلاء وغيرهم.

واندرج حمو في جملة عثمان بن أبي العلاء من بعده حسبما

نذكر.

بالطاغية وأجاز إلى سبتة، فاستظهر به يحيى بن أبي طالب العزفي أيام حصار السلطان أبي سعيد إياه، فكان له في حماية ثغره والدفاع دونه آثار مذكورة.

ثم عقد السلطان أبو سعيد السلم ليحيى العزفي، وأفرج عنه، فارتحل عبد الحق بن عثمان إلى إفريقية، ونزل ببجاية سنة تسع عشرة وسبعماية على أبي عبد الرحمن بن عمر صاحب السلطان أبي يحيى المستبد بالثغور الغربية، فأكرم نزله، وأوسع قراه، وضرب له الفساطيط بالزينة من ساحة البلد استبلاغاً في تكريمه وحمله وأصحابه على مائة وخمسين من الخيل، ثم أقدمهم على السلطان بتونس فبر مقدمهم، وخلط عبد الحق بنفسه وآثره بالخلعة والصحابة، وأجله بمكان الاستظهار به وبعبأته.

ولما عقد السلطان لمحمد بن سيد الناس على حجابته سنة سبع وعشرين وسبعماية واستقدمه لذلك من ثغر بجاية كما ذكرناه، عظمت رياسته واستغلظ حجابيه، وحجب عبد الحق ذات يوم عن بابه، فسخطها وذهب مغاضباً، ودخل أبا فارس في الخروج على أخيه، فأجابه وخرج به من تونس، فكان من خبرهم ومقتل أبي فارس وخلوص عبد الحق إلى تلمسان ونزوله على أبي تاشفين، وغزوه إلى إفريقية مع عساكر بني عبد الواد سنة سبع وعشرين وسبعماية ما ذكرناه في أخبار الدولة الحفصية.

ثم لما رجع بنو عبد الخالق إلى تلمسان صمد مولانا السلطان أبو يحيى إلى تونس في أخريات سته.

وفر ابن أبي عمران السلطان المنسوب بتونس من بني أبي حفص إلى أحياء العرب، وتقبض على أبي رزيان ابن أخي عبد الحق بن عثمان في لمة من أصحابه، فقتله قعصا بالرماح.

ورجع عبد الحق بن عثمان إلى مكانه من تلمسان، فأقام بمثواه عند أبي تاشفين متبوءاً من الكرامة والاعتزاز ما شاء إلى أن هلك بمهلك أبي تاشفين يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان عليهم سنة سبع وثلاثين وسبعماية وقتلوا جميعاً عند قصر الملك أبو تاشفين وأبناء عثمان ومسعود وحاجيه موسى بن علي، ونزله عبد الحق هذا، وأبو ثابت ابن أخيه، فقطعت رؤوسهم وتركت أشلائهم بساحة القصر عبرة للمعتبرين حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشفين، والله أعلم.

وأما إبراهيم بن عيسى الوسناني فإنه رجع إلى المغرب، ونزل على يوسف بن يعقوب وقتله بمكانه من حصار تلمسان بعد حين من الدهر، وبعد أن كبر وعمي.

والله مالك الأمور لا رب غيره، وكان مهلك يعلى ابن أبي عباد سنة سبع وثمانين وستماية ومعطي بن أبي تاشفين سنة تسع وثمانين وستماية وطلحة بن محلى سنة ست وثمانين وستماية والله أعلم.

الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة

بالأندلس

كان عبد الحق هذا من أعياص الملك المريني ويعاسيهم وهو من ولد محمد بن عبد الحق ثاني الأمراء على بني مرين بعد أبيهم عبد الحق.

وهلك أبوه عثمان بن محمد بالأندلس إحدى أيام الجهاد سنة تسع وسبعين وستماية وربى ابنه عبد الحق هذا في حجر السلطان يوسف بن يعقوب إلى أن كان من أمر خروجه مع الوزير رحو بن يعقوب على السلطان أبي الربيع ما ذكرناه في أخباره.

ولحق بتلمسان وأجاز منها إلى الأندلس، وسلطانه يومئذ أبو الجيوش ابن السلطان الفقيه، وشيخ زناته بها هو بن عبد الحق بن رحو.

وخاطبهم السلطان أبو سعيد ملك المغرب في اعتقاله، فأجابوه وفر من محبسه، ولحق بدار الحرب.

ولما انتقض أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد وبائع لنفسه بمالقة، وزحف إلى غرناطة فزاعها، ووقعت الحرب بظاهرها بين الفريقين وأخذ في بعض أيامها هو بن عبد الحق أسيراً، وسبق إلى السلطان أبي الوليد.

وكان معه عمه أبو العباس بن رحو فأبى من إisar ابن أخيه وخلقى عنه، فرجع إلى سلطانه فارتاب به لذلك.

وعقد على الغزاة مكانه لعبد الحق بن عثمان استدعاه من مكانه بدار الحرب، ثم غلبهم أبو الوليد على غرناطة.

وتحول أبو الجيوش إلى وادي آش على سلم انعقد بينهم، وسار معه عبد الحق بن عثمان على شأنه.

ثم وقعت بينه وبين أبي الجيوش مغاضبة، لحق لأجلها

الخبر عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس

الحق تشعب نسله فيهما، وأجاز رحو إلى الأندلس مع عامر ومحمد
ابني عمه إدريس.

لهم أجاز موسى ابنه سنة تسع وتسعين وستمئة مع أولاد
أبي عياد وأولاد سوط النساء.

كم رجع إلى محله من الدولة وفر ثانياً سنة خمس وسبعين
وستمئة إلى تلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس واستقر بها.

وأجاز أولاد أبي العلاء سنة خمس وثمانين وستمئة مع
أولاد أبي يحيى بن عبد الحق وأولاد عثمان بن عبد الحق واستقروا
بالأندلس، وكانوا يرجعون في رياستهم لكبيرهم عبد الله بن أبي
العلاء.

وعقد له ابن الأحمر على الغزاة من زناتة فيمن كان يعقد
لهم من زناتة قبل استقرار المنصب، إلى أن هلك شهيداً في إحدى
غزواته سنة ثلاث وتسعين وستمئة وعقد المخلوع ابن الأحمر
لأخيه عثمان بن أبي العلاء، على حامية مالقة وغربها من الغزاة
لنظر ابن عمه الرئيس أبي سعيد فوج بن إسماعيل بن يوسف بن
نصر.

ولما غدر الرئيس أبو سعيد بستة سنة خمس وسبعمئة وغت
له الحيلة في تملكها واضطربت نار العداوة بينه وبين صاحب
المغرب، فنصبوا عثمان هذا للأمر، وأجازوه إلى غمارة، فثار بها
ودعا لنفسه، وتغلب على أصيلا والعراش، وكان ما ذكرنا إلى أن
غلبه أبو الربيع سنة ثمانين وستمئة، ورجع إلى مكانه بالأندلس
ولما اعتزم أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد على الخروج على أبي
الجوش صاحب غرناطة ودخل في ذلك شيخ الغزاة بمالقة عثمان
بن أبي العلاء، فساعده عليه، واعتقل أباه الرئيس أبا سعيد،
وزحف إلى غرناطة سنة أربع عشرة وسبعمئة فلما استولى عليها
عقد لعثمان هذا على إمارة الغزاة المجاهدين من زناتة، وصرف
عنها عثمان بن عبد الحق بن عثمان، فلحق بوادي آش مع أبي
الجوش.

وصار حمد بن عبد الحق بن رحو في جملته بعد أن كان
شيخاً على الغزاة كما قلناه.

واستمرت أيام ولاية عثمان هذا، وبعد فيها صيته، وغص
صاحب المغرب أبو سعيد بمكانه، ولما استصرخه المسلمون للجهاد
سنة ثمان عشرة وسبعمئة اعتذر بمكان عثمان هذا، واشترط
عليهم القبض عليه حتى يرجع عنهم فلم يكن ذلك، ونازل
الطاغية غرناطة وحاصرها، وكان لعثمان وبينه في ذلك آثار
مذكورة.

كان أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق، أهل عصابة
واعتراز على قومهم، وهم أولاد إدريس وعبد الله ابنيها
والشقيقين كما ذكرنا.

وكان مهلك إدريس الأكبر يوم مهلك أبيه بتافرضيت
ومهلك عبد الله قبله.

وخلف عبد الله ثلاثة من الولد تشعب فيهم نسله، وهم:
يعقوب ورحو وإدريس.

واستعمل أبو يحيى بن عبد الحق يعقوباً منهم على سلا عند
افتتاحه إياها سنة تسع وأربعين وستمئة ثم انتزى بها بعد ذلك
على عمه يعقوب سنة ثمان وخسين وستمئة، وكان من شأن
ثورة النصاري بها ما ذكرناه، واستخلصها يعقوب بن عبد الحق
ولحق يعقوب بن عبد الله بعلودان من بلاد غمارة، وامتنع بها،
وأخرج على أثره ابنا عمه إدريس وهما: عامر ومحمد، وانتزوا
بالقصر الكبير، ولحق بهم كافة أولاد سوط النساء.

وطالبهم السلطان فلقحوا بجمال غمارة ونازلهم، ثم استنزلهم
بعد ذلك على الأمان، وعقد لعامر علي الغزو إلى الأندلس سنة
ستين وستمئة كما ذكرنا، وأجاز معه رحو بن عبد الله.

ورجع محمد بن عامر وفر إلى تلمسان سنة ثمانين وستمئة
وأجاز منا إلى الأندلس.

ثم خرجوا على السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة تسع
وثمانين وستمئة ومعهم ولد أبي عياد بن عبد الحق واعتصموا
بعلودان، واستنزلهم السلطان على اللحاق بتلمسان فلقحوا بها.

وأجاز أولاد سوط النساء وأولاد أبي عياد كافة إلى
الأندلس واستقروا بها يومئذ، ورجع عامر منهم ومحمد وكان من
خبره ما نذكر.

وهلك يعقوب بن عبد الله سنة ثمان وستين وستمئة في
اغترابه بقوله من رباط الفتح، قتله طلحة بن علي.

واستقر بنوه من أولاد سوط النساء بالمغرب، وكان ابنه أبو
ثابت أميراً على بلاد السوس أيام السلطان يوسف بن يعقوب
وأوقع بركة سنة تسع وتسعين وستمئة ولم يزل وبنوه بالمغرب من
يومئذ.

وكان من إخواته أبي العلاء ورحو ابنا عبد الله بن عبد

والبقاء لله وحده.

الخبر عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم

لما هلك شيخ الغزاة ويعسوب زنانة عثمان بن أبي العلاء، قام بأمره في قومه ابنه أبو ثابت عامر، وعقد السلطان أبو عبد الله بن أبي الوليد له على الغزاة المجاهدين كما كان أبوه، فعظم شأنه قوة شكيمة وكثرة عصابة ونفوذ رأي وبسالة.

وكان لقومه اعتزاز على الدولة، بما عجموا من عودها، وكانوا أولي بأس وقوة فيها واستبداد عليها، وكان السلطان محمد بن أبي الوليد مستنكفاً عن الاستبداد عليه في القلة والكثرة، فكان كثيراً ما يخرقهم بتسفيه آرائهم والتضييق عليهم في جاههم.

ولما وفد على السلطان أبي الحسن سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة صريحاً على الطاغية، واستبد ابنه الأمير أبا مالك لمنازلة جبل الفتوح، اتهموه بمداخلة السلطان أبي الحسن في شأنهم، فتنكروا وأجمعوا الفتك به، ودخلوا في ذلك بعض صناعه ممن كان متربصاً بالدولة فساعدتهم.

ولما افتتح الجبل وكان من شأنه ما قدمنا ذكره، وزحف الطاغية فأناخ عليه، وقصد ابن الأحمر الطاغية في بنيه رغباً أن يرجع إلى الحصن، فرجع وافتقرت عساكر المسلمين، ارتحل السلطان ابن الأحمر إلى غرناطة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة وقد قعدوا له بمرصداً من طريقه.

ونمي الخبر إليه، فدعا بأسطوله لركوب البحر إلى مالقة، واستبق إليهم الخبر بذلك، فتبادروا إليه ولقوه بطريقه من ساحل اصطبونة، فلاحوه وعاتبوه في شأن صنيعة عاصم من معلوجيه، وحاجهم عنه، فاعتوروا عاصماً بالرماح ففكر ذلك عليهم، فالحقوه به، وخر صريعاً عن مركوبه، وبعثوا إلى أخيه يوسف فأعطوه بيعتهم، وصفقة أيمانهم، ورجعوا به إلى غرناطة وهو حذر منهم لفعلتهم التي فعلوا، واستمرت الحال على ذلك.

ولما استكمل السلطان أبو الحسن فتح تلمسان وصرف عزائمه إلى الجهاد داخل ابن الأحمر في إزاحتهم عن الأندلس مكان جهاده، فصادف منه إسعافاً وقبولاً وحرصاً على ذلك، وتقبض على أبي ثابت وإخوته إدريس ومتصور وسلطان.

وفر أخوهم سليمان فلحق بالطاغية، وكان له في يوم طريف أثر في الإيقاع بالمسلمين، ولما تقبض ابن الأحمر على أبي

وأناح الله للمسلمين في النصرانية على يد عثمان هذا وبنه ما لم يخطر على قلب أحد منهم، فتأكد اغتباط الدولة والمسلمين بمكانهم إلى أن هلك أبو الوليد سنة خمس وعشرين وسبعمئة، باغتيال بعض الرؤساء من قرابته بمداخلة عثمان هذا، زعموا في غدرة، ونصب للأمر ابنه محمد صبيّاً لم يبلغ الحلم.

وأقام بأمره وزيره محمد بن المحروق من صنائع دولتهم، فاستبد عليه وألقى زمام الدولة بيد عثمان في التقض والإبرام، فاعتز عليهم وقاسمهم في الأمر، واستأثر في أعطيات الغزاة بكثير من أموال الجباية، حتى خشيه الوزير على الدولة.

وأدار الرأي في كبره على التغلب، فجمع وفسد ما بينه وبين الوزير ابن المحروق، فانتقض عليه وخرج مغاضباً، فاضطربت فساطيطه بمرج غرناطة.

واعصوب جماعة الغزاة من قبائل زناتة عليه، واعتصم الوزير وأهل الدولة بالحمراء وسعى الناس بينهما أياماً، وأدار الوزير الرأي في أن ينصب له كفواً من قرابته، يمازبه الجبل، يشغله بشأنه عن الدولة، فجأجأ يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق وكان في جملة عثمان وأصهر إليه في ابنته فدخل إليه وعقد له على الغزاة وتسابلوا إليه.

وتفرّد عثمان بمعسكره في عشيره وولده، وعقد معه السلم في أن يميز إلى المغرب.

وأوفد بطانته على السلطان أبي سعيد سنة ثمان وعشرين وسبعمئة وأرتحل من ساحة غرناطة في ألف فارس من ذويه وأقاربه وحشمه.

وقصد المرية ليجعلها فريضة لمجازة، حتى إذا حاذى أندوس، وكان بينه وبين رؤسائها مداخلة، فخرجوا إليه مؤدين حق ميرته، فغدر بهم وركب إليها فملكها وضبطها، وأنزل بها حرمه وأثقاله.

ودعا محمد ابن الرئيس أبي سعيد من شلوبيانية وكان نازلاً بها، فجاء إليه ونصبه للأمر، وشن الغارات على غرناطة صباحاً ومساءً، واضطربت نار الفتنة، واستركب يحيى بن رحو من قدر عليه من زناتة.

وطالت الحرب سنين حتى إذا فتك السلطان محمد بن الأحمر بوزيره ابن المحروق، استدعى عثمان بن أبي العلاء وعقد له السلم على أن يميز عمه إلى المغرب ويلحق بغرناطة لشأنه من رياسة الغزاة، فتم ذلك سنة تسع وعشرين وسبعمئة ورجع إلى مكانه من الدولة، وهلك إثر ذلك لسبع وثلاثين سنة من إمارته على الغزاة.

إلى سبته مع الرئيس أبي سعيد وعثمان بن أبي العلاء سنة خمس وسبعمئة وولي بعدها على الغزاة المجاهدين ثم رجع إلى الأندلس، ولم يلبث بعدها أن أجاز إلى المغرب.

ونزل على السلطان أبي سعيد، فأكرم نزله، ثم رجع إلى الأندلس.

ولما ولي إمارة الغزاة عثمان بن أبي العلاء، وكان بينهم من المنافسة ما يكون بين فحول الشول، أشخص بني رحو جميعاً إلى إفريقية، فنزلوا على مولانا السلطان أبي يحيى خير نزل، اصطفاهم واستخلصهم واستظهر جمعهم في حروبه.

وهلك عمر بن رحو ببلاد الجريد وقبره ببشرى من نفزاوة معروف، ونزع ابنه يحيى من بين إخوته عن مولانا السلطان أبي يحيى، وصار في جملة ابن أبي عمران، ثم لحق بزواوة وأقام في بني يراتن سنين، ثم أجاز إلى الأندلس واستقر بمكانه من قومه.

واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وأصهر إليه بانيته، وخلطه بنفسه، ولما فسد ما بينه وبين ابن المحروق وزير السلطان بغرناطة سنة سبع وعشرين وسبعمئة واعصوب عليه الغزاة بمعسكره من مرج غرناطة دس إليه يومئذ ابن المحروق إلى يحيى بن عمر هذا، ودعاه إلى مكان عثمان ليفيظه بذلك، فأجاب ونزع عن عثمان وقومه إلى ابن المحروق وسلطانه.

وعقد له على الغزاة فتسائلوا إليه عن عثمان شيخهم، وانصرف إلى المدينة وكان من شأنه ما قصصناه في أخباره، وأقام يحيى بن عمر في رياسته إلى أن هلك ابن المحروق بفتكة سلطانه، واستدعى عثمان بني أبي العلاء للرياسة فرجع إليها.

وصرف يحيى بن عمر إلى وادي آش، وعقد له على الغزاة بها فأقام حيناً، ثم رجع إلى مكانه بين قومه.

واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وابنه أبو ثابت لما كانت أمه بنت موسى بن رحو، فكان يتعصب لحزولته فيهم ثم هلك عثمان وكان ما قدمناه من شأن ولده وفتكهم بالسلطان المخلوع.

وتقبض أخوهم أبو الحجاج عليهم، وأشخصهم إلى إفريقية وقوض مباني رياستهم، وعقد على الغزاة مكانهم ليحيى بن عمر هذا، فاضطلع بها أحسن اضطلاع.

واستمرت حاله وحضر مشاهد أبي الحجاج مع السلطان أبي الحسن، فظهرت كفايته وغناؤه.

ولما هلك أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمئة طعنوا بمصلى العيد، في آخر سجدة من صلاته، بيد عبد من عبيد

ثابت وإخوته، أودعهم جميعاً المطبق أياماً، ثم غربهم إلى إفريقية، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى.

وأوعز إليه السلطان أبو الحسن بالتوثق منهم أن يتصلوا بناوحي المغرب، ويخالفوه إليها أيام شغله بالجهاد في الأندلس، فاعتقلهم وأوفد أبا محمد بن تافراكين إلى سدة السلطان أبي الحسن إليه شفيعاً فيهم، فتقبل شفاعته وأحسن نزهم وكرامتهم، حتى إذا احتل بسبته أيام حصار الجزيرة في سنة ثلاث وأربعين وسبعمئة سعى بهم عنده، فتقبض عليهم واعتقلهم بمكناسة.

ولما انتزى ابنه الأمير أبو عتات على الأمر، وهزم منصور ابن أخيه أبي مالك صاحب فاس، ونازله بالبلد الجديد، بعث فيهم إلى مكناسة، فأطلقهم من الاعتقال وأفاض فيهم الإحسان والعطار واستظهر بهم شأنه.

وأحل أبا ثابت محل الشورى من مجلسه، وداخل إدريس أخاه في المكر بالبلد الجديد، فنزع إليها ومكر بهم، وثار عليهم إلى أن نزلوا على حكم السلطان أبي عتات، فعقد لأبي ثابت على سبته وبلاد الريف ليشارف منها الأندلس محل إمارته.

وأطلق يده في المال والجيش، وفصل لذلك، فهلك بالطاعون يومئذ سنة تسع وأربعين وسبعمئة بمعسكره أزاء معسكر السلطان من حصار البلد الجديد.

واستقر إخوانه في إيالة السلطان أبي عتات بالمغرب الأقصى إلى أن كان من مفر أخيه إدريس وولايته على الغزاة بالأندلس، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن يحيى بن عمر بن رحو وإمارته

على الغزاة بالأندلس أولاً وثانياً ومبدأ

ذلك وتصاريفه

كان رحو بن عبد الله كبير ولد عبد الله بن عبد الحق، وكان له بنون كثيرون، وتشعب نسله فيهم، منهم: موسى وعبد الحق والعباس وعمر ومحمد وعلي ويوسف.

وأجازوا كلهم إلى الأندلس مع أولاد سوط نساء من تلمسان كما قدمناه.

وأقام عمر بعدها بتلمسان مدة واتخذ بها الأهل والولد.

ثم لحقهم وولي موسى إمارة الغزاة بعد إبراهيم بن عيسى الوسناني، وبعده أخوه عبد الحق على الغزاة أقام بها مدة وأجاز

ليحيى بن عمر على إمارة الغزاة كما كان وأعلى يده، واستخلص عثمان لشوراه وخلطه ببطانته.

ونافسه الوزير يومئذ محمد بن الخطيب فسعى فيهم، وأغرى السلطان بهم، فتقبض عليهم سنة أربع وستين وسبع مائة وأودعهم المطبق.

ثم أشخص يحيى سنة ست وستين وسبع مائة إلى المشرق وركب السفين من المدينة فنزل بالاسكندرية، ورجع منها إلى المغرب، ونزل على عمر بن عبد الله أيام استبداده واستقر به في كرامة وخير مقامه، ولم يزل بالمغرب على أعز الأحوال إلى أن هلك سنة اثنتين وثمانين وسبع مائة ثم استخلص ابنه أبا سعيد عثمان من الاعتقال سنة سبع وستين وسبع مائة إلى إفريقية ونزل ببجاية على مولانا السلطان أبي العباس حافد مولانا السلطان أبي يحيى واستقر في جملة، وحضر معه فتح تونس وأبلى فيه.

واقطع له السلطان وأسنى له الجراية، وخلطه بنفسه واصطفاه لشوراه وخلته، وهو لهذا العهد من عظماء مجلسه وظهراته في مقامات حروبه، وإخوته بالأندلس على مراكز عزهم وفي ظلال عصيتهم مع قومهم، وقد ذهب واجد السلطان بالأندلس عليهم وصار إلى جميل رأيهم فيه.

والله مالك الملك ومقلب القلوب لا رب غيره.

الخبر عن إدريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته بالأندلس ومصاير أمره

لما هلك أبو ثابت بن عثمان بن أبي العلاء سنة خمسين وسبع مائة، واستمر إخوانه في جملة السلطان أبي عنان ملك المغرب واقطعهم وأسنى جراياتهم، وكان في إدريس منهم بقية الترشيح يراه الناس به.

فلما نهض السلطان إلى فتح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبع مائة توغل في ديار إفريقية وحام قومه عن مواقعها، تحيلوا عليه في الرجوع به عن قصده منها.

وأذنت المشيخة لمن معهم من قومهم في الإنطلاق إلى المغرب حتى خف المعسكر من أهله وتآمروا، زعموا في اغتيال السلطان والإدالة منه بإدريس هذا، ونذر بذلك فكر راجعاً كما ذكرناه في أخباره.

ولما أشيع ذلك بلغ إدريس شأنه فركب ظهر الغدر وفر من العسكر ليلاً، ولحق بتونس، ونزل على القائم بالدولة يومئذ

اصطبله مصاب في عقله، أغرى - زعموا به، وقتل لحينه صبراً بالسيف.

وبويع لابنه محمد، أخذ له البيعة على الناس يومئذ مولاه رضوان من معلوجيهم، حاجب أبيه وعمه.

وقام بأمره واستبد عليه وحجره، فقاسم يحيى بن عمر هذا في شأنه وشاركه في أمره وشد أزر سلطانه به، حتى إذا ثار بالخمراء الرئيس ابن عمهم محمد بن إسماعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد قائماً بدعوة إسماعيل بن أبي الحجاج أخي السلطان محمد كان ساكناً بالخمراء.

وتحينوا لذلك مغيب السلطان في منزله بروضه خارج الخمراء، فخالفوه إليها وكيسوها ليلاً فقتلوا الحاجب المستبد رضوان، وأجلس السلطان على سرير ملكه ونادوا بالناس إلى بيعته.

ولما أصبح غدا عليهم يحيى بن عمر بعد أن ينسوا منه وخشوا عاديته، فأتاهم ببيعته وأعطى عليها صفقته وانصرف إلى منزله.

وبعد استيلائهم استخلصوا إدريس بن عثمان بن أبي العلاء، كان وصل إليهم من دار الحرب بأرض برشلونة كما نذكر، ولوه إمارة الغزاة واتمروا في التقبض على يحيى بن عمر.

ونذر بذلك فركب في حاشيته يزم دار الحرب من أرض الجلالقة، واتبعه إدريس فيمن إليه من قومه، فقاتلهم صدر نهارة وفض جموعهم.

ثم خلص إلى تخوم النصرانية ولحق منها بسدة ملك المغرب على أثر سلطانه محمد المخلوع بن أبي الحجاج، وخلف ابنه أبا سعيد عثمان بدار الحرب.

ونزل يومئذ على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبع مائة فأكرم مثواه وأحله من مجلسه محل الشورى والمواصرة، واستقر في جملة إلى أن بعث ملك قشتالة في السلطان المخلوع، بإشارة ابنه أبي سعيد وسعايته في ذلك، ليجلب به على أهل الأندلس بما نقضوا من عهده.

وجهزه السلطان أبو سالم سنة ثلاث وستين وسبع مائة فصحبه يحيى بن عمر هذا.

ولقيهم ابنه أبو سعيد عثمان وقاموا بأمر سلطانهم، واستولى على الأندلس بمظاهرتهم، وكان لهم آثار في ذلك.

ولما استولى على غرناطة سنة ثلاث وستين وسبع مائة عقد

الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

قد ذكرنا أن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، كان أجاز إلى الأندلس مع محمد وعامر ابني إدريس بن عبد الحق وقومهم، أولاد سوط النساء سنة تسع وستين وسبعمئة، ثم رجع إلى المغرب وفر إلى تلمسان وأجاز منها إلى الأندلس، وولي إمارة الغزاة بها إلى أن هلك بعد أن أصهر إليه السلطان يوسف بن يعقوب في ابنته، فعقد له عليها وزفها إليه سنة تسع وسبعين وسبعمئة مع وفد من قومهم.

وكان لموسى بن رحو من الولد جماعة أكبرهم المحمدان جمال الدين وبدر الدين، وضع عليهما هذين اللقبين على طريقة أهل المشرق الشريف المكي الوافد على المغرب لذلك العهد من شرفاه مكة.

وكان هؤلاء الأعياص من ملوكهم وأقبالهم يعظمون أهل البيت النبوي ويلتمسون الدعاء والبركة منهم فيما تيسر من أحوالهم، فحمل موسى بن رحو ولديه هذين عند وضعهما إلى الشريف يحنكهما ويدعو لهما، فقال له الشريف: خذ إليك جمال الدين، وقال في الآخر: خذ إليك بدر الدين، فاستحب موسى دعاءهما بهذين اللقبين تبركاً في بتسمية الشريف بهما، فاشتهرا بهذين الاسمين.

ولما بلغا الأشد وشاركا أباهما في حمل الرياسة وكان من مهلكه ما ذكرناه، وانحرفت رياسة الغزاة عنهما إلى عمهما عبد الحق وابنه، فلحق جمال الدين منهما بالطاغية سنة ثلاث ثم أجاز البحر من قرطاجنة إلى السلطان يوسف بن يعقوب من معسكره من حصار تلمسان، واستقر في جلته حتى إذا هلك السلطان تصدى ابنه أبو سالم للقيام بأمر، وكان مغلباً مضعفا فلم يتم أمره، وتناول الملك أبو ثابت حافد السلطان واستولى عليه.

وفر أبو سالم عشي مهلكه ومعه من القرابة جمال الدين هذا وأعمامه العباس وعيسى وعلي بنو رحو بن عبد الله، فتقبض عليهم في طريقهم بمدونة وسبقوا إلى السلطان أبي ثابت، فقتل عمه أبا سالم وجمال الدين بن موسى بن رحو، وامتن على الباقي واستحياهم، واتصرف السلطان بعدها إلى الأندلس، فكانت له في الجهاد آثار كما ذكرناه قبل.

وأما بدر الدين فلم يزل بالأندلس مع قومه، ومحلّه من الرياسة والتجلة محلّه من النسب إلى أن هلك، فقام بأمره من بعده

الحاجب أبي محمد بن تافراكين خير نزل وأبره.

وركب السفين من تونس إلى العدو، فنزل على ابن القمص صاحب برشلونة في حشمه وذويه.

وأقام هنالك إلى أن كان من مهلك رضوان الحاجب المستبد بالأندلس سنة ستين وسبعمئة ما قدمناه فتزع إلى منبته من غرناطة.

ونزل على إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج والقائم بدولته يومئذ الرئيس محمد ابن عمه إسماعيل بن محمد الرئيس أبي سعيد فلقوه مرة وتكرماً ورجوه بالإدالة به من يحيى بن عمر أمير الغزاة يومئذ، لما كانوا يتهمونه به من ممالأة المخلوع صاحب الأمر عليهم.

ولما نزح يحيى بن عمر إلى الطاغية، ولحق بدار الحرب سنة إحدى وستين وسبعمئة عقدوا لإدريس بن عثمان هذا على الغزاة مكانه، وولوه خطة أبيه وأخيه بدولتهم، فاضطلع بها.

ومالاً الرئيس محمداً على قتل سلطانه إسماعيل بن الحجاج واستبد بالأمر، ولستين من ولايته غلبه المخلوع أبو عبد الله على الأمر، وزحف إليه من رندة، كان نزل بها بعد خروجه من دار الحرب مغاضباً للطاغية.

وأذن له وزير المغرب عمر بن عبد الله في نزولها فنزلها، ثم زحف إلى الثائر بغرناطة على ملكهم الرئيس وحاشيته فأجفلوا.

ولحق الرئيس محمد بن إدريس هذا بقشتالة، ونزلوا في جلته وحاشيته على الطاغية، فتقبض عليهم، وقتل الرئيس محمد وحاشيته جزاء بما أتوه من غدر رضوان.

ثم غدر السلطان إسماعيل من بعده وأودع إدريس ومن معه من الغزاة السجن بإشبيلية، فلم يزل في أسره إلى أن تخيل في الفرار بمدخله مسلم من الدجن أعد له فرساً أزاء معتقله، ففك قيده، ونقب البيت، وامتطى فرسه ولحق بأرض المسلمين سنة ست وستين وسبعمئة واتبعوه فأعجزهم، وجاء إلى السلطان أبي عبد الله محمد المخلوع فأكرم نزله وأحسن ممرته، ثم استأذنه في اللحاق بالمغرب فأذن له وأجازه إلى سبتة، وبلغ شأنه إلى عامل الأمر بالمغرب يومئذ عمر بن عبد الله، فأوعز إلى صاحب سبتة بالتقبض عليه لمكان ما يؤنس من ترشيحه.

وأودعه السجن بمكناسة، ثم نقله السلطان عبد العزيز إلى سجن الغور بفاس، ثم قتلوه ختفا سنة سبعين وسبعمئة والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

كان أولاد السلطان أبي علي قد استقروا بالأندلس وأجازوا إلى طلب الأمر بالمغرب.

وكان من أمرهم ما شرحناه، إلى أن أجاز عبد الرحمن هذا مع وزيره المطادر به مسعود بن رحو بن ماساي سنة ست وستين وسبعائة من غساسة على سلم عقده لهم وزير المغرب المستبد بأمره يومئذ عمر بن عبد الله.

ونزل عبد الرحمن هذا بالمنكب، وكان السلطان يومئذ معسكراً بها فتلقاه من البر بما يناسبه، وأكرم مثواه وأسنى الجراية له ولوزيره ولخاشيته.

واستقروا في جملة الغزاة المجاهدين حتى إذا هلك علي بن بدر الدين سنة ثمان وستين وسبعائة نظر السلطان فيمن يوليه أمرهم، فمثر اختياره على عبد الرحمن هذا لما عرف به من البسالة والإقدام ولقرب الشرائع بينه وبين ملك المغرب يومئذ، التي هي ملاك الترشيح لهذه الخطة بالأندلس كما قدمناه، لما كانت وشائج ولد عبد الله بن عبد الحق قد بددت باتصال الملك في عمود نسب صاحب المغرب دون نسبهم، فآثره صاحب الأندلس بها، وعقد له على الغزاة المجاهدين سنة ثمان وستين وسبعائة وأضفى عليه لبوس الكرامة والتجلة وأقعدته بمجلس الوزارة كما كان الأمراء قبله، واتصل الخبر بسلطان المغرب يومئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، فغص بمكانه، وتوهم أن هذه الإمارة زيادة في ترشيحه ووسيلة للملك، وكانت لوزير الأندلس محمد بن الخطيب مداخلة مع صاحب المغرب، بما أمل أن يجعله فيئة لا تعصاه، فأوعز إليه بالتحيل على إفساد ما بينه وبين صاحب الأندلس، فجهد في ذلك جهده.

ولُيئت عليه وعلى وزيره مسعود بن ماساي كتب إلى عظماء القبيل وبعض البطانة من أهل الدولة بالتوثب والدعوة إلى الخروج على صاحب المغرب، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم، فشهد عليهم وأمر بهم فاعتقلوا في المطبق سنة سبعين وسبعائة واسترضى صاحب المغرب بفعلته فيهم، ونزع الوزير ابن الخطيب بعد ذلك إلى السلطان عبد العزيز، وتبين للسلطان مكروه واحتياله عليه في شأنهم.

ولما هلك عبد العزيز وأظلم الجو بين صاحب الأندلس،

ابنه علي بن بدر الدين مزاحماً لقومه في الرئاسة، مباهاياً لهم في الترشيح.

وكان كثيراً ما يعقد له ملوك بني الأحمر على الغزاة من زناة المرابطين بالشغور فيما بعد عن الحضرة من قواعد الأندلس، مثل مالقة والمرية ووادي آش، سبيل المرشحين من أهل بيته، وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستاثرة بأمر السيف والحرب، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق لما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدو ومقارعة ملك المغرب إلى ملك الأندلس، وكانوا يفضون لهم عن استغلالهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدوين، حتى إذا سكن ريح الطاغية بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة، وشغل بنو مريـن أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن وتناشوا عهد الغلب على أقتالهم وجيرانهم، وتناشوا عهد ذلك أجمع، فاعتزم صاحب الأندلس على نحو هذه الخطة من دولته.

وأغراه بذلك وزيره ابن الخطب كما ذكرناه حرصاً على خلاء الجوله، فتقبض على يحيى بن عمر وبينه سنة أربع وستين وسبعائة كما ذكرناه، وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه ولي عهده الأمير يوسف، ومحا رسم الخطة لبني مريـن بالجملة إلى أن توهم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصبة الكبرى، فراجع رأيه في ذلك.

وكان علي بن بدر الدين خالصة له وكان مقدماً على الغزاة بوادي آش.

ولما لحق السلطان به ناجياً من النكية ليلة مهلك رضوان، مانع دونه وظاهره على أمره حتى إذا ارتحل إلى المغرب ارتحل معه، ونزلوا جميعاً على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعائة كما ذكرناه.

ولما رجع إلى الأندلس رجع في جملة فكان له بذلك عهد وذمه رعاها السلطان له، وكان يستخلصه ويناجيه.

فلما تفقد مكان الأمير على الغزاة ونظر فيمن يوليه عشر اختياره على هذا لسابقتها ووسائله وما تولاه من نصحه ووقوفه عند حده، فعقد له سنة سبع وستين وسبعائة على الغزاة كما كان أولوه، فقام بها واضطلع بأمورها، واستمرت حاله إلى أن هلك حنف أنفه سنة ثمان وستين وسبعائة، وبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

وبين القائم بالدولة أبي بكر بن غازي كما قدمناه، وامتنع ابن الأحمر للمسلمين من الفوضى، أطلق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي من الاعتقال وجهازهما الأسطول، فأجازوا فيه إلى المغرب ونزلوا بمرسى غساسة على بطوية داعياً لنفسه، فقاموا بأمره وكان من شأنه مع الوزير أبي بكر بن غازي ما قصصناه، واستقر آخراً بمراكش وتقاسم ممالك المغرب وأعماله مع السلطان أبي العباس أحمد ابن أبي سالم صاحب المغرب لهذا العهد، وصار التخم بينهما وادي ملوية.

ووقف كل واحد منهما عند حده، وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه.

وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه، وبأشر أحوالهم بنفسه، وعمهم بنظره، وخص القرابة المرشحين منهم بمزيد تكريمته وعنايته.

والأمر على ذلك لهذا العهد، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا رب غيره ولا معبود سواه. والحمد لله على كل حال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

تم كتاب أخبار الدول الإسلامية بالمغرب لولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي.

والحمد لله رب العالمين.

هائى بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر قال: وكان من عقبه كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد، وكانا من أعظم ثوار الأندلس.

قال ابن حزم: وأخوه محمد، كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن محمد بن خلدون.

وبني أبي العاصي محمد وأحمد وعبد الله.

قال: وأخوه عثمان، له عقب ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس تلميذ مسلمة المجريطي.

وهو أبو مسلم عمر بن محمد بن بقي بن عبد الله بن بكر بن خالد بن عثمان بن خالد بن عثمان بن خلدون الداخل.

وابن عمه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله.

قال: ولم يبق من ولد كريب الرئيس المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد الله بن كريب انتهى، كلام ابن حزم.

سلفه بالأندلس، ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت، ونشأ بيت بنيه بها، ثم انتقلوا إلى إشبيلية.

وكانوا في جند اليمن، وكان لكريب من عقبه أخيه خالد الثورة المعروفة بإشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني، ثار على ابن أبي عبدة وملكها من يده أعواماً.

ثم ثار عليه إبراهيم بن حجاج بإملاء الأمير عبد الله وقتله، وذلك في أواخر المائة الثالثة.

وتلخيص الخبر عن ثورته ما نقله ابن سعيد عن الحجاري وابن حيان وغيرهما، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرخ إشبيلية أن الأندلس لما اضطرت بالفتن أيام الأمير عبد الله، تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والاستبداد، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت: بيت بني أبي عبدة ورئيسهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة، وكان عبد الرحمن الداخل ولي أبا عبدة إشبيلية وأعمالها، وكان حافده أمية من أعلام الدولة بقرطبة، ويولونه الممالك الضخمة.

وبيت بني خلدون هؤلاء ورئيسهم كريب المذكور، ويردfe خالد أخوه.

قال ابن حيان: وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية، نهاية في النباهة، ولم تزل أعلامه بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية.

ثم بيت بني حجاج ورئيسهم يومئذ عبد الله.

التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب

وأصل هذا البيت من إشبيلية انتقل سلفنا عند الجلاء وغلب ملك الجلائقة ابن أدفونش عليها إلى تونس في أواسط المائة السابعة.

(نسبه) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون، لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب على الظن أنهم أكثر، وأنه سقط مثلهم عدداً، لأن خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس، فإن كان أول الفتح فالدة لهذا العهد سبعمائة سنة، فيكونون زهاء العشرين، ثلاثة لكل مائة، كما تقدم في أول الكتاب الأول.

ونسبنا في حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقبال العرب، معروف وله صحبة.

قال أبو محمد بن حزم في كتاب «الجمهرة»: هو وائل بن حجر بن سعد بن مسروق بن وائل، ابن النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن شرحبيل بن الحرث بن مالك بن مرة بن حميري بن زيد بن الحضرمي بن عمرو بن عبد الله بن هائى بن جرشم بن عبد شمس بن زيد بن لؤي بن ثبت بن قدامة بن أعجب بن مالك بن لؤي بن قحطان، وابنه علقمة بن وائل وعبد الجبار بن وائل.

وذكره أبو عمر بن عبد البر في حرف السواو من «الاستيعاب».

وأنه وفد على النبي ﷺ فبسط له رداءه وأجلسه عليه، وقال: «اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة».

وبعث معه جارية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم الإسلام والقرآن، فكانت له بذلك صحابة مع معاوية.

ووفد عليه لأول خلافته فأجازاه، فرد عليه جائزته ولم يقبلها.

ولما كانت واقعة حجر بن عدي الكندي بالكوفة، اجتمع رؤوس أهل اليمن، وفيهم هذا فكانوا مع زياد بن أبي سفيان عليه، حتى أوثقوه وجأؤوا به إلى معاوية فقتله كما هو معروف.

وقال ابن حزم: ويذكر بنو خلدون الإشبيليون من ولده، وجدهم الداخل من الشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن

قال ابن حيان: وحصن مدينة قرمونة من أعظم معاول الأندلس، وجعلها مرتبطاً بخيوله، وكان يتنقل بينها وبين إشبيلية، واتخذ الجند ورتبهم طبقات، وكان يصانع الأمير عبد الله بالأموال والهدايا، ويبعث إليه المدد في الصوائف.

وكان مقصوداً ممدحاً، قصده أهل البيوتات فوصلهم، ومدحه الشعراء فأجازهم وانتجعه ومدحه أبو عمر بن عبد ربه صاحب «العقد» وقصده من بين سائر الثوار فعرف حقه وأعظم جازته.

ولم يزل بيت بني خلدون بإشبيلية - كما ذكره ابن حيان وابن حزم وغيرهما - سائر أيام بني أمية إلى أزمان الطوائف - وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة.

ولما علا كعب ابن عباد بإشبيلية، واستبد على أهلها استوزر من بني خلدون هؤلاء واستعملهم في رتب دولته، وحضروا معه وقعة الزلاقة كانت لابن عباد وليوسف بن تاشفين على ملك الجلالقة، فاستشهد فيهما طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عباد فاستلحموا في ذلك الموقف، ثم كان الظهور للمسلمين، ونصرهم الله على عدوهم.

ثم تغلب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس، واضمحلت دولة العرب وفيت قبائلهم.

سلفه لإفريقية: ولما استولى الموحدون على الأندلس وملكوها من يد المرابطين، وكان ملوكهم: عبد المؤمن وبنوه، وكان الشيخ أبو حفص كبير هتاتة زعيم دولتهم، وولوه على إشبيلية وغرب الأندلس مراراً، ثم ولوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم، ثم ابنه أبا زكريا كذلك، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمهات، ويعرف بابن الحنيس للأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم، جارية من سبي الجلالقة، اتخذها أم ولد، وكان له منها ابنه أبو يحيى زكريا ولي عهده المالك في أيامه، وأخواه عمر وأبو بكر، وكانت تلقب أم الخلفاء.

ثم انتقل الأمير أبو زكريا إلى ولاية إفريقية سنة عشرين وستمائة، ودعا نفسه بها وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين وستمائة واستبد بإفريقية، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس، وثار عليهم ابن هود.

ثم هلك واضطربت الأندلس وتكالب الطاغية عليها، وردد الغزو إلى الفرنجة بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيان. وثار ابن الأحمر بغرب الأندلس من حصن أرجونة يرجو

قال ابن حيان: هم يعني - بني حجاج - من لحم وبيتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل نابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية.

فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين والمائتين، وكان الأمير عبد الله قد ولي على إشبيلية أمية بن عبد الغافر، وبعث معه ابنه محمداً وجعله في كفالته، فاجتمع هؤلاء النفر وثاروا بمحمد بن الأمير عبد الله، وبأمية صاحبهم، وهو يمالئهم على ذلك، ويكيد بابن الأمير عبد الله.

وحاصروهما في القصر حتى طلب منهم للحاق بأبيه فأخرجوه، واستبد أمية بإشبيلية، ودس على عبد الله بن حجاج من قتله، وأقام أخاه إبراهيم مكانه.

وضبط إشبيلية واسترهن أولاد بني خلدون وبني حجاج ثم ثاروا به، وهم يقتل أبنائهم فراجعوا طاعته، وحلفوا له، فأطلق أبنائهم فانتفضوا ثانية، وحاربوه فاستمات وقتل حرمه وعقر خيوله، وأحرق موجدوه.

وقاتلهم حتى قتلوه مقبلاً غير مدبر، وعانت العامة في رأسه.

وكتبوا إلى الأمير عبد الله بأنه خلع فقتلوه، فقبل منهم مداراة، وبعث عليهم هشام بن عبد الرحمن من قرابته، فاستبدوا عليه وفتكوا بابنه، وتولى كبر ذلك كريب بن خلدون، واستقل بإمارتها.

وكان إبراهيم بن حجاج بعدما قتل أخوه عبد الله - على ما ذكره ابن سعيد عن الحجازي - سمت نفسه إلى التفرد، فظاهر ابن حفصون أعظم ثوار الأندلس يومئذ، وكان بمالقة وأعمالها إلى رندة، فكان له منه ردة.

ثم انصرف إلى مداراة كريب بن خلدون وملابسته، فردفه في أمره، وشركه في سلطانه، وكان في كريب تحامل على الرعية وتعصب، فكان يتجههم لهم ويغلظ عليهم، وابن حجاج يسلك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة لهم عنده، فاحرقوا عن كريب إلى إبراهيم.

ثم دس إلى الأمير عبد الله يطلب منه الكتاب بولاية إشبيلية، لتسكن إليه العامة، فكتب إليه العهد بذلك، وأطلع عليه عرفاء البلد مع ما أشربوا من حبه، والنفرة عن كريب، ثم أجمع الثورة.

وهاجت العامة بكريب فقتلوه، وبعث برأسه إلى الأمير عبد الله، واستقر بإمارة إشبيلية.

ثم استعفى جدنا من ذلك فأعفاه ورجع إلى الحضرة، ولما غلب الدعي ابن أبي عمارة على ملكهم بتونس، اعتقل جدنا أبا بكر محمداً، وصادره على الأموال ثم قتله خنقاً في محبسه.

وذهب ابنه محمد جدنا الأقرب مع السلطان أبي إسحاق وأبنائه إلى بجاية فتقبض عليه ابنه أبو فارس، وخرج مع العساكر هو وإخوته لمداغة الدعي ابن أبي عمارة، وهو يشبه بالفضل بن المخلوع حتى إذا استلحموا بمراجعة خلص جدنا محمد مع أبي حفص - ابن الأمير أبي زكريا من الملحمة، ومعهما الفازازي وأبو الحسين بن سيد الناس فلهقوا بمنجاتهم من قلعة سنان.

وكان الفازازي من صنائع المولى أبي حفص، وكان يؤثره عليهم.

فأما أبو الحسين بن سيد الناس، فاستكف من إشار الفازازي عليه، بما كان أعلى رتبة منه ببلده إشبيلية، ولحق بالمولى أبي زكريا الأوسط بلمسان، وكان من شأنه ما ذكرناه.

وأما محمد بن خلدون فأقام مع الأمير أبي حفص وسكن لإيثار الفازازي.

ولما استولى أبو حفص على الأمور رعى له سابقته وأقطعه، ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب، واستكفى به في الكثير من أمر ملكه، ورشح له حجابته من بعد الفازازي، وهلك فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عبيدة، واصطفى له حجابته محمد بن إبراهيم الدباغ كاتب الفازازي وجعل محمد بن خلدون رديفاً في حجابته.

فكان كذلك إلى أن هلك السلطان، وجاءت دولة الأمير خالد، فأبقاه على حاله من التجارة والكرامة، ولم يستعمله ولا عقد له، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني فاصطنعه، واستكفى به عندما نبضت عروق التغلب للعرب، ودفعه إلى حامية الجزيرة من دلاج أحد بطون سليم المواطنين بنواحيها، فكانت له في ذلك آثار مذكورة.

ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج إلى المشرق وقضى فرضه سنة ثمان عشرة وأظهر التوبة والإفلاق، وعاد الحج متفلاً سنة ثلاث وعشرين وسبع مائة ولزم كسر بيته.

وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان بيده من الأقطاع والجراية، ودعاه إلى حجابته مراراً فامتنع.

أخبرني محمد بن منصور بن مزني قال: لما هلك الحاجب محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالزوار سنة سبع وعشرين وسبع مائة، استدعى السلطان جدك محمد بن خلدون وأراد على

التماسك لما بقي من رمق الأندلس، وفأوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية، وهم بنو الباجي، وبنو الجند، وبنو الوزير، وبنو سيد الناس، وبنو خلدون.

وداخلهم في الثورة على ابن هود، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة، ويتمسكوا بالجبال الساحلية وأمصارها المتوعدة، من مالقة إلى غرناطة إلى المرية، فلم يوافقوه على بلدهم.

وكان مقدمهم أبو مروان الباجي، فنبأهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي وباع مرة لابن هود ومرة لصاحب مراكش من بني عبد المؤمن، ومرة للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية.

ونزل غرناطة واتخذها دار للملك، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل الملك، فخشي بنو خلدون سوء العاقبة مع الطاغية، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدو، ونزلوا سبتة، وأجلب الطاغية على تلك الثغور فملك قرطبة وإشبيلية وقرمونة وجيان وما إليها في مدة عشرين سنة.

ولما نزل بنو خلدون بسبتة أصرهم إليهم العزفي بأبنائه وبناته، فاختلف بهم، وكان له معهم صهر مذكور.

وكان جدنا الحسن بن محمد، وهو سبط ابن المحتسب قد أجاز فيمن أجاز معهم، فذكر سوابق سلفه عند الأمير أبي زكريا، فقضده، وقدم عليه فأكرم قدومه، وارتحل إلى المشرق فقضى فرضه.

ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكريا على بونة، فأكرمه واستقر في ظل دولته ومرعى نعمته، وفرض له الأرزاق وأقطع الأقطاع.

وهلك هنالك فدفن ببونة وخلف ابنه محمداً أبا بكر؛ فنشأ في جو تلك النعمة ومرعاها. وهلك الأمير أبو زكرياء ببونة سنة سبع وأربعين وست مائة وولي ابنه المستنصر محمد، فأجرى جدنا أبا بكر على ما كان لأبيه.

ثم ضرب الدهر ضرباته، وهلك المستنصر سنة خمس وسبعين وست مائة، وولي ابنه يحيى، وجاء أخوه الأمير أبو إسحاق من الأندلس بعد أن كان فر أمام أخيه المستنصر، فخلع يحيى، واستقل هو بملك إفريقية، ودفع جدنا أبا بكر محمداً إلى عمل الأشغال في الدولة على سنن عظماء الموحدين فيها قبله، من الانفراد بولاية العمال وعزهم وحسانهم على الجباية، فاضطلع بتلك الرتبة.

ثم عقد السلطان أبو إسحاق لابنه محمد، وهو جدنا الأقرب على حجابة ولي عهده ابنه أبي فارس أيام أقصاه إلى بجاية.

ودرس عليه كتباً جمّة مثل كتاب « التسهيل » لابن مالك، و « مختصر ابن الحاجب » في الفقه ولم أكملهما بال حفظ، وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي وعلى أستاذي تونس: منهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصائري، وكان إماماً في النحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزال.

ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار، كان متمعاً في صناعة النحو، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجناب النبوي وهو حي لهذا العهد بتونس.

ومنهم إمام العربية والأدب بتونس أبو عبد الله محمد بن بحر، لازمت مجلسه وأفدت عليه، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان.

وأشار علي بحفظ الشعر فحفظت كتب الأشعار الستة، والحامسة للأعلم وشعر حبيب وطائفة من شعر المتنبي، ومن اشعار كتاب الأغاني.

ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس، شمس الدين أبي عبد الله بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي صاحب الرحلتين، وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجاج إلا فوتاً يسيراً من كتاب الصيد، وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوله إلى آخره، وبعضاً من الأمهات الخمس، وناولني كتباً كثيرة في العربية والفقه وأجازني إجازة عامة، وأخبرني عن مشايخه المذكورين في برنامجه أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الغماز الحزرجي.

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة، منهم أبو عبد الله بن عبد الله الخياني، وأبو القاسم محمد القصير، وقرأت عليه كتاب « التهذيب » لأبي سعيد البرادعي، مختصر المدونة، وكتاب المالكية، وتفقهت عليه.

وكنّت في خلال ذلك أستاذ مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبد الله بن عبد السلام مع أخي محمد رحمة الله عليهما، وأفدت منه وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك، وكانت له فيه طرق عالية عن أبي محمد بن هارون الطائي قبل اختلاطه - إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس، وكلهم في الطاعون الجارف.

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك إفريقية سنة ثمان وأربعين جماعة من أهل والعلم كان يلزمهم شهود مجلسه، ويتجمل بمكانهم فيه، فمنهم شيخ الفتياء بالمغرب

الحجابه، وأن يفرض إليه في أمره، فأبى واستعفى فأعفاه ووامره فيمن يوليه حجابته، فأشار عليه بصاحب الثغر: بجاية محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لاستحقاقه ذلك بكفائته واضطلامه، ولتقديم صحابة بين سلفهما بتونس، وبإشيلية من قبل.

وقال له: هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والذوين لعمل السلطان على إشارته واستدعى ابن سيد الناس وولاه حجابته.

وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمداً عليها وثوقاً بنظره واستامة إليه إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين وسبعمئة ونزع ابنه، وهو والدي محمد أبو بكر عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط، لما نشأ عليه في حجر أبي عبد الله الزبيدي الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعده في العلم والفتيا، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن، الوليين الشهرين.

وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنه وهو والدي رحمه الله فقراً وتفقه، وكان مقدماً في صناعة العربية، وله بصر بالشعر وفنونه، عهدي بأهل الأدب يتحاكمون إليه فيه، ويعرضون حوكهم عليه، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمئة.

نشأته ومشيقته وحاله

أما نشأتي: فأنني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة، وريت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أبغيت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال، الأنصاري، أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها، وكان إماماً في القراءات لا يلحق شأوه، وكان من أشهر شيوخه في القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد البطرني، ومشيقته فيها، وأسائده معروفة وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين ختمة، ثم جمعتها في ختمة واحدة أخرى ثم قرأت برواية يعقوب ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه، وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي اللامية في القراءات والرائية في الرسم وأخبرني بهما عن الأستاذ أبي العباس البطرني وغيره من شيوخه، وعرضت عليه كتاب « التقصي لأحاديث الموطأ » لابن عبد البر حذا به حذو كتابه « التمهيد على الموطأ » مقتصراً على الأحاديث فقط.

ثم اختصه السلطان أبو الحسن ونظمه في جملة العلماء بمجلسه، وهو في خلال ذلك يعلم العلوم العقلية، ويثنها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها، وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه.

ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن، لزمته، وأخذت عنه الأصلين، والنطق، وسائر الفنون الحكيمة، والتعليمية، وكان رحمه الله يشهد لي بالتريز في ذلك.

ومن قدم في جملة السلطان أبي الحسن، صاحبنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان الملقب، كان يكتب عن السلطان ويلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات، وبعضها يضعه السلطان بخطه.

وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب في براعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، وإجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسل عن السلطان، وحرك الشعر والخطابة على المنابر، لأنه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان.

فلما قدم علينا بتونس صحبته، واغتنبت به، وإن لم اتخذه شيخاً، لمقاربة السن، فقد أفدت منه كما أفدت منهم.

وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرحوي شاعر تونس في قصيدة على روي النون يرغب منه تذكرة شيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه للسلطان أبي الحسن في قصيدته على روي الباء، وقد تقدم ذكرها في أخبار السلطان.

وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القدامين مع السلطان وهي هذه:

عرفت زمني حين انكرت عرفاني
وأن لا اختيار في اختيار مقوم
وأن نظام الشكل أكمل نظمته
وأن افتقار المسر من فقراته
فمن بعد ما شمت الخلاب ولم أرغ
ولم يعيش للشارع شعاعها
ولم يبق لي في الغيب من أمل سوى
هنالك الفيت العلا تتسي إلى
وأرعت من روض التأذب بانعاً
وردت فلم تحب لدي رياتي
فحبك من آدابه كل زاجر
يحبك بالسلك الذي لم تحط به

وأبقت أن لا حظ في كف كيوان
وأن لا قراع بالقران لأقران
لأضعف قاضٍ في الدليل برجحان
ومن ثقله يغني اللبيب بأوزان
لهشة راضٍ أو لشرة غضبان
فما كان نار نار موسى بن عمران
لقاء ابن رضوان وجنة رضوان
أناس ضليلٌ عندهم فخر غشيان
وحيت من كثر العلوم بقيعان
وصدق طرفي ما تلقته آذاني
يحيك معسولاً بدير ومرجان
طروس ابن سهل أو سواف بوران

وإمام مذهب مالك أبو عبد الله محمد بن سليمان السطحي، فكتبت أتاب مجلسه وافدت عليه.

ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي توضع أسفل مکتوباته، إمام المحدثين والنحاة بالمغرب أبو محمد عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمي، لازمته وأخذت عنه سماعاً وإجازة، الأمهات الست.

وكتاب الموطأ، والسير لابن إسحاق، وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وكتباً كثيرة شئت عن حفظي.

وكانت بضاعته في الحديث وافرة، وغلته في التقييد والحفظ كاملة، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر في الحديث والفقه والعربية والأدب والمقول وسائر الفنون، مضبوطة كلها مقابلة، ولا يخلو ديوان منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفه، حتى الفقه والعربية الغريبة الإسناد إلى مؤلفيها في هذه العصور.

ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب.

قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع، من طريق أبي عمرو الداني وابن شريح في ختمه ولم أكملها، وسمعت عليه عدة كتب، وأجازني بالإجازة العامة.

ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الألبلي أصله من تلمسان، وبها نشأ، وقرأ كتب التعاليم وحذق فيها، وأظله الحصار الكبير بتلمسان أعوام المائة السابعة، فخرج منها وحج ولقي أعلام المشرق يومئذ، فلم يأخذ عنهم لأنه كان مختلطاً بعارض عرض في عقله.

ثم رجع من المشرق وأفاق وقرأ المنطق والأصليين على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام، وكان قرأ بتونس مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن على تلاميذ ابن زيتون الشهير الذكر وجاء إلى تلمسان يعلم كثير من المنقول والمقول، فقرأ الألبلي على أبي موسى منهما كما قلناه، ثم خرج من تلمسان هارباً إلى المغرب لأن سلطانها يومئذ أبو حمو من ولد يغمراسن بن زيان، كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانه، فقر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولزم العالم الشهير أبا العباس بن البناء الشهير الذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية، وورث مقامه فيها وأرفع، ثم صعد إلى جبال الهسكرة بعد وفاة الشيخ باستدعاء علي بن محمد بن تروميت ليقراً عليه، فأفاده وبعد أعوام استنزله ملك المغرب، السلطان أبو سعيد، وأسكنه بالبد الجديد والألبلي معه.

ثم كانت واقعة العرب على السلطان القيروان في فاتحة
تسع وأربعين وسبعمائة فشغلوا عن ذلك ولم يظفر هذا الرحوي
بطلبته.

ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه، وهلك عبد
المهيمن فيمن هلك، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس، لحلة كانت بينه
وبين والذي رحمه الله أيام قدومهم علينا.

فلما كانت واقعة القيروان ثار أهل تونس بمن كان عندهم
من أشياع السلطان أبي الحسن، فاعتصموا بالقصبة دار الملك،
حيث كان ولد السلطان وأهله، وانتفض عليه ابن تافراكين،
وخرج من القيروان إلى العرب، وهم يحاصرون السلطان، وقد
اجتمعوا على ابن أبي دبوس وبايعوا له كما مر في أخبار
السلطان، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس، فحاصر القصبة وامتنعت
عليه.

وكان عبد المهيمن يوم ثورة أهل تونس، ووقوع الميعة خرج
من بيته إلى دارنا فاخفى عند أبي رحمه الله، وأقام متخفياً عندنا
غوراً من ثلاثة أشهر.

ثم غيا السلطان من القيروان إلى سوسة، وركب البحر إلى
تونس، وفر ابن تافراكين إلى المشرق، وخرج عبد المهيمن من
الاختفاء، وأعاد السلطان إلى ما كان عليه من وظيفة العلامة
والكتابة وكان كثيراً ما يخاطب والذي رحمه الله ويشكره على
موالاته، وما كتب إليه وحفظته من خطه:

محمد ذوي المكارم قد ثناني فعمال شكره أبدأ عناني
جزى الله ابن خلدون حياة منعمة وخلداً في الجنان
فكم أولى ووالى من جميل وير بالفعال وباللسان
وراعى الحضرمية في الذي قد حنا من وده ومن الحنان
أبا بكر شاك طول دهري أردد باللسان وبالجنان
وعن عليك ما امتدت حياتي أكافح بالحسام وباللسان
فمنك أفدت خلا لست دهري أرى عن حبه أثني عناني

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرحوي في شعره، هم سباق
الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن، اصطفاهم لصحبته من بين
أهل المغرب، فاما ابنا الإمام منهم، فكانا أخوين من أهل برشك
من أعمال تلمسان، واسم أكبرهما أبو زيد عبد الرحمن، والأصغر:
أبو موسى عيسى.

وكان أبوهما إماماً ببعض مساجد برشك، وأتهمه المتغلب
يومئذ على البلد زيرم بن حماد.

بأن عنده وديعة من المال لبعض أعدائه، فطالبه بها، فلاذ

وفي وشبه الأطراس قل هو صنعاني
بإسداء إنعام وإبلاء إحسان
ثم يقول في ذكر العلماء القادمين:

هم القوم كل القوم أما حلومهم
فلا طيش يعرفهم وأما علومهم
بفقه يشيم الأصححي صباحة
وحسن جدال للخصرم ومنطق
سقت روضة الآداب منهم سحائب
فلم يبق ناي ابن الإمام شماخة
وبعد نوى السطي لم تسط فأسه
وبالأيدي استسقت الأرض ويلها
وهامت على عبد المهيمن تونس
وما علفت مني الضمائر غيره

وكتب هذا الشاعر: صاحبنا الرحوي يذكر عبد المهيمن
بذلك.

لهي النفس في اكتساب وسعي
وأرى الناس بين ساع لرشد
وأرى العلم للبرية زينا
وأرى الفضل قد تجمع كلا
حل بالرتبة العلية في حضرة
قلتم أوسع الأقاليم أمراً
قدر ما يفيد منه احتذار
يمنح العز والعلل ويوال
يلجأ الدارعون خوفاً إليه
هو أعلى الأقاليم في كل عصر
حليت تكلم الرئاسة منه
سالك ففي النظام دراً وطوراً
بدع للبديع ترمي بمحصر
ويرى أخرس العراق لديه
وعلمهم هي البحور ولكن
تصدر الأمة العظيمة عنه
وبفقه فيه وحسن مقال
وينحو ينحى على سيبويه
عمي الأخفشان عنه وسدت
يا أخا الحكم في الأنام وإنني
بنت فكري تعرضت لحماكم
تبغني القرب من مراقبي الأماني
فأنلها مرامها نلت ستهلا

وفي وشبه الأطراس قل هو صنعاني
بإسداء إنعام وإبلاء إحسان
ثم يقول في ذكر العلماء القادمين:
فأرسخ من طودي ثبير ونهلان
وقد ظفرت منه بوصل وقربان
وأشهب منه يستدل بشهبان
يحيثان في الأخفى بأوضح برهان
سحين على سحبان أفيال نسيان
على مدن الدنيا لأنف تلمسان
بفخر على بغداد في عصر بغداد
ومستول ما مال عنه لأطمان
وقد ظفرت منه بوصل وقربان
وإن هويت كلا محب ابن رضوان
وكتب هذا الشاعر: صاحبنا الرحوي يذكر عبد المهيمن
بذلك.
وهو العمر في انتهاب وفي
يتوخى الهدى وساع لغني
فتري منه بأحسن زي
في ابن عبد المهيمن الحضرمي
ملك سامي العماد علي
فله قد أطاع كل عصي
فبأي تراه يقضي بأي
بالعطايا الجسام كل ولي
فهو يزري بالصّارم المشرقي
حيث ينمى إلى الإمام علي
بفري في كل معنى سي
ناثر دوه بنشر وطوي
ولصايي بسني بويي بمي
إنه بالشام كالأعجمي
يشني السواردون منها بسري
بحديث مجوّد مرووي
يضع النور في لحاظ العمي
بيان في المبهمات جللي
عن خفاياه فطنة الفارسي
لأنادي ربّ الندى والندى
فالقها راضياً بوجه رضي
والترقي للجانب العلوي
كل دان تبغني وكل قصي

إلى بلدهما وتوفي أبو زيد منهما إثر ذلك، وبقي أخوه أبو موسى متبوءاً ما شاء من ظلال تلك الكرامة.

ولما سار السلطان أبو الحسن إلى إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كما مر في أخباره استصحب أبا موسى ابن الإمام معه مكرماً موقراً، عالي المحل، قريب المجلس منه فلما استولى على إفريقية سرحه إلى بلده، فأقام بها يسيراً وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة متوقلين قللاً طبقاً عن طبق إلى هذا العهد.

وأما السطحي، واسمه محمد بن سليمان من قبيلة سطة، من بطون أوربة بنواحي فاس، فنزل أبوه سليمان مدينة فاس ونشأ محمد بها وأخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن الصغير إمام المالكية بالمغرب، والظاهر الذكر وقاضي الجماعة بفاس، وتفقه وقرأ عليه، وكان أحفظ الناس لمذهب مالك، وأفقههم فيه.

وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسراوته وبعد شأوه في الفضل يتشوف إلى تنويه مجلسه بالعلماء، واختار منهم جماعة لصحبته ومجالسته، كان منهم هذا الإمام محمد بن سليمان.

وقدم علينا بتونس في جلته، فشهدنا وفور فضائله، وكان في الفقه من بينها لا يجارى حفظاً وفهماً، عهدي به وأخي محمد رحمه تعالى، يقرأ عليه من كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي، وهو يصححه عليه من إملاته وحفظه في مجالس عديدة، وكذا كان حاله في أكثر ما يعاني حمله من الكتب.

وحضر مع السلطان أبي الحسن واقعة القيروان وخلص معه إلى تونس، وأقام بها نحواً من سنتين، وانتفض المغرب على السلطان واستقل به ابنه أبو عنان.

ثم ركب السلطان أبو الحسن في أساطيله من تونس آخر سنة خمسين وسبعمائة وممر ببيجايه فأدركه الغرق في سواحلها، ففرقت أساطيله وغرق أهله، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم، وألقاه البحر ببعض الجزر هنالك حتى استنقذه منه بعض أساطيله، ونجا إلى الجزائر بعد أن تلف موجوده، وهلك الكثير من عياله وأصحابه، وكان من أمره ما مر في أخباره.

وأما الأبلي واسمه محمد بن إبراهيم فمشتوه بتلمسان، وأصله من جالية الأندلس من أهل آبله من بلاد الجوف منها، أجاز أبوه وعمه أحمد، فاستخدمهم يغمرا بن زيان وولده في جندهم، وأصهر إبراهيم منهما إلى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته، فولدت له محمداً هذا.

ونشأ بتلمسان في كفالة جده القاضي، فنشأ له بذلك ميل

بالامتناع، وبيته زيرم لبيتزع المال من يده، فدافعه وقتل، وارتحل ابنه هذان الأخوان إلى تونس في المائة السابعة، وأخذوا العلم بها عن تلاميذ ابن زيتون، وتفقهوا على أصحاب أبي عبد الله بن شعيب الدكالي، وانتقلا إلى المغرب بحظ وافر من العلم، وأقاما بالجزائر يثبان بها العلم لامتناع برشك عليهما من أجل [ضرراً] زيرم المتغلب عليها، والسلطان أبو يعقوب يومئذ صاحب المغرب الأقصى من بني مرين جاثم على تلمسان يحاصرهما الحصار الطويل المشهور، وقد بث بها جيوشه في نواحيها، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها، وملك عمل مغراوة بشلف، وحاضرتة مليانة، بعث عليها الحسن بن بن علي أبي الطلاق من بني عسكر، وعلي بن محمد الخيري من بني ورتاجن، ومعهما - لضبط الجباية واستخلاص الأموال - الكاتب منديل بن محمد الكناني، فارتحل هذان الأخوان يومئذ من الجزائر، واختلا بمليانة، فحليا بعين منديل الكناني، فقربهما واصطفاهما، واتخذهما لتعليم ولده محمد.

ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب بمكانه من حصار تلمسان سنة خمس وسبعمائة على يد خصي من خصيائه طعنه فأشواه، وهلك.

وقام بالملك بعده حافده أبو ثابت بعد أمور ذكرناها في أخباره، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان يومئذ، أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمرا بن أخيه أبي هو العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان، ورد أعمالها عليهم، فوقى لهم بذلك وعاد إلى المغرب.

وارتحل ابن أبي الطلاق والخيري، والكناني من مليانة راجعين إلى المغرب.

ومروا بتلمسان ومع الكناني هذان الأخوان فأوصلهما إلى أبي هو وأثنى عليهما وعرفه بمقامهما في العلم، فاغتبط بهما أبو هو وبنيهما المدرسة المعروفة بهما بتلمسان، وأقاما عنده على هدي أهل العلم، وسنتهم.

وهلك أبو هو، وكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن المريني إلى تلمسان، وملكها عنوة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وكانت لهما شهرة في أقطار المغرب، أثبت لهما في نفس السلطان عقيدة صالحة، فاستدعاهما لحين دخوله، وأدنى مجلسهما واشاد بتكرمتها، ورفع عليهما على أهل طبقتهما.

وصار يجمل بهما مجلسه متى مرأ بتلمسان أو وفدا عليه في الأوقات التي يقد فيها أعيان بلدهما.

ثم استفرهما إلى الغزو وحضرا معه واقعة طريف، وعادا

معه من أصحابه من أوصله إلى مأمنه من بلاد زواوة من أطراف المغرب.

وقال لي شيخنا رحمه الله: كان معي دنائير كثيرة تزودتها من المغرب واستبطنتها في جبة كنت ألبسها، فلما نزل بي ما نزل انتزعها مني، حتى إذا بعث أصحابه يشيعوني إلى المغرب دفعها إليهم، حتى إذا أوصلوني إلى المأمن أعطوني إياها، وأشهدوا علي بها في كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم.

ثم قارن وصول شيخنا إلى المغرب مهلك يوسف بن يعقوب وخلاص أهل تلمسان من الحصار، فعاد إلى تلمسان وقد أفاق من اختلاطه، وانبعث همته إلى تعلم العلم.

وكان مثلاً إلى العقليات فقرأ المنطق على أبي موسى ابن الإمام، وجملة من الأصليين، وكان أبو هو صاحب تلمسان يومئذ قد استفحل ملكه، وكان ضابطاً لأمره، وبلغه عن شيخنا تقدمه في علم الحساب، فدفعه إلى ضبط أمواله ومشارفة عماله.

وتفادى شيخنا من ذلك فأكبره عليه، فأعمل الحيلة في الفرار منه، ولحق بفاس أيام السلطان أبي الربيع، وبعث فيه أبو هو، فاخفى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود خلوف المغيلي، فاستوفى عليه فنونها، وحذق وخرج متوارياً من فاس، فلحق بمراكش أعوام العشر والسبع مائة.

ونزل على الإمام أبي العباس بن البناء شيخ المعقول والمنقول، والمبرز في التصوف علماً وحالاً، فلزمه، وأخذ عنه وتضلع من علم المعقول والتعاليم والحكمة.

ثم استدعاه شيخ المسكرة علي بن محمد بن تروميت ليقرأ عليه، وكان معرضاً في طاعته للسلطان، فصعد إليه شيخنا وأقام عنده مدة، قرأ عليه فيها وحصل.

واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ، فكثرت إفادته، واستفادته، وعلي بن محمد في ذلك على محبته وتعظيمه، وامثال إشارته، فغلب على هواه، وعظمت رياسته في تلك القبائل.

ولما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن تروميت من جبله، نزل الشيخ معه، وسكن بفاس.

وانتال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فانتشر علمه، واشتهر ذكره، فلما فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى ابن الإمام، ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتقدم في العلوم، وكان السلطان معنياً بجمع العلماء لمجلسه كما ذكرنا.

فاستدعاه من مكانه بفاس ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه،

إلى اتحال العلم عن الجندية التي كانت متحل إليه وعمه.

فلما بلغ وأدرك سبق إلى ذهنه محبة التعاليم، فبرع فيها واشتهر وعكف الناس عليه في تعلمها، وهو في سن البلوغ.

ثم اطل السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان وجثم عليها يحاصرها، وسير بعوثه إلى الأعمال، فافتتح أكثرها.

وكان إبراهيم الأبلبي قائداً بهين مرسى تلمسان في لمة من الجند، فلما ملكها يوسف بن يعقوب اعتقل من وجد بها من شيع ابن زيان واعتقل إبراهيم الأبلبي فيهم، وشاع الخبر في تلمسان بأن يوسف بن يعقوب يسترهن أبناءهم ويطلقهم، فتشوف ابنه محمد إلى اللحاق به من أجل ذلك.

وأغراه أهله بالعزم عليه، فتسور الأسوار وخرج إلى أبيه فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً.

واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الأندلسيين بين بتاوريرت، فكرهه المقام على ذلك، ونزع عن طوره، ولبس المسوح، وسار قاصداً إلى الحج.

وانتهى إلى رباط العباد مخفياً في صحبة الفقراء، فوجد هنالك رئيساً من كربلاء ثم من بني الحسين جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوتهم فيه، وكان معقلاً، فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب وشدة هيئته غلب عليه اليأس من مراده ونزع عن ذلك، واعتزم على الرجوع إلى بلده، فسار شيخنا محمد بن إبراهيم في جلته.

قال لي رحمه الله: وبعد حين انكشف لي حاله وما جاء له، واندرجت في جملة أصحابه وتابعيه.

قال: وكان يتلقاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمه من يأتيه بالأزواد والنفقات من بلده، إلى أن ركبنا البحر من تونس إلى الإسكندرية.

قال: واشتدت علي الغلظة في البحر واستحييت من كثرة الاغتسال لمكان هذا الرئيس، فأشار علي بعض بطانته بشرب الكافور، فاغترفت منه غرفة فشربتها فاختلطت.

وقدم الديار المصرية على تلك الحال، وبها يومئذ تقي الدين بن دقيق العيد وابن الرفعة وصفي الدين الهندي، والتبريزي وابن البديع وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول.

فلم يكن قصاره إلا تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم لنا، لما كان به من الاختلاط.

ثم حج مع ذلك الرئيس وسار في جلته إلى كربلاء فبعث

وعكف على التدريس والتعليم، ولازم صحابة السلطان، وحضر معه واقعة طريف، وواقعة القيروان بإفريقية.

وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه الله صحابه، كنت وسيلي إليه في القراءة عليه، فلزمت مجلسه وأخذت عنه وافتتحت العلوم العقلية بالتعاليم، ثم قرأت المنطق وما بعده من الأصول، وعلوم الحكمة.

وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب.

وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا، فأشرنا عليه بالمقام وثبطناه عن السفر، فقبل وأقام، وطالبنا به السلطان أبو الحسن فأحسن له العذر، فتجافى عنه.

وكان من حديث غرفه في البحر ما قدمناه.

وأقام الشيخ بتونس، ونحن وأهل بلدنا جميعاً تساجل هتانة وفرغ ابنه أبو عنان من شواغله، وملك تلمسان من بني عبد الواد، كتب فيه يطلبه من صاحب تونس ومسلطانها يومئذ أبو إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي يحيى في كفالة شيخ الموحدين أبي عمدة بن تافراكين، فأسلمه إلى سفيره، وركب معه البحر في أسطول السلطان الذي جاء فيه السفير، ومر ببجاية ودخلها، وأقام بها شهراً، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه برغبته في ذلك منه ومن صاحب الأسطول.

ثم ارتحل ونزل بمرسى هنين وقدم على السلطان بتلمسان، وأحله محل التكرمة، ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء، وكان يقرأ عليه ويأخذ عنه إلى أن هلك بفاس سنة سبع وخمسين وسبعمائة.

وأخبرني رحمه الله أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وأما (عبد المهيمن) كاتب السلطان أبي الحسن، فاصله من سبته، ويتهم بها قديم، ويعرفون ببني عبد المهيمن وكان أبوه عمدة قاضياً أيام بني العزفي.

ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفالاته وأخذ عن مشيختها واختص بالأستاذ أبي إسحاق الغافقي، ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس سبته، ونقل بني العزفي مع جملة أعيانها إلى غرناطة، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه عبد المهيمن، فاستكمل قراءة العلم هنالك وأخذ عن أبي جعفر مشيختها ابن الزبير ونظرته، وتقدم في معرفة كتاب سيويه، وبرز في علو الإسناد، وكثرة المشيخة.

فكتب له أهل المغرب والأندلس والمشرق، واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ الوزير أبو عبد الله بن الحكيم الرندي، المستبد على السلطان المخلوع من بني الأحمر فكتب عنه ونظمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه، مثل المحدث الرحالة أبي عبد الله بن رشيد الفهري وأبي العباس أحمد بن العزفي، والعالم الصوفي المتجرد أبي عبد الله محمد بن خميس التلمساني، وكان لا يجاريان في البلاغة والشعر - إلى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به، وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة.

فلما نكب الوزير ابن الحكيم، وعادت سبته إلى طاعة بني مرين، عاد عبد المهيمن إليها واستقر بها.

ثم ولي الأمر أبو سعيد وغلب عليه ابنه أبو علي، واستبد بحمل الدولة، تشوف إلى استدعاء الفضلاء، وتحمل الدولة بمكانه، فاستقدم عبد المهيمن من سبته واستكتبه سنة اثني عشرة وسبعمائة.

ثم خالف على أبيه سنة أربع عشرة وسبعمائة، وامتنع بالبلد الجديد، وخرج منها إلى سبلماسة بصلح عقده مع أبيه، فتمسك السلطان أبو سعيد بعبد المهيمن واتخذ كاتباً إلى أن دفعه إلى رياسة الكتاب، ورسم علامته في الرسائل والأوامر، فتقدم لذلك سنة ثمان عشرة وسبعمائة، ولم يزل عليها سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن.

وسار مع أبي الحسن إلى إفريقية، وتخلف عن واقعة القيروان بتونس، لما كان به علة النفوس، فلما كانت الجمعة بتونس، ووصل خبر الواقعة، وتحيز أشياخ السلطان إلى القصة مع حرمه، تسرب عبد المهيمن في المدينة متبذراً عنهم، وتوارى في بيتنا خشية أن يصاب معهم بمكره.

فلما انجلت تلك الغيابة، وخرج السلطان من القيروان إلى سوسة وركب منها البحر إلى تونس، أعرض عن عبد المهيمن لما سخط غيبته عن قومه بالقصة، وجعل العلامة لأبي الفضل ابن الرئيس عبد الله بن أبي مدين وقد كانت مقصورة من قبل على هذا البيت، وأقام عبد المهيمن عطلاً من العمل مدة أشهر.

ثم اعتبره السلطان ورضي عنه، وأعاد إليه العلامة كما كان، وهلك لأيام قلائل بتونس بالطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة ومولده سنة خمس وسبعين وستمائة من المائة قبلها، وقد استوعب ابن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة، فليطالع هناك من أحب الوقوف عليه.

وأما ابن رضوان الذي ذكره الرحوي في قصيدته، فهو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان التجاري أصله من

بدمه، ولاية وصحة وانتظام في السمر، وغشيان المجالس الخاصة، وهو من ذلك يدنيه من السلطان، ويفتق سوقه عنده، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهم، فحلي بعين السلطان ونفقت عنده فضائله.

فلما سار ابن أبي عمرو في العساكر إلى بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمئة انفرد ابن رضوان بقلم الكتاب عن السلطان، ثم رجع ابن أبي عمرو وقد سخطه السلطان، فأقصاه إلى بجاية وولاه عليها، وعلى سائر أعمالها، وعلى حرب الموحدين بقسنطينة.

وأفرد ابن رضوان بالكتابة، وجعل إليه العلامة كما كانت لابن أبي عمرو، فاستقل بها موفر الأقطاع والأسهام والجاه.

ثم سخطه آخر سبع وخمسين وسبعمئة وجعل العلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مدين والإنشاء والتوقيع لأبي إسحاق إبراهيم بن الحاج الغرناطي، فلما كانت دولة السلطان أبي سالم جعل العلامة لعلي بن محمد بن مسعود صاحب ديوان العساكر والإنشاء والتوقيع والسر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن بن خلدون.

ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين وسبعمئة واستبد الوزير عمر بن عبد الله على من كفله من أبنائهم، فجعل العلامة لابن رضوان سائر أيامه، وقتله عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، واستبد بملكه، فلم يزل ابن رضوان على العلامة، وهلك عبد العزيز وولى ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس وابن رضوان على حاله، ثم غلب السلطان أحمد على الملك وانتزعه من السعيد وأبي بكر بن غازي، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس، مستبداً عليه، والعلامة لابن رضوان كما كانت إلى أن هلك بأزمور في بعض حركة السلطان أحمد إلى مراكش، لخصار عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي.

وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق، وتخطت النكبة منهم آخرون إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم.

فممن حضر معه بإفريقية من العلماء، شيخنا أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي شيخ القراءات بالمغرب، أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس، وروى عن الرحالة أبي عبد الله بن رشيد، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تجارى، وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود وكان يصلي بالسلطان

الأندلس، نشأ بمالقة، وأخذ عن مشيختها، وحقق في العربية والأدب، وتفنى في العلوم ونظم ونثر، وكان مجيداً في الترسيل، وحسناً في كتابة الوثائق.

وارتحل بعد واقعة طريف ونزل بسبته، ولقي بها السلطان أبا الحسن ومدحه وأجازه، واختص بالقاضي إبراهيم بن أبي يحيى، وهو يومئذ قاضي العساكر وخطيب السلطان، وكان يستنيه في القضاء والخطابة، ثم نظم في حلبة الكتاب بباب السلطان.

واختص بخدمة عبد المهيم رئيس الكتاب والأخذ عنه، إلى أن رحل السلطان إلى إفريقية، وكانت واقعة القيروان، وانحصر بقصبة تونس من المنصر بها من أشياعه مع أهله وحرمة.

وكان السلطان قد خلف ابن رضوان هذا بتونس في بعض خدمه، فجلى عند الحصار فيما عرض لهم من المكائبات، وتولى كبر ذلك، فقام فيه أحسن قيام إلى أن وصل السلطان من القيروان، فرعى له حق خدمته تأنيساً وقرباً، وكثرة استعمال إلى أن ارتحل من تونس في الأسطول إلى المغرب سنة خمسين وسبعمئة كما مر.

واستخلف بتونس ابنه أبا الفضل، وخلف أبا القاسم بن رضوان كاتباً له، وأقام كذلك أياماً.

ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدين الفضل ابن السلطان أبي يحيى.

ونجا أبو الفضل إلى أبيه، ولم يطق ابن رضوان الرحلة معه، فأقام بتونس حولاً، ثم ركب البحر إلى الأندلس، وأقام بالمرية مع جملة من هنالك من أشياع السلطان أبي الحسن، كان فيهم عامر بن محمد بن علي شيخ هتاة كافلاً لحرم السلطان أبي الحسن وابنه.

أركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل، فخلصوا إلى الأندلس، ونزلوا بالمرية وأقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس، فلحق بهم ابن رضوان وأقام معهم.

ودعاه أبو الحجاج سلطان الأندلس إلى أن يستكتبه فاستمتع، ثم هلك السلطان أبو الحسن وارتحل خلفه الذين كانوا بالمرية، ووفدوا على السلطان أبي عنان، ووفد معهم ابن رضوان، فرعى له وسائله في خدمة أبيه، واستكتبه واختصه بشهود مجلسه مع طلبة العلم بمحضرتة.

وكان محمد بن أبي عمرو يومئذ رئيس الدولة، ونجي الخلوة وضاحب العلامة، وحسبان الجباية والعساكر، قد غلب على هوى السلطان، واختص به، فاستخدم له ابن رضوان حتى علق منه

التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزيه.

ومن حضر معه بإفريقية الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصباغ من أهل مكناسة، كان مبرزاً في العقول والمنقول، وعارفاً بالحديث وبرجاله، وإماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقراءه، أخذ العلوم عن مشيخة فاس، ولقي شيخنا أبا عبد الله الأبلبي، ولازمه وأخذ عنه العلوم العقلية، فاستفد ببقية طلبه عليه، فبرز آخره، واختاره السلطان مجلسه واستدعاه، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول.

ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد النور من أعمال ندرومة ونسبه في صنهاجة كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس، تفقه فيه على الأخوين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام، وكان من جلة أصحابهما.

ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى في بلدتهما.

وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجري لهم الأرزاق ويعمر بهم مجلسه، فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس، فأشاروا عليه بابن عبد النور هذا، فأدناه وقرب مجلسه، وولاه قضاء عسكره، ولم يزل في جلته إلى أن هلك بالطاعون بتونس سنة تسع وأربعين وسبعمائة وكان قد خلف بتلمسان أخاه علياً رفيقه في دروس ابن الإمام إلا أنه أقصر باعاً منه في الفقه.

فلما خلع السلطان أبو عثمان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن، ونهض إلى فاس، استغفره في جلته وولاه قضاء مكناسة، فلم يزل بها حتى تغلب عمر بن عبد الله على الدولة كما مر، نزع إلى قضاء فرضه فسرجه.

فخرج حاجاً سنة أربع وستين وسبعمائة فلما قدم على مكة وكان به بقية مرض، هلك في طواف القدوم.

وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ يليغا الخاصكي فأحسن خلافته فيه وولاه من وظائف الفقهاء ما سد به خلته، وصان عن سؤال الناس وجهه، وكان له عفا الله عنه كلف بعلم الكيمياء، تابعاً لمن غلظ في ذلك من أمثاله.

فلم يزل يعاني من ذلك ما يورطه مع الناس في دينه وعرضه إلى أن دعت الضرورة للترحل عن مصر، ولحق ببغداد وناله مثل ذلك.

فلحق بماردين واستقر عند صاحبها، فأحسن جواره إلى أن

بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه والبقاء لله وحده.

ومنهم شيخ التعاليم أبو عبد الله محمد بن النجار من أهل تلمسان، أخذ العلم ببلده عن مشيختها، وعن شيخنا الأبلبي وبرز عليه.

ثم ارتحل إلى المغرب فلقي بسنة إمام التعاليم أبا عبد الله محمد بن هلال شارح المحصلي في الهيئة، وأخذ بمراكش عن الإمام أبي العباس بن البناء، وكان إماماً في علوم النجامة وأحكامها، وما يتعلق بها، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير، واستخلصته الدولة.

فلما هلك أبو تاشفين وملك السلطان أبو الحسن نظمه في جلته وأجرى له رزقه، فحضر معه بإفريقية وهلك في الطاعون.

ومنهم أبو العباس أحمد بن شعيب من أهل فاس، برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية، من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها.

ونظمه السلطان أبو سعيد في حلبة الكتاب وأجرى عليه الرزق مع الأطباء لتقدمه فيهم، فكان كاتبه وطيبه، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده، فحضر بإفريقية وهلك بها في ذلك الطاعون.

وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين، وكانت له إمامة في نقد الشعر وبصر به، ومما حضرني الآن من شعره:

دار الهوى نكد وساكنها أقصى أمانى النفس من نكد
هل باكراً الوسمي ساحتها واستن في قيعانها الجرد
أو بات معتل النسيم بها مستشفياً بالبان والزند
يتلو أحاديث الذين هم قصدي وإن جازوا عن القصد
أيام سمر ظللها وطني منها وزرق مياهما وردي
ومطارح النظرات في رشاء أحوى المدامع أميف القصد
يرنو إليك بعين جازية قتل الحب بها على عمد
حتى أجسد علسي عجل ريث الخطوب وعائر الجسد
فقدوا فلا وأبيك بعدهم ما عشت لا آسى على الفقد
وغسدا دفيناً قد تضمنه بطن الثرى وقرارة اللحد
ومشرداً من دون رؤيته قذف النوى وتروفة البعد
أجرى علي العيش بعدهم أني فقدت جميعهم وحدي
لا تلحني يا ضاح في شجن أخفيت منه فوق ما أبدى
بالغرب لي سكن تأوبي من ذكره شهد على شهد
فرخان قد تركا بمضيعة زويت عن الرفداء والرفد

ومنهم صاحبنا الخطيب أبو عبد الله بن أحمد بن مرزوق

بن يحيى بن يغمراسن بن زيان قد بايع له قبيله بنو عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس، وابن تافراكين يومئذ حاصر للقصبه كما مر في أخبارهم.

وانصرفوا إلى تلمسان فوجدوا بها أبا سعيد عثمان بن جرار من بيت ملوكهم وقد استعمله عليها السلطان أبو عنان عند انتقاضه على أبيه، ومسيره إلى فاس، وانتقض ابن جرار من بعده، ودعا لنفسه، وصمد إليه عثمان بن عبد الرحمن ومعه أخوه أبو ثابت وقومهما، فملكوا تلمسان من يد ابن جرار وجسوه ثم قتلوه.

واستبد أبو سعيد بملك تلمسان وأخوه أبو ثابت يرادفه، وركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس وغرق أسطوله ونجا هو إلى الجزائر فاحتل بها، وأخذ في الحشد إلى تلمسان، فرأى أبو سعيد أن يكف غربه عنهم، بمواصلة تقع بينهما، واختار لذلك الخطيب بن مرزوي فاستدعاه وأسر إليه بما يلقيه عنه للسلطان أبي الحسن، وذهب لذلك على طريق الصحراء.

وأطلع أبو ثابت وقومهم على الخبر فذكروه على أبي سعيد وعاتبوه، فبعثوا صغير بن عامر في اعتراض ابن مرزوق فجاء به وجسوه أياماً.

ثم أجازوه البحر إلى الأندلس فنزل على السلطان أبي الحجاج بغرناطة، وله إليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان أبي الحسن بسببة إثر واقعة طريف، فرعى له أبو الحجاج دمة تلك المعرفة، وأذناه واستعمله في الخطابة بجامعه بالحرما.

فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان سنة أربع وخمسين وسبعمئة بعد مهلك أبيه، واستيلائه على تلمسان وأعمالها، فقدم عليه ورعى له وسائله، ونظمه في أكابر أهل مجلسه.

وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي ويدرس في نوبته مع من يدرس في مجلسه منهم.

ثم بعث إلى تونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين وسبعمئة ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى، فردت تلك الخطبة واختفت بتونس.

ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها، فسخطه لذلك ورجع السلطان من قسنطينة، فثار أهل تونس بمن كان بها من عماله وحاميته.

واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهديّة، فجاء وملك البلد، وركب القوم الأسطول ونزلوا بمراسي تلمسان.

من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد، ومتوارثين خدمة تربته من لدن جدهم خادمه في حياته.

وكان جده الخامس أو السادس واسمه أبو بكر بن مرزوق معروفاً بالولاية فيهم.

ولما هلك دفنه يغمراسن بن زيان سلطان تلمسان من بني عبد الواد ففي التربة بقصره، ليدفن بإزائه متى قدر يوفاته.

ونشأ محمد هذا بتلمسان، ومولده - فيما أخبرني - سنة عشر وسبعمئة، وارتحل مع أبيه إلى المشرق.

وجاور أبوه بالخرمين الشريفين، ورجع هو إلى القاهرة وأقام بها، وقرأ على برهان الدين الصفاقسي المالكي وأخيه، وبرع في الطب والرواية، وكان يجيد الخطين، ثم رجع سنة خمس وثلاثين وسبعمئة إلى المغرب ولقي السلطان أبا الحسن بمكانه في تلمسان، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيماً، وكان عمه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم في العباد، وتوفي فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه.

وسمعه يخطب على المنبر ويشيد بذكره والثناء عليه، فحلي بعينه واختصه وقربه، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الإمام، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء والأكابر والأخذ عنهم، والسلطان في كل يوم يزيده رتبة، وحضر معه واقعة طريف التي كان فيها تمحيص المسلمين، فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس، ثم سفر عنه بعد أن ملك إفريقية إلى ابن أدفونش ملك قشتالة في تقرير الصلح، واستنقاذ أبي عمر تاشفين، كان أسر يوم طريف فقاب في تلك السفارة عن واقعة القيروان.

ورجع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية جاؤوا في السفارة عن ملكهم، ولقيهم خبر واقعة القيروان بقسنطينة من بلاد إفريقية، وبها عامل السلطان وحاميته، فثار أهل قسنطينة بهم جميعاً ونهبوهم، وخطبوا للفضل ابن السلطان أبي يحيى، وراجعوا دعوة الموحدين، واستدعوه فجاء إليهم وملك البلد.

وانطلق ابن مرزوق عائداً إلى المغرب مع جماعة من الأعيان، والعمال والسفراء عن الملوك.

ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمه حظية أبي الحسن وأثيرته، كانت راحلة إليه، فأدركها الخبر بقسنطينة، وحضرت الهيعة واتصل بها الخبر بتوثب ابنها أبي عنان على ملك أبيه واستيلائه على فاس، فرجعت إليه وابن مرزوق في خدمتها.

ثم طلب اللحاق بتلمسان فسرحوه إليها، وأقام بالعباد مكان سلفه، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن

مقره بقسنطينة إلى تونس فملكها، وقتل خالد سنة اثنتين وسبعين وسبعمئة.

وكان ابن مرزوق يستريب منه لما كان بجبل وهو بفاس مع ابن عمه أبي عبد الله محمد صاحب بجاية، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه، فعزله السلطان أبو العباس عن الخطبة بتونس، فوجم لها وأجمع الرحلة إلى المشرق.

وسرحه السلطان فركب السفين ونزل بالإسكندرية، ثم ارتحل إلى القاهرة ولقي أهل العلم وأمرأء الدولة، ونفقت بضائعهم، وأوصلوه إلى السلطان وهو يومئذ الأشرف.

فكان يحضر مجلسه ولوله الوظائف العلمية، فكان يتتبع منها معاشه.

وكان الذي وصل حبله بالسلطان استداره محمد بن آقبا أص لقيه أول قدومه فحلي بعينه، واستظرف جملة، فسمى له وأنجحت سعائته، ولم يزل مقيماً بالقاهرة موقر الرتبة معروف الفضيلة، مرشحاً لقضاء المالكية ملازماً للتدريس في وظائفه إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمئة هكذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبي الحسن من أشياخنا وأصحابنا، وليس موضوع الكتاب الإطالة، فلنقتصر على هذا القدر، ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف.

ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها إلى

المغرب والكتابة عن السلطان أبي عنان

لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، متقللاً بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهما الله.

ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الآبلي، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شدت بعض الشيء، واستدعاه السلطان أبو عنان فارغلاً إليه، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحاق.

وقد نهض إليه من قسنطينة صاحبها الأمير أبو زيد حافد السلطان أبي يحيى في عساكره، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استجدوه لذلك، فاخرج ابن تافراكين سلطانه أبا إسحاق مع العرب أولاد أبي الليل، وبث العطاء في عسكره، وعمر له المراتب

وأوعز السلطان أبو عنان باعتقال ابن مرزوق، وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدمي الجنادة ببابه، فلقبه بتاسالة فقيده هنالك، وجاء به فأحضره السلطان وقرعه، ثم حبسه مدة وأطلقه بين يدي مهلكه.

واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان، وبايع بنو مرين لبعض الأعيان من بني يعقوب بن عبد الحق، وحاصروا البلد الجديد، وبها ابنه السعيد ووزيره المستبد عليه الحسن بن عمر، وكان السلطان أبو سالم بالأندلس غربه إليها أخوه السلطان أبو عنان مع بني عمهم ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن، وحصلهم جميعاً في قبضته.

فلما توفي أراد أبو سالم النهوض للملك بالمغرب، فمنعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس مستبداً على ابن السلطان أبي الحجاج، فلحق هو بإشبيلية من دار الحرب، ونزل على بطرة ملكهم يومئذ، فهيا له السفين وأجازاه إلى العدو فتل، بجبل الصفيحة من بلاد غمارة، وقام بدعوته بنو مشي وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم، حتى تم أمره واستولى على ملكه في خبر طويل ذكرناه في أخبار دولتهم.

وكان ابن مرزوق يداخله وهو بالأندلس ويستخدم له، ويفاوضه في أموره وربما كان يكاثبه، وهو بجبل الصفيحة، ويدخل زعماء قومه في الأخذ بدعوته.

فلما ملك السلطان أبو سالم رعى له تلك الوسائل أجمع، ورفع على الناس، وألقى عليه محبة وجعل زمام الأمور بيده، فوطىء الناس عقبه وغشي أشراف الدولة بابه، وصرفوا الوجوه إليه، فمرضت لذلك قلوب أهل الدولة وتقموه على السلطان، وتريصوا به حتى توثب عمر بن عبد الله بالبلد الجديد، وافترق الناس عن السلطان.

وقتل عمر بن عبد الله آخر اثنتين وستين وسبعمئة وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطانه الذي نصبه محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن فامتحنه واستصفاه، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله فمنعه منهم.

ولحق بتونس سنة أربع وستين وسبعمئة ونزل على السلطان أبي إسحاق وصاحب دولته المستبد عليه أبي محمد بن تافراكين، فآكرموا نزله ولوله الخطابة بجامع الموحدين بتونس.

وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو إسحاق سنة سبعين وسبعمئة وولى ابنه خالد.

ورحفت السلطان أبو العباس حافد السلطان أبي يحيى من

والوظائف.

وتعلل عليه صاحب العلامة أبو عبد الله بن عمر بالاستزادة من العطاء، فعزله وأداني منه، فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع «الحمد لله والشكر لله» بالقلم الغليظ ما بين البسمة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم.

وخرجت معهم أول سنة ثلاث وخسين وسبعماية وقد كنت منظوياً على مفارقتهم لما أصابني من الاستيحاش للذهاب أشياخي وعطلني عن طلب العلم.

فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب وانحسر تيارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم.

وصدني عن ذلك أخي وكبري محمد رحمه الله، فلما دعيت إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب، وكان كذلك، فإنا لما خرجنا من تونس نزلنا بلاد هوار، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض بفحص مرماجة وانهمز صفنا ونجوت أنا إلى أبة، فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوشتاني من كبراء المرابطين، ثم تحولت إلى سبتة ونزلت بها على محمد بن عبدون صاحبها، فأقمت عنده ليالي حتى هيا لي الطريق وبذرق لي مع رفيق من العرب، وسافرت إلى قصبة، وأقمت بها أياماً أترصد الطريق حتى قدم علينا بها الفقيه محمد بن الرئيس منصور بن مزني، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب وكان هو بتونس، فلما حاصرها الأمير أبو زيد خرج إليه فكان معه.

ثم بلغهم الخبر بأن السلطان أبا عنان ملك المغرب، نهض إلى تلمسان فملكها، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن، وأخاه أبا ثابت وأنه انتهى إلى المدينة وملك بجاية من يد صاحبها الأمير أبي عبد الله من حفدة السلطان أبي يحيى، وراسله عندما أطل على بلده، فسار إليه، ونزل له عنها.

وصار في جلته، وولى أبو عنان على بجاية عمر بن علي شيخ بني وطاس من بني الوزير شيوخهم.

فلما بلغهم هذا الخبر أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه على حصار تونس، ومر بقصبة فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى الزاب، فرافقه إلى بسكرة، ودخلت إلى أخيه هنالك، ونزل هو ببعض قرى الزاب تحت جاية أخيه إلى أن انصرم الشتاء.

وكان أبو عنان لما ملك بجاية ولى عليها عمر بن علي بن الوزير من شيوخ بني وطاس فجاء فارح مولى الأمير أبي عبد الله

لنقل حرمه وولده، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي فقتله في مجلسه ووثب هو على البلد وبعث إلى الأمير أبي زيد يستدعيه من قسنطينة، فتمشت رجالات البلد فيما بينهم خشية من سطوة السلطان، ثم ثاروا بفارح فقتلوه وأعادوا دعوة السلطان كما كانت.

وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس يجيأت بن عمر بن عبد المؤمن شيخ بني ونكاس من بني مرين، فملكوه قيادهم وبعثوا إلى السلطان بطاعتهم، فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو، وأكثف له الجند وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته.

وارتحلت أنا من بسكرة وافتدأ على السلطان أبي عنان بتلمسان، فلقيت ابن أبي عمرو بالطحاء، وتلقاني من الكرامة بما لم أحتسبه، وردني معه إلى بجاية فشهدت الفتح، وتسابلت وفود إفريقية إليه.

فلما رجع السلطان وفدت معهم فنالني من كرامته، وإحسانه ما لم أحتسبه، إذ كنت شاباً لم يطر شاربي.

ثم انصرف مع الوفود ورجع ابن أبي عمرو إلى بجاية، فأقمت عنده حتى انصرم الشتاء من أواخر أربع وخسين وسبعماية وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتخليق بمجلسه، وجرى ذكره عنده وهو يتتقى طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني ووصفوني له، فكتب إلى الحاجب يستقدمي، فقدمت عليه سنة خمس وخسين وسبعماية ونظمي في أهل مجلسه العلمي، والزميني شهود الصلوات معه، ثم استعمني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي.

وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من الإفادة منهم على البغية.

وكان في جلته يومئذ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصفار من أهل مراکش إمام القراءات لوقته، أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب كبيرهم شيخ الحديث الرحالة أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري سيد أهل المغرب، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي.

ومنها قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله محمد المقرئ صاحبنا، من أهل تلمسان، أخذ العلم بها عن أبي عبد الله السلاوي ورد عليها من المغرب خلواً من المعارف.

ثم دعتهم همته إلى التحلي بالعلم، فعكف في بيته على

مدارسة القرآن فحفظه، وقرأه بالسبع.

وسبعمائة وكان يوماً مشهوراً.

ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية فحفظه، ثم على مختصري ابن الحاجب في الفقه والأصول فحفظهما.

ثم لزم الفقيه عمران المشدالي من تلاميذ أبي علي ناصر الدين، وتفق عليه، وبرز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته.

وبنى السلطان أبو ناشفين مدرسته بتلمسان، فقدمه للتدريس بها، يضاهي به أولاد الإمام، وتفق عليه بتلمسان جماعة كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد الله المقرئ هذا.

ولما جاء شيخنا أبو عبد الله الأبلبي إلى تلمسان عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها، وكان أبو عبد الله السلاوي قد قتل يوم فتح تلمسان، قتلته بعض أشياع السلطان للذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماصة قبل انتحاله العلم، وكان السلطان يعتده عليه، فقتل بباب المدرسة، فلزم أبو عبد الله المقرئ بعده مجلس شيخنا الأبلبي، ومجالس ابني الإمام، واستبحر في العلوم وتفنن.

ولما انتقض السلطان أبو عنان سنة تسع وأربعين وسبعمائة وخلع أباه، نذبه إلى كتاب البيعة فكتبها وقرأها على الناس في يوم مشهود.

وارتحل مع السلطان إلى فاس، فلما ملكها عزل قاضيهما الشيخ المعمر أبا عبد الله بن عبد الرزاق وولاه مكانه، فلم يزل قاضياً بها إلى أن سخطه لبعض النزعات الملوكية، فعزله وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفشتالي آخر سنة ست وخسين وسبعمائة، ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس فامتنع من الرجوع.

وقام السلطان لها في ركائبه، ونكر على صاحب الأندلس ابن الأحمر تمسكه به، ويعت إليه فيه يستقدمه، فلذا منه ابن الأحمر بالشفاعة فيه، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان، وأوفده مع جماعة من شيوخ العلم بغرناطة منهم: القاضيان بغرناطة شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي شيخ الدنيا جلاله وعلمه ووقاراً ورياسة، إمام حوكماً ونقداً في نظمه ونثره.

وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البليقي من أهل المرية شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس، وسيد أهل العلم بإطلاق، والمتفنن في أساليب المعارف، وأدب الصحابة للملوك فمن دونهم، فوفدا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوقه للقائهما، فقبلت الشفاعة وأنجحت الوسيلة.

حضرت بمجلس السلطان يوم وفادتهما سنة سبع وخسين

واستقر القاضي المقرئ في مكانه بباب السلطان عطلا من الولاية والجراية.

وجرت عليه بعد ذلك حنة من السلطان بسبب خصومه وقعت بينه وبين أقاربه، امتنع من الحضور معهم عند القاضي الفشتالي، فتقدم السلطان إلى بعض أكابر الوزعة ببابه بأن يسجبه إلى مجلس القاضي حتى أنفذ فيه حكمه، فكان الناس يعدونها حنة، ثم ولاه السلطان بعد ذلك قضاء العساكر في دولته، عندما ارتحل إلى قسنطينة.

فلما افتتحها وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخسين وسبعمائة اعتل القاضي المقرئ في طريقه، وهلك عند قدومه بفاس.

ومتهم صاحبنا الإمام العالم الفذ، فارس المعقول والمنقول، وصاحب الفروع والأصول، أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، ويعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، تسمى العلوين، فكان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم.

وربما يغمر فيه بعض الفجرة عن يزعه دينه ولا معرفته بالأنساب فيعد من اللغو، ولا يلتفت إليه، نشأ هذا الرجل بتلمسان وأخذ العلم عن مشيختها، واختص بأولاد الإمام وتفق عليه في الفقه والأصول والكلام، ثم لزم شيخنا أبا عبد الله الأبلبي وتضلع من معارفه، فاستبحر وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه.

ثم ارتحل إلى تونس في بعض مذاهبه سنة أربعين وسبعمائة ولقي شيخنا القاضي أبا عبد الله بن عبد السلام وحضر مجلسه وأفاد منه، واستعظم رتبته في العلم.

وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله ويعرف حقه حتى زعموا أنه كان يخلو به في بيته، فقرأ عليه فصل التصوف من كتاب الإشارات، لابن سينا، بما كان هو قد أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الأبلبي وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا، ومن تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد، ومن الحساب والهندسة والفرائض علاوة على ما كان يحملة من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة، وكانت له في كتب الخلافات يد طويلة، وقدم عالية، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله وأوجب حقه، وانقلب إلى تلمسان، وانتصب لتدريس العلم وبثه فملا المغرب معارف وتلاميذ، إلى أن اضطرب المغرب بعد واقعة القيروان.

ثم هلك السلطان أبو الحسن، وزحف ابنه أبو عنان إلى

تلمسان فملكها سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة فاستخلص الشريف أبا عبد الله واختاره لمجلسه العلمي مع من اختار من المشيخة، ورحل به إلى فاس فتميز الشريف من الاغتراب وردد الشكوى وعرف السلطان بذلك وارتاب به.

ثم بلغه أثناء ذلك أن عثمان بن عبد الرحمن سلطان تلمسان أوصاه على ولده، وأودع له مالاً عند بعض الأعيان من أهل تلمسان، وأن الشريف مطلع على ذلك، فانتزع الوديعة وسخط الشريف بذلك ونكبه، وأقام في اعتقاله أشهراً، ثم تلقاه أول ست وخمسين وسبعمئة وأقصاه، ثم أعته بعد فتح قسنطينة وأعادته إلى مجلسه إلى أن هلك السلطان آخر تسع وخمسين وسبعمئة.

وملك أبو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين، واستدعى الشريف من فاس فسرجه القائم بالأمر يومئذ الوزير عمر بن عبد الله فانطلق إلى تلمسان.

وتلقاه أبو حمو براحيته، وأصهر له في ابنته فزوجها إياه، وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه، وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وسبعمئة وأخبرني رحمه الله أن مولده سنة عشر وسبعمئة.

ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي من برجة الأندلس.

كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء والسر في دولته، وكان مختصاً به، وأثراً لديه.

وأصله من برجة الأندلس نشأ بها واجتهد في العلم والتحصيل، وقرأ وسمع وتفقه على مشيخة الأندلس.

واستبحر في الأدب وبرز في النظم والنثر، وكان لا يمارى في كرم الطبع وحسن المعاشرة، ولين الجانب وبذل البشر والمعروف.

وارتحل إلى بجاية في عشر الأربعين والسبعمئة، وبها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي يحيى منفرداً بملكها على حين أقفرت من رسم الكتابة والبلاغة، فبادرت أهل الدولة إلى اصطفائه وإيثاره بخطة الإنشاء والكتابة عن السلطان إلى أن هلك الأمير أبو زكريا، ونصب ابنه محمد مكانه، فكتب عنه على رسمه ثم هلك السلطان أبو يحيى، وزحف السلطان أبو الحسن إلى إفريقية واستولى على بجاية، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته إلى تلمسان كما تقدم في أخباره، فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان، وأقام بها واتصل خبره بأبي عنان ابن السلطان أبي الحسن وهو يومئذ

أميرها، ولقيه، فوقع من قلبه بكان إلى أن كانت واقعة القيروان. وخلع أبو عنان واستبد بالأمر فاستكتبه وحمله معه إلى المغرب، ولم يسم به إلى العلامة لأنه أثر بها محمد بن أبي عمر بما كان أبوه يعلمه القرآن والعلم.

وربي محمد بداره، فولاه العلامة، والبرجي مرادف له في رياسته إلى أن انقرضوا جميعاً.

وهلك السلطان أبو عنان واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب، وغلب ابن مرزوق على هواه كما قدمناه، فنقل البرجي من الكتابة واستعمله في قضاء العساكر، فلم يزل على القضاء إلى أن هلك سنة ست وثمانين وسبعمئة وأخبرني رحمه الله أن مولده سنة عشر وسبعمئة.

ومنهم: شيخنا المعمر الرحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق شيخ وقته جلالة وتربية وعلماً وخبرة بأهل بلده، وعظمة فيهم.

نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها، وارتحل إلى تونس فلقي القاضي أبا إسحاق بن عبد الرقيق والقاضي أبا عبد الله النفراوي، وأهل طبقتهم، وأخذ عنهم وتفقه عليهم، ورجع إلى المغرب ولازم سنن الأكابر والمشايخ إلى أن ولاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس، فأقام على ذلك إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان بعد واقعة القيروان، وخلعه أباه فعزله بالفقيه أبي عبد الله المقرئ، وأقام عطلاً في بيته.

ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتخليق بمجلسه، والإفادة منهم، واستدعى شيخنا أبا عبد الله بن عبد الرزاق، فكان يأخذ عنه الحديث، ويقرأ عليه القرآن بروايته في مجلس خاص إلى أن هلك رحمه الله بين يدي مهلك السلطان أبي عنان، إلى آخرين وآخرين من أهل المغرب والأندلس، كلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه، وأجازني بالإجازة العامة.

حدوث النكبة من السلطان أبي عنان

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان آخر سنة ست وخمسين وسبعمئة وقربني وأداني، واستعملني في كتابته، حتى تكدر جوي عنده بعد أن كان لا يعبر عن صفاته.

ثم اعتل السلطان آخر سبع وخمسين وسبعمئة وكان قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدتين مداخلة، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم.

أبي عنان، بالبلد الجديد، فقصدني ابن مرزوق في ذلك، وأوصل لي كتاب السلطان أبي سالم.

بالخض على ذلك، وإجمال الوعد فيه.

والقى علي حمله، فنهضت به، وتقدمت إلى شيوخ بني مرين، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك، حتى أجابوا، وبعث ابن مرزوق إلى الحسن بن عمر، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سالم، وقد ضجر من الحصار، فبادر إلى الإجابة، واتفق رأي بني مرين على الانقضاء عن منصور بن سليمان، والدخول إلى البلد الجديد، فلما تم عقدهم على ذلك نزعتم إلى السلطان أبي سالم في طائفة من وجوه أهل الدولة، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس، المستبد بعد ذلك بملك المغرب على سلطانه، وكان ذلك النزوع مبدأ حظه، وفاقته رياسته، بسعائي له عند السلطان، فلما قدمت على السلطان بالصفحة، بما عندي من أخبار الدولة، وما أجعوا عليه من خلع منصور بن سليمان، وبالوعد الذي ضربه لذلك، واستحثته.

فارتحل، ولقينا البشير بإحفال منصور بن سليمان، وفراجه إلى نواحي بادس، ودخول بني مرين إلى البلد الجديد، وإظهار الحسن بن عمر دعوة السلطان أبي سالم.

ثم لقيتنا، بالقصر الكبير، قبائل السلطان، وعساكره، على راياتهم، ووزير منصور بن سليمان، وهو مسعود بن رحو بن ماساي، فلقاه السلطان بالكرامة كما يجب له، واستوزره نائباً للحسن بن يوسف بن علي بن محمد الورتاجي السابق إلى وزارته، لقيه بسية، وقد غربه منصور بن سليمان إلى الأندلس فاستوزره واستكفاه.

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر صعد إلى فاس ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها، فأعطاه طاعته، ودخل إلى دار ملكه وأنا في ركابه، لخمس عشرة ليلة من نزوعي إليه، منتصف شعبان سنة ستين وسبعمئة، فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سره، والترسيل عنه، والإنشاء لمخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل أن يشاركني أحد ممن يتحل الكتابة في الأسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة.

ثم أخذت نفسي بالشعر، واثال علي منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور، وكان ما أنشدته إياه ليلة المولد النبوي من سنة اثنتين وستين وسبعمئة:

وغفلت عن التحفظ في مثل ذلك، من غيرة السلطان، فما هو إلا أن شغل بوجعه، حتى أئتمى إليه بعض الغواة أن صاحب بجاية معتمل في الفرار ليسترجع بلده، وبها يومئذ وزيره الكبير عبد الله بن علي، فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه.

وكان فيما أئتمى إليه أنني داخلته في ذلك، فقبض علي وامتحنني وحسني وذلك في ثامن عشر صفر، سنة ثمان وخمسين.

ثم أطلق الأمير محمداً وما زلت أنا في اعتقاله إلى أن هلك، وخاطبته بين يدي مهلكه مستعظفاً بقصيدة أولها:

على أي حال لليالي أصاب وأي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أي على القرب نازح وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل تسلمي طوراً وطوراً تحارب
ومنها في التشوق:

سلوتهم إلا اذكرك معاهد لها في الليالي الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يشوقي إليهم وتصيني البروق اللوابع
وهي طويلة، نحو مثني بيتاً ذهب عن حفظي، فكان لها منه موقع، وهش لها وكان بتلمسان، فوعد بالإفراج عني عند حلوله بفاس، ولخمس ليال من حلوله طرده الوجع، وهلك لخمس عشرة ليلة، في رابع وعشرين ذي الحجة، خاتم تسع وخمسين وسبعمئة.

وبادر القائم بالدولة، الوزير الحسن بن عمر إلى إطلاق جماعة من المعتقلين، كنت فيهم، فخلع علي، وحملني، وأعادني إلى ما كنت عليه، وطلبت منه الانصراف إلى بلدي، فأبى علي، وعاملني بوجوه كرامته، ومذاهب إحسانه، إلى أن اضطرب أمره، وانتقض عليه بنو مرين، وكان ما قدمناه في أخبارهم.

الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر

والإنشاء

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب ملكه، ونزل بجبل الصفيحة من بلاد غمارة.

وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس، قبث دعوته سرّاً، واستعان بي على أمره، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من الحجة والاتلاف، فحملت الكثير منهم على ذلك، وأجابوني إليه، وأنا يومئذ أكتب عن القائم بأمر بني مرين، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وقد نصبوه للملك، وحاصروا الوزير الحسن بن عمر، وسلطانه السعيد ابن

أسرفن في هجري وفي تعذيب
وإبين يوم البين وقفة ساعة
لله عهد الظاعنين وغادروا
غربت ركائبهم ودعمي سافح
يا ناعماً بالعب غلة شوقهم
يستعذب الصب الملام وإني
ما حاجي طرب ولا اعتاد الجوى
أهفو إلى الأطلال كانت مطلعاً
عبث به أيدي البلى وترددت
تبلى معاهدها وإن عهودها
وإذا الديار تعرضت لمثيم
إيه عن الصبر الجميل فإنه
لم أنسها والدهر يشني صرفه
والدار مونة محاسنها بما
يا سائق الأظعان يعتسف الفلا
متهافتاً عن رحل كل مذلل
تجاذب النفحات فضل رداثه
إن هام من ظمأ الصبا صعبه
أو تعترض سراهم سدف الدجى
في كل شعب منية من دونها
هلا عطفك صدورهن إلى التي
فتؤم من أكناف يثرثر مأناً
حيث النبوة أيها مجلسوة
سر عجيب لم يحجبه الشرى

ومنها بعد تعديد معجزاته ﷺ والأطناب في مدحه:

إنسي دعوتك واثقاً بإجابتي
قرئت في مدحي فلأن بك طيباً
ماذا عسى يغني الطويل وقد حوى
يا هل تبلغني الليالي زورة
أعجو خطبائي بإخلاصي بها
في فنية هجروا النسي وتعودوا
يطوي صحائف ليلهم فوق الفلا
إن رنم الحادي بذكرك رددوا
أو غرد الركب الخلسي بطيبة
ورثوا اعتساف اليد عن آياتهم
الطاعنين الخيل وهي عوابس
والواهبين المقربات صوافناً

والمناعين الجار حتى عرضه
تخشى بوادهم ويرجى حلمهم
ومنها في ذكر إجازته البحر واستيلائه على ملكه:

سائل به طامي العباب وقد سرى
تهليه سهب أسنة وعزائم
حتى انجلت ظلم الظلام بسعيه
يا ابن الألل شادوا الخلافة بالتقى
جمعوا لحفظ الدين أي مناقب
لله مجدك طارفاً أو تسالداً
كم رهبة أو رغبة بك في العلى
لا زلت مسروراً بأشرف دولة
تحمي المعالي غادياً أو راثحاً

ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان إليه، وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة:

قدحت يد الأشواق من زندي
وبنذت سلواني على ثقة
ولرب وصل كنت آمله
لا عهد عند الصبر أطلبه
يلحى المذول فما أعنفه
وأعارض النفحات أسأله
يهدي الغرام إلى مسالكها
يا سائق الأظعان معتسفا
أرح الركاب ففي الصبا نبأ
وسل الربوع برامة خيراً
مالي تلام على الموى خلقي
لايت إلا الرشد مذ وضحت
نعم الخليفة في هدى وتقى
نجل السراة الغر شانهم

ومنها في ذكر خلوصي إليه وما ارتكبه فيه:

لله مـني إذ تـأوـني
شهم يفل بواتراً قصباً
أوريت زند العزم في طلبي
ووردت عن ظمأ منامله
هي جنة الماوى لمن كلفت
لو لم أعل بورد كوثرها
من مبلغ قومي ودونهم
أنى أنفت على رجائهم

وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان والمغرب الأوسط فمتعني من ذلك أن يغتبط أبو هو صاحب تلمسان بمكاني، فأقيم عنده، ولج في المنع من ذلك، وأبيت أنا إلا الرحلة، واستجرت في ذلك برديفه وصديقه الوزير مسعود بن رحو بن ماساي، ودخلت عليه يوم الفطر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فأشدته:

هنيئاً بصوم لا عداه قبول ويشري بعيد أنت فيه منيل
وهتها من عزة وسعادة تتابع أعوام بها ونفصول
سقى الله دهرأ أنت إنسان عينه ولا من ربعاً في حال عول
فصرك ما بين الليالي مواسم لها غرر وضاحة وحجول
وجناك المأمول للوجود مشرع يحوم عليه عالم وجهول
عاك وإن ضمن الزمان منولي فرسم الأماني من سواك عميل
أجرني فليس الدهر لي بمسالم إذا لم يكن لي في ذاك مقبل
وأولني الحسنى بما أنا أمل فمثلك يروني راجياً وينيل
ووالله ما رمت الترحل عن قلبي ولا سخطه للعيش فهو جزيل
ولا رغبة عن هذه الدار إنها لفضل على هذا الأنام ظليل
ولكن نأى بالشعب عني حبايب شجاهن خطب والفراق طويل
يبيع بهن الوجد أنني نازح وأن فؤادي حيث هن حلول
عزيز عليهن الذي قد لقيته وأن اغترابي في البلاد يطول
توارت بأبنائي البقاع كأني تخطفت أو غالت ركابي غول
ذكرتك يا معنى الأجرة والموى فطارت بقلبي أنه وعويل
وحيت عن سوق رباك كأنما يمشل لي نؤي بها وطلول
أحبابنا والعهد يني وبينكم كريم وما عهد الكريم يحول
إذا أنا لم ترض الحمول مدامعي فلا قربتني للقاء حول
إلام مقامي حيث لم ترد العلى مرادي ولم تعط القياد ذلول
أجاذب فضل العمر يوماً وليلة وساء صباح بها وأصيل
ويذهب بي ما بين يأس ومطمع زمان بينل المملكات بخيل
تعللني عنه أمان خوادع ويؤنسني لسان منه مطول
أما لليالي لا ترد خطوبها ففي كبدي من وقهم فللول
يروعني عن صرفها كل حادث تكاد له صم الجبال تزول
أداري على الرغم العدى لا لريبة يصانع وأش خوفها وعذلول
وأغدو بأشجاني عليلأ كأنما تجود بنفسي زفرة وغلبل
وإني وإن أصبحت في دار غربة تحيل الليالي سلوتي وتديسل
وصدتي الأيام عن خير منزل عهدت به أن لا يضام نزيل
لأعلم أن الخير والشر يتهي مداه وأن الله سوف يديسل
وإني عزيز بابن ماساي مكث وإن هان أنصار وبان خليل
فأعاني الوزير مسعود عليه حتى أذن لي في الانطلاق على

موشية بوشائح السبرد
في موحش اليبداء بالقدود
شرف الصروح بغير ما جهد
ولربما قصرت عن الوهد
إسداها بالنعمي والوخد
وتبيت طوع القسن والقند
طول الحياة بعيشة رغد
يرجون غيرك مكرم الوفد
أبدي السرى بالغور والنجد
أو كالحسام يسل من غمد
من غير إنكار ولا جحد
فخرأ على الأتراك والمند
عن رتبة المنصور والمهدي
خير الجزاء فتعم ما يسدي
في عزة أبداً وفي سعد
وأشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً لم يحضرني الآن شيء منه.

ثم غلب ابن مرزوق على هواه وانفرد بمخالطته وكبح الشكايم عن قربه، فانقبضت وقصرت الخطوط، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سره وإنشاء مخاطباته ومراسمه.

ثم ولاني آخر الدولة «خطة المظالم» فوفيتها حقها ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه.

ولم يزل ابن مرزوق أخذاً في سعيته بي وبأمثالي من أهل الدولة، غيرة ومنافسة إلى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه، وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك فصار إليه الناس، ونبذوا السلطان وبيعته، وكان في ذلك هلاكه على ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما قام الوزير عمر بالأمر أقرني على ما كنت عليه، ووفر أقطاعي وزاد في جرايتي وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه وأدل في ذلك بسابق مودة معه، منذ أيام السلطان أبي عنان، وصحابة استحكم عقدها بيني وبينه وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فكان ثالث آتافينا ومصقلة فكاهتنا واشتدت غيرة السلطان لذلك كما مر، وسطا بنا، وتغافل عن عمر بن عبد الله لما كان أبيه من ثغر بجاية ثم حملني الإدلال عليه أيام سلطانه، وما ارتكبه في حق من القصور بي عما أسمو إليه إلى أن هجرته، وقعدت عن دار السلطان مغاضباً له، فتكر لي وأقطعني جانباً من الإعراض، فطلبت الرحلة إلى بلدي بإفريقية.

فبعث إلى النصارى في ذلك فأجابوه.

وفادى هذا الرجل أباه على ثلاثة آلاف دينار، ورجعوا إلى سبتة وانقرض بنو العزفي ودولتهم، وهلك والد الشريف وصار هو إلى رياسة الشورى.

ولما كانت واقعة القيروان، وخلع أبو عنان أباه واستولى على المغرب، وكان بسبتة عبد الله بن علي الوزير والياً من قبل السلطان أبي الحسن، فتمسك بدعوته، ومال أهل البلد إلى السلطان أبي عنان ويث فيهم الشريف دعوته، فثاروا بالوزير وأخرجوه ووفدوا على أبي عنان وأمكنوه من بلدهم، فولى عليها من عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي كافل تربيته في صغره وأفرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبتة فلم يكن يقطع أمره دون، ووفد على السلطان بعض الأيام فتلقاه من الكرامة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود الملوك والعظماء.

ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان وبعد وفاته، وكان معظماً وقور المجلس، هش اللقاء كريم الودادة، متحلياً بالعلم والأدب، متحلاً للشعر غاية في الكرم وحسن العهد، وسذاجة النفس، ولما مرت به سنة أربع وستين وسبع مائة أنزلني بيته أزاء المسجد الجامع، ورأيت منه ما لا يقدر مثله من الملوك، وأركبني الحراقة ليلة سفري يبشر دحرجتها إلى الماء بيده، إغراباً في الفضل والمساهمة، وحططت بجبل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب، ثم خرجت منه إلى غرناطة وكتبت للسلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشائي، وليلة بت بقرب غرناطة على بريد منها، لقيني كتاب ابن الخطيب يهتني بالقدوم، ويؤنسي ونصه:

حللت حلول الغيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل يميناً بمن تغو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهذب والكهل لقد نشأت عندي للقياك غبطة تنسي اغتباطي بالشيب والأهل وودي لا يحتاج فيه لشاهد وتقرير المعلوم ضرب من الجهل

أقسمت بمن حجت قرش لبيته وقبر صرفت أزمة الأحياء لميته ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزرته لسو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمانة السنية، والعارفة الوارفة، واللطيفة المطيعة بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرف نماء، ويغازل عيون الكواكب، فضلاً عن الكواعب، إشارة وإيماء، بحيث لا الوخط يلم بسياج لته، أو يقدح ذباله في ظلمته، أو يقدم حواريه في ملته، من الأحابش وأمه.

وزمانه روح وراح، ومغدى في النعيم ومراح، وقصف صراح ورقى وجراح، وانتخاب واقتراح، وصدور ما بها إلا

شريطة العدول عن تلمسان في أي مذهب أردت، فاخترت الأندلس وصرفت ولدي وأهمهم إلى أخوالهم، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة فاتح أربع وستين وسبع مائة وجعلت أنا طريقي على الأندلس، وكان سلطانها أبو عبد الله المخلوع، حين وفد على السلطان أبي سالم بنفاس، وأقام عنده، حصلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة، من جهة وزيره أبي عبد الله بن الخطيب، وما كان بيني وبينه من الصحابة، فكنت أقوم بخدمته واعتمد في قضاء حاجاته في الدولة، ولما أجاز باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته، خلفته فيمن ترك من عياله وولده بنفاس، خير خلف في قضاء حاجاتهم وإدراار أرزاقهم، من المتولين لها، والاستخدام لهم.

ثم فسد ما بين الطاغية وبينه، قبل ظفهره بملكه، برجوعه عما اشترطه له من التجاني عن حصون المسلمين التي تملكها بإجلاله ففارقه إلى بلاد المسلمين ونزل بأسجة وكتب إلى عمر بن عبد الله يطلب مصرأ ينزله من أمصار الأندلس الغربية التي كانت ركاباً للملك المغرب في جهادهم.

وخطبني أنا في ذلك، فكنت له نعم الوسيلة عند عمر، حتى تم قصده من ذلك، وتجافى عن رندة وأعمالها، فنزلها وتملكها، وكانت دار هجرته، وركاب فتحه، وملك منها الأندلس أواسط ثلاث وستين وسبع مائة واستوحشت أنا من عمر إثر ذلك كما مر، وارتحلت إليه معولاً على سوابقي عنده، فغرب في المكافأة كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الرحلة إلى الأندلس

ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس بعثت بأهلي وولدي إلى أخوالهم بقسنطينة، وكتبت لهم إلى صاحبها السلطان أبي العباس من حفدة السلطان أبي يحيى وأني أمر على الأندلس وأجيز إليه من هنالك.

وسرت إلى سبتة فرضة الجاز، وكبرها يومئذ الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسني ذو النسب الواضح السالم من الريبة عند كافة أهل المغرب، انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية، وأكرمهم بنو العزفي أولاً وصاهروهم، ثم عظم صيتهم في البلد فتنكروا لهم وغريهم يحيى العزفي آخرهم إلى الجزيرة، فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق فأسروهم.

واتندب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم رعاية لشرفهم،

ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفت عنه، فزودني وحلني واختصني ببغلة فارغة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان فأقطعتني قرية البيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة وكتب بها منشوراً كان نصه ثم حضرت ليلة المولد النبوي الخامسة قدومي، وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة وإنشاد الشعر اقتداء بملوك المغرب، فأشدته ليلتد:

حي المعاهد كانت قبل تحيي
إن الألى تزححت داري ودارهم
وقفت أنشد صبراً ضاع بعدهم
أمثل الربع من شوق فائسهم
وتهب الوجد مني كل لؤلؤة
سقت جفوني مغاني الربيع بعدهم
قد كان للقلب داعي الهوى شغل
أحبابنا هل لمهد الوصل مذكر
مالي وللطيف لا يعتاد زائره
يا أهل نجد وما نجد وساكنها
عندكم أنني ما مر ذكركم
أصبو إلى البرق من انحاء أرضكم
يا نازحاً والنسب تذبذب من خلدي
أسلى هواك فؤادي عن سواك وما
تري الليالي أنستك إكساري يا
براكف الدمع يرويهما ويظمني
تحملوا القلب في آثارهم دوني
فيهم وأسأل رسماً لا ينسجني
وكيف والفكر يذنيه ويقصيني
ما زال قلبي عليها غير مأمون
بالدمع وقف على أطلاله الجون
لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني
منكم وهل نسمة عنكم تحيي
وللنسيم عليل لا يداويني
حسناً سوى جنة الفردوس والعين
إلا أنشيت كأن الراح تشيني
شوقاً ولولاكم ما كان يصيني
حتى لأحسبه قرأاً ينسجني
سواك يوماً بحال عنك يسلي
من لم تكن ذكره الأيام تنسني

ومنها في وصف الإبروان الذي بناه جلوله بين قصوره
يا مصنعاً شيدت منه السعود حمى
صرح يحار لديه الطرف مفتتاً
بعداً لإبروان كسرى إن مشورك
ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا
فيماء يروقك من شكل وتلوين
السامي لأعظم من تلك الأواوين
أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ومنها في التعريض بمنصرفي من العدو:
من مبلغ عني الصحب الألى تركوا
أنسي أويت من العليا إلى حرم
وأنسي ظاعناً لم ألتق بعدهم
لا كالي أنفرت عهدي ليالي إذ
سقى ورعياً لأيامي التي ظفرت
ارتداد منها ملياً لا يحاطني
وهاك منها قواف طبعاً حكم
تلوح إن جليت دراً وإن تليت
عانيت منها بمهدي كل شاردة
يمنع الفكر عنها ما تقسمه
ودي وضاع هامهم إذ أضاعوني
كادت مغانيه بالبشرى تحيي
دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني
أقلب الطرف بين الخوف والهون
يداي منها يحفظ غير مغبون
وعداً وأرجو كرمياً لا يعينني
مثل الأزاهر في طي الرياحين
تثني عليك بأنفاس البساتين
لولا سعودك ما كادت تواتين
من كل حزن بطي الصدر مكتون

انشراح، ومسرات تردفها أفراح، وبين قدومك خلب الرسن ممتعاً، والحمد لله باليقظة والوسن، محكماً في نسك الجنيد أو فتك الحسن، ممتعاً بظرف المعارف، مالتاً أكف الصيارف ماحياً بأنوار البراهين شبه الزخارف، لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه، وأعياني ثمنه، وأجرت سحاب دمعني دمه.

فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي وملكني أزمة آرابي وغبطني بمائي وتراي، ومألف أتراي، وقد أغصني بلذيد شرابي، ووقع على سطره المعتبرة إضرابي.

وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية، منتهى الطية وملتقى للسعود غير البطية وتبني الأمال الوثيرة الوطنية فما شئت من نفوس عاطشة إلى ريك، متجملة بزبك، عاقلة خطا مهريك ومولى مكارمه، نشيدة أمثالك، ومظان مثالك، وسيصدق الخبر ما هنالك، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الإصحار لا بل للقاء من وراء البحار والسلام.

ثم أصبحت من الغد قادماً على البلد وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمئة وقد اهتز السلطان لقدومي، وهياً لي المنزل من قصوره بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي تحفياً وبراً، ومجازاة بالحنى.

ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك، وخلع علي وانصرفت.

وخرج الوزير ابن الخطيب فشيوعي إلى مكان نزلي، ثم نظمني في علية أهل مجلسه، واختصني بالنجي في خلوته، والمواكبة في ركوبه والمواكلة والمطاية والفكاهة في خلوات أنسه، وأقامت على ذلك عنده، وسفرت عنه سنة خمس وستين وسبعمئة إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ، بتره بن الهنشة بن أدفونس لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدو بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة، فلقبت الطاغية بإشبيلية وعينت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتياب بمكاني، وعلم أولية سلفنا بإشبيلية وأثنى علي عنده طيبه إبراهيم بن زرور اليهودي المقدم في الطب والنجامة وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبه، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس.

ثم نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم إلى الطاغية، فأقام عنده ونظمه في أطبائه، فلما قدمت أنا عليه أثنى علي عنده، فطلب الطاغية مني حيثئذ المقام عنده، وأن يرد علي تراث سلفي بإشبيلية وكان بيد زعماء دولته، فتفاديت من ذلك بما قبله.

أحن إليها حيث ساربي الهوى والمجد رحلي في البلاد وأنهمما
ولما استقر، واطمأنت الدار، وكان من السلطان الاغباط
والاستتار، وكثر الحين إلى الأهل والتذكار، أمر باستقدام أهلي
من مطرح اغترابهم بقسنطينة، فبعث عنهم من جاء بهم إلى
تلمسان، وأمر قائد الأسطول بالمرية، فسار لإجازتهم في أسطوله،
واحتلوا بالمرية.

واستأذنت السلطان في تلقيهم، وقدمت بهم على الحضرة
بعد أن هيات لهم المنزل والبستان ودمنة الفلح، وسائر ضروريات
المعاش.

وكتب الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضرة، وقد
كثبت إليه استأذنه في القدوم، وما اعتمده في أحواله:

سيدي، قدمت بالطير الميامين على البلد الأمين، واستضفت
الرفاء إلى البتين، ومتعت بطول السنين.

وصلتني البراءة المعربة عن كتب اللقاء، ودنو المزار، وذهاب
البعد، وقرب الدار، واستفهم سيدي عما عندي في القدوم على
المخدوم، والحق أن يتقدم سيدي إلى الباب الكريم في الوقت الذي
يجد المجلس الجمهوري لم يفض حججه، ولا صوح بهيجه ويصل
الأهل بعده إلى المحل الذي هياته السعادة لاستقرارهم، واختاره
اليمن قبل اختيارهم والسلام.

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعائيات أن خلوا الوزير ابن
الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي، وحركوا له جواد
الغيرة فتتكر.

وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة،
وتحكمه في سائر أحواله، وجاءني كتب السلطان أبي عبد الله
صاحب بجاية بأنه استولى عليها في رمضان سنة خمس وستين
وسبعمائة واستدعاني إليه، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في
الارتحال إليه.

وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لودته، فارتعص
لذلك، ولم يسعه إلا الإسماعف فودع وزود وكتب لي مرسوم
بالتشجيع من إملاء الوزير ابن الخطيب نصه:

هذا ظهير كريم، تضمن تشييعاً وترفعاً وإكراماً وإعظاماً،
وكان لعمل الصنيعه ختاماً، وعلى الذي أحسن تماماً، وأشاد به
للمعتمد به بالاغباط الذي راق قساماً وتوفر إقساماً وأعلن له
بالقبول إن نوى بعد النوى رجوعاً أو أثر على الظعن المزمع
مقاماً.

لكن بسعدك ذلت لي شواردها فرضت منها بتجبر وتزيين
بقيت دهرك في أمن وفي دعة ودام ملكك في نصر وتمكين
وأشدته سنة خمس وستين وسبعمائة في إعذار ولده،
والصنيع الذي احتفل لهم فيه، ودعا إليه الجفلى من نواحي
الأندلس ولم يحضرني منها إلا ما أذكره:

صحا الشوق لولا عبرة ونجيب وذكرى تجيد الوجد حين تشوب
وقلب أبى إلا الوفاء بعهده وإن نزلت دار وبان حبيب
و لله مني بعد حادثة النوى فؤاد لتذكرك العهود طروب
يؤرقه طيف الخيال إذا سرى وتذكي حشاء نفحة وهبوب
خليلي لا تسعدا فدعا الأسى فإني لما يدعو الأسى لجيب
المأ على الأطلال يقض حقوقها من الدمع فياض الشؤون سكوب
ولا تعذلاني في البكاء فإنها حشاشة نفسي الدموع تذوب

ومنها في تقدم ولده للأعذار من غير نكول:

فيمم منه الحفل لا متقاعس لخطب ولا نكس اللقاء هبوب
وراح كما راح الحسام من الوغى تروق حلا والفرند خضيب
شواهد أهدنهن منك شمائل وخلق بصفو المجد منك مشوب

ومنها في الثناء على ولديه:

هما النيران الطالمان على الهدى بآيات فتح شأنهن عجيب
شهابان في الهيجا غمامان في الندى تسح المعالي منهما وتصوب
يدان لبسط المكرمات ناهما إلى المجد فياض اليلين وهوب

وأشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة:

أبى الطيف أن يعتاد إلا توهمها فمن لي بأن القى الخيال المسلما
وقد كنت أستهديه لو كان نافعي وأستطر الأجفان لو تقع الظما
ولكن خيال كاذب وطماعة تعلل قلباً بالأملاني متيما
أيا صاحبي نجواي والحب لوعة تبيح بشكواها الضمير المكما
خذا لفؤادي العهد من نفس الصبا وظبي النقا والبان من أجر الحمى
الا صنع الشوق الذي هو صانع فحي مقيم أقصر الشوق أوسما
وإني ليدعوني السلو تعللا وتنهائي الأشجان أن أقدمها
لسمن دمن أقصرن إلا هوانفا تردد في أطلالهن الترمما
عرفت بها سيما الهوى وتكررت فمجت على آياتها متوسما
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارسا ويعرف آثار الديار توهمها
تأويني واللبلل يبني وبينه وميض بأطراف الثايبا تضمرها
أجد لي العهد القديم كأنه أشار بتذكرك العهود فأنهمما
عجبت لمرتاع الجوانح خافق بكيت له خلف الدجى وتبسمما
وبت أرويه كؤوس مدامعسي ويات يعاطيني الحديث عن الحمى
وصافحته عن رسم دار بذى الغضا لبست بها ثوب الشبية معلما
لعهدي بها تدني الظباء أوانسا وتطلع في آفاقها النيد أنجمما

وكتب في التاسع عشر من جمادى الأولى عام ست وستين وسبعمئة.

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان، ونصها «صح هذا».

الرحلة من الأندلس إلى بجاية وولاية الحجاجة بها على الاستبداد

كانت بجاية ثغراً لإفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين.

ولما صار أمرهم للسلطان أبي يحيى بكر بن منهم، واستقل بملك إفريقية، ولّى في ثغر بجاية ابنه الأمير أبا زكريا، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير عبد الله.

وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ينازعونه في أعماله، ويمجدون العساكر على بجاية، ويجلبون على قسنطينة إلى أن تمسك السلطان أبو بكر بزمة من السلطان أبي الحسن ملك المغرب الأقصى من بني مريّن، وله الشفوف على سائر ملوكهم.

وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان فأخذ بمخقتها ستين أو أزيد، وملكها عنوة وقتل سلطانها أبا تاشفين وذلك سنة سبع وثلاثين وسبعمئة، وخف ما كان على الموحدين من إصر بني عبد الواد، واستقامت دولتهم.

ثم هلك أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي يحيى بقسنطينة سنة أربعين وسبعمئة، وخلف سبعة من الولد، كبيرهم أبو زيد عبد الرحمن، ثم أبو العباس أحمد، فولى الأمير أبا زيد مكان أبيه في كفالة نبيل مولاه ثم توفي الأمير أبو زكريا ببجاية سنة ست وأربعين وخلف ثلاثة من الولد كبيرهم أبو عبد الله محمد، ويعت السلطان أبو بكر ابنه الأمير أبا حفص عليها، فمال أهل بجاية إلى الأمير أبي عبد الله بن أبي زكريا، واخرجوا عن الأمير عمر وأخرجوه.

ويادر السلطان فرقة هذا الخرق بولاية أبي عبد الله عليهم كما طلبوه.

ثم توفي السلطان أبو بكر متصفاً سبع وأربعين وسبعمئة وزحف أبو الحسن إلى إفريقية فملكها، ونقل الأمراء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب.

واقطع لهم هنالك إلى أن كانت حادثة القيروان، وخلع السلطان أبو عنان أباه.

أمر به، وأمضى العمل بمقتضاه، وحسبه الأمير أبو عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيد الله أمره، وأعز نصره، وأعلى ذكره، للولي الجليل، الخطي المكين، المقرب الأود الأحب الفقيه الجليل الصدر الأوحّد، الرئيس العلم الفاضل الكامل، المرفع الأسمى الأظهر الأراضى الأخلص الأصفى أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الجليل، الحبيب الأصيل المرفع المعظم، الصدر الأوحّد، الأسمى الأفضل الموقر المبرور أبي يحيى أبي بكر ابن الشيخ الجليل الكبر، الرفيع الماجد، القائد الخطي، المعظم الموقر، المبرور المرحوم أبي عبد الله بن خلدون.

وصل الله له أسباب السعادة، وبلغه من فضله أقصى الإرادة، أعلن بما عنده، أيده الله من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفع، وإن كان غياً عن الإعلان، وأعرب عن معرفته بمقداره في الحسيان، العلماء الرؤساء الأعيان، وأشاد باتصال رضاه عن مقاصده البرة وشيمه الحسان، من لدن وفد بابيه، وفادة العز الراسخ البنيان، وأقام المقام الذي عين له رفعة المكان، وإجلال الشأن، إلى أن عزم على قصد وطنه، أبغله الله ذلك في ظل اليمن والأمان، وكفالة الرحمن بعد الاغتيال المرسى على الخبر بالعيان، والتمسك بجواره بجهد الإمكان، ثم قبول عذره بما جبلت الأنفس عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان.

بعد أن لم يدخر عنه كرامة رفيعة، ولم يحجب عنه وجهه صنيعة، فولاه القيادة والسفارة وأحلّه جليسا معتمداً بالإشارة وألبسه من الخطوة والتقريب أبهى الشارة، وجعل عمله من حضرته مقصوداً بالمثل معيئاً بالإشارة، ثم أصبحه تشييعاً يشهد بالضمانة بفراقه، ويجمع له بر الوجهة من جميع آفاقه، ويجمع بيده رتيمة خنصر ووثيقة سامع أو مبصر، فمهما لوى أخذه إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره، وتلمية من نعمة سفره، أو نزاع به حسن العهد وحنين الود، فصدر العناية به مشروح، وباب الرضا والقبول مفتوح، وأما عهده من الخطوة والبر ممنوح.

فما كان القصد في مثله من أعجاد الأولياء ليتحول، ولا الاعتقاد الكريم ليتبدل، ولا الأخير من الأحوال لينسخ الأول.

على هذا فليطو ضميره، وليرد ما شاء غيره ومن وقف عليه من القواد والأشياخ والخدام براً ومجرأً على اختلاف الخطط والرتب، وتباين الأحوال والنسب، أن يعرفوا حق هذا الاعتقاد في كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول، وإعانة وقبول، واعتناء موصول إلى أن يكمل الغرض، ويؤدي من امتثال هذا الأمر الواجب المفترض بحول الله وقوته.

ونهب السلطان إليه من فاس سنة ثمان وخسين وسبعمئة فترا منه أهل البلد وأسلموه، فبعثه إلى سبتة في البحر، واعتقله بها حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين وسبعمئة أطلقه من الاعتقال وصحبه إلى دار ملكه ووعدته برد بلده عليه.

فلما ولي أبا زيان على تلمسان أشار عليه خاصته ونصحاؤه بأن يبعث هؤلاء الموحدين إلى غرورهم، فبعث أبا عبد الله إلى بجاية وقد كان ملكها عمه أبو إسحاق صاحب تونس، ومكفول بن تافراكين من يد بني مرين.

وبعث أبا العباس إلى قسنطينة، وبها زعيم من زعماء بني مرين، وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها فملكها لوقته، وسار الأمير أبو عبد الله إلى بجاية فطال إجلاله عليها، ومعاودته حصارها، ولج أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي إسحاق.

وقد كان لي المقام المحمود في بحث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم، وتوليت كبر ذلك مع خاصة السلطان أبي سالم وكبار أهل مجلسه، حتى تم القصد من ذلك، وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخطه عهدا بولاية الحجاجة متى حصل على سلطانه، ومعنى الحجاجة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد.

وكان لي أخ اسمه يحيى، أصغر مني، فبعثته مع الأمير أبي عبد الله حافظا للرسم، ورجعت مع السلطان إلى فاس.

ثم كان ما قدمته من إنصافي إلى الأندلس والمقام بها إلى أن تنكر الوزير ابن الخطيب وأظلم الجو بيني وبينه.

وبينا نحن في ذلك، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية من يد عمه في رمضان سنة خمس وستين وسبعمئة وكتب الأمير أبو عبد الله يستقدمني، فاعتزمت على ذلك، ونكر السلطان أبو عبد الله بن الأحمر ذلك مني، لا يظنه لسوى ذلك، إذ لم يطلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب، فأمضيت العزم، ووقع منه الإسعاف والبر والألطف.

وركبت البحر من ساحل المرية منتصف ست وستين وسبعمئة ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي، وتهافت أهل البلد علي من كل أوب يمسخون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوما مشهودا.

ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدى، وخلع وحمل،

وارتحل من تلمسان إلى فاس، فنقل معه هؤلاء الأمراء أهل بجاية وقسنطينة، وخلطهم بنفسه، وبالف في تكريمهم.

ثم صرفهم إلى غرورهم الأمير أبا عبد الله أولا، وإخوته من تلمسان، وأبا زيد وإخوته من فاس ليستبدوا بغرورهم، ويغزلوا الناس عن السلطان أبي الحسن، فوصلوا إلى بلادهم وملكوها بعد أن كان الفضل ابن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين، فانتزعوها منه.

واستقر أبو عبد الله ببجاية حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة، وزحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة فهزم ملوكها من بني عبد الواد وأبادهم، ونزل المدينة وأطل على بجاية، وبادر الأمير أبو عبد الله للقاءه، وشكا إليه ما يلقاه من زيون الجند والعرب، وقلة الجبابة.

وخرج له عن ثغر بجاية فملكها، وأنزل عماله بها، ونقل الأمير أبا عبد الله معه إلى المغرب، فلم يزل عنده في حفاية وكرامة.

ولما قدمت على السلطان أبي عنان آخر سنة خمس وخمسين وسبعمئة واستخلصني، نبضت عروق السوابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبد الله، واستدعاني للصحابة، فأسرعت وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك.

ثم كثر المنافسون ورفعوا إلى السلطان وقد طرقة مرض أرحف له الناس، فرفعوا له أن الأمير أبا عبد الله اعترم على الفرار إلى بجاية، وأني عاقدته على ذلك، على أن يولياني حجابته، فانبعث لها السلطان وسطا بنا واعتقلي نحواً من ستين إلى أن هلك.

وجاء السلطان أبو سالم واستولى على المغرب، ووليت كتابة سره، ثم نهض إلى تلمسان وملكها من يد بني عبد الواد، وأخرج منها أبا حو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، ثم اعترم على الرجوع إلى فاس، وولى على تلمسان أبا زيان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين وأمه بالأموال والعساكر من أهل وطنه ليدافع أبا حو عن تلمسان ويكون خالصة له، وكان الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية معه كما ذكرناه، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة بعد أن كان بنو مرين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تبعاً.

ثم خرج لبعض مذهبهم إلى بونة، وترك أخاه أبا العباس بها فنخلعه، واستبد بالأمر دونه وخرج إلى العساكر الجمرة عليها من بني مرين، فهزمهم وأثنخ فيهم.

ثم بدا للسلطان في أمري، وقبض على أخي واعتقله ببونة، وكبس بيوتنا، يظن بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنه.

ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي وقصدت بسكرة لصحابة بني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، وبين أبيه، وساهم في الحادث بماله وتجاهه.

مشاية أبي حور صاحب تلمسان

كان السلطان أبو حور قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بالصهر في ابنته، وكانت عنده بتلمسان.

فلما بلغه مقتل أبيها واستيلاء السلطان أبي العباس ابن عمه صاحب قسنطينة على بجاية، أظهر الامتناع لذلك، وكان أهل بجاية قد توجسوا الخيفة من سلطانهم بإرهاق حده، وشدة سطوته فأخرفوا عنه باطناً وكاتبوا ابن عمه بقسنطينة كما ذكرناه.

ودسوا للسلطان أبي حور بمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم بأحدهما.

فلما استولى السلطان أبو العباس وقتل ابن عمه رآوا أن جرحهم قد اندمل، وحاجتهم قد قضيت، فاعصرو صبراً عليه، وأظهر السلطان أبو حور الامتناع للواقعة يسر منها حسواً في ارتفاع، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بجاية، بما كان يرى نفسه كفؤاً بعده وعديده، وما سلف من قومه في حصارها، فسار من تلمسان بحر الشوك والمدر حتى خيم بالرشة من ساحتها، ومعه أحياء زغبة بجمعهم وظعائهم من لدن تلمسان إلى بلاد حصين من بني عامر وبني يعقوب وسويد والديالم والعطاف وحصين.

وأنحجر أبو العباس بالبلد في شرذمة من الجند أعجله السلطان أبو حور عن استيعاب الحشد، ودافع أهل البلد أحسن الدفاع، وبعث السلطان أبو العباس عن أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حور من قسنطينة، كان معتقلاً بها، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيراً أن يخرج معه في العسكار، وساروا حتى نزلوا بني عبد الجبار قبالة معسكر أبي حور، وكانت رجالات زغبة قد وجها من السلطان، وأبلغهم النذير أنه إن ملك بجاية اعتقلهم بها، فراسلوا أبا زيان وركبوا إليه، واعتقدوا معه وخرج رجل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن، ودفعوا شرذمة كانت مجمرة إزائهم، فاقتلوا خيائهم، وأسهلوا من تلك العقبة إلى بسيط الرشة، وعانينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا، وتتابع الناس في الإنجفال حتى أفردوا السلطان في غيمه فحمل رواحله وسار، وغصت الطرق بزحامهم، وتراكموا بعضهم على

وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقلت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدمني للخطابة بجامع القصبية وأنا مع ذلك، عاكف بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة، إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبية، لا أنفك عن ذلك.

ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة، أحدثها المشاحة في حدود الأعمال من الرعايا والعمال، وشب نار هذه الفتنة عرب أوطانهم من الدواودة من رياح، تنفيقا لسوق الزبون يمترون به أموالهم، فكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض فالتقوا سنة ست وستين وسبعمئة بفرجيوه، وانقسم العرب عليهما، وكان يعقوب بن علي مع السلطان أبي العباس، فانهمز السلطان أبو عبد الله ورجع إلى بجاية مفلولاً بعد أن كنت جمعت له أموالاً كثيرة أنفق جميعها في العرب، ولما رجع وأعوزته النفقة، فخرجت بنفسه إلى قبائل البربر بجبال بجاية المتمدنين من المغارم منذ ستين، فدخلت بلادهم واستبحت حمائم، وأخذت رهنهم على الطاعة، حتى استوفيت منهم الجباية، وكان لنا في ذلك مدد وإعانة.

ثم بعث صاحب تلمسان إلى السلطان أبي عبد الله يطلب منه الصهر، فأسغفه بذلك ليصل يده به على ابن عمه، وزوجه ابنته، ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين وسبعمئة وجاس أوطان بجاية، وكاتب أهل البلد، وكانوا وجليين من السلطان أبي عبد الله بما كان يرهف الحد لهم، ويشد وطائنه عليهم، فأجابوه إلى الانحراف عنه.

وخرج السلطان أبو عبد الله يروم مدافعتهم، ونزل جبل ليزو معتمصاً به، فبيتته السلطان أبو العباس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد بن رياح بمكانه ذلك، بإغراء ابن صخر وقبائل سدويكش، وكبسه في غيمه وركض هارباً، فلحقه وقتله، وسار إلى البلد بمواعدة أهلها.

وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقصبية السلطان وقصوره، وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض من أبناء السلطان، فتضاديت من ذلك، وخرجت إلى السلطان أبي العباس فأكرمني وجباني، وأمكته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها.

وكررت السعاية عنده في والتحذير من مكاني، وشعرت بذلك، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك، فاذن لي بعد لأي، وخرجت إلى العرب، ونزلت على يعقوب بن علي.

بعض، فهلك منهم عوالم.

وأخذهم سكان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية، وقد غشيهم الليل، فتركوا أزودتهم ورحالهم.

وخلص السلطان ومن خلص منهم بعد عصب الريق، وأصبحوا على منجاة.

وقدفت بهم الطرق من كل ناحية إلى تلمسان، وكان السلطان أبو حو قد بلغه خروجي من بجاية، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومخلفي، فكتب إلي يستقدمني قبل هذه الواقعة، وكانت الأمور قد اشتبهت، فضايت بالأعذار، وأقمت بأحياء يعقوب بن علي.

ثم ارتحلت إلى بسكرة فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني.

فلما وصل السلطان أبو حو إلى تلمسان وقد جزع للواقعة، أخذ في استلاف قبائل رياح ليجلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية، وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستياعهم، وملك زمامهم، ورأى أن يعول علي في ذلك، واستدعاني لحجابه وعلامته، وكتب بخطه مدرجة في الكتاب نصها:

«الحمد لله على ما أنعم، والشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله، على أنك تصل إلى مقامنا الكريم لما أخصصناكم به من الرتبة المنية، والمنزلة المثيفة، وهو قلم خلافتنا، والانتظام في سلك أوليائنا، وقد أعلمناكم بذلك، وكتب بخط يده عبد الله المتوكل على الله، موسى بن يوسف لطف الله به وخار له.

وبعد بخط الكاتب ما نصه: بتاريخ السابع عشر من شهر رجب الفرد الذي من عام تسع وستين وسبعمائة، عرفنا الله خيره.

ونص الكتاب الذي هذه مدرجته، وهو بخط الكاتب: أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد والى رعاييتكم، إنا قد ثبت عندنا، وصح لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا، والانقطاع إلى جنابنا، والتشيع قديماً وحديثاً لنا، مع ما تعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم، ومعارف فقم فيها نظراءكم، ورسوخ قدم في الفنون العلمية والآداب العربية.

وكانت خطة الحجابة ببابنا العلي -أسماء الله- أكبر درجات أمثالكم، وأرفع الخطط لنظرانكم، قريباً منا، واختصاصاً بمقامنا، وإطلاعا على خفايا أسرارنا، أثرتناكم بها إشاراً، وقدمناكم لها اصطفاء واختياراً، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العلي أسماء

الله لما لكم فيه من التنويه، والقدر النبیه، حاجبا لعلي بابنا، ومستودعاً لأسرارنا، وصاحبا الكرم علامتنا، إلى ما يشاكل ذلك من الأنعام العميم، والخير الجسيم، والاعتناء والتكريم.

لا يشارككم مشارك في ذلك، ولا يراحمكم أحد، وإن وجد من أمثالك فاعملوه وعولوا عليه، والله تعالى يتولاكم، ويصل سراءكم، ويوالي احتفاءكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وتأدت إلى هذه الكتب السلطانية على يد سفير من وزرائه جاء إلى أشياخ الداوادة في هذا الغرض، فقامت له في ذلك أحسن قيام وشايعة أحسن مشايعة، ومحتلهم على إجابة داعي السلطان والبدار إلى خدمته.

وانحرف كبرائهم عن خدمة السلطان أبي العباس إلى خدمته، والاعتماد في مذاهبه، واستقام غرضه من ذلك، وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله بونه، وقدم علي بسكرة، فبعثه إلى السلطان أبي حو كالثائب عني في الوظيفة، متفادياً عن تحشم أهوالها بما كنت نزعته عن غواية الرتب.

وطال علي إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت المهمة على المطالعة والتدريس، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك، ودفعه إليه.

ووصلني مع هذه الكتب السلطانية كتاب رسالة من الوزير أبي عبد الله بن الخطيب من غرناطة يتشوق إلي، وتأدى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر، فبعث إلي به من هنالك ونصه:

بنفسي وما نفسي علي بهينة فيرتلي عنها المكاس بأثمان حبيب نأى عيني وصم لأنسي وراش سهام البين عمداً فأمساني وقد كان هم الشيب -لا كان- كافياً فقص أدنسي لما ترحل همان شرعت له من دمع عيني مسوارة فكد شربي بالفراق وأظماني وأرعته من حسن عهدي جيمه فأجذب آسالي وأوحش أزماني حلفت على ما عنده لي من رضى قياساً بما عندي فأحث إيماني وإني على ما نالني منه من قلبي لأشتاق من لقيه نغبة ظمآن سألت جنوني فيه تقریب عرشه فقصت بجن الشوق جبن سليمان إذا ما دعا داع من القوم باسمه وثبت وما استبث شمية هيمان وتالله ما أصغيت فيه لعاذل تحاميته حتى ارعوى وتحاماني ولا استنشرت نفسي برحمة عابد تظلل يوماً مثله عبد رحمان ولا شعرت من قبله بتشوق تغلل منها بين روح وجثمان أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج، وأما الصبر فسأل

فوحقه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لولا أن حصاً داره
بلد متى أذكره تهتج لوعتي وإذا قدحت الزند طار شراره
اللهم غفراً، وأين قراره النخيل، من مثنى الأكلف البخيل،
ومكذبة المخيل، وأين ثانيه هجر، من متبراً من الحد وفجر:
من أكر غيثاً مثله في الأرض ينوء بمخلفها
قبنان بني مزنى مزن تنهل بلطف مصرفها
مزن منذ حل بيسكرة يوماً نطق بمصنفها
شكرت حتى بعابرتها وبمناهما وبأحرفها
ضحكت بأبي العباس من الأيام ثانياً زخرفها
وتكثرت الدنيا حتى عرفت منه بمعرفها

بل نقول: يا محل الولد لا أقسم بهذا البلد. وأنت حل
بهذا البلد! لقد حل بينك عرى الجلد، وخلد الشوق بعدك يا ابن
خلدون في الصميم من الخلد، فحيا الله زماناً شفيت في قريبك
زمانه، واجتلت في صدف مجدك جماته، وقضيت في مرعى خلتيك
لباته، وأهلاً بروض أظلت أشتات معارفك بانه، فحماثه بعدك
تندب فيساعد الجندب، ونواسمه ترق فتغاشى، وعشياته
تخافت وتلاشى، وأدواحه في ارتباك، وحماثه في مآثم ذي
اشتباك، كان لم تكن قمر هالات قباه، ولم يكن أنسك شارع بابيه،
إلى صفوة الظرف ولبابيه، ولم يسبح إنسان عينك في ماء شبابه،
فلهفي عليك من درة اختلستها يد النوى، ومطل بردها الدهر
ولوى، ونفق الغراب بينها في ربوع الهوى، ونطق بالزجر فما نطق
عن الهوى، وبأي شيء يعتاض منك أيتها الرياض، بعد أن طما
نهرك الفياض، وفهقت الحياض، ولا كان الشانء المشنوء والجرب
المهنوء من قطع ليل أغار على الصبح فاحتمل، وشارك في الذم
الناقة والحمل، واستأثر جنحه بيدر النادي لما كمل، نشر الشراع
فراع، وواصل الإسراع، فكأنما هو تمساح النيل ضايق الأحباب في
البرهة، واختطف لهم من الشط زهرة العين، وعين الزهرة، ولجج
بها، والعيون تنظر، والغمر عن الاتباع يحظر، فلم يقدر إلا على
الأسف، والتماح الأثر المتسف، والرجوع بملء العيبة من الخيبة،
ووقر الجسرة من الحسرة، إنما نشكو إلى الله البث والحزن،
ونستمطر من عبرتنا المزن، ويسف الرجاء نصول، وإذا اشترعت
للإياس أسنة ونصول:

ما أقدر الله أن يبدني على شحط من داره الحزن من داره صول
فإن كان كلم الفراق رغيماً، لما نويت مغياً، وجللت الوقت
الهي تشغيلاً، فلعل الملتقى يكون قريباً، وحديثه يروي صحيحاً
غريباً.

إيه سيدي! كيف حال تلك الشمايل المزهرة الحمائل،

به أية درج، بعد لأن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن الشدة تعشق
الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج، وإني بالصبر على إسر
الدبر لا بل الضرب الهبر، ومطاوله اليوم والشهر، تحت حكم
القهر، ومن للعين أن تسلو سلز المقصر عن إنسانها المبصر، أو
تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائي والمشاهد، وفي الجسد مضغة
يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه وإن نزحت، وإذا
كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المول أعيت مراوضة الفراق
عمل الراق، وكادت لوعة الاشتياق أن تقضي إلى السياق.

تركتموني بعد تشيعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقصر سبي ندماً تارة وأستمع الدمع أحياناً

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية، وجددت رسوم الأسمى
مبكرة الرسوم البالية، أسائل نون النوى عن أعليه، وميم الموقد
المهجور عن مصطليه، وئاء الأناسي المثلثة عن منازل الموحدين،
وأحار وبين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ضللت إذا وما أنا
من المهتدين، كلفت لعمر الله بسال عن جفوني المؤرقة، ونائم عن
همومي، المتجمعة والمتفرقة، ظعن عن ملال، لا متبرماً منا بشر
خلال.

وكدر الوصل بعد صفائه، وضرج النصل بعد عهد وفائه:
أقل اشتياقاً إليها القلب إنما رأيتك تصفي الود من ليس جازيا
فها أنا أبكي عليه بدم أساله، وأندب في ريع الفراق آسى
له، وأشكو إليه حال قلب صدمه، وأودعه من الوجد ما أودعه،
لما خدعه، ثم قلاه وودعه، وأشقى رياه أنف ارتياح قد جدعه،
واستعديده على ظلم ابتدعه.

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قليلاً بكى من حب قاتله قلبي
فلولا عسى الرجاء ولعله، لا بل شفاعة المحل الذي حلّه،
لنشرت ألوية العتب وبشت كتابها كمناء في شعاب الكتب، تهز
من الألفات رماحاً خزر الأسنة وتوتر من النونات أمثال القسي
المرنة، وتقود من مجموع الطرس والنقس بلقا ترددي في الأعنة،
ولكنه أوى إلى الحرم الأمين، وتفا ظلال الجوار المؤمن من معرفة
الغوار عن الشمال واليمين، حرم الحلال المزينة، والظلال اليزينة،
والهمم السنية، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية، حيث
الرفد الممنوح، والطير الميامن يزجر لها السنوح والمثوى الذي إليه
مهما تقارع الكرام على الضيقان، حول جوابي الجفان، فهو
الجنوح:

كتب كان عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصبح عموداً
ومن حل بتلك المثابة فقد اطمأن جنبه، وتعمد بالعفو ذنبه،

و لله در القائل:

عن الطمّح، وبالعين الكليّة فالمح، واغتتم لباس ثوب الشواب، واشف بعض الجوى بالجواب.

تولاك الله فيما استضفت وملكت، ولا بعدت ولا هلكت، وكان لك أية سلكت، ووسمك في السعادة بأوضح السمات، وأتاح لقاءك من قبل المعات، والسلام الكريم يعتمد حلال ولدي وساكن خلدي، بل أخي وإن اتقيت عبته وسيدي، ورحمة الله وبركاته، من حبة المشتاق إليه محمد بن عبد الله بن الخطيب في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني من عام سبعين وسبعمئة.

وكان تقدم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر إلي، بعث به إلى تلمسان فتأخر وصوله، حتى بعث به الأخ يحيى عند وفادته على السلطان، ونص الكتاب.

يا سيدي إجلالاً واعتداداً، وأخي ودأ واعتقاداً، ومحل ولدي شفقة سكنت مني فؤاداً.

طال علي انقطاع أنباتك، واختفاء أخبارك، فرجوت أن تبلغ النية هذا المكتوب إليك، وتخترق به الموانع دونك، وإن كنت في مباتتك كالعاطش الذي لا يروى، والأكل الذي لا يشبع، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية، والعوائد المألوفة، فأنا الآن -بعد إنهاء التحية المطلوبة للروض بماء الدموع، وتقدير الشوق القديم للزيم، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال إناحة القرب قبل الفوت من الله ميسر العسير، ومقرب البعيد، أسأل عن أحوالك سؤال أبعد الناس محالاً في مجال الخلوص لك، وأشدّهم حرصاً على اتصال سعادتك، وقد اتصل بي في هذه الأيام ما جرى به القدر من تنويع الحال لديك، واستقرارك بيسكرة محل الغبطة بك باللجا إلى تلك الرياسة الزكية، الكريمة الأب، الشهيرة الفضل، المعروفة القدر على البعد، حرسها الله ملجأ للفضلاء، وغيماً لرجال العلياء، ومهباً لطيب الثناء، بحوله وقوته، وما كل وقت تتاح فيه السلامة فاحدوا الله على الخلاص، وقاربوا في معاملة الآمال، وضنوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاق، وأنجلوا بها عن المتألف، فمطلوب الحريص على الدنيا خسيس، والموانع الحافة جمة، والحاصل حسرة، وبأقل السعي تحصل حاله العافية، والعاقول لا يستنكحه الاستغراق فيما آخره الموت، إنما ينال منه الضروري، ومثلك لا يعجزه -مع التماس العافية- إضعاف ما يرجي به العمر من الماكل والمشرب، وحسبنا الله.

وإن تشوفت لحال المحب تلك السيادة الفذة والبنوة البرة، فالحال حال من جعل الزمام بيد القدر، والسير في مهيع الغفلة، والسبح في تيار الشواغل، ومن وراء الأمور غيب محجوب، وأجل

والشيم الهامية القديم؟ هل يمر بياها من راعت بالبعد باله، وأخذت بعاصف البين ذباله؟ أو ترثي لشتون شأنها سكب لا يفتقر، وشوق بيت حبال الصبر وبيتر وضى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتسّر والأمر أعظم والله يستر، وما الذي يضريك صين من لفسح السموم نظريك، بعد أن أضمرت وأشعلت وأوقدت، وجعلت، وفعلت فعلتك التي فعلت، إن تترقّ بدماء، أو ترد بنغمة ماء، أرماق ظماء، وتتعاهد المعاهد بتحية يشم عليها شذا أنفاسك، أو تنظر إلينا -على البعد- بمقلة حوراء من بياض قرطاسك وسواد أنفاسك، فرما قنعت الأنفس المحبة بخيال زور، وتعللت بنوال منزور، ورضيت لما لم تصد العتقاء بزرزور:

يا من ترحل والرياح لأجله تشتاق إن هبت شذا رياها تحيا النفوس إذا بعثت تحية وإذا عزمت أقرا «ومن أحياءها» ولئن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك، والله إلى الخير يهديك، فنحن نقول معشر مواديك «ثني ولا تجعلها بيضة لديك» وعذراً فإني لم أجترئ على خطابك بالفقر الفقيرة، وأدلت لى حجاتك برفع العقيرة، عن نشاط بعثت مرسومه ولا اغتباط بالأدب تغري سياسة سوسه، وإنسباط أوحى إلى على الفترة ناموسه وإنما هو اتفاق جرته نشة المصدور، وهناء الجرب المجذور، وإن تعلل به مخارق، فشم قياس فارق، أو لحن غنى به بعد البعد مخارق؛ والذي هيا هذا القدر وسببه، وسهل المكروه إلى منه وحببه، ما اقتضاه الصنو يحيى، -مد الله حياته، وحرس من الحوادث ذاته- من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بلانها، بعد أن رضي علانها، ورشح إلى الصهر الحضرمي سلاتها، فلم يسع إلا إسعافه، بما أعافه، فأملت مجيئاً ما لا يعد في يوم الرهان نجياً، وأسمعته وجيها لما ساجلت بهذه الترهات سحراً عجيباً، حتى إذا ألف القلم العريان سببته، وجمع برذون الغزارة فلم أطلق كبهه، لم أفق من غمرة غلوه وموقف متلوه، إلا وقد تحيز إلى فتتك معتزاً بل معتزاً، واستقبلها ضاحكاً مفترأ، وهش لها براء، وإن كان من الخجل مصفراً، وليس بأول من هجر، في التماس والوصل من هجر، أو بعث التمر إلى هجر، وأي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام، وإجالة جياذ الأعلام، في محاوراة الأعلام، بعد أن حال الجريض دون القريض، وشغل المريض عن التعريض، وغلب حتى الكسل، ونصلت الشعرات البيض كأنها الأسل، تروغ برقط الحيات، سرب الحياة، وتطرق بذوات الغرر، والشباب عند البيات، والشيب الموت العاجل، وإذا ابيض زرع صبحته المناجل، والمعتبر الأجل، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده، حكم في الظاهر بإبعاده، وأسر في ملكة عاده، فأغض أبواق الله، واسمح لمن قصر

في الآمال.

وقد تلقب السلطان -أيده الله- بعقب هذه المكيفات «بالغني بالله» وصدرت عنه خطابات بمجمل الفتوح ومفصلها يعظم الحرص على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكن.

وأما ما يرجع إلى ما يتشوف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت، فصدرت تقايدته، وتصانيف يقال فيها - بعد ما أعملته تلك السيادة من الانصراف - يا إبراهيم ولا إبراهيم اليوم.

منها: أن كتاباً رفع إلى السلطان في المحبة من تصنيف ابن أبي حجلة من المشاركة أشار الأصحاب بمعارضته فعارضته، وجعلت الموضوع أشرف، وهو محبة الله، فجاء كتاباً ادعى الأصحاب غرابته.

وقد وجه إلى المشرق وصحبة كتاب: «تاريخ غرناطة» وغيره من تأليفه.

وتعرف تحبسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر، وإنثال الناس عليه، وهو في لطافة الأغراض، يتكلف أغراض المشاركة من ملحه:

سلمت لمصرفي الموى من بلد يهنيه هواؤه لدى استنشاقه من ينكر دعواي فقل عني له تكفي امرأة العزيز من عشاقه؟ والله يرزق الإعانة في اتساخه وتوجيهه.

وصدر عني جزء سميت: (الغيرة على أهل الحيرة) وجزء سميت: «حمد الجمهور على السنن المشهور».

والإكباب على اختصار كتاب (التاج) للجوهري ورد حجمه إلى مقدار الخمس، مع حفظ ترتيبه السهل، والله المعين على مشغلة نقطع بها هذه البرهة القريبة البداء من التمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمطلوب المشابة على تعريف يصل من تلك السيادة والبنوة، إذ لا يتعذر وجود قافل من حج، أو لاحق بتلمسان يبعثها السيد الشريف منها، فالنفس شديدة التعطش، والقلوب قد بلغت من - الشوق والاستطلاع - الحناجر.

والله أسأل أن يصون في البعد وديعني منك لديه، ويلبسك العافية، ويخلصك وإياي من الورطة، ويجعلنا أجمعين على الجادة. ويتختم لنا بالسعادة.

والسلام الكريم عوداً على بدء، ورحمة الله وبركاته من الحب المنشوق الذاكر الداعي ابن الخطيب، في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة انتهى.

مكتوب، نؤمل فيه عادة الستر من الله، إلا أن الضجر الذي تعلمونه حفظه الناس لما عجزت الحيلة، وأعوز المناص وسدت المذاهب، والشأن اليوم شأن الناس فيما يقرب من الاعتدال.

وفيما يرجع إلى السلطان -تولاه الله- على أضعاف ما باشر سيدي من الأغياء في البر، ووصل سبب الالتحام والاشتغال مع الاستقلال وما يتجه متعود الظهور، والحمد لله.

وفما يرجع إلى الأحباب والأولاد فعلى ما علمت إلا أن الشوق تخامر القلوب، وتصور اللقاء مما يزهده في الوطن، وحاضر النعم سنى الله ذلك على أفضل حال، ويسره قبل الارتحال عن دار المحال.

وفيما يرجع إلى الوطن فأحلام النائم خصباً، وهندة وظهوراً على العدو، وحسبك فافتتاح حصن أشر وبرغة القاطعة بين بلاد الإسلام، وويذة والعارين ويغيه وحصن السهلة في عام.

ثم دخول بلد إطريرة بنت إشبيلية عنوة، والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السبي ثم فتح دار الملك، ولدة قرطبة: ومدينة جيان عنوة في اليوم الآخر المحجل، وقتل المقاتلة، وسي الذرية، وتعقبة الآثار حتى لا يلم بها العمران، ثم افتتاح مدينة أبدة التي تلف جيان في ملاءتها، دار التجرة، والرفاهية والبنى الحافلة، والنعم الثرة، نسأل الله -جل وعلا- أن يصل عوائد نصره، ولا يقطع عنا سبب رحمته، وأن ينفع بما أعان عليه من السعي في ذلك والإعانة عليه.

ولم يزيد من الحوادث إلا ما علمتم من أخذ الله لنسمة السوء، وخبث الأرض، المسلوب من أثر الخير: عمر بن عبد الله، وتحكم شر الميتة في نفسه، وإتيان النكال على حاشيته، والاستئصال على ذاته، والاضطراب مستول على الوطن بعده، إلا أن الغرب على علاته لا يرجحه غيره.

والأندلس اليوم شيخ غزاتها عبد الرحمن بن علي ابن السلطان أبي علي، بعد وفاة الشيخ أبي الحسن: علي بن بدر الدين رحمه الله.

وقد استقر بها -بعد انصراف- سيدي الأمير المذكور، والوزير مسعود بن رحو، وعمر بن عثمان بن سليمان.

والسلطان ملك النصارى بطره قد عاد إلى ملكه بإشبيلية، وأخوه مجلب عليه بقتالة وقرطبة مخالفة عليه، قائمة بطائفة من كبار النصارى الخائفين على أنفسهم، داعين لأخيه، والمسلمون قد اغتتموا هبوب هذه الرياح.

وخرق الله لهم عوائد في باب الظهور والخير، لم تكن تخاطر

الأمل، ومغالبة للأيام على الخط، وإقطاعاً للغفلة جانب العمر.
هل نافعني والجد في صيب مري مع الأمال في صعد
رجع الله بنا إليه، ولعل في عظمتكم النافعة شفاء هذا الداء،
العياء إن شاء الله، على أن لطف الله مصاحب وجوار هذه
الرياسة المزينة، وحسبك بها علمية عصمة وافية، صرفت وجه
القصد إلى ذخيرتي التي كنت أعتدها منهم كما علمتم، على حين
تفاقم الخطب، وتلون الدهر، والإفلات من مظان النكبة، وقد
رتعت حولها بعدما جرته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد
ابن عمه، قريعه في الملك وقسيمه في النسب، والتيث الجاه، وتغير
السلطان، واعتقال الأخ المخلف، واليأس منه لولا تكييف الله في
نجاته، والعيث بعده في المنزل والولد، واغتصاب الضياع المقتناة من
بقايا ما تمتع به الدولة النصرية إبقاها الله من النعمة، فأوى إلى
الوكر، وساهم في الحادث وأشرك في الجاه والمال، وأعان على
نوابث الدهر وطلب الوثر حين رأى الدهر قلاني وأمل الملوك
استخلاصي، وتجاوزوا في إتحافى والله المخلص من عقاب الأمال،
والمرشد إلى نبذ هذه الحظوظ المورطة.

وأنبأني سيدي بما صدر عنه من التصانيف الغريبة والرسائل
البلغية في هذه الفتوحات الجليلة، وبودي لو وقع الإتحاف بها أو
بعضها، فلقد عاودني الندم على ما فرطت.

وأما أخبار هذا القطر فلا زيادة على ما علمتم من استقرار
السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى بتونس مستبداً بأمره
بالخضرة بعد مهلك شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين القائم
بأمره، رحمة الله عليه مضافاً في جباية الوطن وإحكامه بالعرب،
المستظهرين بدعوته، مصانعا لهم بوفرة على أمان الرعايا والسابلة.

لو أمكن حسن السياسة جهد الوقت، ومن انتظام بحماية محل
دولتنا في أمر صاحب قسنطينة وبونة غلباً كما علمتم، محملاً
الدولة بصرامته وقوة شكيمته فوق طوقها، من الاستبداد والضرب
على أيدي المستغلين من الأعراب، منتقض الطاعة أكثر أوقاته
لذلك إلا ما شمل البلاد من تغلب العرب ونقص الأرض من
الأطراف والوسط، وخود ذبال الدول في كل جهة وكل بداية فإلى
تمام.

وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فلديكم طلع.

وأما المشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض
سلطانه، وانتزاع الجفأة على كرسيه، وفساد المصانع والسقايات
المعدة لوفد الله وحاج بيته، ما يسخن العين ويظيل البث، حتى
زعموا أن الهيعة اتصلت بالقاهرة أياماً.

فأجبهت عن هذه المخاطبات، وتفاذيت من السجع خشية
القصور عن مساجلته فلم يكن شأوه يلحق.

ونص الجواب: سيدي مجدأ وعلوأ، وواحد ذخرأ مرجوأ
ومحل والدي برأ وحنوأ.

ما زال الشوق - مذ نأت بي وبك الدار، واستحكم بيننا
البعاد - يرعي سمعي أنباءك، ويحيل إلي من أيدي الرياح تناول
رسائلك، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع، وعهد غير
مضاع وود ذي أجناس وأنواع، فنشر بقلبي ميت السلو وحشر
أنواع المسرات، وقدح للقلبك زناد الأمل، ومن والله أسأل الإمتاع
بك قبل الفوت على ما يرزحك، ويسبي أمانتي وأمانيك.

وحبيته تحية الهائم، لمواقع الغمائم، والمدلج للصباح المتبلج،
وأمل على مقترح الأولياء خصوصاً فيك، من اطمئنان الحال،
وحسن القرار، وذهاب الهواجس، وسكون الفرة، وعموماً في
الدولة من رسوخ القدم، وهبوب ربح النصر، والظهور على عدو
الله باسترجاع الحصون التي استتقذوها في اعتلال الدولة، وتخريب
المعاقل التي هي قواعد النصرانية، غريبة لا تثبت إلا في الحلم وآية
من آيات الله، وإن خبيثة هذا الفتح في طي العصور السالفة إلى
هذه المدة الكريمة، لدليل على عناية الله بتلك الذات الشريفة،
حين ظهرت على يدها خوارق العادة، وما تجدد آخر الأيام من
معجزات الملة، وكمل فيها والحمد لله بحسن التدبير وبمن النقيبه،
من حميد الأثر، وخالد الذكر، طراز في حلة الخلافة النصرية، وتاج
في مفرق الوزارة.

كتبه الله لكم فيما يرضاه الله من عباد.

ووقفت عليه الأشراف من أهل هذا القطر المحروس،
وأذعته في الملاء سروراً لعز الإسلام وإظهاراً للنعمة، واستطراداً
لذكر الدولة المولوية بما تستحقه من طيب الثناء والتماس الدعاء،
والحديث بنعمتها، والإشادة بفضلها على الدول السالفة والخالفة
وتقدمها، فانشرحت الصدور حباء، وامتلات القلوب إجلالاً
وتعظيماً، وحسنت الآثار اعتقاداً ودعاء.

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنواناً، ولما عساه
يستعجم من نعتي في مناقبها ترجماناً، زاده الله من فضله، وأمتع
المسلمين ببقاءه وبشبه شكوى الغريب من الشوق المزعج، والحيرة
التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً لتجاني عن مهاد الأمن والتقويض
عن دار العزيز المولى المنعم، والسيد الكريم، والبلد الطيب،
والإخوان البررة ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتَ مِنَ الْخَيْرِ﴾،
وإن تشوقت السيادة الكريمة إلى الحال، فعلى ما علمتم سيراً مع

نحيل عليه في تعريفكم بها، وأما البواطن فمما لا تتأتى كثرة وجماعة، وأخص بالصاد ما أظن تشوقكم إليه حالي، فاعلموا أنني قد بلغ بي الماء الزبي واستولى علي سوء المزاج المنحرف، وتوالت الأمراض، وأعوز العلاج لبقاء السبب، والعجز عن دفعه، وهي هذه المداخلة جعل الله عاقبتها إلى خير، ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة إلا بذلته، فما أغنى ذلك عني شيئاً، ولولا أنني بعدكم شغلت الفكر بهذا التأليف مع الزهد، وبعد العهد، وعدم الإلحاح بمطالعة الكتب، لم يتمش حالي من طريق فساد الفكر إلى هذا الحد، وآخر ما صدر عني كناش سميته باستئزال اللطف الموجود في أسر الوجود.

أمليت في هذه الأيام التي أقيم فيها رسم النيابة عن السلطان في سفره إلى الجهاد بودي لو وقفت عليه، وعلى كتابي في المحبة، وعسى الله أن يسر ذلك.

ومع هذا كله والله ما قصرت في الحرص على إيصال مكتوب إليكم إما من جهة أخيك أم من جهة السيد الشريف أبي عبد الله، حتى من المغرب إذا سمعت الركب متوجهاً منه، فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا، والأحوال كلها على ما تركتموها عليه، وأحبابكم بخير على ما علمتم من الشوق والتشوق، والارتماض لمفارقتكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والله يحفظكم ويكون لكم، ويتولى أموركم، والسلام عليكم ورحمة الله.

من الحب الواحش الشيخ ابن الخطيب في غرة ربيع الثاني من عام إحدى وسبعين وسبعماية.

وبياطه مدرجة نصها:

سيدي رضي الله عنكم استقر بتلمسان في سبيل تقلب ومطايعة مزاج تعرفونه صاحبنا المقدم في صنعة الطب أبو عبد الله الشقوري.

فإذا اتصل بكم فأعينوه على ما يقف عليه اختياره، وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم.

عنوانه سيدي ومحل أخى الفقيه الجليل الصدر الكبير المعظم الرئيس الحاجب العالم الفاضل الوزير ابن خلدون.

وصل الله سعده وحرس مجده بمنه.

وإنما طولت بذكر هذه المخاطبات، وإن كانت فيما يظهر خارجة عن غرض الكتاب لأن فيها كثيراً من أخباري وشرح حالي فيستوفي ذلك منها ما يتشوق إليه من المطالعين للكتاب.

وكثر المخرج في أزقتها وأسواقها لما وقع بين أسندمر المتغلب بعد يلينا الخاصكي، وبين سلطانه ظاهر القلعة، من الجولة التي كانت دائرتها عليه، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى، من حاشيته، وموالي يلينا، وتقضى على الباقيين، فأودع منهم السجون، وصلب الكثير، وقتل أسندمر في محبسه، وألقى زمام الدولة بيد كبير من موالي السلطان فقام بها مستبداً وقادها مستقلاً، ويبد الله تصاريف الأمور ومظاهر الغيوب جل وعلا.

ورغبني من سيدي أبقاه الله أن لا يغيب خطابه عني متى أمكن، يصل بذلك منته الجملة، وأن يقبل عني أقدام تلك الذات المولوية، ويعرفه بما عندي من التشيع لسلطانه، والشكر لنعمته، وأن ينهي عني لحاشيته وأهل اختصاصه التحية المختلصة من أنفاس الرياض، كبيرهم وصغيرهم.

وقد تأدى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاج نافع سلمه الله تناوله من الأخ يحيى عند لقائه إياه بتلمسان بحضرة السلطان أبي حو أيده الله، فرمى يصل وسيدي يوضح من ثنائي ودعائي ما عجز عنه الكتاب، والله يقيكم ذخراً للمسلمين وملاذاً للآملين بفضله، والسلام عليكم، وعلى من لاذ بكم من السادة الأولاد المناجيب، والأهل والحاشية والأصحاب، من الحب فيكم المعتد بكم شيعه فضلكم ابن خلدون ورحمة الله وبركاته.

عنوانه سيدي وعمادي ورب الصنائع والأيدى والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي إمام الأمة، علم الأئمة، تاج الملة فخر العلماء الجلة عماد الإسلام، مصطفى الملوك الكرام، نكتة الدول، كافل الإمامة، تاج الدول أثير الله، ولي أمير المسلمين، الغني بالله أيده الله، الوزير أبو عبد الله بن الخطيب أبقاه الله، وتولى عن المسلمين جزاه.

وكتب إلي من غرناطة: يا سيدي ووليي وأخي ومحل ولدي! كان الله لكم حيث كنتم ولا أعدمكم لطفه وعنايته، لو كان مستقركم بحيث يتأتى إليه ترديد رسول، أو إفساد متطلع أو توجيه نائب، لرجعت على نفسي باللائمة في إغفال حقكم، ولكن العذر ما علمتم، واحمدوا الله على الاستقرار في كنف ذلك الفاضل الذي وسعكم كنفه، وشملكم فضله، شكر الله حسبته الذي لم يخلف وشهرته التي لم تكدر.

وإني اغتنمت سفر هذا الشيخ وافد الحرمين بمجموع الفتح في إيصال كتابي هذا، وبودي لو وقفت على ما لديه من البضاعة التي أتم رأسها وصدرها، فيكون لكم في ذلك بعض أنس، وربما تأدى ذلك في بعضه مما لم يجتم عليه وظواهر الأمور

ثم دخلت زغبة في طاعته واجتمعوا على خدمته ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين وبجاية، وذلك في أخريات إحدى وسبعين وسبعائة فوفدت عليه بطانته من الدواودة أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لشارف أحواله، ونظاله بما يرسم لهم في خدمته، فلقيناه بالبطحاء، وضرب لنا موعداً بالجزائر، انصرف به العرب إلى أهلهم، وتحلفت بعدهم لقضاء بعض الأغراض واللاحاق بهم، وصليت به عيد الفطر على البطحاء، وخطبت به وأنشدته عند انصرافه من المصلى تهتة بالعيد وغرضه:

هذي الديار فحيهن صباحاً وقف المطايا بينهن طلاحاً
لا تسال الأطلال إن لم تروها عبرات عينك واكفاً ممتاحاً
فلقد أخذت على جفونك موقفاً أن لا يرين مع البعاد شحاحاً
إيه عن الحى الجميع وربما طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحاً
ومنازل للظاعنين استعجمت حزناً وكانت بالسرور فصاحاً

وهى طويلة، ولم يبق في حفظي منها إلا هذا.

وبينما نحن في ذلك بلغ الخبر بأن السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى من بني مرين قد استولى على جبل عامر بن محمد الهتاتي بمراكش، وكان أخذ بمخقه منذ حول، وساقه إلى فاس، فقتله بالعذاب، وأنه عازم على النهوض إلى تلمسان لما سلف من السلطان أبي هو أثناء حصار السلطان عبد العزيز لعامر في جبلة، من الإجلاب على ثغور المغرب، ولحين وصول هذا الخبر، أضرب السلطان أبو هو على ذلك الشأن الذي كان فيه، وكر راجعاً إلى تلمسان.

وأخذ في أسباب الخروج إلى الصحراء مع شعبة بني عامر من أحياء زغبة، فاستألف وجمع وشد الرجال وقضى عيد الأضحى، وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس لتعذر الوجهة إلى بلاد رياح، وقد أظلم الجو بالفتنة، وانقطعت السبل، فاذن لي وحلني رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر.

وانصرف إلى المرسى بهنين، وجاءه الخبر بتزول صاحب المغرب تازا في عساكره، فأجفل بعدي من تلمسان ذاهباً إلى الصحراء على طريق البطحاء.

وتعذر علي ركوب البحر من هنين فأقصرت، وتأدى الخبر إلى السلطان عبد العزيز بأنني مقيم بهنين، وأن معي ودبعة احتملتها إلى صاحب الأندلس، تحيل ذلك بعض الغواة، وكتب إلى السلطان عبد العزيز فأنفذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الودبعة، واستمر هو إلى تلمسان، وواقني السرية

ثم إن السلطان أبا هو لم يزل معتملاً في الإجلاب على بجاية واستتلاف قبائل رياح لذلك، ومعولاً علي مشايعتي فيه، ووصل يده مع ذلك بالسلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص، لما كان بينه وبين أبي العباس صاحب بجاية وقسنطينة وهو ابن أخيه من العداوة التي تقتضيها مقاسمة النسب والملك، فكان يوفد رسله عليه في كل وقت، ويمرون بي وأنا بيسكرة.

فأكد الرصلة بمخاطبة كل منهما، وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي هو بعد إجفاله عن بجاية واختلال معسكره قد سار في أثره إلى تلمسان، وأجلب على نواحيها فلم يظفر بشيء، وعاد إلى بلاد حصين فأقام بينهم، واشتملوا عليه، ونجم النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط واختلف أحياء زغبة على السلطان، وانتبذ الكثير عنه إلى القفر.

ولم يزل يستألفهم حتى اجتمع له الكثير منهم، فخرج في عساكره منتصف سبع وستين وسبعائة إلى حصين وأبي زيان، واعتصموا بجبل تيطرى، وبعث إلي في استنفار الدواودة للأخذ بحجزتهم من جهة الصحراء، وكتب يستدعي أشياخهم يعقوب بن علي كبير أولاد محمد، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى.

وكتب إلى ابن مزني قعيدة وطنهم بإمدادهم في ذلك، فأمدهم، وسرنا مغربين إليه حتى نزلنا القطفة قبله تيطرى، وقد أحاط السلطان به من جهة التل، على أنه إذا فرغ من شأنهم سار معنا إلى بجاية، وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العباس فعسكر بمن استألف من بقي من قبائل رياح، وعسكر بطرف ثنية القصاب المفضية إلى المسيلة.

وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زغبة، وهم خالد بن عامر كبير بني عامر، وأولاد عريف كبراء سويد، ونهضوا إلينا بمكاننا من القطفة، فأجفلت أحياء الدواودة، وتأخرنا إلى المسيلة.

ثم إلى الزاب، وسارت زغبة إلى تيطرى واجتمعوا مع أبي زيان وحصين وهجموا على معسكر أبي هو فقلوه ورجع منهزماً إلى تلمسان.

ولم يزل من بعد ذلك على استتلاف زغبه ورياح يؤمل الظفر بوطنه وابن عمه، والكرة على بجاية عاماً فعاماً، وأنا على حال في مشايعته، وإيلاف ما بينه وبين الدواودة، والسلطان أبي إسحاق صاحب تونس وابنه خالد من بعده.

وأخرجه معه من تلمسان مقيداً واحتمله في معسكره، فأكد على ونزمار يومئذ في المحاولة على استخلاصه بما أمكن، وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد يبدرون بي ويتقدم إلى أحياء حصين بإخراج أبي زيان من بينهم، فسرنا جميعاً وانتهينا إلى أحياء حصين وأخبرهم فرح بن عيسى بوصية عمه ونزمار إليهم فنبذوا إلى أبي زيان عهده، وبعثوا معه منهم من أوصله إلى بلاد رياح.

ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سباع، وتوغلوا به في القفر، واستمرت أنا ذاهباً إلى بلاد رياح، فلما انتهيت إلى المسيلة أقيت السلطان أبا حمو وأحياء رياح معسكرين قريباً منها في وطن أولاد سباع بن يحيى من الدواودة، وقد تسايلاوا إليه، وبذل فيهم العطاء ليجمعوا إليه، فلما سمعوا بمكاني بالمسيلة، جاؤوا إلي فحملتم على طاعة السلطان عبد العزيز، وأوفدت أعيانهم وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازي، فلقوه ببلاد الديالم عند نهر واصل، فأتوه طاعتهم، ودعوه إلى دخول بلادهم في اتباع عدوه، ونهض معهم.

وتقدمت أنا من المسيلة إلى بسكرة، فلقيت بها يعقوب بن علي، واتفق هو وابن مزني على طاعة السلطان، وبعث ابنه محمداً للقاء أبي حمو، وأمير بني عامر خالد بن عامر يدعوهم إلى نزول وطنه، والبعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز، فوجده متديلاً من المسيلة إلى الصحراء.

ولقيه على الدوسن ويات ليلته يعرض عليهم التحول من وطن أولاد بني سباع إلى وطنهم بشرقي الزاب.

وأصبح يومه كذلك، فما راعهم آخر النهار إلا انتشار العجاج خارجاً إليهم من أفواه الثنية، فركبوا يستشرقون، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثنية، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبة متالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي قد دل بهم الطريق وقد أولاد سباع الذين بعثهم من المسيلة، فلما أشرفوا على المخيم أغاروا عليه مع غروب الشمس، فأجفل بنو عامر وانتهب غنيم السلطان أبي حمو ورحائل وأمواله.

ونجا بنفسه تحت الليل، وتمزق شمل ولده وحرمه حتى خلصوا إليه بعد أيام، واجتمعوا بقصور مصاب من بلاد الصحراء وامتلأت أيدي العساكر والعرب من نهابهم، وانطلق محمد بن عريف في تلك الهبة وأطلق الموكلون به وجاء إلى الوزير وأخيه ونزمار وتلقوه بما يجب له، وأقام الوزير أبو بكر بن غازي بالدوسن أياماً أراح فيها.

بهنين وكشفوا الخبر، فلم يقفوا على صحته، وحملوني إلى السلطان فلقيته قريباً من تلمسان، واستكشفتني عن ذلك الخبر فأعلمته بيقينه، وعفني على مفارقة دارهم، فاعتذرت له بما كان من عمر بن عبد الله المستبد عليهم، وشهد لي كبير مجلسه، وولي أبيه وابن وليه ونزمار بن عريف، ووزير عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، واحتفت الألفاف، وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية، وأنهمجي أنه يروم تملكها، فهونت عليه السيل إلى ذلك فسر به، وأتمت تلك الليلة في الاعتقال، ثم أطلقني من الغد فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم، لو تركت له.

مشاية السلطان عبد العزيز صاحب

المغرب على بني عبد الواد

ولما دخل السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستولى عليها، وبلغ خبره إلى أبي حمو وهو بالطحاء، فأجفل من هنالك، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر ذاهباً إلى بلاد رياح، فسرحت السلطان وزيره أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه. وجمع عليه أحياء وزغبة والمعقل باستلاف وليه ونزمار وتديره.

ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأرطد أمره، وأحملهم على مناصرته وشفاء نفسه من عدوه بما كان السلطان أيس من استتباع رياح وتصريفهم فيما يريد من مذاهب الطاعة، فاستدعاني من خلوتي بالعباد عند رباط الولي أبي مدين.

وأنا قد أخذت في تدريس العلم واعتزمت على الانقطاع، فأنسني وقربي، ودعاني لما ذهب إليه من ذلك، فلم يسعني إلا إجابته، وخلع علي وحلني، وكتب إلى شيوخ الدواودة بامثال أمري وما ألقه إليهم من أوامره، وكتب إلى يعقوب بن علي وابن مزني بمساعدتي على ذلك، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمو من بين أحياء بني عامر، ويجولوه إلى حي يعقوب بن علي، فودعته وانصرفت في عاشر راء سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء، ولقته ودفعت إليه كتاب السلطان، وتقدمت أمامه وشيعتي ونزمار يومئذ وأوصاني بأخيه محمد، وقد كان أبو حمو قبض عليه عندما أحس منهم بالخلاف، وأنهم يرومون الرحلة إلى المغرب.

فكان جوابي عنه ما نصه:

الحمد لله ولا قوة إلا بالله، ولا راد لما قضاه الله.

يا سيدي ونعم الذخر الأبدى، والعروة الوثقى التي اعتقلتها يدي أسلم عليك سلام القدوم على المخدم، والخضوع للملك المتبرع، لا بل أحبيكم تحية المشوق للمعشوق، والمدلج للصباح المتبلج، وأقر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حيي لكم، ومعرفي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم، والثناء عليكم، والإشادة في الاتفاق بمنابكم ديدناً معروفاً، وسجية راسخة يعلم الله وكفى بالله شهيداً.

وبهذا كما في علمكم قسماً ما اختلف لي فيه أولاً وآخرأ، ولا شاهداً ولا غائباً، وأنتم أعلم بما في نفسه وأكبر شهادة في خفايا ضميري، ولو كنت ذاك فقد سلف من حقوقكم، وجميل أخذكم، واجتلاب الحظ لو هياه القدر، لمساكم وإيثاري بالمكان من سلطانكم ودولتكم، ما يستلين معاطف القلوب، ويستل سخائم المهاجس، فانا أحاشيكم من استشعار نبوة أو إحقاق ظن، ولر تعلق بقلب ساق حر ذره وذره فحاش لله أن يقدح في الخلوص لكم، أو يرجع سوابقكم، إنما هو خبيثة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء.

ووالله وجميع ما يقسم به، ما اطلع على مستكنه مني غير صديقي، وصديقكم الملابس، كان لي ولكم، الحكيم الفاضل العلم أبي عبد الله الشقوري أعزه الله، نفثة مصدور، ومائة خلوص، إذ أنا أعلم الناس بمكانه منكم، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان واضمحلال أمره من إجماع الأمر على الرحلة إليكم، والخوف إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدوتكم تعرضت فيها للثهم، ووقفت بمجال الظنون، حتى تورطت في الهلكة بما ارتفع عني مما لم آت، ولا طويت العقد عليه، لولا حلم مولانا الخليفة وحسن رأيه في وثبات بصيرته، لكنت في الهالكين الأولين، كل ذلك شوقاً إلى لقائكم، وتغلاً لأنسكم، فلا تظنوا بي الظنون، ولا تصدقوا في التوهيمات، فانا من علمتم صداقة وسداجة وخلوصاً، واتفاق ظاهر وباطن، أثبت الناس عهداً وأحفظهم غيباً، وأعرفهم بوزن الإخوان، ومزايا الفضلاء، ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان، فإني كنت استشعر عن استضافتي ريباً بخطاب سواه، خصوصاً جهتمكم، لتقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة، واتصال اليد مع أن الرسول تردد إلي وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان تولاه الله باستكشاف ما انبهم من حالي، فلم أترك شيئاً مما أعلم تشوقكم إليه إلا وكشفت له قناعه، وأمتته على بلاغه، ولم أزل بعد انتياش مولانا الخليفة لدمائي وجذبه بضبعي، ساجحاً

ويعث إليه ابن مزني بطاعته وأرغد له من الزاد والعلوفة، وارنخل راجعاً إلى المغرب، وتخلفت بعده أياماً عند أهلي ببسكرة، ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد عظيم من الدواودة، يقدمهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي وجماعة من أعيانهم.

فسابقنا الوزير إلى تلمسان وقدمنا على السلطان فوسعنا من حباثته وتكرمه، ونزله ما بعد العهد بمثله.

ثم جاء من بعدنا الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء بعد أن مر بقصور بني عامر هنالك، فخربها وكان يوم قدومه على السلطان يوماً مشهوداً، وأذن بعدها لوفود الدواودة بالانصراف إلى بلادهم.

وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير ووليه ونزار بن عريف، فودعوه وبالف في الإحسان إليهم وانصرفوا إلى بلادهم.

ثم أعمل نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الدواودة لما خشي من رجوعه إلى حصين، فوامرني في ذلك، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم، فانطلقت لذلك.

وكان أحياء حصين قد توجسوا الخيفة من السلطان، وتكروا له، وانصرفوا إلى أهلهم بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير، وبادروا باستدعاء أبي زيان من مكانه عند أولاد يحيى بن علي، وأنزلوه بينهم، واشتملوا عليه، وعادوا إلى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمو واشتمل المغرب الأوسط نارا.

ونجم صبي من بيت الملك في مغراوة وهو حمزة بن علي بن راشد، فر من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها، فاستولى على شلف وبلاد قومه، وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود في العساكر لمنازلته، وأعيا داؤه وانقطعت أنا ببسكرة، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان إلا بالكتاب والرسالة.

وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفر الوزير ابن الخطيب من الأندلس وقدومه على السلطان بتلمسان حين توجس الخيفة من سلطانه، بما كان له من الاستبداد عليه، وكثرة السعاية من البطانة فيه، فأعمل الرحلة إلى الثغور المغربية لمطالعها بإذن سلطانه، فلما حاذى جبل الفتح قبل القرصة دخل إلى الجبل ويده عهد السلطان عبد العزيز إلى القائد هنالك بقبوله.

وأجاز البحر من حينه إلى سبته، وسار إلى السلطان بتلمسان، وقدم عليهما في يوم مشهود، وتلقاه السلطان من الخطوة والتقريب وإدراة النعم بما لا يعهد مثله.

وكتب إلي من تلمسان يعرفني بخبره، ويسلم ببعض العتاب على ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس، ولم يحضرنني الآن كتابه

في تيار الشواغل كما علمت القاطعة حتى عن الفكر.

بظنين على السر.

وسقطت إلي بمحل خدمتي من هذه القاصية، أخبار
خلوصكم إلى المغرب قبل وصول راجلي إلى الحضرة، غير جليته
ولا ملتزمة، ولم يتعين لملي العصى، ولا مستقر النوى، فأرجيت
الخطاب إلى استجلانها، وأفدت في كتابكم العزيز علي الجاري
على سنن الفضل، ومذاهب المجد، غريب ما كيفه القدر من تنويع
الحال لديكم، وعجبت من تأتي أملككم الشارد فيه كما كنا نستبعده
عند المفاوضة، فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول
على أحسن الوجوه، وأجل المخارج الحميدة العواقب في الدنيا
والدين، العائدة بحسن المال في المخلف: من أهل وولد ومتاع وأثر
بعد أن رضتم جموح الأيام وتوقلتكم قلل العز وقدمت الدنيا
بمذاخيرها وأخذتم بأفاق السماء على أهلها.

وهيتاً فقد نالت نفسكم التواقة أبعد أمانيتها، ثم تآقت إلى ما
عند الله، وأشهد لما أهتمم للإعراض عن الدنيا، ونزع اليد من
حطامها عند الإصحاب والإقبال، ونهى الآمال إلا جذباً وعناية
من الله وحياً، وإذا أراد الله أمراً يسر أسبابه.

واتصل بي ما كان من تحفي الثابتة المولوية بكم واهتزاز
الدولة لقدومكم، ومثل تلك الخلافة، أيدها الله من يشاير على
المفاخر، ويستأثر بالأخيار، وليت ذلك عند إقبالكم على الحظ،
وانسكم باجتلاب الآمال، حتى يحسن المتاع بكم ويتجمل السرير
الملوكي بمكانكم، فالظن إن هذا الباعث الذي هزم الآمال وتبدد
الحظوظ، وهون المفارق العزيز يسومكم القرار إلى الله حتى يأخذ
بيدكم إلى فضاء المجاهدة، ويستوي بكم على جواري الرياضة،
والله يهدي للذي هي أقرم.

وكأنني بالأقدام بتلت والبصائر بإلهام الحق صقلت
والمقامات خلفت، بعد أن استقبلت، والعرفان شيمة أنسواره
وبوارقه، والوصول انكشفت حقائقه لما ارتفعت عواقبه.

وأما حالي والظن بكم الاهتمام بها، والبحث عنها غير
خفية بالباب الملوي أعلاه الله، ومظهرها في طاعته، ومصدرها
عن أمره، وتصاريقها في خدمته، والزعم أنني قمت المقام المحمود في
الشيع والانجاش، واستمالة الكافة إلى المناصحة، ومخالطة القلوب
للولاية، وما يشوفه مجدكم، ويتطلع إليه فضلكم، واهتمامكم من
خاصتها في النفس والولد، فجهينة خبره مؤدي كتابي إليكم،
ناشيء تأديبي وثمرة تربيتي، فسهلوا له الإذن، وآلينا له جانب
النجوى حتى يؤدي ما عندي وما عندكم، وخذوه بأعقاب
الأحاديث أن يقف عند مبادئها، واتمنوه على ما تحدثون، فليس

وتشوفي بما يرجع به إليكم سيدي وصديقي وصديقكم
المغرب في المجد والفضل، المساهم في الشدائد، كبير المغرب، وظهير
الدولة، أبو يحيى بن أبي مدين، - كان الله له - في شأن الولد
والمخلف تشوف الصديق لكم، الضنين على الأيام بقلامة الظفر
من ذات يدكم، فأطلعوني طلع ذلك، ولا يهمكم فالفرق الواقع
حسن، والسلطان كبير، والأثر جميل، والعدو الساعي قليل وحقير،
والنية صالحة، والعمل خالص، ومن كان الله كان الله له.

واستطلاع الرئاسة المزينة الكافلة - كافأ الله يدها البيضاء -
عني وعنكم إلى مثله من أحوالكم استطلاع من يسترجع وزانكم،
ويشكر الزمان على ولاوه بمثلكم.

وقد قررت من لعلومه من مناقبكم، وبعد شأوكم وغريب
منحاكم، ما شهدت به آثاركم الشائعة الخالدة في الرسائل، المتأدية
على السنة الصادر والوارد من الكافة، من حمل الدولة، واستقامة
السياسة، ووقفته على سلامكم، وهو يراجعكم بالتحية،
ويساهمكم بالدعاء.

وسلامي على سيدي، وقلدة كبدي ومحل ولدي، الفقيه
الزكي الصدر أبي الحسن لمجلكم، أعزه الله وقد وقع مني موقع
البشرى حلوله من الدولة بالمكان العزيز والرتبة الناهية، والله
يلحفكم جميعاً رداء العافية، والسر ومهد لكم محل الغبطة والأمن،
ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته، ويجريكم على عوائد لطفه
وعنائه، والسلام الكريم يخلصكم من الحب الشاكر الداعي الشائق
شيعه فضلكم، عبد الرحمن بن خلدون ورحمة الله وبركاته.

في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبعمائة.

وكان بعث إلي مع كتابه نسخة كتابه إلى سلطانه ابن الأحمر،
صاحب الأندلس عندما دخل جبل الفتح، وصار إلى إيالة بني
مرين، فخطابه من هنالك بهذا الكتاب، قرأيت أن أثبتة هنا، وإن لم
يكن من غرض التأليف لغرابته، ونهايته في الجودة، وإن مثله لا
يهمل من مثل هذا الكتاب، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على
أخبار الدول في تفاصيل أحوالها ونص الكتاب:

باتوا فمن كان باكي يكي هذي ركاب السرى بلا شك
فمن ظهور الركاب معملة إلى بطون الريسى إلى الفلك
تصدع الشمل مثلما انحدرت إلى صبروب جواهر السلك
من النوى قبل لم أزل حنراً هذا النوى جل مالك الملك
مولاي كان الله لكم، وتولى أمركم.

أسلم عليكم سلام الوداع، وأدعو الله في تيسر اللقاء

وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي وكبار وطني وأهل طوري، وتركتكم على أتم ما أرضاه، مثنيًا عليكم داعيًا لكم، وإن فسح الله في الأمد، وقضى الحاجة، فأملي العودة إلى ولدي وترتي، وإن قطع الأجل فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله.

فإن كان تصرفي صواباً وجارياً على السداد، فلا يلام من أصاب، وإن كان عن حق، وفساد عقل، فلا يلام من اختل عقله، وفسد مزاجه، بل يعذر ويشفق عليه، ويرحم، وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل، وجلبت الذنوب، وحشرت بعدي العيوب، فحيأوه وتناصفه ينكر ذلك، ويستحضر الحسنات من التربية والتعليم وخدمة السلف، وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقب السلطان، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة، والمداخلة والملازمة، لم يتخلل ذلك قط خيانة في مال ولا سر، ولا غش في تدبير ولا تعلق به عار، ولا كدره نقص، ولا حمل عليه خوف منكم، ولا طمع فيما بيدكم، فلأن لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والإبقاء، فقيم تكون بين بني آدم؟

وأنا قد رحلت فلا أوصيكم بمال، فهو عندي أهون متروك، ولا بولد فهم رجالكم، وخدامكم، وممن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم، ولا بعيال، فهي من مريات بيتكم، وخواص داركم، إنما أوصيكم بمحظي العزيز، كان علي بوطنكم، وهو أنتم، فانا أوصيكم بكم، فارعوني فيكم خاصة.

أوصيكم بتقوى الله والعمل لغد، وقبض عنان الله في موطن الجد، والحياء من الله الذي عص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها ﴿لِنَنْتَظِرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وأطلب منكم عوض ما وفرت عليه من زاد طريق ومكافأة وإعانة، زاداً سهلاً عليكم، وهو أن تقولوا لي: غفر الله لك ما ضيعت من حقي خطأ أو عمداً، وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت.

وأعلموا أيضاً على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك، واعتقاده وبره والسؤال عنه وذكره بالجميل، والأذن في زيارته نجاة منكم وسعه ذرع، ودهاء، فلما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت، ثم أقيمت وتركت الأزاهر تفوح والخاصن تلوح، ومثاله معكم مثل المرضعة، أرضعت السياسة، والتدبير الميمون، ثم رقدتكم في مهد الصلح والأمان، وغطتكم بقتاع العافية، وانصرفت إلى الحمام تغسل اللين والوضر، وتعود فإن وجدت الرضيع نائماً فحسنت، أو قد انتبه فلم تتركه إلا في حد الفطام.

وتحتم لكم هذه الغزاة بالخلف الأكيد أنني ما تركت لكم

والاجتماع، بعد التفوق والانصداع، وأقرر لديكم أن الإنسان أسير الأقدار، مسلوب الاختيار، متقلب في حكم الخواطر والأفكار، وأن لا بد لكل أول من آخر، وأن التفوق لما لزم كل اثنين يموت أو في حياة، ولم يكن منه بد، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب، ما وقع على الوجوه الجميلة البرينة من الشرور.

ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم، ومقامه لديكم بحال قلبي، ولولا تعليلكم ووعدكم وارتياب اللطائف في قلب قلبكم، وقطع مراحل الأيام حريصاً على استكمال سنكم، ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم، وتمكن هدنة وطنكم، وما تحمل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم، وما استقر بيده من عهدكم، وأن العبد الآن لما تسبب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعز، ونجح السعي وتأتى لسنين كثيرة الصلح، ومن بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مشغب من القرباة، وتحرك لطالعة الثغور الغربية، وقرب من فرضة المجاز واتصال الأرض ببلاد المشرق، طرقت الأفكار وزعزعت صبره رياح الخواطر، وتذكر أشرف العمر على التمام، وعواقب الاستعراق، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض، فغلبته حال شديدة هزمت التعشيق بالشمل الجميع، والوطن المليح، والجاه الكبير، والسلطان القليل النظر، وعمل بمقتضى قوله: «موتوا قبل أن تموتوا» فإن صحت الحال المرجو من إمداد الله، تنقلت الأقدام إلى أمام، وقوي التعلق بعروة الله الوثقى، وإن وقع العجز، وافضح العزم، فالله يعاملنا بلطفه، وهذا المرتكب مرام صعب، لكن سهله علي أمور: منها أن الانصراف لما لم يكن منه بد، لم يتعين علي غير هذه الصورة، إذ كان عندكم من باب الحال، ومنها أن مولاي لو سمح لي بغرض الانصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه، لا والله! ولكن الموت أسبق إلي، وكفى بهذه الوسيلة الحسنة - التي يعرفها - وسيلة.

ومنها حرصي على أن يظهر صدق دعواي فيما كنت أعتف به، وأظن أنني لا أصدق.

ومنها اغتنام المفارقة في زمن الأمان والهدنة الطويلة والاستغناء إذا كان الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال.

ومنها - وهو أقوى الأعداء - أنني مهما لم أطق تمام هذا الأمر أو ضاق ذرعي به، لعجز أو مرض أو خوف طريق، أو نفاذ زاد أو شوق غالب، رجعت رجوع الأب الشفيق إلى الولد البر الرضي، إذ لم أخلف ورائي مانعاً من الرجوع من قول قيسح أو فعل، بل خلفت الوسائل المرعية، والآثار الخالدة، والسير الجميلة،

فسار في العسكر واستنفر أحياء العرب من زغبة فأوعبهم ونهض إلى حصين فامتنعوا بجبل تيطرى، ونزل الوزير بعساكره ومن معه من أحياء زغبة على جبل تيطرى من جهة التل، فأخذ بمخنفهم، وكاتب السلطان أشياخ الدواودة من رباح بالمسير إلى حصار تيطرى من جهة القبلة.

وكاتب أحمد بن مزني صاحب بسكرة بإمدادهم بأعطياتهم، وكتب إلى يأمرني بالمسير بهم لذلك، فاجتمعوا علي، وسرت بهم أول سنة أربع وسبعين وسبعائة حتى نزلنا بالقطفة، ووقدت في جماعة منهم على الوزير بمكانه من حصار تيطرى، فحد لهم حدود الخدمة، وشارطهم على الجزاء.

ورجعت إلى أحيائهم بالقطفة، فاشتدوا في حصار الجبل والجأؤهم بسواهم وظهرهم إلى قنته، فهلك لهم الخف والخافر، وضاق ذرعهم بالحصار من كل جانب، وراسل بعضهم في الطاعة خفية فارتاب بعضهم من بعض وانفضوا ليلاً من الجبل، وأبو زيان معهم ذاهبين إلى الصحراء، واستولى الوزير على الجبل بما فيه من خلفهم، ولما بلغوا مأمنهم من الفقر نبدوا إلى أبي زيان عهده، فلتحق بجبال غمرة، وقد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتلمسان، وفاؤوا إلى طاعته فتقبل فيتهم، وأعادهم إلى أوطانهم، وتقدم إلى الوزير - عن أمر السلطان - بالمسير مع أولاد يحيى بن علي بن سباع للقبض على أبي زيان في جبل غمرة، وفاء بحق الطاعة لأن غمرة من رعاياهم، فمضينا لذلك، فلم نجده عندهم، وأخبرونا أنه ارتحل عنهم إلى بلد وإن كلا من مدن الصحراء، فنزل على صاحبها أبي بكر بن سليمان، فأنصرفنا من هنالك، ومضى أولاد يحيى بن علي إلى أحيائهم، ورجعت أنا إلى أهلي ببسكرة، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك، وأقمت منتظراً أوامره حتى جاءني استدعاؤه إلى حضرته فارتحلت إليه.

فضل الوزير ابن الخطيب

وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والشعر، والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداة. فمما كتب عن سلطانه إلى سلطان تونس جواباً عن كتاب وصل إليه مصحوباً بهدية من الخيل والرقيق، فراجعهم عنه بما نصه إلى آخره:

الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزها الذائع، على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم، وفرضها اللازم الاعتراف،

وجه نصيحة في دين ولا في دنيا إلا وقد وفيتها لكم، ولا فارتكتكم إلا عن عجز، ومن ظن خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم، والله يرشدكم ويتولى أمركم، ونقول: خاطركم في ركوب البحر.

انتهت نسخة الكتاب وفي طيها هذه الأبيات:

صاب مزن الدموع من جفن صبك عندما استروح الصبا من مهيبك كيف يسلو يا جنتي عنك قلب وقد كان قبل الوجود جن مجيبك ثم قل كيف كان بعد انشاء السر ووح من أنسك الشهوي وقربك لم يسدع بيتك المنيع حماء لسواه إلا إلى بيت ربك أول علري الرضى فما جنت بدعاً دمت والفضل والرضا من دأبك وإذا ما ادعيت كرباً لفقدني أين كربي ووحشتي من كربك ولدي في ذاك وكسري في دو حك لحدي وتربي في تربك يا زماناً أغرى الفراق شملني ليتني أهبي أخذت لحربك أركبتني صروفك الصعب حتى جئت بالين وهو أصعب صعبك

وكتب آخر النسخة يخاطبني:

هذا ما تسير، والله ولي الخيرة لي ولكم من هذا الخطاب الذي لا نسبة بينه وبين أولي الكمال، رداً لله إليه، وأخلص توكلاً عليه، وصرف الرغبة إلى ما لديه.

وفي طي النسخة مدرجة نصها:

رضي الله عن سيادتكم، أونسكم بما صدر مني أثناء هذا الواقع، مما استحضره الولد في الوقت، وهو يسلم عليكم بما يجب لكم، وقد حصل من حظوة هذا المقام الكريم على حظ وافر، وأجزل إحسانه ونوه بجزايته، وأثبت الفرسان خلفه، والحمد لله انتهى.

ثم اتصل مقامى ببسكرة والمغرب الأوسط، مضطرب بالفتنة المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز وحمزة بن علي بن راشد ببلاد مغراوة والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصره، محصن تاجحمومت وأبو زيان العبد الوادي ببلاد حصين وهم مشتملون عليه وقائمون بدعوته.

ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود ونكر منه تقصيره في أمر حمزة وأصحابه، فاستدعاه إلى تلمسان وقبض عليه، وبعث به إلى فاس معتقلاً، فحبس هناك، وجيز العساكر مع الوزير أبي بكر بن غازي، فنهض إليه، وحاصره ففر من الحصن ولحق بمليانة مجتازاً عليها، فأنذر به عاملها فتقبض عليه، وسبق إلى الوزير في جماعة من أصحابه، فضرب أعناقهم، وصلبهم عظة ومزدجراً لأهل الفتنة.

ثم أوعز السلطان إلى الوزير بالمسير إلى حصين وأبي زيان،

ووسعت الآملين لها الجوانب الرحية والأكناف فامتزاجنا بعلائها

النيف، ولولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تارجت الرياض الأفواف، لما زارها الغمام الوكاف، ودعاؤنا بطول بقاتها، واتصال علائها، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا المستشراف، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة، وفواضلها العميمة، لا تحصره الحدود، ولا تدركه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف، خلافة وجهة تعطينا إذ توجهت الوجوه ومن نؤثره إذا أهمنا ما نرجوه، وتقديه ونبديه إذا استمنح المحبوب واستدفع المكروه السلطان الكذا بن أبي إسحاق بن السلطان الكذا، أبي بكر بن السلطان الكذا، أبي زكرياء بن السلطان الكذا، أبي إسحاق ابن الأمير الكذا، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذا، أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص، أبقاه الله ومقامه مقام إبراهيم رزقاً وأماناً.

لا ينجس جلب الثمرات إليه وقتاً ولا يعين زماناً، وكان على من يتخطف الناس من حوله مؤيداً بالله معاناً.

معظم قدره العالي على الأقدار، ومقابل داعي حقه بالابتدار، المثنى على معاليه المخدلة الآثار، في اصونة، النظام والنثار، ثناء الروضة المعطار، على الأمطار، الداعي إلى الله بطول بقاته في عصمة منسدلة الأستار، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار، وأن ينجح له بعد بلوغ غايات الحال، ونهاية الأعمال، بالزلزلى وعقي الدار.

عبد الله الغني بالله أمير المسلمين، محمد بن مولانا أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسمات الأسحار، وروت ثغور الأفاحي والبهار، عن مسلسلات الأنهار، وتجلى على منصة الاشتهار، وجه عروس النهار يخلص خلافتكم الكريمة النجار، العزيزة الجار ورحمة الله وبركاته.

أما بعد أحمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر، فعبزت عن قياسها، وجعل الأرواح اجناداً مجندة كما ورد في الخبر. نحن إلى أحناسها، منجد هذه الملة من أوليائه الجلة بمن يروض الآمال بعد شماسها، ويسر الأغراض قبل التماسها، ويعنى بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين أخلاق لباسها الملك الحق، واصل الأسباب بحوله، بعد انتهاكات أمراسها ومغني النفوس بطوله، بعد إفلاسها محلاً يدر أخلاف النعم بعد إيساسها، وينشر رسم الأموال من أرماسها، ويقس النفوس

بصفات ملائكة السموات بعد إيلاسها.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله سراج الهداية ونبراسها عند اقتناء الأنوار واقتباسها، مطهر الأرض من أوضارها وأذناسها، ومصطفى الله من بين ناسها، وسيد الرسل الكرام ما بين شيتها وإلياسها، الآتي مهمناً على آثارها، في حين فترتها ومن بعد نصرتها واستيثارها، مرغم الضراغم في أخياسها، بعد افتزارها واقتراسها، ومعفر أجرام الأصنام ومصمت أجراسها. والرضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه، حماء شرعته البيضاء وحراسها، وملقحي غراسها، ليوث الوغى عند احتدام مراسها، ورهبان الدجى تتكفل مناجاة السميع العليم، في وحشة الليل البهيم بإيناسها، وتفواح نسيم الأسحار، عند الاستغفار، بطيب أنفاسها.

والدعاء لخلافتكم العلية المستنصرية بالصنائع التي تشعشع أيدي العزة القعساء من أكواسها، ولا زالت العصمة الأهلية قليلة باحترامها واحتراسها، وأنباء الفتح، المؤيدة بالملائكة والروح، ربحان جلاسها وآيات الفاخر التي ترك الأول للأخر، مكتبة الأسطار بأطراسها وميادين الوجود مجالاً لجياد جودها وباسها، والعز والعدل منسرين لفسطاطها وقسطاسها، وصفيحة النصر العزيز تقبض كفها، المؤيدة بالله، على رياستها، عند احتياج أضدادها، وشره أنكاسها، لانتهاج البلاد وانتهاشها وهبوب رياح رياحها وتمرد مرداسها.

فإنا كتبنا إليكم كتب الله لكم من كتاب نصره أمداداً تدعن أعناق الأنام لطاعة ملككم المنصور الأعلام، عند إحساسها، وآتاكم من آيات العناية، آية تضرب الصخرة الصماء، ممن عصاها بعصاها، فتبادر باننجاسها، من حمراء غرناطة، حرسها الله، وأيام الإسلام، بعناية الملك العلام تحفل وفود الملائكة الكرام، لولائمها وأعراسها، وطواعين الطعان، في عدو الدين المعان، تجدد عهداها بعام عمواسها.

والحمد لله حمداً معاداً يقيد شوارد النعم، ويستدر مواهب الجود والكرم ويؤمن من انتهاكات الحدود وانتكاسها، ولي الآمال ومكاسها وخلافتكم هي المثابة التي يزهو الوجود بمحاسن مجدها، زهو الرياض بوردها وآسها، وتستمد أضواء الفضائل من مقباسها، وتروى رواة الإفادة، والإجادة غريب الوجادة، عن ضحاكها وعباسها.

وإلى هذا أعلى الله معارج قدركم، وقد فعل، وأنطق بحجج فخركم من احتفى وانتعل، فإنه وصلنا كتابكم الذي حسبناه، على

حديقة بيان استارت نواسم الإبداع من مهيبها، واستازارت غمائم الطباع من مصبها، فأنت أكلها مرتين بإذن ربها.

لا بل كنية عز طاعتت بقنا الألفات سطورها، فلا يرومها النقد ولا يطورها، ونزعت عن قسي التونات خطوطها، واصطفت من يياض الطرس، وسواد النفس، بلق تحوطها.

فما كأس المدير، على الغدير، بين الخورنق والسدير، تقامر ببرد الحجاب، عقول ذوي الألباب، وتغرق كسرى في العباب، وتهدي، وهي الشمطاء نشاط الشباب، وقد أسرج ابن سريج وأجم، وأفصح الغريض بعد ما جمجم، وأعرب الناي الأعجم، ووقع معبد بالقضيب، وشرعت في حساب العقد بنان الكف الخضيب، وكان الأنامل فوق مثال العود ومثانيه، وعند إغراء الثقيل بثانيه، وإجابة صدى الغناء بين مغانيه، المراد تشرع في الوشي، أو العناكب تسرع في المشي، وما المخبر بنيل الرغائب، أو قدوم الحبيب الغائب.

لا بل إشارة البشير، بكم المشير، على العشير، بأجلب للسور، من زائرته الملقى بالبرور، وأدعى للبحرور، من سفيره المبهج السفور، فلم نر مثله من كنية كتاب تحجب الجرد، تمرح في الأرسان، وتشوف مجالي ظهورها إلى عرائس الفرسان، وتهز معاطف الارتياح، من سهيلها الصراح، بالنغمات الحسان، إذا أوجست الصريخ نازعت أفناء الأعنة، وكاثرت بأسنه آذانها مشرعة الأسنة، فإن ادعى الظليم أشكافها فهو ظالم، أو نازعها الظلي هودايها وأكافها فهو هاذ أو حالم، وإن سئل الأصمعي عن عيوب الغرر والأوضاع، قال مشيراً إلى وجوهها الصباح:

‘جلدة بين العين والأنف سالم’

من كل عبل الشوى، مسابق للنجم إذا هوى، سامي التليل، عريض ما تحت الشليل، ممسوحة أعطافه بمنديل النسيم البليل.

من أحر كالدما، تحلى على الندام، عقب القدم، أنحف لونه بالورد، في زمن البرد، وحيي أفق عياه بكوكب السعد، وتشوف الواصفون إلى عد محاسنه فأعيت على العد، بحر يساجل البحر عند المد، وريح تباري الريح عند الشد، بالذراع الأشد، حكم له مدير فلك الكفل باعتدال فصل القد، وميزه قدره المميز عند الاستباق، بقصب السباق، عند اعتبار الحد، وولد مخطط غرته أشكال الجمال، على الكمال، بين اليباض والحمرة ونقاء الحد، وحفظ الخلق الوجيه، عن جده الوجيه، ولا تنكر الرواية على الحافظ ابن الحد.

وأشقر، أبي الخلق، والوجه الطلق أن يحقر، كأنما صيغ من العسجد، وطرف بالدر وأعمل بالزبرجد، ووسم في الحديث بسمه

صنائع الله لنا، نعمة لا تقلع بعدها عين، وجعلناه على حلل مواهبه قلادة لا يحتاج معها زين، ودعوانه من جيب الكنانة آية ييضاء الكتابة، لم يبق معها شك ولا مين، وقرأنا منه وثيقة ود هضم فيها عن غريم الزمان دين، ورأينا منه إنشاء، خدم اليراع بين يديه وشاء، واحتزم بهيمان عقده مشاء، وستل عن معانيه الاختراع فقال: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾، فأهلا به من عربي أبي يصف السانح والبانة، ويبين فيحسن الإبانة، أدى الأمانة، وستل عن حيه فاتمى إلى كنانة، وأفصح وهو لا ينس، وتهللت قسماته وليل حبره يعبس وكان خاتمه المقل على صوانه، المتحف بياكر الورد في غير أوانه، رعف من مسك عنوانه الله من قلم ديج تلك الحلل، ونقع بمجاج الدواة المستمدة من عين الحياة الغلل فلقد تخارق في الجود، مقتدياً بالخلافة التي خلد فخرها في الوجود، فجاد بسر البيان ولباه، وسمح في سبيل الكرم حتى بماء شبابه، وجمع لفرط بشاشته وفهامته، بعد شهادة السيف بشهامته، فمشى من الترحيب، في الطرس الرحيب، على أم هامته.

وأكرم به من حكيم، أفصح بملغوز الإكسير، في اللفظ اليسر، وشرح بلسان الخير، سر صناعة التدبير، كأنما خدم الملكة الساحرة بتلك البلاد، قبل اشتجار الجلال، فآثرته بالطارف من سحرها والتلاد، أو عثر بالملقة، وتيك القديمة المطلقة، بدقية دار، أو كنز تحت جدار، أو ظفر لباني الخنايا، قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا، ببديعة، أو خلف جرجير الروم، قبل منازل القروم، أو على وديعة، أو أسلمه ابن أبي سرح، في نشب للفتح وسرح، أو حتم له روح بن حاتم ببلوغ المطلب، أو غلب الحظوظ بخدمة آل الأغلب، أو خصه زيادة الله بمزيم، أو شارك الشيعة في أمر أبي يزيد، أو سار على منهاج، في مناصحة بني صنهاج، وفضح بتخليد أمداحهم كل هاج.

وأعجب به، وقد عزز منه مثنى البيان بثالث، فجلب سحر الأسما، واسترقاق الطباع، بين مثنى للإبداع ومثالث، كيف اقتدر على هذا الحميد، وناصح مع التثليث مقام التوحيد، نستغفر الله ولي العون، على الصمت والصون، فالقلم هو الموحّد قبل الكون، والمتصف من صفات السادة، أولى العبادة، بضمور الجسم وصفرة اللون، إنما هي كرامة فاروقية، وأشارة من حديث سارية وبقيّة، سفر وجهها في الأعقاب، بعد طول الانتقاب، وتداول الأحقاب، ولسان مناب، عن كريم جناب، وإصابة السهم لسواه محسوبة، وإلى الرامي الذي سدده منسوبة، ولا تنكر على الغمام بارقة، ولا على المتحقّقين بمقام التوحيد كرامة خارقة، فما شاءه الفضل من غرائب بر وجد، ومحارِب خلق كريم ركع الشكر فيها وسجد،

إلى رتبة المخدم طرف الخديم، وقورن الثري بالعديم، وبخس في سوق الكسد الكيل، ودجا الليل، وظهر في فلك الأنصاف الميل، لما تذوكرت الخيل، فجاء بالوجيه والخطار، والذائد وذو الخمار وداحس والسكب، والأبجر وزاد الركب، والجموح والبحموم، والكميت ومكنوم، والأعوج وحلوان، ولاحق والغضبان، وعفرز والزعفران والمحبر واللعب، والأغر والغراب، وشعلة والعقاب، والقياض واليعبوب، والمذهب واليعسوب، والصموت والقطيب، وهذب والصيب، وأهلوب وهدا، والحرون وخراج، وعلوى والجناح، والأحوى ومجاح، والعصا والنعام، والبلقاء والحمامة، وسكاب والجردة، وخوصاء والعرادة، فكم بين الشاهد والغائب، والقروض والرغائب، وفرق ما بين الأثر والعيان، غني عن البيان، وشتان بين الصريح والمشتبه، والله در القائل:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

والناسخ يختلف به الحكم، وشر الدواب عند التفضيل بين هذه الدواب الصم البكم إلا ما ركه نبي، أو كان له يوم الافتخار وبرهان خفي ومفضل ما سمع على ما رأى غيبي، فلو أنصفت محاسنها التي وصفت، لأقصمت حب القلوب علفاً، وأوردت ماء الشببية نطقاً، واتخذت لها من عذر الحدود الملاح عذر موشية، وعللت بصغير الحان القيان كل عشية، وأنعلت بالأهله، وغطيت بالرياض بدل الأجلة إلى الرقيق، الخليق بالحسن الحقيقي، يسوقه إلى مثوى الرعاية روقه الفتيان رعاته، ويهدي عقيقها من سبجه أشكالاً تشهد للمخترع سبجانه بإحكام مخترعته، وقفت ناظر الاستحسان لا يريم، لما بهره منظرها الوسيم، وتغامل الظلم، وتضائل الريم وأخرس مفوه اللسان، وهو بملكات البيان، الحفيظ العليم، وناب لسان الحال، عن لسان المقال، عند الاعتقال، فقال يخاطب المقام الذي أطلعت أزهارها غمائم جوده، واقتضت اختياريها بركات وجوده: لو علمنا أيها الملك الأصيل، الذي كرم منه الأجمال والتفصيل، أن النساء يوازنها، لكننا لك بكيلك، أو الشكر يعادها ويجازيها، لتعرضنا بالوشل إلى نيل نيلك، أو قلنا هي التي أشار إليها مستصرخ سلفك المستصبر بقوله:

أدرك بجيالك، حين شرق بدمعه الشرق، وانهزم الجمع واستولى الفرق، واتسع فيه والحكم لله الخرق ورأى أن مقام التوحيد بالمظاهرة على التلث، وحزبه الخبيث، الأولى والأحق.

والآن قد أغنى الله بتلك النية، عن اتخاذ الطوال الردينية، وبالدعاء من تلك المثابة الدينية إلى رب البنية، عن الأمداد السنية والأجودا تخوض بحر الماء إلى بحر النية وعن الجرد العربية، في مقادير الليوث الآبية، وجدد برسم هذه الهدية، مراسيم العهود

اليمن والبركة، واختص بفلج الخصام، عند اشتجار المعركة، وانفرد بمضاعف السهام، المنكسرة على الهام، في الفرائض المشتركة، واتصف فلك كفه بمركبي الإرادة والطبع من أصناف الحركة، أصغى إلى السماء بأذن ملهم، وأغرى لسان الصهيل عند التباس معاني الهمز والتسهيل ببيان المبهم، وقتنت العيون من ذهب جسمه، ولجين نجمه، بالدينار والدرهم، فإن انقض فرجم، أو ربح لها حجم، وإن اعترض فشفق لاح به للنجم نجم.

وأصفر قيد الأوابد الحرة، وأمسك المحاسن وأطلق الغرة، وسئل من أنت في قواد الكتاب، وأولي الأخبار العجائب؟ فقال: أنا المهلب بن أبي صفرة، نرجس هذه الألوان، في رياض الأكوان، تحشى به وجوه الحرب العوان، أغار بنخوة الصائل، على معصفرات الأصائل، فارتداه، وعمد إلى خيوط شعاع الشمس، عند جاذبة الأمس، فألحم منها حلتها وأسداها، واستعدت عليه تلك المحاسن فما أعداه، فهو أصيل تمسك بذيل الليل عرفه وذيله، وكوكب يطلعه من القتام ليله، فيحسده فرقد الأفق وسهيله.

وأشهب تغشى من لونه مفاضة، وتسربل منه لامة فضفاضة، قد احتفل زينه، لما رقم بالنبال لجينه، فهو الأشمط، الذي حقه لا يغمط، والدارع المسارع، والأعزل الذارع، وراقى الهضاب الفارع، ومكتوب الكتيبة البار.

وأكرم به من مرتاض سالك، ويجتهد على غايات السابقين الأولين مهالك، وأشهب يروي من الخليفة، ذي الشيم المنيفة، عن مالك.

وحباري كلما سابق ويباري، استعار جناح الحباري، فإذا أعملت الحسبة، قيل من هنا جاءت النسبة، طرد النمر، لما عظم أمره وأمر، ففسخ وجوده بعدمه، وابتزه الفروة ملطخة بدمه، وكان مضاعف الورد نثر عليه من طبقه، أو الفلوك، لما ذهب الخلك، مزج فيه بياض صبحه بمجرة شفق، وقرطاسي حقه لا يجهل، متى ما ترقى العين فيه تسفل، إن نزع عنه جلته، فهو نجم كله، انفرد بمادة الألوان، قبل أن تشوبها يد الأكوان، أو تمزجها أقلام الملوان، يتقدم الكتيبة منه لواء ناصع، أو أبيض مناصع، لبس وقار المشيب، في ريعان العمر القشيب، وأنصت الأذان من صهيل المطيل المطيب، لما ارتدى بالبياض إلى نغمة الخطيب، وإن تعبت منه للتأخير متعب، قلنا: الواو لا ترتب، ما بين فحل وحره، وبهرمانه ودرة، ويا لله من ابتسام غرة، ووضوح يمن في طرة، وبهجة للعين وقرة، وإن ولع الناس بامتداح القديم، وخصوصاً الحديث بفري الأديم، أوجب التعصب، وإن أبى المنصب، مرتبة التقديم، وطمح

توهم حس العيان، أنها قطع من بيض العنان، وتكاد تناول قرص البدر بالبنان، متكفلة للمؤمنين من فزع الدنيا والآخرة بالأمان.

وأقرضنا الله قرضاً، وأوسعنا مدونة الجيش عرضاً، وفرضنا إنصافه مع الأهلة فرضاً، واستندنا من التوكل على الله الغني الحميد إلى ظل لواء، ونبذنا إلى الطاغية عهده على سواء، وقلنا: ربنا أنت العزيز، وكل جبار لعزك ذليل، وحزبك هو الكثير، وما سواه قليل، أنت الكافي، ووعدك الوعد الوافي، فأفوض علينا مدارع الصابرين، واكتبنا من الفائزين بخطوط رضاك الظافرين، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

فتحركنا أول الحركات، وفاقحة مصحف البركات، في خف من الخشود، واقتصار على ما يحضرتنا من العساكر المظفرة والجنود، إلى حصن أشر البازي المثل، وركاب العدو الضال المضل، ومهدي نفثات الصل، على امتناعه وارتفاعه، وسمو بقاعه، وما بذل العدو فيه من استعداد، وتوفير أسلحته وأزواده، وانتخاب أمجاده، فصلينا بنفسنا ناره، وزاحمنا عليه الشهداء نصابر أواره ونلقى بالجوارح العزيزة سهامه المسمومة، وجلالده الملمومة وأحجاره، حتى فرعنا بحول من لا حول ولا قوة إلا به أبراجه النبتة وأسواره، وكففتنا عن البلاد والعباد أضراره، بعد أن استضفنا إليه حصن السهلة جاره، ورحلنا عنه بعد أن شحناه رابطة وحامية، وأزواداً نامية، وعملنا يدينا في رم ما ثلم القتال، وبقر من بطون مسابقة الرجال، واقتدينا ببنيان صلوات الله عليه وسلامه في الخندق لما حمى ذلك المجال، ووقع الارتجاس المنقول حديثه والارتجال، وما كان ليقر للإسلام مع تركه القرار، وقد كتب الجوار، وتداعى الدعرة وتعاوى الشار.

وقد كنا أغرينا من بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة برغة التي سدت بين القاعدتين رندة ومالقة الطريق، وألبست ذل الفراق ذلك الفريق، ومنعهما أن يسيغا الريق، فلا سبيل إلى الإلمام، لطيف المنام، إلا في الأحلام، ولا رسالة إلا أجنحة هذل الحمام، فيسر الله فتحها، وعجل منحها، بعد حرب أثبتت فيها التحور، وتزينت الحور.

وتبع هذه الأم بنات شهيرة، ويقع للزرع والضرع خيرة، فشفي الثغر من يؤسه، وتهلل وجه الإسلام بتلك الناحية الناجية بعد عبوسه.

ثم أعملنا الحركة إلى مدينة إطريرة، على بعد المسد، وتغلغلنا في بلاد العداء، واقتحام هول الفلا وغول الردى، مدينة تبتها حمص فأوسعت الدار، وأغلت الشوار، وراعت الاستكثار،

الودية، والذمم المرحدية، لتكون علامة على الأصل، ومكذبة لدعوى الوقف والفصل، وإشعاراً بالألفة التي لا تزال ألفها ألف الوصل، ولأمرها حراماً على النصل.

وحضر بين يدينا رسولكم، فقرر من فضلكم ما لا ينكره من عرف علو مقداركم، وأصالة داركم، وفلك إيداركم، وقطب مداركم، وأجنابه عنه بجهد ما كنا لتقع من جناه المهتصر، بالمقتضب المختصر، ولا لتقابل طول طوله بالقصر، لولا طرو الحصر.

وقد كان بين الأسلاف رحمة الله عليهم ورضوانه ود أبرمت من أجل الله معاقده، وورثت للخلوص، الجلي النصوص، مضاجعه القارة ومراقده، وتعاهد بالجميل يوجع لفقده فاقده، أبى الله إلا أن يكون لكم الفضل في تجديده، والعطف بتوكيده، فنحن الآن لا ندرى أي مكارمكم نذكر، أو أي فواضلكم نشرح أو نشكر، أمفاتحكم التي هي في الحقيقة عندنا فتح، أم هديتكم، وفي وصفها للأفلام سبيح، ولعدو الإسلام بحكمة حكمتها كبج، إنما نكل الشكر لمن يوفي في جزاء الأعمال البرة، ولا يبخس مثقال الذرة ولا أدنى من مثقال الذرة، ذي الرحمة الثرة، والألطف المتصلة المستمرة، لا إله إلا هو.

وإن تشوفتم إلى الأحوال الراهنة، وأسباب الكفر الواهية بقدرة الله الراهنة، فنحن نظركم بطرفها، ونظلمكم على سبيل الإجمال بطرفها، وهو أننا لما أعادنا الله من التمهيص، إلى مثابة التخصيص، من بعد المرام العويص، كحلنا بتوفيق الله بصر البصيرة، ووقفنا على سبيله مساعي الحياة القصيرة، ورأينا كما نقل لبنا، وكرر على من قبلنا وعلينا أن الدنيا وإن غر الغرور وأنام على سرر الغفلة السرور، فلم ينفع الخطور على أجدات الأحباب والمورور، جسر يعبر، ومتاع لا يغبط من حي به ولا يجبر، إنما هو خير يجبر، وأن الخسرة بمقدار ما على تركه يجبر، وأن الأعمار أحلام، وأن الناس نيام، وربما رحل الراحل عن الخان، وقد جلله بالأذى والدخان، أو ترك به طيباً، وناء يقوم بعد للآتي خطيباً، فجعلنا العدل في الأمور ملاكاً، والتفقد للثغور مساوفاً، وضجيع المهاد، حديث الجهاد، وأحكامه مناط الاجتهاد، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِقٍ﴾ من حجج الاستشهاد، وبأدركنا رمق الحصون المضاعة وجنح التقية دامس، وعواربها لا ترد يد لأمس، وساكنتها بائس، والأعصم في شعفاتها من العصمة بائس، فزينا ببيض الشرفات ثناياها، وأفعمنا بالعذب الفرات ركاياها وغشينا بالصفيح المضاعف أبوابها، واحتسبنا عند موافي الأجور ثوابها، وببضنا بناصع الكلس أثوابها، فهي اليوم

ووشاح الأفق المرقوم، يزهر التجوم، قد دار دائره، والليل من خوف الصباح، على سطحه المستباح، قد شابت غذائره، والنسر يرفرف باليمن طائره، والسماك الراح يشار بعز الإسلام ثائره، والنعام راعدة فرائض الجسد، من خوف الأسد، والقوس يرسل سهم السعادة، بوتر العادة، إلى أهداف النعم المعادة، والجوزاء عابرة نهر المجرة، والزهرة تغار من الشعري العبور بالضرورة، وعطارد يسدي في جبل الحروب، على البلد المحروب ويلجمه، وينظر على أشكالك الهندسية فيجمله، والأهرم يبهز، ويعلمه الأبيض يغري وينهر، والمشتري يسدي في فضل الجهاد ويعيد، ويزاحم في الحلقات على ما للسعادة من الصفقات، ويزيد، وزحل عن الطالع منزحل، وعن العاشر مرتحل، وفي زلق السعود وحل، والبدر يطالع حجر المنجنيق، كيف يهوي إلى النيق، ومطلع الشمس يرقب، وجدار الأفق يكاد بالعيون عنها ينقب.

ولما فشا سر الصباح، واهتزت أعطاف الرايات بتحيات مشرات الرياح أطلتنا عليه إطلال الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس، فنظرنا منظرًا يروع بأساً ومنعة، ويروق وضاً وصنعة، تلفعت معاقله الشم للسحاب ببرود، ووردت من غدر المزن في برود، وأشرعت لاقتطاف أزهار النجوم والذراع بين النطاق معاصم رود، وبلداً يعمي الماسح والذارع، ويتنظم المحامي والأجارع، فقلنا: اللهم نقله أيدي عبادك، وأرنا فيه آية من آيات جهادك، ونزلنا بساحتها العريضة المتون، نزول الغيث المتون، وتيمنا من فحصها بسورة "التين والزيتون"، متبرئة من أمان الرحمان للبلد المقتون، وأعجلنا الناس بحمية نفوسهم النفيسة، وسجية شجاعتهم البهيسة، عن أن تبوا للقتال المقاعد، وتدني بأسماع شهر النفير منهم الأبعاد، وقبل أن يلتقي الخديم بالمخدوم، ويركع المنجنيق ركعتي القდوم، فدفعوا من أصحر إليهم من الفرسان وسبق إلى حومة الميدان، حتى أحجروهم في البلد، وسلبوه لباس الجلد، في موقف يذهل الوالد عن الولد، صابت السهام فيه غماماً، وطارت كاسراب الحمام تهدى حماماً، وأضحت القنا قصداً، بعد أن كانت شهاباً رصداً، وماج بحر القتام بأمواج النصول، وأخذ الأرض الرجفان لزلزال الصياح الموصول، فلا ترى إلا شهيداً تظلل مصرعه الحور، وصريراً تقذف به إلى الساحل تلك البحور، ونواشب تبأى بها الوجوه الوجهة عند الله والنحور، فالقضب، فوده يخضب، والأسمر، غصنه يستمر، والمغفر، حماه يخفر، وظهور القسي تقصم، وعصم الجند الكوافر تقصم، وورق اليب في المقلب يسقط، والبيض تكتب والسمر تقط، فاقتحم الريض الأعظم لحينه، وأظهر الله لعيون المبصرين

وبسطت الاعتمار، رجح لدينا قصدنا على البعد، والطريق الجعد، ما أسفت به المسلمين من استئصال طائفة من أسراهم، مروا بها آمنين، وبطائرها المشؤوم متمينين، قد أنهكهم الاعتقال، والقيود الثقيل، وأضرعهم الأسار وجللهم الإنكار، فجدلوه في مصرع واحد، وتركوهم عبرة للرائي والمشاهد، وأهدوا بوقعتهم إلى الإسلام نكل الواجد، وترة الماجد، فكيسناها كيساً، وفجأناها بإلغام من لا يضل ولا ينسى وصحبها الخيل، ثم تلاحق الرجل لما جن الليل، وحاق بها الريل، فأبيح منها الذمار، وأخذها الدمار، ومحقت من مصانعها البيض الأهلة وحسفت الأقمار، وشفيت من دماء أهلها الضلوع الحرار، وسلطت على هياكلها النار، واستولى على الآلاف العديدة من تسيبها الأسار، وانتهى إلى إشييلة الثكلى المغار فجلل وجوه من بها من كبار النصرانية الصغار، واستولت الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تقله الأوقار.

وعدنا والأرض تموج سيباً، لم نترك بعفرين شبلاً ولا بوجرة ظيباً، والعقائل حسرى، والعيون يهرها الصنع الأسرى وصبح السرى قد حمد من بعد المسرى، فسبحان الذي أسرى، ولسان الحمية ينادي، في تلك الكنائس المخربة والنوادي: يا لثارات الأسرى!

ولم يكن إلا أن نقلت الأنفال، ووسمت بالأوضاع الأغفال، ونمزت الهادي والأكفال، وكان إلى غزو مدينة جيان الاحتفال، قدنا إليها الجرد تلاعب الظلال نشاطاً، والأبطال تقتحم الأخطار رضى بما عند الله واغتياباً، والمهنية الدلت تسبق إلى الرقاب استلالاً واختراطاً، واستكثرنا من عدد القتال احتياطاً، وأزحنا العلل عمن أراد جهاداً منجياً غباره من دخان جهنم ورباطاً، وناديننا الجهاد! الجهاد! يا أمة الجهاد! راية النبي الهاد! الجنة تحت ظلال السيوف الحداد! فهز النداء إلى الله تعالى كل عامر وغامر، واثمر الجح من دعوى الحق إلى أمر أمر، وأتى الناس من الفجوج العميقة رجالاً وعلى كل ضامر، وكاثرت الرايات أزهار البطاح لوناً وعداً، وسدت الحشود مسالك الطريق العريضة سداً، ومد بجرحها الزاخر مداً، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حداً.

وهذه المدينة هي الأم الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود، وكرسی الملك، ومجنية الوسطى من السلك، باءت بالزاياء العديدة ونجحت، وعند الوزان غيرها من أمات البلدان رجحت، غاب الأسود، وجحر لحيات السود، ومنصبب التماثيل الهائلة، ومعلق النواقيس المصلصلة.

فأدبنا إليها المراحل، وعيننا يبحار الحملات المستقلات منها الساحل، ولما اكثبنا جوارها، وكدنا نلتصم نارها، تحركنا إليها

وربة الشهرة السافرة، والأنباء المسافرة، قرطبة، وما أدراك ماهية! ذات الأرجاء الحالية الكاسية، الأطواد الراسخة الراسية، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية، والمحاسن غير المتناهية، حيث هالة بدر السماء قد استدارت من السور المشيد البناء داراً، ونهر المجرة من نهرها الفيض، السلول حسامه من غمود الغياض، قد لصق بها جاراً، وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مداراً، ورجع الحنين اشتياًقاً إلى الحبيب الأول وادكاراً حيث الطود كالتاج، يزدان بلجين العذب المحاج، فيزري بتاج كسرى وداراً، حيث قسي الجسور المديدة، كأنها عوج المطي العديدة، تعبر النهر قطاراً، حيث آثار العامري المجاهد، تعبق بين تلك المعاهد، شذى معطاراً، حيث كرائم السحائب، تزور عرائس الرياض الحبايب، فتحمل لها من الدر نثاراً، حيث شمول الشمال تدار على الأدواح، بالغدو والرواح، فترى الغصون سكارى، وما هي بسكارى حيث أبدي الافتتاح، تنفض من شقائق البطاح إكباراً، حيث ثغور الأقاح الباسم، تقبلها بالسحر زوار النواسم، فتخفق قلوب النجوم الغياري، حيث المصلى العتيق، قد رحب مجالاً وطال مناراً، وأزرى ببلاط الوليد احتقاراً، حيث الظهور الماثرة سلاح الفلاح، تحب عن مثل أسنمة المهاري، والبطون كأنها لتدميث الغمام بطون العذارى، والأدواح العالية، تحترق أعلامها الهادية، بالجداول الحيارى.

فما شئت من جو بقليل، ومعرس للحسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل، وخائل، كم فيها للبلابل، من قال وقيل، وخفيف يجاوز بثقل، وسنابل تحكي من فوق سوقها، وقصب بسوقها، الهمزات على الألفات، والعصافير البديعة الصفات، فوق القصب المؤتلفات، تميل لهبوب الصبا والجنوب، ماثلة الجيوب، بدر الحبوب، وبطاح لا تعرف عين المحل، فتطلبه بالذحل، ولا تصرف في خدمة بيض قباب الأزهار، عند افتتاح السوسن والبحار، غير العبدان من سودان النحل، ومجر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله، ولا يبلغ الطية البعيدة راحله، إلى الرادي، وسمر النوادي، وقرار دموع النوادي، للتجاسر على تحطيه، عند تمطيه، الجسر العادي، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد، والفرا الذي في جوفه كل صيد أقل كزسيه خلافة الإسلام، وأغار بالرصافة والجسر دار السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه السنة الأقالم أو تعبر به عن ذلك الكمال فتون الكلام.

فأعملنا إليها السرى والسير، وقدنا إليها الخيل قد عقد الله في نواصياها الخير.

ولما وقفنا بظاهرها الميهت المعجب، واصطفقنا بخارجها

والمستبصرين عزة دينه، وتبرأ الشيطان من خدينه، ونهب الكفار وخذلوا، وبكل مرصد جدلوا ثم دخل البلد بعده غلابا، وجلجل قتلاً واستلاباً، فلا تسلم إلا الظبا والأسل عن قيام ساعته، وهول يومها وشناعته، وتخريب المبائ والمباني، وغنى الأيدي من خزائن تلك المغاني، ونقل الوجود الأول إلى الوجود الثاني وتحارق السيف فجاء بغير المعتاد، ونهلت القنا الردينية من الدماء، حتى كادت تورق كالأغصان المغترسة والأوتاد، وهمت أفلاك القسي وسحت، وأرنت حتى بحت، ونقدت موادها فشحت، مما ألحت، وسدت المسالك جثث القتلى فتمنت العابر، واستأصل الله من عدوه الشافة وقطع الدابر، وأزلف الشهيد وأحسب الصابر، وسبقت رسل الفتح الذي يسلم يسمع بمثله في الزمن الغابر تنقل البشرى من أفواه المحارب، إلى أذان المنابر.

أقمتا بها أياماً نعقر الأشجار، ونستأصل بالتخريب الوجار، ولسان الانتقام من عبدة الأصنام، يتادي: يا لشارت الإسكندرية تشقياً من الفجار، ورعياً لحق الجار، وقتلنا وأجنته الرابات، برياح العنايات، خافقة وأوفاق التوفيق الناشئة من خطوط الطريق، موافقة، وأسواق العز بالله نافقة، وحملاء الرفق مصاحبة والحمد لله مرافقة، وقد ضاقت ذروع الجبال، عن أعناق الصهب السبال، ورفعت على الأكفال، ودفاء كرائم الأنفال، وقلقلت من النواقيس أجرام الجبال، بالهندام والاحتيال، وهلك بمهلك هذه الأم بنات كن يرتضعن ثديها الحوافل، ويستوثرن حجرها الكافل، شمل التخريب أسوارها، وعجلت النار بوارها.

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح، وأرسلنا دلاء الأدلاء قبل المتح، فبشرت بالمنح وقصدنا مدينة أبدية، وهي ثانية الجناحين، وكبرى الأختين، ومساهمة جيان في حين الحين، مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق، وتمشت فيه أرباضها تمشي الكتابة الجامعة في المهرق، المشتعلة على المتاجر والمكاسب، والوضع المناسب، والفلق المعبي ريعه عمل الحاسب وكوارة الدبر اللاسب المتعددة اليعاسب، فأنساخ العفاء بربوعها العامرة، ودارت كؤوس عقار الختوف، ببنان السيوف، على متدبيرها المعارقة، وصبحتها طلائع الفارقة، وأغرقت ببطون أسوارها عوج المعاول الباقرة، ودخلت مدينتها عنوة السيف، في أسرع من خطرة الطيف، ولا تسأل عن الكيف، فلم يبلغ العفاء من مدينة حافلة، وعقيلة في حلل المحاسن رافلة، ما بلغ من هذه البائسة التي سجدت لألهة النيران أبراجها، وتضاءل بالرغام معراجها، وضفت على أعطافها ملابس الخذلان، وأقفر من كنائسها كناس الغزلان.

ثم تاهبنا لغزو أم القرى الكافرة، وخزائن المزاين الوافرة،

المنتب المنجب، والقلوب تلمس الإعانة من منعم مجزل، وتستنزّل مدد الملائكة من منجد منزل، والركائب واقفة من خلفنا بمعزل، تتناشد في معاهد الإسلام:

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

برز من حاميتها الحامية، ووقود النار الحامية، وبقية السيف الوافرة على الحصاد النامية، قطع الغمام الحامية، وأمواج البحور الطامية، واستجنت بظلال أبطال المجال، أعداد الرجال، الناشبة والرامية، وتصدى للزوال، من صناديدها الصهب السبال، أمثال المضاب الراسية، تجنّها جنن السوانج الكاسية، وقواميسها المفادية للصلبان يوم يؤسفها بنفوسها المواسية، وخنازيرها التي عدتها عن قبول حجج الله ورسوله، ستور الظلم العاشية، وصخور القلوب القاسية، فكان بين الفريقين أمام جسرهما الذي فرق البحر، وحلى بلجينه، ولآلئه زينه، منها النحر، حرب لم تتسج الأزمان على منوالها، ولا أنت الأيام الحبالي يمثل أجنة أهوالها، من قاسها بالفجار فك وفجر، أو مثلها بجفر الهبابة خرف وهجر، ومن شبهها بحرب داحس والغبراء، فما عرف الخبر، فليسأل من جرب وخبر، ومن نظرها بيوم شعب جبلة فهو ذو بله، أو عادها بيطن عاقل، فغير عاقل، أو احتج بيوم ذي قار، فهو إلى المعرفة ذو افتقار، أو ناضل بيوم الكديد، فهمه غير السديد، إنما كان مقاماً غير معتاد، ومرعى نفوس سلم يف بوصفه لسان مرتاد وزلزّال جبال أوتاد، وتمتلف مذخور لسلطان الشيطان وعناد، أعلم فيه البطل الباسل، وتورد الأبيض الباتر، وتاود الأسمر العاسل، ودوم الجليد المتكاسل، وانبعث من حذب الحنية، إلى هدف الرمية، الناصر الناسل، ورويت لمرسلات السهام المراسل، ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والارتباك، ونشبت الأسنة في الدروع نشب السمك في الشباك، ثم اختلط المرعي بالهمل، وعزل الرديني عن العمل، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجاناً، بعد أن شقت غدر السوانج خلجاناً، واتحدت جداول الدروع، فصارت مجراً، وكان التعانق، فلا ترى إلا نحراً يلزم نحراً، عناق وداع، وموقف شمل ذي انصداع، وإجابة مناد إلى فراق الأبد دواع، واستكشفت مآل الصبر الأنفس الشفافة، وهبت بريح النصر الطلائع المبشرة الهفافة، ثم أمد السبل ذلك العباب، وصقل الاستبصار الألباب، واستخلص العزم صفوة اللباب، وقال لسان النصر: [ادخلو عليهم الباب] فأصبحت طوائف الكفار، حصائد مناجل الشفار، فمغافروهم قد رضيت حرمانها بالأخفار، ورؤوسهم معطوبة في غير مقام الاستغفار، وعلت الرايات من فوق تلك الأبراج المستطرفة والأسوار، ورفرف على المدينة جناح البوار، لولا

الانتهاء إلى الحد والمقدار، والوقوف عند اختفاء سر الأقدار. ثم عبرنا نهرها، وشددنا بأيدي الله قهرها، وضيّقنا حصرها، وأدركنا بآلاء القباب البيض خضرها وأقمنا بها أياماً نحوم عقبان البنود على فريستها حيامها، وترمي الأدواح ببوارها، وتسلط النيران على أقطارها، فلولا عائق المطر، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر، فرأينا أن نروضها بالاجتثاث والانتساف، ونوالي على زروعها وربوعها كرات رياح الاعتساف، حتى يتهمّا للإسلام لو ك طعمتها، ويتنها بفضل الله إرث نعمتها، ثم كانت من موقفها الإفاضة من بعد نحر النحر، وقذف جمار الدمار على العدو المدحور، وتدافعت خلفنا السيقات المتسقات تدافع أمراج البحور.

وبعد أن الحننا على جناتها المصحرة، وكرومها المستبحرة إلحاح الغريم، وعرضناها المنظر الكريه من المنظر الكريم، وطاف عليها طائف من ربنا فأصبحت كالصرير، وأغرينا حلاق النار بجمم الجميم، وراكنا في أحواف أجرافها غمام الدخان، يذكر طيه البان بيوم العميم، وأرسلنا رياح الغارات تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريميم، واستقبلنا الوادي بهول مدأ، ويروع سيفه الصقيل حدأ، فيسره الله من بعد الأعواز، وانطلقت على الفرصة بتلك الفضة أيدي الانتهاز، وسألنا من سائله أسد بن الفرات فافتى برجحان الجواز، فعم الاكتساح والاستباح جميع الأحواز فاديل المصون، وانتهدت القرى، وهدت الحصون، واجتشت الأصول، وحطمت الفصون ولم نرفع عنها إلى اليوم غارة تصاحبها بالبوس، وتطلع عليها غررها الضاحكة باليوم العبوس، فهي الآن مجرى السوابق وبجر العوالي على التوالي، والحسرات تتجدد في أطلالها البوالي، وكان بها قد ضرعت، وإلى الدعوة المحمدية أسرع، بقدرة من لو أنزل القرآن على الجبال لخشعت من خشية الله وتصدعت، وعزة من أذعت الجبايرة لعزه وخضعت، وعدنا والبنود لا يعرف اللف نشرها، والوجه المجاهدة لا يخالط التقطيب بشرها، والأيدي بالعروة الوثقى متعلقة، والألسن بشكر نعم الله منطلقة، والسيوف في مضاجع الغمود قلقه، وسراويل الدروع خلقة، والجياد من ردها إلى المرباط والأواري، رد العواري حنقة، وبعبرات الغيظ المكظوم مختنقة، تنظر إلينا نظر العاتب، وتعود من ميادين الاختيال والمراح، تحت حلال السلاح، عود الصبيان إلى المكاتب، والطبل بلسان الغز هادر والعزم إلى منادي العود الحميد مبادر، ووجود نوع الرماح، من بعد ذلك الكفاح نادر، والقاسم يرتب بين يديه من السي النوار، ووارد مناهل الأجور، غير الحلاء، ولا المهجور، غير صادر، ومناظر الفصل الآتي، عقب

كثيراً أثيراً، ما أطلع الصبح وجهاً منيراً، بعد أن أرسل النسيم
سفيراً، وكان الوميض الباسم لأكواس الغمام، على أزهار
الكمام مديراً، ورحمة الله وبركاته.

وكتب إلي يهتني بمولود، ويعاتب على تأخير الخبر بولاده
عنه:

هنيئاً أبا الفضل الرضا وإبنا زيد وأمت من بغى يخاف ومن كبد
بطالع بمن طال في السعد شأوه فما هو من عمرو الرجال ولا زيد
وقيد بشكر الله أتمتع السي أوابدا تاتي سوي الشكر من قيد

أهلاً بدردي المكاتب، وصدري المراتب، وعتبي الزمن
العاب وبكر المشتري والكااتب، ومرحاً بالطالع، في أسعد المطالع،
والثاقب في أجلى المراقب، وسهلاً بغني البشير، وعزة الأهل
والعشير، وتاج الفخر الذي يقصر عنه كسرى وأردشير، الآن
اعتضدت الحلة الحضرمية بالفارس، وأمن السارح في حمى
الحارس، وسعدت بالنير الكبير، أفلاك التدوير، من حلقات
المدارس، وقرت بالجنى الكريم عين الفارس، واحترت أنظار
الأبلي وأنجات ابن الدارس وقيل للمشكلات: طالما ألفت الخمرة،
وأفضيت على الأذهان الأمرة، فتأهلي للفاخرة الميحية لحماك،
وتحيزي إلى فئة البطل المستائر برشف لماك.

والله من نصبة احتفى فيها المشتري واحتفل، وكفى سني
تربيتها وكفل، واختال عطاردي في حلل الجذل لها ورفل، واتضحت
الحدود، وتهللت الوجوه، وتنافس الثلثات تؤمل الحظ وترجوه،
ونبه البيت على واجبه، وأشار لحظ الشرف مجابهه، وأسرع نير
التوبة في الأوبة، قائماً في الاعتذار مقام التوبة، واستأثر بالبروج
المولدة بيت البنين، وتخطت خطأ القمر رأس الجوزهر وذنب
التين، وساق منها حكم الأصل، حذوك النعل بالنعل، تحويل
السنين، وحقق هذا المولود بين المواليد نسبة عمر الوالد، فتجاوز
درجة الثنين، واقرن بعاشره السعدان، اقتران الجسد، وثبت بدقيقه
مركزه قلب الأسد، وسرق من بيت أعدائه خرمي الغل والحسد،
ونظمت طرق التسيير، كما تفعل بين يدي السادة عند المسير،
وسقط الشيخ الهرم من الدرج في البير، ودفع المقاتل إلى الوبال
الكبير:

لم لا ينال العلا أو يعقد التاج والمشتري طالع والشمس هلاج
والسعد يركض في ميدانها مرحاً جذلان والفلك الدوار هملاج

كان به والله يهديه قد انتقل من مهد التنويم، إلى النهج
القوم، ومن أريكة الذراع، إلى تصريف اليراع، ومن كسد الدابة،
إلى مقام الهداية، والغاية المختطة البداية جعل الله وقايته عليه
عودة، وقسم حسدته قسمة محرم اللحم، بين منخقة ونظيحة

أخيه الشاتي، على المطلوب المواشي مصادر والله على تسيير
الصعاب، وتحويل المنن الرغاب قادر، لا إله إلا هو.

فما اجمل لنا صنعه الخفي، وأكرم بنا لطفه الخفي، اللهم لا
نحصى ثناء عليك، ولا نلجا منك إلا إليك، ولا نلتمس خير الدنيا
والآخرة إلا لديك، فأعد علينا عوائد نصرك، يا مبدى يا معيد،
وأعنا من وسائل شكرك، على ما يتال به المزيدي، يا حي يا قيوم يا
فعال لما يريد.

وقارنت رسالتكم الميمونة لدينا حذق فتح بعيد صيته،
مشرّب ليته، وفخر من فوق النجوم العوام ميته عجبنا من تأتي
أمله الشارد، وقلنا: البركة في قدم الوارد وهو أن ملك النصارى
لاطفنا بجملة من الحصون كانت من ملكة الإسلام قد غصبت،
والتماثيل فيها ببيوت الله قد نصبت أداها الله بمحاولتنا. الطيب
من الخيث، والتوحيد من التليث، وعاد إليه الإسلام عود الأب
الغائب، إلى البنات الخبايب، يسأل عن شؤونها، ويمسح دموع
الركة من جفونها وهي للروم خسة قلما ارتكبوها فيما
نعلم من العهود، ونادرة من نوادر الوجود.

وإلى الله علينا وعليكم عوارف الجود، وجعلنا في محارب
الشكر من الركع السجود.

عرفناكم بمجملات أمور تحتها تفسير، وعين من الله وتيسير،
إذ استيفاء الجزئيات عسير لنسركم بما منح الله دينكم، وتوَجَّع بعز
الملة الخفيفة جينكم، ونحطّط بعده دعاءكم وتأمينكم، فإن دعاء
المؤمن لأخيه بظهر الغيب سلاح ماض، وكفيل بالمواهب المسؤولة
من المنعم الوهاب متفاض وأنتم أولى من ساهم في بر، وعامل الله
مخلص سر، وأين يذهب الفضل عن بيتكم، وهو صفة حيكم،
وثرات ميتكم، ولكم مزية القدم، ورسوخ القدم والخلافة مقرها
إيوانكم، وأصحاب الإمام مالك رضي الله عنه مستقرها
قبروانكم، وهجير المنابر ذكر إمامكم، والتوحيد إعلام، والوقائع
الشهيرة في الكفر منسوبة إلى أيامكم، والصحاب الكرام فتحة
أوطانكم، وسلالة الفاروق عليه السلام وشائج سلطانتكم، ونحن
نستكثر من بركة خطابكم، ووصلة جنابكم ولولا الأعذار لوالينا
بالمزيدات تعريف أبوابكم.

والله عز وجل. يتولى عنا من شكركم المحتوم، ما قصر
المكتوب منه عن المكتوم، وفيقيكم لإقامة الرسوم، ويحل محبتكم
من القلوب محل الأرواح من الجسوم، وهو سبحانه يصل
سعدكم، ويحرس مجدكم، ويوالي نعمه عندهم.

والسلام الكريم، الطيب الزكي المبارك البر العميم، يحضكم

صدره بذلك، فكتب إلى وتزمار بن عريف، ولي السلطان، وصاحب شواره، يتنفس الصعداء من ذلك، فأنهائه إلى السلطان، فاستدعاني لوقت، وارتحلت من بسكرة بالأهل والولد، في يوم المولد الكريم سنة أربع وسبعين وسبعمائة متوجهاً إلى السلطان وقد كان طرقه المرض فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط، فلقيني هنالك خبر وفاته، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصب بعده للأمر في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي وأنه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغذاً السير إلى فاس، وكان على مليانة يومئذ علي بن حسون بن أبي علي اليناطي من قواد السلطان وموالي بيته، فارتحلت معه إلى أحياء العطف ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم، بذرق لي بعضهم إلى حلة أولاد عريف: أمراء سويد، ثم لحق بنا بعد أيام علي بن حسون في عسكره وارتحلنا جميعاً إلى المغرب على طريق الصحراء، وكان أبو حمو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتباهه بالفقر في تيكوراريسن إلى تلمسان فاستولى عليها وعلى سائر أعماله، فأورع إلى بني يغمر من شيوخ عبيد الله من المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مخرج وادي زاء، فاعترضونا هنالك فنجا من نجمانا على خيولهم إلى جبل دبدو وانتهبوا جميع ما كان معنا وأرجلوا الكثير من الفرسان، وكنت فيهم، وبقيت يومين في قفره ضاحياً عارياً إلى أن خلصت إلى العمران ولحقت بأصحابي بجبل دبدو ووقع في خلال ذلك من الألفاظ إلى ما لا يعبر عنه، ولا يسع الوفاء بشكره.

ثم سرنا إلى فاس ووفدت على الوزير أبي بكر وابن عمه محمد بن عثمان بفاس في جمادى من السنة، وكان لي معه قديم صعبة واختصاص منذ نزع معي إلى السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة، عند إجازته من الأندلس لطلب ملكه كما مر في غير موضع من الكتاب، فلقيني من بر الوزير وكرامته وتوفير جرائته وإقطاعه، فوق ما أحسب وأقمت بمكاني من دولتهم أشير المحل، نابه الرتبة عريض الجاه، منوه المجلس عند السلطان.

ثم انصرف فصل الشتاء وحدث بين الوزير أبي بكر بن غازي وبين السلطان ابن الأحمر منافرة بسبب ابن الخطيب، وما دعا إليه ابن الأحمر من إبعاده عنهم وأنف الوزير من ذلك فأسّلم الجو بينهما، وأخذ الوزير في تجهيز بعض القرابة من بني الأحمر للإجلاّب على الأندلس فبادر ابن الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن من ولد السلطان أبي علي، والوزير مسعود بن رحو بن ماساي كان حبسهما أيام السلطان عبد العزيز وإشارته بذلك لابن الخطيب حين كان في وزارته بالأندلس، فأطلقهما الآن ويعتصم لطلب الملك بالمغرب، وأجازهما في

ومرتدة وموقوفة، وحفظ هلاله في البدار إلى تمه وبعد تمه، وأقر به عين أبيه وأمه.

غير أنني. واللّه يغفر لسيدي بيد أنني راع في سبيل الشكر ومساجد، فانا عاتب وواجد، إذ كان ظني أن البريد بهذا الخبر إلى يعمل، وإن تخافي به لا يهمل، فانعكست القضية، وربت الحال المرضية، وفضلت الأمور الذاتية الأمور العرضية، والحكم جازم، وأحد الفرضين لازم إما عدم السوية، ويعارضه اعتناء حبله مغار، وعهده سلم لم يدخلها جزية ولا صغار، أو جهل بمقدار الهبة، ويعارضه علم بمقدار الحقوق، ورضى منافع للعقوق، فوقع الأشكال وربما لطف عذر كان عليه الاتكال.

وإذا لم يبشر مثلي بمنحة الله قبل تلك الذات السرية، الخليفة بالنعم الحرية، فمن الذي يبشر، وعلى من يعرض بزهة أو ينشر، وهي التي واصلت التقفد، وبهرجت المعاملة وأبت أن تقفد، وأنست الغربة وجرحها غير مندمل، ونفست الكربة وجنحها على الجوانح مشتمل، فمتى فرض نسيان الحقوق لم ينلني فرض، ولا شهد به علي سماء ولا أرض، وإن قصر فيما يجب لسيدي عمل، لم يقصر رجاء ولا أمل، ولي في شرح حمده ناقة وجمل.

ومنه جل وعلا نسأل أن يريه قرة العين في نفسه وماله وبنيه، ويجعل أكبر عطايا الميالج أصغر سنيه، ويقلد عواتق الكواكب البابانية حمائل أمانيه وإن تشوف سيدي لحال وليه، فخلوة طيبة، ورحمة من جانب الله صيبة، ويرق يشام، فيقال: حدث ما وراءك يا هشام.

و لله در شيخنا إذ يقول:

لا بـارك الله في إن لم أصرف النفس في الأهم
وكثر الله في همومي إن كان غير الخلاص همي

وإن أنعم سيدي بالإلماع بمجالة، وحال الولد المبارك، فذلك من غرر إحسانه، ومزنته في لحظ لحظي، بمنزلة إنسانه، والسلام.

العودة إلى المغرب الأقصى

ولما كنت في الاعتمال في مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب، كما ذكرت تفصيله، وأنا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مزني، وهو صاحب زمام رياح، وأكثر عطائهم من السلطان مفترض عليه في جباية الزاب، وهم يرجعون إليه في الكثير من أمورهم، فلم أشعر إلا وقد حدثت المنافسة منه في استباح العرب، ووغر صدره، وصدق في ظنونه وتوهماته، وطاوع الوشاة فيما يوردون على سمعه من القول والاختلاق، وجاش

محمد بن عثمان في ذلك، واستدعاه واستمده وكان ونزمار بن عريف ولي سلفهم قد أظلم الجو بينه وبين الوزير أبي بكر، لأنه سألوه وهو يحاصر تازي في الصلح مع الأمير عبد الرحمن فامتنع، واتهمه بمدخلته والميل له، فاعتزم على القبض عليه، ودس إليه بذلك بعض عيون، فركب الليل ولحق بأحياء الأحلاف من العقول، وكانوا شبيعة للأمير عبد الرحمن، ومعهم علي بن عمر الويعلاتي كبير بني ورتاجن، كان انتقض على الوزير ابن غازي ولحق بالسوس.

ثم خاض القفر إلى هؤلاء الأحلاف فنزل بينهم مقيماً لدعوة الأمير عبد الرحمن، فجاءهم ونزمار مقلناً من حباله الوزير أبي بكر وحرصهم على ما هم فيه، ثم بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم ووزيره محمد، ابن عثمان، وجاءهم وأفد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم.

وخرج من تازي فلقبهم، ونزل بين أحيائهم، ورحلوا جميعاً إلى إمداد السلطان أبي العباس حتى انتهوا إلى صفوى.

ثم اجتمعوا جميعاً على وادي، النجا، وتعاقدوا على شأنهم، وأصبحوا من الغد على التعبئة، كل من ناحيته.

وركب الوزير أبو بكر لقتالهم فلم يطق، وولى منهزماً فأنحجر بالبلد الجديد، وخيم القوم بكدية العرائس محاصرين له، وذلك أيام عيد الفطر من سنة خمس وسبعين وسبعماية فحاصروها ثلاثة أشهر وأخذوا بمخفقتها إلى أن جهد الحصار الوزير ومن معه، فأذعن للصلح على خلع الصبي المنصوب السعيد ابن السلطان عبد العزيز، وخروجه إلى السلطان أبي العباس ابن عمه، والبيعة له، وكان السلطان العباس والأمير عبد الرحمن قد تعاهدوا عند الاجتماع بوادي النجا على التعاون والتناصر، غلى أن الملك للسلطان أبي العباس بسائر أعمال المغرب، وأن للأمير عبد الرحمن بلداً سجلماً ودرعة والأعمال التي كانت لجده السلطان أبي علي أخي السلطان أبي الحسن.

ثم بدا للأمير عبد الرحمن في ذلك أيام الحصار، واشتط بطلب مراكز وأعمالاً فأغضوا له في ذلك، وشارطوه عليه حتى يتم لهم الفتح، فلما انعقد بما بين السلطان أبي العباس والوزير أبي بكر، وخرج إليه من البلد الجديد، وخلع سلطانه الصبي المنصوب، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار الملك فاتح ست وسبعين وسبعماية وارتحل الأمير عبد الرحمن يغذ السير إلى مراكز، وبدا للسلطان أبي العباس ووزيره محمد بن عثمان في شأنه، فسرخوا العساكر في اتباعه، وانتهاوا خلفه إلى وادي بهت فواقفوه ساعة من

الأسطول إلى سواحل غساسة فتزلوا بها ولحقوا بقبائل بطوية هنالك، فاشتملوا عليهم، وقاموا بدعوة الأمير عبد الرحمن.

ونهض ابن الأحمر من غرناطة في عساكر الأندلس فنزل على جبل الفتح يحاصره، وبلغت الأخبار بذلك إلى الوزير أبي بكر بن غازي القائم بدوله بني مرين، فجهد لحينه ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس إلى سبتة لإمداد الحامية الذين لهم بالجبل، وانهض هو في العساكر إلى بطوية لقتال الأمير عبد الرحمن، فوجده قد ملك تازي، فأقام عليها يحاصره، وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني أبيه المرشحين، فحبسهم بطنجة.

فلما وافى محمد بن الكاس سبتة وقعت المراسلة بينه وبين ابن الأحمر وعتب كل منهما صاحبه على ما كان منه، واشتد عدل ابن الأحمر على إخلالهم الكرسي من كفته، ونصهم السعيد بن عبد العزيز صيلاً لم يثغر، فاستعجب له محمد، واستقال من ذلك، فحمله ابن الأحمر على أن يبايع لأحد الأبناء المحبوسين بطنجة، وقد كان الوزير أبو بكر أوصاه أيضاً بأنه إن تضايق عليه الأمر من الأمير عبد الرحمن، فينرج عنه بالبيعة لأحد أولئك الأبناء.

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان أبو سالم لابنه أحمد إيسام ملكه، فبادر من وقته إلى طنجة وأخرج أحمد ابن السلطان أبي سالم من محبسه، وبايع له وسار به إلى سبتة، وكتب لابن الأحمر يعرفه بذلك، ويطلب منه المدد على أن ينزل له عن جبل الفتح، فأمد به بما شاء من المال والعسكر واستولى على جبل الفتح وشحنه بمجانيته، وكان أحمد ابن السلطان أبي سالم قد تعاهد مع بني أبيه في محبسه، على أن من صار الملك إليه منهم، يميز الباقيين إلى الأندلس، فلما بويغ له ذهب إلى الوفاء لهم بعهدهم، وأجازهم جميعاً، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر، فآكرم نزهم ووفر جراياتهم.

وبلغ الخبر بذلك كله إلى الوزير أبي بكر بمكانه من حصار الأمير عبد الرحمن بتازة، فأخذهم القيم المقعد من فعله ابن عمه، وقوّض راجعاً إلى دار الملك، وعسكر بكدية العرائس من ظاهرها وتوعد ابن عمه محمد بن عثمان فاستعذر بأنسه إنما امتثل وصيته، فاستشاط وتهدهد واتسع الخرق بينهما وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس إلى أن احتل بجبل زهون المطل على مكناسة، وعسكر به، واشتملوا عليه، وزحف إليهم الوزير أبو بكر وصعد الجبل فقاتلوه وهزموه، ورجع إلى مكانه بظاهر دار الملك، وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن والاعتصام به، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستبد به لنفسه، فزاسله

الإجازة ثانية إلى الأندلس ثم إلى تلمسان والحقاق بأحياء العرب والمقامة عند أولاد

عريف

ولما كان ما قصصه من تنكر السلطان أبي العباس صاحب فاس والذهاب مع الأمير عبد الرحمن ثم الرجوع عنه إلى ونزمار بن عريف طلباً لوسيلته في انصرافي إلى الأندلس بقصد القرار والاقباض، والعكوف على قراءة العلم، فتم ذلك ووقع الإسعاف به بعد الامتناع، وأجرت إلى الأندلس في ربيع [سنة] ست وسبعين وسبعمئة ولقي السلطان بالبر والكرامة وحسن النزول على عادته وكنت لقيت بجبل الفتح كاتب السلطان ابن الأحمر من بعد ابن الخطيب الفقيه أبا عبد الله بن زمرك، ذاهباً إلى فاس في غرض التهئة، وأجاز إلى سبتة في أسطوله، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة، فلما وصل إلى فاس، وتحدث مع أهل الدولة في إجازتهم، تنكروا لذلك، وساءهم استقراري بالأندلس، واتهموا أنني ربما أحمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن الذي اتهموني بملاسته، ومنعوا أهلي من اللحاق بي.

وخاطبوا السلطان ابن الأحمر في أن يرجعني إليهم، فأبى من ذلك، فطلبوا منه أن يبيزني إلى عدوة تلمسان، وكان مسعود بن ماساي قد أذنوا له في اللحاق بالأندلس، فحملوه على مشافهة السلطان بذلك، وأبدوا له أنني كنت ساعياً في خلاص ابن الخطيب، وكانوا قد اعتقلوه لأول استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به.

وبعث إليّ ابن الخطيب من محبسه مستصرخاً بي، ومتوسلاً، فخاطبت في شأنه أهل الدولة، وعولت فيه منهم على ونزمار وابن ماساي، فلم تنجح تلك السعاية، وقتل ابن الخطيب، بحبسه، فلما قدم ابن ماساي على السلطان ابن الأحمر. وقد أغروه بي فالتقى إلى السلطان ما كان مني في شأن ابن الخطيب، فاستوحش لذلك، وأسعفهم بإجازتي إلى العدوة، ونزلت بهنين والجو بيني وبين السلطان أبي حمو مظلم بما كان مني في إجلاي العرب عليه بالزباب كما مر.

فأوعز بمقامي بهنين، ثم وفد عليه محمد بن عريف فعذله في شأني فبعث عني إلى تلمسان، واستقرت بها بالعباد، ولحق بي أهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وسبعمئة وأخذت في بث العلم، وعرض للسلطان

نهار، ثم أحجموا عنه، ولولوا على راياتهم، وسار هو إلى مراکش، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماساي بعد أن طلب منه الإجازة إلى الأندلس يتودع بها، فسرحة لذلك، وسار إلى مراکش فملكها.

وأما أنا فكنت مقيماً بفاس في ظل الدولة وعنايتها، منذ ندمت على الوزير سنة أربع وسبعين وسبعمئة كما مر، عاكفاً على قراءة العلم وتدرسه، فلما جاء السلطان أبو العباس والأمير عبد الرحمن وعسكروا بكدية العرائس، وخرج أهل الدولة إليهم من الفقهاء والكتاب والجند، وأذن للناس جميعاً في مباركة أبواب السلطانين من غير تكير في ذلك، فكنت أباهرهما معاً، وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مر ذكره قبل هذا، فكان يظهر لي رعاية ذلك، ويكثر من المواعيد، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إلي ويستدعيني أكثر أوقاته، ويشاورني في أحواله، فنص بذلك الوزير محمد بن عثمان وأغرى سلطانه فقبض علي.

وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك، وعلم أنني إنما وتيت من جراه، فحلف ليقوض خيامه، ويعث وزيره مسعود بن ماساي لذلك، فاطلقوني من الغد، ثم كان افتراقهما لثالثة.

ودخل السلطان أبو العباس دار الملك، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراکش، وكنت أنا يومئذ مستوحشاً، فصحبت الأمير عبد الرحمن معتزماً على الإجازة إلى الأندلس من ساحل أسفي، معولاً في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماساي لهوأي فيه، فلما رجع مسعود أثنى عزمي في ذلك، ولحقنا بونزمار بن عريف بمكانه من نواحي كرسيف، لنقدمه وسيلة إلى السلطان أبي العباس صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس، واستأذنه في شأني، فأذن لي بعد مطاولة وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان وسليمان بن داود بن أعراب، ورجال الدولة.

وكان الأخ يحيى لما رحل السلطان أبو حمو من تلمسان، رجع عنه من بلاد زغبة إلى السلطان عبد العزيز، فاستقر في خدمته، وبعده في خدمة ابنه محمد السعيد المنسوب مكانه.

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد استأذن الأخ في اللحاق بتلمسان، فأذن له وقدم على السلطان أبي حمو، فأعاده إلى كتابة سره كما كان أول أمره، وأذن لي أنا بعده فانطلقت إلى الأندلس بقصد القرار والدعة إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

أبي حمر أثناء ذلك رأي في الدواودة، وحاجة إلى استئلافهم، فاستدعاني وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض، فاستوحشت منه ونكرته على نفسي لما أثرته من التخلي والإنقطاع، وأجبتة إلى ذلك ظاهراً، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء، فعدلت ذات اليمين إلى منداس ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول فتلقوني بالتحفي والكرامة، وأقمت بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي بتلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين التي صارت لهم باقطاق السلطان فأقمت بها أربعة أعوام متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسألت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتنخت زبدتها، وتألقت نتائجها، وكانت من بعد ذلك الفئحة إلى تونس كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الفئحة إلى السلطان أبي العباس بتونس

والمقام بها

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها وكان من أحفل المساكن وأوفقها.

ثم طال مقامي هنالك وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناتة، وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أملت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح، ثم طرقتي مرض أوفى بي على النية لولا ما تدارك من لطف الله، فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس والرحلة إلى تونس، حيث قرار آبائي ومساكنهم، وآثارهم وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفئحة إلى طاعته والمراجعة، وانتظرت فما كان غير بعيد، وإذا بمخطابه وعهوده بالإمان والاستحثاث للقدوم؛ فكان الحضور للرحلة فطعت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك يتجمعون الميرة بمنداس، وارتحلنا في رجب سنة ثمانين وسبعماية وسلطنا القفر إلى الدوسن من أطراف الزاب.

ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرافار الضيعة التي اختطها بالزاب، فرحلهم معه إلى أن نزلنا عليه

وكان ما يغرون به على السلطان قعودي عن امتداحه، فإني كنت قد أهملت الشعر واتحاله جملة، وتفرغت للعلم فقط، فكانوا يقولون له: إنما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه للملوك قبلك، وتسمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانته، فلما رفعت له الكتاب وتوجهت باسمه أنشدت في ذلك

اليوم هذه القصيدة امتدحه، وأذكر سيره وفتوحاته وأعتذر عن انتحال الشعر وأستعطفه بهدية الكتاب إليه فقلت:

هل غير بابك للغريب مؤمل أو عن جنابك للأماني معدل
هي همة بعثت إليك على النوى عزماً كما شحذ الحسام الصيقل
متنبوا الدنيا ومتجسج المنى والغيث حيث العارض المهمل
حيث القصور الزاهرات منيفة تعنى بها زهر النجوم وتحفل
حيث الخيام البيض يرفع للعلا والمكرمات طرفها المهمل
حيث الحمى للعز في ساحاته ظل أفااته الوشيج الذبل
حيث الكرام ينوب عن نار القرى عرف الكباء بمجهم والمندل
حيث الرماح يكاد يورق عودها عما تعمل من الدماء
حيث الجياد أملهن شجعان بنو ما أطالوا في المغار وأوغلوا
حيث الوجوه الغر قنعها الحيا والبشر في صفحاتها يتهلل
حيث الملوك الصيد والنفر الألى عز الجوار لديهم والمترل
من شيعه المهدي بل من شيعه التوحيد به الكتاب يفصل
شادوا على التقوى مباني عزهم لله ما شادوا بذلك وأنلوا
بل شيعه الرحمن القى جهم في خلقه فسموا بذلك وفضلوا
قوم أبسو حفص أب لهم وما أدراك والفاروق جسد أول
نسب كما اضطردت أنابيب القنا وأتى على تقويمهم معدل
سام على هام الزمان كأنه للفخر تاج بالبدور مكلل
فضل الأنام حديثهم وقد يهم ولأنت إن فضلوا أعزوا وأفضل
وبنوا على قتل النجوم ووطدوا وبناؤك العالي أشد وأطول
ولقد أقول لخافض بحر الفلا والليل مزيد الجوانب اليل
ماض على غول الدجى لا يقي تيهاً وذابل ذبال مشعل
متقلب فوق الرحال كأنه طيف بأطراف المهاد موكل
يبغي مثال الفوز من طرق الغنى ويرود غصبتها الذي لا يحل
أروح الركاب فقد ظفرت بواهب يعطي عطاء المعتمين فيجزل
لله من خلص كريم في الندى كالروض حياه ندي غضل
هذا أمير المؤمنين إماننا في الدين والدنيا إليه الموثل
هذا أبو العباس خير خليفة شهدت له الشيم التي لا تحل
مستنصر بالله في قهر العدا وعلى إغانة ربه متوكل
سبق الملوك إلى العلا متمهلا لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا يتسابقون إلى العلا وأكمل
قايس قديماً منهم بقديهم فالأمر فيه واضح لا يجهل
دانوا لقومكم بأقروم طاعة هي عروة الدين التي لا تفصل
سائل تلمسانا بها وزنانة ومرين قبلهم كما قد يقل
وأسال باندلس مدائن ملكها تخبرك حين استياسوا واستهلوا
وأسال بنا مراكشاً وقصورها ولقد تحجب رسومها من يسال
يا أيها الملك الذي في نعته ملء القلوب وفوق ما يتمثل

لله منك مؤيد عزماته تقضي كما يمضي القضاء المرسل
جنت الزمان بحيث أعضل خطبة فافتر عنه وهو أكلح أعصل
والشمل من أبنائه متصدع وحى خلافته مضاع مهممل
والخلق قد صرفوا إليك قلوبهم ورجوا صلاح الحال منك وأملوا
فمجلته لما انتدبت لأمره بالباس والعزم الذي لا يهمل
ذلت منه جاعاً لا يتشنى سهلت وعراً كاد لا يتسهل
وألئت من شرس العتاة وذدتهم عن ذلك الحرك الذي قد حللوا
كانت لصولة صولة ولقومه يعدو ذؤيب بها وتسطر المعقل
ومهلل تسدي وتلحم في السي ما أحكموها فهي بعد مهملل
والمراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حزة أولاد أبي الليل.

وذؤيب: هو ابن عمه أحمد بن حزة.

والمقل فريق من العرب من أحلافهم، ومهلل: هم بنو مهلل بن قاسم أنظارهم وأقتالهم.

ثم رجعت إلى وصف العرب وأحيانهم:

عجب الأنام لشأنهم بادون قد قذفت بمجهم المطي الذلل
رفعوا القباب على العماد الجرد السلاهب والرماح العسل
في كل ظامي الترب متقد الحصى تهوي للجنة الظماء قنهل
جن شرايهم السراب ورزقهم رمح يروح به الكمي ومنصل
حي حلول بالعراء ودونهم قذف النوى إن يظعنوا أو يقبلوا
كانوا يروعون الملوك بما بدوا وغدت ترفه بالنعيم وتحضل
فبدوت لا تلوي على دعة ولا تآوي إلى ظل القصور وتهذل
طورا يضافحك المجير وتارة فيه يخفأق البنود تظلل
وإذا تعاطى الضمر في يوم الوغى كأس النجيع فبالصهيل تملل
غشوشناً في العز معتملاً له في مثل هذا يحسن المستعمل
تفري حشى البيداء لا يسري بها ركب ولا يهوي إليه جحفل
وتجبر أذيسال الكتائب فوقها في مثل هذا يحسن المستعمل
ترميمهم منها بكل مدجج ركب ولا يهوي إليه جحفل
وبكل أسمىر غصنه متآود تختال في السم الطوال وترفل
حتى تفروق ذلك الجمع الألى شاكى السلاح إذا استعار الأعزل
ثم استملتهم بأنعمك السي وبكل أسمىر غصنه متآود
ونزعت من أهل الجريد غواية وبكل أسمىر غصنه متآود
خربت من بياتها ما شيدوا وبكل أسمىر غصنه متآود
ونظمت من أمصاره ونغوره وبكل أسمىر غصنه متآود
فسدنت مطلع النفاق وأنت لا وبكل أسمىر غصنه متآود
بشكيمة مرهوبة وسياسة وبكل أسمىر غصنه متآود
عذب الزمان لها ولذ مذاقه وبكل أسمىر غصنه متآود
فضوى الأنام لعز أروع مالك وبكل أسمىر غصنه متآود
سهل الخليفة ماجد متفضل وبكل أسمىر غصنه متآود

فخاطبته بهذه القصيدة:

وتجللتنا رحمة من بسوس
انهمت فأظلمها حدادة العيس
صدعوا الظلام بجذوة المقبوس
نشرت لها الأمال من مرموس
أضفت من النعماء خير لبوس
شربوا النعيم لها بغير كؤوس
ويقابلون أهلة بشموس
وجليس أنس قاده لجليس
أثر الهدى في المعهد المأنوس
فيسرو لارمن بالتقديس
يشفي من الداء العيا يوسي

والمعني به إمام الجامع الأعظم، جامع الزيتونة بتونس.

يا ابن الخلافة والذين بنورهم
والناصر الدين القويم بعزمة
هجر المنى فيها ولذات المنى
حاط الرعية بالسياسة فانضوت
أسد مجامي عن حمى أشباله
قسماً بموشي البطاح وقد غدت
والماتلات من الحنايا جمها
خوص مضمرة البطون كأنها
وخز البلى منها الغوارب والذرى
لبك حزر للأنام وعصمة
ولأنت كافل ديتنا بمجاية
اللّه أعطاك التي لا فوقها
تعنو القلوب إليك قبل وجوهنا
فلذا أقمت فلان رعبك راحل
وإذا رحلت فللسعادة آية
وإذا الأدلة في الكمال تطابقت
فانعم بملكك دولة عادية
وإليكها منى على خجل بها
عزراً فقد طمس الشباب ونوره
لولا عنايتك التي أوليتني
واللّه ما أبقت ممارسة
أغنى الزمان علي في الأدب الذي
فسطا على وفري وروح مأمي
ورضاك رحمتي التي اعتلها

سيان منها الطفل والمتكهل
وأماً فوق ما قد أملوا
يعدو بساحتها الهزير المشبل
سرب القظاما راعهن الأجلد
وأعاد حلي الجيد وهو معطل
قصد السبيل فأبصر المتأمل
فتميس في حلل الجمال وترفل
فسيحاً ليس فيها مجهل
من نور غرته التي هي أجمل
فرأى الحقيقة في الذي تخيل

ومنها في العذر عن مدحه:
مولاي غاضت فكرتي وتبلدت
تسمو إلى درك الحقائق همت
وأجد ليلى في امتراء قريعت
فأبيت يعتلج الكلام بخاطري
من بعد حول انتقي ولم يكن
فأصونه عن أهله متوارياً
وهي البضاعة في القبول نفاقها
وبنات فكري إن أتتك كليله
فلها الفخار إذا منحت قبولها

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف بمجازته:

وإليك من سير الزمان وأهله
صحفاً ترجم عن أحاديث الأولى
تبدي التبائع والعمالق سرها
والقائمون بملة الإسلام من
لخصت كتب الأولين لجمعها
والنت حوشي الكلام كأنها
أهديت منه إلى علال جواهرها
وجعلته لصوان ملكك مفخرا
واللّه ما أسرفت فيما قلته شيئا
ولأنت أرسخ في المعارف رتبة
فملاك كل فضيلة وحقيقة
والحق عندك في الأمور مقدم
واللّه أعطاك التي لا فوقها
أبقاك ربك للعباد تربهم

وكننت لما انصرفت من معسكره على سوسة إلى تونس،
بلغني وأنا مقيم بها أنه أصابه في طريقه مرض، وعقبه إيلال

وتزهر الحوانك والمدارس والكواكب بأفاته، وتضيء البدور والكواكب من علماته، قد مثل بشاطيء بحر النيل نهر الجنة ومُدفع مياه السماء، يسقيهم العليل والنهل سيحه، ويحني إليهم الثمرات والخيرات ثجه ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعيم. وما زلنا نتحدث عن هذا البلد وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم في الحديث عنه، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرئ مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمئة فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام.

وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من السحاب يشير إلى كثرة أمه وأمنهم العواقب.

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عثان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتادية رسالته النبوية إلى الصريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمئة فسألته عن القاهرة فقال:

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذي يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها. فأعجب السلطان والحاضرون لذلك.

ولما دخلتها أقممت أياماً وأثال علي طلبة العلم بها يلتسمون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذراً فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها.

ثم كان الاتصال بالسلطان فأبر اللقاء مقامي وآنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطاً بعودي إليه فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه لتخليه سيولهم، فخاطبه في ذلك بما نصه.

بسم الله الرحمن الرحيم.

عبد الله ووليه أخوه بروق [....]

السلطان الأعظم، المالك الملك الظاهر، السيد الأجل، العالم العادل، المؤيد المجاهد، الم رابط المشاغر، المظفر، الشاهنشاه، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، مولى الإحسان، مملك أصحاب

ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعيات، وابن عرفة يزيد في إغرائهم متى اجتمعوا إليه، إلى أن أغروا السلطان بسفري معه، ولقنوا النائب بتونس القائد فارح من موالى السلطان أن يتفادى من مقامي معه خشية على أمره مني بزعمه، وتواطأوا على أن يشهد ابن عرفة بذلك للسلطان شهد به في غيبة مني ونكر السلطان عليهم ذلك، ثم بعث إلي وأمرني بالسفر معه، فسارعت إلى الامتثال، وقد شق ذلك علي، إلا أنني لم أجِد محصاً عنه، فخرجت معه وانتهيت إلى تبسة، وسط تلؤل أفريقية، وكان منحدراً في عسكره وتوابعه من العرب إلى توزر لأن ابن يملول أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة واستنقذها من يد ابنه، فسار السلطان إليه، وشرده عنها، وأعاد إليها ابنه وأولياءه. ولما نهض من تبسة رجعتني إلى تونس فأقمت بضيعتي الرياحين من نواحيها لضم زروعي بها إلى أن قفل السلطان ظافراً منصوراً فصحبته إلى تونس.

ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمئة أجمع السلطان الحركة إلى الزاب بما كان صاحبه ابن مزني قد أوى ابن يملول إليه ومهد له في جواره، فخشيت أن يعود في شأني ما كان في السفارة قبلها، وكان بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنتها التجار بامتعتهم وعروضهم، وهي مقلعة إلى الإسكندرية فتطارحت على السلطان، وتوسلت إليه في تخليه سبيلي لقضاء فرضي، فأذن لي في ذلك، وخرجت إلى المرسى والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم. فودعتهم وركبت البحر منتصف شعبان من السنة، وقوضت عنهم بحث كانت الخيرة من الله سبحانه، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من أثار العلم، والله ولي الأمور سبحانه.

الرحلة إلى المشرق وولاية القضاء بمصر

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمئة أقمتنا في البحر نحواً من أربعين ليلة، ثم أفيينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون، وكنا على ترقب ذلك، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك، ونمهيده له. وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهية أسباب الحج ولم يقدر عامتد، فانتقلت إلى القاهرة أول ذي العقدة فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه،

له من غريب وصف ودار، قد أتى عنكم بكل غريب؛ وما برح - من حين ورد علينا - يبالغ في شكر الحضرة العلية، ومدح صفاتها الجميلة، إلى أن استمال خواطرنا الشريفة إلى حبها، وآثرنا المكاتبه إليها.

والعين تعشق قبل الأذن أحيانا

وذكر لنا في أثناء ذلك، أهله وأولاده، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العلية، وقصد إحضارهم إليه ليقبوا عنده، ويجتمع شمله بهم مدة إقامته عندنا، فاقنضت آراؤنا الشريفة، الكتابة إلى الحضرة العلية لذين السبين الجميلين، وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية بذلك، ليكون على خاطره الكريم، والقصد من محبته، يقدم أمره العالي بطلب أهل الشيخ ولي الدين المشار إليه، وإزاحة أعارهم، وإزالة عوائقهم، والوصية بهم، وتجهيزهم إليه مكرمين، محترمين، على أجمل الوجوه صعبة قاصده الشيخ الصالح، العارف السالك الأوحى، سعد الدين مسعود الكناسي، الواصل بهذه المكاتبه أعزه الله، ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية، مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم ورعايتهم، والتأكيد عليهم في هذا المعنى، وإذا وصل من بها من البحرية، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفسهم، ويرى على أمهم، بحيث يهتم بذلك على ما عهد من محبته، وجعل اعتماده، مع ما يتحف به من مراسلاته، ومقاصده ومكاتباته. والله تعالى يحرسه بملائكته وآياته، بمنه وبمنه إن شاء الله.

كتب خامس عشر صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمئة حسب المرسوم الشريف. الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية بمصر، من وقف صلاح الدين بن أيوب، فولاني تدريسها مكانه، وبيننا أنا في ذلك، إذ سخط السلطان قاضي المالكية في دولته، لبعض النزعات فعزله، وهو رابع أربعة بعدد المناهب، يدعى كل منهم قاضي القضاة، تميزا عن الحكام بالنيابة عنهم، لاتساع خطة هذا المعمور، وكثرة عوالمه، وما يرتفع من الخصومات في جوانبه، وكبير جماعتهم قاضي الشافعية، لعموم ولايته في الأعمال شرقاً وغرباً، وبالصعيد والفيوم، واستقلاله بالنظر في أموال اليتامى والوصايا، ولقد يقال بأن مباشرة السلطان قديماً بالولاية إنما كانت تكون له.

فلما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين وسبعمئة اختصني السلطان بهذه الولاية تأهيلاً لمكاني وتنويعاً بذكرى

التخوت والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأقطار، مييد الطغاة والبغاة والكفار، ملك البحرين، مسلك سبيل القبلتين، خدام الحرمين الشريفين، ظل الله في أرضه، القائم بسسته وفرضه، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين، أبو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس. خلد الله سلطانه، ونصر جيوشه وأعوانه - يخص الحضرة السنية السرية، المظفرة الميمونة، المنتورة المصونة، حضرة السلطان العالم، العادل المؤيد، المجاهد الأوحى، أبي العباس، ذخر الإسلام والمسلمين، عدة الدنيا والدين، قبضة الموحدين، ناصر الغزاة والمجاهدين، سيف جماعة الشاكركين، صلاح الدول. لا زالت مملكته بقوته عامرة، ومهابته لنفوس الجابرة قاهرة، ومعدلته تبوّه غرفات العز في الدنيا والآخرة. سلام صفا وردّه وضفا برده، ونشاء فاح نده، ولاح سعده، ووداد زاد وجده، وجاد جده.

أما بعد حمد الله الذي جعل القلوب أجناداً مجتدة، وأسباب الوداد على العباد مؤكدة، ووسائل المحبة بين الملوك في كل يوم مجتدة؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي نصره الله بالرعب مسيرة شهر وأيده وأعلى به منار الدين وشيده، وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤدده، صلاة دائمة مؤيدة.

فإننا نوضح لعلمه الكريم، أن الله - وله الحمد - جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف وأهله، ورفعته شأنه، ونشر إعلامه، ومحبة أهله وخدامه، وتيسير مقاصدهم، وتحقيق أمهم، والإحسان إليهم، والتقرب إلى الله بذلك في السر والعلانية، فإن العلماء رضي الله عنهم ورثة الأنبياء وقررة عين الأولياء، وهداة خلق الله في أرضه؛ لا سيما من رزقه الله الدراية فيما علمه من ذلك، وهداة للدخول إليه من أحسن المسالك، مثل من سطرنا هذه المكاتبه بسببه: المجلس السامي، الشيعي، لأجلبي، الكبير، العالمي، الفاضلي، الأثيلي، الأثري، الإسماعي، العلامي، القدوة، المقتدي، الفريدي، المحققي، الأصيلي، الأوحدي، الماجدي، الولوي، جمال الإسلام والمسلمين، جمال العلماء في العالمين، أوحى الفضلاء، قدوة البلقاء، علامة الأمة، إمام الأئمة، مفيد الطالبين، خالصة الملوك والسلاطين عبد الرحمن بن خلدون المالكي. أدام الله نعمته، فإنه أولى بالإكرام، وأحرى، وأحق بالرعاية وأجل قدراً، وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده، بل تحبباً إلينا، وتقرباً إلى خواطرنا، بالجواهر النفيسة، من ذاته الحسنة، وصفاته الجميلة، ووجدنا منه فوق ما في النفوس، مما يجبل عن الوصف ويرى على التعداد. يا

مشقة، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق، وعنانها مرسل، يتجاذب كل الخصوم منها رسناً، ويتناول من حافته شقاً، يروم به الفلج على خصمه، ويستظهر به لإرغامه، فيعطيه المفتي من ذلك ملء رضاء، وكفاء أمنيته متبعاً إياه في شعاب الخلاف، فتعارض الفتاوى وتتناقض، ويعظم الشغب إن وقعت بعد نفوذ الحكم، والخلاف في المذاهب كثير، والإنصاف متعذر وأهلية المفتي أو شهرة الفتيا ليس تميزها للعامي، فلا يكاد هذا المدى ينحسم ولا الشغب ينقطع.

فصدعت في ذلك بالحق وكبحت أنة أهل الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم. وكان فيهم ملثقتون سقطوا من المغرب يشعرون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، ولا يتمون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن قد اتخذوا الناس هزواً وعقدوا المجالس مثلية للأعراض ومأبئة للحر، فأرغمهم ذلك مني وملأهم حسداً، وحقداً علي، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المتحلين للعبادة، ليشروا بها الجاه، ليجيروا به على الله، وربما اضطرب أهل الحقوق إلى تحكيمهم، فيحكمون بما يلقي الشيطان على السستم، يترخصون به الإصلاح، لا يزعهم الدين عن التمرض لأحكام الله بالجهل، فقطعت الجبل، في أيديهم، وأمضيت حكم الله فيمن أجاروه، فلم يغنوا عن الله شيئاً وأصبحت زواياهم مهجورة، وبترهم التي يمتاحون منها معطلة، وانطلقوا يراطون السفهاء في النيل من عرضي، وسوء الأحداث عني بمخلتق الإفك وقول الزور، ويشونه في الناس ويدسون إلى السلطان التظلم مني، فلا يصغي إليهم، وأنا في ذلك محتسب عند الله، ما منيت به في هذا الأمر، ومعرض فيه عن الجاهلين، وماض على سبيل سوي من الصرامة وقوة الشكيمة، وتحري العدالة، وخلاص الحقوق، والتكذب عن خطة الباطل متى دعيت إليها، وصلاية العود عن الجاه والأغراض متى غمزني لامسها ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة فذكروه علي ودعوني إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر ومراعاة الأعيان، والقضاء للجاء بالصور الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرت، بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه.

وليت شمري! ما عندهم في الصور الظاهرة إذا علموا خلافها، والنبي ﷺ يقول في ذلك: «من قضيت له من حق أخيه شيئاً فلمّا أقضي له من النار».

فأبيت من ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها، والوفاء لها، ولن قلديها، فأصبح الجميع علي ألباً ولن ينادي بالتائف مني

وشافهته بالتفادي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه وخلع علي بإيوانه ويعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين، فتمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود ووفيت جهدي بما أمتي عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الله لومة، ولا يزغني عنه جاه ولا سطوة مؤبياً في ذلك بين الخصمين، أخذاً بحق الضعيف من الحكمين، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين جانحاً إلى الثبوت في سماع البيّنات، والنظر في عدالة المنتصين لتحمل الشهادات، فقد كان البر منهم غثظاً بالفاجر، والطيب ملتبساً بالخبث، والحكام مسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم، لما يمهون به من الاعتصام بأهل الشوكة فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمين للقرآن، وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون بهم الخير ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تركيتهم عند القضاء والتوسل لهم، فأعضل دأؤهم، وفشت المفاصد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم، ووقفت على بعضها فعاقت فيه مجموع العقاب، ومؤلم النكال وتأدى إلي العلم الجرح في طائفة منهم، فمننتهم من تحمل الشهادة، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة والتوقيع في مجالسهم، قد تدربوا على إملاء الدعاوي وتسجيل الحكومات، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود بإحكام كتابتها، وتوثيق شروطها، فصار لهم بذلك شغوف على أهل طبقتهم، وغموي على القضاة بجاههم يدرعون به ما يتوقعونه من عتيم، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم، وقد يسلط بعض منهم قلمه، على العقود المحكمة فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهي أو كتابي، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاء أو منحة، وخصوصاً في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر لكثرة عوالمه، فأصبحت خافية الشهرة مجهولة الأعيان، عرضة للبطلان، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد، فمن اختار فيها بيعاً أو تمليكاً، شارطوه وأجابوه مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا فيه سد الحظر والمنع حماية عن التلاعب، وفشا من ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغرر في العقود والأموال.

فاعلمت الله في حسم ذلك بما أسفهم علي وأحقدهم، ثم نفت إلى أهل الفتيا بالمذهب، وكان الحكام منهم على جانب من الخبرة لكثرة معارضتهم، وتلقيتهم الخصوم وفتياهم بعد نفوذ الحكم، وإذا فيهم أصاغر، فينبما هم يشبهون بأذيال الطلب والعدالة، ولا يكادون إذا بهم ظفروا إلى مراتب الفتيا والتدريس، فاقعدوها وتناولوها بالجفاف، وأجازوها من غير مثرب ولا متقد للأهلية، ولا مرشح، إذ الكثرة فيهم بالغة، ومن كثرة الساكن

فوافينا المحمل، ورافقتهم من هنالك إلى مكة ودخلتها ثاني ذي الحجة، فقضيت الفريضة في هذه السنة. ثم عدت إلى البينع فأقامت به خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور، فاعترضتنا الرياح فما وسعنا إلا قطع البحر إلى جانبه الغربي، ونزلنا بساحل القصير ثم بذرقنا مع أعراب تلك الناحية إلى مدينة قوص قاعدة الصعيد فأرحنا بها أياماً ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا، ودخلتها في جمادى سنة تسعين وسبع مائة. وقضيت حق السلطان في لقائه، وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء له، فتقبل ذلك (مني) بقبول حسن، وأقامت فيما عهدت من رعايته وظل إحسانه.

وكنتم لما نزلت بالبينع لقيت بها الفقيه الأديب المتفنن أبا القاسم بن محمد بن شيخ الجماعة، وفارس الأدباء، ومتفق سوق البلاغة، أبي إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف جده بالطوبخين وقد قدم حاجاً وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم كاتب سر السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة، الخطي لديه أبي عبد الله بن زمرك، خاشع في نظم ونثر يشوق ويذكر بعهد الصحة نصه:

سلوا البارق التجدي على عمل مجدي تبسم فاستبكي جفوني من الوجد
أجاد ربوعي باللوى، يورك اللوى وسع به صوب النعائم من بعدي
ويا زاجري الأطلان وهي ضوامر دعوها ترد هيماً عطاشاً على نجد
ولا تشقوا الأنفاس منها مع الصبا فإن زفير الشوق من مثلها يعدي
يراهما الهوى يري القداح وخطها حروفاً على صفح من القفر عمد
عجبت لها أني تجاذبي الهوى وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
لئن شاقها بين العنيب وبارق مياه بفي الظل للبان والرنند
فما شاقني إلا بدور خدورها وقد لحن يوم الغفر في قصب ملند
فكم في قباب الحي من شمس كلته وفي فلك الأزار من قمر سعد
وكم صارم قد سل من لحظ أحوار وكم ذابل قد هز من ناعم القند
خلوا الخلد من سكان رامة إنها ضعيفات كسر اللحظ فتك بالأسد
سهام جفون من قسي حواجب يصاب بها قلب البريء على عمد
وروض جمال ضاع عرف نسيمه وما ضاع غير السورد في صفحة الخد
ونرجس لحظ أرسل الدمع لؤلؤاً فرش بماء السورد روضاً من السورد
وكم غصن قد عائق الغصن مثله وكل على كل من الشوق ويستعدي
قييح وذاع قد جلا لعيوننا محاسن من روض الجمال بلا عد
رعى الله ليلى لو علمت طريقها فرشت لأخفاف المطي بها خدي
وما شاقني والطف يرهب أدمعي ويسبح في بحر من الليل مزبد
وقد سل خفاف الذؤابة ببارق كما سل لماع الصقال من الغمد
وهزت عملة يد الشوق في الدجى فحل الذي أبرمت للبر من عقدي

عونا، وفي التكبر علي أمة، وأسمعوا الشهود المتوعين أن قد قضيت فيهم بغير الحق، لاعتماد على علمي في الجرح، وهي قضية إجماع. وانطلقت الألسن، وارتفع الصخب وأرادني بعض على الحكم بغرضهم، فوقفت وأغروا بي الخصوم، فتنادوا بالنظم عند السلطان، فجمع القضاة وأهل الفتيا في مجلس جعل للنظر في ذلك، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز، وتبين أمرهم للسلطان، وأمضيت فيها حكم الله تعالى إرغاماً لهم، فعدوا على حرد قادرين، ودسوا الأولياء السلطان وعظماء الخاصة، يقبحون لهم إهمال جاههم ورد شفاعاتهم، موهين بأن الحامل على ذلك جهل المصطلح، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبوننا إلي، تبعث الخليم وتغري الرشيد، يستثيرون حفاظهم علي ويشربونهم البغضاء إلي، والله مجازيهم ومسانلهم.

فكثر الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فغظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه التصريح بمن استشرته خشية من تكبر السلطان ومسخطه، فوقفت بين السورد والصدر وعلى صراط الرجاء والياس، وعن قريب تداركني اللطف الرباني وشملتني نعمة السلطان - أيده الله - في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه المهدة التي لم أطق حملها، ولا عزفت - كما زعموا - مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقابها، فانطلقت حميد الأثر مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الشاء، تلحظني العيون بالرحمة وتناجي الآمال في بالعودة وترعت فيما كنت راتعا فيه قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته قانعا بالعافية التي سألها رسول الله ﷺ من ربه عاكفاً على تدريس علم أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف مؤملاً من الله قطع صباية العمر في العبادة، ومحو عوائق السعادة، بفضل الله ونعمته.

السفر لقضاء الحج

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين واعتزمت على قضاء الفريضة فودعت السلطان والأمراء وزودوا وأعانوا فوق الكفاية، وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبع مائة إلى مرسى الطور، بالجانب الشرقي من بحر السويس، وركبت البحر من هنالك عاشر الفطر ووصلنا إلى البينع لشهر

وألقى خفاق الجوانح نسمة
وهب عليل لف طي بروده
سوى صادف في الأيك لم يدر ما الهوى
فهل عند ليلى نغم الله ليلها
وليلة إذ وافى الحبيب إلى منى
فقضيت - منها فوق ما أحسب -
وليس سوى لحظ خفي غيله
غفرت لدهري بعدها كل ما جنى
عرفت بهذا الشيب فضل شيبتي
ومن نام في ليل الشباب ضلالة
أما والهوى ما حدث عن سنن الهدى
تجاوزت حد العاشقين الألى قضوا
نسيت وما أنسى وفائي خلتي
إليك أبا زيد شكاة رفعتها
بعيشك خبرني وما زلت مفضلاً
فكم ثار بي شوق إليك مبرج فظلت
وصفت حتى الريح في لسم الرسى
يقابلني منك الصباح بوجنة
وتوهمني الشمس المنيرة غرة
حياك أجلى في العيون من الضحى
وما أنت إلا الشمس في علو أفقها
وفي عمة من لا ترى الشمس عينه
من القوم صانوا المجد صون عيونهم
إذا ازدحم يوماً على المال أسيرة
ومهما أغاروا منجلدين صريحهم
ولم يقتنوا بعد البناء ذخيرة
وما اقتسم الأنفال إلا ممدح
أتسى ولا تنسى ليالينا التي
ركبنا إلى اللذات في طلق الصبا
فإن لم ندر فيها الكؤوس فإننا
أنتك في غرب وأنت رئيسه
فأنت حتى ما شكوت بغربة
وعدت لفطري شاكرًا ما بلوته
إلى أن أجزت البحر يا بحر نحونا
ألم من النعمى على حال فاقة
وإن ساءني أن قوضت رحلك النوى
لقد سرتني أن لحت في أفق العلا
طلعت بسائق الشرق نغم هداية
فجئت مع الأنوار فيه على وعد

تنم مع الإصباح خافقة البرد
أحاديث أهداها إلى الغور من نجد
ولكن دعا مني الشجون على وعد
بأن جفوني ما عمل من السهد
وقت لي المي منها بما شئت من قصد
ويرد عفاف صانه الله من برد
وشكوى كما ارفض الجمال من العقد
سوى ما جنى وفد المشيب على فودي
وما زال فضل الضد يعرف بالصد
سيوقه صبح المشيب إلى الرشد
ولا جرت في طرق الصباة عن قصد
وأصبحت في دين الهوى أمة وحدي
وأقر ربح القلب إلا من الوجد
وما أنت من عمرو ولدي ولا زيد
أعذك من شوق كمثل الذي عندي
يد الأشواق تقدح من زندي
وأشفق حتى الطفل في كبد المهد
حكي شفقاً فيه الحياء الذي تبدي
بوجهك صان الله وجهك عن رد
وذكرك أحلى في الشفاء من الشهد
نفيدك من قرب وتلحظ من بعد
وما نفع نور الشمس في الأعين الرمد
كما قد أباحوا المال ينهب لارفد
فما ازدحموا إلا مسرود المجد
يشبون نار الحرب في الغور والتجد
سوى الصارم المصقول والصارف النهذ
بلاها بأعراف المظهمة الجرد
خلصنا بهن العيش في جنة الخلد
مطايا الليالي وأدعين إلى حد
وردنا بها للأنس مستعذب السورد
وبالك للأعلام مجتمع الوغد
وواليت حتى لم أجد مفضل الفقد
من الخلق المحمود والحسب العد
وزرت مزار الغيث في عقب الجهد
وأشهى من الوصل الهني على صد
وعوضت عنها بالذميل وبالوخذ
على الطائر الميمون والطالع السعد
فجئت مع الأنوار فيه على وعد

يمناً بمن تسري المطي سواهما
إلى بيته كيما تزور معاهدا
لأنت الذي مهما دجا ليل مشكل
وحيث استقلت في ركاب لطية
وإني بباب الملك حيث عهدتني
أجهز بالإنشاء كل كتيبة
نلوز من السولى الإمام محمد
إذا فاض من يمينه بحر سمحة
ركبنا إلى الإحسان في سفن الرجا
فمن مبلغ الأمصار عني ألوكه
بآية ما أعطى الخليفة ربه
ودونك من روض المحامد نفحة
ثناء يقول المسك إن ضاع عرفه
وما الماء في جوف السحاب مروقاً
فكيف وقد حلتك أسرابها الحلوى
وما الطفل في ثغر من الدهر باسم
ولا البدر معصراً بتاج تمامه
بقيت ابن خلدون إمام هداية
ووصلها بقوله: سيدي علم الأعلام، كبير رؤساء الإسلام،
مشرف حملة السيوف والأقلام، جمال الخواص والظهور، أثير
الدول، خالصة الملوك، مجتبي الخلفاء، نير أفق العلاء أوحده
الفضلاء، قدوة العلماء، حجة البلغاء.

أبقاكم الله بقاء جميلاً، يعقد لواء الفخر، ويعلي منار
الفضل، ويرفع عماد المجد، ويوضح معالم السؤدد، ويرسل أشعة
السعادة، ويفيض أنوار الهداية، ويطلق ألسنه المحامد، وينشر أفق
المعارف، ويعذب مورد العناية، ويمتج بعمر النهاية ولا نهاية.

بأي التحيات أفتحك وقدرك أعلى، ومطلع فضلك أوضح
وأجلى، إن قلت تحية كسري فى السناء وتبع، فأنر لا يقتصر ولا
يتبع، تلك تحية عجماء لا تبين ولا تبين، وزمزمة نافرها للسان
العربي المبين، وهذه جهالة جهلاء، لا ينطبق على حروفها
الاستعلاء، قد محا رسومها الجفاء، وعلى آثار دمتها العفاء، وإن
كانت التحيتان طالما أوجف بهما الركاب وققع البريد، ولكن أين
يقعان مما أريد.

تحية الإسلام أصل في الفخر نسباً. وأوصل بالشرع سبباً،
فالأولى أن تحييكم بما حيا الله في كتابه رسله وأنبياءه، وحيث به
ملائكته في جواره أوليائه، فاقول:

السلام عليكم يرسل من رحمت الله غماماً ويفتح من

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط المشرقي لتسهيل قراءتها عليهم ففعلت ذلك، ورفعت النسخة والأصل للسلطان، وقرأها كاتب سره عليه ولم يرجع إلي منها شيء، ولم أستجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان، فضاعت من يدي.

وكان في الكتاب فصل عرفني فيه بشأن الوزير مسعود بن رحو المستبد بأمر المغرب لذلك العهد، وما جاء به من الانتقاص عليهم، والكفران لصنيعهم، يقول فيه:

كان مسعود بن رحو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً
يتبتك النعيم ويقود الدنيا ويتخير العيش والجاه، قد أجزى صحة
ولد أبي عنان كما تعرفتم من نسخة كتب أنشائه بجبل الفتح لأهل
الحضرة، فاستولى على المملكة، وحصل على الدنيا، وانفرد برياسة
دار المغرب لضعف السلطان رحمه الله. ولم يكن إلا أن كشرت
الحقوق، وحفظت نخلته السحوق، وشف على سواد جلده سواد
العقوق، ودخل من بسطة، فانتفضت طاعة أهلها، وظنوا أن
القصبة لا تثبت لهم، وكان قائداه الشيخ البهمة فل الحصار وحلي
القتال، ومحش الحرب أبو زكريا بن شبيب، فثبت للصدمة ونور
للأندلس، فبادره المدد من الجبل ومن مالقة، وتوالت الأمداد
وخاف أهل البلد، ورجع شرفاؤه ودخلوا القصبة. واستغاث أهل
البلد بمن جاورهم، وجاءهم المدد أيضاً، ثم دخل الصالحون في
رغبة هذا المقام، ورفع القتال، وفي أثناء ذلك غدروا ثانية،
فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العباس لتبادر القصبة
به ويتوجه منها إلى المغرب لرغبة (بني) مرين وغيرهم فيه، وهو
ولد السلطان المرحوم أبي سالم الذي قلدكم رياسته داره، وأوجب
لكم المزية على أوليائه وأنصاره. انتهى.

وبعده فصل آخر يطلب فيه كتباً من مصر يقول فيه:

والمرغوب من سيدي أن يعث لي ما أمكن من كلام فضلاء
الوقت وأشياخهم على الفاتحة، إذ لا يمكن بعث تفسير كامل لأنني
أثبت في تفسيرها ما أرجو النفع به عند الله، وقد أعلمتكم أن
عندي التفسير الذي أوصله إلى المغرب عثمان التجاني من تأليف
الطبي والسفر الأول من تفسير أبي حيان، وملخص إعرابه
وكتاب المغني لابن هشام، وسمعت عن بداية تفسير للإمام بهاء
الدين ابن عقيل ووصلت إلي بداية من كلام أكمل الدين الأثيري
رضي الله عن جميعهم، ولكنني لم أصل إلا للبسطة، وذكر أبو
حيان في صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب أو أبا سليمان لا
أدري الآن صنف كتاباً في البيان في سرفين جعله مقدمة لكتاب
تفسيره الكبير. فإن أمكن سيدي توجيهه لا بأس انتهى.

الطروس عن أزهار المحامد كما ما، ويستصحب من البركات ما
يكون على الذي أحسن من ذلك تماماً، وأجدد السؤال عن الحال
الحالية بالعلم والدين المستمدة من أنوارها سرج المهتدين. زادها
الله صلاحاً وعرفها نجاحاً يتبع فلاحاً، وأقر ما عندي من تعظيم
ارتقي كل أونة شرفه، واعتقاد جميل يرفع عن وجه البدر كلفه،
وثناء، أنشر بيد الترك صفحه، وعلى ذلك أيها السيد المالك، فقد
تشعبت علي في مخاطبتك المسالك، إن أخذت في تقرير فخرك
العميم، وحسبك الصميم، فو الله ما أدري بأي ثنية للفخر ترفع
العلم، وفي أي بحر من ثنائك يسبح القلم، الأمر جليل، والشمس
تكبر عن حلي وعن حلل، وإن أخذت في شكاة الفراق،
والاستعداد على الأشواق اتسع المجال، وحصرت الروية
والارتجال، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها رياح الأشواق
وأسله اليراع، تخضب مفارق الطروس بنجيع الخبر المراق، وغيرك
من تركض في غناطيه جياذ اليراع، في مجال الرقاع، مستولية على
أمد الإبداع والاختراع، فإتما هو بث يكي، وفراق يشكي، فيعلم
الله حرصه عن أن أشافه من أنباتك تغور البروق البواسم، وأن
أحملك الرسائل حتى مع سفراء النواسم، وأن أجتلي غرر ذلك
الجين في عيا الشارق، ولمح البارق.

ولقد وجهت إليك جملة من الكتب والقصائد، ولا
كالقصيدة الفريدة في تأين الجواهر اللائي استأثر بهن البحر، قدس
الله أرواحهم، وأعظم أجرك فيهم، فإنها أنافت على مائة وخمسين
بيتاً، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع، وغدر وصوله
بعد المسافة، والذي يطرق لي سوء الظن بذلك ما صدر في مقابلته
منكم. فإني على علم من كرم قصدكم وحسن عهذكم.

ومن حين استقل نيركم بذلك الأفق الشرقي لم يصلني
منكم كتاب، مع علمي بضياح اثنين منهما بهذا الأفق الغربي
انتهى.

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك
الظاهر صاحب مصر، ويطلب مني رفعها إلى السلطان، وعرضها
عليه بحسب الإمكان، وهي على روي الهمزة ومطلعا:
امدامع منهلة أم لؤلؤ لما استهل العارض التلاشي
وبعثها في طي الكتاب، واعتذر بأنه استتاب في نسخها،
فكتبت همزة رويها ألفاً، قال: وحققا أن تكتب بالواو لأنها تبدل
بالواو وتسهل بين الهمزة والواو، وحرف الإطلاق أيضا يسوقها،
واو، هذا مقتضى الصناعة، وإن قال بعض الشيوخ: كتب ألفاً
على كل حال على لغة من لا يسهل لكنه ليس بشيء.

وأمله. وأنتم أيضاً من أهل العلم والجلالة، والفضل والأصالة، وقد بلغتكم بهذه البلاد الغاية من التنويه، والحظ الشريف النبيه، لكن أراد الله سبحانه أن يكون لحاسنكم في تلك البلاد العظيمة ظهور، وتحدث بعد الأمور أمور، ويكل اعتبار، فالزمان بكم - حيث كنتم - مباء، والحامد مجموعة لكم جمع تناء. ولما وقف على مكتوبكم إلي مولانا السلطان أبو عبد الله، أطال الله الشاء على مقاصدكم، وتحقق صحيح ودادكم، وجميل اعتقادكم، وعمر مجلسه يومئذ بالشاء عليكم، والشكر لما لديكم.

ثم ختم الكتاب بالسلام من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن مؤرخاً بصفر سنة تسعين وسبعائة

وفي طيه مدرجة بخطه وقد قصر فيها عن الإجابة نصها:
سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وأظفر بمناسك بذوائب مناكم

اعتذر لكم عن الكتاب المدرج هذا طيه بغير خطي فإني في ذلك الوقت مجال مرض في عيني، ولكم العافية الراقية، فيسعي سمحكم وربما كان لديكم شوقاً لما نزل في هذه المدة بالمغرب من المرح أحاطه الله، وأمن جميع بلاد المسلمين.

والموجب أن الحصة الموجهة في خدمة أميرهم الواصل ظهر له ولوزيريه ومن ساعده على رايه إمساكها رهينة، وجعله في القيود إلى أن يقع الخروج لهم على مدينة سبتة، وكان القائد على هذه الحصة العلاج المسمى مهند، وصاحبه الفتى المدعو نصر الله وكثر التردد في القضية إلى أن أبرز القدر توجيه السلطان أبي العباس - تولاها الله - صعبة فرج بن رضوان بمحنة ثانية، وكان ما كان حسبما تلقيت من الركبان، هذا ما وسع الوقت من الكلام ثم دعا وختم.

ولما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا التعريف؛ الكتاب لأن فيها تحقيقاً لهذه الواقعات، وهي مذكورة في أماكنها من الكتاب فرمما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هذا الموضوع.

وبعد قضاء الغريضة رجعت إلى القاهرة محفوفاً بستر الله ولطفه، ولقيت السلطان، فتلقتني - أيده الله - بمعهود مبرته وعنايته وكانت فتنة الناصري بعدها سنة إحدى وتسعين وسبعائة ولحقت السلطان النكبة التي حصرها الله فيها وأقاله، وجعل إلى الخير فيها عاقبته ومآله، ثم أعاده إلى كرسيه للنظر في مصالح عباده، فطوَّق القلادة التي البسه كما كانت، فأعاد لي ما كان أجراه من نكسته، ولزمت كسر البيت متمتعاً بالعافية لا بساً برد العزلة، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه لهذا العهد فاتح سبع

وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعددة لا حاجة إلى ذكرها هنا. ثم ختم الكتاب بالسلام، وكتب اسمه: محمد بن يوسف بن زمرك الصريحي، وتاريخه العشرون من محرم سنة تسع وثمانين وسبعائة.

وكتب إلي قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن النبي:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله يا سيدي وواحدني ودأً وجباً، ولحي الروح بعداً وقرباً أبقاكم الله وثوب سيادتكم سابغ، وقمر سعادتكم - كلما أفلت الأعمار - بازغ، أسلم بآتم السلام عليكم، وأقرر بعض ما لدي من الأشواق إليكم، من حضرة غرناطة - مهدها الله - عن ذلك لكم يتضوع طيه وشكر لا يزوي - وإن طال الزمان - رطيه قد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلدتم أمرها، وتجملتم مرها، فتمثلت بما قاله شيخنا أبو الحسن بن الجباب عند انفصال صاحبه الشريف أبي القاسم، عن خطة القضاء.

لا مرحباً بالناشئ الفارك إذ جهلت رفعة مقدارك لو أنها قد أوتيت رشدها ما برحت تشر إلى نارك

ثم تعرفت كيفية انفصالكم وأنه كان عن رغبة من السلطان المؤيد هنا لكم فرددت - وقد توهمت مشاهدتكم - هذه الأبيات: لك الله يا بدر السماحة والبشر لقد حزت في الأحكام منزلة الفخر ولكنك استعفيت عنها تورعا وتلك سبل الصالحين كما تلدي جريت على نهج السلامة في الذي تخبرته أبشر بأنك في الحشر وحقق بأن العلم ولاك خطبة من العز لا تنفك عنها مدى العمر تريد على مر الجديدين جادة وتري النجوم الزاهرات ولا تسري ومن لاحظ الأحوال وأزن بينهما ولم ير للدينا الدنية من خطر وأمسى لأنواع الولايات نابذاً فغير تكسر أن تواجه بالترك فهينيك يهنيك الذي أنت أهله من الزهد فيها والتوقي من الوزر ولا تكثرث من حاسديك فإنهم حصى والحصى لا يرتقي مرتقى البلر ومن عامل الأنسواء بالله غلصاً له منهم نال الجزيل من الأجر بقيت لربيع الفضل تحمي ذماره وخار لك الرحمن في كل ما يجري

إيه سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، أطينتم في كتابكم في الشاء على السلطان الذي أنعم بالإبقاء، والمساعدة على الانفصال عن خطة القضاء، واستوهمتم الدعاء له عن هنا الأولياء والله دركم في التنبيه على الإرشاد إلى ذلكم، فالدعاء له من الواجب فيه استقامة الأمور وصلاح الخاصة والجمهور، وعند ذلك ارتفعت أصوات العلم والصلحاء بهذا القطر له ولكم بجميل الدعاء. أجاب الله فيكم أحسنه وإجله، وبلغ كل واحد منكم ما قصده

وجاهلها، والحجة البالغة لله على كمالها، الذي رقاها في أطوار الاصطفاء، وآدم بين الطين والماء، فجاء خاتم أنبيائها وأرسالها، ونسخ الملل بشريعته البيضاء فتميز حرامها من حلالها، ورضي لنا الإسلام ديناً، فآتم علينا النعمة بأكملها.

والرضى عن آله وأصحابه غيرت رحمته المنسجمة وطلأها، وليوث ملاحمه المشتهرة وأبطلها. وخير أمة أخرجت للناس، في توسطها واعتدالها، وظهور الهداية والاستقامة في أحوالها، صلى الله عليه وعليهم صلاة تتصل الخيرات باتصالها، وتنال البركات من خلالها.

أما بعد فإن الله سبحانه لما أقر هذه الملة الإسلامية في نصابها، وشفاها من أدوائها وأوصابها، وأورث الأرض عباده الصالحين من أيدي غصابها، بعد أن باهلت فارس بتاجها، وعصابها، وخلت الروم إلى تمائليها وأنصابها وجعل لها من العلماء حفظة وقواماً، ونجوماً يهتدي بها التابع وأعلاماً، يقربونها للدراية تبياناً وإفهاماً، ويوسعونها بالتدوين ترتيباً وإحكاماً، وتهذيباً لأصولها وفروعها ونظاماً. ثم اختار لها الملوك يرفعون عمدتها، ويقيمون صفاها بإقامة السياسة وأودها، ويدفعون بعزائمهم الماضية في صدر من أرادها بكياد أو قصدتها، فكان لها بالعلماء الظهور والانتشار، والذكر السيار، والبركات المخدلة والآثار، ولها بالملوك العز والفخار، والصولة التي يلين لها الجبار، ويذل لعزة المؤمنين بها الكفار، وتجلل وجوه الشرك معها الصغار، ولم تزل الأجيال تتداول على ذلك الأعصار، والدول تحتفل والأمصار، والليل يختلف والنهار، حتى أغلقت الإسلام دول هذه العصابة المنصورة من الترك، الماحين بأنوار أستهم ظلم الضلالة والشك، القاطعين بنصالحهم المرهفة علائق المين والإفك، المصبيين بسهامهم النافذة ثغر الجهالة والشرك، المظهرين سر قوله: «لا تزال طائفة من أمتي» فيما يتناولونه من الأخذ والترك، ففسحوا خطة الإسلام، وقاموا بالدعوة الخلاقية أحسن القيام، وبثوها في أقصى النجوم من الحجاز والشام، واعتمدوا في خدمة الحرمين الشريفين ما فضلوا به ملوك الأنام. واقتعدوا كرسي مصر الذي ألقت له الأقاليم يد الاستسلام، على قدم الأيام، فزخر بها منذ دولتهم بحر العمران، وتجاوبت فيها المدارس بترجيح المثاني والقرآن وعمرت المساجد بالصلوات والأذان، تكاثرت عدد الحصى والشهبان. وقامت المآذن على قدم الاستغفار والسبحان معلنة بشعار الإيمان، وازدان جوها بالقصر فالقصر والإيران فالإيران. ونظم دستها بالعزير، والظاهر، والأمير، والسلطان. فما شئت من ملك يخفق العز في إعلامه، وتتوقد في ليل المراكب نيران الكواكب من أستهم وسهامه،

وتسعين والله يعرفنا عوارف لطفه، ويمد علينا ظل ستره، ويختم لنا بصالح الأعمال، وهذا آخر ما انتهت إليه، وقد نجح الغرض مما أردت إيراده في هذا الكتاب، والله الموفق بروحمته للصواب، والهادي إلى حسن المآب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله والأصحاب والحمد لله رب العالمين.

ولاية الدروس والخوائق

أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون - على القدم منذ عهد مواليتهم ملوك بني أيوب - بإنشاء المدارس لتدريس العلم، والخوائق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية السنية في مطارحة الأذكار، ونوافل الصلوات. أخذوا ذلك عمن قبلهم من الدول الخلاقية، فيختطون مبانيها ويقفون الأراضي المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم، ومتدربي الفقراء. وإن استفضل الربيع شيئاً عن ذلك، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذرية الضعاف من العيلة. واقتدى بستهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة، فكثرت لذلك المدارس والخوائق بمدينة القاهرة، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية، وآثارها الجميلة الخالدة.

وكنيت لأول قدومي على القاهرة، وحصولي في كفالة السلطان، شغرت مدرسة بمصر من إنشاء صلاح الدين بن أيوب، وقفها على المالكية يتدارسون بها الفقه، ووقف عليها أراض من الفيوم تغل القمح، فسميت لذلك القمحية، كما وقف أخرى على الشافعية هنالك، وتوفي مدرستها حينئذ، فولاني السلطان تدرسيها، وأعقبه بولاية قضاء المالكية سنة ست وثمانين وسبعمائة، كما ذكرت ذلك من قبل، وحضرني يوم جلوسي للتدريس فيها جماعة من أكابر الأمراء تنوياً بذكري، وعناية من السلطان ومنهم بجاني، وخطبت يوم جلوسي في ذلك الحفل بخطبة ألمت فيها بذكر القوم بما يناسبهم، ويوفي حقهم، ووصفت المقام، وكان نصها:

الحمد لله الذي بدأ بالنعم قبل سؤلها، ووفق من هداه للشكر على منالها، وجعل جزاء المحسنين في محبته، ففازوا بعظيم نوالها. وعلم الإنسان الأسماء والليسان، وما لم يعلم من أمثالها، وميزه بالعقل الذي فضله على أصناف الموجودات وأجبالها، وهداه لقبول أمانة التكليف، وحمل أثقالها. وخلق الجن والإنس للعبادة، ففاز منهم بالسعادة من جد في امتثالها، ويسر كلاً لما خلق له، من هداية نفسه أو إضلالها، وفرغ ربك من خلقها وخلقها وأرزاقها وأجبالها. والصلاة على سيدنا ومولانا محمد نكتة الأكوان

رجس الكفر بعد أن كانت التواقيس والصلبان فيه بمكان العقود من الأجياد. وصاحب الأعمال المتقبلة يسعى نورها بين يديه في يوم التناد، فأقامني السلطان -أيده الله- لتدريس العلم بهذا المكان، لا تقدماً على الأعيان، ولا رغبة عن الفضلاء من أهل الشأن، وإني موقن بالقصور، بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في هذا القضاء، وأنا أرغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتسعة القضاء، أن يلمحوا بعين الارتضاء، ويتعمدوا بالصفح والإغضاء، والبضاعة بينهم مزجاة، والاعتراف من اللوم -إن شاء الله- منجاء، والحسن من الإخوان مرغاة. والله تعالى يرفع مولانا السلطان في مدارج القبول أعماله، ويبلغه في الدارين آماله، ويجعل للحسن والمقر الأسنى، منقلبه ومآله، ويديم على السادة الأمراء نعمته، ويحفظ على المسلمين بانتظام الشمل دولتهم ودولته، ويمد قضاء المسلمين وحكامهم بالعون والتسديد، ويمتدنا بانفساح آجالهم إلى الأمد البعيد، ويشمل الحاضرين، برضوانه في هذا اليوم السعيد، بمنه وكرمه.

وانقض ذلك المجلس، وقد شيعتي العيون بالتجلة والوقار، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب، وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ نزعاً من النزعات الملوكية، فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه، وبين أمرائه، ففاديت من ذلك وأبى إلا إمضاه. وخلع علي، وبعث معي من أجلسني بمقعد الحكم في المدرسة الصالحية في رجب ست وثمانين وسبعمائة، فقامت في ذلك المقام المحمود، ووفيت عهد الله في إقامة رسوم الحق وتحري المبدلة حتى سخطني من لم ترضه أحكام الله، ووقع من شغب أهل الباطل والمراء ما تقدم ذكره.

وكننت عند وصولي إلى مصر بعثت عن ولدي من تونس، فمنعهم سلطان تونس من اللحاق بي اغتباطاً بمكاني، فرغبت من السلطان أن يشفع عنده في شأنهم، فأجاب، وكعب رسالة بالشفاعة فركبوا البحر من تونس في السفين، فما هو إلا أن وصلوا مرسى الإسكندرية، فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه، وما فيه، وذهب الموجود المولود، فغظم الأسف، واختلط الفكر، وأعفاني السلطان من هذه الوظيفة وأراحني، وفرغت لشأني من الاشتغال بالعلم تدريساً وتأليفاً.

ثم فرغ السلطان من اختطاط مدرسته بين القصرين، وجعل فيها مدافن أهله، وعين لي فيها تدريس المالكية، فأنشأت خطبة أقوم بها في يوم مفتاح التدريس على عادتهم في ذلك ونصها:

الحمد لله الذي من على عباده، بنعمته خلقه وإيجاده، وصرفهم في أطوار استعباده بين قدره ومراده، وعرفهم أسرار

ومن أسرة للعلماء تتناول العلم بوعد الصادق ولو تعلق بأعنان السماء، وتتر سرجه في جوانب الشبه الملهمة للعلماء، ومن قضاء يباهون بالعلم والسؤدد عند الاتمءاء، ويشتملون الفضائل والمناقب اشتمال الصماء، ويفصلون الخصومات برأي يفرق بين اللبن والماء.

ولا كدولة السلطان الظاهر، والعزیز القاهرة، يعسوب العصاب والجماهر، ومطلع أنواع العز الباهر، ومصروف الكتاب تزري بالبحر الزاخر، وتقوم بالحجة للقي على الأهلة في الفاخر، سيف الله المنتضى على العدو الكافر، ورحمته المتكفلة للعباد باللفظ الساتر، رب التيجان والأسرة والمنابر، والأواوين العالية والقصور الأزاهر، والملك المؤيد بالبيض البواتر، والرياح الشواجر، والأفلام المرتضعة أخلاف العز في مهود الحاجر، والفيض الرباني الذي فاق قدرة القادر، وسبقت به العناية للأواخر. سيد الملوك والسلاطين، كافل أمير المؤمنين، أبو سعيد أمد الله بالصبر المصاحب، والسعد المؤازر، وعرفه آثار عنايته في الموارد والمصادر، وأراه حسن العاقبة في الأولى وسرور المقلب في الآخر، فإنه لما تناول الأمر بعزائمه وعزمه، وآوى الملك إلى كنفه العزيز وحزمه، أصاب شاكلة الرأي عندما سدد من سهمه، وأوقع الرعايا في ظل من أمنه، وعدل من حكمه، وقسم البأس والجلود بين حربه وسلمه، ثم أقام دولته بالأمراء الذين اختارهم باختيار الله لأركانها، وشد بهم أزره في رفع القواعد من بنيانها، من بين مصرف لعنائها، متقدم القدم على أعيانها، في بساط إيوانها، ورب مشورة تضيء جوانب الملك بلمعانها، ولا يذهب الصواب عن مكانها، ومنفذ أحكام يشرق الحق في بيانها، ويضوع العدل من أردانها ونحيي خلوه في الهمم الأعظم من شأنها، وصاحب فلم يفضي بالأسرار إلى الأسل الجرار، فيشفي الغليل بإعلانها. حفظ الله جميعهم وشمل بالسعادة والخيرات المبدأة المعادة تابعمهم ومتبوعهم.

ولما سبحت في اللج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب إلى أفق المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحه المشرق، وشجرة الملك التي اعتر بها الإسلام تهتز في دوحه المروق، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فرائه المغدق، أولوني عناية وتشريفاً، وغمروني إحساناً ومعروفاً، وأوسعوا بهمي إيضاحاً، ونكرتي تعريفاً، ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف، من حسنات السلطان صلاح الدين أيوب ملك الجلال والجهاد، وماحي آثار التثليل والرفض الخبيث من البلاد، ومظهر القدس الشريف من

أما بعد فإن الخلق عيال الله يكتفهم بلطفه ورحمته، ويكفلهم بفضله ونعمته، ويسرهم لأسباب السعادة بآداب دينه وشرعته، ويحملهم في العناية بأمورهم، والرعاية لجمهورهم، على مناهج سته ولطائف حكمته. ولذلك اختار لهم الملوك الذين جبلهم على العدل وفطرتهم، وهداهم إلى التمسك بكلمته. ثم فضلهم بما خولهم من سعة الرزق وبسطته واشتقاق التمكنين في الأرض من قدرته، فتسابقوا بالخيرات إلى جزائه ومثوبته، وذهبوا بالدرجات العلى في وفرر الأجر ومزيتة.

وإن مولانا السلطان الملك الظاهر، العزيز القاهر، العادل الطاهر، القائم بأمور الإسلام عندما أعيأ حملها الأكساد، وقطب دائرة الملك الذي أطلع الله من حاشيته الأبدال وأنبث الأوتاد، ومتفق أسواق العز بما بذل فيها من جميل نظره المدخور والعتاد، رحمة الله الكافلة للخلق، ويدها المسوطة بالآجل والرزق، وظله الواقى للعباد بما اكتشفهم من العدل والحق، قاصم الجبابرة، والمعفي على آثار الأعظم من القياصرة، وذوي التيجان من التباينة والأكاسرة، أولي الأقيال والأساورة، وحائز قصب السبق في الملوك عند المناضلة والمفاخرة، ومفوض الأمور بإخلاصه إلى ولي الدنيا والآخرة، مؤيد كلمة الموحدين، ورافع دعائم الدين، وظهير خلافة المؤمنين، سلطان المسلمين أبو سعيد. صدق الله فيما يقتضي من الله ظنونه، وجعل النصر ظهيره، كما جعل السعد قرينه، والعز خدينه، وكان وليه على القيام بأمور المسلمين ومعينه، وبلغ الأمة في اتصال أيامه، ودوام سلطانه، ما يرجونه من الله ويؤملونه. لما قلده الله هذا الأمر الذي استوى له على كرسي الملك، وانتظمت عقود الدول في لبات الأيام، وكانت دولته واسطة السلك، وجمع له الدين بولاية الحرمين، والدنيا بسلطان الترك. وأجرى له أنهار مصر من الماء والمال، فكان مجازة فيها بالعدل في الأخذ والترك. وجمع عليه قلوب العباد. فشهد سرها بحمده الله له، شهادة خالصة من الرب، بريئة من الشك. حتى استولى من العز والملك على المقام الذي رضي وحده. ثم تانت نفسه إلى ما عند الله، فصرف قصده إليه واعتمده، وسارع إلى فعل الخيرات بنفس مطمئنة، لا يسأل عليها أجراً ولا يكدرها بالمتة، وأحسن رعاية الدين والملوك تشهد بها الإنسان والجنة، لا، بل النسم والأجنة. ثم أوى الخلق إلى عدله تصديقاً بأن الله يؤوه يوم القيامة إلى ظلاله المستجنة، ونافس في اتخاذ المدارس والربط لتعليم الكتاب والسنة، وبناء المساجد المقدسة يبنى له بها الله البيوت في الجنة، والله لا يضيع عمل عامل فيما أظهره أو أكنه.

وإن ما أنتجت قرائح همته وعنايته، وأطلعت آفاق عدله

توحيد، في مظاهر وجوده، وآثار لطفه في وقائع عبادته، وعرضهم على أمانة التكليف ليلوهم بصادق وعده وإيعاده، ويسر كلأ لما خلق له، من هدايته أو إضلاله، وغيه أو رشاده، واستخلف الإنسان في الأرض بعد أن هداه النجلين لصلاحه أو فساد، وعلمه ما لم يكن يعلم، من مدارك سمعه وبصره والبيان عما في فؤاده، وجعل منهم أنبياء وملوكاً يجاهدون في الله حق جهاده، ويتأبرون على مرضاته في اعتماد العدل واعتماده، ورفع البيوت المقدسة بسبحات الذكر وأوراده.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد البشر من نسل آدم وأولاده، لا. بل سيد الثقلين في العالم من إنسه وجنه وأرواحه وأجساده، لا. بل سيد ملائكة والنبيين، الذي ختم الله، كماهم بكماله وآمادهم بآماده، الذي شرف به الأكوان فأضاءت أرجاء العالم لنور ولاده، وفصل له الذكر الحكيم تفصيلاً، كذلك لبثت من فؤاده وألقى على قلبه الروح الأمين بتنزيل رب العالمين، ليكون من المنذرين لعباده، فدعا إلى الله على بصيرة بصادق جداله وجلاده وأنزل عليه النصر العزيز، وكسنت ملائكة السماء من إمداده، حتى ظهر نور الله على رُغم من رُغم إبطائه وإخماده، وكمل الدين الخفيف فلا تخشى والحمد لله غائلة انقطاعه ولا نفاذه، ثم أعد له من الكرامات ما أعد في معاده، وفضله بالمقام المحمود في عرصات القيامة بين أشهاد، وجعل له الشفاعة فيمن انتظم في أمته، واعتصم بمقاده.

والرضى عن آله وأصحابه، غيوث رحمته، وليوث إيجاده، من ذوي رحمه الطاهرة وأهل وداده المستزودين بالتقوى من خير أزواده، والمرامعين بسيوفهم من جاهر بمكابرة الحق وعناده، وأراد في الدين بظلمه وإلخاده، حتى استقام الميسم في دين الله وبلاده، وانتظمت دعوة الإسلام أقطار العالم، وشعوب الأناس، من عربيه وعجمه وفارسه ورومه وتركه وأكراده. صلى الله عليه وعليهم صلاة تؤذن بانصال الخير واعتياده، وتؤهل لاقتناء الثواب وزياده، وسلم كثيراً، وعن الأئمة الأربعة، علماء السنة المتبعة، والفئة المحتجة المصطنعة، وعن إمامنا من بينهم الذي حل الشريعة وبينها، وحرر مقاصدها الشريفة وعينها، وتعرض في الآفاق منها والمطالع، بين شهبها اللوامع، فزينها. نكتة الهداية إذا حقق مناطها، وشرط التحصيل والدراية إذا روعيت أشراطها، وقصد الركاب إذا ضربت في طلب العلم أباطها، عالم المدينة وإمام هذه الأمة الآمين، ومقبس أنوار النبوة من مشكاتها المينة، الإمام مالك بن أنس. أخفه الله برضوانه، وعرفنا بركة الاقتداء بهديه وعرفاته، وعن سلف المؤمنين والمهتدين، وتابعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وهديته، ووضحت شواهده على بعد مداه في الفخر وغايته، ونجح مقاصده في الدين وسعائته، هذا المصنع الشريف، والهيكل المهمم البشرية تربيته ووصفه، لا! بل الكلم السحرية تمثيله ووصفه وشمخ بمطاوله السحب ومناولة الشهب مارنه العزيز وأنفه، وازدهى بلبوس السعادة والقبول من الله عطفه، إن فاخر بلاط الوليد، كان له الفخار، أو باهى القصر والإيوان، شهد له المحراب والمنار، أو ناظر صنعاء وغمدان، قامت بمجته الآثار. إنما هو بهو ملؤه دين وإسلام، وقصر عليه تحية وسلام، وقضاء رباني ينشأ في جوه للرحمة والسكينة ظلة وغمام، وكوكب شرق يضاحك وجه الشمس منه ثغر بسام، دفع إلى تشييد أركانه، ورفع القواعد من بنيانه، سيف دولته الذي استله من قراب ملكه وانتضاه، وسهمه الذي عجم عيدان كنانته فارتضاه، وحسام أمره الذي صقل فرنده بالعمز والعزم وأمضاه، فارتضاه وحسام أمره الذي طالب غريم الأيام، بالأمل العزيز المرام، فاستوفى دينه واقتضاه، الأمير الأعز الأعلى جهر كس الخليلي أمير الماخورية باصطبله المنيع. حرسه الله من خطوب الأيام، وقسم له من عناية السلطان أوفر الحظوظ والسهام، فقام بالخطو الواسع، لأمره الطاع، وأغرى بها أيدي الإلتقان والإبداع. واختصها من أصناف الفعلة بالماهر الصناع، يتناظرون في إجادة الأشكال منها والأوضاع، ويتناولون الأعمال بالهندام إذا توارت عن قدرتهم بالامتناع، فكان العبقري، - يفري الفري، أو العفاري، قدمت من أساريت. وكأنما حشرت الجن والشياطين، أو نشرت الفهارسة من الحكماء الأول والأساطين، جابوا لها الصخر بالأذواد، لا بالواد، واستزلوا صم الأطواد على مطايا الأعواد، ورفعوا سمكها إلى أقصى الأماد، على بعيد المهوى من العماد. وغشوها من الوشي الأزهر، المضاعف الصدف والمرمر، ومائع اللجين الأبيض والذهب الأحمر، بكل مسهم الحواشي حالي الأبراد، وقدروه مساجد للصلوات والأذكار، ومساعد للسبحات، بالعنسي والإبكار، ومجالس للتلاوة والاستغفار، في الأصال والأسحار، وزوايا للتخلي عن ملاحظة الأسماع والأبصار، والتعرض للفتوح الربانية والأنوار، ومدارس لقدح زناد الأفكار، ونتاج المعارف الأبكار، وصوغ اللجين والنضار، في محك القرائح والأبصار. تنفجر ينباع الحكمة في رياضه وبستانه، وتفتح أبواب الجنة من غرفه وإيوانه، وتقترغ غر السوابق من العلوم والحقائق، في طلق ميدانه، ويصعد الكلم الطيب والعمل الصالح إلى الله من نواحي أركانه، وتوفر الأجور لغاشيته محتسبة عند الله في ديوانه، راجحة في ميزانه.

ثم اختار لها من أئمة المذاهب الأربعة أعياناً، ومن شيوخ

ثم تعاون العدة عند أمير الماخورية، القائم للسلطان بأمر مدرسته، وأغروه بصدي عنها، وقطع أسابي من ولايتها، ولم يمكن السلطان إلا إسعافه فأعرضت عن ذلك، وشغلت بما أنا عليه من التدريس والتأليف.

ثم خرجت عام تسعة وثمانين وسبعمائة للحج، واقتضيت إذن السلطان في ذلك فأسعف، وزود هو وأمرأه بما أوسع الحال وأرغده، وركبت بحر السويس من الطور إلى ينبع، ثم صعدت مع الحمل إلى مكة، فقضيت الفرض عامئذ وعدت في البحر، فنزلت بساحل القصير، ثم سافرت منه إلى مدينة قوص في آخر الصعيد، وركبت منها بحر النيل إلى مصر، ولقيت السلطان، وأخبرته بدعائي له في أماكن الإجابة، وأعادني إلى ما عهدت من كرامته، وتفيؤ ظله.

ثم شغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتمش فولاني بإها بدلاً من مدرسته وجلست للتدريس فيها في محرم أحد وتسعين وسبعمائة، وقمت ذلك اليوم - على العادة - بنظية نصها:

الحمد لله إجلالاً وعظماً، واعتراًفاً بحق النعم والتزاماً، واقتباساً للمزيد منها واغتناماً، وشكراً على الذي أحسن وتاماً، وسع كل شيء رحمة وإنعاماً، وأقام على توحيد من أكوانه ووجوده آيات واضحة وأعلاماً، وصرف الكائنات في قبضة قدرته

الأمر، وصلاح الخاصة والجمهور، عين كلامه، كما قلده الله رعايته وأقام حكام الشريعة والسياسة يوسعون نطاق الحق إلى غايته، ويطلعون وجه العدل سافراً عن آيته. ونصب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته، ورضي الدين بحسن إيلائه، وأمنه على سلطانه ودولته، وهو الوفي - والحمد لله - بأمانته، ثم صرف نظره إلى بيوت الله يعني بإنشائها وتأسيسها، ويعمل النظر الجميل في إرشادتها وتقديسها، ويقرض الله القرض الحسن في وفقها ونجيسها وينصب فيها لبث العلم من يؤهله لوظائفها ودروسها، فيضفي عليه بذلك من العناية أفخر لبوسها، حتى زمت الدولة بملكها ومصرها، وفاخرت الأنام بزمانها الزاهر وعصرها. وخضعت الأواوين لإيوانها العالي وقصرها، فابتهج العالم سروراً بمكانها، واهتزت الأكوام للمفاخرة بشانها، وتكفل الرحمن لمن اعتر به الإيمان، وصلح على يده الزمان، بوفور المثوبة ورجحانها.

وكان مما قد من به الآن تدريس الحديث بهذه المدرسة وقف الأمير صرغتمش من سلف أمراء الترك، خفف الله حسابه وثقل في الميزان يوم يعرض على الرحمن كتابه، وأعظم جزاءه في هذه الصدقة الجارية وثوابه، عناية جدد لي لباسها، وإشارة بالنعمة التي صححت قياسها، وعرفت منه أنواعها وأجناسها، فامتثلت الرسوم، وانطلقت أقيم الرسوم، وأشكر من الله وسلطانه الحظ المقسوم. وأنا مع هذا معترف بالقصور، بين أهل العصور، مستعيز بالله وبركة هؤلاء الحضور، السادة الصدور، أن يجمع بي مركب الغرور، أو يلج شيطان الدعوى والزور في شيء من الأمور. والله تعالى ينفع مولانا السلطان بصلاح أعماله، ويعرفه الحسنى وزيادة الحظ الأسنى في عاقبته ومآله، ويريه في سلطانه وبنيه وحاشيته وذويه قوة عينه ورضى أماله، ويديم على السادة الأمراء ما خولهم من رضاه وإقباله، ويحفظ المسلمين في هذا الأمر السعيد بدوامه واتصاله، ويسدد قضائهم وحكامهم لاعتماد الحق واعتماله بمن الله وإفضاله.

وقد رأيت أن أقر للقراءة في هذا الدرس، كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، فإنه من أصول السنن، وأمها الحديث، وهو مع ذلك أصل مذهبنا الذي عليه مدار مسائله، ومناط أحكامه، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه.

فلنتفتح الكلام بالتعريف بمؤلفه - رضي الله عنه - ومكانه من الأمانة والديانة، ومنزلة كتابه "الموطأ" من كتب الحديث. ثم نذكر الروايات والطرق التي وقعت في هذا الكتاب، وكيف اقتصر الناس منها على رواية يحيى بن يحيى، ونذكر أسانيد فيها، ثم

ظهوراً وخفاء وإيجاداً وإعداماً، وأعطى كل شيء خلقه ثم هذه إلى مصالحه إماماً، وأودع مقدور قضائه في مسطور كتابه، فلا يجد محيصاً عنه ولا مراماً.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة الهامية غماماً والملمحة التي أراقت من الكفر نجيعاً وحطمت أصناماً، والعروة الوثقى، فاز من اتخذها عصماً، أول النبيين رتبة وآخرهم ختاماً، وسيدهم ليلة قاب قوسين إذ بات للملائكة والرسول إماماً، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا ركناً لدعوته وسناماً وحرباً على عدوه وساماً، وصلوا في مظهرته جذاً واعتزاماً، وقطعوا في ذات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاماً، حتى ملأوا الأرض إيماناً وإسلاماً، وأوسعوا الجاحد والمعاند تبيكاً وإرغاماً، فأصبح نثر الدين بساماً ووجه الكفر والباطل عبوساً جهاماً. صلى الله عليه وعليهم ما عاقب ضياء ظلاماً، صلاة ترجح القبول ميزاناً، وتبوء عند الله مقاماً.

والرضى عن الأئمة الأربعة، الهداة المتبعة، مصاييح الأمان ومفاتيح السنة الذين أحسنوا بالعلم قياماً وكانوا للمتقين إماماً.

أما بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعلاء والظهور، والعز الخالد على الظهور، وانفساح خطته في آفاق المعمور، فلم يزل دولة عظيمة الآثار، غزيرة الأنصار، بعيدة الصيت عالية المقدار، - جامعة بمحاسن آدابها وعزة جنابها - معاني الفخار، منفقة بضائع علومها في الأقطار، مفجرة ينابيعها كالبحار، مطلعة كواكبها المنيرة في الآفاق أضواء من النهار، ولا كالدولة التي استأثرت بقلبة الإسلام ومنابر، وفاخرت بحرمات الله وشعائره واعتمدت بركة الإيمان ومن طائره في خدمة الحرمين الشريفين - بالميتين من أسباب الدين أواصره، واعتملت في إقامة رسوم العلم ليكون من مفاخره، وشاهداً بالكال لأوله وآخره.

وإن مولانا السلطان الملك الظاهر، العزيز القاهرة، شرف الأوائل والأواخر، ورافع لواء المعالي والمفاخر، رب التيجان والأسرة والمنابر، والمجلي في ميدان السابقين من الملوك الأكابر، في الزمن الغابر، حامل الأمة بنظره الرشيد ورأيه الظافر، وكافل الرعايا في ظله المديد وعدله الوافر، ومطلع أنوار العز والسعادة من أفقه السافر، واسطة السلك من هذا النظام، والتاج المحلى في مفارق الدول والأيام، سيد الملوك والسلاطين، بركة الإسلام والمسلمين، كافل أمير المؤمنين، أبو سعيد. أعلى الله مقامه، وكافاً عن الأمة إحسانه الجزيل وأنعامه، وأطال في السعادة والخيرات المدة المعادة لياليه وأيامه، لما أوسع الدين والملك نظراً جميلاً من عنايته، وأنام الخلق في حجر كفائته، ومهاد كفايته، وأيقظ لتفقد

نرجع إلى الكلام على متن الكتاب.

أما الإمام مالك - رضي الله عنه - فهو إمام دار الهجرة، وشيخ أهل الحجاز في الحديث والفقه غير منازع، والمقلد المتبوع لأهل الأمصار وخصوصاً أهل المغرب.

قال البخاري: مالك بن أنس، بن أبي عامر الأصبحي. كنيته أبو عبد الله، حليف عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله القرشي التيمي ابن أخي طلحة بن عبيد الله. كان إماماً، روى عنه يحيى بن سعيد. انتهى كلام البخاري.

وجده أبو عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان ويقال: غيمان بغين معجمة مفتوحة، وياء تحتانية ساكنة، ابن جثيل بجم مضمومة وياء مثناة مفتوحة، وياء تحتانية ساكنة، ويقال: جثيل أو خثيل بجاء مضمومة مهملة أو معجمة، عوض الجيم، ويقال: حسل بجاء مهملة مكسورة، وسين مهملة ساكنة، ابن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح. وذو أصبح بطن بن حمير، وهم أخوة يحصب ونسبهم، فهو حميري صليبة، وقرشي حلفاً. ولد سنة إحدى وتسعين فيما قال بكر، أو أربع وتسعين فيما قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ونشأ بالمدينة، وتفقه بها. أخذ عن ربيعة الرأي، وابن شهاب وعن عمه أبي سهيل، وعن جماعة ممن عاصروهم من التابعين وتابعي التابعين، وجلس للفتيا والحديث في مسجد رسول الله ﷺ شاباً يناهز العشرين، وأقام مفتياً بالمدينة ستين سنة.

وأخذ عنه الجرم الغفير من العلماء الأعلام، وارتحل إليه من الأمصار من لا يحصى كثرة، وأعظم من أخذ عنه الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وابن وهب، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وابن المبارك في أمثالهم وأنظار.

وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة باتفاق من الناقلين لوفاته.

وقال الواقدي: عاش مالك تسعين سنة.

وقال سحنون عن ابن نافع: توفي مالك ابن سبع وثمانين سنة.

ولم يختلف أهل زمانه في أمانته، وإتقانه، وحفظه وثبته وورعه، حتى لقد قال سفيان بن عيينة: كنا نرى في الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «تضرب أكباد الإبل في طلب العلم فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة» أنه مالك بن أنس.

وقال الشافعي: إذا جاء الأثر فمالك النجم، وقال: إذا جاءك الحديث فمالك أمير المؤمنين.

وقد ألف الناس في فضائله كتباً، وشأنه مشهور.

وأما الذي بعثه على تصنيف الموطأ فيما نقل أبو عمر بن عبد البر فهو أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، عمل كتاباً على مثال الموطأ، ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة، ولم يذكر فيه شيئاً من الحديث، فأتى به مالك، ووقف عليه وأعجبه، وقال: ما أحسن ما عمل هذا! ولو كنت أنا الذي عملت لبدأت بالأثار، ثم شددت ذلك بالكلام.

وقال غيره: حج أبو جعفر المنصور، ولقيه مالك بالمدينة، فأكرمه وفاوضه. وكان فيما فاوضه: يا أبا عبد الله لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك، وقد شغلتي الخلافة، فضع أنت للناس كتاباً يتفقون به، تجتنب فيه رخص ابن عباس وشذائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة.

قال مالك: فلقد علمني التأليف، فكانت هذه وأمثالها من البواعث لمالك على تصنيف هذا الكتاب، فصفه وسماه 'الموطأ' أي السهل.

قال الجوهري: وطو يوطو وطاءة، أي صار وطئاً، ووطأته توطئة، ولا يقال: وطيته.

ولما شغل بتصنيفه أخذ الناس بالمدينة يومئذ في تصنيف موطأت، فقال لمالك أصحابه: نراك شغلت نفسك بأمر قد شركك فيه الناس، وأنت ببعضها فنظر فيه، ثم طرحه من يده وقال: ليعلمن أن هذا لا يرتفع منه إلا ما أريد به وجه الله، فكأنما أقيت تلك الكتب في الآبار، وما سمع لشيء منها بعد ذلك ذكر، وأقبل مالك على تهذيب كتابه وتوطئته، فيقال: إنه أكمله في أربعين سنة. وتلفت الأمة هذا الكتاب بالقبول في مشارق الأرض ومغاربها، ومن لدن صنف إلى هلم. وطال ثناء العلماء في كل عصر عليه، ولم يختلف في ذلك اثنان.

قال الشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي: ما في الأرض كتاب بعد كتاب الله أنفع، وفي رواية أصح، وفي رواية أكثر صواباً، من موطأ مالك.

وقال يونس بن عبد الأعلى: ما رأيت كتاباً ألف في العلم أكثر صواباً من موطأ مالك.

وأما الطرق والروايات التي وقعت في هذا الكتاب، فإنه كبه عن مالك جماعة نسب الموطأ إليهم بتلك الرواية، وقيل: موطأ فلان لراوي عنه.

فمنها موطأ الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ومنها موطأ

ببجاية، ناصر الدين أبي علي، منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدلي، عن الإمام شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي، عن أبي الحسن علي بن موسى بن النقرات عن أبي الحسن علي بن أحمد الكتاني. قال الخزرجي والكتاني: حدثنا أبو عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث بن الصفار قاضي الجماعة بقرطبة.

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو عبد الله جابر عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن الغماز، عن شيخه أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، عن القاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن حبيش، وأبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون، شارح كتاب "الموطأ"، قال ابن زرقون: حدثنا به أبو عبد الله الخولاني، عن أبي عمرو عثمان بن أحمد القيجاطي.

وقال ابن حبيش: حدثنا به القاضي أبو عبد الله بن أصبغ ويونس بن محمد بن مغيث، قالوا: قرأناه على أبي عبد الله محمد بن الطلاع.

وقال ابن حبيش أيضاً: حدثنا به أبو القاسم أحمد بن محمد ورد، عن القاضي أبي عبد الله محمد بن خلف بن المرباط عن المقرئ أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد الله المافري الطلمنكي.

قال القاضي أبو الوليد بن مغيث، والقيجاطي، والطلمنكي: حدثنا أبو عيسى يحيى بن عبد الله بن يحيى عن عم أبيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى.

وقال الطلمنكي: حدثنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن حدير البزار، قال: حدثنا أبو محمد قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن وضاح، قال: حدثنا يحيى بن يحيى عن مالك، إلا ثلاثة أبواب من آخر كتاب الاعتكاف، أولها خروج المعتكف إلى العيد فإن يحيى شك في سماعها عن مالك، فسمعها عن زياد بن عبد الرحمن الملقب شبطون عن مالك.

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يحضرني الآن اتصال سندي فيها.

فمنها عن شيخنا أبي محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي كاتب السلطان أبي الحسن، لقيته بتونس عند استيلاء السلطان عليها، وهو في جلته سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وحضرت مجلسه، وأخذت عنه كثيراً، وسمعت عليه بعض "الموطأ"، وأجازني بالإجازة العامة، وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحاق الغافقي، وعن أبي القاسم القبتوري، وجماعة من مشيخة أهل سبتة، ويتصل سنده فيه

عبد الله بن وهب، ومنها موطأ عبد الله بن مسلمة القعنبي ومنها موطأ مطرف بن عبد الله اليساري نسبة إلى سليمان بن يسار ومنها موطأ عبد الرحمن بن القاسم رواه عنه سحنون بن سعيد ومنها موطأ يحيى بن يحيى الأندلسي.

رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس وأخذ عنه الفقه والحديث ورجع بعلم كثير وحديث جم، وكان فيما أخذ عنه "الموطأ". وأدخله الأندلس والمغرب، فأكب الناس عليه، واقتصروا على روايته دون ما سواها، وعولوا على نسقها وترتيبها في شرحهم كتاب "الموطأ" وتفسيرهم، وشيرون إلى الروايات الأخرى إذا عرضت في أمكتها، فهجرت الروايات الأخرى، وسائر تلك الطرق، ودرست تلك الموطآت إلا موطأ يحيى بن يحيى، فبرأيته أخذ الناس في هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً.

وأما سندي في هذا الكتاب المتصل بيحيى بن يحيى فعلى ما أصفه:

حدثني به جماعة من شيوخنا رحمة الله عليهم. منهم إمام المالكية، قاضي الجماعة بتونس وشيخ الفتيا بها، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري، سمعته عليه بمزلة بتونس، من أوله إلى آخره. ومنهم شيخ المسندين بتونس، الرحالة أبو عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي آشي، سمعت عليه بعضه، وأجازني بسأته. ومنهم شيخ المحدثين بالأندلس، وكبير القضاة بها، أبو البركات محمد بن محمد بن محمد ثلاثة من المحدثين ابن إبراهيم بن الحاج البلقيقي، لقيته بفاس سنة ست وخمسين وسبعمائة من هذه المائة الثامنة، مقدمه من السفارة بين ملك الأندلس وملك المغرب. وحضرت مجلسه بجامع القرويين من فاس، فسمعت عليه بعضاً من هذا الكتاب، وأجازني بسأته. ثم لقيته لقاء أخرى سنة اثنتين وستين وسبعمائة، استقدمه ملك المغرب، السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن للأخذ عنه، وكنت أنا القاريء فيما يأخذه عنه، فقرأت عليه صدراً من كتاب "الموطأ"، وأجازني بسأته إجازة أخرى.

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقلية، ومفيد جماعتهم، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلبي، قرأت عليه بعضه، وأجازني بسأته، قالوا كلهم: حدثنا الشيخ المعمر، أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي.

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو البركات، عن إمام المالكية

الإسكندرية، وتلف الموجود والمولود، وعظم الأسف، وحسن العزاء، والله قادر على ما يشاء.

ثم خرجت عام تسعة وثمانين وسبعمائة لقضاء الغرض، وركبت بحر السويس من الطور إلى الينبع، ورافقت المحمل إلى مكة، فقضيت الحج عامئذ، وعدت إلى مصر في البحر كما سافرت أولاً. وشغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتمش، فولاني السلطان إياها بدلاً من مدرسته في محرم أحد وتسعين وسبعمائة، ومضيت على حالي من الانتقباض، والتدريس، والتأليف، حتى ولاني خانقاه بيرس، ثم عزلني عنها بعد سنة أو أزيد، بسبب أنا أذكره الآن.

ولاية خانقاه بيرس، والعزل منها

لما رجعت من قضاء الغرض سنة تسعين وسبعمائة، ومضيت على حالي من التدريس والتأليف، وتعاهد السلطان باللقاء والتحية والدعاء، وهو ينظر إليّ بعين الشفقة، ويحسن المواعيد. وكانت بالقاهرة خانقاه شيدها السلطان بيرس، ثامن ملوك الترك الذي استبد على الناصر محمد بن قلاوون هو ورفيقه سلار وأنف الناصر من استبدادهما، وخرج للصيد، فلما حاذى الكرك امتنع به، وتركهم وشأنهم، فجلس بيرس على التخت مكانه، وكاتب الناصر أمراء الشام من عماليك أبيه، واستدعوه للقيام معه، وزحف بهم إلى مصر، وعاد إلى سلطانه، وقتل بيرس وسلار سنة ثمان وسبعمائة. وشيد بيرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر من أعظم المصانع وأحفلها، وأوفرها ريعاً، وأكثرها أوقافاً، وعين مشيختها، ونظر لمن يستعد له بشرطه في وقفه، فكان رزق النظر فيها والمشيخة واسعاً لمن يتولاه، وكان ناظرها يومئذ شرف الدين الأشقر إمام السلطان الظاهر. فتوفي عند منصرفي من قضاء الغرض، فولاني السلطان مكانه توسعة علي، وإحساناً إلي، وأقامت على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري.

بالقاضي عياض، وأبي العباس العزفي صاحب كتاب الدر المنظم في المولد العظيم.

ومنها عن شيخنا أبي عبد الله الكوسي خطيب الجامع الأعظم بغرناطة، سمعت عليه بعضه وأجازني بسأثره وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير عن القاضي أبي عبد الله بن بكار، وجماعة من مشيخة أهل الأندلس، ويتصل مسنده فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي، والحافظ أبي عمر بن عبد البر بسندهما.

ومنها عن شيخنا المکتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري شيخ القراءة بتونس، ومعلمي كتاب الله، قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات السبع، وعرضت عليه قصيدتي الشاطبي في القراءة، وفي الرسم، وعرضت عليه كتاب التقصي لابن عبد البر، وغير ذلك، وأجازني بالإجازة العامة، وفي هذه بالإجازة الخاصة، وهو يروي هذا الكتاب عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن الغماز، وعن شيخه أبي العباس أحمد بن موسى البطرني بسندهما.

ومنها عن شيخنا الأستاذ أبي عبد الله محمد بن الصفار المراكشي، شيخ القراءات بالمغرب، سمعت عليه بعض هذا الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان ملك المغرب، وهو يسمعه إياه، وأجازني بسأثره، وهو يرويه عن شيخه محدث المغرب أبي عبد الله محمد بن رشيد الفهري السبتي عن مشيخة أهل سبتة، وأهل الأندلس، حسبما ذلك مذكور في كتب رواياتهم وطرق أسانيدهم، إلا أنها لم تحضرني الآن، وفيما ذكرناه كفاية والله يوفقنا أجمعين لطاعته وهذا حين أبدي، وبالله أهتدي.

وانقض ذلك المجلس، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون، واستشعرت أهليتي للمناصب القلوب، وأخلص النجي في ذلك الخاصة والجمهور، وأنا أتاب مجلس السلطان في أكثر الأحيان، لتأدية الواجب من التحية والمشاغبة بالدعاء، إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية، فأبعده، وأخره عن خطة القضاء في رجب ست وثمانين وسبعمائة، ودعاني للولاية في مجلسه، وبين أمرائه فتفاديت من ذلك، وأبى إلا إمضاءه، وخلع علي، وبعث الأمراء معي إلى مقعد الحكم بمدرسة القضاء، فمقت في ذلك المقام المحمود، ووفيت عهد الله وعهده في إقامة رسوم الحق، وتحري المعدلة، حتى سخطني من لم ترضه أحكام الله، ووقع في ذلك ما تقدم ذكره، وكثر شغب أهل الباطل والمراء، فأعفاني السلطان منها لحول من يوم الولاية، وكان تقدمها وصول الخبر بغرق السفين الواصل من تونس إلى

فتنة الناصري وسياقة الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول يليق بهذا الموضع، ويطلعك على أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدرج إلى الضخامة والاستيلاء، ثم إلى الضعف والاضمحلال، والله بالغ أمره

وذلك أن الدول الكلية، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً بعد واحد، في مدة طويلة، قائمين على ذلك بعصية النسب أو الولاء، وهذا كان الأصل في استيلائهم وتغلبهم، فلا يزالون كذلك إلى انقراضهم، وغلب مستحقين آخرين يزعونه من أيديهم بالعصية التي يقتدرون بها على ذلك، ويمحزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة الأولى، يفضون جبايتها بينهم على تفاضل البأس والرجولة والكثرة في العصابة أو القلة، وهم على حالهم من الخشونة لمعاناة البأس، والإقلال من العيش لاستصحاب حال البداوة، وعدم الثروة من قبل. ثم تنمو الثروة فيهم بنمو الجباية التي ملكوها، ويزين حب الشهوات للامتداد عليها، فيعظم الترف في الملابس والمطاعم والمسكن والمراكب والممالك، وسائر الأحوال، ويتزايد شيئاً فشيئاً بتزايد النعم وتوسع الأحوال أوسع ما تكون، ويقصر الدخل عن المخرج، وتضيق الجباية عن أرزاق الجند وأحوالهم، ويحصل ذلك لكل أحد من تحت أيديهم، لأن الناس تبع للموكلهم ودولتهم، ويراجع كل أحد نظره فيما هو فيه من ذلك، فيرجع وراءه، ويطلب كفاً خرجة يدخله.

ثم إن البأس يقل من أهل الدولة بما ذهب لهم من الخشونة، وما صاروا إليه من رقة الحاشية والتنعيم، فيتطاول من بقي من رؤساء الدولة إلى الاستبداد بها غيرة عليها من الخلل الواقع بها. ويستعد لذلك بما بقي عنده من الخشونة، ويحملهم على الإقلاص عن الترف، ويستأنف لذلك العصابة بعشيرته أو بمن يدعوهم لذلك، فيستولي على الدولة، ويأخذ في دوائها من الخلل الواقع، وهو أحق الناس به، وأقربهم إليه، فيصير الملك له، وفي عشيرته، وتصير كأنها دولة أخرى، تمر عليها الأوقات. ويقع فيها ما وقع في الأولى، فيستولي آخر منهم كذلك إلى أن تقرض الدولة بأسرها، وتخرج عن القوم الأولين أجمع. وتأتي دولة أخرى مباينة لعصابة هؤلاء في النسب، أو الولاء. سنة الله في عباده.

وكان مبدأ هذه الدولة التركية، أن بني أيوب لما ملكوها مصر والشام، كما قصصناه عليك في أخبارهم واستقل بها كبيرهم

صلاح الدين، وشغل بالجهاد وانتراخ القلاع والحصون من أيدي الفرنج الذين ملكوها بالسواحل، وكان قليل العصابة، إنما كان عشيره من الكرد يعرفون بني هذان، وهم قليلون، وإنما كثر منهم جماعة المسلمين، بهمة الجهاد الذي كان صلاح الدين يدعو إليه، فعظمت عصابته بالمسلمين، وأسمع دأعيه، ونصر الله الدين على يده. وانتزع السواحل كلها من أيدي نصارى الفرنج، حتى مسجد بيت المقدس، فأنهم كانوا ملكوهم وأفحشوا فيه بالقتل والسبي، فأذهب الله هذه الرخصة على يد صلاح الدين، وانقسم ملك بني أيوب بعده بين ولده وولد أخيه. واستفحل أمرهم، واقتسموا مدن الشام، ومصر بينهم، إلى أن جاء آخرهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر أخي صلاح الدين، وأراد الاستكثار من العصابة لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك، وأن ذلك يحصل بتأخذ الممالك، والإكثار منهم، كما كان آخراً في الدولة العباسية ببغداد، وأخذ التجار في جلبهم إليه، فاشترى منهم أعداداً، وأقام لتربيتهم أساتذ معلمين لحرفة الجندية، من الثقافة والرمي، بعد تعليم الآداب الدينية والخلقية إلى أن اجتمع له منهم عدد جم يناهز الألف، وكان مقيماً بأحواز دمياط في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلبين على حصنها دمياط. وكان أبوه قد اتخذ لنزله هنالك قلعة سماها المنصورة، وبها توفي رحمه الله، فكان نجم الدين نازلاً بها في مدافعة ساكني دمياط من الفرنج، فأصابه هنالك حدث الموت، وكان ابنه المعظم تورنشا نائباً في حصن كيفا من ديار بكر وراء الفرات، فاجتمع الجند على بيعته، وبعثوا عنه، وانتظروا.

وتفطن الفرنج لشأنهم، فهجمو عليهم، واقتتلوا فنصر الله المسلمين، وأسر ملك الفرنج ريد إفرنس، فبعثوا به إلى مصر. وحبس بدار لقمان، إلى أن فادوه بدمياط، كما هو مذكور في أخبار بني أيوب. ونصبوا للملك، ولهذا اللقاء زوجة الصالح أيوب واسمها شجرة الدر، فكانت تحكم بين الجند، وتكتب على المراسيم، وركبت يوم لقاء الفرنج، تحت الصناجق، والجند محذقون بها. حتى أعز الله دينه، وأتم نصره. ثم وصل تورنشا المعظم، فأقاموه في خطة الملك مكان أبيه الصالح أيوب ووصل معه عماليك يذلون بمكانهم منه، ولهم به اختصاص، ومنه مكان، وكان رؤساء الترك يومئذ القائمون بالدولة من عهد أبيه وجده. أقطاي الجمدار وأبيك التركماني، وقلاون الصالحي، فأنفوا من تصرفات عماليك تورنشا، وأستعلائهم بالحظ من السلطان، وسخطوهم وسخطوه، وأجمعوا قتله. فلما رحل إلى القاهرة اغتالوه في طريقه بفارسكو، وقتلوه، ونصبوا للأمر أليك التركماني منه، واستحدثوا

فتقبض عليه، واستصفاه، وقتله، ونصب للملك محمد المنصور بن المظفر حاجي بن الناصر. وقام بالدولة أحسن قيام، وأغرى نفسه بالاستكثار من المال، وتهذيبهم بالتربية، وتوفير النعم عندهم بالإقطاع، والولايات، حتى كمل منهم عدد لم تعهده الدولة.

ثم خلع المنصور بن المظفر لستين، ونصب مكانه للملك شعبان الأشرف بن حسين بن الناصر، فأقام على التخت وهو في كفالته، وهو على أوله في إعزاز الدولة، وإظهار الترف والثروة، حتى ظهرت غمائل العز والنعم، في المساكن والخياد والماليك والزينة، ثم بطروا النعمة، وكفروا الحقوق، فحنقوا عليه لما كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب، فهموا بقتله وخلصوا نحيلاً لذلك في متصيدهم الشتوي، وقد برزوا له بجياعهم وسلطانهم على عادتهم. ولما أحس بذلك ركب ناجياً بنفسه إلى القاهرة، فدخلوا على السلطان الأشرف، وجاؤوا به على إثره، وأجازوا البحر، فقبضوا عليه عشي يومهم. ثم قتلوه في محبسه عشاء. وانطلقت أيديهم على أهل البلد بممرات لم يعهدوها من أول دولتهم، من النهب والتخطف وطروق المنازل والحمامات للعبث بالحرم، وإطلاق أئنة الشهوات والبغي في كل ناحية، فمرج أمر الناس، ورفع الأمر إلى السلطان، وكثر الدعاء والدجاء إلى الله. واجتمع أكابر الأمر إلى السلطان، وفاوضوه في كف عاديتهم، فأمرهم بالركوب، ونادى في جنده ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم، والاحتياط بهم في قبضة القهر، فلم يكن إلا كلمح البصر، وإذا بهم في قبضة الأسر. ثم عمرت بهم السجون، وصدقوا وطيف بهم على الجمال ينادى بهم، إبلاغاً في الشهرة، ثم وسط أكثرهم، وتبع بالنفي والحبس بالثغور القصية، ثم أطلقوا بعد ذلك. وكان فيمن أطلق جماعة منهم مجيس الكرك: فيهم برقوق الذي ملك أمرهم بعد ذلك، وبركة الجوياني، والطنبغا الجوياني وجهر كس الخليلي.

وكان طشتمر، دودار يلغا، قد لطف محله عند السلطان الأشرف، وولي الدواذرية له، وكان يؤمل الاستبداد كما كان أستاذه يلغا، فكان يمثال في ذلك يجمع هؤلاء الماليك اليلغاوية من حيث سقطوا، يريد بذلك اجتماعهم عصبة له على هواه، ويغري السلطان بها شفاهاً ورسالة، إلى أن اجتمع أكثرهم بباب السلطان الأشرف، وجعلهم في خدمة ابنه علي ولي عهده.

فلما كثروا، وأخذتهم أرمجية العز بعصبيتهم، صاروا يشتطون على السلطان في المطالب ويعتزون بعصبيته اليلغاوية. واعتزم السلطان الأشرف عام سبعة وسبعين وسبعمئة على قضاء القرض، فخرج لذلك خروجاً فخمياً، واستتاب ابنه علياً على قلعة وملكه في كفالة قرطاي من أكابر اليلغاوية، وأخرج معه

هذه الدولة التركية كما شرحناه في أخبارها، وهلك بعده أليك ابنه علي المنصور، ثم مولاه قطز، ثم الظاهر بيبرس البندقداري. ثم ظهر أمر الططر، واستفحل ملكهم. وزحف هولكو بن طولي بن جنكيزخان من خراسان إلى بغداد، فملكها، وقتل الخليفة المستعصم آخر بني العباس. ثم زحف إلى الشام، فملك مدنه وحواضره من أيدي بني أيوب، إلى أن استوعبها.

وجاء الخبر بأن بركة صاحب صراي شريكه في نسب جنكيزخان، زحف إلى خراسان، فامتعض لذلك وكر راجعاً، وشغل بالفتنة إلى أن هلك. وخرج قطز من مصر عندما شغل هولكو بفتنة بركة، فملك الشام كله، أمصاره ومدنه، وأصاره للترك موالي بني أيوب. واستفحلت دولة هؤلاء الماليك، واتصلت أياها واحداً بعد واحد، كما ذكرنا في أخبارهم. ثم جاء قلاوون عندما ملك بيبرس الظاهر منهم، فظاهر به، وأصهر إليه، والترف يومئذ لم يأخذ منهم، والشدة والشكيمة موجودة فيهم، واللباس والرجولة شعار لهم، وهلك الظاهر بيبرس، وابناه من بعده، كما في أخبارهم. وقام قلاوون بالأمر، فأتسع نطاق ملكه، وطال ذرع سلطانه، وقصرت أيدي الططر عن الشام بمهلك هولكو، وولاية الأصاغر من ولده، فعظم ملك قلاوون، وحسنت آثار سياسته، وأصبح حجة على من بعده، ثم ملك بعده ابنه: خليل الأشرف، ثم محمد الناصر. وطالت أيامه، وكثرت عصابته من مماليكه، حتى كمل منهم عدد لم يقع لغيره. ورتب للدولة المراتب، وقدم منهم في كل رتبة الأمراء، وأوسع لهم الأقطاع والولايات، حتى توفرت أرزاقهم واتسعت بالترف أحوالهم. ورحل أرباب البضائع من العلماء والتجار إلى مصر، فإوسعهم حبسا وبراً. وتنافس أمراء دولته في اتخاذ المدارس والربط والخوانق، وأصبحت دولتهم غرة في الزمان، وواسطة في الدول. ثم هلك الناصر بعد أربعين وسبعمئة، فظفق أمراء دولته ينصبون بنيه للملك، واحداً بعد آخر، مستبدين عليهم، متنافسين في الملك، حتى يغلب واحد منهم الآخر، فيقتله، ويقتل سلطانه من أولاد الناصر، وينصب آخر منهم مكانه، إلى أن انساق الأمر لولده حسن الناصر، فقتل مستبده شيخون، وملك أمره. وألقي زمام الدولة بيد ملوكه يلغا، فقام بها، ونافسه أقرانه، وأغروا به سلطانه، فأجمع قتله. ونفي إليه الخبر وهو في علوفة البرسيم عند خيله المرتبطة لذلك، فاعتزم على الامتناع، واستعد للقاء. واستدعاه سلطانه، فتناقل عن القدوم. واستشاط السلطان، وركب في خاصته إليه، فركب هو لمصادمته. وهاجم السلطان فقله، ورجع إلى القلعة، وهو في اتباعه، فلم يلقه بقصره، وأغرى به البحث

الخليفة والقضاة، فلما بلغ العقبة اشتط المالك طلب جرائتهم من العلوفة والزاد، واشتط الذين بمصر كذلك في طلب أرزاقهم من المتولين للجباية. وصار الذين مع السلطان إلى المكاشفة في ذلك بالأقوال والأفعال، وطشتم الدوادار يغضي عنهم بحسب وقت استبداده قد أزعج، إلى أن راغمهم السلطان بالزجر، فركبوا عليه هنالك، وركب من خيامه مع لفيف بن خاصته، فنضحوه بالنبل، ورجع إلى خياله، ثم ركب الهجن مساء، وسار فصبح القاهرة، وعرس هو وليفه بقبة النصر.

وكان قرطاي كافل ابنه علي المنصور، حدث بينه وبين ناظر الخاص المقسي مكالة عند مغيب السلطان أحقذته. وجاشت بما كان في نفسه، فأغرى علياً المنصور بن السلطان بالتوثب على الملك، فارتاح لذلك وأجابه، وأصبح يوم ثورة المالك بالعقبة، وقد أجلس علياً مكفوله بباب الإصطبل، وعقد له الراية بالنداء على جلوسه بالتخت، وبينما هم في ذلك، صبحهم الخبر بوصول السلطان الأشرف إلى قبة النصر ليلتذ، فطاروا إليه زرافات ووحداناً، فوجدوا أصحابه نياماً هنالك، وقد تسلل من بينهم هو وبلغا الناصري من أكابر البلغاوية، فقطعوا رؤوسهم جميعاً، ورجعوا بها تسيل دماً. ووجهوا لفقدان الأشرف، وتابعوا النداء عليه، وإذا بامرأة قد دلتهم عليه في مكان عرقته، فتسابقوا إليه، وجأؤا به فقتلوه لوفته بخلع أكفاه، وانعقدت بيعة ابنه المنصور. وجاء طشتم الدوادار من الغد بمن بقي بالعقبة من الحرم، وغلف السلطان، واعتزم على قتلهم طمعاً في الاستبداد الذي في نفسه، فدافعوه وغلوه وحصل في قبضتهم، فخلعوا عليه بنبابة الشام، وصرفوه لذلك وأقاموا في سلطانهم. وكان أينك أميراً آخر من البلغاوية قد ساهم قرطاي في هذا الحادث وأصهر إليه في بعض حرمه، فاستنام له قرطاي، وطمع هو في الاستيلاء. وكان قرطاي مواصلاً صبوحة بغبوقه، ويستغرق في ذلك، فركب في بعض أيامه، وأركب معه السلطان علياً، واحتاز الأمر من يد قرطاي وصيره إلى صفد، واستقل بالدولة، ثم انتفض طشتم بالشام مع سائر أمرائه، فخرج أينك في العساكر، وسرح المقدمة مع جماعة من الأمراء، وكان منهم برقوق وبركة المستوليان عقب ذلك، وخرج هو والسلطان في الساقية، فلما انتهوا إلى بليس، ثار الأمراء الذين في المقدمة عليه، ورجع إليه أخوه منهزماً، فرجع إلى القلعة. ثم اختلف عليه الأمراء، وطالبوه بالحرب في قبة النصر، فسرح العساكر لذلك، فلما فصلوا فر هو هارباً، وقبض عليه وثقف بالإسكندرية. واجتمع أمراء البلغاوية يقدمهم قطلعتمر العلائي، وبلغا الناصري ودمرداش اليوسفي وبركة وبرقوق، فتصدى

دمرداش وبلغا وبركة وبرقوق، إلى الاستقلال بالأمر وتغلبوا على سائر الأمراء، واعتقلوهم بالإسكندرية. وفوضوا الأمر إلى بلغا الناصري، وهم يرونه غير خبير، فاشاروا باستدعاء طشتم، وبعثوا إليه، وانتظروا. فلما جاءه الخبر بذلك ظنها منية نفسه، وسار إلى مصر، فدفعوا الأمر إليه، وجعلوا له التولية والعزل وأخذ برقوق وبركة يستكثران من المالك، بالاستخدام والجاه، وتوفير الأقطاع، إكثافاً لعصيتهم، فانصرفت الوجوه عن سواهما، وارتاب طشتم بنفسه، وأغراه أصحابه بالتوثب، ولما كان الأضحى في سنة تسع وسبعين وسبعمائة استعجل أصحابه على غير روية، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم، وقتلوا فانهزموا. وتقبض على طشتم، وحبس بالإسكندرية، وبعث معه بلغا الناصري، وخلت الدولة للأميرين برقوق وبركة من المنازعين، وعمروا المراتب بأصحابهما. ثم كثر شغب التركمان والعرب بنواحي الشام، فدفعوا بلغا الناصري إلى النيابة بحلب ليستكفوا به في تلك الناحية. ثم تنافس برقوق وبركة في الاستقلال، وأضمر كل واحد منهما لصاحبه، وخشي منه، فقبض برقوق على بطانة بركة من عصابته ليخفض بذلك جناحه، فارتاح لذلك بركة، وخرج بعصابته إلى قبة النصر ليواضع برقوقاً وأصحابه الحرب هنالك، ورجا أن تكون الدائرة له. وأقام برقوق بمكانه من الإصطبل، وسرب أصحابه في جموعهم إلى مجاورة أولئك. وأقاموا كذلك أياماً يغادونهم ويروحونهم ثلاثاً، إلى أن عضت بركة وأصحابه الحرب، فانفضوا عنه، وجيء ببركة، وبعث به إلى الإسكندرية، فحبس هنالك إلى أن قتله ابن عرام نائب الإسكندرية. وارتفع أصحابه إلى برقوق شاكين، فثارهم منه بإطلاق أيديهم في الضفة، فانتصفوا منه بقتله في ساحة القلعة، بعد أن سمر، وحمل على جمل عقاباً له، ولم يقتنعهم ذلك، فأطلق أيديهم فيما شاؤوا منه، ففعلوا ما فعلوا.

وانفرد برقوق بعد ذلك بحمل الدولة ينظر في أعطافها بالتهديد، والتسديد، والمقاربة، والحرص على مكافأة الدخل بالخرج. ونقص ما أفاض فيه بنو قلاوون من الإمعان في الترف، والسرف في العوائد والتنفقات، حتى صار الكيل في الخرج بالكيل الراجح، وعجزت الدولة عن تمشية أحوالها، وراقب ذلك كله برقوق، ونظر في سد خلل الدولة منه، وإصلاحها من مفاسده، يعتد ذلك ذريعة للجلوس على التخت، وحيازة اسم السلطان من أولاد قلاوون، بما أسد الترف منه، وأحال الدولة بسبيهم، إلى أن حصل من ذلك على البغية، ورضي به أصحابه وعصابته، فجلس على التخت في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وتلقب بالظاهر. ورتب أهل عصابته في مراتب الدولة،

ساور صاحبه الناصري في المضي إليه وتأمينه. وحبسوه في بعض قصور الملك وتشاوروا في أمره، فأشار أمراء اليلبغاوية كلهم بقتله، وبالغ في ذلك منطاش، ووصل نعيم أمير بني مهنا بالشام للصحابة بينه وبين الناصري، ففضهم على قتله، ومنع الجوباني من ذلك وفاء بيمينه، فغلت صدورهم منه. واعتزموا على بعثه إلى الكرك، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه إلى الإسكندرية، فاعترضه عند البحر بما شاء من رأيه. ووثق بذلك، فقعده له عند المرساة وخالفوا به الطريق إلى الكرك، ولولوا عليها نائباً وأوصوه به، فأخفق مسعى منطاش، ودبر في اغتيال الدولة، وتعارض في بيته. وجاءه الجوباني عائداً فقبض عليه، وحبسه بالإسكندرية، وركب متقضاً، ووقف عند مدرسة الناصر حسن يحاصر الناصري بالقلعة. واستجاش هو بأمراء اليلبغاوية فداهنوا في إجابته، ووقفوا بالرميلة أمام القلعة. ولم يزل ذلك بينهم أياماً حتى انفض جمع الناصري وخرج هارباً، فاعترضه أصحاب الطريق بفارسكو، وردوه، فحبسه منطاش بالإسكندرية مع صاحبه، واستقل بأمر الملك. وبعث إلى الكرك بقتل الظاهر، فامتنع النائب، واعتذر بوقوفه على خط السلطان والخليفة والقضاة. وبث الظاهر عطاءه في عامة أهل الكرك، فانتدبت طائفة منهم لقتل البريدي الذي جاء في ذلك، فقتلوه، وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصحروا. واستألف أفياريق من العرب، واتصل به بعض عماليكه، وساروا إلى الشام. واعترضه ابن باكيش نائب غزة، فأوقع به الظاهر، وسار إلى دمشق، وأخرج منطاش العساكر مع سلطانه أمير حاج، وسار على التعبئة ليمانع الظاهر عن دمشق. وسبقه الظاهر فمنعه جتتمر نائب دمشق، فواقعه، وأقام محاصراً له. ووصل إليه كمشبعاً الحموي نائب حلب، وكان قد أظهر دعوته في عمله، وتجهز للقائه بعسكره، فلقبه وأزال علله، فأقام له أبهة الملك. وبينما هم في الحصار إذ جاء الخبر بوصول منطاش بسلطانه وعساكره لقتالهم، فلقبهم الظاهر بشقحب، فلما تراءى الجمعان، حمل الظاهر على السلطان أمير حاج وعساكره ففضهم، وانهزم كمشبعاً إلى حلب. وسار منطاش في اتباعه، فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج، ففضها، واحتاز السلطان، والخليفة والقضاة، وוכל بهم. واختلط الفريقان، وصاروا في عمية من أمرهم، وفر منطاش إلى دمشق. واضطرب الظاهر أخيبته، ونزل على دمشق محاصراً لها. وخرج إليه منطاش من الغد فهزمه، وجمع القضاة والخليفة، فشهدوا على أمير حاج بالخلع، وعلى الخليفة بإعادة الظاهر إلى ملكه. ورحل إلى مصر فلقبه بالطريق خبر القلعة بمصر، وتغلب ممالিকে عليها، وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية، وكان مماليك

فقام وقاموا بها أحسن قيام، وانتقلت الدولة من آل قلاوون إلى برقوق الظاهر وبنيه. واستمر الحال على ذلك، ونافسه اليلبغاوية - رفقائه في ولاء يلبغا - فيما صار إليه من الأمر، وخصوصاً يلبغا نائب حلب، فاعتزم على الانتفاض. وشعر به الظاهر فبعث باستدعائه، فجاء وحبسه مدة، ثم رجعته إلى نياحة حلب، وقد وغر صدره من هذه المعاملة. وارتاب به الظاهر، فبعث سنة تسعين وسبعمائة دواداره للقبض عليه، ويستعين في ذلك بالحاجب. وانتقض، واستدعى نائب ملطية، وهو منطاش من أمراء اليلبغاوية، وكان قد انتقض قبله، ودعا نواب الشام إلى المسير إلى مصر إلباً على الظاهر، فأجابوه، وساروا في جملة، وتحت لوائه، وبلغ الخبر إلى الظاهر برقوق، فأخرج عساكره مع أمراء اليلبغاوية من أصحابه: وهم الدوادار الأكبر يونس، وجهركس الخليلي أمير الاصيل، والأتابكي أيتمش، وأيدكار حاجب الحجاب وأحمد بن يلبغا استاذهم. وخرج الناصري من حلب في عسكره، واستنفر العرب والتركمان وأمراء الشام، ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق، نزح كثير من عسكر السلطان إليهم، وصدفوا الحملة على من بقي فانفضوا. ونجا أيتمش إلى قلعة دمشق، فدخلها، وقتل جهركس، ويونس، ودخل الناصري دمشق، ثم أجمع المسير إلى مصر، وعميت أنبأهم حتى أطلوا على مصر.

وفي خلال ذلك أطلق السلطان الخليفة من محبسه كان بعض الغواة أئمنه، أنه داخله شيطان من شياطين الجند، يعرف بقرط في قتل السلطان يوم ركوبه إلى الميدان قبل ملكه بسنين، فلما صح الخبر أمر بقتله، وحبس الخليفة سبياً إلى تلك السنة، فأطلقه عند هذا الواقع، ولما وصل إلى قيطا اجتمعت العساكر، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غشيه الليل، ثم دخل إلى بيته وخرج متنكراً، وتسرب في غيايات المدينة، وساكر الناصري وأصحابه القلعة، وأمير حاج ابن الأشرف، فأعادوه إلى التخت ولقبوه المنصور. وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، وكان فيهم الطنغا الجوباني الذي كان أمير مجلس، وقبض السلطان الظاهر عليه، وحبسه أياماً، ثم أطلقه وبعثه نائباً على دمشق، ثم ارتفعت عنه الأقوال بأنه يروم الانتفاض، ودخل الناصري نائب حلب في ذلك، وأكد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين الناصري من المصافاة والمخالصة، فبعث عنه. ولما جاء حبسه بالإسكندرية، فلما ملك الناصري مصر، وأجلس أمير حاج بن الأشرف على التخت، بعث عنه ليستعين به على أمره، وارتابوا لغية الظاهر، وبالغو في البحث عنه، فاستدعى الجوباني واستنام له، واستحلفه على الأمان، فحلف له وجاء به إلى القلعة بعد أن

السلطان محبوسين هنالك في مطبق أعد لهم، فتناجوا في التسور منه إلى ظاهره، والتوثب على القلعة والملك، فخرجوا، وهرب دوا دار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية. وملك عماليك الظاهر القلعة، ورأسهم مملوكه بطا وساس أمرهم، وانتظر خبر سلطانه.

فلما وصل الخبر بذلك إلى الظاهر، أغذ السير إلى مصر. وتلقاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره. ودخل متصف صفر من سنة إحدى وتسعين وسبعائة، وولى بطا دوا داراً، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، وأعتبهم، وأعادهم إلى مراتبهم وبعث الجوباني إلى دمشق، والناصرى إلى حلب كما كانا، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه. وولى سودون على نيابته، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنت فيها، وكان ينقم علي أحوالاً من معاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء أزمان كنت عليه، ومن تصرفات دوا داره بالخانقاه، وكان يستتبه عليها، فوغر صدره من ذلك، وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش، وأكرهنا على كتابها، فكتبناها، وورينا فيها بما قدرنا عليه. ولم يقبل السلطان ذلك، وعتب عليه، وخصوصاً علي، فصادف سودون منه إجابة في إخراج الخانقاه عني، فولى فيها غيري وعزلي عنها. وكتبت إلى الجوباني بآيات أعتذر عن ذلك ليطالعه بها، فتغافل عنها، وأعرض عني مدة، ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه، ونص الآيات:

سيدي والظنون فيك جميلة وإياديك بالأمانى كفيـ
لا تحل عن جميل رأيك إني مالي اليوم غير رأيك حـ
واصطنعني كما اصطنعت بإسدا يد من شفاة أو وسيله
لا تضعني فلست منك مضيعاً ذمة الحب، والآيدي الجميله
وأجرني فالخطب عض بناييه واجرى إلى حماي خيوله
ولو أني دعا بنصري داع كنت لي خير معشر وفصيله
أنه امرى إلى الذي جعل الله أمور الدنيا له مكفـ
وأراه في ملكه الآيـ الكرى فولاه ثم كان مـ
أشهدته عناية الله في التـ أن كسان عونه ومتيله
العزیز السلطان والملك الظـ هر فخر الدنيا وعز القـ
ومجير الإسلام من كل خطبـ كاد زلزال بأسه أن يـ
ومذيل العدو بالطعنة التجـ وتفري ماذيـ ونـ
وشكور لأنعم الله يقني في رضاه غـ واصلـ
وتلفظ في وصف حالي وشكـ خلتي يا صفيه وخليـ
وقل له والمقال يكرم من مثلك في عـ العـ أن يقـ
يا خوند الملوك يا معد الدـ هر إذا عدل الزمان فـ

زلت أرجيك للأياد الطويله لا تقصر في جبر كسري فما
ونهجتكم إلى المعالي سبيله أنا جار لكم منعتم حمـ
والحزن بالرضى والسهوله وغرب أنستموه على الوحـ
فراقاً وما قضى مأموله وجمعتم من شمله فقضى الله
لـ وما كان ظنه أن يفوله وغاله الدهر في البنين وفي الأهـ
احتاجت عليه فروعه وأصوله ورمته النوى فقيداً قد
كل ما شئت العـ أن تنيله فـبـبـم بـبـمـه وأنـم
يشكو إليكم عيـاه ومـوله ورفـتم من قدره قبل أن
حاش لله أن ترى مستحيله وفـرـتم له حـقـقـة ود
وأنا من خبرت دهرى وجيله همة ما عرفتها لسواكم
كلها في طرائق معلوله والعـا نـمـوا أحـادـث إفـك
نصبرها لأمرهم أحـوله ووجـوا في شـاني غـرائـب زور
البهتان ظنا بأنها مقبولة ورموا بالذي أرادوا من
ل ما لا يظن بي أن أقوله زعموا أنني أتيت من الأقوا
شكر نعماكم علي الجزيله كيف لي أغـمـط الحـقـوق وأـني
سرفها الشمس والظلال الظليله كيف لي أنكر الأيادي التي تمـ
الله تعالى وخنت جهراً رسولـ إن يكن ذا فقد برئت من
لقداح الظنون فينا مجيله زعموا أنني أتيت من الأقوا
على قلب من وعى تنزيله كيف لي أنكر الأيادي التي تمـ
طوعاً ولا اقتيناً دليله ما رضينا بذلك فعلاً ولا جـتـنا
لا يرجى دفاعه بالحيلـه إنما سامنا الكتاب ظلوم
وسلاح للوخز فينا صـقـيله سـخـط نـاجـز وحـلـم بطـيـه
ولا ساجداً ليهـم ذيولـه ودعوني ولست من منصب الحـكم
يتقصى أوتاره وذـحـولـه غير أنني وشى بذكري واش
تمحور الأصـار عـنا الثـقـيله فـكـبـنا مـعـولـين عـلى حـلـمـك
ولا عـنـوا لـنا تـفـصـيله ما أشرنا به لزيد ولا عمرو
مبهمات أحكامها منقولـه إنما يذكرون عمن وفيمن
أضـمـروا من شـنـاعـة أو ذـليلـه ويظنون أن ذاك على ما
وظـلـام لم يـمـسـنوا تـأويلـه وهو ظن عن الصواب بعيد
عن العـاب بـالـهـدى والـفـصـيله وجناب السلطان نزهه الله
يرنجيه ذنب دهره لـقـبـيله وأجل الملوك قدراً صفوح
بـحـيـاة السـلـطان مـنـكـم قـبـوله فـاقـبـلوا العـذر إنـنا الـيـوم نـرجـو
يشـكـي جـدـب عـيشـه ومـحـوله وأعـينوا على الزمان غـريـا
لا يـضـيع الكـريـم يـومـاً نـزـيله جاركم ضيقكم نزيل حمـكم
فرسوم الكرام غير محيله جددوا عنده رسوم رضـكم
ست عقود اصطباره محـولـه داركوه برحمة فـلـقـد اـمـ
غير إحسانكم لهـذي النـحـيله واغـلـوه جـيراً فـلـيس يـرجـي
الطنـبـا يا روض العـلا ومـقـيله يا حميد الآثار في الدهر يا

بالإتحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالههم الملوكية، فسنت لذلك طرائق وأخبار مشهورة، من حقها أن تذكر، وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مريـن، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائه، وهو يومئذ الناصر بن محمد بن قلاوون، هدية ضخمة، أصبحها كريمة من كرائم داره، احتفل فيها ما شاء من أنواع الطرف، وأصناف الذخائر، وخصوصاً الخيل والبغال.

أخبرني الفقيه أبو إسحاق الحسناوي، كاتب الموحدين بتونس، أنه عاين تلك الهدية عند مرورها بتونس، قال: وعددت من صنف البغال الفارغة فيها أربعمائه، وسكت عما سوى ذلك. وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب، أبو الحسن التنسي كبير أهل الفتيا بلمسان. ثم كافأ الناصر عن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل مع أميرين من أمراء دولته، أدركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تلمسان، فبعثهما إلى مراکش للتزاهة في محاسنها، وأدركه الموت في مغبيهما، ورجعا من مراکش، فجهزهما حافده أبو ثابت المالك بعده، وشيعهما إلى مصر، فاعترضهما قبائل حصين ونهبوهما، ودخلا بجاية، ثم مضيا إلى تونس، ووصلا من هنالك إلى مصر.

ولما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان، اقترحت عليه جارية أبيه أبي سعيد، وكانت لها عليه تربية، فأرادت الحج في أيامه ويعنائه، فأذن لها في ذلك، وبعث في خدمتها وليه عريف بن يحيى من أمراء سويد، وجاعة من أمرائه وبطانته، واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء. وانتقى من الخيل العتاق، والمطايا الفره وقماش الحرير والكتان، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة، والأواني المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كل مصر من المغرب بأصناف من صنائعها، متشابهة الأشكال والأنواع، حتى لقد زعموا أنه كان فيها مكيلة من اللالكى والفصوص، وكان ذلك وقر خمس مائة بعير، وكانت عتاق الخيل فيها خمس مائة فرس، بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر، واللجم المذهبة، والسيوف الحلاة بالذهب واللالكى، كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار، وتدرجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة، فكانت قيمته مائة دينار. تحدث الناس بهذه الهدية دهراً، وعرضت بين يدي الملك الناصر، فأشار إلى خاسكيتها بانتهاها فنهت بين يديه، وبلغ في كرامة أولئك الضيوف، في إزاهم وقراهم وإزوادهم إلى الحجاز وإلى بلادهم، وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاره الناس في مجالسهم وأسمارهم، وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائه.

ولما فصل أرسال ملك المغرب، وقد قضا فرضهم، بعث

كيف بالخائفه ينقل عني
بل تقلدتها شغوراً بمرسو
ولقد كنت آملاً لسواها
وتوثقت للزمان عليها
أبلغن قصي فمئلك من يقـ
واغنموا من مئوسني ودعائي

وفي التعريض يسفره إلى الشام:

واصبح العز ظافراً بالأمانني
واعتمل في سعادة الملك الظا
وتعيد الدنيا لأحسن شمل
واطلب النصر من سعاده يصحبك
وارتقب ما يجله بالأعادي
وخذره فالأبحسن قبول
فلقد كان يحسن الفال عند

السعاية في المهاداة والإتحاف بين ملوك

المغرب والملك الظاهر

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتجاورون بعضهم بعضاً بالإتحاف بطرف أوطانهم، للمواصله والإعانة متى دعا إليها داع. وكان صلاح الدين بن أيوب هادي يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن، واستجاش به بأسطوله في قطع مدد الفرنج عن سواحل الشام حين كان معيماً بإرجاعهم عنها، وبعث في ذلك رسوله عبد الكريم بن منقذ من أمراء شيزر، فأكرم المنصور رسوله، وقعد عن إجابته في الأسطول لما كان في الكتاب إليه من العدول عن تخطيطه بأمير المؤمنين، فوجدها غصة في صدره منعته من إجابته إلى سؤاله، وكان المانع لصلاح الدين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني بما كان يشاوره في أموره، وكان مقيماً لدعوة الخليفة العباسي بمصر، فرأى الفاضل أن الخلافة لا تتعدل لاثنين في الملة كما هو المشهور، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك، لما يرون أن الخلافة ليست لقباً فقط، وإنما هي لصاحب العصية القائم عليها بالشدة والحماية، والخلاف في ذلك معروف بين أهل الحق.

فلما انقرضت دولة الموحدين، وجاءت دولة بني مريـن من بعدهم، وصار كبارهم ورؤساؤهم يتعاهدون قضاء فرضهم لهذه البلاد الشرقية، فيتعاهدهم ملوكها بالإحسان إليهم، وتسهيل طريقهم، فحسن في مكارم الأخلاق انتحال البر والمواصله،

أصناف الهدية، فعاجلته المنية دون ذلك، وولي ابنه أبو فارس، وبقي أياماً ثم هلك، وولي أخوه أبو عامر، فاستكمل الهدية، وبعثها صحبة يوسف بن علي الوارد الأول.

وكان السلطان الملك الظاهر، لما أبطا عليه وصول الخيل من المغرب، أراد أن يبعث من أمرائه من يتقي له ما يشاء بالشراء، فعين لذلك مملوكاً من عماليكه منسوباً إلى تربية الخليلي، اسمه قطلوبغا، وبعث عني، فحضرت بين يديه، وشاورني في ذلك فوافقته، وسألني كيف يكون طريقه، فأشرت بالكتاب في ذلك إلى سلطان تونس من الموحدين، و Sultan تلمسان من بني عبد الواد، و سلطان فاس والمغرب من بني مريس، وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقنسي، وانصرف عام تسعة وتسعين وسبعمائة إلى المغرب، وشيعه كل واحد من ملوكه إلى مأمته، وبالح في إكرامه بما يتعين. ووصل إلى فاس، فوجد الهدية قد استكملت، ويوسف بن علي على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان أبي العباس المخاطب أولاً. وأظلم عيد الأضحى بفاس، وخرجوا متوجهين إلى مصر، وقد أفاض السلطان من إحسانه وعطائه، على الرسول قطلوبغا ومن في جملة بما أقر عيونهم، وأطلق بالشكر الستهم، وملاً بالثناء ضمايرهم، ومروا بتلمسان، وبها يومئذ أبو زيان، ابن السلطان أبي هو من آل يغمرا من بني زيان، فبعث معهم هدية أخرى من الجياد بمراكبها، وكان يحوك الشعر، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته، ونصها من أولها إلى آخرها:

لئن الركائب سيرهن دميل والصبر - إلا بعدهن - جميل
يا أيها الحادي رويدك إنها ظعن يميل القلب حيث تميل
رفقاً بمن حملته فسوق ظهورها فالحسن فوق ظهورها محمول
لله آية العجيم: شسفافة تنجيب عنها للظلام سدول
شهب بأفاق الصدور طلوعها ولها بأستار الجدول أفصول
في المسودج المزور منها غداة تنزع الدجى بجبينها فيحسول
فكانها قمر على غصن على متني كتيب والكتيب مهيل
ثارت مطايا ثثار بي الهوى واعتاد قلبي زفرة وغليل
أومت لتو ديعي فغالب عبرتي نظرت خالسه العيون كليل
دمع اغيض منه خوف رقيبها طوراً ويغلبني الأسى فيسيل
ويح الحب وشت به عبراته فكانها قال عليه وقيل
صان الهوى وجفونه يوم النوى لمصون جوهـر دمعهن تذييل
وتهايه أسد الشرى في خيسها ويروعه ظي الحمى المححول
تألى النفوس الضيم إلا في الهوى فالحر عبد والعزير ذليل
يا بانه الوادي ويا أهل الحمى هل ساعة تصنين لي فسأقول

الملك الناصر معهم هدية كفاء هديتهم، وكانت أصنافها حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية، تحمل كل عام إلى دار السلطان، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور، تشتمل على بيوت للمراقد، وأواوين للجلوس والطبخ، وأبراج للإشراف على الطرقات، وأبراج أحدها للجلوس السلطان للعرض، وفيها تمثال مسجد بمحاربه، وعمده، وماذنته، حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة مفصلة على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها. وكان فيها خيمة أخرى مستديرة الشكل، عالية السمك، مخروطة الرأس، رحة الفناء، تظل خمس مائة فارس أو أكثر، وعشرة من عتاق الخيل بالمرابك الذهبية الصقيلة، لجمها كذلك، ومرت هذه الهدية بتونس، ومعها الخدام القائمون بنصب الأبنية، فعرضوها على السلطان بتونس. وعانيت يومئذ أصناف تلك الهدية، وتوجهوا بها إلى سلطانهم، وبقي التعجب منها دهرأ على الألسنة. وكان ملوك تونس من الموحدين، يتعاهدون ملوك مصر بالهدية في الأوقات.

ولما وصلت إلى مصر، واتصلت بالملك الظاهر، وغمرني بنعمه وكرامته كاتبت السلطان بتونس يومئذ، وأخبرته بما عند الملك الظاهر من التشوف إلى جياد الخيل، وخصوصاً من المغرب، لما فيها من تحمل الشدة والصبر على المتاعب، وكان يقول لي مثل ذلك، وأن خيل مصر قصرت بها الراحة والتنع عن الصبر على التعب، فحضضت السلطان بتونس على إتحاف الملك الظاهر بما يتقيه من الجياد الرائعة، فبعث له خمسة انتقاه من مراكبه، وحملها في البحر في السفين الواصل بأهلي وولدي، ففرقت بمرسى الإسكندرية، ونفقت تلك الجياد، مع ما ضاع في ذلك السفين، وكل شيء بقدر.

ثم وصل إلينا عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة شيخ الأعراب: المعقل بالمغرب، يوسف بن علي بن غانم، كبير أولاد حسين ناجياً من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم، من ملوك بني مريس بفاس، يروم قضاء فرضه، ويتوسل بذلك لرضى سلطانه، فوجد السلطان غائباً بالشام في فتنة منطاش، فعرضته لصاحب الحمل. فلما عاد من قضاء فرضه، وكان السلطان قد عاد من الشام، فوصلته به، وحضر بين يديه، وشكا به، فكتب الظاهر فيه شفاعاً لسلطان وطنه بالمغرب، وحمله مع ذلك هدية إليه من قماش وطيب وقسي، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قطر المغرب، وانصرف، فقبل سلطانه فيه شفاعاً الظاهر، وأعادته إلى منزلته. وانتقى الخيول الرائعة لمهاداة الملك الظاهر، وأحسن في انتقاء

مالي إذا هب النسيم من الحمى
 خلوا الصبا يخلص إلي نسيمها
 ما لي أحلاً عن ورود محله
 والباب ليس بمرتج عن مرتج
 من لي بزورة روضة الهادي الذي
 هو أحمد ومحمد والمصطفى
 يا خير من أهدى الهدى وأجل من
 وحي من الرحمن بليقيه على
 مدحتك آيات الكتاب وبشرت
 صلة الصلاة عليك تحلو في فمي
 فوريحك المأهول إن بأضلمي
 هل من سبيل للسرى حتى أرى
 حتام تغطلي الليالي وعدما
 ما عاقتي إلا عظيم جرائمي
 أنا مغرم فتعطفوا أنا مذنب
 وأنا البعيد فقبروا والمستجير
 يا سائفاً نحو الحجاز حولة
 لمحمد بلغ سلام سمييه
 وسل الإله له اغتفار ذنوبه
 وعن المليك أبي سعيد فلتتب
 منحمل لله كسوة بيته
 سعد المليك أبي سعيد إنه
 ملك يحج المغرب الأقصى به
 ملك به نام الأنام وأمنت
 فالملك ضخم والجناب مؤمل
 والصنع أجمل والفخار مؤئل
 يا مالك البحرين بلغت النسي
 يا خدام الحرمين حق لك الهنا
 يسا متحفي ومفانحي برسالة
 أهديتها حسناء بكرة ما لها
 ضاء المداد من الوداد بصحفها
 جمعت وحاملها بمحضرتنا كما
 وتساكدت بهديدة ودبة
 أطلعت فيها للقسي أهلة
 وحسام نصر زاهياً بنضاره
 ماضي الشبا لمصابه نعنو الظبا
 وبدائع الحلل اليمانية التي
 فأجلت فيها ناظري فرائيتها

ارتاح شوقاً للحمى وأميل
 إن الصبا لصبايتي تعليل
 وأداد عنهه وورده منهول
 والظن في المولى الجميل جميل
 ما مثله في المرسلين رسول
 والمجتبى وله انتهى التفضيل
 أثنى عليه الوحي والتنزيل
 قلب النبي محمد جبريل
 بقدومك الثنورة والإنجيل
 مهما تكرر ذكرك المعسول
 قلباً بحبك ريعه مأهول
 خير الوري فهو المنى والسول
 إن الزمان بوعدده لبخيل
 إن الجرائم لهم من ثقل
 فتجاوزوا أنا عاثر فاقبلوا
 فأمنوا والمرغى فأتيلوا
 والقلب بين حمله عمول
 فذمامه بمحمد موصول
 يسمع هناك دعاؤك القبول
 فلکم له نحو الرسول رسول
 يا حبذاك المحمل المحمول
 سيف على أعدائه مسلول
 فلهم به نحو الرسول وصول
 سبل المخاف فلا يخاف سبيل
 والفضل والعطاء جزيل
 والمجد أكمل والوفاء أصيل
 قد عاد مصر على العراق وصول
 فعليك من روح الإله قبول
 سلسالة يزهى بها الترسيل
 غيري، وإن كثر الرجال، كفيل
 حتى اضمحل عبوسه المجلول
 جمعت بثينة في الهوى وجميل
 هي للإخاء المرتضى تكميل
 يرتد عنها الطرف وهو كليل
 راق العيون فرنده المعسول
 فبه تصول على العدا وتطول
 روى معاطفها بمصر النيل
 تحفاً يحول الحسن حيث تحول

جلت محاسنها فأهوى نحوها
 يا مسعدي وأخي العزيز ومنجدي
 إن كان رسم الود منك منيلاً
 فنظيره عندي وليس يضيره
 ود يزيد وثابت شهدا به
 وإليكها تنبيك صدق مودتي
 فإذا بذلك المجلس السامي سميت
 دام الوداد على البعاد موصلا
 وبقيت في نعم لديك مزيداً

بفم القبول اللثم والتقبيل
 ومن القلوب إلى هواء تميل
 بالبر وهو بنيله موصول
 بمعارض وهم ولا تخمّل
 ولخالد يخلصوده تذييل
 صح الدليل ووافق المدلول
 فليدك إقبال لها وقبول
 بين القلوب وحبله موصول
 وعليك يضمرو ظله المسدول

ثم مروا بعدها بتونس، فبعث سلطان تونس أبر فارس عبد
 العزيز ابن السلطان أبي العباس من ملوك الموحدين، هدية ثالثة
 انتقى لها جياد الخيل، وعزز بها هدية السلطانين وراه، مع رسوله
 من كبار الموحدين أبي عبد الله بن تافراكين، ووصلت الهدايا
 الثلاث إلى باب الملك الظاهر في آخر السنة، وعرضت بين يدي
 السلطان، وانتهت الخاسكية ما كان فيها من الأقمشة والسيوف
 والبسط ومراكب الخيل، وحمل كثيراً منهم على كثير من تلك
 الجياد وارتبط الباقيات.

وكانت هدية صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين
 من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية، والسيوف المحلاة،
 وخمسة وثلاثين حملاً من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد،
 متقاة من أحسن هذه الأصناف.

وهدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد
 بمراكبها الموهبة، وأحماً من الأقمشة.

وهدية صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مغشاة
 ببراقع الثياب من غير مراكب، وكلها أنيق في صنعه مستطرف في
 نوعه، وجلس السلطان يوم عرضها جلوساً فخماً في إيوانه،
 وحضر الرسل، وأدوا ما يجب عن ملوكهم. وعاملهم السلطان
 بالبر والقبول، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة، والأحوال
 الضخمة. ثم حضر وقت خروج الحاج، فاستأذنوا في الحج مع
 حمل السلطان، فأذن لهم، وأرغد أزودتهم. وقضوا حجهم،
 ورجعوا إلى حضرة السلطان ومعهود ميرته. ثم انصرفوا إلى
 مواطنهم، وشيعهم من ير السلطان وإحسانه، ما ملا حقائبهم،
 وأسنى ذخيرتهم، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكر جميل
 بما تناولت بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الباقية على
 الأبد، فحمدت الله على ذلك.

ولاية القضاء الثانية بمصر

واعتزموا على المضي إلى مصر. وكان السلطان لما انقضت جموع الأتابك، وسار إلى الشام، اعتمله في الحركة والسفر لخضد شوكتهم، وتفريق جماعتهم، وخرج في جمادى حتى انتهى إلى غزة، فجهاه الخبر بأن نائب الشام تنم، والأتابك، والأمراء الذين معه، خرجوا من الشام زاحفين للقاء السلطان، وقد احتشدوا وأوعبوا، واتهوا قريباً من الرملة، فراسلهم السلطان مع قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي، وناصر الدين الرماح، أحد المعلمين لثقافة الرماح، يعذر إليهم، ويحملهم على اجتماع الكلمة، وترك الفتنة، وإجابتهم إلى ما يطلبون من مصالحهم، فاشتطوا في المطالب، وصمموا على ما هم فيه. ووصل الرسولان بخبرهم، فركب السلطان من الغد، وعبى عساكره، وصمم لمعاجلتهم، فلقبهم أثناء طريقه، وهاجهم فهاجموه، ثم ولوا الأديار منهزمين. وصرع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه، فما غشيهم الليل إلا وهم مصفدون في الحديد، يقدمهم الأمير تنم نائب الشام وأكابرهم كلهم. ولما الأتابك أتمش إلى القلعة بدمشق، فأرى إليها، واعتقله نائب القلعة. وسار السلطان إلى دمشق، فدخلها على التبعة في يوم أغر، وأقام بها أياماً، وقتل هؤلاء الأمراء المعتقلين، وكبرهم الأتابك ذبحاً، وقتل تنم من بينهم خنقاً، ثم ارتحل راجعاً إلى مصر.

وكنت استأذنت في التقدم إلى مصر بين يدي السلطان لزيارة بيت المقدس، فأذن لي في ذلك. ووصلت إلى القدس ودخلت المسجد، وتبركت بزيارته والصلاة فيه، وتعفت عن الدخول إلى القمامة لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسي، ونكرت الدخول إليه. وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب، وانصرفت إلى مدفن الخليل عليه السلام. ومررت في طريقي إليه بيت لحم، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح، شيدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصخور، منجدة مصطفة، مرقوماً على رؤوسها صور ملوك القياصرة، وتواريخ دولهم، ميسرة لمن يفتني تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها، ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة وضخامة دولتهم. ثم ارتحلت من مدفن الخليل إلى غزة، وارتحلت منها، فوافيت السلطان بظاهر مصر، ودخلت في ركابه أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثمانمائة. وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنور الدين بن الحلال، ينوب أكثر أوقاته عن قضاة القضاة المالكية، فحرضه بعض أصحابه على السعي في المنصب، وبذل ما تيسر من موجدوره لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك، فتمت سعايته

ما زلت، منذ العزل عن القضاء الأول سنة سبع وثمانين وسبعمائة، مكباً على الاشتغال بالعلم، تأليفاً وتدریساً، والسلطان يولي في الوظيفة من يراه أهلاً متى دعاه إلى ذلك داع، من موت القائم بالوظيفة، أو عزله، وكان يراني الأولى بذلك، لولا وجود الذين شغبوا من قبل في شأني، من أمراء دولته، وكبار حاشيته، حتى انقرضوا. وانفقت وفاة قاضي المالكية إذ ذاك ناصر الدين بن التنسي، وكنت مقيماً بالقريوم لضم زرعني هنالك، فبعث عني، وقلدني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة، فجريت على السنن المعروف مني، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادة، وكان رحمه الله يرضى بما يسمع عني في ذلك. ثم أدركته الوفاة في منتصف شوال بعدها، وأحضر الخليفة والقضاة والأمراء، وعهد إلى كبير أبنائه فرج، ولأخوته من بعده واحداً واحداً، وأشهدهم على وصيته بما أراد. وجعل القائم بأمر ابنه في سلطانه إلى أتابكه أتمش، وقضى رحمه الله عليه، وترتبت الأمور من بعده كما عهد لهم، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان يعرف بتنم، وسمع بالواقعات بعد السلطان فنص أن لم يكن هو كافل ابن الظاهر بعده، ويكون زمام الدولة بيده. وطفق سبامسة الفتن يغرونه بذلك، وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتابك أتمش، وذلك أنه كان للأتابك دودار غر يتناول إلى الرئاسة، ويرفع على أكابر الدولة بحظه من استأذنه، وما له من الكفالة على السلطان، فنقموا حالهم مع هذا الدودار، وما يسومهم به من الترفع عليهم، والتعرض لإهمال نصائحهم، فأغروا السلطان بالخروج عن ربة الحجر، وأطاعهم في ذلك، وأحضر القضاة بمجلسه للدعوى على الأتابك باستغفائه عن الكافل، بما علم من قيامه بأمره وحسن تصرفاته. وشهد بذلك في المجلس أمراء أبيه كافة، وأهل المراتب والوظائف منهم، شهادة قبلها القضاة. وأعذروا إلى الأتابك فيهم فلم يدفع في شيء من شهادتهم، ونفذ الحكم يومئذ برغ الحجر عن السلطان في تصرفاته وسياسة ملكه، وانقض الجمع، ونزل الأتابك من الإصطبل إلى بيت سكنه. ثم عاود الكثير من الأمراء نظهرهم فيما أتوه من ذلك، فلم يروه صواباً، وحملوا الأتابك على نقضه، والقيام بما جعل له السلطان من كفالة ابنه في سلطانه. وركب، وركبوا معه في آخر شهر المولد النبوي، وقتلهم أولياء السلطان فرج عشي يومهم وليتها، فهزموهم، وساروا إلى الشام مستصرخين بالنائب تنم، وقد قر في نفسه ما قر من قبل، فبر وفادتهم، وأجاب صريحهم.

مشرقاً ببلاد البربر، من المغرب الأقصى والأوسط وأرض أفريقية والإسكندرية وأرض التيه وفلسطين والشام، وعليه في الغرب بلاد الإفرنج كلها، وخرج منه في الشمال خليجان: الشرقي منهما خليج القسطنطينية والغربي خليج البنادقة، ويسمى هذا البحر البحر الرومي، والشامي.

سفر السلطان إلى الشام لمدافعة الططر عن بلاده

هؤلاء الططر من شعوب الترك، وقد انشق النسابة والمؤرخون على أن أكثر أمم العالم فرقتان، وهما: العرب والترك، وليس في العالم أمة أوفر منهما عدداً، هؤلاء في جنوب الأرض، وهؤلاء في شمالها، وما زالوا يتناوبون الملك في العالم، فتارة يملك العرب ويزحلون الأعاجم إلى آخر الشمال، وأخرى يزحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب، سنة الله في عباده.

فلنذكر كيف انساق الملك هؤلاء الططر، واستقرت الدول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول:

إن الله سبحانه خلق هذا العالم واعتمره بأصناف البشر على وجه الأرض، في وسط البقعة التي انكشفت من الماء فيه، وهي عند أهل الجغرافيا مقدار الربع منه، وقسموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يسمونها الأقاليم، مبتدأة من خط الاستواء بين المشرق والمغرب، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤوس السكان، إلى تمام السبعة أقاليم. وهذا الخط في جنوب المعمور، وتنتهي السبعة الأقاليم في شماله. وليس في جنوب خط الاستواء عمارة إلى آخر الربع المكتشف، لإفراط الحر فيه، وهو يمنع من التكوين، وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة، لإفراط البرد فيها، وهو مانع من التكوين أيضاً. ودخل الماء المحيط بالأرض من جهة الشرق فوق خط الاستواء بثلاث عشرة درجة، في مدخل فسيح، وانساح مع خط الاستواء مغرباً، فمر بالصين، والهند والسند واليمن، في جنوبها كلها. وانتهى إلى وسط الأرض، عند باب المندب، وهو البحر الهندي والصيني، ثم انحرف من طرفه الغربي في خليج عند باب المندب، ومر في جهة الشمال مغرباً باليمن وتهامه والحجاز ومدين وأيلة وفاران، وانتهى إلى مدينة القلزم، ويسمى بحر السويس، وفي شرقيه بلاد الصعيد إلى عيذاب، وبلاد البجاة، وخرج من هذا البحر الهندي من وسطه خليج آخر يسمى الخليج الأخضر، ومر شمالاً إلى الأبله، ويسمى بحر فارس، وعليه في شرقيه بلاد فارس، وكرمان، والسند، ودخل الماء أيضاً من جهة الغرب في خليج متضايق في الإقليم الرابع، ويسمى بحر الزقاق، تكون سعته هنالك ثمانية عشر ميلاً. ويمر

ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة، تنقسم من شرقيها وغربيها بنصفين: فنصفها الغربي في وسطه البحر الرومي، وفي النصف الشرقي من جانبه الجنوبي البحر الهندي، وكان هذا النصف الغربي أقل عمارة من النصف الشرقي، لأن البحر الرومي المتوسط فيه، انفسح في انسياحه، فغمر الكثير من أرضه. والجانب الجنوبي منه قليل العمارة لشدة الحر، فالعمران فيه من جانب الشمال فقط، والنصف الشرقي عمرانه أكثر بكثير، لأنه لا بحر في وسطه يزاحم. وجانبه الجنوبي فيه البحر الهندي، وهو متسع جداً، فلفظ الهواء فيه بمجاورة الماء، وعدل مزاجه للتكوين، فصارت أقاليمه كلها قابلة للعمارة، فكثر عمرانها. وكان مبدأ هذا العمران في العالم، من لدن آدم صلوات الله عليه، وتناسل ولده العمران في العالم، من لدن آدم صلوات الله عليه، وتناسل ولده أولاً في ذلك النصف الشرقي، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح، ولم نعلم شيئاً من أخبارها، لأن الكتب الإلهية لم يرد علينا فيها إلا أخبار نوح وبنيه، وأما ما قبل نوح فلم نعرف شيئاً من أخباره، وأقدم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التوراة، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالوحي، وأما الأخبار فهي تدرس بدروس أهلها.

واتفق النسابون على أن النسل كله منحصر في بني نوح، وفي ثلاثة من ولده، وهم سام، وحام، ويافث، فمن سام: العرب، والعبرانيون، والسبائيون، ومن حام: القبط، والكنعانيون، والبربر، والسودان، ومن يافث: الترك، والروم، والخزر، والفرس، والديلم، والجبل.

ولا أدري كيف صح انحصار النسب في هؤلاء الثلاثة عند النسابين، أمن التقل؟ وهو بعيد كما قدمناه، أو هو رأي تفرع لهم من انقسام جماعة المعمور، فجعلوا شعوب كل جهة لأهل نسب واحد يشتركون فيه، فجعلوا الجنوب لبني سام، والمغرب لبني حام، والشمال لبني يافث. إلا أنه المتناقل بين النسابة في العالم، كما قلناه، فلنعتمده ونقول:

أول من ملك الأرض من نسل نوح عليه السلام، المنمرود بن كنعان بن كوش بن حام ووقع ذكره في التوراة. وملك بعده عابر بن شالخ الذي ينسب إليه العبرانيون، والسريانيون، وهم النبط، وكانت لهم الدولة العظيمة، وهم ملوك بابل، من نبيط بن

قام بها كتامة وقبائل البربر، واستولوا على المغرب ومصر، ودولة بني العلوي بطبرستان، قام بها الديلم وأخواتهم الجبل، ودولة بني أمية النائية بالأندلس، لأن بني العباس لما غلبوهم بالشرق، وأكثروا القتل فيهم، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ونجا إلى المغرب. ثم ركب البحر إلى الأندلس، فاجتمع عليه من كان هنالك من العرب وموالي بني أمية، فاستحدث هنالك ملكاً آخر لهم.

وانقسمت الملة الإسلامية بين هذه الدول الأربع إلى المائة الرابعة. ثم انقضى ملك العلوية من طبرستان، وانتقل إلى الديلم، فاقسموا خراسان وفارس والعراق، وغلبوا على بغداد، وحجر الخليفة بها بنو بويه منهم. وكان بنو سامان من أتباع بني طاهر قد تقلدوا عمالات ما وراء النهر، فلما فشل أمر الخلافة استبدوا بتلك النواحي، وأصاروا لهم فيها ملكاً ضخماً، وكان آخرهم محمود بن سبكتكين من مواليهم، فاستبد عليهم، وملك خراسان، وما وراء النهر إلى الشاش، ثم غزنة، وما وراءها جنوباً إلى الهند. وأجاز إلى بلاد الهند، فافتتح منها كثيراً، واستخرج من كنوزها ذخائر لم يعثر عليها أحد قبله.

وأقامت الملة على هذا النمط إلى انقضاء المائة الرابعة، وكان الترك منذ تعبدوا للعرب، وأسلموا على ما بأيديهم وراء النهر، من كاشغر، والصاغون إلى فرغانة، وولاهم الخلفاء عليها، فاستحدثوا بها ملكاً، وكانت بوادي الترك في تلك النواحي متبعة أمطار السماء، وعشب الأرض، وكان الظهور فيهم لقبيلة الغز من شعوبهم، وهم الخوز، إلا أن استعمال العرب لها عرب خاءها المعجمة غيناً، وأدغمت واوها في الزاي الثانية، فصارت زايًا واحدة مشددة. وكانت رئاسة الغز هؤلاء في بني سلجوق بن ميكائيل، وكانوا يستخدمون ملوك الترك بتركستان تارة، وملوك بني سامان في بخارى أخرى. وتحدث بينهما الفتنة، فيتألفون من شأؤوا منهما، ولما تغلب محمود بن سبكتكين على بني سامان، وأجاز من خراسان فنزل بخارى، واقتعد كرمسيهم، وتقبض على كبار بني سلجوق هؤلاء، وجسهم بخراسان. ثم مات وقام بالأمر أخوه مسعود، فملك مكانه، وانتقض عليه بنو سلجوق هؤلاء، وأجاز الغز إلى خراسان فملكوها، وملكوا طبرستان من يد الديلم، ثم أصبهان وفارس، من أيدي بني بويه، وملكهم يومئذ طغرل بك بن ميكائيل من بني سلجوق، وغلب على بغداد من يد بني معز الدولة بن بويه المستبدين على الخليفة يومئذ المطيع، وحجره عن التصرف في أمور الخلافة والملك، ثم تجاوز إلى عراق العرب، فغلب على ملوكه، وأبادهم، ثم بلاد البحرين وعمان، ثم على

أشور بن سام، وقيل نبيط بن ماش بن إرم، وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المسعودي. وغلبهم الفرس على بابل، وما كان في أيديهم من الأرض، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان، للملوك بابل هؤلاء، وللقبط بمصر: هذه في المغرب، والأخرى في المشرق، وكانوا يتحلون الأعمال السحرية، ويعولون عليها في كثير من أعمالهم، ويرابي مصر، وفلاحة بن وحشية، يشهدان بذلك. فما غلب الفرس على بابل، استقل لهم ملك المشرق، وجاء موسى صلوات الله عليه بالشرعية الأولية، وحرّم السحر وطرقه، وغلب الله له القبط بإغراق فرعون وقومه.

ثم ملك بنو إسرائيل الشام، واختطوا بيت المقدس، وظهر الروم في ناحية الشمال والمغرب، فغلبوا الفرس الأولى على ملكهم. وملك ذو القرنين الإسكندر ما كان بأيديهم، ثم صار ملك الفرس بالمشرق إلى ملوكهم الساسانية، وملك بني يونان بالشام والمغرب إلى القيصرية، كما ذكرنا ذلك كله من قبل. وأصبحت الدولتان عظيمتين، وانتظمتا العالم بما فيه. ونازع الترك ملوك فارس في خراسان، وما وراء النهر، وكانت بينهم حروب مشهورة، واستقر ملكهم في بني أفراسياب.

ثم ظهر خاتم الأنبياء محمد صلوات الله عليه، وجمع العرب على كلمة الإسلام، فاجتمعوا له، ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ وقبضه الله إليه، وقد أمر بالجهاد، ووعد عن الله بأن الأرض لأمة، فزحفوا إلى كسرى، وقبض بعد ستين من وفاته، فانتزعوا الملك من أيديهم، وتجاوزوا الفرس إلى الترك، والروم إلى البربر والمغرب، وأصبح العالم كله منتظماً في دعوة الإسلام. ثم اختلف أهل الدين من بعده في رجوعهم إلى من ينظم أمرهم، وتشيع قوم من العرب فزعموا أنه أوصى بذلك لابن عمه علي، وامتنع الجماعة من قبول ذلك، وأبوا إلا الاجتهاد في تعيينه، فمضى على ذلك السلف في دولة بني أمية التي استفحل الملك والإسلام فيها، وتناقل التشيع بتشعب المذاهب، في استحقاق بني علي، وأيهم يتعين له ذلك، حتى انشاق مذهب من مذهبهم إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فظهرت شيعته بخراسان، وملكوا تلك الأرض كلها، والعراق بأسره.

ثم غلبوا على بني أمية، وانتزعوا الملك من أيديهم، واستفحل ملكهم، والإسلام باستفحاله، وتعدد خلفاؤهم. ثم خامر الدولة ما يخامر الدول من الترف والراحة، ففشلوا. وكثر المنازعون لهم من بني علي وغيرهم، فظهرت دولة لبني جعفر الصادق بالمغرب، وهم العبيديون بنو عبيد الله المهدي بن محمد،

فاستولى على أمصار الشام التي كان هولاكو انتزعها من أيدي بني أيوب، واحدة واحدة، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه. ثم هدى الله أبغا بن هولاكو إلى الإسلام، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمه صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان على يد مريد من أصحاب شمس الدين كبرى، فتواطأ هو وأبغا بن هولاكو على الإسلام. ثم أسلم بعد ذلك بنو جقظاي وراء النهر، فانتظمت ممالك الإسلام في أيدي ولد جنكيزخان من المغل، ثم من الططر، ولم يخرج عن ملكهم منها إلا المغرب والأندلس ومصر والحجاز، وأصبحوا، وكأنهم في تلك الممالك خلف من السلجوقية والغز.

واستمر الأمر على ذلك لهذا العهد، وانقرض ملك بني هولاكو بموت أبي سعيد آخرهم سنة أربعين من المائة الثامنة. واقرت دولتهم بين عمال الدولة وقرايتها من المغل، فملك عراق العرب، وأذربيجان وتوريز، الشيخ حسن سبط هولاكو، واتصل ملكها في بنه لهذا العهد، وملك خراسان وطبرستان شاه ولي من تابعة بني هولاكو، وملك أصبهان، وفارس، بنو مظفر البردي من عاملهم أيضاً، وأقاموا بنو دوشي خان في مملكة صراي وآخرهم بها طقطمش بن بردي بك، ثم سما لبني جقظاي وراء النهر، وملوكهم أمل في التغلب على أعمال بني هولاكو، وبني دوشي خان، بما استفحل ملكهم هنالك، لعدم الترف والتنعم، فبقوا على البداوة، وكان لهم ملك اسمه ساطلمش هلك لهذا العهد، وأجلسوا ابنه على التخت مكانه، وأمراء بني جقظاي جميعاً في خدمته، وكبيرهم تيمور المعروف بتمر بن طرغاي فقام بأمر هذا الصبي وكفله، وتزوج أمه، ومد يده إلى ممالك بني دوشي خان التي كانت على دعوتهم وراء النهر، مثل سمرقند، وبخارى، وخوارزم، وأجاز إلى طبرستان وخراسان فملكهما. ثم ملك أصبهان، وزحف إلى بغداد، فملكها من يد أحمد بن أويس.

وفر أحمد مستجيراً بملك مصر، وهو الملك الظاهر برفوق، وقد تقدم ذكره، فأجاره، ووعدته النصر من عدوه. وبعث الأمير عمر رسلاً إلى صاحب مصر، يقرون معه الولاية والاتحاد، وحسن الجوار، فوصلوا إلى الرحبة، فلقبهم عاملها، ودار بينهم الكلام فأوحشوه في الخطاب، وأنزلهم، فبيت جميعهم، وقتلهم. وخرج الظاهر برفوق من مصر، وجمع العرب والتركمان، وأناخ على الفرات، وصرخ بطقطمش من كرسية بصراي، فحشد ووصل إلى الأبواب. ثم زحف عمر إلى الشام سنة ست وتسعين وسبعمئة وبلغ الرها، والظاهر يومئذ على الفرات، فخام عمر عن لقائه. وسار إلى محاربة طقطمش، فاستولى على أعماله كلها، ورجعت

الشام، وبلاد الروم، واستوعب ممالك الإسلام كلها، فأصارها في ملكه، وانقبضت العرب راجعة إلى الحجاز، مسلوية من الملك، كان لم يكن لهم فيه نصيب، وذلك أعوام الأربعين والأربعمئة، وخرج الإفرنج على بقايا بني أمية بالأندلس، فانتزعوا الملك من أيديهم، واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها، وضاق النطاق على العبيدين بالقاهرة بملوك الغز يزاحونهم فيها من الشام، بمحمود بن زنكي وغيره من أبنائهم ومملوكهم، وملكوك المغرب قد اقتطعوا ما وراء الإسكندرية، بملوك صنهاجة في أفريقية، والمثلثين المرابطين بعدهم بالمغرب الأقصى والأوسط، والمصامدة المرخين بعدهم كذلك، وأمام الغز والسلجوقية في ملك المشرق، وبنوهم وموالهم من بعدهم إلى انقضاء القرن السادس، وقد فشل ربح الغز، واختلت دولتهم، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المغل من شعوب الططر، وكان كاهناً، وجده النجر كاهناً مثله. ويزعمون أنه ولد من غير أب، فغلب الغز في المغازة، واستولى على ملك الططر، وزحف إلى كرسي الملك بخوارزم. وهو علاء الدين خوارزم شاه، سلفه من موالي طغرل بك، فغالبه على ملكه، وفر أمامه، وابتغى إلى بحيرة طبرستان، فنجأ إلى جزيرة فيها، ومريض هنالك ومات، ورجع جنكيزخان إلى مازندران، من أمصار طبرستان فنزلها، وأقام بها، وفي عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغز، وأنزل ابنه طولي بك كرسي خراسان، وابنه دوشيخان بصراي وبلاد الترك، وابنه جقظاي بكرسي الترك فيما وراء النهر، وهي كاشغر وتركستان، وأقام بمازندران إلى أن مات جنكيزخان ودفن بها، ومات ابنه طولي وله ولدان، قبلاي وهولاكو، ثم هلك قبلاي، واستقل هولاكو بملك خراسان، وحدث بينه وبين بركة بن دوشيخان فتنة بالمنازعة في القانية، تحاربوا فيها طويلاً، ثم أقصروا، وصرف هولاكو وجهه إلى بلاد أصبهان، وفارس، ثم إلى الخلفاء المستبدين ببغداد، وعراق العرب، فاستولى على تلك النواحي، واقتحم بغداد على الخليفة المستعصم، آخر بني العباس وقتله، وأعظم فيها العيث والفساد، وهو يومئذ على دينه من المجوسية، ثم تخطاه إلى الشام، فملك أمصاره وحواضره إلى القدس، وملوك مصر يومئذ من موالي بني أيوب قد استحاشوا ببركة صاحب صراي، فزحف إلى خراسان ليأخذ بمجزة هولاكو عن الشام ومصر. وبلغ خبره إلى هولاكو فحرد لذلك، لما بينهما من المنافسة والعداوة، وكر راجعاً إلى العراق، ثم إلى خراسان، لمداغة بركة. وطالت الفتنة بينهما إلى أن هلك هولاكو سنة ثلاث وستين من المائة السابعة، وزحف أمراء مصر من موالي بني أيوب، وكبيرهم يومئذ قطز، وهو سلطانهم

قبائل المغل إلى تمر، وساروا تحت رايته. وذهب طقطمش في ناحية الشمال، وراء بلغار، متدعماً بقبائل أروس من شعوب الترك في الجبال. وسارت عصائب الترك كلها تحت رايات تمر، ثم اضطرب ملوك الهند، واستصرخ خارج منهم بالأمير تمر، فسار إليهم في عساكر المغل، وملك دلي، وفر صاحبها إلى كنيابة مرسى بحر الهند، وعاثوا في نواحي بلاد الهند. ثم بلغه هنالك مهلك الظاهر برقوق بمصر، فرجع إلى البلاد، ومر على العراق، ثم على أرميتته وأرزنكان، حتى وصل سيواس فخر بها، وعاث في نواحيها، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التاسعة. ونازل قلعة الروم، فامتنت، وتجاوزها إلى حلب، فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها، ففضهم، واقتحم المغل المدينة من كل ناحية. ووقع فيها من العيث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم، ما لم يعهد الناس مثله، ووصل الخبر إلى مصر، فتجهز السلطان فرج ابن الملك الظاهر إلى المدافعة عن الشام، وخرج في عساكره من الترك مسابقاً المغل وملوكهم تمر أن يصدهم عنها.

لقاء الأمير عمر سلطان المغل والطرط

لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير عمر ملك بلاد الروم، وخرب سيواس، ورجع إلى الشام، جمع السلطان عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة، استدعاني دوادره يشبك وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان، فتجافيت عن ذلك. ثم أظهر العزم علي بلين القول، وجزيل الإنعام فأصخيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث وثمانمائة، فوصلنا إلى غزة، فأراحنا بها أياماً ترقب الأخبار، ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الططر إلى أن نزلنا شقحب، وأسرينا فصبحنا دمشق، والأمير عمر في عساكره قد رحل من بعلبك قاصداً دمشق، فضرب السلطان خيامه وأبنته بساحة قبة يلغا. وبنس الأمير عمر من مهاجمة البلد، فأقام بمرقب على قبة يلغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر، تحاول العسكران في هذه الأيام مرات ثلاثاً أو أربعاً، فكانت حريهم سجالاً، ثم نفي الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يحاولون الحرب إلى مصر للشورة بها، فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشية من انتقاض الناس وراءهم، واختلال الدولة، بذلك ليلة الجمعة من شهر (...). وركبوا جبل الصالحية، ثم انخطوا في شعابه، وساروا على شافة البحر إلى غزة، وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السلطان سار على الطريق الأعظم إلى مصر، فساروا عصباً وجماعات على شقحب إلى أن وصلوا إلى

مصر، وأصبح أهل دمشق متحيرين قد عميت عنهم الأنباء. وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير عمر على يوتهم وحرهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكره، فلم يوافقوه. وخرج القاضي برهان الدين بن مفلح الخليلي ومعه شيخ الفقهاء بزاوية (...). فأجابهم إلى التأمين، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة، فخرجوا إليه متدلين من السور بما صيحه من التقدم، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد، وتصرف الناس في المعاملات، ودخل أمير يتزل بمحل الإمارة منها، ويملك أمرهم بعز ولايته.

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرت مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه، فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع، وأنكر البعض ما وقع من الاستئمان إلى القول. وبلغني الخبر من جوف الليل، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التخلي من السور، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر، فأبوا علي أولاً، ثم أصخوا لي، ودلوني من السور، فوجدت بطانته عند الباب، ونائبه الذي عينه للولاية على دمشق، واسمه شاه ملك، من بني جقطي أهل عصابته، فحيثهم وحيوني، وفديت وفدونتي، وقدم لي شاه ملك مركوباً، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه. فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه، ثم زيد في التعريف باسمي أنني القاضي المالكي المغربي، فاستدعاني، ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئاً على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه، يشير بها إلى عصب المغل جلوساً أمام خيمته، حلقاً حلقاً. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت إيماء الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلي لقبليتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت.

ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألني من أين جئت من المغرب؟ ولم جئت؟ فقلت: جئت من بلاد لقضاء الفرض ركبتم إليها البحر، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين من هذه المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها. فقال لي: وما فعل معك؟ قلت: كل خير، بر مقدمي، وأرغد قراي،

في الجانب الشمالي الشرقي، من أمة بادية أهل خيام، تغلب على الممالك، وتقلب الدول، وتستولي على أكثر المعمور. فقلت: ومتى زمنه؟ فقال: عام أربعة وثمانين تنشر أخباره، وكتب لي بمثل ذلك الطبيب ابن زرزر اليهودي، طبيب ملك الأفرنج ابن أذفونش ومنجمه. وكان شيعي رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الأيلي متى فاضته في ذلك، أو سابلته عنه يقول: أمره قريب، ولا بد لك إن عشت أن تراه.

وأما التصوفة فكانت نسمع عنهم بالمغرب ترقبهم هذا الكائن، ويرون أن القائم به هو الفاطمي المشار إليه في الأحاديث النبوية من الشيعة وغيرهم، فأخبرني يحيى بن عبد الله حافد الشيخ أبي يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب، أن الشيخ قال لهم ذات يوم، وقد اقتتل من صلاة الغداة: إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي، وكان ذلك في عشر الأربعين من المائة الثامنة، فكان في نفسي من ذلك كله ترقب له.

فوقع في نفسي لأجل الرجل الذي كنت فيه أن أفأوضه في شيء من ذلك يستريح إليه، ويأنس به مني، ففأخفته وقلت: أيدك الله! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أغنى لقاءك. فقال لي الترجان عبد الجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران، الأول: أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما اعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست عن يقول في الأمور بالجزاف، فإني من أهل العلم، وأين ذلك فأقول:

إن الملك إنما يكون بالعصية، وعلى كثرتها يكون قدر الملك، واتفق أهل العلم من قبل ومن بعد، أن أكثر أسم البشر فرقان: العرب والترك، وأنتم تعلمون ملك العرب كيف كان لما اجتمعوا في دينهم على نبينهم، وأما الترك ففي مزاحمتهم للملوك الفرس، وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصابتهم من الملك. ولا يساويهم في عصيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى، أو قيصر، أو الإسكندر، أو يختصر، أما كسرى فكبير الفرس وملكهم، وأين الفرس من الترك؟ وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم، وأين الروم من الترك؟ وأما يختصر فكبير أهل بابل، والنبط. وأين هؤلاء من الترك؟ وهذا برهان ظاهر على ما ادعيت في هذا الملك.

وأما الأمر الثاني بما يحملني على تمني لقائه، فهو ما كنت أسمعه من أهل الحدثن بالمغرب، والأولياء، وذكرت ما قصصته من ذلك قبل. فقال لي: وأراك قد ذكرت يختصر مع كسرى، وقيصر، والإسكندر، ولم يكن في عدادهم، لأنهم ملوك أكابر. ويختصر قائد من قواد الفرس، كما أنا نائب من نواب صاحب

وزودني للحج، ولما رجعت وفر جرايتي، وأقمت في ظله ونعمته، رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليته إياك القضاء؟ فقلت: مات قاضي المالكية قبل موته بشهر، وكان يظن بي المقام المحمود في القيام بالوظيفة، وتحري المعدلة والحق، والإعراض عن الجاه، فولاني مكانه، ومات لشهر بعدها، فلم يرض أهل الدولة بمكاني، فأدالوني منها بغيري جزاهم الله. فقال لي: وأين ولدك؟ فقلت: بالمغرب الجواني كاتب للملك الأعظم هناك. فقال: وما معنى الجواني في وصف المغرب؟ فقلت هو عرف خطابهم معناه الداخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة، وأفريقية، والمغرب الأوسط: تلمسان وبلاد زناتة، والأقصى: فاس ومراكش، وهو معنى الجواني. فقال لي: وأين مكان طنجة من ذلك المغرب؟ فقلت: في الزاوية التي بين البحر المحيط، والخليج المسمى بالزقاق، وهو خليج البحر الشامي، فقال: وسبته؟ فقلت: على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقرب مسافته، لأنها هناك نحو العشرين ميلاً. فقال: وفاس؟ فقلت: ليست على البحر، وهي في وسط التلول، وكروسي ملوك المغرب من بني مرين. فقال: وسجلماصة، قلت: في الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعني هذا، وأحب أن تكتب لي ببلاد المغرب كلها، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، حتى كائني أشاهده. فقلت: يحصل ذلك بسعادتك، وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك، وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون قدر اثني عشرة من الكرايس المنظمة القطع. ثم أشار إلى خدمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشنة، ويحكمونه على أبلغ ما يمكن، فأحضرت الأواني منه، وأشار بعرضها علي، فمئلت قائماً وتناولتها وشربت واستطبت، ووقع ذلك منه أحسن المواقع، ثم جلست وسكتنا، وقد غلبني الرجل بما وقع من نكبة قاضي القضاة الشافعية، صدر الدين المناوي، أسره التابعون لعسكر مصر. بشقحب، وردوه، فحبس عندهم في طلب الفدية منه، فأصابنا من ذلك وجل، فزورت في نفسي كلاماً خاطبته به، وأنلفطه بتعظيم أحواله، وملكه. وكنت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدثن في ظهوره، وكان المنتجمون المتكلمون في قرانات العلويين يترقبون القرآن العاشر في الثلثة الهوائية، وكان يترقب عام ستة وستين من المائة السابعة. فلقيت ذات يوم من عام أحد وستين وسبع مائة بجامع القرويين من فاس، الخطيب أبا علي بن باديس خطيب قسنطينة، وكان ماهراً في ذلك الفن، فسألته عن هذا القرآن المتوقع، وما هي آثاره؟ فقال لي: يدل على ثائر عظيم

أيدي النهاية على بيوت أهل المدينة، فاستعربوا أناسيها، وأمتعتها، وأضرمو النار فيما بقي من سقط الأقمشة والخرشي، فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب، فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم، وارتفعت إلى سقفه، فسال رصاصه، وتهدمت سقفه وحوائطه، وكان أمراً بلغ مبالغه في الشناعة والقيح. وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد، ويحكم في ملكه ما يشاء. وكان أيام مقامي عند السلطان عمر، خرج إليه من القلعة يوم أمن أهلها رجل من أعقاب الخلفاء بمصر، من ذرية الحاكم العباسي الذي نصبه الظاهر بيبرس، فوقف إلى السلطان عمر يسأله النصفة في أمره، ويطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه، فقال له السلطان عمر: أنا أحضر لك الفقهاء والقضاة، فإن حكموا لك بشيء أنصفتك فيه. واستدعى الفقهاء والقضاة، واستدعاني فيهم، فحضرنا عنده وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصب الخلافة، فقال له عبد الجبار: هذا مجلس النصفة فتكلم. فقال: إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا، إن الحديث صح بأن الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا، يعني أمر الخلافة. وإني أحق من صاحب المنصب الآن بمصر، لأن آبائي الذين ورثهم كانوا قد استحقوه، وصار إلى هذا بغير مستند، فاستدعى عبد الجبار كلاً منا في أمره، فسكتنا برهة، ثم قال: ما تقولون في هذا الحديث، قال برهان الدين بن مفلح: الحديث ليس بصحيح. واستدعى ما عندي في ذلك فقلت: الأمر كما قلتم من أنه غير صحيح، فقال السلطان عمر: فما الذي أثار الخلافة لبني العباس إلى هذا العهد في الإسلام؟ وشافني بالقول، فقلت: أيدك الله! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبي ﷺ، هل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأمرهم في دينهم وديناهم، أم لا يجب ذلك؟ فذهب طائفة إلى أنه لا يجب، ومنهم الخوارج، وذهب الجماعة إلى وجوبه، واختلفوا في مستند ذلك الوجوب، فذهب الشيعة كلهم إلى حديث الوصية، وأن النبي ﷺ أوصى بذلك لعلي، واختلفوا في نقلها عنه إلى عقبه إلى مذهب كثيرة تشذ عن الحصر. وأجمع أهل السنة على إنكار هذه الوصية، وأن مستند الوجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد، يعنون أن المسلمين يجتهدون في اختيار رجل من أهل الحق والفق والعدل، يفوضون إليه النظر في أمورهم.

ولما تعددت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفية إلى بني العباس، أوصى بها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ويث دعائه بخراسان. وقام أبو مسلم بهذه الدعوة، فملك خراسان والعراق، ونزل شيعتهم الكوفة، واختاروا للأمر أبا العباس السفاح ابن صاحب

التخت، وهو هذا، وأشار إلى الصف القائمين وراءه، وكان واقفاً معهم، وهو ربيبه الذي تقدم لنا أنه تزوج أمه بعد أبيه ساطلمش، فلم يلفه هناك، وذكر له القائمون في ذلك الصف أنه خرج عنهم.

فرجع إلي فقال: ومن أي الطوائف هو يختصر؟ فقلت: بين الناس فيه خلاف، فقبل: من النبط بقية ملوك بابل، وقيل: من الفرس الأولى، فقال: يعني من ولد منوشهر. قلت نعم هكذا ذكروا، فقال: ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الأمهات. ثم أفضت مع الترجمان في تعظيم هذا القول منه، وقلت له: وهذا مما يجعلني على غني لقاته.

فقال الملك: وأي القولين أرجح عندك فيه؟ فقلت: إنه من عقبة ملوك بابل، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر. فقلت: يعكر علينا رأي الطبري، فإنه مؤرخ الأمة ومحدثهم، ولا يرجحه غيره، فقال: وما علينا من الطبري؟ نحضر كتب التاريخ للعرب والعجم، ونناظره. فقلت: وأنا أيضاً أنظر على رأي الطبري، وانتهى بنا القول، فسكت، وجاءه الخبر بفتح باب المدينة، وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها الأمان، فرفع من بين أيدينا، لما في ركبته من الداء، وحمل على فرسه قبض شكائمه، واستوى في مركبه. وضربت الآلات حفاقيبه حتى ارتج لها الجو. وسار نحو دمشق، ونزل في تربة منجك عند باب الجابية، فجلس هناك، ودخل إليه القضاة وأعيان البلد، ودخلت في جملتهم، فأشار إليهم بالانصراف، وإلى شاه ملك نائبه أن يخلع عليهم في وظائفهم، وأشار إلي بالجلوس، فجلست بين يديه. ثم استدعى أمراء دولته القائمين على أمر البناء، فأحضروا عرفاء البنان المهندسين، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة، لعلهم يعثرون بالصناعة على منفذه، فتناظروا في مجلسه طويلاً، ثم انصرفوا، وانصرفت إلى بيتي داخل المدينة بعد أن استأذنته في ذلك، فأذن فيه. وأقمت في كسر البيت، واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب، فكتبت في أيام قليلة، ورفعته إليه فأخذه من يدي، وأمر موقعه بترجمته إلى اللسان المغربي. ثم اشتد في حصار القلعة، ونصب عليها الآلات من المجانيق، والفروط، والعرادات، والنقب، فنصبوا أيام قليلة ستين منجيقاً إلى ما يشاكلها من الآلات الأخرى، وضاق الحصار بأهل القلعة، وتهدم بناؤها من كل جهة، فطلبوا الأمان.

وكان بها جماعة من خدام السلطان وخلفه، فأمهم السلطان عمر، وحضروا عنده. وخرب القلعة وطمس معالمها، وصادر أهل البلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هنالك، من الأموال والظفر والحياض. ثم أطلق

إن شاء الله أوفي كنه قصدك. فقلت: يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار إليه بإمضاء ذلك، فشكرت ودعوت وقلت: وبقيت لي أخرى. فقال: وما هي؟ فقلت: هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر. من القراء، والموقعين، والدواوين، والعمال، صاروا إلى إيثاكتك والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانكم كبير، وعمالاتكم متسعة، وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم، فقال: وما تريد لهم؟ قلت: مكتوب أمان يستينون إليه، ويعولون في أحوالهم عليه. فقال لكاتب: اكتب لهم بذلك، فشكرت ودعوت. وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان، وانصرفت إلى منزلي. ولما قرب سفره واعتزم على الرحيل عن الشام، دخلت عليه ذات يوم، فلما قضيتا المعتاد، التفت إلي وقال: عندك بغلة هنا؟ قلت: نعم، قال: حسنة؟ قلت: نعم، قال: وتبيعها؟ فأننا اشتريتها منك، فقلت: أيدك الله! مثلي لا يبيع من مثلك، إنما أنا أخدمك بها، وبأمانها لو كانت لي، فقال: أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان، فقلت: وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به، اصطعنتني، وأحللتني من مجلسك محل خواصك، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله، وسكت وسكت وحملت البغلة - وأنا معه في المجلس إليه - ولم أرها بعد.

ثم دخلت عليه يوماً آخر فقال لي: أنسافر إلى مصر؟ فقلت: أيدك الله، رغبتني إنما هي أنت، وأنت قد آويت وكفلت، فإن كان السفر إلى مصر في خدمتك فنع، وإلا فلا بغية لي فيه، فقال: لا، بل تسافر إلى عيالك وأهلك، فالتفت إلى ابنه، وكان مسافراً إلى شقحب لمرباع دوابه، واشتغل بإدائه، فقال لي الفقيه عبد الجبار الذي كان يترجم بيننا: إن السلطان يوصي ابنه بك، فدعوت له، ثم رأيت أن السفر مع ابنه غير مستبين الوجهة، والسفر إلى صفد أقرب السواحل إلينا أملك لأمر، فقلت له ذلك، فأجاب إليه، وأوصي بي قاصداً كان عنده من حاجب صفد ابن الداویداري، فودعته وانصرفت، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد، فذهب عني، وذهبت عنه، وسافرت في جمع أصحابي، فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق، ونهبوا ما معنا، ونحونا إلى قرية هنالك عرايا. واتصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصبيبة فخلقنا بعض الملبوس، وأجزنا إلى صفد، فأقمنا بها أياماً. ثم مر بنا مركب من مراكب ابن عثمان سلطان بلاد الروم، وصل فيه رسول كان سفر إليه عن سلطان مصر، ورجع بجوار رسالته، فركبت معهم البحر إلى غزة، ونزلت بها، وسافرت منها إلى مصر، فوصلتها في شعبان من هذه السنة، وهي سنة ثلاث وثمانمائة،

هذه الدعوة، ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعية، فكتبوا كبار الأمة يومئذ، وأهل الحل والعقد، بالحجاز والعراق، يشاورونهم في أمره، فوقع اختيارهم كلهم على الرضى به، فبايع له شيعته بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق. ثم عهد بها إلى أخيه المنصور، وعهد بها المنصور إلى بنيه، فلم تنزل متناقلة فيهم، إما بعهد أو باختيار أهل العصر، إلى أن كان المستعصم آخرهم ببغداد. فلما استولى عليها هولاكو وقتله، افترق قرابته، ولحق بعضهم بمصر، وهو أحمد الحاكم من عقب الراشد، فنصبه الظاهر بيبرس بمصر، بملاة أهل الحل والعقد من الجند والفقهاء. وانتقل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر، لا يعلم خلاف ذلك. فقال لهذا الرافع: قد سمعت مقال القضاة، وأهل الفتيا، وظهر أنه ليس لك حق تطلبه عندي. فانصرف راشداً.

الرجوع عن هذا الأمير تمر إلى مصر

كنت لما لقيته، وتدلّيت إليه من السور كما مر أشار عليّ بعض الصحاب بمن يجبر أحوالهم بما تقدمت له من المعرفة بهم، فأشار بأن أطرفه ببعض هدية، وإن كانت نزرة فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكهم، فاتفقت من سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسناً في جزء غدو، وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للبوصيري في مدح النبي ﷺ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة. وجئت بذلك فدخلت عليه، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه، فلما رأيته مقبلاً مثل قائماً وأشار إلي عن يمينه، فجلست وأكابر من الجفطية حفافيه، فجلست قليلاً، ثم استدرت بين يديه، وأشرت إلى الهدية التي ذكرتها، وهي بيد خدامي، فوضعها، واستقبلني، ففتحت المصحف فلما رآه وعرفه، قام مبادراً فوضعه على رأسه. ثم ناولته البردة، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها. ثم ناولته السجادة، فتناولها وقبلها. ثم وضعت علب الحلوى بين يديه، وتناولت منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك. ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه، وتقبل ذلك كله، وأشعر بالرضى به. ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي، وشأن أصحاب لي هنالك. فقلت: أيدك الله! لي كلام أذكرك بين يديك، فقال: قل. فقلت: أنا غريب بهذه البلاد غريبتين، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشأى وأخرى من مصر وأهل جيلي بها، وقد حصلت في ظلك، وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربي، فقال: قل الذي تريد أفعله لك، فقلت: حال الغربة أنستني ما أريد، وعساك - أيدك الله - أن تعرف لي ما أريد. فقال: انتقل من المدينة إلى الأردو عندي، وأنا

وطولي كان في قسمته أعمال خراسان، وعراق العجم، والري إلى عراق العرب وبلاد فارس وسجستان والسند. وكان أبناؤه: قبلاي، وهولاكو ودوشي خان كان في قسمته بلاد قبجق، ومنها صراي، وبلاد الترك إلى خوارزم وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم، ويسمونه الخان، ومعناه صاحب التخت، وهو بمثابة الخليفة في ملك الإسلام. وانقرض عقبه، وانتقلت الخانية إلى قبلاي، ثم إلى بني دوشي خان، أصحاب صراي.

واستمر ملك الططر في هذه الدول الثلاث، وملك هولاکو بغداد، وعراق العرب، إلى ديار بكر ونهر الفرات. ثم زحف إلى الشام وملكها، ورجع عنها، وزحف إليها بنوه مراراً، وملوك مصر من الترك يدافعونهم عنها، إلى أن انقرض ملك بني هولاکو أعوام أربعين وسبعمائة، وملك بعدهم الشيخ حسن النزين وبنوه. وافترق ملكهم في طوائف من أهل دولتهم، وارتفعت نعمتهم عن ملوك الشام ومصر. ثم في أعوام السبعين أو الثمانين وسبعمائة، ظهر في بني جقطي وراء النهر أمير اسمه تيمور، وشهرته عند الناس تمر، وهو كافل لصبي متصل بالنسب معه إلى جقطي في آباء كلهم ملوك، وهذا تمر بن طرغاي هو ابن عمهم، فذل صاحب التخت منهم اسمه محمود، وتزوج أم صرغتمش، ومد يده إلى ممالك التتر كلها، فاستولى عليها إلى ديار بكر، ثم جال في بلاد الروم والهند، وعاثت عساكره في نواحيها، وخرب حصونها ومدنها، في أخبار يطول شرحها. ثم زحف بعد ذلك إلى الشام، ففعل به ما فعل، والله غالب على أمره. ثم رجع آخراً إلى بلاده، والأخبار تتصل بأنه قصد سمرقند، وهي كرسية.

والقوم في عدد لا يسعه الإحصاء، إن قدرت ألف ألف فغير كثير، ولا تقول: أنقص، وإن خيموا في الأرض ملؤوا الساح، وإن سار في كتابهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء، وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران، وابتلائهم بأنواع العذاب، على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادي الأعراب.

وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراغتهم، والناس ينسبونهم إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض، لما يرون من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء، إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وما لا يعلم، عمره بين الستين والسبعين، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني، فيجرها في قريب المشي، ويتناول الرجال على الأيدي عند طول المسافة، وهو مصنوع له، والمملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

وكان السلطان صاحب مصر، قد بعث من بابه سفيراً إلى الأمير تمر إجابة إلى الصلح الذي طلب منه، فأعقبني إليه. فلما قضى رسالته رجع، وكان وصوله بعد وصولي، فبعث إلي مع بعض أصحابه يقول لي: إن الأمير تمر قد بعث معي إليك ثمن البغلة التي ابتاع منك، وهي هذه فخذها، فإنه عزم علينا من خلاص ذمته من مالك هذا. فقلت: لا أقبله إلا بعد إذن من السلطان الذي بعثك إليه، وأما دون ذلك فلا. ومضيت إلى صاحب الدولة فأخبرته الخبر فقال: وما عليك، فقلت: إن ذلك لا يجمل بي أن أفعله دون إطلاعكم عليه، فأغضى عن ذلك، وبعثوا إلي بذلك المبلغ بعد مدة، واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أعطيه كذلك، وحمدت الله على الخلاص.

وكتبت حينئذ كتاباً إلى صاحب المغرب، عرفته بما دار بيني وبين سلطان الططر تمر، وكيف كانت واقعة معنا بالشام، وضمنت ذلك في فصل من الكتاب نصه:

وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك، فهي بخير والحمد لله، وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف الططر إليه من بلاد الروم والعراق، مع ملكهم تمر، واستولى على حلب وحماة وحمص وبلعبك، وخربها جميعاً، وعاثت عساكره فيها بما لم يسمع أشنع منه. ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق، وأقام في مقابلته نحواً من شهر، ثم قفل راجعاً إلى مصر، وتحلف الكثير من أمرائه وقضاته، وكنت في المخلفين. وسمعت أن سلطانهم تمر سأل عني، فلم يسع إلا لقائه فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقيمت عنده حساً وثلاثين يوماً، أبأكره وأراوحيه. ثم صرفني، وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر. وكان طلب مني بغلة كنت أركبها فأعطيته إياها، وسألني البيع فتأفقت منه، لما كان يعامل به من الجميل، فبعد انصرافي إلى مصر بعث إلي بشتمها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا.

وهؤلاء الططر هم الذين خرجوا من المفازة وراء النهر، بينه وبين الصين، أعوام عشرين وستمائة مع ملكهم الشهير جنكزخان وملك المشرق كله من أيدي السلجوقية ومواليهم إلى عراق العرب، وقسم الملك بين ثلاثة من بينه وهم جقطي، وطولي، ودوشي خان:

فجقطي كبيرهم، وكان في قسمته تركستان وكاشغر، والصاغون، والشاش وفرغانة، وسائر ما وراء النهر من البلاد.

ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر

كنت - لما أقمت عند السلطان تمر تلك الأيام التي أقمت - طال مغربي عن مصر، وشيعت الأخبار عني بالهلاك، فقدم للوظيفة من يقوم بها من فضلاء المالكية، وهو جمال الدين الأقفهسي، غزير الحفظ والذكاء، عفيف النفس عن التصدي لحاجات الناس، ورع في دينه، فقلدوه منتصف جمادى الآخرة من السنة.

فلما رجعت إلى مصر، عدلوا عن ذلك الرأي، وبدأ لهم في أمري، فولوني في أواخر شعبان من السنة. واستمرت على الحال التي كنت عليها من القيام بالحق، والإعراض عن الأغراض، والإنصاف من المطالب، ووقع الإنكار علي ممن لا يدين للحق، ولا يعطي النصفة من نفسه، فسعوا عند السلطان في ولاية شخص من المالكية يعرف بمجال الدين البساطي، بذل في ذلك لسعة داخلوه قطعة من ماله، ووجوهاً من الأغراض في قضائه. قاتل الله جميعهم، فخلعوا عليه أواخر رجب، سنة أربع وثمانمائة. ثم راجع السلطان بصيرته، وانتقد رأيه، ورجع إلي الوظيفة خاتم سنة أربع وثمانمائة، فأجريت الحال على ما كان. وبقي الأمر كذلك سنة وبعض الأخرى. وأعادوا البساطي إلى ما كان، وبما كان، وعلى ما كان، وخلعوا عليه سادس ربيع الأول سنة ست وثمانمائة، ثم أعادوني عاشر شعبان سنة سبع وثمانمائة، ثم أдалوا به مني أواخر ذي القعدة من السنة ويبد الله تصاريص الأمور.

فهرس الآيات القرآنية

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانُوا﴾ ٣٤٨
- ﴿بَيْنًا مَرْصُومًا﴾ ٥٢٥، ٢٢٣
- ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ ٦٦٣
- ﴿إِرم ذات العمداء﴾ ٣٣٨، ١٣
- ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ٢٤٢
- ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ٩٩، ١٠١
- ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ٢٧، ٢٦
- ﴿أَفْخَسِيْنَهُمْ أَنْمًا خَلَقْنَاكُمْ عَبْنًا﴾ ٩٨
- ﴿أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ افْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمُ﴾ ٤٩٣، ٢٤٠
- ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَئِلَّ مَا هُمْ﴾ ١١٤
- ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ٥٢٠
- ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ﴾ ٥٧٥
- ﴿الر﴾ ١٦٧
- ﴿اللَّهُ أَخَذَ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ١٣٢
- ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُ
مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ ٣٠٨
- ﴿اللَّهُ هُوَ الرُّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْعَتِيقِ﴾ ٢٠١
- ﴿اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ١١٩
- ﴿الم﴾ ١٦٧
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى
كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ ٥٧٩
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ١٣
- ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ٥٢٥
- ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٥٢٣
- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ ٧١، ١٠٤
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا
اسْتَزَلَّهُمْ﴾ ٥٠٥
- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ ٩١٢
- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ ٧٦٨
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانُوا﴾ ١٣٧
- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ٤٦
- ﴿إِنَّ فِيهَا فَرَمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا
مِنْهَا﴾ ٧٤
- ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفَنَ وَلَا يَزِينَنَ وَلَا
يَقْتُلَنَ أَوْلَادَهُمْ﴾ ٤٦٩
- ﴿إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِمَكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى
اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ٧٢، ١٦٢٢، ١٩٠
- ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ إِنِشَاءً﴾ ٢٠٨١
- ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ٥٤، ٥٠
- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَثُمَّ نَعْتَظُّكَ عَلَيْكَ وَنَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا وَنَتَصَرَّكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ
إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ١٧١٢
- ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ ٥٨٨
- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ٩٠٤
- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ٥٢٦
- ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ ٢٣٩
- ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ٣٩٧
- ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ٩٦٣
- ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي
الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ٧١٢
- ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي
الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُنَقَّطَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَرُوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ
لَهُمْ حِزْبِي فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٩٠٣
- ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عَبْدُ اللَّهِ﴾ ٢٤٠

- ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ٢١١
- ﴿سنة الله في عباده وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ٤٧
- ﴿صِرَاطَ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ٩٨
- ﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ١٧١٢
- ﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ نَبْلِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُتِمِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ٩٠٤
- ﴿فَاتَّبَعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ﴾ ١٩٣
- ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ ٨٩
- ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ ٧٤
- ﴿فَالْتَمِهْهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ٦٧
- ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ٣١٥
- ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ٣١٥
- ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ٣٤٥
- ﴿فَتَتَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٢٤٢
- ﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ٤٤٤
- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ١٥٩٥
- ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ٢٣٤
- ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ ٣٠٨
- ﴿قُلِ اللَّهُ تُمِّ ذَرْنُمْ فِي خَوَاصِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ٢٣٣
- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ ١١٤٩
- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٦٢٢
- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ٢٣٣
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ١١١٠، ٧٧٤
- ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ١٥١
- ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ٢٤٠
- ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُزَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ٥٢٣
- ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ١٧
- ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ٢٣٧، ٩٩
- ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٣٠٣
- ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ٢٣٤
- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٥٢٥
- ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ ١٥٤
- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ ٦٧٨
- ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ٥١٥
- ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ ٢٣٨
- ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ ٩٩
- ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ٨٩
- ﴿حَتَّى يَرْدُوَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ ٥٠٠
- ﴿حَم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ١٧١٢
- ﴿حِثَّامُهُ مِسْكٌ﴾ ١٣٣
- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ ٥٢٠
- ﴿الْخَلَقِ الْعَلِيمِ﴾ ٢٠٤
- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ٢١٣
- ﴿خَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ١٣٣
- ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ١٣٢
- ﴿زَبْ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ ١٠٤
- ﴿سَبِّحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ٢٤٢
- ﴿سَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ﴾ ١٩٣
- ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ ٧٠، ٨٧

- ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونِ﴾ ٥٤٨
- ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ٢٠٨
- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ٤٦
- ﴿لَا أَقْسَمُ بِهِذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حَلَّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ٢٠٦٩
- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ٩٣٨
- ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ
فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ٢٥٠
- ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ ٥٧٩
- ﴿لَيْسَ أَكْلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا خَاسِرُونَ﴾ ٦٧
- ﴿لَيْسَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ٢٢٣
- ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ١٤٩، ١٤٨
- ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ٢٤٢
- ﴿لَنْ تَنفَعَكَ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ ١٠٤
- ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ٢٠٧٨
- ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ٨٢
- ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ ٢١١٩
- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ٨٧
- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ٢٤٢
- ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ٧٦
- ﴿مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ ١٤
- ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ٩٠٤
- ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ ٢٢٤
- ﴿المر﴾ ١٦٧
- ﴿المص﴾ ١٦٧
- ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ١٤١
- ﴿مِنْهُ آيَاتٌ عَمَكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ ١٦٨
- ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَخْذَرُونَ﴾ ١٧١٢
- ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٢٤٠
- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ عَمَكَمَاتٌ هُنَّ
أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ
تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي
- الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا
أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ٢٤٠
- ﴿وَاتَّبَعَتْ مَلَأَةً أَبَائِي إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ٩٠٤
- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ١٦٤٣
- ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ
أَازِرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ ١١٩
- ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَفْخُحُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ ٢٨٧
- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ ١٧٧
- ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ ٧٥
- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا فَرَّغْنَا أَمْرَنَا مُحَرِّفًا فَتَفْسَرُوا فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ٧٥، ١٨٨
- ﴿وَأَنْفَسُوا بِاللَّهُ جَهْدَ آيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ٦٦٣
- ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٧٦
- ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ٣٣١
- ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ٢٤٠
- ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ١٣
- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ ٢٤٣
- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٠٢، ١٧٥
- ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ ١٩٣
- ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَةً مَنْ يَشَاءُ﴾ ٨٢، ٧٩
- ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَةً مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ٩٦
- ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ٨٢، ١٨١
- ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ١٩٧
- ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٦٣
- ﴿وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ٨٩، ٧٦، ١٩٤، ١٩٠، ١٤٩
- ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٤٨
- ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا تَغَشَّى. وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ ٣١٥
- ﴿وَرِأْسًا تُخَافُ مِنْ قَوْمٍ حَيَاتَةٍ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ ٥٠٣
- ﴿وَرَأَى أَذْرِي لَعْلَةً فَنَزَلَ لَكُمْ وَتَنَاجَى إِلَى حِينٍ﴾ ٥٩٧
- ﴿وَرَأَى تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ١٧١٥
- ﴿وَرَأَى يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ ١٦٧

- وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٩٤
- وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٤٩٤
- وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ١٧٠٨
- وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ٢٤٠
- وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى
- اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْعِقَابَ ١٧٨٥
- وَوَرَفْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
- بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْتُمِعُونَ ١٩٧
- وَسَخَّرْ لَكُمْ الْفُلْكَ ١٩٣
- وَسَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
- مِنْهُ ١٩٣
- وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْغِلِبُونَ ١٧٧٤، ٩٠٤
- وَعِندَهُمُ الثَّوَرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ٣٣٣
- وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ١٣٠
- وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ٤٩٧
- وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ٩٤
- وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلْ إِلَيْنَا ٣٨١
- وَكَذَلِكَ مَكَانًا لِيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ ٣٤٨
- وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ
- عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ
- مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
- فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
- وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ٢٦٢
- وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٦٦٣
- وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ١٧٧١
- وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتَ مِنَ الْخَيْرِ ١٧٧١، ٢٠٧٢
- وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
- الْأَرْضُ ٧٣
- وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
- وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ٢٠٠
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٢٣٣، ٢٤، ٢٦٦
- وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ٢٤١
- وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ١٤٥
- وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا
- أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ١٠٣٨
- وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ١٧٢
- وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي ١٥
- وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ٥٢٦
- وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ٢٤٠
- وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفُ
- الْأَسْبَاطِ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ١٣١، ٣٢٩
- وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ٢٦٢
- وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ٩٨
- وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ٥٠
- وَمَنْ يَوْقُ شَيْءٌ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٥٥
- وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ٨١١
- وَهَذَيْنَا النُّجْدَيْنِ ٦٧
- وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ٣١٥
- وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ٢٤٢
- وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ١٤٩
- وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
- نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
- بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا
- بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٤٣٧
- وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٢٨٠، ٤٦
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ٥٠٩
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ٥٢٠
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
- إِذَا اهْتَضَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
- كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٣٩
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْعَارٍ ٢٠٨٣
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
- شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ
- إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ٥١٥
- يُحِبُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ١٣٣
- يُحْكَمْ بِهِ دَوَا عَذْلٍ مِنْكُمْ ٥٩١
- يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ٢٤٢
- يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ٥٠٠
- يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ٥١٨

فهرس الأحاديث والآثار

- اثتوني بدواة وقرطاس اكتب لكم كتاباً لا ٥٢٥
 الأئمة من قريش ١٠٠
 أبدله الله ببديه جناحين يطير بهما في الجنة ٥١٣
 أبشر يا أبا بكر فقد أتى نصر الله ٥٠١
 أبو رغال ٣٤٠
 إثم الأكابرين عليك تعيا بحمله ٥١١
 أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على جرائم ١١٢
 أجلكم في أجل من كان قبلهم من صلاة ١٦٧
 أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده ٥٣، ٥٠
 الأدنون من أهلي ٥٢٥
 إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا ٥٥٥
 إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك ١٦٤
 اذهبوا وأخبروا بذلك عني وقولاً له: إن ديني ٥١٢
 اذهبوا فأنتم الطلقاء ٥٩٨، ٥١٦
 أربعون سنة ١٧٩
 ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ٣٥٠
 إسمعوا قولِي فإني لا أدري لعلي ٥٢٣
 اسمعوا وأطيعوا وإن وليي عليكم عبد حبشي ذو ١٠٠
 أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فاما ٢٨٣
 أصل كل داء البردة ٢١٠
 اعتقها فإنها مؤمنة ٢٤٢
 أقضاكم علي ١٠١
 اقطعوا عني لسانه فأتوا إليه المائة ٥١٧
 ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ ٥٠٨
 ألا كل شيء، ما خلا الله باطل ٢٤٨
 ألا وإني لا أعلم إلا ما علّمني الله ٥٠
 اللّهم اشهد ٥٢٣
 اللّهم أعز الإسلام بأحد العمرين ٤٩٥
 اللّهم أعني على سكرات الموت ٥٢٥
 اللّهم إليك أشكر ضعف قوتي وقلة حيلتي ٤٩٦
 اللّهم امض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم ٦٥
 اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في ٥٠١
 اللّهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ٢٠٤٣
 ألم أتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى ٢٢٢
- ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله بي، وعالة ٤٧٠
 ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ ٥١٤
 أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت متبراً ترقى به ١٣٦
 أمت أمت ١٦١
 إن إحداكن تستنج كلاب الحوَاب ٥٣١
 إن أصابه قدر فالأمير جعفر بن أبي طالب، ٥١٣
 إن الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون ٩٠٤
 إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها ٥٩٨، ١٠٤
 أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم ٢٣٥
 إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا ٢٨٣
 إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده
 فاختار ما عنده ٥٢٥
 إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون ختوماً ١٣٣
 إن في أمي المهدي يخرج ويعيش خمساً أو سبعاً أو ١٥٩
 إن فيكم محدثين ١٦٧
 إن فيكم محدثين وإن منهم عمر ٥٩
 أن لا مهدي إلا عيسى ١٦٣
 إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ١٥٨
 إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم ٥١٢
 أنا ابن الذبيحين ٤٩٠
 إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، ١٦٠
 أنا على سفر ولو قدمنا أتيناكم فصلينا لكم ٥١٨
 أنا نقييكم ٤٩٩
 أنتم أعلم بأمور دنياكم ٢٥٩
 أنتم بنو آدم وآدم من التراب ٤٧٢
 أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين ٤٩٧
 أنصت ٥٠٥
 إنك لذو قرنيها ١٦٤
 إنكم ترون ربكم يوم القيامة، كالقمر ليلة البدر لا ٢٤٤
 إنما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت ٦٠٩
 إنما أعطي قوماً حديثي عهد بالإسلام أنألفهم عليه، ٥١٧
 إنما أنت رجل واحد فخذل عنا إن استطعت ٥٠٧
 إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ٧٢
 إنما لك من مالك ما أكلت فأنتيت، أو لبست ١٩٣

- إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تَرُدُّ عَلَيْكُمْ ٩٨
- أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ فِي الْغَرْبِ ١٦٥
- إِنَّهُمْ كَرِشِي وَعِيلِيَّتِي الَّتِي أَوَيْتُ إِلَيْهَا فَأَكْرَمُوا ٥٢٥
- إِنِّي أَنَا جِي مِنْ لَا تَنَاجُونَ ٥١
- إِنِّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ فِي نَوْمِي أَنَّ فِي عَضْدِي ٥٢٤
- أَهْلِي ٥٢٥
- أَوْتَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتَصَرْتُ لِي الْكَلَامَ ٣٠٢، ٢٩٧
- أَوْصِيَكُمْ بِالْأَنْصَارِ إِنَّهُمْ كَرِشِي وَعِيلِيَّتِي وَقَدْ ٤٧١
- إِيَّاكُمْ وَالْمَثَلَةَ ٥٩٥
- أَيْنَ اللَّهِ؟ ٢٤٢
- أَيُّهَا النَّاسُ اسْمِعُوا قَوْلِي فَإِنِّي لَا أَدْرِي لِعَلِّي ٥٢٣
- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَمَدِ رَسُولِ اللَّهِ ٥٢٣، ٥١١
- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى ٥١١، ٥١١
- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا كِتَابُ مُحَمَّدٍ ٥٢٢
- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا كِتَابُ مِنَ اللَّهِ ٥٢١
- بَعَثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ ١٦٧
- بَلْ أَصْنَعُهُ لَكُمْ إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّ الْعَرَبَ رَمَتَكُمْ ٥٠٧
- بَلْ مَنَا، بَنَا يُخْتَمُ اللَّهُ كَمَا بَنَا فَتَحْ، وَبَنَا ١٦١
- بِمَ تَحْكُمُ فِي هَؤُلَاءِ ٤٧٠
- تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوْا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: ٢٩٥
- تَضْرِبُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَلَا يُوْجَدُ ٢١٠٦
- تَعْلَمُوا مِنْ أَسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ ٦٨
- تَعْلَمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنْطُ السَّوَادِ، إِذَا ٣٣٢
- تَقْتُلُهُ الْفَتَّةُ الْبَاغِيَةُ ٥٨٩
- تَمَلَّأُ الْأَرْضَ جَوْراً وَظُلماً فَيُخْرِجُ رَجُلٌ مِنْ عَرَّتِي ١٦٠
- ثَنِي وَلَا تَجْعَلِيهَا بَيْضَةً لَدَيْكَ ٢٠٧٠
- الثِّبْتُ تَعَرَّبْتُ عَنْ نَفْسِي ٣٣٦
- حَتَّى يَلِيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ١٥٨
- الْحَرْبُ خُدْعَةٌ ٥٧٧، ١٥١، ١٣٩
- حَكَمْتُ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ ٤٧٠
- الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ لِلَّهِ ٢٠٥٦
- الْحُمِيَّةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ ٢١٠
- حَيٍّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ ٩٣٠، ١٢٤٠، ١١٠٤، ١٠٧١
- الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مَلَكاً عَضُوضاً ١٨٦
- خَلَطْتُ عَلَيْكَ الْأَمْرَ ٥٤
- خَلَعَ التَّعْلِينَ ١٦٤، ١٦٣
- خَلَعَ التَّعْلِينَ فِي التَّصَوُّفِ ٨٣
- خَلُوهَا سَبِيلُهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ٤٩٩
- خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثاً ١١١
- دَعَوْنِي عَلَى سُرِيرِي فِي بَيْتِي عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي ثُمَّ ٥٢٥
- دَعَوْنِي فَمَا أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ٥٢٥
- دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ٤٩٩
- الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: رُؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلَكِ، ٥٦
- الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: رُؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلِكِ، وَرُؤْيَا ٢٥٠
- الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ ٢٥٠
- الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنْ ٢٤٩
- الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ ٥٦
- رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لُحِي يَجْرُ قَصْبَهُ فِي النَّارِ ٤٨٧، ٤٧٩
- الرَّفِيقُ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ ٥٢٥
- سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ٥٨١
- سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرُ ١٦٣
- سَدُّوا هَذِهِ الْأَبْوَابَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا بَابَ أَبِي ٥٢٥
- السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَأَمَّنَ بِهِ أَدْعُوكَ ٥١١
- سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا فَتَى يَمْلَأُ الْأَرْضَ ١٦٣
- سَيُرَوُّ عَلَى سِيرٍ أَضْعَفُكُمْ ٩٨
- سَيُرَوُّ وَأَبْشُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى ٥٠١
- شَاهَتِ الْوُجُوهُ ٥٠٢
- الْعَالَمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ ١٦٤
- الْعَامَّةُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ ٧٧
- الْعِبَادَاتُ جَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ٢٣٤
- عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجِهَالَةٌ لَا تَضُرُّ ٣٣١
- عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَانِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٦٤
- الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ١١٤
- فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايَعُوهُ وَلَوْ جَبْراً عَلَى الثَّلَجِ، فَإِنَّهُ ١٦٢
- فَإِنْ وَفَيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ٤٦٩
- فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٤٩٤
- فَذَلِكُ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ ٥٠٨
- فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ ٤٨٩

- ٦٦..... لا هجرة بعد الفتح
 ٥١٢..... لا يبقى دينان بأرض العرب
 ١٠٠..... لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش
 ١٦٤..... لا يزال هذا الأمر قائماً حتى تقوم الساعة أو
 ٢٣٤..... لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن
 ١٣٣..... لا ينقض أحد مثله
 ٥٠٥..... لئن أظفرن الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم
 ٥٨٢..... لتقاتلنه وأنت له ظالم ؟
 ١٦٢..... لتملأن الأرض جوراً وظلماً، فإذا ملئت جوراً
 ٢١٦..... لقد أوتي مزامراً من مزامير آل داود
 ٥٠٨..... لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة
 ٤٩١..... لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً
 ٥٠٦..... لقد قتلت قتيلين لأدينهما
 ٥١١..... لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي لم
 ٢٤٩..... لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها
 ١١٩..... لمعاناة نقل الجبال من أماكنها أهون علي من
 ١٦٧..... لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم
 ٥٠٨..... لو أتاني لاستغفرن له فاما بعدما فعل فما أنا
 ٤٩٤..... لو أخبرتم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم
 ٢٩٥..... لو تعلق العلم بأكتاف السماء لئله قوم من
 ٤٧١..... لو شتم لقتلتم جثتنا طريداً فأويناك ومكذباً
 ١٠٥..... لو كان لي من الأمر شيء لوليت الخلالة
 ١٥٨..... لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم
 ١٥٨..... لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من
 ١٧٧..... لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على
 ٥٧٨..... ليت شعري أيتكن تنبها كلاب الحوآب ؟
 ٥١٣..... ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خير أم بقدم
 ٨٣، ٥١، ١٠٤..... ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه
 ١٦٤..... ما بين هذين وقت
 ٥٠٩..... ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس
 ١٩٩..... ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل
 ٧٤..... ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل
 ٥١٥..... ما كان لني أن تكون له خاتمة الأعين
 ٥١٧..... ما كان لي ولبي عبد المطلب فهو لكم
 ٥٤..... فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ،
 ١٠٠..... فمولى القوم منهم
 ١٥٩..... فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني
 ١٥٩..... فيحثو له في ثوبه ما استطاع أن يحمل
 ١٦١..... فيرد الله الناس إلى الفتنهم... الخ
 ٥١٦..... قلت كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم
 ٥٠٥..... قولوا له هو بيننا وبينكم
 ٥٠١..... القوم بين التسعمائة والألف
 ٥٠٨..... قوموا إلى سيدكم
 ٥٠..... كان مما يعالج من التنزيل شدة
 ٦٠..... كان نبي يخط، فمن وافق خطه فذاك
 ٦٥..... كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو
 ٥١٣..... كلا إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغام
 ٣٣٢..... كلكم بنو آدم وآدم من تراب
 ٢٤٨..... كنت سمعه وبصره
 ٢٤٦..... كنت كنزاً خفياً فأحييت أن أعرف، فخلقت
 ٥٤..... كيف يأتيك هذا الأمر ؟
 ٢٢٣..... لا أذجنه
 ٢٢٦..... لا أعرف هذه، ولكن حدثني فلان
 ٥١٥..... لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده
 ٢٢٣..... لا أوضعوا
 ٥٠١..... لا بل هو الرأي والحرب
 ٩٣..... لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن
 ١٥٨..... لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من
 ٦٦..... لا تردهم على أعقابهم
 ٢١٠١..... لا تزال طائفة من أمتي
 ٣٨١..... لا تصدقوا أهل الكتاب
 ٢٢٢..... لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا:
 ١٩٩..... لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرمًا
 ١٦٠..... لا تقوم الساعة حتى تغلأ الأرض جوراً
 ٩٩٥، ١٦٨٢..... لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان
 ١٦٢..... لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من
 ١٦٤..... لا مهدي إلا عيسى
 ١٦٣..... لا مهدي إلا عيسى بن مريم

- ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما ٥٢
- ما هذا يا حاطب؟ ٥١٤
- ما ينبغي لني إذا لبس لامته أن يضعها حتى ٥٠٤
- مالك يا ابن الخطاب؟ ٤٩٥
- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ١٣٧
- مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى ١٦٤
- المدينة خير من مكة ١٨٠
- مر في غزوة تبوك بقرى ثمود، فنهى عن ٣٤٠
- مربوع الخلق وإلى البياض والحمرة ١٦٥
- مروا أبا بكر فليصل بالناس ٥٢٥
- مزق الله ملكه ٥١١
- المعدة بيت الداء ٢١٠
- المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل ٢١٠
- مفتون وكافر ١٦١
- من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ٥٩٨
- من رأى منكماً منكراً فليغيره بيده، فإن لم ٨٣
- من قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقضي ٢٠٩٦
- من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى ١٠٤
- من كذب بالمهدي فقد كفر، ومن كذب ١٥٨
- من كنت مولاه فعلي مولاه ١٠١
- من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله ٦٧، ٢٩٤
- من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة ٢٤٤، ٢٣٣
- من محمد رسول الله ٥٢٣، ٥١١
- من ههنا كذب النسابون ٣٣١
- من يبأييني على روحه وهو وصي وولي هذا ١٠١
- من يقتل كعب بن الأشرف؟ ٥٠٣
- المهدي من ولد فاطمة ١٥٩
- المهدي منا أهل البيت أشم الأنف، أفتى أجلى، ١٥٩
- المهدي منا أهل البيت يصلح الله به في ليلة ١٦١
- المهدي مني أجلى الجبهة أفتى الأنف بملا الأرض ١٥٩
- موتوا قبل أن تموتوا ٢٠٧٨
- مولى القوم منهم ٧١
- نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا ١٦١
- نصرت بالرعب مسيرة شهر ١٤٠
- نعم! إنه يبعث أمة واحدة ٤٩٢
- نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ٥١٥
- نعم هو حق وهو من بني فاطمة ١٥٩
- هذا كتاب محمد ٥٢٢
- هذا من سجع الكهان ٥٤
- هذه عن عثمان ٥١٠
- هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن ٢٣٤
- هلا ضربتم عنقه! ٥١٥
- هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً ٦٩٣
- وآمن بالله ورسله وأشهد أن لا إله إلا الله ٥١١
- واصدمه أول وهلة لا تكثر ١٣٩
- والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم ٧١
- والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى ٥٠٩
- والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع منهم لما ٢٤٤
- والرؤيا مدرك من مدارك الغيب ٢٤٩
- والله لا أعلم إلا ما علمني الله وأن الناقة ٥١٨
- وقد بلغني أن أقواماً تكلموا في إمارة أسامة طعنوا ٥٢٤
- وكان النبي ﷺ إذا انفعل من صلاة الغداة يقول ٢٤٩
- ولا تكذبوهم ٣٨١
- وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر ٥١٤
- ومن أحيائها ٢٠٧٠
- وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ٤٩٣
- ويح عمار تقتله الفئة الباغية ٥٨٢
- ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ ٥١٤
- ويلمه مسعر حرب لو كان له رجال ٥١٠
- يا عماه لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو ٤٩٤
- يا فاطمة، اعلمي فلن أغني عنك من الله شيئاً ١٧
- يا معشر الأنصار ما الذي بلغكم عني؟ ٤٧٠
- يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أني ٥١٥
- يا من يخلي البصر، ينظر في الدنيا، خلني من ١٦٠
- يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث ١٦٠
- يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي ١٦٢
- يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا ١٦٢
- يكون في آخر امتي، خليفة يحثو المال حثواً لا ١٥٩

- يكون في آخر أمي خليفة يحثي المال حيثاً لا ١٧١٣
- يكون في آخر الزمان ١٧١٣
- يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا ١٧١٣
- يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده .. ١٥٩، ١٧١٥
- يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها ١٦١
- يكون في أمي المهدي إن قصر فسبع ١٥٩، ١٦٢
- ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل ١٦٥
- اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا ٤١٥
- اليوم انتصف العرب من العجم ونصروا ٤٥٩
- اليوم انتصفت العرب من العجم وبي نصروا ٤٩١

فهرس المحتويات

- الفصل الأول: في أن أجيال البدو والحضر طبيعية ٦٤
- الفصل الثاني: في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي ٦٤
- الفصل الثالث: في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه ٦٤
- وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لهما ٦٥
- الفصل الرابع: في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر ٦٥
- الفصل الخامس: في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر ٦٦
- الفصل السادس: في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم ٦٦
- الفصل السابع: في أن سكتى البدو لا يكون إلا للقبائل ٦٦
- أهل العصبية ٦٧
- الفصل الثامن: في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه ٦٨
- الفصل التاسع: في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانهم ٦٨
- الفصل العاشر: في اختلاط الأنساب كيف يقع ٦٩
- الفصل الحادي عشر: في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية ٦٩
- الفصل الثاني عشر: في أن الرئاسة على أهل المصيبة لا تكون في غير نسبهم ٦٩
- الفصل الثالث عشر: في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالجواز والشبه ٧٠
- الفصل الرابع عشر: في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم ٧١
- الفصل الخامس عشر: في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء ٧١
- الفصل السادس عشر: في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها ٧٢
- الفصل السابع عشر: في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك ٧٣
- الفصل الثامن عشر: في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم ٧٣
- فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها ١١
- الكتاب الأول: في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب ٢٣
- الباب الأول ٢٧
- المقدمة الأولى: في أن الاجتماع الإنساني ضروري ٢٧
- المقدمة الثانية: في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم ٢٨
- البحار ٢٨
- الأنهار ٢٩
- المقدمة الثالثة: في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير في أحوالهم ٤٦
- المقدمة الرابعة: في أثر الهواء في أخلاق البشر ٤٨
- المقدمة الخامسة: في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم ٤٨
- المقدمة السادسة: في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه الكلام في الروحي والرؤيا ٥٠
- تفسير حقيقة النبوة ٥٢
- أصناف النفوس البشرية ٥٣
- الروحي ٥٣
- الكهانة ٥٤
- الرؤيا ٥٥
- الإخبار بالمغيبات ٥٦
- فصل: [الإخبار بالكائنات قبل وقوعها] ٥٧
- فصل: [إخبار الغيب عند المتصوفة] ٥٩
- فصل: [التنجيم وخط المرمل] ٦٠
- فصل: [حساب الجمل والزائجة] ٦١
- الباب الثاني: في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال ٦٤

الفصل التاسع عشر: في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل والانتقاد إلى سواهم ٧٤	الفصل الرابع: في أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق ٨٢
الفصل العشرون: في أن من علامات الملك التنافس في الحلال الحميدة وبالعكس ٧٤	الفصل الخامس: في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها ٨٣
الفصل الحادي والعشرون: في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع ٧٥	الفصل السادس: في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم ٨٣
الفصل الثاني والعشرون: في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية ٧٦	الفصل السابع: في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها ٨٤
الفصل الثالث والعشرون: في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده ٧٧	الفصل الثامن: في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة ٨٥
الفصل الرابع والعشرون: في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء ٧٧	الفصل التاسع: في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة ٨٦
الفصل الخامس والعشرون: في أن العرب لا يتغلبون إلا على البساط ٧٧	الفصل العاشر: في أن من طبيعة الملك الانفراد بالجد ٨٧
الفصل السادس والعشرون: في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ٧٨	الفصل الحادي عشر: في أن من طبيعة الملك الترف ٨٧
الفصل السابع والعشرون: في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ٧٨	الفصل الثاني عشر: في أن من طبيعة الملك الدعوة والسكون ٨٧
الفصل الثامن والعشرون: في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ٧٩	الفصل الثالث عشر: في أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم ٨٨
الفصل التاسع والعشرون: في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار ٧٩	الفصل الرابع عشر: في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص ٨٩
الباب الثالث: في الدول العامة والمملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ٨١	الفصل الخامس عشر: في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة ٩٠
الفصل الأول: في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية ٨١	الفصل السادس عشر: في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها ٩١
الفصل الثاني: في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية ٨١	الفصل السابع عشر: في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار ٩١
الفصل الثالث: في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية ٨٢	الفصل الثامن عشر: في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها ٩٢
	الفصل التاسع عشر: في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبية بالموالي والمصطنعين ٩٥
	الفصل العشرون: في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول ٩٥

الفصل الحادي والعشرون: فيما يعرض في الدول من	الفصل السابع والثلاثون: في الحروب ومذاهب الأمم في
حجر السلطان والاستبداد عليه ٩٦	ترتيبها ١٣٦
الفصل الثاني والعشرون: في أن المتغلبين على السلطان لا	ضرب المصاف وراء العسكر ١٣٧
يشاركونه في اللقب الخاص بالملك ٩٦	وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم
الفصل الثالث والعشرون: في حقيقة الملك وأصفاه ٩٧	صفين ١٣٩
الفصل الرابع والعشرون: في أن إرهاف الحد مضر بالملك	الفصل الثامن والثلاثون: في الجباية وسبب قلتها وكثرتها ١٤٠
ومفسد له في الأكثر ٩٧	الفصل التاسع والثلاثون: في ضرب المكوس أواخر الدولة ... ١٤١
الفصل الخامس والعشرون: في معنى الخلافة والإمامة ٩٨	الفصل الأربعون: في أن التجارة من السلطان مضرة
الفصل السادس والعشرون: في اختلاف الأمة في حكم	بالرعايا ومفسدة للجباية ١٤١
هذا المنصب وشروطه ٩٩	الفصل الحادي والأربعون: في أن ثروة السلطان وحاشيته
الفصل السابع والعشرون: في مذاهب الشيعة في حكم	إنما تكون في وسط الدولة ١٤٢
الإمامة ١٠١	الفصل الثاني والأربعون: في أن نقص العطاء من السلطان
الفصل الثامن والعشرون: في انقلاب الخلافة إلى الملك ١٠٤	نقص في الجباية ١٤٤
الفصل التاسع والعشرون: في معنى البيعة ١٠٧	الفصل الثالث والأربعون: في أن الظلم مؤذن بخراب
الفصل الثلاثون: في ولاية العهد ١٠٧	العمران ١٤٤
الفصل الحادي والثلاثون: في الخطط الدينية الخلاقية ١١١	الفصل الرابع والأربعون: في الحجاب كيف يقع في الدول
العدالة: ١١٤	وأنه يعظم عند الهرم ١٤٦
الفصل الثاني والثلاثون: في اللقب بأمر المؤمنين وإنه من	الفصل الخامس والأربعون: في انقسام الدولة الواحدة
سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء ١١٥	بدولتين ١٤٧
الفصل الثالث والثلاثون: في شرح اسم البابا والبطرك في	الفصل السادس والأربعون: في أن الهرم إذا نزل بالدولة
الملة النصرانية واسم الكوهم عند اليهود ١١٧	لا يرتفع ١٤٨
الفصل الرابع والثلاثون: في مراتب الملك والسلطان	الفصل السابع والأربعون: في كيفية طروق الخلل للدولة ١٤٨
وألقابها ١١٩	الفصل الثامن والأربعين: في اتساع نطاق الدولة أولاً إلى
الوزارة ١٢٠	نهايته ثم تضايقه طوراً بعد طور إلى فناء الدولة
الحجاية ١٢٢	واضمحلها ١٥٠
الشرطة: ١٢٧	الفصل الثامن والأربعون: في حدوث الدولة وتجددها
قيادة الأساطيل: ١٢٧	كيف يقع ١٥١
الفصل الخامس والثلاثون: في التفاوت بين مراتب السيف	الفصل التاسع والأربعون: في أن الدولة المستجدة إنما
والقلم في الدول ١٢٩	تستولي على الدولة المستقرة بالمطاوله لا بالمناجزة ... ١٥١
الفصل السادس والثلاثون: في شارات الملك والسلطان	الفصل الخمسون: في وفور العمران آخر الدولة وما يقع
الخاصة به ١٣٠	فيها من كثرة الموتان والجماعات ١٥٢
الخاتم: ١٣٣	الفصل الحادي والخمسون: في أن العمران البشري لا بد
الفساطيط والسياج ١٣٥	له من سياسة يتنظم بها أمره ١٥٣
المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة ١٣٥	

الفصل الثاني والخمسون: في أمر الفاطمي وما يذهب إليه	الفصل السادس عشر: في حاجات الممولين من أهل
الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك ١٥٧	الأمصار إلى الجاه والمدافعة ١٨٦
الفصل الثالث والخمسون: في حدثان الدول والأمم وفيه	الفصل السابع عشر: في أن الحضارة في الأمصار من قبل
الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر..... ١٦٦	الدول وإنما ترسخ باتصال الدولة ورسوخها..... ١٨٦
الباب الرابع: في البلدان والأمصار وسائر العمران وما	الفصل الثامن عشر: في أن الحضارة غاية العمران ونهاية
يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق.. ١٧٣	لعمره وأنها مؤذنة بفساده..... ١٨٧
الفصل الأول: في أن الدول أقدم من المدن والأمصار	الفصل التاسع عشر: في أن الأمصار التي تكون كراسي
وأنها إنما توجد ثانية عن الملك..... ١٧٣	للملك تحرب بخراب الدولة وانتقاضها ١٨٩
الفصل الثاني: في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار ١٧٣	الفصل العشرون: في اختصاص بعض الأمصار ببعض
الفصل الثالث: في أن المدن العظيمة والهاياكل المرتفعة إنما	الصنائع دون بعض ١٩٠
يشيدها الملك الكثير..... ١٧٤	الفصل الحادي والعشرون: في وجود العصية في الأمصار
الفصل الرابع: في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل	وتغلب بعضهم على بعض ١٩٠
ببنائها الدولة الواحدة ١٧٤	الفصل الثاني والعشرون: في لغات أهل الأمصار ١٩١
الفصل الخامس: فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما	الباب الخامس: في المعاش ووجوه من الكسب
يحدث إذا غفل عن تلك المراجعة..... ١٧٥	والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ١٩٣
الفصل السادس: في المساجد والبيوت العظيمة في العالم ١٧٦	الفصل الأول: في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن
الفصل السابع: في أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب	الكسب هو قيمة الأعمال البشرية ١٩٣
قليلة ١٨٠	الفصل الثاني: في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه ١٩٤
الفصل الثامن: في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية	الفصل الثالث: في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي ... ١٩٤
قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من	الفصل الرابع: في أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز
الدول ١٨١	ليس بمعاش طبيعي ١٩٥
الفصل التاسع: في أن المباني التي كانت تحتطها العرب	الفصل الخامس: في أن الجاه مفيد للمال ١٩٧
يسرع إليها الخراب إلا في الأقل ١٨١	الفصل السادس: في أن السعادة والكسب إنما يحصل
الفصل العاشر: في مبادئ الخراب في الأمصار ١٨١	غالباً لأهل الخضوع والتعلق وإن هذا الخلق من
الفصل الحادي عشر: في أن تفاضل الأمصار والمدن في	أسباب السعادة ١٩٧
كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو في	الفصل السابع: في أن القائمين بأمور الدين من القضاء
تفاضل عمراتها في الكثرة والقلّة ١٨٢	والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو
الفصل الثاني عشر: في أسعار المدن ١٨٣	ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ١٩٩
الفصل الثالث عشر: في قصور أهل البادية عن سكنى	الفصل الثامن: في أن الفلاحة من معاش المستضعفين
المصر الكثير العمران ١٨٤	وأهل العافية من البدو ١٩٩
الفصل الرابع عشر: في أن الأقطار في اختلاف أحوالها	الفصل التاسع: في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها ١٩٩
بالرفه والفقر مثل الأمصار ١٨٤	الفصل العاشر: في أي أصناف الناس يتنفع بالتجارة
الفصل الخامس عشر: في تأثر العقار والضياح في الأمصار	وأهم ينبغي له اجتناب حرفها ٢٠٠
وحال فوائدها ومستغلاتها ١٨٥	

الفصل الحادي عشر: في أن خلق التجار نازلة عن خلق	٢٠٠
الأشراف والملوك	٢٠٠
الفصل الثاني عشر: في نقل التاجر للسلع	٢٠٠
الفصل الثالث عشر: في الاحتكار	٢٠١
الفصل الرابع عشر: في أن رخص الأسعار مضر	٢٠١
بالمخترفين بالرخص	٢٠١
الفصل الخامس عشر: في أن خلق التجارة نازلة عن خلق	٢٠٢
الرؤساء وبعيدة من المروءة	٢٠٢
الفصل السادس عشر: في أن الصنائع لا بد لها من العلم	٢٠٢
الفصل السابع عشر: في أن الصنائع إنما تكمل بكمال	٢٠٢
العمران الحضري وكثرته	٢٠٢
الفصل الثامن عشر: في أن رسوخ الصنائع في الأمصار	٢٠٣
إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمده	٢٠٣
الفصل التاسع عشر: في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا	٢٠٤
كثر طالها	٢٠٤
الفصل العشرون: في أن الأمصار إذا قاربت الخراب	٢٠٤
انتقصت منها الصنائع	٢٠٤
الفصل الحادي والعشرون: في أن العرب أبعد الناس عن	٢٠٤
الصنائع	٢٠٤
الفصل الثاني والعشرون: في أن من حصلت له ملكة في	٢٠٥
صناعة قتل أن يبيد بعدها ملكة في أخرى	٢٠٥
الفصل الثالث والعشرون: في الإشارة إلى أمهات الصنائع	٢٠٥
الفصل الرابع والعشرون: في صناعة الفلاحة	٢٠٥
الفصل الخامس والعشرون: في صناعة البناء	٢٠٥
الفصل السادس والعشرون: في صناعة التجارة	٢٠٧
الفصل السابع والعشرون: في صناعة الحياكة والخياطة	٢٠٨
الفصل الثامن والعشرون: في صناعة التوليد	٢٠٨
الفصل التاسع والعشرون: في صناعة الطب وأنها محتاج	٢١٠
إليها في الحواضر والأمصار دون البادية	٢١٠
الفصل الثلاثون: في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع	٢١١
الإنسانية	٢١٤
الفصل الحادي والثلاثون: في صناعة الوراقة	٢١٥
الفصل الثاني والثلاثون: في صناعة الغناء	٢١٥
الفصل الثالث والثلاثون: في أن الصنائع تكسب صاحبها	٢١٧
عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب	٢١٧
الباب السادس: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه	٢١٩
وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من	٢١٩
الأحوال	٢١٩
الفصل الأول: في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران	٢١٩
البشري	٢١٩
الفصل الثاني: في أن تعليم العلم من جملة الصنائع	٢٢١
الفصل الثالث: في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر	٢٢١
العمران وتعظم الحضارة	٢٢١
الفصل الرابع: في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا	٢٢١
العهد	٢٢٢
الفصل الخامس: في علوم القرآن من التفسير والقراءات	٢٢٤
الفصل السادس: في علوم الحديث	٢٢٦
الفصل السابع: في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض	٢٢٩
الفصل الثامن: في علم الفرائض	٢٢٩
الفصل التاسع: أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل	٢٣٠
والخلافيات	٢٣٢
الفصل العاشر: علم الكلام	٢٣٧
الفصل الحادي عشر: في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم	٢٣٨
بالفكر	٢٣٨
الفصل الثاني عشر: في العقل التجريبي وكيفية حدوثه	٢٣٨
الفصل الثالث عشر: في علوم البشر وعلوم الملائكة	٢٣٩
الفصل الرابع عشر: في علوم الأنبياء عليهم الصلاة	٢٣٩
والسلام	٢٣٩
الفصل الخامس عشر: في أن الإنسان جاهل بالذات عالم	٢٣٩
بالكسب	٢٣٩
الفصل السادس عشر: في كشف الغطاء عن المتشابه من	٢٤٠
الكتاب والسنة وما حدث لأجل ذلك من	٢٤٤
طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات	٢٤٩
الفصل السابع عشر: في علم التصوف	٢٥١
الفصل الثامن عشر: في علم تعبير الرؤيا	٢٥٣
الفصل التاسع عشر: في العلوم العقلية وأصنافها	٢٥٣
الفصل العشرون: في العلوم العددية	٢٥٣

الفصل الحادي والعشرون: في العلوم الهندسية	٢٥٥	الفصل التاسع والثلاثون: في تعليم الولدان واختلاف	
الفصل الثاني والعشرون: في علم الهيئة	٢٥٦	مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقة	٢٩٢
الفصل الثالث والعشرون: في علم المنطق	٢٥٦	الفصل الأربعون: في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم	٢٩٣
الفصل الرابع والعشرون: في الطبيعيات	٢٥٩	الفصل الحادي والأربعون: في أن الرحلة في طلب العلوم	
الفصل الخامس والعشرون: في علم الطب	٢٥٩	ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم	٢٩٤
الفصل السادس والعشرون: في الفلاحة	٢٦٠	الفصل الثاني والأربعون: في أن العلماء من بين البشر	
الفصل السابع والعشرون: في علم الإلهيات	٢٦٠	أبعد عن السياسة ومذاهبها	٢٩٤
الفصل الثامن والعشرون: في علوم السحر والطلسمات	٢٦١	الفصل الثالث والأربعون: في أن حملة العلم في الإسلام	
الفصل التاسع والعشرون: علم أسرار الحروف	٢٦٤	أكثرهم العجم	٢٩٥
كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زابرجة		الفصل الرابع والأربعون: في أن العجمة إذا سبقت إلى	
العالم يحول الله منقولاً عن لقيناه من القائمين		اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن	
عليها	٢٦٨	أهل اللسان العربي	٢٩٦
فصل في الاطلاع على الأسرار الخفية من جهة		الفصل الخامس والأربعون: في علوم اللسان العربي	٢٩٧
الارتباطات الحرفية	٢٧٢	علم النحو	٢٩٧
فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين		علم اللغة	٢٩٨
الحرفية	٢٧٤	علم البيان	٢٩٩
الفصل الثلاثون: في علم الكيمياء	٢٧٥	علم الأدب	٣٠١
الفصل الحادي والثلاثون: في إبطال الفلسفة وفساد		الفصل السادس والأربعون: في أن اللغة ملكة صناعية	٣٠١
متنزلها	٢٧٩	الفصل السابع والأربعون: في أن لغة العرب لهذا العهد	
الفصل الثاني والثلاثون: في إبطال صناعة النجوم وضعف		مستقلة مغايرة للغة مُضَر وحير	٣٠٢
مداركها وفساد غايتها	٢٨٢	الفصل الثامن والأربعون: في أن لغة أهل الحضرة	
الفصل الثالث والثلاثون: في إنكار ثمره الكيمياء واستحالة		والأمصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر	٣٠٤
وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها	٢٨٤	الفصل التاسع والأربعون: في تعليم اللسان المضري	٣٠٤
الفصل الرابع والثلاثون: في أن كثرة التآليف في العلوم		الفصل الخمسون: في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة	
عائقة عن التحصيل	٢٨٧	العربية ومستغنية عنها في التعليم	٣٠٥
الفصل الخامس والثلاثون: في المقاصد التي ينبغي اعتمادها		الفصل الواحد والخمسون: في تفسير لفظة الذوق في	
بالتأليف وإنهاء ما سواها	٢٨٨	مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنها لا	
الفصل السادس والثلاثون: في أن كثرة الاختصارات		تحصل غالباً للمستعربين من العجم	٣٠٦
المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم	٢٨٩	الفصل الثاني والخمسون: في أن أهل الأمصار على	
الفصل السابع والثلاثون: في وجه الصواب في تعليم		الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية	
العلوم وطريق إفادته	٢٩٠	التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن	
الفصل الثامن والثلاثون: في أن العلوم الآلية لا توسع		اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر	٣٠٧
فيها الأنظار ولا تفرع المسائل	٢٩٢	الفصل الثالث والخمسون: في انقسام الكلام إلى فني النظم	
		والنثر	٣٠٨

الفصل الرابع والخمسون: في أنه لا تتفق الإجابة في فني	المنظوم والمثور معاً إلا للأقل	٣٠٩	الطبقة الثانية من العرب وهم العرب المستعربة وذكر
الفصل الخامس والخمسون: في صناعة الشعر ووجه تعلمه ..	٣٠٩	أنسابهم وأيامهم وملوكهم والإلام ببعض الدول	التي كانت على عهدهم
الفصل السادس والخمسون: في أن صناعة النظم والنثر	٣١٣	إنما هي في الألفاظ لا في المعاني	الخبر عن ملوك التبابعة من حير وأوليتهم باليمن
الفصل السابع والخمسون: في أن حصول هذه الملكة	٣١٣	بكترة الحفظ وجودتها بجودة الحفظ	ومصاير أمورهم
الفصل الثامن والخمسون: في بيان المطبوع من الكلام	٣١٤	والمصنوع وكيف جودة المصنوع أو قصوره	ملك الحبشة اليمن
الفصل التاسع والخمسون: في ترفع أهل المراتب عن	٣١٦	انتحال الشعر	غزو الحبشة الكعبة
الفصل الستون: في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا	٣١٧	العهد	قصة سيف بن ذي يزن وملك القرس على اليمن
الموشحات والأزجال للأندلس	٣٢٠	الموشحات والأزجال في المشرق	الخبر عن ملوك بابل من القبط والسريانيين وملوك
خاتمة	٣٢٩	الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ	الموصل ونيوى من الجرامقة
بدء الخليقة إلى هذا العهد	٣٣١	المقدمة الأولى: في أمم العالم واختلاف أجيالهم والكلام	الخبر عن بني إسرائيل وما كان لهم من النبوة والملك
على الجملة في أنسابهم	٣٣١	المقدمة الثانية: في كيفية وضع الأنساب في كتابنا لأهل	وتغلبهم على الأرض المقدسة بالشام وكيف
الدول وغيرهم	٣٣٥	القول في أجيال العرب وأوليتها واختلاف طبقاتهم	تجددت دولتهم بعد الانقراض وما اكتشف ذلك
وتعاقبها وأنساب كل طبقة منها	٣٣٥	برنامج بما تضمنه الكتاب من الدول في هذه الطبقات	من الأحوال
الأربع على ترتيبها والدول المعاصرين من العجم	٣٣٧	في كل خليقة منها	الخبر عن حكام بني إسرائيل بعد يوشع إلى أن صار
الطبقة الأولى من العرب وهم العرب العاربة وذكر	٣٣٨	نسبهم والإلام بملكهم ودولهم على الجملة	أمرهم إلى الملك وملك عليهم طالوت
نسبهم والإلام بملكهم ودولهم على الجملة	٣٣٨	الخبر عن ملوك بني إسرائيل بعد الحكام ثم افتراق	أمرهم والخبر عن دولة بني سليمان بن داود على
الخبر عن إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام ونسبه إلى	٣٤٣	السبطين يهوذا وبنيامين بالقدس إلى انقراضها	الخبر عن افتراق بني إسرائيل منهم بيت المقدس على
فالع بن عابر وذكر أولاده صلوات الله عليهم		سبط يهوذا وبنيامين إلى انقراضه	الخبر عن دولة الأسباط العشرة وملوكهم إلى حين
وأحوالهم		انقراض أمرهم	انقراض أمرهم
		الخبر عن عمارة بيت المقدس بعد الخراب الأول وما	كان لبني إسرائيل فيها من الملك في الدولتين لبني
		حشماني وبني هيرودوس إلى حين الخراب الثاني	والجلوة الكبرى
		ابتداء أمر انظفتر أبو هيرودوس	انقراض ملك بني حشماني وابتداء ملك هيرودوس
		وبنيته	الخبر عن شأن عيسى بن مريم صلوات الله عليه في
		ولادته وبعثه ورفعته من الأرض والإلام بشأن	

- الخبر عن أنساب العرب من هذه الطبقة الثالثة واحدة
 وذكر مواطنهم ومن كان له الملك منهم ٤٤٧
- الخبر عن حمير من القحطانية وبطونها وتفرع شعوبها ٤٤٧
- الخبر عن قضاة وبطونها والإمام ببعض الملك الذي
 كان فيها ٤٤٩
- الخبر عن بطون كهلان من القحطانية وشعوبهم
 واتصال بعضها مع بعض وانقضائها ٤٥١
- الخبر عن ملوك الحيرة من آل المنذر من هذه الطبقة
 وكيف انساق الملك إليهم ممن قبلهم وكيف صار
 إلى طيء من بعدهم ٤٥٤
- الخبر عن ملوك كندة من هذه الطبقة ومبدأ أمرهم
 وتصاريف أحوالهم ٤٦١
- الخبر عن أبناء جفنة ملوك غسان بالشام من هذه الطبقة
 وأوليتهم ودولهم وكيف انساق الملك إليهم ممن
 قبلهم ٤٦٣
- الخبر عن الأوس والخزرج أبناء قبيلة من هذه الطبقة
 ملوك يثرب دار الهجرة وذكر أوليتهم والإمام
 بشأن نصرتهم وكيف انقراض أمرهم ٤٦٦
- الخبر عن بني عدنان وأنسابهم وشعوبهم وما كان لهم
 من الدول والملك في الإسلام وأولية ذلك
 ومصابيره ٤٧١
- الخبر عن قريش من هذه الطبقة وملكهم بمكة وأولية
 أمرهم وكيف صار الملك إليهم فيها ممن قبلهم
 من الأمم السابقة ٤٨٦
- أمر النبوة والهجرة في هذه الطبقة الثالثة وما كان من
 اجتماع العرب على الإسلام بعد الإبابة والحرب ... ٤٩١
- المولد الكريم وبدء الوحي ٤٩٢
- بدء الوحي ٤٩٣
- هجرة الحبشة ٤٩٤
- إسلام عمر بن الخطاب ٤٩٥
- الأذى والاستهزاء ٤٩٥
- الإسراء ٤٩٦
- العقبة الأولى ٤٩٦
- العقبة الثانية ٤٩٧
- الحواريين بعده وكتبهم الأناجيل الأربعة وديانة
 النصراني بملته واجتماع الأقسمة على تدوين
 شريعته ٣٩٥
- الطبقة الأولى من الفرس وذكر ملوكهم وما صار إليه في
 الخليقة أحوالهم ٤٠١
- الطبقة الثانية من الفرس وهم الكينية وذكر ملوكهم
 وأيامهم إلى حين انقراضهم ٤٠٣
- الطبقة الثالثة من الفرس وهم الأشكانية ملوك الطوائف
 وذكر دولهم ومصابير أمورهم إلى نهايتها ٤٠٧
- الطبقة الرابعة من الفرس وهم الساسانية والخبر عن
 ملوكهم الأكاسرة إلى حين الفتح الإسلامي ٤٠٨
- الخبر عن دولة يونان والروم وأنسابهم ومصابيرهم ٤١٦
- الخبر عن دولة يونان والإسكندر منهم وما كان لهم من
 الملك والسلطان إلى انقراض أمرهم ٤١٦
- الخبر عن اللطينيين وهم الكيتم المعروفون بالروم من أمم
 يونان وأشياهم وشعوبهم وما كان لهم من الملك
 والغلب وذكر الدولة التي فيهم للقيصرة وأولية
 ذلك ومصابيره ٤٢١
- الخبر عن فتنة الكيتم مع أهل إفريقية وتخريب قرطاجنة
 ثم بناؤها على الكيتم وهم اللطينيون ٤٢٢
- الخبر عن ملوك القياصرة من الكيتم وهم اللطينيون
 ومبدأ أمورهم ومصابير أحوالهم ٤٢٢
- الخبر عن القياصرة المنتصرة من اللطينيين وهم الكيتم
 واستفعال ملكهم بقسطنطينية ثم بالشام بعدها إلى
 حين الفتح الإسلامي ثم بعده إلى انقراض أمرهم .. ٤٢٩
- الخبر عن ملوك القياصرة من لدن هرقل والدولة
 الإسلامية إلى حين انقراض أمرهم وتلاشي
 أحوالهم ٤٣٦
- الخبر عن القوط وما كان لهم من الملك بالأندلس إلى
 حين الفتح الإسلامي وأولية ذلك ومصابيره ٤٤٣
- الطبقة الثالثة من العرب وهم العرب التابعة للعرب
 وذكر أفاريقهم وأنسابهم وممالكهم وما كان لهم
 من الدول على اختلافها والبادية والرحالة منهم
 وملكها ٤٤٤

٥١٣.....	عمرة القضاء	٤٩٨	الهجرة
٥١٣.....	غزوة جيش الأمراء أو غزوة مؤتة	٤٩٩.....	المواخاة
٥١٣.....	فتح مكة	٤٩٩	الغزوات
٥١٦.....	غزوة حنين	٤٩٩.....	غزوة الأبواء
٥١٧.....	حصار الطائف	٥٠٠.....	غزوة بواط
٥١٨.....	غزوة تبوك	٥٠٠.....	غزوة العشيرة
٥١٩.....	إسلام عروة بن مسعود ثم وفد ثقيف وهدم اللات	٥٠٠.....	غزوة بدر الأولى
٥١٩.....	الوفود	٥٠٠.....	البعوث
٥٢٣.....	حجة الوداع	٥٠٠.....	صرف القبلة
٥٢٣.....	العمال على التواحي	٥٠١.....	غزوة بدر الثانية العظمى والكبرى
٥٢٤.....	خبر العنسي	٥٠٢.....	غزوة الكرز
٥٢٤.....	أخبار الأسود ومسيلمة وطليحة	٥٠٢.....	غزوة السوق
٥٢٥.....	مرضه ﷺ	٥٠٢.....	غزوة ذي أمر
٥٢٥.....	وفاته ﷺ	٥٠٣.....	نجران
٥٢٦.....	خبر السقيفة	٥٠٣.....	قتل كعب بن الأشرف
	الخبر عن الخلافة الإسلامية في هذه الطبقة وما كان منها	٥٠٣.....	غزوة بني قينقاع
	من الردة والفتوحات وما حدث بعد ذلك من	٥٠٣.....	سرية زيد بن حارثة إلى قرعة
٥٢٧.....	الفتن والحروب في الإسلام ثم الانشقاق والجماعة	٥٠٣.....	قتل أبي الحقيق
٥٢٧.....	ردة اليمن	٥٠٤	غزوة أحد
٥٢٩.....	بعث الجيوش للمرتدة	٥٠٥.....	غزوة حمراء الأسد
٥٣٠.....	خبر طليحة	٥٠٥.....	بعث الرجيع
٥٣٠.....	خبر هوازن وسليم وبني عامر	٥٠٦.....	غزوة بئر معونة
٥٣١.....	خبر بني تميم وسجاح	٥٠٦.....	غزوة بني النضير
٥٣٢.....	خبر البطاح ومالك بن نويرة	٥٠٦.....	غزوة ذات الرقاع
٥٣٢.....	خبر مسيلمة واليمامة	٥٠٦.....	غزوة بدر الصغرى - الموعدة
٥٣٣.....	ردة الحطيم وأهل البحرين	٥٠٧.....	غزوة دومة الجندل
٥٣٤.....	ردة أهل عمان ومهرة واليمن	٥٠٨.....	غزوة بني قريظة
٥٣٤.....	بعوث العراق وصلاح الحيرة	٥٠٨.....	غزوة الغابة وذو قرد
٥٣٥.....	فتح الحيرة	٥٠٩.....	غزوة بني المصطلق
٥٣٦.....	فتح ما وراء الحيرة	٥٠٩	عمرة الحديبية
٥٣٦.....	فتح الأنبار وعين التمر	٥١٠	إرسال الرسل إلى الملوك
٥٣٧.....	مطلب وقعة دومة الجندل	٥١٢	غزوة خيبر
٥٣٧.....	الوقائع بالعراق	٥١٢.....	قدوم مهاجرة الحبشة
٥٣٧.....	بعوث الشام	٥١٣	فتح فذك ووادي القرى

٥٣٨	بعوث الشام	٥٦٥	ولاية ابن عامر على البصرة وفتح فارس وخراسان
٥٣٨	وقعة مرج راهط	٥٦٦	ولاية سعيد بن العاص الكوفة
٥٣٩	خلافة عمر رضي الله عنه	٥٦٧	غزو طبرستان
٥٣٩	فتح دمشق	٥٦٧	غزو حذيفة الباب وأمر المصاحف
٥٤٠	خبر المثنى بالعراق بعد مسير خالد إلى الشام	٥٦٨	مقتل يزيدجرد
٥٤٠	ولاية أبي عبيد بن مسعود على العراق ومقتله	٥٦٨	ظهور الترك بالثغور
٥٤٢	أخبار القادسية	٥٦٩	بدء الانتفاض على عثمان رضي الله عنه
٥٤٧	فتح المدائن وجلولاء بعدها	٥٧٢	حصار عثمان ومقتله رضي الله عنه وأثابه ورفع درجته
٥٤٩	ولاية عتبة بن غزوان على البصرة	٥٧٦	بيعة علي رضي الله عنه
٥٤٩	وقعة مرج الروم وفتح مدائن الشام بعدها	٥٧٧	أمر الجمل
٥٥٠	وقعة أجنادين وفتح بيسان والأردن وبيت المقدس	٥٨٥	انتفاض محمد بن أبي حذيفة بمصر ومقتله
٥٥١	مسير هرقل إلى حمص وفتح الجزيرة وأرمينية	٥٨٥	ولاية قيس بن سعد على مصر
	غزو فارس من البحرين وعزل العلاء عن البصرة ثم	٥٨٦	مبايعة عمرو بن العاص لمعاوية
٥٥٢	المغيرة وولاية أبي موسى	٥٨٦	أمر صفين
٥٥٣	بناء البصرة والكوفة	٥٩١	أمر الحكمين
٥٥٣	فتح الأهواز والسوس بعدها	٥٩٢	أمر الخوارج وقتلهم
٥٥٥	مسير المسلمين إلى الجهات للفتح	٥٩٣	ولاية عمرو بن العاص على مصر
٥٥٥	مجاة عام الرمادة وطاعون عمواس	٥٩٤	دعاء ابن الحضرمي بالبصرة لمعاوية ومقتله
٥٥٥	فتح مصر	٥٩٥	ولاية زياد على فارس
٥٥٦	وقعة نهاوند وما كان بعدها من الفتوحات	٥٩٥	فراق ابن عباس لعلي رضي الله عنهم
٥٥٧	فتح همدان	٥٩٥	مقتل علي رضي الله عنه
٥٥٨	فتح الري	٥٩٦	بيعة الحسن وتسليمه الأمر لمعاوية
٥٥٨	فتح أذربيجان	٥٩٨	دولة بني أمية
٥٥٨	فتح الموصل الباب	٥٩٩	بعث معاوية العمال إلى الأمصار
٥٥٨	فتح موقان وجبال أرمينية	٦٠٠	قدوم زياد
٥٥٩	غزو الترك	٦٠٠	عمال ابن عامر على الثغور
٥٥٩	فتح خراسان	٦٠٠	عزل ابن عامر
٥٦٠	فتح فارس	٦٠١	استخلاف زياد
٥٦١	خبر الأكراد	٦٠١	ولاية زياد البصرة
٥٦١	مقتل عمر وأمر الشورى وبيعة عثمان رضي الله عنه	٦٠٢	صوائف الشام
٥٦٢	نقض أهل الإسكندرية وفتحها	٦٠٢	وفاة المغيرة
٥٦٢	ولاية الوليد بن عقبة الكوفة وصلاح أرمينية وأذربيجان	٦٠٥	وفاة زياد
٥٦٣	ولاية عبد الله بن أبي سرح على مصر وفتح إفريقية	٦٠٥	ولاية عبيد الله بن زياد على خراسان ثم على البصرة
٥٦٤	فتح قبرص	٦٠٦	العهد ليزيد

٦٣٠.....	عمارة المسجد	عزل الضحاك عن الكوفة وولاية ابن أم الحكم ثم
٦٣٠.....	فتح السند	النعمان بن بشير ٦٠٦
٦٣١.....	فتح الطالقان وسمرقند وغزو كَشَّ ونسف والشاش	ولاية عبد الرحمن بن زياد خراسان ٦٠٦
٦٣١.....	وفرغانة وصلاح خوارزم	بقية الصوائف ٦٠٧
٦٣٣.....	خبر يزيد بن المهلب وإخوته	وفاة معاوية ٦٠٧
٦٣٣.....	ولاية خالد القسري على مكة وإخراج سعيد بن جببر	بيعة يزيد ٦٠٨
٦٣٣.....	عنها ومقتله	عزل الوليد عن المدينة وولاية عمرو بن سعيد ٦٠٨
٦٣٤.....	وفاة الحجاج	مسير الحسين إلى الكوفة ومقتله ٦٠٩
٦٣٤.....	أخبار محمد بن القاسم بالسند	مسيرة المختار إلى الكوفة وأخذها من ابن المطيع بعد
٦٣٤.....	فتح مدينة كاشغر	وقعة كربلاء ٦٠٩
٦٣٥.....	وفاة الوليد وبيعة سليمان	مسيرة ابن زياد إلى المختار وخلافة أهل الكوفة عليه ٦١٠
٦٣٥.....	مقتل قتيبة بن مسلم	شان المختار مع ابن الزبير ٦١١
٦٣٦.....	ولاية يزيد بن المهلب خراسان	مقتل ابن زياد ٦١٢
٦٣٦.....	أخبار الصوائف وحصار قسطنطينية	مسير مصعب إلى المختار وقته إياه ٦١٣
٦٣٧.....	فتح جرجان وطبرستان	خلاف عمرو بن سعيد الأشدق ومقتله ٦١٤
٦٣٨.....	وفاة سليمان وبيعة عمر بن عبد العزيز	مسير عبد الملك إلى العراق ومقتل مصعب ٦١٥
٦٣٩.....	عزل يزيد بن المهلب وحجسه والولاية على عماله	أمر زفر بن الحارث بقرقيسيا ٦١٧
٦٣٩.....	ولاية عبد الرحمن بن نعيم القشيري على خراسان	مقتل ابن حازم بخراسان وولاية بكير بن وشاح عليها ٦١٧
٦٤٠.....	وفاة عمر بن عبد العزيز وبيعة يزيد	ولاية المهلب حرب الأزارقة ٦١٩
٦٤٠.....	احتيايل يزيد بن المهلب ومقتله	ولاية أسد بن عبد الله على خراسان ٦١٩
٦٤٢.....	ولاية مسلمة على العراق وخراسان	ولاية الحجاج العراق ٦٢٠
٦٤٢.....	العهد لهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد	وقوع أهل البصرة بالحجاج ٦٢٠
٦٤٢.....	غزوة الترك	مقتل ابن مخنف وحرب الخوارج ٦٢١
٦٤٣.....	غزو الصفد	ضرب السكة الإسلامية ٦٢٢
٦٤٣.....	ولاية ابن هبيرة على العراق وخراسان	مقتل بكير بن وشاح بخراسان ٦٢٢
٦٤٤.....	ولاية الجراح على أرمينية وفتح بلنجر	مقتل بجير بن زياد ٦٢٢
٦٤٤.....	ولاية عبد الواحد القسري على المدينة ومكة	ولاية الحجاج على خراسان وسجستان ٦٢٣
٦٤٤.....	عزل الحريشي وولاية مسلم الكلبي على خراسان	أخبار ابن الأشعث ومقتله ٦٢٣
٦٤٥.....	وفاة يزيد وبيعة هشام	بناء الحجاج مدينة واسط ٦٢٧
٦٤٥.....	غزو مسلم الترك	عزل يزيد عن خراسان ٦٢٧
٦٤٥.....	ولاية أسد القسري على خراسان	مقتل موسى بن حازم ٦٢٧
٦٤٦.....	ولاية أشرس على العراق	البيعة للوليد بالعهده ٦٢٩
٦٤٦.....	عزل أشرس	وفاة عبد الملك وبيعة الوليد ٦٢٩
٦٤٧.....	عزل أشرس عن خراسان وولاية الجنيد	ولاية قتيبة بن مسلم خراسان وأخباره ٦٣٠

- ٦٤٧ مقتل الجراح الحكمي
- ٦٤٧ وقعة الشعب بين الجنيد وخاقان
- ٦٤٨ ولاية عاصم على خراسان وعزل الجنيد
- ٦٤٨ ولاية مروان بن محمد على أرمينية وأذربيجان
- ٦٤٩ خلع الحارث بن شريح بخراسان
- ٦٤٩ ولاية أسد القسري الثانية بخراسان
- ٦٥٠ مقتل خاقان
- ٦٥١ وفاة أسد
- ٦٥١ ولاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق وعزل خالد
- ٦٥٢ ولاية نصر بن سيار خراسان وغزوه وصلح الصفد
- ٦٥٢ ظهور زيد بن علي ومقتله
- ٦٥٣ ظهور أبي مسلم بالدعوة العباسية
- ٦٥٥ وفاة هشام بن عبد الملك وبيعة الوليد بن يزيد
- ٦٥٦ ولاية نصر للوليد على خراسان
- ٦٥٦ مقتل يحيى بن زياد
- ٦٥٦ مقتل خالد بن عبد الله القسري
- ٦٥٧ مقتل الوليد وبيعة يزيد
- ولاية منصور بن جمهور على العراق ثم ولاية عبد الله بن عمر
- ٦٥٩ انتفاض أهل اليمامة
- ٦٥٩ اختلاف أهل خراسان
- ٦٦٠ أمان الحارث بن شريح وخروجه من دار الحارث
- ٦٦٠ انتفاض مروان لما قتل الوليد
- ٦٦٠ وفاة يزيد وبيعة أخيه إبراهيم
- ٦٦٠ مسير مروان إلى الشام
- ٦٦١ انتفاض الناس على مروان
- ٦٦٢ ظهور عبد الله بن معاوية
- ٦٦٢ غلبة الكرمانى على مرو وقته الحارث بن شريح
- ٦٦٣ ظهور الدعوة العباسية بخراسان
- ٦٦٤ مقتل الكرمانى
- ٦٦٥ اجتماع أهل خراسان على قتل أبي مسلم
- ٦٦٥ مقتل عبد الله بن معاوية
- ٦٦٧ مسير قحطبة للفتح
- ٦٦٨ هلاك نصر بن سيار
- ٦٦٨ استيلاء قحطبة على الري
- استيلاء قحطبة على أصبهان ومقتل ابن ضبارة وفتح
- ٦٦٨ نهاوند وشهرزور
- حرب السفاح ابن هبيرة مع قحطبة ومقتلهما وفتح
- ٦٦٩ الكوفة
- ٦٦٩ بيعة السفاح
- ٦٧٠ مقتل إبراهيم ابن الإمام
- ٦٧١ هزيمة مروان بالزاب ومقتله بمصر
- ٦٧٢ بقية الصوائف في الدولة الأموية
- ٦٧٣ عمال بني أمية على النواحي
- الخبر عن الخوارج وذكر أوليتهم وتكرر خروجهم في
- ٦٧٧ الملة الإسلامية
- ٦٨١ خبر ابن الحر ومقتله
- ٦٨٢ حروب الخوارج مع عبد الملك والحجاج
- ٦٨٣ حروب الصفرية وشييب مع الحجاج
- ٦٨٧ خروج المطرف بن المغيرة بن شعبة
- ٦٨٧ اختلاف الأزارقة
- ٦٨٨ خروج شوذب
- ٦٩١ خبر أبي حمزة وطالب وإسحاق
- ٦٩٣ الدولة الإسلامية بعد افتراق الخلافة
- ٦٩٣ مبدأ دولة الشيعة
- الخبر عن بني العباس من دول الإسلام في هذه الطبقة
- الثالثة للعرب وأولية أمرهم وإنشاء دولتهم
- ٦٩٤ والإمام بنكت أخبارهم وعيون أحاديثهم
- ٦٩٥ دولة السفاح
- ٦٩٥ حصار ابن هبيرة بواسط ومقتله
- ٦٩٦ مقتل أبي مسلمة بن الحلال وسليمان بن كثير
- ٦٩٧ عمال السفاح
- ٦٩٧ الثوار بالنواحي
- ٦٩٨ حج أبي جعفر وأبي مسلم
- ٦٩٨ موت السفاح وبيعة المنصور
- ٦٩٩ انتفاض عبد الله بن علي وهزيمته
- ٧٠١ حبس عبد الله بن علي
- ٧٠١ وقعة الراوندية

٧٢١.....	فتنة الموصل ومصر	٧٠٢	انتفاض خراسان ومسير المهدي إليها
٧٢٢.....	إيداع كتاب العهد	٧٠٢	أمر بني العباس
٧٢٣.....	أخبار البرامكة ونكبتهم	٧٠٤	ظهور محمد المهدي ومقتله
٧٢٤.....	الصوائف وفتوحاتها	٧٠٦	شان إبراهيم بن عبد الله وظهوره ومقتله
٧٢٥.....	الولاية على النواحي	٧٠٧	بناء مدينة بغداد
٧٢٦.....	خلع رافع بن الليث بما وراء النهر	٧٠٨	العهد للمهدي وخلع عيسى بن موسى
٧٢٦.....	وفاة الرشيد وبيعة الأمين	٧٠٨	خروج أستاذسيس
٧٢٧.....	أخبار رافع وملوك الروم	٧٠٩	ولاية هشام بن عمرو التغلبي على السند
٧٢٨.....	الفتنة بين الأمين والمأمون	٧٠٩	بناء الرصافة للمهدي
٧٢٨.....	خروج ابن ماهان لحرب طاهر ومقتله	٧٠٩	مقتل معن بن زائدة
٧٢٩.....	مسير ابن جبلة إلى طاهر ومقتله	٧٠٩	العمال على النواحي أيام السفاح والمنصور
٧٢٩.....	بيعة المأمون	٧١١	الصوائف
٧٢٩.....	ظهور السفيناني	٧١٢	وفاة المنصور وبيعة المهدي
٧٣٠.....	مسير الجيوش إلى طاهر ورجوعهم بلا قتال	٧١٣	ظهور المقتنع ومهلكه
٧٣٠.....	أمر عبد الملك بن صالح وموته	٧١٤	الولاة أيام المهدي
٧٣٠.....	خلع الأمين وإعادته	٧١٤	العهد للهادي وخلع عيسى
٧٣١.....	استلاء طاهر على البلاد	٧١٥	فتح باربد من السند
٧٣١.....	بيعة الحجاز للمأمون	٧١٥	حج المهدي
٧٣١.....	حصار بغداد واستيلاء طاهر عليها ومقتل الأمين	٧١٥	نكبة الوزير أبي عبد الله
٧٣٣.....	ظهور ابن طباطبا العلوي	٧١٥	ظهور دعوة العباسية بالأندلس وانقطاعها
٧٣٥.....	بيعة محمد بن جعفر بمكة	٧١٦	غزو المهدي
٧٣٥.....	مقتل هرثمة	٧١٦	العهد لهارون
٧٣٥.....	انتفاض بغداد على الحسن بن سهل	٧١٦	نكبة الوزير يعقوب بن داود
٧٣٦.....	أمر المطوعة	٧١٦	مسير الهادي إلى جرجان
٧٣٦.....	العهد لعلي الرضا والبيعة لإبراهيم بن المهدي	٧١٦	العمال بالنواحي
٧٣٨.....	قدوم المأمون إلى العراق	٧١٧	الصوائف
٧٣٩.....	ولاية طاهر على خراسان ووفاته	٧١٧	وفاة المهدي وبيعة الهادي
	ولاية عبد الله بن طاهر الرقة ومصر ومحاربه نصر بن		ظهور الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن الحسن
٧٣٩	شيث	٧١٨	السيط ومقتله
٧٤٠.....	الظفر بابن عائشة وإبراهيم بن المهدي	٧١٩	حديث الهادي في خلع الرشيد
٧٤٠.....	انتفاض مصر والإسكندرية	٧١٩	وفاة الهادي وبيعة الرشيد
٧٤٠.....	العمال بالنواحي	٧٢٠	خبر يحيى بن عبد الله في الديلم
٧٤١.....	الصوائف	٧٢٠	ولاية جعفر بن يحيى مصر
٧٤٢.....	وفاة المأمون وبيعة المعتصم	٧٢٠	الفتنة بدمشق

٧٥٧..... مقتل أتمامش	٧٤٢ ظهور صاحب الطالقان
٧٥٨..... ظهور يحيى بن عمر ومقتله	٧٤٢ حرب الزط
٧٥٨..... ابتداء الدولة العلوية بطبرستان	٧٤٢ بناء سامراً
٧٥٩..... مقتل باغر	٧٤٢ نكبة الفضل بن مروان
٧٥٩..... بيعة المعتز وحصار المستعين	٧٤٣ محاربة بابك الخرمي
٧٦١..... خلع المستعين ومقتله والفتن خلال ذلك	٧٤٥ فتح عمورية
٧٦٢..... أخبار مساور الخارجي	٧٤٦ حبس العباس بن المأمون ومهلكه
٧٦٢..... مقتل وصيف ثم بغا	٧٤٧ انتفاض مازيار وقتله
٧٦٣..... ابتداء دولة الصفار	٧٤٨ ولاية ابن السيد على الموصل
٧٦٣..... ابتداء دولة ابن طولون بمصر	٧٤٨ نكبة الأفشين ومقتله
٧٦٣..... استقدام سليمان بن طاهر لولاية بغداد	٧٤٩ ظهور المبرقع
٧٦٤..... خبر كرخ أصبهان وأبي دلف	٧٤٩ وفاة المعتصم وبيعة الواثق
٧٦٤..... خلع المعتز وموته وبيعة المهدي	٧٥٠ وقعة بغا في الأعراب
٧٦٥..... مسير موسى بن بغا إلى سامراً ومقتل صالح بن وصيف	٧٥٠ مقتل أحمد بن نصر
٧٦٦..... الصوائف منذ ولاية المنتصر إلى آخر أيام المهدي	٧٥١ الفداء والصائفة
٧٦٦..... الولاة	٧٥١ وفاة الواثق وبيعة المتوكل
٧٦٧..... أخبار صاحب الزنج وابتداء فتنه	٧٥١ نكبة الوزير ابن الزيات ومهلكه
٧٦٨..... خلع المهدي وقتله وبيعة المعتمد	٧٥١ نكبة إيتاخ ومقتله
٧٦٩..... ظهور العلوية بمصر والكوفة	٧٥٢ شأن ابن البغيث
٧٧٠..... بقية أخبار الزنج	٧٥٢ بيعة العهد
٧٧٠..... مسير المولد لحربهم	٧٥٢ ملك محمد بن إبراهيم
٧٧٠..... مقتل منصور الحياط	٧٥٣ انتفاض أهل أرمينية
٧٧٠..... مسير الموفق لحرب الزنج	٧٥٣ عزل ابن أبي دؤاد وولاية ابن أكنم
٧٧١..... مقتل البحراني قائد الزنج	٧٥٣ انتفاض أهل حمص
٧٧١..... مسير ابن بغا لحرب الزنج	٧٥٣ إغارة البجاة على مصر
٧٧١..... استيلاء الصفار على فارس وطبرستان	٧٥٤ الصوائف
استيلاء الصفار على خراسان وانقراض أمر بني طاهر	٧٥٤ الولايات في النواحي
٧٧١ منها ثم استيلاؤه على طبرستان	٧٥٥ مقتل المتوكل وبيعة المنتصر ابنه
٧٧٢..... استيلاء الحسن بن زيد على جرجان	الخبر عن الخلفاء من بني العباس أيام الفتنه، وتغلب
٧٧٢..... فتنة الموصل	الأولياء وتضاييق نطاق الدولة باستبداد الولاة في
٧٧٢..... حروب ابن واصل بفارس	النواحي من لدن المنتصر إلى أيام المستكفي
٧٧٣..... مبدأ دولة بني سامان وراء النهر	٧٥٦ دولة المنتصر
٧٧٣..... مسير الموفق إلى البصرة لحرب الزنج وولاية العهد	٧٥٧ وفاة المنتصر وبيعة المستعين
٧٧٣..... وقعة الصفار والموفق	٧٥٧ فتنة بغداد وسامرا

- ٧٩٣.....الولاية على الجبل وأصبهان
- ٧٩٣.....عود حمدان إلى الطاعة
- ٧٩٤.....هزيمة هارون الشاري ومهلكه
- ٧٩٤.....خبر ابن الشيخ بآمد
- ٧٩٤.....خبر ابن أبي الساج
- ٧٩٥.....ابتداء أمر القرامطة بالبحرين والشام
- ٧٩٥.....استيلاء ابن سامان على خراسان من يد عمرو بن الليث وأسرهم ثم مقتله
- ٧٩٥.....استيلاء ابن سامان على طبرستان من يد العلوى ومقتله
- ٧٩٦.....ولاية علي بن المعتضد على الجزيرة والثغور
- ٧٩٦.....حرب الأعراب
- ٧٩٦.....تغلب ابن الليث على فارس وإخراج بدر إياه
- ٧٩٧.....الولايات في النواحي
- ٧٩٧.....الصوائف
- ٧٩٧.....وفاة المعتضد وبيعة ابنه
- ٧٩٧.....استيلاء محمد بن هارون على الري ثم أسره وقتله
- ٧٩٨.....استيلاء المكتفي على مصر وانقراض دولة ابن طولون
- ٧٩٨.....ابتداء دولة بني حمدان
- ٧٩٩.....أخبار ابن الليث بفارس
- ٧٩٩.....الصوائف
- ٧٩٩.....الولايات بالنواحي
- ٧٩٩.....وفاة المكتفي وبيعة المقتدر
- ٨٠٠.....خلع المقتدر بابن المعتز وإعادته
- ٨٠١.....ابتداء دولة العبيديين من الشيعة بأفريقية
- ٨٠٢.....وفاة الحبيب وإبصاؤه لابنه عبيد الله
- ٨٠٣.....بيعة المهدي بسجلماسة
- ٨٠٣.....أخبار ابن الليث بفارس
- قيام أهل صقلية بدعوة المقتدر ثم رجوعهم إلى طاعة المهدي
- ٨٠٤.....ولاية العهد
- ٨٠٤.....ظهور الأطروش وملكه خراسان
- ٨٠٥.....غلب المهدي على الإسكندرية ومسير مؤنس إلى مصر
- ٨٠٥.....انتقاض الحسين على ابن حمدان بديار ربيعة وأسرهم
- ٧٧٤.....سياقة أخبار الزنج
- ٧٧٦.....استيلاء الصفار على الأهواز
- ٧٧٦.....استيلاء الزنج على واسط
- ٧٧٦.....استيلاء ابن طولون على الشام
- ٧٧٧.....موت يعقوب الصفار وولاية عمرو أخيه
- ٧٧٧.....أخبار الزنج مع أغرغش
- استرجاع ابن الموفق ما غلب عليه الزنج من أعمال دجلة
- ٧٧٧.....وصول الموفق لحرب الزنج وفتح المنبجة والمنصورة
- ٧٧٨.....حصار مدينة الخبيث المختارة وفتحها
- ٧٨١.....استيلاء الموفق على الجهة الغربية
- ٧٨٢.....استيلاء الموفق على الجهة الشرقية
- ٧٨٢.....مقتل صاحب الزنج
- ٧٨٣.....ولاية ابن كنداج على الموصل
- ٧٨٣.....حروب الخوارج بالموصل
- ٧٨٣.....أخبار رافع بن هرثمة من بعد الخجستاني
- مغاضبة المعتضد للموفق ومسير ابن طولون وما نشأ من الفتنة لأجل ذلك
- ٧٨٤.....وفاة ابن طولون ومسير ابن كنداج إلى الشام
- ٧٨٤.....وفاة صاحب طبرستان وولاية أخيه
- ٧٨٥.....فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج وابن طولون
- ٧٨٥.....أخبار عمرو بن الليث
- ٧٨٦.....مسير الموفق إلى أصبهان والجبل
- قبض الموفق على ابنه أبي العباس المعتضد ثم وفاته
- ٧٨٦.....وقيام ابنه أبي العباس بالأمر بعده
- ٧٨٦.....ابتداء أمر القرامطة
- ٧٨٧.....فتنة طرسوس
- ٧٨٧.....فتنة أهل الموصل مع الخوارج
- ٧٨٨.....الصوائف أيام المعتضد
- ٧٨٨.....الولايات بالنواحي أيام المعتز
- ٧٩٢.....وفاة المعتضد وبيعة المعتضد
- ٧٩٣.....مقتل رافع بن الليث
- ٧٩٣.....خبر الخوارج بالموصل
- ٧٩٣.....إيقاع المعتضد بيني شبين واستيلائه على ماردين

٨٢٦.....	وحشة الباسيري	٨٠٥	وزارة ابن الفرات الثانية
٨٢٧.....	وصول الغزالي الدسكرة ونواحي بغداد	٨٠٥	خبر ابن أبي الساج بأذربيجان
٨٢٧.....	ظهور ابن رائق ومسيره إلى الشام	٨٠٦	خبر سجستان وكرمان
٨٢٧.....	وزارة ابن البريدي	٨٠٦	وزارة حامد بن العباس
٨٢٧.....	مسير ركن الدولة إلى واسط ورجوعه عنها	٨٠٧	وصول ابن المهدي وهو أبو القاسم إلى ابنه
٨٢٧.....	مسير بحكم إلى بلد الجبل وعوده إلى واسط واستيلاؤه	٨٠٧	بقية خبر ابن أبي الساج
٨٢٧.....	عليها	٨٠٨	بقية الخبر عن وزراء المقتدر
٨٢٨.....	استيلاء ابن رائق على الشام	٨١٠	أخبار القرامطة في البصرة والكوفة
٨٢٨.....	الصوائف أيام الرازي	٨١١	استيلاء القرامطة على مكة وقلعهم الحجر الأسود
٨٢٨.....	الولايات أيام الرازي والقاهر قبله	٨١١	خلع المقتدر وعوده
٨٢٨.....	وفاة الرازي وبيعة المتقي	٨١٢	أخبار قواد الديلم وتغلبهم على أعمال الخليفة
٨٢٩.....	مقتل بحكم	٨١٤	ابتداء حال أبي عبد الله البريدي
٨٢٩.....	إمارة البريدي ببغداد وعوده إلى واسط	٨١٤	الصوائف أيام المقتدر
٨٢٩.....	إمارة كورتيكين الديلمي	٨١٥	الولايات على النواحي أيام المقتدر
٨٢٩.....	عود ابن رائق إلى بغداد	٨١٧	استيحاء مؤنس من المقتدر ومسيره إلى الموصل
٨٢٩.....	وزارة ابن البريدي واستيلاؤه على بغداد وفرار المتقي	٨١٨	مقتل المقتدر وبيعة القاهر
٨٣٠.....	إلى الموصل	٨١٨	خبر ابن المقتدر وأصحابه
٨٣٠.....	مقتل ابن رائق وولاية ابن حمدان مكانه	٨١٨	مقتل مؤنس وبلق وابنه
٨٣٠.....	عود المتقي إلى بغداد وفرار البريدي	٨٢٠	ابتداء دولة بني بويه
٨٣١.....	استيلاء الديلم على أذربيجان	٨٢١	خلع القاهر وبيعة الرازي
٨٣١.....	خبر سيف الدولة بواسط	٨٢٢	مقتل هارون
٨٣١.....	إمارة تورون ثم وحشته مع المتقي	٨٢٢	نكبة ابن ياقوت
٨٣٢.....	مسير المتقي إلى الموصل	٨٢٢	خبر البريدي
٨٣٢.....	مسير ابن بويه إلى واسط وعوده عنها ثم استيلاؤه	٨٢٢	مقتل ياقوت
٨٣٢.....	عليها	٨٢٣	مسير ابن مقله إلى الموصل واستقرارها لابن حمدان
٨٣٢.....	قتل ابن البريدي أخاه ثم وفاته	٨٢٣	نكبة ابن مقله وخبر الوزارة
٨٣٣.....	الصوائف أيام المتقي	٨٢٣	استيلاء ابن رائق على الخليفة
٨٣٣.....	الولايات أيام المتقي	٨٢٤	وصول بحكم مع ابن رائق
٨٣٣.....	خلع المتقي وولاية المستكفي	٨٢٤	مسير الرازي وابن رائق لحرب ابن البريدي
٨٣٤.....	وفاة تورون وإمارة ابن شيرزاد	٨٢٥	استيلاء بحكم على الأهواز
٨٣٤.....	استلاء معز الدولة بن بويه على بغداد واندراج أحكام	٨٢٥	استيلاء معز الدولة على الأهواز
٨٣٤.....	الخلافة في سلطانهم	٨٢٦	وزارة ابن مقله ونكبه
٨٣٤.....	الخبر عن الخلفاء من بني العباس المغلين لدولة بني بويه	٨٢٦	استيلاء يحكم على بغداد
٨٣٤.....	من السلجوقية من بعدهم من لدن المستكفي إلى	٨٢٦	دخول أذربيجان في طاعة وشمكير

٨٤٥.....	مقتل صمصام الدولة	٨٣٤.....	المتقي وما لهم من الأحوال الخاصة بهم ببغداد ونواحيها
٨٤٥.....	استيلاء بهاء الدولة على فارس	٨٣٥.....	خلع المستكفي وبيعة المطيع
٨٤٥.....	الخبر عن وزراء بهاء الدولة	٨٣٥.....	انقلاب حال الدولة بما تجدد في الجباية والاقطاع
٨٤٦.....	ولاية العراق	٨٣٥.....	دولة بني حمدان مسير ابن حمدان إلى بغداد
٨٤٦.....	انقراض دول وابتداء أخرى في النواحي	٨٣٦.....	استيلاء معز الدولة على البصرة
٨٤٦.....	ظهور بني مزيد	٨٣٦.....	ابتداء أمر بني شاهين بالطيحة
٨٤٦.....	فتنة بني مزيد وبني ديبس	٨٣٧.....	موت الصهيري ووزارة المهلي
٨٤٦.....	ظهور دعوة العلوية بالكوفة والموصل	٨٣٧.....	حصار البصرة
٨٤٧.....	وفاة عميد الجيوش وولاية فخر الملك	٨٣٧.....	استيلاء معز الدولة على الموصل وعوده
٨٤٧.....	مقتل فخر الملك وولاية ابن سهلان	٨٣٧.....	بناء معز الدولة ببغداد
٨٤٧.....	الفتنة بين سلطان الدولة وأخيه أبي الفوارس	٨٣٧.....	ظهور الكتابة على المساجد
٨٤٧.....	خروج الترك من الصين	٨٣٧.....	استيلاء معز الدولة على عمان وحصاره البطائح
٨٤٨.....	ملك مشرف الدولة وغلبه على سلطان الدولة	٨٣٨.....	وفاة الوزير المهلي
٨٤٨.....	الخبر عن وحشة الأكراد وفتنة الكوفة	٨٣٨.....	وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار
٨٤٨.....	وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه جلال الدولة	٨٣٨.....	عزل أبي الفضل ووزارة ابن بقة
٨٤٩.....	قدوم جلال الدولة إلى بغداد	٨٣٩.....	الفتنة بين بختيار وسبكتكين والأتراك
٨٤٩.....	مسير جلال الدولة إلى الأهواز	٨٣٩.....	خلع المطيع وولاية الطائع
٨٤٩.....	استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانياً وانتزاعها منه	٨٣٩.....	الصرائف
٨٥٠.....	وفاة القادر ونصب القائم	٨٣٩.....	فتنة سيكتكين وموته وإمارة أفتكين
٨٥٠.....	وثوب الجند بجلال الدولة وخروجه من بغداد	٨٣٩.....	نكبة بختيار على يد عضد الدولة ثم عوده إلى ملكه
٨٥١.....	الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار	٨٤٠.....	خبر أفتكين
٨٥١.....	استيلاء أبي كاليجار على البصرة	٨٤٠.....	ملك عضد الدولة ببغداد وقتل بختيار
٨٥١.....	شغب الأتراك على جلال الدولة	٨٤١.....	استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان
٨٥١.....	ابتداء دولة السلجوقية	٨٤١.....	وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام الدولة
٨٥٣.....	فتنة قرواش مع جلال الدولة	٨٤٢.....	نكبة صمصام الدولة وولاية أخيه شرف الدولة
٨٥٣.....	وفاة جلال الدولة وملك أبي كاليجار	٨٤٢.....	ابتداء دولة باد وبني مروان بالموصل
٨٥٣.....	وفاة أبي كاليجار وملك ابنه الملك الرحيم	٨٤٣.....	وفاة شرف الدولة وملك بهاء الدولة
٨٥٤.....	مسير الملك الرحيم إلى فارس	٨٤٣.....	خروج القادر إلى البطيحة
٨٥٤.....	مهادنة طغرل بك للقائم	٨٤٣.....	فتنة صمصام الدولة
٨٥٤.....	استيلاء الملك الرحيم على البصرة من يد أخيه	٨٤٣.....	خلع الطائع وبيعة القادر
٨٥٥.....	فتنة ابن أبي الشوك ثم طاعته	٨٤٤.....	ملك صمصام الدولة الأهواز وعودها لبهاء الدولة ثم
٨٥٥.....	فتنة الأتراك	٨٤٤.....	استيلاؤه ثانياً عليها
٨٥٥.....	استيلاء طغرل بك على أذربيجان وعلى أرمينية والموصل	٨٤٤.....	ملك صمصام الدولة البصرة
٨٥٥.....	وحشة البساسيري		

٨٦٧.....	مقتل نظام الملك وأخباره	٨٥٦	وصول الغز إلى الدسكرة ونواحي بغداد
٨٦٧.....	وفاة السلطان ملك شاه وملك ابنه محمود	٨٥٦	استيلاء الملك الرحيم على شيراز
٨٦٧.....	ثورة بركيارق بملك شاه	٨٥٦	وثوب الأتراك ببغداد بالبساسيري
٨٦٨.....	مقتل تاج الملك		استيلاء السلطان طغرل بك على بغداد والخلة والخطبة
٨٦٨.....	الخطبة لبركيارق ببغداد	٨٥٦	له
٨٦٨.....	وفاة المقتدي ونصب المستظهر للخلافة	٨٥٦	القبض على الملك الرحيم وانقراض دولة بني بويه
٨٦٨.....	أخبار تشش وانتفاضه وحروبه ومقتله	٨٥٧	انتفاض أبي الغنائم بواسط
٨٦٩.....	ظهور السلطان ملكشاه والخطبة له ببغداد	٨٥٧	الوقعة بين البساسيري وقطلمش
٨٦٩.....	إعادة الخطبة لبركيارق	٨٥٧	مسير طغرل بك إلى الموصل
	المصاف الأول بين بركيارق ومحمد وقتل كوهرايين	٨٥٨	فتنة نبال مع أخيه طغرل بك ومقتله
٨٧٠	والخطبة لمحمد	٨٥٩	دخول البساسيري ببغداد وخلع القائم ثم عوده
٨٧٠.....	مصاف بركيارق مع أخيه سنجر	٨٦٠	مقتل البساسيري
٨٧٠.....	عزل الوزير عميد الدولة ابن جهير ووفاة	٨٦٠	مسير السلطان إلى واسط وطاعة ديس
	المصاف الثاني بين بركيارق وأخيه محمد ومقتل مؤيد	٨٦٠	وزارة القائم
٨٧١	الملك والخطبة لبركيارق	٨٦٠	عقد طغرل بك على ابنة الخليفة
٨٧١.....	استيلاء محمد على بغداد	٨٦١	وفاة السلطان طغرل بك وملك ابن أخيه داود
	المصاف الثالث والرابع وما تحلل بينهما من الصلح ولم	٨٦٢	فتنة قطلمش والجهاد بعدها
٨٧٢	يتم	٨٦٢	العهد بالسلطنة لملكشاه بن ألب أرسلان
٨٧٢.....	الشحنة ببغداد والخطبة لبركيارق	٨٦٢	وزراء الخليفة
	استيلاء نبال على الري بدعوة السلطان محمد ومسيره	٨٦٢	الخطبة بمكة
٨٧٣	إلى العراق	٨٦٢	طاعة ديس ومسلم بن قريش
٨٧٣.....	المصاف الخامس بين السلطتين	٨٦٢	الخطبة العباسية لمجلب واستيلاء السلطان عليها
٨٧٤.....	الصلح بين السلطتين بركيارق ومحمد	٨٦٣	واقعة السلطان مع ملك الروم وأسرته
٨٧٥.....	وفاة السلطان بركيارق وملك ابنه ملك شاه	٨٦٣	شحنة بغداد
	وصول السلطان محمد إلى بغداد واستبداده بالسلطنة	٨٦٣	مقتل السلطان ألب أرسلان وملك ابنه ملكشاه
٨٧٥	والخطبة ومقتل أياز	٨٦٤	وفاة القائم ونصب المقتدي للخلافة
٨٧٦.....	الشحنة ببغداد	٨٦٤	عزل الوزير ابن جهير ووزارة أبي شجاع
٨٧٦.....	وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود		استيلاء تشش بن ألب أرسلان على دمشق وإبتداء دولته
٨٧٦.....	وفاة المستظهر وخلافة المسترشد	٨٦٤	نفية فيها
	انتفاض الملك مسعود على أخيه السلطان محمود ثم	٨٦٥	سفارة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن الخليفة
٨٧٧	مصالحته واستقرار جكرمس شحنة ببغداد	٨٦٥	عزل ابن جهير عن الوزارة وإمارته على ديار بكر
٨٧٨.....	انتفاض الملك طغرل على أخيه السلطان محمود	٨٦٦	خير الوزارة
	الفتنة بين السلطان محمود وعمه سنجر صاحب	٨٦٦	استيلاء السلطان على حلب
٨٧٨	خراسان والخطبة ببغداد لسنجر	٨٦٧	فتنة بغداد

انتقاض الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والفتنة بينهما ٨٧٩	إشارة إلى بعض أخبار السلطان سنجر بخوزستان ومبدأ دولة بني خوارزم شاه ٨٨٩
إقطاع الموصل للبرقي وميفارقين لأبي الغازي ٨٧٩	الخطبة ببغداد لسليمان شاه ابن السلطان محمد وحرويه مع السلطان محمد بن محمود ٨٩٠
طاعة طغرل لأخيه السلطان محمود ٨٨٠	حصار السلطان محمد ببغداد ٨٩٠
أخبار دبيس مع المسترشد ٨٨٠	حروب المفتي مع أهل النواحي ٨٩١
نكية الوزير ابن صدقة وولاية نظام الملك ٨٨٠	وفاة السلطان محمد بن محمود وملك عمه سليمان شاه ثم أرسلان بن طغرل ٨٩١
واقعة المسترشد مع دبيس ٨٨١	وفاة المفتي وخلافة المستنجد وهو أول الخلفاء المستبدين على أمرهم من بني العباس عند تراجع الدولة وضيقت نطاقها ما بين الموصل وواسط والبصرة وحلوان ٨٩٢
ولاية برتقش شحنة بغداد ٨٨١	فتنة خفاجة ٨٩٣
وصول الملك طغرل ودبيس إلى العراق ٨٨١	إجلاء بني أسد من العراق ٨٩٣
الفتنة بين المسترشد والسلطان محمود ٨٨٢	الفتنة بواسط وما جرت إليه ٨٩٣
أخبار دبيس مع السلطان سنجر ٨٨٢	مسير شملة إلى العراق ٨٩٣
وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود ثم تنازعتهم عمومته واستقلال مسعود ٨٨٣	وفاة الوزير يحيى ٨٩٣
واقعة مسعود مع سنجر وهزيمته وسلطنة طغرل ٨٨٣	وفاة المستنجد وخلافة المستضيء ٨٩٣
مسير المسترشد لحصار الموصل ٨٨٤	انتقاض الدولة العلوية بمصر وعود الدعوة العباسية إليها ٨٩٤
مصاف طغرل ومسعود وانهمام مسعود ٨٨٤	خبر يزدن من أمراء المستضيء ٨٩٥
وفاة طغرل واستيلاء السلطان مسعود ٨٨٤	مقتل سنكاه بن أحمد أخي شملة ٨٩٥
فتنة السلطان مسعود مع المسترشد ٨٨٥	وفاة قايماز وهريه ٨٩٥
مقتل المسترشد وخلافة الراشد ٨٨٥	فتنة صاحب خوزستان ٨٩٥
الفتنة بين الراشد والسلطان مسعود ولحاقه بالموصل وخلعه ٨٨٦	مقتل الوزير ٨٩٥
خلافة المفتي ٨٨٦	وفاة المستضيء وخلافة الناصر ٨٩٦
فتنة السلطان مسعود مع داود واجتماع داود للراشد للحرب ومقتل الراشد ٨٨٦	هدم دار السلطنة ببغداد وانقراض ملوك السلجوقية ٨٩٦
وزارة الخليفة ٨٨٧	استيلاء الناصر على النواحي ٨٩٦
الشحنة ببغداد ٨٨٧	نهب العرب البصرة ٨٩٦
انتقاض الأعياض واستبداد الأمراء على الأمير مسعود وقتله إياهم ٨٨٨	استيلاء الناصر على خوزستان ثم أصبهان والري وهمذان ٨٩٧
انتقاض الأمراء ثانية على السلطان ٨٨٨	عزل الوزير نصير الدين ٨٩٧
وزارة المفتي ٨٨٨	انتقاض سنجر بخوزستان ٨٩٨
وفاة السلطان مسعود وملك شاه ابن أخيه محمود .. ٨٨٨	
حروب المفتي مع أهل الخلاف وحصار البلاد ٨٨٩	
استيلاء شملة على خوزستان ٨٨٩	

٩٢٣.....	مقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه	استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصبهان وهرب
٩٢٤.....	بقية أخبار المهدي بعد الشيعي	إيدغمش ثم مقتله ومقتل منكلي وولاية إغلمش... ٨٩٨
٩٢٥.....	وفاة عبيد الله المهدي وولاية ابنه أبي القاسم	ولاية حافد الناصر على خوزستان ٨٩٨
٩٢٦.....	أخبار أبي يزيد الخارجي	استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل وطلب الخطبة له
٩٢٧.....	وفاة القائم وولاية ابنه المنصور	بغداد ٨٩٩
٩٢٧.....	بقية أخبار أبي يزيد ومقتله	إجلاء بني معروف عن البطائح ٨٩٩
٩٢٨.....	بقية أخبار المنصور	ظهور التتر ٨٩٩
٩٢٩.....	وفاة المنصور وولاية ابنه المعز	وفاة الناصر وخلافة الظاهر ابنه ٨٩٩
٩٣٠.....	فتح مصر.....	وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر ٩٠٠
٩٣٠.....	فتح دمشق.....	وفاة المستنصر وخلافة المستنصر آخر بني العباس
٩٣١.....	مسير المعز الى مصر وتزوله بالقاهرة	بغداد ٩٠٠
٩٣١.....	حروب المعز مع القرامطة واستيلاؤه على دمشق	الخبر عن الخلفاء العباسيين المنصوبين بمصر من بعد
٩٣٢.....	وفاة المعز وولاية ابنه العزيز	انقراض الخلافة ببغداد ومبادئ أمورهم
٩٣٣.....	بقية أخبار أتكين	وتصاريف أحوالهم ٩٠١
٩٣٥.....	أخبار الوزراء	أخبار الدولة العلوية المزاحمة لدولة بني العباس ٩٠٢
٩٣٥.....	أخبار القضاة	الخبر عن خروج الفاطميين بعد فتنة بغداد ٩٠٦
٩٣٥.....	وفاة المعز وولاية ابنه الحاكم	الخبر عن الإدارة ملوك المغرب الأقصى ومبدأ دولتهم
٩٣٧.....	خروج أبي ركة ببرقة والظفر به	وانقراضها ثم تجدها مفترقة في نواحي المغرب ٩٠٨
٩٣٧.....	بقية أخبار الحاكم	الخبر عن صاحب الزنج وتصاريف أمره واضمحلال
٩٣٩.....	وفاة الحاكم وولاية الظاهر	دعوته ٩١٢
٩٣٩.....	وفاة الظاهر وولاية ابنه المستنصر	الخبر عن دعاة الديلم والجبل من العلوية وما كان لهم
٩٣٩.....	مسير العرب إلى إفريقية	من الدولة بطبرستان للداعي وأخيه أولاً ثم
٩٤٠.....	مقتل ناصر الدولة بن حمدان بمصر	للأطروش وبنيه وتصاريف ذلك إلى انقضائه ٩١٤
٩٤٠.....	استيلاء بدر الجمالي على الدولة	استيلاء الصفار على طبرستان ٩١٥
	وصول الغز إلى الشام واستيلاؤهم عليه وحصارهم	وفاة الحسن بن زيد وولاية أخيه ٩١٥
٩٤١.....	مصر.....	مقتل محمد بن زيد ٩١٦
٩٤٢.....	وفاة المستنصر وولاية ابنه المستعلي	ظهور الأطروش العلوي وملكه طبرستان ٩١٦
٩٤٢.....	استيلاء الفرنج على بيت المقدس	إمارة العلوية بطبرستان بعد الأطروش ٩١٧
٩٤٣.....	وفاة المستعلي وولاية ابنه الأمر	الخبر عن دولة الاسماعيلية ونبأهم بالبيدين
٩٤٣.....	هزيمة الفرنج لساكن مصر	الخلفاء بالقيروان والقاهرة وما كان لهم من الدولة
٩٤٣.....	استيلاء الفرنج على طرابلس وبيروت	من المشرق والمغرب..... ٩١٨
٩٤٤.....	استرجاع أهل مصر عسقلان	ابتداء دولة العبيديين ٩٢٠
٩٤٤.....	مقتل الأفضل	وصول المهدي الى المغرب واعتقاله بسجلماسة ثم
٩٤٤.....	ولاية ابن البطانحي	خروجه من الاعتقال وبعثه ٩٢٢

مقتل البطائحي	٩٤٥	الخبر عن دولة الهواشم بمكة من بني الحسن وتصاريف	٩٤٥
مقتل الأمر وخلافة الحافظ	٩٤٥	أحوالهم إلى انقراضها	٩٦٥
ولاية أبي علي بن الأفضل الوزارة ومقتله	٩٤٥	الخبر عن بني قتادة أمراء مكة بعد الهواشم ثم عن بني	
قيام حسن بن الحافظ بأمر الدولة ومكره بأبيه ومهلكه ...	٩٤٦	أبي غير منهم أمراؤها لهذا العهد	٩٦٦
وزارة بهرام ورضوان بعده	٩٤٦	إمارة بني أبي غني بمكة	٩٦٧
وفاة الحافظ وولاية ابنه الظافر	٩٤٦	الخبر عن بني مهنى أمراء المدينة النبوية من بني الحسن	
وزارة ابن مصال ثم ابن السلال	٩٤٦	وذكر أوليئهم ومفتح إمارتهم	٩٦٩
مقتل الظافر وأخويه وولاية ابنه الفائز	٩٤٧	الخبر عن دولة بني الرسي أئمة الزيدية بصعدة وذكر	
وزارة الصالح بن رزيك	٩٤٧	أوليئهم ومصائر أحوالهم	٩٧٠
وفاة الفائز وولاية العاضد	٩٤٨	الخبر عن نسب الطالبيين وذكر المشاهير من أعقابهم	٩٧١
مقتل الصالح بن رزيك وولاية ابنه رزيك	٩٤٨	الخبر عن دولة بني أمية بالأندلس من هذه الطبقة	
وزارة شاور ثم الضرعان من بعده	٩٤٨	المنازعين للدعوة العباسية وبداية أمرهم وأخبار	
مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى مصر مع شاور ...	٩٤٩	ملوك الطوائف من بعدهم	٩٧٤
فتنة أسد الدين مع شاور وحصاره	٩٤٩	مسير عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتجليده الدولة	
رجوع أسد الدين إلى مصر ومقتل شاور ووزارته	٩٤٩	بها	٩٧٧
وفاة أسد الدين وولاية صلاح الدين الوزارة	٩٥٠	وفاة عبد الرحمن الداخل وولاية ابنه هشام	٩٧٩
حصار الفرنج دمياط	٩٥٠	وفاة هشام وولاية ابنه الحكم	٩٨٠
واقعة الحصان وعمارة	٩٥٠	وقعة الرض	٩٨٠
قطع الخطبة للعاضد وانقراض الدولة العلوية بمصر	٩٥١	وقعة الحفرة بطليطلة	٩٨٠
الخبر عن بني حمدون ملوك المسيلة والزاب بدعوة		وفاة الحكم وولاية ابنه عبد الرحمن الأوسط	٩٨١
العبيدين ومآل أمرهم	٩٥٢	وفاة عبد الرحمن الأوسط وولاية ابنه محمد	٩٨٣
الخبر عن القرامطة واستبداد أمرهم وما استقر لهم من		وفاة الأمير محمد وولاية ابنه المنذر	٩٨٤
الدولة بالبحرين وأخبارها إلى حين انقراضها	٩٥٣	وفاة المنذر وولاية أخيه عبيد الله ابن الأمير محمد	٩٨٤
ظهور ذكرويه ومقتله	٩٥٥	أخبار الثوار وأولهم ابن مروان بيطليوس وأشبونة	٩٨٤
خبر قرامطة البحرين ودولة بني الجنابي منها	٩٥٥	ابن تاكيت بماردة	٩٨٥
فتنة القرامطة مع المعز العلوي	٩٥٧	بقية خبر ابن مروان	٩٨٥
ذكر المتغلبين بالبحرين من العرب بعد القرامطة	٩٥٧	ثورة لب بن محمد بسرقسطة وتظيلة	٩٨٥
الخبر عن الإسماعيلية أهل الحصون بالعراق وفارس		ثورة مطرف بن موسى بن ذي النون الهواري بشنة برة	٩٨٥
والشام وسائر أمورهم ومصائرهم	٩٥٩	ثورة الأمير ابن حفصون في يشر ومالقة ورندة واليس	٩٨٥
خبر الإسماعيلية بالشام	٩٦١	نوار إشبيلية المتعاقبون	٩٨٦
بقية الخبر عن قلاع الإسماعيلية بالعراق	٩٦١	مقتل الأمير محمد ابن الأمير عبد الله ثم مقتل أخيه	
الخبر عن دولة بني الأخيضر باليماة من بني حسن	٩٦٢	المطرف	٩٨٧
الخبر عن دولة المسلمين من بني الحسن بمكة ثم		وفاة الأمير عبد الله بن محمد وولاية حافده عبد الرحمن	
بعدها باليمن ومبادئ أمورهم وتصاريف أحوالهم ..	٩٦٢	الناصر بن محمد	٩٨٧

الخبر عن ابن أبي عامر صاحب شرق الأندلس من بني	٩٨٨
ملوك الطوائف وأخبار المرالي العامرين الذين	٩٨٨
كانوا قبله وابن صمادح قائده بالمرية وتصاريف	٩٨٨
أحوالهم ومصائرهم ١٠٠٣	٩٨٩
الخبر عن بني هود ملوك سرقسطة من الطوائف صارت	٩٨٩
إليهم من بني هاشم وما كان من أوليتهم ومصائر	٩٩٠
أمورهم ١٠٠٣	٩٩١
الخبر عن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية	٩٩١
وأخبار بنيهم ومواليهم من بعدهم ومصائر أمورهم . ١٠٠٤	٩٩٢
الخبر عن ثوار الأندلس آخر الدولة اللمتونية واستبداد	٩٩٣
بني مردنيش بيلنسية ومزاحمتهم لدولة بني عبد	٩٩٣
المؤمن من أولها إلى آخرها ومصائر أحوالهم	٩٩٤
وتصاريفهم ١٠٠٥	ثورة المهدي ومقتل عبد الرحمن المنصور وانقراض
الخبر عن ثورة ابن هود على الموحيدين بالأندلس	٩٩٥
ودولته وأولية أمره وتصاريف أحواله ١٠٠٧	ثورة البربر وبيعة المستعين وفرار المهدي
الخبر عن دولة بني الأحمر ملوك الأندلس لهذا العهد	٩٩٦
ومبدأ أمورهم وتصاريف أحوالهم ١٠٠٨	رجوع المهدي إلى ملكه بقرطبة
الخبر عن ملوك بني أذقونش من الجلالقة ملوك	٩٩٦
الأندلس بعد الغوط ولعهد المسلمين وأخبار من	٩٩٦
جاورهم من الفرغة والبشكنس والبرتغال والإلام	٩٩٦
يبيض أخبارهم ١٠١٤	ثورة ابن حمود واستيلاؤه وقومه على ملك قرطبة
أخبار القائمين بالدولة العباسية من العرب المستبدين	٩٩٦
بالنواحي ونبدأ منهم ببني الأغلب ولالة إفريقية	٩٩٧
وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم ١٠١٨	عود الأمر إلى بني حمود
معاوية بن خديج ١٠١٨	المعتمد من بني أمية
عقبة بن نافع ١٠١٨	الخبر عن دولة بني حمود التي أдалت من دولة بني أمية
أبو المهاجر ١٠١٨	بالأندلس وأولية ملكهم وتصاريف أمورهم إلى
عقبة بن نافع ثانياً ١٠١٨	آخرها ٩٩٧
زهير بن قيس البلوي ١٠١٨	الخبر عن ملوك الطوائف بالأندلس بعد الدولة الأموية ... ٩٩٩
حسان بن النعمان الغساني ١٠١٩	الخبر عن بني عباد ملوك إشبيلية وغربي الأندلس
موسى بن نصير ١٠١٩	وعمن تغلبوا عليه من أمراء الطوائف ٩٩٩
محمد بن يزيد ١٠١٩	أخبار ابن جمهور ١٠٠١
إسماعيل بن أبي المهاجر ١٠١٩	أخبار ابن الأفتس صاحب بطليوس من غرب
يزيد بن أبي مسلم ١٠١٩	الأندلس ومصاير أمره ١٠٠١
	أخبار باديس بن حسون ملك غرناطة والبرية ١٠٠٢
	الخبر عن بني ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفي
	وتصاريف أمورهم ومصائر أحوالهم ١٠٠٢

الخبر عن جزيرة إقريطش وما كان بها للمسلمين من	بشر بن صفوان الكلبي	١٠٢٠
الملك على يد بني البلوطي إلى أن استرجعها	عبيدة بن عبد الرحمن	١٠٢٠
العدو	عبيد الله بن الحبحاب	١٠٢٠
أخبار اليمن والدول الإسلامية التي كانت فيه للعباسيين	كلثوم بن عياض	١٠٢٠
والعبيديين وسائر ملوك العرب وابتداء ذلك	حبيب بن عبد الرحمن	١٠٢١
وتصاريفه على الجملة ثم تفصيل ذلك على مدنه	عبد الملك بن أبي الجعد الوريجمومي	١٠٢١
وممالكه واحدة بعد واحدة	عبد الأعلى بن السمع المغافري	١٠٢١
دعوة زياد بالدعوة العباسية	محمد بن الأشعث الخزاعي	١٠٢٢
الخبر عن بني الصليحي القائمين بدعوة العبيديين باليمن	عمر بن حفص هزارمرد	١٠٢٢
الخبر عن دولة بني نجاح بزيد موالى بني زياد ومبادئه	يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب	١٠٢٢
أمورهم وتصاريف أحوالهم	أخوه روح بن حاتم	١٠٢٣
الخبر عن دولة بني الزريع بعدن من دعاة العبيديين	ابنه الفضل بن روح	١٠٢٣
باليمن وأولية أمرهم ومصائرهم	خزيمة بن أعين	١٠٢٣
أخبار ابن مهدي الخارجي وبنه وذكر دولتهم باليمن	محمد بن مقاتل الكعبي	١٠٢٤
وبدأيتها وانقراضها	إبراهيم بن الأغلب	١٠٢٤
قواعد اليمن	ابنه أبو العباس عبد الله	١٠٢٥
الخبر عن دولة بني حمدان المستبدين بالدعوة العباسية	أخوه زيادة الله	١٠٢٥
من العرب بالموصل والجزيرة والشام ومبادئه	أخوهما أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب	١٠٢٧
أمورهم وتصاريف أحوالهم	ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم	١٠٢٧
مبدأ لدولة وولاية أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان على	ابنه أبو إبراهيم أحمد بن أبي العباس محمد	١٠٢٧
الموصل	ابنه زيادة الله الأصغر بن أبي إبراهيم بن أحمد	١٠٢٨
انتقاض أبي الهيجاء ثم الحسين بن حمدان	أخوه أبو الغرائق بن أبي إبراهيم بن أحمد	١٠٢٨
ولاية أبي الهيجاء ثانية على الموصل ثم مقتله	بقية أخبار صقلية	١٠٢٨
ولاية سعيد ونصر بني حمدان على الموصل	إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرائق	١٠٢٩
مسير الراضي إلى الموصل	ظهور الشيعي بكتامة	١٠٣٠
مسير المتقي إلى الموصل وولاية ناصر الدولة إمارة	ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم أخى محمد أبي	
الأمرء	الغرائق	١٠٣٠
أخبار بني حمدان ببغداد	ابنه أبو مضر زيادة الله	١٠٣١
خبر عدل التحكمي بالرحبة	خروج زيادة الله إلى المشرق	١٠٣١
مسير المتقي إلى الموصل وعوده	بقية أخبار صقلية ودولة بني أبي الحسن الكلبيين بها من	
استيلاء سيف الدولة على حلب وحمص	العرب المستبدين بدعوة العبيديين وبداية أمرهم	
الفتنة بين ابن حمدان وابن بويه	وتصاريف أحوالهم	١٠٣٢
استيلاء سيف الدولة على دمشق		
الفتنة بين ناصر الدولة بن حمدان وبين تكين والأنراك ...		١٠٥٢

- انتفاض جمان بالرحبة ومهلكه ١٠٥٢
- فتنة ناصر الدولة مع معز الدولة ١٠٥٢
- غزوات سيف الدولة ١٠٥٢
- الفتنة بين ناصر الدولة ومعز الدولة بن بويه ١٠٥٣
- استيلاء الروم على عين زربة ثم على مدينة حلب ١٠٥٣
- انتفاض أهل حران ١٠٥٤
- انتفاض هبة الله ١٠٥٤
- انتفاض نجا بميفارقين وأرمينية واستيلاء سيف الدولة عليها ١٠٥٤
- مسير معز الدولة إلى الموصل وحروبه مع ناصر الدولة .. ١٠٥٤
- حصار المصيصة وطرسوس واستيلاء الروم عليها ١٠٥٤
- انتفاض أهل أنطاكية وحمص ١٠٥٥
- خروج الروم إلى الثغور واستيلائهم على دارا ١٠٥٥
- وفاة سيف الدولة ومحبس أخيه ناصر الدولة ١٠٥٥
- ولاية أبي المعالي بن سيف الدولة بحلب ومقتل أبي فراس ١٠٥٦
- أخبار أبي ثعلب مع إخوته بالموصل ١٠٥٦
- خروج الروم إلى الجزيرة والشام ١٠٥٧
- استيلاء قرعويه بحلب ١٠٥٧
- مسير أبي ثعلب من الموصل إلى ميفارقين ١٠٥٧
- استيلاء الروم على أنطاكية ثم حلب ثم ملاذكرد ١٠٥٧
- مقتل نفقور ملك الروم ١٠٥٧
- استيلاء أبي ثعلب على حران ١٠٥٨
- مصالحة قرعويه لأبي المعالي ١٠٥٨
- مسير الروم إلى بلاد الجزيرة ١٠٥٨
- أسر الدمستق وموته ١٠٥٨
- استيلاء بختيار بن معز الدولة على الموصل وماكان بينه وبين أبي ثعلب ١٠٥٨
- عود أبي المعالي بن سيف الدولة إلى حلب ١٠٥٩
- استيلاء عضد الدولة بن بويه على الموصل وسائر ملوك بني حمدان ١٠٥٩
- مقتل أبي ثعلب بن حمدان ١٠٦٠
- وصول ورد المنازع للملك الروم إلى ديار بكر مستجيراً ١٠٦٠
- ولاية بكجور على دمشق ١٠٦١
- خبر باد الكردي ومقتله على الموصل ١٠٦١
- عود بني حمدان إلى الموصل ومقتل باد ١٠٦٢
- مهلك أبي طاهر بن حمدان واستيلاء بني عقيل على الموصل ١٠٦٣
- ملك سعد الدولة بن حمدان بحلب وولاية ابنه أبي الفضائل واستيلاء لؤلؤ عليه ١٠٦٣
- انقراض بني حمدان بحلب واستيلاء بني كلاب عليها ١٠٦٣
- الخبر عن دولة بني عقيل بالموصل وإبتداء أمرهم بأبي الدرداء وتصاريف أحوالهم ١٠٦٤
- مهلك أبي الدرداء وولاية أخيه المقلد ١٠٦٤
- فتنة المقلد مع بهاء الدولة بن بويه ١٠٦٤
- القبض على علي بن المسيب ١٠٦٤
- استيلاء المقلد على دقوقا ١٠٦٥
- مقتل المقلد وولاية ابنه قرواش ١٠٦٥
- فتنة قرواش مع بهاء الدولة بن بويه ١٠٦٥
- قبض قرواش على وزرائه ١٠٦٥
- حروب قرواش مع العرب وعساكر بغداد ١٠٦٦
- استيلاء الغز على الموصل ١٠٦٧
- استيلاء بدران بن المقلد على نصيبين ١٠٦٨
- الفتنة بين قرواش وغريب بن معن ١٠٦٨
- فتنة قرواش وجلال الدولة وصلحهما ١٠٦٨
- أخبار ملوك القسطنطينية لهذه العصور ١٠٦٨
- الوحشة بين قرواش والأكراد ١٠٦٩
- خلع قرواش بأخيه أبي كامل ثم عوده ١٠٦٩
- خلع قرواش ثانية واعتقاله ١٠٧٠
- وفاة أبي كامل وولاية قریش بن بدران ١٠٧٠
- استيلاء قریش على الأنبار ١٠٧٠
- حرب قریش بن بدران والبساسيري ثم اتفاقهما وخطبة قریش لصاحب مصر ١٠٧٠
- استيلاء طغرلبيك على الموصل وولاية أخيه نبال عليها ومعاودة قریش الطاعة ١٠٧٠
- مقارنة نبال الموصل وما كان لقریش فيها وفي بغداد مع البساسيري وحبسهما القائم ١٠٧١
- وفاة قریش بن بدران وولاية ابنه مسلم ١٠٧١

- الخبر عن دولة بني يزيد ملوك الحلة وابتداء أمرهم ١٠٧٢
- وتصاريف أحوالهم ١٠٧٨
- وفاة علي بن يزيد وولاية ابنه ديبس ١٠٧٨
- استيلاء منصور بن الحسين على الجزيرة الديسية ١٠٧٨
- فتنة ديبس مع جلال الدولة وحروبه مع قومه ١٠٧٨
- الفتنة بين ديبس وأخيه ثابت ١٠٧٩
- الفتنة بين ديبس وعسكر واسط ١٠٧٩
- إيقاع ديبس بخفاجه ١٠٧٩
- حرب ديبس مع الغز وخطبته للعلوي صاحب مصر ١٠٧٩
- ومعاودته الطاعة ١٠٧٩
- وفاة ديبس وإمارة ابنه منصور ١٠٨٠
- وفاة منصور بن ديبس وولاية ابنه صدقة ١٠٨٠
- انتقاض صدقة بن منصور بن ديبس على السلطان ١٠٨٠
- بركيارق ١٠٨٠
- استيلاء صدقة على واسط وهيت ١٠٨٠
- استيلاء صدقة بن يزيد على البصرة ١٠٨١
- استيلاء صدقة على تكريت ١٠٨١
- الخلف بين صدقة وصاحب البطيحة ١٠٨٢
- مقتل صدقة وولاية ابنه ديبس ١٠٨٢
- خبر ديبس مع البرسقي ومع الملك مسعود ١٠٨٣
- فتنة ديبس مع السلطان محمود وإجلاؤه عن بغداد ثم ١٠٨٤
- معاودته الطاعة ١٠٨٤
- مسير ديبس إلى الملك طغرل ١٠٨٥
- مسير ديبس إلى السلطان سنجر ١٠٨٦
- فتنة ديبس مع محمود وأسرته ١٠٨٦
- مسير ديبس إلى بغداد مع زنكي وانهزامهما ١٠٨٦
- مقتل ديبس وولاية ابنه صدقة ١٠٨٧
- مقتل صدقة وولاية ابنه محمد ١٠٨٧
- تغلب علي بن ديبس على الحلة وملكه إياها من أخيه ١٠٨٧
- محمد ١٠٨٧
- أخذ السلطان الحلة من يد علي وعوده إليها ١٠٨٨
- نكبة علي بن ديبس ١٠٨٨
- وفاة علي بن ديبس وانقراض بني يزيد ١٠٨٨
- استيلاء مسلم بن قريش على حلب ١٠٧٢
- حصار مسلم بن قريش دمشق وعصيان أهل حران ١٠٧٢
- عليه ١٠٧٢
- حرب ابن جهير مع مسلم بن قريش واستيلاءه على ١٠٧٢
- الموصل ثم عودها إليه ١٠٧٢
- مقتل مسلم بن قريش وولاية ابنه إبراهيم ١٠٧٣
- نكبة إبراهيم وتنازع محمد وعلي ابني مسلم بعده على ١٠٧٣
- ملك الموصل ثم استيلاء علي عليها ١٠٧٣
- عود إبراهيم إلى ملك الموصل ومقتله ١٠٧٤
- ولاية علي بن مسلم على الموصل ثم استيلاء كربوقا ١٠٧٤
- وانتزاعه إياها من يده وانقراض أمر بني المسيب ١٠٧٤
- من الموصل ١٠٧٤
- دولة بني صالح ١٠٧٤
- الخبر عن دولة بني صالح بن مرداس بحلب وابتداء ١٠٧٤
- أمرهم وتصاريف أحوالهم ١٠٧٤
- ابتداء أمر صالح في ملك حلب ١٠٧٤
- استيلاء صالح بن مرداس على حلب ١٠٧٥
- مقتل صالح وولاية ابنه أبي كامل ١٠٧٥
- مسير الروم إلى حلب وهزيمتهم ١٠٧٥
- مقتل نصر بن صالح واستيلاء الوزيري على حلب ١٠٧٥
- مهلك الوزيري وولاية ثمال بن صالح ١٠٧٥
- رغبة ثمال عن حلب ورجوعها لصاحب مصر وولاية ١٠٧٦
- ابن ملهم عليها ١٠٧٦
- ثورة أهل حلب بابن ملهم وولاية محمود بن نصر بن ١٠٧٦
- صالح ١٠٧٦
- رجوع ثمال بن صالح إلى ملك حلب وفرار محمود بن ١٠٧٦
- نصر عنها ١٠٧٦
- وفاة ثمال وولاية أخيه عطية ١٠٧٦
- عود محمود إلى حلب وملكه إياها من يد عطية ١٠٧٦
- مهلك نصر بن محمود وولاية أخيه سابق ١٠٧٧
- استيلاء مسلم بن قريش على حلب من يد سابق ١٠٧٧
- وانقراض دولة بني صالح بن مرداس ١٠٧٧
- استيلاء السلطان ملك شاه على حلب وولاية أفسقر ١٠٧٧
- عليها ١٠٧٧

الخبر عن ملوك العجم القائمين بالدعوة العباسية في	وفاة الإخشيد وولاية ابنه أنوجور واستبداد كافور عليه
ممالك الإسلام والمستبدين على الخلفاء وتبدأ منهم	واستيلاء سيف الدولة على دمشق ١١٠٣
أولاً بدولة ابن طولون بمصر وبداية أمرهم	وفاة أنوجور ووفاته أخيه علي واستبداد كافور عليه ١١٠٣
ومصاير أحوالهم ١٠٨٩	وفاة علي بن الإخشيد وولاية كافور ١١٠٣
الخبر عن دولة أحمد بن طولون بمصر وبنيه ومواليه بني	وفاة كافور وولاية أحمد بن علي بن الأخشيد ١١٠٣
طغخ وابتداء أمرهم وتصاريح أحوالهم ١٠٩٢	مسير جوهر إلى مصر وانقراض دولة بني طغخ ١١٠٣
فتنة ابن طولون مع الموفق ١٠٩٣	الخبر عن دولة بني مروان بديار بكر بعد بني حمدان
ولاية أحمد بن طولون على الثغور ١٠٩٣	ومبايدي أمورهم وتصاريح أحوالهم ١١٠٤
استيلاء أحمد بن طولون على الشام ١٠٩٤	مقتل أبي علي بن مروان وولاية أخيه أبي منصور ١١٠٤
الخبر عن انتفاض العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ١٠٩٤	مقتل مهد الدولة بن مروان وولاية أخيه أبي نصر ١١٠٥
خروج الصوفي والعمرى بمصر ١٠٩٥	استيلاء نصير الدولة بن مروان على الرها ١١٠٥
انتفاض برقة ١٠٩٥	حصار بدران بن مقلد نصيين ١١٠٥
انتفاض لؤلؤ على ابن طولون ١٠٩٥	دخول الغز إلى ديار بكر ١١٠٥
مسير المعتمد إلى ابن طولون وعوده عنه من الشام ١٠٩٦	مسير الروم إلى بلد ابن مروان ثم فتح الرها ١١٠٦
اضطراب الثغور ووصول أحمد بن طولون إليها ووفاته ١٠٩٦	مقتل سليمان بن نصير الدولة ١١٠٦
ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون ١٠٩٧	مسير طغرل بك إلى ديار بكر ١١٠٦
مسير خمارويه إلى الشام وواقعة مع ابن الموفق ١٠٩٧	وفاة نصير الدولة بن مروان وولاية ابنه نصر ١١٠٦
فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج والخطبة لابن طولون	وفاة نصر بن نصير الدولة وولاية ابنه منصور ١١٠٧
بالجزيرة ١٠٩٧	مسير ابن جهر إلى ديار بكر ١١٠٧
عود طرسوس إلى إيالة خمارويه ١٠٩٨	استيلاء ابن جهر على آمد ١١٠٧
صهر المعتضد مع خمارويه ١٠٩٩	استيلاء ابن جهر على ميفارقين وجزيرة ابن عمر
مقتل خمارويه وولاية ابنه جيش ١٠٩٩	وانقراض دولة بني مروان ١١٠٨
مقتل جيش بن خمارويه وولاية أخيه هارون ١٠٩٩	الخبر عن دولة بني الصفار ملوك سجستان المتغلبين
فتنة طرسوس وانتفاضها ١٠٩٩	على خراسان ومبايدي أمورهم وتصاريح أحوالهم
ولاية طغخ بن جف على دمشق ١٠٩٩	استيلاء يعقوب الصفار على كرمان ثم على فارس
زحف القرامطة إلى دمشق ١٠٩٩	وعودها ١١٠٨
استيلاء المكثفي على الشام ومصر وقتل هارون وشيخان	ولاية يعقوب الصفار على بلخ وهراة ١١٠٩
ابني خمارويه وانقراض دولة بني طولون ١١٠٠	استيلاء الصفار على خراسان وانقراض أمر بني طاهر .. ١١٠٩
ولاية عيسى النوشري على مصر وثورة الخليجي ١١٠٠	استيلاء الصفار على فارس ١١٠٩
ولاية ذكاء الأعور ١١٠١	حروب الصفار مع الموفق ١١١٠
ولاية تكين الخزري ثانية ١١٠١	انتفاض الخنجستاني بخراسان على يعقوب الصفار
ولاية أحمد بن كيغلف ١١٠١	وقيامه بدعوة بني طاهر ١١١٠
ولاية أحمد بن كيغلف الثانية ١١٠٢	استيلاء الصفار على الأهواز ١١١١
استيلاء ابن رائق على الشام من يد الأخشيد ١١٠٢	وفاة يعقوب الصفار وولاية عمرو أخيه ١١١١

- ١١٢٠ حرب سيجور مع ابن الأطروش
 ١١٢١ خروج الياس بن إسحق
 ١١٢١ استيلاء السعيد على الري
 ١١٢١ ولاية أسفار على جرجان والري
 خروج أولاد الأمير أحمد بن إسماعيل على أخيهم
 ١١٢٢ السعيد
 ١١٢٣ ولاية ابن المظفر على خراسان
 ١١٢٣ استيلاء السعيد على كرمان
 ١١٢٣ استيلاء ماكان على كرمان وانتفاضه
 ١١٢٣ ولاية علي بن محمد على خراسان وفتح جرجان
 ١١٢٤ استيلاء أبي علي على الري وقتل ماكان بن كالي
 ١١٢٤ استيلاء أبي علي على بلد الجبل
 ١١٢٤ وفاة السعيد نصر وولاية ابنه نوح
 استيلاء أبي علي على الري ودخول جرجان في طاعة
 ١١٢٥ نوح
 انتفاض أبي علي وولاية منصور بن قراتكين على
 ١١٢٥ خراسان
 ١١٢٦ انتفاض ابن عبد الرزاق بخراسان
 استيلاء ركن الدولة بن بويه على طبرستان وجرجان
 ومسير العساكر إلى جرجان والصلح مع الحسن
 ١١٢٦ بن الفيرزان
 ١١٢٦ مسير ابن قراتكين إلى الري وعوده إليه
 وفاة ابن قراتكين ورجوع أبي علي بن محتاج إلى ولاية
 ١١٢٧ خراسان
 عزل الأمير أبي علي عن خراسان ومسيره إلى ركن
 ١١٢٧ الدولة وولاية بكر بن مالك مكانه
 ١١٢٧ وفاة الأمير نوح وولاية ابنه عبد الملك
 ١١٢٧ مسير العساكر من خراسان إلى الري وأصفهان
 وفاة عبد الملك بن نوح صاحب ما وراء النهر وولاية
 ١١٢٨ أخيه منصور
 ١١٢٨ مسير العساكر من خراسان إلى الري ووفاة وشمكير
 ١١٢٨ خبر ابن الياس بكرمان
 ١١٢٨ انعقاد الصلح بين منصور بن نوح وبين بني بويه
 ١١٢٩ وفاة منصور بن نوح وولاية ابنه نوح
- ١١١١ مسير عمرو بن الليث إلى خراسان لقتال الخجستاني
 ١١١٢ حروب عمرو مع عساكر المعتمد ومع الموفق
 ولاية عمرو بن الليث على خراسان ثانياً ومقتل رافع
 ١١١٢ بن الليث
 استيلاء بني سامان على خراسان وهزيمة عمرو بن
 ١١١٣ الليث وحبيه ثم مقتله
 ولاية طاهر بن محمد بن عمرو على سجستان وكرمان
 ١١١٣ ثم على فارس
 ١١١٤ استيلاء الليث على فارس ثم مقتله واستيلاء سيكري
 ١١١٤ انقراض ملك بني الليث من سجستان وكرمان
 ثورة أهل سجستان بأصحاب ابن سامان ودعوتهم إلى
 بني عمرو بن الليث بن الصفار ثم عودهم إلى
 ١١١٤ طاعة أحمد بن إسماعيل بن سامان
 استيلاء خلف بن أحمد بن علي على سجستان ثم
 ١١١٥ انتفاضهم عليه
 ١١١٥ استيلاء خلف بن أحمد على كرمان ثم انتزاع الديلم لها
 ١١١٥ استيلاء طاهر بن خلف على كرمان وعوده عنها ومقتله
 استيلاء محمود بن سبكتكين على سجستان ومحو آثار
 ١١١٦ بني الصفار منها
 الخبر عن دولة بني سامان ملوك ما وراء النهر المقيمين
 ١١١٦ بها الدولة العباسية وأولية ذلك ومصادره
 ١١١٦ ولاية نصر بن أحمد على ما وراء النهر
 وفاة نصر بن أحمد وولاية أخيه إسماعيل على ما وراء
 ١١١٧ النهر
 استيلاء إسماعيل على الري
 ١١١٧ وفاة إسماعيل بن أحمد وولاية ابنه أحمد
 ١١١٨ استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان
 ١١١٨ مقتل أبي نصر أحمد بن إسماعيل وولاية ابنه نصر
 ١١١٨ انتفاض سجستان
 ١١١٩ انتفاض إسحاق العم وابنه الياس
 ظهور الأطروش واستيلائه على طبرستان
 ١١١٩ انتفاض منصور بن إسحاق العم والحسين والمرور وذي
 ١١٢٠ انتفاض أحمد بن سهل بنيسابور وفتحها
 ١١٢٠ مقتل ليلى بن النعمان ومهلكه

- عزل ابن سيجور عن خراسان وولاية أبي العباس تاش . ١١٢٩
 مسير أبي العباس في عساكر خراسان إلى جرجان ثم
 مسيره إلى بخارى ١١٢٩
 رد أبي العباس إلى خراسان ثم عزله وولاية ابن
 سيجور ١١٣٠
 انتقاض أبي العباس وخروجه مع ابن سيجور ومهلكه .. ١١٣٠
 ولاية أبي علي بن سيجور على خراسان ١١٣٠
 خبر فائق ١١٣١
 استيلاء الترك على بخارى ١١٣١
 عزل أبي علي بن سيجور عن خراسان وولاية
 سبكتكين ١١٣١
 عود ابن سيجور إلى خراسان ١١٣١
 ظهور سبكتكين وابنه محمود على أبي علي وفائق
 ومقتل أبي علي ١١٣٢
 وفاة الأمير نوح وولاية ابنه منصور وولاية بكترزون
 على خراسان ١١٣٢
 عود أبي القاسم بن سيجور إلى خراسان وخبيته ١١٣٢
 انتقاض محمود بن سبكتكين وملكه نيسابور ثم خروجه
 عنها ١١٣٢
 خلع الأمير منصور وولاية أخيه عبد الملك ١١٣٣
 استيلاء محمود بن سبكتكين على خراسان ١١٣٣
 استيلاء ايلك خان على بخارى وانقراض دولة بني
 سامان ١٠٣٣
 خروج إسماعيل بن نوح بخراسان ١١٣٣
 الخبر عن دولة بني سبكتكين ملوك غزنة وما ورثوه من
 الملك بخراسان وما وراء النهر عن موالهم وما
 فتحوه من بلاد الهند وأول أمرهم ومصائر
 أحوالهم ١١٣٤
 فتح بست ١١٣٤
 غزو الهند ١١٣٥
 ولاية سبكتكين على خراسان ١١٣٥
 الفتنة بين سيجور وفائق بخراسان وظهور سبكتكين
 وابنه محمود عليهم ١١٣٥
 مزاحفة سبكتكين وإيلك خان ١١٣٥
- أخبار سبكتكين مع فخر الدولة بن بويه ١١٣٦
 وفاة سبكتكين وولاية ابنه إسماعيل ١١٣٦
 استيلاء محمود بن سبكتكين على ملك أبيه وظفره
 بأخيه إسماعيل ١١٣٦
 استيلاء محمود على خراسان ١١٣٦
 استيلاء محمود على سجستان ١١٣٧
 غزوة بهاطية والملتان وكوكبر ١١٣٨
 مسير ايلك خان إلى خراسان وهزيمته ١١٣٩
 فتح بهيم نقرا ١١٤٠
 خبر الفريغون واستيلاء السلطان على الجوزجان ١١٤٠
 غزوة بارين ١١٤٠
 غزوة الغور وقصران ١١٤٠
 خبر اليشار واستيلاء السلطان على غرستان ١١٤٠
 وفاة ايلك خان وصلاح أخيه طغان خان مع السلطان ... ١١٤١
 فتح بارين ١١٤١
 غزوة تيشرة ١١٤١
 استيلاء السلطان على خوارزم ١١٤٢
 فتح كشمير وفنوج ١١٤٢
 غزوة الأفقانية ١١٤٣
 فتح سومنات ١١٤٣
 دخول قابوس صاحب جرجان وطبرستان في ولاية
 السلطان محمود ١١٤٤
 استيلاء السلطان محمود على الري والجل ١١٤٤
 استيلاء السلطان محمود على بخارى ثم عوده عنها ١١٤٥
 خبر السلطان محمود مع الغز بخراسان ١١٤٥
 افتتاح نرسي من الهند ١١٤٦
 وفاة السلطان محمود وولاية ابنه محمد ١١٤٦
 خلع السلطان محمد ابن السلطان محمود وولاية ابنه
 الآخر مسعود الأكبر ١١٤٦
 عود أصفهان إلى علاء الدولة بن كاكويه ثم رجوعها
 للسلطان مسعود ١١٤٧
 فتح التيز ومكران وكرمان ثم عود كرمان لأبي كاليجار . ١١٤٧
 فتنة عساكر السلطان مسعود مع علاء الدولة بن كاكويه
 وهزيمته ١١٤٧

- مسير السلطان مسعود إلى غزنة والفتن بالري والجبل ... ١١٤٨
- عود أحمد نبال تكين إلى العصيان ١١٤٨
- فتح جرجان وطبرستان ١١٤٨
- مسير علاء الدولة إلى أصفهان وهزمته ١١٤٨
- استيلاء طغرل بك على خراسان ١١٤٩
- مسير السلطان مسعود من غزنة إلى خراسان واجلاء ١١٤٩
- السلجوقية عنها ١١٤٩
- هزيمة السلطان مسعود واستيلاء طغرل بك على مدائن ١١٥٠
- خراسان وأعمالها ١١٥٠
- خلع السلطان مسعود ومقتله وولاية أخيه محمد مكانه .. ١١٥٠
- مقتل السلطان محمد وولاية مردود ابن أخيه مسعود ١١٥١
- استيلاء طغرل بك على خوارزم ١١٥١
- مسير العساكر من غزنة إلى خراسان ١١٥٢
- مسير الهنود لحصار هاور وامتناعها وفتح حصون أخرى ١١٥٢
- من بلادهم ١١٥٢
- وفاة مردود وولاية عمه عبد الرشيد ١١٥٢
- مقتل عبد الرشيد وولاية فرخزاد ١١٥٢
- استيلاء الغورية على هاور ومقتل خسرو شاه وانقراض ١١٥٣
- دولة بني سبكتكين ١١٥٣
- الخبر عن دولة الترك في كاشغر وأعمال تركستان وما ١١٥٣
- كان لهم من الملك في الملة الإسلامية بتلك البلاد ١١٥٣
- وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم ١١٥٣
- وفاة بقراخان وملك أخيه ايلك خان سليمان ١١٥٤
- استيلاء ايلك خان على ما وراء النهر ١١٥٤
- ثورة إسماعيل إلى بخارى ورجوعه عنها ١١٥٤
- عبور ايلك خان إلى خراسان ١١٥٤
- وفاة ايلك خان وولاية أخيه طغان خان ١١٥٥
- وفاة طغان خان وولاية أخيه أرسلان خان ١١٥٥
- انتفاض قراخان على أرسلان وصلحه ١١٥٥
- أخبار قراخان ١١٥٥
- الخبر عن طققاج خان وولده ١١٥٦
- مقتل قدرخان صاحب سمرقند ١١٥٧
- انتفاض محمد خان عن سنجر ١١٥٧
- استيلاء السلطان سنجر على سمرقند ١١٥٧
- استيلاء الخطا على تركستان وبلاد ما وراء النهر ١١٥٧
- وانقراض دولة الخانية ١١٥٧
- إجلاء القارغلية من وراء النهر ١١٥٩
- الخبر عن دولة الغورية القائمين بالدولة العباسية بعد ١١٥٩
- بني سبكتكين وما كان لهم من السلطان والدولة ١١٥٩
- وابتداء أمرهم ومصائر أحوالهم ١١٥٩
- مقتل محمد بن الحسين الغوري وولاية أخيه الحسين شاه ١١٥٩
- ثم أخيه شوري ١١٥٩
- مقتل شوري بن الحسين وولاية أخيه علاء الدين ابن ١١٥٩
- الحسين واستيلاءه على غزنة وانتزاعها منه ١١٥٩
- انتفاض شهاب الدين وغيث الدين على عمهما علاء ١١٦٠
- الدولة ١١٦٠
- وفاة علاء الدولة وولاية غياث الدين ابن أخيه من ١١٦٠
- بعده وتغلب الغز على غزنة ١١٦٠
- استيلاء شهاب الدين الغوري على هاور ومقتل ١١٦٠
- خسروشاه صاحبها ١١٦٠
- استيلاء غياث الدين على هواره وغيرها من خراسان ... ١١٦٠
- فتح آجرة على يد شهاب الدين ١١٦٠
- حروب شهاب الدين مع الهنود وفتح دلهي وولاية ١١٦١
- قطب الدين أيبك عليها ١١٦١
- مقتل ملك الغور محمد بن علاء الدين ١١٦١
- الفتنة بين الغورية وبين خوارزم شاه على ما ملكوه من ١١٦١
- بلاد خراسان ١١٦١
- غزوة شهاب الدين إلى الهند وهزيمة المسلمين بعد الفتح ١١٦٢
- ثم غزوته الثانية وهزيمة الهنود وقتل ملكهم وفتح ١١٦٢
- أجمير ١١٦٢
- غزوة بناوس ومقتل ملك الهند ثم فتح بهنكر ١١٦٢
- استيلاء الغورية على بلخ وفتنتهم مع الخطا بخراسان ... ١١٦٣
- استيلاء الغورية على ملك خوارزم شاه بخراسان ١١٦٣
- فتح نهر واكد من الهند ١١٦٤
- إعادة علاء الدين محمد صاحب خوارزم ما أخذه ١١٦٤
- الغورية من خراسان ١١٦٤
- حصار هراة ١١٦٤
- وفاة غياث الدين وانفراد شهاب الدين بالملك ١١٦٥

- فتنة الغورية مع محمد بن تكش صاحب خوارزم ١١٧٦
 وحصار هراة ثم حصارهم خوارزم وحروب ١١٧٦
 شهاب الدين مع الخطا ١١٦٥
 حروب شهاب الدين مع بني كوكر والتراهمية ١١٦٦
 مقتل شهاب الدين الغوري وافتراق المملكة بعده ١١٦٧
 قيام الذر بدعوة غياث الدين محمود ابن السلطان غياث ١١٦٧
 الدين ١١٦٧
 مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته وملك بهاء الدين ١١٦٧
 ابنه بعده غزنة ١١٦٧
 استيلاء الذر على غزنة ١١٦٨
 أخبار غياث الدين بعد مقتل عمه ١١٦٨
 استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان ١١٦٩
 استيلاء علاء الدين ثانياً على غزنة ثم انتزاع الذر إياها ١١٦٩
 من يده ١١٦٩
 انتفاض عباس في باميان ثم رجوعه إلى الطاعة ١١٧٠
 استيلاء خوارزم شاه على ترمذ ثم الطالقان من يد ١١٧٠
 الغورية ١١٧٠
 خبر غياث الدين مع الذر وأبيك مولى أبيه ١١٧١
 مقتل ابن حرميل واستيلاء خوارزم شاه على هراة ١١٧١
 مقتل غياث الدين محمود ١١٧٢
 استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها ١١٧٢
 استيلاء الذر على هاور ومقتله ١١٧٢
 الخبر عن دولة الديلم وما كان لهم من الملك والسلطان ١١٧٢
 في ملة الإسلام ودولة بني بويه منهم المتغلبين على ١١٧٢
 الخلفاء على العباسيين ببغداد وأولية ذلك ١١٧٢
 ومصائره ١١٧٢
 الخبر عن دولة الديلم وتغلبهم على أعمال الخلفاء ١١٧٢
 بفارس والعراقين ١١٧٤
 أخبار ليلي بن النعمان ومقتله ١١٧٤
 أخبار سرخاب بن وهشودان ومهلكه وقيام ماكان بن ١١٧٥
 كالي بمكانه ١١٧٥
 بداية أسفار بن شيرويه وتغلبه على جرجان ثم ١١٧٥
 طبرستان ١١٧٥
 استيلاء أسفار على الري واستفحال أمره ١١٧٥
 مقتل أسفار وملك مرداويج ١١٧٦
 استيلاء مرداويج على طبرستان وجرجان ١١٧٦
 استيلاء مرداويج على همذان والجبل وحروبه مع ١١٧٧
 عساكر المقتدر ١١٧٧
 خبر لشكري في أصفهان ١١٧٧
 استيلاء مرداويج على أصفهان ١١٧٧
 قدوم وشمكير على أخيه مرداويج ١١٧٧
 خبر مرداويج مع ابن سامان على جرجان ١١٧٧
 بداية أمر بني بويه ١١٧٨
 ولاية عماد الدولة بن بويه على كرج وأصفهان ١١٧٨
 استيلاء ابن بويه على أرجان وأخواتها ثم على شيراز ١١٧٨
 وبلاد فارس ١١٧٩
 استيلاء ماكان بن كالي على الري ١١٧٩
 مقتل مرداويج وملك أخيه وشمكير من بعده ١١٨٠
 مسير معز الدولة بن بويه إلى كرمان وهزمته ١١٨١
 استيلاء ماكان على جرجان وانتفاضه على ابن سامان .. ١١٨١
 الخبر عن دولة بني بويه من الديلم المتغلبين على ١١٨١
 العراقين وفارس والمستبدين على الخلفاء ببغداد ١١٨١
 من خلافة المستكفي إلى أن صاروا في كفالتهم ١١٨١
 وتحت حجرهم إلى انقراض دولتهم وأولية ذلك ١١٨١
 ومصائره ١١٨١
 استيلاء معز الدولة بن بويه على الأهواز ١١٨٢
 انتزاع وشمكير أصفهان من يد ركن الدولة ومسيره إلى ١١٨٢
 واسط ثم استرجاعه أصفهان ١١٨٢
 مسير معز الدولة إلى واسط والبصرة ١١٨٢
 استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد واندراج أحكام ١١٨٢
 الخلافة في سلطانه ١١٨٣
 خلع المستكفي وبيعة المطيع وما حدث في الجاية ١١٨٣
 والإقطاع ١١٨٣
 مسير ابن حمدان إلى بغداد وانهزاه أمام معز الدولة ١١٨٤
 استيلاء معز الدولة على البصرة والموصل وصلحه مع ١١٨٤
 ابن حمدان ١١٨٤
 استيلاء ركن الدولة على الري ثم طبرستان وجرجان ١١٨٤
 ومسير عساكر ابن سامان إليها ١١٨٥

بداية بني شاهين ملوك البطيحة أيام بني بويه	١١٨٥	استيلاء عضد الدولة على العراق ومقتل بختيار وابن	١١٨٥
وفاة عماد الدولة بن بويه وولاية عضد الدولة ابن	١١٨٥	بقية	١١٩٤
أخيه على بلاد فارس مكانه	١١٨٥	استيلاء عضد الدولة على أعمال بني حمدان	١١٩٥
وفاة الصيمري ووزارة المهلبى	١١٨٦	إيقاع العساكر بيني شيان	١١٩٥
مسير عساكر ابن سامان إلى الري ورجوعها	١١٨٦	وصول ورد بن منير البطريق الخارج على ملك الروم	١١٩٥
استيلاء ركن الدولة ثانياً على طبرستان وجرجان	١١٨٦	إلى ديار بكر والقبض عليه	١١٩٥
إقامة الدعوة لبني بويه بخراسان	١١٨٧	دخول بني حسني في الطاعة وبداية أمرهم	١١٩٦
مسير عساكر ابن سامان إلى الري وأصفهان	١١٨٧	استيلاء عضد الدولة على همدان والري من يد أخيه	١١٩٦
خروج روزبهان على معز الدولة وميل الديلم إليه	١١٨٧	فخر الدولة وولاية أخيهما مؤيد الدولة عليها	١١٩٦
استيلاء معز الدولة على الموصل ثم عودها	١١٨٨	استيلاء عضد الدولة على بلاد الهكارية وقلعة سنده	١١٩٧
العهد لبختيار	١١٨٨	وفاة عضد الدولة وولاية ابنه صمصام الدولة	١١٩٧
استيلاء ركن الدولة على طبرستان وجرجان	١١٨٨	استيلاء شرف الدولة بن عضد الدولة على فارس	١١٩٧
ظهور البدعة ببغداد	١١٨٨	واقطاعها من أخيه صمصام الدولة	١١٩٧
وفاة الوزير المهلبى	١١٨٨	وفاة مؤيد الدولة صاحب أصفهان والري وجرجان	١١٩٧
استيلاء معز الدولة ثالثاً على الموصل	١١٨٨	وعود فخر الدولة إلى ملكه	١١٩٧
استيلاء معز الدولة على عمان	١١٨٩	انتفاض محمد بن غانم على فخر الدولة	١١٩٨
وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار	١١٨٩	تغلب باد الكردي على الموصل من يد الديلم ثم	١١٩٨
مسير عساكر ابن سامان إلى الري ومهلك وشمكير	١١٨٩	رجوعها إليهم	١١٩٨
استيلاء عضد الدولة على كرمان	١١٩٠	استيلاء صمصام الدولة على عمان ورجوعها لمشرف	١١٩٨
مسير ابن العميد إلى حسني ووفاته	١١٩٠	الدولة	١١٩٨
انتفاض كرمان على عضد الدولة	١١٩٠	خروج أبي نصر بن عضد الدولة على أخيه صمصام	١١٩٩
عزل أبي الفضل ووزارة ابن بقية	١١٩١	الدولة وانتهزاه وأسرهم	١١٩٩
استيلاء بختيار على الموصل ثم رجوعه عنها	١١٩١	استيلاء القرامطة على الكوفة بدعوة مشرف الدولة ثم	١١٩٩
الفتنة بين الديلم والأتراك وانتفاض سبكتكين	١١٩٢	انتزاعها منهم	١١٩٩
مسير بختيار لقتال سبكتكين وخروج سبكتكين إلى	١١٩٢	استيلاء مشرف الدولة على الأهواز ثم على بغداد	١١٩٩
واسط ومقتله	١١٩٢	واعتيال صمصام الدولة	١١٩٩
استيلاء عضد الدولة على العراق واعتقال بختيار ثم	١١٩٢	أخبار مشرف الدولة في بغداد مع جنده ووزرائه	١٢٠٠
عوده إلى ملكه	١١٩٢	وفاة مشرف الدولة وولاية أخيه بهاء الدولة	١٢٠٠
أخبار عضد الدولة في ملك عمان	١١٩٣	و ثوب صمصام الدولة بفارس وأخباره مع أبي علي	١٢٠١
اضطراب كرمان على عضد الدولة	١١٩٣	ابن أخيه مشرف الدولة	١٢٠١
وفاة ركن الدولة وملك ابنه عضد الدولة	١١٩٤	مسير فخر الدولة صاحب الري وأصفهان وهمدان إلى	١٢٠١
مسير عضد الدولة إلى العراق وهزيمة بختيار	١١٩٤	العراق وعوده	١٢٠١
نكبة أبي الفتح بن العميد	١١٩٤	مسير بهاء الدولة إلى أخيه صمصام الدولة بفارس	١٢٠١
		القبض على الطائع ونصب القادر للخلافة	١٢٠١

- رجوع الموصل إلى بهاء الدولة ١٢٠٢
- أخبار ابن المعلم ١٢٠٢
- خروج أولاد بختيار وقتلهم ١٢٠٢
- استيلاء صمصام الدولة على الأهواز ورجوعها منه ١٢٠٢
- استيلاء صمصام الدولة على الأهواز ثم على البصرة .. ١٢٠٣
- وفاة الصاحب بن عباد ١٢٠٣
- وفاة فخر الدولة صاحب الري وملك ابنه مجد الدولة ... ١٢٠٤
- وفاة العلاء بن الحسن صاحب خوزستان ١٢٠٤
- مقتل صمصام الدولة ١٢٠٤
- استيلاء بهاء الدولة على فارس وخوزستان ١٢٠٤
- مقتل ابن بختيار بكرمان واستيلاء بهاء الدولة عليها ١٢٠٥
- مسير ظاهر بن خلف إلى كرمان واستيلاؤه عليها ثم
ارتجاعها ١٢٠٥
- حروب عساكر بهاء الدولة مع بني عقيل ١٢٠٥
- الفتنة بين أبي علي وأبي جعفر ١٢٠٥
- الفتنة بين مجد الدولة صاحب الري وبين أمه واستيلاء
ابن خالها علاء الدين بن كاكويه على أصفهان ١٢٠٦
- وفاة عميد العراق وولاية فخر الملك ١٢٠٦
- وفاة بهاء الدولة وولاية ابنه سلطان الدولة ١٢٠٦
- استيلاء شمس الدولة على الري من يد أخيه مجد
الدولة ورجوعه عنها ١٢٠٧
- مقتل فخر الملك ووزارة ابن سهلان ١٢٠٧
- انتقاض أبي الفوارس على أخيه سلطان الدولة ١٢٠٧
- وثوب مشرف الدولة على أخيه سلطان الدولة ببغداد
واستبداده آخرأ بالملك ١٢٠٨
- استيلاء ابن كاكويه على همذان ١٢٠٨
- وزارة أبي القاسم المغربي لمشرف الدولة ثم عزله ١٢٠٨
- وفاة سلطان الدولة بفارس وملك ابنه أبي كاليجار
وقتل ابن مكرم ١٢٠٩
- وفاة مشرف الدولة وملك أخيه جلال الدولة ١٢٠٩
- استيلاء جلال الدولة على ملك بغداد ١٢٠٩
- أخبار ابن كاكويه صاحب أصفهان مع الأكراد ومع
الأصبهيد ١٢١٠
- دخول خفاجة في طاعة أبي كليجار ١٢١٠
- شغب الأتراك على جلال الدولة ١٢١٠
- استيلاء أبي كاليجار على البصرة ثم على كرمان ١٢١٠
- قيام بني ديس بدعوة أبي كاليجار ١٢١١
- استيلاء أبي كاليجار على واسط ثم انهزامه وعودها
لجلال الدولة ١٢١١
- استيلاء محمود بن سبكتكين صاحب خراسان على بلاد
الري والجليل وأصفهان ١٢١١
- أخبار الغز بالري وأصفهان وأعمالها وعودها إلى علاء
الدولة ١٢١٢
- استيلاء مسعود بن سبكتكين على همذان وأصفهان
والري ثم عودها إلى علاء الدولة بن كاكويه ١٢١٣
- استيلاء جلال الدولة على البصرة ثم عودها لأبي
كاليجار ١٢١٣
- وفاة القادر ونصب القائم للخلافة ١٢١٣
- وثوب الأتراك ببغداد بجلال الدولة بدعوة أبي كاليجار
ثم رجوعهم إلى جلال الدولة ١٢١٤
- استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانياً ثم عودها لأبي
كاليجار ١٢١٤
- إخراج جلال الدولة من دار الملك ثم عوده ١٢١٤
- فتنة بادسطقان ومقتله ١٢١٤
- مصالحه جلال الدولة وأبي كاليجار ١٢١٥
- عزل الظهير أبي القاسم عن البصرة واستقلال أبي
كاليجار بها ١٢١٥
- أخبار عمان وابن مكرم ١٢١٥
- وفاة جلال الدولة سلطان بغداد وولاية أبي كاليجار ... ١٢١٦
- أخبار ابن كاكويه مع عساكر مسعود وولايته على
أصفهان ثم ارتجاعه منها ١٢١٦
- وفاة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه ١٢١٦
- موت أبي كاليجار ١٢١٨
- ملك الملك الرحيم بن أبي كاليجار ومواقفه ١٢١٨
- الفتنة بين البساسيري وبني عقيل واستيلاؤه على الأنبار . ١٢١٩
- استيلاء الخوارج على عمان ١٢١٩
- الفتنة بين العامة ببغداد ١٢١٩
- استيلاء الملك الرحيم على البصرة ١٢٢٠

- الخبر عن بني شاهين ملوك البطيحة ومن ملكها من
بعدهم من قرباتهم وغيرهم وابتداء ذلك
ومصائرهم ١٢٢٩
- مسير العساكر إلى عمران بن شاهين وانهزامها ١٢٣٠
- وفاة عمران بن شاهين وقيام ابنه الحسن مقامه ومحاربتهم
عساكر عضد الدولة ١٢٣٠
- مقتل الحسن بن عمران وولاية أخيه أبي الفرج ١٢٣١
- مقتل أبي الفرج وولاية أبي المعالي بن الحسن ١٢٣١
- استيلاء المظفر وخلع أبي المعالي ١٢٣١
- وفاة المظفر وولاية مهذب الدولة ١٢٣١
- بعث ابن واصل على البطيحة وعزل مهذب الدولة ١٢٣١
- عود مهذب الدولة إلى البطيحة ١٢٣٢
- وفاة مهذب الدولة وولاية ابن اخته عبد الله بن نسي ١٢٣٢
- وفاة ابن نسي وولاية السرائي ١٢٣٢
- نكبة السرائي وولاية صدقة المازباري ١٢٣٢
- وفاة صدقة وولاية سابور بن المرزبان ١٢٣٢
- عزل سابور وولاية أبي نصر ١٢٣٢
- عصيان أهل البطيحة على أبي كاليجار ١٢٣٣
- استيلاء أبي كاليجار على البطيحة ١٢٣٣
- ولاية مهذب الدولة بن أبي الخير على البطيحة ١٢٣٣
- ولاية نصر بن النفيس والمظفر بن حماد من بعده على
البطيحة ١٢٣٣
- إجلاء بني معروف من البطيحة ١٢٣٤
- الخبر عن دولة بني حسنويه من الأكراد القاشمين
بالدعوة العباسية بالدينور والصامغان ومبدأ
أمورهم وتصاريح أحوالهم ١٢٣٤
- وفاة حسنويه وولاية ابنه بدر ١٢٣٤
- حروب بدر بن حسنويه وعساكر مشرف الدولة ١٢٣٥
- مسير ابن حسنويه لحصار بغداد مع أبي جعفر بن هرمز ١٢٣٥
- انتقاض هلال بن بدر بن حسنويه على أبيه وحروبهما ١٢٣٦
- استيلاء ظاهر بن هلال على شهرزور ١٢٣٦
- مقتل بدر بن حسنويه وابنه هلال ١٢٣٦
- مقتل ظاهر بن هلال واستيلاء أبي الشوك على بلادهم
ورياستهم ١٢٣٦
- استيلاء فلاستون على شيراز بدعوة طغرل بك ١٢٢٠
- وقائع البساسيري مع الأعراب والأكراد لطغرل بك ١٢٢٠
- فتنة الأتراك واستيلاء عساكر طغرل بك على التواحي ١٢٢٠
- الوحشة بين القائم والبساسيري ١٢٢١
- وثوب الأتراك بالبساسيري ونهب داره ١٢٢١
- استيلاء طغرل بك على بغداد والخليفة ونكبة الملك
الرحيم وانقراض دولة بني بويه ١٢٢١
- الخبر عن دولة وشمكير وبنيه من الجيل إخوة الديلم
وما كان لهم من الملك والسلطان بمرجان
وطبرستان وأولية ذلك ومصائرهم ١٢٢٢
- استيلاء عساكر خراسان على الري والجيل وملك
وشمكير طبرستان ١١٢٢٣
- استيلاء الحسن بن الفريزان على جرجان ١١٢٢٣
- رجوع الري لوشمكير واستيلاء ابن بويه عليها ١١٢٢٣
- استيلاء وشمكير على جرجان ١١٢٢٣
- استيلاء ركن الدولة على طبرستان وجرجان ١١٢٢٣
- وفاة وشمكير وولاية ابنه بهستون ١١٢٢٤
- وفاة بهستون وولاية أخيه قابوس ١١٢٢٤
- استيلاء عضد الدولة على جرجان وطبرستان ١١٢٢٤
- عودة قابوس إلى جرجان وطبرستان ١١٢٢٤
- مقتل قابوس وولاية ابنه منوچهر ١١٢٢٥
- وفاة منوچهر وولاية ابنه أنوشروان ١١٢٢٥
- الخبر عن دولة مسافر من الديلم بأذربيجان ومصائرهم ١١٢٢٥
- استيلاء المرزبان بن محمد بن مسافر على أذربيجان ١١٢٢٦
- استيلاء الروس على مدينة بردعة وظفر المرزبان بهم ١١٢٢٦
- مسير المرزبان إلى الري وهزيمته وحجسه ١١٢٢٧
- وفاة المرزبان وولاية ابنه خستان ١١٢٢٨
- مقتل خستان وإخوته واستيلاء عمهم وهشردان على
أذربيجان ١١٢٢٨
- استيلاء إبراهيم بن المرزبان ثانياً على أذربيجان ١١٢٢٨
- دخول الغز أذربيجان ١١٢٢٩
- استيلاء طغرل بك على أذربيجان ١١٢٢٩

- ١٢٣٧ الفتنه بين أبي الفتح بن أبي الشوك وعمه مهلهل
- ١٢٣٨ استيلاء نبال أخي طغرل بك على ولاية أبي الشوك
- ١٢٣٨ وفاة أبي الشوك وقيام أخيه مهلهل مقامه
- استيلاء سعدي بن أبي الشوك على أعمالهم بدعوة السلجوقية ١٢٣٨
- نكية سرخاب واستيلاء نبال على أعمالهم كلها ١٢٣٨
- بقية أخبار مهلهل وابن أبي الشوك وانقراض أمرهم ١٢٣٩
- الخبر عن الدولة السلجوقية من الترك ١٢٤٠
- غزاة السلطان الب أرسلان إلى خلط وأسر ملك الروم ١٢٤٠
- فتنة قاروت بك صاحب كرمان ومقتله ١٢٤١
- استيلاء السلجوقية على دمشق وحصارهم مصر ثم استيلاء تش ابن السلطان الب أرسلان على دمشق ١٢٤١
- سفارة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن الخليفة ١٢٤٢
- اتصال بني جهير بالسلطان ملك شاه ومسير فخر الدولة لفتح ديار بكر ١٢٤٢
- استيلاء ابن جهير على الموصل ١٢٤٣
- فتح سليمان بن قطلمش أنطاكية والخبر عن مقتله ومقتل مسلم بن قريش واستيلاء تش على حلب ١٢٤٣
- استيلاء ابن جهير على ديار بكر ١٢٤٣
- استيلاء السلطان ملك شاه على حلب وولاية أفسنقر عليها ١٢٤٤
- خبر الزفاف ١٢٤٤
- استيلاء السلطان ملك شاه على ما وراء النهر ١٢٤٤
- عصيان سمرقند وفتحها ثانياً ١٢٤٥
- استيلاء تش على حصص وغيرها من سواحل الشام ٢٢٤٥
- ملك اليمن ١٢٤٥
- مقتل الوزير نظام الملك ١٢٤٦
- وفاة السلطان ملك شاه وولاية ابنه محمود ١٢٤٧
- منازعة بركيارق لأخيه محمود وانتظام سلطانه ١٢٤٧
- مقتل تاج الملك ١٢٤٧
- مهلك محمود ١٢٤٧
- منازعة تش الب أرسلان وأخباره إلى حين انهزامه ١٢٤٧
- ١٢٤٨ مقتل إسماعيل بن ياقوتي
- ١٢٤٨ وفاة المقتدي وخلافة المستظهر وخطبته لبركيارق
- استيلاء تش على البلاد بعد مقتل أفسنقر ثم هزيمة بركيارق ١٢٤٨
- مقتل تش واستقلال بركيارق بالسلطان ١٢٤٩
- استيلاء كربوقا على الموصل ١٢٤٩
- استيلاء أرسلان أرغون أخي السلطان ملك شاه على خراسان ومقتله ١٢٤٩
- ولاية سنجر على خراسان ١٢٥٠
- ظهور المخالفين بخراسان ١٢٥٠
- بداية دولة بني خوارزم شاه ١٢٥٠
- استيلاء الإفرنج على أنطاكية وغيرها من سواحل الشام ١٢٥٠
- انتقاض الأمير أنز وقتله ١٢٥١
- استيلاء الفرنج على بيت المقدس ١٢٥١
- ظهور السلطان محمد بن ملك شاه والخطبة له ببغداد وحروبه مع أخيه بركيارق ١٢٥٢
- مقتل البارسلاني ١٢٥٢
- إعادة الخطبة ببغداد لبركيارق ١٢٥٢
- المصاف الأول بين بركيارق ومحمد ومقتل كوهرائين وهزيمة بركيارق والخطبة لمحمد ١٢٥٣
- مسير بركيارق إلى خراسان وانهزامه من أخيه سنجر ومقتل الأمير داود حبشي أمير خراسان ١٢٥٣
- المصاف الثاني بين بركيارق ومحمد وهزيمة محمد وقتل وزيره مؤيد الملك والخطبة لبركيارق ١٢٥٣
- مسير بركيارق عن بغداد ودخول محمد وسنجر إليها ١٢٥٤
- قتل بركيارق الباطنية ١٢٥٤
- المصاف الثالث بين بركيارق ومحمد والصلح بينهما ١٢٥٥
- انتقاض الصلح والمصاف الرابع بين السلطانين وحصار محمد بأصفهان ١٢٥٥
- مسير صاحب البصرة إلى واسط ١٢٥٦
- وفاة كربوقا صاحب الموصل واستيلاء جكرمش عليها ١٢٥٦
- واستيلاء سقمان بن أرتق على حصن كيفا ١٢٥٦
- أخبار نبال بالعراق ١٢٥٧

- ولاية كستكين النصيري شحنة بغداد وفتته مع أبي
الغازي وحره ١٢٥٧
- المناف الخامس بين بركيارق ومحمد ١٢٥٨
- استيلاء ملك بن بهرام على مدينة عانة ١٢٥٨
- الصلح بين السلطان بركيارق ومحمد ١٢٥٨
- حرب سقمان وجكرمس الإفرنج ١٢٥٩
- وفاة بركيارق وولاية ابنه ملك شاه ١٢٥٩
- حصار السلطان محمد الموصل ١٢٥٩
- استيلاء السلطان محمد على بغداد وخلع ملك شاه ابن
أخيه ومقتل أياز ١٢٥٩
- استيلاء سقمان بن أرتق على ماردين لا مونه ١٢٦٠
- خروج منكبرس على السلطان محمد ونكته ١٢٦١
- مقتل فخر الملك بن نظام الملك ١٢٦١
- ولاية جاولي سكاو على الموصل وموت جكرمش ١٢٦١
- مقتل صدقة بن مزيد ١٢٦٢
- قدوم ابن عمّار صاحب طرابلس على السلطان محمد ١٢٦٢
- استيلاء مودود بن أبي شستكين على الموصل من يد
جاولي ١٢٦٢
- مقتل مودود بن أنوتكين صاحب الموصل في حرب
الإفرنج وولاية البرسقي مكانه ١٢٦٣
- مسير العساكر لقتال أبي الفسازي وقطلغتكين والجهاد
بعدهما ١٢٦٤
- ولاية حيّوس بك ومسعود ابن السلطان محمد علي
الموصل ١٢٦٥
- ولاية جاولي سكاو على فارس وأخباره فيها ووفاته ١٢٦٥
- وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود ١٢٦٥
- وفاة المستظهر وخلافة ابنه المسترشد ١٢٦٦
- خروج مسعود ابن السلطان محمد على أخيه محمود ١٢٦٦
- خروج الملك طغرل على أخيه السلطان محمود ١٢٦٦
- فتنة السلطان محمود مع عمه سنجر ١٢٦٧
- استبداد علي بن سقمان بالبصرة ١٢٦٨
- استيلاء الكرج على تفليس ١٢٦٨
- الحرب بين السلطان محمود وأخيه مسعود ١٢٦٨
- ولاية أفسنقر البرسقي على الموصل ثم على واسط
وشحنة العراق ١٢٦٩
- مقتل حيّوس بك والوزير الشهيرمي ١٢٦٩
- رجوع طغرل إلى طاعة أخيه السلطان محمود ١٢٦٩
- مقتل وزير السلطان محمود ١٢٦٩
- ظفر السلطان بالكرج ١٢٧٠
- عزل البرسقي عن شحنة العراق وولاية برتقش الزكوي ١٢٧٠
- بداية أمر بني أفسنقر وولاية عماد الدين زنكي على
البصرة ١٢٧٠
- استيلاء البرسقي على حلب ١٢٧٠
- مسير طغرل وديبس إلى العراق ١٢٧٠
- مقتل البرسقي وولاية ابنه عز الدين على الموصل ١٢٧١
- وفاة عز الدين بن البرسقي وولاية عماد الدين زنكي
على الموصل وأعمالها ثم استيلاءه على حلب ١٢٧١
- قدوم السلطان سنجر إلى الريّ ثم قدوم السلطان
محمود إلى بغداد ١٢٧٢
- وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود ١٢٧٢
- منازعة السلطان مسعود لداود ابن أخيه واستيلاءه على
السلطان بهمدان ١٢٧٣
- هزيمة السلطان مسعود وملك طغرل أخيه ١٢٧٣
- هزيمة السلطان داود واستيلاء طغرل بن محمد على
الملك ١٢٧٣
- عود السلطان مسعود إلى الملك وهزيمة طغرل ١٢٧٣
- عود الملك طغرل إلى الجبل وهزيمة السلطان مسعود ١٢٧٤
- وفاة طغرل واستيلاء مسعود على الملك ١٢٧٤
- فتنة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله وخلافة ابنه
الراشد ١٢٧٤
- فتنة الراشد مع السلطان مسعود ١٢٧٥
- حصار بغداد ومسير الراشد إلى الموصل وخلعه وخلافة
المقتفي ١٢٧٥
- الفتنة بين السلطان مسعود وبين داود الراشد وهزيمة
مسعود ومقتل الراشد ١٢٧٦
- فتنة السلطان سنجر مع خوارزم شاه ١٢٧٦
- استيلاء قراستقر صاحب أذربيجان على بلاد فارس ١٢٧٧

ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان	١٢٧٧
هزيمة السلطان سنجار أمام الخطا واستيلاؤهم على ما	١٢٧٧
وراء النهر	١٢٧٧
أخبار خوارزم شاه بخراسان وصلحه مع سنجار	١٢٧٨
صلح زنكي مع السلطان مسعود	١٢٧٨
انتفاض صاحب فارس وصاحب الري	١٢٧٨
مقتل طغابرك وعباس	١٢٧٩
مقتل بوازبة صاحب فارس	١٢٧٩
انتفاض الأمراء على السلطان	١٢٧٩
وفاة السلطان مسعود وولاية ملك شاه ابن أخيه محمود	١٢٨٠
ثم أخيه محمد من بعده	١٢٨٠
تغلب الغز على خراسان وهزيمة السلطان سنجار	١٢٨٠
وأُسره	١٢٨٠
استيلاء المؤيد على نيسابور وغيرها	١٢٨١
استيلاء ايتاخ على الري	١٢٨١
الخبر عن سليمان شاه وحبه بالموصل	١٢٨١
فرار سنجار من أسر الغز	١٢٨٢
حصار السلطان محمد بغداد	١٢٨٢
وفاة سنجار	١٢٨٢
منازعة ايتاخ للمؤيد	١٢٨٢
منازعة سنقر العزيزي للمؤيد ومقتله	١٢٨٣
فتنة الغز الثانية بخراسان وخراب نيسابور على يد المؤيد	١٢٨٣
استيلاء ملك شاه بن محمود على خوزستان	١٢٨٣
وفاة السلطان محمد وولاية عمه سليمان شاه	١٢٨٤
وفاة المفتي وخلافة المستنجد	١٢٨٤
اتفاق المؤيد مع محمود الخان	١٢٨٤
الحرب بين عسكر خوارزم شاه والأتراك البرزية	١٢٨٤
وفاة ملك شاه بن محمود	١٢٨٤
قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان	١٢٨٥
الحرب بين ايلدكز وإيتاخ	١٢٨٥
الفتنة بنيسابور وتخريبها	١٢٨٥
فتح المؤيد طوس وغيرها	١٢٨٦
الحرب بين المسلمين والكرج	١٢٨٦
بخراسان	١٢٨٦
إجلاء القارغلية من وراء النهر	١٢٨٦
استيلاء سنقر على الطالقان وغرستان	١٢٨٧
قتل صاحب هراة	١٢٨٧
ملك شاه مازندران قومس وبسطام ووفاته	١٢٨٧
حصار عسكر المؤيد نسا	١٢٨٧
الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة	١٢٨٧
ملك شملة فارس وإخراجه عنها	١٢٨٧
ملك ايلدكز الري	١٢٨٧
وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده	١٢٨٨
وفاة خوارزم شاه وولاية ابنه سلطان شاه ومنازعته مع	١٢٨٨
أخيه الأكبر علاء الدين تكش	١٢٨٨
وفاة الأتابك شمس الدين ايلدكز وولاية ابنه محمد	١٢٨٨
البهلوان	١٢٨٨
وفاة السلطان أرسلان بن طغرل	١٢٨٨
وفاة البهلوان محمد بن ايلدكز وملك أخيه قزل	١٢٨٨
قتل قزل أرسلان قطنغ وولاية أخيه	١٢٨٩
قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الري ووفاته	١٢٨٩
أخيه سلطان شاه	١٢٨٩
ملك الكرج الدويرة	١٢٨٩
قتل كوجه بيلاد الجبل وملك ايدغمش	١٢٨٩
قصد صاحب مراغة وصاحب إيرل أذربيجان	١٢٨٩
وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده	١٢٩٠
ملك ابن البهلوان مراغة	١٢٩٠
استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها	١٢٩٠
وهرب ايدغمش وقتله	١٢٩٠
بنو أنوشتكين	١٢٩١
وفاة محمد بن أنوشتكين وولاية ابنه أتنز	١٢٩١
الحرب بين السلطان سنجار وأتنز خوارزم شاه	١٢٩١
انهزام السلطان سنجار من الأتراك الخطا وملكهم ما	١٢٩١
وراء النهر	١٢٩١
وفاة أتنز وملك ولده أرسلان	١٢٩٢

- وفاة خوارزم شاه أرسلان وملك ولده سلطان شاه
وبعده ولده الآخر تكش وملك طغان شاه بن
المزيد ثم موته وملك ابنه سنجار شاه ١٢٩٢
- وفاة ايلدكز وملك ابنه محمد البهلوان ١٢٩٤
- وفاة ملك شاه بن خوارزم شاه تكش ١٢٩٥
- انهزام الخطا من الغورية ١٢٩٥
- ملك خوارزم شاه تكين الري وبلاد الجبل ١٢٩٥
- وفاة خوارزم شاه ١٢٩٥
- استيلاء ملوك الغورية على أعمال خوارزم شاه محمد
تكش بخراسان وارتجاعه إياها منهم ثم حصاره
هراة من أعمالهم ١٢٩٦
- حصار شهاب الدين خوارزم شاه وانهزامه أمام الخطا .. ١٢٩٧
- استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان ١٢٩٨
- استيلاء خوارزم شاه على ترمذ وتسليمها للخطا ١٢٩٨
- استيلاء خوارزم شاه على الطالقان ١٢٩٩
- استيلاء خوارزم شاه على مازندران وأعمالها ١٢٩٩
- استيلاء خوارزم شاه على ما وراء النهر وقتاله مع
الخطا وأسرهم وخلصه ١٢٩٩
- مقتل ابن حرميل ثم استيلاء خوارزم شاه على هراة ١٣٠٠
- استيلاء خوارزم شاه على بيروزكوه وسائر بلاد
خراسان ١٣٠٠
- هزيمة الخطا ١٣٠٠
- انتفاض صاحب سمرقند ١٣٠٠
- استلحام الخطا ١٣٠١
- استيلاء خوارزم شاه على كرمان ومكران والسند ١٣٠١
- استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها ١٣٠٢
- استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل ١٣٠٢
- طلب الخطبة وامتناع الخليفة منها ١٣٠٢
- قسمة السلطان خوارزم شاه الملك بين ولده ١٣٠٣
- أخبار تركمان خاتون أم السلطان محمد بن تكش ١٣٠٣
- خروج التتر وغلبهم على ما وراء النهر وفرار السلطان
أمامهم من خراسان ١٣٠٣
- إجفال السلطان خوارزم شاه إلى خراسان ثم إلى
طبرستان ومهلكه ١٣٠٤
- مسير التتر بعد مهلك خوارزم شاه من العراق إلى
أذربيجان وما وراءها من البلاد هنالك ١٣٠٥
- أخبار خراسان بعد مهلك خوارزم شاه ١٣٠٦
- أخبار السلطان جلال الدين منكبرس مع التتر بعد
مهلك خوارزم شاه واستقراره بغزنة ١٣٠٦
- استيلاء التتر على مدينة خوارزم وتخريبها ١٣٠٧
- خبر آبنايخ نائب بخارى وتغلبه على خراسان ثم فصره
أمام التتر إلى الري ١٣٠٧
- خبر ركن الدين غورشاہ صاحب العراق من ولد
خوارزم شاه ١٣٠٧
- خبر غياث الدين تيرشاہ صاحب كرمان من ولد
السلطان خوارزم شاه ١٣٠٨
- أخبار السلطان جلال الدين منكبرس وهزيمته أمام التتر
ثم عودته إلى الهند ١٣٠٨
- أخبار جلال الدين بالهند ١٣٠٩
- أحوال العراق وخراسان في إبالة غياث الدين ١٣٠٩
- وصول جلال الدين من الهند إلى كرمان وأخباره
بفارس والعراق مع أخيه غياث الدين ١٣١٠
- استيلاء ابن آبنايخ على نسا ١٣١٠
- مسير السلطان جلال الدين إلى خوزستان ونواحي
بغداد ١٣١٠
- أولية الوزير شرف الدين ١٣١١
- عودة التتر إلى الري وهمذان وبلاد الجبل ١٣١١
- وقائع أذربيجان قبل مسير جلال الدين إليها ١٣١١
- استيلاء جلال الدين على أذربيجان وغزو الكرج ١٣١٢
- فتح السلطان مدينة كنجة ونكاحه زوجة أزيك ١٣١٢
- استيلاء جلال الدين على تفليس من الكرج بعد هزيمته
إياهم ١٣١٣
- انتفاض صاحب كرمان ومسير السلطان إليه ١٣١٣
- مسير جلال الدين إلى حصار خلاط ١٣١٣
- دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها ١٣١٤
- أخبار السلطان جلال الدين مع الإسماعيلية ١٣١٤
- استيلاء حسام الدين نائب خلاط على مدينة خوي ١٣١٤
- واقعة السلطان مع التتر على أصفهان ١٣١٥

١٣٢٦	استيلاء طغركين على بصرى	١٣١٥ ..	الوحشة بين السلطان جلال الدين وأخيه غياث الدين
١٣٢٦	غزو طغركين وهزيمته	١٣١٥	انتفاض البهلوانية
١٣٢٦	انتفاض طغركين على السلطان محمد	١٣١٦	إيقاع نائب خلاط بالوزير
	وفاة رضوان بن تشش صاحب حلب وولاية ابنه ألب	١٣١٦	فتوحات الوزير بأذربيجان وأران
١٣٢٧	أرسلان	١٣١٦	أخبار الوزير بخراسان
	مهلك لؤلؤ الخادم واستيلاء أبي الغازي ثم مقتل ألب	١٣١٧	خبر بلبان صاحب خلخال
١٣٢٧	أرسلان وولاية أخيه سلطان شاه	١٣١٧	تكر السلطان للوزير شرف الدين
١٣٢٧	هزيمة طغركين أمام الإفرنج	١٣١٨	وصول القفجاق لخدمة السلطان
١٣٢٨	منازلة الإفرنج دمشق	١٣١٨	استيلاء السلطان على أعمال كستاسفي
١٣٢٨	وفاة طغركين وولاية ابنه بوري	١٣١٨	قدوم شروان شاه
	أسر تاج الملك لديس بن صدقة وتمكين عماد الدين	١٣١٨	مسير السلطان إلى بلاد الكرج وحصاره قلاع بهرام
١٣٢٨	زنكي منه	١٣١٨	مسير السلطان إلى خلاط وحصارها
	وفاة تاج الملوك بوري صاحب دمشق وولاية ابنه		واقعة السلطان جلال الدين مع الأشرف وكيقباد
١٣٢٨	شمس الملوك إسماعيل	١٣١٩	وانهزامه أمامهما
١٣٢٨	استيلاء شمس الملوك على الحصون	١٣١٩	الحوادث أيام حصار خلاط
١٣٢٩	مقتل شمس الملوك وولاية أخيه شهاب الدين محمود	١٣٢٠	وصول جهان بهلوان أزيك من الهند
١٣٢٩	استيلاء شهاب الدين محمود على حمص	١٣٢٠	وصول التتر إلى أذربيجان
	استيلاء عماد الدين زنكي على حمص وغيرها من	١٣٢١	استيلاء التتر على تبريز وكنجة
١٣٢٩	أعمال دمشق	١٣٢١	نكبة الوزير ومقتله
١٣٣٠	مقتل شهاب الدين محمود وولاية أخيه محمد	١٣٢١	ارتجاع السلطان كنجة
١٣٣٠	استيلاء زنكي على بعلبك وحصاره دمشق	١٣٢١	واقعة التتر على السلطان بآمد ومهلكه
	وفاة جمال الدين محمد بن بوري وولاية ابنه مجير الدين		الخبر عن دولة بني تشش بن ألب أرسلان ببلاد الشام
١٣٣٠	أنز		دمشق وحلب وأعمالهما وكيف تناوبوا فيها القيام
١٣٣٠	مسير الإفرنج لحصار دمشق		بالدعوة العباسية والدعوة العلوية حين انقراض
	استيلاء نوري الدين محمود العادل على دمشق	١٣٢٢	أمرهم
١٣٣١	وانقراض بني تشش من الشام	١٣٢٣	مقتل تشش
	الخبر عن دولة قطلмыш وبنيه ملوك قونية وبلاد الروم	١٣٢٣	استيلاء رضوان بن تشش على حلب
	من السلجوقية ومبادي أمورهم وتصاريف	١٣٢٤	استيلاء دقاق بن تشش على دمشق
١٣٣١	أحوالهم	١٣٢٤	الفتنة بين دقاق وأخيه رضوان
١٣٣٢	استيلاء قليج أرسلان على الموصل	١٣٢٤	استيلاء دقاق على الرجة
١٣٣٢	الحرب بين قليج أرسلان وبين الإفرنج	١٣٢٥	وفاة دقاق وولاية أخيه تلتاش ثم خلعه
١٣٣٣	مقتل قليج أرسلان وولاية ابنه مسعود	١٣٢٥	الحرب بين طغركين والإفرنج أشهراً
١٣٣٣	استيلاء مسعود بن قليج أرسلان على ملطية وأعمالها	١٣٢٥	مسير رضوان صاحب حلب لحصار نصيبين
		١٣٢٥	استيلاء الإفرنج على أفامية

- وفاة مسعود بن قليج وولاية ابنه قليج أرسلان الان
قرسن ١٣٣٣
- مسير نور الدين العادل إلى بلاد قليج أرسلان ١٣٣٣
- مسير صلاح الدين لحرب قليج أرسلان ١٣٣٤
- قسمة قليج أرسلان أعماله بين ولده وتغلبهم عليه ١٣٣٤
- وفاة قليج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين ١٣٣٤
- استيلاء ركن الدين سليمان على قونية وأكثر بلاد
الروم وفرار غياث الدين ١٣٣٤
- وفاة ركن الدين وولاية ابنه قليج أرسلان ١٣٣٥
- استيلاء غياث الدين كسنجار على بلاد الروم من أخيه
ركن الدين ١٣٣٥
- مقتل غياث الدين كسنجار وولاية ابنه كيكافوس ١٣٣٥
- مسير كيكافوس إلى حلب واستيلاءه على بعض أعمالها
ثم هزيمته وارتجاع البلد من يده ١٣٣٥
- وفاة كيكافوس وملك أخيه كيغباد ١٣٣٦
- الفتنة بين كيغباد وصاحب آمد من بني أرتق وفتح عدة
من حصونه ١٣٣٦
- استيلاء كيغباد على مدينة أرزنكان ١٣٣٦
- فتنة كيغباد مع جلال الدين ١٣٣٦
- مسير ابن أيوب إلى كيغباد وهزيمتهم ١٣٣٦
- وفاة كيغباد وملك ابنه كنعسرو ١٣٣٦
- وفاة غياث الدين وولاية ابنه كيغباد ١٣٣٧
- وفاة كيغباد وملك أخيه كيكافوس ١٣٣٧
- استيلاء التتر على قونية ١٣٣٧
- الفتنة بين عز الدين كيكافوس وأخيه قليج أرسلان
واستيلاء قليج أرسلان على الملك ١٣٣٨
- خبر عز الدين كيكافوس ١٣٣٨
- مقتل ركن الدين قليج أرسلان وولاية ابنه كنعسرو ١٣٣٨
- استيلاء الظاهر ملك مصر على قيسارية ومقتل البرنوا ١٣٣٨
- خلع كنعسرو ثم مقتله وولاية مسعود ابن عمه
كيكافوس ١٣٣٩
- ملوك قونية من بلاد الروم وملكها من أيديهم التتر ١٣٣٩
- الخبر عن بني سكرمان موالي السلجوقية ملوك خلاط
وبلاد أرمينية ومصير الملك إلى مواليهم من
بعدهم ومباي أمرهم وتصاريح أحوالهم ١٣٣٩
- وفاة شاه أرمين سكرمان وولاية مكتمر مولى أبيه ١٣٤٠
- وفاة مكتمر وولاية أقستقر ١٣٤٠
- وفاة أقستقر وولاية محمد بن مكتمر ١٣٤٠
- نكبة ابن مكتمر واستيلاء بلبان على خلاط وأعمالها ١٣٤١
- أخبار الإفرنج فيما ملكوه من سواحل الشام وثغوره
وكيف تغلبوا عليه وبداية أمرهم في ذلك
ومصائره ١٣٤١
- استيلاء الإفرنج على معرة النعمان ثم على بيت
المقدس ١٣٤٢
- عساكر مصر وحرب الإفرنج مسير العساكر من مصر
لحرب الإفرنج ١٣٤٢
- إيقاع ابن الدانشمند بالإفرنج ١٣٤٣
- حصار الإفرنج قلعة جبلة ١٣٤٣
- استيلاء الإفرنج على سروج وقيسارية وغيرها ١٣٤٣
- حصار الإفرنج طرابلس وغيرها ١٣٤٣
- حصار الإفرنج عسقلان وحروبهم مع عساكر مصر ١٣٤٤
- استيلاء الإفرنج على جبيل وعكا ١٣٤٤
- غزو أمراء السلجوقية بالجزيرة الإفرنج ١٣٤٤
- حرب الإفرنج مع رضوان بن تشش صاحب حلب ١٣٤٥
- حرب الإفرنج مع عساكر مصر ١٣٤٥
- حرب الإفرنج مع طغركين ١٣٤٥
- استيلاء الإفرنج على حصن أفامية ١٣٤٥
- خبر الإفرنج في حصار طرابلس ١٣٤٦
- خبر القمص صاحب الرها مع جاوли ومع صاحب
أنطاكية ١٣٤٦
- حروب الإفرنج مع طغركين ١٣٤٧
- استيلاء الإفرنج على طرابلس وبيروت وصيدا وجبيل
وبانياس ١٣٤٧
- استيلاء أهل مصر على عسقلان ١٣٤٧
- استيلاء الإفرنج على حصن الأنابز وغيره ١٣٤٧
- مسير الأمراء السلجوقية إلى قتال الإفرنج ١٣٤٨

- ١٣٤٨ حصار الإفرنج مدينة صور
- ١٣٤٨ أخبار مودود مع الإفرنج ومقتله و وفاة صاحب أنطاكية .
- ١٣٤٩ أخبار البرسقي مع الإفرنج .
- ١٣٤٩ الحرب بين العساكر السلطانية والفرنج .
- ١٣٥٠ وفاة ملك الإفرنج وأخبارهم بعده مع المسلمين .
- ١٣٥٠ ارتجاع الرها من الإفرنج .
- ١٣٥٠ استيلاء الإفرنج على خرت برت وارتجاعها منهم .
- ١٣٥١ استيلاء الإفرنج على مدينة صور .
- ١٣٥١ فتح البرسقي كفر طاب وإنهزامه من الإفرنج .
- ١٣٥١ الحرب بين طغركين والإفرنج .
- ١٣٥٢ هزيمة صاحب طرابلس .
- ١٣٥٢ فتح صاحب دمشق بانياس .
- ١٣٥٢ استيلاء شمس الملوك على الشقيف .
- ١٣٥٢ استيلاء الإفرنج على جزيرة جربة من إفريقية .
- ١٣٥٢ فتح صاحب دمشق بعض حصون الإفرنج .
- ١٣٥٣ استيلاء الإفرنج على طرابلس الغرب .
- ١٣٥٣ استيلاء الإفرنج على المهدية .
- استيلاء الإفرنج على بونة و وفاة رجار صاحب صقلية
- ١٣٥٤ وملك ابنه غليالم .
- ١٣٥٤ استيلاء الإفرنج على عسقلان .
- ثورة المسلمين بسواحل إفريقية على الإفرنج المتغلبين
- ١٣٥٤ فيها .
- ١٣٥٥ ارتجاع عبد المؤمن المهدية من يد الإفرنج .
- ١٣٥٥ حصار الإفرنج أسد الدين شيركوه في بليس .
- ١٣٥٦ حصار الإفرنج القاهرة .
- ١٣٥٦ حصار الإفرنج دباط .
- ١٣٥٦ استيلاء الإفرنج على القسطنطينية .
- الخبر عن دولة بني أرتق وملكهم لماردين وديار بكر
- ١٣٥٧ ومبادئ أمورهم وتصاريح أحوالهم .
- ١٣٥٨ استيلاء سقمان بن أرتق على ماردین .
- وفاة سقمان بن أرتق وولاية أخيه أبي الغازي مكانه
- ١٣٥٨ بماردین .
- ١٣٥٩ ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا .
- ١٣٦٠ ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها .
- ١٣٦١ اضطراب أبي الغازي في طاعته وأسرته ثم خلاصه .
- ١٣٦٢ استيلاء أبي الغازي على حلب .
- ١٣٦٢ واقعة أبي الغازي مع الإفرنج .
- ١٣٦٣ انتفاض سليمان بن أبي الغازي مجلب .
- ١٣٦٣ واقعة مالك بن بهرام مع جوسكين صاحب الرها .
- ١٣٦٣ وفاة أبي الغازي وملك بنيه من بعده .
- ١٣٦٣ وفاة تمر تاش وولاية ابنه أبي بعده .
- ولاية حسام الدين بولق أرسلان بن أبي الغازي بن
- أبي
- ١٣٦٤ وفاة بولق وولاية أخيه أرتق .
- مقتل البقش واستبداد أرتق المنصور واتصال الملك في
- ١٣٦٤ عقبه .
- دولة بني زنكي بن أفسنقر الخبر عن دولة بني زنكي بن
- أفسنقر من موالى السلجوقية بالجزيرة والشام
- ١٣٦٥ ومبادئ أمورهم وتصاريح أحوالهم .
- ١٣٦٧ ولاية زنكي شحنة بغداد والعراق .
- ١٣٦٧ ولاية عماد الدين زنكي على الموصل وأعمالها .
- ١٣٦٧ استيلاء الأتابك زنكي على مدينة حلب .
- ١٣٦٨ استيلاء الأتابك زنكي على مدينة حماة .
- ١٣٦٨ فتح عماد الدين حصن الآتارب وهزيمة الإفرنج .
- ١٣٦٨ واقعة عماد الدين مع بني أرتق .
- ١٣٦٨ حصول ديبس بن صدقة في أسر الأتابك زنكي .
- مسير الأتابك زنكي إلى العراق لمظاهرة السلطان
- ١٣٦٩ مسعود وإنهزامه .
- ١٣٦٩ مسير الأتابك عماد الدين إلى بغداد بآبانه وإنهزامه .
- ١٣٦٩ واقعة الإفرنج على أهل حلب .
- ١٣٦٩ حصار المسترشد الموصل .
- ١٣٦٩ ارتجاع صاحب دمشق مدينة حماة .
- حصار الأتابك زنكي قلعة آسد واستيلاؤه على قلعة
- ١٣٧٠ النصور ثم حصار قلاع الحميدية .
- ١٣٧٠ استيلاء الأتابك على قلاع الهكارية وقلعة كواشي .
- ١٣٧١ حصار الأتابك زنكي مدينة دمشق .
- فتنة الراشد مع السلطان مسعود ومسيره إلى الموصل
- ١٣٧١ وخلعه .

وفادة شاور وزير العاضد بمصر على نور الدين العادل	١٣٧١
صريحاً وإنجاده بالعسكر مع أسد الدين شيركوه ... ١٣٨٠	
فتح نور الدين صافيتا وعزيمة وجعبر ١٣٨١	
رحلة زين الدين نائب الموصل إلى إربل واستبداد قطب	
الدين بملكه ١٣٨١	
حصار نور الدين قلعة الكرك ١٣٨١	
وفاة قطب الدين صاحب الموصل وملك ابنه سيف	
الدين غازي ١٣٨٢	
استيلاء نور الدين على الموصل وإقراره ابن أخيه سيف	
الدين عليها ١٣٨٢	
الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين ١٣٨٢	
واقعة ابن ليون ملك الأرمن بالروم ١٣٨٣	
مسير نور الدين إلى بلاد الروم ١٣٨٣	
مسير صلاح الدين إلى الكرك ورجوعه ١٣٨٣	
وفاة نور الدين محمود وولاية ابنه إسماعيل الصالح ١٣٨٣	
استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة ١٣٨٤	
حصار الإفرنج بانياس ١٣٨٤	
استيلاء صلاح الدين على دمشق ١٣٨٤	
استيلاء صلاح الدين على حصص وحماة ثم حصاره	
حلب ثم ملكه بعلبك ١٣٨٥	
حروب صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب	
الموصل وغلبه إياه واستيلائه على بغدادين وغيرها	
من أعمال الملك الصالح ثم مصالحته على حلب . ١٣٨٥	
عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين صاحب	
الموصل ورجوعه ١٣٨٦	
نكبة كمستكين الخادم ومقتله ١٣٨٦	
وفاة الصالح إسماعيل واستيلاء ابن عمه عز الدين	
مسعود على حلب ١٣٨٦	
استيلاء عماد الدين على حلب ونزوله عن سنجان	
لأخيه عز الدين ١٣٨٧	
مسير صلاح الدين إلى بلاد الجزيرة وحصاره الموصل	
واستيلاؤه على كثير من بلادها ثم على سنجان ... ١٣٨٧	
استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها ١٣٨٨	
نكبة مجاهد الدين قايماز ١٣٨٨	
غزاة عساكر حلب إلى الإفرنج ١٣٧١	
حصار الأتابك زنكي مدينة حمص واستيلاؤه على	
بغدادين وهزيمة الإفرنج واستيلاؤه على حمص ١٣٧١	
مسير الروم إلى الشام وملكهم مراغة ١٣٧٢	
استيلاء الأتابك زنكي على بعلبك ١٣٧٢	
حصار الأتابك زنكي مدينة دمشق ١٣٧٣	
استيلاء الأتابك على شهرزور وأعمالها ١٣٧٣	
صلح الأتابك مع السلطان مسعود واستيلاؤه على أكثر	
ديار بكر ١٣٧٣	
فتح الرها وغيرها من أعمال الإفرنج ١٣٧٤	
مقتل نصير الدين جقري نائب الموصل وولاية زين	
الدين علي كجك مكانه بالقلعة ١٣٧٤	
حصار زنكي حصن جعبر وفنك ١٣٧٤	
مقتل الأتابك عماد الدين زنكي ١٣٧٤	
استيلاء ابنه غازي على الموصل وابنه الآخر محمود على	
حلب ١٣٧٥	
عصيان الرها ١٣٧٥	
مصاهرة سيف الدين غازي لصاحب دمشق وهزيمة نور	
الدين محمود للإفرنج ١٣٧٥	
وفاة سيف الدين غازي وملك أخيه قطب الدين مودود. ١٣٧٦	
استيلاء السلطان محمود على سنجان ١٣٧٦	
غزو نور الدين إلى أنطاكية وقتل صاحبها وفتح أفاميا ... ١٣٧٦	
هزيمة نور الدين جوسكين وأسر جوسكين ١٣٧٧	
استيلاء نور الدين على دمشق ١٣٧٧	
استيلاء نور الدين على تل باشر وحصاره قلعة حارم ... ١٣٧٧	
استيلاء نور الدين على شيزر ١٣٧٧	
استيلاء نور الدين على بعلبك ١٣٧٨	
استيلاء أخيه نور الدين على حران ثم ارجاعها ١٣٧٨	
خبر سليمان شاه وحبه بالموصل ثم مسيره منها إلى	
السلطنة بهمدان ١٣٧٨	
حصار قلعة حارم وانهزام نور الدين أمام الإفرنج ثم	
هزيمتهم وفتحها ١٣٧٩	
فتح نور الدين قلعة بانياس ١٣٧٩	

حصار صلاح الدين الموصل وصلحه مع عز الدين	١٣٨٩	صلح الأشرف مع مظفر الدين	١٣٩٥
صاحبها	١٣٨٩	رجوع قلاع الهكارية والزوزان إلى طاعة صاحب	١٣٩٥
وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل وولاية أخيه	١٣٨٩	الموصل	١٣٩٥
مظفر الدين اقتهبي	١٣٨٩	استيلاء صاحب الموصل على قلعة سوس	١٣٩٥
حصار عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر	١٣٨٩	حصار مظفر الدين الموصل	١٣٩٥
مسير عز الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل	١٣٩٠	انتقاض أهل العمادية على لؤلؤ ثم استيلاؤه عليها	١٣٩٥
بالجزيرة ورجوعه عنها	١٣٩٠	مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى أعمال الموصل	١٣٩٦
وفاة عز الدين صاحب الموصل وولاية ابنه نور الدين	١٣٩٠	وعوده منها	١٣٩٦
وفاة عماد الدين صاحب سنجان وولاية ابنه قطب	١٣٩٠	مسير التتر في بلاد الموصل وإربل	١٣٩٦
الدين	١٣٩٠	وفاة مظفر الدين صاحب إربل وعودها إلى الخليفة	١٣٩٦
استيلاء نور الدين صاحب الموصل على نصيين	١٣٩٠	بقية أخبار لؤلؤ صاحب الموصل	١٣٩٦
هزيمة الكامل بن العادل على ماردين أمام نور الدين	١٣٩١	وفاة صاحب الموصل وولاية ابنه الصالح	١٣٩٧
صاحب الموصل وبني عمه ملوك الجزيرة	١٣٩١	الخبر عن دولة بني أيوب القائمين بالدولة العباسية وما	١٣٩٧
مسير نور الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل	١٣٩١	كان لهم من الملك بمصر والشام واليمن والمغرب	١٣٩٧
بالجزيرة	١٣٩١	وأولية ذلك ومصائره	١٣٩٧
هزيمة نور الدين صاحب الموصل أمام معسكر العادل	١٣٩١	مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر وإعادة شاور إلى	١٣٩٨
مقتل سنجان شاه صاحب جزيرة ابن عمر وولاية ابنه	١٣٩٢	وزارته	١٣٩٨
محمود بعده	١٣٩٢	مسير أسد الدين ثانياً إلى مصر وملكه الإسكندرية ثم	١٣٩٨
استيلاء العادل على الخابور ونصيين من أعمال	١٣٩٢	صلحه عليها وعوده	١٣٩٨
صاحب سنجان وحصاره إياه	١٣٩٢	استيلاء أسد الدين على مصر ومقتل شاور	١٤٠٠
وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية ابنه القاهرة	١٣٩٢	وفاة أسد الدين وولاية ابن أخيه صلاح الدين	١٤٠٠
وفاة القاهرة وولاية ابنه نور الدين أرسلان شاه في كفالة	١٣٩٣	واقعة السودان بمصر	١٤٠٠
بدر الدين لؤلؤ	١٣٩٣	منازلة الإفرنج دمياط وفتح إيلة	١٤٠٠
استيلاء عماد الدين صاحب عفر على قلاع الهكارية	١٣٩٣	الخطبة العباسية بمصر	١٤٠١
والزوزان	١٣٩٣	الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين	١٤٠١
مظاهرة الأشرف بن العادل للؤلؤ صاحب الموصل	١٣٩٣	وفاة نجم الدين أيوب	١٤٠٢
واقعة عساكر لؤلؤ بعماد الدين	١٣٩٣	استيلاء قراقوش على طرابلس الغرب	١٤٠٢
وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية أخيه ناصر	١٣٩٣	استيلاء نور الدين توران شاه بن أيوب على بلاد النوبة	١٤٠٢
الدين	١٣٩٣	ثم على بلاد اليمن	١٤٠٣
هزيمة لؤلؤ صاحب الموصل من مظفر الدين صاحب	١٣٩٤	واقعة عمارة ومقتله	١٤٠٣
إربل	١٣٩٤	وصول الإفرنج من صقلية إلى الإسكندرية	١٤٠٣
وفاة صاحب سنجان وولاية ابنه ثم مقتله وولاية أخيه	١٣٩٤	واقعة كنز الدولة بالصعيد	١٤٠٣
استيلاء عماد الدين على قلعة كواشي ولؤلؤ على تل	١٣٩٤	استيلاء صلاح الدين على قواعد الشام بعد وفاة	١٤٠٣
أعفر والأشرف على سنجان	١٣٩٤	العادل نور الدين	١٤٠٣

اتفاق القمص صاحب طرابلس مع صلاح الدين	واقعة صلاح الدين مع الملك الصالح وصاحب
ومتابعة البرنس صاحب الكرك له وحصاره إياه	الموصل وما ملك من الشام بعد انهزامهما ١٤٠٤
والإغارة على عكا ١٤١٣	مسير صلاح الدين إلى بلاد الإسماعيلية ١٤٠٥
هزيمة الإفرنج وفتح طبرية ثم عكا ١٤١٣	غزوات بين المسلمين والإفرنج ١٤٠٥
فتح يافا وصيدا وجبيل وبيروت وحصون عكا ١٤١٤	هزيمة صلاح الدين بالرملة أمام الإفرنج ١٤٠٥
وصول المركيش إلى صور وامتناعه بها ١٤١٤	حصار الإفرنج مدينة حماة ١٤٠٥
فتح عسقلان وما جاورها ١٤١٥	انتفاض ابن المقدم بعلبك وفتحها ١٤٠٦
فتح القدس ١٤١٥	وقائع مع الإفرنج ١٤٠٦
حصار صور ثم صفد وكوكب والكرك ١٤١٦	تخريب حصن الإفرنج ١٤٠٦
غزو صلاح الدين إلى سواحل الشام وما فتحه من	الفتنة بين صلاح الدين وقلج أرسلان صاحب الروم... ١٤٠٦
حصونها وصلحه آخرأ مع صاحب أنطاكية ١٤١٧	مسير صلاح الدين إلى بلاد ابن اليون ١٤٠٧
فتح جبلة ١٤١٧	غزوة صلاح الدين إلى الكرك ١٤٠٧
فتح اللاذقية ١٤١٧	مسير سيف الإسلام طغركين بن أيوب إلى اليمن والياً
فتح صهيون ١٤١٧	عليها ١٤٠٧
فتح بكاس والشغفر ١٤١٨	دخول قلعة البيرة في إيالة صلاح الدين وغزوه الإفرنج
فتح سرمين ١٤١٨	وفتح بعض حصونهم مثل الشقيف والغرر
فتح برزية ١٤١٨	وبيروت ١٤٠٨
فتح دريساك ١٤١٨	مسير صلاح الدين إلى الجزيرة واستيلاؤه على حران
فتح بغراس ١٤١٨	والرها والرقه والخابور ونصيبين وسنجار وحصار
صلح أنطاكية ١٤١٩	الموصل ١٤٠٨
فتح الكرك ١٤١٩	مسير شاهرين صاحب خلاط الدين لنجدة صاحب
فتح صفد ١٤١٩	الموصل ١٤٠٩
فتح كوكب ١٤١٩	واقعة الإفرنج في بحر السويس ١٤٠٩
فتح الشقيف ١٤١٩	وفاة فرخشاه ١٤١٠
محاصرة الإفرنج أهل صور لعكا والحروب عليها ١٤٢٠	استيلاء صلاح الدين على آمد وتسليمها لصاحب كيفا ١٤١٠
الواقعة على عكا ١٤٢٠	استيلاء صلاح الدين على تل خالدة وعتاب ١٤١٠
رحيل صلاح الدين عن الإفرنج بعكا ١٤٢١	استيلاء صلاح الدين على حلب وقلعة حارم ١٤١٠
معاودة صلاح الدين حصار الإفرنج على عكا ١٤٢١	غزوة بيسان ١٤١١
وصول ملك الألمان إلى الشام ومهلكه ١٤٢٢	غزو الكرك وولاية العادل على حلب ١٤١١
واقعة المسلمين مع الإفرنج على عكا ١٤٢٢	حصار صلاح الدين الموصل ١٤١١
وفاة زين الدين صاحب إربل وولاية أخيه كوكبري ١٤٢٣	استيلاء صلاح الدين على ميفارقين ١٤١٢
وصول إمداد الإفرنج من الغرب إلى عكا ١٤٢٣	قسمة صلاح الدين الأعمال بين ولده وأخيه ١٤١٣
استيلاء الإفرنج على عكا ١٤٢٤	
تخريب صلاح الدين عسقلان ١٤٢٤	

- ١٤٢٥ مقتل المركيش وملك الكندھري مكانه
- ١٤٢٦ مسير الإفرنج إلى القدس
- الصلح بين صلاح الدين والإفرنج ومسير ملك
- ١٤٢٦ انكلطرية إلى بلاده
- ١٤٢٧ وفاة صلاح الدين وحال ولده وأخيه من بعده
- مسير العزيز من مصر إلى حصار الأفضل بدمشق وما
- ١٤٢٧ استقر بينهم في الولايات
- ١٤٢٧ حصار العزيز ثانياً دمشق وهزيمته
- ١٤٢٨ استيلاء العادل على دمشق
- فتح العادل يافا من الإفرنج واستيلاء الإفرنج على
- ١٤٢٨ بيروت وحصارهم تبين
- وفاة طغتكين بن أيوب باليمن وملك ابنه إسماعيل ثم
- ١٤٢٩ سليمان بن تقي الدين شاهنشاه
- ١٤٢٩ مسير العادل إلى الجزيرة وحصاره ماردین
- ١٤٢٩ وفاة العزيز صاحب مصر وولاية أخيه الأفضل
- ١٤٣٠ حصار الأفضل دمشق وعودته عنها
- ١٤٣٠ إفراج الكامل عن ماردین
- ١٤٣٠ استيلاء العادل على مصر
- ١٤٣١ مسير الظاهر والأفضل إلى حصار دمشق
- ١٤٣١ حصار ماردین ثم الصلح بين العادل والأشرف
- ١٤٣٢ أخذ البلاد من يد الأفضل
- ١٤٣٢ واقعة الأشرف مع صاحب الموصل
- ١٤٣٢ وصول الإفرنج إلى الشام والصلح معهم
- ١٤٣٢ غارة ابن ليون على أعمال حلب
- ١٤٣٢ استيلاء نجم الدين بن العادل على خلاط
- ١٤٣٣ غارات الإفرنج بالشام
- ١٤٣٣ غارات الكرج على خلاط وأعمالها وملكهم أرجيش
- استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من عمل سنجان
- ١٤٣٣ وحصارها
- ١٤٣٤ وفاة الظاهر صاحب حلب وولاية ابنه العزيز
- ١٤٣٤ ولاية مسعود بن الكامل على اليمن
- وصول الإفرنج من وراء البحر إلى سواحل الشام
- ١٤٣٤ ومسيرهم إلى دمياط وحصارها واستيلائهم عليها
- ١٤٣٥ وفاة العادل واقتسام الملك بين بنيه
- ١٤٣٥ وفاة المنصوب صاحب حماة وولاية ابنه الناصر
- مسير صاحب بلاد الروم إلى حلب وإنهزامه ودخولها
- ١٤٣٦ في طاعة الأشرف
- ١٤٣٦ دخول الموصل في طاعة الأشرف وملكه سنجان
- ١٤٣٧ ارتجاع دمياط من يد الإفرنج
- وفاة الأوحّد نجم الدين بن العادل صاحب خلاط
- ١٤٣٨ وولاية أخيه الظاهر غازي عليها
- فتنة المعظم مع أخويه الكامل والأشرف وما دعت إليه
- ١٤٣٨ من الأحوال
- وفاة المعظم صاحب دمشق وولاية ابنه الناصر ثم
- ١٤٣٩ استيلاء الأشرف عليها واعتياض الناصر بالكرك
- ١٤٣٩ استيلاء المظفر بن المنصور على حماة من يد أخيه الناصر
- استيلاء الأشرف على بعلبك من يد الأجد وإقطاعها
- ١٤٣٩ لأخيه إسماعيل بن العادل
- فتنة جلال الدين خوارزم شاه مع الأشرف واستيلائه
- ١٤٣٩ على خلاط
- مسير الكامل في إخماد الأشرف وهزيمة جلال الدين أمام
- ١٤٤٠ الأشرف
- استيلاء العزيز صاحب حلب على شيزر ثم وفاته
- ١٤٤٠ وولاية ابنه الناصر بعده
- ١٤٤٠ فتنة كيقباد صاحب بلاد الروم واستيلائه على خلاط
- ١٤٤١ وفاة الأشرف بن العادل واستيلاء الكامل على ممالكة
- وفاة الكامل وولاية ابنه العادل بمصر واستيلاء ابنه
- ١٤٤١ الآخر نجم الدين أيوب على دمشق
- ١٤٤١ أخبار الخوارزمية
- ١٤٤١ مسير الصالح إلى مصر واعتقال الناصر له بالكرك
- ١٤٤١ وفاة شيركوه صاحب مصر وولاية ابنه إبراهيم المنصور
- خلع العادل واعتقاله واستيلاء أخيه الصالح أيوب على
- ١٤٤٢ مصر
- ١٤٤٢ فتنة الخوارزمية
- ١٤٤٢ أخبار حلب
- فتنة الصالح أيوب مع عمه الصالح إسماعيل على
- ١٤٤٢ دمشق واستيلاء أيوب آخرها عليها

- ١٤٥٣ نهوض البحرية بالمغيث صاحب الكرك وانهزامهم
- ١٤٥٣ خلع المنصور علي بن أليك واستبداد قطز بالملك
- استيلاء التتر على الشام وانقراض أمر بني أيوب ثم
- مسير قطز بالعاكر وارتجاعه الشام من أيدي التتر
- ١٤٥٤ وهزيمتهم وحصول الشام في ملك الترك
- ١٤٥٤ مقتل المظفر وولاية الظاهر بيبرس
- ١٤٥٥ انتقاض سنجار الحلي بدمشق ثم أقوش البرلي بحلب
- البيعة للخليفة بمصر ثم مقتله بالحديثة وغانة على يد
- التتر والبيعة للآخر الذي استقرت الخلافة في عقبه
- ١٤٥٥ بمصر
- ١٤٥٦ فرار التركمان من الشام إلى بلاد الروم
- ١٤٥٦ انتقاض الأشرقية والعززية واستيلاء البرلي على البيرة
- استيلاء الظاهر على الكرك من يد المغيث وعلى حمص
- بعد وفاة صاحباها
- ١٤٥٧ هزيمة التتر على البيرة وفتح قيسارية وأرسوف بعدها
- ١٤٥٧ غزو طرابلس وفتح صفد
- ١٤٥٨ مسير العساكر لغزو الأرمن
- مسير الظاهر لغزو حصون الإفرنج بالشام وفتح يافا
- ١٤٥٨ والشقيف ثم أنطاكية
- ١٤٥٩ الصلح مع التتر
- ١٤٥٩ استيلاء الظاهر على صهيون
- ١٤٥٩ نهوض الظاهر إلى الحج
- إغارة الإفرنج والتتر على حلب ونهوض السلطان
- ١٤٦٠ إليهم
- ١٤٦٠ فتح حصن الأكراد وعكا وحصون صور
- ١٤٦٠ استيلاء الظاهر على حصون الإسماعيلية بالشام
- ١٤٦٠ حصار التتر البيرة وهزيمتهم عليها
- ١٤٦١ غزوة سيس وتحريرها
- إيقاع الظاهر بالتتر في بلاد الروم ومقتل البرواناة
- ١٤٦١ بمدخلته في ذلك
- ١٤٦١ وفاة الظاهر وولاية ابنه السعيد
- ١٤٦٢ خلع السعيد وولاية أخيه شلامس
- ١٤٦٢ خلع شلامش وولاية المنصور قلاوون
- ١٤٤٣ حمص وما كان مع ذلك من الأحداث
- ١٤٤٣ استيلاء الإفرنج على دمياط
- ١٤٤٣ استيلاء الصالح على الكرك
- وفاة الصالح أيوب صاحب مصر والشام ومسيد ملوك
- الترك بمصر وولاية ابنه تورانشاه وهزيمة الإفرنج
- ١٤٤٤ وأسر ملكهم
- مقتل المعظم تورانشاه وولاية شجرة الدر وفداء
- ١٤٤٤ الفرنسيين بدمياط
- استيلاء الناصر صاحب حلب على دمشق وبيعة الترك
- بمصر لموسى الأشرف بن أطرش بن المسعود
- ١٤٤٥ صاحب اليمن وتراجعها ثم صلحهما
- خلع الأشرف بن أطرش واستبداد أليك وأمراء الترك
- بمصر
- ١٤٤٥ مسير المغيث بن العادل صاحب الكرك مع البحرية إلى
- مصر وانهزامهم
- ١٤٤٦ زحف الناصر صاحب دمشق إلى الكرك وحصارها
- والقبض على البحرية
- ١٤٤٦ استيلاء التتر على الشام وانقراض ملك بني أيوب
- وهلاك من هلك منهم
- ١٤٤٦ دولة الترك
- ١٤٤٨ الخبر عن دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر
- والشام من بعد بني أيوب ولهذا العهد ومبادي
- أموارهم وتصاريق أحوالهم
- ١٤٤٨ ذكر بيبرس البندقداري
- ١٤٤٩ الخبر عن استبداد الترك بمصر وانقراضهم بها عن بني
- أيوب ودولة المعز أليك أول ملوكهم
- ١٤٥٠ نهوض الناصر صاحب دمشق من بني أيوب إلى مصر
- وولاية الأشرف موسى مكان أليك
- ١٤٥١ واقعة العرب بالصعيد مع أقطاي
- ١٤٥١ مقتل أقطاي الجامدار وفرار البحرية إلى الناصر ورجوع
- أليك إلى كروسيه
- ١٤٥٢ فرار الأفرم إلى الناصر بدمشق
- ١٤٥٢ مقتل المعز أليك وولاية ابنه علي المنصور

انتفاض السعيد بن الظاهر بالكرك ووفاته وولاية أخيه	١٤٦٣
خسرو مكانه	١٤٦٣
انتفاض سنقر الأشقر بدمشق هزيمته ثم امتناعه بصهيون	١٤٦٣
مسير السلطان لخصار المرقب ثم الصلح معهم ومع	١٤٦٤
سنقر الأشقر بصهيون ومع بني الظاهر بالكرك	١٤٦٤
واقعة التتر بمحمص ومهلك ابغا سلطانهم بإثرها	١٤٦٤
استيلاء السلطان قلاوون على الكرك وعلى صهيون	١٤٦٥
وفاة صاحب حماة	١٤٦٥
وفاة ميخائيل ملك القسطنطينية	١٤٦٥
أخبار النوبة	١٤٦٦
فتح طرابلس	١٤٦٦
إنشاء المدرسة والمارستان بمصر	١٤٦٧
وفاة المنصور قلاوون وولاية ابنه خليل الأشرف	١٤٦٧
فتح عكا وتخريبها	١٤٦٨
فتح قلعة الروم	١٤٦٨
مسير السلطان إلى الشام وصلح الأرمن ومكثه في	١٤٦٨
مصيف وهدم الشوبك	١٤٦٨
مقتل الأشرف وولاية أخيه محمد الناصر في كفالة كتبغا	١٤٦٩
وحشة كتبغا ومقتل الشجاعى	١٤٦٩
خلع الناصر وولاية كتبغا العادل	١٤٧٠
خلع العادل كتبغا وولاية لاشين المنصور	١٤٧٠
فتح حصون سيس	١٤٧١
مقتل لاشين وعود الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه	١٤٧٢
الفتنه مع التتر	١٤٧٢
واقعة التتر على الناصر واستيلاء غازان على الشام ثم	١٤٧٣
ارتجاعه منه	١٤٧٣
وفاة الخليفة الحاكم وولاية ابنه المستكفي والغزاة إلى	١٤٧٤
العرب بالصعيد	١٤٧٤
تقرير العهد لأهل الذمة	١٤٧٤
إيقاع الناصر بالتتر على شقحب	١٤٧٥
أخبار الأرمن وغزو بلادهم وادعائهم الصلح ثم مقتل	١٤٧٦
ملكهم صاحب سيس على يد التتر	١٤٧٦
مراسلة ملك المغرب ومهاداته	١٤٧٧
وحشة الناصر من كافليه يبرس وسلاز ولحاقه بالكرك	١٤٧٨
وخلعه والبيعة لبيبرس	١٤٧٨
انتفاض الأمير يبرس وعود الناصر إلى ملكه	١٤٧٨
خير سلاز ومآل أمره	١٤٧٩
انتفاض التواب بالشام ومسيرهم إلى التتر وولاية تنكز	١٤٧٩
على الشام	١٤٧٩
رجوع حماة إلى بني مظفر شاهنشاه بن أيوب ثم لبني	١٤٨٠
الأفضل منهم وانقراض أمرهم	١٤٨٠
غزو العرب بالصعيد وفتح ملطية وآمد	١٤٨١
الولايات	١٤٨١
العمائر	١٤٨١
حججات السلطان	١٤٨١
أخبار النوبة وإسلامهم	١٤٨٢
بقية أخبار الأرمن إلى الفتح إياس ثم فتح سيس	١٤٨٢
وانقراض أمرهم	١٤٨٢
الصلح مع ملوك التتر وصهر الناصر مع ملوك الشمال	١٤٨٣
منهم	١٤٨٣
مقتل أولاد بني غمى أمراء مكة من بني حسن	١٤٨٤
حج ملك التكرور	١٤٨٤
أنجاد المجاهد ملك اليمن	١٤٨٥
ولاية أحمد ابن الملك الناصر على الكرك	١٤٨٥
وفاة مرداش بن جويان شحنة بلاد الروم ومقتله	١٤٨٥
وفاة مهنا بن عيسى أمير العرب بالشام وأخبار قومه	١٤٨٦
وفاة أبي سعيد ملك العراق وانقراض أمر بني هلاكو	١٤٨٨
وصول هدية ملك المغرب الأقصى مع رسله وكريمته	١٤٨٨
صحبة الحاج	١٤٨٨
وفاة الخليفة أبي الربيع وولاية ابنه	١٤٨٩
نكية تنكز ومقتله	١٤٨٩
وفاة الملك الناصر وابنه أنوك قبله وولاية ابنه أبي بكر	١٤٩٠
ثم كجك	١٤٩٠
مقتل قوصون ودولة أحمد بن الملك الناصر	١٤٩٠
مسير السلطان أحمد إلى الكرك واتفاق الأمراء على	١٤٩١
خلعه والبيعة لأخيه الصالح	١٤٩١

- ثورة رمضان بن الناصر ومقتله وحصار الكرك ومقتل
السلطان أحمد ١٤٩١
- وفاة الصالح بن الناصر وولاية أخيه الكامل ١٤٩١
- مقتل الكامل وبيعة أخيه المظفر حاجي ١٤٩١
- مقتل المظفر حاجي بن الناصر وبيعة أخيه حسن الناصر
ودولته الأولى ١٤٩٢
- مقتل أرغون شاه نائب دمشق ١٤٩٢
- نكبة بيقاروس ١٤٩٣
- واقعة الظاهر ملك اليمن بمكة واعتقاله ثم إطلاقه ١٤٩٣
- خلع حسن الناصر وولاية أخيه الصالح ١٤٩٣
- انتقاض بيقاروس واستيلاؤه على الشام ومسير
السلطان إليه ومقتله ١٤٩٣
- واقعة العرب بالصعيد ١٤٩٤
- خلع الصالح وولاية حسن الناصر الثانية ١٤٩٤
- مهلك شيخو ثم سرغتمش بعده واستبداد السلطان
بأمه ١٤٩٤
- ثورة بيبقا ومقتل السلطان حسن وولاية منصور ابن
المعظم حاجي في كفالة بيبقا ١٤٩٥
- انتقاض استدمر بدمشق ١٤٩٥
- وفاة الخليفة المعتضد بن المستوفي وولاية ابنه المتوكل ... ١٤٩٥
- خلع المنصور وولاية الأشرف ١٤٩٦
- واقعة الإسكندرية ١٤٩٦
- ثورة الطويل ونكبته ١٤٩٧
- ثورة المماليك بيبقا ومقتله واستبداد استدمر ١٤٩٧
- واقعة الاجلاب ثم نكبته ومهلك استدمر وذهاب
دولته ١٤٩٨
- مقتل قشتمر المنصوري بجلب في واقعة العرب ١٤٩٩
- استبداد الجاني اليوسفي ثم انتقاضه ومقتله ١٤٩٩
- انتقاض الجاني اليوسفي ومهلكه واستبداد الأشرف
بملكه من بعده ١٤٩٩
- استقدام منجك للنيابة ١٥٠٠
- الخبر عن ممالك بيبقا وترشيحهم في الدولة ١٥٠٠
- حج السلطان الأشرف وانتقاض المماليك عليه بالعقبة
وما كان مع ذلك من ثورة قرطاي بالقاهرة وبيعة
الأمير علي ولي العهد ومقتل السلطان إثر ذلك ... ١٥٠١
- مجيء طشتمر من العقبة وانتهزاه ثم مسيره إلى الشام
وتجديد البيعة للمنصور بإذن الخليفة وتقديمه ١٥٠٢
- نكبة قرطاي واستقلال أليك بالدولة ثم مهلكه ١٥٠٢
- استبداد الأميرين أبي سعيد برقوق وبركة بالدولة من
بعد أليك ووصول طشتمر من الشام وقيامه
بالدولة ثم نكبته ١٥٠٣
- ثورة أنيال ونكبته ١٥٠٤
- ثورة بركة ونكبته واستقلال الأمير برقوق بالدولة ١٥٠٤
- انتقاض أهل البحيرة وواقعة العساكر ١٥٠٥
- مقتل بركة في محبسه وقتل ابن عزام بشاره ١٥٠٥
- وفاة السلطان المنصور علي بن الأشرف وولاية الصالح
أمير حاج ١٥٠٦
- وصول أنس الغساني والد الأمير برقوق وانتظامه في
الأمر ١٥٠٦
- خلع الصالح أمير حاج وجلوس برقوق على التخت
واستبداده بالسلطان ١٥٠٧
- مقتل قرط وخلع الخليفة ونصب ابن عمه الوائق
للخلافة ١٥٠٧
- نكبة الناصري واعتقاله ١٥٠٨
- إقصاء الجوباني إلى الكرك ثم ولايته على الشام بعد
واقعة بندمر ١٥٠٨
- هدية صاحب إفريقية ١٥١٠
- حوادث مكة وأمرائها ١٥١١
- انتقاض منطاش بملطية ولحاقه بسيواس ومسير العساكر
في طلبه ١٥١١
- نكبة الجوباني واعتقاله بالإسكندرية ١٥١٢
- فتنة الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال
السلطان بالكرك ١٥١٣
- ثورة منطاش واستيلاؤه على الأمر ونكبة الجوباني
وحبس الناصري والأمراء البيقاوية بالإسكندرية .. ١٥١٤
- ثورة بدلار بدمشق ١٥١٥

- خروج السلطان من الكرك وظفره بعساكر الشام
 ١٥١٥ وحصاره دمشق
- ثورة المعتقلين بقوص ومسير العساكر اليهم واعتقالهم... ١٥١٦
 ثورة كمشيقا بحلب وقيامه بدعوة السلطان..... ١٥١٦
 ثورة أنبال بصفد بدعوة السلطان..... ١٥١٧
 مسير منطاش وسلطانه أمير حاجي إلى الشام وانهزامهم
 ودخول منطاش إلى دمشق وظفر السلطان الظاهر
 بأمير حاجي والخليفة والقضاة وعوده للملكه ١٥١٧
 ثورة بكا والمعتقلين بالقلعة واستيلاؤهم عليها بدعوة
 السلطان الظاهر وعوده إلى كرسيه بمصر وانتظام
 أمره ١٥١٨
 ولاية الجوباني على دمشق واستيلاؤه عليها من يد
 منطاش ثم هزيمته ومقتله وولاية الناصري مكانه .. ١٥١٩
 إعادة محمود إلى أستاذية الدار واستقلاله في الدولة ١٥٢٠
 مسير منطاش ويعبر إلى نواحي حلب وحصارها ثم
 مفارقة يعبر وحصاره عنتاب ثم رجوعه ١٥٢٠
 قدوم كمشيقا من حلب ١٥٢١
 استقدام أيتمش ١٥٢١
 هدية أفريقية ١٥٢٢
 حصار منطاش دمشق ومسير السلطان من مصر إليه
 وفراره ومقتل الناصري..... ١٥٢٢
 مقتل منطاش ١٥٢٣
 حوادث مكة ١٥٢٤
 وصول أحياء من التتر وسلطانهم إلى صاحب بغداد
 واستيلاؤه عليها ومسير السلطان بالعساكر إليه.... ١٥٢٥
 الخبر عن دولة بني رسول مولى بني أيوب الملوك باليمن
 بعدهم ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم ١٥٢٦
 ثورة جلال الدين بن عمر الأشرف وحبيه ١٥٢٧
 ثورة جلال الدين ثانياً وحبس المجاهد وبيعة المنصور
 أيوب بن المظفر يوسف ١٥٢٧
 خلع المنصور أيوب ومقتله وعود المجاهد إلى ملكه
 ومنازعة الظاهر بن المنصور أيوب له ١٥٢٧
 وصول العساكر من مصر مدداً للمجاهد واستيلاؤه
 على أمره وصلحه مع الظاهر..... ١٥٢٨
- نزول الظاهر للمجاهد عن الدمولة ومقتله..... ١٥٢٨
 حج المجاهد علي بن المؤيد داود وواقعه مع أمراء مصر
 واعتقاله بالكرك ثم إطلاقه ورجوعه إلى ملكه ١٥٢٨
 ولاية الأفضل عباس بن المجاهد علي ١٥٢٨
 ولاية المنصور محمد بن الأفضل عباس ١٥٢٩
 ولاية أخيه الأشرف بن الأفضل عباس ١٥٢٩
 الخبر عن دولة التتر من شعوب الترك وكيف تغلبوا
 على الممالك الإسلامية وانتزوا على كرسي
 الخلافة ببغداد وما كان لهم من الدول المفترقة
 وكيف أسلموا بعد ذلك ومبدأ أمورهم
 وتصاريف أحوالهم ١٥٢٩
 استيلاء التتر على ممالك خوارزم شاه فيما وراء النهر
 وخراسان ومهلك خوارزم شاه وتولية محمد بن
 تكش ١٥٣٠
 مسير التتر المغربة بعد خوارزم شاه إلى العراق
 وأذربيجان واستيلاؤهم عليها إلى بلاد قفقاق
 والروس وبلاد الخزر..... ١٥٣١
 مسير جنكزخان إلى خراسان وتغلبه على أعمالها وعلى
 خوارزم شاه..... ١٥٣٢
 إجنفال جلال الدين ومسير التتر في اتباعه وفراره إلى
 الهند ١٥٣٢
 أخبار غياث الدين بن خوارزم شاه مع التتر ١٥٣٣
 رجوع جلال الدين من الهند واستيلاؤه على العراق
 وكرمان وأذربيجان ثم زحف التتر إليه ١٥٣٣
 مسير التتر إلى أذربيجان واستيلاؤهم على تبريز ثم
 واقعتهم على جلال الدين بآمد ومقتله ١٥٣٣
 التعريف بجنكزخان وقسمة الأعمال بين ولده وانفراده
 بالكرسي في قراقوم وبلاد الصين ١٥٣٤
 ملوك التخت بقراقوم من بعد جنكزخان ١٥٣٦
 ملوك بني جغتاي بن جنكزخان بتركستان وكاشغر وما
 وراء النهر..... ١٥٣٧
 الخبر عن ملوك بني دوشي خان من التتر ملوك خوارزم
 ودست القفقاق ومبادئ أمروهم وتصاريف
 أحوالهم ١٥٣٨

- دوشي خان بن جنكزخان ١٥٣٨
- ناظو خان بن دوشي خان ١٥٣٨
- طرطو بن دوشي خان ١٥٣٨
- منكوتمر بن طغان بن ناظو خان ١٥٣٩
- أزيك بن طغرلجاي بن منكوتمر ١٥٤٠
- برديك بن جاني ١٥٤٠
- ماماي المتغلب على مملكة هراي ١٥٤١
- حروب السلطان تمر مع طغتمش صاحب صراي ١٥٤١
- ملوك غزنة وباميان من بني دوشي خان ١٥٤٢
- دولة بني هلاكو ملوك التتر كفور بن وخراسان ومبادي ١٥٤٢
- أمورهم وتصاريف أحوالهم ١٥٤٢
- هلاكو بن طولي ١٥٤٢
- أبغا بن هلاكو ١٥٤٤
- تكدار بن هلاكو ويسمى أحمد ١٥٤٤
- أرغو بن أبغا ١٥٤٥
- كتختو بن أبغا ١٥٤٥
- بيدو بن طرغاي بن هلاكو ١٥٤٥
- قازن بن أرغو ١٥٤٥
- خريندا بن أرغو ١٥٤٦
- أبو سعيد بن خريندا ١٥٤٦
- اضطراب دولة بني هلاكو وانقسام الملك طوائف في ١٥٤٧
- أعمالهم وانفراد الشيخ حسن ببغداد واستيلاء بنيه ١٥٤٨
- معها على توريز وما كان لهم فيها من الملك ١٥٤٨
- والدولة وابتدائها ومصايرها ١٥٤٨
- أويس بن الشيخ حسن ١٥٤٨
- مقتل إسماعيل واستيلاء حسين على بغداد ثم ارتجاعها ١٥٤٨
- منه ١٥٤٨
- انتفاض أحمد واستيلاءه على توريز ومقتل حسين ١٥٤٨
- انتفاض عادل ومسيره لقتال أحمد ١٥٤٨
- مقتل الشيخ علي واستيلاء أحمد على بغداد ١٥٤٩
- استيلاء تمر على بغداد ولحاق أحمد بالشام ١٥٤٩
- الخبر عن بني المظفر اليزيدي المتغلبين على أصفهان ١٥٥٠
- وفارس بعد انقراض دولة بني هلاكو وابتداء ١٥٥٠
- أمورهم ومصايرها ١٥٥٠
- الخبر عن بني ارتنا ملوك بلاد الروم من المغل بعد بني ١٥٥١
- هلاكو والإمام مبادي أمورهم ومصايرهم ١٥٥١
- الخبر عن الدولة المستجدة للترکمان في شمال بلاد ١٥٥٣
- الروم إلى خليج القسطنطينية وما وراءه لبني ١٥٥٣
- عثمان وإخوته ١٥٥٣
- الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجليل ١٥٥٥
- الناشئ لهذا العهد من بقية أهل الدولة الإسلامية ١٥٥٥
- من العرب ١٥٥٥
- خبر آل فضل وبني مهنا منهم ودولتهم بالشام والعراق ١٥٥٧
- الخبر عن دخول العرب من بني هلال وسليم المغرب ١٥٦٠
- من الطبقة الرابعة وأخبارهم هنالك ١٥٦٠
- الخبر عن الأثيج ويطونهم من هلال بن عامر من هذه ١٥٦٥
- الطبقة الرابعة ١٥٦٥
- الخبر عن جشم الموطنين بسائط المغرب ويطونهم من ١٥٦٨
- هذه الطبقة ١٥٦٨
- الخلط من جشم ١٥٦٩
- بنو جابر بن جشم ١٥٧٠
- العاصم ومقدم من الأثيج ١٥٧٠
- الخبر عن رياح ويطونهم من هلال بن عامر من هذه ١٥٧٠
- الطبقة الرابعة ١٥٧٠
- الخبر عن سعادة القائم بالسنة في رياح ومآل أمره ١٥٧٣
- وتصاريف أحواله ١٥٧٣
- الخبر عن زغبة ويطونهم من هلال بن عامر من هذه ١٥٧٥
- الطبقة الرابعة ١٥٧٥
- بنو يزيد بن زغبة ١٥٧٥
- حصين بن زغبة ١٥٧٦
- بنو مالك بن زغبة ١٥٧٧
- بنو عامر بن زغبة ١٥٧٩
- عروة بن زغبة ١٥٨٢
- الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة وأنسابهم ١٥٨٢
- وتصاريف أحوالهم ١٥٨٢
- ذوو عبيد الله ١٥٨٣
- الثعالبة ١٥٨٤
- ذوو منصور ١٥٨٥

١٦١٩	زواغة	١٥٨٦	ذوو حسان عرب السوس
	الخبر عن مكناسة وسائر بطون بني ورصطف وما كان		الخبر عن بني سليم بن منصور من هذه الطبقة الرابعة
١٦١٩	مكناسة من الدول بالمغرب وأولية ذلك وتصاريقه		وتعديد بطونهم وذكر أنسابهم وأولية أمرهم
	الخبر عن دولة بني واسول ملوك سجلماسة وأعمالها	١٥٨٧	وتصاريق أحوالهم
١٦١٩	من مكناسة		الخبر عن قاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنة في
	الخبر عن دولة بني أبي العافية ملوك تسول من مكناسة	١٥٩٢	سليم ومآل أمره وتصاريق أحواله
١٦٢١	وأولية أمرهم وتصاريق أحوالهم	١٥٩٢	بنو حصن بن علاق
١٦٢٣	أخبار البرانس من البربر	١٥٩٣	ذباب بن سليم
	الخبر عن أزداجة ومسطاسه وعجيسة من بطون		الكتاب الثالث: في أخبار البربر والأمة الثانية من أهل
١٦٢٥	البرانس ووصف أحوالهم		المغرب وذكر أوليتهم وأجيالهم ودولتهم منذ بدء
	الخبر عن أوربة من بطون البرانس وما كان لهم من		الخليقة لهذا العهد ونقل الخلاف الواقع بين الناس
	الردة والثورة وما صار لهم من الدعاء لإدريس	١٥٩٧	في أنسابهم
١٦٢٦	الأكبر		الفصل الأول:
	الخبر عن كتامة من بطون البرانس وما كان لهم من العز		الفصل الثاني: في ذكر مواطن هؤلاء البربر بإفريقية
	والظهور على القبائل وكيف تناولوا الملك من	١٦٠١	والمغرب
١٦٢٧	أيدي الأغلبة بدعوة الشيعة		الفصل الثالث: في ذكر ما كان لهذا الجيل قديماً وحديثاً
	الخبر عن سدويكش ومن إليهم من بقايا كتامة في		من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة الراقية
١٦٢٨	مواطنهم	١٦٠٤	بهم إلى مراقي العز ومعارج السلطان والملك
	الخبر عن بني ثابت أهل الجبل المطل على قسطنطينة من		الفصل الرابع: في ذكر أخبارهم على الجملة من قبل
١٦٢٩	بقايا كتامة	١٦٠٦	الفتح الإسلامي ومن بعده إلى ولاية بني الأغلب
١٦٢٩	الإلام بذكر زواوة من بطون كتامة		الخبر عن البرابرة البتر وشعوبهم ونبدأ منهم أولاً بذكر
	الخبر عن صنهاجة من بطون البرانس وما كان لهم من	١٦١٠	نفوسة وتصاريق أحوالهم
١٦٢٩	الظهور والدول في بلاد المغرب والأندلس	١٦١٠	الخبر عن نفزاوة ويطونهم وتصاريق أحوالهم
١٦٣٠	الطبقة الأولى من صنهاجة وما كان لهم من الملك	١٦١١	الخبر عن لواتة من البرابرة البتر وتصاريق أحوالهم
	الخبر عن دولة آل زيري بن مناد ولاية العبيديين من		الخبر عن بني فاتن من ضريسة إحدى بطون البرابرة
	هذه الطبقة بإفريقية وأولية أمرهم وتصاريق	١٦١٣	البتر وتصاريق أحوالهم
١٦٣١	أحوالهم	١٦١٤	لماية
١٦٣١	دولة بلكين بن زيري	١٦١٥	مطماطة
١٦٣٢	دولة منصور بن بلكين	١٦١٦	مغيلة
١٦٣٢	دولة باديس بن المنصور	١٦١٦	مدبونة
١٦٣٣	دولة المعز بن باديس	١٦١٧	كومية
١٦٣٤	دولة تميم بن المعز		الخبر عن زواوة وزواغة من بطون ضريسة من البرابر
١٦٣٤	دولة يحيى بن تميم	١٦١٨	البتر والإلام ببعض أحوالهم
١٦٣٤	دولة علي بن يحيى	١٦١٨	زواوة

- دولة الحسن بن علي..... ١٦٣٥
- الخبر عن بني خراسان من صنهاجة الثوار بتونس على
- آل باديس عند اضطراب أفريقية بالعرب ومبدأ
- أمرهم ومصاير أحوالهم ١٦٣٥
- الخبر عن بني الرند ملوك قصصه اللاترين بها عند التيات
- ملك آل باديس بالقيروان واضطرابه بفتنة العرب
- ومبدأ دولتهم ومصاير أمورهم..... ١٦٣٦
- الخبر عن بني جامع الهلاليين أمراء قابس لمهد
- الصنهاجيين وما كان لتمييم بها من الملك والدولة
- وذلك عند فتنة العرب بأفريقية ١٦٣٧
- الخبر عن ثورة رافع بن مكن بن مطروح بطرابلس
- والفرياني بصفاقس على النصاري وإخراجهم
- واستبدادهم بأمر بلدهم في آخر دولة بني باديس .. ١٦٣٨
- الخبر عما كان بأفريقية من الثوار على صنهاجة عند
- اضطرابها بفتنة العرب إلى أن عا أثرهم الموحدون . ١٦٣٨
- الخبر عن دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة
- الداعية لخلافة العبيديين وما كان لهم من الملك
- والسلطان بأفريقية والمغرب الأوسط إلى حين
- انقراضه بالموحدين..... ١٦٣٩
- ملوك بني حبوس الخبر عن ملوك بني حبوس بن
- ماكسن من بني زيري من صنهاجة بغرناطة من
- عدوة الأندلس وأولية ذلك ومصايره ١٦٤٣
- الطبقة الثانية من صنهاجة وهم المثلثون وما كان لهم
- بالمغرب من الملك والدولة ١٦٤٤
- الخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم
- بالعدوتين من الملك وأولية ذلك ومصايره ١٦٤٥
- الخبر عن دولة ابن غانية من بقية المرابطين وما كان له
- من الملك والسلطان بناحية قابس وطرابلس
- وإجلابه على الموحدين ومظاهرة قراقش الغزي
- له على أمره وأولية ذلك ومصايره ١٦٤٩
- رجع الخبر إلى ابن غانية ١٦٥١
- الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء
- هؤلاء المثلثين ووصف أحوالهم والإلام بما اتصل
- بنا من دولتهم ١٦٥٤
- الخبر عن لمطة وكزولة وهسكورة بني تصكي وهم إخوة
- هواره وصنهاجة ١٦٥٧
- الطبقة الثالثة من صنهاجة ١٦٥٨
- الخبر عن المصامدة من قبائل البربر وما كان لهم من
- الدولة والسلطان بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريه .. ١٦٥٩
- الخبر عن برغواطة من بطون المصامدة ودولتهم ومبدأ
- أمرهم وتصاريه أحوالهم ١٦٥٩
- الخبر عن غمارة من بطون المصامدة وما كان فيهم من
- الدول وتصاريه أحوالهم..... ١٦٦١
- الخبر عن سبتة ودولة بني عصام بها ١٦٦١
- الخبر عن بني صالح بن منصور ملوك نكور ودولتهم في
- غمارة وتصاريه أحوالهم..... ١٦٦٢
- الخبر عن حاميم المتني من غمارة ١٦٦٣
- الخبر عن دولة الأدارسة في غمارة وتصاريه أحوالهم .. ١٦٦٤
- الخبر عن دولة بني حمود ومواليهم بسبتة وطنجة
- وتصاريه أحوالهم وأحوال غمارة من بعدهم ١٦٦٦
- الخبر عن أهل جبال درن بالمغرب الأقصى من بطون
- المصامدة وما كان لهم من الظهور والأحوال
- ومبادئ أمورهم وتصاريها ١٦٦٧
- الخبر عن مبدأ أمر المهدي ودعوته وما كان للموحدين
- القائمين بها على يد بني عبد المؤمن من السلطان
- والدولة بالعدوتين وإفريقية وبداية ذلك وتصاريه. ١٦٦٨
- الخبر عن دولة عبد المؤمن خليفة المهدي والخلفاء
- الأربعة من بيته ووصف أحوالهم ومصائر أمورهم ١٦٧٠
- فتح الأندلس وشؤونها..... ١٦٧٢
- فتح أفريقية وشؤونها ١٦٧٤
- بقية فتح الأندلس ١٦٧٤
- بقية فتح أفريقية ١٦٧٤
- أخبار ابن مردنيش اللاتر بشرق الأندلس ١٦٧٥
- دولة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ١٦٧٥
- فتنة غمارة ١٦٧٦
- أخبار الأندلس ١٦٧٦
- الخبر عن انتقاض قصصه واسترجاعها ١٦٧٧
- معاودة الجهاد ١٦٧٧

- دولة ابنه يعقوب المنصور ١٦٧٧
- الخبر عن شأن ابن غانية ١٦٧٧
- أخباره في الجهاد ١٦٧٩
- الخبر عن وصول ابن منقذ بالهدية من قبل صاحب
الديار المصرية ١٦٨٠
- دولة الناصر بن المنصور ١٦٨٠
- فتح ميروقة ١٦٨٠
- خبر إفريقية وتغلب ابن غانية عليها ولاية أبي محمد بن
أبي الشيخ أبي حفص ١٦٨١
- أخباره في الجهاد ١٦٨٢
- ثورة ابن الفرس ١٦٨٢
- دولة المستنصر بن الناصر ١٦٨٢
- الخبر عن دولة المخلوع أخي المنصور ١٦٨٣
- الخبر عن دولة العادل بن المنصور ١٦٨٣
- الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن
الناصر له ١٦٨٤
- الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون ١٦٨٤
- الخبر عن دولة السعيد بن المأمون ١٦٨٦
- الخبر عن دولة المرتضى ابن أخي المنصور ١٦٨٧
- الخبر عن انتفاض أبي دبوس وتغلبه على مراكش
ومهلك المرتضى وما كان في دولته من الأحداث .. ١٦٨٨
- الخبر عن هسكورة ١٦٩٠
- الخبر عن بقايا قبائل الموحدين من المصامدة بجبال درن
بعد انقراض دولتهم بمراكش وتصاريق أحوالهم
لهذا العهد ١٦٩٢
- هرغة ١٦٩٢
- تينملل ١٦٩٢
- هنتاة ١٦٩٢
- كدمية ١٦٩٤
- وريكة ١٦٩٤
- الخبر عن بني يدر أمراء السوس من الموحدين بعد
انقراض بني عبد المؤمن وتصاريق أحوالهم ١٦٩٥
- الخبر عن دولة بني أبي حفص ملوك إفريقية من
الموحدين ومبدأ أمرهم وتصاريق أحوالهم ١٦٩٦
- الخبر عن إمارة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص
بإفريقية وهي أولية أمرهم بها ١٦٩٧
- وقية تاهرت وما كان من أبي محمد في تلافيتها
واستنقاذ غنائمها ١٦٩٨
- واقعة نفوسة ومهلك العرب والمثمين بها ١٦٩٨
- الخبر عن مهلك الشيخ أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص
وولاية ابنه عبد الرحمن ١٦٩٩
- الخبر عن ولاية السيد أبي العلا على إفريقية وابنه أبي
زيد من بعده وأخبارهم فيها واعتراضهم في
الدولة الحفصية ١٦٩٩
- الخبر عن ولاية أبي محمد عبد الله بن أبي محمد ابن
الشيخ أبي حفص وما كان فيها من الأحداث ١٧٠٠
- الخبر عن ولاية الأمير أبي زكريا محمد الدولة لآل أبي
حفص بإفريقية ورافع الراية لهم بالملك وأولية
ذلك وبدايته ١٧٠٠
- الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد
المؤمن ١٧٠١
- الخبر عن فتح بجاية وقسطنطينة ١٧٠١
- الخبر عن مهلك ابن غانية وحركة السلطان إلى بجاية
وولاية ابنه الأمير أبي يحيى زكريا عليها ١٧٠١
- الخبر عن سطوة السلطان بهوارة ١٧٠٢
- الخبر عن ثورة الهرغي بطرابلس ومآل أمره ١٧٠٢
- الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق الأندلس
ووفدهم ١٧٠٢
- الخبر عن المجوسي وأوليته ومآل أمره ١٧٠٤
- الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة
الحفصية ١٧٠٤
- الخبر عن دول أهل الأندلس في الدعوة الحفصية
ووصول بيعة إشبيلية وكثير من أمصارها ١٧٠٥
- الخبر عن بيعة أهل سبتة وطنجة وقصر ابن عبد الكريم
وتصاريق أحوالهم ومآل أمرهم ١٧٠٦
- الخبر عن بيعة المرية ١٧٠٦
- الخبر عن بيعة ابن الأحمر ١٧٠٧
- الخبر عن بيعة سجلماسة وانتفاضها ١٧٠٧

- الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة بني مرين... ١٧٠٧
 الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى زكريا ولي العهد بمكان
 إمارته من بجاية وتصيير العهد إلى أخيه محمد ١٧٠٧
 الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما كان عقبه من
 الأحداث ١٧٠٩
 الخبر عن بيعة السلطان أبي عبد الله المستنصر وما كان
 في أيامه من الحوادث ١٧٠٩
 الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحاني ومقتله ومقتل
 أبيه ١٧٠٩
 الخبر عن الآثار التي أظهرها السلطان في أيامه ١٧١٠
 الخبر عن فرار أخيه أبي إسحاق وبيعة رياح له وما
 قارن ذلك من الأحداث ١٧١١
 الخبر عن بني النعمان وكتبهم والخروج أثرها إلى
 الزاب ١٧١١
 الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية .. ١٧١١
 الخبر عن الوفود من بني مرين والسودان وغيرهم ١٧١٦
 الخبر عن مقتل ابن الأبار وسياقة أوليته ١٧١٦
 الخبر عن مقتل اللياني وأوليته وتصاريف أحواله ١٧١٧
 الخبر عن انتفاض أبي علي الملياني بمليانة على يد
 الأمير أبي حفص ١٧١٧
 الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد ابن الشيخ أبي
 محمد وخروجه في رياح ١٧١٨
 الخبر عن خروج السلطان إلى المسيلة ١٧١٨
 الخبر عن مقتل مشيخة الدواودة ١٧١٨
 الخبر عن طاغية الإفرنجية ومنازلته تونس في أهل
 نصرانيته ١٧١٩
 الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبد الله بن أبي
 الحسين وأبي سعيد العود الرطب ١٧٢١
 الخبر عن انتفاض أهل الجزائر وفتحها ١٧٢٢
 الخبر عن مهلك السلطان المستنصر ووصف شيء من
 أحواله ١٧٢٢
 الخبر عن بيعة الوائق يحيى بن المستنصر وهو المشهور
 بالمخلوع وذكر أحواله ١٧٢٣
- الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن الحبر على
 الدولة ١٧٢٣
 الخبر عن إجازة السلطان أبي إسحاق من الأندلس
 ودخول أهل بجاية في طاعته ١٧٢٣
 الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء
 السلطان أبي إسحاق ثم دخوله في طاعته وخلع
 الواثق ١٧٢٤
 الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحاق على الحضرة ... ١٧٢٤
 الخبر عن مقتل الواثق وولده ١٧٢٤
 الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس ابن السلطان أبي
 إسحاق على بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك ١٧٢٤
 الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسطنطينة ومقتله ١٧٢٥
 الخبر عن قيادة أبناء السلطان العساكر إلى الجهاد ١٧٢٦
 الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن ١٧٢٦
 الخبر عن ظهور الدعي ابن أبي عمارة وما وقع من
 الغريب في أمره ١٧٢٦
 الخبر عن انفضاض عساكر السلطان وتقويضه عن
 تونس ١٧٢٧
 الخبر عن لحاق السلطان أبي إسحاق ببجاية ودخول
 الدعي بن أبي عمارة إلى تونس وما كان من أمره
 بها ١٧٢٧
 الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر عند وصول
 أبيه إليه ١٧٢٧
 الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقاء الدعي ثم
 انهزامه أمامه واستلحامه وإخوته في المعركة وما
 كان أثر ذلك من مهلك أبيهم السلطان أبي
 إسحاق وفرار أخيه الأمير أبي زكريا إلى تلمسان. ١٧٢٧
 الخبر عن ظهور الأمير أبي حفص وبيعتة وما كان على
 أثر ذلك من الأحداث ١٧٢٨
 الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان
 أبي حفص على ملكه وغلبه ومهلكه ١٧٢٨
 الخبر عن استيلاء العدو على جزيرة جربة ومبورقة
 ومنازلته المهدي وأجلاجه على السواحل ١٧٢٨

- الخبر عن ثورة ابن الأمين بقسطنطينية وبيعة السلطان
أبي عصيدة ثم فتح السلطان أبي البقاء خالد لها
وقتلها ١٧٣٦
- الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء إلى الجزائر ١٧٣٦
- الخبر عن السلم وشروطه بين صاحب تونس وصاحب
بيجاية ١٧٣٧
- الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس ابن اللحياني لحصار
جربة ومضيه منها إلى الحج ١٧٣٧
- الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وخبر أبي بكر
الشهيد ١٧٣٧
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء على الحضرة
وانفراده بالدعوة الحفصية ١٧٣٨
- الخبر عن بيعة ابن مزني ليجي بن خالد ومصادر
أمره ١٧٣٨
- الخبر عن بيعة السلطان أبي بكر بقسطنطينية على يد
الحاجب ابن عمر وأولية ذلك ١٧٣٨
- الخبر عن استيلاء السلطان على بيجاية ومقتل ابن
خلف وما كان من الإدارة في ذلك ١٧٣٩
- الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد واستيلاء
السلطان أبي يحيى بن اللحياني على الحضرة ١٧٤٠
- الخبر عن قدوم ابن غمر على السلطان بيجاية ونكبة
ابن ثابت وظافر الكبير ١٧٤٠
- الخبر عن منزلة عساكر بني عبد الواد ببيجاية وما كان
في أثر ذلك من الأحداث ١٧٤١
- الخبر عن استيلاء ابن غمر ببيجاية ١٧٤١
- الخبر عن سفر السلطان أبي يحيى بن اللحياني إلى
قابس وتجايفه عن الخلافة ١٧٤٢
- الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر إلى الحضرة
ورجوعه إلى قسطنطينية ١٧٤٢
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة
وإيقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس إلى
المشرق ١٧٤٣
- الخبر عن استيلاء الأمير أبي بكر زكريا على الثغر
العربي ببيجاية والجزائر وقسطنطينية وأولية ذلك
ومصائر ١٧٢٩
- الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا إلى ناحية طرابلس
ومنازلة عثمان بن يغمراسن ببيجاية في مغيبه ١٧٣٠
- الخبر عن فاتحة استيلاء أهل الجريد ١٧٣٠
- الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي دبوس داعياً
لنفسه بجهات طرابلس ١٧٣٠
- الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيد الناس صاحب
بيجاية وولاية ابن أبي جبي مكانه ١٧٣٠
- الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص إلى
طاعة الأمير أبي زكريا صاحب بيجاية وانتظام
بسكرة في عمله ١٧٣١
- الخبر عن مهلك أبي عبد الله الفازازي شيخ الموحدين
والحاجب أبي القاسم بن الشيخ رؤساء الدولة
بالحضرة ١٧٣١
- الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر من
بعده ١٧٣٢
- الخبر عن بيعة السلطان أبي عصيدة وما كان على أثرها
من الأحوال ١٧٣٢
- الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر بنه من بعده ١٧٣٣
- الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين
ومهاداته ١٧٣٣
- الخبر عن مقتل هداك وفتنة الكعوب وبيعهم لأبي
دبوس وما كان بعد ذلك من نكبتهم ١٧٣٤
- الخبر عن انتفاض أهل الجزائر واستيلاء ابن علان بها ١٧٣٤
- الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بيجاية وبيعة
ابنه الأمير أبي البقاء خالد ١٧٣٤
- الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله ١٧٣٥
- الخبر عن سفارة الحاجب ابن أبي جبي إلى تونس وتكر
السلطان له بعدها وعزله ١٧٣٥
- الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن غمر ومصائر
أمره ١٧٣٥

- الخبر عن مهلك الحاجب ابن عمر بيجاية وولاية
الحاجب محمد بن القالون عليها ثم الإدالة منه
بابن سيد الناس ١٧٤٤
- الخبر عن إمارة الأمير أبي عبد الله على قسطنطينة
وأخيه الأمير أبي زكريا على بجاية وتولية القالون
على حجابته ١٧٤٤
- الخبر عن استقدام ابن القالون والإدالة منه بابن سيد
الناس في بجاية وبظافر الكبير في قسطنطينة ١٧٤٥
- الخبر عن مقتل مولاها بن عمر وأصحابه من الكموب ١٧٤٥
- الخبر عن واقعة رغيس مع ابن اللحياني وزناته وواقعة
الشقة مع ابن أبي عمران ١٧٤٦
- الخبر عن أجلاب حمزة بإبراهيم بن الشهيد وتغلبه على
الحضرة ١٧٤٧
- الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزدكت وانهزام عساكر
السلطان عليها ١٧٤٧
- الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن سيد الناس
مكانه ومقتل ابن القالون ١٧٤٨
- الخبر عن ولاية الفضل على بونة ١٧٤٩
- الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مهلك الأمير
أبي فارس أخي السلطان ١٧٤٩
- الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة على بني
عبد الواد وما يتبع ذلك من المصاهرة ١٧٥٠
- الخبر عن حركة السلطان إلى المغرب وفرار بني عبد
الواد وتخريب تامرزدكت ١٧٥٠
- الخبر عن نكبة الحاجب محمد بن سيد الناس وولاية ابن
عبد العزيز وابن الحكيم من بعده ١٧٥١
- الخبر عن فتح قصعة وولاية الأمير أبي العباس عليها ١٧٥٢
- الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس بن عزوز وأبي البقاء
خالد على سوسة ثم إضافة المهديّة إليهما ١٧٥٣
- الخبر عن وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب قسطنطينة
من الأبناء وولاية بنيه من بعده ١٧٥٣
- الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم أجلاب بنيه
على الحضرة وانهزامهم ومقتل معز وزيرهم وما
قارن ذلك من الأحداث ١٧٥٣
- الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز وولاية أبي
محمد بن تافراكين من بعده وما كان على تقيته
ذلك من نكبة ابن الحكيم ١٧٥٤
- الخبر عن شأن الجريد واستكمال فتحه وولاية ابنه أبي
العباس عليه وولاية صاحب قابس أحمد بن مكّي
على جزيرة جربة ١٧٥٦
- الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين ١٧٥٧
- الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من
الأبناء وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية
بأخيه الأمير أبي حفص وولاية ابنه الأمير أبي
عبد الله ١٧٥٧
- الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر وولاية ابنه
الأمير أبي حفص ١٧٥٨
- الخبر عن زحف الأمير أبي العباس ولي العهد من مكان
إمارته بالجريد إلى الحضرة وما كان من مقتله
ومقتل أخويه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي
البقاء خالد ١٧٥٩
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن على إفريقية
ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الأبناء من بجاية
وقسطنطينة إلى المغرب وما تخلص ذلك من
الأحداث ١٧٥٩
- الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل على بونة
وأولية ذلك ومصائره ١٧٦٠
- الخبر عن بيعة العرب لابن أبي دبوس وواقعته مع
السلطان أبي الحسن بالقيروان وما قارن ذلك كله
من الأحداث ١٧٦١
- الخبر عن حصار القصبة بتونس ثم الإفراج عن
القيروان وعنهما وما تخلص ذلك ١٧٦١
- الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على قسطنطينة وبجاية
ثم استيلاء أمرائهما عليهما ١٧٦٢

- الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد رحيل السلطان
أبي الحسن إلى المغرب ١٧٦٣
- الخبر عن مهلك الفضل وبيعة أخيه المولى أبي إسحاق
في كفالة أبي محمد بن تافراكين وتحت استبداده ١٧٦٣
- الخبر عن حركة صاحب قسطنطينة إلى تونس وما كان
من حجابة أبي العباس بن مكى وتصاريف ذلك .. ١٧٦٤
- الخبر عن وفادة صاحب بجاية على ابني عنان واستيلائه
عليه وعلى بلده ومطالبته قسطنطينة ١٧٦٥
- الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء النصارى عليها ثم
رجوعها إلى ابن مكى ١٧٦٦
- الخبر عنبيعة السلطان أبي العباس أمير المؤمنين
ومفتتح أمره السعيد بقسطنطينة ١٧٦٧
- الخبر عن واقعة موسى بن إبراهيم واستيلاء أبي عنان
بعدها على قسطنطينة وما تخلل ذلك من
الأحداث ١٧٦٧
- الخبر عن انتفاض الأمير أبي يحيى زكريا بالمهدية
ودخوله في دعوة أبي عنان ثم نزوله عنها إلى
الطاعة وتصاريف ذلك ١٧٦٨
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحاق على بجاية
 وإعادة الدعوة الحفصية إليها ١٧٦٩
- الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة السلطان أبي
إسحاق صاحب الحضرة ١٧٦٩
- الخبر عن عودة الأمراء من المغرب واستيلاء السلطان
أبي العباس على قسطنطينة ١٧٧٠
- الخبر عن وصول الأخ الأمير أبي يحيى بن زكريا من
تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها ١٧٧١
- الخبر عن استيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية ثم
على تدلس بعدها ١٧٧١
- الخبر عن مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين
واستبداد سلطانه من بعده ١٧٧٢
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس على بجاية
وملك صاحبها ابن عمه ١٧٧٢
- الخبر عن زحف أبي حمو وبني عبد الواد إلى بجاية
ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها ١٧٧٣
- الخبر عن زحف العساكر إلى تونس ١٧٧٣
- الخبر عن مهلك السلطان أبي إسحاق صاحب الحضرة
وولاية ابنه خالد من بعده ١٧٧٤
- الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده
بالدعوة الحفصية في سائر عمالات إفريقيا
وعالمها ١٧٧٤
- الخبر عن انتفاض منصور بن حمزة وأجلايه بالعلم أبي
يحيى زكريا على الحضرة وما كان عقب ذلك من
نكبة ابن تافراكين ١٧٧٥
- الخبر عن فتح سوسة والمهدية ١٧٧٦
- الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك السلطان ١٧٧٦
- الخبر عن استقلال الأمراء من الأبناء بولاية الثغور
الغربية ١٧٧٧
- الخبر عن فتح قصبة وتوزر وانتظام أعمال قسطنطينة في
طاعة السلطان ١٧٧٧
- الخبر عن ثورة أهل قصبة ومهلك ابن الخلف ١٧٧٨
- الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة السلطان ١٧٧٩
- الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما اكتنف ذلك
من الأحوال ١٧٨٠
- الخبر عن انتفاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة ١٧٨١
- تغلب ابن يملول على توزر وارتجاعها منه ١٧٨٢
- ولاية الأمير زكريا ابن السلطان على توزر ١٧٨٢
- وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية ١٧٨٢
- حركة السلطان إلى الزاب ١٧٨٣
- حركة السلطان إلى قابس ١٧٨٣
- رجوع المتصر إلى ولايته توزر وولاية أخيه زكريا على
نقطة ونقزوة ١٧٨٤
- فتنة الأمير إبراهيم صاحب قسطنطينة مع الدواودة
ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة الأمير إبراهيم
إثرها ١٧٨٤
- منازلة نصارى الفرنج للمهدية ١٧٨٤
- انتفاض قصبة وحصارها ١٧٨٥
- ولاية عمر ابن السلطان على صفاقس واستيلائه منها
على قابس وجزيرة جربة ١٧٨٦

- وفاة السلطان أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس عزوز. ١٧٨٦
- الخبر عن بني مزني أمراء بسكرة وما إليها من الزاب... ١٧٨٧
- الخبر عن رئاسة بني يملول بتوزر وبني الخلف بنقطة
- وبني أبي المنيع بالحامة. ١٧٩١
- الخبر عن بني مكّي رؤساء قابس وأعمالها. ١٧٩٥
- الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس وأعمالها. ١٧٩٨
- الخبر عن زناتة من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من
- العز والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة
- والحديثة. ١٨٠٠
- الخبر عن نسبة زناتة وذكر الخلاف الواقع فيه وتعدد
- شعوبهم. ١٨٠٠
- فصل في تسمية زناتة ومبنى هذه الكلمة. ١٨٠٣
- فصل في أولية هذا الجبل وطبقاته. ١٨٠٣
- الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناتة وشأنهم مع
- المسلمين عند الفتح. ١٨٠٤
- الخبر عن مبتدأ دول زناتة في الإسلام ومصير الملك
- إليهم بالمغرب وإفريقية. ١٨٠٤
- الطبقة الأولى من زناتة ونبدأ منها بالخبر عن بني يفرن
- وأنسابهم وشعوبهم وما كان لهم من الدول
- بإفريقية والمغرب. ١٨٠٥
- الخبر عن أبي قرّة وما كان لقومه من الملك بتلمسان
- ومبدأ ذلك ومصادره. ١٨٠٦
- الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار من بني
- يفرن ومبدأ أمره مع الشيعة ومصادره. ١٨٠٧
- الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الأوسط
- والأقصى ومبادئ أمورهم ومصايرها. ١٨٠٩
- الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلا من المغرب
- الأقصى وأولية ذلك وتصاريفه. ١٨١٠
- الخبر عن أبي نور بن أبي قرّة وما كان له من الملك
- بالأندلس أيام الطوائف. ١٨١٣
- الخبر عن مرغیصة من بطون بني يفرن وشرح أحوالهم. ١٨١٣
- الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الأولى من زناتة وما
- كان لهم من الدول بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه. ١٨١٤
- الخبر عن آل زيري بن عطية ملوك فاس وأعمالها من
- الطبقة الأولى من مغراوة وما كان لهم بالمغرب
- الأقصى من الملك والدولة ومبادئ ذلك
- وتصاريفه. ١٨١٦
- الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة
- الأولى من مغراوة وأولية ملكهم ومصادره. ١٨٢١
- الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلقول من
- أهل الطبقة الأولى وأولية أمرهم وتصاريف
- أحوالهم. ١٨٢٢
- الخبر عن بني يعلى ملوك تلمسان من آل خزر من أهل
- الطبقة الأولى والإمام ببعض أحوالهم ومصادرها. ١٨٢٥
- الخبر عن أمراء أغمات من مغراوة. ١٨٢٦
- الخبر عن بني سنجاس وريفة والأغواط وبني ورا من
- قبائل مغراوة من أهل الطبقة الأولى وتصاريف
- أحوالهم. ١٨٢٧
- الخبر عن بني يربان إخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم. ١٨٢٨
- الخبر عن وجديجن وواغمرت من قبائل زناتة ومبادئ
- أحوالهم وتصاريفها. ١٨٢٩
- الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب
- إليهم بصحراء إفريقية وتصاريف أحوالهم. ١٨٣٠
- الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالأندلس
- وأولية ذلك ومصادره. ١٨٣١
- الخبر عن بني برزال إحدى بطون دمر وما كان لهم من
- الملك بقرمونة وأعمالها بالأندلس أيام الطوائف
- وأولية ذلك ومصادره. ١٨٣١
- الخبر عن بني ومانوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من
- زناتة وما كان لهم من الملك والدولة بأعمال
- المغرب الأوسط ومبدأ ذلك وتصاريفه. ١٨٣٢
- أخبار الطبقة الثانية من زناتة وذكر أنسابهم وشعوبهم
- وأوليئهم ومصادر ذلك. ١٨٣٤
- الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت
- تصاريف أحوالهم إلى أن غلبوا على الممالك
- والدول. ١٨٣٦

- الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما أعادوا
لقومهم من مغراوة من الملك بموطنهم الأول من
شلف وما إليه من نواحي المغرب الأوسط ١٨٣٧
- الخبر عن دولة بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية وما
كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الأوسط من الملك
والسلطان وكيف كان مبدأ أمرهم ومصائر
أحوالهم ١٨٤٢
- الخبر عن تلمسان وما تأدى إلينا من أحوالها من الفتح
إلى أن تأثّل بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم ١٨٤٤
- الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة
بتلمسان وما إليها وكيف مهد الأمر لقومه
وأصاره ترأثاً لبنيه ١٨٤٦
- الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان
ودخول يغمراسن في دعوته ١٨٤٦
- الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراكش ومنازلته
يغمراسن بجبل تامزز يزدكت ومهلكه هنالك ١٨٤٧
- الخبر عما كان بينه وبين بني مرين من الأحداث سائر
أيامه ١٨٤٩
- الخبر عن كائنة النصراري وإيقاع يغمراسن بهم ١٨٤٩
- الخبر عن تغلب يغمراسن على سجلماسة ثم مصيرها
بعد إلى إيالة بني مرين ١٨٥٠
- الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق ... ١٨٥٠
- الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما
كان بينهم من الأحداث ١٨٥١
- الخبر عن انتزاع الزعيم بن مكن ببلد مستغافم ١٨٥٢
- الخبر عن شأن يغمراسن في معاقبته مع ابن الأحمر
والطاغية على فتنة يعقوب بن عبد الحق والأخذ
بمحجزته ١٨٥٢
- الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني أبي حفص
الذي كان يقيم بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه
بطاعتهم ١٨٥٣
- الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان
وما كان في دولته من الأحداث ١٨٥٤
- الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني
توجين وغلبه على معاقبهم والكثير من أعمالهم .. ١٨٥٥
- الخبر عن منازل بجاية وما دعا إليها ١٨٥٥
- الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن تلمسان في
الحصار الطويل ١٨٥٦
- الخبر عن مهلك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي
زيان وانتهاء الحصار من بعده إلى غايته ١٨٥٧
- الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى
حين مهلكه ١٨٥٨
- الخبر عن نحو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان ١٨٥٩
- الخبر عن دولة أبي حمو الأوسط وما كان فيها من
الأحداث ١٨٥٩
- الخبر عن استنزال زيرم بن حماد من ثغر برشك وما كان
من قتله ١٨٦٠
- الخبر عن طاعة الجزائر واستنزال ابن علان منها وذكر
أوليته ١٨٦٠
- الخبر عن حركة صاحب المغرب إلى تلمسان وأولية
ذلك ١٨٦١
- الخبر عن مبدأ حصار بجاية وشرح الداعية إليه ١٨٦٢
- الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين
وحروب السلطان معه ١٨٦٢
- الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي
تاشفين من بعده ١٨٦٣
- الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين إلى محمد بن
يوسف بجبل وانشرش واستيلائه عليه ١٨٦٤
- الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي
كان فيها حنقه وذهاب سلطانه وانقراض الأمر
عن قومه برهة من الدهر ١٨٦٥
- الخبر عن معاودة الفتنة بين بني مرين وحصارهم
تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين بن أبي حمو .. ١٨٦٦
- الخبر عن رجال دولته وهم موسى بن علي ومحمي بن
موسى ومولاه هلال وأوليته ومصائر أمورهم
واختصاصهم بالذكر لما طار من شهرتهم وارتفع
من صيتهم ١٨٦٨

- الخبر عن انتزاء عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد
نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان وعود الملك
بذلك لبني زيان ١٨٧٠
- الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من آل يغمراسن
وما كان فيها من الأحداث ١٨٧٠
- الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي
الحسن وفتح وهران بعدها ١٨٧١
- الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس
ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من
الحروب ولحاقه بعد الهزيمة بالمغرب ١٨٧٢
- الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت على
بلادهم ثم على الجزائر ومقتل علي بن راشد
بتنس على إثر ذلك ١٨٧٣
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان على تلمسان
وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية ١٨٧٤
- الخبر عن دولة السلطان أبي هو الأخير مدبل الدولة
بتلمسان في الكرة الثالثة لقومه وشرح ما كان فيها
من الأحداث لهذا العهد ١٨٧٥
- الخبر عن إجفال أبي هو عن تلمسان أمام عساكر
المغرب ثم عوده إليها ١٨٧٥
- الخبر عن مقدم عبد الله بن مسلم من مكان عمله
بدرعة ونزوعه من إيالة بني مرين إلى أبي هو
وتقليده إياه الوزارة وذكر أوليته ومصائر أموره ... ١٨٧٦
- الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان
ورجوعه إلى المغرب بعد أن ولي عليها أبا زيان
حافظ السلطان أبي تاشفين وما آل أمره ١٨٧٦
- الخبر عن قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من
المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله ١٨٧٧
- الخبر عن قدوم أبي زيان حافظ السلطان أبي تاشفين
ثانية من المغرب إلى تلمسان لطلب ملكها وما
كان من أحواله ١٨٧٨
- الخبر عن حركة السلطان أبي هو على ثغور المغرب ١٨٧٩
- الخبر عن حركة السلطان أبي هو إلى بجاية ونكبه عليها. ١٨٧٩
- الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من بلاد
حصين وتغلبه على المدينة والجزائر ومليانة وما
كان من الحروب معه ١٨٨٠
- الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان
واستيلائه عليها ونكبة أبي هو وبني عامر
بالدوسن من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من
تيطري إلى أحياء رياح ١٨٨١
- الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان
إلى تيطري وأجلا ب أبي هو على تلمسان ثم
انهزامهما وتشريدتهما على سائر النواحي ١٨٨٢
- الخبر عن عودة السلطان أبي هو الأخير إلى تلمسان
الكرة الثالثة لبني عبد الواد في الملك ١٨٨٣
- الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد إلى
بلاد حصين ثم خروجه عنها ١٨٨٤
- الخبر عن أجلا ب عبد الله بن صغير وانقراض أبي بكر
بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان ورجوع أبي
بكر إلى الطاعة ١٨٨٤
- الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب
التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك
فيها عبد الله بن صغير وإخوانه ١٨٨٤
- الخبر عن انتقاض سالم بن إبراهيم ومظاهرته خالد بن
عامر على الخلاف وبيعتهما للأمير أبي زيان ثم
ملك خالد ومراجعة سالم الطاعة وخروج أبي
زيان إلى بلاد الجريد ١٨٨٥
- قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من
التنافس ١٨٨٦
- وثبة أبي تاشفين ييحيى بن خلدون كاتب أبيه ١٨٨٧
- حركة السلطان أبي هو على ثغور المغرب الأقصى
ودخول ابنه أبي تاشفين إلى جهات مكناسة ١٨٨٧
- نهوض السلطان أبي العباس صاحب المغرب إلى
تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي هو بمحسن
تاجحمومت ١٨٨٨
- رجوع السلطان أبي العباس إلى المغرب واختلال دولته
ورجوع السلطان أبي هو إلى ملكه بتلمسان ١٨٨٨

زنانة وانتظمت كراسي الملك بالعدوتين وأولية	تجدد المنافسة بين ولد السلطان أبي حمو ومجاهرة أبي
ذلك ومصائره ١٩٠٢	تاشفين بذلك لهم وولايته ١٨٨٩
الخبر عن إمارة عبد الحق بن محيو المستقرة في بنيه	خلع السلطان أبي حمو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك
وإمارة ابنه عثمان من بعده ثم أخيه محمد بن عبد	واعتقاله إياه ١٨٨٩
الحق بعدهما وما كان فيها من الأحداث ١٩٠٢	خروج السلطان أبي حمو من الاعتقال ثم القبض عليه
الخبر عن دولة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق مدبل	وتغريبه في السفين إلى المشرق ١٨٩٠
الأمر لقومه بني مريم وفاتح الأمصار ومقيم	نزول السلطان أبو حمو ببجاية من السفين واستيلاؤه
الرسوم الملوكية من الآلة وغيرها لمن بعده من	على تلمسان ولحق أبي تاشفين بالمغرب ١٨٩٠
أمرائهم ١٩٠٤	نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مريم ومقتل السلطان
الخبر عن انتفاض أهل فاس على أبي يحيى بن عبد	أبي حمو ١٨٩١
الحق وظفره بهم بعد إيقاعه بيغمراسن وقومه	مسير أبي زيان بن أبي حمو لحصار تلمسان ثم إجفاله
بأيسلى ١٩٠٦	عنها ولحقه بصاحب المغرب ١٨٩١
الخبر عن تغلب الأمير أبي يحيى على مدينة سلا	و وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على
وارتجاعها من يده وهزيمة المرتضى بعدها ١٩٠٧	تلمسان ١٨٩٢
الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك	وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن
من الأحداث ١٩٠٨	أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط ١٨٩٢
الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى وما كان أثر ذلك من	الخبر عن بني كمي إحدى بطون بني القاسم بن عبد
الأحداث التي تمخضت عن استبداد أخيه يعقوب	الواد وكيف نزعوا إلى بني مريم وما صار لهم
بن عبد الحق بالأمر ١٩٠٨	بنواحي مراكش وأرض السوس من الرياسة ١٨٩٣
الخبر عن فجاءة العدو مدينة سلا واستنقاذها من	الخبر عن بني راشد بن محمد بن بادين وذكر أوليئهم
أيديهم ١٩٠٩	وتصاريف أحوالهم ١٨٩٤
الخبر عن منازل السلطان أبي يوسف حضرة مراكش	الخبر عن بني توجين من شعوب بني بادين من أهل
دار الخلافة وعنصر الدولة وما كان أثر ذلك من	هذه الطبقة الثالثة من زنانة وما كان لهم من
نزوع أبي دبوس إليه وكيف نهيه للأمر وكان	الدولة والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك
مهلك المرتضى على يده ثم انتفض عليه ١٩٠٩	ومصائره ١٨٩٥
الخبر عن وقعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق	الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت ورؤساء
ويغمراسن بن زيان بإغراء أبي دبوس وتضريبه ... ١٩١٠	بني يدلتن من بطون توجين من هذه الطبقة الثانية
الخبر عن السفارة والمهاداة التي وقعت بين السلطان	وأوليئهم ومصائره ١٨٩٩
يعقوب ابن عبد الحق وبين المستنصر الخليفة	الخبر عن بني يرسانن إحدى بطون توجين من هذه
بتونس من آل أبي حفص ١٩١٠	الطبقة الثانية وما كان لهم من التغلب والإمارة
الخبر عن فتح مراكش ومهلك أبي دبوس وانقراض	وذكر أوليئهم ومصائره ١٩٠١
دولة الموحدين من المغرب ١٩١١	الخبر عن بني مريم وأنسابهم وشعوبهم وما تأثلوا
	بالمغرب من السلطان والدولة التي استتبع سائر

- الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك وما كان عقب ذلك من خروج القرابة عليه أولاد أخيه إدريس وإجازتهم إلى الأندلس ١٩١٢
- الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف إلى تلمسان وواقعة على يغمراسن وقومه بإيسلى ١٩١٣
- الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة أهل سبتة وفرض الأتاوة عليهم وما قارن ذلك من الأحداث ١٩١٤
- الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة على بني عبد الواد والمنبات من عرب المعقل ١٩١٥
- الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف على النصرارى وقتل زعيمهم دنه وما قارن ذلك ١٩١٦
- الخبر عن اختطاط البلد الجديد بفاس وما كان على نفثة ذلك من الأحداث ١٩١٩
- الخبر عن إجازة أمير المسلمين ثانية وما كان فيها من الغزوات ١٩٢٠
- الخبر عن تملك السلطان مدينة مאלقة من يد ابن أشقيلولة ١٩٢١
- الخبر عن تظاهر ابن الأحمر والطاغية على منع السلطان أبي يوسف من إجازة البحر وإصفاق يغمراسن بن زيان معهم من وراء البحر على الأخذ بمجزته عنهم وواقعة السلطان على يغمراسن بخرزوزة ١٩٢٢
- الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف ثالثة باستدعاء الطاغية لخروج ابنه شانجة عليه وإفراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الإجازة من الغزوات ١٩٢٦
- الخبر عن شأن السلم مع ابن الأحمر ونجافي السلطان له عن مألقة ثم تجديد الغزو بعد ذلك ١٩٢٧
- الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تخلل ذلك من الغزوات ١٩٢٧
- الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان على نفثة ذلك ١٩٢٩
- الخبر عن دولة السلطان أبي يعقوب وما كان فيها من الأحداث وشأن الخوارج عليه لأول دولته ١٩٣٠
- الخبر عن دخول وادي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها إلى طاعة ابن الأحمر ١٩٣١
- الخبر عن خروج الأمير أبي عامر ونزوعه إلى مراکش ثم فتيته إلى الطاعة ١٩٣٢
- الخبر عن تجديد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان مدينة تلمسان ومنازلته إياها ١٩٣٢
- الخبر عن انتقاض الطاغية وإجازة السلطان لغزوه ١٩٣٣
- الخبر عن انتقاض ابن الأحمر ومظاهرتة الطاغية على طريف أعادها الله ١٩٣٤
- الخبر عن وفادة ابن الأحمر على السلطان والتفاهما بطنجة ١٩٣٤
- الخبر عن انتراء الوزير الوطاس بمحصن تازوطا من جهة الريف واستنزال السلطان إياه ١٩٣٥
- الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان إلى بلاد الريف وجبال غمارة ١٩٣٦
- الخبر عن ترديد الغزو إلى تلمسان ومنازلتهما ١٩٣٦
- الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث ١٩٣٧
- الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك من الأحداث ١٩٣٨
- الخبر عن افتتاح بلاد بني توجين وما تخلل ذلك ١٩٣٩
- الخبر عن مراسلة الموحدين ملوك إفريقية بتونس وبجاية وأحواله معهم ١٩٣٩
- الخبر عن مراسلة المشرق الأقصى ومهاداتهم وفادة أمراء الترك على السلطان وما تخلل ١٩٤١
- الخبر عن انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة وخروج عثمان بن أبي العلاء في غمارة ١٩٤٢
- الخبر عن انتقاض بني كمي من بني عبد الواد وخروجهم بأرض السوس ١٩٤٣
- الخبر عن مهلك المشيخة المصامدة بتليس أبي الملياني ١٩٤٤
- الخبر عن رئاسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم ١٩٤٥
- الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب ١٩٤٥
- الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من الأحداث ١٩٤٥

الخبر عن انتزاع يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلب	السلطان عليه	١٩٤٧
الخبر عن غزاة السلطان لمداغة عثمان بن أبي العلاء	ببلاد الهبط ومهلكه بطنجة من بعد ظهوره	١٩٤٨
الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع وما كان فيها من	الأحداث	١٩٤٨
الخبر عن مقتل عبد الله بن أبي مدين	الخبر عن ثورة أهل سبتة بالأندلسيين ومراجعتهم طاعة	السلطان
السلطان	الخبر عن بيعة عبد الحق بن عثمان بمالاة الوزير	والمشيخة وظهور السلطان عليهم ثم مهلكه بعد
ذلك	الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد وما كان فيها من	الأحداث
الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد إلى تلمسان أولى	حركاته إليها	١٩٥٢
الخبر عن انتفاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين	أبيه من الوقعات	١٩٥٢
الخبر عن نكبة منديل الكناني ومقتله	الخبر عن انتفاض العزفي بسبتة ومنازلته ثم مصيرها إلى	طاعة السلطان بعد مهلكه
الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة	الخبر عن صريخ أهل الأندلس بالسلطان ومهلكه بطرة	على غرناطة
١٩٥٦	الخبر عن صهر الموحدين والحركة إلى تلمسان على أثره	وما تخلل ذلك من الأحداث
١٩٥٧	الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد عفا الله عنه	وولاية ابنه السلطان أبي الحسن وما تخلل ذلك
من الأحداث	١٩٥٨	الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن إلى سجلماسة
١٩٥٩	وانكفائه عنها إلى تلمسان بعد الصلح مع أخيه	والانفاق
الخبر عن انتفاض الأمير أبي علي ونهوض السلطان	أبي الحسن إليه وظفره به	١٩٥٩
الخبر عن منازلته جيل الفتح واستئثار الأمير أبي مالك	والمسلمين به	١٩٦٠
الخبر عن حصار تلمسان وتغلب السلطان أبي الحسن	عليها وانتفاض أمر بني عبد الواد بمهلك أبي	ناشقين
١٩٦١	الخبر عن نكبة الأمير عبد الرحمن بمتيجة وتقبض	السلطان عليه ثم مهلكه آخرأ
١٩٦٢	الخبر عن خروج ابن هيدور وتلبسه بأبي عبد الرحمن ..	الخبر عن شأن الجهاد وإغزاة السلطان ابنه الأمير أبا
١٩٦٣	مالك واستشهاده	١٩٦٤
الخبر عن واقعة المنند والظفر به وظهور أساطيل	المسلمين على أسطول النصارى	١٩٦٤
١٩٦٤	الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين	الخبر عن منازلته الطاغية الجزيرة، ثم تغلبه عليها بعد أن
١٩٦٥	غاب على القلعة من ثغور ابن الأحمر	١٩٦٥
الخبر عن شفاعة صاحب تونس في أولاد أبي العلاء	ووصولهم إلى السلطان	١٩٦٦
١٩٦٦	الخبر عن هدية السلطان إلى المشرق وبعثه بنسخة	المصحف من خطه إلى الحرمين والقدس
١٩٦٧	الخبر عن هدية السلطان إلى ملك مالي من السودان	المجاورين للمغرب
١٩٦٨	الخبر عن إصهار السلطان إلى صاحب تونس	١٩٦٨
١٩٦٩	الخبر عن حركة السلطان إلى إفريقية واستيلائه عليها ...	١٩٦٩
١٩٧٢	الخبر عن واقعة العرب مع السلطان بالقيروان وما	تخللها من الأحداث
١٩٧٢	الخبر عن انتفاض الثغور الغربية ورجوعها إلى دعوة	الموحدين
١٩٧٤	الخبر عن انتزاع أولاد السلطان بالمغرب الأوسط	والأقصى ثم استقلال أبي عنان بملك المغرب كله ..
١٩٧٥	الخبر عن انتفاض النواحي وانتزاع بني عبد الواد	بتلمسان ومغراوة بشلف وتوجين بالمدينة
١٩٧٦	الخبر عن رجوع أمراء الثغور الغربية من الموحدين إلى	ثغورهم ببجاية وقسنطينة
١٩٧٧		

- الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان ووليّه عريف بن يحيى من تونس إلى المغرب الأوسط ١٩٧٨
- الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن إلى المغرب وتغلب المولى الفضل على تونس وما دعا إلى ذلك من الأحوال ١٩٧٨
- الخبر عن استيلاء السلطان على سجلماسة ثم فراره عنها أمام ابنه إلى مراكش ثم استيلاؤه عليها وما تخلل ذلك ١٩٨٠
- الخبر عن استيلاء السلطان على مراكش ثم انهزامه أمام الأمير أبي عنان ومهلكه بجبل منتاة عفا الله عنه .. ١٩٨٠
- الخبر عن حركة السلطان أبي عنان إلى تلمسان وإيقاعه ببني عبد الواد بأنكاد ومهلك أبي سعيد سلطانهم . ١٩٨١
- الخبر عن شأن أبي ثابت وإيقاع بني مرين به برودي شلف وتقبض الموحدين عليه ببجاية ١٩٨٢
- الخبر عن تملك السلطان أبي عنان بجاية وانتقال صاحبها إلى المغرب ١٩٨٢
- الخبر عن ثورة أهل بجاية ونهوض الحاجب إليها في العساكر ١٩٨٢
- الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو وما عقد له السلطان على ثغر بجاية وعلى منازل قسنطينة ونهوضه لذلك ١٩٨٣
- الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان بجبل السكسيوي ومكر عامل درعة به ومهلكه ١٩٨٥
- الخبر عن انتفاض عيسى بن الحسن بجبل الفتح ومهلكه . ١٩٨٥
- الخبر عن نهوض السلطان إلى قسنطينة وفتحها ثم فتح تونس عقبها ١٩٨٦
- الخبر عن وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى إفريقية ١٩٨٨
- الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان ونصب السعيد للأمر باستبداد الوزير الحسن بن عمر في ذلك ١٩٨٨
- الخبر عن تجهيز العساكر إلى مراكش ونهوض الوزير سليمان بن داود لحاربة عامر بن محمد بن علي ١٩٨٩
- الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان وتجهيز العساكر لدفاعته، ثم تغلبه عليها وما تخلل ذلك من الأحداث ١٩٩٠
- الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماساي إلى تلمسان وتغلبه عليها ثم انتفاضه ونصبه منصور بن سليمان للأمر ١٩٩١
- الخبر عن نزول المولى أبي سالم بجبال غمارة واستيلائه على ملك المغرب ومقتل منصور بن سليمان ١٩٩٢
- الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان ١٩٩٣
- الخبر عن انتفاض الحسن بن عمر وخروجه بتادلا وتغلب السلطان عليه ومهلكه ١٩٩٥
- الخبر عن وفد السودان وهديتهم وإغرابهم فيها بالزرافة . ١٩٩٥
- الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها وإثارة أبي زيان حافد أبي تاشفين بملكها وما كان مع ذلك من صرف أمراء الموحدين إلى بلادهم ... ١٩٩٦
- الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم واستيلاء حمو بن عبد الله على ملك المغرب ونصبه للملوك واحداً بعد آخر إلى أن هلك ١٩٩٧
- الخبر عن الفتنة بابين أنطون قائد العسكر من النصاري ثم خروج يحيى بن رحو وبني مرين عن الطاعة ... ١٩٩٨
- الخبر عن وصول عبد الحليم ابن السلطان أبي علي من تلمسان وحصار البلد الجديد ١٩٩٩
- الخبر عن قدوم محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن وبيعته بالبلد الجديد في كفالة عمر بن عبد الله ٢٠٠٠
- الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحليم وإخوته إلى سجلماسة بعد الواقعة عليهم بمكناسة ٢٠٠٠
- الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماساي من مراكش وما كان من وزارة ابن ماساي واستبداد عامر بن محمد بمراكش ٢٠٠١
- الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله إلى سجلماسة ٢٠٠١
- الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحليم إلى المشرق ٢٠٠٢

- الخبر عن نهوض ابن ماساي بالعساكر إلى سجلماسة واستيلائه عليها ولحاق عبد المؤمن بمراكش ٢٠٠٢
- الخبر عن انتفاض عامر ثم انتفاض الوزير ابن ماساي على أثره ٢٠٠٢
- الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه إلى مراكش ٢٠٠٣
- الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ٢٠٠٤
- الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبد الله واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره ٢٠٠٤
- الخبر عن انتزاع أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان إليه ومهلكه ٢٠٠٥
- الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن المصمود ومقتله ٢٠٠٥
- الخبر عن حركة السلطان إلى عامر بن محمد ومنازلته بجبله ثم الظفر به ٢٠٠٦
- الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء ٢٠٠٧
- الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وقرار أبي حو عنها ٢٠٠٧
- الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلى تطرى واجلاب العرب بأبي حمو على تلمسان إلى أن غلبهم السلطان جميعاً على الأمر واستوسق له الملك ٢٠٠٩
- الخبر عن قدوم الوزير ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعاً إليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس ٢٠١٠
- الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر بن غازي عليه ورجوع بني مرين إلى المغرب ٢٠١٣
- الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط ٢٠١٤
- الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي فلولوسن إلى المغرب واجتماع بطوية إليه وقيامهم بدعوته ٢٠١٤
- الخبر عنبيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك وما كان خلال ذلك من الأحداث ٢٠١٥
- الخبر عن مقتل ابن الخطيب ٢٠١٦
- الخبر عن إجازة سليمان بن داود الأندلس ومقامه بها إلى أن هلك ٢٠١٧
- الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه إلى مايرقة ثم رجوعه وانتفاضه بعد ذلك ومهلكه ٢٠١٨
- الخبر عن انتفاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزموور ومقتل عاملها حسون بن علي ٢٠١٩
- الانتفاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراكش ونهوض صاحب فاس إليه وحصاره ثم عودهما إلى الصلح ٢٠٢٠
- انتفاض علي بن زكريا شيخ المسكرة على الأمير عبد الرحمن وقتكه بمولاه منصور ومقتل الأمير عبد الرحمن ٢٠٢٠
- اجلاب العرب على المغرب في مغيب السلطان بقريبه من ولد أبي علي وأبي تاشفين بن أبي حمو صاحب تلمسان ومجيء أبي حمو على أثرهم ٢٠٢١
- نهوض السلطان إلى تلمسان وقتحها وتخريبها ٢٠٢٢
- إجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس إلى المغرب واستيلائه على الملك وظفره بابن عمه السلطان أبي العباس وإزعاجه إلى الأندلس ٢٠٢٢
- نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله ٢٠٢٣
- الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساي إليه بالعساكر ٢٠٢٤
- وفاة السلطان موسى والبيعة للمنتصر ابن السلطان أبي العباس ٢٠٢٤
- إجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الأندلس والبيعة له بفاس ٢٠٢٥

- الخبير عن إدريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته
بالأندلس ومصاير أمره ٢٠٣٩
- الخبير عن إمارة علي بن بدر الدين على الغزاة
بالأندلس ومصاير أمره ٢٠٤٠
- الخبير عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن
السلطان أبي علي على الغزاة بالأندلس ومصاير
أمره ٢٠٤١
- التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب ٢٠٤٣
- نشأته ومشيجته وحاله ٢٠٤٦
- ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها إلى المغرب
والكتابة عن السلطان أبي عنان ٢٠٥٥
- حدوث النكبة من السلطان أبي عنان ٢٠٥٨
- الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والإنشاء ٢٠٥٩
- الرحلة إلى الأندلس ٢٠٦٢
- الرحلة من الأندلس إلى بجاية وولاية الحجابة بها على
الاستبداد ٢٠٦٥
- مشايعة أبي هو صاحب تلمسان ٢٠٦٧
- مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني
عبد الواد ٢٠٧٥
- فضل الوزير ابن الخطيب ٢٠٧٩
- العودة إلى المغرب الأقصى ٢٠٨٨
- الإجازة ثانية إلى الأندلس ثم إلى تلمسان واللاحاق
بأحياء العرب والمقامة عند أولاد عريف ٢٠٩٠
- الفية إلى السلطان أبي العباس بتونس والمقام بها ٢٠٩١
- الرحلة إلى المشرق وولاية القضاء بمصر ٢٠٩٤
- السفر لقضاء الحج ٢٠٩٧
- ولاية الدروس والخوانق ٢١٠١
- ولاية خاقانه بيبرس، والعزل منها ٢١٠٨
- فتنة الناصري وسياقة الخبير عنها بعد تقديم كلام في
أحوال الدول يليق بهذا الموضوع، ويطلعك على
أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدرج إلى
الضخامة والاستيلاء، ثم إلى الضعف
والاضمحلال، والله بالغ أمره ٢١٠٩
- الفتنة بين الوزير ابن ماساي وبين السلطان ابن الأحمر
واجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة لطلب
ملكها واستيلاؤه عليها ٢٠٢٦
- مسير السلطان أبي العباس من سبتة لطلب ملكه بفاس
ونهبوس ابن ماساي لدفاعه ورجوعه منهزماً ٢٠٢٦
- ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراكش واستيلاء
أولياته عليها ٢٠٢٧
- ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراكش
واستقلاله بها ٢٠٢٧
- حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماساي
ومقتله ٢٠٢٨
- وزارة محمد بن هلال ٢٠٢٨
- ظهور محمد بن السلطان عبد الحليم بسجلماسة ٢٠٢٩
- نكبة ابن أبي عمرو ومهلكه وحركات ابن حسون ٢٠٢٩
- خلاف علي بن زكريا بجبل المسكرة ونكبته ٢٠٣٠
- وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريحاً
على أبيه ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان
أبي هو ٢٠٣٠
- وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان ٢٠٣٢
- وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن
أبي هو على تلمسان والمغرب الأوسط ٢٠٣٢
- الخبير عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة
المجاهدين بالأندلس الذين قاسموا ابن الأحمر في
ملكه وانفردوا برياسة جهاده ٢٠٣٣
- الخبير عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة بالأندلس
وخبر أخيه عبد الحق من بعده وابنه هو بن عبد
الحق بعدهما ٢٠٣٤
- الخبير عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالأندلس ٢٠٣٥
- الخبير عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة
المجاهدين بالأندلس ٢٠٣٦
- الخبير عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم ٢٠٣٧
- الخبير عن يحيى بن عمر بن رحو وإمارته على الغزاة
بالأندلس أولاً وثانياً ومبدأ ذلك وتصاريقه ٢٠٣٨

السعاية في المهاداة والإتحاف بين ملوك المغرب والملك

- الظاهر ٢١١٤
- ولاية القضاء الثانية بمصر ٢١١٧
- سفر السلطان إلى الشام لمداغة الططر عن بلاده ٢١١٨
- لقاء الأمير عمر سلطان المغل والططر ٢١٢١
- الرجوع عن هذا الأمير عمر إلى مصر ٢١٢٤
- ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر ٢١٢٦